التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورتي
الفاتحة والبقرة

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الأول

دار المعارف
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

راجعه

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية أصول الدين

تصميم الغلاف

أبو بكر الواحى

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

فى هذا المجلد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لاإله إلا هو، وحده لا شريك له، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين، وأنزل عليه كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

وبعد: فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله على قلب نبيه محمد - ﷺ -، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولينقذهم من الكفر والظلم والفجور. ﴿كتاب أنزلناه إليك لتُخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[1].

وقد أنزل الله - تعالى - هذا القرآن على قلب نبيه ﷺ، لمقاصد عالية، وحكم سامية، وأغراض شريفة...

من أهمها أن يكون هذا القرآن هداية للإنس وللجن فى كل زمان ومكان إلى الصراط المستقيم، وإلى السعادة التى تصبو إليها النفوس، وتتطلع إليها الأفئدة والقلوب....

وقد أودع - تعالى - فى هذا الكتاب من العقائد السليمة، والعبادات القويمة، والأحكام الجليلة، والآداب الفاضلة، والعظات البليغة، والتوجيهات الحكيمة... ما به قوام الملة الكاملة، والأمة الفاضلة، والجماعة الراشدة، والفرد السليم فى عقيدته وسلوكه وفى كل شئونه.

فكان هذا الكتاب أفضل الكتب السماوية، وأوفاها بحاجة البشرية، وأجمعها للخير، وأبقاها على الدهر، وأعمها وأتمها وأصحها فى هدايته الناس إلى ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١.

قال - تعالى - : ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا﴾(١).

وقال تعالى : ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(٢).

وقال - تعالى - ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبًا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾(٣).

كذلك من أهم المقاصد التى من أجلها أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ هذا القرآن، أن يكون هذا القرآن معجزة ناطقة فى فم الدنيا بصدقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد جاء النبى - ﷺ - إلى الناس فدعاهم إلى وحدانية الله، وإلى مكارم الأخلاق، وقال لهم : معجزتى الدالة على صدقى هذا القرآن، فإن كنتم فى شك من ذلك فأتوا بمثله فعجزوا، فأرخى لهم العنان وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فما استطاعوا، فزاد فى إرخاء العنان لهم - وهم أرباب البلاغة والبيان - وتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فأخرسوا وانقلبوا صاغرين. فثبت أن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

قال الله تعالى - : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾(٤).

كذلك من أهم المقاصد التى من أجلها أنزل الله هذا القرآن على قلب نبيه - ﷺ -، أن يتقربَ الناس به إلى خالقهم عن طريق تلاوته، وحفظه، وتدبره، والعمل بتشريعاته وآدابه وتوجيهاته . . .

ولقد تكلم الإمام القرطبى بإسهاب فى مقدمة تفسيره عن فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه، وقارئه، ومستمعه، والعامل به، وكيفيه تلاوته. . . فقال ما ملخصه :

اعلم أن هذا الباب واسع كبير. ألف فيه العلماء كتبًا كثيرة، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعد الله لأهله إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به. فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين. كلام من ليس كمثله شىء. . . .

---

(١) سورة الإسراء. الآية ٩.
(٢) سورة المائدة : الآيتان ١٥، ١٦.
(٣) سورة الجن : الايتان ١، ٢.
(٤) سورة البقرة : الآيتان ٢٣، ٢٤.

ومن الآثار التى جاءت فى هذا الباب ما أخرجه الترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله - ﷺ - يقول الله تعالى : «من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . . »

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم . . . »

وروى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبى ﷺ قال : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وروى مسلم عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة[١] ريحها طيب وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو. ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر».

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه - أى يقرؤه بصعوبة - وهو عليه شاق له أجران».

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله بكل حرف حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[٢].

هذا جانب من الأحاديث الشريفة التى أوردها القرطبى ، وهو يتحدث عن فضائل القرآن ، والترغيب فيه. . . . الخ .

ولقد حذر النبى ﷺ : أمته تحذيرًا شديدًا من نسيان القرآن، فقد روى الشيخان عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : «تعاهدوا القرآن؛ فو الذى نفسى بيده لهو أشد تفصيًا - أى : تفلتا - من الإبل فى عُقُلِها».

وروى الترمذى وأبو داود عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها».

هذه أهم المقاصد والحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على نبيه ﷺ : أن

---

(١) الأترجة : ثمرة حلوة الطعم، طيبة الرائحة، جميلة اللون، تشبه التفاحة.
(٢) تفسير القرطبى : حـ ١ ص ٤ وما بعدها :

يكون هداية للناس، وأن يكون معجزة خالدة باقية شاهدة بصدق الرسول - ﷺ - : فيما يبلغه عن ربه، وأن يتقرب الناس بقراءته والعمل به إلى خالقهم - عز وجل - ولقد تكفل الله - تعالى - بحفظ هذا القرآن، وصانه من التحريف والتبديل، والتغيير والمعارضة. قال - تعالى - : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(١).

وكان من مظاهر عنايته - سبحانه - بكتابه، أن جعله محفوظًا فى كل العصور بالتواتر الصادق القاطع، يرويه الخلف عن السلف بالكيفية المروية عن رسول الله - ﷺ -، وأن وفق له فى كل عصر حفاظًا متقنين جمعوه فى صدورهم، وعمروا به ليلهم ونهارهم. . .

وأن قيض له رجالا قضوا معظم أيام حياتهم فى خدمته ودراسة علومه، فمنهم من كتب فى إعجازه وبلاغته، ومنهم من كتب فى قصصه وأخباره، ومنهم من كتب فى أسباب نزوله، ومنهم من كتب فى قراءاته ورسمه، ومنهم من كتب فى محكمه ومتشابهه، ومنهم من كتب فى ناسخه ومنسوخه، ومنهم من كتب فى مكيه ومدنيه، ومنهم من كتب فى غريب ألفاظه. . . . . إلى غير ذلك من ألوان علومه.

وكثير منهم كتبوا فى تفسيره. وتوضيح معانيه ومقاصده وألفاظه، وذلك لأن سعادة الأفراد والأمم لا تتأتى إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن وتوجيهاته، وهذا الاسترشاد لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان، لما تدل عليه ألفاظ القرآن. وهو ما يسمى بعلم التفسير.

فتفسير القرآن هو المفتاح الذى يكشف عن تلك الهدايات السامية، والتوجيهات النافعة، والعظات الشافية والكنوز الثمينة التى احتواها هذا الكتاب الكريم.

وبدون تفسير القرآن، تفسيرًا علميًا سليمًا مستنيرًا لا يمكن الوصول إلى ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات وتوجيهات، مهما قرأه القارئون وردد ألفاظه المرددون.

قال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من مليكهم ليلا، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب. ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب»(٢).

ولقد أفاض الامام ابن كثير فى بيان هذا المعنى «وفى بيان أحسن طرق التفسير فقال : «فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه. . . .

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب : أن أصح الطريق فى ذلك أن يفسر

---

(١) سورة الحجر. الآية ٩.

(٢) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٦.

القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فإنه قد بسط فى موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. . . . وقد قال رسول الله ﷺ : «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»، يعنى السنة. . . .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة. . . . فإن لم تجده فمن أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين. . . قال عبد الله بن مسعود : والذى لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته». وقال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى - ﷺ - وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا». . . .

فإذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، وسعيد ابن جبير. وعكرمه مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى وغيرهم»(١).

هذا، وأنت إذا سرحت طرفك فى المكتبة الإسلامية ترى العشرات من كتب التفسير، منها القديمُ والحديث، وترى منها الكبير والوسيط والوجيز، وترى منها ما يغلب عليه طابع التفسير بالمأثور، وترى ما يغلب عليه طابع التفسير بالرأى، وترى منها ما تغلب عليه الصبغه الفقهيه، أو البلاغيه، أو الفلسفيه، أو الصوفيه، أو العلميه، أو الاجتماعيه، أو الطائفيه. . . أو غير ذلك من الاتجاهات والميول التى تختلف باختلاف أفكار الكاتبين وثقافتهم ومذهبهم. . .

وترى منها المحرر أو شبه المحرر من الخرافات، والأقوال السقيمة، والقصص الباطلة. . . كما ترى منها ما هو محشو بذلك.

ولقد انتفعت كثيرًا بما كتبه الكاتبون عن كتاب الله - تعالى -، وهاأنذا - أخى القارئ - أقدم لك تفسيرًا وسيطًا لسورتى الفاتحه والبقرة، وقد بذلت فيه أقصى جهدى ليكون تفسيرًا علميًا محققًا، محررًا من الأقوال الضعيفة، والشبه الباطلة، والمعانى السقيمة. .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١ ص ٤ وما بعدها - بتصرف وتلخيص -.

وستلاحظ خلال قراءتك له أننى كثيرًا ما أبدأ بشرح الألفاظ القرآنية شرحا لغويًا مناسبًا ثم أبين المراد منها - إذا كان الأمر يقتضى ذلك -.

ثم أذكر سبب النزول للآية أو الآيات - إذا وجد وكان مقبولا -.

ثم أذكر المعنى الإجمالى للآية أو الجملة، عارضا[1] ما اشتملت عليه من وجوه البلاغه والبيان، والعظات والآداب والأحكام...، مدعما ذلك بما يؤيد المعنى من آيات أخرى، ومن الأحاديث النبوية، ومن أقوال السلف الصالح.

وقد تجنبت التوسع فى وجوه الإعراب، واكتفيت بالرأى أو الآراء الراجحة إذا تعددت الأقوال...

وذلك لأننى توخيت فيما كتبت إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة، وأحكام سامية، وتشريعات جليلة، وآداب فاضلة، وعظات بليغة، وأخبار صادقة، وتوجيهات نافعة، وأساليب بليغة، وألفاظ فصيحة...

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وبهجة أفئدتنا، وأن يعيننا ويوفقنا لإتمام ما بدأناه من خدمة كتابه، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

---

(١) عرض الشىء: أظهره وأبرزه. المعجم الوسيط جـ٢ ص٥٩٣.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

سورة الفاتحة هى السورة الوحيدة التى أمر الإسلام أتباعه أن يقرأوها فى كل صلاة. وفى جميع الركعات، وفى كل الأوقات، ولهذا أصبح حفظها ميسورًا لكل مؤمن.

وهذه السورة على صغر حجمها، وقلة آياتها، قد اشتملت بوجه إجمالى على مقاصد الدين من توحيد، وتعبد، وأحكام، ووعد ووعيد.

ونرى من الخير قبل أن نبدأ فى تفسيرها بالتفصيل، أن نمهد لذلك بالكلام عما يأتى:

أولا: متى نزلت سورة الفاتحة؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن الرأى الراجح بين المحققين من العلماء أنها نزلت بمكة، بل هى من أوائل ما نزل من القرآن بمكة.

وقيل: إنها مدنية. وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة.

قال القرطبى: الأول أصح لقوله - تعالى - فى سورة الحجر: ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾ وسورة الحجر مكية بالإجماع. ولا خلاف فى أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان فى الإسلام قط صلاة بغير ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ «يدل على ذلك قوله

ﷺ : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ». وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء »[١].

ثانيًا: عدد آياتها: وهى سبع آيات لقوله - تعالى - : ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾. قال العلماء: السبع المثانى هى الفاتحة.

وقال ابن كثير: هى سبع آيات بلا خلاف. وقال عمرو بن عبيد: هى ثمانى آيات لأنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ آية. وقال حسين الجعفى: هى ست آيات وهذان القولان شاذان »[٢].

ثالثًا: اسماؤها: لسورة الفاتحة أسماء كثيرة من أشهرها:

١ - « الفاتحة أو فاتحة الكتاب، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظًا. وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات، وإن لم تكن هى أول ما نزل من القرآن. وقد اشتهرت بهذا الاسم فى أيام النبوة.

وقد أصبح هذا الاسم علمًا بالغلبة لتلك الطائفة من الآيات التى مبدؤها ﴿الحمد لله﴾.. ونهايتها.. ﴿ولا الضالين﴾.

٢ - « أم القرآن أو الكتاب » وسميت بذلك لاشتمالها إجمالا على المقاصد التى ذكرت فيه تفصيلا، أو لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء.

قال ابن جرير: « والعرب تسمى كل أمر جامع أمّا، وكل مقدم له توابع تتبعه « أما » فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ: « أم الرأس ». وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها « أما »[٣].

٣ - « السبع المثانى » جمع مثنى كفعلى اسم مكان. أو مثنى - بالتشديد - من التثنية على غير قياس. وسميت بذلك لأنها سبع آيات فى الصلاة، أى تكرر فيها؛ أخرج الإمام أحمد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: « هى أم القرآن، وهى السبع المثانى، وهى القرآن العظيم »[٤].

٤ - وتسمى - أيضًا - سورة « الحمد ». ٥ - و« الكنز ». ٦ - و« الواقية ».

---

(١) تفسير القرطبى. جـ١ ص ١١٥ طبعه دار الكاتب العربى.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٨ طبعه عيسى الحلبى.

(٣) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٠٧ طبعة دار المعارف.

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٩.

٧ - و « الشفاء » ، لحديث . هى الشفاء من كل داء .
٨ - و « الكافية » لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها .
٩ - و « الأساس » . ١٠ - و « الرقية » .

هذا، وقد ذكر القرطبى للفاتحة اثنى عشر اسمًا، كما ذكر السيوطى لها فى كتابه « الإتقان » خمسة وعشرين اسمًا.

رابعًا : فضلها : ورد فى فضل سُورة الفاتحة أحاديث كثيرة منها :

ما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى سعيد بن المعلى - رضى الله عنه - قال :

كنت أصلى فى المسجد، فدعانى النبى ﷺ فلم أجبه فقلت : يا رسول الله، إنى كنت أصلى. فقال : ألم يقل الله : ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾.

ثم قال لى : « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ». ثم أخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج، قلت : يا رسول الله. ألم تقل : لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن. قال : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته »[١].

وروى مسلم والنسائى، عن ابن عباس، قال :

بينما جبريل قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا من فوقه - أى : صوتا - فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم. فسلم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما، ولم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته »[٢].

وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال :

« من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِدَاج (ثلاثًا) : غير تمام » فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام؟ فقال : إقرأ بها فى نفسك؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله - تعالى - : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل »، فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. قال الله : حمدنى عبدى، وإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾. قال الله تعالى : أثنى على عبدى. وإذا قال : ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله : مجدنى عبدى. فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال الله : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال :

(١) صحيح البخارى. كتاب التفسير. باب ما جاء فى فاتحة الكتاب جـ ٦ ص ٢١
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب : صلاة المسافرين وقصرها جـ ٢ ص ١٩٨.

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.
قال الله: «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[١].

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده، عن عبد الله بن جابر، أن رسول الله - ﷺ - قال له: ألا أخبرك بأخير سورة فى القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: اقرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ حتى تختمها[٢].

تلك هى بعض الأحاديث التى وردت فى فضل هذه السورة الكريمة.

وقد ذكر العلماء أنه يسن للمسلم قبل القراءة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، استجابة لقوله - تعالى - ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[٣].

ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»: ألتجىء إلى الله وأتحصن به، واستجير بجنابه من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنياى.

قال ابن كثير: «والشيطان فى لغة العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء. وهو مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقة عن كل خير. وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار. والأول أصح إذ عليه يدل كلام العرب، فهم: يقولون تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشيطان، ولو كان من شاط. لقالوا: تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح»[٤]

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير، وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والشكوك.

قال بعض العلماء: «وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون، لأن القرآن مصدر الهداية والشيطان مصدر الضلال، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص، فيثير أمامه ألوانًا من الشكوك فيما يقرأ، وفيما يفيد من قراءته، وفيما يقصد بها، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته، فعلمنا الله أن نتقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صدق، وتعبير حق، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله، وقوة عزيمته فى طرد الوساوس والشكوك، واستقبال الهداية بقلب طاهر،

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة جـ ٢ ص ٩.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠.
(٣) سورة النحل الآية ٩٨.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤.

وعقل واع، وإيمان ثابت»[١].

قال القرطبى : وقد أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٢].

والآن وبعد هذا التمهيد الموجز الذى تكلمنا فيه عن نزول سورة الفاتحة، وعن عدد آياتها، وعن أشهر أسمائها، وعن بعض الأحاديث التى وردت فى فضلها نحب أن نبدأ فى تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق - :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الاسم : اللفظ الذى يدل على ذات أو معنى. وقد اختلف النحويون فى اشتقاقه على وجهين، فقال البصريون : هو مشتق من السمو، وهو العلو والرفعة، فقيل : اسم، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به.

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهى العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا «وسم».

ويرى المحققون أن رأى البصريين أرجح، لأنه يقال فى تصغير «اسم» سُمَىّ، وفى جمعه أسماء، والتصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. ولو كان أصله وسم - كما قال الكوفيون - لقيل فى جمعه : أوسام، وفى تصغيره وسيم.

ولفظ الجلالة وهو «الله» علم على ذات الخالق - عز وجل - تفرد به - سبحانه - ولا يطلق على غيره، ولا يشاركه فيه أحد.

قال القرطبى : قوله «الله» هذا الاسم أكبر أسمائه - سبحانه - وأجمعها حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع : فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبيه، المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو - سبحانه -[٣]

و ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة. والرحمة فى أصل اللغة : رقة فى القلب تقتضى الإحسان، وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفًا لله - تعالى -، ولذا فسرها بعض العلماء بإرادة الإحسان. وفسرها آخرون بالإحسان نفسه.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ١٦ لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمود شلتوت.
(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٨٦.
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٠٢.

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هى صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان.

وقد كثرت أقوال المفسرين فى العلاقة بين هاتين الصفتين، فبعضهم يرى أن ﴿الرحمن﴾ هو المنعم على جميع الخلق. وأن ﴿الرحيم﴾ هو المنعم على المؤمنين خاصه. ويرى آخرون أن ﴿الرحمن﴾ هو المنعم بجلائل النعم، وأن ﴿الرحيم﴾ هو المنعم بدقائقها.

ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد وأن الثانى منهما تأكيد للأول. والذى يراه المحققون من العلماء أن الصفتين ليستا بمعنى واحد، بل روعى فى كل منهما معنى لم يراع فى الآخر، فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة، لأن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشىء وعظمته، ويلزم منه الدوام كغضبان وسكران. والرحيم بمعنى دائم الرحمة، لأن صيغته فعيل تستعمل فى الصفات الدائمة ككريم وظريف. فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائمة[1].

أو أن ﴿الرحمن﴾ صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان. ﴿والرحيم﴾ صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه.

ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ الرحمن لم يذكر فى القرآن إلا مجرى عليه الصفات كما هو الشأن فى أسماء الذات. قال - تعالى - : ﴿الرحمن علم القرآن﴾ و ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾، وهكذا...

أما لفظ الرحيم فقد كثر فى القرآن استعماله وصفًا فعليًا، وجاء فى الغالب بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه. قال - تعالى - ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ - ﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾، ﴿أنه كان بكم رحيمًا﴾ إلخ.

قال بعض العلماء «وهذا الرأى فى نظرنا هو أقوى الآراء، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه، كما أنه ليس مستساغًا أن يقال فى القرآن : إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها»[2].

والجار والمجرور «بسم» متعلق بمحذوف تقديره ابتدئ.

والمعنى : ابتدئ قراءتى متبركًا ومتيمنًا باسم الله الذى هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والذى رحمته وسعت كل شىء، وأتبرأ مما كان يفعله المشركون والضالون، من ابتدائهم قراءتهم وأفعالهم باسم اللات أو باسم العزى أو باسم غيرهما من الآلهة الباطلة.

---

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين. مجلة لواء الإسلام العدد الأول من السنة الأولى ص ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٢٤ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شتلوت.

هذا وقد أجمع العلماء على أن البسملة جزء آية من سورة النمل فى قوله - تعالى - ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

ثم اختلفوا بعد ذلك فى كونها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة واحدة، أو هى آية من سورة الفاتحة ومن كل سورة ألخ.

فبعضهم يرى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، ومن حججهم أن السلف قد أثبتوها فى المصحف مع الأمر بتجريد القرآن مما ليس منه، ولذا لم يكتبوا «آمين». فثبت بهذا أن البسملة جزء من الفاتحة ومن كل سورة.

وبهذا الرأى قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير والشافعى، وأحمد فى أحد قوليه.

ويرى آخرون أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا: إنها آية فذة[1]. من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها، ومن حججهم أنها لو كانت آية من الفاتحة ومن كل سورة، لما اختلف الناس فى ذلك، ولما اضطربت أقوالهم فى كونها آية من كل سورة أو من الفاتحه فقط.

وكما وقع الخلاف بين العلماء فى كونها آية مستقلة أو آية من كل سورة، فقد وقع الخلاف بينهم - أيضا - فى وجوب قراءتها فى الصلاة، وفى الجهر بها أو الإسرار إذا قرئت.

وتحقيق القول فى ذلك مرجعه إلى كتب الفقه، وإلى كتب التفسير التى عنيت بتفسير آيات الأحكام.

﴿الحَمد لله رَب العَالمين. الرحْمن الرحيم﴾

﴿الحمد﴾ هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها.

﴿رب العالمين﴾ أى: مالكهم، إذ الرب مصدر «ربه يربه» إذا تعاهده بالتربية حتى يبلغ به شيئًا فشيئا درجة الكمال. وهو اسم من أسماء الله - تعالى - ولا يطلق على غيره إلا مقيدًا فيقال: رب الدار، ورب الضيعة أى: صاحبها ومالكها.

والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله - تعالى -

قال القرطبى: «وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده» وقيل: المراد بالعالمين أولو العلم من الإنس والجن والملائكة.

(١) فذة: مفردة مستقلة.

وقد افتتحت سورة الفاتحة بهذه الجملة الكريمة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لأنه سبحانه أول كل شيء وآخر كل شيء، ولكى يعلمنا - سبحانه - أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه، حتى نبدأ ونحن فى صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيتها، وتجلو عن القلوب أصداءها.

والمعنى - كما قال ابن جرير - «الشكر خالصًا لله - جل ثناؤه - دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد. ولا يحيط بعددها غيره أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، عن غير استحقاق لهم عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم. لربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرًا[1].

فالآية الكريمة قد قررت بصراحة ووضوح ثبوت الثناء المطلق الذى لا يحد لله - تعالى - وانه ليس لأحد أن ينازعه إياه - سبحانه - هو رب العالمين.

وجملة ﴿الحمد لله﴾ مفيدة لقصر الحمد عليه - سبحانه - نحو قولهم: «الكرم فى العرب». كما أن أل فى «الحمد» للاستغراق. أى: أن جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين.

وإنما كان الحمد مقصورًا فى الحقيقة على الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شيء، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو فى الحقيقة حمد لله، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم عليه.

ولم تفتتح السورة بصيغة الأمر بأن يقال: احمدوا الله، وإنما افتتحت بصيغة الخبر ﴿الحمد لله﴾، لأن الأمر يقتضى التكليف: والتكليف قد تنفر منه النفوس أحيانًا، فأراد - سبحانه - وهو يبادئهم بشرعة جديدة وتكاليف لم يعهدوها، أن يؤنس نفوسهم، ويؤلف قلوبهم، فساق لهم الخطاب بصيغة الخبر، ترفقا بهم، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من تكاليف.

وقد تكلم بعض المفسرين عن الحكمة فى ابتداء السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿الحمد لله﴾، دون قوله - تعالى -: المدح لله، أو: الشكر لله. فقال:

اعلم أن المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر. أما بيان أن المدح أعم من الحمد فلأن المدح يحصل للعاقل وغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله. أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٣٥ طبعة دار المعارف.

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام. سواء أكان ذلك الإنعام واصلا إليك أم إلى غيرك. وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد، وأن الحمد أعم من الشكر.

إذا عرفت هذا فنقول: إنما لم يقل: المدح لله، لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره. وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار. فكان قوله «الحمد لله» تصريحًا بأن المؤثر فى وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة... وإنما لم يقل: الشكر لله، لأننا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك، وهذا يشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة. فحينئذ يكون المطلوب الأصلى له وصول النعمة إليه. وهذه درجة حقيرة. فأما إذا قال «الحمد لله»، فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه - سبحانه - أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب فى مشاهدة نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت[1].

وقد أجرى - سبحانه - على لفظ الجلالة نعت الربوبيه للعالمين، ليكون كالاستدلال على استحقاقه - تعالى - للحمد وحده، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم، إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، أما إذا كان موجهًا ومعللا فإنه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم، وفى تلك الرعاية تشريف وتكريم لهم.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اجعلوا حمدكم وثناءكم لى وحدى. لأنى أنا رب العالمين. وأنا الذى تعهدتكم برعايتى وعنايتى وتربيتى منذ تكوينكم من الطين حتى استويتم عقلاء مفكرين.

وقد أتبع - سبحانه - هذا الوصف وهو ﴿رب العالمين﴾، بوصف آخر هو ﴿الرحمن الرحيم﴾ لحكم سامية من أبرزها: أن وصفه - تعالى - ﴿برب العالمين﴾ أى: مالكهم، قد يثير فى النفوس شيئًا من الخوف أو الرهبة، فإن المربى قد يكون خشنًا جبارًا متعنتًا، وذلك مما يخدش من جميل التربية، وينقص من فضل التعهد.

لذا قرن - سبحانه - كونه مربيًا، بكونه الرحمن الرحيم، لينفى بذلك هذا الاحتمال، وليفهم عباده بأن ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه، فهم برحمته يوجدون، وبرحمته يتصرفون ويرزقون، وبرحمته يبعثون ويسألون.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٣ طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٣٤ هـ.

ولا شك أن فى هذا الإفهام تحريضًا لهم على حمده وعبادته بقلوب مطمئنة، ونفوس مبتهجة، ودعوة لهم إلى أن يقيموا حياتهم على الرحمة والإحسان، لا على الجبروت والطغيان. فالراحمون يرحمهم الرحمن.

﴿مالك يوم الدين﴾

بعد أن بين - سبحانه - لعباده موجبات حمده، وأنه الجدير وحده بالحمد، لأنه المربى الرحيم، والمنعم الكريم، أتبع ذلك ببيان أنه - سبحانه - ﴿مالك يوم الدين﴾.

والمالك وصف من الملك - بكسر الميم - بمعنى حيازة الشىء مع القدرة على التصرف فيه. واليوم فى العرف: ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها، وليس هذا مرادًا هنا، وإنما المراد مطلق الزمن وهو يوم القيامة.

والدين: الجزاء والحساب، يقال: دنته بما صنع، أى: جازيته على صنيعه، ومنه قولهم. كما تدين تدان. أى: كما تفعل تجازى، وفى الحديث (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) أى: حاسب نفسه: والمعنى: أنه - تعالى - يتصرف فى أمور يوم الدين من حساب وثواب وعقاب، تصرف المالك فيما يملك، كما قال - تعالى - ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾.

وهناك قراءة أخرى للآية وهى ﴿ملك يوم الدين﴾ من الملك - بضم الميم - وعليها يكون المعنى: أنه - تعالى - هو المدبر لأمور يوم الدين، وأن له على ذلك اليوم هيمنة الملوك وسيطرتهم، فكل شىء فى ذلك اليوم يجرى بأمره، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه، كما قال - تعالى - ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾.

قال الإمام ابن كثير: «وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة. وإنما أضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئًا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال - تعالى - ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا. لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا﴾.

والملك فى الحقيقة هو الله، قال - تعالى - ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾ وفى الصحيحين عن أبى هريرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون، أين المتكبرون» ثم قال: وأما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال - تعالى - ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥.

وفى هذه الأوصاف التى أجريت على الله تعالى، من كونه ربا للعالمين وملكا للأمر كله يوم الجزاء، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به فى قوله : ﴿الحمد لله﴾ فى كل ذلك دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه، بل لا يستحق ذلك على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له»(١).

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق فى قلبه، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسىء، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، فإنه فى هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالقه، ويجتهد فى السير على الطريق المستقيم

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَسْتَعِينُ﴾

كانت الآيات الثلاث التى تقدمت هذه الآية تقريرًا للحقيقة فى جانب الربوبية وعظمتها وعموم سلطانها وسعة رحمتها تقريرا جمع أمور الدنيا والآخرة ثم جاءت هذه الآية لتقرر أن الذى يجدر بنا أن نعبده وأن نستعين به إنما هو الله الذى تجلت أوصافه، ووضحت عظمته، وثبتت هيمنته على هذا الكون

ولفظ «إيا» ضمير منفصل، و«الكاف» الملحقة به للخطاب.

والعبارة تفيد أن الطاعة البالغة حد النهاية فى الخضوع والخشوع والتعظيم، والعبادة الصحيحة تتأتى للمسلم بتحقق أمرين : إخلاصها لله، وموافقتها لما جاء به النبى ﷺ.

قال ابن جرير : «لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمى الطريق المذلل الذى وطئته الأقدام وذللته السابلة معبدًا»(٢).

والاستعانة : طلب المعونة، من أجل الأقتدار على الشىء والتمكن من فعله.

والمعنى : لك ياربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شىء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

وقدم - سبحانه - المعبود على العبادة فقال : ﴿إياك نعبد﴾، لإفادة قصر العبادة عليه، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص.

---

(١) «فتح البيان جـ١ ص ٢٩. الشيخ صديق حسن خان.

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٩١.

وقال : ﴿نعبد﴾ بنون الجماعة ولم يقل أعبد، ليدل على أن العبادة أحسن ما تكون فى جماعة المؤمنين، وللإشعار بأن المؤمنين المخلصين يكونون فى اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم فى الحديث عن شئونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم، فهم كما قال النبى ﷺ : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية. وتقديم الوسائل سبب فى تحصيل المطالب، وليدل على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات، بل إن عون الله هو الذى ييسر لهم أداءها.

ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة.

وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الخطاب على طريقة الالتفات، تلوينا لنظم الكلام من أسلوب إلى أسلوب. وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : «فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان. وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم . . . وذلك على عادة العرب فى افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه. لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد : وقد تختص مواضعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع : أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية للخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، ولا نعبد غيرك ولا نستعينه . . . »[1].

هذا، وقد جاءت فى فضل هذه الآية الكريمة آثار متعددة، ومن ذلك قول بعض العلماء : الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله»[2].

ثم بين - سبحانه - أن أفضل شىء يطلبه العبد من ربه، إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصل إلى أسمى الغايات، وأعظم المقاصد، فقال - تعالى - :

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص١٣ طبعة بيروت.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥ طبعة الحلبى.

والهداية : هى الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية، وتسند الهداية إلى الله وإلى النبى وإلى القرآن، وقد يراد منها الإيصال إلى ما فيه خير، وهى بهذا المعنى لا تضاف إلى الله - تعالى -.

قال أبو حيان فى البحر ما ملخصه : وقد تأتى بمعنى التبيين كما فى قوله - تعالى - ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أى بينا لهم طريق الخير. أو بمعنى الإلهام كما فى قوله تعالى. ﴿قال : فمن ربكما يا موسى؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾. قال المفسرون معناه : ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها، أو بمعنى الدعاء كما فى قوله. تعالى : ﴿ولكل قوم هاد﴾ أى : داع. والأصل فى هدى أن يصل إلى ثانى معموليه باللام كما فى قوله. تعالى. ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾ أو بإلى كما فى قوله تعالى : ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ ثم يتسع فيه فيعدى إليه بنفسه ومنه : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[1].

والصراط : الجادة والطريق، من سَرط الشىء إذا ابتلعه، وسمى الطريق بذلك لأنه يبتلع المارين فيه، وتبدل سينه صاد على لغة قريش.

والمستقيم : المعتدل الذى لا اعوجاج فيه.

وأنعمت عليهم : النعمة لين العيش وخفضه، ونعم الله كثيرة لا تحصى

﴿غير المغضوب عليهم﴾ الغضب هيجان النفس وثورتها، عند الميل إلى الانتقام، وهو ضد الرضا. وإذا أسند إلى الله فسر بمعنى إرادة الانتقام أو بمعنى الانتقام نفسه.

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هو صفة له - تعالى - لائقة بجلاله لا نعلم حقيقتها مجردة عن اللوازم البشرية وإنما نعرف أثرها وهو الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم.

والمعنى : اهدنا يا ربنا إلى طريقك المستقيم، الذى يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك، وجنبنا يا مولانا طريق الذين غضبت عليهم من الأمم السابقة أو الأجيال اللاحقة بسبب سوء أعمالهم وطريق الذين هاموا فى الضلالات، فانحرفوا عن القصد، وحق عليهم العذاب.

وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب، لأن هذا الدعاء قد تضرع به المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له - سبحانه - قبل ذلك بأنه هو المستحق لجميع المحامد، وأنه هو رب العالمين، والمتصرف فى أحوالهم يوم الدين.

قال الإمام ابن كثير : وهذا أكمل أحوال السائل. أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٢٥.

إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأنه أنجح للحاجة، وأنجع للإجابة، ولهذا أرشدنا الله إليه لأنه الأكمل(١).

وقد تكلم المفسرون كلامًا كثيرًا عن المراد بالصراط المستقيم الذى جعل الله طلب الهداية إليه فى هذا السورة أول دعوة علمها لعباده. والذى نراه : أن أجمع الأقوال فى ذلك أن المراد بالصراط المستقيم، هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس متى اتبعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن طريق السلام هو الطريق الذى ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكل إلى النبى ﷺ أمر تبليغه وبيانه.

وقد ورد فى الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم».

والمراد بقوله - تعالى - ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى : ثبتنا عليه، واجعلنا من المداومين على السير فى سبيله، فإن العبد مفتقر إلى الله فى كل وقت لكى يثبته على الهداية، ويزيده منها، ويعينه عليها. وقد أمر سبحانه المؤمنين أن يقولوا : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

وجملة ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الصراط المستقيم.

ولم يقل : اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم مستغنيًا عن ذكر الصراط المستقيم، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو الصراط المستقيم.

وقال : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ ولم يقل صراط الأنبياء أو الصالحين، ليدل على أن الدين فى ذاته نعمة عظيمة، ويكفى للدلالة على عظمتها إسنادها إليه - تعالى - فى قوله : ﴿أنعمت عليهم﴾ لأن المراد بالإنعام هنا - على الراجح - الإنعام الدينى. فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به، وعرفوا الخير فعملوا به.

قال بعض العلماء : (وإنما اختار فى البيان أن يضيف الصراط إلى المنعم عليهم لمعنيين :

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦.

أولهما : هو إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه، وتفعم قلبه، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق، بأنه الطريق الذي وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

وثانيهما : أن من خواطر المؤمل فى نعيم ربه أن يكون تمام أنسه فى رفقة من الناس صالحين، وصحب منهم محسنين)[١].

وقوله - تعالى - ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ وأتى فى وصف الإنعام بالفعل المسند إلى الله - تعالى - فقال : ﴿أنعمت عليهم﴾ وفى وصف الغضب باسم المفعول فقال : ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وفى ذلك تعليم لأدب جميل، وهو أن الإنسان يجمل به أن يسند أفعال الإحسان إلى الله، ويتحامى أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادرًا منه، ومن شواهد هذا قوله - تعالى - حكاية عن مؤمنى الجن ﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا﴾[٢].

وحرف (لا) فى قوله ﴿ولا الضالين﴾ جيء به لتأكيد معنى النفى المستفاد من كلمة غير. والمراد بالمغضوب عليهم اليهود. وبالضالين النصارى. وقد ورد هذا التفسير عن النبى ﷺ فى حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه.

ومن المفسرين من قال بأن المراد بالمغضوب عليهم من فسدت إرادتهم حيث علموا الحق ولكنهم تركوه عنادًا وجحودا، وأن المراد بالضالين من فقدوا العلم فهم تائهون فى الضلالات دون أن يهتدوا إلى طريق قويم.

وقدم المغضوب عليهم على الضالين، لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين، فكان جديرًا بأن يوضع فى مقابلته قبل الضالين.

قال العلماء : ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (آمين) ومعناه اللهم استجب وليس هذا اللفظ من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال : سمعت النبى ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقال : (آمين) مد بها صوته.

---

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن بمجلة الأزهر السنة ٢٢ العدد ١٣ ص ٨٨٥

(٢) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين بمجلة لواء الإسلام العدد الأول من سنة الأولى ص ١٠

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكه غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

هذا، وقد أفاض العلماء فى الحديث عما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام، ومن ذلك قول ابن كثير.

(اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرى من حولهم وقوتهم، إلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية، وتنزيهه عن أن يكون له شريك أو نظير، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون)[1].

وقال بعض العلماء: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هى مناط الدين.

أحدها: علم الأصول وإليه الإشارة بقوله ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾، ومعرفة النبوات وإليه الاشارة بقوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ ومعرفة المعاد وإليه الاشارة بقوله ﴿مالك يوم الدين﴾.

وثانيها: علم الفروع وأعظمه العبادات وإليه الإشارة بقوله ﴿إياك نعبد﴾.

وثالثها: علم الأخلاق، وإليه الإشارة بقوله ﴿وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾.

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم والأشقياء، وهو المراد بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٠.

سورة البقرة

سورة البقرة أطول سورة فى القرآن الكريم، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء تقريبًا من ثلاثين جزءًا قسم إليها القرآن. وتبلغ آياتها ستًا وثمانين ومائتى آية. وقيل سبع وثمانون ومائتا آية.

وسميت بذلك لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التى كلف قوم موسى بذبحها بعد أن قتل فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله.

وهى مدنية بإجماع الآراء، وقد ابتدأ نزولها بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، وقد نزل معظمها فى السنوات الأولى من الهجرة، واستمر نزولها إلى قبيل وفاة النبى ﷺ بفترة قليلة. وكانت آخر آية من القرآن نزولا منها، هى قوله - تعالى - :

﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

مناسبتها لسورة الفاتحة : هناك مناسبة ظاهرة بين السورتين، لأن سورة الفاتحة قد اشتملت على أحكام الألوهية والعبودية وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم اشتمالا إجماليًا، فجاءت سورة البقرة ففصلت تلك المقاصد، ووضحت ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من هدايات وتوجيهات.

فضلها : وقد ورد فى فضل سورة البقرة أحاديث متعددة، وآثار متنوعة منها ما جاء فى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، فإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان.

وروى ابن حبان فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ (إن لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها فى بيته نهارًا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام).

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : (بعث النبى ﷺ بعثًا، وهم ذوو عدد فاستقرأ كل واحد منهم عما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا فقال : ما معك يا فلان؟ فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة. فقال : أمعك سورة البقرة؟ قال : نعم. قال. اذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ اقرأوا القرآن وتعلموه، فإن مثل القرآن

لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب أوكى أى أغلق - على مسك.

قال القرطبى : وهذه السورة فضلها عظيم، وثوابها جسيم، ويقال لها فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها(١).

مقاصدها : عندما نفتح كتاب الله فنطالع فيه سورة البقرة بتدبر وعناية، نراها فى مطلعها تنوه بشأن القرآن الكريم، وتصرح بأنه حق لا ريب فيه، وتبين لنا أن الناس أمام هدايته على ثلاثة أقسام :

قسم آمن به وانتفع بهداياته فكانت عاقبته السعادة والفلاح.

﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

وقسم جحد واستكبر واستحب العمى على الهدى، فأصبح لا يرجى منه خير ولا إيمان، فكانت عاقبته الحرمان والخسران.

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

ثم فصلت السورة الحديث عن قسم ثالث هو شر ما تبتلى به الأمم وهم المنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون. وقد تحدثت السورة عنهم فى ثلاث عشرة آية، كشفت فيها عن خداعهم، وجبنهم، ومرض قلوبهم، وبينت ما أعده الله لهم من سوء المصير، ثم زادت فى فضيحتهم وهتك سرائرهم فضربت مثلين لحيرتهم واضطرابهم، قال - تعالى - :

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

إلى أن يقول : ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير﴾.

ثم وجهت السورة نداء إلى الناس جميعًا دعتهم فيه إلى عبادة الله وحده وأقامت لهم الأدلة الساطعة على صدق هذه القضية، وتحدتهم - إن كانوا فى ريب من القرآن - أن يأتوا بسورة من مثله. وبينت لهم أنهم لن يستطيعوا ذلك لا فى الحاضر ولا فى المستقبل.

ثم ختم الربع الأول منها ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، جمعت لذائذ المادة والروح، وهم فيها خالدون. ثم قررت السورة الكريمة أن الله -تعالى-لايمتنع عن ضرب الأمثال بمايوضح ويبين دون نظر إلى قيمة الممثل به فى ذاته أوعند

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٥٢.

الناس، كما قررت أن المؤمنين يقابلون هذه الأمثال بالإيمان والإذعان، أما الكافرون فيقابلونها بالاستهزاء والإنكار.

وقد وبخت السورة بعد ذلك أولئك الكافرين على كفرهم، مع وضوح الدلائل على وحدانية الله فى أنفسهم وفى الآفاق فقالت:

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم﴾.

ثم ذكرت السورة بعد ذلك جانبا من قصة آدم، وقد حدثتنا فيه عن خلافة آدم فى الأرض، وعما كان من الملائكة من استفسار بشأنه - وعن سكن آدم وزوجه الجنة، ثم عن خروجهما منها بسبب أكلهما من الشجرة المحرمة.

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إنى أعلم ما لا تعلمون﴾.. الخ الآيات الكريمة.

هذا، وقد عرفنا قبل ذلك أن سورة البقرة نزلت بالمدينه بعد أن هاجر المسلمون إليها، وأصبحت لهم بها دولة فتية، وكان يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود الذين كان أحبارهم يبشرون. بمبعث النبى ﷺ. فأخذت السورة الكريمة تتحدث عنهم - فى أكثر من مائة آية - حديثًا طويلا متشعبا..

فنراها فى أواخر الربع الثانى توجه إليهم نداء محببًا إلى نفوسهم، ندعوهم فيه إلى الوفاء بعهودهم، وإلى الإيمان بنبى الله محمد ﷺ فتقول:

﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلا وإياى فاتقون﴾.

ثم تذكرهم فى الربع الثالث بنعم الله عليهم، وبموقفهم الجحودى من هذه النعم، تذكرهم بنعمة تفضيلهم على عالمى زمانهم، وبنعمة إنجائهم من عدوهم، وبنعمة فرق البحر بهم، وبنعمة عفو الله عنهم مع تكاثر ذنوبهم، وبنعمة بعثهم من بعد موتهم، وبنعمة تظليلهم بالغمام، وبنعمة إنزال المن والسلوى عليهم. الخ.

ولقد كان موقف بنى إسرائيل من هذه النعم يمثل الجحود والعناد والبطر، فكانت نتيجة ذلك أن.

﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله﴾.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك حديثًا مستفيضًا عن رذائلهم وقبائحهم ودعواهم الباطلة، والعقوبات التى حلتِ بهم جزاء كفرهم وجحودهم.

فنزاها فى الربع الرابع تذكر لنا تنطعهم فى الدين وإلحافهم فى المسألة عندما قال لهم نبيهم موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾. ثم تذكر قسوة قلوبهم فتقول على سبيل التوبيخ لهم:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾.

ونراها فى الربع الخامس تحدثنا عن تحريفهم للكلم عن مواضعه عن تعمد وإصرار، وتتوعدهم على ذلك بسوء المصير:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

ثم تحدثنا عن قولهم الباطل: ﴿لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾.

وترد عليهم بما يبطل حجتهم، وعن نقضهم لعهودهم ومواثيقهم مع الله ومع الناس ومع أنفسهم، وعن عدائهم لرسول الله، وعن جحودهم للحق بدافع الحسد والعناد فتقول:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾.

ثم نراها فى الربع السادس تحكى لنا نماذج من مزاعمهم الباطلة، ومن ذلك زعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس، ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم، وبصور جبنهم وحرصهم المشين على أية حياة حتى لو كانت ملطخة بالذل والهوان.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ فيقول:

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم

صادقين. ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾.

ثم تسوق لنا نماذج من سوء أدبهم مع الله، وعداوتهم لملائكته؛ ونبذهم كتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام.

ثم نراها في الربع السابع تقص علينا بعض الصور من المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية، التي استعملوها مع النبي ﷺ لحرب الدعوة الاسلامية، كجدالهم في قضية النسخ، وفي كون الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى، وفي كون القرآن ليس معجزة - في زعمهم - وإنما هم يريدون معجزة كونية.. الخ.

وقد رد القرآن عليهم بما يزهق باطلهم، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم.

وكما ابتدأ القرآن الحديث معهم ابنداء محببا إلى نفوسهم ﴿يا بني إسرائيل﴾، فقد اختتمه - أيضًا - بالنداء نفسه، لكي يستحثهم على الإيمان فقال:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل منها عدل، ولا تنفعها شفاعة، ولا هم ينصرون﴾.

ثم أخذت السورة بعد ذلك في الربع الثامن منها تحدثنا عن الكلمات التي اختبر الله بها نبيه إبراهيم، وعن قصة بناء البيت الحرام، وعن تلك الدعوات الخاشعات التي كان إبراهيم وإسماعيل يتضرعان بها إلى خالقهما وهما يقومان بهذا العمل الجليل.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم﴾.

ثم أخذت تقيم الحجج الباهرة، والأدلة الساطعة على أن إبراهيم ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وعلى أن يعقوب قد وصى ذريته من بعده أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا.

ثم ختمت تلك المحاورات والمجادلات التي أبطلت بها دعاوى أهل الكتاب الباطلة، ببيان سنة من سنن الله في خلقه، هذه السنة تتلخص في بيان أن كل إنسان سيجازى بحسب عمله يوم القيامة، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وأن اتكال اليهود - أو غيرهم - على أنهم من نسل الأنبياء أو الصالحين دون أن يعملوا بعملهم لن ينفعهم شيئًا. فقال - تعالى -:

﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ثم عادت السورة فى الربع التاسع منها إلى الحديث عن الشبهات التى أثارها اليهود عند تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وقد رد القرآن عليهم بما يدحض هذه الشبهات، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم فى مكان سحيق، قال - تعالى - :

﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ إلى أن يقول : ﴿ومن حيث خرّجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، لئلا يكون للناس عليكم حجة، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد فصلت الحديث عن بنى إسرائيل تفصيلا يحمل المسلمين على العظة والاعتبار، ويعرفهم طبيعة أولئك القوم الذين خسروا أنفسهم حتى يأخذوا حذرهم منهم، وينفروا من التشبه بهم.

أما المقدار الباقى من السورة الكريمة - وهو أكثر من نصفها بقليل - فعندما نراجعه بتفكر وتدبر، نراه زاخرًا بالتشريعات الحكيمة، والآداب العالية، والتوجيهات السامية.

نرى السورة الكريمة فى هذا المقدار منها تحدثنا فى الربع العاشر منها عن بعض شعائر الله التى تتعلق بالحج، وعن الأدلة على وحدانية الله.

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

ثم بعد أن تصور لنا بأسلوب بليغ مؤثر حسرة المشركين يوم القيامة وهم يتبادلون التهم، ويتبرأ بعضهم من بعض، بعد كل ذلك توجه نداء عامًا إلى الناس، تأمرهم فيه أن يقيدوا أنفسهم بما أحل الله.. وأن يبتعدوا عن محارمه فتقول :

﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾.

فإذا ما وصلنا إلى الربع الحادى عشر منها، رأيناها تسوق لنا فى مطلعه آية جامعة لألوان البر، وأمهات المسائل الاعتقادية والعملية وهى قوله - تعالى - :

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾. إلخ.

ثم أتبعت ذلك بالحديث عن القصاص، وعن الوصية، وعن الصيام وحكمته، وعن الدعاء وآدابه، ونهت المسلمين فى ختامها عن مقارفة الحرام فى شتى صوره وألوانه فقالت:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾.

وفى مطلع الربع الثانى عشر حكت بعض الأسئلة التى كان المسلمون يوجهونها إلى النبى ﷺ، وأجابت عنها بطريقة حكيمة تدعوهم إلى التدبر والاتعاظ، ثم حضت المسلمين على الجهاد فى سبيل الله، ونهتهم عن البغى والاعتداء. استمع إلى القرآن وهو يحرض المؤمنين على القتال ويرسم لهم حدوده وآدابه فيقول:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾.

ثم فصلت السورة الحديث عن الحج، فتحدثت عن جانب من آدابه وأحكامه، وحضت المسلمين على الإكثار من ذكر الله، وأن يتجنبوا التفاخر بالأحساب والأنساب، وأن يرددوا فى دعائهم قوله - تعالى -:

﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وفى الربع الثالث عشر نراها تبين لنا ألوان الناس فى هذه الحياة، وأن منهم من يسعى فى الإفساد وإهلاك الحرث والنسل، فإذا ما نصح أخذته العزة بالإثم، وتمادى فى طغيانه وإفساده، وأن منهم من يبيع نفسه عن طواعية واختيار ابتغاء مرضاة الله.

﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد﴾.

ثم تبين لنا بأن الناس جميعًا كانوا أمة واحدة، وأن هذه الحياة مليئة بالمصائب والمحن والفتن، وأن العاقل هو الذى يقابل كل ذلك بإيمان عميق، وصبر جميل، حتى يفوز برضى الله يوم القيامة، ويظفر بنصره فى الحياة الدنيا.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾.

ثم تحدثنا السورة الكريمة فى الربعين الرابع عشر والخامس عشر حديثًا جامعًا عن النكاح

وما يتعلق به من أحكام، فحدثتنا عن الإيلاء وعن الطلاق. وعن الرضاع، وعن العدة، وعن الخطبة، وعن غير ذلك مما يتعلق بهذا الشأن، ثم ختمت حديثها بهذه الآية الكريمة:

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

ثم عادت السورة فى الربع السادس عشر منها إلى الحديث عن الملأ من بنى إسرائيل:

﴿الذين قالوا لنبى لهم: ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله﴾.

فساقت لنا قصتهم بأسلوب زاخر بالعظات والعبر، التى من أهمها أن الدين هو أساس العزة والمنعة، وأن الشدائد من شأنها أن تصهر النفوس فتجعلها تتجه إلى معالى الأمور، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل وقوة الجسم وسعة العلم، وكمال التجربة - ما يقود به أمته إلى صالح الأمور، وأن العاقل هو الذى يسلك الوسائل السليمة لبلوغ غايته الشريفة، ثم يفوض الأمور بعد ذلك إلى الله.

وفى الربع السابع عشر منها أفاضت فى الحديث عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته، وأقامت على ذلك من الأدلة ما يشفى الصدور، ويطمئن القلوب، ويزيد المؤمنين إيمانًا، استمع إلى آية الكرسى وهى تصور عظمة الله وقدرته فتقول

﴿الله لا إله هو الحى القوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما فى السموات، وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾.

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله ساقت السورة فى أواخرها أنماطًا من التوجيهات التى تسعد المجتمع، وتنزع الأحقاد من قلوب الأفراد، فقد حضت المسلمين فى جملة من آياتها على الإنفاق والإحسان، وضربت لذلك أروع الأمثال ونهتهم عن المن والأذى، وصرحت بأن الكلمة الطيبة للسائل خير من العطاء الذى تتبعه الإساءة.

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غنى حليم﴾.

ثم بعد أن عقدت مقارنه مؤثرة بين من ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وبين من ينفقونها رئاء الناس، بعد كل ذلك مدحت الفقراء الذين يتعففون عن السؤال، ولا يلجأون إليه إلا عند الضرورة القصوى فقالت:

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم

بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾.

ثم حذرت السورة بعد ذلك المؤمنين من التعامل بالربا، ووصفت آكليه بصفات تنفر منها القلوب، وتعافها النفوس، ووجهت إلى المؤمنين نداء أمرتهم فيه بتقوى الله، وأنذرتهم بحرب من الله لهم إن لم يتوبوا عن التعامل بالربا فقالت:

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾.

ثم تحدثت بعد ذلك عن الديون والرهون، فصاغت للمؤمنين دستورًا هو أدق الدساتير المدنية فى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل، ثم ختمت السورة حديثها الجامع عن العقائد والشرائع والآداب والمعاملات، بذلك الدعاء الخاشع:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

تلك هى سورة البقرة، أرأيت وحدتها فى كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها فى لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف ينادى كل عضو فيها بأنه قد أخذ مكانه المقسوم وفقًا لخط جامع مرسوم، رسمه مربى النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها ومرشد الأرواح وحاديها. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها كان يوضع فى رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله. وهكذا كان ما ينزل منها معروف الرتبة، محدد الموقع قبل أن ينزل.

لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزات، وفى أساليب ترتيبه معجزات، وفى نبوءاته الصادقة معجزات، وفى تشريعاته الخالدة معجزات، وفى كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات لعمرى إنه فى ترتيب آياته على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات[١].

وبعد: فهذا عرض سريع لأهم مقاصد سورة البقرة، قدمناه بين يديها لنعطى القارئ الكريم صورة متميزة عنها. ومن هذا العرض نرى أنها بجانب احتوائها على أصول العقائد، وعلى كثير من أدلة التوحيد، قد وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضتهما حالة المسلمين، بعد أن

(١) من كتاب «النبأ العظيم» ص ٢٠٨ لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز.

أصبحت لهم دولة بالمدينة يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود.

أما الأمر الأول فهو توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة الإسلامية من مؤامرات. وإماطة اللثام عن تاريخهم المظلم، وأخلاقهم المرذولة حتى يحذرهم المسلمون.

وأما الأمر الثانى فهو التشريع للدولة الإسلامية الفتية، وقد رأينا أن سورة البقرة فى النصف الثانى منها قد تحدثت عن تلك الجوانب التشريعية حديثًا مفصلا منوعًا تناول أحكام القصاص، والوصية، والصيام والاعتكاف والحج، والعمرة، والقتال، والنكاح، والإنفاق فى سبيل الله. والمعاملات المالية. إلى غير ذلك من التشريعات التى سبق الحديث عنها. والآن فلنبدأ فى تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق- :

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)
أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥)

سورة البقرة من السور التى ابتدئت ببعض حروف التهجى.

وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة.

فالسور التى بدأت بحرف واحد ثلاثة وهى سور ص، ق، ن.

والسور التى بدأت بحرفين تسعة وهى : طه، يس، طس، ﴿وحم﴾ فى ست سور هى : غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

والسور التى بدأت بثلاثه أحرف ثلاث عشرة سورة وهى : ﴿ألم﴾ فى ست سور : البقرة، وآل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة و﴿الر﴾ فى خمس سور هى : يونس، هود، يوسف، الحجر، إبراهيم و﴿طسم﴾ فى سورتين هما : الشعراء، القصص.

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما. الرعد، ﴿المر﴾، والأعراف، ﴿المص﴾، وسورتان - أيضًا - بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ﴿كهيعص﴾، والشورى ﴿حم عسق﴾.

فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة.

هذا، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى رواياته - كما ذهب إليه الشعبى، وسفيان الثورى، وغيرهم من العلماء، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور. ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها. وعن على - رضى الله عنه - أنه قال : « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى ». وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه ».

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس، لأنه من المتشابه، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثله كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها..

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس، فالرسول ﷺ كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين - ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعًا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور.

وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأى يضيق المجال عن ذكرها

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة، من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبى ﷺ (من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح) وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿يس﴾.

ولا يخلو هذا القول من الضعف، لأن كثيرًا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، والغرض من التسمية رفع الاشتباه.

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته، فمثلا ﴿الم﴾ أصلها : أنا الله أعلم.

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم. إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال، والتى أوصلها السيوطى فى «الإتقان» إلى أكثر من عشرين قولا.

٥ - ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها، ويقدرون على تأليف الكلام منها، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة، وفضلا عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها، فيستمعوا حكما وحججًا قد تكون سببًا فى هدايتهم واستجابتهم للحق.

هذه خلاصة لأراء العلماء فى الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيدًا لذلك فليرجع -مثلاً- إلى كتاب «الإتقان» للسيوطى، وإلى كتاب «البرهان» للزركشى، وإلى تفسير الالوسى.

ثم قال - تعالى - : ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين﴾.

﴿ذلك﴾ اسم إشارة واللام للبعد حقيقة فى الحس، مجازًا فى الرتبة، والكاف للخطاب، والمشار إليه - على الراجح - الكتاب الموعود به ﷺ فى قوله - تعالى - ﴿إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أخبرنى عن تأليف ﴿ذلك الكتاب﴾ مع ﴿الم﴾ قلت : إن جعلت ﴿الم﴾ اسمًا للسورة ففى التأليف وجوه. أن يكون ﴿الم﴾ مبتدأ و ﴿ذلك﴾ مبتدأ ثانيًا، و ﴿الكتاب﴾ خبره. والجملة خبر المبتدأ الأول.

ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص، وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتابًا، كما تقول : هو الرجل، أى : الكامل فى الرجولية، الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال.

وإن جعلت ﴿الم﴾ بمنزلة الصوت، كان «ذلك» مبتدأ خبره «الكتاب»، أى: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل[1]... اهـ ملخصًا.

وقيل: المشار إليه ﴿الم﴾ على أنه اسم للسورة والمراد المسمى.

و ﴿الكتاب﴾ مصدر كتب كالكتب، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة. واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأريد به هنا المنظوم عبارة قبل أن تنظم حروفه التى يتألف منها فى الخط، تسمية للشىء باسم ما يؤول إليه.

و (الريب) فى الأصل مصدر رابه الأمر إذا حصل عنده فيه ريبة، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقًا. وقال ابن الأثير: الريب هو الشك مع التهمة.

و (هدى). مصدر هداه هدى وهداية وهدية - بكسرها - فهدى، ومعناه الدلالة الموصلة إلى البغية، وضده الضلال.

و (المتقون) جمع متق، اسم فاعل من اتقى وأصله اوتقى - بوزن افتعل - من وقى الشىء وقاية، أى: صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه.

والمعنى: ذلك الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم، ليس محلا لأن يرتاب عاقل أو منصف فى أنه منزل من عند الله، وأنه هداية وإرشاد للمتقين الذين يجتنبون كل مكروه من قول أو فعل، حتى يصونوا أنفسهم عما يضرها ويؤذيها.

وكانت الإشارة بصيغة البعيد، لأنه سامى المنزلة أينما توجهت إليه، فإن نظرت إليه من ناحية تراكيبه فهو معجز للبلغاء، وإن نظرت إليه من ناحية معانيه فهو فوق مدارك الحكماء، وإن نظرت إليه من ناحية قصصه وتاريخه فهو أصدق محدث عن الماضين، وأدق محدد لتاريخ السابقين، فلا جرم أن كانت الإشارة فى الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن، وقد شاع فى كلام البلغاء تمثيل الأمر الشريف بالشىء المرفوع فى عزة المنال، لأن الشىء النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه فى مكان مرتفع بعيد عن الأيدى.

وصحت الإشارة إلى الكتاب وهو لم ينزل كله بعد، لأن الإشارة إلى بعضه كالإشارة إلى الكل حيث كان بصدد الإنزال، فهو حاضر فى الأذهان، فشبه بالحاضر فى العيان.

ونفى عنه الريب على سبيل الاستغراق مع وقوع الريب فيه من المشركين حيث وصفوه بأنه

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٣.

أساطير الأولين، لأنه لروعة حكمته، وسطوع حجته، لا يرتاب ذو عقل متدبر فى كونه وحيًا سماويًا، ومصدر هداية وإصلاح.

فالجملة الكريمة تنفى الريب فى القرآن عمن شأنهم أن يتدبروه، ويقبلوا على النظر فيه بروية، ومن ارتاب في القرآن فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية، أو بصيرة نافذة، أو قلب سليم.

وقدم جملة ﴿لا ريب فيه﴾ على جملة ﴿هدى للمتقين﴾ لأنه أراد أن ينفى عن ساحة كونه كتابًا هاديًا غبار الريب، وغيوم الشكوك، حتى يستقر فى النفوس وصفه، وتطمئن القلوب لآثاره ومقاصده وهداياته.

وفصل جملة ﴿لاريب فيه﴾ عما قبلها لكمال الاتصال، حيث كانت جملة ﴿ذلك الكتاب﴾ مفيدة لكماله، وجملة ﴿لا ريب فيه﴾ مفيدة لنفى الريب عنه.

والمراد بكونه ﴿هدى للمتقين﴾ مع أنه هداية لهم ولغيرهم، لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم.

قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمي، أولئك ينادون من مكان بعيد﴾.

ومعنى كونه هدى لهم أنه يزيدهم هدى على ما لديهم من الهدى كما قال - تعالى -: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.

ويصح أن يكون المعنى: هدى للناس الذين صاروا متقين بهذه الهداية، كما أقول: هديت مهتديا، أو كتبت مكتوبا، على معنى أنى هديت شخصًا صار مهديًا بهذه الهداية، وكتبت خطابًا صار مكتوبًا بهذه الكتابة، وهو أسلوب عربى صحيح. كما ورد فى حديث «من قتل قتيلا فله سلبه».

قال صاحب الكشاف: ومحل ﴿هدى للمتقين﴾ الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع ﴿لا ريب فيه﴾ لـ «ذلك»... والذى هو أرسخ عرقًا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحًا، وأن يقال: إن قوله ﴿ألم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها.

و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية. و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة. و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرًا إلى الثالثة والرابعة: بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريرًا لجهة التحدى، وشدا من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به من طرف الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله. لأنه لا كمال أكمل من الحق

واليقين. ولا نقص أنقص مما للباطل والشبه.

وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: فى حجة تتبختر اتضاحًا، وفى شبهة تتضاءل افتضاحا. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينًا لا يحوم الشك حوله، وحقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع - بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق - من نكتة ذات جزالة. ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه. وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف(١)...

ثم فصل القرآن بعد ذلك أوصاف المتقين، ومدحهم بجملة من المناقب الحميدة، فقال: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أى: يصدقون بما غاب عن حواسهم، كالصانع وصفاته، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب.

والإيمان لغة التصديق والإذعان، وهو إفعال من الأمن. وشرعًا التصديق بما علم بالضرورة أنه من الدين، كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... الخ، وعدى ﴿يؤمنون﴾ بالباء لتضمينه معنى أقر واعترف.

والغيب: مصدر غاب يغيب، وكثيرًا ما يستعمل بمعنى الغائب، وهو الظاهر من هذه الآية الكريمة. ومعناه: ما لا تدركه الحواس، ولا يعلم ببداهة العقل.

قال بعض العلماء: وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان، لأن الإيمان بالغيب هو الأصل فى اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوى، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله - تعالى - فسهل عليه إدراك الأدلة، وأما من يعتقد أنه ليس من وراء عالم الماديات عالم آخر، فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة، كما هو حال الماديين الذين يقولون: «ما يهلكنا إلا الدهر(٢):

والإيمان بالغيب: يستلزم التصديق به على وجه الجزم، وهو لا يحصل إلا عن دليل. ولا شك أن قيام البراهين على صدق من أخبر بالغيب يجعل المؤمن بهذا الغيب مصدقًا عن دليل، فنحن لا نحتاج فى الإيمان بالملائكه والكتب السماوية السابقة، والرسل الذين أرسلوا من قبل، والبعث وما فيه من ثواب وعقاب، لا نحتاج فى الإيمان بكل ذلك إلى دليل زائد على الأدلة التى قامت على صدق نبينا محمد ﷺ.

والإيمان بالغيب دليل على اتساع العقول، وسلامة القلوب، إذ أن معنى الإيمان بالغيب هو

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ١١٨ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

أن عقولهم قد سلم إدراكها، وتقشعت عنها غشاواتها، وامتد نظرها فى الكائنات فأدركت أن لها مبدعًا حكيمًا وخالقًا قديرًا، جعلها تسير بنظام محكم، فهذه كواكب تظهر وتغيب، وسماء مرفوعة بغير عمد، وأرض راسية لا تميد ولا تضطرب . . . ﴿صنع الله الذى أتقن كل شيء﴾ فكان من ذلك لتلك العقول براهين قاطعة على وجود خالق مدبر، وحكيم قدير، ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم.

والإيمان بالغيب الذى أخبر به الصادق المصدوق ﷺ يقوى ويعظم كلما قوى الإيمان فى القلوب، واستولى الصفاء على النفوس، وقد مدح النبى ﷺ المؤمنين بالغيب فى أحاديث متعددة، منها ما جاء عن خالد بن دريك، عن ابن محيريز قال: قلت لابن جمعة: حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم أحدثك حديثًا. تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى».

قال ابن كثير: فقد مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجرًا من هذه الحيثية لا مطلقًا[١].

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم عن بديلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة، واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين، ثم جاء من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب»[٢].

تلك أول صفة نتيجة التقوى وهى الإيمان بالغيب، أما الصفة الثانية التى مدح الله بها المتقين فهى قوله - تعالى -:

﴿ويقيمون الصلاة﴾.

الصلاة فى اللغة الدعاء، من صلى يصلى إذا دعا، واستعملها الشارع فى العبادة ذات الركوع والسجود لاشتمالها على الدعاء، والإقامة فى الأصل: الدوام والثبات، من قولك: قام الحق أى: ظهر وثبت.

ومعنى ﴿يقيمون الصلاة﴾: يؤدونها فى أوقاتها المقدرة لها، مع تعديل أركانها، وإيقاعها مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها، فإن الصلاة المقامة بحق هى تلك التى يصحبها

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢.

الإخلاص، واستحضار جلال الله فى الركوع والسجود، وهى التى تترتب عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس، وعفافها، وتركها لكل الشرور والآثام، كما قال - تعالى - : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وقدم الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة تعظيمًا لعمل القلب، واعتدادًا بشرطية الإيمان فى صحة أعمال الجوارح.

وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات، ولأنها صلة بين العبد وربه، والإنفاق صلته بالناس، ولأن مشروعيتها كانت سابقة على مشروعية الزكاة.

أما الصفة الثالثة التى مدح الله بها المتقين فهى قوله - تعالى - :

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾.

أى : ومما أعطيناهم وملكناهم يتصدقون فى وجوه الخير، ويمدون أيديهم بالإحسان إلى الفقير والمسكين.

والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للانتفاع به حلالا كان أو حرامًا، خلافًا للمعتزلة الذين يرون أن الحرام ليس برزق. والإنفاق : إخراج المال وإنفاده وصرفه، يقال : نفق - كفرح ونصر - نفد وفنى أو قلّ. وأنفق ماله أنفده، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب، ومنه : نافق فلان، والنافقاء، والنفق. وقال «ينفقون» ولم يقل أنفقوا، ليشعر بأن الإنفاق منهم يتجدد بين وقت وآخر. ولم يحدد وجوه الانفاق بل تركها مطلقة لتشمل الفرض والواجب وغيرهما من وجوه الإحسان.

وإيراد «من» فى قوله تعالى - ﴿ومما رزقناهم﴾ للإشارة إلى أن مواظبتهم على إنفاق أموالهم بين الحين والحين، كفيل بتوصيلهم إلى زمرة المهتدين المفلحين، وللإشعار بأنهم ينفقون بعض أموالهم مبتعدين عن الإسراف والتبذير حتى لا يتركوا ورثتهم عالة يتكففون وجوه الناس.

هذا، وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحض على الإنفاق فى وجوه الخير، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحًا عظيمًا فى عشرات الآيات، وذلك لأن الأمة التى يكثر فيها المنفقون لأموالهم فى وجوه الخير، لابد أن تعز كلمتها، وتسلم من كوارث شتى، كالجهل، والفقر، والمرض. فببذل المال تسد حاجات البؤساء، وتشاد معاهد التعليم، وتقام وسائل حفظ الصحة، وتنمو المحبة والمودة بين الأغنياء والفقراء.

قال تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ثم أضاف القرآن إلى صفات المتقين وصفًا رابعًا فقال :

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾.

والمراد بقوله - تعالى - ﴿بما أنزل إليك﴾ القرآن الكريم، وإنما عبر عنه بلفظ الماضى - وإن كان بعضه مترقبًا - تغليبًا للموجود على ما لم يوجد.

والمراد بقوله - تعالى - ﴿وما أنزل من قبلك﴾، الكتب الإلهية السابقة التى أنزلها الله على أنبيائه كموسى وعيسى وداود. وهذا كقوله - تعالى - :

﴿يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل﴾(1).

والإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ يستلزم الإيمان برسالته، ويستوجب العمل بما تضمنته شريعته.

وإيجاب العمل بما تضمنه القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ باق على إطلاقه. أما الكتب السماوية السابقة فيكفى الإيمان بأنها كانت وحيًا وهداية، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه الكتب من هدايات وأصبح بنزوله مهيمنًا عليها، قال - تعالى - :

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء﴾.

وصار من المحتم على كل عاقل أن يعمل بما جاء به القرآن من توجيهات.

وقدم الإيمان بما أنزل عليه على الإيمان بما أنزل على الذين من قبله- مع أن الترتيب يقتضى العكس- لأن إيمانهم بمن قبله لا قيمة له إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ :

ولم يقل : ويؤمنون بما أنزل من قبلك بتكرير يؤمنون، للإشعار بأن الإيمان به وبهم واحد، لا تغاير فيه وإن تعدد متعلقه.

ويرى بعض العلماء أن المراد من الآية الكريمة، أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن، ثم لما نزل القرآن على النبى محمد ﷺ وعرفوا أنه الحق - آمنوا به أيضًا -، فصار لهم أجران، كما جاء فى الحديث الشريف، الذى ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين يوم القيامة : رجل من

(1) سورة النساء الآية ١٣٦.

أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها.

ثم وصف الله المتقين بوصف خامس فقال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ الآخرة تأنيث الآخر.

وهذا اللفظ تارة يجىء وصفًا ليوم القيامة مع ذكر الموصوف، كما فى قوله - تعالى - «وللدار الآخرة خير للذين يتقون» وتارة بهذا المعنى ولكن بدون ذكر الموصوف، كما فى الآية التى معنا، وكما فى قوله - تعالى - ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلا﴾

وسميت آخرة لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الأولى.

و ﴿يوقنون﴾ من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، بحيث لا يطرأ عليه شك، ولا تحوم حوله شبهة. يقال يقن الماء إذا سكن وظهر ما تحته، ويقال: يقنت - بالكسر - يقنًا، وأيقنت، وتيقنت، واستيقنت بمعنى واحد.

والمعنى: وبالدار الآخرة ومافيها من بعث وحساب وثواب وعقاب هم يوقنون إيقانًا قطعيًا، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة، والأوهام الباطلة.

وفى إيراد «هم» قبل قوله «يوقنون» تعريض، بغيرهم، ممن كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير بالغ مرتبة اليقين.

ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، له أثر عظيم فى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، لأن من أدرك أن هناك يومًا سيحاسب فيه على عمله، فإنه من شأنه أن يسلك الطريق القويم الذى يكسبه رضى الله يوم يلقاه.

قال أبو حيان: وذكر لفظة ﴿هم﴾ فى قوله: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ ولم يذكرها فى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ لأن وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ولأنه لو ذكر ﴿هم﴾ هناك لكان فيه قلق لفظى، إذ يكون التركيب «ومما رزقناهم هم ينفقون»(١).

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار التى ترتبت على تقواهم فقال:

﴿أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون﴾.

المفلحون: من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية، وأصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث. وأستعمل منه الفلاح فى الفوز، كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلى مبتغاه، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص٤٢.

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة، على نور من ربهم، وأولئك هم الفائزون بما طلبوا، الناجون مما منه هربوا، بسبب إيمانهم العميق، وأعمالهم الصالحة.

والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان أن أولئك المتقين فى المنزلة العليا من الكمال الإنسانى، فقد وصفهم - سبحانه - بأنهم على هدى عظيم، ويدل على عظم هذا الهدى إيراده بصيغة التنكير، إذ من المعلوم عند علماء البيان أن التنكير يدل بمعونة المقام على التعظيم. كما يدل - أيضًا - على عظم هذا الهدى وصفه بأنه « من ربهم »، فهو الذى وفقهم إليه، ويسر لهم أسبابه.

وفى قوله - تعالى - : ﴿على هدى﴾ إشعار بأنهم تمكنوا منه تمكن من استعلى على الشيء، وصار فى قرار راسخ منه.

وجملة « وأولئك هم المفلحون » بيان لما ظفر به المتقون الحائزون لتلك الخصال، من سعادة فى الدنيا والآخرة.

وتعريف الخبر وهو ﴿المفلحون﴾ مع إيراد ضمير الفصل « هم » يفيد أن الفلاح مقصور على أولئك المتقين، فمن لم يؤمن بالغيب، أو أضاع الصلاة، أو بخل بالمال الذى منحه الله إياه فلم يؤده فى وجوهه المشروعة، فإنه لا يكون من المهتدين، ولا من المفلحين الذين سعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

قال الإمام الرازى : « وفى تكرير» ﴿أولئك﴾ تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى، فقد ثبت لهم الاختصاص بالفلاح - أيضًا - فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين، فإن قيل : فلم جيء بالعاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

قلنا : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، وكانت الثانية مقررة لما فى الأولى، فهى من العطف بمعزل »(١).

وقال صاحب الكشاف بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة « . . . فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهى : ذكر اسم الاشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين أولئك، ليبصرك مرتباتهم، ويرغبك فى طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ١٦٩.

والتمنى على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته...»[1].

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد مدحت القرآن الكريم بما يستحقه، وأثنت على من اهتدوا بهديه، ووصفتهم بالصفات السامية، وبشرتهم بالبشارات الكريمة.

وبعد أن انتهى القرآن من بيان شأن الكتاب وأثره فى الهداية والإرشاد، وتصوير حال المتقين الذين اهتدوا به، وما اكتسبوه بالهداية من أوصاف سامية، وما كان لهم على ذلك من خير العاقبة وحسن الجزاء، أقول بعد أن انتهى من بيان كل ذلك شرع فى بيان حال الكافرين، وما هم عليه من سوء الحال وقبيح الأوصاف فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ففى هاتين الآيتين بيان لأحوال طائفة ثانية من الناس، على الضد فى طبيعتها وأوصافها ومآلها من الطائفة الأولى التى فازت برضوان الله.

والكفر - بالضم - ضد الإيمان. وأصله المأخوذ منه الكفر - بالفتح - وهو ستر الشىء وتغطيته، ومنه سمى الليل كافرًا، لأنه يغطى كل شىء بسواده، وسمى السحاب كافرًا لستره ضوء الشمس.

ثم شاع الكفر فى مجرد ستر النعمة، كأن المنعم عليه قد غطى النعمة بجحوده لها. ويستعمله الشارع فى عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وسمى من لم يؤمن بما يجب الإيمان به بعد الدعوة إليه - كافرًا، لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان إليه كالمغطى له.

والمراد بالذين كفروا فى الآية التى معنا، طائفة معينة صمت آذانها عن الحق، عنادًا وحسدًا، وليس عموم الكافرين، لأن منهم من دخل فى الإسلام بعد نزول هذه الآية.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦.

وسواء: اسم مصدر بمعنى الاستواء والمراد به اسم الفاعل أي: مستو ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر، كما في قوله - تعالى -:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾.

أي: مستوية.

والإنذار: إخبار معه تخويف في مدة تتسع للتحفظ من المخوف، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار، وأكثر ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله - تعالى -.

والمعنى: إن الذين كفروا برسالتك يا محمد مستو عندهم إنذارك وعدمه، فهم لا يؤمنون بالحق، ولا يستجيبون لداعي الهدى، لسوء استعدادهم، وفساد فطرهم.

وجاءت جملة «إن الذين كفروا: مستأنفة ولم تعطف على ما قبلها لاختلاف الغرض الذي سيق له الكلام، إذ في الجمل السابقة حديث عن الكتاب وآثاره وعظمته، وهنا حديث عن الكافرين وأحوالهم.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: «فإن قلت لم قطعت قصة الكفار عن قصه المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله: ﴿إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم﴾. وغيره من الآيات الكثيرة؟ قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت. لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقه لذكر الكتاب وأنه هدى المتقين، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت؛ فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف».

وقوله ﴿سواء﴾ خبر إن و ﴿عليهم﴾ متعلق به، و ﴿أأنذرتهم﴾ مؤول بمصدر فاعل سواء. أي: إن الذين كفروا سواء عندهم إنذارهم وعدم إنذارهم وإنما استوى لديهم الإنذار وعدمه؛ مع أن الإنذار إنما يواجههم به نبي قوي أمين مؤيد من الله - تعالى -، لأنهم لما جحدوا نعم الله، وعموا عن آياته، وحسدوا رسوله على ما آتاه الله من فضله، صاروا بسبب ذلك في حضيض جمد معه شعورهم، وبرد فيه إحساسهم، فلا تؤثر فيهم موجعات القول، ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج. فهم كما قال الشاعر:

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ولم يذكر - سبحانه - التبشير مع الإنذار، لأنهم ليسوا أهلا للبشارة، ولأن الإنذار أوقع في القلوب، والذي لا يتأثر به يكون عدم تأثره بغيره أولى.

ولم يقل - سبحانه - سواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم.. الخ، لأنه بالنسبة له ﷺ لا يستوي الأمران، إذ هو في حالة إنذاره لهم مثاب ومأجور، أما في حالة عدم إنذاره فهو

مؤاخذ من الله - تعالى - لأنه مكلف بتبليغ ما أنزل إليه من ربه.

وجملة ﴿لا يؤمنون﴾ مفسرة لمعنى الجملة التى قبلها ومؤكدة لها، لأنه حيث كان الإنذار وعدمه سواء، فلا يتوقع منهم الإيمان. ولذلك فصلت.

وفى هذه الجملة إخبار بعدم إيمانهم ألبتة، وذلك لأن حرف «لا» إذا دخل على الفعل المضارع - كما هنا - أفاد أن الفعل لا يقع فى المستقبل حتى تقوم قرينة تقصر النفى فى المستقبل على وقت محدد.

والحكمة فى الإخبار بعدم إيمان هذه الطائفة المعينة من الكفار، تسلية النبى ﷺ حتى لا يكون فى صدره حرج من تمردهم وعدم إيمانهم بعد أن قام بواجب دعوتهم، وفى ذلك تذكرة لكل داع مصلح بأن لا يحترق قلبه أسفًا على قوم أعرضوا عن سلوك الصراط المستقيم بعد أن دعاهم إليه، وبذل قصارى جهده فى تبصيرهم وإرشادهم.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموانع التى حالت بينهم وبين الاهتداء إلى الحق فى الماضى والمستقبل فقال تعالى:

﴿ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

والختم: الوسم بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء وطبعه فيه للاستيثاق، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخله ما هو خارج عنه.

قال القرطبى: «والختم مصدر ختمت الشىء ختمًا فهو مختوم مختم، شدد للمبالغة، ومعناه التغطية على الشىء والاستيثاق منه، وقد يكون محسوسًا كما فى ختم الكتاب والباب، وقد يكون معنويًا كالختم على القلوب...»(١)

والقلوب: جمع قلب، وهو المضغة التى توجد بالجانب الأيسر من صدر الإنسان، ويستعمل فى القوة العاقلة التى هى محل الفهم والعلم.

والسمع: مصدر سمع. ويطلق على الآلة التى يقع بها السمع.

ولما كان الختم يمنع من أن يدخل فى المختوم عليه شىء، استعير لإحداث هيئة فى القلب والسمع تمنع من خلوص الحق إليهما.

الأبصار: جمع بصر، وهو فى الأصل الإدراك بالعين، ويطلق على القوة التى يقع بها الإبصار، وعلى العين نفسها. وهذا المعنى أقرب ما تحمل عليه الأبصار فى الآية. وهو الأنسب

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٨٦.

لأن تجعل عليه غشاوة. ومفاد الآية أن تصير أبصارهم بحيث لا تهتدى إلى النظر فى حكمة المخلوقات وعجائب المصنوعات. باعتبار وتدبر وحتى لكأنما جعلت عليها غشاوة.

والغشاوة: ما يغطى به الشيء، من غشاه إذا غطاه. يقال:

غشيه غشاوة - مثلثة - وغشاية. أى: ستره وغطاه.

فهذه الآية الكريمة تفيد عن طريق الاستعارة أو التمثيل أن هناك حواجز حصينة، وأقفالا متينة قد ضربت على قلوبهم وعلى أسماعهم، وغشاوات مطبقة على أبصارهم حتى أصبحوا لا يخيفهم نذير ولا يرغبهم بشير.

وعبر فى جانب القلب والسمع بالختم، وفى جانب البصر بالغشاوة، لمعنى سام، وحكمة رائعة، ذلك أن آفة البصر معروفة، إذ غشاوة العين معروفة لنا، فالتعبير فى جانب العين بالغشاوة مما يحدد لنا مدى عجزهم عن إدراك آيات الله بتلك الجارحة، وأما القلب والسمع فإنهما لما كانا لا تدرك آفتهما إلا بصعوبة، فقد صور لنا موانعهما عن الاستجابة للحق بصورة الختم.

وعبر فى جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث، وفى جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير، ولا يواجهون بحجة، وإنما كان صوت النذير وصياغة البراهين بعد ظهور النبى ﷺ. وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته، فقد كان قائما فى السماوات وفى الأرض وفى الأنفس، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته، فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة حادثا متجددًا، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم، فلما دعوا إلى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى،

وجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقى إليها من إنذار أو تبشير، ومن حجة أو دليل، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم، وكذلك شأن الناس فيما تنظره أبصارهم من آيات الله فى كونه، فإن أنظارهم تختلف فى عمق تدبرها وضحولته، فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد مقادير ما يستطيعون تدبره من آيات الله فى الآفاق. وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعًا شيء واحد هى الحجة يناديهم بها المرسلون، والدليل يوضحه لهم النبيون.

لذلك كان الناس جميعًا كأنهم على سمع واحد، فكان إفراد السمع إيذانًا من الله بأن حجته واحدة، ودليله واحد لا يتعدد.

ونرى القرآن هنا قدم القلب فى الذكر على السمع، بينما فى سورة الجاثية قدم السمع فى الذكر على القلب فقال:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؛ أفلا تذكرون﴾.

وذلك لأنه - سبحانه - فى سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله «اتخذ إلهه هواه، ومن اتخذ إلهه هواه يكون أول ما يبدو منه للناس ويعرف هو إعراضه عن النصح، ولى رأسه عن استماع الحجة، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين، فلذلك قدم السمع على القلب.

وأما آيتنا هذه وهى قوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ فقد جاءت إثر الآية المختومة بقوله ﴿لا يؤمنون﴾. والإيمان تصديق يقوم على الحجة والبراهين، وإدراك الحجة والبرهان إنما هو بالقلب فكان التعليل المتصل الواضح لنفى الإيمان أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ إليها الحجة، أولا يتسرب إليها نور البرهان لذلك قدم القلب على السمع.

هذا وقوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم﴾.. إلخ. لا ينفى عنهم تبعة الكفر، لأنهم هم الذين باشروا من فاسد الأعمال، وذميم الخصال، ومتابعة الهوى، ما نسج على قلوبهم الأغلفة السميكة، وأصم إلى جانب ذلك آذانهم وأعمى أبصارهم، ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

ولعلماء الكلام كلام طويل حول هذه المسألة فليرجع إليه من شاء.

ثم بين - سبحانه - ما يستحقونه من عذاب بسبب إغراقهم فى الكفر. واستحبابهم للمعاصى فقال:

﴿ولهم عذاب عظيم﴾.

أى: ولهم بسبب سوء أعمالهم عذاب موجع مؤلم لأبدانهم وأجسامهم.

وأصل العذاب: المنع، يقال: عذب الفرس - كضرب - امتنع عن العلف. وعذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب. ثم أطلق على الإيجاع الشديد لما فيه من المنع عن اقتراف الذنب. والعظيم: الكبير، من عظم الشيء، وأصله كبر عظمه، ثم استعير لكل كبير محسوسا كان أو معقولا.

ووصف العذاب بالعظيم على معنى أن سائر ما يجانسه من العذاب يكون بالنسبة إليه حقيرًا هينًا.

قال أبو حيان فى البحر: وقد ذكروا فى هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة، أنواعًا.

الأول: الخطاب العام اللفظ، الخاص المعنى.

الثانى: الاستفهام الذى يراد به تقرير المعنى فى النفس. أى: يتقرر أن الانذار وعدمه سواء عندهم.

الثالث: المجاز ويسمى الاستعارة وهو فى قوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم، والختم هنا معنوى؛ فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير اسم المختوم عليه، فبين أنه من مجاز الاستعارة.

الرابع: الحذف وهو فى مواضع منها ﴿إن الذين كفروا..﴾ أى: القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به، ومنها ﴿لا يؤمنون﴾ أى بالله وبما أخبرتهم به عنه[1].

وإلى هنا يكون القرآن قد حدثنا عن طائفتين من الناس: طائفة المتقين وما لها من جميل الصفات، وجزيل الثواب، وطائفة الكافرين وما لها من ذميم النعوت، وشديد العقاب.

ثم ابتدأ القرآن بعد ذلك حديثه عن طائفة ثالثة ليس عندها إخلاص المتقين، وليس لديها صراحة الكافرين، وإنما هى طائفة قلقة مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، تلك الطائفة الثالثة هى طائفة المنافقين الذين فضحهم القرآن. وأماط اللثام عن خفاياهم وخداعهم فقال:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قال صاحب الكشاف: «افتتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهرًا

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ٥٠.

وباطنًا، قلوبًا وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا. وهم الذين قال فيهم: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾، وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشرك استهزاء وخداعًا، ولذلك أنزل فيهم: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾ ووصف حال الذين كفروا فى آيتين ووصف حال الذين نافقوا فى ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم. واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة»(١).

والناس: اسم لجماعة الإنس. قال القرطبى: «واختلف النحاة فى لفظ الناس فقيل: هو من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ، وتصغيره نويس، فالناس من النوس وهو الحركة، يقال: ناس، ينوس أى: تحرك. وقيل: أصله نسى، فأصل ناس نسى، قلب فصار نيس، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفًا، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس، قال ابن عباس: نسى آدم عهد الله فسمى إنسانًا. وقيل: سمى إنسانًا لأنسه بربه، قال الشاعر:

وما سمى الإنسان إلا لأنسه ... ولا القلب إلا أنه يتقلب(٢)

واليوم الآخر: هو اليوم الذى يبتدئ بالبعث ولا ينقطع أبدًا، وقد يراد منه اليوم الذى يبتدئ بالبعث وينتهى باستقرار أهل الجنة فى الجنة. وأهل النار فى النار.

وقال القرآن فى شأن المنافقين ﴿ومن الناس﴾ مجردًا إياهم من الوصفين السابقين، وصف الإيمان ووصف الكفر، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين، ولا بحسب باطنه مع المؤمنين، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لاهم مؤمنون. ولاهم كافرون وفى ذلك مبالغة فى الحط من شأنهم. فهم لم يخرجوا عن كونهم ناسًا فقط، دون أن يصلوا بأوصافهم إلى أهل اليمين أو إلى أهل الشمال الصرحاء فى كفرهم، بل بقوا فى منحدر من الأرض، لايمر بهم سالك الطريق المستقيم ولاسالك المعوج من الطرق.

وعبر القرآن بلفظ ﴿يقول آمنا﴾ ليفيد أنه مجرد قول باللسان، لا أثر له فى القلوب، وإنما هم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٩٢.

وحكى القرآن عن هؤلاء المنافقين أنهم اقتصروا فى إظهار الإيمان على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ليزيدوا فى التمويه على المؤمنين بإدعاء أنهم أحاطوا بالإيمان من طرفيه، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، استجابة لدعوة الرسول ﷺ فإن من شأنه أن يكون - أيضا - مؤمنًا برسل الله وملائكته وكتبه.

وقد كذبهم الله - تعالى - فى دعواهم الإيمان، فقال:

﴿وما هم بمؤمنين﴾.

فهذه الجملة الكريمة رد لما ادعوه من الإيمان، ونفى له على أبلغ وجه، إذ جاء النفى مؤكدًا بالباء فى قوله ﴿بمؤمنين﴾. ثم ان الجملة نفت عنهم الإيمان على سبيل الإطلاق، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر، ولا بكتب الله ولا برسله ولا بملائكته.

ثم بين - سبحانه - الدوافع التى دفعتهم إلى أن يقولوا ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين﴾ فقال:

﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾.

والخدع فى أصل اللغة: الإخفاء والإبهام، يقال خدعه - كمنعه - خدعا، ختله وأراد به مكروها من حيث لا يعلم؛ وأصله من خدع الضب حارسه إذ أظهر الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر.

وخداعهم لله - تعالى - معناه إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويفوزوا بسهم من الغنائم، وسمى فعلهم هذا خداعًا لله - تعالى - لأن صورته صورة الخداع، فالجملة الكريمة مسوقة على أسلوب المشاكلة، ولا يجوز حملها على الحقيقة، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه صنع المنافقين؛ بل لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. قال - تعالى - ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾.

أما خداعهم للمؤمنين فمن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم فى العقيدة وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير. بينما هم فى الحقيقة يضمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر.

وجاءت الآية الكريمة هكذا بدون عطف، لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة، إذ أن قول المنافقين «آمنا» وما هم بمؤمنين، يثير فى نفس السامعين استفهاما عما يدعو هؤلاء لمثل تلك الحال المضطربة والحياة القلقة المقامة على الكذب، فكان الجواب: إنهم يفعلون ذلك محاولين مخادعة المؤمنين، جهلا منهم بصفات خالقهم.

وقال القرآن: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾. ولم يذكر مخادعتهم للرسول ﷺ، ولعل الحكمة فى ذلك أن القرآن يعتبر مخادعة الله مخادعة لرسوله، لأنه هو الذى بعثه إليهم، وهو المبلغ عن الله أحكامه وشرائعه. قال - تعالى - :

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ وقال - تعالى - ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

ثم بين - سبحانه - غفلتهم وغباءهم فقال: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

الأنفس: جمع نفس بمعنى ذات الشىء وحقيقته. وتطلق على الجوهر اللطيف الذى يكون به الحس والحركة والإدراك.

ويشعرون: مضارع شعر بالشىء - كنصر وكرم - يقال: شعر بالشىء أى: فطن له، ومنه الشاعر لفطنته، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعانى ودقائقها.

والشعور: العلم الحاصل بالحواس، ومنه مشاعر الإنسان أى: حواسه.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا الله لعلمه بما يسرون، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع المنافقين، وإنما يخدعون أنفسهم لأن ضرر المخادعة عائد عليهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك. لأن ظلام الغى خالط قلوبهم، فجعلهم عديمى الشعور، فاقدى الحس.

وأتى بجملة «وما يخدعون إلا أنفسهم»، بأسلوب القصر مع أن خداعهم للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر، لأن أولئك المنافقين سيصيبهم عذاب شديد بسبب ذلك، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلهم عند الله ثوابه.

ونفى عنهم الشعور مع سلامة مشاعرهم، لأنهم لم ينتفعوا من نعمتها، ولم يستعملوها فيما خلقت له، فكانوا كالفاقدين لها.

ثم بين - سبحانه - العلة فى خداعهم لله وللمؤمنين فقال: ﴿فى قلوبهم مرض﴾.

والمرض: العلة فى البدن ونقيضه الصحة، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه، كسوء العقيدة والحسد، والبغضاء والنفاق، وهو المراد هنا.

وسمى ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل.

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض، للإشعار بأنه تمكن منها تمكنا شديدا كما يتمكن الظرف من المظروف فيه.

ثم أخبر - سبحانه - بأنهم بسبب سوء أعمالهم قد زادهم الله ضلالا وخسرًا فقال: ﴿فزادهم الله مرضًا﴾.

لأنهم استمروا فى نفاقهم وشكهم، ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد لا محالة مرضه، إذ المرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيرًا ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة وتزداد.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين قد زادهم الله رجسًا على رجسهم، ومرضا على مرضهم، وحسدا على حسدهم، لأنهم عموا وصموا عن الحق، ولأنهم كانوا يحزنون لأى نعمة تنزل بالمؤمنين. كما قال -تعالى-: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾.

﴿أليم﴾ أى: مؤلم وموجع وجعًا شديدًا. من ألم - كفرح - فهو ألم، وآلمه يؤلمه إيلاما، أى: أوجعه إيجاعا شديدا.

والكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع. ولقد كان المنافقون كاذبين فى قولهم «آمنا بالله وباليوم الآخر» وهم غير مؤمنين،

وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتبا على كذبهم مع أنهم كفرة، والكفر أكبر معصية من الكذب، للإشعار بقبح الكذب، وللتنفير منه بأبلغ وجه، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخستين، الكفر الذى توعد الله مرتكبه بالعذاب العظيم، والكذب الذى توعد الله مقترفه بالعقاب الأليم.

وعبر بقوله: ﴿كانوا يكذبون﴾ لإفادة تجدد الكذب وحدوثه منهم حينًا بعد حين، وأن هذه الصفة هى أخص صفاتهم، وأبرز جرائمهم،

ثم وصفهم الله - تعالى - بعد ذلك بجملة من الرذائل والقبائح مضافة إلى قبائحهم السابقة فقال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الفساد : خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة، وعن كونه منتفعًا به، وضده الصلاح، يقال : فسد الشيء فسادًا، وأفسده إفسادًا.

والمراد به هنا كفرهم، ومعاصيهم، ومن كفر بالله وانتهك محارمه فقد أفسد فى الأرض، لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة.

ومن أبرز معاصى هؤلاء المنافقين، ما كانوا يدعون إليه فى السر من تكذيب الرسول ﷺ وإلقاء الشبه فى طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وسلك القرآن هذا الأسلوب فقال : ﴿وإذا قيل لهم﴾ بالبناء للمفعول دون أن يسند الفعل إلى فاعله،لأن مصدر القول المعبر عن النهى عن الإفساد ليس مصدرًا واحدًا، فقد يصل آذانهم هذا النهى مرة من صريح القول. وأخرى مما كانوا يقابلون به من ناحية الرسول ﷺ وأصحابه من تجهم وإعراض.

وعلق بالفعل الذى هو الإفساد قوله : ﴿فى الأرض﴾ إيذانًا بأن الإفساد مهما ضاقت حدوده، فإنه لابد يومًا أن يتعدى الحدود إلى ما وراء ذلك فقد يعم ويشمل إذا لم يشتد فى الاحتياط له، لذلك جعل ظرف إفسادهم الأرض كلها مع أنهم موجودون فى بقعة محصورة هى المدينة المنورة.

ولقد حكى القرآن جوابهم على نصيحة الناصحين وما فيه من تبجح وادعاء فقال :

﴿قالوا : إنما نحن مصلحون﴾.

فقد بالغوا فى الرد فحصروا أنفسهم أولا فى الإصلاح مبالغة المفجوع الذى أذهلته المفاجأة بكشف أستار حقيقته، فتراهم لم يقتصروا على أن يقولوا : ﴿إنا مصلحون﴾ بل قالوا «إنما». ثم أكدوا الجملة بكونها اسمية ليدلوا بذلك على أن شأنهم فى الإصلاح ثابت لازم.

قال الراغب : صوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما فى قلوبهم من المرض، كما فى قوله - تعالى - ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾. وقوله : ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾. وقوله : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾.

ولقد كذبهم الله - تعالى - تكذيبًا مؤكدًا فى دعواهم أنهم مصلحون فقال :

﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾.

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وضع فى الرد عليهم جملة صدرها بأداة الاستفتاح إيذانًا بأن

ما قالوه يجب أن يهمل إهمالا، بل يجب أن يكون وصفهم بالإفساد قضية مبتدأة مقررة حتى يتلقاها السامع وهو منتبه النفس، حاصر الذهن.

ثم أكد الجملة بعدة تأكيدات منها: وصل «ألا» «بإن» الدالة على تأكيد الخبر وتحقيقه، ومنها تأكيد الضمير بضمير منفصل حتى يتم التصاق الخبر بالمبتدأ، ومنها اسمية الجملة، ومنها إفادة قصرهم على الإفساد فى مقابل تأكيدهم أنهم هم المصلحون.

ولما كان هذا الرد المؤكد عليهم يستدعى عجبًا، لأنهم زعموا أنهم لا حال لهم إلا الاصلاح، مع أنهم فى الحقيقة لا حال لهم إلا الإفساد، لما كان الأمر كذلك، فقد أزال القرآن هذا العجب بقوله:

﴿ولكن لا يشعرون﴾.

أى: أنهم ما قالوه إلا عن غباء استولى على إحساسهم، ونفى عنهم الشعور بما يصدر عنهم من الفساد، فأمسوا لا يدركون من شأن أنفسهم شيئًا، ومن أسوأ ألوان الجهل أن يكون الإنسان مفسدًا ولا يشعر بذلك، مع أن أثر فساده ظاهر فى العيان، مرئى لكل ذى حس. فعدم شعورهم بالفساد الواقع منهم منبئ باختلاف آلات إدراكهم، حتى صاروا يحسبون الفساد صلاحا، والشر خيرًا.

وليس عدم شعورهم رافعًا العقاب عنهم، لأن الجاهل لا يعذر بجهله خصوصًا إذا كان جهله يزول بأدنى تأمل لوضوح الأدلة، وسطوع البراهين.

ثم بين القرآن أن الناصحين قد أمروهم بالمعروف بعد أن نهوهم عن المنكر فقال:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾.

المراد من الناس: المؤمنون بالرسول ﷺ الصادقون فى إيمانهم

السفهاء: جمع سفيه، وأصل السفه: الخفة والرقة والتحرك والاضطراب يقال: ثوب سفيه، إذا كان ردىء النسج خفيفه، أو كان باليا رقيقًا. وتسفهت الريح الشجر. أى: مالت به. وزمام سفيه: كثير الاضطراب، لمنازعة الناقة إياه، وشاع فى خفة العقل وضعف الرأى. وهو المعنى المقصود بالسفهاء فى الآية. فقد كان المنافقون يصفون المسلمين بذلك فيما بينهم. وروى أنهم كانوا يقولون: أنؤمن كما آمن سفيه بنى فلان، وسفيه بنى فلان؟! فأوحى الله للنبى ﷺ بهذا الذى كانوا يقولونه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم وصفوهم بالسفه وهم العقلاء المراجيح؟ قلت لأن المنافقين لجهلهم وإخلالهم بالنظر، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق، وأن ما عداه باطل، ومن

ركب متن الباطل كان سفيهًا، ولأنهم كانوا فى رياسة من قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب، فدعوهم سفهاء تحقيرًا لشأنهم[(١)] ا هـ ملخصا.

وقد رد الله عليهم بما يكبتهم ويفضحهم فقال:

﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ لأنهم أعرضوا عن النظر فى الدليل وباعوا آخرتهم بدنياهم، وهذا أقصى ما يبلغه الإنسان من سفه العقل.

وقد تضمن هذا الرد تسفيههم وتكذيبهم فى دعوى سفه الصادقين فى إيمانهم، فإن قوله - تعالى - ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ يفيد أن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين، وقد تضمنت هذه الجملة من المؤكدات ما تضمنته الجملة السابقة فى قوله - تعالى - ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾.

وإنما قال فى الآية السابقة «ولكن لا يشعرون» وقال فى هذه الآية ﴿ولكن لا يعلمون﴾ لأن الآية السابقة وصفتهم بالإفساد، وهو من المحسوسات التى تدرك بأدنى نظر فيناسبه نفى الشعور الذى هو الإدراك بالمشاعر: الحواس، أما هذه الآية فقد وصفتهم بالسفه، وهو ضعف الرأى والجهل بالأمور، وهذا لا يدركه الشخص فى نفسه إلا بعد نظر وإمعان فكر. فيناسبه نفى العلم.

ثم بين القرآن ماهم عليه من سلوك ذميم، وأنهم يقابلون الناس بوجوه مختلفة فقال:

وَإِذَا لَقُوا
الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ
بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ يقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته وصادفته وكان قريبًا منك. والمصدر

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٤.

اللقاء واللقِي واللقية. والمقصود: استقبلوهم وكانوا فى مواجهتهم وقريبا منهم. ومرادهم بقولهم «آمنا» أخلصنا الإيمان بقلوبنا لأن الإقرار باللسان معلوم منهم.

وإذا خلوا إلى شياطينهم، أى: انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين الشياطين فى تمردهم وعنوهم وصدهم عن سبيل الحق. يقال: خلابه وإليه ومعه، خلوا وخلاء وخلوة: سأله أن يجتمع به فى خلوة ففعل وأخلاه معه.

أو المعنى: وإذا مضوا وذهبوا إلى شياطينهم، يقال: خلا بمعنى مضى وذهب، ومنه قوله تعالى ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾. أى مضت.

وعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملاقاة، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة إيذانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين، ولا طمأنينة منهم إليهم فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم فى عرض طريق، أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون، وإليهم يتسامرون ويتحادثون، لذلك هم بهم يخلون.

والمعية فى قولهم ﴿إنا معكم﴾، المراد منها موافقتهم فى دينهم، وأكدوا ما خاطبوا به شياطينهم بحرف التأكيد، إذ قالوا ﴿إنا معكم﴾ ليزيلوا ما قد يجرى فى خراطرهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام بقلوبهم

ولم يؤكدوا ماخاطبوا به المؤمنين، إذ قالوا لهم ﴿آمنا﴾ ولم يقولوا «إنا آمنا» ليوهموهم أنهم بمرتبة لاينبغى أن يترددوا فى إيمانهم حتى يحتاجوا إلى تأكيد.

وقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾. وارد مورد الجواب عما قد يعترض به عليهم شياطينهم إذا قالوا لهم: كيف تدعون أنكم معنا مع أنكم توافقون المؤمنين فى عقيدتهم وتشاركونهم فى مظاهر دينهم؟

فكان جوابهم عليهم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ والاستهزاء: السخرية والاستخفاف بالغير، يقال: هزأ منه وبه - كمنع وسمع - واستهزأ به، أى: سخر.

والمعنى: إننا نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافًا بهم وسخرية منهم، لا أن ذلك صادر منا عن صدق وإخلاص.

ثم بين - سبحانه - موقفه منهم فقال: ﴿الله يستهزئ بهم﴾.

حمل بعض العلماء استهزاء الله بهم على الحقيقة وإن لم يكن من أسمائه المستهزئ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يتعجب منه، وهذا المعنى غير مستحيل على الله، فيصح إسناده إليه - تعالى - على وجه الحقيقة.

ويرى جمهور العلماء أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبيس كأن يظهر المستهزئ استحسان الشيء وهو فى الواقع غير حسن، أو يقر المستهزأ به على أمر غير صواب، وهذا المعنى لا يليق بجلال الله، فيجب حمل الاستهزاء المسند إليه تعالى على معنى يليق بجلاله، فيحمل على ما يلزم على الاستهزاء من الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاكلة[1] كما فى قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

وهذا دليل على غيرة الله على عباده المؤمنين، وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم.

وعبر بالمضارع فى قوله ﴿يستهزئ﴾ للإيذان بأن احتقاره لهم، أو مجازاتهم على استهزائهم يتجدد ويقع المرة بعد الأخرى:

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان غضبه عليهم فقال: ﴿ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾.

المد: الإمهال والمطاولة والزيادة، من المد بمعنى الإمهال، يقال: مده فى غيه - من باب رد - أمهله وطول له، ويقال: مد الجيش وأمده إذا ألحق به ما يقويه ويكثره ويزيده، وقيل: أكثر ما يستعمل المد فى المكروه، والإمداد فى المحبوب، والطغيان: مجاوزة الحد، ومنه طغا الماء، أى: ارتفع.

ويعمهون: يعمون عن الرشد، أو يتحيرون ويترددون بين الإظهار والإخفاء، أو بين البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان. يقال: عمه - كفرح ومنع - عمها، إذا تردد وتحير، فهو عمه وعامه، وهم عمهون وعمه كركع والمعنى: أن الله تعالى يجازى هؤلاء المنافقين على استهزائهم وخداعهم، ويمكنهم من المعاصى أو يملى لهم ليزدادوا إثما. حال كونهم يعمون عن الرشد، فلا يبصرون الحق حقا ولا الباطل باطلا.

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غبائهم وبلادتهم فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾.

الاشتراء: أخذ السلعة بالثمن. والمراد: أنهم استبدلوا ماكره الله من الضلالة بما أحبه من الهدى قال ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

والمشار إليه بـ «أولئك» هم المنافقون: الموصوفون فى الآيات السابقة بالكذب والمخادعة، والإفساد فى الأرض، ورمى المؤمنين بالسفاهة واستهزائهم بهم.

والسر فى الإشارة اليهم والتعبير عنهم بأولئك تمييزهم وتوضيحهم بأكمل صورة وأجلى بيان.

---

(١) قال السكاكى: المشاكلة: أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته اهـ مفتاح العلوم ص ٢٢٥.

إذ من المعروف عند علماء البلاغة أن اسم الإشارة إذا أشير به إلى أشخاص وصفوا بصفات يلاحظ فيه تلك الصفات، فهو بمنزلة إعادة ذكرها وإحضارها فى أذهان المخاطبين. فتكون تلك الصفات، وهى هنا الكذب والمخادعة وما عطف عليها، كأنها ذكرت فى هذه الآية مرة أخرى ليعرف بها علة الحكم الوارد بعد اسم الإشارة، وهو هنا اشتراء الضلالة بالهدى. أى: اختيارها. واستبدالها به.

وعبرت الآية بالاشتراء على سبيل الاستعارة ليتحدد مقدار رغبتهم فى الضلالة، وزهدهم فى الهدى، فإن المشترى فى العادة يكون شديد الرغبة فيما يشترى، رغبة تجعله شديد الزهد فيما يبذله من ثمن. فهم راغبون فى الضلالة، زاهدون فى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ لا يقتضى أنهم كانوا على هدى من ربهم فتركوه، بل يكفى فيه أن يجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدلته. بمنزلة الهدى الحاصل بالفعل.

ثم بين سبحانه نتيجة أخذهم الضلالة وتركهم الهدى فقال:

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أى: أنهم لم يحصلوا من اشترائهم الضلالة بالهدى على الربح، وإذا كانت التجارة الحقيقية قد يفوت صاحبها الربح، ولكنه لا يقع فى خسارة بأن يبقى له رأس ماله محفوظًا، فإن التجارة المقصودة من الآية هى استبدال الضلالة بالهدى، لا يقابل الربح فيها إلا الخسران، فإذا نفى عنها الربح فذلك يعنى أنها تجارة خاسرة.

ثم قال - تعالى -: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أى: وما كانوا مهتدين إلى سبيل الرشاد وما تتجه إليه العقول الراجحة من الدين الحق، وما كانوا مهتدين إلى طرق التجارة الرابحة، فهم أولا لم يربحوا فى تجارتهم بل خسروها، وهم ثانيًا ذهب نور الهدى من حولهم فبقوا فى ظلمة الضلال.

وما أوجع أن يجتمع على التاجر خسارته وتورطه، وما أوجع أن يجتمع عليه أن ينقطع عن غايته، وأن يكون فى ظلمة تعوقه عن التبصر.

وبعد أن وصف الله تعالى حال المنافقين فى الآيات السابقة، ساق مثلين لتوضيح سوء تصرفهم، وشدة حيرتهم واضطرابهم. فقال تعالى:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ

ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿مثلهم﴾ أى: صفتهم، وأصل المثل بمعنى المثل - بكسر الميم وسكون الثاء - والمثل النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شان عجيب وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية،

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب المعقول من المحسوس، وعرض الغائب فى صورة الشاهد، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب، وأثبت فى النفوس.

واستوقد النار: طلب وقودها بسطوع نارها واندلاع لهيبها، أو أوقدها لأن أوقد واستوقد قد يكونان بمعنى واحد كأجاب واستجاب.

والنار: جوهر لطيف حار محرق من نار ينور إذا نفر لحركتها واضطرابها، وأضاءت ما حوله: جعلت ما حوله مضيئًا، أو أشرقت فيما حوله. وحول الشيء: ما يحيط به من جميع نواحيه، ولذا قيل للعام حول، للفه ودورانه حتى يعود كما كان.

والنور: الضوء الذى يكون للشيء المضيء، وهو مأخوذ من النار..

ومعنى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ سلبه منهم، وفى إسناد ذهب إلى الله تعالى - إشعار بأن النور الذى سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم، لأن الذى سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره.

وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بنارهم، لأن إيقاد النار يكون للإضاءة وللإحراق والمقصود من إيقاد النار الواردة فى المثل إنما هو الإضاءة.

وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بنوره، مع أن الضمير يعود على ﴿الذى استوقد﴾ وهو بحسب

الظاهر مفرد، لأن ﴿الذى﴾ قد يطلق أحيانا بمعنى الذين، كما فى قوله تعالى : ﴿وخضتم كالذى خاضوا﴾ أو لأن ﴿الذى﴾ أريد منه جنس المستوقد، لا مستوقد بعينه، فصار فى معنى جماعة من المستوقدين. وصح أن يعود عليه ضمير الجمع فى قوله ﴿بنورهم﴾ لذلك.

وأورد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة فى شدتها، فكأنها لشدة كثافتها ظلمات بعضها فوق بعض، وأكد هذا بقوله ﴿لا يبصرون﴾ أى : أن هذه الظلمات بالغة فى الشدة حتى أولئك المحاطين بها لا يتأتى لهم أن يبصروا، كما أن الشان كذلك بالنسبة للذين طمس على أعينهم.

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿وتركهم﴾ ولم يقل : ذهب بنورهم وبقوا فى ظلمات، ليدل بذلك على قطع الصلة بينهم وبين ربهم، وأنهم متروكون غضبًا عليهم ونكاية بهم.

هذا، وللعلماء رأيان فى تطبيق هذا المثل على المنافقين، أما الرأى الأول فيرى أصحابه، أن هذا المثل قد ضرب فى قوم دخلوا فى الإسلام عند وصول النبى ﷺ إلى المدينة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق فيقال فى تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بإيمانهم نورًا، ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم، ووقعوا فى حيرة عظيمة، كقصة من استوقدوا نارًا؛ فلما أضاءت ما حولهم، سلب الله منهم الضوء فراحوا فى ظلام لا يهتدون إلى الخروج منه سبيلا.

وأما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن هذا المثل إنما ضرب فى قوم لم يسبق لهم إيمان وإنما دخلوا فى الإسلام من أول أمرهم نفاقًا، فيقال فى تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام نفاقًا، فظفروا بحقن دمائهم وبغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين، وتمتعوا بذلك فى الدنيا قليلا ثم صاروا إلى ظلمات العذاب الدائم فى الآخرة - قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا نارا لتضىء لهم وينتفعوا بها، فأضاءت ما حولهم قليلا، ثم طفئت وصاروا إلى ظلمة شديدة مطبقة.

ثم قال - تعالى - : ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾.

قال القرطبى : والصمم فى كلام العرب : الانسداد، يقال : قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة إذا سددتها. فالأصم من انسدت خروق مسامعه. والأبكم الذى لا ينطق ولا يفهم، والعمى ذهاب البصر. وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة ما[1].

والآية الكريمة خبر لضمير مقدر يعود على المنافقين، أى : هم صم بكم عمى.

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢١٤.

ووصف المنافقون بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع، وألسنة تنطق، وأعين تبصر، إلا أنهم لا يسمعون خيرًا. ولا يتكلمون بما ينفعهم ولا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية، ومن كان كذلك كان هو ومن فقد حواسه سواء، فقد صرف الله عنهم عنايته ووكلهم إلى أنفسهم.

ووردت هذه الصفات مجردة من حرف العطف، فلم يقل: صم وبكم وعمى، لما عرف من استعمالات البلغاء. أن تجريد أمثال هذه الأوصاف من حرف العطف يفيد تأكيدها، حيث إن المتكلم قد قصد إلى تقرير كل صفة منها على حدة.

ومعنى ﴿فهم لا يرجعون﴾، لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها.

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فهم﴾ للتفريع أو التسبيب، لأنها توحى بأن عدم رجوعهم عما هم فيه من النفاق متفرع على تلك الآفات، ومسبب عن هذه العاهات.

ثم ساق - سبحانه - المثل الثانى فقال: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. «أو» للتسوية بين الشيئين وهى مفيدة أن التمثيل بأيهما أو بمجموعهما يؤدى إلى المقصود، فهى مانعة خلو مجوزة للجمع بينهما.

و (الصيب) - كسيد - المطر، من الصوب وهو النزول. يقال: صاب صوبًا، إذا نزل أو انحدر، سمى به المطر لنزوله، وفى الجملة الكريمة إيجاز بحذف ما دل عليه المقام دلالة واضحة. والتقدير: أو كمثل ذوى صيب. والمعنى أن قصة هؤلاء المنافقين مشبهة بقصة الذى استوقد نارًا، أو بقصة ذوى صيب.

والسماء: كل ماعلاك من سقف ونحوه، والمراد بها السحاب.

والرعد: الصوت الذى يسمع بسبب اصطدام سحابتين محملتين بشحنتين كهربيتين أحداهما موجبة والأخرى سالبة.

والبرق: هو الضوء الذى يحدث بسبب الاصطدام ذاته.

وإيراد هذه الألفاظ بصفة التنكير للتهويل، ويكون المعنى: أو أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل قوم نزل بهم المطر من السماء تصحبه ظلمات كأنها سواد الليل، ورعد يصم الآذان، وبرق يخطف الأبصار؛ وصواعق تحرق ما تصيبه.

ثم قال - تعالى -: ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾.

الصواعق : جمع صاعقة من الصعق وهو شدة الصوت الذى يصحبه - غالبًا - قطعة من نار لا تأتى على شىء إلا أهلكته.

(ومن) فى قوله - تعالى - : ﴿ من الصواعق﴾ للتعليل. وإنما كانت الصواعق داعية إلى سدهم آذانهم بأصابعهم، من جهة أنها قد تفضى بصوتها الهائل إلى الموت، وجاء هذا مصرحًا به فى قوله - تعالى - ﴿حذر الموت﴾.

والمعنى : يسدون آذانهم من أجل الصواعق خوفًا من أن تقتلهم بشدة صوتها.

ومن المعروف أن الذى يجعل فى الآذان عند الفَزع بعض الأصابع لا كلها، إلا أنه عبر بالأصابع مبالغة فى فرط فزعهم وشدة اضطرابهم، ومسايرة للمألوف فى اللغة من نسبة ما يكون لبعض الشىء إلى ذلك الشىء، حيث يكون المراد جليًا واضحًا. وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض.

وقوله : ﴿حذر الموت﴾ يدل على أنهم لم يموتوا من تلك المفزعات وهذه المروعات. إمدادا فى عذابهم. ومطاولة فى نكالهم.

وقوله - تعالى - : ﴿والله محيط بالكافرين﴾ جملة معترضة فى أثناء ضرب المثل بذوى الصيب.

وإحاطته - سبحانه - بالكافرين على معنى أنهم لا مهرب لهم منه، فهو محيط بهم إحاطة تامة وهو قادر على النكال بهم متى شاء وكيف شاء.

ولم يقل محيط بهم مع تقدم مرجع الضمير وهو أصحاب الصيب، إيذانًا بأنهم إنما استحقوا ذلك العذاب بكفرهم.

ثم قال - تعالى - : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾.

يكاد من الأفعال التى تدخل على اسم يسند اليه فعل بعده نحو ﴿البرق يخطف﴾. فتدل على أن المسند إليه وهو البرق قد قارب أن يقع منه الفعل وهو خطف الأبصار.

والخطف : الأخذ بسرعة. والأبصار : جمع بصر، وهو قوة مودعة فى العين يدرك بها الألوان والأشكال.

والمعنى : أن البرق لشدة لمعانه يقرب من أن يخطف أبصارها، وهو تصوير بليغ لشدة ذلك البرق، وترك بيان شدة الرعد اكتفاء بما ذكره فى جانب البرق، ولم يذكر توقيهم للأعين بوضع شىء عليها اكتفاء بما ذكره فى توقى الآذان أو لأنهم شغلوا بالآذان عن الأعين.

وقوله - تعالى - : ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ وصف رائع لما يصنعه

أهل الصيب فى حالتى ظهور البرق واختفائه.

وكل ظرف، وما مصدرية ولا تصالها بكل أفادت الشرط والعامل فيها هو جوابها وهو ﴿مشوا﴾ و﴿أضاء﴾ بمعنى لمع، و﴿أظلم﴾ من الإظلام وهو اختفاء النور. و﴿قاموا﴾ أى وقفوا وثبتوا فى مكانهم. من قام الماء إذا جمد. ويقال: قامت الدابة إذا وقفت.

والمعنى: أنهم إذا صادفوا من البرق وميضًا انتهزوا ذلك الوميض فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفى لمعانه وقفوا فى مكانهم، فالجملة الكريمة تدل على فرط حرصهم على النجاة من شدة ما هم فيه من أهوال

ثم قال - تعالى -: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾.

لو: أداة شرط، وشاء بمعنى أراد. أى: لو أراد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لزاد فى قصف الرعد فأصمهم، وفى ضوء البرق فاعماهم. أو يقال: إن قصف الرعد ولمعان البرق المذكورين فى المثل سببان كافيان لأن يذهبا بسمع ذوى الصيب وأبصارهم لو شاء الله ذلك. فيكون قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب﴾، إشعارًا بأن تأثير الأسباب فى مسبباتها إنما هو بإرادته - تعالى -.

وخص السمع والبصر بالذهاب مع أنها من جملة مشاعرهم، لأهميتها. ولأنها هى التى سبق ذكرها، أو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان قادرًا على إذهاب ما حافظوا عليه، كان قادرًا على غيره من باب أولى.

ثم ختم الآية بقوله - تعالى - ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾.

الشىء فى أصل اللغة كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، ويحمل فى هذه الآية على الممكن خاصة موجودًا كأن أو معدومًا، لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات دون الواجب والمستحيل.

والقدير: الفعال لما يريد، يقال: قدره على الشىء أقدره قدرة وقدرًا.

وهذه الجملة الكريمة بمنزلة الاستدلال على ما تضمنته الجملة السابقة من أن الله تعالى قادر على أن يذهب بأسماع أصحاب الصيب وأبصارهم متى شاء.

وتطبيق هذا المثل على المنافقين يقال فيه: إن أصحاب الصيب لضعفهم وخورهم لا يطيقون سماع الرعد الهائل، ولا يستطيعون فتح أعينهم فى البرق اللامع، فيجعلون أصابعهم فى آذانهم فزعًا من قصف الرعد، وخوفا من صواعق تجلجل فوق رءوسهم فتدعهم حصيدًا خامدين، وكذلك حال هؤلاء المنافقين فإنهم لضعف بصائرهم، وانطماس عقولهم، تشتد عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه، فتشمئز قلوبهم ويصرفون عنه أسماعهم

خشية أن تتلى عليهم آيات تقع على أسماعهم وقع الصواعق المهلكة.

قال ابن كثير: «وذهب ابن جرير ومن تبعه من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون «أو» فى قوله تعالى ﴿أو كصيب﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى «ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا» أو تكون للتخيير، أى، اضرب لهم مثلا بهذا وإن شئت بهذا، أو للتساوى مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين. قلت: وهذا يكون باعتبار أجناس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة بقوله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى﴾. ﴿ومنهم من عاهد الله﴾. ﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات﴾. الخ. فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم[1]. »

هذا، ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز. أن المثلين لطائفتى الكافرين والمنافقين، فالمثل الأول وهو قوله تعالى «مثلهم كمثل الذين استوقد نارًا» ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التى ذكرها الله للكافرين وأن الذى ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثانى وحده وهو قوله تعالى ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..﴾ فقد ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلا يناسبها.

قال فضيلته: فضرب مثلا للمصرّين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون فى ظلام الليل فيهم رجل استوقد لهم نارًا يهتدون بضوئها، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة، فذلك مثل النور الذى طلع به محمد ﷺ فى تلك الأمة على فترة من الرسل، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش فى ظلام الجاهلية، فلم يرفعوا له رأسا بل نكسوا على رؤسهم، ولم يفتحوا له عينًا بل خروا عليه صما وعميانا.

وضرب مثلا للمترددين المخادعين بقوم جامتهم السماء بغيث منهمر فى ليلة ذات رعد وبرق، فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ولم ينالوا منه نيلا، فلا شربوا منه قطرة، ولا استنبتوا به ثمرة.. وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هى مثار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم، ولذلك جعلوا يترصدونها، ويدبرون أمورهم على وفقها، لابسين لكل حال لبوسها: سيرًا تارة، ووقوفًا تارة، واختفاء تارة أخرى.

فكانوا إذا رأوا عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا وبرقت لهم (بروق) الأمل فى الغنيمة ساروا مع

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٦.

المؤمنين جنبًا إلى جنب، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت ﴿صواعقها﴾ منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين «إن بيوتنا عورة» حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة، بل اشتبهت عليهم الأمور فهناك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾.

ذلك دأب المنافقين فى كل أمرهم، إن توقعوا ربحًا عاجلا التمسوه فى أى صف وجدوه، وإن توقعوا أذى كذلك تنكروا للفئة التى ينالهم فى سبيلها شيء مكروه؛ وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيدًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبلة واحدة يولى وجهه شطرها، هى قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم:

وليس يبالى حين يقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعه[1]

هذا هو رأى فضيلة الدكتور دراز، وهو رأى مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة، وأياما كان فالمثلان يصوران أحوال المبطلين بصورة حسية واضحة تتجلى فيها بلاغة القرآن الكريم فى إبراز المعانى المعقولة فى صورة محسة واضحة من شأنها أن تهدى الناس إلى طريق الحق والرشاد.

وبعد أن بينت السورة الكريمة أقسام الناس الثلاثة، وعاقبة كل قسم منهم، ساقت لهم نداء عامًا دعتهم فيه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) من كتاب النبأ العظيم ص ١٦٤ لفضيلة المرحوم الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.

ففى هاتين الآيتين توجيه للناس إلى الأمر الذى خلقوا من أجله وهو عبادة الله دون ما سواه، وبيان البراهين الساطعة التى تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته.

و «يا» حرف نداء وهو أكثر حروف النداء استعمالا، فهو أصل حروف النداء.

و «أى» اسم مبهم لكن يزول إبهامه بالاسم المقصود بالنداء الذى يأتى بعده.

و «ها» المتصلة به مؤكدة للتنبيه المستفاد من النداء.

و «العبادة» الخضوع البالغ الغاية.

وقد كثر النداء فى القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيها من التأكيد الذى كثيرًا ما يقتضيه المقام.

وفى ذكره تعالى باسم الرب، وإضافته إلى المخاطبين، تقوية لداعية إقبالهم على عبادته.

فإن الإنسان إذا اتجه بفكره إلى معنى كون الله مالكا له، أو مربيًا له وتذكر ما يحفه به من رفق، وما يجود به عليه من إنعام، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخضوع والخشوع والإجلال.

وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع الناس إلا الله.

ثم بين - سبحانه - الموجبات التى من شأنها أن تحملهم على عبادته وحده فقال «الذى خلقكم والذين من قبلكم».

والخلق : أصله الإيجاد على تقدير وتسوية، ويطلق فى القرآن وفى عرف الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة، فهو إخراجها من العدم إلى الوجود إخراجًا لا صنعة فيه للبشر.

والمعنى : اجعلوا أيها الناس عبادتكم لله تعالى وحده، لأنه هو الذى أوجدكم فى أحسن تقويم بعد أن كنتم فى عدم، كما أوجد الذين تقدموكم.

وقدم وصفه بخلق المخاطبين مع أنه متأخر بالزمان عن خلق من تقدموهم، لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره.

وقوله تعالى : ﴿والذين من قبلكم﴾ فيه رد على الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آباؤهم فقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

فكان قوله : ﴿والذين من قبلكم﴾ تذكيرا لهم بأن آباءهم الأولين لابد أن ينتهوا إلى أب أول قد خلقه الله تعالى.

وجملة «لعلكم تتقون» تعليل للأمر بالعبادة، ولذلك فصلت.

و «لعل» حرف موضوع ليدل على الترجى، وهو توقع حصول الشىء عندما يحصل سببه وتنتفى موانعه. والشىء المتوقع حصوله فى الآية هو التقوى وسببه العبادة، إذ بالعبادة يستعد الإنسان لأن يبلغ درجة التقوى وهى الفوز بالهدى والفلاح، والترجى قد يكون من جهة المتكلم وهو الشائع وقد تستعمل لعل فى الكلام على أن يكون الترجى مصروفًا للمخاطب، فيكون المترجى هو المخاطب لا المتكلم، وعلى هذا الوجه يحمل الترجى فى هذه الآية، لاستحالة توقع حصول الشىء من عالم الغيب والشهادة، لأن توقع الإنسان لحصول الشىء هو أن يكون مترددًا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الوقوع، وعليه فيكون المعنى: اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين، الذين بلغوا الغاية فى الهدى والفلاح.

ثم أضاف - سبحانه - أسبابًا أخرى تحمل الناس على عبادته وطاعته فقال: ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾.

الفراش: ما يفترشه الإنسان ليستقر عليه بنحو الجلوس أو المنام. أى: اجعلوا عبادتكم لله الذى صير الأرض لأجلكم مهادًا كالبساط المفروش، فذللها لكم ولم يجعلها صعبة غليظة، لكى يتهيأ لكم الاستقرار عليها. والتقلب فى مناكبها، والانتفاع بما أودع الله فى باطنها من خيرات.

وتصوير الأرض بصورة الفراش لا ينافى كونها كروية، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الانتفاع بها.

﴿والسماء بناء﴾ يقال لسقف البيت بناء أى: جعل السماء كالسقف للأرض، لأنها تظهر كالقبة المضروبة فوقها كما قال - تعالى - ﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا وهم عن آياتها معرضون﴾.

وقدم خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب إلى المخاطبين، وانتفاعهم بها أظهر وأكثر من انتفاعهم بالسماء.

قال بعض الأدباء: «إذا تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيأة لمنافعه، وضروب الحياة مصروفة لمصالحه «فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل، وتقدير شامل، وحكمة بالغة، وقدرة غير متناهية».

ثم قال - تعالى - ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم﴾ :

السماء : السحاب. والثمرات : ما ينتجه الشجر. والرزق : ما يصلح لأن ينتفع به. والباء فى . (به) للسببية.

أى : أنه جعل الماء سببًا فى خروج الثمرة، وهو القادر على أن ينشئها بلا سبب كما أنشأ الأسباب.

وأورد ﴿ماء﴾ و ﴿رزقًا﴾ فى صيغة التنكير التى تستعمل عند إرادة بعض أفراد المعنى الذى وضع له اللفظ لغة، وذلك لأن من الماء ما لم ينزل من السماء، ومن الرزق ما لا يكون من الثمرات. فمعنى الجملة الكريمة : أنزل من السماء بعض الماء، فأخرج به من الثمرات بعض ما يكون رزقًا لكم.

ثم قال - تعالى - ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾.

الأنداد : جمع ند، وهو مثل الشيء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه.

وأصله من : ند البعير يند ندا ونداداً وندًا، إذا تفرد وذهب على وجهه شاردًا.

والمعنى : فلا تجعلوا لله أمثالا ونظراء تعبدونها وتسمونها آلهة، وتعتقدون فيها النفع والضر، وتجعلون لها ما لله تعالى وحده، وأنتم تعلمون أنها أشياء لا يصح جعلها أندادًا مساوية له تعالى ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى : وأنتم من ذوى العلم والنظر، فلو تأملتم أدنى تأمل لانصرفتم بقوة إلى عبادة الله وحده. ولتركتم الإشراك به.

وصدرت الجملة الكريمة بالفاء لترتبها على الكلام السابق، المترتب على الأمر بعبادة الله وحده.

وسمى القرآن الشركاء المزعومين أندادًا تهكمًا بالعابدين لها، ولأن المشركين لما تركوا عبادة الله إلى عبادة الأوثان، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة، قادرة على مخالفته ومضادته، وذلك معنى جعلها أندادًا الذى هو مصب النهى فى الآية.

وجملة (وأنتم تعلمون)، حالية، ومفعول تعلمون متروك، لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول، بل قصد إثباته لفاعله فقط فنزل منزلة اللازم، وفى هذه الجملة مبالغة فى زجرهم عن عبادة الأوثان من دون الله، لأن ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح، وهو من العالم ببطلانه أشد قبحًا، وأدعى إلى أن يقابل بأغلظ ألوان الإنكار. كما أن فيها إثارة لهممهم ليقلعوا عن عبادة غير الله، فإن من كان من ذوى العلم لا يصح منه أن يفعل أفعال من لا عقل له، وهذا لون جليل من ألوان التربية، فإن من سمات المربى الناجح أن يجمع بين القسوة فى النهى عن القبيح، وبين إثارة همة الموعوظ حتى لا يقتل همته باليأس، لأن الإنسان إذا ساءت ظنونه بنفسه

خارت عزيمته، وفترت همته.

هذا، وقد استفاضت الأحاديث النبوية التى تدعو إلى توحيد الله، وتنهى عن الإشراك، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله؟ (قال أن تجعل لله ندًا وهو خلقك).

قال الإمام ابن كثير: وهذه الآية دالة على توحيده - تعالى - بالعبادة وحده لا شريك له، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الله - تعالى -؟ فقال: يا سبحان الله!! إن البعر ليدل على البعير؛ وإن أثر القدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل هذا على وجود اللطيف الخبير(١).

وبعد أن ساق - سبحانه - فى هاتين الآيتين البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله؛ ونفى عقيدة الشرك، أورد بعد ذلك الدلائل الدالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن ليس من صنع بشر، وإنما هو كلام واهب القوى والقدر فقال - تعالى -:

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ففى هاتين الآيتين انتقال لإثبات الجزء الثانى من جزأى الإيمان، وهو صدق النبى - ﷺ - فى رسالته، بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك وهو وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته.

والمعنى: إن رتبتم أيها المشركون فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدريج، فأتوا أنتم بسورة من مثله فى سمو الرتبة، وعلو الطبقة واستعينوا على ذلك بآلهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون، ليساعدوكم فى مهمتكم، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن الكريم.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٨.

والمقصود بقوله : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا. . .﴾ نفى الريب عن المنزل عليه - وهو محمد ﷺ - بنفيه عن المنزل وهو القرآن الكريم.

والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب فى شأنه، أو للتنبيه على أن كلامهم فى شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله - تعالى -.

وعبر بقوله : ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ ولم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا، للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك، وأنه إن أثير حوله أى شك فمرجعه إلى انطماس بصيرتهم، وضعف تفكيرهم، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم.

وأتى بإن المفيدة للشك مع أن كونهم فى ريب مما نزل على النبى ﷺ أمر محقق، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيهًا لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد، وتوبيخًا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها.

ووجه الإتيان بفى الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

وقال ﴿نزلنا﴾ دون أنزلنا، لأن المراد النزول على سبيل التدريج، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما فى مدة تزيد على عشرين سنة.

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : لم قيل : (مما نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله، لم ينزل هكذا نجومًا سورة بعد سورة، وآيات عقب آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقًا حينًا فحينًا حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة. . . فقيل لهم : إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهاتوا نجما فردا من نجومه : سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفترقات، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل)(١) اهـ ملخصًا.

والمراد بالعبد فى قوله - تعالى - : ﴿على عبدنا﴾ محمد - ﷺ - وفى إضافته إلى الله - تعالى - تنبيه على شرف منزلته عنده، واختصاصه به.

وفى ذكره ﷺ باسم العبودية، تذكير لأمته بهذا المعنى، حتى لا يغالوا فى تعظيمه فيدعوا

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٩٧.

ألوهيته كما غالت بعض الفرق فى تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم.

والسورة: الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، والتى أقلها ثلاث آيات، والضمير فى قوله (من مثله) يعود على المنزل وهو القرآن.

والمراد من مثل القرآن: ما يشابهه فى حسن النظم، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى. وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق فى كل سورة.

وقيل: إن الضمير فى قوله (من مثله) يعود على المنزل عليه القرآن، وهو النبى - ﷺ - ولكن الرأى الأول أرجح.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: وعود الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه:

أحدها: أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى باب التحدى لاسيما ما ذكره فى سورة يونس من قوله: ﴿فأتوا بسورة مثله..﴾.

وثانيها: أن البحث إنما وقع فى المنزل وهو القرآن، لأنه قال: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا..﴾ فوجب صرف الضمير إليه، ألا ترى أن المعنى، وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم شيئا مما يماثله، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم فى أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا مثله.

وثالثها: أن الضمير لو كان عائدا إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء كانوا أميين أو عالمين، أما لو كان عائدا إلى محمد ﷺ فذلك لا يقتضى إلا كون آحادهم من الأميين عاجزين عنه، لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الأمى، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد، لأن الجماعة لا تماثل الواحد. والقارىء لا يكون مثل الأمى، ولا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى.

ورابعها: أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد ﷺ لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن مما لم يكن مثل محمد فى كونه أميا ممكن، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمى ومن غير الأمى ممتنع فكان هذا أولى)[1].

وقوله - تعالى -: ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ معطوف على قوله: ﴿فأتوا بسورة﴾.

وادعوا: من الدعاء، والمراد به هنا: طلب حضور المدعو أى: نادوهم.

وشهداءكم: أى: آلهتكم، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٢٢٢.

تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق. وقيل: الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو الناصر أو الإمام، وكأنه سمى به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضره الأمور.

ودون: بمعنى غير: وتطلق فى أصل اللغة على أدنى مكان من الشيء، ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أى: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت فى الرتب فقيل: زيد دون عمرو أى: فى الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد، وتخطى أمر إلى أمر.

قال الجمل: (والمعنى): وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله، فإنه لا يقدر على أن يأتى بمثله إلا الله..، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة[1]...).

وفى أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جماد، وفى تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنها لا تعقل ولا تنطق، فى كل ذلك أقوى ألوان التهكم، لكى يثير فى نفوسهم من الألم ما قد يكون سببًا لتنبيههم إلى جهلهم، وانصرافهم عن ضلالهم.

وقوله - تعالى -: ﴿إن كنتم صادقين﴾ جملة معترضة فى آخر الكلام وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره فى نظم الكلام مما ينزل به عن مرتبة البلاغة.

والمعنى: إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن فأتوا بسورة من مثله. وادعوا آلهتكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله فى حكمة معانيه وحسن بيانه.

وفى هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم، إذ عرض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها.

ثم قال - تعالى -: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾.

المعنى: فإن لم تفعلوا أى: تعارضوا القرآن، وتبين لكم أن أحدًا لا يستطيع معارضته، فخافوا العذاب الذى أعده الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة».

والوقود: ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه، والحجارة: الأصنام التى كانوا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣٨.

يعبدونها من دون الله كما قال - تعالى - : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾.

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون فى النار مبالغة فى إيلامهم وتحسيرهم والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس فى النار غيرهما بدليل ما ذكر فى مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جىء بـ «إذا» الذى للوجوب دون «ان» الذى للشك؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لا تكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام.

والثانى : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكمًا به(١).

وقال : فإن لم تفعلوا، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله، لأن قوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ جار مجرى الكناية التى تعطى اختصارًا ووجازة تغنى عن طول المكنى عنه، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال، تقول : أتيت فلانا. فيقال لك : نعم ما فعلت.

وجملة ﴿ولن تفعلوا﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء، جىء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته. فإن فى نفيها فى المستقبل بإطلاق تأكيدا لنفيها فى الحال.

قال الإمام الرازى : (فإن قيل : فما معنى اشتراطه فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار، فاتقاء النار يوجب ترك العناد، فأقيم المؤثر مقام الأثر، وجعل قوله : ﴿فاتقوا النار﴾ قائمًا مقام قوله فاتركوا العناد، وهذا هو الإيجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة، وفيه تهويل لشأن العناد، لإنابة اتقاء النار منابه متبعًا ذلك بتهويل صفة النار)(٢).

ومعنى ﴿أعدت للكافرين﴾ هيئت لهم، لأنهم الذين يخلدون فيها، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة للفاسقين - أيضا لأنه يريد بذلك نارًا مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال - تعالى - ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٠١.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٢٢٤.

وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب، إذ لم تقع المعارضة من أحد فى أيام النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو عليه حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددًا من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به، فكان معجزة)[1].

وقال بعض العلماء: (هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدى الكافرين بالتزيل الكريم). وقد تحداهم الله فى غير موضع منه فقال فى سورة القصص:

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين﴾ وقال فى سورة الإسراء: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وقال فى سورة يونس: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾. وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم أيضا فى المدينة بهذه الآية ﴿وإن كنتم فى ريب﴾.. إلخ. فعجزوا عن آخرهم، وهم فرسان الكلام، وأرباب النظام، وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة وفيهم غريزة وقوة. يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون، ويمدحون، ويقدحون، ويتوسلون، ويتوصلون، ويرفعون، ويضعون، فيأتون بالسحر الحلال... ومع هذا فلم يتصد لمعارضة القرآن منهم أحد، ولم ينهض - لمقدار سورة منه - ناهض من بلغائهم، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط فى المضارة والمضادة. وقد جرد لهم النبى - ﷺ - الحجة أولا، والسيف آخرًا فلم يعارضوا إلا السيف وحده، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة، وبذلك يظهر أن فى قوله - تعالى - ﴿ولن تفعلوا﴾ معجزة أخرى، فإنهم ما فعلوا، وما قدروا....

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز فى هذا الأمر.... فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق القوى والقدر أنزله تصديقًا لرسوله، وتحقيقًا لمقوله[2]...

وبعد أن ذكر القرآن الكفار ومآلهم، عطف على ذلك ذكر المؤمنين وما يفوزون به من نعيم

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٠٢.

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٧٧.

فى حياتهم الباقية، كما هى سنة القرآن فى الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد فقال - تعالى -:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

البشارة: الخبر السار فهو أخص من الخبر، سمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان، والمأمور بالتبشير هو النبى ﷺ أو كل من يتأتى منه تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه.

والصالحات: جمع صالحة وهى الفعلة الحسنة، وهى من الصفات التى جرت مجرى الأسماء فى إيلائها العوامل.

والجنات: جمع جنة، وهى كل بستان ذى شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظل ما تحته ويستره، من الجن وهو ستر الشىء عن الحاسة، ثم صارت الجنة اسمًا شرعيًا لدار النعيم فى الآخرة، وهى سبع درجات:

جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليون... وتتفاوت منازل المؤمنين فى كل درجة بتفاوت الأعمال الصالحة.

والأنهار جمع نهر - بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح - وهو الأخدود الذى يجرى فيه الماء على الأرض، وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع، ويكون كبيرًا أو صغيرًا.

وأسند إليه الجرى فى الآية مع أن الذى يجرى فى الحقيقة هو الماء، أخذًا بفن معروف بين البلغاء، وهو إسناد الفعل إلى مكانه، توسعًا فى أساليب البيان.

وقوله: «من تحتها» وارد على طريقة الإيجاز بحذف كلمة «أشجار» اعتمادًا على تبادرها إلى الذهن، والمعنى: تجرى من تحت أشجارها الأنهار. ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المؤمنين الصالحين فقال:

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا. قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾.

أى : إن سكان الجنة كلما رزقوا فى الجنة ثمرة من ثمراتها، وجدوها مثل الذى رزقوه فيها من قبل، فى بلوغه الغاية من حسن المنظر ولذة الطعم.

وفى هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة فى حسن منظرها، ولذة طعمها بحيث لا تفضل ثمرة فى ذلك على أخرى، فجميع ثمرها يسر له القلب، ويستحليه الذوق، وإن اختلفت المناظر والطعوم.

ثم قال - تعالى - ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ أى : يشبه بعضه بعضًا فى الصورة والرائحة، ويختلف فى اللذة والطعم، أو فى المزية والحسن، وعن ابن عباس : «ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسامى»؛ وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها فى معنى أن كل ثمر يشابه ما قبله فى حسن المنظر ولذة الطعم مشابهة لا يفضل فيها ثمر على آخر؛ بخلاف ثمر الدنيا، فإنه يتفاوت فى مناظره حسنًا، وفى طعومه لذة.

ويرى بعض العلماء حمل قوله - تعالى - : ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ على تقدير : من قبل دخول الجنة، أى هذا الذى رزقناه فى الدنيا، وإلى هذا الرأى مال صاحب الكشاف فقد قال : «فإن قلت : كيف قيل. «هذا الذى رزقنا من قبل ؟ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم فى الجنة هى ذات الذى رزقوه فى الدنيا؟ قلت : معناه هذا مثل الذى رزقناه من قبل وشبهه، بدليل قوله : ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله : ﴿وأتوا به﴾؟ قلت : إلى المرزوق فى الدنيا والآخرة جميعًا، لأن قوله : «هذا الذى رزقنا من قبل» انطوى تحته ذكر ما رزقوه فى الدارين. فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟ قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس؛ وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عن طبعه، وعافته نفسه[1]».

ثم قال - تعالى - : ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾.

الأزواج : جمع زوج وهى المرأة يختص بها الرجل، والضمير فى «فيها» يعود إلى الجنات.

والمعنى : أن لهؤلاء المؤمنين نساء مختصات بهم، مطهرات غاية التطهير من كل دنس وقذر، حسى ومعنوى، لا كنساء الدنيا، وهم فى هذه الجنات باقون على الدوام، لأن النعيم إنما يتم باطمئنان صاحبه على أنه دائم، أما إذا كان محتملا للزوال فإن صاحبه يبقى منغص البال، إذ سيتذكر أنه سيفقده فى يوم من الأيام، فجملة «وهم فيها خالدون» جىء بها على سبيل الاحتراس من وهم الانقطاع.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص١٠٨.

وبعد هذا البيان الجامع عن أحوال المهتدين بهديه أو الناكبين عن صراطه، وما تخلل ذلك من المواعظ النافعة، والتمثيلات الرائعة، والبشارات الطيبة لمن آمن وعمل صالحًا، بعد كل ذلك بين - سبحانه - أنه لا يعبأ أن يضرب مثلا بشيء حقير أو غير حقير، فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

روى الواحدى فى أسباب النزول عن ابن عباس أن الله - تعالى - لما أنزل قوله - تعالى - ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنفذوه منه﴾ وقوله - تعالى - : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا﴾.

لما نزل قال المشركون : أرأيتم أى شيء يصنع بهذا؟! فأنزل الله ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها..﴾.

وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا : ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الله لا يستحيى﴾. إلخ.

وقال السدى : لماضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعنى قوله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا..﴾ وقوله تعالى : ﴿أو كصيب من السماء﴾ قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال! فأنزل الله هذه الآية.

ويبدو أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة، فقد قرر العلماء أن لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات.

والاستحياء والحياء واحد، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استقدم واستأجر واستجاب. وهو فى أصل اللغة انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يعاب به ويذم. وهذا المعنى غير لائق بجلال الله، لذا ذهب جمع من المفسرين إلى تأويله بإرادة لازمه، وهو ترك ضرب الأمثال بها.

والمعنى: إن الله لايترك أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، وإطلاق الفعل كالاستحياء على ما يترتب عليه كترك الفعل، مألوف فى الكلام البليغ حيث يكون المراد واضحًا.

ومذهب السلف: إمرار هذا وأمثاله على ما ورد، وتفويض علم كنهه وكيفيته إلى الله - تعالى - مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات.

أى: ليس الحياء بمانع لله - تعالى - من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات الصغيرة فى نظركم؛ كالبعوض والذباب والعنكبوت، فإن فيها من دلائل القدرة، وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول، ويشهد بحكمة الخالق.

والمثل فى اللغة: الشبيه. وهو فى عرف القرآن: الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع، كالمثلين السابقين اللذين ضربهما الله فى حال المنافقين؛ أو وصف غريب نحو قوله تعالى:

﴿يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له؛ وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه».

وضرب المثل: إيراده، وعبر عن إيراده بالضرب، لشدة ما يحدث عنه من التأثير فى نفس السامع.

و(ما) فى قوله (مثلا ما) هى ما الإبهامية، تجىء بعد النكرة فتزيدها شيوعًا وعمومًا، كقولك: أعطنى كتابًا ما، أى كتاب كان.

والبعوضة واحدة البعوض وهى حشرة صغيرة تطلق على الناموس وهى بدل أو بيان من قوله (مثلا).

وقوله: ﴿فما فوقها﴾ عطف على بعوضة، والمراد فما فوقها فى الحجم كالذباب والعنكبوت، والكلب والحمار، أو فما فوقها فى المعنى الذى وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة كجناحها أو كالذرة.

قال صاحب الكشاف: سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد

والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من جهة أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد.. وأن الله - تعالى - أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل، كما لو تمثل بالجزء الذى لا يتجزأ أو بما لا يدركه لتناهيه فى صغره إلا هو وحده.. وقوله: ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان:

أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها فى المعنى الذى ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم، هو فوق ذلك، تريد هو أعرق فيما وصف من السفالة والنذالة.

والثانى: فيما زاد عليها فى الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة[1].

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقف الناس أمام هذه الأمثال فقال:

﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾.

أما حرف مفيد للشرط والتفصيل والتأكيد، أما الشرط فلوقوع الفاء فى جوابها، وأما التفصيل فلوقوعها بعد مجمل مذكور أو مقدر، وأما التأكيد فلأنك إذا قلت: زيد ذاهب، ثم قصدت تأكيد ذلك وإفادة أن ذهابه واقع لا محالة قلت: أما زيد فذاهب.

والضمير فى قوله (أنه) يعود على المثل، أو على ضربه المفهوم من قوله: ﴿أن يضرب مثلا﴾.

والحق: خلاف الباطل، وهو الثابت الذى لايسوغ إنكاره.

ووجه كون المثل أو ضربه حقًا، أنه يوضح المبهم، ويفصل المجمل، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها.

ووجه تفصيل الناس فى هذه الآية إلى قسمين، أنهم بالنسبة إلى التشريع والتنزيل كذلك، فهم مؤمن أو كافر.

والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم، وتيئيس الذين أرادوا تشكيكهم ببيان أن إيمانهم يحول بينهم وبين الشك.

وعبر فى جانب المؤمنين بيعلمون تعريضًا بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عنادًا ومكابرة، وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب المحز.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ١١١ وما بعدها.

وقال: ﴿أنه الحق﴾ معرفًا بأل، ولم يقل: أنه حق للمبالغة فى حقية المثل.

ومن المعروف فى علم البيان أن الخبر قد يؤتى به معرفًا بأل، للدلالة على أن المخبر عنه بالغ فى الوصف الذى أخبر به عنه مرتبة الكمال.

وقوله: ﴿من ربهم﴾ حال من الحق، ومن ابتدائية، أى: إن هذا الكلام وارد من الله، لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب، فهو مؤذن بأنه من كلام الخالق الذى لا يقع منه الخطأ.

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذه الأمثال عندما تتلى عليهم فقال: ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾.

كلمة (ماذا) مركبة من ما الاستفهامية وذا اسم الإشارة، غير أن العرب توسعوا فيها فاستعملوها اسم استفهام مركبًا من كلمتين، وذلك حيث يكون المشار إليه معبرًا عنه بلفظ آخر غير الإشارة، حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر لمجرد التأكيد نحو: ماذا التوانى؟ أو حيث لا يكون للإشارة موقع كقوله تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر﴾ وقد يتوسعون فيها توسعًا أقوى فيجعلون ذا اسم موصول، وذلك حين يكون المسئول عنه معروفا للمخاطب بشىء من أحواله، فلذلك يجرون عليه جملة أو نحوها هى صلة ويجعلون ذا موصولا نحو ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ ونحو ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾، أى: ما الذى أراده الله بهذا المثل.

والإرادة فى أصل اللغة: نزوع النفس إلى الفعل، وإذا أسندت إلى الله دلت على صفة له تتعلق بالممكنات، فيترجح بها أحد وجهى المقدور، وقد كان جائز الوقوع وعدم الوقوع.

وقوله: ﴿مثلا﴾ واقع فى موقع التمييز لاسم الإشارة «هذا» كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول: ماذا أردت بهذا جوابًا؟

والاستفهام الذى حكاه القرآن على ألسنة هؤلاء الكافرين، المقصود به الإنكار والتحقير لهذه الأمثال، ولأن يكون الله - تعالى - قد ضربها للناس.

والمعنى: فأما المؤمنون الذين من عادتهم الإنصاف، والنظر فى الأمور بنظر العقل واليقين، فإنهم إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذى لا تمر الشبهة بساحته، وأما الكافرون فإنهم لانطماس بصيرتهم، وتغلب الأحقاد على قلوبهم فإنهم إذا سمعوا ذلك عاندوا وكابروا وقابلوه بالإنكار.

ثم ساق - سبحانه - جملتين بين فيهما الحكمة من ضرب الأمثال فقال : ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾.

فقد دلت هاتان الجملتان على أن العلم بكون المثل حقًا، مما يزداد به المؤمنون رشدًا على رشدهم، وأن إنكاره ضلال يزداد به الكافرون تخبطًا فى ظلمات جهلهم.

ووصف كلا من فريقى المؤمنين والمنكرين له بالكثرة مع أن المهديين وصفوا بالقلة كثيرا كما فى قوله : ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾، وذلك لأن أهل الهدى كثيرون فى أنفسهم، وإذا وصفوا بالقلة فبالقياس إلى أهل الضلال، وأيضًا فإن القليل من أهل الهدى كثير فى الحقيقة، وإن قلوا فى الصورة، فوصفوا بالكثرة ذهابًا إلى هذه الحقيقة.

وقدم الإضلال على الهداية، ليكون أول ما يقرع أسماع المبطلين عن الجواب أمرًا فظيعًا يسوءهم ويفت فى أعضادهم.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾.

الفاسقون : جمع فاسق، من الفسق، وهو فى أصل اللغة : الخروج.

يقال : فسقت الرطبة من قشرها. أى : خرجت منه، وشرعًا : الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروج من حدود الإيمان، وهو الكفر، ثم ما دون الكفر من الكبائر والصغائر، ولكنه اختص فى العرف بارتكاب الكبيرة، ولم يسمع الفسق فى كلام الجاهلية، بمعنى الخروج عن الطاعة فهو بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية.

وقصر الإضلال بالمثل على الفاسقين، إيذان بأن الفسق هو الذى أعدهم لأن يضلوا به، حيث إن كفرهم قد صرف أنظارهم عن التدبر فيه حتى أنكروه وقالوا : ماذا أراد الله بهذا مثلا.

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين بثلاث خصال ذميمة فقال : فى بيان الخصلة الأولى : ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾.

والنقض : فى اللغة حقيقة فى فسخ وحل ما ركب ووصل، بفعل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب مثل نقض الحبل المفتول وقد استعمل هنا مجازًا فى إبطال العهد بقرينة إضافته إلى عهد الله.

وعبر عن إبطال العهد بالنقض، لأنه أبلغ فى الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما، لأن فى النقض إفسادًا لهيئة الحبل.

والعهد : اسم للموثق الذى يلزم مراعاته وحفظه، يقال : عهد إليه فى كذا، إذا أوصاه به ووثقه عليه.

وعهد الله : تارة يكون بما ركز فى العقول من الحجة على التوحيد، وتارة يكون بما أوجبه الله على الناس على لسان رسله - صلوات الله عليهم - وتارة بما يلتزمه المؤمن. وليس بلازم له فى أصل الشرع مما ليس بمعصية كالنذور وما يجرى مجراها.

والميثاق : التوثقة، وهى التقوية والتثبيت، والمراد به : ما قوى الله به عهده.

وقوله : ﴿من بعد ميثاقه﴾ متعلق بينقضون، ومن لابتداء الغاية، وميثاقه الضمير فيه يجوز أن يعود على العهد، وأن يعود على اسم الله - تعالى - فهو على الأول مصدر مضاف إلى المفعول، وعلى الثانى مضاف للفاعل.

أما الصفة الثانية التى وصفهم الله بها فهى قوله : «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل» وهو عام فى كل قطيعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر،

وأما الصفة الثالثة التى وصفهم بها فهى قوله - تعالى - :

﴿ويفسدون فى الأرض﴾.

والفساد فى الأرض يقع بعبادة غير الله، وبالدعاية إلى الكفر به، وبالاستهزاء بالحق، وبالاعتداء على حقوق الغير، وبغير ذلك من الأمور التى حرمها الله - تعالى -.

وعبر بقوله : ﴿فى الأرض﴾ للإشعار بأن فسادهم لا يقتصر عليهم، وإنما هو يتعداهم إلى غيرهم.

ثم بين - سبحانه - بعد أن دمغهم بتلك الصفات المرذولة - عاقبة أمرهم فقال : ﴿أولئك هم الخاسرون﴾.

الخاسرون : جمع خاسر مأخوذ من الخسر والخسران وهو النقص، ومن نقض عهد الله، وقطع ما أمر الله بوصله، وأفسد فى الأرض، لا شك أنه قد نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز، وكانت عاقبته الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

قال ابن جرير : «والخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه، وكذلك المنافق والكافر قد خسرا بحرمان الله لهما من رحمته التى خلقها لعباده[1] . . .».

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤١٧ طبعة دار المعارف.

وبعد أن عدد القرآن مساوىء أولئك الضالين، وبين سوء مصيرهم، ومآلهم، وجه إليهم الإنكار والتوبيخ فخاطبهم بقوله:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿كيف﴾ اسم استفهام للسؤال عن الأحوال، وليس المراد به هنا استعلام المخاطبين عن حال كفرهم، وإنما المراد منه معنى تكثر تأديته فى صورة الاستفهام وهو الإنكار والتوبيخ، كما تقول لشخص: كيف تؤذى أباك وقد رباك؟؛ لا تقصد إلا أن تنكر عليه أذيته لأبيه وتوبيخه عليها.

وفى الآية الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لزيادة تقريعهم والتعجب من أحوالهم الغريبة، لأنهم معهم ما يدعو إلى الإيمان ومع ذلك فهم منصرفون إلى الكفر.

وقوله: ﴿وكنتم أمواتًا فأحياكم﴾ جار مجرى التنبيه على أن كفرهم ناشىء عن جهل وعدم تأمل فى أدلة الإيمان القائمة أمام أعينهم.

والأموات: جمع ميت بمعنى المعدوم. والإحياء: بمعنى الخلق.

والمعنى: كيف تكفرون بالله وحالكم أنكم كنتم معدومين فخلقكم، وأخرجكم إلى الوجود كما قال - تعالى -:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾.

ويصح أن يفسر الأموات بمعنى فاقدى الحياة. والإحياء بنفخ الروح فيهم فيكون المعنى: وكنتم أمواتًا يوم استقراركم نطفًا فى الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها، فنفخ فيكم الأرواح؛ وأصبحتم فى طور إحساس وحركة وتفكير وبيان.

وبعد أن وبخهم على كفرهم بمن أخرجهم من الموت إلى الحياة، أورد جملا لاستيفاء الأطوار التى ينتقل فيها الإنسان من مبدأ الحياة إلى مقره الخالد فى دار نعيم أو عذاب فقال: ﴿ثم

يميتكم﴾ بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ يبعثكم بعد الموت ﴿ثم إليه ترجعون﴾.

أى تصيرون إليه دون سواه، فيجمعكم فى المحشر؛ ويتولى حسابكم، والحكم فى أمركم بمقتضى عدله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾.

أما الإماتة فهم يشاهدونها بأعينهم بين الحين والحين، وأما البعث فقد أخبر الله عنه بما يدل على صحته وينفى استبعاده، أو استحالته، بأدلة عقلية ونقلية كثيرة، أما الأدلة العقلية، فمنها: أن الذى قدر على إحيائهم من العدم، قادر على إحيائهم وإعادتهم بعد موتهم فإن الإعادة أهون من البدء دائما، وأما الأدلة النقلية، فمنها قوله - تعالى -:

﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾.

وفى قوله - تعالى - ﴿ثم إليه ترجعون﴾ ترهيب لمن ينزع إلى الشر، ويرتكب المعاصى من غير مبالاة، وترغيب لمن يقبل على فعل الخير، ويقدم على الطاعات.

قال الجمل: «والفاء فى قوله ﴿فأحياكم﴾ على بابها من التعقيب، وثم على بابها من التراخى، لأن المراد بالموت الأول، العدم السابق، وبالحياة الأولى الخلق، وبالموت الثانى الموت المعهود، وبالحياة الثانية الحياة للبعث فجاءت الفاء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخى، على هذا التفسير وهو أحسن الأقوال، ويعزى لابن عباس وابن مسعود ومجاهد، والرجوع إلى الجزاء أيضًا متراخ عن البعث»[1].

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما يشهد بقدرته ووحدانيته عن طريق الأدلة المتعلقة بذوات المكلفين، أردف ذلك بالكلام عن الأدلة الكونية فقال تعالى:

﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾.

أى: أنه خلق جميع ما فى الأرض من نحو الحيوان والنبات والمعادن والجبال من أجلكم، فهو المنعم عليكم لتنتفعوا بها فى دنياكم، وتستعينوا بها على طاعته.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية شاهدًا على أن الأشياء التى فيها منافع مأذون فيها حتى يقوم دليل على حرمتها.

ثم استدل - سبحانه - على مظاهر قدرته بخلق السموات فقال:

﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣٥.

استوى إلى السماء: أقبل وعمد إليها بإرادته. وتسويتها معناه: تعديل خلقها وتقويمه. والسماء ليس المراد منها فردا من أفراد السموات، وإنما المراد منها الأجرام العلوية الشاملة لجميع السموات، فصح أن يعود عليها ضمير جمع الإناث فى قوله: ﴿فسواهن﴾، وكذلك علماء البيان يزيدون أن اللفظ إذا أريد منه جنس ما وضع له صار فى معنى الجمع.

فمعنى ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ علا إليها وارتفع، من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه، مع كمال التنزيه عن سمات المحدثات، وقد سئل الإمام مالك عن الاستواء على العرش فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقدم الأرض هنا لأنها أدل لشدة الملابسة والمباشرة.

وجملة ﴿ثم استوى﴾ معطوفة على جملة (خلق لكم)، وكان العطف بثم لعظم خلق السماء عن خلق الأرض.

وعبر بسواهن للإشعار بأنه - سبحانه - خلقهن فى استقامة، واستقامة الخلق هى انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا اضطراب. قال - تعالى -:

﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾.

وجملة ﴿وهو بكل شىء عليم﴾ مقررة لما ذكر قبلها من خلق السموات والأرض وما فيهما على هذه الصورة الحكيمة، فقد دلت على أن ترتيب أجزاء تلك المصنوعات وموافقة جميعها للمنافع المقصودة منها، إنما حدث عن عالم بحقائق تلك الأجزاء وخواصها، ولإحاطته بكل شىء علمًا وضع كل جزء فى موضعه اللائق به.

وبعد أن بين سبحانه للناس أنه قد من عليهم بنعمة خلقه ما فى الأرض جميعًا، بدأ بعد ذلك يذكرهم بنعمة أخرى هى نعمة خلقه لأبيهم آدم، وخلق آدم مبدأ لخلق ذريته، وتكريمه موصول بتكريمهم فقال تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ
سُبۡحَـٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ
أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّىٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا
تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾

ففى هذه الآيات الكريمة عطف - سبحانه - قصة خلق آدم أبى البشر على قصة خلق الأنفس وخلق السماوات والأرض انتقالا فى الاستدلال على أن الله واحد، وجمعًا بين تعدد الأدلة وبين مختلف الحوادث وأصلها، حتى يكون التدليل أجمع، والإيمان بالله أقوى وأثبت.

وإذ وإذا ظرفان للزمان، الأول للماضى والثانى للمستقبل، فإن جاء إذ مع المضارع أفاد الماضى كقوله:

﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه...﴾ وإن جاء إذا مع الماضى أفاد الاستقبال كقوله: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.

وإذ هنا واقعة موقع المفعول به لعامل مقدر دل عليه المقام.

والمعنى: واذكر يا محمد وقت أن قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة.

وقد جاء هذا المقدر هنا مصرحًا به فى آيات أخرى كما قال تعالى:

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾.

والملائكة جمع ملك. والتاء لتأنيث الجمع، وأصله ملأك، من ملك، نحو شمال من شمل، والهمزة زائدة وهو مقلوب مالك، وقيل: إن ملاك من لأك إذا أرسل، ومنه الألوكة، أى: الرسالة.

والملائكة، هم جند من خلق الله، ركز الله فيهم العقل والفهم، وفطرهم على الطاعة، وأقدرهم على التشكيل بأشكال مختلفة، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة، ووصفهم فى القرآن بأوصاف كثيرة منها أنهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ومنها: أنهم رسل الله أرسلهم بأمره «ومنهم رسل الوحى إلى من

اصطفاهم من خلقه للنبوة والرسالة. قال تعالى:

﴿جاعل الملائكة رسلا﴾ وقال تعالى: ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ وقال - تعالى -: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾.

و (الخليفة) من يخلف غيره وينوب منابه، فهو فعيل بمعنى فاعل،

والتاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة من الله فى الأرض، وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله - تعالى - فى عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وإجراء أحكامه عليهم، وتنفيذ أوامره فيهم. وقيل: آدم وذريته، لأنه يخلف بعضهم بعضًا فى عمارة الأرض، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل.

وخطاب الله لملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة، ليس المقصود منه المشورة، وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة، وما أجيبوا به من بعد، أو من أجل تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنيًا عن المشاورة. أو الحكمة تعظيم شأن المجهول، وإظهار فضله، بأن بشر بوجود سكان ملكوته، ونوه بعظيم شأن المجعول بذكره فى الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة.

ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال:

﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

الفساد: الخروج عن الاعتدال والاستقامة ويضاده الصلاح. يقال فسد الشىء فسادًا وفسودًا وأفسده غيره.

والسفك: الصب والإهراق، يقال: سفكت الدم والدمع سفكًا - من باب ضرب - صببته. والفاعل سافك وسفاك، والمراد به حصول التقاتل بين أفراد بنى الإنسان ظلمًا وعدوانًا.

والتسبيح: مشتق من السبح وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء.

والتقديس: التطهير والتعظيم ووصفه بما يليق به من صفات الكمال.

فيكون التسبيح نفى ما لا يليق، والتقديس إثبات ما يليق، وقدم التسبيح على التقديس من باب تقديم التخلية على التحلية.

والمعنى: أتجعل فى الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ويريق الدماء والحال أننا نحن ننزهك عما

لا يليق بعظمتك، تنزيهًا متلبسًا بحمدك والثناء عليك، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيمًا لك وتمجيدًا.

وقولهم: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها... إلخ﴾ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة فى خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد فى الأرض وسفك الدماء. وقطعهم بحكمة الله فى كل ما يفعل لا ينافى تعجبهم من بعض أفعاله، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل، فمن تعجب من فعل شىء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد منكرا.

والملائكة لا يعلمون الغيب، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد فى الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التى يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخيار من خلقه.

قال الإمام ابن كثير فى توضيح هذا المعنى: قوله - تعالى -: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم. ويردعهم عن المحارم والمآثم.. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه البعض.. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك، يقولون ياربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض، ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدر منا شىء من ذلك فهلا وقع الاقتصار علينا؟[1].

وقد رد الله - تعالى - على الملائكة بقوله: ﴿قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾.

أى: إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له - تعالى - المتبعون رسله.

فالجملة الكريمة إرشاد لهم إلى الأمر الذى من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق - عز وجل - وتنبيه إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه، فله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء،

وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه حين يأمرهم بشىء، أو يعلمهم بأنه

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٩.

سيفعل شيئًا، عن حكمة ما أمر به أو ما سيفعله، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم، فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم، وإن وقفت عقولهم دونها، ففى تسليمهم لقدر الله، وامتثالهم لأوامره الكفاية فى القيام بحق التكليف والفوز برضا الله، الذى هو الغاية من الإيمان به والإقبال على طاعته.

قال بعض العلماء: «وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى ﷺ عن تكذيب بعض الناس له، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين - وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أى: فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين[1].

ثم أخذ - سبحانه - فى بيان جانب من حكمة خلق آدم، وجعله خليفة فى الأرض، بعد أن أجاب الملائكة على سؤالهم بالجواب المناسب الحكيم فقال - تعالى - :

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾.

علم: من التعليم وهو التعريف بالشىء. وآدم: اسم لأبى البشر، قيل إنه عبرانى مشتق من أدمه، وهى لغة عبرانية معناها التراب، كما أن «حواء» كلمة عبرانية معناها «حى» وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء.

و﴿الأسماء﴾ جمع اسم، والاسم ما يكون علامة على الشىء، وتأكيد الأسماء بلفظ «كلها» فى أنه علمه أسماء كل ما خلق من المحدثات من إنسان وحيوان ودابة، وطير، وغير ذلك. ويصح حمل الأسماء على خواص الأشياء ومنافعها، فإن الخواص والمنافع علامات على ما تتعلق به من الحقائق.

وقوله: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ عرض الشىء: إظهاره وإبانته والضمير فى ﴿عرضهم﴾ يعود على المسميات، وهى مفهومة من قوله: ﴿الأسماء كلها﴾ إذ الأسماء لابد لها من مسميات، فإذا أجرى حديث عن الأسماء حضر فى ذهن السامع ما هو لازم لها، أعنى المسميات.

ودل على المسميات بضمير جمع الذكور العقلاء فقال: ﴿عرضهم﴾ ولم يقل عرضها، لأن فى جملة هذه المسميات أنواعًا من العقلاء: كالملائكة، والإنس، ومن الأساليب المعروفة بين

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٧.

فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص، فإذا اشتركا فى نحو الجمع أو التثنية أتى بالجمع أو التثنية على ما يطلق حال الكامل منهما.

والأمر فى قوله: ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾، ليس من قبيل الأوامر التى يقصد بها التكليف، أى: طلب الإتيان بالمأمور به، وإنما هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة.

والمعنى: أن الله - تعالى - ألهم آدم معرفة ذوات الأشياء التى خلقها فى الجنة، ومعرفة أسمائها ومنافعها، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة. فقال لهم على سبيل التعجيز: ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فيما اختلج فى خواطركم من أنى لا أخلق خلقًا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل.

قال ابن جرير: «وفى هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله فى هذا القرآن من لطائف الحكم التى تعجز عن أوصافها الألسن، وذلك أن الله - تعالى - احتج فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التى لم يكن - تعالى - أطلع عليها من خلقه إلا خاصا، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله».

ثم حكى - سبحانه - ما كان من الملائكة فقال:

﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾.

سبحان: اسم مصدر بمعنى التسبيح؛ أى التنزيه، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه.

وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر فى ذهن السامع للجملة السابقة، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله - تعالى-: ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾، ماذا كان من الملائكة؟ هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم؟ فقال - تعالى -: ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا﴾ إلخ الآية.

ولو قال الملائكة: لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئًا غير ما يعلمهم الله، ودخل فى ضمن هذا النفى العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسئول عنها.

ومعنى ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ أى: أنت يا ربنا العليم بكل شىء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام.

وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة، ليكون وصفه بالعلم متصلا بنفيهم عن أنفسهم فى قولهم: ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.

وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد اعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه، وجه - سبحانه - الخطاب إلى آدم، يأمره فيه بأن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها، ولم يكونوا على علم بها، فقال - تعالى -:

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

ففى هذه الآية الكريمة أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم فى أن يخبر الملائكة بالأسماء التى فاتتهم معرفتها ليظهر لهم فضل آدم، ويزدادوا اطمئنانا إلى أن إسناد الخلافة إليه، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة.

وعلم الغيب يختص به واجب الوجود - سبحانه - لأنه هو الذى يعلم المغيبات بذاته، وأما العلم بشىء من المغيبات الحاصل من تعليم الله فلا يقال لصاحبه إنه يعلم الغيب.

وقوله - تعالى - ﴿ألم أقل لكم إنى أعلم...﴾ إلخ الآية، استحضار وتأكيد لمعنى قوله قبل ذلك، ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾. وإعادة له على وجه من التفصيل أفاد أن علمه يشمل ما يظهرونه بأقوالهم أو أفعالهم، وما يضمرونه فى أنفسهم.

وفى قوله: ﴿ألم أقل لكم...﴾ إلخ تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة، وكان الأولى أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام الألوهية، فيتركوا السؤال عنها إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم.

ومن الفوائد التى تؤخذ من هذه الآيات، أن الله - تعالى - قد أظهر فيها فضل آدم - عليه السلام - من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له، فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية، ثم إن العلم الذى يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ. فيقع صاحبه فى الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح، بخلاف العلم الذى يتلقاه الإنسان من تعليم الله، فإنه علم مطابق للواقع قطعًا، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح، وصاحب هذا العلم هو الذى يصلح للخلافة فى الأرض، ومن هنا، كانت السياسة الشرعية أرشد من كل سياسة،والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة فى الأرض.

وبعد أن بين القرآن فى الآيات السابقة بعض الكرامات التى خص الله بها آدم، انتقل إلى

بيان كرامة أخرى أكرم الله بها آدم - عليه السلام - وهى أمره للملائكة بالسجود له، ثم بيان ما حصل بينه وبين إبليس، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . .﴾ إلخ، معطوف على قوله - تعالى قبل ذلك ﴿وإذ قال ربك للملائكة . .﴾ إلخ، من باب عطف القصة على القصة، وإعادة (إذ) بعد حرف العطف المغنى عن إعادة ظرفه، تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها، لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام.

والسجود : لغة التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره، وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

وللعلماء فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم أقوال : أرجحها أن السجود المأمور به فى الآية يحمل على المعنى المعروف فى اللغة، أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم

يكون مظهرًا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيمًا، وإقرارًا له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه.

وعلى هذا الرأى سار علماء أهل السنة. وقيل: إن السجود كان لله، وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليه الساجدون تحية له، وإلى هذا الرأى اتجه علماء المعتزلة، وقد قالوا ذلك هربًا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم، فإن أهل السنة قالوا: إبليس من الملائكة، والصالحون من البشر أفضل من الملائكة، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم، وخالفت المعتزلة فى ذلك، وقالت: الملائكة أفضل من البشر، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة.

والذى نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح، لأن ما ذهب إليه المعتزلة يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة، وإظهار فضله عليهم لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود.

وأمر الملائكة بالسجود لآدم هو لون من الابتلاء والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم، واقتضته المشيئة والحكمة:

ثم بين - سبحانه - ما حدث من الملائكة ومن إبليس فقال:

﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

إبليس: اسم مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس، وفعله أبلس، والراجح أنه اسم أعجمى، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حى، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس، إذ ليس من المعقول أن يكون كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه. قال - تعالى - ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾.

وقوله: ﴿أبى واستكبر﴾ الإباء: الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه. والاستكبار: التكبر والتعاظم والغرور، بمعنى أن يرى الشخص فى نفسه علوًا على غيره، وهو خلق مذموم.

وكان فى قوله: ﴿وكان من الكافرين﴾ بمعنى صار.

وجاء العطف فى قوله ﴿فسجدوا . . .﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد، ولم يصدهم ما كان فى نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق، مظهر فساد وسفك دماء، لأنهم منزهون عن المعاصى.

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أم لا قولان:

أحدهما: أنه كان منهم لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصيًا، ولما استحق الخزى والنكال.

ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه. وقد اختار هذا الرأى ابن عباس، وابن مسعود وجمهور المفسرين.

وقيل إنه ليس منهم لقوله - تعالى - ﴿إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه﴾، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة. وقد اختار هذا القول الحسن وقتادة وغيرهما.

وقد حاول ابن القيم أن يجمع بين الرأيين فقال: والصواب التفصيل فى هذه المسألة، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد، فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله. كان من نار وأصل الملائكة من نور، فالنافى كونه من الملائكة. والمثبت لم يتواردا على محل واحد[1].

ولما كان استثناء إبليس من الساجدين لا يدل على أنه ترك السجود عصيانًا، إذ قد يكون تركه لعذر، دل بقول: ﴿أبى واستكبر﴾ على أنه امتنع من السجود أنفة، وتعاظمًا، وأردف هذا التعاظم والغرور باعتراضه على الله - تعالى - فى تفضيل آدم، فصار بذلك فى فريق الكافرين، ولذا ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿وكان من الكافرين﴾ أى: صار بسبب عصيانه واستكباره من الكافرين بالله، الجاحدين لنعمه، البعيدين عن رحمته ورضوانه.

وقوله - تعالى - ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ معطوف على قوله (وإذ قلنا للملائكة . . . إلخ﴾ أى: بعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، فهذه تكرمة أكرمه الله بها بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة.

وقوله: ﴿اسكن﴾ أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن على وجه الاستقرار.

والزوج: يطلق على الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء، حيث تقول العرب للمرأة زوج، ولا تكاد تقول زوجة.

والجنة: هى كل بستان ذى شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظلل ما تحته ويستره، من الجن، وهو ستر الشىء عن الحاسة.

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب. التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق.

ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض، خلقه الله

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ١٠٤.

لإسكان آدم وزوجه، واختلفوا فى مكانه، فقيل بفلسطين. وقيل بغيرها.

وقد ساق الإمام ابن القيم فى كتابه (حادى الأرواح) أدلة الفريقين دون أن يرجح شيئًا منها. والأحوط والأسلم: الكف عن تعيينها وعن القطع به، وإليه ذهب أبوحنيفة وأبومنصور الماتريدى فى التأويلات، إذ ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة.

والمخاطب بالأمر، بسكنى الجنة آدم وحواء، ولكن الأسلوب جاء فى صيغة الخطاب لآدم وعطفت عليه زوجه، لأنه هو المقصود بالأمر وزوجه تبع له.

ثم بين - سبحانه - أنه قد أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة أكلا واسعا فقال:

﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ أى كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا هنيئًا أو واسعًا فى أى مكان من الجنة أردتم.

يقال: رغد عيش القوم أى: اتسع وطاب، وأرغد القوم، أى: أخصبوا وصاروا فى رزق واسع.

والضمير فى قوله ﴿منها﴾ يعود إلى الجنة، والمراد بالأكل منها: الأكل من مطاعمها وثمارها، لأن الجنة تستلزم ثمارًا هى المقصودة بالأكل.

ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

القرب: الدنو، والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهى بالقرب منها إذ قال ﴿ولا تقربا﴾ القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل، إذ فى النهى عن القرب من الشىء قطع لوسيلة التلبس به، كما قال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه وهى القرب منه. وأكد النبى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلمًا فقال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التى كانا يعيشان فيها عيشة راضية.

وقد تكلم العلماء كثيرًا عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هى التينة، وقيل: هى السنبلة، وقيل هى الكرم.. إلخ. إلا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه.

وقد أحسن الإمام ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال: «والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة يعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلا

على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل : كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب. وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به[١].

ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال : ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أى : اذهبهما عن الجنة بكذبه عليهما ومقاسمته أنه لهما من الناصحين.

وأزل من الإزلال وهو الإزلاق : زل يزل زلا وزللا، أى : زلق فى طين أو منطق، والاسم الزلة. وأزله غيره واستزله : أى أزلقه. أطلق وأريد به لازمه وهو الإذهاب.

وقرىء ﴿فأزالهما﴾ أى : نحاهما من الإزالة، تقول أزلت الشيء عن مكانه إزالة. أى : نحيته وأذهبته عنه.

ثم استعمل هذا اللفظ فى ارتكاب الخطيئة كما استعمل فى خطأ الرأى مجازًا. والضمير فى قوله : ﴿عنها﴾ يعود إلى الشجرة، ومعنى أزلهما عن الشجرة أوقعهما فى الزلة بسببها.

والتعبير بقوله : ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أبلغ فى الدلالة على فخامة الخيرات التى كانا يتقلبان فيها مما لو قيل : فأخرجهما من النعيم أو من الجنة لأن من أساليب البلاغة فى الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم كما هنا. لكى تذهب نفس السامع فى تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

ونسبة إخراجهما من الجنة إلى الشيطان فى قوله : ﴿فأخرجهما﴾ من قبيل نسبة الفعل إلى ما كان سببًا فيه، وذلك أن أكلهما من الشجرة الذى ترتب عليه إخراجهما من الجنة إنما وقع بسبب وسوسة الشيطان لهما.

وقوله - تعالى - ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الخطاب فيه لآدم وحواء، وإبليس، وقيل الخطاب لآدم وحواء ونسلهما.

والهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل ضد الصعود. يقال : هبط يهبِط ويهبُط أى : نزل من علو إلى سفل.

والعداوة معناها التناكر والتنافر بالقلوب.

أى : قلنا لآدم وحواء والشيطان انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين، يبغى بعضكم على بعض.

وعداوة الشيطان لآدم نشأت عن حسد وتكبر منذ أن أُمِر بالسجود له فأبى وامتنع وقال : أنا خير منه.

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٢١.

وعداوة آدم وذريته للشيطان من جهة أنه يكيد لهم بالوسوسة والإغراء وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد لآدم وذريته، ونهى لهم عن اتباع خطوات الشيطان، لأنه عدو لهم، ومن شأن العدو أنه يسعى لمضرة عدوه.

قال - تعالى - : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

المستقر: موضع الاستقرار والثبات، وهو مقابل القلق والاضطراب، والمتاع: اسم لما يستمتع به من مأكل ومشرب وملبس وحياة وأنس وغير ذلك، مأخوذ من متع النهار متوعًا إذا ارتفع، ويطلق على الانتفاع الممتد الوقت.

والحين: الجزء من الزمان غير محدد بحد، والمراد به هنا وقت الموت أو يوم القيامة.

والمعنى: انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو؛ ولكم فيها منزل وموضع استقرار. وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت.

ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره فى الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهى فى وقت، لا يدرى متى يدركه، فشأنه أن ينتفع بخيراتها ويتمتع بطيب العيش فيها، وهو مقبل على العمل لمرضاة الله ما استطاع، وشاكر لأنعمه بالقلب واللسان، لا يشغله عن الشكر شاغل من ملذات هذه الحياة ومظاهر زينتها.

ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾.

التلقى فى الأصل: التعرض للقاء، ثم استعمل بمعنى أخذ الشىء وقبوله، تقول: تلقيت رسالة من فلان. أى أخذتها منه وقبلتها.

والكلمات: جمع كلمة، وهى اللفظة الموضوعة لمعنى، وأرجح ما قيل فى تعيين هذه الكلمات، ما أشار إليه القرآن فى سورة الأعراف بقوله:

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

والتوبة فى أصل اللغة معناها: الرجوع، وإذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وإذا عديت بعلى - كما فى هذه الآية - كان معناها قبول التوبة، فالعبد يتوب عن المعصية، والله يتوب على العبد أى: يقبل توبته.

وجملة ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ واردة مورد التعليل لقوله: ﴿فتاب عليه﴾.

والتواب وصف له - تعالى - من تاب، أى: قبل التوبة، وجاء التعبير بصيغة فعّال، للإشعار بأنه كثير القبول للتوبة من عباده، وليدل على أنه يقبل توبة العبد وإن وقعت بعد ذنب يرتكبه ويتوب منه ثم يعود إليه بعد التوبة ثم يتوب بعد العودة إليه توبة صادقة نصوحًا.

وبعد أن أخبر القرآن فى الآيات السابقة أن الله - تعالى - قد أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر بالهبوط فقال:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعًا، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وليست هذه الإعادة من قبيل التكرار الذى يقصد منه مجرد التوكيد، بل قص الأمر بالهبوط أولا ليعلق عليه معنى؛ هو كون بعضهم لبعض عدوًا.

ثم قصه ثانية ليعلق عليه معنى آخر هو ما ترتب على الهبوط من تفصيل لحال المخاطبين، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين.

والفاء فى قوله ﴿فإما﴾ لإفادة ترتيب انقسام المخاطبين إلى مهتدين وكافرين على الهبوط المفهوم من قوله: ﴿اهبطوا﴾.

و﴿إما﴾ هى إن الشرطية دخلت عليها «ما» لإفادة التوكيد، ويغلب على فعل شرطها أن يكون مؤكدًا بالنون وأوجب بعضهم ذلك.

والهدى من الله معناه الدلالة على ما هو حق وخير بلسان رسول، أو بآيات كتاب.

وقد صرح - سبحانه - بأن الهدى صادر منه بقوله: ﴿منى هدى﴾ ثم أضافه إلى نفسه بقوله: ﴿هداى﴾ للإيذان بتعظيم أمر الهدى؛ وأنه أحق بأن يتبع، ويتخذ سبيلا لطمأنينة النفس فى الدنيا، والفوز بالسعادة فى الأخرى.

والخوف: الفزع وهو تألم النفس من مكروه يتوقع حصوله.

والحزن: الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب.

ومعنى ﴿لا خوف عليهم﴾ أن نفوسهم آمنة مطمئنة بحيث لا يعتريها فزع، ولا ينتابها ذعر، كما أن قوله: ﴿ولا هم يحزنون﴾ ينفى عنهم الاغتمام لفوات مطلوب أو فقد محبوب.

ونفى الخوف والحزن ورد فى الآية على وجه الإطلاق، وظاهره أن المهتدين لايعتريهم الخوف ولاالحزن فى دنياهم ولا فى آخرتهم، ولكن قوله -تعالى- فيما يقابله من جزاء الكافرين ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، يرجح أن يكون المراد نفى الخوف والحزن فى الدار الأخرة.

ونفى الخوف والحزن عن المهتدين يوم القيامة كناية عن سلامتهم من العذاب وفوزهم بالنعيم الخالد فى الجنة، فتمت المقابلة بين جزاء المهتدين وجزاء الكافرين المشار إليه بقوله - تعالى - :

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

إذ هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ﴿فمن تبع هداى﴾. إلخ، وواردة مورد المقابل له فى تفصيل أحوال من يأتيهم الهدى من الله.

ولم يقل : والذين لم يتبعوا هداى أولئك أصحاب النار. . وإنما قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك. .﴾ إلخ، وذلك لأن من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة، وغير المكلفين مثل الصبيان وفاقدى العقل، وهؤلاء ليسوا من أصحاب النار. فظهر أن قوله : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا. .﴾ جىء به على قدر من يستحقون الحكم عليهم بأنهم من أصحاب النار والمجازاة بالعذاب الخالد الأليم.

والآيات : جمع آية، وهى فى الأصل العلامة، وتستعمل فى الطائفة من الكتاب المنزل، وفيما يستدل به على وجود الله وتوحيده، من نحو بدائع مصنوعاته ومظاهر عنايته بالإنسان.

وأضاف - سبحانه - الآيات إلى نفسه فقال : ﴿بآياتنا﴾ ليكون قبح التكذيب بها أظهر، وأتى بنون العظمة فقال (بآياتنا) دون أن يقول « بآياتى » لبعث المهابة فى نفوس السامعين، وذلك أدعى إلى تلقى الوعيد باهتمام وخشية.

وأصحاب : جمع صاحب مأخوذ من الصحبة، وهى الاقتران والملازمة، ودل بقوله : ﴿هم فيها خالدون﴾ على أن صحبتهم للنار دائمة، وليست من الصحبة التى تستمر مدة ثم تنقطع.

هذا جانب من قصة آدم كما حكاه القرآن فى هذه السورة، ومن الحكم التى تؤخذ منها : أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساس راسخ من العلم، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة، وأن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس، جعلتها لا ترى البراهين الساطعة، ولا يوجهها إلى الخير وعد، ولا يردعها عن الشر وعيد.

كما يستفاد منها كيف أن الرئيس يفسح المجال لمرؤسيه المخلصين، يجادلونه فى أمر يريد قضاءه، ولا يزيد عن أن يبين لهم وجهة نظره فى رفق، وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق به راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب، وتلقى أوامره بحسن الطاعة.

كما يؤخذ منها أن المتقلب فى نعمة يجب أن يحافظ عليها بشكر الله، ولا يعمل عملا فيه مخالفة لأوامر الله؛ لأن مخالفة أوامر الله، كثيرًا ما تؤدى إلى زوال تلك النعمة ، ومن أراد أن تزداد النعم بين يديه، فعليه أن يلتزم طاعة الله وشكره.

وقال بعض العلماء: وقد يتبادر إلى الذهن أن آدم قد ارتكب ما نهى عنه، ارتكاب من يتعمد المخالفة، فيكون أكله من الشجرة معصية، مع أنه من الأنبياء المرسلين، والرسل معصومون من مخالفة أوامر الله.

والجواب عن ذلك أن آدم تعمد الأكل من الشجرة، ناسيًا النهى عن الأكل منها، وفعل المنهى عنه على وجه النسيان لا يعد من قبيل المعاصى التى يرتكبها الشخص وهو متذكر أنه يرتكب محرمًا، إذ أن ارتكاب المحرم عن علم وتذكر هو الذى يجعل مرتكبه مستحقًا للعقاب، والأنبياء معصومون من ذلك.

وإذا عاتب الله بعض الأخيار من عباده عل ما صدر منهم على وجه النسيان، فلأن علمهم بالنهى يدعوهم إلى أن يقع النهى من نفوسهم موقع الاهتمام، بحيث يستفظعون مخالفته استفظاعًا يملأ نفوسهم بالنفور منها، ويجعلهم على حذر من الوقوع فى بلائها.

فالذى وقع من آدم - عليه السلام - هو أنه غفل عن الأخذ بالحزم فى استحضار النهى وجعله نصب عينيه حتى أدركه النسيان، ففعل ما نهى عنه غير متعمد للمخالفة، قال - تعالى - :

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا﴾.

هذا، وبعد أن ذكر القرآن الكريم الناس جميعًا بنعم الله عليهم، ليحملهم بذلك على إخلاص العبادة له، وتصديق رسوله ﷺ فيما جاء به، ومن بين هذه النعم خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة، بعد كل ذلك اتجه إلى تذكير طائفة خاصة من الكافرين المعاصرين للنبى ﷺ وهم بنو إسرائيل، استمالة لقلوبهم نحو الإيمان بالله، وكسرا لعنادهم ولجاجتهم، فقال - تعالى - :

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ
وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم - عليهم السلام - وفى إضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشريف لهم وتكريم، وحث لهم على الامتثال لأوامر الله ونواهيه، فكأنه قيل : يا بنى العبد الصالح، والنبى الكريم، كونوا مثل أبيكم فى الطاعة والعبادة.

ويستعمل مثل هذا التعبير فى مقام الترغيب والترهيب، بناء على أن الحسنة فى نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن، والسيئة فى نفسها سيئة وهى من بيت النبوة أسوأ، ففى هذا النداء. خير داع لذوى الفطر السليمة منهم إلى الإقبال على ما يرد بعده من التذكير بالنعمة، واستعمالها فيما خلقت له.

ومعنى ﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ تنبهوا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنافع التى أتتكم على سبيل الإحسان منى، وقوموا بحقوقها وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم، فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها.

والمراد بالنعمة : المنعم بها عليهم، وتجمع على نعم، وقد وردت فى القرآن الكريم بمعنى الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فإن لفظ العدد والإحصاء قرينة على أن المراد بالنعمة : النعم الكثيرة. ويبدو أن المراد بالنعمة فى الآية التى معنا كذلك النعم المتعددة حيث إنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معهودة، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادًا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية.

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بما عاهدهم عليه، فقال تعالى : ﴿وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم﴾ العهد ما من شأنه أن يراعى ويحفظ، كاليمين والوصية وغيرهما، ويضاف إلى المعاهِد والمعاهَد جميعًا، يقال : أوفيت بعهدى، أى بما عاهدت غيرى عليه، وأوفيت بعهدك، أى بما عاهدتنى عليه، وعهد الله : أوامره ونواهيه، والوفاء به يتأتى باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ويندرج فيه كل ما أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة، من اتباع محمد ﷺ متى بعث، والإيمان بما جاء به من عند الله وتصديقه فيما يخبر عن ربه.

والمعنى : وأوفوا بما عاهدتمونى عليه من الإيمان بى، والطاعة لى، والتصديق برسلى، أوف بما عاهدتكم عليه من التمكين فى الأرض فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

ثم أمرهم - سبحانه - بأن يجعلوا خوفهم من خالقهم وحده، فقال - تعالى - : ﴿وإياى فارهبون﴾ أى : خافونى ولا تخافوا سواى، ولتكن قلوبكم عامرة بخشيتى وحدى، فإن ذلك يعينكم على طاعتى، ويبعدكم عن معصيتى.

وحذف متعلق الرهبة للعموم، أى ارهبونى فى جميع ما تأتون، وما تذرون، حتى لا أنزل

بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم من المسخ وغيره، فالآيات الكريمة قد تضمنت وعدًا ووعيدًا وترغيبًا وترهيبًا.

﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾.

وبعد أن أمر الله - عز وجل - بنى إسرائيل، أن يوفوا بعهده عمومًا أتبع ذلك بأمرهم بأن يوفوا بأمر خاص وهو القرآن الكريم، وفى التعبير عنه بذلك تعظيم لشأنه، وتفخيم لأمره. وأفرد - سبحانه - أمرهم بأن يؤمنوا به مع إندراجه فى قوله - تعالى - ﴿وأوفوا بعهدى﴾ للإشارة إلى أن الوفاء بالعهد لا يحصل منهم إلا إذا صدقوا به.

والمراد بما معهم التوراة، والتعبير عنها بذلك للإشعار بعلمهم بتصديقه لها. والمعنى: آمنوا يا بنى إسرائيل بالكتاب المنزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم المصدق لكتابكم التوراة، ومن مظاهر هذا التصديق اشتمال دعوته على ما يحقق دعوتها، من الأمر بتوحيد الله - تعالى - والحث على التمسك بالفضائل، والبعد عن الرذائل، وإخباره بما جاء بها من الإشارة إلى بعثة النبى ﷺ، ومطابقة ما وصفته به مطابقة واضحة جلية وموافقته لها فى أصول الدين الكلية، وهيمنته عليها، ولذا قال - عليه الصلاة والسلام -: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى»[١].

وفى إخبار بنى إسرائيل بأن القرآن الكريم مصدق لما معهم، إثارة لهممهم لو كانوا يعقلون - للإقبال عليه، متدبرين آياته، حتى تستيقن نفوسهم أنه دعوة الحق والإصلاح المؤدية إلى السعادة فى الدنيا والآخرة وحتى تطمئن قلوبهم إلى أن الإيمان به معناه الإيمان بما معهم، والكفر به، كفر بما بين أيديهم، حيث إن ما بين أيديهم قد بشر ببعثة محمد - ﷺ - المنزل عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الرازى: (وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبى - ﷺ - من وجهين:

أولهما: أن الكتب السابقة قد بشرت به، وشهاداتها لا تكون إلا حقًا

وثانيهما: أنه - عليه الصلاة والسلام - قد أخبرهم عما فى كتبهم بدون معرفة سابقة لها، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الوحى[٢].

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان الخالص، عرض بهم لتكذيبهم وجحوهم، فقال - تعالى -: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أى: لا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر بالقرآن الكريم، فيقتدى بكم أناس آخرون وبهذا تصيرون أئمة للكفر مع أن من الواجب

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما -

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٣٠

عليكم أن تسارعوا إلى الإيمان به لأنكم أدرى الناس بأنه من عند الله، وأكثرهم علمًا بأنه الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن، وهو الصادق الأمين فيما يبلغه عن ربه.

والمقصود من هذه الجملة الكريمة، تبكيتهم على مسارعتهم فى الكفر، واستعظام وقوع الجحود منهم، وتوعدهم عليه بسوء المآل.

قال الإمام الرازى: (هذه الجملة خطاب لبنى إسرائيل قبل غيرهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم: لا تكفروا بمحمد، فإنه سيكون بعدكم كفرة، فلا تكونوا أنتم أولهم لأن هذه الأولية موجبة لمزيد الإثم، وذلك لأنهم إذا سُبقوا إلى الكفر، فإما أن يقتدى بهم غيرهم أولا، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزره ووزر كل كافر إلى يوم القيامة، وإن لم يقتد بهم غيرهم، اجتمع عليهم أمران: السبق إلى الكفر؛ والتفرد به وكلاهما منقصة عظيمة، وتؤدى إلى العاقبة الوبيلة)[1].

ثم نهاهم عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم، فقال - تعالى -: ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلا﴾. والاشتراء هنا استعارة للاستبدال، والذى استبدل به الثمن القليل هو الإيمان بالآيات، والمراد بالآيات: البراهين المؤيدة لصدق النبى ﷺ وفى مقدمتها القرآن الكريم والتوراة.

والمراد بالثمن القليل: حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال والجاه، وما إلى ذلك من الأمور التى خافوا ضياعها لو اتبعوا الرسول ﷺ.

والمعنى: لا تستبدلوا بالإيمان بما أنزلت مصدقًا لما معكم شيئًا من حطام الدنيا، ولا تختاروا على ثواب الله بديلا من الأموال، فإنها مهما كثرت فهى قليلة مسترذلة بالنسبة لما يناله أولو الإيمان الخالص من رعاية ضافية فى الدنيا، وخيرات حسان فى الأخرى.

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات؛ إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - عز وجل -.

ونزل تمكينهم من الإيمان بالآيات لوضوحها منزلة حصوله بالفعل، فكأن الإيمان كان فى حوزتهم، ولكنهم خلعوه ونبذوه، مستبدلين الذى هو أدنى بالذى هو خير؛ فباءوا بغضب على غضب لكفرهم بالقرآن الكريم وبتوراتهم التى بشرت بالرسول - عليه الصلاة والسلام -.

ثم حذرهم - سبحانه - من التمادى فى الكفر بما أنزل، مصدقًا لما معهم، فقال - تعالى - «وإياى فاتقون» الاتقاء معناه الحذر، يقال: فلان اتقى الله أى حذر عقابه وبطشه، والحذر من

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٤٣٢ بتصرف وتلخيص.

عقاب الله، يستلزم امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فمعنى «وإياى فانقون» آمنوا بى، واتبعوا الحق وأعرضوا عن الباطل.

وبعد أن نهى القرآن الكريم بنى إسرائيل عن الكفر والضلال، عقب ذلك بنهيهم عن أن يعملوا لإضلال غيرهم، فقال - تعالى - : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾.

اللبس - بفتح اللام - الخلط، وفعله : ليس، من باب : ضرب تقول : لَبَست عليه الأمر، ألبِسه إذا مزجت بينه بمشكله، وحقه بباطله.

ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس :

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾.

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر، وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿وتكتموا الحق﴾.

وقد استعمل بنو إسرائيل الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام، فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى - ﷺ - تأويلا فاسدًا، يخلطون فيه الحق بالباطل، ليوهموا العامة أنه ليس هو النبى المنتظر، وكان بعضهم يلقى حول الحق الظاهر شبهًا، ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبى ﷺ، والتى لا توافق أهواءهم وشهواتهم، فنهاهم الله - تعالى - عن هذه التصرفات الخبيثة.

والمعنى : ولاتخلطوا الحق الواضح الذى نطقت به الكتب السماوية، وأيدته العقول السليمة، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم، إرضاء لأهوائكم، ولا تكتموا الحق الذى تعرفونه، كما تعرفون أبناءكم، بغية انصراف الناس عنه «لأن من جهل شيئًا عاداه ، فالنهى الأول عن التغيير والخلط، والنهى الثانى عن الكتمان والإخفاء.

وقوله تعالى : ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية، أى وأنتم من ذوى العلم، ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق، أو يلبسه بالباطل، وإذا كان هذا الفعل - وهو لبس الحق بالباطل، أو كتمانه وإظهار الباطل وحده - يعد من كبائر الذنوب، فإن وقعه يكون أقبح، وفساده أكبر، وعاقبته أشأم متى صدر من عالم فاهم، يميز بين الحق والباطل.

ففى هذه الجملة الكريمة بيان لحال بنى إسرائيل، المخاطبين بهذا النهى، وتبكيت لهم، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه عن جهالة، وإنما عن علم وإصرار على سلوك هذا الطريق المعوج.

قال أبو حيان فى البحر : «وهذه الحال، وإن كان ظاهرها أنها قيد فى النهى عن اللبس والكتم، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل، إذ الجاهل بحال الشىء لا يدرى كونه حقًا أو باطلا، وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة، مع العلم بها، أفحش من الإقدام عليها مع الجهل[1].

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بأصل الدين الذى هو الإيمان به وبرسوله محمد ﷺ أردفه بركنين من أركانه العملية، إذا قاموا بهما لانت قلوبهم للحق، وانعطفت نفوسهم نحو خشية الله وحده، فقال تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ والمراد بإقامة الصلاة، أداؤها مستوفية لأركانها وشرائطها وآدابها. والمراد بإيتاء الزكاة دفعها لمستحقيها كاملة غير منقوصة.

والمعنى : عليكم يا معشر اليهود أن تحافظوا على أداء الصلاة، التى هى أعظم العبادات البدنية، وعلى إيتاء الزكاة التى هى أعظم العبادات المالية، وأن تخضعوا لما يلزمكم فى دين الله - تعالى - لأن فى محافظتكم على هذه العبادات تطهيرًا لقلوبكم، وتأليفًا لنفوسكم، وتزكية لمشاعركم، ولأنكم إن لم تحافظوا عليها كما أمركم الله - تعالى - فسيلحقكم الخزى فى الدنيا، والعذاب فى الأخرى.

هذا، ونرى من المناسب أن نختم تفسير هذه الآيات الكريمة، وبيان ما اشتملت عليه من توجيه سليم، وتركيب بليغ، بما قاله أبو حيان فى تفسيره، فقد قال - رحمه الله - :

«وفى هذه الجمل - وإن كانت معطوفات بالواو التى لا تقتضى فى الوضع ترتيبًا - ترتيبٌ عجيب من الفصاحة، وبناء الكلام بعضه على بعض، وذلك أنه تعالى أمرهم أولا بذكر النعمة التى أنعمها عليهم، إذ فى ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته : ثم أمرهم بإيفاء العهد الذى التزموه للمنعم، ثم رغبهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم فى الإيفاء بالعهد، ثم أمرهم بالخوف من نقمه إن لم يوفوا، فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان، وأمر بالخوف من العصيان. ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن، ورغب فى ذلك بأنه مصدق لما معهم، فليس أمرًا مخالفًا لما فى أيديهم، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس، ثم أمرهم - تعالى - باتقائه ثم أعقب ذلك بالنهى عن لبس الحق بالباطل، وعن كتم الحق، فكان الأمر بالإيمان أمرًا بترك الضلال، والنهى عن لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق تركًا للإضلال.

(١) تفسير «البحر المحيط» لأبى حيان جـ ١ ص ١٨٠، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ.

ولما كان الضلال ناشئًا عن أمرين :

إما تمويه الباطل حقًا، إن كانت الدلائل قد بلغت المستمع، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتكتموا، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان، وإظهار الحق بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأن الصلاة آكد العبادات البدنية، والزكاة آكد العبادات المالية ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له - تعالى - مع جملة الخاضعين الطائعين.

فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للمنعم، وما بينهما من تكاليف اعتقادية، وأفعال بدنية ومالية، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والاختتام يظهر فضل كلام الله - تعالى - على سائر الكلام، وهذه الأوامر والنواهى، وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فى الصورة، إلا أنها عامة فى المعنى، فيجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان أن يعمل بها»[1].

وبعد كل هذه الأوامر والنواهى، وبخهم الله - تعالى - وقرعهم على ارتكابهم لأمور لا تصدر عن عاقل. وهى أنهم يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه، فقال تعالى :

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

الأمر : طلب إيجاد الفعل. والبر : اسم يتناول كل عمل من أعمال الخير. والنسيان : ضد الذكر، وهو السهو الحادث بعد حصول العلم. والعقل : يطلق على قوة فى النفس، تستعد بها لقبول العلم. وإدراك الشيء.

والمعنى : كيف يليق بكم يا معشر اليهود، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل، وألوان الخيرات، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون به غيركم، وأنتم مع ذلك تقرأون توراتكم، وتدركون أى عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه، أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه الذى ترديتم فيه، ويحذركم من سوء عاقبته؟

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره، ولذى قرابته، ولمن بينه وبينه صلة من المسلمين أثبت على الذى أنت عليه، وما يأمرك به هذا

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ١٨١ مطبعة السعادة : الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ.

الرجل - يريدون محمدًا ﷺ - فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه(١).

والمراد بالنسيان فى الآية الكريمة، تركهم العمل بما يأمرون به غيرهم، لأن الناسى حقيقة ليس مؤاخذا على مانسيه، فلا يستحق هذا التوبيخ الشديد الوارد فى الآية الكريمة، وليس التوبيخ متوجها إلى كونهم كانوا يأمرون الناس بالبر، لأنه فعل محمود، وإنما التوبيخ متوجه إلى كونهم تركوا العمل بما يرشدون إليه سواهم، فهم يداوون الناس، وقلوبهم مليئة بالأمراض والعلل.

وقوله تعالى: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ مزيد تقبيح لشأنهم، ذلك أن قراءتهم لكتبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل الذى قد يتشبث به بعض الفاسقين على أمر الله عند ما ينكر الناس عليهم فسوقهم.

وفى قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ أسمى أنواع الهداية والإرشاد السليم، فإن من ألطف الأساليب فى الخطاب والتوجيه، أن يكون للموجه إليه النصح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة، فيذكر له مسدى النصح تلك الصفة فى معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه.

وتطبيقًا لهذا المبدأ نقول: إن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ يعقلون ويدركون الأشياء، وبهذا الإدراك توجه إليهم التكليف بالعقائد والشرائع، ولكنهم لم يسيروا على مقتضى مالديهم من عقول، حيث كانوا يأمرون الناس بالخير، ويصرفون أنفسهم عنه، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن ما أتيتم من أفعال سقيمة. يجعل الناظر إليكم يحكم عليكم بلا أدنى تردد بأنكم لا عقول لكم، ولا فضيلة لديكم، وفى هذا الأسلوب ما فيه من الترغيب فى فعل الخير؛ والترهيب من فعل الشر.

ولما كانت الأمور التى كلفهم الله بها قبل ذلك فيها مشقة لا يتحملها كل أحد بسهولة. فقد أرشدهم إلى الوسائل التى تقوى عزائمهم، وتطهر قلوبهم، وتعالج أمراض نفوسهم فقال تعالى:

وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٣٦٥: طبعة دار الكتب سنة ١٢٤٥ هـ (سنة ١٩٢٥ م).

قوله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ الاستعانة : طلب المعونة، والصبر حبس النفس على ما نكره. يقال : صبر على الطاعة. أى حبس نفسه عليها متحملا ما يلاقيه فى أدائها من مشاق وصبر عن المعصية. أى كف نفسه عما تنزع إليه من أهواء.

والمعنى : واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التى تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات، وبفريضة الصلاة التى تنهاكم عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى : ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ كبيرة : أى صعبة شاقة. يقال كبر الشىء إذا شق وثقل، ومنه قوله تعالى : ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أى ثقل وصعب - والخاشعين : من الخشوع وهو فى الأصل اللين والسهولة «ومعناه فى الآية الكريمة. الخضوع والاستكانة لله تعالى، والضمير فى - إنها - للصلاة لعظيم شأنها واستجماعها لضروب من الصبر، والاستثناء مفرغ. أى كبيرة على كل الناس إلا على الخاشعين.

والمعنى : إن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى لأنهم موقنون أنها من أهم وسائل الفلاح فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة، ولأنهم يجدون عند أدائها اغتباطًا وسرورًا يجعل نفوسهم تنشط إليها كلما حل وقتها بهمة وإخلاص.

قال الإمام الرازى : «فإن قيل : إن كانت ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين، فيجب أن يكون ثوابهم أكثر، وثواب الخاشع أقل، وذلك منكر من القول؟ قلنا : ليس المراد أن الذى يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع. وكيف يكون ذلك، والخاشع يستعمل فى الصلاة جوارحه وقلبه، ولا يغفل فيها؛ وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه يفعل الصلاة أعظم. وإنما المراد بقوله تعالى : ﴿وإنها لكبيرة﴾. أى ثقيلة على غير الخاشع؛ لأنه لا يعتقد فى فعلها ثوابًا، ولا فى تركها عقابًا، فيصعب عليه فعلها، فالحاصل أن الملحد لاعتقاده عدم المنفعة فى أدائها ثقل عليه فعلها، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه يثقل على الطبع. أما الموحد فلما اعتقد فى فعلها أعظم المنافع، وفى تركها أكبر المضار، لم يثقل عليه أداؤها. بل أداها وهو سعيد بها، ألا ترى إلى قول الرسول ﷺ : «جعلت قرة عينى فى الصلاة» وصفها بذلك لأنها كانت لا تثقل عليه.

ثم وصف - سبحانه - الخاشعين وصفًا يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة، فقال - تعالى - : ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾.

الظن : يرد فى أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع، وهو المراد هنا؛ ومثل ذلك قوله - تعالى - ﴿ألا يظن

أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ أى ألا يعتقد أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. وقوله تعالى: ﴿إنى ظننت أنى ملاق حسابيه﴾ أى علمت أنى ملاق حسابيه.

وملاقاة الخاشعين لربهم معناها الحشر إليه بعد الموت، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل.

والمعنى: إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين، الذين يعتقدون لقاء الله - تعالى - يوم الحساب، وأنهم عائدون إليه لينالوا ما يستحقونه من جزاء على حسب أعمالهم.

قال ابن جرير - مرجحًا أن المراد بالظن هنا العلم واليقين - : «إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله - تعالى - عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه، والظن شك، والشاك فى لقاء الله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تسمى اليقين ظنًا: والشك ظنًا؛ نظير تسميتهم الظلمة سدفة. والضياء سدفة، والمغيث صارخًا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشىء وضده، ومما يدل على أنه يسمى به اليقين، قول دريد بن الصمة: (فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج...).

يعنى بذلك: تيقنوا أن ألفى مدجج تأتيكم، ثم قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا لمن وفق فى فهمه كفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ وعن مجاهد قال: «كل ظن فى القرآن فهو علم»[1].

والذين قالوا إن الظن هنا على معناه الحقيقى، وهو الاعتقاد الراجح، فسروا «ملاقاة الخاشعين لربهم» بمعنى قربهم من رضاه يوم القيامة «ورجوعهم إليه» بمعنى حلولهم بجواره الطيب، واستقرارهم فى جناته، أى: وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يتوقعون قربهم من ربهم، ودخولهم جناته عند رجوعهم إليه.

وإلى هذا التفسير ذهب صاحب الكشاف، فقد قال: (فإن قلت: مالها لم تثقل على الخاشعين والخشوع فى نفسه مما يثقل؟ قلت: لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ أى يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده ويطمعون فيه)[2].

وإنما كان شعور الخاشعين بذلك كله ظنًا لا يقينًا، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون

---

(١) تفسير ابن جزير جـ١ ص ٢٦٢.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ١٣٤.

سوى علام الغيوب، ففى وصفهم بأنهم ﴿يظنون﴾ إشارة إلى خوفهم، وعدم أمنهم مكر الله - تعالى - وهكذا يكون المؤمن دائمًا بين الخوف والرجاء.

ومن هذا العرض لمعنى الآية الكريمة يتبين لنا، أن من فسر الظن هنا بمعنى اليقين والعلم، يرى أن لقاء الخاشعين لله معناه الحشر بعد الموت، ورجوعهم إليه معناه مجازاتهم على أعمالهم. والحشر والمجازاة يعتقد صحتهما الخاشعون اعتقادًا جازمًا.

أما من فسر الظن هنا بمعنى الاعتقاد الراجح، فيرى أن لقاء الخاشعين لله معناه توقعهم لقاء ثوابه، ورجوعهم إليه معناه ظفرهم بجناته، وتوقع الثواب والظفر بالجنات يرجح الخاشعون حصولهما لأن مرجعهما إلى فضل الله وحده.

والذى نراه أن الرأى الأول أكثر اتساقًا مع ظاهر معنى الآية الكريمة وبه قال قدماء المفسرين، كمجاهد وأبى العالية وغيرهما.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة توبيخ أحبار اليهود على نصحهم لغيرهم وتركهم لأنفسهم وإرشادهم إلى العلاج الذى يشفيهم من هذا الخلق الذميم، ومن غيره متى استعملوه بصدق وإخلاص، وهذا العلاج يتمثل فى تذرعهم بالصبر. ومداومتهم على الصلاة، وشكرهم لله - تعالى - على نعمه التى فصلت الآيات بعد ذلك الحديث عنها، وها نحن نذكرها مرتبة كما ساقها القرآن الكريم.

أولا: نعمة تفضيلهم على العالمين: قال - تعالى -:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

أعاد القرآن الكريم نداءهم، تأكيدًا لتذكيرهم بواجب الشكر، واهتمامًا بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات، وتفصيلا لما أسبغه الله عليهم من منن بعد أن أجملها فى النداء الأول، ليكون التذكير أتم والتأثير أشد، والشكر عليها أرجى.

وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما فى حال ذكر النعم، لأن تكرارها يغرى النفوس الكريمة بطاعة مرسلها، والسير على الطريق القويم.

وقوله تعالى : ﴿وأنى فضلتكم على العالمين﴾ عطف على نعمتى، أى واذكروا تفضيلى إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة، فعطفه على ﴿نعمتى﴾ من عطف الخاص على العام للعناية به، وهو- أى : التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها، والمقصود منه الحض على الاتصاف بما يناسب تلك النعم، ويستبقى ذلك الفضل.

وقد ذكر الله - تعالى - بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بهذه النعم مع أنها كانت لآبائهم. كما يدل عليه سياق الآيات؛ لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم، وحسن سمعة تعود عليهم، وتغريهم بالإيمان والطاعة - لو كانوا يعقلون -.

ومن مظاهر، تفضيل الله لبنى إسرائيل على عالمى زمانهم، جمعه لهم من المحامد قبل بعثة النبى ﷺ. ما لم يجمع لغيرهم. فقد حياهم بكثير من النعم، وبعث فيهم عددًا كبيرًا من الأنبياء، ونجاهم من عدوهم، ولم يعجل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم، واقترافهم شتى ألوان المنكرات عن تعمد وإصرار، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بذنوبهم كما استأصل غيرهم كقوم عاد وثمود.

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان. بل قابلوها بالجحود والطغيان فسلبها الله عنهم، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم

ولقد حكى القرآن ألوانا من النعم التى منحها الله لبنى إسرائيل ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران فأزالها الله عنهم. من ذلك قوله تعالى :

﴿سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾(1).

أى : سل - يا محمد - بنى إسرائيل المعاصرين لك. سؤال تقريع وتوبيخ. كم آتاهم الله على أيدى أنبيائهم من النعم الجليلة، والمعجزات الباهرة، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات، وتمكنوا منها وعقلوها قابلوها بالعناد والاستهزاء، وجعلوها من أسباب ضلالهم مع أنها مسوقة لهدايتهم وسعادتهم، فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة فى الدنيا، وتوعدهم بشديد العقاب فى الآخرة.

ومن الآيات التى صرحت بأن الله - تعالى - أعطى بنى إسرائيل نعمًا وفيرة، ولكنهم لم يحمدوه عليها. قوله تعالى :

---

(1) سورة البقرة الآية ٢١١.

﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾(١).

أى: ولقد نجينا بفضلنا وكرمنا بنى إسرائيل من العذاب المهين الذى كان ينزله بهم فرعون وجنده، بأن أغرقناه ومن معه أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلومًا غشومًا، وفضلا عن ذلك فقد اصطفينا بنى إسرائيل - على علم منا بما يكون منهم - على عالمى زمانهم وآتيناهم من النعم والمعجزات. ما فيه اختبار لقلوبهم، وامتحان لنفوسهم. فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان أن كفروا بنعم الله، وكذبوا برسله وقتلوهم. فتوعدهم الله فى الدنيا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة. أما فى الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد.

- وأيضا - من الآيات التى ساقت أنواعًا من نعم الله على بنى إسرائيل ولكنهم لم يشكروه عليها قوله تعالى:

﴿ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم. إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾(٢).

والمعنى: ولقد آتينا بنى إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم الحكمة والفقه فى الدين، وجعلنا النبوة فى عدد كبير منهم، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة، وفضلناهم على من عاصرهم من الأمم قبل بعثة النبى ﷺ وفضلا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدى أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التى تقوى إيمانهم، وتهديهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم لم ينتفعوا بهذه النعم. بل جعلوا علمهم بالدين الحق سببًا للخلاف والشقاق، والسير فى طريق الضلال، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم.

والعبرة التى نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها. أن الله - تعالى - فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية. ومنحهم الكثير من النعم، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر. بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر. فسلب الله عنهم ما حباهم من نعم، ووصفهم فى كتابه بأقبح الصفات وأسوأ الطباع. كقسوة القلب، ونقض العهد، والتهالك على شهوات الدنيا، والتعدى على الغير. والتحايل على استحلال محارم الله، ونبذهم للحق واتباعهم الباطل... إلى غير ذلك من الصفات التى توارد ذكرها فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة الدخان الآيات ٣٠ - ٣٣.

(٢) سورة الجاثية الآية ١٧، ١٨.

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفرًا؛ لأن الميزان عند الله للتقوى والعمل للصالح، وليس للجنس أو اللون أو النسب.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: فإن قيل: إن تفضيلهم على العالمين يقتضى تفضيلهم على أمة محمد ﷺ، وهذا باطل. فكيف الجواب؟ قلنا: الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد: فضلتكم على عالمى زمانكم وذلك لأن الشخص الذى سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن من جملة العالمين حال عدمه، وأمة محمد ﷺ ما كانت موجودة فى ذلك الوقت، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين فى ذلك الوقت. أنهم أفضل من الأمة المحمدية. وهذا هو الجواب أيضًا عن قوله - تعالى - : ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾. وعن قوله تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾[1].

وبهذا يتعين بطلان دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار. استنادًا إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها، لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص، ولا يشهد لها العقل السليم. ثم قال تعالى:

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

بعد أن ذكرهم - سبحانه - فى الآية السابقة بنعمة عظمى من نعمه حذرهم فى هذه الآية الكريمة من التقصير فى العمل الصالح، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمى زمانهم قد يحملهم على الغرور، ويجعلهم يتوهمون أنهم مغفور لهم لو أذنبوا. فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذهانهم تلك الأوهام بأحكم عبارة وأجمع بيان.

والمراد باتقاء اليوم، وهو يوم القيامة، الحذر مما يحدث فيه من أهوال وعذاب، والحذر منه يكون بالتزام حدود الله - تعالى - وعدم تعديها، فهو من إطلاق الزمان على ما يقع فيه كما تقول «مكان مخيف» وتنكير النفس فى الموضعين وهو فى حيز النفى يفيد عموم النفوس. أى: لاتقضى فيه نفس كائنة من كانت عن نفس أخرى شيئًا من الحقوق.

ووصف اليوم بهذا الوصف، ولم يقل «يوم القيامة» مثلا، للإشعار بأن التصرف فى ذلك اليوم لله وحده. فليس فيه ما اعتاد الناس فى هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض.

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٣٥٥.

والمعنى : احذروا - يا بنى إسرائيل - يومًا عظيمًا أمامكم، سيحصل فيه من الحساب والجزاء مالا منجاة من هوله إلا بتقوى الله فى جميع الأحوال والإخلاص له فى كل الأعمال، فهو يوم لا تقضى فيه نفس مهما كان قدرها عظيما عن نفس شيئًا ما، مهما يكن ذنبًا صغيرًا.

ثم وصف القرآن الكريم ذلك اليوم بوصف آخر يناسب المقام. فقال تعالى : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ الضمير فى (منها) يعود إلى النفس المحاسبة فى ذلك اليوم. والشفاعة : من الشفع ضد الوتر، وهى انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه، أى لا يقبل منها أن تأتى بشفيع ليحصل لها نفعًا، أو يدفع عنها ضررًا.

والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفيًا مطلقًا، ولكن هنالك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا ممن أذن له الرحمن فى ذلك، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾(١) وقوله تعالى : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا﴾(٢).

وللجمع بين هذه الآيات، تحمل الآيات التى تنفى الشفاعة نفيًا مطلقًا على أنها واردة فى شأن النفوس الكافرة، وتحمل الآيات التى تبيح الشفاعة على أنها واردة فى شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى ﷺ ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام المؤمنين، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، من ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا وجعلت أمتى خير الأمم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة(٣).

قال الإمام ابن جرير : (وهذه الآية وإن كان مخرجها عامًا فى التلاوة فإن المراد بها خاص فى التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ. أنه قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى، وأنه قال : ليس من نبى إلا وقد أعطى دعوة، وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى، وهى نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئا. فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله ﴿ولا يقبل منها

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٢) سور طه الآية ١٠٩.
(٣) صحيح البخارى «باب التيمم» جـ١ ص ٩١.

شفاعة﴾ إنما هى لمن مات على كفره غير تائب إلى الله - عز وجل - » هـ[1].

ثم وصف اليوم بوصف ثالث فقال تعالى : ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾.

العدل : العوض والفداء. سمى بالمصدر لأن الفادى يعدل المفدى بمثله فى القيمة أو العين ويسويه به. يقال : عدل كذا بكذا : أى سواه به.

والمعنى : لا يؤخذ منها فداء أو بدل فى ذلك اليوم إن هى استطاعت إحضاره على سبيل الفرض والتقدير.

ثم وصفه بوصف رابع فقال تعالى : ﴿ولاهم ينصرون﴾ والنصر هو الإعانة فى الحرب وغيره بقوة الناصر، وقدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق. فضلا عما استفيد من نفى الفعل وإسناده للمجهول وجاء الضمير فى قوله تعالى : ﴿ولاهم ينصرون﴾ جمعًا مع أنه عائد على النفس وهو قوله تعالى : ﴿لا تجزى نفس﴾؛ لأن النكرة إذا وقعت فى سياق النفى تناولت كل فرد من أفرادها، وبهذا صارت فى معنى الجمع، وصح أن يعود عليها ضمير الجمع وهو (هم).

والمعنى. أنهم لا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله يوم القيامة

ولما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم فى مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم، وأن آباءهم سيشفعون لهم. . . لما كانوا كذلك جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ما اعتقدوه، وتقطع ما أمّلوه، ولتنقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة للنجاة يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح.

فقد نفت الآية الكريمة وجود من ينوب عنهم بقولها ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئًا﴾.

ونفت انتفاعهم بشفاعة الشافعين يوم الحساب بقولها (ولا يقبل منها شفاعة).

ونفت قبول البدل أو الفداء عما ارتكبوه من خطايا بقولها ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾.

ونفت وجود من ينتصر لهم أو يدافع عنهم بقولها ﴿ ولاهم ينصرون﴾

وهكذا سدت عليهم الآية الكريمة كل منفذ يتوهمون نجاتهم من عذاب الله بسببه، ما داموا مصرين على كفرهم وجحودهم.

هذا، وقد اشتملت هاتان الآيتان على أسلوب حكيم فى التوجيه، وطريقة فريدة فى الإرشاد، جمعت بين الترغيب والترهيب، فإن الآية الأولى ابتدأت بندائهم باسم أبيهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٦٨.

إسرائيل - عليه السلام - الذى هو أصل عزهم، ومنشأ تفضيلهم لتحيى الشعور بالكرامة فى نفوسهم، ولتغرس الإحساس بالشرف فى مشاعرهم، ولتحملهم على الترفع عن الدنايا؛ لأن الذى يشعر أنه من منبت كريم تعاف نفسه الحقد والكذب والصغار، ثم جاءت الآية الثانية فأرشدتهم إلى أن التقوى هى سبب السلامة والفوز، وحذرتهم من أهوال يوم القيامة وأفهمتهم بأن انتسابهم إلى أولئك الآباء لن يغنى من الله شيئًا يوم الجزاء، وإنما الذى ينفعهم فى ذلك اليوم هو اتباع تعاليم الإسلام، التى أتى بها النبى - عليه الصلاة والسلام - وفى ذلك ما فيه من كبح غرورهم، وإبطال ظنونهم.

ثانيا: نعمة إنجائهم من عدوهم:

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليله الشأن، هى نعمة إنجائهم من عدوهم فقال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتى﴾ فى الآية السابقة، من باب عطف المفصل على المجمل: أى: اذكروا نعمتى، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون.

وإذ: بمعنى وقت، «وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى: اذكروا وقت أن نجيناكم، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث.

وآل الرجل: أهله وخاصته وأتباعه، ويطلق غالبًا على أولى الخطر والشأن من الناس، فلا يقال آل الحجام أو الإسكاف.

وفرعون: اسم لملك مصر كما يقال لملك الروم قيصر، ولملك اليمن تبع ويسومونكم: من سامه خسفا إذا أذله واحتقره وكلفه مالا يطيق.

والابتلاء: الامتحان والاختبار، ويكون فى الخير والشر، قال - تعالى - ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[1].

والمعنى: اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٥.

العذاب وأصعبه، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم، وامتهان لكرامتكم، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم، ويستبقون نفوس نسائكم، وفى ذلكم العذاب، وفى النجاة منه امتحان لكم بالسراء لتشكروا، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا، والعذاب فى الأخرى.

قال الإمام الرازى - رحمه الله - ما ملخصه: واعلم أن الفائدة فى ذكر هذه النعمة - أى نعمة إنجائهم من عدوهم - يتأتى من وجوه أهمها:

١ - أن هذه الأشياء التى ذكرها الله - تعالى - لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة، صار تخليص الله - عز وجل - لهم من هذه المحن من أعظم النعم، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذل من بالغ فى إذلالهم، ولا شك فى أن ذلك من أعظم النعم، وعظم النعمة يوجب المبالغة فى الطاعة والبعد عن المعصية، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة، وليقطع عذرهم.

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا فى نهاية الذل. وكان عدوهم فى نهاية العز، إلا أنهم كانوا محقين، وكان خصمهم مبطلا، لا جرم زال ذل المحقين، وبطل عز المبطلين، فكأنه تعالى يقول لهم: لا تغتروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مركزكم، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم، فإن الحق إلى جانبهم. ومن كان الحق إلى جانبه، فإن العاقبة لابد أن تكون له) اهـ[1]

وخوطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ ومع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم، لأن فى نجاة أسلافهم نجاة لهم، فإنه لو استمر عذاب فرعون للآباء لأفناهم، ولما بقى هؤلاء الأبناء، فلذلك كانت منة التنجية تحمل فى طياتها منتين، منة على السلف لتخليصهم مما كانوا فيه من عذاب ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها، فكان من الواجب عليهم جميعًا أن يقدروا هذه النعمة قدرها، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذى أنجاهم من عدوهم. ولأن الإنعام على أمة يعتبر إنعامًا شاملا لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك الإنعام ومن لم يصبه. ولأن الآثار التى تترتب عليه كثيرا ما يرثها الخلف عن السلف، ولأن فى إخبارهم بذلك تصديقًا للنبى - عليه الصلاة والسلام - فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبرهم بتاريخ من مضى منهم بصدق وأمانة، وفى ذلك دليل على أنه صادق فى نبوته ورسالته.

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه، مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونًا له فى إذاقتهم سوء العذاب، وإنزال الإذلال والاعنات بهم.

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٣٦٠.

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهو فى ظاهره خير - لأن هذا الإبقاء عليهن، كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق. فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم، تأباه النفوس الكريمة، والطباع الطيبة.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: (فى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه:

أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال، وذلك يقتضى انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة فى ذلك، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعًا.

ثانيهما: أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال. لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد. فصارت هذه الخطة عظيمة فى المحن، والنجاة منها تكون فى العظم بحسبها.

ثالثها: أن قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل التعب، والرجاء القوى فى الانتفاع به، من أعظم العذاب، فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة.

رابعها: أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان)[1].

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء فى قوله تعالى: ﴿يذبحون أبناءكم﴾ الأطفال دون البالغين، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال، لما قامت أم موسى بإلقائه فى اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال لا الأطفال، لأن لفظ الأبناء هنا جعل فى مقابلة النساء، والنساء هن البالغات.

والذى نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا، ولأنه أتم فى إظهار نعمة الإنجاء، حيث كان أهل فرعون يقتلون الصغار قطعًا للنسل، ويسترقون الأمهات استعبادا لهن، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت.

وقد جاءت جملة ﴿يذبحون أبناءكم﴾ فى هذه الآية الكريمة بدون عطف وجاءت فى سورة إبراهيم معطوفة بالواو[1]. لأنها هنا بيان وتفسير لجملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ فيكون

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٣٥٨.

(٢) آية سورة إبراهيم هى قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾. الآية ٦.

المراد من سوء العذاب هنا تذبيح الأبناء واستحياء النساء.

وأما فى سورة إبراهيم. فقد جاء سياق الآيات لتعداد المحن التى حلت ببنى إسرائيل، فكان المراد بجملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ نوعًا منه، والمراد بجملة ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ نوعًا آخر من العذاب، لذا وجب العطف، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى وإنما هى تمثل نوعا آخر من المحن التى حلت بهم.

هذا، وقد تكرر تذكير بنى إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم فى مواضع متعددة من القرآن الكريم، وذلك لجلال شأنها، ولحملهم على الطاعة والشكر.

١ - من ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾(١).

٢ - وقوله تعالى فى سورة طه: ﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾(٢).

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هى فى معناها فيها تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم، حيث أنجاهم - سبحانه - ممن أراد لهم السوء، وعمل على قتلهم وإبادتهم واستئصال شأفتهم، وفى ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد فى شكر الله - عز وجل - لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم.

ثالثا: نعمة فرق البحر بهم.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة ثالثة عظيمة حصل بها تمام الانجاء وتجلى فيها إكرام الله لهم، وهى نعمة فرق البحر بهم فقال تعالى:

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)

والمعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل من جملة نعمنا عليكم، نعمة فرق البحر بكم، وانفصاله بعد اتصاله، حين ضربه موسى بعصاه، فأصبحت فيه طريق يابسة فولجتموها، وسرتم فيها

(١) الآية ١٤١. (٢) الآيات ٨٠ - ٨٢.

هربًا من فرعون وجنده؟ بذلك تمت لكم النجاة، وحصل الغرق لأعدائكم، وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه، مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض. ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ، ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم.

فالآية الكريمة تشير إلى قصة نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون وقومه، وملخصها:

أن الله - عز وجل أوحى إلى نبيه - موسى - عليه السلام - أن يرحل ببنى إسرائيل ليلا من أرض مصر التى طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين، ونفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به الله - تعالى - وعلم فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام، فتبعهم بجيش كبير، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر، وأيقن بنو إسرائيل عندما رأوه أنه مهلكهم لا محالة. ولجأوا إلى موسى - عليه السلام - يشكون إليه خوفهم وفزعهم، ولكنه رد عليهم بقوله: ﴿إن معى ربى سيهدين﴾ وأوحى الله إليه ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ وأمر موسى - عليه السلام - بنى إسرائيل أن يعبروا فعبروا بين فرقى الماء دون أن يمسهم أذى. واقتفى فرعون وجنوده أثرهم طمعا فى إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر ولم يبق منهم أحد بين المياه المنحسرة، كان فرعون وجنده ما زالوا بين فرقى البحر، فاطبق عليهم وعاد كما كان أولا، فغرقوا جميعًا، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم فى دهشة وسرور.

وأسند - سبحانه - فرق البحر إلى ذاته الكريمة. ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه وهم بعنايته، وقوله تعالى: ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ بيان للمنة العظمى التى امتن بها عليهم، والتى ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران.

أولهمـا: نجاتهم.

وثانيهما: إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة.

والإيمان الصحيح يقضى بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية له، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وهو زعم لا سندله ولا دليل عليه.

واقتصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون أى جنده وأنصاره، وصرحت آيات أخرى بغرقه مع آله، من ذلك قوله تعالى: ﴿فأغرقناه ومن معه جميعًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فأخذناه

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٣.

وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم﴾(١) ومن تمام النعمة أن الله - تعالى - أهلك مع فرعون كل مناصر له :

وقوله تعالى ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى : أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم، فكان ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوكم، وأبلغ فى الشماتة به، وأرجى لشكر النعمة - ولا شك أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى، ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظمى، ومعاينته لا نفراق البحر فيها تقوية لإيمانه، وتثبيت ليقينه، إذا كانوا ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (اعلم أن هذه الواقعة - أى واقعة فلق البحر - تضمنت نعمًا كثيرة على بنى إسرائيل فى الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه :

أولها : أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا فى موقف حرج، لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم، وإن هم تقدموا أغرقوا. فحصل لهم خوف عظيم، جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم.

ثانيها : أن الله - تعالى - خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريمًا ورعاية لهم.

ثالثها : أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب، وتم لهم الأمن والاطمئنان، وذلك نعمة عظمى، لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا، لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل.

أما نعم الدين فمن وجوه :

أولها : أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة. زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى، تقترب من العلم الضرورى.

ثانيها : أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيًا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم.

ثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله، فإنه لاعز فى الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل، ثم إن الله - تعالى - فى لحظة واحدة جعل العزيز ذليلا، والذليل عزيزًا، والقوى ضعيفًا، والضعيف قويًا، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل -(٢).

هذا، ونعمة فرق البحر لبنى إسرائيل، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها فى القرآن،

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٠.

(٢) تفسير الرازى بتصريف جـ١ ص ٣٦٠.

من ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معى ربى سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين﴾(١)

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهى نعمة فرق البحر بهم - لكى يشكروا خالقهم عليها، ويتبعوا نبيه محمدًا ﷺ ولكنهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم، فحقت عليهم اللعنة فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة، جزاء جحودهم وطغيانهم وما ربك بظلام للعبيد.

رابعا: نعمة عفوه - سبحانه - عنهم بعد عبادتهم للعجل:

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة رابعة وهى عفوه عنهم رغم جحودهم وكفرهم وعبادتهم لغيره، فقال تعالى:

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

المواعدة: مفاعلة من الجانبين، وهى هنا على غير بابها، لأن المراد بها هنا أمر الله - تعالى - لموسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيدًا لإعطائه التوراة، ويؤيد ذلك قراءة أبى عمرو وأبى جعفر (وعدنا). وقيل: المفاعلة على بابها، على معنى أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى - عليه السلام - أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور للمناجاة، فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال فكان الوعد حاصلا من الطرفين.

وملخص هذه القصة أن قوم موسى بعد أن نجاهم الله، وأغرق عدوهم أمام أعينهم، طلبوا من نبيهم موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه، فوعده - سبحانه - أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلا جسدًا له خوار فعبدوه من دون الله، وأعلم الله موسى

(١) الآيات من ٦١ - ٦٥.

بما كان من قومه بعد فراقه، فرجع إليهم غاضبًا حزينًا، وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة إلا بقتل أنفسهم، فلما فعلوا ذلك عفا الله تعالى عنهم لكى يشكروه، ويلتزموا الصراط المستقيم.

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن وعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد، فلما حل الوعد وجاء موسى لميقاتنا عبدتم العجل فى غيبته، ولا شك أنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة غير الله، وبوضعكم الأمور فى غير مواضعها، ومع هذا فلم نعاجلكم بالعقوبة، بل قبلنا توبتكم، وعفونا عنكم، لتكونوا من الشاكرين لله تعالى.

وهذا التذكير يحمل فى طياته التعجيب من حالهم، لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح أنواع الكفر والجهالة، حيث عبدوا فى غيبة نبيهم ما هو مثال فى الغباوة والبلادة وهو العجل.

وفى اختيار حرف العطف (ثم) المفيد للتراخى الرتبى فى جملة ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود والجهل، وأن ما ارتكبوه هو من عظائم الأمور فى القبح والمعصية وحذف المفعول الثانى لاتخذتم وهو «إلهًا أو معبودًا لشناعة ذكره ولعلمهم بأنهم اتخذوه إلهًا.

وقوله تعالى: ﴿من بعده﴾ معناه: من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم. وفى ذلك زيادة تشنيع عليهم، حيث وصفهم - سبحانه - بعدم الوفاء، لأنهم كان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يستمروا على توحيد الله فى غيبة نبيهم لاسيما وقد رأوا من المعجزات والنعم، ما يطمئن النفوس، ويقوى الإيمان ويغرس فى القلوب الطاعة لله تعالى.

وجملة ﴿وأنتم ظالمون﴾ حالية مقيدة لاتخذتم، ليكون اتخاذهم العجل معبودًا، مقرونًا بالتعدى والظلم من بدئه إلى نهايته، وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا.

وقوله تعالى ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ معناه ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة، ومحونا ذنوبكم، لتوبتكم من بعد اتخاذكم العجل معبودًا من دون الله، رجاء أن تشكروا خالقكم على عفوه عنكم وتستعملوا نعمه فيما خلقت له وتتبعوا رسوله ﷺ.

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان، ما يدل على غباء بنى إسرائيل وقصر نظرهم. لأنهم اتخذوا العجل إلهًا بعد أن شاهدوا البراهين على صدق نبيهم، كما تضمنتا تسلية للرسول ﷺ عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية، فكأنه سبحانه يقول: إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعل ما يشبهه آباؤهم الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا فى غيبته عجلا جسدًا له خوار دون أن يفطنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين.

خامسا: نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم.

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة خامسة فيها صلاح أمورهم، وانتظام شئونهم ألا وهى إعطاء نبيهم موسى - عليه السلام - التوراة، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ومعنى الآية الكريمة: اذكروا يابنى إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة، وفيها الشرائع والأحكام، لكى تهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد فى الدنيا، وإلى الفوز بالسعادة فى الآخرة.

فالمراد بالكتاب التوراة التى أوتيها موسى - عليه السلام - فأل للعهد.

والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل، استعير لتمييز الحق من الباطل؛ وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوى المنزل من عند الله كما فى قوله تعالى ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده﴾[1] كما يطلق على المعجزة كما فى قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾[2] أى المعجزات لأن هارون لم يؤت وحيًا.

والمراد بالفرقان هنا التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير.

قال ابن جرير ما ملخصه: (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضع، هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ.

وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل. فيكون الكتاب نعتًا للتوراة، أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة ثم عطف عليه بالفرقان، إذ كان من نعتها)[3].

وقوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾ بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة؛ لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان، المقصود منه هدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ماذا كان موقف بنى إسرائيل من التوراة التى أنزلها الله لهدايتهم وسعادتهم؟ كان

(١) سورة الفرقان الآية ١.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٨.
(٣) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٨٥ طبعة الحلبى.

موقفهم منها - كما هى عادتهم - موقف الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الأثيمة إليها فحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك، وشبههم فى تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها، بالحمار الذى يحمل كتب العلم ولكنه لا يدرى ما فيها.

فقال تعالى فى سورة الجمعة: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله. والله لا يهدى القوم الظالمين﴾[1].

حملوا التوراة: أى علموها وكلفوا العمل بها، ثم لم يحملوها: أى: لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما اشتملت عليه. والأسفار: جمع سفر وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء.

ومعنى الآية الكريمة: مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بأحكامها ولكنهم لم يعملوا بها، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب ولكنه لا يدرى ما فيها، ولا يناله من حملها إلا التعب، بئس مثلا مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله التى تشهد بصدق النبى ﷺ، وتذر صفاته التى لا تنطبق إلا عليه، وقد جرت سنة الله - تعالى - فى خلقه ألا يهدى إلى طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين، لأنهم استحبوا العمى على الهدى، وباعوا دينهم بدنياهم.

قال صاحب الكشاف: «شبه الله - تعالى - اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به - شبههم بالحمار يحمل أسفارًا، أى: كتبًا كبارًا من كتب العلم، فهو يمشى بها ولايدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل، فهذا مثله وبئس المثل»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «شبه الله - تعالى - من حمله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم لنصوصه - شبهه - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدرى ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التى على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى، لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[3].

(١) الآية ٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٧٥.
(٣) أعلام الموقعين لابن القيم (نقلا عن تفسير القاسمى) جـ١٦ ص ٨٥.

ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بالتوراة، وجعلها نورًا وهدى لهم، ولكنهم تركوها، ولم يعملوا بما فيها، واستحبوا العمى على الهدى، ﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾.

سادسا : (نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم) :

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليلة، وهى إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم، وإخبارهم بقبول توبتهم، فقال تعالى :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل - لتنتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيدًا عنهم : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم بها إلى الحضيض بعبادتكم غير الله - تعالى - فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم. فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحًا، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم، فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم؛ لأنه هو الذى يقبل التوبة عن عباده على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب؛ لأنه هو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه ويستقيم على صراطه الواضح.

وفى نداء موسى - عليه السلام - لهم بقوله : «ياقوم» تلطف فى الخطاب ليجذب قلوبهم إلى سماعه، وليحملهم على تلقى أوامره بحسن الطاعة، وليشعرهم بأنهم قومه فهو منهم وهم منه، والشأن فيمن كان كذلك ألا يكذب عليهم أو يخدعهم، وإنما يريد لهم الخير.

والبارئ هو الخالق للمخلوقات بدون تفاوت أو اضطراب، فهو أخص من الخالق، ولذا قال تعالى : ﴿هو الخالق البارئ المصور﴾.

وفى هذا التعبير الحكيم، تحريض لهم على التوبة والاستجابة للبارئ الذى أحسن كل شىء خلقه، وفيه أيضًا تقريع لهم على غباوتهم، حيث تركوا عبادة بديع السموات والأرض، وعبدوا عجلا ضرب به المثل فى الغباوة فقالوا «أبلد من ثور» فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لقد اتخذتم هذا العجل إلهًا لتشابهكم معه فى البلادة وضيق الأفق.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت : البارئ هو الذى خلق الخلق بريئًا من التفاوت، ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾ ومتميزًا بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التى هى مثل فى الغباوة والبلادة، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، ونثر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة فى ذلك، وغمطوها بعبادة مالا يقدر على شىء منها» هـ(١).

وقوله تعالى : ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أمر من موسى - عليه السلام - لهم بقتلهم أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحى لأنه تشريع من الله - تعالى -.

والمراد بقتلهم أنفسهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم عابديه، فيكون المعنى : ليقتل بعضكم بعضًا، كما فى قوله تعالى : ﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أى فليسلم بعضكم على بعض

وقيل : المراد أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلا حقيقيًا حتى يكفر عن ردته بعبادته لغير الله، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك، وأن الله - تعالى - رفع عنهم القتل وعفا عمن بقى منهم على قيد الحياة كرما منه وفضلا، وهذا هو معنى التوبة فى قوله تعالى «فتاب عليكم»، ومعنى العفو فى قوله تعالى : فى الآية السابقة ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾.

وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيرًا من الآثار التى تحدثت عن كيفية حصول هذا القتل، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه قال : «قال تعالى لموسَى : إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون، ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها. وفعلوا ما أمروا به، فغفر الله للقاتل والمقتول»(٢).

وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب الزهرى أنه قال : «لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى، فتضاربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم، فقال له : يا نبى الله ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يشدون يديه. فلم يزل أمرهم على

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ١٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٩٢.

ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدى بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم، فأوحى الله - جل ثناؤه - إلى موسى.﴿لا تحزن﴾ أما من قتل فحى عندى يرزق، وأما من بقى، فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل»[1].

وجملة ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ تعليلية، جىء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم.

وقال ﴿عند بارئكم﴾ ولم يقل عنده، لأن فى هذا التكرير حملا للمخاطبين على التفكير والتذكير والطاعة، وإشعارًا لهم بأن عبادة من برأهم وذرأهم وخلقهم فى أحسن تقويم، خير لهم فى دنياهم وأخراهم.

وجملة ﴿فتاب عليكم﴾ جواب لشرط محذوف للإيجار، أى فامتثلتم ما أمرتم به، فقبل البارى توبتكم، وهى خطاب من الله - تعالى - لبنى إسرائيل على لسان موسى، فيه تذكير بنعمته، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم.

وعطفت هذه الجملة ﴿فتاب عليكم﴾ بالفاء، لإشعارهم بأنه - سبحانه - لم يتركهم ليستأصلوا أنفسهم جميعًا بالقتل، بل تداركهم بلطفه ورحمته، فقبل توبتهم، ورفع عقوبة القتل عمن بقى منهم.

وقوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ إخبار وثناء على الله - تعالى - بما هو أهله من عفو ورحمة. وأكدها - سبحانه - لتنزيلهم منزلة من يشك فى قبول توبته، لعظم جريمتهم وضخامة خطيئتهم وسيرهم إلى أمد بعيد فى طريق الشيطان.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله - تعالى - لطف بهم، ورحمهم، وقبل توبتهم، وعفا عن قتلهم أنفسهم، بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم فى توبتهم، كما تضمنت - أيضًا - تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بنعم الله عليهم، لأنه لولا عفوه - سبحانه - عن آبائهم لما وجدوا هم، وفيها - كذلك - إشارة إلى سماحة الشريعة التى أتى بها محمد ﷺ وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول فى الإسلام لأنه إذا كان آباؤهم لم تقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم فإن شريعة الإسلام تقول لهم: لقد جاءكم النبى الذى رفع عنكم إصركم والأغلال التى كانت على أسلافكم، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون.

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٨٦ طبعة الحلبى.

سابعًا : نعمة بعثهم من بعْد موتهم :

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة جليلة، أسبغها الله عليهم رغم مطالبهم المتعنتة، وهذه النعمة تتجلى فى بعثهم من بعد موتهم، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

جهرة : فى الأصل مصدر من قولك جهرت بالقراءة والدعاء واستعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف، إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات.

والصاعقة : - كما قال ابن جرير - «كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل. صوتًا كان ذلك أو نارًا أو زلزلة أو رجفة، ومما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقًا وهو حى غير ميت، قوله - تعالى - : ﴿وخر موسى صعقًا﴾ يعنى مغشيًا عليه، فقد علم أن موسى لم يكن حين غشى عليه وصعق ميتًا، لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال : ﴿سبحانك تبت إليك..﴾»[(١)].

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشىء من محله، وتحريكه بعد سكون ومنه : بعث فلان الناقة : إذا أثارها من مبركها للسير، ويستعمل بمعنى الإيقاظ، كما ورد فى قصة أهل الكهف ﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددًا. ثم بعثناهم...﴾ أى : أيقظناهم.

ويستعمل - أيضًا - بمعنى الإحياء. وهو المراد فى الآية التى معنا، بدليل قوله تعالى : ﴿من بعد موتكم﴾.

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم، وتعنتم فى الطلب، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة : لن نؤمن لك، ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله عيانًا وعلانية، فيأمرنا بالإيمان بك، وبما جئت به، فأخذتكم العقوبة التى صعقتكم - بسبب جهلكم وتطاولكم - وأنتم تشاهدونها بعيونكم، ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من

---

(١) ابن جرير جـ١ ص ٢٩٠ طبعة الحلبى.

بعد أن أخذتكم الصاعقة، لكى تشكروا الله على نعمه التى من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم.

قال الإمام ابن جرير: ذكرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آبائهم. وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾. وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ومرة يقال لهم: ﴿قولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا نغفر لكم خطاياكم﴾ فيقولون حنطة فى شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاهم، مع غير ذلك من أفعالهم القبيحة التى يكثر إحصاؤها، فأعلم الله - تعالى - الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ أنهم لن يعدوا أن يكونوا فى تكذيبهم محمدًا ﷺ وجحودهم نبوته كآبائهم وأسلافهم، الذين فصل عليهم قصصهم فى ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتمردهم على نبيه موسى - عليه السلام - تارة بعد أخرى مع ابتلاء الله لهم، وسبوغ آلائه عليهم(١).

والقائلون لموسى - عليه السلام -: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ يرى جمهور المفسرين أنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه، وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأى.

من ذلك ما أخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أنه قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. وقالوا: اطلب لنا ربك لنسمع كلامه. قال: سمعوا كلاما، فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فسمعوا صوتًا فصعقوا يقول: ماتوا، فذلك قوله: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ فبعثوا من بعد موتهم، لأن موتهم ذلك عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم.

وقال ابن كثير: الذين قالوا لموسى: ﴿أرنا الله جهرة﴾ المراد بهم السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه.

وقيل: إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٦٨.

السبعين، فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال فى تفسير هذه الآية. «قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل. فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال لهم موسى: (إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به، ونهيكم الذى نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابى فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله تعالى: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾؛ قال: فجاءت غضبة من الله - تعالى -، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة. فصعقتهم فماتوا جميعًا. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾. فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا لا، فقال: أى شىء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أننا متنا ثم أحيينا. قال: خذوا كتاب الله، قالوا لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم)[1].

قال الإمام ابن كثير: (وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا ثم قال: وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين:

أحدهما: أنهم سقط التكليف لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق.

والثانى: أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف[2].

وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم، لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظاما من خوارق العادات وهم مع ذلك مكلفون؛ وهذا واضح، والله أعلم)[3].

وقال ابن جرير: «ولا خبر عندنا بصحة شىء مما قاله من ذكرنا قوله فى سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة، فنسلم لهم، وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه، فإذا كان لا خبر بذلك تقوم به حجة فالصواب من القول فيه أن يقال: إن الله - جل ثناؤه - قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ كما أخبر عنهم أنهم قالوه...»[4]

وفى ندائهم لنبيهم باسمه «يا موسى» سوء أدب منهم معه، لأنه كان من الواجب عليهم،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ص٩٤.

(٣) تفسير ابن كثير ص٩٤.

(٤) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٩٣ طبعة الحلبى.

أن يقولوا له : يا رسول الله أو يا نبى الله ، من الصفات التى تشعر بصفات التعظيم والتوقير، وقد تكررت مناداتهم باسمه مجردًا فى كثير من المواطن.

ومن أدب الصحابة مع الرسول ﷺ أنهم كانوا يقولون له : يا رسول الله ، استجابة لأمر الله - تعالى - فى قوله : ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾.

وقولهم : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ دليل على تمردهم وعصيانهم ، وقلة اكتراثهم بما أوتوا من نعم ، وما شاهدوا من معجزات ، إذ أنهم طلبوا منه أن يروا الله عيانًا ، فإن لم يروه داخلهم الشك فى صدق نبيهم.

وعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم يريدون الرؤية (جهرة) لإزالة احتمال أنهم يكتفون بالرؤية المنامية ، أو العلم القلبى ، فهم لا يعتقدون إلا بالرؤية الحسية ، لغلظ قلوبهم ، وجفاء طباعهم.

وقوله تعالى : ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من مطالبهم المتعنتة ، لأن الفاء تفيد التعقيب.

وجملة ﴿وأنتم تنظرون﴾ تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها وفى مشاهدتها رعب وخوف أخذ بمجامع قلوبهم ، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم ، وإن إصابتهم بهذه العقوبة كان فى حالة إساءتهم وتمردهم وطمعهم فى أن ينالوا ما ليس من حقهم.

والآية الكريمة تفيد أن بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة فى الدنيا ، وأنهم علقوا إيمانهم عليها ، ولم يأبهوا للآيات الدالة على صدق. موسى - عليه السلام - فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم ، فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على ذلك ، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله - تعالى - ومن هنا يتبين أن الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة.

وجملة ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ هى محل النعمة والمنة ، وهى معطوفة على قوله تعالى ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ ودل العطف بثم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زمانًا نتصور فيه المهلة والتأخير.

والمراد ببعثهم : إحياؤهم من بعد موتهم ، وهو معجزة لموسى - عليه السلام - استجابة لدعائه.

وقد اشتملت الآيتان الكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين للعهد النبوى ، من محاربة الدعوة الإسلامية ، حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم من الصواعق وغيرها ؛ وفيهما أيضًا تسلية للنبى ﷺ عما لاقاه من اليهود ، لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع أنبيائهم ، وفيها كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجدرهم بشكرها لو كانوا يعقلون.

ثامنًا: نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم :

ثم عطف - سبحانه - على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمة أخرى بل نعمتين، وهما تظليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى، فقال تعالى :

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

الغمام : جمع غمامة، وهى السحابة، وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض.

والمن : اسم جنس لا واحد من لفظه، وهو - على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل.

والسلوى : اسم جنس جمعي، واحدته سلواة، وهو طائر برى لذيذ اللحم، سهل الصيد، يسمى بالسمانى، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء، فيمسكونه قبضًا بدون تعب.

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، كان فى مدة تيههم بين مصر والشام المشار إليه بقوله - تعالى - ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾.

قال السدى : «لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى -عليه السلام- كيف لنا بما هاهنا، أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر الله - تعالى - موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل الله عليهم الغمام. فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم توب، فذلك قوله تعالى : ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى..﴾.

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل من بين نعمى عليكم نعمة إظلالكم بالغمام وأنتم فى التية ليقيكم حر الشمس، وحرارة الجو، ولولا منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى بدون تعب منكم فى تحصيله لهلكتم، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذى

رزقكم هذه النعم، ولكنكم كفرتم بها، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شيء، لأن الخلق جميعًا لن يبلغوا ضرى فيضرونى ولن يبلغوا نفعى فينفعونى.

فالآية الكريمة قد أشارت إلى جحودهم النعمة بقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾ معطوف على محذوف، أى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر. ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير، وأن جملة ﴿وما ظلمونا﴾ معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل.

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة ﴿كانوا﴾ والفعل المضارع ﴿يظلمون﴾ يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم، لأنك لا تقول فى ذم إنسان كان يسىء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ما ملخصه: (هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه، وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، وما ظلمونا فاكتفى بما ظهر عما ترك، وقوله ﴿وما ظلمونا﴾ أى: ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها فإن الله - تعالى - لا تضره معصية عاص، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل، بل نفسه يظلم الظالم وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل)[1].

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أعظم النعم وهى تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه، ولذا أرسل الله عليهم رجزًا من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم.

تاسعًا: نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بمنة عظيمة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها وما رعوها حق رعايتها - وهى تخليصهم من عناء التيه، والإذن لهم فى دخول بلدة يجدون فيها الراحة والهناء، وإرشادهم إلى القول الذى يخلصهم مما استوجبوه من عقوبات ولكنهم خالفوه فقال تعالى:

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٩٧، ٣٩٨

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

القرية : هى البلدة المشتملة على مساكن، والمراد بها بيت المقدس على الراجح.

والرغد : الواسع من العيش الهنيء، الذى لا يتعب صاحبه، يقال : أرغد فلان : أصاب واسعًا من العيش الهنيء.

الحطة : من حط بمعنى وضع، وهى مصدر مراد به طلب حط الذنوب

قال صاحب الكشاف : (حطة) فعلة من الحط كالجلسة. وهى خبر مبتدأ محذوف، أى مسألتنا حطة، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات..)[1].

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التية، وأبحناهم أن يأكلوا من خيراتها أكلا هنيئًا ذا سعة وقلنا لهم : ادخلوا من بابها راكعين شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه - سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزدنا المحسن منهم خيرًا جزاء إحسانه، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : (وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون - عليه السلام - وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢١٦

حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب (باب البلد) سجدًا أى شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال)(١)

وقوله تعالى: ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدًا﴾ فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها. حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا.

وقوله تعالى: ﴿وادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة﴾ إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم. بأيسر الطرق وأسهل السبل، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم، ويمحو سيئاتهم.

وقوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم، وإغراء لهم على الامتثال والشكر، - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء غفران الذنوب.

قال الإمام ابن جرير: يعنى بقوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها. وأصل الغفر: التغطية والستر، فكل ساتر شيئًا فهو غافر.. والخطايا: جمع خطية - بغير همز - كالمطايا جمع مطية..(٢).

وقوله تعالى: ﴿وسنزيد المحسنين﴾ وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن، أى: من كان منكم محسنًا زيد فى إحسانه ومن كان مخطئًا نغفر له خطيئاته.

وقد أمرهم - سبحانه - أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم، لأن تغلبهم على أعدائهم، ودخولهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، نعمة من أجل النعم، وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله عليها بالقول والفعل لكى يزيدهم من فضله، فشأن الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر.

ولهذا كان النبى ﷺ يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا، وإنه لخاضع لربه، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكرًا لله على نعمة الفتح، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقها صلاة الفتح.

ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٩٨.

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٠٢.

عند أول دخولها شكرًا لله - تعالى - وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص عندما دخل إيوان كسرى، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات.

ولكن، ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح؟

إنهم لم يفعلوا ما أمروا بفعله، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل، ولذا قال تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾.

أخرج البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة فى شعيرة)[1].

قال الإمام ابن كثير: (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعين رؤسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا: حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته)[2].

فقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ بيان للسبب الذى من أجله نزل عليهم العذاب، وتوبيخ لهم على مخالفتهم أوامر الله - تعالى -، لأن تبديل الشىء معناه تغييره وإزالته عما كان عليه بإعطائه صورة تخالف التى كان عليها.

والفعل (بدل) يقتضى بدلا ومبدلا منه، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البدل - وهو القول الذى لم يقل لهم - دون ذكر المبدل منه - وهو القول الذى قيل لهم - والتقدير: فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به، قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان.

قال صاحب الكشاف: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ أى: وضعوا مكان ﴿حطة﴾ قولا غيرها، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه. وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل، بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك ونتوب إليك. أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك»[3].

---

(١) صحيح البخارى. باب (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية جـ ١ ص ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٩. (٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٨.

والعبرة التى تؤخذ من هذه الجملة الكريمة، أن من أمره الله - تعالى - بقول أو يفعل، فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله، دخل فى زمرة الظالمين، وعرض نفسه لسوء المصير.

وقوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله - تعالى - والرجز فى لغة العرب: هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها.

وفى النص على أن الرجز قد أتاهم من جهة السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه وأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء. فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم، ولم يقل القرآن «فأنزلنا عليهم»، بالإضمار، وإنما قال ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ بالإظهار، تأكيدًا لوصفهم بأقبح النعوت وهو الظلم، وإشعارًا بأن ما نزل عليهم كان سببه بغيهم وظلمهم.

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن بنى إسرائيل مكنوا من النعمة فنفروا منها، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها، وأرشدوا إلى القول الذى يكفر سيئاتهم فخالفوا ما أرشدوا إليه مخالفة لا تقبل التأويل، فكانت نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله حرمانهم من تلك النعمة إلى حين، ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم، وفى هذا التذكير امتنان عليهم ببذل النعمة، لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة، وفيه إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم وفيه أيضًا تحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من عذاب أليم.

عاشرًا: نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة من أجل نعمه عليهم، وهى إغاثتهم فى التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش، فقال تعالى:

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر، وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - فى خشوع واستكانة، وقد سأل موسى ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش، عندما كانوا فى التيه، فعن ابن عباس أنه قال : «كان ذلك فى التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصارت منه اثنتا عشرة عينًا من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها»[١]

وهذه النعمة كانت نافعة لهم فى دنياهم؛ لأنها أزالت عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا، وكانت نافعة لهم فى دينهم؛ لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله. وعلى قدرته وعلمه، ومن أقوى البراهين على صدق موسى - عليه السلام - فى نبوته[٢].

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم فى صحراء مجدبة، فتوسل إلينا نبيهم موسى - عليه السلام - فى خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذى يكفيهم، فأجبناه إلى ما طلب، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر. ففعل، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بمقدار عدد الأسباط، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم : تمتعوا بما من الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة، ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ فتتحول النعم التى بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقوله تعالى : ﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ يفيد أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى - عليه السلام - وحده، لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله - تعالى - له، حيث أجاب سؤاله، وفجر الماء لهم ببركة دعائه.

واللام فى قوله - تعالى - ﴿لقومه﴾ للسببية، أى لأجل قومه.

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾، عطفت الجملة بعدها على محذوف، والتقدير : فأجبناه إلى ما طلب، وقلنا اضرب بعصاك الحجر.

وآل فى ﴿الحجر﴾ لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجرًا معينًا معروفًا لموسى - عليه السلام - بوحى من الله تعالى. وقد أورد المفسرون فى ذلك آثارًا حكم المحققون بضعفها ولذلك لم نعتد بها.

والذى نرجحه أنها لتعريف الجنس، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر فى إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد

(١) وقيل كان الاستسقاء فى البرية ولكن الآثار التى تدل على أنه كان فى التيه أصح وأكثر.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠٠.

وضوحه، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى - عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا : إن تفجير الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى -.

والفاء فى قوله تعالى : ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا﴾ كسابقتها للعطف على محذوف تقديره : فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينًا؛ لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطًا، والاسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب. وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثنى عشر، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينًا إكمال للنعمة عليهم، حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر :

وقال - سبحانه - : ﴿فانفجرت﴾. وقال فى سورة الأعراف ﴿فانبجست﴾ والانبجاس خروج الماء بقلة. والانفجار خروجه بكثرة، ولا تنافى بينهما فى الواقع؛ لأنه انبجس أولا. ثم انفجر ثانيًا، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه.

وقوله تعالى : ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينًا أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه، فلا يتعداه إلى غيره، وفى ذلك ما فيه من استقرار أمورهم، واطمئنان نفوسهم، وعدم تعدى بعضهم على بعض.

وقوله تعالى : ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ مقول لقول محذوف تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا من رزق الله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشراب - لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى، وقد قيل هنالك : ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان

وقوله تعالى : ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة فى غير ما وضعت له، بعد أن أذن لهم فى التمتع بالطيبات، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسى العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث فى الأرض فسادًا. قال تعالى : ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

والمعنى : ولا تسعوا فى الأرض مفسدين، وتقابلوا النعم بالعصيان فتسلب عنكم. قال ابن جرير - رحمه الله - : (وأصل العثا شدة الإفساد بل هو أشد الإفساد، يقال منه :

عثى فلان فى الأرض : إذا تجاوز الحد فى الإفساد إلى غايته، يعثى، عثًا مقصورًا، ويقال للجماعة يعثون . .)[١].

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة، ونصحتهم بأن يعملوا على شكرها : وحذرتهم عاقبة الإفساد فى الأرض وجحودهم النعمة واستبدالهم الذى هو أدنى بالذي هو خير :

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من جحود النعمة واستخفافهم بها وإيثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

الصبر : حبس النفس على الشيء، بمعنى إلزامها إياه، ومنه الصبر على الطاعات، أو يطلق على حبسها بمعنى كفها. ومنه الصبر عن المعاصى. والطعام : مارزقوه فى التيه من المن والسلوى : والبقل : ما تنبته الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما. والفوم : قيل هو الثوم، وقيل هو الحنطة. والقثاء : نوع من المأكولات أكبر حجمًا من (الخيار).

قال ابن جرير : (وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك فيما بلغنا عن قتادة أنه قال : كان القوم فى البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى : فملوا ذلك،

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة الحلبى.

وذكروا عيشًا كان لهم بمصر، فسألوه موسى، فقال الله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾[١].

ثم ساق ابن جرير رواية، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن فى البرية بل كان فى التيه فقال: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب قال: أنبأنا ابن زيد قال:

«كان طعام بنى إسرائيل فى التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له المن، وطعامهم طير يقال له السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكونوا يعرفون خبزًا ولا غيره، فقالوا يا موسى: ﴿إنا لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾ فقرأ حتى بلغ قوله تعالى ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾[٢].

وقد جرى أبو حيان وصاحب الكشاف - فى تفسيريهما - على أن سؤالهم لموسى - عليه السلام كان فى التيه.

قال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾: «لما سئموا من الإقامة فى التيه. والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التى ألفوها، وعن العوائد التى عهدوها، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك، وتشوقهم إلى ما كانوا يألفون، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم»[٣].

وقال صاحب الكشاف: «كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عكرهم[٤] فأجموا - أى ملوا وكرهوا - ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم عدم البقاء ﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى»[٥].

ومعنى الآية الكريمة إجمالا: واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عَليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم، وفساد أذواقهم، وإعناتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له ببطر وسوء أدب: لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فوبخهم نبيهم موسى - عليه السلام - بقوله: أتختارون الذى هو أقل فائدة وأدنى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.
(٣) تفسير ابن حيان جـ ١ ص ٣٣١.
(٤) فنزعوا إلى عكرهم: أى حنوا إلى أصلهم وعادتهم.
(٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧١.

لذة، وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهها.

وأحاطت ببنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله.

ثم بين الله - تعالى - السبب فى جحودهم للنعم وفى أنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة وأنزل عليهم غضبه بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ إلخ أى: إن الكفر بآيات الله قد تأصل فيهم، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد تكرر منهم حتى صار كالطبيعة الثانية والسجية الثابتة، فليس غريبًا على هؤلاء أن يقولوا لن نصبر على المن والسلوى وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من أجل جحودهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ تذكير لهم برغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم. لا يقدر النعمة قدرها، وفيه انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موفقهم الجحودى منها، وانسياقهم وراء شهواتهم وأهوائهم وحماقاتهم، وفيه إشعار بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف ﴿لن﴾ المفيد تأكيد النفى فقالوا ﴿لن نصبر﴾.. إلخ فكأنهم يقولون له مهددين، ليلجئوه إلى دعاء ربه سريعًا: إننا ابتداء من هذا الوقت الذى نخاطبك فيه إلى أن نموت، لن نحبس أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد، لأننا قد سئمناه ومللناه، ولن نعود إليه: فالتعبير «بلن» يشعر بشدة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها.

قال الحسن البصرى - رضى الله عنه -: «بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وثوم»[1].

ووصفوه بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات، والعرب تقول لمن يفعل على مائدته فى كل يوم من الطعام أنواعا لا تتغير، إنه يأكل من طعام واحد.

وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وكذلك دعاء الصالحين، حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله، فيلاقى من الإجابة ما لا يلاقيه دعاء نفوس تستهويها الشهوات، وتستولى عليها السيئات.

وقولهم: ﴿فادع لنا ربك﴾ ولم يقولوا ربنا، لعدم رسوخ الإيمان فى قلوبهم، ولأنه سبحانه- قد اختصه بما لم يعط مثله من مناجاته وتكميله وإيتائه التوراة.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠١.

وقولهم : ﴿يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلا- وهو فى معنى مقول قول محذوف والتقدير : أى قل لربك يخرج لنا.

وجاء التعبير بالفعل ﴿يخرج﴾ مجزومًا - مع أن مقتضى الظاهر أن يقال : « أن يخرج - للإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه، حتى لكأن إخراج ما تنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه، وأنه لو لم يدع لهم، لكان شحيحًا عليهم بما فيه نفعهم(١).

والجملة الكريمة : ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير﴾ من مقول موسى - عليه السلام - لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم، وضعف عقولهم. لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه، على ما هو خير منه وهو المن والسلوى.

قال ابن جرير عند تفسيره للآية الكريمة : « أى قال لهم موسى : أتاخذون الذى هو أخس خطرًا وقيمة وقدرًا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطرًا وقيمة وقدرًا، وذلك كان استبدالهم، وأصل الاستبدال : هو ترك شىء لآخر غيره مكان المتروك، ومعنى قوله : ﴿أدنى﴾ أخس وآضع وأصغر قدرًا وخطرًا، وأصله من قولهم : هذا رجل دنى بين الدناءة، وإنه ليدنى فى الأمور - بغير همز - إذا كان يتتبع خسيسها. ثم قال : ولاشك أن من استبدل بالمن والسلوى : البقول والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه»(٢).

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى توبيخهم السابق على بطرهم وجحودهم توبيخًا آخر فقال لهم : ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى إذا كان هذا هو مرغوبكم، فاتركوا هذا المكان، وانزلوا إلى مصر من الأمصار، لكى تجدوا ما سألتمونى إياه من البقل والثوم وأشباههما، لأن ما اخترتموه لا يوجد فى المكان الذى حللتم به، وإنما يوجد فى الأمصار والقرى.

وقوله تعالى : ﴿مصرًا﴾.

قال ابن كثير : « هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف »(٣).

وقال ابن جرير : « فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين ﴿اهبطوا مصرًا﴾ وهى القراءة التى

---

(١) تفسير « التحرير والتنوير » جـ ١ ص ٥٠٠ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور طبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٦٤.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٢.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠١.

لا يجوز عندى غيرها، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك . . » اهـ[١].

وقال أبو حيان فى البحر : «وقرأ الحسن وطلحةوالأعمش وأبان ابن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان - رضى الله عنه» اهـ[٢].

والمعنى على القراءة الأولى : اهبطوا مصرا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادى والفيافى وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية : اتركوا المكان الذى أنتم فيه، واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية، ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر فى الآية الكريمة، مصر فرعون، قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾[٣].

وقوله تعالى فى سورة الدخان : ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾[٤].

قالوا : فأخبر الله - تعالى - أنه قد ورثهم ذلك، وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها، ثم لا ينتفعون بها، ولا يكونون منتفعين إلا بمصير بعضهم إليها

قال ابن جرير : «ومن حجة من قال إن الله - تعالى - إنما عنى بقوله : ﴿اهبطوا مصرا﴾ أى: مصرا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أن الله - تعالى - جعل أرض الشام لبنى إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه. بامتناعهم عن موسى فى حرب الجبابرة، إذ قال لهم ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾. . إلى قوله تعالى : ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٥.

(٢) تفسير أبى حيان جـ١ ص ٢٣٣.

(٣) الآيات ٥٧ - ٥٩.

(٤) الآيات من ٢٥ - ٢٨.

قاعدون﴾. فحرم الله - تعالى - على قائل ذلك - فيما ذكر لنا - دخولها حتى هلكوا فى التيه وابتلاهم بالتيهان فى الأرض أربعين سنة. ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع «يوشع بن نون» بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا أن الله - تعالى - قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ ﴿اهبطوا مصر﴾ ونتأوله أنه ردهم إليها. قالوا: فإن احتج محتج بقوله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾؟ قيل لهم: فإن الله - تعالى - إنما أورثهم ذلك فملكهم إياها. ولم يردهم إليها وجعل مساكنهم الشام» اهـ[1].

قال أبو حيان فى البحر: (ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر) اهـ[2].

ومع أن ابن جرير - رحمه الله - قد رد على من قال، إن المراد بالمصر مصر فرعون: استنادًا إلى قراءة غير الجمهور، إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين فقد قال: (والذى نقول به فى ذلك، أنه لا دلالة فى كتاب الله - تعالى - على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر، وأهل التأويل متنازعون تأويله، فأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ماسألوه من نبات الأرض على مابينه الله - تعالى - فى كتابه وهم فى الأرض تائهون فاستجاب الله لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارًا من الأرض التى تنبت ما سأل لهم من ذلك، إذا صاروا إليه، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر، وجائز أن يكون الشام...»[3].

ومن هذا النص الذى نقلناه عن ابن جرير، نرى أنه لم يقطع برأى فى المكان الذى أمر بنو اسرائيل بالهبوط فيه وأنه يرى أن الله - تعالى - قد استجاب لموسى - عليه السلام - دعاءه، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلا - إلى قرار من الأرض التى تنبت البقول وأشباهها.

وقد عارض الإمام ابنُ كثير فى تفسيره رأىَ ابن جرير فقال:

وهذا الذى قاله - أى ابنُ جرير - فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار، كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك، لأن موسى - عليه السلام - يقول لهم: هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣١٤.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص٢٣٤.

(٣) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣١٣.

وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم[1].

وبذلك يظهر لنا أن ابن كثير - رحمه الله - يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين وأن موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه إجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين. بطرين، والله - تعالى - يكره من كان كذلك، وأن قول موسى - عليه السلام - لهم «اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم» من باب التوبيخ والتجهيل لهم، إذ ليس حينئذ بلد قويب يستطيعون الوصول إليه.

هذا، والذى نرجحه فى هذا المقام هو ما ذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتى:

أولا: أن القراءة بالتنوين متواترة، وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها، وهذه القراءة المتواترة، نص فى أن المراد من مصر، أى بلد كان، لا مصر فرعون، ثم إذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون، وذلك لأن الأمصار التى تنبت ما طلبوا من البقول والخضر أقرب إليهم من مصر، فليس من المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهى بعيدة عن مكانهم بعدًا شاسعًا، ويتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون.

ثانيًا: لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها كما قال أبو حيان وغيره، بل الثابت أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين ولكنهم أبوا طاعة نبيهم - عليه السلام - فعذبوا بالتيه أربعين سنة لتخلفهم عن قتال الجبارين، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعًا فى التيه، وبقى أبناؤهم فامتثلوا أمر الله - تعالى - وهبطوا إلى الشام. وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون.

ثالثًا: ليس فى الآية ما يشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه أن يجيبهم إلى رغبتهم فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الإشارة؟

رابعًا: دخولهم فى التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين، ليدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم. فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم يعاقبون فيه، كما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾ فكيف يخرج السجين من سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة. وبناء على ذلك يكون الأمر فى قول موسى لهم: ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ للتهديد والتوبيخ والتجهيل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٠٢.

ثم بين - سبحانه - العقوبات التى حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم فقال تعالى : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ :

ضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن لزومهما لهم، وإحاطتهما بهم، كما يحيط السرادق بمن بداخله.

قال صاحب الكشاف : (جعلت الذلة محيطة بهم، مشتملة عليهم، فهم فيها كمن يكون فى القبة من ضربت عليه، أو ألصقت به حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة)[1].

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم، بظاهر جسم آخر بشدة، يقال : ضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق.

والذلة : على وزن فعلة من قول القائل : ذل فلان يذل ذلة وذلة، والمراد بها الصغار والهوان والحقارة.

والمسكنة : مفعلة من السكون، ومنها أخذ لفظ المسكين، لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض، لما به من الفاقه والفقر، والمراد بها فى الآية : الضعف النفسى، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص، فيجعله يحس بالهوان، مهما يكن لديه من أسباب القوة.

والفرق بينها وبين الذلة. أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو.

أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونًا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل. ولقد عاش اليهود قرونًا وأحقابًا مستعبدين لمختلف الأمم، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفًا نفسيًا جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة، بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضًا من أغراض الدنيا، ومهما كثر المال فى أيديهم، فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسى وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير.

وقوله تعالى : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ومبالغة فى إهانتهم وتحقيرهم، فهم فى الدنيا أذلاء حقراء، وفى الآخرة سيرجعون بغضب من الله بسبب أفعالهم القبيحة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧.

قال ابن جرير - رحمه الله - يعنى بقوله تعالى ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ : انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باءوا إلا موصولا إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء بوأ وبواء، ومنه قوله تعالى : ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ يعنى تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دونى، فمعنى الكلام إذا. ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط(١).

وقال صاحب الكشاف : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك باء فلان بفلان، إذا كان حقيقًا بأن يقتل به لمساواته له ومكافأنه، أى صاروا أحقاء بغضبه(٢).

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة واستحقاقهم غضب الله وسخطه، فقال تعالى : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. والجملة الكريمة استئناف بيانى جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب، فعلنا بهم بسبب جحودهم لآيات الله، وبسبب قتلهم لأنبيائه، وخروجهم عن طاعته؛ ومجاوزتهم حدودهم والآيات تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى وربوبيته، وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى - وهى التى يسميها علماء التوحيد المعجزات، وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات، ومردوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع ﴿يكفرون﴾.

وقوله تعالى : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أى ويقتلون أنبياء الله الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الأنبياء - زكريا وابنه يحى - عليهما السلام - لأنهما أبيا الانقياد وراء شهواتهم وأهوائهم.

وقال - سبحانه - ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدًا، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه، ﴿أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾ فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتخليد مذمتهم، وتقبيح إجرامهم، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم، أو تأول فى الحكم، أو شبهة فى الأمر، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٥. (٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢١٧.

قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهًا يستحقون به للقتل عندهم»(١).

وقال الإمام الرازى : «فإن قيل : قال هنا ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال فى آل عمران ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ فما الفرق؟ قلت. إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذى يوجب القتل يتجلى فى حديث : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : «كفر بعد إيمان، وزنًا بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق» فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم، أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه، لا هذا الذى يعرفه المسلمون ولا غيره البتة»(٢).

ثم قال تعالى : ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

العصيان : الخروج عن طاعة الله. والاعتداء : تجاوز الحد الذى حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره. وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه. وللمفسرين فى مرجع الإشارة «ذلك» رأيان :

أحدهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، وعليه يكون المعنى :

إن هؤلاء اليهود قد مرنوا على عصيانهم لخالقهم، وتعديهم حدوده بجرأة وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله - تعالى - وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة.

والجملة الكريمة على هذا الرأى تفيد أن التردى فى المعاصى وارتكاب المناهى، وتجاوز الحدود المشروعة، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها، ومن حقيرها إلى عظيمها، لأن هؤلاء اليهود لما استمرأوا المعاصى وداوموا على تعدى الحدود، هانت على نفوسهم الفضائل، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا، فكذبوا بآيات الله تكذيبًا وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق.

والثانى : يرى أصحابه أن اسم الاشارة الثانى يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول، وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصًا على معرفته ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم، واستحقاقهم لغضب الله - تعالى -

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢١٧.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٣٩٠.

كما بينا، والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

والمعنى أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا. وقتلهم أنبياءنا، وخروجهم عن طاعتنا وتعديهم لحدودنا.

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب، فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته، ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء، وتخطى الحدود، وعدم المبالاة بالعهود، وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام، مشفوعة بعللها وأسبابها.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بجحود النعم، وسوء الأدب وحمق التفكير، وهوان النفس، وبلادة الطبع، وبطر الحق، والبغى على أنفسهم وعلى غيرهم، وما وصفتهم به أيدته الأيام وصدقته الأحداث فى كل زمان ومكان.

وبعد أن بين القرآن الكريم ما حل باليهود من عقوبات بسبب جحودهم لنعم الله، وكفرهم بآياته - أردف بذلك ما وعد الله به المؤمنين من جزيل الثواب.

فقال - تعالى -:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن أربع فرق من الناس:

أما الفرقة الأولى: فهى فرقة الذين آمنوا، والمراد بهم الذين آمنوا بالنبى ﷺ، وصدقوه.

وابتدأ القرآن بهم للإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك، كما قال - تعالى -: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وأما الفرقة الثانية: فهى فرقة الذين هادوا، أى: صاروا يهودًا، يقال: هاد وتهود، أى دخل فى اليهودية، وسموًا يهودًا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - بقلب الذال دالا فى

التعريب - أو سموًا يهودا حين تابوا من عبادة العجل، من هاد يهود هودا بمعنى تاب. ومنه (إنا هدنا إليك) أى : تبنا.

والفرقة الثالثة : هى فرقة النصارى، جمع نصران بمعنى نصرانى، كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى - عليه السلام - قيل سموًا بذلك لأنهم كانوا أنصارًا له، وقيل إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة وهى القرية التى كان عيسى - عليه السلام - قد نزلها.

وأما الفرقة الرابعة : فهى فرقة الصابئين جمع صابىء، وهو الخارج من دين إلى دين، يقال : صبًا الظلف والناب والنجم - كمنع وكرم - إذا طلع. والمراد بهم الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل، وهم قوم يعبدون الكواكب أو الملائكة، ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم.

وذكر القرآن الصابئة فى هذا المقام وهم من أبعد الأمم ضلالا. لينبه على أن الإيمان الصحيح والعمل الصالح يرفعان صاحبهما إلى مرتقى الفلاح. حتى ولو سبق له أنه بلغ فى الكفر والفجور أقصى غاياته.

والإيمان المشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾. الخ، يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذى قرره الدين الحق، فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام، وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقدم العمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه، فله أجره على ذلك عند ربه.

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا بأنهم يؤمنون بغيرها، لأن الشريعة الإسلامية قد نسخت ما قبلها والرسول ﷺ يقول: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى».

ويفسرونه - أى الإيمان - بالنسبة للمؤمنين المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا . .﴾ على أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - : ﴿وعمل صالحًا﴾ على قوله ﴿آمن﴾ مع مشاركة هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من ثواب جزيل، وعاقبة حميدة.

وبعض العلماء يرى أن معنى ﴿من آمن﴾ أى : من أحدث من هذه الفرق إيمانًا بالنبى ﷺ وبما جاء من عند ربه، قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملابسة له بالمقام، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته فى وقت من الأوقات.

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

الأجر: الجزاء على العمل، وسمى الله ما يعطيه للمؤمن العامل أجرًا على سبيل التفضل منه.

وقال: ﴿عند ربهم﴾ ليدل على عظم الثواب، لأن ما يكون عند الله من الجزاء على العمل لا يكون إلا عظيمًا. ولأن المجازى لهم هو ربهم المنعوت بصفات الكرم والرحمة وسعة العطاء.

والمعنى: إن هؤلاء الذين آمنوا بالله عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم يوم لقائه، هؤلاء لهم أجرهم العظيم عند ربهم، ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم، فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون.

ثم واصل القرآن حديثه مع بنى إسرائيل، فذكرهم بنعمة شمول الله إياهم برحمته وفضله رغم توليهم عن طاعته ونقضهم لميثاقه فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٤)

قال ابن جرير: «وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد، ما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال ابن زيد: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بنى إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذى أمركم به ونهيه الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت، لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: «هذا كتابى فخذه» فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى: قال فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا جميعًا، قال: ثم أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا. قال: أى شىء أصابكم؟ قالوا: متنا جميعًا، ثم حيينا؛

قال : خذوا كتاب الله. قالوا : لا. فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم : أتعرفون هذا؟ قالوا نعم، هذا الطور. قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، قال : فأخذوا بالميثاق. قال : ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق»[١].

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا - يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتنتفعوا وقت أن أخذنا عليكم جميعًا العهد بأن تعبدوا الله وحده، وتتبعوا ما جاءكم به رسله، وتعملوا بما فى التوراة، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق أسلافكم الطور تهديدًا لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله، وليشهدوا آية من آيات الله الدالة على قدرته، وقلنا لكم جميعًا. خذوا ما آتيناكم فى كتابكم من تكاليف بجد وعزم واجتهاد، واذكروا ما فيه وتدبروه وسيروا على هديه لتتقوا الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، ولكن الذى حصل منكم جميعًا أنكم أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم، فتركتم تعاليم كتابكم وآذيتم أنبياءكم، ولولا أن الله - تعالى - رأف بكم، ووفقكم للتوبة، وعفا عن زلاتكم، لكنتم من الهالكين فى دنياكم وآخرتكم.

وقوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أمثال النعم الواردة فى الآيات السالفة، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما فى التوراة من الأمور العائد عليهم نفعها.

وقوله تعالى : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أى : أعليناه، وجعلناه فوق رءوسكم كالمظلة.

والطور : اسم للجبل الذى ناجى عليه موسى ربه - تعالى - كان بنو إسرائيل بأسفله فرفع فوق رءوسهم.

وقوله تعالى : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ مقول لقول محذوف، دل عليه المعنى، والتقدير : وقلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بقوة، أى : تمسكوا به، واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبلوه، واجتنبوا نواهيه، واعملوا ما جاء به بدون تردد.

والمراد «بما آتيناكم» التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى لتكون هدى ونورًا لهم. وقوله تعالى : ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى احفظوه وتدبروه وتدارسوه، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، واعملوا بكل ما جاء فيه بلا تعطيل لشىء منه.

قال الإمام القرطبى : «وهذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان - فحسب -، فقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ، قال : «إن من أشر الناس رجلا فاسقًا يقرأ القرآن، لا يرعوى إلى شىء منه»[٢].

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٢٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٤٧.

و «لعل» فى قوله تعالى : ﴿لعلكم تتقون﴾ إما للتعليل، فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة، لتتقوا الهلاك فى عاجلتكم وآجلتكم، وإما للترجى، وهو منصرف إلى المخاطبين، فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه، وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين.

وقوله تعالى : ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم.

والمشار إليه بقوله تعالى : ﴿ذلك﴾ أخذ الميثاق عليهم، وقبول ما أوتوه من الكتاب، والمعنى : ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتى بعد أخذ الميثاق عليكم، ومشاهدتكم للآيات التى تستكين لها القلوب؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى : ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ تصريح بما حباهم به - سبحانه - من رأفة بهم، وقبول لتوبتهم، وعفو عن خطيئاتهم، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إنكم بإعراضكم عن طاعتى، ونقضكم لعهدى، وإهمالكم العمل بكتابى، وعدم تأثركم بآياتى ونذرى، قد استحققتم غضبى وعذابى، ولكن حال دون حلولهما بكم. فضلى الذى تدارككم ورحمتى التى وسعتكم، ولطفى وإمهالى لكم، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم

وبذلك تكون الآيتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ.

ثم ذكرهم - سبحانه - بسوء عاقبة الذين اعتدوا منهم فى السبت، وحذرهم من أن ينهجوا نهجهم فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

الاعتداء : مجاوزة الحد، يقال : اعتدى فلان وتعدى إذا ظلم.

والسبت : المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم، وأصل السبت - كما قال ابن جرير - الهدوء

والسكون فى راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم : مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته. كما قال - جل ثناؤه - ﴿وجعلنا نومكم سباتًا﴾ أى راحة لأبدانكم، وهو مصدر، من قول القائل سَبَت فلان يَسبِت سبتًا(١).

وملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل فى يوم السبت، أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهدًا بأن يتفرغوا لعبادته فى ذلك اليوم، وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد - سبحانه - ان يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم، فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضًا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهرى لأمر الله، ولكنه فى حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد فى يوم السبت، فلم يعبأ أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم..

والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلا فى سورة الأعراف (٢) كما جاءت الإشارة إليه فى سورتى النحل(٣) والنساء(٤).

ثم بين - سبحانه - العقوبة التى حلت بهم بسبب اعتدائهم فى يوم السبت، وتحايلهم على استحلال محارم الله فقال - تعالى - :

﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾.

أى : صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء.

والخسوء : الطرد والإبعاد. يقال : خسأت الكلب خسأ وخسوءًا - من باب منع - طردته وزجرته، وذلك إذا قلت له : اخسأ.

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى : إنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها.

وتلك العقوبة كانت بسبب إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصيحة، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٢٧.
(٢) الآيات من ١٦٣ - ١٦٦.
(٣) الآية ١٢٤.
(٤) الآية ١٥٤.

فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان.

والضمير فى قوله : ﴿فجعلناها﴾ يعود إلى العقوبة التى هى مسخهم قردة و « نكالا » أى عبرة تنكل المعتبر بها بحيث تمنعه وتردعه من ارتكاب الشر.

يقال : نكل به تنكيلا إذا صنع به صنعًا يردعه ويجعل غيره يخاف ويحذر. والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك، وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد وجمعه أنكال.

وقوله : «لما بين يديها وما خلفها. أى : للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها.

والمعنى : فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها ولمن أتى بعدها وعلم يقينًا بحال العادين فى السبت الذين مسخوا بسبب عصيانهم تحذيرًا له من أن يعمل عملهم، فيمسخ كما مسخوا، ويحل به العذاب الذى حل بهم. كما جعلناها أيضًا ﴿موعظة للمتقين﴾ الذين يسمعون قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات، ويعتبروا بالمثلات.

ثم ساق القرآن بعد ذلك قصة من قصص بنى إسرائيل تدل على تنطعهم فى الدين، ومحاولتهم تضييق ما وسعه الله عليهم، وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق، وتشككهم فى صدق أنبيائهم، وتعنتهم فى السؤال. وهذه القصة هى قصة أمرهم على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - بذبح بقرة. استمع إلى القرآن الكريم، وهو يحكى هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول.

وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
(٧٤)

روى المفسرون أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فالقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام - فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقى، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. . .﴾[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٧ بتصرف وتلخيص وهناك روايات أخرى فى شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبو حيان وغيرهما لم نذكرها لأنها لا تختلف عن النص الذى سقناه إلا فى التفاصيل.

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذى يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى:

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزوًا، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى. فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقى، فقال لهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة ﴿أتتخذنا هزوًا﴾؟ أى أتجعلنا موضع سخريتك؟ ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به.

والذى عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقى إذا ضرب القتيل ببعضها، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾.

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفى أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وقولهم ﴿أتتخذنا هزوا﴾؟ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك. ولكنهم قوم لا يعقلون.

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به، أجابهم موسى بقوله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾: أى ألتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضا - ردًا لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى -.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة:

(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل، وقالوا : إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى يتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع)(١).

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافيًا لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة تنفيذًا لأمر ربهم، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾؟

أى : قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها(٢). وسبب سؤالهم عن صفتها، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل القتيل، لابد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها.

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ﴿ادع لنا ربك﴾ فكأنما هو رب موسى وحده، لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربى الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال : ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض(٣) ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾.

أى : قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها : إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التى آمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص ٨.

(٢) ﴿ما﴾ هنا مراد بها السؤال عن الصفة كما يقول من يسمع الناس يتكلمون عن حاتم أو الأحنف وقد علم أنهما رجلان، ولم يعلم صفتيهما ما حاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال : كريم أو حليم.

(٣) الفارض المسنة اسم للبقرة التى انقطعت ولادتها من الكبر، وسميت بذلك لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها. والبكر هى الفتية مشتقة من البكرة - بالضم - وهى أول النهار، والمراد بها هنا التى لم تلد. قال ابن جرير (البكر من إناث البهائم وبنى آدم ما لم يفتحله الفحل) والعوان هى المتوسطة فى السن : وصح إضافة (بين) إلى اسم الإشارة (ذلك) لأنه أشير إلى القارض والبكر. قال ابن جرير : (العوان النصف التى قد ولدت بطنًا من بطن. . وجمعها عون. يقال : امرأة عوان من نسوة عون، وحرب عوان إذا كانت حربًا قد قوتل فيها مرة بعد أخرى).

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿قال إنه يقول إنها بقرة﴾ تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم فى السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به.

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر: إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿لا فارض ولا بكر﴾ للتعريض بغباوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ فى جوابهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة.

وقوله تعالى: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال. وما موصولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره، على طريقة التوسع، أى: إذا كان الأمر كذلك، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقى بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثروا من المراجعة، فإنها ليست فى مصلحتكم.

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعًا، واستقصاء فى السؤال، فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين ما لونها. قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾.

والمعنى: قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها: سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكى يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقوله: إنه - تعالى - يقول إن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها، تعجب فى هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها...

قال ابن جرير: «والفقوع فى الصفرة نظير النصوع فى البياض، وهو شدته وصفاؤه»[1].

وقال صاحب الكشاف: «الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصعه يقال فى التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك،.. ثم قال فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأى فائدة فى ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهى الصفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها فهو من قولك: جد جده»[2].

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها ووصفها من حيث لونها، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟، كلا! ما أغنتهم. فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم فى غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا. وإنا

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٣٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٩.

إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول، تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لا شية فيها: قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾.

ومعنى الآيتين الكريمتين: قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها: سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحًا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها. حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقوله: «إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لاشية فيها» أى قال إنه - سبحانه - يقول: أنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ الواضح، ولم يبق إشكال فى أمرها، وبحثوا عنها، وحصلوها ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم.

فقوله - تعالى - : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾ حكاية لسؤالهم الثالث الذى وجهوه إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصفتها من حيت نفاستها، بعد أن عرفوا سنها ولونها.

فكأنهم يقولون له: إن فى أجوبتك السابقة عنها تقصيرًا يشق معه تمييزها، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بيانًا لحالها، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة فى الطلب، فعللوا ذلك بقولهم.

﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أى: لا تتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذرنا فى هذا التكرار. لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفزة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التى تريدنا أن نذبحها.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «وإنما لم يعتذروا فى المرتين الأولين واعتذروا فى الثالثة، لأن للثلاثة فى التكرير وقعًا من النفس فى التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة»[١]

وقولهم: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، ودفع للسآمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكهم فى كثرة المراجعة حتى بتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١ ص ٥٣٣.

اجتهد فى الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحًا، وكشفًا لحال تلك البقرة التى تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدى إليها، ثم إلى القاتل الحقيقى، وبذلك ندرك الحكمة، التى من أجلها أمرتنا بذبحها.

قال ابن جرير: وأما قوله تعالى: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم فى هذا الموضع تبينهم ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر»[1].

وفى قوله تعالى: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها﴾ إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا فى غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهى، بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع، سليمة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة.

وقوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾[2] صفة لبقرة، يقال: بقرة ذلول، أى: ريضة زالت صعوبتها، وإثارة الأرض: تحريكها وقلبها بالحرث والزراعة والحرث: شقها لإلقاء البذور فيها.

والمراد: نفى التذليل ونفى إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة.

أى: هى بقرة صعبة لم يذللها العمل فى حراثة الأرض، ولا فى سقى الزرع، فهى معفاة من العمل فى هذه الأشياء. و﴿لا﴾ فى قوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾ للنفى، وفى قوله تعالى: ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقى، وأعيد فى قوله تعالى ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مراعاة للاستعمال الفصيح.

وقوله - تعالى -: ﴿مسلمة لا شية فيها﴾ صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة.

والشية: اللون المخالف لبقية لون الشيء، وأصله من وشى الشيء، وهو تحسين عيوبه التى تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته.

والمعنى: إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٥٨.

(٢) الذلول - بفتح الذال - فعول من ذل ذلا - بكسر الذال - فى المصدر بمعنى لأن وسهل، وأما الذل - بضم الذال - فهو ضد العز، وهما مصدران لفعل واحد خص فى الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين».

بياض أو سواد أو غيرهما، بل هى صفراء كلها.

وأرادوا بالحق فى قوله تعالى: ﴿ قالوا الآن جئت بالحق﴾ الوصف الواضح الذى لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكأنهم يقولون له: الآن - فقط - جئتنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ما عداها، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ قد عطفت ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام، والتقدير فظفروا بها فذبحوها، أى: فذبح قوم موسى البقرة التى وصفها الله - تعالى - لهم، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به، لتشككهم فى صحة ما يوجه إليهم من إرشادات ولكثرة مما طلثهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: ﴿وما كادوا يفعلون﴾ استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط. وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهى سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل»(١).

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التى من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

المعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسًا، فاختلفتم وتنازعتم فى قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل، فقد بين - سبحانه - الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته، يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتتقبلها بشغف واهتمام.

قال صاحب الكشاف. فإن قلت فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٣٠.

القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت : كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدًا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعًا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى : لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية : للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت القصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله : ﴿اضربوه ببعضها﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة»[1].

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم فى قوله تعالى : ﴿وإذ قتلتم﴾ مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد.

وأسند القتل - أيضًا - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوى، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيرًا ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف فى الانحراف والضلال.

وقوله تعالى : ﴿فادارأتم فيها﴾ بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التى ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم فى شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أى يدفعه ويزحمه، أى تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه ويتهم غيره.

وقوله تعالى : ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معناه : والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذى قتلتموه، ثم تنازعتم فى شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقى بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿فادارأتم﴾ وبين قوله تعالى : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾. وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقى سينكشف أمره لا محالة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٠.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: «وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه، ليس أول قتيل طل دمه فى الأمم - إكرامًا لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم فى قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة فى إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم فى صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقى إكرامًا من الله تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لئلا يضلوا»(١).

وقوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ إرشاد لهم إلى الوسيلة التى عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقى، والضمير فى قوله ﴿اضربوه﴾ يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل.

وضرب القتيل ببعضها - أيا كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى. وفيه تيسير عليهم. واسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام.

والتقدير: فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا فى شأن القتيل اضربوه ببعض البقرة ليحيا، فضربوه فأحياه الله، وأخبر القتيل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى فى الآخرة للثواب والعقاب.

وبذلك تكون الآية ظاهرة فى أن الذى ضرب ببعض البقرة قد صار حيًا بعد موته.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله -: فإن قيل: وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل: ليحيا فينبىء نبى الله والذين ادارءوا فيه عن قاتله.

فإن قال: وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك؟ قيل: ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه، والمعنى: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾(٢).

والمقصود بالآيات فى قوله تعالى: ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الدلائل الدالة على أن الله على كل شىء قدير والتى منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعضوميت، وأخباره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقى. وذلك لكى تستعملوا عقولكم فى الخير. وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس، واحدة فهو قادر على إحياء الأنفس جميعا لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شىء.

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١ ص ٥٢٩. (٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٠٩.

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى فى تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى ﴿كذلكُ يحيى الله الموتى﴾ حفظ الدماء وأستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقى بعد الموت.

فقد قال فى تفسيره: وأما قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتمون، ويروون فى هذا الضرب روايات كثيرة. قيل: إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها، وقالوا: أنهم ضربوه فعادت إليه الحياة، وقال قتلنى أخى أو ابن فلان، الخ ما قالوه، والآية ليست أيضًا نصًا فى مجمله فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العُمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية.

ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس، أى يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا﴾ وقوله تعالى ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾.

فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين[1]...

والذى نراه أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ الإحياء الحقيقى للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتى:

أولا: مخالفته لما ورد عن السلف فى تفسير الآية الكريمة فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «لما ضرب المقتول ببعضها - يعنى ببعض البقرة - جلس حيًا، فقيل له من قتلك؟ قال: بنو أخى قتلونى ثم قبض[2]..

ثانيًا: ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالا ولا تفصيلا، ولا تصريحًا ولا تلميحًا، لأن قوله تعالى ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ ظاهر كل الظهور، فى أن المراد بالأحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وإحياؤهم رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه فى مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد أيضًا قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة، ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ١٥١.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٤٢.

الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات صونًا لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾.

فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية.

ثالثًا: تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى، كما قال المفسرون، يؤدى إلى غرس الإيمان بصحة البعث فى القلوب، لأن المعنى عليه، كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيى الله الموتى بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتًا للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر.

رابعًا: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ قرينة قوية على أن المراد بالإحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد ﴿بآياته﴾ فى هذا الموضع، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون فى خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة والتى ليست فى طاقة البشر، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء.

ثم بين القرآن الكريم، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التى تزلزل المشاعر، وتهز القلوب، وتبعث فى النفوس الإيمان، لم تؤثر فى قلوب بنى إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم، ومحا الاعتبار بها من عقولهم، فقال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾.

والمعنى: ثم صلبت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات منها إحياء القتيل أمام أعينكم، فهى كالحجارة فى صلابتها ويبوستها، بل هى أشد صلابة منها، لأن من الحجارة ما فيه ثقوب متعددة، وخروق متسعة، فتتدفق منه مياه الأنهار التى تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعًا قليلا فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته، أما أنتم - يا بنى إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات، وما الله بغافل عما تعملون:

وقوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بيان لما طرأ على قلوب بنى إسرائيل من بعد عن الاعتبار، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله وتحلل من المواثيق التى أقروا بها على أنفسهم.

وجىء (بثم) التى هى للترتيب والتراخى. لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بنى إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات: فقست قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا.

وقوله تعالى: ﴿من بعد ذلك﴾ فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالى النعم، وتكاثر المعجزات التى أشار القرآن الكريم إلى بعضها فى الآيات السابقة.

واسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة فى الآيات السابقة.

و (أو) فى قوله تعالى: ﴿فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ قيل: للتنويع، فإن قلوبهم متفاوتة فى القسوة، فمنها ما هو قاس كالحجارة، ومنها ما هو أشد منها قسوة، أى: فبعض قلوبكم كالحجارة فى صلابتها وبعضها أشد من الحجارة فى صلابتها.

وقيل: للتشكيك بالنسبة للمخاطبين، لا إلى المتكلم، كأن يقول أحد الناس لآخر، إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها.

والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة بل هى أشد منها قسوة، إذ لا شعور فيها يأتى بخير، والحجارة ليست كذلك.

وشبه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة فى القسوة، لأن صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة. كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة»[1].

وقوله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم. إن هذه الحجارة على صلابتها ويبوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقًا واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقًا مختلفة

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢١.

تنجم عنها العيون النابعة، والآبار الجوفية المفيدة. ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتثال. أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع، ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولا تنقاد للحكم التى من شأنها هداية النفوس.

وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد وتخويف، حيث إنه - سبحانه - سيحاسبهم على أعمالهم، وسيذيقهم ما يستحقونه من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأمره.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بما هم أهله. من قساوة القلب وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت. وبالآيات مهما توالت.

ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر:

اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك.

١ - دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة، وسوء أدب مع مرشديهم، وإحفاء فى الأسئلة بلا موجب، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل، ومماطلة فى الانصياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم.

٢ - دلالتها على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبر فى هذه القصة الواقعية التى لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى - عليه السلام - وأنه رسول من رب العالمين.

٣ - دلالتها على أن التنطع فى الدين، والإلحاف فى المسألة يؤديان إلى التشديد فى الأحكام، لأن بنى إسرائيل لو أنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أى بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم. لكنهم شددوا فشدد الله عليهم»[1].

وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضييق دائرة اختيارهم، وتكثير للشروط التى يجب توافرها فى البقرة المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مماطلتهم وبلادة عقولهم، وسوء تلقيهم للشريعة بأنواع من التقصير عملا وشكرا وفهما، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما، وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٤٧.

البيان عن وقت الخطاب، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم.

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهى عن كثرة السؤال قال تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾.

وفى الحديث الشريف: «ذرونى ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم»(١).

قال صاحب المنار: «وقد امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطريًا وحنيفيًا سمحًا، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكامًا استنبطها باجتهاده، حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته وملت وألقته وتخلت»(٢).

٤ - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: وفى هذه القصة أنواع من العبر منها.

(أ) أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذى لايعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أتتخذنا هزوا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة فى ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا «أتتخذنا هزوًا». وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ وتيقنوا أن الله - تعالى - أمره بذلك، أخذوا فى التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا فى الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿الآن جئت بالحق﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك فى أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام فى تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فإنه لا إجمال فى الأمر ولا فى الفعل ولا فى المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٤٧.
(٢) تفسير المنار جـ١ ص٣٤٦.

قال الإمام بن جرير : « وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى « الآن جئت بالحق » وزعم أن ذلك نفى منهم أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق فى أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذى قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم ».

(ب) ومنها : الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

(جـ) ومنها : إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة فى هداية المهتدى، وإعذارا وإنذارا للضال :

(د) ومنها : الإخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب : كان ابن عباس يقول « إن القوم بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا : والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق ».

(هـ) ومنها : مقابلة الظالم الباغى بنقيض قصده شرعًا وقدرًا، فإن القاتل قصد ميراث المقتول، ودافع القاتل عن نفسه، ففضحة الله - تعالى - وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

(و) ومنها : أن بنى إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل فى البلادة.

ثم قال الإمام ابن القيم فى ختام حديثه عن هذه القصة : والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل؛ ففى الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذى لا يمتنع من الذبح والحرث والسقى، لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقى والعمل »[1]

٥ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التى لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها، وصدق الله حيث يقول : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

(١) إغاثة اللهفان جـ٢ ص ٣٠ لابن القيم.

وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بنى إسرائيل برذيلة التنطع فى الدين، والتعنت فى الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثلات. لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

ثم ساق القرآن بعد ذلك لونًا آخر من ألوان رذائلهم. ويتمثل هذا اللون فى تحريفهم للكلم عن مواضعه، واشترائهم بآيات الله ثمنًا قليلا، وذلك لقسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا، قال - تعالى -.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾

والآيات الكريمة التى معنا قد افتتحت بتيئيس المؤمنين من دخول اليهود فى الإسلام ولكن هذا التيئيس قد سبق بما يدعمه ويؤيده، فقد بينت الآيات السابقة عليها «موقف اليهود الجحودى من نعم الله - عز وجل - كما بينت تنطعهم فى الدين، وسوءه إدراكهم لمقاصد الشريعة، وقساوة قلوبهم من بعد أن رأوا من الآيات البينات ما رأوا، وبعد هذا البيان الموحى بالقنوط من استجابتهم للحق، خاطب الله المؤمنين بقوله:

﴿أفتطمعون(١) أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام اللهِ ثم يحرفونه(٢) من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : أفتطمعون - أيها المؤمنون - بعدْ أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران، أن يدخلوا فى الإسلام. والحال أنه كان فريق من علمائهم وأحبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزى والعذاب الأليم.

فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم، إذ طمعوا فى استجابة اليهود لدعوة الحق، بَعد أن علموا سوء أحوالهم، وفساد نفوسهم. والنهى عن الطمع فى إيمانهم لا يقتضى عدم دعوتهم إلى الإيمان، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه، لإقامة الحجة عليهم فى الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم، ولقطع عذرهم فى الآخرة وقد تصادف الدعوة إلى الإسلام نفوسًا منصفة تستجيب لدعوة الحق، وتهتدى إلى الطريق المستقيم، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ معهم هو وأصحابه من بعده. ولكن اليهود صموا آذانهم عن الحق بعد ما عرفوه فأصبحت دعوتهم إلى الإسلام غير مجدية، وهنا يأتى النهى عن الطمع فى إيمانهم بهذه الآية وأمثالها.

وجملة ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ حالية، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم، وبذلك يكون التقنيط من إيمانهم قد علل بعلتين :

إحداهما : ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

والثانية : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد.

والمراد بالفريق فى قوله تعالى : ﴿وقد كان فريق منهم﴾ أحبارهم وعلماؤهم الذين عاصروا الرسل الكرام، فسمعوا منهم، أو الذين أتوا بعدهم فنقلوا عنهم.

والتحريف أصله انحراف الشىء عن جهته وميله عنها إلى غيرها. والمراد به هنا : إخراج الوحى والشريعة عما جاءت به، بالتغيير والتبديل فى الألفاظ، أو بالكتمان والتأويل الفاسد، والتفسير الباطل.

---

(١) الطمع تعلق النفس بالحصول على شىء مرغوب تعلقًا قويًا.

(٢) التحريف أصله مصدر حرف الشىء يحرفه إذا مال به إلى الحرف، وهو يقتضى الخروج عن جادة الطريق، ولما شاع تشبيه الحق والصواب بالجادة وبالصراط المستقيم، شاع فى تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف.

وقوله تعالى : ﴿ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون﴾ زيادة تشنيع عليهم، حيث إنهم حرفوا كلام الله بعد فهمهم له عن تعمد وسوء نية، وارتكبوا هذا الفعل الشنيع، رغم علمهم بما يستحقه مرتكبه من عقوبة دنيوية وأخروية.

ففى هذين القيدين من النعى عليهم مالا مزيد عليه، حيث أبطل بهما عذر الجهل والنسيان، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان.

وإنما كان قيام الفريق من أحبار اليهود بتحريف الكتاب سببًا فى اليأس من إيمان عامتهم، لأن هؤلاء العامة المقلدون، قد تلقوا دينهم عن قوم فاسقين، دون أن يلتفتوا إلى الحق، أو يتجهوا إلى النظر فى الأدلة الموصلة إليه، وأمثال هؤلاء الذين شبوا على عماية التقليد، وغواية الشيطان، لا يرجى منهم الوصول إلى نور الحق، وجلال الصدق، ولأن أمة بلغ الحال بعلمائها - وهم مظهر محامدهم - أن يجرؤوا على كلام الله فيحرفوه لا تنتظر من دهمائها أن يكونوا خيرًا منهم حالا أو أسعد مآلا.

ثم أخبر القرآن الكريم عن بعضهم، بأنهم قد ضموا إلى رذيلة التحريف رذيلة النفاق والتدليس فقال تعالى : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنًا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

والمعنى : وإذا ما تلاقى المنافقون من اليهود مع المؤمنين، قالوا لهم نفاقًا وخداعًا. صدقنا أن ما أنتم عليه هو الحق. وأن محمدًا ﷺ رسول من عند الله، وإذا ما انفرد بعض اليهود ببعض قال الذين لم ينافقوا لإخوانهم الذين نافقوا معاتبين : أتخبرون المؤمنين بما بينه الله لكم فى كتابكم مما يشهد بحقية ما هم عليه، لتكون لهم الحجة عليكم يوم القيامة، أفلا تعقلون أن هذا التحديث يقيم الحجة لهم عليكم؟

فالآية الكريمة فيها بيان لنوع آخر من مساوىء اليهود ومخازيهم التى تدعو إلى اليأس من إيمانهم وتكشف النقاب عما كانوا يضمرونه من تدليس(١).

قال الإمام الرازى : «وإنما عذلوهم على ذلك لأن اليهودى إذا اعترف بصحة التوراة، واعترف بشهادتها على صدق النبى ﷺ كانت الحجة قوية عليه، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضًا من الاعتراف بذلك أمام المؤمنين»(٢).

---

(١) والضمير فى (قالوا) الأولى يعود إلى فريق اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقًا، وفى (قالوا) الثانية يعود إلى فريق اليهود الذين بقوا على يهوديتهم، والذين كانوا يلومون من نافقوا منهم لتحديثه المؤمنين بما يشهد بصدق محمد ﷺ.

(٢) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٠٠.

والاستفهام في قوله تعالى : ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ للإنكار والتوبيخ والفتح يطلق على القضاء ومنه قوله تعالى : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي : افض بيننا وبين قومنا بالحق.

قال ابن جرير : «أصل الفتح في كلام العرب القضاء والحكم والمعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم؟ ومن حكمه - تعالى - وقضائه فيهم أخذه ميثاقهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ فقد بشرت به التوراة»[1].

وقوله تعالى : ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ متعلق بالتحديث ومرادهم تأكيد النكير على إخوانهم الذين أظهروا إيمانهم نفاقًا، فكأنهم يقولون لهم : أتحدثون المؤمنين بما يفضحكم يوم القيامة أمام الخالق - عز وجل - وفي حكمه وقضائه، لأنهم سيقولون لكم. ألم تحدثونا في الدنيا بما في كتابكم من حقيقة ديننا وصدق نبينا؟ فيكون ذلك زائدًا في ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رءوس الخلائق يوم الموقف العظيم، لأنه ليس من اعترف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار.

وجملة ﴿أفلا تعقلون﴾ من بقية مقولهم لمن نافق منهم. وقد أتوا بها لزيادة توبيخهم لهم حتى لا يعودوا إلى التحدث مع المؤمنين.

والمعنى : أليست لكم عقول تحجزكم عن أن تحدثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟

ثم وبخهم الله على جهلهم بحقيقة علمه فقال تعالى : ﴿أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي : أيقول الذين لم ينافقوا من اليهود لإخوانهم الذين نافقوا ما قالوا، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا، ويحرفون من كتاب الله ما حرفوا، ولا يعلمون أن الله يعلم. ما يخفون من كفر وحقد، وما يظهرون من إيمان وود؟

فالآية الكريمة فيها توبيخ وتجهيل لليهود الذين عاتبوا المنافقين منهم على تحديث المؤمنين بما في توراتهم مما يؤيد صدق النبي ﷺ لأنهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا صادقًا بإحاطة علمه بسرهم وعلانيتهم، لمانهوا إخوانهم عن تحديث المؤمنين بما فيها فإن ما فيها من صفات للنبي ﷺ من الحقائق التي أمرهم الله ببيانها ونهاهم عن كتمانها.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك حال عوام اليهود ومقلديهم، بعد أن بين حال علمائهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٨٠.

ومنافقيهم فقال تعالى : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾(١) أى : ومن اليهود قوم أميون لا يحسنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم أو أمنيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية عن التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبنى على البرهان القاطع والدليل الساطع.

فالآية الكريمة فيها زيادة تيئيس للمؤمنين من إيمان كافة اليهود بفرقهم المختلفة. فإنهم قد وصلوا إلى حال من الشناعة لا مطمع معها فى هداية، فعلماؤهم محرفون لكتاب الله على حسب أهوائهم وشهواتهم، وعوامهم لا يعرفون من كتابهم إلا الأكاذيب والأوهام التى وضعها لهم أحبارهم، وأمة هذا شأن علمائها وعوامها لا ينتظر منها أن تستجيب للحق أو أن تقبل على الصراط المستقيم.

و (الأمانى) - بالتشديد - جمع أمنية، مأخوذة من تمنى الشيء أى : أحب أن يحصل عليه، أو من تمنى إذا كذب، أو من تمنى الكتاب أى قرأه.

فإن فسرنا الأمانى بالأول كان قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ معناه : إلا ماهم عليه من أمانيهم فى أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

وإن فسرناها بالكذب، كان قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ معناه : إلا أكاذيب مختلقة، سمعوها من أحبارهم فقبلوها على التقليد.

وإن فسرنا الأمنية بالقراءة كان قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ معناه : إلا ما يقرءونه من قراءات خالية من التدبر، وعارية عن الفهم. من قوله تمنى كتاب الله أول ليله... أى قرأ.

هذا، وقد رجح ابن جرير تفسير (الأمانى) بالأكاذيب فقال : ما ملخصه «وأولى ما روينا فى تأويل قوله تعالى : ﴿إلا أمانى﴾ بالصواب، أن هؤلاء الأميين لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله على موسى شيئًا، ولكنهم يتخرصون الكذب، ويتقولون الأباطيل كذبًا وزورًا، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالى بعد ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنًا منهم لا يقينًا»(٢).

والذى نراه أن المعانى الثلاثة للأمانى تنطبق على اليهود، وكلها حصلت منهم؛ وما دام

(١) الأميون جمع أمى، وهو الذى لا يحسن الكتابة والقراءة.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٧٥.

يصدق عليهم المعانى الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية، ولا معنى لأن نشتغل بترجيح بعضها على بعض كما فعل ابن جرير وغيره.

وعلى أى تفسير من هذه التفاسير للأمانى، فالاستثناء منقطع، لأن أى واحد من هذه المعانى ليس من علم الكتاب الحقيقى فى شىء.

وفى قوله تعالى: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ زيادة تجهيل لهم، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين. وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على علم يقينى من أمور دينهم، وإنما هم يظنونها ظنًا بدون استيقان، والظن لا يغنى من الحق شيئًا.

وبعد أن بين القرآن الكريم فرق اليهود، توعد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه بسوء المصير فقال تعالى: ﴿فويل(1) للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾:

والمعنى: فهلاك وفضيحة وخزى لأولئك الأحبار من اليهود الذين يكتبون ا لكتابات المحرفة والتأويلات الفاسدة بأيديهم، بدلا مما اشتملت عليه الكتب من حقائق، ثم يقولون لجهالهم ومقلديهم كذبًا وبهتانًا هذا من عند الله، ومن نصوص التوراة التى أنزلها الله على موسى، ليأخذوا فى نظير ذلك عرضًا يسيرًا من حطام الدنيا، فعقوبة عظيمة لهم بسبب ما قاموا به من تحريف وتبديل لكلام الله، وخزى كبير لهم من أجل ما اكتسبوه من أموال بغير حق.

فالآية الكريمة فيها تهديد شديد لأحبار اليهود الذين تجرءوا على كتاب الله بالتحريف والتبديل، وباعوا دينهم بدنياهم، وزعموا أن ما كتبوه هو من عند الله.

وصرح - سبحانه - بأن الكتابة ﴿بأيديهم﴾ ليؤكد أنهم قد باشروها عن تعمد وقصد، وليدفع توهم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها، ولتصور حالتهم فى النفوس كما وقعت، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدًا لهيئتهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ كشف عن كذبهم وفجورهم، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ثم يزعمون أنه من عند الله ليتقبله أتباعهم بقوة واطمئنان.

ثم بين - سبحانه - العلة التى حملتهم على التحريف والكذب فقال تعالى: ﴿ليشتروا به

(١) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك، وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقد يستعمل بدون حرف نداء كما هنا، وقد يستعمل مع حرف النداء كما فى قوله تعالى «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا».

ثمنًا قليلا﴾ أى كتبوا الكتابة بأيديهم، ونسبوها إلى الله زورًا وبهتانًا؛ ليحصلوا على عرض قليل من أعراض الدنيا، كاجتلاب الأموال الحرام، وانتحال العلم لأنفسهم والطمع فى الرئاسة والجاه، وإرضاء العامة بما يوافق أهواءهم.

وعبر - سبحانه - عن الثمن بأنه قليل، لأنه مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب، وحرموه من الثواب المقيم.

وقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ تهديد لهم مرتب على كتابة الكتاب المحرف، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل، فهو وعيد لهم على الوسيلة - وهى الكتابة - وعلى الغاية - وهى أخذ المال بغير حق -.

قال الشيخ القاسمى: قال الراغب: فإن قيل: لم ذكر ﴿يكسبون﴾ بلفظ المستقبل، و﴿كتبت﴾ بلفظ الماضى؟ قيل: تنبيهًا على ما قاله النبى ﷺ، «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فنبه بالآية إلى أن ما أثبتوه من التأويلات الفاسدة التى يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالا فحالا، وعبر بالكتابة دون القول لأنها متضمنة له وزيادة، فهى كذب باللسان واليد. وكلام اليد يبقى رسمه، أما القول فقد يضمحل أثره»[1].

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود برذيلة التحريف لكلام الله عن تعمد وإصرار ووصفتهم بالنفاق والخداع، ووبختهم على بلادة أذهانهم وسوء تصورهم لعلم الله - تعالى - وتوعدتهم بسوء المصير جزاء كذبهم على الله.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من ألوان دعاواهم الباطلة، وأقاويلهم الفاسدة، ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويقطع حجتهم، فقال تعالى:

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ
أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ

(١) تفسير القاسمى جـ١ ص ١٧٤

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات آثارًا، منها ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يومًا فى النار، وإنما هى سبعة أيام معدودة»، فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار..﴾ الآيات(١).

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: «حدثنى أبى أن الرسول ﷺ قال لليهود أنشدكم بالله وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، من أهل النار الذين أنزلهم الله فى التوراة؟ قالوا: إن ربنا غضب علينا غضبة، فنمكث فى النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله ﷺ كذبتم والله لا نخلفكم فيها أبدًا، فنزل القرآن تصديقًا لقول النبى ﷺ وتكذيبًا لهم - نزل قوله تعالى - ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾(٢).

وأخرج ابن جرير - أيضًا - عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾ ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم. الأيام التى أصبنا فيها العجل أربعين يومًا، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم(٣).

هذه بعض الآثار التى وردت فى سبب نزول الآيات الكريمة، والمعنى:

وقالت اليهود - يامحمد - إن النار لن تصيبنا، ولن نذوق حرها، إلا أيامًا قلائل - قل لهم - يا محمد - ردًا على دعواهم الكاذبة هل اتخذتم من الله عهدًا بذلك حتى يكون الوفاء به متحققًا؟ أم تقولون على الله الباطل جهلا وجراءة عليه؟

ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم بأصل عام يشملهم ويشمل غيرهم فقال. ليس الأمر كما تدعون، بل الحق أنه من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ومات عليها دون أن يتوب إلى

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢١٨

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٨٣ طبعة الحلبى.

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١١

الله - تعالى - منها ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾ بيان لضرب من ضروب غرورهم وكذبهم، معطوف على رذائلهم السابقة التى حكاها القرآن الكريم، إذ الضمير فى قوله تعالى (وقالوا) يعود على اليهود الذين مر الحديث عنهم ولما ينته بعد.

والمس: اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة..

والمراد من النار: نار الآخرة. والمراد من المعدودة: المحصورة القليلة، يقال: شىء معدود أى قليل. وشىء غير معدود أى كثير فهم يدعون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام، وقد تكون أربعين يومًا، وبعدها يخرجون إلى الجنة لأن كل معدود منقض.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم فيما زعموه فقال تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون﴾ أى: قل لهم - يا محمد - إن مثل هذا الإخبار الجازم بأن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، لا يكون إلا ممن اتخذ عهدًا من الله بذلك، فهل تقدم لكم من الله عهد بأن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، فكان الوفاء متحققًا، لأن الله - تعالى - لا يخلف وعده، أم تقولون على الله شيئًا لا علم لكم به.

فالاستفهام للإنكار، وهو متوجه إلى زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم. إن قولكم هذا يحتمل أمرين لا ثالث لهما: إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه - سبحانه - بدون علم، وما دام قد ثبت أن انخاذ العهد لم يحصل، إذا أنتم - يا معشر اليهود - كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: ﴿أتخذتم﴾ ليس باستفهام بل هو إنكار؛ لأنه لا يجوز أن يجعل الله - تعالى - حجة رسوله فى إبطال قولهم أن يستفهمهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهى أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير(١).

وإنما ساق القرآن الكريم الرد عليهم فى صورة الاستفهام، لما فيه من ظهور القصد إلى تقريرهم بأنهم قالوا على الله مالا يعلمون، إذ هم لا يستطيعون أن يثبتوا أن الله وعدهم بما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، ولا يوجد عندهم نص صحيح من كتابهم يؤيد مدعاهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص١٤٣ طبعة عبد الرحمن محمد.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت مدعاهم إبطالا يحمل طابع الإنكار والتوبيخ.

ثم ساق - سبحانه - آية أبطلت مدعاهم عن طريق إثبات ما نفوه فقال تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

بلى حرف جواب يجيء لإثبات فعل ورد قبلها منفيًا، والفعل المنفى هنا هو قول اليهود «لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة» فجاءت «بلى» لإثبات أن النار تمسهم أكثر مما زعموا فهم فيها خالدون جزاء كفرهم وكذبهم.

ومعنى الآية الكريمة: ليس الأمر كما تدعون أيها اليهود، من أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، بل الحق أنكم ستخلدون فيها. فكل من كسب شركًا مثلكم، واستولت عليه خطاياه، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن فى داخله، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه ويتوب إلى ربه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

فالآية الكريمة فيها إبطال لمدعاهم، وإثبات لما نفوه، على وجه يشملهم ويشمل جميع من يقول قولهم، ويكفر كفرهم.

هذا والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله كما قال جمهور المفسرين لورود الآثار عن السلف بذلك، وفائدة الإتيان بقوله تعالى ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ بعد ذلك، الإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان، وأخذت بلسانه فمنعته عن أن ينطق به.

وقوله تعالى ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ بيان لما أعد لهم من عقوبات جزاء كفرهم وكذبهم على الله، فهم يوم القيامة سيكونون أصحابًا للنار ملازمين لها على التأبيد لإيثارهم فى الحياة الدنيا ما يوردهم سعيرها، وهو الكفر وسوء الأفعال على ما يدخلهم الجنة وهو الإيمان وصالح الأعمال.

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من الكافرين الذين يفترون على الله الكذب، عقب ذلك ببيان ما أعده - سبحانه - لأهل الإيمان والتقوى فقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أى: والذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه، فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون خلودًا أبديًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود أبلغ رد. حيث كذبتهم فى دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة، وأخبرتهم بخلودهم وخلود كل كافر فى النار، وأما الجنة فهى لمن آمن وعمل صالحًا واتبع سبيل المرسلين فهؤلاء أصحابها وهم فيها خالدون.

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة من أبرز الرذائل التى طبع عليها بنو إسرائيل، وهى رذيلة نقضهم للعهود والمواثيق فقال تعالى:

وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

ومعنى الآية إجمالا: واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأمرناكم بالعمل به على لسان رسلنا - عليهم السلام - وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك، بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه - أيضًا - بأن تقولوا للناس قولا حسنا فيه صلاحهم ونفعهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق، وأعرضتم عنه، إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

والمراد ببنى إسرائيل فى الآية الكريمة، سلفهم وخلفهم، لأن هذه الأوامر والنواهى التى تناولتها الآية الكريمة، والتى هى مضمون العهد المأخوذ عليهم، قد أخذت عليهم جميعًا على لسان أنبيائهم ورسلهم.

والدليل على أن المقصود ببنى إسرائيل ما يتناول الخلف المعاصرين منهم للعهد النبوى، قوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ فإنه قد أسند إليهم فيه أنهم تولوا عن الميثاق معرضين، والاعراض عنه لا يكون إلا بعد أخذه عليهم كما سيأتى.

وقوله تعالى ﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ثم توليتم...﴾ بيان للميثاق وتفصيل له. وجاء التعبير بقوله تعالى ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ فى صورة الخبر المنفى والمراد منه النهى عن عبادة غير الله، لإفادة المبالغة والتأكيد، فكأن الأمر والنهى قد امتثلا فيخبر

بوقوعهما، أو أنهما لأهميتهما يخبر عنهما بأنهما سيتلقيان بحسن الطاعة حتما، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع، ويخبر عن المأمور بأنه فاعل لما أمر به ومجتنب لما نهى عنه فى الحال، وفى ذلك ما فيه من إفادة المبالغة فى وجوب امتثال الأمر والنهى.

وقد تضمنت الآية الكريمة لونًا فريدًا من التوجيه المحكم الذى لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله - تعالى - عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة قرابة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم فى حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحانى، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا فى حاجة إلى المال، فهم فى حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات التى تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخيمًا لشأنهما وتوكيدًا لأمرهما، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة، لكنهم عموا وصموا عنها فوبخهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾.

أى: ثم توليتم - أيها اليهود - عن جميع ما أخذ عليكم من مواثيق فأشركتم بالله وعققتم الوالدين، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش الأقوال، وتركتم الصلاة، ومنعتم الزكاة، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل.

وقوله تعالى: ﴿إلا قليلا منكم﴾ إنصاف لمن حافظ على العهد منهم، حيث إنه لا تخلو أمة من المخلصين الذين يرعون العهود، ويتبعون الحق، وإرشاد للناس إلى أن وجود عدد قليل من المخلصين فى الأمة، لا يمنع نزول العقاب بها متى فشا المنكر فى الأكثرين منها.

وقوله تعالى: ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة حالية تفيد أن الأعراض عن الطاعة، وعدم التقيد بالمواثيق التى أقروا بها، عادة متأصلة فيهم ووصف ثابت لهم، وسجية معروفة منهم.

قال صاحب المنار: «قد يتولى الإنسان منصرفًا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضًا عنه ومهملا له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد «وأنتم معرضون لازما لابد منه، وليس تكرارًا كما يتوهم، ثم قال: وقد كان سبب ذلك التولى مع الإعراض أن الله أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من كتابه فاتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله، يحلون برأيهم ويحرمون، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون ويزيدون فى الشرائع

والأحكام ويضعون ما شاءوا من الشعائر فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، فإن الله هو الذى يضع الدين وحده وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه، وما شرع على ألسنة رسله...»(١)

وخلاصة الفرق بين التفسير الذى بدأنا به وبين تفسير صاحب المنار، لقوله تعالى: ﴿وأنتم معرضون﴾ أن هذه الجملة على التفسير الأول تبين عادة فى القوم تأصلت فيهم حتى كأنها سجية، والمعنى: «ثم توليتم، أى أعرضتم وأنتم قوم عادتكم الإعراض. وعلى تفسير صاحب المنار تكون هذه الجملة مبينة. لنوع التولى ومتممة لمعناه: والتفسير الأول - الذى سقناه - أدخل فى باب الذم، وأوفى ببيان ما عليه حال اليهود.

ثم قال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٧٠.

بعد أن بين – سبحانه – فى الآية السابقة أن الله – تعالى – قد أخذ على بنى إسرائيل عهدًا بأن يعبدوه ويؤدوا فرائض الله، إلا أنهم نقضوا هذا العهد وتولوا عنه سوى قليل منهم بعد ذلك بين فى هذه الآيات الكريمة أنه – سبحانه – أخذ عليهم عهدًا آخر ولكنهم نقضوه كما هو دأبهم.

وملخص هذا العهد الذى ذكرته الآيات الكريمة، أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضًا، وألا يخرج بعضهم بعضًا من داره، وأنهم إذا وجدوا أسيرًا منهم فى يد غيرهم فإن عليهم أن يبذلوا أموالهم لفدائه من الأسر، وتخليصه من أيدى أعدائهم، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتى الأوس والخزرج، انضمت قبيلة بنى قريظة إلى الأوس، وانضمت قبيلة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الخزرج، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تقاتل بجانب أبناء ملتهم المنضمين إلى حلفائهم الآخرين فإذا وضعت الحرب أوزارها، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم كما أمرهم – تعالى – وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم، ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيرونهم فيقولون لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكنا نستحى أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

وقد توعدهم – سبحانه – بالخزى فى الدنيا والآخرة، جزاء نقضهم لعهوده، وتفريقهم بين أحكامه.

والمعنى الإجمالى للآيات الكريمة: واذكروا – أيضًا – يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصيناكم فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبألا يخرج بعضكم بعضًا من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد، والالتزام بما جاء فيه، ثم أنتم هؤلاء – يا معشر اليهود – بعد إقراركم بالميثاق، وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، فنقضتم عهودكم، وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم أو قرابتكم، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم فى الأسر فاديتموهم، فلم لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟ وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدى عدوهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان فى الدنيا. والعذاب الدائم فى الأخرى، وما الله بغافل عما تعملون. ولا شك أن أولئك اليهود الذين

نقضوا عهودهم، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بدنياهم، فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ معناه: اذكروا حين أخذنا العهد عليكم يا بنى إسرائيل ألا يسفك أحد منكم دم غيره، وألا يخرجه من دياره. على حد قوله: ﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم﴾(١) أى فليسلم بعضكم علي بعض.

وفائدة هذا التعبير، التنبيه إلى أن الأمة المتواصلة بالدين، يجب أن يكون شعورها بالوحدة قويًا وعميقًا، بحيث يكون قتل الرجل لغيره قتلا لنفسه، وإخراجه له من داره إخراجًا لها.

قال صاحب المنار: (وقد أورد - سبحانه - النهى عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث فى النفس أثرًا شريفًا، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر فقال تعالى:

﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، وقال تعالى: ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن الكريم»(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ تسجيل عليهم بأنهم قد قبلوا العمل بالميثاق والتزموا به، إذ المعنى. ثم اعترفتم بهذا الميثاق - أيها اليهود - ولم تنكروه، فكان من الواجب عليكم أن تفوا به، فماذا كان موقفهم بعد هذا الاقرار والإشهاد؟.

لقد بين القرآن الكريم بعد ذلك أنهم نقضوا عهودهم، وارتكبوا ما نهوا عن ارتكابه، فقال تعالى: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم..﴾ أى: ثم أنتم - يا معشر اليهود - بعد اعترافكم بالميثاق، والتزامكم به، نقضتم عهودكم، وارتكبتم فى حق إخوانكم ما نهيتم عنه، من القتل والإخراج، وفعلتم ما لا يليق بالعقلاء، ومن يحترم المواثيق.

ولما كان قتل بعضهم لبعض، وإخراجهم من أماكنهم يحتاج إلى قوة وغلبة، بين - سبحانه - أنهم يرتكبون ذلك وهم متعاونون عليه بالشرور ومجاوزة الحدود، فقال تعالى: ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ تظاهرون: من التظاهر وهو التعاون، وأصله من الظهر، كأن المتعاونين يسند كل واحد منهم ظهره إلى الآخر. والمعنى: تتعاونون على قتل إخوانكم

---

(١) سورة النور الآية ٦١.
(٢) تفسير المنار جـ١ ص ٣٧٢.

وإخراجهم من ديارهم مع من ليسوا من أقاربكم وليسوا من دينكم، وأنتم مرتكبون ذلك الإثم والعدوان.

وقوله تعالى: ﴿وإن يأتوكم أُسارى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ بيان لتناقضهم وتفريقهم لأحكام الله تعالى.

وأُسارى: جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ على سبيل القهر فيشد بالإسار وهو القد - بكسر القاف -، والقد: سير يقد من جلد غير مدبوغ. وتفادوهم: تنقذوهم من الأسر بالفداء، يقال: فاداه وفداه: أعطى فداءه فأنقذه.

أى: أنتم - يا معشر اليهود - إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون فى فكاكهم، وتبذلون عرضًا لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى فى أيدى أعدائكم، فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟

وصدرت الجملة الكريمة «وهو محرم عليكم إخراجهم» بضمير الشأن للاهتمام بها. والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم، وليس خافيًا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ توبيخ وتقريع لهم على تفريقهم بين أحكام الله.

والمعنى: أفتتبعون أحكام كتابكم فى فداء الأسرى، ولا تتبعونها فى نهيكم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه - تعالى - بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

وبعض الكتاب الذى آمنوا به هو ما حرم عليهم من ترك الأسرى فى أيدى عدوهم، وبعضه الذى كفروا به ما حرم عليهم من القتل والإخراج من الديار، فالإنكار منصب على جمعهم بين الكفر والإيمان.

قال فضيلة المرحوم للشيخ محمد الخضر حسين: «وإنما سمى - سبحانه - عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرًا؛ لأن من عصى أمر الله - تعالى - بحكم عملى معتقدًا أن الحكمة والصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب. فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ»[1].

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة الثانية.

ثم بين - سبحانه - العقاب الدنيوى والأخروى الذى استحقه أولئك المفرقون لأحكامه فقال تعالى : ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾

اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغيًا وكفرًا والخزى فى الدنيا هو الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره : ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء بنى قينقاع والنضير عن ديارهم، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار، وتلك سنة الله فى كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها.

ولما كان البعض قد يتوهم أن خزيهم فى الدنيا قد يكون سببًا فى تخفيف العذاب عنهم فى الأخرى، نفى - سبحانه - هذا التوهم، وبين أنهم يوم القيامة سيصيرون إلى ما هو أشد منه. لأن الله - تعالى - ليس ساهيًا عن أعمالهم حتى يترك مجازاتهم عليها.

فالمراد من نفى الغفلة نفى ما يتسبب عنها من ترك المجازاة لهم على شرورهم.

وفى ذلك دليل على أن الله - تعالى - يعاقب الحائدين عن طريقه المستقيم، بعقوبات فى الدنيا، وفى الآخرة، جزاء طغيانهم، وإصرارهم على السيئات.

ثم أكد - سبحانه - هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى : ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾.

والمعنى : أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله، وباعوا دينهم بدنياهم، وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرا.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود بنقضهم للعهد، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بلون آخر من ألوان جناياتهم، فقال تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ
بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ

ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ففى هاتين الآيتين تذكير لبنى إسرائيل بضرب من النعم التى أمدهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام.

والمراد بالكتاب الذى أعطاه الله لموسى التوراة، فقد أنزلها عليه لهدايتهم ولكنهم حرفوها وبدلوها وخالفوا أوامره وأولوها تأويلا سقيما.

ومعنى ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ أردفنا وأرسلنا من بعد موسى رسلا كثيرين متتابعين، لإرشاد بنى إسرائيل، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

يقال: قفا أثره يقفوه قفوًا وقفوًا، إذا تبعه. وقفى على أثره بفلان إذا أتبعه إياه. وقفيته زيدًا وبه: أتبعته إياه. واشتقاقه من: قفوته إذا أتبعت قفاه، والقفا مؤخر العنق، ثم أطلق على كل تابع ولو بعد الزمن بينه وبين متبوعه.

والرسل: جمع رسول بمعنى مرسل، وقد أرسل الله - تعالى - رسلا بعد موسى - عليه السلام -: منهم: داود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى - عليهم الصلاة والسلام -.

فمن مظاهر نعم الله على بنى إسرائيل، أنه لم يكتف بإنزال الكتب لهدايتهم، وإنما أرسل فيهم بجانب ذلك رسلا متعددين، لكى يبشروهم وينذروهم، ولكن بنى إسرائيل قابلوا نعم الله بالجحود والكفران، فقد حرفوا كتب الله، وقتلوا بعض أنبيائه.

والمراد بالبينات فى قوله: ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ الحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته، فتشمل كل معجزة أعطاها الله لعيسى كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار ببعض المغيبات، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام -.

وخص القرآن عيسى بالذكر لكونه صاحب كتاب هو الإنجيل، ولأن شرعه نسخ أحكاما من شريعة موسى - عليه السلام -.

وفى إضافة عيسى إلى أمه إبطال لما يزعمه اليهود من أن له أبًا من البشر.

وقوله: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أى: قويناه مأخوذ من الأَيْدِ وهو القوة.

وروح القدس هو جبريل - عليه السلام -، قال - تعالى -:

﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾، والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى: الروح المقدس. ووصف بالقدس لطهارته وبركته. وسمى روحًا لمشابهته الروح الحقيقى فى أن كلا منهما مادة لحياة البشر. فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب. والروح تحيا به الأجسام.

أى: أننا أعطينا عيسى بن مريم الحجج الدالة على صدقه فى نبوته وقويناه على ذلك كله بوحينا الذى أوحيناه إليه عن طريق جبريل - عليه - السلام -.

ثم وبخ الله اليهود على أفعالهم القبيحة فقال: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون﴾.

أى: أفكلما جاءكم يابنى إسرائيل رسول بما لا تحبه أنفسكم الشريرة استكبرتم عن اتباعه والإيمان به وأقبلتم على هؤلاء الرسل ففريقًا منهم كذبتم، وفريقًا آخر منهم تقتلونه غير مكتفين بالتكذيب:

وتهوى: من هوى إذا أحب «والهوى يكون فى الحق ويكون فى الباطل كما فى هذه الآية.

واستكبرتم: تكبرتم، والتكبر ينشأ عن الاعجاب بالنفس الذى هو أثر الجهل بها. وهو من الصفات التى متى تمكنت فى النفس أوردتها المهالك، وساقتها إلى سوء المصير.

وقدم تكذيبهم للرسل على قتلهم إياهم، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر.

وعبر فى جانب القتل بالفعل المضارع فقال: ﴿تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم، لأن الفعل المضارع كما هو المألوف فى أساليب البلاغة. يستعمل فى الأفعال الماضيه التى بلغت من الفظاعة مبلغًا عظيما. ووجهه أن المتكلم يعمد بذلك الفعل القبيح كقتل الأنبياء، ويعبر عنه بالفعل المضارع الذى يدل بحسب وضعه على الفعل الواقع فى الحال. فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم.

ثم حكى القرآن بعض الدعاوى الباطلة التى كان يدعيها اليهود فى العصر النبوى ورد عليها بما يدحضها فقال:

﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أى: قال اليهود الذين كانوا فى العهد النبوى: قلوبنا يا محمد مغطاة بأغطية حسية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها. ومقصدهم من ذلك، إقناطه ﷺ من إجابتهم لدعوته حتى لا يعيد عليهم الدعوة من بعد.

والغلف: جمع أغلف، وهو الذى جعل له غلاف، ومنه قيل للقلب الذى لا يعى ولا يفهم، قلب أغلف، كأنه حجب عن الفهم بالغلاف.

قال ابن كثير: وقرأ ابن عباس - بضم اللام - وهو جمع غلاف. أى: قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك.

وقد رد الله - تعالى - على كذبهم هذا بما يدحضه ويفضحه فقال:

﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أى: أن قلوبهم ليست غلفًا بحيث لا تصل إليها دعوة الحق بل هى متمكنة بأصل فطرتها من قبول الحق، ولكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء واستحبابهم العمى على الهدى.

والفاء فى قوله: ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ للدلالة على أن ما بعدها متسبب عما قبلها و ﴿ما﴾ فى قوله ﴿فقليلا ما﴾ لتأكيد معنى القلة.

والمعنى أن الله لعنهم وكان هذا اللعن سببًا لقلة إيمانهم فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلا، وقلة الإيمان ترجع إلى معنى أنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به. وقد وصفهم الله - تعالى - فيما سبق بأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى نوع آخر من رذائل اليهود، ويتجلى هذا النوع فى جحودهم الحق عن معرفة وعناد، وكراهتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد، وتحولهم إلى أناس يتميزون من الغيظ إذا ما رأوا نعمة تساق لغير أبناء ملتهم.

استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول:

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

روى المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هاتين الآيتين آثارا متعددة، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا: مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل قوله - تعالى - ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ . . . إلخ الآية»[١].

ومعنى الآيتين الكريمتين: ولما جاء إلى اليهود محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه، مصدقًا لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبى ﷺ ونعته، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم، لما جاءهم النبى المرتقب ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته، وكذبوا كتابه ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾. بئس الشىء الذى باعوا به أنفسهم. الكفر بما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ، وكفرهم هذا كان من أجل البغى الذى استولى على نفوسهم، والحسد الذى خالط قلوبهم، وكراهية لأن ينزل الله وحيه على محمد العربى ﷺ فباءوا بسبب هذا الخلق الذميم، بغضب مترادف متكاثر من الله[٢] - تعالى - ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ جزاء كفرهم وحسدهم.

والمراد بالكتاب فى قوله تعالى ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ القرآن الكريم، وفى تنكيره زيادة تعظيم وتشريف له، وفى الأخبار عنه بأنه من عند الله، إشارة إلى أن ما يوحى به - سبحانه - جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير، والذى مع اليهود هو التوراة، ومعنى كون القرآن مصدقًا لها، أنه يؤيدها ويوافقها فى أصول الدين، وفيما يختص ببعثة النبى ﷺ وصفته.

وفى وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة لأنهم لم يكفروا بشىء يخالف أصول كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذى يصدق كتابهم.

وقوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾.

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٢٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٣ ص ٢٨٢ للإمام ابن تيمية وقد ساق - رحمه الله - أكثر من عشرة آثار فى هذا المعنى عند حديثه عن هذه الآية.

يستنصرون عليهم بالنبى ﷺ قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى الذى نجد نعته فى التوراة،

والاستفتاح معناه : طلب الفتح وهو الفصل فى الشىء والحكم فيه، كما فى قوله تعالى : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾. ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين الناس قال تعالى : ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ أى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، فالمراد به فى الآية الاستنصار.

ثم بين - سبحانه - حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال تعالى :

﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أى : فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به.

وقال - سبحانه - ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول، ليكون اللفظ أشمل، فيتناول الكتاب والرسول الذى جاء به لأنه لا يجىء الكتاب إلا عن طريق رسول.

ومعرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة فى التوراة عن النبى ﷺ فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبى المبعوث منهم لا من العرب، ملأ قلوبهم غيظًا وحسدًا، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها، وحال بينها وبين أن يكون لها أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق.

ولقد حاول رئيسهم (عبد الله بن سلام) - رضى الله عنه - أن يصرفهم عن العناد وأقسم لهم بأن ما جاء به النبى ﷺ هو الحق المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا وصموا وتنقصوه ولذا لعنهم الله تعالى، وأبعدهم عن رحمته كما قال تعالى : ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾.

وقال - سبحانه - ﴿على الكافرين﴾ ولم يقل عليهم، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم.

ثم ذكر - سبحانه - أنهم بكفرهم قد باعوا أنفسهم بثمن بخس. فقال تعالى : «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله» أى : بئس الشىء الذى باع به اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

وجمهور المفسرين على أن ﴿اشتروا﴾ هنا بمعنى باعوا، لأن أولئك اليهود، لما كانوا متمكنين من الإيمان الذى يفضى بهم إلى السعادة الأبدية بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق فتركوه،

واستمروا على كفرهم بغيًا وحسدًا وحبًا فى الرياسة وتعصبًا لجنسيتهم لما كانوا كذلك، صار اختيارهم للكفر على الإيمان، بمنزلة اختيار صاحب السلعة ثمنها على سلعته، فكأنهم بذلوا أنفسهم التى كان باستطاعتهم الانتفاع بإيمانها، وقبضوا الكفر عوضًا عنها فأنفسهم بمنزلة السلعة المبيعة وكفرهم بمنزلة ثمنها المقبوض، فبئس هذا الثمن الذى أوردهم العذاب الأليم.

وعبر - سبحانه - عن كفرهم بصيغة المضارع ﴿أن يكفروا﴾ وعن بيعهم لأنفسهم بالماضى، ﴿اشتروا﴾ للدلالة على أنهم صرحوا بكفرهم بالقرآن الكريم من قبل نزول الآية، وإن بيعهم أنفسهم بالكفر طبيعة فيهم مستقرة منذ وقت بعيد، وأنهم ما زالوا مستمرين على تلك الطبيعة المنحرفة.

وقوله تعالى: ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾، تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بدافع من البغى والحقد، وكراهة أن ينزل الله الوحى من فضله على من يشاء من عباده، فالبغى هنا مصدر بغى يبغى إذا ظلم. والمراد به ظلم خاص هو الحسد، وإنما عد الحسد ظلما، لأن الظلم معناه المعاملة التى تبعد عن الحق وتجافيه. والحسد معناه تمنى زوال النعمة عن الغير والظالم والحاسد قد جانب كل منهما الحق فيما صنع، والحاسد لن يناله نفع من زوال نعمة المحسود، كما أنه لن يناله ضر من بقائها، وما دام الأمر كذلك فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة وصدق الشاعر فى قوله.

وأظلم خلق الله من بات حاسدًا - لمن بات فى نعمائه يتقلب -.

فاليهود قد كفروا بما أنزل الله، من أجل حسدهم للنبى ﷺ على النبوة ولأنه لم يكن منهم وكان من العرب، وكراهية لأن ينزل الله الوحى على من يصطفيه للرسالة من غيرهم، فعدم إيمانهم بما عرفوه وارتقبوه سببه أنانيتهم البغيضة، وأثرتهم الذميمة التى حملتهم على أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، وأن يتوهموا أن النبوة مقصورة عليهم، فليس لله - تعالى - فى زعمهم - أن ينزعها من ذرية إسحاق ليجعلها فى ذرية إسماعيل عليهما السلام -.

ولم يصرح - سبحانه - بأن المحسود هو النبى ﷺ لعلم ذلك من سياق الآيات الكريمة وللتنبيه على أن الحسد فى ذاته مذموم كيفما كان حال المحسود.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما آل إليه أمرهم من خسران مبين فقال تعالى:

﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾: باء بإثمه يبوء أى: رجع أى: فرجعوا من أجل كفرهم وحسدهم للنبى ﷺ بغضب مضموم إلى غضب آخر كانوا قد استحقوه بسبب كفرهم بعيسى - عليه السلام - وبسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه،

وتضييعهم لأحكام التوراة. فهم بسبب كفرهم المستمر الذى تعددت أسبابه، يصيبهم غضب كثير متعاقب من الله - تعالى -.

ويصح أن يكون معنى قوله: ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ أنهم رجعوا بغضب شديد مؤكد، لصدوره من الله - تعالى -.

والمراد بالكافرين، اليهود الذين تحدث عنهم فيما سبق، فهم الذين عرفوا صدق محمد ﷺ فى نبوته بما نطقت به التوراة، ومع ذلك كفروا به فاستحبوا العمى على الهدى.

وعبر عنهم بهذا العنوان للتنبيه على أن ما أصابهم من عذاب مذل لهم كان بسبب كفرهم، ويصح أن يراد بالكافرين: كل كافروهم يدخلون فيه دخولا أوليا؛ وإنما كان لهم العذاب المهين لأن كفرهم لما كان سببه البغى والحسد والتكبر والأنانية، قوبلوا بالإهانة والصغار.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد كشفتا عن لون من صفات اليهود الذميمة وهو إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ الذى كانوا يستنصرون به على أعدائهم قبل بعثته، وبيعهم الإيمان الذى كان فى مكنتهم الظفر به بالكفر بما أنزل الله من دين قويم، وكتاب كريم إرضاء لغريزة الحقد الذى استحوذ على قلوبهم، وتمشيًا مع أثرتهم التى أبت عليهم أن يؤمنوا بنبى ليس من نسل إسرائيل ولو جاءهم بالحق المبين، فحق عليهم قول الله - تعالى - : ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

ثم حكى القرآن بعد ذلك بعض المعاذير الكاذبة التى كان اليهود يعتذرون بها عندما يدعون إلى الدخول فى الإسلام، فقد كانوا يقولون إننا مكلفون ألا نؤمن إلا بكتابنا التوراة، فنحن نكتفى بالإيمان به دون غيره. استمع إلى القرآن - وهو يعرض دعاواهم الكاذبة ثم يقذفها بالحق فيدمغها - حيث يقول:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ومعنى الآيات الكريمة. أن اليهود المعاصرين للعهد النبوى كانوا إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ أجابوا بقولهم: نؤمن بما أنزل علينا وهو التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على موسى، ويجحدون غيرها وهو القرآن الكريم المصدق لها فى الأمر باتباع محمد ﷺ ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يكذبهم فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم فقال: ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة فإنها تنهاكم عن قتلهم ثم كذبهم القرآن الكريم مرة أخرى فقال: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أى: بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، ولكنكم ﴿اتخذتم العجل من بعده﴾ أى: من بعد ذهابه لميقات ربه ﴿وأنتم ظالمون﴾ لعبادتكم غير الله تعالى.

ثم كذبهم القرآن الكريم - فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم - بصورة أخرى سوى ما سبقها فقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ وقلنا لكم: ﴿خذوا ما آتيناكم - من التوراة - بقوة﴾ أى بجدو حزم ﴿واسمعوا﴾ ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة. ولكن أسلافكم الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم: «سمعنا» قولك «وعصينا» أمرك. وخالط حب العجل قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن، وكل هذه الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، وإذا فبئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فالواقع أن التوراة بريئة من أعمالكم، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود، وإخبار عن إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزله الله على موسى وهو التوراة.

والمقصود ﴿بما أنزل الله﴾ القرآن الكريم. ولم يذكر المنزل عليه وهو محمد ﷺ للعلم به أو للتنبيه على أن وجوب الإيمان بالكتاب، يكفى فيه العلم بأنه منزل من عند الله - تعالى - ومتى

استقر فى النفس أن القرآن الكريم من عند الله، استتبع ذلك استحضار أنه أنزل على محمد ﷺ.

وقولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ معناه: نؤمن بالتوراة التى أنزلها الله على نبينا موسى دون غيرها مما أنزله الله عليك - يا محمد -، وجوابهم هذا يدل على غبائهم وعنادهم. لأن الداعى لهم إلى الإيمان، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله وهو ما أنزل عليهم، فلم يكن إيمانهم مطابقًا لما أمر الله به وهو التصديق بجميع الكتب السماوية، ولا شك أن من آمنَ ببعض الكتب السماوية وكفر ببعضها يكون كافرًا بجميعها.

وقوله تعالى: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قصد به بيان التصريح بكفرهم بالقرآن الكريم بعد أن لمحوا بذلك فى قولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾. والضمير فى ﴿وراءه﴾ يعود على ﴿ما أنزل علينا﴾ المكنى به عن التوراة، أى: قالوا نؤمن بما أنزل علينا والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة أو بما بعدها وهو القرآن الكريم.

قال ابن جرير - رحمه الله -: «وتأويل وراء فى هذا الموضع: سوى، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن، ما وراء هذا الكلام الحسن شىء. يراد به: ليس من عند المتكلم به شىء سوى ذلك الكلام، فكذلك معنى قوله تعالى: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أى بما سوى التوراة، وبما بعده من كتب الله التى أنزلها على رسله»(١).

والضمير «هو» فى قوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقًا لما معهم﴾ يعود إلى القرآن الكريم المكنى عنه بقوله «بما وراءه». والحق: الحكم المطابق للواقع. ووصف به القرآن الكريم لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع.

ومعنى كون القرآن مصدقًا لما مع اليهود وهو التوراة، أنه يدل على نبوة النبى ﷺ. وبهذا كان مؤيدًا للتوراة التى بشرت بالنبى ﷺ وذكرت له نعوتًا لا تنطبق إلا عليه، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين فى دعواهم، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذى بشرتِ به توراتهم وأمرتهم بالأيمان به وأيدها القرآن الكريم فى ذلك.

قال صاحب الكشاف: وفى قوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقًا لما معهم﴾ رد لمقالتهم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ لأنهم إذ كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها»(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤١٨.
(٢) تفسير الكشاف بتصرف جـ١ ص ٢٢٤.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يوبخهم ويبطل دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بدليل إلزامى فقال تعالى: ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا. ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ قل لهم: إن كنتم حقًا مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلأى شىء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم لأنه أرسلهم لهدايتكم وسعادتكم.

إن قتلكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم ولا بغيره وأنكم كاذبون فى مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء، ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم.

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر من عاقل، فتقول له: إن كنت عاقلا فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فلم تقتلون﴾ واقعة فى جواب محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله - تعالى -

والإتيان بالمضارع فى قوله - تعالى -: ﴿تقتلون﴾ مع أن القتل للأنبياء وقع من أسلافهم بقرينة قوله تعالى: ﴿من قبل﴾ لقصد استحضار تلك الجناية الشنيعة، وللتنبيه على أن ارتكابهم لنلك الجريمة البشعة يتجدد ويقع منهم المرة تلو الأخرى، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف، فى التعدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول ﷺ ولكن الله - تعالى - عصمه منهم، ونجاه من مكرهم.

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: ﴿أنبياء الله﴾ للتنبيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة.

ثم ذكر القرآن الكريم لهم جنايات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم كما يدعون. ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل، فقال تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾.

البينات: جمع بينة وهى الآيات والمعجزات الدالة على صدقه وحقية نبوته، كانقلاب العصا ثعبانًا، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر... إلخ.

وإنما سماها الله بينات، لأنها لما كانت لا يقدر على أن يأتى بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له

دلت على صدق موسى - عليه السلام - فى نبوته ورسالته.

والمعنى : ولقد جاءكم - يا بنى إسرائيل - نبينا موسى بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، وحقية نبوته، وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه وتطيعوه ولكنكم لم تفعلوا فقد اتخذتم العجل إلهًا من بعد مفارقة نبيكم موسى لكم لمناجاة ربه، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات، التى استبان بها صدقه فيما يبلغكم عن ربه فأنتم ظالمون بذلك، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذى لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

فالآية الكريمة فيها أبطال لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بنبيهم الذى جاءهم بالبينات، لما تركوْا ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

ثم ذكر القرآن الكريم جناية أخرى تكذبهم فى دعواهم : أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم - وهى إباؤهم التوراة عنادًا واستكبارًا فقال تعالى :

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يا بنى إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق عليكم بأن تعملوا بما فى التوراة، وتتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة ورفعنا فوقكم الطور لنريكم آية من آياتنا العظمى التى تقوى قلوبكم، وتجعلكم تقبلون على تعاليم التوراة برغبة واستجابة، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بجد وحزم، واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدبر وطاعة، ولكنكم - يا بنى إسرائيل - يا من تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة وقلتم لنبيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك، وخالط حب عبادة العجل قلوبكم كما يخالط الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم فى التوراة من الهدى والنور وبما صحب عرضها عليكم من الآية البينة وهى رفع الجبل فوقكم حتى ظننتم أنه واقع بكم فكفرتم بذلك كله ولازالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل ولقد سرتم على منهج أسلافكم فى العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله من الحق، وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم؟

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يوبخهم على تخرصاتهم فقال تعالى : ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

وقوله تعالى : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ معناه : أننا حركناه ونقلناه معلقًا فوقكم فى الهواء، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم على الإيمان والطاعة إن كانت لكم عقول تعقل.

ومعنى قوله تعالى: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾: قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به فى التوراة بجد واجتهاد فى تأديته، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم. فقوله تعالى ﴿واسمعوا﴾ ليس المراد به مجرد السماع للقول فقط، بل المقصود منه السماع الذى يصحبه التدبر والاستجابة للأمر: فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾.

ثم حكى - سبحانه - جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال: ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا: وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة(١).

وقد اختلف المفسرون هل صدر متهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقًا أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازًا؟

قال الفخر الرازى: الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة. وقال أبو مسلم: وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾. قال: والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل لا يجوز(٢).

وقوله تعالى: ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾ عطف على قولهم سمعنا وعصينا والإشراب؛ السقى وجعل الشىء شاربًا، واستعمل على وجه التجوز فى خلط لون بآخر كأن أحد اللونين سقى الآخر، يقال: بياض مشرب بحمرة أى مختلط، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط حبه قلبه.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ فى وجه هذه الاستعارة وجهان: الأول: معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، وقوله فى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله: ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارًا﴾، الثانى: كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال(٣).

وفى الجملة الكريمة ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾ مضاف محذوف وهو لفظ (حب) لدلالة المعنى عليه.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود الذين مردوا على العصيان قد خالط حب العجل نفوسهم حتى

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٥.
(٢) الفخر الرازى جـ١ ص ٤٣٢.
(٣) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٣٢.

استقر فى قلوبهم كما يخالط الماء أعماق الجسد. وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل حتى لكأنهم أشربوا ذاته.

والتعبير بقوله: ﴿أشربوا﴾ يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذى لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه.

وقوله تعالى: ﴿بكفرهم﴾ دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر سابق، وجحود متأصل فكفرهم الذى ترتب على عبادتهم للعجل، قد سبقه كفر آخر، فهو كفر على كفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه فى ختام الآية الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى:

﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم - قل لهم - بئس الشىء الذى يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء وعبادة العجل والعصيان إن كنتم مصدقين - كما زعمتم - بالتوراة، والحق أن التوراة ما أمرتكم بشىء من ذلك فما أنتم بمؤمنين بها ولا بغيرها من كتب الله، لأنها لا تأمر بالفحشاء.

فالجملة الكريمة خلاصة لإبطال قولهم «نؤمن بما أنزل علينا» بعد أن أبطله الله - تعالى - فيما سبق بشواهد متعددة، لأنهم لما زعموا ذلك، وكانوا مع هذا يفعلون أفعالا قبيحة تناقض الإيمان بأى كتاب سماوى، أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يذمهم على هذه الأفعال التى تناقض الإيمان بما أنزل عليهم لكى يعلم الناس جميعًا أن دعواهم لا أساس لها من الصحة.

وأضاف - سبحانه - الإيمان إليهم فقال ﴿إيمانكم﴾ ولم يقل الإيمان، لأنه ليس إيمانًا صحيحًا وإنما هو إيمان مزعوم، فإضافة الإيمان إليهم من باب التهكم بهم والاستهزاء بعقولهم.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تشكيك فى إيمانهم بالتوراة، وقدح فى صحة دعواهم فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن عبادة سواه وعن ارتكاب السوء والفحشاء.

فالجملة الكريمة فى معنى النفى لادعائهم الإيمان بالتوراة لأنها ما أمرت بشىء يبغضه الله تعالى.

قال الإمام ابن جرير: وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم. وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئسَ الأمر تأمر به. وإنما ذلك نفى من الله - تعالى - عن التوراة أن تكون تأمر بشىء مما يكرهه الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شىء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم،

والذى يحملهم عليه البغى والعدوان»(١).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة، والبراهين القاطعة على كذب اليهود فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، ووبختهم على مزاعمهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة.

هذا، ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات، فقد قال - رحمه الله - :

يقول الله تعالى فى ذكر خجاج اليهود: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم، قل: فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين...﴾.

هذا قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تنلخص فيما يلى:

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.
٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين.
٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه.

وأقسم لو أن محاميًا بليغًا وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى التى تختلج فى نفس الداعى والمدعو لما وسعه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق.

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، ألستم قد آمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله؟ فالقرآن الذى جاء به محمد ﷺ أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير فى هذا اللفظ الوجيز ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾. وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته. فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشىء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله (على محمد)، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة.

أتدرى لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدًا، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسدًا.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٤.

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها فى الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل.

وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الإسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح...

كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا. والقرآن لم ينزله علينا، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا، ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله : ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ وهذا هو المقصد الأول، وقد زاد إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة، لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها.

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصد الثانى، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، أنظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبًا له، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال :

﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل؟.. ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتًا كأنها مسلمة ليس عليهم وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : كيف يكون الإيمان بكتابهم باعثًا على الكفر بما هو حق مثله؟ لا بل هو الحق كله، وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر؟

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السالفة عليه كالأمر بين كل حق وحق، فقد يكون الشيء حقًا وغيره حقًا فلا يتكاذبان، ولكنهما فى شأنين مختلفين، فلا يشهد بعضها لبعض، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهدًا ومصدقًا لما بين يديه من الكتب، فكيف يكذب به من يؤمن بها.

فانظر إلى الإحكام فى صنعة البيان : إنما هى كلمة رفعت وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر، وسدًا لكل باب من أبواب الهرب، بل

كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم. تمت خطوة واحدة، وفى غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذابًا وتفنيدًا. وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه فى قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضًا مزمنًا وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التى لا سبيل لإنكارها فى جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه، وتمردهم على أوامره ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه، وهل الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقًا لك؟؟...

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى أول الأمر: إن هذا «ظلم» ، وفى الثانية (بئسما) صنعتم، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

تالله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر»[1].

ثم أمر الله - تعالى - نبيه «ﷺ» أن يرد على اليهود فى دعواهم أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم فقال - تعالى -:

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

(١) عن كتاب ﴿النبأ العظيم﴾ من ص ١١٤ : ص ١٢٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز.

وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾

ومعنى الآيات الكريمة إجمالا :

قل - يا محمد - لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا : إن كانت الجنة مختصة بكم، وسالمة لكم دون غيركم، وليس لأحد سواكم فيها حق. فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى دعواكم، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها وأحب الوصول إليها.

ثم أخبر الله أن هذا التمنى لن يحصل منهم فقال : ﴿ولن يتمنوه أبدًا﴾ أى الموت ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أى بسبب ما ارتكبوه من كفر ومعصية ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين وضعوا الأمور فى غير موضعها، فادعوا ما ليس لهم، ونفوه عمن هو لهم.

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لا نظير له ولا مثيل فقال : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ متطاولة ﴿ومن الذين أشركوا﴾ أى : وأحرص عليها - أيضًا - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياه الدنيا ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أى يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال أنه ما أحد منهم بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أى : لا يخفى عليه أعمالهم، فهو محاسبهم عليها، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب.

وقوله تعالى : ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا، والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها، ومعنى « خالصة » سالمة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

قال الإمام ابن جرير : « يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى، ويقال منه خلص هذا الشىء، فهو يخلص خلوصًا وخالصة، والخالصة مصدر مثل العافية. . »[1].

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٦.

وقوله تعالى : ﴿فتمنوا الموت﴾ التمنى هو ارتياح النفس ورغبتها القوية فى الشىء. بحيث توده وتحب المصير إليه، وهو يستعمل فى المعنى القائم بالقلب كما بينا، ويستعمل فى اللفظ الدال على هذا المعنى، كأن يقول الإنسان بلسانه، ليتنى أحصل على كذا.

والاستعمال الثانى هو المراد بقوله تعالى : ﴿فتمنوا الموت﴾ أى اذكروا بألسنتكم لفظًا يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه. وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله - تعالى - والتحدى لا يقع بتحصيل المعانى القائمة بالضمائر والقلوب.

ومعنى الآية الكريمة. قل يا محمد لليهود : إن كانت الجنة خاصة بكم، ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون، فتمنوا الموت بألسنتكم لكى تظفروا بنعيمها الدائم، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحضة الدائمة المضمونة له فى الآخرة، إلى سعادة ممزوجة بالشقاء فى الدنيا.

قال الإمام الرازى : (وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة. ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد ﷺ ومنازعته معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة. ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لابد أن يكون راغبًا فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت متمنيًا له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت. ثم إن الله - تعالى - أخبر أنهم ما تمنوا الموت، بل لن يتمنوه أبدًا، وحينئذ يلزم قطعًا بطلان ادعائها فى قولهم : «إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس»[1].

وتحديهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألسنتهم ليتنا نموت، أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، وهذا رأى جمهور المفسرين.

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة، بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضًا إلى معناها. إذ ليس فى الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة، والقرآن حينما دعا إليها نصارى

(١) تفسير الرازى جـ١ ص٤٣٣.

نجران، جاء اللفظ بها صريحًا فى قوله تعالى : ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾(١).

ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى : ﴿ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾.

أى : لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله - عز وجل - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم، ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه، والآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت، ويمتنعون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنيه، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم، وذلك لأن رسول الله ﷺ لم يخبرهم خبرًا إلا كان حقًا كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت، خوفًا من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب.

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال : «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه».

وقال ابن جرير فى تفسيره : «وبلغنا أن النبى ﷺ قال : «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا؛ ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» قال حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ(٢).

وقال الإمام ابن كثير: ورواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به»(٣).

وقال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ولن يتمنوه أبدًا﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به، كقوله تعالى : ﴿ولن تفعلوا﴾ فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت : قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك»(٤).

ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبى ﷺ بذلك، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته، ويصرون على جحود نبوته؛ فلا يقدح فى هذه المعجزة أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت وهو حريص على الحياة، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى.

(١) آل عمران الآية ٦١.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٢٧.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٧.
(٤) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٥.

وقوله تعالى : ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم وبسبب كونهم قد كذبوا على الله فى دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم فى غاية الحرص على الحياة فقال تعالى : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن - يا محمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة، وأحرصهم عليها، وأشدهم كراهية للموت « وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معانى الراحة والطمأنينة، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ فى هذه الدنيا، وهم فى حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهورًا طويلة، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى : ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾. وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم فى دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يخطر ببالهم، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش، كما يشعر بذلك التنكير فى قوله تعالى ﴿على حياة﴾.

والمراد بالناس جميعهم، وأفعل التفضيل فى « أحرص » على بابه، لأن الحرص على الحياة غريزة فى البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسبابًا، كما قال الشاعر :

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه حريصًا عليها مستهامًا بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فالناس جميعًا وإن كانوا يشتركون مع اليهود فى الحرص على الحياة، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم وبكرامتهم وبكل شيء.

ونكر - سبحانه - الحياة التى يحرصون عليها، زيادة فى تحقيرهم، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء، وللإشعار بأن ما يهمهم

هو مطلق حياة كيفما كانت، بصرف النظر عن العزة والكرامة، فمن أمثال اليهود المشهورة «الحياة وكفى».

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة، تؤدى إلى الجبن، واحتمال الضيم، وتجعل الأمة التى تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة.

وقوله تعالى: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ عطف على الناس، لأنه لما كان قوله تعالى: ﴿أحرص الناس﴾ فى معنى: أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى، فيكون قوله: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ معطوف عليه، فيكون المعنى: أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة.

والذين أشركوا، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنما أفردوا بالذكر مع أنهم من الناس، مبالغة فى توبيخ اليهود وذمهم، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا يدينون ببعث أو نشور كان ذلك دليلا على هوان نفوسهم، وابتذال كرامتهم وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التى تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة.

قال صاحب الكشاف: «وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقًا بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك»(١).

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حرصهم على الحياة فقال تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أى يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهورًا كثيرة، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها، لأنها تؤدى بهم إلى أرذل العمر، وعدم طيب العيش.

فالجملة الكريمة مستأنفة لإظهار مغالاتهم فى التهالك على الدنيا ولتحقيق عموم النوعية فى الحياة المنكرة، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام، أو أكثر، فجيء بهذه الجملة الكريمة. لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة، التى لا هناء فيها ولا راحة، والتى استعاذ من بلوغها المؤمنون.

ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة، لأن الموت لا يتركهم مهما

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٥.

طال عمرهم، فقال تعالى: ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أى: وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعد له، ولا بمنجيه منه.

والجملة الكريمة فيها بيان مصيرهم المحتوم، وقطع لحبال مطامعهم، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم.

وفى التعبير ﴿بمزحزحه﴾ أشارة إلى أن طول عمرهم، ليس له أى أثر فى تخفيف العذاب عنهم، وقوله: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ تهديد ووعيد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود فى دعواهم أن الجنة خالصة لهم، ردًا يبطل حجتهم، ويفضح مزاعمهم، ويكبت نفوسهم، ويخرس ألسنتهم، ويعلن أن الجنة إنما هى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات، واقترفوا من أكاذيب.

ثم ساق القرآن بعد ذلك لونًا عجيبًا من ألوان رذائل اليهود وهو مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - فقال - تعالى -:

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

فهاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقًا من رذائل اليهود وهى عداوتهم لملك من ملائكة الله، لا يأكل مما يأكلون، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإذا فليس هناك مقتض لعداوته، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكراهيته؟

لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحى من عند الله على محمد ﷺ وهم

يحسدونه على النبوة، فلج بهم الحقد والغيظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبريل - أيضًا - وهذه حماقة وجهالة منهم، لأن جبريل - عليه السلام - نزل بالخير لهم فى دينهم وفى دنياهم. ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلاها لا تفرق بين الخير والشر.

ومعنى الآيتين الكريمتين، قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين أعلنوا عداءهم لجبريل أنه لا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل على قلبك بأمر الله ليكون مؤيدًا لما نزل قبله من الكتب السماوية وليكون هداية إلى طريق السعادة وبشارة للمؤمنين بالجنة، وقل لهم كذلك من كان معاديًا لله أو لملك من ملائكته أو لرسول من رسله، فقد كفر وباء بغضب من الله، ومن غضب الله عليه، فجزاؤه الخزى وسوء المصير.

قال الإمام ابن جرير: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا، على أن هذه نزلت جوابًا ليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولى لهم)(١).

وروى البخارى فى صحيحه - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبى ﷺ وهو فى أرض يخترف - أى يجنى ثمارها - فأتى النبى ﷺ فقال له: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى، فيم أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرنى بهن جبريل آنفًا. قال: جبريل؟ قال: نعم قال ذلك عدو اليهود من الملائكة - فقرأ النبى ﷺ هذه الآية: ﴿قل من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك...﴾ الآية ثم قال: أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب! وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود فقال النبى ﷺ: أى رجل فيكم عبد الله؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا: قال «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك؟ فخرج عبد الله فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله(٢).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس: «أن اليهود بعد أن سألوا النبى ﷺ أسئلة أجابهم عنها، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: وليى جبريل، لم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٣١.
(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى: «قل من كان عدو لجبريل» جـ ٦ ص ٢٣.

الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا : إنه عدونا، فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿قل من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه . . .﴾ الآيات.

وفى حديث للإمام أحمد والترمذى والنسائى «قال اليهود للنبى ﷺ بعد أن سألوه عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخير، فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل - عليه السلام - قالوا : جبريل ذلك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله - تعالى - : ﴿قل من كان عدوًا لجبريل﴾ الآية[1].

فيؤخذ من هذه الأحاديث وما فى معناها أن اليهود فى عهد النبى ﷺ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - وأن هذه المجاهرة بالعداوة، قد تكررت منهم فى مواقف متعددة بينهم وبين النبى ﷺ وأن الذى حملهم على ذلك هو حسدهم له، وغيظهم من جبريل، لأنه ينزل بالوحى عليه.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : «ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط فى العقل والعقيدة، ولاشك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبىء عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام»[2].

وفى أمر اللرسول ﷺ بلفظ (قل) كى يرد على اليهود، تثبيت له، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحى، وهو جبريل - عليه السلام -.

وقوله تعالى : ﴿من كان عدوًا لجبريل﴾، شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا أن الله - تعالى - لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادى جبريل، إن وجد معاد آخر له سواهم.

وقوله تعالى : ﴿على قلبك﴾ زيادة تقرير للتنزيل، ببيان محل الوحى، وإشارة إلى أن السبب فى تمكنه ﷺ من تلاوة القرآن الكريم، وإبلاغه للناس، ثباته فى قلبه.

وقوله تعالى : ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ معناه : فلا موجب لعداوته. لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره. وإذًا فعداوته عداوة لله فى الحقيقة والواقع، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب الشرط وقائمة مقامه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٢٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ١ ص ٢٢٦.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف استقام قوله تعالى : ﴿فإنه نزله على قلبك﴾ جزاء للشرط؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتابًا مصدقًا للكتب التى بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه فى إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم.

والثانى : إن عاداه أحد فالسبب فى عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقًا لكتابهم، وموافقًا له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك يحرفونه ويجحدون موافقته له. كقولك : «إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه»[1].

وقوله - تعالى - : ﴿بإذن الله﴾ أى بأمره، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل، الذى أنزل بالقرآن بإذن الله، لا من تلقاء نفسه، وهذه حجة أولى عليهم.

وقوله تعالى : ﴿مصدقًا﴾ حال من الضمير العائد على القرآن الكريم، فى قوله ﴿نزله﴾ أى أنزله حالة كونه مؤيدًا للكتب السماوية التى قبله ومن بينها التوراة، وهذه حجة ثانية عليهم.

ثم عززها بثالثة ورابعة - فقال تعالى : ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أى هذا القرآن الذى نزل مصدقًا لكتبكم، هو هاد إلى طريق الفلاح والنجاح، والعاقل لا يرفض الهداية التى تأتيه وتنقذه مما هو فيه من ضلالات ولو كان الواسطة فى مجيئها عدوًا له، وهو - أيضًا - مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى - عنهم فى الدنيا والآخرة، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبى فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفلحين وبذلك يكون القرآن قد أقام حججًا متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين. وتكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن بخمس صفات.

أولها : أنه منزل من عند الله وبإذنه.

وثانيها : أنه منزل على قلب النبى ﷺ.

وثالثها : أنه مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية.

ورابعها: أنه هاد إلى الخير أبلغ هدى وأقواه.

وخامسها : أنه بشارة سارة للمؤمنين.

ثم بين - تعالى - حقيقة الأمر فيمن يعادى جبريل وأن عداوته عداوة لله - تعالى - فإنه أمين وحيه إلى رسله ليس له فى ذلك شىء إلا أن يبلغ ما أمر به فقال تعالى : ﴿من كان عدوًا لله

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٦.

وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾.

والمعنى :. أن عداوة جبريل عداوة لله، وأن عداوة محمد ﷺ عداوة لله - أيضًا - فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع.

ومعنى عداوة العبد لله : كفره به ومخالفته لأوامره ونواهيه ومعنى عداوته لملائكته : إنكار فضلهم ووصفهم بما ينافى عصمتهم ورفعة منزلتهم. ومعنى عداوته لرسله : تكذيبه لهم وتعمده إلحاق الأذى بهم ومعنى عداوة الله لعبده : غضبه سبحانه - عليه، ومجازاته له على كفره. وصدر - سبحانه - الكلام باسمه الجليل تفخيمًا لشأن ملائكته ورسله وإشعارًا بأن عداوتهم إنما هى عداوة له - تعالى -.

وأفرد - سبحانه - جبريل وميكال بالذكر، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته، لتصريح اليهود بعداوة جبريل وتعظيم ميكائيل، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر.

قال ابن جرير : «فإن قال قائل : أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟ قيل بلى، فإن قال : فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما فى الآية فى جملة أسماء الملائكة؟ قيل : معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكائيل ولينا، وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ من أجل أن جبريل صاحبه، أعلمهم الله - تعالى - أن من كان لجبريل عدوًا فإن الله عدو له وأنه من الكافرين، فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه، لئلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدوًا لله وملائكته ورسله، ولسنا لله ولا لملائكته ولا لرسله أعداء، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصًا، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه، وكذلك قوله ورسله فلست يا محمد داخلا فيهم، فنص الله - تعالى - على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ليقلع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم، ويحسم تمويهم أمورهم على ضعاف الإيمان»(١).

وقال - سبحانه - فى ختام الآية الكريمة ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ ولم يقل فإن الله عدوٌ له أو لهم، ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل، وللإشعار بأن عداوة الله - تعالى - لهم سببها كفرهم فإن الله لن يعادى قومًا لذواتهم ولا لأنسابهم، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو.

قال صاحب المنار : «فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التى جاءوا بها، فهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم، لكنهم كذلك فى نفس الأمر، فأراد أن يبين حقيقة حالهم فى

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٤٩.

الواقع، وهى أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذى يزعمون أنهم يحبونه. وأنهم كانوا يؤمنون بالنبى ﷺ لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر. وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التى انفرد بها»(١).

وبهذا تكون الآيتان الكريمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجهالة، لمعاداتهم لجبريل وتكذيبهم لمحمد ﷺ وبينتا ما عليه أمرهم من خزى وهوان بسبب هذه العداوة التى لا باعث عليها إلا الحسد، وكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

ثم أخذ القرآن فى تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتسليته عما يفعله معه اليهود فقال تعالى:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

أى: لقد أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله، وبينا لك فيها علوم اليهود، ومكنونات سرائرهم وأخبارهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم من كتبهم، وما بدلوه من أحكامهم قال تعالى:

﴿إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون﴾.

وإن هذه الآيات التى أنزلها الله إليك يا محمد، ما يكفر بها، ويجحد صدقها إلا المتمردون من الكفرة، الخارجون على حدود الله المنتهكون لحرماته.

والهمزة فى قوله ﴿أوكلما﴾ للإنكار، والواو للعطف على محذوف يقتضية المقام: أى أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم، أى: طرحوه ونقضوه من النبذ وهو إلقاء الشىء وطرحه لقلة الاعتداد به ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء وهو حقيقة فى الأجرام وإسناده إلى العهد مجاز.

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٩٤.

والضمير فى قوله : ﴿منهم﴾ يعود لليهود الذين اشتهروا بنقض العهود وقوله : ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ يفيد الترقى إلى الأغلظ فالأغلظ، أى أن فريقًا منهم عرف بنقضه للعهد، وأكثرهم عرف بكفره وجحده للحق.

قال صاحب الكشاف، واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون﴾.(١)

وقال الرازى : «والمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التوبيخ والتبكيت. ودل بقوله : ﴿أوكلما عاهدوا﴾ على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه، بل يدل على أن ذلك كالعادة منهم، فكأنه - تعالى - أراد تسلية النبى ﷺ عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات، بأن بين له أن ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم. . . »(٢)

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن نبذ اليهود لكتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام، فقال - تعالى - :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٧.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤١٧.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ
وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ
مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ
وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

والمعنى : وحين جاء اليهود وأحبارهم رسول من عند الله، وهو محمد ﷺ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التى تشهد بصدقه، وراء ظهورهم، حتى لكأنهم يجهلون أنها من عند الله، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان - عليه السلام - ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان - عليه السلام - كان ساحرًا، وما تم له ملكه العريض، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا.

وقد أكذبهم الله - تعالى - فى هذا الزعم بقوله : ﴿وما كفر سليمان﴾ أى : بتعلم السحر والعمل به، كما يزعم هؤلاء «ولكن الشياطين» هم الذين «كفروا» بتعلم السحر وتعليمه للناس، وتعليمهم - أيضًا - ضربًا آخر منه وهو ﴿ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ من وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به، ولقد كان الملكان لا يعلمان أحدا من الناس السحر حتى ينصحاه بقولهما : إن السحر الذى نعلمك إياه. القصد منه التمييز بين المطيع والعاصى، وبين السحر والمعجزة، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين، بخلاف الشياطين فإنهم تعلموه وعلموه لغيرهم لاستعماله فى الشرور والآثام، ولإحداث التفرقة بين الزوجين، ولكن هذا السحر الذى يتعاطاه الشياطين وأتباعهم لن يضر أحدًا بذاته، وإنما ضرره يتأتى إذا أراد الله تعالى - ذلك وشاءه، ولقد علم أولئك النابذون لكتاب الله المؤثرون عليه اتباع السحر، أن من استبدل السحر بكتاب الله، فليس له نصيب من نعيم الجنة، ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علمًا نافعًا. ﴿ولو أنهم آمنوا﴾

بالله ورسوله محمد ﷺ كما أرشدتهم إليه التوراة، ﴿واتقوا﴾ المعاصى والاثام لأثيبوا مثوبة من عند الله هى خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله ﴿لو كانوا يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾.. إلخ الآية.

بيان لما صدر عن اليهود من تكذيب للرسول ﷺ وطرح لتعاليم كتابهم التى أمرتهم باتباعه.

أخرج ابن جرير عن السُدى قال فى قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب: كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان﴾. أى لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها. فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت، فذلك قول الله ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أى كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود، فنقضوا عهد الله، لا يعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه[(١)].

وفى وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له، ومبالغة فى انكار عدم إيمانهم به، وإغراء للناس جميعًا بالدخول فى دعوته، لأنه ليس رسولا من تلقاء نفسه، وإنما هو رسول من عند الله - تعالى -.

والمراد «بما معهم» التوراة. وتصديق الرسول ﷺ لها، معناه أن ما جاء به من تعاليم موافق لها فى أصول الدين، وأن ما جاءت به من صفات للرسول المنتظر بعد عيسى - عليه السلام - لا تنطبق إلا عليه ﷺ.

وعبر - سبحانه - عن تركهم العمل بالكتاب الذى نزل لهدايتهم بالنبذ، مبالغة فى عدم اعتدادهم، وتناسيهم إياه، لأن أصل النبذ طرح وإلقاء ما لا يعتد به.

وفى إسناد النبذ إلى فريق من الذين أوتوا الكتاب، سخرية بهم، واستجهال لهم، لأن الذين أوتوه هم الذين نبذوه، ولو كان النابذون من المشركين لكان لهم بعض العذر لجهلهم، ولكن أن يكون التاركون للنور هم الذين أوتوه وأكرموا به، فذلك هو الضلال المبين.

والمراد من ﴿كتاب الله﴾ الذى نبذوه لما جاءهم رسول الله - ﷺ - التوراة، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقًا، لاتبعوا الرسول ﷺ الذى ذكرت صفاته فيها، والذى وجب عليهم بمقتضى كتابهم التوراة الإيمان به، فهم بجحودهم لنبوته، يكونون جاحدين لتوراتهم التى شهدت له بالصدق.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٤٣ بتصرف وتلخيص.

وقيل المراد بكتاب الله الذى نبذوه القرآن، لأنهم لم يؤمنوا به، بل تركوه بعد سماعه، وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد، مع أنه كان من المتحتم عليهم أن يتلقوه بالقبول.

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح، لأن النبذ يقتضى سابقة الأخذ، فى الجملة. وهو متحقق بالنسبة للتوراة، بخلاف القرآن الكريم فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر، إذاً كان المراد بالكتاب الذى نبذوه، هو عين الكتاب الذى نزل لهدايتهم وآمنوا به وهو التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وراء ظهورهم﴾ كناية عن إعراضهم الشديد عنه، وتوليهم عن تعاليمه.

تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره، أى تولى عنه معرضًا، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، ففى هذه الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله - تعالى - حيث شبه - سبحانه - تركهم لكتابه، بحالة شىء يرمى به وراء الظهر استهانة به. وفى إضافة الوراء إلى الظهر، تأكيد لنبذ ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله. وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبى ﷺ ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه. فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشىء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره، وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس، ويجرىء على ترك الباقى(١)...

وقوله تعالى: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ جملة حالية، أى طرحوه وراء ظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئًا، ومن لا يعرف أنه كتاب الله.

وشبههم بمن لا يعلمون مع أنهم فى الواقع يعلمون أنه من عند الله - حق العلم - لأنهم نبذوه مكابرة وعنادًا، ولأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سواء، فى جحود الحق والانغماس فى الآثام.

وقال - سبحانه -: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ بنفى الحال والاستقبال للإشعار بأنهم قوم لا أمل فى توبتهم وإنابتهم، بل هم تمر بهم الأيام، وتتوالى عليهم العظات، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون إلى الحق، فهم مستمرون على طرح كتاب الله فى كل وقت وآن، ومصممون على ذلك.

ثم حكى - سبحانه - لونًا آخر من زيغهم وضلالهم واتباعهم للأباطيل بعد أن وبخهم على

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤٦.

نبذهم لكتابه فقال تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾.

اتبعوا: من الاتباع وهو الأقتداء، والضمير فيه يعود على اليهود المعاصرين للنبى ﷺ.

وتتلو: من التلاوة بمعنى الاتباع أو القراءة، وقال الراغب: تلا عليه كذب عليه.

والشياطين: جمع شيطان، وهو كائن حى خلق من النار، ويطلق على الممتلىء شرًا من الأنس.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا الذى كانت تتلوه وتقصه الشياطين على عهد ملك سليمان، وفى زمانه، من الأكاذيب والكفر ومن ذلك زعمهم أن ملكه قام على أساس السحر، وأنه ارتد فى أواخر حياته، وعبد الأصنام إرضاء لنسائه الوثنيات إلى غير ذلك من الأكاذيب التى ألصقوها به - عليه السلام - وهو برىء منها.

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: ﴿على ملك سليمان﴾ أى على عهد ملكه وفى زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها فى كتب يقرءونها ويعلمونها للناس، وفشا ذلك فى زمان سليمان - عليه السلام - حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: ماتم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره(١).

وقوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ معناه: وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم، وصرفهم عن عبادة - الله - تعالى - إلى عبادة غيره من المخلوقات.

ففى الجملة الكريمة تنزيه لسليمان - عليه السلام - عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورا وبهتانًا، ودلالة على أن ذلك السحر الذى نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر.

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد فى آخر عمره، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبى ﷺ سليمان بين الأنبياء يقولون: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحرًا يركب الريح.

فإن قال قائل: ما الحكمة فى نفى الكفر عن سليمان مع أن صدر الآية لا يفيد أن أحدًا نسب إليه ذلك.

فالجواب: أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر أضافوا

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٢.

هذا السحر إلى سليمان، وقالوا إنه كان يسخر به الجن والإنس والريح، فأكذبهم الله - تعالى - بقوله: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ كما بينا.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يعود على الشياطين الذين افتروا الأكاذيب على سليمان - عليه السلام -.

ويجوز أن يعود على اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تلته الشياطين على سليمان.

قال الأستاذ الإمام: فى قوله تعالى ﴿يعلمون الناس السحر﴾: وجهان:

أحدهما: أنه متصل بقوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أى: أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر.

والثانى: وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند قوله تعالى ﴿كفروا﴾ وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهورًا فى زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم، أى أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وههنا يقول القائل: بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان فى رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التى كانت تحت كرسيه؟ فأجاب على طريق الاستئناف البيانى ﴿يعلمون الناس السحر﴾.

ونفى الكفر عن سليمان والصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض، فعلم - أيضًا - أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية، وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعلم السحر، لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها، ويضرون بها الناس خداعًا وتمويها وتلبسًا(١).

وإنما أضاف الله - تعالى - إلى اليهود أنهم اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان خاصة مع أنه كان معروفًا قبل سليمان - عليه السلام - كما أخبر به القرآن عن سحرة فرعون، وإنما أضاف ذلك إليهم، لأن هذا كان هو الواقع منهم، ولأن سحر هؤلاء الشياطين الذين كانوا على عهد سليمان، كان مدونًا فى صحف اليهود من قديم، وتوارثه خلفهم عن سلفهم إلى أن وصل إلى من عاصر النبى ﷺ منهم ولأن سليمان - عليه السلام - أعطاه الله تعالى ملكًا واسعًا، وسخر له الإنس والجن والريح، فعزت الشياطين ذلك كله إلى تعلمه السحر.

و ﴿ما﴾ فى قوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ موصولة، وهى معطوفة على السحر فى قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ أى يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم الذى أنزل على الملكين.

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٤٠١.

والذى أنزل عليهما هو وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به. ليعرفاه الناس فيجتنبوه، على حد قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه ،

فالشياطين عرفوه فعملوا به، وعلموه للناس ليستعملوه فى الشرور والمآثم بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه[1].

هذا، واختصت بابل[2] بالإنزال، لأنها كانت أكثر البلاد عملا بالسحر، وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم فى أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثم جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب فحدث فساد عظيم، وعمت الأباطيل فألهم الله - تعالى - هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه، حتى يعلموا أن السحرة الذين صرفوهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها قد خدعوهم وأضلوهم، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم.

واللام فى ﴿الملكين﴾ مفتوحة فى القراءات العشر المتواترة، وقرىء شاذًا ﴿الملكين﴾ بكسر اللام.

قال بعض المفسرين: المراد بالملكين - بفتح اللام - رجلان صالحان اطلعا على أسرار السحر التى كانت تفعلها السحرة، فعلماها للناس ليحذراهم من الانقياد لتلبيسات الشياطين، وسميا ملكين مع أنهما من البشر لصلاحهما وتقواهما، ويؤيد هذا الرأى قراءة الملكين - بكسر اللام - وإن كانت شاذة:

وقال جمهور المفسرين: إنهما ملكان على الحقيقة أنزلهما الله - تعالى - ليعلما الناس السحر ابتلاء لهم، ليفضحا مزاعم السحرة الذين كانوا يدعون النبوة كذبا، ويسخرون العامة لهم ويخرجونهم إلى عبادة غير الله، (وهاروت وماروت) اسمان للملكين الذين أنزل عليهما السحر، وهما بدل أو عطف بيان للملكين.

---

(١) ويجوز أن تكون (ما) معطوفة على قوله تعالى: ﴿ما تتلو الشياطين﴾ والمعنى على هذا الرأى. واتبع اليهود بعد أن نبذوا كتاب الله السحر الذى تلته الشياطين على عهد سليمان واتبعوا كذلك السحر الذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وعلى هذا الرأى يكون قوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر جملة معترضة بين المتعاطفيّن قصد بها تبرئة سليمان من السحر وإضافته إلى الشياطين، وبيان أنهم هم الذين تعلموه وعلموه الناس بقصد إضلالهم. هذا وفى إعراب (ما) فى قوله تعالى: (وما أنزل على الملكين) آراء أخرى إكتفينا عنها بما ذكرناه لوفاته بالغرض.

(٢) بابل: مدينة بالعراق ينسب اليها السحر والخمر.

وقوله تعالى : ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ بيان لما كان ينصح به الملكان من يريد تعلم السحر منهما. والجملة حالية من هاروت وماروت.

والفتنة، المراد بها هنا الابتلاء والاختبار، تقول : فتنت الذهب فى النار، أى : اختبرته لتعرف جودته ورداءته.

والمعنى : أن الملكين لا يعلمان أحدًا من الناس السحر إلا وينصحانه بقولهما إن ما نعلمك إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار لتمييز المطيع من العاصى. فمن عمل به ضل وغوى، ومن تركه فهو على هدى ونور من الله، ولإظهار الفرق بين المعجزة والسحر. فحذار أن تستعمل ما تعلمته فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين. كما كفر السحرة بنسبتهم التأثيرات إلى الكواكب وغيرها من المخلوقات.

فالمقصود من تعليم الملكين للناس السحر، فضح أمر السحرة الذين كثروا فى تلك الأيام، وادعوا مالم يأذن به الله، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا كذلك، وإنما هم أفاكون، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة للمبالغة فى الاقرار بأنهما لا يملكان نفعًا ولا ضراً لأحد، وإنما هما فتنة محضة، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصى.

ثم بين – سبحانه – لونًا من السحر البغيض الذى استعمله أولئك السحرة فى الأذى فقال تعالى : ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أى فيتعلم بعض الناس من الملكين ما يحصل به الفراق بين المرء وزوجه.

فالجملة الكريمة تفريع عما دل عليه قوله تعالى قبل ذلك : ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة﴾ لأنه يقتضى أن التعليم حاصل، وأن بعض المتعلمين قد استعملوه فى التفريق بين الزوجين.

وخصص سبحانه هذا اللون من السحر بالنص عليه للتنبيه على شدة فساده. وعلى شناعة ذنب من يقوم به. لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين اللذين جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة.

والضمير فى قوله تعالى : ﴿فيتعلمون﴾ راجع لأحد، وصح عود ضمير الجمع عليه مع أنه مفرد، لوقوعه فى سياق النفى، والنكرة إذا وردت بعد نفى كانت فى معنى أفراد كثيرة، فصح أن يعود ضمير الجمع إليه كذلك.

ثم نفى – سبحانه – أن يكون السحر مؤثرًا بذاته فقال تعالى : ﴿وما هم بضارين به من

أحد إلا بإذن الله﴾ أى : أن أولئك السحرة لن يضروا أو ينفعوا أحدًا بسحرهم إلا بإذن الله وقدرته، فالسحر سبب عادى لما ينشأ عنه من الأضرار ويجوز أن يتخلف عنه مسببه إذا أذن الله بذلك.

والجملة الكريمة معترضة لدفع توهم أن يكون السحر مضرًا بذاته، بحيث لا يتخلف عنه الضرر متى تعاطاه الساحر.

والمراد ﴿بإذن الله﴾ هنا. تخليته - سبحانه - بين المسحور وضرر السحر، أى : إن شاء حصل الضرر بسبب السحر، وإن شاء منعه فلا يصيب المسحور منه شىء من الأذى.

وعبر - سبحانه - عن هذا المعنى بطريق القصر، مبالغة فى نفى أى تأثير للسحر بذاته، وإغراء للناس بتكذيب ما يزعمه السحرة من أن لهم قوى غيبية سوى الأسباب التى ربط الله بها المسببات، وإرشادًا لهم إلى حسن الاعتقاد، وسلامة اليقين.

ثم بين - سبحانه - أن أولئك المتعلمين السحر للأذى وللتفرقة بين المتحابين يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، فقال تعالى : ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أى : أن أولئك الذين تعلموا السحر ليضروا به غيرهم، ولم يتعلموه ليفرقوا به بين الحق والباطل، أو ليدفعوا به الشر عن أنفسهم، قد سلكوا بهذا التعليم الطريق الذى يضرهم ولا ينفعهم، وأصبحوا بذلك عاصين لما نصحهم به الملكان عند تعليم السحر.

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة تنبيه على تفاهة عقول المشتغلين بالسحر للأذى ومبالغة فى تجهيل المصدقين لهم، لأن الساحر - مهما بلغت براعته - فلن يستطيع أن يمنع شيئًا أراده الله، ولا أن يأتى بشىء منعه الله ما دام الأمر كذلك فالمشتغل به، والمصدق له كلاهما وقع فى ضلال مبين.

وقد أفادت الجملة الكريمة بجمعها بين إثبات الضر ونفى النفع مفاد الحصر فكأنه - سبحانه - يقول : ويتعلمون ما ليس إلا ضررًا بحتًا.

ثم بين - سبحانه - مآل أولئك اليهود التاركين للحق، والمتبعين للباطل فقال تعالى : ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق﴾ أى : ولقد علم أولئك اليهود الذين نبذوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر، أن من استبدل السحر بكتاب الله ليس له من حظ فى الجنة، لأنه قد اختار الضلال وترك الهدى، وعلمهم مرجعه إلى أن التوراة قد حرمت عليهم تعلم السحر أو تعليمه للأذى والضرر، وشددت العقوبة على مرتكبه، وعلى متبع الجن والشياطين والكهان.

فالضمير فى ﴿علموا﴾ يعود إلى أولئك اليهود الذى تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

والاشتراء هو اكتساب شيء ببذل غيره، والمراد أنهم اكتسبوا السحر الذى تتلوه الشياطين بعد أن بذلوا فى سبيل ذلك إيمانهم ونصيبهم من الجنة، وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة، لإقبالهم على التمويه والكذب، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير.

وأكد - سبحانه - علمهم بضرر السحر بقوله ﴿ولقد علموا﴾ للإشارة إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره، وإنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة.

ثم قال تعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾.

شروا: بمعنى باعوا، وبيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة. ونعيمها.

والمعنى: ولبئس شيئا باع به أولئك السحرة حظوظ أنفسهم تعلم ما يضر من السحر والعمل به، ولو كانوا ممن ينتفعون بعلمهم لما فعلوا ذلك.

وأثبت لهم العلم فى قوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ جريًا على الأسلوب المعروف فى فنون البلاغة من أن العالم بالشيء إذا لم يعمل بموجب علمه نزل منزلة الجاهل ونفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

وإلى هذا المعنى الذى قررناه أشار صاحب الكشاف بقوله.

فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا فى قوله: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ على سبيل التوكيد القسمى، ثم نفاه عنهم فى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾؟

قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسخلون عنه[١].

ثم بين - سبحانه - المنافع التى تعود عليهم لو اتبعوا الحق، بعد أن بين الأضرار التى ترتبت على اتباعهم للباطل فقال تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أى: لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل، آمنوا بمحمد ﷺ أو بالتوراة إيمانًا حقًا، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر والتمويه، لكانت لهم مثوبة[٢] من عند الله، هى خير لهم من السحر وغيره، ولو كانوا من أولى العلم النافع لفهموا ذلك، واستبدلوا بالسحر الإيمان والتقوى، ولكنهم قوم لا يعقلون.

فقوله تعالى: ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ جواب للو الشرطية، وأصل التركيب، لأثيبوا مثوبة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٨.
(٢) المثوبة: اسم مصدر أثاب أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير.

من عند الله خيرًا مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل، وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم، للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والجزم بخيريتها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف(١) بقوله: (فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية فى جواب لو؟ قلت: لما فى ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع فى سلام عليكم لذلك.

وقال الإمام الآلوسى: (المثوبة: اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير. ولم يقل - سبحانه - لمثوبة الله مع أنه أخصر، ليشعر التنكير بالتقليل فيفيد أن شيئًا قليلا من ثواب الله - تعالى - فى الآخرة الدائمة، خير من متاع كثير فى الدنيا الفانية، فكيف وثواب الله - تعالى - كثير دائم، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى(٢).

وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ شرط آخر محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه، وحذف مفعول ﴿يعلمون﴾ لدلالة ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ عليه. أى: لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر بالإيمان.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى سقناها فى هذا المبحث قد دمغت بنى إسرائيل بجحود الحق، ونبذهم لتعاليم كتابهم وإيثارهم عليها الأكاذيب والأباطيل، وسيرهم فى طريق الشر عن تعمد وإصرار، وعدم عملهم بما يعلمون لانحراف طباعهم، وحماقة تفكيرهم وسوء تدبيرهم. واستحواذ الشيطان عليهم.. ﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب أليم﴾.

هذا، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث، أن نذكر كلمة موجزة عن السحر فنقول:

السحر: فى أصل اللغة معناه: الصرف، ومنه قوله تعالى ﴿فأنى تسحرون﴾ أى: فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقد ذكر السحر فى القرآن والسنة، واتفق علماء المسلمين على أن هناك شيئا يسمى سحرًا، إلا أنهم اختلفوا فى تصويره.

فجمهور أهل السنة ذهب إلى أن للسحر آثارا حقيقية، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية، إلا أن الفاعل الحقيقى فى كل ذلك هو الله - تعالى - واستدلوا على ذلك بأدلة منها.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٢٨.
(٢) تفسير الآلوسى جـ١ ص٣٨٤.

أولا : أن الله - تعالى - قد أمر نبيه ﷺ، أن يستعيذ به ﴿من شر النفاثات فى العقد﴾ وهم السحرة - على أرجح الأقوال.

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى ﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك، يعنى السواحر قال مجاهد «إذا رقين ونفثن فى العقد»(١).

فالآية الكريمة تدل على أن للسحر آثارا حقيقية، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يستعيذ من شرور السحرة.

ثانيًا : قال الإمام البخارى : - فى باب هل يستخرج السحر - : حدثنى عبد الله بن محمد، قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة، فسألت هشامًا عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك. فقال : «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال الذى عند رأسى للآخر، ما بال الرجل : مطبوب، قال ومن طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم - رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقًا - قال. وفيم : قال : فى مشط ومشاطه، قال : وأين؟ قال فى جف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذروان. قالت : فأتى البئر حتى استخرجه، فقال : «هذه البئر التى أريتها وكأن نخلها رءوس الشياطين» قال فاستخرج - أى السحر - قالت : فقلت أفلا - أى - تنشرت؟ فقال : «إن الله قد شفانى وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا»(٢).

فهذا الحديث الصحيح يفيد أن السحر قد أثر فى جسم الرسول ﷺ بنوع من المرض أو الثقل، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير فى عقله.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٧٣.

(٢) فتح البارى : لابن حجر جـ ١٢ ص ٢٤٥ طبعة الحلبى.

وهذا تفسير موجز لمفردات الحديث : «هشام» هو ابن عروة بن الزبير ومعنى : «أفتانى فيما استفتيه فيه» : أجابنى فيما دعوته من أن يطلعنى على حقيقة ما «مطبوب» أى مسحور يقال : طب الرجل - بالضم - إذا سحر. «المشط» : الالة التى يسرح بها شعر الرأس واللحية «والمشاطة» : ما يخرج من الشعر إذا مشط «وجف طلع نخلة ذكر» هو الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده بالذكر. «والراعوفة» حجر يوضع على رأس البئر يقوم عليه المستقى وقد يكون فى أسفلها «وبئر ذروان» : اسم لموضع البئر» كأن ماءها نقاعة الحناء» : يعنى أحمر اللون. «أفلا أى تنشرت» : النشرة - بالضم - ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أومسا من الجن قيل لها ذلك : لأنه يكشف بها عما خالطه من الداء.

قال الإمام ابن القيم : هذا هو الحديث الذى رواه البخارى، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون فى صحته، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقه، وهؤلاء أعلم بأحوال الرسول ﷺ وأيامه[١].

وقال الإمام القرطبى «الأدلة متوفرة على أن للسحر حقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق، ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان، وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله[٢].

وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. قال المازرى : «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة. خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها. وقد ذكره الله - تعالى - فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم. وذكر فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به. وأنه يفرق بين المرء وزوجه. وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضًا مصرح بإثباته. وأنه أشياء دفنت وأخرجت ولا يستنكر فى العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر. قال : وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث لسبب آخر. فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع وهذا الذى ادعاه بعض المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك. قال القاضى عياض : وقد جاءت روايات مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على قوله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله فى الحديث : «حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن» أن يظهر من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور[٣].

أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تخييل وتمويه كما قال تعالى فى سحرة فرعون ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فأخبر - سبحانه -

(١) التفسير القيم لابن القيم - تفسير سورة الفلق.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٦٤.

(٣) صحيح مسلم «كتاب السلام» باب السحر جـ ٤ ص ١٧١٩ شرح وتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

أن ماظنوه سعيًا منها لم يكن سعيًا على الحقيقة إنما كان تخييلا وتمويهًا. وقال تعالى فى سحرة فرعون أيضًا ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أى فلما ألقوا عصيهم موهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وأرهبوهم بما فعلوه، وجاءوا بسحر عظيم فى فنه.

والذى نراه أن السحر على أضرب منها:

أولا: ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق كقلب الإنسان حيوانًا وعكسه، وهذا قد منعه المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكنه ذلك لا لتلبس فعله هذا بمعجزات الأنبياء. وأهل السنة أجازوا وقوعه وإن كان لم يقع فعلا. ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع، بأن المعجزة خارق يظهر على يد من يدعى النبوة على سبيل التحدى والمعارضة، والسحر ليس فيه دعوى نبوة ولا معارضة.

هذا، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه، ولا يظهر إلا على يد شرير بخلاف المعجزة.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: وهذا النوع لم يقع لنا دليل فى الشريعة على وقوعه، وربما كانت الحاجة إلى الفرق بين المعجزة والسحر فرقًا واضحًا تقتضى عدم وقوعه، فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعبانًا، ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش ولا أن يجعل الماء ينبع بين الأصابع فتروى منه العطاش، أعنى أنه لا يجرى على يده من خوارق العادات، مثل ما يجرى على أيدى الأنبياء للإعجاز(١).

ثانيًا: أن يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالا يترتب عليها الضرر بدون مماسة ولا ملابسة لمن وقع عليه الضرر، وهذا الضرب قد جوز وقوعه أهل السنة ومنعه المعتزلة، ومن أمثلته ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه والظاهر فى هذا الضرب قول أهل السنة لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة انهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وقد صح الحديث أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله ﷺ وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه ﷺ كأنما نشط من عقال.

ثالثًا: مزاولة أسباب يترتب عليها آثار ظاهريه لا حقيقية وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنه والمعتزلة، وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون فى قوله تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الثالث ص ٨.

أعين الناس واسترهبوهم﴾ وفى قوله تعالى: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

هذا، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر للاذى، وجاءت تعاليمه بذمه وتحريمه، وتوعدت مرتكبه بالعقوبات الأليمة، ففى الحديث الشريف «حد الساحر ضربه بالسيف».

وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق، وبعضهم أفتى بأن الساحر إذا كان قد أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه، حكم عليه بدية مناسبة.

وبعد: فهذه كلمة ذكرناها عن السحر، لم نقصد بها الخوض فى تفصيلاته. وإنما قصدنا بها إعطاء القارئ فكرة مختصرة عنه بمناسبة حديثنا عن رذائل اليهود التى منها نبذهم لكتاب الله واتباعهم للاوهام والأباطيل والأكاذيب.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن مخاطبة النبى ﷺ بألفاظ معينة حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبى ﷺ فقال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿راعنا﴾ من المراعاة، وهى المبالغة فى الرعى بمعنى حفظ الغير، وإمهاله، وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، وكان المؤمنون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حدثهم بحديث راعنا يا رسول الله، أى: راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم، ويقولون «راعنا» يا أبا القاسم، يظهرون أنهم يريدون طلب المراعاة والإنتظار، وهم يريدون فى الحقيقة الإساءة إليه - ﷺ إذ أن هذه الكلمة عبرية كانوا يتسابون بها يقصدون جعله راعيا من رعاة الغنم أو من الرعونة التى هى الحمق والخفة، فنهى الله - تعالى - المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبى ﷺ والتنقيص من شأنه.

قال قتادة: «كانت اليهود تقول للنبى ﷺ راعنا سمعك، يستهزئون بذلك وكانت - هذه الكلمة - فى اليهود قبيحة».

وقال الإمام ابن كثير: «نهى الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم،

وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولوا راعنا يورون بالرعونة كما قال تعالى:

﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنًا فى الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلا﴾. وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا، إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بقولنا وعليكم، وأنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا»[١].

وقال الإمام ابن تيميه: «كان المسلمون يقولون راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك، يعنون المراعاة، وكانت هذه اللفظة سبًا قبيحًا بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتنموها وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمدًا سرًا فأعلنوا له الآن بالشتم، وكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها «سعد بن معاذ» ففطن لهم، - وكان يعرف لغتهم - فقال لليهود: عليكم لعنة الله، والذى نفسى بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضرب عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها، فأنزل الله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ لكى لا يتخذ اليهود ذلك سبيلا إلى شتم الرسول ﷺ[٢].

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يقولونه بدل هذه الكلمة فقال تعالى: ﴿وقولوا انظرنا﴾ أى: لا تقولوا تلك الكلمة - وهى ﴿راعنا﴾ أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم ﷺ وقولوا مكانها «انظرنا» أى: انتظرنا وتأن معنا حتى نفهم عنك، من نظر بمعنى انتظر تقول نظرت الرجل انظره إذا انتظرته وارتقبته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أى: انتظرونا نقتبس من نوركم.

فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل، وهو أن يتجنب الإنسان فى مخاطباته الألفاظ التى توهم جفاء أو تنقيصًا فى مقام يقتضى إظهار مودة أو تعظيم.

ثم بين - سبحانه - مصير اليهود المؤلم جزاء تعديهم على رسول الله ﷺ فقال: ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾، أى: لهؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة ﴿راعنا﴾ وسيلة إلى سب الرسول ﷺ عذاب أليم جزاء كفرهم وتطاولهم وسفاهتهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٤٨.
(٢) كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ص١٤١ للإمام ابن تيمية.

هذا، وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا يحيون رسول الله ﷺ بكلام محرف لا يفطن له أكثر الناس يقصدون به الدعاء عليه بالموت، فكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يكبتهم ويخزيهم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك قال:

١ - مر يهودى برسول الله ﷺ فقال السام عليك، فقال رسول الله ﷺ (وعليك)، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه - أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال يقول (السام عليك) قالوا يا رسول الله ألا نقتله. قال: (لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم)(١).

٢ - وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت:

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا:

السام عليك قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله» فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال «لقد قلت وعليكم»(٢).

٣ - وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «سلم ناس من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا: قال بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنما نجاب ولا يجابون علينا»(٣).

وإذن فالآية الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ إلخ، وهذه الأحاديث الشريفة تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية القول الملتوى القبيح، والخطاب المحرف السيء، ولكن الله - تعالى - أحبط خطتهم، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ التى كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ مآربهم، وكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يغيظهم ويخزيهم، وبذلك ذهبت مكايد اليهود أدراج الرياح وأيد الله - تعالى - رسوله والمؤمنين بقوته ونصره.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى ما يضمره لهم المشركون وأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد فقال - تعالى:

---

(١) صحيح البخارى، باب «إذا عرض الذمى وغيره بسبب النبى. من كتاب «أستتابة المتدين» جـ ٩ ص ٢٠.

(٢) أخرجه البخارى - واللفظ له - فى باب «كيف يرد على أهل الذمة السلام، جـ ٨ ص ٧٠ وأخرجه مسلم فى كتاب السلام، جـ ٤ ص ١٨٠٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٣) صحيح مسلم: باب «النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم من «كتاب السلام» جـ ٤ ص ١٢٠٧.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿ما يود﴾ أى: ما يحب، إذ الود محبة الشىء مع تمنيه، يقال: ود فلان كذا يوده ودًا ومودة بمعنى أحبه وتمناه.

قال صاحب الكشاف: «ومن الأولى فى الآية للبيان، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان، أهل الكتاب والمشركون، والثانية مزيدة لاستغراق الخير والثالثة لابتداء الغاية»(١).

وقوله - تعالى -: ﴿ما يود﴾.. إلخ الآية بيان لما يبيته الكافرون - خصوصًا اليهود - للمسلمين من حقد وكراهية وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم، والثقة بهم.

وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ دون ما يود أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمدًا ﷺ الذى أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه.

وعطف عليهم المشركين ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضًا - يضاهون كفرة أهل الكتاب، فى كراهة نزول أى خير على المؤمنين، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله عن طريق نبيه ﷺ من دين قويم، وقرآن كريم، وهداية عظمى، وأخوة شاملة، وأمن بعد خوف، وقوة بعد ضعف.

والخير: النعمة والفضل، والمراد به فى الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحى الصادق، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والحجة البالغة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم، وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

والمشركون كرهوا ذلك - أيضًا - لأن فى إنتشار الإسلام، وفى تنزيل الوحى على النبى ﷺ ما يخيب آمالهم فى إبطال الدعوة الإسلامية، وإضعاف شوكتها والنصر على أتباعها.

وقوله تعالى: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ١٧٤.

رد عليهم بما يكشف عن جهلهم وجهل جميع الحاسدين، لأن الحاسد لغباوته يسخط على قدر الله، ويعترض عليه لإنعامه - سبحانه - على المحسود والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق فى الإعطاء والمنع فكان من الواجب على هؤلاء الذين لا يودون أن ينزل أى خير على المؤمنين أن يريحوا أنفسهم من هذا العناء، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء، لأن الله - تعالى - يهب خيره لمن يشاء.

والاختصاص بالشيء: الانفراد به، تقول: اختص فلان بكذا أى انفرد به، ويستعمل متعديًا إلى المفعول به، فتقول: اخصصت فلانا بكذا أى أفردته به وجعلته مقصورًا عليه. وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص فى الآية الكريمة.

وقيد - سبحانه - اختصاص رحمته بمن يشاء ليعلم الناس جميعًا، أن إفراد بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها، وليس لأحد كائنًا من كان أى تأثير فى ذلك.

ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه. أى: يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها، وهى تتناول النبوة. والقرآن، والنصر، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تذييل لما سبق أى كل خير يناله العباد فى دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده - تعالى - يتفضل به عليهم، وفى ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم، وتعريض باليهود وغيرهم ممن حسدوا محمدًا ﷺ على أن آتاه الله النبوة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إنى أصطفى للنبوة من أشاء من عبادى وهى لا تدرك بالأمانى، ولكنى أهبها لمن هو أهل لها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ما داموا معتصمين بكتاب ربهم، وسنة نبيهم.

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن موضوع النسخ الذى أثار اليهود حوله الشبهات، وجادلوا فيه النبى ﷺ.

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية، أو حكمًا بحكم، وقالوا: ألا ترون إلى محمد ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدًا، ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضًا.

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون

جواب، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور، ليزداد المؤمنون إيمانا، وهذه الآيات هى قوله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

والنسخ فى اللغة الإبطال والإزالة، يقال. نسخت الشمس الظل تنسخه، إذا أذهبته وأبطلته.

وفى عرف الشرع: بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته، بمقتضى النص الذى تقرر به أولا.

وننسها من أنسى الشىء جعله منسيًا.

فمعنى نسخ الآية فى قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية﴾ رفع حكمها مع بقائها.

ومعنى إنسائها فى قوله - تعالى -: ﴿ننسها﴾ رفع الآية من نظم القرآن جملة.

وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة إنساء، لأن من شأن مالا يبقى فى النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به.

ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة، بعد أن يقضى الله بنسخها.

وإنما قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشىء من القرآن، والله يقول ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون﴾(١).

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩.

ومما يدل على نسخ الآية المنساة، أى: انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ أى نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها، فيكون قوله تعالى: ﴿أو ننسها﴾ معبرًا عن حالة تعرض فى بعض ما سيرفع من القرآن وهى أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم، بعد أن يقضى الله بنسخه - كما ذكرنا -.

ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص، أن ما ينسى لعدم حضوره فى الذهن لا تعرف الآيات التى تقوم مقامه، فربما يقع فى الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغنى غناءه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ننسأها﴾ بالهمزة، من النساء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ فى قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية﴾ على النوعين السابقين وهما: نسخ الآية حكما فقط، ونسخها حكمًا وتلاوة.

ومعنى ﴿ننسأها﴾ تؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها، وننزل ما يقوم مقامها فى القيام بالمصلحة.

والخيرية والمماثلة فى قوله تعالى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ ترجع إلى ثواب العمل بها. فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها، وقد يكون مماثلا له، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها، أقوم على المصلحة من الأخرى.

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ ساق جملة كريمة فى صورة الاستفهام التقريرى، مخاطبًا بها الأمة الإسلامية فى شخص نبيها ﷺ لتكون دليلا على هذا الثبوت، وهذه الجملة هى قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ والمعنى أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذى تقتضيه حكمته وإرادته، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر فى وقت بأمر، ثم ينسخه أو يستبدل به آخر لمقتضيات الظروف والأحوال.

ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته وشمولها لكل شىء فقال:

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾.

والمعنى: أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية، وأنه هو المتصرف كما يشاء فى ذواتها وأحوالها، وأنه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم، ويعينهم على أعدائهم سواه، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فى دنياه وأخراه.

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء، من حقه أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه - بكل شيء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتًا لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم، فقال تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾

والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم محمد ﷺ مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لاخير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم فقالوا له: ﴿أرنا الله جهرة﴾(١) وقالوا له: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة﴾(٢) ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، ولخرجتم عن الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم ﷺ.

والاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار، وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال، وفى النهى عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

ثم نبه الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يضمره لهم اليهود من أحقاد وشرور فقال - تعالى -:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٦.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٨.

ومعنى الآية الكريمة : أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسدًا لكم وبغضًا لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمدا ﷺ فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وشرورهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن الله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير».

وقوله تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا﴾ بيان للون من ألوان الشرور التي يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه.

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمني الذميم إلى الكثرة منهم، انصافًا للقلة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وقوله تعالى : ﴿من بعد إيمانكم﴾ مبالغة في ذمهم بسبب ماتمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر.

ثم بين - سبحانه - أن الذي حملهم على هذا التمني الذميم هو الحقد والحسد، فقال تعالى : ﴿حسدًا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق﴾ أي : أن هذا التمني لم يكن له من سبب أوعلة سوى الحسد الذي استولى على نفوسهم، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : «والحسد : قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلانعمة أصابها فاجر أوجائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح في المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه»[1].

---

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد ٥ ص ٦.

وقوله تعالى : ﴿من عند أنفسهم﴾ إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك فى كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم لخبث نفوسهم وسوء طباعهم، رسخ الحسد فى قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه.

والجملة الكريمة ﴿حسدًا من عند أنفسهم﴾ تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف فى نفسه صحته، وأنه طريق الفوز والفلاح.

وقوله تعالى : ﴿من بعد ماتبين لهم الحق﴾ يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبى ﷺ وبعد أن تبين لهم أن الصفات التى وردت فى التوراة بشأن المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبى ﷺ.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين فى ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى : ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير﴾.

العفو: ترك العقاب على الذنب. والصفح : ترك المؤاخذة عليه، فكل صفح عفو ولا عكس.

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف فى وجوههم حتى يأذن الله لكم فى أن تشفوا صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذى يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شىء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى -.

فالمراد بالأمر فى قوله تعالى : ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ الإذن للمسلمين بقتالهم فى الوقت الذى يختاره الله - تعالى - لهم، عند ما تكون لهم القوة التى يتمكنون بها من جهاد أعدائهم.

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : «وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول : لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للضعيف الجاهل وفى إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ماثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق

والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه »[١].

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أى أن كل شيء داخل تحت قدرته النافذة التى لا يعجزها شيء.

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين فى الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرد والقتل لليهود الحاقدين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين فى الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو والصفح خيرًا من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التى تطهر قلوبهم، وتزكى نفوسهم فقال - تعالى - :

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

فقد أمرهم - سبحانه - فى هذه الآية بالمواظبة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ بعد ذلك، لترغبهم فى فعل الخير على وجه عام، ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضًا أم نفلا.

وقال ﴿لأنفسكم﴾ للإشعار بأن ما يقدمه المؤمن من خير إنما يعود نفعه إليه، وأنه سيجد عند الله نظير ذلك الثواب الجزيل، والأجر العظيم، وفى قوله، عند الله، إشارة إلى ضخامة الثواب، لأنه صادر من الغنى الحميد.

وجاءت جملة « إن الله بما تعلمون بصير» لتأكيد ذلك الوعد، فقد دلت على أن الله - تعالى - لا يخفى عليه عمل عامل قليلا كان أو كثيرًا. وإذا كان عالمًا محيطًا بكل عمل يصدر من الإنسان، كانت الأعمال محفوظة عنده - تعالى -، فلا يضيع منها عمل دون أن يلقى العامل جزاءه يوم الدين.

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٤٢١.

وفى إعادة ذكر اسم الجلالة فى هذه الجملة مع تقدم ذكره فى قوله : ﴿تجدوه عند الله﴾ إشعار باستقلال هذه الجملة، وبشدة الاهتمام بالمعنى الذى تضمنته.

كذلك من فوائد إظهار اسم الجلالة فى مقام يجوز فيه الإضمار، أن تكون الجملة كحكمة تقال عند كل مناسبة، بخلاف ما لو أتى بدل الاسم الظاهر بالضمير فإن إلقاءه عند المناسبة يستدعى أن تذكر الجملة السابقة معها حتى يعرف المراد من الضمير.

ثم حكى القرآن لونًا من ألوان المزاعم الباطلة التى درج عليها أهل الكتاب، ورد عليها بما يبطلها فقال :

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

الضمير فى «قالوا» يعود على أهل الكتاب من الفريقين.

والهود : جمع هائد أى متبع اليهودية وقدمهم القرآن الكريم على النصارى لتقدمهم فى الزمان.

والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانيًا، إلا أن الآية الكريمة سلكت فى طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز، فحكت القولين فى جملة واحدة، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف «أو» ثقة بفهم السامع، وأمنا من اللبس، لما عرف من التعادى بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ أى : قالت اليهود : كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا.

ولذا قال الإمام ابن جرير : «فإن قال قائل : وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟

قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه، وإنما عنى به وقالت اليهود : لن يدخل الجنة

إلا من كان هودا، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهومًا عند المخاطبين به جمع الفريقان فى الخبر عنهما فقيل : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿تلك أمانيهم﴾ جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة بهم، ما هو إلا أمانى منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان. سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب.

واسم الإشارة «تلك» مشار به إلى ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وهو يتضمن أمانى كثيرة : منها، أن اليهود أمنيتهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، والنصارى كذلك أمنيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين ليسوا أهلالها، ولهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعًا فقال تعالى ﴿تلك أمانيهم﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن المشار إليه أمور قد تعددت لفظًا وحكاها القرآن عنهم فى قوله ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ وفى قوله : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا، حسدًا من عند أنفسهم﴾ وفى قوله : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾، وعبارته :

فإن قلت : لم قيل ﴿تلك أمانيهم﴾ وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟ قلت : أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو إمنيتهم أن لاينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفارًا، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم(٣).

ويرى صاحب الانتصاف : أن المشار إليه واحد وهو قولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وجمع لإفادة أن تلك الأمنية قد تمكنت من نفوسهم وأشربتها قلوبهم. فقال : والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكدها فى نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدًا ونظيره قولهم : معى جياع، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد، تأكيدًا لثبوتها وتمكنها، وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى : ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾(٣) فإنه جمع «قليلا» وقد كان الأصل إفراده فيقال «لشرذمة قليلة» كقوله تعالى ﴿كم من فئة قليلة﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا التأكيد، أن الجمع

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٩١.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٣٠.
(٣) سورة الشعراء الآية ٥٤.

يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانته زيادة على نظرائه، نقلا مجازيًا بديعًا فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله المرفق»(١).

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون، فقال تعالى «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

أى قل - يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم، لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله وليس لمجرد التمنى، أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

قال الإمام ابن جرير: «وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم فى دعواهم وقيلهم، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدًا»(٢).

هذا، ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد فى أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجردًا من الدليل، فلا ينبغى للإنسان أن يقرر رأيًا فى الدين إلا أن يسنده إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولا إلا أن يكون مؤيدًا بدليل.

أما عدم صحة التقليد فى أصول الدين: أى فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان فالأمر فيه جلى، لأنه يكتفى فى إيمان الشخص بأى دليل ينشرح به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة، كأن يستمد إيمانه بالله من التنبيه لحكمة الله فى إتقان المخلوقات، أو فى رعاية اللطف والرفق بالإنسان، ويستمد إيمانه بصدق الرسول ﷺ من الاستماع إلى القران الكريم، أو من سيرته التى لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير رسول، والقصد أن لا يكون إسلامه لمجرد أنه فى بيئة إسلامية أو ولد من أب وأم مسلمين.

وأما التقليد فى الفروع أى فى الأحكام العملية، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات، فمن له قدرة على فهم الأدلة ومعرفة الراجح من الأحكام، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقرونًا بدليل، وإن كان قاصرًا عن هذه الدرجة أخذ بما يفتيه به العالم

(١) هامش تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٣٠.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٦٤٩.

المشهود له بالرسوخ فى علم الشريعة، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع»[(١)].

ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو إيراد قاعدة كلية رتبت دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة فقال تعالى:

﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

﴿بلى﴾ حرف يذكر فى الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق، وقد صدرت الآية التى معنا بحرف «بلى» لإثبات ما نفوه وهو دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى، مادام قد أسلم وجهه لله وهو محسن.

وقوله تعالى: ﴿أسلم وجهه لله﴾ المراد به اتجه إليه، وأذعن لأمره، وأخلص له العبادة، وأصل معناه الاستسلام والخضوع.

وخص الله - تعالى - الوجه دون سائر الجوارح بذلك، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعًا.

وقوله تعالى: ﴿وهو محسن﴾ من الإحسان، وهو أداء العمل على وجه حسن أى: مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف.

والمعنى: ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتى:

(أ) إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

(ب) بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة، إلا إذا أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيبًا لهم فى الإسلام، وبيانًا لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة، لكى يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا عن طريقتهم المعوجة.

(جـ) بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران:

أولهما: أن يكون خالصًا لله وحده.

ثانيهما: أن يكون مطابقًا للشريعة التى ارتضاها الله تعالى وهى شريعة الإسلام.

---

(١) تفسير الآية الكريمة للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الخامس ص ٧.

قال الإمام ابن كثير: «فمتى كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ المبعوث فيهم وإلى الناس كافة، وفى أمثالهم قال الله - تعالى - ﴿وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة فى الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين ولهذا قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾[1].

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد أبطلتا دعوى اليهود أن الجنة لهم دون غيرهم، وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ما هى إلا من قبيل الأمانى والأوهام وكذبتهم فى أن يكون عندهم أى برهان أو دليل على ما يدعون ثم أصدرتا حكما عاما وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة دون أخرى، وإنما هى لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن.

ثم بين القرآن بعد ذلك أن أهل الكتاب قد دأبوا على تضليل بعضهم البعض، وأن الخلاف بينهم قد أدى إلى التنازع والتخاصم فقال:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

فالآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾.. إلخ، لزيادة بيان طبيعة أهل الكتاب، المعوجة، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شنشنة فيهم.

والشىء: يطلق على الموجود، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، وقد ينفى مبالغة فى عدم الاعتداد به واليهود كفرت عيسى - عليه السلام - ومازالوا يزعمون أن المسيح المبشر به فى التوراة لم يأت، وسيأتى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٥٤.

التدين، والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق منهم يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق.

وجملة ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ حالية، والكتاب للجنس. أى: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقى، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته وكذلك كتب الله جميعًا متواردة على تصديق بعضها البعض.

وقوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ معناه: كما أن أهل الكتاب قد قال كل فريق منهم فيمن خالفه إنه ليس على شىء من الدين الحق. فكذلك قال الذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب، فى شأن المسلمين: إنهم ليسوا على شىء من الدين الحق، فتشابهت قلوب هؤلاء وقلوب أولئك فى الزيغ والضلال.

والهدف الذى ترمى إليه هذه الجملة، هو أن إنكار اليهود والنصارى لرسالة محمد ﷺ لا ينبغى أن يثير شبهة على عدم صحتها، حيث يسبق إلى أذهان الضعفاء من الناس أن تلاوتهم للكتاب تجعلهم أعرف بالنبوة الصادقة من غيرها. فكأن القرآن يقول: إن تلاوتهم للكتاب وحدهاا لا ينبغى أن تكون شبهه.

ألا ترون اليهود والنصارى وهم يتلون الكتاب كيف أنكر كل فريق منهما أن يكون الآخر على شىء حقيقى من التدين، فسبيلهم فى إنكار دين الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به.

وفى هذه الجملة توبيخ شديد لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم - مع علمهم - فى سلك من لا يعلم.

وقوله: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾. صدر بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد.

والضمير المجرور بإضافة بين إليه راجع إلى الفرق الثلاث، وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى.

والاختلاف: تقابل رأيين فيما ينبغى انفراد الرأى فيه.

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، لأنه من المعلوم أن من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق، وعقاب من كان على باطل.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد فضحت أهل الكتاب، حيث بينت كيف أن كل فريق منهم قد رمى صاحبه بالضلال، وفى هذا تثبيت للمؤمنين ونهى لهم عن أن ينهجوا نهجهم.

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة من يسعى فى خراب بيوت الله، فقال:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ
لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ
وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه. ويرى آخرون أنها نزلت فى كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بذمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها.

ومن أسم استفهام يراد منه النفى، أى: لا أظلم. والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعًا لله وتعظيمًا.

والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بمالا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء فى غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا.

وذكر اسم الله كناية عما يؤدى فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى -:

والسعى فى الأصل: المشى بسرعة فى معنى الطلب والعمل.

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل لمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له.

قال القرطبى: «وخراب المساجد قد يكون حقيقيًا، كتخريب بختنصر والرومان لبيت

المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه. ويكون مجازًا كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها»[١].

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل فى خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس. أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش، فهو مفرط فى الظلم بالغ فيه أقصى غاية.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجىء الحكم عامًا، وإن كان السبب خاصًا، كما تقول لمن آذى صالحًا واحدًا: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل -: ﴿ويل لكل همزة﴾ والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق»[٢].

وقوله - تعالى -: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ معناه: ما ينبغى لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون فى خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها.

قال ابن كثير: «وفى هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبى ﷺ من العام القابل مناديًا ينادى برحاب منى «ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وعندما حج النبى ﷺعام حجة الوداع لم يجترئ. أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام. وهذا هو الخزى فى الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى -: ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ لأن الجزاء من جنس العمل[٣].

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبة هؤلاء الساعين فى خراب مساجد الله فقال - تعالى -:

﴿لهم فى الدنيا خزى، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾. أى: لهم فى الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه فى النار. وليس هناك أشقى من

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٧٧.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص ١٧٩.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠٨.

يعيش دنياه فى هوان وذلة، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذى لا يموت فيه ولا يحيا.

ثم أخذ القرآن فى تسلية المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيينًا لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال:

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بهما هنا جميع جهات الأرض. واللام فى قوله: «ولله» تفيد معنى الملك.

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى. و(ثم) اسم إشارة للمكان.

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التى ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهى القبلة.

والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففى أى مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التى أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التى أمرتم بها، والتى تبرأ ذممكم باستقبالها.

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففى الحديث الشريف: «جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا».

وكأن الآية تومى، إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى -: لأن له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها.

وذيلت الآية بقوله ﴿إن الله واسع عليم﴾ لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده فى أمر الدين. أى: إن الله يسع خلقه جميعًا برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان.

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التى افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى -:

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله - تعالى - : ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شىء إلخ».

واتخذ : من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل. والولد : يطلق على الذكر والأنثى، والواحد والجمع.

والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا : ﴿عزير ابن الله﴾ وحكى عن النصارى أنهم قالـوا: ﴿المسيح ابن الله﴾ وحكى عن المشركين أنهم قالوا «الملائكة بنات الله» فيصح أن يكون الضمير فى قالوا عائدًا على الفرق الثلاث أو على بعضهم. فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف فى المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال : ﴿وقالت اليهود عزير بن الله﴾ أصبح من السائغ فى صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم :

وقوله : ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عما هو نقص فى حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد، لاقتضاء الوالدية : النوعية والجنسية والتناسل والافتقار، والتشبيه والحدوث وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم».

وسبحان : مصدر لسبح بمعنى نزه، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه، والأصل : أسبحه سبحانه، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف إلى ضمير المنزه.

وقوله : ﴿بل له ما فى السموات والأرض﴾ إضراب عن مقالاتهم التى نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد، وشروع فى الاستدلال على بطلانها.

واللام فى قوله : ﴿له﴾ للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقى، و (ما) اسم موصول يراد منه الكائنات : ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله.

والمقصود إثبات أن قولهم ﴿اتخذ الله ولدًا﴾ زعم باطل، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره، أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة. والله - تعالى - منزه عن أمثال هذه الأغراض التى لا تليق إلا بمن خلق ضعيفًا كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظًا بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد فى ذاته وصفاته، الباقى على الدوام، كما قال تعالى :

﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. وقوله - تعالى - : ﴿كل له قانتون﴾.

معناه : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شيء على مشيئته وإرادته : شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء ﴿قانتون﴾ بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليبًا للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره فى غيرهم.

وفصلت جملة ﴿كل له قانتون﴾ عن سابقتها، لقصد استقلالها بالاستدلال على نفى أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله - تعالى - : ﴿له ما فى السموات والأرض﴾.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أى : مبدعهما ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء. وبلا آلة ولا مادة، وبديع صفة مشبهة من أبدع، والذى ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى -. وخص السموات والأرض بالإبداع، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال القرطبى : «قوله -تعالى- : ﴿بديع السموات والأرض﴾ فعيل للمبالغة. وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر. أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله -تعالى- بديع السموات والأرض، أى منشئهما وموجدهما، ومخترعهما، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أومقال إمام...»[(١)].

وقوله : ﴿وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ معناه : وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فورًا. «وكن فيكون، فعلان من الكون بمعنى الحدوث. ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففى الكلام استعارة تمثيلية.

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التى أوردها الضالون

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٨٦.

حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التى أثاروها حول نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة اليهودى لرسول الله ﷺ يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية[1].

فالآية الكريمة معطوفة على قوله: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا..﴾.

ومعنى الآية الكريمة. ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ علمًا نافعًا أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد - ﴿لولا يكلمنا الله﴾ إما مشافهة، أو بواسطة الوحى إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التى أقامها الله على صدق رسالته آيات حقًا.

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ أى: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفى هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله.

﴿تشابهت قلوبهم﴾ أى تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك فى العناد والضلال.

﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أى: جعلناها بينة واضحة فى ذاتها لمن شأنهم الإخلاص فى طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٦١.

قال الإمام الرازى : وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شىء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلمَ موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن فى أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ وحاصل هذا الجواب : أنا قد أيدنا قول محمد بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت. وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها :

١ - لو كان فى معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجًا.

٢ - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة.

٣ - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح فى كونها معجزة لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة. فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح فى النبوة[1].

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد «بالذين لا يعلمون» اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصدًا أوليًا من هذه الآية للأسباب الآتية :

١ - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بنى إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم.

٢ - جملة ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ وقالوا : ﴿أرنا الله جهرة﴾ وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة.

٣ - الآية مدنية ومن سورة البقرة التى هى من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدنى عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركى العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق.

---

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤١٦.

٤ - سبب نزول الآية الذى ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصدًا أوليًا فى هذه الآية.

٥ - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التى تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة. وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾[1].

٦ - الإمام ابن جرير رجح أن المراد ﴿بالذين لا يعلمون﴾ النصارى، مستدلا بأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول.

﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون﴾ والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتى:

(أ) لأن الآية ليست فى سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هى فى سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم فى أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

(ب) ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولدًا وإنما اليهود أيضًا قالوا ذلك، قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾[1].

(جـ) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذى أورده ابن عباس فى سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته فى ظاهر الكتاب).

هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع فى أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكنا نرجح أن اليهودهم المقصودون قصدًا أوليًا مهما دخل غيرهم معهم فى السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التى لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن فى نبوة النبى ﷺ.

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

ثم ساق القرآن للنبى ﷺ ما يسليه ويثبته فقال :

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾
وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ
مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

وقوله : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا﴾ معناه : إنا أرسلناك يا محمد بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة، لتبشر بالثواب من آمن وعمل صالحًا، وتنذر بالعقاب من كفر وعصى.

وصدرت الآية الكريمة بحرف التأكيد، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وللتنويه بشأن الرسول ﷺ.

وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة، تشريفًا للنبى ﷺ فكأن الله - تعالى - يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة، ولذا لم يقل له إن الله أرسلك.

وقوله : ﴿بالحق﴾ متعلق بأرسلناك. واالحق : مأخوذ من حق الشيء، أي : وجب وثبت، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع، ويسمى الدين الصحيح حقًا لاشتماله على الأحكام الصادقة.

وقوله : ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾ حالان، والبشير : المبشر، وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به. والنذير : المنذر، وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه.

وجملة ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ معطوف على جملة ﴿إنا أرسلناك﴾.

والجحيم : المتأجج من النار. وأصحابها : الملازمون لها. والسؤال : كناية عن المؤاخذة واللوم.

والمعنى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذًا ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسئولا عن عدم اهتدائهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

وفى وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعار بأنهم قد طبع على قلوبهم، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر.

وفى هذه الجملة مع قوله : «بشيرًا ونذيرًا» تسلية للرسول ﷺ حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون.

ثم بين القرآن موقف أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية فقال : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

الملة : الطريقة المسلوكة، ثم جعلت اسما لما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة، وقد تطلق على ما ليس حقًا من الأديان المنحرفة أو الباطلة، كما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام - أنه قال :

﴿إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

وأفرد القرآن الملة فقال - تعالى - ملتهم - «مع أن لكل من اليهود والنصارى ملة خاصة، لأن الملتين بالنظر إلى مخالفتهما لدين الإسلام وما طرأ عليهما من التحريف بمنزلة واحدة، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى فى قلة الانتفاع به.

ومعنى الغاية فى قوله : «حتى تتبع ملتهم الكناية عن اليأس من اتباع أهل الكتاب لشريعة الإسلام، لأنهم لما كانوا لا يرضون إلا باتباعه ﷺ ملتهم وكان اتباع النبى ﷺ لملتهم مستحيلا، فقد صار رضاهم عنه كذلك مستحيلا، فالجملة الكريمة مبالغة فى الإقناط من إسلامهم، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ الجواب فقال : ﴿قل إن هدىَ الله هو الهدى﴾.

وهدى الله : دينه والهدى، بمعنى الهادى إلى طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة. أى : ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهدى الحقيقى لا ما يدعيه هؤلاء من الأهواء.

وإيراد الهدى معرفًا بأل مع اقترانه بضمير الفصل «هو» يفيد قصر الهداية على دين الله، وينفى أن يكون فى دين غير دين الله هدى. وإذا كانت الهداية مقصورة على الدين الذى جاء به محمد ﷺ فكيف يطمع أهل الكتاب فى أن يتبع ملتهم؟

ثم حذر القرآن من اتباع أهل الكتاب فقال : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم، ما لك من الله من ولى ولا نصير﴾.

اللام فى قوله : ﴿ولئن﴾ تشعر بأن فى الجملة قسمًا مقدرًا روعى فى صدرها ليفيد تأكيد ما تضمنته من أن متبع أهواء أهل الكتاب لا يجد من الله وليًا ولا نصيرًا.

والأهواء : جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة من شهوات فى أنفسهم. والعلم : الدين : وسمى علمًا لأنه يعلم بالأدلة القاطعة.

والولى : القريب والحليف. والنصير : كل من يعين غيره على من يناوئه ويبسُط إليه يده بسوء.

والمعنى : ولئن اتبعت - يا محمد - آراءهم الزائفة، بعد الذى جاءك من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة، مالك من الله من ولى يلى أمرك ولا نصير يدفع عنك عقابه.

وإنما أوثر خطابه ﷺ بذلك ليدخل دخولا أوليًا من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكًا بولايتهم، وطمعًا فى نصرتهم.

وبعد أن ذكر القرآن فى الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ فى بيان حال المؤمنين، فقال :

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾.

أى : يقرءونه قراءة حقة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبر معانيه، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضى عدم تحريف ما لا يوافق أهواء أهل الكتاب، كالجمل الواردة فى نعت رسول الله ﷺ وأن تدبره يستدعى اتباعه والعمل به.

وجملة : ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ حال من الضمير (هم) أو من الكتاب وهذه الحال من قبيل الأحوال التى تلابس صاحبها بعد وقوع عاملها، فإنهم إنما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه. وهى التى تسمى بالحال المقدرة أى : مقدرًا وقوعها بعد وقوع عاملها.

والمراد بالذين أوتو الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب. والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل. أو هم أصحاب النبى ﷺ والكتاب : القرآن.

وأجاز بعضهم أن تكون الآية سيقت مدحًا لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن، فيكون الضمير فى يتلونه القرآن.

وقوله : ﴿أولئك يؤمنون به﴾ خبر عن قوله : ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾.

وفى ذكر الإشارة ووضعه فى صدر الجملة المخبر بها، زيادة تأكيد لإثبات إيمانهم.

وفى هذه الجملة تعريض بأولئك المعاندين الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، فكأن الآية التى معنا تقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ وكان من حالهم أن قرءوه حق قراءته، يؤمنون به إيمانا لا ريبة فيه، بخلاف المعاندين المحرفين للكلم عن مواضعه.

ثم بين - سبحانه - عاقبة الكافرين يكتبه فقال: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾.

والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وانكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين وهم الخاسرون فى الآخرة، إذ سيفوتهم ما أعده الله لعباده من نعيم دائم، ومقام كريم.

وكما بدأ القرآن حديثه مع اليهود بندائهم بأحب أسمائهم إليهم، فقد اختتمه - أيضًا - بهذا النداء فقال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾

ففى هاتين الآيتين تكرير لتذكير بنى إسرائيل بما سبق أن ذكروا به فى صدر الحديث معهم فى هذه السورة، وذلك لأهمية ما ناداهم من أجله وأهمية الشىء تقتضى تكرار الأمر به إبلاغا فى الحجة وتأكيدًا للتذكرة.

قال القاضى: ولما صدر القرآن قصة بنى إسرائيل بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم، مبالغًا فى النصح وإيذانًا بأنه فذلكة القضية، والمقصود من القصة.

هذا وبعد أن ذكر الله - تعالى - فى الآيات السابقة نعمه على بنى إسرائيل، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بكفر وعناد، ويأتون منكرات فى الأقوال والأعمال، وختم الحديث معهم بإنذار بالغ. وتذكير بيوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئًا، بعد كل ذلك واصل القرآن حديثه عن

قصة إبراهيم - عليه السلام - لأنهم هم والمشركون ينتمون إليه ويقرون بفضله، فقال - تعالى - :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

والابتلاء : الاختبار. أى. اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهى، ومعنى اختبار الله - تعالى - لعبده، أن يعامله معاملة المختبر مجازًا، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه - تعالى - لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى - تارة يختبر عباده بالضراء ليصبروا. وتارة بالسراء ليشكروا وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها.

وفى إسناد الابتلاء إلى الرب إشعار للتالى أو للسامع بأنه ابتلاه بما ابتلاه به تربية له، وتقوية لعزمه، حتى يستطيع النهوض بعظائم الأمور.

وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - على أقوال كثيرة.

قال ابن جرير : «ولا يجوز الجزم بشىء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له، ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات، أنها الأوامر التى كلفه الله بها، فأتى بها على أتم وجه».

وقوله : ﴿فأتمهن﴾ أى أتى بهن على الوجه الأكمل، وأداهن أداء تامًا يليق به - عليه السلام - ولذا مدحه الله بقوله : ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾.

وجىء بالفاء فى ﴿فأتمهن﴾ للدلالة على الفور والامتثال. وذلك من شدة العزم، وقوة اليقين.

وفى إجمال القرآن لتلك الكلمات التى امتحن الله بها إبراهيم، وفى وصفه له بأنه أتمهن، إشعار بأنها من الأعمال التى لا ينهض بها الا ذو عزم قوى يتلقى أوامر ربه بحسن االطاعة وسرعة الامتثال.

وقدم المفعول وهو لفظ إبراهيم؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم الرب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله ابراهيم.

وجملة ﴿قال إنى جاعلك للناس إمامًا﴾ مستأنفة لبيان ما من الله به على إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام، بعد أن ذكر - سبحانه - أنه عامله معاملة المختبر له، إذ كلفه بأمور شاقة فأحسن القيام بها.

جاعلك: من جعل بمعنى صير. والإمام: القدوة الذى يؤتم به فى أقواله وأفعاله.

والمراد بالإمامة هنا: الرسالة والنبوة، فإنهما أكمل أنواع الإمامة، والرسول أكمل أفراد هذا النوع، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - رسولا يقتدى به الناس فى أصول الدين ومكارم الأخلاق.

وقال: ﴿إنى جاعلك للناس إمامًا﴾ ولم يقل: «إنى جاعلك للناس رسولا، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فان إبراهيم - عليه السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام، وإلى الحجاز، وإلى مصر وكان فى جميع منازله أسوة حسنة لغيره.

وقد مدح القرآن إبراهيم فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا﴾.

وجملة ﴿قال ومن ذريتى﴾ واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر فى نفس السامع، فكأنه قال: وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان االجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضًا.

أى: قال إبراهيم: واجعل يارب من ذريتى أئمة يقتدى بهم.

وقد رد الله - تعالى - على قول إبراهيم بقوله: ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

وإنما قال إبراهيم ومن ذريتى ولم يقل وذريتى، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

أى: قال الله لإبراهيم: قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدى الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله: ﴿جاعلك للناس إمامًا﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع، إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال - تعالى -:

﴿وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾ ولكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا

أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم، وتشير إلى أن غير الظالمين منهم قد تناولهم النبوة، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء.

قال - تعالى - : ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾.

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن مكانة البيت الحرام، وعن قصة بنائه، وعن الدعوات الخاشعات التى كان إبراهيم يتضرع بها إلى الله عند رفعه البيت فقال:

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا﴾ معطوف على قوله - تعالى - : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه﴾.

وجعلنا : بمعنى صيرنا. والبيت : المقصود به الكعبة، إذ غلب استعمال البيت فيها حتى صار اسما لها.

ومثابة للناس : مرجعًا للناس يرجعون إليه من كل جانب، وهو مصدر ميمى من ثاب القوم إلى المكان رجعوا إليه. فهم يثوبون إليه ثوبًا وثوبانا، أو معاذا لهم يلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره.

والأمن : السلامة من الخوف، وأمن المكان : اطمئنان أهله به، وعدم خوفهم من أن ينالهم فيه مكروه فالبيت مأمن، أى موضع أمن. وأخبر - سبحانه - بأنه جعله أمنا ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن.

وكذلك صار البيت الحرام محفوظًا بالأمن من كل ناحية، فقد كان الناس فى الجاهلية يقتتلون ويعتدى بعضهم على بعض من حوله، أما أهله فكانوا فى أمان واطمئنان. قال تعالى : ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ وقال - تعالى - : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾.

وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه الحرمة للبيت الحرام على وجه لا يضيع حقًا ولا يعطل حدًا، وزادت فى تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه فريضة على كل قادر عليها.

قال الإمام ابن كثير: «ومضمون ما فسر به العلماء هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا من كونه مثابة للناس. أى : جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضى منه وطرًا ولو ترددت إليه فى كل عام استجابة من الله - تعالى - لدعاء خليله إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾ ويصفه - تعالى - بأنه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له :

﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ الاتخاذ : الجعل، تقول اتخذت فلانًا صديقًا أى : جعلته صديقًا. والمقام فى اللغة : موضع القدمين من قام يقوم، ومقام إبراهيم : هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه عند بناء الكعبة لما ارتفع الجدار، وهو - على المشهور - تحت المصلى المعروف الآن بهذا الاسم.

ومعنى اتخاذ مصلى منه : القصد إلى الصلاة عنده. فقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين».

ومن العلماء من فسر مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، ومنهم من أطلقه على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها لعبادة الله تعالى.

قال الإمام ابن كثير: «وقد كان هذا المقام - أي الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر على يمين الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة. . ثم قال: وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر - رضى الله عنه - ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة(١):

ثم قال - تعالى - : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾.

عهدنا: أمرنا وأوحينا، و ﴿أن﴾ مفسرة المأمور به أو الموصى به المشار إليه بقوله: ﴿عهدنا﴾ أى: أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى.

وأضاف - سبحانه - البيت إليه للتشريف والتكريم ومعنى تطهيره: صيانته من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأقذار والأرجاس والأوثان وكل ما كان مظنة للشرك، فالمقصود تطهيره من كل رجس حسى ومعنوى.

والطائفين: جمع طائف من طاف يطوف طوفًا وطوافًا إذا دار حول الشىء والمراد بهم: المتقربون إلى الله بالطواف حول الكعبة.

والعاكفين: جمع عاكف، من عكف على الشىء عكوفًا إذا أقام عليه ملازمًا له، والمراد بهم: المقيمون فى الحرم بقصد العبادة، ويدخل فى العبادة مدارسة العلوم الدينية وما يساعد على فهمها.

والركع السجود: الركع جمع راكع، والسجود: جمع ساجد.

والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها، فمعنى «والركع السجود» المصلون.

فالآية الكريمة جمعت أصناف العابدين فى البيت الحرام: وهم الطائفون وإن لم يكونوا مقيمين، كمن يأتون لحج أو عمرة ثم ينصرفون.

والعاكفون الذين يقيمون فى الحرم بقصد الإكثار من العبادة فى المسجد الحرام. والمصلون يتقربون إلى الله بالصلوات سواء أكانت فرائض أم نوافل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٧٠.

ولم يعطف السجود على الركع، لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان.

ثم ساق القرآن بعد ذلك نماذج من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال:

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمناً﴾ أى: أضرع إليك يا إلهى أن تجعل الموضع الذى فيه بيتك مكانا يأنس إليه الناس، ويأمنون فيه من الخوف، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان.

والمشار إليه بقوله: ﴿هذا﴾ مكة المكرمة. والبلد كل قطعة من الأرض عامرة أو غامرة.

والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد، وإنما يلحقان أهل البلد.

قال الإمام الرازى: وإنما قال هنا ﴿بلدا آمنا﴾ على التنكير، وقال فى سورة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ على التعريف لوجهين:

الأول: أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدًا، كأنه قال: اجعل هذا الوادى بلدًا آمنًا. والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدًا، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذى صيرته بلدًا ذا أمن وسلامة.

الثانى: أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلدًا، فقوله: ﴿اجعل هذا بلدًا آمنا﴾ تقديره: أجعل هذا البلد بلدًا آمنًا كقولك: كان اليوم يومًا حارًا، وهذا إنما تذكره للمبالغة فى وصفه بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة فقوله: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا معناه: اجعله من البلدان الكاملة فى الأمن. وأما قوله: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة(١).

أما الدعوة الثانية التى توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة فقد حكاها القرآن فى قوله:

﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾.

أى: كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا لبلد بلدًا آمنا. أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم، ويغنيهم من الاحتياج إلى غيرك.

وقوله: «ارزق» مأخوذ من رزقه يرزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٧٦.

والثمرات : جمع ثمرة، وهى ما يحمله شجر أو زرع أو غيره من النبات. وإنما طلب ابراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة وتفرغوا لذلك بنفوس مستقرة.

وقال فى دعائه : ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرون، فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه، لذا أتبع قوله : ﴿وارزق أهله﴾ بقوله : ﴿من آمن منهم﴾ على وجه البدل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البدل وهو هنا ﴿من آمن﴾ هو المقصود بطلب الرزق.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا على شيوع الإيمان بين سكان مكة، لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هى خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدبًا مع الله - تعالى - إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال : ﴿ومن ذريتى﴾ فقال : ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ أن غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم.

واقتصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فى التعبير عن المؤمنين لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بكتب الله ورسله وملائكته.

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾.

الضمير فى ﴿قال﴾ يعود إلى الله - تعالى - ومن فى قوله ﴿ومن كفر﴾ منصوب بفعل مقدر دل عليه « فأمتعه ». والمعنى : قال الله وأرزق من كفر وايراد المتكلم قولا من عنده معطوفًا على قول متكلم آخر مألوف فى اللغة العربية، ويحسن موقعه عندما يقتضى المقام إيجازًا فى القول، ولولا هذا العطف لكان المعنى متطلبًا لأن يقال : قال الله أرزق من آمن ومن كفر.

و ﴿أمتعه﴾ : من التمتع وهو إعطاء ما ينتفع به. و ﴿قليلا﴾ : وصف لمصدر محذوف فى النظم، والمعنى : أمتعه تمتيعًا قليلا. ووصف التمتع فى الدنيا بالقلة، لأنه صائر إلى نفاد وانقطاع.

و ﴿أضطره﴾ أى ألجئه وأسوقه بعد متاعه فى الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الإنفكاك عنه وجملة « ثم أضطره إلى عذاب النار » احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم فى الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا.

﴿وبئس﴾ فعل يستعمل لذم المرفوع بعده، وهو ما يسميه النحاة بالمخصوص بالذم، ووردت هنا لذم النار المقدرة فى الجملة، والمعنى: بئس المصير النار. أى أنها مصير سيء كما قال تعالى فى آية أخرى.

﴿إنها ساءت مستقرًا ومقامًا﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الله يرزق الكافر فى الدنيا كما يرزق المؤمن وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير، فإمتاع الكافر بالرزق له حكم منها استدراجه المشار إليه بقوله تعالى:

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ولو خص الله المؤمنين بالتوسعة فى الرزق وحرم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سائقا للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء. وقد قضت حكمته - تعالى - أن يكون الإيمان اختياريًا حتى ينساق الإنسان من طريق النظر فى أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون.

ثم حكى القرآن دعوة ثالثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

القواعد: جمع قاعدة، وهى أساس البناء الموالى للأرض، وبها يكون ثبات البناء. ورفعها: إبرازها عن الأرض بالبناء عليها. والمراد بالبيت الكعبة.

والتقبل: القبول، وقبول الله للعمل أن يرضاه أو يثيب عليه.

والمعنى: واذكر يا محمد ما صدر من الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل فقد كانا وهما يقومان يرفع قواعد الكعبة يتضرعان إلى ويقولان: يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا، إنك أنت السميع العليم.

وتصدير الدعاء بندائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميرهما مظهر من مظاهر خضوعهما، وإجلالهما لمقامه، والخضوع له - سبحانه -، وإجلال مقامه من أسنى الآداب التى تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة.

وعبر بالمضارع فقال: ﴿وإذ يرفع﴾ مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية، وذلك ليخرجه فى صورة الحاضر فى الواقع لأهميته.

وختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، ليؤكدا أن رجاءهما فى استجابة دعائهما وثيق، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول. لأن من كان سميعًا عليمًا بنيات الداعين وصدق ضمائرهم، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين فى طاعته غير بعيد.

ثم حكى القرآن جملة من الدعوات الخاشعات، التى توجه بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله - تعالى - فقال: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾:

مسلمين من الإسلام، وهو الخضوع والإذعان، وقد كانا خاضعين لله مذعنين فى كل حال، وإنما طلبا الثبات والدوام على ذلك، والإسلام الذى هو الخضوع لله بحق إنما يتحقق بعقيدة التوحيد، وتحرى ما رسمه الشارع فى العبادات والمعاملات، والإخلاص فى أداء ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ معناه: واجعل يا ربنا من ذريتنا أمة مخلصة وجهها إليك، مذعنة لأوامرك ونواهيك.

ومن (من) للتبعيض، أو للتعيين كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾. وإنما خص الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع؛ ولأن صلاح الذرية مرغوب فيه طبعًا، والدعاء لهم بالصلاح مرغب فيه شرعًا، وقد حكى القرآن من دعاء الصالحين قوله - تعالى -:

﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا﴾

﴿وأرنا مناسكنا﴾ أى: علمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا، كالطواف والسعى والوقوف. أو متعبداتنا التى تقام فيها شرائعنا، كمنى، وعرفات، ونحوهما.

والمناسك: جمع منسك - بفتح السين وكسرها - بمعنى الفعل وبمعنى الموضع من النسك - مثلثة النون وبضمها وضم السين - وهو غاية العبادة والطاعة، وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف والسعى وغيرهما.

﴿وتب علينا﴾ تسند التوبة إلى العبد فيقال: تاب فلان إلى الله ومعناها الندم على ما لابس من الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العود إليه، ورد المظالم إن استطاع، أو نية ردها إن لم يستطع وتسند إلى الله فيقال: تاب الله على فلان، ومعناها حينئذ توفيقه إلى التوبة، أو قبولها منه. فمعنى ﴿وتب علينا﴾ وفقنا للتوبة أو تقبلها منا.

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر، وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدى إلى خطأ فى الاجتهاد، وعلى أحد هذين الوجهين، تحمل التوبة التى يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها.

﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾ التواب: كثير القبول لتوبة المنيبين إليه، وقبول توبتهم يقتضى عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات، ثم بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان.

وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد طلبا قبول توبتهما صراحة فى قولهما ﴿وتب علينا﴾ ولوحا إلى طلب الرحمة بذكر اسمه الرحيم، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان، فكأنهما قالا: تب علينا وارحمنا، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى.

ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما بتلك الدعوة التى فيها خيرهم فى الدنيا والآخرة، فقالا - كما حكى القرآن عنهما:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

الضمير فى قوله: ﴿منهم﴾ يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة فى قوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾.

والرسول: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه: وتلاوة الشيء: قراءته والمراد بقوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفى هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع.

والآيات: جمع آية، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله، وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه، أو المراد بها آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت، ويتعبدوا بتلاوتها، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجهًا مشرقا من وجوه إعجازها.

والكتاب: القرآن، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه، ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب.

والحكمة: العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به. ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التى تنتظم أقوال النبى ﷺ وأفعاله، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب، وتنفتح لهم طرق التفقه فى أسرار الدين ومقاصده.

ويزكيهم: أى يطهرهم من أرجاس الشرك ومن كل ما لا يليق التلبس به ظاهرًا أو باطنًا. يقال: زكاه الله، أى طهره وأصلحه، ومنه زكاة المال لتطهره بها، وأصل الزكاة - بالمد - النماء والزيادة، يقال. زكا الزرع زكاء وزكوا، أى نما.

والمعنى: ونسألك ياربنا أن تبعث فى الأمة المسلمة، أو فى ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه، ويرشدهم إلى مافيه من حكم ومواعظ وآداب، كما يهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك - والتى بها يتم التفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده، والتى يكمل بها العلم بالكتاب إنك يامولانا أنت العزيز الحكيم.

أى القادر الذى لا يغلب على أمره، العالم الذى يدبر الأمور على وفق المصلحة، ومن كان قادرًا على كل ما يريد، عليما بوجوه المصالح، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل فى أسمى درجات البلاغة والحكمة؛ لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه، ثم بتعليم العلم النافع الذى تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به فى الظاهر، أو الباطن.

وقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن تكون بعثة الرسول فى ذريتهما فيكون أمر الإيمان قريبا منهم، فإن نشأته بينهم، ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة، وكل ذلك يحمل العقلاء على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد حقق الله تعالى دعوة هذين النبيين الكريمين، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم، وهو محمد ﷺ أرسله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم، فقال: (أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات المؤمنين يرين).

ثم عرض القرآن بعد ذلك بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا الحق الواضع الذى هو ملة إبراهيم فقال:

وَمَن يَرْغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ

إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ معناه : لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة.

يقال رغب فى كذا إذا أراده، ورغب عن كذا إذا كرهه وانصرفت عنه نفسه والملة فى الأصل الطريقة، وغلب إطلاقها على أصول الدين من حيث إن صاحبها يصل عن طريقها إلى دار السلام وسفه نفسه امتهنها واستخف بها.

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى : ﴿ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ أى : ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم فى الدنيا، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى. فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد فى سفهه وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التى رفعته إلى المنازل العليا فقال تعالى ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ أى : اصطفى الله - تعالى - إبراهيم لأنه أمره بطاعته وإسلام وجهه إليه فى كل حال فبادر إلى الامتثال وقال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ أى : أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعًا. كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول فى قوله تعالى : ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

وبعد أن بين الله - تعالى - أن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملا فى نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضًا - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى. فقال - سبحانه - : ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

الضمير فى «بها» يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ والمعنى : ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال

كلٌ منهما لأبنائه : يابنى إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذى لا يقبل الله دينا سواه ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أى : فاثبتوا على الإسلام . واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف.

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التى أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى﴾.

روى أن اليهود قالوا للنبى ﷺ ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة(١).

والمعنى : ماكنتم - يامعشر اليهود- حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ ﴿ما تعبدونَ من بعدى﴾ فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التى أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكى يسعدوا فى دنياهم وأخراهم، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا : ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون﴾.

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهى ملة لا تثليث فيها ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هى إفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى : ﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

الإشارة (بتلك) إلى إبراهيم وبنيه، أى أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم فى الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذى هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته.

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة فى خلقه وهى أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر. وبذلك تكون الآيات

(١) أسباب النزول للنيسابورى طبعة الحلى ص ٢٢.

الكريمة قد بينت بوضوح لبنى إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام.

وهذا الذى بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام.

وفى القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذى دعا اليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم، فنوح قال لقومه: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾(١).

وموسى قال لقومه: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾(٢) والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام -: ﴿آمنا بالله وآشهد بأنا مسلمون﴾(٣).

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته وقالوا: ﴿آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾(٤).

وإلى هنا تكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التى أرشدت إلى أن ما جاء به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة. وهى أن ما جاء به النبى ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله فى أصول الدين وكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ماعدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التى بعث الله لها رسولا من لدنه كما قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾.

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجودًا فى الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمدًا ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم وشرعت لهم أمورًا تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف.

---

(١) سورة يونس الآية ٧٢.
(٢) سورة يونس الآية ٨٤.
(٣) سورة آل عمران الآية ٥٢.
(٤) سورة القصص الآية ٥٣.

ويعجبنى فى هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز : (يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نقضًا لها، وإنما وقوفًا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر).

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثانى من مرحلته التالية فقرر له طعامًا لينًا، وطعامًا نشويًا خفيفًا، وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافًا ضمنيًا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقًا كل التوفيق فى علاج الحالة التى عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضًا من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين.

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه فى حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات.

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).

و (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها. وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة - مثلا - عنيت بوضع المبادىء الأولية لقانون السلوك (لا تقتل). (لا تسرق) فطابعها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجىء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آدابًا مكملة (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيرًا تجىء شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدأين فى نسق واحد ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير فقال : «مثلى

ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[١].

وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هى فى الأصول والكليات، لا فى الفروع والجزئيات.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال:

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة ١١ ص ٦٨، وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه فى الندوة العالمية للإسلاميات، التى انعقدت فى لاهور فى أواخر سنة ١٩٥٧، إلا أن المنية عاجلته قبل الإنتهاء من الندوة - فرحمة الله عليه ورضوانه.

وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله - عز وجل - ﴿وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾(1).

ومعنى الآية الكريمة: وقالت اليهود للنبى ﷺ وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق. وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى فى اتباع ملتكم، بل الحق فى أن نتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، فاتبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقًا سالكين ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا﴾ حكاية لما زعمه كل من فريقى اليهود والنصارى من أن الهدى فى اتباع ملتهم.

و (أو) للتنويع، أى قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا. وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانته باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الملزم لهم، فقال تعالى: ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾.

الملة: الدين، والحنيف فى الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به

(1) تفسير ابن كثير جـ1 ص 229.

إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التى كانت موجودة فى عهده إلى الدين الحق الذى أوحى الله به إليه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفًا من الحنف وهو الاستقامة.

قال الإمام الرازى: «لأهل اللغة فى الحنيف قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج أحنف تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ سليم وللمهلكة مفازة، قالوا فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه فى شىء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظى.

الثانى: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذى يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها. وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أى مال إليه، فقوله: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفًا﴾ أى: مخالفًا لليهود والنصارى.

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى فى أن نتبع ملتكم، بل الهدى فى أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذى ماكان من المشركين بأى صورة من صور الشرك»[1].

وقوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾ أى: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا. وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى، لأن حرف (بل) يؤتى به فى صدر الكلام لينفى ما تضمنته الجملة السابقة، والجملة السابقة هنا هى قول أهل الكتاب ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ فجاءت بل بعد ذلك لتنفى هذا القول، ولتثبت أن الهداية إنما هى فى اتباع ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - وفى اتباع من سار على نهجه وهو محمد ﷺ.

وفى هاتين الجملتين وهما قوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفا﴾. ﴿وما كان من المشركين﴾ دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفى ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هى معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

قال الإمام الرازى - ما ملخصه: فى الآية الكريمة جواب إلزامى لهم وهو قوله تعالى ﴿بل ملة إبراهيم حنيفًا﴾ وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى فى ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه.

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٥١٨.

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر. فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - فى أصول الدين[١].

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانبًا وتدعو إلى اتباع الوحى الإلهى الذى أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ومأأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾

أى: قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية فى اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية فى اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية فى أن نصدق بالله، وبالقرآن الكريم الذى أنزله الله إلينا ﴿وبما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى وبالانجيل الذى أنزله الله على عيسى، ونحن فى تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعًا بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة. مذعنون له بالعبودية.

قال الإمام الرازى: «فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقًا فى زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق[٢].

وقوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ خطاب للمؤمنين.

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحق - عليهما السلام - وكانوا اثنى عشر سبطًا كما قال تعالى: ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطًا أممًا﴾، والمراد: الإيمان بما أنزل الله من الوحى على الأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبى: والأسباط: ولد يعقوب، وهم أثنا عشر ولدًا، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل، وسموا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص ٩١.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٤١٧.

الأسباط من السبط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط «بالتحريك» وهو الشجر، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر: الواحد سبطة، ويبين لك هذا ما روى عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدًا - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا»[1].

وقوله تعالى: ﴿وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم﴾ معناه: وآمنا - أيضًا - بالتوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى، وبالإنجيل الذى أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقًا لهم فى نبوتهم.

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقًا للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكامًا يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله حكاية عنه ﴿ومصدقًا لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾.

وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهى الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفى الإيمان به على وجه الإجمال.

وقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ معناه: لا نفرق بين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد ﷺ وفعلكم هذا فى حقيقته كفر بالأنبياء جميعا لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء.

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتموهم إليه معشر المسلمين، فقد أصابوا الهدى، وإن نأوا وأعرضوا فهم معاندون مستكبرون فقال تعالى:

﴿فإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾.

والفاء التى صدرت بها الآية الكريمة لترتيب ما بعدها على ما قبلها. لأن قول المؤمنين «آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم إلخ.

من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة، ويستميل النفوس الشاردة، لبعده عن التعصب

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٤١ بتلخيص.

والعناد، لأنه الحق الذى تؤيده العقول السليمة، وإذا لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والتواء أفكارهم.

وقوله تعالى: ﴿فقد اهتدوا﴾ ترغيب لهم فى اتباع الحق الذى اتبعه المؤمنون، أى: فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا.

وكلمة: (مثل) فى الآية الكريمة معناها، نفس الشيء وحقيقته. المراد فإن آمنوا بنفس ماآمنتم به فقد اهتدوا، ومنه قول العرب: «مثلك لايبخل» والمراد أنت لاتبخل. ويرى بعض المفسرين أن كلمة «مثل» هنا على حقيقتها وهى الشبية والنظير، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، وأنها لا تقتضى تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به.

قال الإمام القرطبى: «المعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا»(١).

وقال ابن جرير: فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه، فقد اهتدوا فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والاقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل: (مر عمرو بأخيك مثل ما مررت به) يعنى ذلك (مر عمرو بأخيك مثل مرورى به) والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم، فكذلك قوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمن به»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق، ووعد من الله - تعالى - للنبى ﷺ والمؤمنين بالنصر عليهم، والعصمة من شرورهم.

والشقاق: المنازعة والمخالفة والتعادى وأصله من الشق وهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه.

وقيل: إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه.

والمعنى: وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية ميلهم عن الإيمان الذى تدعوهم إليه - يا محمد - فاعلم أن إعرضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاداة إذ لا حجة أوضح من حجتك، وما داموا هم كذلك فسيقيك الله شرهم، وينصرك عليهم، فهو سميع لما يقولونه

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٤٣.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٣١.

فيك، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم، وقطع دابرهم.

وعبر - سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله: «فإنما هم فى شقاق» مبالغة فى وصفهم بالشقاق حيث جعله مستوليا عليهم استيلاء الظرف على ما يوضع فيه.

ورتب قوله: ﴿فسيكفيكهم الله﴾ على قوله ﴿فإنما هم فى شقاق﴾ تثبيتًا للنبى ﷺ والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب فى مخالفة ومعاداة لهم قد يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم، فبشر الله - تعالى - نبيه ﷺ بأنهم مهما بلغت قوتهم فلن يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى. وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم.

وقد أوفى الله - تعالى - بوعده، فنصر نبيه ﷺ عليهم وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم وطرد من يستحق الطرد منهم، وقتل من لا بد من قتله بسبب خيانته وغدره. فالآية الكريمة قد تضمنت وعدًا للمؤمنين بالنصر، ووعيدًا لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله وهو الإسلام أولى بالاتباع فقال تعالى:

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾.

الصبغة فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهى فى أصل اللغة. الحالة التى يقع عليها الصبغ وهو تلوين الأشياء - كالثياب وغيرها - بألوان معينة واستعملت الصيغة فى الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة وهى قوله تعالى قبل ذلك ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى﴾. الخ الآية. وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بما ذكرته الآية مفصلا، لأن الإيمان يمتزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ، وتبدو آثاره على المؤمنين كما تبدو آثار الصبغ على المصبوع. ويقال: تصبغ فلان فى الدين إذا أحسن دينه وتقيد بتعاليمه تقيدًا تامًا.

وقوله: ﴿صبغة الله﴾ هكذا بالنصب على أنه وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم (آمنا) فإنه فى معنى صبغنا الله بالإيمان، وكأنهم قالوا صبغنا الله بالإيمان صبغته. وإيراد المصدر تأكيدا لفعل يوافقه فى المعنى ويخالفه فى اللفظ معهود فى الكلام البليغ.

قال القاضى: قوله تعالى: ﴿صبغة الله﴾ متعلق بقوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صيغة الله، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذى اختاره الله وبين الدين الذى اختاره المبطلون ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذى الحس السليم»[1].

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص٥٢٢.

والاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ للإنكار والنفى والمعنى : لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم من أدران الكفر والضلال، فهى صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطة له. بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصبغة البشرية، التى تجعل من الدين الواحد أديانا مختلفة ومذاهب متنافرة.

وهذا التركيب «ومن أحسن من الله صبغة» يدل بحسب أصل الوضع اللغوى على نفى أن يكون دينا أفضل من دين الله، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه فى الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوبًا يفهم منه بمعونة مقام المدح نفى مساواة دين لدين الله فى الحسن، كما يفهم منه نفى أن يكون هناك دين أحسن منه. وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة، والآداب السمحة والعادات الصحيحة، والسياسة الرشيدة والمعاملات القائمة على رعاية المصالح.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له عابدون﴾ عطف على آمنا بالله فى قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ والمعنى : قل لهم يا محمد إننا نحن معاشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هى صبغتنا ولا نعبد غيره فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابًا يزيدون فى ديننا وينقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صبغة التوحيد، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يزيد فى تذكيرهم ودحض حجتهم فقال تعالى : ﴿قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، قل. أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك ﴿كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ وزعموا أن دينهم هو المعتبر عند الله دون دينك، قل لهم : أتجادلوننا فى دين الله وهو ملة الإسلام التى بعثنى بها للعالمين هدى ورحمة، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليه من اليهودية والنصرانية، وتستبعدون عليه - تعالى - أن ينزل وحيه على من ليس منكم، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، والحال أنه - سبحانه - هو ﴿ربنا وربكم﴾ أى خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال.

وقوله تعالى : ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ معناه : لكل منا ومنكم أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب، فكما أننا نتساوى معكم فى أن الله ربنا وربكم فكذلك نتساوى معكم فى

استحقاق الجزاء على الأعمال التى نعملها، فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيرًا من أعمالكم، لأننا نزيد عليكم الإخلاص لله فى تلك الأعمال فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه بإكرامهم بالنبوة.

فقوله تعالى: ﴿وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ حجتان مبطلتان لدعوى أهل الكتاب أنهم أحق لأن تكون النبوة فيهم لأن نسبة العباد إلى الله - تعالى - واحدة هو ربهم وهم عباده، والتفاضل فى المنازل لديه إنما يكون بالأعمال الصالحة والإخلاص لله فيها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ويختص بوحيه من يراه أهلا لذلك، وقد شاء - سبحانه - أن ينزل وحيه على محمد ﷺ النبى الأمى العربى، بدين عام خالد فيه الهداية والنور والفلاح فى الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾ بيان لسبب أحقية المسلمين بالهداية والكرامة، والمعنى، ونحن - يا معشر المسلمين - لربنا موحدون، نخلص لله العبادة والعمل، ولا نشرك معه آلهة أخرى، أما أنتم فقد أشركتم وضللتم فقال بعضكم: «عزير ابن الله» وقال بعضكم ﴿المسيح ابن الله﴾ فنحن أهدى منكم سبيلا، وأقوم قيلا.

ولم يصف المسلمون أعمالهم بالحسن، ولا أعمال المخاطبين بالسوء تجنبًا لنفور المخاطبين من سماع خطابهم، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ كما أنهم لم يقولوا: ونحن مخلصون وأنتم مخطئون، بل اقتصروا على نسبة الإخلاص لأنفسهم، وفى ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله، فإن إخبار الإنسان باشتراكه مع جماعة فى أمر أو أمور، وإفراد نفسه بعد ذلك بأمر، يومىء إلى أن هذا الأمر الذى أثبته لنفسه خاصة معدوم فى أولئك الجماعة.

فمعنى الجملة: ونحن مخلصون فى أعمالنا لله وحده، ولم نخلطها بشىء من الشرك كما فعل غيرنا.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب فى دين الله بغير حق وأنكر عليهم ذلك، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء كانوا هودًا أو نصارى فقال تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى، قل أأنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ حرف «أم» فيه معادل للهمزة فى قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿أتحاجوننا فى الله﴾ على أحد الوجوه بمعنى أى الأمرين تأتون؟ المحاجة فى حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين فى

هذه الآية والمراد من الاستفهام عنهما إنكارهما معًا، إنكار حجاجهم فى دين الله، وإنكار قولهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى.

فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ قل لهم: لا تجادلوننا فى دين الله بغير حق، ولاتقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم، فإن مجادلتكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التى لاسند لها من عقل أو نقل.

وقوله تعالى: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ معناه قل لهم يا محمد إن زعموا أن الأنبياء المذكورين فى الآية كانوا هودا أو نصارى: إن ما زعمتوه من أن إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله، لأنه - سبحانه - قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب - عليه السلام - عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأن التوراة والانجيل ما أنزلا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعا، هكذا أخبرنا الله[1] فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون الله اعلم، فإذا لزمهم هذا القول: قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ معناه لا أحد أشد ظلمًا ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هودًا أو نصارى.

قال فضيلة أستاذنا السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله - ما ملخصه: ولما أنزل قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه: مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث..﴾ إلى آخر الآية الكريمة، كان من أهل الكتاب من آمن به وأخبر بما فى كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر فى الكتابين. ولكنه يكابر ويقول: المقصود نبى لم يأت بعد وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابى التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم فى القديم والحديث، وبينوا وجه انطباقها على حال النبى ﷺ بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريبة فى أنه الرسول الذى بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته، ومن هذه البشائر ماجاء فى سفر

---

(١) والآيات تشهد بذلك منها قوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ونحن له مسلمون﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾.

التثنية من التوراة (أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به).

والنبى المماثل لموسى - عليه السلام - فى الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبى محمد ﷺ وإخوة بنى إسرائيل هم العرب، لأنهما يجتمعان فى إبراهيم - عليه السلام - وقوله: «وأجعل كلامى فى فمه، يوافق حال النبى ﷺ من الأمية وعدم تعاطى الكتابة»[1].

ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة، فقال تعالى ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.

الغفلة: السهو والنسيان، والمراد أنه - سبحانه - محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق، لا تخفى عليه منها خافية وسيحاسبهم عليها حسابا عسيرًا، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقابًا أليمًا، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - فى ختام الآيات - من التمادى فى الكفر والمعصية، انكالا على انتسابهم لآباء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين، فقال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيلل وإسحاق ويعقوب والأسباط و(الأمة) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمر واحد وهو هنا الدين (قد خلت) أى مضت وانقرضت.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية فى ملتهم وأن إبراهيم وآله كانوا هودًا أو نصارى، قل لهم: إن إبراهيم وآله يمثلون أمة مضت لسبيلها لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر ولا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها سوى سيئها، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم فعليكم أن تسلكوا طريق الايمان والعمل الصالح وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها، كما بين ذلك قوله تعالى ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾.

فالمقصد الأول الذى ترمى إليه الآية الكريمة، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة اعتمادًا منهم على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين، فإن هذا الاعتماد إنما هو نوع من الأمانى الكاذبة والأفكار الفاسدة وقد جاء فى الحديث الشريف (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه).

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ١٢ السنة الثالثة ص ٨٢٧.

وكأن الآية تقول لأهل الكتاب فى تأكيد : إن أمامكم دينًا دعيتم إلى اتباعه، واقترنت دعوته بالحجة فانظروا فى دلائل صحته، وسمو حكمته، ولا تردوه بمجرد أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن، فإن دعواكم هذه لا تنفعكم ولو فى حال تسليمها لكم، إذ لا يمنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح، وعلى حسب ما تقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى فى إتباع ملتهم، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم وافترائهم وأرشدتهم إلى الدين الحق، ودعتهم إلى الدخول فيه، ووبختهم على المحاجة فى دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتمادًا منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين، فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئًا يوم الدين.

ثم تحدث القرآن الكريم بعد ذلك عن قصة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وأورد الشبهات التى أثارها المشركون وأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - حول هذه المسألة، ورد عليها بما يدحضها ويبطلها.

ونظرًا لأهمية هذا الموضوع فسيكون كلامنا عنه على النحو التالى :

أولاً : كيف كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟

ثانيًا : ما الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟

ثالثًا : كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل؟

رابعًا : تفسير الآيات الكريمة التى نزلت بشأن القبلة؟

خامسًا: لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة مع أنها من الأمور الفرعية.

وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة.

أولاً : فرضت الصلاة على النبى ﷺ فى مكة ليلة الإسراء والمعراج. ويرى بعض العلماء أن النبى ﷺ كان يستقبل فى صلاته - وهو بمكة - بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدير الكعبة، بل كان يجعلها بينه وبين ببيت المقدس، وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليمانى.

ويرى بعضهم أنه كان يستقبل فى صلاته وهو بمكة المسجد الحرام. وهذا الرأى هو الذى نرجحه، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم، ولأنه ﷺ عربى، وظهر بين قومه العرب، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام، أشد من اعتزازهم بأى مسجد آخر، إذن فالمصلحة والحكمة تقضيان بأن يستقبل المسلمون فى صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة.

ومهما يكن من خلاف بين العلماء فى الجهة التى كان النبى ﷺ يستقبلها فى صلاته وهو بمكة، فإن الأمر الذى لا خلاف فيه، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل فى صلاته سوى بيت المقدس بأمر من الله تعالى - وقد وردت أحاديث صحيحة فى ذلك، منها ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ تعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ جهة مكة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك(١).

ومنها ما أخرجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: (بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة)(٢).

وبذلك نرى أن النبى ﷺ كان يتوجه فى صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس، قبل أن يأمره الله - تعالى - بالتحول إلى المسجد الحرام.

ثانيًا: الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحول المسلمين فى صلاتهم إلى المسجد الحرام.

قلنا إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة استقبل فى صلاته بيت المقدس بأمر من الله - تعالى - تأليفًا لقلوب اليهود لأن بيت المقدس قبلتهم، ورمز وحدتهم، وقد فرحوا لصلاة الرسول ﷺ والمسلمين إليه، وكان أمل النبى أن يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول فى الإسلام، ولكنهم عموا وصموا، وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبى ﷺ قد اتبع قبلتهم وعما قريب سيتبع ملتهم، واعتبروا اتجاه المسلمين فى صلاتهم إلى بيت المقدس نوعًا من اقتباس الهدى منهم، فتأثر الرسول ﷺ من موقفهم الجحودى، وانبثقت فى نفسه أمنية التحول إلى الكعبة، وأكثر من التضرع والابتهال إلى الله كى يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم.

وقد أجاب الله تعالى رجاء نبيه ﷺ فولاه القبلة التى يرضاها، ففرح المؤمنون لذلك لأن فى توجههم إلى البيت الحرام، تأليفًا لقلوبهم، فهو مثابتهم ومركز تجمعهم، وموطن أمنهم ومهوى أفئدتهم، وجامع وحدتهم وقد استقبلوا هذا التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ

---

(١) البخارى باب «الصلاة من الإيمان» من كتاب الإيمان جـ١ ص١٧.

(٢) البخارى باب «ما جاء فى القبلة» من كتاب الصلاة جـ١ ص١٠٦.

أما اليهود ومن على شاكلتهم ممن فى قلوبهم مرض فقد استقبلوه بالاستهزاء والجحود، وإثارة الشبهات، لبلبلة الأفكار، وتشكيك المسلمين فى عقيدتهم.

ومما قاله المشركون فى ذلك: إن محمدًا ﷺ قد تحير فى دينه، وبوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

ومما قاله المنافقون: ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟.

ومما قاله اليهود - الذين تولوا كبر التشكيك فى صحة التوجه إلى البيت الحرام - إن القبلة الأولى - وهى بيت المقدس - إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة، ولو كان محمد ﷺ نبيًا حقًا ما ترك قبلة الأنبياء قبله وتحول إلى غيرها وما فعل اليوم شيئًا وخالفه غدًا.

ومقصدهم الأول من وراء هذه المقالات المرذلة، الطعن فى شريعة الإسلام، وفى نبوة النبى (عليه الصلاة والسلام).

ثالثًا: ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم، وأحبط مكرهم، فأخبر الله - تعالى - نبيه ﷺ بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعًا قبل أن يصدر عنهم، ومهد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان فى القلوب ويهيىء الأفئدة لتقبل هذا الأمر العظيم، فذكر الله فى الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها، لأنه القادر على كل شىء، المالك للسموات والأرض تصرفًا وتدبيرًا، وهو أعلم بما يتعبد به عباده وما فيه الخير لهم.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب. ففى أى مكان توجه المصلى فثم وجه الله، ثم نبه - رسوله ﷺ بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم. إشارة إلى أن المصلحة فى التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت وان الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصبغ بهداية الله وتوفيقه.

ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعًا للحجاج والعمار. يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه. وجعله - أيضًا - حرمًا آمنًا لهم. بينما يتخطف الناس من حولهم.

وأخبر - سبحانه - أنه قد عهد فى بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وقد كانت الآيات الواردة فى شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة كفيلة بإعطاء صورة وافية لكل عاقل، بأن بيتًا له هذه القداسة جدير بأن يكون قبلة للناس فى صلاتهم،

ولكن اليهود ومن فى قلوبهم مرض، لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة فى نفوسهم ينقصها الدليل، وإنما كان إعراضهم مرجعه العناد والمكابرة، وكلاهما يعمى ويصم، فلا غرابة أن نطقوا كفرًا، ولاكت ألسنتهم قبحًا وسفهًا.

إلا أن ما قالوه من شبهات حول تحويل القبلة، لم يجد آذانًا صاغية من المؤمنين، لأن الله - تعالى - قد مهد للتحويل - كما قلنا - بما يطمئن النفوس ولقن نبيه ﷺ الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها ليكون ذلك أقطع لحجتهم، كما قالوا فى الأمثال: (قبل الرمى يراش السهم).

رابعًا: تفسير الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام.

لقد أنزل الله - تعالى - آيات كريمة من سورة البقرة فى شأن صرف القبلة إلى البيت الحرام[1]، لقن فيها المؤمنين الإجابة على معارضات اليهود وغيرهم، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية، وبشرها بإجابة رجاء نبيها ﷺ إذ ولاه القبلة التى يرضاها، وأراحه من التطلع إلى اهتداء اليهود وغيرهم من الجاحدين. ولو جاءهم بكل آية، لأن إعراضهم عن دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل، ولكنه إعراض سببه الجحود والحقد، والجاحد والحاقد لا ينفع معهما دليل أو برهان.

وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات فى ثلاث آيات، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه، لأن أهمية هذا الحادث تستلزم تكرارًا فى الخطاب ليرسخ فى النفوس، ويستقر فى المشاعر والقلوب.

هذا، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحويل القبلة من مقاصد، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل، فنقول قال الله تعالى:

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا

(١) هذه الآيات من ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤.

جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

تضمنت هذه الآيات الكريمة إعلام النبى ﷺ والمؤمنين أن فريقًا من الناس الذين خفت أحلامهم وضعفت عقولهم وعدلوا عما ينفعهم إلى ما يضرهم، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، ما صرفهم عن القبلة التى كانوا عليها، وهى بيت المقدس.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت، أى فائدة فى الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه»[(١)].

والمراد بالسفهاء اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركى العرب.

وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق، وجحدوه، وأنكروا نبوة النبى ﷺ. مع علمهم بصدقه فى رسالته.

وقد صرح البخارى - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاءهم اليهود، فقد روى عن البراء بن عازب قال:

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٧.

كان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه إلى الكعبة، فأنزل الله - تعالى - ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الجواب الذى يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم، فقال تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

أى قل لهم - يا محمد - إذا اعترضوا على التحويل: إن الأمكنة كلها لله ملكًا وتصرفًا وهى بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة فى الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم، لا ترجيحًا لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته، إلى السبيل الحق، فيوجه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

- ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية، بأنها أمة خيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

والمعنى: ومثل ما جعلنا قبلتكم - أيها المسلمون - وسطًا لأنها البيت الحرام الذى هو المثابة للناس، والأمن لهم، جعلناكم - أيضًا - ﴿أمة وسطا﴾ أى: خيارًا عدولا بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة التى تنوجهون إليها فى صلواتكم، تشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكى يشهد الرسول ﷺ عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به.

أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم، فيقال لأمته هل بلغكم. فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال له: من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله - جل ذكره - ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾[1].

ثم بين الله - تعالى - الحكمة فى تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى:

﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾.

---

(١) صحيح البخارى، باب: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» من كتاب التفسير، جـ ٦ ص ٢٦.

أى وما شرعنا التوجه إلى القبلة التى كنت عليها قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر، فنعلم من يتبع الرسول ويأتمر بأوامره فى كل حال ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة، وأدنى ملابسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شىء، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبى مشاهدًا فى العيان، إذ تعلق الشىء واقعًا فى العيان، هو الذى تقوم عليه الحجة، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال لنعلم ولم يزل عالمًا بذلك؟ قلت؛ معناه لنعلمه علمًا يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجودًا حاصلا، ونحوه ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقيل ليعلم رسول الله والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل معناه. ليميز التابع من الناكص كما قال - تعالى -: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم يقع التمييز به»[(١)].

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة فى نفوس المؤمنين وغيرهم فقال تعالى: ﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.

أى: إنما شرعنا لك - يامحمد - القبلة أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكمية ليظهر حال من يتبعك ويطيعك فى كل حالة ممن لا يطيعك، وإن كانت هذه الفعلة - وهى تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة، إلا على الذين خلق الله الهداية فى قلوبهم فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان، وقالوا سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا.

وقوله - تعالى -: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم...﴾.

بشارة عظيمة للمؤمنين، وجواب لما جاشت به الصدور، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين فى الفترة التى سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة.

فقد أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب - رضى الله عنه - أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما تقول فيهم، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وقال ابن عباس: كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم: أسعد بن زرارة، وأبو أمامة... وأناس آخرون فجاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٨.

الله : مات إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وروى أن حيى بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بهامدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله عنه فقالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ - وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرهم إلى النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾.

والمعنى - وما كان الله - تعالى - ليذهب صلاتكم وأعمالكم الصالحة التى قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس، لأنه - سبحانه - بعباده رءوف رحيم ولا يضيع أجر من أحسن عملا.

ثم خاطب الله - تعالى - نبيه ﷺ ووعده بأن القبلة التى سيؤمر بالتوجه إليها هى التى يحرص عليها ويرغب فيها.

قال الإمام ابن كثير: قال على بن أبى طلحة قال ابن عباس : كان أول ما نسخ فى القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله - تعالى - ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهم شطره﴾[1].

والمعنى: قد شاهدنا - يامحمد - وعلمنا تردد وجهك، وتسريح نظرك إلى السماء تطلعا إلى نزول الوحى عليك، وتوقعًا لما ألقى فى روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيًا منك وراء استمالة العرب إلى الدخول فى أحضان الإسلام، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا فى ديننا ويتبع قبلتنا، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت، ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

أى : فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام وجهته.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٩٢.

ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها. فقال تعالى: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾.

أى: وحيثما كنتم وأينما وجدتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه. وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب فى الأول خاصًا بالنبى ﷺ ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرا له خطره، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك آكد وأبلغ.

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له، فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه، سواء أكان المصلى بالمدينة أم بمكة أو بغيرهما.

وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة، ما يؤذن بكفالة مراعاة جهتها ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق. وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها. فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع.

وقد سقنا فى مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبى ﷺ قد أمر بالتحويل إلى الكعبة استداروا إليها وهم فى صلاتهم فجعلوها قبلتهم.

ومما يشهد بقوة إيمانهم وعظيم امتثالهم لشرع الله ما جاء عن نويلة بنت مسلم أنها قالت.

«صلينا الظهر - أو العصر - فى مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أى بيت المقدس - فصلينا ركعتين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال. والرجال مكان النساء. فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مسنقبلون البيت الحرام. فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب»[(١)].

ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذى لا ريب فيه فقال تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون﴾.

أى: وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة، وانصرافكم عن بيت المقدس، ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق؛ لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله، أو أنه يصلى إلى القبلتين، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٣.

وما الله بغافل عن أعمالهم بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حسابًا عسيرًا».

- ثم أخبر الله - تعالى - عن كفر اليهود وعنادهم، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول ﷺ بكل آية. فقال تعالى:

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ
ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ
فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

والمعنى : ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس فى الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما فى كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفى هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبى ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبى المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم فى رجوع النبى ﷺ إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس بتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب فى القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى : ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أى : ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون فى باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيرًا للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير فى شخص النبى ﷺ فقال تعالى : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين﴾.

أى : لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامى إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذًا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى.

فالآية الكريمة : وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثه عن الهوى والشهوة، وسيق الوعيد والتحذير فى صورة الخطاب للرسول ﷺ الذى لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيدًا للوعيد والتحذير، فكأنه يقول :

لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة، وأعلاهم منزلة عندى، لجازيته بمجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه فى الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟.

قلت : كلتا القبلتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة»(١).

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٢٩.

– ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول ﷺ معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾.

أى : أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبى ﷺ ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية فى أن كلا منهما يقين لا اشتباه فيه.

قال الإمام ابن كثير : « يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشيء بهذا كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبى صغير « إبنك هذا » ؟ قال نعم يا رسول الله أشهد به، قال : « أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه » ويروى عن عمر أنه قال « لعبد الله بن سلام » أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ولدك. قال نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته، وإنى لا أدرى ما كان من أم ولدى، فقبل عمر – رضى الله عنه – رأسه »[1].

أى : وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمى من أنك على حق فى كل شئونك ليتمادون فى إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم فى الدنيا والآخرة – ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لاشك فيه.

أى : اعلم – يا محمد – أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذى جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين فى كتمانهم الحق مع علمهم به» أو فى الحق الذى جاءك من ربك وهو ما أنت عليه فى جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ، ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة فى شخص نبيّها ﷺ إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهًا تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم.

وقد وضح ابن جرير – رحمه الله – هذا المعنى بقوله :

فإن قال لنا قائل : « أوكان النبى ﷺ شاكا فى أن الحق من ربه أو فى أن القبلة التى وجهه الله إليها حق من الله – تعالى – حتى نهى عن شك فى ذلك فقيل له : ﴿فلا تكونن من الممترين﴾. قيل : ذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به، والمراد به غيره

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٤.

كما قال جل ثناؤه : ﴿يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ ثم قال ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ فخرج الكلام مخرج الأمر للنبى ﷺ والنهى له. والمراد به أصحابه المؤمنون به[1].

- ثم قال تعالى : ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾.

أى : ولكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها فى عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التى تكسبكم سعادة الدارين، والتى من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

ثم ساق الله - تعالى - وعدًا لمن يطيع أمره، ووعيدًا لمن ينصرف عن الخير. فقال - تعالى - : ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾.

أى : فى أى بقعة يدرككم الأجل، وتموتون فيها، يجمعكم الله - تعالى - يوم القيامة. لتقفوا بين يديه للحساب، لأنه - سبحانه - قادر على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم حيث كنتم، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شىء، وما دام الأمر كذلك، فبادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لربكم، وحافظوا على قبلتكم، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر والعناد.

ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام فى حالتى السفر أو الحضر. فقال - تعالى - : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾...

أى : ومن أى موضع خرجت وإلى أى مكان آخر سرت، فول - يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام، وإن هذا التوجه شطره لهو الحق الذى لا شك فيه عند ربك، فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون وأطيعوا الله - تعالى - فى كل ما يأمركم به، وينهاكم عنه، لأنه - سبحانه - ليس بساه عن أعمالكم، ولا بغافل عنها، ولكنه محصيها عليكم، وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة.

ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

أى : ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه.

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٢٧.

وتلك هى المرة الثالثة التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقتضى الأمر تأكيده فى نفوس المؤمنين حتى يستقر فى مشاعرهم، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح، ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - ﷺ وللمؤمنين.

الزموا هذه القبلة لأنها هى القبلة التى ترضونها وترغبون فيها وطالما تمنيتموها، والزموها -أ أيضًا - لأنها هى القبلة التى لن تنسخ بعد ذلك.

والزموها - كذلك - لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين، وغيرهم من المعاندين والخاسرين.

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام فى هذه الآية الكريمة بحكم ثلاث.

أولها: قوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى﴾ والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية.

والمعنى عليك - أيها النبى - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا فى صلاتكم إلى الكعبة المشرفة، لكى تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس. إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التى قد تبدو مقبولة فى نظر ضعاف العقول.

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، والمعنى:

لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم، إلا المعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حبًا لدين قومه، واشتياقًا لمكة، وهؤلاء لا تخافون مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ولا تقيموا لما يشاغبون به فى أمر القبلة وغيره وزنا، فإنى كفيل أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيهم، فأنتم، أيها المؤمنون - ما توجهتم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره، ففى الحالتين أنتم مطيعون لخالقكم - عز وجل -.

وقد أحسن صاحب الكشاف فى شرحه للجملة الكريمة، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال:

﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا

للمعاندين منهم، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبًا لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله، فإن قلت: أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟.

قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟

قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى ترككم التوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم وإسماعيل أبى العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة، حين يقولون بداله فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم»[1].

وثانيها: قوله تعالى: ﴿ولأتم نعمتى عليكم﴾ أى: ولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى -: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾.

وثالثها: قوله - تعالى -: ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أى: ولكى ترشدوا للصواب فى كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه، وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس.

والجملة الكريمة معطوفة على الجملة السابقة وهى قوله تعالى: ﴿ولأتم نعمتى عليكم﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم فى هذه المسألة.

خامسًا: هذا، وفى ختام هذا المبحث نحب أن نجيب على السؤال الخامس، وهو:

لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة فنقول:

لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس فترة من الزمان، وكرّر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند الصلاة، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق، وأتى بألوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره، وساق وجوهًا من التأكيدات تدل على عناية بالغة بشأنها.

والمقتضى لهذه العناية وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام. كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال بذلك كثير

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٤٠.

من العلماء - والنسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان، فاقتضى الأمر بسط الحديث فى مسألة القبلة ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم.

ولأن هذا التحويل - أيضًا - جاء على خلاف رغبة اليهود، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين فى التوجه إلى بيت المقدس، لأنه قبلتهم، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام، اتخذوا منه مادة للطعن فى صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة، وسلكوا لبلبلة أفكار المسلمين كل وسيلة.

فزعموا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة، ومباين للعقول، فلا يقع فى الشرائع الإلهية، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة.

ويبدو أن شغبهم هذا، كان له آثاره عند ذوى النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأنًا غير شأن بقية الأحكام الفرعية، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضًا، ومدعمًا بالأدلة والبراهين، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة، فلقد قرر وكرر، ووعد وتوعد، ووضح وبين، ليدفع كل شبهة، وليجتث كل حجة، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم، وينهض بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين فى العلم، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم فى مكان سحيق، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن نعمة تحويل القبلة أتبعه بالحديث عن نعمة جليلة أخرى وهى نعمة ارسال الرسول فيهم لهدايتهم فقال - تعالى - :

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾.. إلخ متصل بما قبله، والكاف للتشبيه وهى فى موضع نصب على أنها نعت لمصدر محذوف وما مصدرية، والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتى عليكم إتمامًا مثل إتمام نعمتى عليكم بإرسال

الرسول ﷺ فيكم، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم...﴾.

وقيل إن قوله - تعالى - : ﴿كما أرسلنا﴾.. إلخ متصل بما بعده، فتكون الكاف للمقابلة، أى : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلا منى وكرمًا، فاذكرونى بالشكر عليها أذكركم برحمتى وثوابى. وقوله : ﴿فيكم﴾ متعلق «بأرسلنا» وقدم على المفعول تعجيلا بإدخال السرور: وقوله : ﴿منكم﴾ فى موضع نصب، لأنه صفة لقوله : ﴿رسولا﴾ والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب.

وفى إرساله الرسول ﷺ فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر، لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به، ولأن فى إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم، ومجد لا يعد له مجد، حيث جعل - سبحانه - خاتم رسله من هذه الأمة، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد، فكون الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته. وقوله : ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ صفة ثانية للرسول ﷺ.

والتلاوة : ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق، وأصله من الإتباع ومنه تلاه، أى : تبعه. والمراد من الآيات : آيات القرآن الكريم، وتلاوتها قراءتها، فإن البصير بأساليب البيان العربى يدرك من مجرد تلاوة آيات القرآن كيف ارتفع إلى الذروة التى كان بها معجزة ساطعة.

وفى هذه الجملة - كما قال الآلوسى - «إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأمى للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التى ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته»(١) :

وعبر بقوله : ﴿يتلو﴾، لأن نزول القرآن مستمر، وقراءة النبى ﷺ له متوالية، وفى كل قراءة يحصل علم المعجزات للسامعين.

ويجوز أن يراد بالآيات : دلائل التوحيد والنبوة والبعث، وبتلاوتها التذكير بها حتى يزداد المؤمنون إيمانًا بصدقها.

وقوله : ﴿ويزكيكم﴾ صفة ثالثة للرسول ﷺ، أى : ويطهركم من الشرك، ومن الأخلاق الذميمة. وإذا أشرقت النفوس بنور الحق، وتحلت بالأخلاق الحميدة، قويت على تلقى ما يرد عليها من الحقائق السامية.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص١٨ ط منير الدمشقى.

وقوله : ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة رابعة للرسول ﷺ.

والمراد بالكتاب : القرآن، وتعليمه بيان ما يخفى من معانيه، فهو غير التلاوة، فلا تكرار بين قوله ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ وبين قوله ﴿ويعلمكم الكتاب﴾.

والحكمة : ما يصدر عنه ﷺ من الأقوال والأفعال التى جعل الله للناس فيها أسوة حسنة.

قال بعضهم : وقدمت جملة ﴿ويزكيكم﴾ هنا على جملة ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ عكس ما جاء فى الآية السابقة فى حكاية قول إبراهيم ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهى منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. أما فى دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته فى الخارج، مع ما فى ذلك التخالف من التفنن»(١).

وقوله - تعالى - : ﴿ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ صفة خامسة له ﷺ.

أى : «ويعلمكم مالم تكونوا تعلمونه مما لا طريق إلى معرفته سوى الوحى. ومما لم يكونوا يعلمونه وعلمهم إياه ﷺ وجوه استنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم. وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملا قبل انتهاء عهد النبوة.

ولقد كان العرب قبل الإسلام فى حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد. . . فلما أكرمهم الله - تعالى - برسالة رسوله ﷺ وتلا عليهم الآيات، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، خرج منهم رجال صاروا أمثالا عالية فى العقيدة السليمة، والأخلاق القويمة والأحكام العادلة، والسياسة الرشيدة لمختلف البيئات والنزعات.

قال الآلوسى : وكان الظاهر أن يقول : «ويعلمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون» بحذف الفعل «يعلمكم» من الجملة الأخيرة، ليكون الكلام من عطف المفرد على المفرد، إلا أنه - تعالى - كرر الفعل للدلالة على أنه جنس آخر غير مشارك لما قبله أصلا، فهو تخصيص بعد التعميم مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين فى أمر دينهم لا يدرون ماذا يصنعون»(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٢ ص ٤٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.
(٢) تفسير الألوسى جـ٢ ص ١٩.

ثم أمر الله عباده بأن يكثروا من ذكره وشكره على ما أسبغ عليهم من نعم فقال: ﴿فاذكرونى أذكركم..﴾.

ذكر الشيء: التلفظ باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره فى الذهن، وهو ضد النسيان وذكر العباد لخالقهم قد يكون باللسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالجوارح. فذكرهم إياه بألسنتهم معناه: أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه، ويقرءوا كتابه، مع استحضارهم لعظمته وجلاله.

وذكرهم إياه بقلوبهم معناه أن يتفكروا فى الدلائل الدالة على ذاته وصفاته وفى تكاليفه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وأسرار مخلوقاته، لأن هذا التفكر يقوى إيمانهم، ويصفى نفوسهم.

وذكرهم إياه بجوارحهم معناه: أن تكون جوارحهم وحواسهم مستغرقة فى الأعمال التى أمروا بها، منصرفة عن الأفعال التى نهوا عنها، ولكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله - تعالى - ذكرًا فى قوله: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع...﴾.

وقوله: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم.

والمعنى: اذكرونى بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عمانهيتكم عنه أذكركم بالرعاية، والنصرة، وصلاح الأحوال فى الدنيا، وبالرحمة وجزيل الثواب فى الآخرة. فالذكر فى قوله «أذكركم» مستعمل فيما يترتب على الذكر من المجازاة بما هو أوفى وأبقى، كما أن قوله «فاذكرونى» المراد به: اذكروا عظمتى وجلالى ونعمى عليكم، لأن هذا التذكر هو الذى يبعث على استفراغ الوسع فى الأقوال والأعمال التى ترضى الله.

قال صاحب المنار: وقال الأستاذ الإمام: هذه الكلمة - وهى قوله - تعالى - ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ - من الله - تعالى - كبيرة جدًا، كأنه يقول: إننى أعاملكم بما تعاملوننى به وهو الربّ ونحن العبيد، وهو الغنى عنا ونحن الفقراء إليه. وهذه أفضل تربية من الله لعباده: إذا ذكروه ذكرهم بإدامة النعمة والفضل، وإذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل[1]».

هذا، وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل الذكر والذاكرين، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله - تعالى -: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى. فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى. وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٣٢.

منهم. وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعًا. وإن تقرب إلى ذراعًا تقربت إلى باعا. وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة: أنهما شهدا على النبى ﷺ أنه قال: لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

قال الإمام النووى: واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك، بل كل عامل لله - تعالى - بطاعة فهو ذاكر لله - تعالى -.

وقوله - تعالى -: ﴿واشكروا لى ولا تكفرون﴾ معطوف على ما قبله.

والشكر فى اللغة - كما يقول القرطبى - الظهور، ومنه قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف.

وحقيقته: عرفان الإحسان وإظهاره بالثناء على المحسن، يقال شكره وشكر له كما يقال نصحه ونصح له.

وأصل الكفر فى كلام العرب الستر والتغطية والجحود، ويستعمل بمعنى عدم الإيمان فيتعدى بالباء فيقال: كفر بالله، ويستعمل بمعنى عدم الشكر - وهو المراد هنا - فيتعدى بنفسه، فيقال: كفر النعمة أى جحدها وكفر المنعم أى جحد نعمته ولم يقابلها بالشكر.

والمعنى: اشكروا لى ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له، وبأن تطيعونى فى السر والعلن، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم، ونعمى عليكم فاسلبكم إياها.

قال - تعالى -: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾(١).

وقدم - سبحانه - الأمر بالذكر على الأمر بالشكر، لأن فى الذكر اشتغالا بذاته - تعالى -، وفى الشكر اشتغالا بنعمته، والاشتغال بذاته أولى بالتقديم من الاشتغال بنعمته. وقوله ﴿ولا تكفرون﴾ تأكيد لقوله ﴿واشكروا لى﴾.

وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأمم السابقة التى ﴿كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

وبعد أن أمر - سبحانه - عباده بذكره وشكره، وجه نداء إليهم بين لهم فيه ما يعينهم على ذلك، كما بين لهم منزلة الشهداء، وعاقبة الصابرين على البلاء فقال - تعالى -:

(١) سورة إبراهيم الآية ٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾
وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

الصبر: حبس النفس على احتمال المكاره، وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع.

والمعنى: يامن آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى فعل الطاعات وترك المعاصى، وعلى احتمال المكاره التى تجرى بها الأقدار، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل وبالصلاة المصحوبة بالخشوع والإخلاص والتذلل للخالق - عز وجل - فإن الإيمان الذى خالط قلوبكم يستدعى منكم القيام بالمصاعب، واحتمال المكاره، ولقاء الأذى من عدو أو سفيه، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا على كل ذلك إلا بالصبر والصلاة.

ولقد استجاب النبى ﷺ لهذا التوجيه الربانى، وتأسى به أصحابه فى ذلك، فقد أخرج الإمام أحمد - بسنده - عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ «كان إذا حزبه أمر صلى»[١] أى: إذا شق عليه أمر لجأ إلى الصلاة لله رب العالمين.

وافتتحت الآية الكريمة بالنداء، لأن فيه إشعارًا بخبر مهم عظيم، فإن من شأن الأخبار العظيمة التى تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهىء النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٦.

ولعل مما يشهد بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم، أن الله - تعالى - قد أمر بنى إسرائيل فى السورة نفسها بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ إلا أنه - سبحانه - قال لهم: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ ليشعرهم بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال، ولم يقل - سبحانه - للمؤمنين ذلك فى الآية التى معنا، للإيماء إلى أنهم قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنهم هم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك.

وقوله - تعالى -: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بيان لحكمة الاستعانة بالصبر وهو الفوز والنصر. أى: إن الله مع الصابرين بمعونته ونصره، وتوفيقه وتسديده فهى معية خاصة، وإلا فهو - سبحانه - مع جميع خلقه بعلمه وقدرته.

وقال - سبحانه -: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ ولم يقل «مع المصلين» لأن الصلاة المستوفية لأركانها وسننها وخشوعها لا تتم إلا بالصبر، فالمصلون بحق داخلون فى قوله - تعالى -: ﴿إن الله مع الصابرين﴾.

ولم يقل «معكم» ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفا لازما لهم.

قال الأستاذ الإمام: إن من سنة الله: - تعالى - أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، لأنه - سبحانه - جعل هذا الصبر سببًا للظفر، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذى هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته[(١)].

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتًا فقال: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: نزلت هذه الآية فى قتلى غزوة بدر، قتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلا: ست من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون. مات فلان ومات فلان. فنهى الله - تعالى - أن يقال فيهم: إنهم ماتوا.

وقيل إن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم طلبًا لمرضاة محمدٍ من غير فائدة، فنزلت هذه الآية[(٢)].

والسبيل: الطريق وسبيل الله: طريق مرضاته، وإنما قيل للجهاد سبيل الله، لأنه طريق إلى ثواب الله وإعلاء كلمته. و«أموات» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى: لا تقولوا هم

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٧.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٢٣.

أموات وكذلك قوله «أحياء خبر لمبتدأ محذوف أى: هم أحياء.

قال الآلوسى: «والجملة معطوفة على «لا تقولوا» اضراب عنه، وليس من عطف المفرد على المفرد ليكون فى حيز القول ويصير المعنى بل قولوا أحياء، لأن المقصود إثبات الحياة لهم لا أمرهم بأن يقولوا فى شأنهم إنهم أحياء وإن كان ذلك أيضًا صحيحًا»[1].

أى: لا تقولوا أيها المؤمنون لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه إنهم أموات، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وعدموا الحياة، وتصرمت عنهم اللذات، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الميت، بل هم أحياء - فى عالم غير عالمكم كما قال - تعالى - : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

وقوله: ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أى: لا تحسون ولا تدركون حالهم بالمشاعر، لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعلم بها إلا الوحى.

قال الآلوسى ما ملخصه: ثم إن نهى المؤمنين عن أن يقولوا فى شأن الشهداء أموات، إما أن يكون دفعًا لإيهام مساواتهم لغيرهم فى ذلك البرزخ... وإما أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون فى شأن أولئك الكرام قاصدين بها أنهم حرموا من النعيم ولن يروه أبدًا... ثم قال: وقد اختلف فى هذه الحياة التى يحياها أولئك الشهداء عند ربهم: فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد ولكنها لا ندركها فى هذه النشأة واستدلوا بسياق قوله - تعالى - : ﴿عند ربهم يرزقون﴾ وبأن الحياة الروحانية التى ليست بالجسد ليست من خواصهم فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم. وذهب البعض إلى أنها روحانية وكونهم يرزقون لا ينافى ذلك.. وذهب البلخى إلى نفى الحياة عنهم وقال؛ معنى ﴿بل أحياء﴾ إنهم يحيون يوم القيامة فيجزون أحسن الجزاء. فالآية على حد قوله - تعالى - ﴿إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم﴾.. وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بسبب ما نالوا من الذكر الجميل والثناء الجليل، كما روى عن على أنه قال: «هلك خزان الأموال والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة».

ثم قال: «ولا يخفى أن هذه الأقوال - ما عدا الأولين - فى غاية الضعف، بل نهاية البطلان، والمشهور ترجيح القول الأول».

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٢٠.

والذى نراه أن الآية الكريمة قد نبهتنا إلى أن للشهداء مزية تجعلهم مفضلين عمن سواهم من كثير من الناس، وهى أنهم فى حياة سارة، ونعيم مقيم عند ربهم، وهذه الحياة الممتازة تسمو بهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم إنهم أموات وإن كان المعنى اللغوى للموت حاصلا لهم، ونحن نؤمن بهذه الحياة السارة لهم عند ربهم ونعتقد صحتها كما ذكرها الله - تعالى - إلا أننا نفوض كيفيتها وكنهها إليه - سبحانه - إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحى، كما قال - تعالى - : ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أى: لا تشعرون بحياتهم بعد مفارقتهم لهذه الدنيا، لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب.

وبعد أن طلب - سبحانه - من عباده أن يستعينوا بالصبر والصلاة على احتمال المكاره، أردف ذلك بذكر بعض المواطن التى لا يمر فيها الإنسان بسلامة إلا إذا اعتصم بعرى الصبر فقال - تعالى - ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾.

وقوله: ﴿ولنبلونكم﴾ من البلو والبلاء وهو الامتحان والاختبار، وهو جواب لقسم محذوف والتقدير: والله لنبلونكم.

وقوله: ﴿ولنبلونكم﴾ عطف على قوله: ﴿واستعينوا﴾ الخ، عطف المضمون على المضمون، والجامع أن مضمون الأول طلب الصبر، ومضمون الثانية بيان مواطنه، والمراد: ولنعاملنكم معاملة المختبر والمبتلى لأحوالكم:

والتنوين فى قوله: ﴿بشىء﴾ للتقليل. أى بقليل من كل واحد من هذه البلايا والمحن وهى الخوف وما عطف عليه.

وإنما قلل - كما قال الزمخشرى - ليؤذن أن كل بلاء وإن جل ففوقه ما يقل إليه وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزايلهم، وأنه - سبحانه - يبتليهم من هذه المصائب بقدر ما يمتاز به الصابرون من غير الصابرين.

و ﴿الخوف﴾ غم يلحق النفس لتوقع مكروه، ومن أشد ما تضطرب له النفوس من الخوف، خشيتها أن تقع تحت يد عدو لاهم له إلا إيذاؤها بما تكره.

و ﴿الجوع﴾ ضد الشبع، والمراد منه القحط، وتعذر تحصيل القوت، والحاجة الملحة إلى طعام.

و ﴿الأموال﴾ جمع مال، وهو ما يملك مما له قيمة، وجرى للعرب عرف باستعماله فى النعم خاصة - وهى الإبل والبقر والغنم -.

و ﴿الثمرات﴾ : جمع ثمرة وهى حمل الشجر، وقد تطلق على الشجر والنبات نفسهِ.

والمعنى : ولنصيبنكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص فى الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله - تعالى -.

ولقد حدث للمسلمين الأولين خوف شديد بسبب تألب أعدائهم عليهم كما حصل فى غزوة الأحزاب. وحدث لهم جوع أليم بسبب هجرتهم من أوطانهم، وقلة ذات يدهم حتى لقد كان النبى ﷺ يشد الحجر على بطنه. وحدث لهم نقص فى أموالهم بسبب اشتغالهم بإعلاء كلمة الله. وحدث لهم نقص فى أنفسهم بسبب قتالهم لأعدائهم. ولكن كل هذه الآلام لم تزدهم إلا إيمانًا وتسليمًا لقضاء الله وقدره، واستمساكًا بتعاليم دينهم

وهذا البلاء وتلك الآلام لابد منها ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف، إذ العقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى، وليعلم من جاء بعدهم من المؤمنين إذا ما أصابهم مثل هذه الأمور أن ما أصابهم ليس لنقصان من درجاتهم، وحط من مراتبهم، فقد أصيب بمثل ذلك أو أكثر من هم أفضل منهم وهم أصحاب النبى ﷺ.

قال الإمام الرازى : وأما الحكمة فى تقديم تعريف هذا الابتلاء. أى الإخبار به قبل وقوعه : ففيها وجوه :

أحدها : ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود.

وثانيها : أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم، فيصير ذلك الخوف تعجيلا للابتلاء، فيستحقون به مزيد الثواب.

وثالثها : أن الكفار إذا شاهدوا النبى ﷺ وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه، مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع - يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فيدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل فى دلائله. ومن المعلوم الظاهر أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع فى أعظم المحن بسبب المذهب الذى ينصره، ثم رأوه مع ذلك مصرًا على ذلك المذهب : كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مرفه الحال لا كلفة عليه فى ذلك المذهب.

ورابعها : أنه - تعالى - أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه. فكان إخبارًا عن الغيب فكان معجزًا.

وخامسها : أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعًا فى المال وسعة الرزق، فإذا اختبره - سبحانه - بنزول هذه المحن، فعند ذلك يتميز المنافق عن الموافق.

وسادسها : أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله - تعالى - أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه. فكانت الحكمة فى هذا الابتلاء ذلك(١).

ثم بعد أن بين - سبحانه - مواطن تضطرب فيها النفوس أردف ذلك يذكر عاقبة الصبر، وجزائه الأسنى، فقال : ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

الخطاب فى قوله : ﴿وبشر﴾ للنبى ﷺ أو لكل من تتأتى منه البشارة. والجملة عطف على «لنبلونكم» عطف المضمون على المضمون أى : الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر.

و ﴿المصيبة﴾ اسم فاعل من الإصابة، والمرأ بها الآلام الداخلة على النفس بسبب ما ينالها من الشدائد والمحن.

و ﴿راجعون﴾ من الرجوع بمعنى مصير الشىء إلى ما كان عليه، يقال: رجعت الدار إلى فلان إذا ملكها مرة ثانية، وهو نظير العود والمصير.

والمعنى : وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل، أولئك الصابرين الذين من صفاتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبة، فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، أو غير ذلك، قالوا : بألسنتهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله والرضا بقدره ﴿إنا لله﴾ أى : إنا لله ملكا وعبودية، والمالك يتصرف فى ملكه ويقلبه من حال إلى حال كيف يشاء، «وإنا إليه راجعون» أى : وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التى ليس فى استطاعتنا دفعها.

فقولهم : ﴿إنا لله﴾ إقرار بالعبودية والملكية لله رب العالمين. وقولهم «وإنا إليه راجعون» إقرار بصحة البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة.

وليست هذه البشارة موجهة إلى الذين يقولون بألسنتهم هذا القول مع الجزع وعدم الرضا بالقضاء والقدر، وإنما هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصائب بالسكينة والتسليم لقضاء الله لأول حلولها، يشير إلى هذا قوله - تعالى - : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا﴾ فإنه يدل على أنهم يقولون ذلك وقت الإصابة «ويصرح بهذا قوله ﷺ «الصبر عند الصدمة الأولى».

---

(١) تفسير الرازى جـ ٤ ص ١٦٨ طبعة عبد الرحمن محمد.

وهذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى - : ﴿الذين إذا أصابتهم﴾ . . الخ وصف كريم لأولئك الصابرين، لأنها أفادت أن صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة مستنيرة جعلتهم يقرون عن عقيدة صادقة أنهم ملك لله يتصرف فيهم كيف يشاء، ومن ربط نفسه بعقيدة أنه ملك لله وأن المرجع إليه، يكون بذلك قد هيأها للصبر الجميل عند كل مصيبة تفاجئه.

قال القرطبى : جعل الله هذه الكلمات وهى قوله - تعالى - : ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعانى المباركة، فإن قوله «إنا لله» توحيد واقرار بالعبودية والملك وقوله ﴿وإنا إليه راجعون﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له. قال سعيد بن جبير: لم تعط هذه الكلمات نبيًا قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف»[1].

هذا، ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحزن عند حصول المصيبة، فقد ورد فى الصحيحين أن النبى ﷺ بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وإنما الذى ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه، الجزع المفضى إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء، أو إلى فعل ما حرمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب، ولطم الخدود.

ثم بين - سبحانه - ما أعده للصابرين من أجر جزيل فقال : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾.

﴿أولئك﴾ اسم اشارة، أتى به - سبحانه - للتنبيه على أن المشار إليه هم الموصوفون بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأن الحكم الذى ورد بعد مترتب على هذه الأوصاف.

و ﴿الصلوات﴾ جمع صلاة. وصلاة الله على عباده إقباله عليهم. بالثناء والعطف والمغفرة.

وجمعت مراعاة لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات فى الدنيا والآخرة.

﴿الرحمة﴾ - كما هو مذهب السلف - صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان.

وعطف - سبحانه - الرحمة على الصلوات ليدل على أن بعد ذلك الإقبال منه على عباده إنعامًا واسعًا، وعطاء جزيلا فى الدنيا والآخرة.

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ١٧٦ طبعة دار الكتب الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ.

وجاءت الرحمة مفردة على أصل المصادر وهو الإفراد، والمقام فى الآية يذهب بذهن السامع إلى كثرة الإنعام المترتب على الصبر الجميل.

والجملة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ استئنافية جواب عن سؤال تقديره: بماذا بشر الله الصابرين؟ فكان الجواب: أولئك عليهم صلوات... إلخ.

والمعنى: أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة، عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم، وإحسان منه - سبحانه - يشملهم فى دنياهم وآخرتهم ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ لطريق الصواب بالتسليم وقت صدمة المصيبة دون غيرهم ممن جزعوا عند صدمتها، حتى صدر عنهم ما لم يأذن به الله.

هذا، وفى فضل الصبر والصابرين وردت آيات كثيرة، وأحاديث متعددة أما الآيات فيزيد عددها فى القرآن على سبعين آية منها قوله - تعالى -: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ وقوله ﴿وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وقوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ وقوله: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فمنها ما جاء فى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها إلا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها. قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت: من خير من أبى سلمة: صاحب رسول الله؟ ثم عزم الله لى فقلتها: قالت: فتزوجنى رسول الله ﷺ.

ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى سنان قال: دفنت ابنا لى. وإنى لفى القبر أخذ بيدى أبو طلحة «يعنى الخولانى» فأخرجنى وقال: ألا أبشرك؟ قال قلت: بلى. قال: حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ قال الله - تعالى -: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدى، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال فماذا قال؟ قال حمدك واسترجع. قال الله - تعالى -: ابنوا له بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد.

ومنها ما رواه الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه.

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى وردت فى ثواب الاسترجاع وفى أجر الصابرين وفضلهم.

ثم تحدث - سبحانه - عن شعيرة من شعائر الحج فقال:

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

قال الآلوسى: بعد أن أشار - سبحانه - فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج، فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شق الأنفس وتلف الأموال. وقيل لما ذكر الصبر عقبه ببحث الحج لما فيه من الأمور المحتاجة إليه»(١).

و ﴿الصفا﴾ فى اللغة: الحجر الأملس، مأخوذ من صفا يصفو إذا خلص، واحده صفاة فهو مثل حصى وحصاة ونوى ونواة.

و ﴿المروة﴾ فى أصل اللغة: الحجر الأبيض اللين، وقيل: الحصاة الصغيرة. وهما - أى الصفا والمروة - قد جعلا علمين لجبلين معروفين بمكة كانا على بعد ما يقرب من ألف ذراع من المسجد الحرام. والألف واللام فيهما للتعريف لا للجنس. ومع توسعة المسجد الحرام صارا متصلين به.

و ﴿الشعائر﴾ جمع شعيرة، من الإشعار بمعنى الإعلام، ومنه قولك شعرت بكذا، أى: علمت به.

وكون الصفا والمروة من شعائر الله، أى: أعلام دينه ومتعبداته. تعبدنا الله بالسعى بينهما فى الحج والعمرة.

وشعائر الحج: معالمه الظاهرة للحواس، التى جعلها الله أعلاما لطاعته، ومواضع نسكه وعباداته، كالمطاف والمسعى والموقف والمرمى والمنحر.

وتطلق الشعائر على العبادات التى تعبدنا الله بها فى هذه المواضع، لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم لله - تعالى -.

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٣٤.

وأكدت الجملة الكريمة بإن لأن بعض المسلمين كانوا مترددين فى كون السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وكانوا يظنون أن السعى بينهما من أحوال الجاهلية، كما سنبين بعد قليل.

وقوله: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ تفريع على كونهما من شعائر الله وأن السعى بينهما فى الحج والعمرة من المناسك. والحج لغة: القصد مطلقًا أو إلى معظم. وشرعا: القصد إلى البيت الحرام فى زمان معين بأعمال مخصوصة.

و ﴿اعتمر﴾ أى: زار. والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته. وشرعا الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة وهى: الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة.

و ﴿الجناح﴾ - بضم الجيم - الإثم والحرج مشتق من جنح إذا مال عن القصد، وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل.

و ﴿يطوف﴾ أصلها يتطوف، فأبدلت التاء طاء، وأدغمت فى الطاء فصارت «يطوف». والتطوف بالشىء كالطواف به، ومعناه: الإلمام بالشىء والمشى حوله.

وقد فسر النبى - ﷺ - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط. وفسره بالنسبة للصفا والمروة بالسعى بينهما سبعة أشواط كذلك.

و «من» فى قوله: ﴿فمن حج﴾ شرطية، «وحج» فى محل جزم بالشرط، و ﴿البيت﴾ منصوب على المفعولية، وجملة «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» جواب الشرط.

والمعنى: إن الصفا والمروة من شعائر الله، أى: من المواضع التى يقام فيهما أمر من أمور دينه وهو السعى بينهما ﴿فمن حج البيت﴾ أى: قصده بالأفعال المعينة التى شرعها الله ﴿أو اعتمر﴾ أى: أتى بالعمرة كما بينتها تعاليم الإسلام «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» أى: فلا إثم ولا حرج ولا مؤاخذة عليه فى الطواف بهما، لأنهما مطلوبان للشارع، ومعدودان من الطاعات.

وهنا قد يقول قائل: إن بعض الذين يقرءون هذه الآية قد يشكل عليهم فهمها وذلك لأن قوله - تعالى -: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ يدل على أن الطواف بهما مطلوب شرعًا طلبا أقل درجاته الندب، وقوله - تعالى -: ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ يقتضى رفع الأثم عن المتطوف بهما، والتعبير برفع الإثم عن الشىء يأتى فى مقام الدلالة على إباحته، وإذن فما الأمر الداعى إلى أن يقال فى هذه الشعيرة: لا إثم على من يفعلها بعد التصريح بأنها من شعائر الله؟ وللإجابة على هذا القول نقول. إن الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يرفع هذا

الاستشكال. وقد روى العلماء فى سبب نزولها عدة روايات منها: ما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال: سألت عائشة - رضى الله عنها - قلت لها: أرأيت قوله - تعالى - : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما...﴾ فوالله؛ ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة؟ قالت بئس ما قلت يا ابن أختى!! إن هذه الآية لو كانت كما أولتها لكانت: لا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكن الآية أنزلت فى الأنصار. كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل. فكان من أهل يتحرج أن يتطوف بالصفا والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية.

قالت عائشة: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما[1].

وهناك رواية لمسلم عن عروة عن عائشه تشبه ما جاء فى رواية البخارى، وهناك رواية للنسائى عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما «إساف ونائلة» كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما.

وهناك رواية للطبرانى وابن أبى حاتم بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال: قالت الأنصار: إن السعى بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية فأنزل الله هذه الآية[2].

فيؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعى كان من شعائرهم فى الجاهلية فقد كانوا يهلون - أى يحرمون - لمناة، ثم يسعون بينهما ليتمسحوا بصنمين عليهما، وهم لا يريدون أن يعملوا فى الإسلام شيئا مما كان من أمر الجاهلية لأن دين الإسلام الذى خالط أعماق قلوبهم هز أرواحهم هزًا قويًا وجعلهم ينظرون بجفوة وازدراء واحتراس إلى كل ما كانوا عليه فى الجاهلية من أعمال تتنافى مع تعاليم دينهم الجديد، فنزلت هذه الآية الكريمة لتزيل التحرج الذى كان يتردد فى صدورهم من السعى بين الصفا والمروة.

وهذا يدل على قوة إيمانهم، وصفاء يقينهم، وتحرزهم من كل قول أو عمل يشم منه رائحة التعارض مع العقيدة التى جعلتهم يخلصون عبادتهم لله الواحد القهار.

وقوله ﴿ومن تطوع خيرًا فإن الله شاكر عليم﴾ تذييل قصد منه الإتيان بحكم كلى فى أفعال الخيرات كلها، وقيل إنه تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعى بين الصفا والمروة.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحج جـ٢ ص ١٩٣.
(٢) راجع تفسير القاسمى جـ٢ ص ٣٤٤.

و ﴿تطوع﴾ من التطوع وهو فعل الطاعة فريضة كانت أو نافلة، وقيل هو التطوع بالنفل خاصة.

﴿وشاكر﴾ من الشكر، والشاكر فى اللغة هو المظهر للإنعام عليه، وذلك محال فى حق الله - تعالى -، إذ هو المنعم على خلقه، فوجب حمل شكر الله لعباده على معنى مجازاتهم على ما يعملون من خيرات، وإثابتهم على ذلك بالثواب الجزيل.

قال الإمام الرازى: وإنما سمى - سبحانه - المجازاة على الطاعة شكرًا لوجوه:

الأول: أن اللفظ خرج مخرج التلطف مع العباد مبالغة فى الإحسان إليهم، كما فى قوله - تعالى -: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ وهو - سبحانه - لا يستقرض من عوز، ولكنه تلطف فى الاستدعاء كأنه قيل: من ذا الذى يعمل عمل المقرض. بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم.

الثانى: أن الشكر لما كان مقابلا للإنعام أو الجزاء عليه، سمى كل ما كان جزاء شكرًا على سبيل التشبيه.

الثالث: كأنه يقول: أنا وإن كنت غنيًا عن طاعتك، إلا أنى أجعل لها من الموقع بحيث لو صح على أن أنتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل.

وبالجملة فالمقصود أن طاعة العبد مقبولة عند الله، وواقعة موقع القبول فى أقصى الدرجات(١).

و ﴿من﴾ شرطية.

و﴿تطوع﴾ فعل الشرط، و﴿خيرًا﴾ منصوب على نزع الخافض، وأصله بخير؛ لأن تطوع يتعدى بالباء ولا يتعدى بنفسه ثم حذفت الباء فى نظم الكلام نحو: تمرون الديار فلم تعوجوا. أو هو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى: تطوعًا خيرًا، وجملة ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ دليل على جواب الشرط، إذ التقدير، ومن تطوع خيرًا جوزى فإن الله شاكر عليم.

والمعنى: ومن تطوع بالخيرات وأنواع الطاعات، أو من أتى بالحج أو العمرة طاعة لله، أو من أتى بهما مرة بعد مرة زيادة على المفروض أو الواجب عليه، فاز بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم؛ لأن من صفاته - سبحانه - مجازاة من يحسنون العمل، وهو عليم بكل ما يصدر عن عباده، ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

هذا، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى حكم السعى بين الصفا والمروة.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ١٨٢ طبعة عبد الرحمن محمد.

فمنهم من يرى أنه من أركان الحج كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة. وإلى هذا الرأى ذهب الشافعى وأحمد بن حنبل ومالك فى أشهر الروايتين عنه ومن حججهم أنه من أفعال الحج، وأن النبى ﷺ قد اهتم به وبادر إليه، فقد روى الشيخان عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة، ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتى امرأته؟ فقال: قدم النبى ﷺ فطاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة. وقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة».

ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم، وإلى هذا الرأى ذهب الحنفية ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعى فلا يكون ركنًا.

ومنهم من يرى غير ذلك كما هو موضح فى كتب الفقه.

ثم حض - سبحانه - على إظهار الحق وبيانه، وتوعد بالعقاب الشديد من يعمل على إخفائه وكتمانه.

فقال - تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

قال الآلوسى: أخرج جماعة عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجه بن زيد نفرًا من أحبار يهود عما فى التوراة من صفات النبى ﷺ ومن بعض الأحكام فكتموا، فأنزل الله - تعالى - فيهم هذه الآية ﴿إن الذين يكتمون﴾... إلخ[1].

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٢٦.

والكتم والكتمان : إخفاء الشيء قصدًا مع مسيس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره. وكتم ما أنزل الله يتناول إخفاء ما أنزله، وعدم ذكره للناس وإزالته عن موضعه ووضع شيء آخر موضعه، كما يتناول تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح جريًا مع الأهواء، وقد فعل أهل الكتاب ولاسيما اليهود - كل ذلك. فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من آيات أن رسالة محمد ﷺ حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسدًا له على ما آتاه الله من فضله، كما أنهم حرفوا كلام الله وأولوه تأويلا فاسدًا تبعًا لأهوائهم.

والمراد «بما أنزلنا» ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة على القرآن من صفات النبى ﷺ ومن هداية وأحكام.

والمراد بالكتاب جنس الكتب، فيصح حمله على جميع الكتب التى أنزلت على الرسل - عليهم السلام -. وقيل : المراد به التوراة.

و ﴿البينات﴾ جمع بينة، والمراد بها الآيات الدالة على المقاصد الصحيحة بوضوح، وهى ما نزل على الأنبياء من طريق الوحى.

والمراد «بالهدى» ما يهدى إلى الرشد مطلقًا فهو أعم من البينات، إذ يشمل المعانى المستمدة من الآيات البينات عن طريق الاستنباط، والاجتهاد القائم على الأصول المحكمة.

و «اللعن» الطرد والإبعاد من الرحمة. يقال : لعنه، أى : طرده وأبعده ساخطًا عليه، فهو لعين وملعون.

والمعنى : إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدى إلى الرشد، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس فى كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك ﴿يلعنهم الله﴾ بأن يبعدهم عن رحمته ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أى ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره.

وجملة ﴿إن الذين يكتمون...﴾ إلخ، مستأنفة لبيان سوء عاقبة الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأكدت «بإن» للاهتمام بهذا الخبر الذى ألقى على مسامع الناس.

وعبر فى ﴿يكتمون﴾ بالفعل المضارع، للدلالة على أنهم فى الحال كاتمون للبينات والهدى، ولو وقع بلفظ الماضى لتوهم السامع أن المقصود به قوم مضوا، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين.

وقوله : ﴿من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب﴾ متعلق بيكتمون، وقد دلت هذه الجملة

الكريمة على أن معصيتهم بالكتمان فى أحط الدركات وأقبحها؛ لأنهم عمدوا إلى ما أنزل الله من هدى، وجعله بينا للناس فى كتاب يقرأ، فكتموه قصدًا مع تحقق المقتضى لإظهاره، وإنما يفعل ذلك من بلغ الغاية فى سفاهة الرأى، وخبث الطوية.

واللام فى قوله: ﴿للناس﴾ للتعليل، أى: بيناه فى الكتاب لأجل أن ينتفع به الناس، وفى هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من كتمان، لأن فعلهم هذا مع أنه كتمان للحق، فهو فى الوقت نفسه اعتداء على مستحقه الذى هو فى أشد الحاجة إليه.

وقوله: ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ يفيد نهاية الغضب عليهم، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه.

والآية الكريمة وإن كانت نزلت فى أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علمًا نافعًا، أو غير ذلك من الأمور التى يقضى الدين بإظهارها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن شواهد هذا العموم ما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثًا ثم تلا قوله - تعالى -: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾ إلى قوله: ﴿الرحيم﴾[١].

قال ابن كثير: وقد ورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضًا عن أبى هريرة وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيام بلجام من نار»[٢].

هذا، وينبغى أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهيًا قاطعًا عن كتم العلم الذى فيه منفعة للناس، إلا أنه يوجب على أتباعه - وخصوصًا العلماء - أن يحسنوا ما ينشرونه على الناس من علم، ففى الحديث الشريف: حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

كما أنه يوجب عليهم أن يضعوا العلم فى موضعه المناسب لمقتضى حال المخاطبين، فليس كل ما يعلم يقال، بل أحيانًا يكون إخفاء بعض الأحكام مناسبًا لأن إظهاره قد يستعمله الطغاة والسفهاء فيما يؤذى الناس، وفى صحيح البخارى أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثنى بأشد عقوبة عاقبها النبى ﷺ فذكر له أنس حديث العرنيين الذين قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل، حيث قطع النبى ﷺ أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم فى الحرة حتى ماتوا. فلما بلغ الحسن

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب العلم. باب حفظ العلم جـ١ ص ٤٠.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٠.

البصرى ذلك قال: وددت أنه لم يحدثه؟؟ انهم يتلقفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه ذريعة لهم فيها يعاملون به الناس من الظلم.

ومما يشهد بفقه بعض العلماء وحسن إدراكهم، ووضعهم العلم فى موضعه المناسب: ما جاء فى بعض الكتب أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى الليثى عن حكم يوم أفطره فى رمضان عامدًا لأن شهوته غلبته على وطء بعض جواريه، فأفتاه بأن من الواجب عليه أن يصوم ستين يومًا، وكان بعض الفقهاء جالسًا فلم يجترىء على مخالفة يحيى. فلما انفض المجلس قيل له: لم خصصت الحكم بأحد المخيرات وكتمت العتق والإطعام؟ فقال - رحمه الله - لو فتحنا هذا الباب لوطىء كل يوم وأعتق أو أطعم، فحملته على الأصعب لئلا يعود.

فالإمام يحيى عند ما كتم عن السلطان الكفارتين الأخريين - وهما الأعتاق والإطعام - لا يعتبر مسيئًا؛ لأنه قد أعمل دليل دفع مفسدة الجرأة على حرمة فريضة الصوم(١).

وهكذا نرى أن إظهار العلم عند تحقق المقتضى لإظهاره، ووضعه فى موضعه اللائق به بدون خشية أو تحريف يدل على قوة الإيمان، وحسن الصلة بالله - تعالى -: ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾.

وبعد هذا الوعيد الشديد لأولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، أورد القرآن فى أعقاب ذلك آية تفتح لهم نافذة الأمل، وتبين لهم أنهم إذا تابوا وأنابوا قبل الله توبتهم ورحمهم، فقال - تعالى -: ﴿إلا الذين تابوا﴾ أى: رجعوا عن الكتمان وعن سائر ما يجب أن يتاب عنه، وندموا على ما صدر عنهم ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوه بالكتمان بكل وسيلة ممكنة ﴿وبينوا﴾ للناس حقيقة ما كتموه ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ أى: أقبل توبتهم، وأفيض عليهم من رحمتى ومغفرتى، ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أى: المبالغ فى قبول التوبة ونشر الرحمة.

فالآية الكريمة قد فتحت للكاتمين لما يجب إظهاره باب التوبة وأمرتهم بولوجه، وأفهمتهم أنهم إذا فعلوا ما ينبغى وتركوا ما لا ينبغى وأخلصوا لله نياتهم، فإنه - سبحانه - يقبل توبتهم، ويغسل حوبتهم، أما إذا استمروا فى ضلالهم وكفرهم، ومضوا فى هذا الطريق المظلم حتى النهاية بدون أن يحدثوا توبة، فقد بين القرآن مصيرهم بعد ذلك فقال: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أى: إن الذين كفروا وكتموا ما من شأنه أن يظهر، كإخفائهم النصوص المشتملة على البشارة بالنبى ﷺ واستمروا على هذا الكفر والإخفاء حتى ماتوا.

﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أى: أولئك الذين وصفوا بما ذكر عليهم

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور جـ٢ ص١٦.

اللعنة المستمرة من الله والطرد من رحمته، وعليهم كذلك اللعنة الدائمة من الملائكة والناس أجمعين عن طريق الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة الله.

وعبر عن أصحاب ذلك الكتمان بالذين كفروا، ليحضرهم فى الأذهان بأشنع وصف وهو الكفر، وليتناول الوعيد الذى اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان.

وجملة ﴿وماتوا وهم كفار﴾ حالية، و﴿أجمعين﴾ تأكيد بالنسبة إلى الكل لا للناس فقط.

والمراد بالناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، إذ الكفار يلعن بعضهم بعضًا يوم القيامة كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا﴾. وقيل المراد بهم المؤمنون خاصة لأنهم هم الذين يعتد بلعنهم.

وقوله : ﴿خالدين فيها﴾ الخلود البقاء إلى غير نهاية، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة. وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول، أى : البقاء إلى غير نهاية والظاهر أن الضمير فى قوله ﴿فيها﴾ يعود إلى اللعنة لأنها هى المذكورة فى الجملة. وقيل إنه يعود إلى النار لأن اللعن إبعاد من الرحمة وإيجاب للعقاب والعقاب يكون فى النار. وقوله ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أى : أن المقدار الذى استحقوه من العذاب لا يتفاوت بحسب الأوقات شدة وضعفًا، وإنما هم فى عذاب سرمدى أليم، كما قال - تعالى - : ﴿إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ والزيادة فى قوله - تعالى - : ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ حملها بعض العلماء على معنى استمرار العذاب، فهى إشارة إلى الخلود فيه لا إلى الزيادة فى شدته. وقوله : ﴿خالدين فيها﴾ إشارة إلى دوام العذاب وعدم انقطاعه. وقوله : ﴿لا يخفف عنهم﴾ إشارة إلى كيفيته وشدته.

وقوله : ﴿ولا هم ينظرون﴾ أى : لا يمهلون ولا يؤخرون من العذاب كما كانوا يمهلون فى الدنيا. من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال. أو من النظر بمعنى الانتظار يقال : نظرته وانتظرته، أى : أخرته وأمهلته ومنه قوله - تعالى - : ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾.

أو من النظر بمعنى الرؤية، أى : لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا ولطف كما ينظر إلى عباده الصالحين، لأنهم بكتمانهم للحق، وكفرهم بالله، استحقوا ما استحقوا من العذاب المهين. ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حذرت الناس بأسلوب تأديبى حكيم من كتمان الحق، ومن الكفر بالله، وفتحت أمامهم باب التوبة ليدخلوه بصادق النية، وصالح العمل، وتوعدت من يستمر فى ضلاله وطغيانه بأقسى أنواع العذاب، وأغلظ ألوانه.

وبعد أن حذر - سبحانه - من كتمان الحق، عقب ذلك ببيان ما يدل على وحدانيته، وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع فقال - تعالى - :

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قوله : ﴿وإلهكم إله واحد﴾ معطوف على قوله : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا﴾ عطف القصة على القصة، والجامع - كما قال الآلوسى - أن الأولى - وهى قوله : ﴿إن الذين يكتمون﴾ مسوقة لإثبات نبوة النبى ﷺ وجملة ﴿وإلهكم إله واحد﴾ لإثبات وحدانية الله - تعالى - .

والإله فى كلام العرب هو المعبود مطلقًا ولذلك تعددت الآلهة عندهم. والمراد به فى الآية الكريمة المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد.

والمعنى : وإلهكم الذى يستحق العبادة والخضوع إله واحد فرد صمد، فمن عبد شيئًا دونه، أو عبد شيئًا معه، فعبادته باطلة فاسدة، لأن العبادة الصحيحة هى ما يتجه بها العابد إلى المعبود بحق الذى قامت البراهين الساطعة على وحدانيته وهو الله رب العالمين.

قال بعضهم : «والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجرى عليه الوصف بواحد، والمقصود وإلهكم واحد لكنه وسط إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية فى المخبر عنه، كما تقول : عالم المدينة عالم فائق، وليجىء ما كان أصله خبرًا مجىء النعت فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف لأنه صار نعتًا، إذ أصل النعت أن يكون وصفًا ثابتًا، وأصل الخبر أن يكون وصفًا حادثًا، وهذا استعمال متبع فى فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى عليه

وصف أو متعلق كقوله: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كرامًا﴾[1].

وجملة ﴿لا إلـه إلا هو﴾ مقررة لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله واحد لا شريك له، ونافية عن الله - تعالى - الشريك صراحه، ومثبتة له مع ذلك الإلـهية الحقة، ومزيحة لما عسى أن يتوهم من أن فى الوجود إلـهًا سوى الله - تعالى - لكنه لا يستحق العبادة.

ومعناها: إن الله إله، وليس شيء مما سواه بإله.

وهذه الجملة الكريمة خبر ثان للمبتدأ وهو (إلهكم) أو صفة أخرى للخبر وهو (إله) وخبر (لا) محذوف أى لا إله موجود إلا هو، والضمير (هو) فى موضع رفع بدل من موضع لا مع اسمها.

وقوله: (الرحمن الرحيم) خبر مبتدأ محذوف، وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب.

والمعنى: وإلهكم الذى يستحق العبادة إله واحد، لا إله مستحق لها إلا هو، هو الرحمن الرحيم.

أى: المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهو مصدر الرحمة، ودائم الإحسان.

وأتى - سبحانه - بهذين اللفظين فى ختام الآية، لأن ذكر الإلهية والوحدانية يحضر فى ذهن السامع معنى القهر والغلبة وسعة المقدرة وعزة السلطان، وذلك مما يجعل القلب فى هيبة وخشية، فناسب أن يورد عقب ذلك ما يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان، مصدر الإحسان ومولى النعم، فقال: (الرحمن الرحيم)، وهذه طريقة القرآن فى الترويح على القلوب بالتبشير بعد ما يثير الخشية، حتى لا يعتريها اليأس أو القنوط.

وبعد أن أخبر - سبحانه - بأنه هو الإله الذى لا يستحق العبادة أحد سواه، عقب ذلك بإيراد ثمانية أدلة تشهد بوحدانيته وقدرته، وتشتمل على آيات ساطعات، وبينات واضحات، تهدى أصحاب العقول السليمة إلى عبادة الله وحده، وإلى بطلان ما يفعله كثير من الناس من عبادة مخلوقاته.

ويشتمل الدليل الأول والثانى على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة فى قوله - تعالى -: ﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾.

الخلق: هو الإحداث للشيء على غير مثال سابق. وهو هنا بمعنى المخلوق. إذ الآيات التى تشاهد إنما هى فى المخلوق الذى هو السموات والأرض.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد بن عاشور جـ ٢ ص ٧٠.

والسموات : جمع سماء، وهى كل ما علا كالسقف وغيره، إلا أنها إذا أطلقت لم يفهم منها سوى الأجرام المقابلة للأرض، وهى سبع كما ورد ذلك صريحًا فى بعض الآيات التى منها قوله - تعالى - : ﴿الله الذى خلق سبع سموات﴾.

وجمعت السموات لأنها طبقات ممتازة كل واحدة من الأخرى بذاتها الشخصية، كما يدل عليه قوله - تعالى - : ﴿فسواهن سبع سموات﴾ ولأن إفرادها قد يوهم بأنها واحدة مع أن القرآن صريح فى كونها سبعًا.

وجاءت الأرض مفردة - وهى لم تجىء فى القرآن إلا كذلك - لأن المشاهدة لا تقع إلا على أرض واحدة، ومن هنا حمل بعض أهل العلم تعددها الذى يتبادر من ظاهر قوله - تعالى - : ﴿الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض.

ومن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته فى خلق السموات ارتفاعها بغير عمد كما يرى ذلك بالمشاهدة، وتزيينها بالمصابيح التى جعلها الله زينة للسماء ورجومًا للشياطين، ووجودها بتلك الصورة العجيبة الباهرة التى لا ترى فيها أى تفاوت أو اضطراب ومن الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته فى خلق الأرض، فرشها بتلك الطريقة الرائعة التى يتيسر معها للإنسان أن يتقلب فى أرجائها، ويمشى فى مناكبها، وينتفع بما يحتاج إليه منها أينما كان، وتفجيرها بالأنهار، وعمارتها بحدائق ذات ثمار تختلف ألوانها ويتفاضل أكلها.

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تتحدث عن نعم الله على عباده فى خلق السموات والأرض، وعن مظاهر قدرته ووحدانيته فى إيجادهما على تلك الصورة، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا. والله أنبتكم من الأرض نباتًا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على وجود الله وقدرته ووحدانيته.

ويتمثل الدليل الثالث على قدرته - سبحانه - ووحدانيته فى قوله تعالى : ﴿واختلاف الليل والنهار﴾، والاختلاف : افتعال من الخلف، وهو أن يجىء شىء عوضًا عن شىء آخر يخلفه على وجه التعاقب. والمراد أن كلا من الليل والنهار يأتى خلفا من الآخر وفى أعقابه، ويجوز أن يكون المراد باختلافهما، فى أنفسهما بالطول والقصر، واختلافهما فى جنسهما بالسواد والبياض.

و﴿الليل﴾ : هو الظلام المعاقب للنهار، واحدته ليلة كتمر وتمرة.

و﴿النهار﴾ : هو الضياء المتسع، وأصله الاتساع، ومنه قول الشاعر :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

أى : أوسعت فتقها.

وقد جعل الله الليل للسكون والراحة والعبادة لمن وفقه الله لقضاء جانب منه فى مناجاته - سبحانه -، وجعل النهار للعمل وابتغاء الرزق.

قال - تعالى - : ﴿وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا﴾.

وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار، لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد سوى فوائد الآخر، بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضرًا.

قال - تعالى - : ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

ومن العظات التى تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منهما مدة يستوفيها من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد.

قال - تعالى - : ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون﴾. وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذى لا ينخرم دليل على أن الاختلاف تدبير من إله قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال.

وإذا كان لهذا الاطراد أسباب تحدث عنها العلماء، فإن الذى خلق الأسباب وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازمًا إنما هو الإله الواحد القهار.

أما المظهر الرابع من المظاهر الدالة فى هذا الكون على قدرته - سبحانه - ووحدانيته

وألوهيته، فقد تحدثت عنه الآية فى قوله - تعالى - : ﴿والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس﴾.

(الفلك) : ما عظم من السفن، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع. والظاهر أن المراد به هنا الجمع بدليل قوله - تعالى - : ﴿التى تجرى فى البحر﴾ ولو كان هذا اللفظ للمفرد لقال : الذى يجرى، كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون﴾ والجملة الكريمة معطوفة على خلق السموات والأرض.

قال صاحب المنار : وكان الظاهر أن تأتى هذه الجملة فى آخر الآية ليكون ما للإنسان فيه صنع على حدة وما ليس له فيه صنع على حدة. والنكتة فى ذكرها عقيب آية الليل والنهار، هى أن المسافرين فى البر والبحر هم أشد الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذى ينتفع به، والمسافرون فى البحر أحوج إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات، لأن خطر الجهل عليهم أشد، وفائدة المعرفة لهم أعظم، ولذلك كان من ضروريات ربانى السفن معرفة علم النجوم، وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم. قال - تعالى - : ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾ فهذا وجه العلاقة بين ذكر الفلك وما قبله﴾[1].

و «ما» فى قوله : ﴿بما ينفع الناس﴾ مصدرية، والباء للسببية أى : تجرى بسبب نفع الناس ولأجله فى التجارة وغيرها. أو موصولة والباء للحال، أى تجرى مصحوبة بالأعيان التى تنفع الناس. وخص - سبحانه - النفع بالذكر وإن كانت السفن تحمل ما ينفع وما يضر؛ لأن المراد هنا عد النعم، ولأن الذى يحمل فيها ما يضر غيره هو فى الوقت نفسه يقصد منفعة نفسه.

ومن وجوه الاستدلال بالفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس على وجود الله وقدرته، أن هذه الفلك وإن كانت من صنع الناس إلا أن الله - تعالى - هو الذى خلق الآلات والأجزاء التى صارت بها سفنًا، وهو الذى سخر لبحر لتجرى فيه مقبلة ومدبرة مع شدة أهواله إذا هاج، وهو الذى جعلها تشق أمواجه شقًا حتى تصل إلى بر الأمان، وهو الذى رعاها برعايته وهى كنقطة صغيرة فى ذلك الماء الواسع، ووسط تلك الأمواج المتلاطمة حتى وصلت إلى ساحل السلامة وهى حاملة الكثير مما ينفع الناس من الأطعمة والأشربة والأمتعة المختلفة، فسبحانه من إله قادر حكيم.

الدليل الخامس والسادس على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة يتمثل فى قوله - تعالى -

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٥٩.

فى هذه الآية : ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة﴾ .

والمراد بالسماء : جهة العلو، أى : وما أنزل من جهة السماء من ماء، و«من» فى قوله : ﴿من السماء﴾ ابتدائية، وفى قوله : ﴿من ماء﴾ بيانية، وهما ومجرورهما متعلقان بأنزل.

والمراد بإحياء الأرض : تحرك القوى النامية فيها، وإظهار ما أودع الله فيها من نبات وزهور وثمار وغير ذلك.

والمراد بموتها : خلوها من ذلك باستيلاء اليبوسة والقحط عليها.

قال - تعالى - : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ .

(والبث) : التفريق والنشر لما كان خافيا، ومنه بث الشكوى أى : نشرها وإظهارها، وكل شىء بثثته فقد فرقته ونشرته، والضمير فى قوله : «فيها» يعود إلى الأرض.

(والدابة) : اسم من الدبيب والمشى ببطء، كل ما يمشى فوق الأرض فهو بحسب الوضع اللغوى يطلق عليه دابة. والظاهر أن المراد بالدابة هنا هذا المعنى العام، لا ما يجرى به العرف الخاص باستعماله فى نوع خاص من الحيوان كذوات الأربع.

وجملة ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء. . .﴾ معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ معطوفة على قوله : ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ .

والمعنى : وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك، عمرت به الأرض بعد خرابها، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها، لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته.

ذلك لأنه هو وحده الذى أنزل المطر من السماء ولو شاء لأمسكه مع أن الماء من طبعه الانحدار، وهو وحده الذى جعل الأرض التى نعيش عليها تنبت من كل زوج بهيج بسبب ما أنزل عليها من ماء، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعًا من الدواب مختلفة فى طبيعتها وأحجامها، وأشكالها وألوانها، وأصواتها، ومآكلها، وحملها، وتناسلها، ووجوه الانتفاع بها، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم.

أما الدليل السابع والثامن فى هذه الآية على قدرته - سبحانه - ووحدانيته واستحقاقه للعبادة فهما قوله - تعالى - : ﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ .

الرياح جمع ريح وهى نسيم الهواء.

وتصريفها : تقليبها فى الجهات المختلفة، ونقلها من حال إلى حال، وتوجيهها على حسب إرادته - سبحانه - ووفق حكمته. فتهب تارة صبًا، أى من مطلع الشمس، وتارة دبورًا، أى : من جهة الغرب، وأحيانًا من جهة الشمال أو الجنوب وقد يرسلها - سبحانه - عاصفة ولينة، حارة أو باردة، لواقح بالرحمة حينًا وبالعذاب آخر. و﴿تصريف﴾ مصدر صرف مضاف للمفعول والفاعل هو الله، أى : وتصريف الله الرياح. أو مضاف للفاعل والمفعول السحاب، أى : وتصريف الرياح السحاب.

وجاءت هذه الجملة الكريمة بعد إحياء الأرض بالمطر وبث الدواب فيها للتناسب بينهما، وتذكيرًا بالسبب إذ بالرياح تكون حياة النبات والحيوان وكل دابة على الأرض، ولو أمسك - سبحانه - الرياح عن التصريف لما عاش كائن على ظهر الأرض.

﴿والسحاب﴾ : عطف على ما قبله، وهو اسم جنس واحده سحابة، سمى بذلك لانسحابه فى الجو أو لجر الرياح له.

و ﴿المسخر﴾ : من التسخير وهو التذليل والتيسير، ومعنى تسخيره - كما قال الآلوسى - أنه لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفًا وهبوطه إن كان كثيفا - و ﴿المسخر﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه، وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله : ﴿سحابًا ثقالا﴾.

والظرف « بين » يجوز أن يكون منصوبًا بقوله المسخر فيكون ظرفًا للتسخير، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر فى اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أى : كائنًا بين السماء والأرض.

وجاء ذكر السحاب بعد تصريف الرياح لأنها هى التى تثيره وتجمعه، وهى التى تسوقه إلى حيث ينزل مطرًا فى الأماكن التى يريد الله إحياءها.

قال - تعالى - : ﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله﴾.

ولا شك أن هذا التصريف للرياح مع أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى، وهى مع ذلك فى غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتخرب الديار، وهذا التسخير للسحاب بحيث يبقى معلقًا بين السماء والأرض مع حمله للمياه العظيمة التى تسيل بها الأودية المتسعة. . . لا شك أن كل ذلك من أعظم الأدلة على أن لهذا الكون مدبرًا قادرًا حكيمًا هو الله رب العالمين.

وقوله : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ اسم ﴿إن﴾ لقوله - تعالى - فى أول الآية : ﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾ ودخلت اللام على الاسم وهو ﴿لآيات﴾ لتأخره عن الخبر والتنكير للتعظيم والتفخيم كما وكيفًا.

أى : إن فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة، وكائناته الباهرة، لدلائل ساطعة، وآيات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها، إلى أن لهذا الكون إلـهًا واحدًا قادرًا حكيمًا مستحقا للعبادة والخضوع والطاعة.

وموقع هذه الآية الكريمة من سابقتها كموقع الحجة من الدعوى، ذلك أن الله - تعالى - أخبر فى الآية السابقة أن الإله واحد لا إله غيره وهى قضية قد تلقاها كثير من الناس بالإنكار، فناسب أن يأتى فى هذه الآية الكريمة بالحجج والبراهين التى لا يسع الناظر فيها بتدبر وتفكير إلا التسليم عن اقتناع بوحدانية الله - تعالى - وقدرته.

قال الإمام الرازى : واعلم أن النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية وهذه الأمور الثمانية، التى عدها الله - تعالى - نعم دنيوية فى الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها، واستدل بها على معرفة الصانع، صارت نعما دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينيه لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن، فلذلك قال : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

وقال الآلوسى : أخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى ﷺ لما قرأ هذه الآية قال : «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

ثم قال الآلوسى : ومن تأمل فى تلك المخلوقات التى وردت فى هذه الآية وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدانيته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له، ومجمل القول فى ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه، مستتبعا لآثار معينه، وأحكام مخصوصة. . . وفى الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة»[2].

والحق أن هذه الآية الكريمة قد اتجهت فى تثبيت عقيدة وحدانية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما فى هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل على حقية الخالق - عز وجل - بالعبادة.

وهذه الطريقة من تنبيه الحواس والمدارك جديرة بأن تفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التى أصبحت عند كثير من الناس شيئًا مألوفًا بسبب عدم تدبرهم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٢٩.
(٢) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٣٣.

لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.

ورحم الله القائل : ألا إن لله كتابين : كتابًا مخلوقًا وهو الكون، وكتابًا منزلا وهو القرآن. وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذاك بما أوتينا من العقل. فمن أطاع فهو من الفائزين، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون.

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانبًا من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال - تعالى - :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿الأنداد﴾ : جمع ند، وهو مثل الشيء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه. وأصله من ند البعير يند ندًا ونداداً وندودًا، أى : نفر وذهب على وجهه شاردًا. ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله، وقيل : المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم. والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله - تعالى - من نحو التحليل، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التى انفرد بها الخالق - عز وجل -.

والمعنى : أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التى دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت

بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - فى النفع والضر، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى - أو يشابه حب المؤمنين لله،

و﴿من﴾ فى قوله: ﴿ومن الناس﴾ للتبعيض، والجار والمجرور خبر مقدم و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من يتخذ﴾ فى محل رفع مبتدأ مؤخر، و«من دون الله» حال من ضمير يتخذ و﴿أندادًا﴾ مفعول به ليتخذ.

قال الجمل: وجملة ﴿يحبونهم كحب الله﴾ فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون فى محل رفع صفة لمن فى أحد وجهيها، والضمير المرفوع يعود عليها باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ فى يتخذ.

والثانى: أن تكون فى محل نصب صفة لأندادًا والضمير المنصوب يعود عليهم والمراد بهم الأصنام، وإنما جمعوا جمع العقلاء لمعاملتهم معاملة العقلاء. أو أن يكون المراد بهم من عبُد من دون الله عقلاء وغيرهم ثم غلب العقلاء على غيرهم.

الثالث: أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى يتخذ، والضمير المرفوع عائد على ما عاد عليه الضمير فى يتخذ وجمع حملا على المعنى»[1].

ثم مدح - سبحانه - عباده المؤمنين فقال: ﴿والذين آمنوا أشد حبًّا لله﴾

أى: والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حبًا له - سبحانه - من كل ماسواه، ومن حب المشركين للأنداد، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية، وعن علم تام، ببديع حكمته - سبحانه - وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

والتصريح بالأشدية فى قوله: ﴿أشد حبا لله﴾ أبلغ من أن يقال أحب لله؟ إذ ليس المراد الزيادة فى أصل الفعل - كما يقول الآلوسى - بل المراد الرسوخ والثبات. وقيل: عدل عن أحب إلى أشد حبًا، لأن «أحب» شاع فى الأشد محبوبية فعدل عنه احترازا عن اللبس.

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال فى حبهم لله - تعالى - لأنهم ضحوا فى سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شىء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملا يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتنبوه.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص١٣٢.

ثم أخبر - سبحانه - عما ينتظر الظالمين من سوء المصير فقال: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب﴾ «لو» شرطية، وجوابها محذوف لقصد التهويل ولتذهب النفس فى تصويره كل مذهب «والقوة» القدرة والسلطان.

والمعنى: ولو يرى أولئك المشركون حين يشاهدون العذاب المعدلهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده، وأن عذابه الذى يصيب به المتخبطين فى ظلمات الشرك شديد، لو يعلمون ذلك، لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولوقعوا فيما لا يكاد يوصف من الحسرة والندامة.

وكان الظاهر بمقتضى تقدم ذكرهم أن يقال: ولو يرون إذ يرون. ولكن وضع الموصول وصلته موضع الضمير، ليحضر فى ذهن السامع أنهم صاروا باتخاذهم الأنداد من الظالمين، وليشعر بأن سبب رؤيتهم العذاب الشديد هو ذلك الظلم العظيم.

وعبر بالماضى فى قوله: «إذ يرون العذاب» لتحقق الوقوع، وكل ما كان كذلك فإنه يجرى مجرى ما وقع وحصل.

وجملة ﴿أن القوة لله جميعًا﴾ سدت مسد مفعولى يرى، وانتصب لفظ ﴿جميعًا﴾ على التوكيد للقوة. أى. جميع جنس القوة ثابت لله، وهو مبالغة فى عدم الاعتداد بقوة غيره، فمفاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق فى قوله: ﴿الحمد لله﴾.

وجملة ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ معطوفة على ما قبلها، وفائدتها المبالغة فى تفظيع الخطب، وتهويل الأمر، فإن اختصاص القوة به - تعالى - لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوًا مع القدرة عليه.

هذا، وقد قرأ نافع وابن عمر «ولو ترى» بالتاء على الخطاب للنبى ﷺ أو لكل من يتأتى له الخطاب.

أى: لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب لرأيت أمرًا عظيمًا فى الفظاعة والهول.

وقوله - تعالى -: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا. . . .﴾ بدل من قوله: ﴿إذ يرون العذاب﴾. أو مفعولا به بتقدير اذكر.

و ﴿تبرأ﴾ من التبرؤ وهو التخلص والتنصل والتباعد، ومنه برئت من الدين أى: تخلصت منه، وبرأ المريض من مرضه، أى: تخلص من مرضه.

والمراد بالذين اتبعوا: أئمة الكفر الذين يحلون ويحرمون ما لم يأذن به الله.

والمراد بالذين اتبعوا : أتباعهم وأشياعهم الذين يتلقون جميع أقوالهم بالطاعة والخضوع بدون تدبر أو تعقل.

وجملة ﴿ورأوا العذاب﴾ حال من الأتباع والمتبوعين، والضمير يعود على الفريقين. أى : تبرؤا جميعًا من بعض فى حال رؤيتهم للعذاب.

وجملة ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ معطوفة على تبرأ، أورأوا.

والباء فى ﴿بهم﴾ للسببية أى : وتقطعت بسبب كفرهم الأسباب التى كانوا يرجون من ورائها النجاة، وقيل للملابسة أى : تقطعت الأسباب ملتبسة بهم فخابت آمالهم وسقطوا صرعى.

و ﴿الأسباب﴾ جمع سبب، وهو فى الأصل الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه، ثم سمى به كل ما يتوصل به إلى غيره، عينًا كان أو معنى. فيقال للطريق سبب، لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذى تريده، ويقال للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك، والمراد بالأسباب هنا : الوشائج والصلات التى كانت بين الأتباع والمتبوعين فى الدنيا، من القرابات والمودات والأحلاف والاتفاق فى الدين... إلخ.

والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة، ذلك اليوم الهائل الشديد الذى يتنصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم، والاتباع من متبوعيهم حال رؤيتهم جميعًا للعذاب وأسبابه ومقدماته وما أعدلهم من شقاء وآلام، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها فى الدنيا، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرؤ منه.

قال بعض العلماء : وفى قوله : ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ استعارة تمثيلية إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذى تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتنى الثمر الذى كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أى الحبل - عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علموا جميعًا حينئذ أن لانجاة لهم، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة. وهى تمثيلية بديعة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التى تشتمل عليها الهيئة المشبهة بها وهى :

تشبيه المشرك فى عبادته الأصنام بالمرتقى بجامع السعى، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة فى أعلى النخلة لأنها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر، وتشبيه العمر بالنخلة فى الطول، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم

بتقطع الحبل، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة، وتشبيه الوقوع فى العذاب بالسقوط المهلك. . »[١].

ثم بين - سبحانه - ما قاله الأتباع على سبيل الحسرة والندم فقال: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا﴾.

الكرة: الرجعة والعودة. يقال: كر يكر كرًا: أى: رجع. و (لو) للتمنى. وقوله ﴿فنتبرأ منهم﴾ منصوب بعد الفاء بأن مضمرة فى جواب التمنى الذى أشربته لو، والكاف فى قوله ﴿كما تبرءوا منا﴾ فى محل نصب نعت لمصدر محذوف أى تبرأ مثل تبرئهم.

والمعنى: وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم فى الباطل بدون تعقل أو تدبر ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرءوا منا فى هذا اليوم العصيب، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم.

وقوله - تعالى - : ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ تذبيل لتأكيد الوعيد، وبيان لحال المشركين فى الآخرة.

قال الآلوسى: وقوله: ﴿كذلك﴾ فى موضع المفعول المطلق لما بعده، والمشار إليه الإراء المفهوم من قوله: ﴿إذ يرون﴾ أى: كإراء العذاب المتلبس بظهور أن القوة لله والتبرى وتقطع الأسباب وتمنى الرجعة، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم. وجوز أن يكون المشار إليه المصدر المفهوم مما بعد والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الضخامة. أى: مثل ذلك الإراء الفظيع يريهم على حد ما قيل فى قوله - تعالى - : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[٢]. والمراد بأعمالهم: المعاصى التى ارتكبوها وفى مقدمتها اتباعهم لمن أضلوهم.

و ﴿حسرات﴾ جمع حسرة، وهى أشد درجات الندم والغم على ما فات. يقال: حسر يحسر حسرًا فهو حسير، إذ اشتدت ندامته على أمر فاته.

قال الرازى: وأصل الحسر الكشف. يقال حسر ذراعيه أى: كشف والحسرة انكشاف عن حال الندامة. والحسور الإعياء لأنه انكشاف الحال عما أوجبه طول السفر. قال - تعالى - : ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾[٣].

والمعنى: كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢ ص ٩٣ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٣٦.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٣٨.

بينهم، يريهم - سبحانه - أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد فى صدورهم كأنها شرر الجحيم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

أى: وما هم بخارجين من تلك النار التى عوقبوا بها بسبب شركهم، بل هم مستقرون فيها استقرارًا أبديًا، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال - تعالى - فى آية أخرى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾.

وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة. وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن فى عرضه للحقائق، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة، وتؤتى ثمارها الطيبة فى القلوب السليمة.

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى البشر أمرهم فيه بأن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان فقال - تعالى -:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿كلوا﴾ صيغة أمر واردة فى معنى الإباحة.

﴿والحلال﴾ ما أذن الله فى تناوله من مطعومات أو مشروبات.

قال الرازى: وأصله من الحل الذى هو نقيض العقد، ومنه حل بالمكان إذا نزل، لأنه حل شد الارتحال للنزول، وحل الدين إذا وجب لانحلال العقدة بانقضاء المدة، وحل من إحرامه، لأنه حل عقدة الإحرام.. ثم قال: واعلم أن الحرام قد يكون حراما لخبثه - فى ذاته - كالميتة والدم ولحم الخنزير، وقد يكون حراما لوصف عارض كملك الغير إذا لم يأذن فى أكله - فحرمته لتعلق حق الغير به - فالحلال هو الخالى عن هذين القيدين»[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص جـ ٥ ص ٢.

﴿والطيب﴾ : هو المستلذ المستطاب الذى تقبل عليه النفوس الطاهرة وتنبسط لتناوله، وإنما تنبسط النفوس الطاهرة لتناول طعام غير قذر ولا موقع فى تهلكة، إذ القذر ينفر منه الطبع السليم، والموقع فى تهلكة يمجه العقل القويم.

و﴿من﴾ فى قوله : ﴿مما فى الأرض﴾ للتبعيض، لأن بعض ما فى الأرض كالحجارة - مثلا - لا يؤكل، ولأنه ليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال : ﴿حلالا طيبًا. .﴾.

وقوله : ﴿حلالا﴾ مفعول به لقوله : «كلوا» أو حال مما فى الأرض، أى : كلوه حال كونه حلالا. أو صفة لمصدر محذوف، أى : كلوه أكلا حلالا.

وقوله : ﴿طيبا﴾ صفة مقررة ومؤكدة لمعنى يستفاد من قوله : ﴿حلالا﴾ وهو طهارة المأكول وخلوه من القذارة، وعدم إيقاعه فى ضرر.

قال الآلوسى : «وفائدة وصف الحلال بالطيب تعميم الحكم كما فى قوله - تعالى - : ﴿وما من دابة فى الأرض﴾ ليحصل الرد على من حرم بعض الحلالات فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعم، بخلاف غير الموصوفة»[1].

والمعنى : يأيها الناس لقد أباح الله لكم أن تأكلوا من كل ما تحويه الأرض من المطعومات التى أحلت لكم، والتى تستلذها النفوس الكريمة، والقلوب الطاهرة، فتمتعوا بهذه الطيبات فى غير سرف أو غرور، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم.

ولقد أمر الله عباده فى كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وفى صحيح مسلم عن عياض المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : «ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى، يومى هذا. يقول الله - تعالى - : كل مال نحلته - أى منحته - عبادى فهو لهم حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا. . ». وعن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال : يا سعد! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٣٨ طبعة منير الدمشقى.

من السحت والربا فالنار أولى به»(١).

وليس من الورع ولا الزهد المرضى عنه شرعا ترك بعض المباحات، فإن الله سوى فى المباح بين الفعل والترك، ومن يجعل ترك المباح من الورع، والورع مندوب، فكأنه يقول: إن الترك راجح على الفعل، وهو غير ما حكم الله به.

وكان الحسن البصرى - وهو من أجل التابعين - يقوم عوج من يعدون من الزهد المحمود الامتناع عن تناول بعض المباحات كالأطعمة اللذيذة.

يحكى عنه أنه شهد يوما وليمة، فرأى رجلا يرفع يده عندما قدمت الحلوى فقال له الحسن: كل يا لكع فلنعمة الله عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته فى هذه الحلوى.

ودخل عليه مرة أحد الزهاد فقال له الحسن: أتحب الخبيص - وهو طعام لذيذ - فقال الزاهد: لا أحبه ولا أحب من يحبه!! فأقبل الحسن على جلسائه وقال لهم: أترونه مجنونا.

والخلاصة: أنه لا ورع فى ترك المباح الذى أحله الله من حيث فيه متعة للنفس، فذلك هو التنطع فى الدين، وإنما الورع فى ترك الإكثار من تناول تلك المباحات، لأن الإكثار منها قد يؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله عنه.

هذا، وقد أورد بعض المفسرين آثارًا تدل على أن هذه الآية نزلت فى قوم معينين.

قال الآلوسى: نزلت فى المشركين الذين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقيل نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر ابن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حيث حرموا التمر والاقط على أنفسهم(٢).

والذى نراه أن الخطاب فى الآية لجميع المكلفين من البشر، وأنها واردة لتفنيد آراء الذين يحرمون على أنفسهم مطعومات لم يقم دليل من الشارع على تحريمها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال - تعالى -: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.

الخطوات: جمع خطوة كغرفة وقيل جمع خطوة كقبضة، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى، وتستعمل على وجه المجاز فى الآثار.

أى: كلوا أيها الناس من الطيبات التى أحلها الله لكم. ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٠٤ طبعة عيسى الحلبى.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٢٨.

ووساوسه وطرقه التى يحرم بها الحلال ويحلل الحرام والتى يقذفها فى صدور بعض الناس فتجعلهم ينتقلون من الطاعات إلى المعاصى.

وفى الجملة الكريمة استعارة تمثيلية، إذ أن السائر فى طريق إذا رأى آثار خطوات السائرين تتبع ذلك المسلك ظنًا منه بأن ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدى الذى لا دليل معه سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلا، بالذى يتبع خطوات السائرين، وشاعت هذه الاستعارة حتى صاروا يقولون هو يتبع خطا فلان بمعنى يقتدى به.

وقوله: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تعليل للنهى عن اتباع الشيطان و «مبين» من أبان بمعنى بان وظهر، وقيل: من أبان بمعنى أظهر، أى: مظهر للعداوة

والمعنى: «ولا تتبعوا خطواته لأن عداوته ظاهرة لكم بحيث لا تخفى على أى عاقل.

وقوله - تعالى -: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته، وتفصيل لأنواع شروره ومفاسده.

والسوء فى الأصل: مصدر ساءه يسوءه سوءًا ومساءة إذا أحزنه، والمراد به هنا، كل ما يغضب الله - تعالى - من المعاصى، لأنها تسوء صاحبها وتحزنه فى الحال أو المآل.

والفحشاء والفاحشة والفحش: ما عظم قبحه مر الأقوال والأفعال.

وروى عن ابن عباس أنه فسر السوء بما لا حد فيه، والفحشاء بما فيه حد.

والأمر فى الأصل: الطلب بالقول، واستعمل فى تزيين الشيطان المعصية، لأن تزيينها فى معنى الدعوة إليها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف كان الشيطان آمرا مع قوله ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾؟

قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر، كما تقول: أمرتنى نفسى بكذا، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه، ولذلك قال: ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ وقال - تعالى -: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ما اشتهت»[1].

وقوله: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ معطوف على ما قبله.

أى: يأمركم الشيطان بالسوء والفحشاء، ويأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٣.

والقول على الله بغير علم من مظاهره أن يقول قائل: لقد أحل الله كذا وحرم كذا بدون دليل شرعى يعتمد عليه.

قال الإمام ابن القيم: «والقول على الله بغير علم يعم القول عليه - سبحانه - فى أسمائه وصفاته وأفعاله، وفى دينه وشرعه، وقد جعله - سبحانه - من أعظم المحرمات، بل جعله فى المرتبة العليا منها، فقال - تعالى -: ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ وقال - تعالى -: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال. وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أنه - سبحانه - أحله وحرمه»(١).

وقال بعض العلماء: وقد يخطر على بالك أن تقرير الأئمة المجتهدين لبعض الوقائع أحكامًا من طريق الاستنباط، قد يستندون فى ذلك إلى دليل يفيد الظن بالحكم، ولا يصل إلى أن يفيد العلم به، فيكون إفتاؤه من قبيل القول على الله بغير علم، ويزاح هذا الخاطر بأنه قد انضم إلى ذلك الدليل الظنى أصل انعقد عليه الإجماع وأصبح مقطوعًا به، وهو أن كل مجتهد بحق يكون حكم الشرع فى حقه أو حق من يتابعه هو الحكم الذى أداه إليه اجتهاده، وبمراعاة هذا الأصل المقطوع به لم يكن المجتهد المشهود له بالرسوخ فى العلم قائلا على الله ما لا يعلم»(٢).

هذا، ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى القرآن الكريم فى التحذير من الشيطان ووساوسه قوله - تعالى -: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وقوله - تعالى -: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا﴾.

وقوله - تعالى -: ﴿يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾.

وقد أرشدنا النبى ﷺ إلى أن الإكثار من ذكر الله خير معين للإنسان للتغلب على وساوس

---

(١) من كتاب «أعلام الموقعين» لابن القيم. نقلا عن تفسير القاسمى جـ٢ ص ٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الإمام محمد الخضر حسين، مجلة لواء الإسلام. السنة الرابعة. العدد السادس.

الشيطان فقال فى حديثه الطويل الذى رواه الترمذى والنسائى وابن حبان عن الحارث الأشعرى : « وآمركم بذكر الله كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره، فأتى حصنا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله.

وبعد أن نهى - سبحانه - الناس عن إتباع خطوات الشيطان، وبين لهم مظاهر عداوته لهم، أردف ذلك ببيان حال طائفة من الناس لم يستمعوا لهذا النصح، بل اتبعوا خطوات الشيطان فقلدوا آباءهم فى الشرك والجهالة فقال - تعالى - :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

أى : وإذا قيل لأولئك الذين اقتفوا خطوات الشيطان، وقالوا على الله بدون علم ولا برهان، إذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله من قرآن، أعرضوا عن ذلك وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء

فالضمير فى قوله - تعالى - : ﴿لهم﴾ يعود على طائفة ممن شملهم الخطاب بقوله - تعالى - فى الآية السابقة : ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ وهم الذين لم يستجيبوا لنداء الله بل ساروا فى ركب الشيطان، واقتفوا آثاره، ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾. القائل لهم ذلك هو النبى ﷺ والمسلمون.

والمراد بما أنزل الله : القرآن الكريم، وما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ من هدايات. وعدل - سبحانه - من خطابهم إلى الغيبة للتنبيه على أنهم لفرط جهلهم وحمقهم صاروا ليسوا أهلا للخطاب، بل ينبغى أن يصرف عنهم إلى من يعقله.

و﴿بل﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿بل نتبع﴾ للإضراب الإبطالى، أى : أضربوا عن قول الرسول لهم ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ إضراب إعراض بدون حجة، إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم من أمور الشرك والضلال.

وقوله - تعالى - : ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ رد عليهم، وبيان لبطلان الاعتماد فى الدين على مجرد تقليد الآباء.

والهمزة للاستفهام الإنكارى، والواو للحال، والمعنى : أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم

والحال أن آباءهم لا يعقلون شيئًا من أمور الدين الصحيح، ولا يهتدون إلى طريق الصواب.

قال الآلوسى: وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما أتباع الغير فى الدين بعد العلم - بدليل ما - أنه محق فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم فى شيء وقد قال - سبحانه - ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾(١).

وبعد أن بين - سبحانه - فساد ما عليه أولئك المشركون المقلدون من غير نظر ولا استدلال، أردف ذلك بضرب مثل لهم زيادة فى قبيح شأنهم والزراية عليهم فقال - تعالى -:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

و ﴿مثل﴾ الصفة والشأن، وأصل المثل بمعنى المثل: النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة، إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة.

و ﴿ينعق﴾ من النعيق وهو الصياح. يقال: نعق الراعى بالغنم ينعق نعقًا ونعاقًا ونعقانًا، صاح بها وزجرها.

والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد أى أن ثانيهما تأكيد للأول، وقيل: الدعاء للقريب والنداء للبعيد.

والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات.

وأولهما: وهو الدعاء معناه: الصياح بالبهائم لتأتى.

وثانيهما: وهو النداء معناه: الصياح بها لتذهب.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: وللعلماء من أهل التأويل فى هذه الآية طريقان:

أحدهما: تصحيح المعنى بالإضمار فى الآية.

والثانى: إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤١.

أما الذين أضمروا فذكروا وجوها :

الأول : كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذى ينعق، فصار الناعق الذى هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق. وهو الرسول ﷺ وسائر الدعاة إلى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول ﷺ وألفاظه، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

الثانى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق فى دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم. فشبه الأصنام - فى أنها لا تفهم - بهذه البهائم، فإذا كان ولا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلا، فمن دعا حجرًا أولى بالذم.

والفرق بين هذا القول والذى قبله أن هاهنا المحذوف هو المدعو، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى.

أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره، ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعى إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلة العقل فكذا ههنا.

ثم قال - رحمه الله - ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد»(1).

وقوله - تعالى - : ﴿صم بكم عمى﴾ زيادة فى تبكيتهم وتقريعهم، أى : هم صم عن استماع دعوة الحق، بكم عن إجابة الداعى إليها، عمى عن آيات صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهادى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر

وقوله : ﴿فهم لا يعقلون﴾ وارد مورد النتيجة بعد البرهان، بجانب كونه توبيخًا لهم، لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر، وأهم وسيلة للثقافة وهى استطلاع الحقائق من طريق المحاورة والتكلم، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عقله الاكتسابى، فأصبح لا يفقه شيئًا؛ لأن العقل الذى يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث.

---

(1) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٨ بتصرف وتلخيص.

وبعد هذا البيان البليغ لحال الذين يتخذون من دون الله أندادًا، ولحال الكافرين المقلدين لآبائهم فى الضلال بدون تدبر أو تعقل، بعد كل ذلك وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين بينت لهم فيه - وفيما سيأتى بعده من آيات - كثيرًا من التشريعات والآداب والأحكام التى هم فى حاجة إليها فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

الطيبات من الأطعمة : المستلذات، ويجوز حملها على ما طاب من الرزق بتحليل الله له.

وما رزقناكم : ما أوصلناه إليكم من الرزق، - وهو ما ينتفع به.

أى : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلوا من ألوان الطيبات التى أحللناها لكم، ولا تتعرضوا لما حرمناه عليكم.

وكان الخطاب هنا للمؤمنين خاصة، لأنهم أحق بالفهم، وأجدر بالعلم وأحرى بالاهتداء، وأولى بالتكريم والتشريف.

ومفعول ﴿كلوا﴾ محذوف، أى : كلوا رزقكم حال كونه بعض طيبات ما رزقناكم.

ثم أمرهم - سبحانه - بشكره على هذه الطيبات التى أباحها لهم فقال : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿كلوا﴾.

والشكر : هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم لموجدها، ووضعها فى الموضع الذى أمر به.

أى : تمتعوا بنعم الله، واعترفوا له بها على وجه التعظيم، بأن تمتثلوا ما أمر به، وتجتنبوا ما نهى عنه، إن كنتم تخصونه بالعبادة حقًا، وتفردونه بالطاعة صدقًا.

قال الآلوسى : وجملة ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ بمنزلة التعليل لطلب الشكر، كأنه قيل : « واشكروا له لأنكم تخصونه بالعبادة، وتخصيصكم إياه بالعبادة، يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه، وهى لا تتم إلا بالشكر، لأنه من أجل العبادات »(١).

وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور والتقدير : إن كنتم إياه تعبدون فكلوا واشكروا لله.

ولقد أمر الله - تعالى - عباده أن يشكروه فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾.

وقال - تعالى - : ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾.

وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها »

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفًا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقًا وأصنافًا، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب، وكبعض الحيوانات عند غيرهم وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله - تعالى - تعذيب النفس، وحرمانها من الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك... ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطًا تعطى الجسد حقه والروح حقها، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جسمانيين محضًا كالأنعام، ولا روحانيين خلصا كالملائكة، وإنما جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمد والشكر والثناء الحسن »(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾ بيان لما حرمه الله - تعالى - علينا من المطاعم رعاية لمنفعتنا.

و ﴿الميتة﴾ فى عرف الشرع : ما مات حتف أنفه، أو قتل على هيئة غير مشروعه، فيدخل فيها : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وماعدا عليها السبع، ويدخل فى حكم الميتة ما قطع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤١.
(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٩٦.

من جسم الحيوان الحى للحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى واقد الليثى، أن رسول الله ﷺ قال: ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة».

وكان الأكل من الميتة محرمًا، لفساد جسمها بذبول أجزائه وتعفنها، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها.

قال الآلوسى: وأضاف - سبحانه - الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية التى هى من صفات فعل المكلف وليست مما تتعلق بالأعيان - إشارة إلى حرمة التصرف فى الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمدبوغ، وخرج عن حكم الميتة السمك والجراد، للحديث الذى أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال وللعرف أيضًا، فإنه إذا ما قال القائل: أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليهما نعم حرم بعضهم ميتة السمك الطافى وما مات من الجراد بغير سبب، واستدل بعموم الآية على تحريم الأجنة وتحريم ما لا نفس له سائلة خلافًا لمن أباحه»(١).

والدم المحرم: ما يسيل من الحيوان الحى كثيرًا كان أم قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح فى قوله - تعالى - : ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحًا..﴾.

والدم المسفوح: هو الدم الجارى المهراق من البهيمة بعد ذبحها.

أما الدم المتبقى فى أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شىء فيه.

قال القرطبى: وأما الدم فمحرم مالم تعم به البلوى، ومعفو عما تعم به البلوى. والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه... وقد روت عائشة - رضى الله عنها - قالت: كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله ﷺ تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره» لأن التحفظ من هذا إصر وفيه مشقة، والإصر والمشقة فى الدين موضوع. وهذا أصل فى الشرع»(٢).

وقد عرف عن بعض العرب فى الجاهلية أنهم كانوا يأخذون الدم من البهائم عند ذبحها، فيضعونه فى أمعائها ثم يشوونها بالنار ويأكلونها ويسمون ذلك بالفصيد.

قال بعضهم: والحكمة فى تحريم الدم أنه تستقذره النفوس الكريمة، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس، وفضلا عن ذلك فإن تعاطيه يورث ضراوة فى الإنسان، وغلظة فى الطباع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٤١.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٢٢.

فيصير كالحيوان المفترس، وهذا مناف لمقصد الشريعة التى جاءت لإتمام مكارم الأخلاق.

وحرمة الخنزير شاملة للحمه وشحمه وجلده. وإنما خص لحمه بالذكر، لأنه الذى يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه. وبعض الفقهاء يرى أنه لا بأس من الانتفاع بشعر الخنزير فى الخرازة - أى: خياطة الجلود وغيرها -، وبعضهم كره ذلك.

ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير قذارته، واشتماله على دودة تضر ببدن آكله وقد أثبت ذلك العلم الحديث.

وما يقوله قوم من أن وسائل العلم الحديث قد تقدمت، وصار فى الإمكان التغلب على ما فى لحم الخنزير من أضرار هذا القول مردود بأن العلم الحديث قد احتاج إلى ثلاثة عشر قرنًا ليكتشف آفة واحدة فى لحم الخنزير، فمن ذا الذى يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى فى هذا اللحم لم يعرفها العلم حتى الآن؟

إن الشريعة التى سبقت العلم الحديث بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا أولى بالاتباع، وأجدر بالطاعة فيما أحلته وحرمته مما يقوله الناس، لأنها من عند الله العليم بشئون عباده، الخبير بما ينفعهم وبما يضرهم.

وقوله: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ معطوف على ما قبله من المحرمات. و﴿أهل﴾ من الإهلال، وهو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقًا، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج. وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا.

فالمراد بما أهل به لغير الله: ما ذبح للأصنام وغيرها، ومنه ما يذبحه المجوسى للنار. ومنه عند جمهور العلماء: ذبائح أهل الكتاب إذا ذكر عليها اسم عزير أو عيسى، لأنها مما أهل به لغير الله.

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام، وإلى حل ذبائح أهل الكتاب مطلقًا، لعموم قوله - تعالى - فى سورة المائدة وهى من آخر السور نزولا: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أى ذبائحهم، وهو - سبحانه - يعلم ما يقولون.

وروى الحسن عن على - رضى الله عنه - أنه قال: إذا ذكر الكتابى اسم غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

وقد روى البخارى عن عائشه - رضى الله عنها - قالت: إن قومًا قالوا للنبى ﷺ: إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوه. قالت:

وكانوا حديثى عهد بكفر.

فكأن المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه.

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لاستقذار الأكل من هذه الثلاثة، أى: لعلة ذاتية فيها، أما تحريم ما أهل به لغير الله فليس لعلة فيه، ولكن للتوجه به إلى غير الله. وهى علة روحية تنافى سلامة القلب، وطهارة الروح، ووحدة المتجه فما ذكر عليه سوى اسم الله من الذبائح ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية، وفى ذلك حض للناس على إخلاص العبادة لله - تعالى -، وزجر لهم عن التقرب إلى أحد سواه.

وقوله - تعالى - : ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾ بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات.

و ﴿اضطر﴾ من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء. يقال: اضطره إلى هذا الشىء. أى: أحوجه وألجأه إليه مأخوذ من الإضرار، وهو حمل الإنسان على أمر بكرهه، وقهره عليه بقوة يناله بدفعها الهلاك.

و ﴿باغ﴾ من البغاء وهو الطلب. تقول: بغيته بغاء وبغيا وبغية أى: طلبته.

و ﴿عاد﴾ اسم فاعل بمعنى متعد، تقول. عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد، ومنه قوله - تعالى - فى شأن قوم لوط: ﴿بل أنتم قوم عادون﴾.

و ﴿غير﴾ منصوب على الحال من الضمير المستتر فى ﴿اضطر﴾ وهى هنا بمعنى النفى ولذا عطف عليها لا.

والمعنى: فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات: حالة كونه غير باغ: أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساع فى فساد ﴿ولا عاد﴾ أى: وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى: فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات.

وبهذا نرى لونا من ألوان سماحة الإسلام ويسره فى تشريعاته، التى أقامها الله - تعالى - على رفع الحرج، ودفع الضرر، قال - تعالى - : ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وقال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وقوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل قصد به الامتنان. أى: إن الله - تعالى - موصوف بهذين الوصفين الجليلين، ومن كان كذلك كان من شأنه أن يعفو عن الخطايا، ويغفر الذنوب،

ويشرع لعباده ما فيه يسر لا ما فيه عسر.

هذا، وظاهر هذه الآية الكريمة يقتضى أنه ليس هناك محرم من المطعومات سوى هذه الأربعة، لكنا نعلم فى الشرع أن هناك مطعومات أخرى قد حرم على المسلم تناولها كلحوم الحمر الأهلية، فعلى هذا تكون لفظة «إنما» متروكة الظاهر فى العمل - كما قال الإمام الرازى - أى : أن الحصر فيها غير مقصود وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنعام : ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقًا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾(١).

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة الذين يكتمون ما أمر الله بإظهاره وتوعدهم بأقسى ألوان العذاب فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾

الكتم والكتمان : إخفاء الشىء قصدًا مع تحقق الداعى إلى إظهاره.

وقد تحدث القرآن - قبل هذه الآيات بقليل - فى قوله - تعالى - ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ عن المصير الأليم الذى توعد الله به أولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم هنا؛ لكى ينذرهم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن هذه الرذيلة التى هى من أبشع الرذائل وأقبحها، ولكى يغرس فى قلوب الناس - وخصوصا

(١) الآية ١٤٥. وراجع كتابنا «تفسير سورة الأنعام» فى معنى الآية ص ٣٠٨.

العلماء - الشجاعة التى تجعلهم يجهرون بكلمة الحق فى وجوه الطغاة لا يخافون لومة لائم، ويبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحدًا سواه، ويبينون للناس ما أمرهم الله ببيانه بطريقة سليمة أمينة خالية من التحريف الكاذب، والتأويل الباطل.

قال الإمام الرازى: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رؤساء اليهود وأحبارهم. كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية.

ثم قال الإمام الرازى: والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب لكنها عامة فى حق كل من كتم شيئًا من باب الدين يجب إظهاره، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[1].

والمراد بالكتاب، التوراة، أو جنس الكتب السماوية التى بشرت بالنبى ﷺ.

و ﴿من﴾ فى قوله: ﴿من الكتاب﴾ بمعنى فى أى: يكتمون ما أنزل الله فى كتابه من صفة النبى ﷺ ونعته ووقت بعثته.

وقيل للبيان، وهى حال من العائد على الموصول والتقدير: أنزل الله حال كونه من الكتاب والعامل فيه أنزل.

وقوله: ﴿ويشترون به ثمنا قليلا﴾ معطوف على يكتمون.

أى: يكتمون ما أنزل الله من الكتاب مما يشهد بصدق النبى ﷺ ويأخذون من سفلتهم فى مقابل ذلك عرضًا قليلا من أعراض الدنيا.

والضمير فى قوله: ﴿به﴾ يعود إلى ما أنزل الله، أو إلى الكتمان الذى يدل عليه الفعل ﴿يكتمون﴾ أو إلى الكتاب.

ووصف هذا الثمن الذى يأخذونه فى مقابل كتمانهم بالقلة، لأن كل ما يؤخذ فى مقابلة إخفاء شىء مما أنزله الله فهو قليل حتى ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

وقوله - تعالى -: ﴿أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ وما عطف عليه، بيان للعذاب المهين الذى أعدلهم بسبب كتمانهم لما أمر الله بإظهاره وبيعهم دينهم بدنياهم.

أى: أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار كما قال - تعالى - فى حق أكلة مال اليتامى: ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرًا﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة تمثيل لحالة أولئك الكفار الحاصلة من أكلهم ذلك الثمن القليل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٨، بتصرف.

المفضى بهم إلى النار، بحالة من يأكل النار نفسها. ووجه الشبه بين الحالتين: أنه يترتب على أكل ذلك المال الحرام من تقطيع الأمعاء وشدة الألم، ما يترب على أكل النار ذاتها، إلا أن العذاب الحاصل من أكل النار يقع عندما تمتلىء منها بطونهم، والعذاب الحاصل من أكل المال الحرام يقع عند لقاء جزائه وهو الإحراق بالنار.

وجيء بإسم الإشارة فى أول هذه الجملة لتمييز أولئك الكاتمين أكمل تمييز حتى لا يخفى أمرهم على أحد، وللتنبيه على أن ما ذكر بعد اسم الإشارة من عقوبات سببه ما فعلوه قبل ذلك من سيئات.

وخص - سبحانه - بالذكر الأكل فى بطونهم من بين وجوه انتفاعهم بما يأخذونه من مال حرام، للإشعار بسقوط همتهم ودناءة نفوسهم حتى إنهم ليخفون ما أمر الله بإظهاره من حقائق وهدايات، نظير ملء بطونهم.

وقوله: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أى: لا يكلمهم كلاما تطمئن به نفوسهم، وتنشرح له صدورهم وإنما يكلمهم بما يخزيهم ويفجعهم بسبب سوء أعمالهم كقوله - لهم: ﴿اخسؤا فيها ولا تكلمون﴾. أو أن نفى تكليمه لهم كتابة عن غضبه عليهم، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه ولا يكلمونه، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث.

وقوله: ﴿ولا يزكيهم﴾ أى: ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب بالمغفرة، من التزكية بمعنى التطهير. يقال: زكاه الله، أى: طهره وأصلحه.

وتستعمل التزكية بمعنى الثناء، ومنه زكى الرجل صاحبه إذا وصفه بالأوصاف المحمودة وأثنى عليه، فيكون معنى ﴿ولا يزكيهم﴾ لا يثنى عليهم - سبحانه - ومن لا يثنى عليه الله فهو معذب.

فهؤلاء الذين كتموا الحق نظير شىء قليل من حطام الدنيا، فقدوا رضا الله عنهم وثناءه عليهم وتطهيره لهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء منقلبهم، وشدة ألم العذاب الذى ينالهم فقال - تعالى - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أى. موجع مؤلم.

قال الألوسى: وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى، لأنه لما ذكر - سبحانه - اشتراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطاعمهم الخبيثة الفانية، بدأ أولا فى الخبر بقوله: ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾. وابتنى على كتمانهم واشترائهم بما أنزل الله ثمنًا

قليلا، أنهم شهود زور وأحبار سوء، آذوا بهذه الشهادة الباطلة رسول الله ﷺ وألموه فقوبلوا بقوله - سبحانه - : ﴿ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾[1].

ثم بين - سبحانه - ماهم عليه من جهل وغباء وسوء عاقبة فقال : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾.

الاشتراء : استبدال السلعة بالثمن. والمعنى : أولئك الذين تقدم الحديث عنهم وهم الكاتمون لما أنزل الله قد بلغ بهم الغباء وانطماس البصيرة أنهم باعوا الهدى والإيمان ليأخذوا فى مقابلها الكفر والضلال، وباعوا ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ليأخذوا فى مقابل ذلك عذابه ونقمته، فما أخسرها من صفقة، وما أغبى هؤلاء الكاتمين الذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدنيا الفانية، فخسروا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم.

وقوله - تعالى - : ﴿فما أصبرهم على النار﴾ معناه : فما أدومهم على عمل المعاصى التى تؤدى بهم إلى النار حتى لكأنهم بإصرارهم على عملها يجلبون النار إليهم جلبًا. ويقصدون إليها قصدًا بدون مبالاة أو تفكر.

والمراد من التعجب فى هذه الآية وأشباهها، الإعلام بحالهم وأنه ينبغى أن يتعجب منها كل أحد، وذلك لأن المعنى الظاهر من الجملة التعجب من صبر أولئك الكفار على النار، والتعجب انفعال - يحدث فى النفس عند الشعور بأمر يجهل سببه وهو غير جائز فى حقه - تعالى - لأنه لا يخفى عليه شىء، ومن هنا قال العلماء : إن فعل التعجب فى كلام الله المراد منه التعجيب، أى : جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل، وهو هنا صبرهم على النار، فيكون المقصود تعجيب المؤمنين من جراءة أولئك الكاتمين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقى بهم فى النار، شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم.

وشبيه بهذا الأسلوب فى التعجب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن فأنت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يغضبه لا يقع إلا ممن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التمادى فيما يوجب غضب ذلك السلطان.

قال الجمل ما ملخصه وما فى قوله ﴿فما أصبرهم﴾ - وفى مثل هذا التركيب - فيها أوجه :

أحدها : وهو قول سيبويه والجمهور أنها نكرة تامة غير موصولة ولا موصوفة وأن معناها التعجب فإذا قلت. ما أحسن زيدًا، فمعناه : شىء صير زيدًا حسنا.

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٤٤.

والثانى : وإليه ذهب الفراء : أنها استفهامية صحبها معنى التعجب، نحو : «كيف تكفرون بالله».

والثالث : ويعزى للاخفش : أنها موصولة.

والرابع ويعزى له أيضًا : أنها نكرة موصوفة وهى على هذه الأقوال الأربعة فى محل رفع بالابتداء وخبرها على القولين الأولين الجملة الفعلية بعدها، وعلى قولى الأخفش يكون الخبر محذوفًا[1].

ثم بين - سبحانه - أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم، هو ارتكابهم لما نهى الله عنه عن قصد وسوء نية فقال : ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾.

أى : ذلك العذاب الأليم حل بهم بسبب أن الله أنزل التوراة مصحوبة ببيان الحق الذى من جملته التبشير ببعثة النبى محمد ﷺ فكتموا هم هذا الحق وامتدت إليه أيديهم الأثيمة بالتحريف والتأويل إيثارا لمطامع دنيوية على هدى الله الذى هو أساس كل سعادة.

فاسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود على مجموع ما سبق بيانه من أكل النار، وعدم تكليم الله إياهم، وعدم تزكيتهم.. الخ.

والباء فى قوله : ﴿بأن﴾ للسببية، والمراد بالكتاب : التوراة.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الكاتمين للحق بقوله : ﴿وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد﴾.

اختلفوا : خالف بعضهم بعضًا، وأصله من اختلاف الطريق، تقول اختلفوا فى الطريق. أى : جاء بعضهم من جهة والبعض الآخر من جهة أو جهات أخرى. ثم استعمل فى الاختلاف فى المذاهب والاعتقاد.

والكتاب : التوراة، أو التوراة والإنجيل، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب والمقام يقتضى صرفه إلى هذين الكتابين، وقد أبعد فى التأويل من قال بأن المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتموا ما فى كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ واختلافهم فى الكتاب من مظاهره : إيمانهم ببعضه وكفرهم بالبعض الآخر، وتحريفه عن مواضعه وتأويله على غير ما يراد منه.

والشقاق : الخلاف، كأن كل واحد من المختلفين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر،

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٤٠.

وإذا وصف الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق، يقال: قال فلان قولا بعيدًا، أى بعيدًا من الصواب.

والمعنى: ذلك العذاب الأليم حل بأولئك الاشقياء بسبب كتمانهم لما أنزله الله فى كتابه من الحق، وإن الذين اختلفوا فى شأن ما أنزله الله فى كتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها - لفى بعد شديد عن الحق والصواب:

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا من العقوبات الأليمة التى توعد الله بها كل من يكتم أمرًا نهى الله عن كتمانه، لكى يقلع كل من يتأتى له الخطاب عن هذه الرذيلة وفاء للعهد الذى أخذه الله على الناس بصفة عامة، وعلى أولى العلم بصفة خاصة.

ثم ساق القرآن الكريم آية جامعة لأنواع البر، ووجوه الخير، تهدى المتمسك بها إلى السعادة الدنيوية والأخروية فقال - تعالى -:

۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿البر﴾: اسم جامع لكل خير، ولكل طاعة وقربة يتقرب بها العبد إلى خالقه - عز وجل -.

قال الراغب: «البر - بفتح الباء - خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر - بكسر الباء - بمعنى التوسع فى فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله - تعالى - تارة نحو: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ وإلى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه، أى توسع فى طاعته فالبر من الله

الثواب، ومن العبد الطاعة»[1].

وتولية الوجوه قبل الشىء معناه: التوجه إليه بجعل الوجه متجها إلى جهته فلفظ «قبل» بمعنى جهة وهو منصوب على الظرفية المكانية.

﴿والمشرق﴾: الجهة التى تشرق منها الشمس، والمغرب: الجهة التى تغرب فيها.

قال الإمام الرازى: اختلف العلماء فى أن هذا الخطاب عام أو خاص. فقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿ليس البر﴾ أهل الكتاب لما شددوا فى الثبات على التوجه نحو بيت المقدس فقال - تعالى - ليس البر هذه الطريقة ولكن البر من آمن بالله. وقال بعضهم: بل المراد مخاطبته المؤمنين لما ظنوا أنهم قد نالوا البغية بالتوجه إلى الكعبة من حيث كانوا يحبون ذلك فخوطبوا بهذا الكلام وقال بعضهم: بل هو خطاب للكل، لأن عند نسخ القبلة وتحويلها حصل من المؤمنين الاغتباط بهذه القبلة، وحصل منهم التشدد فى تلك القبلة حتى ظنوا أنه الفرض الأكبر فى الدين، فبعثهم الله - تعالى - بهذا الخطاب على أستيفاء جميع العبادات والطاعات، وبين أن البر ليس بأن تولوا وجوهكم شرقًا وغربًا، وإنما البر. كيت وكيت. وهذا أشبه بالظاهر إذ لا تخصيص فيه، فكأنه - تعالى - قال: ليس البر المطلوب هو أمر القبلة، بل البر المطلوب هو هذه الخصال التى عدها»[2].

وهذا القول الثالث- الذى يرى أصحابه أن الخطاب للكل، والذى قال عنه الإمام الرازى: هذا أشبه بالظاهر - هذا القول، هو الذى تسكن إليه النفس؛ لأنه لا يوجد نص صحيح يخصص الخطاب لطائفة معينة من الناس ولأن المقصود من الآية الكريمة إنما هو إفهام الناس فى كل زمان ومكان أن مجرد تولية الوجه إلى قبلة مخصوصة ليس هو البر الكامل الذى يعنيه الإسلام، وإنما البر الكامل يتأتى فى استجابة الإنسان لتلك الخصال الشريفة التى اشتملت عليها الآية، تلك الخصال التى تجعل المستمسكين بها على صلة طيبة بخالقهم وعلى صلة طيبة بغيرهم، - كما سنبين ذلك عند تعليقنا على هذه الآية الكريمة -.

والمعنى: ليس البر - الذى هو كل طاعة يتقرب بها الإنسان إلى خالقه - فى تولية الوجه عند الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب، وإنما البر الذى يجب الاهتمام به لأنه يؤدى إلى السعادة والفلاح - يكون فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفى انفاق المال فى وجوه الخير، وفى اتباع ما ذكرته الآية الكريمة من خصال جليلة.

هذا وقد قرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ليس البر﴾ بنصب البر على أنه خبر ليس، واسمها

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٠ للراغب الأصفهانى.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٨.

قوله - تعالى - : ﴿أن تولوا﴾ أى : ليس توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر كله.

وقرأ الباقون ﴿ليس البر﴾ برفع البر على أنه اسم ليس، وخبرها قوله - تعالى - : ﴿أن تولوا﴾ أى ليس البر كله توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب.

قال الطبرسى : وكلا المذهبين حسن، لأن كل واحد من اسم ليس وخبرها معرفة، فإذا اجتمعا فى التعريف تكافآ فى كون أحدهما اسما والآخر خبرًا كما تتكافأ النكرتان(١).

وقوله - تعالى - : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ إلخ بيان لما هو البر الذى يجب أن تتجه إليه الأفكار، وتستجيب له النفوس.

و ﴿لكن﴾ حرف استدارك، البر : اسمها. وقوله ﴿من آمن﴾ وقع فى اللفظ موقع الخبر عن قوله ﴿البر﴾ والخبر فى المعنى لفظ مقدر مضاف إلى من آمن، يفهم من سياق الجملة، والمعنى مع ملاحظة المقدر : ولكن البر بر من آمن بالله.

وهذا اللون من الإيجاز الذى حذف فيه المضاف معهود فى كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون السخاء حاتم، والشعر زهير. أى : السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير.

وقيل : إن البر هنا بمعنى البار فجعل المصدر فى موضع اسم الفاعل، كما يقال : ماء غور أى : غائر، ورجل صوم أى : صائم.

وقيل : إن المحذوف هو لفظ مضاف إلى البر. أى : ولكن ذا البر من آمن بالله.

وقد ابتدأت الآية حديثها عن خصال البر بالإيمان بالله، لأنه أساس كل بر. وأصل كل خير، والإيمان بالله : هو التصديق بأنه هو الواحد الفرد الصمد، الذى لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تتجه القلوب بالعبادة إلا إليه، ومتى رسخ هذا الإيمان فى النفوس ارتفع بها إلى مكانة التكريم التى أرادها الله - تعالى - لبنى آدم وصانها عن الذلة والاستكانة وأعطاها نبراس الهداية والسداد فى كل نواحى الحياة.

ثم ذكرت الإيمان باليوم الآخر، وهو التصديق بالبعث وما يقع بعده من حساب وثواب وعقاب على الوجه الذى وصفته نصوص الشريعة بأجلى بيان.

والإيمان باليوم الآخر من ثماره أنه يغرس فى النفوس محبة الخير، والحرص على إسداء المعروف وينفرها من اقتراف الشرور وارتكاب الآثام.

ولقد تحدث القرآن عن الإيمان بالله واليوم الآخر فى عشرات الآيات، وأقام الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة على وحدانية الله وعلى أنه هو صاحب الكمال المطلق، كما أقام

(١) تفسير الطبرسى جـ٢ ص٩٢ طبعة مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٨٠.

الحجج والبراهين على أن البعث حق وضرب الأمثال لذلك، وسفه عقول المنكرين له.

ثم ذكرت الإيمان بالملائكة والملائكة: أجسام لطيفة نورانية، قادرون على التشكل فى صورة حسنة مختلفة، وصفهم القرآن بأنهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

ووجه دخول التصديق بهم فى حقيقة الإيمان، أن الله وسطهم فى إبلاغ وحيه لأنبيائه، وبين ذلك فى كتابه، وتحدث الصادق المصدوق ﷺ عنهم فى كثير من أحاديثه، فمن لم يؤمن بالملائكة على هذا الوجه الذى جاءت به الشريعة فقد انكر الوحى، إذ الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحى، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة.

ثم ذكرت الآية الإيمان بالكتاب. والمراد به القرآن لأنه المقصود بالدعوة، ولأنه هو الأمين على الكتب قبله، فما وافقه منها كان حقًا وما خالفه كان باطلا.

والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه، لأنه هو الذى أخبرنا بذلك وأمرنا بذلك وأمرنا بأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

ثم ذكرت الإيمان بالنبيين، أى: التصديق بأنهم رجال اصطفاهم الله - تعالى - لتلقى هدايته وكتبه وتبليغها للناس بصدق وأمانة وسلامة بصيرة.

والنبيون الذين يجب الإيمان بهم: كل من ثبتت نبوته عن طريق القرآن الكريم أو الحديث الصحيح، وكل من أنكر نبوة نبى قد ثبتت نبوته فقد خرج عن طريق الإيمان.

ولقد قام الدليل القاطع على أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وكل من ادعى غير ذلك فهو من الضالين المضلين.

وقد جمعت هذه الأمور الخمسة التى ذكرتها الآية كل ما يلزم أن يصدق به الإنسان، لكى يكون ذا عقيدة سليمة، تصل به إلى الفلاح والسعادة.

ثم ذكرت الآية بعد بيان أصول الإيمان أصول الأعمال الصالحة فقالت. ﴿وآتى المال على حبه، ذوى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل والسائلين، وفى الرقاب﴾.

وهذه الجملة معطوفة على قوله - تعالى -: ﴿من آمن بالله﴾.

والضمير فى قوله ﴿على حبه﴾ يعود إلى المال، أى: أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حالة كونه محبًا له راغبًا فيه. لأن الإعطاء والبذل فى هذه الحالة يدل على قوة الإيمان، وصفاء الوجدان، ويسمو بصاحبه إلى أعلا الدرجات. قال - تعالى -: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقد بين النبى ﷺ أن أفضل الصدقة ما كان فى حال الصحة، لأن الإنسان فى هذه الحالة

يكون مظنة الحاجة إلى المال فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ قال : يارسول الله، أى الصدقة أعظم أجرًا ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا وقد كان لفلان.

وقيل الضمير يعود إلى الله - عز وجل - أى : يعطون المال على حب الله وطلبًا لمرضاته.

وقيل يعود إلى الايتاء الذى دل عليه قوله - تعالى - ﴿وآتى المال﴾ فكأنه قال : يعطى ويحب الاعطاء رغبة فى ثواب الله.

والمراد بذوى القربى : أقرباء المعطى للمال. والمعنى : وأعطى المال مع محبته لهذا المال لأقاربه المحتاجين لأنهم أولى بالمعروف، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم، ولذلك جاء ذكرهم فى الآية مقدمًا على بقية الأصناف التى تستحق العطف والإحسان.

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن سليمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة على المسكين صدقة. وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة ».

﴿واليتامى﴾ : جمع يتيم، وهو من فقد أباه بالموت ولم يبلغ الحلم. وهؤلاء اليتامى فى حاجة إلى الإحسان إليهم بعد ذوى القربى متى كانوا محتاجين، لشدة عجزهم عن كسب ما يسد حاجتهم.

﴿والمساكين﴾ جمع مسكين، وهو من لا يملك شيئًا من المال، أو يملك ما لايكفى حاجاته وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية؛ لأنهم فى الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة وجوههم بالسؤال. وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان. قالوا : فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً ».

﴿وابن السبيل﴾ : هو المسافر المنقطع عن ماله. وسمى بذلك - كما قال الآلوسى - لملازمته السبيل - أى الطريق - فى السفر، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته وكأن إفراده لانفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه فهو أبدا يتوق إلى الجمع، ويشتاق إلى الربع، والكريم يحن إلى وطنه حنين الشارف[١] إلى عطنه »[٢].

وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة حتى يستطيع الوصول إلى بلده، وفى

---

(١) الشارف : من الدواب المسن. أهـ المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٧٩

(٢) العطن : مبرك الأبل ومربض الغنم عند الماء. المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦٠٩.

هذا تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة.

﴿والسائلين﴾ : جمع سائل، وهو الطالب للإحسان والمعروف. ويحمل حاله على أنه فى حاجة إلى المعاونة، لأن السؤال علامة الحاجة غالبًا.

والرقاب : جمع رقبة وهى فى الأصل العنق، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس. فصح حمل الرقاب على الأسارى والأرقاء.

وقوله : ﴿وفى الرقاب﴾ متعلق بآتى، أى : آتى المال على حبه فى تخليص الأسرى من أيدى العدو بفدائهم، وتخليص الأرقاء بشرائهم وإعتاقهم. وهذه الأصناف الستة التى ذكرت فى تلك الآية الكريمة ﴿وآتى المال على حبه..﴾ إلخ.

ليس المقصود من ذكرها الاستيعاب والحصر، ولكنها ذكرت كأمثلة وخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها إلى العون والمساعدة.

والذى يراجع القرآن الكريم يجده قد عنى عناية كبرى بالفقراء والمساكين وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الإنفاق عليهم، وبذل العون فى مساعدتهم - وأيضا - هناك عشرات الأحاديث فى الحض على مد يد العون إلى ذوى القرابة والمعسرين، وذلك لأن المجتمعات تحيا وتنهض بالتراحم، وتذل وتشقى بالتقاطع والتدابر بين أبنائها.

ثم ذكرت الآية ألوانًا أخرى من البر تدل على قوة الإيمان وحسن الخلق فقالت : ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ وإقامة الصلاة أداؤها فى مواقيتها مستوفية لأركانها وسننها وخشوعها على الوجه الشرعى الذى أمر الله به، والمراد بالزكاة هنا، الزكاة المفروضة على الوجه الذى فصلته السنة المطهرة. وإيتاؤها : يكون بإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم ممن ذكرهم الله فى قوله - تعالى - : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

وفى ذكر الزكاة المفروضة بعد ذكر إيتاء المال على حبه لذوى القربى واليتامى . . الخ دليل على أن فى الأموال حقوقا لذوى الحاجات سوى الزكاة، وذلك لأنه من المعروف بين أهل العلم أن الحاجة إذا بلغت بطائفة من أبناء الأمة حد الضرورة، يجب على الأغنياء منها أن يسعوا فى سدها ولو مما زاد على قدر الزكاة.

والأغنياء الذين يكتفون بدفع الزكاة، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين، وتفريج كرب المكروبين، ودفع ضرورة البائسين، ليسوا على البر الذى يريده الله من عباده المتقين.

ومسألة «هل فى المال حق سوى الزكاة» من المسائل التى تناولها بعض العلماء بالشرح والتفصيل[(١)].

وقوله : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ معطوف على قوله ﴿من آمن﴾ فإنه فى قوة قولك، ومن أوفوا بعهدهم، وأوثرت صيغة اسم الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء.

الوفاء بالعهد يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله من الإذعان لكل ماجاء به الدين، ويشمل ما يعاهد به الناس بعضهم بعضًا مما لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالا.

والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا بروا فى أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا فى قولهم، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب، وأعلى الدرجات.

وفى قوله - تعالى - : ﴿إذا عاهدوا﴾ إشارة إلى أن إيفاءهم بالعهد لا يتأخر عن وقت حصول العهد.

ثم ختم - سبحانه - خصال البر بقوله : ﴿والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾. البأساء من البؤس، وهى ما يصيب الناس فى الأموال كالفقر والاحتياج. يقال : بئس يبأس بؤساً وبأساً أى اشتدت حاجته.

والضراء من الضر، وهى ما يصيبهم فى أنفسهم كالأمراض والأسقام يقال : ضره وأضره وضاره وضرًا، ضد نفع : والألف فى البأساء والضراء للتأنيث.

وحين البأس، أى : ووقت القتال فى سبيل الله لإعلاء كلمته، يقال : بؤس ببؤس بأسا فهو بئيس، أى : شجاع شديد.

وقوله : ﴿والصابرين﴾ معطوف فى المعنى على ﴿من آمن﴾ كقوله ﴿والموفون﴾ إلا أنه جاء منصوبا على المدح بتقدير - أخص أو أمدح - وغير سبكه عما قبله، تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته على غيره من الفضائل حتى لكأنه ليس من جنس ما سبقه من فضائل، وهذا الأسلوب يسمى عند علماء اللغة العربية بالقطع، وهو أبلغ من الإتباع. ولا ريب فى أن صفة الصبر على الشدائد والآلام وحين القتال فى سبيل الله، جديرة بأنه ينبه لمزيد فضلها، إذ هى أصل لكثير من المكارم كالعفاف عما فى أيدى الناس، والتسليم للقضاء الذى لا مرد له، والإقدام الذى يحمى به الدين وتسلم به النفوس والأموال والأعراض :

وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة والاستسلام من غير مقاومة ولا عمل وإنما الصبر جهاد

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٤، وتفسير الألوسى جـ ٢ ص ٤٧.

ومحاولة للتغلب على المصاعب، ومع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة.

وقد خصت الآية ثلاث حالات بالصبر؛ لأن هذه الحالات هى أبرز الاشياء التى يظهر فيها هلع الهالعين وجزع الجازعين، كما يتميز فيها أصحاب النفوس القوية المطمئنة من غيرهم.

وجاءت كلمة «حين» فى قوله: ﴿وحين البأس﴾ مشيرة إلى أن مزية الصبر فى القتال إنما تظهر حين يلتقى الجمعان، وتدور رحى الحرب، لأن بعض الناس قد يكون قويًا فى بدنه، وقد يحشر نفسه فى زمرة الأبطال المقاتلين، ولكنه عندما يرى الأعناق تتساقط من حوله تخور قواه، ويلوذ بالقرار، أو يستسلم للعدو. وفى هذه الحالة تسلب عنه صفة الصابرين حين البأس. وتحق عليه صفة الضعفاء الجبناء.

وقد جاءت أنواع الصبر فى الآية على وجه الترقى من الشديد إلى الأشد، وذلك لأن الصبر على المرض أصعب من الصبر على الفقر، والصبر حين البأس أصعب من الصبر على المرض. ثم ختمت الآية حديثها عن هؤلاء الجامعين لهذه الخصال بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

أولئك اسم إشارة للجمع، وقد أشير به إلى من تقدم ذكرهم من الجامعين لخصال البر. والصدق توصف به الأقوال المطابقة للواقع، وتوصف به الأعمال الواقعة على الوجه الذى يرضى الله - تعالى -.

والمتقون من الاتقاء وهو الحذر، ويطلق المتقى فى كلام الشارع على الانسان الذى صان نفسه عن كل ما يغضب الله، وامتثل لأوامره ونواهيه.

أى: أولئك الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لخصال البر هم الصادقون فى إيمانهم وفى كل أحوالهم، وأولئك هم المتقون لعذاب الله - تعالى - بسبب امتثالهم لأوامره، واجتنابهم لما نهى عنه.

واسم الإشارة ﴿أولئك﴾ جىء به لإحضارهم فى أذهان المخاطبين وهم متصفون بتلك المناقب الجليلة.

وفى تكرير الإشارة زيادة تنويه بشأنهم وفضلهم. وجاء الإخبار عنهم بأنهم الصادقون المتقون، لتشيرهم بأنهم قد بلغوا بإحرازهم لتلك الخصال السابقة الغاية التى يطمح إليها أرباب البصائر المتنيرة، والنفوس المتقيمة، والقلوب السليمة، وهى مقام الصدق والتقوى الذى يرتفع بصاحبه إلى السعادة فى الدنيا، والنعيم الدائم فى الآخرة.

هذا وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة عشر نوعًا من أنواع البر الذى يهدى إلى الحياة

السعيدة فى الدنيا، وإلى رضا الله - تعالى - فى الآخرة، وذلك لأنها قد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر فى العقيدة، وبر فى العمل، وبر فى الخلق.

أما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان فى قوله - تعالى - : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾.

فقد جمعت فى هذه الجملة الكريمة مالا يتم الإيمان إلا بتحققه.

وأما بر العمل فقد وضحته أبلغ توضيح فى قوله - تعالى - : ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾.

ولا شك أن إنفاق المال فى تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم، ويكون مظهرًا من أفضل مظاهر العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى -.

وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكم عبارة فى قوله - تعالى - : ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾.

وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل. أداء الصلاة وايتاء الزكاة. والوفاء بالعهود، والتذرع بالصبر - يدل على صفاء الإيمان وطهارة الوجدان وحسن الخلق وكمال الاستقامة.

وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق، وتربط بين الجميع برباط واحد لا ينفصم، ونضع على هذا كله عنوانًا واحدًا «البر» وتمدح من استجمع أنواعه بالصدق والتقوى.

فلله هذا الاستقراء البديع، وذلك التوجيه السديد، الذى يشهد أن هذا القرآن من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾.

وبعد أن بين - سبحانه - أن البر الجامع لألوان الخير يتجلى فى الإيمان بالله واليوم الآخر.. وفى بذل المال فى وجوه الخير، وفى المحافظة على فرائضه - سبحانه - وفى غير ذلك من أنواع الطاعات التى ذكرتها الآية السابقة بعد كل ذلك شرع - سبحانه - فى بيان بعض الأحكام العملية الجليلة التى لا يستغنى عنها الناس فى حياتهم، وبدأ هذه الأحكام بالحديث عن حفظ الدماء لماله من منزلة ذات شأن فى إصلاح العالم - فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ

بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿كتب﴾ من الكتب، وهو فى الأصل ضم أديم إلى أديم بالخياطة. وتعورف فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأطلق على المضموم فى اللفظ وإن لم يكتب بالخط، ومنه الكتابة، ويطلق الكتب والكتاب والكتابة على الإيجاب والفرض؛ لأن الشأن فيما وجب ويفرض أن يراد ثم يقال ثم يكتب، ومنه «كتب عليكم الصيام» أى: فرض عليكم.

﴿والقصاص﴾: العقوبة بالمثل من قتل أو جرح. وهو- كما قال القرطبى - مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار والأخبار وقص الشعر اتباع أثره، فكأن القاتل سلك طريقًا من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله فى ذلك، ومنه ﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾ وقيل: القص القطع. يقال: قصصت ما بينهما. ومنه أخذ القصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به. يقال أقص الحاكم فلانًا من فلان به فأمثله فامتثل منه، أى: اقتص منه»(١)

فمادة القصاص تدل على التساوى والتماثل والتتبع.

والقتلى جمع قتيل، والقتيل من يقتله غيره من الناس.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا فرض عليكم وأوجب القصاص بسبب القتلى. بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة التى قررها الشارع الحكيم، فلا يجوز لكم أن تقتلوا غير القاتل، كما لا يجوز لكم أن تسرفوا فى القتل بأن تقتلوا القاتل وغيره من أقاربه.

فمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول فيقتل به. وقد بين العلماء أن القصاص يفرض عند القتل الواقع على وجه التعمد والتعدى، وعند مطالبة أولياء القتيل بالقود - أى القصاص - من القاتل.

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٤٥ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٣ هـ.

ولفظ «فى» فى قوله - تعالى - : ﴿فى القتلى﴾ للسببية، أى : فرض عليكم القصاص بسبب القتلى. كما فى قوله ﷺ «دخلت امرأة النار فى هرة» أى بسببها.

وصدرت الآية بخطاب ﴿الذين آمنوا﴾، تقوية لداعية إنفاذ حكم القصاص الذى شرعه الخبير بنفوس خلقه، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل صاحبه على تنفيذ شريعة الله التى شرعها لإقامة الأمان والاطمئنان بين الناس، ولسد أبواب الفتن التى تحل عرا الألفة والمودة بينهم.

وقد وجه - سبحانه - الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من حق الحاكم لإشعارهم بأن عليهم جانبًا من التبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التى شرعها الله.

وإذا لم يقيموها بالطريقة التى بينتها شريعته، ولإشعارهم كذلك بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل. وذلك بتسليم الجانى إلى المكلفين بحفظ الأمن، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل، وغير ذلك من وجوه المساعدة.

وقوله - تعالى - : ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى﴾ بيان لمعنى المساواة فى القتل المشار إليها بلفظ القصاص فالجملة تتمة لمعنى الجملة السابقة، ومفادها أنه لا يقتل فى مقابل المقتول سوى قاتله، لأن قتل غير الجانى ليس بقصاص بل هو اعتداء يؤدى إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وقد يفهم من مقابلة ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ أنه لا يقتل صنف بصنف آخر، وهذا الفهم غير مراد على إطلاقه، فقد جرى العمل منذ عهد رسول الله ﷺ على قتل الرجل بالمرأة.

قال القرطبى : «أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل»(١).

والخلاف فى قتل الحر بالعبد. فبعض العلماء يرى قتل الحر بالعبد، وبعضهم لا يرى ذلك، ولكل فريق أدلته التى يمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه.

والغرض الذى سيقت من أجله الآية الكريمة، إنما هو وجوب تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة وإبطال ما كان شائعا فى الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصا لا ترضى حتى تقتل فى مقابلة من الضعيفة أشخاصًا. وإذا قتلت منها عبدًا تقتل فى مقابله حرًا أو أحرارًا، وإذا قتلت منها أنثى قتلت فى نظيرها رجلا أو أكثر. فيترتب على

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٤٨.

ذلك ان ينتشر القتل، ويشيع الفساد، وقد حكى لنا التاريخ كثيرًا مما فعله الجاهليون فى هذا الشأن.

قال الإمام البيضاوى عند تفسيره لهذه الآية : كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله - ﷺ فنزلت هذه الآية. وهى لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى، كما لا تدل على عكسه، فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم»[1].

ثم أورد - سبحانه - بعد إيجابه للقصاص العادل - حكمًا يفتح باب التراضى، بين القاتل وأولياء المقتول، بأن أباح لهم أن يسقطوا عنه القصاص إذا شاؤوا ويأخذوا فى مقابل ذلك الدية، فقال - تعالى - : ﴿فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾.

عُفِى : من العفو وهو الإسقاط. والعفو عن المعصية، ترك العقاب عليها. والذى عفى له هو القاتل، و ﴿أخيه﴾ الذى عفا هو ولى المقتول. والمراد بلفظ ﴿شىء﴾ القصاص، وهو نائب فاعل ﴿عفى﴾.

والمعنى : أن القاتل عمدًا إذا أسقط عنه أخوه ولى دم القتيل القصاص، راضيا أن يأخذ منه الدية بدل القصاص، فمن الواجب على ولى الدم أن يتبع طريق العدل فى أخذ الدية من القاتل بحيث لا يطالبه بأكثر من حقه، ومن الواجب كذلك على القاتل أن يدفع له الدية بالطريق الحسنى، بحيث لا يماطله ولا يبخسه حقه.

فقوله - تعالى - : ﴿فاتباع بالمعروف﴾ وصية منه - سبحانه - لولى الدم أن يكون رفيقًا فى مطالبته القاتل بدفع الدية.

وقوله : ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ وصية منه - سبحانه - للقاتل بأن يدفع الدية لولى الدم بدون تسويف أو مماطلة.

وفى هذه الوصايا تحقيق لصفاء القلوب، وشفاء لما فى الصدور من آلام، وتقوية لروابط الأخوة الإنسانية بين البشر.

وبعضهم فسر العفو بالعطاء فيكون المعنى : فمن اعطى له وهو ولى المقتول من أخيه وهو القاتل شيئًا وهو الدية، فعلى ولى المقتول اتباعه بالمعروف، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان.

وسمى القرآن الكريم القاتل أخا لولى المقتول، تذكيرًا بالأخوة الإنسانية والدينية، حتى يهز

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٣٦.

عطف كل واحد منهما إلى الآخر، فيقع بينهم العفو، والاتباع بالمعروف، والأداء بإحسان.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: عفى يتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله ﴿فمن عفى له﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجانى وإلى الذنب فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال - تعالى -: ﴿عفا الله عنك﴾ وقال: ﴿عفا الله عنها﴾. فإذا تعدى إلى الذنب والجانى معًا قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما فى الآية، كأنه قيل: فمن عفى عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية[1].

وجاء التعبير بلفظ شىء منكرًا لإفادة التقليل. أى: فمن عفى له من أخيه ما يسمى شيئًا من العفو والتجاوز ولو أقل قليل، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية، وذلك بأن يعفو بعض أولياء الدم، لأن القصاص لا يتجزأ.

وفى ذلك تحبيب من الشارع الحكيم لولى الدم، فى العفو وفى قبول الدية، إذ العفو أقرب إلى صفاء القلوب، وتجميع النفوس على الإخاء والتعاطف والتسامح. وفيه - أيضا - إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من التعيير من قبول أخذ الصلح فى قتل العمد، وعدهم ذلك لونًا من بيع دم المقتول بثمن بخس. قال بعضهم يحرض قومه على الثأر.

فلا تأخذوا عَقْلاً من القوم إننى ... أرى العار يبقى والمعاقل تذهب

وقال شاعر آخر يَذْكُر قومًا لم يقبلوا الصلح عن قتيل لهم:

فلو أن حيا يقبل المال فدية ... لسقنا لهم سيبًا من المال مفعمًا

ولكن أبى قوم أصيب أخوهم ... رضا العار فاختاروا على اللبن الدما

ثم بين - سبحانه - أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر فقال: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾.

أى: ذلك الذى شرعناه لكم من تيسير أمر القصاص بأداء الدية إلى ولى القتيل إذا رضى طائعًا مختارًا، أردنا منه التخفيف عليكم إذ فى الدية تخفيف على القاتل بإبقاء حياته وإنقاذها من القتل قصاصًا، وفيها كذلك نفع لولى القتيل، إذ هذا المال الذى أخذه نظير عفوه يستطيع أن ينتفع به فى كثير من مطالب حياته.

وبهذا نرى أن الإسلام قد جمع فى تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة. إذ جعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به لا ينازعهم فى ذلك منازع وهذا عين الإنصاف والعدل.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٢.

وجعل الدية عوضًا عن القصاص إذا رضوا بها باختيارهم، وهذا عين الرحمة واليسر. وبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن فى حياتها؛ إذ العدالة هى التى تكسر شره النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجانى عن التمادى فى الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصا عادلا.

والرحمة هى التى تفتح الطريق أمام القلوب لكى تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتوادد بعد التعادى، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو. فلله هذا التشريع الحكيم الذى ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالوعيد الشديد لمن يتعدى حدوده، ويتجاوز تشريعه الحكيم فقال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾.

أى: فمن تجاوز حدوده بعد هذا التشريع الحكيم الذى شرعناه بأن قتل القاتل بعد قبول الدية منه، أو بأن قتل غير من يستحق القتل فله عذاب شديد الألم؛ من الله - تعالى - لأن الاعتداء بعد التراضى والقبول يدل على نكث العهد، ورقه الدين، وانحطاط الخلق.

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى مشروعية القصاص توطينًا للنفوس على الانقياد له، وتقوية لعزم الحكام على إقامته فقال - تعالى -: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ أى: ولكم فى مشروعية القصاص حياة عظيمة، فالتنوين للتعظيم.

قال صاحب الكشاف، وذلك أنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى قبيلة بكر بن وائل. وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة، أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه ارتدع فسلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين[1].

هذا وقد نقل عن العرب ما يدل على أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص ومن أقوالهم فى هذا الشأن: «قتل البعض إحياء للجميع، وأكثروا القتل ليقل القتل» وأجمعوا على أن أبلغ الأقوال التى عبروا بها عن هذا المعنى قولهم «القتل أنفى للقتل» وقد أجمع أولو العلم على أن قوله - تعالى -: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ أبلغ من هذه العبارة التى نطق بها حكماء العرب، بمقدار ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق، وذكروا أن الآية تفوق ما نطق به حكماء العرب من وجوه كثيرة من أهمها:

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٢٣.

١ - أن الآية جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل على وجه التساوى، أما العبارة العربية فقد جعلت سبب الحياة القتل، ومن القتل مايكون ظلمًا، فيكون سببا للفناء لا للحياة، وتصحيح هذه العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلما.

٢ - أن الآية جاءت خالية من التكرار اللفظى، فعبرت عن القتل الذى هو سبب الحياة بالقصاص. والعبارة كرر فيها لفظ القتل فمسها بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية.

٣ - أن الآية جعلت القصاص سببًا للحياة التى تتوجه إليها الرغبة مباشرة، والعبارة العربية جعلت القتل سببًا لنفى القتل الذى تترتب عليه الحياة.

٤ - الآية مبنية على الإثبات والمثل على النفى، والإثبات أشرف لأنه أول والنفى ثان له.

٥ - أن تنكير حياة فى الآية يفيد تعظيمًا، فيدل على أن فى القصاص حياة متطاولة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ ولا كذلك المثل. فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

٦ - تعريف ﴿القصاص﴾ بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل - وغير ذلك، والمثل لا يشمل ذلك.

٧ - أن الآية مع أفضليتها عن المثل من حيث البلاغة والشمول واللفظ والمعنى أقل حروفًا من المثل.

هذه بعض وجوه أفضلية الآية على المثل، وهناك وجوه أخرى ذكرها العلماء فى كتبهم[1].

وفى قوله: ﴿يا أولى الألباب﴾ تنبيه بحرف النداء على التأمل فى حكمة القصاص.

﴿والألباب﴾: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام، أو العقل الذكى الذى يستبين الحقائق بسرعة وفطنة، ويستخرج لطائف المعانى من مكانها ببراعة وحسن تصرف.

وخص النداء بأولى الألباب مع أن الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم لأنهم الذين يتدبرون عواقب الأمور، ويعرفون قيمة الحياة ويقدرون حكم التشريع قدرها.

وفى هذا النداء تنبيه على أن من ينكرون مصلحة القصاص وأثره النافع فى تثبيت دعائم الأمن، يعيشون بين الناس بعقول غير سليمة، ولا يزال الناس يشاهدون فى كل عصر ما يثيره القتل فى صدور أولياء القتلى من أحقاد طاغية، لولا أن القصاص يخفف من سطوتها لتمادت بهم فى تقاطع وسفك دماء دون الوقوف عند حد.

---

(١) راجع تفسير الألوسى جـ٢ ص ٥١.

وختمت الآية بهذه الجملة التعليلية ﴿لعلكم تتقون﴾ زيادة فى إقناع نفوسهم بأمر القصاص، أى: شرعنا لكم هذه الأحكام الحكيمة لتتقوا القتل حذرًا من القصاص، ولتعيشوا آمنين مطمئنين، ومتوادين متحابين.

وبهذا البيان الحكيم تكون الآيتان الكريمتان قد أرشدتا إلى ما يحمى النفوس، ويحقن الدماء، ويردع المعتدين عن الاعتداء، ويغرس بين الناس معانى التسامح والإخاء، ويقيم حياتهم على أساس من الرحمة والعدالة وحسن القضاء.

وبعد أن بين - سبحانه - ما يتعلق بالقصاص أتبعه بالحديث عن الوصية، ليرشد الناس إلى ما ينبغى أن تكون عليه، وليبطل ما كان من عوائد الجاهلية من وصايا جائرة فقال - تعالى - :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿كتب عليكم﴾ قد استفاض فى عرف الشرع بمعنى وجب عليكم.

و «حضور الموت» يقع عند معاينة الإنسان للموت ولعجزه فى هذا الوقت عن الإيصاء فسر بحضور أسبابه، وظهور أماراته، من نحو العلل المخوفة والهرم البالغ. وقد شاع عند العرب استعمال السبب كناية عن المسبب، ومن ذلك قول شاعرهم:

يـأيهـا الـراكب المزجى مـطيتـه   سائل بنى أسد ما هذه الصوت[1]
وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا   قـولا يبـرئكم إنى أنـا المـوت

(١) الصوت مذكر، وقد أنثه الشاعر هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة على معنى الصيحة - كما أفاده المعلق على القرطبى نقلا عن لسان العرب.

والخير: المال، وقالوا إنه هنا مختص بالمال الكثير، لأن مقام الوصية يشعر بذلك، ولم يرد نص من الشارع فى تقدير ما يسمى مالا كثيرًا، وإنما وردت آثار من بعض الصحابة والتابعين فى تقديره بحسب اجتهادهم، وبالنظر إلى ما يسمى بحسب العرف مالا كثيرًا فقال بعضهم: من ألف درهم إلى خمسمائة درهم، وقال بعضهم: من ألف درهم إلى ثمانمائة درهم. والحق أن هذا التقدير يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والعرف.

ويرى بعض العلماء أن الوصية مشروعة فى المال قليلة وكثيرة.

قال القرطبى: والوصية عبارة عن كل شىء يؤمر بفعله ويعهد به فى الحياة وبعد الموت، وخصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية. والوصى يكون الموصى والموصى إليه. وأصله من وصى مخففًا. وتواصى النبت تواصيًا إذا اتصل وأرض واصية: متصلة النبات. وأوصيت له بشىء. وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك. والاسم الوصاية والوصاية - بالفتح وبالكسر- وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضًا[1].

والمعنى: كتب عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت: من مرض ثقيل، أو شيخوخة مضعفة، وكان عنده مال كثير قد جمعه عن طريق حلال، أن يوصى بجانب منه لوالديه وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذى لا مضارة فيه بين الأقارب، والوصية على هذا الوجه تعتبر حقاً واجبًا على المتقين الذين اتخذوا التقوى والخشية من الله طريقًا لهم.

فالآية الكريمة استئناف لبيان الوصية بعد الحديث عن القصاص، وفصل القرآن الحديث عن الوصية عن سابقه للإشعار بأنه حكم مستقل جدير بالأهمية.

وقد جاء الحديث عن الوصية بتلك الطريقة الحكيمة، لتغيير ما كان من عادات بعض أهل الجاهلية، فإنهم كانوا كثيراً مانعون القريب من الإرث توهما منهم أنه يتمنى موت قريبة ليرثه، وربما فضلوا بعض الأقارب على بعض فيؤدى ذلك إلى التباغض والتحاسد، وربما فضلوا - أيضاً - الوصية لغير الأقارب للفخر والتباهى، فشرع الإسلام لأتباعه ما يقوى الروابط ويمنع التحاسد والتعادى.

قال الجمل: وكتب فعل ماض مبنى للمجهول، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله - تعالى - وفى القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الوصية، أى: كتب عليكم الوصية، وجاز تذكير الفعل لكون القائم

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٥٩.

مقام الفاعل مؤنثًا مجازيًا ولوجود الفصل بينه وبين مرفوعه.

والثانى: أنه الإيصاء المدلول عليه بقوله: «الوصية» للوالدين، أى: كتب هو، أى الإيصاء.

والثالث: أنه الجار والمجرور. وهذا يتجه على رأى الأخفش والكوفيين وعليه فيكون قوله: ﴿عليكم﴾ فى محل رفع، ويكون فى محل النصب على القولين الأولين وجواب كل من ﴿إذا﴾ و ﴿إن﴾ محذوف. أى: كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا فليوص[1].

والباء فى قوله: ﴿بالمعروف﴾ للملابسة، والجار والمجرور فى موضع الحال من الوصية.

والمراد بالمعروف هنا العدل الذى جاءت به الشريعة، بأن لا يتجاوز بالوصية الثلث، وأن لا يوصى للاغنياء ويترك الفقراء أو يوصى للقريب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقرًا ومسكنة.

وقوله: ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد للحدث الذى دل عليه ﴿كتب﴾ وعامله إما ﴿كتب﴾ أو فعل محذوف تقديره حق أى: حق ذلك حقًا.

وقوله: ﴿على المتقين﴾ صفة له. أى حقاً كائنًا على المتقين.

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيبًا فى الرضا به، لأن ما كان من شأن المتقى فهو أمر نفيس جدير أن يتأسى به الناس، ومن أهمله فقد حرم من الدخول فى زمرتهم، وخسر بذلك خسارة عظيمة.

قال بعض العلماء: وقد وردت هذه الآية فى الوصية للوالدين والأقربين، والمعروف عند الأمة منذ عهد السلف أن الوصية لا تصح لوارث، والوالدان لهما نصيب مفروض فى المواريث ومقتضاه عدم صحة الوصية لهما؟

ويزيح هذا الاشكال من طريق التفسير أن فريقًا من أهل العلم وهم جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن الآية قد نسخ منها حكم الوصية للوارث. وإيضاح وجه النسخ أن آية المواريث نزلت بعد آية الوصية فقامت مقامها فى الوصية للوارث ودل على هذا المعنى صراحة الحديث الشريف وهو قوله ﷺ: «إن الله أعطى كل ذى حق حقه، ألا لا وصية لوارث».

وهذا الحديث وإن لم يبلغ مبلغ الحديث المتواتر الذى يصح نسخه للقرآن بنفسه، فقد امتاز عن بقية أخبار الآحاد بأن الأمة تلقته بالقبول، وأخذوا فى العمل به من غير مخالف، فأخذ بهذا قوة الحديث المتواتر فى الرواية واعتمدوا عليه فى بيان أن آية المواريث قامت بتقدير الأنصباء فى الميراث مقام آية ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ فى الوصية للوارث. وروى البخارى فى صحيحه

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٤٤.

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

ومن أهل العلم من لم يستطيعوا أن يهملوا حديث «لا وصية لوارث» لاستفاضته بين الأمة وتلقيهم له بالقبول، فقرروا العمل به وأبطلوا الوصية لوارث ولكنهم ذهبوا مع هذا إلى أن آية الوصية للوالدين محكمة غير منسوخة وتأولوها على وجوه منها أن المراد من قوله : ﴿للوالدين﴾ الوالدان اللذان لا يرثان لمانع من الإرث كالكفر والاسترقاق، وقد كانوا حديثى عهد بالإسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقد أوصى الله بالإحسان إليهما»[1].

ثم توعد - سبحانه - من يبدل الوصية بطريقة لم يأذن بها الله فقال - تعالى - : ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾.

بدله : غيره. وتغيير الوصية يتأتى بالزيادة فى الموصى به أو النقص منه أو كتمانه، أو غير ذلك من وجوه التغيير للموصى به بعد وفاة الموصى.

سمعه : أى علمه وتحققه، وكنى بالسماع عن العلم لأنه طريق حصوله. والضمائر البارزة فى «بدله وسمعه وإثمه ويبدلونه» عائدة على القول أو على الكلام الذى يقوله الموصى والذى دل عليه لفظ الوصية أو على الإيصاء المفهوم من الوصية، وهو الإيصاء أو القول الواقع على الوجه الذى شرعه الله.

والمعنى : فمن غير الإيصاء الذى أوصى به المتوفى عن وجهه، بعدما علمه وتحققه منه، فإنما إثم ذلك التغيير فى الإيصاء يقع على عاتق هذا المبدل، لأنه بهذا التبديل قد خان الأمانة، وخالف شريعة الله، ولن يلحق الموصى شيئًا من الإثم لأنه قد أدى ما عليه بفعله للوصية كما يريدها الله - تعالى -.

وقد ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿إن الله سميع عليم﴾ للإشعار بالوعيد الشديد الذى توعد الله به كل من غير وبدل هذا الحق عن وجهه، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من حيل الناس الباطلة، فهو- سبحانه سميع لوصية الموصى، عليم بما يقع فيها من تبديل وتحريف.

ثم استثنى - سبحانه - حالة يجوز فيها التغيير فقال، «فمن خاف من موص جنفًا أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه».

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة استاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين. مجلة لواء الإسلام السنة الرابعة : العدد العاشر.

خاف : من الخوف، وهو فى الأصل حالة تعترى النفس عند الانقباض من شر يتوقع حصوله على سبيل الظن أو على سبيل العلم.

والجنف : الميل والجور. يقال : جنف فى وصيته وأجنف، مال وجار، فهو جنف وأجنف. وقيل : أجنف مختص بالوصية وجنف فى مطلق الميل عن الحق. ويقال : جنف وجنف عن طريقه جنفًا وجنوفًا.

والإثم : العمل الذى يبغضه الله. يقال : أثم فهو آثم وأثيم.

قال بعضهم : والمراد بالجنف هنا : الميل عن الحق فى الوصية خطأ، بقرينة مقابلته بالإثم وهو الميل عن الحق فيها عمدًا.

هذا، ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية الكريمة واردة فى الوصى يرى أن الموصِى قد حاد فى وصيته عن حدود العدل، فللوصى حينئذ أن يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ماشرعه الله، وهو فى هذه الحالة لا إثم عليه لأنه قد غير الباطل بالحق وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أن الوصى إذا رأى فى الوصية ميلا عن الحق خطأ أو عمدًا وأصلح بين الموصَى لهم يردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه فى التغيير فى الوصية. والضمير فى قوله : ﴿بينهم﴾ عائد على الموصَى لهم.

ويرى آخرون أن هذه الآية واردة فى شأن كل من يبغى الإصلاح من الناس، بأن يرى الموصِى يوصِى، فظهر له - أى هذا المصلح - أن الموصِى قد جانب العدل والصواب فى وصيته، فيأخذ فى الإصلاح، بأن يرشده بأن فعله هذا لا يتفق مع شريعة العدل التى أمر بها الله، ويحاول قدر استطاعته أن يزيل ما حدث من خلاف بين الموصِى والموصَى لهم.

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : إن خرج الموصِى فى وصيته عن حدود العدالة، ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من الناس، وتوقع أن شرًا سيترتب على هذه الوصية التى فيها جور، أو شاهد نزاعًا بين الموصى لهم بسبب ذلك، فلا إثم على هذا المصلح فى أن يصلح بين الموصِى والموصَى لهم، وأن يرشد الموصى إلى سلوك طريق العدل والحق. وعليه فيكون الضمير فى قوله : ﴿بينهم﴾ يعود على الموصى والموصَى لهم.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب، لأن سياق الآية يؤيده، إذ هى بمنزلة الاستثناء من قوله - تعالى - : ﴿فمن بدله بعد ماسمعه﴾. وهذا إنما يكون بعد موت الموصِى لا فى حياته.

وقوله : ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل أتى به - سبحانه - للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه، فإن من يغفر الذنوب ويرحم المذنبين تكون مغفرته ورحمته أقرب إلى من يقصد بعمله الإصلاح ولو اعتمد على ظن غالب أو أخطأ وجه الصواب فيما أتى من أعمال.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بينت للناس حكما آخر من أحكامها السامية، يتعلق بالوصية فى الأموال، وفى هذا الحكم دعوة إلى التراحم والتكافل، وغرس لأواصر المودة والمحبة بين الأبناء والآباء وبين الأقارب بعضهم مع بعض.

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن القصاص وعن الوصية أتبعتهما بالحديث عن عبادة عظيمة من العبادات التى جعلها الله - تعالى - ركنًا من أركان الإسلام وهى صوم رمضان، فقال - سبحانه -:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ
لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ
فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ
أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

الصيام مصدر صام كالقيام مصدر قام، وهو فى اللغة: الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، فيقال للصمت صوم لأنه إمساك عن الكلام ومنه قوله - تعالى - مخبرًا عن مريم: ﴿إنى

نذرت للرحمن صومًا﴾ أى : سكوتًا عن الكلام . وصوم الريح ركودها وإمساكها عن الهبوب . وتقول العرب : صام النهار وصامت الشمس عند قيام الظهيرة لأنها كالممسكة عن الحركة .

أما الصيام فى عرف الشرع فهو - كما يقول الألوسى - إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص فى زمان مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة .

وقد فرض الله - تعالى - على المسلمين صيام شهر رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، وعده النبى ﷺ أحد أركان الإسلام الخمسة، فقد روى البخارى - بسنده - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان .

وأل فى الصيام للعهد الذهنى، فقد كان العرب يعرفون الصوم، فقد جاء فى الصحيحين عن عائشة قالت : كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش والجاهلية » .

والتشبيه فى قوله - تعالى - : ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ راجع إلى أصل إيجاب الصوم وفريضته . أى : أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ يبين لنا فيه كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية .

وقيل إن التشبيه راجع إلى وقت الصوم وقدره، فقد روى عن مجاهد أنه قال : كتب الله - عز وجل - صوم شهر رمضان على كل أمة .

وهذا القول ليس له دليل، ولذا قال القاضى أبو بكر بن العربى : المقطوع به أن التشبيه فى الفرضية خاصة، وسائر الوجوه مجرد احتمال .

ولفظ «كما» فى قوله - تعالى - : ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ فى موضع نصب على المصدر، أى : فرض عليكم الصيام فرضًا كالذى فرض على الذين من قبلكم .

ومن فوائد هذا التشبيه، الاهتمام بهذه العبادة والتنويه بشأنها إذ شرعها - سبحانه - لأتباع النبى ﷺ ولأتباع الرسل الذين سبقوه فى الدعوة إلى توحيد الله، وهذا مما يقتضى وفرة ثوابها، ودوام صلاحها .

كذلك من فوائده تسهيل هذه العبادة على المسلمين؛ لأن الشيء الشاق تخف مشقته على الإنسان عند ما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

والفائدة الثالثة من هذا التشبيه إثارة العزائم والهمم للنهوض بهذه العبادة، حتى لا يكونوا

مقصرين فى أدائها، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة تفوق من سبقهم لأن الأمة الإسلامية قد وصفها سبحانه بأنها خير أمة أخرجت للناس وهذه الخيرية تقتضى منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات.

وقوله: ﴿ لعلكم تتقون﴾ جملة تعليلية جىء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام فكأنه - سبحانه - يقول لعباده المؤمنين: فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تنالون درجة التقوى والخشية من الله، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه. ولا شك أن هذه الفريضة ترتفع بصاحبها إلى أعلى عليين متى أداها بآدابها وشروطها، ويكفى أن الرسول ﷺ قد قال فى شأن الصوم: «الصوم جنة»(١) أى: وقاية. إذ فى الصوم وقاية من الوقوع فى المعاصى، ووقاية من عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الإفراط فى تناول بعض الأطعمة والأشربة.

وقوله: ﴿أيامًا معدودات﴾ أى: معينات بالعد أو قليلات، لأن القليل يسهل عده فيعد والكثير يؤخذ جزافًا.

والمراد بهذه الأيام المعدودات شهر رمضان عند جمهور العلماء.

قالوا: وتقريره أنه - تعالى - قال أولا ﴿كتب عليكم الصيام﴾ وهذا محتمل ليوم ويومين ثم بينه بقوله ﴿أيامًا معدودات﴾ فزال بعض الاحتمال ثم بينه بقوله: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ فعلى هذا الترتيب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان، وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمله على غيره(٢).

وإنما عبر عن رمضان بأيام وهى جمع قلة ووصف بمعدودات وهى جمع قلة - أيضًا - تهوينا لأمره على المكلفين، وإشعارًا لهم بأن الله - تعالى - ما فرض عليهم إلا ما هو فى وسعهم وقدرتهم.

وقيل:إن المراد بالأيام المعدودات غير رمضان، وذكروا أن المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر وهى الأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر مضافًا إليها يوم عاشوراء. ثم نسخ ذلك بوجوب صوم شهر رمضان.

والمعتمد بين المحققين من العلماء هو القول الأول، لأنه - كما قال الإمام الرازى - لا وجه لحمله على غيره، والقول بالنسخ زيادة لا دليل عليها.

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى فى كتاب الصوم جـ٣ ص ٣١.
(٢) تفسير الرازى جـ ٥ ص ٧٨.

وقوله : ﴿أيامًا﴾ منصوب على الظرفية، أو بفعل مضمر مقدر أى : صوموا أيامًا. وقوله : ﴿فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ زيادة بيان ليسر شريعة الإسلام بعد أن أخبرهم - سبحانه - بأن الصوم المفروض عليهم إنما هو أيام معدودات، وتعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلا يظنوا وجوب الصوم عليهم فى كل حال.

والمرض : الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، بأن يصاب بانحراف فى جسده يجعله فى حالة وجع أو اضطراب بدنى.

قال القرطبى : وللمريض حالتان :

إحداهما : ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجبًا.

الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر. . فالفطر مباح فى كل مرض إلا المرض اليسير الذى لا كلفة معه فى الصيام(١).

وقوله : ﴿أو على سفر﴾ قال الآلوسى معناه : أو راكب سفر مستعل عليه متمكن منه، بأن اشتغل به قبل الفجر، ففيه إيماء إلى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر. واستدل بإطلاق السفر على أن السفر القصير وسفر المعصية مرخص للإفطار. وأكثر العلماء على تقييده بالمباح وبما يلزمه العسر غالبًا وهو السفر إلى المسافة المقدرة فى الشرع»(٢).

والعدة فعلة من العد، وهى بمعنى المعدود، كالطحن بمعنى المطحون ومنه عدة المرأة.

والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم أيها المؤمنون، وجعلناه كما هو الشأن فى كل ما شرعناه متسمًا باليسر لا بالعسر، ومن مظاهر ذلك أننا فرضنا عليكم صوم أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان، ولم نفرض عليكم صوم الدهر. وأننا شرعنا لمن كان مريضًا مرضا يضره الصوم أو يعسر معه، أو كان على سفر يشق عليه معه الصوم، شرعنا له أن يفطر وأن يصوم بدل الأيام التى أفطرها أياما آخر مساوية لها فى العدد.

قال الإمام الرازى : قال القفال : أنظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته فى هذا التكليف، إذ أنه بين فى أول الآية أن لهذه الأمة فى هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة، والغرض منه ماذكرناه من أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت. ثم ثانيا بين وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وهو أنه سبب لحصول التقوى فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف، ثم بين ثالثا أنه مختص بأيام معدودة فإنه لو جعله أبدًا أو أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة. ثم بين

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٧٦ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٥٨.

رابعا : أنه خصه من الأوقات بالشهر الذى أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة. ثم بين خامسًا : إزالة المشقة فى إلزامه فأباح تأخيره لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون. فهو - سبحانه - راعى فى ايجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمه كثيرًا»(١).

هذا، وقد نص الفقهاء على أن الافطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر، وهما بالخيار فى ذلك إن شاءا أفطرا وإن شاءا صاما، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه.

والذى نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج. والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته وينتفى حيث تنتفى. وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر صام عملا بقوله - تعالى - : ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾. وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقًا عليه أفطر عملا بقوله - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه.

والثابت عن رسول الله ﷺ أنه صام فى السفر وأفطر، وخير بعض أصحابه بين الصوم والفطر. فقد روى البخارى ومسلم عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع النبى ﷺ «وفى إحدى روايتى مسلم - فى شهر رمضان -، فى يوم حار، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبى ﷺ وابن رواحه».

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن قزعة قال : أتيت أبا سعيد الخدرى فسألته عن الصوم فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، قال : فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم، فكانت رخصة. فمنا من صام ومنا من أفطر. ثم نزلنا منزلا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا. وكانت عزمة فأفطرنا. ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك فى السفر.

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كنا نسافر مع النبى ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

وهناك مسألة أخرى تعرض لها الفقهاء بالحديث وهى مسألة قضاء الأيام التى أفطرها

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٨٠.

المريض أو المسافر هل يقضيها متتابعة أو متفرقة وهل يقضيها على الفور أو على التراخى؟

وجمهور الفقهاء على أن للمفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر أن يقضى ما أفطره متتابعًا أو متفرقًا؛ لأن قوله - تعالى - : ﴿فعدة من أيام أخر﴾. دل على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان، لأن اللفظ - كما قال القرطبى - مسترسل على الأزمان لا يختص ببعضها دون بعض. وله كذلك أن يقضى ما عليه على الفور أو على التراخى على حسب ما يتيسر له. ففى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: يكون علىَّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا فى شعبان، وذلك لمكان رسول الله ﷺ وهذا نص وزيادة بيان للآية».

ويرى داود الظاهرى أن على المفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر أن يشرع فى قضاء ما أفطره فى اليوم الثانى من شوال المعاقب له، وأن يتابع أيام القضاء.

والمعتمد بين العلماء هو قول الجمهور لقوة أدلته التى سبق بيانها.

وقوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان يتجلى فيه تيسير الله على عباده فيما شرع لهم من عبادات.

ومعنى ﴿يطيقونه﴾ يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشىء مع الشدة والمشقة، والوسع اسم للقدرة على الشىء على جهة السهولة.

قال الراغب: والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشىء، ومنه ﴿ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه: «لا تحملنا ما لا قدرة لنا به»(١).

والعرب لا تقول فلان أطاق الشىء إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر. فلا يقال - مثلا - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد، وإنما يقال: هو يطيق حمل قنطارين من الحديد أو حمل الأمتعة الثقيلة.

وللعلماء أقوال فى المراد بقوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أشهرها:

١ - إن هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيره الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء، وكان ذلك فى بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم، فرخص لهم فى الإفطار والفدية، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم.

ويشهد لهذا القول ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال: لما نزلت هذه الآية

(١) مفردات القرآن ص ٣١٢ للراغب الأصفهانى.

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من أراد أن يفطر ويفتدى، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها.

وفى رواية للإمام مسلم من طريق آخر عن سلمة - أيضًا - قال : كنا فى رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين حتى أنزلت هذه الآية ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾.

٢ - ويرى بعض العلماء أن قوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ إلخ، ليس بمنسوخ بل هو محكم، وأنه نزل فى شأن الشيخ الكبير الهرم، والمرأة العجوز، إذا كانا لا يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينا.

وأصحاب هذا الرأى يستدلون بما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكينًا».

٣ - وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه أن قوله - تعالى - ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ ليس بمنسوخ - أيضًا - بل هو محكم، وأن معنى الآية عندهم : وعلى الذين يطيقونه، أى : يقدرون على الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن يفطروا أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكينًا. (بأن يقدموا له نصف صاع من بر أو صاعا من تمر أو شعير، أو قيمة ذلك).

ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأى الثانى - وإنما أدخلوا فى حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ومن فى حكمها ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة.

وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية، إذا أن الوسع اسم للقدرة على الشىء على جهة السهولة، والطاقة اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة - كما سبق أن بينا -، كما يستدلون - أيضًا - على ما ذهبوا إليه بقراءة ﴿يطيقونه﴾ - بضم الياء الأولى وتشديد الياء الثانية - أى يتجشمونه، ويتكلفونه بمشقة وتعب، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى بناء على أن منطوق الآية يؤيده.

كما انتصر بعضهم للرأى الأول بناء على أن الاحاديث الصحيحة تسانده وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية فى التدرج فى تشريع التكاليف التى فيها مشقة على الناس، كما انتصر بعضهم للرأى الثانى الذى روى عن ابن عباس.

وهناك أقوال أخرى فى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحًا لضعفها.

وقوله : ﴿فمن تطوع خيرًا فهو خير له﴾ حض من الله - تعالى - لعباده على الإكثار من عمل الخير.

والتطوع : السعى فى أن يكون الإنسان فاعلا للطاعة باختياره بدون إكراه والخير : مصدر خار إذا حسن وشرف، وهو منصوب لتضمين تطوع معنى أتى، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعًا خيرًا.

والمعنى : فمن تطوع خيرًا بأن زاد على القدر المفروض فى الفدية، أو أطعم أكثر من مسكين، أو جمع بين الإطعام والصوم، فتطوعه سيكون خيرًا عند الله - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وقوله : ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ترغيب فى الصوم وتحبيب فيه. أى : وأن تصوموا أيها المطيقون للصوم، أو أيها المكلفون جميعًا خير لكم من كل شىء سواه، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم فى حياتكم، وحسن جزائه فى آخرتكم.

روى النسائى وابن خزيمة عن أبى أمامه رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرنى بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له - أى لا يعادل ثوابه بشىء - فقلت يارسول الله مرنى بعمل، فقال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له. فقلت : يارسول الله مرنى بعمل أدخل به الجنة. فقال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له»[١].

وقوله : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التى كتب علينا الصوم فيها وأنها أيام شهر رمضان الذى يستحق كل مدح وثناء لتشرفه بنزول الكتب السماوية فيه.

قال الإمام ابن كثير: يمدح - تعالى - شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، فقد ورد فى الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء فعن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان[٢].

و﴿الشهر﴾ مأخوذ من الشهرة، يقال : شهر الشىء يشهر شهرة وشهرًا إذا ظهر بحيث لا يتعذر علمه على أحد، ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته قال بعضهم : وسمى الهلال

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ٨٥ من «كتاب الصوم».
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢١٦.

شهرًا لشهرته وبيانه، وبه سمى الشهر شهرًا .

و ﴿رمضان﴾ اسم لهذا الشهر الذى فرض علينا صيامه، وهو مأخوذ - كما قال القرطبى - من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش والرمضاء: شدة الحر، ومنه الحديث: صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال» - أى صلاة الضحى - قيل: إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك. وقيل إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب، أى: يحرقها بالأعمال الصالحة»(١).

وقوله: ﴿شهر رمضان﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هى شهر رمضان أى: الأيام المعدودات، وقوله: ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ صفة للشهر.

ويجوز أن يكون قوله ﴿شهر﴾ مبتدأ وخبره الموصول بعده، أو خبره قوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وصح وجود الفاء فى الخبر لكون المبتدأ موصوفًا بالموصول الذى هو شبه بالشرط. وقرىء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف. أى: صوموا شهر رمضان.

و« القرآن » هو كلام الله المعجز المنزل على محمد ﷺ المكتوب فى المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.

والمراد بإنزال القرآن فى شهر رمضان إبتداء إنزاله فيه، وكان ذلك فى ليلة القدر. بدليل قوله - تعالى - ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ أى بدأنا إنزال القرآن فى هذه الليلة المباركة، إذ من المعروف أن القرآن استمر نزوله على النبى ﷺ ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة.

وقيل المراد بذلك، انزل فى فضله القرآن، قالوا: ومثله أن يقال: أنزل الله فى أبى بكر الصديق كذا آية، يريدون أنزل فى فضله.

وقيل المراد أنزل فى إيجاب صومه على الخلق القرآن، كما يقال: أنزل الله فى الزكاة كذا وكذا، يريد فى إيجابها وأنزل فى الخمر كذا يريد فى تحريمها.

قال الآلوسى: وقوله - تعالى - : ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان لازمان من القرآن والعامل فيهما أنزل. أى: أنزل وهو هداية للناس بإعجازه المختص به كما يشعر بذلك التنكير، وآيات واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق والفارقة بين الحق والباطل باشتماله على المعارف الإلهية والأحكام العملية، كما يشعر بذلك جعله بينات منها، فهو هاد بواسطة أمرين، مختص وغير مختص، فالهدى ليس مكررًا، وقيل: مكرر تنويهًا

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢٩١ بتصرف وتلخيص.

وتعظيمًا لأمره وتأكيدًا لمعنى الهداية كما تقول: عالم نحرير»[١].

وقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ يصح أن يكون شهد بمعنى حضر. كما يقال: فلان شهد بدرًا، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ أى: حضرها، فيكون المعنى: فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيما وليس عنده ما يمنعه من الصوم كمرض ونحوه، فليصمه؛ لأن صيامه ركن من أركان الدين، وعليه يكون لفظ «الشهر» منصوب على الظرفية.

ويصح أن يكون شهد بمعنى علم كقوله - تعالى -: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾.

فيكون المعنى: فمن علم منكم هلال الشهر وتيقن من ظهوره فليصمه.

وعليه يكون لفظ «الشهر» منصوب على أنه مفعول به بتقدير المضاف المحذوف و ﴿من﴾ موصولة أو شرطية وهو الأظهر و ﴿منكم﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى شهد فيتعلق بمحذوف أى: كائنًا منكم. والضمير فى «منكم» يعود على الذين آمنوا، أى كل من حضر منكم الشهر فليصمه و(أل) فى الشهر للعهد.

وأعيد ذكر الرخصة فى قوله - تعالى - ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر، لئلا يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنه خير، أنه قد صار متحتمًا بحيث لا تتناوله الرخصة بوجه من الوجوه أو تتناوله ولكنها مفضولة، وفى ذلك عناية بأمر الرخصة وأنها محبوبة له - تعالى -

وقوله - تعالى -: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ بيان لحكمة الرخصة.

أى: شرع لكم - سبحانه - الفطر فى حالتى المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر والسهولة. ولا يريد بكم العسر والمشقة. قال - تعالى -: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا﴾ وقال - تعالى -: ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى حين بعثهما إلى اليمن: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

وقوله - تعالى -: ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ معطوف على قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ إذ هذه الجمل الأربع تعليل لما قبلها من قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ إلى قوله: ﴿فعدة من أيام أخر﴾.

والمعنى: شرع لكم - سبحانه - ماشرع من أحكام الصيام، ورخص لكم الفطر فى حالتى

(١) تفسير الألوسى جـ٢ ص ٦١.

المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولأنه يريد منكم أن تكملوا عدة الشهر بأن تصوموا أيامه كاملة فتحصلوا خيراته ولا يفوتكم شيء من بركاته، ومن لم يستطع منكم أداء الصوم فى هذا الشهر لعذر فعليه قضاء مافاته منه فى أيام أخر ويريد منكم أن تكبروه - سبحانه - أى تحمدوه وتعظموه، فهو وحده الذى هداكم إلى تلك الأحكام النافعة التى فيها صلاحكم وسعادتكم ويريد منكم أن تشكروه بأن تواظبوا على الثناء عليه، وعلى استعمال نعمه فيما خلقت له فهو - سبحانه - الرءوف الرحيم بعباده، إذ شرع لهم ما فيه اليسر لا ما فيه العسر.

وقد دلت الآية الكريمة على الأمر بالتكبير إذ جعلته مما يريده الله - تعالى - ولهذا جاءت السنة باستحباب التحميد والتسبيح والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وفى عيدى الفطر والأضحى يكون تكبير الله - تعالى - هو مظهرهما الأعظم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أكمل بيان وأحكمه فضل الصوم، وحكمة مشروعيته ومظاهر رحمة الله بعباده فى هذه الفريضة، وقد ذكرت أن المسلم له بشأن هذه الفريضة حالة من حالات ثلاث:

الحالة الأولى: إذا كان المسلم فى شهر رمضان كله أو بعضه مريضًا بمرض عارض غير مزمن يرجى الشفاء منه، أو مسافرًا تتوفر فيه شروط الفطر، فله أن يفطر وأن يقضى بعد رمضان الأيام التى أفطرها بدليل قوله - تعالى -: ﴿فمن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾.

الحالة الثانية: إذا كان المسلم فى شهر رمضان مريضًا بمرض مزمن لا يرجى شفاؤه والصوم فيه مشقة عليه، أو كان شيخًا كبيرًا أو امرأة عجوزًا ولا يستطيعان الصوم، فقد أباح الشارع لهؤلاء أن يفطروا وأن يطعموا عن كل يوم مسكينًا، لأن هذه الاعذار لا يرجى زوالها، ولا ينتظر أن يكون المبتلى بعذر منها بعد رمضان خيرًا منه فى رمضان، لذا أوجب الشارع على هؤلاء الفدية دون القضاء، بدليل قوله - تعالى -: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾.

الحالة الثالثة: إذا كان المسلم فى شهر رمضان سليما مقيما وليس عنده عذر يمنعه من الصوم، فقد أوجب الله عليه أداء هذه الفريضة بقوله - تعالى -: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ويحرم عليه أن يفطر، وإن أفطر لغير عذر شرعى كان من الخاسرين فى الدنيا والآخرة، ففى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه - أى لم يجزه - صوم الدهر كله وإن صامه»[1].

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ١٠٨.

أى : لو حصل منه صوم طول حياته فلن يدرك ثواب ما ضيع بسبب فطره بغير عذر شرعى.

والأحاديث فى الترغيب فى صوم شهر رمضان، وفى الترهيب من الفطر فيه كثيرة متنوعة.

ثم بين - سبحانه - أن العباد إذا حافظوا على فرائضه، واستجابوا لأوامره، وابتعدوا عن نواهيه، فإنه - عز وجل - لا يرد لهم طلبًا ولا يخيب لهم رجاء فقال:

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قال الإمام البيضاوى فى وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من آيات الصيام: واعلم أنه - تعالى - لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم، مجيب لدعائهم، مجاز على أعمالهم تأكيدًا له وحثًا عليه»

وروى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما أخرجه بن جرير وابن أبى حاتم أن أعرابيًا جاء إلى النبى ﷺ فقال: أقريب ربنا فنناجيه - أى: ندعوه سرا - أم بعيد فنناديه؟ فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية(١).

ومنها ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن الحسن قال: سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية(٢).

والمعنى: وإذا سألك عبادى يا محمد عن قربى وبعدى فقل لهم: إنى قريب منهم بعلمى ورحمتى وقدرتى وإجابتى لسؤالهم. قال - تعالى - : ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ :

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أنه قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير. فقال النبى ﷺ: ايها الناس اربعوا على أنفسكم - أى أرفقوا بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعًا بصيرًا وهو معكم، والذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٨.
(٢) تفسير البيضاوى ص ٣٩.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٨.

فقوله - تعالى - : ﴿فإنى قريب﴾ تمثيل لكمال علمه - تعالى - بأفعال عباده وأقوالهم، واطلاعه على سائر أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم إذ القرب المكانى محال على الله - تعالى -.

وفى الآية الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام، إلى خطاب النبى ﷺ بأن يذكرهم ويعلمهم ما يجب عليهم مراعاته فى سائر عبادتهم من الإخلاص والأدب والتوجه إلى الله وحده بالسؤال.

ولم يصدر الجواب بقل أو فقل كما وقع فى أجوبة مسائلهم الواردة فى آيات أخرى، نحو ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا﴾ بل تولى - سبحانه - جوابهم بنفسه إشعارًا بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوى الحاجات.

والمراد بالعباد الذين أضيفوا إلى ضمير الجلالة هم المؤمنون لأن الحديث عنهم، ولأن سياق الآيات فى بيان أحكام الصوم وفضائله وهو خاص بالمؤمنين، وقد أضيفوا إلى ضمير الجلالة لتشريفهم وتكريمهم.

وقوله - تعالى - : ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ تقرير للقرب وتحقيق له، ووعد للداعى بالإجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم، ونفس صافية، وجوارح خاشعة، ولقد ساق لنا القرآن فى آيات كثيرة أمثلة لعباد الله الذين توجهوا إليه بالسؤال، فأجاب الله سؤالهم، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾.

وورد فى الحديث ما يدل على أن العبد إذا دعا الله - تعالى - بما فيه خير، لم يخب عند الله دعاؤه، ولكن لا يلزم أن يعطيه - سبحانه - نفس ما طلبه، لأنه هو الأعلم بما يصلح عباده. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل إليه دعوته، وإما أن يدخرها له فى الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

وقوله - تعالى - : ﴿فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ توجيه منه - سبحانه - إلى ما يجعل الدعاء مرجو القبول والإجابة.

والاستجابة: هى الإجابة بعناية واستعداد، والسين والتاء للمبالغة.

والرشد : الاهتداء إلى الخير وحسن التصرف فى الأمر من دين أو دنيا يقال : رشد ورشد يرشد ويرشد رشدًا، أى اهتدى.

والمعنى : لقد وعدتكم يا عبادى بأن أجيب دعاءكم إذا دعوتمونى، وعليكم أنتم أن تستجيبوا لأمرى، وأن تقفوا عند حدودى، وأن تثبتوا على إيمانكم بى، لعلكم بذلك تصلون إلى ما فيه رشدكم وسعادتكم فى الحياتين العاجلة والآجلة. وأمرهم - سبحانه - بالإيمان بعد الأمر بالاستجابة، لأنه أول مراتب الدعوة، وأولى الطاعات بالاستجابة.

قال الحافظ ابن كثير: وفى ذكره - تعالى - هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر، كما روى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر جمع أهله وولده ودعا. وروى ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبى ﷺ : «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى» وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[١].

هذا والحديث عن الدعاء وعن فضله وعن آدابه وشروطه وفوائده وجوامعه وغير ذلك مما يتعلق به قد بسطناه فى غير هذا المكان فليرجع إليه من شاء[٢].

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الدعاء، عاد القرآن إلى الحديث عن أحكام الصيام، وعن مظاهر رحمة الله بعباده فيما شرع لهم فقال - تعالى - :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْـَٔانَ بَٰشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢١٩.
(٢) راجع كتاب (الدعاء) للمؤلف طبع مجمع البحوث : الكتاب السادس والخمسون.

ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

روى بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أحاديث تفيد أن المسلمين كانوا عند ما فرض صيام شهر رمضان. إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويقربون النساء مالم يناموا، فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك الطعام والشراب وقربان النساء حتى يفطروا من الغد.

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما أخرجه الإمام أحمد وابن جرير وابن حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه. قال : كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من عند النبى ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده، فأراد امرأته فقالتإنى قد نمت، فقال ما نمت ثم واقعها، وصنع كعب مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى ﷺ فأخبره فنزلت(١).

ومنها ما رواه البخارى عن البراء قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى. وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما وفى رواية : كان يعمل فى النخيل بالنهار وكان صائما. فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام؟ قالت : لا، ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته قالت : خيبة لك. فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا فرحًا شديدًا، ونزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾(٢).

وجمهور المفسرين - كما يقول الإمام الرازى - على أن هذه الآية من قبيل النسخ، لأنها قد نسخت ماكان حاصلا فى أول فرضية الصيام من أن الصائم إذا نام بعد فطره لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٦٤.
(٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣١٤.

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل النسخ وإنما هى إرشاد إلى ماشرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر الصوم من إباحة غشيان أزواجهن ليلا. ومن جواز الأكل والشرب، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وكأن الصحابة كانوا يتحرجون عن ذلك ظنًا منهم أنه من تتمة الصوم، ورأوا أن لاصبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلا، فبين الله لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه.

وأصحاب هذا الرأى يستشهدون لذلك بما رواه البخارى عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله - تعالى - ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾[1]. فالمقصود من الآية الكريمة عند هؤلاء رفع ما توهمه بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرهم؛ لأن الله - تعالى - رءوف رحيم بهم، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم.

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تسوق لنا لونا من ألوان رحمة الله - تعالى - بعباده فيما شرع لهم من فرائض وأحكام.

والمراد بليلة الصيام: الليلة التى يصبح فيها الإنسان صائما دون تحديد ليلة معينة من شهر رمضان، فالإضافة لأدنى ملابسة.

قال الجمل وقوله: ﴿ليلة الصيام﴾ منصوب على الظرف، وفى الناصب له ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو المشهور عند المعربين أنه أحل، وليس بشيء، لأن الإحلال ثابت قبل ذلك الوقت.

الثانى: أنه مقدر مدلول عليه بلفظ الرفث تقديره: أحل لكم أن ترفثوا ليلة الصيام.

الثالث: أنه متعلق بالرفث وذلك على رأى من يرى الاتساع فى الظرف والمجرورات[2]».

والرفث فى الأصل: الفحش من القول، وكلام النساء حين الجماع، كنى به عن المباشرة للزومه لها غالبًا. يقال رفث فى كلامه - كنصر وفرح وكرم - وأرفث، إذا أفحش فيه. والمراد به فى الآية الجماع والمباشرة.

وعدى بإلى - مع أن المستعمل الشائع أن يقال: رفث بالمرأة - لتضمنه معنى الإفضاء كما فى قوله - تعالى -: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣١٤.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٤٩.

والمعنى : أحل الله لكم فى ليالى صومكم الإفضاء إلى نسائكم ومباشرتهن وقوله - تعالى - ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ وارد مورد المقتضى لإباحة مباشرة النساء فى ليالى الصيام، ذلك أن كلا من الزوجين يسكن إلى صاحبه، ويكون من شدة القرب منه كالثوب الملابس له وكانت العرب تسمى المرأة لباسًا، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة، فمن رفقه - تعالى - بعباده أن أحلها لهم ليلة الصيام.

قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه سترًا لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء، كما أن اللباس ستر عنه أن يبدو منه السوء.

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما موقع قوله : ﴿هن لباس لكم﴾ قلت : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن، فلذلك رخص لكم فى مباشرتهن»[1].

وفى هذا التعبير القرآنى ما فيه من اللطافة والأدب وسمو التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستتار كل واحد منهما بصاحبه.

وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ جملة معترضة بين قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾ وبين قوله : ﴿فالآن باشروهن﴾ إلخ. وقد جىء بها لبيان حالهم بالنسبة إلى ما فرط منهم، ولبيان مظهر من مظاهر لطف الله بهم، ورحمته إياهم.

وقوله : ﴿تختانون﴾ قال الراغب : الاختيان مراودة الخيانة، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[2].

والمعنى : علم الله - تعالى - أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة نسائكم ليلا، وعلى الأكل بعد النوم، قبل أن يظهر الفجر الصادق، بل إن بعضكم قد فعل ذلك، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع فى ليالى الصوم، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم، أى : محا أثر ما فعلتموه من الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك.

وجملة ﴿فتاب عليكم﴾ معطوفة على محذوف، والتقدير : فتبتم فتاب عليكم.

والذين لا يرون أن الآية ناسخة لحكم سابق عبر عن وجهة نظرهم صاحب المنار فقال : وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أى : تتنقصونها بعض ما أحل الله

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٢٣٠.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٦٣.

لها من اللذات توهما أن من قبلكم كان كذلك فيكون بمعنى التخون أى : النقص من الشيء أو معناه : تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئًا ثم لا تلتزمون العمل به فهو مبالغة من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأدلة ولم يقل تختانون الله كما قال فى آية أخرى «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم» للإشعار بأن الله - تعالى - لم يحرم عليهم بعد النوم فى الليل ما حرمه على الصائم فى النهار، وإنما ذهب بهم اجتهادهم إلى ذلك فهم قد خانوا أنفسهم فى اعتقادها، فكانوا كمن يتغشى امرأته ظانًا أنها أجنبية، فعصيانة بحسب اجتهاده لا بحسب الواقع، فهم على أية حال كانوا عاصين بما فعلوا محتاجين إلى التوبة والعفو ولذلك قال ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾(1).

وقوله - تعالى - : ﴿فالآن باشروهن﴾ الأمر فيه للإباحة وهو مرتب على قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

ولفظ ﴿الآن﴾ يطلق حقيقة على الوقت الذى أنت فيه، وقد يقع على الماضى القريب منك وعلى المستقبل القريب الوقوع تنزيلا له منزلة الحاضر وهو المراد هنا.

و ﴿باشروهن﴾ من المباشرة وأصلها اتصال البشرة بالبشرة، وكنى بها القرآن عن الجماع الذى يستلزمها.

وقوله - تعالى - : ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ تأكيد لما قبله. والابتغاء الطلب والمعنى : لقد أبحنا لكم الإفضاء إلى نسائكم فى ليالى رمضان بعد أن كان محرمًا عليكم فضلا منا ورحمة بكم فالآن باشروهن واطلبوا من وراء هذه المباشرة ماكتبه لكم الله من الذرية الصالحة ومن التعفف عن إتيان الحرام.

وفى هذا إشعار بأن النكاح شرع ليبتغى به النسل حتى يتحقق ما يريده الله - تعالى - من بقاء النوع الإنسانى، ومن صيانة المرء نفسه عن الوقوع فى فاحشة الزنا.

وقوله - تعالى - : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ معطوف على باشروهن.

والمقصود من الخيط الأبيض : أول مايبدو من الفجر الصادق المعترض فى الأفق قبل إنتشاره.

والمقصود من الخيط الأسود : مايمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل.

---

(1) تفسير المنار جـ ٢ ص ١٧٦.

والمعنى : لقد أبحنا لكم مباشرة النساء فى ليالى الصوم، وأبحنا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا فى هذه الليالى حتى يتبين لكم بياض الفجر من سواد الليل.

قال الإمام الرازى : ﴿والفجر﴾ مصدر قولك : فجرت الماء أفجره فجرًا، وفجرته تفجيرًا، قال الأزهرى : الفجر أصله الشق، فعلى هذا الفجر فى آخر الليل هو انشقاق ظلمة الليل بنور الصبح.

وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن قوله : ﴿من الفجر﴾ قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له. ففى الصحيحين عن سهل بن سعد قال أنزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ولم ينزل من الفجر﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ويأكل حتى يتبين له رؤيتها، فأنزل الله بعده ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعنى الليل والنهار.

ورويا أيضًا عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ عمدت إلى عقالين لى أسود وأبيض فجعلتهما تحت وسادتى وجعلت أنظر فى الليل إليهما فلا يتبين لى، فعمدت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك فقال : «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» ونزل قوله - تعالى - : ﴿من الفجر﴾.

وشبه بياض النهار وسواد الليل بالخيطين : الأبيض والأسود لأن أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غبش الليل يكون كالخيط الممدود.

وفى الإتيان بلفظ التفعل فى قوله : ﴿حتى يتبين . .﴾ إشعار بأنه لا يكفى إلا التبين الواضح لا مجرد التوهم، فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يغرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر - أو قال - حتى ينفجر الفجر».

وقوله : ﴿من الفجر﴾ بيان للخيط الأبيض. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثانى، ويجوز أن تكون «من» للتبعيض، أى : من بعض الفجر.

وقوله - تعالى - : ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ بيان لإنتهاء وقت الصيام بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته. أى : ابدءوا صومكم من طلوع الفجر وانتهوا منه بدخول الليل عند غروب الشمس، إذ الليل لبس بوقت الصيام.

قال الإمام الرازى : كلمة ﴿إلى﴾ لإنتهاء الغاية، فظاهر الآية : أن الصوم ينتهى عند دخول الليل، وذلك لأن غاية الشىء مقطعه ومنتهاه وإنما يكون مقطعًا ومنتهى إذا لم يبق بعد ذلك. وقد تجىء هذه الكلمة لا للإنتهاء كما فى قوله - تعالى - : ﴿إلى المرافق﴾ إلا أن ذلك على

خلاف الدليل، والفرق بين الصورتين أن الليل ليس من جنس النهار فيكون الليل خارجًا عن حكم النهار، والمرافق من جنس اليد فيكون داخلا فيه».

وفى الصحيحين عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم».

وكان من عادته ﷺ تعجيل الفطر، فقد روى الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ومن عمل الرسول ﷺ وقوله، أن من واصل الإمساك عن المفطرات فى الليل فلا ثواب له على هذا الإمساك، لأنه لم يقع فى الوقت الذى رسمه الشارع لعبادة الصوم، بل يعد هذا المواصل فاعلا لمحظور، فلابد للصائم من تناول شيء من المفطرات بعد غروب الشمس ولو قليلا من الماء. فقد روى الترمذى عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يَفطر قبل أن يصلى على رطبات فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء، والوصال - بمعنى أن يصوم الشخص اليوم وما بعده من غير أن يتناول مفطرًا فى الليل الفاصل بينهما - وردت فى النهى عنه أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل يا رسول الله. قال: لست كأحد منكم إنى أطعم وأسقى. أو قال: إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى».

وروى الإمام أحمد عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعنى بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال: يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله ثم أتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا».

وقوله: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ استثناء من عموم إباحة المباشرة، وذلك لأنه لما أطلق فى الجملة السابقة الإذن فى مباشرة النساء ليلة الصيام بقوله: ﴿فالآن باشروهن﴾ كان هذا الإطلاق مظنة لأن يؤخذ منه أن المعتكف كالصائم فى أنه يجوز له أن يباشر زوجته ليلا لا نهارًا، فبين - سبحانه - بهذه الجملة أن المعتكف يحرم عليه أن يباشر النساء فى الليل والنهار.

قال القرطبى: والاعتكاف فى اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء إذا لازمه مقبلا عليه. قال الشاعر:

وظل بنات الليل حولى عكفا عكوف البواكى بينهن صريع

ولما كان المعتكف ملازمًا للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم وهو فى عرف

الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع مخصوص. وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب وهو قربة من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله ﷺ وأصحابه وأزواجه، ويلزمه إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه.

وأجمع العلماء على أنه لا يكون إلا فى المسجد واختلفوا فى المراد بالمساجد فى قوله - تعالى - : ﴿فى المساجد﴾ فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد وهو ما بناه نبى كالمسجد الحرام والمسجد النبوى وبيت المقدس، وقال آخرون لا اعتكاف إلا فى مسجد تجمع فيه الجمعة، وقال آخرون الاعتكاف فى كل مسجد جائز(١).

والمشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ الأحكام التى سبق تقريرها من إيجاب وتحريم وإباحة.

والحدود جمع حد، وهو فى اللغة الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما فى الآخر. ومنه سمى الحديد حديدًا لأنه يمنع وصول السلاح إلى البدن.

وسميت الأحكام التى شرعها الله حدودًا لأنها تحجز بين الحق والباطل.

أى : تلك الأحكام التى شرعناها لكم من إيجاب الصوم، وتحريم الأكل والشرب والجماع فى نهاره، وإباحة ذلك فى ليله، هى حدود الله التى لا يحل لكم مخالفتها أو مجاوزتها.

وعبر - سبحانه - عن النهى عن مخالفة تلك الأحكام بقوله : ﴿فلا تقربوها﴾ مبالغة فى التحذير من مخالفتها، لأن النهى عن القرب من الشىء نهى عن إتيانه بالأولى والآية ترشد بقولها ﴿فلا تقربوها﴾ إلى اجتناب ما فيه شبهة كما ترشد إلى ترك الأشياء التى تفضى فى غالب أمرها إلى الوقوع فى حرام.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل ﴿فلا تقربوها﴾ مع قوله : ﴿فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله﴾ قلت : من كان فى طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف فى حيز الحق فنهى أن يتعداه. لأن من تعداه وقع فى حيز الباطل، ثم بولغ فى ذلك فنهى أن يقرب الحد الذى هو الحاجز بين حيزى الحق والباطل لئلا يدانى الباطل، وأن يكون فى الواسطة متباعدًا عن الطرف فضلا عن أن يتخطاه كما قال رسول الله ﷺ : «إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد. ويجوز أن يريد

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣٣٢ بتصرف وتلخيص.

بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصًا، لقوله - تعالى - : ﴿ولا تباشروهن﴾ وهى حدود لا تقرب »[1].

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾.

أى : مثل ذلك البيان الجامع الذى بين الله به حدوده التى أمركم بالتزامها ونهاكم عن مخالفتها، يبين لكم آياته، أى : أدلته وحججه لكى تصونوا أنفسكم عما يؤدى بكم إلى العقوبة، وتكونوا ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ختمت الحديث عن الصوم، ببيان مظاهر رفق الله بعباده، ورعايته لمصالحهم ومنافعهم، بأسلوب بليغ جمع بين الترغيب والترهيب، والإباحة والتحريم، وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد إلى ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن الصيام، وما يتعلق به من أحكام، أردف ذلك بالنهى عن أكل الحرام، لأنه يؤدى إلى عدم قبول العبادات من صيام واعتكاف ودعاء وغير ذلك فقال - تعالى - :

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى المؤمنين كافة فى كل زمان ومكان.

والمراد بالأكل مطلق الأخذ بغير وجه حق، وعبر عنه بالأكل، لأن الأكل أهم وسائل الحياة، وفيه تصرف الأموال غالبًا.

والباطل فى اللغة : الزائل الذاهب، يقال : بطل يبطل بطولا وبطلانا. أى ذهب ضياعًا وخسرًا. وجمع الباطل أباطيل. ويقال : بطل الأجير يبطل بطالة إذا تعطل واتبع اللهو.

والمراد هنا : كل ما لم يبح الشرع أخذه من المال وإن طابت به النفس، كالربا والميسر وثمن الخمر، والرشوة، وشهاد الزور، والسرقة، والغصب، ونحو ذلك مما حرمه الله - تعالى -.

والباء للسببية، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله، وكذلك قوله : ﴿بينكم﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٣.

والمعنى : لا يأخذ بعضكم مال بعض، ويستولى عليه بغير حق، متذرعًا بالأسباب الباطلة، والحيل الزائفة، وما إلى ذلك من وجوه التعدى والظلم.

وفى قوله - تعالى - : ﴿أموالكم﴾ - مع أن أكل المال يتناول مال الإنسان ومال غيره - فى هذا القول إشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبيه إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لما لك أنت، ففى هذه الإضافة البليغة تعليل للنهى، وبيان لحكمة الحكم، إذ استحلال الإنسان لمال غيره يجرىء هذا الغير على استحلال مال ذلك الإنسان المتعدى، وإذا فشا هذا السلوك فى أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعادى والتباغض.

فما أحكم هذا التعبير، وما أجمل هذا التصوير.

وقوله : ﴿وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ بيان لصورة أخرى قبيحة من صور أكل أموال الناس بالباطل وقوله : ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ معطوف على ﴿لا تأكلوا﴾.

والإدلاء فى الأصل : إرسال الدلو فى البئر للاستقاء. ثم جعل كل إلقاء قول أو فعل إدلاء؛ ومنه أدلى فلان بحجته، أى : أرسلها ليصل إلى مراده.

والمراد بالإدلاء هنا : الدفع والإلقاء بالأموال إلى الغير من أجل الوصول إلى أمر معين.

والحكام : جمع حاكم، وهو الذى يتصدى للفصل بين الناس فى خصوماتهم وقضاياهم.

والفريق : القطعة المعزولة من جملة الشيء، ومنه قيل للقطعة من الغنم تشذ عن معظمها فريق.

والإثم : الفعل الذى يستحق صاحبه الذم والعقاب. وجمعه آثام.

والمعنى : لا يأخذ بعضكم أموال بعض - أيها المسلمون - ولا يستولى عليها بغير حق، ولا تدلوا بها إلى الحكام، أى ولا تلقوا أمرها والتحاكم فيها إلى القضاة لا من أجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل أن تأخذوا عن طريق التحاكم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم الذى يؤدى إلى عقابكم، حال كونكم تعلمون أنكم على باطل، ولا شك أن إتيان الباطل مع العلم بأنه باطل أدعى إلى التوبيخ من إتيانه على جهالة به.

فعلى هذا الوجه يكون المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام طرحها أمامهم ليقضوا فيها، وليتوسل بعض الخصوم عن طريق هذا القضاء إلى أكل الأموال بالباطل حين عجزوا عن أكلها بالمغالبة.

وهناك وجه آخر تحتمله الآية احتمالا قريبًا، وبه قال كثير من العلماء وهو أن المراد بالإدلاء

بالأموال إلى الحكام، إلقاؤها إليهم على سبيل الرشوة ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يحكموا لصالحهم بالباطل، وعليه يكون المعنى.

لا يأخذ بعضكم أموال بعض أيها المسلمون، ولا تلقوا ببعضها إلى حكام السوء على سبيل الرشوة، لتتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق. ولا غرابة فى أن يعنى القرآن فى سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة؛ فإنها المعول الذى يهدم صرح العدل من أساسه وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها وكرامتها، وتصير تلك المجالس موطنا للظلم لا للعدل.

وخص القرآن الكريم هذه الصورة بالنهى - وهى صورة الإدلاء بالأموال إلى الحكام - مع أنه قد ذكر ما يشملها بقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لأنها على وجهى تفسيرها شديدة الشناعة، جامعة لمنكرات كثيرة، كالظلم، والتباغض والرشوة، والغصب وغير ذلك. والحق، أن هذه الآية الكريمة أصل من الأصول التى يقوم عليها إصلاح المعاملات، وقد أخذ العلماء منها حرمة أكل أموال الناس بالباطل، وحرمة إرشاء الحكام ليقضوا للراشى بمال غيره، وقد لعن النبى ﷺ الجميع فى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشى والمرتشى والراءش» وهو الواسطة الذى يمشى بينهما.

كما أخذوا منها أن حكم الحاكم على ما يقتضيه الظاهر من أمر القضية لا يحل فى الواقع حرامًا، ولا يحرم حلالاً، والدليل على ذلك ما أخرجه الشيخان عن أم سلمة - رضى الله عنها - عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر. وإنه ليأتينى الخصم. فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه قد صدق، فأقضى له بذلك. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها».

قال الإمام ابن كثير: فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر، فلا يحل فى نفس الأمر حراما ولا يحرم حلالا، وإنما هو ملزم فى الظاهر، فإن طابق فى نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره. ولهذا قال - تعالى - فى آخر الآية ﴿وأنتم تعلمون﴾. أى تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه فى كلامكم»(١).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد رسمت طريق الحق لمن يريد أن يسير فيه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾.

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن الأهلة لما لها من صلة بالصيام وبالقتال فى الأشهر الحرم وبمواقيت الحج فقال - تعالى -:

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٥.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: «بلغنا أن بعض الناس قالوا: يارسول الله، لم خلقت الأهلة فنزلت».

والأهلة: جمع الهلال، وهو الكوكب الذى يبزغ فى أول كل شهر، ويسمى هلالا لثلاث ليال أو لسبع ليال من ظهوره، ثم يسمى بعد ذلك قمرا إلى أن يعود من الشهر الثانى.

قال بعضهم: وهو مشتق من استهل الصبى إذا بكى وصاح حين يولد، ومنه أهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، وسمى بذلك لأنه حين يرى يهل الناس بذكره أو بالتكبير، ولهذا يقال أهل الهلال واستهل[1].

والمواقيت: جمع ميقات بمعنى الوقت، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال وقيل: الميقات منتهى الوقت.

والمعنى: يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة، قل لهم - يا محمد - إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس صومهم، وزكاتهم، وحجهم، وعدة نسائهم، ومدد حملهن، ومدة الرضاع، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم.

قال - تعالى -: ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وخص الحج بالذكر مع أن الأهلة مواقيت لعبادات أخرى كالصوم والزكاة للتنبيه على أن الحج مقصور وقت أدائه على الزمن الذى عينه الله - تعالى - وأنه لا يجوز نقله إلى وقت آخر كما كانت العرب تفعل، إذ كانوا ينقلون ما شاؤوا من الأشهر الحرم الأربعة التى من جملتها

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٧١.

ذو الحجة إلى شهر آخر غير حرام، وهو النسيء المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿إنما النسيء زيادة فى الكفر﴾.

وخص الشارع المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس و أشهرها، لأن الأشهر الهلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أينما كانوا، بخلاف الأشهر الشمسية. فإن معرفتها تنبنى على النظر فى حركات الفلك وهى لا تتيسر إلا للعارفين بدقائق علم الفلك.

هذا، ومن الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال: نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالا : يارسول الله. ما بال الهلال يبدو - أو يطلع - دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت.

وعلى هذه الرواية يكون الجواب بقوله - تعالى - : ﴿قل هى مواقيت للناس والحج﴾ من قبيل أسلوب الحكيم، وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها له على أن ذلك الغير هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له.

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن سبب اختلاف الأهلة بالزيادة والنقصان، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتكم عليه، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها فى أول الشهر وتناقصها فى آخره، لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة، وأنتم لستم فى حاجة إلى معرفة ذلك فى هذا الوقت.

ولعلماء البلاغة كلام جيد فى مزايا ما يسمونه بأسلوب الحكيم، فقد قال السكاكى ما ملخصه : «ولهذا النوع - أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر- أساليب متفننة، ولكل من تلك الأساليب عرق فى البلاغة يتشرب من أفانين سحرها، ولا كأسلوب الحكيم فيها. وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب، كما قال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ الآية. قالوا فى السؤال. ما بال الهلال يبدو دقيقًا. . ألخ فأجيبوا بما ترى. وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور، وأبرزه فى معرض المسحور، وهل ألان شكيمة «الحجاج الثقفى» لذلك الرجل الخارجى، وسل سخيمته، حتى آثر أن يحسن على أن يسىء غير أن سحره بهذا الأسلوب؟ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله «لأحملنك على الأدهم» فقال الخارجى متغابيا : مثل الأمير بحمل على الأدهم الأشهب. مبرزًا وعيده فى معرض الوعد، متوصلا أن يريه بألطف وجه : أن رجلا مثله جدير

بأن يعد لا أن يوعد».

وقوله - تعالى - : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ هذا القول الكريم نهى لجماعة المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها فى الجاهلية، وهى أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه فى ظهور بيوتهم.

أخرج البخارى عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء - رضى الله عنه - يقول : نزلت هذه الآية فينا. كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها. فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت : ﴿وليس البر﴾ إلخ.

والمعنى : وليس من البر ما كنتم تفعلونه فى الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم أو عودتكم من حجكم، ولكن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون فى تقوى الله بأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم.

وفى الأمر بأتيان البيوت من أبوابها إشعار بأن إتيانها من ظهورها باسم الدين غير مأذون فيه، وكل ما يفعل باسم الدين وليس له فى الدين من شاهد فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وفى الآية الكريمة تعريض بمن يسأل النبى ﷺ عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة، ولا تتوقف معرفته على الوحى، فهذا السائل فى سؤاله مثله كمثل من يدخل البيت من ظهره لا من بابه.

قال بعضهم : وذلك لأن العلم على ضربين : علم دنيوى يتعلق بأمر المعاش - كمعرفة الصنائع ومعرفة حركات النجوم ومعرفة المعادن والنبات، وقد جعل الله لنا سبيلا إلى معرفة ذلك على غير لسان نبيه ﷺ.

وعلم شرعى يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقيدة ولا سبيل إلى أخذه إلا من الصادق المصدوق ﷺ.

فلما جاءوا يسألون النبى ﷺ عما أمكنهم معرفته من غير جهته أجابهم. ثم بين لهم أن البر فى التقوى وذلك يكون بالغلم والعمل المختص بالدين»(١).

قال صاحب الكشاف : فإن قلت. ما وجه اتصال قوله - تعالى - : ﴿وليس البر﴾ إلخ بما

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٤٧٣ بتصرف.

قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة فى نقصانها وتمامها: إن كل ما يفعله الله - تعالى - لا يكون إلا عن حكمة ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا فى واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر فى شىء وأنتم تحسبونها برا. ويجوز أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم فى الحج. ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم فى سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله ثم قال: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ أى: باشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب»[1].

وقوله - تعالى -: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أمر بالتقوى التى تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتناب البدع والمنكرات. أى: افعلوا ما أمركم الله به، واجتنبوا مانهاكم عنه، لتكونوا من المفلحين، وهم الفائزون بالحياة المطمئنة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة. وبذلك تكون الآية الكريمة قد رددت عقول الناس إلى النظر والتأمل فى سنن الله وفى خلقه على النحو الذى ينشىء التقوى فى النفوس، ويوجه إلى العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى -.

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بطاعته وتقواه، وحضهم على الجهاد فى سبيله إذ هو من أجل مظاهرها، وبصرهم بحكمته وآدابه فقال - تعالى -:

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ
فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٤٣.

ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

قال ابن كثير: قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العاليه فى قوله - تعالى - ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ قال: هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة[1].

ويرى بعض العلماء أن هذه الآيات قد وردت فى الأذن بالقتال للمحرمين فى الاشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغيًا وعدوانًا. فهى متصلة بما قبلها أتم الاتصال، لأن الآية السابقة بينت أن الأهلة مواقيت للناس فى عباداتهم ومعاملاتهم عامة وفى الحج خاصة وهو فى أشهر هلالية مخصوصة كان القتال فيها محرمًا فى الجاهلية. فقد أخرج الواحدى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ صده المشركون عن البيت الحرام - ثم صالحوه فرضى على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل ما يشاء فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفى لهم قريش، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم وكره أصحابه قتالهم فى الحرم والشهر الحرام فأنزل الله - تعالى الآيات[2].

والقتال والمقاتلة: محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، والتقاتل محاولة كل واحد من المتعاديين قتل الآخر.

قال أبو حيان: وقوله: ﴿فى سبيل الله﴾ السبيل هو الطريق. واستعير لدين الله وشرائعه لأن المتبع لذلك يصل به إلى بغيته الدينية والدنيوية، فشبه بالطريق الموصل الإنسان إلى ما يقصده، وهذا من استعارة الأجرام للمعانى ويتعلق ﴿فى سبيل الله﴾ بقوله: ﴿وقاتلوا﴾ وهو

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٢٦.
(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٠٨.

ظرف مجازى،، لأنه لما وقع القتال بسبب نصرة الدين صار كأنه وقع فيه، وهو على حذف مضاف والتقدير فى نصرة دين الله[١].

والمراد بالقتال فى سبيل الله : الجهاد من أجل إعلاء كلمته حتى يكون أهل دينه الحق أعزاء لا يسومهم أعداؤه ضيمًا، وأحرارًا فى الدعوة إليه وإقامة شرائعه العادلة فى ظل سلطان مهيب.

أى : قاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم ومناجزتكم وتحققتم منهم سوء النية، وفساد الطوية.

فالآية الكريمة تهييج للمؤمنين وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تهيب، وإرشاد لهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرة الحق، لا من أجل المطامع أو الشهوات.

فقد روى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى موسى - رضى الله عنه - أن أعرابيًا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه - أى : ليتحدث الناس بشجاعته وليظهر بينهم - أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله - ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ».

والأحاديث فى الدعوة إلى أن يكون الجهاد فى سبيل الله من أجل إعلاء كلمته كثيرة متعددة.

وقوله ﴿ولا تعتدوا﴾ نهى عن الاعتداء بشتى صوره ويدخل فيه دخولا أوليا الاعتداء فى القتال.

والاعتداء : مجاوزة الحد فيما أمر الله به أو نهى عنه.

أى : قاتلوا فى سبيل الله من يناصبكم القتال من المخالفين، ولا تتجاوزوا فى قتالهم إلى من ليس شأنهم قتالكم، كنسائهم، وصبيانهم ورهبانهم، وشيوخهم الطاعنين فى السن إلى حد الهرم، ويلحق بهؤلاء المريض والمقعد والأعمى والمجنون. وقد وردت فى النهى عن قتل هؤلاء الأحاديث النبوية ووصايا الخلفاء الراشدين لقواد جيوشهم، فهؤلاء يتجنب قتالهم إلا من قامت الشواهد على أن له أثرًا من رأى أو عمل فى الحرب، يؤازر به المحاربين لينتصروا على المجاهدين.

قال ابن كثير : ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : وُجِدَتْ امرأة فى بعض المغازى مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان »[٢].

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٢ ص ٦٥ لأبى حيان.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٦.

وقوله : ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ كالتعليل لما قبله فى النهى عن مجاوزة ما حده الله - تعالى - فى قتال المخالفين.

ومحبة الله لعباده : صفة من صفاته - تعالى - من أثرها الرعاية والإنعام. وإذا نفى الله - تعالى - محبته لطائفة من الناس فهو كناية عن بغضه لهم، واستحقاقهم لعقوبته.

وقوله : ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ الضمير المنصوب فيه يعود على قوله : ﴿الذين يقاتلونكم﴾ فى الآية السابقة.

و ﴿ثقفتموهم﴾ : أدركتموهم وظفرتم بهم. يقال : ثقف الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الأخذ لأقرانه. قال الشاعر :

فـإمـا تثقـفـونى فـاقـتلونى   فمن أثقف فليس إلى خلود

ويقال - أيضًا - رجل ثقف : إذا كأن محكمًا لما يتناوله من الأمور.

والمعنى : عليكم أيها المسلمون أن تقتلوا هؤلاء الذين اذنا لكم بقتالهم حيث وجدتموهم وظفرتم بهم، فأنهم قد بادءوكم بالعدوان، وتمنوا لكم كل شر وسوء.

وقوله : ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ معطوف على ما قبله.

وحيث ظرف مكان. والمكان الذى أخرجوهم منه هو مكة، فإن المشركين من قريش قد أنزلوا بالمسلمين الأولين من صنوف الأذى ما جعلهم يتركون مكة ويهاجرون إلى بلاد الحبشة أولا. ثم إلى المدينة المنورة ثانيا.

أى : اقتلوا هؤلاء الذين قاتلوكم فى أى مكان لقيتموهم فيه، وأخرجوهم من المكان الذى أخرجوكم منه وهو مكة.

وفى هذا تهديد للمشركين، وإغراء للمسلمين بهم، ووعد بفتح مكة وقد أنجز الله - تعالى - وعده ففتح المسلمون مكة فى السنة الثامنة من الهجرة.

وقوله - تعالى - : ﴿والفتنة أشد من القتل﴾. دفع لما قد يقع من بعض المسلمين من استعظام قتل المشركين فى مكة.

والفتنة فى الأصل : مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابها بالنار ليستخرج الزائف منهم ثم استعملت فى الابتلاء والامتحان والصرف عن الشيء، وأكثر استعمالها فى التضليل والصد عن الدين، ثم على الكفر.

ويبدو أن المراد منها هنا ما كان يفعله المشركون مع المسلمين من التعذيب والصد عن الدين، والإخراج من الوطن، وغير ذلك من صنوف الأذى.

والمعنى : لا تقصروا فى قتل المشركين الذين يقاتلونكم، والذين أخرجوكم من دياركم، فإن فتنتهم لكم بالإيذاء والتعذيب والصد عن الدين، أشد ضررا من قتلكم لهم فى أى مكان وجدوا به.

وبعضهم فسر الفتنة هنا بالشرك، أو بالرجوع إلى الكفر، أو بعذاب الآخرة، وقد بين ذلك صاحب الكشاف بقوله. وقوله : «والفتنة أشد من القتل» أى : المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت : قال : الذى يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التى يتمنى عندها الموت، ومنه قول القائل :

القتل بحد السيف أهون موقعا على النفس من قتل بحد فراق

وقيل : ﴿الفتنة﴾ عذاب الآخرة قال - تعالى - ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ وقيل : الشرك أعظم من القتل فى الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ويعيبون به المسلمين. فقيل : والشرك الذى هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه ويجوز أن يراد : وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم فى الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم»(١).

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد أذنت للمؤمنين فى قتل الذين يناجزونهم القتال دفعًا لشرهم أينما وجدوا.

ثم ساقت الآية جملة أخرى نهت فيها المؤمنين عن قتال المشركين عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته. ما دام المشركون لم يفاتحوهم بالقتال عنده، أما إذا فاتحوهم بالقتال فيه، فقد أصبح من حق المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يقاتلوا أعداءهم. وهذه الجملة هى قوله - تعالى - : ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾.

أى : لا تقاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم عند المسجد الحرام احترامًا له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم فى قتلهم عنده، لأن المنتهك لحرمة المسجد الحرام إنما هو البادىء بالقتال فيه وهم المشركون، ولستم أنتم أيها المؤمنون لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حفظت للمسجد الحرام حرمته وهيبته ومكانته السامية لأن حرمته لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٦.

ما هاجمهم المشركون عنده أو فيه.

قال ابن كثير ما ملخصه : وقد دلت الآية على الأمر بقتال المشركين فى الحرم إذا بدأوا بالقتال فيه دفعا لصولتهم، كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾(١).

وقال ﷺ لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا حتى توافونى على الصفا. . فما عرض لهم أحد إلا أناموه وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً »(٢).

ولم يقل - سبحانه - فإن قاتلوكم فقاتلوهم، وإنما قال ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ تبشيرًا للمؤمنين بالغلبة عليهم، وإشعارًا بأن هؤلاء المشركين من الخذلان والضعف بحالة أمر الله المؤمنين معها بقتلهم لا بقتالهم فهم لضعفهم لا يحتاجون من المؤمنين إلا إلى القتل.

وقوله : ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ تذييل لما قبله. واسم الإشارة ذلك يعود إلى قتل المقاتلين أينما وجدوا.

والجزاء : ما يقع فى مقابلة الإحسان أو الإساءة، فيطلق على ما يثاب به المحسن، وعلى ما يعاقب به المسيء. والمراد به فى الآية العقاب.

أى : مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازى الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

ثم فتح القرآن للكافرين الذين قاتلوا المسلمين التوبة فقال : ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾.

الانتهاء : أصله مطاوع نهى. يقال : نهاه فانتهى ثم توسع فيه فأطلق على الكف عن الشيء، لأن النهى هو طلب ترك الشيء.

أى : فإن انتهوا عن الكفر وعن مقاتلتكم فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم فإن الله غفور رحيم. وكل من تاب من كفر أو معصية فشأن الله معه أن يغفر له ويرحمه.

ونظير هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾(٣) وإنما قلنا فإن انتهوا عن الكفر وعن القتال لأن سياق الحديث عن الكافرين المقاتلين للمؤمنين،

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٢٧.
(٢) تفسير القاسمى جـ٢ ص ٤٧٦.
(٣) تفسير الألوسى جـ٢ ص ٧٦.

فيكون حمل الانتهاء على الأمرين معا أولى من حمله على القتال فحسب.

وقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ معطوف على جملة ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ والضمير «هم» يعود على الذين يقاتلون المسلمين وهم من سبق الحديث عنهم.

والمراد من ﴿الفتنة﴾ الشرك وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم.

قال الآلوسى : ويؤيده أن مشركى العرب ليس فى حقهم إلا الإسلام أو السيف. لقوله - سبحانه - : ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾.

وفى الصحيحين عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

والدين فى اللغة : العادة والطاعة ثم استعمل فيما يتعبد به الله - تعالى - سواء أكان ما تعبد به صحيحًا أم باطلًا.

والمراد هنا:الدين الصحيح الذى شرعه الله لعباده على لسان نبيهم محمد ﷺ ليتوصلوا به إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل.

والمعنى : قاتلوا أولئك المشركين حتى تزيلوا الشرك، وحتى تكسروا شوكتهم ولا يستطيعوا أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق، وحتى يكون الدين الظاهر فى الأرض هو الدين الذى شرعه الله - تعالى - على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقد تحقق ذلك بالقتال الذى دار بين المسلمين والمشركين فى أكثر من عشرين غزوة قادها النبى ﷺ بنفسه، وفى أكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه، وكانت ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل. وقبل أن يلتحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى كان الدين الظاهر فى جزيرة العرب هو دين الإسلام الذى جاء به الرسول ﷺ.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ والعدوان فى أصل اللغة : الاعتداء والظلم الذى هو من الأفعال المحرمة والمراد به فى الآية القتل حيث يرتكب جزاء للظالمين.

والفاء فى قوله ﴿فان انتهوا﴾ للتعقيب. وقوله : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ قائم مقام جواب الشرط، لأنه علة الجواب المحذوف.

والمعنى : فإن امتنعوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه، وأذعنوا لتعاليم الإسلام، فكفوا عن

قتالهم، لأنهم قد انتفى عنهم وصف الظلم، وما دام قد انتفى عنهم هذا الوصف فلا يصح أن تقاتلوهم، إذ القتال إنما يكون للظالمين تأديبًا لهم ليرجعوا عن ظلمهم.

ففى الجملة الكريمة إيجاز بالحذف، واستغناء عن المحذوف بالتعليل الدال عليه.

قال الإمام الرازى: أما قوله - تعالى -: ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ ففيه وجهان:

الأول: فإن انتهوا فلا عدوان أى: فلا قتل إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر، فإنهم بإصرارهم على كفرهم ظالمون لأنفسهم قال - تعالى -: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

فإن قيل: لم سمى ذلك القتل عدوانا مع أنه فى نفسه صواب؟ قلنا: لأن ذلك القتل جزاء العدوان فصح إطلاق اسم العدوان عليه، كقوله - تعالى -: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

الثانى: إن تعرضتم لهم بعد انتهائهم عن الشرك والقتال كنتم أنتم ظالمين، فتسلط عليكم من يعتدى عليكم[(١)].

وقوله - تعالى -: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ بيان للحكمة فى إباحة القتال فى الأشهر الحرم، وإيذان بأن مراعاة حرمة الشهر الحرام إنما هى واجبة فى حق من يصون حرمته، أما من هتكها فقد صار بسبب انتهاكه لحرمة الشهر الحرام محلا للقصاص والمعاقبة فى الشهر وفى غيره.

وسمى الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل فى غيره من القتال ونحوه، والتعريف فيه - على الراجح - للجنس فهو يشمل الأشهر الحرم جميعها وهى أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

قال - تعالى -: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم؛ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾[(٢)].

قال القرطبى: نزلت فى عمرة القضاء، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا حتى بلغ الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، فصده المشركون كفار قريش عن البيت فانصرف ووعده - سبحانه - أنه سيدخله فدخله فى ذى القعدة سنة سبع وقضى نسكه ونزلت هذه الآية[(٣)]

والمعنى: هذا الشهر الحرام الذى تؤدون فيه عمرة القضاء، بذلك الشهر الحرام الذى صدكم المشركون فيه عن دخول المسجد الحرام، فإذا بدءوا بانتهاك حرمته بقتالكم فيه، فلا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤٦.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٦.

(٣) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٣٥٥.

تبالوا أن تقاتلوهم فيه دفاعًا عن أنفسكم، إذ هم البادئون بهتك حرمته.

وقوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ متضمن لإقامة الحجة على الحكم السابق والحرمات: جمع حرمة، وهى ما يحفظ ويرعى ولا ينتهك.

والقصاص: المساواة. أى، وكل حرمة يجرى فيها القصاص. فمن هتك أية حرمة اقتص منه بأن تهتك له حرمة.

والمراد: أن المشركين إذا أقدموا على مقاتلتكم - أيها المؤمنون - فى الحرم أو فى الشهر الحرام، فقاتلوهم أنتم أيضًا على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل، حتى لا يتخذوا الأشهر الحرم ذريعة للغدر والإضرار بكم.

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

أى: فمن اعتدى عليكم وظلمكم فجازوه باعتدائه وقابلوه بمثل ما اعتدى عليكم بدون حيف أو تجاوز للحد الذى أباحه الله لكم.

وسمى جزاء الاعتداء اعتداء على سبيل المشاكلة.

قال الآلوسى: واستدل الشافعى بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تغريق. حتى لو ألقاه فى ماء عذب لم يلق فى ماء ملح. واستدل بها أيضًا على أن من غصب شيئًا وأتلفه لزمه رد مثله، ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة - كما فى ذوات الأمثال - وقد يكون من طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بالتقوى والخشية منه فقال: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

أى: اتقوا الله وراقبوه فى الانتصار لأنفسكم، وترك الاعتداء فيما لم يرخص لكم فيه، واعلموا أن الله مع الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه بالنصر والرعاية والتأييد.

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين ببذل المال من أجل إعلاء كلمته، ونصرة دينه، فقال: ﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

قال الإمام الرازى: الإنفاق هو صرف المال إلى وجوه المصالح فلذلك لا يقال فى المضيع: إنه منفق. فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله، فالمراد به طريق الدين، لأن السبيل هو الطريق،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٧٧.

وسبيل الله هو دينه، فكل ما أمر الله به فى دينه من الإنفاق فهو داخل فى الآية سواء أكان إنفاقًا فى حج أو فى صلة رحم أو غير ذلك، إلا أن الأقرب فى هذه الآية - وقد تقدم ذكر الجهاد - أنه يراد به الإنفاق فى الجهاد، وقوله ﴿فى سبيل الله﴾ كالتنبيه على العلة فى وجوب هذا الإنفاق، وذلك لأن المال مال الله فيجب انفاقه فى سبيله، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال[1].

و﴿تلقوا﴾ من الإلقاء وهو طرح الشىء من اليد.

قال الجمل: والباء فى قوله: ﴿بأيديكم﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أنها زائدة فى المفعول به لأن ألقى يتعدى بنفسه، قال - تعالى -: ﴿فألقى عصاه﴾.

والثانى: أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء فيتعدى تعديته فيكون المفعول به فى الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره، ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة كقوله: أفضيت بجنبى إلى الأرض أى: طرحته على الأرض»[2].

والمراد بالأيدى: الأنفس، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، لأن أكثر ظهور أفعال النفس تكون عن طريق اليد.

والتهلكة: الهلاك والموت. أو كل شىء تصير عاقبته إليه. مصدر هلك يهلك هلكًا وهلاكًا وتهلكة.

والجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم..﴾ ألخ، لأنهم لما أمروا بقتال عدوهم، وكان أوفر منهم عدة وعددًا، كلفهم بالاستعداد له عن طريق إنفاق الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله لأن هذا الإنفاق من أقوى الوسائل التى توصل إلى النصر.

والمعنى: عليكم، أيها المؤمنون - أن تقاتلوا فى سبيل الله من قاتلكم، وأن تنفقوا من أجل إعلاء كلمة الله أموالكم، ولا تلقوا أنفسكم فيما فيه هلاككم فى دين أو دنيا، بسبب ترككم الجهاد وبخلكم عن الإنفاق فيه مع القدرة على ذلك.

ويشهد لهذا المعنى ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبى عمران قال: كنا بمدينة الروم القسطنطينية - فأخرجوا إلينا صفا عظيمًا من الروم. فخرج إليهم من المسلمين مثلهم فحمل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤٨ بتصرف وتلخيص.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٥٥.

رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقى بيديه إلى التهلكة!! فقام أبو أيوب الأنصارى فقال: يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار. لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا - دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله - تعالى - على نبيه يرد علينا ما قلناه ﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. فكانت التهلكة الإقامة على الأموال، وإصلاحها، وتركنا الغزو.

قال الراوى: فمازال أبو أيوب شاخصًا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم.

فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يبذلوا أموالهم فى الجهاد فى سبيل الله بصفة خاصة، وفى كل موطن من مواطن الخير بصفة عامة، لأن عدم البذل فى سبيل الخير يؤدى إلى ضعف الأمة واضمحلالها.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالترغيب فى الإحسان فقال: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أى: أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها، لأنه - سبحانه - يحب المحسنين فى كل شئونهم، ويثيبهم على ذلك بما يسعدهم فى دينهم ودنياهم.

هذا، وتأمل معى - أيها القارئ الكريم - فى هذه الآيات تراها قد رسمت أحكم منهاج وأعدله فى شأن الحرب والسلم.

إنها تأمر المؤمنين أن يجاهدوا أعداءهم الذين بدأوهم بالقتال، وأن يقتلوهم حيث وجدوهم. ويخرجوهم من حيث أخرجوهم، كما تأمرهم أن يبذلوا أموالهم فى سبيل الله بدون إمساك أو بخل، وهذا من أقوى أنواع الحض على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

ولكنها فى الوقت نفسه تنهاهم عن الاعتداء، وتنهاهم عن القتال فى الأشهر الحرم وفى الأماكن المقدسة إلا إذا قاتلهم المشركون فيها، كما تنهاهم عن قتالهم إذا ما انتهوا عن عدوانهم وكفرهم، لأن شريعة القرآن تستجيب لداعى السلم متى كف المعتدون عن العدوان، وأحترموا كلمة الإسلام.

وبذلك نرى أن القتال فى الإسلام ليس من أجل الغنائم، أو الاستغلال أو الاستعباد، أو التباهى.. كلا ليس لأجل شىء من هذا، وإنما هو من أجل الدفاع عن الحق وأهله، حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الباطل هى السفلى، وبهذا تسعد الإنسانية، وتنال ما تصبو إليه من عزة وفلاح.

وبعد هذا الحديث المحكم عن القتال فى سبيل الله، وبيان أحكامه بالنسبة للأشهر الحرم وللبيت الحرام، ساق القرآن فى بضع آيات جملة من الأحكام والآداب التى تتعلق بفريضة الحج، إذ القتال جهاد لحماية الأمة الإسلامية من الخارج، والحج جهاد لتهذيب النفس وحماية الأمة من الداخل عن طريق تجميع أبنائها على اختلاف ديارهم فى مكان واحد ليشهدوا منافع لهم، وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. استمع إلى سورة البقرة وهى تحدثك عن بعض أحكام الحج وآدابه فتقول:

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ
فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ
فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

تعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه، وسنحاول - بعون الله - أن نبين ما اشتملت عليه من آداب سامية، وتوجيهات حكيمة، بأسلوب هو إلى الإيجاز أقرب منه إلى الإسهاب والإطناب، قاصدين عدم التعرض لتفريعات الفقهاء واختلافاتهم إلا بالقدر الذى يقتضيه المقام.

والحج فى اللغة: القصد يقال حج فلان الشىء: إذا قصده مرة بعد أخرى.

وفى الشرع: القصد لزيارة بيت الله الحرام فى وقت مخصوص بأفعال مخصوصة، وبكيفية مخصوصة، بينتها الشريعة الإسلامية.

والعمرة فى اللغة: الزيارة، مأخوذة من العمارة التى هى ضد الخراب ثم أطلقت على الزيارة التى يقصد بها عمارة المكان.

وفى الشرع : زيارة بيت الله الحرام للتقرب إليه، وقد بين النبى ﷺ أركانها وشروطها وكيفيتها.

وقد كانت شعيرة الحج والعمرة معروفتين عند العرب قبل الإسلام، ولكن بأفعال وبكيفية فيها الكثير من الأباطيل والأوهام، فجاءت شريعة الإسلام فوضعت لهما أفضل الأحكام، وأسمى الآداب، وأمر النبى ﷺ المسلمين أن يسيروا فى أدائهما على الطريقة التى سار عليها فقال : «خذوا عنى مناسككم».

قال ابن كثير: «وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة فى ذى القعدة سنة ثمان، وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معًا فى ذى القعدة سنة عشر. وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته»(١).

وقد اختلف العلماء فى المقصود من الإتمام فى قوله - تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ فبعضهم يرى أن المراد بإتمامهما : إقامتهما وإيجادهما وإنشاؤهما فيكون المعنى : أقيموا الحج والعمرة لله : أى أدوهما وائتوا بهما. فالأمر فى «أتموا» منصب على الإنشاء والأداء. فهو كقوله - تعالى - : ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ وأصحاب هذا الرأى يرون أن العمرة واجبه كالحج، لأن الله - تعالى - أمر بهما معًا، ولأن الرسول ﷺ قال : «تابعوا بين الحج والعمرة..».

وإلى هذا الرأى أتجه سعيد بن جبير، وعطاء، وسفيان الثورى، والشافعية.

ويرى كثير من الصحابة والتابعين والفقهاء كالأحناف والمالكية - أن المراد بإتمامهما : الإتيان بهما تامين بمناسكهما المشروعة لوجه الله - تعالى - وأن على المسلم إذا شرع فيهما أو فى أحدهما أن يتمه ويأتى به كاملا، كما فعل النبى ﷺ وأصحابه فى عمرة القضاء.

فيكون المعنى : ائتوا بالحج والعمرة كاملى الأركان والشروط والآداب خالصين لوجه الله - تعالى -.

فالأمر على هذا الرأى منصب على الإتمام لا على أصل الأداء.

وأصحابه يرون أن العمرة ليست واجبة كالحج لعدم قيام الدليل على وجوبها، وليس فى الآية ما يفيد الوجوب، بل فيها ما يفيد وجوب الإتمام إن شرع فيهما أو فى أحدهما. وفرضية الحج إنما ثبتت بقوله - تعالى - : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾. وأيضا، فإن أركان العمرة وأفعالها تدخل فى ثنايا أفعال الحج وأركانه، ولذلك ورد فى الحديث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٣٠.

الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة » إلى غير ذلك من الأدلة التى ساقها كل فريق لتدعيم رأيه.

ومجمل القول أن فرضية الحج مجمع عليها بين العلماء، وأما فرضية العمرة ففيها خلاف، انتصر كثير من العلماء فيه للرأى القائل بأنها ليست فرضًا كالحج، بل هى سنة.

وقد كانت فرضية الحج فى السنة التاسعة من الهجرة على أرجح الروايات. ويرى بعض العلماء أن الحج قد فرض قبل ذلك، إلا أن تنفيذه لم يتم إلا فى السنة التاسعة عندما أرسل النبى ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج، وكان ذلك تمهيدًا لحجه ﷺ سنة عشر.

وقد أمر - سبحانه - بإتمام الحج والعمرة لله دون غيره لأن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر، والتفاخر، وقضاء الحوائج، وحضور الأسواق، دون أن يكون لله - تعالى - فيه حظ يقصد، ولا قربة تعتقد، فأمر - سبحانه - المسلمين أن ينزهوا عباداتهم - وخصوصًا الحج - عن الأقوال السيئة، والأفعال القبيحة، وأن يقصدوا بأداء ما كلفهم الله به الإخلاص والطاعة له - سبحانه -.

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بأن يتموا الحج والعمرة له، أردف ذلك ببيان ما يجب عليهم عمله فيما لو حال حائل بينهم وبين إتمامها فقال : ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ والإحصار والحصر فى اللغة : بمعنى الحبس والمنع والتضييق سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو جور سلطان أو ما يشبه ذلك. قال - تعالى - فى شأن قتال المشركين : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم﴾[1] أى : ضيقوا عليهم المنافذ. ويقال للذى لا يبوح بسره : حصر؛ لأنه حبس نفسه عن البوح بسره.

ويرى بعض علماء اللغة أن الإحصار يكون الحبس والمنع فيه من ذات الشخص كالمرض وذهاب النفقة، وأما الحصر فيكون الحبس والمنع فيه لا من ذات الشخص، بل بسبب أمر خارجى كالعدو ونحوه.

﴿والهدى﴾ : - بتخفيف الياء وتشديدها - مصدر بمعنى المفعول، أى : المهدى والمراد به ما يهدى إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقرة والشاة ليذبح تقربًا إلى الله - تعالى -.

و﴿استيسر﴾ هنا بمعنى يسر وتيسر أى : ما أمكن تحصيله من الهدى بدون مشقة أو تعب.

والمعنى : أتموا - أيها المؤمنون - الحج والعمرة لله متى قدرتم على ذلك، فإن ﴿أحصرتم﴾

---

(١) سورة التوبة الآية ٥.

أى، منعتم بعد الإحرام من الوصول إلى البيت الحرام بسبب عدو أو مرض أو نحوهما، فعليكم إذا أردتم التحلل من الإحرام أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى.

وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار فى الآية ما كان بسبب عدو، كما حدث للمسلمين فى صلح الحديبية، أما إذا كان الإحصار بسبب مرض، فإن الحاج أو المعتمر يبقى على إحرامه حتى يبرأ من مرضه ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعًا، ويسعى بين الصفا والمروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حجه، ولا يتحلل بالذبح، إذ التحلل بالذبح عندهم لا يكون إلا فى حالة الإحصار بسبب العدو. أما الأحناف فيرون أن الإحصار سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو ما يشبههما فإنه يسيغ التحلل بالذبح، إذ الآية عندهم تعم كل منع، وعلى من أحصر أن يقضى الحج أو العمرة فيما بعد.

وفى هذه الجملة الكريمة تقرير للمبادئ التى جاءت بها شريعة الإسلام تلك المبادئ التى تتوخى فى كل شئونها التيسير لا التعسير، والرفق لا التشديد قال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر﴾[1] وقال -تعالى- : ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾[2].

ثم قال -تعالى-: ﴿ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾.

حلق الرأس أوتقصيرها علامة على الانتهاء من الإحرام، كما أن التسليم علامة الانتهاء من الصلاة، أوعلامة قطعهما عند الاضطرار إلى ذلك. والحلق بالنسبة للرجال أفضل من التقصير، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يارسول الله وللمقصرين. قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يارسول الله وللمقصرين. قال: وللمقصرين»[1]. أما بالنسبة للنساء فيكفى التقصير.

والمحل: اسم لزمان الحلول أو مكانه. يقال: بلغ الدين محله إذا حل وقت أدائه، كما يقال: بلغ الشخص محله إذا وصل إلى المكان الذى ينزل به.

قال الآلوسى: وكون المراد بالمحل هنا المكان هو الظاهر فى الآية.

والمعنى: أتموا الحج والعمرة لله، فإن منعتم من إتمامهما وأنتم محرمون فعليكم إذا أردتم التحلل أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى، ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذى يجب أن يراق فيه دمه، وهو الحرم.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٢) سورة الحج الآية ٧٨.
(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ٢٠٨.

وهذا رأى الأحناف، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت الحرام، فهو اسم مكان، لأن الله - تعالى - قد قال فى آية أخرى : ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾[١]، وعليه فلا يجوز للمحصر أن يحلق ويتحلل إلا بعد أن يصل الهدى الذى يرسله إلى البيت الحرام ويذبح.

أما جمهور الفقهاء فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذى حدث فيه الإحصار، ودليلهم أن الرسول ﷺ قد نحر هو وأصحابه هديهم بالحديبية وهى ليست من الحرم، وذلك عندما منعه المشركون من دخول مكة.

وقد أجاب الأحناف على ذلك بأن محصر رسول الله ﷺ كما يقول الألوسى -[٢] كان فى طريق الحديبية بأسفل مكة، والحديبية متصلة بالحرم.

وعلى رأى جمهور الفقهاء يكون المعنى : ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تذبحوا الهدى فى الموضع الذى أحصرتم فيه، فإذا تم الذبح فاحلقوا وتحللوا. والخطاب على كلا المعنيين يكون للمحصرين، لأنه أقرب مذكور.

ويرى المحققون من العلماء أن رأى جمهور الفقهاء أكثر اتفاقًا مع السنة النبوية، وفيه تسهيل على المحصرين، والمناسب لهم هو التيسير لا التعسير، ولا شك أن ذبحهم لهديهم فى مكان إحصارهم أيسر لهم، وحملوا قوله - تعالى - : ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ على أنه خطاب عام لجميع المكلفين لا فرق بين محصر وغير محصر، وأن المقصود من الجملة الكريمة هو البيان العام لمكان التحلل وزمانه، أما مكان الذبح عند الإحصار فقد بينه النبى ﷺ بذبحه لهديه فى الحديبية وهى ليست من الحرم عند المحققين.

قال الإمام الرازى : ومنشأ الخلاف البحث فى تفسير هذه الآية، فقد قال الشافعى وغيره : المحل فى هذه الآية اسم للزمان الذى يحصل فيه التحلل وقال أبو حنيفة : إنه اسم للمكان[٣].

وبعد أن بين - سبحانه - أن الحلق لا يجوز للمحرم ما دام مستمرًا على إحرامه، أردف ذلك ببيان بعض الحالات التى يجوز فيها للمحرم أن يحلق رأسه مع استمراره على إحرامه فقال - تعالى - : ﴿فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾.

أى : فمن كان منكم - أيها المحرمون - مريضًا بمرض يضطر معه إلى الحلق، أو كان به أذى

(١) سورة الحج الآية ٣٣.
(٢) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٨١.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٣.

من رأسه كجراحة وحشرات مؤذية، فعليه إن حلق فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

وقوله: ﴿ففدية﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. أى: فعليه فدية، وأيضًا ففيه إضمار آخر والتقدير: فحلق فعليه فدية.

والفدية: هى العوض عن الشىء الجليل النفيس. ولا ريب أن محرمات الحج والعمرة أمور لها جلالها وعظمها.

وعبر - سبحانه - هنا بالفدية دون الكفارة، لأن الذى به مرض أو أذى من رأسه لم يرتكب ذنبًا أو إثمًا حتى يكفر عنه.

قال القرطبى: والنسك: جمع نسيكه، وهى الذبيحة ينسكها العبد لله - تعالى - وتكون من الإبل والبقر والغنم - ويجمع - أيضًا - على نسائك. والنسك: العبادة فى الأصل، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أى: متعبداتنا. وقيل: أصل النسك فى اللغة الغسل؛ ومنه نسك ثوبه إذا غسله، فكأن العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة. وقيل: النسك سبائك الفضة التى خلصت من الخبث، كل سبيكة منها نسيكة، فكأن العابد خلص نفسه من دنس الآثام»(١).

وقوله - تعالى -: ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية.

وقد بين النبى ﷺ مقدار هذه الفدية، فقد روى الشيخان عن كعب بن عجرة الأنصارى قال: حملت إلى النبى ﷺ والقمل يتناثر على وجهى فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا... أما تجد شاة؟ قلت: لا!! قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك. فنزلت فِىَّ خاصة وهى لكم عامة.

فقد بين النبى ﷺ مقدار الفدية فى هذا الحديث، وعامة العلماء يرون أن المحرم لعذر كهذا يخير فى هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدق وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على المساكين.

قال ابن كثير: ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل، ولما أمر النبى ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده أولا إلى الأفضل فقال: أما تجد شاه؟ فكل حسن فى مقامه»(٢).

وبعد أن بين - سبحانه كيفية التحلل عند الإحصار، وكيفية التحلل الجزئى من بعض

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٣٣.

المحرمات عند المرض، عقب ذلك ببيان كيفية التحلل فى حالة الأمن فقال : ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة﴾.

وقوله : ﴿فإذا أمنتم﴾ الأمن ضد الخوف. أى : فإذا زال خوفكم وثبت أمنكم والجملة معطوفة على قوله ﴿أحصرتم﴾ وجيء بإذا لأن فعل الشرط وهو ﴿أمنتم﴾ مرغوب فيه.

وقوله : ﴿فمن تمتع﴾ جواب إذا. والتمتع فى اللغة - كما قال الإمام الرازى - التلذذ. يقال : تمتع بالشيء إذا تلذذ به. والمتاع كل شيء يتمتع به، وأصله من قولهم : حبل ماتع، أى : طويل. وكل من طالت صحبته مع الشيء فهو متمتع به[1].

والمراد بالتمتع فى الآية المعنى الشرعى بأن يجمع المسلم بين العمرة والحج فى عام واحد فى أشهر الحج، بأن يحرم بالعمرة أولا ثم بالحج.

وسمى هذا النوع من الإحرام تمتعًا، لأن المحرم به يجمع بين متعة الروح ومتعة الجسد. لأنه يحرم بالعمرة أولا ويقوم بمناسكها وتلك متعة روحية وبعد الانتهاء من أدائها يتحلل فيجوز له أن يقرب النساء ويمس الطيب حتى يحرم بالحج وتلك متعة بدنية.

وهناك نوعان آخران من الإحرام.

أحدهما : الإفراد ومعناه : أن يحرم بالحج فقط ولا يجمع معه العمرة، وإنما يأتى بها فى وقت آخر.

وثانيهما : القِران ومعناه : أن يجمع بين العمرة والحج فى إحرام واحد، بأن يبقى على إحرامه ويأتى بمناسك الحج والعمرة بالإحرام نفسه.

والمعنى : فإذا ثبت أمنكم - أيها المسلمون - عند أدائكم للحج والعمرة، فمن تمتع منكم بالعمرة إلى الحج، بأن أحرم بها فى أشهر الحج، ثم بعد الانتهاء من أعمالها تحلل بأن حلق رأسه، وباشر أهله إن كانوا معه، وانتظر متحللا وصار من حقه أن يفعل كل ما يفعله من ليس محرمًا إلى وقت الإحرام بالحج، فعليه فى هذه الحالة أن يذبح ما تيسر له من الهدى من غنم أو بقر أو إبل ليكون هذا الذبح شكرًا لله حيث وفقه - سبحانه - للجمع بين النسكين مع التمتع بينهما بأفعال المتحلل، فمن لم يجد ما يذبحه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى وقت الحج وأن يصوم سبعة أيام بعد فراغه منه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٧ طبعة عبد الرحمن محمد.

وقوله: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام...﴾ معطوف على ﴿فمن تمتع بالعمرة...﴾ لأن ﴿فمن تمتع﴾ مع جوابه وهو ﴿فما استيسر...﴾ مقدر فيه معنى فمن تمتع واجدًا الهدى، فعطف عليه فمن لم يجد أى الهدى.

وقد جعل - سبحانه - الصيام بدلا عن الهدى زيادة فى الرخصة والرحمة وزيادة فى الرفق والتيسير فقد جعله على مرحلتين:

إحداهما: - وهى الأقل - تكون فى وقت الحج، ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذى الحجة وسابعه وثامنه.

وثانيتهما: - وهى الأكثر - تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر وتذهب مشقة السفر فيصوم سبعة أيام.

وبعض الفقهاء يرى جواز الصيام عند الأخذ فى الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحج، ويرجح الوجه الأول ما رواه الشيخان من حديث ابن عمر وفيه: «فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»[1].

والإشارة فى قوله - تعالى -: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ إلى الثلاثة والسبعة. ومميز العدد محذوف أى: أيام. والجملة مؤكدة لما أفاده قوله: ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم﴾ وفائدة هذا التأكيد دفع توهم أن الواو بمعنى أو، أو أن السبعة كناية عن مطلق كثرة العدد، وبذلك يتقرر الحكم نصًا، ويتبين أن الذى يحل محل النسك إنما هو العشرة الكاملة وليس بعضها.

ووصف العشرة بأنها كاملة، للتنويه بأن هذا الصوم طريق الكمال لأعمال الحج، وأن الحاج إذا نسى بعضها لا يكون حجه تاما حتى يصوم ما أمره الله - تعالى - به.

وقوله: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾ الإشارة فيه تعود إلى التمتع المفهوم من قوله - تعالى -: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج..﴾ إلخ.

أى: ذلك التمتع الذى يتمتع فيه المحرم بين النسكين، إنما هو للشخص الذى ليس أهله من المقيمين فى مكة وما حولها، لأن المقيمين فى مكة وما حولها يفردون ولا يجمعون، إذ العمرة فى إمكانهم أن يؤدوها طول أيام السنة.

وقد شرع - سبحانه - التمتع ليكون تيسيرًا ورفقًا للمقيمين بعيدًا عن مكة هذا رأى الأحناف.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٣٤.

ويرى الشافعية : أن أهل مكة وما حولها يقرنون ويتمتعون كغيرهم من أهل الآفاق، وأن اسم الإشارة فى الجملة الكريمة يعود إلى النسك وما يقوم مقامه من الصوم لأنه أقرب مذكور.

وعلى رأيهم يكون المعنى : ذلك الذبح لما تيسر من الهدى والصيام لمن لم يتيسر له الهدى إنما هو على سكان الآفاق، لا على سكان مكة وما حولها، لأن سكان مكة وما حولها قد أحرموا لتمتعهم من الميقات فلا يجب عليهم شىء.

والمراد بحاضرى المسجد الحرام : أهل مكة وأهل الحل الذين منازلهم داخل الموقيت عند الحنفية. وقال المالكية : هم أهل مكة خاصة. وقال الشافعية : هم أهل مكة ومن كان بينه وبين مكة مسافة لا تقصر فيها الصلاة. ولكل أدلته المفصلة فى كتب الفقه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بتقواه وبالتحذير من عقابه فقال : ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

أى : واتقوا الله فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن لم يخشه ولم يلتزم حدوده.

وفى هذا الأمر بالتقوى فى ختام هذه الآية التى تحدثت عن الحج إشعار بأن هذه الفريضة ليست العبرة فيها بما تعمله الجوارح وإنما العبرة بما تتركه فى القلوب من توبة صادقة، وصيانة للنفس عن اقتراف المحارم.

وفى قوله : ﴿واعلموا﴾ اهتمام بالخبر، وتحقيق لمضمونه، وترهيب من العقاب مع الترغيب بالثواب، فقد جرت عادة الناس أنهم يصلحون بالثواب والعقاب.

هذا، وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على بعض الأحكام التى تتعلق بالحج والعمرة، والمتدبر فى هذه الأحكام يراها قد امتازت بأحكم ضروب التوجيه، وأيسر أنواع التكليف.

ثم بين - سبحانه - وقت الحج وما يجب على المسلم عند أدائه لهذه الفريضة من آداب فقال - تعالى - :

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن

تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ
عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ
خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾
۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى
يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

وقوله : ﴿الحج أشهر معلومات﴾.

أى : وقت الحج أشهر معلومات أو أشهر الحج أشهر معلومات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

وجعلت النسبة إلى الحج نفسه لا إلى وقته، للإشعار بأن هذه الأشهر لكونها تؤدى فيها هذه الفريضة قد اكتسبت تقديسًا وبركة منها، حتى لكأن هذه الاشهر هى الفريضة نفسها.

قال القرطبى ما ملخصه : وأشهر الحج هى شوال وذو القعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة. وقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وفائدة الفرق تعلق الدم؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم يوجب دمًا على من أخر طواف الإفاضة إلى آخر ذى الحجة لأنه وقع فى أشهر الحج، ومن قال بأن وقت الحج ينقضى بالعشرة الأولى من ذى الحجة يوجب الدم عليه لتأخيره عن وقته. ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث، لأن بعض الشهر ينزل منزلة كله، كما يقال : رأيتك سنة كذا ولعله إنما رآه فى ساعة منها»[١].

وعبر - سبحانه - عن هذه الأشهر بأنها معلومات، لأن العرب كانوا يعرفون أشهر الحج من كل عام منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وقد جاء الإسلام مقررًا لما عرفوه. أو المراد بكونها معلومات أنها مؤقتة بأوقات معينة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها عنها، وهو يتضمن بطلان النسىء الذى كان يفعله الجاهليون تبعًا لأهوائهم.

وقوله : ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج﴾ بيان لما يجب أن يتحلى به المسلم من فضائل عند أدائه لهذه الفريضة.

قال الإمام الرازى : ومعنى ﴿فرض﴾ فى اللغة ألزم وأوجب. يقال : فرضت عليك كذا، أى أوجبته. وأصل معنى الفرض فى اللغة الحز الذى يقع فيه الوتر، ومنه فرض الصلاة وغيرها لأنها لازمة للعبد كلزوم الحز للقدح ففرض هنا بمعنى أوجب وألزم... »[٢].

والرفث فى الأصل : الفحش من القول. والمراد به هنا الجماع. أو الكلام المتضمن لما يستقبح ذكره من الجماع ودواعيه.

قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج وعليه حج قابل والهدى.

والفسوق : الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصى، ومن ذلك السباب وفعل محظورات الإحرام، وغير ذلك مما نهى الله عنه،

والجدال على وزن فعال من المجادلة وهى مشتقة من الجدل وهو الفتل ومنه : زمام مجدول.

وقيل : هى مشتقة من الجدالة التى هى الأرض. فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه، فيكون كمن ضرب به الجدالة.

والمراد النهى عن المماراة والمنازعة التى تؤدى إلى البغضاء وتغير القلوب.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٤٠٥.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٧٨.

والمعنى : أوقات الحج أشهر معلومات فمن نوى وأوجب على نفسه فيهن الحج وأحرم به فعليه أن يجتنب الجماع للنساء ودواعيه؛ وأن يبتعد عن كل قول أو فعل يكون خارجًا عن آداب الإسلام، ومؤديًا إلى التنازع بين الرفقاء والإخوان، فإن الجميع قد اجتمعوا على مائدة الرحمن، فعليهم أن يجتمعوا على طاعته، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

قال الآلوسى : وقال - سبحانه - ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج﴾ بالإظهار ولم يقل فيه مع أن المقام يقتضى الإضمار، لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وللإشعار بعلة الحكم، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله - تعالى - من موجبات ترك الأمور المذكورة المدنسة لمن قصد السير والسلوك إلى ملك الملوك. وإيثار النفى للمبالغة فى النهى، والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون فإن ما كان منكرًا مستقبحًا فى نفسه منهيًا عنه مطلقًا فهو للمحرم بأشرف العبادات وأشقها أنكر وأقبح(١)».

والضمير فى قوله : ﴿فيهن﴾ للأشهر، لأنه جمع لغير العاقل فيجرى على التأنيث.

وجملة ﴿فلا رفث..﴾ إلخ فى محل جزم جواب من الشرطية والرابط بين جملة الشرط والجواب ما فى معنى ﴿فلا رفث﴾ من ضمير يعود على «من»، لأن التقدير فلا يرفث.

ويجوز أن تكون جملة ﴿فلا رفث..﴾ وما عطف عليها فى محل رفع خبر لمن على أنها موصولة.

وقد أخذ الشافعية من هذه الآية أنه لا يجوز الإحرام بالحج فى غير أشهر الحج لأن الإحرام به فى غير أشهره يكون شروعًا فى العبادة فى غير وقتها فلا تصح

ويرى الأحناف والحنابلة، أنه يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ولكنه مع الكراهة : والإمام مالك لا يرى كراهة فى ذلك.

ويبدو أن رأى الشافعية هنا أرجح، لأن قوله - تعالى - : ﴿فمن فرض فيهن الحج..﴾ يشهد لهم، فقد جعل - سبحانه - هذه الأشهر وعاء لهذه الفريضة وظرفًا لها.

وقوله : ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حض على فعل الخير عقيب النهى عن فعل الشر.

أى : اتركوا الأقوال والأفعال القبيحة، وسارعوا إلى الأعمال الصالحه خصوصًا فى تلك

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ٨٦.

الأزمنة والأمكنة المفضلة، والله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو - سبحانه - سيجازيكم على فعل الخير بما تستحقون من جزاء.

ثم قال - تعالى - : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

قال الإمام الرازى : فى هذه الجملة الكريمة قولان :

أحدهما : أن المراد وتزودوا من التقوى - أى الأعمال الصالحة - والدليل عليه قوله بعد ذلك ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران : سفر فى الدنيا وسفر من الدنيا، فالسفر فى الدنيا لابد له من زاد وهو الطعام والشراب والمال. . إلخ. والسفر من الدنيا لابد له أيضًا من زاد وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لأن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم. . قال الأعشى مقررًا هذا المعنى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

والقول الثانى : أن هذه الآية نزلت فى أناس من أهل اليمن كانوا يحجون بغير زاد ويقولون إنا متوكلون، ثم كانوا يسألون الناس، وربما ظلموا الناس وغصبوهم فأمرهم الله - تعالى - أن يتزودوا بالمال والطعام الذى يغنيهم عن سؤال الناس[1].

والذى نراه أن الجملة الكريمة تسع القولين. فهى تدعو الناس إلى أن يتزودوا بالزاد المعنوى النفسى الذى يسعدهم ألا وهو تقوى الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والاكثار من العمل الصالح وفى الوقت نفسه هى تأمرهم - أيضًا - بأن يتزودوا بالزاد المادى الحقيقى الذى يغنيهم عن سؤال الناس، ويصون لهم ماء وجوههم.

وبذلك نكون قد استعملنا اللفظ فى حقيقته ومجازه، وهو استعمال شائع مستساغ عند كثير من العلماء.

ثم ختم - سبحانه - الآية بتأكيد أمر التقوى ووجوب الإخلاص فقال : ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ والألباب : جمع لب وهو العقل واللب من كل شيء : هو الخالص منه. وسمى به العقل، لأنه اشرف ما فى الإنسان.

أى : أخلصوا لى يا أصحاب العقول السليمة، والمدارك الواعية، لأنكم لما كنتم كذلك كان وجوبها عليكم أثبت، وإعراضكم عنها أقبح. ورحم الله القائل :

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٨٤ بتلخيص.

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

والجملة الكريمة ليست تكرارا لسابقتها، لأن الأولى حث على التقوى وهذه حث على الإخلاص فيها.

ثم بين - سبحانه - أن التزود بالزاد الروحى لا يتنافى مع التزود يا لزاد المادى متى توافرت التقوى، فقال - تعالى - : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾.

الجناح : أصله من جنح الشيء إذا مال : يقال جنحت السفينة إذا مالت إلى أحد جانبيها. والمراد بالجناح هنا الإثم والذنب، لأنه لما كان الإثم يميل بالإنسان عن الحق إلى الباطل سمى جناحًا.

والابتغاء : الطلب بشدة، وجملة ﴿أن تبتغوا﴾ فى موضع جر بتقدير فى.

والفضل : الزيادة وتكون فى الخير والشر إلا أنه جرى العرف أن يعبر عن الزيادة الحسنة بالفضل وعن الزيادة القبيحة بالفضول.

والمراد به هنا:المال الحلال المكتسب عن طريق التجارة المشروعة أو غيرها من وجوه الرزق الحلال.

أى : لا إثم ولا حرج عليكم فى أن تطلبوا رزقا حلالا ومالا طيبا عن طريق التجارة أو غيرها من وسائل الكسب المشروعة فى موسم الحج.

وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا يتحاشون من التجارة فى الحج، حتى إنهم كانوا يتجنبون البيع والشراء فى العشر الأوائل من ذى الحجة، فنزلت هذه الآية لتخبرهم أنه لا حرج عليهم فى ذلك.

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان ذو المجاز[(١)] وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾.

وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة التيمى قال : قلت لابن عمر : إنا نُكْرَى فهل لنا من حج؟ قال : أليس تطوفون بالبيت وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم وتقضون المناسك قال : قلت بلى. فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم

---

(١) ذو المجاز : مكان خلف جبل عرفات. وعكاظ : مكان فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ومجنة : مكان بمر الظهران. وهذه الأماكن تسمى بأسواق العرب.

يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فدعاه النبى ﷺ فقال له «أنتم حجاج»[1].

فالآية الكريمة صريحة فى إباحة طلب الرزق لمن هو فى حاجة إلى ذلك فى موسم الحج، بشرط ألا يشغله عن أداء فرائض الله.

ثم قال - تعالى -: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾.

الفاء فى قوله: فإذا لتفصيل بعض ما أجمل من قبل فى قوله ﴿فمن فرض فيهن الحج..﴾ وأفضتم. اندفعتم بكثرة متزاحمين. وذلك تشبيه لهم بالماء إذا كثر ودفع بعضه بعضًا فانتشر وسال من حافتى الوادى والإناء والإفاضة فى الحديث الاندفاع فيه بإكثار وتصرف فى وجوهه ومنه قوله - تعالى - ﴿إذ تفيضون فيه﴾. فأصل هذه الكلمة الدفع للشىء بكثرة حتى يتفرق. والتقدير: أفضتم أنفسكم فحذف المفعول للعلم به.

والمراد: خروجهم من عرفات بشىء من السرعة فى تكاثر وازدحام متجهين إلى المزدلفة.

وعرفات: اسم للجبل المعروف، قيل سمى بذلك لأن الناس يتعارفون به فهم يجتمعون عليه فى وقت واحد فيجرى التعارف بينهم.

وقد اتفق العلماء على أن الوقوف بعرفات هو ركن الحج الأكبر ففى الحديث الشريف «الحج عرفة» ويكون ذلك فى اليوم التاسع من ذى الحجة.

قال القرطبى: أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك قبل الزوال. وأجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارًا قبل الليل إلا مالك بن أنس فإنه قال: لابد أن يأخذ من الليل شيئًا، وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة فى تمام حجه. والحجة للجمهور مطلق قوله: ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾: فإنه لم يختص ليلا من نهار. وحديث عروة بن مضرس قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى الموقف من جَمْع - أى من المزدلفة - فقلت: يا رسول الله، جئتك من جبل طىء أكللت مطيتى وأتعبت نفسى.. فهل لى من حج يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «من صلى معنا صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلا أو نهارًا فقد تم حجه[2]».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٤٠.

(٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٤١٥.

ومن فى قوله : ﴿من عرفات﴾ ابتدائية. أى، فإذا أفضتم خارجين من عرفات إلى المشعر الحرام.

والمشعر الحرام : هو المزدلفة وقيل هو موضع بها. والمشعر : اسم مشتق من الشعور أى : العلم، أو من الشعار أى : العلامة.

ووصف المشعر بوصف الحرام لأنه من أرض الحرم، وهو منسك له حرمة وتقديس.

والمزدلفة من الازدلاف وهو القرب وسميت بذلك لأن الحجاج يزدلفون إليها من عرفات ليبيتوا بها قاصدين الاقتراب من منى.

وتسمى المزدلفة - أيضًا - «جَمْع» لاجتماع الناس فى هذا المكان أو جمعهم فيه بين صلاتى المغربِ والعشاء جمع تأخير. وتسمى كذلك «قزح».

ويرى الحنفية والشافعية أن الوقوف بالمزدلفة واجب وليس بركن، ومن فاته لا يبطل حجه ويجب عليه دم.

ويرى أكثر المالكية أن الوقوف بها سنة مؤكدة.

ويرى بعض التابعين وبعض الشافعية أن الوقوف بها ركن كالوقوف بعرفات

والمعنى : فإذا سرتم - يا معشر الحجاج - من عرفات متدافعين متزاحمين متجهين إلى المزدلفة فأكثروا من ذكر الله - تعالى - بالتلبية والتهليل والدعاء بقلوب مخبتة، ونفوس صافية، لأن ذكر الله - تعالى - فى تلك المواطن المقدسة والأوقات الفاضلة من شأنه أن يرفع الدرجات، ويوصل إلى أعلا المقامات.

ثم قال - تعالى - : ﴿واذكروه كما هداكم﴾ الكاف للتشبيه. ومعنى التشبيه فى مثل هذا التركيب المشابهة فى التساوى فى الحسن والكمال. كما تقول : اخدمه كما أكرمك تعنى : لا تتقاصر خدمتك عن إكرامه.

والمعنى : اذكروا الله - تعالى - ذكرًا حسنًا مماثلا لهدايته لكم، وأنتم تعلمون أن هذه الهداية شأنها عظيم فبسببها خرجتم من الظلمات إلى النور، فيجب عليكم أن تكثروا من ذكر الله ومن الثناء عليه.

قال الآلوسى : و «ما» تحتمل أن تكون مصدرية فمحل ﴿كما هداكم﴾ النصب على المصدرية، بحذف الموصوف. أى : ذكرًا مماثلا لهداكم.. وتحتمل أن تكون كافة فلا محل لها من الإعراب. والمقصود من الكاف مجرد تشبيه مضمون الجملة بالجملة، لذا لا تطلب عاملا تفضى بمعناه إلى مدخولها. وقيل : إن الكاف للتعليل، وما مصدرية. أى، اذكروه وعظموه لأجل

هدايته السابقة منه - تعالى - لكم[1].

و ﴿إن﴾ فى قوله : ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ هى المخففة من الثقيلة والضمير فى ﴿من قبله﴾ يعود إلى الهدى المأخوذ من ما المصدرية وما دخلت عليه

والمراد بالضلال هنا : الجهل بالإيمان وبالتكاليف التى كلف الله بها عباده.

أى : اذكروا الله - تعالى - ذكرًا مشابهًا لهدايته لكم، وإنكم لولا هذه الهداية لبقيتم على ضلالكم وجهلكم بالدين الحق، ولكن الله - تعالى - من عليكم بهذه الهداية فأكثروا من ذكره وشكره عليها.

وبعد أن تحدث - سبحانه - عن الإفاضة من عرفة إلى المزدلفة وأمر بالإكثار من ذكره، عقب ذلك ببيان الطريقة المثلى للإفاضة فقال : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ :

أى : أفيضوا من عرفة لا من المزدلفة. وهناك قولان فى المخاطب بهذه الآية.

أحدهما : أن الخطاب فيها لقريش وحلفائها، وذلك لأنهم كانوا يترفعون على الناس، فلا يقفون معهم على عرفات، وإنما يقفون وحدهم بالمزدلفة، وكانوا يقولون : نحن قطين الله - أى سكان حرمه فينبغى لنا أن نعظم الحرم - وهو المزدلفة - وَلا نعظم شيئًا من الحل - وهو عرفات -.

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت، كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله - نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾.

والمعنى : أفيضوا يا معشر قريش من المكان الذى يفيض منه الناس وهو عرفة، واتركوا ما تفعلونه من الإفاضة من المزدلفة، فالمقصود إبطال ما كانت تفعله قريش.

والثانى : أن الخطاب فى الآية لجميع الناس، أمرهم الله - تعالى - فيه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس.

والمراد بالناس فى الآية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فإن سنتهما كانت الإفاضة من عرفة لا من المزدلفة.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٨٨.

قال بعضهم : وإيقاع اسم الجمع على الواحد جائز إذا كان رئيسًا يقتدى به كما فى قوله - تعالى - : ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعنى «نعيم بن مسعود».

والذى نراه أن القول الثانى أولى بالقبول، لأن المغزى الذى تهدف إليه الآية فى معناها الخاص والعام هو دعوة الناس جميعًا إلى التجمع فى مكان واحد ليشعُروا بالإخاء والمساواة عند أدائهم لفريضة الحج بدون تفرقة بين كبير وصغير، وغنى وفقير، وقرشي وغير قرشي، ويدخل فى النهى دخولا أوليًا تلك الحالة التى كانت عليها قريش. وقد قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و «ثم» للتفاوت المعنوى بين الإفاضتين - أى الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة - لبيان البعد بينهما، إذ أن إحداهما صواب والأخرى خطأ.

أى : لا تفيضوا من المزدلفة لأنه خطأ جسيم، واجعلوا أفاضتكم من عرفات لأن هذا العمل هو الصواب الذى يحبه الله ويرضاه.

وقوله : ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ معطوف على ﴿أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أى : استغفروا الله من ذنوبكم ومما سلف منكم من أخطاء فإن المؤمن كلما قويت روحه، وصفت نفسه أحس بأنه مقصر أمام نعم خالقه التى لا تحصى. ومن أكثر من التوبة والاستغفار غفر الله له ما فرط منه، لأنه - سبحانه - كثير الغفران، واسع الرحمة.

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عمله بعد فراغهم من أعمال الحج فقال - تعالى - : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا﴾.

المناسك : جمع منسك مشتق من نسك نسكًا من باب نصر إذا تعبد. والمراد هنا العبادات التى تتعلق بالحج.

قال ابن كثير: عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم - بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم - فيقول الرجل منهم. كان أبى يطعم الطعام ويحمل الديات. . . ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله - تعالى - على نبيه ﷺ هذه الآية»(١).

والمعنى : فإذا فرغتم من عباداتكم، وأديتم أعمال حجكم، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم، بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أشد وأكثر من ذكركم لمآثر آبائكم، لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبا أدى إلى الخزى فى الدنيا والعقوبة

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٤٣ بتصرف يسير.

فى الآخرة. وإن كان صدقًا فإنه فى الغالب يؤدى إلى العجب وكثرة الغرور، أما ذكر الله بإخلاص وخشوع فثوابه عظيم، وأجره كبير. وفضلا عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى أباه لأنه سبب وجوده فأولى به ثم أولى ألا ينسى الذى خلق أباه وهو الله رب العالمين.

فالمقصود من الآية الكريمة الحث على ذكر الله - تعالى - والنهى عن التفاخر بالأحساب والأنساب.

و«أو» هنا فى معنى الإضراب والترقى إلى أعلى، لأنه.. سبحانه أمرهم أولا بأن يذكروه ذكرًا يماثل ذكرهم لآبائهم ثم ترقى بهم إلى ما هو أعلى من ذلك وأسمى فطالبهم بأن يكون ذكرهم له - سبحانه - أكثر وأعظم من ذكرهم لآبائهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿أو أشد ذكرًا﴾ فى موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر فى قوله: «كذكركم» كما تقول كذكر قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكرًا. أو فى موضع نصب عطف على ﴿آباءكم﴾ بمعنى، أو أشد ذكرًا من آبائكم.

وبعد أن أمر - سبحانه - الناس بذكره، بين أنهم بالنسبة لدعائه وسؤاله فريقان، أما الفريق الأول فقد عبر عنه بقوله: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق﴾.

أى: من الناس نوع يقول فى دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه فى الدنيا فنحن لا نطلب غيرها، وهذا النوع ليس له فى الآخرة من ﴿خلاق﴾ أى: نصيب وحظ من الخير.

وهذا النوع من الناس هو الذى استولى عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها، ولا يهتم إلا بها، صارفا نظره عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

والفاء فى قوله: ﴿فمن الناس﴾ للتفصيل، لأن ما بعدها تقسيم للناس إلى فريقين.

وحذف مفعول ﴿آتنا﴾ للدلالة على تعميم المطلوب فهم يطلبون كل ما يمكن أن تصل إليه أيديهم من متاع الدنيا بدون تمييز بين حلال أو حرام. وأما الفريق الثانى فقد عبر - سبحانه - عنه بقوله: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

أى: يقولون يا ربنا اعطنا حسنة فى الدنيا أى: حالا حسنة فى الدنيا تكون معها أبداننا سليمة، ونفوسنا آمنة، ومعيشتنا ميسرة بحيث لا نحتاج إلى أحد سواك، ولا نذل إلا لك، وامنحنا حالا حسنة فى الآخرة بأن تجعلنا يوم لقائك ممن رضيت عنهم، ورضوا عنك. وأبعدنا يوم القيامة من عذاب النار. ولم يذكر - سبحانه - قسما ثالثًا من الناس وهو الذى يطلب الآخرة

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٤٨.

فقط، ولا يطلب الدنيا، لأن الإسلام دين لا يرضى لأتباعه أن ينسوا حظوظهم من الدنيا، ولا يقر الانقطاع عن زينتها التى أخرجها الله لهم، وإنما يريد لهم أن يكونوا من العاملين بقوله - تعالى - : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

وبين - سبحانه - أن هذا النوع الثانى من الناس قد التمس من خالقه أن يقيه عذاب النار مع أن هذا الدعاء مندرج تحت حسنة الآخرة، وذلك لأن هذا النوع من الناس لقوة إيمانه، وصفاء وجدانه، وشدة خشيته من ربه يغلب الخوف على الرجاء، فهو يستصغر حسناته مهما كثرت بجانب نعم الله وفضله، ويلح فى الدعاء وفى الطلب أملا فى الاستجابة.

وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية الكريمة من جوامع الدعاء، وورد فى فضل الدعاء بها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال كان النبى ﷺ يقول : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ».

وروى ابن أبى حاتم عن عبد السلام بن شداد قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال : « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وتحدثوا حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور ! ! إذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله(١).

قال الإمام الرازى : اعلم أن الله - تعالى - بين أولا تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره - سبحانه - ثم بين بعد ذلك كيفية الدعاء فقال : ﴿فمن الناس من يقول..﴾ وما أحسن هذا الترتيب فإنه لابد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ثم بعد العبادة لابد من الاشتغال بذكر الله - تعالى - لتنوير القلب وتجلى نور جلاله. ثم بعد ذلك الذكر يشتغل الرجل بالدعاء، فإن الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقًا بالذكر كما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قدم الذكر فقال : ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ ثم قال : ﴿رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين﴾ فقدم الذكر على الدعاء »(٢).

ثم بين - سبحانه - جزاء هذا الفريق الثانى فقال : ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٤.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٠٤.

فاسم الإشارة يعود إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وكانت الإشارة للبعيد لبيان علو منزلتهم، وسمو درجاتهم ولم يعطف على ما قبله لأنه كالنتيجة له.

وقيل: إن الإشارة تعود إلى الفريقين. أى: لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه. ويضعفه أن الله - تعالى - قد ذكر قبل ذلك عاقبة الفريق الأول بقوله: ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾.

والمعنى: أولئك الذين جمعوا فى دعائهم بين طلب حسنتى الدنيا والآخرة لهم نصيب جزيل، وحظ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الصالحة، أو من أجل ما كسبوا من الفعال الطيبة. فحرف الجر «من» يصح أن يكون للابتداء أو للتبعيض.

وفى هذه الجملة الكريمة وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم، أجاب لهم دعاءهم، وأعطاهم سؤالهم.

قال القرطبى: وقوله: ﴿والله سريع الحساب﴾ من سرع يسرع - مثل عظم يعظم - فهو سريع. و«الحساب» مصدر كالمحاسبة، وقد يسمى المحسوب حسابًا. والحساب: العد. ويقال: حسب يحسب حسابًا وحسابة وحسبانًا أى: عد.

والمعنى فى الآية: أن الله - تعالى - سريع الحساب لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب، ولهذا قال وقوله الحق ﴿وكفى بنا حاسبين﴾. فالله - تعالى - عالم بما للعباد وما عليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل.

وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم. وقيل لعلى بن أبى طالب: كيف يحاسب الله العباد فى يوم؟ قال: كما يرزقهم فى يوم. ومعنى الحساب: تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه. وقيل: معنى الآية سريع بمجىء يوم الحساب، فالمقصود بالآية الإنذار بيوم: القيامة[1].

وقوله: ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات﴾ معطوف على قوله - تعالى - ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا﴾ وما بينهما اعتراض.

والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة التى بعد يوم النحر. والتشريق: تقديد اللحم.

قال القرطبى: ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام منى، وهى أيام التشريق، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها، وهى أيام رمى الجمار»[2].

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٤٣٥ (٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص١.

فالآية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثروا من ذكر الله فى هذه الأيام المباركة، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء «ويزعمون أن الحج قد انتهى بانتهاء يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذى الحجة.

ولقد بين لنا النبى ﷺ أن هذه الأيام ينبغى أن تعمر بذكر الله وبشكره على نعمه.

روى الأمام مسلم عن نبيشة الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله».

وروى البخارى عن ابن عمر: أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه وفى فسطاطه. وفى مجلسه، وفى ممشاه، فى تلك الأيام جميعًا.

ومن الذكر فى تلك الأيام التكبير مع كل حصاة من حصى الجمار كل يوم من أيام التشريق. فقد أخرج البخارى عن ابن عمر أن النبى ﷺ كبر مع كل حصاة.

ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام، لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله.

والمعنى. اذكروا الله، أى: كبروه فى أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين، وعند رمى الجمار وغيرها فى تلك الأيام المعدودات التى هى موسم من مواسم العبادة والطاعات، فإن الإكثار من ذكر الله يرفع الدرجات، ويمسح السيئات.

ثم قال - تعالى - : ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾. تعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل، يقال: تعجل الأمر واستعجل. ويأتيان متعديين فيقال: تعجل الذهاب واستعجله ويرى الزمخشرى أن المطاوعة أوفق لقوله - تعالى - : ﴿ومن تأخر﴾.

وإيضاح ذلك: أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق، ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمى عند كل جمرة سبع حصيات. ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويترك المبيت بمنى فى الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال - كما يرى الشافعية - وبعده أو قبله - كما يرى الحنفية - فلا إثم عليه فى عدم مبيته بمنى فى الليلة الثالثة.

أى: فمن تعجل فسافر فى اليومين الأولين فلا إثم عليه فى التعجيل، ومن بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه كذلك إذا اتقى كل منهما الله ووقف عند حدوده.

فالتقييد بالتقوى للتنبيه إلى أن العبرة فى الأفعال إنما هى بتقوى القلوب وطهارتها وسلامتها.

قال الآلوسى: وقوله ﴿لمن اتقى﴾ خبر لمبتدأ محذوف، واللام إما للتعليل أو للاختصاص.

أى : ذلك التخيير المذكور لأجل المتقى لئلا يتضرر بترك ما يقصده من التعجيل والتأخر أو ذلك المذكور من أحكام مطلقًا مختصة بالمتقى لأنه هو الحاج على الحقيقة . والمراد من التقوى على التقديرين تجنب ما يؤثم من فعل أو ترك[1] . . » .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون، واعلموا أنكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم يوم القيامة ليجازيكم على أعمالكم .

وقد ختمت الآيات التى تحدثت عن فريضة الحج بهذا الختام المكون من عنصرين،

أحدهما : تقوى الله .

والثانى : العلم اليقينى بالحشر، للإشعار بأنهما خلاصة التدين، وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها، وإذا خلت أية عبادة من هذين العنصرين كانت صورة لا روح فيها .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا بعض أحكام الحج وآدابه ومناسكه بأسلوب يهدى القلوب، ويسعد النفوس، ومن شأن من يعمل بهذه الآيات أن يكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد أن بين - سبحانه - فريضة الحج وما اشتملت عليه من أحكام وآداب، وبين أصناف الناس فى أدعيتهم التى تكشف عن خبايا قلوبهم، ومعادن نفوسهم، بعد أن بين ذلك أعقبه بالحديث عن صنفين من الناس فقال :

وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٩٤ .

بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت صنفين من الناس

أولهما : يمثل الأشرار.

والثانى : يمثل الأخيار.

أما الصنف الأول فقد وصفه الله - تعالى - بخمس صفات، الصفة الأولى حكاها فى قوله : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾.

يعجبك : من الإعجاب بمعنى الاستحسان، تقول. أعجبنى هذا الشىء، أى، استحسنته وعظم فى نفسى. و «من» للتبعيض.

والمعنى : ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم. فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت فى هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما فى الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذى لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقابا أليمًا لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح.

وعلى هذا التفسير يكون قوله : ﴿فى الحياة الدنيا﴾ متعلقًا بيعجبك.

وبعضهم يجعل قوله ﴿فى الحياة الدنيا﴾ متعلقًا بالقول فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا فى شئون الدنيا ومتعها لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل حبهم، ومن أحب شيئًا أجاد التعبير عنه، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها، لأنهم لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شىء ألا يحسن القول فيه.

ويبدو لنا أن تعلق الجار والمجرور بيعجبك أرجح، لأنه يتفق مع السياق إذ سياق الحديث فى شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم مع أن نفوسهم مريضة، وليس فى شأن الذين يحسنون الحديث عن شئونها المختلفة، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث فى شئون الدنيا لم يضيعوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح، فهم جامعون بين حسنتى الدنيا والآخرة.

والصفة الثانية من صفات هذا النوع المنافق من الناس بينه القرآن بقوله ﴿ويشهد الله على ما فى قلبه﴾ أى : يقرن معسول قوله، وظاهر تودده، بإشهاد الله على أن ما فى قلبه مطابق لما يجرى على لسانه.

وكأن هذا النوع المنافق قد رأى من الناس تشككًا فى قوله، لأن من عادة المنافقين أن يبدو من فلتات لسانهم ما يدل على ما هو مخبوء فى نفوسهم فأخذ يوثق قوله بالأيمان الباطلة بأن يقول لمن ارتاب فيه : الله يشهد أنى صادق فيما أقول. . إلى غير ذلك من الأقوال التى يقصد بها تأكيد قوله وصدقه فيما يدعيه، فالمراد بإشهاد الله : الحلف به أن ما فى قلبه موافق لقوله.

وجملة ﴿ويشهد الله﴾ حالية أو مستأنفة أو معطوفة على قوله ﴿يعجبك﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وهو ألد الخصام﴾ صفة ثالثة من صفات هذا النوع من الناس.

قال القرطبى : الألد : الشديد الخصومة والعداوة. . ولددته - بفتح الدال - الده - بضمها - إذا جادلته فغلبته. والألد مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق، أى : فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب. والخصام فى الآية مصدر خاصم. وقيل جمع خصم كصعب وصعاب. والمعنى، أشد المخاصمين خصومة، وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(١).

أى : إن هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه، ويضللهم بحلاوة لسانه، ويحلف بالأيمان المغلظة أنه لا يقول إلا الصدق، ويجادل عما يقوله بالباطل بقوة وعنف ومغالبة، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها.

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة رابعة فقال : ﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾.

تولى : من التولية بمعنى الإدبار والانصراف، ومتعلق تولى محذوف تقديره : تولى عنك.

وسعى : من السعى وهو المشى السريع وهو مستعار هنا لإيقاع الفتنة والتخريب. والفساد كما قال الراغب - خروج الشىء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح يقال فسد فسادًا وفسودًا إذا خرج عن الاستقامة(٢).

والحرث : مصدر يحرث، أى : أثار الأرض لإعدادها للزراعة، ثم أطلق وأريد به المحروث وهو الأرض، ثم أطلق وأريد به ما يترتب على ذلك من الزروع والثمار وهو المراد هنا.

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص١٦.
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧٩ للراغب الأصفهانى.

والنسل : كما يقول القرطبى - ما خرج من كل أنثى من ولد. وأصله الخروج والسقوط، ومنه نسل الشعر ينسل إذا سقط. ومنه ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ أى : يخرجون مسرعين.

والمعنى : وإذا أعرض عنك هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع فى الإفساد بينهم، وتفريق كلمتهم، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع والثمار والحيوان وما به قوام الحياة والأحياء.

فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس ومعيشتهم، وعن إيذائه الشديد لهم.

وبعض العلماء يرى أن « تولى » مشتق من الولاية : يقال : ولى البلد وتولاه، أى صار واليًا له، أميرًا عليه. والمعنى على هذا الرأى.

وإذا صار - هذا النوع من الناس - واليًا على قوم اجتذبهم إليه ببريق قوله، وبمعسول لفظه، وبأيمانه الفاجرة، وبمجادلته الباطلة، حتى إذا ما التف الناس حوله سعى بينهم بالفساد، وعمل على تقاطعهم وتباغضهم، وحكم فيهم بالباطل، ظنًا منه أن هذا الخلق وذلك السلوك سيجعلهم دائمًا طوع إرادته.

قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية، لأن المقصود بيان نفاق هذا النوع من الناس، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة، وعند الغيبة يسعى فى إيقاع الفتنة والفساد(١).

وقوله ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أى لا يرضى عن الذى منه الإفساد فى الأرض، ويظهر للناس الكلام الحسن وهو يبطن لهم الفعل السىء، لأنه - سبحانه - أوجد الناس ليصلحوا فى الأرض لا ليفسدوا فيها. فالجملة الكريمة تحذير منه - سبحانه - للمفسدين، ووعيد لهم على خروجهم عن طاعته.

أما الصفة الخامسة لهذا النوع من الناس فهى قوله - تعالى - : ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾. أى : وإذا قيل لهذا المنافق على سبيل النصح والإرشاد اتق الله واترك ما أنت فيه من نفاق وخداع وخروج عن طاعة الله، استولت عليه العزة - أى حمية الجاهلية - مقترنة بالإثم ومصاحبة له، فهى ليست العزة المحمودة ولكنها الكبرياء المبغوضة. والباء على هذا المعنى للمصاحبة والاقتران.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢١٩.

قال الجمل. والباء على هذا تكون فى محل نصب على الحال وفيها حينئذ وجهان :

أحدهما : أن تكون حالا من العزة أى ملتبسة بالإثم

والثانى : أن تكون حالا من المفعول. أى، أخذته حال كونه ملتبسا بالإثم، وفى قوله العزة بالإثم التتميم وهو نوع من علم البديع، وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها من الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة فمن مجيئها محمودة قوله - تعالى - : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها محمودة، فقيل بالإثم توضيحًا للمراد فرفع اللبس، ويجوز أن تكون الباء للتعدية - وهو قول الزمخشرى - فإنه قال : أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه. أى : حملته العزة التى فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذى ينهى عنه وألزمته ارتكابه، ويجوز أن تكون للسببية بمعنى أن إثمه كان سببًا لأخذ العزة له »(1).

أى : استولت عليه حمية الجاهلية بسبب الإثم الذى استحوذ على قلبه فأنساه كل ما يوصل إلى الصلاح والاستقامة.

و « ال » فى العزة للعهد. أى : العزة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهلية التى تمنع صاحبها من قبول النصيحة.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده مرجحًا ما ذهب إليه من أن « تولى » بمعنى الولاية والإمارة : « وهذا الوصف ظاهر جدًا فى تفسير التولى بالولاية والسلطة، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة، أو يحذر من مفسدة، لأنه يرى أن هذا المقام الذى ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأيًا وأرجحهم عقلا، بل الحاكم المستبد الذى لا يخاف الله - تعالى - يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله فى السلطة، فيجب أن يكون أفن رأيه خيرًا من جودة آرائهم، وإفساده نافذًا مقبولا دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله فى كذا. . . »(2).

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من هذه صفاته فقال : ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾.

الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط محذوف تقديره : إذا كانت هذه حالة المعرض عن النصح أنفة وتكبرًا ﴿فحسبه جهنم﴾ أى : كافيه جهنم جزاء له ﴿ولبئس المهاد﴾ أى : ولبئس الفراش الذى يستقر عليه بسبب غروره وفجوره.

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٦٤.

(2) تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٥١.

وقوله: ﴿فحسبه جهنم﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وقوله ﴿ولبئس المهاد﴾ جواب قسم مقدر. أى: والله. والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه وهو جهنم. والمهاد جمع مهد وهو المكان المهيأ للنوم، والتعبير عن جهنم بالمهاد من باب التهكم والاستهزاء بهذا النوع المغرور المفسد من الناس

هذا وقد أورد بعض المفسرين روايات فى سبب نزول هذه الآيات منها أنها نُزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى أقبل على النبى ﷺ فأظهر الإسلام وزعم أنه يحبه وأقسم بالله على ذلك، غير أنه كان منافقًا خبيث الباطن، فخرج من عند النبى ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل بعض الماشية فنزلت.

قال الإمام الرازى ما ملخصه بعد أن ساق هذه الرواية وغيرها: واختيار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآيات عامة فى حق كل من كان موصوفا بهذه الصفات المذكورة... ولا يمتنع أن تنزل الآية فى الرجل ثم تكون عامة فى كل من كان موصوفا بتلك الصفات، ونزولها على السبب الذى حكيناه لا يمنع من العموم، بل نقول فيها ما يدل على العموم وهو من وجوه.

أحدها: أن ترتب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية، فلما ذم الله - تعالى - قومًا وصفهم بصفات توجب استحقاق الذم، علمنا أن الموجب لتلك المذمة هو تلك الصفات، فيلزم أن كل من كان موصوفا بتلك الصفات أن يكون مستوجبًا للذم.

وثانيها: أن الحمل على العموم أكثر فائدة، وذلك لأنه يكون زجرًا لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة.

وثالثها: أن هذا أقرب إلى الاحتياط، لأنا إذا حملنا الآية على العموم دخل فيه ذلك الشخص، وأما إذا خصصناه بذلك الشخص لم يثبت الحكم فى غيره، فثبت بما ذكرنا أن حمل الآية على العموم أولى»[١].

هذا، وفى هذه الآيات الكريمة زجر شديد ووعيد أليم للمنافقين الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ويفسدون فى الأرض ولا يصلحون، ويكادون يسطون بالذين ينصحونهم ويتلون عليهم آيات الله لأن المنافقين ما كثروا فى أمة إلا وجعلوا بأسها بينها شديدا، روى ابن جرير عن نوف البكالى قال: إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢١٦.

مسوك - أى جلود - الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله - تعالى - فعلى يجترئون وبى يغترون، حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم حيران».

قال ابن كثير: قال القرظى الذى روى هذا القول عن نوف: تدبرت هذه الصفات فى القرآن فإذا هى فى المنافقين ووجدتها فى قوله - تعالى - ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾[1].

والحق أنه ما ابتليت أمة بتفشى هذا النوع من الناس فيها إلا فسد حالها وهان شأنها وكانت عاقبة أمرها خسرا.

أما النوع الثانى من الناس وهم الأخيار الصادقون فقد عبر عنهم القرآن بقوله - تعالى - : ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد﴾.

﴿يشرى نفسه﴾ أى: يبيعها ببذلها فى طاعة الله وإعلاء كلمته، وتحقيقه أن المكلف قد بذل نفسه بمعنى أنه أطاع الله - تعالى - وحافظ على فرائضه، وجاهد فى سبيله، من أجل أن ينال ثواب الله ومرضاته، فكان ما بذله من طاعات بمثابة السلعة، وكان هو بمنزلة البائع، وكان قبول الله - تعالى - منه ذلك وإثابته عليه فى معنى الشراء.

وقوله: ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ الابتغاء الطلب الشديد للشىء، والرغبة القوية فى الحصول عليه، وهو فى الآية مفعول لأجله.

أى: ومن الناس نوع آخر قد باع نفسه وبذلها فى طاعة الله طلبًا لرضوانه، وأملا فى مثوبته وغفرانه.

فهذا النوع التقى المخلص من الناس، يقابل النوع المنافق المفسد الذى سبق الحديث عنه.

قال بعضهم: وكان مقتضى هذه المقابلة أن يوصف هذا الفريق الثانى بالعمل الصالح مع عدم التعويض والتبجح بالقول، أو مع مطابقة قوله لعمله وموافقة لسانه لما فى قلبه. والآية قد تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به، فإن من يبيع نفسه لله لا يبغى ثمنًا لها سوى مرضاته لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول الحق مع الإخلاص فى القلب فلا يتكلم بلسانين ولا يقابل الناس بوجهين. ويكون هو المؤمن الذى يعتد القرآن بإيمانه»[2].

وقال أحد العلماء: ومرضاة مصدر ميمى بمعنى الرضا. ولا شك أن التعبير بالمصدر الميمى دون المصدر الأصلى له معنى يدركه السامع بذوقه، ولم نجد النحويين ولا البلاغيين تعرضوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٤٦.
(٢) تفسير المنار جـ٢ ص٢٥٢.

لبيان التفرقة بين المصدر الميمى وغيره والذى يتبدى لنا ونظنه تفرقة بينهما، أن المصدر الميمى يصور المعنى المصدرى واقعًا قائمًا متحققًا فى الوجود، أما المصدر غير الميمى فيصور المعنى مجردًا فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجردًا من غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أولا. أما كلمة مقال فتصور معنى وجد وتحقق، أو فى صورة الموجود المتحقق، وعلى ذلك معنى «ابتغاء مرضاة الله» أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلبًا موثقًا رضا الله - سبحانه - حقيقة واقعة مؤكدة، ويتصورون رضاه - سبحانه - حقيقة قائمة قد حلت بهم، فيشتد طلبهم وافتداؤهم للحق بأموالهم وأنفسهم»[(١)].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله - : ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أى، رفيق رحيم بهم، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم، وإنما كلفهم بما تطيقه نفوسهم، وأنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فى الدنيا مع تقصيرهم فيما أمرهم به أو نهاهم عنه، وأنه كافأهم بالنعيم المقيم على العمل القليل، وأنه جعل العاقبة للمتقين لا للمفسدين، إلى غير ذلك من مظاهر رأفته التى لا تحصى.

هذا، وقد أورد المفسرون روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية منها أنها نزلت فى صهيب بن سنان الرومى، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر أذنوا له، فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية. فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع يا صهيب، فقال لهم وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن الرسول ﷺ قال له عندما رآه: «ربح البيع، ربح البيع» مرتين[(٢)].

وهناك روايات أنها نزلت فيه وفى عمار بن ياسر وفى خباب بن الأرت وفى غيرهم من المؤمنين المجاهدين.

والذى نراه - كما سبق أن بينا - أن الآية الكريمة تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه فى سبيل إعلاء كلمته، ويدخل فى ذلك دخولا أوليًا من نزلت فيهم الآية، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بينت لنا نوعين من الناس: أحدهما خاسر، والآخر رابح، لكى نتبع طريق الرابحين، ونهجر طريق الخاسرين ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - بمجلة لواء الإسلام. السنة الخامسة - العدد الخامس.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٧

الله المصير﴾.

وبعد أن عرض القرآن هذين النوعين اللذين نجدهما فى كل زمان ومكان، وجه نداء إلى المؤمنين دعاهم فيه إلى الاستجابة التامة لخالقهم فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾

﴿السلم﴾ - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام - بمعنى واحد، ويطلقان على الإسلام وعلى المسالمة. وبعضهم فرق بين اللفظين فجعل «السلم» بكسر السين - للإسلام، و«السلم» - بفتحها - للمسالمة، وأنكر المبرد هذه التفرقة.

قال الفخر الرازى: وأصل هذه الكلمة من الانقياد. قال - تعالى - : ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾. والإسلام إنما سمى إسلاما لهذا المعنى. وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب، وهذا أيضا راجع إلى هذا المعنى. لأن عند الصلح ينقاد كل واحد إلى صاحبه»[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٦٢٦.

و ﴿كافة﴾ أي جميعًا. وهى فى الأصل صفة من كف بمعنى منع، واستعملت بمعنى الجملة والجميع بعلاقة أنها مانعة من التفرق وهى حال من قوله: ﴿السلم﴾ أى: يأيها المؤمنون ادخلوا فى الإسلام والتزموا بكل تعاليمه، ونفذوا جميع أحكامه وآدابه، واعملوا بكل أوامره ونواهيه، ولا تكونوا ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. فالمقصود التزام جميع شرائع الإسلام وأحكامه وآدابه.

وبعضهم يرى أن قوله: ﴿كافة﴾ حال من فاعل ادخلوا وهو ضمير الجماعة والمعنى عليه: ادخلوا فى الإسلام جميعًا، وانقادوا لأحكامه مجتمعين غير متفرقين، لأنه الدين الذى ألف الله به بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا.

وسواء أكان لفظ ﴿كافة﴾ حالا من ﴿السلم﴾ أو من فاعل ﴿ادخلوا﴾ فالمقصود من الآية دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع شعب الإسلام وشرائعه مع التزامهم برباط الإخاء الذى ربط الله به بين قلوبهم بسبب اتباعهم لهذا الدين الحنيف.

وإذا كان المراد بكلمة ﴿السلم﴾ المسالمة والمصالحة كان المعنى: يأيها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين، متحابين غير متباغضين، متجمعين غير متفرقين، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم، وأن تحاربوه متى اعتدى عليكم، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوى الذى يرد الاعتداء بمثله.

هذا هو المعنى الذى نراه ظاهرًا فى الآية، وهو ما سار عليه المحققون من المفسرين.

وبعضهم ذكر أن الخطاب فى الآية لمؤمنى أهل الكتاب، لما روى عن ابن عباس أنه قال: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبى ﷺ وآمنوا بشرائعه وشرائع موسى عليه السلام - فعظموا السبت وكرهوا لحم الإبل وألبانها بعد أن أسلموا، فأنكر عليهم المسلمون، فقالوا، إنا نقوى على هذا وهذا؛ وقالوا للنبى ﷺ إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله هذه الآية. فالخطاب لمؤمنى أهل الكتاب[1].

وبعضهم ذكر أن المراد بالآية المنافقون والتقدير: يأيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان. وهذان القولان ضعفهما ظاهر، إذ لا سندلهما يعتمد عليه، ولا يؤيدهما سياق الآية الكريمة، لأن الآية الكريمة صريحة فى دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وإلى الإخاء الجامع ونبذ التفرق والاختلاف والاعتداء.

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص٩٧.

وقوله : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ تحذير لهم مما يصدهم عن الدخول فى السلم.

أى : أدخلوا فى السلم واحذروا أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه إنه لكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل.

والخطوات. جمع خطوة - بفتح الخاء وضمها - وهى ما بين قدمى من يخطو.

وفى قوله : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ إشعار بأن الشيطان كثيرًا ما يجر الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة ودرجة فدرجة حتى يجعله يألفه ويقتحمه بدون تردد، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. والعاقل من الناس هو الذى يبتعد عن كل ما هو من نزغات الشيطان ووساوسه، فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقوله : ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ جملة تعليلية، مؤكدة للنهى ومبينة لحكمته.

وقوله : ﴿فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ تفريع على النهى، وترهيب من العقاب الذى سيصيب المتبعين للشيطان .

قال القرطبى : وأصل الزلل فى القدم، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك.

يقال : زل يزل زلا وزللا وزلولا، أى : دحضت قدمه.

والبينات : جمع بينة، وهى الأدلة والمعجزات، ومجيئها : ظهورها.

والمعنى : فإن تنحيتم عن طريق الحق، وعدلتم عنه إلى الباطل، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب والخطأ، والتى تدعوكم إلى اتباع طريق الحق، فاعلموا أن الله ﴿عزيز﴾ لا يقهر ولا يعجزه الانتقام ممن زل ﴿حكيم﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور فى مواضعها.

وجىء فى الشرط بإن، لندرة حصول الزلل من المؤمنين، إذ الشأن فيهم ذلك.

وقوله : ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ جواب الشرط.

وقوله : ﴿من بعدما جاءتكم البينات﴾ قطع لعذرهم حتى لا يقولوا يوم الحساب إننا زللنا لأننا لا نعرف الحق من الباطل. وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به - كما قال القرطبى -.

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : « وقوله : ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ نهاية فى الوعيد،

لأنه يجمع من ضروب الخوف مالا يجمعه الوعيد بذكر العقاب. وربما قال الوالد لولده: إن عصيتنى فأنت عارف بى وأنت تعلم قدرتى عليك وشدة سطوتى. فيكون هذا الكلام فى الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره. فإن قيل: أفهذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد؟ قلنا: نعم من حيث أتبعه بقوله: ﴿حكيم﴾ فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء، فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة»[1].

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالدخول فى السلم كافة، ونهاهم عن الزلل عن طريقه المستقيم، عقب ذلك بتهديد الذين امتنعوا عن الدخول فى السلم فقال: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل...﴾

ينظرون: أى ينتظرون. يقال: نظرته وانتظرته بمعنى واحد.

وظلل: جمع ظلة. كظلم جمع ظلمة - وهى ما أظلك من شعاع الشمس وغيره.

والغمام: اسم جنس جمعى لغمامة، وهى السحاب الرقيق الأبيض، سمى بذلك لأنه يغم، أى يستر. ولا يكون الغمام ظلة إلا حيث يكون متراكبًا والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والمعنى: ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول فى الإسلام من بعد ما جاءتهم البينات، إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة فى ظلل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم على أعمالهم، وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلا هو - سبحانه -

وإتيان الله - تعالى - إنما هو بالمعنى اللائق به - سبحانه - مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث، وتفويض علم كيفيته إليه - تعالى -. وهذا هو رأى علماء السلف.

وقوله: ﴿وقضى الأمر﴾ معناه على هذا الرأى: أتم - سبحانه - أمر العباد وحسابهم فأثيب الطائع وعوقب العاصى، ولم تعد لدى العصاة فرصة للتوبة أو تدارك ما فاتهم. وقد ارتضى هذا الرأى عدد من المفسرين منهم ابن كثير فقد قال فى معنى الآية: يقول الله - تعالى - مهددًا للكافرين بمحمد ﷺ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾ يعنى: يوم القيامة نفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر!! ولهذا قال - تعالى - ﴿وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾[2].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٣١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٨.

أما علماء الخلف فيؤولون إتيان الله بما يتناسب مع ذاته - سبحانه -، ولذا فسروا إتيانه بأمره أو بأسه فى الدنيا.

وقد عبر صاحب الكشاف عن وجهة نظر هؤلاء بقوله: «إتيان الله: إتيان أمره وبأسه كقوله ﴿أو يأتى أمر ربك﴾ ﴿فجاءهم بأسنا﴾ ويجوز أن يكون المأتى به محذوفًا، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله - قبل ذلك - «فإن الله عزيز حكيم». فإن قلت: لم يأتيهم العذاب فى الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنته الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؛ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث: ﴿وقضى الأمر﴾ أى: تم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه»(١).

وقال الجمل ما ملخصه: وقوله: ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ استثناف مفرغ من مقدر، أى ليس لهم شىء ينتظرونه إلا إتيان العذاب وهذا مبالغة فى توبيخهم وقوله: ﴿والملائكة﴾ بالرفع عطفا على اسم الجلالة أى، وتأتيهم الملائكة فإنهم وسائط فى إتيان أمره - تعالى -، بل هم الآتون بأسه على الحقيقة. وقرأ الحسن وأبو جعفر: والملائكة بالجر عطفا على ظلل، أى إلا أن يأتيهم فى ظلل وفى الملائكة. وقوله ﴿وقضى الأمر﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون معطوفًا على يأتيهم داخلا فى حيز الانتظار ويكون ذلك من وضع الماضى موضع المستقبل والأصل ويقضى الأمر؛ وإنما جىء به كذلك لأنه محقق كقوله: ﴿أتى أمر الله﴾.

والثانى: أن يكون جملة مستأنفة برأسها أخبر الله - تعالى - بأنه قد فرغ من أمرهم فهو من عطف الجمل وليس داخلا فى حيز الانتظار»(٢).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أى إليه وحده - سبحانه - لا إلى غيره ولا إلى أحد معه تصير الأمور خيرها وشرها وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد قضاء أمره، ونفاذ حكمه، وتمام قدرته.

ثم بين - سبحانه - أن كفر الكافرين ليس سببه نقصان الدليل على صحة إيمان المؤمنين،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٥٣.
(٢)حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص١٦٦.

وإنما سببه الجحود والحسد وإيثار الهوى على الهدى، بدليل أن بنى إسرائيل قد آتاهم الله آيات بينات تهدى إلى الإيمان ومع ذلك كفروا بها. استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم بعد تهديده للكافرين فى الآية السابقة فيقول: ﴿سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة...﴾.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه ليس المقصود: سل بنى إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كان عالمًا بتلك الأحوال بإعلام الله - تعالى - إياه، بل المقصود منه المبالغة فى الزجر عن الإعراض عن دلائل الله - تعالى -.

أى: سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لاجرم استوجبوا العقاب من الله - تعالى -، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا فى العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه. والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم...»[1].

و﴿سل﴾ فعل أمر من سأل وأصله اسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين قبلها وصارت ساكنة فحذفت. ولما فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى همزة الوصل فحذفت أيضًا.

و﴿كم﴾ إما خبرية والمسئول عنه محذوف، والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب مبينة لاستحقاقهم التقريع والتوبيخ. كأنه قيل «سل بنى إسرائيل» عن طغيانهم وجحودهم للحق بعد وضوحه فقد آتيناهم آيات كثيرة بينة ومع ذلك أعرض كثير منهم عنها.

وإما استفهامية والجملة فى موضع المفعول الثانى لقوله «سل» وقيل: فى موضع المصدر، أى: سلهم هذا السؤال. وقيل: فى موضع الحال. أى: سلهم قائلا: كم آتيناهم.

والاستفهام للتقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار - بأنه قد خالف ما تقتضيه الآيات من الإيمان بالله - تعالى -.

فالمراد بهذا السؤال تقريعهم على جحودهم الحق بعد وضوح الآيات لا معرفة إجابتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد فيقول لمن حضره: سله كم أنعمت عليه؟

ومن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التى أظهرها الله - تعالى - لبنى إسرائيل على أيدى أنبيائهم ليؤمنوا بهم: عصا موسى التى ألقاها فإذا هى حية تسعى؛ والتى ألقاها فإذا هى تلقف ما صنعه السحرة، والتى ضرب بها البحر ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله وصدق من جرت على يديه هذه الخوارق، ومع ذلك فمنهم من قال لموسى ﴿أرنا الله جهرة﴾ ومنهم من كفر وعبد العجل..

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٣.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال: ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾.

التبديل: جعل شيء بدلا عن آخر، ونعمة الله هنا تتناول آياته الدالة على صدق رسله، كما تتناول ما أسبغه الله على عباده من صحة ومال وعقل وغير ذلك من نعمه الظاهرة والباطنة.

أى: ومن يبدل نعم الله بعد ما وصلت إليه واتضحت له، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان، وجحد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسديها من يبدل ذلك التبديل فإن الله سيعاقبه عقابًا شديدًا.

وقوله: ﴿من بعد ما جاءته﴾ زيادة توبيخ لهم، وأنهم مستحقون لأشد ألوان العذاب، لأنهم قد كفروا بآيات الله وجحدوا نعمه بعد معرفتها والوقوف على تفاصيلها. فهو كقوله - تعالى -: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾. فهو تبديل عن معرفة لا عن جهل أو خطأ.

وقوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ تعليل للجواب أقيم مقامه.

أى: ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة لأنه شديد العقاب فلا يفلت منه أحد. ويحتمل أن يكون هذه الجملة هى الجواب بتقدير الضمير أى شديد العقاب له.

والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم، وهو مأخوذ - كما يقول القرطبى - من العقب، كأن المعاقب يمشى بالمحازاة للجانى فى آثار عقبه، ومنه عقبة الراكب - أى الموضع الذى يركب منه -، فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب وقد عاقبه بذنبه[1].

فالآية الكريمة وعيد شديد لكل من يبدل نعم الله، ويترك شكرها.

وبعد أن ذكر القرآن حال من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته، أتبعه بذكر الأسباب التى حملت أولئك الأشقياء على البقاء فى كفرهم وجحودهم فقال - تعالى -: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾... الآية.

التزيين: جعل الشىء زينا أى، شديد الحسن. والحياة نائب فاعل، زين، ولم تلحق تاء التأنيث بالفعل لأن نائب الفاعل مجازى التأنيث ولوجود الفاصل بين الفعل ونائب الفاعل.

والمعنى، أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار، وصارت متعها وشهواتها كل تفكيرهم، أما الآخرة فلم يفكروا فيها، ولم يهيئوا أنفسهم للقائها.

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٨.

قال القرطبى : والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزينها أيضًا الشيطان بوسوسته وإغوائه وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها. وقد جعل الله ما على الأرض زينة لهاليبلو الخلق أيهم أحسن عملا، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها»[(١)].

وقوله : ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ معطوف على جملة ﴿زين للذين كفروا. . .﴾

أو خبر لمبتدأ محذوف أى وهم يسخرون وتكون الواو للحال.

ويسخرون : يضحكون ويهزأون. يقال. سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت به.

أى أن الذين كفروا لا يكتفون بحبهم الشديد لزينة الحياة الدنيا وشهواتها وإنما هم بجانب ذلك يسخرون من المؤمنين لزهد هم فى متع الحياة، لأن الكفار يعتقدون أن ما يمضى من حياتهم فى غير متعة فهو ضياع منها، وأنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا على ما فعلوه فى دنياهم، أما المؤمنون فهم يتطلعون إلى نعيم الآخرة الذى هو أسمى وأبقى من نعيم الدنيا.

وجىء بقوله : ﴿زين﴾ ماضيا للدلالة على أنه قد وقع وفرغ منه. وجىء بقوله ﴿ويسخرون﴾ مضارعًا للدلالة على تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدوثها بين وقت آخر. قال - تعالى - : ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. .﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وحزبه، كانوا يتنعمون فى الدنيا أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون : أنظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد ﷺ أنه يغلب بهم. ومنها. أنها نزلت فى أبى جهل ورؤساء قريش كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعمار وخباب وابن مسعود وغيرهم بسبب ما كانوا فيه من الفقر والصبر على البلاء. والحق أنه لا مانع من نزولها فى شأن كل الكافرين الذين يسخرون من المؤمنين.

وقوله : ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ رد منه - سبحانه - على هؤلاء الكفار الذين يسخرون من المؤمنين، والذين يرون أنفسهم أنهم فى زينتهم ولذاتهم أفضل من المؤمنين فى نزاهتهم وصبرهم على بأساء الحياة وضرائها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٩.

أى، والذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل سوء فوق أولئك الكافرين مكانة ومكانا يوم القيامة، لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أعلى عليين، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار وبئس القرار.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال «من الذين آمنوا» ثم قال : ﴿والذين اتقوا﴾ ؟ قلت : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن التقى، وليكون بعثًا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك[1].

وقيدت الفوقية بيوم القيامة للتنصيص على دوامها، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية، ولإدخال السرور والتسلية على قلوب المؤمنين حتى لا يتسرب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لهم فى الدنيا.

وقوله : ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ تذييل قصد به تشريف المؤمنين، وبيان عظم ثوابهم.

أى : والله يرزق من يشاء بغير حساب من المرزوق. أو بلا حصر وعد لما يعطيه. أو أنه لا يخاف نفاد ما فى خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها. فهو - سبحانه - الذى يعطى ويمنع، وليس عطاؤه فى الدنيا دليل رضاه عن المعطى فقد يعطى الكافر وهو غير راض عنه، أما عطاؤه فى الآخرة فهو دليل رضاه عمن أعطاه.

قال الأستاذ الإمام : إن الرزق بلا حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد، فإنك ترى كثيرًا من الأبرار وكثيرًا من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيرًا من الفريقين فقراء معسرين، والمتقى يكون دائمًا أسعد حالا وأكثر احتمالا، ومحلا لعناية الله به فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر لأنه يجد فى التقوى مخرجًا من كل ضيق . . . وأما الأمم فأمرها على غير هذا، فإن الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نقم الله وسخطه . . وليس من سنة الله أن يرزق الأمة العزة والثروة وهى لا تعمل، وإنما يعطيها بعملها ويسلبها بزللها . . »[2].

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس، وأنهم فى حاجة إلى الرسل ليبشروهم وينذروهم ويحكموا بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٥٥.
(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٧٤ بتلخيص.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين فى الآية المتقدمة أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا، بين فى هذه الآية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلا فى الأزمنة المتقادمة، لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا، وما كان اختلافهم إلا بسبب البغى والتحاسد والتنازع فى طلب الدنيا»(١).

و﴿الأمة﴾ القوم المجتمعون على الشىء الواحد يقتدى بعضهم ببعض مأخوذ من أم بمعنى قصد لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده فى مختلف شؤونه.

وللعلماء أقوال فى معنى قوله - تعالى - ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾.

القول الأول الذى عليه جمهور المفسرين أن المعنى : كان الناس أمة واحدة متفقين على توحيد الله - تعالى - مقرين له بالعبودية مجتمعين على شريعة الحق ثم اختلفوا ما بين ضال ومهتد، فبعث الله إليهم النبيين ليبشروا من اهتدى منهم بجزيل الثواب، ولينذروا من ضل بسوء العذاب، وليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه بالحكم العادل، والقول الفاصل.

قال القفال : ويشهد لصحة هذا الرأى قوله - تعالى - ﴿فبعث الله النبيين. . .﴾(٢) فهذا يدل على أن الأنبياء - عليهم السلام - إنما بعثوا حين الاختلاف، ويتأكد هذا بقوله :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١١.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٢.

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » ويتأكد أيضًا بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين..﴾.

و« كان » على هذا الرأى على بابها من المضى، وعدم استمرار الحكم، وعدم امتداده إلى المستقبل، لأن الناس كانوا مهتدين ثم زالت الهداية عنهم أو عن كثير منهم بسبب اختلافهم فأرسل الله - تعالى - رسله لهدايتهم.

القول الثانى يرى أصحابه أن المعنى : كان الناس أمة واحدة مجتمعين على الضلال والكفر فبعث الله النبيين لهدايتهم..

و« كان » على هذا الرأى - أيضًا - على بابها من المضى والانقضاء، ولا تحتاج على هذا الرأى إلى تقدير كلام محذوف، وهو ثم اختلفوا فبعث.. إلخ.

ومن العلماء الذين رجحوا القول الأول الإمام ابن كثير فقد قال : عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. وهكذا قال قتادة ومجاهد. وقال العوفى عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول كانوا كفارًا (فبعث الله النبيين) والقول الأول عن ابن عباس وهو أصح سندًا ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا - عليه السلام - فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض(١).

أما الرأى الثالث فقد قرره الإمام القرطبى بقوله : ويحتمل أن تكون « كان » للثبوت، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة فى خلوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا مَنُّ الله عليهم وتفضله بالرسل إليهم. فلا يختص « كان » على هذا التأويل بالمضى فقط، بل معناه معنى قوله : ﴿وكان الله غفورًا رحيمًا﴾(٢).

وهذا الرأى قد اختاروه الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسيره للآية الكريمة ووافقه عليه بعض العلماء الذين كتبوا فى تفسير هذه الآية. قال الأستاذ الإمام ما ملخصه.

« خلق الله الإنسان أمة واحدة أى مرتبطًا بعضه ببعض فى المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضًا، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشىء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفير جميع ما يحتاج إليه، فلابد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته... وهذا معنى قولهم : «الإنسان مدنى بطبعه» يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفى للوصول إلى جميع حاجاته إلا بالاستعانه بغيره.. ولما كان

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٠.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٣١.

الناس كذلك كان لابد لهم من الاختلاف بمقتضى فطرهم، وكان من رحمة الله أن يرسل إليهم مبشرين ومنذرين.

وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة فى الآية التى نفسرها يكون على هذا المعنى:

إن الله قضى أن يكور الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم فى توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم، لتفاوت عقولهم، واختلاف فطرهم، وحرمانهم من الإلهام الهادى لكل منهم إلى ما يجب عليه نحو صاحبه، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى - القادر على إثابتهم وعقوبتهم...»[(١)].

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ما ملخصه: وإن هذا الرأى الذى اختاره الأستاذ الإمام هو الذى نختاره، وعلى هذا التأويل لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير محذوف، لأن ذات حالهم من كونهم لا علم لهم بالشرائع ولا تهتدى عقولهم إلى الحقائق بنفسها توجب البعث، ولأن تلك الحال التى تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث النبيين.. ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع، وحيث كان الاجتماع فلابد من نظام يربط، وشرع يحكم.

وعلى هذا التأويل أيضا تكون الفاء فى قوله: ﴿فبعث...﴾ - وهى التى يقول عنها النحويون إنها للترتيب والتعقيب - فى موضعها من غير حاجة إلى تقدير، لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف.

و«كان» على هذا التأويل تدل على الاستمرار والثبوت، لأن الناس بمقتضى فطرهم دائما فى حاجة إلى شرع السماء لا يهتدون إلا به.

ثم قال فضيلته: وقد يقول قائل: إن جعل «كان» للاستمرار يفيد أن وحدة الناس فى الفطرة وتأديها إلى التناحر يقتضى بعث النبيين إلى يوم القيامة، وأنه لابد من نبى لعصرنا، ونحن نسلم بالاعتراض ولا ندفع إيراده ونقول: نعم إنه لابد من قيام رسالة إلى يوم القيامة وهى رسالة محمد ﷺ التى جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن تفنى الأرض ومن عليها وهذا الكتاب هو القرآن الكريم الذى لا تبلى جدته، والذى تكفل الله بحفظه، وبإعجازه إلى يوم القيامة، والذى من يقرؤه فكأنما يتلقاه عن النبى ﷺ»[(٢)].

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٨٢ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة من العدد الثامن

هذه هى أشهر الأقوال فى معنى قوله - تعالى - ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ وهناك أقوال أخرى لم نذكرها لضعفها.

وقوله - تعالى - : ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ معطوف على ﴿فبعث﴾، والمراد بالكتاب الجنس.

والمعنى : وأنزل - سبحانه - مع هؤلاء النبيين الذين بعثهم مبشرين ومنذرين كلامه الملتبس بالحق والجامع لما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، لكى يفصلوا بواسطته بين الناس فيما اختلفوا من شئون دينيه ودنيويه.

وذكر - سبحانه - الكتاب بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت إلا أنها فى جوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد فى أصله، وإذا كان هناك خلاف بينها ففى تفاصيل الأحكام وفروعها لا فى جوهرها وأصولها، وقوله : ﴿بالحق﴾ متعلق بأنزل، أو حال من الكتاب أى ملتبسا شاهدا به.

والضمير فى قوله : ﴿ليحكم..﴾ يجوز أن يعود إلى الله - تعالى - أو إلى النبيين، أو إلى الكتاب. ورجح بعضهم عودته إلى الكتاب لأنه أقرب مذكور. والجملة تعليلية للإنزال المذكور.

وفى إسناد الحكم إلى الكتاب تنبيه للناس إلى أن من الواجب عليهم أن يرجعوا إليه عند كل اختلاف. لأن هذا هو المقصد الأساسى من إنزال الكتب السماوية.

وللأستاذ الإمام محمد عبده كلام نفيس فى هذا المعنى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : «الحكم مسند إلى الكتاب نفسه، فالكتاب ذاته هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفيه نداء للحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه، وألا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء.. ولو ساغ للناس أن يؤولوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه عقولهم بدون رجوع إلى بقية النصوص، لما كان لإنزال الكتب فائدة، ولما كانت الكتب فى الحقيقة حاكمة، بل كانت متحكمة فيها الأهواء، فنعود المصلحة مفسدة، وينقلب الدواء علة، ولهذا رد الله الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به.. ونسبة الحكم إلى الكتاب هى كنسبة النطق والهدى والتبشير إليه فى قوله - تعالى - : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ وقوله - تعالى - : ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين..﴾

ثم يقول - رحمه الله - «يتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثرًا مما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد، وذلك قطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء فى الكتاب والآثار الأخر ولى اللسان أو تأويله بغير ما قصد منه؛ وما هم المؤول أن يعمل بالكتاب وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته، أو عضد لسطوته، سواء أهدمت أحكام الله أم قامت، واعوجت

السبيل أم استقامت، ثم يأتى ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال غيره، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله، ويتخذهم عونا على الخادع الأول، فيقع الاختلاف والاضطراب، وآلة المختلفين فى ذلك هو الكتاب(١)

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت إلى اختلاف الناس فى الكتاب الذى أنزله لهدايتهم فقال ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾.

والضمير فى قوله: ﴿فيه﴾ وفى قوله: ﴿أوتوه﴾ يعود إلى الكتاب، والمعنى عليه: وما اختلف فى شأن الكتاب الهادى الذى لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف، إلا الذين أوتوه، أى علموه ووقفوا على تفاصيله، ولم يكن اختلافهم لا لتباس عليهم من جهته وإنما كان خلافهم من بعد ما ظهرت لهم الدلائل الواضحة الدالة على صدقه، وما حملهم على هذا الاختلاف إلا البغى والظلم والحسد الذى وقع بينهم.

والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، واختلافهم فى الكتاب يشمل تصديقهم ببعضه وتكذيبهم بالبعض الآخر، كما يشمل اختلافهم فى تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وعدم تنفيذها، وذهاب كل فريق منهم مذهبًا يخالف مذهب الآخر فى أصول الشرع لا فى فروعه.

وعبر عن الإنزال بالإيتاء - كما يقول الآلوسى - للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فيه من الحق، فإن الإنزال لا يفيد ذلك، وقيل: عبر به ليختص الموصول بأرباب العلم والدراسة من أولئك المختلفين، وخصهم بالذكر لمزيد شناعة فعلهم ولأن غيرهم تبع لهم»(٢).

وقوله: ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ متعلق باختلف، وفيه زيادة تشنيع عليهم لأنهم قد اختلفوا فيه بعد أن قامت أمامهم الحجج الناصعة الدالة على الحق.

وقوله: ﴿بغيا﴾ مفعول لأجله لاختلفوا ﴿وبينهم﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿بغيا﴾. أى أن داعى الاختلاف هو البغى والحسد الذى وقع بينهم، فجعل كل فريق منهم يخطىء الآخر، ويجرح رأيه.

وفى هذا التعبير إشارة إلى أن البغى قد باض وفرخ عندهم، فهو يحوم عليهم، ويدور

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٨٤، ٢٨٦.
(٢) تفسير الألوسى جـ٢ ص ١٠٢.

بينهم، ولا طمع له فى غيرهم، ولا ملجأ له سواهم، لأنهم أربابه الذين تمكنوا منه، وتمكن منهم بقوة ورسوخ.

وبعضهم جعل الضمير فى قوله : ﴿فيه﴾ يعود إلى الحق، والضمير فى قوله : ﴿أوتوه﴾ يعود إلى الكتاب. أى : وما اختلف فى الحق إلا الذين أوتوا الكتاب

ويرى بعض العلماء أن عودة الضمير فى كليهما إلى الحق أو إلى الكتاب جائز، وأن المعنى على التقديرين واحد، لأن الكتاب أنزل ملابسًا للحق ومصاحبًا له، فإذا اختلف فى الكتاب اختلف فى الحق الذى فيه وبالعكس على طريقة قياس المساواة فى المنطق والجملة الكريمة تحذير شديد من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من اختلاف يؤدى إلى البغى والتنازع والإعراض عن الحق.

ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين بعد بيانه لحال الغاوين فقال - تعالى ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾.

أى : فهدى الله الذين آمنوا وصدقوا رسله إلى الحق الذى اختلف فيه أهل الضلالة، وذلك الهدى بفضل توفيقه لهم وتيسيره لأمرهم.

والفاء فى قوله : ﴿فهدى﴾ فصيحة لأنها أفصحت عن كلام مقدر وهو المعطوف عليه المحذوف.

والتقدير : إذا كان هذا شأن الضالين المختلفين فى الحق، فقد هدى الله بفضله الذين آمنوا إلى الصواب.

وبين - سبحانه - أن الذين رزقهم الهداية هم الذين آمنوا، للإشعار بأن سبب هدايتهم للحق هو إيمانهم وتقواهم، واستجابتهم للداعى الذى دعاهم إلى الطريق المستقيم.

وأسند الهداية إليه - سبحانه - لأنه هو خالقها، ولأن قلوب العباد بيديه فهو يقلبها كيف يشاء، وهذا لا ينافى أن للعبد اختيارًا وكسبًا فهو إذا سار فى طريق الحق رزقه الله النور المشرق الذى يهديه، وإن سار فى طريق الضلالة واستحب العمى على الهدى سلب الله عنه توفيقه بسبب إيثاره الضلالة على الهداية.

وقوله - تعالى - فى ختام هذه الآية : ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ تذييل قصد به بيان كمال سلطانه، وتمام قدرته.

أى : والله وحده هو الهادى من يشاء من عباده إلى طريق الحق الذى لا يضل سالكه، فليس لأحد سلطان بجوار سلطانه، ولو أراد أن يكون الناس جميعًا مهديين لكانوا، ولكن حكمته

اقتضت أن يختبرهم ليتميز الخبيث من الطيب، فيجازى كل فريق بما يستحقه.

قال ابن كثير: وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

وفى الدعاء المأثور: اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما(١).

وبذلك نرى أن الآية قد بينت أن الناس لا يستغنون عن الدين الذى شرعه الله لهم على لسان رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وأن الأشرار من الناس هم الذين يحملهم البغى على الاختلاف فى الحق بعد ظهوره لهم، أما الأخيار منهم فهم الذين اهتدوا بتوفيق الله وتيسيره إلى طريق الخير والصواب ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال الناس، واختلاف سفهائهم على أنبيائهم، واهتداء عقلائهم إلى الحق، عقب ذلك بدعوة المؤمنين إلى الاقتداء بمن سبقهم فى الصبر والثبات. فقال - تعالى -:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قال القرطبى: قال قتادة والسدى وأكثر المفسرين: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد، وكانوا كما قال - تعالى -: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٠.

وقيل نزلت فى حرب أحد، ونظيرها - فى آل عمران ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم..﴾ وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله، وأسر قوم من الأغنياء النفاق فأنزل الله ذلك تطييبا لقلوبهم»(١).

وما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة لا يمنع عمومها، وأنها تدعو المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله - تعالى - ونصره.

و﴿أم﴾ هنا يرى بعضهم أنها للاستفهام الإنكارى، ويرى بعض آخر أنها أم المتصلة، ويرى فريق ثالث أنها أم المنقطعة.

قال الجمل: وحسب هنا من أخوات ظن تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، وأن وما بعدها سادة مسد المفعولين عند سيبويه، ومسد الأول عند الأخفش والثانى محذوف، ومضارعها فيه وجهان: الفتح وهو القياس والكسر(٢).

و﴿لما﴾ تدل على النفى مع توقع حصول المنفى بها، كما فى قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

فنفى بلما ثم قال: وكأن قد، أى وكأنه قد زالت.

و﴿البأساء﴾ ما يصيب الناس فى الأموال كالفقر. والضراء: ما يصيبهم فى الأنفس كالمرض مشتقان من البؤس والضر.

و﴿زلزلوا﴾ من الزلزلة وهى شدة التحريك وتكون فى الأشخاص وفى الأحوال. فيقال: زلزلت الأرض، أى تحركت واضطربت، ومعنى زلزلوا: خوفوا وأزعجوا واضطربوا.

والمعنى على أن ﴿أم﴾ للاستفهام الإنكارى: أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد فى الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم فى أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟!!

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٤.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٦٩.

لا - أيها المؤمنون - إنى أنهاكم أن تظنوا هذا الظن، وآمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يستلزم منكم التأسى بمن سبقكم من المتقين فى الصبر والثبات.

والمعنى على أن ﴿أم﴾ هنا هى المتصلة - أى المشعرة بمحذوف دل عليه الكلام - : قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب واهتدوا إلى الحق فآذاهم الناس أذى شديدا فصبروا على ذلك أفتصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن يصيبكم ما أصابهم؟

والمعنى على أن ﴿أم﴾ هنا منقطعة - أى تدل على الإضراب والاستفهام معا - : لقد أوذيتم أيها المؤمنون فى سبيل دينكم أذى عظيمًا، فعليكم أن تصبروا وأن تثبتوا كما فعل الذين من قبلكم، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وصبر.. أى: بل أحسبتم.. إن كان هذا هو حسبانكم فهو حسبان باطل لا ينبغى لكم.

وقوله - تعالى - : ﴿مستهم البأساء..﴾ استئناف وقع جوابًا عما ينساق إليه الذهن، كأنه قيل: كيف مثل أولئك الذين خلوا ومضوا؟ فكان الجواب مستهم البأساء.. الخ.

ومستهم أى: حلت بهم. وعبر بمستهم للإشعار بأن تلك الشدائد قد أصابتهم بالآلام التى اتصلت بحواسهم وأجسادهم ولكنها لم تضعف إيمانهم إذ حقيقة المس اتصال الجسم بجسم آخر.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿وزلزلوا﴾ أى: أزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والافزاع «حتى يقول الرسول» أى: إلى الغاية التى قال الرسول ومن معه فيها ﴿متى نصر الله﴾ أى بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة. وفى هذه الغاية دليل على تناهى الأمر فى الشدة وتماديه فى العظم؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية فى الشدة التى لا مطمع وراءها[١]».

والمراد بالرسول - كما يقول الآلوسى - الجنس لا واحد بعينه. وقيل: شعياء، وقيل: أشعياء، وقيل اليسع. وعلى التعيين يكون المراد من الذين خلوا قوما بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل[٢]».

وقوله - تعالى - : ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ استئناف على تقدير القول. أى فقيل لهم حينما

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٥٦.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٠٤.

التمسوا من الله النصر بعد تلك الشدائد والأهوال التى نزلت بهم : ألا إن نصر الله قريب. تطييبا لأنفسهم، وبعثا للآمال فى قلوبهم.

وفى هذه الجملة الكريمة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب، ويشهد لذلك التعبير بالجملة الاسمية بدل الفعلية فلم يقل - مثلا - ستنصرون والتعبير بالجملة الاسمية يدل على التوكيد. ويشهد لذلك أيضا تصدير الجملة بأداة الاستفتاح الدالة على تحقيق مضمونها وتقريره، ووقوع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح، وإضافة النصر إلى الله القادر على كل شىء والذى وعد عباده المؤمنين بالنصر فقال، إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» :

هذا، والمتأمل فى الآية الكريمة يراها قد بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». وأنهم لكى يصلوا إلى الجنة عليهم أن يتأسوا بالسابقين فى جهادهم وصبرهم على الأذى، فقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزالا موصولا بين الأخيار والأشرار، ونزاعا مستمرا بين الأطهار والفجار، وكثيرا ما يضيق البغاة على المؤمنين، وينزلون بهم ما ينزلون من صنوف الاضطهاد إلا أن الله - تعالى - قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين.

ولقد حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر وأسماه فى سبيل إعلاء كلمة الله.

روى البخارى عن خباب بن الأرت - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون (١).

وبذلك نرى أن السورة الكريمة من قوله - تعالى - ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾ إلى هنا، قد بينت لنا أقسام الناس فى هذه الحياة، ودعت المؤمنين إلى أن يتمسكوا بجميع تعاليم الإسلام، وأن يزهدوا فى زينة الحياة التى شغلت المشركين عن كل شىء سواها، وأن يشكروا الله على هدايته إياهم إلى الحق الذى اختلف غيرهم فيه، وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام لكى يحقق الله لهم الآمال.

---

(١) صحيح البخارى كتاب الإكراه. باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر جـ ٩ ص ٢٦.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم فى طاعة الله، وأن يعدوا أنفسهم للقتال فى سبيله فقال - تعالى - :

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟
شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

قال الآلوسى : عن ابن جريج قال : سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾. الآية. وعن ابن عباس قال : كان عمرو بن الجموح شيخًا كبيرًا وعنده مال كثير فقال يا رسول الله : بماذا نتصدق، وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية.

والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد أى شيء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم : ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتهما ووفاء لبعض حقوقهما، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم، والمساكين لفقرهم واحتياجهم، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده.

قال الإمام الرازى : فهذا هو الترتيب الصحيح الذى رتبه الله - تعالى - فى كيفية الإنفاق. ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أى : وكل ما فعلمتوه من خير إما مع هؤلاء المذكورين وإما مع غيرهم حسبة لله وطلبا لجزيل ثوابه وهربا من أليم عقابه فإن الله به عليم فيجازيكم احسن الجزاء عليه . . »(١).

وظاهر الآية - كما يقول الآلوسى - أن السؤال عن المنفق فأجاب ببيان المصرف صريحا، لأنه أهم لأن اعتداد النفقة باعتباره. وأشار - سبحانه - إجمالا إلى بيان المنفق فإن قوله ﴿من خير﴾ يتضمن كونه حلالا إذ لا يسمى ما عداه خيرا، وإنما تعرض لذلك - أى لبيان المنفق عليه - وليس فى السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم لا للجدل، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء، طلبه المريض أم لم يطلبه. ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه كحاجتهم إلى ما ينفق بين الأمرين، (وهذا كمن به صفراء فاستأذن طبيبا، فى أكل العسل فقال له : كله مع الخل). فالكلام إذًا من أسلوب الحكيم. ويحتمل أن يكون فى الكلام - أى فى كلام السائلين - ذكر المصرف - أيضًا - كما فى سؤال عمرو بن الجموح إلا أنه لم يذكره فى الآية للإيجاز فى النظم تعويلا على الجواب، فتكون الآية جوابا لأمرين مسئول عنهما. والاقتصار فى بيان المنفق على الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما فى بيان المصرف للإشارة إلى كون الثانى أهم. وهل تخرج الآية بذلك عن كونها من أسلوب الحكيم أولا؟ قولان أشهرهما الثانى »(٢).

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٦.

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٠٥.

ولم يتعرض - سبحانه - هنا لبقية المحتاجين كالسائلين والغارمين إما اكتفاء بذكرهم فى مواضع أخرى، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله - تعالى - : فى آخر الآية ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ فإنه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان.

قال الجمل و «ذا» اسم موصول بمعنى الذى والعائد محذوف، و «ما» على أصلها من الاستفهام ولذلك لم يعمل فيها يسألونك، وهى مبتدأ وذا خبره، والجملة محلها النصب بيسألون. والمعنى يسألونك أى الشىء الذى ينفقونه»(١).

وقوله : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ تذييل قصد به الحض على فعل الخير، لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله ويجازيه عليه بما يستحقه، يشجعه ذلك على الاستمرار فى عمل الخير. وإذا كان بعضنا يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصا ذا جاه يسره هذا العمل، فكيف يكون الحال عندما يعلم المؤمن التقى أن الذى يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذى لا تخفى عليه خافية، والذى يعطى من يشاء بغير حساب.

قال بعض العلماء : وقد اختلف فى هذه الآية. فقيل إنها منسوخة بآية الزكاة وهى قوله - تعالى - : ﴿إنما الصدقات للفقراء . .﴾. وقيل - وهو الأولى - إنها غير منسوخة، وهى لبيان صدقة التطوع فإنه متى أمكن الجمع فلا نسخ»(٢).

وقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ حض لهم على بذل النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله، بعد أن حضهم فى الآية السابقة على بذل المال.

والكُره - بضم الكاف - بمعنى الكراهية بدليل قوله - تعالى - : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا . .﴾ أى أن القتال لشدة ويلاته، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة، وقرئ وهو كره لكم - بفتح الكاف - فيكون فيه معنى الإكراه، لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه. وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية.

ويرى كثير من المفسرين أن القتال إنما كان مكروها للنفوس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف، وإزهاق الأرواح والإنسان ميال بطبعه إلى الحياة، وأيضًا لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والحيلولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد، ومشقات تتلوها مشقات، ولكن كون القتال مكروها للنفوس لا ينافى الإيمان ولا يعنى أن المسلمين كرهوا فرضيته، لأن امتثال الأمر قد يتضمن مشقة، ولكن إذا

(١) حاشية الجمل جـ١ ص ١٧٠.
(٢) تفسير آيات الأحكام جـ١ ص ١١٤ لفضيلة الأستاذ محمد على السايس.

عرف الثواب هان فى جنبه اقتحام المشقات. ولا شك أن القتال فى سبيل الله - مع ما فيه من صعاب وشدائد - ستكون عاقبته العزة فى الدنيا، والسعادة فى الأخرى.

ويرى بعضهم أن كره المسلمين للقتال ليس سببه ما فيه من شدائد ومخاطر وتضحيات بدليل أنهم كانوا يتنافسون خوض غمراته، وإنما السبب فى كراهيتهم له هو أن الإسلام قد غرس فى نفوسهم رقة ورحمة وسلاما وحبا، وهذه المعانى جعلتهم يحبون مصابرة المشركين ويكرهون قتالهم أملا فى هدايتهم، ورجاء فى إيمانهم، ولكن الله - تعالى - كتب على المسلمين قتال أعدائهم لأنه يعلم أن المصلحة فى ذلك، فاستجاب المؤمنون بصدق وإخلاص لما فرضه عليهم ربهم.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى ظاهر الآية، لأن القتال فريضة شاقة على النفس البشرية، بحسب الطبع والقرآن لا يريد أن ينكر مشقتها، ولا أن يهون من أمرها، ولا أن ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسهل صعوبته، وتحقق به خيرًا مخبوءًا قد لا يراه النظر الإنسانى القصير. وقد بين القرآن هذه الحكمة فى قوله ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم﴾.

أى: وعسى أن تكرهوا شيئا كالقتال فى سبيل الله - تعالى - وهو خير لكم إذ فيه إحدى الحسنيين: إما الظفر والغنيمة - فى الدنيا مع ادخار الجزاء الأخروى وإما الشهادة والجنة، وعسى أن تحبوا شيئا كالقعود عن الجهاد وهو شر لكم فى الواقع لما فيه من الذل ووقوعكم تحت طائلة الأعداء.

قال الفخر الرازى: معنى الآية أنه ربما كان الشىء شاقا عليكم فى الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة فى المستقبل، ولأجله حسن شرب الدواء المر فى الحال لتوقع حصول الصحة فى المستقبل، وترك الجهاد، وإن كان يفيد - أى بحسب ظنكم - فى الحال صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق ولكن فيه أنواع من المضار منها: أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم... والحاصل أن القتال فى سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء فى الدنيا وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد فى الآخرة..»[1].

وقال القرطبى: والمعنى: عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٢٩.

تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات منكم مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون ويذهب أمركم.

وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق فى بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأى بلاد؟ ! ! وأسر وقتل وسبى واسترق، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته ! ! وقال الحسن فى معنى الآية : لا تكرهوا الملمات الواقعة؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير :

رب أمـر تـتـقـيـه جـر أمرًا تـرتضيـه
خفى المحبـوب منـه وبدا المكروه فيـه[١]

وهذا الكلام الذى كتبه الإمام القرطبى من مئات السنين يثير فى النفس شجونًا وآلامًا، فإن المسلمين ما هانوا وضعفوا إلا عند ما تركوا الجهاد فى سبيل الله، وتثاقلوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وآثروا متع الدنيا وشهواتها على الحياة العزيزة الكريمة.

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية : هذا إيجاب من الله - تعالى - للجهاد على المسلمين وأن يكفوا شر الأعداء من حوزة الإسلام. قال الزهرى : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد. فالقاعد عليه إذا استعين به أن يعين، وإذا استغيث به أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، ولهذا ثبت فى الصحيح «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية، وقال : ﷺ يوم الفتح : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[٢].

وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين، كل على حسب قدرته.

وقد ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أى : والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم فى الواقع وأنتم لا تعلمون ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنه لا يأمركم إلا بما علم فيه خيرًا لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم، ومفعولا يعلم وتعلمون محذوفان دل عليها ما قبلهما. أى : يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونهما. والمقصود من هذه الجملة الكريمة الترغيب فى الجهاد، والامتثال لما شرعه الله - تعالى - سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف، لأن العليم بالحكم والمصالح هو الله رب العالمين.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٩.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٢.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم لا ينكر على الناس مشاعرهم الطبيعية، وأحاسيسهم الفطرية من كراهية للقتال، ولكنه يربى نفوسهم على الاستجابة لأوامر الله العليم بالغايات المطلع على العواقب، الخبير بما فيه خيرهم ومصلحتهم، وبهذه التربية الحكيمة بذل المؤمنون نفوسهم وأموالهم فى سبيل رضا خالقهم عن طواعية واختيار، لا عن قسر وإجبار.

وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيله عقب ذلك ببيان حكم القتال فى الأشهر الحرم فقال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير﴾ . . . إلخ.

وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير فى سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها : أن النبى ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلا كلهم من المهاجرين، وأعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدًا من أصحابه. فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عيرًا لقريش وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبد الله : سمعا وطاعة ! ! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع فأما أنا فناهض ! فنهضوا جميعًا، فلما كانوا فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما يعتقبانه. فتخلفا فى طلبه، ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة فمرت عير لقريش فى طريقها لمكة وكانت فى حراسة عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة، وأخويه نوفل والحكم به كيسان. فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن فى الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام ! ! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى «واقد بن عبد الله» عمرو بن الحضرمى يسهم فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم.

وقيل كان ذلك فى أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ.

ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال لهم : «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام، واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى قوله : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام

قتال فيه قل قتال فيه كبير..﴾[1].

والمعنى : يسألونك يا محمد عن حكم القتال فى الشهر الحرام، قل لهم. القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقبح، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاك لمحارم الله - تعالى -.

والسائلون قيل هم المؤمنون؛ وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم. وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعيير للنبى ﷺ وأصحابه، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به... الخ أكبر من ذلك بكثير.

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين. وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم فى حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجرًا.

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، فأل فى الشهر للجنس. وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذى حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه. وقوله «قتال فيه» بدل اشتمال من الشهر الحرام، و﴿قتال﴾ مبتدأ و﴿كبير﴾ خبر و﴿فيه﴾ ظرف صفة لقتال مخصصة له.

قال الإمام الرازى: فإن قيل: لم نكر القتال فى قوله - تعالى -: ﴿قتال فيه﴾ ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجىء باللام حتى يكون المذكور الثانى هو الأول، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثانى غير الأول كما فى قوله - تعالى -: ﴿فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا﴾.

قلنا: نعم ما ذكرتم من أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثانى غير الأول. والقوم أرادوا بقولهم: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» ذلك القتال المعين الذى أقدم عليه عبد الله وأصحابه فقال - تعالى -: ﴿قل قتال فيه كبير﴾. وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيرًا ليس هو القتال الذى سألتم عنه؛ بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنما القتال الكبير هو الذى يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير فى اللفظين لأجل هذه الدقيقة. ولو أنه

---

(١) تفسير بن كثير - بتصرف وتلخيص - جـ ١ ص ٢٥٤، وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٠.

وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة. فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب - بل تحت كل حرف منه - سر لطيف لا يهتدى إليه إلا أولو الألباب»[1].

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التى كل جريمة منها أكبر من القتال فى الشهر الحرام الذى فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجهلهم بالميقات فقال - تعالى - :

﴿وصد عن سبيل الله، وكفر به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال فى الشهر الحرام كبير، ثم قل لهم أيضًا على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه، ومن شرككم بالله فى بيته، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزرا عند الله من القتال فى الشهر الحرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه، وتبكيت المشركين على جرائمهم التى أولها يتمثل فى قوله ه تعالى - : ﴿وصد عن سبيل الله﴾ أى : منع من يريد الإسلام من دخوله، وابتدأ - سبحانه - ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق فى ذاته.

وثانيها قوله : ﴿وكفر به﴾ أى : كفر بالله - تعالى - وهو معطوف على ما قبله.

وثالثها قوله : ﴿والمسجد الحرام﴾ وهو معطوف على سبيل الله أى : وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار.

ورابعها قوله : ﴿وإخراج أهله منه﴾ أى : وإخراج النبى - ﷺ - وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه، كل ذلك «أكبر» جرما، وأعظم إثما «عند الله» من القتال فى الشهر الحرام.

قال الجمل : فقوله «أكبر» خبر عن الثلاثة أعنى : صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان :

أحدهما : أن يكون خبرًا عن المجموع.

وثانيهما : أن يكون خبرا عنها باعتبار كل واحد كما تقول : زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد أى : كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد، وهذا هو الظاهر. والمفضل عليه محذوف أى : أكبر مما فعلته السرية»[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٣٢.

(٢) تفسير الجمل جـ١ ص ١٧٣.

ثم أضاف - سبحانه - إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أى: ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتل فى الشهر الحرام، لأن الفتنة عن الدين تفضى إلى القتل الكثير فى الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم فى الآخرة.

وقيل المراد بالفتنة هنا الكفر. أى: كفركم بالله أكبر من القتل فى الشهر الحرام.

وأصل الفتنة: عرض الذهب على النار، لاستخلاصه من الغش، ثم استعملت فى الشرك وفى الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد.

ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا: استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام.

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به، والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيَّرتُمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دمًا، وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غل من القد عاند

وقوله - تعالى -: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها.

أى: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكى يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه. والتعبير بقوله «ولا يزالون» المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم.

و﴿حتى﴾ للتعليل أى: ﴿لا يزالون يقاتلونكم لكى يردوكم عن دينكم﴾ أو بمعنى إلى، أى: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشىء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين.

وقوله: ﴿إن استطاعوا﴾ يدل - كما يقول الزمخشرى - على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين

عن دينهم، وذلك كقول الرجل لعدوه : إن ظفرت بى فلا تبق على. وهو واثق من أنه لن يظفر به. ويشهد لذلك التعبير بإن المفيدة للشك.

وفائدة التقييد بالشرط «إن» التنبيه على سخافة عقول المشركين، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدى إلى النتيجة التى يتمنونها وهى رد المسلمين عن دينهم، لأن لهذا الدين ربا يحميه، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ويرتدد يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر.

و ﴿حبطت أعمالهم﴾ أى : بطلت وفسدت وأصله من الحبط، بفتح الباء - وهو أن تأكل الدابة أكلا كثيرًا تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك. شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالا عليه، بحال الدابة التى أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها.

والمعنى : ومن يرتدد منكم عن دين الإسلام، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة، وصارت غير نافعة لهم لا فى الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين، ولا فى الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلودًا أبديًا كسائر الكفرة، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئًا.

وجيء بصيغة الافتعال من الردة وهى مؤذنة بالتكلف، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه، فهذا المرتد لم يكن مستقرًا على هذا الدين الحق وإنما كان قلقًا مضطربًا غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول فى الدين الحق دون الثبات عليه.

وفى قوله : ﴿منكم﴾ إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهى أن يردوا المسلمين جميعًا عن دينهم. بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم، فيكون الله - تعالى - قد نفى خبثه عن هذا الدين، إذ لا خير فى هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد إليهم بعد إيمانه، والكل مأواهم النار وبئس القرار.

قال الجمل : ومن شرطية فى محل رفع بالابتداء، يرتدد فعل الشرط، ومنكم متعلق

بمحذوف لأنه حال من الضمير المستكن فى يرتدد؛ ومن للتبعيض، والتقدير: ومن يرتدد فى حال كونه كائنًا منكم أى بعضكم، وعن دينه متعلق بيرتدد، وقوله فيمت وهو كافر عطف على الشرط والفاء مؤذنة بالتعقيب، وقوله: ﴿وهو كافر﴾ جملة حالية من ضمير يمت. وقوله: فأولئك جواب الشرط. وقوله: وأولئك أصحاب النار مستأنف لمجرد الإخبار بأنهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط..»[1].

وفى الإتيان باسم الإشارة «أولئك» فى الموضعين تنبيه إلى أنهم أحرياء بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر.

وفى التنصيص على حبوط أعمالهم فى الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم، فهم فى الدنيا - بسبب ردتهم - تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت، والدفن فى مقابر المسلمين، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين، أما فى الآخرة فشأنهم شأن الكافرين فى ملازمتهم للنار. هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة.

١ - حرمة القتال فى الشهر الحرام، والجمهور على أن هذا الحكم منسوخ، وأنه لا حرج فى قتال المشركين فى الأشهر الحرم لقوله - تعالى - : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فإن المراد بالأشهر الحرم هنا: هى أشهر العهد الأربعة التى أبيح للمشركين السياحة فيها فى الأرض، لا الأشهر الحرم الأربعة المعروفة، فالتقييد بها يفيد أن قتلهم بعد انسلاخها مأمور به فى جميع الأزمنة والأمكنة. وأيضًا لأن الرسول ﷺ غزا هوازن وثقيف وأرسل بعض أصحابه إلى أوطاس ليحارب من فيها من المشركين، وكان ذلك فى بعض الأشهر الحرم، ولو كان القتال فيهن حراما لما فعله النبى ﷺ.

قال الآلوسى: وخالف عطاء فى ذلك، فقد روى عنه أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله - تعالى - ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكما مستمرًا إلى يوم القيامة، والأمة اليوم على خلافه فى سائر الأمصار»[2].

وقد رجح بعض العلماء ما ذهب إليه عطاء فقال: ومهما يكن فإن القتال فى الأشهر الحرم حرام فى حال الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه. ولقد قال جابر: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يُغزَى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٧٤.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٠٨.

ولقد قال بعض العلماء : إن تحريم القتال فى الشهر الحرام منسوخ بقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وبقتال النبى ﷺ أهل الطائف فيه . والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ صريح فى النسخ فإن قوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال ، وأن النبى ﷺ لم يبتدىء قتالا فى الشهر الحرام مختارًا قط ، والتحريم فى الاختيار والابتداء كما بينا لا فى البقاء والاضطرار ، لذا قال - سبحانه - : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ ، ولأن الأشهر الحرم نص عليها فى خطبة الوداع وكل ما جاء فيها غير منسوخ »[1] .

٢ - كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من الآية أن الردة تحبط العمل فى الدنيا سواء أمات المرتد على كفره أم عاد إلى الإسلام قبل موته بدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ فقد علق الحبوط بمجرد الشرك ، والخطاب وإن كان للنبى ﷺ فالمراد أمته لاستحالة الشرك عليه . وعلى هذا الرأى سار المالكية والأحناف .

ويرى الشافعية أن الردة تحبط العمل فى الدنيا متى مات المرتد كافرًا ، لأن الآية تقول : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ ويظهر أثر الخلاف فيمن حج مسلما ، ثم ارتد ثم أسلم ، فالأحناف والمالكية يوجبون عليه إعادة الحج لأن الردة أحبطت حجه . والشافعية يقولون : لا حج عليه لأن حجه قد سبق والردة لا تحبط العمل إلا إذا مات الشخص كافرًا .

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه .

وبعد أن بين - سبحانه - عاقبة من يرتد عن دينه أتبع ذلك ببيان عاقبة المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم﴾ .

قال الإمام الرازى : فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أن عبد الله بن جحش قال : يارسول الله : هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا ، فهل نطمع منه أجرًا وثوابًا ؟ فنزلت الآية ، لأن عبد الله كان مؤمنًا وكان مهاجرًا ، وكان مجاهدًا بسبب هذه المقاتلة .

وفى الثانى : أنه تعالى لما أوجب الجهاد قبل بقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة : العدد العاشر ص ٥٩٩ .

وبين أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به وجزاؤه فقال: ﴿إن الذين آمنوا، والذين هاجروا﴾ ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد»[(١)].

والمعنى: إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واستقاموا على طريق الحق، وأذعنوا لحكمه، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه: ﴿والذين هاجروا﴾ أى: تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرة دينهم: ﴿وجاهدوا فى سبيل الله﴾ لإعلاء كلمته ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الثلاثة ﴿يرجون رحمة الله﴾. أى: يؤملون تعلق رحمته - تعالى - بهم، أو ثوابه على أعمالهم ﴿والله غفور رحيم﴾ أى: واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين.

قال القرطبى: «والهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، والقصد ترك الأول إيثارا للثانى. والهجرة ضد الوصل، والاسم الهجرة. وجاهد مفاعله من جهد إذا استخرج الجهد. والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود، والجهاد - بالفتح - الأرض الصلبة.

وإنما قال ﴿يرجون﴾ وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ لأمرين:

أحدهما: أنه لا يدرى بماذا ختم له.

والثانى: لئلا يتكل على عمله، والرجاء أبدًا معه خوف كما أن الخوف معه رجاء»[(٢)].

وجىء بهذه الأوصاف الثلاثة مترتبة على حسب الواقع إذالإيمان يكون أولا ثم المهاجرة من أرض الظالمين إذا لم يستطع دفع ظلمهم، ثم الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق.

وأفرد الإيمان بموصول وحده لأنه أصل الهجرة والجهاد، وجمع الهجرة والجهاد فى موصول واحد لأنهما فرعان عنه.

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد دعت المؤمنين إلى بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل نصرة الحق بأحكم أسلوب، وبرأتهم مما أثاره المشركون حولهم من شبهات، وحذرتهم من السير فى طريقهم، وبشرتهم بحسن العاقبة متى استجابوا لتعاليم دينهم، واعتصموا بحبله.

وبعد هذا الحديث الجامع عن البذل والتضحية، ساق القرآن فى آيتين ثلاثة أسئلة وأجاب عنها بما يشفى الصدور، ويصلح النفوس.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٤١.
(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٥١.

فقال تعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ
وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر﴾ . . السائلون هم المؤمنون وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعى من حيث الحل والتحريم. لا عن الحقيقة والذات فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتها.

قال القرطبى : والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها - وكل شيء غطى شيئًا فقد خمره. ومنه «خمروا آنيتكم، فالخمر تخمر العقل، أى : تغطيه وتستره. . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك، وقيل إنما سميت الخمر خمرا؛ لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر العجين، أى : بلغ إدراكه. وخمر الرأى ترك حتى يتبين فيه الوجه. وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة ومنه قولهم : دخلت فى خمار الناس - بفتح الخاء وضمها - أى : اختلطت بهم. فالمعانى الثلاثة متقاربة. فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت، ثم خالطت العقل. ثم خمرته، والأصل الستر[1].

ويرى كثير من العلماء أن هذه الآية هى أول آية نزلت فى الخمر. ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم نزلت الآية التى فى سورة المائدة ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٥١.

والدليل على ذلك ما رواه أبو داود وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال «اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا» فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الخمر﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا».

فنزلت الآية التى فى النساء ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة - نادى أن: لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: «اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا». فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فهل أنتم منتهون﴾ قال عمر: «انتهينا»[1].

وبهذا الرأى قال ابن عمر والشعبى ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

ويرى بعض العلماء أن أول آية نزلت فى الخمر هى قوله - تعالى - فى سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا﴾.

وعلى هذا الرأى سار صاحب الكشاف وتبعه بعض العلماء، فقد قال: نزلت فى الخمر أربع آيات، نزل بمكة قوله - تعالى - : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقا حسنا﴾ فكان المسلمون يشربونها وهى حلال لهم. ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا: يارسول الله، أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى فقرأ: قل يأيها الكافرون أعبدما تعبدون فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك قومًا فيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعرا فيه هجاء للأنصار فضرب أحد الأنصار سعدًا بلحى بعير فشجه، فشكا إلى رسول الله ﷺ ذلك. فقال عمر: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت «إنما الخمر والميسر.. إلخ الآية».. فقال عمر: انتهينا يارب»[2].

وأصحاب الرأى الأول يقولون: إن آية سورة النحل وهى قوله - تعالى - : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ ليس لها علاقة بموضوع الخمر، ويفسرون السكر بأنه ما أحله الله مما لا يسكر وأنه هو الرزق الحسن وأن العطف بينهما من باب عطف التفسير.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٥٦.
(٢) تفسير الكشاف فى جـ١ صفحة ٢٥٩.

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتهونه ويحبونه من الخمر والميسر، يمثل أسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها فى الطرقات. بل وحطموا الأوانى التى كانت توضع فيها الخمر امتثالا وطاعة لله - تعالى -.

وهكذا نرى قوة الإيمان التى غرسها الإسلام فى نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية، وتربيته الحكيمة.. تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته الطبائع.

هذا وجمهور العلماء على أن كلمة «خمر» تشمل كل شراب مسكر سواء أكان من عصير العنب أم من الشعير أم من التمر أم من غير ذلك، وكلها سواء فى التحريم قل المشروب منها أو كثر سكر شاربه أو لم يسكر.

ومن أدلتهم ما وراه الإمام مسلم عن ابن عمر - أن رسول الله ﷺ قال: كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها فى الآخرة»[١].

ومن أدلتهم أيضًا أصل الاشتقاق اللغوى لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره.

وقال الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم النخعى وسفيان الثورى وابن أبى ليلى: إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط، أما المسكر من غيره كالشراب من التمر أو الشعير فلا يسمى خمرا بل يسمى نبيذًا. وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره إنما هو الخمر من العنب. أما الأنبذة فكثيرها حرام وقليلها حلال.

وقد رجح العلماء رأى الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم.

قال ابن العربى: وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها. والصحيح ما روى الأئمة أن أنسا قال: «حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر» أخرجه البخارى، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم - أى أوانى الخمر - وبادروا إلى الامتثال لا عتقادهم أن ذلك كله خمر» أى وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك[٢].

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الأشربه جـ ٦ ص ١٠٠.
(٢) أحكام القرآن لابن العربى جـ ١ صفحة ١٤٩.

وقال الألوسى : وعندى أن الحق الذى لا ينبغى العدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأى اسم سمى متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده حرام، وقليله ككثيره، ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته غليظة. وفى الصحيحين أنه ﷺ سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : «كل شراب أسكر فهو حرام» وروى أبو داود «نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر» وصح «ما أسكر كثيره فقليله حرام» والأحاديث متضافرة على ذلك. ولعمرى إن اجتماع الفساق فى زماننا على شرب المسكرات مما عدا «الخمر» ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب «الخمر» ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة وتبيح شربها للأمة - وهيهات هيهات - فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

بعد هذه الكلمة التمهيدية عن الآية، وعن مدلول كلمة خمر ننتقل إلى معنى كلمة «الميسر» فنقول : الميسر : القمار - بكسر القاف - وهو فى الأصل مصدر ميمى من يسر، كالموعد من وعد. وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجىء للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزر. ثم أصبح علما على ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه.

قال القرطبى نقلا عن الأزهرى : الميسر : الجزور الذى كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسرًا؛ لأنه أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل شىء جزأته فقد يسرته. والياسر : الجازر لأنه يجزئ لحم الجزور. ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك[2].

وصفة الميسر الذى كانت تستعمله العرب أنهم كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام أو الأقلام، فكانوا إذا أرادوا أن يقامروا أحضروا بعيرا وقسموه ثمانية وعشرين قسما وتترك ثلاثة من تلك الأقداح غفلا لا علامة عليها وكانت تسمى : السفيح، والمنيح، والوغد. ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئًا من الجزور. أما السبعة الأخرى فهى الرابحة وهى الفذ وله سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة، والمعلى وله سبعة فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهما.

تلك صورة تقريبية لقمار العرب كما أوردها بعض المفسرين[3].

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢ صفحة ١١٣.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٥٢.

(٣) راجع تفسير الألوسى جـ٢ ص١١٣، وتفسير القرطبى جـ٢ ص٥٨.

ولا شك أنه يدخل فى حكمها من حيث الحرمة ما كان مشابها لها فى المخاطرة والرهان وأخذ الأموال بدون مقابل مشروع، أو ضياعها فيما حرمه الله.

ومعنى الآية الكريمة: يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام: فى تعاطيهما ﴿إثم كبير﴾ أى: ذنب عظيم، وضرر شديد وذلك لما فيهما من القبائح المنافية لمحاسن الشرع من الكذب، والأذى، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس، واستلاب أموالهم بغير حق.

وقوله: ﴿ومنافع للناس﴾ أى وفيهما منافع دنيوية للناس إذ الخمر تدر على المتاجرين فيها أرباحا مالية، والميسر يؤدى إلى إصابة بعض الناس للمال بدون تعب.

وأطلق - سبحانه - الإثم وقيد المنافع بأنها للناس، للتنبيه على أن الإثم فى الخمر والميسر ذاتى، فهما فى ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس، فهى منافع خاصة وليست عامة، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك.

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أى أن المفاسد والأضرار التى تترتب على تعاطيهما، أعظم من المنافع التى تنشأ عن تعاطيهما، إذ تعاطيهما يؤدى إلى منفعة بعض الناس، أما مضارهما فكثيرة، من ذلك أن تعاطى الخمر يضعف الضمير، ويفسد الأخلاق، ويميت الحياء، ويفقد الرشد ويتلف المال، ويغرى بالتنازع بين الناس، ويتسبب - كما قال الأطباء الثقاة - فى كثير من الأمراض كأمراض الكبد والرئتين والقلب.. إلخ.

وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ماكتبه العلماء والمتخصصون فى ذلك(١).

أما تعاطى الميسر فمن مضاره - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - إفساد التربية بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التى هى أركان العمران، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت فى العز والغنى وانحصرت ثروتها فى رجل أضاعها عليها فى ليلة واحدة؛ فأصبحت غنية وأمست فقيرة»(٢).

إذن فالمنافع الدنيوية التى تعود إلى بعض الناس من تعاطى الخمر والميسر لا تساوى شيئًا

---

(١) راجع على سبيل المثال «تفسير الجواهر» فى معنى الآية للمرحوم طنطاوى جوهرى وتفسير المنار جـ٢ ص ٣٢١.

(٢) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٣٠.

بجانب تلك المضار الجسيمة التى تعود على أفراد الأمة فى دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترابطهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.

ثم يأتى بعد ذلك السؤال الثانى الذى ورد فى هاتين الآيتين وهو قوله - تعالى -: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾.

ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم فى الوجوه المحرمة كتعاطى الخمر والميسر، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبوا بهذا الجواب الحكيم.

قال الآلوسى: أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن نفرًا من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله أتوا النبى ﷺ فقالوا: إنا لا ندرى ما هذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا وما الذى ننفقه منها فأنزل الله - تعالى - ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل»[1].

وأصل العفو فى اللغة الزيادة. قال - تعالى -: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾ أى زادوا على ما كانوا عليه من العدد. ويطلق على ما سهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية. يقال: خذ ما عفا لك. أى ما تيسر. كما يطلق على الترك قال - تعالى -: ﴿عفا الله عما سلف﴾ أى تركه وتجاوز عنه.

والمراد به هنا: ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة، إذ هذا القدر الذى يتيسر إخراجه ويسهل بذله، ولا يتضرر صاحبه بتركه.

والمعنى، ويسألونك ما الذى يتصدقون به من أموالهم فى وجوه البر، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجه، ولا يشق عليكم بذله.

وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذى يأبى التبذير وينفر من التقتير، وفى أحاديث الرسول ﷺ ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول».

وأخرج مسلم عن جابر أن النبى ﷺ قال: «إبدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شىء

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١١٥.

فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا».

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى.

وللأستاذ الإمام كلام جيد فى هذا المقام، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها فى مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية الناشئة.. تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئا فى مثل ذلك؛ لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة، إذ هو يعتبر نفسه جزءاً منها وهى كل له، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر.. وفى الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان فى جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة﴾.

أى : مثل هذا البيان الحكيم الذى بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم فى سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لكى تتفكروا وتتدبروا فيما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم، بأن تعملوا فى الدنيا العمل الصالح الذى يجعلكم تظفرون برضا الله فى أخراكم.

قال صاحب الكشاف : «وقوله : ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ إما أن يتعلق بتتفكرون، فيكون المعنى : لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد فى النفقة وتتفكرون فى الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فيكون المعنى : لتفكروا فى عقاب الإثم فى الآخرة والنفع فى الدنيا حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب الأليم. وإما أن يتعلق بيبين على معنى : يبين لكم الآيات فى أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون»(٢).

أما السؤال الثالث والأخير الذى ورد فى هاتين الآيتين فهو قوله تعالى ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾.

أخرج أبو داود والحاكم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال :

(١) تفسير المنار جـ٢ ص٢٣٨.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٦٣.

لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾ وقوله - تعالى - : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه. وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشىء من طعامه وشرابه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله - تعالى - ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ فخلطوا طعامهم وشرابهم بشرابهم[1].

والمعنى : ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف فى أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم فقل لهم : إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة. والمعاملة الحسنة، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا فى الوجوه المشروعة فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم، وتركهم، ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أى : وإن تعاشروهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم فى العقيدة والإنسانية، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة.

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها. و«إصلاح» مبتدأ وسوغ الابتداء به مع أنه نكرة وصفه بالجار والمجرور «لهم» و«خير» خبره، وقوله : ﴿فإخوانكم﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط، وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهم إخوانكم، والجملة فى محل جزم على أنها جواب الشرط.

وقوله : ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ وعد ووعيد، وترغيب فى الإصلاح وترهيب من الإفساد، أى : والله يعلم المفسد لشئون هؤلاء اليتامى من المصلح لها، كما أنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وسيجازى كل إنسان على حسب عمله، فاحذروا الإفساد ولا تتحروا غير الإصلاح.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ العنت : الشدة والمشقة والتضييق. يقال : أعنته فى كذا يعنته إعناتا، إذا أجهده وألزمه ما يشق عليه.

أى : ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى، وبغير ذلك مما يشرع لكم، ولكنه - سبحانه - وسع عليكم وخفف فأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن، فاشكروه على ذلك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أى : إن الله - تعالى - غالب

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٦.

على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم قادر على أن يعز من أعز اليتامى ويذل من سذلهم، حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله، فلا يضع الأشياء إلا فى مواضعها.

وقد استدل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف فى أموال اليتامى على وجه الإصلاح، وعلى أن للولى أن يخالط اليتيم بنفسه فى المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة.

وقد وردت أحاديث متعددة فى رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما».

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء. قال: أتى النبى ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له النبى ﷺ أتحب أن يلين وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات فى مطاعمهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى، والقلب الرحيم، ومن شأن الأمة التى تعمل بهذا التوجيه السامى الحكيم أن تنال السعادة فى دنياها. ورضاه الله - فى أخراها.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك فى اثنتين وعشرين آية[1] عن بعض أحكام وآداب الزواج والمعاشرة، والإيلاء والطلاق، والعدة، والنفقة، والرضاعة، والخطبة، والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها، وبنائها على أفضل الدعائم، وأحكم الروابط، إذ الأسرة هى اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع، ومن مجموعها يتكون، فإذا صلحت الوحدات والمكونات صلح البنيان، وإذا تصدعت تصدع.

ولقد ابتدأت الآيات التى معنا حديثها عن الأسرة بالحديث عن الزواج لأنه أعمق الروابط وأقواها ومنه تتأتى الذرية، لذا جعل أساس الاختيار فيه هو التدين السليم، والخلق القويم، الذى يسعد ولا يشقى، ويبنى ولا يهدم، ويحفظ ولا يضيع.. ولا يتأتى ذلك إلا باختيار المسلمة الصالحة والإعراض عن المشركة الكافرة.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك فيقول:

---

(١) من الآية ٢٢١ وهى، ﴿ولا تنكحوا المشركات..﴾ إلخ قوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الآية ٢٤٢.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

قوله - تعالى : ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ النكاح فى اللغة الضم وتداخل أجزاء الشيء بعضها فى بعض. ثم أطلق على العقد الذى به تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مشروعة.

والمشرك فى لسان الشرع : من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى - وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشيء بينك وبين غيرك شركة، فمن يعبد مع الله - تعالى - إلها آخر يعد مشركًا، وهو فى الآخرة من الخاسرين.

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة : مشرك، ومشركين، ومشركات فى القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان، وأنها صارت فى استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب، أو بوصف الكفر دون الشرك كما فى قوله - تعالى - : ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل﴾ وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين فى الآية عبدة الأوثان.

وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومه المرأة الوثنية، واليهودية، والنصرانية.

وقد ترتب على هذا الخلاف فى إطلاق كلمة «مشرك» أن أصحاب الرأى الأول قالوا : إن النهى فى الآية إنما هو عن زواج المشركات اللائى يعبدون الأوثان ولاكتاب لهن، وأنه يجوز - مع الكراهة - أن يتزوج المسلم الكتابية، لأن القرآن يقول : ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾.. الآية[1]. ولأنه قد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكتابيات. فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت، وطلحة بن

(١) سورة المائدة الآية ٥.

عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين.

أما من قال بالرأى الثانى فيرى حرمة الزواج بالوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعا. وأصحاب هذا الرأى - كما يقول الآلوسى - يجعلون آية المائدة وهى قوله - تعالى - : ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ . . منسوخة بالآية التى معنا نسخ الخاص بالعام . . وإلى هذا الرأى ذهب الإمامية وبعض الزيدية(١).

وروى عن عمر وعبد الله ابنه - رضى الله عنهما - أنهما حرما ذلك وفى رواية أنهما كرهاه. وهى الأصح.

قال القرطبى : وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا : نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب. فقال : لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة. قال ابن عطيه وهذا لا يستند جيدًا، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن.

ثم قال القرطبى : وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية. قال حرم الله المشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئًا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله. قال النحاس : وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهم عثمان وطلحة وابن عباس . . ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . . وفقهاء الأمصار عليه، وأيضًا فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التى فى سورة المائدة، لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول - أو يخصصه - وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه، لأن ابن عمر - رضى الله عنه - كان متوقفا، فلما سمع الآيتين فى واحدة التحليل وفى أخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقف، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تؤول عليه، وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل(٢).

والذى نراه أن زواج المسلم بالكتابية جائز لأن القرآن صريح فى ذلك، ولأن عمر - رضى الله عنه - أقر بأنه ليس بحرام، فتكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة على فرض عمومها، ومبينة لحكم جديد خاص بالكتابيات، وهو الجواز ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهته، لأن الزواج بالكتابية كثيرًا ما يؤثر فى إضعاف العاطفة الدينية عند المسلم، وعند الأطفال الذين

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١١٨

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٦٨ بتصرف وتلخيص.

يكونون ثمرة لهذا الزواج، لأنهم يخرجون إلى الحياة وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم، ولأن المرأة الكتابية التى تقبل الزواج بالمسلم كثيرًا ما تكون منحرفة فى سلوكها وأن الدافع لها إلى هذا الزواج إنما هو المال أو الجمال أو الجاه وليس الدين أو الخلق، لأنه لو كان الدافع ذلك لرضيت بالإسلام دينا، وبآدابه خلقًا لها، وما أحكم قول عمر لحذيفة: «لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن».

هذه خلاصة لاراء العلماء فى هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى أقوالهم فى مظانها[1].

والمعنى: أنها كم أيها المؤمنون أن تتزوجوا بالنساء المشركات حتى يؤمن بالله - تعالى - ويذعن لتعاليم الإسلام وآدابه.

وقوله: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ تعليل للنهى، وبيان لفضل المؤمنات على المشركات، ولفضل طهارة النفس على جمال الجسم، والمراد بالأمة هنا الأنثى المملوكة من الرقيق، وبالمشركة الحرة الجميلة بقرينة المقابلة.

أى: ولأنثى رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير فى التزوج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية، ولأن الزواج ارتباط روحى بين قلبين، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله فى عبادته، وقلب لا يدين بذلك.

وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى إفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار، وقد أمر النبى ﷺ أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم فى الزواج، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ «لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل».

والأحاديث النبوية فى هذا المعنى كثيرة.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ أى: لا تزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات للرجال المشركين حتى يتركوا ماهم عليه من شرك ويدخلوا فى دين الإسلام، فإذا فعلوا ذلك حل لكم أن تزوجوهم النساء المسلمات، لأنهم بدخولهم فى الإسلام قد اصبحوا إخوانا لكم.

(١) راجع - على سبيل المثال - تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٥٧، وتفسير القرطبى جـ٣ ص٦٦.

والنهى هنا يتناول المشرك الذى يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن قد جعل الإيمان غاية للنهى، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة، لأن الله - تعالى - يقول فى آية أخرى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن، وآتوهم ما أنفقوا، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾.

فهذه الآية صريحة فى أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز، وكلمة كافر تشمل أهل الكتاب بدليل قوله - تعالى - : ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دواود وعيسى بن مريم﴾. . وقوله تعالى ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾.

قال الفخر الرازى: لا خلاف هاهنا فى أن المراد به - أى بلفظ المشركين - الكل، ، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر ألبتة على اختلاف أنواع الكفرة[1].

وقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ بيان لفضل الإيمان على الشرك، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾ إذ نسبة المؤمن أو المؤمنة إلى هذا الدين الذى ارتضاه الله لعباده أفضل وأجل من الانتساب إلى أى شىء آخر.

ثم بين - سبحانه - علة النهى عن الزواج بالمشركين والمشركات فقال - تعالى - : ﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾.

أى: أولئك المذكورون من المشركين والمشركات يدعون من يقارنهم ويعاشرهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التى تفضى بصاحبها إلى دخول النار فى الآخرة والله - تعالى - يدعو عباده على ألسنة رسله إلى الأقوال والأعمال والعقائد التى توصل إلى جنته ومغفرته.

فالمراد بالدعاء إلى النار الدعاء إلى أسبابها وإلى ما يوصل إليها، وكان الاقتران بهؤلاء المشركين والمشركات سببا فى الوصول إليها، لأن الزواج من شأنه الألفة والمودة والمحبة وشدة الاتصال، وكل ذلك يجعل المسلم أو المسلمة يتقبلان ما عليه المشرك أو المشركة من فسوق وعصيان لله - تعالى - بل ربما بمرور الأيام لا يكتفيان بالتقبل بل يستحسنان فعلهما، وبذلك تنحل عرا الإسلام من نفس المسلم والمسلمة عروة فعروة، حتى لا يبقى منه سوى الاسم، كما نشاهد ذلك فى كثير من المسلمين الذين تزوجوا بغير مسلمات.

والمقصود من قوله - تعالى - : ﴿والله يدعو إلى الجنة﴾ إغراء المؤمنين بالتمسك بتعاليم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ صفحة ٦٤.

دينهم، وتنفيرهم من الاقتران بغير من يكون على شاكلتهم فى الدين، لأن من يخالفهم فى عقيدتهم طريقه يغاير طريقهم، وهدفه يخالف هدفهم، وعاقبته تباين عاقبتهم.

والدعاء إلى الجنة والمغفرة المراد به الدعاء إلى أسبابهما كما فى الجملة السابقة المقابلة وقيد - سبحانه - الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله ﴿بإذنه﴾ أى بأمره وإرادته وعلمه، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شيء، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريده ويقدره.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وقد يقول قائل: هذه الدعوة إلى النار قد تكون أيضًا فى زواج المسلم بالكتابية، كما هى فى زواج المسلم بالمشركة، وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقًا، كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقًا، وإن لذلك الكلام موضعه، ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية، بل زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتابية محرم كزواجه من المشركة.

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحل، ولا يعملون العلة ليهمل النص، بل يرون علة التحريم لا تتوافر فى الكتابية توافرها فى المشركة، فإن المشركة لا ترتبط بأى قانون خلقى يعصمها من الزلل.. أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية.. لا تزال باقية فى تعاليم دينها فيمكن الاحتكام إليها.

والقرآن فى جدله مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها كما فى قوله - تعالى -: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا﴾.. الآية.

وأمرنا أن نجادلهم بالتى هى أحسن فقال: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾.. الآية.

فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة غير المبعدة، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ فى إباحة الزواج من الكتابيات أمران:

أولهما: أن النص القرآنى المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال - سبحانه ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ والمحصنات - فى أظهر التفسير - هن العفيفات، فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن فى أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات.

ثانيهما: أن ولى الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامى له أن

يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدا للذريعة ومنعا للشر، وذلك من باب السياسة الشرعية، لا من باب تحريم ما أحل الله، لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذى يلحق المسلمين، إذ فى ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه، كما أن أصل الأكل حلال، ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام، ولذلك سارت الدولة على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات(١).

وقوله - تعالى - فى ختام الآية: ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ معطوف على يدعو إلى الجنة. أى أنه - سبحانه - يدعو الناس إلى ما يوصلهم إلى جنته ومغفرته ويبين لهم آياته وأوامره ونواهيه فى شئون الزواج وفى غير ذلك من الأحكام لكى يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرهم الله به فيعملوه، وما نهاهم عنه فيتركوه.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد رسمت للناس أقوم السبل، لكى يعيشوا فى ظل أسرة فاضلة، تظلها السعادة، ويسودها الأمان والاطمئنان ويتعاون أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

وبعد أن أمر الله - المسلم بأن يجعل التدين وحسن الخلق محط اختياره فى الزواج، اتبع ذلك بإرشاده إلى بعض الآداب التى يجب عليه أن يسلكها مع زوجه حتى تكون علاقتهما قائمة على ما يقتضيه الطبع السليم والخلق القويم وحتى تكون فى أعلى درجات التطهر والتنزه والعفاف فقال - تعالى -:

وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٩٥٢.

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت أى لا يسكنون معهن - فسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله - تعالى - : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾. الآية فقال رسول الله - ﷺ - أصنعوا كل شىء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يارسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما - أى غضب - فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبى ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما[1].

والمحيض : الحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضًا ومحاضًا ومحيضا فهى حائض، وأصله السيلان. يقال حاض الوادى إذا سال، ومنه الحوض لسيلان الماء إليه.

ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم فى أوقات مخصوصة على وجه مخصوص.

والأذى : الشيء الذى يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه.

والسؤال كان من بعض الصحابة، لأنه لقوة إيمانهم كانوا يحبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى شئونهم الخاصة والعامة، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة فى حال حيضها معاملة غير كريمة فسألوا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر الذى يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء فى حال الحيض، فأجابهم الله - تعالى - جوابًا شافيًا.

والمعنى : ويسألك أصحابك يا محمد عن حكم مباشرة النساء فى حال الحيض فقل لهم معلمًا وموجهًا : إن الحيض أى الدم الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذيًا حسيًا جسيًا، فرائحته يتأذى منها من يشمها، وهو فى ذاته شيء متقذر تعافه النفوس، وتنفر منه الطباع.

وقوله : ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ بيان للحكم المتفرع على تلك الحالة التى يتأذى منها وهى حالة الحيض.

والاعتزال : التباعد، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة، كما أن النهى عن قربهن كناية عن النهى عن جماعهن، يقال : قرب الرجل امرأته إذا جامعها.

و﴿يطهرن﴾ من الطهر - بضم الطاء - بمعنى النقاء من الوسخ والقذر -.

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء فى زمن حيضهن، ولا تجامعوهن

(١) صحيح مسلم : كتاب الحيض جـ١ صفحة ١٦٩

حتى يطهرن من ذلك، لأن غشيانهن فى هذه الحالة يؤذيكم بسبب عدم نقاء المحل الذى يكون فيه الغشيان للمرأة، والمرأة أيضًا تتأذى من مباشرتها فى زمن الحيض لأنها لا تكون فى حالة تستسيغ معها المباشرة، فجهازها التناسلى فى حالة اضطراب، وهيئتها العامة فى حالة تجعلها من شأنها أن تنفر من الجماع، والولد الذى يأتى عن طريق الجماع فى حالة الحيض - على فرض إتيانه فى هذه الحالة - كثيرًا ما يأتى مشوها ضعيفًا، لأن النطفة إذا اختلطت بدم الحيض، أخذت البويضات فى التخلق قبل وقت صلاحيتها للتخلق النافع الذى يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض وقد قال بذلك الأطباء الثقاة[1]. وعرفه العرب القدامى بالتجربة، قال أبو كبير الهزلى.

ومبرأ من كل غُبَّرِ حَيْضةٍ وفساد مرضعة وداءٍ معضلِ[2]

وقد أجمع العلماء - كما بينا - على أن المراد بالاعتزال هو اجتناب المباشرة، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله من المرأة بعد ذلك.

فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة، وحجتهم أن الله أمر باعتزال النساء ولم يخصص من ذلك شيئًا دون شيء.

وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى - أى مكان خروج الدم - لقول النبى ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح».

وبعضهم يرى اعتزال ما بين السرة إلى الركبة من المرأة وله ما سوى ذلك، لقول عائشة: كانت إحدانا إذا كانت حائضة أمرها النبى ﷺ أن تأتزر ثم يباشرها. وقوله: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتقرير له، وتنبيه على أن المراد به عدم جماعهن لاعدم القرب منهن أو مخالطتهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب.

والدليل على ذلك ماجاء فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض».

وروى البخارى عن عائشة - أيضًا - قالت: كان رسول الله ﷺ يتكىء فى حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن[3].

---

(١) راجع تفسير «التحرير والتنوير» جـ٢ ص ٣٥٠ للشيخ محمد بن عاشور.

(٢) غبر الحيضة: جمع غبرة وهى آخر الشىء. يريد أن يقول: إن أم هذا الممدوح لم تحمل به فى آخر مدة الحيض لذا جاء مستقيم الخلقة.

(٣) صحيح البخارى: كتاب الحيض جـ١ ص ٨٢.

وروى مسلم عنها أيضًا قالت : كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضع فىَّ فيشرب.

وقوله : ﴿حتى يطهرن﴾ بيان لغاية الاعتزال. وقرأ حمزة الكسائى ﴿حتى يطهرن﴾ بفتح الطاء والهاء مع التشديد.

ومعناه عند جمهور الفقهاء ولا تجامعوهن حتى يغتسلن، لأن القراءتين معناهما واحد، ولأن الله - تعالى - قد علق الإتيان على التطهر فقال : ﴿فإذا تطهرن فأتوهن﴾ والتطهر هو الاغتسال. فالمرأة إذا انقطع حيضها لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال.

ويرى الأحناف أن معنى ﴿حتى يطهرن﴾ أى حتى ينقطع الدم، لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم فانقطاعه طهور منه، وبناء على ذلك فيجوز للرجل أن يباشر زوجته قبل أن تغتسل متى انقطع دمها لأقصى مدة الحيض، وهو عشرة أيام. أخذًا بالقراءة المشهورة ﴿يطهرن﴾ بالتخفيف. أما إذا انقطع الدم قبل ذلك فلا تحل مباشرتها إلا بالتأكد من زوال الدم بعمل من جانبها وهو الاغتسال الفعلى، لأن قراءة ﴿يطهرن﴾ بالتشديد عندهم معناها يغتسلن.

وقال بعض الفقهاء يكفى فى حلها أن تتوضأ عند انقطاع الدم.

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وفى هاتين الجملتين الكريمتين ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ من سمو التعبير، وبديع الكناية ما يغرس فى نفس السامع حسن الأدب، ويصون سمعه عن الألفاظ التى يجافى سماعها الأذواق السليمة، وما أحوج المسلمين إلى التأسى بهذا الأدب الذى يحفظ عليهم مروءتهم وكرامتهم.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أى : فإذا تطهرن من المحيض فجامعوهن فى المكان الذى أمركم الله بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره.

والأمر فى قوله - تعالى - : ﴿فأتوهن﴾ المراد به إباحة المباشرة، لأن من المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهى يكون للإباحة، خصوصًا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام، وليس المراد به الحتم واللزوم، لأن الإتيان مبنى على الرغبة والطاقة وشبه بهذا التعبير قوله - تعالى - : ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض﴾ وقوله : ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾.

قال الجمل : ومن فى قوله : «من حيث» فيها قولان :

أحدهما : أنها لابتداء الغاية، أى من الجهة التى تنتهى إلى موضع الحيض.

والثانى : أن تكون بمعنى فى أى المكان الذى نهيتم عنه فى الحيض. ورجح بعضهم هذا بأنه ملائم لقوله ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض﴾(١).

وعلى كلا القولين فالمقصود أن يأتى الرجل زوجته فى المكان الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية، وهو القبل إذ هو مكان البذر والإنسال، ولا يخرج عن ذلك إلا الذين أصيبوا بشذوذ فى عقولهم، وضعف فى دينهم..

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾

والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا.

والمتطهر: هو الإنسان المتنزه عن الفواحش والأقذار.

أى : إن الله - تعالى - يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام، ويرضى عنهم فى الدنيا والآخرة.

قال الألوسى : ﴿إن الله يحب التوابين﴾ مما عسى يبدر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان فى الحيض المستدعى لعقاب الله - تعالى - فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ قال : «من أتى حائضًا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وهو جار مجرى الترهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله، أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله - ﷺ - أن يعتق نسمة» وهذا إذا كان الإتيان فى أول الحيض والدم أحمر، أما إذا كان فى آخره والدم أصفر فينبغى أن يتصدق بنصف دينار كما دلت عليه الآثار»(٢).

ثم قال - تعالى - : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

روى الشيخان عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها ثم حملت كان ولدها أحول. فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الآية.

والحرث فى الأصل : تهيئة الأرض بالحراثة لإلقاء البذر فيها. وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المزروعة كما فى قوله - تعالى - ﴿أن اغدوا على حرثكم﴾ أى على حديقتكم لجمع ما فيها من ثمار.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ١٧٩.
(٢) تفسير الألوسى جـ٢ صفحة ١٢٤ وبتلخيص قليل.

وشبهت المرأة بالأرض لأن كليهما يمد الوجود الإنسانى بأسباب بقائه، فالزوجة تمده بعناصر تكوينه، والأرض تمده بأسباب حياته.

و﴿أنى شئتم﴾ بمعنى كيف شئتم، أو متى شئتم فى غير وقت الحيض.

والمعنى: نساؤكم هن مزرع لكم ومنبت للولد، أعدهن الله لذلك كما أعد الأرض للزراعة والإنبات، فأتوهن إذا تطهرن من الحيض فى موضع الحرث كيف شئتم مستلقيات على ظهورهن أو غير ذلك ما دمتم تؤدون شهوتكم فى صمام واحد وهو الفرج.

وفى هذه الجملة الكريمة إشعار بأن المقصد الأول من الزواج إنما هو النسل، ويشير إلى ذلك قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ إذ من شأن الحرث الصالح الانتاج وإشعار كذلك بما شرعه الله للزوجين من مؤانسة ومباسطة ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن التشبيه بين ما يلقى فى الأرحام من النطفة وبين البذر الذى يلقى فى الأرض من حيث إن كلا منهما ينمو فى مستودعه ويكون به البقاء والتوالد، فقد قال - رحمه الله - :

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز شبههن بالمحارث تشبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ تمثيل، أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التى تحرثونها من أى جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة. والمعنى: جامعوهن من أى شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث.

ثم قال: وقوله - تعالى - : ﴿هو أذى، فاعتزلوا النساء﴾ وقوله ﴿من حيث أمركم الله﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات الحسنة. وهذه وأشباهها فى كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها فى محاورتهم ومكاتبتهم.

فإن قلت: ما موقع قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ يعنى أن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له وتفسيرا، أو إزالة للشبهة ودلالة على أن الغرض الأصيل فى الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة فلا تأتوهن إلا من المأتى الذى يتعلق به هذا الغرض»[1].

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله: ﴿وقدموا لأنفسكم، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾.

أى: عليكم أيها المؤمنون أن تقدموا فى حاضركم لمستقبلكم من الأعمال الصالحة ما ينفعكم

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٦٦.

فى دنياكم وآخرتكم، بأن تختاروا فى زواجكم ذات الدين، وأن تسيروا فى حياتكم الزوجية على الطريقة التى رسمها لكم خالقكم وعليكم كذلك أن تتقوه بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، وأن تعلموا علم اليقين أنكم ستلقونه فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون.

وقوله : ﴿وبشر المؤمنين﴾ بشارة طيبة لمن آمن وعمل صالحا، وتلقى ما كلفه الله - تعالى - بالطاعة والامتثال.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أرشدتا المسلم إلى أفضل الوسائل، وأقوى الدعائم التى يقوم عليها صرح الحياة الزوجية السعيدة، والتى عن طريقها تأتى الذرية الصالحة الرشيدة، وأن الإسلام فى تعاليمه لا يحاول أن ينكر أو يحطم غرائز الإنسان وضرورياته، وإنما الإسلام يعترف بغرائز الانسان وضرورياته ثم يعمل على تهذيبها وتقويمها بالطرق التى من شأنه إذا ما اتبعها أن يظفر بالسعادة والطمأنينة فى دنياه وأخراه.

وبعد أن بينت لنا السورة الكريمة حكم المباشرة فى فترة الحيض تابعت حديثها عن شئون الأسرة فذكرت حكم الإيلاء أى الحلف بالامتناع عن المباشرة بعد أن قدمت له بالحديث عن الحلف فى ذاته. استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى ذلك فتقول :

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

العرضة : فعله - بضم الفاء - بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة، وهى اسم لكل ما يعترض الشىء فيمنع من الوصول إليه، واشتقاقها من الشىء الذى يوضع فى عرض الطريق فيصير مانعًا للناس من السلوك والمرور يقال فلان عرضة دون الخير أى حاجز عنه.

وتطلق كذلك على النصبة التى تتعرض للسهام وتكون هدفا لها، ومنه قولهم : فلان عرضة

للناس إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه. قال الشاعر:

دعونى أنح وجدًا كنوح الحمائم ولا تجعلونى عرضة للوائم

يريد اتركونى أنح من الشوق ولا تجعلونى معرضًا للوم اللوائم.

والأيمان: جمع يمين وتطلق بمعنى الحلف والقسم، واصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه، و«تبروا» من البر وهو الأمر المستحسن شرعا.

والمعنى على الوجه الأول: لا تجعلوا الحلف بالله - أيها المؤمنون - حاجزًا ومانعًا عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وذلك أن بعض الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول: حلفت بالله ألا أفعله فنهاهم الله - تعالى - عن سلوك هذا الطريق.

وهذا المعنى هو الذى رجحه كثير من المفسرين لأنه هو المناسب لما يجىء بعد ذلك من قوله - تعالى - : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ ووجه المناسبة أن الله - تعالى - يكره للمؤمن أن يجعل الحلف به مانعًا من رجوعه إلى أهله؛ ولأن هناك أحاديث كثيرة تحض من حلف على ترك أمر من أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتى الأمر الذى فيه خير، ومن هذه الأحاديث ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ إنى والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها»(١).

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير»(٢).

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن الحلف على ترك فعل الخير قوله - تعالى - فى شأن سيدنا أبى بكر عندما أقسم ألا ينفق على قريبه الذى خاض فى شأن ابنته عائشة ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾(٣).

فالآية على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين ما نعة من فعل الخير.

واللام فى قوله: ﴿لأيمانكم﴾ متعلق بعرضة، وقوله ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا﴾ مفعول

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦٦.
(٣) سورة النور الآية ٢٢.

لأجله أي : لا تجعلوا الحلف بالله سببًا فى الامتناع عن عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

والمعنى على أن عرضة بمعنى النصبة التى تتعرض للسهام : لا تجعلوا - أيها المؤمنون - اسم الله - تعالى - هدفا لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به فى كل حق وباطل، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن من شأن الذى يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه، وقد ذم الله - تعالى - من يكثر الحلف بقوله ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ وأمر بحفظ الأيمان فقال : ﴿واحفظوا أيمانكم﴾.

قال الإمام الرازى : والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلى فى اليمين، وأيضًا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله. كان أكمل فى العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله - تعالى - أجل وأعلا عنده من أن يستشهد به فى غرض دنيوى، وأما قوله بعد ذلك ﴿أن تبروا﴾ فهو علة لهذا النهى. أى : إرادة أن تبروا والمعنى إنما نهيتم عن هذا - أى عن الإكثار من الحلف - لما أن توقى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونون يا معشر المؤمنين بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - بررة أتقياء مصلحين»(١).

وهذا الوجه أيضًا استحسنه كثير من العلماء، ولا تنافى بينهما؛ لأن الله - تعالى - ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعًا من فعل الخير، كما ينهانا فى الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به فى عظيم الأمور وحقيرها.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله سميع عليم﴾ أى : سميع لأقوالكم وأيمانكم عند النطق بها عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم لتنالوا رضاه ومثوبته.

وقوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ استئناف بيانى، لأن الآية السابقة لما أفادت النهى عن التسرع فى الحلف، أو عن اتخاذ الأيمان حاجزًا عن عمل الخير، كانت نفوس السامعين مشوقة إلى حكم اليمين التى تجرى على الألسنة بدون قصد.

والمؤاخذة : مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإلزام بالوفاء بها.

واللغو من الكلام : الساقط الذى لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية مصدر لغا يلغو ويلغى.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٨٠.

والمعنى : لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية فضلا منه - سبحانه - وكرمًا.

واليمين اللغو هى التى لا يقصدها الحالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد، وقد ذكر العلماء صورًا لها منها - كما يقول ابن كثير:

ما رواه عطاء عن عائشة أنها قالت : « اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله » وفى رواية عن الزهرى عن عروة عنها أنها قالت : « اللغو فى اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارءون فى الأمر - أى يتناقشون ويتذاكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلىَ والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم » أى تجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين : -

ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية يعنى قوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ وتقول : هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه ».

ثم بين - سبحانه - اليمين التى هى موضع المحاسبة والمعاقبة فقال : ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾.

أى : لا يؤاخذكم الله فى اليمين التى لم تصدر عن روية وتفكير ولكن يؤاخذكم أى يعاقبكم فى الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب فى اليمين، بأن يحلف أحدكم على شىء كذب ليعتقد السامع صدقه، وتلك هى اليمين الغموس - أى التى تغمس صاحبها فى النار - ويدخل فيها الأيمان التى يحلفها شهود الزور والكاذبون عند التقاضى ومن يشابههم فى تعمد الكذب.

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم بباطل.

ويرى الإمام الشافعى أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة.

والباء فى قوله : ﴿بما﴾ للسببية، وما مصدرية أى، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب، أو موصولة والعائد محذوف أى ولكن يؤاخذكم بالذى كسبته قلوبكم.

وقوله : ﴿والله غفور حليم﴾ تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة فى اللغو. أى والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة.

وبعد بيان هذه الأحكام فى الأيمان العامة، عقب - سبحانه - ذلك ببيان حكم اليمين الخاصة فقال : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءو فإن الله غفور رحيم.

وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾. و﴿يؤلون﴾ : من الإيلاء مصدر آلى يؤالى و يؤلى إيلاء بمعنى حلف. قال الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

وقد خص الإيلاء فى الشرع بالحلف على ترك مباشرة الزوجة. وكانوا فى الجاهلية يحلفون ألا يقربوا نساءهم السنة والأكثر إضرارا بهن.

و﴿التربص﴾ التلبث والانتظار والترقب. قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت حليلها

و ﴿فاءو﴾ معناه رجعوا. والفىء فى اللغة هو رجوع الشيء إلى ما كان عليه من قبل، ولهذا قيل لما تزيله الشمس من الظل ثم يعود فىء. وقيل لما رده الله على المسلمين من مال المشركين فىء كأنه كان لهم فرجع إليهم.

قال الشاعر:

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له ومن حاجة الإنسان ماليس قاضيا

و﴿عزموا﴾ من العزم وهو عقد القلب على الشيء، والتصميم عليه. يقال عزم على الشيء يعزم عزما وعزيمة.. إذا عقد نيته عليه.

و﴿الطلاق﴾ هو حل عقد النكاح الذى بين الرجل والمرأة، وأصله من الانطلاق، وهو الذهاب. يقال: طلقت المرأة تطلق - من باب نصر - طلاقا، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن كانت فى عصمة رجل معين.

قال الفخر الرازى: كان الرجل فى الجاهلية لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات بعل والغرض منه مضارة المرأة. ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك - أيضًا - فأزال الله، تعالى - ذلك، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل فإن رأى المصلحة فى ترك هذه المضارة فعلها، وإن رأى المصلحة فى المفارقة عن المرأة فارقها».

ومعنى الآيتين الكريمتين: أن الله - تعالى - جعل للذين يحلفون على ترك مباشرة أزواجهم مدة يراجعون فيها أنفسهم، وينتظرون فيها ما يستقر عليه أمرهم، وهذه المدة هى أربعة أشهر، فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة، ورأوا أن المصلحة فى الرجوع فإن الله - تعالى - يغفر لهم ما فرط منهم. وإن استمروا على ترك مباشرة نسائهم، وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله - تعالى يحكم بالتفريق بينهما، لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران، وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة.

وقوله : ﴿للذين يؤلون﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم . وتربص مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام بهذه التوسعة التى وسع الله بها عليهم، فهى مدة كافية لأن يراجع المرء فيها نفسه، ويعود إلى معاشرة زوجه خلالها.

وعدى فعل الإيلاء بمن مع أن حقه أن يتعدى بعلى، لأنه تضمن هنا معنى البعد كأنه قال : للذين يؤلون متباعدين من نسائهم.

و﴿من نسائهم﴾ على حذف المضاف، أو من إقامة العين مقام الفعل المقصود منه المبالغة أى، للذين يؤلون من مباشرة نسائهم.

وأضيف التربص إلى الظرف ﴿أربعة أشهر﴾ على الاتساع إذ الأصل تربصهن فى أربعة أشهر. وقوله : ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ دليل الجواب. أى فإن فاؤا إلى زوجاتهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها بالابتعاد عنهن، بأن كفروا عنها وتابوا إلى ربهم فحنثهم مغفور لهم لأنه - سبحانه - غفور لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، رحيم بعباده فى كل أوامره وتكاليفه.

وجواب الشرط فى قوله ﴿ وإن عزموا الطلاق﴾ محذوف والتقدير وإن عزموا الطلاق فقد وجب عليهم ما اعتزموه، والطلاق منصوب على نزع الخافض لأن عزم يتعدى بعلى.

وفى قوله : ﴿فإن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد لمن يحلف على ترك مباشرة امرأته أو يمسكها بقصد إيذائها ومضارتها.

أى فإن الله - تعالى - سميع لكل ما كان من الزوج الحالف، عليم بما يقع منه من مضار أو غيرها، وسيجزيه يوم القيامة بما يستحقه.

قال القرطبى ما ملخصه : وقد جعل الله للزوج مدة أربعة أشهر فى تأديب المرأة بالهجر، وقد آلى النبى ﷺ من أزواجه شهرا تأديبا لهن - عندما طالبنه بزيادة النفقة - وقد قيل : الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع أن تصبر عنه أكثر منها، وقد روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل بعض النساء عن مقدار صبر المرأة عن زوجها فقلن أربعة أشهر، فجعل عمر مدة الرجل فى الغزو أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين، وهذا - والله أعلم - يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر»[1].

وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف فى مثل هذه الأمور، والأربعة الأشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله، فإما أن يعود إلى معاشرة زوجه بالطريقة التى شرعها الله، وإما أن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق، ليبدأ كلاهما حياة زوجية جديدة مع شخص آخر. فذلك أكرم

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٠٧ بتصرف وتلخيص.

للزوجة وأعف وأصون، وأنفع للرجل كذلك وأشرف. وقد اختار الله هذه المدة وهو الأعلم بحكمة اختياره فعلينا أن نتقبل ما شرعه لنا طائعين خاشعين.

هذا وجمهور - العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة، وإنما بانتهائها يأمره الحاكم بالفيئة، فإن تقبل أمر الحاكم بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها، وإن لم يتقبله بالرضا أمره بالطلاق، فإن طلق فبها وإلا طلقها الحاكم منه.

وعليه فإن الفاء فى قوله - تعالى - : ﴿فإن فاءو﴾ لترتيب الحكم الذى يحصل بعد مدة التربص.

وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهى الأربعة الأشهر، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها، ويكفى فى مراجعته لنفسه تلك المدة، ومادام لم يرجع إلى معاشرة امرأته خلالها فقد آثر فراقها، ولا يصح أن نعطيه أية مهلة من الوقت بعدها. وعليه تكون الفاء عندهم للتفصيل، أى تفصيل ما يحصل من الزوج فى هذه المدة.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المسلم عن اتخاذ الحلف بالله حاجزًا بينه وبين فعل الخير، ، وأمرته بأن يحفظ لسانه عن الإكثار من الحلف بالله فى الأمور الصغيرة والكبيرة، وحذرته من تعمد الأيمان الكاذبة التى تؤدى إلى غضب الله - تعالى - لأن اليمين الكاذبة الفاجرة من كبائر الذنوب، وحذرته كذلك من أن يهجر زوجته بقصد إيذائها والإضرار بها، لأن الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المودة والرحمة، وأرشدته إلى أن أقصى مدة لهجر الزوجة بقصد تأديبها وعلاج اعوجاجها هى أربعة أشهر يراجع فيها نفسه، فإما أن يعود اليها ويكفر عن يمينه، وإما أن يقع بينهما الفراق ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾.

وبهذه الأحكام السامية يكون الإسلام قد شرع للرجل والمرأة ما ينفعهما ويصون كرامتهما، ويحفظ لهما حريتهما وحسن استمتاعهما بالحياة.

ثم ساقت السورة فى خمس آيات أحكام الطلاق، وفصلت أحواله، وبينت مراته، وذكرت ما ينبغى أن يكون عليه من عدل وتسامح حتى لا يقع ظلم أو جور على أحد الزوجين. استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك بأسلوبه الحكيم المؤثر فيقول:

وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ

فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ
فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ معطوف على ما قبله لشدة المناسبة، وللاتحاد فى الحكم وهو التربص الذى سبقت الإشارة إليه فى قوله ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾.

والتربص : التأنى والتريث والانتظار.

والقروء : جمع قرء - بضم القاف وفتحها -.

قال الطبرسى : وأصله فى اللغة يحتمل وجهين :

أحدهما : الاجتماع ومنه القرآن لاجتماع حروفه. . فعلى هذا يقال أقرأت المرأة فهى مقرىء إذا حاضت، وذلك لاجتماع الدم فى الرحم.

والوجه الثانى : أن أصل القرء الوقت الجارى فى الفعل على عادة، يقال : هذا قارىء الرياح أى وقت هبوبها»[1].

والمعنى : أن على المطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء بدون نكاح ثم لها أن تتزوج بعد ذلك إن شاءت.

والمراد بالمطلقات هنا المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، لأن غيرهن قد بين الله - تعالى - عدتهن فى مواضع أخرى.

والمتوفى عنها زوجها بين الله عدتها بقوله : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزاجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾[2].

ومن لا يحضن ليأس من الحيض، أو لأنهن لم يرين الحيض فقد بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : ﴿واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائى لم يحضن﴾[3] أى : واللائى لم يحضن فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر.

وذوات الحمل بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾[4].

وغير المدخول بها لا عدة عليها لقوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾[5].

---

(١) تفسير «مجمع البيان» جـ ٢ صفحة ٢٢٦ للطبرسى.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤
(٣) و (٤) سورة الطلاق الآية ٤.
(٥) سورة الأحزاب الآية ٤٩.

وقوله : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى أى «ليتربصن» وإخراج الأمر فى صورة الخبر - كما يقول الزمخشرى - «تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص. فهو يخبر عنه موجودًا. ونحوه قولهم فى الدعاء : «رحمك الله» أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة. كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضًا فضل توكيد. ولو قيل : «ويتربص المطلقات» لم يكن بتلك الوكادة»(١).

وفى قوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ ما فيه من الابداع فى الإشارة والنزاهة فى العبارة والسمو فى المعنى، وذلك لأن المرأة المطلقة كثيرًا ما تشعر بعد طلاقها بأنها فى حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها فى حياتها الزوجية السابقة ليس لنقص فيها، أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى، وهذا الشعور قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة، وهنا تبرز طريقة القرآن الحكيمة فى معالجة النفوس، إنه يقول للمطلقة : إن التطلع إلى إنشاء حياة زوجية أخرى ليس عيبًا، ولكن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث، إذ لا يليق بالحرة الكريمة أن تتنقل بين الأزواج تنقلا سريعا. . وأيضًا فإن نداء الفطرة، وتعاليم الشريعه توجبان عليها الانتظار مدة ثلاثة قروء، لكى تستبرىء رحمها، حتى إذا كان هناك حمل نسب إلى الأب الشرعى له.

وفى قوله - تعالى - : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ إشعار بأن هذا التربص يجب أن يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجى، فشأن الحرة الكريمة المؤمنة أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف، فقد تجوع الحرة ولكنها لا تأكل بثديها - كما يقولون -.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى المعنى بقوله : فإن قلت وما معنى ذكر الأنفس - هنا - ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن. وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال. فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربص»(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿ثلاثة قروء﴾ نصب ثلاثة على النيابة عن المفعول فيه، لأن الكلامَ على تقدير مضاف، أى مدة ثلاثة قروء. فلما حذف المضاف خلفه المضاف إليه فى الإعراب.

هذا وللعلماء رأيان شهيران فى المراد بقوله - تعالى - : ﴿ثلاثة قروء﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٧١.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٧١.

فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر وعلى وابن مسعود وغيرهم يرون أن المراد بالقروء هنا الحيضات والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج ثم بعد ذلك لهن أن يتزوجن إن شئن.

ومن أدلتهم : ان النبى ﷺ قد فسر القرء بمعنى الحيض فقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى عن فاطمة بنت أبى حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها : «دعى الصلاة أيام أقرائك»[1].

ولا شك أن المراد بالقرء فى هذا الحديث الحيض، لأنه هو الذى لا تصح معه الصلاة.

أما المالكية والشافعية ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وغيرهم فيرون أن المراد بالقروء هنا الأطهار، أى الأوقات التى تكون بين الحيضتين للنساء.

ومعنى الآية عندهم : أن على المطلقات أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار بدون زواج ثم بعد ذلك يتزوجن إذا شئن.

ومن أدلتهم : أن الله - تعالى - يقول : ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ وقد بينت السنة النبوية أن الطلاق لا يكون فى الحيض، فلا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض. وروى عن عائشة أنها قالت : هل تدرون الأقراء؟ الأقراء الأطهار[2].

قال صاحب المنار قال الأستاذ الإمام : والخطب فى الخلاف سهل، لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاث أطهار. . ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين موافق لحكمة الشرع فى المسألة[3].

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن﴾. أى : ولا يحل للنساء المطلقات أن يكتمن أمانة الله التى خلقها فى أرحامهن من ولد لكى ينسبنه إلى غير أبيه، أو من حيض أو طهر لكى تطول العدة، ويمتد الإنفاق من الأزواج عليهن. فإن هذا الكتمان كذب على الله، وخيانة للأمانة التى أودعها الله فى أحشائهن وأمرهن بالوفاء بها، سيحاسب الله من يفعل ذلك منهن حسابًا شديدًا، ويعاقبه عقابًا أليمًا.

وقوله : ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تحريض لهن على عدم الكتمان وعلى الاخبار

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢ صفحة ١٣١.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ٩٤.
(٣) تفسير المنار جـ١ صفحة ٢٧١.

الصادق حتى تستقيم الأحكام، وتتقرر الحقوق، وتحذير لهن من الكتمان ومن اتباع الهوى والشيطان أى : أن على المطلقات ألا يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن جرين على ما يقتضيه الإيمان، إذ الإيمان يبعث على الصدق ويدعو إلى المحافظة على الأمانة، فإن لم يفعلن ذلك وكتمن ما خلق الله فى أرحامهن، كن ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر إيمانا حقيقيًا، لأن من شأن المؤمنات الكاملات فى إيمانهن ألا يفعلن ذلك.

قال الإمام الرازى : أما قوله ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فليس المراد أن ذلك النهى - عن الكتمان - مشروط بكونها مؤمنة، بل هذا كما تقول للرجل الذى يظلم : إن كنت مؤمنا فلا تظلم. تريد إن كنت مؤمنًا فينبغى أن يمنعك إيمانك عن ظلمى، ولا شك أن هذا تهديد شديد للنساء. . والآية دالة على أن كل من جعل أمينًا فى شىء فخان فيه فأمره عند الله شديد»(١).

هذا، وقد قرر الفقهاء أن القول فيما يتعلق بعدة المرأة ابتداء وانتهاء مرجعه إليها، لأنه أمر يتعلق بها ولا يعلم إلا من جهتها، إلا أنهم مع ذلك قرروا مدة ينتهى قولها عنده، ولا يعمل بقولها إن نقصت عن تلك المدة. فلو ادعت - أنها قد انقضت عدتها بعد شهر من طلاقها لا يقبل قولها.

وللفقهاء كلام طويل فى هذه المسألة مبسوط فى كتب الفقه فليرجع إليه من شاء ذلك.

ثم قال - تعالى - : ﴿وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحًا﴾.

قال القرطبى : البعولة جمع البعل وهو الزوج، سمى بعلا لعلوه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها، ومنه قوله - تعالى - : ﴿أتدعون بعلا﴾ أى ربًا، لعلوه فى الربوبية. . والبعولة أيضًا مصدر البعل. وبعل الرجل يبعل - كمنع يمنع - أى صار بعلا. والمباعلة والبعال : الجماع، ومنه قوله ﷺ لأيام التشريق : «إنها أيام أكل وشرب وبعال»(١).

والمعنى : وأزواج المطلقات طلاقًا رجعيًا أحق بردهن ومراجعتهن فى ﴿ذلك﴾ أى فى وقت التربص قبل انقضاء العدة ﴿إن أرادوا إصلاحًا﴾ أى إن أرادوا بهذه المراجعة الإصلاح لا الإضرار، كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا﴾.

قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولا بها تطليقة أو

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ٩٨.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١١٩ - بتلخيص.

تطليقتين، أنه أحق برجعتها مالم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة، فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهى أحق بنفسها وتصير أجنبية منه، ولا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولى وإشهاد ليس على صفة المراجعة، وهذا اجماع من العلماء»(١).

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لبعض الحكم السامية التى أرادها الله - تعالى - من وراء مشروعية العدة. فالله - تعالى - جعل للمطلق فرصة - هى مدة ثلاثة قروء - لكى يراجع نفسه، ويتدبر أمره، لعله خلال هذه المراجعة وذلك التدبر يرى أن الخير فى بقاء زوجته معه فيراجعها، رعاية لرابطة المودة والرحمة التى جعلها الله - تعالى - بين الزوجين.

وقوله - تعالى - : ﴿إن أرادوا إصلاحًا﴾ شرط المقصود منه حض المطلق على أن ينوى بإرجاعه لمطلقته إصلاح أحوالهما، بإرشادها إلى ما من شأنه أن يجعل حياتهما الزوجية مستمرة لا منقطعة، أما إذا راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة ففى هذه الحالة يكون آثمًا وسيعاقبه الله على ذلك بما يستحقه.

قال الآلوسى : وليس المراد من التعليق اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده لا تجوز، للإجتماع على جوازها مطلقًا، بل المراد تحريضهم على قصد الإصلاح حيث جعل كأنه منوط به ينتفى بانتفائه»(٢).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾.

أى : وللنساء على الرجال مثل ما للرجال على النساء. فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه نحوه بالمعروف.

والمراد بالمماثلة - كما يقول الآلوسى - المماثلة فى الوجوب لا فى جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال»(٣).

أى أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة، وأنهما متماثلان فى أن كل واحد منهما عليه أن يؤدى نحو صاحبه ما يجب عليه بالمعروف أى بما عرفته الطباع السليمة ولم تنكره، ووافق ما أوجبه الله على كل منهما فى شريعته. فالباء فى قوله ﴿بالمعروف﴾ للملابسة.

وقد بين النبى ﷺ فى أحاديث متعددة حقوق الرجال على النساء، وحقوق النساء على الرجال، ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول ﷺ قال فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٢٠.
(٢) و(٣) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٣٤.

خطبته فى حجة الوداع : اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لا مرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه »

وأخرج أبو داود عن معاوية بن حيدة قال : قلت يارسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت » .

ولقد قام السلف الصالح بأداء هذه الحقوق على أحسن وجه فقد روى عن ابن عباس أنه قال : إنى لأحب أن أتزين لا مرأتى كما تتزين لى لأن الله . تعالى - يقول : ﴿ولهن مثل الذى عليهم بالمعروف﴾ .

أى : أن يحب أن يؤنسها وأن يدخل السرور على قلبها كما أنها هى تحب أن تفعل له ذلك .

ولكن لا يفهم أحد أن المراد بهذا المثلية المساواة من كل الوجوه قال - تعالى - : ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ والرجال : جمع رجل . يقال : رجل بين الرجلة أى القوة . وهو أرجل الرجلين أى أقواهما . وفرس رجيل أى قوى على المشى . وارتجل الكلام أى قوى عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية ، وترجل النهار أى قوى ضياؤه . فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة .

والدرجة فى الأصل : ما يرتقى عليه من سلم ونحوه ، والمراد بها هنا المزية والزيادة أى : لهن عليهم مثل الذى لهم عليهن ، وللرجال على النساء مزية وزيادة فى الحق ، بسبب حمايتهم لهن ، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات .

قال بعض العلماء : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين - الرجل والمرأة - فلابد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين . وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة ، فوجد أن الرجل أملك لزمام نفسه ، وأقدر على ضبط حسه ، ووجده الذى أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه فجعل له الرياسة ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . .﴾ .

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل ، وهى درجة تجعل له حقوقًا وتجعل عليه

واجبات أكثر، فهى موائمة كل المواءمة لصدر الآية، فإذا كان للرجل فضل درجة فعليه فضل واجب»[١].

وقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى غالب فى انتقامه ممن عصاه، حكيم فى أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده. فعلى الرجل والمرأة أن يطلبا عزهما فيما شرعه الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذى حق مهضوم، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفهما به، لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة، ويؤيده العقل السليم.

وبعد أن بين - سبحانه - فى هذه الآية شرعية الطلاق ومداه إذا طلق الرجل امرأته المدخول بها طلقة رجعية، ووضع المنهاج العادل الذى يجب أن يتبعه الرجال والنساء.. بعد أن بين ذلك أتبعه ببيان الحد الذى ينتهى عنده ما للرجل من حق المراجعة فقال - تعالى -: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

قال الإمام ابن كثير: هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام: من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت فى العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات، قصرهم الله - تعالى - على ثلاث طلقات، وأباح الرجعة فى المرة والثنتين، وأبانها بالكلية فى الثالثة فقال: الطلاق مرتان... الآية[٢].

وروى ابن أبى حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته: لا أطلقك أبدًا ولا آويك أبدًا. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك - أى قاربت عدتك أن تنتهى - راجعتك. فأتت المرأة إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فأنزل الله - تعالى -: ﴿الطلاق مرتان﴾ - الآية.

والطلاق - كما يقول القرطبى - هو حل العصمة المنعقدة بين الأزواج بألفاظ مخصوصة. وأل فى قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ للعهد الذكرى.

أى: الطلاق الرجعى المشار إليه فى قوله - تعالى -: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ مرتان، وأمر المطلق بعد آحدى هاتين الطلقتين يدور بين حالتين إما إمساك بمعروف بمعنى أن يراجعها على نية الإبقاء على العلاقة الزوجية، والمعاملة الحسنة وإما تسريح بإحسان بمعنى أن يتركها حتى تنتهى عدتها، ويطلق سراحها بدون ظلم أو إساءة إليها، كما قال - تعالى -: ﴿وسرحوهن سراحًا جميلا﴾.

---

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة. مجلة لواء الإسلام السنة السادسة العدد٣
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧١

قال القرطبى : والتسريح : إرسال الشىء، ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، وسرح الماشية أرسلها.. »

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالطلاق فى الآية الطلاق الرجعى وبالمرتين حقيقة التثنية، ويكون وقت الإمساك أو التسريح هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية بصفة خاصة، وفى كل الأوقات بصفة عامة. وعلى هذا التفسير سار كثير من العلماء.

ويرى بعضهم أن المراد بالطلاق فى الآية الطلاق الشرعى، وبالمرتين التكرار لا العدد، وأن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة، أى بعد الطلقتين الأولين يتروى فى الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة. وقد ذكر هذا الرأى صاحب الكشاف فقال :

﴿الطلاق﴾ بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم، أى التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله «ثم ارجع البصر كرتين» أى كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين، ونحو ذلك من التثانى التى يراد بها التكرير كقولهم : لبيك وسعديك.. وقوله : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذى علمهم إياه.. وروى أن سائلا سأل النبى ﷺ أرأيت قول الله - تعالى - : ﴿الطلاق مرتان﴾ فأين الثالثة، فقال ﷺ «التسريح بإحسان»[(١)].

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿فإمساك..﴾ للتفريع، وإمساك خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فالشأن أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

قال الفخر الرازى : والحكمة فى إثبات حق الرجعة : أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدرى أنه هل تشق عليه مفارقته أولا ؟ فإذا فارقه فعتد ذلك يظهر، فلو جعل الله - تعالى - الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن يظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة، فلا جرم أثبت - سبحانه - حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك يكون قد جرب الإنسان نفسه فى تلك المفارقة مرتين وعرف حال قلبه فى ذلك الباب. فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعباده».

هذا، ويرى بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم أن الرجل إذا أوقع الطلاق دفعة واحدة،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٣.

بأن قال لزوجته أنت طالق ثلاث مرات، فطلاقه لا يكون إلا طلقة واحدة، لأن اقتران الطلاق بكلمة ثلاثا لا يجعله ثلاث مرات بل هو مرة واحدة كمن يقول: أحلف بالله ثلاثًا فهو يمين واحدة.

ويرى الأئمة الأربعة أن طلاق هذا الرجل فى مثل هذه الصورة يقع ثلاثًا، لأنهم يرون أن الطلاق المقترن بالعدد لفظًا أو إشارة يكون ثلاثًا أو اثنين على حسب ما اقترن به. ولأن عمر - رضى الله عنه - أفتى بذلك. فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائى والحاكم عن ابن عباس قال: «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبى بكر، وسنتين من خلافة عمر واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا فى أمر لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم» فأمضاه.

وهذه المسألة مبسوطة بأدلتها فى كتب الفقه وبعض كتب التفسير.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾.

قال الراغب: الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة. ويضاد الخوف الأمن..».

والجناح: الإثم من جنح بمعنى مال عن القصد - وسمى الآثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل -. يقال جنحت السفينة أى مالت إلى أحد جانبيها. والافتداء: تخليص النفس بمال يبذل لتخليصها ودفع الأذى عنها. وأصله من الفدى والفداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن الشدة بما يبذله من أجل ذلك(١).

والمعنى: ولا يجوز لكم أيها المطلقون أن تأخذوا من زوجاتكم فى مقابلة الطلاق شيئًا مما أعطيتموهن من صداق أو من غيره من أموال، لأن هذا الأخذ يكون من باب الظلم الذى نهى الله عنه، وليس من باب العدل الذى أمر الله به.

ثم استثنى - سبحانه - صورة يجوز فيها الأخذ فقال: ﴿إلا أن يخافا﴾. إلخ أى: لا يجوز لكم أن تأخذوا فى حالة من الأحوال إلا فى حالة أن يخاف الزوجان كلاهما أو أحدهما ألا يقيما حدود الله ففى هذه الحالة يجوز الأخذ وحدود الله هى ما أوجبه - سبحانه للرجل على زوجته. ولها عليه.

ثم خاطب - سبحانه - الحكام وجماعة المؤمنين المتوسطين للإصلاح بين الزوجين فقال:

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى من ص ١٦١، ص ١٠٠، ص ٣٧٤

﴿فإن خفتم ألا يقيما﴾ أى الزوجان ﴿حدود الله﴾ التى حدها لهم وأمرهم باتباعها فى حياتهم الزوجية «فلا جناح عليهما فيما افتدت به» أى : فلا إثم على الزوج فى أخذ ما أعطته له الزوجة من مال مقابل انفصالها عنه، ولا إثم عليها كذلك فى هذا الإعطاء، لأنهما ما داما قد وصلا إلى هذه الحالة من التنافر، وما دامت الزوجة قد أصبحت تفضل أن تعطيه من المال ما تفدى به نفسها من البقاء فى عصمته، ما داما قد أصبحا كذلك. فوقوع الفراق بينهما أولى وأجدى ﴿وإن يتفرقا يغنى الله كلا من سعته﴾

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لمن الخطاب فى قوله : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾ إن قلت : إنه للأزواج لم يطابقه قوله : ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ وإن قلت إنه للأئمة والحكام فهؤلاء ليسوا بآخذين منهن ولا بمؤتيهن؟ قلت : يجوز الأمران جميعًا : أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز فى القرآن وغيره. ويجوز الخطاب كله للائمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم فكأنهم الآخذون والمؤتون»(١).

والمراد بقوله : ﴿مما آتيتموهن﴾ أى من المهور وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة وإما للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما أعطوهن فى مقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل لهم أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى.

وقوله : ﴿شيئًا﴾ مفعول به لتأخذوا. التنوين للتقليل أى : لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا ولو كان المأخوذ شيئًا غاية فى القلة، لأن هذا الأخذ يجا فى الإحسان الذى أمرتم به. وقريب من هذه الآية فى النهى عن الأخذ قوله - تعالى - :

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئًا، أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا﴾.

وأن والفعل فى قوله ﴿إلا أن يخافا﴾ فى موضع نصب على الحال أى إلا خائفين.

وقوله : ﴿أن لا يقيما﴾ فى موضع نصب على المفعول به ليخافا والتقدير إلا أن يخافا ترك حدود الله.

وهذه الآية قد اعتبرها العلماء أصلا فى جواز الخلع.

قال ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير : أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس، ففى

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٤.

صحيح البخارى عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله إن زوجى ثابت بن قيس - ما أعيب عليه فى خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر فى الإسلام - أى أكره عدم الوفاء بحقه لبغضى له -. فقال لها رسول الله ﷺ أتردين عليه حديقته؟ - وهى المهر الذى أمهرها - قالت : نعم، قال رسول الله ﷺ لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»[1].

قالوا : ففرق رسول الله ﷺ بينهما بطريق الخلع فكان أول خلع فى الإسلام.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

أى : تلك الأحكام العظيمة الحكيمة المتقدمة التى بينتها لكم فى شأن الطلاق والرجعة والخلع وغير ذلك حدود الله التى حدها، فلا يجوز لكم أن تخالفوها، ومن يتعد هذه الحدود فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه.

وكانت الإشارة للبعيد ﴿تلك﴾ لبيان سمو قدر هذه الأحكام، وعظم منزلتها، وجلال ما فيها من مصالح واضحة لأصحاب العقول السليمة.

وسميت هذه الأحكام حدودًا للإشارة إلى أنها فواصل بين الحق والباطل، والظلم والعدل والمنفعة والمضرة. إذ الحد هو الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. يقال : حددت كذا أى جعلت له حدًا يميزه. وحد الدار ما تتميز به عن غيرها..

وفى إضافة هذه الحدود إليه - سبحانه - إشعار بأن مخالفتها إنما هى مخالفة له - سبحانه - وأن هذه الحدود لا يتطرق إليها الريب لأنها صادرة من العليم الخبير الذى أحسن كل شىء خلقه.

والفاء فى قوله : ﴿فلا تعتدوها﴾ للتفريع أى : إذا كانت هذه الأحكام حدود الله فلا يصح لكم أن تتجاوزوها لأن تجاوزها يؤدى إلى سوء العقبى.

وعبر فى قوله : ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير الفصل وبالجملة الاسمية لتأكيد معنى السببية وللإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم وصفة يتميزون بها عن غيرهم.

وقد جاء - سبحانه - بكل هذه المؤكدات فى تلك الجملة الكريمة لكبح جماح غرور الإنسان، وتحذيره من الانقياد لهواه وأوهامه، فكثيرًا ما يتوهم بعض الناس أن أحكام الله ليست ملائمة لمقتضى الزمان الذى يعيشون فيه، ويحاولون إخضاع شرع الله - تعالى -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٤.

لمصالحهم وشهواتهم، أو يتركون ما شرعه الله بتلك الحجة الواهية الساقطة. وأنت ترى هنا أن القرآن قال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها...﴾ بينما قال هناك فى ختام آية الصوم ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها..﴾[١] وذلك لأن الكلام هنا فى شأن الأسرة وما يسودها أحيانًا من خلافات، واصطدامات، واضطرابات.. والخشية هنا إنما هى من تعدى هذه الحدود التى حدها الله فى أى مرة من مرات هذا الخلاف.. فجاء التحذير من التعدى لا من المقاربة، بينما هناك كان الحديث عن محظورات مشتهاة مستلذة تريدها النفس لترضى شهوتى البطن والفرج، فجاء التحذير من مجرد الاقتراب من هذه الحدود التى حدها الله إتقاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها.

فسبحان من هذا كلامه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾.

ثم بين - سبحانه - أحكام الطلاق المكمل للثلاث، بعد بيانه لأحكام الطلاق الرجعى وأحكام الخلع فقال - تعالى -: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره﴾.

أى: فإن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الطلقتين اللتين أباح الله له مراجعتها بعد كل منهما فى أثناء العدة، فإنه فى هذه الحالة تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره نكاحًا شرعيًا صحيحًا، بأن يدخل بها، ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج زوجاتهم.

فالمراد بالنكاح فى قوله تعالى ﴿حتى تنكح زوجًا غيره﴾ الزواج بشخص آخر يدخل بها دخولا صحيحًا. ويؤيد هذا المعنى ويؤكده ما جاء فى الحديث المشهور الذى أخرجه البخارى وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى. وإنى نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظى، وإن ما معه مثل الهدبة، فقال رسول الله ﷺ: لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»[٢].

وواضح من ذوق العسيلة أن يدخل بها ويجامعها. وعلى هذا انعقد إجماع الفقهاء. ولم يلتفتوا إلى ما نسبه بعضهم إلى سعيد بن المسيب من أنه أجاز للمرأة أن تعود إلى زوجها الأول بعد عقد زواجها على الثانى دون أن يدخل بها. وحملوا هذا المنسوب إلى سعيد بن المسيب على أنه من شواذ الفتيا التى لا وزن لها لمخالفتها لنص حديث صحيح لعله لم يبلغه.

---

(١) الآية ١٨٧ من هذه السورة.
(٢) صحيح البخارى فى كتاب الطلاق الثلاث جـ٧ ص ٥٥.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أى : فإن طلق الزوج الثانى تلك المرأة التى سبق طلاقها من الزوج الأول، فلا إثم عليها وعلى زوجها الأول فى أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعقد جديد بعد انقضاء العدة ما داما يغلب على ظنهما أنهما سيقيمان حدود الله، ويؤدى كل واحد منهما ما يجب عليه نحو صاحبه بأمانة وإخلاص.

وقوله : ﴿أن يتراجعا﴾ فى موضع جر بإضمار حرف الجر أى فى أن يتراجعا وقوله ﴿أن يقيما﴾ فى موضع نصب على أنه سد مسد مفعولى ظن.

قال صاحب الكشاف : ولم يقل : إن علما أنهما يقيمان حدود الله لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله. ومن فسر الظن ها هنا بالعلم فقدوهم ولأن الإنسان لا يعلم ما فى الغد وإنما يظن ظنًا »(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾.

أى : وتلك الأحكام المذكورة عن الطلاق وعن غيره مما كلف الله به عباده يبينها ويوضحها بتلك الطرق الحكيمة لقوم يعلمون الحق، ويعملون بمقتضى علمهم.

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أنه لا يحل للمرأة التى طلقت من زوجها أن تعود إليه بعد الطلقة الثالثة إلا بعد أن تتزوج آخر زواجًا صحيحًا يدخل بها فيه ويجامعها ثم يطلقها وتنقضى عدتها منه.

ومن حكم هذا التشريع الحكيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق زوجاتهم، وزجرهم عن التساهل فى إيقاع الطلاق، فإن الرجل الشريف الطبع، العزيز النفس إذا علم أن زوجته لن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا افترشها شخص آخر توقف عن إيقاع الطلاق، وتباعد عن التسرع والاندفاع وحاول أن يصلح ما بينه وبين أهله بالمعالجة الحكيمة التى تتميز بسعه الصدر وضبط النفس.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير سبعة أحاديث فى النهى عن نكاح المحلل - وهو أن يعقد رجل على امرأة قد طلقت ثلاثًا من زوجها بقصد إحلالها لهذا الزوج لا بقصد الزواج الدائم ثم يدخل بها دخولا صوريًا وليس شرعيًا - ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود قال : لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له، وآكل الربا وموكله ».

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧٦ بتلخيص.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بالتيس المستعار»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له».

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن نكاح المحلل فقال: لا، إلا نكاح رغبة - لا نكاح دلسة أى لا نكاح غش وتدليس - ولا استهزاء بكتاب الله - ثم يذوق عسيلتها..».

وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثًا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه - أى من غير مشورة ورغبة منه - ليحلها لأخيه فهل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن كثير: والمقصود أن الزوج الثانى يكون راغبًا فى المرأة قاصدًا لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج. واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطأ مباحًا فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض.. لم تحل للأول بهذا الوطء والمراد بالعسيلة الجماع لما رواه الإمام أحمد والنسائى عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - قال: «ألا إن العسيلة الجماع»(1).

وبعد أن بين - سبحانه - فى الآية السابقة أن الزوج مخير بين الإمساك والتسريح فى مدة العدة، عقب ذلك ببيان أن هذا التخيير من حقه حتى آخر وقت فى العدة، وذلك لتذكيره بأن الإمساك أفضل من التسريح، وأن عليه ألا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا سدت طرق الإصلاح والمعالجة، وأنه إذا اختار الطلاق فعليه أن يسلك فيه طريق الحق والعدل لا طريق الباطل والجور.

قال - تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾.

قال الراغب: الأجل: المدة المضروبة للشىء. قال - تعالى - ﴿لتبلغوا أجلا مسمى..﴾ - أى مدة معينة - والبلوغ والبلاغ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا كان أو زمانًا أو أمرًا من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته. فمن الانتهاء قوله - تعالى - : ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾.. وأما قوله: ﴿فبلغن أجهلن فأمسكوهن بمعروف﴾ فللمشارفة فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها».

والمراد بالأجل هنا عدة المرأة. وببلوغها قرب انتهائها.

والضرار - كما يقول الرازى - هو المضارة. قال - تعالى - : ﴿والذين اتخذوا مسجدًا

(1) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨.

ضرارًا﴾ أى اتخذوا المسجد ضررًا ليضاروا المؤمنين، ومعناه يرجع إلى إثارة العداوة، وإزالة الألفة، وإيقاع الوحشة، وموجبات النفرة».

والمعنى: وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقًا رجعيًا، ﴿فبلغن أجهلن﴾ أى فشارفت عدتهن على الانتهاء، وقاربت الانقضاء، فعليكم أن تتدبروا مليا فى أمركم، فإن رأيتم الأصلح فى بقائهن معكم فنفذوا ذلك وأمسكوهن بمعروف. أى بما هو المعروف من شرع الله الحكيم، وبما تقره الأخلاق الحسنة والعقول السليمة. وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم فى البقاء معهن فسرحوهن بمعروف أى فأمضوا الطلاق، وتفارقوا بالطريقة التى يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن. ولاتذكروهن بسوء بعد انفصالكم عنهن، فهذا شأن الأتقياء الصالحين فقد سئل بعضهم، لم طلقت امرأتك؟ فقال: إن العاقل لايذكر مابينه وبين أهله.

قال القرطبى: معنى ﴿بلغن﴾ قاربن بإجماع من العلماء، ولأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له فى الإمساك، وهو فى الآية التى بعدها بمعنى الانتهاء، لأن المعنى يقتضى ذلك، فهو حقيقة فى الثانية، مجاز فى الأولى - أى التى معنا -».

ثم نهى - سبحانه - عن الإمساك الذى يكون معه الضرر فقال. ﴿ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا﴾ أى لا تراجعوهن إرادة الضرر بهن والإيذاء لهن لتعتدوا عليهن، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وتوضيح لمعناه، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعته لامرأته قبل انتهاء عدتها لا لقصد الإبقاء على الزوجية وإنما القصد إطالة عدة الزوجة، أو لقصد أن تفتدى نفسها منه بالمال: و﴿ضرارًا﴾ منصوب على الحال فى تمسكوهن أو على أنه مفعول لأجله. واللام فى قوله: ﴿لتعتدوا﴾ هى لام العاقبة أى لتكون عاقبة أمركم الاعتداء. وحذف متعلق «لتعتدوا» ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله - تعالى -.

وقوله: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ وعيد شديد لمن يقدم على مانهى الله عنه. أى: ومن يراجع مطلقته بقصد الإضرار بها والاعتداء عليها فقد ظلم نفسه ظلمًا مؤكدًا، لأنه سيعرضها لعقاب الله وسخط الناس.

وجعل ظلمهم لنسائهم ظلمًا لأنفسهم، لأن عملهم هذا سيؤدى إلى اختلال المعاشرة الزوجية واضطرابها، وشيوع العداوة والبغضاء بين الزوجين وبين أهلهما. ثم كرر - سبحانه - تحذير المخالفين لشريعته، وذكرهم بألوان نعمه عليهم ليستجيبوا لأمره فقال: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوًا، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾.

آيات الله: أحكامه التى شرعها فى شأن الطلاق وغيره.

والهزء - بضمتين - مصدر هزأ به إذا سخر ولعب وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول أى : مهزوءًا بها. وقوله ﴿هزوا﴾ مفعول ثان لتتخذوا.

والمراد بالحكمة هنا. السنة النبوية المطهرة.

والموعظة والعظة : النصح والتذكير بالخير. بما يرقق القلوب، ويحذر النفوس مما نهى الله عنه.

أى : ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التى شرعها لكم فى شأن الطلاق وغيره مهزوءًا بها بأن تعرضوا عنها، وتتهاونوا فى المحافظة عليها، والتمسك بتعاليمها، ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التلفظ بالطلاق متوهما أن ذلك لا يضر، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة.

قال القرطبى : وفى موطأ مالك أنه بلغه أن رجلا قال لابن عباس : «إنى طلقت امرأتى مائة مرة فماذا ترى على؟ فقال ابن عباس : طلقت منك بثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا»(١).

والجملة الكريمة نهى أريد به الأمر بضده، أى جدوا فى العمل بأوامر الله وآياته، وارعوها حق رعايتها.

وقوله : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾. إلخ أى تذكروها فى هدايتكم إلى الإسلام، وفى مشروعية الزوجية وفى غير ذلك مما لا يحصى من النعم وتدبروا نعم الله عليكم فقابلوها بالشكر، واستعملوها فيما خلقت له، وتذكروا كذلك ما أنزل الله عليكم بواسطة رسولكم محمد ﷺ من الكتاب وهو القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم، ومن الحكمة وهى السنة النبوية المطهرة، بما جاء فيهما من توجيهات سامية، وآداب عالية.

و «ما» فى قوله : ﴿وما أنزل عليكم﴾ موصولة والعائد محذوف أى ما أنزله و «من» فى قوله : ﴿من الكتاب﴾ بيانية، وجملة ﴿يعظكم به﴾ حال من فاعل أنزل أو من مفعوله، والضمير فى ﴿به﴾ يعود على الكتاب والحكمة بعد تأويلهما بالمذكور. وجعل ضميرهما واحدًا لأنهما فى مؤداهما وغايتهما شىء واحد، فالسنة ليست نابعة إلا من الكتاب ومنه أخذت قوتها وسلطانها.

وقوله - سبحانه - : فى ختام الآية ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم﴾ تذكير لهم بتقوى الله وخشيته ومراقبته، وتحذير لهم من مخالفة أمره.

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٥٦.

أى : صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - فيما يتعلق بأمور الزوجية وفى غيرها مما شرعه لكم، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل شىء، عليم بما تسرونه وما تعلنونه، وسيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾.

ثم بين - سبحانه - ما ينبغى اتباعه عند حصول الطلاق وإمضائه حتى لا يقع ظلم أو جور فقال - تعالى - : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾.

قال القرطبى : تعضلوهن معناه تحبسوهن، ودجاجة معضل أى : قد احتبس بيضها، وقيل : العضل التضييق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس. يقال : أعضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الحيل. قال الأزهرى : وأصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه. ويقال أعضل الأمر إذا اشتد، وداء عضال أى شديد عسر البرء أعيا الأطباء. . . »(١).

والمعنى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أى : انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن، فلا تمنعوهن من الزواج بمن يردن الزواج به، متى حصل التراضى بين الأزواج والزوجات على ما يحسن فى الدين، وتقره العقول السليمة، ويجرى به العرف الحسن.

والمراد ببلوغ الأجل هنا بلوغ أقصى العدة، بخلاف البلوغ فى الآية التى قبل هذه، فإن المراد به المشارفة والمقاربة كما أشرنا من قبل لأن المعنى يحتم ذلك، والخطاب هنا للأزواج وللأولياء ولكل من له تأثير على المرأة المطلقة، وذلك لأن منع الزوجة من الزواج بعد انقضاء عدتها قد يكون من جانب الزوج السابق، لاسيما إذا كان صاحب جاه وسلطان وسطوة، فإنه يعز عليه أن يتزوج مطلقته أحد بعده فيمنعها من الزواج.

وقد يكون المنع من جانب الأولياء، وقد أورد المفسرون آثارًا تشهد لذلك منها - كما يقول الألوسى - ما أخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو داود من طرق شتى عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة، ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب. فقلت له : أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، والله لا ترجع إليك أبدًا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله - تعالى - حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية. ففى نزلت فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه. . »(٢).

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٥٩.

(٢) تفسير الألوسى جـ١ ص ١٤٤.

وعبر - سبحانه - عن الرجال الذين هم محل الرضا من النساء بالأزواج فقال ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ مع أن الزواج لم يتحقق بعد، للإشارة إلى الحقيقة المقررة الثابتة، وهى أن من يقع اختيارها عليه، ولم يكن اقترانها به فيه ما يشينها أويشين أسرتها، فمن الواجب ألا يمانع أحد فى إتمام هذا الزواج، بل على الجميع أن يقروه وينفذوه، لأن شريعة الله والفطرة الإنسانية يقضيان بذلك.

وقوله : ﴿أن ينكحن﴾ تقديره : من أن ينكحن فهو فى محل جر عند الخليل والكسائى وفى محل نصب عند غيرهما، وقوله : ﴿إذا تراضوا﴾ ظرف لأن ينكحن أو لقوله : ﴿فلا تعضلوهن﴾، وقوله : ﴿بالمعروف﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا، أو هو نعت لمصدر محذوف أى تراضيًا كائنًا بالمعروف أو هو متعلق بتراضوا. أى تراضوا بما يحسن فى الدين والمروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفء أو بما دون مهر المثل ليس من العضل المنهى عنه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

أى : ذلك القول الحكيم، والتوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأسماها يوعظ به، ويستجيب له من كان منكم عميق الإيمان بالله - تعالى - وبثوابه وبعقابه يوم القيامة. ذلكم الذى شرعه الله لكم - أيها المؤمنون - من ترك عضل النساء والإضرار بهن وغير ذلك من الأحكام ﴿أزكى لكم وأطهر﴾ أى أعظم بركة ونفعًا، وأكثر تطهيرًا من دنس الآثام، فإن المرأة إذا عوملت معاملة كريمة، ولم تظلم فى رغباتها المشروعة، التزمت فى سلوكها العفاف والخلق الشريف، أما إذا شعرت بالظلم والامتهان فإن هذا الشعور قد يدفعها إلى ارتكاب مانهى الله عنه. والله تعالى يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه تفوزوا وتسعدوا.

والإشارة بقوله : ﴿ذلك﴾ إلى ما فصل من أحكام وما أمر به من أفعال والخطاب لكل من يصلح للخطاب من المكلفين.

وخصص الوعظ بالمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون به، وترق معه قلوبهم وتخشع له نفوسهم.

وأتى - سبحانه - بضمير الجمع ﴿ذلكم﴾ بعد أن قال فى صدر الجملة ﴿ذلك﴾ للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها فى اختيار زوجها واجب على جميع المؤمنين، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعًا ما دام هذا الاختيار فى حدود الآداب التى جاء بها الإسلام.

وقوله : ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ رد على كل معترض على تطبيق شريعة الله، أو متهاون فى ذلك بدعوى أنها ليست صالحة للظروف التى يعيش ذلك المعترض أو هذا المتهاون فيها، لأن شرع الله فيه النفع الدائم والمصلحة الحقيقية، والنتائج المرضية، لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يجهل شيئًا، ويعلم ما هو الأنفع والأصلح للناس فى كل زمان ومكان، ولم يشرع لهم - سبحانه - إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، وما دام علم الله - تعالى - هو الكامل، وعلم الإنسان علم قاصر، فعلينا أن نتبع شرع الله فى كل شئوننا، ولنقل لأولئك المعترضين أو المتهاونين : سيروا معنا فى طريق الحق فذلكم ﴿أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وبعد : فهذه خمس آيات قد تحدثت عن جملة من الأحكام التى تتعلق بالطلاق، وإذا كان الإسلام قد شرع الطلاق عند الضرورة التى تحتمها مصلحة الزوجين، فإنه فى الوقت نفسه قد وضع كثيرًا من التعاليم التى يؤدى اتباعها إلى الإبقاء على الحياة الزوجية، وعلى قيامها على المودة والرحمة، ومن ذلك :

١ - أنه أرشد أتباعه إلى أفضل السبل لاختيار الزوج، بأن جعل أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق القويم، لأنه متى كان كل من الزوجين متحليًا بالإيمان والتقوى، استقرت الحياة الزوجية بينهما، وقامت على المودة والرحمة وحسن المعاشرة.

٢ - أنه أمر كلا الزوجين بأن يبذل كل واحد منهما قصارى جهده فى أداء حق صاحبه، وإدخال السرور على نفسه، فإذا ما نجم خلاف بينهما فعليهما أن يعالجاه بالحكمة والعدل، وأن يجعلا الأناة والصبر رائدهما، فإن الحياة الزوجية بحكم استمرارها وتشابك مطالبها لا تخلو من اختلاف بين الزوجين.

٣ - دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة تسير فى غير طريق المودة، فقال - تعالى - : ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير. . .﴾ كما دعا أولى الأمر أن يتدخلوا للإصلاح بين الزوجين عند نشوب الشقاق بينهما أو عند خوفه فقال - تعالى - : ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما إن الله كان عليمًا خبيرًا﴾.

٤ - نهى الإسلام عن إيقاع الطلاق على الزوجة فى حال حيضها، أو فى حال طهر باشرها فيه، لأن المرأة فى هاتين الحالتين قد تكون على هيئة لا تجعل الرجل مشوقًا إليها. . .

وأباح له أن يوقع الطلاق فى طهر لم يجامعها فيه، لأن إيقاعه فى هذه الحالة يكون دليلا على استحكام النفرة بينهما.

٥ - نهى الإسلام عن الطلاق البات بالنسبة للمرأة المدخول بها، وأمر الزوج بأن يجعل طلاقه رجعيًا، وأعطاه فرصة طويلة تقرب من ثلاثة أشهر ليراجع خلالها نفسه، فإن وجد الخير فى مراجعة زوجته راجعها بقصد الإصلاح واستمرار الحياة الزوجية، وإن وجد الخير فى غير ذلك تركها حتى تنقضى عدتها وفارقها بالمعروف عملا بقوله - تعالى - : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

٦ - جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل، لأنه هو الذى وقعت عليه معظم أعباء الزواج، وهو الذى سيتحمل ما سيترتب على الطلاق من تكاليف، ولا شك أنه بمقتضى هذه التكاليف وبمقتضى حرصه على استقرار حياته، سيتأنَّى ويتروى فلا يوقع الطلاق إلا إذا كان مضطرًا إلى ذلك.

كما أن الإسلام أباح للمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها، أو ترفع أمرها للقاضى ليفرق بينها وبينه إذا تيقنت من استحالة استمرار الحالة الزوجية بينهما لأى سبب من الأسباب. وفى هذه الحال فللقاضى أن يفرق بينهما إذا رأى أن المصلحة تقتضى ذلك.

٧ - أباح الإسلام للرجل الذى طلق امرأته ثلاثًا أن يعود إليها من جديد، وذلك بعد طلاقها من رجل آخر يكون قد تزوجها زواجًا شرعيًا وانقضت عدتها منه، وفى ذلك ما فيه من التأديب لهما، والتهذيب لسلوكهما.

٨ - وردت أحاديث متعددة تنهى عن إيقاع الطلاق إلا عند الضرورة وتتوعد المرأة التى تطلب من زوجها أن يطلقها بدون سبب معقول بالعذاب الشديد، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس - أى من غير عذر شرعى أو سبب قوى - فحرام عليها رائحة الجنة». وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: أبغض الحلال إلى الله الطلاق»(١).

هذه بعض التشريعات التى وضعها الإسلام لصيانة الحياة الزوجية من التصدع والانهيار، ومنها نرى أن الإسلام وإن كان قد شرع الطلاق، إلا أنه لا يدعو إليه إلا إذا كانت مصلحة الزوجين أو أحدهما تقتضيه وتستلزمه.

وبعد أن بين - سبحانه - حقوق الزوجين فى حالتى اجتماعهما وافتراقهما، أردف ذلك ببيان حقوق الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج. فقال تعالى:

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٣ ص٨٣.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

والمراد بالوالدات الأمهات سواء أكن فى عصمة أزواجهن أم مطلقات لأن اللفظ عام فى الكل ولا يوجد ما يقتضى تخصيصه بنوع من الأمهات. ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك فى أحكام الطلاق، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بالولد وترك إرضاعه.

وحولين أى عامين. وأصل الحول - كما يقول الراغب - تغير الشىء وانفصاله عن غيره. والحول: السنة اعتبارًا بانقلابها ودوران الشمس فى مطالعها ومغاربها. قال - تعالى - : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾. ومنه حالت السنة تحول وحالت الدار تغيرت، وأحال فلان بمكان كذا أى أقام به حولا»(١).

وعبر عن الأمهات بالوالدات، للإشارة إلى أنهن اللائى ولدن أولادهن، وأنهن الوعاء الذى خرجوا منه إلى الحياة، ومنهن يكون الغذاء الطبيعى المناسب لهذا المولود الذى جاء عن طريقهن.

وقوله: ﴿يرضعن أولادهن﴾ جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى، إذ التقدير ليرضعن. أى: عليهن إرضاع أولادهن.

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٣٧.

وعبر عن الطلب بصيغة الخبر، للإشعار بأن إرضاع الأم لطفلها عمل توجبه الفطرة، وتنادى به طبيعة الأمومة.

قال الجمل : وهذا الأمر للندب وللوجوب، فهو يكون للندب عند استجماع شروط ثلاثة، قدرة الأب على استئجار المرضع، ووجود من يرضعه غير الأم، وقبول الولد للبن الغير. ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط»(١).

وليس التحديد بالحولين للوجوب، لأنه يجوز الفطام قبل ذلك، بدليل قوله : ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وإنما المقصود بهذا التحديد قطع التنازع بين الزوجين إذا تنازعا فى مدة الرضاع، فإذا اتفق الأب والأم على أن يفطما ولدهما قبل تمام الحولين كان لهما ذلك إذا لم يتضرر الولد بهذا الفطام، وإن أراد الأب أن يفطمه قبل الحولين ولم ترض الأم أوالعكس لم يكن لأحدهما ذلك. قال القرطبى ما ملخصه : وقد انتزع مالك - رحمه الله - ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هى ما كان فى الحولين، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة. . لقوله - تعالى - : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ فهذا يدل على ألا حكم لما ارتضع المولود بعد الحولين. وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لا رضاع إلا ما كان فى الحولين» وهذا الخبر مع الآية ينفى رضاعة الكبير وأنه لا حرمة له. وقد روى عن عائشة القول به، وروى عن أبى موسى الأشعرى أنه كان يرى رضاع الكبير. وروى عنه الرجوع عنه. وسيأتى تحقيق هذه المسألة فى سورة النساء»(٢).

وفى وصف الحولين بكاملين، تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولا وبعض الثانى، لأن إطلاق التثنية والجمع فى الأزمان والأسنان على بعض المدلول إطلاق شائع عند العرب. فيقولون : هو ابن سنتين، ويريدون سنة وبعض الثانية.

وفى هذه الجملة الكريمة ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ بيان لمظهر من مظاهر رعاية الله - تعالى - للإنسان منذ ولادته، بل منذ تكوينه فى بطن أمه جنينًا، فقد أمر - سبحانه - الأمهات أن يقمن بإرضاع أولادهن فى تلك المدة، لأن لبن الأم هو أفضل غذاء لطفلها فى هذه الفترة، وأسلم وسيلة لضمان صحته ونموه، ولصيانته من الأمراض النفسية والعقلية، فقد أثبت الأطباء الثقاة أن الطفل كثيرًا ما يصاب بأمراض جسمية ونفسية وعقلية

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٨٨.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٦٢.

نتيجة رضاعته من غير أمه، كما أثبتوا أن عناية الأم بطفلها فى هذه الفترة عن طريق إرضاعه ورعايته، تؤدى إلى تحسن أحواله. . .

وقوله : ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم. أى هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع، فإذا أراد الأبوان أن ينقصا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما ذلك. فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف أى هذا الحكم لمن أراد أن يتم مدة الرضاعة.

وقوله : ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ بيان لما يجب على الآباء.

أى : وعلى الآباء أن يقدموا إلى الوالدات ما يلزمهن من نفقة وكسوة بالمعروف أى بالطريقة التى تعارف عليها العقلاء بدون إسراف أو تقتير.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم قيل ﴿المولود له﴾ دون الوالد؟ قلت : ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الامهات، كما قال المأمون بن الرشيد :

فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله - تعالى - : ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا. . .﴾[1].

وقوله : ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ تعليل لإيجاب المؤن بالمعروف. أو تفسير للمعروف ولهذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها، وقوله ﴿وسعها﴾ منصوب على أنه مفعول ثان لتكلف، والاستثناء قبله مفرغ أى أن أبا الولد لا يكلف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا بالقدر الذى تتسع له مقدرته بدون إرهاق أو مشقة.

وتلك هى سنة الإسلام فى جميع تكاليفه، فالله - تعالى - ما كلف عباده إلا بما يستطيعونه ويطيقونه بدون عسر أوعنت قال - تعالى - : ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ وقال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وقوله : ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ تعليل للأحكام السابقة الموزعة بين الأب والأم، والتى أساسها رعاية حق هذا الوليد الذى أتى عن طريقهما.

والمضارة مفاعلة من الضرر، والمعنى : لا ينبغى أن يقع ضرر على الأم بسبب ولدها، بأن يستغل الأب حنوها على وليدها فيمنعها شيئًا من نفقتها، أو يأخذ منها طفلها وهى تريد

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٧٩.

إرضاعه، أو يكلفها بما ليس فى مقدورها أو ما يخالف وظيفتها، ولا ينبغى كذلك أن يقع ضرر على الأب بسبب ولده، بأن تكلفه الأم بما لا تتسع له قدرته مستغلة محبته لولده وعنايته بتنشئته تنشئة حسنة.

قال الجمل: و﴿لا﴾ فى قوله: ﴿لا تضار﴾ يحتمل أن تكون نافية فيكون الفعل مرفوعًا، ويحتمل أن تكون ناهية فيكون الفعل مجزومًا، وقد قرئ بهما فى السبع، وعلى كل يحتمل أن يكون الفعل مبنيًا للفاعل وللمفعول»[1].

والمعنى على الاحتمالين واحد وهو أنه لا يجوز أن يَضر كل واحد منهما صاحبه أو يُضر من صاحبه بسبب حنوه على ولده واهتمامه بشأنه.

وأضاف الولد إلى كل منهما فى الموضعين للاستعطاف، وللتنبيه على أن هذا الولد الذى رزقهما الله إياه جدير بأن يتفقا على رعايته وحمايته من كل ما يؤذيه، ولا يجوز مطلقًا أن يكون مصدر قلق لأى واحد منهما.

وقدمت الأم فى الجملة الكريمة، لأن الشأن فيها أن يكون حنوها أشد، وعاطفتها أرق، ولأن مظنة إنزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب.

فالجملة الكريمة توجيه سديد، وإرشاد حكيم، للآباء والأمهات إلى أن يقوم كل فريق منهم بواجبه نحو صاحبه ونحو الأولاد الذين هم ثمار لهم.

وقوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ معطوف على قوله ﴿وعلى المولود له رزقهن﴾. الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض.

أى: وعلى وارث الأب أو وارث الصبى - أى من سيرثه بعد موته - عليه مثل ما على الأب من النفقة وترك الإضرار. فهذه الجملة الكريمة سيقت لبيان من تجب عليه نفقة الصبى إذا فقد أباه، أو كان أبوه موجودا ولكنه عاجز عن الإنفاق عليه.

قال الآلوسى ما ملخصه: والمراد بالوارث وارث الولد فإنه يجب عليه مثل ما وجب على الأب من الرزق والكسوة بالمعروف إن لم يكن للولد مال. وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتاده.. وخلق كثير. وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٨٩.

الصبى . . . وقال الشافعى المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجبًا على الأب - وقيل المراد بالوارث الباقى من الأبوين، وقد جاء الوارث بمعنى الباقى كما فى قوله ﷺ اللهم متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما الوارث منى»(١) وعلى أية حال فالجملة الكريمة تغرس معانى الإخاء والتراحم والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة، فالقادر ينفق على العاجز، والغنى يمد الفقير بحاجته، وبذلك تسعد الأسرة، وتسودها روح المحبة والمودة.

وقوله : ﴿فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ معطوف على قوله ﴿يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ لأنه متفرع عنه. والضمير فى قوله ﴿فإن أرادا﴾ يعود على الوالدين.

قال القرطبى : والفصال والفصل. الفطام وأصله التفريق، فهو تفريق بين الصبى والثدى. ومنه سمى الفصيل - لولد الضأن - لأنه مفصول عن أمه. والتشاور: استخراج الرأى - بما فيه المصلحة - وكذلك المشاورة. من الشور وهو اجتناء العسل. يقال شرت العسل - إذا استخرجته من مواضعه - والشوار: متاع البيت لأنه يظهر للناظر. والشارة هيئة الرجل. والإشارة: إخراج ما فى نفسك وإظهاره»(٢).

والمعنى : فإن أراد الأبوان فطامًا لولدهما قبل الحولين، وكانت هذه الإرادة عن تراض منهما وتشاور فى شأن الصبى وتفحص لأحواله، ورأيا أن هذا الفطام قبل بلوغه الحولين لن يضره فلا إثم عليهما فى ذلك.

وقال بعضهم : وأيضًا لا إثم عليهما إذا فطماه بعد الحولين متى رأيا المصلحة فى ذلك، وقد قيد - سبحانه - هذا الفطام للصبى بكونه عن تراض من الأبوين وتشاور منهما، رعاية لمصلحة هذا الصبى، لأن رضا أحدهما فقط قد يضره، بأن تمل الأم الإرضاع أو يبخل الأب بالإنفاق. ولأن إقدام أحدهما على الفطام بدون التشاور مع صاحبه قد يؤثر فى صحة الصبى تأثيرا سيئًا. لذا أوجب - سبحانه - التراضى والتشاور فيما بينهما من أجل مصلحة صبيهما.

ثم قال - تعالى - : ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾.

أى : وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا مراضع لأولادكم، ورضى الأمهات بذلك، فلا إثم عليكم فيما تفعلون ما دمتم تقصدون مصلحة أولادكم، وعليكم أن تسلموا هؤلاء

(١) تفسير الألوسى جـ٢ ص١٤٧
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص١٧٢

المراضع أجرهن بالطريقة التى يقرها الشرع، وتستحسنها العقول السليمة، والأخلاق القويمة.

واسترضع - كما يقول الزمخشرى - منقول من أرضع. يقال: أرضعت المرأة الصبى، واسترضعتها الصبى فهى متعدية إلى مفعولين، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم. فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه.

وقوله ﴿ما آتيتم﴾ حذف مفعولاه أى آتيتموهن إياه. و ﴿بالمعروف﴾ متعلق بسلمتم أى بالقول الجميل، وبالوجه المتعارف المستحسن شرعًا. ويجوز أن يتعلق بآتيتم. وأن يكون حالا من فاعل سلمتم أو آتيتم والعامل فيه محذوف أى متلبسين بالمعروف.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾.

أى: اتقوا الله فى كل شئونكم والتزموا ما بينه لكم من أحكام، واعلموا أن الله - تعالى - لا تخفى عليه أعمالكم، فهو محصيها عليكم، وسيجزى المحسن إحسانًا والمسىء سوءاً.

ثم بين - سبحانه - عدة المرأة إذا توفى عنها زوجها، وما يجب عليها من آداب فقال - تعالى -.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٣٤

وقوله: ﴿يتوفون﴾ - بالبناء للمجهول - أى تقبض أرواحهم فإن التوفى هو القبض. يقال: توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى قبضته وأخذته. قال - تعالى -: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أى يقبض الأنفس ويأخذها إليه بالموت حين انتهاء آجالها.

والمعنى: والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون - ويتركون من خلفهم أزواجًا. فعلى هؤلاء الأزواج اللائى ارتبطن برجالهم ارتباطًا قويًا متينًا ثم فرق الموت بينهم وبينهن، عليهن أن ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ أى: عليهن أن ينتظرن انقضاء عدتهن فيحبسن أنفسهن عن الزواج وعن التزين وعن التعرض للخطاب مدة أربعة أشهر وعشر ليال، وفاء لحق الزوج المتوفى، واستبراء للرحم.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: هذا أمر من الله - تعالى - للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال. وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع، ومستند هذا الإجماع فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فقال: أقول فيها برأيى فإن يك صوابًا فمن الله، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان. والله - تعالى - ورسوله بريئان منه: لها الصداق كاملا. وفى لفظ: لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث. فقام معقل بن يسار فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بَرْوَعَ بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فإن عدتها بوضع الحمل لعموم قوله - تعالى - : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشرة أيام للجمع بين الآيتين»[1].

وقوله: ﴿والذين﴾ اسم موصول مبتدأ. و﴿يتوفون﴾ صلته، و﴿منكم﴾ فى موضع النصب على الحال من الواو فى ﴿يتوفون﴾ و﴿يتربصن﴾ وما بعده خبر عن الذين والرابط محذوف والتقدير: يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا.

والتعبير بقوله: ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ تعبير دقيق حكيم أى: عليهن أن يمنعن أنفسهن عن النكاح وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية - إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا الخروج - مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك لأن المرأة المؤمنة الوفية يأبى عليها دينها ووفاؤها لزوجها المتوفى عنها، أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، فإن هذا أمر مستهجن فى شرع الله وفى عرف العقلاء من الناس. إذ هذه المدة التى جاءت فى الآية التى حددها الله - تعالى - لمعرفة براءة الرحم من الحمل، وهى التى تخف فيها مرارة الفراق بين زوجين ربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة.

ولقد ألغى الإسلام بهذا التشريع عادات جاهلية ظالمة للمرأة فقد كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها تغلق على نفسها مكانًا ضيقًا فى بيتها وتقضى فيه عامًا كاملا حدادًا على زوجها فأبطل الإسلام ذلك، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٤.

والإحداد هو ترك الزينة، وعدم التعرض للخطاب، وعدم الخروج من منزل الزوجية إلا لضرورة. وفى الصحيحين أيضًا عن أم سلمة أن امرأة قالت يارسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفتكتحل؟ فقال: لا - مرتين أو ثلاثًا - ثم قال: إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة».

قال ابن كثير بعد أن ساق هذين الحديثين: قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حَفشًا - أى مكانا ضيقًا من البيت - ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر سنة»[1].

وقال بعض العلماء: وقد حد الشارع للمتوفى عنها زوجها عدة هى فى جملتها أكثر من عدة المطلقات، لأن تلك ثلاثة قروء تجيء عادة فى نحو ثلاثة أشهر. وهنا يرد سؤالان:

أولهما: لماذا كانت العدة فى المتوفى عنها زوجها بالأشهر دون الحيض فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاث؟ ولماذا كانت الزيادة؟ ولم نجد أحدًا تصدى لبيان الحكمة فى جعلها بالأشهر، ويبدو لنا أن الحكمة التى تدركها عقولنا - وإن كانت الحكمة السامية قد تعلو على مدار كنا -: هى أن عدة الوفاة تكون للمدخول بها وغير المدخول بها وللصغيرة والكبيرة، والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذى انتهى بوفاة أحد ركنيه، فلزم أن يكون بأمر يشترك فيه الجميع مادام السبب واحدًا فى الجميع. وفوق ذلك أن العدة فى الوفاة لو قدرت بالحيض وهو أمر لا يعلم إلا من جهة المرأة، فربما تدفعها الرغبة فى الزواج إلى الكذب فتدعيه وهو لم يقع، وفى المطلقات العدة حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها أما فى حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد مات وصار الحق لله خالصًا. فحد ذلك الحق بالأشهر والأيام حتى لا يكون مساغا للكذب وإدعاء مالم يحصل، لأن الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب وليست أمرًا يعرف من جهتها فقط.

أما الجواب عن الأمر الثانى وهو لماذا كانت العدة بالوفاة أكثر فى الجملة من العدة الناشئة عن الطلاق؟ فيبدو بادى الرأى من الفرق بين حال الطلاق وحال الوفاة أن الطلاق نتيجة شقاق. فالحداد على الزوج الذى ينشئه ليس قويًا، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة للرجعة يكون أوضح فى معنى العدة، ويكفى لذلك نحو ثلاثة أشهر. أما حال الموت فمرارة الفراق فيها أوضح وأشد، ومعنى الحداد فيها يغلب معنى براءة الرحم، ولذا تجب على المدخول بها وغير المدخول بها، وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من عدة الطلاق.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٨٥.

وقد يرد سؤال ثالث وهو: لماذا حددت العدة بأربعة أشهر وعشر؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفى خالص لا يجرى فيه القياس ولكن ليس معنى ذلك أنه لا حكمة فيه، وأن الحكمة يقررها العلماء فى أمرين:

أولهما: أن الأشهر الأربعة هى التى يظهر فيها الحمل ويستبين، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط.

وثانيهما: أن مدة أربعة الأشهر هى المدة التى قررها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال. ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر.. فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج فى حدود هذه المدة ومقاربة لها فى الجملة»[١].

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف﴾ بيان لما يترتب على انتهاء المدة التى حددها الشرع للمرأة التى مات عنها زوجها. أى: فإذا انتهت المدة التى حددها الشرع للمرأة التى مات عنها زوجها لتتجنب فيها التزين والتعرض للنكاح. فلا حرج عليكم بعد ذلك أيها المسلمون أو أيها الأولياء - فى ترك هؤلاء الزوجات الأرامل يفعلن فى أنفسهن ما تفعله المرأة الراغبة فى الزواج من التزين والتجمل ولكن بالطريقة التى يقرها الشرع، وترضاها العقول السليمة، والأخلاق المستقيمه.

وقوله: ﴿بالمعروف﴾ متعلق بفعلن، أو حال من النون أى حالة كونهن متلبسات بالمعروف. ومفهومه أنهن لو خرجن عن المعروف شرعًا بأن تبرجن وأظهرن ما أمر الله بستره فإنه فى هذه الحالة يجب على أوليائهن أن يمنعوهن من ذلك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أى أنه محيط بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شىء فإذا وقفتم أنتم ونساؤكم عند حدوده أسعدكم فى الدنيا وأجزل مثوبتكم فى الآخرة، وإن تجاورتم حدوده عاقبكم بما تستحقون ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت للناس أفضل وسائل الحياة الشريفة، فأرشدت المرأة التى مات عنها زوجها إلى ما يحفظ لها كرامتها، ويدفع عنها ما يتنافى مع العفة والشرف والوفاء.

ثم بين - سبحانه - حكم الخطبة للنساء المعتدات بيانًا يقوم على أدب النفس، وأدب الاجتماع، ورعاية المشاعر والعواطف مع رعاية المصالح والضرورات فقال - تعالى -:

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد الثامن السنة السادسة سنة ١٩٥٢.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

وقوله - تعالى - : ﴿فيما عرضتم به﴾ أى : لوحتم وأشرتم به. من التعريض الذى هو ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده، ويصلح للدلالة على غير مقصوده، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وأصله من عرض الشىء - بضم العين - أى جانبه ومن أمثلته أن يقول الفقير المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك. . وهو يقصد عطاءه.

و﴿خطبة النساء﴾ مخاطبة المرأة أو أوليائها فى أمر زواجها. والخطبة - بكسر الخاء كالجلسة - مأخوذة من الخطب أى الشأن لأنها شأن من الشئون وقيل من الخطاب لأنها نوع - مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة. والمراد خطبة النساء اللائى فارقهن أزواجهن. و﴿أكننتم فى أنفسكم﴾ أخفيتم وأسررتم من الإكنان وهو الإضمار من غير إعلان.

والمعنى : ولا حرج ولا إثم عليكم أيها الرجال المبتغون للزواج فى التعريض بخطبة المرأة أثناء عدتها لتتزوجوهن بعد انقضائها، كما أنه لا إثم عليكم كذلك فى الرغبة فى الزواج بهن، مع إخفاء ذلك وستره من غير كشف وإعلان لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة عمل يتنافى مع آداب الإسلام، ومع تعاليم شريعته، ومع الأخلاق الكريمة، والعقول السليمة، والنفوس الشريفة.

قال القرطبى : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص فى تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه وجوز ما عدا ذلك. ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة

طلاقًا رجعيًا إجماعًا لأنها كالزوجة. وأما من كانت فى عدة البينونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها »[١].

والتعريض فى خطبة النساء أساليبه مختلفة، ومما ذكره العلماء فى هذا الشأن أن يقول الرجل للمرأة: إنى راغب فى الزواج أو أن يقول لوليها: لا تسبقنى بها إلى غيرى.

ومن أساليب التعريض ما فعله النبى - ﷺ - مع السيدة أم سلمة، فقد دخل عليها وهى متأيمة من زوجها أبى سلمة فقال لها: « لقد علمت أنى رسول الله وخيرته وموضعى فى قومى » فكان كلامه خطبة لها بأسلوب التعريض.

ومنها ما ذكره صاحب الكشاف عن عبد الله بن سليمان عن خالته - سكينة بنت حنظلة - قالت: دخل على أبو جعفر محمد بن على وأنا فى عدتى فقال: قد علمت قرابتى من رسول الله - ﷺ - وقرابتى من جدى على بن أبى طالب، وموضعى فى العرب، وقدمى فى الإسلام. قالت: فقلت: غفر الله لك يا أبا جعفر! أتخطبنى فى عدتى وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أو قد فعلت إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ وموضعى »[٢].

وقوله - تعالى -: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم﴾. إلخ معطوف على ما قبله فى الآية السابقة لأن الكلام فى الآيتين فى الأحكام المتعلقة بعدة النساء.

و﴿ما﴾ فى قوله: ﴿فيما عرضتم﴾ موصولة. و﴿من خطبة النساء﴾ بيان لما، و﴿أل﴾ فى النساء للعهد والمعهودات هن الزوجات اللائى سبق الحديث عنهن فى الآيات التى قبل هذه.

و﴿أو﴾ فى قوله: ﴿أو أكننتم﴾ للإباحة أو التخيير، ومفعول أكن محذوف يعود إلى ما الموصولة فى قوله: ﴿فيما عرضتم﴾ والتقدير: أو أكننتموه. و﴿فى أنفسكم﴾ متعلق بأكننتم.

وقوله - تعالى -: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًّا إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ كالتعليل لما قبله وهو قوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم﴾ إلخ. ونهى عما يردى ويفسد، وإباحة لما لا ضرر فيه.

أى: علم الله أنكم يا معشر الرجال ستذكرون هؤلاء النسوة المعتدات بمالهن من جمال ومن حسن عشرة ومن غير ذلك من شئونهن وأن تفكروا فيهن وتهفوا إليهن نفوسكم، والله - تعالى - فضلا منه وكرمًا قد أباح لكم أن تذكروهن ولكنه ينهاكم عن أن تواعدوهن وعدًا سريًا بأن تقولوا لهم فى السر ما تستحيون من قوله فى العلن لقبحه ومنافاته للشرع.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٨٨.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٨٢.

وقوله : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ استثناء مما يدل عليه النهى لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعًا، وهى ما تكون بطريق التلويح والتعريض.

وفى قوله سبحانه : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من ميل فطرى بين الرجال والنساء، والإسلام لا ينكر هذا الميل وإنما يهذبه ويقومه ويصقله بآدابه الحميدة، وتعاليمه السامية.

وقوله : ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه ﴿ستذكرونهن﴾ أى : فاذكروهن ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾.

قال القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى المراد بالسر فى قوله - تعالى - : ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾ فقيل معناه نكاحًا، أى لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجينى بل يعرض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره فى استسرار وخفية. هذا قول جمهور أهل العلم. و« سرًا » على هذا التأويل نصب على الحال أى مسرين - وسمى النكاح سرًا لأن مسببه الذى هو الوطء مما يسر - وقيل السر الزنا، أى لا يكونن منكم مواعدة على الزنا فى العدة ثم التزوج بعدها. أى لا تواعدوهن زنا. واختاره الطبرى. ومنه قول الأعشى :

فلا تقربن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدًا

أى : « فتزوجها أو ابتعد عنها. وقيل السر الجماع »[1].

والذى تطمئن إليه النفس أن كلمة (سرا) صفة لموصوف محذوف أى لا تواعدهن وعدا سريًا، وأن النهى هنا منصب على كل مواعدة سرية، يقال فيها كل ما ينهى عنه أو يستحيا منه فى العلن، لقبحه أو لأن أوانه لم يحن بعد، إذ السرية أو الخلوة بين الرجل والمرأة لا تؤمن مزالقها. وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »[2] وأن المراد بقوله : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ هو التعريض بالخطبة، وإظهار المودة بطريقة لا تفضى إلى محرم.

قال صاحب الكشاف فى قوله : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ وهو أن تعرّضوا ولا تصرحوا. فإن قلت بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت : بلا تواعدوهن. أى لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة : أى لا تواعدوهن إلا بالتعريض[3].

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ١٩٠.
(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٢ ص ٣٨.
(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٨٤.

العزم : القطع والتصميم، يقال عزم على الشىء إذا صمم وعقد القلب على فعله، وهو يتعدى بعلى وبنفسه فيقال : عزم الشىء وعزم عليه.

وعقدة النكاح : الارتباط الموثق به. وأصل العقد الشد، والعهود والأنكحة تسمى عقودا لأنها تعقد وتوثق كما يوثق بالحبل.

والمراد بالكتاب هنا الأمر المكتوب المفروض وهو العدة التى حدد الله لها وقتًا معينًا.

والأجل : هو نهاية المدة التى قررها الشرع للعدة.

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر الرجال الراغبين فى الزواج من النساء اللائى فارقهن أزواجهن أن تعقدوا العزم نهائيًا فى أثناء العدة على أن تتموا الزواج بعدها، بأن تحول الخطبة من التعريض إلى التصريح، أو تبتوا فى أمر الزواج بتًا قاطعًا بمواعدة أو نحوها، إذ العاقل لا يستعجل أمرا قبل حلول وقته، وإنما الذى يسوغ لكم أن تتموا عقد الزواج بعد انتهاء العدة وبعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وجفت حدته.

والنهى عن العزم على عقد النكاح نهى بالأولى عن إبرامه وتنفيذه، لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان الفعل أنهى، فهو كالنهى عن الاقتراب من حدود الله فى قوله : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد أباحت شيئين، ونهت عن شيئين : أباحت التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة فى الأنفس وحديثها بها. ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم﴾ ونهت عن المواعدة سرًا إلا أن يقولوا قولا معروفًا عن طريق التعريض، أو أن يسار الرجل المرأة بالقول المعروف الذى أباحه الشرع وارتضته العقول السليمة، والأخلاق الفاضلة، بأن يعدها فى السر بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكدًا لذلك التعريض. أما الشىء الثانى الذى نهت عنه فهو العزم على عقدة النكاح قبل انقضاء العدة. ويشهد لهذا قوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولا معروفًا، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾.

وبعد هذه الأوامر والنواهى ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم﴾.

أى : اعلموا أيها الناس أن الله - تعالى - يعلم ما يجول فى نفوسكم من خير أو شر، وما تهجس به خطرات قلوبكم من مقاصد واتجاهات، فاحذروا أن تقصدوا ما هو شر، أو تفعلوا ما هو منكر، واعلموا أنه - تعالى - غفور لمن تاب وعمل صالحًا، حليم لا يعاجل الناس بالعقوبة، ولا يؤاخذهم إلا بما كسبوا.

فالجملة الكريمة تحذير وتبشير، وترغيب وترهيب، لكى لا يتجاسر الناس على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولا ييأسوا من رحمته متى تابوا وأنابوا.

هذا، وقد أجمع العلماء على تحريم نكاح المرأة فى عدتها، وإذا حدث مثل هذا النكاح ودخل بها فرق بينهما وفسخ النكاح.

ويرى جمهور العلماء أنها تصير محرمة عليه تحريمًا مؤبدًا، ولا يحل له نكاحها ركلك لأنه استحل ما لا يحل فعوقب بحرمانه، كالقاتل يعاقب بحرمانه من ميراث المقتول. وقيل : يفسخ النكاح ويفرق بينهما فإذا انتهت العدة حلت له ولم يتأبد التحريم. ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وبلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت الناس إلى ما يقره الشرع، ويرتضيه الخلق الكريم، ونهتهم عما يتنافى مع تعاليم الإسلام بأسلوب حكيم جمع بين الشدة واللين، والخوف والرجاء، حتى يثوب المخطئون إلى رشدهم ويقلعوا عن خطئهم.

ثم بين - سبحانه - فى آيتين كريمتين بعض الأحكام التى تتعلق بالمطلقة قبل الدخول بها، سواء أذكر لها المهر أم لم يذكر، فقال - تعالى - :

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟
ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

قوله - تعالى - : ﴿ما لم تمسوهن﴾ أى ما لم تجامعوهن ولم تدخلوا بهن والمس فى أصل معناه : اللمس، ويقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على ما يكون بين المرء وزوجه من جماع ومباشرة وعلى غير ذلك مما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية. وهذه الكناية من ألطف الكنايات التى تربى فى الإنسان حسن الأدب، وسلامة التعبير، وتجنبه النطق بالألفاظ الفاحشة. وقد تكرر هذا التعبير المهذب فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عن مريم : ﴿قالت ربِّ أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر..﴾(1).

والمراد بالفريضة هنا المهر الذى يفرضه الرجل على نفسه للمرأة قبل الدخول بها.

والمعنى : لا إثم عليكم أيها الرجال إذا طلقتم النساء لأسباب مشروعة، وبطريقة مرضية، قبل الدخول بهن، وقبل أن تقدروا لهن مهرًا معينًا.

ثم بين - سبحانه - ما للمرأة على الرجل فى هذه الحالة فقال : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعًا بالمعروف حقًا على المحسنين﴾..

قوله - تعالى - : ﴿ومتعوهن﴾ أى ملكوهن ما ينتفعن به، ويدخل التسلية والسرور على نفوسهن. وأصل المتعة والمتاع ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه لتنتفع به، جبرًا لخاطرها، وتعويضًا لما نالها بسبب هذا الفراق.

و﴿الموسع﴾ هو الغنى الذى يكون فى سعة من غناه. يقال : أوسع الرجل إذ كثر ماله، واتسعت حاله. و﴿المقتر﴾ هو الفقير الذى يكون فى ضيق من فقره. أقتر الرجل أى افتقر وقل ما فى يده.

والمعنى : لا حرج عليكم فى طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تقدروا لهن مهرًا معينًا، وليس من حقهن عليكم فى هذه الحالة أن يطالبنكم بالصداق، وإنما من حقهن عليكم أن تمتعوهن بأن تدفعوا لهن ما ينتفعن به كل على حسب حاله وطاقته، فالأغنياء يدفعون ما يناسب غناهم وسعتهم، والفقراء يدفعون ما يناسب حالهم.

وقوله : ﴿متاعًا بالمعروف﴾ أى أعطوهن ما يتمتعن وينتفعن به بالقدر المتعارف عليه بين العقلاء، فلا يعطى الغنى ما لا يتناسب مع غناه ولا مع حال المرأة التى طلقها، ولا يعطى الفقير شيئًا تافهًا لا يسمى فى عرف العقلاء متاعًا كما أنه لا يكلف فوق استطاعته، لأن المتاع ما سمى بهذا الاسم إلا لأنه يتمتع به وينتفع به لفترة من الزمان.

---

(1) سورة آل عمران الآية ٤٧.

وقوله : ﴿حقًّا على المحسنين﴾ تأكيد لهذا التمتيع الذى هو من حق المرأة على الرجل الذى طلقها قبل أن يدخل بها وقيل أن يسمى لها مهرًا.

أى : هذا التمتيع حق ثابت على المحسنين الذين يحسنون إلى أنفسهم بامتثالهم لأوامر الله، وبترضيتهم لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتى تأثرن بسبب هذا الفراق. فالآية الكريمة ترفع الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن، متى كانت المصلحة تستدعى ذلك، وتبين الحقوق التى للمرأة على الرجل فى هذه الحالة.

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء﴾. إلخ هذا أيضًا من أحكام المطلقات، وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهرًا أو لم يفرض. ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءًا من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن»(١).

وقوله : ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ معطوف على ﴿تمسوهن﴾ المنفى، أى لا حرج عليكم فى تطليقكم النساء فى حالة عدم الدخول بهن وعدم تقدير مهر معين لهن.

وقوله : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره﴾ إلخ تشريع حكيم وتوجيه سديد، لأن فراق المرأة قبل الدخول بها وقبل تقدير مهر لها ينشىء جفوة ممضة بين المرأة وبين مطلقها، وقد يسىء هذا الفراق إليها وإلى أسرتها، فكان هذا الحق الذى جعله الله للمرأة على الرجل هو التمتيع، تسرية لنفسها، وتعويضًا عما أصابها بسبب هذا الفراق، وتلطيفًا لجو الطلاق وما يصاحبه من جفاء وبغضاء، واستبقاء للمودة الإنسانية بين الطرفين، وإزالة لما عسى أن يقوله البعض من أنه ما طلقها من طلقها إلا لشىء.

ولا شك أن إنهاء الحياة الزوجية قبل الدخول فيها، لضرورات اقتضاها هذا الإنهاء، أخف وأيسر من إنهائها بعد الدخول فيها.

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿على الموسع قدره﴾ جملة من مبتدأ وخبر وفيها قولان :

أحدهما : أنها لامحل لها من الإعراب بل هى استئنافية بينت حال المطلق بالنسبة إلى يساره وإقتاره.

والثانى : فى محل نصب على الحال وصاحب الحال فاعل متعوهن. والرابط بين جملة الحال

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ١٩٦.

وصاحبها محذوف والتقدير: على الموسع منكم. و﴿متاعًا﴾ منصوب على المصدر. و﴿بالمعروف﴾ جار ومجرور صفة له. و﴿حقًا﴾ صفة ثانية لقوله: ﴿متاعًا﴾ أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله. وعامله محذوف وجوبًا والتقدير: حق ذلك حقًا»[1].

هذا، ويرى بعض العلماء أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل فى حال مفارقتها قبل الدخول بها وقبل تسمية المهر، لأن الآية الكريمة قد أكدت ذلك وجعلته حقًا ثابتًا لا يجوز التحلل منه قال - تعالى -: ﴿متاعًا بالمعروف حقًا على المحسنين﴾.

ويرى بعضهم أنها مستحبة، لأن التعبير بالمحسنين يدل على أن المتعة غير واجبة وقد رجح المحققون من العلماء الرأى الأول وقالوا: إن الإحسان لا ينافى الوجوب الذى دل عليه الأمر يؤيد هذا قوله: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، فقد جعل الله المتعة على الفريقين كل فريق على حسب طاقته وقدرته.

والمتعة تختلف باختلاف الأحوال من يسار وإعسار، يقدرها القاضى على الرجل على حسب حالته كما يقدر النفقة.

والصالحون من الناس هم الذين يبذلون المتعة للمطلقة بسخاء ومودة، ولقد أثر عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أنه متع امرأة طلقها بعشرة آلاف درهم، فلما تسلمت هذا المال الوفير قالت: «متاع قليل من حبيب مفارق».

ثم بين - سبحانه - حق المرأة فيما لو طلقت قبل الدخول بها وبعد تسمية مهر لها فقال - تعالى -: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة، فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾.

أى: وإن طلقتم يا معشر الرجال النساء من قبل أن تدخلوا بهن وتباشروهن، ومن بعد أن قدرتم لهن صداقًا معلومًا، فالواجب عليكم فى هذه الحالة أن تدفعوا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق، إلا أن تتنازل المرأة عن حقها فتتركه لمطلقها بسماحة نفس، بأن تكون هى الراغبة فى الطلاق، أو يتنازل الذى بيده عقدة النكاح وهو الزوج عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملا أو ما هو أكثر من النصف لأنه هو الراغب فى الطلاق. وجملة ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ فى موضع نصب على الحال من فاعل ﴿طلقتموهن﴾ أو من مفعوله. أى وإن طلقتموهن حالة كونكم فارضين لهن المهر أو حالة كونهن مفروضًا لهن المهر.

والفاء فى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ واقعة فى جواب الشرط، والجملة فى محل جزم جواب

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ١٩٣.

الشرط، و« نصف » مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فالواجب نصف، أو هو مبتدأ محذوف الخبر أى فلهن نصف، وقد صرحت الآية الكريمة بوجوب النصف، ولم تصرح بوجوب دفعه، لأنه قد يكون قدم لها المهر كله أو بعضه، فكان التعبير بالوجوب بيانًا للحكم حتى يسترد المطلق ما دفعه زيادة عن النصف إن أراد ذلك، أو يكمل لها النصف إن كان قد دفع أقل منه.

وقوله : ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ استثناء مفرَغ من عمومَ الأحوال. و﴿يعفون﴾ فعل مضارع الواو فيه لام الفعل، ونونه ضمير جماعة الإناث فهو هنا مبنى على السكون فى محل نصب بأن. ووزنه يفعلن أى : فلهن نصف المهر الذى فرضمتوه لهن فى كل حال إلا فى حال عفو المطلقات أى إبرائهن لكم وتنازلهن عن هذا الحق، أو فى حال عفو الذى بيده عقدة النكاح، وهو الزوج المطلق - عند الأحناف والشافعية - لأنه هو المالك لعقد النكاح وحله، والمراد بعفوه أن يزيد على نصف المهر المقرر.

ويرى المالكية أن الذى بيده عقدة النكاح هو ولى المرأة، لأنه هو الذى بيده عقدة النكاح ثابتة، وأما الزوج فله ذلك حالة العقد المتقدم فقط.

وبكون المعنى على هذا الرأى : عليكم يا معشر الرجال أن تدفعوا للنساء نصف المهر إذا طلقتموهن بعد أن قدرتم لهن مهرًا وقبل أن تمسوهن إلا أن يتنازل النساء عن هذا الحق، إذا كن يملكن ذلك، أو يتنازل أولياؤهن إن كن لا يملكن حق التنازل، كأن تكون البنت صغيرة، أو غير جائزة التصرف.

وقد دل كل فريق على مذهبه بما هو مبسوط فى كتب الفقه.

ثم حبب - سبحانه - إلى الناس التسامح والتعاطف فقال : ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾.

أى : من حق المرأة المطلقة على مطلقها أن يدفع لها نصف المهر إذا كان الطلاق قبل المباشرة وبعد تحديد المهر، وإذا تنازل أحد الطرفين عن جزء من حقه لصاحبه كان هذا التنازل حسنًا. لأن هذا التنازل والتسامح يضفى على جو الطلاق لونًا من المودة والتقارب بين النفوس التى آلمها الفراق بتلك الصورة، فاحرصوا - أيها الناس - على هذا العفو بأن يتنازل كل فريق منكم لصاحبه عن شىء من حقه، ويتسامح معه، فإن ذلك أقرب إلى تقوى القلوب، وصفاء النفوس، ولا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض بالإحسان، وحب الخير، وجميل الذكر، فالله - تعالى - بصير بأعمالكم وسيحاسبكم عليها، وسيجازى كل نفس بما عملت.

فالجملة الكريمة توجيه حكيم للناس إلى ما يدفع عنهم التشاحن والتباغض والتخاصم

خصوصًا فى حالات الطلاق التى هى من أشد الأحوال دفعًا إلى هذه الرذائل.

ولقد حفظ لنا التاريخ الإسلامى صورًا مشرقة لهذا العفو والفضل من ذلك ما ذكره الإمام الزمخشرى من أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبى وقاص فعرض عليه بنتًا له فتزوجها. ثم طلقها قبل أن يدخل بها وبعث لها المهر كاملا. فقال له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها على فكرهت رده. فقيل له: فلم بعثت بالصداق كاملا؟ قال: فأين الفضل.

وروى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأعطاها الصداق كاملا، فقيل له فى ذلك فقال: أنا أحق بالعفو منها(١).

وهكذا نرى مبلغ استجابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياه، فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا والأحكام؟

وبعد هذا الحديث المستفيض الذى لم ينته بعد عن الطلاق وأحكامه وآدابه، أورد القرآن آيتين كريمتين تأمران بالمحافظة على الصلاة وبالمداومة على طاعة الله، وبالملازمة لذكره - عز وجل - فقال - تعالى - :

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

ولعل السر فى توسط هاتين الآيتين بين آيات الأحكام التى تحدثت عن الطلاق، والعدة والرضاع والخطبة... إلخ، لعل السر فى ذلك أن هذه الأمور كثيرًا ما تكون مثار تنازع وتخاصم وتقاطع بين الناس، فأراد القرآن بطريقته الحكيمة، وبأسلوبه المؤثر أن يقول للناس: إن محافظتكم على الصلاة، ومداومتكم على طاعة الله وذكره كل ذلك سيعرض فى نفوسكم المراقبة له - سبحانه -، والخشية من عقابه، وسيعينكم على أن تحلوا قضاياكم التى تتعلق بالطلاق وغيره بالعدل والإحسان والتسامح والتعاطف، لأن من حافظ على فرائض الله وأوامره، انصرفت نفسه عن ظلم الناس، وعاملهم معاملة كريمة حسنة. وقد بين القرآن فى كثير من آياته أن المحافظة على الصلاة بخشوع وخضوع لله - تعالى - وأن المداومة على ذكره،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٨٦ بتصرف يسير.

والملازمة لطاعته كل ذلك من شأنه أن يمنع الإنسان من الوقوع فيما نهى الله عنه، قال - تعالى - : ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾..

وقال - تعالى - : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، وقال - تعالى - : ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

فكأن الله - تعالى - يقول للناس : لقد أمرتكم بالمحافظة على الصلاة، وبالمداومة على طاعتى وذكرى خلال حديثى عن أحكام كثيرًا ما تكون هذه الأحكام مثار تنازع بينكم، وذلك لكى تحلوا التسامح والتواصل والتقارب محل التشاحن والتدابر والتجافى، لأن من شأن المحافظة على هذه العبادات، أن تهدى الناس إلى أكمل الأخلاق والصفات.

فسبحان من هذا كلامه، ومن تلك إرشاداته وتوجيهاته ووصاياه.

وقوله - تعالى - : ﴿حافظوا﴾ من الحفظ بمعنى ضبط الشىء، وصيانته عن كل تضييع، وهو خلاف النسيان. والخطاب لجميع المكلفين من أفراد الأمة.

والمعنى : حافظوا يا معشر المسلمين والمسلمات على أداء الصلوات فى أوقاتها بخشوع وخضوع وإخلاص لله رب العالمين، وحافظوا بصفة خاصة على الصلاة الوسطى، لما لها من منزلة سامية، ومكانة عالية.

فقد أمر الله - تعالى - عباده بالمحافظة على الصلوات بصفة عامة، وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر تفخيمًا لشأنها، وإعلاء لقدرها من بين أفراد جنسها. والمسلم يكون محافظًا على الصلاة إذا أداها فى وقتها مستوفية لآدابها وسننها وشرائعها وخشوعها وكل ما يتعلق بها، أما إذا قصر فى شىء من ذلك فإنه لا يكون محافظًا عليها تلك المحافظة التامة التى أمر الله بها.

وفى قوله - تعالى - : ﴿حافظوا﴾ تنبيه إلى أن الصلاة فى ذاتها شىء نفيس ثمين تجب المحافظة عليه، لأن هذه الكلمة تدل على الصيانة والضبط بجانب دلالتها على الأداء والإقامة والمداومة.

قال الإمام الرازى : وقوله : ﴿حافظوا﴾ بصيغة المفاعلة التى تكون بين اثنين. للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب. فكأنه قيل : احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذى أمرك بها. وهذا كقوله : « فاذكرونى أذكركم » وفى الحديث « احفظ الله يحفظك ». أو أن تكون المحافظة بين المصلى والصلاة. فكأنه قيل : احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة بمعنى أنها

تحفظك من ارتكاب المعاصى، وتشفع لمصليها يوم القيامة»[(١)].

وللعلماء أقوال فى المراد بالصلاة الوسطى التى أفردها الله - تعالى - من بين الصلوات.

فجمهور العلماء يرون أنها واحدة من بين الصلوات الخمس المفروضة، وأن الوسطى مؤنث الأوسط أى الشىء المتوسط بين شيئين، فالصلاة الوسطى هى الصلاة المتوسطة بين صلاتين، إلا أنهم اختلفوا فى تعيينها.

فأكثر العلماء على أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر، لأنها تقع فى وسط الصلوات الخمس، إذ قبلها اثنتان وبعدها اثنتان، ولأنها وسط بين صلاتى النهار، وصلاتى الليل، فمعنى التوسط فيها واضح، ولأنها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الظهيرة الذى يكون فى الغالب وقت كسل.

وفضلا عن ذلك فقد صرحت بعض الأحاديث بأنها صلاة العصر، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من هذه الأحاديث ومنها ما جاء فى صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا، ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء، وفى مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

وقد خصت صلاة العصر بمزيد من التأكيد، وبالأمر بالمحافظة عليها، وبالتحذير من التقصير فيها، مما يشهد بأنها هى الصلاة الوسطى، فقد روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أى: سلب من أهله وماله فبقى وحيدًا بدونهما.

وقال بعضهم المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح، وقيل صلاة الظهر، وقيل صلاة المغرب، وقيل العشاء، وقيل الجمعة، وقيل غير ذلك من الأقوال التى لا تبلغ فى قوتها مبلغ قول القائلين بأنها صلاة العصر، ولذا قال ابن كثير وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها، ومعترك النزاع فى الصبح والعصر، وقد أثبتت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها - أى إلى أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر[(٢)].

ومن العلماء من اتجه فى بيان المراد من الصلاة الوسطى اتجاهًا آخر فهو يرى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها، وأن الوسطى ليست بمعنى المتوسطة بين صلاتين، وإنما هى بمعنى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص١٥٧. بتلخيص.
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٩١ وما بعدها.

الفضلى لأن وسط الشيء خياره وأعدله وأفضله فالمقصود بها فعلها أو أداؤها بطريقة سليمة كاملة. والمعنى على هذا الرأى: حافظوا يا معشر المسلمين على الصلوات كلها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها بطريقة وسطى أى فاضلة بأن تأدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع.

قال ابن كثير: وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وفى صحته نظر. والعجب أن هذا القول قد اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر، إذ اختار مع اطلاعه وحفظه ما لم يقمْ عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر».

ومن العلماء المحدثين الذين استحسنوا هذا الرأى الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فقد قال: «ولولا أنهم اتفقوا على أنها - أى الصلاة الوسطى - إحدى الخمس لكان يتبادر إلى فهمى من قوله: «الصلاة الوسطى» أن المراد بالصلاة الفعل وبالوسطى الفضلى أى: حافظوا على أنواع الصلاة وهى الصلاة التى يحضر فيها القلب وتتوجه بها النفس إلى الله - تعالى - وتخشع لذكره، وتدبر كلامه لا صلاة المرائين ولا الغافلين»[1].

والذى نراه أن ما عليه الجمهور من أن الصلاة الوسطى هى واحدة من بين الصلوات الخمس، وأنها صلاة العصر هو أقوى الآراء، لأنه - أولا - يتفق مع أصحاب الاتجاه الثانى الذين يقولون بأن أداء الصلاة يجب أن يكون بطريقة تامة الأركان والسنن والخشوع وما قال أحد منهم بأن تحديدها بصلاة العصر ينفى أداء بقية الفرائض بكمال واطمئنان. ولأنه - ثانيًا - قد امتاز عن رأى أصحاب الاتجاه الثانى بأنه أعمل النص الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ بأن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر، ولا شك أن إعمال النص أولى من إهماله أو من تأويله تأويلا ضعيفًا.

وقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ مؤكدا لما قبله من المحافظة والمداومة على أداء الصلاة.

والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع. أى قوموا فى الصلاة مطيعين لله - تعالى - مؤيدين لها على وجهها الكامل فى خشوع وخضوع واطمئنان.

والفاء فى قوله: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا﴾ للتفريع أى: حافظوا على الصلاة فى كل وقت، وأدوها بخشوع واطمئنان، فإن كان بكم خوف من عدو فى حال المقاتلة فى الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب، فصلوا راجلين أى ماشين على الأقدام، أو راكبين على ركائبكم بإيماء، سواء وليتم وجوهكم شطر القبلة أولا.

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٤٣٨.

و (رجالا) جمع راجل. وهو القوى على المشىَ برجليه. يقال: رَجل الإنسان يرجل رجلا إذا لم يجد ما يركبه ومشى على قدميه، والركبان جمع راكب للجمل أو الفرس أو غيرهما.

وجواب الشرط محذوف والتقدير: فإن خفتم فصلوا راجلين أو راكبين، وهذان اللفظان أى - رجالا أو ركبانًا - حالان من الضمير فى «فصلوا» المحذوف.

والآية الكريمة تدل على شدة عناية الإسلام بشأن الصلاة، فقد أمر الله - تعالى - عباده بأن يحافظوا عليها فى حالتى الأمن والخوف، والصحة والمرض، والسفر والإقامة..

وقد بسط هذا المعنى الأستاذ الإمام محمد عبده فقال ما ملخصه: وقوله - تعالى -: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا﴾ هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لا تسقط بحال، لأن حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر فى الترك كما يكون السفر عذرًا فى ترك الصيام.. والسبب فى عدم سقوط الصلاة عن المكلف بحال أنها عمل قلبى، وإنما فرضت تلك الأعمال الظاهرة لأنها مساعدة على العمل القلبى المقصود بالذات، وهو تذكر سلطان الله - تعالى - المستولى علينا وعلى العالم كله، ومن شأن الإنسان إذا أراد عملا قلبيًا يجتمع فيه الذكر أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل.

ولا ريب أن هذه الهيأة التى اختارها الله - تعالى - للصلاة هى أفضل معين على استحضار سلطانه فإن قولك «الله أكبر» فى فاتحة الصلاة وعند الانتقال فيها من عمل إلى عمل يعطيك من الشعور بكون الله أكبر وأعظم من كل شىء ما يغمر روحك، ويستولى على إرادتك.. وكذلك الشأن فى سائر أعمال الصلاة.

فإذا تعذر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنية؛ فإن ذلك لا يسقط عنكِ هذه العبادة القلبية التى هى روح الصلاة وغيرها، وهى الإقبال على الله - تعالى - واستحضار سلطانه، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر الإمكان الذى لا يمنع من مدافعة الخوف الطارىء من سبع مفترس، أو عدو مغتال، أو لص محتال.. فالآية تعلمنا أنه يجب أن لا يذهلنا عن الله شىء فى حال من الأحوال..»(١).

وقال الإمام ابن العربى: قوله - تعالى -: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانًا﴾ أمر الله - تعالى - بالمحافظة على الصلاة فى كل حال من صحة ومرض، وحضر وسفر، وقدرة وعجز، وخوف وأمن، لا تسقط عن المكلف بحال، ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال. وقد قال ﷺ: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب».

---

(١) تفسير المنار جـ٢ صفحة ٤٤٣.

والمقصود من ذلك أن تفعل الصلاة كيفما أمكن، لا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين للزم فعلها كذلك إذا لم يقدر على حركة سائر الجوارح، وبهذا المعنى تميزت عن سائر العبادات، فإن العبادات كلها تسقط بالأعذار، ولذلك قال علماؤنا: إن تارك الصلاة يقتل، لأنها أشبهت الإيمان الذى لا يسقط بحال، ولا تجوز النيابة فيها ببدن ولا مال»(١).

ثم قال - تعالى - : ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ أى فإذا زال خوفكم وصرتم آمنين مطمئنين، «فاذكروا الله» أى فأدوا الصلاة تامة كاملة مثل ما علمكم إياها ربكم على لسان نبيكم ﷺ وقد من الله - تعالى - عليكم بهذا التعليم الذى كنتم تجهلونه فضلا منه وكرمًا.

وعبر - سبحانه - «بإن» المفيدة للشك فى حالة الخوف، وبإذا المفيدة للتحقيق فى حالة الأمن، للإشعار بأن حالة الأمن هى الحالة الكثيرة الثابتة، وأن حالة الخوف هى الحالة القليلة الطارئة، وفى ذلك فضل جزيل من الله - تعالى - على عباده يحملهم على شكره وطاعته، حيث وهبهم الأمان والاطمئنان فى أغلب أوقات حياتهم.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد أمرتا المسلم بأن يحافظ على الصلاة محافظة تامة، إذ فى هذه المحافظة سعادة للإنسان، ودافع له على أداء الحقوق لأربابها، وزاجر له عن اقتراف ما نهى الله عنه.

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن أحكام الزواج وما يتعلق به من طلاق ووصية وعدة وغير ذلك من أحكام بقوله - تعالى - :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

(١) أحكام القرآن لابن العربى جـ١ صفحة ٢٢٧.

والآية الأولى من هذه الآيات تبين بعض الحقوق التى شرعها الله - تعالى - للمرأة التى توفى عنها زوجها.

والمعنى : لقد شرع الله لكم فيما شرع من أحكام، أن على المسلم قبل أن يحضره الموت أن يوصى لزوجته التى على قيد الحياة بما تنتفع به انتفاعًا مستمرًا لمدة حول من وفاته، ولا يصح أن يخرجها أحد من مسكن الزوجية.

وقوله : ﴿وصية﴾ فيه قراءتان مشهورتان.

القراءة الأولى بالنصب، والتقدير : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا فليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية لأزواجهم.

والقراءة الثانية بالرفع والتقدير: فعليهم وصية لأزواجهم.

وعلى قراءة النصب تكون كلمة ﴿وصية﴾ مفعولاً مطلقًا أو مفعولا به، وعلى قراء الرفع تكون مبتدأ محذوف الخبر. وقوله : ﴿لأزواجهم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ﴿وصية﴾ على القراءتين. أى : وصية كائنة لأزواجهم.

والمراد بقوله : ﴿متاعًا﴾ ما تتمتع به الزوجة من السكن والنفقة بعد وفاة زوجها بوصية منه. وهو منصوب على المصدر أى متعوهن متاعًا أو على المفعولية. أى جعل الله لهن ذلك متاعًا.

وقال - سبحانه - : ﴿متاعًا إلى الحول﴾ للتنصيص على أن هذه المدة تمتد حولا كاملا منذ وفاة زوجها، إذ كلمة حول تدل على التحول أى حتى تعود الأيام التى حدثت فيها الوفاة. وقوله : « غير إخراج » حال من أزواجهم أى غير مخرجات من مسكن الزوجية، فلا يصح لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكن الزوجية بغير رضاهن، لأن بقاءهن فى مسكن الزوجية حق شرعه الله لهن، فلا يجوز لأحد أن يسلبه منهن بغير رضاهن.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾.

أى : ﴿فإن خرجن﴾ من منزل الزوجية برضاهن ورغبتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أى فلا إثم عليكم أيها المسلمون ﴿فيما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾ أى فيما فعلن فى أنفسهن من أمور لا ينكرها الشرع كالتزين والتطيب والتزوج بعد انتهاء عدتها وهى أربعة أشهر وعشرة أيام.

هذا، وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهان مشهوران :

أما الاتجاه الأول : فيرى أصحابه أن هذه الآية منسوخة لأنها توجب على الزوج حين مشارفة الموت أن يوصى لزوجته بالنفقة والسكنى حولا، ويجب عليها الاعتداد حولا، وهى مخيرة بين السكنى فى بيته حولا ولها النفقة، وبين أن تخرج منه ولا نفقة لها، ولم يكن لها ميراث من زوجها

قالوا: وكان هذا الحكم فى ابتداء الإسلام. وقد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى بآية المواريث وبحديث «ألا لا وصية لوارث» حيث جعل لها الربع أو الثمن عوضًا عن النفقة والسكنى ونسخ وجوب العدة حولا بقوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ الآية.

قالوا: ومما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: نسخت بآية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن «ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشرًا»[1].

وقد حكى هذا الرأى صاحب الكشاف فقال: والمعنى: أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا، أى: ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن. وكان ذلك فى أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أربعة أشهر وعشرًا﴾ وقيل نسخ مازاد منه على هذا المقدار. ونسخت النفقة بالإرث الذى هو الربع والثمن.

واختلف فى السكنى فعند أبى حنيفة لا سكنى. ثم قال: فإن قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية متقدمة فى التلاوة وهى متأخرة فى التنزيل. كقوله - تعالى -: ﴿سيقول السفهاء﴾ مع قوله ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾[2].

وعلى هذا الاتجاه سار جمهور المفسرين.

أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة وممن ذهب إلى هذا الاتجاه مجاهد، فقد قال ما ملخصه: دلت الآية الأولى وهى ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها. ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول، وأن ذلك من باب الوصية للزوجات أن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا ولا يمنعن من ذلك لقوله: ﴿غير إخراج﴾ فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله: ﴿فإن خرجن﴾.

ومن المفسرين الذين أيدوا هذا الاتجاه الإمام ابن كثير فقد قال - بعد أن ساق قول مجاهد -

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الطلاق باب نسخ متاع المتوفى عنها زوجها بما فرض لها من الميراث.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٨٩.

وهذا القول له اتجاه وفى اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية(١).

كما أيده أيضًا الإمام الفخر الرازى فى تفسيره، فقد قال بعد أن ساق بعض الأدلة التى تثبت ضعف قول من قال بالنسخ: «فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل»(٢).

والخلاصة أن أصحاب هذا الاتجاه الثانى لا يرون معارضة بين هذه الآية وبين آية ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾ لأن الآية التى معنا لا تتحدث عن عدة المتوفى عنها زوجها وإنما تتحدث عن حقها فى البقاء فى منزل الزوجية بعد وفاة زوجها، وأن هذا الحق ثابت لها فإن شاءت بقيت فيه، وإن شاءت خرجت منه على حسب ما نراه مصلحة لها، ولأنها لا يوجد فى ألفاظها أو معانيها ما يلزم المرأة بالتربص والامتناع عن الأزواج مدة معينة.

أما الآية الثانية فنراها واضحة فى الأمر بالتربص أربعة أشهر وعشرًا، وهى العدة التى يجب أن تمتنع فيها المرأة التى مات عنها زوجها عن التزين والتعرض للزواج. إذن فلا تعارض بين الآيتين ومتى انتفى التعارض انتفى النسخ.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى: عزيز فى انتقامه ممن تعدى حدوده، إذ هو القاهر فوق عباده، حكيم فيما شرع لهم من آداب وأحكام فينبغى أن يمتثل الناس أوامره ويجتنبوا ما نهاهم عنه.

ثم بين - سبحانه - حق المطلقات فقال: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقًّا على المتقين﴾ أى وللمطلقات على أزواجهن الذين طلقوهن متاع بالمعروف أى شىء ينتفع به انتفاعًا ممتدًا لمدة من الوقت مما تعارف العقلاء عليه وعلى فائدته للمرأة، وهذا المتاع جعله الله حقا على المتقين الذين يصونون أنفسهم عن كل ما يبغضه الله - تعالى -.

وقد جعل الله هذا الحق للمطلقة على مطلقها جبرًا لوحشة الفراق وإزالة لما قد يكون بين الزوجين من شقاق، وتخفيفًا لما قد يحيط بجو الطلاق من تنافر وتخاصم وعدم وفاق.

قال ابن كثير: وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة، أو مفروضًا لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولا بها. وإليه ذهب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٩٧ بتصرف يسير.
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ١٦٨.

سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير، وهو قول عن الشافعى[١].

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامرأته التى طلقها زيادة عن الحقوق المقررة لها شرعا ليكون التسريح بإحسان.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالمتاع هنا النفقة التى تكون للمطلقة فى العدة قال الفخر الرازى: واعلم أن المراد بالمتاع ههنا فيه قولان:

أنه هو المتعة فظاهر هذه الآية يقتضى وجوب هذه المتعة لكل المطلقات..

والقول الثانى أن المراد بهذه المتعة النفقة، والنفقة قد تسمى متاعا، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى»[٢].

ويظهر أن مراد الفخر الرازى بقوله: «اندفع التكرار» أى ما بين هذه الآية والآية التى سبقت وهى قوله - تعالى -: ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾ ولك أن تقول: إنه لا تكرار مع إرادة المتعة التى ليست هى النفقة لأنه فى السابقة بين أنها حق للمرأة حين تطلق ولم يكن قد قدر لها مهر معين، وهنا ذكرت عقب آية الوفاة لدفع ما يتوهم من أن المتوفى عنها زوجها لها حق فى المتعة إذا لم يوص لها زوجها بالنفقة.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

أى: مثل هذا البيان الحكيم الواضح الذى بين الله لكم به الأحكام السابقة، يبين لكم جميع آياته وأحكامه التى أنتم فى حاجة إليها لكى تفهموا ما فيها وتعقلوه وتعملوا به فتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد بينت لنا فى أكثر من عشرين آية بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها بأسلوب مؤثر حكيم وبطريقة تهدى إلى أفضل الأخلاق، وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات، وإن المتأمل فى هذه الآيات وما اشتملت عليه من توجيهات سامية ليوقن بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله، الذى شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الأسرة وما يتعلق بها من زواج وطلاق وغير ذلك، ساق القرآن من القصص ما من شأنه أن يدعو إلى التذكر والاعتبار ويحرض على الجهاد فى سبيل الله،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٩٧.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ١٧٢.

ويحمل المتأملين فى توجيهاته على إقامة الأسرة على أقوى الدعائم، وأفضل المبادىء التى بها تنال الأمم عزتها وكرامتها وسعادتها. فقال - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ألم تر﴾ هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتى - كالأحبار وأهل التواريخ - وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه، وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب، بأن شبه من «لم ير» الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه وأنه ينبغى أن يتعجب منه، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى، قصدًا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب. ثم قال : والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازًا عن النظر، وفائدة التجوز الحث على الاعتبار، لأن النظر اختيارى دون الادراك الذى بعده. وإما بمعنى الإدراك القلبى متضمنًا معنى الوصول والانتهاء ولهذا تعدت - أى الرؤية - بإلى فى قوله : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا . .﴾[1].

والمعنى : قد علمت أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل - حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم التى ألفوها واستوطنوها، وهم ألوف مؤلفة، وكثرة كاثرة، وما كان خروجهم إلا فرارا وخوفًا من الموت الذى سيلاقيهم - إن عاجلا أو آجلا - .

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٦٠.

ومن لم يعلم حالهم فها نحن أولاء نعلمه بها ونحيطه بما جرى لهم عن طريق هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والمقصود من هذه الآية الكريمة حض الناس جميعًا على الاعتبار والاتعاظ وزجرهم عن الفرار من الموت هلعًا وجبنًا، وتحريضهم على القتال فى سبيل الله فقد قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله . .﴾ وإفهامهم أن الفرار من الموت لن يؤدى إلا إلى الوقوع فيه.

وقوله : ﴿وهم ألوف﴾ جملة حالية من الضمير فى ﴿خرجوا﴾ و﴿ألوف﴾ جمع ألف. والتعبير بألوف يفيد أنهم كانوا كثيرى العدد، ومن شأن الكثرة أنها تدعو إلى الشجاعة ولكنهم مع هذه الكثرة قد استولى عليهم الجبن فخرجوا من ديارهم هربًا من الموت.

وقيل إن معنى ﴿وهم ألوف﴾ أنهم خرجوا مؤتلفى القلوب، ولم يخرجوا عن افتراق كان منهم، ولا عن تباغض حدث بينهم. وألوف على هذا القول جمع آلف مثل قاعد وقعود وشهود. قالوا : والوجه الأول أجدر بالاتباع لأن ورود الموت عليهم وهم كثرة عظيمه يفيد مزيد اعتبار بحالهم، ولأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة.

وقوله : ﴿حذر الموت﴾ أى خرجوا لحذر الموت وخشيته، فقوله : ﴿حذر﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله. والجملة الكريمة تشير إلى أن خروجهم كان الباعث عليه الحرص على مطلق حياة ولو كانت حياة ذل ومهانة، وأنه لم يكن هناك سبب معقول يحملهم على هذا الخروج، ولذا كانت نتيجة ذلك أن عاقبهم الله - تعالى - بالموت الذى هربوا منه فقال :

﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أى : فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم بعد ذلك. فجملة ﴿ثم أحياهم﴾ معطوفة على مقدر يستدعيه المقام أى، فماتوا ثم أحياهم. وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده - تعالى - عن إرادته.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلت : معناه فأماتهم وإنما جىء به على هذه الصورة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشىء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف كقوله - تعالى - : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾ وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون فى سبيل الله »[1].

وقال الجمل : « فإن قلت هذا يقتضى أن هؤلاء ماتوا مرتين وهو مناف للمعروف من أن

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٩٠.

موت الخلق مرة واحدة؟ قلنا فى الجواب: لا منافاة إذ الموت هنا عقوبة مع بقاء الأجل كما فى قوله فى قصة موسى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ وثم موت بانتهاء الأجل، وتلخيصه: أنه - سبحانه - أماتهم قبل آجالهم عقوبة لهم ثم بعثهم إلى بقية آجالهم، وميتة العقوبة بعدها حياة - أى فى الدنيا - بخلاف ميتة الأجل - فلا حياة بعدها فى الدنيا -..»[١].

وبعد هذا البيان لمعنى الآية قد يقال: من هم أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت؟ وهل الإماتة والإحياء بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة؟

للإجابة على السؤال الأول نقول: لم يرد حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يبين لنا فيه من هؤلاء القوم وفى أى زمن كانوا، وإنما أورد بعض المفسرين عن بعض الصحابة والتابعين روايات فيها مقال، وفيها تفصيلات نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها. ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون، حتى إذا كانوا بموضع كذا أو كذا ماتوا.. ثم أحياهم الله بدعوة دعاها نبيهم[٢].

ومنها أنهم - قوم من بنى إسرائيل - فروا من الجهاد حين أمرهم الله به على لسان نبيهم «حزقيل» وخافوا من الموت فى الجهاد فخرجوا من ديارهم فأماتهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد..».

قال القرطبى بعد أن ساق هذه الرواية: وقال ابن عطية: وهذا القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله - تعالى - أخبر نبيه محمدًا ﷺ إخبارًا فى عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ليروا هم وكل من جاء من بعدهم أن الإماتة إنما هى بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر. وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدى أمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد. وهذا قول الطبرى وهو ظاهر وصف الآية»[٣] والذى نراه أن الرواية الثانية التى تقول: إنهم قوم من بنى إسرائيل فروا من الجهاد حين أمرهم الله به.. معقولة المعنى، ويؤيدها سياق الآيات، لأن الآيات تحض الناس على القتال فى سبيل الله، وتسوق لهم قصة هؤلاء القوم لكى يعتبروا ويتعظوا ولا يتخلفوا عن الجهاد الذى هو باب من أبواب الجنة - كما قال الإمام على بن أبى طالب - ولأن قوله - تعالى - : ﴿وهم ألوف﴾ يشعر بأنهم مع كثرة عددهم قد نكصوا على أعقابهم، وفروا من وجوه أعدائهم وهذا شأن بنى إسرائيل فى كثير من أدوار تاريخهم وما قاله ابن عطية يشير إليها فهو

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ١٩٧. بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٩٨ بتلخيص.
(٣) تفسير القرطبى جـ٢ صفحة ٢٣٩.

يقول: وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدى أمر المؤمنين. . . بالجهاد. إلا أنه آثر وصفهم بأنهم قوم من البشر.

وللإجابة على السؤال الثانى وهو - هل الإماتة والإحياء بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة - نقول: مبلغ علمنا أن المفسرين السابقين مجمعون على أن الموت كان موتًا حقيقيًا حسيًا لهم، وأن إعادتهم إلى الحياة بعد ذلك كانت إعادة حقيقية حسية.

وقد خالف الأستاذ الإمام محمد عبده إجماع المفسرين هذا فرأى أن المراد بالموت فى الآية الموت المعنوى بمعنى أن موت الأمم إنما هو فى جبنها وذلتها وأن حياتها إنما تكون فى عزتها وحريتها، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه.

« . . والمتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفًا أى كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء، فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقى من الموت وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء من رقاب أهله، قال أبو الطيب:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

ثم قال: لقد خرجوا فارين ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ أى أماتهم بإمكان العدو منهم. . . فمعنى أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقى من أفرادها بقى خاضعًا للغالبين ضائعًا فيهم، لا وجود له فى نفسه، وإنما وجوده تابع لوجود غيره.

ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، ذلك أن من رحمة الله فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديبًا لهم، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف والجبن والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم، فاعتزوا وكثروا حتى خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها»(١).

فأنت ترى أن الأستاذ الإمام يرى أن الموت والحياة فى الآية معنويان، بمعنى أن موت الأمم فى جبنها وذلتها، وحياتها فى استقلالها وحريتها.

ولعله - رحمه الله - قد اتجه هذا الاتجاه لأن الحض على القتال فى سبيل الله واضح فى هذه الآيات، ولأنه يرى أن واقع العالم الإسلامى يومئذ وما أصابه من ظلم واستبداد واستلاب

---

(١) راجع تفسير المنار جـ٢ ص ٤٥٧ وما بعدها.

للحرية يدعوه إلى أن يحرض المسلمين على القتال فى سبيل حقهم المسلوب، وأن يحذرهم من سوء عاقبة الجبن والخنوع.

ومع أننا لا نشك فى الدوافع الطيبة والبواعث الكريمة التى جعلت الأستاذ الإمام يتجه هذا الاتجاه، إلا أننا لا نتردد فى اختيار ما ذهب إليه المفسرون من أن الموت والحياة فى الآية حسيان حقيقيان، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه يتجه اتجاهًا أعم من اتجاه الإمام محمد عبده، لأن المفسرين يرون أن الآية واضحة فى إثبات قدرة الله وفى صحة البعث، وفى الحض على القتال فى سبيل الله.

قال بعض العلماء: قوله - تعالى -: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾ الآية. كان المشركون يستفتون اليهود فى كثير من الأمور وكانت هذه القصة معلومة لليهود فى أسفارهم وتواريخهم، فنزل القرآن بالإشارة إليها ليرتدع المشركون عما هم فيه من الضلال وإنكار البعث، ويعلموا أن دلائل القدرة على البعث مشهورة، وأن عند اليهود منها ما لو رجعوا إليهم فيه لعلموا أنه حق لا ريب فيه. وفى ذكر هذه القصة مع ذلك تشجيع للمؤمنين على الجهاد والتعرض للشهادة، وتمهيد لما بعد هذه الآية»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أى: إن الله - تعالى - لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجدهم بهذه الصورة الحسنة، وخلق لهم عقولا ليهتدوا بها إلى طريق الخير، وسخر لهم الكثير مما فى هذا الكون. فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه، ولكن الذى حدث منهم أن أكثرهم لا يشكرون الله - تعالى - على ما منحهم من نعم.

وفى قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ إنصاف للقلة الشاكرة منهم، ومديح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم.

ثم أمر الله - تعالى - عباده بالجهاد فى سبيله فقال: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾.

والسبيل: الطريق. وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله لأن الإنسان يسلكها فيصل إلى ما يرضى الله، ويعلى كلمته. ويعز دينه.

أى، قاتلوا أيها المسلمون فى سبيل إعلاء كلمة الله، والدفاع عن دينه، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل أقوالكم صالحها وطالحها، عليم بكل ما يدور فى نفوسكم وخواطركم،

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٨٠ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته.

فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين على القتال من أجل إظهار الدين الحق، وتحذير لهم من القعود عنه، وحث لهم على صدق النية وإخلاص العمل لله، فقد سئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[١].

ثم أمر الله - تعالى - عباده بأن ينفقوا أموالهم فى الأعمال الصالحة التى من أعظمها الجهاد فى سبيله فقال - تعالى - : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾.

قال القرطبى: «القرض: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء. وأقرض فلان فلانا أى أعطاه ما يتجازاه. واستقرضت من فلان أى طلبت منه القرض فأقرضنى. واقترضت منه أى أخذت القرض. وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض. وأقرضته أى قطعت له من مالى قطعة يجازى عليها... ثم قال: والتعبير بالقرض فى هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغنى الحميد، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء..»[٢].

والمعنى: من هذا المؤمن القوى الإيمان الذى يقدم ماله فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفى غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين، وسد حاجة البائسين، ومساعدة الأمة الإسلامية بما يفيدها ويعلى من شأنها، ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ أى: فيرد الله - تعالى - إلى هذا الباذل المعطى المقرض بدل ما أعطى وبذل وأقرض أمثالا كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله أكرم الأكرمين. إذ المضاعفة معناها إعطاء الشخص أضعاف أى أمثال ما أعطى وبذل.

والاستفهام فى قوله: ﴿من ذا الذى يقرض الله..﴾ للحض على البذل والعطاء، وللتهييج على الاتصاف بالصفات الكريمة، حتى لكأن المستفهم لا يدرى من هو الأهل لهذه الصفات ويريد أن يعرف من هو أهل لها.

و﴿من﴾ اسم استفهام مبتدأ، و﴿ذا﴾ اسم إشارة خبره، والذى وصلته صفة لاسم الإشارة أو بدل منه.

وقوله: ﴿قرضا حسنا﴾ حث للناس على إخلاص النية، وتحرى الحلال فيما ينفقون، لأن الإنسان إذا تصدق بمال حرام، أو قصد بنفقته الرياء أو المباهاة لا يكون عمله متقبلا عند الله،

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٣٩.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٣٩.

وإنما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمن قصد به وجهه، وكان المتصدق به مالا حلالا خالصا من الشبهات. فالله - تعالى - طيب لا يقبل إلا ما كان طيبا.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾.

القبض: ضد البسط. يقال: قبضه بيده يقبضه أى تناوله. وقبض عليه بيده أى أمسكه. ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أى يمتنعون عن الإنفاق.

والبسط معناه المد والتوسعة. يقال بسط يده أى: مدها. وبسط المكان القوم. وسعهم.

والمعنى: والله - تعالى - بيده الإعطاء والمنع فهو يسلب تارة ويعطى أخرى، أو يسلب قوما ويعطى آخرين، أو يضيق على بعض ويوسع على بعض حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة والمصلحة، وما دام الأمر كذلك فلا تبخلوا بما وسع عليكم كيلا تتبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر، ومن السعة إلى الضيق. وأنتم جميعا سترجعون إليه وحده، وسيجازى - سبحانه - الأسخياء بما يستحقون من كريم الثواب والبخلاء بما هم أهله من شديد العقاب.

فأنت ترى أن فى هذه الآية الكريمة ألوان من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير ومن ذلك التعبير بالاستفهام، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة.

ومن ذلك - أيضًا - التعبير بقوله: ﴿من ذا الذى..﴾ فقد جمع هذا التعبير بين اسم الإشارة والاسم الموصولٌ فى الاستفهام، ولا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان المخاطب لعظم قدره من شأنه أن يشار إليه وأن يتحدث عنه ومن ذلك تسميته ما يبذل الباذل قرضا، ولمن هذا القرض إنه لله الذى بيده خزائن السموات والأرض والذى سيرد للباذل أضعاف ما بذل، فكأنه - سبحانه - يقول لنا: إن ما تدفعونه لن يضيع عليكم بل هو قرض منكم لى، وسأرده لكم بأضعاف ما دفعتم وأعطيتم. ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ووصفها بالكثرة فى قوله: ﴿فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ أى لا يعلم مقدارها إلا الله.

ومن ذلك التعبير بقوله ﴿والله يقبض ويبسط﴾ لأنه مادام العطاء والمنع من الله فلماذا يبخل البخلاء ويقتر المقترون؟ إن على الغنى أن يستشعر نعمة الله عليه وأن يتحدث بها بدون رياء وأن ينفق منها فى وجوه الخير حتى يزيده الله من فضله، وإلا ففى قدرة الله أن يسلبها منه، ويحاسبه على بخله حسابا عسيرًا.

هذه بعض وجوه المبالغة التى اشتملت عليها الآية لحض الناس على الإنفاق فى الجهاد وفى

وجوه الخير، ولقد استجاب السلف الصالح لهذه التوجيهات، وحكى لنا التاريخ أمثلة كريمة من سخائهم وبذلهم.

ومن خير الأمثلة على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ قال أبو الدحداح: يارسول الله أو إن الله - تعالى - يريد منا القرض؟ «قال نعم يا أبا الدحداح» قال أرنى يدك. فناوله النبى ﷺ يده. فقال أبو الدحداح: فإنى أقرضت الله - تعالى - حائطا فيه ستمائة نخلة. ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك قال: أخرجى قد أقرضت ربى حائطًا فيه ستمائة نخلة»(١).

وفى رواية لزيد بن اسلم أن أبا الدحداح قال للنبى ﷺ إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله - تعالى - فقال رسول الله ﷺ «اجعل إحداهما والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك» قال: فأشهدك يارسول أنى قد جعلت خيرهما لله وهو حائط فيه ستمائة نخلة. قال: «إذا يجزيك الله به الجنة، ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته وهى مع صبيانها فى الحديثة تدور تحت النخل فأخبرها بما فعل. فأقبلت على صبيانها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر»(٢).

وبهذا نرى السلف الصالح قد امتثل ما أمره الله به من إنفاق فى سبيله ومن جهاد لإعلاء كلمته فهل آن الأوان للمسلمين أن ينهجوا نهجهم لكى يسعدوا كما سعدوا، وينالوا أشرف حياة وأعزها؟ اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك.

ثم ساق القرآن قصة من قصص بنى إسرائيل مع أنبيائهم، فيها العظات والعبر، وملخص هذه القصة: أن قوماً من بنى إسرائيل كانوا قد انهزموا أمام أعدائهم هزيمة منكرة جعلتهم يولون الأدبار تاركين ديارهم وأبناءهم، فقالوا لنبى لهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة: أبعث لنا ملكا يقودنا للقتال فى سبيل الله، فقال لهم نبيهم بعد أن حذرهم من عاقبة الجبن والكذب: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا﴾ فاعترضوا على هذا الاختيار، ونقصوا من شأن من اختاره الله قائدا لهم، ولكن نبيهم ساق لهم من الحجج التى تدل على صلاحية طالوت لهذا المنصب ما أخرس ألسنتهم.. ثم سار طالوت بجنوده لقتال أعدائه، وفى الطريق قال لمن معه ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ ثم بعد هذه المخالفة جبن أكثرهم عن قتال أعدائهم وقالوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٩٩.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٣٧.

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ ولكن الفئة القليلة المؤمنة منهم استطاعت أن تنتصر على كل عقبة فى طريقها، وأن تقاتل أعداءها بشجاعة وصبر واعتماد على الله، فكانت النتيجة أن انتصرت الفئة القليلة المؤمنة بقيادة طالوت على الفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت. هذا تلخيص لتلك القصة العامرة بالعظات، ولعل من الخير قبل أن نبدأ فى تفسير آياتها أن نقرأها بتدبر وتأمل كما صورها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر.

قال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى﴾ إلخ استئناف ثان بعد قوله قبل ذلك : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ وقد سيق هذا الاستئناف مساق الاستدلال لقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ حتى تتشجع النفوس على الجهاد، وتهون عليها المصاعب فى سبيل حياة العزة والكرامة.

و ﴿الملإ﴾ الأشراف من الناس. وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه. وإنما سمى الأشراف بذلك لأن هيبتهم تملأ الصدور، أو لأنهم يتمالؤون أى يتعاونون فى شئونهم. وأصل الباب الاجتماع بمالا يحتمل المزيد.

والمعنى : كما سبق أن بينا فى قوله : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾. قد علمت أيها العاقل حال أولئك القوم من بنى إسرائيل الذين كانوا بعد وفاة موسى - عليه السلام - إذ قالوا لنبى لهم أقم لنا أميرًا لكى نقاتل معه فى سبيل الله. ومن لم يعلم فها نحن أولاء نعلمه بحالهم فعليه أن يعتبر ويتعظ.

فقوله : ﴿من بعد موسى﴾ بيان للزمن الذى كان يعيش فيه أولئك الملأ من بنى إسرائيل والمراد بالنبى الذى قالوا له ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ على الراجح - «شمويل بن حنة» وكان السبب فى طلبهم هذا من نبيهم أن العمالقة أتباع جالوت كانوا قد أخرجوهم من ديارهم، وأنزلوا بهم هزائم شديدة، فطلبوا منه ذلك لكى يستردوا مجدهم الضائع، وعزهم المسلوب، على يد هذا القائد المختار من جهة نبيهم.

وفى الإتيان بلفظ هذا النبى بصيغة التنكير إشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبى وإنما المقصود معرفة حال أولئك القوم، وما جرى لهم مع نبيهم من أحداث من شأنها أن تدعو إلى الاعتبار والاتعاظ. وهذه طريقة القرآن فى سرد القصص لا يهتم بالأشخاص والأزمان إلا بالقدر الذى يستدعيه المقام. أما الاهتمام الأكبر فيجعله لما اشتملت عليه القصة من وجوه العظات والعبر.

ويبدو أنه كان يتوجس منهم خيفة لأنه أعرف بطبيعتهم، فنراه يقول لهم كما حكى القرآن عنه : ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾.

فالاستفهام للتقرير والتحذير. أى إنى أتوقع عدم قتالكم إذا فرض عليكم القتال، فراجعوا أنفسكم وقوتكم قبل أن تطلبوا هذا الطلب، لأنه إذا فرض عليكم ثم نكصتم على أعقابكم فإن عاقبتكم ستكون شرًا لا شك فى ذلك.

وعسى هنا بمعنى التوقع والمقاربة، والجملة استئناف بيانى.

قال صاحب الكشاف؛ والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا؟ يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول : عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال فأدخل ﴿هل﴾ مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه

صائب فى توقعه. وخبر ﴿عسيتم﴾ : «ألا تقاتلوا» والشرط فاصل بينهما»[١].

ثم حكى القرآن ردهم على نبيهم فقال : ﴿قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

أى قال الملإ من بنى إسرائيل على سبيل الإنكار والتعجب مما قاله نبيهم : وأى صارف يصرفنا عن القتال وحالنا كما ترى؟ إننا قد أخرجنا من ديارنا وحيل بيننا وبين أبنائنا وفلذات قلوبنا فكيف لا نقاتل مع أن الدواعى موجودة، والبواعث متوفرة، والأسباب مهيئة؟ فأنت تراهم فى إجابتهم هذه يستنكرون ما توقعه نبيهم منهم، ويجزمون بأن الطريق الوحيد لعزتهم إنما هو القتال وأن هذا الأمر لا مراجعة فيه ولا جدال. وهكذا شأن الجبناء والمغرورين فى كل زمان ومكان يرحبون بالمعارك قبل قدومها فإذا ما جد الجد كذبت أعمالهم أقوالهم، وأعطوا أدبارهم لأعدائهم!

ثم حكى القرآن أن نبيهم كان صادقًا فيما توقعه منهم من جبن وكذب، وأنهم قوم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فقال - تعالى - : ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾.

أى : فحين فرض عليهم القتال بعد أن الحوا فى طلبه، أعرضوا عنه، ونفروا منه إلا عددًا قليلا منهم فإنه ثبت على الحق، ووفى بعهده.

قال الآلوسى : وقوله ﴿إلا قليلا منهم﴾ وهم الذين جاوزوا النهر وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر عدة أهل بدر على ما أخرجه البخارى عن البراء - رضى الله عنه - والقلة إضافية فلا يرد وصف هذا العدد أحيانا بأنه جم غفير[٢].

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿والله عليم بالظالمين﴾ لإفادة الوعيد الشديد لهؤلاء الذين نقضوا عهودهم، ونكصوا عن القتال عندما فرض عليهم، ولكل من يفعل فعلهم، وسار على طريقهم.

أى : والله - تعالى - عليم بالظالمين الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد، وبترك ما أمرهم الله به بعد أن عاهدوه على عدم الترك.

ثم بين القرآن ما أخبرهم به نبيهم ليحملهم على الطاعة والامتثال فقال - تعالى - : ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا﴾.

أى وقال لهم بعد أن أوحى إليه بما يوحى : إن الله - تعالى - وهو العليم الخبير بأحوال عباده

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٢٩١.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ صفحة ١٦٦.

قد بعث لكم ومن أجل مصلحتكم طالوت ليكون ملكًا عليكم، وقائدا لكم فى قتالكم لأعدائكم، فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به.

و ﴿طالوت﴾ اسم أعجمى قيل هو المسمى فى التوراة باسم «شاول» وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك، لأن طالوت كان طويلا جسيما.

ولقد كان الذى يقتضيه العقل أن يطيعوا أمر نبيهم، ولكنهم لجوا فى جدالهم وطغيانهم وقالوا لنبيهم معترضين على من اختاره الله قائدًا لهم. ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾.

﴿أنى﴾ أداة استفهام بمعنى كيف، والاستفهام هنا للتعجب من جعل طالوت ملكًا عليهم. أى قالوا لنبيهم منكرين ومتعجبين من اختيار طالوت ملكًا عليهم: كيف يكون له الملك علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأننا أشرف منه نسبًا، إذ منا من هو نسل الملوك أما طالوت فليس من نسلهم، وفضلا عن ذلك فهو لا يملك من المال ما يملكه بعضنا فكيف يكون هذا الشخص ملكًا علينا؟

فأنت تراهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم ظنوا أن المؤهلات الحقيقية لاستحقاق الملك والقيادة إنما تكون بالنسب وكثرة المال أما الكفاءة العقلية، والقوة البدنية، والقدرة الشخصية فلا قيمة لها عندهم لانطماس بصيرتهم، وسوء تفكيرهم.

قال بعضهم: «وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب، وسبط المملكة بسبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين. والواو فى قوله: ﴿ونحن أحق﴾ للحال، والواو الثانية فى قوله: ﴿ولم يؤت﴾ عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم[(١)].

ثم حكى القرآن مارد به نبيهم عليهم فقال: ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾.

أى قال لهم نبيهم مدللا على أحقية طالوت بالقيادة: إن الله - تعالى - ﴿اصطفاه عليكم﴾ أى اختاره وفضله عليكم واختياره يجب أن يقابل بالإذعان والتسليم. وثانيا: ﴿وزاده بسطة فى العلم﴾ أى أن الله - تعالى - منحه سعة فى العلم والمعرفة والعقل والإحكام فى التفكير المستقيم لم يمنحها لكم، وثالثًا: فى ﴿الجسم﴾ بأن أعطاه جسمًا قويًا ضخمًا مهيبًا. وهذه الصفات ما وجدت فى شخص إلا وكان أهلا للقيادة والريادة وفضلا عن كل ذلك فمالك الملك هو الذى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٠١.

اختاره فكيف تعترضون يامن تدعون أنكم تريدون القتال فى سبيل الله ؟ لذا نراه - سبحانه - يضيف الملك الحقيقى إليه فيقول : ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾ أى : يعطى ملكه لمن يشاء من عباده لحكمة يعلمها. فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره، والله واسع الفضل والعطاء. « عليم ».

ثم حكى القرآن أن نبيهم لم يكتف بهذه الدلائل الدالة على صلاحية طالوت للقيادة، وإنما ساق لهم بعد ذلك من العلامات التى تشهد بحقيته بهذا المنصب ما يثبت قلوبهم، ويزيل شكهم ويشرح نفوسهم فقال - تعالى - :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

التابوت : بوزن فعلوت - من التوب وهو الرجوع، وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كجبروت، والمراد به صندوق التوراة وكانوا إذا حاربوا حمله جماعة منهم ويتقدمون به أمام الجيش فيكون

ذلك سبب نصرهم. وكان عهدهم به قد طال فذكرهم بمآثره ترغيبًا فيه وحملا على الانقياد لطالوت»[١].

والسكينة: من السكون وهو ثبوت الشيء بعد التحرك: أو من السكن - بالتحريك - وهو كل شيء سكنت إليه النفس وهدأت.

والمعنى: وقال لهم نبيهم ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك ﴿إن آية ملكه﴾ أى علامة ملكه وأنه من الله - تعالى - ﴿أن يأتيكم التابوت﴾ أى أن يرد عليكم التابوت الذى سلب منكم ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ أى فى إتيانه سكون لنفوسكم وطمأنينة لها أو مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) من آثار تعتزون بها، وترون فيها صلة بين ماضيكم وحاضركم وقوله ﴿تحمله الملائكة﴾ حال من التابوت.

قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة. وكان رفعه الله - تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفائه لطالوت. فإن قلت: من هم (آل موسى وآل هارون). قلت: الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما[٢].

وقال ابن كثير: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون[٣].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى: إن فى ذلك الذى أتاكم به طالوت لآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله وبالحق الذى جاء به أنبياؤه.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد حكى لنا أن هؤلاء القوم من بنى إسرائيل قد جاءهم نبيهم بأنصع الحجج، وأوضح الأدلة، وأثبت البراهين التى تؤيده فيما يدعوهم إليه.

ثم بين - سبحانه - ما دار بين طالوت وجنوده فقال: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر﴾.

﴿فصل﴾ بمعنى الفصل. قال الزمخشرى: فصل عن موضع كذا: إذا انفصل عنه وجاوزه.

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١ ص ٦٤٦.

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٣

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٠١

وأصله فصل نفسه. ثم كثر: حذف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كانفصل. وقيل: فصل عن البلد فصولا. ويجوز أن يكون فصله فصلا، وفصل فصولا كوقف وصد ونحوهما. والمعنى انفصل عن بلده»(١).

و (النهر) بالفتح والسكون - : المجرى الواسع الذى يجرى فيه الماء مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها.

أى: فلما انفصل بهم عن المكان الذى كانوا يقيمون فيه، وتوجهوا معه لقتال جالوت وجنوده، قال لهم ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ أى مختبركم وممتحنكم بنهر، وكان طالوت قد سار بهم فى أرض قفرة فأصابهم عطش شديد. وفى هذا الابتلاء اختبار لعزيمتهم، وامتحان لصبرهم على المتاعب حتى يتميز من يصبر على الحرب ممن لا يصبر، ومن شأن القواد الأقوياء العقلاء أنهم يختبرون جنودهم قبل اقتحام المعارك حتى يكونوا على بينة من أمرهم. ثم بين لهم موضع الاختبار فقال: ﴿فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾.

﴿يطعمه﴾ أى يذقه من طعم الشىء يطعمه إذا ذاقه مأكولا أو مشروبًا.

﴿الغرفة﴾ - بالضم - اسم للشىء المغترف وجمعه غراف. وأما الغرفة - بالفتح - فهى اسم للمرة الواحدة من الغرف وقيل: هما لغتان بمعنى واحد.

أى قال لهم طالوت: من شرب من هذا النهر فليس من شيعتى، فعليه أن يتركنى ولا يصاحبنى فى خوض هذه المعركة لأنه ثبت ضعفه وخوره، ومن لم يذقه أصلا فإنه من شيعتى وحزبى الذى سيكون معى فى هذه المعركة الخطيرة. ثم أباح لهم أن يغترفوا من النهر غرفة يخففون بها من عطشهم فقال: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى.

وفى هذه الجملة الكريمة قدم - سبحانه - جواب الشرط على الاستثناء من الشرط فقد قال ﴿ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اعترف غرفة بيده﴾ والتأليف المعهود للناس أن يقال: (ومن لم يطعمه إلا من اغترف بيده فإنه منى) ولكن الآية الكريمة جاءت بتقديم الجواب على الاستثناء لحكمة بليغة، وهى المسارعة إلى بيان الحكم، وإثبات أن أساس الصلة التى تربطهم بنبيهم أن يمتثلوا أمره وألا يشربوا من النهر، ثم رخص لهم بعد ذلك فى الاغتراف باليد غرفة واحدة.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال: فإن قلت: مم استثنى قوله ﴿إلا من اغترف﴾؟ قلت: من قوله: ﴿فمن شرب منه فليس منى﴾ والجملة الثانية فى حكم المتأخرة إلا

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٤.

أنها قدمت للعناية.. ومعناه: الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكروع»(١).

ثم ختم - سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل نتيجة لهذا الامتحان فقال: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾.

أى: فشربوا من النهر حتى امتلأت بطونهم مخالفين بذلك أمر قائدهم فى وقت تعظم فيه المخالفة لأنه وقت إقدام على الحرب، إلا عددًا قليلا منهم فإنهم لم يشربوا إلاكما رخص لهم قائدهم. وعلى هذا التفسير - الذى قال به جمهور المفسرين - يكون جميع الذين مع طالوت قد شربوا من النهر إلا أن كثيرًا منهم قد شربوا حتى امتلأت بطونهم مخالفين أمر قائدهم، وقلة منهم شربت غرفة واحدة وهى التى رخص لهم قائدهم فى شربها.

وبعض المفسرين يقسم اتباع طالوت ثلاثة أقسام:

قسم شرب كثيرًا مخالفًا أمر طالوت.

وقسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده.

وقسم لم يشرب أصلا لا قليلاً ولا كثيرًا مؤثرًا العزيمة على الرخصة وهذا القسم هو الذى اعتمد عليه طالوت اعتمادًا كبيرًا فى تناوله لأعدائه.

وممن ذكر هذا التقسيم من المفسرين الإمام القرطبى فقد قال: «قال ابن عباس: شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهيم(٢)، وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة»(٣).

ثم بين - سبحانه - ما كان من أتباع طالوت بعد اجتيازهم للنهر معه فقال: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقه لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

أى: فلما جاوز طالوت ومن معه النهر وتخطوه، وشاهدوا كثرة جند جالوت، قال بعض الذين مع طالوت لبعض بقلق ووجل: لا قدرة لنا اليوم على محاربة أعدائنا ومقاومتهم فهم أكثر منا عَددًا، وأوفر عُددا.

والضمير ﴿هو﴾ فى قوله: ﴿هو والذين آمنوا معه﴾ مؤكد للضمير المستكن فى جاوز. والقائلون، هذا القول هم بعض المؤمنين الذين عبروا معه النهر، ولم يقولوا ذلك هروبًا أو

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٩٥.

(٢) الهيم: الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء واحدها أهيم والأنثى هيماء.

(٣) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٥٤.

نكوصًا عن القتال، وإنما قالوه كمظهر من مظاهر الوجل الذى يعترى بعض النفوس عند الاستعداد للقتال، لأن الذين عصوا الله وخالفوا طالوت بشربهم من النهر جبنوا عن لقاء العدو ولم يسيروا معه لقتالهم. أما المؤمنون الصادقون الذين اتصلت قلوبهم بالله، والذين أذعنوا أنه لا نصر إلا منه ولا اعتماد إلا عليه، فقد حكى القرآن موقفهم المشرف فقال: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

أى: قال الذين يتيقنون أنهم ملاقو الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم. قالوا مشجعين لإخوانهم الذين تهيبوا قتال أعدائهم: كم من جماعة قليلة بإيمانها وصبرها تغلبت بإذن الله وتيسيره على جماعة كثيرة بسبب كفرها وجبنها وتفككها، والله - تعالى - بعونه وتأييده مع الصابرين.

وعلى هذا التفسير يكون المراد بلقاء الله الحشر إليه بعد الموت، ومجازاة الناس على ما قدموا من عمل، ويكون المراد بالظن اليقين لأن كل مؤمن متيقن بأن البعث حق.

ويجوز أن يكون المراد بلقاء الله قربهم من رضاه يوم القيامة، وإثابتهم على جهادهم بالجنة، وعليه يكون الظن على معناه الحقيقى وهو الاعتقاد الراجح، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب.

و ﴿كم﴾ فى قولهم ﴿كم من فئة﴾ خبرية للتكثير، وفى هذا التعبير الذى حكاه القرآن عنهم دليل على قوة إيمانهم وصفاء نفوسهم وثقتهم فى نصر الله ثقة لا تحد، لأنهم أتوا بصيغة التكثير حتى لكأنما أن القاعدة العامة هى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة الكافرة.

وفى تعليقهم النصر على إذن الله للإشعار بأنهم لم يعتمدوا على قوتهم وثباتهم وشجاعتهم فحسب وإنما جعلوا اعتمادهم الأكبر على تأييد الله لهم. وهذا شأن العقلاء يبذلون أقصى جهدهم فى بلوغ غايتهم مستعينين على ذلك بتأييد الله وتوفيقه.

ورحم الله الإمام القرطبى الذى عاصر دولة الإسلام فى الأندلس وهى تسير فى طريق الضعف والتدهور فقد قال فى ختام تفسيره لهذه الآية: قلت: هكذا يجب علينا أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة، منعت من ذلك حتى انكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو وكما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفى البخارى: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفى البخارى - أيضًا - أن النبى ﷺ قال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة!! قال - تعالى -: ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله﴾ وقال: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾ وقال: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقال: ﴿ولينصرن

الله من ينصره﴾ وقال: ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾. فهذه أسباب النصر وشروطه وهى معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا»[1].

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله المؤمنون الصادقون عندما برزوا للقاء أعدائهم فقال:

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقوله: ﴿برزوا﴾ أى صاروا إلى براز الأرض وهو ما انكشف منها بحيث يصير كل فريق من المتقاتلين يرى صاحبه، ومنه سميت المبارزة فى الحرب لظهور كل قرن إلى قرنه. أى: وحين برز طالوت ومن معه لقتال جالوت وجنوده، وأصبح الفريقان فى مكان متسع من الأرض بحيث يرى كل فريق خصمه اتجه المؤمنون إلى الله - تعالى - بالدعاء قائلين بإخلاص وخشوع:

﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا﴾ أى: أفض علينا صبرا يعمنا، ويملأ قلوبنا ثقة بنصرك، ويحبس نفوسنا على طاعتك.

قال الإمام الرازى ما ملخصه، الإفراغ: الصب. يقال أفرغت الإناء إذا صببت ما فيه. وقولهم هذا يدل على المبالغة فى طلب الصبر من وجهين:

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٥٥.

أحدهما : أنه إذا صب الشيء فى الشيء فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه وهذا يدل على التأكيد.

والثانى : أن افراغ الإناء هو إخلاؤه وذلك يكون بصب كل ما فيه، فمعنى أفرغ علينا صبرا، أى أصبب علينا أتم صب وأبلغه - حتى تتحقق فينا صفة الصبر كأحسن ما يكون التحقق »[1].

أما الدعوة الثانية فقد قالوا فيها - كما حكى القرآن عنهم - ﴿وثبت أقدامنا﴾ أى هب لنا من كمال القوة والرسوخ عند القتال ما يجعلنا نثبت أمام أعدائنا، ونتمكن من رقابهم دون أن يتمكنوا منا. فهذا الدعاء كناية عن أن يمنحهم - سبحانه - الثبات عند الزحف، وعدم الفرار عند القتال.

وفى قوله : ﴿وثبت أقدامنا﴾ تعبير بالجزء عن الكل، لأن الأقدام هى التى يكون بها الفرار، فتثبيتها إبعاد عن الفرار، ومتى حصل الثبات كان النصر متوقعاً، والصبر متحققًا.

ثم ختموا دعاءهم بأن قالوا : ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أى اجعل الغلبة لنا عليهم، لأننا مؤمنون بأنك المعبود المستحق للعبادة وهم يكفرون بذلك.

والمتأمل فى هذه الدعوات الثلاث يراها قد جمعت أسمى ألوان الأدب وحسن الترتيب، فهم قد صدروا دعاءهم بالتوسل بوصف الربوبية فقالوا ﴿ربنا﴾ أى يا خالقنا ويا منشئنا ويا مربينا ويا مميتنا، وفى ذلك إشعار أنهم يلجأون إلى من بيده وحده النفع والضر، والنصر والهزيمة. ثم افتتحوا دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف لأنه هو عدة القتال الأولى، وركنه الأعلى، إذ به يكون ضبط النفس فلا تفزع، وبه يسكن القلب فلا يجزع. ثم التمسوا منه - سبحانه - أنْ يثبت أقدامهم عند اللقاء لأن هذا الثبات هو مظهر الصبر، ووسيلة النصر، وعنوان القوة.

ثم ختموا دعاءهم بما هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات وهو النصر على الأعداء.

فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص؟ كانت نتيجته النصر المؤزر الذى حكاه القرآن فى قوله : ﴿فهزموهم بإذن الله﴾.

وأصل الهزم فى اللغة الكسر. ومنه سقاء منهزم أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف. ويقال للسحاب هزيم، لأنه يتشقق بالمطر. والفاء هنا فصيحة أوسببية أى أنهم بسبب دعائهم المخلص، وإيمانهم القوى، واستجابتهم لما أمرهم الله به، استطاعوا أن يكسروا أعداءهم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ١٩٩.

ويهزموهم، وقوله : ﴿بإذن الله﴾ أى بتوفيقه وتيسيره وتأييده. والباء إما للاستعانة والسببية وإما للمصاحبة.

ثم قال - تعالى - : ﴿وقتل داود جالوت﴾ أى : وقتل داود بن إيشا - وكان فى جيش طالوت - جالوت الذى كان يقود جيش الكفر، وبقتله مزق أتباعه شر ممزق، ورزق الله طالوت ومن معه النصر والغلبة.

ثم بين - سبحانه - ما منحه لداود من نعم فقال : ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ والحكمة المراد بها هنا النبوة، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله فى بنى إسرائيل، وورثه فيهما ابنه سليمان - عليه السلام -.

أى : وأعطى الله - تعالى - عبده داود ملك بنى إسرائيل وأعطاه النبوة التى هى أشرف من الملك زيادة فى ترقيته فى درجات الشرف والكمال، وعلمه - سبحانه - مما يشاء من فنون العلم، ومن أمور الدين والدنيا كمعرفته لغة الطيور، وكلام الدواب، وصناعة آلات الحرب وغير ذلك من ألوان العلوم المختلفة التى لا تحدها إلا مشيئة الله وإرادته.

وفى قوله - تعالى - : ﴿وعلمه مما يشاء﴾ بعد الإخبار بأنه - سبحانه - آتى داود الحكمة، إشعار بأن الإنسان لا يستغنى عن التعلم سواء أكان نبيا أم لم يكن، لأن داود - عليه السلام - مع حصوله على النبوة لم يستغن عن تعليم الله إياه، وقد أمر الله - تعالى - نبيه محمدًا ﷺ أن يلتمس المزيد من العلم فقال : ﴿وقل رب زدنى علما﴾.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده فقال : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

أى : ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، وعمها الخراب لأن أهل الفساد إذا تركوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد فى الأرض.

فلولا فى الجملة الكريمة حرف امتناع لوجود. أى : امتنع فساد الأرض لأجل وجود دفع الناس بعضهم ببعض.

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار فى كل زمان ومكان أن يقفوا فى وجوه الأشرار، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد والطغيان.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

أى : ولكن الله - تعالى - صاحب فضل عظيم، وإنعام كبير على الناس أجمعين، لأنه وضع

لهم هذا التنظيم الحكيم الذى أوجب فيه على المصلحين أن يدافعوا المفسدين، وأن يقاوموهم بالطريقة التى تمنع فسادهم حتى ولو أدى ذلك إلى رفع السلاح فى وجوههم، لأن السكوت عن فساد المفسدين سيؤدى إلى العقاب الذى يعمهم ويصيب معهم المصلحين.

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل بقوله: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

أى: تلك الآيات التى حدثناك فيها عن قصة أولئك القوم وما جرى لهم هى آيات الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، نتلوها عليك يا محمد عن طريق جبريل الأمين تلاوة ملتبسة بالحق الثابت الذى لا يحوم حوله الباطل، وإنك يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ الذين أرسلهم الله - تعالى - ﴿بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

فالإشارة فى قوله ﴿تلك آيات الله﴾ إلى الآيات المتلوة من قوله - تعالى -: ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل﴾ إلى آخر القصة. وقيل إليها وإلى القصة التى قبلها وهى قصة القوم ﴿الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾.

وكانت الإشارة للبعيد، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات، ولعلو شأنها، وكمال معانيها، والوفاء فى مقاصدها.

وأضيفت الآيات إلى الله لأنها جزء من هذا القرآن الذى أنزله - سبحانه - على نبيه محمد ﷺ ليكون هداية للناس، وليحملهم على تدبرها والاعتبار بها لأنها من عند الله الذى شرع لهم ما يسعدهم.

وجعل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له فقال: ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ للإشعار بشرف جبريل، وأنه ما خرج فى تلاوته عما أمره الله به، فهو رسوله الأمين إلى رسله المكرمين.

وجملة ﴿نتلوها عليك﴾ فى محل نصب حال من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة.

وقوله: ﴿بالحق﴾ فى موضع نصب حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه عاقل. أو من فاعله أى: نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب.

وأكد - سبحانه - قوله ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ بحرف «إن» وباللام فى «لمن» وبالجملة الإسمية، للرد على من شكك فى صدق رسالته ﷺ ولتسليته عما يقوله الجاحدون فى شأنه.

وبعد: فهذه قصة الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى، وإن فيها لعبرا متعددة، وعظات متنوعة لقوم يعقلون. من العبر التى تؤخذ منها:

١ - أن الشعور بالظلم والهوان، والابتلاء بالمحن والهزائم، والوقوع تحت أيدى المعتدي،

كل ذلك من شأنه أن يصهر النفوس الحرة الكريمة، وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها المسلوبة، وعزتها المغصوبة، حتى تنال حقها ممن سلبه منها أو تموت دونه، لأن النفوس الأبية تشعر دائمًا بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة. يدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿قالوا : ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

٢ - أن الناس فى كل زمان ومكان، يلجأون - خصوصًا عندما تنزل بهم الشدائد إلى من يتوسمون فيهم الخير والصلاح، لكى يرشدوهم إلى مايأخذ بيدهم إلى طريق السعادة، ولكى يهدوهم إلى أفضل السبل التى تنقذهم مما هم فيه من بلاء، ولكى يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح. ألا ترى إلى الملأ من بنى إسرائيل كيف لجأوا إلى نبى لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم : ﴿ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله﴾؟ إنهم لم يلجأوا إلى زعيم من زعمائهم، أو إلى أمير من امرائهم، وإنما لجأوا إلى نبيهم يبثون إليه شكواهم، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال فى سبيل الله، لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى، والعقل السليم، والخلق القويم، والأسوة الحسنة.

٣ - أن القائد يجب أن تتوفر فيه صفتان : قوة العقل، وقوة الجسم لأنه متى توفرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقود أتباعه بنجاح، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف مبلغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم وألا يكلفهم بما لا يستطيعونه حتى يحارب أعداءه وهو على بينة من أمره. انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم : ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾ وهكذا القواد العقلاء يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم.

٤ - ان الفئة القليلة المؤمنة كثيرًا ما تنتصر على الفئة الكثيرة الكافرة؛ لأن المؤمنين الصادقين يحملهم إيمانهم على اليقين بلقاء الله، وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته، وعلى الإقدام الذى يرعب الكافرين، ويخيف الفاسقين، وصدق الله إذ يقول ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

٥ - أن هزائم الأمم يمكن إزالتها متى توفر لتلك الأمم القادة العقلاء الأقوياء، والجند الأشداء على أعدائهم، الرحماء فيما بينهم، وأن من شأن المؤمنين حقا أنهم مع مباشرتهم للأسباب، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه القتال، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر، مع كل ذلك لا يغترون ولا يتطاولون بل يعتمدون على الله - تعالى - اعتمادا تامًا، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم انظر إلى الصفوة المؤمنة من جند

طالوت ماذا قالت عندما برزت لجالوت وجنوده، لقد قالت كما حكى القرآن عنها: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله﴾.

٦ - أن من سنن الله فى خلقه أنه - سبحانه - جعل الحياة صراعًا دائماً بين الحق والباطل، ونزاعًا موصولا بين الأخيار والأشرار، ولولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم فى الأرض، ولكنه - سبحانه - أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس.

٧ - أن القصة الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من نقض للعهد وكذب فى القول ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾ ومن تطاول على أنبيائهم، وعصيان لأوامرهم، واعتراض على توجيهاتهم، وتفضيل للجاه والمال على العقل والعلم ﴿قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال﴾ ومن خور عند الابتلاء والاختبار، وحماس فى ساعة السلم ونكوص فى ساعة الجد، تأمل قوله - تعالى - ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم. فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

وبعد هذا الحديث الحكيم عن الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى. وبعد أن شهد الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ بأنه من المرسلين الذين أرسلوا لينصروا الحق، وليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، بعد كل ذلك بين الله - تعالى أن الرسل وإن كانوا قد بعثوا جميعًا لهداية البشر إلا أنهم يتفاضلون فيما بينهم فقال - تعالى -:

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

الإشارة بتلك فى قوله : ﴿تلك الرسل﴾ إلى جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم فى السورة والذين أرسلهم الله - تعالى - لهداية البشر، وأمرنا - سبحانه - بالإيمان بهم.

أى أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ أى جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر.

و ﴿تلك﴾ مبتدأ و ﴿الرسل﴾ عطف بيان لتلك. وجملة ﴿فضلنا بعضهم على بعضهم﴾ هى الخبر. وكانت الإشارة باللفظ الدال على البعيد، لبيان سمو مكانة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأنهم هم المصطفون الأخيار.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر التفضيل فقال : ﴿منهم من كلم الله﴾ أى منهم من فضله الله بتكليمه إياه كموسى - عليه السلام - فقد وردت آيات صريحه فى ذلك، منها قوله - تعالى - : ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ وقوله - تعالى - : ﴿قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾ وقوله - تعالى - ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾.

ثم قال - سبحانه - : ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى : ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية.

قيل كإبراهيم الذى اتخذه الله خليلا، وإدريس الذى رفعه الله مكانًا عليًا، وداود الذى آتاه الله النبوة والملك.

والذى عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله - تعالى - ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم القيامة والرسالة العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها.

وقد صرح صاحب الكشاف بذلك فقال : قوله ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة. الظاهر أنه أراد محمدًا ﷺ لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتى مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر. لو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفًا على سائر ما أوتى الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه، والمتميز الذى لا يلتبس. ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول : أحدكم أو بعضكم، يريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس، فذكر زهيرًا والنابغة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال : ولو شئت لذكرت

نفسي لم يفخم أمره(١).

ثم قال - تعالى - : ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾.

﴿البينات﴾ : هي المعجزات الظاهرة البينة. وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - والروح هنا بمعنى الملك الخاص. القدس أصل معناه الطهارة، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى الخلوص والنزاهة. فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة. قيل القدس اسم الله كالقدوس فإضافة روح إضافة للتشريف أي روح من ملائكة الله.

والمعنى : وأعطينا عيسى بن مريم الآيات الباهرات، والمعجزات الواضحات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه في بيتهم، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل إليهم وهم بنو إسرائيل ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله - تعالى - الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل - عليه السلام -.

قال الزمخشري : فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات. لما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل. هذا دليل بين على أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا محمد ﷺ هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع».

وقال الإمام القرطبي ما ملخصه : هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : «لا تخيروني على موسى» و«لاتخيروا بين الأنبياء» و«لا تفضلوا بين الأنبياء» أي لا تقولوا فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع؟ فالجواب أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع. أو المراد النهي عن الخوض في ذلك لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال قد يؤدي إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به، وقد يؤدي إلى قلة احترامهم. ثم قال. وأحسن من هذا القول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما

(١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٩٧.

تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها، ولذلك فهم رسل، وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله.. فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل. وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير النسخ.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾.

أى: ولو شاء الله - تعالى - ألا يقتتل الذين جاؤا بعد كل رسول من الرسول وبعد أن جاءهم الرسل بالبينات الدالة على الحق، لو شاء الله ذلك لفعل، ولكن الله - تعالى - لم يشأ ذلك، لأنه خلق الناس مختلفين فى تقبلهم للحق، فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذى جاءت به الرسل من فتح له قلبه، واتجه إليه اختياره، وأن كفر به من آثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى، وترتب عليه - أيضًا أن تقاتل الناس وتحاربوا.

ومفعول المشيئة محذوف دل عليه جواب الشرط أى لو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا.

وقدم - سبحانه - المسبب وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له قوله: ﴿ولكن اختلفوا..﴾ للتنبيه على سوء مغبة الاختلاف، وللتحذير من الوقوع فيه، لأن وقوعهم فيه سيؤدى إلى أن يقتل بعضهم بعضًا، وللإشارة إلى أنه - سبحانه - قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه، لأنه - تعالى - هو الخالق للأسباب والمسببات.

وفى قوله: ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ إشارة إلى ما جبلت عليه بعض النفوس من العناد الذى يؤدى إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق، وانكشاف وجه الصواب، لأن هذه النفوس قد آثرت الهوى على الرشاد، واتخذت طريق الغى طريقًا لها.

وفى قوله: ﴿ولكن اختلفوا﴾ إشارة إلى أنه - سبحانه - لم يشأ أن يزيل القتال الذى حدث بين المقاتلين، لأن هذا القتال قد نشأ بينهم بسبب اختلافهم، وسوء اختيارهم، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات والبينات التى جاءتهم بها الرسل - عليهم السلام -.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ أى: لو شاء الله عدم اقتتالهم لأى سبب من الأسباب لما اقتتلوا، ولكنه - سبحانه - يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، وترتضيه مشيئته، فهو الكبير المتعال الذى كل شىء عنده بمقدار فالآية الكريمة تبين أن الرسل - عليهم السلام - يتفاضلون فيما بينهم، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن الاختلاف والتنازع لأنهما يؤديان إلى أوخم العواقب، وأسوأ النتائج.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه ببذل أموالهم فى سبيل الدفاع عن الحق، حتى يكونوا أهلا لرضا الله ومثوبته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

الخلة: الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين، وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها، أو لشدة الحاجة إليها. ومنه سمى الخليل خليلا لاحتياج الإنسان إليه.

والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرته، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ماهو دونه.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تنفقوا فى وجوه الخير كإعانة المجاهدين ومساعدة الفقراء والبائسين من أموالكم التى رزقكم الله إياها بفضله وكرمه، ومن قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى تقدموا عن طريقها ما تفتدون به أنفسكم، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم، ولا شفيع يشفع لكم فيحط من سيئاتكم إلا أن يأذن رب العالمين بالشفاعة تفضلا منه وكرمًا.

فالآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق فى سبيل الله، لأنه أهم عناصر القوة فى الأمة، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل.

والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل الفرض والنفل، والأمر لمطلق الطلب، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها.

وقوله: ﴿مما رزقناكم﴾ إشعار بأن هذا المال الذى بين أيدى الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فمن الواجب عليهم شكرها بألا يبخلوا بجزء منه على الإنفاق فى وجوه الخير، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم.

وفى قوله: ﴿من قبل أن يأتى يوم﴾.. إلخ حث آخر على التعجيل بالإنفاق، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذى تنتهى فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض

ما فقدوه من طاعات. فكأنه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتى يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿مما رزقناكم﴾ للتبعيض. وفى قوله ﴿من قبل﴾ لابتداء الغاية : ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئًا مما رزقناكم.

والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبلها الله - تعالى - وهى التى لا يأذن بها، أما شفاعة النبى ﷺ فقد أذن الله له بها وقبلها منه، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى ﷺ ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله. أن رسول الله ﷺ قال : أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أى والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة، والغى على الرشد، والشر على الخير، والبخل على السخاء.

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم، وبذلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله، وفى إعانة المحتاجين.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة فى إنفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه ما كان نافعًا فى الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توعدت من يبخل عن الإنفاق فى سبيل الله بسوء العاقبة، لأنه تشبه بالكافرين فى بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم فى وجوه الخير.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإنفاق فى وجوه الخير، وذكرهم بأهوال يوم القيامة، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه - فبينت كمال سلطانه، وشمول علمه. وسابغ نعمه على خلقه. استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول :

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قال بعضهم : هذه آية الكرسى أفضل آية فى القرآن. ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات. هذا هو التحقيق فى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض. وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى. جاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وفيها آية هى سيدة القرآن - أى أفضله - وهى آية الكرسى »[1].

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجليلة - ونعوته السامية. أما الجملة الأولى والثانية فتتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ يقول العلماء : إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف « أل » وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله.

قال القرطبى : قوله : ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها، حتى قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو - سبحانه - »[1].

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ صفحة ٢٠٦.
(٢) تفسير القرطبى جـ١ صفحة ١٠٢.

ولفظ ﴿إله﴾ قالوا إنه من أله فلان يأله أى عبد. فالإله على هذا المعنى هو المعبود، وقيل هو من أله أى تحير. وذلك أن العبد إذا تفكر فى صفاته - سبحانه - تحير فيها؛ ولذا قيل: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله»[1].

و﴿الحى﴾ أى الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لافناء لها. لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء سواه يعتريهم الموت والفناء.

و﴿القيوم﴾ أى: الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم ما به قوامهم. وهو مبالغة فى القيام. وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره.

والمعنى: الله - عز وجل - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم.

والجملة الثالثة قوله - تعالى -: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ وهى جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابى السابق، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت، وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة، ولأن السنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها.

والسنة: الفتور الذى يكون فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك. ويقال له غفوة. يقال: وسن الرجل يوسن وسنًا وسنة فهو وسن ووسنان إذا نعس والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبدًا، ولا يحجب علمه شىء حجبًا قصيرًا أو طويلا، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس، أو النوم.

وتقديم السنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفى السنة يدل على نفى النوم بالأولى، فنفيه ثانيًا صريحًا يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد المبالغة ولأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم.

وفى قوله: ﴿لا تأخذه﴾ دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذًا وتقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهرًا، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزه عن ذلك، ومبرأ من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

وقوله - سبحانه - فى الجملة الرابعة: ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ تقرير لانفراده

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٢١.

بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته، وتعليل لا تصافه بالقيومية، لأن من كانت جميع الموجودات ملكا له فهو حقيق بأن يكون قائما بتدبير أمرها.

والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم. فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما فى هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات. وصدرت الجملة بالجار والمجرور «له» لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده ليس لأحد سواه شيء معه.

والاستفهام فى قوله فى الجملة الخامسة ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ للنفى والإنكار أى: لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه قال - تعالى - ﴿وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾.

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الآلوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفعا على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلا عن أن يستقل بدفعه عنادًا أو مناصبة وعداوة. وفى ذلك تيئيس للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله»[1].

وقوله - سبحانه - فى الجملة السادسة: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ تأكيد لكمال سلطانه فى هذا الوجود، وبيان لشمول علمه على كل شيء.

والضمير فى (أيديهم) و(خلفهم) يعود إلى (ما) فى قوله قبل ذلك ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ وعبر بضمير الذكور العقلاء، تغليبًا لجانبهم على جانب غير العقلاء.

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه - سبحانه - بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شئونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

وقوله - تعالى - فى الجملة السابعة: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ معطوف على قوله ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ لأنه مكمل لمعناه. والمراد بالعلم المعلوم. والإحاطة بالشيء معناها العلم الكامل به.

أى: لا يعلمون شيئًا من معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذى أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله. فهو كقوله - تعالى -: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسول﴾.

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ صفحة ٩.

فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى -، ولنقصان علم سواه، إذ أن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل، وهذا القليل ناقص لأنه ليس على إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشيء ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده، إذ العلم الكامل بالشيء لا يكون إلا لله رب العالمين.

ثم قال - تعالى - فى الجملة الثامنة: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾.

قال الراغب: الكرسى فى تعارف العامة: اسم للشيء الذى يقعد عليه، وهو فى الأصل منسوب إلى الكرس أى الشيء المجتمع، ومنه الكراسة لأنها تجمع العلم.. وكل مجتمع من الشيء كرس»[1].

وللعلماء اتجاهان مشهوران فى تفسير معنى الكرسى فى الجملة الكريمة. فالسلف يقولون: إن لله - تعالى - كرسيا علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس فى مقدور البشر.

والخلف يقولون: الكرسى فى الآية كناية عن عظم السلطان، ونفوذ القدرة، وسعة العلم، وكمال الإحاطة.

ولصاحب الكشاف تلخيص حسن لأقوال العلماء فى ذلك، فقد قال - رحمه الله - وفى قوله: ﴿وسع كرسيه﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد.

والثانى: وسع علمه، وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم.

والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك.

والرابع: ماروى أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش دونه السموات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن الكرسى هو العرش[2].

هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال «كرسيه علمه»[3] ولعل تفسير الكرسى بالعلم كما قال حبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٤٢٨ بتلخيص.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٠١.

(٣) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٧٦.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشرة فقال - تعالى - : ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾.

﴿يؤوده﴾ معناه يثقله ويشق عليه. يقال آدنى الأمر بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة.

و﴿العلى﴾ هو المتعالى عن الأشياء، والأنداد، والأمثال، والأضداد وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث. وقيل هو من العلو الذى هو بمعنى القدرة وعلو الشأن.

والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما، وهو المتعالى عن الأشباه والنظائر، والمسيطر على خلقه، العظيم فى ذاته وصفاته، ففى هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته، وعظيم رعايته لخلقه، وتنزيهه - سبحانه - عن مشابهة الحوادث.

وبعد، فهذه آية الكرسى التى اشتملت على عشر جمل، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أكثر من صفات الله الجليلة، ونعوته المجيدة، وألوهيته الحقه، وقدرته النافذة، وعلمه المحيط بكل شىء، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراده بالعباده.

وقد تكلم العلماء طويلا عن تناسق جملها، وبلاغة تراكيبها ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد فى فضلها ماورد؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة. فما كان ذكرًا له كان أفضل من سائر الأذكار»[1].

ومن الأحاديث التى ساقها الإمام ابن كثير فى فضلها ماجاء عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : «أى آية فى كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم. فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسى. فقال له الرسول ﷺ «ليهنك العلم أبا المنذر».

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أعظم آية فى القرآن هى آية الكرسى».

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية؟ فقال ابن مسعود على الخبير سقطت سمعت رسول الله ﷺ يقول : أعظم آية فى القرآن ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.. الآية[2].

وبعد أن ساق - سبحانه - فى آية الكرسى الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتنزيهه

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٠٣.
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٠٤ وما بعدها.

عن صفات الحوادث، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلى لكل ذى عقل سليم، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه فقال - تعالى - :

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

الإكراه معناه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد.

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، مصدر رشد يرشد ويرشد أى اهتدى. والمراد هنا : الحق والهدى.

والغى ضد الرشد. مصدر من غوى يغوى إذا ضل فى معتقد أو رأى،ويرى بعض العلماء أن نفى الإكراه هنا خبر فى معنى النهى، أى : لا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح فى دلائله وبراهينه، فمن هداه الله له ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيده الإكراه على الدخول فيه.

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخبرية والمعنى : ليس فى الدين - الذى هو تصديق بالقلب، وإذعان فى النفس - إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد، لأن مبنى هذا الدين على التمكين والاختيار، وهو مناط الثواب والعقاب، لولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار، ولبطل الامتحان.

أو المعنى : كما يرى بعضهم - إن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد. وعلى أن الكفر به غى وضلال، أن يدخل عن طواعية واختيار فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد.

فالجملة الأولى وهى قوله - تعالى - : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ : تنفى الإجبار على الدخول فى الدين، لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه، إذ التدين إذعان قلبى، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة فإذا أكره عليه الإنسان إزداد كرهًا له ونفورًا منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

والجملة الثانية وهى قوله - تعالى - : ﴿قد تبين الرشد من الغى﴾ بمثابة العلة لنفى هذا الإكراه على الدخول فى الدين، أى قد ظهر الصبح لذى عينين، وانكشف الحق من الباطل، والهدى من الضلال وقامت الأدلة الساطعة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران ومادام الأمر كذلك فقد توافرت الأسباب التى تدعو إلى الدخول فى دين الإسلام، ومن كفر به بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره، وسوء عاقبة أمره.

ثم قال - تعالى - : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

الطاغوت : اسم لكل ما يطغى الإنسان، كالأصنام والأوثان والشيطان وكل رأس فى الضلال وكل ما عبد من دون الله. وهو مأخوذ من طغا يطغى - كسعى يسعى - طغيًا وطغيانًا، أو من يطغو طغوا طغوانًا، إذا جاوز الحد وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والفجور.

والعروة:فى أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشيء من عراه أى من الجهة التى يجب تعليقه منها، وتجمع على عرى. والعروة من الدلو والكوز مقبضه، ومن الثوب مدخل زره.

والوثقى : مؤنث الأوثق، وهو الشيء المحكم الموثق. يقال وثق - بالضم - وثاقة أى : قوى وثبت فهو وثيق أى ثابت محكم.

والانفصام. الانكسار، والفصم كسر الشى وقطعة.

والمعنى : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله، وآمن بالله - تعالى - إيمانًا خالصًا صادقًا فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التى لا انقطاع لها وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط.

والفاء فى قوله : ﴿فمن يكفر﴾ للتفريع. والسين والتاء فى استمسك للتأكيد والطلب، وقوله : ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ فيه - كما يقول الزمخشرى - تمثيل للمعلوم بالمنظور والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى بتصوره السامع كأنما ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به، وجملة «لا انفصام لها» استئناف مقرر لما قبله أو حال من «العروة» والعامل «استمسك».

ثم ختم - سبحانه الآية بقوله : ﴿والله سميع عليم﴾ أى سميع للاقوال، وهمسات القلوب، وخلجات النفوس، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

قال القرطبى ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - : ﴿يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾ لأن النبى ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا الإسلام. وقيل إنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية. . والحجة لهذا القول ما رواه زيد ن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى أيتها العجوز تسلمى، إن الله بعث محمدًا بالحق. قالت أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب. فقال عمر : اللهم اشهد وتلا : ﴿لا إكراه فى الدين﴾[(١)].

والذى تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، لأن التدين لا يكون مع الإكراه - كما أشرنا من قبل - ولأن الجهاد ما شرع فى الإسلام لإجبار الناس على الدخول فى الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار، وإنما شرع الجهاد لدفع الظلم ورد العدوان وإعلاء كلمة الله، والرسول ﷺ ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول فى الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوه بالعداوة.

ولأن الروايات فى سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه فى الدين، ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى رجل من الأنجر من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما، فقال للنبى ﷺ ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله هذه الآية[(٢)] وفى رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول فى الإسلام فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال الأنصارى : يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت الآية.

ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين وهنا يمكن التوفيق بأن نقول : إن الآية التى معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون وآية ﴿يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾ جاءت لحض النبى ﷺ وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا فى طريق دعوته، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هى العليا.

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٣١١.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿الولى﴾ : الناصر والمعين والحليف. مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة

والمعنى : الله الذى بيده ملكوت كل شيء ﴿ولى الذين آمنوا﴾ أى معينهم وناصرهم ومتولى أمورهم، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام. أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت الذى يتمثل فى الشياطين والأصنام والأوهام الموروثة والكبرياء والمضلين، وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم وانتكاسهم فى المعاصى من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة. أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبدًا.

وأفرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات، لأن الحق واحد أما الظلمات فقد تعددت فنونها وألوانها وأسبابها. وفى تقديم ﴿الذين كفروا﴾ فى قوله :

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطرًا على قلوبهم لأن كفرهم بالله - تعالى - هو الذى جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر.

وقوله : ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ و ﴿أولياؤهم﴾ مبتدأ ثان، و ﴿الطاغوت﴾ خبره والجملة خبر المبتدأ الأول.

ولم يقل - سبحانه - والطاغوت ولى الذين كفروا للاحتراز عن وضع اسم الطاغوت فى مقابل لفظ الجلالة.

فإن قيل : وهل كان الكافرون فى نور ثم أخرجوا منه؟ فالجواب أن المراد يخرجونهم من النور الفطرى الذى جعل عليه الناس كافة أو من نور الحجج الواضحات التى من شأنها أن تحمل كل عاقل على الدخول فى الإسلام. وقيل المراد بهؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبى ﷺ قبل بعثته ثم كفروا به بعدها والإشارة فى قوله : ﴿أولئك﴾ تعود

إلى الذين كفروا. وفى التعبير «بأصحاب النار» إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلازم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه. وقوله ﴿هم فيها خالدون﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصهم بها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقت أحسن البشارات للمؤمنين، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى.

ثم ساق القرآن بعد ذلك بعض الأمثلة للمؤمنين المهتدين وللضالين المغرورين.

فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿حاج﴾ أى جادل وخاصم والمحاجة: المخاصمة والمغالبة بالقول يقال حاجته فحججته أى خاصمته بالقول فتغلبت عليه وتستعمل المحاجة كثيرًا فى المخاصمة بالباطل ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن﴾.. وقوله - تعالى - : ﴿وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان﴾.

والمعنى: لقد علمت أيها العاقل صفة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه عز وجل - ومن لم يعلم قصته فهانحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطره والمراد به - كما قال ابن كثير - نمرود بن كنعان بن كوس بن سام ابن نوح ملك بابل، وكان معاصرًا لسيدنا إبراهيم - عليه السلام -

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور وبين سيدنا إبراهيم أنها محاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية أو هى محاجة فى نظره السقيم ورأيه الباطل.

والضمير فى قوله : ﴿فى ربه﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمرود لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه والإضافة - على الرأى الأول - للتشريف، وللإيذان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم. وقوله : ﴿أن آتاه الله الملك﴾ بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان. أى سبب هذه المحاجة لأنه أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة، بل استعملها فى غير ما خلقت له فقوله : ﴿أن أتاه﴾ مفعول لأجله، والكلام على تقدير حذف لام الجر، وهو مطرد الحذف مع أن وأن.

وقوله : ﴿إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت﴾ حكاية لما قاله إبراهيم عليه السلام لذلك الملك فى مقام التدليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة أى قال له : ربى وحده هو الذى ينشىء الحياة ويوجدها، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك.

وقول إبراهيم - كما حكاه القرآن - : ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو ﴿ربى﴾ والخبر هو الموصول وصلته.

وعبر بالمضارع فى قوله : ﴿يحيى ويميت﴾ لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويحس بين وقت وآخر.

أى ربى هو الذى يحيى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهدًا فى كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال.

وقوله : ﴿إذ قال ابراهيم﴾ ظرف لقوله : ﴿حاج﴾ أو بدل اشتمال منه، وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ جواب لسؤال سابق غير مذكور. وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلى الله، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلهًا. فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال له نمرود : من ربك؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها، ودليل إبراهيم فى غاية الصحة لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة وقدم ذكر الحياة على الموت هنا. لأن من شأن الدليل أن يكون فى غاية الوضوح والقوة، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم فلا جرم

وجب تقديم الحياة هاهنا فى الذكر»[١].

ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم فقال: ﴿قال أنا أحيى وأميت﴾ أى قال ذلك الطاغية: إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت فأنا أعارضك فى ذلك لأنى أنا - أيضًا أحيى وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية. قالوا: ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عمن حكم بقتله، ويقتل من شاء أن يقتله.

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الاحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان فى استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة هى غاية فى الإفحام فقال له - كما حكى القرآن: ﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾.

أى قال إبراهيم لخصمه المغرور: لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركًا لله - تعالى - فى قدرته فإن كان ذلك صحيحًا فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتى بالشمس من جهة المشرق عند شروقها فأت بها أنت من جهة المغرب فى هذا الوقت فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذفها إبراهيم - عليه السلام - فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن - ﴿فبهت الذى كفر﴾ أى: غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم، لأنه فوجىء بما لا يملك دفعه. و﴿بهت﴾ فعل ماض جاء على صورة الفعل المبنى للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفاعل. وقوله: ﴿الذى كفر﴾ هو فاعله. والبهت: الانقطاع والحيرة، وقرىء بوزن - علم ونصر وكرم.

والفاء فى قوله: ﴿فإن الله يأتى بالشمس﴾.. إلخ فصيحة لأنها أفصحت عن جواب لشرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحيى وتميت وأن قدرتك كقدرة الله فإن الله - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وعبر عن هذا المبهوت بقوله: ﴿الذى كفر﴾ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ أى لا يهديهم إلى طريق

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص ٢٥ طبعة عبد الرحمن محمد بتصرف وتلخيص.

الحق. ولا يلهمهم حجة ولا برهانًا. بسبب ظلمهم وطغيانهم وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكت للناس لونًا من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون.

ثم ساقت السورة الكريمة قصتين تدلان أبلغ دلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور استمع إلى القرآن وهو يحكى هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول:

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله: ﴿أو كالذى مر على قرية﴾ معطوف على سابقه - وهو

قوله : ﴿ألم تر إلى الذى حاج﴾ والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لأ رأيت محذوفًا. أى أو أرأيت مثل الذى مر على قرية. . وحذف لدلالة ﴿ألم تر﴾ عليه. وقيل : إن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو الذى مر على قرية. . وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : أرأيت شيئًا عجيبًا - كالذى حاج إبراهيم فى ربه، أو كالذى مر على قرية »[١].

والذى ﴿مر على قرية﴾ قيل هو عزير بن شرخيا، وقيل حزقيال بن بوزى وقيل غير ذلك، والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها « بختنصر » البابلى. . والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن. وجملة ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ فى موضع الحال من الضمير المستتر فى ﴿مر﴾ والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هى حال من قرية، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها نكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرأيت ومعنى ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ أن جدرانها ساقطة على سقوفها، أى أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها، فأصبحت خالية من أهلها وفارغة ممن كان يعمرها وأصل الخواء الخلو. يقال خوت الدار وخربت تخوى خواء إذا سقطت وخلت.

والعروش جمع عرش وهو سقف البيت ويسمى العريش، وكل شىء يهيأ ليظل أو يكنّ فهو عريش وعرش.

وقوله - تعالى - : ﴿قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار والمعنى : أو أرأيت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها، وفارغة ممن كان يسكنها، فهاله أمرها، وراعه شأنها، وقال على سبيل التعجب كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها، بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم. فقوله : ﴿أنى يحيى هذه﴾ بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون ﴿أنى﴾ هنا بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية.

وقال القرطبى : قوله : ﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ معناه من أى طريق وبأى سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن فى المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أى : أنى تعمر هذه بعد خرابها. فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته »[٢].

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص ١٩.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٢٩٩.

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة لأنه كان مؤمنا بالبعث والنشور، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها، وتشوق إلى عمارتها واعترف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء. فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل؟ كانت نتيجته كما حكاها القرآن: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾.

أى: بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام ﴿ثم بعثه﴾ أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه ﴿قال كم لبثت﴾ أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال؟ ﴿قال لبثت يومًا أو بعض يوم﴾.

وقال - سبحانه - : ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ ولم يقل ثم أحياه، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القريةوللإشهار بسرعته وسهولة تأتيه على البارى - سبحانه -.

قال ابن كثير: كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويًا قال الله له بواسطة الملك ﴿كم لبثت﴾؟ ﴿قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾ وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أو بعض يوم﴾(١).

وقوله: ﴿قال كم لبثت﴾ استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؟ فقيل: قال كم لبثت ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على أتم وجه وتنحسم مادة استبعاده بالمرة.

وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يوما أو وقتا والناصب لها قوله: ﴿لبثت﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم، وأن البعث يشبه اليقظة بعده وأنه لا شىء محال على الله - تعالى - فهو القائل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

وفى الحديث الشريف: والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا».

وقوله - تعالى - : ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ معطوف على مقدر، أى: ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوما أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل فى أمور

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٣١٤.

فيها أبلغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - : ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾.

قوله : ﴿لم يتسنه﴾ أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة ولم تذهب طراوته فكأنه لم تمر عليه السنون ولفظ يتسنه : مشتق من السنة، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء، وأصلها سنهة لتصغيرها على سنيهة وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات، ولقولهم : سانهته إذا عاملته سنة فسنة، وتسنه عند القوم إذا أقام فيهم سنة. أو الهاء للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنه واوا، وأصلها سنوه لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات.

وقوله : ﴿ننشزها﴾ أى نرفعها. يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه. وأصله من النشز - بفتحتين وبالسكون - وهو المكان المرتفع. وقرئ ﴿ننشزها﴾ - بضم النون والراء - أى نحييها من أنشر الله الموتى أى أحياهم. والمعنى : قال الله - تعالى - لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها إنك لم تلبث يوما أو بعض يوم فى الموت كما تظن بل لبثت مائة عام فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمرا آخر من دلائل قدرتنا فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقى على حالته. وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه، وتفرقت أوصاله مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة.

وقوله : ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق، والتقدير : فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله، ولنجعلك آية معجزة ودليلا على صحة البعث وقوله : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ أى انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدها.

وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده.

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره يمينا وشمالا حوله فنظر إليها وهى تلوح من بياضها، فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع، ثم ركب كل عظم فى موضعه، وذلك كله بمرأى من العزير»[١].

وجاء الضمير فى قوله : ﴿لم يتسنه﴾ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب، لأنهما متلازمان

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣١٤.

بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شىء واحد، فكأنه قال: انظر إلى غذائك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ أى: فلما تبين له بالأدلة الناصعة، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأومن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شىء قدير، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء. والفاء فى قوله: ﴿فلما تبين له...﴾ عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل: رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شىء قدير. وفاعل ﴿تبين﴾ مضمر يفسره سياق الكلام والتقدير: فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شىء قدير.

تلك هى القصة الأولى التى ساقها الله - تعالى كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور. أما القصة الثانية التى تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن فى قوله: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ أى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - مخاطبًا خالقه - سبحانه -: رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى.

وفى قوله: (رب) تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة، والألوهية التامة، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى، فهو لا يشك فى قدرة الله ولا فى صحة البعث - وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان، فإن العيان يغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان.

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسبابا منها: أنه لما قال للنمرود ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة. وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله: ﴿أولم تؤمن﴾ أى: أتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء وعلى كل شىء؟

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال، وهى معطوفة على مقدر، والاستفهام للتقرير. وهنا يحكى القرآن جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول: ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾. أى قال إبراهيم فى الرد على سؤال ربه له ﴿أو لم تؤمن﴾؟ بلى يارب آمنت بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيمانا صادقا كاملا، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى سكونا واطمئنانا وإيمانا لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكونا واطمئنانا أشد، وإيمانا

أقوى، وأنا فى جميع أحوالى مؤمن كل الإيمان بقدرتك ووحدانيتك يارب العالمين.

قال القرطبى ما ملخصه: لم يكن إبراهيم شاكافى إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا جاء فى الحديث (ليس الخبر كالمعاينة)، قال الأخفش: لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين: سأل ليزداد يقينا إلى يقينه.

وأما قول الرسول ﷺ: نحن أحق بالشك من إبراهيم فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك فإبراهيم - عليه السلام - أحرى ألا يشك، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم.. وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر الفاظه الآتية لم تعط شكا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، وكيف هنا إنما هى استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية..»[1].

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال له ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفى معناه: بلى آمنت. وقوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾ أى ليزداد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة - أى علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال الذى يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت: بم تعلقت اللام فى قوله: ﴿ليطمئن﴾ قلت بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب»[2].

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا﴾.

قوله: ﴿فصرهن إليك﴾ أى فاضممهن إليك - قرئ بضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء - يقال: صاره يصوره ويصيره، أى أماله وضمه إليه. ويقال - أيضًا صار الشىء بمعنى قطعه وفصله والمعنى: قال الله - تعالى - لإبراهيم: إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن وهيئاتهن كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهن وجزئهن أجزاء ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ أى ثم اجعل على كل مكان

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص٢٩٧.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٠٨.

مرتفع من الأرض جزءا من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك. والفاء فى قوله ﴿فخذ﴾ هى التى تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تفصح عن شرط مقدر أى: إذا أردت ذلك فخذ..

وقوله: ﴿من الطير﴾ متعلق بمحذوف صفة لأربعة أى فخذ أربعة كائنة من الطير، أو متعلق بقوله ﴿خذ﴾ أى خذ من الطير. والطير اسم جمع - كرَكْب وسفر - وقيل هو جمع طائر مثل تاجر وتجر. قالوا: وهذه الطيور الأربعة هى الطاووس والنسر والغراب والديك.

ومما قالوه فى اختيار الطير لهذه الحالة: أن الطير من صفاته الطيران، وأنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته، ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وقوله: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ معطوف على محذوف دل عليه قوله: ﴿جزءا﴾ لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح والتقدير: فاذبحهن ثم اجعل.. إلخ. وقوله: ﴿ثم ادعهن﴾ أى قل لهن تعالين بإذن الله.

وقوله ﴿يأتينك﴾ جواب الأمر فهو فى محل جزم، ﴿سعيًا﴾ منصوب على المصدر النوعى، لأن السعى نوع من الإتيان فكأنه قيل: يأتينك إتيانًا سريعًا:

قال الفخر الرازى: أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية: قطعهن، وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض - وفعل كما أمره الله، ثم قال لهن تعالين بإذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله - ثم قال: ولكن أبا مسلم أنكر ذلك وقال: إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه الله مثالا قرب به الأمر عليه، والمراد بصرهن إليك: الإمالة والتمرين على الإجابة. أى: فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدا حال حياته، ثم ادعهن يأتينك سعيًا، والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة..»[1].

والذى يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم وهى إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى إحياء الرجل الذى أماته الله مائة عام والذى جاء ذكره فى الآية السابقة، ولأن ظاهر الآية صريح فى أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على مرتفع من الأرض، وما دام الأمر كذلك فلا يجوز حمل المعنى على غير هذا الظاهر، كما لا يجوز تحميل الألفاظ ما لا تحتمله. وما ذهب إليه أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلا عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٤.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أى واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره، قاهر فوق عباده، حكيم فى كل شئونه وأفعاله وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه.

ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق فى سبيله، ووعدهم على ذلك بجزيل الثواب، فقال - تعالى - :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى صدقة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربى، فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». وجاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر الرسول ﷺ قال عبد الرحمن بن سمرة - راوى الحديث - فرأيته ﷺ يدخل يده فيها ويقلبها ويقول : «ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان». وقال أبو سعيد الخدرى : رأيت النبى ﷺ رافعا يديه يدعو لعثمان ويقول : «يارب عثمان إنى رضيت عن عثمان فارض عنه».

ونزول هاتين الآيتين فى شأن صدقة هذين الصحابيين الجليلين لا يمنع من شمولها لكل من نهج نهجهما، وبذل من ماله فى سبيل الله.

و «المثل»، الشبه والنظير. ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه لمورده الذى ورد فيه أولا. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية.

و « الحبة » كما يقول القرطبى - اسم جنس لكل ما يزدرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البر فكثيرا ما يراد بالحب.

وسنبلة - بوزن فنعلة - من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالاسبال. وقيل: معناه صار فيه حب مستور كما يستر الشىء بإسبال الستر عليه. والجمع سنابل[1].

والمعنى: مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، أى: فى طاعته، كمثل حبة ألقيت فى أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأنبتت فى الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة.

فأنت ترى أن الخالق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التى يبذلها المؤمن فى سبيل الله فيكافئه الله - تعالى - عليها بالثواب العظيم، بحال الحبة التى تلقى فى الأرض النقية فتخرج عودا مستويا قائما قد تشعب إلى سبع شعب، فى كل شعبة سنبلة، وفى كل سنبلة مائة حبة. وفى هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير، ومن الترغيب فى فعل البر ولا سيما النفقة فى الجهاد فى سبيل الله.

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة. فإن هذا فيه اشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة »[2].

وقال - سبحانه -: ﴿كمثل حبة أنبتت﴾ فأسند الإنبات إلى الحبة، مع أن المنبت فى الحقيقة هو الله، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات، ولأنها هى الأصل لما تولد عنها.

ثم قال - تعالى -: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أى والله - تعالى - يضاعف الثواب والجزاء أضعافا كثيرة لمن يشاء من عباده، فيعطى بعضهم سبعمائة ضعف، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق، فمتى خرجت منه بنية خالصة، وقلب سليم، ونفس صافية، ومن مال حلال، ووضعت فى موضعها المناسب، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر، والمضاعفة لها تزيد على سبعمائة ضعف. إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ليس له حدود، وثوابه ليس له حساب معدود.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص٣٠٢، ٣٠٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣١٦.

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله واسع عليم﴾ أى والله - تعالى - عطاؤه واسع، وجوده عميم، وفضله كبير، وهو - تعالى - عليم بنيات عباده وبأقوالهم وبأفعالهم وبسائر شئونهم، فيجازى كل إنسان على حسب نيته وعمله.

وقوله - تعالى - : ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ استئناف جىء به لبيان كيفية الإنفاق الذى يحبه الله، ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم.

وقوله : ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميمتين لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة.

والمن معناه : أن يتطاول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا. كأن يقول على سبيل التفاخر والتعبير: لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمن فى اللغة على وجوه : فقد يأتى بمعنى الإنعام. يقال : قد من الله على فلان. إذا أنعم عليه بنعمه. وقد يأتى بمعنى النقص من الحق والبخس له. قال - تعالى - : ﴿وإن لك لأجرا غير ممنون﴾ أى غير مقطوع وغير ممنوع ومنه سمى الموت منونا لأنه يقطع الأعمار، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة وتكدرها، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة.

والمراد بالمن فى الآية المذموم الذى هو بمعنى «إظهار الاصطناع إليهم»[(١)].

وقال صاحب الكشاف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاله، وكانوا يقولون : إذا صنعتم صنيعة فانسوها. ولبعضهم.

وإن أمرؤ أسدى إلى صنيعة وذكرنيها إنه للئيم

وفى نوابغ الكلم : صنوان : من منح سائله ومنَّ، ومن منع نائله وضن»[(٢)] والمراد بالأذى فى الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولا يؤذيه، أو يفعل معه فعلا يسىء به إليه، وهو أعم من المن، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

وجاء العطف بثم فى الجملة الكريمة، لإظهار التفاوت الشديد فى الرتبة بين الإنفاق الذى يحبه الله، وبين الإنفاق الذى يصاحبه المن والأذى، وللإشعار بأن المن والأذى بغيضان عند

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٩.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣١١.

الإنفاق وبعده، فعلى المنفق أن يستمر فى أدبه وإخلاصه وقت الإنفاق وبعده حتى لا يذهب ثوابه، إذ المنّ والأذى مبطلان للثواب فى أى وقت يحصلان فيه.

قال الشيخ ابن المنير مبينًا أن ﴿ثم﴾ هنا تفيد استمرار الفعل بجانب إفادتها للتفاوت فى الرتبة: وعندى فيها - أى فى ثم - وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها. وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه. فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه. وعليه حمل قوله -: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أى: داوموا على هذه الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد.. وكذلك قوله هنا «ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى» أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى.. (١).

وكرر - سبحانه - النفى فى قوله: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ لتأكيده وشموله لأفراد كل واحد منهما، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى. حتى لقد قال بعض الصالحين: «لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغى بها وجه الله، فلا تسلم عليه».

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال: ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أى: لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أدبهم وإخلاصهم، عند مربيهم ومالك أمرهم، ولا خوف عليهم مما سيجدونه فى مستقبلهم، ولاهم يحزنون على ماضيهم، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته فى دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرمه.

ثم كرر - سبحانه - التحذير من المن والأذى، مناديا المؤمنين بأن يجتنبوا فى صدقاتهم هاتين الرذيلتين، مبينا أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إيذائه، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟

---

(١) حاشية تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣١١ للشيخ أحمد بن المنير.

صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

والمعنى: ﴿قول معروف﴾ بأن تقول للسائل كلاما جميلا طيبا تجبر به خاطره، ويحفظ له كرامته «ومغفرة» لما وقع منه من إلحاف فى السؤال، وستر لحاله وصفح عنه، ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أى خير من صدقة يتبعها المتصدق أذى للمتصدق عليه.

لأن الكلمة الطيبة للسائل، والستر عليه، والعفو عنه فيما صدر منه، كل ذلك يؤدى إلى رفع الدرجات عند الله، وإلى تهذيب النفوس، وتأليف القلوب وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال. أما الصدقة التى يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدى إلى ذهاب ثوابها، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم، وعلى صيانة ماء وجوههم، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرا فى نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى، لأن ألم الحرمان يخففه الصبر الذى وراءه الفرج، أما آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التى من العسير التئامها وشفاؤها.

قال القرطبى: روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «الكلمة الطيبة صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق». فعلى المسئول أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب، ويقابله بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا إن أعطى ومعذورًا إن منع. وقد قال بعض الحكماء: الق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره»[1].

وقوله: ﴿قول معروف﴾ مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لوصفها وللعطف عليها. وقوله: ﴿ومغفرة﴾ عطف عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله وقوله: ﴿خير﴾ خبر عنهما وقوله ﴿يتبعها أذى﴾ فى محل جر صفة لصدقة.

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله: ﴿والله غنى حليم﴾ أى والله - تعالى - غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات المتصدقين. وإنما أمرهم بهما لمصلحة تعود عليهم. أو غنى عن الصدقة

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٠٩.

المصحوبة بالأذى فلا يقبلها. ﴿حليم﴾ فلا يعجل بالعقوبة على مستحقها، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل.

والجملة الكريمة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

وقوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ نداء منه - سبحانه - للمؤمنين يكرر فيه نهيهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس ولذا جاء فى الحديث الشريف: «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر».

ثم أكد - سبحانه - هذا النهى عن المن والأذى بذكر مثلين فقال فى أولهما: ﴿كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

والمعنى: يا من آمنتم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها، وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى، فيكون مثلكم فى هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغى به رضاء الله ولا ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله، وكفر بحساب الآخرة.

وفى هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بهما فى إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وقوله: ﴿كالذى..﴾ الكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى: لا تبطلوها إبطالا كابطال الذى ينفق ماله رئاء الناس... أو فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿تبطلوا﴾ أى لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق ماله رئاء الناس.

وقوله: ﴿رئاء﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله أى: كالذى ينفق ماله من أجل رئاء الناس.

وأما المثال الثانى فقال - سبحانه - : ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شىء مما كسبوا﴾.

﴿الصفوان﴾ اسم جنس جمعى واحده صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشىء مما يشوبه. يقال: يوم صفوان أى صافى الشمس. وقيل هو مفرد كحجر. و﴿الوابل﴾ المطر الشديد. يقال: وبلت السماء تبل وبلا ووبولا. اشتد مطرها و﴿الصلد﴾ هو الشىء الأجرد النقى من التراب الذى كان عليه. ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعرًا، والأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئًا مأخوذ من صلد يصلد صلدا فهو صلد.

والمعنى : يأيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق فى انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئًا ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أى شىء عليه.

فالتشبيه فى الجملة الكريمة بين الذى ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتنكشف حقيقته ويراه الرائى عاريًا من أى شىء يستره. وكذلك المنافق المرائى فى إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائمًا عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه فى الجملة الكريمة بين المنفق الذى يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس، وأن الضمير فى قوله : ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى. فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذى عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتًا للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذى يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس.

والذى نراه أن عودة الضمير فى قوله : ﴿فمثله﴾ على الذى ينفق ماله رئاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور، ولأن التشبيه فى قوله : ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذى ينفق ماله رئاء الناس لأنه مفرد مثله، بخلاف قوله : ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ فإن الضمير فيه بلفظ الجمع، فمن الأولى أن يعود الضمير فى قوله : ﴿فمثله﴾ إلى المرائى لتوافقهما فى الأفراد.

ثم قال - تعالى - : ﴿لا يقدرون على شىء مما كسبوا﴾ أى أن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرون على تحصيل شىء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها، وأزال ثوابها.

أو المعنى : أن أولئك المنانين والمرائين ليس عندهم قدرة على شىء من المال الذى بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله وهو - سبحانه - الذى أنعم به عليهم، فعليهم أن يشكروه على هذه النعمة، وأن ينفقوه بدون من أو أذى أو مراءاة، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه - سبحانه -.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان.

والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبله، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالمن والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين، فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التى لا تليق بهم.

والذى ينظر فى هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المن والأذى فى ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من تشبيه لتقبيح الصدقات التى لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد فى النهى؟

والجواب عن ذلك: أن المن والأذى فى الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة فى إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف: وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحكم التى من أجلها شرعت الصدقات بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًا لأن الصدقات شرعها الله لتهذيب النفوس وتطهير القلوب ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير فى نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير فى نفس الآخذ شعورًا بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة.

ولقد تحدث الإمام الرازى عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال ما ملخصه:

وإنما كان المن مذمومًا لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك فى انكسار قلبه فيكون فى حكم المضرة بعد المنفعة، وفى حكم المسىء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثانى: أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة فى صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك.

الثالث: أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه - وأن يعتقد أن لله عليه نعما عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منة على الغير.

الرابع: أن المعطى فى الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون فى درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثر... وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسىء إلى الفقير بأن يقول له: فرج الله عنى منك، وأنت أبدا تأتى إلى بما يؤلم. إلخ[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٩.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من الأحاديث الشريفة التى نهت عن المن والأذى ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وروى النسائى عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منّان»(١).

وبعد أن بين القرآن سوء عاقبة الذين يراءون فى صدقتهم، ويفسدون ثمارها بالمن والأذى، أتبع ذلك ببيان حسن عاقبة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء رضا الله، فقال - تعالى :

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

التثبيت : تحقيق الشىء وترسيخه،

والجنة - كما يقول الراغب - كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض. وأصل الجن ستر الشىء على الحاسة، يقال : جنه الليل وأجنه أى ستره. وسميت الجنة بذلك لأنها تظلل ما تحتها وتستره. ﴿والربوة﴾ - بضم الراء وفتحها - المكان المرتفع من الأرض. وأصلها من قولهم : ربا الشىء يربو إذا ازداد وارتفع ومنه الربا للزيادة المأخوذة على أصل الشىء.

والمعنى : ومثل الذين ينفقون أموالهم طلبا لرضى الله - تعالى - ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى : وتوطينا لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وعلى ترك ما يفسدها كمثل جنة بموضع مرتفع من الأرض نزل بها مطر كثير فأخرجت ثمرها (ضعفين﴾ أى ضعفًا بعد ضعف فتكون التثنية للتكثير، أو فأعطت صاحبها أو الناس مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من المطر الغزير. أو فأخرجت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

والمقصود تشبيه نفقة هؤلاء المؤمنين المخلصين فى زكائها ونمائها عند الله بتلك الحديقة اليانعة المرتفعة التى تنزل عليها المطر الغزير فأتت أكلها مضاعفًا وأخرجت للناس من كل زوج بهيج.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣١٨.

وقوله : ﴿ابتغاء﴾ مفعول لأجله أى يبذلون نفقتهم من أجل رضا الله -عز وجل - أو حال من فاعل ينفقون. أى ينفقون أموالهم طالبين رضا الله.

وقوله : ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ معطوف على سابقه، وقد ذكر صاحب الكشاف أوجها فى معنى هذه الجملة الكريمة فقال : قوله : ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى وليثبتوا منها ببذل المال الذى هو شقيق الروح على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان، لأن النفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها، ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتا لها على الإيمان واليقين. و ﴿من﴾ على هذا الوجه للتبعيض، مثلها فى قولهم : هز من عطفه وحرك من نشاطه. ويجوز أن يراد من قوله - تعالى - : ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى : وتصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه. و ﴿من﴾ على هذا الوجه لابتداء الغاية، كقوله - تعالى - ﴿حسدا من عند أنفسهم﴾ ويحتمل أن يكون المعنى : وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه، وتعضد هذا المعنى قراءة مجاهد : وتبيينا من أنفسهم : فإن قلت : فما معنى التبعيض؟ قلت : معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معًا فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله - تعالى - : ﴿وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾(١).

وخصص الجنة بأنها بربوة لأن الأشجار فى المكان المرتفع من الأرض تكون عادة أحسن منظرا، وأزكى ثمرا، للطافة هوائها، فكان من فوائد هذا القيد إعطاء وجه الشبه - وهو تضعيف المنفعة وجمالها قوة ووضوحًا، كما أن من فوائده تحسين المشبه به تحسينا يعود أثره إلى المشبه عند السامع.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾.

والطل : هو المطر القليل وجمعه طلال، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها يكفيها.

والمراد أن هذه الجنة لطيبها وكرم منبتها تزكو وتثمر كثر المطر النازل عليها أو قل فكذلك نفقة المؤمنين المخلصين تزكو عند الله وتطيب كثرت أو قلت، لأن إخلاصهم فيها جعلها عند الله - تعالى - مضاعفة نامية.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله بما تعلمون بصير﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣١٣ بتصرف يسير.

أى أنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده لا تخفى عليه خافية، وسيجازى المخلصين بما يرضيهم كما سيجازى المنانين والمرائين بما يستحقون. ففى الجملة الكريمة ترغيب وترهيب ووعيد.

وبذلك نرى القرآن الكريم قد ساق فى هذه الآية وسابقتها حالتين متقابلتين: حالة الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء، وكيف تكون عاقبته ونهايته. وحالة الذى ينفق ماله طلبًا لرضا الله وتعويدًا لنفسه على فعل الطيبات وكيف يكون جزاؤه عند العليم الخبير ولقد صور القرآن هاتين الحالتين تصويرًا مؤثرًا بديعًا، من شأنه أن يهدى العقلاء إلى فعل الخيرات، وإخلاص النيات، واجتناب السيئات.

ثم ساق القرآن آية كريمة حذر فيها الناس من ارتكاب مانهى الله عنه وبين فيها كيف أن المن والأذى والرياء وما يشبه ذلك من رذائل يؤدى إلى ذهاب الشىء النافع من بين يدى صاحبه وهو أحوج ما يكون إليه. استمع إلى القرآن وهو يصور نهاية هذا الإنسان البائس.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

قوله: ﴿أيود﴾ هو من الود بمعنى المحبة الكاملة للشىء وتمنى حصوله، والاستفهام فيه للإنكار و﴿الإعصار﴾ ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود، وهى التى يسميها بعض الناس زوبعة. وسميت إعصارًا لأنها تعصر ما تمر به من الأجسام، أو تلتف كما يلتف الثوب المعصور. والريح مؤنثة وكذا سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ولذا قيل ﴿فيه نار﴾ أى سموم وصواعق.

والمعنى: أيحب أحدكم - أيها المنانون المراءون - أن تكون له جنة معظم شجرها ﴿من

نخيل وأعناب﴾ تجرى من تحت أشجارها ﴿الأنهار له فيها من كل الثمرات﴾ النافعة، والحال أنه قد أصابه الكبر الذى أقعده عن الكسب من غير تلك الحديقة اليانعة، وله فضلا عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها ففقدها صاحبها وهو أحوج مايكون إليها وبقى هو وأولاده فى حالة شديدة من البؤس والحيرة والغم والحسرة لحرمانه من تلك الحديقة التى كانت محط آماله.

فالآية الكريمة قد اشتملت على مثل آخر لحالة الذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمن والأذى والرياء، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والصفات السيئة فقد شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الحسنة ثم يضم إليها ما يفسدها فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة ذاهبة، شبه هذا الإنسان فى حسرته وألمه وحزنه بحال ذلك الشيخ الكبير العاجز الذى له ذرية ضعفاء لا يملك سوى حديقة يانعة يعتمد عليها فى معاشه هو وأولاده فنزل عليها إعصار فيه نار فأحرقها ودمرها تدميرًا.

وحذف - سبحانه - حالة المشبه وهو الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء وما يشبه ذلك، لظهورها من المقام.

وقد وصف - سبحانه - تلك الجنة بثلاث صفات:

وصفها أولا: بأنها من نخيل وأعناب أى معظمها من هذين الجنسين النفيسين اللذين هما أنفع الفواكه وأجملها منظرًا.

ووصفها ثانيًا: بأنها تجرى من تحتها الأنهار، أى تجرى من تحت أشجارها الأنهار التى تسر النفس. وتبهج القلب، وتزيد فى حسن الجنة وبهائها.

ووصفها ثالثًا: بأنها زاخرة بكل أنواع الثمار التى تنفع صاحبها، وتغنيه عن الاحتياج إلى غيره، فهى جنة قد جمعت بين حسن المنظر، وكثرة النفع، وهذا نهاية ما يتمناه كل إنسان لما يملكه.

أما صاحبها فقد وصفه - سبحانه - بأنه إنسان قد أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء أى أنه فى منتهى الاحتياج إليها لكبر سنه وعجزه عن الاكتساب من غيرها ولمسئوليته عن الإنفاق على أولاد صغار لا يعولهم أحد سواه.

تلك هى حالة الجنة وحالة صاحبها فى احتياجه إليها، فماذا حدث بعد ذلك؟ لقد أصابها ﴿إعصار فيه نار فاحترقت﴾ فماذا يكون حال هذا الإنسان الذى أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء وهو يرى جنته ومحط أمله قد احترقت وهو فى أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها؟

إن الكلمات لتعجز عن تصوير ما يصيب هذا البائس من غم وهم وحزن وحسرة، وهو يرى جنته قد احترقت وهو فى أشد أوقاته حاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها!؟

ولكأن الله - تعالى - يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر: احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بإرتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعًا يوم القيامة وأنتم فى أشد الحاجة إليها فى هذا اليوم العصيب، لأنكم إذا فعلتم ذلك كان مثلكم فى التحسر والحزن كمثل هذا الشيخ الكبير الذى احترقت جنته وهو فى أشد الحاجة إليها.

وإنه لتصوير قرآنى فى أسمى درجات البلاغة والتأثير، وفى أعلى ألوان التأديب والتهذيب.

قال القرطبى: روى البخارى عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يومًا لأصحاب النبى ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت وهى قوله - تعالى - : ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ الآية. قالوا الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلا لرجل غنى عمل بطاعة الله. ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق عمله. وروى ابن أبى مليكه أن عمر تلا هذه الآية وقال: هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملا صالحًا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل العمل السىء»(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أى: كما يبين الله فى هذه الآية ما يهديكم وينفعكم يبين لكم آياته وهداياته فى سائر أمور دينكم لكى تتفكروا فيما يصلحكم، وتعملوا ما يرضى خالقكم.

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتحروا فى نفقتهم الحلال الطيب، بعد أن حضهم على الإنفاق بسخاء وإخلاص.

فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢١٨.

بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

قال ابن كثير: عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - فى قول الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم﴾.. الآية قال: نزلت فى الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من نخيلها البسر فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف - أى التمر الردىء - فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك الآية»[1].

والمعنى: يأيها الذين آمنوا اجعلوا نفقتكم التى تنفقونها فى سبيل الله من أطيب أموالكم التى اكتسبتموها عن طريق التجارة وغيرها.

قال ابن عباس: أمرهم الله - تعالى - بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئة وخبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا» قال - تعالى -: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقوله: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ معطوف على ماقبله أى أنفقوا من طيبات أموالكم التى اكتسبتموها ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزروع وغيرها. وترك - سبحانه - ذكر كلمة الطيبات فى هذه الجملة لسبق ذكرها فى الجملة التى قبلها.

فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا فى نفقتهم المال الطيب فى كل وجه من وجوهه، بأن يكون جيدًا نفيسًا فى صنفه، وحلالا مشروعًا فى أصله.

وقد أكد الله - تعالى - هذا الأمر بجملتين كريمتين فقال: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٢١.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تيمموا﴾ أى ولا تقصدوا وتتعمدوا. يقال : تيممت الشيء ويممته إذا قصدته. ويقال : يممت جهة كذا إذا قصدته. ومنه الإمام لأنه المقصود المعتمد وأصل تيمموا تتيمموا فحذفت إحداهما تخفيفا.

والخبيث هو الرديء من كل شيء وخبث الفضة والحديد ما نفاه الكير لأنه ينفى الرديء. ويطلق الخبيث على الشيء الحرام والمستقذر.

والإغماض فى اللغة - كما يقول الرازى - غض النظر وإطباق جفن على جفن، وأصله من الغموض وهو الخفاء، والمراد بالإغماض هاهنا المساهلة وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك. ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة فى البيع وغيره إغماضًا»[١].

والمعنى : أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من الخبيث الرديء، والحال أنكم لا تأخذونه إن أعطى لكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تتساهلوا فى قبوله، وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا شأنكم فى قبول ما هو رديء فكيف تقدمونه لغيركم؟ إن الله - ينهاكم عن ذلك لأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه، ولا يعطى من شيء إلا ما يحب أن يعطى إليه، ففى الحديث الشريف : «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

قال الألوسى : وقوله : ﴿منه تنفقون﴾ الضمير المجرور يعود للخبيث، وهو متعلق بتنفقون، والتقديم للتخصيص، والجملة حال مقدرة من فاعل ﴿تيمموا﴾ أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه، أو من الخبيث أى مختصًا به الإنفاق، وأيا ما كان لا يرد أنه يقتضى أن يكون النهى عن الخبيث الصرف فقط مع أن المخلوط أيضًا كذلك لأن التخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطون من إنفاق الخبيث خاصة.

وقوله : ﴿ولستم بآخذيه﴾ حال من ضمير ﴿تنفقون﴾ أى : والحال أنكم لستم بآخذيه فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه إلا وقت إغماضكم فيه»[٢]

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿واعلموا أن الله غنى حميد﴾ أى واعلموا أن الله - تعالى - غنى عن صدقاتكم وإنما أمركم بها لمنفعتكم، ﴿حميد﴾ يجازى المحسن أفضل الجزاء، وهو - سبحانه - المستحق للحمد الحقيقى دون سواه، فمن الواجب عليكم أن تبذلوا فى سبيله الجيد من أموالكم شكرًا له على نعمه حتى يزيدكم من عطائه وآلائه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٦٨.
(٢) تفسير الألوسى جـ ٣ ص ٣٩ بتلخيص.

ثم حذر الله - تعالى - المؤمنين من وساوس الشيطان وخطواته فقال : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

قوله : ﴿يعدكم﴾ من الوعد، وهو فى أصل وضعه لغة شائع فى الخير والشر، وأما فى الاستعمال الشائع فالوعد فى الخير والإيعاد فى الشر. وقد استعمل هنا فى الشر نظرًا إلى أصل الوضع، لأن الفقر مما يراه الإنسان شرًا ولذلك يخوف الشيطان به المنفقين فيقول لهم : لا تنفقوا الجيد من أموالكم لأن إنفاقكم هذا يؤدى إلى فقركم ونضوب ما بين أيديكم من أموال.

والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء فى الحال ومن ضعف بسبب قلة المال، وأصل الفقر فى اللغة كسر فقار الظهر، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير تشبيها له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة، وقاصمة الظهر.

والفحشاء والفحش والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، ويرى كثير من العلماء أن المراد بالفحشاء فى الآية البخل الشديد فإن كلمة الفاحش تطلق فى لغة العرب على البخيل الشديد البخل، ومن ذلك قول طرفة بن العبد.

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد(١)

والمعنى : الشيطان يوعدكم إذا أنفقتم بالفقر وضياع الأموال ويحذركم من الصدقة بما يوسوس فى نفوسكم من شرور وآثام، ويغريكم بارتكاب المعاصى التى من أقبحها البخل الشديد، والشح المهلك، فعليكم أن تحذروه وأن تنفقوا من أموالكم فى سبيل الله ما يوصلكم إلى رضوانه ورحمته.

قال الجمل : وفى هذه الآية لطيفة وهى أن الشيطان يخوف الرجل أولا بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء وهو البخل، وذلك لأن البخل صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهى التخويف من الفقر فلهذا قال. ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾(٢).

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة - أى همة وخطرة تقع فى القلب - فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب

---

(١) يعتام : أى يختار. والعقيلة : أكرم المال. والفاحش : البخيل والمعنى : أرى الموت يختار الكرام ويختار أفضل مال البخيل ومادام الأمر كذلك فلا فائدة من البخل.

(٢) تفسير الجمل جـ١ صفحة ٢٢٣.

بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾(١).

هذا ما يعده الشيطان للإنسان، فما الذى يعده الله - تعالى - لعباده؟ لقد بين - سبحانه - ذلك فقال: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم﴾.

أى: إذا كان الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، فالله - تعالى - يعدكم مغفرة منه لذنوبكم على ما تنفقونه من أموالكم فى سبيله ففى الحديث الشريف «الصدقة تطفىء الخطيئة». ويعدكم - أيضًا - ﴿فضلا﴾ أى نماء وزيادة فى أموالكم، فإن الصدقات تزيد البركة فى الرزق فيصير القليل منه فى يد السخى كثيرًا بتوفيق الله وتأييده.

وصدر له سبحانه - الجملة بلفظ الجلالة، للإشارة إلى أن الوعد الذى وعد به المنفقين وعد حق لا يمكن أن يخالطه شك أو ريب، لأنه وعد من الله الذى لا يخلف وعده، وإذا كان الشيطان يهدد الناس بالفقر عند العطاء، ويأمرهم بالفحشاء، فالله - تعالى - يبشر عباده بمغفرته ورضوانه، بسبب إنفاقهم فى السراء والضراء ويعدهم على ذلك بالرزق الوفير، والفضل الكبير فى الدنيا والآخرة.

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله واسع عليم﴾ تأكيدًا لوعده الذى وعد به عباده المتقين المتصدقين بأن يزيدهم من فضله، أى والله - تعالى - واسع الجود والعطاء والرحمة، وسيحقق لكم ما وعدكم به من المغفرة وتضعيف ما تنفقونه، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها، وسيجازى الذين اتبعوا أوامره بجزيل الثواب، كما سيجازى الذين اتبعوا وسوسة الشيطان بسوء العذاب.

ثم قال - تعالى - : ﴿يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾.

قال الإمام الرازى: «اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل نبه على أن الأمر الذى أوجب لأجله ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم. ولاشك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ والخلل، وحكم الشهوة والنفس يوقع الإنسان فى البلاء، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول، فهذا هو وجه النظم»(٢).

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٢٩. (٢) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٧٢.

و﴿الحكمة﴾ مشتقة من حكم بمعنى منع، لأنها تمنع صاحبها من الوقوع فى الخطأ والضلال ومنه سميت الحديدة التى فى اللجام وتجعل فى فم الفرس حكمة لأنها تمنعه من الجموح. أو هى فى الأصل مصدر من الإحكام وهو الإتقان فى علم أو عمل أو قول أو فيها كلها.

والحكمة بالنسبة للإنسان صفة نفسية هى أساس المعرفة السليمة التى توافق الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهى فيه مانعة ضابطة تسير به نحو الكمال والاستقامة

وللعلماء فى المراد بها فى الآية الكريمة أقوال كثيرة أرجحها أن المراد بها إصابة الحق فى القول والعمل، أو هى العلم النافع الذى يكون معه العمل به.

والمعنى: أن الله - تعالى - الفاعل لكل شىء يؤت الحكمة لمن يشاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾ لأن الإنسان إذا أوتى الحكمة يكون قد اهتدى إلى العلم النافع، وإلى العمل الصالح الموافق لما علمه، وإلى الإيمان بالحق وإلى الاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شر، وبذلك يكون سعيدًا فى دنياه وأخراه.

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد - أى لا غبطة - إلا فى اثنتين: رجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله - تعالى - الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

ثم قال - تعالى -: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

والألباب جمع لب وهو فى الأصل خلاصة الشىء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شىء فيه.

والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة التى تخلصت من شوائب الهوى، ودوافع الشر، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة.

أى: وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية، وينتفع بثمارها إلا أصحاب العقول الراجحة والنفوس الصافية التى اهتدت إلى الحق وعملت به، والتى أنفقت فى سبيل الله أجود الأموال وأطيبها لا أصحاب العقول الفاسدة التى استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر الله، والتى ترى أن البخل بالمال هو الحكمة، وأن الإنفاق فى سبيل الله هو نوع من الإسراف والتبذير.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به مدح أولئك المؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لتوجيهات دينهم، فأصابوا الحق فى أقوالهم وأعمالهم.

ثم بين - سبحانه - أنه عليم بما ينفقه المنفقون من صدقات سواء أكانت سرًا أو جهرًا وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب فقال - تعالى - :

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

النفقة : هى العطاء العاجل فى باب من أبواب الخير. أما النذر : فهو التزام قربة من القربات أو صدقة من الصدقات بأن يقول : لله على نذر أن أفعل كذا من أنواع البر. أو إن شفى الله مريضى فسأفعل كذا.

والمعنى : وما أنفقتم - أيها المؤمنون - من نفقة عاجلة قليلة أو كثيرة، أو التزمتم بنفقة مستقبلة وعاهدتم الله - تعالى - على القيام بها، فإنه - سبحانه - يعلم كل شىء، ويعلم ما صاحب نياتكم من إخلاص أو رياء، ويعلم ما أنفقتموه أهو من جيد أموالكم أم من رديئها، وسيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته. فالآية الكريمة بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات إثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله - تعالى -

و ﴿ما﴾ فى قوله : ﴿وما أنفقتم﴾ شرطية أو موصولة والفاء فى قوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ رابطة لجواب الشرط إذا اعتبرنا ما شرطية، ومزيدة فى الخبر إذا اعتبرناها موصولة و ﴿من﴾ فى قوله : ﴿من نفقة﴾ بيانية أو زائدة.

وقوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ كناية عن الجزاء عليه، لأن علم الله - تعالى - بالكائنات لا يشك فيه السامعون، فأريد لازم معناه وهو الجزاء. وإنما كان لازما له لأن القادر لا يصده عن الجزاء إلا عدم العلم بما يفعله المحسن أو المسىء.

وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين والوعيد الشديد للمتمردين، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص، وسيحضه على المسارعة فى الخيرات، خصوصًا وإن

الجملة قد صدرت بإن المؤكدة، وتليت بلفظ الجلالة الدال على الاستحقاق الكامل للألوهية.

قال بعضهم: وإنما قال - سبحانه -: ﴿فإن الله يعلمه﴾ ولم يقل يعلمها لوجهين:

الأول: أن الضمير عائد إلى الأخير - وهو النذر -، كما فى قوله - تعالى -: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئًا﴾.

والثانى: أن الكناية عادت إلى ما فى قوله: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ لأنها اسم كقوله: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾[(1)].

وقوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ وعيد شديد للخارجين على طاعة الله أى: ليس للظالمين أى نصير أو مغيث يمنع عقوبة الله عنهم.

والمراد بالظالمين: الواضعون للأشياء فى غير موضعها التى يجب أن توضع فيها، والتاركون لما أمرهم الله به، فيندرج فيهم الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى والرياء والذين يتصدقون بالردىء من أموالهم، والذين ينفقون أموالهم فى الوجوه التى نهى الله عنها، والذين لم يوفوا بنذورهم التى عاهدوا الله على الوفاء بها كما يندرج فيهم كل من ارتكب ما نهى الله عنه أو أهمل فيما كلفه الله به.

ثم بين - سبحانه - أن الصدقة متى صدرت عن المسلم بالطريقة التى دعت إليها تعاليم الإسلام فإنها تكون مرجوة القبول عند الله - تعالى - سواء أفعلها المسلم فى السر أم فى العلن، فقال - تعالى -: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾.

الصدقات: جمع صدقة وهى ما يخرجه المسلم من ماله على جهة القربة، وتشمل الفرض والتطوع، وهى مأخوذة من الصدق بمعنى صدق النية وتخليصها من كل ما نهى الله عنه، وسمى - سبحانه - ما يخرجه المسلم من ماله صدقة لأن المال بها يزكو وينمو ويطهر.

والفاء فى قوله: ﴿فنعما هى﴾ واقعة فى جواب الشرط، و﴿نعمّا﴾ أصلها نعم ما، فأدغمت إحدى الميمين فى الأخرى، ونعم فعل ماض، وما نكرة تامة بمعنى شىء، وهى منصوبة على أنها تمييز، والفاعل ضمير مستتر فى نعم.

والمعنى: إن تبدو صدقاتكم - أيها المؤمنون - وتظهروها فنعم شيئًا إبداؤها وإعلانها، لأنه يرفع التهمة ويدعو أهل الخير إلى الاقتداء بهذا الفعل الحسن.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٧٤.

وجاء التعبير بمدح المعلنين صدقتهم بقوله «فنعما هى» للإشارة إلى أن المسلم متى دفع صدقته لمستحقيها بنية خالصة، فإنه يكون ممدوحًا من الله - تعالى - وممدوحًا من الناس الذين شاهدوا عمله الصالح.

هذه صدقة الجهر إذا خلصت من الرياء أما صدقة السر فقد أثنى الله على فاعلها بقوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أى: وإن تخفوا الصدقات وتعطوها للفقراء سرًا، دون أن يراكم أحد من الناس، فعملكم هذا خير لكم عند الله لأنكم بإخفائكم للصدقة ودفعها للفقير سرًا تكونون قد ابتعدتم عن الرياء، وسترتم حال هذا الفقير المحتاج.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أى أنه - سبحانه - يستر السيئات التى يرتكبها الشخص، ويخفيها ولا يظهرها عند إثابته إياه على فعله الحسن لأن ما فعله من حسنات مسح ما فعله من سيئات فهو كقوله - تعالى -: ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من سيئاتكم﴾ بيانية بمعنى أن الصدقات تكفر السئيات لأن المسلم إذا بذل ماله فى سبيل الله بصدق وإخلاص، كان أهلا لمثوبة الله ومغفرته، ويجوز أن تكون للتبعيض أى يكفر عنكم بعض سيئاتكم بمقدار ما قدمتم من صدقات لأن الصدقات لا تكفر جميع السيئات.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أى أن الله - تعالى - عليم علمًا دقيقًا بكل ما تعملونه أيها المؤمنون، فعليكم أن تخلصوا له أعمالكم، وأن تراقبوه فى سركم وجهركم، وأن تسارعوا فى عمل الخيرات التى ترفع درجاتكم عند خالقكم.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد مدحت صدقتى الجهر والسر متى كان المتصدق متبعًا آداب الإسلام وتوجيهاته، ومبتعدًا عن كل ما يبطل الصدقات، ويحبط الأعمال.

ثم ختمت السورة حديثها عن النفقة والمنفقين ببيان حسن عاقبة من يبذل ماله فى سبيل الله، وببيان صفات بعض المستحقين للصدقة، وببيان أن هداية البشر إنما هى بيد الله - تعالى - وحده، فقال - تعالى -:

۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ
وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ليس عليك هداهم﴾ هذا الكلام متصل بذكر الصدقات، فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين. روى سعيد بن جبير مرسلا عن النبى ﷺ فى سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم». فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام. وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم فى أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك. ثم قال : قال علماؤنا : هذه الصدقة التى أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هى صدقة التطوع، وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر، لقوله ﷺ : «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها فى فقرائكم»[1].

والمعنى : ليس عليك يا محمد هداية من خالفك فى دينك. ولكن الله - تعالى - يهدى من يشاء هدايته إلى نور الإيمان، وطريق الحق. وما دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجبه عليكم إيمانكم من سماحة فى الخلق، وعطف على المحتاجين حتى ولو كانوا من المخالفين لكم فى الدين.

وعلى هذا المعنى الذى يؤيده سبب النزول يكون الضمير فى قوله : ﴿هداهم﴾ يعود على غير المسلمين.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٣٧.

ومن المفسرين من يرى أن الضمير فى قوله : ﴿هداهم﴾ يعود إلى المسلمين المخاطبين فى الآيات السابقة، فيكون المعنى : لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل المسلمين جميعًا مهديين إلى الإتيان بما أمروا به ومنتهين عما نهوا عنه من ترك المن والأذى والرياء فى صدقتهم، ولكن الله وحده هو الذى يهدى من يشاء هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.

قال الآلوسى : وعلى هذا الرأى تكون الجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين ﷺ مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال. . ثم قال : «والذى يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير ﴿هداهم﴾ إلى الكفار، وحينئذ لا التفات، وإنما هناك تلوين الخطاب فقط. . . .»[1].

ثم حض - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق فى وجوه الخير فقال : ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أى : ما تقدمونه من مال فى وجوه البر - أيها المؤمنون - فإن نفعه سيعود عليكم بالسعادة فى الدنيا، وبالثواب الجزيل فى الآخرة، فكونوا أسخياء فى الإحسان إلى الفقراء، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذى ﴿يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

و«ما» شرطية جازمة لتنفقوا، وهى منتصبة به على المفعوليه، و«من» للتبعيض وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل الشرط والتقدير : أى شىء تنفقوا كائنا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به فى الآخرة غيرها.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ يحتمل وجوها.

الأول : أن يكون المعنى : ولستم فى صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله، فقد علم الله هذا من قلوبكم، فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبغون بذلك وجه الله فى صلة رحم وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم.

الثانى : أن هذا وإن كان ظاهره خبرًا إلا أن معناه نهى أى : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله.

الثالث : أن قوله : ﴿وما تنفقون﴾ أى ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذى يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله. وفى ذكر الوجه تشريف عظيم لأنك إذا قلت : فعلت هذا الشىء لوجه زيد فهو أشرف فى الذكر من قولك : فعلته له لأن وجه الشىء أشرف ما فيه، ثم كثر حتى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٤٥ بتصرف وتلخيص.

صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ، وأيضًا فإن قولك : فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت الفعل له فقط وليس لغيره فيه شركة[١].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أى : أن ما تنفقونه من خير - أيها المؤمنون ستعود عليكم ثماره ومنافعه فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنكم بسبب هذا الانفاق تزكو أموالكم، وتحسن سيرتكم بين الناس، وأما فى الآخرة فإنكم تنالون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب، وأفضل الدرجات.

وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أى لا تنقصون شيئا مما وعدكم الله به على نفقتكم فى سبيله.

قال الجمل. وهاتان الجملتان أى قوله - تعالى - ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهى قوله : ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾. وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ جملة من مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿إليكم﴾ فالعامل فيها ﴿يوف﴾ وهى تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله : ﴿يوف إليكم﴾ لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا. ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم فى طاعة الله - تعالى - اندراجًا أوليًا»[٢].

هذا، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وردت فى الحض على بذل المال فى وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل ﴿تنفقون﴾ ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجىء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكى يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال.

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال فى وجوه الخير، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هى أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة فى اكرام أفرادها وسد حاجتهم.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويرا كريما نبيلا يستجيش المشاعر، ويحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول : ﴿للفقراء، الذين احصروا فى سبيل الله، لا يستطيعون ضربا فى الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافًا﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٣.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٢٥٥. بتصرف يسير.

لقد وصفهم الله - تعالى - أولا بالفقراء، أى الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضرورات الحياة.

وقوله : ﴿للفقراء﴾ متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق والتقدير : اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه للإنفاق فى سبيل الله، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد.

والجملة استئناف بيانى، فكأنهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هى؟ فأجيبوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم.

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق : تعليم المؤمنين الأدب فى عطائهم للفقراء بأن لا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف، وأيضًا ففى هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذى قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

قال القرطبى : والمراد بهؤلاء الفقراء، فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر. وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر، لأنه لم يكن هناك سواهم، وهم أهل الصفة »[1] وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولأمال فبنيت لهم صفة فى المسجد النبوى بالمدينة فقيل لهم : «أهل الصفة[2].

أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهى قوله - تعالى - : ﴿الذين أحصروا فى سبيل الله﴾.

والإحصار فى اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء.

والمعنى : اجعلوا الكثير مما تنفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الطاعات المتنوعة التى من أعظمها الجهاد فى سبيل الله، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم، أو غير ذلك من الأسباب التى جعلتهم فى حالة شديدة من الفاقة والاحتياج.

وعبر فى الجملة الكريمة «بأحصروا» بالبناء للمجهول، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم فى مباشرة الأسباب، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم.

---

(١) الصفة - بضم الصاد وتشديد الفاء - اسم لموضع بناه النبى ﷺ فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة لإعلاء كلمة الله.

(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٣٩.

وقوله : ﴿فى سبيل الله﴾ تكريم وتشريف لهم، أى أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إيثارهم إعلاء كلمة الله على أى شىء آخر، ففى سبيل الله هاجروا، وفى سبيل الله تركوا أموالهم فصاروا فقراء، وفى سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد، وفى سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه.

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها ﴿لا يستطيعون ضربا فى الأرض﴾ والضرب فى الأرض هو السير فيها للتكسب والتجارة وغيرهما.

أى أنهم عاجزون عن السير فى الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم.

والصفة الرابعة من صفاتهم هى قوله - تعالى - : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾.

والتعفف : ترك الشىء والتنزه عن طلبه، بقهر النفس والتغلب عليها. يقال عف عن الشىء يعف إذا كف عنه. والحسبان بمعنى الظن.

أى يظنهم الجاهل بحالهم، أو الذى لا فراسة عنده، يظنهم أغنياء من أجل تجملهم وتعففهم عن السؤال، أما صاحب الفراسة الصادقة، والبصيرة النافذة؛ فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره.

و﴿من﴾ فى قوله : ﴿من التعفف﴾ للتعليل، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان.

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهى قوله - تعالى - : ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ والسيما والسيماء : العلامة التى يعرف بها الشىء، وأصلها من الوسم بمعنى العلامه.

والمعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى فى هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قال مجاهد : «سيماهم» التخشع والتواضع. أى - تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى : - تعرفهم بسيماهم - أى بأثر الجهد من الفقر والحاجة. وقال الضحاك : أى بصفرة ألوانهم ورثاثة ثيابهم... ثم قال - رحمه الله - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شىء آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعًا فى قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم، وذلك له إدراكات روحانية، لا علامات جسمانية. ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة، لأن الظاهر أن تلك التجربة

ما وقعت، والبازى إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا... »[١].

وقد ذكر - سبحانه - فى الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففهم عن السؤال، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم، وذلك للإشعار بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فراستهم ونفاذ بصيرتهم. فأصحاب الأنظار التى تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء، أما أصحاب البصيرة المستنيرة، والحس المرهف، والفراسة الصائبة، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج، بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ، وفى الحديث الشريف : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[٢].

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهى قوله - تعالى - : ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ والإلحاف - كما يقول صاحب الكشاف : هو الإلحاح بأن لا يفارق - السائل المسئول - إلا بشيء يعطاه. من قولهم : لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده. ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا. وقيل هو نفى للسؤال والإلحاف »[٣].

والذى عليه المحققون من العلماء أن النفى منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلا تعففًا منهم، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين، ولو كانوا يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس فى سماتهم لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك.

وإنما جاء النفي بهذه الطريقة التى يوهم ظاهرها أن النفى متجه إلى الإلحاف وحده، للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافًا فهم لا يسألون مطلقًا لا بإلحاف ولا بدونه، والنفى بهذه الطريقة فيه تعريض للملحفين وثناء على المتعففين. ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون البتة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافًا والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافًا، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام، والآخر طياش مهذار سفيه، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بذم الآخر قلت : فلان رجل عاقل وقور لا يخوض فى الترهات ولا يشرع فى السفاهات، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض فى الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغنى عن ذلك، بل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٤
(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٢٨.

غرضك التنبيه على مذمة الثانى. فالأمر هنا كذلك لأن قوله : ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ بعد قوله : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر فى استيجاب المدح والتعظيم »[1].

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال، وتذم الملحفين فيه ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذى يتعفف. اقرؤا إن شئتم : ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾.

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم ».

وروى مسلم - أيضًا - فى صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ فقلنا علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. والصلوات الخمس، وتطيعوا ولا تسألوا الناس. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدًا يناوله إياه ».

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه، لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه.

وقوله : ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ تحريض للمؤمن على البذل والسخاء، وترقية لنفسه على الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير.

أى : وما تنفقوا من خير سواء أكان المنفق قليلا أم كثيرًا سرًا أم علنًا فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب، وأعظم العطاء.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقوله : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية﴾ استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقاتهم فى كل الأزمان وفى كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين فى الليل وفى النهار، فى الغدو وفى الآصال، فى السر وفى العلن، فى كل وقت وفى كل حال، لأنهم لقوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله تعالى.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٧.

وقد بين الله - تعالى - فى ثلاث جمل حسن عاقبتهم، وعظيم ثوابهم فقال فى الجملة الأولى ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أى فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم.

والجملة الكريمة خبر لقوله: ﴿الذين ينفقون...﴾ ودخلت الفاء فى الخبر لأن الموصول فى معنى الشرط فتدخل الفاء فى خبره جوازًا، وللدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق فى سبيل الله.

وقال فى الجملة الثانية ﴿ولا خوف عليهم﴾ أى: لا خوف عليهم من أى عذاب لأنهم فى مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح.

وقال فى الجملة الثالثة: ﴿ولاهم يحزنون﴾ أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن والهم والغم، لأنهم دائمًا فى اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا، وبدرهم نهارًا وبدرهم سرًا، وبدرهم علانية فقال له النبى ﷺ: «ما حملك على ذلك؟ فقال: أريد أن أكون أهلا لما وعدنى ربى. فقال ﷺ: لك ذلك» فأنزل الله هذه الآية[1].

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهى تنطبق على كل من بذل ماله فى سبيل الله فى عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد: فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله - تعالى - ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل...﴾ وانتهت بقوله - تعالى -: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم...﴾.

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق فى سبيل الله بأبلغ الأساليب، وأحكم التوجيهات، وأفضل الوسائل، كما يراها بينت أحكام الصدقة وآدابها، والآفات التى تذهب بخيرها وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها، وطريقة أدائها. وأولى الناس بها ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعففين، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضًا بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها الله لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا الله ومثوبته فى أخراهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين أتبعها بصورة مضادة لها

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٨٨.

وهى صورة الربا والمرابين. ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال فى وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق، أما الربا فهو إخراج المال فى وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتيجتها الرخاء والنماء والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعامل والتكامل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتيجته محق البركة من المال، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نفر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيرًا شديدًا وحذرهم من سوء عاقبته تحذيرًا مؤكدًا فقال - تعالى - :

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ
مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ
فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

وقوله - تعالى - : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس...﴾ استئناف قصد به الترهيب من تَعاطى الربا، بعد الترغيب فى بذل الصدقة لمستحقيها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازى - عبارة عن تنقيص المال - فى الظاهر - بسبب أمر الله بذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا متضادين.

والأكل فى الحقيقة. ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشيء وأخذه بحرص وهو المراد هنا. وعبر عن التعامل بالربا بالأكل، لأن معظم مكاسب الناس تنفق فى الأكل.

والربا فى اللغة : الزيادة مطلقًا، يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ونما، ومنه قوله - تعالى - : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت...﴾ أى : زادت.

وهو فى الشرع : - كما قال الألوسى - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض فى معاوضة مال بمال.

وقوله : ﴿يتخبطه﴾ : من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق. يقال : خبطته أخبطه خبطًا أى ضربته ضربًا متواليًا على أنحاء مختلفة. ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه ويقال للذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء. قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

والمس : الخبل والجنون يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون. وأصل المس اللمس باليد، ثم استعير للجنون، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه.

والمعنى : ﴿الذين يأكلون الربا﴾ أى يتعاملون به أخذا وإعطاء ﴿لا يقومون﴾ يوم القيامة للقاء الله إلا قيامًا كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه، وتخبط الشيطان له، وذلك لأنه يقوم قيامًا منكرًا مفزعا بسبب أخذه الربا الذى حرم الله أخذه.

فالآية الكريمة تصور المرابى بتلك الصورة المرعبة المفزعة، التى تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا.

وهنا نحب أن نوضح أمرين:

أما الأمر الأول: فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك.

قال الآلوسى: وقيام المرابى يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار، فقدأخرج الطبرانى عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إياك والذنوب التى لا تغفر. الغلول فمن غل شيئًا أتى به يوم القيامة، وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط» ثم قرأ الآية، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له... ثم قال. وقال ابن عطية: المراد تشبيه المرابى فى حرصه وتحركه فى اكتسابه فى الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة: قد جن، ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ولما روى عن رسول ﷺ من غير داع سوى الاستبعاد الذى لا يعتبر فى مثل هذه المقامات»(١).

والذى نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا فى قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشرههم فى جمع المال، ووساوسهم التى لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون فى مصير أموالهم.... ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين فى أقوالهم وحركاتهم. أما فى الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم.

وقد رجح الإمام الرازى أن الآية الكريمة تصور حال المرابى فى الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه: «إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله، ومن كان كذلك كان فى أمر الدنيا متخبطًا... وآكل الربا بلا شك أنه يكون مفرطًا فى حب الدنيا متهالكا فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجابًا بينه وبين الله - تعالى -، فالخبط الذى كان حاصلا له فى الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط فى الآخرة وأوقعه فى ذل الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندى من غيره»(٢).

وأما الأمر الثانى: فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه فى الآية الكريمة على

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٤٩.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص ٩٦.

الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون.

ولكن الزمخشرى ومن تابعه ينكرون ذلك، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشرى فى تفسيره : وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. والمس الجنون، ورجل ممسوس - أى مجنون -. وهذا أيضًا من زعماتهم، وأن الجنى يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات »[1].

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشرى ومن تابعه الإمام القرطبى فقد قال : «وفى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون منه مس. وقد روى النسائى عن أبى اليسر قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : اللهم إنى أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك من أن يتخبطنى الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرًا وأعوذ بك أن أموت لديغًا»[2].

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ومعنى قول الزمخشرى أن تخبط الشيطان من زعمات العرب، أى من كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها، كما يقال فى الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخبط - الشيطان بالقدرية - أى المعتزلة - فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال : واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشارع عنها، والقدرية ينكرون كثيرًا مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم. . من ذلك السحر، وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن. وإن اعترفوا بشىء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبىء عنه ظاهر الشرع فى خيط طويل لهم،[3] والذى نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون، ولأنه لا يسوغ لنا أن تؤول القرآن بغير ظاهره بسبب اتجاه دليل عليه.

وقوله : ﴿من المس﴾ متعلق بيقومون أى لا يقومون من المس الذى حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ١ ص ٣٢٠.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٥٥.
(٣) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ١ ص ٣٢٠ من الكشاف.

وقوله - تعالى - : ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ بيان لزعمهم الباطل الذى سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه.

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم. والمعنى : ذلك الأكل الذى استحلوه عن طريق الربا، أو ذلك العذاب الذى حل بهم والذى من مظاهره قيامهم المتخبط، سببه قولهم إن البيع الذى أحله الله يشابه الريا الذى نتعامل به فى أن كلا منهما معاوضة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشىء الذى لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين؟ قلت : جىء به على طريق المبالغة. وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونًا فى الحل حتى شبهوا به البيع»(١).

وقوله : ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ جملة مستأنفة، وهى رد من الله - تعالى - عليهم، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع.

قال الآلوسى : وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم : أن ما ذكرتم - من أن الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان، على أن بين البابين فرقًا، وهو أن من باع ثوبًا يساوى درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلا لدرهمين فلا شىء منهما إلا وهو فى مقابلة شىء من الثوب. وأما إذا باع درهما بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض، ولا يمكن جعل الإمهال عوضا إذ الإمهال ليس بمال فى مقابلة المال»(٢).

وقوله : ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله﴾. تفريع على الوعيد السابق فى قوله : ﴿الذين يأكلون الربا..﴾ إلخ».

والمجىء بمعنى العلم والبلاغ، والموعظة : ما يعظ الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره.

أى : فمن بلغه نهى الله - تعالى - عن الربا، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه، ﴿فله ما سلف﴾ أى فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه.. لأن الله - تعالى - يقول بعد ذلك ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم..﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٢١.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٥٠.

وقوله : ﴿وأمره إلى الله﴾ أى أمر هذا المرابى الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده، أمره مفوض إلى الله - تعالى - فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه.

قال ابن كثير: قوله ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ .. إلخ أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله : ﴿عفا الله عما سلف﴾ وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة : «وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس، ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال - تعالى - : ﴿فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ أى فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم»[1].

و «من» فى قوله : ﴿فمن جاءه موعظة﴾ شرطية وهو الظاهر، ويحتمل أن تكون موصولة. وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء، وقوله : ﴿فله ما سلف﴾ هو الجزاء أو الخبر، و ﴿موعظة﴾ فاعل جاء، وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل أو تكون الموعظة هنا بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر

وقوله: ﴿من ربه﴾ جار ومجرور متعلق بجاءه، أو بمحذوف وقع صفة لموعظة

وفى قوله : ﴿من ربه﴾ تفخيم لشأن الموعظة، وإغراء بالامتثال والطاعة لأنها صادرة من الله - تعالى - المربى لعباده.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده، لأنه - سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى، ولم يجعل تشريعه بأثر رجعى بل جعله للمستقبل، إذ الإسلام يجب ما قبله. فما أكله المرابى قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم، وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الربا.

ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى التعامل بالربا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

أى ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد أن نهى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها، والماكثون فيها بسبب تعديهم لما نهى الله عنه.

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله، والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير، بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة، وبكلمة

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٧.

﴿خالدون﴾ التى تدل على طول المكث.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين، وحسن عاقبة المتصدقين فقال: ﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات.

والمحق: النقصان والإزالة للشيء حالا بعد حال، ومنه محاق القمر، أى انتقاصه فى الرؤية شيئًا فشيئًا حتى لا يرى، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شيء.

أى: أن المال الذى يدخله الربا يمحقه الله، ويذهب بركته، أما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه.

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: اعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالربا تحصيل المزيد من الخيرات، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال، لما كان الأمر كذلك بين - سبحانه - أن الربا، وإن كان زيادة فى الحال إلا أنه نقصان فى الحقيقة، وأن الصدقة وإن كانت نقصانًا فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى، واللائق بالعاقل أن لا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعى والصوارف، بل يعول على ما أمر به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون فى الدنيا وأن يكون فى الآخرة. أما محق الربا فى الدنيا فمن وجوه:

أحدها: أن الغالب فى المرابى وإن كثر ماله أن تؤول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه، ففى الحديث: الربا وإن كثر فإلى قل.

وثانيها: إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص وسقوط العدالة وزوال الأمانة.

وثالثها: إن الفقراء يلعنونه ويبغضونه بسبب أخذه لأموالهم...

ورابعها: أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون: إن ذلك المال ليس له فى الحقيقة فلا يترك فى يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق فى الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهادًا ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقى هو العقاب وذلك هو الخسران الأكبر.

وأما إرباء الصدقات فى الدنيا فمن وجوه: منها: أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم فى ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتنقطع عنه الأطماع.

وأما إرباؤها فى الآخرة فقد روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله - تعالى - يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم مهره، أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»[1].

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين، وتهديد شديد للمرابين ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾.

و ﴿كفار﴾ فعيل بمعنى فاعل فهى صيغة مبالغة من آثم، والأثيم هو المكثر من ارتكاب الآثام المبطىء عن فعل الخيرات.

أى: أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجحود لها، والتمادى فى ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه، وهم فى الحالتين آثمون معاقبون، يعيدون عن محبة الله ورضاه. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين فى إيمانهم، والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له.

وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال - تعالى -:

﴿إن الذين آمنوا﴾ أى إيمانًا كاملا بكل ما أمر الله به ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الأعمال الصالحة التى تصلح بها نفوسهم والتى من جملتها الإحسان إلى المحتاجين، والابتعاد عن الربا والمرابين ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بالطريقة التى أمر الله بها، بأن يؤدوها فى أوقاتها بخشوع واطمئنان ﴿وآتوا الزكاة﴾ أى أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس.

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أى لهم ثوابهم الكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم.

﴿ولا خوف عليهم﴾ يوم الفزع الأكبر ﴿ولا هم يحزنون﴾ لأى سبب من الأسباب، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ورضوان من الله - تعالى - يجعلهم فى فرح دائم، وفى سرور مقيم.

ثم ينتقل القرآن إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله، وينهاهم عن التعامل بالربا فيقول: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أى اخشوه وصونوا أنفسكم عن الأعمال

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٠٢.

والأقوال التى تفضى بكم إلى عقابه.

وقوله: ﴿وذروا ما بقى من الربا﴾ أى: اتركوا ما بقى فى ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رءوس أموالكم فحسب، فهذا مقابل لقوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿فله ما سلف﴾ أى ما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم، وما لم تقبضوه فأنتم مأمورون بتركه.

وقوله: ﴿من الربا﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل ﴿بقى﴾ أى اتركوا الذى بقى حال كونه بعض الربا، ومن للتعيض. أو متعلق ببقى.

و ﴿ذروا﴾ فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل، وأصله «وذروا» فحذفت فاؤه، والماضى منه «وذر».

وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ حض لهم على ترك الربا أى إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فامتثلوا أمر الله وذروا ما بقى من الربا مما زاد على رءوس أموالكم.

قال ابن كثير: نزل هذا السياق فى بنى عمرو بن عمير بن ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا. وقالت بنو المغيرة: لا نؤدى فى الإسلام، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - ﷺ - فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه. فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل من استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار»(١) ثم هدد الله - تعالى كل من يتعامل بالربا تهديدًا عنيفًا فقال: ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾.

أى: فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئًا بعد نهيكم عن ذلك، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا.

وقوله: ﴿فأذنوا﴾ من أذن بالشيء يأذن إذا علمه. وقرئ ﴿فآذنوا﴾ من آذنه الأمر وآذنه به: أعلمه إياه: أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله.

وتنكير «حرب» للتهويل والتعظيم أى فكونوا على علم ويقين من أن حربا عظيمة ستنزل عليكم من الله ورسوله.

قال بعضهم: والمراد المبالغة فى التهديد دون نفس الحرب. وقال آخرون: المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٠ بتصرف يسير.

وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة. وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة. وقال ابن عباس: من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فبها وإلا ضرب عنقه(١).

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال: ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

أى: وإن تبتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله، فلكم رءوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها، وبذلك لا تكونون ظالمين لغرمائكم، ولا يكونون ظالمين لكم، لأن من أخذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطًا ومتفضلا، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقا فى معاملته.

ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدون منه ديونهم فقال - تعالى -: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾.

والعسرة: اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال يقال: أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال.

والنظرة: اسم من الإنظار بمعنى الإمهال. يقال: نظره وانتظره وتنظره، تأنى عليه وأمهله فى الطلب.

والميسرة: مفعلة من اليسر الذى هو ضد الإعسار. يقال: أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله.

والمعنى: وإن وجد مدين معسر فأمهلوه فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له: إما أن تقضى وإما أن تربى أى تدفع زيادة على أصل الدين.

و ﴿كان﴾ هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال. وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين وإن لم يذكر وذلك على قراءة ﴿ذا عسرة﴾ بالنصب وقوله: ﴿فنظرة﴾ الفاء جواب الشرط. ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة.

ثم حبب - سبحانه - إلى عباده التصدق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٠٦.

المعسرين فقال - تعالى - : ﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

أى : وأن تتركوا للمعسر كل أو بعض ما لكم عليه من ديون وتتصدقوا بها عليه، فإن فعلكم هذا يكون أكثر ثوابا لكم من الإنظار.

وجواب الشرط فى قوله : ﴿إن كنتم تعلمون﴾ محذوف. أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصدق خير لكم فلا تتباطؤا فى فعله، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصدق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله - تعالى -.

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التى تحض على إمهال المعسر، والتجاوز عما عليه من ديون.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قال : «من نفس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة».

وروى الطبرانى عن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر»[1].

ثم ساق - سبحانه - فى ختام حديثه على الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال، وبالاستعداد للآخرة وما فيها من حساب فقال - تعالى - : ﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

أى : واحذروا أيها المؤمنون يوما عظيما فى أهواله وشدائده، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم، ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله، ولا يظلم ربك أحدا.

فالآية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يبتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى -.

قال الآلوسى : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هى آخر ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن. واختلف فى مدة بقائه بعدها. فقيل : تسع ليال. وقيل : سبعة أيام. وقيل : واحدا وعشرين يومًا. وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الربا وآية الدين..»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٣١.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ صفحة ٥٤.

هذا، والمتدبر فى هذه الآيات التى وردت فى موضع الربا، يراها قد نفرت منه تنفيرًا شديدًا، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات، وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهات تفزع منها النفوس، وتشمئز منها القلوب، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا فى معاملاتهم ما شرعه الله لهم، وأن يتسامحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به.

وقد تكلم الفقهاء[1] وبعض المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمة تحريمه كلاما مستفيضا، قال بعضهم : الربا قسمان : ربا النسيئة، وربا الفضل.

فربا النسيئة : هو الذى كان معروفا بين العرب فى الجاهلية، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوه فى موعد معين، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملا، فإن تعذر الأداء زادوا فى الحق وفى الأجل.

وربا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين، أو دينار بدينارين، أو رطل من العسل برطلين، أو كيلة من الشعير بكيلتين.

وكان ابن عباس فى أول الأمر لا يحرم إلا ربا النسيئة وكان يجوز ربا الفضل اعتمادًا على ما روى من أن النبى ﷺ قال : «إنما الربا فى النسيئة» ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبى ﷺ قال : الحنطة بالحنطة مثلا بمثل يدا بيد» رجع عن قوله. لأن قوله ﷺ : «إنما الربا فى النسيئة» محمول على اختلاف الجنس فإن النسيئة حينئذ تحرم ويباح التفاضل كبيع الحنطة بالشعير. تحرم فيه النسيئة ويباح التفاضل.

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الربا فى القسمين : أما ربا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما فى قوله - تعالى - : ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.

وأما ربا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذى رواه عبادة ابن الصامت أن النبى ﷺ قال : «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير والتمر بالتمر. والملح بالملح. مثلا بمثل، سواء بسواء، يدًا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يدًا بيد».

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع. وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها فى العلة. وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر..»[2].

---

(١) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٤٧. وتفسير المنار جـ٣ صفحة ١٠٦.
(٢) تفسير آيات الأحكام - بتصرف وتلخيص - للشيخ محمد على السايس جـ١ صفحة ١٦١.

ومن الحكم التى ذكرت فى أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ مال الغير بدون عوض، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق فى الكسب والتجارة والصناعة، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا -.

ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى التحذير من تعاطى الربا ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبيد الله قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه».

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا فى التصدق على المحتاجين، وأن يجتنبوا الربا والمرابين، وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإنفاق فى وجوه الخير، وتمحق وتذهب بتعاطى الربا، بعد أن وضح كل ذلك ساق لهم آية جامعة، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق، وأشرف وسيلة، وأن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئا من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا. استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ

مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

قال ابن كثير: قوله - تعالى -: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على ذلك فى آخر الآية حيث قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا﴾ وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم﴾. الآية. وثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله ﷺ «من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»(١).

ومعنى ﴿تداينتم﴾: تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضا. وحقيقة الدين - كما يقول القرطبى - «عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر فى الذمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدين ما كان غائبا»(٢).

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٣٣٤.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٣٧٧.

والأجل فى اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره. وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه فى المستقبل. وأصله من التأخير، يقال: أجل الشيء يأجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضا بالدين إلى وقت معين فاكتبوا هذا الدين، لأن فى هذه الكتابة حفظًا له، وضبطًا لمقداره، ومنعًا للتنازع من أن يقع بينكم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأى حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت: ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه فى قوله: ﴿فاكتبوه﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿مسمى﴾ قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام. ولو قال: إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية»[1].

وجمهور العلماء على أن الأمر فى قوله «فاكتبوه» للندب، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك ﴿فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذى اؤتمن أمانته﴾ ولأن النبى ﷺ لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها.

وقال الظاهرية: إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان آثمًا، لأن الأصل فى الأمر أنه للوجوب..

وقوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى: عليكم أيها المؤمنون إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط موافقًا لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق، وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين فى كتابته، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصًا تتوفر فيه إجادة الكتابة، والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوفر فيه الاستقامة وتحرى الحق. ومفعول ﴿يكتب﴾ محذوف ثقة بانفهامه أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالظرف بينكم للإيذان بأنه ينبغى للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين، لأن فى هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٢٥.

والجار والمجرور وهو ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين. أو متعلق بالفعل يكتب. أى : وليكتب بالحق.

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادرًا على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾.

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهما بالطريقة التى علمه الله إياها أن يتحرى العدل والحق فى كتابته، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

فالكاف فى قوله - تعالى - : ﴿كما علمه الله﴾ نعت لمصدر محذوف والتقدير : فليكتب كتابة مثل ما علمه الله - تعالى - بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها.

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها، فعليه أن ينفع غيره بها، فهو كقوله - تعالى - : ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ وفى الحديث الشريف «إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق» وفى حديث آخر : «من كتم علمًا يعلمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»(١).

وقوله : ﴿فليكتب﴾ تفريع على قوله «ولا يأب كاتب» أى : فليكتب الكتابة التى علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : ﴿ولا يأب كاتب﴾. ويجوز أن يكون توكيدًا للأمر الصريح فى قوله : ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾.

قال القرطبى : واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد. فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب. وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر فيه على كاتب غيره فيضر صاحب الدين إن امتنع، فإن كان كذلك فهو فريضة، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره»(٢).

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة فى الدين، وبينت كيفية الكتابة، وأشارت إلى إجادة الكاتب لها، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى إليها. ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال - تعالى - : ﴿وليملل الذى عليه الحق، وليتق الله ربه، ولا يبخس منه شيئًا﴾.

والإملال معناه الإملاء. فهما لغتان معناهما واحد. وقد جاء القرآن باللغتين قال - تعالى - : ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٣٥. (٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص٣٨٥.

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين، وذلك ليكون إملاؤه إقرارًا به وبالحقوق التى عليه الوفاء بها. وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئًا، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - .

وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يملى على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه، ولأنه لو أفلس الدائن فربما يزيد فى الدين، أو يملى شيئًا ليس محل اتفاق بينه وبين المدين، ولأن المدين فى الغالب فى موقف ضعيف فأعطاه الله -تعالى- حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره، ولكنه فى الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله وعدم الانقاص من الدين الذى عليه، وإن ذلك لتشريع عادل حكيم لا ظلم فيه لا للدائن ولا للمدين.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذى عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال - تعالى - : ﴿فإن كان الذى عليه الحق﴾ وهو المدين ﴿سفيهًا﴾ أى جاهلا بالإملاء أو ناقص العقل، أو متلافًا مبذرًا لا يحسن تدبير أمره».

﴿أو ضعيفًا﴾ بأن يكون صبيًا أو شيخًا تقدمت به الشيخوخة.

﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ بأن يكون عييًا أو أخرس أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات.

﴿فليملل وليه بالعدل﴾ أى فعلى ولى أمره أو من يهمه شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحريًا الحق والعدل فيما يكلف به.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها فى شأن الديون، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فقال - تعالى - : ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقًا وتثبيتًا. والسين والتاء فى قوله : «واستشهدوا» للطلب.

قال الألوسى : «وفى اختيار صيغة المبالغة فى ﴿شهيدين﴾ للإيماء إلى من تكررت منه

قال الألوسى : «وفى اختيار صيغة المبالغة فى ﴿شهيدين﴾ للإيماء إلى من تكررت منه
الشهادة، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكأن فيه رمزًا إلى العدالة، لأنه لايتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك. والأمر للندب أوللوجوب على الخلاف على ذلك»[1].

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص٥٧.

وقوله : ﴿من رجالكم﴾ متعلق بقوله : ﴿واستشهدوا﴾ ومن لابتداء الغاية ويجوز أن يكون متعلقًا بمحذوف صفة لشهيدين ومن للتبعيض، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام فى معاملتهم.

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾.

وقوله : ﴿ممن ترضون﴾ متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان. أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائنون مرضيون عندكم بعدالتهم.

وهذا الوصف وإن كان فى جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشديد فى اعتباره، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوفر كثيرًا.

وقوله : ﴿من الشهداء﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المفعول المقدر فى ﴿ترضون﴾ العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم، وثقتكم بهم.

وقوله - تعالى - : ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضيًا فى دينه وخلقه ولكنه قد يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته فى وقت الحاجة إليها، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه فى الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصى، فجاء - سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكى يقول للناس. اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم، ويقيمون الشهادة على وجهها الحق بدون التأثر بأى نوع من أنواع المؤثرات.

هذا، وشهادة النساء مع الرجال تجوز عند الحنفية فى الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شىء إلا الحدود والقصاص. وعند المالكية تجوز فى الأموال وتوابعها خاصة، ولا تقبل فى أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة.

ثم بين - سبحانه - العلة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل فى الشهادة فقال : ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾.

قال القرطبى : معنى تضل تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا »[1].

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٣٩٧.

واحدة منهما الأخرى. إذ المرأة لقوة عاطفتها، وشدة انفعالها بالحوادث، قد تتوهم ما لم تر، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى فى الشهادة بحيث يتذكران الحق فيما بينهما.

والعلة فى الحقيقة هى التذكير، ولكن الضلال لما كان سببًا فى التذكير، نزل منزلة العلة. وذلك كأن تقول: أعددت السلاح خشيه أن يجىء العدو فأدفعه، فإن العلة هى الدفاع عن النفس، ولكن لما كان مجىء العدو سببًا فيه نزل منزلته.

وكما أمر الله - تعالى - الكتاب فى أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة أمر الشهود أيضًا بعدم الامتناع عن الشهادة فقال - تعالى -: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أى: ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعوا إليها، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدى إلى ضياع الحقوق. والله - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق، ونشر العدل بين الناس، فعلى من اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما أمرهم الله - تعالى -.

ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال: ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله﴾.

السأم: الضجر والملل. يقال: سئمت الشىء أسأمه سأمًا وسآمة أى مللته وضجرته.

والمعنى: وعليكم أيها المؤمنون أن لا تملوا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيرًا أم صغيرًا، لأن الكتابة فى الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم، ولأن الدين قد يكون صغيرًا فى نظر الغنى الملىء، إلا أنه كبير فى نظر الفقير المعسر، ولأن التهاون فى شأن الدين الصغير قد يؤدى إلى التهاون فى شأن الدين الكبير، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وأن تكتبوا ما بينكم من ديون.

والضمير فى قوله: ﴿أن تكتبوه﴾ يعود إلى الدين أو إلى الحق، وقوله: ﴿صغيرًا أو كبيرًا﴾ حالان من الضمير. أى لا تسأموا أن تكتبوه على كل حال قليلا أو كثيرًا، وقدم الصغير على الكبير اهتمامًا به وانتقالا من الأدنى إلى الأعلى.

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله - تعالى - به، فقال: ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾.

واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى كل ما سبق ذكره فى الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتناع عنهما، ومن تحرى الحق والعدل.

و ﴿أقسط﴾ بمعنى أعدل. يقال: أقسط فلان فى الحكم يقسط إقساطًا إذا عدل فهو مقسط.

قال - تعالى - : ﴿إن الله يحب المقسطين﴾. ويقال : هو قاسط إذا جار وظلم. قال - تعالى - : ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾.

أى : ذلكم الذى شرعناه لكم فى أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل فى علم الله - تعالى -، وكل ما كان كذلك فهو الأعدل والأفضل والأحكم فى ذاته، لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له، وتلك هى الفائدة الأولى.

أما الفائدة الثانية فهى قوله - سبحانه - : ﴿وأقوم للشهادة﴾ ومعنى ﴿أقوم﴾ أبلغ فى الاستقامة التى هى ضد الاعوجاج. أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأدائها.

وأما الفائدة الثالثة فهى قوله : ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة. أى أن الأوامر والنواهى السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل فى علم الله - تعالى - وأعون على إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ، وأقرب إلى عدم الشك فى جنس الدين وقدره وأجله، وإذا توفرت هذه الفوائد الثلاث فى المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس، أما إذا فقدت فإن الثقة تزول من بينهم، ويحل محلها النزاع والشقاق.

ثم أباح - سبحانه - فى التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاتكتبوها﴾.

والتجارة الحاضرة التى تدور بين التجار : هى التى يجرى فيها التقابض فى المجلس أو التى يتأخر فيها الأداء زمنا يسيرا. وسميت حاضرة، لأن المبيع والثمن كلاهما حاضر.

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة فى التجارة الحاضرة التى تكثرون إدارتها والتعامل فيها، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم، وهو - سبحانه - ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرَج﴾. ولأن أمثال هذه التجارات التى يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان.

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالديون فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التى يجرى فيها التقابض لا جناح عليكم فى عدم كتابتها.

وقيل : الاستثناء متصل والجملة المستثناة فى موضع نصب لأنه استثناء من الجنس، لأنه أمر بالكتابة فى كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة والتقدير : آمركم بالكتابة والإشهاد فى كل معاملة إلا فى حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة. و ﴿تجارة﴾ قرأها الجمهور بالرفع

على أنها اسم تكون، والخبر جملة ﴿تديرونها بينكم﴾. أو على أنها فاعل تكون إذا اعتبرناها تامة.

وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة. أى. إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة.

وقوله - تعالى - : ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أمر منه - سبحانه - بالإشهاد عند البيع، وهذا الأمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء. ويرى الظاهرية أنه للوجوب.

قال صاحب الكشاف: هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقا ناجزا أو كالئا - أى مؤجلا - لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف. ويجوز أن يراد: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع. يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة، وعن الضحاك: هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل»(١).

ثم نهى - سبحانه - عن المضارة فقال: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾.

والمضارة: إدخال الضرر. والفعل ﴿يضار﴾ يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل، وأن أصله «لا يضارر - بكسر الراء - ويحتمل أن يكون مبنيا للمفعول. وأن أصله لا يضارر بفتح الراء الأولى.

والمعنى على الأول: نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضررًا بأحد المتعاقدين، بأن يبخس الكاتب أحدهما، أو يشهد بغير الحق.

والمعنى على الثانى: وهو الظاهر - نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضررًا بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة. ولذا قال - تعالى - بعد ذلك ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾.

أى: وإن تفعلوا ما نهيتم عنه أو تخالفوا ما أمرتم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله، وتلبستم بمعصيته، وصرتم أهلا لعقوبته، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته. وبتذكيرهم بنعمه فقال: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شىء عليم﴾.

أى: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧٧.

أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له، وهو - سبحانه - بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وبعد: فهذه هى آية الدين التى هى أطول آية فى القرآن، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات، وأنجع الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل.

تقرؤها فترى الدقة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب، وترى الطلاوة فى التعبير، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تطغى دقة الصياغة على جمال العرض.

وترى الوفاء الكامل، لكل الجوانب التشريعية والاحتراس التام من كل المؤثرات التى قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن.

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس فى النفوس الخوف من الله - تعالى - والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر فى قوانينهم التى صاغوها فى قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير فى النفس، ولا باهتزاز فى القلب.

ولو لم يكن فى شريعة الله سوى هذا التأثير الذى تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاها ذلك دليلا على سموها وفضلها وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وبتوجيهاتها فى سائر شئونهم لظفروا بالسعادتين: الدينية والدنيوية.

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المسلمين فعله إذا لم يتمكنوا من كتابة ديونهم بأن كانوا مسافرين وليس معهم كاتب فقال - تعالى -:

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

الرهان: جمع رهن بمعنى مرهون من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿فرهن مقبوضه﴾ وأصل الرهن فى كلام العرب يدل على الحبس قال - تعالى -:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾. ومعنى الرهن: أن يوضع شىء يناسب قيمة الدين من متاع المدين بيد الدائن توثقة له فى دينه، ليستطيع أن يستوفى حقه من هذا الشىء المرهون عند تعذر الدفع.

والمعنى: وإن كنتم. أيها المؤمنون - مسافرين وتداينتم بدين إلى أجل مسمى، ولم تجدوا كاتبًا يكتب لكم ديونكم، أو لم تتيسر لكم أسباب الكتابة لأى سبب من الأسباب، فإنه فى هذه الحالة يقوم مقام الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الدين ضمانًا لحقه عند تعذر أخذه من الغريم.

وفى التعبير بقوله: ﴿على سفر﴾ استعارة تبعية حيث شبه تمكنهم فى السفر بتمكن الراكب من مركوبه. وفيه كذلك إشارة إلى اضطراب الحال، لأن حال المسافر يغلب عليها التنقل وعدم الاستقرار.

وجملة ﴿ولم تجدوا كاتبا﴾ معطوفة على فعل الشرط، أى: وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا، كاتبا فتكون فى محل جزم تقديرًا. ويجوز أن تكون الواو للحال والجملة بعدها فى محل نصب على الحال.

وقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: فالذى يستوثق به رهان مقبوضة. أو مبتدأ محذوف الخبر والتقدير: فعليكم رهان مقبوضة.

ومن الأحكام التى أخذها الفقهاء من هذه الآية الكريمة: أن تعليق الرهان على السفر ليس لكون السفر شرطًا فى صحة الرهان، فإن التعامل بالرهان مشروع فى حالتى السفر والحضر، وإنما علق هنا على السفر لأنه مظنة تعسر الكتابة لما فيه من التنقل وعدم الاستقرار. وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقًا من شعير رهنها قوتًا لأهله»[1].

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ عند مارهن درعه لليهودى كان مقيمًا ولم يكن مسافرا.
قال القرطبى: ولم يرو عن أحد منع الرهن فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود متمسكين بالآية، ولا حجة فيها لهم، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال. وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره»[2].

كذلك أخذ بعض الفقهاء من قوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية وهذا مذهب الأحناف

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٣٧.
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٤٠٧.

والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركنا من أركانه ولا شرطا لتمامه.

وقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ تفريع على أحكام الديون السابقة، وحض على أداء الأمانة وعلى حسن المعاملة.

أى: فإن أمن الدائن المدين واعتمد على ذمته ووفائه ولم يوثق الدين بالكتابة والشهود والرهن، فعلى المدين أن يكون عند حسن ظن الدائن به بأن يؤدى ما عليه من ديون فى الموعد المحدد بدون تسويف أو مماطلة، وعليه كذلك أن يتقى الله ربه فى رعاية حقوق غيره فلا يجحدها ولا يتأخر فى أدائها لأن الله العليم بكل شيء سيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه.

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿فإن أمن﴾ دون أو أودع، للإشارة إلى الجانب الذى اعتمد عليه الدائن فى المدين وهو خلق الأمانة، فهو لا يرى فيه إلا جانبًا مأمونًا لا يتوقع منه شرًا أو خيانة، وللتنبيه إلى أن صفة الأمانة والوفاء من الصفات التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون جميعًا حتى ينالوا السعادة فى دينهم ودنياهم، عبر بقوله: ﴿فليؤد الذى اؤتمن﴾ ولم يقل فليؤد المدين لحضه: على الأداء بأحسن أسلوب، لأنه ما دام الدائن قد ائتمنه على ما أعطاه من ديون، فعلى هذا الذى اؤتمن وهو المدين أن يكون عند حسن الظن به وأن يرد إليه حقه فى موعده مع شكره على حسن ظنه به.

وقوله: ﴿أمانته﴾ أى دينه. والضمير يصح أن يعود إلى الدائن باعتباره مالك الدين، وإلى المدين باعتبار أن الدين عليه، وفى إضافتها - أى الأمانة - إلى المدين إشعار له بأنها عبء فى ذمته يجب أن يؤديه حتى يتخلص من تكاليفه، إذ الأمانة عبء ثقيل عند العقلاء الذين يشعرون بالمسئولية نحو أنفسهم ونحو غيرهم.

وجمع - سبحانه - بين صفتى الألوهية والربوبية فى قوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ للمبالغة فى التحذير من الخيانة والمماطلة فإنهما يغضبان الله - تعالى - الذى خلق الإنسان ورباه وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة، ولإشعار هذا المدين بأن التقوى هى الوثيقة الكبرى التى لا تعدلها وثيقة أخرى من كتابة أو شهادة أو رهان.

وبذلك نرى لونًا من ألوان التدرج الحكيم فى شريعة الله - تعالى - فأنت ترى أن الله - تعالى - قد بين قبل ذلك أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض.

فإن تعذر على المدين المحتاج أن يدفع للدائن رهنا يكون الاعتماد على الأمانة التى هى صفة من صفات الصادقين.

فياله من تشريع حكيم، بين للناس ما يصلح شأنهم فى دينهم وفى دنياهم.

ثم أمر الله تعالى - عباده بأن يؤدوا الشهادة على وجهها وألا يكتموها فقال - تعالى - : ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. أى : وعليكم - أيها المؤمنون - ألا تمتنعوا عن أدائها إذا دعيتم إليها وألا تخفوها فإن الذى يخفيها ويمتنع عن أدائها يكون معاقبًا من الله - تعالى - بسبب ارتكابه لما نهى عنه.

وقد أسند - سبحانه - الإثم إلى القلب خاصة مع أن الإثم يسند إلى الشخص، لأن الإثم فى كتمان الشهادة عمل القلب لا عمل الجوارح، ولأن القلب أساس كل خير وكل شر، ففى الحديث الشريف : ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا اقتصر على قوله ﴿فإنه آثم﴾ وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده؟ قلت : كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها. فلما كان إثما مقترنا بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد : هذا مما أبصرته عينى، ووعاه قلبى. ولأن القلب هو رئيس الأعضاء فكأنه قيل : ومن يكتمها فقد تمكن الإثم من أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه : ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام التى تتعلق باللسان فقط. وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، وهى لها كالأصول التى تتشعب عنها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر. وهما من أفعال القلوب فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب.

وقوله : ﴿آثم﴾ خبر إن و ﴿قلبه﴾ رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل : فإنه يأثم قلبه. ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء. وآثم خبر مقدم. والجملة خبر إن والضمير للشأن»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله بما تعملون عليم﴾ أى : والله - تعالى - عليم بكل أعمالكم وأقوالكم وسائر شئونكم وسيجازى المحسنين إحسانًا، والمسيئين سوءًا فعليكم أيها المؤمنون أن تستجيبوا لأوامر الله، وأن تجتنبوا ما نهاكم عنه حتى تكونوا من السعداء.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به الوعد الحسن للمؤمنين الصادقين، والوعيد الشديد للعصاة

(١) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٢٩.

المسيئين، حتى يزداد المؤمنون إيمانا، ويقلع العصاة عن عصيانهم وسيئاتهم.

وبعد هذا البيان الجامع الحكيم لطرق التعامل التى أباحها الله - تعالى - لعباده والتى حرمها عليهم، بين سبحانه - أن ما فى السموات والأرض ملك له، وأنه سيحاسب عباده بما يقتضيه علمه الشامل، وإرادته النافذة فقال- تعالى -.

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

وما دام الأمر كذلك فعليكم - أيها المؤمنون - أن تبذلوا نهاية جهدكم فى العمل الصالح الذى بين أيديكم إنما هو عارية مستردة، وأن المالك الحقيقى له إنما هو الله رب العالمين، فأنفقوا من هذا المال - الذى هو أمانة بين أيديكم - فى وجوه الخير واجمعوه من طريق حلال، وكونوا من القوم العقلاء الصالحين الذين لم تشغلهم دنياهم عن أخراهم، بل كانوا كما قالوا : ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الأخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وقوله - سبحانه - : ﴿وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ بيان لشمول علم الله - تعالى - لما أظهره الإنسان أو أخفاه من أقوال وأعمال، وأنه سيحاسبه على ذلك بما يستحقه من خير أو شر.

والجملة الكريمة صريحة فى أن الله - تعالى - يحاسب العباد على نياتهم وما تكسبه قلوبهم سواء أأخفوه أم أظهروه.

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته : كمن عزم على السرقة واتخذ الوسائل لذلك ولكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التى أصر عليها.

أما الخواطر النفسية التى تجول فى النفس، وتعرض للإنسان دون أن يعزم على تنفيذها، فإنها ليست موضع مؤاخذة، بل إن التغلب عليها، وكفها بعد مكافحتها يجعله أهلاً للثواب.

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله - تعالى - : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا[١].

وروى الجماعة فى كتبهم عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﷺ إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم»[٢].

قال الفخر الرازى: الخواطر الحاصلة فى القلب على قسمين: فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله فى الوجود، ومنها مالا يكون كذلك، بل تكون أمورًا خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس.

فالقسم الأول يكون مؤاخذًا به.

والثانى لا يكون مؤاخذا به، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾[٣].

وقال الألوسى: المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية فى الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التى تلحق بالملكات، وليس كذلك سائر ما يحدث فى النفس - أى من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم:

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا ... فخاطر فحديث النفس فاستمعا
يليه هم فعزم كلها رفعت ... سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا[٤]

وقوله - تعالى - : فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» بيان لنتيجة المحاسبة التى تكون من الخالق - عز وجل - لعباده.

أى: أنه - سبحانه - بمقتضى علمه الشامل، وإرادته النافذه، يحاسب عباده على ما أسروه وما أعلنوه من أقوال وأعمال، فيغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

وقوله: ﴿فيغفر﴾ ويعذب، قرأه عاصم وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر برفع الراء والباء على

---

(١)، (٢) تفسير ابن كثير جـ١ صفحة ٢٣٩.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٧ صفحة ١٣٤.
(٤) تفسير الألوسى جـ٣ صفحة ٦٤.

الاستئناف أى فهو يغفر. وقرأ الباقون بإسكانها عطفًا على جواب الشرط وهو قوله : ﴿يحاسبكم﴾.

وقوله : ﴿والله على كل شىء قدير﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته - سبحانه - على جميع الأشياء موجب لقدرته على ما سبق ذكره من المحاسبة لعباده، وإثابة من يشاء إثابته وتعذيب من يشاء تعذيبه، فهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

ثم ختم - سبحانه - سورة البقرة بآيتين كريمتين فى أولاهما أن رسالة النبى ﷺ امتداد للرسالات السماوية السابقة وخاتمة لها ومهيمنة عليها، وبين فى الثانية أنه - سبحانه - لم يكلف الناس إلا بما فى قدرتهم، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم، وأن من شأن الأخيار أن يكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء. قال - تعالى - :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقوله : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ استئناف قصد به الإخبار عن الرسول ﷺ والمؤمنين بما يشرفهم ويعلى من أقدارهم ومنازلهم.

أى : صدق الرسول ﷺ بما أنزل إليه من ربه فى هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام

والسنن والبينات والهدايات تصديق إذعان وإقرار وإطمئنان، وكذلك المؤمنون الذين صدقوه واتبعوه آمنوا بما آمن به رسولهم وداعيهم إلى الحق ﷺ.

وقد قرن - سبحانه - إيمان المؤمنين بإيمان رسولهم ﷺ تشريفًا لهم وللإشارة إلى أنهم متى صدقوا فى إيمانهم كانت منزلتهم عند الله - تعالى - قريبة من منازل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

وفى تأخيرهم فى الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع، وإشارة إلى أن النبى ﷺ هو أول من آمن بما أوحى إليه من ربه، وهو أقوى الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينا. وأكثرهم استجابه لأوامر الله.

وقوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ بيان للإيمان الكامل الذى اعتقدوه وصدقوا به.

أى: كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول والمؤمنون آمن إيمانًا تامًا بوجود الله - تعالى - ووحدانيته، وكمال صفاته، ووجوب الخضوع والعبادة له، وبوجود الملائكة وأنهم عباد مكرمون ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ كما آمنوا بكتب الله التى أنزلها لسعادة البشر، وبرسله الذين أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ثم بين - سبحانه - أن من صفات هؤلاء الأخيار أنهم لا يفرقون بين رسل الله - تعالى فقال: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أى يقولون لا نفرق فى الإيمان بين رسل الله - تعالى - وإنما نؤمن بهم جميعًا، ونصدق برسالة كل رسول أرسله الله - تعالى - ولا نقول كما قال الضالون ﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾.

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه مما يدل على صدق إيمانهم، ونقاء نفوسهم وطهارة قلوبهم فقال: «وقالوا سمعنا وأطعنا» أى: وقالوا سمعنا قولك وفهمناه، وامتثلنا أمرك - يا الهنا - واستقمنا عليه، وصبرنا على تكاليفه بكل رضا واستسلام. «غفرانك ربنا» أى اغفر لنا غفرانك الذى هو من فضل رحمتك ونعمك فأنت ربنا وخالقنا والعليم بأحوالنا وبضعفنا.

فقوله: ﴿غفرانك﴾ مصدر منصوب على المفعول المطلق والعامل فيه مقدر أى: اغفر غفرانك. وقوله: ﴿وإليك المصير﴾ أى: وإليك وحدك المرجع والمآب، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت الرسول ﷺ مدحًا عظيمًا، ومدحت أتباعه المؤمنين الصادقين لاستجابتهم لأوامر الله ونواهيه، وتضرعهم إليه بخالص الدعاء أن يغفر لهم ما فرط منهم.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رحمته بعباده فقال: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ والوسع - كما يقول الزمخشري -: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، أى لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود. وهذا إخبار عن عدله. ورحمته كقوله - تعالى -: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ لأنه كان فى إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة(١).

فالجملة الكريمة تحكى لنا بعض مظاهر فضل الله علينا ورحمته بنا، حيث كلفنا بما تسعه قدرتنا، وتستطيعه نفوسنا، وقد حكى القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة، منها قوله - تعالى -: ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وقوله - تعالى -: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا﴾.

وإذا كانت بعض التكاليف التى كلفنا الله بها فيها مشقة، فإن هذه المشقة محتملة وفى وسع الإنسان وقدرته وطاقته، وسيثيبنا الله - تعالى - عليها ثوابا جزيلا، فهو القائل: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

ثم بين - سبحانه - أن كل نفس ستجازى بما عملت فقال: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أى لها وحدها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة، وعليها وحدها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها القبيحة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت. فى الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به، كانت فى تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»(٢).

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده: «لا شك أن الميل إلى الخير مما أودع فى نفس الإنسان، والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته. ولا يحتاج إلى تكلف فى فعل الخير، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه بعين الرضا وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا من مقتضى فطرتها ومهما كان الإنسان شريرًا فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت عند الناس وصاحبه مهين عندهم.. وهكذا شأن الإنسان عند اقتراف كل شر يشعر فى نفسه بقبحه، ويجد

(١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٣٢.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٣٢.

من أعماق سريرته هاتفا يقول له : لا تفعل، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا فى النادر . . »[١].

وبعد بيان سنة الله - تعالى - فى التكليف وفى الجزاء عليه، ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الدعوات الجامعات للسعادة حتى يكثر المؤمنون من التضرع بها فقال - تعالى - : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أى : ربنا يا واسع العفو والمغفرة لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا ﴿إن نسينا﴾ أمرك ونهيك ﴿أو أخطأنا﴾ ففعلنا خلاف الصواب جهلا منا بوجهه الشرعى.

فأنت ترى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم، فصفت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وخشعت جوارحهم، يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ما فرط منهم نسيانا أو خطأ، وذلك لأن المؤمن عندما يصل إلى هذه الدرجة من التقوى والصفاء يشعر بأن الله - تعالى - يحاسبه على مالا حساب عليه، ويشعر بأن حسناته - مهما كثرت - فهى قليلة بجانب هفواته وسيئاته، فهو لشدة خشيته من الله يرجح جانب المؤاخذة على جانب العفو فيكثر من الضراعة والدعاء.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ قلت : . . . لأنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ. فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذانًا ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به. كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان. ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه»[٢].

هذا هو الدعاء الأول الذى حكاه القرآن عن المؤمنين الصادقين.

أما الدعاء الثانى فهو قوله - سبحانه - : ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾.

والإصر فى اللغة : الثقل والشدة. مأخوذ من أصر بمعنى حبس، فكأنه يحبس صاحبه فى مكانه فيمنعه من الحركة.

والمعنى : أن أولئك يضرعون إلى الله - تعالى - ألا يلقى تكاليف وأعباء شديدة، يثقل عليهم حملها ويعجزون عن أدائها، كما كان الحال بالنسبة للذين سبقوهم؛ فقد كلف الله - تعالى - بنى إسرائيل بتكاليف شاقة ثقيلة بسبب تعنتهم وفسوقهم عن أمره، ومن ذلك

---

(١) تفسير المنار جـ٣ صفحة ١٤٦.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ صفحة ٣٣٢.

تكليفهم بقتل أنفسهم إذا أرادوا أن يتوبوا توبة صادقة، وتحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم قال - تعالى - : ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم...﴾.

قال الرازى : والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير. والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله - تعالى - فلا جرم التمسوا السهولة فى التكاليف(١).

أما الدعاء الثالث فهو قوله - تعالى - : ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾.

الطاقة - كما يقول الراغب - : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط، فقوله - تعالى - : ﴿لا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا مالا قدرة لنا به»(٢).

فالطاقة على هذا تكون فيما فعله بأقصى القدرة والقوة.

أى: ونسألك يا ربنا ألا تحملنا ما هو فوق طاقتنا وقدرتنا من المصائب والعقوبات وغير ذلك من الأمور التى لا نستطيعها.

وهذا الدعاء هو تدرج مترتب على الدعاء السابق، فهم هنا يلتمسون منه - سبحانه - ألا ينزل بهم ما هو فوق قدرتهم وطاقتهم من بلايا ومحن، بعد أن التمسوا منه ألا يكلفهم بتكاليف شاقة ثقيلة كما كلف الذين من قبلهم.

ثم حكى القرآن دعاءهم الرابع والخامس والسادس فقال: ﴿واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا﴾ أى نسألك يا ربنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألممنا به من ذنوب وتتجاوز عنها، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار. وأن ترحمنا برحمتك السابغة التى شملت كل شىء، فإننا مع تقصيرنا فى طاعتك نأمل ألا تحرمنا من رحمتك فأنت تراهم قد تضرعوا إلى ربهم أن يعفو عنهم بأن يسقط عنهم العقاب وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم بها، وأن يشملهم بعطفه ورحمته.

وهى دعوات تدل على رقة إحساسهم، ونقاء نفوسهم، وشدة خشيتهم من ربهم، وشعورهم نحوه بالتقصير مهما قدموا من أعمال صالحة.

ثم ختموا دعاءهم بقوله - تعالى -: ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أى: أنت مولانا وناصرنا وحافظنا ومعيننا وممدنا بالخير والهدى فانصرنا يا ربنا على القوم الكافرين لكى تكون

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ صفحة ١٥٧.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٣١٢.

كلمتك هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وقولهم: ﴿أنت مولانا﴾ يدل على نهاية خضوعهم وتذللهم وطاعتهم لله رب العالمين، لأنهم قد اعترفوا بأنه - سبحانه - هو المتولى لكل نعمة يصلون إليها.

قال ابن كثير: وقد ورد فى صحيح مسلم عن النبى: ﷺ - أن الله - تعالى - قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت.

وروى البخارى والجماعة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه».

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: أعطيت خوانيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى».

وبعد فهذه هى سورة البقرة التى اشتملت على ما يشفى الصدور، ويهدى القلوب، ويصلح النفوس: من توجيهات سامية، وآداب حميدة، وعقائد سليمة، وتشريعات حكيمة، وأمثال هادية، وقصص من شأنه أن يغرس فى النفوس الخلق القويم، وأن يغريها بالاتعاظ والاعتبار حتى تكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

ولقد سبق لنا أن تكلمنا قبل البدء فى تفسيرها عن وقت نزولها، وعن فضلها وعن مقاصدها الإجمالية...

والله نسأل أن ينفعنا بها وبكتابه الكريم، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وجلاء همنا وحزننا، وأعنا على إتمام ما قصدناه بفضلك ورعايتك يا أكرم الأكرمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على طريقته إلى يوم الدين.

الفهرس

رقم الآية	الآية المفســـرة	رقم الصفحة
٧٤	ثم قست قلوبكم	١٧٣
٧٥	أفتطمعون أن يؤمنوا لكم	١٧٨
٧٦	وإذا لقوا الذين آمنوا	١٨٠
٧٧	أو لا يعلمون أن الله يعلم	١٨١
٧٨	ومنهم أميون لا يعلمون	١٨٢
٧٩	فويل للذين يكتبون	١٨٣
٨٠	وقالوا لن تمسنا النار	١٨٤
٨١	بلى من كسب سيئة	١٨٧
٨٢	والذين آمنوا وعملوا	١٨٧
٨٣	وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل	١٨٨
٨٤	وإذ أخذنا ميثاقكم	١٩٠
٨٥	ثم أنتم هؤلاء تقتلون	١٩٢
٨٦	أولئك الذين اشتروا	١٩٤
٨٧	ولقد آتينا موسى	١٩٤
٨٨	وقالوا قلوبنا غلف	١٩٦
٨٩	ولما جاءهم كتاب	١٩٧
٩٠	بئسما اشتروا به	١٩٩
٩١	وإذا قيل لهم آمنوا	٢٠١
٩٢	ولقد جاءكم موسى	٢٠٤
٩٣	وإذ أخذنا ميثاقكم	٢٠٥
٩٤	قل إن كانت لكم الدار	٢١٠
٩٥	ولن يتمنوه أبدًا	٢١٣
٩٦	ولتجدنهم أحرص الناس	٢١٤
٩٧	قل من كان عدوا لجبريل	٢١٦
٩٨	من كان عدوا لله وملائكته	٢١٩
٩٩	ولقد أنزلنا إليك آيات	٢٢١
١٠٠	أو كلما عاهدوا عهدا	٢٢١
١٠١	ولما جاءهم رسول	٢٢٢
١٠٢	واتبعوا ما تتلو الشياطين	٢٢٦

رقم الآية	الآية المفسـرة	رقم الصفحة

رقم الآية	الآية المفســـرة	رقم الصفحة
١٩٠	وقاتلوا فى سبيل الله	٤٠٦
١٩١	واقتلوهم حيث ثقفتموهم	٤٠٩
١٩٢	فإن انتهوا فإن الله	٤١١
١٩٣	وقاتلوهم حتى لا تكون	٤١٢
١٩٤	الشهر الحرام بالشهر الحرام	٤١٣
١٩٥	وأنفقوا فى سبيل الله	٤١٦
١٩٦	وأتموا الحج والعمرة	٤١٧
١٩٧	الحج أشهر معلومات	٤٢٥
١٩٨	ليس عليكم جناح	٤٣٠
١٩٩	ثم أفيضوا من حيث	٤٣٣
٢٠٠	فإذا قضيتم	٤٣٤
٢٠١	ومن الناس من يقول	٤٣٥
٢٠٢	أولئك لهم نصيب مما كسبوا	٤٣٦
٢٠٣	واذكروا الله فى أيام	٤٣٧
٢٠٤	ومن الناس من يعجبك	٤٣٩
٢٠٥	وإذا تولى سعى فى الأرض	٤٤١
٢٠٦	وإذا قيل له اتق الله	٤٤٢
٢٠٧	ومن الناس من يشرى	٤٤٥
٢٠٨	يأيها الذين آمنوا ادخلوا	٤٤٧
٢٠٩	فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات	٤٤٩
٢١٠	هل ينظرون إلا أن يأتيهم	٤٥٠
٢١١	سل بنى إسرائيل	٤٥٢
٢١٢	زين للذين كفروا	٤٥٣
٢١٣	كان الناس أمة واحدة	٤٥٦
٢١٤	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	٤٦٢
٢١٥	يسألونك ماذا ينفقون	٤٦٦
٢١٦	كتب عليكم القتال	٤٦٨
٢١٧	يسألونك عن الشهر الحرام	٤٧١
٢١٨	إن الذين آمنوا والذين هاجروا	٤٧٧

رقم الآية	الآية المفســـرة	رقم الصفحة

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٧٧	إن الذين آمنوا وعملوا	٦٣٨
٢٧٨	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله	٦٣٨
٢٧٩	فإن لم تفعلوا	٦٣٩
٢٨٠	وإن كان ذو عسرة	٦٤٠
٢٨١	واتقوا يوما ترجعون	٦٤١
٢٨٢	يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم	٦٤٣
٢٨٣	وإن كنتم على سفر	٦٥٢
٢٨٤	لله ما فى السمٰوات	٦٥٦
٢٨٥	آمن الرسول بما أنزل إليه	٦٥٨
٢٨٦	لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها	٦٦٠

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

سورة

آل عمران

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الثانى

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا تفسير مفصل لسورة آل عمران، حاولت فيه أن أكشف عن بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات قويمة، وهدايات جامعة. وإرشادات حكيمة. ووصايا جليلة، وآداب عالية، وحجج باهرة، تقذف حقها على باطل الضالين فتدمغه فإذا هو زاهق.

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى تفسيرها أن أسوق كلمة بين يديها تكون بمثابة التعريف بها، وبيان فضلها ومقاصدها الإجمالية، والموضوعات التى اهتمت بالحديث عنها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، ونافعا لعباده، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

القاهرة - مصر الجديدة
٢٠ من رجب سنة ١٣٩٣ هـ
١٩ أغسطس سنة ١٩٧٣م

المؤلف
محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة آل عمران

سورة آل عمران هى السورة الثالثة فى ترتيب المصحف؛ إذ تسبقها فى الترتيب سورتا الفاتحة والبقرة.

وتبلغ آياتها مائتى آية. وهى مدنية باتفاق العلماء.

وسميت بسورة آل عمران، لورود قصة آل عمران بها بصورة فيها شىء من التفصيل الذى لا يوجد فى غيرها.

والمراد بآل عمران عيسى، ويحيى ومريم، وأمها. والمراد بعمران والد مريم أم عيسى - عليه السلام -.

وقد ذكر العلماء أسماء أخرى لهذه السورة منها:

أنها تسمى بسورة الزهراء، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب من شأن عيسى - عليه السلام -.

وتسمى بسورة الأمان، من تمسك بها أمن الغلط فى شأنه.

وتسمى بسورة الكنز لتضمنها الأسرار التى تتعلق بعيسى عليه السلام.

وتسمى بسورة المجادلة، لنزول أكثر من ثمانين آية منها فى شأن مجادلة الرسول ﷺ لوفدى نصارى نجران.

وتسمى بسورة طيبة، لجمعها الكثير من أصناف الطيبين فى قوله - تعالى - ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾.

قال القرطبى ما ملخصه: وهذه السورة ورد فى فضلها آثار وأخبار. فمن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان الكلابى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وبأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران - وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال: كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق - أى ضوء، أو كأنهما فرقان - أى قطعتان من طير صواف - تحاجان عن صاحبهما».

ثم قال: وصدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران، وكانوا قد وفدوا على رسول الله ﷺ

إثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحبرات[١].

فقال بعض الصحابة: ما رأينا وفدًا مثلهم جمالا وجلالة.

وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا فى المسجد إلى المشرق. فقال النبى ﷺ: دعوهم. ثم أقاموا بها أيامًا يناظرون رسول الله ﷺ فى شأن عيسى ورسول الله ﷺ يرد عليهم بالبراهين الساطعة ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة[٢].

أما النصف الثانى من سورة آل عمران فقد كان نزول ما يقرب من ستين آية منه[٣] فى أعقاب غزوة أحد.

هذا ونرى من الخير قبل أن نبدأ فى تفسير هذه السورة الكريمة بالتفصيل أن نذكر على سبيل الإجمال ما اشتملت عليه من توجيهات سامية، وآداب عالية، وأحكام جليلة، وتشريعات قويمة.

إنك عندما تفتح كتاب الله - تعالى - وتطالع سورة آل عمران تراها فى مفتتحها تثبت أن المستحق للعبادة إنما هو الله وحده، وتقيم البراهين الساطعة على ذلك.

﴿آلم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان﴾.

ثم بعد أن مدحت أصحاب العقول السليمة لقوة إيمانهم، وشدة إخلاصهم وكثرة تضرعهم إلى خالقهم - سبحانه - وبشرتهم بحسن العاقبة.. بعد أن فعلت ذلك ذمت الكافرين وتوعدتهم بسوء المصير فقالت: ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وأولئك هم وقود النار﴾.

﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾.

ثم تحدثت عن الشهوات التى زينت للناس، وبينت ما هو خير منها، وصرحت بأن الدين الحق الذى ارتضاه الله لعباده هو دين الإسلام، وأن أهل الكتاب ما تركوا الحق الذى جاءهم به محمد ﷺ إلا بسبب ما استولى على قلوبهم من بغى وجحود، وأنهم بسبب ما ارتكبوه من كفر

---

(١) الحبرات: جمع حبرة. وهى ثياب يمانية.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣
(٣) من الآية ١٢١ - ١٧٩.

وجرائم فى الدنيا، سيكون حالهم يوم القيامة أسوأ حال وسيكون مصيرهم أشنع مصير، ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

ثم نهت السورة الكريمة المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء يلقون إليهم بالمودة، وذكرتهم بأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا السماء، وأنه - سبحانه - سيحاسب كل نفس بما كسبت ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا﴾.

فإذا ما طالعت - أيها القارىء الكريم - الربعين: الثالث والرابع منها، وجدت فيهما حديثا حكيما عن آل عمران.

فقد تحدثت السورة الكريمة عما قالته امرأة عمران - أم مريم - عندما أحست بالحمل فى بطنها، وعما قالته عندما وضعت حملها.

﴿قالت ربِّ إنى وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإنى سميتها مريم﴾.

وتحدثت عن الدعوات الخاشعات التى تضرع بها زكريا إلى ربه، سائلا إياه الذرية الطيبة، وكيف أن الله - تعالى - أجاب له دعاءه فبشره ﴿بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين﴾.

وتحدثت عن اصطفاء الله - تعالى - لمريم وتبشيرها بعيسى - عليه السلام - وتعجبها من أن يكون لها ولد دون أن يمسها بشر؛ وكيف أن الله - تعالى - قد رد عليها بما يزيل عجبها.

﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾.

وتحدثت عن الصفات الكريمة، والمعجزات الباهرة التى منحها الله - تعالى - لعيسى - عليه السلام - وعن دعوته للناس إلى عبادة الله وحده وعن موقف أعدائه منه؛ وعن صيانة الله له من مكرهم وعن تشابه عيسى وآدم فى شأن خلقهما بدون أب. . وكيف أن الله - تعالى - أمر نبيه ﷺ أن يتحدى كل من يجادله بالباطل فى شأن عيسى فقال:

﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾.

ثم وجهت السورة الكريمة أربع نداءات إلى أهل الكتاب، دعتهم فيها إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك الجدال بالباطل فى شأن أنبيائه، ووبختهم على كفرهم وعلى خلطهم الحق بالباطل.

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾.

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾.

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾.

ثم واصلت السورة الكريمة فى الربعين : الخامس والسادس منها حديثها عن أهل الكتاب، فمدحت القلة المؤمنة منهم، وذمت من يستحق الذم منهم - وهم الأكثرون - وحكت بعض الرذائل التى عرفت عن أشرارهم وفريق من علمائهم.

﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتابلتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

ثم بينت أن الله - تعالى - قد أخذ الميثاق على أنبيائه بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأنهم قد أقروا بذلك وأمرت النبى ﷺ بأن يجابه مخالفيه بكلمة الحق التى جاء بها من عند الله، وأن يخبرهم بأن من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه.

﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يتبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

ثم ساقت السورة الكريمة بعض الشبهات التى أثارها اليهود حول ما أحله الله وحرمه عليهم من الأطعمة، وردت عليهم بما يفضحهم ويثبت كذبهم، ووبختهم على كفرهم وعلى صدهم الناس عن طريق الحق.. وحذرت المؤمنين من مسالكهم الخبيثة التى يريدون من ورائها تفريق كلمتهم وفصم عرى أخوتهم واعتصامهم بحبل الله. وذكرتهم بنعمة الإيمان التى بسببها نالوا ما نالوا من الخير ﴿واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

ثم بشرت السورة الكريمة المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس، وانهم هم الغالبون ماداموا معتصمين بدينهم.. وذكرت بعض العقوبات التى عاقب الله - تعالى - بها اليهود بسبب كفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءه، وعصيانهم أوامره.. وأثنت على من يستحق الثناء من أهل

الكتاب فقالت : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم، منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا - إلا بحبل من الله وحبل من الناس - وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ليسوا سواء﴾.

وبعد أن أقامت السورة الكريمة - فى عشرات الآيات منها - الأدلة الواضحة، وساقت الحجج الساطعة على صحة دين الإسلام.. انتقلت إلى الحديث عن معارك السيف والسنان التى دارت بين أهل الحق وأهل الباطل.

فتحدثت فى الربع السابع والثامن والتاسع والعاشر منها عن غزوة أحد.

وكان حديثها عن هذه الغزوة زاخرا بالتوجيهات الحكيمة والتربية القويمة، والوصايا الحميدة، والعظات الجليلة والتشريعات السامية، والآداب العالية.

كان حديثها عنها هاديا للمسلمين فى كل زمان ومكان إلى الطريق الذى يوصلهم إلى النصر ليسلكوه، موضحًا لهم طريق الفشل ليجتنبوه. كان حديثها عنها يدعو المسلمين كافة إلى الاعتبار بأحداث الحياة «وكيف أنها تسير على سنن وقوانين علينا أن نطلبها ونسلك السبيل إلى تعلمها، وأن أحداث الحياة ليست مجموعة من المصادفات المتوالية، أو التدفق العشوائى، وإنما للنصر قوانين، وللهزيمة قوانين. ومن الممكن أن ينهزم المسلمون فى حرب ولو كان فيهم رسول الله ﷺ إذا ما خالفوا عن أمره، وسلكوا غير سبيل النصر، وأن لهم النصر على عدوهم وإن فاقهم عددًا وعدة إذا ما استطاعوا أن يرتفعوا إلى ما فوق فاعلية عدوهم إيمانا وعلما وتنظيمًا»[1].

لقد بدأت سورة آل عمران حديثها عن غزوة أحد بتذكير المؤمنين بما فعله الرسول ﷺ قبل بدء المعركة من إعداد وتنظيم للصفوف، وبما هم به بعضهم من فشل، وبما تم لهم من نصر على أعدائهم فى غزوة بدر. استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك فيقول : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم. إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾.

وفى هذا الربط بين الغزوتين تذكير للمؤمنين بأسباب انتصارهم فى بدر وأسباب هزيمتهم فى

(١) من كتاب «دروس من غزوة أحد» ص ١١ للدكتور عبد العزيز كامل.

أحد : حتى يسلكوا فى مستقبل حياتهم السبيل التى توصلهم إلى الظفر، ويهجروا الطريق التى تقودهم إلى الفشل.

ثم وجهت السورة نداء إلى المؤمنين نهتهم فيه عن التعامل بالربا، وحثتهم على المسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى رضوان الله، لأنه إذا كان أعداؤهم يجمعون المال من كل طريق لحربهم، فعليهم هم أن يتحروا الحلال فى جمعهم للمال، وأن يتبعوا الوسائل الشريفة التى تبلغهم إلى غايتهم النبيلة، ثم حضتهم على الاعتبار بسنن الله فى خلقة، وأمرتهم بالتجلد والصبر، ونهتهم عن الوهن والضعف، وبشرتهم بأنهم هم الأعلون، وشجعتهم على مواصلة الجهاد فى سبيل الله فإن العاقبة لهم، وأخبرتهم بأن ما أصابهم من آلام وجراح فى أحد، قد أصيب أعداؤهم بمثلها، وأن الأيام دول، وأن هزيمتهم فى أحد من ثمارها أنها ميزت قوى الإيمان من ضعيفه، لأن المصائب كثيرًا ما تكشف عن معادن النفوس، وخفايا الصدور.

قال - تعالى - ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾.

ثم بينت السورة الكريمة أن الآجال بيد الله وحده، وأن محمدا ﷺ رسول قد خلت من قبله الرسل، وسيدركه الموت كما أدركهم. وأن الأخيار من أتباع الرسل السابقين كانوا يقاتلون معهم بثبات وصبر من أجل إعلاء كلمة الله. . فعلى المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يقدموا على الجهاد فى سبيل الله بعزيمة صادقة، وبنفوس مخلصة؛ لأن الإقدام لا ينقص شيئا من الحياة، كما أن الإحجام لا يؤخرها، ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾.

ثم حذرت السورة الكريمة المؤمنين من طاعة الكافرين؛ لأن طاعتهم تفضى بهم إلى الخسران، وبشرتهم بأن الله - تعالى - سيلقى الرعب فى قلوب أعدائهم، وأخبرتهم بأنه - سبحانه - قد صدق وعده معهم، حيث مكنهم فى أول معركة أحد من الانتصار على خصومهم وأنهم - أى المؤمنين - ما أصيبوا بما أصيبوا به فى أحد إلا بسبب فشلهم وتنازعهم وتطلعهم إلى الغنائم، ومخالفتهم لوصايا رسولهم ﷺ.

قال - تعالى - ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

ولقد ذكرت السورة الكريمة المؤمنين بما حدث من بعضهم من فرار عن المعركة حتى لا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى فقالت :

﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم﴾ وبينت لهم كيف أن الله - تعالى - قد شملهم برحمته، حيث أنزل عليهم النعاس فى أعقاب المعركة ليكون أمانا لهم من الخوف، وراحة لهم من الآلام التى أصابتهم. . وكيف أنه - سبحانه - قد فضح المنافقين، ورد على أقوالهم وأراجيفهم بما يدحضها ويبطلها.

قال - تعالى - ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية. يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ ثم وجهت السورة الكريمة حديثها إلى النبى ﷺ فوصفته بأكرم الصفات وأفضلها، ونزهته عن كل قول أو فعل يتنافى مع منزلته الرفيعة. . وأمرته باللين مع أتباعه وبالعفو عنهم وبالاستغفار لهم، وبمشاورتهم فى الأمر.

ثم عادت السورة الكريمة فأكدت للمؤمنين أَنَ ما أصابهم فى أحد كان سببه من عند أنفسهم، فهم الذين خالفوا ما أمرهم به نبيهم ﷺ.

قال - تعالى - ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم﴾.

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد ببيان فضل الشهداء، وما أعده الله لهم من ثواب جزيل، وبالثناء على المؤمنين الصادقين ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ والذين لم يرهبهم قول المرجفين : ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ بل إن هذا القول زادهم إيمانا على إيمانهم، وجعلهم يفوضون أمورهم إلى الله ويقولون : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

ولقد ذكر - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يحدث ما حدث فى أحد حتى يتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى :

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء، فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾.

وبعد هذا الحديث الحكيم المستفيض عن غزوة أحد، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهل الكتاب فذكرت جانبا من رذائل اليهود، الذين حكى الله - تعالى - عنهم أنهم قالوا: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وأنهم قالوا: ﴿لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾.

وأنهم قد نقضوا عهودهم مع الله وباعوا دينهم بدنياهم الفانية.

وقد توعدهم الله - تعالى - على ارتكابهم لهذه الرذائل والمنكرات بالعذاب المهين ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

ثم تحدثت السورة الكريمة فى أواخرها عن صفات أولى الألباب، وحكت عنهم ما كانوا يتضرعون به إلى الله من دعوات خاشعات، وابتهالات طيبات، وكيف أنه - سبحانه - قد أجاب لهم دعاءهم ببركة قوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم.

وكانت الآية الخاتمة فيها تدعو المؤمنين إلى الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، لأن المؤمن الذى تتوفر فيه هذه الصفات يكون اهلا للفلاح فى الدنيا والآخرة. قال - تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

هذا ونستطيع بعد هذا العرض الإجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها سورة آل عمران أن نستخلص ما يأتى:

أولا: أن السورة الكريمة قد اهتمت بإثبات وحدانية الله - تعالى - وإقامة الأدلة الساطعة على ذلك، وإثبات أن الدين الحق الذى ارتضاه الله - تعالى - لعباده هو دين الإسلام، الذى أرسل به نبيه محمدًا ﷺ.

وقد ساقت السورة الكريمة لإثبات هذه الحقائق آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.

وقوله - تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام﴾.

وقوله - تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

ثانيًا: أن السورة الكريمة قد فصلت الحديث عن أحوال أهل الكتاب، بأسلوب مقنع حكيم يحق الحق ويبطل الباطل.

فأنت إذا طالعتها بتدبر تراها تارة تتحدث عن الكفر الذى ارتكسوا فيه بسبب اختلافهم وبغيهم. ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيًا بينهم﴾.

وتـارة تتحدث عن نبذهم لكتـاب الله وتحاكمهم إلى غيره. ﴿ألم تر إلى الذين أوتـوا نصيبًا من الكتـاب يدعـون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضـون﴾.

وتارة توبخهم على كفرهم بآيات الله. وعلى مجادلتهم بالباطل، وعلى سوء أدبهم مع الله -تعالى- وعلى نقضهم لعهودهم ومواثيقهم، وعلى كتمانهم لما أمرهم الله بإظهاره من حقائق.

وقد توعدتهم السورة الكريمة بسوء العذاب بسبب هذه الرذائل والمنكرات ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس ما يشترون﴾.

وتارة تحذر المؤمنين من شرورهم فتقول: ﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

ولا تغفل السورة الكريمة عن مدح من يستحق المدح منهم، لأن القرآن الكريم لايذم إلا من يستحق الذم، فقد قال - تعالى - ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾.

وقال - تعالى - ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما﴾.

وقال - تعالى - : ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾.

هذا جانب من حديث سورة آل عمران عن أهل الكتاب، وهو حديث يكشف عن حقيقتهم حتى يكون المؤمنون على بينة من أمرهم.

وقد تحدثت السورة. أيضًا عن المشركين وعن المنافقين إلا أن حديثها عن أهل الكتاب كان أكثر وأشمل.

ثالثا: أن السورة الكريمة قد اهتمت اهتماما بارزا بتربية المؤمنين تربية ينالون باتباعها النصر والسعادة فى الدنيا والفوز والفلاح فى الآخرة.

فقد وجهت إليهم سبعة نداءات أمرتهم فيها بتقوى الله، وبالصبر والمصابرة والمرابطة، ونهتهم عن طاعة الكافرين، وعن التشبه بهم، وعن اتخاذهم أولياء كما نهتم عن تعاطى الربا وعن كل ما يتنافى مع آداب دينهم وتعاليمه.

وهذه النداءات السبعة تراها فى قوله: تعالى:

١ - ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾

٢ - ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾

٣ - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا﴾

٤ - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة﴾.

٥ - ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾.

٦ - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا﴾

٧ - ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾.

وبجانب هذه النداءات التى اشتملت على أسمى ألوان التربية الفاضلة، والتوجيه القويم. . نرى السورة الكريمة تسوق للمؤمنين فى آيات كثيرة منها ما يهدى بهم إلى الخير والرشاد ويبعدهم عن الشر والفساد. فهى تحكى لهم ألوانا من الدعوات التى يتضرع بها الأخيار من الناس لكى يتأسوا بهم. وتبين لهم أن حب الشهوات طبيعة فى الناس إلا أن العقلاء منهم يجعلون حبهم لما يرضى الله فوق أى شىء آخر. وتحرضهم على الاعتصام بحبل الله وتحثهم على المسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى رضا الله.

إلى غير ذلك من التوجيهات الحكيمة التى زخرت بها سورة آل عمران والتى من شأنها أن تزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم، وأن تهديهم إلى الصراط المستقيم.

رابعا: أن السورة الكريمة عرضت أحداث غزوة أحد عرضًا حكيمة زاخرًا بالعظات والعبر وفصلت الحديث عنها تفصيلا لا يوجد فى غيرها من السور، وساقت مادار فيها بأسلوب بليغ مؤثر يخاطب العقول والعواطف، ويكشف عن خفايا القلوب ونوازعها، وطوايا النفوس وخواطرها، ويعالج الأخطاء التى وقع فيها بعض المسلمين حتى لا يعودوا لمثلها ويشجعهم على المضى فى طريق الجهاد حتى لا يؤثر فى عزيمتهم ما حدث لهم فى أحد، ويبشرهم بأن الله - تعالى - قد عفا عمن فر منهم، ويذكرهم بمظاهر فضل الله عليهم خلال المعركة وبعدها، ويبصرهم بسنن الله التى لا تتخلف، وبقوانينه التى لا تتبدل، وبتعاليمه التى من سار عليها أفلح وانتصر، ومن أعرض عنها خاب وخسر ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾.

أما بعد، فهذا عرض إجمالى لسورة آل عمران رأينا أن نسوقه قبل البدء فى التفسير المفصل لآياتها، ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا تعريفًا موجزا نافعا عن هذه السورة الكريمة يعين على فهم بعض أسرارها ومقاصدها وتوجيهاتها.

والله نسأل أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم، وأن يجنبنا فتنة القول والعمل، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه ونافعة لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

د. محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قوله - تعالى - : ﴿الم﴾..

ويبلغ عدد السور القرآنية التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة.

وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود من حروف التهجى التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ويمكن إجمال اختلافهم فى رأيين رئيسيين:

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى، وسفيان الثورى وغيرهما من العلماء، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : «إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فواتح السور» وروى عن ابن عباس أنه قال : «عجزت العلماء عن إدراكها».

وعن على بن أبى طالب أنه قال: «إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى» وفى رواية أخرى للشعبى أنه قال: «سر الله فلا تطلبوه».

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس؛ لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثله كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها.

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس. فالرسول ﷺ كان يفهم المراد بها، وكذلك بعض الصحابة المقربين، ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور. وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأى لا مجال لذكرها هنا.

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه: أن المعنى المقصود منها معلوم. وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه. وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها:

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبى ﷺ «من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح». وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها، كسورة «ص» وسورة «يس» وسورة «ق».. الخ.

ولا يخلو هذا القول من ضعف لأنه لا يلزم من التسمية ببعضها أن تكون جميع الحروف المقطعة أسماء للسور التى بدئت بها، ولأن كثيرًا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة؛ لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه.

٢ - وقيل: إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣ - وقيل: إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته، فمثلا: ﴿الم﴾ أصلها أنا الله أعلم.

٤ - وقيل: إنها اسم الله الأعظم. إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال، والتى أوصلها السيوطى فى كتابه «الإتقان» إلى أكثر من عشرين قولا.

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه

مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك.

ومما يشهد لصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل، وعن كونه معجزة للرسول ﷺ فى أغلب المواضع.

وأنت ترى هذه الآيات كثيرا ما تتصدر صراحة باسم الإشارة الذى يعود إلى القرآن كما فى قوله - تعالى - : ﴿ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾. أو ضمنا كما فى قوله - تعالى - ﴿ألمص. كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه﴾ وأيضا فإن هذه السور التى افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذى جعله الله - تعالى - معجزة لنبيه ﷺ.

هذه خلاصة موجزة لآراء العلماء فى المراد بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء فى هذا الموضوع(١).

ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال : ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ يقول بعض العلماء : إن أصله إله، دخلت عليه أداة التعريف «ال» وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله.

قال القرطبى : قوله ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها حتى قال بعضهم : إنه اسم الله الأعظم، ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو سبحانه -(٢).

ولفظ «إله» قالوا : إنه من أله أى عبد، فالإله على هذا المعنى هو المعبود وقيل هو أله أى تحير. وذلك لأن العبد إذا تفكر فى صفاته - تعالى - تحير فيها، ولذا قيل : تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله(٣).

و ﴿الحى﴾ أى: المتصف بالحياة التى لا بدء ولا فناء لها.

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٣ ص ٢١ طبعة مكتبة المشهد الحسينى
(٢) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٠٢
(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢١.

و ﴿القيوم﴾ الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم مابه قوام حياتهم، وهو مبالغة فى القيام وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره.

والمعنى: الله - تعالى - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه. وهو المعبود الحق وكل معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة. وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم.

قال الآلوسى: ولفظ الجلالة «الله» مبتدأ وما بعده خبر. والجملة مستأنفة، أى: هو المستحق للعبودية لا غيره. و ﴿الحى القيوم﴾ خبر بعد خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف أى: هو الحى القيوم.. وأيًا ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به - سبحانه - وقد أخرج الطبرانى وابن مزدويه من حديث أبى أمامة مرفوعا أن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور، فى سورة البقرة، وآل عمران، وطه.

وقال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت فى البقرة ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾.

وفى آل عمران ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ وفى طه ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾[١].

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه﴾ والكتاب - كما يقول الراغب - فى الأصل مصدر، ثم سمى المكتوب فيه كتابًا. والكتاب فى الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه. والكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفى التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط[٢].

والمراد بالكتاب المنزل: القرآن الكريم. وفى التعبير عنه باسم الجنس إيذان بتفوقه على بقية أفراد الكتب المنزلة، فكأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ماعداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل.

وعبر بنزل - بصيغة التضعيف - للإشارة إلى أن نزول القرآن على النبى ﷺ كان منجما ولم يكن دفعة واحدة ومن المعروف أن القرآن قد نزل على النبى ﷺ على حسب الوقائع والحوادث وغيرها فى مدة تزيد على عشرين سنة.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٧٤.
(٢) مفردات القرآن ص ٤٣٣ للراغب الأصفهانى بتصرف وتلخيص.

وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لنزول القرآن منجما منها : تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتقوية قلبه، ومنها : التدرج فى تربية قويمة سليمة، ومنها : مسايرة الحوادث فى تجددها وتفرقها. ومنها تيسير حفظه وتسهيل فهمه، ومنها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ومنها : الإجابة على أسئلة السائلين، وبيان حكم الله - تعالى - فيما يحصل من قضايا، ولفت أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من أخطاء، وكشف حال الكافرين والمنافقين. ومنها : الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه من عند الله - تعالى - ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا﴾. فأنت تقرأ ما نزل على الرسول ﷺ من قرآن فى مكة. وما نزل عليه فى المدينة، فترى الجميع محكم السرد. دقيق السبك، رصين الأسلوب، بليغ التراكيب، فصيح الألفاظ.. بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف فى جودته من وقت إلى وقت «ومن موضوع إلى موضوع»(١).

وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل مقترنا بأمرين متصلا بهما :

أما أولهما فهو قوله : ﴿بالحق﴾.

وأما ثانيهما فهو قوله : ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ أى : أن الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو، والذى هو الحى القيوم، هو الذى نزل عليك يا محمد هذا القرآن تنزيلا ملتبسا بالحق، ومصاحبا له، ومقترنا به، ومشتملا عليه، فكل ما فيه من أوامر، ونواه، وقصص، وأحكام، وعقائد، وآداب، وشرائع وأخبار.. حق لايحوم حوله باطل، وصدق لا يتطرق إليه كذب.

وهو الذى جعل هذا الكتاب المنزل عليك موافقا ومؤيدًا لما اشتملت عليه الكتب السابقة من الدعوة إلى وحدانية الله، وإلى مكارم الأخلاق، وإلى الوصايا والشرائع التى تسعد الناس فى كل زمان ومكان. وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى جوهرها وأصولها. قال - تعالى - : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾(٢).

وقوله ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب. وقوله ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة من الكتاب. أى نزله فى حال تصديقه الكتب.

وفائدة تقييد التنزيل بهذه الحال حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل، وتنبيههم على وجوبه؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما.

---

(١) إن شئت المزيد من المعرفة عن الحكم والأسرار فى تنجيم القرآن فراجع - على سبيل المثال - كتاب «مناهل العرفان فى علوم القرآن» جـ١ ص ٤٦ إلى ٥٦ لفضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى.

(٢) سورة الشورى آية ١٣

قال الجمل : وقوله ﴿مصدقا لما بين يديه﴾، فيه نوع مجاز؛ لأن ما بين يديه هو ما أمامه. فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره. واللام فى ﴿لما﴾ لتقوية العامل. نحو قوله -تعالى- : ﴿فعال لما يريد﴾. وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة»[١].

ثم أخبر - سبحانه - عن بعض الكتب الأخرى التى أنزلها فقال : ﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾.

والتوراة : اسم عبرانى للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - ليكون شريعة له ولقومه.

قال القرطبى ما ملخصه : والتوراة معناها الضياء والنور مشتقة من وَرَى الزند ووَرِى لغتان إذا خرجت نارة. . وقيل مأخوذة من التورية، وهى التعريض بالشىء والكتمان لغيره، فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح.

والجمهور على القول الأول لقوله - تعالى - ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين﴾ يعنى التوراة[٢].

والإنجيل : كلمة يونانية معناها البشارة وهى اسم للكتاب الذى أنزله الله على عيسى.

قالوا : والإنجيل إفعيل من النجل وهو الأصل : يقال : رحم الله ناجليه أى والديه. وقال قوم : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشىء إذا استخرجته وأظهرته، ويقال للماء الذى يخرج من البئر : نجل وقيل : هو من النجل الذى هو سعة فى العين. ومنه طعنة نجلاء أى واسعة. وسمى الإنجيل بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه الله - تعالى - لبنى إسرائيل على يد عيسى عليه السلام[٣].

وهذا الكلام الذى نقلناه عن القرطبى والفخر الرازى هو قول لبعض العلماء الذين يرون أن لفظى التوراة والإنجيل يدخلهما الاشتقاق والتصريف.

وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين لا يدخلهما الاشتقاق والتصريف لأنهما اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين.

قال الفخر الرازى بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضائه للمذهب الذى يرى

---

(١) حاشية الجمل جـ١ ص٢٢٥

(٢) تفسير القرطبى جـ٤ ص ٥

(٣) التفسير الكبير الفخر الرازى جـ٧ ص ١٧١ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧-١٩٣٨.

أصحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشتقاق والتصريف: «فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميان:

أحدهما بالعبرية، والآخر بالسريانية، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أن الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث»(١).

وقوله ﴿من قبل﴾ متعلق «بأنزل» و«هدى» حال من التوراة والإنجيل، ولم يثن لأنه مصدر. ويجوز أن يكون مفعولا لأجله والعامل فيه أنزل.

أى: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن لأجل هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الذى من جملته الإيمان بالنبى ﷺ واتباعه حين يبعث، لأنهما قد اشتملتا على البشارة به والحض على طاعته.

قالوا: فالمراد بالناس من عمل بالتوراة والإنجيل وهم بنو إسرائيل. ويحتمل أنه عام بحيث يشمل هذه الأمة وإن لم نكن متعبدين أى مكلفين ومأمورين بشرع من قبلنا، والآن فيهما ما يفسد التوحيد وصفات البارى والبشارة بالنبى ﷺ(٢).

قال الآلوسى: وعبر فى جانب التوراة والإنجيل بقوله «أنزل» للإشارة إلى أنهما لم يكن لهما سوى نزول واحد، بخلاف القرآن فإن له نزولين: نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة، ونزولا من ذلك إليه ﷺ منجما فى ثلاث وعشرين سنة على المشهور، ولهذا يقال فيه نزل وأنزل..»(٣).

هذا، وليست التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم هى التوراة التى أنزلها الله على موسى، فقد بين القرآن فى أكثر من آية أن بعض أهل الكتاب قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾.

وقوله: - تعالى - ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾.

ومن الأدلة على أن التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم ليست هى التى أنزلها الله على موسى: انقطاع سندها، واشتمالها على كثير من القصص والعبارات والمتناقضات التى تتنزه الكتب السماوية عن ذكرها(٤).

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص ١٧١

(٢) تفسير الألوسى جـ ٣ ص ٧٦.

(٣) تفسير الألوسى جـ٣ ص٧٦.

(٤) راجع ما كتبناه فى ذلك «بنو إسرائيل» فى القرآن والسنة» جـ١ من ص٨٦-٩٣.

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل؛ إذ ليست هذه الأناجيل التى يقرؤها المسيحيون اليوم هى الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى؛ وإنما هى مؤلفات ألفت بعد عيسى - عليه السلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه.

أما الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى والذى وصفه الله بأنه هداية للناس فهو غير هذه الأناجيل[1].

و﴿الفرقان﴾ كل ما فرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وهو مصدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقانًا.

١ - والمراد به عند أكثر المفسرين: الكتب السماوية التى سبق ذكرها وهى التوراة والإنجيل والقرآن. أى: أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال. والخير والشر، وبذلك لا يكون لأحد عذر فى جحودها والكفر بها.

وأعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ الإنزال، تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى.

٢ - وقال بعضهم المراد بالفرقان هنا القرآن. وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسم الجنس تعظيما لشأنه، ورفعا لمكانه، ومدحا له بكونه فارقًا بين الحق والباطل، للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى - وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال الشرائع كلها.

٣ - وقال بعضهم: المراد به جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله - تعالى - على رسله لهداية الناس وسعادتهم. وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ماذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر.

وقد ذكر صاحب الكشاف هذه الأقوال وغيرها فقال: «فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب. أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور. أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له من كونه فارقا بين الحق والباطل»[2].

أما الفخر الرازى فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصه:

٤ - «والمختار عندى أن المراد من هذا الفرقان: المعجزات التى قرنها الله - تعالى - بإنزال هذه الكتب، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله،

---

(١) راجع تاريخ الأناجيل فى كتاب «محاضرات فى النصرانية» لفضيلة أستاذنا المرحوم محمد أبوزهرة.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٣٦ طبعة دار الكتاب العربى ببيروت.

افتقروا فى إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات، حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب. فالمعجزة هى الفرقان. فلما ذكر الله أنه أنزل الكتاب بالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك، بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة»(١).

والذى نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق، الكافرين بآيات الله، فقال: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام﴾ أى: إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدق رسله فيما يبلغون عنه، لهم عذاب شديد منه -سبحانه- بسبب كفرهم وجحودهم ﴿والله عزيز﴾ أى منيع الجانب، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم مايريد.

وفى قوله ﴿والله عزيز﴾ إشارة إلى القدرة التامة على العقاب، وفى قوله ﴿ذو انتقام﴾ إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب، ينزله متى شاء، وكيف شاء، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته، والوصف الأول صفة للذات. والثانى صفة للفعل.

ثم أخبر - سبحانه - عن شمول علمه لكل شىء فقال: ﴿إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء﴾.

أى أنه سبحانه - هو المطلع على كل صغير وكبير. وجليل وحقير، فى هذا الكون، لأنه هو الخالق له، والمهيمن على شئونه. وصدق - سبحانه - حيث يقول: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

وذكر - سبحانه - السماء والأرض، للإشارة إلى أن علمه وسع كل شىء، وسع السموات والأرض، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنا صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الانسان وما يخفيه؟

وفى تكرير حرف النهى «لا» تأكيد لنفى خفاء أى شىء عليه - سبحانه - والآية الكريمة وعيد شديد للكافرين بآياته، لأنه - سبحانه - وهو العليم بما يسرونه وما يعلنونه، سيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٧ ص ١٧٣.

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال: ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

وقوله ﴿يصوركم﴾ من التصوير وهو جعل الشىء على صورة لم يكن عليها. وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه. أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله.

والله - تعالى - القادر على كل شىء قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة. فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظامًا، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النطفة فى بطن المرأة، ومكان تربية الجنين ونموه وتكوينه بالطريقة التى يشاؤها الله، حتى يبرزه إلى الوجود بشرا سويا.

والمعنى: الله الذى لا إله إلا هو والذى هو الحى القيوم، هو الذى يصوركم فى أرحام أمهاتكم كيف يشاء، بأن جعل بعضكم طويلا وبعضكم قصيرًا، وهذا أبيض وذاك أسود، وهذا ذكر وتلك أنثى، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة، ومن كان شأنه كذلك. فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا إله إلا هو ﴿العزيز﴾ الذى يقهر كل شىء بقوته وقدرته ﴿الحكيم﴾ فى كل شئونه وتصرفاته.

وهذه الآية الكريمة فى مقام التعليل للتى قبلها، لأن قبلها بينت أن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، إذ هو العليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما. وهذه الآية تفيد أنه - سبحانه - يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشرًا سويًا، بل يعلم أحواله وهو نطفة فى الأرحام، بل إنه - سبحانه - ليعلم أحواله قبل أن يكون شيئًا مذكورًا، فهو - كما يقول القرطبى - العالم بما كان وما يكون ومالا يكون.

ومن كان ذلك شأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم - سبحانه - فى بطون أمهاتهم، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقا من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وقوله - تعالى - ﴿كيف يشاء﴾ إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشيئته وقدرته وليس خاضعا لقانون الأسباب والمسببات، إذ هو الفعال لما يريد. فمن شاء هدايته هداه، ومن شاء إضلاله أضله.

و ﴿كيف﴾ فى موضع نصب على أنه حال، وناصبه الفعل الذى بعده وهو ﴿يشاء﴾ ومفعول المشيئة محذوف والتقدير: هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء تصويركم، من ذكر وأنثى،

وجميل ودميم، وغير ذلك من مظاهر التفاوت والاختلاف فى الصور والأشكال والعقول والميول.

وقوله - تعالى - ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تأكيد لما قبله، من انفراده بالألوهية، وحقيقة المعبودية، بعد أن أقام الأدلة الساطعة على ذلك من كونه حيا قيوما، منزلا للكتب الهادية للناس إلى الحق عالما بكل شىء، مصورًا لخلقه وهم فى أرحام أمهاتهم كيف يشاء.. وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص، ويسارع إلى العمل الصالح بقلب منيب ونية صادقة.

هذا، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سورة آل عمران من مطلعها إلى بضع وثمانين آية منها قد نزل فى وفد نصارى نجران الذين قدموا على الرسول ﷺ فى السنة التاسعة من الهجرة، ليناقشوه فى شأن عيسى - عليه السلام - وقد رد عليهم ﷺ بما يبطل أقوالهم التى تخالف الحق، وأرشدهم إلى الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده دينا. وسنذكر قصة هذا الوفد عند تفسيرنا لآية المباهلة وهى قوله - تعالى - فى هذه السورة ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ الآية ٦١.

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة الواضحة على أنه هو المستحق للعبادة، عقب ذلك ببيان أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه، وبيان موقف الناس منها فقال -تعالى- :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

قوله -تعالى- : ﴿محكمات﴾ من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة، ترجع إلى شىء واحد هو المنع يقال: أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد

ويقال : أحكمه عن الشيء أى أرجعه عنه ومنعه منه. ويقال حكم نفسه وحكم الناس، أى منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق. ويقال أحكم الفرس أى جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب.

وقوله : ﴿هن أم الكتاب﴾ أى أصله الذى فيه عماد الدين وفرائضه وحدوده وما يحتاج إليه الناس فى دنياهم وآخرتهم. وأم كل شيء : أصله وعماده.

قال ابن جرير : والعرب تسمى الأمر الجامع لمعظم الشيء أماً له. فيسمون راية القوم التى تجمعهم فى العساكر أمهم. ويسمون المدبر لمعظم أمر البلدة والقرية أمها»[1].

وقوله ﴿متشابهات﴾ من التشابه بمعنى أن يكون أحد الشيئين مشابهًا للآخر ومماثلا ومشاكلا له مشاكلة تؤدى إلى الالتباس غالبًا. قال : أمور مشتبة ومشبهة - كمعظمة - : أى مشكلة. ويقال : شبه عليه الأمر تشبيها : لبس عليه.

ولقد جاء فى القرآن ما يدل على أنه كله محكم كما فى قوله -تعالى- ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه كما فى قوله -تعالى- ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا﴾.

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه متشابه كما فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها. ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة، لأن معنى إحكامه كله : أنه متقن متين لا يتطرق إليه خلل أو اضطراب. ومعنى كونه كله متشابها أنه يشبه بعضه بعضا فى بلاغته وفصاحته وإعجازه وهدايته، ومعنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه، فسنبينه بعد سرد بعض الأقوال التى قالها العلماء فى تحديد معنى كل منهما.

فمنهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذى لا يحتمل النسخ، والمتشابه هو الخفى الذى لا يدرك معناه وهو ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والروح.

ومنهم من يرى أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. والمتشابه هو الذى لا يستقل بنفسه، بل يحتاج إلى بيان، فتارة يبين بكذا، وتارة يبين بكذا، لحصول الاختلاف فى تأويله.

ومنهم من يرى أن المحكم هو الذى لا يحتمل فى تأويله إلا وجها واحدًا والمتشابه هو الذى يحتمل أوجها. ومنهم من يرى أن المحكم ما كانت دلالته راجحة وهو النص والظاهر. أما المتشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ١٧٠ طبعة مصطفى الحلبى.

هذه بعض الأقوال فى تحديد معنى المحكم والمتشابه[١]. وقد اختار كثير من المحققين هذا القول الأخير، ومعنى الآية الكريمة - بعد هذا التهميد الموجز:

الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، والذى أنزل الكتب السماوية لهداية الناس، والذى صورهم فى الأرحام كيف يشاء، وهو الذى أنزل عليك - يا محمد - هذا الكتاب الكريم المعجز العظيم الشأن، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل هذا الكتاب ﴿منه آيات محكمات﴾ أى واضحات الدلالة، محكمات التراكيب، جليات المعانى، متقنات النظم والتعبير حاويات لكل ما يسعد الناس فى معاشهم ومعادهم، بينات لا التباس فيها ولا اشتباه.

وقوله ﴿هن أم الكتاب﴾ أى هذه الآيات المحكمات الواضحات الدلالة المانعات من الوقوع فى الالتباس لانكشاف معانيها لكل ذى عقل سليم، هن أصل الكتاب الذى يعول عليه فى معرفة الأحكام، ويرجع إليه فى التمييز بين الحلال والحرام، ويرد إليه ماتشابه من آياته، وما استشكل من معانيها.

والجار والمجرور ﴿منه﴾ خبر مقدم، و ﴿آيات﴾ مبتدأ مؤخر، و ﴿محكمات﴾ صفة لآيات. وقوله ﴿هن أم الكتاب﴾ صفة ثانية للآيات.

قال الجمل: وأخبر بلفظ الواحد وهو ﴿أم﴾ عن الجمع وهو ﴿هن﴾ لأن الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة، وكلام الله واحد. أو أن كل واحدة منهن أم الكتاب كما قال - تعالى -: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ أى كل واحد منهما. أو لأنه مفرد واقع موقع الجمع»[٢].

وقوله ﴿وأخر متشابهات﴾ أى ومنه آيات أخر متشابهات وذلك كالآيات التى تتحدث عن صفات الله - تعالى - مثل: الاستواء، واليد والغضب، ونحو ذلك من الآيات التى تحدثت عن صفاته - سبحانه - وكالآيات التى تتحدث عن وقت الساعة، وعن الروح وعن حقيقة الجن والملائكة وكالحروف المقطعة فى أوائل السور.

قال الشيخ الزرقانى ما ملخصه: ومنشأ التشابه إجمالا هو خفاء مراد الشارع من كلامه. أما تفصيلا فنذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ من جهة غرابته كلفظ الأب فى قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ أو من جهة اشتراكه بين معان عدة كما فى قوله - تعالى - ﴿فراغ عليهم ضربا

(١) إذا أردت المزيد فراجع الإتقان للسيوطى. وتفسير الألوسى جـ٣ ص ٨٠ وتفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٧٨.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين - بتصرف يسير - جـ١ ص٢٤٢.

باليمين﴾ أى فأقبل إبراهيم على الأصنام يضربها بيمينه، أو بقوة، أو بسبب اليمين التى حلفها. ومن هذا النوع فواتح السور المبدوءة بحروف التهجى لأن التشابه والخفاء فى المراد منها جاء من ناحية ألفاظها.

ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى، ومثاله كل ما جاء فى القرآن وصفا لله - تعالى - أو لأهوال القيامة، أو لنعيم الجنة.. فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق، ولا بأهوال يوم القيامة، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

ثم قال - رحمه الله - ويمكننا أن ننوع المتشابهات ثلاثة أنواع:

النوع الأول: مالا يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه مما استأثر الله بعلمه.

النوع الثانى: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس، كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من جهة الإجمال والبسط والترتيب. والأمثلة على ذلك كثيرة، فمثال التشابه بسبب الإجمال قوله - تعالى:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾.

فإن خفاء المراد فيه جاء من ناحية إيجازه. والأصل: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ماطاب لكم من النساء﴾.

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم ولذلك أمثلة كثيرة من المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله»(١).

ثم بين - سبحانه - موقف الذين فى قلوبهم مرض وانحراف عن الحق من متشابه القرآن فقال: ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ فالجملة الكريمة تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق.

والزيغ - كما يقول القرطبى - الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، ويقال: زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد، ومنه قوله - تعالى -: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾. وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت إلى نصارى نجران.

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى جـ٢ ص ١٧٤.

والابتغاء : الاجتهاد فى الطلب. يقال : بغيت الشىء وابتغيته، إذا طلبته بجد ونشاط. والفتنة : من الفتن : وأصل الفتن إدخال الذهب للنار لتظهر جودته من رداءته. والمراد بها هنا الإضلال وإثارة الشكوك حول الحق.

والتأويل : يطلق بمعنى التفسير والتوضيح والبيان. ويطلق بمعنى حقيقة الشىء وما يؤول إليه أمره، مأخوذ من الأول وهو الرجوع إلى الأصل.

يقال : آل الأمر إلى كذا يؤول أولاً أى رجع. وأولته إليه : رجعته.

المعنى : لقد اقتضت حكمتنا - يا محمد - أن ننزل عليك القرآن مشتملا على آيات محكمات هن أم الكتاب، وعلى أخر متشابهات. فأما الفاسقون الذين فى قلوبهم انحراف عن طلب الحق، وميل عن المنهج القويم، وانصراف عن القصد السوى فيتبعون ما تشابه منه، أى : يتعلقون بذلك وحده. ويعكفون على الخوض فيه. ولا تتجه عقولهم إلى المحكم ليردوا المتشابه إليه، وإنما يلازمون الأخذ بالمتشابه كما يلازم التابع متبوعه، لأنه يوافق اعوجاج نفوسهم وسوء نياتهم. وتحكم أهوائهم وشهواتهم.

وقد بين - سبحانه - أن اتباع هؤلاء الزائغين للمتشابه إنما يقصدون من ورائه أمرين :

أولهما : « ابتغاء الفتنة » أى طلبا لفتنة المؤمنين فى دينهم. وتشكيكهم فى عقيدتهم، وإثارة الريب فى قلوبهم بأوهام يلقونها حول المتشابه الذى جاء به القرآن، بأن يقولوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿أئذا متنا وكنا ترابا أئنا لفى خلق جديد﴾ وبأن يقولوا : كيف يكون نعيم الجنة، وما حقيقة الروح ولماذا يعذبنا الله على أعمالنا مع أنه هو الخالق لكل شىء، إلى غير ذلك من الشبهات الزائفة التى يثيرها الذين فى قلوبهم زيغ طلبا لتشكيك المؤمنين فى دينهم.

وثانيهما : « وابتغاء تأويله » أى : ويتعلقون بالمتشابه ويتبعونه طلبا لتأويل آيات القرآن تأويلا باطلا، وتفسيرها تفسيرا فاسدًا بعيدًا عن الحق زاعمين أن تفسيرهم هذا هو الحق بعينه، لأنه يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وميولهم الأثيمة.

وفى جعل قلوبهم مقرًا للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد.

وفى تعليل الاتباع -كما يقول الألوسى- « بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة. إيذان بأنهم ليسوا من أهل التأويل - فى عير ولا نفير ولا قبيل ولا دبير - وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ».

وقد ذم النبى ﷺ هؤلاء الذين يتبعون ماتشابه من القرآن طلبا للفتنة والتأويل الباطل،

وحذر منهم فى أحاديث كثيرة. ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات﴾.. إلخ الآيات قالت: قال رسول الله ﷺ «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(١).

وقد استجاب الصحابة - رضى الله عنهم - لوصايا الرسول ﷺ فكانوا يتباعدون عن الذين فى قلوبهم زيغ. ويزجرونهم ويكشفون عن أباطيلهم.

قال القرطبى: «حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى: قال: أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم، عن سليمان بن يسار أن صَبِيغ بن عِسل قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء: فبلغ ذلك عمر - رضى الله عنه - فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين من عراجين النخل. فلما حضر قال له عمر: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ. فقال عمر - وأنا عبد الله عمر: ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه فقال حسبك يا أمير المؤمنين!! فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى»(٢).

ثم بين - سبحانه - أن تأويل المتشابه مرده إلى الله - تعالى - وأن الراسخين فى العلم يعلمون منه ما يوفقهم الله لمعرفته فقال، ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

وقوله - تعالى - ﴿والراسخون فى العلم﴾ من الرسوخ وهو الثبات والتمكن وأصله فى الأجرام، أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض، واستعمل فى المعانى ومنه رسخ الإيمان فى القلب. أى ثبت واستقر وتمكن.

والألباب، جمع لب وهو - كما يقول الراغب - العقل الخالص من الشوائب وسمى بذلك لكونه خالص ما فى الإنسان من معانيه، كاللباب واللب من الشىء وقيل هو مازكا من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا، ولهذا علق الله - تعالى - الأحكام التى لا يدركها إلا العقول الزكية بأولى الألباب»(٣).

قال الآلوسى: «وقوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم﴾ فى موضع الحال من

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير جـ٦ ص٤٢. طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥هـ
(٢) تفسير القرطبى جـ٤ ص١٤
(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص٦٤٤

ضمير يتبعون باعتبار العلة الأخيرة. أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله - تأويلا فاسدًا - والحال أن التأويل المطابق للواقع -كما يشعر به التعبير بالعلم والإضافة إلى الله - تعالى- مخصوص به -سبحانه- وبمن وفقه - عز شأنه - من عباده الراسخين فى العلم. أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام، ومداحض الأفهام، دونهم حيث إنهم بمعزل عن تلك الرتبة، هذا ما يقتضيه الظاهر فى تفسير الراسخين»[1].

و قوله. ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ جملة موضحة لحال الراسخين فى العلم، ومبينة لما هم عليهم من قوة الإيمان، وصدق اليقين.

أى يقول الراسخون فى العلم عندما يقرءون ما تشابه من آيات القرآن آمنا به وصدقنا وأذعنا فنحن لا نشك فى أن كلا من الآيات المتشابهة والآيات المحكمة من عند الله وحده فهو الذى أنزلها على نبيه ﷺ بمقتضى حكمته ومشيئته.

وقوله ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾، معطوف على جملة ﴿يقولون﴾ وقد ختم به - سبحانه - هذه الآية على سبيل المدح لهؤلاء الراسخين فى العلم.

أى : وما يدرك هذه الحقائق الدينية ويعتبر بها ويتذكر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام وآداب وهدايات وتشريعات إلا أصحاب العقول السليمة، والألباب المستنيرة التى لا تتأثر بالأهواء والشهوات، ولا تركن إلى البدع الزائفة والأفكار الفاسدة.

قال ابن كثير: «وقوله - تعالى - ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ اختلف القراء فى الوقف هنا فقيل الوقف على لفظ الجلالة، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال: «التفسير على أربعة انحاء فتفسير لا يعذر أحد فى فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله». وعن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به﴾ الآية وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولايسألون عنه».

وحكى ابن جرير أن قراءة عبد الله بن مسعود، إن تأويله إلا عند الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به. واختار هذا القول ابن جرير - وهو مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين وأتباعهم خصوصا أهل السنة.

ومنهم من يقف على قوله ﴿والراسخون فى العلم﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا الخطاب بما لايفهم بعيد. وقد روى عن ابن عباس أنه قال. أنا من الراسخين

(١) تفسير الآلوسى ٣ ص ٨٣.

الذين يعلمون تأويله، وروى عن مجاهد أنه قال والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به.

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

والذى نراه أنه إذا فسر المتشابه بما استأثر الله - تعالى - بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح، كان الوقف على لفظ الجلالة وكانت الواو فى قوله ﴿والراسخون﴾ للاستئناف، والراسخون مبتدأ وجملة «يقولون» خبر عنه.

أى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ويفوضون علمه إليه - سبحانه - ولا يقتحمون أسواره، كأهل الزيغ والضلال الذين أولوه تأويلا فاسدا.. وإذا فسر المتشابه بما لا يتبين معناه إلا بعد نظر دقيق بحيث يتناول المجمل ونحوه كان الوقف على لفظ العلم، وكانت الواو فى قوله ﴿والراسخون﴾ للعطف.

أى: لا يعلم تأويل المتشابه تأويلا حقا سليما إلا الله والراسخون فى العلم أما أولئك الذين فى قلوبهم زيغ فهم أبعد ما يكونون عن ذلك.

ويجوز الوقف على هذا الرأى أيضًا على لفظ الجلالة؛ لأنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه علما كاملا إلا الله. أولا يعلم كنهه وحقيقته أحد سواه.

وإذا فسر المتشابه بما قام الدليل القاطع على أن ظاهره غير مراد. مع عدم قيام الدليل على تعيينه، كمتشابه الصفات أو ما يسمى بآيات الصفات مثل قوله - تعالى - ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. جاز الوقف والعطف عند من يؤولون هذه الصفات تأويلا يليق بذاته - تعالى - وهم جمهور علماء الخلف ووجب الوقف على لفظ الجلالة عند من يفوض معانى هذه المتشابهات إلى الله - تعالى - مع تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة وهم جمهور علماء السلف وهذه المسألة من المسائل التى أفاض القول فيها الباحثون فى علم الكلام.

هذا وقد ذكر العلماء حكما متعددة لاشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، منها: الابتلاء والاختبار، لأن الراسخين فى العلم سيؤمنون به وإن لم يعرفوا تأويله، ويخضعون لسلطان الربوبية، ويقرون بالعجز والقصور، وفى ذلك غاية التربية ونهاية المصلحة. وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيؤولونه تأويلا باطلا طلبا لإضلال الناس وتشكيكهم فى دينهم.

ومنها: رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذى لا يطيق معرفة كل شىء. فقد أخفى -سبحانه- على الناس معرفة وقت قيام الساعة لكيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها،

ولكيلا يفتك بهم الخوف فيها لو أدركوا بالتحديد قرب قيامها.

ومنها - كما يقول الفخر الرازى : «أنه متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، ومنها : أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية، فحينئذ يبقى فى الجهل والتقليد. ومنها أن اشتماله على المحكم والمتشابه يحمل الإنسان على تعلم علوم كثيرة كعلم اللغة والنحو وأصول الفقه وغير ذلك من أنواع العلوم، ومنها : أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفى فوقع فى التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، وبذلك يكون مخلوطا بما يدل على الحق الصريح. فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر يكون من المتشابهات، والقسم الثانى وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر هو المحكمات»(١).

ومنها - كما يقول الجمل نقلا عن الخازن : «فإن قيل القرآن نزل لإرشاد الناس فهلا كان كله محكمًا؟ فالجواب أنه نزل بألفاظ العرب وعلى أسلوبهم. وكلامهم على ضربين : الموجز الذى لا يخفى على سامع هذا هو الضرب الأول، والثانى المجاز والكنايات والإرشادات والتلويحات وهذا هو المستحسن عندهم، فأنزل القرآن على ضربين ليتحقق عجزهم فكأنه قال : عارضوه بأى الضربين شئتم، ولو نزل كله محكما لقالوا : هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا»(٢).

قال بعض العلماء : والذى يستخلص من مصادر الشريعة ومواردها، أن الآيات المتشابهة لا يمكن أن يكون موضوعها حكما تكليفيا من الأحكام التى كلف عامة المسلمين أن يقوموا بها، وأنه لا يمكن أن تكون آية من آيات الأحكام التكليفية قد انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى دون أن يبينها، ولا تشابه فيها بعد أن بينتها السنة النبوية، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم﴾ ولا شك من أول بيان ما نزل إليهم بيان الأحكام التكليفية.

لذلك نقول جازمين : إنه ليس فى آيات الأحكام آية متشابهة، وإن اشتبه فهمها على بعض

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٧ ص١٨٤ بتلخيص يسير.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٢٤٢

العقول، لأنه لم يطلع على موضوعها، فليس ذلك لأنها متشابهة فى ذاتها، بل لاشتباه عند من لا يعلم، واشتباه من لا يعلم لا يجعل آية فى القرآن متشابهة»[(١)].

وبعد أن بين - سبحانه - موقف الناس من محكم القرآن ومتشابهه، شرع فى بيان ما يتضرع به المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بكل ماأنزله الله - تعالى - فقال:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

اشتملت هاتان الآيتان على دعوات طيبات. ويرى بعض العلماء أن هذه الدعوات من مقول الراسخين فى العلم، فهم يقولون: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ ويقولون أيضًا ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ ويرى بعضهم أن هذا كلام جديد، وهو تعليم من الله - تعالى - لعباده ليكثروا من التضرع إليه بهذه الدعوات وأمثالها.

والزيغ - كما أشرنا فى الآية السابقة - الميل عن الاستقامة، والانحراف عن الحق، يقال: زاغ يزيغ أى مال ومنه زاغت الشمس إذا مالت.

والمعنى: نسألك يا ربنا ونضرع إليك ألا تميل قلوبنا عن الهدى بعد إذ ثبتنا عليه ومكنتنا منه. وأن تباعد بيننا وبين الزيغ الذى لا يرضيك. وبين الضلال الذى يفسد القلوب، ويعمى البصائر. ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أى وامنحنا من عندك ومن جهتك إنعامًا وإحسانا تشرح بهما صدورنا. وتصلح بهما أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾ لا غيرك، فأنت مالك الملك وأنت القائل ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾[(٢)].

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد تضمنت سؤال المؤمنين ربهم تثبيت الإيمان فى قلوبهم ومنحهم المزيد من فضله وإنعامه وإحسانه..

قال الفخر الرازى - ما ملخصه -: وقال - سبحانه - ﴿رحمة﴾ ليكون ذلك شاملا لجميع أنواعها التى تتناول حصول نور الإيمان والتوحيد والمعرفة فى القلب، وحصول الطاعة فى الأعضاء والجوارح، وحصول سهولة أسباب المعيشة والأمن والصحة والكفاية فى الدنيا

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة بمجلة لواء الإسلام العدد التاسع - السنة الثامنة.
(٢) سورة فاطر الآية ٢.

وحصول سهولة سكرات الموت عند حضوره، وحصول سهولة السؤال فى القبر، وغفران السيئات والفوز بالجنات فى الآخرة. وقوله ﴿من لدنك﴾ يتناول كل هذه الأقسام. لأنه لما ثبت بالبراهين الباهرة أنه لا رحيم إلا هو أكد ذلك بقوله «من لدنك» تنبيها للعقل والقلب والروح على أن هذا المقصود لا يحصل إلا منه - سبحانه - ثم قال: ﴿إنك أنت الوهاب﴾ كأن العبد يقول: إلهى هذا الذى طلبته منك فى هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى، حقير بالنسبة إلى كمال كرمك، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الأشياء وذواتها وماهياتها ووجوداتها، فكل ما سواك فمن جودك وإحسانك فلا تخيب رجاء هذا المسكين، ولا ترد دعاءه واجعله أهلا لرحمتك»(١).

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير وغيره بعض الأحاديث النبوية عند تفسيرهم لهذه الآية ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائى وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال «لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك. اللهم زدنى علما، ولاتزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»(٢).

وروى الترمذى عن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» فقلت: يارسول الله، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك؟ قال: «يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ» فتلا معاذ - أحد رجال سند هذا الحديث - ﴿ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾.

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك. قلنا: يارسول الله قد آمنا بك، وصدقنا بما جئت به، أفيخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها تبارك-وتعالى -(٣).

ثم حكى - سبحانه - ضراعة أخرى تضرع بها المؤمنون إلى خالقهم فقال: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾.

أى: ياربنا إنك جامع الناس: محسنهم ومسيئهم، مؤمنهم وكافرهم. ليوم لاشك فى وقوعه وحصوله وهو يوم الحساب والجزاء، لتجازى الذين أساءوا بما عملوا وتجازى الذين أحسنوا بالحسنى. فأنت - سبحانك - لم تخلق الخلق عبثا، ولن تتركهم سدى، وإنما خلقتهم لرسالة

---

(١) التفسير الكبير الفخر الرازى جـ٧ ص ١٩٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٤٨.
(٣) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٠.

عظمى هى عبادتك وطاعتك. فمن استجاب لك تفضلت عليه بالثواب العظيم، ومن أعرض عن طاعتك عاقبته بما يستحقه.

وقوله ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب فى وقوع يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب.

أى إنك يامولانا لا تخلف ما أخبرت به عبادك من أن هناك يوما لا شك فى وقوعه، تجازى فيه الناس على أعمالهم بمقتضى إرادتك ومشيئتك.

وفى هذه الآية الكريمة إشعار بأن نهاية أمل المؤمنين أن يظفروا بالجزاء الحسن من خالقهم يوم القيامة، لأنهم بعد أن سألوه تثبيت الإيمان وسعة الرحمة، توجهوا إليه بالمقصود الأعظم وهو حسن الثواب يوم القيامة. فكأنهم قالوا - كما يقول الرازى -: ليس الغرض من تلك الدعوات ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها فانية؛ وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة، ونعلم أن وعدك لا يكون خلفا، وكلامك لا يكون كذبا فمن زاغ قلبه بقى هناك فى العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة وجعلته من المؤمنين، بقى هناك فى السعادة والكرامة أبد الآبدين فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة»[1].

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على دعوات كريمات بليغات، من شأنها أن تسعد الناس فى دينهم ودنياهم. والله نسأل أن ينفعنا بها إنه مجيب الدعاء، وأرحم الراحمين.

وبعد هذا الدعاء الجامع الحكيم الذى حكاه الله -تعالى- عن عباده المؤمنين عقب ذلك بالحديث عن الكافرين، وعن أسباب كفرهم وغرورهم، وعن سوء عاقبتهم فقال تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ
وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٧ ص ١٩٥.

لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

الوقود - بفتح الواو - هو ما توقد به النار كالحطب وغيره. وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت. والوقود - بضم الواو - المصدر عند أكثر اللغويين.

والمعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم، وعموا وصموا عن الاستجابة له، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة، ولن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله الذى استحقوه بسبب كفرهم، واغترارهم بكثرة المال، وعزة النفر، وقوة العصبية وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم ردا على مزاعمهم الباطلة من أن ذلك سينفعهم فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ فبين - سبحانه - أنه بسبب كفرهم الذى أصروا عليه، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم أى نفع من وقوع عذاب الله عليهم.

ومن فى قوله ﴿من الله﴾ لابتداء الغاية و﴿شيئًا﴾ منصوب على المصدرية. أى شيئا من الاغناء. أو النفع، لأن الذى ينفع الناس يوم القيامة إنما هو إيمانهم وعملهم الصالح.

والإشارة فى قوله ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ لأولئك الكافرين الذين غرهم بالله الغرور. أى : وأولئك الكافرون الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ولم يعيروا أسماعهم أى التفات إلى الحق هم وقود النار أى حطبها. أى أن النار يشتد اشتعالها فيهم حتى لكأنهم هم مادتها التى بها تتقد وتشتعل.

وجىء بالإشارة فى قوله ﴿وأولئك﴾ لاستحضارهم فى الأذهان حتى لكأنهم بحيث يشار إليهم، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيأتى من الخبر وهو قوله ﴿هم وقود النار﴾. وكانت الاشارة للبعيد، للإشعار بغلوهم فى الكفر، وانغماسهم فيه إلى منتهاه، ولذلك كانت العقوبة شديدة.

وقوله ﴿وأولئك﴾ مبتدأ، وهم ضمير فصل والخبر قوله : ﴿وقود النار﴾ والجملة مستأنفة مقررة لعدم الإغناء. وفى هذا التذييل تهديد شديد للكفار الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ببيان أن ما اغتروا به لن يحول بينهم وبين الخلود فى النار.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عن الإنسان كل ما كان منتفعا به. ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة.

أما الأول فهو المراد بقوله ﴿لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا﴾ وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب فى الدنيا يفزع إلى المال والولد. فبين الله - تعالى - أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا. ونظير هذه الآية قوله - تعالى - ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وأما القسم الثانى من أسباب العذاب فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ وهذا هو النهاية فى العذاب، فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها فى الحطب اليابس(١).

ثم بين - سبحانه - أن حال الكافرين بالحق الذى جاءهم به النبى ﷺ كحال الذين سبقوهم فى الجحود والعناد فقال - تعالى - : ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾.

الدأب : أصله الدوام والاستمرار. يقال : دأب على كذا يداب دأبًا ودأبًا ودءوبًا، إذا دوام عليه وجد فيه وتعب. ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة، لأن من يستمر فى عمل أمدا طويلا يصير عادة من عاداته، وحالا من أحواله فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

وآل فرعون : هم أعوانه ونصراؤه وأشياعه الذين استحبوا العمى على الهدى واستمروا على النفاق والضلال حتى صار ديدنا لهم.

قال الراغب : «والآل مقلوب عن الأهل. ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة. يقال آل فلان ولا يقال آل رجل.. ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف والأفضل، فيقال آل الله وآل السلطان، والأهل يضاف إلى الكل فيقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا» ؟(٢)

والمعنى : حال هؤلاء الكافرين الذين كرهوا الحق الذى جئت به - يا محمد - ولم يؤمنوا بك حالهم فى استحقاق العذاب، كحال آل فرعون والذين من قبلهم من أهل الزيغ والضلال، كفروا بآيات الله، وكذبوا بما جاءت به من هدايات فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر حيث أهلكم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب، والله - تعالى - شديد العقاب لمن كفر بآياته.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٩٨.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٠

والجار والمجرور وهو قوله ﴿كدأب آل فرعون﴾ فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف. أى شأن هؤلاء فى تكذيبك يامحمد كشأن آل فرعون والذين من قبلهم فى تكذيبهم لأنبيائهم.

والمقصود بآل فرعون أعوانه وبطانته، لأن الآل يطلق على أشد الناس التصاقا واختصاصا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا فى المتابعة والتواطؤ على الكفر، لأنه إذا وجد العناد فى التابع فهو فى الغالب يكون فى المتبوع أشد وأكبر. ولأنهم هم الذين حرضوه على الشرور والآثام والطغيان فلقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله - تعالى - ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك؟ قال: سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم. وإنا فوقهم قاهرون﴾(١).

وخص القرآن آل فرعون بالذكر من بين الذين سبقوهم فى الكفر، لأن فرعون كان أشد الطغاة طغيانا، وأكبرهم غرورا وبطرا وأكثرهم استهانة بقومه، واحتقارًا لعقولهم وكيانهم، ألم يقل لهم - كما حكى القرآن - ﴿أنا ربكم الأعلى﴾(٢). ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم: ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون﴾(٣) ألم يقل لوزيره: ﴿ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات، فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبًا..﴾(٤).

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية، وتفاهة العقل، والخروج عن كل مكرمة فقال: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾(٥)، لأن الأمة التى تترك الظالم وبطانته يعيثون فى الأرض فسادًا لا تستحق الحياة، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران.

وجملة ﴿كذبوا بآياتنا﴾ تفسير لصنيعهم الباطل، ودأبهم على الفساد والضلال. والمراد بالآيات ما يعم المتلوة فى كتب الله - تعالى - والبراهين والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم.

وفى إضافتها إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتنبيه على قوة دلالتها على الحق والخير وقوله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ بيان لما أصابهم بسبب كفرهم وتكذيبهم للحق، وفى التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العقوبة، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذى لا يستطيع فكاكا من آسره.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٧.
(٢) سورة النازعات آية ٢٤.
(٣) سورة الزخرف الآية ٥١
(٤) سورة غافر الآية ٣٦-٣٧
(٥) سورة الزخرف الآية ٥٤.

والباء للسببية أى أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب. أو الملابسة والمصاحبة. أى أخذهم وهم متلبسون بذنوبهم دون أن يتوبوا منها أو يقلعوا عنها، والحمل على الوجهين تدل على كمال عدل الله - تعالى - لأنه ما عاقبهم إلا لأنهم استحقوا ذلك.

وأصل الذنب : الأخذ بذنب الشيء، أى بمؤخرته ثم أطلق على الجريمة لأن مرتكبها يعاقب بعدها.

وفى قوله : ﴿والله شديد العقاب﴾ إشارة إلى أن شدة العقاب سببها شدة الجريمة وتعليم للناس بأن كل فعل له جزاؤه، إن خيرًا فخير وإن شرافشر، وتقرير وتأكيد لمضمون ما قبلها.

ثم أنذر الله - تعالى - الكافرين بسوء المصير، وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال -تعالى- : ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾.

وقد وردت روايات فى سبب نزول هذه الآية والتى بعدها. من أشهرها: ما ذكره ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله ﷺ لما أصاب من قريش ما أصاب فى غزوة بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم» فقالوا يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا[1] لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة. إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس. فأنزل الله - تعالى - ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿لعبرة لأولى الأبصار﴾[2]. والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين الذين يدلون بقوتهم، ويغترون بأموالهم وأولادهم وعصبيتهم.. قل لهم ستغلبون وتهزمون فى الدنيا على أيدى المؤمنين وتحشرون يوم القيامة ثم تساقون إلى نار جهنم لتلقوا فيها مصيركم المؤلم، ﴿وبئس المهاد﴾ أى بئس المكان الذى هيأوه لأنفسهم فى الآخرة بسبب سوء فعلهم. والمهاد : المكان الممهد الذى ينام عليه كالفراش.

ولقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يتولى الرد عليهم. وأن يواجههم بهذا الخطاب المشتمل على التهديد والوعيد، لأنهم كانوا يتفاخرون عليه بأموالهم وبقوتهم، فكان من المناسب أن يتولى ﷺ الرد عليهم، وأن يخبرهم بأن النصر سيكون له ولأصحابه، وأن الدائرة ستدور عليهم.

وقوله ﴿ستغلبون﴾ إخبار عن أمر يحصل فى المستقبل، وقد وقع كما أخبر به الله - تعالى -

---

(١) الأغمار: جمع غمر - بضم الغين - وهو الجاهل الذى لم يجرب الأمور.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٠

فقد دارت الدائرة على اليهود من بنى قينقاع والنضير وقريظة وغيرهم، بعد بضع سنوات من الهجرة، وتم فتح مكة فى السنة الثامنة بعد الهجرة.

وقوله ﴿وبئس المهاد﴾ إما من تمام ما يقال لهم، أو استئناف لتهويل شأن جهنم، وتفظيع حال أهلها.

ثم ساق القرآن مثلا مشاهدًا يدل على نصر الله - تعالى - لأوليائه وخذلانه لأعدائه، فقال: ﴿قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأى العين﴾.

والمراد بالآية هنا العلامة والبرهان والشاهد على صدق الشىء المخبر عنه.

والفئة - كما يقول القرطبى - الجماعة من الناس، وسميت الجماعة من الناس فئة لأنها يفاء إليها، أى يرجع إليها فى وقت الشدة، ولا خلاف فى أن الإشارة بهاتين الفئتين هى إلى يوم بدر. ثم قال: ويحتمل أن يكون المخاطب بهذه الآية جميع المؤمنين، ويحتمل أن يخاطب بها جميع الكفار، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم. وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها، حتى يقدموا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع[1].

والمعنى: قد كان لكم أيها الناس علامة عظيمة، ودلالة واضحة على أن الكافرين سيغمبون والمؤمنين سينصرون بما جرى فى غزوة بدر، فقد رأيتم كيف أن الله - تعالى - قد نصر المؤمنين مع قلة عددهم، وهزم الكافرين مع كثرة عددهم وعددهم. ولقد كان المؤمنون يرون أعداءهم أكثر منهم عددًا وعدة ومع ذلك لم يهابوهم ولم يجبنوا عن لقائهم، بل أقدموا على قتالهم بإيمان وشجاعة فرزقهم الله النصر على أعدائهم.

ووصف - سبحانه - الفئة المؤمنة بأنها تقاتل فى سبيل الله، على سبيل المدح لها، والإعلاء من شأنها، وبيان الغاية السامية التى من أجلها قاتلت، ومن أجلها تم لها النصر فهى لم تقاتل لأجل عرض من أعراض الدنيا، وإنما قاتلت لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق.

ووصف الفئة الأخرى بأنها كافرة؛ لأنها لم تؤمن بالحق، ولم تتبع الطريق المستقيم، بل كفرت بكل ما يصلحها فى دينها ودنياها.

ولم يصفها بالقتال كما وصف الفئة المؤمنة. إسقاطا لقتال تلك الفئة الكافرة عن درجة الاعتبار، وإيذانا بأن الرعب الذى ألقاه الله فى قلوبهم عند لقائهم للؤمنين، جعلهم بأنهم ليسوا أهلا لأن يوصفوا بالقتال.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٥.

هذا وللعلماء أقوال فى المراد من قوله - تعالى - ﴿يرونهم مثليهم رأى العين﴾ وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذه الأقوال فقال : ﴿يرونهم مثليهم﴾ أى : يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين أى قريبا من ألفين، أو مثلى عدد المسلمين أى ستمائة ونيفا وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم. وكان ذلك مددًا لهم من الله كما أمدهم بالملائكة. والدليل عليه قراءة نافع «ترونهم» بالتاء، أى ترون يا مشركى قريش المسلمين مثلى فئتكم الكافرة، أو مثلى أنفسهم. فإن قلت فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ قلت : قللوا أولا فى أعينهم حتى اجترؤا عليهم : فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين.. وتقليلهم تارة وتكثيرهم تارة أخرى فى أعينهم أبلغ فى القدرة وإظهار الآية. وقيل : يرى المسلمون المشركين مثلى المسلمين على ماقرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين فى قوله ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾. بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة فى قوله - تعالى - ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾(١).

والذى نراه أن الرأى الذى عبر عنه صاحب الكشاف بقوله : وقيل : يرى المسلمون المشركين مثلى المسلمين.. إلخ هذا الرأى هو أقرب الأقوال إلى الصواب؛ لأن المسلمين فى غزوة بدر كانوا أقل عددا وعدة من المشركين، ولأن التعبير بقوله - تعالى - ﴿رأى العين﴾ يفيد أن رؤية هذه الكثرة من المشركين كانت رؤية بصرية بالمشاهدة، وليست بالتقدير أو التخيل، وهذا يتحقق فى رؤية المؤمنين للمشركين :

فإن قيل : إن المشركين فى بدر كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين تقريبا - كما حكى لنا التاريخ - ولم يكونوا مثليهم أى ضعفهم؟

فالجواب على ذلك أن هذا التقدير للمشركين من جانب المؤمنين كان تقديرًا تقريبيا وليس تقديرا عدديا، فثلاثة الأمثال قد ترى رأى العين مثلين أو نقول : إن المراد بكلمة مثلين مجرد التكرار وليس المراد بها التثنية على الحقيقة، كما فى قوله - تعالى - ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير﴾، فالمراد تكرار النظر مرة ومرات وليس المراد التحديد بكرتين.

وقد رجح ابن جرير الطبرى هذا الرأى، فقد قال بعد سرده لجملة من أقوال العلماء : وأولى هذه القراءات بالصواب : قراءة من قرأ ﴿يرونهم﴾ بمعنى : وأخرى كافرة يراهم المسلمون

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٤١.

مثليهم، يعنى : مثلى عدد المسلمين، لتقليل الله إياهم فى أعينهم فى حال. فكان حزرهم إياهم كذلك. . ثم قال : وأما قوله : ﴿رأى العين﴾ فإنه مصدر رأيته. يقال رأيته رأيًا ورؤية، ويقال هو منى رأى العين، ورأى العين - بالنصب والرفع - يراد حيث يقع عليه بصرى. . فمعنى ذلك : يرونهم حيث تلحقهم أبصارهم وتراهم عيونهم مثليهم»(١).

وقوله - تعالى - ﴿قد كان لكم آية﴾. . إلخ من تمام القول المأمور به جىء به لتقرير وتحقيق ما قبله. و ﴿كان﴾ هنا ناقصة، و ﴿آية﴾ اسمها، وترك التأنيث فى - كان - لوجود الفاصل بينها وبين اسمها، ولأن المرفوع بها وهو اسمها مجازى التأنيث أو باعتبار أن الآية برهان ودليل. وقوله ﴿لكم﴾ خبر كان. وقوله ﴿فئة﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى. إحداهما فئة تقاتل فى سبيل الله. وقوله ﴿وأخرى﴾ نعت لمقدر أى وفئة أخرى كافرة. والجملة مستأنفة لتقرير «ما فى الفئتين من الآية» ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾.

أى : والله - تعالى - يؤيد بنصره من يشاء نصره وفوزه، فهو القادر على أن يجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة، لاراد لمشيئته ولا معقب لحكمه وإن الذين يغترون بقوتهم وحدها، ويغترون بما بين أيديهم من أموال وعتاد ورجال، ولا يعملون حسابا للقدر، الذى يجريه الله على حسب مشيئته وإرادته هؤلاء الذين غرهم بالله الغرور، تداهمهم الهزيمة من حيث لا يحتسبون، وقد يفجؤهم الخسران والخذلان من الطريق الذى توهموا فيه الكسب والانتصار.

لذا أمر الله - تعالى - عباده بالاعتبار والاتعاظ فقال : ﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ واسم الإشارة ذلك يعود إلى المذكور الذى رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة غلبت الفئة الكثيرة الكافرة.

والعبرة - الاعتبار والاتعاظ وأصله من العبور وهو النفور من أحد الجانبين إلى الآخر، وسمى الاتعاظ عبرة، لأن المعتبر المتعظ يعبر من الجهل إلى العلم، ومن الهلاك إلى النجاة.

أى : إن فى ذلك الذى شاهده الناس وعاينوه من انتصار الفئة القليلة التى تقاتل فى سبيل الله، على الفئة الكثيرة التى تقاتل فى سبيل الطاغوت، لعبرة عظيمة، ودلالة واضحة، لأصحاب المدارك السليمة والعقول الواعية التى تفهم الأمور على حقيقتها، وتؤمن بأن الله -تعالى- قادر على كل شىء، أما أصحاب القلوب المطموسة والنفوس المغرورة بقوتها. فهى عن الاعتبار والاتعاظ بمعزل.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ١٩٨ - بتصرف وتلخيص.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : « واعلم أن العلماء ذكروا فى تفسير كون تلك الواقعة آية بينة وعبرة واضحة - وجوها : منها أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف عن المقاومة أمور منها قلة العدد، وأنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا، ومنه قلة السلاح، ومنها أنها كانت ابتداء غارة فى الحرب لأنها أول غزوات الرسول ﷺ وكان قد حصل للمشركين أضداد هذه المعانى من الكثرة والتأهب وغير ذلك ومع هذا فقد انتصر المؤمنون، ولما كان ذلك خارجا عن العادة كان معجزا »[1].

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أنذرت الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم، وساقت لهم ما يؤيد ذلك من واقع ما شاهدوه، وبشرت المؤمنين بنصر الله لهم، وحثتهم على الاتعاظ والاعتبار، لأن من شأن المعتبرين أن يكونوا مراقبين لله - تعالى - ومنفذين لأوامره، ومبتعدين عن نواهيه، ومن كان كذلك كان الله معه بنصره وتأييده.

ثم بين - سبحانه - أهم الشهوات التى يؤدى الانهماك فى طلبها إلى الانحراف فى التفكير، وإلى عدم التبصر والاعتبار، ودعا الناس إلى التزود من العمل الصالح الذى يفضى بهم إلى رضاه - سبحانه - فقال :

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥)

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٠٣.

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما من الله - تعالى - لأهم متع الحياة الدنيا وشهواتها، ولما هو خير من هذه المتع والشهوات، مما أعده الله لعباده المتقين من جنات وخيرات.

وقوله ﴿زين﴾ من التزيين وهو تصيير الشىء زينا أى حسنا. والزينة هى ما فى الشىء من المحاسن التى ترغب الناظرين فى اقتنائه.

قال الراغب: «والزينة بالقول المجمل ثلاث: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه.. وقد نسب الله التزيين فى مواضع إلى نفسه كما فى قوله - تعالى - ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم﴾ ونسبه فى مواضع إلى الشيطان كما فى قوله ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ وذكره فى مواضع غير مسمى فاعله كما فى قوله - تعالى - ﴿زين للناس حب الشهوات﴾[1].

والشهوات جمع شهوة، وهى ثوران النفس وميلها نحو الشىء المشتهى. والمراد بها هنا الأشياء المشتهاة من النساء والبنين.. إلخ. وعبر عنها بالشهوات للإشارة - كما يقول الآلوسى - إلى ماركز فى الطباع من محبتها والحرص عليها حتى لكأنهم يشتهون اشتهاءها كما قيل لمريض: ما تشتهى؟ فقال: أشتهى أن أشتهى. أو تنبيها على خستها: لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء والعقلاء ففى ذلك تنفير عنها وترغيب فيما عند الله، ثم قال: والتزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها فى القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه - تعالى - حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو. ويطلق ويراد به الحض على تعاطى الشهوات المحظورة فتزيينها بالمعنى الثانى مضاف إلى الشيطان تنزيلا لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها»[2].

ثم بين - سبحانه - أهم المشتهيات التى يحبها الناس، وتهفو إليها قلوبهم، وترغب فيها نفوسهم، فأجملها فى أمور ستة.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢١٨.
(٢) تفسير الألوسى جـ٣ ص ٩٩. بتلخيص.

أما أولها : فقد عبر عنه القرآن بقوله : «من النساء ولا شك أن المحبة بين الرجال والنساء شيء فطرى فى الطبيعة الإنسانية، ويكفى أن الله - تعالى - قد قال فى العلاقة بين الرجل والمرأة ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾(١).

وقال - تعالى - فى آية ثانية ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾(٢) وإن بعض الرجال قد يستهين بكل شيء فى سبيل الوصول إلى المرأة التى يهواها ويشتهيها والأمثال على ذلك كثيرة ولا مجال لذكرها هنا وصدق رسول الله حيث يقول : «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»(٣)، ولذا قدم القرآن اشتهاءهن على كل شهوة. و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من النساء والبنين﴾ بيانية، وهى مع مجرورها فى محل نصب على الحال من الشهوات. واكتفى القرآن بذكر محبة الرجل للمرأة مع أن المرأة كذلك تحب الرجل بفطرتها لأن ذكر محبة أحدهما للآخر يغنى عن ذكر الطرفين معًا، وما يستفاد بالإشارة يستغنى فيه عن العبارة خصوصًا فى هذا المجال الذى يحرص فيه القرآن على تربية الحياء والأدب فى النفوس، ولأن المرأة فى هذا الباب يهمها أن تكون مطلوبة لا طالبة. وحتى لو كانت محبتها للرجل أشد فإنها تحاول أن تثير فيه ما يجعله هو الذى يطلبها لا هى التى تطلبه.

وأما ثانى المشتهيات : فقد عبر عنه القرآن بقوله ﴿والبنين﴾ جمع ابن، وهو معطوف على ما قبله، وقد ذكر حب البنين بعد حب النساء لأن البنين ثمرة حب النساء، واكتفى بذكر البنين، لأنهم موضع الفخر فى العادة وحب الأولاد طبيعة فى النفس البشرية فهم ثمرات القلوب، وقرة الأعين ومهوى الأفئدة، ومطمح الآمال، ولقد تمنى الذرية جميع الناس حتى الأنبياء فهذا سيدنا إبراهيم يقول : ﴿رب هب لى من الصالحين﴾ وسيدنا زكريا يقول : ﴿رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين﴾.

والإنسان فى سبيل حبه لأولاده يضحى براحته، وقد يجمع المال من أجلهم من حلال ومن حرام، وقد يرتكب بعض الأعمال التى لا يريد ارتكابها إرضاء لهم، وقد يمتنع عن فعل أشياء هو يريد فعلها لأن مصلحتهم تقتضى ذلك.

وصدق الله إذ يقول : ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وصدق رسوله ﷺ حيث يقول : «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة» أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من

---

(١) سورة البقرة الآية ص ١٨٧.
(٢) سورة الروم آية ٢١.
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح. باب ما يتقى من شؤم المرأة جـ٧ ص١١ طبعة المجلس سنة ١٣٤٥.

الموت لئلا يصيب أبناءهم اليتم وآلامه، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغى أن ينفق فيه إيثارًا لهم بالمال، ويجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه.

أما الأمر الثالث من المشتهيات : فقد عبر عنه القرآن بقوله ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ والقناطير جمع قنطار، وهو مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه، تقول العرب : قنطرت الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها.

قال الفخر الرازى «القنطار مال كثير يتوثق الإنسان به فى دفع أصناف النوائب وحكى أبو عبيدة عن العرب أنهم يقولون : إنه وزن لا يحد. واعلم أن هذا هو الصحيح، ومن الناس من حاول تحديده. فعن ابن عباس : القنطار ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو مقدار الدية»(١).

ولفظ ﴿المقنطرة﴾ مأخوذ من القنطار. ومن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشتق منه للمبالغة أى والقناطير المضاعفة المتكاثرة المجموعة قنطارًا قنطارًا كقولهم : دراهم مدرهمة وإبل مؤبلة.

وقوله ﴿من الذهب والفضة﴾ بيان للقناطير، وهو فى موضع الحال منها.

والمراد أن الإنسان محب للمال حبا شديدًا، قال - تعالى - ﴿وإنه لحب الخير الشديد﴾ وقال تعالى - ﴿وتأكلون التراث أكلا لما. وتحبون المال حبا جمًّا﴾.

وفى الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثًا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب» والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

وقالت السيدة - عائشة - رضى الله عنها - «رأيت ذا المال مهيبا، ورأيت ذا الفقر مهينا» وقالت : «إن أحساب ذوى الدنيا بنيت على المال»(٢).

وإنما كان الذهب والفضة محبوبين، لأنهما - كما يقول الرازى - جعلا ثمنا لجميع الأشياء، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء» وصفة المالكية هى القدرة، والقدرة صفة كمال، والكمال محبوب لذاته، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته - وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب - لا جرم كانا محبوبين»(٣).

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٧ ص ٢١٠.
(٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ ٥ ص ١٦٢ للشيخ منصور على ناصف.
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٧ ص ٢١١.

وأما المشتهيات الرابعة والخامسة والسادسة فتتجلى فى قوله - تعالى - ﴿والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾.

ولفظ الخيل يرى سيبويه أنه اسم جمع لا واحد له من لفظه، بل مفرده فرس فهو نظير قوم ورهط ونساء. ويرى الأخفش أنه جمع تكسير وواحده خائل، فهو نظير راكب، وطائر وطير. وهو مشتق من الخيلاء لأنها تختال فى مشيتها.

والمسومة: أى الراعية فى المروج والمسارح. يقال: سوم ماشيته إذا أرسلها فى المرعى. أو المطهمة الحسان، من السيما بمعنى الحسن أو المعلمة ذات الغرة والتحجيل من السمة بمعنى العلامة.

والخيل كانت ومازالت زينة محببة مرغوبة، مهما تفنن البشر فى اختراع صنوف من المراكب برًا وبحرًا وجواً فمع وجود هذه المراكب المتنوعة مازال للخيل عشاقها الذين يعجبهم ما فيها من جمال وانطلاق وألفة. ويقتنونها للركوب والمسابقات.. ﴿والأنعام﴾ جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم. ولا يقال للجنس الواحد منها نعم إلا للإبل خاصة فإنها غلبت عليها.

والأنعام فيها زينة. والإنسان فى حاجة شديدة إليها فى مركبه ومطعمه وغير ذلك. قال -تعالى- ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم﴾[1].

و﴿الحرث﴾ مصدر بمعنى المفعول أى المحروث. والمراد به المزروع سواء أكان حبوبًا أم بقلا، أم ثمرًا إذ من هذه الأشياء يتخذ الإنسان مطعمه وملبسه وأدوات زينته.

تلك هى أهم المشتهيات فى هذه الحياة إلى نفس الإنسان قد جمعها القرآن فى آية واحدة، وقد اختصها - سبحانه - بالذكر لأنها أوضح من غيرها فى الاحتياج إليها والتلذذ بها، ولأن فيها إشارة إلى أنواع المتع كلها سواء أكانت متعة جسدية أم روحية، أم مالية، أم غير ذلك من ألوان المتع، ومن مستلزمات الحياة.

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾. واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى كل ما تقدم ذكره من الأمور الستة التى سبق الحديث عنها، والمآب: مصدر ميمى بوزن مفعل، من آب. كقال - إيابًا وأوبًا ومآبًا، إذا رجع. وأصله مأوب نقلت حركة الواو إلى الهمزة ثم قلبت الواو ألفًا مثل مقال.

---

(١) سورة النحل الآية ٥ - ٧.

أى ذلك المذكور من النساء والبنين وما عطف عليهما هو موضع الزينة، ومطلب الناس الذى يستمتعون به، ويرغبون فيه، ويشتهونه اشتهاء عظيما فى حياتهم، والله - تعالى - عنده المرجع الحسن وهو الجنة، فهى الأحق بالرغبة فيها لبقائها دون المتع الفانية.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت المشتهيات التى جبل الإنسان على الميل إليها، وصياغة الفعل للمجهول ﴿زين للناس﴾ للإشارة إلى أن محبة هذه الأشياء واشتهاءها مركوز فى الفطرة الإنسانية منذ أوجد الله الإنسان فى هذه الحياة الدنيا.

وهذه المشتهيات ليست خسيسة فى ذاتها، ولا يقصد الإسلام إلى تخسيسها فى ذاتها أو إلى التنفير منها، وإنما الإسلام يريد من أتباعه أن يقتصدوا فى طلبها، وأن يطلبوها من وجوهها المشروعة، وأن يضعوها فى مواضعها المشروعة، وأن يشكروا الله عليها، وألا يجعلوها غاية مقصدهم فى هذه الحياة. إن الإسلام لا يحارب الفطرة الإنسانية التى تشتهى هذه الأشياء، وإنما يهذبها ويضبطها ويرشدها إلى أن تضع هذه الاشياء فى موضعها المناسب، بحيث لاتطغى على غيرها ولا تستعمل فى غير ما خلقها الله من أجله، وبذلك يسعد الإنسان فى دينه ودنياه وآخرته.

وللإمام ابن كثير كلام حسن عند تفسيره لهذه الآية فقد قال ما ملخصه: يخبر الله - تعالى - عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد.. فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بذلك.. وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر.. فيكون مذموما، وتارة يكون للنفقة فى وجوه البر فيكون محمودًا.. وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرا ومناوأة لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر. وتارة تربط للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس صاحبها حق الله فيها فهذه لصاحبها ستر. وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مأبورة» والسكة النخل المصطف، والمأبورة الملقحة»[1]. وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم غرس غرسا أو زرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقه»[2].

هذا، وختام الآية الكريمة بقوله ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ إشارة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥١ - بتصرف وتلخيص.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٦.

إلى أن متع الدنيا مهما كثرت وتنوعت وتلذذ بها الإنسان فهى زوال، وأما اللذائذ الباقية الخالدة فهى التى أعدها الله - تعالى - لعباده المتقين فى الدار الآخرة، ولذا قال - سبحانه - بعد ذلك ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾.

أى قل يا محمد للناس الذين مالوا إلى شهوات الدنيا من النساء والبنين وغيرهما، قل لهم ألا تحبون أن أخبركم بما هو خير من تلك المشتهيات الدنيوية؟

والاستفهام للتقرير، والمراد به التحقيق والتثبيت فى نفوس المخاطبين، أى تحقيق وتثبيت خيرية ما عند الله وأفضليته على شهوات الدنيا، وحضهم على الاستجابة لما سيلقى عليهم.

وافتتح الكلام بكلمة ﴿قل﴾ للاهتمام بالمقول وتنبيه السامعين إلى أن ماسيلقى عليهم أمر يهمهم وممايقوى هذا التنبيه هنا: التعبير بقوله ﴿أؤنبئكم﴾ لأن الإنباء معناه الخبر العظيم الشأن، والتعبير بقوله ﴿ذلكم﴾ لاشتماله على الإشارة التى للبعيد الدالة على عظم شأن ما سيخبرهم به، والتعبير بقوله ﴿خير﴾ الذى يدل على الأفضلية، لأن نعيم الآخرة خير محض ونعيم الدنيا مشوب بالشرور والأضرار. ثم بين - سبحانه - المخبر عنه بعد أن مهد له بتلك التنبيهات التى تشوق إلى سماعه وتغرى بالاستجابة له فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله﴾.

هذه هى اللذائذ والمتع التى أعدها الله - تعالى - لمن اتقاه، أى أدى ما أمره به، وابتعد عما نهاه عنه.

وأول هذه النعم: ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار، وفى هذه الجنات مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله ﴿للذين اتقوا﴾، خبر مقدم، وقوله ﴿جنات﴾ مبتدأ مؤخر، وقوله ﴿عند ربهم﴾ فى محل نصب على الحال من جنات. وقوله ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ صفة لجنات.

وعلى هذا يكون منتهى الاستفهام عند قوله ﴿من ذلكم﴾ وهذا هو المشهور عند العلماء. ومنهم من يجعل الاستفهام منتهيا عند قوله ﴿للذين اتقوا﴾ ثم يبتدأ فيقال: عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. ومنهم من يجعل الاستفهام منتهيا عند قوله - تعالى - ﴿عند ربهم﴾ ثم يبتدأ فيقال: جنات تجرى من تحتها الأنهار.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من جعل الاستفهام منتهيا عند قوله - تعالى - ﴿بخير من ذلكم﴾ والخبر بعده مبتدأ عمن له الجنات بقوله: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ فيكون مخرج ذلك مخرج الخبر. وهو إبانة عن معنى الخير

الذى قال: أنبئكم به، فلا يكون بالكلام حينئذ حاجة إلى ضمير»[1].

وثانى هذه النعم عبر عنه - سبحانه - بقوله ﴿خالدين فيها﴾ أى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم خالدين فى تلك الجنات التى فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين خلودًا أبديًا، بخلاف أولئك المنعمين بنعم الدنيا فإن نعيمهم إلى فناء وزوال.

وثالث هذه النعم قوله - تعالى - ﴿وأزواج مطهرة﴾.

والأزواج: جمع زوجة وهى المرأة يختص بها الرجل. أى ولهم فى تلك الجنات أزواج مطهرة غاية التطهير من كل دنس وقذر حسى ومعنوى، فقد وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بصفة واحدة جامعة لكل ما يتمناه الرجل فى المرأة.

ورابع هذه النعم قوله - تعالى - ﴿ورضوان من الله﴾ وهذه النعمة هى أعظم النعم وأجلها أى لهم رضا عظيم من خالق الخلق، ومبدع الكون، ومنشىء الوجود. وهو مصدر كالرضا، ولكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ولأن التنكير قصد به التفخيم والتعظيم.

وقوله ﴿من الله﴾ صفة لرضوان مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة.

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله - عز وجل - يقول لأهل الجنة يوم القيامة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا اعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: ياربنا وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[2].

هذه هى اللذائذ والمتع والنعم التى أعدها الله - تعالى - لعباده المتقين.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أى أنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده، لا تخفى عليه خافية من شئونهم. وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى. ففى هذا التذييل وعد للمتقين ووعيد للمسيئين.

ثم حكى - سبحانه - أقوال هؤلاء المتقين ومدحهم على إيمانهم وصلاحهم فقال - تعالى - ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ أى أن هذه الجنات وغيرها من أنواع النعم قد أعدها الله - تعالى - لهؤلاء المتقين الذين يضرعون إلى الله ملتمسين منه المغفرة

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٢٠٦ طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق. باب صفة الجنة والنار جـ٩ ص ١٤٨.

فيقولون : ياربنا إننا آمنا بك وصدقنا رسولك فى كل ما جاء به من عندك، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا فى أمرنا فأنت الغفار الرحيم، ﴿وقنا عذاب النار﴾ أى جنبنا هذا العذاب الأليم يا أرحم الراحمين.

وفى حكاية هذا القول عنهم بصيغة المضارعة ﴿يقولون﴾ إشعار بأنهم يجددون التوبة إلى الله دائما لقوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم، وإحساسهم بأنهم مهما قدموا من طاعات فهى قليلة بجانب فضل الله عليهم، ولذلك فهم يلتمسون منه الستر والغفران، والوقاية من النار، وهذا شأن الأخيار من الناس.

وقوله - سبحانه - ﴿الذين يقولون﴾ بدل أو عطف بيان من قوله ﴿للذين اتقوا﴾ ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة منها جواب عن سؤال كأنه قيل : من أولئك المتقون؟ فقيل : هم الذين يقولون ربنا إننا آمنا. . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على المدح. ثم وصفهم - سبحانه - بخمس صفات كريمة من شأنها أن تحمل العقلاء على التأسى بهم فقال : ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾.

وفى كل صفة من صفاتهم دليل على قوة إيمانهم، وإذعانهم للحق حق الإذعان. فهم صابرون، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس من أكبر البراهين على سلامة اليقين، وقد حث القرآن أتباعه على التحلى بهذه الصفة فى أكثر من سبعين موضعا. وهم صادقون، والصدق من أكمل الصفات الإنسانية واشرفها، وقد أمر الله عباده أن يتحلوا به فى كثير من آيات كتابه، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

وهم قانتون، والقانت هو المداوم على طاعة الله - تعالى - غير متململ منها ولا متبرم بها، ولا خارج على حدودها. فالقنوت يصور الإذعان المطلق لرب العالمين.

وهم منفقون أموالهم فى طاعة الله - تعالى -، وبالطريقة التى شرعها وأمر بها. وهم مستغفرون بالأسحار. أى يسألون الله - تعالى - أن يغفر لهم خطاياهم فى كل وقت، ولا سيما فى الأسحار.

والأسحار جمع سحر وهو الوقت الذى يكون قبل الفجر. روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ينزل ربنا - عز وجل - إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له، من ذا الذى يسألنى فأعطيه، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر»[1].

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٩.

وخص وقت الأسحار بالذكر لأن النفس تكون فيه أصفى، والقلب فيه أجمع، ولأنه وقت يستلذ فيه الكثيرون النوم فإذا أعرض المؤمن عن تلك اللذة وأقبل على ذكر الله كانت الطاعة أكمل وأقرب إلى القبول.

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد كشفت عن المشتهيات التى يميل إليها الناس فى دنياهم بمقتضى فطرتهم، وأرشدتهم إلى ما هو أسمى وأعلى وأبقى من ذلك وبشرتهم برضوان الله وجناته، متى استقاموا على طريقه، واستجابوا لتعاليمه، ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده للمتقين، وذكر صفاتهم عقب ذلك ببيان أساس التقوى وهو عقيدة التوحيد، وببيان أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله - تعالى - للناس، وأن من يعارض فى ذلك معارضته داحضة وسيعاقبه الله بما يستحقه. استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

قال القرطبى: «لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر

الزمان ! فلما دخلا على النبى ﷺ عرفاه بالصفة والنعت فقالا له : أنت محمد؟ قال نعم قالا : وأنت أحمد؟ قال : نعم. قالا : نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ : سلانى. فقالا : أخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله. فأنزل الله تعالى - على نبيه ﷺ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - ﷺ - وقوله تعالى : ﴿شهد الله﴾ أى بين وأعلم كما يقول : شهد فلان عند القاضى إذا بين وأعلم لمن الحق أو على من هو قال الزجاج : « الشاهد هو الذى يعلم الشىء ويبينه، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين »[1].

والمعنى : أخبر الله - تعالى - عباده وأعلمهم بالآيات القرآنية التى أنزلها على نبيه، وبالآيات الكونية التى لا يقدر على خلقها أحد سواه، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التى تشهد بوحدانيته، وأنه لا معبود بحق سواه، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق. وأن الجميع عبيده وفقراء إليه وهو الغنى عن كل ما عداه. وشهد بذلك « الملائكة » بأن أقروا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد فعبدوه حق العبادة، وأطاعوه حق الطاعة، وشهد بذلك أيضًا « أولو العلم » بأن اعترفوا له - سبحانه - بالوحدانية، وصدقوا بما جاءهم به الرسول - ﷺ - وبلغوا ذلك لغيرهم.

قال الزمخشرى : شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التى لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسى وغيرهما، بشهادة الشاهد فى البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه »[2].

وقالوا : وفى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء، لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء. وقال فى شرف العلم لنبيه - ﷺ - ﴿وقل رب زدنى علما﴾ فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم. وقال ﷺ « إن العلماء ورثة الأنبياء » وقال : « العلماء أمناء الله على خلقه ». وهذا شرف للعلماء عظيم ومحل لهم فى الدين خطير[3].

والمراد بأولى العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف فى خدمة عقيدتهم، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم، وأخلصوا لله فى عبادتهم، وصدقوا فى أقوالهم وأفعالهم.

وقدم - سبحانه - الملائكة على أولى العلم، لأن فيهم من هو واسطة لتوصيل العلم إلى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٤١.
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٤٤
(٣) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٤١.

ذويه، لأن علمهم كله ضرورى بخلاف البشر فإن علمهم منه ماهو ضرورى، ومنه ما هو اكتسابى.

وقوله - تعالى - ﴿قائما بالقسط﴾ بيان لكماله - سبحانه - فى أفعاله إثر بيان كماله فى ذاته. والقسط : العدل. يقال قسط ويقسط قسطًا، وأقسط إقساطًا فهو مقسط إذا عدل ومنه ﴿إن الله يحب المقسطين﴾. ويطلق القسط على الجور، والفاعل قاسط، ومنه «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا».

أى : مقيما للعدل فى تدبير أمر خلقه، وفى أحكامه. وفيما يقسم بينهم من الأرزاق والآجال، وفيما يأمر به وينهى عنه، وفى كل شأن من شئونه.

قال الجمل ﴿وقائما﴾ منصوب على أنه حال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا، فتكون الحال أيضا فى حيز الشهادة، فيكون المشهود به أمرين : الوحدانية والقيام بالقسط وهذا أحسن من جعله حالا من الاسم الجليل فاعل شهد، لأن عليه يكون المشهود به الوحدانية فقط والحال ليست فى حيز الشهادة(١).

وقوله ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تكرير للمشهود به للتأكيد والتقرير، وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعى إنما يكون بالدليل، والاعتناء به يقتضى الاعتناء بأدلته.

﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل. أى لا إله فى هذا الوجود يستحق العبادة بحق إلا الله ﴿العزيز﴾ الذى لا يمتنع عليه شيء أراده، وينتصر من كل أحد عاقبه أو انتقم منه ﴿الحكيم﴾ فى تدبيره فلا يدخله خلل.

قال ابن جرير : «وإنما عنى جل ثناؤه - بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين حاجوا رسول الله ﷺ فى عيسى من النبوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك : من أن له شريكا، واتخاذهم دونه أربابا، فأخبرهم الله عن نفسه، أنه الخالق كل ما سواه، وأنه رب كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك ربا دونه، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه. فبدا - جل ثناؤه - بنفسه تعظيما لنفسه، وتنزيها لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها، كما سن لعباده أن يبدأوا فى أمورهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدبًا خلقه بذلك»(٢).

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٢٥١.
(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢ ص ٢١٠ طبعة الحلبى.

هذا، ومن الآثار التى وردت فى فضل هذه الآية ما رواه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال : سمعت النبى ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ . . الى آخر الآية. فقال ﷺ : «وأنا على ذلك من الشاهدين يارب» وقال غالب القطان : أتيت الكوفة فى تجارة لى فنزلت قريبا من الأعمش فكنت اختلف إليه، فقام فى ليلة متهجدا فمر بهذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ فقال : وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى وديعة «إن الدين عند الله الإسلام»، - قالها مرارًا - فقلت. لقد سمع فيها شيئًا فسألته فى ذلك فقال : حدثنى أبو وائل بن عبد الله قال رسول الله ﷺ «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله - تعالى - «عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى العهد ادخلوا عبدى الجنة»[1].

وقوله ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. وأصل الدين فى اللغة الجزاء والحساب. يقال دنته بما صنع أى جازيته على صنيعه، ومنه قولهم : كما تدين تدان أى، كما تفعل تجازى، وفى الحديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» والمراد به هنا ما جاء به النبى ﷺ من عند ربه من عقائد وتكاليف وتشريعات، فيكون بمعنى الملة والشرع.

أى : إن الشريعة المرضية عند الله - تعالى - هى الإسلام، والإسلام فى اللغة هو الاستسلام والانقياد يقال : أسلم أى انقاد واستسلم. وأسلم أمره لله سلمه إليه والمراد به هنا - كما قال ابن جرير : «شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره ولا يجزى بالإحسان إلا به»[2] وهو الدين الحنيف الذى جاء به محمد ﷺ.

وقال ابن كثير : وقوله - تعالى - ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إخبار منه تعالى - بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقى الله تعالى - بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال - تعالى - ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ الآية. وقال فى هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[3].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٥٤.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٢١٢.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٥٤.

وقوله : ﴿عند الله﴾ ظرف العامل فيه لفظ الدين لما تضمنه من معنى الفعل، أى الذى شرع عند الله الإسلام. ويصح أن يكون صفة للدين فيكون متعلقا بمحذوف أى الكائن أو الثابت عند الله الإسلام. وفى إضافة الدين إلى الله - تعالى - بقوله ﴿عند الله﴾ وباعتبار الإسلام وحده، هو دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، إشعار بفضل الإسلام، لأن له ذلك الشرف الإضافى إلى خالق هذا الكون ومربيه، فهو دين الله الذى شرعه لخلقه.

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف أهل الكتاب فى شأن الدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سببه البغى والحسد وطلب الدنيا فقال - تعالى - ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيًا بينهم﴾.

أى : وما كان خلاف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيما جاءهم به الرسول ﷺ إلا من بعد أن علموا بأن ما جاءهم به هو الحق الذى لا باطل معه، فخلافهم لم يكن عن جهل منهم بأن ما جاءهم به هو الحق وإنما كان سببه البغى والحسد والظلم فيما بينهم.

وفى التعبير عنهم بأنهم ﴿أوتوا الكتاب﴾ زيادة تقبيح لهم؛ فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح وأفحش، إذ الكتاب ما نزل إلا لهدايتهم، وسعادتهم فإذا تركوا بشاراته وتوجيهاته واتبعوا أهواءهم كان فعلهم هذا أشد قبحا وفحشا.

وقوله ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ زيادة أخرى فى تقبيح أفعالهم، فإن الاختلاف بعد مجىء العلم أزيد فى القبح والعناد.

والاستثناء من أعم الأحوال أو الأوقات، أى وما اختلفوا فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا الحق، والعلم بالحق وحده لا يكفى فى الإيمان به، ولكنه يحتاج إلى جانب ذلك إلى قلب مخلص متفتح لطلبه، وكم من أناس يعرفون الحق معرفة تامة ولكنهم يحاربونه ويحاربون أهله، لأنهم يرون أن هذا الحق يتعارض مع أهوائهم وشهواتهم وصدق الله إذ يقول. ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾(١).

فهم قد اختلفوا فى الحق مع علمهم بأنه حق، لأن العلم كالمطر، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية، والقلوب الواعية، والأفئدة المستقيمة.

(١) سورة البقرة الآية ١٤٦.

وقوله ﴿بغيا بينهم﴾ مفعول لأجله، والعامل فيه اختلف أى وما اختلفوا إلا للبغى لا لغيره قال القرطبى : «وفى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد فقال : ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾. أى : ومن يكفر بآيات الله الدالة على وحدانيته - سبحانه - فإن الله محص عليه أعماله فى الدنيا وسيعاقبه بما يستحقه فى الآخرة.

فقوله ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ قائم مقام جواب الشرط وعلة له، أى : ومن يكفر بآيات الله فإنه - سبحانه - محاسبه ومعاقبه والله سريع الحساب.

وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل والقدرة التامة فهو -سبحانه- لا يحتاج إلى فحص وبحث، لأنه لا تخفى عليه خافية.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ ما يرد به على أهل الكتاب إذا ما جادلوه أو خاصموه ليحسم الأمر معهم ومع غيرهم من المشركين وليمضى فى طريقه الواضح المستقيم فقال -تعالى- ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن﴾.

وقوله ﴿حاجوك﴾ من المحاجة وهى أن يتبادل المتجادلان الحجة، بأن يقدم كل واحد حجته ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعم أنه الحق الذى لا شك فيه.

والمعنى : فإن جادلك - يا محمد - أهل الكتاب ومن لف لفهم بالأقاويل المزورة والمغالطات الباطلة بعد أن قامت الحجج على صدقك. فلا تسر معهم فى لجاجتهم، ولا تلتفت إلى أكاذيبهم، بل قل لهم ﴿أسلمت وجهى لله ومن اتبعن﴾ أى أخلصت عبادتى لله وحده، وأطعته وانقدت له، وكذلك من اتبعنى وآمن بى قد أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.

والمراد بالوجه هنا الذات، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأنه أشرف أعضاء الشخص، ولأنه هو الذى تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم فالتعبير به عن الجسم كله تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿ومن اتبعن﴾ فى محل رفع عطفا على الضمير المتصل فى ﴿أسلمت﴾ أى أسلمت أنا ومن اتبعنى. وجاء العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد لوجود الفاصل بينهما.

وقوله ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم﴾ عطف على الجملة الشرطية، والمراد بالأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٤٤.

والاستفهام فى قوله ﴿أأسلمتم﴾ للحض على أن يسلموا وجوههم لله، ويتبعوا الرسول ﷺ كما اتبعه المسلمون.

والمعنى: فإن جادلوك فى الدين - يا محمد - بعد أن تبين لكل عاقل صدقك، فقل لهؤلاء المعاندين إنى أسلمت وجهى لله وكذلك أتباعى أسلموا وجوههم لله، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا تسلموا فقد تبين لكم أنى على حق، ومن شأن العاقل أنه إذا تبين له الحق أن يدخل فيه وأن يترك العناد والمكابرة.

قال صاحب الكشاف: وقوله ﴿أأسلمتم﴾ يعنى أنه قد أتاكم من البينات مايوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان طريقا إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك. ومنه قوله -تعالى- ﴿فهل أنتم منتهون﴾ بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر. وفى هذا الاستفهام استقصار -أى عد المخاطب قاصرا- وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف فى إذعانه للحق﴾[1].

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على إسلامهم من نتائج، وما يترتب على إعراضهم من شرور تعود عليهم فقال: ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾.

أى: فإن أسلموا وجوههم لله وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ فقد اهتدوا إلى طريق الحق، لأن هذا الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله للناس وإن أعرضوا عن هذا الطريق المستقيم، فإن إعراضهم لن يضرك - أيها الرسول الكريم - لأن الذى عليك إنما هو تبليغ النّاس ما أمرك الله بتبليغه إياهم. وهو- سبحانه - بصير بخلقه لا تخفى عليه خافية من أقوالهم أو أفعالهم، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه.

وعبر بالماضى فى قوله ﴿فقد اهتدوا﴾ مبالغة فى الإخبار بوقوع الهدى لهم وقوله ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ قائم مقام جواب الشرط أى وإن تولوا لا يضرك توليهم شيئًا إذ ما عليك إلا البلاغ وقد أديته على أكمل وجه وأبلغه.

وقوله ﴿والله بصير بالعباد﴾ تذييل فيه عزاء للنبى ﷺ عن كفرهم، وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسوء مصيرهم، لأنه - سبحانه - عليم بنفوس الناس جميعا وسيجازى كل إنسان بما يستحقه، وفيه كذلك وعد للمؤمنين بحسن العاقبة، وجزيل الثواب.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٤٧.

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله - تعالى - ﴿قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾ وقال - تعالى - ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾.

وفى الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم. كتابيهم وأميهم امتثالا لأمر الله له بذلك، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار».

وقال ﷺ «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقال: «كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وعن أنس - رضى الله عنه - أن غلاما يهوديا كان يضع للنبى ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض. فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبى ﷺ: «يافلان قل لا إله إلا الله، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبى ﷺ القول. فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه أطع أبا القاسم. فقال الغلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فخرج النبى ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذى أخرجه بى من النار» رواه البخارى فى الصحيح. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث(١).

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد بينت للناس فى كل زمان ومكان أن دين الإسلام هو الدين الحق الذى ارتضاه الله لعباده وشهد بذلك خالق هذا الكون - عز وجل - وكفى بشهادته شهادة كما شهد بذلك الملائكة المقربون والعلماء المخلصون. كما بينت أن كثيرًا من الذين أوتوا الكتاب يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتمونها ظلما وبغيا، كما بينت - أيضًا - أن الذين يدخلون فى هذا الدين يكونون بدخولهم قد اهتدوا إلى الطريق القويم، وأن الذين يعرضون عنه سيعاقبون بما يستحقونه بسبب هذا الإعراض عن الحق المبين.

ثم انتقل القرآن إلى سرد بعض الرذائل التى عرف بها اليهود وعرف بها أسلافهم، وبين سوء مصيرهم ومصير كل من يفعل فعلهم فقال - تعالى -:

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٥٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء المارقين بصفات ينفر منها كل عاقل وصفهم أولا بأنهم : ﴿يكفرون بآيات الله﴾ أى لا يكتفون بالكفر بالله - تعالى -، بل يكفرون بالآيات المثبتة لوحدانيته، وبالرسل الذين جاءوهم بالهدى والحق.

ووصفهم ثانيا بأنهم ﴿يقتلون النبيين بغير حق﴾ وقتل النبيين بغير حق فعل معروف عن اليهود، فهم الذين قتلوا زكريا - عليه السلام - لأنه حاول أن يخلص ابنه يحيى - عليه السلام - من القتل وقتلوا يحيى لأنه لم يوافقهم فى أهوائهم وحاولوا قتل عيسى -عليه السلام- ولكن الله تعالى نجاه من مكرهم، وقتلوا غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1].

فإن قيل إن اليهود ما قتلوا كل الأنبياء فلم أخبر القرآن عنهم أنهم يقتلون النبيين ولم يقل يقتلون بعض النبيين؟

فالجواب أنهم بقتلهم لبعض النبيين فقد استهانوا بمقام النبوة، ومن استهان بمقام النبوة بقتله لبعض الأنبياء فكأنه قد قتل الأنبياء جميعا، ونظير هذا قوله - تعالى - : ﴿من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾[2].

وقيد القتل بأنه ﴿بغير حق﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدًا، للتصريح بموضع الاستنكار، لأن موضع الاستنكار هو اعتداؤهم على الحق بقتلهم الأنبياء، وللإشارة إلى أنهم لتوغلهم فى الظلم والعدوان قد صاروا أعداء للحق لا يألفونه ولا تميل إليه نفوسهم، وللتسجيل عليهم أن هذا القتل للأنبياء كان مخالفًا لما فى شريعتهم فإنها قد نهتهم عن قتلهم،

---

(١) راجع كتابنا «بنو إسرائيل فى القرآن والسنة» جـ٣ ص ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٢.

بل عن مخالفتهم. فهذا القيد من باب الاحتجاج عليهم بما نهت عنه شريعتهم لتخليد مذمتهم فى كل زمان ومكان.

وقال-سبحانه-﴿بغير حق﴾ بصيغة التنكير، لعموم النفى، بحيث يتناول الحق الثابت، والحق المزعوم، أى أنهم لم يكونوا معذورين بأى لون من ألوان العذر فى هذا الاعتداء فقد أقدموا على ما أقدموا عليه وهم يعلمون أنهم على الباطل، فكان فعلهم هذا إجرامًا فى بواعثه وفى حقيقته، وأفظع أنواع الإجرام فى موضوعه.

وقوله ﴿بغير حق﴾ فى موضع الحال المؤكدة لمضمون جملة ﴿يقتلون النبيين﴾ إذ لا يكون قتل النبيين إلا كذلك.

ووصفهم ثالثا بأنهم ﴿يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾.

والقسط: العدل. يقال: قسَط يقسِط ويقسُط قِسطا، وأقسط إقساطا إذا عدل.

أى: لا يكتفون بقتل النبيين الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم، وإنما يقتلون مع ذلك الذين يأمرونهم بالعدل من مرشديهم ونصحائهم.

وفى قوله ﴿من الناس﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء، بل من الناس غير المبعوثين.

وفى قرنهم بالأنبياء، وإثبات أن الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء، إشارة إلى بيان علو منزلتهم، وأنهم ورثتهم الذين يدعون بدعوتهم.

وعبر عن جرائمهم بصيغة الفعل المضارع - يكفرون ويقتلون لاستحضار صورة أفعالهم الشنيعة فى أذهان المخاطبين، ولإفادة أن أفعالهم هذه متجددة كلما استطاعوا إليها سبيلا، وللإشعار بأن اليهود المعاصرين للنبى ﷺ كانوا راضين بفعل آبائهم وأسلافهم، ولقد حاول اليهود فى العهد النبوى أن يقتلوا النبى ﷺ ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم.

هذا، وقد وردت آثار متعددة تصرح بأن اليهود قد دأبوا على قتل الأنبياء والمصلحين، ومن ذلك ما جاء عن أبى عبيدة بن الجراح أنه قال: قلت يارسول الله: أى الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا، أو قتل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ الآية. ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلا منهم فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعًا من آخر النهار فى ذلك اليوم»[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٥.

هذه بعض جرائمهم فماذا كانت نتيجتها؟ كانت نتيجتها العذاب الأليم الذى أخبرهم الله به فى قوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

والجملة الكريمة خبر إن، وجاز دخول الفاء على خبرها لتضمن اسمها وهو ﴿الذين﴾ معنى الشرط فى العموم.

وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر - بفتح الباء - على بشرة وجهه، وهو هنا مستعمل فى ضد حقيقته على سبيل التهكم بهم، وذلك لأن هؤلاء المعتدين مع أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه وأولياءه، وفعلوا ما فعلوا من منكرات، مع كل ذلك زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، فساق لهم القرآن ما يخبرهم به على سبيل الاستهزاء بعقولهم أن بشارتهم التى يرتقبونها بسبب كفرهم ودعواهم الباطلة هى: العذاب الأليم.

واستعمال اللفظ فى ضده عند علماء البيان من باب الاستعارة التهكمية، لأن تشبيه الشىء بضده لا يروج فى عقل العقلاء إلا على معنى التهكم والاستهزاء.

ثم أخبر - سبحانه - بفساد أعمالهم فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة﴾.

والحبوط - كما يقول الراغب - من الحبط، وهو أن تكثر الدابة الأكل حتى تنتفخ بطنها، وقد يؤدى إلى موتها.

والمراد بحبوط أعمالهم إزالة آثارها النافعة من ثواب فى الآخرة وحياة طيبة فى الدنيا، لأنهم عملوا ما عملوا وهم لا يرجون لله وقارًا.

وجىء باسم الإشارة فى صدر الآية، لتمييز أصحاب تلك الأفعال القبيحة أكمل تمييز، وللتنبيه على أنهم أحقاء بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

وكانت الإشارة للبعيد، للإيذان ببعدهم عن الطريق القويم، والخلق المستقيم، وقوله ﴿أولئك﴾ مبتدأ والموصول وصلته خبره.

أى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة بطلت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وسقطت عن حيز الاعتبار، وخلت عن الثمرة التى كانوا يؤملونها من ورائها، بسبب إشراكهم بالله واعتدائهم على حرماته.

وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ نفى لكل ما كانوا يتوهمونه من أسباب النصر، وقد أكد هذا النفى بمن الزائدة.

أى ليس لهم من أحد ينصرهم من بأس الله وعقابه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، لأنهم

بسبب كفرهم وأفعالهم القبيحة صاروا مستحقين للعقاب، وليس هناك من يدفعه عنهم.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصفهم بصفات ثلاث : بالكفر وقتل الأنبياء وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

وتوعدهم - أيضًا - بثلاثة أنواع من العقوبات : بالعذاب الأليم، وحبوط أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وانتفاء من ينصرهم أو يدافع عنهم.

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين تسوقان أشد ألوان التهديد والوعيد لهؤلاء المعتدين، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة.

وبعد أن وصف القرآن هؤلاء المعاندين بالكفر وقتل الأنبياء والمصلحين وبين سوء مصيرهم، أتبع ذلك ببيان رذيلة من أفحش رذائلهم وهى أنهم يدعون إلى التحاكم إلى الكتاب الذى يزعمون أنهم يؤمنون به، فيمتنعون عن ذلك غرورا وعنادًا، استمع إلى القرآن وهو يصور أحوالهم السيئة فيقول :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

أورد بعض المفسرين روايات فى سبب نزول هذه الآيات :

منها، مارواه البخارى عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا إلى النبى ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا. فقال لهم : «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا : نحممهما - أى نجعل على وجوههما الفحم تنكيلا بهما، ونضربهما. فقال : ألاتجدون فى التوراة الرجم؟ فقالوا : لانجد فيها شيئًا. فقال لهم عبدالله بن سلام : كذبتم. فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فوضع مدراسها - الذى يدرسها منهم - كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية

الرجم فنزع يده عن الرجم. فقال ما هذه؟ - أى أن عبد الله بن سلام رفع يد القارىء عن آية الرجم وقال له ما هذه - فلما رأى اليهود ذلك قالوا: هى آية الرجم، فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد»(١).

وقال ابن عباس: دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود - أى دخل عليهم فى المكان الذى يتدارسون فيه علومهم - فدعاهم إلى الله. فقال له بعضهم: على أى دين أنت يا محمد؟ فقال: إنى على ملة إبراهيم ودينه. فقالوا: فإن إبراهيم كان يهوديا، فقال النبى ﷺ فهلموا إلى التوراةهى بيننا وبينكم؛ فأبوا عليه فأنزل الله هذه الآيات.

وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد ﷺ فقال لهم: «هلموا إلى التوراة ففيها صفتى «فأبوا»(٢).

قال ابن جرير ما ملخصه: وأولى الأقوال فى تأويل ذلك عندى بالصواب أن يقال: إن الله - تعالى - قد أخبر عن طائفة من اليهود المعاصرين للنبى ﷺ أنهم دعوا إلى التوراة للتحاكم إليها فى بعض ماتنازعوا فيه مع رسول الله ﷺ فأبوا. ويجوز أن يكون هذا التنازع فى أمر نبوته، أو فى أمر إبراهيم ودينه، أو فى حد من الحدود فإن كل ذلك مما نازعوا فيه رسول الله ﷺ(٣).

وكأن ابن جرير - رحمه الله - يريد أن يقول: إن الآيات الكريمة تتسع لكل ما تنازعوا فيه مع رسول الله ﷺ فلما دعاهم إلى أن يحكم التوراة بينه وبينهم فى شأن هذا التنازع أبوا وأعرضوا وهو رأى حسن.

والاستفهام فى قوله ﴿ألم تر﴾ للتعجيب من شأنهم ومن سوء صنيعهم حيث دعوا إلى كتابهم ليحكم بينهم فامتنعوا عن ذلك لأنهم كانوا - كما يقول الآلوسى - «إذا عضتهم الحجة فروا إلى الضجة وأعرضوا عن المحجة» ثم قال:

و «من» إما للتبعيض وإما للبيان، ومعنى «نصيب» هو الكتاب أو نصيبا منه، لأن الوصول إلى كنه كلامه -سبحانه- متعذر «فإن جعل بيانا كان المراد إنزال الكتاب عليهم. وإن جعل تبعيضًا كان المراد هدايتهم إلى فهم ما فيه، وعلى التقديرين اللام فى «الكتاب» للعهد والمراد به التوراة»(٤).

---

(١) صحيح البخارى: كتاب التفسير جـ٦ ص٤٧.
(٢) تفسير القرطبى جـ٤ ص٥٠
(٣) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٢١٨
(٤) تفسير الآلوسى جـ٣ ص١١٠

والمعنى : قد علمت أيها العاقل حال أولئك الأحبار من اليهود الذين اعطوا قسطا من معرفة كتابهم والذين دعاهم رسول الله ﷺ إلى التحاكم إلى التوراة التى هى كتابهم فيما حدث بينهم وبينه من نزاع فأبوا أن يستجيبوا لدعوته، وأعرضوا عنها كما هو شأنهم ودأبهم فى الإعراض عن الحق والصواب.

وعرف المتحدث عنهم - وهم أحبار اليهود - بطريق الموصولية، لأن فى الصلة ما يزيد التعجيب من حالهم، لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدهم عما أخبر به عنهم لو كانوا يعقلون.

وجملة ﴿يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم﴾ مستأنفة مبينة لمحل التعجب، أو حال من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب.

والمراد بكتاب الله : التوراة، لأن سبب النزول يؤيد ذلك، ولأن التعجيب من حالهم يكون أشد إذا كان إعراضهم إنما هو عن كتابهم. وقيل المراد به القرآن.

وقوله ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ معطوف على قوله ﴿يدعون﴾ وجاء العطف بثم للإشعار بالفارق الشاسع بين ما قاموا به من إعراض عن الحق، وبين ما كان يجب عليهم أن يفعلوه. فإن علمهم بالكتاب كان يقتضى أن يتبعوه وأن يعملوا بأحكامه، ولكنهم أبوا ذلك لفساد نفوسهم.

وقوله ﴿منهم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لفريق.

وإنما قال ﴿فريق منهم﴾ ليخرج القلة التى أسلمت من علماء اليهود كعبد الله بن سلام، وهذا من إنصاف القرآن فى أحكامه. واحتراسه فى سوق الحقائق، فهو لا يلقى الأحكام على الجميع جزافا، وإنما يحدد هذه الأحكام بحيث يدين المتهم، ويبرىء ساحة البرىء.

وقوله ﴿وهم معرضون﴾ حال من فريق، أى ثم يتولى فريق منهم عن سماع الحق، والانقياد لأحكامه، وينفر منها نفورا شديدًا. والحال أنهم قوم ديدنهم الإعراض والانصراف عن الحق.

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى صرفتهم عن الحق فقال : ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾.

واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى المذكور من توليهم وإعراضهم عن مجلس النبى ﷺ وعن سماعهم للحق الذى جاء به.

والمس : اتصال أحد الشيئين بالآخر على وجه الإحساس والإصابة، والمراد من النار : نار الآخرة.

والمراد من المعدودات : المحصورات القليلات يقال شىء معدود : أى قليل وشىء غير معدود أى كثير. فهم يزعمون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام، وقد تكون أربعين يوما، وبعدها يخرجون إلى الجنة.

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما فى النار، وإنما هى سبعة أيام. وفى رواية عنه أنه قال فى قوله - تعالى - ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ ذلك أعداء الله اليهود، قالوا : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، الأيام التى أصبنا فيها العجل أربعين يوما، فإذا انقضت عنا تلك الأيام إنقطع عنا العذاب والقسم﴾[1].

أى ذلك التولى والإعراض عن الحق الذى صدر عن كثير من أحبار اليهود وعوامهم سببه أنهم سهلوا على أنفسهم أمر العقاب، وتوهموا أنهم لن يعذبوا عذابا طويلا، بل النار ستمسهم أياما قليلة ثم بعد ذلك يخرجون منها، لأنهم أبناء الله وأحباؤه، ولأن آباءهم سيشفعون لهم فى زعمهم.

ثم قال - تعالى - ﴿وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون﴾.

وقوله ﴿وغرهم﴾ من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان ويخدعه من مال أو جاه أو شهوة أو غير ذلك من الأشياء التى تغر الإنسان وتخدعه وتجعله غافلا عن اتباع الحق.

والمعنى : أنهم سهلوا على أنفسهم الخطوب، ولم يبالوا بالمعاصى والذنوب، وأنهم طمعوا فى غير مطمع، وأصاب موضع المغرة والغفلة منهم فى دينهم ما كانوا يفترونه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات. والغرور أكبر شىء يبعد الإنسان عن حسن الاستعداد لما يجب عليه نحو دينه ودنياه.

ثم حكى القرآن ما سيكون عليه حالهم من عذاب وحسرة بأسلوب مؤثر فقال : ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

فالاستفهام هنا للاستعظام والتهويل والرد على مزاعمهم الباطلة.

وكيف فى موضع نصب على الحال، والعامل فيه محذوف أى فكيف تكون حالهم، أو كيف يصنعون. ويجوز أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف أى: فكيف حالهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١١٨

قال الفخر الرازى: أما قوله ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ فالمعنى أنه لما حكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل بين أنه سيجىء يوم يزول فيه ذلك الجهل، وينكشف فيه ذلك الغرور فقال: ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ وفى الكلام حذف والتقدير: فكيف صورتهم وحالهم، ويحذف الحال كثيرًا مع كيف، لدلالتها عليه تقول كنت أكرمه وهو لم يزرنى، فكيف لو زارنى، أى كيف حاله إذا زارنى. وأعلم أن هذا الحذف يوجب مزيد البلاغة لما فيه من تحريك النفس على استحضار كل نوع من أنواع الكرامة فى قول القائل: «لو زارنى، وكل نوع من أنواع العذاب فى هذه الآية»[١]

والمعنى: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب فى مجيئه وحصوله، واضمحلت عنهم تلك الزخارف التى أدعوها فى الدنيا ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون شيئًا﴾، بل يجازى كل إنسان على حسب عمله، لا شك أنهم فى هذا اليوم الهائل الشديد سيفاجأون بذهاب غرورهم، وبفساد تصورهم، وأنهم سيقعون فى العذاب الأليم الذى لا حيلة لهم فى دفعه، ولا مخلص لهم من ذوقه ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[٢].

قال الزمخشرى: «روى أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رءوس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار»[٣]. وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد وبخت أحبار اليهود الذين يعرضون عن الحق توبيخًا شديدًا، وأبطلت أكاذيبهم وغرورهم، وردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم، وصورت حالهم يوم القيامة تصويرًا مؤثرًا هائلا تهتز له القلوب، وترتجف منه الأفئدة ويحمل العقلاء على التزود من التقوى والعمل الصالح حتى يفوزوا برضا الله.

من توجيهات القرآن الكريم: بعد أن تحدثت سورة آل عمران، عن المعرضين عن الحق. أمر الله تعالى رسول ﷺ كما أمر كل مؤمن أن يتوجه إليه بالضراعة.. فقال تعالى:

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٢٣٤.
(٢) سورة الشعراء الآيتان ٨٨، ٨٩
(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٤٩.

مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ
وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾

قال القرطبى : قال ابن عباس وأنس بن مالك : «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ! من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم. فأنزل الله هذه الآية.»(١).

والأمر بقوله ﴿قل﴾ للنبى ﷺ ولكل من يتأتى له الخطاب من المؤمنين.

وكلمة ﴿اللهم﴾ يرى الخليل وسيبويه أن أصلها يا الله فلما استعملت دون حرف النداء الذى هو «يا» جعلوا هذه الميم المشددة التى فى آخرها عوضا عن حرف النداء، وهذا التعويض من خصائص الاسم الجليل، كما اختص بجواز الجمع فيه بين «يا» و«أل» وبقطع همزته، ودخول تاء القسم عليه.

والمعنى. قل أيها المخاطب على سبيل التعظيم لربك، والشكر له، والتوكل عليه والضراعة إليه، قل : يا الله يا مالك الملك أنت وحدك صاحب السلطان المطلق فى هذا الوجود، بحيث تتصرف فيه كيف تشاء، إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة، وتعذيبا وإثابة، من غير أن ينازعك فى ذلك أى منازع.

فكأن فى هذه الجملة الكريمة ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ دعاءين خاشعين :

أما الدعاء الأول فهو بلفظ الجلالة المعبر عنه بقوله ﴿اللهم﴾ أى يا الله، وفى هذا النداء كل معانى العبودية والتنزيه والتقديس والخضوع.

وأما الدعاء الثانى فهو المعبر عنه بقوله ﴿مالك الملك﴾ أى يا مالك الملك، وفى هذا النداء كل معانى الإحساس بالربوبية، والضعف أمام قدرة الله وسلطانه.

فقوله ﴿مالك﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف. كما فى قوله ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض﴾ أى يا فاطر السموات والأرض.

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٥٢.

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر خلقه التى تدل على أنه هو مالك الملك على الحقيقة فقال - تعالى - ﴿تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾.

أى أنت وحدك الذى تعطى الملك من تشاء إعطاءه من عبادك، وتنزعه ممن تشاء، نزعه منهم، فأنت المتصرف فى شئون خلقك لاراد لقضائك ولا معقب لحكمك.

وعبر بالإيتاء الذى هو مجرد الإعطاء دون التمليك المؤذن بثبوت المالكية، للتنبيه على أن المالكية على الحقيقة إنما هى مختصة بالله رب العالمين، أما ما يعطيه لغيره من ملك فهو عارية مستردة، وهو شىء زائل لا يدوم.

والتعبير عن إزالة الملك بقوله ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ يشعر بأنه - سبحانه - فى قدرته أن يسلب هذا العطاء من أى مخلوق مهما بلغت سعة ملكه، ومهما اشتدت قوته، وذلك لأن لفظ النزع يدل على أن المنزوع منه الشىء كان متمسكا به، فسلبه الله منه بمقتضى قدرته وحكمته.

والمراد بالملك هنا السلطان، وقيل النبوة، وقيل غير ذلك.

قال الفخر الرازى: وقوله ﴿تؤتى الملك من تشاء﴾ محمول على جميع أنواع الملك فيدخل فيه ملك النبوة، وملك العقل، والصحة،والأخلاق الحسنة. وملك النفاذ والقدرة، وملك المحبة، وملك الأموال، وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لا يجوز»[1].

ومفعول المشيئة فى الجملتين محذوف أى: تؤتى الملك من تشاء إيتاءه وتنزعه ممن تشاء نزعه منه.

أما الأمر الثانى الذى يدل على أنه - سبحانه - هو مالك الملك على الحقيقة فهو قوله ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾.

العزة - كما يقول الراغب - حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، من قولهم: أرض عزاز: أى صلبة، وتعزز اللحم: اشتد وعز، كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول إليه.. والعزيز الذى يقهر ولا يغلب.

وتذل، من الذل، وهو ما كان عن قهر، يقال: ذل يذل ذلا إذا قهر وغلب[2] والعزة صفة نفسية يحس بها المؤمن الصادق فى إيمانه، لأنه يشعر دائما بأنه عبد الله وحده وليس عبدا لأحد سواه، قال - تعالى - ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فالمؤمنون الصادقون أعزاء ولو كانوا فى المال والجاه فقراء. أما الكافرون فهم أذلاء، لأنهم خضعوا لغيرالله الواحد القهار.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٧ طبعة عبد الرحمن محمد.
(٢) مفردات القرآن الراغب الأصفهانى ص ١٨١، ٣٣٣.

والمعنى : أنت يا الله يا ملك الملك، أنت وحدك الذى تؤتى الملك لمن تشاء أن تؤتيه له، وتنزعه ممن تريد نزعه منه، وأنت وحدك الذى تعز من تشاء إعزازه بالنصر والتوفيق، وتذل من تشاء إذلاله بالهزيمة والخذلان، ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التسليم المطلق من المؤمنين لذاته فقال - تعالى - : ﴿بيدك الخير إنك على كل شىء قدير﴾.

أى أنت وحدك الذى تملك الخير كله، وتتصرف فيه حسب إرادتك ومشيئتك، لأنك على كل شىء قدير.

وأل فى الخير للاستغراق الشامل، إذ كل خير فهو بيده - سبحانه - وقدرته، وتقديم الجار والمجرور ﴿بيدك﴾ لإفادة الاختصاص، أى بيدك وحدك على الحقيقة لا بيد غيرك، وجملة «إنك على كل شىء قدير» تعليلية.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : «كيف قال ﴿بيدك الخير﴾ فذكر الخير دون الشر؟ قلت : لأن الكلام إنما وقع فى الخير الذى يسوقه إلى المؤمنين وهو الذى أنكرته الكفرة فقال بيدك الخير، تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن أفعال الله - تعالى - من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه»[1].

ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا من مظاهر قدرته الباهرة فقال : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾.

الولوج فى الأصل : الدخول، والإيلاج الإدخال. يقال : ولج فلان منزله إذا دخله، فهو يلجه ولجا وولوجا. وأولجته أنا إذا أدخلته، ثم استعير لزيادة زمان النهار فى الليل وعكسه بحسب المطالع والمغارب.

أى أنت يا الله يا مالك الملك. أنت الذى بقدرتك تدخل طائفة من الليل فى النهار فيقصر الليل ويزيد النهار وتدخل طائفة من النهار فى الليل فيقصر النهار ويزيد الليل، وأنت وحدك الذى بقدرتك أن تجعلهما متعاقبين بأن تأتى بالليل رويدًا رويدًا فى أعقاب النهار، وتأتى بالنهار شيئًا فشيئًا فى أعقاب الليل. وفى كل ذلك دليل على سعة قدرتك، وواسع رحمتك. وتذكير واعتبار لأولى الألباب.

ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا آخر من مظاهر قدرته فقال : ﴿تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى﴾.

قال الفخر الرازى : ذكر المفسرون فيه وجوها.

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٥٠.

أحدها : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح.

والثانى : يخرج الحيوان -وهو حى- من النطفة -وهى ميتة-، والدجاجة - وهى حية - من البيضة أو العكس.

والثالث : يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس والنخلة من النواة وبالعكس : ثم قال : والكلمة محتملة للكل : أما الكفر والإيمان فقال - تعالى - ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ يريد كان كافرا فهديناه، فجعل الكفر موتًا والإيمان حياة، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء وجعل ما قبل ذلك ميتة فقال : ﴿يحيى الأرض بعد موتها﴾ وقال : ﴿فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ وقال : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾(١).

وفى الحق : إن المتدبر فى هذا الكون وما يعترى سكانه من موت وحياة ليشهد ويذعن بأن لهذا الكون خالقا قادرا هو الله الواحد القهار.

ثم ختم -سبحانه- مظاهر قدرته ورحمته بقوله ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ والرزق -كما يقول الراغب- يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أو أخرويا. وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة أخرى يقال : أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علما، قال -تعالى- : ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت..﴾ أى : من المال والجاه والعلم »(٢).

أى أنت يا الله يا مالك الملك، أنت وحدك الذى ترزق من تشاء أن ترزقه بغير حساب، أى رزقا واسعا عظيما لأنك أنت صاحب الجود والكرم، ولأنك ليس معك شريك فيحاسبك، بل أنت المعطى بدون محاسب، وبدون محاسبة من تعطيه، ولأن خزائن ملكك لا ينقصها العطاء مهما كثر.

ومن كانت هذه صفاته، وتلك بعض مظاهر قدرته : من إيتاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل، وإخراج الحى من الميت والميت من الحى، كان من حقه أن يفرد بالعبادة والخضوع ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

قال ابن كثير: روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : اسم الله الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب فى هذه الآية : ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾(٣).

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ١٠. بتصرف يسير

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٩٤.

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٢٢.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد وصفتا الخالق - عز وجل - بما هو أهله، من قدرة تامة وسلطان نافذ، ورحمة واسعة، وهذا الوصف من شأنه أن يحمل كل عاقل على إخلاص العبادة له - سبحانه - وعلى الاستجابة لكل ما أمر به أو نهى عنه رغبة فى ثوابه، ورهبة من عقابه.

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده مالك الملك، وأنه على كل شىء قدير، عقب ذلك بنهى المؤمنين عن موالاة أعدائه بسبب قرابة أو صداقة أو نحوهما، فقال -تعالى-

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات:

منها أن جماعة من اليهود كانوا يصادقون جماعة من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة ابن المنذر، وعبدالله بن جبير، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر من الأنصار: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا ملازمتهم ومباطنتهم لئلا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية»[١].

وقوله ﴿أولياء﴾ جمع ولى، والولاء والتوالى - كما يقول الراغب: أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد.

والولاية - بكسر الواو - النصرة والولاية - بفتحها - تولى الأمر، وقيل هما بمعنى واحد»[٢].

و «لا» ناهية. والفعل «يتخذ» مجزوم بها، وهو متعد لمفعولين:

أولهما: ﴿الكافرين﴾.

وثانيهما: ﴿أولياء﴾.

والمعنى: لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء ونصراء، بل عليهم أن يراعوا مافيه

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص ١٢٠

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٥٣٣.

مصلحة الإسلام والمسلمين، وأن يقدموها على ما بينهم وبين الكفار من قرابة أو صداقة أو غير ذلك من ألوان الصلات لأن فى تقديم مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين تقديما للكفر على الإيمان ومن شأن المؤمن الصادق فى إيمانه أن لا يصدر منه ذلك.

وقد ورد مثل هذا النهى فى كثير من الآيات ومن ذلك قوله - تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾[١].

وقوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[٢].

قال الألوسى: وقوله ﴿من دون المؤمنين﴾ حال من الفاعل، أى متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالا أو اشتراكا، ولا مفهوم لهذا الظرف إما لأنه ورد فى قوم بأعيانهم والَوْا الكفار دون المؤمنين فهو لبيان الواقع. أو لأن ذكره للإشارة إلى أن الحقيق بالموالاة هم المؤمنون، وفى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار»[٣].

قالوا: والموالاة الممنوعة هى التى يكون فيها خذلان للدين أو إيذاء لأهله أو إضاعة لمصالحهم، وأما ما عدا ذلك كالنجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا تدخل فى ذلك النهى، لأنها ليست معاملة فيها أذى للإسلام والمسلمين»[٤].

وكرر - سبحانه - لفظ «المؤمنين» بأداة التعريف أل للإشارة إلى أن الثانى هو عين الأول، وفى ذلك إشعار بأن المؤمنين الذين يتخذون الكافرين أولياء ونصراء، يتركون أنفسهم ويهملونها ويتخذون من عدوهم نهاية لها.

ثم قال - تعالى - ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء﴾ أى: ومن يتخذ الكافرين أولياء وأنصارا من دون المؤمنين، فإنه فى هذه الحالة يكون بعيدا عن ولايته لله، ومنسلخا منها رأسا وليس بينه وبين الله صلة تذكر.

فاسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود على الاتخاذ المفهوم من الفعل يتخذ.

والتنوين فى ﴿شىء﴾ للتحقير أى ليس فى شىء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية، لأن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان كما قال الشاعر:

تـود عـدوى ثـم تـزعـم أننى ... صديقك ليس النوك عنك بعازب[٥]

---

(١) سورة الممتحنة آية ١

(٢) سورة المائدة آية ٥١.

(٣) تفسير الألوسى جـ٣ ص ١٢٠

(٤) تفسير المنار جـ٣ ص ٢٧٨

(٥) النوك: الحمق. والعازب: البعيد.

و « من » شرطية، و ﴿يفعل﴾ فعل الشرط، وجوابه « فليس من الله فى شىء » واسم ليس ضمير يعود على « من » وقوله ﴿فى شىء﴾ خبرها. أى فليس الموالى فى شىء كائن من الله -تعالى- والجملة معترضة بين المستثنى والمستثنى منه.

وقال - سبحانه - ﴿فليس من الله﴾ ولم يقل « فليس من ولاية الله »للإشعار بأن من اختار مناصرة المشركين وموالاتهم فقد ترك ذات الله - تعالى - وكان مؤثرا لقوة الكفار على قوة العزيز الجبار، فهو فى هذه الحالة يعاند الله نفسه، ثم استثنى - سبحانه - من أحوال النهى حال التقية فقال: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ وقوله: ﴿تتقوا﴾ من الاتقاء بمعنى تجنب المكروه، وعدى بمن لتضمينه معنى تخافوا و ﴿تقاة﴾ مصدر تقيته - كرميته - بمعنى اتقيته ووزنه فعلة ويجمع على تقى: كرطبة ورطب. وأصل تقاة: وقية من الوقاية. فأبدلت الواو المضمومة تاء والياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها.

والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال، والتقدير: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين أولياء فى أى حال من الأحوال إلا فى حال اتقائكم منهم أى إلا أن تخافوا منهم مخافة. أو إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه من الضرر فى النفس أو المال أو العرض.

كأن يكون الكفار غالبين ظاهرين. أو كنتم فى قوم كفار فيرخص لكم فى مداراتهم باللسان، على ألا تنطوى قلوبكم على شىء من مودتهم، بل تدارونهم وأنتم لهم كارهون. وألا تعملوا ما هو محرم كشرب الخمر، أو إطلاعهم على عورات المسلمين أو الانحياز إليهم فى مجافاة بعض المسلمين، وإذن فلا رخصة إلا فى المداراة باللسان. ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال - تعالى - ﴿ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾.

والتحذير: هو التخويف لأجل الحذر واليقظة، من أن يقع الإنسان فى قول أو عمل منهى عنه.

ونفسه: منصوب على نزع الخافض. والمصير: المرجع والمآب.

أى: ويحذركم الله - تعالى - من نفسه أى من عقابه وانتقامه، وإليه - سبحانه - مرجعكم ومصيركم فيحاسبكم على أعمالكم.

وقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ فيه ما فيه من التهديد والتخويف من موالاة الكافرين، لأن التحذير من ذات الله، يقتضى الخوف ووقوع الرهبة فى النفس من الذات العلية، وذلك كما يقال: -ولله المثل الأعلى- احذر الأسد، فإن هذا القائل يريد أن ذات الأسد فى كل أحوالها موهوبة، ولأن كلمة « نفس » تقال لتأكيد التعبير عن الذات. أى أن التحذير قد جاءكم من الله - تعالى - لا من غيره فعليكم أن تمتثلوا أمره، فإن إليه وحده المآل وانتهاء أمر العباد.

وسيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون فاحذروا التعرض لعقابه، وقوله ﴿وإلى المصير﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه. هذا، ولبعض العلماء كلام طويل عن التقية - وهى أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن مخافة الأذى الشديد - فقد قال الآلوسى ما ملخصه:

«وفى الآية دليل على مشروعية التقية، وعرفوها بالمحافظة على النفس أو العرض من شر الأعداء..

والعدو قسمان:

الأول: من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين كالكافر والمسلم.

والثانى: من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والإمارة، ومن هنا صارت التقية قسمين:

أما القسم الأول فالحكم الشرعى فيه أن كل مؤمن وقع فى محل لا يمكن له فيه أن يظهر دينه لتعرض المخالفين له بالعداوة فإنه يجب عليه أن يهاجر من ذلك المكان إلى مكان يستطيع فيه أن يظهر دينه، إلا إذا كان ممن لهم عذر شرعى كالنساء والصبيان والعجزة فقد قال تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوا غفورًا﴾.

وإذا كان التخويف بالقتل ونحوه جاز له المكث والموافقة لهم ظاهرا بقدر الضرورة مع السعى فى حيلة للخروج والفرار بدينه.

والموافقة لهم حينئذ رخصة، وإظهار ما فى قلبه عزيمة فلو مات مات شهيدًا بدليل ما روى من أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبى ﷺ فقال لأحدهما: «أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم. ثم دعا الثانى فقال له أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم. فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ قال إنى أصم، قالها ثلاثا، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه فهنيئا له. وأما الآخر فقد قبل رخصة الله فلا تبعة عليه».

وأما القسم الثانى وهو من كانت عداوته بسبب المال والإمارة وما إلى ذلك، فقد اختلف فى وجوب هجرة صاحبه، فقال بعضهم تجب لأن الله قد نهى عن إضاعة المال. وقال آخرون لا تجب، لأنها لمصلحة دنيوية ولا يعود على من تركها نقصان فى الدين.

وعد قوم من باب التقية الجائزة مداراة الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم

فى وجوههم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم - بشرط أن لا تكون هذه المداراة مخالفة لأصول الدين وتعاليمه - فإن كانت مخالفة لذلك فلا تجوز.

روى البخارى عن عائشة قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ بئس أخو العشيرة، ثم أذن له فألان له القول، فقلت يارسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له القول؟ فقال: «يا عائشة إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه»

إلى غير ذلك من الأحاديث. لكن لا تنبغى المداراة إلى حيث يخدش الدين، ويرتكب المنكر، وتسىء الظنون»[1].

ثم يبين - سبحانه - أنه عليم بالظواهر والبواطن، وأمر بأن يكثروا من العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة، وأن يلتزموا طاعة الله ورسوله لكى يسعدوا فى دينهم ودنياهم، وأن يراقبوا الله - تعالى - فى أقوالهم وأعمالهم لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية فقال تعالى:

قُلْ
إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وقل لغيرهم

(١) تفسير الألوسى بتصرف وتلخيص جـ٣ ص ١٢١.

ممن يوجه إليهم الخطاب، قل لهم على سبيل الإرشاد والتحذير ﴿إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه﴾ من ولاية الكفار أو غيرها من الأقوال والأفعال ﴿يعلمه الله﴾ فيجازيكم عليه بما تستحقون.

وفى أمر النبى ﷺ بتوجيه هذا القول إلى المخاطبين ترهيب لهم من الآمر وهو الله -تعالى- لأن هذا التنويع فى الخطاب من شأنه أن يربى المهابة فى القلوب. وذلك - ولله المثل الأعلى - كأن يقول الملك للمخالفين من رعيته: أحذركم من مخالفتى، ثم يأمر أحد أصفيائه بأن يكرر هذا التحذير وأن يبين لهم سوء عاقبة المخالفين.

وقوله ﴿ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض﴾ جملة مستأنفة وليست معطوفة على جواب الشرط وهو ﴿يعلمه الله﴾، وذلك لأن علمه - سبحانه - بما فى السموات والأرض ليس متوقفا على شرط فلذلك جىء به مستأنفا. وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص وهو علم مافى صدوركم تأكيدا له وتقريرًا.

وقوله ﴿والله على كل شىء قدير﴾ تذييل قصد به الإخبار بأنه مع علمه الواسع المحيط، ذو قدرة نافذة على كل شىء وهذا لون من التهديد والتحذير لأن الذى يتوعد غيره بشىء لا يحول بينه وبين تحقيق هذا الشىء إلا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عن تنفيذ وعيده، فلما أعلمهم - سبحانه - بأنه محيط بكل شىء وقادر على كل شىء، ثبت أنه - سبحانه - متمكن من تنفيذ وعيده.

قال صاحب الكشاف: «وقوله ﴿والله على كل شىء قدير﴾ أى: هو قادر على عقوبتكم وهذا بيان لقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ لأن نفسه وهى ذاته المميزة من سائر الذوات، متصفة بعلم ذاتى لا يختص بمعلوم دون معلوم. فهى متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهى قادرة على المقدورات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب فإنه مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب. ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر، ونصب عليه عيونا، وبث من يتجسس عن بواطن أموره: لأخذ حذره وتيقظ فى أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أن العالم بالذات - يعنى أن علمه بذاته لا بعلم زائد عن ذاته كعلم الحوادث وهذا عند المعتزلة - الذى يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك»[1].

ثم كرر - سبحانه - التحذير من الحساب يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال ورغب المؤمنين

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٢٥.

فى العمل الصالح فقال : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدًا﴾

قال الآلوسى : الأمد : غاية الشيء ومنتهاه والفرق بينه وبين الأبد أن الأبد مدة من الزمان غير محدودة والأمد مدة لها حد مجهول، والمراد هنا الغاية الطويلة، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالأمد البعيد المسافة البعيدة، ولعله الأظهر، فالتمنى هنا من قبيل التمنى فى قوله - تعالى - ﴿ياليت بينى وبينك بعد المشرقين﴾(١).

والمعنى : راقبوا ربكم أيها المؤمنون. وتزودوا من العمل الصالح واذكروا ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت﴾ فى الدنيا ﴿من خير﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿محضرًا﴾ لديها مشاهدا فى الصحف، حتى لكأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخرة فيرى رأى العين ﴿وما عملت من سوء﴾ تراه أيضًا ظاهرًا ثابتا مسجلا عليها، وتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل السيء زمنا طويلا، ومسافة بعيدة وذلك لأن الإنسان يتمنى دائما أن يكون بعيدا بعدا شاسعًا عن الشيء المخيف المؤلم خصوصًا فى هذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة.

وقوله ﴿يوم﴾ متعلق بمحذوف تقديره اذكروا، وهو مفعول به لهذا المحذوف. و «تجد» يجوز أن يكون متعديا لواحد فيكون بمعنى تصيب وتصادف، ويكون «محضرًا» على هذا منصوبا على الحال. قال الجمل : وهذا هو الظاهر. ويجوز أن يكون بمعنى تعلم فيتعدى لاثنين أولهما ﴿ما عملت﴾ والثانى ﴿محضرًا﴾(٢).

وقوله ﴿وما عملت من سوء﴾ معطوف على قوله ﴿ما عملت من خير﴾.

ويرى بعضهم أن «ما» فى قوله ﴿وما عملت من سوء﴾ مبتدأ، وخبرها جملة ﴿تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾ فيكون المعنى : ما عملت من سوء تتمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمدا بعيدا.

أتى - سبحانه - بقوله ﴿محضرا﴾ فى جانب الخير فقط مع أن عمل السوء أيضًا يكون محضرًا للإشعار يكون عمل الخير هو المراد بالذات. وهو الذى يتمناه الإنسان ويرجو حضوره فى هذا لما يترتب عليه من ثواب وأما عمل الشر فتتمنى كل نفس اقترفته لو بعد عنها ولم تره بسبب ما يترتب عليه من عقاب.

وقوله - سبحانه - ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تكرير للتحذير الأول الذى جاء فى قوله -تعالى-

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ١٢٧.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٥٩.

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ والسر فى هذا التكرير زيادة التحذير من عقاب الله وانتقامه، فإن تكرار التحذير من شأنه أن يغرس فى القلوب التذكر والاعتبار والوجل.

وقيل : إن التحذير الأول ذكر للنهى عن موالاة الكافرين. والذى هنا ذكر للحث على عمل الخير والتنفير من عمل الشر.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله رءوف بالعباد﴾ ومن مظاهر رأفته ورحمته أنه حذر عباده قبل أن يعاقبهم، وأنه يعفو عن كثير من ذنوب عباده، وأنه فتح لهم باب التوبة حتى يقلعوا عن خطاياهم. إلى غير ذلك من مظاهر رأفته ورحمته.

ثم أمر الله -تعالى- رسول الله ﷺ أن يرشد الناس إلى الطريق الذى متى سلكوه كانوا حقا محبين لله، وكانوا ممن يحبهم - سبحانه - فقال تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾.

قال بعضهم : عن الحسن البصرى قال : قال قوم على عهد النبى ﷺ يا محمد إنا نحب ربنا، فأنزل الله الآية، وروى محمد بن إسحاق عن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : «نزلت فى نصارى نجران وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له فأنزل الله هذه الآية ردا عليهم»(١).

ومحبة العباد لله - كما يقول الزمخشرى - مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم.

والمعنى : قل يا محمد للناس على سبيل الإرشاد والتبيين : إن كنتم تحبون الله حقا كما تدعون، فاتبعونى، فإن اتباعكم لى يؤدى إلى محبة الله لكم، وإلى غفرانه لذنوبكم، وذلك لأن محبة الله ليست دعوى باللسان، وإنما محبة الله تتحقق باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه على لسان رسوله محمد ﷺ الذى أرسله رحمة للعالمين.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، بأنه كاذب فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى، والدين النبوى فى كل أقواله وأعماله كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٣٠ وتفسير ابن جرير جـ٣ ص٢٣٢.

«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

وقوله ﴿يحببكم الله﴾ جواب الأمر، وهو قوله ﴿فاتبعونى﴾. وهذا رأى الخليل.

ويرى أكثر المتأخرين من النحاة أن قوله «يحببكم الله» جواب لشرط مقدر دل عليه المقام والتقدير: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى، وإن اتبعتمونى يحببكم الله، أى يمنحكم الثواب الجزيل، والأجر العظيم، والرضا الكبير.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن أول علامات محبة العبد لربه، هى اتباع رسوله ﷺ وأن هذا الاتباع يؤدى إلى محبة الله - تعالى - لهذا العبد وإلى مغفرة ذنوبه.

ومحبة الله لعبده هى منتهى الأمانى، وغاية الآمال، ولذا قال بعض الحكماء: «ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحَب».

ومحبة الله إنما تتأتى بإخلاص العبادة والوقوف عند حدوده والاستجابة لتعاليم رسوله محمد ﷺ وكل من يدعى أنه محب لله وهو معرض عن أوامره ونواهيه فهو كاذب فى دعواه كما قال الشاعر الصوفى:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ثم ختم - سبحانه - الآية بوصفين جليلين فقال: ﴿والله غفور رحيم﴾ أى أنه -سبحانه- كثير الغفران والرحمة لمن تقرب إليه بالطاعة، واتبع رسوله فيما جاء به من عنده.

ثم كرر - سبحانه - الأمر لرسوله ﷺ بأن يحض الناس على اتباع ما يسعدهم فقال له: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾.

أى قل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا رسوله فى جميع الأوامر والنواهى، وإن من يدعى أنه مطيع لله دون أن يتبع رسوله فإنه يكون كاذبا فى دعواه، ولذا لم يقل - سبحانه - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، للإشعار بأن الطاعة واحدة وأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾(٢).

ثم ذكر - سبحانه - عاقبة العصاة المعاندين فقال: ﴿فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أى: فإن أعرضوا عما تأمرهم به يا محمد ولم يستجيبوا لك واستمروا على كفرهم، فإنهم لا ينالون محبة الله، لأنهم كافرون.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٥٨.
(٢) سورة النساء من الآية ٨٠

ففى هذه الجملة الكريمة دلالة على أن محبة الله لا ينالها إلا من يتبع الرسول ﷺ لأنه - سبحانه - نفى حبه عن الكافرين، ومتى نفى حبه عنهم فقد أثبت بغضه، ولأنه عبر عن تركهم اتباع رسوله بالتولى وهو أفحش أنواع الإعراض، ومن أعرض عن طاعة رسول الله كان بعيدًا عن محبة الله.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ساقت للناس من التوجيهات السامية، والآداب العالية ما من شأنه أن يغرس فى النفوس إخلاص العبادة لله، والخشية من عقابه، والأمل فى ثوابه، والإكثار من العمل الصالح الذى يؤدى إلى رضا الله ومحبته.

وبعد هذا الحديث الحكيم المتنوع - من أول السورة إلى هنا - عن وحدانية الله، وقدرته النافذة وعلمه المحيط، وعن أحقيته للعبادة والخضوع، وعن الكتب السماوية وما اشتملت عليه من هدايات وعن محكم القرآن ومتشابهه، وعن رعاية الله - تعالى - لعباده المؤمنين، وعن تهديد الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم، وعن الشهوات التى يميل الإنسان بطبعه إليها وعما هو أفضل منها، وعن دين الإسلام وانه هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده، وعن بعض الرذائل التى عرفت عن أكثر أهل الكتاب، وعن حث الناس على مراقبة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له حتى يكونوا ممن يحبهم ويحبونه فيسعدوا فى دينهم ودنياهم وآخرتهم.. بعد كل ذلك تحدث القرآن - فى أكثر من ثلاثين آية - عمن اصطفاهم الله من عباده، وعن جانب من قصة مريم، وقصة زكريا وابنه يحيى - عليهما السلام - وعن قصة ولادة عيسى - عليه السلام - وما صاحبها من خرق للعادات، وما منحه - سبحانه - من معجزات وعن محاجة الكافرين من أهل الكتاب فى شأنه وكيف رد القرآن عليهم.. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ

وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله ﴿اصطفى﴾ من الاصطفاء وهو الاختيار والانتقاء وطلب الصفوة من كل شىء.

وقوله ﴿وآل إبراهيم﴾ الآل - كما يقول الراغب - مقلوب عن الأهل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة. يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا.. ويضاف إلى الأشرف الأفضل فيقال آل الله وآل السلطان ولا يقال آل الحجام.. ويستعمل الآل فيمن يختص بالإنسان اختصاصا ذاتيا إما بقرابة قريبة أو بموالاة قال - تعالى - ﴿آل إبراهيم وآل عمران﴾[1].

والمعنى: إن الله - تعالى - قد اختار واصطفى ﴿آدم﴾ أبا البشر، بأن جعله خليفة فى الأرض، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته..

واصطفى ﴿نوحًا﴾ لأنه - كما يقول الآلوسى - آدم الأصغر، والأب الثانى للبشرية، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله - سبحانه - ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[2].

واصطفى ﴿آل إبراهيم﴾ أى عشيرته وذوى قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما.

واصطفى ﴿آل عمران﴾ إذ جعل فيهم عيسى - عليه السلام - الذى آتاه الله البينات، وأيده بروح القدس.

والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى - عليه السلام - فهو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا.. وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام -.

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٠.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٣١.

وإن فى ذلك التسلسل دليل على أن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن يجعل فى الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم فقد ابتدأت الهداية بآدم أبى البشر كما قال - تعالى - : ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ ثم جاء من بعده بقرون لا يعلمها إلا الله نوح - عليه السلام - فمكث يدعو الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق «ألف سنة إلا خمسين عامًا» ثم جاء من بعد ذلك إبراهيم - عليه السلام - فدعا الناس إلى عبادة الله وحده، فكان هو وآله صفوة الخلق وفيهم النبوة فمن إسماعيل بن إبراهيم كان محمد ﷺ الذى ختمت به الرسالات السماوية.

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون.. ومن فرع إسحاق كان آل عمران وهم ذريته وأقاربه كزكريا ويحيى وعيسى الذى كان آخر نبى من هذا الفرع.

وفى التعبير بالاصطفاء تنبيه إلى أن آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران صفوة الخلق، إذ أن الرسل والأنبياء جميعا من نسلهم.

وقوله ﴿على العالمين﴾ أى على عالمى زمانهم. أى أهل زمان كل واحد منهم.

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بتسلسل هذه الصفوة الكريمة بعضها من بعض فقال ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ وأصل الذرية - كما يقول القرطبى - فعلية من الذر، لأن الله - تعالى - أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم - وقيل هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا خلقهم، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين»(١).

والمعنى: أن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم من نسل بعض، فهم متصلو النسب، فنوح من ذرية آدم، وآل إبراهيم من ذرية نوح، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم، فهم جميعًا سلسلة متصلة الحلقات فى النسب، والخصال الحميدة.

وقوله ﴿ذرية﴾ منصوب على الحال من آل إبراهيم وآل عمران. ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله سميع عليم﴾ أى هو - سبحانه - سميع لأقوال عباده فى شأن هؤلاء المصطفين الأخيار وفى شأن غيرهم عليم بأحوال خلقه علما تاما بحيث لا تخفى عليه خافية تصدر عنهم.

والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها، ومؤكد له.

ثم حكى سبحانه ما قالته امرأة عمران عندما أحست بعلامات الحمل فقال تعالى: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى﴾ والظرف «إذ» فى محل النصب

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٠٧.

على المفعولية بفعل محذوف والتقدير: أذكر لهم وقت قولها رب إنى نذرت.. ألخ. وقيل هو متعلق بقوله ﴿والله سميع عليم﴾ أى أنه - سبحانه - يعلم علم ما يسمع فى الوقت الذى قالت فيه امرأة عمران ذلك القول.

وامرأة عمران هذه هى «حنة» بنت فاقوذا بن قنبل وهى أم مريم وجدة عيسى عليه السلام وعمران هذا هو زوجها، وهو أبو مريم.

وقوله ﴿نذرت﴾ من النذر وهو التزام التقرب إلى الله - تعالى - بأمر من جنس العبادات التى شرعها - سبحانه - لعباده ليتقربوا بها إليه.

وقوله ﴿محررًا﴾ أى عتيقا مخلصا للعبادة متفرغا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس. يقال: حررت العبد إذا خلصته من الرق وحررت الكتاب إذا أصلحته ولم تبق فيه شيئًا من وجوه الخطأ، ورجل حر إذا كان خالصا لنفسه ليس لأحد عليه سلطان.

والمعنى: اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن لجأت امرأة عمران إلى ربها تدعوه بضراعة وخشوع فتقول: يارب إنى نذرت لخدمة بيتك هذا الجنين الذى فى بطنى مخلصا لعبادتك متفرغا لطاعتك فتقبل منى هذا النذر الخالص، وتلك النية الصادقة، ﴿إنك أنت السميع﴾ لقولى ولأقوال خلقك ﴿العليم﴾ بنيتى وبنوايا سائر عبادك.

فأنت ترى فى هذا الدعاء الخاشع الذى حكاه القرآن عن امرأة عمران أسمى ألوان الأدب والإخلاص، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين الذى فى بطنها، ملتمسة منه - سبحانه - أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة بيته، واللام فى قوله «لك» للتعليل أى نذرت لخدمة بيتك.

وقوله ﴿محررا﴾ حال من «ما» والعامل فيه «نذرت».

قال بعضهم: «وكان هذا النذر يلزم فى شريعتهم فكان المحرر عندهم إذا حرر جعل فى الكنيسة يخدمها ولا يبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم، ثم يتخير فإن أحب ذهب حيث شاء، وإن اختار الإقامة لا يجوز له بعد ذلك الخروج. ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم إلا ومن أولاده من حرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان، ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى»(١). وجملة ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تعليلية لاستدعاء القبول، من حيث أن علمه - سبحانه - بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لقبول نذرها تفضلا منه وكرما.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٤٦٢.

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بعد أن وضعت ما فى بطنها فقال - تعالى : ﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى﴾.

قالوا : إن هذا خبر لا يقصد به الإخبار، بل المقصود منه إظهار التحسر والتحزن والاعتذار، فقد كانت امرأة عمران تتوقع أن يكون مافى بطنها ذكرا، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيت الله والانقطاع للعبادة فيه، لكنها حين وضعت حملها ووجدته أنثى، قالت على سبيل الاعتذار عن الوفاء بنذرها : رب إنى وضعتها أنثى، والأنثى لاتصلح للمهمة التى نذرت ما فى بطنى لها وهى خدمة بيتك المقدس، وأنت يا إلهى القدير على كل شيء فبقدرتك أن تخلق الذكر وبقدرتك أن تخلق الأنثى.

والضمير فى قوله ﴿فلما وضعتها﴾ يعود لما فى بطنها. وتأنيث باعتبار حاله فى الواقع ونفس الأمر وهو أنه أنثى.

وقوله ﴿أنثى﴾ منصوب على الحال من الضمير فى وضعتها، وهى حال مؤكدة لأن كونها أنثى مفهوم من تأنيث الضمير فجاءت أنثى مؤكدة.

وقوله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ جملة معترضة سيقت للايماء إلى تعظيم المولود الذى وضعته وتفخيم شأنه، وللإشعار بأن الأنثى ستصلح لما يصلح له الذكور من خدمة بيته. أى : والله -تعالى- أعلم منها ومن غيرها بما وضعته، لأنه هو الذى خلق هذا المولود وجعله أنثى، وهو العليم بما سيصير إليه أمر هذه الأنثى من فضل، إذ منها سيكون عيسى -عليه السلام- وسيجعلها -سبحانه- آية ظاهرة دالة على كمال قدرته، ونفوذ إرادته.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ بضم التاء وعلى هذه القراءة لا تكون الجملة معترضة وإنما هى من تتمة ما قالته، ويكون الكلام التفات من الخطاب إلى الاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة إذ لو جرت على مقتضى قولها، ﴿رب إنى وضعتها أنثى﴾ لقالت: وأنت أعلم بما وضعت.

ويكون قولها هذا من تتمة الاعتذار إلى الله - تعالى - حيث وضعت مولودا لا يصلح لما نذرته - فى عرف قومها وتسلية لنفسها، أى ولعل لله سرا وحكمة لا يعلمها أحد سواه فى جعل هذا المولود أنثى. أو لعل هذه الأنثى تكون خيرًا من الذكر.

وقوله -تعالى- ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ يحتمل أنه من كلامه -سبحانه- وهو الظاهر - فتكون الجملة معترضة كسابقتها، ويكون: وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى ولدتها، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه فى العبادة والمكانة إلا أنها لا تصلح عندهم لسدانة بيت الله تعالى، بسبب حرمة اختلاطها بالرجال وما يعتريها من حيض وغير ذلك مما يعترى النساء.

ويحتمل أنه من كلامها الذى حكاه الله تعالى عنها فلا تكون الجملة معترضة ويكون المعنى : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى وضعتها، بل هو خير منها لأنه هو الذى يصلح لسدانة بيتك وخدمته، ومع هذا فأنا فى كلتا الحالتين راضية بقضائك مستسلمة لإرادتك.

ثم حكى - سبحانك - أيضًا بعض ما قالته بعد ولادتها فقال ﴿وإنى سميتها مريم، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾.

قالوا : إن كلمة مريم معناها فى لغتهم العابدة، فأرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله والالتماس منه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لا سمها.

ومعنى ﴿أعيذها بك﴾ أمنعها وأجيرها بحفظك. مأخوذ من العوذ، وهو أن تلتجىء إلى غيرك وتتعلق به. يقال : عاذ فلان بفلان إذا استجار به، ومنه العوذة وهى التميمة والرقية.

والشيطان فى لغة العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء. وهو مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن كل خير.

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول. أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير. وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والشرور.

والمعنى : وإنى يا خالقى مع حبى لأن يكون المولود ذكرًا لتتهيأ له خدمة بيتك فقد رضيت بما وهبت لى، وإنى قد سمَيت هذه الأنثى التى أعطيتنى إياها مريم. أى العابدة الخادمة لك، وإنى أحصنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان الرجيم الذى يزين للناس الشرور والمساوئ.

قال القرطبى : وفى صحيح مسلمٍ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه».

ثم قال أبو هريرة : «اقرءوا إن شئتم : وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديث أن الله - تعالى - استجاب دعاء أم مريم.. ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس فإن ذلك ظن فاسد، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان كما قال تعالى : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾[1].

وقوله : ﴿وإنى سميتها مريم﴾ معطوف على ﴿إنى وضعتها أنثى﴾ وما بينهما اعتراض. وهذا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٦٨ بتلخيص.

على قراءة الجمهور التى جاءت بتسكين التاء فى ﴿وضعت﴾ فى قوله - تعالى - ﴿والله اعلم بما وضعت﴾.

وأما على قراءة غير الجمهور التى جاءت بضم التاء فى قوله: ﴿وضعت﴾ فيكون أيضًا معطوفًا على ﴿إنى وضعتها أنثى﴾ ويكون هذا القول وما عطف عليه فى محل نصب بالقول، والتقدير: قالت: إنى وضعتها أنثى، وقالت: الله أعلم بما وضعت وقالت: ليس الذكر كالأنثى، وقالت: إنى سميتها مريم.

وأتى فى قوله: ﴿وإنى أعيذها﴾ بخبر إن فعلا مضارعا للدلالة على طلبها استمرار الاستعاذة دون انقطاعها، بخلاف وضعتها، وسميتها، حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما.

وقوله: ﴿وذريتها﴾ معطوف على الضمير المنصوب فى أعيذها.

وفى التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذريتها من الشيطان الرجيم، رمز إلى طلب بقائها على قيد الحياة حتى تكبر وتكون منها الذرية الصالحة.

تلك هى بعض الكلمات الطيبات والدعوات الخاشعات، التى توجهت بها امرأة عمران إلى ربها عندما أحست بالحمل فى بطنها وعندما وضعت حملها حكاها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر، فماذا كانت نتيجتها؟

كانت نتيجتها أن أجاب الله دعاءها وقبل تضرعها، وقد حكى - سبحانه - ذلك بقوله: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنًا﴾.

والفاء فى قوله: ﴿فتقبلها﴾ تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة، والضمير يعود إلى مريم. والتقبل - كما يقول الراغب - قبول الشىء على وجه يقتضى ثوابا كالهدية ونحوها.

وإنما قال - سبحانه - ﴿فتقبلها ربها بقبول﴾ ولم يقل بتقبل: للجمع بين الأمرين: التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة»[1].

والمعنى: أن الله - تعالى - تقبل مريم قبولا مباركا وخرق بها عادة قومها، فرضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور، مع كونها أنثى وفاء بنذر الأم التقية التى قالت ﴿رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا﴾.

﴿وأنبتها نباتا حسنا﴾ أى رباها تربية حسنة، وصانها من كل سوء، فكان حالها كحال النبات الذى ينمو فى الأرض الصالحة حتى يؤتى ثماره الطيبة.

وهكذا قيض الله - تعالى - لمريم كل ألوان السعادة الحقيقية، فقد قبلها لخدمة بيته مع أنها

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى جـ٢ ص ٢٩.

أنثى، وأنشأها حسنة بعيدة عن كل نقص خلقى أو خلقى، وهيأها وسائل العيش الطيب من حيث لا تحتسب. فقد قال - تعالى - ﴿وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

قوله ﴿وكفلها زكريا﴾ أى ضمها إلى زكريا، لأن الكفالة فى أصل معناها الضم. أى ضمها الله - تعالى - إليه وجعله كافلا لها وضامنا لمصالحها.

وقرىء ﴿وكفلها﴾ بتخفيف الفاء. وبرفع ﴿زكريا﴾ على أنه فاعل. وعلى هذه القراءة تنطق كلمة زكريا بالمد قبل الهمزة فقط أى «زكرياء».

أما على القراءة الأولى فيجوز فى زكريا المد والقصر.

وزكريا هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وينتهى نسبة إلى سليمان بن داود - عليهما السلام - وكان متزوجا بخالة مريم، وقيل كان متزوجا بأختها.

وكانت كفالته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا فى كفالتها من سدنة بيت المقدس، يدل على ذلك قوله - تعالى - ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾.

قال صاحب الكشاف: «روى أن «حنة» حين ولدت مريم، لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار وهم فى بيت المقدس، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم».

فقال لهم زكريا: أنا أحق بها عندى خالتها فقالوا: لا، حتى نقترع عليها، فانطلقوا إلى نهر وألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها»[1].

وقوله: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا﴾ بيان لكفالة الله - تعالى - لرزقها ورضاه عنها، ورعايته لها.

والمحراب الموضع العالى الشريف والمراد به الغرفة التى كانت تتخذها مريم مكانا لعبادتها فى المسجد. سمى بذلك لأنه مكان محاربة الشيطان والهوى.

قال الآلوسى ما ملخصه: «والمحراب - على ماروى عن ابن عباس - غرفة بنيت لها فى بيت المقدس، وكانت لا يصعد إليها إلا بسلم. وقيل المراد به المسجد إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب. وقيل المراد به أشرف مواضع المسجد ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد أصله

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٥٧ بتلخيص يسير.

مفعال : صيغة مبالغة - كمطعان - فسمى به المكان، لأن المحاربين نفوسهم كثيرون فيه و«كلما» ظرف على أن «ما» مصدرية، والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت، والعائد محذوف والعامل فيها جوابها.

والمعنى : كل زمان دخل عليها أو كل وقت دخل عليها فيه «وجد عندها رزقا» أى أصاب ولقى بحضرتها ذلك أو وجد ذلك كائنا بحضرتها. أخرجه بن جرير عن الربيع قال : «أنه كان لا يدخل أحد سوى زكريا فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف» والتنوين فى ﴿رزقًا﴾ للتعظيم . .[1].

وهذا دليل على قدرة الله -سبحانه- على كل شىء، وعلى رعايته لمريم، فقد رزقها -سبحانه- من حيث لاتحتسب، ودليل على وقوع الكرامة لأوليائه -تعالى-.

ولقد كان وجود هذا الرزق عند مريم دون أن يعرف زكريا - عليه السلام - مصدره مع أنه لا يدخل عليها أحد سواه كان ذلك محل عجبه، لذا حكى القرآن عنه : ﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ أى من أين لك هذا الرزق العظيم الذى لا أعرف سببه ومصدره. و ﴿أنى﴾ هنا بمعنى من أين.

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذا الرزق؟ فكان الجواب: قال يا مريم من أين لك هذا.

ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها، وصفاء نفسها. فقد أجابته بقولها -كما حكى القرآن عنها- ﴿قالت هو من عند الله﴾ أى: قالت له إن هذا الرزق من عند الله -تعالى- فهو الذى رزقنى إياه وساقه إلى بقدرته النافذة.

وقوله - تعالى - ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ جملة تعليلية. أى: إن الله تعالى، يرزق من يشاء أن يرزقه رزقا واسعا عظيما لا يحده حد، ولا تجرى عليه الأعداد التى تنتهى، فهو- سبحانه - لا يحاسبه محاسب، ولا تنقص خزائنه من أى عطاء مهما كثر وعظم.

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أنها من كلام الله - تعالى - فتكون مستأنفة، ويحتمل أنها من كلامها الذى حكاه القرآن عنها، فتكون تعليلية فى محل نصب داخلة تحت القول.

هذا وفى تلك الآيات التى حكاها القرآن عن مريم وأمها نرى كيف يعمل الإيمان عمله فى القلوب فينقيها ويصفيها ويحررها من رق العبودية لغير الله الواحد القهار وكيف أن الله تعالى،

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٣٩.

يتقبل دعاء عباده الصالحين، وينبتهم نباتا حسنا، ويرعاهم برعايته، يرزقهم من حيث لا يحتسبون.

ولقد كان ما رآه زكريا - عليه السلام - من أحوال مريم من الأسباب التى جعلته - وهو الشيخ الهرم - يتضرع إلى الله أن يرزقه الذرية الصالحة، وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال - تعالى -:

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

قوله - تعالى ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ كلام مستأنف، وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف قصة مريم وأمها لما بينهما من قوة الارتباط، وشدة الاشتباك مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له قصة مريم وأمها من بيان اصطفاء آل عمران.

و «هنا» ظرف يشار به إلى المكان القريب كما فى قوله - تعالى - ﴿إنا هاهنا قاعدون﴾ وتدخل عليه اللام والكاف «هنالك» أو الكاف وحدها «هناك» فيكون للبعيد وقد يشار به للزمان اتساعا.

والمعنى: فى ذلك المكان الطاهر الذى كان يلتقى فيه زكريا بمريم ويرى من شأنها ما يرى من فضائل وغرائب، تحركت فى نفس زكريا عاطفة الأبوة، وهو الشيخ الكبير الذى وهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا، وبلغ من الكبر عتيًا - فدعا الله تعالى - بقلب سليم، وبنفس صافية

وبجوارح خاشعة، أن يرزقه الذرية الصالحة. ولقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال:

﴿قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾.

أى، قال زكريا مناجيا ربه: يارب أنت الذى خلقتنى، وأنت الذى لا يقف أمام قدرتك شيء، وأنت الذى جعلتنى أرى من أحوال مريم ما يشهد بقدرتك النافذة وفضلك العميم فهب لى يا خالقى من عندك ذرية صالحة تقر بها عينى، وتكون خلفا من بعدى ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أى إنك عليم بدعائى علم من يسمع، قريب الإجابة لمن يدعوك، فإن أجبت لى سؤالى فبفضلك وإن لم تجبه، فبعدلك وحكمتك. فأنت ترى فى هذا الدعاء الذى صدر عن زكريا - عليه السلام - أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة. فقد رفع أكف الضراعة فى مكان مقدس طاهر، وفى التعبير بقوله ﴿دعا زكريا ربه﴾ إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره بقدرة الله على كل شيء، فهو الذى خلقه ورباه وتولاه برعايته فى كل أدوار حياته.

وفى قوله ﴿هب لى من لدنك﴾ إشعار بأنه يريد من خالقه - عز وجل - أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادى، ولكن بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر فى هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعدًا إذ هو قد بلغ من الكبر عتيا وزوجته قد تجاوزت السن التى يحصل فيها الانجاب فى العادة.

أى هب لى من عندك لا من عندى، لأن الأسباب عندى أصبحت مستبعدة. وفى تقييد الذرية بكونها طيبة، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه، ونقاء سريرته، وحسن صلته بربه، لا يريد ذرية فحسب وإنما يريد ذرية صالحة يرجى منها الخير فى الدنيا والآخرة.

وجملة ﴿إنك سميع الدعاء﴾ تعليلية، أى إنى ما التجأت إليك يا إلهى إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء.

قال القرطبى ما ملخصه «دلت هذه الآية على طلب الولد وهى سنة المرسلين والصديقين. قال الله - تعالى -: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية﴾.. وقد ترجم البخارى على هذا «باب طلب الولد» وقال النبى ﷺ لأبى طلحة حين مات ابنه «أعرستم الليلة» قال نعم. قال: «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» فقال رجل من الأنصار فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن، والأخبار فى هذا المعنى كثيرة. تحث على طلب الولد لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد مماته. قال ﷺ إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث: فذكر منها «أو ولد صالح يدعو له» ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية(١).

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٧٢

هذا، وقد حكى لنا القرآن فى سورة مريم دعاء زكريا بصورة أكثر تفصيلا فقال: ﴿ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى، وكانت امرأتى عاقرًا فهب لى من لدنك وليًا، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾.

هذا هو دعاء زكريا كما حكاه الله - تعالى - فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع، والتضرع الخالص؟ لقد كانت نتيجته الإجابة من الله - تعالى - لعبده زكريا، فقد قال - تعالى - : ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾.

أى: فنادت الملائكة زكريا - عليه السلام - وهو قائم يصلى فى المحراب، يناجى ربه. ويسبح بحمده بأن الله قد استجاب دعاءك ويبشرك بغلام اسمه يحيى، لكى تقر به عينك ويسر به قلبك.

والتعبير بالفاء فى قوله ﴿فنادته﴾ يشعر بأن الله - تعالى - فضلا منه وكرما قد استجاب لزكريا دعاءه بعد فترة قليلة من هذا الدعاء الخاشع، إذ الفاء تفيد التعقيب.

ويرى فريق من المفسرين أن الذى ناداه هو جبريل وحده، ومن الجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع.

قال ابن جرير: كما يقال فى الكلام: خرج فلان على بغال البريد وإنما ركب بغلا واحدًا وركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة وكما يقال: ممن سمعت هذا؟ فيقال: من الناس، وإنما سمعه من رجل واحد، وقد قيل: إن منه قوله -تعالى- ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ والقائل كان فيها ذكر واحد[1]. ويرى فريق آخر منهم أن الذى نادى زكريا وبشره بمولوده يحيى، جمع من الملائكة لأن الآية صريحة فى أن هذا النداء قد صدر من جمع لا من واحد، ولأن صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة، فقد جرت العادة فى أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد، ولا شك أن حالة زكريا وحالة زوجه تستدعيان عددا من المبشرين لإدخال السرور على هذين الشخصين اللذين كادا يفقدان الأمل فى إنجاب الذرية.

وقد رجح هذا الاتجاه ابن جرير فقال «وأما الصواب من القول فى تأويله فأن يقال: إن الله - جل ثناؤه - أخبر أن الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٢٤٩.

الواحد، جبريل واحد فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل فى ألسن العرب دون الأقل ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعانى»[1].

وقوله ﴿وهو قائم﴾ جملة حالية من مفعول النداء، و«يصلى» حال من الضمير المستكن فى قائم أو حال أخرى من مفعول النداء على القول بجواز تعدد الحال، وقوله ﴿فى المحراب﴾ متعلق بيصلى. والمراد بالمحراب هنا المسجد، أو المكان الذى يقف فيه الإمام فى مقدمة المسجد.

وقرأ جمهور القراء: ﴿أن الله يبشرك﴾ بفتح همزة أن - على أنه فى محل جر بباء محذوفه. أى: نادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى.

وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿إن الله يبشرك﴾ - بكسر الهمزة - على تضمين النداء معنى القول، أى: قالت له الملائكة إن الله يبشرك بيحيى.

وقوله: ﴿بيحيى﴾ متعلق بيبشرك، وفى الكلام مضاف أى يبشرك بولادة يحيى، لأن الذوات ليست متعلقا للبشارة.

وفى اقتران التبشير بالتسمية بيحيى، إشعار بأن ذلك المولود سيحيا اسمه وذكره بعد موته، وبذلك تتحقق الإجابة لدعاء زكريا تحققا تاما، فقد حكى القرآن عنه فى سورة مريم أنه قال: ﴿يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾ قال الجمل: و«يحيى» فيه قولان:

أحدهما: وهو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع، وقد سموا بالأفعال كثيرًا نحو يعيش ويعمر. وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، نحو يزيد ويشكر وتغلب.

والثانى: أنه أعجمى لا اشتقاق له، وهذا هو الظاهر، فامتناعه من الصرف للعلمية والعجمة»[2].

ثم وصف الله - تعالى - يحيى - عليه السلام - بأربع صفات كريمة فقال: ﴿مصدقا بكلمة من الله. وسيدًا. وحصورًا. ونبيا من الصالحين﴾

فالصفة الأولى: من صفات يحيى - عليه السلام - أنه كان ﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان:

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٢٥٠.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ١٦٧.

أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه - وهم جمهور العلماء - أن المراد بكلمة الله هو عيسى - عليه السلام - لأنه كان يسمى بذلك أى أن يحيى كان مصدقا بعيسى ومؤمنا بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وقد كان يحيى معاصرا لعيسى. وكانت بينهما قرابة قوية إذ أن والدة يحيى كانت أختا لأم مريم وقيل إن أم يحيى كانت أختا لمريم.

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المراد بكلمة الله كتابه، أى أن يحيى من صفاته الطيبة أنه كان مصدقا بكتاب الله وبكلامه، وذلك لأن الكلمة قد تطلق ويراد منها الكلام، والعرب تقول أنشد فلان كلمة أى قصيدة، وقال كلمة أى خطبة.

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب، لأن القرآن قد وصف عيسى بأنه كلمة الله فى أكثر من موضع فيه ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله﴾ وقوله تعالى - ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾ ولأن فى التعبير عن عيسى الذى صدقه يحيى - بأنه كلمة من الله، إشعارا بأن ولادتهما متقاربة من حيث الزمن، وإيماء إلى أن زكريا - عليه السلام - قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب، وأن يحيى - عليه السلام - سيعيش حتى يدرك عيسى.

وقوله ﴿مصدقا﴾ منصوب على الحال المقدرة من يحيى، أى على الحال التى سيكون عليها فى المستقبل، والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى - كما سبق أن أشرنا - قيل: هو أول من آمن بعيسى وصدق أنه كلمة الله وروح منه[1].

و«من» فى قوله ﴿من الله﴾ للابتداء. والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة، أى مصدقًا بكلمة كائنة من الله - تعالى -

والصفة الثانية: من صفات يحيى عبر عنها القرآن بقوله «وسيدا» والسيد - كما يقول القرطبى - الذى يسود قومه وينتهى إلى قوله. وأصله سيود يقال: فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة، ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيدا. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لبنى قريظة عندما دخل سعد بن معاذ - «قوموا إلى سيدكم» وفى الصحيحين أنه قال فى الحسن «إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[2].

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٣ ص ١٤٧.
(٢) تفسير القرطبى - بتصرف يسير - جـ ٤ ص ٧٧.

والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون سيدا، أى يفوق غيره فى الشرف والتقوى وعفة النفس، بأن يكون مالكا لزمامها، ومسيطرا على أهوائها.

والصفة الثالثة : من صفاته عبر عنها القرآن بقوله : ﴿وحصورا﴾ وأصل الحصر : المنع والحبس. يقال حصرنى الشيء وأحصرنى إذا حبسنى.

والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون حابسا نفسه عن الشهوات، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج وهو قادر على ذلك - زهادة منه واستعفافا، وليس صحيحا ما قيل من أنه كان لا يأتى النساء لعدم قدرته على ذلك.

قال ابن كثير : وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله على يحيى بأنه كان ﴿حصورا﴾ معناه أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتيها كأنه حصور عنها. وقيل : مانعا نفسه من الشهوات، وقيل ليست له شهوة فى النساء وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله - تعالى - كيحيى - عليه السلام - ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : درجة عليا وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وهدايته لهن. . والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس معناه أنه لا يأتى النساء، بل معناه أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿هب لى من لدنك ذرية طيبة كأنه قال ولدًا له ذرية ونسل وعقب﴾[1].

أما الوصف الرابع : من أوصاف يحيى - عليه السلام - فهو قوله - تعالى - ﴿ونبيا من الصالحين﴾ وفى هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا بأن ابنه سيكون من الأنبياء الذى اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس، وهذه البشارة أسمى وأعلى من الأولى التى أخبره الله فيها بولادة يحيى، لأن النبوة منزلة لا تعدلها منزلة فى الشرف والفضل.

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله زكريا بعد أن ساقت له الملائكة تلك البشارات السارة فقال - تعالى : ﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر﴾ أنى هنا بمعنى كيف. و «عاقر» أى عقيم لا تلد لكبر سنها من العقر وهو العقم. يقال عقرت المرأة تعقر عقرا وعقرًا فهى عاقر إذا بلغت سن اليأس من الولادة. أى قال زكريا على سبيل التعجب بعد أن نادته الملائكة وبشرته بما بشرته به : يارب كيف يكون لى غلام والحال أننى قد أدركنى الكبر

(١) تفسير ابن كثير بتصرف يسير جـ١ ص ٣٦١.

الكامل الذى أضعفنى، وفوق ذلك فإن امرأتى عاقر أى عقيم لا تلد لشيخوختها وبلوغها العمر الذى ينقطع معه النسل؟

قال بعضهم: وإنما قال ذلك استفهاما عن كيفية حدوث الحمل، أو استبعادا من حيث العادة، أو استعظامًا وتعجبا من قدرة الله - تعالى - لا استبعادا أو إنكارا فلا يرد: كيف قال زكريا ذلك ولم يكن شاكًا فى قدرة الله - تعالى -(١).

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال زكريا عندما بشرته الملائكة؟ فكان الجواب: قال رب أنى يكون لى غلام.

وقد خاطب زكريا ربه مع أن النداء له صدر من الملائكة، للإشعار بالمبالغة فى التضرع وأنه قد طرح الوسائط واتجه إلى خالقه مباشرة يشكره ويظهر التعجب من قدرته لأنه - سبحانه - أعطاه مالم تجر العادة به.

قال «الآلوسى» وقوله ﴿يكون﴾ يجوز أن تكون من كان التامة فيكون فاعلها هو قوله ﴿غلام﴾ ويكون الظرف ﴿أنى﴾ والجار والمجرور ﴿لى﴾ متعلقان بها.

ويجوز أن تكون من كان الناقصة و﴿لى﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا لأنه لو تأخر لكان صفة. وفى الخبر حينئذ وجهان: أحدهما ﴿أنى﴾ لأنها بمعنى كيف أو من أين والثانى الخبر الجار والمجرور و﴿أنى﴾ منصوب على الظرفية»(٢).

وقوله ﴿قد بلغنى الكبر﴾ جملة حالية من ياء المتكلم، أى أصابنى الكبر وأدركنى فأضعفنى وأفقدنى قوتى.

والكبر مصدر كبر الرجل إذا أسن. وقد قال زكريا ﴿وقد بلغنى الكبر﴾ ولم يقل وقد بلغت الكبر للإشارة إلى أن الكبر قد تابعه ولازمه حتى أصابه بالضعف والآلام والأسقام.

وقوله ﴿وامرأتى عاقر﴾ جملة حالية أيضًا إما من ياء ﴿لى﴾ أو ياء ﴿بلغنى﴾.

فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر التعجب عندما بشرته الملائكة بغلامه يحيى لأنه كان شيخا مسنا ولأن امرأته كانت عقيما لا تلد إما لكبر سنها - أيضًا وإما لأنها من الأصل كانت على غير استعداد للحمل والإنجاب.

قال ابن عباس: كان زكريا يوم بشر بيحيى ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة»(٣).

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٦٨.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٤٨.

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٤٢.

ثم حكى القرآن أن الله تعالى قد رد على زكريا بما يزيل عجبه ويمنع حيرته فقال تعالى، ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾.

أى قال - سبحانه - : مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى رأيته من أن يكون لك غلام وأنت شيخ كبير وامرأتك عاقر مثل ذلك الفعل يفعل الله ما يشاء أن يفعله، لأنه -سبحانه- هو خالق الأسباب والمسببات ولا يعجزه شيء فى هذا الكون، وبقدرته أن يغير ما جرت به العادات بين الناس.

فالجملة الكريمة بجانب تضمنها إقناع زكريا وإزالة عجبه، تتضمن أيضًا تقرير قضية عامة وهى أن الله - تعالى - يفعل ما يشاء أن يفعله بدون تقيد بالأسباب والمسببات والعادات فهو الفعال لما يريد.

ثم حكى القرآن أن زكريا - لشدة لهفته على تحقق البشارة - سأل ربه أن يجعل له علامة تكون دليلا على تحقيق الحمل عند زوجته فقال - تعالى : ﴿قال رب اجعل لى آية﴾.

أى قال زكريا مناجيا ربه : يارب إنى أسألك أن تجعل لى ﴿آية﴾ أى : علامة تدلنى على حصول الحمل عند زوجتى : لأبادر إلى القيام بشكر هذه النعمة شكرًا جزيلا ولأقوم بحقها حق القيام.

وقد أجابه - سبحانه - إلى طلبه فقال : ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا﴾.

أى قال الله - تعالى - لعبده زكريا : آيتك أى علامتك ألا تقدر على كلام الناس من غير آفة فى لسانك لمدة ثلاثة أيام إلا ﴿رمزًا﴾ أى إلا عن طريق الإيحاء والإشارة.

وأصل الرمز الحركة. يقال ارتمز أى تحرك، ومنه قيل للبحر الراموز وفعله من باب نصر وضرب. ثم أطلق الرمز على الإيماء بالشفتين أو بالحاجبين وعلى الإشارة باليدين وهو المراد هنا.

قال صاحب الكشاف : قال الله -تعالى- لزكريا آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام : وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله. ولذلك قال : ﴿واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشى والإبكار﴾ يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة، فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذى طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه ﴿إلا رمزاً﴾ أى : إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما[1].

(١) تفسير الكشاف جـ١ ٣٦١.

وعلى رأى صاحب الكشاف يكون احتباس لسان زكريا عن كلام الناس اضطراريا وليس عن اختيار منه.

ويمكن أن يقال. إن المراد بقوله - تعالى - ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾. . أن زكريا - عليه السلام - عندما طلب آية يعرف بها أن زوجته قد حملت بهذا الغلام الذى بشره الله به، أخبره - سبحانه - أن العلامة على ذلك أن يوفق إلى خلوص نفسه من شواغل الدنيا حتى أنه ليجد نفسه متجها اتجاها كليا إلى ذكر الله وتمجيده وتسبيحه، دون أن يكون عنده أى دافع إلى كلام الناس أو مخالطتهم مع قدرته على ذلك، وعلى هذا يكون انصراف زكريا - عليه السلام - عن كلام الناس اختياريا وليس اضطراريا كما يرى صاحب الكشاف.

ثم أمره الله - تعالى - بالإكثار من ذكره وتسبيحه فقال: ﴿واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشى والإبكار﴾.

و ﴿العشى﴾ جمع عشية وقيل: هو واحد وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، وأما ﴿الإبكار﴾ فمصدر أبكر يبكر إذا خرج للأمر فى أول النهار. . ومنه الباكورة لأول الثمرة. والمراد به هنا الوقت الذى يكون من طلوع الفجر إلى الضحى.

أى عليك أن تكثر من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه فى أول النهار وفى آخره وفى كل وقت لا سيما فى تلك الأيام الثلاثة شكرًا لله - تعالى - على ما أعطاك من نعم جليلة لا تحصى، فقد وهبك الذرية بعد أن بلغت من الكبر عتيا، وجعل هذا المولود من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته.

وفى هذا الأمر الإلهى لزكريا حصن لكل عاقل على الإكثار من ذكر الله من تسبيحه وتمجيده لأن ذكر الله به تطمئن القلوب. وتسكن النفوس وتغسل الخطايا والذنوب ويكفى للدلالة على فضل الذكر أن الله - تعالى - أمر به حتى فى حالة الحرب فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من قصد زكريا - عليه السلام - فيه الكثير من العبر والعظات لقوم يعقلون.

وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على مظاهر قدرته فى ولادة يحيى - عليه السلام - حيث وهبه لوالديه بعد أن بلغا مبلغًا كبيرًا من العمر يستبعد معه فى العادة الإنجاب. . بعد أن بين كل ذلك ساق قصة أخرى أدل على قدرة الله ونفاذ إرادته من قصة ولادة يحيى، وهذه القصة هى قصة ولادة عيسى - عليه السلام - من غير أب. وقد مهد القرآن لولادة عيسى ببيان أن

الله - تعالى - قد اصطفى أمه مريم وطهرها من كل فاحشة، وفضلها على نساء زمانها، وصانها من كل ما يخدش المروءة والشرف. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول:

وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾
وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

وقوله - تعالى - ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم..﴾ إلخ معطوف على قوله: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى﴾.. الخ عطف القصة على القصة، فإن الله - تعالى - بعد أن ذكر ما قالته امرأة عمران عندما أحست بالحمل. وبعد ولادتها لمريم، وما كان من شأنها وتربيتها وكفالتها بعد أن ذكر ذلك، بين - سبحانه ما كان من أمر مريم بعد أن بلغت رشدها واكتمل تكوينها، وجاء بقصة زكريا بين قصة الأم وابنتها لما بينهما من مناسبة إذ أن دعاء زكريا ربه كان سببه ما رآه من إكرام الله - سبحانه - لمريم ولأن الكل لبيان اصطفاء آل عمران.

والمعنى، واذكر يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمريم - التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا - يامريم ﴿إن الله اصطفاك﴾ أى اختارك واجتباك لطاعته، وقبلك لخدمة بيته ﴿وطهرك﴾ من الأدناس والأقذار، ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد، والطبع السليم ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب دون أن يمسسك بشر. وجعلك أنت وهو آية للعالمين.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه، والتنويه بقدره.

قال الفخر الرازى ما ملخصه:

والاصطفاء الأول إشارة إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة فى أول عمرها بأن قبل الله - تعالى - تحريرها أى خدمتها لبيته، مع أنها أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث، وبأن فرغها لعبادته وخصها فى هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة، وبأن كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله..

وأما الاصطفاء الثانى فالمراد به أنه - تعالى - وهب لها عيسى - عليه السلام من غير أب، وجعلها وابنها آية للعالمين»[1].

ولا شك أن ولادتها لعيسى من غير أب ودون أن يمسها بشر، هو أمر اختصت به مريم ولم تشاركها فيه امرأة قط فى أى زمان أو مكان، فهى أفضل النساء فى هذه الحيثية.

أما من حيث قوة الإيمان، وصلاح الأعمال فيجوز أن يحمل اصطفاؤها على نساء العالمين على معنى تفضيلها على عالمى زمانها من النساء وبعضهم يرى أفضليتها على جميع النساء فى سائر الأعصار.

هذا وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث التى وردت فى فضل مريم وفى فضل غيرها من النساء، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» وأخرج البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون. ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٣.

وقول الملائكة لمريم إن الله اصطفاك وطهرك. . إلخ الراجح أنهم قالوه لها مشافهة، لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الآية، وإليه ذهب صاحب الكشاف فقد قال: روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا، أو إرهاصا لنبوة عيسى - عليه السلام -(١).

وقال الجمل قوله: ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ أى مشافهة لها بالكلام، وهذا من باب التربية الروحية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها»(٢).

وقيل كأن خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة فى النوم.

والأول أولى لأنه هو الظاهر من الآية، ولأنه الموافق لأقوال جمهور المفسرين، ولأنه جاء صريحا فى آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشرًا سويا وكلمها، وذلك فى قوله - تعالى - فى سورة مريم: ﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيا﴾.

قال الآلوسى: «واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم: لأن تكليم الملائكة يقتضيها ومنعها اللقانى وغيره من العلماء، لأن الملائكة قد كلموا من ليس بنبى إجماعا، فقد جاء فى الحديث الشريف أنهم كلموا رجلا خرج لزيارة أخ له فى الله، وأخبروه بأن الله يحبه كما أحب هو أخاه، ولم يقل أحد بنبوته - فكلام الملائكة لمريم لا يقتضى نبوتها وهو الصحيح»(٣).

ثم حكى القرآن أن الملائكة أمرت مريم بأن تكثر من عبادة الله - تعالى - ومن المداومة على طاعته شكرًا له فقال - تعالى - :

﴿يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين﴾.

القنوت. لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخشوع والخضوع لله رب العالمين.

أى: قالت الملائكة أيضًا لمريم: يا مريم أخلصى العبادة لله وحده وداومى عليها، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه - عز وجل -.

فالآية الكريمة دعوة قوية من الله - تعالى - لمريم ولعباده جميعا بالمحافظة على العبادات

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦١.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٦٩.

(٣) تفسير الآلوسى بتصرف يسير - جـ٣ ص ١٥٤.

ولا سيما الصلاة فى جماعة.

قال صاحب الكشاف: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئة الصلاة وأركانها ثم قيل لها ﴿واركعى مع الراكعين﴾ بمعنى ولتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم(١).

فأنت ترى فى هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول، فلقد أخبر - سبحانه - باصطفائها صغيرة وكبيرة، وبطهرها من كل سوء، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى، وذلك لما لا بس مولد عيسى - عليه السلام - من خوارق، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هى بريئة منه، ثم بعد ذلك يأمرها - سبحانه - بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين.

وبذلك يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ هو الدين الحق، لأنه قد قال القول الحق فى شأن مريم وابنها عيسى - عليه السلام - أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد اختلفوا فى شأنهما اختلافا عظيما أدى بهم إلى الضلال والخسران.

ثم بين - سبحانه - أن ماجاء به القرآن فى شأن مريم - بل وفى كل شأن من الشئون - هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل، وهو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سواه فقال - تعالى:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾.

واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة امرأة عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة.

والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر العظيم الشأن.

والغيب: مصدر غاب، وهو الأمر المغيب المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله - تعالى -.

ونوحيه: من الإيحاء وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفى، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء وبمعنى الإلهام.

أى: ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد، فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران وما قاله زكريا، وما قالته الملائكة لمريم وفيما يتعلق بغير ذلك من شئون ذلك القصص الحكيم هو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سوى الله - عز وجل - وقد أخبرناك بها لتكون دليلا على صدقك فيما تبلغه عن ربك ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦٢.

وقوله ﴿ذلك﴾ مبتدأ وخبره قوله - تعالى - ﴿من أنباء الغيب﴾ والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. وقوله ﴿نوحيه إليك﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى. والضمير فى ﴿نوحيه﴾ يعود إلى الغيب أى الأمر والشأن أنا نوحى إليك الغيب ونعلمك به، ونظهرك على قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار.

ولذا قال - تعالى - ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ والأقلام جمع قلم وهى التى كانوا يكتبون بها التوراة، وقيل المراد بها السهام.

أى وما كنت - يا محمد - لديهم أى عندهم معاينا لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم، ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾ التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا فى كفالتها.

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله صاحب الكشاف من أن مريم بعد أن ولدتها أمها خرجت بها إلى بيت المقدس فوضعتها عند الأحبار وقالت لهم: دونكم هذه النذيرة!! فقالوا: هذه ابنة إمامنا عمران - وكان فى حياته يؤمهم فى الصلاة، فقال لهم زكريا: أدفعوها إلى فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى - فقالوا لا حتى نقترع عليها فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتولى كفالتها زكريا - عليه السلام -[1]. فالضمير فى قوله ﴿لديهم﴾ يعود على المتنازعين فى كفالة مريم لأن السياق قد دل عليهم.

والمقصود من هذه الجملة الكريمة «وما كنت لديهم إذ يلقون﴾ الخ تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحي من الله - تعالى - لنبيه ﷺ لأن الرسول ﷺ لم يكن معاصرا لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم. ولم يقرأ أخبارهم فى كتاب من الكتب، ومع ذلك فقد أخبر النبى ﷺ أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لا يستطيعون تكذيبه إلا على سبيل الحسد والجحود، فثبت أن القرآن من عند الله - تعالى - ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا﴾.

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لمريم على سبيل تبشيرها بعيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾.

وهذه الجملة الكريمة بدل اشتمال من جملة ﴿وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك﴾.. الخ قالوا: ولا يضر الفصل إذ الجملة الفاصلة بين البدل والمبدل منه اعتراض جىء به تقريرًا لما سبق؛ وتنبيها على استقلاله.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٥٧ بتصرف يسير.

والظرف ﴿إذ﴾ معمول لمحذوف تقديره اذكر، أى اذكر وقت أن قالت الملائكة لمريم، يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه.

وقوله يبشرك ﴿بكلمة منه﴾ أى يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب.

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب، لأن غيره وإن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب، أى أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل عن ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك، بل خلقه الله - تعالى - خلقا آخر، خلقه ﴿بكلمة منه﴾ وهى «كن» فكان كما أراده الله و «من» فى قوله «منه» لابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة: أى بكلمة كائنة منه.

فالمراد بقوله «كلمة» أى يبشر بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين.

ورجح ابن جرير أن معنى ﴿بكلمة منه﴾ ببشرى منه - سبحانه - فقد قال: وقوله «بكلمة منه» يعنى برسالة من الله وخبر من عنده وهو من قول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى أخبرنى خبرا فرحت به.. فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم»[1].

وعلى كلا التأويلين ففى التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله تكريم له وتشريف، وقوله ﴿اسمه المسيح﴾ مبتدأ وخبر، والجملة نعت. والضمير فى قوله ﴿اسمه﴾ يعود إلى كلمة. وجاء مذكرًا رعاية للمعنى لأننا سبق بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد.

والمسيح: لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق، وأصله مشيحًا بالعبرانية ومعناه المبارك. وقد حكى الله - تعالى - أنه قال عن نفسه ﴿إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا. وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا﴾ وقيل المسيح فعيل بمعنى فاعل، للمبالغة فى مسحه الأرض بالسياحة للعبادة: أو مسحه ذا العاهة ليبرأ. أو بمعنى مفعول أى ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب.

وعيسى: اسم لهذا الاسم الكريم، وهو اسم ينبىء عن البياض والصفاء والنقاء. قال الراغب: عيسى اسم علم، وإذا جعل عربيًا أمكن أن يكون من قولهم بعيرًا عيسى

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٢٦٩.

وناقة عيساء وجمعها عيس وهى أبل بيض يعترى بياضها بعض الظلمة »(١) أى فيها أغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاء وجمالا.

وابن مريم: هو كنيته، وهى للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها وليس ابنا لله -تعالى- كما قال الضالون.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قيل عيسى بن مريم والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه. وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين: فإن قلت لم ذكر ضمير الكلمة. قلت لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت: لم قيل اسمه المسيح عيسى بن مريم وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنه قيل: الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة »(٢).

والمعنى الإجمالى للجملة الكريمة: اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب، هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقبا المسيح ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم.

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر، ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال - تعالى - ﴿وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين﴾.

أما الصفة الأولى فهى قوله - تعالى - : ﴿وجيها فى الدنيا والآخرة﴾ أى ذا جاه وشرف ومنزلة عالية. يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس. واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره.

وعيسى عليه السلام، شهد الله تعالى له، -وكفى بالله شهيدًا- شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة فى الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى

(١) مفردات القرآن للراغب الاصفهانى ص ٣٥٣.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦٣.

النور، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها.

والصفة الثانية من صفاته أنه ﴿من المقربين﴾ أى أنه من المقربين عند الله - تعالى - وياها من صفة عظيمة هى منتهى ما تتطلع إليه النفوس وتهفو القلوب.

وأما الصفة الثالثة من صفات عيسى - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - ﴿ويكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ وهذه الجملة معطوفة على قوله ﴿وجيها﴾ وعطف الفعل على الاسم لتأويله به جائز والتقدير وجيها ومكلما، والمهد اسم لمضجع الطفل أى المكان الذى يهيأ له وهو فى الرضاعة. والكهل: هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه. وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم.

والمراد أن عيسى - عليه السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيرًا قبل أوان الكلام، كما يكلمهم فى حال كهولته واكتمال شبابه، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن فى سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى - : ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا. وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا، وبرًا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا. والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا﴾.

أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - ﴿ومن الصالحين﴾ أى عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس. أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه، قالوا: ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحًا لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان فى جميع الأفعال والتروك مواظبا على المنهج الأصلح، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة ﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾ فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات»(١).

تلك هى البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم، وتلك هى بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها، وشدة تأثرها فقال - تعالى - ﴿قالت

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٧٢.

رب أنَّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾.

أى : قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب : يارب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر، أى لست بذات زوج، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد.

والجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل : فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب : ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد﴾.. ألخ.

وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكارا لقدرة الله - تعالى - وجملة ﴿ولم يمسسنى بشر﴾ حالية محققة لما مر ومقوية له.

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التى تقع بين الرجل والمرأة والتى يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها لم يلمسها رجل، لأنها كانت معتكفة فى بيت الله ومنصرفة لعبادته، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط. وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر.

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله : ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾.

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته : كهذا الخلق الذى تجدينه، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو إبداع، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لاراد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

وبعضهم يجعل الوقوف على «كذلك» فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى قال - سبحانه - فى إجابته على مريم : الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات لأنه هو خالقه وخالق كل شيء، ولا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

وصرح ههنا بقوله ﴿يخلق ما يشاء﴾ ولم يقل «يفعل» كما فى قصة زكريا، لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير، فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام عن مطلق الفعل.

ثم أكد - سبحانه عظيم قدرته ونفاذ إرادته بقوله : ﴿إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾.

وقضى هنا بمعنى أراد، أى إذا أراد - سبحانه - شيئًا، فإنما يقول لهذا الشيء كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب، فهو كقوله - تعالى - ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أى إنما نأمره مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح البصر.

قال الآلوسى : وقوله ﴿إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ هذا عند الأكثرين تمثيل لتأثير قدرته فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة، فالممثل الشيء المكون بسرعة من غير عمل وآلة، والممثل به أمر الآمر المطاع - المأمور المطيع على الفور، وهذا اللفظ مستعار لذلك منه.

وأنت تعلم أنه يجوز فيه أن يكون حقيقة، بأن يراد تعلق الكلام النفسى بالشيء الحادث على أن كيفية الخلق على هذا الوجه.

وعلى كلا التقديرين فالمراد من هذا الجواب بيان أن الله - تعالى - لا يعجزه أن يخلق ولدا من غير أب، لأنه أمر ممكن فى نفسه فيصح أن يكون متعلق الإرادة والقدرة(١).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا بعض البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم وبعض الصفات التى وصف الله - تعالى - بها عيسى، وبينت جانبًا من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته، وفى ذلك مافيه من العظات والعبر لأولى الألباب.

ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى :

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٦٤.

فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التى أكرمه الله - تعالى - بها.

وقوله - تعالى - : ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ معطوف على ﴿يبشرك﴾ أى : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه.. وإن الله يعلم ذلك المولود - المعبر عنه بالكلمة - الكتاب، وقرأ بعضهم ونعلمه الكتاب.. وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقول محذوف من كلام الملائكة أى ويقول الله - تعالى - ونعلمه.. وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قوله «وجيها» فكأنه قال : وجيها ومعلّما.

وعلى كلنا القراءتين يجوز أن تكون الجملة مستأنفة سيقت تطييبا لقلب مريم، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسها بشر.

ولقد حكى القرآن عنها فى سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها المخاض ﴿ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا﴾.

والمراد بالكتاب الكتابة والخط، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحى. وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية.

قال الفخر الرازى : «والأقرب عندى أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة. ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة ومحيطًا بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه التوراة. وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار عظيمة والإنسان مالم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه

أن يخوض فى البحث عن أسرار الكتب الإلهية. ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل. وإنما أخر ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته فى العلم فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا فى العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية»[1].

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيأ لها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى - ﴿ورسولا إلى بنى إسرائيل﴾ أى أن الله -تعالى- سيجعل عيسى - عليه السلام - رسولا إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم، ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ألا وهو محمد ﷺ.

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علمها من الرومان: لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم وانبعثت منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله، بل لم يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم.

وقوله ﴿ورسولا﴾ منصوب بمضمر يقود إليه المعنى، معطوف على ﴿ويعلمه﴾ أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل.

وقوله ﴿أنى قد جئتكم بآية من ربكم﴾ معمول لقوله ﴿رسولا﴾ لما فيه من معنى النطق. كأنه قيل: ورسولا ناطقا بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم.

والباء للملابسة وهى مع مدخولها فى محل الحال وقوله ﴿من ربكم﴾ متعلق بمحذوف صفة لآية. والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها.

أى: أن الله - تعالى - قد علم عيسى - عليه السلام - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل مخبرا إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى ملتبسا مجيئى بالمعجزات الدالة على صدقى، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هى من عند ربكم.

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى - عليه السلام - أما المعجزة الأولى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٥٧.

فعبر عنها بقوله : ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله﴾.

قال الآلوسى : «وقوله ﴿أنى أخلق لكم﴾ . . ألخ . . بدل من قوله ﴿أنى قد جئتكم﴾ أو من ﴿آية﴾ أو منصوب على المفعولية لمحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم. . أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد جئتكم بآية من ربكم هى أنى أخلق لكم. وقرأ نافع بكسر الهمزة على الاستئناف، والمراد بالخلق التصوير والإبراز على مقدار معين لا الايجاد من العدم»(١).

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد حكى الله - عنه أنه قال لبنى إسرائيل : لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته، ولآمركم بإخلاص العبادة له، وقد أعطانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربى، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئًا صورته مثل صورة الطير، فأنفخ فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقيا ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته.

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال : ثنتان منها لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه. أما الثالث فهو من صنع الله تعالى - وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها. وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها. ولذا حكى الله - تعالى - عنه أنه قال : ﴿بإذن الله﴾.

أى أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره، واللام فى قوله﴿لكم﴾ للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى.

والكاف فى قوله ﴿كهيئة الطير﴾ بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئًا مثل هيئة الطير، والهيئة هى الصورة والكيفية.

والضمير فى قوله ﴿فأنفخ فيه﴾ يعود إلى هذا المفعول المحذوف.

وقوله ﴿بإذن الله﴾ متعلق بيكون، وجىء به لإظهار العبودية، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكا لله فى خلق الكائنات.

وأما النوع الثانى والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن فى قوله - تعالى - ﴿وأبرىء﴾ أى أشفى، يقال : برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه. والأكمه : هو الذى يولد أعمى. يقال كمه كمها إذا ولد أعمى، فهو أكمه وامرأة كمهاء.

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٦٧

والأبرص : هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها.

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه : والمعجزات التى تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص، وأعيد الحياة إلى من مات. ولا أفعل كل ذلك بقدرتى وعلمى وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته وأمره.

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقا مختارا لا يعجزه شىء وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى -

وقوله ﴿وأحيى الموتى بإذن الله﴾فيه تدرج من الصعب إلى الأصعب، لأن مما لاشك فيه أن إحياء الموتى خارق عظيم، يدل دلال قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هى المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه.

وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله : للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق إنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته.

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام ابن نوح(١).

قال ابن كثير: بعث الله كل نبى بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام. وأما عيسى فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا، وماذاك إلا أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق »(٢)

---

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص ١٦٩

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٦٥ بتلخيص يسير.

وأما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن فى قوله - تعالى - ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم﴾.

وقوله - تعالى - ﴿وأنبئكم﴾ من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن.

وقوله ﴿تدخرون﴾ من الإدخار وهو إعداد الشىء لوقت الحاجة إليه. يقال: دخرته وادخرته، إذ أعدته للعقبى. وأصله «تذتخرون» بالذال المعجمة - من اذتخر الشىء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء ذالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمت.

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتى التى تدل على صدقى فيما أبلغه عن ربى أنى أخبركم بالشىء الذى تأكلونه وبالشىء الذى تخبئونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه.

قال القرطبى: وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد، فأخبرهم فقال: يافلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قوله ﴿وأنبئكم﴾(١).

و «ما» فى الموضعين موصولة، أو نكرة موصوفة والعائد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه.

ولاشك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشىء الذى يأكلونه وبالشىء الذى يدخرونه يدل على صدقه، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به.

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله: ﴿إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

أى إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجراها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها.

فاسم الإشارة «ذلك» يعود إلى ماسبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير: إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله.

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى - ﴿ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٩٥.

وقوله - تعالى ﴿ومصدقا لما بين يدى من التوراة﴾ عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى ﴿بآية﴾ أى قد جئتكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم، ومصدقا لما بين يدى. . وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه «قد جئتكم». . أى وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة، ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها.

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل : إن الله - تعالى - قد أرسلنى إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التى تثبت صدقى. وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة. أى مقررا لها ومؤمنا بها.

ومعنى ما بين يدى ما تقدم قبلى : لأن المتقدم السابق يمشى بين يدى الجائى فهو هنا تمثيل لحالة السبق، وإن كان بين عيسى - عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمنة طويلة لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمن طويل ويستعمل بين يدى كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله - تعالى - ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾.

وقوله ﴿ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾ معمول لمقدر بعد الواو، أى : وجئتكم لأحل لكم بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة.

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله -تعالى- ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ فجاءت شريعة عيسى -عليه السلام- لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم.

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين. ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطأوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية ﴿ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه﴾(١).

قالوا. ومن الأطعمة التى أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى : لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٦٥

(٢) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٧١

وقوله ﴿وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾ تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه.

قال الفخر الرازى «وإنما أعاد قوله - تعالى - ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ومؤثرا فى طباعهم. ثم خوفهم فقال: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما آمركم عن ربى»(١).

ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبدًا لله مخلوقا له، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا فقال: ﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أى قال عيسى - عليه السلام - داعيا قومه إلى عبادة الله - تعالى - هو الذى خلقنى وخلقكم وهو الذى ربانى ورباكم، ومادام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى - عليه السلام - كما حكت لنا بعض التوجيهات القويمة، والإرشادات الحكيمة التى نصح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

والآن ينساق الذهن إلى سؤال هو: ماذا كان موقف بنى إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات؟

لقد حكى القرآن ان موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به الجاحد لرسالته فقال تعالى:

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٦٣

ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

فقوله - تعالى - ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله﴾ شروع فى بيان مآل أحواله - عليه السلام - وفى بيان موقف قومه منه بعد أن بين - قبل ذلك بعض صفاته ومعجزاته وخصائص رسالته.

وأحس: بمعنى علم ووجد وعرف. والإحساس: الإدراك ببعض الحواس الخمس وهى الذوق والشم واللمس والسمع والبصر. يقال أحس اشىء، علمه بالحس. وأحس بالشىء شعر به بحاسته والمراد أن عيسى عليه السلام، علم من بنى إسرائيل الكفر علما لاشبهة فيه.

والأنصار جمع نصير مثل شريف وأشراف.

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد جاء لقومه بالمعجزات الباهرات التى تشهد بصدقه فى دعوته ولكنه لم يجد منهم أذنا واعية، فلما رأى تصميمهم على باطلهم، وأحس منهم الكفر أى علمه يقينا وتحققه تحقق ما يدرك بالحواس، قال على سبيل التبليغ وطلب النصرة: من أنصارى إلى الله؟ أى من أعوانى فى الدعوة إلى الله والتبشير بدينه حتى أبلغ ما كلفنى بتبليغه.

قال ابن كثير: وذلك كما كان النبى ﷺ يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر «هل من رجل يؤوينى وينصرنى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى» فقيض الله له الأنصار فآووه ونصروه ومنعوه من الأسود والأحمر»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥

والفاء فى قوله ﴿فلما﴾ تؤذن بالتعقيب على الآيات الباهرة. أى أنهم بعد أن رأوا ما رأوا من معجزات عيسى لم يمتثلوا له ولم يتدبروا عاقبة أمرهم بل كذبوه على الفور، وحاولوا قتله تخلصا منه واستمروا على كفرهم.

والتعبير بأحس - كما أشرنا من قبل - يشعر بأنه علم منهم الكفر علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس.

والمقول لهم ﴿من أنصارى إلى الله﴾ هم الحواريون كما يشير إليه قوله - تعالى - فى سورة الصف: ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله﴾ وقيل المقول لهم جميع أفراد قومه.

وقوله ﴿منهم﴾ متعلق بأحس. ومن لابتداء الغاية أى ابتداء الإحساس من جهتهم. أو متعلق بمحذوف على أنه حال من الكفر أى أحس الكفر حال كونه صادرا منهم. وقوله ﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من الياء فى أنصارى. أى من أنصارى حال كونى ذاهبا إلى الله أى ملتجئا إليه وشارعا فى نصرة دينه.

وفى قوله ﴿من أنصارى إلى الله﴾ حض لهم على المسارعة إلى نصرة الحق لأنهم لا ينصرونه من أجل متعة زائلة. وإنما هم ينصرونه لأنه يدافع عن دين الله ويبشر به، ومن نصر دين الله، نصره الله تعالى.

والآية الكريمة تشير إلى أن الكافرين كانوا هم الكثرة الكاثرة من بنى إسرائيل، بدليل أنه - سبحانه - نسب الكفر إليهم فى قوله ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ وذلك لايكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلة غير الظاهرة حتى لكأن عيسى بقوله ﴿من أنصارى إلى الله﴾ يبحث عنهم من بين تلك الجموع الكثيرة من الكافرين. وهنا يحكى القرآن أن المؤمنين الصادقين - مع قلتهم - لم يتقاعسوا عن تلبية نداء عيسى - عليه السلام - فقال الله - تعالى - ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ والحواريون جمع حوارى وهم أنصار عيسى الذين آمنوا به وصدقوه، وأخلصوا له ولازموه وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق.

يقال فلان حوارى فلان أى خاصه من أصحابه ومنه قول النبى ﷺ فى الزبير بن العوام: «لكل نبى حوارى وحواريى الزبير»

وأصل مادة «حور» هى شدة البياض. أو الخالص من البياض، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق الحوارى. وقالوا فى النساء البيض الحواريات والحوريات.

وقد سمى - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بالحواريين لأنهم أخلصوا لله - تعالى نياتهم،

وطهرت سرائرهم من النفاق والغش فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص البياض.

والمعنى: أن عيسى عليه السلام - لما أحس الكفر من بنى إسرائيل قال لهم من أنصارى إلى الله ؟ فأجابه الحواريون الذين آمنوا به وصدقوه وباعوا نفوسهم لله - تعالى - : نحن أنصار الله الذين تبحث عنهم، ونحن الذين سنقف إلى جانبك لنصرة الحق، فقد آمنا بالله إيمانا عميقا، ونريدك أن تشهد على إيماننا هذا، وأن تشهد لنا يا عيسى بأنا مسلمون حين تشهد الرسل لأقوامهم وعليهم.

فأنت ترى أن الحواريين لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم قد لبوا دعوة عيسى - عليه السلام - فى طلب النصرة دون أن يخشوا أحدا إلا الله.

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم ﴿نحن أنصار الله﴾ إشعار بأنهم ماوقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ودفاعا عن الحق الذى أنزله على رسوله عيسى.

وقولهم ﴿آمنا بالله﴾ جملة فى معنى العلة للنصرة أى نحن أنصار الله يا عيسى لأننا آمنا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وأنه هو الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء.

وقولهم ﴿واشهد بأنا مسلمون﴾ معطوف على آمنا والشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة فهم يطلبون من عيسى - عليه السلام - أن يكون شاهدا لهم يوم القيامة بأنهم أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة.

وأقوالهم هذه التى حكاها القرآن عنهم تدل على أنهم كانوا فى الدرجة العليا من قوة الإيمان وصدق اليقين، ونقاء السريرة.

ثم حكى القرآن عنهم أنهم قالوا - أيضًا - ﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ على أنبيائك من كتب ﴿واتبعنا الرسول﴾ أى امتثلنا ما أتى به منك إلينا ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أى كتبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدانيتك العاملين بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك.

فهم قد صدروا ضراعتهم إلى الله - تعالى - بالاعتراف الكامل بربوبيته ثم أعلنوا إيمانهم به وبما أنزل على أنبيائه، ثم أقروا باتباعهم لرسوله والأخذ بسنته، ثم التمسوا منه - سبحانه - بعد ذلك أن يجعلهم من عباده الذين رضى عنهم وأرضاهم.

وهذا يدل على أنهم فى نهاية الأدب مع الله - تعالى - وعلى أنهم فى أسمى مراتب الإيمان قال

بعض العلماء : وكان عدد هؤلاء الحواريين اثنى عشر رجلا آمنوا بعيسى وصدقوه ولازموه فى دعوته إلى الحق.

ثم حكى - سبحانه ما كان من بنى إسرائيل فقال : ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ والمكر : التدبير المحكم. أو صرف غيرك عما يريده بحيلة. وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح كما فعل اليهود مع عيسى - عليه السلام - ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والجميل.

والمعنى : أن أولئك اليهود الذين أحس عيسى منهم الكفر دبروا له القتل غيلة واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ مآربهم الذميمة. فأحبط الله - تعالى - مكرهم، وأبطل تدبيرهم بأن نجى نبيه عيسى - عليه السلام - من شرورهم ﴿والله خير الماكرين﴾ أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر قدرته، ورعايته لعبده عيسى - عليه السلام - وخذلانه لأعدائه فقال - تعالى. ﴿إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى﴾.

وللعلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال كثيرة أشهرها قولان :

أما القول الأول : وهو قول جمهور العلماء - فيرى أصحابه أن معنى ﴿إنى متوفيك ورافعك إلى﴾ أى قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك لتستوفى حظك من الحياة هناك.

وأصحاب هذا الرأى لا يفسرون التوفى بالموت وإنما يقولون : إن التوفى فى اللغة معناه أخذ الشىء تاما وافيا. فمعنى ﴿متوفيك﴾ آخذك وافيا بروحك وجسدك ومعنى ﴿ورافعك إلى﴾ ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء فالعطف للتفسير. يقال : وفيت فلانا حقه أى أعطيته إياه وافيا فاستوفاه وتوفاه أى أخذه وافيا كاملا.

قال القرطبى: «قال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته»(١).

أما القول الثانى : وهو قول قلة من العلماء - فيرى أصحابه أن معنى ﴿إنى متوفيك ورافعك إلى﴾ أى مميتك ورافع منزلتك وروحك إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى كما ترفع أرواح الأنبياء إليه - سبحانه -.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٠

فأنت ترى أن أصحاب هذا الرأى يفسرون التوفى بالإماتة، ويقولون إن هذا التفسير هو الظاهر من معنى التوفى ويفسرون ﴿ورافعك إلى﴾ بمعنى رفع الروح إلى السماء.

أى أن الله - تعالى - قد توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها، ورفع روحه إليه كما يرفع أرواح النبيين.

والذى تسكن إليه النفس هو القول الأول لأمور:

أولها: أن قوله - تعالى - فى سورة النساء ﴿وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه﴾[1] يفيد أن الرفع كان بجسم عيسى وروحه لأن الإضراب مقابل للقتل والصلب الذى أرادوه وزعموا حصوله، ولا يصح مقابلا لهما رفعه بالروح لأن الرفع بالروح يجوز أن يجتمع معهما ومادام الرفع بالروح لا يصح مقابلا لهما إذن يكون المتعين أن المقابل لهما هو الرفع بالجسد والروح.

ثانيها: أن هناك أحاديث متعددة، بلغت فى قوتها مبلغ التواتر المعنوى - كما يقول ابن كثير - قد وردت فى شأن نزول عيسى إلى الأرض فى آخر الزمان ليملأها عدلا كما ملئت جورا، وليكون حاكما بشريعة محمد ﷺ ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، يقتل الدجال ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين»[2].

وظاهر هذا الحديث وما يشابهه من الأحاديث الصحيحة فى شأن نزول عيسى، يفيد أن نزوله يكون بروحه وجسده كما رفعه الله إليه بروحه وجسده.

ثالثا: أن هذا القول هو قول جمهور العلماء، وهو القول الذى يتناسب مع ما أكرم الله - تعالى - به عيسى - عليه السلام - من كرامات ومعجزات.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وجمهور العلماء على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء. والخصوصية له-عليه السلام-هى فى رفعه بجسده، وبقاؤه فيها إلى الأمد المقدر له ولا يصح أن يحمل التوفى على الإماتة لأن إماتة عيسى فى وقت حصار أعدائه ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها ورفعه إلى السماء جثة هامدة سخف من القول. وقد نزه الله السماء أن تكون قبورا لجثث الموتى. وإن كان الرفع بالروح فقط فأى مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة. فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حيا

---

(١) الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧٨

بجسده. وكما كان - عليه السلام - فى مبدأ خلقه آية للناس ومعجزة ظاهرة، كان فى نهاية أمره آية ومعجزة باهرة والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشر ومدارك العقول، وهى من متعلقات القدرة الإلهية ومن الأدلة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - »(١).

هذا، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى للعلماء فى معنى هذه الآية الكريمة نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها وخوف الإطالة(٢).

ومعنى الآية الكريمة : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ وقت أن قال الله - تعالى - لنبيه عيسى : ﴿إنى متوفيك﴾ أى آخذك وافيًا بروحك وجسدك من الأرض ﴿ورافعك إلى﴾ أى ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء لتستوفى حظك من الحياة هناك إلى أن آذن لك بالنزول إلى الأرض.

﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ بإبعادك عنهم، وبإنجائك مما بيتوه لك من مكر سىء وبتبرئتك مما أشاعوه عنك وعن أمك من أكاذيب وأباطيل.

﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ وهم المسلمون الذين آمنوا بك وصدقوك، وصدقوا بكل نبى بعثه الله - تعالى - بدون تفرقة بين أنبيائه ورسله.

﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أى جاعل هؤلاء المؤمنين فوق الذين كفروا بك وبغيرك من الرسل إلى يوم القيامة.

أى فوقهم بحجتهم، وبسلامة اعتقادهم، وبقوتهم المادية والروحية إلى يوم القيامة.

فالمراد بأتباع عيسى هم الذين أخلصوا لله - تعالى - عبادتهم، وأقروا بوحدانيته -سبحانه- ونزهوا عيسى عن أن يكون ابن الله أوثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الباطلة.

والمراد بالفوقية ما يتناول الناحيتين الروحية والمادية، أى هم فوقهم بقوة إيمانهم، وحسن إدراكهم، وسلامة عقولهم، وهم فوقهم كذلك بشجاعتهم وحسن أخذهم للأسباب التى شرعها الله -تعالى- كوسائل للنصر والفوز ولذا قال صاحب الكشاف قوله : ﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أى يعلونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه والذين كذبوا عليه من

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن جـ ١٠٩ ص ٢١٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ١٧٩. وتفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٧١.

اليهود والنصارى»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

أى. ثم إلى الله مرجعكم ومصيركم أيها الناس فيتولى - سبحانه - الحكم العادل بينكم فيما كنتم تختلفون فيه فى دنياكم من شئون دينية أو دنيوية، ثم فصل سبحانه - هذا الحكم الذى سيحكم به على عباده يوم القيامة فقال: ﴿فأما الذين كفروا﴾ بى وبما يجب الإيمان به ﴿فأعذبهم عذابًا شديدًا فى الدنيا والآخرة﴾.

أى فأعذبهم عذابا شديدًا فى الدنيا بإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم، وبما يشبه ذلك من هزائم وأمراض وشقاء نفس لا يعلم مقدار ألمه إلا الله - تعالى - وأما فى الآخرة فيساقون إلى عذاب النار وبئس القرار.

وقد أكد - سبحانه - شدة هذا العذاب بعدة تاكيدات منها نسبة العذاب إليه - سبحانه - وهو القوى القهار الغالب على كل شىء، ومنها التأكيد بالمصدر، ومنها الوصف بالشدة، ومنها الإخبار بأنه لا ناصر لهم ينصرهم من هذا العذاب الشديد فى قوله - تعالى - ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أى ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر، وأيا كانت نصرته ولو كانت نصرة ضئيلة لا وزن لها ولا قيمة.

هذا هو جزاء الكافرين وأما جزاء المؤمنين فقد بينه - سبحانه - بقوله: ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾.

أى فسيعطيهم - سبحانه - بفضله وإحسانه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، أجورهم كاملة غير منقوصة، من ثواب جزيل، وجنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة، ورضوان من الله أكبر من كل ذلك.

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظمى للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾.

أى أنه - سبحانه - عادل فى أحكامه، ويكره الظلم والظالمين الذين لا يضعون الأمور فى مواضعها.

ومن أفحش أنواع الظلم مايقوله أهل الكتاب على عيسى -عليه السلام- فقد زعم

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦٧.

بعضهم أنه ابن الله، وزعم فريق آخر أنه ثالث ثلاثة وافترى عليه اليهود وعلى أمه مريم البتول المفتريات التى برأهما الله - تعالى - منها.

أما الذين آمنوا فقد قالوا فى عيسى وأمه قولا كريما، ولذلك كافأهم الله - تعالى - بما يستحقون من ثواب.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من فضائل عيسى - عليه السلام - وبينت للناس جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الطريق القويم.

وبعد أن حكى الله - تعالى - فى الآيات السابقة ولادة عيسى - عليه السلام - وما أجراه على يديه من معجزات، وما أكرمه به من مكرمات، وكيف كان موقف بنى إسرائيل منه، وكيف أبطل الله مكرهم وخيب سعيهم، إذ رفعه إليه وطهره من أقوالهم الباطلة وأفعالهم الأثيمة وتوعد أعداءه بالعذاب الشديد ووعد اتباعه بالثواب الجزيل.. بعد أن حكى القرآن كل ذلك ختم حديثه عن عيسى - عليه السلام - ببيان حقيقة تكوينه، وبإزالة وجه الغرابة فى ولادته، وبتلقين النبى ﷺ الرد الصحيح على كل مجادل فى شأن عيسى - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه المعجز فيقول:

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ اسم الإشارة فيه وهو «ذلك» مشار به إلى المذكور من قصة آل عمران وقصة مريم وأمها، وقصة زكريا وندائه لربه، وقصة عيسى وما أجراه الله - تعالى - على يديه من معجزات وما خصه به من كرامات.

أى ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ﴿نتلوه عليك﴾ أى نقصه عليك متتابعا بعضه تلو بعض من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه. فأنت لم تكن معاصرًا لهؤلاء الذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم وهذا من أكبر الأدلة على صدقك فيما تبلغه عن ربك.

وقوله ﴿ذلك﴾ مبتدأ وقوله ﴿نتلوه عليك﴾ خبره.

وقوله ﴿من الآيات﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿نتلوه﴾.

والمراد بالآيات الحجج الدالة على صدق النبى ﷺ وقوله ﴿والذكر الحكيم﴾ أى والقرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمشتمل على الحكم التى من شأنها أن تهدى الناس إلى ما يسعدهم متى اتبعوها وقيل المراد بالذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذى نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء -. عليهم الصلاة والسلام -

ثم بين - سبحانه - أن خلق عيسى من غير أب ليس مستبعدا على الله - تعالى - فقد خلق آدم كذلك فقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾.

والمثل هنا: بمعنى الصفة والحال والعجيبة الشأن، ومحل التمثيل كون كليهما قد خلق بدون أب، والشيء قد يشبه بالشيء متى اجتمعا ولو فى وصف واحد.

والمعنى: إن شأن عيسى وحاله الغريبة ﴿عند الله﴾ أى فى تقديره وحكمه ﴿كمثل آدم﴾ أى كصفته وحاله العجيبة فى أن كليهما قد خلقه الله - تعالى - من غير أب، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم - أيضًا -.

فالآية الكريمة ترد ردًا منطقيا حكيما يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله.

وكأن الآية الكريمة تقول لمن ادعى ألوهية عيسى لأنه خلق من غير أب: أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه إلها أو ابن إله فأولى بذلك ثم أولى آدم لأنه خلق من غير أب ولا أم. ومادام لم يدع أحد من الناس ألوهية آدم لهذا السبب فبطل حينئذ القول بألوهية عيسى لانهيار الأساس الذى قام عليه وهو خلقه من غير أب.

ولأنه إذا كان الله - تعالى - قادرا على أن يخلق إنسانًا بدون أب ولا أم. فأولى ثم أولى أن يكون قادرًا على خلق إنسان من غير أب فقط. ومن أم هى مريم التى تولاها - سبحانه - برعايته وصيانته لها من كل سوء وجعلها وعاء لهذا النبى الكريم عيسى - عليه السلام -.

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿خلقه من تراب﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم - أى للأمر الذى لأجله كان ذلك التشبيه - أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم وكذلك حال عيسى. فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم ؟ قلت : هو مثيله فى أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة فى بعض الأوصاف، ولأنه شبه به لأنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران. ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيم هو أغرب مما استغربه »(١).

وقوله ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ تصوير لخلق الله - تعالى - آدم من تراب أى أراد -سبحانه- أن يوجد آدم فصوره من طين ثم قال له حين صوره كن بشرا فصار بشرا كاملا روحا وجسدا كما أمر - سبحانه -.

فالجملة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله، تصويرا بديعا يدل على أنه - سبحانه - لا يعجزه شيء فى هذا الكون.

وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء فى « يكون » دون الماضى بأن يقول « فكان » لأن التعبير بالمضارع فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن وجهة أخرى فإن صيغة المضارع فى هذا المقام تنبىء عما كان، وتومىء إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله - تعالى - المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى.

ثم بين - سبحانه - أن ما أخبر به عباده فى شأن عيسى وغيره هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل فقال - تعالى - ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾.

والامتراء هو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق.

وهو - كما يقول الرازى - مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء كاللبن الذى يجتذب عند الحلب. يقال : قد مارى فلان فلانا إذا جادله كأنه يستخرج غضبه(٢).

والمعنى : هذا الذى أخبرناك عنه يا محمد من شأن عيسى ومن شأن غيره هو الحق الثابت اليقينى الذى لا مجال للشك فيه، ومادام الأمر كذلك فاثبت على ما أنت عليه من حق،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦٧.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٨٠.

ولا تكونن من الشاكين فى أى شىء مما أخبرناك به.

وقد أكد - سبحانه - أن ما أوحاه إلى نبيه ﷺ هو الحق بثلاثة تأكيدات:

أولها: بالتعريف فى كلمة ﴿الحق﴾ أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذى لا يخالطه باطل.

ثانيها: بكونه من عنده - سبحانه - وكل شىء من عنده فهو صدق لا ريب فيه.

ثالثها: بالنهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق، لأن من شأن الأمور الثابتة أن يتقبلها العقلاء بإذعان وتسليم وبدون جدل أو امتراء.

قال الآلوسى: وقوله ﴿فلا تكن من الممترين﴾ خطاب له ﷺ ولا يضرفيه استحالة وقوع الامتراء منه ﷺ بل ذكروا فى هذا الأسلوب فائدتين:

إحداهما: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد فى الثبات على اليقين نورا على نور.

وثانيتهما: أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع وينزجر عما يورث الامتراء لأنه ﷺ مع جلالته التى لا تصل إليها الأمانى - إذا خوطب بمثله فما يظن بغيره؟ ففى ذلك ثبات له ﷺ ولطف بغيره»(١).

لقد لقن الله تعالى، نبيه ﷺ، الجواب الذى يقطع لسان المجادلين بالباطل فى شأن عيسى عليه السلام، فقال تعالى ﴿فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم﴾.. إلخ.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه «سبحانه» بين أول هذه السورة وجوها من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بالزوجة والولد وأتبعها بذكر الجواب على جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لفساد كلامهم وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم أن يكون ابنا لله فكذلك لا يلزم من عدم الأب البشرى لعيسى أن يكون ابنا لله. ولما لم يبعد خلق آدم من التراب لم يبعد أيضا خلق عيسى من الدم الذى كان يجتمع فى رحم أم عيسى. ومن أنصف وطلب الحق علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى -فعند ذلك- قال سبحانه - ﴿فمن حاجك﴾ بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات اللائحة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند، وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة(٢).

والفاء فى قوله ﴿فمن حاجك﴾ للتفريع على قوله - تعالى - ﴿الحق من ربك﴾.. وقوله

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص١٨٧.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٨٢.

﴿من﴾ الراجح فيها أنها شرطية. وقوله ﴿حاجك﴾ من المحاجة وهى تبادل الحجة والمجادلة بين شخص وآخر.

والمعنى: فمن جادلك وخاصمك «يا محمد» من أهل الكتاب «فيه» أى فى شأن عيسى -عليه السلام- بأن زعموا أنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الكاذبة فى شأنه.

وقوله ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أى فمن جادلك فى شأن عيسى من بعد الذى أنزلناه إليك وقصصناه عليك فى أمره، فلا تبادله المجادلة، فإنه معاند لا يقنعه الدليل مهما كان واضحا، ولكن قل له ولأمثاله من الضالين:

﴿تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

وقوله ﴿تعالوا﴾ اسم فعل أمر لطلب القدوم. وهو فى الأصل أمر من تعالى يتعالى «كترامى يترامى» إذا قصد العلو. فكأنهم أرادوا به فى الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور.

وقوله ﴿ثم نبتهل﴾ أى نتباهل ونتلاعن. فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة أى بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم. والبهلة بفتح الباء وضمها: اللعنة. يقال بهله الله يبهله بهلا لعنه الله وأبعده من رحمته ثم شاعت فى كل دعاء مجتهد فيه وإن لم يكن التعانا.

والمعنى: فإن جادلك أهل الكتاب فى شأن عيسى من بعد أن أخبرك ربك بما هو الحق من أمره فقل لهم ﴿تعالوا﴾ أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يعرف فيه الحق من الباطل، وهو أن ندعو نحن وأنتم الأبناء والنساء ثم نجتمع جميعا فى مكان واحد، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل إليه بأن يجعل لعنته على الكاذبين فى دعواهم المنحرفين عن الحق فى اعتقادهم.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد لقنت النبى ﷺ الجواب الحاسم الذى يخرس ألسنة المجادلين فى عيسى، ويتحداهم - إن كانوا صادقين - أن يقبلوا هذه المباهلة، ولكنهم نكصوا على أعقابهم فثبت كذبهم وضلالهم.

وهذه الآية الكريمة تسمى بآية المباهلة، وقد ذكر العلماء أنها نزلت للرد على نصارى نجران الذين جادلوا النبى ﷺ فى شأن عيسى - عليه السلام -.

قال ابن كثير ما ملخصه. وكان نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد

نصارى نجران حين قدموا المدينة فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والألوهية فأنزل صدر هذه السورة ردًا عليهم. . وكانوا ستين راكبا منهم ثلاثة إليهم يؤول أمرهم وهم : العاقب أميرهم واسمه عبدالمسيح، والسيد صاحب رحلهم واسمه الأبهم، وأبوحارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم. وفى القصة أن النبى ﷺ لما أتاه الخبر من الله تعالى، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم. دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا. . ثم خلوا بالعاقب فقالوا. يا عبدالمسيح ماذا ترى؟ فقال. والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط، فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم. . فأتوا النبى ﷺ. فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، فلم يلاعنهم ﷺ وأقرهم على خراج يؤدونه إليه.

وروى الحافظ ابن مردويه عن جابر قال: قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج.

قال : فقال رسول الله ﷺ «والذى بعثنى بالحق لو لاعنا لأمطر عليهم الوادى نارًا».

ثم قال : وروى البخارى عن حذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، ثم قالا للنبى ﷺ : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا. . فقال : «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين». فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ : «قم يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قام قال رسول الله ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة»(١).

وقال صاحب الكشاف : إن قلت ماكان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه؛ وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه فما معنى ضم الأبناء والنساء؟

قلت : ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له. وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل. ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب. . وفى الآية

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٦٨

دليل واضح على صحة نبوة النبى ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك »[١].

ثم أكد - سبحانه - صدق ما أخبر به عن عيسى وغيره فقال: ﴿إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾.

أى إن الذى قصصناه عليك وأخبرناك به يا محمد من شأن عيسى ومن كل شأن من الشئون لهو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لتشكيك متشكك.

وقد أكد - سبحانه - صدق هذا القصص بحرف إن وباللام فى قوله ﴿لهو﴾ وبضمير الفصل «هو» وبالقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين وذلك ليكون الرد حاسما على كل منكر ما أخبر الله به فى شأن عيسى - عليه السلام - وفى كل ما قصه على نبيه ﷺ.

وقوله ﴿وما من إله إلا الله﴾ نفى قاطع لأن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - وإثبات بأن الألوهية الحقة إنما هى لله رب العالمين.

وقد أكد - سبحانه - نفى الألوهية عن غيره بكلمة ﴿من﴾ المفيدة لاستغراق النفى استغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا.

وقوله ﴿وما من إله إلا الله﴾ «ما» نافية، و «إله» فى قوله ﴿من إله﴾ مبتدأ و ﴿من﴾ مزيدة فيه، و ﴿إلا الله﴾ خبره والتقدير: وما إله إلا الله، وزيدت من للاستغراق والعموم.

وقوله ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ تذييل قصد به تأكيد قصر الألوهية على الله -تعالى- وحده، أى وإن الله - تعالى - لهو المنفرد بالألوهية وحده؛ لأنه هو الغالب الذى يقهر ولا يقهر، الحكيم فى كل ما يخلقه ويدبره.

وفى هذا التذييل أيضًا رد على أولئك الضالين الذين يزعمون أن المسيح إله ويعتقدون مع ذلك أنه صلب ولم يستطع أن يدافع عن نفسه.

ثم ختم - سبحانه - تلك المحاجة بقوله: ﴿فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾.

أى فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البينات والحجج الواضحات التى اخبرناك بها وقصصناها عليك، فأنذرهم بسوء العاقبة، وأخبرهم أن الله -تعالى- عليم بهم، وبما يقولونه ويفعلونه من فساد فى الأرض، وسيعاقبهم على ذلك العقاب الأليم.

فقوله ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ قائم مقام جواب الشرط، أى فإن تولوا فأخبرهم بأنهم مفسدون وأن لهم سوء العقبى لأن الله عليم بإفسادهم ولن يتركهم بدون عقوبة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٦٩.

وهذه الجملة الكريمة تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدًا لهؤلاء المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - ولكل من أعرض عن الحق الذى جاء به النبى ﷺ لأن الله -تعالى- ليس غافلا عن إفساد المفسدين، وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب معجز حكيم جانبا من قصة آل عمران فحدثتنا عما كان من امرأته أم مريم، وما قالته عندما حملت بها، وما قالته بعد ولادتها، وما أكرم الله به مريم من رعايتها بالتربية الحسنة وبالرزق الحسن، ثم ما كان من شأن زكريا وتضرعه إلى الله أن يهبه الذرية الصالحة واستجابة الله له وتبشيره بولادة يحيى، ثم ما كان من شأن مريم وتبشيرها باصطفاء الله لها وأمرها بالمداومة على طاعته، ثم تبشيرها بعيسى وتعجبها لذلك والرد عليها بما يزيل هذا العجب، ثم ما كان من شأن عيسى - عليه السلام - وما وصفه به من صفات كريمة، وما منحه من معجزات باهرة تشهد بصدقه فى رسالته، مما جعل الحواريين يؤمنون به، أما الأكثرون من بنى إسرائيل فقد كفروا به ودبروا له المكايد فأنجاه الله من مكرهم ورفعه إليه وطهره منهم.

ثم بين القرآن أن عيسى عبد الله ورسوله، وأن هذا هو الحق، وقد تحدى الرسول ﷺ كل من نازعه فى ذلك بالمباهلة ولكن المجادلين نكصوا على اعقابهم، فثبت صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه.

وبذلك يكون القرآن قد بين الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - بيانا يهدى القلوب ويقنع العقول ويحمل النفوس على التدبر والاعتبار، وإخلاص العبادة لله رب العالمين.

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء عاما إلى أهل الكتاب دعاهم فيه - فى بضع آيات متوالية - إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك المحاجة الباطلة فى شأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وإلى الإقلاع عن الكفر بآيات الله وعن تلبيس الحق بالباطل، وعن كتمان الحق مع علمهم بأنه حق..

استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه النداءات داعيا أهل الكتاب إلى كلمة الحق فيقول:

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات فى هذه الآيات الكريمة أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يخلصوا لله العبادة فقال ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾.

والسواء: العدل والنصفة، أى قل يا محمد لأهل الكتاب: هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم.

أو السواء: مصدر مستوية أى هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق.

ثم بين - سبحانه - هذه الكلمة العادلة المستقيمة التى هى محل اتفاق بين الأنبياء فقال : ﴿ألا نعبد إلا الله﴾ أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان.

﴿ولا نشرك به شيئًا﴾ أى ولا نشرك معه أحدا فى العبادة والخضوع، بأن نقول : فلان إله، أو فلان ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة.

﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾ أى ولا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله.

قال الآلوسى : ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال : ماكنا نعبدهم يارسول الله. فقال ﷺ : «أما كانوا يحلون منكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال : نعم. فقال ﷺ هو ذاك». قيل وإلى هذا أشار -سبحانه- بقوله : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو﴾(١).

فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعا عن عبادة غير الله، وعن أن يشرك معه فى الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك، وعن أن يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب - عز وجل - بأن يتبع فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله أو حرمه.

ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعا متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات هذا المعنى ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾(٢). وقوله - تعالى - : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(٣).

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا مالج الجاحدون فى طغيانهم فقال : ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾.

أى فإن أعرض هؤلاء الكفار عن دعوة الحق، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ماهم عليه من عناد وجحود فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم، بل قولوا لهم : اشهدوا : بأنا مسلمون مذعنون لكلمة الحق، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل.

قال صاحب الكشاف وقوله ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى لزمتكم الحجة فوجب

---

(١) تفسير الآلوسى ٣ ص١٩٣

(٢) سورة النحل الآية ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٥

عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم. وذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال وصراع أو غيرهما : اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره »[١].

هذا وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى تهدى الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقى رصين، ولذا كان النبى ﷺ يكتبها فى بعض رسائله التى أرسلها إلى الملوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام -.

فقد جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل - ملك الروم - «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الاسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا﴾ إلخ الآية »[٢].

وأما النداء الثانى الذى اشتملت عليه هذه الآيات فقد تضمن نهى أهل الكتاب عن الجدال بالباطل فى شأن إبراهيم - عليه السلام - قال - تعالى - ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾.

قال ابن جرير : عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده، قالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله - تعالى - فيهم : ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم﴾[٣].

وقوله ﴿تحاجون﴾ من المحاجة ومعناها أن يتبادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها.

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية، فإن التوراة والإنجيل مانزلا إلا من بعده بأزمان طويلة، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها مانزلت إلا من بعده، أو كيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده، بآلاف السنين؟ إن هذه المحاجة منكم فى شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٧١

(٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٥ والأريسيون هم : العمال والفلاحون وعامة الشعب.

(٣) تفسير ابن جرير جـ ٣ ٣٠٥ طبعة مصطفى الحلبى، سنة ١٩٥٤.

وقوله ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا للشىء المتأخر عنه؟

فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهوديا أو نصرانيا.

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى - ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾.

والمعنى: أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة، كجدالكم فيما وجدتموه فى كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - أو كجدالكم فيما جاء فى التوراة والإنجيل من أحكام، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة.

وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة، والنفوس المستقيمة.

وقوله - تعالى - ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم﴾ ها حرف تنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف ﴿وحاججتم﴾ خبر المبتدأ أنتم. والتقدير: أنتم يا هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم.

ويرى صاحب الكشاف أن قوله ﴿أنتم﴾ مبتدأ و﴿هؤلاء﴾ خبره. و﴿حاججتم﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. والمعنى: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم «فيما لكم به علم» مما نطق به التوراة والإنجيل. ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ ولا ذكر له. فى كتابيكم من دين إبراهيم.. ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم»(١).

وتكرير هاء التنبيه فى قوله ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يشعر بغرابة ما هم عليه من جهل، ومجافاته لكل منطق سليم.

قال الرازى: وقوله ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ يحتمل أنه لم يصفهم بالعلم

(١) تفسير الكشاف جـ١ ٣٧١.

حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون علمه، فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبته»(١).

وقوله - تعالى - ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل، ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم.

أى والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعلم كل شيء فى هذا الوجود، وأنتم لا تعلمون ذلك

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام فقال - تعالى : ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفًا مسلما وما كان من المشركين﴾.

وقوله ﴿حنيفا﴾ من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، بعكس الجنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويقال: تحنف الرجل أى تحرى طريق الاستقامة.

أى: ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهوديا كما قال اليهود، ولا نصرانيا كما قال النصارى ولكنه كان حنيفا أى مائلا عن العقائد الزائفة متحريا طريق الاستقامة وكان «مسلما» أى مستسلما لله - تعالى - منقادا له مخلصا له العبادة ﴿وما كان من المشركين﴾ الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا إن الله ثالث ثلاثة، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة.

ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيا بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرأ من ذلك.

أخرج الامام مسلم والترمذى وأبو داود عن أنس رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام».

ثم أصدر - سبحانه - حكمه الحاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين﴾.

وقوله - تعالى - ﴿أولى﴾ أفعل تفضيل من الولى وهو القرب.

والمعنى: إن أقرب الناس من إبراهيم، وأخصهم به، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة:

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٩٥.

أولهم : بينه الله بقوله ﴿للذين اتبعوه﴾ أى الذين أجابوا دعوته فى حياته واتبعوا دينه وشريعته بعد مماته.

وقد أكد الله - تعالى - حكمه هذا بحرف ﴿إن﴾ وبأفعل التفضيل ﴿أولى﴾ وباللام فى قوله ﴿للذين اتبعوه﴾ ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

وثانى هذه الأصناف : بينه - سبحانه - بقوله ﴿وهذا النبى﴾ والمراد به محمد ﷺ الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم.

والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به. وللإشعار بأنه ﷺ قد تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام -

وثالث هذه الأصناف : بينه الله - تعالى - بقوله ﴿والذين آمنوا﴾ أى : والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه.

وفى هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية، وتقرير بأن أتباع محمد ﷺ أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم، وتركوا الحق جريا وراء شهواتهم.

وقوله ﴿والله ولى المؤمنين﴾ تذييل مقصود به تبشير المؤمنين بأن الله - تعالى - هو ناصرهم ومتولى أمورهم.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبى يعنى محمدا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم. فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «إن لكل نبى ولاية من النبيين، وإن وليى منهم أبى خليل ربى عز وجل إبراهيم عليه السلام. ثم قرأ : ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ الآية[1].

ثم حكى - سبحانه - أن بعض أهل الكتاب لا يكتفون بما هم فيه من ضلال، بل يحاولون أن يضلوا غيرهم فقال - تعالى - ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾.

وقوله - تعالى - ﴿ودت﴾ من الود وهو محبة الشىء وتمنى حصوله ووقوعه.

أى تمنت وأحبت جماعة من أهل الكتاب إضلالكم وإهلاككم عن الحق - أيها المؤمنون - وذلك بأن ترجعوا عن دين الإسلام الذى هداكم الله إليه، إلى دين الكفر الذى يعتنقه أولئك الكافرون من أهل الكتاب.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٣.

ولم يقف بغى بعض أهل الكتاب وحسدهم عند هذا التمنى، بل تجاوزوه إلى إلقاء الشبهات حول دين الإسلام، وإلى محاولة صرف بعض المسلمين عن دينهم.

قال القرطبى : نزلت هذه الآية - فى معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، حين دعاهم اليهود من بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع إلى اليهودية(١).

والمراد بالطائفة رؤساء أهل الكتاب وأحبارهم ومن للتبعيض وهى مع مجرورها فى محل رفع نعت لطائفة.

و ﴿لو﴾ فى قوله ﴿لو يضلونكم﴾ مصدرية أى ودت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم.

وقوله ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ جملة حالية.

أى : والحال أنهم ما يضلون أى ما يهلكون إلا أنفسهم بسبب غوايتهم واستيلاء الأهواء على قلوبهم، وإيثارهم العمى على الهدى ولكنهم لا يشعرون بذلك ولا يفطنون له، لأنهم قد زين لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسنا.

وأما النداء الثالث الذى اشتملت عليه هذه الآيات فهو قوله : ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾.

أى : لماذا تكفرون بآيات الله - تعالى - التى يتلوها عليكم نبيه محمد ﷺ والحال أنكم تعلمون صدقها وصحتها علما يقينيا كعلم المشاهدة والعيان، وتعرفون أنه نبى حقا كما تعرفون أبناءكم.

والاستفهام فى قوله ﴿لم تكفرون﴾ لتوبيخهم والتعجيب من شأنهم، وإنكار ماهم عليه من كفر بآيات الله مع علمهم بصدقها.

وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أعطوه من علم كان يقتضى منهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يكفروا بآيات الله الدالة على صدق نبيه ﷺ والتى تتناول القرآن الكريم، والحجج والمعجزات التى جاءهم بها ﷺ.

تم وجه إليهم - سبحانه - نداء رابعا نهاهم فيه عن الخلط بين الحق والباطل وعن كتمان الحق بعد أن نهاهم قبل ذلك عن الكفر بالآيات فقال - تعالى - : ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾.

وقوله : ﴿تلبسون﴾ أى تخلطون من اللبس - بفتح اللام - أى الخلط وفعله ليس من باب ضرب.

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠.

تقول : لبست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بينه بمشكلة وحقه بباطله فى ستر وخفاء.

أى : يا أهل الكتب لماذا تخلطون الحق الواضح الذى نطقت به الكتب السماوية، وأيدته العقول السليمة، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم إرضاء لأهوائكم؟ ولماذا تكتمون الحق الذى تعرفونه كما تعرفون أبناءكم بغية انصراف الناس عنه، لأن من جهل شيئًا عاداه.

وفى تكرير النداء والاستفهام زيادة فى توبيخهم ولإنكار ما هم عليه، والتعجيب من شأنهم، ذلك لأنهم جمعوا أفحش أنواع الرذائل التى على رأسها كفرهم بآيات الله وخلطهم الحق بالباطل وكتمان الحق عمن يريده.

ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس.

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهى المشار إليها بقوله - تعالى ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾.

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر، وهى المشار إليها بقوله - تعالى - : ﴿وتكتمون الحق﴾.

وقد استعمل أهل الكتاب الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى ﷺ تأويلا فاسدًا يخلط فيه الحق بالباطل ليوهموا العامة أنه ليس هو النبى المنتظر، وكان بعضهم يلقى حول الحق شبها ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبى ﷺ أو التى لا توافق أهواءهم.

وقوله : ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية. أى وأنتم تعلمون أن ما أخفيتموه وما لبستموه هو الحق، أو وأنتم من ذوى العلم ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق ويخلطه بالباطل، وإذا كان هذا الفعل يعد من كبائر الذنوب حتى ولو وقع من شخص عادى فإن وقعه يكون أقبح وفساده أكبر وعاقبته أشأم متى صدر من عالم فاهم يميز بين الحق والباطل.

قال أبو حيان : وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد فى النهى عن اللبس والكتم، إلا أنها لا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل إذ الجاهل بحال الشىء لا يدرى كونه حقا أو باطلا. وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل(١).

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ١٨٠.

وبعد هذه النداءات المتكررة لأهل الكتاب، والحجج الباهرة التى ساقها لهم على صحة هذا الدين والتوبيخات المتعددة التى وبخهم بها لانصرافهم عن الحق ومحاولتهم صرف غيرهم عنه بعد كل ذلك، أخذ القرآن فى سرد بعض المسالك الخبيثة التى سلكها اليهود لكيد الإسلام والمسلمين فبدأ ببيان مسلك لئيم من مسالكهم الكثيرة، وهو أن بعضهم كان يظهر الإيمان لفترة من الوقت ثم يرجع عنه إلى الكفر، ليوهم ضعاف العقول أنه ما رجع عن الإسلام إلا بعد أن دخله فوجده دينا ليس بشىء - فى زعمه -

استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك لكى يطلع أتباعه على مسالك اليهود ومكرهم حتى يحذروهم، فيقول:

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

فأنت إذا تأملت فى هذه الآيات الكريمة تراها قد حكت عن طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة، هى تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيرا بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، ليوهموا حديثى العهد بالإسلام أو ضعاف الإيمان، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أى عداء للنبى ﷺ بل إن الذى حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم فى الإسلام وجدوه دينا باطلا وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر فى دين الإسلام.

ولا شك أن هذه الطريقة التى سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطانى، لأن إعلانهم الكفر بعد الإسلام، وبعد إظهارهم الإيمان

به، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ويوقع ضعاف الإيمان فى حيرة واضطراب، خاصة وأن العرب - فى مجموعهم - قوم أميون ومنهم من كان يعتقد أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين. فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص فى تعاليمه.

والمتتبع لمراحل التاريخ قديما وحديثا يرى أن الدهاة فى السياسة والحرب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب فى صفوف أعدائه.

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله : «هذا النوع الذى تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر، وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه. وقد فقه هذا، هرقل، ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى ﷺ أن قال له: «هل يرتد أحد من أتباع محمد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا. وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب»[1].

هذا، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة كلها تدور حول المعنى الذى قررناه.

ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال فى قوله - تعالى - ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا﴾.. ألخ قال بعض أهل الكتاب لبعض: «أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره فإنه أجدر أن يصدقوكم ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه فى دينهم، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم».

وعن السدى: كان - هؤلاء - أحبار قرى عربية، اثنى عشر حبرا، فقالوا لبعضهم: ادخلوا فى دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمدا حق صادق. فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدثونا أن محمدا كاذب، وأنكم لستم على شىء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشكون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله - عز وجل - رسوله ﷺ بذلك»[2].

والمعنى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ أى: فيما بينهم ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ أى قال بعضهم لبعض: نافقوا وأظهروا التصديق بالإسلام وبنبيه - صلى الله عليه وسلم - وبما أنزل عليه وعلى أصحابه من قرآن ﴿وجه النهار﴾ أى فى أول النهار.

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٣٢٣.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٣١١.

وسمى أول النهار وجها، لأنه أول ما يواجهك منه، وأول وقت ظهوره ووضوحه.

وقوله ﴿واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ معطوف على ﴿آمنوا﴾.

أى: آمنوا فى أول النهار واكفروا فى آخره، بأن تعودوا إلى اليهودية، أملا فى أن ينخدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين، فيشكوا فى دينهم، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام.

وقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ كشف عن مقصدهم الخبيث، وهو ابتغاؤهم رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل.

قال الفخر الرازى: «والفائدة فى إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه:

الأول: أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحدًا من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزًا.

الثانى: أنه - تعالى - لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر فى قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة فى قلب بعض من كان فى إيمانه ضعف.

الثالث: أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس»(١).

ثم حكى - سبحانه - لونا من عصبيتهم وتعاونهم على الإثم والعدوان فقال تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾.

وقوله - سبحانه - حكاية عنهم ﴿ولا تؤمنوا﴾ معطوف على قوله - تعالى - فى الآية السابقة ﴿آمنوا بالذى أُنزل﴾.

وقد فسر بعضهم ﴿ولا تؤمنوا﴾ بمعنى ولا تقروا، أو ولا تعترفوا؛ فتكون اللام فى قوله ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أصلية.

وعليه يكون المعنى: أن بعض اليهود قد قالوا لبعض: أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره، لعل هذا العمل منكم يحمل بعض المسلمين على أن يتركوا دينهم الإسلام، ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ولم يكتفوا بهذا القول بل قالوا أيضا على سبيل المكر والخديعة،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٠١.

ولا تقروا ولا تعترفوا بأن أحدًا من المسلمين أو من غيرهم يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة والفضائل، أو بأن أحدا فى قدرته أن يحاجكم أى يجادلكم الحجة عند ربكم يوم القيامة، ولا تقروا ولا تعترفوا بشىء من ذلك «إلا لمن تبع دينكم» أى إلا لمن كان على ملتكم اليهودية دون غيرها.

فالمستثنى منه على هذا التفسير محذوف، والتقدير: ولا تؤمنوا أى تقروا وتعترفوا لأحد من الناس بأن أحدًا يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحدًا يحاجكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم، لأن إقراركم بذلك أمام المسلمين أو غيرهم ممن هو على غير ملتكم سيؤدى إلى ضعفكم وإلى قوة المسلمين.

فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من الدين والفضائل عن طريق محمد ﷺ الذى أرسله الله رحمة للعالمين، ولكنهم لشدة حسدهم وبغضهم للنبى ﷺ ولأتباعه، قد تواصوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم، وصدق الله إذ يقول فى شأنهم ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾.

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا الوجه فقال: «قوله ﴿ولا تؤمنوا﴾ متعلق بقوله: ﴿أن يؤتى﴾ وما بينهما اعتراض، أى: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتًا، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ عطف على أن يؤتى. والضمير فى يحاجوكم لأحد، لأنه فى معنى الجمع، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة ويغالبونكم عند الله - تعالى بالحجة»[(١)].

هذا هو الوجه الأول فى تفسير الآية الكريمة.

وهناك وجه آخر يرى أصحابه أن قوله - تعالى - ﴿ولا تؤمنوا﴾ بمعنى ولا تصدقوا أو ولا تعتقدوا، فتكون اللام فى قوله ﴿لمن تبع دينكم﴾ زائدة للتقوية.

فيصير المعنى على هذا الوجه: أن بعض اليهود قد قالوا لبعض: أظهروا الإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل عملكم هذا يجعل بعض المسلمين يترك دينه ويعود إلى الكفر الذى كان عليه، ولا تصدقوا أن أحدا من البشر يؤتى مثل ما أتيتم يا بنى إسرائيل من الكتاب والنبوة، أو أن أحدا فى قدرته أن يحاجكم عند ربكم فأنتم الأعلون فى الدنيا والآخرة وأنتم الذين لا تخرج

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٧٣.

النبوة من بينكم إلى العرب، وما دام الأمر كذلك فلا تتبعوا إلا نبيًا منكم يقرر شرائع التوراة، أما من جاء بتغيير شيء من أحكامها أو كان من غير بنى إسرائيل كمحمد ﷺ فلا تصدقوه.

فالمستثنى منه على هذا الوجه هو قوله «أحد» المذكور فى الآية، والمستثنى هو قوله ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾.

والتقدير: ولا تصدقوا أن أحدا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحاججكم عند ربكم ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أى إلا من كان على ملتكم اليهودية، أما أن يكون من غيركم كهذا النبى العربى فلا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة، لأنها - فى زعمهم - حكر على بنى إسرائيل.

فهم على هذا الوجه من التفسير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتابًا ودينًا وفضائل مثل ما أوتوا هم أى اليهود، ويرون أنفسهم - لغرورهم وانطماس بصيرتهم - أنهم أهدى سبيلا من كل من سواهم من البشر.

وعلى كل من الوجهين يكون قوله - تعالى - ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ مفعول به لتؤمنوا.

والتقدير: ولا تصدقوا أو ولا تقروا لأحد بأن أحدًا يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحدا يحاججكم عند ربكم.

وعلى كل من الوجهين - أيضا - يكون قوله - تعالى - : ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ وقوله ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ حكاية من الله - تعالى - لما تواصى به بعض اليهود فيما بينهم من أقوال خبيثة، وأفكار ماكرة.

ويكون قوله - تعالى - ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ كلاما معترضا بين أقوالهم ساقه الله -تعالى- للمسارعة بالرد على أقوالهم الذميمة حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ويزدادوا هم رجسا إلى رجسهم، وينكشف ما أضمروه وما بيتوه للمؤمنين من سوء وحقد.

أى قل لهم يا محمد إن هداية الله - تعالى - ملك له وحده، وهو الذى يهبها لمن يشاء من عباده، فهى ليست حكرًا على أحد، ولا أمرا مقصورا على قوم دون قوم، وإذا كانت النبوة قد ظلت فترة من الزمان فى بنى إسرائيل، فالله - تعالى - قادر على أن يسلبها منهم لأنهم لم يشكروه عليها وأن يجعلها فى محمد العربى ﷺ لأنه أهل لها وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته.

هذا، ويرى بعض المفسرين أن أقوال اليهود التى حكاها القرآن عنهم قد انتهت بنهاية قوله - تعالى - ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ وأما قوله - تعالى - ﴿قل إن الهدى هدى الله

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ فهو من كلام الله - تعالى - وقد ساقه - سبحانه - للرد عليهم.

فيكون المعنى عليه : أن بعض اليهود قد قال لبعض : أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره لعل بعض المسلمين يرجع عن دينه بسبب فعلكم هذا، ولا تعترفوا بفعلكم هذا إلا لأهل دينكم من اليهود حتى يبقى عملكم هذا سرا له أثره فى بلبلة أفكار المسلمين ورجوع بعضهم عن الإسلام.

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه محمدًا ﷺ بالرد عليهم وبالكشف عن مكرهم فيقول : قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله، أى إن هداية الله ملك له وحده فهو الذى يهدى من يشاء وهو الذى يضل من يشاء، وقد هدانا - سبحانه - إلى الإسلام وارتضيناه دينا لنا ولن نرجع عنه.

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم : أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة : أو مخافة أن يحاججكم المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به، أمخافة ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأقوال السيئة والأفعال الخبيثة؟ لا شك أنه لم يحملكم على ذلك المنكر السىء إلا الحسد لمحمد ﷺ ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - كما تدعون - أبناء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه.

قالوا : ويؤيد هذا الوجه من التفسير للآية قراءة ابن كثير «أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. . » بهمزتين أولاهما للاستفهام الذى قصد به التوبيخ والإنكار، والثانية هى همزة أن المصدرية.

وقد أشار إلى هذا الوجه الفخر الرازى فقال ما ملخصه : «واعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة. . . ويحتمل أن يكون قوله - تعالى - ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ من كلام الله - تعالى - فقد قرأ ابن كثير «آن يؤتى أحد. . » بمد الألف على الاستفهام، ويكون الاستفهام للتوبيخ كقوله - تعالى - ﴿أن كان ذا مال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾. والمعنى أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع تنكرون اتباعه، ثم حذف الجواب للاختصار، وهذا الحذف كثير.

يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه. وبعد كثرة إحسانه إليه : أمن قلة إحسانى إليك؟. والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت»(١).

ثم أمر الله -تعالى- نبيه ﷺ أن يرد عليهم مرة ثانية حتى يبطل مزاعمهم ويفضحهم على

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٠٢.

رؤس الأشهاد فقال : ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أى قل لهم يا محمد : إن الفضل - الذى يتناول النبوة وغيرها من نعم الله على عباده - هذا الفضل وذلك العطاء بيد الله - تعالى - وحده، وهو - سبحانه - المتفضل به على من يشاء التفضل عليه من عباده، وإذا كان - سبحانه - قد جعل النبوة فى بنى إسرائيل لفترة من الزمان، فذلك بفضل منه وبرحمته، وإذا كان قد سلبها عنهم لأنهم لم يرعوها حق رعايتها وجعلها فى هذا النبى العربى فذلك - أيضا - بفضله ورحمته، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته، وهو - سبحانه - صاحب الاختيار المطلق فى أن يؤتى فضله لمن يشاء من عباده. وهو - سبحانه ﴿واسع﴾ الرحمة والفضل ﴿عليم﴾ بمن يستحقهما وبمن لا يستحقهما.

ثم قال - تعالى - ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أى يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده.

وقوله ﴿والله ذو الفضل﴾ أى هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه، وإنما هو وحده صاحب النعم التى لا تحصى على عباده، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود الماكرة التى أرادوا من ورائها كيد الإسلام والمسلمين، وفى هذا الكشف تنبيه للمسلمين إلى ما يبيته لهم هؤلاء الأعداء من شرور وآثام حتى يحذروهم.

ثم حكى القرآن لونا آخر من ألوان مزاعم اليهود الباطلة، وأقاويلهم الكاذبة، وهو دعواهم أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل، أى أن كل من كان على غير ملتهم فإنه مهدور الحقوق، ثم رد عليهم بما يدحض مزاعمهم ويثبت أنهم ليسوا أهلا لاختصاصهم بالنبوة والرحمة فقال تعالى :

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن تعلق هذه الآية - وهى قوله - ومن أهل الكتاب . . . بما قبلها من وجهين :

الأول : أنه - تعالى - حكى عنهم فى الآية المتقدمة أنهم ادعوا أنهم أوتوا من المناصب الدينية ما لم يؤت أحد غيرهم مثله، ثم إنه - تعالى - بين أن الخيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان وهم مصرون عليها فدل هذا على كذبهم.

والثانى : أنه - تعالى - لما حكى عنهم فى الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) حكى فى هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس فى القليل والكثير.

قال ابن عباس : أودع رجل عند عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه. وأودع رجل آخر عند فنحاص بن عازوراء اليهودى دينارا فخانه فنزلت الآية(١).

والمعنى : إن من أهل الكتاب فريقًا إن تأمنه على الكثير والنفيس من الأموال يؤده إليك عند طلبه كاملا غير منقوص، وإن منهم فريقًا آخر إن تأمنه على القليل والحقير من حطام الدنيا يستحله ويجحده ولا يؤديه إليك إلا إذا داوم صاحب الحق على المطالبة بحقه واستعمل كل الوسائل فى الحصول عليه.

فالآية الكريمة قد مدحت من يستحق المدح من أهل الكتاب وهو الفريق الذى استجاب للحق وآمن بالنبى ﷺ كعبد الله بن سلام وأمثاله من مؤمنى أهل الكتاب. وذمت من يستحق الذم منهم وهو الفريق الذى لا يؤدى الأمانة، ولم يستجب للحق، بل استمر على كفره وجحوده، وهذا القسم يمثل أكثرية أهل الكتاب.

والمراد من ذكر القنطار والدينار هنا العدد الكثير والعدد القليل. أى أن منهم من هو فى غاية الأمانة حتى أنه لو اؤتمن على الأموال الكثيرة لأداها، ومنهم من هو فى غاية الخيانة حتى أنه لو أؤتمن على الشىء القليل لجحده.

وقوله ﴿إلا مادمت عليه قائمًا﴾ استثناء من أعم الأحوال أو الأوقات. أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مداومتك على طلبه، والإلحاح فى ذلك، واستعمال كل الوسائل للوصول إلى حقك.

قال الجمل : و« دمت » هذه هى الناقصة، ترفع وتنصب، وشرط إعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية : إذ التقدير إلا مدة دوامك. وأصل هذه المادة للدلالة على الثبوت والسكون. يقال : دام الماء، أى سكن. وفى الحديث : « لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم » أى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٠٧.

الذى لا يجرى . . ومنه دام الشيء إذا امتد عليه زمان . ودامت الشمس إذا وقفت فى كبد السماء وقوله ﴿عليه﴾ متعلق بقوله ﴿قائما﴾ والمراد بالقيام الملازمة، لأن الأغلب أن المطالب يقوم على رأس المطالب، ثم جعل عبارة عن الملازمة وإن لم يكن ثمة قيام(١).

قال ابن جرير : فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله بذلك نبيه ﷺ وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك، منهم المؤدى أمانته ومنهم الخائن لها؟ قيل : إنما أراد - عز وجل - بإخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه فى كتابه بهذه الآية، تحذير المؤمنين من أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفهم من الاغترار بهم، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين(٢).

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب التى جعلتهم يبررون خيانتهم وجحودهم لحقوق غيرهم فقال - تعالى - : ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل﴾.

وقوله ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله - سبحانه - ﴿لا يؤده﴾.

والمراد بالأميين : العرب، خصوصا من آمن منهم، وسمى العرب بالأميين نسبة إلى الأم، وذلك لغلبة الأمية عليهم لكأن الواحد منهم قد بقى على الحالة التى ولدتهم عليها أمهاتهم من عدم القراءة والكتابة.

والسبيل : المراد به : الحجة الملزمة والحرج. وأصله الطريق، ثم أطلق على الحجة باعتبارها طريقا ووسيلة للإلزام وتحمل التبعات.

أى : ذلك الامتناع عن الوفاء بالعهود، وجحود الأمانات والحقوق من الفريق الخائن. سببه زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة فى استحلال أموال العرب الأميين واستلابها منهم بأية طريقة، لأن الأميين ليسوا على ملتهم.

واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم، كما يحل لهم أخذ ما له بأى وسيلة. وهذا الخلق الذميم معرق فى اليهود، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم، فقد كانت التوراة تحرم الربا تحريما مطلقا فتقول : «لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته» فحرف اليهود هذا النص : إذ زادوا فيه كلمة الإسرائيلى فأصبح النص هكذا «لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلى إذا أقرضته» وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند تعاملهم مع أنفسهم ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم، لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية العامة.

قال الآلوسى : أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بايع اليهود رجال من المسلمين فى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٢٨٨.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٣١٧ طبعة مصطفى الحلبى.

الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم عن بيوعهم فقال اليهود : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم.

وقال الكلبى : قالت اليهود : «الأموال كلها كانت لنا، فما فى أيدى العرب منها فهو لنا، وأنهم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا فى أخذ أموالنا منهم»[١].

وقوله - تعالى - ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ رد عليهم فيما قالوه من أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل، وتكذيب لهم فيما زعموه، لأن قولهم هذا ما أنزل الله به من سلطان، ولا يؤيده عقل سليم، إذ المبادىء الخلقية الفاضلة يجب أن تطبق على جميع الناس بدون تفرقة بينهم.

والمعنى : أن هؤلاء اليهود الذين يجحدون الأمانات متذرعين بقولهم ﴿ليس علينا فى الأميين سبيل﴾، يفترون على الله الكذب فى قولهم هذا، وهم يعلمون أنه كاذبون، لأنهم ليس عندهم فى كتبهم نص يبيح لهم استحلال أموال العرب وخيانتهم، وإنما الذى تأمرهم به كتبهم هو أداء الأمانة لمستحقيها بالمعروف.

وقوله ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية من الضمير فى ﴿يقولون﴾ ومفعول العلم محذوف اقتصارا، أى وهم من ذوى العلم. أو اختصارا، أى يعلمون كذبهم وافتراءهم.

ولقد بين النبى ﷺ فى أحاديث متعددة أن الأمانة يجب أن تؤدى إلى البار والفاجر، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قال : لما نزلت : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه﴾ الآية. قال النبى ﷺ : «كذب أعداء الله !! ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البار والفاجر»[٢].

ولقد سار أتباع النبى ﷺ على مبدأ أداء الأمانة، وعدم أخذ شىء من أموال الغير إلا بوجه مشروع.

قال ابن كثير : «قال عبد الرازق : أنبأنا معمر عن أبى إسحاق الهمدانى عن أبى صعصعة بن يزيد. أن رجلا سأل ابن عباس : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة : الدجاجة والشاة. قال ابن عباس : فتقولون ماذا؟ قال نقول : ليس علينا بذلك بأس. قال ابن عباس : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم»[٣].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص٥٠٢.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٣١٨.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٧٤.

ثم أكد الله - تعالى - كذب هؤلاء اليهود الذين قالوا : ﴿ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ بجملة أخرى فيها الرد الذى يخرس ألسنتهم، ويدحض مزاعمهم فقال - تعالى - : ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾.

و ﴿بلى﴾ حرف يذكر فى الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق، ولقد حكى القرآن قبل ذلك أن اليهود قد نفوا أن يكون عليهم فى الأميين سبيل. فجاء - سبحانه - بهذا الرد الذى يثبت ما نفوه. ويبطل ما زعموه.

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود من أنه ليس عليكم فى الأميين سبيل، بل الحق أن عليكم فيهم سبيل. وأنكم معذبون بسبب كفركم واستحلالكم لأموالهم بدون حق ومثابون إن آمنتم بالله ورسوله ووفيتم بعهودكم، وصنتم أنفسكم من كل ما يغضب الله - تعالى -.

وقد علل - سبحانه - هذا الحكم العادل بجملة مستأنفة عامة فقال : ﴿من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾.

أى كل من أوفى بعهد الله فآمن بنبيه محمد ﷺ واستقام على دينه، واتقى ما نهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر وما إلى ذلك من المحرمات، فإن الله يحبه ويرضى عنه، ومن لم يفعل ذلك فإن الله يبغضه ولا يحبه ويعذبه العذاب الأليم.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد بينت أن محبة الله لعبده تتوفر بأمرين :

أولهما : الوفاء بالعهد. فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود فالوفاء بها واجب. وفى مقدمة هذه العهود، العهد الذى أخذه الله على عباده بتوحيده والإيمان برسله وعلى رأسهم محمد ﷺ.

وثانيهما : تقوى الله بمعنى أن يجتنب ما نهى الله عنه وحرمه عليه، ولا يفعل إلا ما أحله الله وأذن له فيه.

وقد خلا اليهود من هذين الأمرين، لأنهم لم يفوا بعهودهم، ولم يتقوا الله، فسلبت عنهم محبته، واستحقوا غضبه - سبحانه - ونقمته.

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - ﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم فى الأميين، أى بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدّت ﴿بلى﴾ مسدها. والضمير فى ﴿بعهده﴾ راجع إلى ﴿من أوفى﴾ على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله بأن ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه.

فإن قلت : فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شىء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم فى

كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم.

ولو اتقوا الله فى ترك الخيانة لاتقوه فى ترك الكذب على الله وتحريف كلمه، ويجوز أن يرجع الضمير فى «بعهده» إلى الله، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه ويدخل فى ذلك الإيمان وغيره من الصالحات، وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء.

فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير»(١).

وبهذا يكون القرآن قد كشف عن مكر اليهود وخداعهم، ورد عليهم فيما افتروه من أقوال باطلة، وأثبت أنهم يكذبون فيما يدعون عن تعمد وإصرار، وبين أن أداء الأمانة واجب على كل إنسان، وأن كل من وفى بعهود الله واتقاه فهو أهل لمحبته ورضاه.

ثم توعد الله - تعالى - الذين يخونون العهود، ويحلفون كذبا بالعذاب الأليم، ونعى على فريق من اليهود تحريفهم للكلم عن مواضعه، وأنذرهم بسوء المصير فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿إن الذين يشترون﴾ الآية روايات منها: ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على مال امرىء

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٧٥.

مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان» قال عبد الله. ثم قرأ علينا رسول الله مصداقه من كتاب الله، ﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾ إلخ.

وفى رواية قال: «من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان، فأنزل الله - تعالى - تصديق ذلك ﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾. قال عبد الله: فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا: كذا وكذا. فقال: صدق. فى نزلت، كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: شاهداك أو يمينه؟ قلت: إنه إذًا يحلف ولا يبالى فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان»، ونزلت: ﴿إن الذين يشترون﴾[1].

وروى البخارى عن عبد الله بن أوفى أن رجلا أقام سلعة فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت ﴿إن الذين يشترون﴾[2].

وقال الفخر الرازى: قال عكرمة إنها نزلت فى أحبار اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم فى التوراة من أمر محمد ﷺ وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا»[3].

هذه ثلاث روايات فى سبب نزول تلك الآية الكريمة، وأرجحها رواية الشيخين، ولذا وجب الأخذ بها إلا أن نزول الآية فى قصة معينة لا يمنع شمول حكمها لكل ما يشبه هذه القصة أو الحادثة، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - كما يرى جمهور العلماء -.

فكل من حلف بالله كاذبا، واشترى بعهده - سبحانه - ثمنا قليلا حقت عليه العقوبة التى بينتها الآية الكريمة. ويدخل تحت هذه العقوبة دخولا أوليا أولئك اليهود الذين خانوا عهد الله بإنكارهم لنبوة محمد ﷺ مع أنهم يعرفون صدقه معرفة جليلة.

والمراد بقوله ﴿يشترون﴾ أى يستبدلون، وذلك لأن المشترى يأخذ شيئًا ويعطى شيئًا. فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر.

والمراد ﴿بعهد الله﴾ كل ما يجب الوفاء به، فيدخل فيه ما أوجبه الله - تعالى - على عباده من فرائض وتكاليف، ومن إيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما يدخل فيه -أيضا- ما أوجبه الله على أهل الكتاب من الإيمان بمحمد ﷺ الذى يجدون نعته فى كتبهم، ويعرفون

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب «إن الذين يشترون» جـ٦ ص٤٢ وأخرجه مسلم فى كتاب الأيمان.
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب «إن الذين يشترون» جـ٦ ص٤٣.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١١١.

صدقه كما يعرفون أبناءهم.

والباء فى قوله - تعالى - : ﴿بعهد الله﴾ داخلة على المتروك الذى تركوه وأخذوا فى مقابله الثمن القليل.

وقوله ﴿وأيمانهم﴾ معطوف على عهد الله.

والمراد بأيمانهم تلك: الأيمان الكاذبة التى يحلفونها ليؤكدوا ما يريدون تأكيده من أقوال أو أفعال.

والمراد بالثمن القليل: حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو المال والمنافع الزائلة، التى أخذوها نظير تركهم لعهود الله، وحلفهم الكاذب.

وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل نظير خيانة عهود الله تحقيرًا له، إذ أنه لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أغراض الدنيا بجانب رضا الله والوفاء بعهوده.

وقوله ﴿أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة﴾ أى الذين يخونون عهد الله ويحلفون الأيمان الكاذبة فى مقابل عرض من أعراض الدنيا، لا نصيب لهم ولا حظ من نعيم الآخرة بسبب ما ارتكبوه من غدر وافتراء.

وقوله ﴿ولا يكلمهم الله﴾ أى لا يكلمهم بما يسرهم بل يكلمهم بما يسوؤهم ويخزيهم يوم القيامة بسبب أعمالهم السيئة.

أو أن عدم كلام الله - تعالى - لهم: كناية عن عدم محبته لهم، لأن من عادة المحب أن يقبل على حبيبه ويتحدث إليه، أما المبغض لشىء، فإنه ينصرف عنه.

وإلى هذا المعنى ذهب الإمام الرازى فقد قال ما ملخصه: «وقوله - تعالى - ﴿ولا يكلمهم الله﴾ فيه سؤال وهو أنه - تعالى - قال: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون﴾ فكيف الجمع بين الآية التى معنا وبين قوله ﴿لنسألنهم أجمعين﴾ والجواب: أن المقصود من كل هذه الكلمات: بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره كلامه، فإنما ذلك بسخط عليه، وإذا سخط إنسان على آخر قال له: لا أكلمك، وقد يأمر بحجبه عنه ويقول: لا أرى وجه فلان، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب نعوذ بالله منه. وهذا هو الجواب الصحيح»[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١١.

وقوله ﴿ولا ينظر إليهم﴾ أى لا يعطف عليهم ولا يرحمهم ولا يحسن إليهم، وذلك كما يقول القائل لغيره : انظر إلى، يريد : ارحمنى واعطف على.

ويقال : فلان لا ينظر إلى فلان، والمراد من ذلك نفى الإحسان إليه وترك الاعتداد به، فقد جرت العادة بأن من اعتد بإنسان وعطف عليه التفت إليه.

قالوا : فلهذا السبب صار المراد بعدم نظر الله - تعالى - إلى هؤلاء الخائنين عبارة عن ترك العطف عليهم والإحسان إليهم والرحمة بهم.

ولا يجوز أن يكون المراد من عدم النظر إليهم، عدم رؤيتهم، لأنه - سبحانه - يراهم كما يرى غيرهم من خلقه.

وقوله - تعالى - ﴿ولا يزكيهم﴾ أى أنه - سبحانه - لا يطهرهم من دنس ذنوبهم وأوزارهم بالمغفرة، بل يعاقبهم عليها. أو أنه - سبحانه - لا يثنى عليهم كما يثنى على الصالحين من عباده، بل يسخط عليهم وينتقم منهم جزاء غدرهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان النتيجة المترتبة على هذا الغضب منه عليهم، فقال : ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

أى ولهم عذاب مؤلم موجع بسبب ما ارتكبوه من آثام وسيئات.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا بأنهم لاحظ لهم من نعيم الآخرة، وأنهم ليسوا أهلا لرضا الله ورحمته وإحسانه، وأنهم سينالون العذاب المؤلم الموجع بسبب ما قدمت أيديهم.

ثم بين - سبحانه - بعض الرذائل التى صدرت عن فريق من أهل الكتاب فقال -تعالى- : ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ والضمير فى قوله - تعالى - ﴿منهم﴾ يعود إلى أهل الكتاب الذين ذكر القرآن طرفًا من رذائلهم ومسالكهم الخبيثة فيما سبق.

قال الفخر الرازى : اعلم أن هذه الآية ﴿وإن منهم لفريقًا﴾ تدل على أن الآية المتقدمة وهى قوله - تعالى - ﴿إن الذين يشترون﴾ نازلة فى اليهود بلا شك، لأن هذه الآية نازلة فى حق اليهود وهى معطوفة على ما قبلها، فهذا يقتضى كون تلك الآية المتقدمة نازلة فى اليهود أيضا »(١).

وقال ابن كثير: يخبر - سبحانه - عن اليهود - عليهم لعائن الله - أن منهم فريقا يحرفون

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١١٣.

الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد ليوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله. وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله»[١].

وقوله ﴿يلوون﴾ مأخوذ من اللى. وأصل اللى الميل يقال: لوى بيده ولوى برأسه إذا أماله. والتوى الشيء إذا انحرف ومال عن الاستقامة إلى الاعوجاج والمعنى: «وإن من هؤلاء اليهود الذين كتموا الحق واشتروا بعهد الله وبأيمانهم ثمنًا قليلا. إن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب» أى يعمدون إلى كتاب الله فينطقون ببعض ألفاظه نطقا مائلا محرفا يتغير به المعنى من الوجه الصحيح الذى يفيده ظاهر اللفظ إلى معنى آخر سقيم لا يدل عليه اللفظ ولكنه يوافق أهواءهم ونواياهم السيئة، ومقاصدهم الذميمة.

وذلك كأن ينطقوا بكلمة ﴿راعنا﴾ نطقا ملتويا يوافق فى لغتهم كلمة قبيحة يقصدون بها الإساءة إلى النبى ﷺ. وقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن مخاطبة النبى ﷺ بأمثال هذه الألفاظ حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبى ﷺ فقال - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ وكأن ينطقوا بكلمة «السلام عليكم» بقولهم: «السام عليكم» بحذف اللام يعنون الموت عليكم لأن السام معناه الموت.

وكأن يغيروا لفظًا من كتابهم فيه ما يشهد بصدق النبى ﷺ بلفظ آخر، أو يؤولوا المعانى تأويلا فاسدا، وقد وبخهم الله - تعالى - على هذا التحريف فى كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون﴾[٢] وقوله - تعالى - ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا﴾[٣].

وقوله - تعالى - ﴿وإن منهم لفريقا﴾ إنصاف منه - سبحانه - للفريق الذى لم يرتكب هذا الفعل الشنيع وهو تحريف كلامه - عز وجل - وتلك عادة القرآن فى أحكامه لا يظلم أحدًا ولكنه يمدح من يستحق المدح ويذم من يستحق الذم.

وقوله ﴿يلوون﴾ صفة لقوله ﴿فريقًا﴾.

والباء فى قوله ﴿بالكتاب﴾ بمعنى «فى» مع حذف المضاف. أى وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم فى حال قراءتهم للكتاب، إما بحذف حروف يتغير المعنى بحذفها، أو بزيادة تفسد المعنى، أو بغير ذلك من وجوه التغيير والتبديل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٧٦.
(٢) سورة البقرة الآية ص٥٧.
(٣) سورة النساء الآية ٤٦.

وقوله - تعالى -. ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ بيان للدوافع السيئة التى دفعتهم إلى ارتكاب هذا التحريف الذميم.

والضمير المنصوب فى قوله ﴿لتحسبوه﴾ وكذلك ضمير الغائب ﴿هو﴾ : يعودان إلى الكلام المحرف الذى لووا به ألسنتهم والمدلول عليه بقوله ﴿يلوون﴾.

أى إن من هؤلاء اليهود فريقًا يلوون ألسنتهم فى نطقهم بالكتاب ويحرفونه عن وجهه الصحيح، لتظنوا أيها المسلمون أن هذا المحرف الذى لووا به ألسنتهم من كتاب الله الذى أنزله على أنبيائه، والحق بأن هذا المحرف ليس من كتاب الله فى شىء، وإنما هو من عند أنفسهم نطقوا به زورا وبهتانًا إرضاء لأهوائهم. وقوله ﴿من الكتاب﴾ هو المفعول الثانى لقوله ﴿لتحسبوه﴾.

والمخاطب بقوله ﴿لتحسبوه﴾ هم المسلمون وقال ﴿وما هو من الكتاب﴾ بتكرار لفظ الكتاب، ولم يقل وما هو منه، للتنبيه على أن كتاب الله المنزل على موسى وعيسى - عليهما السلام - برىء كل البراءة من تحريفهم وتبديلهم، ومما يزعمونه ويفترونه عليه. ثم بين - سبحانه - أنهم قد بلغت بهم الجرأة فى الكذب والافتراء أنهم نسبوا هذا الذى حرفوه وغيروه من كتبهم إلى الله - تعالى - فقال: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

أى أن هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ ليوهموا غيرهم بأن هذا المحرف من الكتاب، لا يكتفون بهذا التحريف، بل يقولون ﴿هو من عند الله﴾ أى هذا المحرف هو نزل من عند الله هكذا، لم ننقص منه حرفا ولم نزد عليه حرفا، والحق أن هذا المحرف ليس من عند الله ولكنهم قوم ضالون يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون.

ففى هذه الجملة الكريمة بيان لإصرارهم على الباطل، ولتعمدهم الكذب على الله، وتوبيخ لهم على هذا الافتراء العجيب. وقد أكد الله جرأتهم فى النطق بالزور والبهتان بمؤكدات منها:

أن كذبهم لم يكن تعريضا وإنما كان فى غاية الصراحة، فهم يقولون عن المحرف ﴿هو من عند الله، وما هو من عند الله﴾.

وأن كذبهم لم يكن على البشر فحسب وإنما على الله الذى خلقهم والذى يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿ويقولون على الله الكذب﴾.

وأن كذبهم لم يكن عن جهل أو عن نسيان وإنما عن علم وإصرار على هذا الكذب، وهذا ما يشهد به قوله - تعالى - ﴿وهم يعلمون﴾.

وهكذا القلوب إذا فسدت، واستولى عليها الحسد والجحود، ارتكبت كل رذيلة ومنكر بدون تفكر فى العواقب، أو تدبر لما جاءت به الشرائع، وأمرت به العقول السليمة.

وفى هذه الآية ترى أن لفظ الجلالة ﴿الله﴾ قد تكرر ثلاث مرات، كذلك لفظ ﴿الكتاب﴾ تكرر ثلاث مرات، ولم يكتف بالضمير الذى يدل عليهما، وذلك لقصد الاهتمام باسم الله - تعالى - وباسم كتابه، وبالخبر المتعلق بهما، ولأن من عادة العرب أنهم إذا عظموا شيئا أعادوا ذكره، وقد جاء ذلك كثيرا فى أشعارهم، ومنه قول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص المـوت ذا الغنى والفقيـرا

فقصد الشاعر من تكرار لفظ الموت تفخيم شأنه وتهويل أمره.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد توعد الذين يشترون بعهد الله وبأيمانهم ثمنا قليلا بأشد ألوان الوعيد، وكشف عن لون آخر من ألوان مكر بعض اليهود، وعن جرأتهم فى النطق بالكذب عن تعمد وإصرار، حتى يحذرهم المسلمون.

ثم نزه الله - تعالى - أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم محمد ﷺ عن أن يطلبوا من الناس أن يعبدوهم، عقب تنزيهه - سبحانه - لذاته عما تقوله المفترون فقال -تعالى- :

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قال ابن كثير: «عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل نصرانى من أهل نجران يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ - أو كما قال - فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك أمرنى ولا بذلك بعثنى. - أو كما

قال ﷺ - فأنزل الله فى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ما كان لبشر.﴾ إلى قولـه : ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾(١).

فقوله - تعالى - ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لى من دون الله﴾ رد على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن بعض النبيين يصح له أن يطلب من الناس أن يعبدوه من دون الله والمعنى : لا يصح ولا ينبغى ولا يستقيم عقلا لبشر آتاه الله - تعالى - وأعطاه ﴿الكتاب﴾ الناطق بالحق، الآمر بالتوحيد، الناهى عن الإشراك، وآتاه ﴿الحكم﴾ أى العلم النافع والعمل به، وآتاه ﴿النبوة﴾ أى الرسالة التى يبلغها عنه -سبحانه- إلى الناس، ليدعوهم إلى عبادته وحده، وإلى مكارم الأخلاق، لا يصح له ولا ينبغى بعد كل هذه النعم أن يكفرها ﴿ثم يقول للناس﴾ بعد هذا العطاء العظيم الذى وهبه الله له ﴿كونوا عبادا لى من دون الله﴾ أى : لا ينبغى ولا يعقل من بشر آتاه الله كل هذه النعم أن يقول للناس هذا القول الشنيع وهو ﴿كونوا عبادا لى من دون الله﴾ لأن الأنبياء الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة يحجزهم خوفهم من الله، وإخلاصهم له، عن أن يقولوا هذا القول المنكر، كما يحجزهم عنه -أيضا- ما امتازوا به من نفوس طاهرة، وقلوب نقية، وعقول سليمة. . . لأنهم لو فرض أنهم قالوا ذلك لأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر فهو -سبحانه- القائل : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾.

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ما كان لبشر﴾ تعبير قرآنى بليغ، إذ يفيد نفى الشأن وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة فى الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وشبيه بهذا التعبير قوله - تعالى - : ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ و ﴿ ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ﴾.

وجاء العطف بثم فى قوله ﴿ثم يقول للناس﴾ للإشعار بالتفاوت العظيم بين ما أعطاه الله -تعالى- لأنبيائه من نعم، وبين هذا القول المنكر الذى نفاه - سبحانه - عنهم، وهو أن يقولوا للناس : اجعلوا عبادتكم لنا ولا تجعلوها لله - تعالى -

ثم بين - سبحانه - ما يصح للأنبياء أن يقولوه للناس فقال - تعالى - : ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾.

وقوله ﴿ربانيين﴾ جمع ربانى نسبة إلى الرب - عز وجل - بزيادة الألف والنون سماعا للمبالغة كما يقال فى غليظ الرقبة رقبانى وللعظيم اللحية : لحيانى.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٧٧.

والمراد بالربانى : الإنسان الذى أخلص لله - تعالى - فى عبادته، وراقبه فى كل أقواله وأفعاله، واتقاه حق التقوى، وجمع بين العلم النافع والعمل به، وقضى حياته فى تعليم الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم.

والمعنى : لا يصح لبشر آتاه الله ما آتاه من النعم أن يقول للناس اعبدونى من دون الله، ولكن الذى يعقل أن يصدر منه هو أن يقول لهم : كونوا ﴿ربانيين﴾ أى مقبلين على طاعة الله -تعالى- وعبادته وحده بجد ونشاط وإخلاص، بسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب الذى أنزله الله لهداية الناس وبسبب كونكم دارسين له، أى قارئين له بتمهل وتدبر.

وقوله - تعالى - ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ استدراك قصد به إثبات ما ينبغى للرسل أن يقولوه. بعد أن نفى عنهم ما لا ينبغى لهم أن ينطقوا به، أى : لا ينبغى لبشر آتاه الله نعمًا لا تحصى أن يقول للناس كونوا عبادًا لى من دون الله، ولكن الذى ينبغى له أن يقوله لهم هو قوله : كونوا ربانيين أى مخلصين له - سبحانه - العبادة إخلاصا تاما.

ففى الجملة الكريمة إضمار، والتقدير : « ولكن يقول لهم كونوا ربانيين » فأضمر القول على حسب مذهب العرب فى جواز الإضمار إذا كان فى الكلام ما يدل عليه، ونظيره قوله - تعالى - ﴿وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم﴾ أى فيقال لهم : أكفرتم، والباء فى قوله ﴿بما كنتم﴾ للسببية. وما مصدرية أى بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع « تعلمون » بإسكان العين وفتح اللام - من العلم أى بسبب كونكم عالمين بالكتاب ودارسين له.

قال الرازى : دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيا، فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيه وخاب عمله، وكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها، ولهذا قال ﷺ : « نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ».

وقوله - تعالى - ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ تأكيد لنفى أن يقول أحد من البشر الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة للناس اعبدونى من دون الله، وتنزيه لساحتهم عن أن يأمروهم بعبادة غير الله.

وقوله ﴿ولا يأمركم﴾ وردت فيه قراءتان مشهورتان.

أما القراءة الأولى فبفتح الراء عطفا على ﴿يقول﴾ فى قوله ﴿ثم يقول﴾ وتكون « لا » مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله ﴿ما كان لبشر﴾ ويكون فى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب.

والمعنى على هذه القراءة : ما كان لبشر أن يؤتية الله ما ذكر ثم يأمر الناس بعبادة نفسه، أو يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا، وذلك كقولك ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهيننى ويستخف بى. وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم.

وعلى هذه القراءة يكون توسيط الاستدراك بين المعطوف والمعطوف عليه، للمسارعة إلى تحقيق الحق، ولبيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه.

وأما القراءة الثانية فقد قرأها الباقون برفع الراء فى ﴿يأمركم﴾ فتكون الجملة مستأنفة، والمعنى : ولا يأمركم هذا البشر الذى أعطاه الله ما أعطاه من نعمة أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا.

وخصص الملائكة والنبيين بالذكر لأن عبادتهما قد شاعت عند كثير من الناس، فقد وقع فى عبادة الملائكة «الصابئة» الذين كانوا يقيمون فى بلاد الكلدان، وتبعهم بعض المشركين من العرب. ووقع فى عبادة بعض النبيين كثير من النصارى فقد اتخذوا المسيح إليها يعبد وزعموه ابن الله وكثير من اليهود عبدوا عزيزًا وزعموه ابن الله.

والاستفهام فى قوله ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ للإنكار الذى بمعنى النفى.

أى : أن الرسل الكرام لا يمكن أن يأمروا الناس بالكفر بالله بعد أن هداهم الله - تعالى - عن طريق هؤلاء الرسل إلى أن يكونوا مسلمين.

فالجملة الكريمة تأكيد بأبلغ وجه لنفى أن يأمر الرسل الناس بعبادة غير الله، وتنزيه لساحتهم عن أن يقولوا قولا أو يأمروا بأمر يخالف ما تلقوه عن الله - تعالى - من إفراده بالعبادة والطاعة والخضوع.

قال بعضهم : وإذا كان ما ذكر فى الآيتين لا يصلح لنبى ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الحسن البصرى : لا ينبغى هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. ثم قال : وذلك أن القوم - يعنى أهل الكتاب - كان يعبد بعضهم بعضا كما قال - تعالى - ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾

فالجهلة من الأحبار والرهبان يدخلون فى هذا الذم، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما أمر الله به، وينهون عما نهى الله - تعالى - عنه، ولذلك سعدوا وفازوا»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير بتلخيص جـ١ ص٣٧٧.

وبعد أن نزه - سبحانه - الأنبياء عن أن يقولوا قولا أو يأمروا بأمر لم يأذن به الله، أتبع ذلك ببيان الميثاق الذى أخذه الله - تعالى - عليهم، فقال - سبحانه - :

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله - تعالى - ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ الظرف «إذ» منصوب بفعل مقدر تقديره اذكر، والخطاب فيه للنبى ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب.

والميثاق: هو العقد المؤكد بيمين.

أى: اذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الله الميثاق من النبيين.

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال أشهرها قولان:

أولهما: وهو رأى جمهور العلماء - أن المراد أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين.

وثانيهما: وهو رأى بعض العلماء - أن المراد أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم.

والمعنى على رأى فريق من أصحاب القول الأول -منهم الحسن والسدى وسعيدبن جبير- :

أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يصدق بعضهم بعضًا، وأخذ العهد على كل نبى أن يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه؛ فإن لم يدركه يأمر قومه بنصرته إن أدركوه. فأخذ - سبحانه - الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد

- صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - وإذا كان هذا حكم الأنبياء، كانت الأمم بذلك أولى وأحرى.

والمعنى على رأى فريق آخر من أصحاب هذا القول منهم على وابن عباس وقتادة : أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إذا أدركوه، وأن يأمروا أقوامهم بالإيمان به.

قالوا : يؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله نبيًا : آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد ﷺ لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه. ثم تلا الآية»(١).

فكأن أصحاب هذا القول الأول متفقون فيما بينهم عن أن الميثاق إنما أخذه الله من النبيين إلا أن بعضهم يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم لكى يصدق بعضهم بعضا والبعض الآخر يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم فى شأن محمد ﷺ خاصة.

قال ابن كثير ما ملخصه. وما قاله الحسن ومن معه لا يضاد ما قاله على وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه... وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى مررت بأخ لى من بنى قريظة، فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال : فتغير وجه النبى ﷺ قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر : رضيت بالله ربا. وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا. قال : فسرى عن النبى ﷺ وقال : «والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى - عليه السلام - ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين». وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا. وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى» وفى بعض الأحاديث : «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى».

فالرسول محمد ﷺ «هو الإمام الأعظم الذى لو وجد فى أى عصر وجد - كان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم»(٢).

هذا هو معنى الجملة الكريمة عند أصحاب الرأى الأول الذين يرون أن الله - تعالى - أخذ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص٢٠٩.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٧٨.

الميثاق من النبيين. وأصحاب هذا الرأى كما سبق أن بيناهم جمهور العلماء.

أما أصحاب الرأى الثانى الذين يرون أن المراد من الآية أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم، فالمعنى عليه.

« واذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الأنبياء العهد على أقوامهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ وأدركوه فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه فكأن معنى الآية : واذكر وقت أن أخذ الله الميثاق الذى وثق الأنبياء على أقوامهم..

هذا، وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الرأيين وغيرهما فقال :

« ميثاق النبيين » فيه غير وجه :

أحدها : أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك.

والثانى : أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول : ميثاق الله وعهد الله كأنه قيل : وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه النبيون على أممهم.

والثالث : أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف.

والرابع : أن يراد أهل الكتاب وأن يرد زعمهم تهكما بهم ؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب، ومنا كان النبيون »(١).

والذى تسكن إليه النفس فى معنى الآية. هو الرأى الأول الذى قال به جمهور العلماء، وذلك لأن الآيات الكريمة مسوقة - كما يقول الفخر الرازى لتعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب، مما يدل على نبوة محمد ﷺ قطعًا لعذرهم، وإظهارًا لعنادهم، ومن جملة هذه الأشياء ما ذكره - سبحانه - فى هذه الآية. وهو أنه - تعالى - أخذ الميثاق من الأنبياء بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم - سبحانه - بأنه من رجع عن ذلك كان من الفاسقين.. فحاصل الكلام أنه - تعالى - أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم، ولا شك أن محمدًا ﷺ قد جاء مصدقا لما معهم فوجب على الجميع أن يؤمنوا به »(٢).

ولأن هذا المعنى هو الظاهر من الآية الكريمة. ولا تحتاج إلى تقدير مضاف أو غيره، والأخذ بالمعنى الظاهر الذى لا يحتاج إلى تقدير أولى من الأخذ بغيره.

ولأن أخذ العهد على الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ أعلى وأشرف لقدره ﷺ من أخذه على أممهم وأقوامهم.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٧٩.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٢٢.

ولأن أخذ العهد على الأنبياء أخذ له على الأمم، إذ كل أمة يجب أن تصدق بما جاءها به نبيها.

واللام فى قوله - تعالى - ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ قرأها الجمهور بالفتح. وقرأها حمزة بالكسر.

أما قراءة الفتح فلها وجهان:

أولهما: أن تجعل «ما» اسم موصول مبتدأ، وما بعده صلة له، وخبر قوله ﴿لتؤمنن به﴾.

والتقدير: واذكر وقت أن أخذ الله ميثاق النبيين قائلا لهم: الذى آتيتكم إياه من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما أوتيتموه لتؤمنن بهذا الرسول ولتنصرنه. وعلى هذا الوجه تكون اللام فى قوله «لما» للابتداء وحسن دخولها هنا لأن قوله ﴿ما آتيتكم﴾ فى مقام المقسم عليه، وقوله ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ فى مقام القسم، إذ هو بمنزلة الاستحلاف تقول: أخذت ميثاقك لتفعلن كذا فكأنك قلت: استحلفتك لتفعلن كذا..

وثانيهما: أن تجعل «ما» ههنا، اسم شرط جازم فى موضع نصب بآتيتكم.

والتقدير: ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه.

وعلى هذا الوجه يكون فعل الشرط مكونا من جملتين:

الأولى: ﴿آتيتكم﴾.

والثانية: ﴿ثم جاءكم﴾ وهما معا فى محل جزم بما الشرطية. وقوله ﴿لتؤمنن به﴾ جواب القسم الذى تضمنه قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ وجواب الشرط محذوف، لأن القاعدة النحوية أنه إذا اجتمع شرط. وقسم فالجواب المذكور للسابق منهما وجواب اللاحق محذوف وهنا السابق هو القسم. قال ابن مالك:

- واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وأما على قراءة الكسر التى قرأها حمزة فتكون اللام للتعليل كأنه قيل: اذكر وقت أن أخذ الله ميثاق النبيين، لأن إيتاءهم الكتاب والحكمة، ثم مجىء من يصدقهم يوجب عليهم الإيمان بهذا الرسول المصدق لما معهم ويوجب عليهم نصرته.

والمراد بالكتاب: ما أنزله الله - تعالى - على هؤلاء النبيين من كتب تنطق بالحق.

والمراد بالحكمة: الوحى الوارد بالتكاليف المفصلة التى لم يشتمل عليها الكتاب.

أو المراد بها العلم النافع الذى أعطاه - سبحانه - لهم، ووفقهم للعمل به.

و﴿من﴾ فى قوله ﴿من كتاب﴾ للبيان.

قال القرطبى : والمراد بالرسول هنا محمد ﷺ واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين، كقوله - تعالى - ﴿ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه﴾ فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه إن أدركوه، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم »[1].

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لهم بعد أن أمرهم بالإيمان بهذا الرسول وبنصرته فقال : ﴿قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى﴾ ؟.

والإصر : العهد. وأصله من الإصار - أى الحبال التى يعقد بها الشىء ويشد - وسمى العهد إصرا لأنه تقوى به الأقوال والعقود.

أى - قال الله - تعالى - للنبيين : أأقررتم بهذا الذى أمرتكم به وقبلتم عهدى؟ والاستفهام للتقرير والتوكيد عليهم لاستحالة معناه الحقيقى فى حقه - سبحانه -.

ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الرسل وما رد به عليهم فقال : ﴿قالوا أقررنا، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾.

أى : قال الرسل مجيبين لخالقهم - عز وجل - أقررنا يا ربنا وقبلنا عهدك وأطعناه.

فرد عليهم - سبحانه - بقوله : ﴿فاشهدوا﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم على بعض من الشاهدين.

وهذا توكيد عليهم، وتحذير من الرجوع.

ثم بين - سبحانه - عاقبة الناكثين لعهودهم فقال : ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن نصرته، بعد أخذ الميثاق المؤكد عليه، فأولئك المعرضون «هم الفاسقون» أى الخارجون عن الإيمان إلى أفحش دركات الكفر والخيانة.

والفاء فى قوله ﴿فمن تولى﴾ للتفريع، و﴿من﴾ يجوز أن تكون شرطية ويكون قوله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ جوابها.

ويجوز أن تكون موصولة، ويكون قوله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ هو الخبر.

والضمير فى قوله ﴿تولى﴾ يعود على «من» بالإفراد باعتبار لفظها، ويعود عليها بصيغة الجمع فى قوله «فأولئك» باعتبار معناها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٤ ص١٢٥.

وبعد أن بين - سبحانه - أن الإيمان بمحمد ﷺ حق لا ريب فيه، وأنه واجب على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، عقب ذلك ببيان أن كل من كره الإيمان بما جاء به محمد ﷺ فإنه يكون بعيدا عن الدين الحق، مستحقا للعقاب الأليم فقال - تعالى - ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرهًا وإليه يرجعون﴾.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ، وهمزة الاستفهام داخلة على فعل محذوف، والفاء الداخلة على «غير» عاطفة لجملة ﴿يبغون﴾ على ذلك المحذوف الذى دل عليه الاستفهام وعينه المقام.

والمعنى: أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان فيبغون دينا غير دين الله الذى هو الإسلام.

ومعنى ﴿يبغون﴾ يطلبون. يقال بغى الأمر يبغيه بغاء - بضم الباء - أى طلبه. وقوله -تعالى- ﴿وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها﴾ جملة حالية. أى أيبغون دينا غير دين الله والحال أن الله - تعالى - استسلم وانقاد وخضع له من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها. أى طائعين وكارهين فهما مصدران فى موضع الحال.

والمراد أن كل من فى السمٰوات والأرض قد انقادوا وخضعوا لله - تعالى - إما عن طواعية واختيار وهم المؤمنون لأنهم راضون فى كل الأحوال بقضائه وقدره، ومستجيبون له فى المنشط والمكره والعسر واليسر. وإما عن تسخير وقهر وهم الكافرون لأنهم واقعون تحت سلطانه العظيم وقدرته النافذة، فهم مع كفرهم لا يستطيعون دفع قضائه - سبحانه - وإذن فهم خاضعون لسلطانه - عز وجل - لأنهم لا سبيل لهم ولا لغيرهم إلى الامتناع عن دفع ما يريده بهم.

هذا، وقد ساق الفخر الرازى جملة آراء فى معنى الآية الكريمة ثم اختار أحدها فقال ما ملخصه: فى خضوع من فى السمٰوات والأرض لله وجوه: أصحها عندى أن كل ما سوى الله - سبحانه - ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده، ولا يعدم إلا بإعدامه، فإن كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله فى طرفى وجوده وعدمه. وهذا هو نهاية الخضوع والانقياد. ثم إن فى هذا الوجه لطيفة أخرى: وهى أن قوله ﴿وله أسلم﴾ يفيد الحصر، أى وله كل ما فى السمٰوات والأرض لا لغيره.

فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد، وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه، ولا يفنى إلا بإفنائه[1] والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٣٠.

وقوله ﴿وإليه يرجعون﴾ أى إليه وحده يرجع الخلق فيجازى كل مخلوق بما يستحقه من خير أو شر.

ففى الجملة الكريمة تحذير من الإعراض عن دينه، لأنه ما دام مرجع الخلق جميعا إليه -سبحانه- فعلى العاقل أن يسلم نفسه إلى خالقه اختيارًا قبل أن يسلمها اضطرارا، وأن يستجيب لأوامره ونواهيه، حتى ينال رضاه.

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد أقامت للناس الأدلة على صدق النبى ﷺ وأمرتهم بالدخول فى دينه، وحذرتهم من الإعراض عنه بأجلى بيان وأقوى برهان.

وبعد هذا البيان الواضح والبرهان الساطع على صدق النبى ﷺ أمر الله - تعالى - نبيه محمدًا ﷺ أن يعلن على الدنيا كلمة الحق التى يؤمن بها، وأن يخبر كل من يتأتى له الخطاب بأن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وأن كل دين سواه فهو باطل. لأن رسالته ﷺ هى خاتمة الرسالات؛ ودين الإسلام الذى أتى به ناسخ لكل دين سواه. استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك فيقول:

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

قوله ﴿والأسباط﴾ جمع سبط وهو الحفيد، والمراد بهم أولاد يعقوب - عليه السلام - وكانوا اثنى عشر ولدا قال - تعالى - : ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطًا أممًا﴾.

وسموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليهم السلام -.

والمعنى : ﴿قل﴾ يا محمد لأهل الكتاب الذين جادلوك بالباطل وجحدوا الحق مع علمهم به، قل لهم ولغيرهم ﴿آمنا بالله﴾ أى آمنت أنا وأتباعى بوجود الله ووحدانيته، واستجبنا له فى كل ما أمرنا به، أو نهانا عنه.

وآمنا كذلك بما ﴿أنزل علينا﴾ من قرآن يهدى إلى الرشد، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

وآمنا أيضًا بما أنزله الله - تعالى - من وحى وصحف على ﴿إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾.

وآمنا - أيضًا - بما آتاه الله لموسى وعيسى من التوراة والإنجيل وغيرهما من المعجزات، وبما آتاه لسائر أنبيائه من وحى وآيات تدل على صدقهم.

﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أى لا نفرق بين جماعة الرسل فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل أهل الكتاب، إذ فرقوا بين أنبياء الله وميزوا بينهم وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ وهم فى الحقيقة كافرون بهم جميعًا، لأن الكفر بواحد من الأنبياء يؤدى إلى الكفر بهم جميعًا، ولذا فنحن معاشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بلا تفرقة أو استثناء.

﴿ونحن له مسلمون﴾ أى خاضعون له وحده بالطاعة والعبودية. مستجيبون له فى كل ما أمرنا به وما نهانا عنه.

فالآية الكريمة تأمر النبى ﷺ أن يخبر عن نفسه وعمن معه بأنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله جميعا بدون تفرقة بينهم، لأنها شرائع الله - تعالى - التى أنزلها على أنبيائه، كلها مرتبط بعضها ببعض، وكلها تتفق على كلمة واحدة هى إفراد الله - تعالى - بالعبودية والطاعة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم عدى أنزل فى هذه الآية بحرف الاستعلاء ﴿أنزل علينا﴾، وفيما تقدم من مثلها - فى سورة البقرة - بحرف الانتهاء؟ ﴿أنزل إلينا﴾ قلت: لوجود المعنيين جميعا، لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر.

ومن قال إنما قيل هنا ﴿علينا﴾ لقوله ﴿قل﴾ وقيل هناك ﴿إلينا﴾ لقوله ﴿قولوا﴾ تفرقة بين الرسل والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الإنتهاء، من قال ذلك تعسف. ألا ترى إلى قوله ﴿بما أنزل إليك﴾ وإلى قوله ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا﴾(١).

وخص هؤلاء الأنبياء الذين ذكرتهم الآية بالذكر، لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٨١.

بهم ويتبعونهم، فأراد القرآن أن يبين لهم أن زعمهم باطل، لأنهم لن يكونوا مؤمنين بهم إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ.

وقوله - تعالى - ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ بيان لثمرة الإيمان الحق الذى رسخ فى قلوب المؤمنين وعلى رأسهم هاديهم ومرشدهم محمد ﷺ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم - سبحانه - بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وإذا وجد تفاضل أو اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون فى أمور أخرى سوى الإيمان بالله وإفراده بالعبودية، سوى ما اتفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق. وقد جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة للرسالات، وجامعة لكل ما فيها من محاسن فوجب الإيمان بها، وإلا كان الكفر بها كفرًا بجميع الرسالات السابقة عليها.

وقوله ﴿ونحن له مسلمون﴾ يفيد الحصر، نحن له وحده أسلمنا وجوهنا، وأخلصنا عبادتنا. لا لغيره كائنا من كان هذا الغير.

وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين.

ثم بين - سبحانه - أن كل من يطلب دينا سوى دين الإسلام فهو خاسر فقال - تعالى - : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾.

أى : ومن يطلب دينا سوى دين الإسلام الذى أتى به محمد - عليه الصلاة والسلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسلام، لأن دين الإسلام الذى جاء به محمد، هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده قال - تعالى - ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(١) ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات، وجمع فيه محاسنها.

أما عاقبة هذا الطالب لدين سوى دين الإسلام فقد بينها - سبحانه - بقوله : ﴿وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

أى وهو فى الآخرة من الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله، واستحقاقهم لعقابه جزاء ما قدمت أيديهم من كفر وضلال.

وفى الحديث الشريف «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» أى مردود عليه، وغير مقبول منه.

وفى الإخبار بالخسران عن الذى يبتغى أى يطلب دينا سوى الإسلام، إشعار بأن من يتبع

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

دينا سوى دين الإسلام يكون أشد خسرانا، وأسوأ حالا، لأن الطلب أقل شرا من الاتباع الفعلى.

وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام، وبين أنه هو الدين المقبول عنده، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى، أما الجاحدون للحق عن علم، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم بعيدون عن هداية الله، ولن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم، وأصلحوا ما فسد منهم، استمع إلى القرآن وهو يصور هذا المعنى بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

روى المفسرون روايات فى سبب نزل هذه الآيات الكريمة منها ما أخرجه النسائى عن ابن عباس قال. إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا لى رسول الله ﷺ هل لى من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا. هل له من توبة؟ فنزلت هذه الآيات، فأرسل إليه قومه فأسلم.

وعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله هذه الآيات. قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله - ما علمت - لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله - عز وجل - لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه وعن الحسن البصرى أنه قال: إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعت النبى ﷺ فى كتابهم وأقروا به، وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدًا

للعرب حين بعث من غيرهم[1].

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات، ويبدو لنا أن أقربها إلى سياق الآيات هى الرواية التى جاءت عن الحسن البصرى بأن المقصود بالآيات أهل الكتاب، وذلك لأن الحديث معهم من أول السورة ولأن القرآن قد ذكر فى غير موضع أن أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأنهم كانوا يستفتحون به ﴿على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.

ومع هذا فليس هناك ما يمنع من أن يكون حكم هذه الآيات شاملا لكل من ذكرتهم الروايات ولكل من يشابههم، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن جرير - بعد أن ساق هذه الروايات - ما ملخصه : وأشبه هذه الأقوال بظاهر التنزيل ما قاله الحسن : من أن هذه الآيات معنى بها أهل الكتاب على ما قال، وجائز أن يكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم فى ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ فى هذه الآيات، ثم عرف عباده سنته فيهم فيكون داخلا فى ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث ثم كفر به بعد أن بعث، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده ﷺ ثم ارتد وهو حى عن إسلامه، فيكون معينا بالآيات جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما، بل ذلك كذلك إن شاء الله[2].

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم﴾ للنفى ولاستبعاد هدايتهم إلى الصراط المستقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس فى الكفر والضلال، مع علمهم بالحق، وإيمانهم به لفترة من الوقت.

والمعنى : أن الله - تعالى - جرت سنته فى خلقه ألا يهدى إلى الصراط المستقيم، قوما ﴿كفروا بعد إيمانهم﴾ أى ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وبعد أن ﴿شهدوا أن الرسول﴾ وهو محمد ﷺ «حق» وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه، وبعد أن ﴿جاءهم البينات﴾ أى البراهين والحجج الناطقة بحقيقة ما يدعيه، من قرآن كريم عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، ومن معجزات باهرة دالة على صدقه ﷺ.

فأنت ترى أن حالهم التى أوجبت هذا النفى والاستبعاد تتمثل فى أنهم كانوا مؤمنين، وكانوا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٣٤٠ وتفسير ابن كثير جـ١ ص٣٧٩.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٤١.

يشهدون بأن الرسول حق، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التى تؤيد إيمانهم وشهادتهم، ومع كل ذلك استحبوا العمى على الهدى، واختاروا الكفر على الإيمان، واستولى عليهم التعصب بالباطل فأرداهم وحرمهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسهم ويتوبوا عن غيهم، ويصلحوا ما أفسدوه، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم.

قال صاحب الكشاف: «قوله ﴿كيف يهدى الله قوما﴾ أى كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم، وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات

فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وشهدوا﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل، لأن معناه بعد أن آمنوا. ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار «قد». بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق»[1].

وقوله - تعالى - ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ جملة حالية أو معترضة.

والمعنى: أنه - سبحانه - قد مضت سنته فى خلقه أنه لا يهدى إلى الحق أولئك الذين آثروا الكفر على الإيمان، عن تعمد وإصرار، ووضعوا الشيء فى غير موضعه مع علمهم بسوء صنيعهم.

وفى تذييل الآية الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ الظلم، إشعار بأنهم قد ظلموا أنفسهم بإيقاعها فى مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذى شهدوا له بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا به، وظلموا الحقائق والبراهين التى نطقت بأحقية الإيمان وببطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم.

وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها وإدراكها للأمور إدراكا سليما، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة».

ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الظالمين فقال: ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾.

قال الراغب: اللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله - تعالى - فى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٨١.

الآخرة عقوبة وفى الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره»[١].

والمعنى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة ﴿جزاؤهم أن عليهم لعنة الله﴾ أى جزاؤهم أن عليهم غضب الله وسخطه بسبب استحبابهم الكفر على الإيمان ﴿والملائكة والناس أجمعين﴾ أى وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس أجمعين وغضبهم، ودعاؤهم عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله.

وقوله ﴿أولئك﴾ مبتدأ. وقوله ﴿جزاؤهم﴾ مبتدأ ثان، وقوله ﴿أن عليهم لعنة الله﴾ إلخ.. خبر المبتدأ الثانى، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول.

والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم، صادرة من الله وهى أشد ألوان اللعن، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصادرة من الناس أجمعين، أى أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل: لم عم جميع الناس مع أن من وافقهم فى كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه: منها أنهم فى الآخرة يلعن بعضهم بعضا كما قال - تعالى - ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾. فعلى هذا التقدير يكون اللعن قد حصل للكفار من الكفار. ومنها كأن الناس هم المؤمنون، والكفار ليسوا من الناس، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال ﴿أجمعين﴾. ومنها وهو الأصح عندى: أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر، ولكنه يعتقد فى نفسه أنه ليس بمبطل ولا كافر، فإذا لعن الكافر وكان هو فى علم الله كافرا فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك»[٢].

ثم أكد - سبحانه - تلك العقوبة بعقوبة أخرى لازمة لها ما داموا على تلك الحالة الشنيعة فقال - تعالى - ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب﴾ بسبب إصرارهم على الكفر فى الدنيا، وانغماسهم فيما يغضب الله ﴿ولا هم ينظرون﴾ أى ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم العذاب بل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال أو التأخير بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرور وآثام.

ولكن القرآن - مع هذا - يفتح باب التوبة لمن أراد أن يتوب، وينهى الناس عن أن يقنطوا من رحمة الله متى تابوا وأنابوا وأصلحوا فيقول - بعد تلك الحملة المرعبة التى شنها على الكفر والكافرين: - ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾.

---

(١) مفردات القرآن ص٤٥١ للراغب الأصفهانى.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٣٧.

أى : أن اللعنة مستمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وهم خالدون فى العذاب يوم القيامة بدون إمهال أو تأخير، إلا الذين تابوا منهم عن الكفر الذى ارتكبوه، وعن الظلم الذى اقترفوه، وأصلحوا ما أفسدوه بأن قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق، وحافظوا على أداء الأعمال الصالحة «فإن الله - تعالى - غفور رحيم» أى فإنه سبحانه يغفر لهم ما سلف منهم من كفر وظلم.

ففى هذه الآية الكريمة إغراء للكافرين بأن يقلعوا عن كفرهم وللمذنبين بأن يثوبوا إلى رشدهم وبأن يتوبوا إلى ربهم، فإنه - سبحانه - يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحسن التوبة، فهو القائل ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾(١).

أما الذين لا يتوبون ولا يستغفرون ولا يثوبون إلى رشدهم. بل يصرون على الكفر فيزدادون كفرًا. والذين يرتكسون فى كفرهم وضلالهم حتى تفلت منهم الفرصة، وينتهى أمد الاختبار، ويأتى دور الجزاء، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة، فقد قال - تعالى - بعد هذه الآيات :

إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾
لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

قوله - تعالى - ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا﴾.

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.

قال قتادة وعطاء : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم. بموسى والتوراة. ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن.

وقال أبو العالية والحسن : نزلت فى أهل الكتاب جميعا، آمنوا برسول الله ﷺ قبل مبعثه ثم كفروا به بعد مبعثه، ثم ازدادوا كفرا بإصرارهم على ذلك، وطعنهم فى نبوته فى كل وقت، وعداوتهم له، ونقضهم لعهودهم وصدهم الناس عن طريق الحق، وسخريتهم بآيات الله.

ويمكن أن يقال : إن الآية الكريمة على عمومها فهى تتناول كل من آمن ثم ارتد عن الإيمان إلى الكفر، وازداد كفرا بمقاومته للحق، وإيذائه لأتباعه، وإصراره على كفره وعناده وجحوده.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ﴿لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾.

أى إن هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا وعنادا وجحودا للحق ﴿لن تقبل توبتهم﴾ أى لن تتوقع منهم توبة حتى تقبل، لأنهم بإصرارهم على كفرهم، ورسوخهم فيه، وتلاعبهم بالإيمان، قد صاروا غير أهل للتوفيق لها، ولأنهم حتى لو تابوا فتوبتهم إنما هى بألسنتهم فحسب، أما قلوبهم فمليئة بالكفر والنفاق ولذا تعتبر توبتهم كلا توبة.

وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم تابوا عند حضور الموت، والتوبة فى هذا الوقت لا قيمة لها.

قال القرطبى : وهذا قول حسن كما قال - تعالى - : ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن﴾.

وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم ماتوا على الكفر، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقد قال. فإن قلت : قد علم أن المرتد كيفما ازداد كفرا فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى ﴿لن تقبل توبتهم﴾؟ قلت : جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذى لا تقبل توبته من الكفار هو الذى يموت على الكفر. كأنه قيل إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر، داخلون فى جملة من لا تقبل توبتهم.

فإن قلت : فأى فائدة فى هذه الكناية؟ أعنى أن كنى الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟.

قلت : الفائدة فيها جليلة وهى التغليظ فى شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم فى صورة حالة الآيسين من الرحمة التى هى أغلظ الأحوال وأشدها ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة»[1].

والذى يبدو لنا أن الآية الكريمة أشد ما تكون انطباقا على أولئك الذين تتكرر منهم الردة من

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٨٣.

الإيمان إلى الكفر فهم لفساد قلوبهم، وانطماس بصيرتهم واستيلاء الأهواء والمطامع على نفوسهم أصبح الإيمان لا استقرار له فى قلوبهم بل يتلاعبون به، ويبيعونه نظير عرض قليل من أعراض الدنيا، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة النساء ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا. ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾(١).

وقوله ﴿وأولئك هم الضالون﴾ أى الكاملون فى الضلال، البعيدون عن طريق الحق، المستحقون لسخط الله وعذابه.

ثم صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين يموتون على الكفر فقال - تعالى - : ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾.

أى استمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضلال فكأن الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاثة أصناف من الكافرين : قسم كان كافرا ثم تاب عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحا فقبل الله توبته. وهذا القسم هو الذى استثناه الله بقوله ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾.

وقسم كان كافرًا ثم تاب عن كفره توبة ليست صادقة، فلم يقبلها الله - تعالى - منه.

وهو الذى قال الله فى شأنه فى الآية السابقة ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾.

وقسم كان كافرًا واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن تحدث منه أية توبة، وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله : ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾.

أى ماتوا على كفرهم دون أن يتوبوا منه. وقد بين الله - تعالى - سوء مصيرهم بقوله : ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به﴾.

أى أن هؤلاء الذين ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه. لن يقبل الله - تعالى - من أحدهم ما كان قد أنفقه فى الدنيا ولو كان هذا المنفق ملء الأرض ذهبا، لأن كفره قد أحبط أعماله وأفسدها كما قال - تعالى - ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا﴾(٢).

وكذلك لن يقبل الله - تعالى - عن أحدهم فدية عن عقابه الشديد له بسبب موته على الكفر. ولو كان ما يفتدى به نفسه ملء الأرض ذهبًا، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه على كفره بما يستحق من عقاب.

---

(١) سورة النساء آية ١٣٧.
(٢) سورة الفرقان آية ٢٣.

قال ابن كثير: قوله - تعالى - ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾.

أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف، ويفك العانى، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا. إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» وكذلك لو افتدى - نفسه فى الآخرة - بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قبل منه، كما قال - تعالى - ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة»، وقال - تعالى - : ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعًا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾[1].

ثم قال: وروى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول نعم، فيقول الله له، قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك».

وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أى رب، خير منزل. فيقول الله - تعالى - له: سل وتمن، فيقول: ما اسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرار - لما يرى من فضل الشهادة - ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أى رب! شر منزل، فيقول له: أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهبا؟ فيقول أى رب! نعم فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار»[2].

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: فلم قيل فى الآية السابقة ﴿لن تقبل توبتهم﴾ بغير فاء. وقيل هنا ﴿فلن يقبل من أحدهم﴾ بوجود الفاء -؟ قلت: قد أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذى جاءنى له درهم، لم تجعل المجىء سببا فى استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم»[3].

وقوله ﴿ذهبا﴾ منصوب على أنه تمييز.

وعبر بالذهب لأنه أنفس الأشياء وأعزها على النفس.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٨٠ - بتصرف وتلخيص -.

(٣) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣٨٢.

وقوله ﴿ولو افتدى به﴾ جملة حالية، والواو للحال. أى لا يقبل من الذى مات على كفره هذا الفداء ولو فى حال افتراض تحقق هذا الفداء فى يده وتقديمه إياه لكى يدفعه لخالقه وينجو من العقوبة التى توعده بها.

أى أن العذاب الأليم نازل قطعا على هذا الذى مات على كفره، حتى ولو فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهبا. وحتى لو فرضنا أنه ملك هذا المقدار النفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من العذاب، فإن كل ذلك غير مقبول منه، ولابد من نزول العذاب به.

وقد أشار ابن المنير إلى هذا المعنى بقوله: «قبول الفدية التى هى ملء الأرض ذهبا يكون على أحوال: منها: أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية من نفسه كما تؤخذ الدية قهرا من مال القاتل على قول. ومنها أن يقول المفتدى فى التقدير: أفدى نفسى بكذا وقد لا يفعل. ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضرا عتيدا، وقد يسلمه مثلا لمن يأمن منه قبول فديته. وإذا تعددت الأحوال فالمراد من الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهبا افتداء محققا بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختيارا ومع ذلك لا يقبل منه، فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى. فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيها على أن ثم أحوالا أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة. وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من العذاب، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾.

أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم، وما لهم من ناصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم، أو تخفيف وقعه عليهم.

ومن مزيدة لاستغراق النفى وتأكيده، أى لا يوجد أحد كائنًا من كان ينقذهم من عذاب الله، أو يجيرهم من أليم عقابه.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب، وأقسى أنواع العقاب، حتى يقلعوا عن كفرهم، ويثوبوا إلى رشدهم.

---

(١) حاشية ابن المنير على الكشاف جـ١ ص٣٨٣.

وبعد هذا الحديث المشتمل على أشد صنوف الترهيب من الكفر، وعلى بيان سوء عاقبة الكافرين، أتبعه بالحديث عن الطريق الذى يوصل المؤمنين إلى رضا الله وحسن مثوبته فقال - تعالى - : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾.

تنالوا : من النيل وهو إصابة الشىء والحصول عليه. يقال نال ينال نيلا، إذا أصاب الشىء ووجده وحصل عليه.

والبر : الإحسان وكمال الخير. وأصله التوسع فى فعل الخير. يقال : بر العبد ربه أى توسع فى طاعته.

والإنفاق البذل، ومنه إنفاق المال. وعن الحسن : كل شىء أنفقه المسلم من ماله يبتغى به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة يدخل فى هذه الآية.

والمعنى : لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذى يوصلكم إلى رضا الله، وإلى جنته التى أعدها لعباده الصالحين، إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها فى سبيل الله، وما تنفقوا من شىء - ولو قليلا - فإن الله به عليم، وسيجازيكم عليه بأكثر مما أنفقتم وبذلتم.

ولقد حكى لنا التاريخ كثيرًا من صور البذل والإنفاق التى قام بها السلف الصالح من أجل رضا الله وإعلاء كلمته، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بير حاء - موضع بالمدينة - وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها. قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. . ، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، إن الله - تعالى - يقول فى كتابه ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالى إلى بير حاء، وإنها صدقة لله - تعالى - أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ : بخ بخ - كلمة استحسان ومدح - ذلك مال رابح - أى ذو ربح - ذلك مال رابح. وقد سمعت ما قلت. وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين. قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه»[1].

قال القرطبى : وكذلك فعل زيد بن حارثة، عمد مما يحب إلى فرس له يقال له «سَبل» وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلى من فرسى هذه، فجاء بها إلى النبى ﷺ

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة. باب الزكاة على الأقارب جـ٢ ص١٤٨ وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة جـ٣.

فقال : هذا فى سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد : أقبضه، فكأن زيدا وجد من ذلك فى نفسه، فقال رسول الله ﷺ «إن الله قد قبلها منك».

وأعتق عبد الله بن عمر نافعًا مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار، قالت صفية بنت أبى عبيد : أظنه تأول قول الله - تعالى - ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقال الحسن البصرى : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون(١).

وهكذا نرى أن السلف الصالح قد قدموا ما يحبون من أموالهم وغيرها تقربا إلى الله -تعالى- وشكرًا له على نعمائه وعطائه، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

ثم عاد القرآن الكريم إلى الرد على اليهود الذين جادلوا النبى ﷺ فى كثير من القضايا، بعد أن ذكر فى الآيات السابقة طرفا من مسالكهم الخبيثة التى منها تواصيهم فيما بينهم بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، وقد حكى هنا جدلهم فيما أحله الله وحرمه من الأطعمة فقال -تعالى- :

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

ذكر بعض المفسرين أن النبى ﷺ قال «لليهود فى معرض مناقشته لهم : أنا على ملة إبراهيم. فقال بعض اليهود : كيف تدعى ذلك وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبى ﷺ، كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحله. فقالوا : كل شىء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه

(١) تفسير القرطبى جـ٤ ص١٣٣.

كان محرما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله هذه الآيات تكذيبا لهم»[١].

والطعام: مصدر بمعنى المطعوم، والمراد به هنا كل ما يطعم ويؤكل.

وحلا: مصدر أيضًا بمعنى حلالا، والمراد الإخبار عن أكل الطعام بكونه حلالا، لا نفس الطعام، لأن الحل كالحرمة مما لا يتعلق بالذوات.

وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام -.

والمعنى: كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبنى إسرائيل قبل نزول التوراة إلا شيئا واحدا كان محرما عليهم قبل نزولها وهو ما حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه، فإنهم حرموه على أنفسهم اقتداء به، فلما أنزل الله التوراة حرم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم.

هذا هو الحق الذى لا شك فيه، فإن جادلوك يا محمد فى هذه المسألة فقل لهم على سبيل التحدى: أحضروا التوراة فاقرءوها ليتبين الصادق منا من الكاذب، إن كنتم صادقين فى زعمكم أن ما حرمه الله عليكم فيها كان محرما على نوح وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام -.

فالآية الكريمة قد تضمنت أمورًا من أهمها:

أولاً: إبطال حجتهم فيما يتعلق بقضية النسخ، إذ زعموا أن النسخ محال، واتخذوا من كون النسخ مشروعا فى الإسلام ذريعة للطعن فى نبوة النبى ﷺ فدحض القرآن مدعاهم وألزمهم الحجة عن طريق كتابهم.

ولذا قال الإمام ابن كثير: الآية مشروع فى الرد على اليهود، وبيان بأن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله - تعالى - قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا - عليه السلام - لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما حرم على نفسه، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وبتحريم أشياء زيادة على ذلك - عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم. وهذا هو النسخ بعينه»[٢].

وقد صرح ابن كثير وغيره من المفسرين أن ما حرمه إسرائيل على نفسه هو لحوم الإبل وألبانها، وبذلك جاءت بعض الروايات عن النبى ﷺ وكان تحريمه لها تعبدا وزهادة وقهرا للنفس طلبا لمرضاة الله - تعالى -.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٣ - بتصرف يسير -.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٨٢ - بتصرف وتلخيص -.

وقيل إن ما حرمه على نفسه هو العروق. روى ذلك عن ابن عباس والضحاك والسدى موقوفا عليهم.

قالوا: كان يعتريه عرق النسا وهو عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ويسبب آلاما شديدة - فنذر إن عوفى منه لا يأكل عرقا، فلما شفاه الله ترك أكل العروق وفاء بنذره.

ثانيا: تضمنت أيضا تكذيبهم فى دعواهم أن ما حرم عليهم لم يكن سبب تحريمه ظلمهم أو بغيهم، وإنما كان محرما على غيرهم ممن سبقهم من الأمم.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: «وهو - أى ما اشتملت عليه الآية - رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله - تعالى - ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ وحيث أرادوا جحود ما غاظهم بسبب ما نطق به القرآن من أن تحريم الطيبات عليهم كان لأجل بغيهم وظلمهم فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه هذه الأشياء، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا. وما عدد من مساويهم التى كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات عقوبة لهم»[١].

ثالثًا: تضمنت الآية كذلك أمرًا من الله - تعالى - لنبيه ﷺ بأن يتحداهم بالتوراة ويبكتهم بما نطقت به، وذلك بقوله - تعالى - فى الآية الكريمة ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: ما دمتم - يا معشر اليهود - قد زعمتم أن ما حرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم ليس تحريما حادثا، وإنما هو تحريم قديم على الأمم قبلكم، فها هى ذى التوراة قريبة منكم فأحضروها واتلوها بإمعان وتدبر إن كنتم صادقين فى مدعاكم.

والتعبير بـ«إن» يشير إلى عدم صدقهم، لأنها تدل على الشك فى الشرط.

أى: هم ليسوا صادقين فيما يزعمون، ولذلك لا يتلون ولا يقرؤون، ولو جاءوا بها لكانت مؤيدة لما أخبر به القرآن الكريم، ولذلك لم يجسروا على إخراج التوراة، وبهتوا وانقلبوا صاغرين. وفى ذلك الحجة البينة على صدق النبى ﷺ.

وقوله ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ مستثنى من اسم كان، والتقدير: كل الطعام كان

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٨٥.

حلالا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فإنه قد حرم عليهم فى التوراة، وليس منه ما زادوه من محرمات وادعوا صحة ذلك.

ثم توعدهم - سبحانه - على كذبهم وجحودهم فقال - تعالى - : ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾.

افترى : من الافتراء وهو اختلاق الكذب، وأصله من فرى الأديم إذا قطعه؛ لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له فى الوجود.

أى : فمن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن ما حرمته التوراة على بنى إسرائيل من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم، كان محرما عليهم وعلى غيرهم قبل نزولها، فأولئك الذين قالوا هذا القول الكاذب هم المتناهون فى الظلم : المتجاوزون للحدود التى شرعها الله -تعالى-، وسيعاقبهم - سبحانه - على هذا الظلم والافتراء عذابًا أليما لا مهرب لهم منه ولا نصير.

والفاء فى قوله ﴿فمن افترى﴾ للتفريع، و﴿من﴾ يحتمل أن تكون شرطية وأن تكون موصولة، وقد روعى فى الآية الكريمة لفظها ومعناها.

وقوله ﴿من بعد ذلك﴾ متعلق بافترى، واسم الإشارة ذلك يعود إلى أمرهم بإحضار التوراة وما يترتب عليه من قيام الحجة وظهور البينة.

واسم الإشارة «أولئك» يعود إلى «من» وهو عبارة عن هؤلاء اليهود الذين جادلوا النبى ﷺ بالباطل وافتروا على الله الكذب.

ويحتمل أن يكون المشار إليه وهو ﴿من﴾ عاما لكل كاذب ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا.

وقد أكد الله - تعالى - وصفهم بالظلم بضمير الفصل الدال على أنهم كاملون فيه، وموغلون فى اقترافه والتمسك به.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى اتباع ملة إبراهيم إن كانوا حقا يريدون اتباعها فقال - تعالى - : ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ أى : قل - يا محمد- لهؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل ولكل من كان على شاكلتهم فى الكذب والظلم، قل لهم جميعا : صدق الله فيما أخبرنا به فى قوله - تعالى - ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ وفى كل ما أخبرنا به فى كتابه وعلى لسان رسوله. وأنتم الكاذبون فى دعواكم.

وإذا كنتم تريدون الوصول إلى الطريق القويم حقا ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ أى فاتبعوا

ملة الإسلام التى عليها محمد ﷺ وعليها من آمن به، فهم المتبعون حقا لإبراهيم - عليه السلام - وهم أولى الناس به، لأن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما.

أى كان متجها إلى الحق لا ينحرف عنه إلى غيره من الأديان أو الأقوال أو الأفعال الباطلة.

وكان مسلما، أى كان مسلما وجهه لله، مفردا إياه بالعبادة والطاعة والخضوع ثم نفى الله -تعالى- عن إبراهيم كل لون من ألوان الشرك بأبلغ وجه فقال ﴿وما كان من المشركين﴾.

أى ما كان إبراهيم فى أى أمر من أموره من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، وإنما كان مخلصا عبادته لله وحده.

وفى ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال، وتنبيه إلى أن النبى ﷺ وأتباعه هم المتبعون حقا لإبراهيم، فقد أمر الله - محمدًا ﷺ أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم فقال: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[1].

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حكت قضية من القضايا الكثيرة التى جادل اليهود فيها النبى ﷺ، وقد لقنت الآيات النبى ﷺ الجواب الذى يخرس ألسنتهم، ويكشف عن كذبهم وافترائهم وظلمهم، ويرشدهم ويرشد كل من يتأتى له الخطاب إلى الملة القويمة إن كانوا حقًا يريدون الاهتداء إلى الصراط المستقيم.

ثم أخبر القرآن عن مسألة أخرى جادل اليهود فيها النبى ﷺ وهى مسألة أفضلية المسجد الحرام على غيره من المساجد، وقد رد القرآن عليهم وعلى أمثالهم فى الكفر والعناد بما يثبت أن المسجد الحرام الذى نازعوا فى أفضليته هو أفضل المساجد على الإطلاق فقال تعالى:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

(١) سورة النحل الآية ١٢٣.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : فى اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه :

الأول : أن المراد منها الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود فى إنكار نبوة محمد ﷺ وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر، وقبلة جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة إلى الكعبة باطلا، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة﴾ فبين - سبحانه - أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف فكان جعلها قبلة أولى»[1].

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض، وقيل المراد بها كونه أولا فى الوضع وفى البناء، ورووا فى ذلك آثارا ليس فيها ما يعتمد عليه.

وبكة : لغة فى مكة عند الأكثرين، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيرًا، ومنه النميط والنبيط فهما اسم لموضع. وقيل هما متغايران : فبكة موضع المسجد ومكة اسم البلد بأسرها. وأصل كلمة بكة من البك وهو الازدحام. يقال تباك القوم إذا تزاحموا، وكأنها سميت بذلك لازدحام الحجيج فيها. والبك أيضًا دق العنق، وكأنها سميت بكة لأن الجبابرة تندق أعناقهم إذا أرادوها بسوء. وقيل إنها مأخوذة من بكأت الناقة أو الشاة إذا قل لبنها، وكأنها إنما سميت بذلك لقلة مائها وخصبها.

والمعنى : إن أول بيت وضعه الله - تعالى - للناس فى الأرض ليكون متعبدًا لهم، هو البيت الحرام الذى بمكة، حيث يزدحم الناس أثناء طوافهم حوله، وقد أتوا إليه رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم.

روى الشيخان عن أبى ذر قال : «قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : المسجد الحرام. قلت : ثم أى؟ قال المسجد الأقصى. قلت : كم بينهما؟ قال : أربعون سنة، ثم قال : حيثما أدركتك الصلاة فصل. والأرض لك مسجد»[2].

قالوا : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد منه فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى، والذى بنى المسجد الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل، وبينهما وبين سليمان أكثر من ألف سنة فكيف قال ﷺ : إن بين بناء المسجدين أربعين سنة!

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ١٥١.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء جـ ٤ ص ١٩٧، وأخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة جـ ٢ ص ٦٣.

والجواب أن الوضع غير البناء، فالذى أسس المسجد الأقصى ووضعه فى الأرض بأمر الله سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبين إبراهيم ويعقوب هذه المدة التى جاءت فى الحديث، أما سليمان فلم يكن مؤسسًا للمسجد الأقصى أو واضعًا له وإنما كان مجددا فلا إشكال ولا منافاة.

وإذن فالبيت الحرام أسبق بناء من المسجد الأقصى، وأجمع منه للديانات السماوية، وهو -أى البيت الحرام- أول بيت جعل الله الحج إليه عبادة مفروضة على كل قادر على الحج، وجعل الطواف حوله عبادة، وتقبيل الحجر الأسود الذى هو ضمن بنائه عبادة. . ولا يوجد بيت سواه فى الأرض له من المزايا والخصائص ما لهذا البيت الحرام.

وبذلك ثبت كذب اليهود فى دعواهم أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام، وأن فى تحول الرسول ﷺ إلى الكعبة فى صلاته مخالفة للأنبياء قبله.

ثم مدح الله - تعالى - بيته بكونه ﴿مباركا﴾ أى كثير الخير دائمه، من البركة وهى النماء والزيادة والدوام.

أى أن هذا البيت كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره أو اعتكف فيه، أو طاف حوله، بسبب مضاعفة الأجر، وإجابة الدعاء، وتكفير الخطايا لمن قصده بإيمان وإخلاص وطاعة لله رب العالمين.

وإن هذا البيت فى الوقت ذاته وفير البركات المادية والمعنوية.

فمن بركاته المادية: قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض، يقدمونها على سبيل تبادل المنفعة تارة وعلى سبيل الصدقة تارة أخرى لمن يسكنون حول هذا البيت الحرام، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم حيث قال: ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[1] ومن بركاته المعنوية: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين وهى فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم.

وقوله ﴿مباركا﴾ حال من الضمير فى «وضع».

ثم مدحه بأنه ﴿هدى للعالمين﴾ أى بذاته مصدر هداية للعالمين، لأنه قبلتهم ومتعبدهم، وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير وإلى ما يوصلهم إلى رضا الله وجنته.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

ثم مدحه - ثالثا - بقوله : ﴿فيه آيات بينات﴾ أى فيه علامات ظاهرات، ودلائل واضحات تدل على شرف منزلته، وعلو مكانته.

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة لبيان وتفسير بركته وهداه.

ثم بين - سبحانه - بعض هذه الآيات البينات الدالة على عظمه وشرفه فقال : ﴿مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾.

فالآية الأولى الدالة على عظم وشرف البيت الحرام ﴿مقام إبراهيم﴾ أى المقام المعروف بهذا الاسم. وهو الموضع الذى كان يقوم فيه إبراهيم تجاه الكعبة لعبادة الله - تعالى - ولإتمام بناء الكعبة ومعنى أن فى البيت مقام إبراهيم أى أنه فى فنائه ومتصل به.

قال ابن كثير : عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين. والمراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل بهذا الحجر ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار...

ثم قال : وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك. وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى ناحية المشرق حيث هو الآن. ليتمكن الطائفون من الطواف، وليصلى المصلون عنده دون تشويش عليهم من الطائفين[1].

وقوله : ﴿مقام إبراهيم﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى مقام إبراهيم منها أى من هذه الآيات البينات. أو خبر لمبتدأ محذوف أى فيه آيات بينات أحدها مقام إبراهيم.

وقد رجح ابن جرير أن قوله - تعالى - ﴿مقام إبراهيم﴾ هو بعض الآيات البينات التى فى البيت الحرام فقال : وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب قول من قال : الآيات البينات منهن مقام إبراهيم. وهو قول قتادة ومجاهد الذى رواه معمر عنهما فيكون الكلام مرادا فيه منهن فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليها. فإن قال قائل : فهذا المقام من الآيات البينات فما سائر الآيات التى من أجلها قيل ﴿آيات بينات﴾؟ قيل : منهن المقام، ومنهن الحجر، ومنهن الحطيم »[2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٧٠ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١١.

وقال ابن عطية : والراجح عندى أن المقام وأمن الداخلين جعلا مثالا لما فى حرم الله من الآيات، وخصا بالذكر لعظمها وأنها تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم »(١).

وأما الآية الثانية التى تدل على فضل هذا البيت وشرفه فقد بينها القرآن بقوله : ﴿ومن دخله كان آمنا﴾.

أى من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل قال - تعالى - : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾ وفى ذلك إجابة لسيدنا إبراهيم حيث قال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام﴾ ولا شك أن فى أمن من دخل هذا البيت أكبر آية على تعظيمه وعلى علو مكانته عند الله؛ لأنه موضع أمان الناس فى بيئة تغرى بالاعتداء لخلوها من الزرع والنبات.

وفى الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث لمكة - يعنى لقتال عبد الله بن الزبير - : ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قال به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، - سمعته أذناى ووعاه قلبى، وأبصرته عيناى - حين تكلم به -(٢) : إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها - أى أخذ فيه بالرخصة - فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب.

فقيل لأبى شريح : ما قال لك عمرو؟ فقال أبو شريح : قال لى يا أبا شريح أنا أعلم بذلك منك. إن الحرم لا يعيذ عاصيا - أى لا يجيره ولا يعصم دمه - ولا فارًا بدم - أى أن الحرم لا يجير إنسانًا هاربًا إليه لسبب من الأسباب الموجبة للقتل - ولا فارًا بخربة - أى بسبب سرقة أو خيانة(٣).

ولقد كان أهل الجاهلية يعظمون المسجد الحرام -وخصوصا أهل مكة- فلما جاء الإسلام أقر له هذه الميزة وزكاها، ووضع لها الضوابط والأحكام التى تضمن استعمالها فى الوجوه التى شرعها الله.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٢٩٧.

(٢) أراد بقوله : سمعته أذناى... إلخ المبالغة فى تحقيق حفظه إياه، وتيقنه من زمانه ومكانه ولفظه.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب العلم. باب فليبلغ الشاهد الغائب جـ ١ ص ٣٧ وأخرجه مسلم فى كتاب الحج جـ ٤ ص ١٠٩.

فقد اتفق الفقهاء على أن من جنى فى الحرم جناية فهو مأخوذ بجنايته سواء أكانت فى النفس أم فيما دونها.

واختلفوا فيمن جنى فى غير الحرم ثم لاذ إليه. فقال أبو حنيفة وابن حنبل : إذا قتل فى غير الحرم ثم دخل الحرم لا يقتص منه ما دام فيه، ولكن لا يجالس ولا يعامل ولا يؤاكل إلى أن يخرج منه فيقتص منه. وإن كانت جنايته فيما دون النفس فى غير الحرم ثم دخل الحرم اقتص منه.

وقال مالك والشافعى يقتص منه فى الحرم لذلك كله كما يقتص منه فى الحل.

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

ثم أخبر - سبحانه - عن وجوب الحج على كل قادر عليه فقال : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾.

أى أن الله - تعالى - فرض على الناس أن يحجوا بيته فى أوقات معينة وبكيفية مخصوصة متى كان فى استطاعتهم أداء هذه الفريضة.

﴿ومن كفر﴾ أى من جحد فرضية الحج وأنكرها، ولم يؤدها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غنى عنه وعن حجه وعن الناس جميعًا.

قال صاحب الكشاف : وفى هذا الكلام أنواع من التأكيد والتشديد منها قوله : ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته. ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما : أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له.

والثانى : أن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين. ومنها قوله : ﴿ومن كفر﴾ مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج، ولذلك قال ﷺ : من مات ولم يحج فليمت إن شاء الله يهوديًا أو نصرانيًا° ومنها ذكر الاستغناء عنه، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله : ﴿عن العالمين﴾ ولم يقل عنه، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط(١).

وقوله : ﴿ولله﴾ خبر مقدم متعلق بمحذوف أى واجب. ﴿على الناس﴾ متعلق بهذا المحذوف. وقوله : ﴿حج البيت﴾ مبتدأ مؤخر.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٩٠.

والناس عام مخصوص بالمستطيع، وقد خصص ببدل البعض فى قوله: ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ إذ هذه الجملة بدل من الناس بدل البعض من الكل. والضمير فى البدل مقدر أى من استطاع منهم إليه سبيلا.

و«من» فى قوله: ﴿ومن كفر﴾ يحتمل أن تكون شرطية وهو الظاهر، وأن تكون موصولة، وعلى الاحتمالين استغنى فيا بعد الفاء عن الرابط بإقامة الظاهر مقام المضمر إذ الأصل ومن كفر فإن الله غنى عنه فاستغنى بالظاهر عن المضمر.

قال ابن كثير: والجمهور يرى أن هذه الآية هى آية وجوب الحج. وقيل بل هى آية ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ والأول أظهر. وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقوائمه، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضرويًا وإنما يجب على المكلف فى العمر مرة واحدة بالنص والإجماع فعن أبى هريرة قال: خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال: «يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا. فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه».

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: «قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما السبيل يا رسول الله، فقال: الزاد والراحلة»[(١)]:

وبذلك تكون هاتان الآيتان والآيات التى قبلهما قد ردت على اليهود فى دعواهم أن ما حرمه الله عليهم من طيبات لم يكن عقوبة لهم بسبب ظلمهم وبغيهم، وكذبتهم فى دعواهم أن بيت المقدس أفضل من المسجد الحرام.

وقد اشتمل هذا الرد على ما يثبت افتراءهم من واقع التاريخ، فقد أمر الله - تعالى - النبى ﷺ أن يطالبهم بإحضار التوراة إن كانوا صادقين فى دعواهم، فبهتوا وانقلبوا صاغرين، وأثبت القرآن أن البيت الحرام أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله، فهو يسبق بيت المقدس فى أولوية الشرف والزمان. وإذن فجدال اليهود للنبى ﷺ فى هذه الأمور ما هو إلا نوع من عنادهم وجحودهم للحق، والمعاند والجاحد لا ينفع معهما دليل أو برهان.

وبعد هذا الرد المفحم من القرآن على اليهود فى هاتين القضيتين - قضية ما حرم عليهم من الأطعمة وقضية نزاعهم فى أفضلية البيت الحرام - بعد كل ذلك ساق القرآن طرفا من

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٨٥.

مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين عن طريق محاولتهم الدس والوقيعة وإثارة الفتنة بين المؤمنين. وقد حذر الله المؤمنين من شرورهم بعد أن وبخ اليهود على مكرهم، وتوعدهم بسوء المصير. استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه المعاني بأسلوبه الحكيم فيقول:

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس - وكان شيخًا قد عسا[١] فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - مر على نفر من الصحابة من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية. فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة[٢] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر شابا من اليهود كان معه فقال له : اعمد إليهم فاجلس معهم، وذكرهم يوم بعاث، وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار - وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج - ففعل. فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب : أوس بن قيظى من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج. فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة[٣]، وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا، السلاح موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرة - فخرجوا إليها وتحاور الناس. فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم. فقال يا معشر المسلمين : الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفروألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس، وما صنع.

فأنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون﴾ الآية وأنزل فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب﴾ . إلى قوله ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[٤] - فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم -.

وقوله - تعالى - : ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه

---

(١) عسا الشيخ : كبر وأسن من عسا القضيب إذا يبس.
(٢) قيلة : هى قيلة بنت كاهل بن عذرة وهى أم الأوس والخزرج.
(٣) جذعة : شابة فتية. يريد عودة الحرب قوية كما كانت.
(٤) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٢٣.

ﷺ بأن يوبخ هؤلاء اليهود ومن لف لفهم على مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية، وإيذاء أتباعها ومحاولتهم صرف الناس عنها.

أى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات : لم تعاندون الحق وتكفرون بآيات الله السمعية والعقلية الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى، والحال أن الله مطلع عليكم وعالم علم المعاين المشاهد لأعمالكم الظاهرة والخفية، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب أليم.

فالآية الكريمة قد تضمنت تأنيبهم على الكفر، وتهديدهم بالعقاب إذا استمروا فى مسالكهم الأثيمة.

ولكى يكون التأنيب أوجع، أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يناديهم بقوله : ﴿يا أهل الكتاب﴾، لأن علمهم بالكتاب يستلزم منهم الإيمان، والإذعان للحق، ولكنهم اتخذوا علمهم وسيلة للشرور والتضليل فكان مسلكهم هذا دليلا على فساد فطرتهم، وخبث طويتهم، وسوء طباعهم.

وبعد أن أنبهم القرآن الكريم فى هذه الآية على كفرهم وضلالهم، أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ فى آية ثانية أن يوبخهم على محاولتهم إضلال غيرهم فقال - تعالى - : ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء﴾ وقوله : ﴿تصدون﴾ من الصد وهو صرف الغير عن الشىء ومنعه منه. يقال : صد يصد صدودا، وصدا.

وقوله : ﴿سبيل الله﴾ أى طريقه الموصلة إليه وهى ملة الإسلام.

وقوله : ﴿تبغونها عوجا﴾ أى تطلبون لها العوج. يقال : بغيت له كذا أى طلبته والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج. والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح وكل شىء منتصب قائم أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها فى الأعيان.

والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب مرة أخرى مبالغة فى تقريعهم وإزاحة لأعذارهم. لأى شىء تصرفون المؤمنين عن الإيمان الحق، وتمنعون من آمن بالنبى ﷺ عن الاستمرار على اتباعه، وتثيرون الفتنة والوقيعة بين أصحابه.

وقوله : ﴿تبغونها عوجا﴾ أى تطلبون العوج والميل لسبيل الله الواضحة والميل بها عن القصد والاستقامة، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة فى أعين المهتدين، كما التوت نفوسكم، وانحرفت عقولكم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف قال تبغونها عوجا وهو محال؟ قلت : فيه معنيان :
أحدهما : أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها اعوجاجا بقولكم إن شريعة موسى لا تنسخ ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها وغير ذلك.

والثانى : أنكم تتعبون أنفسكم فى إخفاء الحق ابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم»(١).

وقوله : ﴿من آمن﴾ مفعول به لتصدون. والضمير المنصوب فى قوله : ﴿تبغونها﴾ يعود إلى سبيل الله أى تبغون لها فحذفت اللام كما فى قوله - تعالى - : ﴿وإذا كالوهم﴾ أى كالوا لهم.
وقوله : ﴿عوجا﴾ مفعول به لتبغون.

وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى ﴿تبغونها﴾ وهو الهاء هو المفعول. وجعل عوجا حال من سبيل الله. أى تبغونها أن تكون معوجة وتريدونها فى حال عوج واضطراب.

وقوله : ﴿وأنتم شهداء﴾ حال من فاعل ﴿تصدون﴾ أو ﴿تبغون﴾.
أى والحال أنكم تعلمون بأن سبيل الإسلام هى السبيل الحق علم من يعاين ويشاهد الشىء على حقيقته فجحودكم عن علم وكفركم ليس عن جهل، ولقد كان المتوقع منكم يا من ترون الحق الذى جاء به محمد ﷺ فى كتابكم، أن تكونوا أول الساعين إلى الإيمان به، ولكن الحسد والعناد حالا بينكم وبين الانتفاع بالنور الذى جاء به محمد ﷺ.

وقوله : ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد لهم ووعيد على ضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم، لأنه - سبحانه - ليس غافلا عن أعمالهم، بل هو سيجازيهم على هذه المسالك الخبيثة بالفشل والذلة فى الدنيا، وبالعذاب والهوان فى الآخرة ولما كان صدهم المؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حياتهم، ببيان أن الله - تعالى - محيط بكل ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال وليس غافلا عنها. بخلاف الآية الأولى فقد كان كفرهم بطريق العلانية إذ ختمت ببيان أن الله مشاهد لما يعملونه ولما يجاهرون به.

وبعد أن بين - سبحانه - فى هاتين الآيتين أن اليهود قد جمعوا الخستين ضلال أنفسهم، ثم محاولتهم تضليل غيرهم، تركهم مؤقتا فى طغيانهم يعمهون، ووجه نداء إلى المؤمنين يحذرهم فيه من دسائس اليهود وكيدهم، وينهاهم عن الركون إليهم، والاستماع إلى مكرهم فقال

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٣.

- تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾.

والمعنى : إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم كما فى الجاهلية، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة وكفركم بالله بعد إيمانكم.

وقد خاطب الله المؤمنين بذاته فى هذه الآية بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن يخاطب أهل الكتاب فى الآيتين السابقتين، إظهارا لجلالة قدرهم، وأشعارا بأنهم الأحقاء بالمخاطبة من الله - تعالى -.

وناداهم بصفة الإيمان لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة فالمؤمن ليس خبا ولكن الخب لا يخدعه.

وفى التعبير «بإن» فى قوله : ﴿إن تطيعوا فريقا﴾ إشارة إلى أن طاعتهم لليهود ليست متوقعة، لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك.

ووصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقيعة بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم.

ونعتهم بأنهم ﴿أوتوا الكتاب﴾ للإشعار بأن تضليلهم، متعمد وبأن تآمرهم على المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام.

وقوله : ﴿يردوكم﴾ أصل الرد الصرف والإرجاع، إلا أنه هنا مستعار لتغير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير كقل الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضًا ورد وجوههن البيض سودًا

أى : يصيروكم بعد إيمانكم كافرين. والكاف مفعوله الأول وكافرين مفعوله الثانى.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾(١).

ثم بين القرآن بعد ذلك أنه ما يسوغ للمؤمنين أن يطيعوا هذا الفريق من الذين أوتوا الكتاب، أو أن يكفروا بعد إيمانهم، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم فقال - تعالى - : ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾، الاستفهام فى قوله : ﴿وكيف تكفرون﴾ للانكار، ولاستبعاد كفرهم فى حال اجتمع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان.

(١) سورة البقرة الآية ١٠٩.

أى : كيف يتصور منكم الكفر، أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيكم، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر.

وفى هذا ما يومىء إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبغونه بين المؤمنين فى وقت يذكر النبى ﷺ المؤمنين بما ينفعهم؛ ويحذرهم مما يؤذيهم ويضرهم.

وفى توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة، لأن كل موجود لابد أن يكون وجوده على حال من الأحوال، فإذا أنكر ونفى فى جميع الأحوال انتفى وجوده بالكلية بالطريق البرهانى.

وقوله : ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ جملتان حاليتان من فاعل ﴿تكفرون﴾ وهو ضمير الجماعة. وهاتان الجملتان هما محط الانكار والاستبعاد.

أى أن كلا تلاوة آيات الله وإقامة الرسول ﷺ فيهم، وازع لهم عن الكفر، ودافع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان.

ففى الآية الكريمة دلالة على عظمة قدر الصحابة، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال : سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول ﷺ، فإن وجوده عصمة من ضلالهم.

قال قتادة : أما الرسول ﷺ فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى الوسيلة التى متى تمسكوا بها عصموا أنفسهم من مكر اليهود فقال - تعالى - ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾.

أى ومن يلتجىء إلى الله فى كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل، ويتمسك بدينه، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

وفى هذا إشارة إلى أن التمسك بدين الله وبكتابه كفيل بأن يبعد المسلمين الذين لم يشاهدوا الرسول ﷺ عما يبيته لهم أعداؤهم من مكر وخداع.

قال ابن جرير ما ملخصه : وأصل العصم : المنع، فكل مانع شيئًا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به ولذلك قيل للحبل : عصام، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام، وأفصح اللغتين : إدخال الباء كما قال - عز وجل - ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا﴾ وقد جاء اعتصمته(١).

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٢٦.

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين بمجامع الطاعات ومعاقد الخيرات، فقال - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾

وقوله ﴿حق تقاته﴾ التقاة مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها إذ الأصل : اتقوا الله التقاة الحق. أى : الثابتة، كقولك ضربت زيدا أشد الضرب تريد الضرب الشديد وقيل التقاة اسم مصدر من اتقى كالتؤدة من اتأد.

والمعنى : بالغو أيها المؤمنون فى التمسك بتقوى الله ومراقبته وخشيته حتى لاتتركوا منها شيئًا ولا تكونن على ملة سوى ملة الإسلام إذا أدرككم الموت، وإنما عليكم أن تستمروا على دينكم القويم حتى يأتيكم الأجل الذى لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون.

وقد ساق ابن كثير بعض الآثار التى وردت عن بعض السلف فى تفسير هذه الآية الكريمة فمن ذلك ماروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال فى معنى الآية ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ : أن يطاع فلا يُعصى. وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى الله العبد حق تقاته حتى يُخزن لسانه.

وقوله ﴿ولاتموتن إلاوأنتم مسلمون﴾ هو نهى فى الصورة عن موتهم إلا على هذه الحالة والمراد دوامهم على الإسلام وذلك أن الموت لابد منه فكأنه قيل : دوموا على الإسلام إلى أن يدرككم الموت فتموتوا على هذه الملة السمحاء وهى ملة الإسلام، لكى تفوزوا برضا الله وحسن ثوابه.

والجملة الكريمة فى محل نصب على الحال من ضمير الجماعة فى ﴿اتقوا﴾.

والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال : أى لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التى هى حالة المداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه.

وقال صاحب الكشاف : قوله ﴿ولا تموتن﴾ معناه ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو : لا تأتنى إلا وأنت على حصان، فأنت لاتنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التى شرطت عليه فى وقت الإتيان»(١).

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بمداومة خشيته، والاستمرار على دينه أتبع ذلك بأمرهم بالاعتصام بدينه وبكتابه فقال - تعالى - ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٤.

فهذه الآية الكريمة تأكيد لما اشتملت عليه سابقتها من مداومة التقوى والطاعة لله رب العالمين.

والاعتصام: افتعال من عصم وهو طلب مايعصم أى يمنع من السقوط والوقوع.

وأصل الحبل: ما يشد به للارتقاء أو التدلى أو للنجاة من غرق أو نحوه، أو للوصول إلى شيء معين.

والمراد بحبل الله هنا: دينه، أو عهده، أو كتابه، لأن التمسك بهذه الأشياء يوصل إلى النجاة والفلاح.

والمعنى: كونوا جميعا مستمسكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم فى الجاهلية بضرب بعضكم رقاب بعض، بل عليكم أن تجتمعوا على طاعة الله وأن تكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وبذلك تفوزون وتسعدون وتنتصرون على أعدائكم.

ففى الجملة الكريمة استعارة تمثيلية حيث شبه - سبحانه - الحالة الحاصلة من تمسك المؤمنين بدينه وبكتابه وبعهوده وبوحدة كلمتهم، بالحالة الحاصلة من تمسك جماعة بحبل وثيق مأمون الانقطاع ألقى إليهم من منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما.

وإضافة الحبل إلى الله - تعالى - قرينة على هذا التمثيل.

وقوله ﴿جميعا﴾ حال من ضمير الجماعة فى قوله ﴿واعتصموا﴾.

فالجملة الكريمة تأمر المسلمين جميعا أن يعتصموا بعهود الله وبدينه. وبكتابه، وأن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وأن ينبذوا التفرق والاختلاف الذى يؤدى إلى ضعفهم وفشلهم.

قال الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: واعلم أن كل من يمشى على طريق دقيق يخاف أن ينزلق رجله، فإنه إذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبى ذلك الطريق أمن من الخوف. ولاشك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزلقت أرجل كثير من الخلق عنه، فمن اعتصم بدلائل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف فكان المراد من الحبل هنا: كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق فى طريق الدين، وهو أنواع كثيرة فمنهم من قال المراد به عهد الله.. ومنهم من قال المراد به القرآن، فقد جاء فى الحديث «هو حبل الله المتين» ومنهم من قال المراد به طاعة الله.. وهذه الأقوال كلها متقاربة والتحقيق ماذكرنا من أنه لما كان النازل فى البئر يعتصم بحبل تحرزا من السقوط فيها وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة

المؤمنين حرزا لصاحبه من السقوط فى جهنم، جعل ذلك حبلا لله وأمروا بالاعتصام به(١). ثم أمرهم -سبحانه- بتذكر نعم الله عليهم فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

قوله ﴿شفا حفرة﴾ الشفا طرف الشيء وحرفه مثل شفا البئر، وشفا الحفرة ومنه يقال: فلان أشفى على الشيء إذا أشرف عليه، كأنه بلغ شفاه أى حده وحرفه.

والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون وتنبهوا بعقولكم وقلوبكم إلى نعمة الله عليكم بتأليف نفوسكم ورأب صدوعكم، فقد كنتم فى الجاهلية أعداء متقاتلين متنازعين، فألف بين قلوبكم بأخوة الإسلام فأصبحتم متحابين متناصحين متوادين وكنتم على وشك الوقوع فى النار بسبب اختلافكم وضلالكم فمن الله عليكم وأنقذكم من التردى فيها بهدايتكم إلى الحق عن طريق رسول الله ﷺ الذى أرسله ربه رحمة للعالمين. إذا فمن الواجب عليكم وفاء لهذه النعم أن تشكروا الله عليها وأن تطيعوا رسولكم ﷺ وأن تتمسكوا بعرى المحبة والمودة والأخوة فيما بينكم.

قال ابن كثير: قوله - تعالى - ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء﴾.. إلخ. هذا السياق فى شأن الأوس والخزرج، فإنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم، والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام. فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين فى ذات الله، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها إذ هداهم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم بما فضل عليهم فى القسمة بما رآه، فخطبهم فقال يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى، وعالة فأغناكم الله بى؟ فكانوا كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ»(٢).

وفى هذه الآية الكريمة تصوير بديع مؤثر لحالة المسلمين قبل الإسلام وحالتهم بعد الإسلام.

فقد صور - سبحانه - حالهم وترديهم فى الكفر والاختلاف والتقاتل قبل أن يدخلوا فى الإسلام بحال من يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها.

وصور هدايته لهم إلى سبيل الحق والمحبة والإخاء بدخولهم فى الإسلام عن طريق محمد ﷺ بحالة من يبعد غيره عن التردى فى النار وينقذه من الوقوع فيها.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٧٣، طبعة عبد الرحمن محمد.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٨٩.

قال صاحب الكشاف: «والضمير المجرور فى قوله ﴿فأنقذكم منها﴾ يعود للحفرة أو للنار أو للشفا، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة - فاكتسب التأنيث من المضاف إليه - كما قال: كما شرقت صدر القناة من الدم.. وشفا الحفرة وشفتها: حرفها بالتذكير والتأنيث.

فإن قلت: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت: لو ماتوا على ماكانوا عليه وقعوا فى النار «فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار بالقعود على حرفها، مشفين - أى مشرفين - على الوقوع فيها»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.

أى كهذا البيان الواضح الذى سمعتموه فى هذه الآيات، يبين الله لكم دائما من آياته ودلائله وحججه ما يسعدكم فى الدنيا والآخرة، وما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها، رجاء أن تكونوا ممن رضى الله عنهم وأرضاهم بسبب اهتدائهم إلى الصراط المستقيم.

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بتكميل أنفسهم عن طريق خشيته وتقواه والاعتصام بدينه وبكتابه، عقب ذلك بأمرهم بالعمل على تكميل غيرهم وإصلاح شأنه عن طريق دعوته إلى الخير وإبعاده عن الشر فقال - تعالى -

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾.

الأمة: الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما وتطلق على أتباع الأنبياء كما تقول: نحن من أمة محمد - ﷺ - وعلى الرجل الجامع للخير الذى يقتدى به كقوله - تعالى - ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾(٢). وعلى الدين والملة كقوله - تعالى - ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾(٣) وعلى الحين والزمان كقوله - تعالى -: ﴿وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة﴾(٤).

والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التى تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس دينى أو دنيوى.

والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه والمنكر ضد ذلك.

والمعنى: ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص، تبذل أقصى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٩٦.
(٢) سورة النحل الآية ١٢٠.
(٣) سورة الزخرف الآية ٢٢
(٤) سورة يوسف الآية ٤٥.

طاقتها وجهدها فى الدعوة إلى الخير الذى يصلح من شأن الناس، وفى أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التى توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، وفى نهيهم عن المنكر الذى يأباه شرع الله، وتنفر منه الطباع الحسنة.

وقوله : ﴿ولتكن﴾ صيغة وجوب من الله - تعالى - على كل من يصلح لمهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وتكن إما من كان التامة أى : ولتوجد منكم أمة. فيكون قوله : ﴿أمة﴾ فاعلا لتكن وجملة ﴿يدعون﴾ صفة لأمة، و﴿منكم﴾ متعلق بتكن.

وإما من كان الناقصة فيكون قوله : ﴿أمة﴾ اسمها، وجملة ﴿يدعون﴾ خبرها، وقوله ﴿منكم﴾ متعلق بكان الناقصة، أو بمحذوف وقع حالا من أمة.

و ﴿من﴾ فى قوله -تعالى- ﴿ولتكن منكم أمة﴾ يرى أكثر العلماء أنها للتبعيض.

أى : ليكن بعض منكم أمة أى طائفة تبذل جهدها فى تبليغ رسالات الله وفى دعوة الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وفى هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك وأنه لا يخاطب به إلا الخواص. ومن هذا الأسلوب قوله - تعالى - : ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾[1] فقد وجه الخطاب إلى نفس منكرة تنبيها على قلة الناظر فى معاده.

وعلى هذا فكأن الآية الكريمة قد اشتملت على طلبين :

أحدهما : وجه إلى الأمة كلها يطالبها بأن تعد طائفة من بينها لهذه المهمة السامية وهى دعوة الناس إلى الخير وأن تزود هذه الطائفة الصالحة لهذه المهمة بكل ما يمكنها من أداء مهمتها.

وثانيهما : موجه إلى تلك الطائفة الصالحة لهذه المهمة، بأن تخلص فيها، وتؤديها على الوجه الأكمل الذى يرضى الله - تعالى -

ويرى بعض العلماء أن «من» فى قوله - تعالى - ﴿ولتكن منكم أمة﴾ بيانية.

فيكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا على سبيل الفرض الكفائى، بل على سبيل الفرض العينى.

أى : لتكونوا أيها المؤمنون جميعا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فمن هنا ليس المراد بها التبعيض على هذا الرأى بل المراد بها البيان، وذلك كقولك : لفلان من أولاده جند، وللأمير من غلمانه عسكر، تريد بذلك جميع أولاده وغلمانه.

(١) سورة الحشر الآية ١٨

ويبدو لنا أن الرأى الأول وهو أن «من» للتبعيض أقرب إلى الصواب، لأن الأمة كلها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها لا تصلح لهذه المهمة السامية، وإنما يصلح لها من يجيدها ويحسنها بأن تكون عنده القدرة العقلية، والعلمية، والنفسية، والخلقية، لأدائها.

ولذا قال صاحب الكشاف مرجحا أن «من» للتبعيض: قوله: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ من للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشره فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر. وقد يغلظ فى موضع اللين، ويلين فى موضع الغلظة وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عبث.

وقيل «من» للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله - تعالى - ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾(١).

وقوله - تعالى - ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ معطوف على قوله: ﴿يدعون إلى الخير﴾ من باب عطف الخاص على العام.

وفائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاما ثم مفصلا على هذين الوجهين وهما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهما أشرف ألوان الدعوة إلى الخير.

وقوله: ﴿يدعون إلى الخير﴾ المفعول فيه محذوف وكذلك فى قوله: ﴿يأمرون وينهون﴾ والتقدير يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر.

وحذف المفعول للإيذان بظهوره. أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل. أى يفعلون الدعاء إلى الخير، أو لقصد التعميم أى يدعون كل من تتأتى له الدعوة.

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتبشير هؤلاء الداعين إلى الخير بالفلاح فقال ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ والفلاح هو الظفر وإدراك البغية.

أى: وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب الذى هو مناط عزة الجماعات والأفراد، وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم.

قال بعض العلماء: فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووجوبه ثابت

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٧

بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يرتفع سنامها ويكمل نظامها.

وقال الإمام الغزالى : فى هذه الآية بيان الإيجاب. فإن قوله : ﴿ولتكن﴾ أمر. وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به. إذ حصر وقال : ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قام به البعض سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال : ﴿ولتكن منكم أمة﴾ وإن تقاعد عنه الخلق جميعا عم الإثم كافة القادرين عليه لا محالة(١).

هذا وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى بيان العاقبة السيئة التى تترتب على ترك هذا الواجب، ومن ذلك :

ما رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

وروى الترمذى عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله.

وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبى ﷺ على السمع والطاعة فلقننى فيما استطعت والنصح لكل مسلم.

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »(٢).

وبعد أن أمر الله - تعالى - بالمواظبة على الدعوة إلى الخير، عقب ذلك بنهيهم عن التفرق والاختلاف فقال : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾.

أى : ولا تكونوا أيها المؤمنون كأولئك اليهود والنصارى وغيرهم من الذين تفرقوا شيعا وأحزابا، وصار ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ واختلفوا فيما بينهم اختلافا شنيعا، وقد ترتب على ذلك أن كفر بعضهم بعضا، وقاتل بعضهم بعضا، وزعم كل فريق منهم أنه على الحق

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٤ ص ٩٢١.

(٢) هذه الأحاديث من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى جـ ٣ ص ٢٢٣ وقد ذكر أحاديث أخرى فى هذا الموضوع فارجع إليه إن شئت.

وغيره على الباطل، وأنه هو وحده الذى يستطيع أن يدرك مافى الكتب السماوية من حقائق، وهو وحده الذى يستطيع تفسيرها تفسيرا سليما.

ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم «من بعد ما جاءهم البينات» أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق، والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف.

وقوله : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ معطوف على قوله ﴿ولتكن منكم أمة يدعون﴾ ويرجع إلى قوله من قبل ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا﴾ لما فيه من تمثيل حال التفرق فى أبشع صوره المعروفة لديهم من مطالعة أحوال اليهود وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يفضى إلى التفرق والاختلاف إذ يترتب على هذا الترك أن تكثر المنازعات والأهواء والمظالم، وتنشق الأمة بسبب ذلك انشقاقا شديدا.

والمقصود بهذا النهى إنما هو التفرق والاختلاف فى أصول الدين وأسسه، أما الفروع التى لا يصادم الخلاف فيها نصا صحيحا من نصوص الدين فلا تندرج تحت هذا النهى، فنحن نرى أن أصحاب النبى ﷺ والتابعين من بعدهم قد اختلفوا فيما بينهم فى بعض المسائل التى لا تخالف نصا صحيحا من نصوص الشريعة وتأولها كل واحد أو كل فريق منهم على حسب فهمه الذى أداه إليه اجتهاده.

ومن الأحاديث التى ذمت الاختلاف فى الدين مارواه أبو داود والإمام أحمد عن أبى عامر عبد الله بن يحيى قال : «حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال إن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا واحدة - وهى الجماعة - وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه. لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم - ﷺ - لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة المتفرقين، والمختلفين فى الحق فقال ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب عظيم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل.

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد نهى المؤمنين عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير وألطف إشارة، وذلك بأن بين لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا، وما بشر به

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٩٠.

-سبحانه- المواظبين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفائزون.

ثم بين لهم بعد ذلك سوء عاقبة التفرقة والاختلاف الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى وكيف انه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفر بعضهم بعضا. وقاتل بعضهم بعضا، ورمى بعضهم بعضا بالزيغ والضلال.

هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فلهؤلاء المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم من الله - تعالى -

فالقرآن قد أتى بالأوامر ومعها الأسباب التى تدعو إلى الاستجابة لها، وأتى بالنواهى ومعها كذلك الأسباب التى تحمل على البعد عنها.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت مسلكا من مسالك اليهود الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين، ووبختهم على ذلك توبيخا موجعا، وفضحتهم على مر العصور والدهور، وحذرت المؤمنين من شرورهم، وأرشدتهم إلى ما يعصمهم من كيدهم. وذكرتهم بنعم الله الجليلة عليهم، وأمرتهم بالمواظبة على الدعوة إلى الخير. ونهتهم عن التفرق والاختلاف لكى يسعدوا فى دينهم ودنياهم.

ثم حذر الله - تعالى - الناس من أهوال يوم القيامة، وأمرهم بأن يتسلحوا بالإيمان وبالعمل الصالح حتى ينجوا من عذابه فقال:

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿١٠٩﴾

قوله - تعالى - ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾: بياض الوجوه وسوادها محمولان على

الحقيقة عند جمهور العلماء. وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة فوجب الحمل على ذلك.

قال الآلوسى: قال بعضهم يوسم أهل الحق ببياض الوجه وإشراق البشرة تشريفًا لهم وإظهارا لآثار أعمالهم فى ذلك الجمع. ويوسم أهل الباطل بضد ذلك.

والظاهر أن الابيضاض والأسوداد يكونان لجميع الجسد إلا أنهما أسندا للوجوه؛ لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه، وهو أشرف أعضائه واختلف فى وقت ذلك فقيل: وقت البعث من القبور وقيل وقت قراءة الصحف»[1].

ويرى بعض العلماء أن بياض الوجوه هنا المراد منه لازمه وهو الفرح والسرور، كما أن سوادها المراد منه لازمه أيضًا وهو الحزن والغم وعليه يكون التعبير القرآنى محمولا على المجاز لا على الحقيقة.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: وهذا مجاز مشهور قال - تعالى - ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾ ويقال: لفلان عندى يد بيضاء وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل.. ويقال لمن وصل إليه مكروه: اربَدّ وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته.. وعلى هذا فمعنى الآية: أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن رأى ما يسره ابيض وجهه بمعنى أنه استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه اسود وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه»[2].

والظرف «يوم» فى قوله ﴿يوم تبيض﴾ إلخ منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف والتقدير: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه والمراد الاعتبار والاتعاظ ويجوز أن يكون العامل فيه قوله ﴿عظيم﴾ فى قوله قبل ذلك ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. أى أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات لهم عذاب فى هذا اليوم الهائل الشديد الذى تبيض فيه وجوه المؤمنين وتسود فيه وجوه الكافرين والفاسقين.

وفى وصف هذا اليوم بأنه تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه تهويل لأمره. وتعظيم لشأنه وتشويق لما يرد بعد ذلك من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة وأصحاب الوجوه المسودة، وترغيب للمؤمنين فى الإكثار من التزود بالعمل الصالح وترهيب للكافرين من التمادى فى كفرهم وضلالهم.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٢٥.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٨١.

والتنكير فى قوله ﴿وجوه﴾ للتكثير. أى تبيض وجوه عدد كثير من المؤمنين وتسود وجوه كثيرة للكافرين.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[١] وقوله - تعالى - ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾[٢].

قال صاحب الكشاف: «البياض من النور والسواد من الظلمة. فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته، واشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله»[٣].

ثم بين - سبحانه - حال الذين اسودت وجوههم وسوء عاقبتهم فقال: ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة فيقال لهم ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ وحذف هذا القول المقدر والذى هو جواب إما لدلالة الكلام عليه، ومثله كثير فى القرآن الكريم، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا﴾[٤]. أى قائلين ربنا أبصرنا وسمعنا وقوله تعالى - ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾[٥]. أى قائلين لهم: سلام عليكم.

والاستفهام فى قوله: ﴿أكفرتم﴾ للتوبيخ والتعجب من حالهم.

قال الآلوسى والظاهر من السياق أن هؤلاء هم أهل الكتاب وكفرهم بعد إيمانهم، هو كفرهم برسول الله ﷺ بعد الإيمان به قبل مبعثه. وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾ ويحتمل أن يراد بالإيمان الإيمان بالقوة والفطرة، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا الإيمان؛ لتمكنهم بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة من الإيمان بالله - تعالى -، وبرسوله ﷺ»[٦].

وقوله ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب استمراركم على الكفر وموتكم عليه.

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٠.
(٢) سورة القيامة الآيات من ٢٢ - ٢٥.
(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٩.
(٤) سورة السجدة الاية ١٢
(٥) سورة الرعد الآية ٢٤
(٦) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٢٦.

والأمر فى قوله ﴿فذوقوا﴾ للإهانة والإذلال، وهو من باب الاستعارة فى ﴿فذوقوا﴾ استعارة تبعية تخييلية. وفى العذاب استعارة مكنية: حيث شبه العذاب بشئ يدرك بحاسة الأكل والذوق تصويرًا له بصورة ما يذاق، وأثبت له الذوق تخييلا - وهو قرينة المكنية.

وأل فى العذاب للعهد أى فذوقوا العذاب المعهود الموصوف بالعظم، والذى سبق أن حذركم الله - تعالى - منه، ولكنكم لم تعيروا التحذير انتباها، بل تماديتم فى كفركم وضلالكم حتى أدرككم الموت وأنتم على هذه الحال الشنيعة.

ثم بين - سبحانه - حال الذين ابيضت وجوههم وحسن عاقبتهم فقال: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ ببركة إيمانهم وعملهم الصالح ﴿ففى رحمة الله﴾ أى ففى جنته. والتعبير عن الجنة بالرحمة من باب التعبير بالحال عن المحل فتكون الظرفية حقيقة. وإذا أريد برحمة الله ثوابه وجزاؤه تكون الظرفية مجازية.

وفى التعبير عن الجنة بالرحمة إشعار بأن دخولها إنما هو بمحض فضل الله - تعالى - فهو -سبحانه- المالك لكل شيء، والخالق لكل شيء.

وقوله ﴿هم فيها خالدون﴾ بيان لما خصهم الله - تعالى - من خلود فى هذا النعيم الذى لا يحد بحد، ولا يرسم برسم، ولا تبلغ العقول مداه. أى هم فى الرحمة باقون دائمون فقد أعطاهم الله - تعالى - عطاء غير مجذوذ.

وقد بدأ - سبحانه - كلامه عن الفريقين بالذين ابيضت وجوههم ثم قدم الحديث عن حال الذين اسودت وجوههم على الذين ابيضت وجوههم، ليكون ابتداء الكلام واختتامه عن هؤلاء السعداء بما يسر القلب ويشرح الصدر ويغرى الناس بالتمسك بعرى الإيمان وبالإكثار من العمل الصالح الذى يوصلهم إلى رحمة الله ورضاه.

ووصف - سبحانه - الذين ابيضت وجوههم بأنهم خالدون فى رحمته، ولم يصف الذين اسودت وجوههم بالخلود فى العذاب للتصريح فى غير هذا الموضع بخلودهم فى هذا العذاب كما فى قوله - تعالى - ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾[1]. وللإشعار بأن باب رحمته - سبحانه - مفتوح أمام هؤلاء الضالين فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يقلعوا عن الكفر إلى الإيمان والعمل الصالح حتى ينجوا من عذاب الله وسخطه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وبعد أن أفاض - سبحانه - فى الحديث عن أحوال السعداء وأحوال الأشقياء وعن رذائل

(١) سورة البينة الآية ٦.

الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم ممن أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وبعد أن ساق -سبحانه- من التوجيهات الحكيمة، والإرشادات النافعة ما يشفى الصدور ويهدى النفوس، بعد كل ذلك، خاطب -سبحانه- نبيه ﷺ بقوله:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، وما الله يريد ظلمًا للعالمين﴾.

والمراد بالآيات ما سبق ذكره فى هذه السورة وغيرها من آيات قرآنية تهدى إلى الرشد وتشهد بوحدانية الله - تعالى - وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه.

وكانت الإشارة بتلك الدالة على البعد للإشعار بعلو شأن هذه الآيات وسمو منزلتها وعظم قدرها.

ومعنى ﴿نتلوها﴾ نقرؤها عليك يا محمد شيئًا فشيئًا قراءة واضحة جلية لتبلغها للناس على مكث وتدبر وروية.

وأسند - سبحانه - التلاوة إليه مع أن التالى فى الحقيقة جبريل - عليه السلام - للتنبيه على شرف هذه الآيات المتلوة، ولأن تلاوة جبريل إنما هى بأمر منه - سبحانه -

وقال - سبحانه - ﴿تلك آيات الله نتلوها﴾ فأظهر لفظ الجلالة ولم يقل تلك آياتنا نتلوها، ليكون التصريح باسمه - سبحانه - مربيا فى النفوس المهابة والإجلال له، إذ هو المستحق وحده لوصف الألوهية فلا إله سواه ولا معبود بحق غيره، وهو ذو الجلال والإكرام، وهو المنشيء الموجد لهذا الكون وما فيه ومن فيه.

فالتصريح باسمه - تعالى - يزيد البيان جلالا ويبعث فى النفوس الخشيةوالمراقبة والبعد عما يوجب العقاب والإقبال على ما يوصل إلى الثواب.

وقوله ﴿بالحق﴾ فى موضع الحال المؤكدة من الفاعل أو المفعول.

أى نتلوها عليك متلبسة بالحق أو متلبسين بالصدق أو العدل فى كل ما دلت عليه هذه الآيات ونطقت به، مما لا تختلف فيه العقول السليمة، والمدارك القويمة.

وقوله - تعالى ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ نفى للظلم بأبلغ وجه فإنه - سبحانه - لم ينف فقط الظلم عن ذاته بل نفى عن ذاته إرادة الظلم إذ هو أمر يليق به - سبحانه - ولا يتصور وقوعه منه.

وكيف يريد الظلم من منح هذا العالم كله الوجود، وخلق هذا الكون برحمته وقدرته وعدله؟

والظلم - كما يقول الراغب - وضع الشيء فى غير موضعه المختص به إما بزيادة أو بنقصان وإما بعدول عن وقته ومكانه، ومن هذا يقال: ظلمت السقاء إذا تناولته فى غير وقته،

وظلمت الأرض إذا حفرتها ولم تكن موضعًا للحفر.

قال بعض الحكماء : الظلم ثلاثة أنواع :

الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله - تعالى - وأعظمه الكفر والشرك والنفاق وإياه قصد -سبحانه- بقوله : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

والثانى: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله : ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ .

والثالث : ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله : ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾(١) والظلم الذى نفى إرادته - سبحانه - عن ذاته عام لا يخص نوعا دون نوع، إذ من المعروف عند علماء اللغة أن النكرة فى سياق النفى تعم، وهنا جاء لفظ الظلم منكرا فى سياق النفى وهو ما.

قال الجمل واللام فى قوله ﴿للعالمين﴾ زائدة لا تعلق لها بشىء زيدت فى مفعول المصدر وهو « ظلم » والفاعل محذوف. وهو فى التقدير ضمير البارىء - سبحانه - والمعنى ما الله يريد أن يظلم العالمين، فزيدت اللام تقوية للعامل كقوله ﴿فعال لما يريد﴾(٢).

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه هو المالك لكل شىء وأنه هو وحده الذى إليه تصير الأمور فقال : ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى له - سبحانه - وحده ما فيهما من المخلوقات ملكا وخلقا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبًا.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أى إلى حكمه وقضائه تعود أمور الناس وشئونهم فيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى، لأنه - سبحانه - منه المبدأ وإليه المآب فيجازى كل إنسان على حسب اعتقاده وعمله بدون ظلم أو محاباة.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت الناس من أهوال يوم القيامة الذى تبيض فيه وجوه وتسود وجوه وبينت الأسباب التى أدت إلى فوز من فاز وإلى شقاء من شقى، ونوهت بشأن الآيات التى أنزلها الله -تعالى- على نبيه ﷺ لتكون هداية للناس وصرحت بأن الله -تعالى- هو الخالق لكل شىء وإليه مرجع الأمور ومصيرها فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

وبعد أن أمر الله - تعالى - المؤمنين بالدعوة إلى الخير ونهاهم عن التفرق والاختلاف المفضى إلى العذاب العظيم يوم القيامة، وبين لهم أن مصير الأمور إليه بعد كل ذلك ساق لهم ما يقوى إيمانهم ويثبت يقينهم، بأن بشرهم بحسن العقبى متى استقاموا على أمره، وأمروا بالمعروف

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص٣١٦.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٣٠٣.

ونهوا عن المنكر، وأنذر الكافرين من أهل الكتاب بالهزيمة فى الدنيا، وبغضب الله - تعالى - فى الآخرة فقال - تعالى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

وقوله - تعالى - ﴿ كنتم﴾ يصح أن تكون من كان التامة التى بمعنى وجد وهى لاتحتاج إلى خبر فيكون المعنى وجدتم خير أمة أخرجت للناس، ويكون قوله ﴿خير أمة﴾ بمعنى الحال. وبهذا الرأى قال جمع من المفسرين.

ويصح أن تكون من كان الناقصة التى هى - كما يقول الزمخشرى - عبارة عن وجود الشىء فى زمان ماض على سبيل الإبهام وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارىء فيكون المعنى: قدرتم فى علم الله - تعالى - خير أمة أخرجت للناس.

ويجوز أن تكون بمعنى صار. أى تحولتم يا معشر المؤمنين الذين عاصرتم النبى ﷺ من جاهليتكم إلى أن صرتم خير أمة.

وقيل: إن «كان» هنا زائدة، والتقدير: أنتم خير أمة. ورد هذا القول بأن كان لا تزاد فى أول الكلام.

والظاهر أن الرأى الأول الذى يقول إن ﴿كنتم﴾ هنا من كان التامة هو أقرب الأقوال إلى الصواب «ويليه الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن «كنتم» هنا من «كان» الناقصة إلا أنها هنا تدل على تحقق شيء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لا حق.

والخطاب فى هذه الآية الكريمة بقوله - تعالى - ﴿كنتم﴾ للمؤمنين الذين عاصروا النبى ﷺ ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين.

ولذا قال ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة. كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم، كما قال - سبحانه - فى الآية الأخرى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾.

وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل هذه الأمة الإسلامية، منها: ما جاء فى مسند الإمام أحمد وفى سنن الترمذى وابن ماجه من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ - أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله - تعالى -»[1].

والمعنى: وجدتم يا معشر المسلمين العاملين بتعاليم الإسلام وآدابه وسننه وشريعته خير أمة أخرجت وأظهرت للناس، من أجل إعلاء كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل، ونشر الإصلاح والنفع فى الأرض.

وقوله ﴿خير أمة﴾ خبر كنتم على أنها من كان الناقصة.

وجملة ﴿أخرجت﴾ صفة لأمة، وقوله ﴿للناس﴾ متعلق بأخرجت، وحذف الفاعل من ﴿أخرجت﴾ للعلم به أى: خرجها الله - تعالى - لنفع الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

فالجملة الكريمة تنوه بشأن الأمة الإسلامية وتعلى من قدرها، فهل تعى الأمة الإسلامية هذا التنويه من شأنها وذلك الإعلاء من قدرها فتقوم بدورها الذى اختاره الله لها، وهو نشر كلمة التوحيد فى الأرض واحقاق الحق وإبطال الباطل شكرًا لله - تعالى - على جعله إياها خير أمة أخرجت للناس ؟؟.

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان، والفسوق والعصيان يدمى قلوب المؤمنين الصادقين، ويحملهم على أن يبلغوا رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٩١.

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فقال : ﴿تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

والمعروف : هو كل قول أو عمل حسنه الشرع، وأيدته العقول السليمة، والمنكر بعكسه.

والمعنى: وجدتم خير أمة أخرجت للناس، لانكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن فى الشرائع والعقول. ﴿وتنهون عن المنكر﴾ أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه أهل الإيمان القويم، والعقل السليم.

و ﴿تؤمنون﴾ بالله أى تصدقون وتذعنون بأنه لا معبود بحق سواه، وتخلصون له العبادة والخضوع، وتطيعونه فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه على لسان رسوله محمد ﷺ.

فأنت ترى أن الخيرية للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق أصلين أساسيين:

أولهما: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهما سياج الدين، ولا يمكن أن يتحقق بنيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما، فهما من الأسباب التى استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل تركهما، فقد أخرج أبو داود فى سننه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﷺ ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذون على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق اطرا - ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

وثانيهما: الإيمان بالله - تعالى - وبجميع ما أمر الله - تعالى - بالإيمان به.

هذان هما الأمران اللذان يجب أن يتحققا لتكون هذه الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لأن الأمة التى تهمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا تؤمن بالله لا يمكن أن تكون خير أمة بل لا توصف بالخيرية قط، لأنه لا خير إلا فى الفضائل والحق والعدل، ولا تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله وكثرة الدعاة إلى الخير والناهين عن الشر، ويكون لدعوتهم آثارها القوية التى تحيا معها الفضائل وتزول بها الرذائل.

وكأنه - سبحانه - قد أخر « الإيمان بالله » عن « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ليكون كالباعث عليهما لأنه لا يصبر على تكاليفهما ومتاعبهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله ويركن فى كفاحه إليه. فهذا الإيمان بالله هو الباعث للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، على أن يبلغوا رسالات الله، دون أن يخشوا أحدا سواه.

وقيل : إنما أخر الإيمان على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة كما هو الظاهر، لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهما أظهر فى الدلالة على الخيرية للأمة الإسلامية.

وجملة ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ يجوز أن تكون حالية من ضمير الخطاب فى ﴿كنتم﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة للتعليل، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازى، فقد قال :

« واعلم أن هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول. زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فههنا حكم الله - بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة. ثم ذكر عقيب هذا الحكم هذه الطاعات أعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والايمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبارات[(١)].

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق بضعة عشر حديثًا فى فضل هذه الأمة : فهذه الأحاديث فى معنى قوله - تعالى - ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح، كما قال قتادة، بلغنا أن عمر بن الخطاب رأى من الناس دعة فى حجة حجها فقرأ هذه الآية. ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها »، رواه ابن جرير ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ الآية[(٢)].

وبعد أن مدح - سبحانه - هذه الأمة على هذه الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال - تعالى - : ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ أى بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لكان خيرًا لهم﴾ أى لكان إيمانهم خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم ولنالوا الخيرية التى ظفرت بها الأمة الإسلامية ولكنهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ١٩١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٩٦

لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم لامتناع الإيمان الصحيح منهم، ولإيثارهم الضلالة على الهداية فهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ﴿كنتم خير أمة﴾.. ومرتبطة بها.

ولم يذكر متعلق ﴿آمن﴾ هنا لأن المراد لو اتصفوا بالإيمان الذى هو لقب وشعار للإيمان بدين الإسلام الذى أتى به محمد ﷺ، وهو الذى منه أطلقت صفة الذين آمنوا على المسلمين فصار كالعلم بالغلبة.

وقال - سبحانه - ﴿لكان خيرا لهم﴾ أى: لو آمنوا لكان إيمانهم خيرا لهم بدون تفصيل لهذه الخيرية لتذهب نفوسهم كل مذهب فى الرجاء والإشفاق.

ثم أخبر - سبحانه - بأن قلة من أهل الكتاب اختاروا الإيمان على الكفر فقال - تعالى - ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾.

أى: من أهل الكتاب أمة آمنت بالله وصدقت رسوله محمدا ﷺ واتبعت ماجاء به من الحق وأكثرهم معرضون عن الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وخارجون عن الطريق المستقيم الذى أمرت باتباعه الشرائع والعقول السليمة.

فالجملة الكريمة إنصاف للقلة المؤمنة التى آمنت من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وغيره ممن دخل فى الإسلام. وذم لأكثر أهل الكتاب الذين جحدوا الحق. وخرجوا عن الطريق القويم.

وقوله ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، فهى جواب للجملة الشرطية التى قبلها. فكأنه قيل: هل منهم من آمن أوكلهم على الكفر؟ فكان الجواب: منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون.

وعبر عن كفرهم بالفسق، للإشعار بأنهم قد فسقوا فى دينهم أيضا فهم ليسوا عدولا فيه، وبذلك يكونون قد خرجوا عن الإسلام وعما أوجبته عليهم كتبهم من الإيمان بمحمد ﷺ.

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين، بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب التى عتت عن أمر ربها وناصبت المؤمنين العداء، لن تضرهم ضررا بليغا له أثر مادام أهل الإيمان مستمسكين بدينهم ومنفذين لتعاليمه وآدابه، فقال - سبحانه - ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ أى «لن يضركم أهل الكتاب يا معشر المؤمنين إلا ضررا يسيرا، كأن يؤذوكم بألسنتهم ويلقوا الشبه بينكم ليصدوا من ضعف إيمانه عن الحق، وفى هذا تثبيت للمؤمنين، وطمأنينة لقلوبهم، إذ الضرر الذى يصيب الأمة الاسلامية من أعدائها على قسمين:

أولهما : ضرر يؤدى إلى هدم كيان الأمة، وإضعاف قوتها وإهدار كرامتها وجعل أمورها فى أيدى أعدائها تصرفها كيف تشاء.

وثانيهما : ضرر لا يؤثر فى كيان الأمة، ولا يؤدى إلى اضمحلال قوتها كالأذى بالقول، أو محاولة التأثير فى ضعاف الإيمان.

وقد نفى - سبحانه - أن يلحق المؤمنين ضرر يأتى على كيانهم من جهة أهل الكتاب فقال : ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ فأوقع الفعل المضارع فى حيز لن المفيدة للنفى - للإشارة إلى أن ذلك لا يكون فى المستقبل.

ولكن هذا النفى لهذا النوع من الضرر مشروط بمحافظة الأمة الإسلامية على الأصلين السابقين وهما «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله».

فإذا أرادت أمة الاسلام ألا تصاب من جهة أهل الكتاب بما يأتى على كيانها، فعليها أن تخلص العبادة لربها، وأن تعمل بسنة نبيها، وأن تتقيد بأحكام كتابها، وأن تباشر الأسباب التى شرعها خالقها للنصر على أعدائها.

أما إذا تركت أمة الإسلام ما أمرها الله - تعالى - به وتجاوزت مانهاها عنه فإنها فى هذه الحالة قد تصاب من أعدائها بما يؤثر فى كيانها وتكون هى الجانية على نفسها بمخالفتها لأوامر الله ونواهيه.

هذا، وأكثر العلماء على أن الاستثناء فى قوله ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ متصل وأنه استثناء مفرغ من المصدر العام كأنه قيل : لن يضروكم ضررا ألبتة إلا ضرر أذى لا يبالى به من كلمة سوء ونحوها.

وقيل هو استثناء منقطع لأن الأذى ليس من الضرر : أى لن يضروكم بقتال وغلبة لكن بكلمة أذى ونحوها.

ورجح الأول، لأن الكلام إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقى لم يجز صرفه عن ذلك إلى الاستثناء المنقطع وهنا الأذى مهما قل هو نوع من الضرر وإن لم يترك أثرًا.

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ببشارة أخرى فقال : ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾.

تولية الأدبار : كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يحول ظهره ودبره إلى جهة الذى هزمه هربا إلى ملجأ يلجأ إليه ليدفع عن نفسه القتل أو الأسر.

والمعنى، إن أهل الكتاب لن يضروكم يا معشر المؤمنين إلا ضررا يسيرًا لا يبقى أثره فيكم

- مادمتم مستمسكين بدينكم -، فإن قاتلوكم وأنتم على هذه الحال، أمدكم الله بنصره، وألقى فى قلوبهم الرعب فيولونكم الأدبار انهزاما منكم، ثم لا ينصرون عليكم بل تنصرون أنتم عليهم.

والتعبير عن الهزيمة بتولية الأدبار، فيه إشارة إلى جبنهم وأنهم يفرون فرارا شديدا بذعر وهلع.

وهكذا كان الشأن فى قتال المسلمين الأولين لأعداء الله وأعدائهم، فلقد قاتل المؤمنون اليهود من بنى قينقاع والنضير وقريظة وأهل خيبر فانتصر المسلمون عليهم انتصارًا باهرًا.

وقاتلوا جموع الروم فى بلاد الشام وفى مصر، فكان النصر المؤزر حليفا للمسلمين مع قلتهم وكثرة أعدائهم.

وقوله ﴿ثم لا ينصرون﴾ احتراس. أى: يولونكم الأدبار تولية المنهزم، لا تولية المتحرف لقتال أو المتحيز إلى فئة أو المتأمل فى الأمر.

والتعبير ﴿بثم﴾ لإفادة التراخى فى المرتبة: لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الأدبار.

وهذه الجملة خبرية وهى معطوفة على جملتى الشرط وجزائه معا، للإشعار بأن هذا ديدنهم، وأنهم لن ينتصروا على المسلمين لا فى قتال ولا فى غيره، مادام المسلمون مستقيمين على الطريقة التى رسمها الله - تعالى - لهم.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: فإن قلت: هلا جزم المعطوف فى قوله ﴿ثم لا ينصرون﴾؟ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الاخبار إبتداء كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون.

فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى؟ قلت لو جزم لكان النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال. ثم شأنهم وقصتهم التى اخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولايستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر فإن قلت: فما الذى عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لاينصرون. فإن قلت فما معنى التراخى فى ثم؟ قلت: التراخى فى المرتبة، لأن الاخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار فإن قلت: ما موقع الجملتين، أعنى ﴿منهم المؤمنون﴾ و ﴿لن يضروكم﴾ قلت هما كلامان واردان

على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت ولذلك جاءا من غير عطف»[١].

فأنت ترى الآية الكريمة قد بشرت المؤمنين الصادقين ببشارات ثلاث :

أولها : أنهم فى مأمن من الضرر البليغ الذى يؤثر فى كيانهم وعزتهم وكرامتهم من جهة أهل الكتاب.

ثانيها : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم.

ثالثها : أنهم بعد نصرهم عليهم لن تكون لأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد ذلك.

وقد تحققت هذه البشارات، وكانت كما أخبر الله - تعالى - فإن المسلمين الأولين الذين كانوا متمسكين بتعاليم دينهم نصرهم الله - تعالى - على أهل الكتاب وعلى غيرهم من أعدائهم نصرا مؤزرا - كما سبق أن أشرنا -

فإن قال قائل : ولكن الذى نراه الآن أن اليهود الذين لا يمارى أحد فى جبنهم وفى حرصهم على الحياة قد انتصروا على المسلمين وأقاموا لهم دولة فى بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهى فلسطين فهل يخلف وعد الله ؟

والجواب على ذلك. أن وعد الله - تعالى - لا يخلف ولن يتخلف وقد حققه - سبحانه - لأسلافنا الصالحين الذى آمنوا به حق الإيمان. ولكن المسلمين فى هذا العصر هم الذين تغيرت أحوالهم، فقد فرطوا فى دينهم وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وتفرقوا شيعًا وأحزابًا وتنكبوا الطريق القويم ولم يباشروا الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لبلوغ النصر، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية.

فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر، ومن القوة إلى الضعف. وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم، لأنه - سبحانه - ﴿لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

وإذا ما عاد المسلمون إلى دينهم فطبقوا أوامره ونواهيه على أنفسهم تطبيقا كاملا، فإن الله -تعالى- سيعيد لهم كرامتهم وعزتهم وقوتهم ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[٢].

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٠١.
(٢) سورة الحج الآية ٤٠

ومن هنا نعلم أن الشرط فى نفى الضرر الذى يؤثر فى الأمة الإسلامية، هو أن تكون مؤمنة بربها حق الإيمان متبعة لهدى رسولها محمد ﷺ.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العقوبات التى عاقب بها اليهود بسبب كفرهم وظلمهم فقال: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾.

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة يقال ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا المعنى معان مجازية أخرى ترجع إلى شدة اللصوق.

والذلة على وزن فعلة من قول القائل: ذل فلان يذل ذلة وذلا. والمراد بها الصغار والهوان والحقارة.

فضرب الذلة عليهم كناية عن لزومها لهؤلاء اليهود، وإحاطتها بهم، كما يحيط السرادق بمن يكون فى داخله.

قال صاحب الكشاف: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم كمن يكون فى القبة من ضربت عليه، أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه. فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة»[1].

و ﴿ثقفوا﴾ أى وجدوا، أو ظفر بهم. يقال: ثقفه أى صادفه أو ظفر به أو أدركه. وهذه المادة تدل على التمكن من أخذ الشىء ومن التصرف فيه بشدة ومنها سمى الأسير ثقافا. والثقاف آلة تكسر بها أغماد الرماح.

والحبل: هو ما يربط بين شيئين ويطلق على العهد لأن الناس يرتبطون بالعهود: كما يقع الارتباط الحسى بالحبال، وهذا الإطلاق هو المراد هنا.

ولذا قال ابن جرير: وأما الحبل الذى ذكره الله - تعالى - فى هذا الموضوع، فإنه السبب الذى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم من عهد وأمان تقدم لهم عقده قبل أن يثقفوا فى بلاد الإسلام[2].

والمعنى: أن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا إلا فى حال اعتصامهم بعهد من الله أو بعهد من الناس.

وقد فسر العلماء عهد الله بعقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٤٨.

وإنما كان عقد الجزية عهدا من الله لهم، لأنه - سبحانه - هو الذى شرعه، وما شرعه الله فالوفاء به واجب.

وكان عهدا من المسلمين لهم، لأنهم أحد طرفيه، فهم الذين باشروه مع اليهود وبمقتضاه يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم؛ ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وعلى المسلمين حمايتهم، وصون أموالهم لقاء مقدار من المال يدفع لهم كل عام وهو المسمى بالجزية.

وأما عهد الناس، فهو العهود التى يعيشون بمقتضاها فى أى أمة من أمم الأرض مسلمة كانت هذه الأمة أو كافرة.

فإن كانت العهود صادرة من المسلمين، جاز أن يطلق عليها عهد الله - أيضًا - باعتبار أن الله هو الذى شرعها.

وإن كانت من غير المسلمين فهى عهود من الناس سواء أوافقت شريعة الله تعالى - أم لا.

والمعنى الإجمالى للآية: أن اليهود قد ضرب الله - تعالى - عليهم الذلة والمسكنة فى كل زمان ومكان بسبب كفرهم وطغيانهم، وسلب عنهم السلطان والملك، فهم يعيشون فى بقاع الأرض فى حماية غيرهم من الأمم الأخرى، بمقتضى عهود يعقدونها معهم وقد تكون هذه العهود موافقة لشرع الله - تعالى - وقد لا تكون موافقة.

فإن قال قائل: إنهم الآن أصحاب جاه وسلطان، بعد أن أنشأوا دولتهم بفلسطين!!

والجواب: أنهم مع قيام هذه الدولة يعيشون تحت حماية غيرهم من دول الكفر الكبرى. فهى التى تحميهم وتمدهم بأسباب الحياة والقوة، فينطبق على هذه الحالة - أيضًا - أنها بحبل من الناس. فاليهود لا سلطان لهم، ولا عزة تكمن فى نفوسهم، ولكنهم مأمورون مسخرون أن يعيشوا فى تلك البقعة من الأرض لتكون مركزا لتلك الأمم التى تعهدت بحمايتهم ليقفزوا منها إلى محاربة المسلمين، إذا أتيحت لهم فرصة.

ولو أن المسلمين غيروا ما بأنفسهم، وتمسكوا بشريعتهم، واجتمعت قلوبهم، وتوحدت أهدافهم، وأحسنوا الشعور بالمسئولية نحو دينهم وأنفسهم وأوطانهم، وأعدوا ما استطاعوا من قوة لقتال أعداء الله وأعدائهم..

لو أنهم فعلوا ذلك لما كان حالهم كما ترى الآن من ضعف وتخاذل وتفرق والأمل كبير فى أن يتنبه المسلمون إلى ما يحيط بهم من أخطار فيعملوا على دفعها ويعتصموا بحبل الله لتعود لهم قوتهم وهيبتهم.

هذا، وقوله: ﴿أينما﴾ اسم شرط، وهو ظرف مكان و«ما» مزيدة فيها للتأكيد.

وقوله ﴿ثقفوا﴾ فى محل جزم بها.

وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أى: أينما ثقفوا غلبوا أو ذلوا.

ويجوز أن يكون جواب الشرط قوله ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ عند من يجوز تقديم جواب الشرط على الشرط.

والاستثناء فى قوله ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ مفرغ من عموم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا فى حال اعتصامهم بحبل من الله وحبل من الناس.

ثم ذكر -سبحانه- عقوبتين أخريين أنزلهما بهم جزاء كفرهم وتعديهم لحدوده فقال تعالى: ﴿وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾.

قال ابن جرير: قوله - تعالى - ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ أى انصرفوا ورجعوا. ولا يقال باؤوا، إلا موصولا إما بخير وإما بشر. يقال منه: باء فلان بذنبه يبوءبه بوأ وبواء. ومنه قوله - تعالى - ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ يعنى تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دونى. فمعنى الكلام إذا: ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط»[1].

والمسكنة: مفعلة من السكون، ومنها أخذ لفظ المسكين. لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض لما به من الفاقة والفقر.

والمراد بها فى الآية الكريمة الضعف النفسى، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص فيجعله يحس بالهوان مهما تكن لديه من أسباب القوة.

والفرق بينها وبين الذلة: أن الذلة تجىء أسبابها من الخارج. كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو.

أما المسكنة فهى تنشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق، واستيلاء المطامع والشهوات وحب الدنيا عليها.

والمعنى: أن هؤلاء اليهود بجانب ضرب الذلة عليهم حيثما حلوا، قد صاروا فى غضب من الله، وأصبحوا أحقاء به، وضربت عليهم كذلك المسكنة التى تجعلهم يحسون بالصغار مهما ملكوا من قوة ومال.

ثم ذكر - سبحانه - الأسباب التى جعلتهم أحقاء بهذه العقوبات فقال - تعالى - : ﴿ذلك

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٥١.

بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

فاسم الإشارة ذلك يعود إلى تلك العقوبات العادلة التى عاقبهم الله بها بسبب كفرهم وفسقهم.

والآيات: تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله - تعالى - وربوبيته وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى -، وهى التى يسميها علماء التوحيد بالمعجزات.

وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات ومردوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع ﴿يكفرون﴾.

أى: ذلك الذى أصابهم من عقوبات رادعة، سببه أنهم كانوا يكفرون بآيات الله وأدلته الدالة على وحدانيته وعلى صدق رسله - عليهم الصلاة والسلام - وتلك هى جريمة بنى إسرائيل الأولى.

أما جريمتهم الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أى أنهم لم يكتفوا بالكفر، بل امتدت أيديهم الأثيمة إلى دعاة الحق وهم أنبياء الله - تعالى - الذين أرسلهم لهدايتهم فقتلوهم بدون أدنى شبهة تحمل على الإساءة إليهم فضلا عن قتلهم.

وقال - سبحانه - ﴿بغير حق﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدا. لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه.

قال - تعالى - ﴿من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾[1].

فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم، وتخليد مذمتهم، وتقبيح إجرامهم حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم، أو تأول فى الحكم أو شبهة فى الأمر، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا، ومخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، فما فائدة ذكره؟ قلت: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم.

فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم[2]

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٢.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ٢١٧

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن : قيل : قال هنا : ﴿يقتلون الأنبياء بغير حق﴾ وقال فى سورة البقرة ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ فما الفرق؟ قلت : إن الحق المعلوم بين المسلمين الذى يوجب القتل يتجلى فى حديث : «لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق». فالحق المذكور فى سورة البقرة إشارة إلى هذا. وأما الحق المنكر هنا فالمراد به تأكيد العموم أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه، لا هذا الذى يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة(١).

ونسب - سبحانه - القتل إلى أولئك اليهود المعاصرين للعهد النبوى مع أن القتل قد صدر عن أسلافهم، لأن أولئك المعاصرين كانوا راضين بفعل آبائهم وأجدادهم، فصحت نسبة القتل إليهم، ولأن بعض أولئك المعاصرين قد هَمَّ بقتل النبى ﷺ فكف الله - تعالى - أيديهم الأثيمة عنه.

ثم سجل الله - تعالى - جريمتهم الثالثة بقوله ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾

العصيان : الخروج عن طاعة الله، والاعتداء : تجاوز الحد الذى حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره وكل متجاوز حد شىء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه.

وللمفسرين فى مرجع اسم الإشارة ﴿ذلك﴾ فى قوله ﴿ذلك بما عصوا﴾ رأيان :

أولهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم لأنبيائه، وعليه يكون المعنى :

إن هؤلاء اليهود قد ألفوا العصيان لخالقهم والتعدى لحدوده بجرأة وعدم مبالاة، فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه، وباشروا تلك الكبائر بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة.

والجملة الكريمة على هذا الرأى تفيد أن التردى فى المعاصى، وارتكاب ما نهى الله عنه، وتجاوز الحدود المشروعة، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها ومن حقيرها إلى عظيمها لأن هؤلاء اليهود حين استمرأوا المعاصى، هانت على نفوسهم الفضائل. وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا فكذبوا بآيات الله تكذيبا، وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق.

وثانيهما : أن اسم الإشارة ﴿ذلك﴾ فى قوله ﴿ذلك بما عصوا﴾ يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول وهو قوله ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون﴾.

وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه، حرصًا على معرفته، ويكون العصيان

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٣٩٠

والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم واستحقاقهم لغضب الله كما أشرنا من قبل.

والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى قوله - تعالى - ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

والمعنى: أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا وقتلهم أنبياءنا وخروجهم عن طاعتنا، وتعديهم حدودنا.

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته. ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته، ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء وتخطى الحدود، وعدم المبالاة بالعهود.

وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام مشفوعة بعللها وأسبابها.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بدأت حديثها بمدح الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس، ثم ثنت بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وبإخبار المؤمنين بأن أعداءهم لن يضروهم ضررا يؤثر فى كيانهم ماداموا معتصمين بتعاليم دينهم، ثم ختمت حديثها ببيان العقوبات التى حلت باليهود بسبب كفرهم وبغيهم.

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أهل الكتاب، وعن العقوبات التى أنزلها - سبحانه - باليهود بسبب فسقهم وظلمهم، بعد كل ذلك ساق - سبحانه - آيات كريمة تمدح من يستحق المدح من أهل الكتاب إنصافا لهم وتكريما لذواتهم فقال - تعالى:

لَيْسُوا سَوَاءً

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

فالضمير فى قوله - تعالى - ﴿ليسوا سواء﴾ يعود لأهل الكتاب الذين تقدم الحديث عنهم وهو اسم ليس، وخبرها قوله ﴿سواء﴾ والجملة مستأنفه للثناء على من يستحق الثناء منهم بعد أن وبخ القرآن من يستحق التوبيخ منهم.

قال ابن كثير: والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم. أى لايستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال - تعالى - ﴿ليسوا سواء﴾ أى ليسوا كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم[1].

وقوله - تعالى - ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ استئناف مبين لكيفية عدم التساوى ومزيل لما فيه من إيهام

أى : ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه.

فمعنى قائمة. مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام.

أو معناها : ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به، كما فى قوله - تعالى - ﴿إلا مادمت عليه قائما﴾ أى ملازما لمطالبته بحقك. ومنه قوله - تعالى - ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ أى ملازما له.

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التى وصفها الله - تعالى - بأنها ﴿أمة﴾ قائمة أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه فى السر والعلن، كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والنجاشى ومن آمن معه من النصارى. فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم.

ثم تابع القرآن حديثه عن أوصافهم الكريمة فقال ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾.

وقوله ﴿يتلون﴾ من التلاوة وهى القراءة، وأصل الكلمة من الإتباع، فكأن التلاوة هى اتباع اللفظ اللفظ.

والمراد بآيات الله هنا : ماأنزله على رسوله محمد ﷺ من قرآن.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٩٧.

وقوله : ﴿آناء الليل﴾ أى أوقاته وساعاته. والآناء جمع إِنَىً -كمعًا وأمعاء -أو جمع أَنَىً -كعصًا-، أو جمع أَنىً وإِنى وإِنو. فالهمزة فى آناء منقلبة عن ياء كرداء : أو عن واو ككساء.

والمراد بالسجود فى قوله : ﴿وهم يسجدون﴾ الصلاة لأن السجود لا قراءة فيه وإنما فيه التسبيح، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدًا فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم».

والمعنى : ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه، وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل وأطراف النهار.

قال الآلوسى ما ملخصه. والمراد بصلاتهم هذه التهجد - على ما ذهب إليه البعض -. وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تتيسر لهم التلاوة، لأنها فى المكتوبة وظيفة الإمام.

والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة. واستدل عليه بما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : «أما إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب». وعبر عن الصلاة بالسجود، لأنه أدل على كمال الخضوع والصلاة تسمى سجودا وسجدة، وركوعا وركعة(١).

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال : ﴿يؤمنون بالله﴾ والمراد بهذا الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول الذى نطق به الشرع، وجاء به محمد ﷺ.

﴿واليوم الآخر﴾ أى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وقوله : ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ إشعار بأنهم لم يكتفوا بتكميل أنفسهم بالفضائل التى من أشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن، بل أضافوا إلى ذلك إرشاد غيرهم إلى الخير الذى أمر الله به، ونهيه عن الباطل الذى يبغضه الله، وتستنكره العقول السليمة.

وقوله - تعالى - ﴿ويسارعون فى الخيرات﴾ أى يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التى ترفع درجاتهم عند الله - تعالى - بدون تردد أو تقصير

وقال - سبحانه - : ﴿ويسارعون فى الخيرات﴾ ولم يقل إلى الخيرات للإشعار بأنهم

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٣٤.

مستقرون فى كل أعمالهم فى طريق الخير، فهم ينتقلون من خير إلى خير فى دائرة واحدة هى دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها. فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير. وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير بفى المفيدة للظرفية.

والمسارعة فى الخير هى فرط الرغبة فيه، لأن من رغب فى الأمر يسارع فى توليه وفى القيام به، واختيار صيغة المفاعلة «يسارعون» للمبالغة فى سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير، وألوان البر.

قال صاحب الكشاف. وقوله: ﴿يتلون﴾ و ﴿يؤمنون﴾ فى محل الرفع صفتان لأمة. أى: قائمة تالون مؤمنون. وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان، لاشراكهم به عزيرا، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض: ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته. ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسارعة فى الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها»(١).

واسم الإشارة فى قوله: ﴿وأولئك من الصالحين﴾ يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات السابقة من تلاوة الكتاب ومن إيمان بالله واليوم الآخر..

أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم، واستحقوا ثناءه عليهم.

وفى التعبير بقوله: ﴿من الصالحين﴾ إشارة إلى أنهم بهذه المزايا وتلك الصفات، قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى - ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين.

فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين.

قال الفخر الرازى: وأعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول. أما القرآن، فهو أن الله - تعالى - مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم ﴿وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين﴾.

وذكر حكاية عن سليمان أنه قال: «وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين». وأما المعقول، فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغى أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك فى العقائد

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٠٣.

أو فى الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغى أن يكون فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات[١].

ثم بين - سبحانه- أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال صالحة، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أى أن هؤلاء الذين وصفهم بتلك الصفات الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح، وإنما سيجازيهم بما هم أهله من ثواب جزيل، وأجر كبير بدون أى نقصان أو حرمان.

و﴿ما﴾ فى قوله: ﴿وما يفعلوا من خير﴾ شرطية. وفعل الشرط قوله: ﴿يفعلوا﴾ وجوابه قوله: ﴿فلن يكفروه﴾.

و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من خير﴾ لتأكيد العموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلا أم كثيرا فلن يحرموا ثوابه.

وأصل الكفر: الستر والتغطية. وقد صح تعدية الفعل كفر إلى مفعولين لأنه هنا بمعنى حرم.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد تقول: شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل: فلن يحرموه بمعنى: فلن يحرموا جزاءه»[٢].

وقوله: ﴿والله أعلم بالمتقين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله. أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى المتقين بما يستحقون من ثواب، وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة.

وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق. وأنهم يتلون آيات آناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يأمرون بالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر. وأنهم يسارعون فى الخيرات، وأنهم من الصالحين.

ثم بشرهم - سبحانه - بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرموا ثوابه، لأنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٢٠٣.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٠٣.

وبعد هذا الحديث المؤثر عن أحوال المؤمنين من أهل الكتاب وبيان ما أعده الله لهم من ثواب جزيل، أتبعه بالحديث عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

والمراد بالذين كفروا فى قوله : ﴿إن الذين كفروا﴾ جميع الكفار، لأن اللفظ عام، ولا دليل يقتضى تخصيصه بفريق من الكافرين دون فريق. والمراد من الإغناء فى قوله : ﴿لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا﴾ الدفع وسد الحاجة يقال : أغنى فلان فلانا عن هذا الأمر، إذا كفاه مؤنته، ورفع عنه ما أثقله منه.

أى : إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به، واغتروا بأموالهم وأولادهم فى الدنيا، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا - ولو يسيرا - من عذاب الله الذى سيحيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم.

وقد أكد - سبحانه - عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئًا - فى وقت هم فى أشد الحاجة إلى من يعينهم ويدفع عنهم - بحرف «لن» المفيد لتأكيد النفى وخص الأموال والأولاد بالذكر، لأن الكفار كانوا أكثر ما يكونون اغترارًا بالأموال والأولاد، وقد حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم فى كثير من الآيات، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادًا وما نحن بمعذبين﴾(١).

(١) سورة سبأ الآية ٣٥.

ولأن من المتعارف عليه بين الناس أن الإنسان يلجأ إلى ماله وولده عند الشدائد، إذ المال يدفع به الإنسان عن نفسه فى الفداء وما يشبهه من المغارم، والأولاد يدافعون عن أبيهم لنصرته ممن يعتدى عليه.

وكرر حرف النفى مع المعطوف فى قوله : ﴿ولا أولادهم﴾، لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم، ولدفع توهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم.

فالمقصود من الجملة الكريمة نفى الانتفاع بالأموال والأولاد فى حالة اجتماعهما، وفى حالة انفراد أحدهما عن الآخر، لأن المال قد يكون أكثر نفعا فى مواضع خاصة، والأولاد قد يكونون أكثر نفعا من المال فى مواطن أخرى، فبتكرار النفى تأكد عدم انتفاع الكفار بهذين النوعين فى أية حال من الأحوال.

فإن قيل : لقد نص القرآن على أن الكفار لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة، مع أن المؤمنين كذلك لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم فلماذا خص الكافرين بالذكر؟.

فالجواب أن الكافرين هم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم، وهم الذين اعتقدوا أنهم سينجون من العقاب بسبب ذلك، أما المؤمنون فإنهم لم يعتقدوا هذا الاعتقاد، ولم يغتروا بما منحهم الله من نعم، وإنما اعتقدوا أن الأموال والأولاد فتنة، ولم يعتمدوا فى نجاتهم من عقاب الله يوم القيامة إلا على فضله ورحمته، وعلى إيمانهم الصادق، وعملهم الصالح.

و﴿من﴾ فى قوله : ﴿من الله﴾ ابتدائية، والجار والمجرور متعلق بتغنى.

وقوله : ﴿شيئًا﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق أى : لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الاغناء والدفع. وتنكير ﴿شيئًا﴾ للتقليل.

وقوله : ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ تذييل قصد به بيان سوء عاقبتهم، وما أعد لهم من عذاب شديد.

أى وأولئك الكافرون المغترون بأموالهم وأولادهم، هم أصحاب النار الذين سيلازمونها ويصلون سعيرها، ولن يصرفهم من عذاب الله أى ناصر من أموال أو أولاد أو غيرهما.

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم العادل بعدة مؤكدات منها : التعبير باسم الإشارة المتضمن السلب من كل قوة كانوا يعتزون بها، ومنها : ذكر مصاحبتهم للنار وخلودهم فيها أى ملازمتهم لها ملازمة أبدية، ومنها : ما اشتملت عليه الجملة الكريمة من معنى القصر أى أولئك أصحاب النار الذين يلازمونها ولا يخرجون منها إلى غيرها بل هم خالدون فيها.

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لبطلان ما كان ينفقه هؤلاء الكافرون من أموال فى الدنيا فقال :

﴿مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا﴾ أى من أموال فى وجوه الخير المختلفة، كمواساة البائسين، ودفع حاجة المحتاجين.

و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف، والتقدير، مثل ما ينفقونه.

﴿كمثل ريح فيها صر﴾ أى كمثل ريح فيها برد شديد قاتل للنبات. وقيل: الصر. الحر الشديد، وقيل الصر: صوت لهيب النار التى تحرق الثمار.

وذكر - سبحانه - الصر على أنه فى الريح، وأنها مشتملة عليه، وهى له ظرف وهو مظروف، للاشعار بأنها ريح لا تحمل عوامل النماء للزرع، وإنما هى تحمل معها ما يهلكه.

وقوله: ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أى أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى فدمرته وأهلكت ما فيه من ثمار وهم أحوج ما يكونون إلى هذا الزرع وتلك الثمار.

والحرث هنا مصدر بمعنى المحروث، وأصل كلمة حرث: فلح الأرض وإلقاء البذر فيها، ثم أطلقت على ما هو نتيجة لذلك وهو الزرع.

وفى التعبير بقوله: ﴿ظلموا أنفسهم﴾ تذكير للسامعين، وبعث لهم على ترك الظلم، حتى لا يصابوا بمثل ما أصيب به أولئك الذين ظلموا أنفسهم من عقوبات رادعة، وأضرار فادحة.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ أى أن الله -تعالى- ما ظلمهم حين لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان، ومن كان كذلك فلن يقبل الله منه شيئًا؛ لأن الله تعالى، إنما يتقبل من المتقين.

والضمائر فى هذه الجملة الكريمة تعود على أولئك الكافرين الذين ينفقون أموالهم مقرونة بالوجوه المانعة من قبولها.

وفى هذه الآية الكريمة تشبيه بليغ، فقد شبه - سبحانه - حال ما ينفقه الكفار فى الدنيا -على سبيل القربة أوالمفاخرة- شبه ذلك فى ضياعه وذهابه وقت الحاجة إليه فى الآخرة من غير أن يعود عليهم بفائدة، بحال زرع لقوم ظالمين، أصابته ريح مهلكة فاستأصلته، ولم ينتفع أصحابه منه بشىء، وهم أحوج ما يكونون إليه.

قال صاحب الانتصاف: أصل الكلام - والله أعلم - مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا، كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم، فأصابته ريح فيها صر فأهلكته.

ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة. وهى تقديم ما هو أهم لأن الريح التى هى مثل العذاب، ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث.

فقدمت عناية بذكرها، واعتمادًا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه ومثل هذا فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله - تعالى - : ﴿فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما﴾ ومثله - أيضا - . اعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه. والأصل أن تذكر إحداهما الأخرى وإن ضلت. وأن أدعم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة»[1].

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين أكمل بيان وأحكمه، حذر المؤمنين من أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ممن لا يريدون للإسلام إلا الشرور والمضار فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلفوا فى الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم؟ فقيل هم اليهود، لأن بعض المسلمين كانوا يشاورونهم فى أمورهم ويؤانسونهم لما كان فيهم من

(١) الانتصاف على الكشاف للشيخ أحمد بن المنير جـ١ ص٤٠٥.

الرضاع والحلف. وقيل هم المنافقون، وذلك لأن بعض المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوالهم فيفشون إليهم الأسرار والصحيح أن المراد بهم جميع أصناف الكفار، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿بطانة من دونكم﴾ فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين، فيكون ذلك نهيا عن جميع الكفار»(١).

والبطانة فى الأصل: داخل الثوب، وجمعها بطائن. قال - تعالى - : ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾(٢). وظاهر الثوب يسمى الظهارة، والبطانة - أيضًا - الثوب الذى يجعل تحت ثوب آخر ويسمى الشعار، وما فوقه الدثار وفى الحديث «الأنصار شعار والناس دثار».

ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل وصفيه الذى يطلع على شئونه الخفية تشبيها ببطانة الثياب فى شدة القرب من صاحبها. قال الشاعر:

أولئك خلصائى نعم وبطانتى ... وهم عيبتى من دون كل قريب

وقوله: ﴿من دونكم﴾ أى من غير أهل ملتكم.

والمعنى: لا يجوز لكم - أيها المؤمنون - أن تتخذوا من غير أهل ملتكم أصفياء وأولياء تلقون إليهم بأسراركم التى لا يصح لكم أن تطلعوهم عليها، لأنكم لو فعلتم ذلك لأصابكم الضرر فى دينكم ودنياكم.

قال القرطبى: «نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء، يفاوضونهم فى الآراء ويسندون إليهم أمورهم. وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». وقيل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إن هٰهنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين».

ثم قال القرطبى - رحمه الله - : قلت وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء. روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه. وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه، والمعصوم من عصمه الله»(٣).

وصدر - سبحانه - النداء بوصف الإيمان، للإشعار بأن مقتضى الإيمان يوجب عليهم ألا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٢١٠.
(٢) سورة الرحمن الآية ٥٤.
(٣) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٧٨ بتلخيص.

يأمنوا من يخالفهم فى عقيدتهم على أسرارهم، وألا يتخذوا أعداء الله وأعداءهم أولياء يلقون إليهم بالمودة، وألا يطلعوهم على ما يجب إخفاؤه من شئون وأمور خاصة بالمؤمنين وقوله: ﴿من دونكم﴾ يجوز أن يكون صفة لبطانة فيكون متعلقًا بمحذوف، أى لا تتخذوا بطانة كائنة من غيركم. ويجوز أن يكون متعلقا بقوله: ﴿لا تتخذوا﴾ أى لا تتخذوا من غير أهل ملتكم بطانة تصافونهم وتطلعونهم على أسراركم.

ثم ذكر - سبحانه - جملة من الأسباب التى تجعل المؤمنين يمتنعون عن مصافاة هؤلاء الذين يخالفونهم فى عقيدتهم فقال فى بيان أول هذه الأسباب: ﴿لا يألونكم خبالا﴾ وأصل «الألو»: التقصير. يقال: ألا فى الأمر - كغزا - يألو ألوًا وألوا، إذا قصر فيه، ومنه قول امرىء القيس:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

أراد ولا مقصر، وهو - أى الفعل «يألو» من الأفعال اللازمة التى تتعدى إلى المفعول بالحرف، وقد يستعمل متعديا إلى مفعولين كما فى قولهم: لا آلوك نصحًا، على تضمين الفعل معنى المنع. أى لا أمنعك ذلك.

والخبال: الشر والفساد. وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فسادا واضطرابًا. يقال خبله وخبله فهو خابل. والجمع الخبل ورجل مخبل إذا أصيب بمرض أورثه اضطرابًا وفسادًا فى قواه العقلية والفكرية.

والمعنى: أنهاكم - أيها المؤمنون - عن أن تتخذوا أولياء وأصفياء لكم من غير إخوانكم المؤمنين، لأن هؤلاء الأولياء من غير إخوانكم المؤمنين، لا يقصرون فى جهد يبذلونه فى إفساد أمركم، وفيما يورثكم شرا وضرا. أو لا يمنعونكم خبالا، أى أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ولا يبقون شيئًا منه عندهم، بل يبذلون قصارى جهدهم فى إلحاق الضرر بكم فى دينكم ودنياكم.

وقوله: ﴿لا يألونكم خبالا﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى اجتنابهم. أو صفة لقوله: ﴿بطانة﴾.

وقوله: ﴿خبالا﴾ منصوب على أنه المفعول الثانى ليألونكم لتضمينه معنى يمنعونكم. ويصح أن يكون منصوبا بنزع الخافض أى لا يقصرون لكم عن جهد فيما يورثكم شرا وفسادا.

أما السبب الثانى الذى يحمل المؤمنين على اجتناب هؤلاء الضالين فقد بينه - سبحانه - بقوله: ﴿ودوا ما عنتم﴾.

وقوله : ﴿ودوا﴾ من الود وهو المحبة. يقال : وددت كذا أى أحببته.

وقوله : ﴿عنتم﴾ من العنت وهو شدة الضرر والمشقة. ومنه قوله - تعالى - : ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أى لأوقعكم فيما يشق عليكم.

و ﴿ما﴾ فى قوله : ﴿ما عنتم﴾ هى ما المصدرية. أى : أن هؤلاء الذين تصافونهم وتفشون إليهم أسراركم مع أنهم ليسوا على ملتكم، بجانب أنهم لا يألون جهدا فى إفساد أمركم، فإنهم يحبون عنتكم ومشقتكم وشدة ضرركم، وتفريق جمعكم، وذهاب قوتكم.

فالجملة الأولى وهى قوله : ﴿لا يألونكم خبالا﴾ بمنزلة المظهر والنتيجة، وهذه. أى قوله تعالى : ﴿ودوا ما عنتم﴾ بمنزلة الباعث والدافع.

فهم لا يودون للمسلمين الخير والاطمئنان والأمان، وإنما يودون لهم الشقاء والشرور والخسران. وليس بعاقل ذلك الذى يطلع من يريد له الشرور على أسراره ودخائله.

وأما السبب الثالث الذى يدعو المؤمنين إلى اجتنابهم فقد بينه الله - تعالى - بقوله : ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر﴾.

والبغضاء مصدر كالسراء والضراء، وهى البغض الشديد المتمكن فى النفوس، والثابت فى القلوب.

أى : قد ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم، وطفح البغض الباطن فى قلوبهم لكم حتى خرج من أفواههم، ولاح على صفحات وجوههم، وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان. ومع هذا فإن ما تخفيه نفوسهم المريضة لكم من أحقاد وإحن، أكبر مما نطقت به ألسنتهم من بغضاء، إذ أن ما نطقوا به إنما هو بمثابة الرشح الذى ظهر من مسام أجسادهم وقلوبهم، أما ما يبيتونه لكم من شرور وآثام فهو أكبر من ذلك بكثير.

وخص الأفواه بالذكر دون الألسنة. للإشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم فى أقوالهم الباطلة، فهم أشد جرما من المتستر الذى تبدو البغضاء فى عينيه.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مظهر من مظاهر فضله على المؤمنين حيث كشف لهم عن أحوال أعدائهم، وعن سوء نواياهم وعن الأسباب التى تدعو إلى الحذر منهم فقال -تعالى- : ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾.

أى قد بينا لكم العلامات الواضحات، والآيات البينات التى تعرفون بها أعداءكم، وتميزون عن طريقها بين الصديق وبين العدو، إن كنتم من أهل العقل والفهم.

والمقصود من الجملة الكريمة حضهم على استعمال عقولهم بتأمل وتدبر فى هذه الآيات التى

بينها الله لهم فضلا منه وكرما، وحتى لا يتخذوا بطانة من غير إخوانهم فى العقيدة والدين.

وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه، والتقدير: إن كنتم تعقلون ذلك فلا تباطنوهم ولا تفشوا لهم أسراركم.

ثم ذكر - سبحانه - أمورًا أخرى من شأنها أن تجعل المؤمنين يقلعون عن مباطنة ومصافاة أعدائهم فى الدين فقال: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ أى ها أنتم أولاء أيها المؤمنون تحبون هؤلاء الذين يخالفونكم فى عقيدتكم، وتتمنون لهم الهداية والخير، بينما هم لا يحبونكم ولا يريدون لكم إلا الشرور والهزائم والضعف.

وفى هذه الجملة الكريمة عتاب ولوم للمؤمنين الذين يلقون إلى أعدائهم بالمودة، ويكشفون لهم عن أسرارهم ودخائلهم.

و﴿ها﴾ حرف تنبيه، وقوله: ﴿أنتم﴾ مبتدأ وقوله: ﴿أولاء﴾ خبره، وقوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ كلام مستأنف لبيان خطئهم فى موالاتهم ومحبتهم لمن يبغضونهم ويخالفونهم فى الدين.

وبعضهم جعل ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أولاء﴾ منادى حذف منه حرف النداء، وقوله: ﴿تحبونهم﴾ هو الخبر عن المبتدأ.

وبعضهم جعل جملة ﴿تحبونهم﴾ فى موضع نصب على الحال من اسم الإشارة الذى هو الخبر.

والمراد بالكتاب فى قوله: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه.

أى أنتم أيها المؤمنون تحبونهم وهم لا يحبونكم، وأنتم تؤمنون بجميع الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بشىء من كتابكم الذى أنزله الله على نبيكم محمد ﷺ وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم بطانة من دون إخوانكم المؤمنين؟ لا شك أن من يفعل ذلك يكون بعيدا عن الطريق القويم، والعقل السليم.

ثم بين - سبحانه - سببًا ثالثًا يدل على قبيح مخالطتهم ومصافاتهم فقال - تعالى -: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾.

والعض هو الإمساك بالأسنان أى تحامل الأسنان بعضها على بعض. يقال: عض يعض عضًا وعضيضًا إذا تحامل بأسنانه على الشىء.

والأنامل جمع أنملة، وهى أطراف الأصابع. وقيل هى الأصابع.

والغيظ : أشد الغضب. وعضهم الأنامل كناية عن شدة غضبهم وتحسرهم وحنقهم على المؤمنين.

أى أن هؤلاء الذين يواليهم بعضكم أيها المؤمنون بلغ من نفاقهم وسوء ضمائرهم أنهم إذا لقوكم قالوا آمنا بدينكم وبنبيكم محمد ﷺ وإذا خلوا، أى خلا بعضهم ببعض أكل الحقد قلوبهم عليكم، وسلقوكم بألسنة حداد، وتمنوا لكم المصائب، وأظهروا فيما بينهم أشد ألوان الغيظ نحوكم بسبب ما يرونه من ائتلافكم، واجتماع كلمتكم، وعجزهم عن أن يجدوا سبيلا إلى التشفى منكم. وإلحاق الأضرار بين صفوفكم.

ومن كان كذلك فى كفره ونفاقه، كان من الواجب على كل مؤمن أن يحتقره وأن يبتعد عنه؛ لأنه لا يزيد للمؤمنين إلا شرا.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يكبت هؤلاء المنافقين ويبقى حسرتهم فقال : ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾.

والخطاب للنبى ﷺ : ولكل مؤمن من أتباعه لتحريضه على مقاطعة هؤلاء الذين لا يريدون إلا الشر.

أى : قل لهم دوموا على غيظكم واستمروا عليه إلى أن تموتوا. فإن قوة الإسلام وعزة أهله التى جعلتكم تبغضون المؤمنين ستبقى وستستمر، وإن أحقادكم على المسلمين لن تنقص من قوتهم وعلو كلمتهم شيئًا.

فالمراد الدعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، وهذا يستلزم أن يستمر ما يغيظهم ويكبتهم وهو نجاح الإسلام وقوته.

والباء فى قوله : ﴿بغيظكم﴾ للملابسة، أى موتوا متلبسين بغيظكم وحقدكم.

وقوله : ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أى محيط بما خفى فيها، ومطلع على ما يبيته هؤلاء المنافقون للمسلمين، وسيحاسبهم عليه حسابا عسيرًا. ويعذبهم بسبب ذلك عذابا أليما.

قال الجمل : وهذه الجملة يحتمل أن تكون مستأنفة، أخبر الله - تعالى - بذلك. لأنهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنهم، فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد. ويحتمل أن تكون من جملة المقول، أى قل لهم كذا وكذاا فتكون فى محل نصب بالقول، ومعنى قوله : ﴿بذات الصدور﴾ أى بالمضمرات ذوات الصدور. فذات هنا تأنيث ذى بمعنى صاحبة الصدور. وجعلت صاحبة للصدور لملازمتها لها وعدم انفكاكها عنها، نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار[1].

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٣٠٨.

وفى هذه الجملة الكريمة تطييب لقلب النبى ﷺ ولقلوب أصحابه. حيث بين -سبحانه- لهم أنه ناصرهم، وأنه كاشف لهم أمر أعدائهم متى أطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، ولم يجعلوا من أولئك الأعداء الذين يضمرون لهم كل شر وضغينة بطانة لهم.

ثم ذكر - سبحانه - لونا آخر من ألوان بغض هؤلاء الكافرين للمؤمنين فقال - سبحانه - : ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ والمس: أصله الجس باليد. أطلق على كل ما يصل إلى الشىء على سبيل التشبيه، فيقال: فلان مسه النصب أو التعب، أى أصابه.

والمراد بالحسنة هنا منافع الدنيا على اختلاف ألوانها، كصحة البدن، وحصول النصر، ووجود الألفة والمحبة بين المؤمنين.

أى إن تمسسكم - أيها المؤمنون - حسنة كنصركم على أعدائكم. وإصلاح ذات بينكم، ﴿تسؤهم﴾ أى تحزنهم وتملأ قلوبهم غيظا عليكم، ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ كنزول مصيبة بكم، يفرحوا بها. أى يبتهجوا بها، وتستطار ألبابهم سرورا وحبورا بسبب ما نزل بكم من مكاره.

فالجملة الكريمة بيان لفرط عداوة هؤلاء المنافقين للمؤمنين، حيث يحسدونهم على ما ينالهم من خير، ويشمتون بهم عندما ينزل بهم شر.

وعبر فى جانب الحسنة بالمس، وفى جانب السيئة بالإصابة، للإشارة إلى تمكن الأحقاد من قلوبهم، بحيث إن أى حسنة حتى ولو كان مسها للمؤمنين خفيفًا وليس غامرًا عاما فإن هؤلاء المنافقين يحزنون لذلك، لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمنين حتى ولو كان هذا الخير ضئيلا.

أما بالنسبة لما يصيب المؤمنين من مكاره، فإن هؤلاء المنافقين لا يفرحون بالمصيبة التى تمس المؤمنين مسًا خفيفًا، فإنها لا تشفى غيظهم وحقدهم، وإنما يفرحون بالمصائب الشديدة التى تؤذى المؤمنين فى دينهم ودنياهم أذى شديدا ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بإرشاد المؤمنين إلى الدواء الذى يتقون به كيد أعدائهم وأعدائه فقال - تعالى - : ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط﴾.

وقوله: ﴿تصبروا﴾ من الصبر وهو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل.

وقوله: ﴿وتتقوا﴾ من التقوى وهى صيانة الإنسان نفسه عن محارم الله.

وقوله: ﴿كيدهم﴾ من الكيد وهو أن يحتال الشخص ليوقع غيره فى مكروه.

والمعنى: ﴿وإن تصبروا﴾ أيها المؤمنون على طاعة الله، فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا فى محبة من لا يستحق المحبة، وتتحملوا بعزيمة صادقة مشاق التكاليف التى كلفكم الله بها، وتقاوموا

العداوة بمثلها ﴿وتتقوا﴾ الله - تعالى - فى كل ما نهاكم عنه، وتمتثلوا أمره فى كل ما أمركم به، إن فعلتم ذلك ﴿لايضركم كيدهم﴾ وتدبيرهم السيء ﴿شيئًا﴾ من الضرر ببركة هاتين الفضيلتين: الصبر والتقوى، فإنهما جامعتان لمحاسن الطاعات، ومكارم الأخلاق.

وإن لم تفعلوا ذلك أصابكم الضرر، واستمكنوا منكم بكيدهم ومكرهم. قال الجمل ما ملخصه: وقوله: ﴿لا يضركم﴾ وردت فيه قراءتان سبعيتان:

إحداهما: بضم الضاد وضم الراء مع التشديد - من ضر يضر.

والثانية: ﴿لا يضركم﴾ - بكسر الضاد وسكون الراء - من ضار يضير. والفعل فى كليهما مجزوم جوابًا للشرط، وجزمه على القراءة الثانية «يضركم» ظاهر، وعلى القراءة الأولى «يضركم» يكون مجزومًا بسكون مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة الإتباع للتخلص من التقاء الساكنين، وأصل الفعل يضرركم - بوزن ينصركم - نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد ثم أدغمت فى الثانية، وحركت الثانية بالضم إتباعًا لحركة الضاد»[1].

وقوله: ﴿شيئًا﴾ نصب على المصدرية. أى لا يضركم كيدهم شيئًا من الضرر لا قليلا ولا كثيرا بسبب اعتصامكم بالصبر والتقوى.

وقوله: ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾ تذييل قصد به إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين، والرعب فى قلوب أعدائهم.. أى إنه - سبحانه - محيط بأعمالهم وبكل أحوالهم، ولا تخفى عليه خافية منها، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عذاب أليم بسبب نياتهم الخبيثة، وأقوالهم الذميمة. وأفعالهم القبيحة.

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين بأسلوب بليغ حكيم عن مصافاة من يخالفونهم فى الدين، وذكرت لهم من صفات وأحوال هؤلاء المخالفين ما يحملهم على منابذتهم والحذر منهم والبعد عنهم، وأرشدتهم إلى ما يعينهم على النصر عليهم وعلى التخلص من آثار مكرهم وكيدهم.

وإنها لوصايا حكيمة وتوجيهات سديدة، وإرشادات عالية، ما أحوج المسلمين فى كل زمان ومكان إلى العمل بها لكى يفلحوا فى دنياهم وآخرتهم.

تدبر معى - أخى القارىء - هذه الآيات مرة أخرى فماذا ترى؟

إنك تراها توجه إلى المؤمنين نداء محببا إلى نفوسهم، محركا لحرارة العقيدة فى قلوبهم.. حيث نادتهم بصفة الإيمان، ونهتهم فى هذا النداء عن اتخاذ أولياء وأصفياء لهم من غير إخوانهم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣٠٨.

المؤمنين. ولكن هل اكتفت بهذا النهى مع أنه كفيل بحجز المؤمنين عما نهتهم عنه؟

كلا، إنها لم تكتف بذلك، بل ساقت لهم صورة كاملة السمات لأحوال أعدائهم، صورة ناطقة بدخائل نفوسهم، وبمشاعرهم الظاهرة والخفية، وبانفعالاتهم القلبية والجسدية، وبحركاتهم الذاهبة والآيبة، صورة ناطقة بحالهم عندما يلتقون بالمؤمنين، وبحالهم عندما يفارقونهم ويخلون بأنفسهم، أو عندما يلتقون بأمثالهم من الضالين. صورة ناطقة بسرورهم عند ما تصيب المسلمين مصيبة، وبحزنهم عندما يرون المؤمن فى نعمة يسيرة.

صورة ناطقة بموقف المؤمنين منهم وبموقفهم هم من المؤمنين ثم بعد رسم هذه الصورة العجيبة المتكاملة لهم، يسوق القرآن للمؤمنين أسمى وأحكم ألوان التوجيه والإرشاد الذى يجعلهم فى مأمن من كيدهم ومكرهم ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾.

أرأيت - يا أخى - كيف ربى القرآن أتباعه أكمل تربية وأحكمها وأسماها؟ إنه نهاهم أولا عن مباطنة أعدائهم، ثم ساق لهم بعد ذلك من أوصافهم وأحوالهم ما يقنعهم ويحملهم على البعد عنهم، ثم أرشدهم إلى الدواء الذى ينجيهم من مكرهم.

فما أحكمه من توجيه. وما أسماه من إرشاد، وإن ذلك ليدل على أن هذا القرآن من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1].

وإلى هنا تكون سورة آل عمران قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - فى مائة وعشرين آية منها، عن بعض الأدلة على وحدانية الله - تعالى -، وعن مظاهر قدرته ورحمته، وعن كتبه التى أنزلها على أنبيائه لسعادة الناس وهدايتهم وعن حب الناس للشهوات وعما هو أسمى وأفضل من هذه الشهوات الزائلة، وعن المجادلات التى حدثت بين النبى ﷺ وبين أهل الكتاب فيما يتعلق بوحدانية الله - تعالى - وبصحة دين الإسلام، وعن جوانب من قصة آل عمران وما اشتملت عليه من عظات وعبر، وعن الشبهات التى أثارها اليهود حول الدعوة الإسلامية والمسالك الخبيثة التى سلكوها فى حربهم لها وكيف رد القرآن عليهم بما يفضحهم ويكشف عن كذبهم، ويجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم.

والخلاصة أن السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا قد ساقت - من بين ما ساقت - ألوانا من الحرب النفسية التى شنها أهل الكتاب على الدعوة الإسلامية، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويبصرهم بالحق - إن كانوا طلاب حق - وساقت للمؤمنين من التوجيهات والعظات، ما يهدى قلوبهم، ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم.

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢.

وبعد هذا السبح الطويل فى الحديث عما دار بين المسلمين وبين أعدائهم من حرب كلامية وفكرية ونفسية... انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن حروب السيف والسنان، وما صاحبها من أفكار وأقوال وأفعال.

فقد حدثتنا السورة الكريمة فى حوالى ستين آية عن جوانب متعددة من غزوة «أحد» تلك الغزوة التى كانت لها آثارها الهامة فى حياة المسلمين وأحوالهم.

ولعل من الخير - قبل أن نبدأ فى تفسير الآيات الكريمة التى وردت فى سورة آل عمران بشأن هذه الغزوة-أن نسوق خلاصة تاريخية لهذه الغزوة تعين على فهم الآيات المتعلقة بها، فنقول:

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد انتصر المسلمون فيها انتصارا مؤزرا على كفار قريش.

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين، فجمعوا جموعهم، وخرجوا فى جيش كبير، ومعهم بعض نسائهم حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال فى القتال.

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة فى أوائل شوال من السنة الثالثة، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل.

واستشار النبى ﷺ أصحابه فى شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة.

فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة.

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة، استدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها، وكان النبى ﷺ يميل إلى رأى هذا الفريق، إلا أنه آثر الأخذ برأى الفريق الأول الذى يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، نظرًا لكثرة عدد القائلين بذلك.

ثم دخل النبى ﷺ بيته، ثم خرج منه وقد لبس آلة حربه، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكرهوا النبى ﷺ على القتال، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه، إلا أنه لم يستجب لهم، وقال كلمته التى تعلم الناس الحزم وعدم التردد: «ما ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس. وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه».

ثم خرج النبى ﷺ فى ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبًا من جبل «أحد» إلا أن «عبد الله بن أبى بن سلول» انسحب فى الطريق بثلث الناس محتجا بأن النبى ﷺ لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأى غيره.

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد، جاعلين ظهرهم إلى الجبل، ورسم النبى ﷺ الخطة

لكسب المعركة، فجاءت خطة محكمة رائعة. فقد وزع الرماة على أماكنهم - وكانوا خمسين راميا -، وقال لهم: «انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا. إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا نؤتين من قبلكم».

وفى رواية أنه ﷺ قال لهم: أحموا ظهورنا، وإن رأيتمونا نُقتل فلاتنصرونا. وإن رأيتمونا نغنم فلا تُشركونا».

وأخيرًا التقى الجمعان، وأذن النبى ﷺ لأتباعه أن يجالدوا أعداءهم، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام، وكان شعارهم فى هذا الالتحام «أمت أمت».

وما هى إلا جولات فى أوائل المعركة، حتى ولى المشركون المسلمين الأدبار، ولم يغن عن المشركين شيئًا ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستنهاض للعزائم.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله - تعالى - نصره، وصدق وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

ورأى الرماة الهزيمة وهى تحل بقريش، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم، عبد الله بن جبير أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملا بوصية رسول الله ﷺ إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا فى جمع الغنائم والأسلاب.

وأدرك خالد بن الوليد - وكان ما زال مشركا- أن ظهور المسلمين قد انكشفت بترك الرماة لأماكنهم، فاهتبل الفرصة على عجل، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحدق بهم، وأخذ فى مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه، فقد كانوا يعتمدون على الرماة فى حماية ظهورهم.

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين، بعد أن رأوا ما فعله خالد ومن معه.

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجىء الذى حدث لهم، إلا أن فريقا منهم أخد يقاتل ببسالة وصبر. واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم.

وأصيب النبى ﷺ خلال ذلك بجروح بالغة، وأشيع أنه قد قتل، إلا أنه ﷺ جعل يصيح بالمسلمين: إلىّ عباد الله، إلى عباد الله.. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين..

ومرت على المسلمن ساعة من أحرج الساعات فى تاريخ الدعوة الإسلامية فقد كان المشركون يهاجمون النبى ﷺ وأصحابه بعناد وحقد، وكان المسلمون مستميتين فى الدفاع عن رسولهم ﷺ وعن أنفسهم.

وكان لهذه الاستماتة آثارها فى تراجع المشركين، وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين. . .

وخشى النبى ﷺ أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة، فقال لعلى بن أبى طالب: «اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها».

قال على: فخرجت فى آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، واتجهوا إلى مكة.

وعندما انصرف أبو سفيان نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال الرسول ﷺ لرجل من أصحابه: قل له: نعم بيننا وبينك موعد.

وانتهت غزوة أحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع. وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وهذه خلاصة لأحداث غزوة أحد كما روتها كتب السيرة.

والآن فلنول وجوهنا شطر القرآن الكريم، لنتدبر حديثه الحكيم عن هذه الغزوة، ولنستمع إليه بقلوب واعية، وآذان متفتحة، وهو يبدأ حديثه عنها فيقول:

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

ففى هذه الآيات الكريمة التى بدأت السورة بها حديثها عن غزوة أحد، تذكير للمؤمنين بما وقع فيها حتى يعتبروا ويعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا.

وقوله - تعالى - : ﴿غدوت﴾ من الغدو وهو الخروج فى أول النهار، يقال : غدا يغدو من باب سما يسمو.

و﴿من﴾ فى قوله : ﴿من أهلك﴾ للابتداء. والمراد بأهله، زوجه عائشة - رضى الله عنها - فقد كان خروجه لغزوة أحد من بيتها. والكلام على حذف مضاف يدل عليه فعل ﴿غدوت﴾ والتقدير : من بيت أهلك.

وقوله : ﴿تبوئ﴾ أصله من التبوء وهو اتخاذ المنزل. يقال : بوأته، وبوأت له منزلا، أى : أنزلته فيه. والمراد به هنا تنظيم المؤمنين وتسويتهم وتهيئتهم للقتال، حتى يكونوا صفا واحدًا كأنهم بنيان مرصوص.

والعامل فى ﴿إذ﴾ فعل مضمر تقديره، واذكر.

- والمعنى : واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتعظوا وقت خروجك مبكرًا من حجرة زوجتك عائشة إلى غزوة أحد.

وقوله : ﴿تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أى تنزلهم وتسوى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال، بحيث يكونون فى أحسن حال، وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم.

قال الجمل : «ويستعمل الفعل ﴿غدوت﴾ بمعنى صار عند بعضهم، فيكون ناقصًا يرفع الاسم وينصب الخبر. وهذا المعنى ممكن هنا، فالمعنى عليه، وإذ غدوت أى صرت تبوئ

المؤمنين أى تنزلهم فى منازل للقتال، وهذا أظهر من الآخر، لأن المذكور فى القصة أنه سار من عند أهله بعد صلاة الجمعة وبات فى شعب أحد، وأصبح ينزل أصحابه فى منازل القتال ويدبر لهم أمر الحرب»[1].

فالجملة الكريمة تشير إلى ما فعله النبى ﷺ مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم، وبرسم الخطة الحكيمة التى تكفل لهم النصر، وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك، ولقد حدث أن بعض المسلمين من الأنصار استشرف للقتال وتمناه عندما رأى قريشا قد سرحت خيولها وإبلها فى زروع المسلمين، وقال للنبى ﷺ «أترعى زروع بنى قيلة - يعنى الأنصار - ولما تضارب»؟؟ إلا أن النبى ﷺ نهاهم عن القتال إلا بعد إذنه.

وجملة ﴿تبوئ﴾ حال من فاعل «غدوت».

والفعل ﴿تبوئ﴾ يحتاج لمفعولين:

أولهما: قوله: ﴿المؤمنين﴾.

وثانيهما: قوله: ﴿مقاعد﴾ وقوله: ﴿للقتال﴾ متعلق بقوله: ﴿تبوئ﴾.

والمراد بقوله: ﴿مقاعد للقتال﴾ أى مراكز وأماكن ومواقف للقتال بحيث يعرف كل مؤمن مكانه وموقفه فينقض منه على خصمه إلا أن القرآن الكريم عبر عن هذه الأماكن والمراكز والمواقف بالمقاعد. للإشارة إلى وجوب الثبات فيها كما يثبت القاعد فى مكانه، وأن عليهم ألا يبرحوا أماكنهم إلا بإذن قائدهم ﷺ.

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله سميع عليم﴾ لبيان أنه مطلع على كل شىء، وعلى ما كان يجرى بين النبى ﷺ وبين أصحابه من مشاورات ومناقشات.

فهو - سبحانه - ﴿سميع﴾ لما نطقت به ألسنتهم ﴿عليم﴾ بما تخفيه صدورهم، وسيجازى المؤمنين الصادقين بما يستحقون من ثواب، وسيجازى غيرهم من ضعاف الإيمان والمنافقين بما يستحقون من عقاب.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة غرس الرهبة فى قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد. حيث خالفوا وصية رسول الله ﷺ ثم ذكر -سبحانه- ما راود قلوب بعض المؤمنين من ضعف وفشل، عندما رأوا زعيم المنافقين عبد الله بن أبىّ ينخذل بثلث الجيش فقال - تعالى -: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣١٠.

الهم : هو حديث النفس واتجاهها إلى شىء معين دون أن تأخذ فى تنفيذه فإذا أخذت فى تنفيذه صار إرادة وعزمًا وتصميما.

وتفشلا : من الفشل و الجبن والخور والضعف. يقال : فشل يفشل فشلا فهو فشل أى جبان ضعيف القلب.

أى : واذكر لهم وقت أن همت طائفتان منكم يا معشر المؤمنين أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال فى وقت الشديدة والكريهة.

وقوله : ﴿والله وليهما﴾ أى ناصرهما ويتولى أمرهما.

وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانتا جناحى الجيش فى يوم أحد.

روى الشيخان عن جابر - رضى الله عنه - قال : فينا نزلت ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله -تعالى- ﴿والله وليهما﴾[(١)].

أى : لفوط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله - تعالى - عليهم، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية. وأن ما حدثوا به أنفسهم لم يخرجهم عن ولايته سبحانه لأنهم لم ينساقوا وراء هذا الهم الباطل، بل سرعان ما عادوا إلى يقينهم وإيمانهم الصادق، وطاعتهم لرسولهم ﷺ.

ولذا قال صاحب الكشاف : والطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس هموا باتباع عبد الله بن أبى عندما انخذل بثلث الناس وقال : يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا! فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس قال : أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس. كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر، ويوطنها على احتمال المكروه. لو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية »[(٢)].

وقد ختم - سبحانه - الآية بدعوة المؤمنين إلى التوكل عليه وحده فقال : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

---

(١) البخارى باب «إذ همت طائفتان». من كتاب التفسير جـ٦ وأخرجه مسلم فى كتاب «فضائل الصحابة» جـ٧ ص١.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٠٩.

والتوكل : تفعل من وكل فلان أمره إلى فلان . إذا اعتمد فى كفايته عليه ولم يتوله بنفسه . والتوكل الحقيقى إنما يكون بعد الأخذ بالأسباب التى شرعها الله - تعالى - ثم بعد ذلك يترك الإنسان النتائج للخالق - عز وجل - يسيرها كيف يشاء . والجملة الكريمة أفادت قصر التوكل على الله وحده ، كما يؤذن به تقديم الجار والمجرور .

أى وعلى الله وحده لا على غيره فليكل المؤمنون أمورهم ، بعد اتخاذ الأسباب التى أمرهم - سبحانه - باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم - سبحانه - بتأييده ورعايته .

ثم ذكرهم - سبحانه - بفضله عليهم وتأييده لهم يوم غزوة بدر فقال - تعالى - : ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ .

وبدر : اسم لماء بين مكة والمدينة ، التقى عنده المسلمون والمشركون من قريش فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وكان عدد المشركين قريبا من ألف رجل ، ومع ذلك كان النصر حليفا للمسلمين . والأذلة - كما يقول الزمخشرى : جمع قلة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلين . وذلتهم : ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ، وما كان معهم إلا فرس واحد . وقلتهم : أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس ، ومعهم الشكة والشوكة - أى السلاح والقوة -[1] .

وإذن فليس المراد بكونهم أذلة أنهم كانوا أضعاف النفوس . أو كانوا راضين بالهوان . وإنما المراد أنهم كانوا قليلى العدد والعدد ، فقراء فى الأموال وفى وسائل القتال .

وفى هذا التذكير لهم بما حدث فى غزوة بدر ، تنبيه لهم إلى وجوب تفويض أمورهم إلى خالقهم ، وإلى أن القلة المؤمنة التقية الصابرة كثيرًا ما تنتصر على الكثرة الفاسقة الظالمة ، ولذا فقد ختم - سبحانه - بقوله : ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ .

أى فاتقوا الله بأن تستشعروا هيبته ، وتجتنبوا ما نهاكم عنه ، وتفعلوا ما أمركم بـه لعلكم بذلك تكونون قد قمتم بواجب شكر ما أنعم به عليكم من نعم لا تحصى .

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان يوجهه إليهم النبى ﷺ من توجيهات سامية ، وإرشادات نافعة فقال - تعالى - : ﴿إذ تقول للمؤمنن ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤١١ .

قال ابن كثير: اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين؟ أحدهما: أن قوله - تعالى -: ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ متعلق بقوله ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾، وهذا عن الحسن والشعبى والربيع بن أنس وغيرهم. فعن الحسن فى قوله: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم﴾ . . . إلخ قال: هذا يوم بدر. وعن الشعبى: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يريد أن يمد المشركين -برجال وسلاح- فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله -تعالى-: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾ إلى قوله: ﴿مسومين﴾ قال: فبلغت كرزًا الهزيمة فلم يمد المشركين.

وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله فى قصة بدر ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم. .﴾ إلى قوله: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾[1].

فالجواب: أن التنصيص على الألف هٰهنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله - تعالى -: ﴿مردفين﴾ بمعنى غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم.

وهذا السياق شبيه بالسياق فى سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان ببدر.

والقول الثانى يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف، لأن المسلمين يومئذ فروا. وزاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى -: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ فلم يصبروا، بل فروا فلم يمدوا بملك واحد[2]. ويبدو من كلام ابن كثير أنه يميل إلى أن هذا الوعد كان يوم بدر، فقد قال: فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر. .

وهذا ما تسكن إليه النفس: لأن الوعد بنصرة الملائكة للمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد، فقد كانوا فى بدر قليلى العدد والعدد، وكانت غزوة بدر أول معركة حربية كبرى يلتقى فيها المؤمنون بالكافرين، ولأن سياق الآيات يشعر بأن الله - تعالى - قد ساقها ليستحضر فى أذهان المؤمنين مشهد غزوة بدر وما تم فيها من نصر بسبب صدق إيمانهم، وطاعتهم لنبيهم ﷺ حتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد من مخالفة للرسول ﷺ.

(١) سورة الأنفال آية ٩، ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٠١.

وعلى هذا الرأى يكون قوله - تعالى - : ﴿إذ تقول للؤمنين﴾ متعلقا بقوله : ﴿ولقد نصركم﴾ أى : اذكروا أيها المؤمنون أن الله - تعالى - قد نصركم ببدر وأنتم قلة فى العدد والعدة، وكان رسولكم ﷺ فى ذلك الوقت يقول لكم على سبيل التثبيت والتقوية : ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ أى منزلين من السماء لنصرتكم وتقويتكم ودحر أعدائكم.

أما على الرأى القائل بأن هذا الوعد كان ى غزوة أحد، فيكون قوله - تعالى - : ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم﴾ إلخ. بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾.

قال الآلوسى : « والهمزة فى قوله : ﴿ألن يكفيكم﴾ لإنكار ألايكفيهم ذلك. وأتى بلن لتأكيد النفى، وفيه إشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لقلة عددهم وعدتهم. وفى التعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ما لا يخفى من اللطف وتقوية الإنكار. وقوله : ﴿أن يمدكم﴾ فى تأويل المصدر فاعل ﴿يكفيكم﴾. و﴿من الملائكة﴾ بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه. و﴿منزلين﴾ صفة لثلاثة آلاف، وقيل حال من الملاكة »[1] وقوله - تعالى - : ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ إما من تتمة مقوله ﷺ للمؤمنين، وإما ابتداء خطاب من الله - تعالى - تأييدًا لقول نبيه ﷺ وزيادة على ما وعدهم تكرما وفضلا.

وقوله : ﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد « لن » أى، بل يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف. ولكنه -سبحانه- يعدكم بأنكم ﴿إن تصبروا﴾ على قتال أعدائكم وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه، وتتقوا. أى وتتقوا الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أى ويأتوكم المشركون مسرعين ليحاربوكم، وقد أعددتم أنفسكم لقتالهم، إذا فعلتم ذلك.

﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، أى يمددكم ربكم بفضله ورعايته لكم بخمسة آلاف من الملائكة معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة.

وقرىء ﴿مسومين﴾ - بالفتح - أى معلمين من جهته - تعالى - بعلامات القتال. من التسويم وهو إظهار علامة الشىء.

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿من فورهم هذا﴾ من قولك : قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبى حنيفة - رحمه الله - : الأمر على الفور لا على التراخى، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٤٤.

سميت به الحالة التى لا ريث فيها. فقيل: خرج من فوره كما تقول: خرج من ساعته. والمعنى: أنهم يأتونكم من ساعتهم هذه »[1].

هذا، وقد تكلم العلماء هنا عن أمرين يتعلقان بهذه الآيات.

أما الأمر الأول فهو: هل أمد الله - تعالى - المؤمنين فى غزوة بدر بهذا العدد الذى ذكر فى هذه الآية؟.

والجواب على ذلك أن بعض المفسرين يرى أن الله - تعالى - قد أمد المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة، لأنهم صبروا واتقوا وأتاهم المشركون من مكة فورًا حين استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير، فكان المدد خمسة آلاف على سبيل التدريج، أى أمدوا أولا بألف، ثم صاروا ألفين، ثم صاروا ثلاثة آلاف. ثم صاروا خمسة آلاف لا غير، وإلى هذا الرأى ذهب الحسن وقتادة.

وقال الشعبى: إن المدد لم يزد على الألف، لأن المسلمين كان قد بلغهم أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين بسلاح وجند، فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله - تعالى -: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم﴾ إلى قوله ﴿مسومين﴾ فبلغ كرزا الهزيمة فرجع ولم يمدهم، فلم يمد الله المسلمين بالخمسة الآلاف أيضًا. أما ابن جرير فقد اختار أن المسلمين وعدوا بالمدد بعد الألف، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بما زاد على ذلك، ولا على أنهم لم يمدوا به، ولا يثبت شىء من ذلك إلا بنص. فقد قال - رحمه الله -:

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه ﷺ أنه قال للمؤمنين: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف، إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف، ولا بالخمسة الآلاف؛ ولا على أنهم لم يمدوا بهم.

وقد يجوز أن يكون الله - تعالى - أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم، على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك فنسلم لأحد الفريقين قوله. غير أن فى القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف. وذلك قوله - تعالى -: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾. أما فى أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا،

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٤١١.

ذلك لأنهم لو أمدوا لم يهزموا ونيل منهم ما نيل منهم »[١].

والذى نراه أن رأى ابن جرير هو أقرب الآراء إلى الصواب.

وأما الأمر الثانى فهو: إذا كان الله - تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة فى بدر، فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط؟ والجواب على ذلك أن كثيرا من العلماء يرى أن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين.

قال القرطبى: تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت.

ومن ذلك قول أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا: لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب - أى الطريق فى الجبل - الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أمترى ».

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: « أقدم حيزوم »[٢] فنظر المسلم إلى المشرك أمامه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه. فجاء المسلم إلى رسول الله ﷺ فحدثه بذلك فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة[٣].

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم، وتقوية قلوبهم، ولتخذيل المشركين، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، فقد قال - تعالى - ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾.

ويبدو أن الإمام ابن جرير الطبرى كان يميل إلى هذا الرأى فقد قال عند تفسيره لقوله -تعالى- ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أى: قووا عزائمهم، وصححوا نياتهم فى قتال عدوهم من المشركين، وقيل: كان ذلك بمعونتهم إياهم بقتال أعدائهم ».

وقد حكى الآلوسى عن أبى بكر الأصم أنه أنكر قتال الملائكة مع المؤمنين فى بدر وأنه قال: « إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك سائر الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط وأيضا أى فائدة فى إرسال هذا الجمع من الملائكة معه وهو القوى الأمين. وأيضا فإن أكابر الكفار الذين قتلوا فى بدر عرف من قتلهم من المسلمين ».

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٧٩.

(٢) حيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة.

(٣) تفسير القرطبى بتصرف وتلخيص - جـ٤ ص١٩٢.

ولم يرتض الآلوسى ما قاله الأصم بل قال فى الرد عليه : ولا يخفى أن هذه الشبه لا يليق إيرادها بقوانين الشريعة، ولا بمن يعترف بأنه - سبحانه - قادر على ما يشاء فعال لما يريد، فما كان يليق بالأصم إلا أن يكون أخرس عن ذلك.

ثم قال الآلوسى فالواجب التسليم بكل ممكن جاء به النبى ﷺ وتفويض ذلك وكيفيته إلى الله - تعالى -[١].

ونرى من كلام الآلوسى أنه يرجح الرأى القائل بأن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين فى غزوة بدر.

ونحن لا نرى مانعا من اشتراك الملائكة مع المؤمنين فى بدر لأن النصوص الواردة عن النبى ﷺ صريحة فى ذلك، ولسنا مع الذين يضعفون من شأن الأحاديث الصحيحة أو يؤولونها تأويلا لا يتفق مع العقل السليم.

ولقد سئل الإمام السبكى : ما الحكمة فى قتال الملائكة مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟.

فأجاب : بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبى ﷺ وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التى أجراها - سبحانه - فى عباده[٢].

ثم تابع القرآن حديثه عن مظاهر فضل الله عليهم ورعايته لهم فقال - تعالى - ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم، ولتطمئن قلوبكم به﴾.

أى وما جعل الله - تعالى - الإمداد الذى أمدكم به إلا بشارة لقلوبكم، وتطمينا لنفوسكم فالضمير فى ﴿جعله﴾ يعود إلى الإمداد المفهوم وهوالفاعل المقدر المدلول عليه بقوله «أن يمدكم» فكأنه قيل : ألن يكفيكم إمداد الله تعالى لكم بما ذكر، وما جعل الله - تعالى - ذلك الإمداد إلا بشرى لكم، ولتسكن قلوبكم به فلا تخافوا كثرة العدو، بل تقدمون عليه بعزائم ثابتة، ونفوس قوية.

وقوله ﴿بشرى﴾ مفعول لأجله. والاستثناء مفرغ من أعم العلل، أى ما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة لشىء من الأشياء إلا للبشارة لكم بأنكم ستنتصرون على أعدائكم.

وقوله ﴿لتطمئن قلوبكم به﴾ معطوف على ﴿بشرى﴾ باعتبار موضعه أى ما جعل إمدادكم إلا للبشرى والطمأنينة.

---

(١) تفسير الآلوسى بتصرف وتلخيص جـ٤ ص٤٨.

(٢) تفسير القاسمى ص٩٧.

وإنما جر المصدر المؤول من قوله ﴿ولتطمئن﴾ باللام لاختلال شرط من شروط نصبه على أنه مفعول لأجله، وهذا الشرط هو عدم اتحاد الفاعل. فإن فاعل الجعل هو الله - تعالى -، وفاعل الاطمئنان القلوب، فلذلك نصب المعطوف عليه وهو ﴿بشرى﴾ لاستكمال شروطه. وجر المعطوف وهو ﴿ولتطمئن﴾ لاختلال شرط من شروطه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾.

أى ليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يغالب فى أمره. الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه إرادته.

فالجملة الكريمة المقصود منها غرس الاعتماد على الله فى قلوب المؤمنين وتفويض أمورهم إليه، وبيان أن النصر إنما هو من الله وحده، وليس من الملائكة أو من غيرهم، لأن الملائكة أو غيرهم أسباب عادية بمعزل عن التأثير، إلا إذا أراد الله ذلك. فهو الخالق للأسباب والمسببات.

ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب المؤمنين حتى لا يعتمدوا على الأسباب والوسائل التى بين أيديهم، ويغتروا بها، دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل، فإنهم إذا اغتروا بالأسباب والوسائل، ونسوا خالقها أتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطًا.

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - بتدبر واعتبار بحيث يوقن أن من ورائها خالقا لها، يجب أن يستجيب له فى كل ما أمر أو نهى، وأن يعتمد عليه فى كل شئونه وأحواله.

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا النصر والثمرات التى ترتبت عليه فقال - تعالى - : ﴿ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

وقوله ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ متعلق بقوله ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ وما بينهما تحقيق لحقيته، وبيان لكيفية وقوعه.

والقطع - كما يقول الراغب - فصل الشيء مدركا بالبصر كالأجسام، أو مدركا بالبصيرة كالأشياء المعقولة والمراد به هنا الإهلاك والقتل.

والطرف - بفتح الراء - جانب الشيء أو الجزء المتطرف منه كاليدين والرجلين والرأس. والمراد به هنا طائفة من المشركين.

والكبت فى اللغة : صرع الشيء على وجهه. يقال : كبته فانكبت، والمراد به هنا الإخزاء

والإذلال وشدة الغيظ بسبب ما أصابهم من هزيمة.

وخائبين من الخيبة وهى انقطاع الأمل فى الحصول على الشيء. يقال: خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب.

والمعنى: ولقد نصركم الله - تعالى - ببدر وأنتم فى قلة من العدد والعدة ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا﴾ أى ليهلك طائفة من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل. وينقص من أرضهم بالفتح، ومن سلطانهم بالقهر، ومن أموالهم بالغنيمة ﴿أو يكبتهم﴾ أى يذلهم ويخزيهم ويغيظهم غيظا شديدا بسبب ما نزل بهم من هزيمة، حتى يخبو صوت الكفر، ويعلو صوت الإيمان:

وقوله ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أى فينهزموا ويرتدوا على أدبارهم منقطعى الآمال، غير ظافرين بمبتغاهم.

قال الآلوسى: «ولم يعبر عن تلك الطائفة بالوسط بل بالطرف فقال ﴿ليقطع طرفا﴾ لأن أطراف الشيء يتوصل بها إلى توهينه وإزالته. وقيل: لأن الطرف أقرب إلى المؤمنين فهو كقوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾. وقيل للإشارة إلى أنهم كانوا أشرافا، ومنه قولهم: هو من أطراف العرب أى من أشرافهم، ولعل إطلاق الأطراف على الأشراف لتقدمهم فى السير. فالمعنى ليهلك صناديد الذين كفروا ورؤساءهم المتقدمين فيهم بالقتل والأسر. وقد وقع ذلك فى بدر فقد قتل المؤمنون من المشركين سبعين وأسروا سبعين»[1].

و ﴿أو﴾ فى قوله ﴿أو يكبتهم﴾ للتنويع. لأن القطع والكبت قد وقعا للمشركين، فهى مانعة خلو، أى لا يخلو أمر الكافرين من الهلاك والكبت.

وعبر عن عودتهم خائبين بقوله ﴿فينقلبوا خائبين﴾ للإشارة إلى أن مقاصدهم وأهدافهم قد انقلبت، فقد كانوا يقصدون إطفاء نور الإسلام فخاب قصدهم، وطاش سهمهم، وعادوا وقد فقدوا الكثيرين من وجوههم وصناديدهم، وتركوا خلفهم فى الأسر العشرات من رجالهم.

أما الإسلام فقد ازداد نوره تألقا، وازداد أتباعه إيمانا على إيمانهم. ورزقهم الله - تعالى - نصره المبين.

وقوله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أى: ليس لك من أمر الناس شيء، وإنما أمرهم إلى الله وحده، أما أنت فوظيفتك التبليغ والإرشاد ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٤٩.

وقوله ﴿أو يتوب عليهم﴾. أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم إلى الإسلام بعد كفرهم وضلالهم.

وقوله ﴿أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ أى أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة على كفرهم واجتراحهم للسيئات، فإنهم بذلك يكونون مستحقين للعقاب، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فهم الذين صموا آذانهم عن الحق واستحبوا العمى على الهدى.

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ جملة معترضة بين المتعاطفات ويكون تقدير الآيتين هكذا:

ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم، وليس لك من أمرهم شىء، إنما أنت رسول من عند الله - تعالى - مأمور بإنذارهم وجهادهم.

وقد رجح هذا الوجه صاحب الكشاف فقال: وقوله: ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ اعتراض. والمعنى أن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شىء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم..

وقيل إن ﴿أو﴾ بمعنى «إلا أن» كقولك: لألزمنك أو تقضينى حقى، على معنى ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم(١).

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد بينتا أحوال الكافرين فى غزوة بدر أكمل بيان، لأن فريقًا منهم قد قتلوا فقطع بهم طرف من الكافرين، وفريقًا كبتوا وذلوا، وفريقا من الله عليهم بالإسلام فأسلموا، وفريقًا عذبوا بالموت على الكفر أو عذبوا فى الدنيا بالذل والصغار.

و«أو» التى جىء بها بين هذه الجمل للتقسيم.

هذا، وقد روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ روايات منها ما أخرجه مسلم عن أنس أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم - عز وجل - فأنزل الله - تعالى - ﴿ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

ومنها ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤١٣ بتلخيص.

يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال إذا قال سمع الله لمن حمده : « اللهم ربنا ولك الحمد. اللهم أنج الوليد بن الوليد. وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » يجهر بذلك. وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر : اللهم العن فلانا وفلانا « لأحياء من العرب » حتى أنزل الله -تعالى- : ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾[1].

ثم ختم - سبحانه - هذا التذكير بما جرى فى غزوة بدر ببيان قدرته الشاملة، وإرادته النافذة فقال - سبحانه - : ﴿ولله ما فى السمٰوات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾.

أى لله جميع ما فى السمٰوات وما فى الأرض ملكا وتصرفا وتدبيرا لا ينازعه فى ذلك منازع ولا يعارضه معارض، وهو - سبحانه - يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه فضلا منه وكرما، ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلا منه ﴿والله غفور﴾ أى كثير المغفرة يحبها ويريدها، ﴿رحيم﴾ أى واسع الرحمة بعباده، لا يؤاخذهم بكل ما اكتسبوه من ذنوب بل يعفو عن كثير منها.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها، وبتذكير المؤمنين بما همّ به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزر منحه الله لهم مع قلتهم وضعفهم، حتى يعرفوا أن النصر ليس بكثرة العدد والعدد وإنما النصر يتأتى مع صفاء النفوس، ونقاء القلوب، ومضاء العزائم والطاعة التامة لله ولرسوله ﷺ، وحتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد من مخالفة رسول الله ﷺ، ومن طمع فى زينة الحياة الدنيا.

وبعد هذا التذكير الحكيم والتوجيه السديد، وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن تعاطى الربا، وأمرهم بتقوى الله وبطاعته وطاعة رسوله ﷺ وبالمسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى مغفرته ورضوانه فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٠.

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن من الناس من قال : إن الله - تعالى - لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة﴾.

وقال القفال : يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين فى غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا، ولعل ذلك يصير داعيًا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر، ويتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك.

وكان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلا - إلى أجل، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال : زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل، فربما جعله مائتين، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله ﴿أضعافا مضاعفة﴾[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٣. طبعة عبد الرحمن محمد.

وقد ابتدأ - سبحانه - الآية بالنداء بقوله ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ لبيان أن أكل الربا ليس من شأن المؤمنين، وإنما هو من سمات الكافرين والفاسقين.

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح، وأن يتحروا الحلال فى كل أمورهم.

وخصه بالنهى لأنه كان شائعًا فى ذلك الوقت، ولأنه - كما يقول القرطبى - هو الذى أذن فيه بالحرب فى قوله - تعالى - ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ والحرب يؤذن بالقتل، فكأنه يقول لهم: إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم(١).

والمراد من الأكل الأخذ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد به، ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع.

والربا معناه الزيادة، والمراد بها هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين.

قال الإمام ابن جرير: عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون.

وقال ابن زيد: كان أبى - زيد بن ثابت - يقول: إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف. يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له: «تقضيني أو تزيدنى»(٢).

وقوله ﴿أضعافا﴾ حال من الربا، وقوله ﴿مضاعفة﴾ صفة له.

والأضعاف جمع ضعف. وضعف الشىء مثله، وضعفاه مثلاه، وأضعافه أمثاله.

وهذا القيد وهو قوله «أضعافا مضاعفة» ليس لتقييد النهى به، أى ليس النهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها، بل هذا القيد لمراعاة الواقع، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة.

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته، ونفر منه تنفيرًا شديدًا، فقال - تعالى - ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.

وهذا النوع من الربا الذى نهى الله - تعالى - عنه هنا بقوله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة﴾ هو الذى يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسيئة، أو ربا الجاهلية

---

(١) تفسير القرطبى جـ٤ ص

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ٤ ص ٩٠.

وقد حرمه الإسلام تحريمًا قاطعا. فقد قال الرسول ﷺ فى خطبة الوداع : «ألا إن ربا الجاهلية موضوع -أى مهدر- وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. ».

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسيئة يكفر من يجحد تحريمه.

ويقابل هذا النوع من الربا، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه : «البر بالبر مثلا بمثل يدا بيد، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد، والتمر بالتمر مثلا بمثلا يدا بيد، والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى».

وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح، ولابد من قبضها. وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جازت الزيادة، ولابد من القبض فى المجلس، والتأخير يسمى ربا النساء، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل.

وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة فليرجع إليها من شاء فى مظانها. ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشيته وتقواه فقال : ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

أى : واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين محارمه ساترا ووقاية، لعلكم بذلك تنالون الفلاح فى الدنيا والآخرة.

ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التى تفضى بهم إلى النار فقال : ﴿واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾.

أى : صونوا أنفسكم. واحترزوا من الوقوع فى الأعمال السيئة كتعاطى الربا وما يشابه ذلك، لأن الوقوع فى هذه الأعمال السيئة يؤدى بكم إلى دخول النار التى هيئت للكافرين.

وفى التعقيب على النهى عن تعاطى الربا بتقوى الله وباتقاء النار، إشعار بأن الذى يأكل الربا يكون بعيدا عن خشية الله وعن مراقبته، ويكون مستحقا لدخول النار التى أعدها الله - تعالى - للكافرين والفاسقين عن أمره.

قال صاحب الكشاف : «كان أبو حنيفة - إذا قرأ هذه الآية ﴿واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾ يقول : هى أخوف آية فى القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه»(١).

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى الله عنه، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤١٤.

أى أطيعوا الله فى كل ما أمركم بـه ونهاكم عنه، وأطيعـوا الرسـول الذى أرسله إليكم ربكم لهدايتكم وسعادتكم، لعلكم بهذه الطاعة تكونون فى رحمة من الله، فهو القائل وقوله الحق ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾.

وفى ذكر طاعة الرسول ﷺ مقترنة بطاعة الله - تعالى - تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله. فقد قال - تعالى - ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾(١).

ثم أمرهم - سبحانه - بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة التى تـوصلهم إلى مغفرة الله ورضـوانه فقال: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

قال الآلوسى: وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه عبد بن حميـد وغيره عن عـطاء بن أبى رباح: أن المسلمين قالوا: يا رسول الله. بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا، كـانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة فى عتبـة داره أجدع أنفـك، إجدع أذنـك، افعل كـذا وكذا فسكت ﷺ فنزلت هذه الآيات إلى قوله ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية فقال النبى ﷺ ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلاها عليهم»(٢).

وقوله: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ من السرعة بمعنى المبادرة إلى الشىء بـدون تأخـير أو تردد. والكلام عـلى حذف مضـاف: أى سارعـوا وبادروا إلى مـا يوصلكم إلى مـا به تـظفرون بمغفرة ربكم ورحمته ورضوانه وجنته، بأن تقوموا بـأداء ما كلفكم بـه من واجبات، وتنتهـوا عما نهاكم عنه من محظورات.

ولقد قرأ نافع وابن عامر بغير واو، وهى قراءة أهل المدينـة والشام. والبـاقون بـالواو، وهى قراءة أهل مكة والعراق.

فمن قرأ بالواو، جعل قوله - تعالى - ﴿وسارعـوا﴾، معطوفـا على قـوله ﴿وأطيعـوا﴾ أى: أطيعوا الله والرسول وسارعوا إلى مغفرة من ربكم.

ومن قرأ بغير واو جعل قوله «سارعوا» مستأنفا، إذ هو بمنزلة البيان أو بدل الاشتمال.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من ربكم﴾ ابتدائية، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للمغفرة أى مغفرة كائنة من ربكم..

ولقد عظم - سبحانه - بذلك شأن هذه المغفرة التى ينبغى طلبها بإسراع ومبادرة، بأن جـاء بها منكرة، وبأن وصفها بأنها كائنـة منه - سبحـانه - هـو الذى خلق الخلق بقـدرته، وربـاهم برعايته.

(١) سورة النساء الآية ٨٠.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٥٦.

ووصف - سبحانه - الجنة بأن عرضها السموات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التصريح بحرف التشبيه فى قوله - تعالى - ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾(١).

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وفى معنى أن عرض الجنة مثل عرض السمٰوات والأرض وجوه منها : أن المراد لو جعلت السمٰوات والأرضون طبقا طبقا، بحيث تكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحا مؤلفا من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل البعض بالبعض طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله.

ومنها أن المقصود المبالغة فى وصف السعة للجنة، وذلك لأنه لا شىء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله ﴿خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض﴾. فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السمٰوات والأرض، فخوطبنا على وفق ما عرفناه، فكذا هنا»(٢).

وخص - سبحانه - العرض بالذكر، ليكون أبلغ فى الدلالة على عظمها واتساع طولها، لأنه إذا كان عرضها كهذا، فإن العقل يذهب كل مذهب فى تصور طولها «لأن العرض فى العادة أقل من الطول. وذلك كقوله - تعالى - فى صفة فرش الجنة ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ لأنه إذا كانت بطانة الفرش من الحرير فكيف يكون ما فوق البطانة مما تراه الأعين؟.

قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب : بلاد عريضة، ويقال هذه دعوى عريضة أى واسعة عظيمة. والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دق، فجعل العرض كناية عن السعة».

قال ابن كثير : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبى ﷺ يقول : «إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض فأين النار؟ فقال النبى ﷺ : سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار».

وعن أبى هريرة أن رجلا جاء إلى النبى - ﷺ - فقال : أرأيت قوله - تعالى - : ﴿جنة عرضها السمٰوات والأرض﴾ فأين النار قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شىء فأين النهار؟ قال : حيث شاء الله فقال ﷺ : «وكذلك النار تكون حيث شاء الله»(٣).

وقوله - تعالى - ﴿أعدت للمتقين﴾ أى هيئت للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله، وجعلوا بينهم وبينها وقاية وساترا، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢١.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٤.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٠٤

ثم بين - سبحانه - صفات المتقين الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون، والذين أعد لهم - سبحانه - جنته فقال - تعالى - ﴿الذين ينفقون فى السراء والضراء﴾ أى الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فى جميع أحوالهم، فهم يبذلونها ابتغاء وجه ربهم فى حال يسرهم وفى حال عسرهم، وفى حال سرورهم وفى حال حزنهم، وفى حال صحتهم وفى حال مرضهم، لا يصرفهم صارف عن إنفاق أموالهم فى وجوه الخير ما داموا قادرين على ذلك.

وقوله ﴿الذين ينفقون﴾ فى محل جرصفة للمتقين. ويجوز أن يكون فى محل نصب أو رفع على القطع المشعر بالمدح.

وقال ﴿ينفقون﴾ بالفعل المضارع، للإشارة بأنهم يتجدد إنفاقهم فى سبيل الله آنا بعد آن بدون انقطاع.

وقدم الإنفاق على غيره من صفاتهم لأنه وصف إيجابى يدل على صفاء نفوسهم، وقوة إخلاصهم، فإن المال شقيق الروح، فإذا أنفقوه فى حالتى السراء والضراء كان ذلك دليلا على التزامهم العميق لتعاليم دينهم وطاعة ربهم.

وقد مدح الله - تعالى - الذين ينفقون أموالهم فى سبيله فى عشرات الآيات من كتابه، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾[1] أما الصفتان الثانية والثالثة من صفات هؤلاء المتقين فهما قوله تعالى : ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾.

أى سارعوا أيها المؤمنون إلى العمل الصالح الذى يوصلكم إلى جنة عظيمة أعدها الله -تعالى- لمن يبذلون أموالهم فى السراء والضراء، ولمن يمسكون غيظهم، ويمتنعون عن إمضائه مع القدرة عليه، ولمن يغضون عمن أساء إليهم. فالمراد بكظم الغيظ حبسه وإمساكه. يقال : كظم فلان غيظه إذا حبسه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بمن أغضبه. ويقال : كظم البعير جرته، إذا ردها وكف عن الاجترار. وكظم القربة : إذا ملأها وشد على فمها ما يمنع من خروج ما فيها.

وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب».

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن حارثة بن قدامة السعدى أنه سأل رسول الله ﷺ فقال :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١.

يا رسول الله : قل لى قولا ينفعنى وأقلل على لعلى أعقله : فقال له : « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول : « لا تغضب ».

وعن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عن من ظلمه ويعط من حرمه، ويصل من قطعه »[1].

وكظم الغيظ والعفو عن الناس هاتان الصفتان إنما تكونان محمودتين عندما تكون الإساءة متعلقة بذات الإنسان، أما إذا كانت الإساءة متعلقة بالدين بأن انتهك إنسان حرمة من حرمات الله ففى هذه الحالة يجب الغضب من أجل حرمات الله، ولا يصح العفو عمن انتهك هذه الحرمة.

فلقد وصفت السيدة عائشة النبى ﷺ بأنه كان لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء.

وقوله ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

والإحسان معناه الإتقان والإجادة. وأل فى المحسنين إما للجنس أى والله - تعالى - يحب كل محسن فى قوله وعمله، ويكون هؤلاء الذين ذكر الله صفاتهم داخلين دخولا أوليا.

وإما أن تكون للعهد فيكون المعنى : والله - تعالى - يحب هؤلاء المحسنين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم فى كل حال من أحوالهم، ويكظمون غيظهم، ويعفون عمن ظلمهم.

أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء المتقين فقد ذكرها - سبحانه - فى قوله : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

والفاحشة من الفحش وهو مجاوزة الحد فى السوء. والمراد بها الفعلة البالغة فى القبح كالزنا والسرقة وما يشبههما من الكبائر.

والمعنى : سارعوا أيها المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدها خالقكم -عز وجل- للمتقين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم فى السراء والضراء، ويكظمون غيظهم، ويعفون عن الناس، وأنهم إذا فعلوا فعلة فاحشة متناهية فى القبح، أو ظلموا أنفسهم، بارتكاب أى نوع من أنواع الذنوب « ذكروا الله » أى تذكروا حقه العظيم، وعذابه

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٠٥.

الشديد، وحسابه العسير للظالمين يوم القيامة «فاستغفروا لذنوبهم» أى طلبوا منه - سبحانه - المغفرة لذنوبهم التى ارتكبوها، وتابوا إليه توبة صادقة نصوحا.

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - ﴿والذين إذا فعلوا﴾ معطوفا على الصفة الأولى من صفات المتقين، ويكون قوله - تعالى - ﴿والله يحب المحسنين﴾ جملة معترضة بين الصفات المتعاطفة.

قال الفخر الرازى: واعلم أن وجه النظم من وجهين:

الأول: أنه - تعالى - لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين قسمان:

أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم بالانفاق فى السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس.

وثانيهما: الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله - تعالى - ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ وبين - سبحانه - أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى فى كونها متقية..

والوجه الثانى: أنه فى الآية الأولى ندب إلى الإحسان إلى الغير، وندب فى هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس، فإن المذنب إذا تاب كانت توبته إحسانا منه إلى نفسه»(١).

وقوله ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ معطوف على قوله ﴿فعلوا فاحشة﴾ من باب عطف العام على الخاص، وهذا على تفسير الفاحشة بأنها كبائر الذنوب، أما ظلم النفس فيتناول كل ذنب سواء أكان صغيرا أم كبيرًا.

وبعضهم يرى أن الفاحشة وظلم النفس وجهان للمعصية لا ينفصلان عنها، بمعنى أن كل معصية لا تخلو منها فهى فاحشة وظلم للنفس، وعلى هذا تكون «أو» بمعنى الواو.

ويكون المعنى: ومن يرتكب فاحشة ويظلم نفسه، ويتذكر الله عند ارتكابها فيعود إليه تائبًا منيبا يكون من المتقين.

وفى التعبير بقوله: ﴿إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله﴾ بصيغة الشرط الجواب، إشعار بوجوب اقتران الجواب بالشرط. أى أن الشخص الذى يدخل فى جملة المتقين هو الذى يعود إلى ربه تائبا فور وقوع المعصية، بحيث لا يسوف ولا يؤخر التوبة حتى إذا حضره الموت. قال: إنى تبت الآن.

وقوله: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ جملة معترضة بين قوله ﴿فاستغفروا﴾ وبين قوله ﴿ولم يصروا﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٩.

والاستفهام فى قوله: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ للإنكار والنفى.

أى: لا أحد يقبل توبة التائبين، ويغفر ذنوب المذنبين، ويمسح خطايا المخطئين، إلا الله العلى الكبير «الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، ويتوب الله على من تاب» - كما جاء فى الحديث الشريف - ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الجملة ما ملخصه: فى هذه الجملة وصف لذاته - تعالى - بسعة الرحمة، وقرب المغفرة، وأن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه. وفيها تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل، وكرمه أعظم. والمعنى أنه وحده عنده مصححات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف، والمعطوف عليه»(١).

وقوله ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ بيان لشروط الاستغفار المقبول عند الله -تعالى-.

أى أن من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، سارعوا بالتوبة إلى الله -تعالى-، ولم يصروا على الفعل القبيح الذى فعلوه، وهم عالمون بقبحه، بل يندمون على ما فعلوا، ويستغفرون الله - تعالى - مما فعلوا، ويتوبون إليه توبة صادقة.

وقوله ﴿ولم يصروا﴾ معطوف على قوله ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾.

وقوله ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية من فاعل «يصروا» أى ولم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه.

ومفعول يعلمون محذوف للعلم به أى يعلمون سوء فعلهم، أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب، أو يعلمون عظم غضب الله على المذنبين الذين يداومون على فعل القبائح دون أن يتوبوا إليه.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام المذنبين، وحرضتهم على ولوجه بعزيمة صادقة، وقلب سليم، ولم تكتف بذلك بل بشرتهم بأنهم متى أقلعوا عن ذنوبهم، وندموا على ما فعلوا، وعاهدوا الله على عدم العودة على ما ارتكبوه من خطايا، وردوا المظالم إلى أهلها، فإن الله - تعالى - يغفر لهم ما فرط منهم، ويحشرهم فى زمرة عباده المتقين.

إنه -سبحانه- لا يغلق فى وجه عبده الضعيف المخطىء باب التوبة، ولا يلقيه حائرا منبوذا فى ظلام المتاهات، ولا يدعه مطرودا خائفا من المصير، وإنما يطمعه فى مغفرته -سبحانه-

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤١٦.

ويرشده إلى أسبابها، ويغريه بمباشرة هذه الأسباب حتى ينجو من العقاب.

ولقد ساق - سبحانه - فى عشرات الآيات ما يبشر التائبين الصادقين فى توبتهم بمغفرته ورحمته ورضوانه، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلـهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيما. ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا﴾(١).

وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال: رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»(٢).

وقال القرطبى: وأخرج الشيخان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه».

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم».

ثم قال القرطبى: «والذنوب التى يتاب منها إما كفر أو غيره فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره، وغير الكفر إما حق لله - تعالى - وإما حق لغيره؛ فحق الله - تعالى - يكفى فى التوبة منه الترك، غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك، بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاء كالصلاة والصوم. ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث فى الإيمان والظهار وغير ذلك وأما حقوق الآدميين فلابد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تصدق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمول، وفضله مبذول، فكم ضمن من التبعات، وبدل من السيئات بالحسنات»(٣).

ثم بين - سبحانه - عاقبة من هذه صفاتهم فقال: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾.

أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات السابقة من الإنفاق فى السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس.. إلخ ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ تستر ذنوبهم، وتمسح خطاياهم.

---

(١) سورة الفرقان الآيات من ٦٧ - ٧١.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٠٧.

(٣) تفسير القرطبى جـ٢ ص٢٣١.

وفى الإشارة إليهم بأولئك الدالة على البعد، إشعار بعلو منزلتهم فى الفضل، وسمو مكانتهم عند الله - تعالى-.

وقوله ﴿وجنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ معطوف على ﴿مغفرة﴾ أى لهم بجانب هذه المغفرة جنات تجرى من تحت أشجارها وثمرها الأنهار.

وقوله ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور فى ﴿جزاؤهم﴾ لأنه مفعول به فى المعنى، إذ هو بمعنى أولئك يجزيهم الله - تعالى - جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها.
فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد أصحاب هذه الصفات بأمور ثلاثة:

وعدهم بغفران ذنوبهم وهذا منتهى الأمانى والآمال.

ووعدهم بإدخالهم فى جناته التى يتوفر لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ووعدهم بالخلود فى تلك الجنات حتى يتم لهم السرور والحبور.

وقوله - تعالى - ﴿ونعم أجر العاملين﴾ تذييل قصد به مدح ما أعد لهم من جزاء، حتى يرغب فى تحصيله العقلاء.

والمخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين هذا الجزاء الذى وعدهم الله به مغفرة وجنات خالدين فيها.

وبذلك نرى السورة الكريمة قبل أن تفصل الحديث عن غزوة أحد، قد ذكرت المؤمنين بطرف مما حدث من بعضهم فيها، وبالنتائج الطيبة التى حصلوا عليها من غزوة بدر، ثم أمرتهم بتقوى الله، وبالمسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى رضاه.

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك تتحدث عن غزوة أحد وعن آثارها فى نفوس المؤمنين، فبدأت بالإشارة إلى سنن الله فى المكذبين بآياته؛ لتخفف عن المؤمنين مصابهم، ثم أمرتهم بالصبر والثبات ونهتهم عن الوهن والجزع لأنهم هم الأعلون. وإن تكن قد أصابتهم جراح فقد أصيب المشركون بأمثالها، ولله - تعالى - فيما حدث فى غزوة أحد حكم، منها: تمييز الخبيث من الطيب، وتمحيص القلوب واتخاذ الشهداء، ومحق الكافرين.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق تلك المعانى بأسلوبه الذى يبعث الأمل فى قلوب المؤمنين. ويرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم، ويخفف عنه آلامهم فيقول:

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾
وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أن الله - تعالى - لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية، الغفران والجنات، أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية. وهو تأمل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين فقال : ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾.

وأصل الخلو فى اللغة : الانفراد. والمكان الخالى هو المنفرد عمن يسكن فيه. ويستعمل أيضا فى الزمان بمعنى المضى : لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه، وكذا الأمم الخالية.

والسنن جمع سنة وهى الطريقة المستقيمة والمثال المتبع. وفى اشتقاق هذه اللفظة وجوه منها : أنها فعلة من سن الماء يسنه إذا والى صبه. والسن الصب للماء. والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالى أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشىء الواحد»[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٠.

والمراد بالسنن هنا : وقائع فى الأمم المكذبة، أجراها الله - تعالى - على حسب عادته، وهى الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم عن أمره.

والمعنى : إنه قد مضت وتقررت من قبلكم - أيها المؤمنون - سنن ثابتة، ونظم محكمة فيما قدره - سبحانه - من نصر وهزيمة، وعزة وذلة، وعقاب فى الدنيا وثواب فيها، فالحق يصارع الباطل، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنه - سبحانه - من سنة فى النصر والهزيمة.

وقد جرت سننه - سبحانه - فى خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين، وأن يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فإن كنتم فى شك من ذلك - أيها المؤمنون - ﴿فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾.

أى : فسيروا فى الأرض متأملين متبصرين، فسترون الحال السيئة التى انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم، وبقايا آثارهم.

قالوا : وليس المراد بقوله ﴿فسيروا فى الأرض فانظروا﴾ الأمر بذلك لا محالة، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير فى الأرض كان المقصود حاصلا، ولا يمتنع أن يقال أيضا : إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار[1]

والتعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التى تدعو إلى العجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ فى قلوب المؤمنين؛ لأن هؤلاء المكذبين. مكن الله لهم فى الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه. ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم.

فهذه الآية وأشباهها من الآيات، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم. وإلى الاتعاظ بأيام الله، وبالتاريخ وما فيه من أحداث، وبالآثار التى تركها السابقون، فإنها أصدق من رواية الرواة ومن أخبار المخبرين.

ثم قال - تعالى - ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾.

والبيان : هو الدلالة التى تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة.

والهدى : هو الإرشاد إلى ما فيه خير الناس فى الحال والاستقبال.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٢.

والموعظة : هى الكلام الذى يفيد الزجر عما لا ينبغى من الأمور الدينية أو الدنيوية.

قالوا : فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان :

أحدهما : الكلام الهادى إلى ما ينبغى فى الدين وهو الهدى.

والثانى : الكلام الزاجر عما لا ينبغى فى الدين وهو الموعظة. فعطفهما على البيان من عطف الخاص على العام»(١).

واسم الإشارة يعود إلى ما تقدم هذه الآية الكريمة من أوامر ونواه، ومن وعد ووعيد، ومن حض على السير فى الأرض للاعتبار والاتعاظ.

أى هذا الذى ذكرناه لكم من وعد ووعيد، ومن أوامر ونواه، ومن حض على الاعتبار بأحوال المكذبين، ﴿بيان للناس﴾ يكشف لهم الحقائق ويرفع عنهم الالتباس ﴿وهدى﴾ يهديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ﴿وموعظة﴾ أى تخويف نافع ﴿للمتقين﴾ الذين يعتبرون بالمثلات، وينتفعون بالعظات.

وقيل: إن اسم الإشارة يعود إلى القرآن.

أى هذا القرآن بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

وقد رجح ابن جرير الرأى الأول فقال : وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : قوله ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله - عز وجل - المؤمنين، وتعريفهم حدوده، وحضهم على لزوم طاعته، والصبر على جهاد أعدائه، لأن قوله ﴿هذا﴾ إشارة إلى حاضر إما مرئى وإما مسموع وهو فى هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة، فمعنى الكلام : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكموه بيان للناس»(٢).

والمراد بالناس جميعهم، إذ أن ما ساقه الله - تعالى - من دلالات وهدايات وعظات هى للناس كافة، إلا أن الذين ينتفعون بها هم المتقون، لأنهم هم الذين أخلصوا قلوبهم لله، وهم الذين طلبوا الحق وسلكوا طريقه...

والكلمة الهادية لا يستفيد بها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى، والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب الخاشع المنيب، والناس فى كل زمان ومكان لا ينقصهم - فى الغالب - العلم بالحق وبالباطل، وبالهدى والضلال... وإنما الذى ينقصهم هو القلب السليم الذى يسارع إلى الحق فيعتنقه ويدافع عنه بإخلاص وإصرار، ولذا وجدنا القرآن فى هذه الآية - وفى عشرات

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٤٢ ص١٠١.

الآيات غيرها - يصرح بأن المنتفعين بالتذكير هم المتقون فيقول : ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾.

وبعد هذا البيان الحكيم، يتجه القرآن إلى المؤمنين بالتثبيت والتعزية فينهاهم عن أسباب الفشل والضعف، ويأمرهم بالصمود وقوة اليقين. ويبشرهم بأنهم هم الأعلون فيقول : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

وقوله ﴿تهنوا﴾ من الوهن - بسكون الهاء وفتحها - وهو الضعف. وأصله ضعف الذات كما فى قوله - تعالى - حكاية عن زكريا : ﴿قال رب إنى وهن العظم منى﴾ أى ضعف جسمى.

وهو هنا مجاز عن خور العزيمة، وضعف الإرادة، وانقلاب الرجاء يأسًا والشجاعة جبنا، واليقين شكا، ولذلك نهوا عنه.

وقوله ﴿تحزنوا﴾ من الحزن وهو ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحب أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق.

والمقصود من النهى عن الوهن والحزن، النهى عن سببهما وعن الاسترسال فى الألم مما أصابهم فى غزوة أحد.

والمعنى : لا تسترسلوا - أيها المؤمنون - فى الهم والألم مما أصابكم فى يوم أحد، ولا تضعفوا عن جهاد أعدائكم فإن الضعف ليس من صفات المؤمنين، ولا تحزنوا على من قتل منكم فإن هؤلاء القتلى من الشهداء الذين لهم منزلتهم السامية عند الله.

وقوله ﴿وأنتم الأعلون﴾ جملة حالية من ضمير الجماعة فى ولا تهنوا ولا تحزنوا والمقصود بها بشارتهم وتسليتهم وإدخال الطمأنينة على قلوبهم.

أى لا تضعفوا ولا تحزنوا والحال أنكم أنتم الأعلون الغالبون دون عدوكم فأنتم قد أصبتم منهم فى غزوة بدر أكثر مما أصابوا منكم فى غزوة أحد. وأنتم تقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت.

وأنتم سيكون لكم النصر عليهم فى النهاية، لأن الله - تعالى - قد وعدكم بذلك فهو القائل : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[1].

وقوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

أى : إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم ولا تعودوا لما وقعتم

---

(١) سورة غافر الآية ٥١.

فيه من أخطاء فإن الإيمان يوجب قوة القلب، وصدق العزيمة، والصمود فى وجه الأعداء، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هى العليا.

والتعليق بالشرط فى قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ المراد منه التهييج لنفوسهم حتى يكون تمسكها بالإيمان أشد وأقوى، إذ قد علم الله - تعالى - أنهم مؤمنون، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن بسبب ما أصابهم فى أحد صاروا بمنزلة من ضعف يقينه، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين حقا فاتركوا الوهن والحزن وجدوا فى قتال أعدائكم، فإن سنة الله فى خلقه اقتضت أن تصيبوا من أعدائكم وأن تصابوا منهم إلا أن العاقبة ستكون لكم.

فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين على الجهاد والصبر، وتشجيع على القتال وتسلية لهم عما أصابهم، وبشارة بأن النصر فى النهاية سيكون حليفهم.

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تسلية جديدة لهم، فأخبرهم بأن ما أصابهم من جراح وآلام قد أصيب أعداؤهم بمثله فقال -تعالى- : ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾.

فقال الفخر الرازى : واعلم أن هذا من تمام قوله - تعالى - ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون﴾ فبين - تعالى - أن الذين يصيبهم من القرح لا يصح أن يزيل جدهم واجتهادهم فى جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك فى الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى(١).

والمراد بالمس هنا : الإصابة بالجراح ونحوها.

والقرح - بفتح القاف - الجرح الذى يصيب الإنسان، والقرح - بضم القاف - الألم الذى يترتب على ذلك وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره.

والمعنى : إن تكونوا - أيها المؤمنون - قد أصابتكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد، فأنتم قد أنزلتم بهم من الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم، فأنتم أولى بسبب إيمانكم ويقينكم ألا تهنوا وألا تحزنوا لما أصابكم فى أحد وأن تعقدوا العزم على منازلتهم حتى يظهر أمر الله وهم كارهون.

وقيل : إن المعنى إن تصبكم الجراح فى أحد فقد أصيب القوم بجراح مثلها فى هذه المعركة ذاتها.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٤.

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين المعنيين فقال : والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا. ونحوه ﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون﴾ وقيل : كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإن قلت : كيف قيل «قرح مثله» وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت : بلى كان مثله. ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله - تعالى - ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾[1].

ويبدو لنا أن الظاهر هو الرأى الأول، وهو أن الكلام عن غزوتى بدر وأُحد، لأن الله -تعالى- قد ساق هذه الآية الكريمة لتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم فى أحد من المشركين قد أصيب المشركون بمثله على أيدى المؤمنين فى غزوة بدر، فلماذا يحزنون أو يضعفون؟ ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، يؤيد هذا المعنى - كما سنبينه بعد قليل -.

وجواب الشرط فى قوله ﴿إن يمسسكم قرح﴾ . . . إلخ . محذوف. والتقدير إن يمسسكم قرح فاصبروا عليه واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم، فقد مسهم قرح مثله قبل ذلك.

وعبر عما أصاب المسلمين فى أحد بصيغة المضارع ﴿يمسسكم﴾ لقربه من زمن الحال، وعما أصاب المشركين بصيغة الماضى لبعده؛ لأن ما أصابهم كان فى غزوة بدر.

وقوله ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ بيان لسنة الله الجارية فى كونه، وتسلية للمؤمنين عما أصابهم فى أحد.

وقوله ﴿نداولها﴾ من المداولة، وهى نقل الشىء من واحد إلى آخر.

يقال : هذا الشىء تداولته الأيدى، أى انتقل من واحد إلى آخر. .

والمعنى : لا تجزعوا أيها المؤمنون لما أصابكم من الجراح فى أحد على أيدى المشركين فهم قد أصيبوا منكم بمثل ذلك فى غزوة بدر، وإن أيام الدنيا هى دول بين الناس، لا يدوم سرورها ولا غمها لأحد منهم، فمن سره زمن ساءته أزمان، ومن أمثال العرب. الحرب سجال : والأيام دول فهى تارة لهؤلاء وتارة لأولئك، كما قال الشاعر :

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤١.

فلا وأبى الناس لا يعلمون   فلا الخير خير ولا الشر شر
فيوم علينا، ويوم لنا   ويوم نساء ويوم نسر

واسم الإشارة ﴿تلك﴾ مشاربه إلى ما بعده، كما فى الضمائر المبهمة التى يفسرها ما بعدها، ومثل هذا التركيب يفيد التفخيم والتعظيم.

والمراد بالأيام : الأوقات والأزمان المختلفة لا الأيام العرفية التى يتكون الواحد منها من مدة معينة.

وقد فسر صاحب الكشاف مداولة الأيام بتبادل النصر، فقال : وقوله : ﴿وتلك الأيام﴾، تلك مبتدأ. والأيام صفته ﴿ونداولها﴾ خبره.

ويجوز أن يكون ﴿تلك الأيام﴾ مبتدأ وخبرا، كما تقول : هى الأيام تبلى كل جديد.

والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة. ونداولها : نصرفها بين الناس، نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء»[1].

وقد تكلم الإمام الرازى عن الحكمة فى مداولة الأيام بين الناس فقال ما ملخصه : واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله - تعالى - ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصرة الله منصب شريف، وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه :

الأول : إنه - سبحانه - لو شدد المحنة على الكفار فى جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين فى جميع الأوقات. لحصل العلم الاضطرارى بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بواسطة النظر فى الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله.

والثانى : أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصى، فيكون تشديد المحنة عليه فى الدنيا أدبًا، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبًا من الله عليه»[2].

ووجه آخر وهو شحذ عزائم المؤمنين فى اتخاذ وسائل النصر فلا يركنوا إلى إيمانهم ويتركوا العمل بالأسباب.

ثم كشفت السورة الكريمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث فى غزوة أحد،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤١٩.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٥.

وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس فقال - تعالى - ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾.

أى فعلنا ما فعلنا فى أحد، واقتضت حكمتنا أن نداول الأيام بينكم وبين عدوكم، ليظهر أمركم - أيها المؤمنون -، وليتميز قوى الإيمان من ضعيفه.

فمعنى علم الله هو تحقق ما قدره فى الأزل فيعلمه الناس، ويعلمه الله - تعالى - واقعا حاضرا، وذلك لأن العلم الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا فى الحس.

قال صاحب الكشاف: وقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعلل محذوفا والمعنى: وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف فعلنا ذلك. وهو من باب التمثيل. بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فالله - عز وجل - لم يزل عالما بالأشياء قبل كونها.

والثانى: أنه تكون العلة محذوفة، وهذا عطف عليه والمعنى: وفعلنا ذلك ليكون كيت وليعلم الله. وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة، ليسليهم عما جرى عليهم، وليبصرهم بأن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه»[1].

وقوله ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ بيان لحكمة أخرى لما أصاب المسلمين يوم أحد.

أى: وليكرم ناسا منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله، والدفاع عن الحق. وهو - سبحانه - يحب الشهداء من عباده، ويرفعهم إلى أعلا الدرجات، وأسمى المنازل.

قال القرطبى ما ملخصه: قوله - تعالى - ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أى يكرمكم بالشهادة، أى ليقتل قوم منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل شهيد.

وقيل: سمى شهيدًا لأنه مشهود له بالجنة. وقيل: سمى شهيدا، لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم، فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة. والشهادة فضلها عظيم ويكفيك فى فضلها قوله - تعالى - ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾... الآية. وفى الحديث الشريف أن رجلا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ فقال ﷺ «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٢٠.
(٢) تفسير القرطبى جـ٤ ص٢١٨.

وقوله - تعالى - ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ جملة معترضة لتقدير مضمون ما قبلها.

أى: والله - تعالى - لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرة الحق، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله، ونصرة شريعته.

ثم ذكر - سبحانه - حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين فى غزوة أحد فقال: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾.

وقوله ﴿وليمحص﴾ من المحص بمعنى التنقية والتخليص. يقال: محصت الذهب بالنار ومحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث. أو من التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار.

وقوله ﴿ويمحق﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به، وأصله نقص الشيء قليلا قليلا حتى يفنى. يقال: محق فلان هذا الطعام إذا نقصه حتى أفناه ومنه المحاق، لآخر الشهر، لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفى.

والمعنى: ولقد فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة أحد، لكى يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر أربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد وهى: تحقق علم الله - تعالى - وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة التى توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا.

ثم بين - سبحانه - أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وأن الوصول إلى رضا الله - تعالى - يحتاج إلى جهاد عظيم، وصبر طويل فقال - تعالى -: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ و﴿أم﴾ هنا يرى كثير من العلماء أنها منقطعة، بمعنى بل الانتقالية، لأن الكلام انتقال من تسليتهم إلى معاتبتهم على ما حدث منهم فى غزوة أحد من مخالفة بعضهم لأمر رسول الله ﷺ وفرارهم عنه فى ساعة الشدة.

والهمزة المقدرة معها للإنكار والاستبعاد.

وقوله ﴿أم حسبتم﴾ معطوف على جملة ﴿ولا تهنوا﴾ وذلك أنهم لما مسهم القرح فحزنوا واعتراهم شيء من الضعف، بين الله لهم أنه لا وجه لهذا الضعف أو الحزن لأنهم هم الأعلون، والأيام دول، وما أصابهم فقد سبق أن أصيب بمثله أعداؤهم، ثم بين لهم هنا: أن

دخول الجنة لا يحصل لهم إذا لم يبذلوا مهجهم وأرواحهم فى سبيل الله، فإذا ظنوا غير ذلك فقد أخطأوا.

والمعنى: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة، وتنالوا كرامة ربكم، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا فى سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه ومطالبه،إن كنتم تحسبون هذا الحسبان فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه.

ويحتمل أن تكون ﴿أم﴾ هنا للمعادلة بمعنى أنها متصلة لا منقطعة «ويكون المعنى عليه: أعلمتم أن لله - تعالى - سننا فى النصر والهزيمة، وأن الأيام دول. وأن الوصول إلى السنة يحتاج إلى إيمان وجهاد وصبر، أم حسبتم وظننتم أنكم تدخلون الجنة من غير مجاهدة واستشهاد؟.

وقوله ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ معناه: ولم تجاهدوا جهاد الصابرين فيعلم الله ذلك منكم.

قال صاحب الكشاف: وقوله ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ بمعنى ولما تجاهدوا. لأن العلم متعلق بالمعلوم، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه، لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله من فلان خيرا، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، و«لما» بمعنى و﴿لم﴾ إلا أن فيها ضربًا من التوقع، فدل على نفى الجهاد فيما مضى، وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعدنى أن يفعل كذا ولما يفعل، تريد: وأنا أتوقع فعله»[1].

وجملة ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ حالية من ضمير ﴿تدخلوا﴾ مؤكدة للإنكار، فإن رجاء الأجر من غير علم مستبعد عند ذوى العقول السليمة، ولذا قال بعضهم:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقال بعض الحكماء «طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور. وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة».

وقوله ﴿ويعلم الصابرين﴾ أى ويتميز الصابرون فى جهادهم عن غيرهم فالآية الكريمة تشير إلى أن الشدائد من شأنها أن تميز المجاهدين الصادقين فى جهادهم، الثابتين فى البأساء والضراء من غيرهم، وأن تميز الصابرين الذين يتحملون مشاق القتال وتبعاته بقلب راسخ، ونفس مطمئنة من الذين يجاهدون ولكنهم تطيش أحلامهم عند الشدائد والأهوال.

فالجهاد فى سبيل الله يستلزم الصبر، لأن الصبر هو عدة المجاهد وأساس نجاحه، ولقد سئل بعضهم عن الشجاعة فقال: الشجاعة صبر ساعة.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٢٠.

وقال بعض الشعراء يعتذر عن انتصار أعدائهم عليهم.

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ولقد كان عدم صبر الرماة فى غزوة أحد، ومسارعتهم إلى جمع الغنائم، من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة المسلمين فى تلك المعركة.

والآية الكريمة كذلك تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلا يسلكه كل إنسان وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد. ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا، ولذا قال رسول الله ﷺ حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من تمنى الشهادة فى سبيله فقال ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾.

قال ابن جرير ما ملخصه: كان قوم من أصحاب النبى ﷺ ممن لم يشهد بدرًا، يتمنون قبل يوم أحد يوما مثل يوم بدر، فيعطون الله من أنفسهم خيرا، وينالون من الأجر مثل ما نال أهل بدر، فلما كان يوم أحد، فر بعضهم وصبر بعضهم، حتى أوفى بما كان عاهد الله عليه قبل ذلك، فعاتب الله من فر منهم بقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾... الآية.

وعن الحسن قال: بلغنى أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون: لئن لقينا مع النبى ﷺ المشركين لنفعلن ولنفعلن، فابتلوا بذلك - فى أحد -، فلا والله ما كلهم صدق، فأنزل الله - تعالى - ﴿ولقد كنتم﴾.... الآية[1].

والخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين الذين لم يفوزوا بالشهادة فى غزوة أحد، وهو خطاب يجمع بين الموعظة والملام.

والمراد بالموت هنا الشهادة فى سبيل الله، أو الحرب والقتال لأنهما يؤديان إلى الموت.

والمعنى: ولقد كنتم - يا معشر المؤمنين - ﴿تتمنون الموت﴾، أى الحرب أو الشهادة فى سبيل الله ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أى تشاهدوه وتعرفوا أهواله ﴿فقد رأيتموه﴾ أى فقد رأيتم ما تتمنونه من الموت بمشاهدة أسبابه وهى الحرب وما يترتب عليها من جراح وآلام وقتال ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أنتم أيها الأحياء أن تقتلوا.

وقوله ﴿من قبل أن تلقوه﴾ متعلق بقوله ﴿تمنون﴾ مبين لسبب إقدامهم على التمنى. أى من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا مصاعبه.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٤ ص١٠٩.

ففى الجملة الكريمة تعريض بأنهم تمنوا أمرا دون أن يقدروا شدته عليهم، ودون أن يوطنوا أنفسهم على تحمل مشقاته وتبعاته.

والفاء فى قوله ﴿فقد رأيتموه﴾ للإفصاح عن شرط مقدر دل عليه صدر الكلام. والتقدير: إذا كنتم قد تمنيتم الموت فقد وقع ما تمنيتموه ورأيتموه رأى العين، فأين بلاؤكم وصبركم وثباتكم؟.

وقوله ﴿وأنتم تنظرون﴾ جملة حالية من ضمير المخاطبين مؤكدة لمعنى رأيتموه. أى رأيتموه معاينين له، وهذا على حد قولك: رأيته وليس فى عينى علة، أى رأيته رؤية حقيقية لا خفاء ولا التباس.

والتعبير بالمضارع ﴿تنظرون﴾ يفيد التصوير. وإحضار الصورة الواقعة فى الماضى كأنها واقعة فى الحاضر، فيستحضرها العقل كما وقعت، وكما ظهرت فى الوجود.

والنظر الذى قرره الله - تعالى - بقوله ﴿وأنتم تنظرون﴾ يتضمن النظر إلى الموقعة كلها، وكيف كان النصر فى أول الأمر للمسلمين، ثم كيف كانت الهزيمة بعد ذلك بسبب تطلع بعضهم إلى أعراض الدنيا. ثم كيف تفرقت صفوفهم بعد اجتماعها وكيف تضعضعت بعض العزائم بعد مضائها وقوتها.

ولقد حكت الآية الكريمة أن المسلمين كانوا يتمنون الموت فى معركة، وليس فى ذلك من بأس، بل إن هذا هو شعار المؤمن الصادق، لأن المؤمن الصادق هو الذى يتمنى الشهادة فى سبيل الله ومن أجل نصرة دينه، ولقد قال رسول الله ﷺ «لوددت أنى أقتل فى سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل».

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - «اللهم إنى أسألك شهادة فى سبيلك». ولكن الذى يكرهه الإسلام هو أن يتمنى المسلم الشهادة ثم لا يفى بما تمناه، بمعنى أن يفر من الميدان أو يفعل ما من شأنه أن يتنافى مع الجهاد الحق فى سبيل الله.

ولذا قال الآلوسى: «والمقصود من هذا الكلام عتاب المنهزمين على تمنيهم الشهادة، وهم لم يثبتوا حتى يستشهدوا، أو على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة نفسها لأن ذلك مما لا عتاب عليه كما وهم»(١).

فالآية الكريمة تعظ المؤمنين بأن لا يتمنوا أمرا حتى يفكروا فى عواقبه، ويعدوا أنفسهم له، ويلتزموا الوفاء بما تمنوه عند تحققه، ولقد رسم النبى ﷺ الطريق القويم الذى يجب أن يسلكه

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٧٢.

المسلم فى حياته فقال فى حديثه الصحيح : «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المؤمنين بأن يعتبروا بأحوال من سبقهم، وأن يتجنبوا ماكان عليه المكذبون من ضلال وعصيان وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل المصائب والآلام فإن العاقبة لهم، وأن يعلموا أن الحياة لا تخلو من نصر وهزيمة، وسراء وضراء حتى يتميز الخبيث من الطيب، وأن يعرفوا أن الطريق إلى الجنة يحتاج إلى إيمان عميق، وصبر طويل، وجهاد شديد، واستجابة كاملة لتعاليم الإسلام وآدابه. ثم تمضى السورة الكريمة فى حديثها عن غزوة أحد، فتذكر المؤمنين بما كان منهم عندما أشيع بأن رسول الله ﷺ قد قتل، وترشدهم إلى أن الآجال بيد الله، وأن المؤمنين الصادقين قاتلوا مع أنبيائهم فى سبيل إعلاء كلمة الله بدون ضعف أو ملل فعليهم أن يتأسوا بهم فى ذلك، وأن الله - تعالى - قد تكفل بأن يمنح المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيله أجرهم الجزيل فى الدنيا والآخرة.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول :

وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد جـ٤ ص٦٢ ومسلم فى كتاب الجهاد والسير جـ٥ ص ١٣.

رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا. وإنما قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه فى رأسه. فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فحصل ضعف ووهن وتأخر - بين المسلمين - عن القتال. ففى ذلك أنزل الله تعالى - ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبل رسل﴾ الآية[1].

وقوله - تعالى - ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ تقرير لحقيقة ثابتة، ولأمر مؤكد، وهو أن محمدًا ﷺ واحد من البشر، وأنه سيموت كما يموت جميع البشر، وأنه ليس له صفة تميزه عن سائر البشر سوى الرسالة التى وهبها الله - تعالى - له، ومنحه إياها، وأن هذه الرسالة لا تقتضى بقاءه أو خلوده، إذ الرسل الذين سبقوه قد أدوا رسالتهم فى الحياة كما أمرهم خالقهم ثم ماتوا أو قتلوا.

ومادام الأمر كذلك فمحمد ﷺ سيموت وينتقل إلى الرفيق الأعلى كما مات الذين سبقوه من الأنبياء، وكما سيموت جميع البشر.

والقصر فى قوله -تعالى- : ﴿وما محمد إلا رسول﴾ من باب قصر الموصوف على الصفة، أى قصر محمد ﷺ على وصف الرسالة قصرًا إضافيًا.

وفى هذا القصر رد على ما صدر من بعض المسلمين من اضطراب وضعف حين أرجف المنافقون فى غزوة أحد بأن الرسول ﷺ قد قتل.

فكأنه - تعالى - يقول لهم: إن محمدًا ﷺ رسول من الرسل الذين أرسلهم الله لإخراج

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص٤٠٩.

الناس من الظلمات إلى النور، وسيكون مصيره إلى الموت إن عاجلا أو آجلا كما هو شأن سائر البشر الذين اصطفى الله - تعالى - منهم رسله، إلا أن رسالته التى جاء بها من عند الله لن تموت من بعده، بل ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يصح أن يضعف أتباعه فى عقيدتهم أو فى تبليغ رسالته من بعده، بل عليهم أن يستمسكوا بما جاءهم به، وأن يدافعوا عنه بأنفسهم وأموالهم.

ولذا فقد وبخ الله - تعالى - بعض المسلمين الذين صدر منهم اضطراب أو ضعف عندما أشاع ضعاف النفوس بأن الرسول ﷺ قد قتل فى غزوة أحد فقال - تعالى - : ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾؟

أى : إذا مات محمد ﷺ - أيها المؤمنون - وقد علمتم أن موته حق لا ريب فيه، أو قتل وهو يدافع عن دينه وعقيدته، ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ أى : رجعتم إلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال. والانقلاب : الرجوع إلى المكان. وهو هنا مجاز فى الرجوع إلى الحال التى كانوا عليها قبل الإسلام.

يقال لكل من رجع إلى حاله السيء الأول : نكص على عقبيه، وارتد على عقبيه. والعقب مؤخر الرجل. وجمعه أعقاب.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿أفإن مات﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبب. والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببًا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكًا به يجب أن يجعل سببًا للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه.

فإن : قلت : لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت : لكونه مجوزا عند المخاطبين.

فإن قلت : أما علموه من ناحية قوله : ﴿والله يعصمك من الناس﴾؟ قلت : هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة»[1].

وفى قوله ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ تنفير شديد من الرجوع إلى الضلال بعد الهدى، وتصوير بليغ لمن ارتد عن الحق بعد أن هداه الله إليه.

فقد صور - سبحانه - حالة من ترك الهداية إلى الضلال، بحالة من رجع إلى الوراء وبصره إلى الأمام، وأعقابه هى التى تقوده إلى الخلف، وهو فى حالة انتكاس، بأن جعل رأسه إلى أسفل وعقبه إلى أعلا. ولا شك أن هذا أقبح منظر يكون عليه الإنسان.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٢٣.

وقوله ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا﴾ الغرض منه تأكيد الوعيد، لأن كل عاقل يعلم أن الله - تعالى - لا يضره كفر الكافرين.

أى : ومن ينقلب على عقبيه بعد وفاة النبى ﷺ بأن يرجع إلى ما كان عليه من الكفر والضلال، فلن يضر الله شيئًا من الضرر وإن قل، إنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب، وبحرمانها من الأجر والثواب.

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد بالوعد فقال : ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾ أى : وسيثيب الله - تعالى - الثابتين على الحق والصابرين على الشدائد الشاكرين له نعمه فى السراء والضراء، سيثيبهم على ذلك بالنصر فى الدنيا وبرضوانه فى الآخرة.

وعبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين مع أن الصبر فى هذا الموطن أظهر، وذلك لأن الشكر فى هذا المقام هو أسمى درجات الصبر، لأن هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب النبى - ﷺ - فى ساعة العسرة، لم يكتفوا بتحمل البلاء معه فقط، بل تجاوزوا حدود الصبر إلى حدود الشكر على هذه الشدائد التى ميزت الخبيث من الطيب، فالشكر هنا صبر وزيادة، وقليل من الناس هو الذى يكون على هذه الشاكلة، ولذا قال - تعالى - ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾ فالآية الكريمة قد تضمنت عتابا وتوبيخا لأولئك المسلمين الذين ضعف يقينهم، وفترت همتهم، عندما أرجف المرجفون فى غزوة أحد بأن الرسول ﷺ قد قتل.

كما تضمنت الثناء الجزيل على أولئك الثابتين الصابرين الذين لم تؤثر فى قوة إيمانهم تلك الأراجيف الكاذبة، بل مضوا فى جهادهم وثباتهم بدون تردد أو تزعزع ولقد كان الثابتون حول رسول الله ﷺ فى غزوة أحد كثيرين ومن بينهم أنس بن النضر - رضى الله عنه -، فقد روى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال : يا رسول الله. غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون. قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين -. وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين -.

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ. فقال : يا سعد بن معاذ!! الجنة ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد.

قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾(١).

كما تضمنت الآية الكريمة التحذير عن الارتداد عن دين الله بعد وفاة الرسول ﷺ وبيان أنه بشر من البشر، وأنه يموت كما يموت سائر البشر، وأن رسالته هى الخالدة الباقية، فمن تمسك بها فقد سعد وفاز. ومن أعرض عنها فلن يضر الله شيئًا.

ثم بين - سبحانه - أن الآجال بيد الله وحده. وأنه - سبحانه - قد جعل لكل أجل وقتا محددا لا يعدوه فقال - تعالى - : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلا﴾.

أى : ما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس مطلقا، لأى سبب من الأسباب، إلا بمشيئة الله وأمره وإذنه، فهو - سبحانه - الذى كتب لكل نفس عمرها كتابا مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر.

المراد بالنفس هنا. جنسها. أى كل نفس لا تموت إلا بإذن الله.

والمراد بإذنه - : أمره ومشيئته، فكل نفس لا تحيا إلا بأمره، ولا تموت إلا بإذنه.

و ﴿كان﴾ ناقصة وقوله ﴿أن تموت﴾ فى محل رفع اسمها وقوله ﴿لنفس﴾ متعلق بمحذوف وقع خبرا لها. والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب. أى ما كان لها أن تموت فى حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب إلا مأذونا لها منه - سبحانه -.

والباء فى قوله ﴿إلا بإذن الله﴾ للمصاحبة.

وقوله ﴿كتابا﴾ مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التى قبله، وعامله مضمر والتقدير : كتب الله ذلك كتابا مؤجلا. أى له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر، وهو آت لا ريب فيه.

وقوله ﴿مؤجلا﴾ صفة لقوله ﴿كتابا﴾.

ثم ذم - سبحانه - الذين يؤثرون متاع الدنيا على الآخرة، فقال : ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ أى من يرد بعمله ثواب الدنيا أى جزاءها وثمارها كالأموال والغنائم نؤته منها ما نشاء أن نؤتيه، ولا يكون له فى الآخرة من نصيب.

وهذا تعريض بمن شغلوا بجمع الغنائم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ أو بمن تركوا أماكنهم التى وضعهم فيها رسول الله ﷺ وسارعوا إلى جمع حطام الدنيا، فنتج عن ذلك هزيمة المسلمين فى غزوة أحد.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد، باب «من المؤمنين رجال..» جـ٤ ص٢٣.

ثم مدح - سبحانه - الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الآخرة فقال: ﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾.

أى ومن يرد بعمله وجهاده ثواب الآخرة وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل نؤته منها ما نشاء من عطائنا الذين تشتهيه النفوس، وتقر له العيون.

وقوله ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، ووعد من عطاء الله لمن شكره على نعمه ويثبت على شرعه.

أى وسنجزى الشاكرين فى دنياهم بما يسعدهم ويرضيهم، وسنجزيهم فى الآخرة بما يشرح صدورهم، ويدخل البهجة على نفوسهم.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد تضمنت تحريض المؤمنين على القتال. وتحذيرهم من الجبن والفرار، لأن الجبن لا يؤخر الحياة، كما أن الإقدام لا يؤدى إلى الموت قبل حلول وقته، فإن أحدا لا يموت قبل أجله، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

كما تضمنت دعوة المؤمنين إلى الزهد فى متع الحياة الدنيا، وإلى أن يجعلوا مقصدهم الأكبر فى تحصيل ما ينفعهم فى آخرتهم، فإن هذا هو المقصد الأسمى، والمطلب الأعلى: قال - تعالى - ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب﴾[1].

وإن الذين خالفوا وصية رسول الله ﷺ وتركوا أما كنهم التى أمرهم بالثبات فيها جريا وراء الغنائم، لم يحصلوا منها شيئا، بل فقدوها وفقدوا أرواحهم وعزتهم وكرامتهم، وكان فعلهم هذا من أسباب هزيمة المسلمين فى غزوة أحد.

كما تضمنت وعدًا من الله - تعالى - بأن يزيد الشاكرين من فضله وإحسانه، وأن يكافئهم على شكرهم إياه بما هم أهل له من نصر وخير وفير.

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أتباع الأنبياء السابقين من إيمان عميق، وعزم وثيق، حتى يتأسى بهم كل ذى عقل سليم، فقال - تعالى -: ﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾.

وكلمة ﴿كأين﴾ مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على الكثير.

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠.

ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها وهى مبتدأ : وجملة ﴿قاتل معه ربيون﴾ خبرها.

والربيون جمع ربى، وهو العالم بربه؛ الصادق فى إيمانه به، المخلص له فى عبادته نسبة إلى الرب كالربانى.

قال القرطبى ما ملخصه : والربيون - بكسر الراء - قراءة الجمهور. وقرأها بعضهم بضم الراء وقرأها بعضهم بفتحها والربيون : الجماعة الكثيرة نسبة إلى الربة - بكسر الراء وضمها - وهى الجماعة.. ومنه يقال للخرقة التى تجمع فيها القداح : ربة. وربة والرباب : قبائل تجمعت.

وقال ابن عباس : ربيون - بفتح الراء - منسوب إلى الرب.

وقال الخليل : الربى - بكسر الراء - الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الربانيون نسبوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية لله - تعالى -(١). وقوله ﴿فما وهنوا﴾ من الوهن وهو اضطراب نفسى، وانزعاج قلبى، يبتدىء من داخل الإنسان، فإذا وصل إلى الخارج كان ضعفًا وتخاذلا.

والمعنى : وكثير من الأنبياء قاتل معهم مؤمنون صادقو الايمان من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه وأصيبوا وهم يقاتلون بما أصيبوا من جراح وآلام، ﴿فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله﴾ أى فما عجزوا أو جبنوا بسبب ما أصابهم من جراح، أو ما أصاب أنبياءهم وإخوانهم من قتل واستشهاد. لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه، ونصرة رسله.

وقوله ﴿وما ضعفوا﴾ أى : عن قتال أعدائهم وعن الدفاع عن الذى آمنوا به وقوله ﴿وما استكانوا﴾ أى ما خضعوا وذلوا لأعدائهم.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد نفى عن هؤلاء المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف لا تتفق مع الإيمان.

نفى عنهم -أولا- الوهن وهو اضطراب نفسى، وهلع قلبى، يستولى على الإنسان فيفقده ثباته وعزيمته.

ونفى عنهم -ثانيا- الضعف الذى هو ضد القوة، وهو ينتج عن الوهن.

ونفى عنهم - ثالثًا - الاستكانة وهى الرضا بالذل وبالخضوع للاعداء ليفعلوا بهم ما يريدون.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٣٠

وقد نفى - سبحانه - هذه الأوصاف الثلاثة عن هؤلاء المؤمنين الصادقين مع أن واحدًا منها يكفى نفيه لنفيها لأنها متلازمة - وذلك لبيان قبح ما يقعون فيه من أضرار فيما لو تمكن واحد من هذه الأوصاف من نفوسهم.

وجاء ترتيب هذه الأوصاف فى نهاية الدقة بحسب حصولها فى الخارج، فإن الوهن الذى هو خور فى العزيمة إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذى هو لون من الاستسلام والفشل. ثم تكون بعدهما الاستكانة التى يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة فى حياته كان الموت أكرم له من هذه الحياة.

وقوله ﴿والله يحب الصابرين﴾ تذييل قصد به حض المؤمنين على تحمل المكاره وعلى مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره من أجل إعلاء دينهم حتى يفوزوا برضا الله ورعايته كما فاز أولئك الأنقياء الأوفياء.

أى والله - تعالى - يحب الصابرين على آلام القتال، ومصاعب الجهاد، ومشاق الطاعات، وتبعات التكاليف التى كلف الله -تعالى- بها عباده.

ثم أتبع - سبحانه - محاسنهم الفعلية، ببيان محاسنهم القولية فقال - تعالى - ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا فى أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

أى أن هؤلاء الأنقياء الأوفياء الصابرين ما كان لهم من قول فى مواطن القتال وفى عموم الأحوال إلا الضراعة إلى الله - بثلاثة أمور:

أولها: حكاه القرآن عنهم فى قوله: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا﴾.

أى: إنهم يدعون الله - تعالى - بأن يغفر لهم ذنوبهم ما كان صغيرا منها وماكان كبيرا: وأن يغفر لهم ﴿إسرافهم فى أمرهم﴾ أى ما تجاوزوه من الحدود التى حدها لهم وأمرهم بعدم تجاوزها.

وثانيها: حكاه القرآن عنهم فى قوله ﴿وثبت أقدامنا﴾ اى أجعلنا يا ربنا ممن يثبت لحرب أعدائك وقتالهم ولا تجعلنا ممن يوليهم الأدبار.

وثالثها: حكاه القرآن عنهم فى قوله ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أى اجعل النصر لنا ياربنا على أعدائك وأعدائنا الذين جحدوا وحدانيتك، وكذبوا نبيك وضلوا ضلالا بعيدا.

وتأمل معى - أخى القارىء - هذه الدعوات الكريمة تراها قد جمعت ما جمعت من صدق اليقين، وحسن الترتيب.

فهم قد التمسوا - أولا - من خالقهم مغفرة ذنوبهم والتجاوز عما وقعوا فيه من أخطاء وهذا يدل على سلامة قلوبهم وتواضعهم واستصغار أعمالهم مهما عظمت أمام فضل الله ونعمه.

ثم التمسوا منه - ثانيا - تثبيت أقدامهم عند لقاء الأعداء حتى لا يفروا من امامهم.

ثم التمسوا منه - ثالثا - النصر على الكافرين وهو غاية القتال، لأن الانتصار عليهم يؤدى إلى منع وقوع الفتنة فى الأرض، وإلى إعلاء كلمة الحق.

قال صاحب الكشاف: قوله ﴿وما كان قولهم﴾ الخ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها واستقصارا. والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع. وهو أقرب إلى الاستجابة»[1].

وكان هنا ناقصة، وقوله ﴿قولهم﴾ بالنصب خبرها واسمها المصدر المتحصل من «أن» وما بعدها فى قوله ﴿إلا أن قالوا﴾ والاستثناء مفرغ.

أى: ما كان قولهم فى ذلك المقام وفى غيره من المواطن إلا قولهم هذا الدعاء أى هو دأبهم وديدنهم.

ثم بين - سبحانه - الثمار التى ترتبت على هذا الدعاء الخاشع والإيمان الصادق والعمل الخالص لوجهه - سبحانه - فقال: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾.

والفاء فى قوله ﴿فآتاهم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

أى أن هؤلاء الذين آمنوا بالله حق الإيمان وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد لم يخيب الله -تعالى- سعيهم ولم يقفل بابه عن إجابة دعائهم، وإنما أعطاهم الله - تعالى - ثواب الدنيا من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، وصلاح الحال.

كما أعطاهم حسن ثواب الآخرة بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن للتنبيه على عظمته وفضله ومزيته، وأنه هو المعتد به عنده - تعالى - لأنه غير زائل، وغير مشوب بتنغيص أو قلق.

وقوله ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، فإن محبة الله - تعالى - للعبد مبدأ كل خير وسعادة.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت فى مطلعها حقيقة ثابتة. وهى أن محمدا ﷺ

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٢٤.

بشر من البشر، وأنه يموت كما يموت سائر البشر وأن رسالته لا تموت من بعده بل على أتباعه أن يسيروا على طريقته وأن يحملوا من بعده عبء تبليغ تعاليم الإسلام الذى جاء به ثم قررت بعد ذلك أن الآجال بيد الله وأن الحذر لا يمنع القدر وأن أحدًا لن يموت قبل انتهاء أجله، مادام الأمر كذلك فعلى المؤمنين أن يجاهدوا الكفار والمنافقين وأن يغلظوا عليهم.

ثم ذكرت الناس بعد ذلك بما كان من أتباع الرسل السابقين من إيمان عميق وجهاد صادق وثبات فى وجه الباطل ودعاء مخلص خاشع . . حتى يتأسى بهم فى أقوالهم وأعمالهم كل ذى عقل سليم.

ثم ختمت هذه الآيات ببيان النتائج الطيبة التى منحها الله - تعالى - لعباده المؤمنين الصادقين فى دنياهم وآخرتهم حتى يسارع الناس فى كل زمان ومكان إلى الأعمال الصالحة التى تكون سببا فى سعادتهم وعزتهم ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين، نهاهم فيه عن طاعة أعداء الله وأعدائهم، وأمرهم بالتمسك بتعاليم دينهم وبشرهم بسوء عاقبة أعدائهم فقال - تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ شروع فى زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارها، إثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء ببيان فضائله وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما فى حيزه ووصفهم بالايمان لتذكيرهم بحال ينافى تلك الطاعة فيكون الزجر على أكمل وجه. والمراد من الذين كفروا إما المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم فى أحد: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم. . وإما أبو سفيان وأصحابه وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم. . وإما اليهود

والنصارى لأنهم هم الذين كانوا يلقون الشبه فى الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا حقا لما غلبه أعداؤه . . وإما سائر الكفار»[1].

فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن طاعة الكفار؛ لأن الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان.

وجاء التعبير «بإن» الشرطية دون «إذا»؛ لأن إذا لتحقق الشرط والجزاء أما إن فإنها لا تفيد التحقق بل تفيد الشك، وهذا هو المناسب لحال المؤمنين لأن إيمانهم يحجزهم عن طاعة الذين كفروا ويمنعهم من الوقوع فى ذلك والنداء متوجه ابتداء للمؤمنين المجاهدين الذين حضروا غزوة أحد، وسمعوا ما سمعوا من أراجيف أعدائهم وأكاذيبهم، إلا أنه يندرج تحت مضمونه كل مؤمن فى كل زمان أو مكان لأن الكافرين فى كل العصور لا يريدون بالمؤمنين إلا خبالا، ولا يتمنون لهم إلا الشرور والمصائب.

ثم بين - سبحانه - النتيجة - السيئة التى تترتب على طاعة المؤمنين للكافرين فقال : ﴿يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾.

أى : إن تطيعوهم يرجعوكم إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام من ضلال وكفران أو يردوكم إلى الحالة التى كنتم عليها قبل مشروعية الجهاد وهى حالة الضعف والهوان التى رفعها الله عنكم بأن أذن لكم فى مقاتلة أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق.

وقوله ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أى فترجعوا خاسرين لخيرى الدنيا والآخرة، أما خسران الدنيا فبسبب انقيادكم لهم، واستسلامكم لمطالبهم . . وأما خسران الآخرة فبسبب ترككم لوصايا دينكم ومخالفتكم لأوامر خالقكم، وتوجيهات نبيكم ﷺ وكفى بذلك خسارة شنيعة.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن طاعة الكافرين، ثم بينت لهم نتيجتين سيئتين تترتبان على هذه الطاعة، وهما : الرجوع إلى الضلال بعد الهدى، والخسران فى الدنيا والآخرة.

والتعبير بقوله ﴿فتنقلبوا﴾ يفيد أن إطاعة الكافرين يؤدى بالمؤمنين إلى انقلاب حالهم وانتكاس أمرهم وجعل أعلاهم أسفلهم . . وفى ذلك ما فيه من التنفير عن إطاعة الكافرين والاستماع إلى وساوسهم.

ثم أمرهم - سبحانه - بطاعته والاعتماد عليه والاستعانة به وحده فقال ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾.

وحرف «بل» هنا للإضراب الانتقالى، لأنه - سبحانه - بعد أن حذر المؤمنين من إطاعة

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٨٧.

الكافرين وما يترتب عليها من مضار، انتقل إلى توجيههم إلى مافيه عزتهم وكرامتهم وسعادتهم.

والمولى هنا بمعنى النصير والمعين، وهذا اللفظ لا يدل على النصرة والعون فقط، وإنما يدل على كمال المحبة والمودة والقرب، والنصرة تجىء ملازمة لهذه المعانى، لأنه من كان الله محبا له، كان - سبحانه - ناصرا له لا محالة.

والمعنى إنى أنهاكم -أيها المؤمنون- عن إطاعة الكافرين، لأنهم ليسوا أولياء لكم فتطيعوهم، بل الله -تعالى- هو وليكم ومعينكم وهو خير الناصرين، لأنه هو الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء فأخلصوا له العبادة والطاعة.

ثم بشرهم - سبحانه - بأنه سيلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم فقال - تعالى - : ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا﴾.

والرعب : الخوف والفزع، يقال رعبه يرعبه أى خوفه أصله من الملء يقال : سيل راعب، إذا ملأ الأودية. ورعبت الحوض : ملأته.

والسلطان : الحجة والبرهان وسميت الحجة سلطانا لقوتها ونفوذها. أصل المادة يدل على الشدة والقوة ومنها السليط الشديد واللسان الطويل.

والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعا بسبب إشراكهم مع الله - تعالى - آلهة لم ينزل الله بها حجة والمراد : أنه لا حجة لهم حتى ينزلها.

قال الآلوسى : قوله ﴿مالم ينزل به﴾ أى بإشراكه أو بعبادته، و«ما» نكرة موصوفة أو موصولة اسمية وليست مصدرية و «سلطانا» أى حجة والإتيان بها للإشارة بأن المتبع فى باب التوحيد هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة.. وذكر عدم إنزال الحجة مع استحالة تحققها من باب انتفاء المقيد لانتفاء قيده اللازم، أى : لاحجة حتى ينزلها، فهو على حد قوله فى وصف مفازة :

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

إذ المراد : لا ضب بها حتى ينجحر. فالمراد نفيهما جميعا[1].

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين بأن الله - تعالى - سيلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم حتى لا يتجاسروا عليهم.

ومن مظاهر الرعب التى ألقاها الله - تعالى - فى قلوب المشركين أنهم بعد أن انتصروا على

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص ٨٨

المسلمين فى غزوة أحد. كان فى قدرتهم أن يوغلوا فى مهاجمتهم وقتالهم إلا أن الرعب صدهم عن ذلك.

ولقد حاولوا وهم فى طريقهم إلى مكة أن يعودوا للقضاء على المسلمين إلا أن الخوف داخل قلوبهم وجعل أحد زعمائهم وهو صفوان بن أمية يقول لهم: «يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم، فإنى أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذى كان».

قال الفخر الرازى ما ملخصه قوله ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ اختلفوا فى أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد، أو هو عام فى جميع الأوقات؟

قال كثير من المفسرين: إنه مختص بهذا اليوم، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت فى هذه الواقعة.

ثم القائلون بهذا القول ذكروا فى كيفية إلقاء الرعب فى قلوب المشركين فى هذا اليوم وجهين:

الأول: أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب فى قلوبهم، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب..

والثانى: أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة فلما كانوا فى بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئًا قتلنا الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون. ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم.

والقول الثانى: أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد، بل هو عام، كأنه قيل: إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أحد، إلا أن الله - تعالى - سيلقى الرعب منكم بعد ذلك فى قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار، ويظهر دينكم على سائر الأديان.

وقد فعل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهرا لجميع الأديان والملل. ونظير هذه الآية قوله ﷺ «نصرت بالرعب مسيرة شهر»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء عاقبة هؤلاء الكافرين فقال: ﴿ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾.

والمأوى: اسم مكان من أوى يأوى. وهو المكان الذى يرجع إليه الشخص ويعود إليه.

والمثوى: اسم مكان - أيضا - يقال: ثوى بالمكان وفيه يثوى ثواء وثويا وأثوى به، أى أطال الإقامة والنزول فيه.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٣٢.

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين سيلقى الله - تعالى - الرعب والفزع فى قلوبهم حتى لا يتجاسروا على المؤمنين، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة، فالمكان الذى يأوون إليه ويستقرون فيه هو النار، لا مأوى لهم غيرها، وبئس هذه النار موضع إقامة دائمة لهم.

وقد أظهر - سبحانه - الاسم فى موضع الإضمار فلم يقل : وبئس النار مثواهم، بل قال : ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ : للإشارة إلى أن هذا المآل الأليم إنما هو جزاء عادل لهم بسبب ظلمهم إذ هم الذين ظلموا أنفسهم فأضلوها وصدوها عن الحق فكانت نهايتهم تلك النهاية المهينة، «وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون».

وفى جعل هذه النار مثواهم بعد جعلها مأواهم إشارة إلى خلودهم فيها، فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان.

وقدم المأوى على المثوى لأن هذا هو الترتيب الوجودى فى الخارج، لأن الإنسان يأوى إلى المكان ثم يثوى فيه.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين عن إطاعة الكافرين وبينت لهم النتائج الوخيمة التى تترتب على إطاعتهم ثم دعتهم إلى الاعتصام بدين الله وبشرتهم بسوء عاقبة أعدائهم فى الدنيا والآخرة.

ثم ذكر الله - تعالى - المؤمنين بما حدث لهم فى غزوة أحد، وكيف أنهم انتصروا على أعدائهم فى أول المعركة ثم كيف أنهم أصيبوا بالهزيمة بعد ذلك بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم ﷺ ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى هذه المعركة تصويرا بليغا مؤثرا وحكى أقوال ضعاف الإيمان ورد عليها بما يدحضها. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك فيقول :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾
ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

قال القرطبى : قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد، وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من اين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل قوله - تعالى - ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ الآية.

وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء، وكان الظفر ابتداء

للمسلمين، غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضًا مراكزهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة.

وقد روى البخارى عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ أناسا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: «لا تبرحوا من مكانكم. إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا».

قال: فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن الجبل - أى يسرعن الفرار - يرفعن عن سوقهن، قد بدت خلا خلهن. فجعلوا يقولون - أى الرماة - «الغنيمة.. الغنيمة» فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير. أمهلوا. أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا أما كنكم؟ فأبوا - وانطلقوا لجمع الغنائم - فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلا»(١).

وصدق الوعد معناه: تحقيقه والوفاء به، الصدق: مطابقة الخبر للواقع. والمراد بهذا الوعد، ما وعد الله به المؤمنين من النصر والظفر فى مثل قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾(٢).

وفى مثل قوله - تعالى - ﴿ستلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا﴾(٣).

وفى مثل قول الرسول ﷺ للرماة قبل أن تبدأ المعركة «لا تبرحوا أماكنكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم».

ومعنى «تحسونهم تقتلونهم قتلا شديدا يفقدون معه حسهم وحركتهم. يقال: حسه حسا إذا قتله. وحقيقته: أصاب حاسته بآفة فأبطلها، يقال: كبده وفأده أى: أصاب كبده وفؤاده. ومنه جراد محسوس، وهو الذى قتله البرد أو مسته النار فأهلكته.

والمعنى: ولقد حقق الله - تعالى - لكم - أيها المؤمنون - ما وعدكم به من النصر على أعدائكم إذ أيدكم فى أول معركة أحد بعونه وتأييده فصرتم تقتلون المشركين قتلا ذريعا شديدا بإذنه وتيسيره ورعايته وكان حليفا لكم فى أول المعركة.

و«صدق» يتعدى لاثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف الجر تقول: صدقت زيدًا فى

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٢٣ - بتصرف يسير.
(٢) سورة محمد الآية ٧
(٣) سورة آل عمران الآية ١٥١.

الحديث. وقد يتعدى بنفسه إلى المفعولين كما هنا إذ المفعول الأول ضمير المخاطبين، والثانى قوله ﴿وعده﴾.

وقوله ﴿إذ تحسونهم﴾ معمول لصدقكم أى صدقكم فى هذا الوقت وهو وقت قتلهم وقوله «بإذنه» متعلق بمحذوف لأنه حال من فاعل «تحسونهم» أى تقتلونهم مأذونا لكم فى ذلك.

فالجملة الكريمة تذكر المؤمنين بما كان من نصر الله - تعالى - لهم عندما أقبلوا على معركة أحد بقلوب مخلصة، ونفوس ثابتة وعزيمة صادقة.. ثم بين - سبحانه - أن ما أصابهم من هزيمة بعد ذلك كان بسبب فشلهم وتنازعهم فقال - تعالى: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتهم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾.

والفشل: بمعنى الجبن والضعف، يقال فشل يفشل فهو فشل وفاشل والتنازع: التخاصم والتحالف.

والمعنى: ولقد صدقكم الله وعده فى النصر - أيها المؤمنون - عندما كنتم تقاتلون أعداءكم بإيمان صادق، وإخلاص لله - تعالى - حتى إذا ضعفت نفوسكم وعجزتم عن مقاومة أهوائكم وتنازعتم فيما بينكم (أنتبع الغنائم نجمعها أم نبقى فى أماكننا التى حددها الرسول ﷺ لنا)؟ ومال أكثركم إلى طلب الغنائم مخالفًا أمر الرسول ﷺ من بعد ما أراكم الله فى أول المعركة من نصر مؤزر تحبونه وترجونه، ومن مغانم تتطلعون إليها بلهفة وشوق.

حتى إذا فعلتم ذلك منع الله - تعالى - عنكم نصره، وتحول نصركم إلى هزيمة وفقدتم أنفسكم وما جمعتموه من غنائم.

وهكذا نرى أن ما أصاب المسلمين فى أحد من هزيمة كان بسبب فشل بعضهم وتنازعهم وعصيانهم أمر رسولهم ﷺ وصدق الله إذ يقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[1].

ولقد رتب الله - تعالى - ما حدث من بعض المؤمنين فى غزوة أحد ترتيبًا دقيقًا، يتفق مع ما حصل منهم وذلك لأنهم حدث منهم - أولا - الفشل بمعنى العجز النفسى عن الثبات والصبر. ثم ترتب على ذلك أن تنازعوا فيما بينهم ونتج عن هذا التنازع أن ترك معظمهم مكانه ونزل إلى ميدان المعركة لجمع المغانم، ثم ترتب على كل ذلك معصيتهم لأمر رسولهم وقائدهم ﷺ.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥

قال الجمل ما ملخصه : وقوله ﴿حتى إذا فشلتم﴾ فى حتى هذه قولان :
أحدهما : أنها حرف جر بمعنى إلى وفى متعلقها حينئذ ثلاثة أوجه.
أحدها : أنها متعلقة بقوله : ﴿تحسونهم﴾ أى تقتلونهم إلى هذا الوقت.

والثانى : أنها متعلقة « بصدقكم » أى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم. والثالث : أنها متعلقة بمحذوف دل عليه السياق تقديره : ودام لكم ذلك إلى وقت فشلكم.

والقول الثانى : أنها حرف ابتداء داخلة على الجملة الشرطية و﴿إذا﴾ على بابها من كونها شرطية، والصحيح أن جوابها محذوف أى حتى إذا فشلتم وتنازعتم منع الله عنكم نصره »[1].

وقال الفخر الرازى : فإن قيل ما الفائدة فى قوله ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ ؟

فالجواب عنه : أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله - تعالى - « أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لاجرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم . وقوله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ تفصيل للتنازع الذى كان بين الرماة، أو بين بعض أفراد المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة[2].

أى : منكم-أيها المسلمون- من يريد الدنيا ومغانمها حتى حمله ذلك على ترك مكانه المخصص له مخالفا نصيحة قائده ورسوله ﷺ ولو أن هذا البعض منكم خالف هواه، وحارب مطامعه، وأطاع أمر رسوله ﷺ لتم لكم النصر، ولأتتكم الدنيا بغنائمها وهى صاغرة.

ومنكم من يريد بجهاده وعمله ثواب الآخرة وهم الذين أطاعوا أمر رسولهم ﷺ وثبتوا إلى جانبه يدافعون عنه وعن عقيدتهم وعن أنفسهم دفاع الأبطال الصامدين وهؤلاء هم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم.

قال ابن جرير : قال ابن عباس : لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة : أدركوا الناس لا يسبقوكم إلى الغنائم فتكون لهم دونكم، وقال بعضهم : لا نريم حتى يأذن لنا النبى ﷺ فنزلت : ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾.

وقال ابن مسعود : ماعلمنا أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد »[3].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٢٤.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٣٧
(٣) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١٣٠.

وقوله ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ عطف على جواب «إذا» المقدر، وما بينهما اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه.

والتقدير: منع الله نصره عنكم بسبب فشلكم وتنازعكم ومعصيتكم لنبيكم ثم ردكم عنهم دون أن تنالوا ما تبتغون ﴿ليبتليكم﴾ أى ليعاملكم الله - تعالى - معاملة من يمتحن غيره، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه وليتبين لكم الصابر المخلص من غيره.

وجاء العطف بثم فى قوله ﴿ثم صرفكم﴾ للإشعار بالتفاوت الكبير بين المقصد الأصلى الذى خرجوا من أجله وهو النصر والحصول على الغنيمة وبين النتيجة التى انتهوا إليها وهى العودة مقهورين.

وكان التعبير بكلمة ﴿صرفكم﴾ دون كلمة «هزمتم» لأن ما حدث فى أحد لم يكن هزيمة وإن لم يكن نصرًا. لأن الهزيمة تقتضى أن يولى المسلمون الأدبار وأن يتحكم فيهم أعداؤهم وما حدث فى أحد لم يكن كذلك، وإنما كان زيادة فى عدد الشهداء من المسلمين عن عدد القتلى من المشركين لأن بعض المسلمين خالفوا وصية نبيهم ﷺ وتطلعوا إلى زهرة الدنيا وزينتها بطريقة تتعارض مع ما يقتضيه الإيمان الصادق فكان من الله - تعالى - التأديب لهم.. وفى هذا التعبير ﴿ثم صرفكم عنهم﴾ تسلية لهم عما أصابهم، وتخفيف لمصابهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن ما حدث فى أحد إنما هو نوع من الصرف عن الغاية التى من أجلها خرجتم لحكم من أهمها: تمييز الخبيث من الطيب، وتربيتكم على تحمل المصائب والآلام، وتأديبكم بالأدب المناسب حتى لا تعودوا مرة أخرى إلى مخالفة رسولكم ﷺ.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يمسح آلامهم ويذهب الحسرة من قلوبهم فقال - تعالى - ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

أى: ولقد عفا - سبحانه - عما صدر منكم تفضلا منه وكرما، والله تعالى هو صاحب الفضل المطلق الدائم على المؤمنين.

ولقد أكد - سبحانه - هذا العفو باللام وبقد وبالتعبير بالماضى، ليفتح أمامهم طريق الأمل، وليحفزهم على التوبة الصادقة والإيمان العميق، حتى لا ييأسوا من رحمة الله.

والتذييل بقوله ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ مؤكد لمضمون ما قبله.

قال الآلوسى: «إيذان بأن ذلك العفو، ولو كان بعد التوبة، بطريق التفضل لا الوجوب أى: شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو فى جميع الأحوال أديل لهم أو أديل عليهم، إذ الابتلاء أيضًا رحمة»[1].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٩٠.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت المؤمنين بأن الله - تعالى - قد حقق وعده معهم فى أول المعركة بأن سلطهم على المشركين يقتلونهم بتأييده ورعايته قتلا ذريعا فلما صدر من بعض المؤمنين الفشل والتنازع والعصيان منع الله عنهم عونه وصرفهم عن الغاية التى كانوا يتمنونها ليتميز الخبيث من الطيب ومع ذلك فقد عفا الله عما صدر منهم من أخطاء لأنه هو صاحب الفضل الدائم على المؤمنين.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بما كان من بعضهم بعد أن اضطربت أحوالهم وجاءهم أعداؤهم من أمامهم ومن خلفهم بسبب ترك معظم الرماة لأماكنهم، فقال -تعالى- ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم﴾.

وقوله : ﴿تصعدون﴾ من الإصعاد وهو الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد فيه.

يقال : أصعد فى الأرض إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه، فهو الصعد.

قال القرطبى : الإصعاد : السير فى مستو من الأرض وبطون الأودية والشعاب.

والصعود : الارتفاع على الجبال والدرج.

وقوله ﴿إذ تصعدون﴾ متعلق بقوله ﴿صرفكم﴾ أو بقوله ﴿ليبتليكم﴾ أو بمحذوف تقديره اذكروا.

أى اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بطن الوادى بعد أن اختلت صفوفكم - واضطرب جمعكم. وصرتم لا يعرج بعضكم على بعض ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الهرب، والحال أن رسولكم ﷺ ﴿يدعوكم فى أخراكم﴾ أى يناديكم فى أخراكم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم يقال. جاء فلان فى آخر الناس وأخراهم إذا جاء خلفهم، كما يقال : جاء فى أولهم وأولاهم.

والمراد أن الرسول ﷺ كان يدعو المنهزمين إلى الثبات وإلى ترك الفرار من الأعداء وإلى معاودة الهجوم عليهم وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

قال ابن جرير لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها، فجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس : «إلىّ عباد الله» ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبى ﷺ إياهم فقال : ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم﴾[1].

ففى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع معجز لحال المسلمين عندما اضطربت صفوفهم فى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١٢٣

غزوة أحد، فهى تصور حالهم وهم مصعدون فى الوادى بدون تمهل أو تثبت، وتصور حالهم وقد أخذ منهم الدهش مأخذه بحيث أصبح بعضهم لا يلتفت إلى غيره أو يسمع له نداء، أو يجيب له طلبا وتصور حال النبى ﷺ وقد ثبت كالطود الأشم بدون اضطراب أو وجل ومعه صفوة من أصحابه وقد أخذ ينادى الفارين بقوله: «إلى عباد الله، إلى عباد الله أنا رسول الله، من يكر فله الجنة».

وقوله - تعالى - ﴿فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولاماأصابكم﴾.

بيان للنتيجة التى ترتبت على هذا الاضطراب وهو معطوف على قوله ﴿صرفكم﴾ أو على قوله ﴿تصعدون ولاتلوون﴾ ولا يضركونهما مضارعين فى اللفظ لأن إذ المضافة إليهما صيرتهما ماضيين فى المعنى.

وأصل الإثابة إعطاء الثواب، وهو شىء يكون جزاء على عطاء أو فعل ولفظ الثواب لا يستعمل فى الأعم الأغلب إلا فى الخير، والمراد به هنا العقوبة التى نزلت بهم. وسميت العقوبة التى نزلت بهم ثوابا على سبيل الاستعارة التهكمية كما فى قوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

ويجوز أن يكون اللفظ مستعملا فى حقيقته، لأن لفظ الثواب فى أصل اللغة معناه ما يعود على الفاعل من جزاء فعله، سواء أكان خيرًا أو شرًا.

قال القرطبى: قوله - تعالى - ﴿فأثابكم غما بغم﴾ الغم فى اللغة التغطية. يقال: غممت الشىء أى غطيته. ويوم غم وليلة غمة إذا كانا مظلمين.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما، والغم الأول القتل والجراح والغم الثانى الإرجاف بمقتل النبى ﷺ وقيل الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة والثانى: استعلاء المشركين عليهم. وعند ذلك قال النبى ﷺ «اللهم لا يعان علينا».

والباء فى ﴿بغم﴾ على هذا بمعنى على. وقيل هى على بابها والمعنى أنهم غموا النبى ﷺ بمخالفتهم إياه فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم»(١).

ويجوز أن يكون الكلام لمجرد التكثير أى جازاكم بغموم وأحزان كثيرة متصل بعضها ببعض بأن منع عنكم نصره وحرمكم الغنيمة وأصابتكم الجراح الكثيرة وأشيع بينكم أن نبيكم قد قتل.. وكل ذلك بسبب أنكم خالفتم وصية نبيكم ﷺ وتغلب حب الدنيا وشهواتها على قلوب بعضكم فلم تخلصوا لله الجهاد فأصابكم ما أصابكم.

---

(١) تفسير القرطبى - بتصرف وتلخيص - جـ ٤ ص ٢٤٠.

وقوله ﴿لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ تعليل لقوله ﴿ولقد عفا عنكم﴾ أى: ولقد عفا الله - تعالى - عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر، ولا على ما أصابكم من جراح وآلام، فإن عفو الله - تعالى - يذهب كل حزن ويمسح كل ألم.

ويرى صاحب الكشاف أن معنى «لكى لا تحزنوا» لتتمرنوا على تجرع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع، ولا على مصيب من المضار.

ثم قال: ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿فأثابكم﴾ للرسول. أى: فآساكم فى الاغتمام - أى فصار أسوتكم - لأنه كما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرها فقد غمه ما نزل بكم. فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على مافاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أى: والله - تعالى - عليم بأعمالكم ونياتكم علما كاملا، وخبير بما انطوت عليه نفوسكم فهو - سبحانه - لا تخفى عليه خافية مهما صغرت، فاتقوه وراقبوه واتبعوا ما كلفكم به لتنالوا الفوز والسعادة.

ثم ذكرهم - سبحانه - ببعض مظاهر لطفه بهم ورحمته لهم حيث أنزل على طائفة منهم النعاس الذى أدخل الطمأنينة على قلوبهم وأزال الخوف والفزع من نفوسهم فقال -تعالى- ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا يغشى طائفة منكم﴾ والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿فأثابكم﴾.

والأمنة - بفتحتين - مصدر كالأمن. يقال: أمن أمنا وأمانًا وأمنة.

والنعاس: الفتور فى أوائل النوم ومن شأنه أن يزيل عن الإنسان بعض متاعبه ولا يغيب صاحبه فلذلك كان أمنة لهم: لأنه لو كان نوما ثقيلا لهاجمهم المشركون.

أى: ثم أنزل عليكم - أيها المؤمنون - بعد أن أصابكم من الهم والغم ما أصابكم، أمنا كان مظهره نعاسا اطمأنت معه نفوسكم واستراحت معه أبدانكم من غير فزع ولا قلق، وكان هذا الأمان والاطمئنان لطائفة معينة منكم أخلصت جهادها لله، وخافت مقام ربها ونهت نفسها عن الهوى.

قال ابن كثير: يقول - تعالى - ممتنا على المؤمنين فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذى غشيهم وهم مشتملون السلاح فى حال همهم وغمهم والنعاس فى مثل تلك الحال

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٢٨.

دليل على الأمان، كما قال فى سورة الأنفال : ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ فعن ابن مسعود قال : النعاس فى القتال من الله وفى الصلاة من الشيطان».

وروى البخارى عن أبى طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه»(١).

وقوله ﴿نعاسا﴾ بدل من ﴿أمنة﴾ أو عطف بيان.

قال الفخر الرازى: واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد :

أحدها : أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة للنبى ﷺ ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم فى محاربة العدو. ووثوقهم بأن الله منجز وعده.

وثانيها : أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة.

وثالثها : أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقى منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم فيشتد خوفهم.

ورابعها : أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم فبقاؤهم فى النوم مع السلامة فى مثل تلك المعركة من أول الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله»(٢).

هذا جانب مما امتن الله به على المؤمنين من فضل ورعاية، حيث أنزل عليهم النعاس فى أعقاب ما أصابهم من هموم ليكون راحة لأبدانهم، وأمانا لنفوسهم.

أما غير المؤمنين الصادقين فلم ينزل عليهم هذا النعاس بل بقوا فى قلقهم وحسرتهم وقد عبر الله -تعالى- عنهم بقوله : ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾.

وقوله ﴿أهمتهم أنفسهم﴾ حملتهم على الهم، والهم ما يهتم له الإنسان أو ما يحزنه يقال : أهمنى الأمر أى أقلقنى وأزعجنى، كما يقال : أهمنى الشىء، أى جعلنى مهتما به اهتماما شديدًا.

والمعنى : أن الله - تعالى - أنزل النعاس أمانا واطمئنانا للمؤمنين الصادقين بعد أن أصابتهم الغموم، وهناك طائفة أخرى من الذين اشتركوا فى غزوة أحد لم تكن صادقة فى إيمانها لأنها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٠٣.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٤٤.

كانت لا يهمها شأن الإسلام انتصر أو انهزم ولا شأن النبى ﷺ وأصحابه. وإنما الذى كان يهمها هو شىء واحد وهو أمر نفسها وما يتعلق بذلك من الحصول على الغنائم ومتع الدنيا.

أو المعنى: أن هذه الطائفة قد أوقعت نفسها فى الهم والحزن بسبب عدم اطمئنانها وعدم صبرها، وجزعها المستمر.

وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشاف بقوله: ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾ أى: ما يهم إلا هم أنفسهم، لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين. وقد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم فى الهموم والأشجان فهم فى التشاكى والتباكى»(١).

والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان حال ضعاف الإيمان بعد أن بين - سبحانه - ما امتن به على أقوياء الإيمان.

وقوله: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ وصف آخر لسوء أخلاق هذه الطائفة التى ضعف إيمانها، وصارت لا يهمها إلا ما يتعلق بمنافعها الخاصة.

أى أن هذه الطائفة لم تكتف بما استولى عليها من طمع وجشع وحب لنفسها بل تجاوزت ذلك إلى سوء الظن بالله بأن توهمت بأن الله - تعالى - لن ينصر رسوله ﷺ وأن الإسلام ليس دينًا حقًا وأن المسلمين لن ينتصروا على المشركين بعد معركة أحد.. إلى غير ذلك من الظنون الباطلة التى تتولد عند المرء الذى ضعف إيمانه وصار لا يهمه إلا أمر نفسه.

وقوله ﴿يظنون بالله﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿أهمتهم﴾ أو استئناف على وجه البيان لما قبله.

وقوله ﴿غير الحق﴾ مفعول مطلق وصف لمصدر محذوف أى يظنون بالله ظنا غير الحق الذى يجب أن يتحلى به المؤمنون إذ من شأن المؤمنين الصادقين أن يستسلموا لقدر الله بعد أن يباشروا الأسباب التى شرعها لهم: وأن يصبروا على ما أصابهم وأن يوقنوا بأن ما أصابهم هو بتقدير الله وبحكمته وبإرادته ﴿وكل شىء عنده بمقدار﴾.

وقوله ﴿ظن الجاهلية﴾ بدل أو عطف بيان مما قبله.

أى يظنون بالله شيئًا هو من شأن أهل الجاهلية الذين يتوهمون أن الله لا ينصر رسله ولا يؤيد أولياءه ولا يهزم أعداءه.

ثم بين - سبحانه - ما صدر عنهم من كلام باطل بسبب ظنونهم السيئة فقال - تعالى -

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٢٨.

﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾. والاستفهام للإنكار بمعنى النفى، وهم يريدون بهذا القول تبرئة نفوسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد، وأن الذين تسببوا فى ذلك هم غيرهم.

أى: يقول بعضهم لبعض ليس لنا من الأمر شيء أى شيء فلسنا مسئولين عن الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى أحد لأننا لم يكن لنا رأى يطاع ولأن الله - تعالى - لو أراد نصر محمد ﷺ لنصره.

وهذا القول قاله عبد الله بن أبى بن سلول حين أخبروه بمن استشهد من قبيلة الخزرج فى غزوة أحد.

وذلك أن عبد الله بن أبى لما استشاره النبى ﷺ فى شأن الخروج لقتال المشركين فى أحد أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، إلا أن الرسول ﷺ خرج لقتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة.

فلما أخبر ابن أبى بمن قتل من الخزرج قال: هل لنا من الأمر شيء؟ يعنى أن النبى ﷺ لم يقبل قوله حين أشار عليه بعدم الخروج من المدينة.

وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد على هؤلاء الظانين بالله ظن السوء بقوله: ﴿قل إن الأمر كله لله﴾.

أى قل لهم إن تقدير الأمور كلها لله - تعالى - وحده وإن العاقبة ستكون للمتقين، إلا أنه - سبحانه - قد جعل لكل شيء سببا، فمن أخلص لله فى جهاده وباشر الأسباب التى شرعها للنصر نصره الله - تعالى - ومن تطلع إلى الدنيا وزينتها وخالف أمر نبيه ﷺ أدبه الله - تعالى - بحجب نصره عنه حتى يفيء إلى رشده ويتوب توبة صادقة إلى ربه، ويتخذ الوسائل التى شرعها الله - تعالى - للوصول إلى الفوز والظفر.

فالجملة الكريمة معترضة للرد عليهم فيما تقولوه من أباطيل.

ثم كشف - سبحانه - عما تخفيه نفوسهم من أمور سيئة فقال: ﴿يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك. يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾.

أى: أن هؤلاء الذين أهمتهم أنفسهم: والذين يظنون بالله غير الحق. يخفون فى أنفسهم من الأقوال القبيحة والظنون السيئة أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية مالا يستطيعون إظهاره أمامك.

وهذه الجملة حال من الضمير فى قوله ﴿يقولون هل لنا﴾ السابقة.

وقوله ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا﴾ بيان لبعض ما يخفون أو لما يقولونه فيما بينهم.

أى يقولون لو كان لنا من الأمر المطاع أو المسموع شىء ما خرجنا من المدينة إلى هذا المكان الذى قتل فيه أقاربنا وعشائرنا.

فأنت ترى أن القرآن يحكى عنهم أنهم يريدون تبرئة أنفسهم مما نزل بالمسلمين بأحد، وأنهم لو كان لهم رأى مطاع لبقوا فى المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين، وأن التبعة فى كل ما جرى فى غزوة أحد يتحملها النبى ﷺ وأصحابه الذين ألحوا عليه فى الخروج لقتال المشركين خارج المدينة، وأن النبى ﷺ وأصحابه لو كانوا على الحق لا نتصروا.

قال ابن جرير: وذكر أن ممن قال هذا القول - ﴿لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلناها هنا﴾ - معتب بن قشير من بنى عمرو بن عوف. فعن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال، والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: ﴿لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا﴾(١).

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يدفع أقوالهم الباطلة فقال: ﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

وقوله ﴿لبرز﴾ من البروز وهو الخروج من المكان الذى يستتر فيه الإنسان و﴿المضاجع﴾ جمع مضجع وهو مكان النوم. والمراد به هنا المكان الذى استشهد فيه من استشهد من المسلمين.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون: لو كان لنا من الأمر شىء ما قتل أقاربنا فى هذا المكان من جبل أحد. قل لهم لو كنتم فى بيوتكم ومنازلكم بالمدينة ولم تخرجوا للقتال بجملتكم، لخرج لسبب من الأسباب الداعية إلى الخروج الذين كتب عليهم القتل فى اللوح المحفوظ إلى مضاجعهم أى أماكن قتلهم التى قدر الله لهم أن يقتلوا فيها لأنه ما من نفس تموت إلا بإذن الله وبإرادته، ولن يستطيع أحد أن ينجو من قدر الله المحتوم وقضائه النافذ، فإن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾(٢).

وفى هذا الرد مبالغة فى إبطال ما قاله هؤلاء الذين يظنون بالله الظنون السيئة حيث لم يقتصر - سبحانه - على تحقيق القتل نفسه متى قدره بل عين مكانه - أيضًا -.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١٤٣.
(٢) سورة لقمان آية ٣٤.

ثم بين - سبحانه - بعض الحكم من وراء ما حدث للمسلمين فى أحد فقال : ﴿وليبتلى الله ما فى صدوركم، وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾.

والابتلاء : الاختبار، وهو هنا كناية عن أثره، وهو إظهاره للناس ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه.

والتمحيص تخليص الشيء مما يخالطه مما فيه عيب له.

والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق. والتقدير : نزل بكم مانزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن، وليعاملكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر، حتى يتبين الخبيث من الطيب وليخلص ما فى قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من أدران، ويطهرها مما يخالطها من ظنون سيئة - فإن القلوب يخالطها بحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة وحب الشهوات. ما يضاد ماأودع الله فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى.

فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص من الآثام فاقتضت حكمة الله - تعالى - أن ينزل بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء الكريه لمن عرض له داء.

وقوله ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التى لا تفارقها فهو القائل ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء﴾(١) وهو القائل ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾(٢).

ثم أخبر - سبحانه - عن الذين لم يثبتوا مع النبى ﷺ يوم أحد، وبين السبب فى ذلك وفتح لهم باب عفوه فقال : ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا. ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾.

وقوله ﴿تولوا﴾ من التولى ويستعمل هذا اللفظ بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار فإن كان متعديا بنفسه كان بمعنى الإقبال كما فى قوله - تعالى - ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾ وإذا كان متعديا بعن أو غير متعد أصلا كان بمعنى الإعراض كما فى الآية التى معنا.

والتولى الذى وقع فيه من ذكرهم الله - تعالى - فى الآية التى معنا يتناول الرماة الذين تركوا أماكنهم التى أمرهم الرسول ﷺ بالبقاء فيها لحماية ظهور المسلمين كما يتناول الذين لم يثبتوا

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥
(٢) سورة طه الآية ٧

بجانب النبى ﷺ بل فروا إلى الجبل أو إلى غيره عندما اضطربت الصفوف.

ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبى ﷺ بدون وهن أوضعف وقد أصيب ممن كان حوله أكثر من ثلاثين، وكلهم يفتدى النبى ﷺ بنفسه ويقول : وجهى لوجهك الفداء ونفسى لنفسك الفداء. وعليك السلام غير مودع[١].

ومعنى ﴿استزلهم الشيطان﴾ طلب لهم الزلل والخطيئة، أو حملهم عليها بوسوسته لهم : أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم بالثبات فى مواقفهم التى عينها لهم، فكانت مخالفتهم لرسولهم وقائدهم طاعة للشيطان. فحرمهم الله تأييده وتقوية قلوبهم.

قال الراغب : استزله إذا تحرى زلته، وقوله - تعالى - ﴿إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أى استجرهم الشيطان حتى زلوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، والزلة فى الأصل : استرسال الرجل من غير قصد »[٢].

والمراد بالزلة هنا ما حدث منهم من مخالفة الرسول ﷺ وقد ترتب عليها هزيمتهم.

والمعنى : إن الذين تولوا منكم - يا معشر المؤمنين - عن القتال أوتركوا أماكنهم فلم يثبتوا فيها طلبا للغنيمة يوم التقيتم بالمشركين فى معركة أحد؛ ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ أى طلب منهم الزلل والمعصية، ودعاهم إليها بمكر منه وكان ذلك ﴿ببعض ما كسبوا﴾ أى بسبب بعض ما اكتسبوه من ذنوب، لأن نفوسهم لم تتجه بكليتها إلى الله فترتب على ذلك أن منعوا النصر والتأييد وقوة القلب والثبات.

قال ابن القيم : « كانت أعمالهم جندًا عليهم ازداد بها عدوهم قوة. فإن الأعمال جند للعبد وجند عليه ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره. فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتل بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه.

فأعمال العبد تسوقه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى.

ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه إنما هو بجند من عمله بعثه له الشيطان واستزله به »[٣].

ثم أخبر - سبحانه - أنه قد عفا عن هؤلاء الزالين، حتى تكون أمامهم الفرصة لتطهير

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٥١.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢١٤
(٣) تفسير القاسمى : تفسير سورة آل عمران ص ١٠١٣

نفوسهم. وبعثها على التوبة الصادقة والإخلاص لله رب العالمين، فقال - تعالى - ﴿ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾.

أى : ولقد عفا - سبحانه - عنهم لصدق توبتهم وندمهم على ما فرط منهم، لأن فرارهم لم يكن عن نفاق، بل كان عارضا عرض لهم عندما اضطربت الصفوف واختلطت الأصوات ثم عادوا إلى صفوف الثابتين من المؤمنين ليكونوا معهم فى قتال أعدائهم.

ولقد أكد الله - تعالى - هذا العفو بلام التأكيد وبقد المفيدة للتحقيق، وبوصفه - سبحانه - لذاته بالمغفرة فإن هذا الوصف يؤكد أن العفو شأن من شئونه، وبوصفه - سبحانه - لذاته بالحلم، فإن هذا الوصف يفيد أنه لا يعاجل عباده بالعقاب، بل إن ما أصابهم من مصائب فهو بسبب ما اقترفوه من ذنوب ويعفو - سبحانه - عن كثير.

وصدق الله إذ يقول : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾[(١)].

وقد أكد - سبحانه - شأن هذا العفو لتذهب عن نفوس هؤلاء الذين استزلهم الشيطان حيرتها ولتتخلع عن الماضى، ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلوب عامرة بالإيمان، وبنفوس متغلبة على أهوائها مطيعة لتعاليم دينها.

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت للمؤمنين بعض الأسباب الظاهرة والخفية لما أصابهم فى أحد، وفتحت لهم باب التوبة لتطهير أنفسهم، وأخبرتهم بعفو الله عنهم، وفى ذلك ما فيه من عظات وعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أحداث معركة أحد، وعما تم للمسلمين فى أولها من نصر، ثم عما جرى لهم بعد ذلك من اضطراب وتفرق بسبب مخالفة بعضهم لوصايا نبيهم ﷺ.

بعد كل ذلك وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم عن التشبه بالكافرين وعن الاستماع إلى أباطيلهم وحضهم فيه على مواصلة الجهاد فى سبيل الله، حتى تكون كلمة الله هى العليا وأخبرهم بأن الآجال بيد الله، وأن موتهم من أجل الدفاع عن الحق أشرف لهم من الحياة الذليلة.

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ فيقول :

---

(١) سورة فاطر آية ٤٥

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا
قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

فقوله ﴿يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم﴾ الخ كلام مستأنف قصد به تحذير المؤمنين من التشبه بالكافرين ومن الاستماع إلى أقوالهم الذميمة.

والمراد بالذين كفروا المنافقون كعبد الله بن أبى بن سلول وأشباهه من المنافقين الذين سبق للقرآن أن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا﴾.

وإنما ذكرهم بصفة الكفر للتصريح بمباينة حالهم لحال المؤمنين وللتنفير عن مماثلتهم ومسايرتهم. وقيل المراد بهم جميع الكفار.

والمراد بإخوانهم: إخوانهم فى الكفر والنفاق والمذهب أو فى النسب. وقوله ﴿إذا ضربوا فى الأرض﴾ أى سافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا. وأصل الضرب: إيقاع شىء على شىء ثم استعمل فى السير، لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل، ثم صار حقيقة فيه.

وقوله: ﴿غزى﴾ جمع غاز كراكع وركع، وصائم وصوم، ونائم ونوم.

والمعنى: يا من آمنتم بالله واليوم الآخر لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا بفزع وجزع من أجل إخوانهم الذين فقدوهم بسبب سفرهم للتجارة أو بسبب غزوهم فى سبيل الله.

قالوا على سبيل التفجع: لو كان هؤلاء الذين ماتوا فى السفر أو الغزو مقيمين معنا، أوملازمين بيوتهم، ولم يضربوا فى الأرض ولم يغزوا فيها لبقوا أحياء ولما ماتوا أوقتلوا.

وقولهم هذا يدل على جبنهم وعجزهم، كما يدل على ضعف عقولهم وعدم إيمانهم بقضاء الله

وقدره، إذ لو كانوا مؤمنين بقضاء الله وقدره لعلموا أن كل شيء عنده بمقدار، وأن العاقل هو الذى يعمل ما يجب عليه بجد وإخلاص ثم يترك بعد ذلك النتائج لله يسيرها كيف يشاء.

وقولهم هذا بجانب ذلك يدل على سوء نيتهم، وخبث طويتهم، لأنهم قصدوا به تثبيط عزائم المجاهدين عن الجهاد، وعن السعى فى الأرض من أجل طلب الرزق الذى أحله الله.

والنهى فى قوله - تعالى ﴿لا تكونوا كالذين كفروا﴾ يشعر بالتفاوت الشديد بين المقامين: مقام الإيمان ومقام الكفران، وأنه لا يليق بالمؤمن أن ينحدر إلى المنحدر الدون وهو التشبه بالكافرين، بعد أن رفعه الله بالإيمان إلى أعلى عليين، وفى هذا تقبيح للمنهى عنه بأبلغ وجه وبأدق تصوير.

واللام فى قوله ﴿لإخوانهم﴾ يرى صاحب الكشاف أنها للتعليل فقد قال: قوله: ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أى لأجل إخوانهم، كقوله - تعالى - ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾[1].

ويجوز أن تكون اللام للدلالة على موضع الخطاب، ويكون المعنى: لا تكونوا أيها المؤمنون كهؤلاء الذين كفروا وقالوا لإخوانهم الأحياء: لو كان أولئك الذين فقدناهم ملازمين لبيوتهم ولم يضربوا فى الأرض ولم يغزوا لما أصابهم ما أصابهم من الموت أو القتل.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل إن قوله ﴿قالوا لإخوانهم﴾ يدل على الماضى، وقوله ﴿إذا ضربوا فى الأرض﴾ يدل على المستقبل فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب من وجوه:

أولها: أن قوله ﴿قالوا﴾ تقديره: يقولون، فكأنه قيل: لا تكونوا كالذين كفروا ويقولون لإخوانهم كذا وكذا..

وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضى للتأكيد وللإشعار بأن جدهم فى تقرير الشبهة قد بلغ الغاية، وصار بسبب ذلك الجد ينظر إلى هذا المستقبل كالكائن الواقع.

وثانيها: أن الكلام خرج على سبيل حكاية الحال الماضية. والمعنى أن إخوانهم إذا ضربوا فى الأرض، فالكافرون يقولون لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فمن أخبر عنهم بعد ذلك فلابد أن يقول: قالوا.

وثالثها: قال «قطرب» كلمة «إذ» و«وإذا يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى وهو حسن لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فلأن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى»[2].

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٣٠.

(٢) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص - جـ٩ ص٥٤.

وقوله ﴿أو كانوا غزى﴾ معطوف على ﴿ضربوا فى الأرض﴾ من عطف الخاص بعد العام، اعتناء به لأن الغزو هو المقصود فى هذا المقام وما قبله توطئة له.

قالوا : على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب فى الأرض بناء على أن المراد بالضرب فى الأرض السفر البعيد، فيكون على هذا بين الضرب فى الأرض وبين الغزو خصوص وعموم من وجه.

وإنما لم يقل أو غزوا : للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو لا نقضاء ذلك، أى كانوا غزاة فيما مضى.

وقوله ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ فى محل نصب مقول القول.

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على أقوالهم من عواقب سيئة فقال : ﴿ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم﴾.

والحسرة - كما يقول الراغب - هى غم الإنسان على مافاته، والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه، أو انحسرت قواه - أى انسلخت - من فرط الغم، وأدركه إعياء عن تدارك ما فرط»[1].

فالحسرة هى الهم المضنى الذى يلقى على النفس الحزن المستمر والألم الشديد، واللام فى قوله ﴿ليجعل﴾ هى التى تسمى بلام العاقبة، وهى متعلقة بقالوا أى قالوا ما قالوه لغرض من أغراضهم التى يتوهمون من ورائها منفعتهم ومضرة المؤمنين فكان عاقبة قولهم ومصيره إلى الحسرة والندامة لأن المؤمنين الصادقين لن يلتفتوا إلى هذا القول. بل سيمضون فى طريق الجهاد الذى كتبه الله عليهم وسيكون النصر الذى وعدهم الله إياه حليفهم وبذلك يزداد الكافرون المنافقون حسرة على حسرتهم.

ويجوز أن تكون اللام للتعليل ويكون المعنى : ان الله - تعالى - طبع الكفار على هذه الأخلاق السيئة بسبب كفرهم وضلالهم لأجل أن يجعل الحسرة فى قلوبهم والغم فى نفوسهم والضلال بهذه الأقوال والأفعال فى عقولهم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما متعلق ليجعل ؟ قلت : قالوا. أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم على أن اللام مثلها فى ﴿ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ أو لا تكونوا بمعنى : لاتكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت : ما معنى إسناد الفعل إلى الله ؟ قلت : معناه أن الله -تعالى- عند

---

(١) مفردات القرآن ص ١٨ للراغب الأصفهانى. بتصرف يسير.

اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة فى قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة لهم. . كما قال - تعالى - ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجا كأنما يصعد فى السماء﴾.

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مادل عليه النهى، أى لاتكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم؛ لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم مما يغمهم ويغيظهم »(١).

والجعل هنا بمعنى التصيير، وقوله ﴿حسرة﴾ مفعول ثان له، وقوله، ﴿فى قلوبهم﴾ متعلق بيجعل.

وذكر القلوب مع أن الحسرة لا تكون إلا فيها، لإرادة التمكن، والإيذان بعدم الزوال.

وقوله ﴿والله يحيى ويميت والله بما تعلمون بصير﴾ رد على قولهم الباطل أثر بيان سوء عاقبته وحض للمؤمنين على الجهاد فى سبيل الله وترغيب لهم فى العمل الصالح، أى أن الأرواح كلها بيد الله يقبضها متى شاء، ويرسلها متى شاء فالقعود فى البيوت لا يطيل الآجال كما أن الخروج للجهاد فى سبيل الله أو للسعى فى طلب الرزق لا ينقصها ومادام الأمر كذلك فعلى العاقل أن يسارع إلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وأن يسعى فى الأرض ذات الطول والعرض ليأكل من رزق الله وأن يباشر الأسباب التى شرعها الله بدون عجز أو كسل وليعلم أن الله مطلع على أعمال الناس وأقوالهم وسيجازيهم عليها يوم القيامة بما يستحقون من خير أو شر.

ثم رد الله - تعالى - على أولئك الكافرين برد آخر، فيه تثبيت للمؤمنين، وترغيب لهم فى الجهاد فقال: ﴿ولئن قتلتم﴾ أيها المؤمنون وأنتم تجاهدون ﴿فى سبيل الله أو متم﴾ على فراشكم بدون قتل بعد أن أديتم رسالتكم فى الحياة على أكمل وجه، وأطعتم ربكم فيما أمركم به أو نهاكم عنه لنلتم مغفرة من الله - تعالى - لذنوبكم ولظفرتم برحمته الواسعة التى تسعدكم.

وقوله ﴿خير مما يجمعون﴾ أى خير مما يجمعه الكفرة من متع الدنيا وشهواتها الزائلة بخلاف مغفرة الله ورحمته فإنهما باقيتان ولا كدر معهما ولا تعب ولا قلق. واللام فى قوله ﴿ولئن قتلتم﴾ موطئة للقسم، أى: والله لئن قتلتم فى سبيل الله أو متم.

وقوله ﴿لمغفرة من الله ورحمة﴾ جواب القسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ووفائه بمعناه.

ثم بين - سبحانه - أن مصير العباد جميعا إليه وحده فقال. ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٣١.

أى ولئن متم - أيها المؤمنون - وأنتم فى بيوتكم أو فى أى مكان، أو قتلتم بأيدى أعدائكم وأنتم تجاهدون فى سبيل الله، فعلى أى وجه من الوجوه كان انقضاء حياتكم فإنكم إلى الله وحده جميعا تعودون وتحشرون فيجازيكم على أعمالكم.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف، وقد يميت المقيم والقاعد فى بيته مع حيازته لأسباب السلامة.

وأن الذين يموتون على الإيمان الحق، أو يقتلون وهم يجاهدون فى سبيل الله فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ماهو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا.

وأن جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم سيعودون إلى الله ليجازيهم على أعمالهم يوم الدين.

قال الفخر الرازى: واعلم أن فى قوله: ﴿لإلى الله تحشرون﴾ دقائق:

أحداها: أنه لم يقل: تحشرون إلى الله، بل قال: لإلى الله تحشرون، وهذا يفيد الحصر، وهذا يدل على أنه لا حاكم فى ذلك اليوم ولا نافع ولاضار إلا هو.

وثانيها: أنه ذكر من أسمائه هذا الاسم، وهذا الاسم أعظم الأسماء وهو دال على كمال الرحمة. وكمال القهر، فهو لدلالته على كمال الرحمة أعظم أنواع الوعد، ولدلالته على كمال القهر أشد أنواع الوعيد.

وثالثها: أن قوله ﴿تحشرون﴾ فعل لم يسم فاعله، مع أن فاعل ذلك الحشر هو الله وإنما لم يقع التصريح به لأنه - تعالى - هو العظيم الكبير الذى شهدت العقول بأنه هو الذى يبدىء ويعيد، ومنه الإنشاء والإعادة فترك التصريح فى مثل هذا الموضع أدل على العظمة.

ورابعها: أن قوله ﴿تحشرون﴾ خطاب مع الكل فهو يدل على أن جميع العاملين، يحشرون إلى الله فيجتمع المظلوم مع الظالم والمقتول مع القاتل، والله - تعالى - هو الذى يتولى الحكم بينهم(١).

وقبل أن تتمم السورة حديثها مع الذين آمنوا عن أحداث غزوة أحد وما دار فيها من نصر وهزيمة، وعن الأسباب الظاهرة والخفية لذلك. أخذت فى بيان حال النبى ﷺ وما كان عليه من قيادة حكيمة وأخلاق كريمة، وأنه - ﷺ - لم يقابل مخالفة المخالفين له والفارين عنه بالانتقام منهم وإنزال العقوبات بهم وإنما قابل ذلك بالحلم واللين والسياسة الرشيدة. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٦٠ - بتصرف وتلخيص.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

فالخطاب فى قوله - تعالى - ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾.. ألخ للنبى ﷺ.

والفاء لترتيب مضمون الكلام على ماينبىء عنه السياق من استحقاق الفارين والمخالفين للملامة والتعنيف منه. ﷺ بمقتضى الجبلة البشرية.

والباء هنا للسببية، و «ما» مزيدة للتأكيد ولتقوية معنى الرحمة «لنت» من لان يلين لينا وليانا بمعنى الرفق وسعة الخلق و «الفظ» الغليظ الجافى فى المعاشرة قولا وفعلا.

وأصل الفظ - كما يقول الراغب - ماء الكرش وهو مكروه شربه بمقتضى الطبع ولا يشرب إلا فى أشد حالات الضرورة.

وغلظ القلب عبارة عن قسوته وقلة تأثره من الغلظة ضد الرقة، وتنشأ عن هذه الغلظة الفظاظة والجفاء.

والمعنى: فبسبب رحمة عظيمة فياضة منحك الله إياها يا محمد كنت لينا مع أتباعك فى كل أحوالك، ولكن بدون إفراط أو تفريط، فقد وقفت من أخطائهم التى وقعوا فيها فى غزوة أحد موقف القائد الحكيم الملهم فلم تعنفهم على ماوقع منهم وأنت تراهم قد استغرقهم الحزن والهم.. بل كنت لينا رفيقا معهم.

وهكذا القائد الحكيم لا يكثر من لوم جنده على أخطائهم الماضية،، لأن كثرة اللوم والتعنيف قدتولد اليأس، وإنما يلتفت إلى الماضى ليأخذ منه العبرة والعظة لحاضره ومستقبله ويغرس فى نفوس الذين معه ما يحفز همتهم ويشحذ عزيمتهم ويجعلهم ينظرون إلى حاضرهم ومستقبلهم بثقة واطمئنان وبصيرة مستنيرة.

وإن الشدة فى غير موضعها تفرق ولا تجمع وتضعف ولا تقوى، ولذا قال - تعالى - ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾.

أى ولو كنت - يا محمد - كريه الخلق، خشن الجانب، جافيا فى أقوالك وأفعالك، قاسى القلب لا تتأثر لما يصيب أصحابك.. ولو كنت كذلك ﴿لانفضوا من حولك﴾ أى لتفرقوا عنك ونفروا منك ولم يسكنوا إليك.

فالجملة الكريمة تنفى عن الرسول ﷺ أن يكون فظا أو غليظا، لأن «لو» تدل على نفى الجواب لنفى الشرط. أى أنك لست - يا محمد - فظا ولا غليظ القلب ولذلك التف أصحابك من حولك يفتدونك بأرواحهم وبكل مرتخص وغال، ويحبونك حبا يفوق حبهم لأنفسهم ولأولادهم ولآبائهم ولأحب الأشياء إليهم.

وقال - سبحانه - ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب﴾ لينفى عنه ﷺ القسوة والغلظة فى الظاهر والباطن: إذ القسوة الظاهرية تبدو أكثر ما تبدو فى الفظاظة التى هى خشونة الجانب، وجفاء الطبع، والقسوة الباطنية تكون بسبب يبوسة القلب، وغلظ النفس وعدم تأثرها بما يصيب غيرها. والرسول ﷺ كان مبرأ من كل ذلك، ويكفى أن الله - تعالى - قد قال فى وصفه:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[١].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة. إنه ليس بفظ، ولا غليظ ولاصخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح،[٢].

ولقد كان من أخلاقه ﷺ مداراة الناس إلا أن يكون فى المداراة حق مضيع فعن عائشة رضى الله عنها، قالت : «قال رسول الله ﷺ : إن الله أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض»[٣].

ثم أمر الله تعالى، نبيه ﷺ، بما يترتب على الرفق والبشاشة فقال : ﴿فأعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم فى الأمر﴾.

فالفاء هنا تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على لين جانبك مع أصحابك، ورحمتك بهم، أن تعفو عنهم فيما وقعوا فيه من أخطاء تتعلق بشخصك أو ما وقعوا فيه من مخالفات أدت إلى هزيمتهم فى أحد، فقد كانت زلة منهم وقد أدبهم الله عليها.

وأن تلتمس من الله تعالى، أن يغفر لهم ما فرط منهم، إذ فى إظهارك ذلك لهم تأكيد لعفوك عنهم. وتشجيع لهم على الطاعة والاستجابة لأمرك. وأن تشاورهم فى الأمر أى فى أمر الحرب ونحوه مما تجرى فيه المشاورة فى العادة من الأمور التى تهم الأمة.

وقد جاءت هذه الأوامر للنبى ﷺ، على أحسن نسق، وأحكم ترتيب، لأن الله تعالى أمره أولاً بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه، فإذا ما انتهوا إلى هذا المقام، أمره بأن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى، لتنزاح عنهم التبعات، فإذا صاروا إلى هذه الدرجة، أمره بأن يشاورهم فى الأمر لأنهم قد أصبحوا أهلا لهذه المشاورة.

ولقد تكلم العلماء كلاما طويلا عن حكم المشورة وعن معناها، وعن فوائدها، فقد قال القرطبى ما ملخصه : والاستشارة مأخوذة من قول العرب : شُرْتُ الدابة وشَوَّرتها، إذا علمت خبرها وحالها بجرى أو غيره. . وقد يكون من قولهم : شُرْتُ العسل واشْتَرتُه، إذا أخذته من موضعه.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٠.

ثم قال : واختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أمر الله نبيه ﷺ أن يشاور فيه أصحابه فقالت طائفة : ذلك فى مكائد الحروب ، وعند لقاء العدو ، تطييبا لنفوسهم ورفعًا لأقدارهم وإن كان الله - تعالى - قد أغناه عن رأيهم بوحيه.

وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وحى . فقد قال الحسن : ما أمر الله - تعالى - نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل وليقتدى به أمته من بعده .

ثم قال : والشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام ، والذى لا يستشير اهل العلم والدين - والخبرة - فعزله واجب وهذا لاخلاف فيه .

وقد استشار النبى ﷺ أصحابه فى كثير من الأمور ، وقال « المستشار مؤتمن » وقال « ما ندم من استشار ولا خاب من استخار » وقال : « ما شقى قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأى » .

وقال البخارى : « وكانت الأمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها »(١) .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : « اتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند الله لم يجز للرسول ﷺ أن يشاور فيه الأمة ، لأنه إذا جاء النص بطل الرأى والقياس ، فأما مالا نص فيه فهل تجوز المشاورة فيه فى جميع الأشياء أولا ؟

قال بعضهم : هذا الأمر مخصوص بالمشاورة فى الحروب ، لأن الألف واللام فى لفظ « الأمر » تعود على المعهود السابق وهو ما يتعلق بالحروب - إذ الكلام فى غزوة أحد - .

وقال آخرون : اللفظ عام خص منه ما نزل فيه وحى فتبقى حجته فى الباقى وظاهر الأمر فى قوله ﴿وشاورهم﴾ للوجوب وحمله الشافعى على الندب . . (٢) .

والحق أن الشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام ، وقد استشار النبى ﷺ أصحابه فى غزوات بدر وأحد والأحزاب وفى غير ذلك من الأمور التى تتعلق بمصالح المسلمين ، وسار على هذا المنهج السلف الصالح من هذه الأمة .

ولقد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يكتب لعماله يأمرهم بالتشاور ويتمثل لهم فى كتبه بقول الشاعر :

خليلى ليس الرأى فى صدر واحد   أشيرا على بالذى تريان

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٤٩ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٦٧ .

وقد تمدح الحكماء والشعراء بفضيلة الشورى وما يترتب عليها من خير ومنفعة ومن ذلك قول بشار بن برد :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن   برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة   فإن الخوافى قوة للقوادم

والحكام العقلاء المنصفون المتحرون للحق والعدل هم الذين يقيمون حكمهم على مبدأ الشورى ولا يعادى الشورى من الحكام إلا أحد اثنين :

إما رجل قد أصيب بداء الغرور والتعالى، فهو يتوهم أن قوله هو الحق الذى لا يخالطه باطل، وأنه ليس محتاجا إلى مشورة غيره وإما رجل ظالم مستبد مجانب للحق، فهو ينفذ مايريده بدون مشورة أحد لأنه يخشى إذا استشار غيره أن يطلع الناس على ظلمه وجوره وفجوره.

هذا ومتى تمت المشورة على أحسن الوجوه وأصلحها واستقرت الأمور على وجه معين، فعلى العاقل أن يمضى على ما استقر عليه الرأى بدون تردد أو تخاذل، ولذا قال - سبحانه - ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾.

أى فإذا عقدت نيتك على إتمام الأمر وإمضائه بعد المشاورة السليمة وبعد أن تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فبادر بتنفيذ ما عقدت العزم على تنفيذه، و ﴿توكل على الله﴾ أى اعتمد عليه فى الوصول إلى غايتك، فإن الله - تعالى - يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه مع مباشرة الأسباب التى شرعها لهم لكى يصلوا إلى مطلوبهم.

فالجملة الكريمة تأمر النبى ﷺ وتأمر كل من يتأتى له الخطاب بأن يبذل أقصى جهده لمعرفة ما هو صواب بأن يستشير أهل الخبرة كل فى مجال تخصصه فإذا ما استقر رأيه على وجهة نظر معينة - بعد أن درسها دراسة فاحصة واستشار العقلاء الأمناء فيها - فعليه أن يبادر إلى تنفيذها بدون تردد فإن التردد يضيع الأوقات والتأخر كثيرا ما يحول الحسنات إلى سيئات وعليه مع حسن الاستعداد أن يكون معتمدا على الله، مظهرا العجز أمام قدرته - سبحانه - لأنه هو الخالق للأسباب والمسببات وهو القادر على تغييرها.

وكم من أناس اعتمدوا على قوتهم وحدها، أو على مباشرتهم للأسباب وحدها دون أن يجعلوا للاعتماد على الله مكانا فى نفوسهم، فكانت نتيجتهم الفشل والخذلان وكانت الهزيمة المنكرة المرة التى اكتسبوها بسبب غرورهم وفجورهم وفسوقهم عن أمر الله. ورحم الله القائل

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولقد أكد الله - تعالى - وجوب التوكل عليه بعد ذلك فى قوله : ﴿إن ينصركم الله فلا

غالب لكم. وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده﴾؟

والمراد بالنصر هنا العون الذى يسوقه لعباده حتى ينتصروا على أعدائهم. والمراد بالخذلان ترك العون. والمخذول، هو المتروك الذى لا يعبأ به.

يقال: خذلت الوحشية إذا أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها.

والمعنى: إن يرد الله - تعالى - نصركم كما نصركم يوم بدر - ﴿فلا غالب لكم﴾ أى فإنه لا يوجد قوم يستطيعون قهركم، لأن الله معكم، ومن كان الله معه فلن يغلبه أحد من الخلق.

وإن يرد أن يخذلكم ويمنع عنكم عونه كما حدث لكم يوم أحد، فلن يستطيع أحد أن ينصركم من بعد خذلانه، لأنه لا يوجد أحد عنده قدرة تقف أمام قدرة الله -تعالى- ومشيئته.

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، أى لا أحد يستطيع نصركم إن أراد الله خذلانكم، وهو جواب للشرط الثانى.

وفيه لطف بالمؤمنين، حيث صرح لهم بعدم الغلبة فى الأول، ولم يصرح لهم بأنهم لا ناصر لهم فى الثانى، بل أتى به فى صورة الاستفهام وإن كان معناه نفيا ليكون أبلغ، إذ فى مجيئه على هذه الصورة الاستفهامية توجيه لأنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله - تعالى - ولا شك أنهم لن يجدوه، وعندئذ سيعتقدون عن يقين بأن الله وحده هو الكبير المتعال، وأنه لا ناصر لهم سواه.

وقوله ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أى وعلى الله وحده لا على احد سواه. فليجعل المؤمنون اعتمادهم واتكالهم عليه، لأن الذين يعتمدون على أى قوة سوى الله - تعالى - لن يصلوا إلى العاقبة الطيبة التى أعدها - سبحانه - لعباده المتقين.

فالآية الكريمة كلام مستأنف، وقد سيق بطرق تلوين الخطاب، تشريفا للمؤمنين لايجاب التوكل عليه والترغيب فى طاعته التى تؤدى إلى النصر، وتحذيرا لهم من معصيته التى تفضى إلى الخسرانِ والخذلان.

ثم نهى - سبحانه - عن الغلول ونزه النبى ﷺ عن ذلك فقال - تعالى - ﴿وما كان لنبى أن يغل، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ وقوله ﴿يغل﴾ من الغلول وهو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها. يقال: غل فلان شيئًا من المغنم يغل غلولا إذا أخذه خفية. ويقال: أغل الجازر أو السالخ إذا أبقى فى الجلد شيئا من اللحم على طريق الخفية.

وأصله من الغلل وهو دخول الماء فى خلل الشجر خفية. والغل: الحقد الكامن فى الصدر وسميت هذه الخيانة غلولا، لأنها تجرى فى المال على خفاء من وجه لا يحل.

والمعنى : ما صح ولا استقام لنبى من الأنبياء أن يخون فى المغنم، لأن الخيانة تتنافى مع مقام النبوة الذى هو أشرف المقامات ﴿ومن يغلل﴾ أى ومن يرتكب شيئًا من ذلك، ﴿يأت بما غل يوم القيامة﴾ أى يأت بما غله يوم القيامة حاملا إياه ليكون فضيحة له يوم الحشر، ليؤخذ بإثم غلوله وخيانته.

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : «نزلت هذه الآية» ﴿وماكان لنبى أن يغل﴾ فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر. فقال بعض الناس : لعل رسول الله - ﷺ - أخذها، وأكثروا فى ذلك فأنزل الله الآية».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضًا أن المنافقين اتهموا رسول الله ﷺ بشىء فُقِد، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان لنبى أن يغل﴾.

قال ابن كثير - بعد أن ساق هاتين الروايتين - وهذا تنزيه له ﷺ من جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسمة الغنيمة وغير ذلك[1].

وفى ورود هذه الآية الكريمة فى سياق الحديث عن غزوة أحد، حكمة عظيمة، وتأديب من الله للمؤمنين، وتحذير لهم من الغلول، ذلك أن الرماة الذين تركوا أماكنهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ قد دفعهم لذلك خشيتهم من أن ينفرد المقاتلون بالغنائم، ففعلوا ما فعلوا، ولقد روى أن الرسول ﷺ قال للرماة : «أظننتم أنا نغل ولانقسم لكم»[2].

وقد نهى ﷺ فى كثير من الأحاديث عن الغلول ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثم قال لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى، فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، ولا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، ولا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك. لا ألفين أحكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك من الله شيئًا قد أبلغتك،لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق - أى ثياب - فيقول يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت - أى ذهب وفضة - فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك».

(١) تفسير ابن كثير ص ٤٢١.
(٢) تفسير الألوسى جـ ٤ ص ١٠٩.

هذا، وجمهور العلماء على أن الغال يأتى بما غله يوم القيامة بعينه على سبيل الحقيقة لأن ظواهر النصوص من الكتاب والسنة تؤيد ذلك. ولأنه لا موجب لصرف الألفاظ عن ظواهرها.

ومن العلماء من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجاز عن الإتيان بإثمه تعبيرًا بما غل عما لزمه من الإثم مجازا.

قال الفخر الرازى: «واعلم أن هذا التأويل - المجازى - يحتمل، إلا أن الأصل المعتبر فى علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة إلا إذا قام دليل يمنع منه. وهنا لا مانع من هذا الظاهر فوجب إثباته»[1].

ومن المفسرين الذين حملوا الإتيان على ظاهره الإمام القرطبى فقد قال عند تفسيره لقوله -تعالى- ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته معذبًا بحماه وثقله ومرعوبًا بصوته، وموبخًا بإظهار خيانته على رءوس الاشهاد.

وقال بعد إيراده للحديث السابق الذى رواه مسلم عن أبى هريرة: قيل الخبر محمول على شهرة الأمر. أى يأتى يوم القيامة قد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيرًا له رغاء أو فرسًا له حمحمة.

قلت: وهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه، وإذا دار الكلام بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل - كما فى كتب الأصول - وقد أخبر النبى ﷺ بالحقيقة ولا عطر بعد عروس»[2].

ثم نبه - سبحانه - على العقوبة التى ستحل بالخائن، بعد أن بين ما سيناله من فضيحة وخزى فقال: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

أى: ثم تعطى كل نفس يوم القيامة جزاء ما كسبت من خير أو شر وافيا تامًا، وهم لا يظلمون شيئًا، لأن الحاكم بينهم هو ربك الذى لا يظلم أحدًا.

وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وقوله ﴿ومن يغلل﴾ وجاء العطف بثم المفيدة للتراخى، للإشعار بالتفاوت الشديد بين حمله ما غل وبين جزائه وسوء عاقبته يوم القيامة.

وقال - سبحانه - ﴿ثم توفى كل نفس﴾.. بصيغة العموم، ولم يقل ثم يوفى الغال مثلا - لأن من فوائد ذكر هذا الجزاء بصيغة العموم، الاعلام والإخبار للغال وغيره من جميع الكاسبين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٧٣.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٥٧.

بأن كل إنسان سيجازى على عمله سواء أكان خيرا أو شرًا. فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضًا فكأنه قد ذكر مرتين.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به ؟ قلت : جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيرًا أو شرًا مجزى فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب[١].

ثم أكد - سبحانه - نفى الظلم عن ذاته فقال : ﴿أفمن أتبع رضوان الله﴾ بأن واظب على مايرضيه، والتزم طاعته، وترك كل ما نهى عنه من غلول وغيره ﴿كمن باء بسخط من الله﴾ أى كمن رجع بغضب عظيم عليه من الله بسبب غلوله وخيانته وارتكابه لما نهى الله عنه من أقوال وأفعال ؟

فالآية الكريمة تفريع على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وتأكيد لبيان أنه لا يستوى المحسن والمسيء والأمين والخائن.

والاستفهام إنكارى بمعنى النفى، أى لا يستوى من اتبع رضوان الله مع من باء بسخط منه.

وقد ساق - سبحانه - هذا الكلام الحكيم بصيغة الاستفهام الإنكارى، للتنبيه على أن عدم المساواة بين المحسن والمسيء أمر بدهى واضح لا تختلف فيه العقول والأفهام، وأن أى إنسان عاقل لو سئل عن ذلك لأجاب بأنه لا يستوى من اتبع رضوان الله مع من رجع بسخط عظيم منه بسبب كفره أو فسقه وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا. لا يستوون﴾[٢].

وقوله ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملواالصالحات كالمفسدين فى الأرض﴾[٣] ؟

والفاء فى قوله ﴿أفمن اتبع﴾ للعطف على محذوف والتقدير، أمن اتقى فاتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ؟

ثم أعقب - سبحانه - ذكر سخطه بذكر عقوبته فقال : ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ أى أن هذا الذى رجع بغضب عظيم عليه من الله - تعالى - بسبب كفره أو فسوقه أو خيانته، سيكون مثواه ومصيره إلى النار وبئس ذلك المصير الذى صار إليه وكان له مرجعا ونهاية.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٣٥.
(٢) سورة السجدة الآية ١٨.
(٣) سورة ص الآية ٢٨.

ثم بين - سبحانه - النتيجة التى ترتبت على عدم تساوى المحسن والمسىء فقال ﴿هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون﴾.

والضمير ﴿هم﴾ يعود على ﴿من﴾ فى قوله ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ وقوله ﴿كمن باء بسخط من الله﴾ أى على الفريقين. وبعضهم جعل مرجعه إلى الفريق الأول فقط.

والدرجات: جمع درجة وهى الرتبة والمنزلة، ومنه الدرج بمعنى السلم لأنه يصعد عليه درجة بعد درجة.

وأكثر ما تستعمل الدرجة فى القرآن فى المنزلة الرفيعة، كما فى قوله - تعالى - ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾[1]. بخلاف الدركة فإنها تستعمل فى عكس ذلك، كما فى قوله - تعالى - ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾[2].

ولذا قال الراغب: «الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود، والدرك اعتبارا بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنة ودركات النار ولتصور الحدور فى النار سميت هاوية..»[3].

والمعنى: هم أى الأخيار الذين اتبعوا رضوان الله، والأشرار الذين رجعوا بسخط منه متفاوتون فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم كما تتفاوت الدرجات وإطلاق الدرجات على الفريقين من باب التغليب للأخيار على الأشرار والمراد إن الذين اتبعوا رضوان الله يتفاوتون فى الثواب الذى يمنحهم الله إياه على حسب قوة إيمانهم، وحسن أعمالهم.

كما أن الذين باءوا بسخط منه يتفاوتون فى العقاب الذى ينزل بهم على حسب ما اقترفوه من شرور وآثام، فمن أوغل فى الشرور والآثام كان عقابه أشد من عقاب من لم يفعل فعله وهكذا.

والذين قالوا إن الضمير ﴿هم﴾ يعود على الفريق الأول فقط احتجوا بأن التعبير بالدرجات يستعمل فى الغالب فى الثواب، وبأن الله قد أضاف هذه الدرجات لنفسه فدل ذلك على أن المقصود بقوله: هم الذين اتبعوا رضوان الله. وبأن هؤلاء الذين اتبعوا رضوان الله قد فضل الله بعضهم على بعض كما جاء فى بعض الآيات ومنها قوله: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢

(٢) سورة النساء الآية ١٤٥

(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٦٧

بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾[١].

والذى نراه أن عودة الضمير «هم» على الفريقين أقرب إلى الحق، لأن تفاوت الدرجات موجود بين الأخيار كما أن تفاوت العقوبات موجود بين الأشرار، فالذين أدوا جميع ما كلفهم الله به من طاعات ليسوا كالذين اكتفوا بأداء الفرائض. والذين انحدروا فى المعاصى إلى النهاية ليسوا كالذين وقعوا فى بعضها.

وقوله ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه وعلمه وهو تشريف لهم والظرف متعلق بدرجات على المعنى، أو متعلق بمحذوف وقع صفة لها. أى درجات كائنة عند الله.

وقوله ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أى مطلع على أعمال العباد صغيرها وكبيرها ظاهرها وخفيها، لايغيب عنه شيء، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه على حسب عمله، بمقتضى علمه الكامل، وعدله الذى لاظلم معه.

وبعد أن نزه الله - تعالى - نبيه ﷺ عن الغلول وعن كل نقص، وبين أن الناس متفاوتون فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم..

بعد أن بين ذلك أتبعه ببيان فضله - سبحانه - على عباده فى أن بعث فيهم رسولا منهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور فقال - تعالى - : ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾.

قال الرازى: قال الواحدى: «للمن فى كلام العرب معان:

أحدها: الذى يسقط من السماء، وهو قوله: ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾.

وثانيها: أن تمن بما أعطيت كما فى قوله ﴿لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾.

وثالثها: القطع كما فى قوله ﴿وإن لك لأجرا غير ممنون﴾ ورابعها الإنعام والإحسان إلى من لاتطلب الجزاء منه - وهو المراد هنا»[٢].

والمعنى: لقد أنعم الله على المؤمنين، وأحسن إليهم ﴿إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ أى بعث فيهم رسولا عظيم القدر، هو من العرب أنفسهم، وهم يعرفون حسبه ونسبه وشرفه وأمانته ﷺ.

وعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله ﴿من أنفسهم﴾ أى من نفس العرب، ويكون المراد بالمؤمنين مؤمنى العرب، وقد بعثه الله عربيا مثلهم، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع بتوجيهاته.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢١

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٨٧

ويصح أن يكون معنى قوله ﴿من أنفسهم﴾ أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله -تعالى- وهبه النبوة والرسالة، ليخرج الناس - العربى منهم وغير العربى - من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وجعل رسالته عامة فقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وخص الله - تعالى - منته وفضله بالمؤمنين، لأنهم هم الذين انتفعوا بنعمة الإسلام، الذى لن يقبل الله دينا سواه والذى جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام.

والجملة الكريمة جواب قسم محذوف والتقدير: والله ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾.

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذه المنة والفضل ببعثة الرسول ﷺ فقال: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾

والتلاوة: هى القراءة المتتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض.

والتزكية: هى التطهير والتنقية.

أى لقد أعطى الله - تعالى - المؤمنين من النعم ما أعطى، لأنه قد بعث فيهم رسولا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التى أنزلها لهدايتهم وسعادتهم، ﴿ويزكيهم﴾ أى يطهرهم من الكفر والذنوب. أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كانوا عليه من دنس الجاهلية، والاعتقادات الفاسدة.

﴿ويعلمهم الكتاب﴾ بأن يبين لهم المقاصد التى من أجلها نزل القرآن الكريم، ويشرح لهم أحكامه، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه التى قد تخفى على مداركهم.

فتعليم الكتاب غير تلاوته: لأن تلاوته قراءته مرتلا مفهوما أما تعليمه فمعناه بيان أحكامه وما اشتمل عليه من تشريعات وآداب.

ويعلمهم كذلك ﴿الحكمة﴾ أى الفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده التى يكمل بها العلم بالكتاب.

وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عدة صفات من الصفات الجليلة التى منحها الله تعالى - لنبيه محمد ﷺ.

ثم بين - سبحانه - حال الناس قبل بعثة الرسول ﷺ فقال ﴿وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾.

أى: إن حال الناس وخصوصا العرب أنهم كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ إليهم فى ضلال بين واضح لا يخفى أمره على أحد من ذوى العقول السليمة والأذواق المستقيمة.

وحقا لقد كان الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام الذى جاء به ﷺ من عند ربه فى ضلال واضح، وظلام دامس، فهم من ناحية العبادة كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى، ومن ناحية الأخلاق تفشت فيهم الرذائل حتى صارت شيئًا مألوفا، ومن ناحية المعاملات كانوا لا يلتزمون الحق والعدل فى كثير من شئونهم.

والخلاصة أن الضلال والجهل وغير ذلك من الرذائل، كانت قد استشرت فى العالم بصورة لا تخفى على عاقل.

فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه محمدا ﷺ لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان.

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد فحكت ما قاله ضعاف الإيمان فى أعقابها، وردت عليهم بما يبطل مقالتهم، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم فقال-تعالى:

أَوَلَمَّا أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ
قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾
وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ
يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ
فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ
وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ
ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

فقوله تعالى: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة، إثر إبطال بعض آخر تقدم الحديث عنه من

فوائد غزوة أحد أنها كشفت عن قوى الإيمان من ضعيفه، ميزت الخبيث من الطيب.

وإذا كان انتصار المسلمين فى بدر جعل كثيرًا من المنافقين يدخلون فى الإسلام طمعا فى الغنائم.. فإن عدم انتصارهم فى أحد قد أظهر المنافقين على حقيقتهم، ويسر للمؤمنين معرفتهم والحذر منهم.

والهمزة فى قوله ﴿أو لما﴾ للاستفهام الإنكارى التعجيبى. و«الواو» للعطف على محذوف و«لما» ظرف بمعنى حين مضافة إلى ما بعدها مستعملة فى الشرط. والمصيبة: أصلها فى اللغة الرمية التى تصيب الهدف ولا تخطئه، ثم أطلقت على ما يصيب الإنسان فى نفسه أو أهله أو ما له أو غير ذلك من مضار. وقوله ﴿مثليها﴾ أى ضعفها، فإن مثل الشىء ما يساويه. ومثليه ضعفه.

والمعنى: أفعلتم ما فعلتم من أخطاء، وحين أصابكم من المشركين يوم أحد نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك فى بدر تعجبتم وقلتم ﴿أنى هذا﴾ أى من أين لنا هذا القتل والخذلان ونحن مسلمون نقاتل فى سبيل الله، وفينا رسوله ﷺ وأعداؤنا الذين قَتلوا منا من قَتلوا مشركون يقاتلون فى سبيل الطاغوت.

فالجملة الكريمة توبيخ لهم على ما قالوه لأنه ما كان ينبغى أن يصدر عنهم. إذ هم قد قتلوا من المشركين فى بدر سبعين من صناديدهم وأسروا منهم قريبا من هذا العدد وفى أحد كذلك كان لهم النصر فى أول المعركة على المشركين، وقتلوا منهم قريبا من عشرين إلا أنهم حين خالفوا وصية رسولهم ﷺ وتطلعوا إلى الغنائم منع الله عنهم نصره، فقتل المشركون منهم قريبا من سبعين.

وقوله ﴿قد أصبتم مثليها﴾ فى محل رفع صفة «لمصيبة». وفائدة هذا القول التنبيه على أن أمور الدنيا لا تبقى على حال واحدة، وإن من شأن الحرب أن تكون سجالا، إلا أن العاقبة جعلها الله للمتقين.

وقوله ﴿قلتم أنى هذا﴾ هو موضع التوبيخ والتعجيب من شأنهم، لأن قولهم هذا يدل على أنهم لم يحسنوا وضع الأمور فى نصابها حيث ظنوا أن النصر لابد أن يكون حليفهم حتى ولو خالفوا أمر قائدهم ورسولهم - ﷺ - ولذا فقد رد الله - تعالى - عليهم بما من شأنه أن يعيد إليهم صوابهم وبما يعرفهم السبب الحقيقى فى هزيمتهم فقال: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾.

أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا ما قالوا: إن ما أصابكم فى أحد سببه أنتم لا غيركم.

فأنتم الذين أبيتم إلا الخروج من المدينة مع أن النبى ﷺ أشار عليكم بالبقاء فيها. وأنتم الذين خالفتم وصيته بترككم أماكنكم التى حددها لكم وأمركم بالثبات فيها. وأنتم الذين تطلعت أنفسكم إلى الغنائم فاشتغلتم بها وتركتم النصيحة، وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله ﷺ فى ساعة الشدة والعسرة فلهذه المخالفات التى نبعت من أنفسكم أصابكم ماأصابكم فى أحد، وكان الأولى بكم أن تعرفوا ذلك وأن تعتبروا وأن تقلعوا عن هذا القول التى لا يليق بالعقلاء، إذ العاقل هو الذى يحاسب نفسه عندما يفاجئه المكروه ويعمل على تدارك أخطائه ويقبل على حاضره ومستقبله بثبات وصبر مستفيدا بماضيه ومتعظا بما حدث له فيه.

وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى الأخذ بهذا الدرس فإن كثيرا منهم يقصرون فى حق الله وفى حق أنفسهم وفى حق غيرهم، ولا يباشرون الأسباب التى شرعها الله للوصول إلى النصر.. بل يبنون حياتهم على الغرور والإهمال، فإذا ما أصابتهم الهزيمة مسحوا عيوبهم فى القضاء والقدر، أو فى غيرهم من الناس، أو شدهوا لهول ما أصابهم - بسبب تقصيرهم - ثم قالوا: أنى هذا؟ وما دروا لجلهلهم وغرورهم - أن الله - تعالى - قد جعل لكل شىء سببا. فمن باشر أسباب النجاح وصل إليها بإذن الله ومن أعرض عنها حرمه الله - تعالى - من عونه ورعايته.

ولقد أكد - سبحانه قدرته على كل شىء فقال: ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ أى إن الله تعالى - قدرته فوق كل شىء فهو القدير على نصركم وعلى خذلانكم وبما أنكم قد خالفتم نبيكم ﷺ فقد حرمكم الله نصره، وقرر لكم الخذلان، حتى تعتبروا ولا تعودوا إلى ما حدث من بعضكم فى غزوة أحد، ولتذكروا دائما قوله - تعالى - ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[1].

ثم أكد - سبحانه - عموم قدرته وإرادته فقال: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله، وليعلم المؤمنين﴾.

أى: وما أصابكم - أيها المؤمنون - من قتل وجراح وآلام يوم التقى جمعكم وجمع أعدائكم فى أحد، ﴿فبإذن الله﴾ أى فبإرادته وعلمه، إذ ما من شىء يقع فى هذا الكون إلا بتقدير الله وعلمه، فعليكم أن تستسلموا لإرادة الله، وأن تعودوا إلى أنفسكم فتهذبوها وتروضوها على تقوى الله وطاعته، حتى تكونوا أهلا لنصرته وعونه.

و «ما» موصولة بمعنى الذى فى محل رفع بالابتداء، وجملة ﴿أصابكم﴾ صلة الموصول، وقوله

(١) سورة الشورى الآية ٣٠

﴿فبإذن الله﴾ هو الخبر. ودخلت الفاء فى الخبر لشبه المبتدأ بالشرط. وقوله ﴿وليعلم المؤمنين﴾ بيان لبعض الحكم التى من أجلها حدث ما حدث فى غزوة أحد.

والعلم هنا كناية عن الظهور والتقرر فى الخارج لما قدره - سبحانه - فى الأزل أى أراد الله أن يحدث ما حدث فى غزوة أحد ليظهر للناس ويميز لهم المؤمنين من غيرهم.

وقوله: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ حكمة ثانية لما حدث فى غزوة أحد. أى: حدث ما حدث فى غزوة أحد ليعلم - سبحانه - المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزا ظاهرا.

إذ أن نصر المسلمين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام. وعدم انتصارهم فى أحد، كشف عن هؤلاء المنافقين وأظهرهم على حقيقتهم، فإن من شأن الشدائد أنها تكشف عن معادن النفوس، وحنايا القلوب.

ثم بين - سبحانه - بعض النصائح التى قيلت لهؤلاء المنافقين حتى يقلعوا عن نفاقهم، وحكى مارد به المنافقون على الناصحين فقال: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم﴾.

أى فعل - سبحانه - ما فعل فى أحد ليميز المؤمنين من المنافقين الذين قيل لهم من النبى ﷺ ومن بعض أصحابه: تعالوا معنا لتقاتلوا فى سبيل الله، فإن لم تقاتلوا فادفعوا أى فانضموا إلى صفوف المقاتلين، فيكثر عددهم بكم فإن كثرة العدد تزيد من خوف الأعداء.

أو المعنى: تعالوا معنا لتقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله، فإن لم تفعلوا ذلك لضعف إيمانكم، واستيلاء الشهوات والأهواء على نفوسكم، فلا أقل من أن تقاتلوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن مدينتكم عار الهزيمة.

أى إن لم تقاتلوا طلبا لمرضاة الله، فقاتلوا دفاعا عن أوطانكم وعزتكم.

قال الجمل: وهذه الجملة وهى قوله - تعالى - ﴿وقيل لهم تعالوا﴾ تحتمل وجهين.

أحدهما: أن تكون مستأنفة، أخبر الله أنهم مأمورون إما بالقتال وإما بالدفع أى تكثير سواد المسلمين - أى عددهم.

والثانى: أن تكون معطوفة على ﴿نافقوا﴾ فتكون داخلة فى خبر الموصول. أى وليعلم الذين حصل منهم النفاق والقول المذكور وإنما لم يأت بحرف العطف بين تعالوا وقاتلوا، لأن المقصود أن تكون كل من الجملتين مقصودة بذاتها[1].

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٢٤.

وقوله ﴿قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ حكاية لردهم القبيح على من نصحهم بالبقاء مع المجاهدين.

أى قال المنافقون - وهم عبد الله بن أبى وأتباعه - لو نعلم أنكم تقاتلون حقا لسرنا معكم، ولكن الذى نعلمه هو أنكم ستذهبون إلى أحد ثم تعودون بدون قتال لأى سبب من الأسباب.

أو المعنى - كما يقول الزمخشرى - «لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا ﴿لاتبعناكم﴾ يعنون أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشىء، ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة، لأن رأى عبد الله بن أبى كان فى الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج»(١).

وقال ابن جرير: «خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه وحتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخذل عنهم عبد الله بن أبى ابن سلول بثلث الناس وقال. أطاعهم، أى رسول الله ﷺ فخرج وعصانى. والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريب، فاتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام - أخو بنى سلمة - يقول لهم. يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم - وقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا - فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال.

فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم. أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم، ثم مضى مع رسول الله ﷺ(٢).

هذا هو موقف المنافقين فى غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عن لقاء الأعداء.

ولقد كان المؤمنون الصادقون على نقيض ذلك، فلقد خرجوا مع رسول الله ﷺ وثبتوا إلى جانبه فكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ ولقد حكى لنا التاريخ أن بعض المؤمنين الذين كانت لهم أعذارهم التى تسقط عنهم الخروج للجهاد، كانوا يخرجون مع المجاهدين لتكثير عددهم.

فعن أنس بن مالك قال: «رأيت يوم القادسية - عبدالله بن أم مكتوم -وكان رجلا أعمى-

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٣٧.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٦٨

وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ فقال: بلى ولكنى أحب أن أكثر المسلمين بنفسى(١).

هذا، وقد أصدر - سبحانه - حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان. يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾.

أى هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون، لأنهم قبل أن يقولوا: «لو نعلم قتالا لانبعناكم» كانوا يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر.

أو المعنى: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخذال فيه تقوية للمشركين.

قال الجمل: «وقوله ﴿هم﴾ مبتدأ، وقوله ﴿أقرب﴾ خبره، وقوله ﴿للكفر﴾ وقوله ﴿للإيمان﴾ متعلقان بأقرب، لأن أفعل التفضيل فى قوة عاملين. فكأنه قيل: قربوا من الكفر وقربوا من الإيمان، وقربهم للكفر فى هذا اليوم أشد لوجود العلامة وهى خذلانهم للمؤمنين»(٢).

وقوله ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم مطلقا لا فى ذلك اليوم فحسب.

أى أن هؤلاء القوم من صفاتهم الذميمة أنهم يقولون بألسنتهم قولا يخالف ما انطوت عليه قلوبهم من كفر، وما امتلأت به نفوسهم من بغضاء لكم - أيها المؤمنون -.

قال صاحب الكشاف: وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم، وأن إيمانهم موجود فى أفواههم معدوم فى قلوبهم، بخلاف صفة المؤمنين فى مواطأة قلوبهم لأفراههم»(٣).

وقوله ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ تذييل قصد به زجرهم وتوعدهم بسوء المصير بسبب نفاقهم وخداعهم.

أى والله - تعالى - أعلم منكم - أيها المؤمنون - بما يضمره هؤلاء المنافقون من كفر ومن كراهية لدينكم، لأنه - سبحانه - يعلم ما ظهر وما خفى من أمورهم، وقد كشف الله لكم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٦٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٣٤ بتصرف يسير

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٣٧.

أحوالهم لكى تحذروهم، وسيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم، وسينزل بهم ما يستحقونه من عذاب مهين.

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من أراجيفهم وأكاذيبهم التى قصدوا من ورائها الإساءة إلى المؤمنين، والتشكيك فى صدق تعاليم الإسلام فقال - تعالى - : ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا، لو أطاعونا ما قتلوا﴾.

أى أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بما ارتكبوه من جنايات قبيل غزوة أحد وخلالها، بل إنهم بعد انتهاء المعركة قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم فى المشرب والاتجاه، : قالوا لهم وقد قعدوا عن القتال : لو أن هؤلاء الذين استشهدوا فى أحد أطاعونا وقعدوا معنا فى المدينة لما أصابهم القتل، ولكنهم خالفونا فكان مصيرهم إلى القتل.

ويجوز أن تكون اللام فى قوله «لإخوانهم» للتعليل فيكون المعنى : أنهم قالوا من أجل إخوانهم الذين استشهدوا فى غزوة أحد، لو أن هؤلاء الذين قتلوا أطاعونا ولم يخرجوا لبقوا معنا على قيد الحياة، كما هو حالنا الآن، ولكنهم لم يستمعوا إلى نصحنا وخرجوا للقتال فقتلوا.

وعلى كلا التفسيرين فقولهم هذا يدل على خبث نفوسهم، وانطماس بصيرتهم وجهلهم بقدرة الله ونفاذ إرادته، وشماتتهم فيما حل بالمسلمين من قتل وجراح يوم أحد.

ولذا فقد رد الله عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويدحض قولهم، ويكشف عن جهلهم وسوء تفكيرهم فقال - تعالى - «قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين».

أى قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم الفارغة : إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بقعودكم فى بيوتكم، وامتناعكم عن الخروج للقتال، إذا كنتم تظنون ذلك ﴿فادرأوا﴾ أى ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب عليكم، والذى سيدرككم ولو كنتم فى بروج مشيدة.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة الرد عليهم بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة، وذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة، كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئا من الآجال، فكم من مجاهد عاد من جهاده سالما، وكم من قاعد أتاه الموت وهو فى عقر داره.

فزعم هؤلاء المنافقين بأن أولئك الذين استشهدوا فى أحد لو أطاعوهم ولم يخرجوا للقتال لما أصابهم القتل زعم باطل، وإلا فإن كانوا صادقين فى هذا الزعم فليدفعوا عن أنفسهم الموت الذى سينزل بهم حتما فى الوقت الذى يشاؤه الله، ولا شك أنهم لن يستطيعوا دفعه فثبت كذبهم وافتراؤهم.

وقوله تعالى ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ فى محل نصب بدل من قوله ﴿الذين نافقوا﴾.

أو فى محل رفع بدل من الضمير فى قوله ﴿يكتمون﴾ فكأنه قيل : والله أعلم بما يكتم هؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا...

وقوله ﴿وقعدوا﴾ حال من الضمير فى ﴿قالوا﴾ بتقدير حرف قد أى قالوا ما قالوا والحال أنهم قد قعدوا عن القتال.

وجواب الشرط فى قوله ﴿إن كنتم صادقين﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه وهو قوله ﴿فادرأوا عن أنفسكم الموت﴾.

والتقدير : إن كنتم صادقين فى زعمكم أن الذين قتلوا فى أحد لو أطاعوكم وقعدوا كما قعدتم لما أصابهم القتل، إن كنتم صادقين فى هذا الزعم فادرأوا عن أنفسكم الموت عند حلوله.

قال الآلوسى. والمراد أن ما ادعيتموه سببا للنجاة ليس بمستقيم، ولو فرض استقامته فليس بمفيد، أما الأول : فلأن أسباب النجاة كثيرة. غايته أن القعود والنجاة وجدا معا وهو لا يدل على السببية.

وأما الثانى : فلأن المهروب عنه بالذات هو الموت الذى القتل أحد أسبابه فإن صح ما ذكرتم فادفعوا سائر أسبابه، فإن أسباب الموت فى إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء،وأنفسكم أعز عليكم،وأمرها أهم لديكم»[1].

وقال ابن القيم : وكان من الحكم التى اشتملت عليها غزوة أحد، أن تكلم المنافقون بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم، وجوابه لهم، وعرفوا مراد النفاق، وما يؤول إليه، كيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة..

فالله الله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة، ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتها[1].

وبعد هذا الحديث الكاشف عن طبيعة المنافقين وعن أحوالهم، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الشهداء وفضلهم وما أعده الله لهم من نعيم مقيم فقال -تعالى- :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ١٢٠

(٢) زاد المعاد لابن القيم. نقلا عن تفسير القاسمى ص ١٠٣٢.

وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ
بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ
فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ
رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

فقوله - تعالى - ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء﴾ كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان أن القتل فى سبيل الله الذى يحذره المنافقون ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر، بل هو أجل المطالب وأسناها، إثر بيان أن الحذر لا يدفع القدر، لأن من قدر الله له القتل لا يمكنه الاحتراز عنه. ومن لم يقدر له ذلك لا خوف عليه منه.

فهذه الآيات الكريمة رد على شماتة المنافقين إثر الردود السابقة، وتحريض للمؤمنين على القتال، وتقرير لحقيقة إسلامية ثابتة هى أن الاستشهاد فى سبيل الله ليس فناء بل هو بقاء.

والخطاب فى قوله «ولا تحسبن» للنبى ﷺ أو لكل من بتأتى له الخطاب.

والحسبان : الظن، والنهى بلا هنا منصب على هذا الظن، أى أنهاكم عن أن تظنوا أنهم أموات، ونون التوكيد فى قوله «ولا تحسبن» لتأكيد هذا النهى.

أى : لا تحسبن أيها الرسول الكريم، أو أيها المؤمن أن الذين قتلوا فى سبيل الله، من أجل إعلان كلمته، لا تحسبنهم أمواتا لا يحسون شيئًا ولا يلتذون ولا يتنعمون، بل هم أحياء عند ربهم، يرزقون رزق الأحياء، ويتنعمون بألوان النعم التى أسبغها الله عليهم، جزاء إخلاصهم وجهادهم وبذلهم أنفسهم فى سبيل الله.

وقوله ﴿الذين﴾ مفعول أول لقوله : ﴿تحسبن﴾ وقوله ﴿أمواتا﴾ مفعوله الثانى وقوله ﴿أحياء﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى بل هم أحياء.

وقوله ﴿عند ربهم﴾ يصح أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ المقدر أو صفة لأحياء أو ظرفا له لأن المعنى : يحيون عند ربهم.

والمراد بالعندية هنا المجاز عن القرب والإكرام والتشريف، أى هم أحياء مقربون عنده، قد خصهم بالمنازل الرفيعة، والدرجات العالية، وليس المراد بها القرب المكانى لاستحالة ذلك فى حق الله - تعالى -.

وقوله ﴿يرزقون﴾ صفة لقوله ﴿أحياء﴾ أو حال من الضمير فيه أى يحيون مرزوقين.

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تصرح بأن هذه الآيات الكريمة قد نزلت فى شهداء أحد، ويدخل فى حكمهم كل شهيد فى سبيل الله، ومن هذه الأحاديث ما أخرجه أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر تَرِد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب. فقال الله - تعالى - : «أنا أبلغهم عنكم. قال : فأنزل الله هؤلاء الآيات ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾... إلخ الآيات.

وأخرج الترمذى وابن ماجه عن جابر بن عبدالله قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال : «يا جابر مالى أراك منكسًا مهتمًا»؟ قلت يا رسول الله استشهدأ بى - فى أحد - وترك عيالا وعليه دين. فقال : ألا أبشرك بما لقى الله - عز وجل - به أباك؟ قلت : بلى يا رسول الله. قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحًا - أى مواجهة ليس بينهما حجاب - وماكلم أحدًا قط إلا من وراء حجاب، فقال له يا عبدى تمن أعطك. قال يارب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال

الرب - تعالى - إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون. قال: يارب فأبلغ من ورائى فأنزل الله - تعالى - ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا﴾... الآية.

قال القرطبى - بعد أن ساق هذين الحديثين وغيرهما - ما ملخصه: «فقد أخبر الله -تعالى- فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون. والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة. ثم منهم من يقول: ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيعذبون. وصار قوم إلى أن هذا مجاز، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة. وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون. وهذا هو الصحيح من الأقوال، لأن ما صح به النقل فهو الواقع. وحديث ابن عباس - الذى سقناه قبل قليل - نص يرفع الخلاف»(1).

والذى تطمئن إليه النفس: أن الآية الكريمة تنبه على أن للشهداء مزية خاصة تجعلهم يَفضُلون الموتى المعروفين لدى الناس، وهى أنهم فى حياة سارة، ونعيم لذيذ، ورزق حسن عند ربهم. وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم: أموات، وإن كان المعنى اللغوى للموت - بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر - حاصلا للشهداء كغيرهم من الموتى.

إلا أن هذه الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء نؤمن بها كما ذكرها الله - تعالى - ولا ندرك حقيقتها، إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحى، فقد قال - تعالى - فى آية أخرى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ أى ولكن لا تحسون ولا تدركون حال هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله بمشاعركم وحواسكم، لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعلم بها إلا بالوحى.

ثم بين - سبحانه - ماهم فيه من مسرة وحبور فقال: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أى فرحين فرحا عظيما بعد انتقالهم من الدنيا، بما أعطاهم الله فى حياتهم الجديدة من ضروب النعم المتعددة التى من بينها الثواب العظيم، والنعيم الدائم، والسعادة التى ليس بعدها سعادة.

وقوله ﴿فرحين﴾ يصح أن يكون حالا من الضمير فى ﴿يرزقون﴾ أو من الضمير فى «أحياء» وقوله ﴿من فضله﴾ متعلق بآتاهم.

و ﴿من﴾ يصح أن تكون للسببية أى الذى آتاهم متسبب عن فضله. أو لابتداء الغاية وقوله

(1) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٦٨.

﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ معطوف على فرحين لتأويله بيفرحون. أو هو حال من الضمير فى ﴿فرحين﴾ بتقدير وهم يستبشرون...

وأصل الاستبشار: طلب البشارة وهو الخبر السار الذى تظهر آثاره على البشرة إلا أن المراد هنا السرور استعمالا للفظ فى لازم معناه.

أى: أن هؤلاء الشهداء فرحين بما آتاهم الله من فضله من شرف الشهادة، ومن الفوز برضا الله، ويسرون بما تبين لهم من حسن مآل إخوانهم الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم سينالون رضا الله وكرامته، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها. فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم: رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم فى الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد، لأنهم مازالوا على قيد الحياة.

وفى هذا دلالة على أن أرواح هؤلاء الشهداء قد منحها الله - تعالى - من الكشف والصفاء ما جعلها تطلع على ما يسرها من أحوال الذين يهمهم شأنهم فى الدنيا.

وقيل: إن معنى ﴿لم يلحقوا بهم﴾ لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم.

وقوله ﴿من خلفهم﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يلحقوا﴾ أى لم يلحقوهم متخلفين عنهم باقين بعد فى الدنيا. أو متعلق بقوله ﴿يلحقوا﴾ ذاته على معنى أنهم قد يقوا بعدهم وهؤلاء الشهداء قد تقدموهم.

وقوله ﴿ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿الذين لم يلحقوا بهم﴾ مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم.

والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال الذين تركوهم من خلفهم فى الدنيا من رفقائهم المجاهدين، وهو أنهم لا خوف عليهم فى المستقبل ولاهم يحزنون على ما تركوه فى الدنيا، بل هم سيكونون آمنين مطمئنين بعد فراقهم للدنيا وعندما يبعثون يوم القيامة.

ونفى عنهم الخوف والحزن، لأن الخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل فى المستقبل.

والحزن يكون بسبب فوات المنافع التى كانت موجودة فى الماضى. فبين - سبحانه - أنه لا خوف عليهم فيما سيأتيهم من أحوال القيامة، ولا حزن لهم فيما فاتهم من متاع الدنيا.

وقوله ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ استئناف مبين لماهم عليه من سرور يتعلق بذواتهم. بعد أن بين - سبحانه - سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم.

والمعنى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بحال إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

كما أنهم يستبشرون أيضا لأنفسهم بسبب ما أنعم الله به عليهم من نعم جزيلة وبسبب ما تفضل به عليهم من زيادة الكرامة، وسمو المنزلة.

وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط. وإنما يهتمون أيضا بأحوال إخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا، وفى ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم، حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم، بل إن تقديم استبشارهم بحال إخوانهم على استبشارهم بما يتعلق بأنفسهم ليشعر بأن اهتمامهم بحال إخوانهم أشد من اهتمامهم بحال أنفسهم.

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ﴿يستبشرون بنعمة﴾ يعود على الذين لم يلحقوا بهم فتكون جملة ﴿يستبشرون﴾ حالا من الذين لم يلحقوا بهم. وعليه يكون المعنى: أن هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم لا خوف عليهم ولا حزن،فهم مستبشرون بنعمة من الله وفضل..».

وقوله ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ معطوف على ﴿نعمة من الله وفضل﴾، وهذا على قراءة الجمهور بفتح همزة أن على معنى وبأن.

والتقدير: يستبشرون بنعمة من الله وفضل وبأن الله - تعالى - لا يضيع أجر المؤمنين، وإنما سيعطيهم النصر والعزة والكرامة جزاء جهادهم.

وقرأ الكسائى «وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين»، بكسر همزة إن على الاستئناف والمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مؤمن يخاف مقام ربه وينهى نفسه عن الهوى، ويجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله فإن الله - تعالى - لا يضيع شيئا من أجره، بل يعطيه من الجزاء الحسن - بفضله وإحسانه - أكثر مما يستحق.

ثم مدح - سبحانه - المؤمنين الصادقين الذين لم تمنعهم جراحهم وآلامهم عن الاستجابة لأمر رسولهم - ﷺ - فقال - تعالى -: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: اعلم أن الله - تعالى - مدح المؤمنين على غزوتين تعرف إحداهما: بغزوة حمراء الأسد، والثانية: بغزوة بدر الصغرى. وكلاهما متصلة بغزوة أحد.

أما غزوة حمراء الأسد فهى المرادة من هذه الآية، فإن الأصح فى سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد وبلغوا الروحاء، ندموا وقالوا: إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فَلِم تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم، فهموا بالرجوع.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة.

فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان وقال : لا أريد أن يخرج الآن معى إلا من كان معى فى القتال - فى أحد -.

فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد. وهى مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة.

فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا.

وروى أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة، ثم كان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى. وكان كل ذلك لإثخان الجراح فيهم، وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة.

وقوله ﴿استجابوا﴾ بمعنى أجابوا. وقيل : استجابوا، أصلها طلبوا الإجابة لأن الأصل فى الاستفعال طلب الفعل. والقرح : الجراح الشديدة.

والمعنى : أن الله - تعالى - لا يضيع أجر هؤلاء المؤمنين الصادقين، الذين أجابوا داعى الله وأطاعوا رسوله، بأن خرجوا للجهاد فى سبيل عقيدتهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة مع مابهم من جراح شديدة، وآلام مبرحة.

ثم بين - سبحانه - جزاءهم فقال : ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ أى للذين أحسنوا منهم بأن أدوا جميع المأمورات، واتقوا الله فى كل أحوالهم بأن صانوا أنفسهم عن جميع المنهيات، لهؤلاء أجر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله -تعالى-.

وقوله ﴿الذين استجابوا﴾ فى موضع رفع على الابتداء وخبره قوله ﴿الذين أحسنوا﴾ ويجوز أن يكون فى موضع جر على أنه صفة للمؤمنين فى قوله : ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾. قال صاحب الكشاف : و «من» فى قوله ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ للتبيين مثلها فى قوله - تعالى - ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾. لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم(١).

ثم مدحهم - سبحانه - على ثباتهم وشجاعتهم وحسن اعتمادهم على خالقهم -عز وجل-، بعد أن مدحهم قبل ذلك على حسن استجابتهم لله ولرسوله فقال - تعالى - : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أباسفيان

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٤١.

لما عزم على الانصراف إلى مكة فى أعقاب غزوة أحد نادى : يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت. فقال النبى ﷺ لعمر : قل له بيننا وبينك ذلك إن شاء الله.

فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران، فألقى الله الرعب فى قلبه، فبدا له أن يرجع. فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له : يا نعيم : إنى وعدت محمدًا أن نلتقى بموسم بدر. وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن. وقد بدا لى أن أرجع. ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة علينا، فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل.

فخرج نعيم إلى المدينة فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : ما هذا بالرأى. أتوكم فى دياركم وقتلوا أكثركم فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد.

فوقع هذا الكلام فى قلوب قوم منهم. فلما رأى النبى ﷺ ذلك قال « والذى نفسى بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى ».

ثم خرج ﷺ فى جمع من أصحابه، وذهبوا إلى أن وصلوا إلى بدر الصغرى - وهى ماء لبنى كنانة وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام - ولم يلق رسول الله ﷺ وأصحابه أحدا من المشركين.

ووافقوا السوق وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدما وزبيبًا، وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين.

أما أبو سفيان ومن معه فقد عادوا إلى مكة بعد أن وصلوا إلى مر الظهران[1]...

وقيل إن الذين قابلهم أبو سفيان عند خروجه من مكة جماعة من بنى عبد القيس، وقد قال لهم ما قاله لنعيم بن مسعود عندما أزمع العودة إلى مكة بعد أن قذف الله الرعب فى قلبه من لقاء المسلمين.

وعلى أية حال ففى سبب نزول هذه الآية والتى قبلها أقوال أخرى للمفسرين اكتفينا بما ذكرناه خشية الإطالة..

وقوله ﴿الذين قال لهم الناس﴾ بدل من قوله ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ أو صفة له. أو فى محل نصب على المدح أى مدح الذين قال لهم الناس... الخ.

والمراد فى الموصول فى الآيتين طائفة واحدة من المؤمنين وهم الذين لم تمنعهم الجراح عن الخروج للقتال، ولم يرهبهم قول من قال لهم بعد ذلك إن الناس قد جمعوا لكم.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٩٩.

والمراد من الناس الأول وهو قوله ﴿الذين قال لهم الناس﴾ جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت كيف قيل «الناس» إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك؛ لأنه من جنس الناس كما يقال: فلان يركب الخيل، ويلبس البرد وماله إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويثبطون مثل تثبيطه[1].

والمراد من الناس الثانى وهو قوله: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ أبو سفيان ومن معه. فأل فيهما للعهد، والناس الثانى غير الأول.

وقوله - تعالى - حكاية عن هؤلاء المثبطين: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ أى إن أعداءكم المشركين قد جمعوا لكم جموعا كثيرة ليستأصلوكم، فاخشوهم ولا تخرجوا لقتالهم.

وحذف مفعول ﴿جمعوا﴾ فلم يقل: جمعوا جيشا كبيرا أو جمعوا أنفسهم وعددهم وأحلافهم وذلك ليذهب الخيال كل مذهب فى مقدار ما جمعوا من رجال وسلاح وأموال، ولكن هذا القول الذى صدر من هؤلاء المثبطين، لم يلتفت إليه المؤمنون الصادقون المخلصون فى جهادهم وفى اعتمادهم على خالقهم، بل كانوا كما أخبر الله تعالى - عنهم ﴿فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

أى أن هذا القول الذى قاله المثبطون، زاد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم، وثباتا على ثباتهم، وجعلهم يقولون للمرجفين بثقة واطمئنان: ﴿حسبنا الله﴾ أى كافينا الله أمر أعدائنا ﴿ونعم الوكيل﴾ أى نعم النصير خالقنا - عز وجل - فهو الموكول إليه أمرنا ومصيرنا.

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على قوة إيمانهم، وشدة ثقتهم فى نصر الله - تعالى - لهم، مهما كثر عدد أعدائهم، ومهما تعددت مظاهر قوتهم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيمانًا؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم، وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج. ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى جهة العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا يا رسول الله: إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «نعم. يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار». وعن عمر -رضى الله عنه- أنه كان يأخذ بيد الرجل

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٤١.

فيقول: قم بنا نزداد إيمانا. وعنه: «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به»[١].

وقال ابن كثير: روى البخارى عن ابن عباس: قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى به فى النار. وقالها محمد - ﷺ - حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم».

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»[٢].

ثم حكى - سبحانه - ما تم لهؤلاء المجاهدين الذين خرجوا للقاء أعدائهم من عاقبة حسنة وعود حميد فقال - تعالى - : ﴿فانقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾.

فالفاء فى قوله ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ للتعقيب، وهى معطوفة على مقدر دل عليه السياق.

ومعنى ﴿انقلبوا﴾ عادوا ورجعوا.

والنعمة: هى العطاء الذى ينفع صاحبه. والفضل: الزيادة فى العطاء والنعمة.

والمعنى: أن هؤلاء المجاهدين الصادقين خرجوا للقاء أعدائهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة فلم يجدوهم، فرجعوا إلى ديارهم مصحوبين ﴿بنعمة﴾ عظيمة ﴿من الله﴾ -تعالى-، إذ خذل أعداءهم، وسلمهم من شرورهم، ومصحوبين بفضل جليل منه - سبحانه - حيث أغدق عليهم ربحا وفيرا فى تجارتهم، وأجرًا جزيلا بسبب قوة إيمانهم، وإخلاصهم فى دينهم.

قال الآلوسى: «روى البيهقى عن ابن عباس أن عيرًا مرت فى أيام الموسم - أى موسم بدر - فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل».

وأخرج ابن جرير عن السدى قال: أعطى رسول الله ﷺ حين خرج فى غزوة بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها فى الموسم، فأصابوا تجارة - فربحوا فيها»[٣].

وقوله ﴿بنعمة﴾ فى موضع الحال من الضمير فى ﴿فانقلبوا﴾ فتكون الباء للملابسة أو للمصاحبة فكأنه قيل: فانقلبوا متلبسين بنعمة أو مصاحبين لها.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٠.

(٣) تفسير الآلوسى جـ٤ ص١٢٩.

وقوله ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف صفة لنعمة، وهو مؤكد لفخامتها وأنها نعمة جزيلة لا يقدر قدرها.

وقوله ﴿لم يمسسهم سوء﴾ أى لم يصبهم أى أذى أو مكروه عند خروجهم وعودتهم.

والجملة فى موضع الحال من فاعل ﴿انقلبوا﴾ أى رجعوا منعمين مبرئين من السوء والأذى.

وقوله ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ معطوف على قوله ﴿فانقلبوا﴾.

أى اتبعوا ما يرضى الله ويوصلهم إلى مثوبته ورحمته، باستجابتهم لرسولهم ﷺ وخروجهم للقاء أعدائهم بإيمان عميق، وعزم وثيق.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن هؤلاء المجاهدين المخلصين أنهم قد صحبهم فى عودتهم أمور أربعة:

أولهـا: النعمة العظيمة.

وثانيها: الفضل الجزيل.

وثالثها: السلامة من السوء.

ورابعها: اتباع رضوان الله.

وهذا كله قد منحه الله لهم جزاء إخلاصهم وثباتهم على الحق الذى آمنوا به.

ثم ختم -سبحانه- الآية الكريمة بقوله: ﴿والله ذو فضل عظيم﴾.

أى والله - تعالى - صاحب الفضل العظيم الذى لا يحده حصر، ولا يحصيه عد، هو الذى تفضل على هؤلاء المؤمنين الصادقين بما تفضل به من عطاء كريم، وثواب جزيل.

وفى هذا التذيل زيادة تبشير للمؤمنين برعاية الله لهم، وزيادة تحسير للمتخلفين عن الجهاد فى سبيله - عز وجل -، حيث حرموا أنفسهم مما فاز به المؤمنون الصادقون.

ثم أمر الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يجعلوا خشيتهم وخوفهم منه وحده، فقال -تعالى-: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين، والإشارة بذلكم إلى المثبط بالذات أو بالواسطة.

وقوله ﴿إنما﴾ أداة حصر، و ﴿ذلكم﴾ مبتدأ و ﴿الشيطان﴾ خبره، وقوله: ﴿يخوف أولياءه﴾ جملة مستأنفة مبينة لشيطنته.

وقيل إن ﴿ذلكم﴾ مبتدأ أول، و ﴿الشيطان﴾ مبتدأ ثان. وقوله ﴿يخوف أولياءه﴾ خبر للمبتد الثانى. وهو وخبره خبر للمبتدأ الأول.

والمراد بالشيطان إبليس لأنه علم بالغلبة عليه ولأنه هو الذى يخوف بالوسوسة. وقيل المراد به أتباعه الذين دسهم لكى يرهبوا المؤمنين من الكافرين وهم جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود المجاشعى.

إنما ذلكم المثبط لكم عن لقاء أعدائكم هو الشيطان، الذى يوسوس فى قلوبكم بالشر بذاته، أو بواسطة أتباعه الضالين، ومن شأن المؤمنين الصادقين أنهم لا يتأثرون بهذه الوساوس الكاذبة، وإنما الذين يتأثرون بها هم ضعاف الإيمان.

وقوله ﴿يخوف أولياءه﴾ أى يخوف أولياءه المنافقين وضعفاء الإيمان ليقعدوا عن مقاتلة المشركين. أما أنتم أيها المؤمنون الصادقون فإنكم لن يقعدكم تخويفه، لأن هذا التخويف لا أثر له فى قلب من آمن بالله حق الإيمان، واتقاه حق تقاته.

وقيل إن معنى ﴿يخوف أولياءه﴾ يخوفكم بأوليائه فحذف المفعول وحذف الجار. كما فى قوله: ﴿فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم﴾ أى فإذا خفت عليه فرعون. فحذف المفعول. وكما فى قوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾ أى لينذركم يوم التلاقى.

وقيل إن المعنى: يخوفكم أولياءه فحذف المفعول الأول كما تقول: أعطيت الأموال، أى أعطيت القوم الأموال.

وقوله ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ أى فلا تخافوا أولياء الشيطان، بل اجعلوا خوفكم منى وحدى، إن كنتم مؤمنين حقا.

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تشجيعهم، وتقويتهم، وإلهاب شعورهم، إذ الإيمان الحق يستلزم الخوف من الله دون سواه.

والمراد بالنهى عن الخوف وهو أمر نفسى: النهى عن أسبابه التى من أهمها حب الدنيا وكراهية الموت أى خذوا بأسباب القوة التى من أهمها التمسك بتقوى الله فإن ذلك يزيل الخوف من قلوبكم.

وفى المقابلة بين النهى عن الخوف من أولياء الشيطان، وبين الأمر بأن يكون خوفهم من الله وحده، فى هذه المقابلة إرشاد إلى العلاج الذى يزيل الخوف والفزع من نفوسهم. لأن الذى يجعل خشيته وخوفه من الله وحده لن يستطيع الشيطان أو أولياؤه أن يبعدوه عن الطريق القويم وصدق الله إذ يقول: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾.

وبذلك ترى أن الآيات الكريمة قد رفعت منازل الشهداء إلى أعلى الدرجات، وصرحت بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. كما أثنت ثناء مستطابا على الذين لبوا دعوة رسولهم ﷺ حين دعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله، ولم يمنعهم عن إجابة دعوته ما بهم من جراح، أو ما قاله لهم المرجفون من أقوال باطلة، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى ﷺ عما يراه من كفر الكافرين. وعناد المعاندين، وفى بيان أن

كفر الكافر إنما يعود عليه ضرره لاعلى غيره، وأنه - سبحانه - يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وأن حكمته - سبحانه - تقتضى تمييز الخبيث من الطيب. فقال -تعالى- :

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

الخطاب فى قوله تعالى - ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر﴾ للنبى ﷺ والمقصود منه تسليته وإدخال الطمأنينة على قلبه، حتى لا يتأثر بما يراه من كفر الكافرين، ونفاق المنافقين، وفسق الفاسقين.

أى : لا يحزنك ولا يُثر فى نفسك الحسرات يامحمد، حال أولئك القوم الذين ﴿يسارعون فى الكفر﴾ أى يتوغلون فيه، ويتعجلون فى إظهاره وتأييده والعمل به عند سنوح الفرص، ويقعون فيه سريعا من تريث أو تدبر أو تفكير والمقصود بالنهى عن الحزن، النهى عن الاسترسال فيه وفى

الأسباب التى تؤدى إليه، كأن يظن ﷺ أن كثرة الضالين ستؤدى إلى انتصارهم على المؤمنين.

وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف فقال: ﴿يسارعون فى الكفر﴾ يقعون فيه سريعا، ويرغبون فيه أشد رغبة. وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿ولا يحزنك﴾ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه: لا يحزنوك لخوف أن يضروك ويعينوا عليك»[١].

ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بحرف «فى» دون حرف «إلى» الشائع تعديتها بها كما فى قوله - تعالى - ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾.

وقوله ﴿إنهم لن يضروا الله شيئًا﴾ تعليل للنهى عن أن يحزنه تسارعهم فى الكفر أى: لا يحزنك يا محمد حال هؤلاء المارقين الذين يسارعون فى الكفر وينتقلون فيه من دركة إلى دركة أقبح من سابقتها، فإنهم مهما تمادوا فى كفرهم وضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم، فإنهم لن يضروا دين الله أو أولياءه بشىء من الضرر حتى ولو كان ضررًا يسيرًا.

ففى الكلام حذف مضاف والتقدير إنهم لن يضروا أولياء الله شيئا.

وفى هذا الحذف تشريف للمؤمنين الصادقين، وإشعار بأن مضارتهم بمنزلة مضارته -سبحانه- وفى الحديث القدسى: «من عادى لى وليا فقد آذنته بحرب».

ولقد كان النبى ﷺ بمقتضى طبيعته البشرية، وغيرته على دين الله - تعالى - يحزن لإعراض المعرضين عن الحق الذى جاء به، ولقد حكى القرآن ذلك فى كثير من آياته، ومنه قوله - تعالى - ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾[٢] وقوله -تعالى- ﴿لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾[٣].

فأراد - سبحانه - فى هذه الآية الكريمة وأمثالها أن يزيل من نفس رسوله ﷺ هذا الحزن الذى نتج عن كفر الكافرين، وأن يطمئنه إلى أن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين الصادقين.

وقوله ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة﴾ استئناف لبيان جزائهم على كفرهم فى الآخرة، بعد أن بين - سبحانه - عدم إضرارهم لأوليائه فى الدنيا.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٤١.

(٢) سورة فاطر الآية ٨.

(٣) سورة الكهف الآية ٩.

أى : لا ينبغى لك يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر، فإنهم لن يضروا أوليائى بشىء من الضرر، ولأن كفرهم ليس مراغمة لله حتى تحزن، وإنما هو بإرادته، لأنه أراد ألا يكون لهم حظ أو نصيب من الخير فى الآخرة بسبب استحبابهم العمى على الهدى، ولهم مع هذا الحرمان من الخير فى الآخرة﴿عذاب عظيم﴾ لا يعلم مقدار آلامه وشدته إلا الله تعالى.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : هلا قيل : لا يجعل الله لهم حظا فى الآخرة، وأى فائدة فى ذكر الإرادة؟ قلت : فائدته الإشعار بأن الداعى إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصا لم يبق معه صارف قط حين سارعوا فى الكفر، تنبيها على تماديهم فى الطغيان وبلوغهم الغاية فيه، حتى إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم»[1].

ثم أكد - سبحانه - هذا الحكم وقرره فقال : ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا، ولهم عذاب أليم﴾.

والاشتراء فى الآية الكريمة بمعنى الاستبدال على سبيل الاستعارة التمثيلية فقد شبه -سبحانه- الكافر الذى يترك الحق الواضح الذى قامت الأدلة على صحته ويختار بدله الضلال الذى قامت الأدلة على بطلانه، بمن يكون فى يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها ويأخذ فى مقابلها سلعة رديئة فاسدة.

والمعنى أن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، لن يضروا دين الله ولا رسوله ولا أولياءه بشىء من الضرر، وإنما يضرون بفعلهم هذا أنفسهم ضررا بليغا ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام، بسبب إيثارهم الغى على الرشد، والكفر على الإيمان، والشر على الخير.

ثم بين - سبحانه - أن ما يتمتع به الأشرار فى الدنيا من متع إنما هو استدراج لهم، فقال -تعالى- ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم﴾.

وقوله ﴿نملى لهم﴾ من الإملاء وهو الإمهال والتخلية بين العامل والعمل ليبلغ مداه.

يقال : أملى فلان لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء..

ويطلق الإملاء على طول المدة ورغد العيش.

والمعنى : ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم﴾، بتطويل أعمارهم، وبإعطائهم الكثير من وسائل العيش الرغيد هو، ﴿خير لأنفسهم﴾ كلا. بل هو سبب للمزيد من عذابهم، لأننا ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾ بكثرة ارتكابهم للمعاصى ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب مهين﴾ أى عذاب ينالهم بسببه الذل الذى ليس بعده ذل والهوان الذى يتصاغر معه كل هوان.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٤١.

وقوله ﴿ولا يحسبن﴾ إلخ.. عطف على قوله - تعالى - ﴿ولا يحزنك﴾ ويكون للنهى عن الظن متجها للذين كفروا ليعلموا سوء عاقبتهم.

ويكون مفعولا يحسب قد سد مسدهما أن المصدرية وما بعدها و « ما » فى قوله « أنما نملى لهم » يجوز أن تكون مصدرية، وأن تكون موصولة حذف عائدها. وقد كتبت متصلة بأن مع أن من حقها أن تكتب منفصلة عنها اتباعا للمصحف الإمام أى لا يحسبن الكافرين أن إملاءنا لهم أو أن الذى نمليه لهم من تأخير حياتهم وانتصارهم فى الحروب فى بعض الأحيان، هو خير لهم.

وقرأ حمزة « ولا تحسبن الذين كفروا ». فيكون الخطاب بالنهى متجها إلى النبى ﷺ ويكون المفعول الأول لحسب هو ﴿الذين كفروا﴾ وقوله: ﴿أنما نملى لهم خير لأنفسهم﴾ بدل من الذين كفروا سادًا مسد المفعول الثانى، أو يكون هو المفعول الثانى.

والمعنى: لا تحسبن يامحمد ولا يحسبن أحد من أمتك أن إملاءنا للذين كفروا هو خير لأنفسهم، بل هو شر لهم، لأننا ما أعطيناهم الكثير من وسائل العيش الرغيد إلا على سبيل الاستدراج، وسنعاقبهم على ما ارتكبوه من آثام عقابا عسيرا.

وقوله ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾ استئناف واقع موقع التعليل للنهى عن حسبان الإملاء خيرًا للكافرين.

أى إنما نزيدهم من وسائل العيش الرغيد ليزدادوا آثاما بكثرة ارتكابهم للسيئات. فتكون نتيجة ذلك أن نزيدهم من العذاب المهين الذى لا يستطيعون دفعه أو التهرب منه.

و « إنما » فى قوله ﴿إنما نملى لهم﴾ أداة حصر مركبة من « إن » التى هى حرف توكيد ومن « ما » الزائدة الكافة.

واللام فى قوله ﴿ليزدادوا إثما﴾ هى التى تسمى بلام العاقبة كما فى قوله - تعالى - ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنا﴾(١).

أى « إنما نملى لهم فيزدادون إثما، فلما كان ازدياد الإثم ناشئا عن الإملاء كان كالعلة له، وكانت نتيجة هذا الإملاء أن وقعوا فى العذاب المهين.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾(٢).

---

(١) سورة القصص الآية ٨.
(٢) سورة التوبة الآية ٨٥.

وقوله - تعالى - ﴿فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين﴾[(١)].

ثم بين - سبحانه - بعض الحكم التى اشتملت عليها غزوة أحد فقال - تعالى - ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾.

وقوله ﴿ليذر﴾ أى ليترك. والمراد بالمؤمنين: المخلصون الذين صدقوا فى إيمانهم والمراد بقوله ﴿على ما أنتم عليه﴾ أى اختلاط المؤمنين بالمنافقين واستواؤهم فى إجراء الأحكام.

ومعنى يميز يفصل. وقرئ يميز أن يحدد ويبين.

والمراد بالخبيث: المنافق ومن على شاكلته من ضعاف الإيمان.

والمراد بالطيب: الصادق فى إيمانه.

والمعنى: ليس من شأن الله - تعالى - ولا من حكمته وسنته فى خلقه أن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه من الالتباس واختلاط المنافقين بكم، بل الذى من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم بألوان من المصائب والشدائد حتى يتميز المؤمنون من المنافقين، وينفصل الأخيار عن الأشرار.

قال ابن كثير: أى لابد أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله وهتك به ستار المنافقين، فظهرت مخالفتهم، ونكولهم عن الجهاد، وخيانتهم لله ولرسوله. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد»[(٢)].

وعبر - سبحانه - عن المؤمن بالطيب، وعن المنافق بالخبيث، ليسجل على كل منهما ما يليق به من الأوصاف، وللإشعار بعلة الحكم.

وقوله ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء﴾ معطوف على قوله ﴿ما كان الله ليذر﴾.

والغيب: ضد المشاهد. وهو كل ما غاب عن الحواس ولا تمكن معرفته إلا عن طريق الوحى من الله - تعالى - على رسوله ﷺ.

واجتبى: من الاجتباء بمعنى الاختيار والاصطفاء.

(١) سورة القلم الآيتان ٤٤، ٤٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٢.

أى : وما كان الله - تعالى - ليعطى أحدا منكم - معشر المؤمنين - علم الغيوب الذى به تعرفون المؤمن من المنافق، إذ علم ذلك له وحده، ولكنه - سبحانه - يصطفى من رسله من يريد اصطفاءه فيطلعه على بعض الغيوب، وذلك كما حدث لنبيكم ﷺ فقد أطلعه - سبحانه - على ما دبره له اليهود حين هموا باغتياله، وأطلعه على حال تلك المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول ﷺ لحربهم. وأطلعه على بعض أحوال المنافقين.

قال - تعالى - ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا. إلا من ارتضى من رسول﴾[1] وفى قوله - تعالى - ﴿ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء﴾ إيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله - تعالى - لمنصب جليل، تقاصرت عنه همم الأمم، واصطفاه على الناس لإرشادهم.

ثم أمر الله - تعالى - عباده أن يثبتوا على الإيمان، وبشرهم بالأجر العظيم إذ هم استمروا على ذلك فقال : ﴿فآمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾.

أى : إذا علمتم أيها المؤمنون أن الله لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، فإنه يجب عليكم أن تؤمنوا بالله وبرسله حق الإيمان، وإن تؤمنوا بالله - تعالى - وبرسله حق الإيمان، وتتقوا المخالفة فى الأمر والنهى، فلكم فى مقابلة ذلك من الله - تعالى - مالا يقادر قدره من الثواب العظيم، والأجر الجزيل.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء مصير الذين يبخلون بنعم الله، فلا يؤدون حقها. ولا يقومون بشكرها فقال - تعالى - : ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم، بل هو شر لهم﴾.

وقوله ﴿يبخلون﴾ من البخل وهو ضد الجود والسخاء، ومعناه : أن يقبض الإنسان يده عن إعطاء الشىء لغيره، وأن يحرص حرصًا شديدًا على ما يملكه من مال أو علم أو غير ذلك.

ويرى جمهور المفسرين أن المراد بالبخل هنا البخل بالمال، لأنه هو الذى يتفق مع السياق.

ويرى بعضهم أن المراد بالبخل هنا البخل بالعلم وكتمانه، وذلك لأن اليهود كتموا صفات النبى ﷺ التى جاءت بها التوراة.

والذى تراه أن ما عليه الجمهور هو الأرجح، لأنه هو المتبادر من معنى الآية، وهو المتفق من سياق الكلام.

(١) سورة الجن الآية ٢٦، ٢٧.

ولذا قال الآلوسى : قوله - تعالى - ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ بيان لحال البخل وسوء عاقبته، وتخطئة لأهله فى دعواهم خيريته عقب بيان حال الإملاء. . .

وقيل : وجه الارتباط أنه - تعالى - لما بالغ فى التحريض على بذل الأرواح فى الجهاد وغيره، شرع هنا فى التحريض على بذل المال، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل به».

والمعنى : ولا يظنن أولئك الذين يبخلون بما أعطاهم الله من نعم وأموال أن بخلهم فيه خير لهم، كلا، بل إن بخلهم هذا فيه شر عظيم لهم.

والنهى عن الحسبان بأن البخل فيه خير فى قوله ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ يدل على النفى المؤكد.

أى لا يصح لهم أن يظنوا بأية حال من الأحوال أن ذلك البخل فيه خير لهم. بل الحقيقة أن فيه شرًا كبيرًا لهم.

وفى قوله ﴿بما آتاهم الله﴾ إشعار بسوء صنيعهم، وخبث نفوسهم، حيث بخلوا بشىء ليس وليد علمهم واجتهادهم، وإنما هذا الشىء منحه الله - تعالى - لهم بفضله وجوده، فكان الأولى لهم أن يشكروه على ما أعطى، وأن يبذلوا مما أعطاهم فى سبيله.

والضمير « هو» يعود على البخل المستفاد من قوله ﴿يبخلون﴾.

ويرى الزمخشرى أنه ضمير فصل لتأكيد نفى الظن فى الخيرية.

وفى إعادة الضمير، وذكر الجملة الإسمية فى قوله ﴿بل هو شر لهم﴾ تأكيد لمعنى الشر فى البخل، وأنه لا خير من ورائه قط، ففى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم ».

ثم بين - سبحانه - المصير المؤلم لأولئك البخلاء فقال - تعالى - ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾.

وقوله ﴿سيطوقون﴾ مشتق من الطوق، وهو ما يلبس من أسفل الرقبة. أى تجعل أموالهم أطواقا حول رقابهم، وأغلالا حول أجسادهم، فيعذبون عذابا أليما بحملها.

وجمهور المفسرين على أن الكلام على ظاهره، وأن عذاب هؤلاء البخلاء بنعم الله، سيكون نوعا من العذاب الأخروى المحسوس. وقد أيد القرطبى هذا الاتجاه فقال :

« وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال والإنفاق فى سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة، ذهب إلى

هذا جماعة من المتأولين، منهم : ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل.

قالوا : ومعنى ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ هو الذى ورد فى الحديث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - أى شدقيه - ثم يقول له. أنا مالك أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية : ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾[1].

ويرى بعض العلماء أن هذا الوعيد على سبيل التمثيل، وأن الظاهر غير مراد ومعنى قوله ﴿سيطوقون ما بخلوا به﴾ عند هذا البعض : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم، فلا يأتون لأنهم ليس فى قدرتهم ذلك.

أو المعنى : سيلزمون وبال ما بخلوا به لزوم الطوق، ويتحملون وزر ذلك يوم القيامة.

فالآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الجود والسخاء من أجل إعلاء كلمة الله، وتتوعد البخلاء بأقسى ألوان الوعيد وأفظعها. وتبين أن كل ما فى هذا الكون إنما هو ملك لله - تعالى - وحده، فهو المعطى وهو المانع، ولذا قال - تعالى : ﴿ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾.

والميراث : مصدر كالميعاد. وأصله موراث فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. والمراد به ما يتوارث.

والمعنى : أن لله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ما فى السموات والأرض مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره، فما بال هؤلاء القوم يبخلون عليه بما يملكه، ولا ينفقونه فى سبيله. وعلى هذا يكون الكلام جار على حقيقته ولا مجاز فيه.

ويصح أن يكون المعنى : أن الله - تعالى - يرث من هؤلاء ما فى أيديهم مما بخلوا به من مال وغيره وينتقل منهم إليه حين يميتهم ويفنيهم، وتبقى الحسرة والندامة عليهم. وعلى هذا يكون الكلام على سبيل المجاز.

قال الزجاج : أى أن الله - تعالى - يفنى أهلهما. فيفنيان بما فيهما، فليس لأحد فيهما ملك. فخوطبوا بما يعلمون، لأنهم يجعلون ما يرجع إلى الإنسان ميراثا، ملكا له ».

وقوله ﴿والله بما تعملون خبير﴾ تذييل قصد به حضهم على الإنفاق، ونهيهم عن البخل،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٩١ والشجاع : الثعبان الذكر الذى يقوم على ذنبه ويراقب الراجل والفارس، والأقرع : هو الذى يكون أملس الجلد كثير السم. والزبيبتان النكتتان السوداوان فوق عينيه.

أى أن الله - تعالى - خبير ومطلع على ما يصدر عنكم من سخاء أو بخل أو غيرهما، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من التسلية للنبى ﷺ ولأتباعه، وبشرتهم بأن العاقبة ستكون لهم، وفضحت المنافقين وهتكت ما تستروا به من رياء وخداع، وبينت أن من سنن الله فى خلقه أن يبتلى عباده بشتى ألوان البلاء ليتميز الخبيث من الطيب، وأنه - سبحانه - يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأن البخلاء بما آتاهم الله من فضله ستكون عاقبتهم شرا، ومصيرهم إلى العذاب الأليم.

ثم أخذت السورة الكريمة - بعد أن فضحت المنافقين - فى الحديث عن بعض رذائل أهل الكتاب، وفى التحذير من شرورهم، وفى بيان طبيعة هذه الحياة وما تحمله من بلاء واختبار فقال - تعالى - :

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ

إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

قال ابن كثير: عن ابن عباس قال: لما نزل قوله - تعالى - ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا، فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ قالت اليهود: يا محمد!! افتقر ربك فسأل عباده القرض، فأنزل الله هذه الآية.

وروى محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس[(١)]. فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له «فنحاص» وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له «أشيع». فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء. ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا.

---

(١) أى المكان الذى يتدارسون فيه علومهم.

فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله...

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أبصر ما صنع بى صاحبك.

فقال رسول الله ﷺ: ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله. إن عدو الله قال قولا عظيما. يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء. فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه.

فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله فيما قال فنحاص: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا....﴾(١).

والمعنى: لقد سمع الله - تعالى - قول أولئك اليهود الذين نطقوا بالزور والفحش فزعموا أن الله - تعالى - فقير وهم أغنياء.

والمقصود من هذا السمع لازمه وهو العلم والإحاطة بما يقولون من قبائح، ثم محاسبتهم على ما تفوهوا به من أقوال، وما ارتكبوه من أعمال، ومعاقبتهم على جرائمهم بالعقاب المهين الذين يستحقونه.

وقوله ﴿سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أى سنسجل عليهم فى صحائف أعمالهم قولهم هذا، كما سنسجل عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق، فالاسناد مجازى والكتابة حقيقية.

أو المعنى: سنحفظه فى علمنا ولا نهمله، وسنعاقبهم بما يستحقون من عقوبات، فيكون الإسناد حقيقة والكتابة مجازا.

والسين للتأكيد، أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته، بل سنسجله عليهم ونعاقبهم عليه عقابا أليما بسبب أقوالهم القبيحة، وأعمالهم المنكرة.

وقد قرن - سبحانه - قولهم المنكر هذا، بفعل شنيع من أفعال أسلافهم، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق؛ وذلك لإثبات أصالتهم فى الشر، وإستهانتهم بالحقوق الدينية، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها، ومعصية استباحوها، فقد سبق لأسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق، وللإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد، وهو التجرؤ على الله -تعالى-، فقتل الأنبياء هو تعد على أمناء الله فى الأرض الذين اختارهم لتبليغ رسالاته، وقولهم ﴿إن الله

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٤.

فقير﴾ وهو تطاول على ذات الله، وكذب عليه، ووصف له بما لا يليق به - سبحانه - وبهذا كله يكونون قد عتوا عتوًا كبيرًا، وضلوا ضلالا بعيدا.

وأضاف - سبحانه - القتل إلى المعاصرين للعهد النبوى من اليهود، مع أنه حدث من أسلافهم؛ لأن هؤلاء المعاصرين كانوا راضين بفعل أسلافهم ولم ينكروه وإن لم يكونوا قد باشروه، ومن رضى بجريمة قد فعلها غيره فكأنما قد فعلها هو.

وفى الحديث الشريف: إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها.

ووصف - سبحانه - قتلهم للأنبياء بأنه ﴿بغير حق﴾ مع أن هذا الإجرام لا يكون بحق أبدا، للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وضخامة شرورهم، وأنهم لخبث نفوسهم، وقسوة قلوبهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه.

ثم صرح - سبحانه بالعقوبة بعد أن كنى عنها فقال: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أى: سنجازيهم بما فعلوا، ونلقى بهم فى جهنم، مخاطبين إياهم بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم بها تكذبون.

ففى الآية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام.

والذوق حقيقته إدراك المطعومات، والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه، والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم، والاستهزاء بهم كما فى قوله -تعالى- ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

ثم صرح - سبحانه - بأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بوقوعهم فى العذاب المحرق فقال: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾.

أى: ذلك العذاب الشديد الذى حاق بكم - أيها اليهود - بسبب ما قدمته أيديكم من عمل سيء، وما نطقت به أفواهكم من قول منكر، فقد اقتضت حكمته وعدالته ألا يعذب إلا من يستحق العذاب، وأنه - سبحانه - لا يظلم عباده مثقال ذرة. واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى العذاب المحقق المنزل منزلة المحسوس المشاهد. والمراد بالأيدى الأنفس، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من قبيل التعبير بالجزء عن الكل.

وخصت الأيدى بالذكر، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به والاتصال بذاته.

قال الآلوسى ما ملخصه:

وقوله ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ عطف على قوله ﴿بما قدمت أيديكم﴾ فهو داخل تحت حكم باء السببية، وسببيته للعذاب من حيث إن نفى الظلم يستلزم العدل المقتضى إثابة المحسن ومعاقبة المسىء...

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم... وقيل إن صيغة «ظلام» للنسب كعطار أى: لا ينسب إليه الظلم أصلا»(١).

ثم ذكر - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل اليهود فقال: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾.

وقوله ﴿الذين قالوا إن﴾.. إلخ. فى محل نصب بتقدير: أعنى. أو فى محل رفع بتقدير: هم الذين قالوا. ويجوز أن يكون فى محل جر على البدلية من قوله ﴿الذين قالوا إن الله فقير﴾.

والمراد بالموصول جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء، وحيى بن أخطب.. وغيرهم، فقد ذكر جماعة من المفسرين أنهم أتوا النبى ﷺ وقالوا له هذا القول وهو: ﴿إن الله عهد إلينا﴾... إلخ.

و﴿القربان﴾ هو ما يتقرب به إلى الله من نعم أو غير ذلك من القربات.

والمعنى: أن عذابنا الأليم سيصيب أولئك اليهود الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، والذين قالوا إن الله أمرنا فى التوراة وأوصانا بأن لا نصدق ونعترف لرسول يدعى الرسالة إلينا من قبل الله - تعالى - حتى يأتينا بقربان يتقرب به إلى الله، فتنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان، فإذا فعل ذلك كان صادقا فى رسالته.

ومقصدهم من وراء هذا القول الذى حكاه القرآن عنهم، أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظين على عهود الله. وأنهم ما تركوا الإيمان بالنبى ﷺ حسدا له، وإنما تركوا الإيمان به، لأنه لم يأت بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيا صادقا - فى زعمهم -.

ولا شك أن قولهم هذا ظاهر البطلان، لأن الإتيان بالقربان إذا كان معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول، إذ أن آيات الله فى إثبات رسالات رسله متعددة النواحى، مختلفة المناهج، وكون هذا الإتيان بالقربان الذى تأكله النار معجزة لبعض الرسل لا يستدعى أن يكون معجزة لجميعهم ولذا فقد أمر الله - تعالى - رسوله محمدًا ﷺ أن يرد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص١٤٣.

عليهم بما يبطل قولهم فقال : ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾.

أى : قل لهم يا محمد ﴿قد جاءكم رسل من قبلى﴾ كثير عددهم «بالبينات» أى بالحجج الواضحة، وبالمعجزات الساطعة الدالة على صدقهم ﴿وبالذى قلتم﴾ أى وجاءكم هؤلاء الرسل بالقربان الذى تأكله النار ﴿فلم قتلتموهم﴾ بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الباهرة ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى دعواكم أنكم تتبعون الحق، وتطيعون الرسل متى أتوكم بما يشهد بصدقهم ؟ .

فالجملة الكريمة ترد على هؤلاء اليهود بأبلغ الوجوه التى تثبت كذبهم فيما يدعون، لأن قتلهم للأنبياء بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم، دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان، وأن دعواهم أن إيمانهم بمحمد ﷺ متوقف على مجيئه بالقربان الذى تأكله النار دعوى كاذبة، لأن من جاءهم بالقربان كان جزاؤه القتل منهم . . .

قال الفخر الرازى : وقد بين الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد وإنما على سبيل التعنت. وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجزة من الأنبياء المتقدمين مثل : زكريا ويحيى وعيسى، فلما أظهروا لهم هذا المعجزة سعوا فى قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة. وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا فى قتلهم، ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم. وهذا يقتضى كونهم متعنتين - أيضا - فى مطالبهم. ولهذا لم يجبهم الله فيها»[1].

﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك. جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾.

والبينات : جمع بينة وهى الآيات المبينة للحق، والأدلة التى يستشهد بها الرسول على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

والزبر جمع زبور - كالرسول والرسل - وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته بمعنى حسنته.

وخص الزبور بالكتاب الذى أنزله الله على داود - عليه السلام - : قال - تعالى - ﴿وآتينا داود زبورا﴾.

وقيل : الزبر اسم للمواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٢٢.

والمعنى فإن كذبك هؤلاء اليهود يا محمد بعد أن قام الدليل على صدقك وعلى كذبهم وتعنتهم وجحودهم، فلا تبتئس ولا تحزن، فإن الأنبياء من قبلك قد قوبلوا بالتكذيب من أقوامهم بعد أن جاءوهم بالدلائل الواضحة الدالة على صدقهم وبعد أن جاءوهم ﴿بالزبر﴾ أى بالكتب الموحى بها من الله - تعالى - لوعظ الناس وزجرهم، وبعد أن جاءوهم بالكتاب المنير أى بالكتاب الواضح المستنير المشتمل على سعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم.

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل التسلية للرسول ﷺ والتخفيف عنه مما يلقاه من الجاحدين والمكذبين.

ثم بين - سبحانه - أن مرد الخلق جميعا إلى الله، وأن كل نفس مهما طال عمرها لابد أن يصيبها الموت، وأن الدار الباقية إنما هى الدار الآخرة التى سيحاسب الناس فيها على أعمالهم فقال - تعالى - : ﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾.

قال ابن كثير: «يخبر - تعالى - إخبارا عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله - تعالى - : ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾.

فهو - تعالى - وحده الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرا كما كان أولا، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت..».

وقوله ﴿ذائقة الموت﴾ من الذوق وحقيقته إدراك الطعوم، والمراد به هنا حدوث الموت لكل نفس.

وعبر عن حدوث الموت لكل نفس بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق المذاق إما مرا لما يستتبعه من عذاب، وإما حلوا هنيئا بسبب ما يكون بعده من أجر وثواب.

وأسند ذوق الموت إلى النفس ولم يسنده إلى الشخص: لأن النفس روح، والشخص جزءان: جسم ونفس، والنفس هى التى تبقى بعد مفارقتها للجسد، فهى التى تذوق الموت كما ذاقت الحياة الدنيا.

وقوله ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ أى: وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيا تاما يوم القيامة. يوم يقوم الناس لرب العالمين ليحاسبهم على أعمالهم، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا. ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت كيف اتصل قوله - تعالى - : ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ بما قبله؟ قلت: اتصاله به على معنى أن كلكم تموتون، ولابد لكم من الموت

ولا توفون أجوركم على طاعتكم ومعصيتكم عقيب موتكم، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور.

فإن قلت: فهذا يوهم نفى ما يروى من أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار؟ قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور»(١).

وقال الفخر الرازى: «بين - سبحانه - أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهى مكدرة بالغموم والهموم وبخوف الانقطاع والزوال، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة، لأن هناك يحصل السرور بلا غم، والأمن بلا خوف، واللذة بلا ألم، والسعادة بلا خوف الانقطاع.

وكذا القول فى العقاب، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة، بل يمتزج به راحات وتخفيفات، وإنما الألم التام الخالص الباقى هو الذى يكون يوم القيامة»(٢).

ثم قال - تعالى - ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾.

الزحزحة عن النار: هى التنحية عنها، وعدم الاقتراب منها والفعل زحزح مضاعف الفعل زحه عن المكان إذا جذبه وأبعده عنه بعجلة وسرعة.

والمعنى أن كل نفس سيدركها الموت لا محالة. وأن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة، فمن كانت نتيجة حسابه الإبعاد عن النار، والنجاة من سعيرها، فقد فاز فوزًا عظيما، وأدرك البغية التى ليس بعدها بغية.

والفاء فى قوله ﴿فمن زحزح﴾ للتفريع على قوله ﴿توفون أجوركم﴾.

وجمع - سبحانه - بين ﴿زحزح عن النار وأدخل الجنة﴾ مع أن فى الثانى غنية عن الأول، للإشعار بأن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين وهما: النجاة من النار، والتلذذ بنعيم الجنة.

وفى الحديث الشريف عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرءوا إن شئتم ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: من أحب أن يزحزح عن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ص٣٤٥. بتصرف يسير.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٥.

النار ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[١].

ثم ختم - الآية بقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

والمتاع: هو ما يتمتع به الإنسان وينتفع به مما يباع ويشترى.

والغرور - بضم الغين - مصدر غره أى خدعه وأطعمه بالباطل.

أى: ليست هذه الحياة الدنيا التى نعيش فيها. ونستمتع بلذاتها ومنافعها، إلا متاعا يستمتع به المغتر بها، الذى لا يفكر فى أى شىء سواها، ثم يحاسب على ذلك حسابا عسيرًا يوم القيامة، أما الذى يأخذ من متاعها بالطريقة التى أمر الله - تعالى - بها، فإنه يكون من السعداء فى دنياهم وآخرتهم.

قال صاحب الكشاف: شبه - سبحانه - الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه، ثم يتبين له فساده ورداءته والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ»[٢].

فالآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الطاعة، وتحذير للعصاة من المعصية، وتذكير للجميع بأن مرجعهم إلى الله إن عاجلا أو آجلا، وسيلقى كل إنسان جزاءه على عمله، وأن السعادة الحقة لمن نال رضا الله يوم يلقاه.

ثم بين - سبحانه - للمؤمنين أنهم سيتعرضون فى المستقبل للمحن والآلام كما تعرضوا لذلك فى أيامهم الماضية، وأن من الواجب عليهم أن يتقبلوا ذلك بعزيمة صادقة، وصبر جميل فقال - تعالى -: ﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا﴾.

وقوله ﴿لتبلون﴾ جواب قسم محذوف أى: والله لتبلون أى لتختبرن. والمراد لتعاملن معاملة المختبر والممتحن ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق، ومن التمسك بمكارم الأخلاق، فإن المصائب محك الرجال.

وإنما أخبرهم - سبحانه - بما سيقع لهم من بلاء، ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، وليستعدوا لتلقيه من غير فزع أو جزع، فإن الشدة المتوقعة يسهل احتمالها، أما الشدة التى تقع من غير توقع فإنها يصعب احتمالها.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٥.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٤٥.

والمعنى : لتبلون - أيها المؤمنون - ولتختبرن ﴿فى أموالكم﴾ بما يصيبها من الآفات، وبما تطالبون به من إنفاق فى سبيل إعلاء كلمة الله، ولتختبرن أيضًا فى ﴿أنفسكم﴾ بسبب ما يصيبكم من جراح وآلام من قبل أعدائكم، وبسبب ما تتعرضون له من حروب ومتاعب وشدائد، وفضلا عن ذلك فإنكم ﴿لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ومن الذين أشركوا﴾ وهم كفار العرب، لتسمعن من هؤلاء جميعا ﴿أذى كثيرًا﴾ كالطعن فى دينكم، والاستهزاء بعقيدتكم، والسخرية من شريعتكم والاستخفاف بالتعاليم التى أتاكم بها نبيكم، والتفنن فيما يضركم.

وقد رتب - سبحانه - ما يصيب المؤمنين ترتيبا تدريجيا، فابتدأ بأدنى ألوان البلاء وهو الإصابة فى المال، فإنها مع شدتها وقسوتها على الإنسان إلا أنها أهون من الإصابة فى النفس لأنها أغلى من المال، ثم ختم ألوان الابتلاء ببيان الدرجة العليا منه وهى التى تختص بالإصابة فى الدين، وقد عبر عنها بقوله : ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا﴾.

وإنما كانت الإصابة فى الدين أعلى أنواع البلاء، لأن المؤمن الصادق يهون عليه ماله، وتهون عليه نفسه، ولكنه لا يهون عليه دينه، ويسهل عليه أن يتحمل الأذى فى ماله ونفسه ولكن ليس من السهل عليه أن يؤذى فى دينه...

ولقد كان أبو بكر الصديق مشهورا بلينه ورفقه. ولكنه مع ذلك - لقوة إيمانه - لم يحتمل من «فنحاص» اليهودى أن يصف الخالق - عز وجل - بأنه فقير، فما كان من الصديق إلا أن شجَّ وجه فنحاص عندما قال ذلك القول الباطل.

وقد جمع - سبحانه - بين أهل الكتاب وبين المشركين فى عداوتهم وإيذائهم للمؤمنين، للإشعار بأن الكفر ملة واحدة، وأن العالم بالكتاب والجاهل به يستويان فى معاداتهم للحق، لأن العناد إذا استولى على القلوب زاد الجاهلين جهلا وحمقا، وزاد العالمين حقدًا وحسدًا.

ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى العلاج الذى يعين على التغلب على هذا البلاء فقال : ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

أى : وإن تصبروا على تلك الشدائد، وتقابلوها بضبط النفس، وقوة الاحتمال. ﴿وتتقوا﴾ الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه، تنالوا رضاه - سبحانه - وتنجوا من كيد أعدائكم.

والإشارة فى قوله ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ تعود إلى المذكور ضمنا من الصبر والتقوى، أى فإن صبركم وتقواكم من الأمور التى يجب أن يسير عليها كل عاقل. لأنها تؤدى إلى النجاح والظفر.

وقوله ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ دليل على جواب الشرط. والتقدير: وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم فإن ذلك من عزم الأمور.

فالآية الكريمة استئناف مسوق لإيقاظ المؤمنين، وتنبيههم إلى سنة من سنن الحياة، وهى أن أهل الحق لابد من أن يتعرضوا للابتلاء والامتحان، فعليهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل كل ذلك، لأن ضعفاء العزيمة ليسوا أهلا لبلوغ النصر.

ولقد بين النبى ﷺ أن قوة الإيمان وشدة البلاء متلازمان، فقد روى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. فيبتلى الرجل على حسب دينه. فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة».

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب فقال: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾.

الميثاق. هو العهد الموثق المؤكد. وقد أخذ - سبحانه - العهد على الذين أوتو الكتاب بأمرين:

أولها: بيان ما فى الكتاب من أحكام وأخبار.

وثانيهما: عدم كتمان كل شىء مما فى هذا الكتاب.

والمعنى: واذكر أيها المخاطب وقت أن أخذ الله العهد المؤكد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يبينوا جميع ما فى الكتاب من أحكام وأخبار وبشارات بالنبى ﷺ وألا يكتموا شيئا من ذلك، لأن كتمانهم للحق سيؤدى إلى سوء عاقبتهم فى الدنيا والآخرة.

والضمير فى قوله «لتبيننه» يعود إلى الكتاب المشتمل على الأخبار والشرائع والأحكام والبشارات الخاصة بمبعث النبى ﷺ.

أى لتبينن ما فى هذا الكتاب الذى بين أيديكم من أحكام وشرائع وأخبار وبشارات. وقيل الضمير يعود إلى الميثاق، ويكون المراد من العهد الذى وثقه الله عليهم هو تعاليمه وشرعه ونوره.

وقوله ﴿ولا تكتمونه﴾ عطف على «لتبيننه» وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا. وجمع -سبحانه- بين أمرهم المؤكد بالبيان وبين نهيهم عن الكتمان مبالغة فى إيجاب ما أمروا به حتى لا يقصروا فى إظهار ما فى الكتاب من حقائق وحتى لا يلجأوا إلى كتمان هذه الحقائق أو تحريفها.

ولكن أهل الكتاب - ولا سيما العلماء منهم - نقضوا عهودهم مع الله - تعالى -، وقد حكى - سبحانه - ذلك فى قوله ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلا فبئس ما يشترون﴾.

النبذ: الطرح والترك والإهمال.

أى أن أهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهود الموثقة بأن يبينوا ما فى الكتاب ولا يكتموا شيئا منه، لم يكونوا أوفياء بعهودهم، بل إنهم نبذوا ما عاهدهم الله عليه، وطرحوه وراء ظهورهم باستهانة وعدم اعتداد. وأخذوا فى مقابل هذا النبذ والطرح والإهمال شيئا حقيرا من متاع الدنيا وحطامها، فبئس الفعل فعلهم.

والتعبير عنهم بقوله ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ كناية عن استهانتهم بالمنبوذ، وإعراضهم عنه بالكلية، وإهمالهم له إهمالا تاما، لأن من شأن الشىء المنبوذ أن يهمل ويترك، كما أن من شأن الشىء الذى هو محل اهتمام أن يحرس ويجعل نصب العين.

والضمير فى قوله ﴿فنبذوه﴾ يعود على الميثاق باعتبار أنه موضع الحديث ابتداء.

ويصح أن يعود إلى الكتاب، لأن الميثاق هو الشرائع والأحكام، والكتاب وعاؤها، فنبذ الكتاب نبذ للعهد.

والمراد «بالثمن القليل» ما أخذوه من أموال ومتاع دنيوى من غيرهم فى مقابل عدم بيانهم لما فى الكتاب من حقائق، وكتمانهم لذلك إرضاء للشهوات وللأهواء الباطلة.

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل نبذهم لكتاب الله وعهوده، إذ لا يكون هذا الثمن المحصل إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى -.

قوله ﴿فبئس ما يشترون﴾ أى بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن.

فما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، وجملة يشترونه صفته، والمخصوص بالذم محذوف.

وقيل «ما» مصدرية فاعل بئس، والمخصوص بالذم محذوف، أى بئس شراؤهم هذا الشراء لاستحقاقهم به العذاب الأليم.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، وجوب إظهار الحق، وتحريم كتمانه.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس، وألا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة،

وتطييب لنفوسهم، واستجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية، أو لبخل بالعلم وغيرة من أن ينسب إلى غيرهم، وعن النبى ﷺ أنه قال: «من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار» وعن على رضى الله عنه، قال: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»(١).

وقال ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة: هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف، فبئس الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفى هذا تحذير للعلماء من أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، ولا يكتموا منه شيئا»(٢).

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب المتعددة، وهى أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ويفرحون بما أتوا، وبين سوء عاقبتهم بسبب تلك الأخلاق القبيحة فقال: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾.

والخطاب فى قوله ﴿لا تحسبن﴾ موجه إلى النبى ﷺ أو لكل من يصلح له الخطاب.

والنهى موجه إلى حسبان أن يكون فى هؤلاء الأشرار خير.

أى أن الله تعالى، ينهى نبيه ﷺ، نهيا مؤكدا عن أن يظن خيرا فى هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

و«المفازة» مصدر ميمى بمعنى الفوز. وقيل هى اسم مكان أى محل فوز ونجاة.

والمعنى: لا تظن يا محمد أن هؤلاء الأشرار ﴿الذين يفرحون بما أتوا﴾ أى يفرحون بما فعلوا من بيعهم الدين بالدنيا واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير، والذين ﴿يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ أى يحبون أن يمدحهم الناس على ما لم يفعلوه من الوفاء بالعهود، ومن إظهار الحق وعدم كتمانه، فإنهم فعلوا الشرور والآثام. ثم لم يحاولوا أن يستروا ما اقترفوه من آثام، بل

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٤٦. بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٦.

يطلبون من الناس أن يمدحوهم على ما ارتكبوه من منكرات، فهم ممن قال الله فيهم ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾.

لا تحسبن هؤلاء الأشرار ﴿بمفازة من العذاب﴾ أى بمنجاة منه، بل لهم عذاب مؤلم أشد الإيلام بسبب ما اجترحوه من سيئات.

وقوله ﴿الذين يفرحون﴾ هو المفعول الأول لتحسب، والمفعول الثانى محذوف والتقدير: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا موفقين. أو مهتدين، أو صالحين.

وحذف هذا المفعول الثانى لدلالة ما بعده عليه وهو قوله ﴿فلا تحسبنهم بمفازة﴾ ولتذهب النفس كل مذهب فيما يتناسب مع الوصف الذى وصفهم به - سبحانه -، وهو أنهم يفعلون القبيح ويحبون أن يحمدهم الناس عليه.

وقوله ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ بيان لسوء عاقبتهم بسبب أفعالهم السيئة وهو تأكيد لقوله ﴿لا تحسبن﴾.

قال الزجاج: جرت عادة العرب أنهم إذا طالت القصة أو الكلام أعادوا لفظ حسب وما أشبهه، للإعلام بأن الذى جرى متصل بالكلام الأول والأول متصل به. فتقول. لا تظن زيدا إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا. فيفيد «لا تظنن» توكيدا وتوضيحا[1].

والتعبير عن النجاة من العذاب الأليم بقوله - تعالى - ﴿بمفازة﴾ للإشعار بأن أقصى ما يكون لهم من فوز أن ينجوا من العذاب الأليم، ولكنهم لن ينجوا منه أبدا، ولذا أكد - سبحانه - عدم نجاتهم بقوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

فذكر - سبحانه - عذابهم الأليم بالسلب والإيجاب، فنفى أولا أنهم بمنجاة منه، وأخبر ثانيا أنهم واقعون فيه.

هذا، وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه الآية الكريم نزلت فى شأن أحبار اليهود فقد روى الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف أن مروان قال لبوابه رافع: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن جميعا.

فقال ابن عباس: مالكم وهذه، وإنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس: ﴿وإذ

---

(١) تفسير الألوسى جـ٤ ص١٥١.

أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ إلى قوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ وقال ابن عباس: «سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، ثم خرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه».

وذكر بعض العلماء أن هذه الآية نزلت فى شأن المنافقين، فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ. فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو، اعتذروا إليه وحلفوا وأحبو أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت، ﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾[1].

قال العلماء: ولا منافاة بين الروايتين، لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر. وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حدثتنا عن جملة من رذائل أهل الكتاب، فقد حكت قولهم ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وحكت قولهم ﴿لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ ووصفتهم بكتمان الحق ونبذه وراء ظهورهم، كما وصفتهم بأنهم يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وردت على أكاذيبهم بما يدحضها وأنذرتهم بسوء مصيرهم، وساقت للمؤمنين من ألوان التسلية ما يخفف عنهم مصابهم، ويجعلهم يسيرون فى هذه الحياة بعزم ثابت، وهمة عالية، ونفس مطمئنة.

ثم ختم - سبحانه - سورة آل عمران بالحديث عن مظاهر قدرته، وأدلة وحدانيته، وبشر أصحاب العقول السليمة -الذين يعتبرون ويتعظون ويتفكرون ويكثرون من ذكره- برضوانه وجنته، وأمر عباده بألا يغتروا بما عليه الكافرون من سلطان وجاه فإنه - سبحانه - قد جعل العاقبة للمتقين، كما أمرهم بالصبر والمصابرة والمرابطة ومداومة خشيته فقال -تعالى- :

وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير جـ٦ ص٥١ باب ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾.

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

قوله - تعالى - ﴿ولله ملك السمٰوات والأرض والله على كل شىء قدير﴾ أى له وحده -سبحانه- ملك السمٰوات والأرض بما فيهما، فهو وحده صاحب السلطان القاهر فى هذا العالم يتصرف فيه كيفما يشاء ويختار: إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة، وتعذيبا وإثابة، وهو -سبحانه- على كل شىء قدير، لا يعجزه أمر، ولا يدفع عقابه دافع، ولا يمنع عقابه مانع، فعليكم أيها الناس أن تطيعوه وأن تحذروا غضبه ونقمته.

وبعد أن بين - سبحانه - أن ملك السمٰوات والأرض بقبضته، أشار - سبحانه - إلى ما فيهما من عبر وعظات فقال: ﴿إن فى خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار لأيات لأولى الألباب﴾.

أى: إن فى إيجاد السمٰوات والأرض على هذا النحو البديع، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وبحار وزروع وأشجار... وفى إيجاد الليل والنهار على تلك الحالة المتعاقبة، وفى اختلافهما طولا وقصرا.. فى كل ذلك لأمارات واضحة، وأدلة ساطعة، لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته، وباهر حكمته.

وصدرت الجملة الكريمة بحرف «إن» للاهتمام بالخبر، وللاعتناء بتحقيق مضمون الجملة.

أى إن فى إيجاد السمٰوات والأرض وإنشائهما على ما هما عليه من العجائب، وما اشتملتا عليه من البدائع، وفى اختلاف الليل والنهار... إن فى كل ذلك من العبر والعظات ما يحمل كل عاقل على الاعتراف بوحدانية الله، وكمال قدرته وحكمته.

والمراد بأولى الألباب: أصحاب العقول السليمة، والأفكار المستقيمة، لأن لب الشىء هو خلاصته وصفوته.

ولقد قال الزمخشرى فى صفة أولى الألباب: «هم الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطرة. وفى الحكم: املأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها، متدبرا فى حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر»[1].

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٤٨.

هذا، وقد أورد المفسرون كثيرا من الآثار فى فضل هذه الآيات العشر التى اختتمت بها سورة آل عمران، ومن ذلك قول ابن كثير - رحمه الله - :

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده فقد روى البخارى - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بت عند خالتى ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿إن فى خلق السمـوات والأرض﴾ . . . الآيات. ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة. ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى شطر من الليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية ﴿إن فى خلق السمـوات والأرض﴾ إلى آخر السورة.

ثم قال : «اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى سمعى نورًا، وفى بصرى نورا، وعن يمينى نورا، وعن شمالى نورا، ومن بين يدى نورا، ومن خلفى نورا، ومن فوقى نورا، ومن تحتى نورا. وأعظم لى نورا يوم القيامة».

وروى ابن مردويه عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة - رضى الله عنها - فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقال لها ابن عمر : أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ ؟ فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا !! أتانى فى ليلتى حتى مسَّ جلده جلدى ثم قال : يا عائشة : ذرينى أتعبد لربى - عز وجل - قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك.

فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى. حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر؟ فقال : ويحك يا بلال !! وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على هذه الليلة : ﴿إن فى خلق السمـوات والأرض﴾ إلخ الآيات.

ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1].

ثم وصف - سبحانه - أولى الألباب بصفات كريمة فقال : ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٩.

فقوله ﴿الذين يذكرون﴾ إلخ. فى موضع جر على أنه نعت لأولى الألباب. ويجوز أن يكون فى موضع رفع أو نصب على المدح.

أى: ﴿إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ لآيات واضحات على وحدانية الله وقدرته، لأصحاب العقول السليمة، الذين من صفاتهم أنهم ﴿يذكرون الله﴾ أى يستحضرون عظمته فى قلوبهم، ويكثرون من تسبيحه وتمجيده بألسنتهم، ويداومون على ذلك فى جميع أحوالهم. فهم يذكرونه قائمين، ويذكرونه قاعدين. ويذكرونه وهم على جنوبهم فالمراد بقوله ﴿قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم﴾ أن ذكرهم لله - تعالى - بقلوبهم وألسنتهم يستغرق عامة أحوالهم».

وقوله ﴿قياما وقعودا﴾ منصوبان على الحالية من ضمير الفاعل فى قوله: ﴿يذكرون﴾.

وقوله ﴿وعلى جنوبهم﴾ متعلق بمحذوف معطوف على الحال أى: وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين.

ثم وصفهم سبحانه وتعالى بوصف آخر فقال: ﴿ويتفكرون فى خلق السمٰوات والأرض﴾ أى أن من صفات هؤلاء العباد أصحاب العقول السليمة أنهم يكثرون من ذكر الله - تعالى -، ولا يكتفون بذلك، بل يضيفون إلى هذا الذكر التدبر والتفكر فى هذا الكون وما فيه من جمال الصنعة، وبديع المخلوقات، ليصلوا من وراء ذلك إلى الإيمان العميق، والإذعان التام، والاعتراف الكامل بوحدانية الله. وعظيم قدرته...

فإن من شأن الأخيار من الناس أنهم يتفكرون فى مخلوقات الله وما فيها من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع - سبحانه -، فيعلموا أن لهذا الكون قادرًا مدبرًا حكيما، لأن عظم آثاره وأفعاله، تدل على عظم خالقها.

ولقد ذكر العلماء كثيرا من الأقوال التى تحض على التفكير السليم، وعلى التدبر فى عجائب صنع الله، ومن ذلك قول سليمان الدارانى: «إنى أخرج من بيتى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله على فيه نعمة، ولى فيه عبرة»، وقال الحسن البصرى: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

وقال الفخر الرازى: دلائل التوحيد محصورة فى قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس. ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال - تعالى -: ﴿لخلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

ولما كان الأمر كذلك لا جرم أنه أمر فى هذه الآية بالفكر فى خلق السمٰوات والأرض، لأن

دلالتها أعجب. وشواهدها أعظم»[1].

وقد وبخ - سبحانه - الذين يرون العبر فلا يعتبرون، وتمر أمامهم العظات فلا يتعظون ولا يتفكرون فقال - تعالى - : ﴿وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

ثم حكى - سبحانه - ثمرات ذكرهم لله وتفكرهم فى خلقه فقال: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

أى أنهم بعد أن أذعنت قلوبهم للحق، ونطقت ألسنتهم بالقول الحسن، وتفكرت عقولهم فى بدائع صنع الله تفكيرا سليما، استشعروا عظمة الله استشعارًا ملك عليهم جوارحهم، فرفعوا أكف الضراعة إلى الله بقولهم:

يا ربنا إنك ما خلقت هذا الخلق البديع العظيم الشأن عبثًا، أو عاريا عن الحكمة. أو خاليًا من المصلحة، ﴿سبحانك﴾ أى ننزهك تنزيها تاما عن كل مالا يليق بك ﴿فقنا عذاب النار﴾ أى فوفقنا للعمل بما يرضيك، وأبعدنا عن عذاب النار.

وقوله ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ إلخ جملة واقعة موقع الحال على تقدير قوله أى يتفكرون قائلين ربنا. لأن هذا الكلام أريد به حكاية قولهم بدليل ما بعده من الدعاء.

وقوله: باطلا صفة لمصدر محذوف أى خلقًا باطلا، أو حال من المفعول والمعنى يا ربنا ما خلقت هذا المخلوق العظيم الشأن عاريا عن الحكمة، خاليًا من المصلحة، بل خلقته مشتملا على حكم جليلة، منتظما لمصالح عظيمة.

وكان نداؤهم لخالقهم - عز وجل - بلفظ ﴿ربنا﴾ اعترافا منهم بأنه هو مربيهم وخالقهم فمن حقه عليهم أن يفردوه بالعبادة والخضوع.

وسبحان اسم مصدر بمعنى التسبيح أى التنزيه، وهو مفعول بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه أى، تنزهت ذاتك وتقدست عن كل ما لا يليق، وجىء بفاء التعقيب فى حكاية قولهم ﴿فقنا عذاب النار﴾ لأنه ترتب على اعتقادهم بأنه سبحانه -لم يخلق هذا عبثًا- أن هناك ثوابًا وعقابًا، فسألوا الله - تعالى - أن يجعلهم من أهل الجنة لا من أهل النار.

وقوله - تعالى - حكاية عنهم ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ فى مقام التعليل لضراعتهم بأن يبعدهم عن النار.

أى: أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار، فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أى أهنته وفضحته على رءوس الأشهاد.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١١٠.

والخزى : مصدر خزى يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس. وفى هذا التعليل مبالغة فى تعظيم أمر العقاب بالنار، وإلحاح فى طلب النجاة منها، لأن من سأل ربه حاجة، إذا شرح عظمها وقوتها، كان رجاؤه فى القبول أشد، وإخلاصه أتم، وشعوره بالعطاء أقوى.

وقوله ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أى ليس لهم ناصر ينصرهم من عقاب الله - تعالى - أو يخلصهم مما وقعوا فيه من بلاء.

و «من» للدلالة على استغراق النفى، أى لا ناصر لهم أيا كان هذا الناصر، وفى ذلك إشارة إلى انفراد الله - تعالى - بالسلطان ونفاذ الإرادة.

ثم حكى -سبحانه- لونًا آخر من ألوان ضراعتهم يدل على قوة إيمانهم فقال - تعالى - ﴿ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾..

أى أنهم يقولون على سبيل الضراعة والخضوع لله رب العالمين : يا ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى أى داعيًا يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ، فاستجبنا لدعوته، وآمنا بما دعانا إليه بدون تردد أو تسويف.

وفى وصفه ﷺ بالمنادى، دلالة على كمال اعتنائه بشأن دعوته التى يدعو إليها، وأنه حريص على تبليغها للناس تبليغا تاما.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين «المنادى» و ﴿ينادى﴾؟ قلت : ذكر النداء مطلقا، ثم مقيدًا بالإيمان، تفخيما لشأن المنادى؛ لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى للإيمان. ونحوه قولك : مررت بهاد يهدى للإسلام. وذلك أن المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع. وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك.

فإذا قلت : ينادى للإيمان. ويهدى للإسلام، فقد رفعت من شأن المنادى والهادى وفخمته[1].

و «أن» فى قوله ﴿أن آمنوا﴾ تفسيرية لما فى فعل ﴿ينادى﴾ من معنى القول دون حروفه، وجىء بفاء التعقيب فى قوله - تعالى - حكاية عنهم ﴿فآمنا﴾؛ للدلالة على المبادرة والسبق، إلى الإيمان، وأنهم قد أقبلوا على الداعى إلى الله بسرعة وامتثال، وفى ذلك دلالة على سلامة فطرتهم، وبعدهم عن المكابرة والعناد.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٥٠.

ثم حكى - سبحانه - مطلبهم فقال: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾.

أى نسألك يا ربنا بعد أن آمنا بنبيك، واستجبنا للحق الذى جاء به، أن تغفر لنا ذنوبنا بأن تسترها وتعفو عنها، وأن تكفر عنا سيئاتنا بأن تزيلها وتمحوها وتحولها إلى حسنات أو بأن تحشرنا مع الأبرار أى مع عبادك الصالحين المستقيمين الأخيار. إذ الأبرار جمع بار وهو الشخص الكثير الطاعة لخالقه - تعالى -.

فأنت تراهم قد طلبوا من خالقهم ثلاثة أمور، غفران الذنوب، وتكفير السيئات، والوفاة مع الأبرار الأخيار، وهى مطالب تدل على قوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم، وزهدهم فى متع الحياة الدنيا.

وقد جمعوا فى طلبهم بين غفران الذنوب وتكفير السيئات، لأن السيئة عصيان فيه إساءة، والذنب عصيان فيه تقصير وتباطؤ عن فعل الخير، والغفران والتكفير كلاهما فيه معنى الستر والتغطية، إلا أن الغفران يتضمن معنى عدم العقاب، والتكفير يتضمن ذهاب أثر السيئة.

ومعنى وفاتهم مع الأبرار: أن يموتوا على حالة البر والطاعة وأن تلازمهم تلك الحالة إلى الممات، وألا يحصل منهم ارتداد على أدبارهم، بل يستمروا على الطاعة استمرارا تاما.

وبذلك يكونون فى صحبة الأبرار وفى جملتهم.

ثم حكى القرآن أنهم ترقوا فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب الجزيل، والعطاء الحسن فقال - تعالى - حكاية عنهم ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد﴾.

أى نسألك يا ربنا أن تعطينا وتمنحنا بعد وفاتنا، وحين قيامنا من قبورنا يوم القيامة، ما وعدتنا به من ثواب فى مقابل تصديقنا لرسلك، وطاعتنا لهم، واستجابتنا لأوامرهم ونواهيهم ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أى ولا تذلنا ولا تفضحنا يوم المحشر على رءوس الأشهاد ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ أى إنك - سبحانك - لا تخلف وعدك الذى وعدته لعبادك الصالحين.

فهم قد جعلوا هذا الدعاء وهو طلب الثواب الجزيل يوم القيامة، ختاما لدعواتهم، لشعورهم بهفواتهم وبتقصيرهم أمام فضل الله ونعمه.

والمراد بقولهم ﴿ما وعدتنا﴾ الثواب والعطاء الكائن منه - سبحانه - و «ما» موصولة أى آتنا الذى وعدتنا به أو وعدتنا إياه.

وقوله ﴿على رسلك﴾ فيه مضاف محذوف أى آتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من ثواب.

أو آتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك والإيمان بهم من جزاء حسن.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد؟.

قلت: معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو هو من باب الملجأ إلى الله والخضوع له، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلاة، «يستغفرون مع علمهم بأنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم، والتضرع إليه، والملجأ الذى هو سيما العبودية»[1].

تلك هى الدعوات الخاشعات التى حكاها - سبحانه - عن أصحاب العقول السليمة، وهم يتضرعون بها إلى خالقهم - عز وجل - فماذا كانت نتيجتها؟

لقد كانت نتيجة دعواتهم، أن أجاب الله لهم سؤالهم وحقق لهم مطلوبهم فقال - تعالى - ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾!!.

قال الحسن البصرى: «مازالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم».

وقال جعفر الصادق: «من حزبه أمر فقال خمس مرات ﴿ربنا﴾ أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرءوا إن شئتم قوله - تعالى - ﴿الذين يذكرون الله قيامًا﴾... إلخ فإن هؤلاء الأخيار قد نادوا ربهم خمس مرات فأجاب الله لهم دعاءهم.

ودلت الفاء فى قوله ﴿فاستجاب﴾ على سرعة الإجابة، لأن الفاء للتعقيب، فهم لأنهم دعوا الله بقلب سليم، أجاب الله لهم دعاءهم بدون إبطاء.

واستجاب هنا بمعنى أجاب عند جمهور العلماء، إذ السين والتاء للتأكيد، مثل استوقد واستخلص.

وقال بعضهم: إن استجاب أخص من أجاب، لأن استجاب يقال لمن قبل ما دعى إليه، وأجاب أعم فيقال لمن أجاب بالقبول وبالرد.

والمعنى: أن الله - تعالى - قد بشر هؤلاء الأخيار برضاه عنهم، بأن أخبرهم بأنه قد أجاب لهم دعاءهم، وأنه - سبحانه - لا يضيع عمل عامل منهم، بل سيجازيهم بالجزاء الأوفى، وسيمنحهم من الثواب. فوق ما عملوا لأنه هو الكريم الوهاب، ولن يفرق فى عطائه بين ذكر وأنثى، لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر وقد خلقهم جميعا من نفس واحدة.

وفى التعبير باللفظ السامى ﴿ربهم﴾ إشارة إلى أن الذى سيجزيهم هو خالقهم ومربيهم والمنعم عليهم، والرحيم بهم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٥٥.

ومعنى ﴿لا أضيع عمل عامل منكم﴾ لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم، بل أكافئه عليه بما يستحقه، وأعطيه من ثوابى ورحمتى ما يشرح صدره، ويدخل البهجة والسرور على نفسه.

وقوله ﴿من ذكر أو أنثى﴾ بيان لعامل، وتأكيد عمومه، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل سواء أكان هذا العامل ذكرا أم أنثى.

ومعنى ﴿بعضكم من بعض﴾ أن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، كلكم بنو آدم وهذه جملة معترضة مبينة لسبب شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده من أجر جزاء أعمالهم الصالحة.

روى الترمذى عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله - تعالى - ذكر النساء فى الهجرة، فأنزل الله - تعالى - ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾.

ثم بين - سبحانه - الأعمال الصالحة التى استحق بها هؤلاء الأبرار حسن الثواب منه - سبحانه - فقال: ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا فى سبيلى، وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾.

أى: فالذين هاجروا بأن تركوا أوطانهم التى أحبوها إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله، وأخرجوا من ديارهم، فرارا بدينهم من ظلم الظالمين، واعتداء المعتدين، ﴿وأوذوا فى سبيلى﴾ أى تحملوا الأذى والاضطهاد فى سبيل الحق الذى آمنوا به ﴿وقاتلوا﴾ أعداء الله ﴿وقتلوا﴾ وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل.

هؤلاء الذين فعلوا كل ذلك، وعدهم الله - تعالى - بالأجر العظيم فقال: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أى لأمحون عنهم ما ارتكبوه من سيئات، ولأسترنها عليهم حتى تعتبر نسيا منسيا ﴿ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى تجرى من تحت قصورها الأنهار التى فيها العسل المصفى، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وقوله ﴿ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندى، والله - تعالى - عنده حسن الجزاء لمن آمن وعمل صالحا.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد منح هؤلاء الأخيار ذلك الأجر الجزيل لأنهم قد هاجروا من الأرض التى أحبوها إلى غيرها من أجل إعلاء كلمة الله، وأخرجوا منها مضطرين لا مختارين فرارا بدينهم، ولقد ذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ عندما خرج من مكة مهاجرا التفت إليها وقال: «يا مكة والله لأنت أحب بلاد الله إلى ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت».

ولأنهم قد تحملوا ما تحملوا من الأذى فى سبيل الله، ولأنهم قد جاهدوا أعداء الله وأعداءهم حتى استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله.

وقوله ﴿فالذين هاجروا﴾ مبتدأ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له، والتفخيم لشأنه. وخبره قوله ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾.

وقوله ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ معطوف على ﴿هاجروا﴾. وجمع بينهما للإشعار بأنهم قد تركوا أوطانهم تارة باختيارهم ليبحثوا عن مكان أصلح لنماء دعوتهم، وانتشار الحق الذى اعتنقوه، وتارة بغير اختيارهم بل تركوها مجبرين ومضطرين بعد أن ألجأهم أعداؤهم إلى الخروج منها بسبب ما نالهم منهم من ظلم واعتداء.

وقوله ﴿وأوذوا فى سبيلى﴾ معطوف على ما قبله. والمراد من الإيذاء ما هو أعم من أن يكون بالإخراج من الديار، أو غير ذلك مما كان يصيب المؤمنين من جهة المشركين.

وجمع - سبحانه - بين قوله ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ للإشارة إلى أن للقسمين ثوابا وأنهم لن يصيبهم إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وقوله: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ جواب قسم محذوف، أى والله لأكفرن عنهم سيئاتهم.

وقدّم - سبحانه - تكفير سيئاتهم على إدخالهم الجنة، لأن التخلية - كما يقولون - مقدمة على التحلية، فهو أولا طهرهم من الذنوب والآثام ونقاهم منها، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته وأعطاهم فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله ﴿ثوابا﴾ مصدر مؤكد لما قبله، لأن المعنى لأثيبنهم على ما عملوه ثوابا عظيما.

وقوله ﴿من عند الله﴾ صفة لقوله ﴿ثوابا﴾ وهو وصف مؤكد؛ لأن الثواب لا يكون إلا من عنده - تعالى -، لكنه صرح به - سبحانه - تعظيما للثواب وتفخيما لشأنه.

وقوله ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

وقد ختم - سبحانه - الآية بهذه الجملة الكريمة لبيان اختصاصه بالثواب الحسن كأن كل جزاء للأعمال فى الدنيا لا يعد حسنا بجوار ما أعده - سبحانه - فى الآخرة لعباده المتقين.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد دعت المؤمنين إلى الإكثار من ذكر الله وإلى التفكر السليم فى عجائب صنعه، وساقت لنا ألوانا من الدعوات الطيبات الخاشعات التى تضرع بها الأخيار إلى خالقهم، وبينت لنا الثواب الجزيل والعطاء العظيم الذى منحه الله لهم فى مقابل إيمانهم الصادق، وعملهم الصالح، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأنه لا يرد دعاء الأبرار من عباده.

وبعد أن بشر - سبحانه - عباده المؤمنين الصادقين بهذا الثواب الحسن، نهاهم عن الاغترار بما عليه الكافرون من قوة وسطوة ومتاع دنيوى فقال - تعالى - ﴿لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

يغرنك : من الغرور وهو الاطماع فى أمر محبوب على نية عدم وقوعه، أو إظهار الأمر المضر فى صورة الأمر النافع، وهو مشتق من الغرة بكسر الغين - وهى الغفلة - ويقال : رجل غر إذا كان ينخدع لمن خادعه.

والتقلب فى البلاد : التصرف فيها على جهة السيطرة والغلبة ونفوذ الإرادة.

والمتاع : الشىء الذى يتمتع الإنسان به لمدة معينة، والمعنى : لايصح أن يخدع أحد بما عليه الكافرون من تقلب فى البلاد ومن تصرفهم فيها تصرف الحاكم المسيطر عليها، المستغل لثرواتها وخيراتها، فإن تصرفهم هذا لن يستمر طويلا، بل سيبقى مدة قليلة يتمتعون فيها بما بين أيديهم ثم يزول عنهم كل شىء وسوف يعودون إلى خالقهم فيعذبهم العذاب الأكبر على ظلمهم وبغيهم وكفرهم.

والخطاب فى قوله ﴿لا يغرنك﴾ للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى له الخطاب، وهو نهى للمؤمنين عن أن يغتروا بما عليه الكافرون من جاه ونفوذ وسلطان وغنى.

وليس من مقتضى النهى أن يكون قد وقع المنهى عنه فإن الإنسان قد ينهى عن شىء لم يقع منه لتحذيره من الوقوع فيه فى الحال أو المآل.

ولذا روى عن قتادة أنه قال : «والله ما غروا نبى الله حتى قبضه الله إليه»

ولقد قال صاحب الكشاف فى الجواب على أن النهى موجه إلى النبى ﷺ فإن قلت : كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به؟ قلت : فيه وجهان : **أحدهما** : أن عظيم القوم ومتقدمهم يخاطب بشىء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا فكأنه قيل : لا يغرنكم.

والثانى : أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله ﴿ولا تكونن من المشركين﴾(١).

وقوله ﴿متاع﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع وقوله ﴿قليل﴾ صفة لمتاع. ووصف بأنه قليل لقصر مدته، ولكونه متعة فانية زائلة بخلاف ما أعده الله للمتقين من نعيم فى الآخرة فإنه دائم لا يزول.

---

(١) تفسير الكشف جـ١ ص٤٥٨.

وجاء العطف ﴿بثم﴾ فى قوله ﴿ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ للإشعار بالتفاوت الكبير بين حالهم فى الدنيا وماهم فيه من متاع زائل وبين ما سينالهم فى الآخرة من عذاب دائم لا ينقطع.

أى أنهم يتمتعون بهذه المتع العاجلة لفترة قليلة ﴿ثم مأواهم﴾ أى مكانهم الذى يأوون إليه ويستقرون فيه ﴿جهنم﴾ التى لا يحيط الوصف بشدة عذابها ﴿وبئس المهاد﴾ أى بئس ما مهدوا لأنفسهم وفرشوا جهنم.

وفيه إشارة إلى أن مصيرهم إلى جهنم هم الذين كانوا سببا فيه بكفرهم واستحبابهم العمى على الهدى.

وفى هذا تعزية للمؤمنين وتسلية لهم عما يرونه من غنى وجاه وسلطان للمشركين وتحريض للأخيار على أن يجعلوا همهم الأكبر فى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى رضوان الله الباقى، ففى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم. فلينظر بم يرجع».

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين إثر بيانه لسوء عاقبة الكافرين فقال: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها﴾

وافتتحت الآية الكريمة بحرف «لكن» الذى معناه الاستدراك، لأن مضمونها ضد الكلام الذى قبلها. ولكى تكون هناك مقابلة بين عاقبة المشركين الفجار وبين عاقبة المؤمنين الأخيار.

والمعنى: هذا هو شأن الكافرين يتقلبون فى البلاد لفترة قصيرة من الزمان هى مدة حياتهم فى هذه الدنيا الفانية ثم يتركون كل شىء عند موتهم ليلاقوا مصيرهم المحتوم وهو عذاب جهنم الذى لا ينقطع.. لكن الذين اتقوا ربهم وخافوا مقامه ونهوا أنفسهم عن الهوى ليسوا كذلك فقد أعد الله لهم جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المليئة بأنواع المشارب الطيبة اللذيذة، وهم خالدون فى تلك الجنات خلودا أبديا لا انقطاع له ولا زوال.. فأين مصير أولئك الأشرار من مصير هؤلاء الأخيار؟

فالآية الكريمة بيان لكمال حسن حال المؤمنين، إثر بيان سوء عاقبة الكافرين.

ثم قال - تعالى - ﴿نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾

والنزل: مايعد للنزيل والضيف لإكرامه والحفاوة به من طعام وشراب وغيرهما. وهو منصوب على أنه حال من «جنات» لتخصيصها بالوصف، والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الاستقرار.

أى لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها حالة كون هذه الجنات منزلا مهيئًا لهم من عند الله - تعالى - على سبيل الإكرام لهم، والتشريف لمنزلتهم

وقوله ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ أى ما عند الله من نعيم مقيم لعباده المتقين خير مما يتقلب فيه الكافرون من المتاع القليل الزائل.

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب ليسوا سواء. بل منهم الأشرار ومنهم الأخيار، وقد بين - سبحانه - هنا صفات الأخيار منهم فقال: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا﴾.

أى: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ وهم اليهود والنصارى لفريقًا ﴿يؤمن بالله﴾ إيمانا حقا منزها عن الإشراك بكل مظاهره ويؤمن بما ﴿أنزل إليكم﴾ من القرآن الكريم على لسان نبيكم محمد ﷺ ويؤمن بحقيقة «ما أنزل إليهم» من التوراة والإنجيل ولايزالون مع هذا الإيمان العميق ﴿خاشعين لله﴾ أى خاضعين له - سبحانه - خائفين من عقابه، طالبين لرضاه ﴿لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أى لا يبيعون آيات الله أو حقيقة من حقائق دينهم فى نظير ثمن هو عرض من أعراض الدنيا الفانية، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصفهم بخمس صفات كريمة تدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم، وفى هذا إنصاف من القرآن الكريم للمهتدين من أهل الكتاب.

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سوره ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾.

وقوله - تعالى - ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾.

وقدم - سبحانه - إيمانهم بالقرآن على إيمانهم بما أنزل عليهم لأن القرآن هو المهيمن على الكتب السماوية والأمين عليها، فما وافقه منها فهو حق وما خالفه فهو باطل وقوله ﴿خاشعين لله﴾ حال من فاعل ﴿يؤمن﴾ وجمع حملا على المعنى:

ثم بين - سبحانه - جزاءهم الطيب بعد بيان صفاتهم الكريمة فقال: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾.

أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة لهم أجرهم الجزيل فى مقابل أعمالهم الصالحة وأفعالهم الحميدة.

وقوله ﴿إن الله سريع الحساب﴾ كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق

وأنه يوفيها لكل عامل على ما ينبغى وقدر ما ينبغى.

ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر؛ فإن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء فكأنه قيل: لهم أجرهم عند ربهم عن قريب، لأن الله - تعالى - سريع الحساب والجزاء.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء جامع للمؤمنين، دعاهم فيه إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

والصبر معناه: حبس النفس عن أهوائها وشهواتها وترويضها على تحمل المكاره وتعويدها على أداء الطاعات.

والمصابرة: هى المغالبة بالصبر: بأن يكون المؤمن أشد صبرًا من عدوه.

ورابطوا: من المرابطة وهى القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء، فهى استعداد ودفاع وحماية لديار الإسلام من مهاجمة الأعداء.

والمعنى: ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا﴾ على طاعة الله وعلى تحمل المكاره والآلام برضا لا سخط معه؛ فإن الصبر جماع الفضائل وأساس النجاح والظفر.

﴿وصابروا﴾ أى قابلوا صبر أعدائكم بصبر أشد منه وأقوى فى كل موطن من المواطن التى تستلزم الصبر وتقتضيه.

قال صاحب الكشاف: ﴿وصابروا﴾ أعداء الله فى الجهاد، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب، ولا تكونوا أقل منهم صبرًا وثباتًا فالمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصًا لشدته وصعوبته»(١).

﴿ورابطوا﴾ أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد له، والاستعداد لمحاربته وكونوا دائما على حذر منه حتى لا يفاجئكم بما تكرهون.

ولقد كان كثير من السلف الصالح يرابطون فى سبيل الله نصف العام، ويطلبون قوتهم بالعمل فى النصف الآخر.

ولقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل المرابطة من أجل حماية ديار الإسلام، ومن ذلك مارواه البخارى فى صحيحه عن سهل ابن سعد الساعدى أن رسول

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٦١.

الله ﷺ قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

وروى مسلم فى صحيحه عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان»[١].

وبعضهم جعل المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة مستدلا بالحديث الذى رواه مسلم والنسائى عن أبي هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة. فذلكم الرباط».

قال القرطبى: بعد أن ساق هذا الحديث - : «والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة فى سبيل الله - وأصلها من ربط الخيل، ثم سمى كل ملازم لثغر من ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا. واللفظ مأخوذ من الربط. وقول النبى ﷺ «فذلكم الرباط» إنما هو تشبيه بالرباط فى سبيل الله»[١].

ومما يدل على أن المرابطة فى سبيل الله من أجل الديار الإسلامية من أفضل الأعمال وأن الصالحين الأخيار من المسلمين كانوا لا ينقطعون عنها، مما يدل على ذلك ما كتبه عبد الله بن المبارك - وهو يرابط بطرسوس - إلى صديقه الفضيل بن عياض - وكان الفضيل معتكفا بالمسجد الحرام - كتب إليه عبد الله يقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا … لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه … فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل … فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا … رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا … قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى … أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا … ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأ الفضيل هذه الأبيات بكى وقال: صدق عبد الله.

وقوله ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أى اتقوا الله بأن تصونوا أنفسكم عن محارمه وعن مخالفة أمره، ورجاء أن يكتب لكم الفوز بالنصر فى الدنيا، والثواب الحسن فى الآخرة.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٤٤.
(٢) تفسير القرطبى جـ٤ ص ٣٢٣.

وبعد : فهذه سورة آل عمران، وهذا تفسير مفصل لما اشتملت عليه من توجيهات نافعة وعظات بليغة، وآداب عالية وتشريعات سامية وتربية رشيدة وعبادات قويمة وحجج تثبت الحق وتدحض الباطل.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ونافعا لعباده.

والحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورة مصر العربية

١٤١٣/١/١١ هـ
١٩٩٢/٧/١٢ م

فهرس إجمالى لتفسير سورة «آل عمران»

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٥٧١١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3760 - 4	ISBN

١ / ٩١ / ٢٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير
سورة النساء

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الثالث

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فإن خير ما اشتغل به العقلاء، هو خدمة كتاب الله - تعالى -، الذى أنزله - سبحانه - على قلب نبيه محمد - ﷺ - لكى يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

ولقد عنى المسلمون منذ فجر الإسلام عناية كبرى بشأن القرآن الكريم. وقد شملت هذه العناية جميع نواحيه، وأحاطت بكل ما يتصل به، وكان لها آثارها المباركة النافعة التى استفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكرى والعملى عرفه الناس فى حياتهم الروحية والمادية.

وكان من أبرز مظاهر هذه العناية بشأن القرآن الكريم، الاشتغال بتفسيره وتأويله على قدر الطاقة البشرية.

ولقد سبق لى أن كتبت تفسيرًا وسيطا لسور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران.

ويسعدنى أن أتبع ذلك بتفسير لسورة النساء، حاولت فيه أن أكتب عما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من هدايات جامعة، وتشريعات حكيمة وتوجيهات رشيدة، وآداب سامية، من شأنها أن توصل المتمسكين بها إلى طريق السعادة فى دنياهم وآخرتهم.

وقبل أن أبدأ فى تفسير آيات هذه السورة الكريمة بالتفصيل والتحليل. رأيت من الخير أن أسوق بين يديها تعريفًا بها، يتناول زمان نزولها، وعدد آياتها، وسبب تسميتها بهذا الاسم، ومناسبتها لما قبلها، والمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها.

والله نسأل أن يوفقنا لخدمة كتابه، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، ونافعا لعباده، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة النساء هى الرابعة فى ترتيب المصحف. فقد سبقتها سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران.

ويبلغ عدد آياتها خمسا وسبعين ومائة آية عند علماء الحجاز والبصريين، ويرى الكوفيون أن عدد آياتها ست وسبعون ومائة آية، لأنهم عدوا قوله - تعالى - ﴿أن تضلوا السبيل﴾ آية.

ويرى الشاميون أن عدد آياتها سبع وسبعون ومائة آية، لأنهم عدوا قوله - تعالى - ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليما﴾ آية.

كما أنهم وافقوا الكوفيين فى أن قوله - تعالى - ﴿أن تضلوا السبيل﴾ آية.

أما علماء الحجاز والبصريون فيرون أن ما ذكره الكوفيون والشاميون إنما هو جزء من آية وليس آية كاملة.

٢ - وسورة النساء من السور المدنية. وكان نزولها بعد سورة الممتحنة ويؤيد أنها مدنية ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ».

ومن المتفق عليه عند العلماء أن دخوله ﷺ على عائشة كان بعد الهجرة. وروى العوفى عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت.

قال الآلوسى: «وزعم بعض الناس أنها مكية. مستندا إلى أن قوله - تعالى - : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها...﴾ نزلت بمكة فى شأن مفتاح الكعبة. وتعقبه السيوطى بأن ذلك مستند واه، لأنه لا يلزم من نزول آية أو آيات بمكة، من سورة طويلة، نزل معظمها بالمدينة، أن تكون مكية. خصوصا أن الأرجح أن ما نزل بعد الهجرة فهو مدنى. ومن راجع أسباب نزولها عرف الرد عليه»[1].

والحق، أن الذى يقرأ سورة النساء من أولها إلى آخرها بتدبر وإمعان، يرى فى أسلوبها وموضوعاتها سمات القرآن المدنى. فهى زاخرة بالحديث عن الأحكام الشرعية: من عبادات ومعاملات وحدود. وعن علاقة المسلمين ببعضهم وبغيرهم. وعن أحوال أهل الكتاب

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص١٧٨ طبعة منير الدمشقى.

والمنافقين، وعن الجهاد فى سبيل الله. إلى غير ذلك من الموضوعات التى يكثر ورودها فى القرآن المدنى.

ومن هنا قال القرطبى: «ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها»[1].

٣ - وسورة النساء سميت بهذا الاسم؛ لأن ما نزل منها فى أحكام النساء أكثر مما نزل فى غيرها.

وكثيرًا ما يطلق عليها اسم «سورة النساء الكبرى» تمييزا لها عن سورة أخرى عرضت لبعض شئون النساء وهى «سورة الطلاق» التى كثيرا ما يطلق عليها اسم «سورة النساء الصغرى».

٤ - ومن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة آل عمران التى قبلها: أن سورة آل عمران اختتمت بالأمر بالتقوى فى قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ وسورة النساء افتتحت بالأمر بالتقوى. قال - تعالى -: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾.

قال الآلوسى: «وذلك من آكد وجوه المناسبات فى ترتيب السور. وهو نوع من أنواع البديع يسمى فى الشعر: تشابه الأطراف. وقوم يسمونه بالتسبيغ. وذلك كقول ليلى الأخيلية:

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هز القناة رواها
رواها فأرواها بشرب سجالها ... دماء رجال حيث نال حشاها[2]

ومنها أن فى سورة آل عمران تفصيلا لغزوة أحد. وفى سورة النساء حديث موجز عنها فى قوله - تعالى -: ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾.

وكما فى قوله - تعالى -: ﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾.

ومنها: أن فى كلتا السورتين محاجة لأهل الكتاب، وبيانا لأحوال المنافقين، وتفصيلا لأحكام القتال.

ومن أمعن نظره - كما يقول الآلوسى - وجد كثيرا مما ذكر فى هذه السورة مفصلا لما ذكر فيما قبلها. فحينئذ يظهر مزيد الارتباط وغاية الاحتباك».

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١. طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٦هـ سنة ١٩٣٧م.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٤ ص١٧٨.

٥ - ومن الآثار التى وردت فى فضل سورة النساء، ما رواه قتادة عن ابن عباس أنه قال: ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت.

أولهن: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم﴾.

والثانية: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم. ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما﴾.

والثالثة: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾.

والرابعة: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾.

والخامسة: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾.

والسادسة: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

والسابعة: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله﴾.

والثامنة: ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيما﴾[1].

وكأن ابن عباس - رضى الله عنهما - قد نظر إلى ما تدل عليه هذه الآيات الكريمة من فضل الله على عباده. ورحمة بهم، وفتح لباب التوبة والمغفرة فى وجوههم، وإلا فإن القرآن كله بكل سوره وآياته خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت.

٦ - هذا، وسورة النساء تعتبر أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة. وإنك لتقرؤها بتدبر وتفهم فتراها قد اشتملت على مقاصد عالية، وآداب سامية. وتوجيهات حكيمة، وتشريعات جليلة.

تراها تنظم المجتمع الإسلامى تنظيمة دقيقًا قويما، يؤدى اتباعه إلى سعادة المجتمع واستقراره داخليا وخارجيا.

فأنت تراها فى مطلعها تحض الناس على تقوى الله والخشية منه، وتبين الارتباط الإنسانى الجامع الذى تلتقى عنده البشرية جميعًا.

قال - تعالى - ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء﴾.

وإذا كان الناس جميعا ينتهون إلى أصل واحد، فإن هذا الاتحاد يقتضى منهم أن يكونوا

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٤٨، طبعة عيسى الحلبى.

متراحمين متعاطفين، ومن أبرز مظاهر التراحم، الأخذ بيد الضعفاء ومعاونتهم فى كل ما يحتاجون إليه.

لذا نجد السورة الكريمة بعد أن تفتتح بأمر الناس بتقوى الله، تتبع ذلك بالأمر بالإحسان إلى اليتامى - الذين هم أوضح الضعفاء مظهرا - فى خمس آيات فى الربع الأول منها.

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا﴾.

ولم تكتف السورة الكريمة فى أوائلها بالحض على الإحسان إلى اليتامى، بل حضت - أيضا - على الإحسان إلى النساء، وإعطائهن حقوقهن كاملة.

ثم تراها بعد ذلك فى الربع الثانى منها تتحدث عن التوزيع المالى للأسرة عندما يموت واحد منها، وتضع لهذا التوزيع أحكم الأسس وأعدلها وأضبطها وتبين أن هذا التوزيع حد من حدود الله التى يجب التزامها وعدم مخالفتها.

قال - تعالى - : ﴿تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾.

ثم تحدثت السورة الكريمة عن حكم النسوة اللاتى يأتين الفاحشة، وعن التوبة التى يقبلها الله - تعالى -، والتوبة التى لا يقبلها. ووجهت نداء إلى المؤمنين نهتهم فيه عن أخذ شىء من حقوق النساء، وأمرتهم بحسن معاشرتهن، كما نهتهم عن نكاح أنواع معينة منهن، لأن نكاحهن يتنافى مع شريعة الإسلام وآدابه.

قال - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾.

ثم تراها فى الربع الثالث منها تتحدث عن المحصنات من النساء وعن حقوقهن، وبينت للناس أن الله - تعالى - ما شرع هذه الأحكام القويمة إلا لمصلحتهم ومنفعتهم.

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى هذا المعنى فتقول: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾.

ثم صرحت السورة الكريمة بأن للرجال القوامة على النساء، وذكرت ضروب التأديب التى يملكها الرجل على زوجته، وكلها من غير قسوة ولا شذوذ ولا طغيان، ودعت أهل الخير إلى الإصلاح بين الزوجين إذا ما نشب بينهما نزاع أو شقاق.

قال - تعالى - : ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما، إن الله كان عليما خبيرا﴾.

وبعد أن فصلت السورة الكريمة الحديث عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين، وبين أفراد الأسرة، انتقلت فى الربع الرابع منها إلى بيان العلاقة بين العبدو خالقه، وأنها يجب أن تقوم على إخلاص العبادة له - سبحانه - كما يجب على المسلم أن يجعل علاقته مع والديه ومع أقاربه ومع اليتامى والمساكين. وغيرهم، قائمة على الإحسان وعلى التعاطف والتراحم.

ثم توعدت السورة الكريمة من يشرك بالله، ويخالف أوامره بالعذاب الأليم. وبينت أن الكافرين سيندمون أشد الندم على كفرهم يوم القيامة ولكن ندمهم لن ينفعهم، لأنه جاء بعد فوات الأوان.

قال - تعالى - ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول، لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾.

ثم شنت السورة الكريمة حملة عنيفة على اليهود الذين كانوا يجاورون المؤمنين بالمدينة، والذين كانوا ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا﴾ والذين كانوا ينطقون بالباطل ويشهدون الزور عن تعمد وإصرار، وقد بينت السورة الكريمة أن حسدهم للنبى ﷺ هو الذى دفعهم إلى افتراء الكذب على الله - تعالى - وأنهم قد طردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وعنادهم وإيذائهم لمحمد ﷺ الذى يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم.

قال - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم من آمن به، ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا﴾.

ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك فى الربع الخامس منها : الأساس الذى يقوم عليه الحكم فى الإسلام، فذكرت أن العدل والأمانة هما الدعامتان الراسختان اللتان يقوم عليهما الحكم فى الإسلام. ووجهت إلى المؤمنين نداء أمرتهم فيه بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الأمر منهم، كما أمرتهم بأن يردوا كل تنازع يحصل بينهم إلى ما يقضى به كتاب الله وسنة رسوله، لأن التحاكم إلى غيرهما لا يليق بمؤمن.

ثم أخذت السورة الكريمة فى توبيخ المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون ومع ذلك ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾. وأمرت النبى ﷺ بزجرهم وبالإعراض عنهم، وأخبرته بأنهم لا إيمان لهم ما داموا لم يرتضوا حكمه.

قال - تعالى - : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.

وبعد هذا التهديد والتوبيخ للمنافقين، ساقت السورة الكريمة البشارات السارة للمؤمنين الصادقين فقالت : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾.

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الجهاد فى سبيل الله، لأن الحق يجب أن يكون هو السائد فى الأرض ولأن المؤمن لا يليق به أن يستسلم للأعداء، بل عليه أن يجاهدهم وأن يغلظ عليهم حتى تكون كلمة الله هى العليا.

لذا نجد السورة الكريمة توجه إلى المؤمنين نداء تأمرهم فيه بالحذر وأخذ الأهبة لقتال أعدائهم، وتحرضهم على هذا القتال للأعداء، بأقوى ألوان التحريض وأحكمها.

فأنت تراها فى الربع السادس منها تأمر المؤمنين بالقتال فى سبيل الله، وتبشر هؤلاء المقاتلين بأنهم لن يصيبهم إلا إحدى الحسنيين، ﴿ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيما﴾.

وتستبعد أن يقصر المؤمنون فى أداء هذا الواجب، لأن تقصيرهم يتنافى مع إيمانهم، ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ وتبين لهم أن قتالهم إنما هو من أجل إعلاء كلمة الله، وقتال أعدائهم لهم إنما هو من أجل إعلاء كلمة الطاغوت.

﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾.

وتضرب لهم الأمثال بسوء عاقبة الذين جبنوا عن القتال حين كتب عليهم وقالوا : ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾.

وتخبرهم بأن الموت سيدرك المقدام كما يدرك الجبان فعليهم أن يكونوا من الذين يقدمون على الموت بدون جبن أو وجل مادام الجبن لا يؤخر الحياة كما أن الإقدام لا ينقصها.

قال - تعالى - ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾.

وهكذا تحرض السورة الكريمة المؤمنين على القتال فى سبيل الله بأسمى ألوان التحريض وأشدها وأنفعها.

ثم عادت السورة الكريمة إلى تحذير المؤمنين من المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، والذين يعوقون أهل الحق عن قتال أعدائهم، وأمرت النبى - ﷺ - بأن يمضى هو ومن معه فى طريق القتال من أجل إعلاء كلمة الله دون أن يلتفت إلى هؤلاء المنافقين، لأنهم لا يريدون بهم إلا الشر.

قال - تعالى - : ﴿فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، وحرض المؤمنين، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا﴾.

ثم واصلت السورة فى الربع السابع منها حديثها عن المنافقين، فذكرت ما ينبغى أن يعاملوا به، وكشفت عن طبائعهم الذميمة، وأخلاقهم القبيحة، ونهت المؤمنين عن اتخاذهم أولياء أو نصراء، وأمرتهم أن يضيقوا عليهم ويقتلوهم إذا ما استمروا فى نفاقهم وشقاقهم وارتكاسهم فى الفتنة.

قال - تعالى - : ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين، والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾.

ثم تحدثت السورة عن حكم القتل الخطأ. وتوعدت من يقتل مؤمنا متعمدا بغضب الله عليه، ولعنه له، وإنزال العذاب العظيم به.

ثم أمرت المؤمنين بأن يجعلوا قتالهم من أجل إعلاء كلمة الله، لا من أجل المغانم والأسلاب، وألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم. وبشرت المجاهدين فى سبيل الله بما أعده الله لهم من درجات عالية يتميزون بها عن غيرهم من القاعدين، وتوعدت الذين يرضون الذلة لأنفسهم بسوء المصير، وذلك لأن الحق لا تعلو رايته فى الأرض إلا إذا كان أتباعه أقوياء. يأبون الذل والخضوع لغير سلطان الله - تعالى -.

قال - سبحانه - : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، قالوا فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوا غفورا﴾.

ثم بشرت السورة الكريمة فى مطلع الربع الثامن منها الذين يهاجرون فى سبيل الله، بالخير الوفير والأجر الجزيل فقالت.

﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرًا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما﴾.

ثم أرشدت المؤمنين إلى الطريقة التى يؤدون بها فريضة الصلاة فى حال جهادهم، لأن الصلاة فريضة محكمة لا يسقطها الجهاد، بل هى تقوى دوافعه، وتحسن ثماره ونتائجه.

كما أمرتهم بالإكثار من ذكر الله فى كل أحوالهم، وبمواصلة جهاد أعدائهم بدون كلل أو ملل حتى تكون كلمة الله هى العليا.

قال - تعالى - : ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودا وعلى جنوبكم، فإذا أطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا. ولا تهنوا فى ابتغاء القوم﴾.

ثم بينت السورة الكريمة أن الله - تعالى - قد أنزل القرآن على نبيه ﷺ لكى يحكم بين الناس بالعدل الذى أراه الله إياه، ونهت الأمة فى شخصه ﷺ عن الخيانة والميل مع الهوى ووبخت المنافقين الذين «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، كما وبخت الذين يدافعون عنهم أو يسيرون فى ركابهم. وذكرت جانبا من مظاهر عدله - سبحانه -، ورحمته الشاملة.

أما عدله فمن مظاهره أنه جعل الجزاء من جنس العمل ﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه﴾.

وأما شمول رحمته فمن مظاهرها أنه - سبحانه - فتح باب التوبة لعباده وأكرمهم بقبولها متى صدقوا فيها: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيما﴾.

ثم بينت السورة الكريمة فى مطلع الربع التاسع منها أن الاستخفاء بالأقوال والأفعال عن الرسول ﷺ أكثره لا خير فيه فقالت:

﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾.

ثم تحدثت عن الذين يؤذون رسول الله ﷺ فتوعدتهم بسوء المصير، ووبختهم على جهالاتهم وضلالاتهم وسيرهم فى ركاب الشيطان الذى ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا﴾.

ثم بينت أن الله - تعالى - لا تنفع عنده الأمانى والأنساب، وإنما الذى ينفع عنده هو الإيمان والعمل الصالح.

قال - تعالى - : ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءًا يجز به، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرًا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرًا﴾.

ثم تحدثت السورة الكريمة عن بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء وأمرت بالإصلاح بين الزوجين، وبينت أن العدل التام بين النساء من كل الوجوه غير مستطاع، فعلى الرجال أن يكونوا متوسطين فى حبهم وبغضهم، وعليهم كذلك أن يعاشروا النساء بالمعروف وأن يفارقوهن كذلك بالمعروف ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعًا حكيما﴾.

ثم وجهت السورة الكريمة فى الربع العاشر منها نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بأن يلتزموا الحق فى كل شئونهم، وأن يجهروا به ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، لأن العدالة المطلقة التى أتى بها الإسلام لا تعرف التفرقة بين الناس.

ثم بينت السورة الكريمة حقيقة النفاق والمنافقين وكررت تحذيرها للمؤمنين من شرورهم. وإن أدق وصف لهؤلاء المنافقين هو قوله - تعالى - فى شأنهم : ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾.

وقد توعدهم الله بسبب نفاقهم وخداعهم بأشد ألوان العذاب فقال - سبحانه - :

﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيما﴾.

ثم حكت السورة الكريمة فى الربع الحادى عشر منها ما أدب الله به عباده، وما أرشدهم إليه من خلق كريم وهو منع الجهر بالسوء من القول، ولكنه - سبحانه - رخص للمظلوم أن يتكلم فى شأن ظالمه بالكلام الحق. لأنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية. قال - تعالى - ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعًا عليمًا. إن تبدو خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوًا قديرًا﴾.

ثم تحدثت عن بعض رذائل اليهود. وعن العقوبات التى عاقبهم الله بها بسبب ظلمهم وفسوقهم.

قال - تعالى - : ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرًا. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابًا أليمًا﴾.

أما فى الربع الثانى عشر والأخير منها فقد تحدثت السورة الكريمة عن وحدة الرسالة الإلـهية. وبينت أن الله - تعالى - قد أوحى إلى نبيه محمد ﷺ كما أوحى إلى النبيين من قبله، وأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن يرسل ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ثم وجهت فى أواخرها نداء عاما إلى الناس تأمرهم فيه بالإيمان بما جاءهم به النبى ﷺ. كما وجهت نداء آخر إلى أهل الكتاب تنهاهم فيه عن السير فى طريق الضلالة، وعن الأقوال الباطلة التى قالوها فى شأن عيسى، فإن عيسى كغيره من البشر من عباد الله - تعالى -، ولن يستنكف أن يكون عبدًا لله - تعالى - :

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم إليه جميعًا﴾.

وكما تحدثت السورة الكريمة فى أوائلها عن بعض أحكام الأسرة، فقد اختتمت بالحديث عن ذلك، لكى تبين للناس أن الأسرة هى عماد المجتمع، وهى أساسه الذى لاصلاح له إلا بصلاحها.

قال - تعالى - : ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين. يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شىء عليم﴾.

هذا عرض إجمالى لبعض المقاصد السامية، والآداب العالية، والتشريعات الحكيمة، والتوجيهات القويمة التى اشتملت عليها السورة الكريمة.

ومن هذا العرض نرى أن سورة النساء - كما يقول بعض العلماء - : «قد عالجت أحوال المسلمين فيما يتعلق بتنظيم شئونهم الداخلية، عن طريق إصلاح الأسرة وإصلاح المال فى ظل تشريع قوى عادل، مبنى على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانية، مجرد من تحكيم الأهواء والشهوات.

وذلك إنما يكون إذا كان صادرا عن حكيم خبير بنزعات النفوس واتجاهاتها وميولها.

كما عالجت أحوالهم فيما يختص بحفظ كيانهم الخارجى، عن طريق التشريعات والتوجيهات التى اشتملت عليها السورة الكريمة، والتى من شأنها أن تحفظ للأمة كيانها وشخصيتها متى تمسكت بها، وأن تجعلها قادرة على دفع الشر الذى يطرأ عليها من أعدائها.

بل إن السورة الكريمة لم تقف عند حد التنبيه على عناصر المقاومة المادية، وإنما نبهت على ما يجب أن تحفظ به عقيدة الأمة ومبادئها من التأثر بما يلقى فى شأنها من الشكوك والشبه. وفى هذا إيحاء يجب على المسلمين أن يلتفتوا إليه، وهو أن يحتفظوا بمبادئهم كما يحتفظون بأوطانهم. وأن يحصنوا أنفسهم من شر حرب أشد خطرًا، وأبعد فى النفوس أثرًا من حرب السلاح المادى: تلك هى حرب التحويل من مبدأ إلى مبدأ، ومن دين إلى دين، مع البقاء فى الأوطان والإقامة فى الديار والأموال.

ألا وإن شخصية الأمة ليتطلب بقاؤها الاحتفاظ بالجانبين: جانب الوطن والسلطان. وجانب العقيدة والإيمان. وعلى هذا درج سلفنا الصالح فعاشوا فى أوطانهم آمنين. وبمبادئهم وعقائدهم متمسكين»[1].

وبعد: فهذا تمهيد بين يدى تفسير سورة النساء. تعرضنا خلاله لعدد آياتها. ولزمان نزولها. ولسبب تسميتها بهذا الاسم. ولوجه المناسبة بينها وبين سابقتها. ولجانب من فضائلها. وللمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها.

ولعلنا بذلك - أخى القارىء - نكون قد قدمنا لك تعريفا لهذه السورة يعينك على تفهم أسرارها، ومقاصدها. وتوجيهاتها قبل أن نبدأ فى تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل..

والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) تفسير القرآن الكريم ص ١٧٧، ص٢٦٦ - بتصرف وتلخيص - لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله -.

التفسير

قال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

افتتحت السورة الكريمة بهذا النداء الشامل لجميع المكلفين من وقت نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأن لفظ الناس لا يختص بقبيل دون قبيل، ولا بقوم دون قوم، وقد دخلته الألف واللام المفيدة للاستغراق؛ ولأن ما فى مضمون هذا النداء من إنذار وتبشير وأمر بمراقبة الله وخشيته، يتناول جميع المكلفين لا أهل مكة وحدهم كما ذكره بعضهم؛ لأن تخصيص قوله - تعالى - ﴿يا أيها الناس﴾ بأهل مكة تخصيص بغير مخصص.

والمراد بالنفس الواحدة هنا : آدم - عليه السلام -. وقد جاء الوصف وهو واحدة بالتأنيث باعتبار لفظ النفس فإنها مؤنثة.

ومن فى قوله ﴿منها﴾ للتبعيض. والضمير المؤنث «ها» يعود إلى النفس الواحدة.

والمراد بقوله - تعالى - : ﴿زوجها﴾ حواء؛ فإنها أخرجت من آدم كما يقتضيه ظاهر قوله - تعالى - ﴿منها﴾.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : «المراد من هذا الزوج هو حواء. وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان :

الأول : وهو الذى عليه الأكثرون : أنه لما خلق الله - تعالى - آدم ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه، فلما استيقظ رآها ومال إليها وألفها، لأنها كانت مخلوقة من

جزء من أجزائه. واحتجوا عليه بقول النبى ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها».

والقول الثانى: وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى: أن المراد من قوله ﴿وخلق منها زوجها﴾ أى من جنسها. وهو كقوله - تعالى - ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾.

وكقوله ﴿إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ وقوله ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾.

قال القاضى: والقول الأول أقوى، لكى يصح قوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾، إذ لو كانت حواء مخلوقة إبتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة[1].

وقد تضمن هذا النداء لجميع المكلفين تنبيهم إلى أمرين:

أولهما: وحدة الاعتقاد بأن ربهم جميعا واحد لا شريك له. فهو الذى خلقهم وهو الذى رزقهم، وهو الذى يميتهم وهو الذى يحييهم، وهو الذى أوجد أبيضهم وأسودهم، وعربيهم وأعجميهم.

وثانيهما: وحدة النوع والتكوين، إذ الناس جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم قد انحدروا عن أصل واحد وهو آدم - عليه السلام -.

فيجب أن يشعر الجميع بفضل الله عليهم. وأن يخلصوا له العبادة والطاعة، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأن يوقنوا بأنه لا فضل لجنس على جنس، ولا للون على لون إلا بمقدار حسن صلتهم بربهم ومالكهم ومدبر أمورهم.

والمعنى: يا أيها الناس اتقوا ربكم بأن تطيعوه فلا تعصوه، وبأن تشكروه فلا تكفروه، فهو وحده الذى أوجدكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم، وذلك من أظهر الأدلة على كمال قدرته - سبحانه، ومن أقوى الدواعى إلى اتقاء موجبات نقمته، ومن أشد المقتضيات التى تحملكم على التعاطف والتراحم والتعاون فيما بينكم، إذ أنتم جميعا قد أوجدكم - سبحانه - من نفس واحدة.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «فإن قلت: الذى يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته، أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويحث عليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذى ذكره موجبا للتقوى وداعيا إليها؟

قلت: لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة. ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شىء،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٦١ طبعة عبد الرحمن محمد - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٨م.

ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم، فحقهم أن يتقوه فى كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله فقيل: اتقوا ربكم الذى وصل بينكم؛ حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة»[1].

وقوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾ معطوف على قوله ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾. أو معطوف على محذوف والتقدير: خلقكم من نفس واحدة ابتدأها وخلق منها زوجها.

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الازدواج من تناسل فقال: ﴿وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء﴾.

والبث معناه: النشر والتفريق. يقال: بث الخيل فى الغارة، أى فرقها ونشرها. ويقال: بثثت البسط إذا نشرتها. قال - تعالى - ﴿وزرابى مبثوثة﴾ أى منشورة.

والمعنى: ونشر وفرق من تلك النفس الواحدة وزوجها على وجه التوالد والتناسل، رجالا كثيرا ونساء كثيرة.

والتعبير بالبث يفيد أن هؤلاء الذين توالدوا وتناسلوا عن تلك النفس وزوجها، قد تكاثروا وانتشروا فى أقطار الأرض على اختلاف ألوانهم ولغاتهم، وأن من الواجب عليهم مهما تباعدت ديارهم، واختلفت ألسنتهم وأشكالهم أن يدركوا أنهم جميعا ينتمون إلى أصل واحد، وهذا يقتضى تراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم. وقوله ﴿كثيرا﴾ صفة لقوله ﴿رجالا﴾ وهو صفة مؤكدة لما أفاده التنكير من معنى الكثرة. وجاء الوصف بصيغة الإفراد، لأن ﴿كثيرا﴾ وإن كان مفردا لفظا إلا أنه دال على معنى الجمع. واستغنى عن وصف النساء بالكثرة، اكتفاء بوصف الرجال بذلك، ولأن الفعل ﴿بث﴾ يقتضى الكثرة والانتشار.

وقال الفخر الرازى: خصص وصف الكثرة بالرجال دون النساء، لأن شهرة الرجال أتم، فكانت كثرتهم أظهر، فلا جرم خصوا بوصف الكثرة. وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز. واللائق بحال النساء الاختفاء والخمول»[2].

وقوله: ﴿واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام﴾ تكرير للأمر بالتقوى لتربية المهابة فى النفس وتذكير ببعض آخر من الأمور الموجبة لخشية الله وامتثال أوامره. وقوله ﴿تساءلون﴾ أصلها تتساءلون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا. وهى قراءة عاصم وحمزة الكسائى.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦٣.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٦٢.

وقرأ الباقون «تساءلون» بالتشديد بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس. والأرحام: جمع رحم وهى القرابة. مشتقة من الرحمة، لأن ذوى القرابة من شأنهم أن يتراحموا ويعطف بعضهم على بعض.

وكلمة ﴿الأرحام﴾ قرأها الجمهور بالنصب عطفا على اسم الله تعالى.

والمعنى؛ واتقوا الله الذى يسأل بعضكم بعضا به، بأن يقول له على سبيل الاستعطاف: أسألك بالله أن تفعل كذا، أو أن تترك كذا. واتقوا الأرحام أن تقطعوها فلا تصلوها بالبر والإحسان، فإن قطيعتها وعدم صلتها مما يجب أن يتقى ويبتعد عنه، وإنما الذى يجب أن يفعل هو صلتها وبرها.

وقرأها حمزة بالجر عطفا على الضمير المجرور فى (به). أى: اتقوا الله الذى تساءلون به وبالأرحام بأن يقول بعضكم لبعض مستعطفا أسألك بالله وبالرحم أن تفعل كذا.

وقد كان من عادة العرب أن يقرنوا الأرحام بالله تعالى - فى المناشدة والسؤال فيقولون: اسألك بالله وبالرحم.

ولم يرتض كثير من النحويين هذه القراءة من حمزة، وقالوا: إنها تخالف القواعد النحوية التى تقول: إن عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور المتصل بدون إعادة الجار لا يصح، لأن الضمير المجرور المتصل بمنزلة الحرف، والحرف لا يصح عطف الاسم الظاهر عليه، ولأن الضمير المجرور كبعض الكلمة لشدة اتصاله بها، وكما أنه لا يجوز أن يعطف على بعض الكلمة فكذلك لا يجوز أن يعطف عليه. إلى غير ذلك مما قالوه فى تضعيف هذه القراءة. وقد دافع كثير من المفسرين عن هذه القراءة التى قرأها حمزة. وأنكروا على النحويين تشنيعهم عليه.

ومما قاله القرطبى فى دفاعه عن صحة هذه القراءة: ومثل هذا الكلام - أى من النحويين - مردود عند أئمة الدين، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى ﷺ تواترا يعرفه أهل الصنعة، وإذا ثبت شىء عن النبى ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبى ﷺ واستقبح ما قرأ به.

وهذا مقام محذور، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو، فإن العربية تتلقى من النبى ﷺ ولا يشك أحد فى فصاحته.

ثم قال: والكوفى يجيز عطف الظاهر على الضمير المجرور ولا يمنع منه، ومنه قولهم:

فاذهب فما بك والأيام من عجب[1]

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٣ وما بعدها - بتصرف وتلخيص.

ومما قاله الفخر الرازى فى ذلك : واعلم أن هذه الوجوه - أى التى احتج بها النحويون فى تضعيف قراءة حمزة - ليست وجوها قوية فى رفع الروايات الواردة فى اللغات؛ وذلك لأن حمزة أحد القراء السبعة، ولم يأت بهذه القراءة من عند نفسه، بل رواها عن رسول الله ﷺ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة، والقياس يتضاءل عند السماع لا سيما بمثل هذه الأقيسة التى هى أوهن من بيت العنكبوت.

وأيضا فلهذه القراءة وجهان :

أحدهما : أنها على تقدير تكرير الجار. كأنه قيل : تساءلون به وبالأرحام.

وثانيها : أنه ورد ذلك فى الشعر ومنه :

نعلق فى مثل السوارى سيوفنا ... وما بينها والكعب غوط نفائف

ثم قال : والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بمثل هذه الأبيات المجهولة، ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد، مع أنهما كانا من أكابر علماء السلف فى علم القرآن »[1].

هذا، وهناك قراءة بالرفع. قال الآلوسى : وقرأ ابن زيد ﴿والأرحام﴾ بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر. أى والأرحام كذلك أى مما يتقى لقرينة ﴿اتقوا﴾. أو مما يتساءل به لقرينة ﴿تساءلون﴾[2].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يحمل العقلاء على المبالغة فى تقوى الله، وفى صلة الرحم فقال - تعالى : ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾. أى حافظا يحصى عليكم كل شىء. من رقبه إذا حفظه.

أو مطلعا على جميع أحوالكم وأعمالكم، ومنه المرقب للمكان العالى الذى يشرف منه الرقيب ليطلع على ما دونه.

وقد أكد - سبحانه - رقابته على خلقه، واطلاعه على جميع أحوالهم بأوثق المؤكدات. فقد أكد - سبحانه - الجملة الكريمة بإن، وبتكرار لفظ الجلالة التى يبعث فى النفوس كل معانى الخشية والعبودية له، وبالتعبير بكان الدالة على الدوام والاستمرار، وبذكر الفوقية التى يدل عليها لفظ ﴿عليكم﴾ إذ هو يفيد معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وبالإتيان بصيغة المبالغة وهى قوله : ﴿رقيبا﴾ أى شديد المراقبة لجميع أقوالكم وأعمالكم فهو يراها ويعلمها

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٦٣ - بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الألوسى جـ٤ ص١٨٥.

وسيحاسبكم عليها يوم القيامة.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة: وجوب مراقبته - سبحانه - وخشيته وإخلاص العبادة له، لأنه هو الذى أوجدهم من نفس واحدة، وهو الذى أوجد من هذه النفس الموحدة زوجها، وهو الذى أوجد منها عن طريق التناسل الذكور والإناث الذين يملؤون أقطار الأرض على اختلاف صفاتهم وألوانهم ولغاتهم، وهو الذى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، بل هو مطلع عليهم وسيحاسبهم على أعمالهم يوم الدين، ومن كان كذلك فمن حقه أن يتقى ويخشى ويطاع ولا يعصى.

كما أخذوا منها جواز المسألة بالله - تعالى - لأنه - سبحانه - قد أقرهم على هذا التساؤل؛ لكونهم يعتقدون عظمته وقدرته.

وقد ورد فى هذا الباب أحاديث متعددة منها ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه. ومن أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئون به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه».

نعم من أداه التساؤل باسمه - تعالى - إلى التساهل فى شأنه، وجعله عرضة لعدم إجلاله، فإنه يكون محظورا قطعا. وعليه يحمل ما ورد من أحاديث تصرح بلعن من سأل بوجه الله. ومنها ما رواه الطبرانى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا: ملعون من سأل بوجه الله. وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا. أى ما لم يسأل أمرا قبيحا لا يليق.

كما أخذوا منها أيضا وجوب صلة الرحم، فقد جعل - سبحانه - الإحسان إلى الآباء وإلى الأقارب فى المنزلتين الثانية والثالثة بعد الأمر بعبادته فقال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا، وبذى القربى واليتامى والمساكين﴾[1].

ومن الأحاديث التى وردت فى وجوب صلة الرحم ما رواه البخارى عن أبى هريرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سره أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أجله، فليصل رحمه.

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ قال: الرحم معلقة بالعرش. تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله.

وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: ليس الواصل بالمكافىء.

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها.

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت فى الترغيب فى صلة الرحم والترهيب من قطيعتها.

* * *

ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه، فابتدأ بأحق الناس بالرحمة والمودة، وهم اليتامى فقال - تعالى - :

وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (٣)

والأمر فى قوله ﴿وآتوا﴾ يتناول كل من له ولاية أو وصاية أوصلة باليتيم، كما يتناول الجماعة الإسلامية بصفة عامة، لكى تتكاتف وتتعاون على تمكين اليتيم من وصول حقه إليه بدون بخس أو مماطلة.

و ﴿اليتامى﴾ جمع يتيم وهو الصغير الذى مات أبوه، مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد. ومنه الدرة اليتيمة.

قال صاحب الكشاف وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم، وانتصبوا كفاة يكفلون غيرهم ويقومون عليهم، زال عنهم هذا الاسم. وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ : يتيم أبى طالب؛ إما على القياس، وإما حكاية للحال التى كان عليها صغيرا فى حجر عمه. وأما قوله ﷺ «لا يتم بعد الحلم» فهو تعليم شريعة لا لغة. أى أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار»[1].

والمراد باليتامى هنا الصغار، والمراد بإيتائهم أموالهم حفظها لهم وعدم الطمع فى شىء منها

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦٣.

لا من قبل الورثة ولا من قبل الأوصياء ولا من قبل غيرهم وعلى هذا المعنى يكون لفظ الإيتاء قد أول بلازم معناه وهو الحفظ والرعاية لمال اليتامى، لا تسليم المال إليهم لأنه من المعروف شرعا ألا يسلم المال إليهم إلا بعد البلوغ، إذ هم فى حال الصغر لا يصلحون للتصرف.

ويكون هذا التعبير من باب الكناية بإطلاق اللازم - وهو الإيتاء، وإرادة الملزوم وهو الحفظ، أو من باب المجاز بالمآل إذ الحفظ يؤول إلى الإيتاء.

ويرى بعضهم أن المراد باليتامى هنا الكبار الذين أونس منهم الرشد وأن المراد بالإيتاء دفع أموالهم إليهم على سبيل الحقيقة.

ويكون التعبير عنهم باليتامى - مع أنهم كبار - باعتبار أن اسم اليتيم يتناول لغة كل من فقد أباه، أو باعتبار قرب عهدهم بالصغر، أو باعتبار ما كان أى الذين كانوا يتامى. قالوا: وفى التعبير عنهم باليتامى مع أنهم كبار، إشارة إلى وجوب المسارعة فى تسليم أموالهم إليهم متى أونس منهم الرشد، حتى لكأن اسم اليتيم ما زال باقيا عليهم، غير منفصل عنهم:

ويبدو لنا أن الرأى الأول أولى، لأن الأمر بدفع أموال اليتامى إليهم. بعد بلوغهم قد جاء صريحا فى قوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾.

فكان حمل الآية التى معنا على أن المراد باليتامى: الصغار، وبإيتاء أموالهم حفظها لهم، أولى وأقرب إلى المنطق، لأنه على الرأى الأول يكون الأمر وما يذكر به تأسيسات أحكام، وعلى الرأى الثانى يكون ما فى الآية الثانية مؤكدا لما فى الآية التى معنا. والتأسيس أولى من التأكيد.

ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك فى الآية التى معنا ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ - إنما هو تحذير للأوصياء والأولياء من الطمع فى مال اليتيم أو إضاعته ما دام المال فى أيديهم واليتيم فى حجرهم، وهذا يؤيد هذا الرأى الأول القائل بأن المراد باليتامى: الصغار، وبإيتاء أموالهم: حفظها ورعايتها حتى تسلم إليهم عند بلوغهم كاملة غير منقوصة.

وقوله ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ معناه: لا تجعلوا ردىء المال لهم بدل الجيد، بأن تأخذوا لأنفسكم كرائم الأموال ونفائسها، وتتركوا لهم الخسيس منها.

قال القرطبى: وكانوا فى الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون عن أموال اليتامى فكانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويبدلونه بالردىء من أموالهم ويقولون اسم باسم، ورأس برأس، فنهاهم الله عن ذلك. وهذا قول سعيد بن المسيب والزهرى والسدى والضحاك وهو

ظاهر الآية، إذ التبديل جعل شيء بدل شيء»[١].

ويرى صاحب الكشاف أن المراد بالخبيث: الحرام، وبالطيب: الحلال فقد قالوا: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي: ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما ابيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث فى الأرض فتأكلوه مكانه، أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع عنها»[٢].

وقوله - تعالى - ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ نهى آخر عن الاعتداء على أموال اليتامى عن طريق خلط أموال اليتامى بأموال الأوصياء، والمراد من الأكل: مطلق الانتفاع والتصرف وخص الأكل بالذكر، لأنه معظم ما يقع لأجله التصرف.

والمعنى: ولا تضموا أيها الأوصياء أموال اليتامى إلى أموالكم فى الإنفاق فتأكلوها مع أموالكم، وتسووا بينهما فى الانتفاع، لأن أموالكم احل الله لكم أكلها، أما أموال اليتامى فقد حرم الله عليكم أكلها.

فالآية الكريمة صريحة فى النهى عن خلط مال اليتيم القاصر بمال الوصى عليه بقصد أكله، لأن هذا لون من ألوان الاستيلاء المحرم على أموال اليتامى، كما أنها تتضمن النهى عن خلط مال اليتيم بمال الوصى عليه ولو لم يقصد أكله، لأن هذا الخلط قد يؤدى إلى ضياعه وعدم تميزه فقد يموت الوصى فلا يعرف مال اليتيم من ماله، فيؤدى الأمر إلى أكله وإن لم يكن مقصودا، ولذا قال الفقهاء: إذا مات الوصى على اليتيم مجهلا مال اليتيم اعتبر مستهلكا له.

والخلاصة أن الآية الكريمة تحرم على الأولياء والأوصياء وغيرهم أن يتصرفوا فى أموال اليتامى أى تصرف يؤدى إلى الإضرار بها، بل عليهم أن يحفظوها لهم حتى يدفعوها إليهم سالمة عند البلوغ.

هذا، وليس قيد «إلى أموالكم» محط النهى، بل النهى واقع على أكل أموال اليتامى مطلقا، سواء أكان للآكل مال يضم إليه مال اليتيم أم لم يكن. ولكن لما كان الغالب وجود أموال للأوصياء، وأنهم يريدون من أكل أموال اليتامى التكثر أو توفير أموالهم، جىء بهذا القيد رعاية لهذا الغالب، وليكون ذمهم على جشعهم وضعف دينهم أشد وأشنع حيث أكلوا حقوق اليتامى مع أنهم فى غنى عنها بما رزقهم الله من أموال.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: فإن قلت: قد حرم عليهم أكل مال اليتامى

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٨.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص١٦٥.

وحده ومع أموالهم فلم ورد النهى عن أكله معها؟ قلت: لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال - وهم مع ذلك يطمعون فيها - كان القبح أبلغ والذم أحق، ولأنهم كانوا يفعلون ذلك فنعى عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿إنه كان حوبا كبيرًا﴾.

والحوب: اسم مصدر من حاب يحوب حوبا: إذا اكتسب إثما. يقال: فلان يتحوب أى يتأثم. والحوباء: النفس المرتكبة للإثم. ويقال فى الدعاء: اللهم اغفر حوبتى، أى إثمى. وأصله الزجر للإبل، فسمى الإثم حوبا لأنه يزجر عنه وبه.

والضمير فى قوله ﴿إنه﴾ يعود إلى أكل مال اليتيم بأى طريق محرم.

والمعنى: إن أكل مال اليتيم بأى طريقة من الطرق المحرمة كان إثما كبيرًا، وذنبا عظيما، لأن هذا الأكل اعتداء على نفس ضعيفة فقدت من يعولها ومن يدافع عنها، ومن اعتدى على نفس ضعيفة، وضيع حقها، وخان الأمانة كان مرتكبا لذنب عظيم يؤدى به إلى العقوبة والعذاب الأليم.

والجملة بمنزلة التعليل للنهى عن أكل مال اليتيم، وعن الطمع بدون وجه حق فيها.

ثم شرع - سبحانه - فى نهيهم عن منكر آخر كانوا يباشرونه فقال - تعالى -:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾.

وقوله ﴿وإن خفتم﴾ شرط، وجوابه قوله ﴿فانكحوا﴾.

والمراد من الخوف: العلم، وعبر عنه بذلك للأشعار بكون المعلوم مخوفا محذورا. ويقوم الظن الغالب مقام العلم.

وقوله ﴿تقسطوا﴾ من الإقساط وهو العدل. يقال: أقسط الرجل إذا عدل. قال - تعالى -: ﴿واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ ويقال: قسط الرجل إذا جار وظلم صاحبه. قال - تعالى - ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾.

والمراد «باليتامى»: يتامى النساء. قال الزمخشرى: ويقال للاناث اليتامى كما يقال للذكور وهو جمع يتيمة.

ومعنى ﴿ما طاب لكم﴾ ما مالت إليه نفوسكم واستطابته من النساء اللائى أحل الله لكم نكاحهن.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦٥.

هذا، وللعلماء أقوال فى تفسير هذه الآية الكريمة منها : ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة - رضى الله عنها - عن هذه الآية فقالت : يا ابن أختى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها. فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره.

قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾.

قالت عائشة : وقول الله - تعالى - ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال. قالت : فنهوا عن أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال[1] ».

وعلى هذه الرواية التى ساقها أئمة المحدثين عن عائشة فى المراد من الآية الكريمة يكون المعنى : وإن علمتم أيها الأولياء على النساء اليتامى أنكم لن تعدلوا فيهن إذا تزوجتم بهن - بأن تسيئوا إليهن فى العشرة، أو بأن تمتنعوا عن إعطائهن الصداق المناسب لهن - إذا علمتم ذلك فانكحوا غيرهن من النساء الحلائل اللائى تميل إليهن نفوسكم ولا تظلموا هؤلاء اليتامى بنكاحهن دون أن تعطوهن حقوقهن؛ فإن الله - تعالى - قد وسع عليكم فى نكاح غيرهن.

فالمقصود من الآية الكريمة على هذا المعنى : نهى الأولياء عن نكاح النساء اليتامى اللائى يلونهن عند خوف عدم العدل فيهن، إلا أنه أوثر التعبير عن ذلك بالأمر بنكاح النساء الأجنبيات، كراهة للنهى الصريح عن نكاح اليتيمات، وتلطفا فى صرف المخاطبين عن نكاح اليتامى حال العلم بعدم العدل فيهن.

فكأنه - سبحانه - يقول : إن علمتم أيها الأولياء الجور والظلم فى نكاح اليتامى اللائى فى ولايتكم فلا تنكحوهن، وانكحوا غيرهن مما طاب لكم من النساء.

وعلى هذا القول الذى أورده المحدثون عن عائشة - رضى الله عنها - سار كثير من المفسرين فى تفسير الآية الكريمة. وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه.

قال بعض العلماء : وكلامها هذا أحسن تفسير لهذه الآية. وهى وإن لم تسند ما قالته إلى رسول الله، إلا أن سياق كلامها يؤذن بأنه عن توقيف؛ ولذلك أخرجه البخارى فى باب تفسير سورة النساء بسياق الأحاديث المرفوعة، اعتدادا بأنها ما قالت ذلك إلا عن معاينة حال النزول.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٥٠.

لا سيما وقد قالت : ثم إن الناس استفتوا رسول الله - ﷺ -؛ وعليه فيكون إيجاز لفظ الآية اعتدادا بما فهمه الناس مما يعلمون من أحوالهم، وتكون قد جمعت إلى جانب حفظ حقوق اليتامى فى أموالهم الموروثة، حفظ حقوقهم فى الأموال التى يستحقها النساء اليتامى كمهور لهن عند الزواج بهن . . »[1].

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن الآية مسوقة للنهى عن نكاح ما فوق الأربع خوفا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم.

وقد حكى هذا القول الإمام ابن جرير فقال : وقال آخرون بل معنى ذلك : النهى عن نكاح ما فوق الأربع، حذرا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم وذلك أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدما مال على مال اليتيمة التى فى حجره فأنفقه، أو تزوج به، فنهوا عن ذلك. وقيل لهم : إن أنتم خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم، - إن خفتم ذلك. فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع. وإن خفتم أيضًا من الأربع ألا تعدلوا فى أموالهم - أى أموال اليتامى -، فاقتصروا على الواحدة أو على ما ملكت أيمانكم[2] - أى إن كان زواجكم بالأربع يؤدى إلى الجور فى أموال اليتامى فاقتصروا على الزواج بامرأة واحدة - ».

وقد انتصر ابن جرير لهذا القول وعده أرجح الأقوال، فقال ما ملخصه وإنما قلنا : إن ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الله - تعالى - افتتح الآية التى قبلها بالنهى عن أكل أموال اليتامى بغير حقها. ثم أعلمهم - هنا - المخلص من الجور فى أموال اليتامى فقال : انكحوا إن أمنتم الجور فى النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهن وحللته : مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم أيضًا الجور على أنفسكم فى أمر الواحدة فلا تنكحوها، ولكن تسروا من المماليك، فإنكم أحرى ألا تجوروا عليهن، لأنهن أملاككم وأموال، ولا يلزمكم لهن من الحقوق كالذى يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك اقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور»[3].

وينسب هذا الرأى إلى ابن عباس وسعيد بن جبير، والسدى، وقتادة، وعكرمة.

وقال مجاهد : إن الآية الكريمة مسوقة للنهى عن الزنا. وقد حكى هذا الرأى صاحب الكشاف فقال : كانوا لا يتحرجون من الزنا. ويتحرجون من ولاية اليتامى. فقيل لهم : إن

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٤ ص٢٢ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٢٢٣، طبعة الحلبى سنة ١٣٧٢ سنة ١٩٥٤م.
(٣) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٢٣٥ - بتصرف وتلخيص -.

خفتم الجور فى حق اليتامى، فخافوا الزنا، فانكحوا ما حل لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات »[١].

هذه أشهر الأقوال فى معنى الآية الكريمة، ويبدو لنا أن أرجحها أولها، لأنه هو الظاهر من معنى الآية، ولأن الغالب أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - ما فسرت الآية بهذا التفسير الذى قالته لابن أختها عروة إلا عن توقيف ومعاينة لحال النزول، ولأن الملازمة بين الشرط والجزاء فى الآية على هذا الوجه تكون ظاهرة. إذ التقدير وإن خفتم أيها الأولياء الجور والظلم فى نكاح اليتامى اللاتى فى ولايتكم فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء.

أما على القول الثانى فمحل الملازمة بين الشرط والجزاء إنما هو فيما تفرع عن الجزاء وهو قوله ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾.

وعلى قول مجاهد تضعف الملازمة بين الشرط والجزاء.

هذا، والأمر فى قوله ﴿فانكحوا﴾ - على التفسير الأول - للإباحة كما فى قوله - تعالى - ﴿وكلوا واشربوا. . .﴾ خلافا للظاهرية الذين يرون أنه للوجوب. و ﴿ما﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ما طاب لكم﴾ موصولة أو موصوفة. وما بعدها صلتها أو صفتها. وأوثرت على ﴿من﴾ لأنها أريد بها الصفة وهو الطيب من النساء بدون تحديد لذات معينة، ولو قال ﴿فانكحوا من طاب لكم﴾ لتبادر إلى الذهن أن المراد نسوة طيبات معروفات بينهم.

وقوله - تعالى - ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ حال من فاعل ﴿طاب﴾ المستتر أو من مرجعه - وهو ﴿ما﴾ -، أو بدل منه.

وهذه الكلمات الثلاث من ألفاظ العدد. وتدل كل واحدة منها على المكرر من نوعها. فمثنى تدل على اثنين اثنين. وثلاث تدل على ثلاثة ثلاثة. ورباع تدل على أربعة أربعة.

والمراد منها هنا: الإذن لكل من يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين.

والمعنى: فانكحوا ما طاب لكم من النساء معدودات هذا العدد: ثنتين ثنتين. وثلاثا ثلاثا. وأربعا أربعا. حسبما تريدون وتستطيعون.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع. فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦١.

قلت : الخطاب للجميع . فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له . كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال - وهو ألف درهم - : درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة . وأربعة أربعة . ولو أفردت لم يكن له معنى .

فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون أو؟

قلت : كما جاء بالواو فى المثال الذى حذوته لك . ولو ذهبت تقول : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ؛ علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة . وليس لهم أن يجمعوا بينها . فيجعلوا بعض القسم على تثنية ، وبعضا على تثليث ، وبعضا على تربيع ، وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه الواو .

وتحريره : أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحهن من النساء على طريق الجمع : إن شاؤا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن شاؤا متفقين فيها ، محظورًا عليهم ما وراء ذلك »[1] .

ثم بين - سبحانه - لعباده ما ينبغى عليهم فعله فى حال توقعهم عدم العدل بين الزوجات فقال - تعالى - ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾ .

فالمراد بالعدل هنا : العدل بين الزوجات المتعددات .

أى : فإن علمتم أنكم لا تعدلون بين الأكثر من الزوجة الواحدة فى القسم والنفقة وحقوق الزوجية بحسب طاقتكم ، كما علمتم فى حق اليتامى أنكم لا تعدلون -إذا علمتم ذلك فالزموا زوجة واحدة ، أو أى عدد شئتم من السرارى بالغة مابلغت .

فكأنه - سبحانه - لما وسع عليهم بأن أباح لهم الزواج بالمثنى والثلاث والرباع من النساء ، أنبأهم بأنه قد يلزم من هذه التوسعة خوف الميل وعدم العدل . فمن الواجب عليهم حينئذ أن يحترزوا بالتقليل من عدد النساء فيقتصروا على الزوجة الواحدة .

ومفهومه : إباحة الزيادة على الواحدة إذا أمن الجور بين الزوجات المتعددات .

وقوله ﴿واحدة﴾ منصوب بفعل مضمر والتقدير : فالزموا واحدة أو فاختاروا واحدة فإن الأمر كله يدور مع العدل ، فأينما وجدتم العدل فعليكم به .

وقرىء بالرفع أى فحسبكم واحدة . ﴿أو﴾ للتسوية أى سوى - سبحانه - فى السهولة واليسر بين نكاح الحرة الواحدة وبين السرارى من غير تقييد بعدد ، لقلة تبعتهن ، ولخفة مؤنتهن ، وعدم وجوب القسم فيهن .

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦٨ .

وقوله ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ جملة مستأنفة بمنزلة التعليل مما قبلها.

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى اختيار الواحدة أو التسرى.

وقوله ﴿أدنى﴾ هنا بمعنى أقرب. وهو قرب مجازى. أى أحق وأعون على أن لا تعولوا.

وقوله ﴿تعولوا﴾ مأخوذ من العول وهو فى الأصل الميل المحسوس.

يقال. عال الميزان عولا إذا مال. ثم نقل إلى الميل المعنوى وهو الجور والظلم؛ ومنه عال الحاكم إذا جار، والمراد هنا الميل المحظور المقابل للعدل.

والمعنى: أن ما ذكر من اختيار الزوجة الواحدة والتسرى، أقرب بالنسبة إلى ما عداهما إلى العدل وإلى عدم الميل المحظور، لأن من اختار زوجة واحدة فقد انتفى عنه الميل والجور رأسا لانتفاء محله ومن تسرى فقد انتفى عنه خطر الجور والميل. أما من اختار عددا من الحرائر فالميل المحظور متوقع منه لتحقق المحل والخطر.

ولأن التعدد فى الزوجات يعرض المكلف غالبا للجور وإن بذل جهده فى العدل.

وهذا المعنى على تفسير (تعولوا) بمعنى تجوروا وتميلوا عن الحق. وهو اختيار أكثر المفسرين.

وقيل: إن معنى ﴿ألا تعولوا﴾ ألا تكثر عيالكم. يقال: عال يعول، إذا كثرت عياله. وقد حكى صاحب الكشاف هذا المعنى عن الإمام الشافعى فقال:

«والذى يحكى عن الشافعى - رحمه الله - أن فسر ﴿أن لا تعولوا﴾ بأن لا تكثر عيالكم.

فوجهه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم كقولهم: ما نهم يمونهم إذا أنفق عليهم. لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الكسب وحدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب.

ثم قال: وكلام مثله من أعلام العلم، وأئمة الشرع، ورءوس المجتهدين، حقيق بالحمل على الصحة والسداد..

وقرأ طاووس: أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعى من حيث المعنى الذى قصده»[1].

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها: جواز تعدد الزوجات إلى أربع بحيث لا يجوز الزيادة عليهن مجتمعات، لأن هذا العدد قد ذكر فى مقام التوسعة على المخاطبين، ولو كانت تجوز الزيادة على هذا العدد لذكرها الله - تعالى -.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦٨.

وقد أجمع الفقهاء على أنه لا تجوز الزيادة على الأربع، ولا يقدح فى هذا الإجماع ما ذهب إليه بعض المبتدعة من جواز الجمع بين ما هو أكثر من الأربع الحرائر، لأن ما ذهب إليه هؤلاء المبتدعة لا يعتد به. إذ الإجماع قد وقع وانقضى عصر المجمعين قبل ظهور هؤلاء المبتدعين المخالفين.

وقد رد العلماء على هؤلاء المخالفين بما يهدم أقوالهم، ومن العلماء الذين تولوا الرد عليهم الإمام القرطبى فقد قال - ما ملخصه - :

«أعلم أن هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدل على إباحة تسع. كما قاله من بعُد فهمه عن الكتاب والسنة، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة، وعضد ذلك بأن النبى ﷺ نكح تسعا، وجمع بينهن فى عصمته. والذى صار إلى هذه الجهالة وقال هذه المقالة الرافضة وبعض أهل الظاهر، جعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع.

وهذا كله جهل باللسان والسنة ومخالفة لإجماع الأمة، إذ لا يسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع فى عصمته أكثر من أربع.

وأخرج مالك فى الموطأ والنسائى والدارقطنى فى سننهما أن النبى ﷺ قال لغيلان بن أمية الثقفى وقد أسلم وتحته عشر نسوة «اختر منهن أربعا وفارق سائرهن».

وأما ما أبيح من ذلك للنبى ﷺ فذلك من خصوصياته.

وأما قولهم إن الواو جامعة. فقد قيل ذلك، ولكن الله - تعالى - خاطب العرب بأفصح اللغات. والعرب لا تدع أن تقول تسعة وتقول اثنين وثلاثة وأربعة. وكذلك تستقبح ممن يقول، أعط فلانا أربعة، ستة، ثمانية، ولا يقول: ثمانية عشر.

وإنما الواو فى هذا الموضع بدل، أى أنكحوا ثلاث بدلا من مثنى، ورباع بدلا من ثلاث، ولذلك عطف بالواو ولم يعطف بأو. ولو جاء بأو لجاز ألا يكون لصاحب المثنى ثلاث، ولا لصاحب الثلاث رباع.

وقد قال مالك والشافعى فى الذى يتزوج خامسة وعنده أربع: عليه الحد إن كان عالما. وقال الزهرى: يرجم إن كان عالما، وإن كان جاهلا فعليه أدنى الحدين الذى هو الجلد، ولها مهرها، ويفرق بينهما ولا يجتمعان أبدا»[1].

كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى وإن كان قد أباح التعدد وحدد غايته بأربع بحيث لا يجوز الزيادة عليهن، إلا أنه - سبحانه - قد قيد هذه الإباحة

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١٧.

بالعدل بينهم فيما يستطيع الإنسان العدل فيه بحسب طاقته البشرية، بأن يعدل بينهن فى النفقة والكسوة والمعاشرة الزوجية. فإن عجز عن ذلك لم يبح له التعدد.

وللإمام الشيخ محمد عبده كلام حسن فى المعنى، فقد قال - رحمه الله - «قد أباحت الشريعة الإسلامية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة. قال - تعالى : ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقبها اختل نظام المنزل، وساءت معيشة العائلة إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة..

وقد كان النبى ﷺ، والخلفاء الراشدون، والعلماء الصالحون من كل قرن إلى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن. فكان ﷺ وأصحابه والصالحون من أمته لايأتون حجرة إحدى الزوجات فى نوبة الأخرى إلا بإذنها.

وقد قال ﷺ : «من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل».

وكان ﷺ يعتذر عن ميله القلبى بقوله : «اللهم هذا - أى العدل فى البيات والعطاء - جهدى فيما أملك، ولا طاقة لى فيما تملك ولاأملك - يعنى الميل القلبى». وكان يقرع بينهم إذا أراد سفرا.

ثم قال فى نهاية حديثه : فعلى العقلاء أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال التى لاتليق بمسلمة[1].

هذا، وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لمشروعية تعدد الزوجات، ومن هذه الحكم أن فى هذا التعدد وسيلة إلى تكثير عدد الأمة بازدياد عدد المواليد فيها. ولاشك أن كثيرا من الأمم الإسلامية التى اتسعت أرضها، وتعددت موارد الثروة فيها، فى حاجة إلى تكثير عدد أفرادها حتى تنتفع بما حباها الله من خيرات، وتستطيع الدفاع عن نفسها إذا ما طمع فيها الطامعون، واعتدى عليها المعتدون.

ومنها أن التعدد يعين على كفالة النساء وحفظهن وصيانتهن من الوقوع فى الفاحشة، لاسيما فى أعقاب الحروب التى - عادة - تقضى على الكثيرين من الرجال، ويصبح عدد النساء أكبر بكثير من عدد الرجال.

ومنها أن الشريعة الإسلامية قد حرمت الزنا تحريما قاطعا، وعاقبت مرتكبه بأقسى أنواع

(١) تفسير المنار جـ٤ ص٣٦٤ وما بعدها - بتصرف وتلخيص -.

العقوبات وأزجرها، بسبب ما يجر إليه من فساد فى الأخلاق والأنساب ونظام الأسر، فناسب أن توسع على الناس فى تعدد النساء لمن كان من الرجال ميالا للتعدد، مستطيعا لتكاليفه ومطالبه.

ومنها قصد الابتعاد عن الطلاق، فإن المرأة قد لاتكون قادرة على القيام بالمطالب الزوجية التى تحتمها حياتها مع زوجها بسبب مرضها أو عجزها أو عقمها أو غير ذلك من الأسباب، فيلجأ زوجها إلى الزواج بأخرى غيرها مع بقاء الزوجة الأولى فى عصمته بدل أن يطلقها فتفقد حياتها الزوجية، وقد تكون هى فى حاجة إلى هذا الزوج الذى يقوم برعايتها وحمايتها والقيام بشأنها.

والخلاصة أن الله - تعالى - قد علم أن مصلحة الرجال والنساء قد تستدعى تعدد الزوجات، -بل قد توجبه فى بعض الحالات- فأباح لهم هذا التعدد، وحدد غايته بأربع بحيث لايجوز الزيادة عليهن، وقيد - سبحانه - هذه الإباحة بالعدل بينهن فيما يستطيع الإنسان العدل فيه بحسب طاقته البشرية، فإن علم الإنسان من نفسه عدم القدرة على العدل بينهن لم يبح له التعدد.

ولو أن المسلمين ساروا على حسب ما شرع الله لهم لسعدوا فى دنياهم وفى آخرتهم؛ لأن الله - تعالى - ما شرع لهم إلا ما فيه منفعتهم وسعادتهم.

ثم أمر الله تعالى الرجال أن يعطوا النساء مهورهن كاملة عن رضا وسماحة نفس، وألايطمعوا فى شىء مما أعطاه الله لهن فقال - تعالى - :

وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾

وقوله ﴿صدقاتهن﴾ جمع صدقة - بضم الدال - وهى ما يعطى للزوجة من المهر.

وقوله ﴿نحلة﴾ أى عطية واجبة وفريضة لازمة. إذ النحلة فى الأصل: العطية على سبيل التبرع. يقال: نحله كذا نحلة ونحلا، إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا مقابلة عوض.

والمعنى: وأعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس منكم، لأن هذه المهور قد فرضها الله لهن، فلا يجوز أن يطمع فيها طامع، أويغتالها مغتال، والخطاب للأزواج. قالوا: لأن

الرجل كان يتزوج المرأة بلا مهر ويقول لها : أرثك وترثيني ؟ فتقول : نعم . فأمروا أن يسرعوا إلى إعطاء المهور(١).

وقيل : الخطاب لأولياء النساء، وذلك لأن العرب في الجاهلية كانت لاتعطى النساء من مهورهن شيئا، ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت : هنيئا لك النافجة. أى هنيئا لك هذه البنت التى تأخذ مهرها إبلا فتضمها إلى إبلك فتنفج مالك أى تزيده وتكثره.

وقد رجح ابن جرير كون الخطاب للأزواج فقال : «وذلك لأن الله – تعالى – ابتدأ ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين للنساء، ونهاهم عن ظلمهن. ولا دلالة فى الآية على أن الخطاب قد صرف عنهم إلى غيرهم. فإذا كان ذلك كذلك؛ فمعلوم أن الذين قيل لهم : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ هم الذين قيل لهم : ﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ وأن معناه : وآتوا من نكحتم من النساء صدقاتهن نحلة، لأنه قال فى الأول : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾. . ولم يقل «فأنكحوا» حتى يكون قوله : ﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ مصروفا إلى أنه معنى به أولياء النساء دون أزواجهن. وهذا أمر من الله لأزواج النساء المسمى لهن الصداق أن يؤتوهن صدقاتهن»(٢) والذى نراه أن الخطاب فى الآية الكريمة يتناول كل من له علاقة بالنساء من الأزواج أو الأولياء وغيرهم من الحكام الذين اليهم المرجع فى رد الحقوق إلى ذويها، والضرب على أيدى المعتدين والطامعين فى حقوق النساء، وذلك لأن الخطاب من أول السورة موجه إلى الأولياء والأزواج فناسب أن يكون الخطاب هنا شاملا لكليهما فإن أعطوهن عن رضا كان حسنا وإلا أجبرهم الحكام على ذلك.

وقوله ﴿نحلة﴾ منصوب على الحالية من قوله ﴿صدقاتهن﴾ أى : منحولة معطاة عن طيب نفس. أو منصوب على الحالية من المخاطبين. أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبى النفوس بالإعطاء.

وفى التعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة الأداء. لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر دون أن يكون لهذه النحلة مقابل.

وقوله–تعالى–﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾ بيان للحكم فيما إذا تنازل النساء عن شيء مما أعطوا عن طيب خاطر منهن أى عليكم أيها الرجال أن تدفعوا للنساء مهورهن مناولة أو التزاما، فإن حدث وتنازل لكم النساء عن شيء من هذه المهور بسماحة

(١) تفسير الألوسى جـ٤ ص١٩٨.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٢٤٢ بتصرف يسير.

ورضا نفس، فكلوه أكلا سائغا، حميد المغبة، حلال الطعمة، خاليا من شائبة الحرام والشبهات :

والضمير المجرور فى قوله ﴿منه﴾ يعود إلى الصدقات أى المهور.

وجىء به مفردًا مذكرا، لجريانه مجرى اسم الاشارة كأنه قيل : فإن طابت أنفسهن لكم عن شىء من ذلك المذكور وهو الصدقات فكلوه.

قال صاحب الكشاف : وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل : فإن طبن ولم يقل فإن وهبن أو سمحن، إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب عن طيب خاطر.

والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من الصداق، وتجافت عنه نفوسهن طيبات لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم، ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم، وسوء معاشرتكم فكلوه هنيئا مريئا»[1].

وقوله ﴿نفسا﴾ منصوب على التمييز من الضمير وهو نون النسوة فى قوله ﴿طبن﴾.. وهو محول عن الفاعل والأصل فان طابت أنفسهن عن شىء منه فكلوه.

وجىء به مفردًا لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه كقولك : عندى عشرون درهما.

والمراد بالأكل فى قوله ﴿فكلوه﴾ مطلق التصرف والانتفاع.

وإنما خص الأكل بالذكر، لأنه معظم وجوه التصرفات المالية.

وقوله ﴿هنيئا مريئا﴾ حالان من الضمير المنصوب فى قوله ﴿فكلوه﴾ أو منصوبان على أنهما نعت لمصدر محذوف. أى فكلوه أكلا هنيئا مريئا. وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ. يقال : هنؤ الطعام وهنىء هناءة. إذا كان سائغا لاتنغيص فيه. وقيل الهنىء ما أتاك بلامشقة ولاتبعة.

ويقال مرأ الطعام - بتثليث الراء - مراءة فهو مرىء، إذا كان حميد المغبة والمراد المبالغة فى تحليل ما يأتيهم من نسائهم عن طيب خاطر منهن، فقد كانوا يتأثمون من أخذ شىء من مهور نسائهم، فقال الله - تعالى - لهم : إن طابت نفوسهن بالتنازل عن شىء من مهورهن لكم فكلوه هنيئا مريئا، لأنه حلال خالص من الشوائب.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أنه لابد فى النكاح من صداق يعطى للمرأة سواء أسمى ذلك فى العقد أم لم يسم. قال القرطبى : وهو مجمع عليه ولا خلاف عليه[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٧١ بتصرف يسير.

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٤.

ومنها : أن هذا الصداق ملك لها، ومن حقها أن تتصرف فيه بما شاءت. ولم تفصل الآية بين أن تقبضه أولا. ولذا قال بعض الفقهاء. لها أن تبيع مهرها قبل أن تقبضه لأنه ملك بلا عوض وقال آخرون : ليس لها أن تبيعه حتى تقبضه لنهيه ﷺ عن بيع مالم يقبض.

ومنها : أنه يجوز للمرأة أن تعطى زوجها - برضاها واختيارها - مهرها أو جزءًا منه سواء أكان مقبوضا معينا أم كان فى الذمة. فشمل ذلك الهبة والإبراء. وأنه ليس من حقها الرجوع فيما أعطت لأنها قد طابت نفسها بذلك. وهذا رأى جمهور العلماء. ويرى بعض العلماء أن من حقها الرجوع فيما أعطت.

قال الفخر الرازى : قال بعض العلماء : إن وهبت ثم طلبت بعد الهبة علم أنها لم تطب عنه نفسا. وعن الشعبى : أن أمرأة جاءت مع زوجها إلى شريح القاضى فى عطية أعطتها إياه. وهى تطلب الرجوع. فقال شريح : رد عليها عطيتها. فقال الرجل : أليس قد قال الله - تعالى - : ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه﴾؟ فقال شريح : لو طابت نفسها لما رجعت فيه.

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كتب إلى قضاته. أن النساء يعطين رغبة ورهبة. فأيما امرأة اعطت ثم ارادت أن ترجع فذلك لها»[1].

* * *

ثم نهى - سبحانه - عن إيتاء الأموال للسفهاء، لدفع توهم إيجاب أن يؤتى كل مال لمالكه ولو كان سفيها فقال تعالى :

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

والسفهاء جمع سفيه. والسفه - كما يقول الراغب - : خفة فى البدن، ومنه قيل : زمام سفيه أى كثير الأضطراب، وثوب سفيه ردىء النسج، واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل، ويكون فى الأمور الدنيوية والأخروية، قال - تعالى - فى السفه الدنيوى : ﴿ولاتؤتوا السفهاء أموالكم﴾ وقال فى السفه الأخروى ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٨٣.

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص٣٥ للراغب الأصفهانى.

والمراد من السفهاء هنا: ضعاف العقول والأفكار الذين لايحسنون التصرف.

والمراد من قوله ﴿قياما﴾ ما به القيام والتعيش. يقال فلان قيام أهله: أى يقيم شأنهم ويصلهم. وهو المفعول الثانى لجعل. أما المفعول الأول لجعل فمحذوف ويرجع إلى ضمير الأموال.

وقرأ نافع وابن عامر ﴿التى جعل الله لكم قيمًا﴾ على أنه مصدر مثل الحول والعوض.

وقرأ ابن عمر ﴿قواما﴾ - بكسر القاف وبواو وألف -

قال الآلوسى: وفيه وجهان:

الأول: أنه مصدر قاومت قواما مثل لاوذت لواذا فصحت الواو فى المصدر كما صحت فى الفعل.

والثانى: أنه اسم لما يقوم به الأمر وليس بمصدر»[1].

هذا، وقد اختلف المفسرون فى تعيين المخاطبين بقوله - تعالى - ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ كما اختلفوا فى المراد من السفهاء على أقوال أشهرها:

أن المخاطبين بهذه الآية هم أولياء اليتامى، وأن المراد من السفهاء هم اليتامى الذين لم يحسنوا التصرف فى أموالهم لصغرهم أو لضعف عقولهم، واضطراب أفكارهم. وأن المراد بالأموال فى قوله ﴿أموالكم﴾ هى أموال هؤلاء اليتامى لا أموال الأولياء.

فيكون المقصود من الآية الكريمة نهى الأولياء عن إيتاء السفهاء من اليتامى أموالهم التى جعلها الله مناط تعيشهم، خشية إساءة التصرف فيها لخفة أحلامهم.

وإنما أضيفت الأموال فى الآية الكريمة إلى ضمير المخاطبين وهم الأولياء، مع أن هذه الأموال فى الحقيقة لليتامى:

للتنبيه إلى أن أموال اليتامى كأنها عين أموالهم، مبالغة فى حملهم على وجوب حفظها وصيانتها من أى إتلاف أو إضرار بها.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: والدليل على أن الخطاب فى الآية الكريمة للأولياء قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ وأيضا فعلى هذا القول يحسن تعليق هذه الآية بما قبلها فكأنه - تعالى - يقول: إنى وإن كنت أمرتكم بإيتاء اليتامى أموالهم. فإنما قلت ذلك إذا كانوا عاقلين بالغين متمكنين من حفظ أموالهم، فأما إذا كانوا غير بالغين أو غير عقلاء، أو إن كانوا بالغين عقلاء إلا أنهم كانوا سفهاء مسرفين، فلا تدفعوا إليهم أموالهم وأمسكوها

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص١٠٢.

لأجلهم إلى أن يزول عنهم السفه. والمقصود من كل ذلك الاحتياط فى حفظ أموال الضعفاء والعاجزين »[١].

وقيل : إن الخطاب فى الآية الكريمة للأباء، والمراد من السفهاء الأولاد الذين لايستقلون بحفظ المال وإصلاحه، بل إذا أعطى لهم أفسدوه وأتلفوه.

وعلى هذا الرأى تكون إضافة الأموال إلى المخاطبين على سبيل الحقيقة.

ويكون المعنى : لا تؤتوا أيها الأباء أموالكم لأولادكم السفهاء؛ لأن فى إعطائكم إياها لهم إفسادا لهم مع أن فيها قوام حياتكم وصلاح أحوالكم.

والذى نراه أن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع المكلفين حاكمين ومحكومين ليأخذ كل من يصلح لهذا الحكم حظه من الامتثال. وأن المراد بالسفهاء كل من لايحسن المحافظة على ماله لصغره، أو لضعف عقله، أو لسوء تصرفاته سواءً أكان من اليتامى أم من غيرهم؛ لأن التعميم فى الخطاب وفى الألفاظ - عند عدم وجود المخصص - أولى، لأنه أوفر معنى، وأوسع تشريعا.

وفى إضافة الأموال إلى جميع المخاطبين المكلفين من المسلمين إشارة بديعة إلى أن المال المتداول بينهم هو حق لمالكيه المختصين به فى ظاهر الأمر، ولكنه عند التأمل تلوح فيه حقوق الأمة جمعاء؛ لأن وضعه فى المواضع التى أمر الله بها منفعة للأمة كلها، وفى وضعه فى المواضع التى نهى الله عنها مضرة بالأمة كلها، وتعاليم الإسلام التى تجعل المسلمين جميعا أمة واحدة متكافلة متراحمة تعتبر مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين.

وبعد أن نهى - سبحانه - عن إيتاء المال للسفهاء، أمر بثلاثة أشياء، أولها وثانيها قوله - تعالى - ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾.

أى اجعلوا هذه الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا فيها حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من أصل المال لئلا يفنيه الإنفاق منه.

وإنما قال : ﴿وارزقوهم فيها﴾ ولم يقل «منها»؛ لئلا يكون ذلك أمرا بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقا لهم، بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكانا لرزقهم بأن يتجروا فيها ويستثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال.

أما الأمر الثالث فهو قوله - تعالى -: ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾.

والقول المعروف هو كل ما تسكن إليه النفس لموافقته للشرع وللعقول السليمة، كأن يكلموهم كلاما لينا تطيب به نفوسهم، وكأن يعدوهم عدة حسنة بأن يقولوا لهم : إذا صلحتم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٣.

ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وكأن ينصحوهم بما يصلحهم ويبعدهم عن السفه وسوء التصرف.

وفى أمره - سبحانه - للمخاطبين بأن يقولوا لهؤلاء السفهاء قولا معروفا، بعد أمره لهم برزقهم وكسوتهم، إشعار بأن من الواجب عليهم أن يقدموا إليهم الرزق والكسوة مصحوبين بوجه طلق، وبقول جميل بعيد عن المن والأذى، فقد جرت عادة من تحت يده المال أن يستثقل إخراجه لمن سأله إياه.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المحافظة على الأموال وعدم تضييعها.

قال صاحب الكشاف : وكان السلف يقولون : المال سلاح المؤمن. ولأن أترك مالا يحاسبنى الله عليه، خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان - وكانت له بضاعة يقلبها - : لولاها لتمندل بى بنوالعباس - أى لولاها لأتخذونى كالمنديل يسخروننى لمصالحهم -. وقيل لأبى الزناد : لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا؟ فقال : لئن أدنتنى من الدنيا فقد صانتنى عنها. وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا فإنكم فى زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه. وربما رأوا رجلا فى جنازة، فقالوا له : اذهب إلى دكانك»(١).

وقال بعض العلماء : ولنقف عند قوله - تعالى - ﴿ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾ لنعلم ما يوحى به من تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض. ومن أن االمال الذى فى يد بعض الأفراد «قوام للجميع» ينتفعون به فى المشروعات العامة، ويفرجون به أزماتهم وضائقاتهم الخاصة عن طريق الزكاة، وعن طريق التعاون وتبادل المنافع. وهذا هو الوضع المالى فى نظر الشريعة الإسلامية، فليس لأحد أن يقول : مالى مالى. هو مالى وحدى لاينتفع به سواى، ليس لأحد أن يقول هذا أو ذاك. فالمال مال الجميع، والمال مال الله، ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ودفع الملمات. وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه لا كما يشاء ويهوى بل كما رسم الله وبين فى كتابه، حتى إذا ما أخل بذلك فأسرف وبذر أو ضن وقتر حجر عليه»(٢).

كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب الحجر على السفهاء، لأن الله - تعالى - قد أمر بذلك. ووجوب إقامة الوصى والولى والكفيل على الأيتام الصغار ومن فى حكمهم ممن لايحسنون التصرف.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٧٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم ص١٩٠ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت.

ثم بين - سبحانه - الوقت الذى يتم فيه تسليم أموال اليتامى إليهم، وكيف تجب حياطتهم والعناية بهم وبأموالهم فقال - تعالى - :

وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

وقوله - تعالى - ﴿وابتلوا﴾ من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان.

والخطاب للأولياء والأوصياء وكل من له صلة باليتامى.

والمراد ببلوغ النكاح هنا: بلوغ الحلم المذكور فى قوله - تعالى - : ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا﴾

وقوله ﴿آنستم﴾ أى تبينتم وشاهدتم وأحسستم.

قال القرطبى: ﴿آنستم﴾ أى أبصرتم ورأيتم ومنه قوله - تعالى - : ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارًا﴾ أى أبصر ورأى. وتقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى أحدا. معناه: تبصر. وقيل: آنست وأحسست ووجدت بمعنى واحد[1].

والمعنى: عليكم أيها الأولياء والأوصياء أن تختبروا اليتامى، وذلك بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور، وحسن التصرف فى الأموال وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم حتى لا يجىء وقت بلوغهم إلا وقد صاروا فى قدرتهم أن يصرفوا أموالهم تصريفًا حسنًا. فإن شاهدتم وأحسستم منهم ﴿رشدا﴾ أى صلاحا فى عقولهم، وحفظا لأموالهم، فادفعوها إليهم من غير تأخير أو مماطلة.

و﴿حتى﴾ هنا للغاية، وهى داخلة على الجملة، فهى تبين نهاية الصغر، والجملة التى دخلت عليها ظرفية فى معنى الشرط.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٣٦.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف نظم الكلام ؟ قلت : مابعد ﴿حتى﴾ إلى قوله : ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جعل غاية للابتلاء، وهى ﴿حتى﴾ التى تقع بعدها الجمل. والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية، لأن إذا متضمنة معنى الشرط. وفعل الشرط ﴿بلغوا النكاح﴾ وقوله ﴿فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جوابًا للشرط الأول الذى هو إذا بلغوا النكاح. فكأنه قيل : وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم، فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم.

فإن قلت : فما معنى تنكير الرشد؟ قلت : معناه نوعا من الرشد وهو الرشد فى التصرف والتجارة. أو طرفا من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لاينتظر به تمام الرشد»[1].

ثم نهى - سبحانه - الأوصياء وغيرهم عن الطمع فى شىء من مال اليتامى فقال - تعالى - :

﴿ ولا تأكلوها إسرافًا وبدارا أن يكبروا﴾.

أى : ادفعوا أيها الأولياء والأوصياء إلى اليتامى أموالهم من غير تأخير عن حد البلوغ، ولاتأكلوها مسرفين فى الأكل ومبادرين بالأخذ خشية أن يكبروا، بأن تفرطوا فى إنفاقها وتقولوا : ننفقها كما تريد قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا.

والإسراف فى الأصل - كما يقول الألوسى - تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح. وربما كان ذلك فى الإفراط وربما كان فى التقصير. غير أنه إذا كان فى الإفراط منه يقال : أسرف يسرف إسرافًا. وإذا كان فى التقصير يقال : سرف يسرف سرفا»[2].

وقوله ﴿بدارًا﴾ مفاعلة من البدر وهو العجلة إلى الشىء والمسارعة إليه. وهما - أى قوله ﴿إسرافًا وبدارًا﴾ منصوبان على الحال من الفاعل فى قوله ﴿تأكلوها﴾ أى : ولاتأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم. أو منصوبان على أنهما مفعول لأجله، أى ولاتأكلوها لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم.

والمراد من هذه الجملة الكريمة بيان أشنع الأحوال التى تقع من الأوصياء أو الأولياء وهى أن يأكلوا أموال اليتامى بإسراف وتعجل مخافة أن يبلغ الأيتام رشدهم، فتؤخذ من أولئك الأوصياء تلك الأموال لترد إلى أصحابها وهم اليتامى بعد أن يبلغوا سن الرشد.

ثم بين - سبحانه - ما ينبغى على الوصى إن كان غنيا وما ينبغى له إن كان فقيرًا فقال :

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٧٣ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٧٠١.

﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف﴾.

والاستعفاف عن الشيء تركه. يقال: عف الرجل عن الشيء واستعف إذا أمسك عنه. والعفة: الامتناع عما لايحل.

أي: ومن كان من الأولياء أو الأوصياء على أموال اليتامى غنيا فليستعفف أى فليتنزه عن أكل مال اليتيم، وليقنع بما أعطاه الله من رزق وفير إشفاقا على مال اليتيم. ومن كان فقيرًا من هؤلاء الأوصياء فليأكل بالمعروف، بأن يأخذ من مال اليتيم على قدر حاجته الضرورية وأجر سعيه وخدمته له. فقد روى أبوداود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إنى فقير ليس لى شيء ولى يتيم. قال فقال له النبى ﷺ: كل من مال يتيمك غير مسرف ولامبادر ولا متأثل»[1]. أى غير مسرف فى الأخذ، ولامبادر أى متعجل، ولاجامع منه ما يتجاوز حاجتك.

ثم بين - سبحانه - ما ينبغى على الأوصياء عند انتهاء وصايتهم على اليتامى وعند دفع أموالهم إليهم فقال: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا﴾.

أى: فإذا أردتم أيها الأولياء أن تدفعوا إلى اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم بعد البلوغ والرشد، فأشهدوا عليهم عند الدفع بأنهم قبضوها وبرئت عنها ذممكم، لأن هذا الإشهاد أبعد عن التهمة، وأنفى للخصومة، وأدخل فى الأمانة وبراءة الساحة.

وقوله - تعالى - ﴿وكفى بالله حسيبًا﴾ أى كفى بالله محاسبا لكم على أعمالكم وشاهدا عليكم فى أقوالكم وأفعالكم، ومجازيا إياكم بما تستحقون من خير أو شر، لأنه - سبحانه - لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء. وإنكم إن أفلتم من حساب الناس فى الدنيا فلن تفلتوا من حساب الله الذى لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلاأحصاها، فعليكم أن تتحروا الحلال فى كل تصرفاتكم. ففى هذا التذييل وعيد شديد لكل جاحد لحق غيره، ولكل معتد على أموال الناس وحقوقهم، ولاسيما اليتامى الذين فقدوا الناصر والمعين.

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة جملة من الأحكام منها:

١ - أن على الأوصياء أن يختبروا اليتامى بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأموال وحسن التصرف فيها، وأن يمرنوهم على ذلك بحسب ما يليق بأحوالهم.

ويرى جمهور العلماء أن هذا الاختبار يكون قبل البلوغ. ويرى بعضهم أن هذا الاختبار يكون بعد البلوغ.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤١.

وقد قال القرطبى فى بيان كيفية هذا الأختبار ما ملخصه: لابأس فى أن يدفع الولى إلى اليتيم شيئا من ماله يبيح له التصرف فيه، فإن نماه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار، ووجب على الوصى تسليم جميع ماله إليه - أى بعد بلوغه - وإن أساء النظر وجب عليه إمساك المال عنه..

وقال جماعة من الفقهاء: الصغير لايخلو من أن يكون غلاما أو جارية، فإن كان غلاما رد النظر إليه فى نفقة الدار شهرا، وأعطاه شيئا نزرا ليتصرف فيه؛ ليعرف كيف تدبيره وتصرفه، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه، فإذا رآه متوخيا الإصلاح سلم إليه ماله عند البلوغ وأشهد عليه.

وإن كان جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه فإن رآها رشيدة سلم إليها مالها وأشهد عليها وإلابقيا تحت الحجر»(١).

وقد بنى الإمام أبوحنيفة على هذا الاختبار أن تصرفات الصبى العاقل المميز بإذن الولى صحيحة، لأن ذلك الاختبار إنمايحصل إذا أذن له الولى فى البيع والشراء - مثلا - وهذا يقتضى صحة تصرفاته.

ويرى الإمام الشافعى أن الاختبار لايقتضى الإذن فى التصرف ولايتوقف عليه، بل يكون الاختبار بدون التصرف على حسب ما يليق بحال الصبى فابن التاجر - مثلا - يختبر فى البيع والشراء إلى حيث يتوقف الأمر على العقد وحينئذ يعقد الولى إن أراد.

٢ - كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أن الأوصياء لايدفعون أموال اليتامى إليهم إلابتحقيق أمرين:

أحدهما: بلوغ النكاح.

والثانى: إيناس الرشد.

والمراد ببلوغ النكاح بلوغ وقته وهو التزوج، وهو كناية عن الخروج من حالة الصبا للذكر والأنثى، بأن توجد المظاهر التى تدل على الرجولة فى الغلام، والتى تدل على مبلغ بلوغ النساء فى الفتاة، وذلك يكون بالاحتلام أوبالحيض بالنسبة للفتاة أوببلوغ سن معينة قدرها بعضهم بخمس عشرة سنة بالنسبة للذكر والأنثى على السواء.

وقدرها أبوحنيفة بسبع عشرة سنة بالنسبة للفتاة، وبثمانى عشرة سنة بالنسبة للفتى.

ومن بلاغة القرآن الكريم أنه عبر عن حالة البلوغ بقوله: ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ لأن

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٣٤.

هذا الوقت يختلف باختلاف البلاد فى الحرارة والبرودة، وباختلاف أمزجة أهل البلد الواحد فى القوة والضعف، والصحة والمرض.

والمراد بإيناس الرشد: أن يتبين الأولياء من اليتامى الصلاح فى العقل والخلق والتصرف فى الأموال.

ويرى جمهور العلماء أن اليتيم لايدفع إليه ماله مهما بلغت سنه ما لم يؤنس منه الرشد لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾.

ويقول: ﴿فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ ومعنى ذلك أنه إذا لم يؤنس منهم الرشد لا تدفع إليهم أموالهم، بل يستمرون تحت ولاية الأولياء عليهم لأنهم ما زالوا سفهاء لم يتبين رشدهم.

وقد خالف الإمام أبوحنيفة جمهور الفقهاء فقال. لايدفع إلى اليتيم ماله إذا بلغ ولم يؤنس منه الرشد حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة، فإذا بلغها عاقلا ولو غير رشيد فليس لأحد عليه سبيل، ويجب أن يدفع الوصى إليه ماله ولو كان فاسقا أو مبذرا.

قالوا: وإنما اختار أبوحنيفة هذه السن لأن مدة بلوغ الذكر عنده ثمانى عشرة سنة، فإذا زيد عليها سبع سنين - وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان - فعند ذلك يدفع إليه ماله أونس منه الرشد أو لم يؤنس، لأن اسم الرشد واقع على العقل فى الجملة، والله - تعالى - شرط رشدا منكرا ولم يشترط سائر ضروب الرشد، فاقتضى ظاهر الآية أنه لما حصل العقل فقد حصل ما هو الشرط المذكور فى هذه الآية(١).

٣ - كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن الوصى على اليتيم إذا كان غنيا فعليه أن يتحرى العفاف. وألا يأخذ شيئا من مال اليتيم، لأن أخذه مع غناه يتنافى مع العفاف الذى يجب أن يتحلى به الأوصياء، ويعتبر من باب الطمع فى مال اليتيم.

أما إذا كان الوصى فقيرًا فقد أذن الله له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف أى بالقدر الذى تقتضيه حاجته الضرورية، ولايستنكره الشرع ولا العقل.

وقد بسط الإمام الرازى القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه: اختلف العلماء فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم أولا؟

فمنهم من يرى أن للوصى أن يأخذ من مال اليتيم بقدر أجر عمله؛ لأن قوله - تعالى - ﴿ولاتأكلوها إسرافا﴾ مشعر بأن له أن يأكل بقدر الحاجة. ولأن قوله - تعالى - ﴿إن الذين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٨٩ - بتصرف وتلخيص.

يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ يدل على أن مال اليتيم قد يؤكل ظلما وغير ظلم، ولو لم يكن ذلك لم يكن لقوله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ فائدة. فهذا يدل على أن للوصى المحتاج أن يأكل من ماله بالمعروف. ولأن الوصى لما تكفل بإصلاح مهمات الصبى وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياسا على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها؛ فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم فكذا ههنا.

ومنهم من يرى أن له أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه من مال اليتيم قرضا، ثم إذا أيسر قضاه، وإن مات ولم يقدر على القضاء بأن كان معسرا فلا شىء عليه»[١].

ويشهد لهذا الرأى قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: إنى أنزلت نفسى من هذا المال منزلة والى اليتيم. إن استغنيت استعففت. وإن احتجت استقرضت. فإذا أيسرت قضيت»[٢].

٤ - كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية أن على الأوصياء عندما يدفعون أموال اليتامى إليهم أن يشهدوا على دفعها، منعا للخصومات والمنازعات، وإبراء لذمة الأوصياء، ولكى يكون اليتامى على بينة من أمرهم.

وقد اختلف العلماء فى أن الوصى إذا ادعى بعد بلوغ اليتيم أنه قد دفع إليه ماله هل يصدق؟ وكذلك إذا قال: أنفقت عليه فى صغره هل يصدق؟

أما الشافعية والمالكية والحنابلة فيرون أنه لايصدق؛ لأن الآية الكريمة تقول: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ وقوله ﴿فأشهدوا عليهم﴾ أمر. وظاهر الأمر أنه للوجوب. وليس معنى الوجوب هنا أنه يأثم إذا لم يشهد. بل معناه أن الاشهاد لابد منه فى براءة ذمته بأن يدفع له ماله أمام رجلين أو رجل وامرأتين حتى إذا دفع المال ولم يشهد ثم طالبه اليتيم فحينئذ يكون القول ما قاله اليتيم بعد أن يقسم على أن الوصى لم يدفع إليه ماله.

ويرى الإمام أبوحنيفة أن الأمر فى قوله - قوله - ﴿فأشهدوا عليهم﴾ للندب. وأن الوصى إذا ادعى ذلك يصدق ويكتفى فى تصديقه بيمينه؛ لأنه أمين لم تعرف خيانته، إذ لو عرفت خيانته لعزل. والأمين يصدق باليمين إذا كان هناك خلاف بينه وبين من ائتمنه. ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ يؤيد أن البينة ليست لازمة؛ إذ معناه أنه لاشاهد أفضل من الله - تعالى - فيما بينكم وبينهم.

* * *

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٩٠.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٥٤.

ثم شرع - سبحانه - فى بيان أحكام المواريث بعد أن بين الأحكام التى تتعلق بأموال اليتامى فساق - سبحانه - قاعدة عامة لأصل التوريث فى الإسلام هى أن الرجال لايختصون بالميراث، بل للنساء معهم حظ مقسوم، ونصيب مفروض، سواء أكان الشىء الموروث قليلا أم كثيرا فقال تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

قال القرطبى ما ملخصه: نزلت هذه الآية فى أوس بن ثابت الأنصارى. توفى وترك امرأة يقال لها: أم كُجّة وثلاث بنات له منها؛ فقام رجلان هما أبنا عم الميت ووصياه يقال لهما: سويد وعرفجة؛ فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئا. وكانوا فى الجاهلية لايورثون النساء ولاالصغير وإن كان ذكرا ويقولون: لايعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة. فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله ﷺ: فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدها لايركب فرسا، ولايحمل كلا، ولاينكأ عدوا. فقال ﷺ: «انصرفا حتى أنظر مايحدث الله لى فيهن، فأنزل الله هذه الآية.

ثم قال: قال علماؤنا: فى هذه الآية فوائد ثلاث:

إحداها: بيان علة الميراث وهى القرابة.

الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أوبعيد.

الثالثة: إجمال النصيب المفروض. وذلك مبين فى آية المواريث؛ فكأن هذه الآية توطئة للحكم، وإبطال لذلك الرأى الفاسد حتى وقع البيان الشافى»[1].

هذا، ومن العلماء من أبقى هذه الآية الكريمة على ظاهرها، فجعل المراد من الرجال: الذكور البالغين. والمراد من الوالدين: الأب والأم بلا واسطة والمراد من الأقربين: الأقارب الأموات الذين يرثهم أقاربهم المستحقون لذلك والمراد من النساء الإناث البالغات.

والمعنى على هذا الرأى: للذكور البالغين نصيب أى حظ مما ترك آباؤهم وأمهاتهم وأقاربهم

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤٦.

كإخوتهم وأخواتهم وأعمامهم وعماتهم وللاناث البالغات كذلك نصيب مما ترك آباؤهن وأمهاتهن وأقاربهن. . . ألخ.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد اقتصرت على بيان أن الإرث غير مختص بالرجال كما كان الجاهليون يفعلون، بل هو أمر مشترك بين الرجال والنساء، ثم جاءت آيات المواريث بعد ذلك فبينت نصيب كل وارث.

قال الإمام الرازى: ذكر الله - تعالى - فى هذه الآية هذا القدر، وهو أن الإرث مشترك بين الرجال والنساء - ثم ذكر التفصيل بعد ذلك - فى آيات المواريث - ، لأنه - سبحانه - أراد أن ينقلهم عن تلك العادة وهى توريث الرجال دون النساء - قليلا قليلا على التدريج، لأن الانتقال عن العادة شاق ثقيل على الطبع. فإذا كان دفعة عظم وقعه على القلب، وإذا كان على التدريج سهل. فلهذا المعنى ذكر الله - تعالى - هذا المجمل أولا ثم أردفه بالتفصيل»[1] ومن العلماء من يرى أن المراد بالرجال الصغار من الذكور ومن النساء الصغار من الإناث، وعلل مراده هذا بأن فيه عناية بشأن اليتامى، وفيه رد صريح على ما تعوده أهل الجاهلية من توريث الكبار من الرجال دون الصغار سواء أكانوا ذكورا أم إناثا. ومنهم من عمهم فى الرجال والنساء فجعل المراد من الرجال الذكور مطلقا سواء أكانوا كبارا أم صغارا. وجعل المراد من النساء الإناث مطلقا سواء أكن كبارًا أم صغارًا.

ويكون المعنى: للذكور نصيب مما تركه الوالدان والأقربون من متاع، وللإناث كذلك نصيب مما تركه الوالدان والأقربون.

وعليه يكون المقصود من الآية الكريمة التسوية بين الذكور والإناث فى أن لكل منهما حقا فيما ترك الوالدان والأقربون.

ويبدو لنا أن هذا الرأى الثالث أولى، لأنه أعم من غيره، وأشمل فى الرد على ما كان يفعله أهل الجاهلية من عدم توريثهم للنساء مطلقا ولاللصغار وإن كانوا ذكورًا، ولأنه يشمل سسبب نزول الآية نصا، فقد ذكرنا فى سبب النزول أنها نزلت فى شأن بنات أوس بن ثابت وزوجته.

وقد أكد - سبحانه - حق النساء فى الميراث بأن اختار هذا الأسلوب التفصيلى فقال: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب﴾ مع أنه كان يكفى أن يقول: للرجال والنساء نصيب، مما ترك الوالدان والأقربون، وذلك للإيذان بأصالتهن فى استحقاق الارث، وللإشعار بأنه حق مستقل عن حق الرجال، وأن هذا الحق قد ثبت لهن استقلالا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٩٥ - بتصرف وتلخيص.

بالقرابة كما ثبت للرجال، حتى لايتوهم أحد أن حقهن تابع لحقهم بأى نوع من أنواع التبعية.

ثم أكد - سبحانه - هذا الحق مرة أخرى بقوله ﴿مما قل منه أوكثر﴾ أى أن حق النساء ثابت فيما تركه المتوفى من مال سواء أكان هذا المتروك قليلا أم كثيرًا، لأن الذكور والإناث يتساويان فى أن لكل منهما حقا فيما ترك الوالدان والأقربون حتى ولو كان هذا المتروك شيئًا قليلا.

فقوله ﴿مما قل منه أو كثر﴾ عطف بيان من قوله ﴿مما ترك الوالدان﴾ لقصد التعميم والتنصيص على أن حق النساء متعلق بكل جزء من المال الذى تركه الوالدان والأقربون ثم أكد - سبحانه - حق النساء فى الميراث مرة ثالثة بقوله ﴿نصيبا مفروضا﴾ لأن قوله ﴿نصيبا﴾ منصوب على الاختصاص والاختصاص يفيد العناية.

أى أن لكل من الرجال والنساء نصيبا فيما تركه الوالدان والأقربون، وهذا النصيب قد فرضه الله - تعالى - فلاسبيل إلى التهاون فيه، بل لابد من إعطائه لمن يستحقه كاملا غير منقوص؛ لأن الله هو الذى شرعه، ومن خالف شرع الله كان أهلا للعقوبة منه - سبحانه -.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿نصيبا مفروضا﴾ نصب على الاختصاص بمعنى: أعنى نصيبا مفروضا مقطوعا واجبا لابد لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به بعضهم دون بعض، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله: ﴿فريضة من الله﴾ كأنه قيل: قسمة مفروضة»[1].

هذا، وقد استدل الأحناف بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام؛ لأن العمات والخالات وأولاد البنات ونحوهن من الأقربين، فوجب دخولهم تحت قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب﴾. الآية» وثبت كونهم مستحقين لأصل النصيب بهذه الآية، وأما المقدار فمستفاد من آيات أخرى كما هو الشأن فى غيرهم.

أما المخالفون للأحناف فيما ذهبوا إليه فيرون أن المراد من الأقربين الوالدان والأولاد ونحوهم وحينئذ لايدخل فيهم ذوو الأرحام. وعلى رأى هؤلاء المخالفين يكون عطف الأقربين على الوالدين من باب عطف العام على الخاص.

كذلك استدل الأحناف بهذه الآية على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه - قبل استحقاقه - لم يسقط حقه[2].

* * *

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٧٦.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٤ ص١١٢.

ثم أمر الله تعالى عباده بالتعاطف والتراحم، ولاسيما عند تقسيم الميراث، وإعطاء كل ذى حق حقه فقال تعالى:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

والمراد بالقسمة: التركة التى تقسم بين الورثة.

والمراد بذوى القربى هنا - عند جمهور المفسرين -: الأقارب الذين لا ميراث لهم فى التركة.

والمراد باليتامى والمساكين: الأجانب الذين لاقرابة بينهم وبين الورثة.

والمعنى: وإذا حضر قسمة التركة ذوو القربى ممن لانصيب لهم فى الميراث، واليتامى الذين فقدوا العائل والنصير، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم وصاروا فى حاجة إلى العون والمساعدة ﴿فارزقوهم منه﴾ أى فأعطوهم من الميراث الذى تقتسمونه شيئا يعينهم على سد حاجتهم، وتفريج ضائقتهم ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أى قولوا لهم قولا جميلا يرضاه الشرع، ويستحسنه العقل، بأن تقولوا لهم - مثلا -: خذوا هذا الشىء بارك الله لكم فيه، أو بأن تعتذروا لمن لم تعطوه شيئا. والآية الكريمة معطوفة على الآية السابقة عليها وهى قوله - تعالى - ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾.. الخ.

وليس المراد من حضور ذوى القربى واليتامى والمساكين أن يكونوا مشاهدين للقسمة، جالسين مع الورثة، لأن قسمة الأموال لاتكون عادة فى حضرة هؤلاء الضعفاء، وإنما المراد من حضورهم العلم بهم من جانب الذين يقتسمون التركة، والدراية بأحوالهم، وأنهم فى حاجة إلى العون والمساعدة.

وقدم ذوى القربى على اليتامى والمساكين، لأنهم أولى بالصدقة لقرابتهم، ولأن إعطاءهم بجانب أنه صدقة، فهو صلة للرحم التى أمر الله تعالى بصلتها. وقدم اليتامى على المساكين؛ لأن ضعف اليتامى أكثر، وحاجتهم أشد.

والضمير المجرور فى قوله ﴿فارزقوهم منه﴾ يعود إلى ما ترك الوالدان والأقربون. أو إلى القسمة بمعنى المقسوم باعتبار معناها لا باعتبار لفظها. أى ارزقوهم من هذا الميراث أو المال المقسوم.

والأمر فى قوله: ﴿فارزقوهم﴾ يرى بعض العلماء أنه للوجوب، لأنه هو المستفاد من ظاهر

الأمر، وعليه فمن الواجب على الوارث الكبير وعلى ولى الصغير أن يعطيا لذوى القربى واليتامى والمساكين شيئا من المال تطيب به نفوسهم.

ومن أصحاب هذا الرأى من قال: إن من الواجب على الوارث الكبير أن يعطى هؤلاء المحتاجين شيئا من المال المقسوم. أما إذا كان الورثة صغارا فعلى الولى أن يعتذر لهؤلاء المحتاجين، بأن يقول لهم: إنى لاأملك هذا المال المقسوم، لأنه لهؤلاء الصغار وعندما يكبرون فسيعرفون لكم حقكم وهذا هو القول المعروف.

ويرى كثير من العلماء أن هذا الأمر بالإعطاء للندب لا للوجوب، وأن هذا الندب إنما يحصل إذا كان الورثة كبارا، أما إذا كانوا صغارا فليس على أوليائهم إلا القول المعروف.

ومن حجج هؤلاء القائلين بأن هذا الأمر للندب والاستحباب: أنه لو كان لأولئك المحتاجين من ذوى القربى واليتامى والمساكين حق معين لبينه الله - تعالى - كما بين سائر الحقوق، وحيث لم يبين علمنا أنه غير واجب. وأيضا لو كان واجبا لتوفرت الدواعى على نقله؛ لشدة حرص الفقراء والمساكين على تقديره، ولو كان الأمر كذلك لثبت نقله إلينا، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه غير واجب.

وقد رجح القرطبى كون الأمر للندب لا للوجوب فقال: والصحيح أن هذا على الندب؛ لأنه لو كان فرضا لكان استحقاقًا فى التركة ومشاركة فى الميراث، لأحد الجهتين معلوم، وللآخر مجهول. وذلك مناقض للحكمة، وسبب للتنازع والتقاطع.

ثم قال: وذهبت فرقة إلى أن المخاطب والمراد فى الآية المحتضرون الذين يقسمون أموالهم بالوصية لا الورثة. فإذا أراد المريض أن يفرق ماله بالوصايا وحضره من لايرث ينبغى له ألايحرمه. وهذا - والله أعلم - يتنزل حيث كانت الوصية واجبة، ولم تنزل آية الميراث. والصحيح الأول - وهو أن الآية فى قسمة التركة وأن المخاطبين بها هم المقتسمون للتركة - وعليه المعول»[1].

هذا، ومن العلماء من قال: إن هذه الآية قد نسخت بآية المواريث التى بعدها وهى قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾.. الخ.

وقد حكى هذا القول - أيضا - ورد عليه الإمام القرطبى فقال ما ملخصه: بين الله - تعالى - فى هذه الآية أن من لم يستحق شيئا وحضر القسمة وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذين لايرثون أن يكرموا ولايحرموا إن كان المال كثيرًا؛ والاعتذار إليهم إن كان عقارا

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤٩.

أو قليلا لايقبل الرضخ - أى العطاء القليل - فالآية على هذا القول محكمة. قاله ابن عباس. وامتثل ذلك جماعة من التابعين: عروة بن الزبير وغيره. وأمر به أبوموسى الأشعرى.

وروى عن ابن عباس انها منسوخة نسخها قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾.

وممن قال إنها منسوخة: أبومالك وعكرمة والضحاك.

والأول أصح؛ فإنها مبينة استحقاق الورثة لنصيبهم، واستحباب المشاركة لمن لانصيب له ممن حضرهم.

وفى البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: هى محكمة وليست بمنسوخة.

وفى رواية قال: إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نسخت، لا والله مانسخت، ولكنها مما تهاون به الناس»(١).

وقال عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج أن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق قسم ميراث أبيه عبدالرحمن، وعائشة حية. فلم يدع فى الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه وتلا هذه الآية: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى﴾.. الخ.(٢).

والخلاصة، أن الذى تطمئن إليه النفس هو قول من قال: إن الآية محكمة وليست بمنسوخة، لأنه أثر عن بعض الصحابة والتابعين أنهم كانوا يفعلون ذلك ويأمرون به. ولأن الروايات القائلة بأنها منسوخة روايات مضطربة، بخلاف الروايات القائلة بأنها محكمة فهى ثابتة فى صحيح البخارى؛ ولأن الآية الكريمة لاتتعارض مع آية المواريث لأنها إنما تأمر بما يؤدى إلى التعاطف والتراحم بين الناس، وهذا أمر لاينسخ، بل هو ثابت فى كل زمان ومكان.

ونرى كذلك أن الأمر فى قوله ﴿فارزقوهم منه﴾ على سبيل الندب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإيجاب - كما سبق أن بينا - .

* * *

ثم أمر الله - تعالى - عباده بتقواه، وبالتمسك بالأقوال السديدة فقال تعالى:

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤٩.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٥٥.

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال :

أولها : أن الآية الكريمة أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى، فيفعلوا بهم مثل ما يحبون أن يفعل بذريتهم الضعاف بعد وفاتهم.

فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا﴾.. الخ.

يعنى بذلك الرجل يموت وله أولاد صغار ضعاف يخاف عليهم العيلة والضيعة، ويخاف بعده ألايحسن إليهم من يليهم يقول : فإن ولى مثل ذريته ضعافا يتامى، فليحسن إليهم ولايأكل أموالهم إسرافا وبدارا خشية أن يكبروا..[1].

قال الآلوسى : «والآية الكريمة على هذا الوجه تكون مرتبطة بما قبلها، لأن قوله تعالى : ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾.. الخ. فى معنى الأمر للورثة. أى أعطوهم حقهم دفعا لأمر الجاهلية، وليحفظ الأوصياء ما أعطوه ويخافوا عليهم كما يخافون على أولادهم[2].

وعلى هذا الوجه يكون المقصود من الآية الكريمة حض الأوصياء على المحافظة على أموال اليتامى بأبلغ تعبير، لأنه سبحانه قد نبههم بحال أنفسهم وذرياتهم من بعدهم ليتصوروها ويعرفوا مكان العبرة فيها، ولاشك أن ذلك من أقوى الدواعى والبواعث فى هذا المقصود؛ لأنه سبحانه كأنه يقول لهم : افعلوا باليتامى الفعل الذى تحبون أن يفعل مع ذرياتكم الضعاف من بعدكم، فجعل - سبحانه - من شعورهم بالحنان على ذرياتهم باعثا لهم على الحنان على أيتامهم.

هذا، ومن المفسرين الذين استحسنوا هذا القول الإمام ابن كثير، فقد قال بعد أن حكى هذا القول : وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل أموال اليتامى ظلما[3].

أما القول الثانى : فيرى أصحابه أن الآية الكريمة أمر لمن حضر المريض من العواد عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم؛ فيوصوا المريض فى أولاده خيرًا ويشفقوا عليهم كما يشفقون على أولادهم.

وقد وضح هذا القول الإمام الرازى فقال : إن هذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون له : إن ذريتك لايغنون عنك من الله شيئا، فأوص بمالك لفلان وفلان. ولايزالون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٢٧٢.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٢١٣.

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٥٦.

يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى أن لايبقى من ماله للورثة شىء أصلا. فقيل لهم : كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم فى الضعف والجوع من غير مال، فاخشوا الله ولاتحملوا المريض على أن يحرم أولاده الضعفاء من ماله.

وحاصل الكلام أنك لاترضى مثل هذا الفعل لنفسك، فلاترضه لأخيك المسلم. فعن أنس قال : قال النبى ﷺ : «لايؤمن العبد حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه»(١).

وقد رجح هذا الوجه الإمام ابن جرير فقال : وأولى التأويلات بالآية قول من قال : تأويل ذلك : وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم العيلة لو كانوا فرقوا أموالهم فى حياتهم، أوقسموها وصية منهم لأولى قرابتهم، وأهل اليتم والمسكنة؛ فأبقوا أموالهم لولدهم خشية العيلة عليهم من بعدهم، فليأمروا من حضروه - وهو يوصى لذوى قرابته وفى اليتامى والمساكين وفى غير ذلك - بما له بالعدل، وليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا، وهو أن يعرفوه ما أباحه الله له من الوصية، وما اختاره المؤمنون من أهل الإيمان بالله وبكتابه وسنته»(٢).

والقول الثالث : يرى أصحابه أن الخطاب فى الآية للموصين، وأن الآية تأمرهم بأن يشفقوا على ورثتهم، فلايسرفوا فى الوصية لغيرهم؛ لأن الإسراف فى ذلك يؤدى إلى ترك الورثة فقراء. ولقد قال النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

والذى نراه أن الأمر بالخشية من الله يتناول جميع الأصناف المتقدمة : من الأوصياء، وعواد المريض، والموصين وغيرهم ممن هو أهل لهذا الخطاب؛ لأن هؤلاء جميعا داخلون تحت الأمر بالخشية من الله - تعالى -، وبالقول السديد الذى يحبه سبحانه ويرضاه.

وقوله تعالى ﴿وليخش﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ومفعوله محذوف لتذهب نفس السامع فى تقديره كل مذهب، فينظر كل سامع بحسب الاهم عنده مما يخشى أن يصيب ذريته.

والجملة الشرطية وهى قوله تعالى ﴿لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم﴾ صلة للموصول وهو قوله ﴿الذين﴾ وجملة ﴿خافوا عليهم﴾ جواب ﴿لو﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى وقوع ﴿لو تركوا﴾ وجوابه صلة للذين؟.

قلت : معناه : وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا من خلفهم ذرية ضعافا - وذلك عند احتضارهم - خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم»(٣).

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٩٨.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٢٧٢.
(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٧٨.

قال صاحب الانتصاف: وإنما لجأ الزمخشرى إلى تقدير ﴿تركوا﴾ بقوله شارفوا أن يتركوا؛ لأن جوابه قوله ﴿خافوا عليهم﴾ والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم. وذلك فى دار الدنيا. فقد دل على أن المراد بالترك الإشراف عليه ضرورة، وإلا لزم وقوع الجواب قبل الشرط وهو باطل. ونظيره ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أى. شارفن بلوغ الأجل.

ثم قال: ولهذا المجاز فى التعبير عن المشارفة على الترك بالترك سر بديع. وهو التخويف بالحالة التى لا يبقى معها مطمع فى الحياة، ولا فى الذب عن الذرية الضعاف. وهى الحالة التى وإن كانت من الدنيا، إلا أنها لقربها من الآخرة، ولصوقها بالمفارقة، صارت من حيزها، ومعبرا عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك[1].

وقوله ﴿ضعافا﴾ صفة لذرية. وفى وصف الذرية بذلك بعث على الترحم وحض على امتثال ما أمر الله به.

والفاء فى قوله ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. فقد رتب الأمر بالتقوى على الأمر بالخشية وإن كانا أمرين متقاربين لأن الأمر الأول لما عضد بالحجة - وهى الخوف على ذريتهم - اعتبر كالحاصل فصح التفريع عليه.

والمعنى: فليتقوا الله فى كل شأن من شئونهم وفى أموال اليتامى فلا يعتدوا عليها. وليقولوا لغيرهم قولا عادلا قويما مصيبا للحق وبعيدا عن الباطل.

قال الآلوسى وقوله ﴿وليقولوا﴾ أى لليتامى أوللمريض أو لحاضرى القسمة، أوليقولوا فى الوصية ﴿قولا سديدا﴾ فيقول الوصى لليتيم مايقول لولده من القول الجميل الهادى له إلى حسن الآداب ومحاسن الأفعال. ويقول عائد المريض للمريض: مايذكره بالتوبة وحسن الظن بالله، ومايصده عن الإسراف فى الوصية وتضييع الورثة. ويقول الوارث لحاضر القسمة: مايزيل وحشته أويزيد مسرته. ويقول الموصى فى إيصائه: مالايؤدى إلى تجاوز الثلث.

ثم قال، والسديد: المصيب العدل الموافق للشرع. يقال: سد قوله يسد - بالكسر - إذا صار سديدا والسداد - بالفتح - الاستقامة والصواب. وأما السداد - بالكسر - فهو مايسد به الشىء»[2].

قال بعض العلماء: وفى الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يغضبوا للحق من

(١) هامش تفسير الكشاف جـ١ ص٤٧٨.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٢١٤. - بتصرف وتلخيص -.

الظلم، وأن يأخذوا على أيدى أولياء السوء، وأن يحرسوا أموال اليتامى، ويبلغوا حقوق الضعفاء إليه، لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك. وأن يأكل قويهم ضعيفهم؛ فإن اعتياد السوء ينسى الناس شناعته، ويكسب النفوس ضراوة على عمله»[١].

* * *

ثم توعد سبحانه الذين يعتدون على حقوق اليتامى بأشد أنواع الوعيد فقال تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

وقوله: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ استئناف مسوق لتقرير ما فصل من الأوامر والنواهى السابقة التى تتعلق بحقوق اليتامى.

قال الفخر الرازى: أعلم أنه -تعالى- أكد الوعد فى أكل مال اليتيم ظلما، وقد كثر الوعيد فى هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك كقوله ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ وكقوله: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا﴾.

ثم ذكر بعدها هذه الآية مفردة فى وعيد من يأكل أموالهم، وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة. وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأن اليتامى لما بلغوا فى الضعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى»[٢].

وقوله ﴿ظلما﴾ أى يأكلونها على وجه الظلم سواء أكان الآكل من الورثة أو من أولياء السوء من غيرهم.

وقال سبحانه ﴿ظلما﴾ لكمال التشنيع على الآكلين؛ لأنهم يظلمون اليتامى الضعفاء الذين ليس فى قدرتهم الدفاع عن أنفسهم.

أو أنه سبحانه قيد الأكل بحالة الظلم، للدلالة على أن مال اليتيم قد يؤكل ولكن لا على وجه الظلم بل على وجه الاستحقاق كما فى حالة أخذ الولى الفقير أجرته من مال اليتيم

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٤ ص٢٥٣ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص١٠٠.

أوالاستقراض منه فإن ذلك لايكون ظلما ولايسمى الآكل ظالما. قال تعالى: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف﴾.

وقوله ﴿ظلما﴾ حال من الضمير فى ﴿يأكلون﴾ أى يأكلونها ظالمين. أومفعول لأجله. أى يأكلونها لأجل الظلم.

قال القرطبى: روى أن هذه الآية نزلت فى رجل من غطفان يقال له: مرثد بن زيد، ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله؛ فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية. ولهذا قال الجمهور: إن المراد الأوصياء الذين يأكلون مالم يبح لهم من مال اليتيم»[1].

وقوله: ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ بيان لسوء مصيرهم، وتصوير لأضرار الأكل عليهم.

وللمفسرين فى تفسير قوله - تعالى - ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارًا﴾ اتجاهان.

أولهما: أن الآية على ظاهرها، وأن الآكلين لمال اليتامى ظلما سيأكلون النار يوم القيامة حقيقة.

وقد استدل أصحاب هذا الاتجاه على صحة ماذهبوا إليه بآثار منها ماوراه ابن حبان فى صحيحه وابن مردويه وابن أبى حاتم عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال: يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا. قيل يارسول الله من هم؟ قال ﷺ: ألم تر أن الله قال: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ الآية»[2].

وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يارسول الله مارأيت ليلة أسرى بك؟ قال: انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير. رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير، وهم موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم، ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف فى أفواههم حتى تخرج من أسفلهم ولهم جؤار وصراخ. قلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا»[3].

ثانيهما: يرى أصحابه أن الكلام على المجاز لا على الحقيقة وأن المراد إنما يأكلون فى بطونهم المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار.

وعليه فكلمة ﴿نارا﴾ مجاز مرسل من باب ذكر المسبب وإرادة السبب.

والمراد بالأكل فى قوله ﴿إن الذين يأكلون﴾ مطلق الأخذ على سبيل الظلم والتعدى.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٥٣.

(٢، ٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٥٦.

وإنما ذكر الأكل وأراد به مطلق الإتلاف على سبيل الظلم؛ لأن الأكل عن طريقه تكون معظم تصرفات الإنسان، ولأن عامة مال اليتامى فى ذلك الوقت هو الأنعام التى تؤكل لحومها وتشرب ألبانها فخرج الكلام على عادتهم، ولأن فى ذكر الأكل تشنيعا على الآكل لمال اليتيم ظلما، إذ هو أبشع الأحوال التى يتناول مال اليتيم فيها؛ ولأن فى ذكر الأكل مناسبة للجزاء المذكور فى قوله ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارا﴾ حيث يكون الجزاء من جنس العمل.

قال ﴿فى بطونهم﴾ مع أن الأكل لايكون إلا فى البطن، إما لأنه قد شاع فى استعمالهم أن يقولوا: أكل فلان فى بطنه يريدون ملء بطنه فكأنه قيل: إنما يأكلون ملء بطونهم نارا حتى يبشموا بها. ومثله ﴿وقد بدت البغضاء من أفواههم﴾ أى شرقوا بها وقالوها بملء أفواههم، ويكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع حتى تتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير.

وإما أن يكون المراد بذكر البطون التأكيد والمبالغة كما فى قوله تعالى ﴿ولاطائر يطير بجناحيه﴾ والطيران لايكون إلا بالجناح. والغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة.

وقوله تعالى ﴿وسيصلون سعيرا﴾ تأكيد لسوء عاقبتهم يوم القيامة.

و﴿يصلون﴾ مضارع صلى كرضى إذا قاسى حر النار بشدة.

وقرأ ابن عامر وأبوبكر عن عاصم ﴿وسيصلون﴾ بضم ياء المضارعة والباقون بفتحها.

والسعير: هو النار المستعرة. يقال: سعرت النار أسعرها سعرا فهى مسعورة إذا أوقدتها وألهبتها.

وإنما قال ﴿سعيرا﴾ بالتنكير لأن المراد نار من النيران مبهمة لايعرف غاية شدتها إلا الله تعالى: أى؛ وسيدخلون نارا هائلة لايعلم مقدار شدتها إلاالله عز وجل.

أخرج أبوداود والنسائى والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه. فجعل يفضل له الشىء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أويفسد فاشتد عليهم ذلك. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ الآية. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[1].

قال الفخر الرازى: ومن الجهال من قال: صارت هذه الآية منسوخة بتلك. وهو بعيد، لأن هذه الآية فى المنع من الظلم. وهذا لا يصير منسوخا. بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٥٧.

إن كانت على سبيل الظلم فهى من أعظم أبواب الإثم كما فى هذه الآية. وإن كانت على سبيل التربية والإحسان فهى من أعظم أبواب البر كما فى قوله.. تعالى - ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾(٢).

وبعد: فهذه عشر آيات من سورة النساء، تقرؤها فتراها تكرر الأمر صراحة برعاية اليتيم وبالمحافظة على ماله فى خمس آيات منها.

فأنت تراها فى الآية الثانية تأمر الأولياء والأوصياء وغيرهم بالمحافظة على أموال اليتامى، وأن يسلموها إليهم عند بلوغهم كاملة غير منقوصة، وتحذرهم من الاحتيال على أكل هذه الأموال عن طريق الخلط فتقول:

﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، إنه كان حوبًا كبيرا﴾.

وتراها فى الآية الثالثة تبيح لأولياء النساء اليتامى أن يتزوجوا بغيرهن إذا لم يأمنوا على أنفسهم العدل فى أموال اليتيمات، وحسن معاشرتهن، وتسليمهن حقوقهن كاملة إذا تزوجوهن فتقول:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ الآية. وتراها فى الآية السادسة تأمر الأولياء بأن يختبروا تصرفات اليتامى وأن يسلموا إليهم أموالهم عند بلوغهم وإيناس الرشد منهم فتقول:

﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يكبروا﴾ الآية.

وتراها فى الآية الثامنة تأمر المتقاسمين للتركة أن يجعلوا شيئا منها للمحتاجين من الأقارب واليتامى والمساكين فتقول:

﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ الآية.

ثم تراها فى الآية العاشرة تتوعد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما بأشد ألوان الوعيد فتقول: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارًا، وسيصلون سعيرًا﴾.

وقد أمر القرآن أتباعه فى كثير من آياته بالعطف على اليتيم، وبحسن معاملته، وبالمحافظة على حقوقه، ومن ذلك قوله - تعالى -:

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٢٠٢.

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾[١].

وقوله - تعالى - ممتنا على نبيه محمد ﷺ ﴿ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر﴾.

وقوله - تعالى - ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾[٢].

وعندما نقرأ أحاديث النبى ﷺ نراه فى كثير منها يأمرنا برعاية اليتيم، وبالعطف عليه، وبإكرامه وعدم قهره وإذلاله، ويبشر الذين يكرمون اليتيم بأفضل البشارات، فقد روى البخارى وغيره عن سهل بن سعد عن النبى ﷺ أنه قال: أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا. وقال باصيعيه السبابة والوسطى» - أى: وأشار وفرج بين إصبعيه السبابة والوسطى -.

وإنما اعتنى الإسلام برعاية اليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه، ولأن عدم رعايته سيؤدى إلى شيوع الفاحشة فى الأمة؛ ذلك لأن اليتيم إنسان فقد العائل والنصير منذ صغره، فإذا نشأ فى بيئة ترعاه وتكرمه وتعوضه عما فقده من عطف أبيه، شب محبا لمن حوله وللمجتمع الذى يعيش فيه. وإذا نشأ فى بيئة تقهره وتذله وتظلمه نظر إلى من حوله وإلى المجتمع كله نظرة العدو إلى عدوه، وصار من الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون؛ لأنه سيقول لنفسه: إذا كان الناس لم يحسنوا إلى فلماذا أحسن إليهم؟ وإذا كانوا قد حرمونى حقى الذى منحه الله لى، فلماذا أعطيهم شيئا من خيرى وبرى؟

لهذه الأسباب وغيرها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم.

* * *

وبعد أن يبين - سبحانه - ما يجب على الرجال نحو النساء من إعطائهن حقوقهن، وما يجب على الجميع نحو اليتامى من إكرامهم والمحافظة على أموالهم.... بعد أن بين - سبحانه - ذلك، شرع فى بيان حقوق أكثر الوارثين، بعد أن أجملها فى قوله - تعالى - ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ فقال - تعالى:

(١) سورة الإسراء الآية ٣٤.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ
فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا
ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي
بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ
نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾
۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ
وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ
فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ
مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ

أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾ الآية :

« هذه الآية الكريمة والتى بعدها والآية التى هى خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض. وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هو كالتفسير لذلك. وقد ورد الترغيب فى تعلم الفرائض فقد روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة - أى غير منسوخة - أو سنة قائمة - أى ثابتة - أو فريضه عادلة - أى عادلة فى قسمتها بين أصحابها - ».

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا الفرائض وعلموه الناس؛ فإنه نصف العلم. وهو أول شيء ينسى.. وهو أول شيء ينزع من أمتى ».

ثم قال ابن كثير : وقال البخارى عند تفسير هذه الآية : عن جابر بن عبدالله قال : عادنى رسول الله - ﷺ - وأبو بكر فى بنى سلمة ماشيين فوجدنى النبى ﷺ لا أعقل شيئا. فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت. فقلت : يا رسول الله ما تأمرنى أن أصنع فى مالى؟ فنزلت ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾ الآية.

وفى حديث آخر رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله !! هاتان ابنتا سعد بن الربيع. قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا. وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا. ولا تنكحان إلا ولهما مال. فقال ﷺ : « يقضى الله فى ذلك » فنزلت آية الميراث. فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال ﷺ : أعط ابنتى سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقى فهو لك ».

ثم قال ابن كثير : والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه

السورة كما سيأتى، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلالة. والحديث الثانى عن جابر أشبه بنزول هذه الآية[1]. هذا، وقوله - تعالى - ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ بيان لما إذا مات الميت وترك أولادا من الذكور والإناث.

وقوله ﴿يوصيكم﴾ من الوصية، وهى - كما يقول الراغب - : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ من قولهم : أرض واصية أى متصلة النبات ويقال : أوصاه ووصاه. . . ويقال : تواصى القوم إذا أوصى بعضهم بعضا. . . »[2] والمراد بقوله ﴿يوصيكم﴾ : أى يأمركم أمرا مؤكدا.

والأولاد : جمع ولد - بوزن فعل مثل أسد - والولد : اسم للمولود ذكرا كان أو أنثى والحظ : النصيب المقدر.

والمعنى : يعهد الله إليكم ويأمركم أمرا مؤكدا فى شأن ميراث أولادكم من بعد موتكم أن يكون نصيب الذكر منهم فى الميراث نصيب الأنثيين.

وصدر - سبحانه - هذه الأحكام بقوله ﴿يوصيكم﴾ اهتماما بشأنها، وإيذانا بوجوب سرعة الامتثال لمضمونها، إذ الوصية من الله - تعالى - إيجاب مؤكد، بدليل قوله - تعالى - ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به﴾ أى أوجب عليكم الانقياد لهذا الحكم إيجابا مؤكدًا.

وحرف ﴿فى﴾ هنا للظرفية المجازية، ومجرورها محذوف قام المضاف إليه مقامه، لأن ذوات الأولاد لا تصلح ظرفا للوصية، والتقدير : يوصيكم الله فى توريث أولادكم أو فى شأنهم.

وبدأ - سبحانه - ببيان ميراث الأولاد، لأنهم أقرب الناس إلى الإنسان، ولأن تعلق الإنسان بأولاده أشد من تعلقه بأى إنسان آخر.

وقوله ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب لأنها فى موضع التفصيل والبيان لجملة ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾.

وقد جعل - سبحانه - نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى، لأن التكليفات المالية على الأنثى تقل كثيرًا عن االتكليفات المالية على الذكر، إذ الرجل مكلف بالنفقة على نفسه وعلى أولاده وعلى زوجته وعلى كل من يعولهم بينما المرأة نصيبها من الميراث لها خاصة لا يشاركها فيه مشارك.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٥٧

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٥٢٥ للراغب الأصفهانى.

وبهذا يتبين أن الإسلام قد أكرم المرأة غاية الإكرام حيث أعطاها هذا النصيب الخاص بها من الميراث بعد أن كانت فى الجاهلية لا ترث شيئًا.

ولم يقل - سبحانه - للذكر ضعف نصيب الأنثى، لأن الضعف قد يصدق على المثلين فصاعدا، فلا يكون نصا.

ولم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر ولا للأنثى نصف حظ الذكر، لأن المقصود تقديم الذكر لبيان فضله ومزيته على الأنثى.

وعبر بالذكر والأنثى دون الرجال والنساء، للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر فى ذلك أصلا، كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال ولا النساء.

وبعد أن بين - سبحانه - كيفية قسمة التركة إذا كان الورثة أولادا ذكورا وإناثا، عقب ذلك ببيان كيفية تقسيم التركة إذا كان الورثة من الأولاد الإناث فقط فقال - تعالى - : فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك.

قال الآلوسى : الضمير للأولاد مطلقا، ولزوم تغليب الإناث على الذكور لا يضر، لأن ذلك مما صرحوا بجوازه مراعاة للخبر ومشاكلة له. ويجوز أن يعود إلى المولودات أو البنات اللاتى فى ضمن مطلق الأولاد.. والمراد من الفوقية زيادة العدد لا الفوقية الحقيقية[1].

والمعنى : فإن كانت المولودات أو البنات نساء خلصا زائدات على اثنتين بالغات ما بلغن فلهن ثلثا ما ترك المتوفى.

وهذه الجملة الكريمة قد بينت بالقول الصريح نصيب الأكثر من البنتين وهو الثلثان إلا أنها لم تبين نصيب البنتين بالقول الصريح.

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : الثلثان فرض الثلاث من البنات فصاعدا وأما فرض البنتين فهو النصف. ودليله صريح منطوق الآية، فقد اشترطت أن أخذ ثلثى التركة للنساء يكون إذا كن فوق اثنتين أى ثلاثا فصاعدا، وذلك ينفى حصول الثلثين للبنتين.

وقال جمهور العلماء : البنتان لاحقتان بالبنات، فلهما الثلثان إذا انفردتا عن البنين كما أن البنات لهن الثلثان كذلك.

وقد بسط الفخر الرازى أدلة الجمهور على أن للبنتين الثلثين كالبنات فقال ما ملخصه :

وأما سائر الأمة فقد أجمعوا على أن فرض البنتين الثلثان. قالوا : وإنما عرفنا ذلك بوجوه :

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٢١١ - بتصرف وتلخيص.

أولها : من قوله - تعالى - ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وذلك لأن من مات وترك إبنا وبنتا فههنا يجب أن يكون نصيب الابن الثلثين لقوله - تعالى - ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، فإذا كان نصيب الذكر مثل نصيب الأنثيين. ونصيب الذكر ههنا هو الثلثان، وجب لا محالة أن يكون نصيب الابنتين الثلثين.

الثانى : إذا مات وترك إبنا وبنتا فههنا يكون نصيب البنت الثلث بدليل ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فإذا كان نصيب البنت مع الولد الذكر هو الثلث فبأن يكون نصيبها مع ولد آخر أنثى هو الثلث أولى، لأن الذكر أقوى من الأنثى وإذا كان للبنت الثلث مع أختها وللأخرى كذلك فقد صار لهما الثلثان.

الثالث : أن قوله - تعالى - ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ يفيد أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الأنثى الواحدة، وإلا لزم أن يكون حظ الذكر مثل حظ الأنثى الواحدة وذلك خلاف النص. وإذا ثبت أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الواحدة فتقول : وجب أن يكون ذلك هو الثلثان، لأنه لا قائل بالفرق

والرابع : أنا ذكرنا فى سبب نزول الآية أنه ﷺ أعطى بنتى سعد بن الربيع الثلثين، وذلك يدل على ما قلناه.

الخامس : أنه - سبحانه - ذكر فى هذه الآية حكم الواحدة من البنات وحكم الثلاث فما فوقهن ولم يذكر حكم الثنتين وذكر فى شرح ميراث الأخوات - فى آخر السورة ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ فهنا ذكر ميراث الأخت الواحدة والأختين دون الأخوات، فصارت كل واحدة من هاتين الآيتين مجملة من وجه ومبينة من وجه فنقول : لما كان نصيب الأختين الثلثين كانت البنتان أولى بذلك، لأنهما أقرب إلى الميت من الأختين.

والوجوه الثلاثة الأول مستنبطة من الآية. والرابع مأخوذ من السنة. والخامس من القياس الجلى»[1].

هذا وقد صح عن ابن عباس أنه رجع إلى قول الجمهور فانعقد الإجماع على أن للبنتين الثلثين.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا ترك الشخص بنتا واحدة فقال : ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾.

أى وإن كانت المولودة أنثى واحدة ليس معها أخ ولا أخت فلها النصف أى نصف ما تركه المتوفى.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٢٠٦.

وإلى هنا تكرن الآية قد ذكرت ثلاث حالات للأولاد فى الميراث :

الأولى : أن يترك الميت ذكورًا وإناثًا. وفى هذه الحالة يكون الميراث بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

الثانية : أن يترك الميت بنتين فأكثر وليس معهما أخ ذكر : وفى هذه الحالة يكون لهما أولهن الثلثان خلافا لابن عباس فى البنتين - كما سبق أن بينا.

الثالثة : أن يترك الميت بنتا واحدة وليس معها أخ ذكر. وفى هذه الحالة يكون لها النصف.

قال بعض العلماء : هذا توريث الأولاد. ويلاحظ ما يأتى :

أولا : أن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكورا وإناثا إنما يكون بعد أن يأخذ الأبوان والأجداد والجدات وأحد الزوجين أنصبتهم. فإذا كان للمتوفى أب وزوجة وأبناء وبنات، فان القسمة للذكر مثل حظ الأنثيين تكون بعد أخذ الأب والزوجة نصيبيهما.

ثانيا : أن الأولاد يطلقون على كل فروع الشخص من صلبه : أى أبناؤه وأبناء أبنائه وبناته وبنات أبنائه. أما أولاد بناته فليسوا من أولاده. وقد خالف فى ذلك الشيعة فلم يفرقوا فى نسبة الأولاد بين من يكون من أولاد الظهور ومن يكون من أولاد البطون. أى : لا يفرقون بين من تتوسط بينه وبين المتوفى أنثى ومن لا تتوسط.

ثالثا : أن أبناء المتوفى وبناته يقدمن على أبناء أبنائه وبنات أبنه. أى : أن الطبقة الأولى تمنع من يليها :

رابعا : أن بنات الابن يأخذن حكم البنات تماما إذا لم يكن للشخص أولاد قط لا ذكور ولا إناث »[1].

وبعد أن بين - سبحانه - ميراث الأولاد أعقبه ببيان ميراث الأبوين فقال : ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد؛ فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث. فان كان له أخوه فلأمه السدس﴾.

وقد ذكر - سبحانه - هنا ثلاث حالات للأبوين.

أما الحالة الأولى : فيشترك فيها الأب والأم بأن يأخذ كل واحد منهما السدس إذا كان للميت ولد. وقد عبر - سبحانه - عن هذه الحالة بقوله : ﴿ولأبويه﴾ أى لأبوى الميت ذكرا كان أو أنثى. والضمير فى ﴿أبويه﴾ كناية عن غير مذكور. وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه.

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة عشرة ص ٧١٥

والمراد بالأبوين : الأب والأم. والتثنية على لفظ الأب للتغليب.

وقوله ﴿لكل واحد منهما﴾ بدل من قوله ﴿ولأبويه﴾ بتكرير العامل وهو اللام فى قوله ﴿لكل﴾. وفائدة هذا البدل أنه لو قيل : ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه.

وقوله ﴿السدس﴾ بيان للنصيب الذى يستحقه كل واحد من الأبوين.

أى : أن لكل واحد من أبوى الميت السدس مما ترك من المال ﴿إن كان له ولد﴾ أى : إن كان لهذا الميت ولد ذكرا كان أو أنثى واحدا كان أو أكثر

قال القرطبى : فرض الله - تعالى - لكل واحد من الأبوين مع الولد السدس، وأبهم الولد فكان الذكر والأنثى فيه سواء. فان مات رجل وترك أبنا وأبوين فلأبويه لكل واحد منهما السدس وما بقى فللابن. فان ترك ابنة وأبوين فللابنة النصف وللأبوين السدسان وما بقى فلأقرب عصبة وهو الأب لقول رسول الله ﷺ : «ما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر، فاجتمع للأب الاستحقاق بجهتين التعصيب والفرض»[1].

والحالة الثانية : وهى ما إذا مات وورثه أبواه، وقد بين - سبحانه - حكمها بقوله : ﴿فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾.

أى فإن لم يكن للميت ولد ولا ولد ابن وورثه أبواه فقط، ففى هذه الحالة يكون لأم الميت ثلث التركة، ولأبيه الباقى من التركة وهو الثلثان، إذ لا وارث له سواهما. فاذا كان معهما أحد الزوجين كان للأم ثلث الباقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة وثلثاه للأب وهذا رأى جمهور الصحابة وهو الذى اختاره الأئمة الأربعة وأكثر فقهاء الأمصار.

أما الحالة الثالثة : وهى ما إذا مات الميت وترك الأبوين ومعهما إخوة أو أخوات فقد بين - سبحانه - حكمها بقوله : «فان كان له إخوة فلأمه السدس أى : فان كان للميت إخوة من الأب والأم. أو من الأب فقط، أو من الأم فقط ذكورا كانوا أو أناثا أو مختلطين ففى هذه الحالة يكون لأم الميت سدس التركة والباقى للأب ولا ميراث للإخوة لحجبهم بالأب وبهذا نرى أن إخوة الميت ينقصون الأم من الثلث إلى السدس وإن كانوا محجوبين بالأب.

وإذ شرط الله فى انقاص نصيبها من الثلث إلى السدس الجماعة من الإخوة علم أن الأخ الواحد لا يحجبها عن الثلث بل يبقى لها الثلث.

أما الأخوان فيرى جمهور الصحابه والعلماء المجتهدين أنهما ينقصانها من الثلث إلى السدس. لأنه قد ورد فى اللغة اطلاق الجمع على الأثنين كما فى قوله - تعالى - ﴿إن تتوبا إلى الله فقد

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٧١

صغت قلوبكما﴾. ولأن الشارع قد جعل الأختين كالثلاث فى الميراث. وكذلك جعل البنتين كالثلاث. ولا فرق بين الذكور والاناث.

ويروى عن ابن عباس أن الاخوين لا ينقصان الأم من الثلث إلى السدس فشأنهما شأن الأخ الواحد لأن الله - تعالى - قال ﴿فان كان له إخوة﴾ بصيغة الجمع، والجمع أقله ثلاثة بخلاف التثنية. والعمل على ما ذهب إليه الجمهور.

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد بينت ميراث الأولاد والأبوين. ثم عقبت ذلك ببيان الوقت الذى تدفع فيه هذه الأموال إلى مستحقيها من الورثة فقالت: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾.

أى هذه الفروض المذكورة إنما تقسم للورثة من بعد إنفاذ وصية يوصى بها الميت إلى الثلث. ومن بعد قضاء دين على الميت.

فالجملة الكريمة متعلقة بما تقدم قبلها من قسمة المورايث؛ فكأنه قال: قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصى بها الميت ومن بعد قضاء دين عليه.

ثم بين - سبحانه - حكمة هذا التقسيم، وأكد وجوب تنفيذه فقال: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما﴾.

قال الآلوسى: الخطاب للورثة. وقوله ﴿آباؤكم﴾ مبتدأ، وقوله ﴿وأبناؤكم﴾ معطوف عليه. وقوله ﴿لا تدرون﴾ مع ما فى حيزه خبر له. وأىّ إما استفهامية مبتدأ. وقوله ﴿أقرب﴾ خبره والفعل معلق عنها فهى سادة مسد المفعولين. واما موصولة، وقوله ﴿أقرب﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة الموصول. وأيهم مفعول أول مبنى على الضم لإضافته وحذف صدر صلته. والمفعول الثانى محذوف. وقوله ﴿نفعا﴾ نصب على التمييز وهو منقول من الفاعلية. وجملة ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ أعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية[1].

والمعنى أن الله - تعالى - قد فرض لكم هذه الفرائض؛ وقسم بينكم الميراث هذا التقسيم العادل فعليكم أن تلتزموا بتنفيذ قسمة الله التى قسمها لكم، ولا يصح لكم أن تحكموا أهواءكم فى أموالكم، فإنكم لا تعلمون من أنفع لكم من أصولكم وفروعكم فى دنياكم وآخرتكم.

وقد صدر - سبحانه - الجملة الكريمة بذكر الآباء والأبناء لقوة قرابتهم واتحاد اتصالهم،

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٤ ص ٢٢٧

ومع ذلك لا يدرون النافع منهم، لأن الله - تعالى - وحده هو العليم بأحوال عباده، وبما تسره وتعلنه نفوسهم.

ثم أكد الله - تعالى - وجوب الانقياد لما شرعه لهم فى شأن المواريث بتأكيدين:

أولهما: قوله - تعالى - ﴿فريضة من الله﴾.

أى: فرض الله ذلك التقسيم للميراث فريضة، وقدره تقديرا فلا يجوز لكم أن تخالفوه، لأنه تقدير الله وقسمته، وليس لأحد أن يخالف قسمة الله وشرعه.

وقوله ﴿فريضة﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لنفسه، على حد قولهم؛ هذا ابنى حقا، لأنه واقع بعد جملة لا محتمل لها غيره، فيكون فعله الناصب له محذوفا وجوبا. أى فرض ذلك فريضة من الله.

وأما التأكيد الثانى: فهو قوله - تعالى - : ﴿إن الله كان عليما حكيما﴾ أى إن الله - تعالى - كان عليما بما يصلح أمر العباد فى دنياهم وآخرتهم، حكيما فيما قضى وقدر من شئون وتشريعات، فعليكم أن تقفوا عندما قضى وشرع لتفوزوا بمثوبته ورعايته ورضاه.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: ومناسبة هذا الكلام هنا أنه - تعالى - لما ذكر أنصباء الأولاد والأبوين، وكانت تلك الأنصباء مختلفة.. والإنسان ربما خطر بباله أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه لكانت أنفع له وأصلح، لاسيما وقد كانت قسمة العرب للمواريث مخالفة لما جاء به الإسلام. لما كان الأمر كذلك أزال الله هذه الشبهة بأن قال: إنكم تعلمون أن عقولكم لا تحيط بمصالحكم، فربما اعتقدتم فى شىء أنه صالح لكم وهو عين المضرة، وربما اعتقدتم فيه أنه عين المضرة وهو عين المصلحة، وأما الإله الحكيم الرحيم فهو عالم بمغيبات الأمور وعواقبها، فاتركوا تقدير المواريث بالمقادير التى تستحسنها عقولكم، وكونوا مطيعين لأمر الله فى هذه التقديرات التى قدرها لكم، فقوله ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ إشارة إلى ترك ما يميل إليه الطبع من قسمة المواريث على الورثة. وقوله: ﴿فريضة من الله﴾ إشارة إلى وجوب الانقياد لهذه القسمة التى قدرها الشرع وقضى بها»[1].

وبعد أن بين -سبحانه- ميراث الأولاد والأبوين شرع فى بيان ميراث الأزواج فقال -تعالى- : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد. فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن﴾.

أى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لهؤلاء الزوجات

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٢١٨

الموروثات ولد ذكرا كان أو أنثى ، واحدا كان أو متعددا ، منكم كان أو من غيركم فإن كان لهن ولد فلكم أيها الازواج الربع مما تركن من المال.

وبهذا نرى أن للزوج فى الميراث حالتين : حالة يأخذ فيها نصف ما تركته زوجته المتوفاة من مال إن لم تترك خلفها ولدا من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها. . . إلخ ، فإن تركت ولدا على التفصيل السابق كان لزوجها ربع ما تركت من مال وتلك هى الحالة الثانية للزوج، ويكون الباقى فى الصورتين لبقية الورثة.

وقوله ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ متعلق بكلتا الصورتين.

أى لكم ذلك أيها الرجال من بعد استخراج وصيتهن وقضاء ما عليهن من ديون.

ثم بين - سبحانه - نصيب الزوجة فقال ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾.

أى أن للزوجات ربع المال الذى تركه أزواجهن إذا لم يكن لهؤلاء الأزواج الأموات ولد من ظهورهم أو من ظهور بنيهم أو بنى بنيهم. . إلخ فإن ترك الأزواج من خلفهم ولدا فللزوجات ثمن المال الذى تركه أزواجهن ويكون المال الباقى فى الصورتين لبقية الورثة.

ونرى من هذا أن الزوجة على النصف فى التقدير من الزوج، وهو قاعدة عامة فى قسمة الميراث بالنسبة للذكر والأنثى، ولم يستثن إلا الإخوة لأم، والأبوين فى بعض الأحوال.

وقوله ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ متعلق بما قبله.

أى لكن ذلك أيتها الزوجات من بعد استخراج وصيتهم وقضاء ما عليهم من ديون.

ثم بين - سبحانه، ميراث الإخوة والأخوات لأم فقال - تعالى - : ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس. فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث﴾.

والكلالة؛ هم القرابة من غير الأصول والفروع.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما الكلالة؟ قلت : ينطلق على واحد من ثلاثة : على من لم يخلف ولدا ولا والدا «وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد، ومنه قولهم ما ورث المجد عن كلالة. كما تقول : ما صمت عن عى، وما كف عن جبن.

والكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء، قال الأعشى :

فآليت لا أرثى لها من كلالة

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنها بالإضافة إلى قرابتهما كالّة ضعيفة. وعن أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه سئل عن الكلالة فقال: الكلالة: من لا ولد له ولا والد»[1].

والظاهر أن كلمة «كلالة هنا وصف للميت الموروث، لأنها حال من نائب فاعل قوله: ﴿يورث﴾ وهو ضمير الميت الموروث. والتقدير: وإن كان رجل موروثا حال كونه كلالة. أى؛ لم يترك ولدا ولا والدا. ويرى بعضهم أن كلمة كلالة هنا: وصف للوارث الذى ليس بولد ولا والد للميت. لأن هؤلاء الوارثين يتكللون الميت من جوانبه، وليسوا فى عمود نسبه، كالإكليل يحيط بالرأس، ووسط الرأس منه خال. من تكلله الشيء إذا أحاط به. فسمى هؤلاء الأقارب الذين ليسوا من أصول الميت أو من فروعه كلالة، لأنهم أطافوا به من جوانبه لا من عمود نسبه. وعلى هذا الرأى يكون المعنى وإن كان رجل يورث حال كونه ذا وارث هو كلالة. أى أن وارثه ليس بولد ولا والد له.

والمراد بالإخوة والأخوات هنا: الإخوة والاخوات لأم، بدليل قراءة سعد بن أبى وقاص: «وله أخ أو أخت من أم». ويدل عليه - أيضا - أن الله - تعالى - ذكر ميراث الإخوة مرتين: هنا مرة، ومرة أخرى فى آخر آية من هذه السورة وهى قوله: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة﴾.

وقد جعل - سبحانه - فى الآية التى معنا للواحد السدس وللأكثر الثلث شركة، وجعل فى الآية التى فى آخر السورة للأخت الواحدة النصف، وللأثنتين الثلثين، فوجب أن يكون الإخوة هنا وهناك مختلفين دفعا للتعارض. ولأنه لما كان الإخوة لأب وأم أو لأب فحسب أقرب من الإخوة لأم، وقد أعطى - سبحانه - الأخت والأختين والإخوة فى آخر السورة نصيبا أوفر، فقد وجب حمل الإخوة فى آخر السورة على الأشقاء أو الإخوة لأب. كما وجب حمل الإخوة والأخوات هنا على الإخوة لأم.

والمعنى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ أى: يورث من غير أصوله أو فروعه ﴿أو امرأة﴾ أى: تورث كذلك من غير أصولها أو فروعها.

والضمير فى قوله ﴿وله﴾ يعود لذلك الشخص الميت المفهوم من المقام. أو لواحد منهما - أى الرجل والمرأة - والتذكير للتغليب. أو يعود للرجل واكتفى بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فى هذا الحكم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٨٦ - بتصرف وتلخيص -

وقوله : ﴿أخ أو أخت﴾ أى : من الأم فقط ﴿فلكل واحد منهما﴾ أى : الأخ والأخت ﴿السدس﴾ مما ترك ذلك المتوفى من غير تفضيل للذكر على الأنثى، لأنهما يتساويان فى الإدلاء إلى الميت بمحض الانوثة. ﴿فإن كانوا﴾ أى : الإخوة والأخوات لأم، أكثر من واحد فهم شركاء فى الثلث، يقتسمونه فيما بينهم بالسوية بين ذكورهم وإناثهم، والباقى من المال الموروث يقسم بين أصحاب الفروض والعصبات من الورثة.

وبذلك نرى أن الإخوة والأخوات من الأم لهم حالتان :

إحداهما : أن يأخذ الواحد أو الواحدة السدس إذا انفردا.

والثانية : أن يتعدد الأخ لأم أو الأخت لأم وفى هذه الحالة يكون نصيبهم الثلث يشتركون فيه بالسوية بلا فرق بين الذكر والأنثى.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله، والله عليم حليم﴾.

أى : هذه القسمة التى قسمها الله - تعالى - لكم بالنسبة للإخوة للأم إنما تتم بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ما عليه من ديون، من غير ضرار الورثة بوصيته أو دينه. وفى قوله ﴿يوصى﴾ قراءتان سبعيتان :

إحداهما بالبناء للمفعول أى ﴿يوصى﴾ - بفتح الصاد - فيكون قوله ﴿غير مضار﴾ حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور. أى من بعد وصية يوصى بها أو دين حالة كون الموصى به أو الدين غير مضار، أى غير متسبب فى ضرر الورثة.

والقراءة الثانية بالبناء للفاعل أى ﴿يوصى﴾ - بكسر الصاد - فيكون قوله ﴿غير مضار﴾ حال من فاعل الفعل المذكور وهو ضمير ﴿يوصى﴾.

أى : يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه «غير مضار» أى غير مدخل الضرر على الورثة. وبهذا نرى أن مرتبة الورثة فى التقسيم تأتى بعد سداد الديون وبعد تنفيذ الوصايا ولذا ذكر سبحانه هذين الأمرين أربع مرات فى هاتين الآيتين تأكيدا لحق الدائنين والموصى لهم وتبرئة لذمة المتوفى فقد قال بعد بيان ميراث الأولاد والأبوين ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ وقال بعد بيان ميراث الزوج ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ وقال بعد ميراث الزوجة : ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ وقال بعد بيان ميراث الإخوة والأخوات لأم : ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾.

وقد قدم - سبحانه - الوصية على الدين فى اللفظ مع أنها مؤخرة عن الدين فى السداد،

وذلك للتشديد فى تنفيذها، إذ هى مظنه الإهمال، أومظنة الإخفاء، ولأنها مال يعطى بغير عوض فكان إخراجها شاقا على النفس، فكان من الاسلوب البليغ الحكيم العناية بتنفيذها، وكان من مظاهر هذه العناية تقديمها فى الذكر.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: فإن قلت: لم قدمت الوصية على الدين والدين مقدم عليها فى الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها مع الدين.

فإن قلت: ما معنى ﴿أو﴾؟ قلت معناها الإباحة، وأنه إذا كان أحدهما أو كلاهما، قدم على قسمة الميراث كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين. فأو هنا جىء بها للتسوية بينهما فى الوجوب»(١).

وقوله - تعالى - ﴿غير مضار﴾ يفيد النهى للمورث عن إلحاق الضرر بورثته عن طريق الوصية أو بسبب الديون.

والضرر بالورثة عن طريق الوصية يتأتى بأن يوصى المورث بأكثر من الثلث، أو به فأقل مع قصده الإضرار بالورثة فقد روى النسائى فى سننه عن ابن عباس أنه قال: الضرار فى الوصية من الكبائر». وقال قتادة: كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه.

والضرر بالورثة بسبب الدين يتأتى بأن يقر بدين لشخص ليس له عليه دين دفعا للميراث عن الورثة، أو يقر بأن الدين الذى كان له على غيره قد استوفاه ووصل إليه، مع أنه لم يحصل شىء من ذلك.

وقد ذكر - سبحانه - هذه الجملة وهى قوله ﴿غير مضار﴾ بعد حديثه عن ميراث الإخوة والأخوات من الأم، تأكيدا لحقوقهم، وتحريضا على أدائها، لأن حقوقهم مظنة الضياع والإهمال. ولا يزال الناس إلى الآن يكادون يهملون نصيب الإخوة لأم.

وقوله ﴿وصية من الله﴾ نصبت كلمة ﴿وصية﴾ فيه على أنها مصدر مؤكد أى: يوصيكم الله بذلك وصية. والتنوين فيها للتفخيم والتعظيم. والجار والمجرور وهو ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لوصية: أى وصية كائنة من الله فمن خالفها كان مستحقا لعقابه.

وقوله ﴿والله عليم حليم﴾ تذييل قصد به تربية المهابة فى القلوب من خالقها العليم

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٨.

بأحوالها. أى والله عليم بما تسرون وما تعلنون، وبما يصلح أحوالكم وبمن يستحق الميراث ومن لا يستحقه وبمن يطيع أوامره ومن يخالفها حليم لا يعجل بالعقوبة على من عصاه، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل. فعليكم أن تستجيبوا لأحكامه، حتى تكونوا أهلا لمثوبتة ورضاه.

* * *

ثم أكد - سبحانه - وجوب الانقياد لأحكامه، وبشر المطيعين بحسن الثواب. وأنذر العصاة بسوء العقاب فقال: ﴿تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾.

واسم الإشارة ﴿تلك﴾ يعود إلى الأحكام المذكورة فى شأن المواريث وغيرها. والمعنى: تلك الأحكام التى ذكرها - سبحانه - عن المواريث وغيرها ﴿حدود الله﴾ أى شرائعه وتكاليفه التى شرعها لعباده.

والحدود جمع حد. وحد الشيء طرفه الذى يمتاز به عن غيره. ومنه حدود البيت أى أطرافه التى تميزه عن بقية البيوت.

والمراد بحدود الله هنا الشرائع التى شرعها - سبحانه - لعباده بحيث لا يجوز لهم تجاوزها ومخالفتها.

وقد أطلق - سبحانه - على هذه الشرائع كلمة الحدود على سبيل المجاز لشبهها بها من حيث إن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها.

ثم قال - تعالى - ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أى فيما أمر به من الأحكام، وفيما شرعه من شرائع تتعلق بالمواريث وغيرها.

﴿يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى تجرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أى باقين فيها لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها وقوله ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ أى وذلك المذكور من دخول الجنة الخالدة الباقية بمن فيها هو الفوز العظيم، والفلاح الذى ليس بعده فلاح.

ثم قال - تعالى - ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ أى فيما أمر به من أوامر وفيما نهى عنه من منهيات ﴿ويتعد حدوده﴾ التى تتعلق بالمواريث وغيرها بأن يتجاوزها ويخالف حكم الله فيها.

﴿يدخله نارا خالدا فيها﴾ أى. يدخله نارا هائلة عظيمة خالدا فيها خلودا أبديا إن كان من أهل الكفر والضلال. وخالدا فيها لمدة لا يعلمها إلا الله إن كان من عصاة المؤمنين.

وقال هنا ﴿خالدا فيها﴾ بالإفراد، وقال فى شأن المؤمنين ﴿خالدين فيها﴾ بالجمع، للإيذان

بأن أهل الطاعة جديرون بالشفاعة. فإذا شفع أحدهم لغيره وقبل الله شفاعته. دخل ذلك الغير معه فى رضوان الله.

أما أهل الكفر والمعاصى فليسوا أهلا للشفاعة، بل يبقون فرادى، تحيط بهم الذلة والمهانة من كل جانب.

أو للاشعار بأن الخلود فى دار الثواب يكون على هيئة الاجتماع الذى هو أجلب للأنس والبهجة.

وبأن الخلود فى دار العقاب يكون على هيئة الانفراد الذى هو أشد فى استجلاب الوحشة والهم.

وقوله ﴿وله عذاب مهين﴾ أى لهذا العاصى لله ولرسوله، والمتعدى للحدود التى رسمها الله، عذاب عظيم من شأنه أن يخزى من ينزل به ويذله ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد وضحت أحكام المواريث بأبلغ بيان، وأحكم تشريع، وبشرت المستجيبين لشرع الله بجزيل الثواب، وأنذرت المعرضين عن ذلك بسوء المصير.

هذا، ومن الأحكام والفوائد التى يمكن أن نستخلصها من هذه الآيات ما يأتى:

أولا: أن ترتيب الورثة قد جاء فى الآيتين الكريمتين على أحسن وجه، وأتم بيان، وأبلغ أسلوب وذلك لأن الوارث - كما يقول الإمام الرازى - إما أن يكون متصلا بالميت بغير واسطة أو بواسطة. فإن اتصل به بغير واسطة فسبب الاتصال إما أن يكون هو النسب أو الزوجية، فحصل هنا أقسام ثلاثة:

أولها: أشرفها وأعلاها الاتصال الحاصل ابتداء من جهة النسب، وذلك هو قرابة الولاد ويدخل فيها الأولاد والوالدان، فالله - تعالى - قدم حكم هذا القسم.

وثانيها: الاتصال الحاصل ابتداء من جهة الزوجية. وهذا القسم متأخر فى الشرف عن القسم الأول! لأن الأول ذاتى وهذا الثانى عرض، والذاتى أشرف من العرض.

وثالثها: الاتصال الحاصل بواسطة الغير وهو المسمى بالكلالة. وهو متأخر فى الشرف عن القسمين الأولين، لأنهما لا يعرض لهم السقوط بالكلية وأما الكلالة فقد يعرض لهم السقوط بالكلية، ولأنهما يتصلان بالميت بغير واسطة بخلاف الكلالة.

فما أحسن هذا الترتيب، وما أشد انطباقه على قوانين المعقولات»(١)

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٢٢٠.

ثانيا : أن الآيتين الكريمتين قد بينتا الوراثين والوارثات ونصيب كل وارث بالأوصاف التى جعلها الله - تعالى - سببا فى استحقاق الإرث كالبنوة والأبوة والزوجية والأخوة. وقد ألغتا بالنسبة إلى أصل الاستحقاق الذكورة والأنوثة والصغر والكبر وجعلتا للكل حقا معينا فى الميراث. وبهذا أبطلتا ما كان عليه الجاهليون من جعل الإرث بالنسب مقصورا على الرجال دون النساء والأطفال، وكانوا يقولون : «لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة».

ثالثا : أن قوله - تعالى - : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾ إلخ يعم أولاد المسلمين والكافرين والأحرار والأرقاء والقاتلين عمدا وغير القاتلين إلا أن السنة النبوية الشريفة قد خصصت بعض هذا العموم، حيث أخرجت الكافر من هذا العموم لحديث :

«لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» وعلى هذا سار جمهور العلماء فلم يورثوا مسلما من كافر ولا كافرا من مسلم.

وذهب بعضهم إلى أن الكافر لا يرث المسلم ولكن المسلم يرث الكافر.

كذلك نص العلماء على أن الحر والعبد لا يتوارثان؛ لأن العبد لا يملك، وعلى أن القاتل عمدا لا يرث من قتله معاملة بنقيض مقصوده.

رابعا : أن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكورا وإناثا يكون بعد أن يأخذ الأبوان والأجداد والجدات وأحد الزوجين أنصبتهم.

وأن الأولاد يطلقون على فروع الشخص من صلبه. أى أبنائه وأبناء أبنائه، وبنات أبنائه.

وأن أبناء الشخص وبناته يقدمن على أبناء أبنائه وبنات أبنائه. أى أن الطبقه الأولى تستوفى حقها فى الميراث قبل من يليها.

وأن الأبناء والأبوين والزوجين لا يسقطون من أصل الاستحقاق للميراث بحال، إلا أنهم قد يؤثر عليهم وجود غيرهم فى المقدار المستحق.

وأنه متى اجتمع فى المستحقين للميراث ذكور وإناث من درجة واحدة، أخذ الذكر مثل حظ الانثيين إلا ما سبق لنا استثناؤه.

خامسا : لا يجوز للمورث أن يسىء إلى ورثته لا عن طريق الوصية ولا عن طريق الدين ولا عن أى طريق آخر، لأن الله - تعالى - قد نهى عن المضارة فقال : ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله﴾.

وإن بدء الآيتين الكريمتين بقوله : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾.

وختم أولاهما بقوله : ﴿فريضه من الله﴾ وختم ثانيتهما بقوله ﴿وصية من الله﴾ هذا البدء والختام لجديران بأن يغرسا الخشية من الله فى قلوب المؤمنين الذين يخافون مقام ربهم، وينهون أنفسهم عن السير فى طريق الهوى والشيطان.

سادسًا : أنه يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة، فقد كرر الله - تعالى - قوله : ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ كما سبق أن بينا.

قال القرطبى : ولا ميراث إلا بعد أداء الدين والوصية؛ فإذا مات المتوفى أخرج من تركته الحقوق المعينات، ثم ما يلزم من تكفينه وتقبيره، ثم الديون على مراتبها، ثم يخرج من الثلث الوصايا، وما كان فى معناها على مراتبها أيضا. ويكون الباقى ميراثا بين الورثة.

وجملتهم سبعة عشر. عشرة من الرجال وهم : الابن وابن الابن وإن سفل والأب وأب الأب وهو الجد وإن علا. والأخ وابن الأخ. والعم وابن العم. والزوج ومولى النعمة.

ويرث من النساء سبع وهن : البنت وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدة وإن علت. والأخت والزوجة. ومولاة النعمة وهى المعتقة...»[1].

* * *

وبعد أن أمر - سبحانه - بالإحسان إلى النساء. وبمعاشرتهن معاشرة كريمة، وبين حقوقهن فى الميراث، أتبع ذلك ببيان حكمه - سبحانه - فى الرجال والنساء إذا ما ارتكبوا فاحشة الزنا فقال - تعالى - :

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله : ﴿واللاتى﴾ جمع التى. وهى تستعمل فى جمع من يعقل. أما إذا أريد جمع ما لا يعقل

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٦١.

من المؤنث فإنه يقال : التى. تقول : أكرمت النسوة اللاتى حضرن. وتقول : نزعت الأثواب التى كنت ألبسها. وهذا هو الرأى المختار.

وبعضهم يسوى بينهما فيقول فى الجمع المؤنث لغير العاقل : اللاتى.

وقوله ﴿يأتين﴾ من الإتيان ويطلق فى الأصل على المجىء إلى شىء. والمراد به هنا الفعل. أى واللاتى يفعلن ﴿الفاحشة من نسائكم﴾.

والفاحشة : هى الفعلة القبيحة. وهى مصدر كالعافية. يقال فحش الرجل يفحش فحشا. وأفحش : إذا جاء بالقبح من القول أو الفعل.

والمراد بها هنا : الزنا.

وقوله : ﴿من نسائكم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل ﴿يأتين﴾ أى : يأتين الفاحشة حال كونهن من نسائكم.

والمراد بالنساء فى قوله ﴿من نسائكم﴾ : النساء اللاتى قد أحصن بالزواج سواء أكن مازلن فى عصمة أزواجهن أم لا. وهذا رأى جمهور الفقهاء.

وبعضهم يرى أن المراد بالنساء هنا مطلق النساء سواء أكن متزوجات أم أبكارًا.

والمعنى : أن الله - تعالى - يبين لعباده بعض الأحكام المتعلقة بالنساء فيقول :

أخبركم - أيها المؤمنون - بأن اللاتى يأتين فاحشة الزنا من نسائكم، بأن فعلن هذه الفاحشة المنكرة وهن متزوجات أو سبق لهن الزواج.

﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أى : فاطلبوا أن يشهد عليهن بأنهن أتين هذه الفاحشة المنكرة أربعة منكم أى من الرجال المسلمين الأحرار.

وقوله : ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت﴾ أى فإن شهد هؤلاء الأربعة بأن هؤلاء النسوة قد أتين هذه الفاحشة، فعليكم فى هذه الحالة أن تحبسوا هؤلاء النسوة فى البيوت ولا تمكنوهن من الخروج عقوبة لهن، وصيانة لهن عن تكرار الوقوع فى هذه الفاحشة المنكرة، وليستمر الأمر على ذلك «حتى يتوفاهن الموت» أى حتى يقبض أرواحهن الموت. أو حتى يتوفاهن ملك الموت.

وقوله : ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ أى : أو يجعل الله لهن مخرجا من هذا الإمساك فى البيوت، بأن يشرع لهن حكما آخر.

وقوله : ﴿واللاتى﴾ فى محل رفع مبتدأ. وجملة ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ خبره.

وجاز دخول الفاء الزائدة فى الخبر. لأن المبتدأ أشبه الشرط فى كونه موصولا عاما صلته فعل مستقبل.

وعبر - سبحانه - عن ارتكاب فاحشة الزنا بقوله: ﴿يأتين﴾ لمزيد التقبيح والتشنيع على فاعلها: لأن مرتكبها كأنه ذهب إليها عن قصد حتى وصل إليها وباشرها.

واشترط - سبحانه - شهادة أربعة من الرجال المسلمين الأحرار؛ لأن الرمى بالزنا من أفحش ما ترمى به المرأة والرجل، فكان من رحمة الله وعدله أن شدد فى إثبات هذه الفاحشة أبلغ ما يكون التشديد، فقرر عدم ثبوت هذه الجريمة إلا بشهادة أربعة من الرجال بحيث لا تقبل فى ذلك شهادة النساء.

قال: الزهرى: مضت السنة من لدن رسول الله ﷺ والخليفتين من بعده أن لا تقبل شهادة النساء فى الحدود.

وقرر أن تكون الشهادة بالمعاينة لا بالسماع، ولذا قال ﴿فإن شهدوا﴾ أى إن ذكروا أنهم عاينوا ارتكاب هذه الجريمة من مرتكبيها. وشهدوا على ما عاينوه وأبصروه ﴿فأمسكوهن فى البيوت﴾.

وحتى فى قوله. ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ بمعنى إلى. والفعل بعدها منصوب بإضمار أن. وهى متعلقة بقوله ﴿فأمسكوهن﴾ غاية له.

والمراد بالتوفى أصل معناه أى الاستيفاء وهو القبض تقول: توفيت مالى الذى على فلان واستوفيته إذا قبضته. وإسناده إلى الموت باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك. والكلام على حذف مضاف أى: حتى يقبض أرواحهن الموت. أو حتى يتوفاهن ملائكة الموت

و«أو» فى قوله ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾، للعطف، فقد عطفت قوله ﴿يجعل﴾ على قوله: ﴿يتوفاهن﴾ فيكون الجعل غاية لإمساكهن أيضا.

فيكون المعنى. أمسكوهن فى البيوت إلى أن يتوفاهن الموت، أو إلى أن يجعل الله لهن سبيلا أى مخرجا من هذه العقوبة.

وقد جعل الله - تعالى - هذا المخرج بما شرعه بعد ذلك من حدود بأن جعل عقوبة الزانى البكر: الجلد. وجعل عقوبة الزانى الثيب: الرجم وقد رجم النبى - ﷺ - ماعز بن مالك الأسلمى، ورجم الغامدية، وكانا محصنين.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست فى بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال - تعالى - : ﴿واللاتى

يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ الآية. فالسبيل الذى جعله الله هو الناسخ لذلك - أى لإمساكهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت -.

قال ابن عباس: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخه بالجلد أو الرجم.

وكذلك روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطاء وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك أنها منسوخة. وهو أمر متفق عليه.

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: «كان النبى ﷺ إذا نزل عليه الوحى أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فلما سرى عنه قال: خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا، الثيب بالثيب. والبكر بالبكر. الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة. والبكر جلد مائة ونفى سنة».

وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عبادة بن الصامت»(١).

هذا وما ذكره ابن كثير من أن هذا الحكم كان فى ابتداء الإسلام، ثم نسخ بما جاء فى سورة النور وبما جاء فى حديث عبادة بن الصامت، هو مذهب جمهور العلماء.

وقال صاحب الكشاف: ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة، ويوصى بإمساكهن فى البيوت بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال. ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ هو النكاح الذى يستغنين به عن السفاح وقيل السبيل: الحد، لأنه لم يكن مشروعا فى ذلك الوقت»(٢).

وقال أبو سليمان الخطابى: هذه الآية ليست منسوخة، لأن قوله ﴿فأمسكوهن فى البيوت﴾ ألخ، يدل على أن إمساكهن فى البيوت ممتد إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلا، وذلك السبيل كان مجملا، فلما قال النبى ﷺ خذوا عنى. ألخ، صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية لا ناسخا لها»(٣).

ثم بين - سبحانه - حكما آخر فقال: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾.

أى واللذان يأتيان فاحشة الزنا من رجالكم ونسائكم فآذوهما بالشتم والتوبيخ والزجر الشديد ليندما على ما فعلا، وليرتدع سواهما بهما.

وقد اختلف العلماء فى المراد بقوله ﴿واللذان﴾.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٦٢.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٨٧
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٣٦٥.

فمنهم من قال المراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا.

ومنهم من قال المراد بهما الرجلان يفعلان اللواط.

ومنهم من قال المراد بهما الرجل والمرأة لا فرق بين بكر وثيب.

والمختار عند كثير من العلماء هو الرأى الأول، قالوا: لأن الله - تعالى - ذكر فى هاتين الآيتين حكمين:

أحدهما: الحبس فى البيوت.

والثانى: الإيذاء. ولا شك أن من حكم عليه بالأول خلاف من حكم عليه بالثانى، والشرع يخفف فى البكر ويشدد على الثيب، ولذلك لما نسخ هذا الحكم جعل للثيب الرجم وللبكر الجلد، فجعلنا الحكم الشديد وهو الحبس على الثيب، والحكم الأخف وهو الإيذاء على البكر.

قالوا: وقد نسخ حكم هذه الآية بآية النور، حيث جعل حكم الزانيين اللذين لم يحصنا جلد مائة.

فقد أخرجه ابن جرير عن الحسن البصرى وعكرمة قالا فى قوله - تعالى - ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ الآية، نسخ ذلك بآية الجلد وهى قوله - تعالى - فى سورة النور: ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ الآية[1].

ومن العلماء من قال بأن هذه الآية غير منسوخة بآية النور، فإن العقوبة ذكرت هنا مجملة غير واضحة المقدار لأنها مجرد الإيذاء، وذكرت بعد ذلك مفصلة بينة المقدار فى سورة النور. أى أن ما ذكر هنا من قبيل المجمل، وما ذكر فى سورة النور من قبيل المفصل، وأنه لا نسخ بين الآيتين.

هذا، ولأبى مسلم الأصفهانى رأى آخر فى تفسير هاتين الآيتين، فهو يرى أن المراد باللاتى فى قوله ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ النساء السحاقات اللاتى يستمتع بعضهن ببعض وحدهن الحبس، والمراد بقوله ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ اللائطون من الرجال وحدهم الإيذاء. وأما حكم الزناة فسيأتى فى سورة النور.

قال الآلوسى: وقد زيف هذا القول بأنه لم يقل به أحد، وبأن الصحابة قد اختلفوا فى حكم اللوطى ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية، وعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على الحكم دليل على أن الآية ليست فى ذلك. وأيضًا جعل الحبس فى البيت عقوبة السحاق

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٢٩٧.

لا معنى له. لأنه مما لا يتوقف على الخروج كالزنا. فلو كان المراد السحاقات لكانت العقوبة لهن عدم اختلاط بعضهن ببعض لا الحبس والمنع من الخروج. وحيث جعل هو عقوبة دل ذلك على أن المراد باللاتى يأتين الفاحشة الزانيات. . . »(١).

والذى نراه أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ، بعضه بالكتاب وبعضه بالسنة.

أما الكتاب فهو قوله - تعالى - فى سورة النور ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ الآية.

وأما السنة فحديث عباده بن الصامت الذى سبق ذكره.

وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر الآيتين يدل على أن ماذكر فيهما من الحبس والإيذاء هو تمام العقوبة، مع أنه لم يثبت عن النبى - ﷺ - أنه عاقب أحدا من الزناة بالحبس أو بالإيذاء بعد نزول آية سورة النور. بل الثابت عنه أنه كان يجلد البكر من الرجال والنساء، ويرجم المحصن منهما، ولم يضم إلى إحدى هاتين العقوبتين حبسا أو إيذاء، فثبت أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين قد نسخ.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا أقلع الزانى والزانية عن جريمتهما فقال: ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما﴾.

أى فإن تابا عما فعلا من الفاحشة، وأصلحا أعمالهما ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أى فاصفحوا عنهما وكفوا عن أذاهما ﴿إن الله كان توابا﴾ أى مبالغا فى قبول التوبة ممن تاب توبة صادقة نصوحا ﴿رحيما﴾ أى واسع الرحمة بعباده الذين لا يصرون على معصية بل يتوبون إليه منها توبة صادقة.

* * *

وبعد أن وصف - سبحانه - ذاته بأنه هو التواب الرحيم عقب ذلك ببيان من تقبل منهم التوبة، ومن لا تقبل منهم فقال:

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٣٦ - طبعة منير الدمشقى.

يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾

والتوبة : هى الرجوع إلى الله - تعالى - وإلى تعاليم دينه بعد التقصير فيها مع الندم على هذا التقصير والعزم على عدم العودة إليه.

والمراد بها قبولها من العبد. فهى مصدر تاب عليه إذا قبل توبته.

والمراد من الجهالة فى قوله «يعملون السوء بجهالة» : الجهل والسفه بارتكاب مالا يليق بالعاقل، لا عدم العلم، لأن من لا يعلم لا يحتاج إلى التوبة.

قال مجاهد : كل من عصى الله عمدًا أو خطأً فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته.

وقال قتادة : اجتمع أصحاب النبى ﷺ فرأوا أن كل شىء عصى الله به فهو جهالة عمدا كان أو غيره»[1].

قال - تعالى - حكاية عن يوسف - عليه السلام - : ﴿رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

وقال حكاية عن موسى - عليه السلام - ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾.

وقال - سبحانه - مخاطبا نوحا - عليه السلام - ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

ووجه تسمية العاصى جاهلا - وإن عصى عن علم - أنه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب لما عصى ربه، فلما لم يستعمل هذا العلم صار كأنه لا علم له، فسمى العاصى جاهلا لذلك، سواء ارتكب المعصية مع العلم بكونها معصية أم لا.

والمعنى : إنما قبول التوبة كائن أو مستقر على الله - تعالى - لعباده الذين يعملون السوء، ويقعون فى المعاصى بجهالة أى يعملون السوء جاهلين سفهاء، لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة، لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل.

وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بإنما الدالة على الحصر، للإشعار بأن هؤلاء الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، هم الذين يقبل الله توبتهم، ويقيل عثرتهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٣.

وعبر - سبحانه - بلفظ على فقال: ﴿إنما التوبة على الله﴾ للدلالة على تحقق الثبوت، حتى لكأن قبول التوبة من هؤلاء الذين ﴿يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾ من الواجبات عليه، لأنه - سبحانه - قد وعد بقبول التوبة؛ وإذا وعد بشىء أنجزه، إذ الخلف ليس من صفاته - تعالى - بل هو محال فى حقه - عز وجل -.

ولفظ ﴿التوبة﴾ مبتدأ. وقوله ﴿للذين يعملون السوء بجهالة﴾ متعلق بمحذوف خبر. وقوله ﴿على الله﴾ متعلق بمحذوف صفة للتوبة.

أى: إنما التوبة الكائنة على الله للذين يعملون السوء بجهالة...

وقوله ﴿بجهالة﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل ﴿يعملون﴾ أى: يعملون السوء جاهلين سفهاء. أو متعلق بقوله ﴿يعملون﴾ فتكون الباء للسببية أى: يعملون السوء بسبب الجهالة.

وقوله ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ أى ثم يتوبون فى زمن قريب من وقت عمل السوء، ولا يسترسلون فى الشر استرسالا ويستمرئونه ويتعودون عليه بدون مبالاة بإرتكابه.

ولا شك أنه متى جدد الإنسان توبته الصادقة فى أعقاب ارتكابه للمعصية كان ذلك أرجى لقبولها عند الله - تعالى - وهذا ما يفيده ظاهر الآية. ومنهم من فسر قوله ﴿من قريب﴾ بما قبل حضور الموت. وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف فقال: قوله: ﴿من قريب﴾ أى: من زمان قريب. والزمان القريب: ما قبل حضرة الموت ألا ترى إلى قوله ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن﴾. فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة، فبقى ما وراء ذلك فى حكم القريب. وعن ابن عباس: قبل أن ينزل به سلطان الموت. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهى قريب» وفى الحديث الشريف: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» - أى ما لم تتردد الروح فى الحلق[1].

والذى نراه أن ماذكره صاحب الكشاف وغيره من أن قوله ﴿من قريب﴾ معناه: من قبل حضور الموت، لايتعارض مع الرأى القائل بأن قوله ﴿من قريب﴾ معناه: تم يتوبون فى وقت قريب من وقت عمل السوء، لأن ما ذكره صاحب الكشاف وغيره بيان للوقت الذى تجوز التوبة فيه ولا تنفع بعده، أما الرأى الثانى فهو بيان للزمن الذى يكون أرجى قبولا لها عند الله.

والعاقل من الناس هو الذى يبادر بالتوبة الصادقة عقب المعصية بلا تراخ، لأنه لا يدرى متى

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٨٩.

يفاجئه الموت، ولأن تأخيرها يؤدى إلى قسوة القلب، وضعف النفس، واستسلامها للأهواء والشهوات.

وقوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما﴾ بيان للوعد الحسن الذى وعد الله به عباده الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من قريب.

أى: فأولئك المتصفون بما ذكر، يقبل الله توبتهم، ويأخذ بيدهم إلى الهداية والتوفيق، ويطهر نفوسهم من أرجاس الذنوب، وكان الله عليما بأحوال عباده وبما هم عليه من ضعف، حكيما يضع الأمور فى مواضعها حسبما تقتضيه مشيئته ورحمته بهم.

وقوله ﴿فأولئك﴾ مبتدأ. وقوله ﴿يتوب الله عليهم﴾ خبره.

وأشار إليهم بلفظ ﴿أولئك﴾ للإيذان بسمو مرتبتهم، وعلو مكانتهم، وللتنبيه على استحضارهم باعتبار أوصافهم المتقدمة الدالة على خوفهم من خالقهم عز وجل - وقوله ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها

ثم بين - سبحانه - من لا تقبل توبتهم بعد بيانه لمن تقبل توبتهم فقال: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار﴾.

أى: وليست التوبة مقبولة عند الله بالنسبة للذين يعملون السيئات، ويقترفون المعاصى، ويستمرون على ذلك ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾. بأن شاهد الأحوال التى لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا، وانقطع منه حبل الرجاء فى الحياة ﴿قال إنى تبت الآن﴾ أى قال فى هذا الوقت الذى لا فائدة من التوبة فيه: إنى تبت الآن.

وقوله: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ أى وليست التوبة مقبولة أيضا من الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام.

فالآية الكريمة قد نفت قبول التوبة من فريقين من الناس.

أولهما: الذين يرتكبون السيئات صغيرها وكبيرها، ويستمرون على ذلك بدون توبة أو ندم حتى إذا حضرهم الموت، ورأوا أهواله، قال قائلهم: إنى تبت الآن وقد كرر القرآن هذا المعنى فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾[1].

وقوله - تعالى - حكاية عن فرعون، ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى

---

(١) سورة غافر الآية: ص ٨٥.

آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾[1].

وعدم قبول توبة هؤلاء فى هذا الوقت سببه أنهم نطقوا بها فى حالة الاضطرار لا فى حالة الاختيار، ولأنهم نطقوا بها فى غير وقت التكليف.

وثانيهما: الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام. فقد أخرج الامام أحمد عن أبى ذر الغفارى أن رسول الله ﷺ قال: إن يقبل توبة عبده مالم يقع الحجاب. قيل: وما الحجاب؟ قال أن تموت النفس وهى مشركة.

وكثير من العلماء يرى أن المراد بالفريق الثانى: الكفار، لأن العطف يقتضى المغايرة.

ومنهم من يرى أن الفريق الأول شامل للكفار ولعصاة المؤمنين فيكون عطف قوله ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ من باب عطف الخاص على العام لإفادة التأكيد.

و ﴿حتى﴾ فى قوله: ﴿حتى إذا حضر﴾. حرف ابتداء.. والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها. أى ليست التوبة لقوم يعملون السيئات ويستمرون على ذلك فإذا حضر أحدهم الموت قال كيت وكيت.

وقوله ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ معطوف على الموصول قبله. أى ليس قبول التوبة لهؤلاء الذين يعملون السيئات... ولا لهؤلاء الذين يموتون وهم كفار.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال - تعالى -: ﴿أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ أى أولئك الذين تابوا فى غير وقت قبول التوبة هيأنا لهم عذابا مؤلما موجعا بسبب ارتكاسهم فى المعاصى؛ وابتعادهم عن الصراط المستقيم الذى يرضاه - سبحانه - لعباده.

* * *

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى المؤمنين نهاهم فيه عما كان شائعا فى الجاهلية من ظلم للنساء؛ وإهدار لكرامتهن، وأمرهم بحسن معاشرتهن، وبعدم أخذ شىء من حقوقهن فقال - تعالى: -

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ

(١) سورة يونس الآيات: ٩١، ٩٢، ٩٣.

لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ
أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾
وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾

قال القرطبى عند تفسيره للآية الأولى : اختلفت الروايات وأقوال المفسرين فى سبب نزولها؛ فروى البخارى عن ابن عباس قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾.

وقال الزهرى وأبو مجلز : كان من عادتهم إذا مات الرجل يلقى ابنه من غيرها أو أقرب عصبة ثوبه على المرأة فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت. وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا، وإن شاء عضلها لتفتدى منه بما ورثته من الميت أو تموت فيرثها. فأنزل الله هذه الآية : ﴿يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾. الآية.

وقيل : كان يكون عند الرجل عجوز ونفسه تتوق إلى الشابة فيكره فراق العجوز لمالها فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدى منه بمالها أو تموت فيرث مالها فنزلت هذه الآية.

ثم قال القرطبى : والمقصود من الآية إذهاب ما كانوا عليه فى جاهليتهم، وألا تجعل النساء كالمال يورثن عن الرجال كما يورث المال.. (١).

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٩٤.

وهناك روايات أخرى فى سبب نزول هذه الآية ساقها ابن جرير وابن كثير وغيرهما، وهى قريبة فى معناها، مما أورده القرطبى، لذا اكتفينا بما ساقه القرطبى.

وكلمة ﴿كرها﴾ قرأها حمزة والكسائى بضم الكاف. وقرأها الباقون بفتحها قال الكسائى: وهما لغتان بمعنى واحد. وقال الفراء: الكره - بفتح الكاف - بمعنى الإكراه. وبالضم بمعنى المشقة. فما أكره عليه الإنسان فهو كره - بالفتح - وما كان من جهة نفسه فهو كره - بالضم -.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا وصدقوا بالحق الذى جاءهم من عند الله، لا يحل لكم أن تأخذوا نساء موتاكم بطريق الإرث وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه، لأن هذا الفعل من أفعال الجاهلية التى حرمها الإسلام لما فيها من ظلم للمرأة وإهانة لكرامتها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «كانوا يبلون النساء بضروب من البلايا، ويظلموهن بأنواع من الظلم، فزجروا عن ذلك. فقيل: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ أى: أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات»[1].

وقد وجه - سبحانه - النداء إلى المؤمنين فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ ليعم الخطاب جميع الأمة، فيأخذ كل مكلف فيها بحظه منه سواء أكان هذا المكلف من أولياء المرأة أم من الأزواج أم من الحكام أم من غيرهم.

وفى مخاطبتهم بصفة الإيمان تحريك لحرارة العقيدة فى قلوبهم، وتحريض لهم على الاستجابة إلى ما يقتضيه الإيمان من طاعة لشريعة الله - تعالى -.

وصيغة ﴿لا يحل لكم﴾ صيغة تحريم صريح؛ لأن الحل هو الإباحة فى لسان العرب ولسان الشريعة. فنفيه يرادف معنى التحريم.

وليس النهى فى قوله: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ منصبا على إرث أموالهن كما هو المعتاد، وإنما النهى منصب على إرث المرأة ذاتها كما كانوا يفعلون فى الجاهلية؛ إذ كانوا يجعلون ذات المرأة كالمال فيرثونها من قريبهم كما يرثون ماله.

وقوله ﴿كرها﴾ مصدر منصوب على أنه حال من النساء. أى حال كونهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه.

والتقييد بالكره لا يدل على الجواز عند عدمه، لأن تخصيص الشىء بالذكر لا يدل على نفى ما عداه، كما فى قوله - تعالى -: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٩٠.

وقوله : ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ نهى آخر عن بعض الأعمال السيئة التى كان أهل الجاهلية يعاملون بها المرأة. وهو معطوف على قوله : ﴿أن ترثوا...﴾. وأعيد حرف «لا» للتوكيد.

أى : لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها، ولا يحل لكم أن تعضلوهن.

وأصل العضل : التضييق والحبس والمنع. يقال : عضلت الناقة بولدها، إذا نشب فى بطنها وتعسر عليه الخروج. وهو : أعضل به الأمر، إذا اشتد وتعسر.

والمراد به هنا : منع المرأة من الزواج والتضييق عليها فى ذلك، سواء أكان هذا المنع والتضييق من الزوج أم من غيره.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قوله - تعالى - : ﴿ولا تعضلوهن﴾.

يقول : ولا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن، يعنى الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيؤذيها لتفتدى - أى : لتفتدى نفسها منه بأن تترك له مالها عليه من مهر أو مال -[1].

وقيل : كان أولياء الميت يمنعون زوجته من التزوج بمن شاءت، ويتركونها على ذلك حتى تدفع لهم ما أخذت من ميراث الميت، أو حتى تموت فيرثوها.

والمعنى : لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن ترثوا النساء كرها، ولا أن تمنعوهن من الزواج ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ من الصداق أو غيره، بأن يدفعن إليكم بعضه اضطرارًا فتأخذوه منهن، فإن هذا الفعل يبغضه الله - تعالى -.

ويبدو لنا من سياق الآية أن النهى عن عضل المرأة هنا - وإن كان يتناول جميع المكلفين -، إلا أن المعنى به الأزواج ابتداء، لأنهم - فى الغالب - هم الذين كانوا يفعلون ذلك.

ولذا قال ابن جرير - بعد أن ذكر الأقوال فى المعنى بالخطاب فى قوله : ﴿ولا تعضلوهن﴾.

«وأولى الأقوال التى ذكرناها بالصحة فى تأويل قوله : ﴿ولا تعضلوهن﴾ قول من قال : «نهى الله زوج المرأة عن التضييق عليها، والإضرار بها، وهو لصحبتها كاره ولفراقها محب، لتفتدى منه ببعض ما آتاها من الصداق.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة، لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل المرأة إلا لأحد رجلين : إما لزوجها بالتضييق عليها... ليأخذ منها ما آتاها... أو لوليها الذى إليه إنكاحها. ولما كان

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٤ ص٣٠٨.

الولى معلوما أنه ليس ممن آتاها شيئا. كان معلوما أن الذى عنى الله - تعالى - بنهيه عن عضلها هو زوجها الذى له السبيل إلى عضلها ضرارا لتفتدى منه»[١].

والاستثناء فى قوله ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ متصل من أعم العلل والأسباب، أى لا تعضلوهن لعلة من العلل أو لسبب من الأسباب إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. لسوء أخلاقهن، وكاشفة عن أحوالهن. كالزنا والنشوز، وسوء الخلق، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء وفحش القول ونحوه، فلكم العذر فى هذه الأحوال فى طلب الخلع منهن، وأخذ ما آتيتموهن من المهر لوجود السبب من جهتهن لا من جهتكم.

والأصل فى هذا الحكم قوله - تعالى - ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

ويرى بعضهم أن الاستثناء هنا منقطع فيكون المعنى: ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن لكن إن يأتين بفاحشة مبينة يحل لكم أخذ المهر الذى آتيتموهن إياه أو أخذ بعضه.

ثم أمر الله - تعالى - الرجال - وخصوصا الأزواج - بحسن معاشرة النساء فقال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾.

والمعاشرة: مفاعلة من العشرة وهى المخالطة والمصاحبة.

أى: وصاحبوهن وعاملوهن بالمعروف، أى بما حض عليه الشرع وارتضاه العقل من الأفعال الحميدة، والأقوال الحسنة.

قال ابن كثير: قوله - تعالى - ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أى: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم. كما تحب ذلك منها، فافعل أنت مثله. كما قال - تعالى - ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ وقال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى». وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويضاحك نساءه. حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - يتودد إليها بذلك. قالت: سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته. وذلك قبل أن أحمل اللحم. ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقنى. فقال: هذه بتلك. وكان ﷺ يجمع نساءه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد. يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٤. ص٣٠٩ - بتصرف وتلخيص.

وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام. يؤانسهن بذلك ﷺ. وقد قال - تعالى - ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾[١].

هذا، وللإمام الغزالى كلام حسن فى كتابه الإحياء عند حديثه عن آداب معاشرة النساء، فقد قال ما ملخصه: ومن آداب المعاشرة حسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن، ترحما عليهن، لقصور عقلهن. قال - تعالى - : ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾. وقال فى تعظيم حقهن: ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾.

ثم قال: واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عن طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ. فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام. ومن آداب المعاشرة - أيضًا - أن يزيد على احتمال الأذى منها بالمداعبة والمزح والملاعبة، فهى التى تطيب قلوب النساء. وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال.

وقال عمر - رضى الله عنه - ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى. فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلا.

وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول: «إنى - لأتزين لامرأتى كما تتزين لى»[٢].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أنه لا يصح للرجال أن يسترسلوا فى كراهية النساء إن عرضت لهم أسباب الكراهية، بل عليهم أن يغلبوا النظر إلى المحاسن، ويتغاضوا عن المكاره فقال - تعالى - : ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾.

أى: فإن كرهتم صحبتهن وإمساكهن فلا تتعجلوا فى مفارقتهن، فإنه عسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله لكم فى الصبر عليه وعدم إنفاذه خيرًا كثيرًا فى الدنيا والآخرة.

فالآية الكريمة ترشد إلى حكم عظيمة منها أن على العاقل أن ينظر إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها، لا من ناحية واحدة منها وهي ناحية البغض والحب.. وأن ينظر فى العلاقة التى بينه وبين زوجه بعين العقل والمصلحة المشتركة، لا بعين الهوى.. وأن يحكم دينه وضميره قبل أن يحكم عاطفته ووجدانه. فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين وأحمد وأدنى إلى الخير، وأحبت ما هو بضد ذلك، وربما يكون الشيء الذى كرهته اليوم ولكنها لم تسترسل فى كراهيته سيجعل الله فيه خيرًا كثيرًا فى المستقبل. قال - تعالى - ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٦.

(٢) من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالى جـ٢ ص٣٩.

قال القرطبى : روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقًا رضى منها آخر » أى : لا يبغضها بغضا كليا يحمله على فراقها. أى لا ينبغى له ذلك ، بل يغفر سيئتها لحسنتها ، ويتغاضى عما يكره لما يحب. - والفرك البغض الكلى الذى تنسى معه كل المحاسن -.

وقال مكحول : سمعت ابن عمر رضى الله عنهما - يقول : إن الرجل ليستخير الله - تعالى - فيخار له ، فيسخط على ربه - عز وجل - فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خير له »[1].

وبعد أن بين - سبحانه - أنه يجوز للرجل أن يأخذ من المرأة بعض ما أعطاها من صداق إذا أتت بفاحشة مبينة . . عقب ذلك ببيان الحكم فيما إذا كان الفراق من جانب الزوج دون أن تكون المرأة قد أتت بفاحشة فقال - تعالى - ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا﴾ والاستبدال : طلب البدل ، بأن يطلق الرجل امرأة ويتزوج بأخرى.

والقنطار : أصله من قنطرت الشيء إذا رفعته. ومنه القنطرة ، لأنها بناء مرتفع مشيد. والمراد به هنا المال الكثير الذى هو أقصى ما يتصور من مهر يدفعه الرجل للمرأة.

والمعنى : وإن أردتم أيها الأزواج ﴿استبدال زوج﴾ أى تزوج امرأة ترغبون فيها «مكان زوج» أى مكان امرأة لا ترغبون فيها ، بل ترغبون فى طلاقها ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا﴾ أى أعطى أحدكم إحدى الزوجات التى تريدون طلاقها مالا كثيرًا على سبيل الصداق لها ﴿فلا تأخذوا منه شيئا﴾ أى فلا تأخذوا من المال الكثير الذى أعطيتموه لهن شيئا أيًا كان هذا الشيء ، لأن فراقهن كان بسبب من جانبكم لا من جانبهن.

وعبر - سبحانه - بـ ﴿إن﴾ التى تفيد الشك فى وقوع الفعل ؛ للتنبيه على أن الإرادة قد تكون غير سليمة ، وغير مبنية على أسباب قوية ، فعلى الزوج أن يتريث ويتثبت ويحسن التدبر فى عواقب الأمور.

والمراد بالزوج فى قوله ﴿استبدال زوج مكان زوج﴾ الجنس الذى يصدق على جميع الأزواج.

والمراد من الإيتاء فى قوله ﴿وآتيتم﴾ الالتزام والضمان. أى : التزمتم وضمنتم أن تؤتوا إحداهن هذا المال الكثير.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٩٨.

والجملة حالية بتقدير قد. أى : وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج والحال أنكم قد آتيتم التى تريدون أن تطلقوها قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا.

والاستفهام فى قوله ﴿أتأخذونه بهتانا وإثما مبينًا﴾ للإنكار والتوبيخ، والبهتان : هو الكذب الذى يدهش ويحير لفظاعته. ويطلق على كل أمر كاذب يتحير العقل فى إدراك سببه أو لا يعرف مبررا لوقوعه، كمن يعتدى على الناس ويتقول عليهم الأقاويل، مع أنه ليست هناك عداوة سابقة بينه وبينهم.

قال صاحب الكشاف : والبهتان : أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو برىء منه ولأنه يبهت عند ذلك. أى يتحير.

والإثم : هو الذنب العظيم الذى يبعد صاحبه عن رضا الله - تعالى - ﴿والمبين﴾ هو الشىء الواضح الذى يعلن عن نفسه بدون لبس أو خفاء.

وقوله ﴿بهتانا وإثما﴾ مصدران منصوبان على الحالية بتأويل الوصف، أى : أتأخذون ما تريدون أخذه منهن باهتين، أى فاعلين فعلا تتحير العقول فى سببه، وآثمين بفعله إثما واضحا لا لبس فيه ولا خفاء؟!

ويصح أن يكون المصدران مفعولين لأجله، ويكون ذلك أشد فى التوبيخ والإنكار، إذ يكون المعنى عليه : أتأخذونه لأجل البهتان والإثم المبين الذى يؤدى إلى غضب الله عليكم؟! إن إيمانكم يمنعكم من إرتكاب هذا الفعل الشنيع فى قبحه.

قالوا : كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد التزوج بأمرأة أخرى، بهت التى تحته - أى رماها بالفاحشة التى هى بريئة منها - حتى يلجئها إلى أن تطلب طلاقها منه فى نظير أن تترك له ما لها عليه من صداق أو غيره، فنهوا عن ذلك.

ثم كرر - سبحانه - توبيخه لمن يحاول أخذ شىء من صداق زوجته التى خالطته فى حياته مدة طويلة فقال : ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظًا﴾.

وأصل أفضى - كما يقول الفخر الرازى - من الفضاء الذى هو السعة يقال : فضا يفضو فضوا وفضاء إذا اتسع. ويقال : أفضى فلان إلى فلان أى : وصل إليه وأصله أنه صار فى فرجته وفضائه.

والمراد بالإفضاء هنا : الوصول والمخالطة : لأن الوصول إلى الشىء قطع للفضاء الذى بين المتواصلين.

والاستفهام فى قوله ﴿وكيف تأخذونه...﴾ للتعجب من حال من يأخذ شيئا مما أعطاه لزوجته بعد إنكار ذات الأخذ.

والمراد بالميثاق الغليظ فى قوله «وأخذن منكم ميثاقا غليظا» هو ما أخذه الله للنساء على الرجال من حسن المعاشرة أو المفارقة بإحسان كما فى قوله - تعالى - : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾. وليس أخذ شيء مما أعطاه الرجال للنساء من التسريح بإحسان، بل يكون من التسريح الذى صاحبه الظلم والإساءة.

والمراد بالميثاق الغليظ الذى أخذ:كلمة النكاح المعقودة على الصداق، والتى بها تستحل فروج النساء، ففى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ - قال فى خطبة حجة الوداع: «استوصوا بالنساء خيرًا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[(١)].

والمعنى : بأى وجه من الوجوه تستحلون يا معشر الرجال ان تأخذوا شيئا من الصداق الذى أعطيتموه لنسائكم عند مفارقتهن؛ والحال أنكم قد إختلط بعضكم ببعض، وصار كل واحد منكم لباسا لصاحبه، وأخذن منكم عهدا وثيقا مؤكدا مزيد تأكيد؛ لا يحل لكم أن تنقضوه أو تخالفوه !!؟

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد منع الرجال من أخذ شيء من الصداق الذى أعطوه لنسائهم لسببين :

أحدهما : الإفضاء وخلوص كل زوج لنفس صاحبه حتى صارا كأنهما نفس واحدة.

وثانيهما : الميثاق الغليظ الذى أخذ على الرجال بأن يعاملوا النساء معاملة كريمة.

والضمير فى قوله ﴿واخذن﴾ للنساء. والآخذ فى الحقيقة إنما هو الله - تعالى - إلا أنه سبحانه - نسبه إليهن للمبالغة فى المحافظة على حقوقهن، حتى جعلهن كأنهن الآخذات له.

قال بعضهم : وهذا الإسناد مجاز عقلى، لأن الآخذ للعهد هو الله. أى : وقد أخذ الله عليكم العهد لأجلهن وبسببهن. فهو مجاز عقلى من الإسناد إلى السبب»[(٢)].

ووصف - سبحانه - الميثاق بالغلظة لقوته وشدته. فقد قالوا : صحبة عشرين يوما قرابة. فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟!

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة ما يأتى :

١ - تكريم الإسلام للمرأة، فقد كانت فى الجاهلية مهضومة الحق، يعتدى عليها بأنواع من

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٧.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٣٦٩.

الاعتداء، فرفعها الله - تعالى - بما شرعه من تعاليم إسلامية من تلك الهوة التى كانت فيها، وقرر لها حقوقها، ونهى عن الاعتداء عليها.

ومن مظاهر ذلك أنه حرم أن تكون موروثة كما يورث المال. وكذلك حرم عضلها وأخذ شىء من صداقها إلا إذا أتت بفاحشة مبينة. وأمر الرجال بأن يعاشروا النساء بالمعروف، وأن يصبروا على أخطائهن رحمة بهن.

٢ - جواز الإصداق بالمال الكثير: لأن الله - تعالى - قال: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا﴾. والقنطار: المال الكثير الذى هو أقصى ما يتصور من مهور.

قال القرطبى ما ملخصه: قوله - تعالى - ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا﴾ دليل على جواز المغالاة فى المهور، لأن الله - تعالى - لا يمثل إلا بمباح.

وخطب عمر - رضى الله عنه - فقال: ألا لاتغالوا فى صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ولكن رسول الله ﷺ ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا من بناته فوق اثنتى عشرة أوقية. فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر. يعطينا الله وتحرمنا!! أليس الله تعالى - يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا﴾؟ فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر..

وفى رواية أنه أطرق ثم قال: امرأة أصابت ورجل أخطأ وترك الإنكار.

ثم قال القرطبى: وقال قوم: لا تعطى الآية جواز المغالاة فى المهور، لأن التمثيل بالقنطار إنما هو على جهة المبالغة: كأنه قال: وآتيتم هذا القدر العظيم الذى لا يؤتيه أحد..

ولقد قال النبى ﷺ لإبن أبى حدرد - وقد جاءه يستعين فى مهره فسأله عنه فقال: مائتين، فغضب ﷺ وقال: كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة» أى من ذلك المكان الذى به حجارة نخرة سود - فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة فى المهور»[1].

والذى نراه ان الآية الكريمة وإن كانت تفيد جواز الإصداق بالمال الجزيل، إلا ان الأفضل عدم المغالاة فى ذلك، مع مراعاة أحوال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما.

ولقد ورد ما يفيد الندب إلى التيسير فى المهور. فقد أخرج أبو داود والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصداق أيسره»[2].

٣ - أن الرجل إذا أراد فراق امرأته. فلا يحل له أن يأخذ منها شيئا مادام الفراق بسببه ومن

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٩٩ بتصرف وتلخيص.
(٢) أخرجه أبو داود فى باب «من تزوج ولم يسم صداقا حتى مات» من كتاب النكاح جـ٢ ص٢٣١.

جانبه : كما أنه لا ينبغى له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه إياها إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها.

٤ - اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطء. واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة.

قال القرطبى والصحيح استقراره بالخلوة مطلقا. وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. قالوا : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة. دخل بها أو لم يدخل بها. لما رواه الدارقطنى عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ «من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق». وقال مالك : إذا طال مكثه معها السنة ونحوها. واتفقا على ألا مسيس. وطلبت المهر كله كان لها»[1].

* * *

وبعد أن نهى - سبحانه - عن ظلم المرأة فى حال الزوجية. وعن ظلمها بعد وفاة زوجها. وعن ظلمها فى حالة فراقها. وأمر بمعاشرتها بالمعروف بعد كل ذلك بين - سبحانه - من لا يحل الزواج بهن من النساء ومن يحل الزواج بهن حتى تبقى للأسرة قوتها ومودتها فقال - تعالى - :

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١٠٢.

مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾
۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟
بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ
مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

أورد المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ الآية.

ومن هذه الروايات ما رواه ابن أبى حاتم - بسنده - عن رجل من الأنصار قال: لما توفى أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: إنما أعدك ولدا لى وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول الله ﷺ واستأمره.

فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفى. فقال: «خيرا». ثم قالت إن ابنه قيسا خطبنى وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعده ولدا لى فماذا ترى؟ فقال لها: «ارجعى إلى بيتك» فنزلت: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾(١).

وقال القرطبى: قوله - تعالى -: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ يقال: كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله - تعالى -: ﴿يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ حتى نزلت هذه الآية ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ فصار حراما فى الأحوال كلها، لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٨.

ثم قال : وقد كان فى العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه . وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة، وكانت فى قريش مباحة على التراضى ، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السيرة »[1].

وقوله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ الخ . معطوف على قوله : ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ و ﴿ما﴾ فى قوله ﴿ما نكح آباؤكم﴾ موصول اسمى مراد به الجنس . أى لا تنكحوا التى نكح آباؤكم . وقوله ﴿من النساء﴾ بيان لـ ﴿ما﴾ الموصولة .

ويرى بعضهم أن « ما » هنا مصدرية فيكون المعنى . ولا تنكحوا نكاحا مثل نكاح آبائكم الفاسد الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية .

قال الآلوسى . وإنما خص هذا النكاح بالنهى ، ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية « مبالغة فى الزجر عنه . حيث كان ذلك ديدنا لهم فى الجاهلية »[2] .

فالآية الكريمة تحرم على الأبناء أن يتزوجوا من النساء اللائى كن أزواجا لآبائهم .

وكلمة ﴿آباؤكم﴾ فى قوله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ تشمل كل الأصول من الرجال .

أى : تشمل الأجداد جميعا سواء أكانوا من جهة الأب أو من جهة الأم والاستثناء فى قوله ﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء منقطع .

والمعنى : لا تنكحوا أيها المؤمنون ما نكح آباؤكم من النساء . لأنه من أفعال الجاهلية القبيحة، لكن ما قد سلف ومضى منه قبل نزول هذه الآية فلا تؤاخذون عليه ، فمن كان متزوجا من امرأة كانت زوجة لأبيه من النسب أو من الرضاع ، فإنها تصير حراما عليه من وقت نزول هذه الآية الكريمة ، ويجب عليه أن يفارقها أما ما مضى من هذا النكاح القبيح فلا تثريب عليكم فيه، وتثبت به أحكام النكاح من النسب وغيره من الأحكام .

ويرى بعضهم أن الاستثناء هنا متصل مما يستلزمه النهى ، ويستوجبه مباشرة المنهى عنه من العقاب . فكأنه قيل : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فإنه قبيح ومعاقب عليه من الله - تعالى - ، إلا ما قد سلف ومضى، فإنه معفو عنه .

وقد وجه صاحب الكشاف الاستثناء بوجه آخر فقال : فإن قلت : كيف استثنى ما قد سلف مما نكح آباؤهم ؟ قلت : كما استثنى « غير أن سيوفهم » من قول الشاعر :

« ولا عيب فيهم » غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١٠٣ بتصرف وتلخيص.
(٢) تفسير الإلوسى جـ٤ ص٢٤٤ .

يعنى : إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه، فإنه لا يحل لكم غيره، وذلك غير ممكن والغرض المبالغة فى تحريمه، وسد الطريق إلى إباحته كما يعلق بالمحال فى التأبيد نحو قولهم : حتى يبيض الفأر. وحتى يلج الجمل فى سم الخياط(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن هذا النوع من النكاح فى نهاية السوء والقبح فقال : ﴿إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلا﴾.

أى : إن هذا النوع من النكاح كان أمرًا زائدا فى القبح شرعا وخلقًا، لأنه يشبه نكاح الأمهات، ويتنافى مع ما للآباء من وقار واحترام، وما يجب من حسن الصحبة وكان «مقتا» والمقت مصدر بمعنى البغض والكراهية.

أى : إن هذا النوع من النكاح كان خصلة بالغة الحد فى القبح والفحش، وكان ممقوتا مبغوضا عند الله، وعند ذوى المروءات والعقول السليمة من الناس.

قال صاحب الكشاف : كانوا ينكحون روابهم - أى زوجات آبائهم جمع رابة وهى امرأة الأب - وكان ناس منهم من ذوى مروءاتهم يمقتونه - لفظاعته وبشاعته - ويسمونه نكاح المقت. وكان المولود عليه يقال له المقتى - أى المبغوض - ومن ثم قيل ﴿ومقتا﴾ كأنه قيل : هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح. قبيح ممقوت فى المروءة. ولا مزيد على ما يجمع القبحين(٢).

وقوله ﴿وساء سبيلا﴾ أى بئس طريقا طريق ذلك النكاح، إذ فيه هتك حرمة الأب. وتقطيع للرحم التى أمر الله بوصلها.

وقوله «وساء» هنا بمعنى بئس، وفيه ضمير يفسره ما بعده. والمخصوص بالذم محذوف تقديره ذلك؛ أى ساء سبيلا سبيل ذلك النكاح.

قال الفخر الرازى : أعلم أنه - سبحانه - قد وصف هذا النكاح بأمور ثلاثة :

أولها : أنه فاحشة لأن زوجة الأب تشبه الأم فمباشرتها من أفحش الفواحش.

وثانيها : المقت : وهو عبارة عن بغض مقرون باستحقار.

وثالثها : قوله ﴿وساء سبيلا﴾.

واعلم أن مراتب القبح ثلاثة : القبح فى العقول وفى الشرائع وفى العادات.

فقوله - تعالى - ﴿إنه كان فاحشة﴾ إشارة إلى القبح العقلى. وقوله ﴿ومقتا﴾ إشارة إلى

(١) تفسير الآلوسى جـ٤ ص٢٤٤.
(٢) الكشاف جـ١ ص٤٩٣.

القبح الشرعى. وقوله ﴿وساء سبيلا﴾ إشارة إلى القبح فى العرف والعادة. ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه فقد بلغ الغاية فى القبح»[١].

وقال الإمام ابن كثير، فمن تعاطى هذا النكاح بعد ذلك - أى استباح تعاطيه - فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئا لبيت المال. لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب أنه بعثه رسول الله ﷺ - إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده، فأمره أن يقتله ويأخذ ماله.

وفى رواية عن البراء قال، مرّ بى عمى الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له النبى ﷺ فقلت له، أى عم، أين بعثك النبى ﷺ فقال، بعثنى إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرنى أن أضرب عنقه»[٢].

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك من يحرم نكاحهن من الأقارب فقال تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ وليس المراد بقوله ﴿حرمت﴾ تحريم ذاتهن، لأن الحرمة لا تتعلق بالذوات وإنما تتعلق بأفعال المكلفين. فالكلام على حذف مضاف أى حرم عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم.. الخ وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله، معنى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ تحريم نكاحهن لقوله. ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ ولأن تحريم نكاحهن هو الذى يفهم من تحريمهن، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها. ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله»[٣].

وقد ذكر - سبحانه - فى هذه الجملة الكريمة أربع طوائف من الأقارب يحرم نكاحهن.

أما الطائفة الأولى: طائفة الأمهات من النسب. أى حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم من النسب، ويعم هذا التحريم أيضا الجدات سواء أكن من جهة الأب أم من جهة الأم، لأنه إذا كان يحرم نكاح العمة أو الخالة فمن الأولى أن يكون نكاح الجدة محرما، إذ الأم هى طريق الوصول فى القرابة إلى هؤلاء. وقد أجمع المسلمون على تحريم نكاح الجدات.

والطائفة الثانية: هى طائفة الفروع من النساء، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله ﴿وبناتكم﴾ بالعطف على أمهاتكم.

أى حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٢٤.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٨.
(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٩٤.

والبنت هى كل امرأة لك عليها ولادة سواء أكانت بنتا مباشرة أم بواسطة فتشمل حرمة النكاح البنات وبنات الأبناء وبنات البنات وإن نزلن.

وقد انعقد الإجماع على تحريم الفروع من النساء مهما تكن طبقتهن.

والطائفة الثالثة : هى طائفة فروع الأبوين. وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله ﴿وأخواتكم﴾ ثم بقوله، ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ بالعطف على ﴿أمهاتكم﴾.

أى وحرم الله عليكم نكاح أخواتكم سواء أكن شقيقات أم غير شقيقات وحرم عليكم أيضا نكاح بنات إخوانكم وبنات أخواتكم من أى وجه يكن.

والطائفة الرابعة : هى طائفة العمات والخالات. وقد ثبت تحريم نكاحهن بقوله - تعالى - ﴿وعماتكم وخالاتكم﴾ بالعطف على ﴿أمهاتكم﴾.

أى حرم الله عليكم نكاح عماتكم وخالاتكم كما حرم عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم.

والعمة : هى كل امرأة شاركت أباك مهما علا فى أصليه أو فى أحدهما.

والخالة : هى كل امرأة شاركت أمك مهما علت فى أصليها أو فى أحدهما.

وإذن فالعمات والخالات يشملن عمات الأب والأم، وخالات الأب والأم، وعمات الجد والجدة، وخالات الجد والجدة. لأن هؤلاء يطلق عليهن عرفا اسم العمة والخالة.

تلك هى الطوائف الأربع اللاتى يحرم نكاحهن من الأقارب، وإن هذا التحريم يتناسب مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها، ويتفق مع العقول السليمة التى تحب مكارم الأخلاق، وذلك لأن شريعة الإسلام قد نوهت بمنزلة القرابة القريبة للإنسان، وأضفت عليها الكثير من ألوان الوقار والاحترام؛ والزواج وما يصاحبه من شهوات ومداعبات ورضا واختلاف يتنافى مع ما أسبغه الله - تعالى - على هذه القوابة القريبة من وقار ومن عواطف شريفه.

ولأن التجارب العلمية قد أثبتت أن التلاقح بين سلائل متباعدة الأصول غالبا ما ينتج نسلا قويا، أما التلاقح بين السلائل المتحدة فى أصولها القريبة فإنه غالبا ما ينتج نسلا ضعيفا.

ثم بين - سبحانه - النساء اللائى يحرم الزواج بهن لأسباب أخرى سوى القرابة فقال - تعالى - ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾.

أى : وحرم الله - عليكم نكاح أمهاتكم اللاتى أرضعنكم، وحرم عليكم - أيضا - نكاح أخواتكم من الرضاعة.

والأم من الرضاع : هى كل امرأة أرضعتك؛ وكذلك كل امرأة انتسبت إلى تلك المرضعة بالأمومة من جهة النسب أو من جهة الرضاع.

والأخت من الرضاع : هى التى التقيت انت وهى على ثدى واحد.

قال القرطبى : وهى الأخت لأب وأم. وهى التى أرضعتها أمك بلبان أبيك، سواء أرضعتها معك أو رضعت قبلك أو بعدك والأخت من الأب دون الأم، وهى التى أرضعتها زوجة أبيك. والأخت من الأم دون الأب وهى التى أرضعتها أمك بلبان رجل آخر»[١].

هذا، وظاهر قوله - تعالى - ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ يقتضى أن مطلق الرضاع محرم للنكاح. وبذلك قال المالكية والأحناف :

ويرى الشافعية والحنابلة أن الرضاع المحرم هو الذى يبلغ خمس رضعات. واستدلوا بما رواه مسلم وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحرم المصة ولا المصتان» وفى رواية عنها أنه قال : «لا تحرم الرضعه والرضعتان، والمصة والمصتان»[٢].

كذلك ظاهر هذه الجملة الكريمة يقتضى أن الرضاع يحرم النكاح ولو فى سن الكبر، إلا أن جمهور العلماء يرون أن الرضاع المحرم هو ما كان قبل بلوغ الحولين أما ما كان بعد بلوغ الحولين فلا يحرم ولا يكون الرضيع ابنا من الرضاعة وذلك لقوله - تعالى - ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾.

وأخرج الترمذى عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء، وكان قبل الفطام».

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعتكم وأخواتكم من الرضاعة﴾.

أى : كما يحرم عليك نكاح أمك التى ولدتك كذلك يحرم عليك نكاح أمك التى أرضعتك.

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة» وفى لفظ لمسلم : «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»[٢].

ومن الحكم التى ذكرها العلماء من وراء تحريم النكاح بسبب الرضاعة : أن المولود يتكون جسمه من جسم المرأة التى أرضعته فيكون جزءًا منها، كما أنه جزء من أمه التى حملته. وإذا كانت هذه قد غذته بدمها وهو فى بطنها فإن تلك قد غذته بلبانها وهو فى حجرها، فكان من التكريم لهذه الأم من الرضاع أن تعامل معاملة الأم الحقيقية، وأن يعامل كل من التقيا على ثدى امرأة واحدة معاملة الإخوة من حيث التكريم وحرمة النكاح بينهم.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١١١

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٦٩.

هذا، ومن أراد المزيد من المعرفة لأحكام الرضاع فليرجع إلى كتب الفقه

ثم ذكر - سبحانه - نوعا ثالثا من المحرمات لغير سبب القرابة فقال: ﴿وأمهات نسائكم﴾.

أى: وكذلك حرم الله عليكم نكاح أمهات زوجاتكم سواء أكن أمهات مباشرات أم جدات، لأن كلمة الأم تشمل الجدات، ولإجماع الفقهاء على ذلك.

قال الألوسى: والمراد بالنساء المعقود عليهن على الإطلاق، سواء أكن مدخولا بهن أم لا. وهو مجمع عليه عند الأئمة الأربعة، لكن يشترط أن يكون النكاح صحيحا. أما إذا كان فاسدا فلا تحرم الأم إلا إذا وطىء ابنتها. فقد أخرج البيهقى فى سننه وغيره من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى - ﷺ - قال: «إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنة أو لم يدخل. وإذا تزوج الأم ولم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج الإبنة[1]».

ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من المحرمات لغير سبب القرابة فقال تعالى - ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾.

وقوله ﴿وربائبكم﴾ جمع ربيبة. وهى بنت أمرأة الرجل من غيره. وسميت بذلك لأن الزوج فى أغلب الأحوال يربها أى يربيها فى حجره ويعطف عليها.

والحجور: جمع حجر - بالفتح والكسر مع سكون الجيم - وهو ما يحويه مجتمع الرجلين للجالس المتربع. والمراد به هنا معنى مجازى وهو الحضانة والكفالة والعطف. يقال: فلان فى حجر فلان أى فى كنفه ومنعته ورعايته.

ومقتضى ظاهر الجمله الكريمة أن الربيبة لا يحرم نكاحها على زوج أمها إلا بشرطين:

أولهما: كونها فى حجره.

وثانيهما: أن يكون الزوج قد دخل بأمها.

أما عن الشرط الأول فلم يأخذ به جمهور العلماء، وقالوا: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب والعادة، إذ الغالب كون البنت مع الأم عند الزوج، لا أنه شرط فى التحريم فهم يرون أن نكاح الربيبة حرام على زوج أمها سواء أكانت فى حجره أم لم تكن قالوا: وفائدة هذا القيد

(١) تفسير الألوسى جـ ٤ ص ٢٥٧

تقوية علة الحرمة أو أنه ذكر للتشنيع عليهم، إذ أن نكاحها محرم عليهم فى جميع الصور إلا أنه يكون أشد قبحا فى حالة وجودها فى حجره هذا رأى عامة الصحابة والفقهاء.

ولكن هناك رواية عن مالك بن أوس عن على بن أبى طالب أنه قال: الربيبة لا يحرم نكاحها على زوج الأم إلا إذا كانت فى حجره أخذا بظاهر الآية الكريمة. وقد أخذ بذلك داود الظاهرى وأشياعه.

وأصحاب الرأى الأول لم يعتدوا بهذه الرواية المروية عن على - رضى الله عنه - وأما عن الشرط الثانى - وهو أن يكون الزوج قد دخل بأم الربيبة - فقد أخذ به العلماء إلا أنهم اختلفوا فى معنى الدخول فقال بعضهم: معناه الوطء والجماع. وقال بعضهم: معناه التمتع كاللمس والقبلة، فلو حصل منه مع الأم ما يشبه ذلك حرم عليه نكاح ابنتها من غيره.

قال القرطبى ما ملخصه: اتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم، وإن لم تكن الربيبة فى حجره. وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا: لا تحرم عليه الربيبة إلا أن تكون فى حجر المتزوج بأمها. ثم قال وقوله - تعالى - ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن﴾ يعنى الأمهات ﴿فلا جناح عليكم﴾ يعنى فى نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو متن عنكم.

وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها. وإختلفوا فى معنى الدخول بالأمهات الذى يقع به التحريم للربائب. فروى عن ابن عباس أنه قال: الدخول: الجماع. واتفق مالك والثورى وأبو حنيفة على أنه إذا مسها بشهوة حرمت عليه أمها وابنتها وحرمت على الأب والإبن، وهو أحد قولى الشافعى...)[1].

والحكمة فى تحريم الربائب على أزواج أمهاتهن أنهن حينئذ يشبهن البنات الصلبيات بالنسبة لهؤلاء الأزواج، بسبب ما يجدنه منهم من رعاية وتربية فى العادة، ولأنه لو أبيح للرجل أن يتزوج ببنت امرأته التى دخل بها، لأدى ذلك إلى تقطيع الأرحام بين الأم وإبنتها. ولأدى ذلك أيضا إلى الانصراف عن رعاية هؤلاء الربائب خشية الرغبة فى الزواج بواحدة منهن.

ثم بين - سبحانه - نوعا خامسا من المحارم فقال. تعالى - : ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾.

والحلائل: جمع حليلة وهى الزوجة. وسميت بذلك لحلها للزوج وحل الزوج لها، فكلاهما حلال لصاحبه. ويقال للزوج حليل.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١١٢

أى : وحرم الله - تعالى - عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين هم من أصلابكم. أى : من ظهوركم.

وقال - سبحانه - ﴿وحلائل أبنائكم﴾ بدون تقييد بالدخول. للاشارة إلى أن حليلة الابن تحرم على الأب بمجرد عقد الابن عليها.

قال القرطبى : أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء. وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء أكان مع العقد وطء أو لم يكن : لقوله - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾. وقيد الله الأبناء بالذين هم من الأصلاب، ليخرج الابن المتبنى. فهذا تحل زوجته للرجل الذى تبناه.

وقد كان العرب يعتبرون الابن بالتبنى كأولادهم من ظهورهم، ويحرمون زوجة الابن بالتبنى على من تبناه. وقد سمى القرآن الأبناء بالتبنى أدعياء فقال -تعالى- :

﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم﴾.

ثم أبطل القرآن ما كان عليه أهل الجاهلية فى شأن الابن المتبنى، فأباح للرجل أن يتزوج من زوجة الابن الذى تبناه بعد فراقه عنها.

وقد أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يتزوج بزينب بنت جحش بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة، وكان زيد قد تبناه النبى ﷺ فقال المشركون : تزوج محمد امرأة ابنه فأنزل الله - تعالى - ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولا﴾.

فإن قيل : إن قيد «من أصلابكم». يخرج الابن من الرضاع كما أخرج الابن بالتبنى؟ فالجواب على ذلك : أن الابن بالرضاع حرمت حليلته على أبيه من الرضاع بقول النبى ﷺ : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

ثم بين - سبحانه - نوعا سادسا من المحرمات فقال - تعالى - : ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورًا رحيما﴾.

قال ابن كثير والمعنى : وحرم عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه. فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل لأنه استثنى مما سلف وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديما وحديثا على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح. ومن أسلم وتحته أختان خير فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة، فقد روى

الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان فأمرنى النبى ﷺ أن أطلق إحداهما»[١].

وكما أنه يحرم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد، فكذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى النبى - ﷺ - عن ذلك فقد جاء فى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها».

وفى رواية الطبرانى أنه قال : «فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»[٢]

والسر فى تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدى إلى تقطيع الأرحام - كما جاء فى الحديث الشريف - إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهن من الكراهية وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم. فكان من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة السابقة صيانة للأسرة من التمزق والتشتت، وحماية لها من الضعف والوهن، وسموًا بها عن مواطن الريبة والغيرة والفساد وقد عفا - سبحانه - عما حدث من هذه الأنكحة الفاسدة فى الجاهلية أو قبل نزول هذه الآية الكريمة بتحريمها، لأنه - سبحانه - كان وما زال غفارا للذنوب، ستارا للعيوب، رحيما بعباده، ومن رحمته بهم أنه لا يعذبهم من غير نذير، ولا يؤاخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح.

ثم بين - سبحانه - نوعا سابعا من المحرمات فقال : ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم﴾.

وقوله ﴿والمحصنات﴾ من الإحصان وهو فى اللغة بمعنى المنع. يقال : هذه درع حصينة، أى مانعة صاحبها من الجراحة. ويقال : هذا موضع حصين، أى مانع من يريده بسوء. ويقال امرأة حصينة أى مانعة نفسها من كل فاحشة بسبب عفتها أو حريتها أو زواجها.

قال الراغب : ويقال حصان للمرأة العفيفة ولذات الحرمة. قال - تعالى - : ﴿ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها﴾ وقال - تعالى - ﴿فإذا أحصن﴾ أى تزوجن. وأحصن زوجن. والحصان فى الجملة : المرأة المحصنة إما بعفتها أو بتزوجها أو بمانع من شرفها وحريتها»[٣]

والمراد بالمحصنات هنا : ذوات الأزواج من النساء.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٢.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٤٦١.
(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ١٢١ للراغب الأصفهانى.

وقوله ﴿والمحصنات من النساء﴾ معطوف على قوله ﴿وأمهاتكم﴾ فى قوله - تعالى - : فى آية المحرمات السابقة ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ إلخ.

والمعنى : وكما حرم عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم إلخ، فقد حرم عليكم - أيضا - نكاح ذوات الأزواج من النساء قبل مفارقة أزواجهن لهن، لكى لا تختلط المياه فتضيع الأنساب.

وقوله ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ استثناء من تحريم نكاح ذوات الأزواج

والمراد به : النساء المسبيات اللاتى أصابهن السبى ولهن أزواج فى دار الحرب، فانه يحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء، لارتفاع النكاح بينهن وبين أزواجهن بمجرد السبى. أو بسبيهن وحدهن دون أزواجهن.

أى : وحرم الله - تعالى - عليكم نكاح ذوات الأزواج من النساء، إلا ما ملكتموهن بسبى فسباؤكم لهن هادم لنكاحهن السابق فى دار الكفر، ومبيح لكم نكاحهن بعد استبرائهن.

قال القرطبى ما ملخصه : فالمراد بالمحصنات هاهنا ذوات الأزواج. أى هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبى من أرض الحرب، فإن تلك حلال للذى تقع فى سهمه وإن كان لها زوج، وهو قول الشافعى فى أن السباء يقطع العصمة. وقاله ابن وهب وابن عبد الحكم ورروياه عن مالك، وقال به أشهب يدل عليه ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ بعث جيشا يوم حنين إلى أوطاس فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا. فكان ناس من أصحاب النبى ﷺ قد تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين. فأنزل الله - عز وجل - فى ذلك ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ أى فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن، وهذا نص صحيح صريح فى أن الآية نزلت بسبب تحرج أصحاب النبى ﷺ عن وطء المسبيات ذوات الأزواج فأنزل الله فى جوابهم ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد وإسحق وأبو ثور، وهو الصحيح - إن شاء الله تعالى - »[1].

وقيل إن المراد بالمحصنات هنا : ذوات الأزواج - كما تقدم -، وبما ملكت أيمانكم : مطلق ملك اليمين. فكل من انتقل إليه ملك أمة ببيع أو هبة أو سباء أو غير ذلك وكانت متزوجة كان ذلك الانتقال مقتضيا لطلاقها وحلها لمن انتقلت إليه.

وهذا القول ضعيف، لأن عائشة - رضى الله عنها - اشترت بريرة وأعتقتها وكانت ذات زوج، ثم خيرها النبى ﷺ بين فسخ نكاحها من زوجها وبين بقائها على هذا النكاح، فدل ذلك على أن بيع الأمة ليس هادما للعصمة، لأنه لو كان هادما لها ما خير النبى ﷺ بريرة.

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١٢١

أخرج البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : اشتريت بريرة. فاشترط أهلها ولاءها. فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال : (أعتقيها فإن الولاء لمن أعطى الورق).

قالت : فأعتقتها. قالت : فدعاها رسول الله ﷺ فخيرها فى زوجها، فقالت : لو أعطانى كذا وكذا مابت عنده. فاختارت نفسها)...

وقوله - تعالى - ﴿كتاب الله عليكم﴾ ساقه - سبحانه - لتأكيده تحريم نكاح الأنواع التى سبق ذكرها.

وقوله ﴿كتاب﴾ مصدر كتب، وهو مصدر مؤكد لعامله أى : كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع التى سبق ذكرها كتابا وفرضه فرضا، فليس لكم أن تفعلوا شيئا مما حرمه الله عليكم، وإنما الواجب عليكم أن تقفوا عند حدوده وشرعه.

وقيل : إن قوله ﴿كتاب﴾ منصوب على الإغراء. أى : الزموا كتاب الله الذى هو حجة عليكم إلى يوم القيامة ولا تخالفوا شيئا من أوامره أو نواهيه.

وعليه فيكون المراد بالكتاب هنا القرآن الكريم الذى شرع الله فيه ما شرع من الأحكام.

وإلى هنا تكون هذه الآيات الثلاث قد بينت خمسة عشر نوعا من الأنكحة المحرمة.

أما الآية الأولى وهى قوله - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ الخ فقد بينت نوعا واحدا.

وأما الآية الثانية وهى قوله - تعالى - : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ الخ فقد بينت ثلاثة عشر نوعا.

وأما الآية الثالثة وهى قوله - تعالى - : ﴿والمحصنات من النساء﴾. الخ فقد بينت نوعا واحدا.

قال الفخر الرازى عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾... الآية : اعلم أنه - تعالى - نص على تحريم أربعة عشر صنفا من النساء : سبعة منهن من جهه النسب وهن : الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

وسبعة أخرى لا من جهة النسب وهن : الأمهات من الرضاعة والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء والربائب بنات النساء بشرط أن يكون قد دخل بالنساء، وأزواج الأبناء والآباء إلا أن أزواج الأبناء مذكورة ها هنا، وأزواج الآباء مذكورة فى الآية المتقدمه، - وهى قوله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ والجمع بين الاختين[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ٢٤.

هذا، وبعد أن بين - سبحانه - المحرمات من النساء، عقب ذلك بإيراد جملة كريمة بين فيها ما يحل نكاحه من النساء فقال -تعالى- : ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾.

و ﴿ما﴾ هنا المراد بها عموم النساء.

وكلمة ﴿وراء﴾ هنا بمعنى غير أو دون كما فى قول بعضهم : (وليس وراء الله للمرء مذهب).

واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى ما تقدم من المحرمات.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله «حرمت عليكم أمهاتكم» الخ.

ومن قرأ ﴿أحل لكم. . .﴾ ببناء الفعل للفاعل جعلها معطوفة على كتب المقدر فى قوله ﴿كتاب الله عليكم. . .﴾.

والمعنى : حرمت عليكم هؤلاء المذكورات، وأحل لكم نكاح ما سواهن من النساء.

قال القرطبى : قوله - تعالى ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص ﴿وأحل لكم﴾ ردا على ﴿حرمت عليكم﴾ وقرأ الباقون بالفتح ردا على قوله - تعالى - ﴿كتاب الله عليكم﴾. وهذا يقتضى ألا يحرم من النساء إلا من ذكر، وليس كذلك؛ فإن الله - تعالى - قد حرم على لسان نبيه ﷺ من لم يذكر فى الآية فيضم إليها. قال - تعالى - : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عند فانتهوا﴾.

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخاللتها». وقد قيل : إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها متلقى من الآية نفسها؛ لأن الله - تعالى - حرم الجمع بين الأختين، والجمع بين المرأة وعمتها - أو خالتها - فى معنى الجمع بين الأختين؛ أو لأن الخالة فى معنى الوالدة والعمة فى معنى الوالد والصحيح الأول : لأن الكتاب والسنة كالشىء الواحد فكأنه قال : «أحللت لكم ما وراء من ذكرنا فى الكتاب وما وراء ما أكملت به البيان على لسان محمد ﷺ»[1].

ثم رفع - سبحانه - من شأن المرأة وكرمها بأن جعل إيتاءها المهر شرطا لاستحلال نكاحها إعزازا لها فقال - تعالى - ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾.

وقوله : ﴿تبتغوا﴾ من الابتغاء بمعنى الطلب الشديد.

وقوله : ﴿محصنين﴾ من الإحصان وهو هنا بمعنى العفة وتحصين النفس ومنعها عن الوقوع فيما يغضب الله - تعالى -.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١٢٤.

وقوله : ﴿مسافحين﴾ من السفاح بمعنى الزنا والمسافح : هو الزانى . ولفظ السفاح مأخوذ من السفح وهو صب الماء وسيلانه . وسمى به الزنا؛ لأن الزانى لا غرض له إلا صب النطفة فقط دون نظر إلى الأهداف الشريفة التى شرعها الله وراء النكاح .

وقوله ﴿أن تبتغوا﴾ فى محل نصب بنزع الخافض على أنه مفعول له لما دل عليه الكلام و﴿محصنين﴾ و﴿غير مسافحين﴾ حالان من فاعل ﴿تبتغوا﴾ .

والمعنى : بين لكم - سبحانه - ما حرم عليكم من النساء، وأحل لكم ما وراء ذلكم، من أجل أن تطلبوا الزواج من النساء اللائى أحلهن الله لكم أشد الطلب، عن طريق ما تقدمونه لهن من أموالكم كمهور، وبذلك تكونون قد أحصنتم أنفسكم ومنعتموها عن السفاح والفجور والزنا .

قال بعضهم : وكان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل منهم المرأة قال : انكحينى . فإذا أراد الزنا قال : سافحينى . والمسافحة أن تقيم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح .

قال الآلوسى : وظاهر الآية حجة لمن ذهب إلى أن المهر لابد وأن يكون مالا وبه قال الأحناف . وقال بعض الشافعية : لا حجة فى ذلك، لأن تخصيص المال لكونه الأغلب المتعارف، فيجوز النكاح على ما ليس بمال . ويؤيد ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد «أن رسول الله ﷺ سأل رجلا خطب الواهبة نفسها للنبى ﷺ ماذا معك من القرآن؟ قال : معى سورة كذا وكذا وعددهن . قال : تقرؤهن على ظهر قلبك؟ قال : نعم قال : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن» .

ووجه التأييد أنه لو كان فى الآية حجة لما خالفها رسول الله ﷺ وأجيب بأن كون القرآن معه لا يوجب كونه بدلا، والتعليم ليس له ذكر فى الخبر، فيجوز أن يكون مراده ﷺ : زوجتك تعظيما للقرآن ولأجل ما معك منه»[1] .

ثم قال - تعالى - : ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ .

والاستمتاع : طلب المتعة والتلذذ بما فيه منفعة ولذة .

والمراد بقوله ﴿أجورهن﴾ أى مهورهن لأنها فى مقابلة الاستمتاع فسميت أجرًا .

و﴿ما﴾ فى قوله ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ واقعة على الاستمتاع . والعائد فى الخبر محذوف أى فآتوهن أجورهن عليه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص ٥ .

والمعنى : فما انتفعتم وتلذذتم به من النساء عن طريق النكاح الصحيح فآتوهن أجورهن عليه.

ويصح أن تكون ﴿ما﴾ واقعة على النساء باعتبار الجنس أو الوصف. وأعاد الضمير عليها مفردًا فى قوله ﴿به﴾ باعتبار لفظها، وأعاده عليها جمعا فى قوله ﴿منهن﴾ باعتبار معناها.

ومن فى قوله ﴿منهن﴾ للتبعيض أو للبيان. والجار والمجرور فى موضع النصب على الحال من ضمير ﴿به﴾ :

والمعنى : فأى فرد أو الفرد الذى تمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فأعطوهن أجورهن على ذلك. والمراد من الأجور : المهور. وسمى المهر أجرًا؛ لأنه بدل عن المنفعة لا عن العين.

وقوله ﴿فريضة﴾ مصدر مؤكد لفعل محذوف أى : فرض الله عليكم ذلك فريضة. أو حال من الأجور بمعنى مفروضة. أى : فآتوهن أجورهن حالة كونها مفروضة عليكم.

ثم بين - سبحانه - أنه لا حرج فى أن يتنازل أحد الزوجين لصاحبه عن حقه أو عن جزء منه ما دام ذلك حاصلا بالتراضى فقال - تعالى - : ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما﴾.

أى : لا إثم ولا حرج عليكم فيما تراضيتم به أنتم وهن من إسقاط شىء من المهر أو الإبراء منه أو الزيادة عليه ما دام ذلك بالتراضى بينكم ومن بعد اتفاقكم على مقدار المهر الذى سميتموه وفرضتموه على أنفسكم.

وقد ذيل - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿إن الله كان عليما حكيما﴾ لبيان أن ما شرعه هو بمقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء، وبمقتضى حكمته التى تضع كل شىء فى موضعه.

فأنت ترى أن الآية الكريمة مسوقة لبيان بعض الأنواع من النساء اللاتى حرم الله نكاحهن، ولبيان ما أحله الله منهن بعبارة جامعة، ثم لبيان أن الله - تعالى - قد فرض على الأزواج الذين يبتغون الزوجات عن طريق النكاح الصحيح الشريف أن يعطوهن مهورهن عوضا عن انتفاعهم بهن، وأنه لا حرج فى أن يتنازل أحد الزوجين لصاحبه عن حقه أو عن شىء منه ما دام ذلك بسماحة نفس، ومن بعد تسمية المهر المقدر.

هذا، وقد حمل بعض الناس هذه الآية على أنها واردة فى نكاح المتعة وهو عبارة عن أن يستأجر الرجل المرأة بمال معلوم إلى أجل معين لكى يستمتع بها.

قالوا : لأن معنى قوله - تعالى - : ﴿فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن﴾ : فمن

جامعتموهن ممن نكحتموهن نكاح المتعة فآتوهن أجوهن.

ولا شك أن هذا القول بعيد عن الصواب، لأنه من المعلوم أن النكاح الذى يحقق الإحصان والذى لا يكون الزوج به مسافحا. هو النكاح الصحيح الدائم المستوفى شرائطه، والذى وصفه الله بقوله ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾.

وإذًا فقد بطل حمل الآية على أنها فى نكاح المتعة؛ لأنها تتحدث عن النكاح الصحيح الذى يتحقق معه الإحصان، وليس النكاح الذى لا يقصد به إلا سفح الماء وقضاء الشهوة.

قال ابن كثير: وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعا فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك. وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة. ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت فى الصحيحين عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، وفى صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة الجهنى عن أبيه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة. فمن كانت عنده منهن شىء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا»[١].

وقال الآلوسى: وقيل الآية فى المتعة، وهى النكاح إلى أجل معلوم من يوم أو أكثر.

والمراد، ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به﴾ من استئناف عقد آخر بعد انقضاء الأجل المضروب فى عقد المتعة، بأن يزيد الرجل فى الأجر وتزيد المرأة فى المدة، وإلى ذلك ذهبت الإمامية - من طائفة الشيعة -

ثم قال: ولا نزاع عندنا فى أنها أحلت ثم حرمت، والصواب المختار أن التحريم والإباحة كانا مرتين. فقد كانت حلالا قبل يوم خيبر ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما، ثم حرمت يومئذ بعد ثلاث تحريما مؤبدًا إلى يوم القيامة...»[٢].

وقال بعض العلماء: وهذا النص وهو قوله - تعالى - ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ قد تعلق به بعض المفسدين الذين لم يفهموا معنى العلاقات المحرمة بين الرجل والمرأة، فادعوا أنه يبيح المتعة... والنص بعيد عن هذا المعنى الفاسد بعد من قالوه عن الهداية؛ لأن الكلام كله فى عقد الزواج فسابقه ولاحقه فى عقد الزواج، والمتعة حتى على كلامهم لا يسمى عقد نكاح أبدا.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٤

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٧ - بتصرف وتلخيص -.

وقد تعلقوا مع هذا بعبارات رووها عن النبى ﷺ أنه أباح المتعة فى غزوات ثم نسخها، وبأن ابن عباس كان يبيحها فى الغزوات وهذا الاستدلال باطل، لأن النبى ﷺ نسخها، فكان عليهم عند تعلقهم برواية مسلم أن يأخذوا بها جملة أو يتركوها، وجملتها تؤدى إلى النسخ لا إلى البقاء.

وإذا قالوا إننا نتفق معكم على الإباحة ونخالفكم فى النسخ فنأخذ المجمع عليه ونترك غيره قلنا لهم: إن النصوص التى أثبتت الإباحة هى التى أثبتت النسخ، وما اتفقنا معكم على الإباحة؛ لأننا نقرر نسخ الإباحة.

على أننا نقول: إن ترك النبى ﷺ المتعة لهم قبل الأمر الجازم بالمنع، ليس من قبيل الإباحة، بل هو من قبيل الترك حتى تستأنس القلوب بالإيمان وتترك عادات الجاهلية، وقد كان شائعا بينهم اتخاذ الأخدان وهو ما نسميه اتخاذ الخلائل. وهذه هى متعتهم، فنهى القرآن الكريم والنبى ﷺ عنها. وإن الترك مدة لا يسمى إباحة وإنما يسمى عفوا حتى تخرج النفوس من جاهليتها، والذين يستبيحونها باقون على الجاهلية الأولى.

وابن عباس - رضى الله عنه - قد رجع عن فتواه بعد أن قال له إمام الهدى على بن أبى طالب: إنك امرؤ تائه، لقد نسخها النبى ﷺ والله لا أوتى بمستمتعين إلا رجمتها»[1].

وبذلك نرى أن الآية الكريمة واردة فى شأن النكاح الصحيح الذى يحقق الإحصان ولا يكون الزوج به مسافحا. وأن القول بأنها تدل على نكاح المتعة قول بعيد عن الحق والصواب للأسباب التى سبق ذكرها.

* * *

وبعد أن بين - سبحانه - المحرمات من النساء، وبين من يحل نكاحه منهن، عقب ذلك ببيان ما ينبغى أن يفعله من لا يستطيع نكاح المحصنات المؤمنات فقال - تعالى - :

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. مجلة لواء الإسلام العدد الرابع من السنة الرابعة عشرة.

بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)

وقوله ﴿طولا﴾ أى سعة وقدرة وغنى فى المال.

قال صاحب الكشاف : الطول : الفضل. يقال : لفلان على فلان طول أى : زيادة وفضل.

وقد طاله طولا فهو طائل. قال الشاعر :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل

ومنه قولهم : ما خلا منه بطائل. أى بشىء يعتد به مما له فضل وخطر. ومنه الطول فى الجسم لأنه زيادة فيه»(١).

والمراد بالمحصنات هنا الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات، وعبر عنهن بذلك، لأن حريتهن أحصنتهن عن النقص الذى فى الإماء.

والمراد بقوله ﴿من فتياتكم﴾ أى من إمائكم وأرقائكم.

والمعنى : ومن لم يستطع منكم يا معشر المؤمنين الأحرار أن يحصل زيادة فى المال تمكنه من أن ينكح الحرائر المؤمنات، فله فى هذه الحالة أن ينكح بعض الإماء المؤمنات اللائى هن مملوكات لغيركم.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿ومن لم يستطع﴾ شرطية، وجوابها قوله، فمما ملكت أيمانكم، ويصح أن تكون موصولة ويكون قوله «فمما ملكت أيمانكم» هو الخبر.

وقوله ﴿منكم﴾ حال من الضمير فى ﴿يستطع﴾ وقوله ﴿طولا﴾ مفعول به ليستطع.

هذا، والآية الكريمة تفيد بمضمونها أنه لا يحل الزواج من الإماء إلا إذا كان المسلم الحر ليس فى قدرته أن يتزوج امرأة حرة.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٩٩.

ولذا قال بعضهم : إن الله - تعالى - شرط فى نكاح الإماء شرائط ثلاثة : اثنان منها فى الناكح ، والثالث فى المنكوحة.

أما اللذان فى الناكح فأحدهما أن يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق.

والثانى هو المذكور فى آخر الآية وهو قوله : ﴿ذلك لمن خشى العنت منكم﴾.

وأما الشرط الثالث المعتبر فى المنكوحة فهو أن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة. . . »[1].

وقد خالف الإمام أبو حنيفة هذا الشرط الثالث فأباح للمسلم الزواج من الأمة الكتابية إن لم يكن عنده زوجة حرة فإن كان متزوجا بحرة فإنه لا يجوز له أن يتزوج أمة مطلقا لا مسلمة ولا كتابية ، وإن عقد عليها كان عقده باطلا وقد بنى حكمه هذا على أساس تفسيره للطول بأنه الزواج بحرة.

أما المالكية والشافعية فقد قالوا : الطول : السعة والقدرة على المهر والنفقة فمن عجز عن مهر الحرة ونفقتها وهو قادر على الزواج من أمة فإنه يجوز له الزواج بها ولو كانت عنده زوجة حرة.

وفى التعبير عن الإماء بقوله ﴿فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ تكريم لهؤلاء الأرقاء، وإعزاز لإنسانيتهن ، وتعليم للمسلمين أن يلتزموا الأدب فى مخاطبتهم لأرقائهم ولذا ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى ».

وقوله - تعالى - ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ جملة معترضة سيقت بين إباحة النكاح من الاماء المؤمنات وبين صورة العقد عليهن تأنيسا للقلوب ، وإزالة للنفرة عن نكاح الاماء ببيان أن مناط التفاخر إنما هو الايمان لا التباهى بالأحساب والأنساب.

والمعنى : أنه - تعالى - أعلم منكم بمراتب إيمانكم الذى هو مناط التفضيل وأنتم وفتياتكم من أصل واحد فلا ينبغى أن يستعلى حر على عبد ، ولا حرة على أمة ، فرب إنسان غير حر أفضل عند الله بسبب إيمانه وعمله الصالح من إنسان حر.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إزالة ما كانت تستهجنه العرب من الزواج بالاماء ، ونهيهم عما كان متداولا بينهم من احتقارهم لولد الأمة وتسميتهم إياه بالهجين - أى الذى أبوه عربى وأمه أمة .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : فما معنى قوله ﴿والله أعلم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٥٦ بتصرف وتلخيص.

بإيمانكم﴾؟ قلت : معناه : أن الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم فى الايمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم. وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة والمرأة أرجح فى الايمان من الرجل. وحق المؤمنين أن لا يعيروا إلا فضل الايمان لا فضل الأحساب والأنساب. وهذا تأنيس بنكاح الاماء وترك الاستنكاف منه. وقوله ﴿بعضكم من بعض﴾ أى : أنتم وأرقاؤكم متناسبون متواصلون لاشتراككم فى الايمان لا يفضل حر عبدا إلا برجحان فيه(١).

ثم بين - سبحانه - كيفية الزواج بهن فقال : ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾ والمراد بأهلهن : مواليهن الذين يملكونهن : وعبر عن المالكين لهن بالأهل، حملا للناس على الأدب فى التعبير، ولأنه يجب أن تكون العلاقة بين العبد ومالكه علاقة أهل لا علاقة استعلاء.

والمراد بالأجور هنا : المهور التى تدفع لهن فى مقابل نكاحهن.

والمراد بالمحصنات هنا : العفائف البعيدات عن الفاحشة والريبة. والمرأة المسافحة هى التى تؤاجر نفسها لكل رجل أرادها. والتى تتخذ الخدن هى التى تتخذ لها صاحبا معينا. وكان أهل الجاهلية يفصلون بين القسمين فيستقبحون الزنا العلنى ويستحلون السرى، فجاءت شريعة الإسلام بتحريم القسمين. قال - تعالى - ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾. وقال - تعالى ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾.

وقوله ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ مترتب ومتفرع على ما قبله من أحكام.

والمعنى : إذا عرفتم حكم الله فى شأن فتياتكم المؤمنات فانكحوهن بعد أن يأذن لكم فى ذلك مواليهن ويرضون عن هذا النكاح، وأدوا إليهن مهورهن بالقدر المتعارف عليه شرعا وعادة عن طيب نفس منكم، وبدون مطل أو بخس. فإنه لا يصح أن تتخذوا من كون المنكوحة أمة سبيلا لغمط حقها، وتصغير شأنها.

وقد اتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها غير جائز، عملا بظاهر هذه الآية الكريمة، فان قوله - تعالى - : ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ يقتضى كون الإذن شرطا فى جواز النكاح، ولأن منافع الأمّة لسيدها وهى ملك له فلا يجوز نكاحها إلا بإذنه.

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿فانكحوهن﴾ أى بولاية أربابهن المالكين وإذنهم. وكذلك العبد لا ينكح إلا بإذن سيده، لأن العبد مملوك لا أمر له، وبدنه كله مستغرق، لكن الفرق بينهما أن العبد إذا تزوج بغير إذن سيده فإن أجازه السيد جاز، هذا مذهب مالك وأصحاب الرأى، والأمة إذا تزوجت بغير إذن أهلها فسخ ولم يجز ولو بإجازة السيد(٢).

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٠٠

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص ١٤١

وقوله ﴿وآتوهن أجورهن﴾ صريح فى وجوب دفع مهر فى مقابل نكاح الأمة ولكن من الذى يتسلم هذا المهر؟

يرى كثير من العلماء أن الذى يتسلم المهر هو السيد المالك للأمة. لأن المهر قد وجب عوضا عن منافع بضع المملوكة للسيد، وهو الذى أباحها للزوج فوجب أن يكون هو المستحق لتسلم المهر؛ ولأن العبد وما ملكت يداه لسيده أى آتوا أهلهن أجورهن فالكلام على حذف مضاف.

ويرى الإمام مالك أن الآية على ظاهرها، وأن المهر إنما يدفع للأمة لأنها أحق به من سيدها، وأنه ليس للسيد أن يأخذ من أمته ويدعها بلا جهاز فالعقد يتولاه السيد أما المهر فيعطى للأمة لتتولى إعداد نفسها للزواج منه.

وقوله ﴿محصنات﴾ حال من المفعول فى قوله ﴿فانكحوهن﴾ أى: فانكوحهن حال كونهن عفائف عن الفاحشة.

وقوله ﴿غير مسافحات﴾ تأكيد له أى غير مجاهرات بالزنا.

وقوله ﴿ولا متخذات أخذان﴾ تأكيد آخر لبعدهن عن الريبة. والأخدان جمع خدن وهو الصاحب والصديق.

والمراد به هنا: من تتخذه المرأة صاحبا لها لارتكاب الفاحشة معه سرًّا

وقد وصف الله - تعالى - الزوجات الإماء بذلك، لتحريضهن على التمسك بأهداب الفضيلة والشرف، إذ الرق مظنة الانزلاق والوقوع فى الفاحشة لما يصاحبه من هوان وضعف، ولا شىء كالهوان يفتح الباب أمام الرذيلة والفاحشة ومن هنا قالت هند بنت عتبة - باستغراب واستنكار - لرسول الله ﷺ عندما أخذ العهد عليها وعلى المؤمنات بقوله ﴿ولا يزنين﴾ قالت يا رسول الله: أو تزنى الحرة؟!!

ثم بين - سبحانه - عقوبة الإماء إذا ما ارتكبن الفاحشة فقال - تعالى - ﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾

ومعنى الإحصان هنا: الزواج. والمراد بالفاحشة: الزنا. والمراد بالعذاب: الحد الشرعى أى: فإذا أحصن أى بالتزويج، فإن أتين بفاحشة الزنا وثبت ذلك عليهن، ففى هذه الحالة حدهن نصف حد الحرائر من النساء

أى أن الأمة إذا زنت فحدها أن تجلد خمسين جلدة ولا رجم عليها لأنه لا يتنصف فلا يكون مرادا هنا.

وظاهر الجملة الكريمة يفيد أن الأمة لا تحد إذا زنت متى كانت غير متزوجة وقد أخذ بهذا

الظاهر بعض العلماء. ولكن جمهور العلماء يرون أن الأمه يقام عليها الحد إذا زنت سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجه.

فالآية الكريمة صرحت بأن الأمة إذا ارتكبت الفحشاء تكون عقوبتها نصف عقوبة الحرة، لأن الجريمة يضعف أثرها بضعف مرتكبها، ويقوى أثرها بقوة مرتكبها، فكان من العدل أن يعاقب الأرقاء لضعفهم بنصف عقوبة الأحرار الأقوياء.

فأين هذا السمو والرحمة والعدالة فى التشريع من مظالم القوانين الوضعية ففى القانون الرومانى كان العبد إذا زنى بحرة قتل، وإذا زنى الشريف حكم عليه بغرامة. ولقد حذر النبى ﷺ من ذلك بقوله: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا: إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد...».

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾:

واسم الإشاره «ذلك» يعود إلى نكاح الإماء.

والعنت: المشقة الشديدة التى يخشى معها التلف أو الوقوع فى الفاحشة التى نهى الله - تعالى - عنها. ولذا قال بعضهم المراد به هنا: الزنا.

أى: ذلك الذى شرعناه لكم من إباحة الزواج بالإماء عند الضرورة يكون بالنسبة لمن خشى على نفسه العزبة التى قد تفضى به إلى الوقوع فى الفاحشة والآثام. ﴿وأن تصبروا﴾ على تحمل المشقة متعففين عن نكاحهن حتى يرزقكم الله الزواج بالحرة، فصبركم هذا خير لكم من نكاح الإماء وإن رخص لكم فيه.

وقوله ﴿والله غفور رحيم﴾ أى واسع المغفرة كثيرها، فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحن - وفى ذلك تنفير عنه حتى لكأنه ذنب -، وهو - سبحانه - واسع الرحمة بعباده حيث شرع لهم ما فيه تيسير عليهم ورأفة بهم.

قالوا: وإنما كان الصبر عن نكاح الإماء خيرًا من نكاحهن، لأن الولد الذى يأتى عن طريقهن يكون معرضا للرق، ولأن الأمة فى الغالب لا تستطيع أن تهيىء البيت الصالح للزوجية من كل الوجوه لانشغالها بخدمة سيدها.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله: فإن قلت: لم كان نكاح الأمة منحطا عن نكاح الحرة؟ قلت: لما فيه من اتباع الولد الأم فى الرق. ولثبوت حق المولى فيها وفى استخدامها. ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة، وذلك كله نقصان راجع إلى الناكح ومهانة.

والعزة من صفات المؤمنين[١].

وبذلك نرى أن الآية الكريمة وإن كانت قد رخصت فى زواج الإماء عند الضرورة الشديدة إلا أنها حضت المؤمنين على الصبر عن نكاحهن لما فى نكاحهن من أضرار يأباها الشخص العزيز النفس، الكريم الخلق. والسبيل الأمثل للزواج بهن يكون بعد شرائهن وإعتاقهن، وبذلك يقل الرقيق ويكثر الأحرار ولذا لو جامعها مولاها كان ابنه حرًا وكان طريقا لحريتها ومنع بيعها.

وبعد أن بين - سبحانه - فيما سبق من آيات كثيرًا من الأوامر والنواهى والمحرمات والمباحات. . عقب ذلك ببيان جانب من مظاهر فضله على عباده ورحمته بهم فقال - تعالى - :

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

وقوله - تعالى - : ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ استئناف مقرر لما سبق من الأحكام، وقد ساقه - سبحانه - لإيناس قلوب المؤمنين حتى يمتثلوا عن اقتناع وتسليم لما شرعه الله لهم من أحكام.

قال الآلوسى : ومثل هذا التركيب - قوله ﴿يريد الله ليبين لكم﴾. وقع فى كلام العرب قديما وخرجه النحاة على مذاهب :

فقيل مفعول ﴿يريد﴾ محذوف أى : يريد الله تحليل ما أحل وتحريم ما حرم ونحوه. واللام للتعليل. . . . ونسب هذا إلى سيبويه وجمهور البصريين.

فتعلق الإرادة غير التبيين، وإنما فعلوه لئلا يتعدى الفعل إلى مفعوله المتأخر عنه باللام وهو ممتنع أو ضعيف.

وذهب بعض البصريين إلى أن الفعل مؤول بالمصدر من غير سابك، كما قيل به فى قولهم : «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه» أى إرادتى كائنة للتبيين. وفيه تكلف.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٠٠

وذهب الكوفيون إلى أن اللام هى الناصبه للفعل من غير إضمار أن، وهى وما بعدها مفعول للفعل المقدم أى: يريد الله البيان لكم[1].

والمعنى: يريد الله - تعالى - بما شرع لكم من أحكام، وبما ذكر من محرمات ومباحات أن يبين لكم ما فيه خيركم وصلاحكم وسعادتكم، وأن يميز لكم بين الحلال والحرام والحسن والقبيح.

وقوله: ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ معطوف على ما قبله.

والسنن: جمع سنة وهى الطريقة وفى أكثر استعمالها تكون للطريقة المثلى الهادية إلى الحق.

أى: ويهديكم مناهج وطرائق من تقدمكم من الأنبياء والصالحين، لتقتفوا آثارهم وتسلكوا سبيلهم.

وليس المراد أن جميع ما شرعه الله من حلال أو من حرام كان مشروعا بعينه للأمم السابقة. بل المراد أن الله كما قد شرع للأمم السابقة من الأحكام ماهم فى حاجة إليه وما اقتضته مصالحهم، فكذلك قد شرع لنا ما نحن فى حاجة إليه وما يحقق مصالحنا، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة فى ذاتها إلا أنها متفقة فى باب المصالح.

وقوله: ﴿ويتوب عليكم﴾ معطوف على ما قبله.

والتوبة معناها: ترك الذنب مع الندم عليه والعزم على عدم العود، وذلك مستحيل فى حقه - سبحانه - لذا قالوا: المراد بها هنا المغفرة لتسببها عنها. أو المراد بها قبول التوبة.

أى: ويقبل توبتكم متى رجعتم إليه بصدق وإخلاص، فقد تكفل - سبحانه - لعباده أن يغفر لهم خطاياهم متى تابوا إليه توبة صادقة نصوحا وفى التعبير عن قبول التوبة بقوله: ﴿ويتوب عليكم﴾ إشارة إلى ما يتضمنه معنى قبول التوبة من ستر للذنوب، ومنع لكشفها، فهى غطاء على المعاصى يمنعها من الظهور حتى يذهب تأثيرها فى النفس:

فالآية الكريمة تحريض على التوبة، لأن الوعد بقبولها متى كانت صادقة يغرى الناس. بطرق بابها وبالإكثار منها..

وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾ أى والله - تعالى - ذو علم شامل لجميع الأشياء، فيعلم أن ما شرع لكم من أحكام مناسب لكم، وما سلكه المهتدون من الأمم قبلكم، ومتى تكون توبة أحدكم صادقة ومتى لا تكون كذلك ﴿حكيم﴾ يضع الأمور فى مواضعها. فيبين لمن يشاء، ويهدى من يشاء، ويتوب على من يشاء.

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٥ ص ١٣

فأنت ترى أن هذه الآية قد بينت جانبا من مظاهر فضل الله ورحمته بعباده، حيث كشفت للناس أن الله - تعالى - يريد بإنزاله لهذا القرآن أن يبين لهم التكاليف التى كلفهم بها ليعرفوا الخير من الشر، وأن يرشدهم إلى سبل من تقدمهم من أهل الحق، وأن يغفر لهم ذنوبهم متى أخلصوا له التوبة.

ثم أخبر - سبحانه - عما يريده لعباده من خير وصلاح وما يريده لهم الفاسقون من شر وفساد فقال - تعالى - : ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما﴾.

أى : والله - تعالى - يريد منكم أن تفعلوا ما يجعلكم أهلا لمغفرته ورضوانه وما يفضى بكم إلى قبول توبتكم، وارتفاع منزلتكم عنده، بينما يريد الذين يتبعون الشهوات من أهل الكفر والفسوق والعصيان أن تبتعدوا عن الحق والخير ابتعادا عظيما. والميل : أصله الانحراف من الوسط إلى جانب من الجوانب : ولما كان الاعتدال عبارة عن العدل والتوسط، أطلق الميل على الجور والابتعاد عن الحق.

ووصف الميل بالعظم للإشعار بأن الذين يتبعون الشهوات لا يكتفون من غيرهم بالميل اليسير عن الحق، وإنما يريدون منهم انحرافا مطلقا عن الطريق المستقيم الذى أمر الله بسلوكه والسير فيه.

وهؤلاء الذين وصفهم الله بما وصف موجودون فى كل زمان، وتراهم دائما يحملون لواء الرذيلة والفجور تارة باسم الحرية وتارة باسم المدنية. وقد حذر الله - تعالى - عباده منهم حتى لا يتأثروا بهم، وحتى يقاوموهم ويكشفوا عن زيفهم وضلالهم «ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون».

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان رحمته ورأفته بعباده فقال : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾.

أى : يريد الله بما شرعه لكم من أحكام، وبما كلفكم به من تكاليف هى فى قدرتكم واستطاعتكم أن يخفف عنكم فى شرائعه وأوامره ونواهيه، لكى تزدادوا له فى الطاعة والاستجابة والشكر.

﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ أى لا يصبر على مشاق الطاعات، فكان من رحمة الله - تعالى - به أن خفف عنه فى التكاليف.

وهذا اليسر والتخفيف فى التكاليف من أبرز مميزات الشريعة الإسلامية، وقد بين القرآن

الكريم ذلك فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾. وقوله - تعالى - ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾. وقوله - تعالى - ﴿ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾.

ولقد كان من هدى النبى ﷺ التخفيف والتيسير، ففى الحديث الشريف: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

وكان من وصاياه لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى عندما أرسلهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا».

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت لنا ألوانا من مظاهر فضل الله على عباده ورحمته بهم، لكى يزدادوا له شكرا وطاعة وخضوعا.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض المحرمات المتعلقة بالأنفس والأموال، بعد أن بين لهم قبل ذلك المحرمات من النساء والمحللات منهن ومظاهر فضله - سبحانه - بعباده ورحمته بهم فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا
وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

والمراد بالأكل فى قوله ﴿لا تأكلوا أموالكم﴾ مطلق الأخذ الذى يشمل سائر التصرفات التى نهى الله عنها.

وخص الأكل بالذكر؛ لأن المقصود الأعظم من الأموال هو التصرف فيها بالأكل.

والباطل : اسم لكل تصرف لا يبيحه الشرع كالربا والقمار والرشوة والغصب والسرقة والخيانة والظلم إلى غير ذلك من التصرفات المحرمة.

والمعنى. يأيها المؤمنون لا يحل لكم أن يأكل بعضكم مال غيره بطريقة باطلة لا يقرها الشرع، ولا يرتضيها الدين، كما أنه لا يحل لكم أن تتصرفوا فى الأموال التى تملكونها تصرفا منهيا عنه بأن تنفقوها فى وجوه المعاصى التى نهى الله عنها؛ فإن ذلك يتنافى مع طبيعة هذا الدين الذى آمنتم به.

وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم وإغرائهم بالاستجابة لما أمروا به أو نهوا عنه.

وفى قوله ﴿أموالكم﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال هى نعمة من الله لنا، وأن على الأمة جميعها أن تصون هذه الأموال عن التصرفات الباطلة التى لا تبيحها شريعة الله.

وفى قوله ﴿بينكم﴾ إشارة إلى أن تبادل الأموال بين الأفراد والجماعات يجب أن يكون على أساس من الحق والعدل ولا يكون بالباطل أو بالظلم.

والاستثناء فى قوله ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ استثناء منقطع لأن التجارة ليست من جنس الأموال المأكولة بالباطل.

والمعنى : لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن تتصرفوا فى أموالكم بالطرق المحرمة، لكن يباح لكم أن تتصرفوا فيها بالتجارة الناشئة عن تراض فيما بينكم؛ لأنه لا يحل لمسلم أن يقتطع مال أخيه المسلم إلا عن طيب نفس منه.

والتجارة : اسم يقع على عقود المعارضات التى يقصد بها طلب الربح . وخصت بالذكر من بين سائر أسباب الملك؛ لكونها أغلب وقوعا ولأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها.

أخرج الأصبهانى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا).

وكلمة ﴿تجارة﴾ قرأها عاصم وحمزة والكسائى بالنصب على أنها خبر لكان الناقصة، واسم كان ضمير يعود على الأموال أى إلا أن تكون الأموال المتداولة بينكم تجارة صادرة عن تراض

منكم. وقرأها الباقون بالرفع على أنها فاعل لكان التامة أى: إلا أن تقع تجارة بينكم عن تراض منكم.

وقوله ﴿عن تراض منكم﴾ صفة لقوله ﴿تجارة﴾ ولفظ ﴿عن﴾ للمجاوزة أى: إلا أن تكون تجارة صادرة عن تراض كائن منكم.

والتراضى: هو الرضا من الجانبين بما يدل عليه من لفظ أو عرف، وهو أساس العقود بصفة عامة، وأساس المبادلات المالية بصفة خاصة، فلا بيع ولا شراء ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة مالم يتحقق الرضا.

قال بعضهم: وحقيقة التراضى لا يعلمها إلا الله - تعالى - والمراد ها هنا أمارته. كالإيجاب والقبول وكالتعاطى عند القائل به. وقد قال - تعالى - ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ فدل ذلك على أن مجرد التراضى هو المناط. ولابد من الدلالة عليه بلفظ أو إشارة أو كتابة، بأى لفظ وقع وعلى أى صفة كان، وبأى إشارة مفيدة حصل»(١).

وقال الألوسى: والمراد بالتراضى مراضاة المتبايعين بما تعاقدوا عليه فى حال المبايعة وقت الإيجاب والقبول عندنا. وعند المالكية والشافعية حالة الافتراق عن مجلس العقد وقيل التراضى: التخيير بعد البيع...»(٢).

هذا، وظاهر قوله - تعالى - ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ يفيد إباحة جميع أنواع التجارات ما دام قد حصل التراضى بين المتعاقدين، ولكن هذا الظاهر غير مراد؛ لأن الشارع قد حرم المتاجرة فى أشياء معينة حتى ولو تم التراضى بين المتعاقدين فيها، وذلك مثل المتاجرة فى الخمر والميتة ولحم الخنزير، ومثل بيع الغرر والعبد الآبق ونحو ذلك مما نهى عنه الشارع من العقود والمعاملات.

وقوله ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ معطوف على ما قبله.

وللعلماء فى تأويله اتجاهات: فمنهم من يرى أن معناه: ولا يقتل بعضكم بعضا، فإن قتل بعضكم لبعض قتل لأنفسكم. والتعبير عن قتل بعضهم لبعض بقتل أنفسهم للمبالغة فى الزجر عن هذا الفعل، وبتصويره بصورة مالا يكاد يفعله عاقل.

وإلى هذا المعنى اتجه الفخر الرازى فقد قال: اتفقوا على أن هذا نهى عن أن يقتل بعضهم بعضا. وإنما قال: ﴿أنفسكم﴾ لقوله ﷺ «المؤمنون كنفس واحدة». ولأن العرب يقولون:

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٥ ص ١٢٠٣.
(٢) تفسير الألوسى جـ ٥ ص ١٦.

قتلنا ورب الكعبة إذا قتل بعضهم؛ لأن قتل بعضهم يجرى مجرى قتلهم»[١].

ومنهم من يرى أن معناه النهى عن قتل الإنسان لنفسه. ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدًا. ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا. ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ - أى يطعن - بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدًا»[٢].

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال: أتى النبى ﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص - أى سهام عراض واحدها مشقص - فلم يصل عليه[٣].

ومنهم من يرى أن معناه: لا تقتلوا أنفسكم بأكل بعضكم أموال بعض وبارتكابكم للمعاصى التى نهى الله عنها، فإن ذلك يؤدى إلى إفساد أمركم، وذهاب ريحكم، وتمزق وحدتكم، ولا قتل للأمم والجماعات أشد من فساد أمرها، وذهاب ريحها.

وقد ذهب إلى هذا المعنى الإمام ابن كثير فقد قال: وقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أى بارتكاب محارم الله - وتعاطى معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل»[٤].

والذى نراه أن الجملة الكريمة تتناول كل هذه الاتجاهات، فهى تنهى المسلم عن أن يقتل نفسه، كما أنها تنهاه عن أن يقتل غيره، وهى أيضا تنهاه عن ارتكاب المعاصى التى تؤدى إلى هلاكه.

وقدم - سبحانه - النهى عن أكل الأموال بالباطل على النهى عن قتل الأنفس مع أن الثانى أخطر، للإشعار بالتدرج فى النهى من الشديد إلى الأشد ولأن وقوعهم فى أكل الأموال بالباطل كان أكثر منهم وأسهل عليهم من وقوعهم فى القتل.

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾ لبيان أن مانهى الله عنه من محرمات، وما أباحه من مباحات، إنما هو من باب الرحمة بالناس، وعدم المشقة عليهم. فالله - تعالى - رءوف بعباده ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم إلا بما هو فى قدرتهم واستطاعتهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ٧٢.

(٢) أخرجه البخارى فى باب شرب السم من كتاب الطب جـ ١ ص ١٨١، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان جـ ١ ص ١٨١.

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز جـ ٣ ص ٦٦

(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨٠

وهذه الآية الكريمة أصل عظيم فى حرمة الأموال والأنفس. ولقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى فى خطبته فى حجة الوداع حيث قال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا».

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يفعل مانهى الله عنه فقال: ﴿ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا، وكان ذلك على الله يسيرًا﴾.

واسم الإشارة فى قوله «ومن يفعل ذلك» يعود إلى المذكور من أكل الأموال بالباطل ومن القتل. وقيل الإشارة إلى القتل لأنه أقرب مذكور.

والعدوان: مجاوزة الحد المشروع عن قصد وتعمد.

والظلم: وضع الشىء فى غير موضعه.

والمعنى: أن من يفعل ذلك المحرم حال كونه ذا عدوان وظلم عاقبه الله على ذلك عقابا شديدا فى الآخرة، بإدخاله نارا هائلة محرقة، وكان عقابه بهذا العذاب الهائل الشديد يسيرا على الله، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء.

وجمع - سبحانه - بين العدوان والظلم ليشمل العذاب كل أحوال الارتكاب لمحارم الله، وليخرج ما كان غير مقصود من الجرائم، كمن يتلف مال غيره بدون قصد، وكمن يقتل غيره بدون تعمد، فإنه يكون ظالما وعليه دفع عوض معين للمستحق لذلك، إلا أنه لا يكون مستحقا لهذا العذاب الشديد الذى توعد الله به من يرتكب هذه الجنايات عن عدوان وظلم.

وبعد هذا الوعيد الشديد لكل معتد وظالم، فتح القرآن الكريم باب الرحمة للناس حتى لا يقنطوا من رحمة الله فقال - تعالى - ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريمًا﴾.

واجتناب الشىء معناه: المباعدة عنه وتركه جانبا بحيث تكون أنت فى جانب وهو فى جانب آخر ولا تلاقى بينكما.

وكبائر الذنوب: ما عظم منها، وعظمت العقوبة عليه. كالشرك، وقتل النفس بغير حق، وأكل مال اليتيم ونحو ذلك من المحرمات.

والسيئات: جمع سيئة وهى الفعلة القبيحة، وسميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا.

والمراد بالسيئات هنا: صغائر الذنوب بدليل مقابلتها بالكبائر.

والمعنى: إن تتركوا - يامعشر المؤمنين - كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عن اقترافها،

﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أى نسترها عليكم، ونمحها عنكم حتى تصير بمنزلة مالم يعمل فضلا من الله عليكم، ورحمة بكم.

﴿وندخلكم مدخلا كريما﴾ أى وندخلكم فى الآخرة مدخلا حسنا وهو الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين. فهى مكان طيب يجد من يحل فيه الكثير من كرم الله ورضاه.

والمدخل - بضم الميم - كما قرأه الجمهور مصدر بمعنى الإدخال، ومفعول ندخلكم محذوف أى نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم إدخالا كريما.

ويصح أن يكون اسم مكان منصوبا على الظرفية عند سيبويه، وعلى المفعولية عند الأخفش.

وقرأ نافع ﴿مدخلا﴾ - بفتح الميم - على أنه اسم مكان للدخول، ويجوز أن يكون مصدرا ميميا. أى ندخلكم مكانا كريما أو ندخلكم دخولا كريما.

هذا، وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن صغائر الذنوب يغفرها الله - تعالى - لعباده رحمة منه وكرما متى اجتنبوا كبائر الذنوب، وصدقوا فى توبتهم إليه.

كما استدلوا بها على أن الذنوب منها الكبائر ومنها الصغائر؛ لأن هذه الآية قد فصلت بين كبائر الذنوب وبين ما يكفر باجتنابها وهو صغار الذنوب المعبر عنها بقوله - تعالى - : ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾. ولأن الله - تعالى - يقول فى موضع آخر ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى. الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾(١).

قال الآلوسى ما ملخصه: واختلفوا فى حد الكبيرة على أقوال منها: أنها كل معصية أوجبت الحد. ومنها: أنها كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وبضعف ديانته.

وقال الواحدى: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به، وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها. ولكن الله - تعالى - أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه رجاء أن تجتنب الكبائر. ونظير ذلك إخفاء الصلاة الوسطى، وليلة القدر. وساعة الإجابة.

وذهب جماعة إلى ضبطها بالعد من غير ضبط بحد. فعن ابن عباس وغيره أنها ما ذكره الله - تعالى - من أول هذه السورة إلى هنا. وقيل هى سبع بدليل ما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله - تعالى - والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣١، ٣٢.

يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

فإن قيل: جاء فى روايات أخرى أن من الكبائر «اليمين الغموس» و«قول الزور» و«عقوق الوالدين»؟ قلنا فى الجواب: إن ذلك محمول على أنه - ﷺ - ذكر ما ذكر منها قصدا لبيان المحتاج منها وقت الذكر وليس لحصره الكبائر فيه - فإن النص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفى ما عداهن»[١].

والذى نراه أن الذنوب منها الكبائر ومنها الصغائر، وأن الصغائر يغفرها الله لعباده متى اجتنبوا الكبائر وأخلصوا دينهم لله، وأن الكبائر هى ما حذر الشرع من ارتكابها تحذيرا شديدا، وتوعد مرتكبها بسوء المصير، كالإشراك بالله، وقتل النفس بغير حق وغير ذلك من الفواحش التى يؤدى ارتكابها إلى إفساد شأن الأفراد والجماعات والتى ورد النهى عنها فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وأن الصغائر، هى الذنوب اليسيرة التى يرتكبها الشخص من غير إصرار عليها ولا استهانة بها أو مداومة عليها، بل يعقبها بالتوبة الصادقة والعمل الصالح وصدق الله إذ يقول: ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾، ولقد فتح الله - تعالى - لعباده باب التوبة من الذنوب صغيرها وكبيرها حتى لا ييأسوا من رحمته فقال - سبحانه -: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما﴾[٢].

***

ثم نهى - سبحانه - عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من المال ونحوه مما يجرى فيه التنافس، وبين - سبحانه - أنه قد جعل لكل إنسان حقا معينا فيما تركه الوالدان والأقربون فقال - تعالى -:

وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص١٧.

(٢) سورة الفرقان: الآيات ٦٨، ٦٩، ٧٠.

عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

روى المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما رواه الإمام أحمد والترمذى عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث فأنزل الله - تعالى - ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾.

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان، فلما ورثوا وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال. وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث فنزلت ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾.

والتمنى المنهى عنه هنا: هو الذى يتضمن معنى الطمع فيما فى يد الغير، والحسد له على ما أعطاه الله من مال أو جاه أو غير ذلك مما يجرى فيه التنافس بين الناس وذلك لأن التمنى بهذه الصورة يؤدى إلى شقاء النفس، وفساد الخلق والدين، ولأنه أشبه ما يكون بالاعتراض على قسمة الخالق العليم الخبير بأحوال خلقه وبشئون عباده.

ولا يدخل فى التمنى المنهى عنه ما يسميه العلماء بالغبطة، وهى أن يتمنى الرجل أن يكون له مثل ما عند غيره من خير دون أن ينقص شىء مما عند ذلك الغير.

قال صاحب الكشاف: قوله ﴿ولا تتمنوا﴾ نهوا عن التحاسد وعن تمنى مافضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال، لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط فى الرزق أو قبض ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض﴾. فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم الله له، علمًا بأن ما قسم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدة له، ولا يحسد أخاه على حظه»[1].

وقوله - تعالى - ﴿للرجال نصيب مما أكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ تعليل للنهى السابق. أى لكل من فريقى الرجال والنساء حظ مقدر مما اكتسبوه من أعمال، ونصيب معين

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٠٤.

فيما ورثوه أو أصابوه من أموال، وإذا كان الأمر كذلك فلا يليق بعاقل أن يتمنى خلاف ما قسم الله له من رزق، بل عليه أن يرضى بما قسم الله له. فالله - تعالى - هو الذى قدر أرزاق الرجال والنساء على حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه، وهو الذى كلف كل فريق منهم بواجبات وأعمال تليق باستعداده وتكوينه.

وقوله ﴿واسألوا الله من فضله﴾ عطف على النهى. فكأنه قيل: لا تتمنوا ولا تتطلعوا إلى ما فى أيدى غيركم، ولا تحسدوه على ما رزقه الله، بل اجعلوا اتجاهكم إلى الله وحده، والتمسوا منه ما تشاءون من نعمه الجليلة، ومن حظوظ الدنيا والآخرة، فهو القائل ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾.

وحذف المفعول من الجملة الكريمة لإفادة العموم. أى: واسألوا الله ما شئتم من إحسانه الزائد، وإنعامه المتكاثر حتى تطمئن نفوسكم، ويبتعد عنها الطمع والقلق والألم.

قال ابن كثير: قوله ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أى لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض؛ فإن التمنى لا يجدى شيئًا، ولكن سلونى من فضلى أعطكم فإنى كريم وهاب. روى أبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وإن أحب عباد الله إلى الله للذى يحب الفرج»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿إن الله كان بكل شىء عليما﴾ أى إن الله - تعالى - كان ومازال عليما بكل شىء من شئون هذا الكون، وقد وزع - سبحانه - أرزاقه ومواهبه على عباده بمقتضى علمه وحكمته، فجعل فيهم الغنى والفقير، فيحتاج بعضهم إلى بعض، وليتبادلوا المنافع التى لا غنى لهم عنها، وكلف كل فريق منهم بما يتناسب مع تكوينه واستعداده ﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون﴾.

ثم قال - تعالى - ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾.

والمضاف إلى كل هنا محذوف عوض عنه التنوين. والتقدير ولكل إنسان أو لكل قوم أو لكل من مات، أو لكل من الرجال والنساء.

والموالى: جمع مولى. والمولى لفظ مشترك بين معان، فيقال للسيد المعتق لعبده مولى، لأنه ولى نعمته فى عتقه له. ويقال للعبد العتيق مولى لاتصال ولاية مولاه فى إنعامه عليه كما يقال لكل من الحليف والنصير والقريب مولى. ويقال لعصبة الشخص موالى.

قال الفخر الرازى: والمراد بالموالى هنا العصبة. ويؤكد ذلك ما رواه أبو صالح عن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٨٨.

أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «أنا أولى بالمؤمنين . من مات وترك مالا فماله للموالى العصبة . ومن ترك كلا فأنا وليه» وقال - عليه الصلاة والسلام - «اقسموا هذا المال فما أبقت السهام فلأولى عصبة ذكر»[1].

هذا، وللمفسرين فى تأويل هذه الآية الكريمة أقوال متعددة منها أن المعنى :

١ - ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا ورثة عصبة، يرثون مما تركه الوالدان والأقربون من المال.

٢ - أو المعنى : ولكل من مات من الرجال والنساء جعلنا موالى أى ورثة يقتسمون تركته عن طريق الإرث، ولا حق للحليف فيها لأنه ليس من عصبة هذا الميت.

٣ - أو المعنى : ولكل مال مما تركه الوالدان والأقربون جعلنا موالى أى ورثة يلونه ويحوزونه بعد أن يأخذ أصحاب الفروض نصيبهم.

وعلى هذه الوجوه يكون الوالدان والأقربون هم الذين يرثهم غيرهم من مواليهم أى عصبتهم.

٤ - قال الفخر الرازى : ويمكن أن تفسر الآية بحيث يكون الوالدان والأقربون هم الورثة، فيكون المعنى :

ولكل واحد جعلنا ورثة فى تركته. ثم كأنه قيل : ومن هؤلاء الورثة؟ فقيل. هم الوالدان والأقربون. وعلى هذا الوجه لابد من الوقف عند قوله ﴿مما ترك﴾[2] :

هذا وتفسير الآية الكريمة بحيث يكون الوالدان والأقربون هم الذين يرثهم غيرهم من عصبتهم هو الأولى، لأنه هو الظاهر فى معنى الآية، وعليه سار جمهور المفسرين، فقد قال ابن جرير : «فالموالى ها هنا : الورثة. ويعنى بقوله ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ مما تركه والداه وأقرباؤه من الميراث. فتأويل الكلام، ولكل منكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثون مما ترك والداه وأقرباؤه من ميراثهم»[3].

وقال صاحب الكشاف : قوله ﴿مما ترك﴾ تبيين لكل. أى : ولكل شىء مما ترك الوالدان والأقربون من المال جعلنا موالى أى ورثة يلونه ويحرزونه، أو ولكل قوم جعلناهم موالى نصيب مما ترك الوالدان والأقربون. على أن ﴿جعلنا موالى﴾ صفة لكل، والضمير الراجع إلى كل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٨٤.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٨٤ - بتصرف وتلخيص -.
(٣) تفسير ابن جزير جـ٥ ص٥١.

محذوف، والكلام مبتدأ أو خبر. كما تقول: لكل من خلقه الله إنسانا من رزق الله. أى حظ من رزق الله[١].

وقال القرطبى: بين الله - تعالى - أن لكل إنسان ورثة وموالى، فلينتفع كل واحد بما قسم الله له من الميراث ولا يتمن مال غيره[٢].

وقوله ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر. وجىء بالفاء فى الخبر وهو قوله ﴿فآتوهم﴾ لتضمن المبتدأ معنى الشرط.

وقوله ﴿عقدت﴾ من العقد وهو الشد والربط والتوكيد والتغليظ، ومنه قولهم: عقد العهد يعقده، أى: شده وأكده.

والأيمان: جمع يمين والمراد به هنا أيديهم اليمنى، وإسناد العقد إليها على سبيل المجاز، لأنهم كانوا عندما يوثقون عقدا يضع كل واحد منهم يده فى يد الآخر، ليكون ذلك علامة على انبرام العقد وتأكيده. ومن هنا قيل للعقود الصفقات لأن كل عاقد يصفق بيمنه على يمين الآخر.

ويصح أن يكون المراد بالأيمان هنا الأقسام التى كانوا يقسمونها ويحلفونها عند التعاقد على شىء يهمهم أمره.

وقد قرأ عاصم وحمزة والكسائى «عقدت أيمانكم، وقرأ الباقون» عاقدت أيمانكم» وعلى كلتا القراءتين فالمفعول محذوف أى والذين عقدت حلفهم أيمانكم أو عاقدتهم أيمانكم.

وللعلماء فى المراد بقوله ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ أقوال منها:

١ - أن المراد بهم الحلفاء وهم موالى الموالاة وكان لهم نصيب من الميراث ثم نسخ، وقد ورد فى ذلك آثار منها ما أخرجه ابن جرير وغيره عن قتادة قال: قوله تعالى - : ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ كان الرجل يعاقد الرجل فى الجاهلية فيقول: دمى دمك، وهدمى هدمك.. أى مهدومى مهدومك وترثنى وأرثك، وتطلب بى وأطلب بك، فجعل له السدس من جميع المال فى الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم. فنسخ ذلك بعد فى سورة الأنفال فقال الله تعالى - ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾[٣].

٢ - ويرى بعضهم أن المراد بهم الأدعياء وهم الأبناء بالتبنى، وكانوا يتوارثون بسبب ذلك، ثم نسخه بآية سورة الأنفال السابقة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٠٤.
(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٥١.
(٣) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٥٢.

٣ - ويرى فريق ثالث أن المراد بهم إخوان المؤاخاة، فقد كان النبى ﷺ يؤاخى بين الرجلين من أصحابه وكانت تلك المؤاخاة سببا فى التوارث ثم نسخ ذلك بآية الأنفال السابقة.

٤ - وقال أبو مسلم الأصفهانى: المراد بهم الأزواج، إذ النكاح يسمى عقدا.

والذى نراه أولى هو القول الأول لكثرة الآثار التى تؤيده، ولأنه هو الذى رجحه جمهور المفسرين، وعليه يكون المعنى: والذين عقدت حلفهم أيمانكم وهم الذين تحالفتم معهم على التناصر وغيره ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أى فأعطوهم نصيبهم من الميراث وفاء بالعقود والعهود.

قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة. وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل قوله - تعالى - ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ قول من قال: والذين عقدت أيمانكم على المحالفة، وهم الحلفاء، وذلك أنه معلوم عند جميع أهل العلم بأيام العرب وأخبارها: أن عقد الحلف بينها كان يكون بالأيمان والعهود والمواثيق على نحو ما قد ذكرنا من الروايات فى ذلك(١).

وقال ابن كثير: وقوله ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ أى والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم فى الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم فى تلك العقود والمعاهدات. وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة(٢).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿إن الله كان على كل شىء شهيدا﴾ أى إن الله - تعالى - كان وما زال عالما بجميع الأشياء، ومطلعا على جليها وخفيها، وسيجازى الذين يتمسكون بشريعته بما يستحقون من ثواب. وسيجازى الذين ينحرفون عنها بما يستحقون من عقاب.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به الوعد لمن أطاع الله والوعيد لمن عصاه.

ثم بين - سبحانه - حقوق الرجال وحقوق النساء، وما يجب لكل فريق نحو الآخر، ودعا أهل الخير إلى محاولة الإصلاح بين الزوجين إذا مادب الخلاف بينهما فقال - تعالى - :

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٨٩.

قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

روى المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية.

ومن هذه الروايات ما ذكره القرطبى من أنها نزلت فى سعد بن الربيع نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبى زهير فلطمها؛ فقال أبوها: يا رسول الله، أفرشته كريمتى فلطمها. فقال ﷺ (لتقتص من زوجها). فانصرفت مع أبيها لتقتص منه. فقال - عليه الصلاة والسلام - «ارجعوا هذا جبريل أتانى» فأنزل الله هذه الآية[1].

وقوله ﴿قوامون﴾ جمع قوام على وزن فعال للمبالغة من القيام على الشىء وحفظه.

يقال: قام فلان على الشىء وهو قائم عليه وقوام عليه، إذا كان يرعاه ويحفظه ويتولاه.

ويقال: هذا قيم المرأة وقوامها للذى يقوم بأمرها ويهتم بحفظها وإصلاحها ورعاية شئونها.

أى: الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية والنفقة والتأديب وغير ذلك مما تقتضيه مصلحتهن.

ثم ذكر - سبحانه - سببين لهذه القوامة.

أولهما: وهبى وقد بينه بقوله: ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾.

أى أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرجال قوامين على النساء بسبب ما فضل الله به الرجال على النساء من قوة فى الجسم، وزيادة فى العلم، وقدرة على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها وما يستتبع ذلك من دفاع عنهن إذا ما تعرضن لسوء.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١٦٨.

قال الفخر الرازى : واعلم أن فضل الرجال على النساء حاصل من وجوه كثيرة : بعضها صفات حقيقية وبعضها أحكام شرعية. أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين. إلى العلم وإلى القدرة.

ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر. ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء فى العقل والحزم والقوة. وإن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد، والأذان، والخطبة، والولاية فى النكاح. فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء»[1].

والمراد بالتفضيل فى قوله ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ تفضيل الجنس على الجنس لا تفضيل الآحاد على الآحاد. فقد يوجد من النساء من هى أقوى عقلا وأكثر معرفة من بعض الرجال.

والباء للسببية، وما مصدرية، والبعض الأول المقصود به الرجال والبعض الثانى المقصود به النساء، والضمير المضاف إليه البعض الأول يقع على مجموع الفريقين على سبيل التغليب.

وقال - سبحانه - ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ ولم يقل - مثلا - : بما فضلهم الله عليهن، للإشعار بأن الرجال من النساء والنساء من الرجال كما قال فى آية أخرى ﴿بعضكم من بعض﴾ وللإشارة إلى أن هذا التفضيل هو لصالح الفريقين، فعلى كل فريق منهم أن يتفرغ لأداء المهمة التى كلفه الله بها بإخلاص وطاعة حتى يسعد الفريقان.

وأما السبب الثانى : فهو كسبى وقد بينه - سبحانه - بقوله : ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾.

أى أن الله - تعالى - جعل الرجال قوامين على النساء بسبب ما فضل الله به الرجال على النساء من علم وقدرة. وبسبب ما ألزم به الرجال من إنفاق على النساء ومن تقديم المهور لهن عند الزواج بهن، ومن القيام برعايتهن وصيانتهن.

قال الآلوسى : واستدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته ومنعها من الخروج. وأن عليها طاعته إلا فى معصية الله - تعالى -. وفى الخبر «لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». واستدل بها أيضا من أجاز فسخ النكاح عند الإعسار عن النفقة والكسوة. وهو مذهب مالك والشافعى، لأنه إذا خرج عن كونه قواما عليها فقد خرج عن الغرض المقصود بالنكاح. وعندنا لا فسخ لقوله - تعالى : ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾. واستدل بها أيضا من جعل للزوج الحجر على زوجته فى نفسها وما لها فلا تتصرف فيه إلا بإذنه،

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٨٨.

لأنه - سبحانه - جعل الرجل قواما بصيغة المبالغة. وهو الناظر على الشىء الحافظ له»[1].

ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل أحوال النساء. وفى بيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، فقسمهن إلى قسمين:

فقال فى شأن القسم الأول: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾.

أى: فالصالحات من النساء من صفاتهن أنهن ﴿قانتات﴾ أى مطيعات لله - تعالى ولأزواجهن عن طيب نفس واطمئنان قلب، ومن صفاتهن كذلك أنهن ﴿حافظات للغيب بما حفظ الله﴾.

قال صاحب الكشاف: الغيب خلاف الشهادة. أى حافظات لمواجب الغيب. إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن، حفظن ما يجب عليهن حفظه فى حال الغيبة من الفروج والأموال والبيوت. وعن النبى ﷺ أنه قال. «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، ون أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها»، ثم تلا الآية الكريمة[2].

و «ما» فى قوله ﴿بما حفظ الله﴾ يحتمل أن تكون مصدرية فيكون المعنى: أن هؤلاء النساء الصالحات المطيعات من صفاتهن أيضا أنهن يحفظن فى غيبة أزواجهن ما يجب حفظه بسبب حفظ الله لهن ورعايته إياهن بالتوفيق للعمل الذى يحبه ويرضاه.

ويحتمل أن تكون موصولة فيكون المعنى: أنهن حافظات لغيبة أزواجهن فى النفس والعرض والمال وكل ما يجب حفظه بسبب الأمر الذى حفظه الله لهن على أزواجهن حيث كلف الأزواج بالانفاق عليهن وبالإحسان إليهن، فعليهن أن يحفظن حقوق أزواجهن فى مقابلة الذى حفظه الله لهن من حقوق على أزواجهن.

فالجملة الكريمة تمدح النساء الصالحات المطيعات الحافظات لأسرار أزواجهن ولكل ما يجب حفظه من عرض أو مال أو غير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية.

هذا هو القسم الأول من النساء، أما القسم الثانى فقد قال - سبحانه - فى شأنه: ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن﴾ والمراد بقوله ﴿نشوزهن﴾ عصيانهن وخروجهن عما توجيه الحياة الزوجية من طاعة الزوجة لزوجها. يقال: نشزت الزوجة نشوزا أى: عصت زوجها وامتنعت عليه. وأصل النشوز مأخوذ من النشز بمعنى الارتفاع فى وسط الأرض السهلة المنبسطة ويكون شاذا فيها. فشبهت المرأة المتعالية على طاعة زوجها بالمرتفع من الأرض.

(١) تفسير الألوسى جـ٥ ص٢٤.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٠٠.

والمعنى : هذا شأن النساء الصالحات القانتات الحافظات للغيب بسبب حفظ الله لهن، أما النساء اللاتى تخافون ﴿نشوزهن﴾ أى عصيانهن لكم، وترفعهن عن مطاوعتكم، وسوء عشرتهن ﴿فعظوهن﴾ بالقول الذى يؤثر فى النفس، ويوجههن نحو الخير والفضيلة، بأن تذكروهن بحسن عاقبة الطاعة للزوج. وسوء عاقبة النشوز والمعصية، وبأن تسوقوا لهن من تعاليم الإسلام وآدابه وتوجيهاته ما من شأنه أن يشفى الصدور، ويهدى النفوس إلى الخير.

قال ابن كثير: وقوله - تعالى - : ﴿واللاتى تخافون نشوزهن﴾ أى النساء اللاتى تخافون أن ينشزن على أزواجهن فعظوهن. والنشوز هو الارتفاع فالمرأة الناشز هى المرتفعة على زوجها التاركة لأمره، المعرضة عنه المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لماله عليها من الفضل، وقد قال رسول الله ﷺ : «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»(١).

وقوله ﴿واهجروهن فى المضاجع﴾ أى وعليكم إذا لم تنفع الموعظة والنصيحة معهن أن تتركوهن منفردات فى أماكن نومهن.

فالمضاجع جمع مضجع - وهو مكان النوم والاضطجاع.

قال القرطبى : والهجر فى المضجع هو أن يضاجعها - أى ينام معها فى فراش واحد - ويوليها ظهره ولا يجامعها. وقال مجاهد : ﴿واهجروهن فى المضاجع﴾ أى تجنبوا مضاجعهن أى - اهجروا أماكن نومهن بأن تناموا بعيدا عنهن - »(٢).

روى أبو داود بسنده عن معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال : يا رسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه. ولا تقبح. ولا تهجر إلا فى البيت».

وقوله ﴿واضربوهن﴾ معطوف على ما قبله. أى إن لم ينفع ما فعلتم من العظة والهجران فاضربوهن ضربا غير مبرح - أى غير شديد ولا مشين - فقد ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ - أنه قال فى حجة الوداع » : واتقوا الله فى النساء فانهن عوان عندكم - أى أسيرات عندكم - ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه. فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٩٢.

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص١٧١ - بتصرف وتلخيص.

وقد فسر العلماء الضرب غير المبرح بأنه الذى لا يكسر عظما، ولا يشين جارحة، وأن يتقى الوجه فإنه مجمع المحاسن ولا يلجأ إليه إلا عند فشل العلاجين السابقين.

وقد قال - سبحانه - ﴿واللاتى تخافون نشوزهن﴾ ولم يقل: واللائى ينشزن، للإشعار بأن يبدأ الزوج بعلاج عيوب زوجته عندما تظهر أمارات هذه العيوب وعلاماتها وأن لا يتركها حتى تستشرى وتشتد، بل عليه عندما يخشى النشوز أن يعالجه قبل أن يقع، وأن يكون علاجه بطريقة حكيمة من شأنها أن تقنع وتفيد.

وبعضهم فسر الخوف، بالعلم أى واللاتى تعلمون نشوزهن فعظوهن... إلخ.

وبعضهم قدر مضافا فى الكلام أى: واللاتى تخافون دوام نشوزهن، فعظوهن واهجروهن فى المضاجع... الخ.

وبعضهم قدر معطوفا محذوفا أى: واللاتى تخافون نشوزهن ونشزن، فعظوهن واهجروهن فى المضاجع... الخ.

وجمهور العلماء على أن من الواجب على الزوج أن يسلك فى معالجته لزوجته تلك الأنواع الثلاثة على الترتيب بأن يبدأ بالوعظ ثم بالهجر ثم بالضرب، لأن الله - تعالى - قد أمر بذلك، ولأنه قد رتب هذه العقوبات بتلك الطريقة الحكيمة التى تبدأ بالعقوبة الخفيفة ثم تتدرج إلى العقوبة الشديدة ثم إلى الأكثر شدة.

قال الفخر الرازى: وبالجملة فالتخفيف مراعى فى هذا الباب على أبلغ الوجوه. والذى يدل عليه اللفظ أنه - تعالى - ابتدأ بالوعظ. ثم ترقى منه إلى الضرب. وذلك تنبيه يجرى مجرى التصريح فى أنه متى حصل الغرض بالطريق الأخف، وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق. وهذه طريقة من قال: حكم هذه الآية مشروع على الترتيب.

وقال بعض أصحابنا: «تحرير المذهب أن له عند خوف النشوز أن يعظها، وهل له أن يهجرها؟ فيه احتمال. وله عند إيداء النشوز أن يعظها أو يهجرها، أو يضربها»[1].

ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرجال نحو النساء إذا ما أطعنهم وتركن النشوز والعصيان فقال - تعالى -: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا﴾.

أى فإن رجعن عن النشوز إلى الطاعة وانقدن لما أوجب الله عليهن نحوكم أيها الرجال، فلا تطلبوا سبيلا وطريقا إلى التعدى عليهن، أو فلا تظلموهن بأى طريق من طرق الظلم كأن

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٩٠ بتصرف وتلخيص.

تؤذوهن بألسنتكم أو بأيديكم أو بغير ذلك، بل اجعلوا ما كان منهن كأنه لم يكن، وحاولوا التقرب إليهن بألوان المودة والرحمة.

﴿إن الله كان عليا كبيرًا﴾ فاحذروا مخالفة أمره، فإن قدرته - سبحانه - عليكم أعظم من قدرتكم على نسائكم.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به حث الأزواج على قبول توبة النساء، وتحذيرهم من ظلمهن إذا ما تركن النشوز، وعدن إلى طريق الطاعة والإنابة.

قال بعضهم : وذكر هاتين الصفتين فى هذا الموضع فى غاية الحسن، وبيانه من وجوه :

الأول : أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النساء. والمعنى : أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم، فالله - سبحانه - ينتصف لهن منكم لأنه علىٌّ قاهر كبير.

الثانى : لا تبغوا عليهن إذا أطعنكم لعلو أيديكم، فإن الله أعلى منكم وأكبر من كل شىء.

الثالث : أنه - سبحانه - مع علوه وكبريائه لا يكلفكم إلا ماتطيقون، كذلك لا تكلفوهن محبتكم، فإنهن لا يقدرن على ذلك.

الرابع : أنه مع علوه وكبريائه لا يؤاخذ العاصى إذا تاب، بل يغفر له، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فأنتم أولى بأن تتركوا عقوبتها وتقبلوا توبتها.

الخامس : أنه - تعالى مع علوه وكبريائه اكتفى من العبد بالظواهر ولم يهتك السرائر فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة، وأن لا تقعوا فى التفتيش عما فى قلبها وضميرها من الحب والبغض »(١).

ثم بين - سبحانه - ما يجب عمله إذا ما نشب خلاف بين الزوجين فقال - تعالى - : ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾.

والمراد بالخوف هنا العلم. والخطاب لولاة الأمور وصلحاء الأمة. وقيل لأهل الزوجين.

والمراد بالشقاق ما يحصل بين الزوجين من خلاف ومعاداة. وسمى الخلاف شقاقًا لأن المخالف يفعل ما يشق على صاحبه، أو لأن كل واحد من الزوجين صار فى شق وجانب غير الذى فيه صاحبه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٩١.

وقوله ﴿شقاق بينهما﴾ أصله شقاقا بينهما. فأضيف الشقاق إلى الظرف إما على إجرائه مجرى لمفعول فيه إتساعا. كقوله - تعالى - ﴿بل مكر الليل والنهار﴾. وأصله بل مكر فى الليل والنهار.

وإما على إجرائه مجرى الفاعل بجعل البين مشاقا والليل والنهار ماكرين. كما فى قولك: نهارك صائم.

والمعنى: وإن علمتم أيها المؤمنون أن هناك خلافا بين الزوجين قد يتسبب عنه النفور الشديد، وانقطاع حبال الحياة الزوجية بينهما، ففى هذه الحالة عليكم أن تبعثوا ﴿حكما﴾ أى رجلا صالحا عاقلا أهلا للإصلاح ومنع الظالم من الظلم ﴿من أهله﴾ أى من أهل الزوج وأقاربه ﴿وحكما من أهلها﴾ أى من أقارب الزوجة بحيث يكون على صفة الأول: لأن الأقارب فى الغالب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للإصلاح، وتسكن إليهم النفس أكثر من غيرهم.

وعلى الحكمين فى هذه الحالة أن يستكشفا حقيقة الخلاف، وان يعرفا هل الإصلاح بين الزوجين ممكن أو أن الفراق خير لهما؟.

وظاهر الأمر فى قوله ﴿فابعثوا﴾ أنه للوجوب، لأنه من باب رفع المظالم ورفع المظالم من الأمور الواجبة على الحكام.

وظاهر وصف الحكمين بان يكون أحدهما من أهل الزوج والثانى من أهل الزوجة، ان ذلك شرط على سبيل الوجوب، إلا أن كثيرا من العلماء حمله على الاستحباب، وقالوا: إذا بعث القاضى بحكمين من الأجانب جاز ذلك، لأن فائدة بعث الحكمين استطلاع حقيقة الحال بين الزوجين، وهذا أمر يستطيعه الأقارب وغير الأقارب إلا أنه يستحب الأقارب فيه لأنهم أعرف بأحوال الزوجين، وأشد طلبًا للإصلاح، وأبعد عن الظنة والريبة، وأقرب إلى أن تسكن إليهم النفس.

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿إن يريدا إصلاحًا﴾ يجوز أن يعود للحكمين ويجوز أن يكون للزوجين. وكذلك الضمير فى قوله ﴿يوفق الله بينهما﴾ يحتمل أن يكون للحكمين وأن يكون للزوجين.

والأولى جعل الضمير الأول للحكمين والثانى للزوجين فيكون المعنى: إن يريدا أى الحكمان إصلاحا بنية صحيحة وعزيمة صادقة، يوفق الله بين الزوجين بإلقاء الألفة والمودة فى نفسيهما، وانتزاع أسباب الخلاف من قلبيهما.

هذا، وقد اختلف العلماء فيما يتولاه الحكمان، أيتوليان الجمع والتفريق بين الزوجين بدون إذنهما أم ليس لهما تنفيذ أمر يتعلق بالزوجين إلا بعد استئذانهما؟.

يرى بعضهم أن للحكمين أن يلزما الزوجين بما يريانه بدون إذنهما، لأن الله - تعالى - سماهما حكمين، والحكم هو الذى بحسم الخلاف بما تقتضيه المصلحة سواء أرضى المحكوم عليه أم لم يرض؛ ولأن القاضى هو الذى كلفهما بهذه المهمة فلهما أن يتصرفا بما يريانه خيرًا بدون إذن الزوجين؛ ولأن عليا - رضى الله عنه - عندما بعث الحكمين لحسم الخلاف الذى نشب بين أخيه عقيل وبين زوجته قال لهما : أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتم أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما. . .

وإلى هذا الرأى اتجه ابن عباس والشعبى ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم.

ويرى الحسن وأبو حنيفة وغيرهما أنه ليس للحكمين أن يفرقا بين الزوجين إلا برضاهما لأنهما وكيلان للزوجين، ولأن الآية الكريمة قد بينت أن عملهما هو الإصلاح فإن عجزا عنه فقد انتهت مهمتهما، ولأن الطلاق من الزوج وحده، ولا يتولاه غيره إلا بالنيابة عنه.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿إن الله كان عليما خبيرا﴾ أى : إنه - سبحانه - عليم بظواهر الأمور وبواطنها. خبير بأحوال النفوس وطرق علاجها، ولا يخفى عليه شىء من تصرفات الناس وأعمالهم، وسيحاسبهم عليها.

فالجملة الكريمة تذييل المقصود منه الوعيد للحكمين إذا ما سلكوا طريقا يخالف الحق والعدل.

وبهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بينتا جانبا هاما مما يجب للرجال على النساء، ومما يجب للنساء على الرجال، فقد مدحت أولاهما النساء الصالحات المطيعات الحافظات لحق أزواجهن، ورسمت العلاج الناجع الذى يجب على الرجال أن يستعملوه إذا ما حدث نشوز من زوجاتهم، وحذرت الرجال من البغى على النساء إذا ما تركن النشوز وعدن إلى الطاعة والاستقامة ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا﴾. ثم طلبت الآية الثانية من ولاة الأمور وصلحاء الأمة أن يتدخلوا بين الزوجين إذا ما نشب خلاف بينهما، وأن يكون هذا التدخل عن طريق حكمين عدلين عاقلين يتوليان الإصلاح بينهما، ويقضيان بما فيه مصلحة الزوجين، وقد وعد - سبحانه - بالتوفيق بين الزوجين متى صلحت النيات، وصفت النفوس، ومالت القلوب نحو التسامح والتعاطف قال - تعالى - ﴿إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾.

وبهذا التشريع الحكيم تسعد الأمم والأسر، وتنال ما تصبو إليه من رقى واستقرار.

***

وبعد هذا البيان الحكيم الذى ساقته السورة الكريمة فيما يتعلق بأحكام الأسرة ووسائل

استقرارها، وعلاج ما يكون بين الزوجين من أسباب النزاع . . . بعد هذا البيان الحكيم عن ذلك أخذت السورة الكريمة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق، ونهتهم عن الإشراك بالله - تعالى -، وعن الغرور والبخل والرياء، وغير ذلك من الأعمال التى ترضى الشيطان وتغضب الرحمن فقال - تعالى - :

۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ
ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ
قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ
مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ
أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ
وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

قال القرطبى ما ملخصه : أجمع العلماء على أن هذه الآية - وهى قوله - تعالى - ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا﴾ - من المحكم المتفق عليه - ليس منها شىء منسوخ. وكذلك هى فى جميع الكتب. ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب. والعبودية هى التذلل والافتقار لمن له الحكم والاختيار. فالآية أصل فى خلوص الأعمال لله وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله - تعالى - أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه »[1].

والمعنى : عليكم أيها الناس أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والخضوع، وأن تتجهوا إليه وحده فى كل شئونكم بدون أن تتخذوا معه أى شريك لا فى عقيدتكم ولا فى عبادتكم ولا فى أقوالكم ولا فى أعمالكم، كما قال - تعالى - ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

وهذه العبادة الخالصة لله - تعالى - هى حقه - سبحانه - علينا، فهو الذى خلقنا وهو الذى رزقنا وهو المتفضل علينا فى جميع الحالات.

روى البخارى عن معاذ بن جبل قال : كنت ردف النبى - ﷺ - على حمار يقال له عفيرة. فقال : يا معاذ هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال : فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا. فقلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر به الناس؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا).

وقد صدر - سبحانه - تلك الوصايا الحكيمة التى اشتملت عليها الآية الكريمة بالأمر بعبادته والنهى عن أن نشرك به شيئا، لأن إخلاص العبادة له أساس الدين، ومداره الأعظم الذى بدونه لا يقبل الله من العبد عملا، ولأن فى ذلك إيماء إلى ارتفاع شأن تلك الوصايا التى سيقت بعد ذلك، إذ قرنها بالعبادة والتوحيد يكسبها عظمة وجلالا.

وعطف النهى عن الشرك على الأمر بالعبادة لله - تعالى - من باب عطف الخاص على

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١٨٠.

العام، لأن الإشراك ضد التوحيد فيفهم من النهى عن الإشراك الأمر بالتوحيد.

ثم أوصى - سبحانه - بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾.

أى: عليكم أن تخلصوا لله العبادة ولا تشركوا معه شيئا، وعليكم كذلك أن تحسنوا إلى الوالدين بأن تطيعوهما وتكرموهما وتستجيبوا لمطالبهما التى يرضاها الله، والتى فى استطاعتكم أداؤها.

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بتوحيد الله، لأن أحق الناس بالاحترام والطاعة بعد الله - عز وجل - هما الوالدان؛ لأنهما هما السبب المباشر فى وجود الإنسان.

ومن الآيات التى قرنت الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالأمر بطاعة الله قوله - تعالى - : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا﴾.

ومن الأحاديث التى أمرت بالإحسان إلى الوالدين ونهت عن الإساءة إليهما ما رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «رضا الله فى رضا الوالدين وسخط الله فى سخط الوالدين».

وروى أبو داود والبيهقى عن رجل من بنى سلمة أنه جاء إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم. الصلاة عليهما. والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما»(١).

وقد جاءت هذه الجملة وهى قوله تعالى ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ فى صورة الخبر إلا أن المراد بها الأمر بالإحسان إليهما، ففى الكلام محذوف والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانا. فقوله وبالوالدين متعلق بالفعل المقدر.

ثم أمر - سبحانه - بالإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين فقال: وبذى القربى واليتامى والمساكين.

أى وأحسنوا كذلك إلى أقاربكم الذين جمعت بينكم وبينهم رابطة القرابة والنسب، وإلى اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى بأن تعطفوا عليهم، وترحموا ضعفهم، وتحسنوا تربيتهم

(١) التاج الجامع للأصول جـ٥ ص٦ للشيخ منصور على ناصف.

ورعايتهم. وإلى المساكين الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم وضعفهم وعدم وجود ما يقوم بكفايتهم.

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدعو المسلمين إلى الإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين﴾.

وقوله - تعالى - ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا﴾.

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه»، وروى الشيخان أيضا عن سهل بن سعد عن النبى ﷺ أنه قال: أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذا وقال بإصبعيه السبابة والوسطى - أى أشار وفرج بين أصبعيه السبابة والوسطى».

وروى البخارى وغيره عن صفوان بن سليم عن النبى ﷺ أنه قال: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل»(١).

ثم أمر - سبحانه - بالإحسان إلى طائفة أخرى من الناس فقال - تعالى - : ﴿والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم﴾.

والجار ذو القربى: هو الجار الذى قرب جواره. أو هو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين، فإن له مع حق الجوار حق القرابة.

والجار الجنب: هو الجار الذى بعد جواره عن جوارك من الجنابة ضد القرابة. يقال: اجتنب فلان فلانا إذا بعد عنه. وقيل هو الجار الذى لا قرابة فى النسب بينه وبين جاره، ويقابله الجار ذو القربى.

وقد ساق ابن كثير عند تفسيره لهذه الجملة أكثر من عشرة أحاديث تتعلق بالإحسان إلى الجار ومنها ما رواه الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه. وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»(٢).

والصاحب بالجنب: هو الرفيق فى كل أمر حسن: كتعليم أو تجارة أو سفر أو غير ذلك.

---

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ ٥ ص ٩ وما بعدها.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٤

قال صاحب الكشاف : «والصاحب بالجنب : هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر، وإما جارا ملاصقا، وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وقيل : الصاحب بالجنب المرأة»(١)

وابن السسبيل : هو المسافر الذى انقطع عن بلده، ونفد ما فى يده من مال يوصله إلى مبتغاه.

والسبيل : الطريق فنسب المسافر إليه لمروره عليه وملابسته له.

ومن الإحسان إليه. إيواؤه وإطعامه ومساعدته بما يوصله إلى موطنه.

والمراد بقوله ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ العبيد الأرقاء الذين ملكت رقابهم، فصاروا ضعاف الحيلة لامتلاك غيرهم لهم.

وقد أوصى النبى ﷺ بالإحسان إليهم فى كثير من الأحاديث ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ : «جعل يوصى أمته فى مرض موته فيقول : الصلاة الصلاة. اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وروى الإمام أحمد والنسائى عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : (ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة. وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة. وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة. وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة).

وروى الشيخان عن أبى ذر عن النبى ﷺ قال : «هم إخوانكم خولكم. جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم. فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٢)

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد أمرت الناس بإخلاص العبادة لله - تعالى -، كما أمرتهم بالإحسان إلى آبائهم وإلى أقاربهم وإلى البائسين والمحتاجين وغيرهم ممن هم فى حاجة إلى مدّ يد العون والمساعدة.

وبتنفيذ هذه الوصايا السامية تسعد الإنسانية، وتنال ما تصبو إليه من رقى واستقرار.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورًا﴾.

والمختال : هو المتكبر المعجب بنفسه : سمى بذلك لأنه يتخيل لنفسه من السجايا والصفات

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٠٩

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٩٥.

والأفعال ما ليس فيه .فيستعلى على الناس ولا يلتفت إليهم.

والفخور: هو الشديد الفخر بما يقول أو يفعل، المكثر من ذكر مزاياه ومناقبه، والمحب لأن يحمد بما لم يفعل.

أى: إن الله لا يحب من كان متكبرًا معجبا بنفسه، ومن كان كثير الفخر بما يقول أو يفعل لأن من هذه صفاته لا يقوم برعاية حقوق الناس بل إن غروره ليجعله يستنكف عن الاتصال بهم وإن فخره ليحمله على التطاول عليهم.

والجملة الكريمة علة لكلام محذوف والتقدير: لا تفتخروا ولا تختالوا فإن الله لا يحب من كان متصفا بهذه الصفات القبيحة.

وقوله ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ يدل من قوله ﴿مختالا فخورا﴾ أى: أن الله لايحب من كان مختالا فخورا ولايحب الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل.

ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر والتقدير: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله مبغضون من الله أو أحقاء لكل ما ينزل بهم من عذاب. وحذف لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب. ودل على هذا الخبر المحذوف قوله: ﴿وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾.

ويجوز أن يكون منصوبا أو مرفوعا على الذم. إلى غير ذلك مما ذكروه فى وجوه إعراب هذه الآية الكريمة.

والمعنى: أن الله - تعالى - لا يحب هؤلاء المختالين والفخورين، ولا يحب كذلك الذين لا يكتفون بالبخل بأموالهم عن إنفاق شىء منها فى وجوه الخير مع أن بخلهم هذا مفسدة عظيمة. بل يأمرون غيرهم بأن يكونوا بخلاء مثلهم، وأن يسلكوا مسلكهم الذميم.

قال صاحب الكشاف: أى يبخلون بذات أيديهم وبما فى أيدى غيرهم. فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتا للسخاء ممن وجد منه السخاء. وفى أمثال العرب أبخل من الضنين بنائل غيره. ثم قال: ولقد رأينا ممن بلى بداء البخل، من إذا طرق سمعه أن أحدًا جاد على أحد، شخص به، أى قلق وضجر، وحل حبوته واضطرب ودارت عيناه فى رأسه. كأنما نهب رحله، وكسرت خزائنه ضجرًا من ذلك وحسرة على وجوده»[1].

وقوله: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة أى: أنهم يببخلون بما فى أيديهم ويأمرون غيرهم بذلك، ويكتمون ويخفون نعم الله التى أعطاها لهم

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٠.

فلا يظهرونها سواء أكانت هذه النعم نعما مالية أم علمية أم غير ذلك من نعم الله عليهم.

وقوله - تعالى - ﴿وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا﴾ بيان للمصير السىء الذى سيصيرون إليه بسبب أفعالهم القبيحة.

أى: وهيأنا لهؤلاء الجاحدين لنعم الله الكافرين بوحيه عذابًا يهينهم ويذلهم وينسيهم ما كانوا فيه من فخر وخيلاء وغرور.

قال الآلوسى ما ملخصه: ووضع - سبحانه - المظهر موضع المضمر؛ للإشعار بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعم الله، ومن كان كافرًا لنعمه فله عذاب يهينه كما أهان النعم بالبخل والإخفاء.

وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من اليهود كانوا يأتون رجالا من الأنصار فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون. فأنزل الله قوله - تعالى - ﴿الذين يبخلون﴾ إلى قوله: ﴿وكان الله بهم عليما﴾.

وقيل نزلت فى الذين كتموا صفة النبى ﷺ وبخلوا بحق الله عليهم وهم أعداء الله - تعالى - أهل الكتاب[1].

وقوله - تعالى ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ معطوف على ﴿الذين يبخلون﴾.

وإنما شاركوهم فى الذم وسوء العاقبة لأن البخل بإظهار نعم الله فى مواضع الخير وكتمانها، يستوى مع الإنفاق الذى لا يقصد به وجه الله فى القبح واستجلاب العقاب، إذ أن الذى ينفق ماله على سبيل الرياء والسمعة لا يتوخى به مواقع الحاجة، فقد يعطى الغنى ويمنع الفقير، وقد يبذل الكثير من المال ولكن فى المفاسد والشرور والمظاهر الكاذبة.

والمعنى: والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس أى قاصدين بإنفاقهم الرياء والسمعة لا وجه الله - تعالى - ولا يؤمنون بالله الذى له الخلق والأمر، ولا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب... هؤلاء الذين يفعلون ذلك يبغضهم الله - تعالى -، ويجازيهم بما يستحقون من عذاب أليم.

روى مسلم عن أبى هريرة قال: سمعت النبى ﷺ يقول: قال الله - تبارك وتعالى -: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه.

وقوله ﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾ جملة معترضة لبيان أن صحبتهم للشيطان

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٣٠.

ومطاوعتهم له هى التى دفعتهم إلى البخل وإلى الرياء وإلى عدم الإيمان بالحق الذى آمن به العقلاء من الناس.

والمراد بالشيطان هنا: كل ما يغرى الإنسان بالشر ويدفعه إليه من الانس أو الجن. والقرين: هو المصاحب الملازم للإنسان. فهو فعيل بمعنى مفاعل، كخليط بمعنى المخالط. وساء هنا: بمعنى بئس. وقرينا تمييز مفسر للضمير المستكن فى ساء. والمخصوص بالذم محذوف وهو الشيطان الذى يدفع الإنسان إلى الشرور والآثام.

والمعنى ومن يكن الشيطان مقارنا ومصاحبا له فبئس المصاحب وبئس المقارن الشيطان لأنه يدعوه إلى المعاصى التى تفضى به إلى النار.

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن قرناء السوء يفسدون الأخلاق: لأن عدوى الأخلاق تسرى بالمجاورة، كما تسرى عدوى الأمراض البدنية.

والمقصود من الجملة الكريمة نهى الناس عن طاعة شياطين الإنس والجن الذين يحرضون على ارتكاب الفواحش والقبائح، ويزينون لأتباعهم الشرور والآثام.

ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الذين يؤثرون رضا الناس على رضا الله، والذين كفروا بالحق بعد إذ جاءهم فقال - : ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾.

والمعنى: وأى ضرر على هؤلاء الكافرين البخلاء المرائين لو أنهم آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وأنفقوا مما رزقهم الله من فضله ابتغاء وجهه؟.

إنه لا ضرر مطلقا من إيمانهم وإنفاقهم واستجابتهم للحق، بل إن الخير كل الخير فى اتباع ذلك، والشر كل الشر فيما هم عليه من كفر وبخل ورياء.

فالجملة الكريمة توبيخ لهم على سلوكهم الطريق المعوج وتركهم للطريق المستقيم.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: قوله ﴿وماذا عليهم﴾. وأى تبعة عليهم فى الإيمان والإنفاق فى سبيل الله. والمراد الذم والتوبيخ. وإلا فكل منفعة ومفلحة فى ذلك: وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت بارا. وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزأة فى العفو والبر. ولكنه ذم وتجهيل وتوبيخ بمكان المنفعة»[1].

وقوله ﴿وكان الله بهم عليما﴾ تذييل قصد به تهديدهم على إيثارهم طريق الغى على طريق الرشد.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١١.

أى : وكان الله بهم عليما علمًا يشمل بواطنهم وظواهرهم، وسيجازيهم على ما أسروه وما أعلنوه بالعقاب الذى يستحقونه.

ثم بين - سبحانه - أنه منزه عن الظلم بعد أن أقام الحجة على الظالمين، ودعاهم إلى سلوك طريق الخير، فقال ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيما﴾.

والمثقال : مفعال من الثقل. ويطلق على الشىء القليل الذى يحتمل الوزن.

والذرة : تطلق على النملة، وعلى الغبار الذى يتطاير من التراب عند النفخ.

وهذا أحقر ما يقدر به الشىء، فعلم انتفاء ما هو أكثر منه بالأولى.

والمراد : أن الله - تعالى - لا ينقص أحدا من ثواب عمله شيئا مهما ضؤل هذا الشىء وحقر، فخرج الكلام على أصغر شىء يعرفه الناس. كما قال - تعالى - ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

وكما فى قوله - تعالى - ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾.

ومفعول يظلم محذوف والتقدير : لا يظلم أحدا مثقال ذرة.

وقوله ﴿مثقال﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى لا يظلم أحدا ظلما وزن ذرة. كما تقول : لا أظلم قليلا ولا كثيرا.

وقوله ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيما﴾ بيان لسعة جوده - سبحانه - وعظيم رحمته وعفوه.

وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر ﴿حسنة﴾ - بالضم - على أن ﴿تك﴾ مضارع كان التامة أى وإن توجد أو تحصل حسنة يضاعفها.

وقرأ الباقون ﴿حسنة﴾ - بالنصب - على أنها خبر لقوله ﴿تك﴾ المشتقة من كان الناقصة. وأصل ﴿تك﴾ تكن فحذفت النون من آخر الفعل من غير قياس تشبيها لها بحروف العلة، وتخفيفا لكثرة الاستعمال.

والضمير المستتر فى الفعل «تك» يعود إلى المثقال. وجىء به مؤنثا مراعاة للفظ ذرة الذى أضيف إليه لفظ مثقال؛ لأن لفظ مثقال مبهم لا يميزه إلا لفظ ذرة فكان كالمستغنى عنه.

وقيل : إنما جىء به مؤنثا حملا على المعنى، لأنه بمعنى : وإن تك زنة ذرة حسنة يضاعفها.

وقيل : إنما جىء به كذلك لأن المضاف قد يكتسب التأنيث من المضاف إليه إذا كان جزأه

كما فى نحو قولهم : كما شرقت صدر القناة من الدم . .

والمعنى : إن الله - تعالى - بفضله وجوده لا يظلم الناس شيئا، ولا ينقصهم أى نقص من ثواب أعمالهم بل يجازيهم بها ويثيبهم عليها ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أى وإن تك الفعلة الحسنة بالغة فى القلة مثقال ذرة يضاعف ثوابها بكرمه وجوده أضعافا كثيرة. وفوق ذلك فإنه - سبحانه - يعطى من يشاء إعطاءه عطاء عظيما من عنده ولا يعلم مقدار هذا العطاء إلا هو - سبحانه.

وفى إضافة هذا العطاء العظيم إلى ذاته - تعالى - فى قوله ﴿من لدنه﴾ تشريف له، وتهويل من شأنه.

وسماه أجرا لكونه جزاء على العمل الصالح الذى عمله عباده المؤمنون الصادقون.

هذا، وقد أورد الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث فى معنى هذه الآية ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى حديث الشفاعة الطويل وفيه : فيقول الله - تعالى - للملائكته ! ارجعوا. فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقا كثيرا. ثم يقول أبو سعيد : اقرؤا إن شئتم قوله - تعالى - ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾.

وروى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة. يثاب عليها الرزق فى الدنيا. ويجزى بها فى الآخرة. وأما الكافر فيطعم بها فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة»[(١)].

ثم نبه - سبحانه - هؤلاء الكافرين إلى ما سيكونون عليه من حال سيئة يوم القيامة إذا استمروا فى كفرهم فقال : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا. يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾.

قال الفخر الرازى : وجه النظم هو أنه - تعالى - بين أن فى الآخرة لا يجرى على أحد ظلم، وأنه - تعالى - بجازى المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقه. فبين فى هذه الآية - وهو قوله - تعالى - ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ أن ذلك يجرى بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق لتكون الحجة على المسىء أبلغ. والتبكيت له أعظم. وحسرته أشد. ويكون سرور من قبل من الرسول وأظهر الطاعة أعظم. ويكون هذا وعيدًا للكفار الذين قال الله فيهم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ ووعدًا للمطيعين الذين قال فيهم «وإن تك حسنة يضاعفها»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٩٧.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٠٥.

والفاء فى قوله « فكيف » للإفصاح عن شرط مقدر نشأ من الكلام السابق وكيف فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف.

والتقدير : إذا أيقنت بما أخبرناك به أيها الرسول الكريم أو أيها السامع من أن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيما فكيف سيكون حال هؤلاء الكفرة إذا ماجئنا من كل أمة من الأمم السابقة بشهيد يشهد عليهم بما ارتكبوه من سوء الصنيع وقبح الأعمال، وهذا الشهيد هو نبيهم الذى أرسله الله لهدايتهم، وجئنابك يا محمد شهيدًا على هؤلاء الذين بعثك الله لإخراجهم من الظلمات إلى النور فكذبوك واستحبوا العمى على الهدى.

لاشك أن حالهم سيكون أسوأ حال، ومصيرهم سيكون أقبح مصير، بسبب كفرهم وبخلهم وريائهم واتباعهم للهوى والشيطان.

ومن العلماء من يرى أن المراد بقوله - تعالى - ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ أى جئنا بك يا محمد شهيدًا على هؤلاء الأنبياء بأنهم قد بلغوا رسالة الله ولم يقصروا فى نصيحة أقوامهم.

والذى نراه أولى هو أن شهادة النبى ﷺ تشمل كل ذلك أى تشمل شهادته على قومه بأنه قد بلغهم رسالة الله، وشهادته للأنبياء السابقين بأنهم نصحوا لأقوامهم وبلغوا رسالة ربهم، لأن النبى ﷺ قد أعطاه الله تعالى - من المنزلة العالية مالم يعط أحدا سواه.

روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ على شيئا من القرآن. فقلت يا رسول الله أأقرأ عليك وعليك أنزل قال : نعم. إنى أحب أن أسمعه من غيرى. فقرأت عليه سورة النساء : حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾. . الآية » فقال : حسبك الآن، فإذا عيناه تذرفان ».

وقوله تعالى - ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ استئناف مبين لحالهم التى أشير إلى شدتها وفظاعتها بقوله ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾.

والتنوين فى قوله ﴿يومئذ﴾ عوض عن الجملتين السابقتين أى مجىء الشهيد على كل أمة، ومجىء الرسول شهيدا على قومه.

أى : يوم أن يشهد الرسل على أقوامهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله، ويوم أن تشهد أنت يا محمد على من كذبك من قومك بأنك قد أمرتهم بعبادة الله وحده يومئذ وهو يوم القيامة، يتمنى ويحب الذين كفروا وعصوا الرسول الذى جاء لهدايتهم ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ أى يودون لو انشقت الأرض فبلعتهم لما يرون من هول الموقف ولما سيحل بهم من الخزى والفضيحة والعذاب. أو يودون لو يدفنون فيها فتسوى عليهم كما تسوى على الموتى ويبقون على

هذه الحال فى باطنها بدون بعث أو نشور، حتى لا يصيبهم ما أُعد لهم من عقاب بسبب سوء أعمالهم.

والمقصود أنهم لشدة خوفهم وفزعهم يتمنون أن لو أخفتهم الأرض فى باطنها بحيث لا يظهر شىء منهم عليها فى أى وقت من الأوقات.

وجملة ﴿لوتسوى بهم الأرض﴾ مفعول ﴿يود﴾ على أن لو مصدرية. أى: يودون أن يدفنوا وتسوى الأرض متلبسة بهم حتى لكأنهم جزء منها.

وقوله ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ معطوف على ﴿يود﴾ أى أنهم يومئذ يودون لوتسوى بهم الأرض، ويعترفون لله تعالى بجميع ما فعلوه، لأنهم لو كتموا شيئا بألسنتهم لشهدت عليهم بقية جوارحهم.

ويصح أن تكون الواو فى قوله ﴿ولا يكتمون﴾ للحال. أى: أنهم يومئذ يودون لوتسوى بهم الأرض والحال أنهم مع ذلك لا يكتمون عن الله - تعالى - حديثا من أحوالهم فى الدنيا لأنهم لا يستطيعون هذا الكتمان.

والمقصود أنهم مع شدة هلعهم وجزعهم لن يستطيعوا أن يفلتوا من عقاب الله، ولن يستطيعوا أن يكتموا شيئا مما ارتكبوه من جرائم.

أخرج ابن جرير عن الضحاك أن نافع بن الأزرق - وكان ممن يسألون عن متشابه القرآن - أتى إلى ابن عباس فقال: يا ابن عباس: قال الله - تعالى - ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ وقوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ - كيف الجمع بينهما -؟ فقال له ابن عباس. إنى أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقى على ابن عباس متشابه القرآن. فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله - تعالى - يجمع الناس يوم القيامة فى بقيع واحد. فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئا إلا ممن وحده. فيقولون: تعالوا نجحد فيسألهم فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين. قال: فيختم على أفواههم ويستنطق جوارحهم فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين. فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثا»[1].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده كما أمرت بالإحسان إلى الوالدين والأقربين، واليتامى والمساكين؛ وإلى الجار القريب والبعيد، وإلى الصاحب والمسافر والمملوك، ونهت عن البخل والرياء وجحود الحق واتباع الشيطان. وبينت أن الله - تعالى - لا يظلم أحدًا مثقال ذرة وأنه - سبحانه - يضاعف ثواب الحسنات،

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٩٤.

ويعطى المحسن من ألوان الخير مالا يعلمه إلا هو - سبحانه - ونبهت الكافرين إلى سوء مصيرهم حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسيروا فى الطريق القويم من قبل أن يأتى يوم تنكشف فيه الحقائق وينالون فيه ما يستحقون من عقاب دون أن ينفعهم الندم أو التمنى.

* * *

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الأحكام التى تتعلق بالصلاة وأرشدهم إلى ما يجب عليهم عند أدائها من تطهير بدنى وروحى حتى يكونوا أهلا لرضا الله وحسن قبوله، فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما رواه أبو داود والنسائى عن على بن أبى طالب أنه كان هو وعبد الرحمن بن عوف ورجل آخر، قد شربوا الخمر. فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ: قل يا أيها الكافرون. فخلط فيها. فنزلت: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾.

وروى الترمذى وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر. فأخذت الخمر منا. وحضرت الصلاة. فقدموا فلانا. قال: فقرأ: ﴿قل يأيها الكافرون. أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون. فأنزل الله الآية.

قال ابن كثير: وقد كان هذا النهى قبل تحريم الخمر. كما دل عليه الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة عند قوله - تعالى - ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾. الآية» فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر. فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلاة - وفى رواية لأبى داود: فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادى: لا يقربن الصلاة

سكران - حتى نزل قوله - تعالى - فى سورة المائدة : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾. إلى قوله : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال عمر : انتهينا. انتهينا)[١].

والمراد بالصلاة عند كثير من العلماء : الهيئة المخصوصة من قراءة وقيام وركوع وسجود.

والمراد بقربها : القيام إليها والتلبس بها، إلا أنه - سبحانه - نهى عن القرب منها مبالغة فى النهى عن غشيانها وهم بحالة تتنافى مع جلالها والخشوع فيها.

وقوله ﴿سكارى﴾ جمع سكران.

وأصل السكر فى اللغة السد. ومنه قولهم سكرت الطريق أى سددته. ومنه قوله - تعالى - حكاية عن الكافرين ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾ أى : انسدت فصارت لا ينفذ إليها النور، ولا ندرك الأشياء على حقيقتها.

والمراد بالسكر هنا الحالة التى تحصل لشارب الخمر والتى يفقد معها وعيه، ويسد ما بين المرء وعقله.

والجنب : من أصابته الجنابة بسبب جماع أو احتلام أو غيرهما. وهذا اللفظ يستوى فيه - على الصحيح - الواحد، والمثنى، والجمع، والمذكر والمؤنث لجريانه مجرى المصدر، واشتقاقه من المجانبة بمعنى المباعدة.

وعابر السبيل : مجتاز الطريق وهو المسافر. أو من يعبر الطريق من جانب إلى جانب.

يقال : عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبرا وعبورا. ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجازه.

والمعنى : يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تؤدوا الصلاة وأنتم فى حالة السكر. حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقولونه قبل أدائها، ولا فى حال الجنابة حتى تغتسلوا؛ إلا أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا ماء فتيمموا لكى تؤدوها.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالصلاة هنا : مواضعها وهى المساجد. فالكلام مجاز مرسل بتقدير مضاف فهو من باب ذكر الحال وإرادة المحل.

والمعنى عليه : لا تقربوا مواضع الصلاة وهى المساجد وأنتم سكارى، ولا تقربوها وأنتم جنب حتى تغتسلوا إلا أن تكونوا تريدون اجتيازها من باب إلى آخر من غير مكث فيها فإنه يجوز لكم ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٠٠.

روى ابن جرير عن الليث قال: حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن قول الله - تعالى -: ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾ أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء. ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد. فأنزل الله - تعالى - ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾[١].

وقال بعض العلماء: وبالجملة فالحال الأولى أعنى قوله ﴿وأنتم سكارى﴾ تقوى بقاء الصلاة على معناها الحقيقى، من دون تقدير مضاف: وقوله: ﴿إلا عابرى سبيل﴾ يقوى تقدير المضاف. أى: لا تقربوا موضع الصلاة.

ويمكن أن يقال: إن بعض قيود النهى - وهو قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقى.

وبعض قيود النهى - وهو قوله: إلا عابرى سبيل - يدل على أن المراد مواضع الصلاة.

ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه. ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد. وهما: لا تقربوا الصلاة التى هى ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى. ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنبا إلا حال عبوركم المسجد من جانب إلى جانب. وغاية ما يقال فى هذا إنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز»[٢].

وفى ندائهم بصفة الإيمان، تحريك لحرارة العقيدة فى قلوبهم، وتوجيه لنفوسهم إلى ما يستدعيه الإيمان من طاعة واستجابة لله رب العالمين.

وقوله ﴿وأنتم سكارى﴾ جملة حالية. أى لا تقربوها فى حال السكر، لأن ذلك يتنافى مع الإيمان السليم، ومع ما تستحقه الصلاة من خشوع واستحضار للقلب. وإنما الذى يقتضيه إيمانكم وحياؤكم من الله أن تدخلوا فى الصلاة وأنتم بكامل وعيكم، واستحضاركم لما يستلزمها من خشوع وأدب.

ولاشك أن هذا كان قبل أن ينزل التحريم القاطع لشرب الخمر فى جميع الأوقات كما سبق أن أشرنا.

وقوله ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ غاية للنهى وإيماء إلى علته.

وحتى هنا حرف جر بمعنى إلى، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة. وما فى قوله ﴿ما تقولون﴾ موصولة بمعنى الذى أو نكرة موصوفة والعائد محذوف أى تقولونه.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٩٩.
(٢) تفسير القاسمى جـ ٥ ص ١٢٤٧ نقلا عن: فتح البيان.

أى : حتى تعلموا ما تقولونه علما يقينيا لا غلط معه ولا تخليط، بأن تعقلوا ما اشتملت عليه الصلاة من تكبير وقراءة وتسبيح ودعاء وغير ذلك مما تقتضيه الصلاة.

قال الآلوسى : وقد روى أنهم كانوا بعدما أنزلت الآية لا يشربون الخمر فى أوقات الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون »[1].

وقوله ﴿ولا جنبا﴾ معطوف على قوله ﴿وأنتم سكارى﴾ إذ الجملة فى موضع النصب على الحال. والاستثناء فى قوله ﴿إلا عابرى سبيل﴾ مفرغ من أعم الأحوال.

وقوله ﴿حتى تغتسلوا﴾ بيان لغاية المنع بالنسبة للجنب.

والاغتسال : تعميم الجسد كله بالماء. وهو بعد الجنابة طهارة حسية وتنشيط للبدن بعد أن أصابه بعض التعب بسبب الأفعال التى أدت إلى الجنابة. وهو كذلك طهارة نفسية، لأنه يبعث فى الإنسان حسن الاستعداد لذكر الله ولأداء الصلاة بعد أن استحكمت الشهوة وسيطرت على صاحبها لفترة من الوقت. فبالاغتسال بعد قضاء الشهوة يتجدد للبدن نشاطه، وللروح صفاؤها وحسن استعدادها لطاعة الله.

ثم شرع - سبحانه - فى بيان الأعذار التى تبيح التيمم عند العجز عن الماء فقال : ﴿وإن كنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا﴾ والمراد بالمرض فى قوله - تعالى - : ﴿وإن كنتم مرضى﴾ : المرض الذى يمنع من استعمال الماء مطلقا، كأن يكون إستعمال الماء يزيد المرض شدة، أو يبطىء البرء، فإن الله - تعالى - قد أباح للمريض فى هذه الأحوال وأمثالها أن يتيمم بدل الوضوء أو الغسل. كما أباح له - أيضا - أن يتيمم عند فقد الماء أو ما فى حكم ذلك.

وقوله : ﴿أو على سفر﴾ فى محل نصب عطفا على خبر كان وهو قوله : ﴿مرضى﴾.

أى : وكذلك أباح الله لكم التيمم عند السفر إذا لم تجدوا ماء، أو كان معكم من الماء ما أنتم فى حاجة شديدة إليه، أو كان هناك ما يمنع من استعمال الماء.

وقوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ معطوف على قوله : ﴿كنتم﴾.

والغائط من الغيط. وهو المكان المنخفض من الأرض. وهو هنا كناية عن الحدث لأن العادة جرت على أن من يريد الحدث يذهب إلى ذلك المكان المنخفض ليتوارى عن أعين الناس.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٣٩

وفى إسناد المجىء إلى واحد مبهم من المخاطبين، سمو فى الخطاب، حيث تحاشى -سبحانه- التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا من ذكره أو ما يستهجن التصريح به.

أى وكذلك أباح الله لكم التيمم إن كنتم محدثين ولم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث. أو تجدونه ولكن هناك ما يمنعكم من استعماله.

والمراد بالملامسة فى قوله ﴿أو لامستم النساء﴾ الجماع عند بعض الفقهاء قال الآلوسى ما ملخصه: قوله - تعالى - ﴿أو لامستم النساء﴾ يريد - سبحانه -: أو جامعتم النساء. إلا أنه كنى بالملامسة عن الجماع، لأنه مما يستهجن التصريح به أو يستحيى منه. وإليه ذهب ابن عباس والحسن وغيرهما.

وعن ابن مسعود أن المراد بالملامسة ما دون الجماع. أى ما سستم بشرتهن ببشرتكم. وبه استدل الشافعى على أن اللمس ينقض الوضوء.

وقال مالك: إن كان اللمس بشهوة نقض وإلا فلا....

وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا ينتقض الوضوء بالمس ولو بشهوة....»[1] والفاء فى قوله ﴿فلم تجدوا ماء﴾ عطفت ما بعدها على الشرط السابق وهو قوله ﴿وإن كنتم مرضى﴾. والضمير فى قوله ﴿تجدوا﴾ يعود لكل من تقدم من مريض ومسافر ومتغوط وملامس. وفيه تغليب للخطاب على الغيبة. وذلك أنه تقدم ضمير الغيبة فى قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ بينما تقدم ضمير المخاطب فى قوله ﴿كنتم﴾ ﴿ولامستم﴾.

والمراد بعدم الوجدان هنا ما هو أعم من الوجود الحسى. أى أن قوله ﴿فلم تجدوا ماء﴾ كناية عن عدم التمكن من استعماله وإن وجد حسا، إذ أن الشىء المتعذر استعماله كالمعدوم.

وقوله ﴿فتيمموا صعيدا طيبا﴾ جواب الشرط وهو قوله: ﴿وإن كنتم﴾.

والمعنى: وإن كنتم أيها المؤمنون فى حالة مرض أو على سفر أو كنتم محدثين أو لامستم النساء فلم تجدوا فى تلك الأحوال ما تستعملونه لطهارتكم، أو وجدتم ماء ولكن منعكم مانع من استعماله، فعليكم أن تتيمموا صعيدا طيبا، بدلا من الماء، فان الله - تعالى - ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾.

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ يعود إلى الجمع ما عدا المرضى، لأن المرضى يباح لهم التيمم مع وجود الماء إذا تضرروا من استعماله.

وعلى هذا الرأى يكون المراد بعدم الوجدان. عدم الوجدان الحسى.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٤٢

والتيمم لغة: القصد. يقال تيممت الشيء أى قصدته.

ويطلق فى الشرغ على القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به.

وأما الصعيد - بوزن فعيل - فيطلق على وجه الأرض البارز، ترابا كان أو غيره. وقيل يطلق غلى التراب خاصة.

والطيب: الطاهر الذى لم تلوثه نجاسة ولا قذر.

أى: إذا لم تجدوا ماء للتطهر به أو وجدتموه ولكنكم عجزتم عن استعماله فاقصدوا ترابا طاهرًا بارزًا على وجه الأرض لكى تستعملوه فى طهارتكم عوضا عن الماء.

وقوله ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ بيان لكيفية التيمم.

أى: اقصدوا ترابًا على ظاهر الأرض طاهرًا فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم.

وقوله ﴿إن الله كان عفوًا غفورا﴾ تذييل قصد به بيان أنه - سبحانه - متصف بالعفو فلا يختار لعباده إلا السهل اليسير الذى يسهل عليهم أداؤه من غير مشقة مرهقة، وأنه هو الغفار الذى يغفر للمقصرين والمخطئين ذنوبهم متى تابوا إليه واستغفروه مما صدر عنهم من ذنوب.

هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى:

١ - أن من الواجب على المسلم عندما يتهيأ للصلاة أن يتجنب كل ما يتعارض مع الخشوع فيها، لأن الصلاة مناجاة ووقوف بين يدى الله - تعالى -، ومن شأن المناجى لله - تعالى - أن يتفرغ لذلك، وأن يكون على درجة من العلم والفهم تمكنه من الوقوف الخاشع بين يدى الله رب العالمين.

٢ - أن الصلاة محرمة على السكران حال سكره حتى يصحو. فإذا أداها حال سكره تكون باطلة، وكذلك الحكم بالنسبة للمحدث أو الجنب حتى يتطهر.

٣ - استدل بهذه الآية - من قال بأن المراد بالصلاة مواضعها - على أنه يحرم على السكران دخول المسجد، لما يتوقع منه من التلويث وفحش القول، ويقاس عليه كل ذى نجاسة يخشى معها التلويث والسباب ونحوه.

٤ - استدلوا بقوله - تعالى - : ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ على أن المسلم منهى عن الصلاة حال النعاس أو ما يشبهه، لأنه فى هذه الحالة لا يعلم ما يقول ويؤيد ذلك ما رواه البخارى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم. فان أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه).

وروى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال: (إذا نعس أحدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقرأ).

قال الفخر الرازى ما ملخصه: ويرى الضحاك أنه ليس المراد من لفظ ﴿سكارى﴾ السكر من الخمر، وإنما المراد منه سكر النوم. لأن لفظ السكر يستعمل فى النوم فكان هذا اللفظ محتملا له....

ثم قال الرازى: واعلم أن القول الصحيح هو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وهو أن المراد من لفظ ﴿سكارى﴾ السكر من الخمر، لأن لفظ السكر حقيقة فى السكر من شرب الخمر، والأصل فى الكلام الحقيقة...، ولأن جميع المفسرين قد اتفقوا على أن هذه الآية إنما نزلت فى شرب الخمر...)[1]

٥ - استدلوا بقوله - تعالى - ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا﴾ على أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد، إلا أنه يجوز له المرور فيه.

قال ابن كثير ما ملخصه: قال ابن عباس فى قوله ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل. أى: تمر به مرًا ولا تجلس.

وروى ابن جرير عن يزيد بن أبى حبيب فى قوله - تعالى - ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾ أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء ولا يجدون ممرًا إلا فى المسجد. فأنزل الله - تعالى - ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾ ويشهد لصحة ذلك ما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: (سدوا كل خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر...)

وبهذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضًا متى أمنت كل واحدة منهما التلويث فى حال المرور...

ثم قال ابن كثير: وقوله ﴿حتى تغتسلوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك والشافعى من أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء أو لم يقدر على استعماله. وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث فى المسجد، لما روى من أن صحابة كانوا يفعلون ذلك. وعن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون فى المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة. وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم)[2].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ١٠٩ - بتصرف وتلخيص.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٠٣

٦ - ظاهر قوله - تعالى - ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا﴾ يفيد أن التيمم لا يصح مع وجود الماء، لأن الآية الكريمة قد رتبت الأمر بالتيمم على نفى وجود الماء.

ولكن هذا الظاهر غير مراد، لأنه يقتضى أنه حتى لو وجدنا ماء، وكنا فى حاجة شديدة إليه، أو لا نقدر على استعماله فإنه لا يجوز لنا أن نتيمم، وهذا يتعارض مع سماحه الشريعة الإسلامية ويسرها، قال - تعالى : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وقال - تعالى - : ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾.

ويتعارض كذلك مع ما شرع من أجله التيمم وهو التيسير على الناس، والتيسير على الناس لا يتأتى بإلزامهم أن يفقدوا ما معهم من الماء فى الطهارة ليقعوا فى العنت بسبب العطش أو الجوع. أو بإلزامهم استعمال الماء فى طهارتهم مع أن فى استعماله مضرة بهم.

لذا قال العلماء : إن التيمم مشروع للمسلم عند فقده للماء، أو عند وجود الماء ولكن هناك عارض يمنعه من استعماله كمرض أو نحوه .

ولقد ورد فى السنة النبوية الشريفة ما يشهد بأنه يجوز للمسلم أن يتيمم مع وجود الماء متى كان هناك ما يمنع من استعماله.

ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والدارقطنى عن جابر قال : خرجنا فى سفر. فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه. ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبر بذلك فقال : قتلوه، قتلهم الله، هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العى السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده».

وروى أبو داود والدارقطنى عن عمرو بن العاص قال : احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك. فتيممت. ثم صليت بأصحابى الصبح. فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : «يا عمرو صليت بأصحابى وأنت جنب»؟ فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت : إنى سمعت الله يقول : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا».

قال القرطبى - بعد أن ساق هذا الحديث والذى قبله - : فدل هذا الحديث على إباحة التيمم مع الخوف من المرض - عند استعمال الماء - : وفيه إطلاق اسم الجنب على المتيمم، وجواز صلاة المتيمم بالمتوضئين. وهذا أحد القولين عندنا. وهو الصحيح الذى أقره مالك فى موطئه وقرىء عليه إلى أن مات[1].

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢١٧

وقال ابن كثير: وقد استنبط كثير من الفقهاء من الآية أنه لا يجوز التيمم لعدم الماء إلا بعد طلب الماء. فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب فى كتب الفروع... »[١].

٧ - أخذ الشافعيه والحنابلة من قوله - تعالى - ﴿فتيمموا صعيدا طيبا﴾: أن التيمم لا يجوز إلا بالتراب الطاهر لأنه هو المقصود بالصعيد الطيب» ولأنه ثبت فى صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة. وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا. وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» قالوا: فخصص الطهور بالتراب فى مقام الامتنان. فلوكان غيره يقوم مقامه لذكره معه.

ويرى الإمام أبو حنيفة أن التيمم يجوز بالتراب وبالحجر وبما ماثله من كل ما كان من جنس الأرض متى كان طاهرا. قالوا: لأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض وهذه الصفة لا تختص بالتراب.

وتوسع الإمام مالك فذهب إلى أن التيمم يجوز بكل ما سبق وبغيره كالشجر والحجر والنبات لأن الصعيد عنده كل ما صعد على وجه الأرض.

قال القرطبى عند حديثه عن اختلاف الفقهاء فى ذلك: وإذا تقرر هذا فاعلم أن مكان الإجماع فيما ذكرناه أن يتيمم الرجل على تراب منبت طاهر غير منقول ولا منصوب. ومكان الإجماع فى المنع أن يتيمم الرجل على الذهب الصرف والفضة والياقوت والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما، أو على النجاسات. واختلف فى غير هذا كالمعادن، فأجيز وهو مذهب مالك وغيره. ومنع وهو مذهب الشافعى وغيره.... »[٢].

٨ - أفاد قوله - تعالى - ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أن الواجب فى التيمم هو مسح الوجه واليدين فقط سواء أكان التيمم بدلا عن الوضوء أو عن الغسل.

قال القرطبى: وروى التيمم إلى المرفقين عن النبى ﷺ جابر بن عبد الله، وابن عمر وبه كان يقول: قال الدارقطنى: سئل قتادة عن التيمم فى السفر فقال: كان ابن عمر يقول: إلى المرفقين. وكان الحسن وإبراهيم النخعى يقولان: إلى المرفقين.

ثم قال: وقالت طائفة يبلغ به إلى الكوعين وهما الرسغان. روى ذلك عن على بن أبى طالب والأوزاعى وعطاء والشعبى فى رواية. وبه قال أحمد ابن حنبل، والطبرى.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٠٤

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٣٧.

وقال مكحول : اجتمعت أنا والزهرى فتذاكرنا التيمم فقال الزهرى : المسح إلى الآباط.

وقال ابن أبى الجهم : التيمم بضربة واحدة، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وداود والطبرى(١).

٩ - ذكر المفسرون فى سبب مشروعية التيمم روايات منها ما أخرجه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره : حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقدلى. فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه. وليسوا على ماء. وليس معهم ماء. فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء. فجاء أبوبكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى قد نام. فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء. قالت عائشة : فعاتبنى أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول. فجعل يطعننى بيده فى خاصرتى فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذى. فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء. فأنزل الله آية التيمم. فتيمموا. فقال أسيد بن الحضير : ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر.

قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته».

قال الحافظ ابن كثير عند ذكره هنا لسبب مشروعية التيمم، وإنما ذكرنا ذلك ههنا، لأن هذه الآية التى فى النساء متقدمة فى النزول على آية سورة المائدة وبيانه : أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر. والخمر إنما حرم بعد أحد بيسير، فى محاصرة النبى ﷺ لبنى النضير. وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل ولاسيما صدرها. فناسب أن يذكر السبب هنا(٢)..

١٠ - تكلم بعض العلماء عن حكمة مشروعية التيمم عوضا عن الطهارة بالماء فقال : والتيمم من خصائص شريعة الإسلام كما فى حديث جابر أن النبى ﷺ قال : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى - فذكر منها - وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا».

والتيمم بدل جعله الشرع عن الطهارة. ولم أر لأحد من العلماء بيانا فى حكمة جعل التيمم عوضا عن الطهارة بالماء، وكان ذلك من همى زمنا طويلا وقت الطلب. ثم انفتح لى حكمة ذلك.

وأحسب أن حكمة تشريعه تقرير لزوم الطهارة فى نفوس المؤمنين. وتقرير حرمة الصلاة

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٤٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٠٦.

وترفيع شأنها فى نفوسهم. فلم تترك لهم حالة يعدون فيها أنفسهم مصلين بدون طهارة تعظيما لمناجاة الله - تعالى - فلذلك شرع لهم عملا يشبه الإيماء إلى الطهارة ليستشعروا أنفسهم متطهرين، وجعل ذلك بمباشرة اليدين صعيد الأرض التى هى منبع الماء. ولأن التراب مستعمل فى تطهير الآنية ونحوها، ينظفون به ما علق لهم من الأقذار فى ثيابهم وأبدانهم وما عونهم. وما الاستجمار إلا من ضرب ذلك، مع ما فى ذلك من تجديد طلب الماء لفاقده وتذكيره بأنه مطالب به عند زوال مانعه. وإذ قد كان التيمم طهارة رمزية اكتفت الشريعة فيه بالوجه والكفين فى الطهارتين الصغرى والكبرى كما دل عليه حديث عمار بن ياسر فقد ثبت فى الصحيح عن عمار بن ياسر قال: كنت فى سفر فأجنبت فتمعكت فى التراب «أى تمرغت» وصليت. فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «يكفيك الوجه والكفان». ويؤيد هذا المقصد أن المسلمين لما عدموا الماء فى غزوة المريسيع صلوا بدون وضوء فنزلت آية التيمم.

هذا منتهى ما عرض لى من حكمة مشروعية التيمم بعد طول البحث والتأمل فى حكمة مقنعة فى النظر(١).

وبعد، فهذه بعض الأحكام والآداب التى اشتملت عليها تلك الآية، ومنها نرى كيف وجهت المؤمنين إلى ما يقوى إيمانهم، ويصفى نفوسهم، ويبعدهم عن الأسباب التى تحول بينهم وبين إخلاص المناجاة لله رب العالمين، وإلى ما يجعلهم يتحرزون عن كل ما يدنسهم أو يلهيهم عن طاعة الله.

كما ترى كيف استعملت فى خطابها للمؤمنين ألطف الكنايات؛ وأسمى التعبيرات، وأبلغ الإشارات، وفى ذلك ما فيه من تربية سليمة للمؤمنين تجعلهم يسعدون فى دنياهم وآخرتهم.

هذا، وأنت إذا تدبرت السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا، تراها قد نظمت العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامى تنظيما حكيما، وساقت لهم من التوجيهات السامية، والآداب العالية، والتشريعات الجليلة... ما يجعلهم يعيشون فى أمان واطمئنان.

* * *

ثم أخذت السورة بعد ذلك تسوق لنا فى أكثر من عشر آيات، ألوانا من رذائل أهل الكتاب، ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية، ومن حسدهم للنبى ﷺ على ما آتاه الله من فضله، وتوعدتهم بسوء المصير على ما اقترفوه من منكرات وآثام...

وكأن السورة الكريمة بعد أن نظمت المجتمع الإسلامى هذا التنظيم الداخلى السليم،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ص٦٨. طبع الدار التونسية للنشر. تأليف الأستاذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

أخذت فى تحذير المؤمنين من عدوهم الخارجى، وأطلعتهم على ما يضمره لهم أهل الكتاب من كراهية وبغضاء.

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا

مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ
ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - ﴿ألم تر﴾ هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقدير والتذكير لمن علم بما يأتى كالأحبار وأهل التواريخ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه. وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب. بأن شبه حال من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه وأنه ينبغى أن يتعجب منه ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى قصدا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب - والرؤية إما بمعنى الإبصار - أى ألم تنظر إليهم، وإما بمعنى الإدراك القلبى متضمنا معنى الوصول والانتهاء - أى ألم ينته علمك إليهم»[1].

والمراد بـ﴿الذين﴾ أحبار اليهود. والمراد بالذى أوتوه ما بين لهم فى الكتاب من العلوم والأحكام التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى ﷺ ومن حقية دين الإسلام بالاتباع.

والمراد بالكتاب : التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على موسى عليه السلام - ليكون هداية لبنى إسرائيل، فحرفوها وتركوا العمل بها.

والمراد بالسبيل : الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام فأل فيه للعهد.

والمعنى : ألم ينته علمك إلى حال هؤلاء الأحبار من اليهود الذين أعطوا حظا ومقدارا من علم التوراة؟ إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم وتلك هى حقيقتهم، إنهم

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص٤٥ - بتصرف يسير.

يشترون الضلالة وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم الدالة على صحة دين الإسلام، وهم لا يكتفون بتلبسهم بالضلال الذى أشربته نفوسهم، بل يريدون لكم يا معشر المسلمين أن تتركوا دين الإسلام الذى هو السبيل الحق، وأن تتبعوهم فى ضلالهم وكفرهم.

فالمقصود من الآية الكريمة تعجيب المؤمنين من سوء أحوال أولئك الأحبار، وتحذير لهم من موالاتهم أو من الاستماع إلى أكاذيبهم وشبهاتهم.

والخطاب لكل من يصلح له من المؤمنين. وتوجيهه إلى النبى - ﷺ - هنا مع توجيهه بعد ذلك إلى الكل - فى قوله ﴿أن تضلوا﴾ - للإيذان بكمال شهرة شناعة حال أولئك اليهود، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها أو يعلمها.

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، ولم يؤتوا الكتاب كله، لأنهم نسوا حظا كبيرًا مما ذكروا به، ولم يبق عندهم من علم الكتاب إلا القليل، وهذا القليل لم يعملوا به بل حرفوه وبدلوه وأخضعوا تفسيره لأهوائهم وشهواتهم.

وقوله ﴿يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ هو موطن التعجب من شأنهم لأنهم لا يطلبون الضلالة بفتور أو تريث وإنما يطلبونها بشراهة ونهم ويدفعون فيها أغلى الأثمان وهو الهدى، ولا يكتفون بذلك بل يبتغون من المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى الضلال.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى - ﴿ودوا لو تكفوون كما كفروا فتكونون سواء﴾.
وذكر سبحانه - الشىء الذى اشتروه وهو الضلالة، وطوى ذكر المتروك وهو الهدى، للايذان بغاية ظهوره. وللاشعار بأنهم قوم يطلبون الضلالة فى ذاتها. وأن البعد عن الحق والهدى مطلب من مطالبهم يدفعون فيه الثمن عن رغبة، وذلك لأنهم قوم مردوا على الضلالة فغدوا لا يستمرئون سواها، ولا يركنون إلا إليها. وإن قوما هذا شأنهم لجديرون بالابتعاد عنهم، والتحقير من أمرهم. لأنك - كما يقول الفخر الرازى - لا ترى حالة أسوأ ولا أقبح ممن جمع بين هذين الأمرين : أعنى الضلال والإضلال.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿يشترون الضلالة﴾.. الخ استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجب المفهومين من صدر الكلام، مبنى على سؤال نشأ منه كأنه قيل : ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم؟ فقيل يختارون الضلالة على الهدى أو يستبدلونها بعد تمكنهم منه... وذهب أبو البقاء إلى أن جملة ﴿يشترون﴾ حالة مقدرة من ضمير ﴿أوتوا﴾ أو حال من ﴿الذين﴾[1].

وقوله ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ جملة معترضة للتأكيد والتحذير.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٤٥.

أى : والله - تعالى - أعلم بأعدائكم منكم - أيها المؤمنون - وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور فاحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم وأعدوا العدة لتأديبهم دفاعا عن دينكم وعقيدتكم.

وقوله ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ تذييل قصد به غرس الطمأنينة فى نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهم.

أى : ﴿وكفى بالله وليا﴾ يتولى أموركم، ويصلح بالكم، ﴿وكفى بالله نصيرا﴾ يدفع عنكم مكرهم وشرورهم؛ وما دام الأمر كذلك فاكتفوا بولايته ونصرته. واعتصموا بحبله، وأطيعوا أمره، ولا تكونوا فى ضيق من مكر أعدائكم فإن الله ناصركم عليهم بفضله وإحسانه.

وقوله ﴿وكفى﴾ فعل ماض. ولفظ الجلالة فاعل والباء مزيدة فيه لتأكيد الكفاية. ووليا ونصيرا منصوبان على التمييز. وقيل على الحال.

وكرر - سبحانه - الفعل كفى لإلقاء الطمأنينة فى قلوب المؤمنين، لأن التكرار فى مثل هذا المقام يكون أكثر تأثيرا فى القلب، وأشد مبالغة فيما سيق الكلام من أجله.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم : اكتفوا بولاية الله ونصرته، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة. ومن كان الله كافيه نصره على عدوه فاطمئنوا ولا تخافوا.

ثم ذكر - سبحانه - ألوانا من الأقوال والأعمال القبيحة التى كان اليهود يقولونها ويفعلونها للإساءة إلى النبى ﷺ وإلى المسلمين فقال : ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾.

وتحريف الشىء إمالته وتغييره. ومنه قولهم : طاعون يحرف القلوب، أى يميلها ويجعلها على حرف، أى جانب وطرف. وأصله من الحرف يقال : حرف الشىء عن وجهه، صرفه عنه.

والجملة الكريمة بيان للموصول وهو قوله - تعالى - ﴿الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾.

ويجوز أن يكون قوله ﴿من الذين هادوا﴾ خبر لمبتدأ محذوف. وقوله ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ صفة له.

أى من الذين هادوا قوم أو فريق من صفاتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه أى يميلونه عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، ويفسرونه تفسيرا سقيما بعيدا عن الحق والصواب.

قال الفخر الرازى : فى كيفية التحريف وجوه :

أحدها : أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر. مثل تحريفهم اسم «ربعة» عن موضعه فى التوراة بوضعهم «آدم طويل»، وكتحريفهم الرجم بوضعهم الجلد بدله.

الثانى : أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة، والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ من

معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه من الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدعة فى زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم. وهذا هو الأصح.

الثالث: أنهم كانوا يدخلون على النبى ﷺ ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه»[(١)].

والذى نراه أولى أن تحريف هؤلاء اليهود للكلم عن مواضعه يتناول كل ذلك، لأنهم لم يتركوا وسيلة من وسائل التحريف الباطل إلا فعلوها، أملا منهم فى صرف الناس عن الدعوة الإسلامية، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم.

قال الزمخشرى: فإن قلت: كيف قيل ههنا ﴿عن مواضعه﴾ وفى المائدة ﴿من بعد مواضعه﴾؟ قلت: «أما عن مواضعه» فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه.

وأما ﴿من بعد مواضعه﴾ فالمعنى أنه كانت له مواضع قمن بأن يكون فيها. فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقاره. والمعنيان متقاربان»[(٢)].

ثم حكى - سبحانه - لونا ثانيًا من ضلالتهم فقال: ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أى. ويقولون للنبى ﷺ إذا ما أمرهم بشىء: سمعنا قولك وعصينا أمرك فنحن مع فهمنا لما تقول لا نطيعك لأننا متمسكون باليهودية.

ثم حكى - سبحانه - لونا ثالثا من مكرهم فقال: ﴿واسمع غير مسمع﴾ وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وداخلة تحت القول السابق.

أى: ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبتهم للنبى ﷺ وهو كلام ذو وجهين وجه محتمل للشر. بأن يحمل على معنى «اسمع» حال كونك غير مسمع كلاما ترضاه. ووجه محتمل للخير. بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما تكرهه.

فأنت تراهم - لعنهم الله - أنهم كانوا يخاطبون النبى ﷺ بهذا الكلام المحتمل للشر والخير موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير، مع أنهم لا يريدون إلا الشر، بسبب ما طفحت به نفوسهم من حسد للنبى ﷺ وللمسلمين.

ثم حكى - سبحانه - لونا رابعا من خبثهم فقال: ﴿وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين﴾ وهو كلام معطوف على ما قبله وداخل تحت القول السابق.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١١٨ طبعة عبد الرحمن محمد

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٧

وكلمة ﴿راعنا﴾ كلمة ذات وجهين - أيضًا - فهى محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وأمهلنا أو انتظرنا نكلمك. ومحتملة للشر بحملها على شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها. أو على السب بالرعونة أى الحمق.

قال الراغب: قوله: - تعالى - ﴿وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين﴾ كان ذلك قولا يقولونه للنبى ﷺ على سبيل التهكم يقصدون به رميه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون: راعنا أى: أحفظنا. من قولهم: رعن الرجل يرعن رعنا فهو رعن»[١] أى أحمق.

وأصل كلمة ﴿ليا﴾ لويًا لأنه من لويت، فأدغمت الواو فى الياء لسبقها بالسكون. واللى: الانحراف والالتفات والانعطاف.

والمراد أنهم كانوا يلوون ألسنتهم بالكلمة أو بالكلام ليكون اللفظ فى السمع مشبها لفظا آخر هم يريدونه لأنه يدل على معنى ذميم.

أى أنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿راعنا﴾ ويقصدون بهذا القول الإساءة إليه ﷺ وينطقون بهذه الكلمة وما يشابهها نطقًا ملتويا منحرفا ليصرفوها عن جانب احتمالها للخير إلى جانب إحتمالها للشر. ولذا فقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن مخاطبة الرسول ﷺ بمثل هذه الألفاظ.

قال ابن كثير: عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾: نهى الله عباده المؤمنين عن أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم. وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن الله -: فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا: يقولون راعنا، ويورون بالرعونه: وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون. السام عليكم. والسام هو الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم. وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا. والغرض أن الله - تعالى - نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا»[٢].

وقوله ﴿وطعنا فى الدين﴾ أى يقولون ذلك من أجل القدح فى الدين؛ والاستهزاء بتعاليمه، وبنبيه ﷺ.

ثم بين - سبحانه - ما كان بحب عليهم أن يقولوه لو كانوا يعقلون فقال: تعالى - ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرًا لهم وأقوم﴾

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفانى ص ١٩٨

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤٨.

أى : ولو أنهم قالوا عند سماعهم لما يدعوهم إليه الرسول ﷺ من حق وخير، ﴿سمعنا﴾ قولك سماع قبول وإستجابة، وأطعنا أمرك بدل قولهم سمعنا وعصينا.

ولو أنهم قالوا عند مخاطبتهم له ﷺ ﴿واسمع﴾ إجابتنا لدعوة الحق ﴿وانظرنا﴾ حتى نفهم عنك ما تريده منا بدل قولهم ﴿واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم﴾ لو أنهم فعلوا ذلك للكان قولهم هذا خيرًا لهم وأعدل من أقوالهم السابقة الباطلة التى حكاها القرآن عنهم.

ولكنهم لسوء طباعهم لم يفعلوا ذلك فحقت عليهم اللعنة فى الدنيا والآخرة وقد صرح القرآن بذلك فقال : ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾. أى : ولكنهم لم يقولوا ما هو خير لهم وأقوم بل قالوا ما هو شر وباطل، فاستحقوا اللعنة من الله بسبب كفرهم وسوء أفعالهم :

ولفظ ﴿قليلا﴾ فى قوله ﴿فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ منصوب على الاستثناء من قوله ﴿لعنهم﴾ أى : ولكن لعنهم الله إلا فريقا منهم آمنوا فلم يلعنوا : أو منصوب على الوصفية لمصدر محذوف أى : ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا أى ضعيفا ركيكا لا يعبأ به، ولايغنى عنهم من عذاب الله شيئا؛ لأنه إيمان غير صحيح بسبب تفريقهم بين رسل الله فى التصديق والطاعة.

قال - تعالى - ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾.

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى اليهود أمرهم فيه باتباع طريق الحق، وأنذرهم بسوء المصير إذا لم يستمعوا إلى هذا النداء فقال - تعالى - : ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود. منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد فقال لهم : يا معشر يهود : اتقوا الله وأسلموا. فوالله انكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق. فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر. فأنزل الله فيهم : ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم﴾. الآية[1].

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٢٤.

وفى ندائهم بقولهم ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنو﴾ تحريض لهم على الإيمان، لأن اعطاءهم علم الكتاب من شأنه أن يحملهم على المسارعة إلى تلبية دعوة النبى ﷺ وألا تأخذهم العصبية الدينية كما أخذت أهل مكة العصبية الجاهلية، ولأن هذا الإيمان الذى يدعون إليه هو التصديق بما أنزله الله على نبيه ﷺ من قرآن، إذ هو يطابق - فى جوهره - ما أنزله - سبحانه - على الأنبياء السابقين الذين يزعم أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم. إذًا فوحدة المنزل توجب عليهم أن يؤمنوا بجميع ما أنزله الله.

ووصفهم هنا بأنهم أوتوا الكتاب، مع أنه وصفهم قبل ذلك بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، لأن وصفهم هنا بذلك المقصود منه حضهم غلى الإيمان وترغيبهم فيه؛ واثارة هممهم للانقياد لتعاليم كتابهم الذى بشرهم بمبعث النبى ﷺ وأمرهم بالإيمان به. أما وصفهم فيما سبق بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب فالمقصود منه التعجيب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم.

والمعنى : يا معشر اليهود الذين آتاهم الله التوراة لتكون هداية لهم، آمنوا ايمانا حقا ﴿بما نزلنا﴾ من قرآن على محمد ﷺ فإن هذا القرآن قد نزل ﴿مصدقا لما معكم﴾ وموافقا للتوراة التى بين أيديكم فى الدعوة إلى وحداتية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق، وفى النهى عن الفواحش والمعاصى، ومؤيدا لها فيما ذكرته من صفات تتعلق بمحمد ﷺ ومن آيات تدعو إلى تصديقه والإيمان به.

وعبر عن القرآن بقوله : ﴿بما نزلنا﴾؛ لأن فى هذا التعبير تذكير بعظم شأن القرآن وأنه منزل بأمر الله وحفظه.

وعبر عن التوراة بقوله ﴿لما معكم﴾ لأن فى هذا التعبير تسجيلا عليهم بأن التوراة كتاب مستصحب عندهم وقريب من أيديهم، وشهادته بصدق النبى ﷺ ظاهرة جلية، فإذا ما تركوا شهادته مع وضوحها ومع استصحابهم له كان مثلهم ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارًا﴾.

ثم أنذرهم - سبحانه - بعد ذلك بسوء العاقبة إذا ما أعرضوا عن الإيمان بدعوة الإسلام فقال - تعالى - ﴿من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾.

والطمس إزالة الأثر بالمحو. قال الله - تعالى - ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أى : زالت ومحيت. ويقال : طمست الريح الأثر إذا محته وأزالته. وللمفسرين فى المراد من معنى الطمس هنا اتجاهان :

أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه حمل اللفظ على حقيقته بمعنى إزالة ما فى الوجه من أعضاء ومحو أثرها.

فيكون المعنى : ﴿يأيها الذين أوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها﴾ أى نمحو تخطيط صورها من عين وأنف وفم وحاجب ﴿فنردها على أدبارها﴾ أى فنجعلها على هيئة أدبارها وهى الأقفاء بحيث تكون الوجوه مطموسة مثل الأقفاء. وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس وقتادة وغيرهما.

قال الإمام الرازى : وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة؛ لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة. . . . »(١).

ومن المفسرين الذين رجحوا حمل اللفظ على حقيقته الإمام ابن جرير لقد قال : «وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب » قول من قال : معنى قوله ﴿من قبل أن نطمس وجوها﴾ من قبل أن نطمس أبصارها، ونمحو آثارها، فنسويها كالأقفاء. فنردها على أدبارها، فنجعل أبصارها فى أدبارها، يعنى بذلك : فنجعل الوجوه فى أدبار الوجوه. فيكون معناه : فنحول الوجوه أقفاء، والأقفاء وجوها، فيمشوا القهقرى، كما قال ابن عباس ومن قال بذلك»(٢).

وأصحاب هذا الاتجاه منهم من يرى أن هذه العقوبة تكون فى آخر الزمان ومنهم من يرى هذه العقوبة تكون فى الآخرة. ومنهم من قال بأن هذه العقوبة مقيدة بعدم إيمان أحد منهم، وقد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وغيره

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه حمل اللفظ على مجازه، بمعنى أن المراد بالطمس الطمس المعنوى.

فيكون المعنى : آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن تقسو قلوبكم، ونطبع عليها بسبب تمسكها بالضلال، وتماديها فى العناد.

قال ابن كثير مؤيدا هذا الاتجاه : هذا مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم، إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلال يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم. وهذا كما قال بعضهم فى قوله -تعالى- ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا﴾ أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى.

قال مجاهد : من قبل أن نطمس وجوها أى عن صراط الحق : فنردها على أدبارها أى فى الضلال. وقال السدى : معناه : فنعميها عن الحق ونرجعها كفارا. . . »(٣).

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٢١ طبعة عبد الرحمن محمد.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٢٣ طبعة الحلبى.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٠٨.

وقال الفخرى الرازى - بعد أن بين معنى الآية على القول الأول - : أما القول الثانى : فهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه ثم ذكروا فيه وجوها.

الأول : قال الحسن : نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها أى على ضلالتها والمقصود بيان إلقائها فى أنواع الخذلان وظلمات الضلالات.

الثانى : يحتمل أن يكون المراد بالطمس القلب والتغيير. وبالوجوه : رؤساؤهم ووجهاؤهم.

والمعنى : من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلب منهم الإقبال والوجاهه ونكسوهم الصغار والإدبار والمذلة.

الثالث : قال عبد الرحمن بن زيد : هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى. وتأول ذلك فى إجلاء قريظة والنضير إلى الشام، فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام. . فيكون المراد بطمس الوجوه على هذا الرأى : إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها».

وقد مال الفخرى الرازى إلى القول الثانى ووصفه بأنه لا إشكال معه البتة. . . »[1].

وقال بعض العلماء : إن الذى يبدو لنا من ظاهر النص وهو قوله - تعالى - ﴿من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها﴾ : أنه يراد به سحقهم فى القتال، وحملهم على أن يولوا الأدبار، فتكون وجوههم غير بادية بصورها، بعد أن كانوا مقبلين بها، فأزالها السيف والخوف، وجعل صورتها مختفية، وأقفيتهم هى البادية الواضحة، فكأن صورة الوجوه قد زالت وحلت محلها صورة الأدبار.

وعلى ذلك يكون المعنى : إنكم استرسلتم فى غيكم وضلالكم. ومع ذلك نطالبكم بالهداية والإيمان قبل أن ينزل بكم غضب الله - تعالى - فى الدنيا وذلك بتسليط المؤمنين بالحق عليكم، فيذيقونكم بأس القتال فتفرون، وتختفى وجوهكم. . . »[2].

هذه بعض الوجوه التى قالها من يرى أن المراد بالطمس الطمس المعنوى وأن اللفظ محمول على المجاز، ولعل هذا الاتجاه أقرب إلى الصواب لسلامته من الاعتراضات والإشكالات التى أوردها بعض المفسرين - كالرازى والآلوسى - عند تفسيرهما للآية الكريمة.

وقوله ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ بيان لعقوبة أخرى سوى العقوبة السابقة.

واللعن : هو الطرد من رحمة الله - تعالى -.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٢١. بتصرف يسير-.
(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام السنة الخامسة عشرة. العدد الأول.

فالآية الكريمة دعوة لليهود إلى الإيمان بما جاء به محمد - ﷺ - من قبل أن يطبع الله - تعالى - على قلوبهم ويذهب بنورها فلا تتجه إلى الحق ولا تميل إليه. أو من قبل أن يلعنهم ويطردهم من رحمته ويجعلهم عبرة للمعتبرين.

وأصحاب السبت هم قوم من اليهود حرم الله عليهم الصيد فى يوم السبت، فتحايلوا على استحلال ما حرمه الله بحيل قبيحة، فأنزل الله عليهم عذابه، ومسخهم قردة...

وقد ذكر الله قصتهم بشىء من التفصيل فى سورة الأعراف[1].

وكلمة «أو» فى الآية الكريمة لمنع الخلو. فجوز أن يعاقب الله طائفة منهم بعقوبة من هاتين العقوبتين، ويعاقب طائفة أخرى منهم بالعقوبة الثانية إن هم استمروا فى ضلالهم وطغيانهم.

والضمير المنصوب فى قوله «نلعنهم» يعود لأصحاب الوجوه. أو للذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات.

وقوله ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ أى كان ومازال جميع ما أمر الله به وقضاه نافذا لا محالة؛ لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء:

والجملة الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا فى صفوف المؤمنين.

وقوله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. استئناف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد، ولتأكيد وجوب امتثال الأمر بالإيمان، لأنه لا مغفرة إذا انتفى الإيمان.

والمراد بالشرك هنا: مطلق الكفر؛ فيدخل فيه كفر اليهود دخولا أوليا.

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة. فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة.

وقوله ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ استئناف مشعر بتعليل عدم غفران الشرك، وزيادة فى تشنيع حال المشرك.

أى. ومن يشرك بالله فى عبادته غيره من خلقه، فقد ارتكب من الآثام ما لا تتعلق به المغفرة، لأنه بهذا الإشراك قد افترى الكذب العظيم على الله، واقترف الإفك المبين، وفعل أعظم ذنب فى الوجود:

---

(١) راجع كتابنا «بنوا إسرائيل فى القرآن والسنة» جـ٢ من ص٥٢ - ٦٠.

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ روى أن النبي ﷺ تلا ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ فقال له رجل : يا رسول الله والشرك ! ! فنزل : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ . الآية . وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة .

وقوله ﴿ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ من المتشابه الذى قد تكلم العلماء فيه .

فقال ابن جرير الطبرى : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فهو فى مشيئة الله إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله - تعالى - »[1] .

وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ثلاثة عشر حديثا تتعلق بها .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده عن جابر أن النبى ﷺ قال : لا تزال المغفرة على العبد مالم يقع فى الحجاب » قيل يا نبى الله وما الحجاب ؟ قال : الإشراك بالله . ثم قرأ : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ . الآية .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى ﷺ لانشك فى قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وشاهد الزور ، وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وفى رواية لابن أبى حاتم : فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله - تعالى - »[2] .

وقال الآلوسى : ثم إن هذه الآية كما يرد بها على المعتزلة - الذين يسوون بين الإشراك بالله وبين ارتكاب الكبيرة بدون توبة - يرد بها أيضا - على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه مخلد فى النار. وذكر الجلال أن فيها ردا أيضا على المرجئه القائلين : إن أصحاب الكبائر من المسلمين لا يعذبون .

وأخرج ابن الضريس وابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ قوله - تعالى - ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ وقال : « إنى ادخرت دعوتى وشفاعتى لأهل الكبائر من أمتى فأمسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا ثم نطقنا ورجونا » . وقد استبشر الصحابة بهذه الآية حتى قال على بن أبى طالب : أحب آية إلى فى القرآن ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[3] .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من قبائح اليهود فقال : ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٤٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥١٠ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ٥ ص٥٣ .

بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثمًا مبينًا﴾.

روى المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين أن رجالا من اليهود أتوا النبى ﷺ بأطفالهم فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء ذنب؟ فقال: لا. فقالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم. ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار»(١).

ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم قالوا ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾.

وحكى عنهم أنهم كانوا ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾.

وحكى عنهم وعن النصارى أنهم قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ألم تر﴾ للتعجب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم حيث بالغوا فى مدح أنفسهم مع أنهم كاذبون فى ذلك.

وقوله ﴿يزكون أنفسهم﴾ من التزكية بمعنى التطهير والتنزيه عن القبيح. والمراد بهذا التعبير هنا: أنهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، ويمدحوتها مدحا كثيرا، مع أنهم لا يستحقون إلا الذم بسبب سوء أقوالهم وأفعالهم.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء اليهود الذين يمدحون أنفسهم ويثنون عليها مختالين متفاخرين مع ما هم عليه من الكفر وسوء الأخلاق؟ إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فها نحن نكشف لك عن خباياهم لتتعجب من سوء أعمالهم وليتعجب منهم كل عاقل.

وقوله ﴿بل الله يزكى من يشاء﴾ إبطال لمعتقدهم بإثبات ضده، وهو أن التزكية شهادة من الله ولا ينفع أحدا أن يزكى نفسه، وإعلام منه - سبحانه - بأن تزكيته هى التى يعتد بها لا تزكية غيره، فإنه هو العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حسن وقبح، وخير وشر.

وقوله ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾ بيان لكمال عدله - سبحانه - وأنه لا يظلم أحدا من خلقه لا قليلا ولا كثيرا.

والفتيل: هو الخيط الذى يكون فى شق النواة. وكثيرا ما يضرب به المثل فى القلة والحقارة.

أى أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم بغير حق يعاقبون على هذا الكذب بما يستحقون من عقاب عادل لا ظلم معه؛ لأنه - سبحانه - لا يظلم أحدا من عباده شيئا بل يجازى كل إنسان بما هو أهل له من خير أو شر.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٠.

ثم أكد - سبحانه - التعجيب من أحوالهم فقال : ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب . . .﴾ .

أى : انظر أيها العاقل كيف يفترى هؤلاء اليهود على الله الكذب فى تزكيتهم لأنفسهم مع كفرهم وعنادهم وارتكابهم الأفعال القبيحة التى تجعلهم أهلا لكل مذمة وسوء عاقبة.

وقد جعل - سبحانه - افتراءهم الكذب لشدة تحقق وقوعه، كأنه أمر مرئى يراه الناس بأعينهم، ويشاهدونه بأبصارهم.

وقوله ﴿وكفى به إثما مبينا﴾ أى : وكفى بافترائهم الكذب على الله إثما ظاهرا بينا يستحقون بسببه أشد العقوبات، وأغلظ الإهانات.

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ يقتضى الغض من المزكى لنفسه بلسانه، والإعلان بأن الزاكى المزكى من حسنت أفعاله، وزكاه الله - تعالى -، فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له.

وأما تزكية الغير ومدحه له ففى البخارى من حديث أبى بكرة أن رجلا ذكر عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل خيرا فقال النبى ﷺ : «ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مرارًا - إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك، وحسبه الله ولا يزكى على الله أحدًا». فنهى ﷺ أن يفرط فى مدح الرجل بما ليس فيه.. فيحمله ذلك على تضييع العمل وترك الازدياد من الفضل؛ ولذلك قال ﷺ : «ويحك قطعت عنق صاحبك».

ومدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود ليكون منه ترغيبا له فى أمثاله، وتحريضا للناس على الاقتداء به فى أشباهه ليس مدحا مذمومًا.

وقد مدح النبى ﷺ فى الشعر والخطب والمخاطبة. ومدح ﷺ أصحابه فقال : «إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع»[1].

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من رذائلهم وقبائحهم التى تدعو إلى مزيد من التعجيب من أحوالهم. والتحقير من شأنهم فقال - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾.

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن ابن عباس أن حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف خرجا إلى مكة فى جمع من اليهود ليحالفوا قريشا على حرب

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٤٦.

النبى ﷺ. فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه. ونزلت اليهود فى دور قريش. فقال أهل مكة لليهود: إنكم أهل كتاب ومحمد ﷺ صاحب كتاب فلا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم. فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا. ثم قال كعب: يا أهل مكة ليجيء منا ثلاثون ومنكم ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت على قتال محمد ﷺ ففعلوا ذلك. فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ قال كعب: اعرضوا على دينكم.

فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكرماء، ونسقيهم اللبن، ونقرى الضيف، ونفك العانى، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد ﷺ فارق دين أبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودين محمد الحديث.

فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ﷺ فأنزل الله الآية[1].

والجبت فى الأصل: اسم صنم ثم استعمل فى كل معبود سوى الله - تعالى -.

والطاغوت: يطلق على كل باطل وعلى كل ما عبد من دون الله، أو كل من دعا إلى ضلالة.

أى: يصدقون بأنها آلهة ويشركونها فى العبادة مع الله - تعالى -. أو يطيعونها فى الباطل.

قال ابن جرير: والصواب من القول فى تأويل ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ أن يقال: يصدقون بمعبودين من دون الله، ويتخذونها إلهين، وذلك أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كائنا ما كان ذلك المعظم من حجر أو إنسان أو شيطان»[2].

وقوله ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ بيان لما نطقوا به من زور وبهتان. أى: ويقولون ارضاء للذين كفروا وهم مشركو مكة. هؤلاء فى شركهم وعبادتهم للجبت والطاغوت، ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ أى أقوم طريقا، وأحسن دينا من أتباع محمد ﷺ.

واللام فى قوله ﴿للذين كفروا﴾ لام العلة. أى: يقولون لأجل الذين كفروا..

والإشارة بقوله ﴿هؤلاء أهدى﴾ إلى الذين كفروا.

وإيراد النبى ﷺ وأصحابه بعنوان الإيمان، ليس من قبل القائلين، بل من جهة الله تعالى، تعريفا لهم بالوصف الجميل، وتحقيرا لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح الصفات.

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٥ ص ٥٥.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٣.

ثم بين - سبحانه - مصيرهم السيء بسبب انحرافهم عن الحق فقال - تعالى - ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾.

أى: أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأيدوا المشركين بالقول والعمل وسجدوا لأصنامهم، وزكوا أفعالهم... أولئك الذين هذه صفاتهم ﴿لعنهم الله﴾ أى: أبعدهم عن رحمته وطردهم وأخزاهم بسبب كذبهم فى حقدهم وإيثارهم عبادة الشيطان على طاعة الرحمن.

﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ أى ومن يلعنه الله ويبعده عن رحمته فلن تجد له ناصرا ينصره، أو شفيعا يشفع له.

واسم الإشارة ﴿أولئك﴾ مبتدأ. والموصول وصلته خبر. والجملة مستأنفة لبيان حالهم. وإظهار سوء مآلهم.

والإتيان باسم الإشارة هنا فى نهاية البلاغة، لأن من بلغ وصف حاله هذا المبلغ صار جديرًا بأن يشار إليه بكل ازدراء واحتقار.

وفى قوله ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا﴾ بيان لحرمانهم ثمرة استنصارهم بمشركى قريش، وإيماء إلى وعد المؤمنين بأنهم المنصورون، لأنهم هم المقربون عند الله، ومن يقربه الله فلن تجد له خاذلا.

هذا، وتحالف أولئك اليهود مع المشركين، وتفضيلهم إياهم على المؤمنين - كما حكته الآية الكريمة - قد شهد بقبحه واحد من اليهود هو الدكتور إسرائيل ولفنسون. فقد قال فى كتابه «تاريخ اليهود فى جزيرة العرب» معلقا على هذه القصة:

وكان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا لمدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الأباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية... كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز عليهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأوثان، إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من عبدة الأصنام، والوقوف منهم موقف الخصومة[1].

ثم انتقل - سبحانه - من توبيخهم على تزكيتهم لأنفسهم بالباطل وعلى تفضيلهم عبادة

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب لإسرائيل ولفنسون.

الأوثان على عبادة الرحمن. إلى توبيخهم على البخل والأثرة فقال - تعالى - : ﴿أم لهم نصيب من الملك، فإذا لا يؤتون الناس نقيرا﴾.

و ﴿أم﴾ هنا منقطعة بمعنى بل فهى للاضراب والانتقال، والهمزة للاستفهام الإنكارى أى: لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك، وإبطال زعمهم من أن الملك يعود إليهم فى آخر الزمان. والفاء فى قوله ﴿فإذا﴾ للسببية الجزائية لشرط محذوف.

والنقير: النكتة التى تكون فى ظهر النواة ويضرب به المثل فى القلة والحقارة.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود ليس لهم نصيب من الملك ألبتة. لأنهم لا يستحقونه، ولأنهم لو أوتوا نصيبا منه على سبيل الفرض فإنهم لشدة حرصهم وبخلهم وأثرتهم لا يعطون أحدا غيرهم منه أقل القليل. وقد كنى عن أقل القليل هذا بالنقير.

فأنت ترى أن الآية الكريمة ترد على ما يزعمه اليهود من أن الملك لهم، وأنهم لا يليق بهم أن يتبعوا غيرهم، وتصفهم بأنهم أبخل الناس وأبعدهم عن العدل والقسط ومن كانت هذه صفاته، فقد اقتضت حكمة الله أن يحرمه نعمة الملك والسلطان.

ثم انتقل - سبحانه - من تبكيتهم على البخل وغيره مما سبق إلى تقريعهم على رذيلة الحسد التى استولت عليهم فأضلتهم وجعلتهم يتألمون لما يصيب الناس من خير ويتمنون زواله فقال - تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾.

و ﴿أم﴾ هنا منقطعة أيضا كسابقتها، والاستفهام المقدر بعدها لإنكار الواقع وهو حسدهم لغيرهم.

والمراد من الناس: النبى ﷺ أو هو والمؤمنون معه. وقيل المقصود من الناس: العرب عامة.

قال الفخر الرازى: والمراد من الناس - عند الأكثرين - أنه محمد ﷺ. وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقا فى الجمع العظيم أو المراد بهم: الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين؛ لأن لفظ الناس جمع فحمله على الجمع أولى من حمله على المفرد. وحسن لفظ إطلاق الناس عليهم لأنهم القائمون بالعبودية الحق لله - تعالى - فكأنهم كل الناس...»(١).

والمراد بالفضل فى قوله ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ النبوة والهدى والإيمان.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود ليسوا بخلاء فقط بل إن فيهم من الصفات ما هو أقبح من البخل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ١٣٢.

وهو الحسد، فقد حسدوا النبى ﷺ لأن الله منحه النبوة وهو رجل عربى ليس منهم، وحسدوا أتباعه لأنهم آمنوا به وصدقوه والتفوا من حوله يؤازرونه ويفتدونه بأرواحهم وأموالهم.

وقوله ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ توبيخ لهم على حسدهم، وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم.

والمعنى : إنكم بحسدكم للنبى ﷺ على ما آتاه الله من فضله، تكونون قد ضللتم وسرتم فى طريق الشيطان، لأنكم لو كنتم عقلاء لما فعلتم ذلك، إذ أنتم تعلمون علم اليقين أن الله - تعالى - قد أعطى ﴿آل إبراهيم﴾ أى : قرابته القريبة من ذريته كإسماعيل - وهو جد العرب - وإسحاق ويعقوب وغيرهم. . أعطاهم ﴿الكتاب﴾ أى : جنس الكتب السماوية فيشمل ذلك التوراة والإنجيل والزبور وغيرها. وأعطاهم ﴿الحكمة﴾ أى العلم النافع مع العمل به. وأعطاهم ﴿ملكا عظيما﴾ أى سلطانا واسعا وبسطة فى الأرض.

ومع ذلك فأنتم لم تحسدوا هؤلاء على ما أعطاهم الله من كتاب وحكمة وملك عظيم، فلماذا تحسدون محمدا ﷺ على ما آتاه الله من فضله مع أنه من نسل إبراهيم - عليه السلام - ؟.

فالجملة الكريمة توبيخ لهم على أنانيتهم وحسدهم، وإلزام لهم بما يعرفونه من واقع كتبهم، وكشف للناس عن أن أحقادهم مرجعها إلى انطماس بصيرتهم، وخبث نفوسهم.

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من المحسن والمسىء فقال : ﴿فمنهم من آمن به، ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنم سعيرًا﴾.

أى : فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن وصدق بما أعطاه الله لآل إبراهيم من كتاب وحكمه، ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنه. فالضمير فى ﴿به﴾ و ﴿عنه﴾ يعود إلى ما أوتى آل إبراهيم.

ويرى بعضهم أن الضمير يعود إلى إبراهيم - عليه السلام. فيكون المعنى :

فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ومنهم من أعرض عنه ولم يتبع تعاليمه.

وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى ﷺ عما لقيه من اليهود من أذى.

فكأنه - سبحانه - يقول له : إن هؤلاء الحاسدين لك قد اختلفوا على من هم منهم، وأنت يا محمد لست منهم، فكيف تنتظر منهم أن يسالموك أو يتبعوك؟

وقوله ﴿وكفى بجهنم سعيرا﴾ بيان لما أعده - سبحانه - للكافرين من عذاب.

أى : وكفى بجهنم نارا مسعرة أى : موقدة إيقادا شديدًا يعذبون بها على كفرهم وعنادهم وصدودهم عن الحق. يقال : سعر النار - كمنع - وسعرها وأسعرها أى : أوقدها.

وكفى فعل ماض. وقوله ﴿بجهنم﴾ فاعله على زيادة الباء فيه. وقوله ﴿سعيرا﴾ تمييز أو حال.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة من قوله - تعالى - ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿وكفى بجهنم سعيرا﴾ قد وبخت اليهود على بيعهم دينهم بدنياهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه واستهزائهم بدعوة الحق، وتزكيتهم لأنفسهم بالباطل، وافترائهم على الله الكذب، وتفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الله، وعلى بخلهم وحسدهم للنبى ﷺ على ما آتاه الله من فضله.

وقد توعدتهم على هذه الصفات الذميمة، والمسالك الخبيثة بأشد أنواع العذاب، وحذرت المؤمنين من شرورهم ومفاسدهم.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة كل كافر، وحسن عاقبة كل مؤمن، فقال:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

والمراد بالذين كفروا هنا: كل كافر سواء أكان من بنى إسرائيل أم من غيرهم.

وقوله: ﴿نصليهم﴾ من الإصلاء وهو إيقاد النار. والمراد هنا إدخالهم فيها وقوله: ﴿نضجت﴾ من النضج وهو بلوغ نهاية الشىء. يقال: نضج الثمر واللحم ينضج نضجًا إذا أدرك وبلغ نهايته. والمراد هنا: احتراق الجلود احتراقا تاما.

والمعنى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ الدالة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة والخضوع ﴿سوف نصليهم نارا﴾ أى: سوف ندخلهم نارا هائلة عظيمة وسوف هنا - كما قال سيبويه - للتهديد وتأكيد العذاب المقبل ولو مع التراخى وتراخى العذاب مع تأكيده يجعل النفس فى فزع دائم، وخوف مستمر حتى يقع.

وقوله ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها﴾ بيان لشدة العذاب ودوامه أى: كلما

احترقت جلودهم وتلاشت أعطيناهم بدل الجلود المحترقة جلودا غير محترقة مغايرة للمحترفة.

فالتبديل على هذا تبديل حقيقى مادى. بمعنى أن يخلق الله - تعالى - مكان الجلود المحترقة جلودا أخرى جديدة مغايرة للمحترقة.

ويرى بعضهم أن الجملة الكريمة كناية عن دوام العذاب لهم. وقد ذكر هذا الرأى الفخر الرازى فقال: ويمكن أن يقال: هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع. كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام: كلما انتهى فقد ابتدأ. وكلما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله. فكذا قوله ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾.

يعنى: كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة. فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه)[1].

والذى نراه أن حمل التبديل على حقيقته أولى، لأنه ليس لنا أن نعدل فى كلام الله عن الحقيقة إلى المجاز، إلا عند الضرورة. وهنا لا ضرورة لذلك، لأن تبديل الجلود داخل تحت قدرة الله - تعالى - ولأن هذا المعنى الذى ذكره الإمام الرازى يتأتى مع حمل اللفظ على حقيقته إذ كلمة «كل» تدل على دوام العذاب وعدم انقطاعه، ولأن كثيرا من السلف قد فسروا الآية على الوجه الأول، فقد روى عن ابن عمر أنه قال: تلا رجل عند عمر هذه الآية قال: فقال عمر: أعدها على. فأعادها. فقال معاذ بن جبل: عندى تفسيرها: تبدل جلودهم فى كل ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ.

وقوله ﴿ليذوقوا العذاب﴾ جملة تعليلية لقوله ﴿بدلناهم﴾ أى بدلناهم جلودا غيرها ليقاسوا شدة العذاب، وليحسوا به فى كل مرة كما يحس الذائق للشىء الذى يذوقه.

وقوله ﴿إن الله كان عزيزا حكيما﴾ تذييل قصد به تأكيد التهديد والوعيد الذى اشتملت عليه الآية الكريمة.

أى: أن الله - تعالى كان وما زال عزيزا لا يغلبه غالب، ولا يمنع عقابه مانع (حكيما) فى تدبيره وتقديره وتعذيب من يعذبه وإثابة من يثيبه.

وقوله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بيان لحسن الثواب الذى وعد الله به عباده المؤمنين فى مقابلة بيان العقاب الذى أعده للكافرين.

وتلك عادة القرآن فى تربية النفوس. إنه يسوق عاقبة الكافرين ثم يتبعها بحسن عاقبة المؤمنين أو العكس، ليحمل العقلاء على الابتعاد عن طريق الكفر والعصيان، وليغريهم بالسير

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ١٣٥

فى طريق الطاعة والإيمان.

أى : والذين آمنوا إيمانا حقًا، وعملوا فى دنياهم الأعمال الطيبات الصالحات ﴿سندخلهم﴾ يوم القيامة ﴿جنات تجرى﴾ من تحت شجرها وقصورها ﴿الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ أى : أكرمناهم إكراما عظيما بأن جعلناهم مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أى لهم فيها نساء بريئات ومنزهات من جميع الأدناس الحسية والمعنوية.

وقوله : ﴿وندخلهم ظلا ظليلا﴾ أى : ظلا وارفا جميلا لا يصيب صاحبه حر ولا سموم.

والظل : أثر لما يحجب الشمس وحرارتها. والظليل : صفة مشتقة من الظل للتأكيد على حد قولهم : ليل أليل أى ظلا بلغ الغاية فى جنسه.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : ﴿ظليلا﴾ صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه. كما يقال : ليل أليل. ويوم أيوم وما أشبه ذلك. وهو ما كان فيئا - أى طويلا ممتدا - لا حوب فيه - أى لا خرق ولا قطع فيه - ودائما لا تنسخه الشمس. وسجسجا - أى متوسطا - لا حر فيه ولا برد. وليس ذلك إلا ظل الجنة. رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظل(١).

* * *

وبعد هذا الحديث الجامع عن أحوال أهل الكتاب من اليهود، وجه القرآن جملة من الأوامر الحكيمة إلى المؤمنين، فقال - تعالى - :

﴿إِنَّ
اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٢٣.

قال ابن كثير - عند تفسيره للآية الأولى - : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة. وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم. وسبب نزولها فيه: حين أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة منه يوم الفتح ثم رده عليه.

ثم قال: قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر عن عبيد الله بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى أتى إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ مفتاح الكعبه منه ففتحت له فدخلها.

ثم قام على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لاشريك له. صدق وعده. ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين: إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

ثم قال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له. فقال: هاك مفتاحك يا عثمان!! اليوم يوم بر ووفاء(١).

هذا ونزول الآية الكريمة فى هذا السبب الخاص لا يمنع عمومها إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والأمانات: جمع أمانة وهى مصدر سمى به المفعول. فهى بمعنى ما يؤتمن الإنسان عليه.

والمعنى: إن الله تعالى - يأمركم - أيها المؤمنون - أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من الحقوق سواء أكانت هذه الحقوق لله - تعالى - أم للعباد. وسواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية.

وقد أسند - سبحانه - الأمر إليه مع تأكيده، اهتماما بالمأمور به، وحضا للناس على أداء ما يؤتمنون عليه من علم ومال، وودائع، وأسرار، وغير ذلك مما يقع فى دائرة الائتمان، وتنبغى المحافظة عليه.

ومعنى أدائها إلى أهلها: توصيلها إلى أصحابها كما هى من غير بخس أو تطفيف أو تحريف أو غير ذلك مما يتنافى مع أدائها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى -.

ومن الآيات القرآنية التى نوهت بشأن الأمانة وأمرت بأدائها وحفظها قوله - تعالى - : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥١٥ - بتصرف وتلخيص. (٢) سورة الأحزاب الآية ٧٢

وقوله - تعالى - ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك فى جنات مكرمون﴾(١).

وأما الأحاديث فمنها ما رواه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وروى الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك).

وقوله: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها إثر الأمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذممهم.

وقوله ﴿حكمتم﴾ من الحكم ومعناه الفصل بين المتنازعين، وإظهار الحق لصاحبه.

وقوله ﴿بالعدل﴾ أى بالحق الذى أوجبه الله عليكم. وأصل العدل: التسوية. يقال: عدل كذا بكذا أى سواه به.

قال الجمل وقوله: ﴿وإذا حكمتم﴾ إذا معمول لمقدر على مذهب البصريين من أن ما بعد أن المصدرية لا يعمل فيما قبلها والتقدير: وأن تحكموا بالعدل إذا حكمتم بين الناس. أو معمول للمذكور على مذهب الكوفيين من إجازة عمل ما بعد أن فيما قبلها(٢).

والمعنى: وكما أمركم الله -تعالى- أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أهلها، فإنه يأمركم -أيضا- إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائما على الحق والعدل، فإن الله -تعالى- ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

قال بعض العلماء: يرى بعضهم: أن الخطاب فى هذا النص موجه إلى الذين يحكمون، وهم الحكام من ولاة وقضاة وغيرهم ممن يلون الحاكم. ولا مانع عندنا من أن يكون الخطاب موجها إإلى الأمة كلها، لأن الأمة العزيزة التى تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك أو طاغ قاهر، هى محكومة ومحكمة. فهى التى تختار حاكمها وهى فى هذا محكمة، مطلوب منها العدل، فلا تختار لهوى أو لعطاء أو لمصلحة شخصية أيا كان نوعها. وهى محكمة فى حاكمها فلا تقول فيه إلا حقا، ولا تطالبه إلا بما هو حق لا جور فيه، ولا تشتط فى نقده، ولا تسكن عن نصيحته، فإن النبى ﷺ يقول: الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)(٣).

---

(١) سورة المعارج الآيات من ٣٢ - ٣٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٩٤.

(٣) تفسير الآية الكريمة للاستاذ الشيخ محمد أبو زهره. مجلة لواء الإسلام السنة ١٥ العدد الرابع.

وحديث القرآن عن وجوب إقامة العدل ودفع الظلم حديث مستفيض. قال تعالى - : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[١].

وقال - تعالى - ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾[٢].

وقال - تعالى - ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾[٣].

وقال - تعالى - ﴿ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[٤].

وأما حديث السنة النبوية عن ذلك فهو أيضا مستفيض. ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن. وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

وقوله ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، متضمنة لمزيد اللطف بالمخاطبين، وحسن استدعائهم إلى الامتثال لما أمروا به

وقوله ﴿نعمَّا﴾ أصله ﴿نعم ما﴾ فركبت نعم مع ما بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة ثم أدغمت الميمان وحركت العين الساكنة بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين.

و ﴿ما﴾ إما منصوبة موصوفة بقوله ﴿يعظكم﴾ فكأنه قيل: نعم شيئا يعظكم به.

وإما مرفوعة موصولة فكأنه قيل: نعم الشىء الذى يعظكم به.

والمخصوص بالمدح محذوف وهو أداء الأمانة إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل.

والوعظ: التذكير بالخير، والتحذير من الشر، بأسلوب يرق له القلب.

والمعنى: إن الله - تعالى - قد أمركم - يامعشر المؤمنين - بأداء الأمانة، وبالحكم بالعدل، ولنعماهما شيئا جليلا يذكركم به، ويدعوكم إليه.

وقوله - تعالى - ﴿إن الله كان سميعا بَصِيرًا﴾ وعد للطائعين ووعيد للعاصين.

أى: إن الله - تعالى - كان سميعا لأقوالكم فى الأحكام وفى غيرها. ﴿بصيرا﴾ بكل أحوالكم وتصرفاتكم. وسيجازيكم بما تفعلونه من خير أو شر.

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠.
(٢) سورة ص الآية ٢٦
(٣) سورة الأنعام الآية ١٥٢
(٤) سورة المائدة الآية ٨

وبعد أن أمر - سبحانه بأداء الأمانة وبالحكم بالعدل عقب ذلك بأمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وولاة أمورهم فقال - تعالى - : ﴿يـٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾.

وطاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان. قال - تعالى - : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

ومعنى طاعتهما: التزام أوامرهما، واجتناب نواهيهما.

والمراد بأولى الأمر - على الراجح - الحكام. وطاعتهم إنما تكون فى غير معصية الله، فإذا أمروا بما يتنافى مع تعاليم الدين فلا سمع لهم على الأمة ولا طاعة.

وإنما أمرنا الله - تعالى - بطاعتهم فى غير معصية، لأنهم هم المنفذون لتعاليم الشريعة، وهم الذين بيدهم مقاليد الأمة التى يقومون على رعاية مصالحها، ولأن عدم طاعتهم يؤدى إلى اضطراب أحوال الأمة وفسادها.

قال صاحب الكشاف: والمراد (بأولى الأمر منكم): أمراء الحق، لأن - أمراء الجور - الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله بوجوب الطاعة لهم. وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما. والنهى عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعونى ما عدلت فيكم. فان خالفت فلا طاعة لى عليكم، وعن أبى حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا فى قوله ﴿وأولى الأمر منكم﴾ فقال له: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول﴾.

وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر[1].

وأعاد - سبحانه - الفعل ﴿أطيعوا﴾ مع الرسول فقال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ولم يعده مع أولى الأمر، للإشارة إلى استقلال الرسول ﷺ بالطاعة حتى ولو كان ما يأمر به ليس منصوصا عليه فى القرآن، لأنه لا ينطق عن الهوى، وللإيذان بأن طاعة الرسول ﷺ أعلى من طاعة أولى الأمر.

وقوله ﴿منكم﴾ فى محل نصب على الحال من أولى الأمر. أى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر حالة كونهم كائنين منكم أى من دينكم وملتكم.

وفى ذلك إشارة إلى أنه لا طاعة لمن يتحكمون فى شئون المسلمين ممن ليسوا على ملتهم.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٢٤

وقوله : ﴿فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا ما حدث بينهم اختلاف فى أمر من الأمور الدينية. والمراد بالتنازع هنا : الاختلاف والجدال مأخوذ من النزع بمعنى الجذب. فكأن كل واحد من المختلفين يجذب من غيره الحجة لدليله..

ومنه قول النبى ﷺ «مالى أنازع القرآن» أى ينازعنى غيرى ويجاذبنى فى القراءة. وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه(١).

والمعنى : فان تنازعتم واختلفتم أيها المؤمنون أنتم وأولو الأمر منكم فى أمر من أمور الدين ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أى فردوا ذلك الحكم أو الأمر الذى اختلفتم فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ بأن تسألوه عنه فى حياته، وترجعوا إلى سنته بعد مماته.

قال القرطبى : قوله ﴿فان تنازعتم فى شيء﴾ أى تجادلتم واختلفتم فى شيء من أمور دينكم ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال فى حياته، أو بالنظر فى سنته بعد وفاته. وهذا قول مجاهد والأعمش وقتادة. وهو الصحيح.

ومن لم ير هذا اختل إيمانه، لقوله - تعالى ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.

وفى قوله ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ دليل على أن سنته ﷺ يعمل بها ويمتثل ما فيها.

قال ﷺ «مانهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم. فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم». أخرجه مسلم.

وروى أبو داود عن أبى رافع عن النبى ﷺ قال : «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه».

وعن العرباض بن سارية أنه حضر رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول : «أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر»(٢).

وقوله ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ شرط جوابه محذوف عند جمهور البصريين اكتفاء بدلالة المذكور عليه.

أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان فارجعوا فيما تنازعتم فيه من أمور دينية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١) هامش تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٦١

(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٦٢ - بتصرف وتلخيص

والجملة الكريمة تحريض للمؤمنين على الامتثال لتعاليم الإسلام وآدابه، لأن الإيمان الحق يقتضى ذلك.

واسم الاشارة فى قوله: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ يعود إلى الرد إلى الكتاب والسنة وقوله ﴿تأويلا﴾ من آل هذا الأمر إلى كذا أى رجع إليه، فيكون المعنى: ذلك الذى أمرتكم به من رد ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحمد مغبة، وأجمل عاقبة.

ويجوز أن يكون قوله ﴿تأويلا﴾ بمعنى التفسير والتوضيح فيكون المعنى:

ذلك أى الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحسن تأويلا وتفسيرًا من تأويلكم أنتم إياه، من غير رد إلى أصل من الكتاب والسنة. والأول أنسب لسياق الآية الكريمة.

قال ابن كثير: قوله ﴿فإن تنازعتم فى شيء فردوه﴾. الآية هذا أمر من الله - تعالى - بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه، أن يردوا التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال - تعالى - : ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾. فما حكم به القرآن والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق. وماذا بعد الحق إلا الضلال. ولهذا قال - تعالى - : ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾. أى: ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر(١).

وقال بعض العلماء: قد يؤخذ من الآية التى معنا أن أدلة الأحكام الشرعية أربعة. وهى: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.. لأن الأحكام إما منصوصة فى الكتاب أو السنة وذلك قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾. وإما مجمع عليها من أولى الأمر بعد استنادهم إلى دليل علموه. وذلك قوله ﴿وأولى الأمر منكم﴾ وإما غير منصوصة ولا مجمع عليها. وهذه سبيلها الاجتهاد والرد إلى الله والرسول وذلك هو القياس.

فما اثبته الفقهاء والأصوليون غير هذه الأربعة كالاستحسان الذى يراه الأحناف دليلا. وإثبات الأحكام الشرعية تمشيا مع المصالح المرسلة الذى يقول به المالكية، والاستصحاب الذى يقول به الشافعية، كل ذلك إن كان غير هذه الأربعة فمردود بظاهر هذه الآية، وإن كان راجعا إليها فقد ثبت أن الأدلة أربعة(٢).

* * *

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥١٨.
(٢) تفسير آيات الأحكام جـ٣ ص ١١٩. للشيخ محمد السايس.

ثم انتقل القرآن بعد ذلك إلى الحديث عن المنافقين فكشف عن أحوالهم الذميمة، وطباعهم القبيحة، ونفوسهم المريضة، وحذر المؤمنين من مكرهم وكذبهم، بعد أن حذرهم قبل ذلك من مكر اليهود وأمرهم بالاعتصام بطاعة الله ورسوله. استمع إلى القرآن الكريم وهو يكشف النقاب عن حال هؤلاء المنافقين فيقول:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا
فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾.. إلخ روايات متقاربة فى معناها ومن ذلك ما أخرجه الثعلبى وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس أن رجلا من المنافقين يقال له بشر خاصم يهوديا، فدعاه اليهودى إلى التحاكم إلى النبى ﷺ ودعاه المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف: ثم إنهما احتكما إلى النبى ﷺ فقضى لليهودى، فلم يرض المنافق. وقال: تعالى نتحاكم إلى عمر بن الخطاب.

فقال اليهودى لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد - أى مات -. ثم قال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله - تعالى - وقضاء رسوله ﷺ فنزلت»[(١)].

والاستفهام فى قوله ﴿ألم تر﴾ للتعجيب من حال أولئك المنافقين، وإنكار ماهم عليه من خلق ذميم وإعراض عن حكم الله ورسوله إلى حكم غيرهما.

وقوله ﴿يزعمون﴾ من الزعم ويستعمل غالبا فى القول الذى لا تحقق معه، كما يستعمل - أيضا - فى الكذب ومنه قوله - تعالى -: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا: هذا لله بزعمهم﴾ أى بكذبهم.

وقد يطلق الزعم على القول الحق.

قال الآلوسى: وقد أكثر سيبويه فى «الكتاب» من قوله: زعم الخليل كذا - فى أشياء يرتضيها.

والمراد بالزعم هنا الكذب لأن الآية الكريمة فى المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء المنافقين الذين يزعمون كذبا وزورا أنهم

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٦٧.

آمنوا بما أنزل إليك من ربك من قرآن كريم، ومن شريعة عادلة، ويزعمون كذلك أنهم آمنوا بما أنزل على الرسل من قبلك من كتب سماوية؟ إن كنت لم تعلم حالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم لتحذرهم ولتحذر أمتك من شرورهم.

فالمقصود من الاستفهام التعجيب من حال هؤلاء المنافقين، وحض النبى ﷺ وأمته على معرفة مسالكهم الخبيثة، حتى يأخذوا حذرهم منهم.

. وفى وصفهم بادعاء الإيمان بما أنزل على الرسول وبما أنزل على الرسل من قبله تأكيد للتعجيب من أحوالهم، وتشديد للتوبيخ والتقبيح من سلوكهم؛ ببيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتما للتحاكم إلى الرسول ﷺ وبين ما صدر عنهم من هرولة إلى التحاكم إلى غيره.

وقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ بيان لموطن التعجيب من أحوالهم الغريبة، وصفاتهم السيئة.

والمراد بالطاغوت هنا: ماسوى شريعة الإسلام من أحكام باطلة بعيدة عن الحق يأخذها المنافقون عمن يعظمونهم وقيل المراد به: كعب بن الأشرف؛ لأنه هو الذى أراد المنافقون التحاكم إليه، وقد سماه الله بذلك لكثرة طغيانه وعداوته للرسول ﷺ.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك - يا محمد - وبما أنزل من قبلك، ومع هذا فهم بريدون - عن محبة واقتناع - التحاكم إلى الطاغوت أى إلى من يعظمونه، ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله.

وقوله ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾ جملة حالية من ضمير يريدون.

أى: يريدون التحاكم إلى الطاغوت والحال أن الله - تعالى - قد أمرهم بالكفر به، وبالانقياد للأحكام التى يحكم بها النبى ﷺ.

وقوله ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ معطوف على قوله ﴿يريدون﴾ وداخل فى حكم التعجيب، لأن اتباعهم لمن يريد إضلالهم،وإعراضهم عمن يريد هدايتهم أمر يدعو إلى العجب الشديد.

والمراد بالضلال البعيد: الكفر والبعد عن الحق والهدى.

ووصفه بالبعد للمبالغة فى شناعة ضلالهم، بتنزيله على سبيل المجاز منزلة جنس ذى مسافة كان هذا الفرد منه بالغا غاية المسافة.

قال ابن كثير: هذه الآية إنكار من الله - تعالى - على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء السابقين. وهو مع ذلك، يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير

كتاب الله، وسنة رسوله.

كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما. فجعل اليهودى يقول: بينى وبينك محمد. وذاك يقول: بينى وبينك كعب ابن الأشرف. وقيل: فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهليه. وقيل غير ذلك. والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل. وهو المراد بالطاغوت هنا[1].

ثم صور - سبحانه - إعراضهم عن الحق، ونفورهم عن شريعة الله - تعالى - فقال: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا﴾.

أى: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين أقبلوا على حكم الله وحكم رسوله، فإن الخير كل الخير فيما شرعه الله وقضاه، إذا ما قيل لهم ذلك ﴿رأيت المنافقين﴾ الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، رأيتهم لسوء نواياهم، ولؤم طواياهم ﴿يصدون عنك صدودا﴾ أى يعرضون عنك - يا محمد - إعراضا شديدا.

وقوله ﴿تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ إغراء لهم بتقبل الحق، وحض لهم على الامتثال لشريعة الله؛ لأنها هى الشريعة التى فيها سعادتهم، ولكنهم لمرض قلوبهم ينفرون من الحكم المنزل من السماء إلى حكم الطاغوت الباطل.

وقال - سبحانه - ﴿رأيت المنافقين﴾ ولم يقل رأيتهم بالإضمار؛ لتسجيل النفاق عليهم، وذمهم به، وللإشعار بعلة الحكم أى: رأيتهم لنفاقهم يصدون عنك صدودا.

وقوله ﴿صدودا﴾ مصدر مؤكد بفعله أى: يعرضون عنك إعراضا تاما بحيث لا يريدون أن يسمعوا منك شيئًا، لأن حكمك لا يناسب أهواءهم.

فذكر المصدر هنا للتأكيد والمبالغة فكأنه قيل: صدودا أى صدود.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت علامة جلية من علامات المنافقين حتى يأخذ المؤمنون حذرهم منهم، وهى أنهم إذا ما دعوا إلى حكم الله الذى يزعمون أنهم آمنوا به، أعرضوا عن هذا الحكم إعراضا شديدا، وظهر بذلك كذبهم ونفاقهم.

ثم يعرض القرآن بعد ذلك مظهرا آخر من مظاهر نفاقهم عند الشدائد والمحن فيقول: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، ثم جاءوك يحلفون بالله، إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا﴾.

والفاء فى قوله ﴿فكيف﴾ للتفريع. و «كيف» فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥١٩.

والمعنى : فكيف يكون حالهم إذا نزلت بهم النوازل، وأصابتهم المصائب بسبب تركهم حكم الله، واتباعهم حكم الطغيان ﴿ثم جاءوك﴾ معتذرين عما حدث منهم من قبائح، والحال أنهم ﴿يحلفون بالله﴾ كذبا وزورا ﴿إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ أى ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك - يا محمد - إلا إحسانا إلى المتخاصمين، وتوفيقا بينهم حتى لا يتسع الخلاف بينهم، ولم نرد بذلك عدم الرضا بحكمك، فلا تؤاخذنا بما فعلنا.

والاستفهام بكيف هنا للتهويل. أى أن حالهم عندما تصيبهم المصائب بسبب أفعالهم الخبيثة، ويأتون للرسول ﷺ معتذرين، ستكون حالا بائسة شنيعة مخزية : لأنهم لا يجدون وجها مقبولا للدفاع عما ارتكبوه من قبائح.

والباء فى ﴿بما قدمت أيديهم﴾ للسببية. والمراد بما قدمت أيديهم ما اجترحوه من سيئات من أشدها تحاكمهم إلى الطاغوت. وعبر عن ذلك بقوله : ﴿بما قدمت أيديهم﴾ : لأن الأيدى مظهر من مظاهر الإنسان.

والتعبير بـ«ثم» فى هذا المقام للإشعار بالتباين الشديد بين إعراضهم وصدودهم إذا ما قال لهم قائل : تعالوا إلى حكم الله. . . وبين إقبالهم بعد ذلك معتذرين ومقسمين بالأيمان الكاذبة أنهم ما أرادوا بما فعلوا إلا الإحسان والتوفيق.

وإن ما قاله هؤلاء المنافقون من أعذار بعد أن أصابتهم المصائب. وانكشف أمرهم بين المؤمنين، وصاروا محل الازدراء والنبذ لتحاكمهم إلى الطاغوت. ما قاله هؤلاء - كما حكاه القرآن الكريم - ليشبهه ما يقوله منافقو اليوم عندما يتهربون من التحاكم إلى شريعة الله إلى التحاكم إلى غيرها من شرائع الناس. فأنت تراهم إذا ما أحيط بهم، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم، اعتذروا بأنهم ما تركوا الحكم بشريعة الله إلى غيرها إلا بقصد الإحسان إلى المتنازعين، والتوفيق بين مختلف الطوائف فى المجتمع حتى لا يغضب من ليسوا مسلمين. ولا شك أن هذه الأعذار لن تغنى عنهم من عذاب الله شيئا، لأنه لا عذر لمن يهجر شريعة الله، ويهرع إلى التحاكم إلى غيرها.

ثم بين - سبحانه - أنه ليس غافلا عن أعمال أولئك المنافقين، وأرشد نبيه ﷺ إلى وسائل معالجتهم فقال - تعالى - : ﴿أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم، فأعرض عنهم، وعظهم، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغًا﴾.

أى : أولئك الذين نافقوا، وأخفوا حقيقة نواياهم السيئة، وتركوا حكم الله إلى حكم الطاغوت. . . ﴿أولئك يعلم الله ما فى قلوبهم﴾ من النفاق والميل إلى الكفر، وإن أظهروا إسلامهم.

وقوله ﴿فأعرض عنهم﴾.. الخ بيان لطرق معالجتهم.

أى: فلا تلتفت إليهم، وغض الطرف عن مسالكهم الخبيثة، ولا تقبل عليهم، لكى يشعروا باستنكارك لأعمالهم.

وقوله ﴿وعظهم﴾: الوعظ هو التذكير بفعل الخير وترك الشر بأسلوب يرقق القلوب، ويشتمل على الترغيب والترهيب.

أى: ذكرهم بما فى أعمالهم القبيحة من سوء العاقبة لهم، وبما فى تركها من خير جزيل يعود عليهم فى دنياهم وآخرتهم، وأخبرهم بأن تحاكمهم إلى غير شريعة الله سيكون فيه هلاكهم.

وقوله ﴿وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا﴾ أى قل لهم بعد ذلك قولا يبلغ أعماق نفوسهم لقوته وشدة تأثيره. بأن تورد لهم ما تريد أن تخاطبهم به بطريقة تجعلهم يقبلون على قولك.

وفى هذه الجملة الكريمة ما فيها من التعبير البليغ المؤثر، حتى لكأنما القول الذى يقوله الرسول ﷺ لهم: يودع مباشرة فى الأنفس، ويستقر رأسا فى القلوب.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿فى أنفسهم﴾ قلت: بقوله ﴿بليغا﴾ أى: قل لهم قولا بليغا فى أنفسهم مؤثرا فى قلوبهم يغتمون به اغتماما، ويستشعرون منه الخوف استشعارا، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، واطلع قرنه، وأخبرهم ان ما فى نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله، وانه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكانة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره. فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف.

أو يتعلق بقوله ﴿قل لهم﴾. أى: قل لهم فى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا. وإن الله يعلم ما فى قلوبكم. لا يخفى عليه. فلا يغنى عنكم إبطانه.

فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق. وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه، وشرا من ذلك وأغلظ، أو قل لهم فى أنفسهم خاليا بهم، ليس معهم غيرهم. قولا بليغًا يبلغ منهم، ويؤثر فيهم[1].

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد أرشدت النبى ﷺ إلى استعمال ثلاثة طرق لصرف المنافقين عن أفعالهم القبيحة. وهذه الطرق هى الإعراض عنهم، ووعظهم بما يرغبهم فى الخير ويرهبهم من الشر، ومخاطبتهم بالقول البليغ المؤثر الذى يحرك نفوسهم تحريكا قويا، ويجعلهم يقبلون عليه.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٧.

وهذه الطرق هى أسمى ألوان الدعوة إلى الله، وأنجع الأساليب فى جلب الناس إلى ما يأخذ بيدهم إلى الخير والفلاح.

ثم بين - سبحانه - أنه ما أرسل رسله إلا ليطاعوا لا ليخالفوا، وأرشد المخالفين إلى ما يجب عليهم فعله للتكفير عن مخالفتهم فقال تعالى:

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله. ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله توابًا رحيما﴾.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من رسول﴾ زائدة للتأكيد والتعميم، واللام فى قوله ﴿ليطاع﴾ للتعليل، والاستثناء مفرغ من المفعول لأجله.

أى: وما أرسلنا رسولا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع فيما أمر ونهى وحكم، لا ليطلب ذلك من غيره. فطاعته فرض على من أرسل إليهم. وإنكار فرضيتها كفر.

لأن طاعة الرسول طاعة لله، ومعصيته معصية لله. قال - تعالى -: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

وقوله ﴿بإذن الله﴾ أى: بسبب إذنه - سبحانه - فى طاعة رسوله. لأنه هو الذى أمر بهذه الطاعة لرسله.

ويجوز أن يراد بقوله ﴿بإذن الله﴾ أى بتوفيقه - سبحانه - إلى هذه الطاعة من يشاء توفيقه إليها من عباده.

وقوله ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾.. الخ بيان لما كان يجب عليهم ان يفعلوه بعد وقوعهم فى الخطأ.

أى ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت، وبخروجهم عن تعاليم الإسلام، لو انهم بسبب ذلك وغيره ﴿جاءوك﴾ تائبين توبة صادقة من هذا النفاق؛ ﴿فاستغفروا الله﴾ مما اجترحوه من ذنوب وسيئات ﴿واستغفر لهم الرسول﴾.

أى. دعوا الله - تعالى - بأن يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم. لو انهم فعلوا ذلك ﴿لوجدوا الله توابا﴾ أى كثير القبول للتوبة من التائبين ﴿رحيما﴾ أى كثير التفضل على عباده بالرحمة والمغفرة.

قال الفخر الرازى: لقائل ان يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، كانت توبتهم مقبولة؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله.

وكان أيضا إساءة إلى الرسول ﷺ ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره. فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

الثانى: أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول، ظهر منهم ذلك التمرد. فاذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول ﷺ ويطلبوا منه الاستغفار.

الثالث: لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فاذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول.

ثم قال: وإنما قال - سبحانه - ﴿واستغفر لهم الرسول﴾. ولم يقل واستغفرت لهم: إجلالا للرسول ﷺ. وأنهم إذا جاءوا من خصه الله برسالته، وأكرمه بوحيه، وجعله سفيرا بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة فى العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة[1].

فالآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام العصاة والمذنبين، وسمت بمكانة الرسول ﷺ عند ربه سموا عظيما.

ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: وقوله: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾. الآية. يرشد - تعالى - العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم؛ ولهذا قال: ﴿لوجدوا الله توابا رحيما﴾.

وقد جاء عن الإمام العتبى أنه قال: كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال: السلام عليك يا رسول الله!! سمعت الله يقول: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾. الآية: وقد جئتك مستغفرا لذنبى، مستشفعا بك عند ربى. ثم أنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبى: ثم انصرف الأعرابى، فرأيت النبى ﷺ فى النوم فقال «يا عتبى الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له»[2].

ثم بين - سبحانه - أن كل من يدعى الإيمان لا يكون إيمانه صادقا إلا إذا تقبل حكم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥١٩.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص ١٦٢.

رسول الله ﷺ عن إذعان واقتناع فقال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.

والفاء فى قوله ﴿فلا﴾ للإفصاح عن شرط مقدر.

و ﴿لا﴾ يرى الزمخشرى أنها زائدة لتقوية الكلام وتأكيد معنى القسم، فهى كقوله - تعالى -: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون﴾(١).

ويرى ابن جرير أنها ليست زائدة، وإنما هى رد على ما تقدم ذكره من تحاكمهم إلى الطاغوت وتركهم حكم شريعة الإسلام فقد قال:

«يعنى - جل ثناؤه - بقوله فلا: أى فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد. ثم استأنف القسم - جل ذكره - فقال: وربك يا محمد لا يؤمنون أى: لا يصدقون بى وبك حتى يحكموك فيما شجر بينهم»(٢).

وقوله ﴿فيما شجر بينهم﴾ أى فيما اختلف بينهم من الأمور والتبس.

يقال: شجر بينهم الأمر يشجر شجرا وشجورا إذا تنازعوا فيه. وأصله التداخل والاختلاط. ومنه شجر الكلام، إذا دخل بعضه فى بعض واختلط. ومنه الشجر: لتداخل أغصانه.

وقيل للمنازعة تشاجر، لأن المتنازعين تختلف أقوالهم، وتتعارض دعاويهم، ويختلط بعضهم ببعض.

وقوله ﴿حرجا﴾ أى ضيقا وشكا، وأصل الحرج مجتمع الشىء، ويقال للشجر الملتف الذى لا يكاد يوصل إليه حرج. ثم أطلق على ضيق الصدر لكراهته لشىء معين.

والمعنى: إذا ثبت ما أخبرناك به يا محمد قبل ذلك، فإن هؤلاء المنافقين وحق ربك «لا يؤمنون» إيمانا حقا يقبله الله - تعالى - ﴿حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ أى: حتى يجعلوك حاكما بينهم، ويلجأوا إليك فيما اختلفوا فيه من أمور، والتبس عليهم منها. ﴿ثم لا يجدوا فى أنفسهم﴾ بعد ذلك ﴿حرجا مما قضيت﴾ أى ضيقا وشكا فى قضائك بينهم ﴿ويسلموا تسليما﴾ أى: ويخضعوا لحكمك خضوعا تاما لا إباء معه ولا ارتياب.

وفى إضافة الاسم الجليل إلى النبى ﷺ فى قوله - سبحانه - ﴿وربك﴾ تكريم للنبى ﷺ وتشريف له، وتنويه بمكانته.

---

(١) سورة الحجر آية ٩٢، ٩٣.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٥٨.

وقوله ﴿لا يؤمنون﴾ هو جواب القسم.

وقوله ﴿ثم لا يجدوا﴾ معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام. أى: حتى يحكموك فيما شجر بينهم فتحكم بينهم ثم لا يجدوا.

وقوله ﴿تسليما﴾ تأكيد للفعل. بمنزلة تكريره. أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة فقد روى الحافظ أبو نعيم والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

هذا، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما رواه البخارى عن الزهرى عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار فى شراج الحرة - أى فى مسيل مياه -.

فقال النبى ﷺ: اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصارى: يا رسول الله!! أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه النبى ﷺ ثم قال: اسق يا زبير. ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر - والجدر هو ما يدار بالنخل من تراب كالجدار -. ثم أرسل الماء إلى جارك.

قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾[1].

وهذا السبب الخاص فى نزول الآية الكريمة لا يمنع عمومها فى وجوب التحاكم إلى رسول الله ﷺ فى حياته، وإلى الشريعة التى أتى بها بعد وفاته، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء.

ويبدو أن ما ذكرناه سابقا من تحاكم بعض المنافقين إلى غير رسول الله ﷺ وما جاء فى البخارى من تخاصم الزبير مع الرجل الأنصارى يبدو أن هذه الحوادث قد حدثت فى زمن متقارب فنزلت الآيات لبيان وجوب التحاكم إلى شريعه الله دون سواها.

والمتأمل فى الآية الكريمة يراها قد بينت أن المؤمن لا يكون إيمانه تاما إلا إذا توفرت فيه صفات ثلاث:

أولها: أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ فى حياته، وإلى شريعته بعد وفاته.

وثانيها: أن يتقبل حكم الشريعة الإسلامية التى جاء بها النبى ﷺ برضا وطيب خاطر، وأن يوقن إيقانا تاما بأن ما يقضى به هو الحق والعدل. قال - تعالى -: ﴿ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت﴾

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٢٠.

وثالثها: أن يذعن لأحكام شريعة الله إذعانا تاما فى مظهره وحسه. قال - تعالى - ﴿ويسلموا تسليما﴾. أى يخضعوا خضوعا تاما.

فقوله - تعالى - ﴿ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت﴾ يمثل الانقياد الباطنى والنفسى.

وقوله - تعالى - ﴿ويسلموا تسليما﴾ يمثل الانقياد الظاهرى والحسى.

وهكذا نرى الآية الكريمة تحذر المؤمنين من التحاكم إلى غير شريعة الله بأسلوب يبعث فى النفوس الوجل والخشية، ويحملهم على الإذعان لأحكام الله - تعالى -.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الناس، ورحمته بهم. فقال - تعالى -: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم، ما فعلوه إلا قليل منهم، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، لكان خيرا لهم وأشد تثبيتًا﴾.

والمراد بقوله ﴿كتبنا﴾: فرضنا وأوجبنا.

والمراد (بقتل النفس) تعريضها للهلاك من غير أمل فى النجاة، وقيل: المراد به تعريضها للقتل عن طريق الجهاد.

والمراد بالخروج من الديار: الهجرة فى سبيل الله، والخروج من الأوطان إلى أماكن فيها إستجابة لأمر الله.

قال الفخر الرازى: الضمير فى قوله ﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ فيه قولان:

الأول: وهو قول ابن عباس ومجاهد - أنه عائد إلى المنافقين، وذلك لأنه - تعالى - كتب على بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، وكتب على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم. فقال - تعالى -: ولو أنا كتبنا القتل والخروج عن الوطن على هؤلاء المنافقين ما فعله إلا قليل منهم رياء وسمعة، وحينئذ يصعب الأمر عليهم، وينكشف كفرهم، فإذا لم نفعل ذلك بل كلفناهم بالأشياء السهلة، فليتركوا النفاق، وليقبلوا الإيمان على سبيل الإخلاص. وهذا القول اختيار أبى بكر الأصم والقفال.

الثانى: أن المراد لو كتب الله على الناس ماذكر لم يفعله إلا قليل منهم، فلما لم يفعل - سبحانه - ذلك رحمة بعباده، بل اكتفى بتكليفهم بالأمور السهلة، فعليهم أن يقبلوا عليها بإخلاص حتى ينالوا خير الدارين.

وعلى هذا التقدير دخل تحت هذا الكلام المؤمن والمنافق. وأما الضمير فى قوله ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ فهو مختص بالمنافقين، ولا يبعد أن يكون أول الآية عاما وآخرها خاصا.

وعلى هذا التقدير يجب أن يكون المراد بالقليل المؤمنين»[1].

وعلى كلا التقديرين : فإن الآية الكريمة تدل على أن الله - تعالى - لم يكلف هذه الأمة إلا بما تستطيعه، لأنه - سبحانه - لو كلف الناس جميعا بالتكاليف الشاقة، لما استطاع أن يقوم بها إلا عدد قليل منهم، وهذا الدين لم يجئ لهذا العدد القليل من الناس وإنما جاء للناس جميعا.

والمراد : أننا لم نكتب على الناس قتل أنفسهم أو خروجهم من ديارهم لأننا لو فعلنا ذلك لما استطاعه إلا عدد قليل منهم. وإنما الذى كتبناه عليهم هو طاعة الرسول ﷺ والخضوع لحكمه فى الظاهر والباطن والاستجابه لتوجيهاته فى السر والعلن.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله على هذه الأمة، ورحمته بها، وتحريض الناس على الامتثال لشريعة الله - تعالى -

والضمير فى قوله ﴿ما فعلوه﴾ للمكتوب عليهم الشامل للقتل والخروج من الديار. لدلالة قوله ﴿كتبنا﴾ عليه.

وقوله «قليل» مرفوع على أنه بدل من الواو فى قوله ﴿فعلوه﴾ والتقدير : ما فعله أحد إلا قليل منهم. وقرأه ابن عامر بالنصب على الاستثناء. والأول أولى، لأنه استثناء من كلام تام غير موجب فيترجح الرفع.

قال ابن كثير: لما نزلت ﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾.. الآية.. قال رجل : لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذى عافانا. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «إن من أمتى رجالا، الإيمان أثبت فى قلوبهم من الرواسى»

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ : «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم» - أى : لو فرض ذلك لكان عبد الله بن مسعود من الذين يفعلونه.

وعن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال : «لو أن الله كتب ذلك، لكان هذا من أولئك القليل»[2].

وقوله : ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا﴾ بيان للنتائج الطيبة التى تترتب على امتثالهم لأمر الله.

أى : ولو ثبت أن هؤلاء الذين أمرناهم بطاعتنا ﴿فعلوا ما يوعظون به﴾ أى : ما أمرناهم به من اتباع لرسولنا ﷺ وانقياد لحكمه، لأنه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى...

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص ١٦٧ - بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٢٢.

لو ثبت أنهم فعلوا ذلك لكان ما فعلوه ﴿خيرا لهم﴾ فى دنياهم وآخرتهم. ولكان ﴿أشد تثبيتا﴾ لهم على الحق والصواب، وأمنع لهم من الضلال.

ثم بين - سبحانه - ما لهم بعد ذلك من أجر عظيم فقال: ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما. ولهديناهم صراطًا مستقيمًا﴾.

أى: وإذا لو ثبتوا على طاعتنا لأعطيناهم من عندنا ثوابا عظيما لا يعرف مقداره إلا الله - تعالى - ولتقبلناهم وأرشدناهم إلى سلوك الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام الذى باتباعه يسعدون فى دنياهم وآخرتهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله «وإذا» جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وماذا يكون لهم أيضا بعد التثبيت؟ فقيل: وإذا لو ثبتوا ﴿لآتيناهم﴾ لأن إذا جواب وجزاء[1].

وقد فخم - سبحانه - هذا العطاء بعدة أمور منها: أنه ذكر - سبحانه - نفسه بصيغة العظمة ﴿لآتيناهم من لدنا﴾ ﴿ولهديناهم﴾ والمعطى الكريم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة عند الوعد بالعطية، دل ذلك على عظمة تلك العطية.

ومنها: أن قوله ﴿من لدنا﴾ يدل على التخصيص أى: لآتيناهم من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا. وهذا التخصيص يدل على المبالغة والتشريف، لأنه عطاء من واهب النعم وممن له الخلق والأمر كما فى قوله - تعالى - ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾.

ومنها: أنه - سبحانه - وصف هذا الأجر المعطى بالعظمة بعد أن جاء به منكرا، وهذا الأسلوب يدل على أن هذا العطاء غير محدود بحدود، وأنه قد بلغ أقصى ما يتصوره العقل من جلال فى كمه وفى كيفه. ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

هذا، وبذلك ترى أن الآيات الكريمة - من قوله - تعالى - ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾. إلى هنا - قد بينت ما عليه المنافقون من فسوق وعصيان، وحكت معاذيرهم الكاذبة، وصورت نفورهم من حكم الله تصويرا بليغا، وكشفت عن أحوالهم ورذائلهم بأسلوب يدعو العقلاء إلى احتقارهم وهجرهم، وأرشدت إلى أنجع الوسائل لعلاجهم؛ وفتحت لهم باب التوبة حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويطهروا نفوسهم من السوء والفحشاء، ووضحت جانبا من مظاهر اليسر والتخفيف التى تفضل بها -سبحانه- على الأمة الإسلامية، ووعدت الذين يستجيبون لله ولرسوله بالثواب الجزيل، وتوعدت الذين يتركون حكم الله إلى حكم غيره بالعذاب الأليم، ووصفتهم بعدم الإيمان.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٣٠

وقد أفاض بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآيات فى بيان سوء حال من يتحاكم إلى غير شريعة الله، وساقوا أمثلة متعددة لشدة تمسك السلف الصالح بهدى رسول الله ﷺ.

ومن ذلك قول الفخر الرازى: قال القاضى: يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر. وعدم الرضا بحكم محمد ﷺ كفر ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه - تعالى - قال ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾. فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيمانا به. ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله. كما ان الكفر بالطاغوت إيمان بالله.

الثانى: قوله تعالى - : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.. إلى قوله: ﴿ويسلموا تسليما﴾. وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول ﷺ.

الثالث: قوله - تعالى - ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة.

وفى هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر رسول الله ﷺ فهو خارج عن الإسلام. سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد. وذلك يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعى الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم[1].

وقال الشيخ جمال الدين القاسمى: قال ولى الله التبريزى. روى الإمام مسلم - بسنده - عن بلال بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول ﷺ: لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم: فقال بلال: والله لنمنعهن. فقال عبد الله: أقول: قال رسول الله ﷺ. وتقول أنت: لنمنعهن؟

وفى رواية سالم عن أبيه قال: فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا ما سمعته سبه مثله قط. وقال: أخبرك عن رسول الله، وتقول: والله لنمنعهن».

وفى رواية للإمام أحمد أنه ما كلمه حتى مات.

فأنت ترى أن ابن عمر - رضى الله عنه - لشدة تمسكه بسنة رسول الله ﷺ قد غضب لله ورسوله، وهجر فلذة كبده، لتلك الزلة.

وقال الإمام الشافعى: أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابى قال: حدثنى ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن النبى ﷺ قال عام الفتح: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين. إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود». قال أبوحنيفة: فقلت لابن

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص ١٥٥

أبى ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ؟ فضرب صدرى وصاح على صياحا كثيرا ونال منى وقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول أتأخذ به؟ نعم. آخذ به. وذلك الفرض على وعلى من سمعه. إن الله - تعالى - قد اختار محمدا ﷺ من الناس فهداهم به وعلى يديه. واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه. فعلى الخلق أن يتبعوه لا مخرج لمسلم. وما سكت حتى تمنيت أن يسكت.

وقال الإمام ابن القيم : والذى ندين الله به، ولا يسعنا غيره أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه، أن الفرض علينا وعلى الأمة الأخذ بحديثه وترك كل ما خالفه. ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائنا من كان. لا راويه ولا غيره. إذ من الممكن أن ينسى الراوى الحديث ولا يحضره وقت الفتيا. أولا يتفطن لدلالته على تلك المسألة. أو يتأول فيه تأويلا مرجوحا. أو يقوم فى ظنه ما يعارضه ولا يكون معارضا فى نفس الأمر. أو يقلد غيره فى فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه...

فالله - تعالى - علق سعادة الدارين بمتابعته ﷺ وجعل شقاوة الدارين فى مخالفته[1].

وهكذا نرى أن السلف الصالح كانوا يتمسكون بسنة رسول الله - ﷺ - أشد التمسك، ويهجرون كل من خالفها، ولم يقيد نفسه بها.

***

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثواب العظيم الذى أعده للطائعين من عباده فقال :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾

(١) تفسير القاسمى جـ ٥ من ص ١٣٦١ إلى ص ١٣٨٢ وراجعه ففيه نقول كثيرة جيدة فى هذا المعنى.

روى المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون. فقال له النبى ﷺ: يا فلان مالى أراك محزونا؟ فقال الرجل: يا نبى الله شىء فكرت فيه. فقال ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك. وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد النبى ﷺ شيئا. فأتاه جبريل بهذه الآية. ﴿ومن يطع الله والرسول﴾.. الخ.

قال: فبعث إليه النبى ﷺ فبشره»[1].

والمعنى: ﴿ومن يطع الله﴾ بالانقياد لأمره ونهيه، ويطع ﴿الرسول﴾ فى كل ما جاء به من ربه «فأولئك» المطيعون ﴿مع الذين أنعم الله عليهم﴾ بالنعم التى تقصر العبارات عن تفصيلها وبيانها.

وقوله: ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ بيان للمنعم عليهم الذين سيكون المطيع فى صحبتهم ورفقتهم.

أى: فأولئك المتصفون بتمام الطاعة لله - تعالى - ولرسوله ﷺ، يكونون يوم القيامة فى صحبة الأنبياء الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين؛ فبلغوا رسالته ونالوا منه - سبحانه - أشرف المنازل.

وبدأ - سبحانه - بالنبيين لعلو درجاتهم، وسمو منزلتهم على من عداهم من البشر.

وقوله ﴿والصديقين﴾ جمع صديق وهم الذين صدقوا بكل ما جاء به الرسول ﷺ تصديقا لا يخالجه شك، ولا تحوم حوله ريبة، وصدقوا فى دفاعهم عن عقيدتهم وتمسكهم بها، وسارعوا إلى ما يرضى الله بدون تردد أو تباطؤ.

وقوله ﴿والشهداء﴾ جمع شهيد. وهم الذين استشهدوا فى سبيل الله، ومن أجل إعلاء دينه وشريعته.

وقوله ﴿والصالحين﴾ جمع صالح. وهم الذين صلحت نفوسهم، واستقامت قلوبهم وأدوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ونحو غيرهم.

هؤلاء هم الأخيار الأطهار الذين يكون المطيعون لله ولرسوله فى رفقتهم وصحبتهم.

قال الفخر الرازى: «وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين... كون الكل فى درجة واحدة، لأن هذا يقتضى التسوية فى الدرجة بين الفاضل

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٣

والمفضول. وأنه لا يجوز. بل المراد كونهم فى الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضا : وإذا أرادوا الزيارة والتلاقى قدروا عليه. فهذا هو المراد من هذه المعية.

ثم قال : وقد دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة فى الفضل والعلم إلا هذا الوصف. وهو كون الإنسان صديقا ولذا أينما ذكر فى القرآن الصديق والنبى لم يجعل بينهما واسطة كما قال - تعالى - فى صفة إدريس ﴿إنه كان صديقا نبيا﴾[1].

وقوله - تعالى ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب فى العمل الصالح الذى يوصل المسلم إلى صحبة هؤلاء الكرام.

وقوله ﴿حسن﴾ فعل مراد به المدح ملحق بنعم. ومضمن معنى التعجب من حسنهم.

واسم الإشارة ﴿أولئك﴾ يعود إلى كل صنف من هذه الأصناف الأربعة وهم النبيون ومن بعدهم.

والرفيق : هو المصاحب الذى يلازمك فى عمل أو سفر أو غيرهما. وسمى رفيقا لأنك ترافقه ويرافقك ويستعين كل واحد منكما بصاحبه فى قضاء شئونه. وهو مشتق من الرفق بمعنى لين الجانب، ولطف المعاشرة.

ولم يجمع، لأن صيغة فعيل يستوى فيها الواحد وغيره.

والمعنى وحسن كل واحد من أولئك الأخيار - وهم الأنبياء ومن بعدهم - رفيقا ومصاحبا فى الجنة لأن رفقة كل واحد منهم تشرح الصدور، وتبهج النفوس.

والمخصوص بالمدح محذوف أى : وحسن كل واحد من المذكورين رفيقا أو وحسن المذكورون أو الممدوحون رفيقا، لأن حسن لها حكم نعم.

وقوله ﴿أولئك﴾ فاعل حسن. ورفيقا تمييز.

قال صاحب الكشاف وقوله ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ فيه معنى التعجب كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقا. ولاستقلاله بمعنى التعجب قرىء وحسن بسكون السين)[2].

واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ فى قوله ﴿ذلك الفضل من الله﴾ يعود إلى ما ثبت للمطيعين من أجر جزيل، ومزيد هداية، وحسن رفقة. وهو مبتدأ. وقوله ﴿الفضل﴾ صفته، والجار والمجرور

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ١٧١.

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٣١

متعلق بمحذوف خبره. أى: ذلك الفضل العظيم كائن من الله - تعالى - لامن غيره.

وقوله ﴿وكفى بالله عليمًا﴾ تذييل قصد به الإشارة إلى أن أولئك الأخيار. الذين قدموا أحسن الأعمال، واستحقوا أفضل الجزاء، وإن لم يعلمهم الناس فإن الله - تعالى - يعلمهم، وقد كافأهم بما يستحقون.

أى: كفى به - سبحانه - عليما بمن يستحق فضله وعطاءه وبمن لا يستحق، فهو - سبحانه - الذى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه.

وفى هذه الجملة الكريمة حض للمسلم على التزود من العمل الصالح، لأنه - سبحانه - ما دام يعلم أحوال عباده وسيحاسبهم على أعمالهم، فجدير بالعاقل أن يرغب فى الطاعة وأن ينفر من المعصية.

هذا، وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى أن المؤمنين الصادقين سيكونون يوم القيامة مع أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمى أنه قال. كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى. (سل): فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة. فقال أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعنى على نفسك بكثرة السجود.

ومنها ما رواه الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية فى سبيل الله، كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا».

ومنها ما رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»

قال ابن كثير: وأعظم من هذا كله بشارة، ما ثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة ان رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال «المرء مع من أحب».

قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٢٣.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المطيعين لله ولرسوله ﷺ بأحسن البشارات، وأرفع الدرجات.

* * *

ثم وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالاستعداد للجهاد فى سبيل الله من أجل إعلاء كلمته، بعد أن أمرتهم قبل ذلك بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد ﷺ، وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج فى سبيل الله، وحماية الشرع.

ووجه النظم والاتصال بما قبله أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته. وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم فقال « خذوا حذركم » فعلمهم مباشرة الحروب. ولا ينافى هذا التوكل بل هو عين التوكل..[1].

والحِذْر والحذَر بمعنى واحد كالإثر والأثر. يقال : أخذ فلان حذره، إذا تيقظ واحترز مما يخشاه ويخافه. فكأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه ويعصم بها روحه. فالكلام على سبيل الكناية والتخيل. بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية.

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٧٣.

والمعنى : استعدوا - أيها المؤمنون - لأعدائكم، وكونوا على يقظة منهم، وكونوا متأهبين للقائهم دائما بالإيمان القوى، وبالسلاح الذى يفل سلاحهم.

هذا، وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام حسن فى هذا المعنى، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : « الحذر : الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو، وذلك بأن نعرف حال العدو ومبلغ استعداده وقوته ومعرفة أرضه وبلاده وفى أمثال العرب (قتلت أرض جاهلها). ويدخل فى الحذر والاستعداد معرفة الأسلحة وكيفية استعمالها فكل ذلك وغيره يدخل تحت الأمر بأخذ الحذر.

وقد كان النبى ﷺ وأصحابه عارفين بأرض عدوهم، وكان للنبى ﷺ جواسيس يأتونه بأخبار مكة، ولما أخبروه بنقض قريش للعهد استعد لفتحها، وقال أبو بكر لخالد يوم حرب اليمامة (حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف، والرمح بالرمح). وهذه كلمة جليلة فالقول وعمل النبى ﷺ وأصحابه، كل ذلك دال على أن الاستعداد يختلف باختلاف حال العدو وقوته »[١].

فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة ﴿خذوا حذركم﴾ دعوة للمؤمنين فى كل زمان ومكان إلى حسن الاستعداد لمجابهة أعدائهم بشتى الأساليب وبمختلف الوسائل التى تجعل الأمة الإسلامية يرهبها أعداؤها سواء أكانوا فى داخلها أم فى خارجها.

وقوله ﴿فانفروا ثبات أو انفروا جميعا﴾ تفريع على أخذ الحذر؛ لأنهم إذا أخذوا حذرهم، عرفوا كيف يتخيرون أسلوب القتال المناسب لحال أعدائهم وقوله ﴿فانفروا﴾ من النفر وهو الخروج إلى عمل من الأعمال بسرعة. ومنه قوله - تعالى - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[٢].

والمراد بقوله ﴿فانفروا﴾ هنا : أى اخرجوا إلى قتال أعدائكم بهمة ونشاط.

ويقال : نفر القوم ينفرون نفرا ونفيرا إذا نهضوا لقتال عدوهم. واستنفر الإمام الناس إذا حضهم على جهاد أعدائهم ومنه قوله ﷺ (وإذا استنفرتم فانفروا). والنفير. اسم للقوم الذين ينفرون.

وقوله ﴿ثبات﴾ جمع ثبة، وهى الجماعة والعصبة من الفرسان. مأخوذة من ثبا يثبو أى اجتمع.

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٢٥٠

(٢) سورة التوبة آية ١٢٢

والمعنى. عليكم - أيها المؤمنون - أن تكونوا دائما على استعداد للقاء أعدائكم، ولا تغفلوا عن كيدهم. فإذا ما حان الوقت لقتالهم فاخرجوا إليهم مسرعين جماعة فى إثر جماعة؛ أو فاخرجوا إليهم مجتمعين فى جيش واحد، فإن قتالكم لأعدائكم أحيانا يتطلب خروجكم فرقة بعد فرقة، وأحيانا يتطلب خروجكم مجتمعين، فاسلكوا فى قتالكم لأعدائكم الطريقة المناسبة لدحرهم والتغلب عليهم.

وقوله ﴿ثبات﴾ منصوب على الحال من الضمير فى قوله ﴿انفروا﴾ وكذلك قوله ﴿جميعا﴾ أى انفروا متفرقين أو انفروا مجتمعين أى، ليكن نفوركم على حسب ما تقتضيه طبيعة المعركة.

قال الآلوسى: قوله ﴿أو انفروا جميعا﴾ أى مجتمعين جماعة واحدة. ويسمى الجيش إذا اجتمع ولم ينتشر كتيبة. وللقطعه المنتخبة المقتطعة منه سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة. وما زاد على السرية فمنسر - كمجلس ومنبر - إلى الثمانمائة. فإن زاد يقال له جيش إلى أربعة آلاف.

فإن زاد يسمى جحفلا. فإن زاد يسمى خميسا وهو الجيش العظيم. وما افترق من السرية يسمى بعثا. والآية وإن نزلت فى الحرب لكن فيها إشارة إلى الحث على المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات»[1].

ثم كشف - سبحانه - عن فساد نفوس المنافقين وضعاف الإيمان فقال: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ أى: ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد. من «بطأ» - بالتشديد - بمعنى أبطأ فهو فعل لازم. وقد يستعمل أبطأ وبطأ - بالتشديد - متعديين، وعليه يكون المفعول هنا محذوف أى: ليبطئن غيره ويثبطه عن الخروج للجهاد فى سبيل الله.

وقد جمع المنافقون وضعاف الإيمان بين الأمرين: فقد كانوا يتخلفون عن الجهاد فى سبيل الله وينتحلون المعاذير الكاذبة لتخلفهم، ولا يكتفون بذلك بل يحاولون منع غيرهم عن الخروج للجهاد.

والتعبير بقوله ﴿ليبطئن﴾ تعبير فى أسمى درجات البلاغة والروعة، لأنه يصور الحركة النفسية للمنافقين وضعاف الإيمان وهم يشدون أنفسهم شدا، ويقدمون رجلا ويؤخرون أخرى عندما يدعوهم داعى الجهاد إلى الخروج من أجل إعلاء كلمة الله.

وقد اشتملت الجملة الكريمة على جملة مؤكدات، للاشعار بأن هؤلاء المنافقين لا يتركون

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٧٩

فرصة تمرد دون أن يبثوا سمومهم بنشاط وإصرار، وأنهم حريصون كل الحرص على توهين عزائم المجاهدين، وحملهم على أن يكونوا مع القاعدين كما هو شأن المنافقين.

والمراد بقوله ﴿منكم﴾ أى من جنسكم وممن يعيشون معكم ويساكنونكم، ويرتبطون معكم برباط القرابة، ويتظاهرون بالإسلام، فلقد كان المنافقون فى المدينة تربطهم روابط متعددة بالمؤمنين الصادقين، كما هو معروف فى التاريخ الإسلامى.

فمثلا عبد الله بن أبى بن سلول - زعيم المنافقين - كان أحد أبنائه من المؤمنين الصادقين.

وقد وجه القرآن الخطاب إلى المؤمنين لكى يكشف لهم عن المنافقين المندسين فى صفوفهم لكى يحذروهم،

قال صاحب الكشـاف: واللام فى قوله ﴿لمن﴾ للابتداء بمنزلتها فى قوله ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ وفى ﴿ليبطئن﴾ جواب قسـم محذوف تقديره: وإن منكم لمن أقسـم باللّه ليبطئن وجوابه صلة من والضمير الراجع منها يعود إلى ما استكن فى ﴿ليبطئن﴾. والخطاب لعسكر رسـول الله ﷺ»[1].

وقوله ﴿فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا﴾ بيان لما انطوت عليه نفوس المنافقين من فساد، وما نطقت به ألسنتهم من سوء.

أى: وإن من المتظاهرين بأنهم منكم - يا معشر المؤمنين - لمن يتثاقلون عن القتال ويعملون على أن يكون غيرهم مثلهم، ﴿فإن أصابتكم﴾ يا معشر المؤمنين ﴿مصيبة﴾ كهزيمة وقتية، أو استشهاد جماعة منكم ﴿قال﴾ هذا المنافق على سبيل الفرح والتشفى ﴿قد أنعم الله على﴾ أى: قد أكرمنى الله بالقعود ﴿إذ لم اكن معهم شهيدا﴾ أى حاضرا فى المعركة، لأنى لو كنت حاضرا معهم لأصابنى ما أصابهم من القتل أو الجراح أو الآلام.

فالآية الكريمة تحكى عن المنافقين أنهم يعتبرون قعودهم عن الجهاد نعمة، إذا ما أصاب المؤمنين مصيبة عند قتالهم لأعدائهم.

أما إذا كانت الدولة للمؤمنين، وظفروا بالغنائم، فهنا يتمنى المنافقون أن لو كانوا معهم لينالوا بعض هذه الغنائم. واستمع إلى القرآن وهو يحكى عنهم ذلك فيقول: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾.

أى: ﴿ولئن أصابكم﴾ يامعشر المؤمنين ﴿فضل من الله﴾ كفتح وغنيمة ونصر وظفر ﴿ليقولن﴾ هذا المنافق على سبيل الندامة والحسرة والتهالك على حطام الدنيا، حالة كونه ﴿كأن

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٣٢

لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ ليقولن : ﴿يا ليتنى كنت معهم﴾ عندما خرجوا للجهاد ﴿فأفوز فوزا عظيما﴾ بأن أحصل كما حصلوا على الغنائم الكثيرة.

وهذا - كما يقول ابن جرير - خبر من الله - تعالى - ذكره عن هؤلاء المنافقين، أن شهودهم الحرب مع المسلمين - إن شهدوها - إنما هو لطلب الغنيمة وإن تخلفوا عنها فللشك الذى فى قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثوابا، ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقابا(١).

وفى نسبة الفضل إلى الله فى قوله ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ دون إصابة المصيبة تعليم لحسن الأدب مع الله -تعالى- وإن كان سبحانه - هو الخالق لكل شىء، فهو الذى يمنح الفضل لمن يشاء وهو الذى يمنعه عمن يشاء.

وقوله ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ جملة معترضة بين فعل القول الذى هو ﴿ليقولن﴾ وبين المقول الذى هو ﴿يا ليتنى كنت معهم﴾.

وقد جىء بها على سبيل التهكم والسخرية والتعجب من حال المنافقين، لأنهم كان فى إمكانهم أن يخرجوا مع المؤمنين للقتال، وأن ينالوا نصيبهم من الغنائم التى حصل عليها المؤمنون، ولكنهم لم يخرجوا لسوء نواياهم، فلما أظهروا التحسر لعدم الخروج بعد أن رأوا الغنائم فى أيدى المؤمنين كان تحسرهم فى غير موضعه؛ لأن الذى يتحسر على فوات شىء عادة هو من لا علم له به أو بأسبابه، أما المنافقون فبسبب مخالطتهم وصحبتهم للمؤمنين كانوا على علم بقتال المؤمنين لأعدائهم، وكان فى إمكانهم أن يخرجوا معهم.

فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين : انظروا وتعجبوا من شأن هؤلاء المنافقين إنهم عندما أصابتكم مصيبه فرحوا، وعندما انتصرتم وأصبتم الغنائم تحسروا وتمنوا أن لو كانوا معكم حتى لكأنهم لا علم لهم بالقتال الذى دار بينكم وبين أعدائكم، وحتى لكأنهم لا مخالطة ولا صحبة بينكم وبينهم مع أن علمهم بالقتال حاصل، ومخالطتهم لكم حاصلة فلم يتحسرون؟ إن قولهم : ﴿يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾ ليدعو إلى التعجب من أحوالهم، والتحقير لسلوكهم، والدعوة عليهم بأن يزدادوا حسرة على حسرتهم.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد أمرت المؤمنين بحسن الاستعداد للقاء أعدائهم فى كل وقت، وكشفت لهم عن رذائل المنافقين الذين إذا أصابت المؤمنين مصيبة فرحوا لها، وإذا أصابهم فضل من الله تحسروا وحزنوا، وفى هذا الكشف فضيحة للمنافقين، وتحذير للمؤمنين من شرورهم.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٦٦

وبعد هذا التوبيخ الشديد للمتاقلين عن الجهاد، أخذ القرآن الكريم فى استنهاض الهمم والعزائم للجهاد فى سبيل الله فقال - تعالى - :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

والفاء فى قوله ﴿فليقاتل﴾ للإفصاح عن جواب شرط مقدر. أى إن أبطأ هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض وتأخروا عن الجهاد والقتال، فليقاتل المؤمنون الصادقون الذين ﴿يشرون﴾ أى يبيعون الحياة الدنيا بكل متعها وشهواتها من أجل الحصول على رضا الله - تعالى - فى الآخرة.

وقوله ﴿فى سبيل الله﴾ تنبيه إلى أن هذا النوع من القتال هو المعتد به عند الله - تعالى -، لأن المؤمن الصادق لا يقاتل من أجل فخر أو مغنم أو اغتصاب حق غيره، وإنما يقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وقوله ﴿ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيما﴾ بيان للثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - للمجاهدين.

أى : ومن يقاتل فى سبيل الله ومن أجل إعلاء دينه، فيستشهد، أو يكون له النصر على

عدوه، فسوف نؤتيه أجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا الله تعالى. . وإنما اقتصر - سبحانه على بيان حالتين بالنسبة للمقاتل وهى حالة الاستشهاد وحالة الغلبة على العدو، للإشعار بأن المجاهد الصادق لا يبغى من جهاده إلا هاتين الحالتين، فهو قد وطن نفسه حالة جهاده على الاستشهاد أو على الانتصار على أعداء الله، ومتى وطن نفسه على ذلك ثبت فى قتاله، وأخلص فى جهاده.

وقدم - سبحانه - القتل على الغلب، للإيذان بأن حرص المجاهد المخلص على الاستشهاد فى سبيل الله، أشد من حرصه على الغلب والنصر.

والتعبير بسوف فى قوله ﴿فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ لتأكيد الحصول على الأجر العظيم فى المستقبل.

والجملة جواب الشرط وهو قوله ﴿ومن يقاتل﴾ وقوله ﴿فيقتل﴾ تفريع على فعل الشرط.

ونكر - سبحانه - الأجر ووصفه بالعظم، للإشعار بأنه أجر لا يحده تعيين، ولا يبينه تعريف، ولا يعلم مقداره إلا الله - تعالى -.

ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب فقال: ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾.

فالخطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريقة الالتفات، مبالغة فى التحريض عليه، وتأكيدا لوجوبه، و﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ، والجار والمجرور وهو ﴿لكم﴾ خبره.

وجملة ﴿لا تقاتلون فى سبيل الله﴾ فى محل نصب على الحال، والعامل فى هذه الحال الاستقرار المقدر أو الظرف لتضمنه معنى الفعل.

والمراد بالاستفهام تحريضهم على الجهاد، والإنكار عليهم فى تركه مع توفر دواعيه، والمعنى: أى شىء جعلكم غير مقاتلين؟ إن عدم قتالكم لأعدائكم يتنافى مع إيمانكم، أما الذى يتناسب مع إيمانكم وطاعتكم لله فهو أن تقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله، ومن أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

فالآية الكريمة تحريض على الجهاد بأبلغ وجه، ونفى للاعتذار عنه.

والمراد بالمستضعفين: الضعفاء من الناس وهم المسلمون الذين بقوا فى مكة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، لعدم قدرتهم على الهجرة أو لمنع المشركين إياهم من الخروج.

وقد كان النبى ﷺ يدعو لهم فيقول: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين.

وقوله ﴿والمستضعفين﴾ معطوف على قوله ﴿فى سبيل الله﴾ أى: قاتلوا فى سبيل الله وفى

سبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من ظلم المشركين لهم.

وخصهم بالذكر مع أن القتال فى سبيل الله يشملهم، لمزيد العناية بشأنهم، وللتحريض على القتال بحكم الشرف والمروءة بعد التحريض عليه بحكم الدين والتقرب إلى الله - تعالى -، لأن مروءة الإنسان الكريم تحمله على نصرة الضعيف، ومنع الاعتداء عليه.

وقوله ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾، بيان لهؤلاء المستضعفين.

أى: قاتلوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، ومن أجل نصرة المستضعفين من الرجال الذين صدهم المشركون عن الهجرة، ومن النساء اللائى لا يملكن حولا ولا قوة. ومن الولدان الصغار الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

وفى النص على هؤلاء المستضعفين وخصوصا النساء والولدان، أقوى تحريض على الجهاد، وأعظم وسيلة لإثارة الحماس والنخوة من أجل القتال، لأنهم إذا تركوا هؤلاء المستضعفين أذلاء فى أيدى للشركين، فانهم سيعيرون بهم، وهذا ما يأباه كل شريف كريم.

ثم حكى - سبحانه - ما كان يقوله المستضعفون فقال: ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القريه الظالم أهلها. واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرًا﴾.

أى: قاتلوا - أيها المؤمنون - فى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يضرعون إلى الله قائلين: ياربنا أخرجنا من هذه القرية التى ظلمنا أهلها بسبب شركهم وكفرهم ﴿واجعل لنا من لدنك وليا﴾.

أى وسخر لنا من عندك حافظا يحفظ علينا ديننا ﴿واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾. أى: وسخر لنا من عندك كذلك ناصرا يدفع عنا أذى أعدائنا، فأنت الذى لا يذل من استجار به، ولا يضعف من كنت نصيره ووليه.

والمراد بالقرية الظالم أهلها: مكة. وقد وصف أهلها بأنهم ظالمون، ولم توصف هى بأنها ظالمة كما وصف غيرها من القرى كما فى قوله - تعالى - ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ وذلك من باب التكريم لمكة، إذ هى حرم الله الآمن؛ ولا يوصف حرم الله الآمن بالظلم ولو على سبيل المجاز.

وقوله ﴿الظالم أهلها﴾ صفة للقرية، وأهلها مرفوع به على الفاعلية، وأل فى الظالم موصولة بمعنى التى أى التى ظلم أهلها. فقوله ﴿الظالم﴾ جار على القرية لفظا، وهو لما بعدها معنى نحو: مررت برجل حسن غلامه.

وفى هذا النداء الذى تضرع به أولئك المستضعفون إلى خالقهم أسمى ألوان الأدب

والإخلاص فهم يلتمسون منه - سبحانه - أن يخرجهم من بطش الظالمين وحكمهم، وأن يجعلهم تابعين للقوم الذين يحبهم ويحبونه، وهم المؤمنون، وأن يهىء لهم النصر على أعدئهم وأعدائه.

ولقد استجاب الله - تعالى - لهم دعاءهم، حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة، ورزق المؤمنين فتحا قريبا، وإلى ذلك أشار صاحب الكشاف بقوله: «والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين... وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه، فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقى بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد ﷺ فتولاهم أحسن التولى، ونصرهم أقوى النصر.

فإن قلت: لم يذكر الولدان: قلت: تسجيلا بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين، إرغاما لآبائهم وأمهاتهم، ومبغضة لهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم فى دعائهم إستنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما وردت السنة بإخراجهم فى الإستسقاء[1].

ثم ساق - سبحانه - لونا آخر من تحريضهم على الجهاد وهو تحديد الهدف الذى يقاتل من أجله كل فريق فقال: ﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ أى أنتم - أيها المؤمنون - إذا قاتلتم فإنما تقاتلون وغايتكم إعلاء كلمة الله، ونصرة الحق الذى جاء به رسولكم محمد ﷺ. أما أعداؤكم الكافرون فإنهم يقاتلون من أجل طاعة الشيطان الذى يأمرهم بكل بغى وطغيان، وإذا كان هذا حالكم وحالهم فعليكم - أيها المؤمنون - أن تقاتلوا أولياء الشيطان بكل قوة وصدق عزيمة ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ أى. إن كيد الشيطان وتدبيره كان ضعيفا، لأن الشيطان ينصر أولياءه، والله - تعالى - ينصر أولياءه، ولا شك أن نصرة الله - تعالى - لأوليائه أقوى وأشد من نصرة الشيطان لأوليائه.

فقوله - تعالى - ﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله﴾ كلام مستأنف سيق لتشجيع المؤمنين وترغيبهم فى الجهاد ببيان الغاية والهدف الذى يعمل من أجله كل فريق، وببيان أن المؤمنين ستكون عاقبتهم النصر والظفر لأن الله وليهم وناصرهم.

والفاء فى قوله ﴿فقاتلوا﴾ للتفريع، أى إذا كانت تلك غايتكم أيها المؤمنون وتلك هى غاية

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٣٤

أعدائكم؛ فقاتلوهم بدون خوف أو وجل منهم لأن الله معكم بنصره وتأييده أماهم فالشيطان معهم بضعفه وفجوره.

والمراد بكيد الشيطان تدبيره ووسوسته لأتباعه بالاعتداء على المؤمنين وتأليب الناس عليهم.

قال الفخر الرازى: الكيد: السعى فى فساد الحال على جهة الاحتيال عليه، يقال: كاده يكيده إذا سعى فى إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه. وفائدة إدخال ﴿كان﴾ فى قوله ﴿كان ضعيفا﴾ للتأكيد لضعف كيده، يعنى أنه منذ كان، كان موصوفا بالضعف والذلة[1].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الثلاث قد شجعت المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب، وأشرف دافع، وأنبل غاية، فقد أمرتهم بالقتال إذا كانوا حقا من المؤمنين، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، وبشرتهم برضا الله وحسن ثوابه سواء أقتلوا أم غلبوا واستنكرت عليهم أن يتثاقلوا عن القتال مع أن كل دواعى الدين والشرف والمروءة تدعوهم إليه، وبينت لهم أنه إذا كان الكافرون الذين الغاية من قتالهم نصرة الشيطان يقدمون على القتال، فأولى بالمؤمنين الذين الغاية من قتالهم نصرة الحق أن ينفروا خفافا وثقالا للجهاد فى سبيل الله، ثم بشرتهم فى النهاية بأن العاقبة لهم، لأن الكافرين يستندون إلى كيد الشيطان الضعيف الباطل، أما المؤمنون فيأوون إلى جناب الله الذى لا يخذل من اعتصم به، ولا يخيب من التجأ إليه.

وبعد هذا التحريض الشديد من الله - تعالى - للمؤمنين على القتال فى سبيله، حكى - سبحانه - على سبيل التعجيب حال طائفة من ضعاف الإيمان، كانوا قبل أن يفرض القتال عليهم يظهرون التشوق إليه. وبعد أن فرض عليهم جبنوا عنه، وقد وبخهم الله - تعالى - على هذا المسلك الذميم، فقال - سبحانه -:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ١٨٤

تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا
هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾
مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

والإستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ألم تر﴾ للتعجيب من حال أولئك الذين كانوا يظهرون التشوق إلى القتال فلما فرض عليهم جبنوا عنه.

وقوله ﴿كفوا أيديكم﴾ من الكف بمعنى الامتناع أى: امتنعوا عن مباشرة القتال إلى أن تؤمروا به.

والمعنى: ألم ينته علمك يامحمد أو ألم تنظر بعين الدهشة والغرابة إلى حال أولئك الذين كانوا يظهرون شدة الحماسة للقتال، فقيل لهم ﴿كفوا أيديكم﴾ أى: عن القتال لأنكم لم تؤمروا به بعد ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فإن الصلاة تخلص النفس من أدران المآثم، وتجعلها تتجه إلى الله وحده ﴿وآتوا الزكاة﴾ فإن الزكاة تطهر النفوس من الشح والبخل، وتربط بين الناس برباط المحبة والتعاون.

ثم بين - سبحانه - حالهم بعد أن فرض عليهم القتال فقال: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

أى: فحين فرض عليهم القتال وأمروا بمباشرته بعد أن صارت للمسلمين دولة بالمدينة، حين حدث ذلك، إذا فريق منهم - وهم الذين قل إيمانهم، وضعف يقينهم، وارتابت قلوبهم - ﴿يخشون الناس﴾ أى يخافونهم خوفا شديدا ﴿كخشية الله أو أشد خشية﴾ أى: يخافون من الكفار أن يقتلوهم كما يخافون من الله أن ينزل بهم بأسه، أو أشد من ذلك.

فالمراد بالناس فى قوله ﴿يخشون الناس﴾ أولئك الأعداء الذين كتب الله على المؤمنين قتالهم.

وعبر عن هؤلاء الأعداء بقوله ﴿الناس﴾ زيادة فى توبيخ أولئك الذين خافوا منهم هذا الخوف الشديد، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا، لاستقبلوا ما فرضه الله عليهم بالسمع والطاعة، ولما خافوا هذا الخوف الشديد من أناس مثلهم.

وقوله ﴿كخشية الله﴾ مفعول مطلق، أى يخشونهم خشية كخشية الله.

وهو بيان لشدة خورهم وهلعهم، ولفساد تفكيرهم، حيث جعلوا خشيتهم للناس فى مقابل خشيتهم لله، الذى يجب أن تكون خشيته - سبحانه - فوق كل خشية.

وقوله ﴿أو أشد خشية﴾ معطوف على ماقبله. وأشد حال من خشية لأن نعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالا.

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة فى توبيخهم وذمهم؛ وترق فى توضيح حالتهم القبيحة، لأنه إذا كان من المقرر أنه لا يجوز للعاقل أن يجعل خشيته للناس كخشيته لله، فمن باب أولى لا يجوز له أن يجعل خشيته للناس أشد من خشيته لله - تعالى -.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل: ظاهر ﴿أو أشد خشية﴾ يوهم الشك. وذلك على علام الغيوب محال. أجيب بأن ﴿أو﴾ بمعنى بل. أو هى للتنويع. على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها أو هى للإبهام على السامع. على معنى أنهم على إحدى الصفتين من المساواة والشدة. وهو قريب مما فى قوله - تعالى -: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ يعنى أن من يبصرهم يقول: أنهم مائة ألف أو يزيدون[1].

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك الضعفاء عندما فرض عليهم القتال فقال: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾.

أى: أن هؤلاء الضعفاء لم يكتفوا بما اعتراهم من فزع وجزع عندما كتب عليهم القتال وإنما أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل الضجر والألم: يا ربنا لم كتبت علينا القتال فى هذا الوقت ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أى: هلا عافيتنا وتركتنا حتى نموت موتة لا قتال معها عند حضور آجالنا، دون أن نتعرض لهذا التكليف الثقيل المخيف.

وهكذا يصور القرآن تخبط هؤلاء الضعفاء أكمل تصوير. إنهم قبل أن يفرض القتال يظهرون التحمس له، والتشوق لخوض معا معه، فإذا ما فرض عليهم القتال فزعوا وارتعدوا وقالوا ما قالوا من ضلال بضيق وهلع.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ١١٦

ويبدو أن هذه طبيعة أكثر المتهورين فى كل وقت، إنهم قبل أن يجد الجد أشد الناس حماسة للقاء الأعداء، فإذا ماجد الجد ووقعت الواقعة كانوا أول الفارين، وأول الناكصين على أعقابهم.

وذلك لأن الشجعان العقلاء لا يتمنون لقاء الأعداء، ولا ينشئون القتال إنشاء، وإنما يقدرون الأمور حق قدرها، ويضعون الأشياء فى مواضعها، فإذا ما اقتضت الضرورة خوض معركة من المعارك ثبتوا ثبات الأبطال.

أما المندفعون بدون إيمان يدفعهم، أو عقل يرشدهم، فإنهم لعدم تقديرهم للأمور يكونون فى ساعة الشدة أول الناس جزعا ونكولا وانهيارا.

ولكن من هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآية الكريمة ووصفتهم بأنهم حين كتب عليهم القتال «إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب..»؟!!

إن الذى يراجع أقوال المفسرين يرى أن بعضهم يميل إلى أن الآية الكريمة فى شأن المؤمنين، ويرى أن بعضهم يرجح أنها فى شأن المنافقين، وقد لخص الإمام الرازى هذه الأقوال تلخيصا حسنا فقال:

«هذه الآية صفة للمؤمنين أو المنافقين؟ فيه قولان:

الأول: أن الآية نزلت فى المؤمنين. قال الكلبى: نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، والمقداد، وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبى وقاص. كانوا مع النبى ﷺ قبل أن يهاجروا إلى المدينة، ويلقون من المشركين أذى شديدا، فيشكون ذلك إلى النبى ﷺ ويقولون: ائذن لنا فى قتالهم ويقول لهم الرسول ﷺ كفوا أيديكم فإنى لم أومر بقتالهم، واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية.

ثم قال: واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الذين يحتاج الرسول أن يقول لهم: كفوا عن القتال هم الراغبون فى القتال؛ والراغبون فى القتال هم المؤمنون، فدل هذا على أن الآية فى حق المؤمنين.. وأن كراهتهم للقتال إنما هى بمقتضى الجبلة البشرية... وقولهم ﴿لم كتبت علينا القتال﴾ محمول على التمنى فى التخفيف للتكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى.

ثم قال: والقول الثانى: أن الآية نازلة فى حق المنافقين. واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين، لأن الله وصفهم بأنهم ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافق، لأن المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من الناس أزيد من خوفه من الله - تعالى - ولأنه - سبحانه - حكى

عنهم أنهم قالوا : ربنا لما كتبت علينا القتال، والاعتراض على الله ليس إلا من صفة الكفار أو المنافقين، ولأن الله قال للرسول : ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته فى الدنيا أكثر من رغبته فى الآخرة، وذلك من صفات المنافقين.

ثم قال. والأولى حمل الآية على المنافقين لأنه - سبحانه - ذكر بعد هذه الآية قوله : ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ ولا شك أن هذا من كلام المنافقين، فإذا كانت هذه الآية معطوفة على الآية التى نحن فى تفسيرها ثم المعطوف فى المنافقين، وجب أن يكون المعطوف عليهم فيهم أيضا[1].

ونحن نوافق الإمام الرازى فيما ذهب إليه من أن حمل الآية الكريمة على أنها فى المنافقين هو الأولى للأسباب التى ذكرها.

ونضيف إلى ما ذكره الإمام الرازى أن المتأمل فى سياق الآيات السابقة واللاحقة يراها واضحة فى شأن المنافقين، ومن هم على شاكلتهم من ضعاف الايمان، الذين أدى بهم ضعف نفوسهم، وحبهم للدنيا إلى كراهة القتال، والخوف من تكاليفه...

فأنت إذا قرأت الآيات التى قبيل هذه الآية تراها تتحدث عن إرادة تحاكمهم إلى الطاغوت مع زعمهم الايمان بما أنزل إلى الرسول ﷺ وبما أنزل على الرسل من قبله. وتراها تتحدث عن تباطئهم عن القتال وفرحهم لنجاتهم من مخاطره.

ثم إذا قرأت الآيات التى ستأتى بعد هذه الآية تراها تتحدث عن نسبتهم الحسنة إلى الله، ونسبتهم السيئة إلى رسوله ﷺ وعن إذاعتهم لأسرار المؤمنين... ألخ، فثبت أن الآية الكريمة تتحدث عن صفات المنافقين، وعمن هم قريبو الشبه بهم من ضعاف الايمان الذين أخلدوا إلى الراحة. وآثروا القعود فى بيوتهم على القتال من أجل إعلاء كلمة الله، ودفع الظلم عن المظلومين.

ونضيف أيضا أن القول الأول - الذى ذكره الإمام الرازى وهو أن الآية نزلت فى المؤمنين - غير صحيح لأسباب من أهمها :

١ - أن الرواية التى ذكرها الامام الرازى نقلا عن الكلبى وهى أن الآية نزلت فى عبد الرحمن بن عوف والمقداد وقدامة بن مظعون... الخ هذه الرواية يبدو عليها الضعف، لأنها لم ترد فى كتب الحديث الموثوق بها، ولأن الكلبى نفسه قد عرف عنه عدم التثبت فى النقل.

ولقد علق الإمام الشيخ محمد عبده على هذه الرواية بقوله : «إننى أجزم ببطلان هذه الرواية

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ١٨٥ - بتصرف وتلخيص

مهما كان سندها، لأننى أبرىء السابقين الأولين كسعد وعبد الرحمن مما رموا به. وهذه الآية متصلة بما قبلها، فإن الله - تعالى - أمر بأخذ الحذر والإستعداد للقتال، والنفر له، وذكر حال المبطئين لضعف قلوبهم. وبعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة أمر الاسلام أتباعه بالسلم وتهذيب النفوس بالعبادة والكف عن الاعتداء والقتال.. إلى أن اشتدت الحاجة إليه ففرضه الله عليهم فكرهه الضعفاء منهم »[١].

٢ - أن المؤمنين لم يعهد عنهم ما ذكرت الآية من خوف من القتال، ومن تمن لعدم حضوره، وإنما المعهود عنهم أنهم كانوا يبادرون إليه كلما اقتضت الضرورة ذلك ويتسابقون لخوض ساحته دفاعا عن دينهم، وانتصارا ممن بغى عليهم.

ولقد قال المقداد بن عمرو للرسول ﷺ. فى غزوة بدر يا رسول الله، إمض لما أمرك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن نقول لك إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه...

إلى غير ذلك من الأقوال والمواقف التى تدل على شجاعتهم وقوة إيمانهم.

ولقد رجح الإمام القرطبى عند تفسيره للآية الكريمة أنها فى المنافقين فقال : قال مجاهد : هى فى اليهود. وقال الحسن : هى فى المؤمنين لقوله « يخشون الناس » أى مشركى مكة « كخشية الله » فهى على ما طبع عليه البشر من المخافة لا على المخالفة. وقال السدى : هم قوم أسلموا قبل فرض القتال فلما فرض كرهوه. وقيل : هو وصف للمنافقين. والمعنى : يخشون القتل من المشركين كما يخشون الموت من الله «أو أشد خشية» أى عندهم وفى اعتقادهم.

ثم قال : قلت وهذا أشبه بسياق الآية لقوله ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابى كريم، يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام فى الدار العاجلة، على ما هو المعروف من سيرتهم - رضى الله عنهم - اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ فى الإيمان قدمه، ولا انشرح بالاسلام جنانه، فإن أهل الإيمان متفاضلون فمنهم الكامل ومنهم الناقص، وهو الذى تنفر نفسه عما تؤمر به فيما تلحقه فيه المشقة وتدركه فيه الشدة »[٢].

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٢٦٣

(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨١.

والخلاصة: أن الذى تطمئن إليه نفوسنا أن الآية الكريمة تحكى ما كان عليه المنافقون وضعاف الإيمان، من بعد عن طاعة الله، ومن جبن فى النفوس ومن حب للحياة الدنيا وزينتها.

وأن المؤمنين بعيدون كل البعد عما اشتملت عليه الآية الكريمة من صفات وأحوال؛ لأن ما عرف عنهم من إيمان وإقدام ينأى بهم عن أن يكونوا ممن قال الله فيهم ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ وعن أن يقولوا: ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾.

هذا، وقوله - تعالى - ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾ رد على التصرفات الذميمة، والأقوال الفاسدة التى صدرت عن المنافقين وضعاف الإيمان! وإرشاد من الله - تعالى - لعباده إلى أن متاع الحياة الدنيا قليل بالنسبة لما اشتملت عليه الآخرة من نعيم للمؤمنين الصادقين.

والمتاع: اسم لما يتمتع به الإنسان فى هذه الحياة من مال وغيره.

والفتيل: هو الخيط الدقيق الذى يكون فى شق نواة التمرة. ويضرب به المثل فى القلة والتفاهة.

والمعنى: قل - يامحمد - لهؤلاء الذين يخشون لقاء الأعداء، ويفزعون من القتال طمعا فى التمتع بزينة الحياة الدنيا، قل لهم: إن منافع الدنيا ولذاتها قليلة مهما كبرت فى أعينكم؛ لأنها زائلة فانية، أما الآخرة بما فيها من نعيم دائم فهى خير ثوابا، وأعظم أجرًا لمن اتقى الله، وجاهد فى سبيله. وإذا كان الأمر كذلك فاجعلوا خشيتكم من الله وحده، وبادروا إلى الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله، لكى تنالوا الثواب الجزيل من الله دون أن يذهب من ثوابكم شيئا مهما كان هذا الشىء ضئيلا أو قليلا، ودون أن ينقص من أعماركم شيئا؛ لأن الجبن لا يؤخر الحياة كما أن الإقدام لا ينقص شيئا منها.

ثم بين - سبحانه - أنه لا مفر لهم من الموت، وأنهم مهما فروا منه فإنه سيلقاهم آجلا أو عاجلا فقال - تعالى -: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾.

والبروج: جمع برج وهو الحصن المنيع الذى هو نهاية ما يصل إليه البشر فى التحصن والمنعة. وأصل البروج من التبرج بمعنى الظهور. يقال: تبرجت المرأة، إذا أظهرت محاسنها. والمراد بها الحصون والقلاع الشاهقة المنيعة.

والمشيدة: أى المحكمة البناء، والعظيمة الارتفاع من شاد القصر إذا رفعه، والمعنى: إنكم

أيها الخائفون من القتال إن ظننتم أن هذا الخوف منه أو القعود عنه سينجيكم من الموت، فأنتم بهذا الظن مخطئون، لأن الموت حيثما كنتم سيدرككم، ولو كنتم فى أقوى الحصون، وأمنعها وأحكمها بناء، وما دام الأمر كذلك فليكن موتكم وأنتم مقبلون بدل أن تموتوا وأنتم مدبرون.

والجملة الكريمة لا محل لها من الإعراب، لأنها مسوقة على سبيل الاستئناف لتبكيت هؤلاء الكارهين للقتال، وتحريض غيرهم من المؤمنين على الإقدام عليه من أجل نصرة الحق.

ويحتمل أنها فى محل نصب، فتكون داخلة فى حيز القول المأمور به الرسول ﷺ أى : قل لهم يا محمد متاع الدنيا قليل. وقل لهم ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾.

وأين : اسم شرط جازم ظرف مكان يجزم فعلين، و «ما» زائدة للتأكيد، وتكونوا فعل الشرط ويدرككم جوابه.

والتعبير بقوله ﴿يدرككم﴾ للإشعار بأن الموت كأنه كائن حى يطلب الإنسان ويتبعه حيثما كان، وفى أى وقت كان، فهو طالب لابد أن يدرك ما يطلبه ولابد أن يصل إليه مهما تحصن منه، أو هرب من لقائه.

وجواب (لو) محذوف اعتمادًا على دلالة ماقبله عليه أى : ولو كنتم فى بروج مشيدة لأدرككم الموت.

وقريب فى المعنى من هذه الآية قوله - تعالى - ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل﴾ وقوله - تعالى - : ﴿قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملا قيكم﴾.

فالجملة الكريمة صريحه فى بيان أن الموت أمر لامفر منه، ولامهرب عنه سواء أقاتل الإنسان أم لم يقاتل. وما أحسن قول زهير بن أبى سلمى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

ثم حكى - سبحانه - ما كان يتفوه به المنافقون وإخوانهم فى الكفر من باطل وزور فقال - تعالى : ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كل من عند الله﴾.

أى : إن هؤلاء المنافقين وأشباههم، من ضعاف الإيمان وإخوانهم فى الكفر بلغ بهم الفجور أنهم إذا أصابتهم حال حسنة من نعمة أو رخاء أو خصب أو غنيمة أو ظفر قالوا هذه الحال من عند الله، وإذا أصابتهم حال سيئة من جدب أو مصيبة أو هزيمة قالوا هذه الحال من عندك يا محمد بسبب شؤمك وسوء قيادتك - وحاشاه من ذلك ﷺ -.

وهذا القول منهم قريب من قول قوم فرعون لموسى - عليه السلام - كما حكاه القرآن عنهم

فى قوله : ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾.

قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى اليهود والمنافقين، وذلك أنهم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عليهم قالوا : مازلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. قال ابن عباس : ومعنى ﴿من عندك﴾ أى : بسوء تدبيرك. وقيل ﴿من عندك﴾ أى بشؤمك الذى لحقنا، قالوه على جهة التطير»[1].

وقوله ﴿قل كل من عند الله﴾ أمر من الله لنبيه ﷺ بأن يرد على مزاعمهم الباطلة. أى قل لهم يا محمد كل واحدة من النعمة والمصيبة هى من جهة الله - تعالى خلقا وإيجادًا من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شىء منها بوجه من الوجوه كما تزعمون :

وقوله ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا﴾ جملة معترضة مسوقة لتعييرهم بالجهل والغباوة، والفاء فى قوله ﴿فمال﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها والمعنى. وإذا كان الأمر كذلك وهو أن كل شىء من عند الله، فمال هؤلاء القوم من المنافقين وإخوانهم فى الكفر وضعف الإيمان لا يكادون -لانطماس بصيرتهم- يفقهون ما يلقى عليهم من مواعظ، ولا يفهمون معنى ما يسمعون وما يقولون، إذ لو فقهوا شيئا مما يوعظون به لعلموا أن الله هو القابض الباسط، وأنه المعطى المانع.

قال - تعالى - ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾.

وقوله - تعالى - ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ الخطاب فيه للنبى ﷺ والمراد كل مكلف من أمته.

والمراد بالحسنة ما يسر له الإنسان ويفرح به، والمراد بالسيئة ما يسوءه ويحزنه.

والمعنى : ﴿ما أصابك من حسنة﴾ أى من نعمة وأمور حسنة تفرح بها ﴿فمن الله﴾ أى فبتوفيقه لك وتفضله عليك، وإرشادك إلى الوسائل التى أوصلتك إلى ما يسرك. ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أى من مصيبة أو غيرها مما يحزن ﴿فمن نفسك﴾ أى : فمن نفسك بسبب وقوعها فيما نهى الله عنه، وتركها للأسباب الموصلة إلى النجاح، كما قال - تعالى : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾.

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : «لا يصيب عبدًا نكتة فما فوقها

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨٤.

أو دونها إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر». قال وقرأ : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾.

وروى ابن عساكر عن البراء - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم. وما يعفو الله أكثر».

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - ﴿ما أصابك من حسنة﴾.. إلخ من كلام الله - تعالى - والخطاب فيه للنبى ﷺ والمراد به كل مكلف - كما سبق أن أشرنا - وقد ساقه - سبحانه - على سبيل الاستئناف ردا على مزاعم المنافقين ومن هم على شاكلتهم فى الكفر وضعف الإيمان.

وقيل إن هذه الآية حكاية من الله - تعالى - لأقوال المنافقين السابقة، فكأنهم لم يكتفوا بأن ينسبوا للرسول ﷺ أنه السبب فيما أصابهم من جدب وهزيمة. بل أضافوا إلى ذلك قولهم له : إن ما أصابك من حسنة فمن الله ولا فضل لك فيما نلت من نصر أو غنيمة، وما أصابك من سيئة أى هزيمة أو مصيبة فمن سوء صنعك وتصرفك.

ومقصدهم من ذلك - قبحهم الله - تجريد النبى ﷺ من كل فضل، وإلقاء اللوم عليه فى كل ما يصيبهم من مصائب.

وقد أشار القرطبى إلى هذين القولين بقوله : قوله - تعالى - ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ الخطاب للنبى ﷺ والمراد أمته. أى ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم أى من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم.

وقيل : فى الكلام حذف تقديره : يقولون. وعليه يكون الكلام متصلا، والمعنى : ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ حتى يقولوا ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[1].

وقال الجمل : فإن قلت : كيف وجه الجمع بين قوله - تعالى : ﴿قل كل من عند الله﴾ وبين قوله ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ فأضاف السيئة إلى فعل العبد فى هذه الآية - بينما أضاف الكل إلى الله فى الآية السابقة -؟

قلت : أما إضافة الأشياء كلها إلى الله فى الآية السابقة فى قوله ﴿قل كل من عند الله﴾ فعلى الحقيقة، لأن الله هو خالقها وموجدها. وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد فى قوله ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ فعلى سبيل المجاز. والتقدير : وما أصابك من سيئة فمن أجلها وبسبب

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨٥ بتلخيص.

اقترافها الذنوب. وهذا لا ينافى أن خلقها من الله - كما سبق)[١].

وقال بعض العلماء: والتوفيق بين قوله - تعالى - ﴿ما أصابك من حسنة﴾ وبين قوله قبل ذلك: ﴿قل كل من عند الله﴾ هو أن قوله ﴿قل كل من عند الله﴾ كان موضوعه الكلام فى تقدير الله. فهم إن انتصر المؤمنون لا ينسبون للنبى ﷺ أى فضل، بل يجردونه من الفضل ويقولون هو من عند الله. وما قصدوا التفويض والإيمان بالقدر، بل قصدوا الغض من مقام النبوة. فإن كان هناك خير نسبوه إلى الله وإن كان ما يسوء نسبوه إلى النبى ﷺ إيذاء وتمردا. فالله تعالى - قال لهم: ﴿قل كل من عند الله﴾، أى كل ذلك بتقدير الله وإرادته.

أما قوله ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ فموضوعه اتخاذ الأسباب. ومعناه: أن من أخذ بالأسباب وتوكل على الله فالله - تعالى - يعطيه النتائج ومن لا يتخذ الأسباب، أو يخالف المنهاج السليم الموصل إلى الثمرة، فإنه سيناله ما يسوؤه، وبسبب منه.

فالأول: لبيان القدر.

والثانى: لبيان العمل[٢].

هذا، وقوله - تعالى - ﴿وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدًا﴾ بيان لجلال منصبه وعلو مكانته ﷺ عند ربه - عز وجل - بعد بيان بطلان زعمهم الباطل فى حقه عليه الصلاة والسلام.

أى: وأرسلناك - يامحمد - بأمرنا وبشريعتنا لتبلغ الناس ما أمرناك بتبليغه، ولتخرجهم من ظلمات الجهالة والكفر إلى نور التوحيد والإيمان ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة رسالتك، وعلى صدقك فيما تبلغه عنه، وإذا ثبت ذلك فالخير فى طاعتك والشر والشؤم فى مخالفتك.

والمراد بالناس جميعهم. أى: وأرسلناك لجميع الناس كما قال - تعالى - ﴿وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين﴾.

وقوله ﴿رسولا﴾ حال مؤكدة لعاملها وهو أرسلناك.

وقوله ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ تثبيت وتقوية لقلب النبى ﷺ

أى: امض فى طريقك ولا تلتفت إلى أقوالهم، وكفى بالله عليك وعليهم شهيدا، فإنه - سبحانه - لا يخفى عليه أمرك وأمرهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٠٣.

(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام العدد ١ السنة الخامسة عشرة.

ثم بين - سبحانه - أن طاعة رسوله ﷺ إنما هى طاعة له فقال : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

أى : من يستجب لما يدعوه إليه محمد ﷺ ويذعن لتعاليمه، فإنه بذلك يكون مطيعا لله، لأن الرسول ﷺ مبلغ لأمر الله ونهيه.

وقوله ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ بيان لوظيفة الرسول ﷺ.

أى : من أطاعك يا محمد فقد أطاع الله، ومن أعرض عن طاعتك وعصى أمرك، فعلى نفسه يكون جانيا، لأننا ما أرسلناك على الناس حافظا ورقيبا لأعمالهم، وإنما أرسلناك مبلغا ومنذرا.

وجواب الشرط فى قوله ﴿ومن تولى﴾ محذوف. أى ومن تولى فأعرض عنه فإنا ما أرسلناك عليهم حفيظا.

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ بيان لإحكام رسالته إثر بيان تحققها. وإنما كان الأمر كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الحق - سبحانه - والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له بالذات إنما هى لمن بلغ عنه. وفى بعض الآثار أن النبى ﷺ كان يقول : من أحبنى فقد أحب الله، ومن أطاعنى فقد أطاع الله. فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشرك، وهو نهى أن يعبد غير الله. ما يريد إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى - عليه السلام - فنزلت[1]».

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا آخر من صفات المنافقين ومن على شاكلتهم من ضعاف الإيمان حتى يحذرهم المؤمنون الصادقون فقال - تعالى - :

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
(٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٩١

﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

والضمير فى قوله ﴿ويقولون﴾ للمنافقين ومن يلفون لفهم.

أى : أن هؤلاء المنافقين إذا أمرتم يامحمد بأمروهم عندك يقولون طاعة أى أمرنا وشأننا طاعة. يقولون ذلك بألسنتهم أما قلوبهم فهى تخالف ألسنتهم.

وقوله ﴿طاعة﴾ خبر لمبتدأ محذوف وجوبا أى : أمرنا طاعة. ويجوز النصب على معنى : أطعناك طاعة. كما يقول المأمور لمن أمره : سمعًا وطاعة، وسمع وطاعة.

قال صاحب الكشاف : ونحوه قول سيبويه : سمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له : كيف أصبحت؟ فيقول : حمد الله وثناء عليه، كأنه قال : أمرى وشأنى حمد الله. ولو نصب « حمد الله » كان على الفعل. والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها(١).

ثم حكى - سبحانه - ما يكون عليه أمر هؤلاء المنافقين بعد خروجهم من عند الرسول ﷺ فقال : ﴿فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول﴾.

وقوله ﴿بيت﴾ من التبييت واشتقاقه - كما يقول الفخر الرازى - من البيتوتة، لأن أصلح الأوقات للفكر أن يجلس الإنسان فى بيته بالليل، فهناك تكون الخواطر أخلى، والشواغل أقل. لاجرم سمى الفكر المستقصى مبيتا. أو من بيت الشعر، لأن العرب إذا أرادوا قرض الشعر بالغوا فى التفكر فيه...

والمراد : زوَّر وموَّه ودَّبر.

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين إذا كانوا عندك - يامحمد - وأمرتهم بأمر قالوا : طاعة، فإذا ما خرجوا من عندك وفارقوك دبر وأضمر طائفة منهم وهم رؤساؤهم « غير الذى تقول » أى خلاف ما قلت لتلك الطائفة أو قالت لك من ضمان الطاعة. فهم أمامك يظهرون الطاعة المطلقة، ومن خلفك يدبرون ويضمرون ما يناقض هذه الطاعة ويخالفها.

والتعبير عن الخروج بالبروز للإشارة إلى تفاوت ما بين أحوالهم، وتناقض مظهرهم مع خبيئتهم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٢٩.

وإسناد هذا التبييت إلى طائفة منهم، لبيان أنهم هم المتصدون له بالذات، أما الباقون فتابعون لهم فى ذلك، لا أنهم ثابتون على الطاعة.

وقوله ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أى يثبته فى صحائف أعمالهم. ويفضحهم بسبب سوء أعمالهم فى الدنيا، ثم يجازيهم على هذا النفاق بما يستحقون فى الآخرة، فالجملة الكريمة تهديد لهم على سوء صنيعهم، لعلهم يكفون عن هذا النفاق، وتطمين للنبى ﷺ بأنه - سبحانه - سيطلعه على مكرهم السيء لكى يتقى شرهم، ولذا فقد أمره - سبحانه - بعدم الالتفات إليهم، وبالتوكل عليه - تعالى - وحده فقال:

﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾. أى: إذا كان هذا هو شأنهم يا محمد. فلا تكترث بهم، ولا تلتفت إليهم، وسر فى طريقك متوكلا على الله، ومعتمدا على رعايته وحفظه، وكفى بالله وكيلا وكفيلا لمن توكل عليه، واتبع أمره ونهيه. فانت ترى أن الآية الكريمة قد كشفت عن جانب من صفات المنافقين وأحوالهم، ثم هددتهم على جرائمهم، ورسمت للنبى ﷺ الخطة الحكيمة لعلاجهم واتقاء شرهم.

ثم أنكر - سبحانه - على هؤلاء المنافقين وأشباههم عدم تدبرهم للقرآن وحضهم على تأمل حكمه وأحكامه وهداياته فقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا﴾.

وقوله ﴿يتدبرون﴾ من التدبر، وتدبر الأمر - كما يقول الزمخشرى - تأمله والنظر فى أدباره وما يئول اليه فى عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل فى كل تأمل فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه.

والاستفهام لإنكار عدم تدبرهم، والتعجيب من استمرارهم فى جهلهم ونفاقهم مع توفر الأسباب التى توصلهم إلى الهداية وعلى رأسها تدبر القرآن وتفهم معانيه.

والفاء للعطف على مقدر. أى: أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه.

والمعنى: إن هؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض قد خيب الله سعيهم، وكشف خباياهم، ورأوا بأعينهم سوء عاقبة الكافرين وحسن عاقبة المؤمنين، فهلا دفعهم ذلك إلى الإيمان وإلى تدبر القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وإرشادات وأخبار صادقة، وأحكام حكيمة.. تشهد بأنه من عند الله - تعالى -، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله أى من إنشاء البشر لوجدوا فى أخباره وفى نظمه وفى أسلوبه وفى معانيه اختلافا كثيرا فضلا عن الاختلاف القليل، ولكن القرآن لأنه من عند الله وحده قد تنزه عن كل ذلك وخلا من كل اختلاف سواء أكان كثيرًا أم قليلا.

فالمراد بالاختلاف : تباين النظم، وتناقض الحقائق، وتعارض الأخبار وتضارب المعانى، وغير ذلك مما خلا منه القرآن الكريم لأنه يتنافى مع بلاغته وصدقه.

وفى ذلك يقول صاحب الكشاف : قوله ﴿لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا﴾ أى : لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغا حد الإعجاز. وبعضه قاصرا عنه تمكن معارضته، وبعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى، وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم.

فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء، وتناصر معان، وصدق أخبار، دل على أنه ليس إلا من عند قادر على ما لم يقدر عليه غيره، عالم بمالا يعلمه أحد سواه»[١].

فالآية الكريمة تدعو الناس فى كل زمان ومكان إلى تدبر القرآن الكريم وتأمل أحكامه، والانقياد لما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات وأوامر ونواه، ليسعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

ثم حكى القرآن بعد ذلك مسلكا آخر من المسالك الذميمة التى عرفت عن المنافقين وضعفاء النفوس فقال - تعالى - ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾.

والمراد بالأمر هنا : الخبر الذى يكون له أثر إذا أشيع وأذيع.

وقوله ﴿أذاعوا به﴾ أى نشروه وأشاعوه. يقال : أذاع الخبر وأذاع به إذا أفشاه وأعلنه.

والمعنى : أن هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض إذا سمعوا شيئا من الأخبار التى تتعلق بأمن المسلمين أو خوفهم أذاعوها وأظهروها قبل أن يقفوا على حقيقتها.

قال الآلوسى : والكلام مسوق لبيان جناية أخرى من جنايات المنافقين، أو لبيان جناية الضعفاء أثر بيان جناية المنافقين، وذلك أنهم كانوا إذا غزت سرية من المسلمين قالوا عنها : أصاب المسلمون من عدوهم كذا. وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا من غير أن يكون النبى ﷺ هو الذى يخبرهم به. وقيل : كان الضعفاء يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الخبر عن السرايا مظنون غير معلوم الصحة فيذيعونه قبل أن يحققوه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين»[٢].

ثم بين - سبحانه - ما كان يجب عليهم فعله فقال - : ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

والمراد بأولى الأمر : كبار الصحابة البصراء بالأمور. وقيل المراد بهم : الولاة وأمراء السرايا.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٤٠ (٢) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٩٤

ويستنبطونه أى يستخرجونه. والاستنباط - كما يقول القرطبى - مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته. والنبط : الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تحفر. وسمى النبط نبطا لأنهم يستخرجون ما فى الأرض»[1].

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين وضعاف الإيمان كان من شأنهم وحالهم أنهم إذا سمعوا شيئا من الأمور فيه أمن أو خوف يتعلق بالمؤمنين أشاعوه وأظهروه بدون تحقق أو تثبت، بقصد بلبلة الأفكار، واضطراب حال المؤمنين، ولو أن هؤلاء المنافقين ومن يستمعون إليهم ردوا ذلك الخبر الذى جاءهم والذى أشاعوه بدون تثبت، لو أنهم ردوه إلى الرسول ﷺ وإلى كبار الصحابة البصراء فى الأمور : ﴿لعلمه﴾ أى لعلم حقيقة ذلك الخبر ﴿الذين يستنبطونه﴾ أى : الذين يستخرجونه ويستعملونه ويتطلبونه وهم المنافقون المذيعون للأخبار ﴿منهم﴾ أى : من الرسول وأولى الأمر.

أى : لو أن أولئك المنافقين وأشباههم الذين يستخرجون الأخبار ويذيعونها بغير تثبت سكتوا عن إذاعتها وردوا الأمر فى شأنها إلى الرسول وإلى كبار أصحابه، لو أنهم فعلوا ذلك لعلموا من جهة الرسول ومن جهة كبار أصحابه حقيقة تلك الأخبار، وما يجب عليهم نحوها من كتمان أو إذاعة.

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله ﴿منهم﴾ فى الموضعين يعود إلى الرسول وإلى أولى الأمر.

ويكون المراد بالذين يستنبطونه : المنافقون وضعاف الإيمان الذين يذيعون الأخبار ويكون فى الكلام إظهار فى مقام الإضمار؛ حيث قال : سبحانه - ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ ولم يقل لعلموه منهم، وذلك لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وللمبالغة فى ذمهم على بحثهم وراء الأخبار الخفية الهامة واستنباطها وتطلبها ثم إذاعتها بقصد الإضرار بمصلحة المسلمين.

وقد ذكر الفخر الرازى فى المراد بالذين بستنبطونه وجها آخر فقال :

وفى قوله ﴿الذين يستنبطونه منهم﴾ قولان :

الأول : أنهم أولئك المنافقون المذيعون.

والتقدير : لو أن هؤلاء المنافقين المذيعين للأخبار ردوا أمر الأمن والخوف إلى الرسول وإلى أولى الأمر، وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم، لعلمه الذين يستنبطونه وهم هؤلاء المنافقون المذيعون ﴿منهم﴾ أى من جانب الرسول ومن جانب أولى الأمر.

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٩١

والقول الثانى : أنهم طائفة من أولى الأمر. والتقدير : ولو أن المنافقين ردوا إلى الرسول وإلى أولى الأمر لكان علمه حاصلا عند من يستنبط هذه الوقائع من أولى الأمر، وذلك لأن أولى الأمر فريقان : بعضهم من يكون مستنبطا، وبعضهم من لا يكون كذلك. فقوله ﴿منهم﴾ يعنى لعلمه الذين يستنبطون المخفيات من طوائف أولى الأمر.

فإن قيل : إذا كان الذين أمرهم الله برد هذه الاخبار إلى الرسول وإلى المؤمنين هم المنافقون فكيف جعل أولى الأمر منهم فى قوله ﴿وإلى أولى الأمر منهم﴾ ؟ قلنا : إنما جعل أولى الأمر منهم على حسب الظاهر. لأن المنافقين يظهرون من أنفسهم أنهم يؤمنون. ونظيره قوله - تعالى - : ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان فضله على عباده فقال ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمة لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾.

أى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم - أيها المؤمنون - بتوفيقه إياكم إلى الخير والطاعة، لوقعتم فى إغواء الشيطان كما وقع هؤلاء المنافقون وأشباههم، إلا عددا قليلا منكم وهم الذين أخلصوا دينهم لله واعتصموا به فصاروا لا سبيل للشيطان عليهم كما قال - تعالى - ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾.

هذا. ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب عدم إذاعة الأخبار - خصوصا فى حالات الحرب - إلا بعد التأكد من صحتها ومن عدم إضرارها بمصلحة المسلمين.

وفى ذلك يقول الإمام ابن كثير: قوله - تعالى - ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع».

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال. أى : الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين.

وفى الصحيح «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

وفى سنن أبى داود أن رسول الله ﷺ قال : «بئس مطية الرجل زعموا»[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ١٩٩

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٢٩

وقد عدد الفخر الرازى المضار التى تعود على الأمة بسبب إذاعة الأخبار بدون تثبت فقال : وكان سبب الضرر من إذاعة هذه الأخبار من وجوه :

الأول : أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير.

الثانى : أنه إذا كان ذلك الخبر فى جانب الأمن زادوا فيه زيادات كثيرة. فإذا لم توجد فيه تلك الزيادات، أورث ذلك شبهة للضعفاء فى صدق الرسول ﷺ لأن المنافقين كانوا يروون هذه الإرجافات عن الرسول ﷺ.

وإن كان ذلك فى جانب الخوف تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين، ووقعوا عنده فى الحيرة والاضطراب، فكانت تلك الإرجافات سببا للفتنة من هذا الوجه.

الثالث : أن الإرجاف سبب لتوفيرالدواعى على البحث الشديد والاستقصاء التام. وذلك سبب لظهور الأسرار. وذلك مما لا يوافق المصلحة.

الرابع : أن العداوة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين والكفار. فكل ما كان أمنا لأحد الفريقين كان خوفا للفريق الثانى. فإن وقع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم. أرجف المنافقون بذلك، فوصل الخبر إلى الكفار فأخذوا فى التحصن من المسلمين. وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا فى ذلك وزادوا فيه. فظهر من ذلك أن ذلك الإرجاف كان منشأ للفتن والآفات من كل الوجوه. ولما كان الأمر كذلك ذم الله - تعالى - تلك الإذاعة وذلك التشهير ومنعهم منه)[1].

وقال الشيخ محمد المنير - الذى عاصر الحروب الصليبية - معلقا على هذه الآية : (فى هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع وكفى به كذبا؛ وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء العداوة، والمقيمين فى نحر العدو. وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم خيرا أو غيره. ولقد جربنا ذلك فى زماننا هذا منذ طرق العدو المخذول البلاد - طهرها الله منه وصانها من رجسه ونجسه، وعجل للمسلمين الفتح وأنزل عليهم السكينة والنصر)[2].

والخلاصة، أن إذاعة الأخبار بدون تثبت - خصوصا فى أوقات الحروب تؤدى إلى أعظم المفاسد والشرور، لأنها إن كانت تتعلق بالأمن فإنها قد تحدث لونا من التراخى وعدم أخذ الحذر، وإن كانت تتعلق بالخوف فإنها قد تحدث بلبلة واضطرابا فى الصفوف.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ١٩٨

(٢) حاشية تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٤٠

والمجتمع الذى يكثر فيه العقلاء الفطناء هو الذى تقل فيه إذاعة الأخبار إلا من مصادرها الأصيلة، وهو الذى يرجع أفراده فى معرفة الحقائق إلى العلماء المتخصصين.

وهكذا نرى الآية الكريمة تغرس فى نفوس المؤمنين أسمى ألوان الإخلاص لدينهم ودولتهم وقيادتهم، فهى فى مطلعها تنكر عليهم إذاعة الاخبار بدون تحقق من صدقها ومن فائدتها، وفى وسطها تأمرهم بأن يرجعوا إلى حقائق دينهم وإلى الحكام العادلين، والعلماء المخلصين الذين يعرفون الأمور على وجهها ليسألوهم عما يريدون معرفته، وفى آخرها تذكرهم بفضل الله عليهم ورحمته بهم حتى يداوموا على طاعته، ويشكروه على نعمه.

* * *

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أحوال المنافقين وضعفاء الإيمان، وعن تباطئهم عن الجهاد وإشاعتهم للأخبار بدون تثبت، بعد كل ذلك أمر الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ أن يستمر فى قتاله للمشركين، وأن يحرض أصحابه على ذلك، كما أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى طائفة من مكارم الاخلاق التى تقوى رابطتهم فقال - تعالى - :

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾

والفاء فى قوله ﴿فقاتل﴾ للإفصاح عن جواب شرط مقدر. أى: إذا كان الأمر كما حكى -سبحانه- عن المنافقين وكيدهم... فقاتل أنت يا محمد من أجل إعلاء كلمة الله ولا تلتفت

إلى أفعالهم وأقوالهم.

وقوله ﴿لاتكلف إلا نفسك﴾ أى: قاتل - يامحمد - فى سبيل إعلاء كلمة الله، والله - تعالى - لا يكلفك إلا فعل نفسك، فتقدم للجهاد ولا تلتفت إلى تباطؤ المتباطئين، أو تخذيل المخذلين، فإن الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف.

وجملة ﴿لاتكلف إلا نفسك﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل فقاتل. أى: فقاتل حال كونك غير مكلف إلا نفسك وحدها.

قال صاحب الكشاف: قيل: دعا النبى ﷺ الناس فى بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان قد واعد رسول الله ﷺ اللقاء فيها. فكره بعضهم أن يخرجوا فنزلت فخرج رسول الله ﷺ وما معه إلا سبعون لم يعولوا على أحد. ولولم يتبعه أحد لخرج وحده، وقرىء ﴿لا تكلف﴾ بالجزم على النهى. ولا نكلف: بالنون وكسر اللام.

أى: لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها»[١].

وقوله ﴿وحرض المؤمنين﴾ أى: حثهم على القتال ورغبهم فيه، حتى ينفروا معك خفافا وثقالا من أجل نصرة الحق والدفاع عن المظلومين.

ولقد استجاب النبى ﷺ لهذه الأوامر، وأعد نفسه لقتال أعدائه، ورغب أتباعه فى ذلك، ولذا قال ﷺ عندما أذن الله له فى القتال «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى»[٢] أى: حتى أموت.

ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق فى حروب الردة فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. ولو خالفتنى يمينى لجاهدتهم بشمالى[٣].

ولقد استفاضت أحاديث النبى ﷺ فى ترغيب أمته فى الجهاد، ومن ذلك قوله لأصحابه يوم بدر وهو يسوى الصفوف: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

قال الفخر الرازى: دلت الآية الكريمة على أنه ﷺ كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال، لأنه - تعالى - ما كان يأمره بذلك إلا وهو ﷺ موصوف بهذه الصفات. ولقد اقتدى به أبو بكر - رضى الله عنه - حيث حاول الخروج وحده لقتال ما نعى الزكاة، ومن علم أن الأمر

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢

(٢) السالفة: صفحة العنق، وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به.

(٣) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٩٣

كله بيد الله، وأنه لا يحصل أمر من الأمور إلا بقضاء الله سهل عليه ذلك. ودلت الآية على أنه ﷺ لو لم يساعده على القتال غيره لم يجز له التخلف عن الجهاد»[1].

وقوله: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا﴾ بشارة للمؤمنين، ووعد منه - سبحانه - بحسن عاقبتهم وسوء عاقبة الكافرين. و﴿عسى﴾ حرف ترج. وهو هنا يفيد التحقق واليقين، لأنه صادر عن الله - تعالى -، الذى لا يخلف وعده. وفى التعبير بها تعليم للمؤمنين الأدب فى القول حتى لا يجزمون بأمر يتعلق بالمستقبل، بل يسددون ويقاربون ويباشرون الأسباب ثم بعد ذلك يتركون النتائج لله - تعالى - والمعنى: قاتل يا محمد فى سبيل الله وحرض المؤمنين على ذلك، عسى الله - تعالى - ﴿أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أى يمنع قتالهم وصولتهم وطغيانهم ﴿والله أشد بأسا﴾ أى أشد صولة وأعظم سلطانا، وأقدر بأسا على ما يريده ﴿وأشد تنكيلا﴾ أى أشد عقوبة وتعذيبا.

والتنكيل: مصدر من قول القائل نكلت بفلان فأنا أنكل به تنكيلا إذا أوجعته عقوبة، وجعلته عبرة لغيره. وأصله التعذيب بالنكل وهو القيد، ثم استعمل فى كل تعذيب بلغ الغاية فى الشدة والألم.

وأفعل التفضيل ﴿أشد﴾ ليس على بابه، لأن بأس المشركين لا قيمة له بجانب بأس الله - تعالى - وقوته ونفاذ أمره. وعذابهم لغيرهم من الضعفاء لا وزن له بجانب عذابه - سبحانه - للظالمين، لأن عذابهم لغيرهم يمكن التخلص منه أما عذابه - سبحانه - فلا يمكن التخلص منه ولأن عذابهم لغيرهم سينتهى مهما طال، أما عذابه - سبحانه - للكافرين الظالمين فهو باق دائم لا ينتهى ولا يزول.

والمقصود من هذا التذييل تهديد الكافرين بسوء المصير وتشجيع المؤمنين على قتالهم، وبشارتهم النصر عليهم.

قال القرطبى: قوله - تعالى - ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ إطماع، والإطماع من الله - تعالى - واجب لأن إطماع الكريم إيجاب..

فإن قال قائل: نحن نرى الكفار فى بأس وشدة، وقلتم: إن عسى بمعنى اليقين فأين ذلك الوعد؟ قيل له: قد وجد هذا الوعد ولا يلزم وجوده على الاستمرار والدوام. فمتى وجد ولو لحظة مثلا فقد صدق الوعد؛ فقد كف الله بأس المشركين فى بدر الصغرى. وفى الحديبية وفى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٢٠٤

غزوة الأحزاب حيث ألقى الله - تعالى - فى قلوب الأحزاب الرعب فانصرفوا دون أن ينالوا خيرا ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾. فهذا كله بأس قد كفه الله عن المؤمنين[١].

ثم رغب - سبحانه المؤمنين فى التوسط فى الخير، وحذرهم من التوسط فى الشر، فقال: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾

والشفاعة: هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو إلى إنقاذه من مضرة. وهى مأخوذة من الشفع وهو الزوج فى العدد ضد الوتر. فكأن المشفوع له كان وترا فجعله الشفيع شفعا.

والنصيب: الحظ من كل شىء. والكفل: الضعف والنصيب والحظ.

قال الجمل: واستعمال الكفل فى الشر أكثر من استعمال النصيب فيه وإن كان كل منهما قد يستعمل فى الخير كما قال - تعالى - ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ ولقلة استعمال النصيب فى الشر وكثرة استعمال الكفل فيه غاير بينهما فى الآية الكريمة حيث أتى بالكفل مع السيئة وبالنصيب مع الحسنة»[٢].

والمعنى: من يشفع شفاعة حسنة، أى يتوسط فى أمر يترتب عليه خير ﴿يكن له نصيب منها﴾ أى: يكن له ثواب هذه الشفاعة الحسنة. ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ وهى ما كانت فى غير طريق الخير ﴿يكن له كفل منها﴾ أى: يكن له نصيب من وزرها وإثمها، لأنه سعى فى الفساد ولم يسع فى الخير.

وإطلاق الشفاعة على السعى فى الشر من باب المشاكلة، لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة فى الخير.

والآية الكريمة وإن كانت واردة على سبيل التعميم فى بيان جزاء كل شفاعة حسنة أو كل شفاعة سيئة، إلا أن المقصود بها قصدا أوليا ترغيب المؤمنين فى أن يعاون بعضهم بعضا على الجهاد فى سبيل الله، وفى انضمام بعضهم إلى بعض من أجل نصرة الحق، وتهديد المنافقين الذين كان يشفع بعضهم لبعض لكى يأذن لهم النبى ﷺ فى التخلف عن الجهاد. وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه:

يعنى - سبحانه - بقوله ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ من يصر يا محمد شفعا لوتر أصحابك، فيشفعهم فى جهاد عدوهم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٩٤ - بتصرف وتلخيص

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٠٧

وقتالهم فى سبيل الله، وهو الشفاعة الحسنة يكن له نصيب منها، أى يكن له من شفاعته تلك نصيب، وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته. ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به، فيقاتلهم وذلك هو الشفاعة السيئة يكن له كفل منها. يعنى بالكفل : النصيب والحظ من الوزر والإثم، وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب، وهو الكساء أو الشىء يهيأ عليه شبيه بالسرج على الدابة. يقال : جاء فلان مكتفلا : إذا جاء على مركب قد وطىء له... وقد قيل : إن الآية عنى بها شفاعة الناس بعضهم لبعض. وغير مستنكر أن تكون الآية نزلت فيما ذكر، ثم عم بذلك كل شافع بخير أو شر.

وإنما اخترنا ما قلنا من القول فى ذلك؛ لأنه فى سياق الآية التى أمر الله نبيه فيها بحض المؤمنين على القتال. فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسول الله ﷺ والوعيد لمن أبى إجابته أشبه منه من الحث على شفاعة الناس بعضهم لبعض التى لم يجر لها ذكر قبل. ولا لها ذكر بعد(١).

وقوله ﴿وكان الله على كل شىء مقيتا﴾ تذييل قصد به تعريف الناس أنه - سبحانه - سيجازى كل إنسان بعمله، حتى يكثروا من فعل الخير ويقلعوا عن فعل الشر.

ومقيتا : أى مقتدرا. من أقات على الشىء اقتدر عليه. ومنه قول الزبير ابن عبد المطلب :

وذى ضغن كففت النفس عنه   وكنت على مساءته مقيتًا

أى : وكنت على رد إساءته مقتدرًا.

أو مقيتا : معناها حفيظا من القوت وهو ما يمسك الرمق من الرزق وتحفظ به الحياة :

والمعنى : وكان الله تعالى - ومازال على كل شىء مقتدرا لا يعجزه شىء، وحفيظا على أحوال الناس لا يغيب عنه شىء من ذلك، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

هذا وقد وردت أحاديث متعددة فى الحض على الشفاعة الحسنة، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال : «كان النبى ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : «اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب».

قال صاحب الكشاف : والشفاعة الحسنة هى التى روعى بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير، وابتغى بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت فى أمر جائز، لا فى حد من حدود الله ولا فى حق من الحقوق - يعنى الواجبة عليه - والسيئة ما كانت بخلاف ذلك. وعن مسروق : أنه شفع شفاعة. فأهدى إليه المشفوع له جارية. فغضب وردها. وقال : لو علمت ما فى قلبك ما تكلمت فى حاجتك. ولا أتكلم فيما بقى منها»(٢).

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٢٨٦
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٤٢.

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بالشفاعة الحسنة ونهاهم عن الشفاعة السيئة، أتبع ذلك بتعليمهم أدب اللقاء والمقابلة حتى تزيد المودة والمحبة بينهم فقال - تعالى - : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾.

والتحية : تفعلة من حييت؛ والأصل تحيية مثل ترضية وتسمية فأدغموا الياء فى الياء. قال الراغب : أصل التحية من الحياة، بأن يقال حياك الله، أى : جعل لك حياة، وذلك إخبار ثم جعل دعاء تحية. يقال : حيا فلان فلانا تحية إذا قال له ذلك(١).

وكان من عادة العرب إذا لقى بعضهم بعضا أن يقولوا على سبيل المودة : حياك الله فلما جاء الإسلام أبدل ذلك بالسلام والأمان بأن يقول المسلم لأخيه المسلم : السلام عليكم وأضيف إليها الدعاء برحمة الله وبركاته.

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أى : إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلم، أوردوا عليه بمثل ما سلم. فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة. فعن سلمان الفارسى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليكم يا رسول الله. فقال «وعليك السلام ورحمة الله» ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال له رسول الله ﷺ : «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم جاء ثالث فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له : (وعليك) فقال له الرجل : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على. فقال (إنك لم تترك لنا شيئا) قال الله - تعالى - : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فرددناها عليك. وفى الحديث دلالة على أنه لا زيادة فى السلام على هذه الصفة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ(٢).

فأنت ترى أن الآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى أن يردوا التحية على من يحيونهم وأن يفشوا هذه التحية بينهم، لأن إفشاءها يؤدى إلى توثيق علاقات المحبة والمودة بين المسلمين.

وقد ورد فى الحض على إفشاء السلام أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

وقوله ﴿إن الله كان على كل شىء حسيبا﴾ تذييل قصد به بعث الناس على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

---

(١) مفردات القرآن للراغب الاصفهانى ص ١٤٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٣١.

أى : إن الله - تعالى - كان ومازال مهيمنا على عباده، بصيرًا بكل أقوالهم وأعمالهم، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وسيحاسب الناس يوم القيامة على أفعالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

وإذا كان الأمر كذلك فالعاقل هو الذى يفعل ما أمره الله - تعالى - بفعله، ويجتنب ما أمره الله - تعالى - باجتنابه.

هذا وقد تكلم العلماء هنا كلاما طويلا فى كيفية السلام وفى فضله، وفى بعض أحكامه المأثورة، فارجع إلى كلامهم إن شئت[1].

ثم بين - سبحانه - أن مصير العباد جميعًا إليه يوم القيامة فقال - تعالى - ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾.

أى : الله الواحد الأحد الفرد الصمد والذى لا معبود بحق سواه، كتب على نفسه أنه ليبعثنكم من قبوركم وليحشرنكم إلى الحساب فى يوم القيامة الذى لاشك فى حصوله ووقوعه.

فالجملة الكريمة قررت أن العبادة الحق إنما هى لله رب العالمين، كما قررت أن يوم الحساب آت لاشك فيه مهما أنكره الملحدون، ومارى فيه الممارون.

ولفظ الجلالة مبتدأ، وجملة «لا إله إلا هو» خبر. وقوله ﴿ليجمعنكم﴾ جواب قسم محذوف. أى والله ليحشرنكم من قبوركم للحساب يوم القيامة. والجملة القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو هى خبر ثان للمبتدأ أو هى الخبر وجملة لا إله إلا هو معترضة.

وقوله ﴿لاريب فيه﴾ فى محل نصب على الحال من يوم إذ الضمير فى قوله (فيه) يعود إلى اليوم. ويجوز أن يكون فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف دل عليه ليجمعنكم أى : ليجمعنكم جمعا لاريب فيه.

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ومن أصدق من الله حديثًا﴾ للإنكار والنفى أى : لا يوجد فى هذا الوجود من هو أصدق من الله - تعالى فى حديثه وخبره ووعده ووعيده، وذلك لأن الكذب قبيح، والله - تعالى - منزه عن كل قبيح. ولأن الكاذب إنما يكذب لجر منفعة، أو لدفع مضرة، أو لجهله بقبح الكذب. . والله - تعالى - غنى عن كل شيء، وقدير على كل شيء وخالق لكل شيء، ومن كان كذلك لا يصدر عنه كذب وإنما يصدر عنه كل حق وصدق وعدل.

---

(١) راجع القرطبى جـ ٥ ص ٢٩٨. والألوسى جـ ٥ ص ٩٨. والفخر الرازى جـ١٠ ص ٢٠٨.

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن أحوال المنافقين، وبينت حكم الله - تعالى - فيهم، ورسمت للمؤمنين طريق معاملتهم لغيرهم فقال تعالى :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ
ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

أورد المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين﴾ روايات أهمها روايتان :

أولها : أن هذه الآية نزلت فى شأن المنافقين الذين تخلفوا عن الاشتراك مع المؤمنين فى غزوة أحد. وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد ومعه المسلمون. وفى الطريق رجع عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس وقالوا ﴿لو نعلم قتالا لا تبعناكم﴾ فاختلف أصحاب النبى ﷺ فى شأن هؤلاء المنافقين. فقال بعضهم: نقتلهم فقد كفروا.

وقال آخرون : لم يكفروا. فأنزل الله - تعالى - الآية. فقال رسول الله ﷺ (إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد) :

أما الرواية الثانية : فيؤخذ منها أنها نزلت فى قوم كانوا يظهرون الإسلام بمكة إلا أنهم كانوا يظاهرون المشركين. فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قوما كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم. فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس. وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى هؤلاء الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله : - أو كما قالوا - أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت : ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين﴾.

وهناك روايات أخرى قريبة من هذه الرواية فى معناها قد ذكرها المفسرون[1].

ويبدو لنا أن الرواية الثانية هى الأقرب إلى سياق الآيات وإلى الواقع التاريخى، لأنه من الثابت تاريخيا أن منافقى المدينة لم يرد أمر بقتالهم، وإنما استعمل معهم الرسول ﷺ وسائل أخرى أدت إلى نبذهم وهوان أمرهم، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا﴾ يؤيد أنه ليس المقصود بالمنافقين هنا منافقى المدينة، وإنما المقصود بهم جماعة أخرى من المنافقين كانوا خارج المدينة، إذ لا هجرة من المدينة إلى غيرها وإنما الهجرة تكون من غيرها إليها، لأنها دار الإسلام، ولم يكن فتح مكة قد تم عند نزول هذه الآية.

وقد رجح الإمام ابن جرير سبب النزول الذى حكته الرواية الثانية فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : نزلت هذه الآية فى اختلاف أصحاب رسول الله فى قوم كانوا قد ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا﴾ أوضح دليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة، لأن الهجرة كانت على عهد رسول الله إلى داره ومدينته من سائر أرض

---

(١) راجع الآلوسى جـ ٥ ص ١٠٧ وتفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص ٢٨١

الكفر. فأما من كان من المدينة فى دار الهجرة مقيما من المنافقين وأهل الشرك فلم يكن عليه فرض هجرة[١].

والفاء فى قوله ﴿فما لكم﴾ للتفريع على ما تقدم من أخبار المنافقين وأحوالهم أو هى للافصاح و «ما» مبتدأ و «لكم» خبره.

قال الجمل: وقوله «فى المنافقين» فيه ثلاثه أوجه:

أحدها: أنه متعلق بما تعلق به الخبر وهو «لكم» أى: أى شىء كائن لكم أو مستقر لكم فى أمر المنافقين.

والثانى: أنه متعلق بمعنى فئتين، فإنه فى قوة: ما لكم تفترقون فى أمر المنافقين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

والثالث: أنه متعلق بمحذوف على أنه حال من فئتين، لأنه فى الأصل صفة لها تقديره: فئتين مفترقتين فى المنافقين وصفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصبت حالا. وقوله «فئتين» حال من ضمير «لكم» المجرور والعامل فيه الاستقرار أو الظرف لنيابته عنه...[٢].

والاستفهام لإنكار خلافهم فى شأن المنافقين ولوم المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمنافقين مع أن أحوال هؤلاء المنافقين تدعو إلى سوء الظن بهم.

والمعنى: لقد سقت لكم - أيها المؤمنون - من أحوال المنافقين ما يكشف عن خبثهم ومكرهم، وبينت لكم من صفاتهم ما يدعو إلى الحذر منهم وسوء الظن بهم، وإذا كان هذا هو حالهم فما الذى سوغ لكم أن تختلفوا فى شأنهم إلى فئتين؟ فئة تحسن الظن بهم وتدافع عنهم، وفئة أخرى صادقة الفراسة، سليمة الحكم لأنها عندما رأت الشر قد استحوذ على المنافقين أعرضت عنهم، واحتقرتهم، وأخذت حذرها منهم، وحكمت عليهم بالحكم الذى رضيه الله - تعالى.

والآن - أيها المؤمنون - بعد أن ظهر الحق، وانكشف حال أولئك المنافقين، عليكم أن تتركوا الخلاف فى شأنهم، وأن تتفقوا جميعا على أنهم قوم بعيدون عن الحق والإيمان. ومنغمسون فى الضلال والبطلان.

وقوله ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ حال من المنافقين مفيد لتأكيد الإنكار السابق أى: لم تختلفون - أيها المؤمنون - فى شأن المنافقين هذا الاختلاف والحال أن الله - تعالى - قد ردهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٩٤

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٠٨

إلى الكفر بعد الإيمان بسبب أقوالهم الأثيمة، وأعمالهم القبيحة.

وقوله ﴿أركسهم﴾ من الركس وهو رد أول الشىء على آخره. يقال: ركس الشىء يركسه ركسا إذا قلبه على رأسه. والركس والنكس بمعنى واحد.

والاستفهام فى قوله ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ للإنكار على من أحسن الظن بأولئك المنافقين.

أى: أتريدون أيها المؤمنون الذين أحسنتم الظن بهؤلاء المنافقين أن تعدوهم من جملة المهتدين، مع أن الله - تعالى - قد خلق فيهم الضلال، لأنهم قد استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الغى على الرشد.

وقوله ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ أى: ومن يكتب الله عليه الضلالة، فلن تجد أحدًا يهديه ويرشده، لأن قضاء الله لا يتبدل، وقدره لا يتخلف.

وقوله - تعالى - ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم فى الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم.

أى: أن هؤلاء المنافقين الذين يحسن الظن بهم بعضكم - أيها المؤمنون - لا يكتفون بكفرهم فى أنفسهم بل هم يتمنون ويودون كفركم مثلهم بحيث تكونون أنتم وهم متساوين فى الكفر والنفاق، وإذا كان هذا هو حالهم فكيف تطمعون فى إيمانهم؟ وكيف تحسنون الظن بهم؟

و﴿لو﴾ فى قوله ﴿ودوا لو تكفرون﴾ مصدرية. أى تمنوا كفركم. وقوله ﴿كما كفروا﴾ نعت لمصدر محذوف: أى تمنوا أن تكفروا كفرًا مثل كفرهم.

وقوله ﴿فتكونون سواء﴾ معطوف على قوله ﴿لو تكفرون﴾ ومفرع عليه. أى: ودوا لو تكفرون فتكونون مستوين معهم فى الضلال والكفر والنفاق.

وما أبلغ التعبير فى جانب محاولة المؤمنين بالإرادة فى قوله ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ وفى جانب محاولة المنافقين بالود؛ لأن الإرادة ينشأ عنها الفعل. فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان من المنافقين، لأن الإيمان قريب من فطرة الناس وعقولهم. والمنافقون يعلمون أن المؤمنين لا يرتدون عن دينهم، ويرونهم متمسكين به غاية التمسك، فلم يكن طلبهم تكفير المؤمنين إلا كلون من التمنى الذى لا أمل فى تحققه، فعبر عنه بالود المجرد، أى ودوا ذلك ولكنه ود بعيد التحقق.

وقوله ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله﴾ نهى من الله - تعالى - للمؤمنين عن موالاة المنافقين حتى يصدر منهم ما يدل على إقلاعهم عن النفاق والضلال.

والفاء فى قوله : ﴿فلا تتخذوا﴾ للإفصاح عن شرط مقدر. والتقدير إذا كان هذا هو شأن المنافقين فلا يصح لكم - أيها المؤمنون - أن تتخذوا منهم أولياء أو نصراء أو أصدقاء حتى تتحققوا من إسلامهم بأن يهاجروا من أجل إعلاء كلمة الله من دار الكفر التى يقيمون فيها ويناصرون أهلها إلى دار الإيمان التى تقيمون فيها، وينضمون إليكم لنصرة الحق، ودفع الظلم.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : (دلت الآية على أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقه لأن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين، لأنه هو الأمر الذى به يتقرب إلى الله، ويتوسل به إلى السعادة. . . وإذا كان الأمر كذلك، امتنع طلب المحبة والولاية فى الموضع الذى يكون أعظم موجبات العداوة حاصلا فيه ودلت على إيجاب الهجرة بعد الإسلام - أى فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يسلموا ويهاجروا - وأنهم إن أسلموا لم يكن بيننا وبينهم موالاة إلا بعد الهجرة. ونظيره قوله - تعالى - ﴿ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا﴾.

واعلم أن هذا التكليف إنما كان لازما حال ما كانت الهجرة مفروضة ففى الحديث الشريف : «أنا برىء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين. وأنا برىء من كل مسلم مع مشرك». فكانت الهجرة واجبة إلى أن فتحت مكة. ثم نسخ فرض الهجرة بما رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم فتح مكة «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية». وروى عن الحسن أن حكم الآية ثابت فى كل من أقام فى دار الحرب فرأى فرض الهجرة إلى دار الإسلام قائما)(١).

وقوله : ﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيت وجدتموهم، ولا تتخذوا منهم وليًا ولا نصيرًا﴾ بيان لحكم الله - تعالى - فى هؤلاء المنافقين إذا ما استمروا فى غيهم وضلالهم.

والمعنى : فإن أعرض هؤلاء المنافقون عن الهجرة فى سبيل الله -تعالى- فلا تعتبروا إسلامهم، بل خذوهم فى الأسر، وضيقوا عليهم (واقتلوهم حيث وجدتموهم) لأنهم أعداء لكم ﴿ولا تتخذوا منهم﴾ فى هذه الحالة ﴿وليًا﴾ توادونه وتصادقونه ﴿ولا نصيرًا﴾ تنتصرون به على أعدائكم، لأن ولاية هؤلاء المنافقين محادة لله ولرسوله، والتناصر بهم يؤدى إلى الخذلان كما قال - تعالى - ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾.

فالجملة الكريمة تأمر المؤمنين بقتل أولئك المنافقين الذين ظهر الكفر منهم وتنهاهم عن اتخاذهم أولياء أو أصدقاء وعن الاستنصار بهم.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٢٢١.

وقوله : ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ استثناء من الضمير المنصوب فى قوله ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾.

وقوله ﴿يصلون﴾ بمعنى يلتجئون ويتصلون. الميثاق العهد الموثق.

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم - أيها المؤمنون - أن تأخذوا وتقتلوا أولئك المنافقين الذين أظهروا كفرهم وتمنوا أن تكونوا مثلهم، وامتنعوا عن الهجرة إلى دياركم، وينهاكم عن موالاتهم وعن الاستعانة بهم، لكنه - سبحانه - قد استثنى من هؤلاء الذين أمركم بأخذهم وقتلهم أناسا التجأوا واستندوا إلى قوم بينكم وبينهم عهد أمان، لأنهم بهذا الالتجاء قد صار حكمهم كحكم من لجأوا إليهم من حيث الأمان وعدم الاعتداء.

وقد ذكر العلماء أقوالا فى المراد من القوم الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد أمان، فقيل : هم الأسلميون، كان رسول الله ﷺ، وقت خروجه إلى مكة قد وادع هلال بن عويمر الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذى لهلال. وقيل هم بنو بكر بن زيد. وقيل هم خزاعة(١).

وقوله : ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ عطف على صلة الذين وهو قوله ﴿يصلون﴾.

ومعنى حصرت : ضاقت وانقبضت ومنه الحصر فى القول وهو ضيق الكلام على المتكلم. ويقال حصر صدره يحصر أى ضاق.

أى : خذوا واقتلوا - أيها المؤمنون - المنافقين الذين أعلنوا كفرهم، ولا تأخذوا ولا تقتلوا الذين التجأوا إلى قوم بينكم وبينهم عهد أمان، ولا تأخذوا ولا تقتلوا كذلك الذين جاءوا إليكم وقد ضاقت نفوسهم، وانقبضت صدورهم عن قتالكم لأنكم مسلمون كما أنهم قد ضاقت نفوسهم عن قتال قومهم لأنهم منهم، أو لأنهم يخشون قتالهم خوفا على أموالهم أو على ذريتهم أو ذوى أرحامهم.

فأنت ترى أن الاستثناء فى قوله ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم﴾ قد أخرج من الأخذ والقتل فريقين من الناس :

الفريق الأول : هو الذى ترك المحاربين من الأعداء، والتجأ إلى القوم الذين بينهم وبين المسلمين عهد أمان، فإنه بهذا الالتجاء قد صار حكمه كحكم من التجأ إليهم فى الأمان.

والفريق الثانى : هو الذى جاء إلى المؤمنين، مسالما وترك قومه، إلا أنه فى الوقت نفسه يكره

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٤٠٨.

أن يقاتل المسلمين لحبه لهم. ويكره أن يقاتل قومه لأنهم قومه وعشيرته وأهله أو لأنه لو قاتلهم للحقه الضرر فى ماله أو ذريته.

وقوله: ﴿حصرت صدورهم﴾ فى موضع نصب على الحال بتقدير قد كما يرى بعضهم. وبعضهم لا يرى حاجة لتقديرها، لأنه قد جاء الفعل الماضى حالا بغيرها كثيرًا.

وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو حال من فاعل ﴿جاءوا﴾ أى: جاءوكم حالة كونهم حصرت صدورهم.

وقوله: ﴿أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ مجرور بحرف جر مقدر أى: حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم. أو هو فى محل نصب على أنه مفعول لألأجله. أى حصرت صدورهم كراهة قتالكم أو قتال قومهم.

والمراد بالفريق الثانى بنو مدلج فقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجى حدثهم فقال: لما ظهر النبى ﷺ على أهل بدر وأسلم من حولهم، قال: بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى بنى مدلج. فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى. وأنا أريد أن توادعهم. فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الإسلام. وإن لم يسلموا لم يحسن تغليب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال: اذهب معه فافعل ما يريد. فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فأنزل الله الآية(١).

وقوله ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ بيان لمظهر من مظاهر فضل الله ورعايته للمؤمنين.

أى: ولو شاء الله لسلط جميع المشركين عليكم بأن قوى قلوبهم، وجرأهم عليكم، وجعلهم يبرزون لقتالكم صفا واحدا، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك، بل ألقى الرعب فى صفوف أعدائكم، وجعل منهم من يسالمكم ويأتى إليكم موادعا.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت: ما كانت مكافتهم إلا لقذف الرعب فى قلوبهم. ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه. فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين فذلك معنى التسليط(٢).

وقال القرطبى: قوله - تعالى - ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ تسليط الله المشركين على

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٣٣
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٤٨

المؤمنين هو بأن يقدرهم على ذلك، ويقويهم إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصى. وإما ابتلاء واختبارا كما قال - تعالى - ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ وإما تمحيصا للذنوب كما قال - تعالى - ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾. ولله أن يفعل ما يشاء ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء.

ووجه النظم والاتصال بما قبل. أى: اقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم إلا أن يهاجروا وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق فيدخلون فيما دخلوا فيه فلهم حكمهم، وإلا الذين جاءوكم قد حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فدخلوا فيكم فلا تقتلوهم»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾.

أى: أن هؤلاء الذين استثناهم الله - تعالى - من الأخذ والقتل، اقبلوا مسالمتهم إن اعتزلوا قتالكم فلم يتعرضوا لكم بسوء، وكفوا عن قتالهم إذا ألقوا إليكم السلم، أى: إذا انقادوا للصلح والأمان ورضوا به. وهم متى فعلوا ذلك ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ أى: فما أذن الله لكم فى أخذهم وقتلهم بأى طريق من الطرق التى توصل إلى العدوان عليهم.

وعبر بقوله ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ بدل السلام، للاشارة إلى معنى التسليم لا مجرد الأمن والسلام، لأن السلم يفيد معنى التسليم، فهم ألقوا إليكم قيادهم واستسلموا لأمركم، ودخلوا فى طاعتكم.

وفى نفى أن يكون هناك سبيل عليهم، مبالغه فى عدم التعرض لهم بسوء لأنه إذا انتفى الوصول إليهم انتفى الاعتداء عليهم من باب أولى.

هذا، ويرى جمهور المفسرين أن الأحكام التى اشتملت عليها هذه الآية الكريمة منسوخة بآية سورة التوبة وهى قوله - تعالى - ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾.

قال الجمل: معاهدة المشركين وموادعتهم فى هذه الآية منسوخة بآية السيف - وهى قوله «فإذا انسلخ الأشهر الحرم. الآية» وذلك لأن الله - تعالى - لما أعز الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركى العرب إلا الإسلام أو القتال»[2].

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣١٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤١٠.

ثم بين - سبحانه - صنفا آخر غير هؤلاء المسالمين، وهم قوم من المنافقين المخادعين، الذين لا يضمرون للمؤمنين إلا شرا، ولا يمدون أيديهم إلى أهل الحق إلا بالسوء فقال - تعالى - : ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾.

أى : ستجدون - أيها المؤمنون - قوما من المنافقين آخرين غير الذين وصفتهم لكم، ﴿يريدون﴾ بإظهارهم للإسلام ﴿أن يأمنوكم﴾ على أنفسهم، ويريدون بإظهارهم للكفر ﴿أن يأمنوا قومهم﴾ من الأذى، ومن صفات هؤلاء المخادعين أنهم ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أى : كلما دعوا إلى الردة وإلى العصبية البغيضة وقعوا فيها أشنع وقوع، ورجعوا إليها منكوسين على رءوسهم.

قال ابن جرير : عن مجاهد قال : هم ناس كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان. يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا»[1].

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء المنافقين المخادعين فقال : ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم. وأولئكم جعلنا لكم عليها سلطانا مبينًا﴾.

أى : أن هؤلاء المنافقين إن لم يعتزلوا قتالكم والتعرض لكم بسوء، ويلقوا إليكم الأمان والانقياد، ويمتنعوا عن العدوان عليكم، إن لم يفعلوا ذلك فخذوهم أسرى، واقتلوهم حيث ﴿ثقفتموهم﴾ أى : وجدتموهم وظفرتم بهم. يقال ثقفت الرجل فى الحرب اثقفه، إذا أدركته وظفرت به وقوله ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ أى أولئك الذين وصفتهم لكم جعل الله لكم حجة واضحة فى أخذهم وقتلهم، بسبب ظهور عداوتهم، وانكشاف غدرهم، وتذبذبهم بين الإسلام والكفر تبعا لشهوات نفوسهم المريضة.

هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الأربعة الكريمة يراها قد رسمت للمؤمنين كيف تكون علاقتهم بغيرهم من المنافقين والمشركين.

فهى تأمرهم - أولا - بأن يقفوا من المنافقين الذين أركسهم الله بما كسبوا صفا واحدا ورأيا واحدا، فلا يدافعون عنهم ولا يحسنون الظن بهم، ولا يولونهم ولا يستعينون بهم، حتى يهاجروا فى سبيل الله، فإن امتنعوا عن الهجرة حل أخذهم وقتلهم.

وتأمرهم - ثانيًا - بأن يسالموا - إلى حين - قوما التجأوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٢٠١

وأمان، وأن يسالموا كذلك أولئك الذين يأتون إليهم وهم يكرهون قتالهم أو قتال قومهم، وأظهروا الانقياد والاستسلام للمؤمنين.

وتأمرهم - ثالثا - بأن يأخذوا ويقتلوا أولئك المتلاعبين بالعقيدة والدين والذين بلغ بهم الغدر والخداع أنهم إذا قدموا المدينة أظهروا الإسلام، فإذا ما عادوا إلى مكة أو إلى قومهم أظهروا الكفر، وكانوا مع قومهم ضد المسلمين.

وإنها لتوجيهات حكيمة تبصر المؤمنين بما يجب عليهم نحو غيرهم من الناس الذين يخالفونهم فى عقيدتهم.

* * *

وبعد هذا الحديث الحكيم الذى بين الله - تعالى - فيه أحوال المنافقين، وصفاتهم الذميمة، وموقف المؤمنين ممن يخالفونهم فى العقيدة، بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان حكم القتل الخطأ، وحكم القتل العمد فقال - تعالى - :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

روى المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ﴾. . الآية ومن أشهر هذه الروايات ما جاء عن مجاهد وغيره أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعه، وذلك أنه قتل رجلا كان يعذبه لكى يترك الإسلام، فأضمر عياش قتل ذلك الرجل. ثم أسلم هذا الرجل دون أن يعلم عياش بإسلامه. فلما لقيه فى يوم من الأيام ظن عياش أن الرجل مازال مشركا فقتله. فلما علم بإسلامه أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، قتلته ولم أشعر بإسلامه فأنزل الله الآية(١).

والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت فى حادثة معينة إلا أن حكمها يتناول كل من قتل غيره خطأ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والنفى فى قوله - تعالى - ﴿وما كان﴾ ليس لنفى الوقوع، لأنه لو كان كذلك ما وقع قتل على سبيل الخطأ أبدًا، وإنما النفى بمعنى النهى وعدم الجواز.

وقد أشار القرطبى إلى ذلك بقوله: قوله - تعالى - ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ﴾ هذه آية من أمهات الأحكام. والمعنى ما ينبغى لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ، فقوله: ﴿وما كان﴾ ليس على النفى وإنما هو على التحريم والنهى كقوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ ولو كانت على النفى لما وجد مؤمن قتل مؤمنا قط، لأن ما نفاه الله فلا يجوز وجوده فهو كقوله - تعالى - ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ فلا يقدر العباد أن ينبتوا شجرها أبدا. ثم استثنى استثناء منقطعًا ليس من الأول وهو الذى يكون فيه «إلا» بمعنى لكن. والتقدير: ما كان له أن يقتله البتة لكن إن قتله خطأ فعليه كذا. والخطأ: اسم من أخطأ خطأ وإخطاء إذا لم يصنع عن تعمد، فالخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء. ويقال لمن أراد شيئًا ففعل غيره: أخطأ. ولمن فعل غير الصواب: أخطأ»(٢).

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت. بم انتصب خطأ؟ قلت: بأنه مفعول له. أى: ما ينبغى له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده. ويجوز أن يكون حالا بمعنى: لا يقتله فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ. وأن يكون صفة للمصدر أى: إلا قتلا خطأ. والمعنى، أن من شأن المؤمن أن ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البته، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد، بأن يرمى كافرا فيصيب مسلما. أو يرمى شخصًا على أنه كافر فإذا هو مسلم(٣).

ثم بين - سبحانه - حكم القتل الخطأ فقال: ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٣٤ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣١٢.
(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٤٨.

قوله ﴿فتحرير﴾، التحرير : الإعتاق وهو تفعيل من الحرية. أى جعل الرقبة حرة. وهو مبتدأ محذوف الخبر أى : فعليه تحرير رقبة مؤمنة.

وقوله : ﴿ودية﴾ الدية ما يعطى عوضا من دم القتيل إلى وليه. وهى مأخوذة من الودى كالعدة من الوعد. يقال : ودى القاتل القتيل يديه دية إذا أعطى وليه المال الذى هو بدل النفس. وسمى المال دية تسمية بالمصدر.

والمعنى : أن المؤمن لا يسوغ له ولا يليق به أن يقتل أخاه المؤمن، لأن ذلك محرم تحريمًا قاطعًا، لكن إن وقع منه القتل له على سبيل الخطأ فإن دم القتيل لا يذهب هدرا، بل على من قتل أخاه المؤمن خطأ «تحرير رقبة مؤمنة» أى : إعتاق نفس مؤمنة، وعليه كذلك ﴿دية مسلمة إلى أهله﴾ أى : مؤداة إلى ورثة القتيل عوضًا لهم عما فاتهم من قتيلهم. وقوله ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أى إلا أن يتصدق أهل القتيل بهذه الدية على القاتل، بأن يتنازلوا عنها له على سبيل العفو والصفح.

وعبر - سبحانه - عن العتق بالتحرير فى قوله ﴿فتحرير رقبة﴾ للاشعار بأن الحرية للعبيد مقصد من مقاصد الإسلام، وأن شريعته قد أوجبت على أتباعها أن يعتقوا الأرقاء إذا ما وقعوا فى بعض الأخطاء حتى يتحرر أكبر عدد من الرقاب.

والتعبير عن النفس بالرقبة من باب التعبير عن الكل بالجزء. وكان التعبير بذلك للاشارة إلى أن الرق غل معنوى فى الرقاب، وأن المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى يبذل قصارى جهده فى فك الرقاب من قيدها.

وقيد الرقبة المحررة بأن تكون مؤمنة لتخرج الكافرة، إذ الإسلام يحرص على تحرير الأرقاء المؤمنين دون الكافرين.

قال ابن كثير : وجمهور الفقهاء على أن الرقبة المؤمنة تجزئ سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فقد أخرج الإمام أحمد عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال : يا رسول الله، إن علىّ عتق رقبة مؤمنة. فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها. فقال لها رسول الله ﷺ : «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت : نعم. قال : أتشهدين أنى رسول الله؟ قالت : نعم قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت : نعم. قال : أعتقها»(١).

ويرى بعضهم أنه لا تجزىء إلا الرقبة المؤمنة التى صلت وعقلت الإيمان، أما الصغيرة فإنها لا تجزىء.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٣٤

وقوله ﴿ودية﴾ معطوف على «فتحرير» وقوله ﴿مسلمة﴾ صفة لدية. وقوله ﴿إلى أهله﴾ متعلقة بمسلمة.

قال القرطبى ما ملخصه: ولم يعين الله فى كتابه ما يعطى فى الدية، وإنما فى الآية إيجاب الدية مطلقا، وليس فيها إيجابها على العاقلة أو على القاتل، وإنما أخذ ذلك من السنة.

والعاقلة: قرابات الرجل من جهة أبيه وهم عصبته..

وقد ثبتت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن الدية مائة من الإبل. ووداها ﷺ فى عبد الله بن سهل المقتول بخيبر فكان ذلك بيانا على لسان النبى ﷺ لمجمل الكتاب واختلفوا فيما يجب على غير أهل الإبل، فقالت طائفة: على أهل الذهب ألف دينار. وعلى أهل الورق اثنا عشر ألف درهم.

وقد ثبتت الأخبار عن النبى ﷺ أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة. وأجمع أهل العلم على القول به[1].

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل. فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها، وما فى بطنها. فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة: عبد وأمة. وقضى بدية المرأة على عاقلتها[2].

قالوا: وإنما كانت دية القتل الخطأ على العاقلة، لأن القاتل لو دفعها لأوشكت أن تأتى على جميع ماله، وليكون ذلك دليلا على تضافر الأسرة وتعاونها. وإذا كان القاتل فقيرا وأسرته فقيرة، فإن دية المقتول تكون على بيت مال المسلمين، حتى لا يهدر دم القتيل.

قال القاسمى: تجب الدية على كل عاقلة القاتل. وهم عصبته غير الأصول والفروع[3]. لأنه لما عفى عن القاتل فلا وجه للأخذ منه. وأصوله وفروعه أجزاؤه فالأخذ منهم أخذ منه. ولا وجه لإهدار دم المؤمن. فيؤخذ من عاقلته الذين يرثونه بأقوى الجهات وهى العصبية، لأن الغرم بالغنم. فإن لم يكن له عاقلة أو كانوا فقراء فعلى بيت المال[4].

والتعبير عن أداء الدين بقوله ﴿مسلمة إلى أهله﴾ يومىء إلى وجوب حسن الأداء بأن تسلم هذه الديه إلى أسرة القتيل بكل سماحة ولطف جبرا لخاطرها عما أصابها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣١٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٣٥

(٣) هذا رأى الشافعى ورواية عن أحمد، وقال مالك وأبوحنيفة وأحمد فى أظهر روايتيه بدخول الأصول والفروع فى العاقلة.

(٤) تفسير القاسمى جـ ٥ ص ١٤٤٦

والمراد بقوله ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أى : إلا أن يتبرع بها أولياء المقتول على سبيل العفو والصفح .

وعبر عن ذلك بقوله ﴿يصدقوا﴾ للإشارة إلى أن تبرعهم هذا مرغوب فيه وأنه بمنزلة الصدقة التى لهم ثوابها الجزيل عند الله - تعالى - لاسيما إذا كان أولياء القاتل وعصبته يشق عليهم أداؤها فيتركها أولياء القتيل رأفة بأولياء القاتل وشفقة عليهم، وفى الحديث الشريف ﴿كل معروف صدقة﴾ .

ثم بين - سبحانه - حكم القتل الخطأ لمؤمن ينتمى إلى الأعداء فقال ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ .

أى : فإن كان المقتول خطأ ﴿من قوم عدو لكم﴾ أى محاربين لكم، ﴿وهو مؤمن﴾ أى وكان المقتول مؤمنا ولم يعلم به القاتل، لكونه بين أظهر قومه الكفار ولم يفارقهم، أو أتاهم بعد أن فارقهم لأمرمن الأمور، فعلى القاتل فى هذه الحالة ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ كفارة عن هذا القتل الخطأ، وليس عليه دية، لأن أولياء القتيل من الكفار ولا توارث بين المؤمن والكفار، ولأن دفع الدية إليهم يؤدى إلى تقويتهم علينا ومن غير المعقول أن ندفع لأعدائنا ما يتقوون به علينا .

روى الحاكم وغيره عن ابن عباس قال : كان الرجل يأتى النبى ﷺ ثم يرجع إلى قومه وهم مشركون. فيصيبه المسلمون فى سرية أو غزوة. فيعتق الذى يصيبه رقبة.

ثم بين - سبحانه - حكم القتل الخطأ إذا كان المقتول من قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق فقال - تعالى - : ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ .

أى : وإن كان المقتول خطأ ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أى : من قوم بينكم وبينهم - أيها المؤمنون - عهد من هدنة أو أمان وهم على دينهم وأنتم على دينكم، فعلى القاتل فى هذه الحالة دية تدفعها عاقلته إلى أهل القتيل، لأن حكمهم كحكم المسلمين، وعليه كذلك ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ لتكون كفارة له عند الله، وقدم الدية هنا على تحرير الرقبة على العكس مما جاء فى صدر الآية، للإشعار بوجوب المسارعة إلى تسليم الدية حتى لا يتردد القاتل فى دفعها إلى غير المسلمين الذين بينهم وبين المسلمين عهد يمنع عدم الاعتداء.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جعل الحكم فى قتل المعاهد كالحكم فى قتل المسلم من الدية وتحرير الرقبة، وبعضهم يرى أن المراد بالمقتول خطأ هنا المسلم الذى هو فى قوم معاهدين وأن الدية لا تدفع لهؤلاء القوم فيكون معنى الآية : وإن كان أى المقتول المؤمن ﴿من قوم﴾ كفار

بينكم وبينهم ميثاق، فعلى قاتله دية ﴿مسلمة إلى أهله﴾ من أهل الإسلام إن وجدوا، ولا تدفع إلى ذوى قرابته من الكفار وإن كانوا معاهدين، اذ لا يرث الكافر المؤمن.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب، لأنه لو كان المراد بالمقتول خطأ هنا القتيل المسلم لكان مكررا ولما كان هناك معنى لإفراده اذ حكمه يكون داخلا فى قوله - تعالى - فى صدر الآية «ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله». فلما أفرده - سبحانه - بالذكر علمنا أن المقصود بالقتيل هنا من قتل خطأ من قوم كفار بيننا وبينهم ميثاق سواء أكان المقتول على ديننا أم على دينهم.

وقد ذكر صاحب الكشاف هذا الوجه ولم يذكر سواه فقال: ﴿وإن كان من قوم﴾ - أى: وإن كان المقتول من قوم - كَفرة لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابيين فحكمه حكم مسلم من مسلمين»[1]. ومن العلماء أيضا من يرى أن دية المسلم والكافر سواء ومنهم من يرى غير ذلك.

وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذين الرأيين بقوله: قوله - تعالى - ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾. الآية، أى: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم. فإن كان مؤمنا فدية كاملة وكذا إن كان كافرا أيضا عند طائفة من العلماء. وقيل يجب فى الكافر نصف دية المسلم وقيل ثلثها كما هو مفصل فى كتب الأحكام[2].

ثم يبين - سبحانه - الحكم عند عدم استطاعة إعتاق الرقبة فقال: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله، وكان الله عليما حكيما﴾.

أى: فمن لم يجد رقبه مؤمنة يعتقها فعليه فى هذه الحالة صيام شهرين متواصلين فى أيامهما، لا يفرق بينهم فطر، بحيث لو أفطر يوما فيها استأنف من جديد ابتداء الشهرين، إلا أن يكون الفطر بسبب حيض أو نفاس أو مرض يتعذر معه الصوم.

وقوله - ﴿توبة من الله﴾ مفعول لأجله والتقدير: أى شرع الله لكم ذلك توبة منه أى قبولا لها ورحمة بكم. من: تاب الله على فلان إذا قبل توبته.

وهذه التوبة ليست من إثم القتل الخطأ، لأن الإثم مرفوع عن المخطىء كما فى الحديث الشريف «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

وإنما التوبة هنا من التقصير وقلة التثبت والتحقق، ولكى يكون المسلم يعد ذلك متذكرًا

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٣٥.

فلا يقع منه فى المستقبل ما وقع منه فى الماضى، ولهذا قال الإمام الزيلعى :

«وبهذا النوع من القتل أى القتل الخطأ - لا يأثم إثم القتل، وإنما يأثم إثم ترك التحرز والمبالغة فى التثبت، لأن الأفعال المباحة لا تجوز مباشرتها إلا بشرط ألا تؤذى أحدا. فإذا آذى أحدا فقد تحقق ترك الحرز».

وقوله ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ تذييل قصد به زجر الناس عن اتباع الهوى وعن مخالفة شريعته.

أى : وكان الله وما زال عليما بالنفوس وخباياها وحركاتها وبكل شىء فى هذا الكون : حكيما فى كل ما شرع وقضى. وسيحاسب الناس على أقوالهم. وأعمالهم يوم القيامة. وسيجازيهم بما يستحقون من خير أو من شر.

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أن المؤمن إذا قتل على سبيل الخطأ أخاه المؤمن أو قتل رجلا من قوم كافرين ولكن بيننا وبينهم ميثاق أمان فعليه فى كل حالة من هاتين الحالتين عتق رقبة ودية. أما إذا قتل المؤمن رجلا مؤمنا ولكن كان من قوم كافرين محاربين لنا وليس بيننا وبينهم عهد ولا ميثاق فعلى القاتل تحرير رقبة فقط. فإن لم يستطع تحرير رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين توبة من الله. وبهذه الأحكام الحكيمة تربى النفوس على الاحتراس والاحتياط وأخذ الحذر، وتصان الدماء عن أن تذهب هدرا، وتعوض أسرة القتيل عن فقيدها بما يخفف آلامها، ويجبر خاطرها، وتعوض الجماعة الإسلامية بتحرير رقبة مؤمنة تعمل لصالح الجماعة بحرية وانطلاق بعد أن كانت تعمل لخدمة سيدها فحسب.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة من يقتل مؤمنًا متعمدًا فقال : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾.

أى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدًا﴾ قتله ﴿فجزاؤه﴾ الذى يستحقه بسبب هذه الجناية الكبيرة «جهنم خالدًا فيها» أى باقيا فيها مدة طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله ﴿وغضب الله عليه﴾ بسبب ما ارتكبه من منكر ﴿ولعنه﴾ أى طرده من رحمته ﴿وأعد له﴾ من وراء ذلك كله ﴿عذابا عظيما﴾ يوم القيامة.

هذا وقد ساق المفسرون جملة من الآيات والأحاديث التى تهدد مرتكب هذه الكبيرة بالعذاب الشديد؛ واختلفوا فى حكمها هل هى منسوخة أولا ؟ وهل للقاتل عمدًا توبة أولا ؟ وقد أفاض الإمام ابن كثير فى بيان كل ذلك فقال ما ملخصه :

« هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم والذى هو مقرون بالشرك بالله

فى غير ما آية. قال - تعالى - ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾.

والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدا. فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال المؤمن معتقا - أى خفيف الظهر، سريع السير - ما لم يصب دما حراما. فإذا أصاب دما حراما بلح» أى: أعيا وانقطع.

وفى حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم».

ثم قال: وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا.

وقال البخارى: حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال:

سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة. فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها. فقال: نزلت هذه الآية. ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدًا﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شىء.

وروى ابن جرير أيضا عن سعيد بن جبير قال. سألت ابن عباس عن قوله - تعالى - ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدًا﴾. فقال: إن الرجل إذا عرف الإسلام، وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمنا متعمدًا فجزاؤه جهنم؛ ولا توبه له.

ثم قال: والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها. أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله - تعالى - فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملا صالحا بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته.

قال الله - تعالى - ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب ما عدا الشرك. وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء.

والمراد بالخلود هنا المكث الطويل. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان.

وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا فمراد قائله الزجر والتوبة لا أنه يعتقد بطلان توبته[1].

والآية الكريمة ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم﴾. الصواب فى معناها: أن جزاءه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٣٦.

جهنم. فقد يجازى بذلك وقد يجازى بغيره. وقد لا يجازى بل يعفى عنه. فإن قتل عمدا مستحلا بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد. يخلد فى جهنم بالإجماع. وإن كان غير مستحل بل معتقدا تحريمه فهو فاسق عاص. مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالدا فيها. ولكن تفضل - سبحانه - فأخبر أنه لا يخلد فيها من مات موحدًا فلا يخلد هذا. وقد يعفى عنه ولا يدخل النار أصلا. وقد لا يعفى عنه بل يعذب كسائر العصاة الموحدين. ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد فى النار. فهذا هو الصواب فى معنى الآية[1].

وبهذا نرى أن الآية الكريمة تنهى المؤمن نهيا قاطعا عن أن يمد يده بالسوء لقتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق، وتتوعد الذى يفعل ذلك بغضب الله عليه وطرده من رحمته، وإلحاق العذاب العظيم به يوم القيامة.

* * *

وبعد هذا التحذير الشديد من قتل النفس بغير حق، وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن القتل بدون تبين أو تثبت من أجل التوصل إلى عرض من أعراض الدنيا الفانية، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات متعددة إلا أنها متقاربة فى المعنى. وقد حكى معظمها الإمام القرطبى فقال ما ملخصه:

هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين مروا فى سفرهم برجل معه جمل وغنيمة يبيعها فسلم

(١) تفسير القاسمى جـ٥ ص١٤٥٨.

على القوم وقال: لا إلـه إلا الله محمد رسول الله. فحمل عليه أحدهم فقتله - ظنا منه أن المقتول نطق بالشهادتين ليأمن القتل - فلما ذكر ذلك للنبى ﷺ شق عليه ونزلت الآية فحمل رسول الله ﷺ ديته إلى أهله ورد عليه غنيماته.

وقد قيل: إن القاتل محلم بن جثامة والمقتول عامر بن الأضبط. وقيل: إن القاتل أسامة بن زيد والمقتول مرداس بن نهيك من بنى مرة من أهل فدك.

وفى سنن ابن ماجه عن عمران بن حصين قال: بعث رسول الله ﷺ جيشا من المسلمين إلى المشركين فقاتلوهم قتالا شديدا فمنح المشركون المسلمين أكتافهم. فحمل رجل من المسلمين على رجل من المشركين بالرمح. فلما غشيه قال: أشهد أن لا إلـه إلا الله إنى مسلم. فطعنه فقتله.

فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت. قال: «وما الذى صنعت» مرة أو مرتين. فأخبره بالذى صنع. فقال له رسول الله ﷺ: «فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما فى قلبه»؟ فقال: «يا رسول الله لو شققت بطنه أكنت أعلم ما فى قلبه؟ قال: لا فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه»...

ثم قال القرطبى: ولعل هذه الأحوال جرت فى زمان متقارب فنزلت الآية فى الجميع[1].

والضرب فى الأرض: السير فيها. تقول العرب: ضربت فى الأرض إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيره. وكأن السير فى الأرض سمى بذلك؛ لأنه يضرب الأرض برجليه فى سيره. والمراد بالضرب فى الأرض هنا: السفر والسير فيها من أجل الجهاد فى سبيل الله.

وقوله ﴿فتبينوا﴾ معناه: فتثبتوا وتأكدوا وتأملوا فيما تأتون وتذرون. وقرأ حمزة «فتثبتوا».

قال القرطبى: والسلم والسلم والسلام بمعنى واحد. قال البخارى. وقرىء بها كلها. واختار أبو عبيد «السلام». وخالفه أهل النظر فقالوا؛ السلم هنا أشبه؛ لأنه بمعنى الانقياد والاستسلام. كما قال - تعالى - «فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء».

والمعنى: يأيها الذين آمنوا وصدقوا بالحق، إذا خرجتم من بيوتكم وسرتم فى الأرض من أجل الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ﴿فتبينوا﴾ أى فاطلبوا بيان الأمر فى كل ما تأتون وما تذرون، واحذروا أن تضعوا سيوفكم فى غير موضعها. فإن الأصل فى الدماء الحرمة والصيانة وعدم الاعتداء عليها، وقد حرم الله - تعالى - قتل النفس إلا بالحق.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٣٦٣.

والتبين والتثبت فى القتل واجب حضرًا وسفرا. وإنما خص السفر بالذكر لأن الحادثة التى نزلت فيها الآية وقعت فى السفر.

وقوله ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلـم لست مؤمنا﴾ أى: تأكدوا - أيها المؤمنون - وتثبتوا فى كل أحكامكم وأفعالكم، ولا تقولوا لمن أظهر الانقياد لدعوتكم ودينكم فنطق بالشهادتين أو حياكم بتحية الإسلام. لا تقولوا له لست مؤمنا حقا وإنما قلت ما قلت بلسانك فقط لتأمن القتل. بل الواجب عليكم أن تقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه؛ فإن علم السرائر والبواطن إنما هو لله - تعالى - وحده.

وجملة ﴿لست مؤمنا﴾ مقول لقوله ﴿لا تقولوا﴾: أى لا تنفوا عنه الإيمان وهو يظهره أمامكم وفى هذا من الفقه - كما يقول القرطبى - باب عظيم، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر لا على القطع واطلاع السرائر.

ولقد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ينهى عن قتل من أعلن الاستسلام ويحذر من يقتله بأنه سيقتله به، وقد أرسل بذلك إلى قواد جيوشه لأن الذين يقتلون من يطلب الأمان طمعا فى ماله لا يكون جهادهم خالصا لله، ولا تكون أعمالهم محل رضا الله - تعالى - ولذا قال - سبحانه -:

﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾. والابتغاء: الطلب الشديد والرغبة الملحة.

وعرض الحياة الدنيا: جميع متاعها وأموالها. وسمى متاع الدنيا عرضا، لأنه مهما كثر فهو زائل غير دائم، وعارض غير باق.

قال الراغب: والعرض - بفتح الراء والعين - مالا يكون له ثبات. ومنه استعار المتكلمون العرض لما لا ثبات له إلا بالجوهر. وقيل: الدنيا عرض حاضر تنبيها على أنه لا ثبات لها[1]، والمغانم: جمع مغنم ويطلق على ما يؤخذ من مال العدو، من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول.

والمعنى: تثبتوا - أيها المؤمنون - فى كل أقوالكم وأعمالكم، ولا تتعجلوا فى أحكامكم، ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام أو نطق بالشهادتين لست مؤمنا، وإنما فعلت ذلك تقية؛ ثم تقتلونه. مبتغين من وراء قتله متاع الدنيا الزائل، وعرضها الفانى، إن هذا المسلك يتنافى مع الإيمان الصادق والجهاد الخالص. ومن كان منكم يريد متاع الدنيا فليطلبه من الله وحده - فإن

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص٣٣١.

خزائنه لا تنفد، وعطاءه لا يحد- ولا يطلبه عن طريق الاعتداء على من أظهر الإسلام أو التمس منكم الأمان.

وقوله ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ حال من فاعل ﴿لا تقولوا﴾ لكن لا على أن يكون النهى راجعا للقيد فقط كما فى قولك: لا تطلب العلم تبتغى به الجاه والتفاخر، بل على أنه راجع إليهما جميعا. أى: لا تقولوا له ذلك ولا تبتغوا العرض الفانى.

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة توبيخهم على حرصهم على متاع الدنيا بطريقة لا تتناسب مع الإيمان الكامل، ومع الهدف الذى خرجوا من أجله: وهو إعلاء كلمة الله تعالى - وضم أكبر عدد من الناس إلى دعوة الحق التى جاء بها النبى ﷺ.

وقوله ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ تعليل للنهى عن ابتغاء عرض الحياة الدنيا بهذا الأسلوب فكأنه قال: لا تعودوا إلى ما فعلتموه من قتل من ألقى إليكم السلام طلبا لما له، فإن الله - تعالى - عنده مغانم كثيرة، وفى مقدوره أن يغنيكم من فضله؛ فالجأوا إلى جنابه وحده، وخصوه بالسؤال، وأخلصوا له العمل.

وقوله ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا﴾ تعليل للنهى عما قالوه وما فعلوه.

أى: أنتم - أيها المؤمنون - كنتم من قبل مثل ذلك الذى ألقى إليكم السلام، فقد كنتم فى أول إسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من النطق بالشهادتين وتبادل تحية الإسلام، فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم.

وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقد قال: قوله ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أول ما دخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت من دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام فى المكانة، ولا تقولوا إن تهليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية، فتجعلوه سبيلا إلى استباحة دمه وماله وقد حرمهما الله(١).

فاسم الإشارة راجع إلى ﴿من﴾ فى قوله: ﴿لمن ألقى إليكم السلم﴾.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة راجعا إلى الحالة التى كانوا عليها فى ابتداء إسلامهم. أى كحال هذا الذى يسر إيمانه ويخفيه عن قومه كنتم من قبل.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٥٣.

وقد رجح هذا المعنى ابن جرير فقال ما ملخصه : قوله ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أى كذلك كنتم تخفون إيمانكم فى وقومكم من المشركين، وأنتم مقيمون بين أظهرهم، كما كان هذا الذى قتلتموه مقيما بين أظهر قومه من المشركين مستخفيا بدينه منهم ﴿فمن الله عليكم﴾ أى : فرفع منكم ما كنتم فيه من الخوف من أعدائكم بإظهار دينه وإعزاز أهله، حتى أمكنكم إظهار ما كنتم تستخفون به من توحيده وعبادته. . .(١).

والذى يبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع لهذين التفسيرين، إلا أن التفسير الأول الذى جرى عليه صاحب الكشاف أشمل وأنسب لسياق الآية؛ لأن المقصد الرئيسى الذى تدعو إليه الآية الكريمة هو نهى المؤمنين عن سوء الظن بمن أظهر الإسلام وعن الاعتداء عليه. وأمرهم بان يعاملوا الناس بظواهرهم أما بواطنهم فأمرها إلى الله وحده.

والفاء فى قوله ﴿فتبينوا﴾ فصيحة. أى : إذا كان الأمر كذلك فتبينوا نعمة الله عليكم وداوموا على شكرها، وقيسوا أحوال غيركم بما سبق من أحوالكم، واقبلوا ظواهر الناس بدون فحص عن بواطنهم، ولا تصدروا أحكامكم عليهم إلا بعد التثبت والتأكد من صحتها ولا تشهروا سيوفكم فى وجوههم إلا بعد التأكد من كفرهم وعدوانهم.

وقوله : ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ تذييل قصد به تحذيرهم من مخالفة أمره.

أى : إن الله مطلع على دقيق الأمور وجليلها، خبير بما تسره نفوسكم وما تعلنه، لا يخفى عليه شىء من ظواهركم وبواطنكم، وسيحاسبكم على كل ذلك، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر.

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الكافر إذا نطق بالشهادتين حرم قتله؛ لأنه قد اعتصم بعصام الإسلام المانع من إهدار دمه وماله وأهله.

كما أخذوا منها وجوب التثبت فى الأحكام وفى الأقوال. وأخذ الناس بظواهرهم حتى يثبت خلاف ذلك.

قال الفخر الرازى : اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة فى تحريم قتل المؤمنين. وأمر المجاهدين بالتثبت فيه، لئلا يسفكوا دما حراما بتأويل ضعيف(٢).

وقال بعض العلماء : وقد دلت الآية على حكمة عظيمة فى حفظ الجامعة الدينية، وهى بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر

(١) تفسير الطبرى جـ٥ ص٢٢٦.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٢.

سده، وكما يتهم المتهم غيره فللغير أن يتهم من اتهمه. وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق. وانظر معاملة النبى ﷺ المنافقين معاملة المسلمين.

على أن هذا الدين سريع السريان فى القلوب فيكتفى أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة. إذ لا يلبثون أن يألفوه وتخالط بشاشته قلوبهم. فهم يقتحمونه على شك وتردد فيصير إيمانا راسخا. ومما يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين.

ومن أجل ذلك أعاد الله الأمر فقال ﴿فتبينوا﴾ تأكيدا لقوله ﴿فتبينوا﴾ المذكور قبله. . .[1].

* * *

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بأن يعاملوا الناس على حسب ظواهرهم ونهاهم عند جهادهم عن التعجل فى القتل. أتبع ذلك ببيان فضل المجاهدين المخلصين فقال - تعالى -

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

قال الآلوسى: قوله - تعالى - ﴿لا يستوى القاعدون﴾. شروع فى الحث على الجهاد ليأنفوا عن تركه، وليرغبوا عما يوجب خللا فيه. والمراد بالقاعدين: الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم. وروى البخارى عن ابن عباس: هم القاعدون عن بدر وهو الظاهر الموافق للتاريخ على ما قيل. وقال أبو حمزة: إنهم المتخلفون عن تبوك. وروى أن الآية نزلت فى كعب بن مالك من بنى سلمة ومرارة بن الربيع من بنى عمرو بن عوف. وهلال بن أمية من بنى واقف حين تخلفوا عن رسول الله - ﷺ فى تلك الغزوة»[2].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ٥ ص١٦٨.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٥ ص١٢١.

وقوله ﴿غير أولى الضرر﴾ جملة معترضة جىء بها لبيان أنهم غير مقصودين بعدم المساواة مع المجاهدين فى الأجر.

والضرر: مصد ضَرِر مثل مرض. وهذه الزنة تجىء - غالبا - فى العاهات ونحوها، مثل عمى وحصر وعرج ورمِد.

والمراد بقوله ﴿غير أولى الضرر﴾ أى: غير أصحاب العلل والأمراض التى تحول بينهم وبين الجهاد فى سبيل الله من عمى أو عرج أو ضعف أو غير ذلك من الأعذار.

وقد روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿غير أولى الضرر﴾ روايات منها ما أخرجه البخارى عن البراء قال: لما نزلت ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين﴾. دعا رسول الله ﷺ زيدا فكتبها فجاء ابن أم مكتوب فشكا ضرارته. فأنزل الله: ﴿غير أولى الضرر﴾(١).

وقال القرطبى: روى الأئمة - واللفظ لأبى داود عن زيد بن ثابت قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذى فما وجدت ثقل شىء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سرى عنه فقال: «أكتب» فكتبت فى كتف - أى فى عظم عريض كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم - ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله﴾.. الآية.

فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلا أعمى - لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله السكينة فوقعت فخذه على فخذى. ووجدت من ثقلها فى المرة الثانية كما وجدت فى المرة الأولى ثم سرى عن رسول الله ﷺ فقال: اقرأ يا زيد. فقرأت: ﴿لا يستوى الأقاعدون من المؤمنين﴾. فقال رسول الله ﷺ ﴿غير أولى الضرر﴾ الآية كلها.

قال زيد: فأنزلها الله وحدها فألحقتها. والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع فى كتف(٢).

والمعنى: لا يستوى عند الله - تعالى - الذين قعدوا عن الجهاد لإعلاء كلمة الحق دون أن يكون عندهم من الأعذار ما يمنعهم من ذلك، لا يستوى هؤلاء مع الذين جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. أما الذين قعدوا عن الجهاد لأعذار تمنعهم عن مباشرته، فإن نيتهم الصادقة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٤٠.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٣٢.

سترفع منزلتهم عند الله - تعالى -، وستجعلهم فى مصاف المجاهدين بأموالهم وأنفسهم أو قريبين منهم.

ويشهد لذلك ما رواه البخارى وأبو داود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال - وهو يسير إلى تبوك: «إن بالمدينة أقواما ما سرتم من سير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة قال: نعم حبسهم العذر».

قال ابن كثير: وفى هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا

وقوله: ﴿لا يستوى﴾ نفى لاستواء المجاهدين والقاعدين، والمقصود بهذا النفى التعريض بالمفضول لتفريطه وزهده فى الخير، وحض على الاقتداء بمن هو أفضل منه، إذ من المعروف أن القاعد عن الجهاد لا يساوى المجاهد فى الفضل والثواب. فتعين أن يكون المراد بهذا التعبير التعريض بالقاعدين ليتأسوا بالمجاهدين، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله:

فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان فما فائدة نفى الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم، والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته. فيهتز للجهاد ويرغب فيه، وفى ارتفاع طبقته، ، ونحوه: ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ أريد به التحريك من الجهل إلى التعلم. ولينهض الشخص بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم.

وقوله ﴿من المؤمنين﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من القاعدين.

وفائدة قوله: ﴿من المؤمنين﴾ الإيذان من أول الأمر بأن قعودهم عن الجهاد لم يمنعهم عن الوصف بالإيمان، لأن قعودهم عن الجهاد لم يكن عن نفاق أو عن ضعف فى دينهم، وإنما كان عن تراخ أو اشتغال ببعض الأمور الدنيوية.

قال الجمل وقوله: ﴿غير أولى الضرر﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم ﴿غير﴾ بالرفع: وقرأ الباقون بالنصب. وقرأ الأعمش بالجر.

فالرفع على وجهين:

أظهرهما أنه على البدل من ﴿القاعدون﴾. وإنما كان هذا أظهر لأن الكلام نفى والبدل معه أرجح.

والثانى: أنه رفع على أنه صفة لقوله ﴿القاعدون﴾ لأنهم لما لم يكونوا أناسًا بأعيانهم بل أريد

بهم الجنس أشبهوا النكرة فوصفوا بها.

وأما النصب فعلى : الاستثناء من ﴿القاعدون﴾ وهو الأظهر، لأنه المحدث عنه.

وأما الجر فعلى أنه صفة للمؤمنين(١).

وقوله : ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى﴾ بيان لمزية المجاهدين على غيرهم.

والمراد بالقاعدين هنا - الذين قعدوا عن الجهاد لسبب مانع من مباشرته أى : فضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم من أجل إعزاز دينه، فضلهم درجة على القاعدين بأعذار، لأن المجاهدين قد عرضوا أنفسهم للمخاطر والأهوال ، وبذلوا أرواحهم وأموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله.

والدرجة هنا مستعارة للعلو المعنوى أى أن المراد بها هو الفضل، ووفرة الأجر وزيادة الثواب. والتنوين فيها للتعظيم.

قال ابن جرير : فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة، يعنى فضيلة واحدة. وذلك بفضل جهادهم بأنفسهم فأما فيما سوى ذلك فهما مستويان »(٢).

وقوله ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ جملة معترضة جىء بها تداركا لما عسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول.

أى : وكل واحد من فريقى المجاهدين والقاعدين من أهل الضرر وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت فى زيادة العمل المقتضى لمزيد الثواب.

وقوله ﴿كلا﴾ مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لإفادة القصر تأكيدا للوعد وتنوينه عوض عن المضاف إليه. وقوله ﴿الحسنى﴾ مفعول ثان.

ثم بين - سبحانه - أنه قد فضل المجاهدين على القاعدين بغير عذر بدرجات عظيمة فقال ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾.

أى : وفضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دون أن يكون هناك

---

(١) حاشية الجمل على الجليلين جـ١ ص ٤١٥

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٣١

عذر يمنعهم عن الجهاد، فضل الله المجاهدين على هؤلاء القاعدين بالأجر العظيم والثواب الجزيل، والمنزلة الرفيعة.

وقوله ﴿أجرا عظيما﴾ منصوب على النيابة عن المفعول المطلق المبين للنوع، لأن الأجر هو ذلك التفضيل. أو على نزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم. أو على أنه مفعول ثان بتضمين فضل معنى أعطى أى أعطاهم أجرا تفضلا منه.

ثم فصل - سبحانه - هذا الأجر العظيم فقال ﴿درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما﴾.

أى فضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين عن الجهاد بغير عذر بالأجر العظيم؛ الذى يرفعهم عند الله - تعالى - درجات عالية ويقربهم من مقامات قدسه، ويغفر لهم ما فرط منهم، ويتغمدهم بسابغ رحمته وكان الله كثير الغفران لأوليائه واسع الرحمة بأهل طاعته.

وقوله ﴿درجات منه﴾ بدل أو عطف بيان من قوله ﴿أجرا عظيما﴾. وقوله ﴿منه﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات.

ونكرت الدرجات للإشعار بأنها درجات عظيمة لا يحدها الحصر، ولا يعينها المقدار، بل هى شرف عظيم لا يناله إلا المقربون الأبرار.

هذا، وما جرينا عليه من أن المجاهدين يمتازون عن القاعدين بعذر بدرجة، ويمتازون عن القاعدين بغير عذر بدرجات هو رأى كثير من المفسرين، وقد عبر عنه صاحب الكشاف بقوله: فإن قلت: قد ذكر الله - تعالى - مفضلين درجة ومفضلين درجات فمن هم؟ قلت: أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضراء. وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاء بغيرهم، لأن الغزو فرض كفاية[1].

ومن المفسرين من يرى أن الذين فضل الله عليهم المجاهدين بدرجة وبدرجات هم صنف واحد، وهم الذين قعدوا عن الجهاد بدون عذر. أما الذين قعدوا بعذر فهم متساوون فى الأجر مع المجاهدين.

وعلى هذا الرأى سار الآلوسى فى تفسيره فقد قال ما ملخصه: «فضل الله المجاهدين» فى سبيله «بأموالهم وأنفسهم على القاعدين» من المؤمنين غير أولى الضرر ﴿درجة﴾ لا يقادر

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٥٤

قدرها. ﴿وكلا﴾ أى : كل واحد من الفريقين المجاهدين والقاعدين (وعد الله الحسنى). وقوله ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين﴾ عطف على ما قبله ﴿أجرا عظيما﴾.

ثم قال : ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبىء عن المغايرة. وتقييده تارة بدرجة وتارة بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه. إما لتنزيل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيدًا لسلوك طريق الإبهام ثم التفسير... وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين والدرجة والدرجات[1].

وقد حكى الإمام القرطبى هذين الوجهين فقال : قوله - تعالى - ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ وقد قال بعد هذا : ﴿درجات منه ومغفرة ورحمة﴾ فقال قوم : التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وبيان وتأكيد.

وقيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة. وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير عذر درجات[2].

والذى نراه أولى من هذين القولين قول من قال بأن الله - تعالى - فضل المجاهدين على القاعدين بعذر بدرجة، وفضل المجاهدين على القاعدين بغير عذر بدرجات، وذلك لأن هذا التفسير هو المأثور عن ابن عباس وغيره من الصحابة. فقد قال ابن عباس فى قوله - تعالى - ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر[3] ولأن القاعدين بعذر وإن كانوا لهم من حسن النية ما يرفع منزلتهم إلا أن المجاهدين الذين باشروا الجهاد وعرضوا أنفسهم لأخطار القتال يفوقونهم منزلة وأجرًا.

وهذا ما يقتضيه منطق العقول البشرية، أما عطاء الله بعد ذلك لكل فريق فمرجعه إليه وحده على حسب ما تقتضيه حكمته وسعة رحمته.

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن الجهاد من أفضل الأعمال وأن المجاهدين لهم عند الله - تعالى - منازل عالية. ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله. بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ومنه تتفجر أنهار الجنة».

* * *

(١) تفسير الألوسى جـ ٥ ص ١٢٣

(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٤٤

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤١٥

وبعد أن رفع - سبحانه - من شأن المجاهدين، وبين حال القاعدين عن الجهاد بعذر أو بغير عذر، أتبع ذلك ببيان حال القاعدين فى دار الكفر بدون هجرة إلى دار الإسلام، ووعد المهاجرين فى سبيل الله بحسن العاقبة فقال - تعالى - :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿إن الذين توفاهم﴾ روايات منها ما أخرجه البخارى عن ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ يأتى السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله. أو يضرب فيقتل. فأنزل الله : ﴿إن الذين توفاهم﴾ ... الآية.

ومنها ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : كان قوم بمكة قد أسلموا. فلما هاجر رسول الله كرهوا أن يهاجروا - خوفا على أموالهم ونفورا من مفارقة أوطانهم - فأنزل الله الآية.

ومنها ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا. وكانوا يخفون الإسلام. فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر. فأصيب بعضهم. فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت الآية[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٤٢ وتفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٢٠١

قال ابن كثير - بعد ذكره لهذه الروايات - : هذه الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع وبنص هذه الآية..

وقوله : ﴿توفاهم﴾ يحتمل أن يكون فعلا ماضيا، وتركت علامة التأنيث للفصل، ولأن الفاعل ليس مؤنثا تأنيثًا حقيقيًا. ويحتمل أن يكون فعلا مضارعا وأصله «تتوفاهم» فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا. وهو من توفى الشىء إذا أخذه وافيا تاما.

والمراد من التوفى : قبض أرواحهم وإماتتهم. وقيل المراد به : حشرهم إلى جهنم.

والمراد من الملائكة : ملك الموت وأعوانه الذين يتولون قبض الأرواح بإذن الله وأمره.

وظلم النفس معناه : أن يفعل الإنسان فعلا يؤدى إلى مضرته وسوء عاقبته سواء أكان هذا الفعل كفرًا أم معصية.

وإنما كان ظالما لنفسه لأنه قال قولا أو فعل فعلا ليس من شأن العقلاء أن يقولوه أو يفعلوه لو خامة عقباه.

والمعنى : إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم وتميتهم حال كونهم قد ظلموا أنفسهم بسبب رضاهم بالذل والهوان، وإقامتهم فى أرض لم يستطيعوا أن يباشروا تعاليم دينهم فيها، وعدم هجرتهم إلى الأرض التى يقيم فيها إخوانهم فى العقيدة مع قدرتهم على الهجرة...

إن الذين تتوفاهم الملائكة وهم بهذه الحال، تسألهم الملائكة سؤال تقريع وتوبيخ عند قبض أرواحهم أو يوم القيامة فتقول لهم : «فيم كنتم» أى : فى أى حال كنتم؟ أكنتم فى عزة أم فى ذلة؟ وكيف رضيتم البقاء مع الكافرين الذين أذلوكم وسخروا من دينكم؟ أو المعنى : فى أى شىء كنتم من أمور دينكم؟

﴿قالوا كنا مستضعفين فى الأرض﴾ أى : قال الذين ظلموا أنفسهم للملائكة : كنا فى الدنيا يستضعفنا أهل الشرك فى أرضنا وبلادنا، وصيرونا أذلاء لا نملك من أمرنا شيئًا. وهو اعتذار قبيح يدل على هوان المعتذرين به وضعف نفوسهم، ولذلك لم تقبل منهم الملائكة هذا العذر، بل ردت عليهم بما حكاه الله - تعالى - فى قوله : ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾؟

فالاستفهام لإنكار عذرهم، وعدم الاعتداد به.

أى أن الملائكة تقول لهم - كما يقول الآلوسى - : إن عذركم عن ذلك التقصير بحلولكم بين أهل تلك الأرض أبرد من الزمهرير، إذ يمكنكم حل عقدة هذا الأمر الذى أخل بدينكم بالرحيل إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعل من هاجر إلى

الحبشة وإلى المدينة. أو إن تعللكم عن الخروج مع أعداء الله - تعالى - بأنكم مقهورون غير مقبول، لأنكم متمكنون من المهاجرة ومن الخروج من تحت أيديهم[١].

وقوله ﴿ظالمى أنفسهم﴾ جملة حالية من ضمير المفعول فى قوله: ﴿توفاهم﴾ أى: تتوفاهم الملائكة فى حال ظلمهم لأنفسهم. والإضافة فيه لفظية فلا تفيده تعريفًا. والأصل ظالمين أنفسهم فحذفت النون تخفيفا.

قال الجمل ماملخصه: وخبر إن فى قوله ﴿إن الذين توفاهم﴾. محذوف تقديره: إن الذين توفاهم الملائكة هلكوا. ويكون قوله: ﴿قالوا فيم كنتم﴾ مبينا لتلك الجملة المحذوفة. أو يكون الخبر قوله ﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾ ودخلت الفاء فى الخبر تشبيها للموصول باسم الشرط...[٢].

وقوله ﴿قالوا كنا مستضعفين فى الأرض﴾ جملة مستأنفة جوابًا عن سؤال مقدر فكأنه قيل: فماذا قال أولئك الذين ظلموا أنفسهم للملائكة؟ فكان الجواب: كنا مستضعفين فى الأرض.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف صح وقوع قوله «كنا مستضعفين فى الأرض» جوابًا عن قولهم: فيم كنتم وكان حق الجواب: كنا فى كذا أو لم نكن فى شىء؟ قلت معنى «فيم كنتم» التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا. فقالوا: كنا مستضعفين اعتذارا مما وبخوا به، واعتلالا بالاستضعاف، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا فى شىء. فبكتتهم الملائكة بقولهم: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾، أرادوا: إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التى تمنعون فيها من إظهار دينكم.

وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب - والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر - أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم للعبادة حقت عليه المهاجرة.

ويبدو أن الإمام الزمخشرى كان عند تفسيره لهذه الآية قد هاجر من موطنه للإقامة بجوار بيت الله الحرام، فقد قال خلال تفسيره لها «اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى فاجعلها سببا فى خاتمة الخير، ودرك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك. وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك بجوارك فى دار كرامتك يا واسع المغفرة»[٣].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص١٢٦ - بتصرف يسير.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٤١٦.

(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٥٥

وقال القرطبى : ويفيد هذا السؤال والجواب أنهم ماتوا مسلمين ظالمين لأنفسهم فى تركهم الهجرة، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يقل لهم شىء من هذا. وإنما أضرب عن ذكرهم فى الصحابة لشدة ما واقعوه(١).

وقوله ﴿فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين آثروا العيش فى أرض الكفر مع الذل على الهجرة إلى أرض الإسلام.

أى : فأولئك الذين ماتوا ظالمين لأنفسهم ﴿مأواهم جهنم﴾ أى : مسكنهم الذى يأوون إليه فى الآخرة جهنم، وهى مصيرهم الذى سيصيرون إليه ﴿وساءت مصيرا﴾ أى : وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصيرا ومسكنا ومأوى، لأنهم سيذوقون فيها العذاب الأليم.

وجىء باسم الإشارة ﴿أولئك﴾ للاشعار بأنهم جديرون بالحكم الوارد بعده للصفات التى وصفوا بها قبله، فهم كانوا قادرين على الهجرة لكنهم لم يهاجروا لضعف نفوسهم وحرصهم على أموالهم ومصالحهم.

والمخصوص بالذم فى قوله ﴿وساءت مصيرا﴾ محذوف. أى : جهنم.

ثم استثنى - سبحانه - من هذا المصير السىء لمن ظلموا أنفسهم ثلاثة أصناف من الناس فقال : ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾.

أى : أن هذا المصير السىء والعذاب المهين هو للذين ظلموا أنفسهم بترك الهجرة إلى المسلمين مع قدرتهم عليها، لكن هناك طوائف من الناس خارجون من هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ومن هذا المصير الأليم، وهم أولئك الرجال الذين عجزوا حقا عن الهجرة لضعفهم أو مرضهم أو شيخوختهم. . أو النساء اللائى لا يستطعن الخروج وحدهن خشية من الاعتداء عليهن أو الولدان الذين لم يبلغوا الحلم بعد، أو بلغوه بلوغا قريبا لكنهم لا يستطيعون الهجرة بمفردهم لقلة ذات يدهم أو لغير ذلك من الأعذار الصحيحة.

وقوله ﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا﴾ جملة مستأنفة موضحة لمعنى الاستضعاف. حتى لا يتوهم متوهم أن استضعاف هؤلاء كالاستضعاف الذى تذرع به أولئك الذين ظلموا أنفسهم عندما قالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿كنا مستضعفين فى الأرض﴾. ويصح أن تكون حالا من المستضعفين.

أى : ليس مندرجا مع الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا المصير السىء أولئك الضعفاء من الرجال والنساء والولدان؛ لأنهم ﴿لا يستطيعون حيلة﴾ فى الخروج؛ إذ لا قوة لهم على الخروج

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٤٦

ولا نفقة معهم توصلهم مبتغاهم ﴿ولا يهتدون سبيلا﴾ أى : ولا يعرفون الطريق التى توصلهم إلى دار هجرتهم.

قال القرطبى : والحيلة : لفظ عام لأنواع أسباب التخلص. والسبيل : سبيل المدينة. فيما ذكر مجاهد والسدى وغيرهما. والصواب أنه عام فى جميع السبل.

والاستثناء فى قوله ﴿إلا المستضعفين﴾ منقطع - على الصحيح - لأن هؤلاء الذين قعدوا عن الهجرة لعجزهم، خارجون من أولئك الذين ظلموا أنفسهم بقعودهم عن الهجرة مع قدرتهم على ذلك.

وفى ذكر الولدان مبالغة فى أمر الهجرة حتى لكأنها لو استطاعها غير المكلفين لقاموا بها، وإشعار بأن على أوليائهم أن يهاجروا بهم معهم متى تمكنوا من ذلك.

وقوله ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾. بيان لحكم هؤلاء المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

أى : أن هؤلاء الذين قعدوا عن الهجرة لأعذار حالت بينهم وبينها «عسى الله أن يعفو عنهم» أى : يتجاوز عنهم بفضله ورحمته بسبب عدم استطاعتهم للهجرة.

قال الجمل : وعسى ولعل فى كلام الله واجبتان، وإن كانتا رجاء وطمعا فى كلام المخلوقين، لأن المخلوق هو الذى تعرض له الشكوك والظنون. والبارى منزه عن ذلك، وإذا أطمع - سبحانه - عبده وصله[1].

وقال الآلوسى : وفى قوله ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ إيذان بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى ان المضطر الذى تحقق عدم وجوبها عليه ينبغى له أن يعد تركها ذنبا، ولا يأمن. ويترصد الفرصة ويعلق قلبه بها»[2].

وقوله ﴿وكان الله عفوًا غفورًا﴾ تذييل مقرر لما قبله بأتم وجه أى وكان الله - تعالى -. وما زال كثير العفو عن عباده فيما يقعون فيه من تقصير، كثير المغفرة لمن تاب إليه وأناب.

ثم رغب - سبحانه - فى الهجرة من أجل إعلاء دينه بأسمى ألوان الترغيب فقال : ﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة﴾.

وقوله : ﴿مراغما﴾ اسم مكان أى يجد فى الأرض متحولا ومهاجرا.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤١٨

(٢) تفسير الالوسى جـ ٥ ص ١٢٧

قال القرطبى ما ملخصه : اختلف فى تأويل المراغم فقال مجاهد : المراغم : المتزحزح. وقال ابن عباس : المراغم : المتحول والمذهب. وقال ابن زيد : المراغم : المهاجر.

وهذه الأقوال متفقة المعانى وهو اسم الموضع الذى يراغم فيه. وهو مشتق من الرغام أى التراب ورغم أنف فلان أى لصق بالتراب. وراغمت فلانا هجرته وعاديته.

وهذا كله تفسير بالمعنى. فأما الخاص باللفظة فهو أن المراغم موضع المراغمة كما ذكرناه وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده.

فكأن كفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش لحصوله فى منعة منهم، فتلك المنعة هى موضع المراغمة[1].

والمعنى : ومن يهاجر تاركا دار إقامته من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، يجد فى الأرض أماكن كثيرة يأمن فيها مكر أعدائه وظلمهم، ويجد فيها من الخير والنعمة والسعة فى الرزق ما يكون سببا لرغم أنف أعدائه الذين فارقهم كراهة لصحبتهم القبيحة، ومعاملتهم السيئة.

قال الفخر الرازى : وذلك لأن من فارق بلده وذهب إلى بلدة أجنبية، فإذا استقام أمره فى تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم له ورغمت أنوفهم - أى أصابهم الذل - بسبب ذلك.

فكأنه قيل. يأيها الإنسان إنك كنت تكره الهجرة عن وطنك خوفا من أن تقع فى المشقة والمحنة والسفر، فلا تخف فإن الله - تعالى - سيعطيك من النعم الجليلة، والمراتب العظيمة، فى دار هجرتك ما يصير سببا لرغم أنوف أعدائك، ويكون سببا لسعة عيشك.

وإنما قدم - سبحانه - ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش؛ لأن ابتهاج الإنسان الذى يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم له بدولته من حيث إنها تصير سببا لرغم أنوف الأعداء. أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سببا لسعة العيش عليه[2].

وقوله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ تنويه عظيم بشأن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله، حيث جعل - سبحانه - ثوابها حاصلا حتى ولو لم يصل المهاجر إلى مقصده.

أى : ومن يخرج من بيته تاركا أهله ووطنه، فارا بدينه إلى المكان الذى تعلو فيه كلمة الله وكلمة رسوله، قاصدا بذلك نصرة الحق وأهله، من يفعل ذلك ﴿ثم يدركه الموت﴾ وهو فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٤٨

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٥ طبعة عبد الرحمن محمد.

طريقه قبل أن يصل إلى مكان هجرته «فقد وقع أجره على الله» أى: فقد ثبت ووجب له الأجر عند الله - تعالى - تفضلا منه - سبحانه - وكرما ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ فيغفر لهذا المهاجر ما فرط منه من تقصير، ويرحمه برحمته الواسعة.

وقوله ﴿ثم يدركه﴾ بالجزم عطفا على فعل الشرط وهو ﴿ ومن يخرج﴾. وجوابه قوله: ﴿فقد وقع أجره على الله﴾.

قال الآلوسى: وقرىء ﴿ثم يدركه﴾ بالرفع. وخرجه ابن جنى على أنه فعل مضارع مرفوع والموت فاعله. والجملة خبر لمبتدأ محذوف أى: ثم هو يدركه الموت[1].

وفى التعبير بقوله ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ بعث للطمأنينة فى قلوب المهاجرين، وحفز لهم على الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله؛ لأنهم إذا وصلوا إلى دار هجرتهم فقد راغموا أنف أعدائهم ورزقهم الله بالخير من فضله، وإن ماتوا قبل أن يصلوا أعطاهم - سبحانه - ثواب المهاجرين كاملا ببركة حسن نياتهم، وكافأهم على ذلك أجرا جزيلا لا يعلم مقداره إلا هو.

وقد وردت روايات فى سبب نزول هذه الآية الكريمة منها ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها نزلت فى جندب بن ضمرة وكان قد بلغه وهو بمكة قوله - تعالى - : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم﴾. . الآية فقال لبنيه: أحملونى فإنى لست من المستضعفين، وإنى لأهتدى إلى الطريق، وإنى لا أبيت الليلة بمكة. فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة - وكان شيخا كبيرا، فمات بالتنعيم - وهو موضع قرب مكة - ولما أدركه الموت أخذ يصفق يمينه على شماله ويقول: اللهم هذه لك. وهذه لرسولك ﷺ أبايعك على ما بايع عليه رسولك - ثم مات - ولما بلغ خبر موته الصحابة قالوا: ليته مات بالمدينة فنزلت الآية[2].

هذا، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى:

١ - وجوب الهجرة من دار لا يستطيع المسلم فيها أن يؤدى شعائر دينه.

قال القرطبى: فى هذه الآيات دليل على هجران الأرض التى يعمل فيها بالمعاصى. وقال سعيد بن جبير: إذا عمل بالمعاصى فى أرض فاخرج منها. وتلا ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾. وقال مالك: هذه الآيات دالة على أنه ليس لأحد المقام فى أرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق[3].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٢٧.

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٢٩

(٣) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٤٨

وقال الشيخ القاسمى ماملخصه : قال الحافظ بن حجر فى «الفتح» : الهجرة الترك. والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره. وفى الشرع : ترك مانهى الله عنه.

وقد وقعت فى الإسلام على وجهين :

الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن. كما فى هجرتى الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثانى : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان. وذلك بعد أن استقر النبى ﷺ بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين. وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالمدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقى عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقيا.

ثم قال الشيخ القاسمى : وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلى بلفظ : انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار. أى : ما دام فى الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشى أن يفتن فى دينه.

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة. ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(١).

٢ - أن من خرج للهجرة فى سبيل الله ومات فى الطريق أعطاه الله - تعالى - أجر المهاجرين ببركة نيته الصادقة، ويدل على ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقال صاحب الكشاف : كل هجرة لغرض دينى - من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهدا فى الدنيا أو ابتغاء رزق طيب - فهى هجرة إلى الله ورسوله. وإن أدركه الموت فى طريقه فأجره واقع على الله(٢).

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد وبخت الذين رضوا أن يقيموا مع الكافرين فى ذلة وهوان مع قدرتهم على الهجرة، وتوعدتهم على ضعف إيمانهم، بسوء المصير، وحرضت المؤمنين فى كل زمان ومكان على الهجرة فى سبيل الله بأسمى ألوان التحريض وأشدها، ووعدت المهاجر

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٥ ص ١٤٩٢

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٥٧

من أجل إعلاء كلمة الحق بالخير الوفير، والأجر الجزيل. «وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

* * *

وبعد أن حض - سبحانه - عباده على الهجرة فى سبيله أتبع ذلك ببيان جانب من مظاهر رحمته فى التيسير عليهم فيما شرعه لهم من عبادات، حيث أباح لهم قصر الصلاة فى حالة السفر، وعرفهم كيف يؤدونها فى حالة الجهاد والخوف من مباغتة العدو لهم فقال - تعالى - :

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾
وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ
مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا
مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا
فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

قوله ﴿وإذا ضربتم فى الأرض﴾ أى : إذا سافرتم، وأطلق الضرب فى الأرض على السفر؛ لأن المسافر يضرب برجله وبراحلته على الأرض.

والمراد من الأرض : ما يشمل البر والبحر. أى إذا سافرتم - أيها المؤمنون - فى أى مكان

يسافر فيه من بر أو بحر ﴿فليس عليكم جناح﴾ أى: حرج أو إثم فى ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ أى فى أن تنقصوا منها ما خففه الله عنكم رحمة بكم.

وقوله ﴿تقصروا﴾ من القصر وهو ضد المد. يقال قصرت الشيء أى جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه.

ومن فى قوله ﴿من الصلاة﴾ يجوز أن تكون زائدة للتأكيد فيكون لفظ الصلاة مفعولا به لتقصروا. ويجوز أن تكون للتبعيض فيكون المفعول محذوفا. والجار والمجرور فى موضع الصفة. أى: فليس عليكم جناح فى أن تقصروا شيئا من الصلاة.

وقوله ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ جملة شرطية وجوابها محذوف دل عليه ما قبله.

والمراد بالفتنة هنا: إنزال الأذى بالمؤمنين.

أى: إن خفتم أن يتعرض لكم المشركون بما تكرهونه من القتال أو غيره حين سفركم فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة.

وقوله ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا﴾ تعليل لتأكيد أخذ الحذر من الكفار دائما، لأن عداوتهم للمؤمنين ظاهرة، وكراهتهم لهم شديدة.

أى: إن الكافرين كانوا ومازالوا بالنسبة لكم - أيها المؤمنون - يظهرون العداوة، وما تخفيه صدورهم لكم من أحقاد وكراهية أشد وأكبر.

وقد أكد - سبحانه - هذه العداوة بإن الدالة على التوكيد، وبكان المفيدة للدوام والاستمرار، وبوصف هذه العداوة بالسفور والظهور، لكى يحترس المسلمون منهم أشد الاحتراس.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى:

١ - أن قصر الصلاة فى السفر سنة. ومنهم من يرى أن المصلى مخير فيه كما يخير فى الكفارات. ومنهم من يرى أنه فرض.

قال القرطبى ماملخصه: واختلف العلماء فى حكم القصر فى السفر؛ فروى عن جماعة أنه فرض وهو قول عمر بن عبد العزيز والكوفيين. واحتجوا بحديث عائشة «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين» ولا حجة فيه لمخالفتها له؛ فإنها كانت تتم فى السفر وذلك يوهنه...

وحكى ابن الجهم أن أشهب روى عن مالك أن القصر فرض. ومشهور مذهبه وجل أصحابه، وأكثر العلماء من السلف والخلف أن القصر سنة. وهو الصحيح.

ومذهب عامة البغداديين من المالكيين أن الفرض التخيير. ثم اختلفوا فى أيها أفضل، فقال بعضهم: القصر أفضل.. وقيل: الإتمام أفضل»[١].

أما بالنسبة لمسافة السفر التى يجوز معها قصر الصلاة للعلماء فيها أقوال منها: أن السفر الذى يسوغ القصر هو ما كان مسيرة ثلاثة أيام بلياليها بالسير المعتاد.

وهذا رأى الأحناف. ومن حججهم قوله ﷺ: «يمسح المقيم يوما وليلة والمسافر ثلاثة أيام بلياليها» وأيضا ورد أن النبى ﷺ منع المرأة من السفر فوق ثلاث إلا مع زوج أو محرم، فدل هذا على أن ما دون الثلاث لا يعد سفرا، بل هو فى حكم الإقامة، حيث جعل الثلاث فاصلا بين الخروج بدون محرم وعدمه. وأيضا فقد جرى عرف العرب أن الرجل كان لا يعتبر مسافرا إلا بسير نحو ثلاثة أيام.

أما المالكية والشافعية وأكثر الأئمة فيرون أن السفر الذى تقصر فيه الصلاة هو ما كان مسيرة يوم وليلة وقيل يوم فقط، وذلك لما رواه ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «يا أهل مكة لا تقصروا فى أدنى من أربعة برد. من مكة إلى عسفان، وقد قدرت هذه المسافة بمسيرة يوم وليلة أو يوم فقط.

ويرى داود الظاهرى وأتباعه أن القصر فى كل ما يسمى سفرا، سواء أكان قصيرا أم طويلا؛ لأن المدار عندهم فى تحقيق القصر على تحقيق شرطه وهو الضرب فى الأرض، ولأن كلمة الضرب فى الأرض قد جاءت على إطلاقها من غير تقييد بمدة معلومة ولا مسافة محدودة.

وقد رد جمهور العلماء عليهم بردود منها: أن الضرب فى الأرض حقيقته الانتقال من مكان إلى مكان. وظاهر أن مجرد الانتقال من مكان إلى آخر لا يكون سببا فى الرخصة، فلابد أن يكون السفر المرخص فيه بالقصر سفرا مخصوصا، وقد بينت السنة النبوية الشريفة مقداره على خلاف فى الروايات.

هذا، وقد حكى القرطبى أقوال بعض العلماء فى نقد أولئك الذين يأخذون الأمور بظواهرها بدون فهم سليم فقال:

قال ابن العربى: وقد تلاعب قوم بالدين فقالوا: إن من خرج من البلد إلى ظاهره أكل وقصر وقائل هذا أعجمى لا يعرف السفر عند العرب، أو مستخف بالدين. ولولا أن العلماء ذكروه لما رضيت أن ألمحه بمؤخر عينى، ولا أفكر فيه بفضول قلبى. ولم يذكر حد السفر الذى يقع به القصر لا فى القرآن ولا فى السنة. وإنما كان كذلك، لأنها كانت لفظة عربية مستقر

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥١.

علمها عند العرب الذين خاطبهم الله بالقرآن؛ فنحن نعلم قطعا أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافرا لا لغة ولا شرعا. وإن من مشى مسافرا ثلاثة أيام فإنه يكون مسافرا قطعا. كما أننا نحكم على من مشى يوما وليلة أنه كان مسافرا، لحديث «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم منها» وهذا هو الصحيح لأنه وسط بين الحالين. وعليه عول مالك. ولكنه لم يجد هذا الحديث متفقا عليه، فقد روى مرة «يوما وليلة» ومرة «ثلاثة أيام»...

ثم قال القرطبى: واختلفوا فى نوع السفر الذى تقصر فيه الصلاة. فأجمع الناس على الجهاد والحج والعمرة وما ضارعها من صلة رحم.. واختلفوا فيما سوى ذلك. فالجمهور على جواز القصر فى السفر المباح كالتجارة وغيرها. وعلى أنه لا قصر فى سفر المعصية كالباغى وقاطع الطريق وما فى معناهما.

ثم قال: واختلف العلماء فى مدة الإقامة التى إذا نواها المسافر أتم. فقال مالك والشافعى والليث بن سعد: إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتم.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا نوى الإقامة خمس عشرة ليلة أتم، وإن كان أقل من ذلك قصر[1].

٢ - ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية الكريمة المقصود منها تشريع صلاة السفر، وأن المراد بالقصر فى قوله «أن تقصروا من الصلاة» هو القصر فى الكمية أى فى عدد الركعات، بأن يصلى المسافر الصلاة الرباعية ركعتين، وأن حكمها للمسافر فى حال الأمن كحكمها فى حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقا.

وقد وضح هذه المسألة الإمام ابن كثير توضيحا حسنا فقال ما ملخصه: وقوله - تعالى - ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ الشرط فيه خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية. إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة فى مبدئها مخوفة. بل كانوا لا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له. كقوله - تعالى - ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا﴾ وقوله - تعالى - ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم﴾.

ومما يشهد بأن للمسافر أن يقصر سواء أكان آمنا أم خائفا ما رواه الترمذى والنسائى عن ابن عباس. أن النبى ﷺ: خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا الله رب العالمين فصلى ركعتين.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٤ وما بعدها.

وروى البخارى عن حارثة بن وهب الخزاعى قال : صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين.

وروى البخارى عن أنس قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة. فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة.

وروى مسلم وأحمد وأهل السنن عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب. قلت له : قوله - تعالى - : ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾. وقد أمن الناس؟ فقال لى عمر : عجبت مما عجبت منه. فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ».

وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى حنظلة الحذاء قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟ فقال : ركعتان، فقلت له : أين قوله، ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ ونحن آمنون؟ فقال : سنة رسول الله ﷺ(١).

فأنت ترى من هذه النصوص أنها تدل على أن الآية الكريمة مسوقة فى تشريع صلاة السفر سواء أكان المسافر آمنا أم خائفا، وأن قوله - تعالى - ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ المراد من القصر هنا قصر عدد الركعات من أربع إلى اثنين كما كان يفعل النبى ﷺ فى أسفاره، وأن القصر للصلاة فى السفر بالنظر لما كانت عليه فى الحضر.

قالوا : ومما يدل على أن لفظ القصر كان مخصوصا فى عرفهم بنقص عدد الركعات، ما رواه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ « انصرف من اثنتين - أى صلى الصلاة الرباعية ركعتين عن سهو - فقال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ . . . .

هذا؛ ويرى بعض العلماء أن هذه الآية نزلت فى صلاة الخوف، وأن المقصود بالقصر هنا هو قصر الكيفية لا الكمية - أى تخفيف ما اشتملت عليه من قراءة وتسبيح وغير ذلك - لأنهم يرون أن كمية صلاة المسافر ركعتان فهى تمام غير قصر.

قال ابن كثير ما ملخصه : ومن العلماء من قال : إن المراد من القصر ها هنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو قول مجاهد والضحاك والسدى واعتقدوا بما رواه الإمام مالك عن عائشة أنها قالت فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر، وزيد فى صلاة الحضر.

قالوا : فإذا كان أصل الصلاة فى السفر هى اثنتين فكيف يكون المراد بالقصر هنا قصر

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٤٤.

الكمية. لأن ما هو الأصل لا يقال فيه ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾. وروى الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه عن عمر - رضى الله عنه - قال: صلاة السفر ركعتان؛ وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم محمد ﷺ[1]».

وقال القرطبى: وذهب جماعة إلى أن هذه الآية إنما هى مبيحة للقصر فى السفر للخائف من العدو فمن كان آمنا فلا قصر له. روى عن عائشة أنها كانت تقول فى السفر: أتموا صلاتكم. فقالوا: إن رسول الله ﷺ كان يقصر. فقالت: إنه كان فى حرب وكان يخاف وهل أنتم تخافون؟...

وذهب جماعة إلى أن الله - تعالى - لم يبح القصر فى كتابه إلا بشرطين: السفر والخوف وفى غير الخوف بالسنة[2].

ويبدو لنا أن الأولى ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن الآية الكريمة المقصود منها تشريع صلاة السفر؛ وأن المراد بالقصر فيها قصر كمية الصلاة بحيث يصلى المسافر الصلاة الرباعية ركعتين تخفيفا من الله - تعالى - عليه، سواء أكان فى حالة أمن أم حالة خوف، لأن النصوص التى ساقها الجمهور لتأييد رأيهم صريحة فى صحة ما ذهبوا إليه، ولأن القصر فى اللغة معناه أن تقتصر من الشىء على بعضه، وهذا أظهر ما يكون فى قصر الركعات على اثنين بدل أربع، أما القصر فى الصفة أو الكيفية فهو تغيير فى الصلاة لا إتيان بالبعض، إذ هو إحلال للإيماء محل الركوع والسجود - مثلا -. وأيضا فإن ﴿من﴾ فى قوله ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ تكون أظهر فى الاقتصار على بعض الركعات عند من يجعل هذا الحرف للتبعيض.

ومن أراد مزيد بيان لتلك المسائل فليرجع إلى أمهات كتب الفقه والتفسير.

* * *

ثم شرع - سبحانه - فى بيان صفة صلاة الخوف فى جماعة فقال - تعالى - ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾.

والمعنى: وإذا كنت يا محمد فى أصحابك وشهدت معهم القتال «فأقمت لهم الصلاة» أى: فأردت أن تقيم لهم الصلاة فى جماعة لتزدادوا أجرًا ورعاية من الله وأنتم تقاتلون أعداءه،

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٤٥
(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٦٢

فعليك فى هذه الحالة أن تقسم أصحابك إلى قسمين، ثم بعد ذلك ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ أى فلتقم جماعة من أصحابك معك فى الصلاة، أما الطائفة الأخرى فلتكن بإزاء العدو ليحرسوكم منهم.

والضمير فى قوله ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ يعود إلى الرجال الذين معه فى الصلاة.. أى: ولتأخذ الطائفة القائمة معك فى الصلاة أسلحتها معها وهى فى الصلاة حتى تكون عليى أهبة القتال دائما.

وقوله ﴿فإذا سجدوا﴾ أى: الرجال القائمون معك فى الصلاة سجدوا فى الركعة الأولى وأتموا الركعة ﴿فليكونوا من ورائكم﴾ أى: فلينصرفوا بعد ذلك من صلاتهم ليكونوا فى مقابلة العدو للحراسة. فالضمير فى الكل يعود إلى المصلين معه.

وقيل المعنى: فإذا سجد الرجال الذين قاموا معك للصلاة، فليكن الرجال الآخرون الذين ليسوا فى الصلاة من ورائكم لحماية ظهوركم، ولمنع نزول الأذى بكم من أعدائكم. وعلييه فيكون الضمير فى قوله ﴿فليكونوا﴾ يعود إلى الطائفة الثانية التى ليست فى الصلاة.

وقوله: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ بيان لما يجب أن تفعله الطائفة الأخرى التى لم تدخل فى الصلاة بعد. أى: فإذا ما انصرفت الطائفة الأولى للحراسة فلتأت الطائفة التى كانت قبل ذلك فى الحراسة والتى لم تصل بعد ﴿فليصلوا معك﴾ الركعة الأولى وأنت يا محمد فى الركعة الثانية. وعليهم أيضا أن يكونوا كمن سبقهم حاملين لأسلحتهم التى لا تشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر وما يشبه ذلك، حتى إذا ما باغتكم المشركون بالهجوم كنتم دائما على استعداد لمواجهتهم، وكنتم دائما على يقظة من مكرهم.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أمر المؤمنين بالمحافظة على الصلاة حتى فى حالة الحرب، وأمرهم فى الوقت ذاته بأن يكونوا يقظين آخذين حذرهم وأسلحتهم من مباغتة أعدائهم لهم حتى لا يتوهم أولئك الأعداء أن الصلاة ستشغل المؤمنين عن الدفاع عن أنفسهم.

وقوله ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ استعمل لفظ الأخذ فيه فى الحقيقة والمجاز. لأن أخذ الحذر كناية عن شدة اليقظة ودوام الترقب. وأخذ الأسلحة حقيقة فى حملها للدفاع بها عن النفس.

وقدم - سبحانه - الأمر بأخذ الحذر على أخذ الأسلحة؛ لأن أخذ الأسلحة نوع من الحذر،

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥١ وما بعدها. وتفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٤٤ وما بعدها.

ولأن الحذر عند انتقال الصفوف وتحركها واجب حتى لايباغتهم الأعداء وهم يتحولون من مكان إلى مكان، وهذا أشبه بتغيير الخطط وقت القتال، وهو أمر له خطورته فوجب أن تشتد يقظة المسلمين حينئذ.

وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله: فإن قلت لم ذكر فى أول الآية الأسلحة فقط، وذكر هنا الحذر والأسلحة؟ قلت: لأن العدو قلما يتنبه للمسلمين فى أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين فى المحاربة والمقاتلة. فإذا قاموا إلى الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين فى الصلاة، فحينئذ ينتهزون الفرصة فى الإقدام على المسلمين فلا جرم أن الله - تعالى - أمرهم فى هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الأسلحة[1].

وقوله - تعالى - ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ بيان لما من أجله أمروا بأخذ الحذر والسلاح. والخطاب لجميع المؤمنين.

وقوله ﴿ود﴾ من الود وهو محبة الشىء وتمنى حصوله.

والأسلحة: جمع سلاح. وهو اسم جنس لآلات الحرب التى يستعملها الناس فى حروبهم وقتالهم.

والأمتعة: جمع متاع. وهو كل ما ينتفع به من عروض وأثاث. والمراد به هنا: ما يكون مع المحاربين من أشياء لاغنى لهم عنها كبعض ملابسهم وأطعمتهم ومعداتهم.

و ﴿لو﴾ فى قوله ﴿لو تغفلون﴾ مصدرية. وقوله ﴿ميلة﴾ منصوب على المفعول المطلق لبيان العدد.

والمعنى: كونوا دائما - أيها المؤمنون - فى أقصى درجات التنبه والتيقظ والحذر، فإن أعداءكم الكافرين يودون ويحبون غفلتكم وعدم انتباهكم عن أسلحتكم وأمتعتكم التى تستعملونها فى قتالكم لهم، وفى هذه الحالة يحملون عليكم حملة واحدة قوية شديدة ليقتلوا منكم من يستطيعون قتله. فعليكم - أيها المؤمنون - أن تجمعوا بين الصلاة والجهاد جمعا مناسبا حكيما بحيث لا يشغلكم أحد الأمرين عن الآخر أو عن حسن الاستعداد لمجابهة أعدائكم الذين يتربصون بكم الدوائر.

فالآية الكريمة من مطلعها إلى هنا تراها تأمر بشدة وتكرار بأخذ الحذر وحمل السلاح لمجابهة أى مباغتة من المشركين. ومع هذا فقد رخص الله - تعالى - للمؤمنين بوضع السلاح فى أحوال معينة دون أن يرخص لهم فى أخذ الحذر فقال - تعالى -: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٤٢٠ - نقلا عن الخازن -

من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾.

أى: ولا حرج ولا إثم عليكم - أيها المؤمنون - فى أن تضعوا أسلحتكم فى أغمادها فلا تحملوها ﴿إن كان بكم أذى من مطر﴾ يثقل معه حمل السلاح ﴿أو كنتم مرضى﴾ بحيث يشق عليكم حملها، ومع كل هذا فلابد من أخذ الحذر من أعدائكم، بأن تكونوا على يقظة تامة من مكرهم، وعلى أحسن استعداد لدحرهم إذا ما باغتوكم بالهجوم.

وقوله ﴿إن الله أعد للكافرين عذابًا أليما﴾ تذييل قصد به تشجيع المؤمنين على مقاتلة أعدائهم وأخذ الحذر منهم.

أى: إن الله - تعالى - أعد لأعدائكم الكافرين عذابا مذلا لهم فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا فبنصركم عليهم وإذهاب صولتهم ودولتهم، كما قال - تعالى - ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾.

وأما فى الآخرة فبالعذاب الذى يهينهم ويذلهم ولا يستطيعون منه نجاة أو مهربا. وإذا كان الأمر كذلك فباشروا - أيها المؤمنون - الأسباب التى توصلكم إلى النصر عليهم.

هذا، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى:

١ - قال الآلوسى: تعلق بظاهر قوله - تعالى - ﴿وإذا كنت فيهم﴾. من خص صلاة الخوف بحضرته ﷺ كالحسن بن زيد ونسب ذلك أيضا لأبى يوسف، ونقله عنه الجصاص فى كتاب الأحكام، وعامة الفقهاء على خلافه فإن الأئمة بعده ﷺ نوابه، وقوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه الصلاة والسلام كما فى قوله ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وقد أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان وغيرهم عن ثعلبة بن زهدم. قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقال: أيكم صلى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا. ثم وصف له ذلك فصلوا كما وصف، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ولم ينكره أحد منهم. وهم الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم، وهذا يحل محل الإجماع[1].

٢ - أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة مشروعية صلاة الخوف وصفتها وأنه يطلب فيها حمل السلاح إلا لعذر. وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن أبى عياش الزرقى قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد. وهم بيننا وبين القبلة. فصلى بنا النبى ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ثم قالوا: تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٣٤ - بتصريف يسير -

من أبنائهم وأنفسهم. فنزل جبريل بهذه الآية ﴿وإذا كنت فيهم﴾.. إلخ بين الظهر والعصر[١]».

٣-وردت روايات متعددة يؤخذ منها أن النبى ﷺ قد صلى صلاة الخوف على هيئات مختلفة وفى مواضع متعددة. ويشهد لهذا قول القرطبى. وقد اختلفت الروايات فى هيئة صلاة الخوف. واختلف العلماء لاختلافها. فذكر ابن القصار أنه ﷺ صلاها فى عشر مواضع. وقال ابن العربى: روى عن النبى ﷺ أنه صلى صلاة الخوف أربعا وعشرين مرة. وقال الإمام أحمد بن حنبل - وهو إمام أهل الحديث والمقدم فى معرفة علل النقل فيه - لا أعلم أنه روى فى صلاة الخوف إلا حديث ثابت. وهى كلها صحاح ثابتة. فعلى أى حديث صلى منها المصلى صلاة الخوف أجزأه إن شاء الله[٢].

وقال ابن كثير: صلاة الخوف أنواع كثيرة فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون فى غير صوبها، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها لعذر القتال كما أخر النبى ﷺ يوم الأحزاب صلاة الظهر والعصر فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب والعشاء. وأما الجمهور فقالوا هذا منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك[٣]. ونظرا لاختلاف الروايات الواردة فى كيفية صلاة الخوف، فقد اختلف الفقهاء فى كيفية أدائها تبعا لما فهمه كل فريق من تلك الروايات. وهاك بعض مذاهبهم:

(أ) ذهب الإمام أبو حنيفة ومن تابعه إلى أن كيفية صلاة الخوف أن يقسم الإمام الناس طائفتين: طائفة تكون مع الإمام والأخرى بإزاء العدو. فيصلى بالذين معه ركعة ثم ينصرفون إلى مقام أصحابهم ثم تأتى الطائفة الأخرى التى كانت بإزاء العدو فيصلى بهم الإمام الركعة الثانية ويسلم هو.

ثم تأتى الطائفة الأولى فتصلى ركعة بغير قراءة، لأنها فى رأيهم لاحقة. أى كأنها وراء الإمام حكما طول الصلاة، ولا قراءة عندهم وراء الإمام ثم تتشهد وتسلم. وتذهب إلى وجه العدو فتأتى الطائفة الثانية فتقضى ركعة بقراءة ثم تتشهد وتسلم. وإنما صلت هذه ركعتها بقراءة لأنها عندهم مسبوقة، فتكون كمن أدركِ آخر صلاة الإمام وفاتته ركعة. فتكون القراءة واجبة فى حقها.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٤٨

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٣٦٥

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٤٧

وهذه الكيفية لصلاة الخوف التى أخذ بها الإمام أبو حنيفة قد وردت فى روايات عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما عن النبى ﷺ.

(ب) أما الإمام مالك فيرى أن كيفية صلاة الخوف تكون كالآتى : أن يقسم الإمام الناس إلى طائفتين : طائفة تكون معه وطائفة تكون بإزاء العدو. ثم يصلى بالطائفة التى معه ركعة ولا يسلم وتتم هى الركعة الثانية وحدها ثم تتشهد وتسلم وتذهب إلى مكان الطائفة الثانية، وتأتى الطائفة الثانية فتقف خلف الإمام فيصلى معها الركعة الثانية ثم يجلسون للتشهد ويسلم الإمام وحده أماهم فيقومون فيصلون وحدهم الركعة التى بقيت ثم يتشهدون ويسلمون.

وقريب من هذه الكيفية ماذهب إليه الإمام الشافعى فهو يوافق المالكية فيما ذهبوا إليه إلا أنه قال : لا يسلم الإمام حتى تتم الطائفة الثانية صلاتها ثم يسلم معهم.

ويذهب الإمام أحمد بن حنبل فى كيفية صلاة الخوف إلى ماذهب إليه الإمام مالك.

وفى رواية عنه أنه يوافق ما ذهب إليه الشافعية.

وهذا كله فيما إذا كانت الصلاة ثنائية فى الأصل كالفجر أو رباعية فإنها تقصر إلى ثنائية.

أما إذا كانت صلاة الخوف فى المغرب فيرى جمهور الفقهاء أن الإمام يصلى بالطائفة الأولى ركعتين، وبالطائفة الثانية ركعة ثم تتم كل طائفة ما بقى عليها بالطريقة التى سبق ذكرها عند الأئمة، والتى بسطها العلماء فى كتب الفقه.

٤ - ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية أهمية صلاة الجماعة، لأن الله - تعالى - أمر المسلمين بأن يؤدوا الصلاة فى جماعة حتى وهم فى حالة الاستعداد للقاء أعدائهم.

قال ابن كثير : ما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة. حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة. فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك.

٥ - كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية أن الإسلام دين يأمر أتباعه بأداء الصلاة حتى ولو كانوا فى ساحة المعركة، وذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، ومتى حسنت هذه الصلة بين المجاهد وخالقه، فإنه - سبحانه - يكلؤه بعين رعايته، ويمده بنصره وتأييده. وأن الإسلام بجانب هذا الاهتمام الشديد بشأن الصلاة فإنه يهتم أيضا بأن يأمر أتباعه بالحذر من مكر أعدائهم ومن مباغتتهم لهم، بأن يكون المؤمنون مستعدين لصدهم وردهم على أعقابهم، وأن لا يغفلوا عن حمل أسلحتهم حتى ولو كانوا قائمين للصلاة.

وبهذا نرى أن الإسلام يربى أتباعه تربية روحية وعقلية وبدنية من شأنها أن توصلهم - متى حافظوا عليها - إلى ما يعلى كلمتهم فى الدنيا، ويرفع درجاتهم فى الآخرة.

* * *

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين بالإكثار من ذكره بعد الانتهاء من صلاتهم، وشجعهم على مواصلة قتال أعدائهم بدون خوف أو ملل فقال - تعالى -:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

والمعنى: فإذا أديتم صلاة الخوف - أيها المؤمنون - على الوجه الذى بينته لكم وفرغتم منها ﴿فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم﴾ أى: فداوموا على الإكثار من ذكر الله فى كل أحوالكم سواء أكنتم قائمين فى ميدان القتال، أم قاعدين مستريحين، أم مضطجعين على جنوبكم، فإن ذكر الله - تعالى - الذى يتناول كل قول أو عمل يرضى الله - هو العبادة المستمرة التى بها تصفو النفوس، وتنشرح الصدور، وتطمئن القلوب. قال - تعالى - ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

وإنما أمرهم - سبحانه - بالإكثار من ذكره فى هذه الأحوال بصفة خاصة، مع أن الإكثار من ذكر الله مطلوب فى كل وقت، لأن الإنسان فى حالة الخوف ومقابلة الأعداء أحوج ما يكون إلى عون الله وتأييده ونصره، والتضرع إلى الله بالدعاء فى هذه الأحوال يكون جديرا بالقبول والاستجابة.

قال - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا ا كثيرًا لعلكم تفلحون﴾.

والفاء فى قوله ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ للتفريع على ما قبله.

أى: فإذا ما سكنت نفوسكم من الخوف، وأقمتم فى مساكنكم بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فداوموا على أداء الصلاة على وجهها الذى كانت عليه قبل حالة الحرب، وأتموا أركانها وشروطها وآدابها وخشوعها.

وقوله «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا» تذييل المقصود به تأكيد ما قبله من الأمر بالمحافظة على الصلاة.

أى: إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضا محددا بأوقات لا يجوز مجاوزتها بل لابد من أدائها فى أوقاتها سفرا وحضرا، وأمنا وخوفا.

والمراد بالكتاب هنا: المكتوب. وبالموقوت: المحدد بأوقات من وقت كمضروب من ضرب.

وقد رجح ابن جرير هذا المعنى بقوله: وأولى المعانى بتأويل الكلمة قول من قال: إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضا موقوتا. أى فرضا وقت لهم وقت وجوب أدائه. لأن الموقوت إنما هو مفعول من قول القائل: وقت الله عليك فرضه فهويقته. ففرضه عليك موقوت، إذا أخبر أنه جعل له وقتا يجب عليك أداؤه[1].

وقد أكد الله - تعالى - فرضية الصلاة ووجوب أدائها فى أوقاتها بإن المفيدة للتأكيد، وبكان المفيدة للدوام والاستمرار. وبالتعبير عن الصلاة بأنها كتاب، وهو تعبير عن الوصف بالمصدر فيفيد فضل توكيد، وبقوله ﴿على المؤمنين﴾ فإن هذا التركيب يفيد الإلزام والحتمية. وكل ذلك لكى يحافظ المؤمنون عليها محافظة تامة دون أن يشغلهم عنها شاغل، أو يحول بينهم وبين أدائها حائل.

وقوله ﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم﴾ تشجيع للمؤمنين على مواصلة قتال أعدائهم بصبر وعزيمة.

وقوله ﴿تهنوا﴾ من الوهن وهو الضعف والتخاذل. والابتغاء مصدر ابتغى بمعنى بغى المتعدى أى طلب.

أى: ولا تضعفوا - أيها المؤمنون - فى ابتغاء العدو وطلبه، ولا تقعد بكم الآلام عن متابعته وملاحقته حتى يتم الله لكم النصر عليه.

ثم رغبهم - سبحانه - فى مواصلة طلب أعدائهم بأسلوب منطقى رصين فقال: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله مالا يرجون﴾.

أى: لا تتوانوا - أيها المؤمنون - عن ملاحقة أعدائكم ومقاتلتهم مهما تحملتم من آلام، وما أصبتم به من جراح، لأن ما أصابكم من آلام وجراح قد أصيب أعداؤكم بمثله أو أكثر منه، ولأن الآلام التى تحسونها هم يحسون مثلها أو أكثر منها. وفضلا عن ذلك فأنتم ترجون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٢٦٢ بتصرف وتلخيص.

بقتالكم لهم رضا الله، وإعلاء كلمته، وحسن مثوبته، وإظهار دينه. أما هم فإنهم يقاتلونكم ولا رجاء لهم فى شىء من ذلك. وإنما رجاؤهم فى تحقيق شهواتهم، وإرضاء شياطينهم، وانتصار باطلهم على حقكم.

وشتان بين من يقاتل وغايته ورجاؤه نصرة الحق. ومن يقاتل وغايته ورجاؤه نصرة الباطل.

ومادام الأمر كذلك فانهضوا - أيها المؤمنون - لقتال أعداء الله وأعدائكم، دون أن يحول بينكم وبين قتالهم ما تحسون به من آلام، فإن الله - تعالى - قد جعل العاقبة لكم، والنصر فى ركابكم..

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - فى سورة آل عمران: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ أى: وكان الله ومازال عليما بكل شىء من أحوالكم وأحوالهم، حكيما فى كل ما يقضيه ويأمر به أو ينهى عنه، فسيروا - أيها المؤمنون - فى الطريق التى أمركم - سبحانه - بالسير فيها لتنالوا تأييده ورضاه.

هذا، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما ذكره القرطبى من أنها نزلت فى أعقاب حرب أحد حيث أمر النبى ﷺ المؤمنين بالخروج فى آثار المشركين، وكان بالمسلمين جراحات. وكان قد أمر ألا يخرج معه إلا من كان قد حضر القتال فى غزوة أحد[1].

وهذا السبب الذى ذكره القرطبى فى نزول الآية الكريمة لا يمنع عمومها إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه فإن الآيتين الكريمتين تأمران المسلمين فى كل زمان ومكان بالمحافظة على فرائض الله ولاسيما الصلاة، وبالإكثار من ذكره فى جميع أحوالهم، وبالإقدام على قتال أعدائهم بعزيمة صادقة، وهمة عالية، دون أن يحول بينهم وبين هذا القتال ما يشعرون به من آلام، فإن الله - تعالى - قد تكفل بنصر المؤمنين، ودحر المشركين.

* * *

وبعد أن أمر الله - تعالى - المؤمنين بالمحافظة على فرائضه وبأخذ حذرهم من الأعداء. وبالاستعداد لإبطال مكرهم، وبمواصلة قتالهم حتى تعلو كلمة الحق، بعد كل هذا أمر - سبحانه - المؤمنين فى شخص نبيهم ﷺ بأن يلتزموا الحق فى كل شئونهم وأحوالهم، لأن عدم التقيد بالحق والعدل يؤدى إلى ضعف الأمة واضمحلالها. وقد ساق -سبحانه- فى آيات كريمة ما يهدى القلوب إلى صراطه المستقيم فقال - تعالى -:

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٧٤. بتصرف يسير.

إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ
ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾
وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ
عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ
سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا
ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة السياق إلا أنها متقاربة المعانى.
ومن ذلك ما ذكره صاحب الكشاف من أن رجلا اسمه طعمة بن أبيرق - أحد بنى ظفر - سرق درعا من جار له أسمه قتادة ابن النعمان فى جراب دقيق. فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه. وخبأ طعمة الدرع عند رجل من اليهود اسمه زيد بن السمين.

فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ماأخذها، وماله بها علم. فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها. فقال اليهودى: دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود. فقالت بنو ظفر - أقارب طعمة -: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فلما وصلوا إليه سألوه أن يجادل - أى يدافع - عن صاحبهم طعمة وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودى. فهم رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى. وقيل هم أن يقطع يده فنزلت[1].

وهذه الآيات الكريمة وإن كانت قد نزلت فى حادثة معينة، إلا أن توجيهاتها وأحكامها تتناول جميع المكلفين فى كل زمان ومكان.

وقوله تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ تشريف للنبى ﷺ وإرشاد إلى ما يجب أن يكون عليه الحاكم أو القاضى من عدالة ونزاهة.

أى: إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن الكريم، إنزالا ملتبسا بالحق وبالعدل لكى تحكم بين الناس فى قضاياهم بما أراك الله. أى بما عرفك وأعلمك وأوحى به إليك وقوله ﴿بالحق﴾ فى محل نصب على الحال المؤكدة فيتعلق بمحذوف. وصاحب الحال هو الكتاب. أى: أنزلناه ملتبسا بالحق.

وقوله ﴿بما أراك﴾ الفعل هنا متعد لاثنين أحدهما العائد المحذوف والآخر كاف الخطاب أى: بما أراكه الله. أى: بما عرفك وأعلمك.

وسمى ذلك العلم بالرؤية، لأن العلم اليقينى المبرأ عن جهات الريب يكون جاريا مجرى الرؤية فى القوة والظهور.

قال ابن كثير: احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية. وبما ثبت فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصوم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر. وإنما أقضى بنحو مما أسمع. ولعل أحدكم أن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٦١ بتصريف يسير.

يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها».

وفى رواية للإمام أحمد عن السيدة أم سلمة -أيضا- قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست. ليس عندهما بينه. فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلى وإنما أنا بشر. ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض. فإنى أقضى بينكم على نحو ما أسمع. فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار.. فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقى لأخى. فقال رسول الله ﷺ أما إذا قلتما ذلك فاذهبا فاقتسما، ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما. ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه»[١].

وقوله «ولا تكن للخائنين خصيما» معطوف على كلام مقدر يفهم من المقام. والخصيم هنا بمعنى المنتصر المدافع عن غيره فهو اسم فاعل بمعنى مخاصم وجمعه الخصماء. وأصله من الخصم وهو ناحية الشيء وطرفه. وقيل للخصمين خصمان، لأن كل واحد منهما فى ناحية من الحجة والدعوى.

والمعنى: إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاحكم به ولا تكن لأجل الخائنين مخاصما للبرآء، بأن تجعل فكرك ينحاز إلى أولئك الخائنين - الذين يظهرون الإسلام - قبل سماع البينات الهادية المرشدة إلى الحق.

وسماهم - سبحانه - خائنين، لأنهم فى علمه - تعالى - كانوا كذلك وقد أخبر نبيه بخيانتهم ليحذرهم ولا يحسن الظن بهم.

قال القرطبى: قال العلماء: لا ينبغى إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق منهم فريقا عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم. فإن هذا قد وقع على عهد النبى ﷺ وفيهم نزل قوله - تعالى - ﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾. وقوله: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾. والخطاب للنبى ﷺ والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين:

أحدهما: أنه - تعالى - أبان ذلك بما ذكره بعد بقوله ﴿هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا﴾. والآخر: أن النبى ﷺ كان حكما فيما بينهم، ولذلك كان يعتذر إليه ولا يعتذر هو إلى غيره فدل على أن القصد لغيره[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٥١

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٣٧٧

ثم قال - تعالى - ﴿واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما﴾. أى : واستغفر الله مما هممت به من تبرئة طعمة وإدانة اليهودى، حيث إن ظاهر الأمر يقتضى ذلك، وهذا وإن لم يكن ذنبا، إلا أنه - سبحانه - أمر نبيه ﷺ بالاستغفار من ذلك، لعلو مقامه على حد قول العلماء : حسنات الأبرار سيئات المقربين.

أو المعنى : واستغفر الله لهؤلاء الخائنين لكى يتوبوا إلى الله - تعالى - ببركة استغفارك لهم، إن الله - تعالى - كان كثير المغفرة لمن تاب إليه، وكثير الرحمة لمن آمن به واتقاه. وهذا الأمر بالاستغفار والإنابة إلى الله موجه إلى كل مكلف فى شخص النبى ﷺ ثم قال - تعالى - ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيما﴾.

أى : ولا تخاصم وتدافع عن هؤلاء الذين «يختانون أنفسهم» أى يخونونها بشدة وإصرار إن الله - تعالى - لا يحب ولا يرضى عمن كانت الخيانة وصفا من أوصافه، وخلقا من أخلاقه، وكذلك لا يحب ولا يرضى عمن كان الانهماك فى الإثم والمعصية عادة من عاداته.

وجاء - سبحانه - بلفظ ﴿يختانون﴾ بمعنى يخونون، لقصد وصفهم بالمبالغة فى الخيانة لأن مادة الافتعال تدل على التكلف والمحاولة.

وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم، لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم. ولأن المسلمين جميعا كالجسد الواحد؛ فمن تظاهر بأنه منهم ثم خان أحدهم فكأنما خان نفسه، وأوردها موارد البوار والتهلكة باعتدائه على حقوق الجماعة الإسلامية، وزعزعة أمنها واستقرارها.

والمراد بالموصول فى قوله ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ طعمة وأمثاله من الخائنين أو هو ومن عاونه وشهد ببراءته من أبناء عشيرته.

وقال - سبحانه - ﴿إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾ بصيغة المبالغة؛ لإفادة أن الخيانة والإثم صارا وصفا ملازما لهؤلاء الخائنين الآثمين.

أى أن صيغة المبالغة هنا ليست للتخصيص حتى لا يتوهم متوهم أن الله - تعالى - يحب من عنده أصل الخيانة والاثم.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : لم قيل «خوانا أثيما» على المبالغة؟ قلت : كان الله عالما من طعمة بالإفراط فى الخيانة وركوب المآثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك فى حاله. وقيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر - رضى الله عنه - أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكى وتقول : هذه أول سرقة

سرقها فاعف عنه. فقال لها كذبت. إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة[١].

وقوله ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ بيان لأحوالهم القبيحة التى تجعلهم محل غضب الله وسخطه.

والاستخفاء معناه الاستتار. يقال استخفيت من فلان. أى: تواريت منه واستترت.

أى: أن هؤلاء الذين من طبيعتهم الخيانة والوقوع فى الآثام يستترون من الناس عندما يقعون فى المنكرات حياء منهم وخوفا من ضررهم ﴿ولا يستخفون من الله﴾ أى: ولا يشعرون برقابة الله عليهم، واطلاعه على جميع أحوالهم، بل يرتكبون ما يرتكبون من آثام بدون حياء منه مع أنه - سبحانه - هو الأحق بأن يستحى منه، ويخشى من عقابه.

وقوله ﴿وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - بكل حركاتهم وسكناتهم.

أى: أن هؤلاء الخائنين يرتكبون السوء بدون حياء من الله، مع أنه - سبحانه - معهم فى كل حركاتهم وسكناتهم بعلمه واطلاعه على أقوالهم وأعمالهم ولا يخفى عليه شىء من أمرهم حين «يبيتون» أى يضمرون ويدبرون ويقدرون فى أذهانهم مالا يرضاه الله - من القول كأن يرتكبوا المنكرات ثم يمسحونها فى غيرهم حتى لا يفتضح أمرهم.

قال صاحب الكشاف: وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ماهم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم، مع علمهم - إن كانوا مؤمنين - أنهم فى حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح.

وقوله ﴿يبيتون﴾ أى: يدبرون ويزورون وأصله أن يكون ليلا ﴿ما لا يرضى من القول﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمى الدرع فى دار غيره.

فإن قلت: كيف سمى التدبير قولا وإنما هو معنى فى النفس؟ قلت: لما حدث بذلك نفسه سمى قولا على المجاز. ويجوز أن يكون المراد بالقول: الحلف الكاذب الذى حلف به طعمة بعد أن بيته وتوريكه الذنب على اليهودى[٢].

وقوله ﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد. أى وكان الله - تعالى - محيطا إحاطة تامة بما يعمله هؤلاء الخائنون وغيرهم ولا يغيب عن علمه شىء من تصرفاتهم، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٦٣

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٦٣. وقوله «وتوريكه الذنب» يقال: ورك فلان ذنبه على غيره أى رماه به.

ثم وبخ - سبحانه - أولئك الذين دافعوا عن الخائنين وجادلوا عنهم بالباطل فقال: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا﴾.

أى: ها أنتم أيها المدافعون عن الخائنين كطعمة وأمثاله قد جادلتم عنهم فى الدنيا مبرئين إياهم من الخيانة بدون حق، فمن ذا الذى يستطيع منكم أن يدافع عنهم أمام الله يوم القيامة، بل من يكون عليهم يومئذ وكيلا. أى: قائما بتدبير أمورهم، ومدافعا عنهم؟ لاشك أنه لن يكون هناك أحد يدافع عنهم يوم القيامة لأن كل إنسان سيجازى بعمله، ولن ينفعه دفاع المدافعين، أو جدال المجادلين.

وقوله ﴿ها﴾ حرف تنبيه. أى تنبيه المخاطبين على خطئهم فى المجادلة عن السارق، وقوله ﴿أنتم﴾ مبتدأ. وقوله ﴿هؤلاء﴾ منادى بحرف نداء محذوف مبنى على الكسر فى محل نصب. وجملة ﴿جادلتم عنهم﴾. خبر المبتدأ. وبعضهم أعرب هؤلاء خبر أول. وجعل جملة جادلتم خبرا ثانيا.

وقوله ﴿جادلتم﴾ من الجدل بمعنى الفتل ومنه رجل مجدول الفتل أى قوى البنية فالجدال معناه تقوية الحجة التى يدافع بها الإنسان عن نفسه أو عن غيره. وقيل إن الجدال مأخوذ من الجدالة وهى وجه الأرض. فكأن كل واحد من الخصمين يكون كالمصارع الذى يريد أن يلقى صاحبه عليها. ومنه قولهم: تركته مجدلا أى مطروحا على الأرض.

و ﴿أم﴾ فى قوله ﴿أمن يكون عليهم وكيلا﴾ منقطعة للإضراب الانتقالى.

والاستفهام إنكارى بمعنى النفى فى الموضعين. أى لا أحد يجادل عنهم أمام الله - تعالى - ولا أحد يستطيع أن يقوم بتدبير أمورهم يوم القيامة.

ثم فتح - سبحانه - بعد هذا التوبيخ الشديد للخائنين - باب التوبة لعباده فقال: ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيما﴾ أى: ومن يعمل عملا سيئا يؤذى به غيره كما فعل طعمة باليهودى، أو يظلم نفسه بارتكاب الفواحش، التى يعود معظم ضررها على نفسه كشرب الخمر، وترك فرائض الله التى فرضها على عباده؛ ثم بعد كل ذلك ﴿يستغفر الله﴾ بأن يتوب إليه توبة صادقة نصوحا «يجد الله» بفضله وكرمه ﴿غفورا رحيما﴾ أى كثير الغفران لعباده التائبين، وواسع الرحمة إليهم.

فالمراد بعمل السوء هنا - على أرجح الأقوال - العمل السيء الذى يكون فيه أذى للغير كالقذف والشتم والسب وما يشبه ذلك.

والمراد بظلم النفس: الأعمال السيئة التى يعود ضررها ابتداء على فاعلها نفسه كشرب الخمر، وترك الصلاة أو الصيام وما يشبه ذلك.

وإنما فسروا كل جملة بهذا التفسير المغاير للآخر لوجود المقابلة بينهما.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: ﴿ومن يعمل سوءا﴾ أى عملا قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودى ﴿أو يظلم نفسه﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب. وقيل ومن يعمل سوءا من ذنب دون الشرك أو يظلم نفسه بالشرك. وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه[1].

والتعبير «بثم» فى قوله ﴿ثم يستغفر الله﴾ للإشارة إلى ما بين المعصية والاستغفار من تفاوت معنوى شاسع. إذ المعصية تؤدى بفاعلها إلى الخسران أما الاستغفار الذى تصحبه التوبة الصادقة فيؤدى إلى الفلاح والسعادة.

وقوله ﴿يجد الله غفورا رحيما﴾ يفيد أن الله - تعالى - يستجيب لطلب الغفران من عبده متى تاب إليه وأناب، لأنه - سبحانه - قد وصف نفسه بأنه كثير المغفرة والرحمة لعباده، متى أقبلوا على طاعته بقلب سليم، ونية صادقة.

ثم بين - سبحانه - بأن الأفعال السيئة يعود ضررها على صاحبها وحده فقال - تعالى - ﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه، وكان الله عليما حكيما﴾.

والكسب كما يقول الراغب - ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ، ككسب المال. وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة له ثم استجلب به مضرة. وقد ورد فى القرآن فى فعل الصالحات والسيئات فمما استعمل فى الصالحات قوله: ﴿أو كسبت فى إيمانها خيرا﴾. ومما استعمل فى السيئات قوله: ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾[2].

ومنه قوله - تعالى - هنا ﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه﴾

أى. ومن يرتكب إثما من الآثام التى نهى الله عن ارتكابها، فإن ضرر ذلك يعود على نفسه وحدها. وما دام الأمر كذلك فعلى العاقل أن يبتعد عن الذنوب والآثام حتى ينجو من العقاب.

وقوله ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ تذييل قصد به التحذير من سوء عاقبة اكتساب الآثام. أى: وكان الله عليما بما فى قلوب الناس وبما يقولون ويفعلون، حكيما فى كل ما قدر وقضى.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٦٣ بتصرف يسير.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٤٠

وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر ثم بين - سبحانه - المصير السىء الذى ينتظر أولئك الذين يرتكبون السوء ثم يرمون به غيرهم فقال : ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا﴾.

وقد قيل : إن الخطيئة والإثم هنا بمعنى واحد وقد جىء بهما على اختلاف لفظيهما للتأكيد المعنوى. ولم يرتض كثير من العلماء هذا القيل بل قالوا هما متغايران. وأن المراد بالخطيئة : المعصية الصغيرة. والمراد بالإثم : المعصية الكبيرة. وقال آخرون : الفرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد. والإثم لا يكون إلا عن عمد.

ويبدو لنا من تعبير القرآن عن الخطيئة أن المراد بها الذنوب التى يرتكبها صاحبها عن استهانة وعدم اكتراث، لأنه لكثرة ولوغه فى الشرور صار يأتيها بلا مبالاة. قال - تعالى - ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾ وقال - تعالى - ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا﴾.

وأن المراد بالإثم هنا : الذنوب التى يرتكبها الإنسان عن تعمد وإصرار فتؤدى به إلى الإبطاء عن الاتجاه إلى الله بالاستغفار والتوبة، لأن الإثم كما يقول الراغب - : اسم للأفعال المبطئة عن الثواب(١).

والبهتان كما يقول القرطبى من البهت - بمعنى الدهش والتحير من فظاعة ما رمى به الإنسان من كذب - وهو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه برىء. وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال. أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال. ذكرك أخاك بما يكره قال. أفرأيت أن كان فى أخى ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه فقد بهته. ثم قال القرطبى وهذا نص. فرمى البرىء بهت له. يقال. بهته بهتا وبهتانا إذا قال عليه ما لم يفعله(٢).

والمعنى : « ومن يكسب خطيئة » أى ذنبا من الذنوب التى يرتكبها صاحبها عن استهانة لكثرة تعوده على ارتكاب السيئات، أو يرتكب ﴿إثما﴾ من الآثام التى تبطئه عن رضا الله ورحمته « ثم يرم به بريئا » أى : ينسبه إلى غيره من الأبرياء مع أنه هو الذى اقترفه ﴿فقد احتمل﴾ أى : فقد تحمل بسبب فعله ذلك ﴿بهتانا﴾ أى كذبا يجعل من رمى به فى حيرة ودهشة، وتحمل أيضا ﴿إثما مبينا﴾ أى ذنبا واضحا بينا لاخفاء فيه يؤدى به إلى غضب الله وسخطه.

قال الجمل وقوله (به) فى هذه الهاء أقوال :

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٠
(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٨١

أحدها : أنها تعود على ﴿إثما﴾ والمتعاطفان بأو يجوز أن يعود الضمير على المعطوف كما فى هذه الآية وعلى المعطوف عليه كما فى قوله - تعالى - ﴿وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما﴾.

الثانى : أنها تعود على الكسب المدلول عليه بالفعل نحو (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى العدل.

الثالث : أنها تعود على أحد المذكورين الدال عليه العطف بأو فإنه فى قوة ثم يرم بأحد المذكورين[1].

وقال الفخر الرازى : واعلم أن صاحب البهتان مذموم فى الدنيا أشد الذم ومعاقب فى الآخرة أشد العقاب. فقوله : ﴿فقد احتمل بهتانا﴾ إشارة إلى ما يلحقه من الذم العظيم فى الدنيا. وقوله ﴿وإثما مبينا﴾ إشارة إلى ما يلحقه من العقاب العظيم فى الآخرة[2].

وبهذا نرى أن هذه الآيات الثلاثة قد بينت مراتب العصاة أمام الله - تعالى وفتحت لهم باب التوبة ليثوبوا إلى رشدهم، وتوعدت المصرين على معاصيهم بسوء المصير.

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على نبيه ﷺ فقال : ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء﴾.

أى : ولولا فضل الله عليك ورحمته بك - يامحمد - بأن وهبك النبوة، وعصمك من كيد الناس وأذاهم، وأحاطك علما بما يبيتونه من سوء لولا ذلك ﴿لهمت طائفة منهم﴾ أى : من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم وهم طعمة وأشياعه الذين دافعوا عنه، ومن كان على شاكلتهم فى النفاق والجدال بالباطل ﴿أن يضلوك﴾ أى : لهمت طائفة من هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض أن يضلوك عن القضاء بالحق بين الناس، ولكن الله - تعالى - حال بينهم وبين هذا الهم بإشعارهم بأن ما يفعلونه معك من سوء سيكشفه الله لك عن طريق الوحى.

وقوله ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أى : أنهم بمحاولتهم إخفاء الحق والدفاع عن الخائن، وتعاونهم على الإثم والعدوان، ما يضلون إلا أنفسهم، لأن سوء عاقبة ذلك ستعود عليهم وحدهم، أما أنت يا محمد فقد عصمك الله من شرورهم، وحماك من كل انحراف عن الحق والعدل.

وقوله ﴿وما يضرونك من شىء﴾ معطوف على ما قبله. أى هم بمحاولتهم إخفاء الحق

(١) تفسير الجمل جـ١ ص ٤٢٤
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص ٢٨

ما يضرونك بأى قدر من الضر. لأنك إنما قضيت بينهم بما هو الظاهر من أحوالهم، وهو الذى تحكم بمقتضاه، أما الأمور الخفية التى تخالف الحق فمرجع علمها إلى الله وحده.

﴿ومن﴾ فى قوله ﴿من شىء﴾ زائدة لتأكيد النفى. وشىء أصله النصب على أنه مفعول مطلق لقوله ﴿يضرونك﴾. أى: وما يضرونك شيئا من الضرر وقد جر لأجل حرف الجر الزائد.

وقوله ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ معطوف على قوله ﴿وما يضرونك من شىء﴾ لزيادة التقرير، ولزيادة بيان ما وهبه الله - تعالى - لنبيه من خير ورعاية وعصمة أى: أن الله - تعالى - قد امتن عليك يا محمد بأن أنزل عليك القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم، وأنزل عليك الحكمة أى العلم النافع الذى يجعلك تصيب الحق فى قولك وعملك «وعلمك ما لم تكن تعلم» من أخبار الأولين والآخرين، ومن خفيات الأمور، ومن أمور الدين والشرائع.

﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾ أى وكان فضل الله عليك عظيما عظمًا لا تحده عبارة، ولا تحيط به إشارة.

فالآية الكريمة فيها ما فيها من التنويه بشأن الرسول ﷺ ومن مظاهر فضل الله عليه ورحمته به.

وبعد فإن المتأمل فى هذه الآيات الكريمة، ليراها تهدى الناس إلى ما يسعدهم فى كل زمان ومكان متى اتبعوا توجيهاتها وإرشاداتها.

إنها تأمرهم فى شخص نبيهم ﷺ أن يلتزموا الحق فى كل أقوالهم وأعمالهم، حتى ولو كان الذى عليه الحق من أقرب الناس إليهم، وكان الذى له الحق من أعدى أعدائهم، وتنهاهم عن الدفاع عن الخائنين الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، وتبين لهم أن دفاعهم عنهم لن يفيده أمام الله - تعالى -.

ثم تفتح للعصاة باب التوبة لكى يفيئوا إلى رشدهم ويعودوا إلى طاعة ربهم وتخبرهم أن شؤم المعصية سيعود إليهم وحدهم... وتنبههم إلى أن من أشد الذنوب عند الله - تعالى - أن يفعل الشخص فاحشة ثم يقذف بها غيره.

ثم تسوق الآيات فى ختامها جانبا من فضل الله على نبيه ورحمته به، لكى يزداد ثباتا واطمئنانا» ويزداد أعداؤه خوفا وضعفا واضطرابا.

وهكذا نرى الآيات الكريمة تهدى الناس إلى الحق الذى لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية. ولا يتأرجح مع الحب أو البغض حتى ولو كان الذى عليه الحق ممن يظهرون الإسلام

ويعاملون معاملة المسلمين، وكان الذى له الحق من اليهود الذين لم يتركوا مسلكا لمحاربة الدعوة الإسلامية إلا سلكوه والذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك أنكروه وحاربوه.

فهل رأيت - أخى القارىء - عدالة تقترب من هذه العدالة فى سموها ونقائها واستقامة منهجها؟

إن هذه الآيات لتشهد بأن هذا القرآن من عند الله، لأن البشر مهما استقامت طبائعهم، فإنهم ليس فى استطاعتهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع الذى تشير إليه الآيات، والذى يكشف لكل عاقل أن هذا القرآن من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾.

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن كثيرا من كلام الناس لا خير فيه، وأن العاقل هو الذى يحرص على القول النافع والعمل الطيب. وأن الذين يتبعون الطريق المخالف لطريق الحق سينالهم عذاب شديد من خالقهم فقال - سبحانه -:

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

وقوله - تعالى -: ﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾. إشارة إلى ما جبل عليه كثير من الناس من إخفاء الأقوال أو الأعمال التى فيها شر ومضرة، ومن إعلان الأقوال أو الأفعال التى من ورائها خير ومنفعة. وقوله ﴿نجواهم﴾ أى: مما يتناجى به الناس ويتكلمون فيه. والنجوى: اسم مصدر بمعنى المسارة. يقال: نجوته نجوا

ونجوى وناجيته مناجاة. أى: ساررته بكلام على انفراد. وأصله: أن تعلو بمن تناجيه بسر معين فى نجوة من الأرض. أى فى مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله. وقيل: أصله من النجاة، لأن الإسرار بالشىء فيه معاونة على النجاة. وتطلق النجوى على القوم المتناجين كما فى قوله - تعالى - ﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾.

والضمير فى قوله ﴿من نجواهم﴾ يعود إلى الناس جميعا، ويدخل فيه أولئك الذين كانوا يختانون أنفسهم ومن على شاكلتهم دخولا أوليا.

والمعروف - كما يقول الآلوسى - هو كل ما عرفه الشرع واستحسنه، فيشمل جميع أنواع البر كقرض وإغاثة ملهوف وإرشاد ضال إلى غير ذلك. ويراد به هنا ماعدا الصدقة وماعدا ما أشير إليه بقوله - تعالى - ﴿أو إصلاح بين الناس﴾[1].

والمعنى: لا خير فى كثير من الكلام الذى يتناجى فيه الناس، ويتحدثون به سرا، إلا فى نجوى من أمر غيره سرا بصدقة يزكى بها ماله، وينفع بها المحتاج إليها، أو من أمر غيره بالإكثار من أعمال البر، أو القيام بالإصلاح بين الناس المتخاصمين لكى يعودوا إلى ما كانوا عليه من الألفة والإخاء والصفاء.

قال الجمل: وقوله ﴿إلا من أمر﴾. فى هذا الاستثناء قولان:

أحدهما: متصل

والثانى: أنه منقطع. وهما مبنيان على أن النجوى يجوز أن يراد بها المصدر كالدعوى فتكون بمعنى التناجى أى التحدث. وأن يراد بها القوم المتناجون إطلاقا للمصدر على الواقع منه مجازا. فعلى الأول يكون منقطعا، لأن من أمر ليس مناجاة، فكأنه قيل: لكن من أمر بصدقة ففى نجواه الخير وإن جعلنا النجوى بمعنى المتناجين كان متصلا. وقوله ﴿إلا من أمر﴾. إما منصوب على الاستثناء المنقطع إن جعلته منقطعا فى لغة الحجازيين. أو على أصل الاستثناء إن جعلته متصلا. وإما مجرور على البدل من كثير، أو من نجواهم، أو صفة لأحدهما[1].

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد أخرجت من التناجى المذموم ثلاث خصال هى جماع الخير، وذلك لأن الصدقة التى يخرجها الإنسان تكون سببا فى تزكية ماله، وحسن ثوابه، ونشر المحبة والمودة بين الناس.

والتعبير بقوله ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ يفيد الدعوة إليها، والحث على بذلها سرا ما دامت المصلحة تقتضى ذلك.

(١) تفسير الكشاف جـ ٥ ص ١٤٤.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٢٤.

أما المعروف وهو النوع الثانى من التناجى المحمود فهو - كما يقول القرطبى لفظ يعم كل أعمال البر. ففى الحديث الشريف (كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق) وقال على بن أبى طالب: (لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره، فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الجاحد).

وقال الماوردى: ينبغى لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه، وليعلم أنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة ففاتت فأعقبت ندما.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف السراح - أى التعجيل - ومن شرط المعروف ترك الامتنان به، وترك الإعجاب بفعله. لما فيهما من إسقاط الشكر، وإحباط الأجر. قال بعض الشعراء:

زاد معروفك عندى عظما ... أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور خطير[1]

والأمة التى يفشو فيها قول المعروف وفعله، تسودها السعادة، وتظلها المحبة والمودة والرحمة.

وأما الإصلاح بين الناس فهو فريضة اجتماعية يقوم بها من صفت نفوسهم وقويت عزائمهم، ورسخ إيمانهم.

وقد حض القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا جماعات أم أفرادا لأن التخاصم والتنازع يؤدى إلى انتشار العداوات والمفاسد بين الناس. قال - تعالى -: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التى تحض على الاصلاح بين الناس ومن ذلك ما رواه ابن مردويه عن محمد بن يزيد بن حنيش قال: دخلنا على سفيان الثورى نعوده. قدخل علينا سعيد بن حسان فقال له الثورى الحديث الذى كنت حدثتنيه عن أم صالح أردده على. فقال: حدثتنى أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له. إلا ذكر الله - تعالى - أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر». فقال سفيان: أو ما سمعت الله فى كتابه يقول: ﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾. فهو هذا بعينه.

وروى الجماعة - سوى ابن ماجه - عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٨٤ بتصرف وتلخيص.

يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيرا » . وقالت : لم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب . والإصلاح بين الناس . وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن أبى الدرداء قال : قال رسول ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . يا رسول الله ! ! قال إصلاح ذات البين » . قال : « وفساد ذات البين هى الحالقة »(١) .

ففى هذه الأحاديث الشريفة دعوة قوية إلى الاصلاح بين الناس حتى يعيشوا فى أمان واطمئنان .

وبذلك نرى أن هذه الأمور الثلاثة التى أخرجها الله - تعالى - من التناجى المذموم هى جماع الخير الإنسانى والاجتماعى .

وقد أشار الإمام الرازى إلى ذلك بقوله : هذه الآية وإن نزلت فى مناجاة بعض قوم ذلك السارق مع بعض إلا أنها فى المعنى عامة . والمراد : لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا ما كان من أعمال الخير ثم إنه - تعالى - ذكر من أعمال الخير ثلاثة أنواع : الأمر بالصدقة . والأمر بالمعروف . والاصلاح بين الناس .

وإنما ذكر الله - تعالى - هذه الأقسام الثلاثة ، لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة . أما إيصال الخير : فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية وهو إعطاء المال . وإليه الإشارة بقوله : ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ . وإما أن يكون من الخيرات الروحانية وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم ، أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة . ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف . وإليه الإشارة بقوله ﴿أو معروف﴾ وأما إزالة الضرر فإليها الإشارة ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة فى هذه الآية(٢) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة من يقوم بفعل هذه الفضائل فقال : ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيما﴾ .

أى : ومن يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، قاصدا بفعله رضا الله وحسن مثوبته ، فسوف نؤتيه أجرًا عظيما لا يعرف مقداره إلا الله - تعالى - . وقال - سبحانه - ومن يفعل ذلك ولم يقل ومن يأمر بذلك كما جاء فى صدر الآية . لأن المقصود

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٥٣

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٤

الترغيب فى هذا الفعل الحسن، لأن الآمر بالخير إذا دخل فى زمرة الخيرين كان الفاعل أحرى بالدخول فى زمرتهم.

وفى تقييد الفعل بكونه ابتغاء مرضاة الله، تحريض على إخلاص النية، لأن الأعمال بالنيات، وإذا صاحب الرياء الأعمال أبطلها ومحق بركتها.

والتعبير بسوف هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل. أى. فسوف نؤتيه أجرًا لا يحيط به نطاق الوصف، ولن نبخسه شيئًا من حقه حتى ولو كان هذا الشيء بالغًا النهاية فى الصغر.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يسيرون فى طريق الباطل، ويتركون طريق الحق فقال - تعالى - : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى، ونصله جهنم وساءت مصيرًا﴾.

وقوله ﴿يشاقق﴾ من المشاقة بمعنى المعاداة والمخالفة المقصودة. وهى من الشق لأن المخالف كأنه يختار شقا يكون فيه غير شق الآخر.

فقوله ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ أى: من يخالفه ويعاديه.

وقوله ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أى يخالفه ويعاديه من بعد ما اتضح له الحق، وقام لديه الدليل على صحة دين الإسلام.

وقوله ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ معطوف على يشاقق. أى: ويتبع طريقا غير طريق الإسلام التى سار فيها المؤمنون، واعتقدوا صحتها وسلامتها من كل سوء. من يفعل ذلك. نوله ما تولى، أى نجعله - كما يقول الآلوسى واليًا لما تولاه من الضلال. أو نخل بينه وبين ما اختار لنفسه من الضلال فى الدنيا. أو نكله فى الآخرة إلى ما اتكل عليه فى الدنيا وانتصر به من الأوثان وغيرها.

قال صاحب المنار: والذى أريد توجيه الأذهان إلى فهمه هو أن هذه الجملة مبينة لسنة الله - تعالى - فى عمل الإنسان. ومقدار ما أعطيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار. فالوجهة التى يتولاها فى حياته، والغاية التى يقصدها من عمله، يوليه الله إياها ويوجهه إليها. أى: يكون بحسب سنته - تعالى - واليا لها وسائرا على طريقها. فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختار لنفسه. ولو شاء - سبحانه - لهدى الناس أجمعين بخلقهم على حالة واحدة فى الطاعة كالملائكة، ولكنه شاء أن يخلقهم على ما نراهم عليه الآن من تفاوت فى الاستعداد والإدراك وعمل كل فرد بحسب ما يرى أنه خير له وأنفع فى عاجله أو آجله أو فيهما جميعا[1]...

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٤١٥.

وقوله ﴿ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ وعيد شديد لأولئك المخالفين لطريق الحق. وأصل الصلى: إيقاد النار ولزومها وقت الاستدفاء. يقال صلى بالنار أى: بلى بها. وصليت الشاة: شويتها وهى مصلية.

والمعنى: ومن يخالف طريق الحق نوله ما تولى وندخله فى الآخرة جهنم ليشوى فيها كما تشوى الشاة، وساءت جهنم مكانا لمن صار إليها، وحل فيها.

قال ابن كثير: والذى عول عليه الشافعى يرحمه الله - فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروى والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها. وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة على ذلك...[1].

وبهذا نرى أن الآيتين الكريمتين قد بشرتا من يفعل الخير ابتغاء مرضاة الله بالأجر العظيم، وأنذرتا من يخالف طريق أهل الحق بالعذاب الأليم، ﴿ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾

***

ثم حذر - سبحانه - من الشرك وتوعد المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليا من دون الله بالعذاب المهين فقال - تعالى -:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا
﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٥٥.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

ذكر بعض المفسرين عن ابن عباس فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. الآية: أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى شيخ منهمك فى الذنوب. إلا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به. ولم أتخذ من دونه وليا، ولم أوقع المعاصى جراءة. وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا. وإنى لنادم تائب. فما ترى حالى عند الله - تعالى -؟ فنزلت[1].

والمراد بالشرك هنا: مطلق الكفر سواء أكان هذا الكفر من أهل الكتاب أم من العرب أم من غيرهم.

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له ممن اقترفها إذا مات من غير توبة. فمن مات منهم بدونها فهو تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة.

وأما قوله ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾. فمقيد بالمشيئة أى: يغفر الذنوب جميعا لمن شاء أن يغفر له. ومقيد أيضا بما عدا الشرك. أى يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك فإنه لا يغفره لمن مات عليه.

ثم بين - سبحانه - سوء حال المشركين فقال: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا﴾ والضلال هو السير فى غير الطريق الموصل إلى النجاة.

أى: ومن يشرك بالله - تعالى - بأن يعبد سواه، أو يجعل معه شريكا فى العبادة فقد سار فى طريق الشرور والآثام سيرا بعيدا ينتهى به إلى الهلاك، ويفضى به إلى العذاب المهين.

وهذه الآية قد مر الكلام مفصلا فى آية تشبهها من هذه السورة وهى قوله - تعالى - ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾[2].

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص١٤٧.
(٢) الآية رقم ٤٨.

قالوا : وقد ختمت هذه الآية بقوله : ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ لأنها فى شأن أهل الكتاب من اليهود وهم عندهم علم بصحة نبوته ﷺ وبأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع ومع ذلك فقد حملهم الحسد على إنكار الحق، فصار فعلهم هذا افتراء بالغ العظم فى الكذب والجرأة على الله.

وختمت الآية التى معنا بقوله - تعالى - : ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ لأنها فى قوم مشركين لم يعرفوا من قبل كتابا ولا وحيا، فأتاهم رسول الله ﷺ بالهدى ودين الحق، وميزلهم طريق الرشد من طريق الغى، ولكنهم لم يتبعوه فكان فعلهم هذا ضلالا واضحا عن طريق الحق. وابتعادا شديدا عن الصراط المستقيم.

ثم فصل - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال : ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾.

و ﴿إن﴾ هنا هى النافية. ويدعون من الدعاء وهو هنا بمعنى العبادة لأن من عبد شيئا فإنه يدعوه عند احتياجه إليه.

والمراد بالإناث : الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله.

أى : أن هؤلاء المشركين ما يعبدون من دون الله إلا أصناما، أو ما ينادون من دون الله لقضاء حوائجهم إلا أوثانًا لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

وعبر عن الأصنام بالإناث لأن المشركين سموا أكثر هذه الأصنام بأسماء الإناث، كاللات والعزى ومناة.

قال الحسن : كان لكل حى من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بنى فلان وكانوا يزينونه بالحلى كالنساء.

وقيل : المراد بالإناث هنا الملائكة، لأن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقولون عنها : بنات الله. قال - تعالى - ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾.

وقيل : المراد بها هنا : الجمادات التى لا حياة فيها ومع ذلك يعبدونها.

قال أبو حيان : قال الراغب : أكثر ما عبدته العرب من الأصنام كانت أشياء منفعلة غير فاعلة. فبكتهم الله أنهم مع كونهم فاعلين من وجه يعبدون ما ليس هو إلا منفعلا من كل وجه. وعلى هذا نبه إبراهيم - عليه السلام - أباه بقوله : ﴿يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا﴾[1].

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٣ ص٣٥٢.

وقد رجح ابن جرير القول الأول فقال : وأولى التأويلات التى ذكرت بتأويل ذلك تأويل من قال : عنى بذلك الآلهة التى كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله، ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الأظهر من معانى الإناث فى كلام العرب، ما عرف بالتأنيث دون غيره فإذا كان ذلك كذلك فالواجب توجيه تأويله إلى الأشهر من معانيه. فكأنه - تعالى - يقول : فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله وعبدوا ما عبدوا من دونه حجة عليهم فى ضلالهم وكفرهم أنهم يعبدون إناثا. والإناث من كل شىء أخسه. فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودية على علم منهم بخساسته ويمتنعون من إخلاص العبودية للذى ملك كل شىء وبيده الخلق والأمر[1].

وقوله ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدًا﴾ بيان لما دفعهم إلى الوقوع فى ذلك الضلال الذى انغمسوا فيه.

ومريدًا. أى عاتيا متمردا بالغا الغاية فى الشرور والفساد.

قال الراغب : والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرى من الخيرات. من قولهم شجر أمرد إذا تعرى من الورق. ومنه قيل رملة مرداء أى : لم تنبت شيئا. ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر[2].

فأصل مادة مرد للملاسة والتجرد. ومنه قوله - تعالى - ﴿صرح ممرد﴾ أى أملس. ووصف الشيطان بالتمرد لتجرده للشر. وعدم علوق شىء من الخير به. أو لظهور شره ظهور عيدان الشجرة المرداء.

والمعنى : إن هؤلاء المشركين ما يعبدون من دون الله إلا أصناما سموها بأسماء الإناث، وما يطيعون فى عبادتها إلا شيطانا عاتيا متجردا من كل خير، ومتعريا من كل فضيلة. فهذا الشيطان الشرير دعاهم لعبادة غير الله فانقادوا له انقيادا تاما. وخضعوا له خضوعا لا مكان معه لتعقل أو تدبر.

وقوله ﴿مريدًا﴾ صفة لشيطان. وقوله ﴿لعنه الله﴾ صفة ثانية. أى : طرده من رحمته طردا مقترنا بسخط وغضب.

ثم حكى - سبحانه - أن الشيطان قد أقسم بأنه لن يكف عن إبعاد بنى آدم عن طريق الحق

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٣٨٠. بتصرف وتلخيص.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص٤٦٦.

فقال : ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ :

أى : أن الشيطان قال مؤكدا ومقسما لأتخذن من عبادك الذين هم من ذرية آدم، نصيبا مفروضا. أى : لأجعلن لى منهم مقدارا معينا قليلا كان أو كثيرا، وهم الذين سأصرفهم عن الطريق الحق، وسأجعلهم خاضعين لوسوستى ومنقادين لأمرى. وقوله ﴿لأتخذن﴾ من الاتخاذ وهو أخذ الشىء على جهة الاختصاص. وقوله ﴿مفروضا﴾ من الفرض بمعنى القطع. وأطلق هنا على العدد المعين من الناس لاقتطاعه عن سواه من صالحى المؤمنين. فكل من أطاع الشيطان من بنى آدم فهو نصيبه المقطوع منهم له.

وجملة ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ معطوفة على الجملة المتقدمة عليها. أى : أن هؤلاء المشركين ما يطيعون فى عبادتهم لغير الله إلا شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله - تعالى - له، وبين هذا القول الشنيع الصادر منه عند اللعن.

أما الأمر الثانى والثالث اللذان توعد الشيطان بهما بنى آدم فقد حكاهما - سبحانه - فى قوله ﴿ولأضلنهم ولأمنينهم﴾ أى : ولأضلنهم عن طريق الحق فأجعلهم يسيرون فى طريق الباطل إلى نهايته، ولأمنينهم الأمانى الفارغة. بأن أجعلهم يجرون وراء الأحلام الكاذبة، والأوهام الفاسدة. والأطماع التى تسيطر على نفوسهم وعقولهم، وبذلك يكونون من جندى، ويخضعون لأمرى.

أما الأمر الرابع الذى توعد الشيطان به بنى آدم فقد حكاه - سبحانه - فى قوله ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾.

قال الراغب : البتك يقارب البت لكن البتك يستعمل فى قطع الاعضاء والشعر. يقال بتك شعره وأذنه - أى قطعها أو شقها - ومنه سيف باتك أى قاطع للأعضاء. وأما البت فيقال فى قطع الحبل[1].

وكانوا فى الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا قطعوا أذنها أو شقوها شقا واسعا علامة على أنهم حرموا على أنفسهم الانتفاع بها وجعلوها للطواغيت وسموها بحيرة أى المشقوقة الأذن.

والمراد : أنه يأمرهم بعبادة غير الله وبالأمانى الباطلة. وبتقطيع آذان الأنعام تقربا للطواغيت والأوثان فيسارعون إلى إجابته، وينقادون لوسوسته.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص٢٦.

أما الأمر الخامس الذى توعد الشيطان به بنى آدم فقد حكاه - سبحانه - فى قوله ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾.

قال ابن كثير: أى دين الله. وهذا كقوله: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ على قول من جعل ذلك أمرا أى: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم. كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء. هل تجدون بها من جدعاء؟»

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال: قال رسول الله ﷺ قال الله - تعالى -: «إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»(١).

وقال بعضهم: المراد بتغيير خلق الله تغيير الصور التى خلق الله عليها مخلوقاته، كفقأ عين فحل الإبل فى بعض الأحوال، وقطع الآذان، والوشم، وما يشبه ذلك مما كانوا يفعلونه فى جاهليتهم اتباعا للشيطان.

وقد رجح ابن جرير أن المراد بتغيير خلق الله: تغيير دين الله فقال ما ملخصه: «وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال: معناه: ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، قال: دين الله. وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه وهى قوله: ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم﴾. وإذا كان ذلك معناه، دخل فى ذلك فعل كل ما نهى الله عنه من خصاء ما لا يجوز خصاؤه، ووشم مانهى عن وشمه، وغير ذلك من المعاصى(٢).

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد حكى للناس ما قاله الشيطان بلسان حاله أو مقاله حتى يحذروه ويتخذوه عدوا لهم، لينالوا رضا الله ومثوبته.

وقد أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله: ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾.

أى: ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله، بأن يتبع الشيطان ويواليه ويسير خلف

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٢٨٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٢٨٥.

وسوسته، ويترك طريق الحق والهدى، من يفعل ذلك يكن بفعله هذا قد خسر خسرانا واضحا بينا، لأن الشيطان لا يسوق الإنسان إلا إلى ما يهلكه ويخزيه فى الدنيا والآخرة، وسيقول لأتباعه يوم ينزل بهم العقاب فى الآخرة ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾.

وقوله - تعالى - ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا﴾ تأكيد للتحذير السابق من اتباع الشيطان.

أى: يعد الشيطان أولياءه بالوعود الباطلة، ويمنيهم بالأمانى الكاذبة، لكى يستمروا على طاعته، والحال أن الشيطان ما يعدهم إلا بالأمور الخادعة التى ظاهرها يغرى وباطنها يردى.

قال القرطبى: الغرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وفيه باطن مكروه والشيطان غرور، لأنه يحمل على محاب النفس ووراء ذلك ما يسوء.

وقوله ﴿غرورا﴾ مفعول ثان للوعد، أو مفعول لأجله. أونعت لمصدر محذوف أى وعدا ذا غرور.

وقوله ﴿أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا﴾ بيان لسوء مصير الذين انقادوا للشيطان واتبعوا خطواته.

والمحيص: المهرب والملجأ. وهو اسم مكان أو مصدر ميمى يقال حاص عنه يحيص حيصًا وحيوصًا ومحيصا أى: عدل وحاد.

أى: أولئك الذين اتبعوا خطوات الشيطان وساروا فى ركابه، مستقرهم جميعا جهنم، ولا يجدون ملجأ دونها يلتجئون إليه، أو مهربا يهربون منه لينجوا من عذابها، وإنما يبقون فيها دون أن يتمكنوا من الخروج منها.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت أشد التحذير من الإشراك بالله - تعالى - ومن اتباع وساوس الشيطان وخداعه ووعوده الباطلة، وأمانيه الخادعة، وهددت كل من يهجر طريق الرشد. ويسلك طريق الغى بالعذاب الشديد الذى لا مفر منه ولا مهرب.

* * *

ثم عقب - سبحانه - ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين، الذين آمنوا بالله إيمانا حقا، وابتعدوا عن كل مالا يرضيه فقال - سبحانه -:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

وقوله - تعالى - ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك، ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ جريا على عادة القرآن فى تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد.

أى: والذين آمنوا بالله إيمانا حقا، وقدموا فى حياتهم الأعمال الصالحات «سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار» أى من تحت غرفها ومساكنها الأنهار «خالدين فيها أبدا» أى: مقيمين فيها إقامة أبدية «وعد الله حقا» أى: واقعا لا محالة ما وعد الله به عباده الصالحين من نعم بخلاف ما وعد الشيطان به أتباعه فإنه وعد كاذب باطل.

وقوله ﴿وعد الله﴾ منصوب على المصدر المؤكد لمضمون جملة ﴿سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ لأنها بمعناه فكأنه مؤكد لنفسه وقوله ﴿حقا﴾ منصوب بفعل محذوف أى: حق ذلك حقا.

والاستفهام فى قوله ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ للنفى. والقيل مصدر كالقول أى: هذا ما وعد الله به عباده المؤمنين، وما وعد الله به عباده فهو متحقق الوقوع لا محالة، لأنه لا أحد أصدق من الله قولا. فالجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد ما سبقه من وعد الله لعباده المؤمنين بالجنة.

وقوله ﴿قيلا﴾ منصوب على أنه تمييز نسبة من قوله ﴿ومن أصدق من الله﴾ ثم بين - سبحانه - أن الوصول إلى رضوانه لا يكون بالأمانى والأوهام وإنما يكون بالإيمان والعمل الصالح فقال: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به. ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾.

والأمانى: جمع أمنية. وهى ما يتمناه الإنسان ويرغب فيه ويشتهيه من أشياء متنوعة. كحصوله على الخير الوفير فى الدنيا، وعلى الجنة فى الآخرة. وهى مأخوذة من التمنى.

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها قول قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا. فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، ونبينا خاتم النبيين. وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله. فأنزل الله: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾. الآية.

وقال مجاهد: قالت العرب لن نبعث ولن نعذب. وقالت اليهود والنصارى ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾. فأنزل الله - تعالى - ﴿ليس بأمانيكم﴾. الآية[1].

والضمير فى قوله ﴿ليس﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من الوعد المتقدم وهو نيل الثواب ودخول الجنة.

والخطاب لجميع الفرق التى حدث بينها تنازع فى شأن الدين الحق، وفى شأن ما يترتب على ذلك من ثواب.

والمعنى: ليس ما وعد الله به من الثواب أو إدخال الجنة، أو ليس ما تحاورتم فيه حاصلا بمجرد أمانيكم -أيها المسلمون- أو أمانى أهل الكتاب أو غيرهم، وإنما ما تمنيتموه جميعا يحصل بالإيمان الصادق، وبالعمل الصالح، وبالسعى والجد فى طاعة الله، فقد اقتضت سنة الله - تعالى - أن من يعمل خيرا يجد خيرا، و﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ أى: من يرتكب معصية مؤمنا كان أو كافرا يجازه الله بها عاجلا أو آجلا إلا إذا تاب، أو تفضل الله عليه بالمغفرة إذا كان مؤمنا.

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٣٨٨.

وقد سار ابن كثير فى تفسيره على أن الخطاب لجميع الطوائف فقال: «والمعنى فى هذه الآية أن الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال. وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾.

أى ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنى. بل العبرة بطاعة الله - سبحانه - واتباع ما شرعه على ألسنة رسله ولهذا قال بعده ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾. كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[1].

ومنهم من يرى أن الخطاب فى قوله ﴿ليس بأمانيكم﴾ للمسلمين.

وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف بقوله: فى ﴿ليس﴾ ضمير وعد الله أى: ليس ينال ما وعد الله من الثواب ﴿بأمانيكم ولا﴾ بأمانى أهل الكتاب. والخطاب للمسلمين، لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به. وكذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم فى الإيمان بوعد الله[2].

ومنهم من يرى أن الخطاب للمشركين. وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه: وأولى الأقوال بالصواب فى ذلك ما قاله مجاهد من أنه عنى بقوله ﴿ليس بأمانيكم﴾. مشركى قريش. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب. لأن المسلمين لم يجر لأمانيهم ذكر فيما مضى من الآى قبل قوله ﴿ليس بأمانيكم﴾ وإنما جرى ذكر أمانى نصيب الشيطان المفروض فى قوله قبل ذلك. ﴿ولأمنينهم ولآمرنهم﴾ وقوله ﴿يعدهم ويمنيهم﴾ فإلحاق معنى قوله - تعالى - ﴿ليس بأمانيكم﴾ بما ذكره قبل أحق وأولى من ادعاء تأويل فيه لا دالة عليه من ظاهر التنزيل، ولا من أثر الرسول ﷺ[2].

ومع وجاهة هذا الرأى الذى سار عليه ابن جرير، إلا أنا نؤثر عليه ما ذهب إليه ابن كثير من أن الآية الكريمة تخاطب الناس جميعا سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب. لأن الآية الكريمة تضع لهم جميعا قاعدة عامة وهى أن الوصول إلى ثواب الله ورضاه لا ينال بالأمانى والأحلام وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح.

وقوله ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ جملة مكونة من شرط وجزاء. والمراد بالسوء ما يشمل الكفر والمعاصى. وقيل: المراد بالسوء هنا الكفر فقط.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٥٧.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٢٩١.

قال الآلوسى قوله - تعالى - : ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ أى : عاجلا أو آجلا. فقد أخرج الترمذى وغيره عن أبى بكر الصديق قال : كنت عند النبى ﷺ فنزلت هذه الآية. فقال رسول الله : يا أبا بكر ألا أقرئك آية نزلت على؟ فقلت : بلى يا رسول الله. فأقرأنيها فلا أعلم إلا أنى وجدت انفصاما فى ظهرى.. فقال رسول الله ﷺ. مالك يا أبا بكر؟ قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء. وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ : أما أنت وأصحابك يا أبا بكر المؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله - تعالى - ليس عليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزون يوم القيامة.

وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله - تعالى - فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : سددوا وقاربوا فإن كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها.

قال الآلوسى : والأحاديث بهذا المعنى أكثر من أن تحصى. ولهذا أجمع عامة العلماء على أن الأمراض والاسقام ومصائب الدنيا وهمومها - وإن قلت مشقتها - يكفر الله - تعالى - بها الخطيئات، والأكثرون على أنها - أيضا ترفع بها الدرجات، وهو الصحيح المعول عليه. فقد صح فى غير ما طريق ؛ « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة »[1].

وقوله - تعالى - ﴿ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ تذليل قصد به تأكيد ما قبله من أن ثواب الله لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح، وأن عقابه سيحل بمن يعمل السوء.

أى : أن من يعمل السوء سيجازى به، ولا يجد هذا المرتكب للسوء أحدا سوى الله - سبحانه - يلى أمره ويحامى عنه، ولا نصيرا ينصره ويحاول إنجاءه من عقاب الله - تعالى -

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾.

أى : ومن يعمل من الأعمال الصالحات سواء أكان العامل ذكرا أم أنثى ما دام متحليا بصفة الإيمان، فأولئك العاملون بالأعمال الصالحة يدخلون الجنة جزاء عملهم ؛ ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم، ولو كان هذا الشىء نقيرا وهو النقطة التى تكون فى ظهر النواة ويضرب بها المثل فى القلة والحقارة.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من الصالحات﴾ للتبعيض أى : بعض الأعمال الصالحات لأن الإنسان

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص١٥٢.

لا يستطيع أن يعمل جميع الأعمال الصالحة، وإنما كل إنسان يعمل على قدر طاقته وقدرته ولا يكلف نفسا إلا وسعها.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من ذكر أو أنثى﴾ للبيان. أى بيان أن الأحكام الشرعية وما يترتب عليها من ثواب يشترك فيه الرجال والنساء إلا إذا قام دليل على أن أحد الصنفين مختص بحكم معين لا يشاركه فيه الصنف الآخر.

وفى ذلك إنصاف للمرأة من الظلم الذى كان واقعا عليها قبل شريعة الإسلام العادلة.

والجملة الكريمة فى موضع نصب على الحال من ضمير ﴿يعمل﴾.

وقوله ﴿وهو مؤمن﴾ قيد لإخراج غير المؤمن لأن الكافر مهما قدم من أعمال صالحة فى الدنيا فإنها لن تنفعه فى الآخرة بسبب كفره بالدين الحق.

واسم الإشارة وهو قوله ﴿فأولئك﴾ يعود إلى من فى قوله ﴿ومن يعمل﴾ باعتبار معناها.

وقوله ﴿ولا يظلمون نقيرا﴾ بيان لفضل الله - تعالى - وعدله، وأنه - سبحانه - ﴿لا يظلم الناس شيئا وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾.

ثم أثنى - سبحانه - على من أخلص له الإيمان والعمل فقال: ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾.

أى: لا أحد أحسن دينا، وأجدر بالقبول عند الله ويجزيل ثوابه ممن أخلص نفسه لله، وجعلها سالمة له بحيث لا تعرف لها ربا ولا معبودا سواه.

وقوله ﴿وهو محسن﴾ أى: وهو مؤد لما أمره الله به ومبتعد عن كل مانهاه الله عنه، على الوجه اللائق الحسن.

فالاستفهام فى قوله ﴿ومن أحسن﴾ للنفى. والمقصود منه مدح من فعل ذلك على أتم وجه.

وقوله ﴿وهو محسن﴾ جملة فى موضع الحال من فاعل ﴿أسلم﴾.

فالآية الكريمة قد أشارت إلى أن الدين الحق يقتضى أمرين:

أولهما: إخلاص القلب والنية لله - تعالى - بحيث لا يكون عامرا إلا بذكر الله.

والثانى: إتقان العمل الصالح وإجادته حتى يصل إلى مرتبة الإحسان الذى عرفه النبى ﷺ بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقوله ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ بيان لما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - من عقيدة سليمة، ودين قويم. وهو معطوف على قوله ﴿أسلم وجهه﴾.

أى : لا أحد أحسن دينا، وأصوب طريقا ممن أخلص نفسه لله، وأتقن أعماله الصالحة على الوجه الذى يرضاه الله - تعالى - واتبع ملة إبراهيم الذى كان مبتعدًا عن كل الملل الزائفة المعوجة ومتجها إلى الدين الحق، والمنهاج المستقيم.

والمراد بملة إبراهيم : شريعته التى كان يدين الله عليها، ومنهاجه الذى يوافق منهاج الإسلام الذى أتى به محمد - عليه الصلاة والسلام.

وحنيفا من الحنف وهو الميل عن الضلال إلى الاستقامة. وضده الجنف يقال : تحنف فلان أى تحرى طريق الاستقامة.

وقوله ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ تذييل جيء به للترغيب فى اتباع ملة إبراهيم، وللتنويه بشأنه - عليه السلام - وبشأن من اتبع طريقته.

والخليل فى كلام العرب : هو الصاحب الملازم الذى لا يخفى عليه شىء من أمور صاحبه. مشتق من الخلة وهى صفاء المودة التى توجب الاختصاص بتخلل الأسرار.

قال الآلوسى : والخليل مشتق من الخلة - بضم الخاء - وهى إما من الخلال - بكسر الخاء - فإنها مودة تتخلل النفس وتخالطها مخالطة معنوية. فالخليل من بلغت مودته هذه المرتبة. وإما من الخلل على معنى أن كلا من الخليلين يصلح خلل الآخر. وإما من الخل - بالفتح - وهو الطريق فى الرمل، لأنهما يتوافقان على طريقة. وإما من الخلة - بفتح الخاء - بمعنى الخصلة لأنهما يتوافقان فى الخصال والأخلاق. وأطلق الخليل على إبراهيم، لأن محبة الله تعالى، قد تخللت نفسه وخالطتها مخالطة تامة، أو لتخلقه بأخلاق الله تعالى[1].

والمعنى : واتخذ الله إبراهيم حنيفا له من بين خلقه، لأنه - عليه السلام - كان خالص المحبة لخالقه - عز وجل - ومبغضا لكل ما يبغضه الله من الشريك والأعمال السيئة، وغيورا على إعلاء كلمة الله وعلى تمكين دينه فى الأرض فوصفه الله - تعالى - بهذا الوصف الجليل، وأسبغ عليه الكثير من ألوان نعمه وفضله.

قال الجمل : وقوله ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ فى ﴿خليلا﴾ وجهان، فإن عدينا اتخذ لاثنين كان مفعولا ثانيا وإلا كان حالا. وهذه الجملة عطف على الجملة الاستفهامية التى معناها الخبر للتنبيه على شرف المتبوع وأنه جدير بأن يتبع لاصطفاء الله له بالخلة، وفائدة هذه الجملة تأكيد وجوب اتباع ملته، لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلا جديرًا بأن تتبع ملته. وأظهر اسم إبراهيم فى مقام الاضمار لتفخيم شأنه، والتنصيص على أنه متفق على مدحه[2].

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١١٥
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٤٨

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان أنه هو المالك لكل شيء، والمهيمن على شئون هذا الكون فقال: ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شيء محيطا﴾.

أى: ولله - تعالى - وحده جميع ما فى السموات وما فى الأرض من موجودات، فهو خالقها ومالكها ولا يخرج عن ملكوته شيء منها. وكان الله - تعالى - بكل شيء محيطا، بحيث لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بشرت المؤمنين بحسن الثواب، وبينت أن ثواب الله لا ينال بالأمانى وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح، وأن الدين الحق هو الدين الذى يدعو الإنسان إلى إخلاص نفسه لله، وإلى إحسان العمل فى طاعته، وإلى اتباع ما كان عليه إبراهيم من منهاج سليم، وخلق قويم. وأنه - سبحانه هو المتصرف فى شئون هذا الكون، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر.

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جملة من الأحكام التى يتعلق أكثرها بالنساء فقال - تعالى - :

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾
وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ
بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا
مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

قال الإمام الرازى فى بيان صلة هذه الآيات بما قبلها : اعلم أن عادة الله - تعالى - فى ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه. وهو أن يذكر شيئا من الأحكام ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة فى الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته. ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير فى القلوب، لأن التكاليف بالأعمال الشاقة لا يقع فى موقع القبول إلا إذا كان مقرونا بالوعد والوعيد. والوعد والوعيد لا يؤثر فى القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد. فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الحق.

إذا عرفت هذا فنقول : إنه - سبحانه - ذكر فى أول هذه السورة أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف. ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين واستقصى فى ذلك. ثم ختم تلك الآيات الدالة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه. ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام فقال : ﴿ويستفتونك فى النساء﴾.. إلخ الآية[1].

وقوله ﴿ويستفتونك﴾ من الاستفتاء بمعنى طلب الفتيا أو الفتوى. يقال استفتيت العالم فى مسألة كذا. أى سألته أن يبين حكمها. فالإفتاء إظهار المشكل من الأحكام وتبيينه.

فمعنى ﴿ويستفتونك فى النساء﴾ : ويسألك أصحابك يا محمد أن تفتيهم فى أمر النساء. أى يطلبون منك تبيين المشكل من الأحكام التى تتعلق بما يجب للنساء من حقوق، وبما يكون عليهن من واجبات.

والذى حمل الصحابة على هذا الطلب أنهم كانوا فى جاهليتهم يعاملون النساء معاملة سيئة، ويظلمونهن ظلما شديدا، ثم وجدوا أن الإسلام الذى يدينون به قد أكرم المرأة وأنصفها بطريقة

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٦١

لم يألفوها من قبل، فتتعددت أسئلتهم عن الأحكام التى تتعلق بالنساء حتى ينفذوا نحوهن ما يطلبه الإسلام منهم من حيث معاشرتهن وولايتهن وميراثهن وغير ذلك من الأحكام.

قال القرطبى : نزلت - هذه الآية - بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن فى الميراث وغير ذلك. فأمر الله - تعالى - نبيه أن يقول لهم : الله يفتيكم فيهن أى : يبين لكم حكم ما سألتم عنه، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء. وكانت قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم : إن الله يفتيكم فيهن..[١].

فسؤال الصحابة ليس عن ذوات النساء وإنما عن أحكام تتعلق بهن.

أخرج ابن جرير وغيره عن سعيد بن جبير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا فلما نزلت آية المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال، والمرأة التى هى كذلك كما يرث الرجل الذى يعمل فى المال؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء فانتظروا : فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا : لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد. ثم قالوا : سلوا رسول الله ﷺ فسألوه. فأنزل الله ﴿ويستفتونك فى النساء﴾.. الآية[٢].

وقوله ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ وعد من الله - تعالى - بالإجابة عما يسألون عنه. وهو لون من تبشير السائل المتحير بأنه قد وجد ضالته حتى يطمئن قلبه، ويهدأ باله. وذلك مثل قولهم -ولله المثل الأعلى- لمن سأل سؤالا لمن يحسن الإجابة عنه : على الخبير وقعت.

أى : قل يامحمد لهؤلاء السائلين عن بعض الأحكام المتعلقة بالنساء : الله - تعالى - يفتيكم فى شأنهن، ويبين لكم بأجلى بيان وأحكمه ما تجهلون من أحكامهن. ويقضى بينكم وبينهن بالعدل الذى لا يحوم حوله باطل.

وفى تقديم لفظ الجلالة تنويه بشأن هذه الفتيا، وإشعار بوجوب التزام ما تتضمنه من أحكام لأنها صادرة من العليم الخبير.

وقوله ﴿وما يتلى عليكم فى الكتاب﴾ للنحاة فيه مذاهب شتى، لعل أولاها بالقبول أن تكون ﴿ما﴾ اسم موصول مبتدأ والخبر محذوف والتقدير يسالونك يا محمد عن بعض أحكام النساء فقل لهم : الله يفتيكم فى شأنهن، والذى يتلى عليكم فى الكتاب كذلك أى : يفتيكم فى شأنهن أيضا. وذلك المتلو فى الكتاب الذى بين بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء منه قوله - تعالى فيما

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤٠٢

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٣٩٩ - بتصرف يسير.

تقدم من هذه السورة : ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ .

قال الفخر الرازى : وحاصل الكلام أنهم كانوا قد سألوا عن أحوال كثيرة من أحوال النساء، فما كان منها غير مبين الحكم ذكر أن الله يفتيهم فيها. وما كان مبين الحكم فى الآيات المتقدمة ذكر أن تلك الآيات المتلوة تفتيهم فيها، وجعل دلالة الكتاب على هذا الحكم إفتاء من الكتاب - على سبيل المجاز - ألا ترى أنه يقال فى المجاز المشهور : إن كتاب الله بين لنا هذا الحكم. وكما جاز أيضا أن يقال : إن كتاب الله أفتى بكذا.

وقوله ﴿فى يتامى النساء﴾ صلة ليتلى. أى : يتلى عليكم فى شأنهن[1].

وإضافة اليتامى إلى النساء من إضافة الصفة إلى الموصوف أى النساء اليتامى وجعلها بعضهم هنا على معنى من لأنها من إضافة الشيء إلى جنسه أى : فى اليتامى من النساء.

وقوله ﴿اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ صفة لليتامى.

والمراد بما كتب لهن : ما فرض لهن من ميراث وصداق وغير ذلك من حقوق شرعها الله - تعالى - لهن.

قوله : ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ معطوف على صلة اللاتى.

أى : لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن.

وقوله : أن تنكحوهن فى تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف وهو إما (فى) وإما (عن).

وعلى أن حرف الجر المحذوف (فى) يكون المعنى : لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون فى نكاحهن لأنفسكم إن كن جميلات أو غنيات أو غير ذلك مما يرغبكم فى الزواج بهن مع عدم إعطائهن حقوقهن كاملة.

وعلى أن حرف الجر المحذوف (عن) يكون المعنى : لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون عن نكاحهن. أى لا أنتم تتزوجونهن ولا تتركونهن يتزوجن بغيركم حتى تبقى أموالهن تحت أيديكم.

قال ابن كثير : روى البخارى عن عائشة فى قوله - تعالى - ﴿ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ . . إلى قوله ﴿وترغبون أن تنكحوهن . .﴾ أنها قالت : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها. فأشركته فى ماله حتى فى العذق. فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها. فنزلت هذه الآية.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٦٢

وعنها - أيضا أنها قالت : وقول الله - تعالى - ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التى فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن - أى إذا كن قليلات المال والجمال.

ثم قال ابن كثير : والمقصود أن الرجل إذا كان فى حجره يتيمة يحل له تزوجها، فتارة يرغب فى أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة بمثالها من النساء. وتارة لا يكون له فيها رغبة فنهاه الله - تعالى - عن أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه فى ماله الذى بينه وبينها(١).

وحذف حرف الجار هنا لا يعد لبسا، بل يعد من باب الإجمال والإيجاز البليغ، لأن الجملة الكريمة صالحة لتقدير كل من الحرفين السابقين على سبيل البدل، بالاعتبارين السابقين. أى باعتبار الرغبة فيهن أو الرغبة عنهن فكأنه - سبحانه - يقول : وترغبون فى نكاح بعضهن فى حالات معينة وترغبون عن نكاح بعض آخر منهن فى حالات أخرى؛ لأن فعل رغب يتعدى بحرف (فى) للشىء المحبوب، وبحرف (عن) للشىء غير المحبوب.

قال الآلوسى : واستدل بعض أصحابنا - أى الأحناف - بالآية على جواز تزويج الصغيرة، لأنه ذكر الرغبة فى نكاحها فاقتضى جوازه. والشافعية يقولون : إنه إنما ذكر ما كانت تفعله الجاهلية على طريق الذم فلا دلالة فيها على ذلك، مع أنه لا يلزم من الرغبة فى نكاحها فعله فى حال الصغر. وهذا الخلاف فى غير الأب والجد، وأما هما فيجوز لهما تزويج الصغيرة بلا خلاف(٢).

وقوله : ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ معطوف على يتامى النساء، وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون النساء، فشرع الله لهم الميراث كما هو مبين فى آيات المواريث.

وقوله ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ فى محل جر عطفا على ما قبله. أى : وما يتلى عليكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين من الولدان وفى أن تقوموا لليتامى بالقسط فيه الكفاية لحملكم على سلوك الطريق القويم مع هؤلاء الضعاف.

ومما ذكره الله - تعالى - فى شأن اليتامى قوله فى مطلع هذه السورة : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾.

فيكون معنى الآية إجمالا : يسألك بعض أصحابك يا محمد أن تفتيهم فى بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء. قل لهم على سبيل التعليم والإرشاد : الله - تعالى - يفتيكم ويبين لكم بيانا

(١) تفسير ابن كثير - بتلخيص يسير جـ١ ص ٥٦١
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٦٠

شافيا ما تسألون عنه بشأنهن. ويفتيكم أيضا فى شأنهن ما تلاه الله عليكم فى قرآنه قبل نزول هذه الآية وما سيتلوه عليكم بعدها.

ويفتيكم - أيضا - ما يتلى عليكم فى القرآن فى شأن اليتامى اللاتى تمنعوهن ما فرض لهن من الميراث وغيره. وترغبون فى نكاحهن لما لهن لجمالهن بأقل من صداقهن. أو ترغبون عن نكاحهن وتعضلوهن طمعا فى أموالهن. وهذا الإفتاء الذى تلاه الله عليكم فى قرآنه يمنعكم من أن تفعلوا شيئا من ذلك.

ويفتيكم أيضا ما يتلى عليكم فى الكتاب فى شأن اليتامى - ذكورا كانوا أو إناثا - بأن يأمركم أن تلتزموا العدل معهم فى أموالهم وفى سائر أمورهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما﴾ أى: وما تفعلوا من خير يتعلق بهؤلاء المذكورين أو بغيرهم فإن الله - تعالى - كان به عليما علما دقيقا محيطا، وسيجازيكم عليه جزاء يشرح نفوسكم ويصلح بالكم.

فالآية الكريمة قد اشتملت على ألوان من الترغيب بشأن الإحسان إلى النساء وإلى المستضعفين من الولدان. وإلى اليتامى حتى تعيش الأمة عيشة هانئة، يشعر ضعيفها برعاية قويها له. ويشعر قويها برضا ضعيفها عنه.

ثم بين - سبحانه - بعض الأحكام التى تتعلق بالزوجين، وعالج ما يقع بينهما من خلاف ونفرة علاجا حكيما فقال - تعالى - ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير﴾.

والخوف معناه: توقع الانسان مكروها ينزل به. وهو هنا مستعمل فى حقيقته إلا أنه لا يكون إلا بعد ظهور علامات تدل عليه من الرجل. كأن يقول لها: إنك قد كبرت وأريد أن أتزوج بشابة. إلى غير ذلك من الأحوال التى تلمسها الزوجة من زوجها بمقتضى مخالطتها له.

والنشوز مأخوذ من النشز بمعنى الارتفاع ويوصف به الرجل والمرأة. والمراد به هنا ما يكون من الرجل من استعلاء على زوجته. ومجافاة لها بترك مضاجعتها والتقصير فى نفقتها وفى حقوقها.

والإعراض عنها من مظاهره: التقليل من محادثتها ومؤانستها وإدخال السرور عليها. وهو أخف من النشوز.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص ١٦١

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه الترمذى وحسنه عن ابن عباس قال: خشيت سودة بنت زمعة إحدى زوجات النبى ﷺ أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله. لا تطلقنى واجعل يومى لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية.

وأخرج الشافعى عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا فأراد طلاقها فقالت: لا تطلقنى واقسم لى ما بدالك. فاصطلحا على صلح فجرت السنة بذلك ونزل القرآن.

وروى عن عائشة أنها قالت: نزلت فى المرأة تكون عند الرجل ويريد الرجل أن يستبدل بها غيرها فتقول له: أمسكنى وتزوج بغيرى وأنت فى حل من النفقة والقسم.

وقوله: ﴿وإن امرأة﴾ فاعل لفعل واجب الإضمار. أى: وإن خافت امرأة خافت.

وقوله: ﴿من بعلها﴾ متعلق بخافت، وقوله: ﴿فلا جناح عليهما﴾ جواب الشرط.

والمعنى: وإن خافت امرأة من زوجها (نشوزا) أى تجافيا عنها، وترفعا عن صحبتها ﴿أو إعراضا﴾ أى: انصرافا عن محادثتها ومؤانستها على خلاف ما عهدته منه قبل ذلك، ففى هذه الأحوال ﴿لا جناح عليهما﴾ أى: لا حرج ولا إثم على الزوجة وزوجها فى ﴿أن يصلحا بينهما صلحا﴾ يتفقان عليه فيما بينهما رعاية لرابطة الزوجية وإبقاء على دوامها، وذلك بأن تترك المرأة بعض حقوقها حتى تسترضى زوجها وتعمل على إزالة ما فى نفسه من استعلاء وانصراف عنها.

وقوله ﴿صلحا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله. أو مفعول به على تأويل يصلحا بيوقعا صلحا. و﴿بينهما﴾ حال من ﴿صلحا﴾ لأنه كان نعتا له ونعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالا، وفيه إشارة إلى أن الأولى لهما أن لا يطلعا الناس على ذلك. بل يكون ما يتفقان عليه سرا بينهما.

وقد عبر - سبحانه - عن طلب الصلح بقوله ﴿فلا جناح عليهما﴾ ترفقا فى الإيجاب، ونفيا لما يتوهم من أن تنازل أحدهما للآخر عن بعض حقه يؤدى إلى الإثم، لأن الصلح بينهما يقتضى أن يتسامح أحد الزوجين فى جزء من حقه ليظفر بخير أكثر مما تسامح فيه. فإذا تركت المرأة بعض حقها لتدوم عشرتها مع زوجها بالمعروف فذلك لا إثم فيه بل إن فيه الخير.

وأكد - سبحانه - هذا الصلح بقوله ﴿صلحا﴾ للإشارة إلى وجوب أن يكون الصلح بينهما حقيقيا لا شكليا، وأن يكون بحيث تتلاقى فى القلوب، وتصفو النفوس. وتشع بينهما المودة والرحمة، ويرضى كل واحد منهما بما قسم الله له.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص ٦٥

وقوله ﴿والصلح خير﴾ جملة معترضة من مبتدأ وخبر لتأكيد الصلح الذى حض الله عليه قبل ذلك.

أى : والصلح بين الزوجين خيرا من الفرقة وسوء العشرة، اللهم إلا إذا استحال الصلح والوفاق بينهما فإنه فى هذه الحالة تكون الفرقة بينهما خيرا. ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾.

قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله ﴿والصلح خير﴾. الظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبى ﷺ سودة على أن تركت يومها لعائشة ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه، وفعله هذا لتتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه فهو أفضل فى حقه ﷺ ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿والصلح خير﴾، بل الطلاق بغيض إليه - سبحانه - ولهذا جاء الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

وقوله - تعالى - ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ جملة أخرى معترضة جىء بها لبيان ما جبل عليه الإنسان من طباع، وللحض على الصلح حتى ولو خالف ما طبعت عليه النفس من سجايا.

والفعل حضر يتعدى لواحد فدخلت عليه الهمزة فجعلته يتعدى لاثنين كما هنا. إذ المفعول الأول نائب الفاعل وهو الأنفس والمفعول الثانى كلمة الشح.

والشح : البخل مع الحرص، والمراد : وأحضر الله الأنفس الشح. أى جبل الله النفوس على الشح بما تملكه، فالمرأة لا تكاد تتسامح أو تتنازل عن شىء من حقها، والرجل كذلك لا يكاد يتنازل عن شىء من حقوقه، لأن حرص الإنسان على حقه طبيعة فيه. فعلى الزوجين أن يلاحظا ذلك وأن يخالفا ميولهما وطبعهما من أجل الإبقاء على الحياة الزوجية بصفاء ومودة.

فالجملة الكريمة ترشد الإنسان إلى داء من أدوائه وتأمره بمعالجته حتى ولو أدى ذلك إلى مخالفة ما جبلت عليه نفسه.

ويرى ابن جرير أن المراد بالأنفس هنا أنفس النساء خاصة فقد قال ما ملخصه : وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول من قال : عنى بذلك. أحضرت أنفس النساء الشح بأنصبائهن من أزواجهن فى الأيام والنفقة. والشح : الإفراط فى الحرص على الشىء. وهو فى هذا الموضع : إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٦٣

فتأويل الكلام : وأحضرت أنفس النساء أهواءهن من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضرائرهن.

ثم قال. ويشهد لهذا ما روى فى سبب نزول الآية من أنها نزلت فى أمر رافع بن خديج وزوجته، إذ تزوج عليها شابة، فآثر الشابة عليها، فأبت الكبيرة أن تقر على الأثرة، فطلقها تطليقة وتركها. فلما قارب انقضاء عدتها، خيرها بين الفراق والرجعة والصبر على الأثرة. فاختارت الرجعة والصبر على الأثرة فراجعها وآثر عليها. فلم تصبر. ففى ذلك دليل واضح على أن قوله - تعالى - ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ إنما عنى به : وأحضرت أنفس النساء الشح بحقوقهن من أزواجهن على ما وصفنا[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته ومراقبته، والسير فى طريق الصلح والوفاق فقال : ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾.

أى : وإن تحسنوا - أيها الرجال - فى أقوالكم وأفعالكم إلى نسائكم وتتقوا الله فيهن : بأن تتركوا التعالى عليهن والإعراض عنهن وتصبروا على مالا ترضونه منهن، من دمامة أو تقصير فى واجباتهن. إن تفعلوا ذلك يرفع الله درجاتكم. ويجزل ثوابكم، لأنه - سبحانه - خبير بكل أحوالكم وأعمالكم، ولن يضيع - سبحانه - أجر من أحسن أعملا.

فالجملة الكريمة خطاب للأزواج بطريق الالتفات. لقصد استمالتهم وترغيبهم فى حسن معاملة نسائهم، وسلوك طريق الصلح معهن.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أن على الزوجين أن يحسنا العشرة الزوجية كل واحد منهما من جانبه، وأن يصبر كل واحد منهما على ما يكون من صاحبه من هفوات ومخالفات لا تخلو منها طبيعة الحياة الزوجية...

وأن أحد الزوجين إذا تنازل عن بعض حقوقه للآخر بقصد الإبقاء على الحياة الزوجية جاز ذلك، فإذا رغب رجل - مثلا - فى طلاق زوجته لسبب من الأسباب وكانت الزوجة تريد البقاء معه، وتنازلت المرأة عن بعض حقوقها فى سبيل أن تبقى معه وتراضيا على ذلك عن طيب خاطر، بأن أعطته بعض المال - مثلا - فإن ما أخذه منها لا يعد مالا حراما فى مثل هذه الحالة. أما إذا تظاهر الرجل بالنشوز أو الإعراض لكى ينال شيئا من حقوقها أو تتنازل له عن بعضها، فإن ما يأخذه الرجل منها فى مثل هذه الحالة يكون أكلا لحقوق غيره بالباطل، لأنه لم يكن راغبا حقيقة فى الطلاق وإنما تصنع النشوز أو الإعراض اجتلابا لمالها، واستدرارًا لخيرها. وقد نهى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٣١٣

الله عن كل ذلك بل أمر بترك النشوز، ووعد من يحسن المعاشرة الزوجية ويتقى الله بالأجر الجزيل.

قال القرطبى ما ملخصه : يجوز أن يعطى الزوج على أن تصبر. أو تعطى هى على أن يبقيها فى عصمته، أو يقع الصلح بينهما على الصبر والأثرة - أى يؤثر غيرها عليها من غير عطاء فهذا كله مباح. وقد يجوز أن تصالح إحداهن صاحبتها عن يومها بشيء تعطيه إياها فقد غضب الرسول ﷺ مرة على صفية فقالت لعائشة، أصلحى بينى وبين رسول الله ﷺ وقد ذهب لك يومى. قالت عائشة : فجئت إلى رسول الله ﷺ فجلست إلى جانبه. فقال : «إليك عنى فإنه ليس بيومك» فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وأخبرته الخبر، فرضى عنها. وفيه أن ترك التسوية بين النساء وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها[١].

وقال بعض العلماء ما ملخصه : فإن قيل : إن الله - تعالى - قال فى نشوز المرأة : ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن﴾. الآية وقال فى نشوز الرجل : ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا﴾. الآية فجعل لنشوز المرأة عقوبة من زوجها يعظها ويهجرها فى المضجع ويضربها ولم يجعل لنشوز الرجل عقوبة من زوجته، بل جعل له ترضية وتلطفا فما معنى ذلك؟

والجواب عن ذلك : أن الله - تعالى - جعل الرجال قوامين على النساء، فالرجل راعى المرأة ورئيسها المهيمن عليها. ومن قضية ذلك ألا يكون للمرءوس معاقبة رئيسه، وإلا انقلب الأمر وضاعت هيمنة الرئيس.

وأن الله فضل الرجال على النساء فى العقل والدين. ومن قضية ذلك ألا يكون نشوز من الرجل إلا لسبب قاهر. ولكن المرأة لنقصان عقلها ودينها يكثر منها النشوز لأقل شيء تتوهمه سببًا.

وأن نشوز الرجل أمارة من أمارات الكراهة وإرادة الفرقة. وإذا كان الله قد جعل له حق الفرقة ولم يجعل للمرأة عليه سبيلا إذا هو أراد فرقتها فأولى ألا يجعل لها عليه سبيلا إذا بدت منه أمارات هذه الفرقة[٢].

ثم بين - سبحانه - أن تحقيق العدالة الكاملة فى الحياة الزوجية غير ممكن فقال - تعالى - ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾.

والخطاب هنا للرجال الذين يتزوجون بأكثر من زوجة.

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤٠٥

(٢) تفسير آيات الأحكام جـ ٢ ص ١٤٨ لفضيلة الشيخ محمد على السايس

والمعنى: ولن تستطيعوا - أيها الرجال - أن تعدلوا بين زوجاتكم المتعددات عدلا كاملا فى المحبة وفى الميل القلبى وفى غير ذلك من الأمور التى تختلف باختلاف تآلف النفوس وتنافرها. ولو أنكم حرصتم على العدل الكامل فى مثل هذه الأمور النفسية لما استطعتم، لأن الميل النفسى لا يملكه الإنسان ولا يستطيع التحكم فيه.

قال ابن كثير: نزلت هذه الآية فى عائشة. وكان النبى ﷺ يحبها أكثر من غيرها. وقد روى الترمذى وأبو داود وغيرهما عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل. ثم يقول: «اللهم هذا قسمى فيما أملك. فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» يعنى القلب[1].

وقوله ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ إرشاد من الله - تعالى - للرجال إلى ما يجب عليهم نحو نسائهم المتعددات اللائى ليس فى استطاعتهم التسوية بينهن فى الميل القلبى.

أى: إذا ثبت أنكم لن تستطيعوا أن تعدلوا بينهن عدلا كاملا من جميع الوجوه ولو حرصتم على هذا العدل أتم الحرص. إذا ثبت ذلك فلا تميلوا كل الميل إلى إحداهن بأن تبالغوا فى إرضائها والإقبال عليها حتى تصير الأخرى التى ملتم عنها وهجرتموها كالمعلقة أى كالمرأة التى لا هى بذات زوج فتنال منه حقوقها الزوجية ولا هى بمطلقة فترجو من الله أن يرزقها بالزوج الذى يكرمها. وإنما الواجب عليكم - يا معشر الرجال - أن تجاهدوا أنفسكم حتى تصلوا إلى الحق المستطاع من العدل بين الزوجات.

فقد أخرج الإمام أحمد وأبوداود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له أمرأتان فمال إلى أحداهما - أى لم يعدل بينهما فيما يمكنه العدل فيه - جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط».

وعن مجاهد قال: «كانوا يسوون بين الضرائر حتى فى الطيب يتطيب لهذه كما يتطيب لهذه»[2].

وقوله ﴿كل الميل﴾ نصب لفظ كل على المصدرية لأنها على حسب ما تضاف إليه من مصدر أو ظرف أو غيره.

وقوله ﴿فتذروها﴾ منصوب بإضمار أن فى جواب النهى. أو مجزوم عطفا على الفعل قبله.

والجملة الكريمة توبيخ للأزواج الذين لا يعدلون بين نسائهم.

قال القرطبى: وقوله ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ أى: لاهى مطلقة ولا ذات زوج. وهذا تشبيه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٦٤ بتصرف يسير

(٢) تفسير الألوسى جـ ٥ ص ١٦٣

بالشيء المعلق من شيء، لأنه لا على الأرض استقر ولا على ما علق عليه انحمل، وهذا مطرد فى قولهم فى المثل : (ارض من المركب بالتعليق). وفى حديث أم زرع : زوجى العشنق -أى الطويل الممتد القامة- إن أنطق أطلق. وإن أسكت أعلق - أى أهمل وأترك حتى لكأننى بدون زوج -(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾.

أى : وإن تصلحوا أعمالكم - أيها الناس - فتعدلوا فى قسمتكم بين أزواجكم وتعاشروهن بالمعروف، وتتقوا الله وتراقبوه فيهن، وتتوبوا إلى الله توبة نصوحا مما حدث منكم من ظلم لهن. إن تفعلوا ذلك يغفر الله لكم ذنوبكم ويتفضل عليكم برحمته وإحسانه.

هذا وقد ادعى بعض الذين لم يفهموا تعاليم الإسلام فهما سليما أن هذه الآية بضمها إلى قوله - تعالى - فى مطلع هذه السورة ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ يكون منع تعدد الزوجات جائزًا شرعا، لأن الله تعالى - قد بين فى الآية التى معنا وهى قوله ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا﴾ أن العدل بين الزوجات المتعددات غير مستطاع، وبين فى الآية الأخرى وهى قوله ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ أن الجمع بين النساء غير جائز إلا عند الوثوق من العدل بينهن، وبما أن العدل بينهن غير مستطاع بنص الآية التى معنا، إذا فالجمع بين النساء غير جائز، وعلى الرجل أن يكتفى بواحدة.

وللرد على هذه الدعوى نقول : إن العدل الذى أخبر الله عنه غير مستطاع، هو العدل الذى يتعلق بالتسوية بين الزوجات فى الحب القلبى، والميل النفسى، والتجاوب العاطفى، إذ من المعلوم أن هذه الأمور النفسية لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها. فأنت - مثلا - تجلس فى مجلس فيه أشخاص متعددون لا تعرفهم فتحس بارتياح لبعضهم وبنفور من بعضهم مع أنك لم يسبق لك أن اختلطت بواحد منهم، وما ذلك إلا لأن الميول القلبية يعجز الإنسان عن التحكم فيها.

أما العدل الذى جعله الله شرطا فى جواز الجمع بين الزوجات فهو العدل الذى يتعلق بالتسوية فيما يقدر عليه الإنسان ويملكه مثل التسوية بينهن فى النفقة والكسوة والسكنى والمبيت. وغير ذلك من الأمور التى يقدر عليها.

وبهذا نرى أن موضوع الآية التى معنا يتعلق بالعدل النفسى وهو أمر غير مستطاع كما جاء فى الحديث الشريف : «اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك».

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٤٠٨

وأما موضوع الآية التى فى صدر السورة وهى قوله - تعالى - ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ فيتعلق بالعدل الظاهرى الذى يقدر عليه الإنسان مثل التسوية فى النفقة وغير ذلك مما يقدر عليه الإنسان.

ومع هذا، فالآية التى معنا لم تطالب الرجل بالعدالة المطلقة الكاملة بين زوجاته بأن يسوى بينهن فى كل شىء، لأن العدل بهذا المعنى غير مستطاع للمكلف ولو حرص على إقامته وبالغ فى ذلك. وإنما الآية الكريمة طالبته بالممكن منه فكأنها تقول: إنكم - أيها الرجال - لن تستطيعوا أن تعدلوا العدل المطلق الكامل بين زوجاتكم فى القسم والنفقة والتعهد والنظر والمؤانسة والمحبة وغير ذلك مما لا يكاد يحصر ﴿ولو حرصتم﴾ على هذا العدل الكامل أتم الحرص لما استطعتموه، ولذلك لم يكلفكم الله به، إذ التكليف الشرعى إنما يكون بما فى الوسع والطاقة، وإذا كان الأمر كذلك فاجتهدوا ما استطعتم فى العدل بين زوجاتكم، ولا تميلوا كل الميل إلى واحدة منهن وتهملوا الأخرى إهمالا يجعلها كأنها لا هى ذات زوج ولا هى مطلقة.

فإن العجز عن العدل المطلق الكامل لا يمنع تكليفكم بما دون ذلك من المراتب التى تقدرون عليها قالوا: ما لا يدرك كله لا يترك كله.

وبهذا نرى أن الآيتين الكريمتين تدعوان المسلم إلى العدل بين زوجاته بالقدر الذى يستطيعه بدون تقصير أو جور، وأنهما بانضمام معناهما لا تمنعان تعدد الزوجات كما ادعى المدعون.

وبعد أن رغب - سبحانه - فى الصلح بين الزوجين وحض عليه، وأمر الأزواج بالعدل بين الزوجات بالقدر الذى يستطيعونه، عقب ذلك ببيان أن التفرقة بينهما جائزة إذا لم يكن منها بد. لأن التفرقة مع الإحسان خير من المعاشرة السيئة فقال - تعالى - ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما﴾.

وإن عز الصلح بين الزوجين واختارا الفراق تخوفا من ترك حقوق الله التى أوجبها على كل واحد منهما ﴿يغن الله كلا﴾ منهما ﴿من سعته﴾ أى يجعل كل واحد منهما مستغنيا عن الآخر ﴿وكان الله واسعا حكيما﴾ أى: وكان الله - تعالى - وما يزال واسعا أى واسع الغنى والرحمة والفضل ﴿حكيما﴾ فى جميع أفعاله وأحكامه.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد وضعت أحكم الأسس للحياة الزوجية السليمة، وعالجت أمراضها بالعلاج الشافى الحكيم، فقد أمرت الرجال بأن يؤدوا للنساء حقوقهن، وأن يعاشروهن بالمعروف، وأن على الزوجين إذا ما دب بينهما خلاف أن يعالجاه فيما بينهما بالتصالح والتسامح، وإذا اقتضى الأمر أن يتنازل أحدهما للآخر عن جانب من حقوقه فليفعل من أجل الإبقاء على الحياة الزوجية. وأن الرجل لا يستطيع أن يعدل عدلا مطلقا كاملا بين زوجاته،

ولكن هذا لا يمنعه من العدل بينهن بالقدر الذى يستطيعه بدون تقصير أو ميل مع الهوى، فإن الميسور لا يسقط بالمعسور. وأنه إذا استحال الصلح وتنافرت الطباع، وساءت العشرة كان الفراق بينهما أجدى، إذ الفراق مع الإحسان خير من الإمساك مع المعاشرة السيئة التى عز معها الإصلاح والوفاق والتقارب بين القلوب.

* * *

وبعد أن بين - سبحانه - ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين ووسائل علاج أدوائها.. بعد كل ذلك بين - سبحانه - أن كل شىء فى ملكه وتحت سلطانه، فعلى الناس أن يخشوه ويراقبوه ويشتغلوا بعبادته فقال - تعالى -:

وَلِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

قال ابن جرير، قوله ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ يعنى بذلك - سبحانه - ولله ملك جميع ما حوته السموات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها. وإنما ذكر - جل ثناؤه ذلك بعقب قوله ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾ تنبيها منه لخلقه على موضع الرهبة عند فراق أحدهم زوجه ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه، وتذكيرا منه له أنه الذى له الأشياء كلها. وأن من كان له ملك جميع الأشياء فغير متعذر عليه أن يغنيه ويغنى كل ذى فاقة وحاجة ويؤنس كل ذى وحشة[1].

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٣١٨.

فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان مظاهر قدرته ورحمته بعباده. والخطاب فى قوله: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ والمراد بالذين ﴿أوتوا الكتاب﴾: اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم. والمراد بالكتاب: جنس الكتب الإلهية.

وقوله: ﴿وإياكم﴾ معطوف على الموصول. وقوله ﴿من قبلكم﴾ متعلق بأوتوا أو بوصينا وقوله: ﴿أن اتقوا الله﴾ أن مصدرية فى محل جر بتقدير حرف الجر.

والمعنى: ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم من الأمم السابقة ﴿وإياكم﴾ أى: وصينا كلا منهم ومنكم بتقوى الله. أى بمراقبته وخشيته وتنفيذ أوامره والبعد عن نواهيه.

وقوله: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ معطوف على وصينا بتقدير قلنا. أى وصيناهم ووصيناكم بتقوى الله، وقلنا لكم ولهم: إن تكفروا فاعلموا أنه - سبحانه - هو مالك الملك والملكوت ولن يضره كفركم ومعاصيكم، كما أنه - سبحانه - لن ينفعه شكركم وتقواكم، وإنما وصاكم وإياهم بما وصى لرحمته بكم لا لحاجته إليكم. كما قال - تعالى - فى آية أخرى: ﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن قوله - تعالى - ﴿وإن تكفروا﴾ عطف على اتقوا، فقد قال: وقوله: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ عطف على اتقوا. لأن المعنى: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض. والمعنى: إن لله الخلق كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحقه أن يكون مطاعا فى خلقه غير معصى. يتقون عقابه ويرجون ثوابه. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من الأمم السابقة ووصيناكم أن اتقوا الله. يعنى: أنها وصية قديمة مازال يوصى الله بها عباده، لستم بها مخصوصين: لأنهم بالتقوى يسعدون عنده، وبها ينالون النجاة فى العاقبة. وقلنا لهم ولكم: وإن تكفروا فإن لله فى سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقيه[1].

وجواب الشرط فى قوله «وإن تكفروا محذوف، والتقدير: إن تكفرا بما وصاكم به فلن يضره كفركم فإنه - سبحانه - له ما فى السموات وما فى الأرض ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿وكان الله غنيا حميدا﴾ أى: وكان الله ومازال غنيا عن خلقه وعن عبادتهم، مستحقا لأن يحمده الحامدون لكثرة نعمه عليهم فالجملة الكريمة تذييل مقرر لما قبله.

ثم أكد - سبحانه - هيمنته على هذا الكون وملكيته له فقال: ﴿ولله ما فى السموات وما فى

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٨٥٤.

الأرض وكفى بالله وكيلا﴾.

أى : ولله - تعالى - وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وتصرفا وإيجادا وإعداما. وإحياء وإماتة. وكفى بالله - تعالى - وكيلا فى تدبير أمور خلقه، وحفظه لمصالحهم.

والوكيل هو القيم والكفيل بالأمر الذى يوكل إليه. وقد ذكر - سبحانه - فى هاتين الآيتين ملكيته لما فى السموات وما فى الأرض ثلاث مرات، تأكيدا لعظم سلطانه وقدرته وسعة غناه ورحمته، حتى ترسخ فى نفوس الناس تقواه وخشيته.

قال القرطبى : فإن قال قائل : ما فائدة هذا التكرار؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أنه كرر تأكيدا ليتنبه العباد وينظروا ما فى ملكوته وأنه غنى عن العالمين.

الجواب الثانى : أنه كرر لفوائد : فأخبر فى الأول أن الله - تعالى - يغنى كلا من سعته لأن له ما فى السموات وما فى الأرض فلا تنفد خزائنه. ثم قال : أوصيناكم وأهل الكتاب بالتقوى وإن تكفروا فإنه غنى عنكم لأن له ما فى السموات والأرض. ثم أعلم فى الثالث بحفظ خلقه وتدبيره إياهم بقوله ﴿وكفى بالله وكيلا﴾، لأن له ما فى السموات وما فى الأرض...[1].

وقوله - تعالى - ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا﴾ تقرير لما سبق بيانه من عظيم سلطانه وغناه وقدرته.

أى : إن يشأ الله يفنكم ويهلككم أيها الناس - ويأت مكانكم بقوم آخرين، وكان الله ومازال على إفنائكم وإيجاد غيركم بليغ القدرة، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء. لكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك لا لعجز منه. ولكن لأن حكمته اقتضت بقاءكم، ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وليجازى كل إنسان على حسب عمله.

قال الجمل : (ومفعول المشيئة محذوف يدل عليه مضمون الجزاء. أى : إن يشأ إفناءكم وإيجاد آخرين يذهبكم - يعنى : أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بإفنائكم لا لعجزه - سبحانه - وقيل : هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب. أى : يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه. فمعناه هو معنى قوله - تعالى - ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾. ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ بيده على ظهر سلمان الفارسى وقال : «إنهم قوم هذا». يريد أبناء فارس[2].

فالآية الكريمة تقرير لغناه وقدرته - سبحانه - وتهديد لمن كفر به وعصاه.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤٠٩.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٣٢.

ثم حرض - سبحانه - الناس على أن يقصدوا بعملهم وجه الله، وأن يجعلوا مقصدهم الأعظم الفوز بنعيم الآخرة فقال - تعالى - : ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وكان الله سميعًا بصيرًا﴾.

والمراد بثواب الدنيا: خيراتها التى تعود على طالبها بالنفع الدنيوى.

والمراد بثواب الآخرة: الجزاء الحسن الذى أعده الله - تعالى - لعباده الصالحين.

والمعنى: من كان يريد ثواب الدنيا كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة والمنافع الدنيوية، فأخبره وأعلمه يا محمد أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة. فلماذا قصر الطلب على المنافع الدنيوية مع أن ثواب الآخرة أجزل وأبقى؟ وهلا اقتدى بمن قالوا فى دعائهم: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة﴾؟

وجزاء الشرط محذوف بتقدير الإعلام والإخبار. أى: من كان يريد ثواب الدنيا فأعلمه وأخبره أن عند الله ثواب الدارين فماله لا يطلب ذلك أو يطلب الأشرف وهو ثواب الآخرة فإن من جاهد - مثلا - جهادا خالصا لم تفته المنافع الدنيوية، وله بجانب ذلك فى الآخرة ما هو أنفع وأعظم وأبقى. فقد روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال: «من كان همه الآخرة جمع الله - تعالى شمله، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»(١).

ويرى صاحب البحر المحيط أن جواب الشرط محذوف لدلالة المعنى عليه فقد قال: والذى يظهر أن جواب الشرط محذوف لدلالة المعنى عليه. والتقدير: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه وليطلب الثوابين فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

ثم قال: وقال الراغب وقوله ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ تبكيت للإنسان حيث اقتصر على أحد السؤالين مع كون المسئول مالكا للثوابين، وحث على أن يطلب منه - تعالى - ما هو أكمل وأفضل من مطلوبه. فمن طلب خسيسا مع أنه يمكنه أن يطلب نفيسا فهو دنىء الهمة. وقيل: الآية وعيد للمنافقين الذين لا يريدون بالجهاد غير الغنيمة(٢).

وما عبر عنه صاحب البحر المحيط بقوله: وقيل: الآية وعيد للمنافقين، قد رجحه ابن جرير واختاره فقد قال ما ملخصه: قوله ﴿من كان يريد﴾ أى: ممن أظهر الإيمان من أهل النفاق.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٦٧

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٣ ص ٢٦٩.

﴿ثواب الدنيا﴾ يعنى عرض الدنيا ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ يعنى: أن جزاءه فى الدنيا منها هو ما يصيب من المغنم. وأما ثوابه فى الآخرة فنار جهنم(١).

والذى نراه أولى أن الآية الكريمة تخاطب الناس عامة، فتبين لهم أن خير الدنيا بيد الله وخير الآخرة أيضا بيد الله، فإن اتقوه نالوا الخيرين، وتنبههم إلى أن من الواجب عليهم ألا يشغلهم طلب خير الدنيا عن طلب خير الآخرة. بل عليهم أن يقدموا ثواب الآخرة على ثواب الدنيا. عملا بقوله - تعالى - فى آية أخرى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. ولا نرى مقتضيا لتخصيص الآية بالمنافقين كما - يرى ابن جرير - رحمه الله.

وقوله - تعالى - ﴿وكان الله سميعا عليما﴾ تذييل قصد به حض الناس على الإخلاص فى أقوالهم وأعمالهم.

أى: وكان الله - تعالى - سميعا لكل ما يجهر به الناس ويسرونه، بصيرا بأحوالهم الظاهرة والخفية، وسيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداءين متتاليين إلى المؤمنين أمرهم فيهما بالمداومة على التمسك بفضيلة العدل فى جميع الظروف والأحوال، وبالثبات على الإيمان الحق الذى ينالون به ثواب الله ورضاه، وتوعد الذين ينحرفون عن طريق الحق بسوء العاقبة فقال - تعالى -:

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن
تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٣٩١.

بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

وقوله ﴿قوامين﴾ جمع قوام وهو صيغة مبالغة من قائم. والقوام: هو المبالغ فى القيام بالشىء وفى الإتيان به على أتم وجه وأحسنه.

وقوله ﴿شهداء﴾ جمع شهيد بوزن فعيل. والأصل فى هذه الصيغة أنها تدل على الصفات الراسخة فى النفس ككريم وحكيم.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا بالحق إيمانا صادقا. كونوا مواظبين على إقامة العدل فيما بينكم فى جميع الظروف والأحوال دون أن يصرفكم عن ذلك صارف، وكونوا «شهداء لله» أى: مقيمين للشهادة بالحق ابتغاء وجه الله لا لغرض من الأغراض الدنيوية. ولا لمطمع من المطامع الشخصية، فإن الإيمان الحق يستلزم منكم أن تعدلوا فى أحكامكم وأن تؤدوا الشهادة على وجهها.

وفى ندائه - سبحانه - لهم بقوله ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ تنبيه إلى الأمر الخير الذى ناداهم من أجله ودعاهم إلى تنفيذه وهو التزام العدالة فى كل أمورهم، وتحريك لعاطفة الإيمان فى قلوبهم بمقتضى وصفهم - بهذه الصفة الجليلة.

وعبر - سبحانه - بقوله ﴿كونوا قوامين﴾ بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة والمداومة على الشىء، لتمكين صفة العدالة فى نفوسهم، وترسيخها فى قلوبهم.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: روضوا أنفسكم على التزام كلمة الحق، وعودوها على نصرة المظلوم وخذلان الظلم، وليكن ذلك خلقا من أخلاقكم. وسجية من سجاياكم، فلا يكفى أن تعدلوا فى أحكامكم مرة أو مرتين، وإنما الواجب عليكم أن تداوموا على إقامة العدل فى كل الأحوال، ومع كل الأشخاص.

قال صاحب المنار: وهذه العبارة - وهى قوله - تعالى - ﴿كونوا قوامين بالقسط﴾ أبلغ ما يمكن أن يقال فى تأكيد أمر العدل والعناية به فالأمر بالعدل والقسط مطلقا يكون بعبارات مختلفة بعضها آكد من بعض تقول: اعدلوا أو اقسطوا. وتقول: كونوا عادلين أو مقسطين. وهذه العبارة أبلغ؛ لأنها أمر بتحصيل الصفة لا بمجرد الإتيان بالقسط الذى يصدق بمرة.

وتقول: أقيموا القسط. وأبلغ منه: كونوا قائمين بالقسط. وأبلغ من هذا وذاك: كونوا قوامين بالقسط. أى: لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن

تتحروه بالدقة التامة حتى تكون ملكة راسخة فى نفوسكم. والقسط يكون فى العمل كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد ويكون فى الحكم بين الناس..[١].

وقوله ﴿شهداء﴾ خبر ثان لكونوا. وقوله ﴿لله﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿شهداء﴾.

أى: كونوا ملازمين للعدل فى كل أموركم وكونوا مقيمين للشهادة على وجهها حالة كونها لوجه الله، لا لعرض من أعراض الدنيا.

قال الفخر الرازى: وإنما قدم - سبحانه - الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه:

الأول: أن أكثر الناس من عادتهم أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه حتى ان أقبح القبيح إذا صدر عنهم كان فى محل المسامحة وأحسن الحسن. وإذا صدر عن غيرهم كان محل المنازعة. فالله - تعالى - نبه فى هذه الآية على سوء هذه الطريقة. وذلك أنه - سبحانه - أمرهم بالقيام بالقسط أولا، ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانيا، تنبيها على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع الغير.

الثانى: أن القيام بالشهادة عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير، وهو الذى عليه الحق. ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير.

الثالث: أن القيام بالقسط فعل، والشهادة قول والفعل أقوى من القول[٢].

وقوله: ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ تأكيد للأمر بالتزام الحق فى الأحكام والشهادات.

أى: كونوا قوامين بالقسط، وكونوا مقيمين للشهادة بالحق خالصة لوجه الله، ولو كانت الشهادة على أنفسكم - بأن تقروا بأن الحق عليها إذا كان واقع الأمر كذلك - ولو كانت - أيضا. على والديكم وعلى أقرب الناس إليكم.

قال القرطبى: وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقوق عليها ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما. ثم ثنى بالأقربين إذهم مظنة المودة والتعصب فكان الأجنبى من الناس أحرى أن يقام عليه بالقسط ويشهد عليه... ولا خلاف بين أهل العلم فى صحة أحكام هذه الآية، وأن شهادة الولد على الوالدين ماضية، ولا يمنع ذلك من برهما، بل أن يشهد عليهما ويخلصهما من الباطل. وكان من مضى من السلف الصالح يجيزون شهادة الواالدين والأخ، لأنه لم يكن أحد

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٤٥٦.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٧٢.

يتهم فى ذلك من السلف. ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم، فتركت شهادة من يتهم. وأجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدولا[١].

و ﴿لو﴾ فى قوله ﴿ولو على أنفسكم﴾ شرطية. والجار والمجرور خبر لكان المحذوفة مع اسمها. وجواب لو محذوف. والتقدير: ولو كانت الشهادة على أنفسكم فاشهدوا عليها بأن تقروا على أنفسكم بالحق ولا تكتموه.

وقوله - تعالى - ﴿إن يكن غنيًا أو فقيرًا فالله أولى بهما﴾ تأكيد لوجوب التزام الحق مع الغنى والفقير والصغير والكبير.

أى: إن يكن المشهود عليه غنيا يرجى فى العادة ويخشى أو فقيرًا يترحم عليه فى الغالب ولا يخشى، فلا تمتنعوا عن الشهادة، لأن الله -تعالى- هو الأولى والأجدر بحساب كل من الغنى والفقير، وهو الأعلم بمصالح الناس، والأرحم بهم منكم. وجواب الشرط محذوف، أى: إن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا تتركوا الشهادة لأن الشهادة فى مصلحتهما.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم ثنى الضمير فى «أولى بهما» وكان حقه أن يوحد؛ لأن قوله: إن يكن غنيا أو فقيرا فى معنى إن يكن أحد هذين؟

قلت قد رجع الضمير إلى مادل عليه قوله: ﴿إن يكن غنيًا أو فقيرا﴾ لا إلى المذكور، فلذلك ثنى ولم يفرد، وهو جنس الغنى وجنس الفقير. فكأنه قيل: فالله أولى بجنسى الغنى والفقير. أى: بالأغنياء والفقراء. وفى قراءة أبى: فالله أولى بهم وهى شاهدة على ذلك.

وقال ابن جرير: نزلت فى النبى ﷺ إذ اختصم إليه رجلان: غنى وفقير. وكان ضلعه - أى ميله - مع الفقير؛ لأنه يرى أن الفقير لا يظلم الغنى. فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير فقال: ﴿إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما﴾[٢].

والذى يستفاد من هذه الرواية ومن ظاهر الآية أن الغنى أو الفقر لا يصح أن يكونا سببا فى التفاوت فى الحكم. ويقاس عليهما غيرهما من أحوال الناس، لأن الله -تعالى- هو الذى نظم الكون بحكمته، وهو أعلم بمصالح الناس من أنفسهم، وجعل فيهم الغنى والفقير لأن الغنى والفقر أمران ثابتان فى هذا الوجود، ولا يمكن أن تخلو منهما الجماعة الإنسانية، لأن ذلك تنظيم الله - تعالى، وإرادته الخالدة، وهو الذى يتفق مع الطبيعة الإنسانية، إذ العقول متفاوتة، والعزائم مختلفة، والأعمال متنوعة، ونتيجة لذلك كانت الثمار ليست متحدة.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤١٠ - بتصرف وتلخيص -.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٣٢١.

والمراد بالهوى فى قوله : ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ الخضوع للشهوات والميل مع نزعات النفس الأمارة بالسوء.

وقوله ﴿أن تعدلوا﴾ فى موضع المفعول لأجله ويحتمل أن يكون بمعنى العدل فيكون علة للمنهى عنه، ويكون فى الجملة مضاف مقدر. والمعنى : فلا تتبعوا الهوى والميل مع الشهوات كراهة أن تعدلوا بين الناس ويحتمل أن يكون بمعنى العدول عن الحق فيكون علة للنهى بتقدير لا، أى : أنهاكم عن اتباع الهوى لئلا تميلوا عن الحق وتتركوا العدل.

قال ابن كثير : أى : لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم، على ترك العدل فى شئونكم. بل الزموا العدل على أى حال كان. كما قال - تعالى - ﴿ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى. ولأنتم أبغض الخلق إلى. وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم. فقالوا : بهذا قامت السمٰوات والأرض[1].

وقوله - تعالى - ﴿وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ تذييل قصد به تهديدهم ووعيدهم على ترك العدل، وعلى الامتناع عن الشهادة بالحق.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وفى الآية قراءتان. فقد قرأ الجمهور ﴿تلووا﴾ - بواوين قبلهما لام ساكنة - بمعنى الدفع والإعراض من قولهم : لواه حقه إذا مطله ودفعه. أو بمعنى التحريف والتبديل من قولهم لوى الشىء إذا فتله.

وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿تلوا﴾ بلام مضمومة بعدها واو ساكنة - من الولاية بمعنى مباشرة الشىء والاشتغال به[2].

والمعنى على قراءة الجمهور : وإن تلووا ألسنتكم عن الشهادة بالحق بأن تحرفوها وتقيموها على غير وجهتها أو تعرضوا عنها رأسا وتتركوها يعاقبكم الله عقابا شديدا فإنه - سبحانه - عليم بدقائق الأشياء، خبير بخفايا النفوس، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه.

والمعنى على القراءة الثانية : وإن تلوا الشهادة فتباشروها على وجهها يعطكم الله أجرا حسنا، وإن تعرضوا عنها وتتركوها يعاقبكم الله عقابا أليما، فإن الله - تعالى - خبير بكل أقوالكم وأعمالكم.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٦٥.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٧٤.

وقيل : إن القراءتين بمعنى واحد لأن أصل (تلوا) - وهى قراءة حمزة وابن عامر -تلْووا- وهى قراءة الجمهور - نقلت حركة الواو - فى قراءة الجمهور - إلى الساكن قبلها فالتقى واوان ساكنان فحذفت إحداهما فصارت الكلمة (تلوا).

هذا، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تبنى المجتمع الإسلامى على أقوى القواعد، وأمتن الأسس وأشرف المبادىء. إنها تبنيه على قواعد العدل والقسط، وتأمر المؤمنين أن يلتزموا كلمة الحق مع أنفسهم ومع أقرب المقربين إليهم مهما تكلفوا فى ذلك من جهاد شاق يقتضيه التزام الحق، فإن كلمة الحق كثيرا ما تجعل صاحبها عرضة للإيذاء والاعتداء والاتهام بالباطل من الأشرار والفجار. بل إن كلمة الحق قد تفضى بصاحبها إلى الموت. ولكن لا بأس، فإن الموت مع التمسك بالحق، خير من الحياة فى ظلمات الباطل.

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين أن يثبتوا على إيمانهم فقال : ﴿يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل﴾ أى : يأيها المؤمنون اثبتوا على إيمانكم وداوموا على تصديقكم بوحدانية الله - تعالى - وعلى تصديقكم برسوله محمد ﷺ وبالكتاب الذى نزله الله - تعالى - عليه وهو القرآن، وبالكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على الرسل الذين أرسلهم من قبله.

والمراد بالكتاب الذى أنزله على الرسل من قبله جنس الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور.

ثم بين - سبحانه - سوء مصير من يكفر بشىء مما يجب الإيمان به فقال - تعالى - : ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا مبينًا﴾.

أى : ومن يكفر بالله بأن يجحد وحدانيته وألوهيته، ولا يخلص له العبادة، ويكفر بملائكته بأن ينكر بأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويكفر بكتبه التى أنزلها - سبحانه، على أنبيائه، وبرسله الذين أرسلهم لهداية الخلق. وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، من يكفر بكل ذلك فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن السبيل القويم بعدًا كبيرًا، لأنه بكفره بذلك يكون قد خالف الفطرة، وانحرف عما يقتضيه العقل السليم، وأوغل فى الشرور والآثام إيغالا شديدا، يؤدى به إلى خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

وبعد هذه الأوامر السديدة للمؤمنين. عادت السورة الكريمة إلى تحذيرهم من أعدائهم ومن المنافقين، فكشفت لهم عن طبيعتهم، ونهتهم عن القعود معهم، وبينت لهم أنماطا من خداعهم، وألوانا من أخلاقهم الذميمة، وأخبرتهم عن سوء مصير أولئك المنافقين والمتمادين فى الغى والضلال.

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك بأسلوبها الحكيم فتقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ
ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

وقوله - تعالى - : ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ للمفسرين فى تأويل هذه الآية وجوه:

أولها: أن المراد بهم قوم تكرر منهم الارتداد، وأصروا على الكفر، وازدادوا تماديا فى البغى والضلال.

وقد صدر الفخر الرازى تفسيره لهذه الآية بهذا المعنى فقال: المراد بهم الذين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان مرات وكرات، فإن ذلك يدل على أنه لا وقع للإيمان فى قلوبهم، إذ لو كان للإيمان وقع فى قلوبهم لما تركوه لأدنى سبب ومن لا يكون للإيمان وقع فى قلبه فالظاهر أنه لا يؤمن بالله إيمانا صحيحا معتبرا. فهذا هو المراد بقوله: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾. وليس المراد أنه لو أتى بالإيمان الصحيح لم يكن معتبرا، بل المراد منه الاستبعاد والاستغراب على الوجه الذى ذكرناه[(١)].

وقال الإمام ابن كثير: يخبر - تعالى - عمن دخل فى الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له «ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا ولا طريقا إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾. وقد قال ابن عباس فى قوله: ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾: تمادوا فى كفرهم حتى ماتوا»[(٢)].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٧٨.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٦٦.

وثانيها : أن المراد بهم أهل الكتاب. وقد رجح هذا الإتجاه ابن جرير فقال : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عنى بذلك أهل الكتاب الذين أقروا بحكم التوراة، ثم أقر من أقر منهم بعيسى والإنجيل، ثم كذب به بخلافه إياه، ثم كذب بمحمد ﷺ والفرقان، فازداد بتكذيبه كفرا على كفره[1].

وثالثها : أن المراد بهم طائفة من اليهود كانوا يظهرون الإسلام تارة ثم يرجعون عنه إلى يهوديتهم لتشكيك المسلمين فى دينهم وذلك معنى قوله : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾[2].

ورابعها : أن المراد بهم المنافقون. فالإيمان الأول وإظهارهم الإسلام. وكفرهم بعد ذلك هو نفاقهم وكون باطنهم على خلاف ظاهرهم. والإيمان الثانى هو أنهم كلما لقوا جمعا من المسلمين قالوا : إنا مؤمنون. والكفر الثانى هو أنهم إذا خلوا إلى إخوانهم فى النفاق قالوا لهم إنا معكم. وازديادهم فى الكفر هو جدهم واجتهادهم فى استخراج أنواع المكر والكيد فى حق المسلمين.

والذى نراه أولى من بين هذه الأقوال القول الأول، لأن ألفاظ الآية عامة ولم تخصص قوما دون قوم، فكل من تكرر منهم الارتداد واستمروا فى ضلالهم حتى ماتوا ينطبق عليهم الوعيد الذى بينته الآية الكريمة، سواءً كان أولئك الذين حدث منهم هذا الارتداد المتكرر من المنافقين أم من غيرهم.

والمعنى : إن الذين آمنوا بدين الإسلام ثم رجعوا عنه إلى ما كانوا عليه من ضلال، ثم آمنوا ثم كفروا مرة أخرى، ثم ازدادوا كفرا على كفرهم بأن استمروا فيه حتى ماتوا. . . هؤلاء الذين فعلوا ذلك لم يكن الله ليغفر لهم، لتماديهم فى الكفر وإصرارهم عليه حتى ماتوا، ولم يكن - سبحانه - ليهديهم سبيلا مستقيما، لأنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى، وهم الذين كانوا ﴿إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا﴾.

قال الآلوسى : والقول المشهور الذى عليه الجمهور أن المراد من نفى المغفرة والهداية، نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت. ومعنى نفيه : استبعاد وقوعه، فإن من تكرر منهم الارتداد وازدياد الكفر والإصرار عليه صاروا بحيث قد ضربت قلوبهم بالكفر، وصار الإيمان عندهم أدون شىء وأهونه، فلا يكادون يقربون منه قيد شبر ليتأهلوا للمغفرة وهداية سبيل الجنة، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص٣٢٨.
(٢) سورة آل عمران الآية ٧٢.

ثم قالوا : وخبر كان فى أمثال هذا الموضع محذوف وبه تتعلق اللام أى : ما كان الله مريدًا للغفران لهم. ونفى إرادة الفعل أبلغ من نفيه[١].

ثم تبدأ السورة الكريمة حملتها على المنافقين فتقول : ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾ والتعبير بقوله : بشر بدل أنذر أو أخبر للتهكم بهم، لأن البشارة لا تكون غالبا إلا فى الأخبار السارة، لأن الخبر السار يظهر سرورا فى البشرة. فاستعملت البشارة فى مطلق الإخبار أو فى الإنذار على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

قال الراغب : ويقال : أبشرت الرجل وبشرته أى : أخبرته بأمر سار بسط بشرة وجهه وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء فى الشجر[٢].

وقوله : ﴿المنافقين﴾ من النفاق وهو أن يظهر الشخص خلاف ما يبطن.

قالوا : وسمى المنافق منافقا أخذًا من نافقاء اليربوع - وهو جحره فإنه يجعل له بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر؛ فكذلك المنافق يدخل مع المؤمنين بقوله : أنا مؤمن. ويدخل مع الكفار بقوله : أنا كافر.

والمعنى : أنذر يا محمد أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر بالعذاب الأليم، وسق لهم هذا الإنذار بلفظ التبشير على سبيل التهكم بهم، والاستهزاء بعقولهم، فى مقابل تهكمهم بالإسلام وأهله وخداعهم للمؤمنين.

ثم كشف - سبحانه - عن جانب من طبيعتهم المنكوسة فقال : ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾.

أى : أنذر هؤلاء المنافقين بالعذاب الأليم، الذين من صفاتهم أنهم يتخذون الكافرين أولياء ونصراء لهم تاركين ولاية المؤمنين ونصرتهم. فهم سلم على الكافرين وحرب على المؤمنين.

والمراد بالكافرين هنا : اليهود - على أرجح الأقوال - فقد حكى عن المنافقين أنهم كانوا يقولون : إن أمر محمد ﷺ لن يتم فتولوا اليهود، ولأن غالب سكان المدينة - من غير المسلمين - كان من اليهود.

وقوله ﴿من دون المؤمنين﴾ حال من فاعل يتخذون. أى : يتخذون الكفار أنصارا لهم حالة كونهم متجاوزين ولاية المؤمنين ونصرتهم.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص١٧١ بتصريف وتلخيص.
(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص٤٨.

والاستفهام فى قوله : ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ للإنكار والتعجيب من شأنهم، والتهكم من سوء تصورهم.

وقوله : ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ رد على تصوراتهم الباطلة، ومداركهم الفاسدة، وتثبيت للمؤمنين حتى يزدادوا قوة على قوتهم.

أى : أن هؤلاء المنافقين قد تركوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين فما الذى دفعهم إلى هذا الانتكاس؟ أيطلبون بلهفة ورغبة العزة والقوة والمنعة من عند الكافرين؟ إذا كان هذا حالهم فقد خابوا وخسروا، فإن العزة والقوة والمنعة والنصرة له وحده. ومن اعتز بغير الله هان وذل.

قال ابن كثير : والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جانب الله - تعالى - والإقبال على عبوديته، والانتظام فى جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى ريحانة أن النبى ﷺ قال : «من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزا وفخرا فهو عاشرهم فى النار»(١).

وقال الإمام الرازى : وأصل العزة فى اللغة الشدة. ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة : عزاز. ويقال : قد استعز المرض على المريض إذا اشتد ظهره به. وشاة عزوز التى يشتد حلبها ويصعب. والعزة : القوة منقولة من الشدة لتقارب معنييهما. والعزيز القوى المنيع بخلاف الذليل.

ثم قال : إذا عرفت هذا فنقول : إن المنافقين كانوا يطلبون العزة والقوة بسبب اتصالهم باليهود. ثم إنه - تعالى - أبطل عليهم هذا الرأى بقوله : ﴿فإن العزة لله جميعًا﴾.

فإن قيل : هذا كالمناقض لقوله : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾؟ قلنا القدرة الكاملة لله. وكل من سواه فباقداره صار قادرا. وبإعزازه صار عزيزا فالعزة الحاصلة للرسول عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لم تحصل إلا من الله - تعالى - فكأن الأمر عند التحقيق أن العزة جميعا لله(٢).

قالوا : وقد دلت الآية الكريمة على وجوب موالاة المؤمنين، والنهى عن موالاة الكافرين. قال - تعالى - ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٦٦.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٨٠.
(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢.

ثم نهى - سبحانه - المسلمين عن مخالطة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها فقال : ﴿وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾.

أى : وقد نزل الله عليكم - أيها المؤمنون - فى كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم آيات الله يكفر بها الكافرون، ويستهزىء بها المستهزئون، فعليكم فى هذه الأحوال أن تتركوا مجالسهم، وأن تعرضوا عنهم حتى يتكلموا فى حديث آخر سوى الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

قال صاحب الكشاف : والمراد بالمنزل عليهم فى الكتاب : هو ما نزل عليهم فى مكة من قوله - تعالى - : ﴿وإذا رأيت الذين يخرضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾[١]. وذلك أن المشركين كانوا يخرضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزئون به، فنهى - سبحانه - المسلمين عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه.

وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا - قبل ذلك - عن مجالسة المشركين بمكة[٢].

وأن فى قوله ﴿أن إذا سمعتم﴾ تفسيرية، لأن ﴿نزل﴾ تضمن معنى القول دون حروفه. وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر أى أنه إذا سمعتم. وقدره بعضهم ضمير المخاطبين أى أنكم إذا سمعتم، وخبرهما جملة الشرط والجزاء.

وقوله ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ جملتان فى موضع الحال من الآيات.

وأضاف - سبحانه - الآيات إليه، لتهويل أمرها، والتشنيع على من كفر أو استهزأ بها.

والضمير فى قوله ﴿معهم﴾ يعود إلى الكافرين والمستهزئين المدلول عليهم بقوله : ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ فكأنه قيل : لا تقعدوا - أيها المؤمنون - مع الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها.

والضمير فى قوله ﴿غيره﴾ يعود إلى تحدثهم بالكفر والاستهزاء أى : حتى يخوضوا فى حديث سوى حديثهم المتعلق بالكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

وقوله ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ تعليل للنهى عن القعود معهم.

أى : - أيها المؤمنون - إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بها، كنتم معهم فى الاستهانة بآيات الله وشركاء لهم فى آثامهم، لأن

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٨.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٧٨.

الراضى بالكفر بآيات الله وبالاستهزاء بها. يكون بعيدا عن حقيقة الإيمان، ومستحقا للعقوبة من الله - تعالى -

قال صاحب الكشاف، فإن قلت: لم يكونوا مثلهم بالمجالسة إليهم فى وقت الخوض؟ قلت: لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين. والراضى بالكفر كافر فإن قلت: فهلا كان المسلمون بمكة - حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين - منافقين؟ قلت: لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم. وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم فكان ترك الإنكار لرضاهم(١).

وقال القرطبى: فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يتجنبهم فقد رضى فعلهم، والرضا بالكفر كفر. قال الله - تعالى - ﴿إنكم إذا مثلهم﴾. فكل من جلس فى مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم فى الوزر سواء. وينبغى أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم. فحمل عليه الأدب وقرأ عليه هذه الآية ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ أى أن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضى بعقوبة العاصى حتى يهلكوا جميعا. وهذه المماثلة ليست فى جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة(٢)».

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالوعيد الشديد للكافرين والمنافقين فقال: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعًا﴾ لأن هذين الفريقين كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها والتواصى بالشرور والآثام، فسيجمعهم الله جميعًا فى جهنم يوم القيامة، بسبب ما قدمت أيديهم من جرائم ومنكرات.

فأنت ترى أن الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن مجالسة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها، لأن أول الشر سماع الشر، ولأن أول مراتب ضعف الإيمان أن تفتر حماسة المؤمن فى الدفاع عن الحق الذى آمن به.

ومن علامات المؤمن الصادق أنه متى سمع استهزاء بتعاليم دينه فعليه إما أن ينبرى للدفاع عن هذه التعاليم بشجاعة وحماسة وقولة تدمغ الباطل وأهله وتفضح كل معتد أثيم.. وإما أن يقاطع المجالس التى لا يحترم فيها دين الله. أما السكوت عن ذلك باسم التغاضى أو التسامح أو المرونة. أو بغير ذلك من الأسماء، فهذا أول مراتب النفاق الذى يؤدى إلى خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٨٨

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤١٨.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك سمة أخرى من أبرز سمات المنافقين. وهى أنهم كانوا يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه آخر. أى أنهم يحاولون أن يمسكوا العصا من وسطها حتى يأكلوا من كل مائدة. استمع إلى القرآن وهو يصور ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾؟.

وقوله: ﴿يتربصون﴾ من التربص بمعنى الانتظار وترقب الحوادث. يقال: تربص به إذا انتظره مع ترقب وملاحظة.

وقوله: ﴿نستحوذ﴾ من الاستحواذ بمعنى الغلبة والتمكن والاستيلاء، يقال: استحوذ فلان على فلان أى: غلب عليه وتمكن منه. ومنه قوله - تعالى - ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾.

والمعنى: إن من صفات هؤلاء المنافقين - أيها المؤمنون - أنهم يتربصون بكم. أى: ينتظرون بترقب وملاحظة ما يحدث لكم من خير أو شر، أو من نصر أو هزيمة ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ أى: نصر وظفر على أعدائكم ﴿قالوا﴾ على سبيل التقرب إليكم ﴿ألم نكن معكم﴾ فى الجهاد وغيره فاعِطونا نصيبا من الخير الذى أصبتموه. ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ أى حظ من النصر عليكم - لأن الحرب سجال - ﴿قالوا﴾ لهم - أيضا - على سبيل التقرب إليهم ﴿ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ أى: ألم نتمكن من قتلكم وأسركم ولكنا لم نفعل ذلك، بل أحطناكم بحمايتنا ورعايتنا ومنعنا المؤمنين من النصر عليكم بسبب تخذيلنا لهم، وتجسسنا على أحوالهم. وإخباركم بما يهمكم من شئونهم، وما دام الأمر كذلك فاجعلوا لنا قسما من نصيبكم.

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه المنافقون من تلون وتقلب وهرولة وراء شهوات الدنيا فى أى مكان كانت.

وعبر عن النصر فى جانب المؤمنين بأنه فتح، وعن انتصار الكافرين بأنه نصيب، لتعظيم شأن المسلمين وللتهوين من شأن الكافرين. ولأن انتصار المسلمين يترتب عليه فتح الطريق أمام الحق لكى يدركه الناس، ويدخلوا فى دين الله أفواجا، ولأن الفتح من الله يكون معه الدوام وحسن العاقبة بخلاف انتصار الكافرين فهو أمر طارىء وليس بدائم.

قال صاحب الانتصاف: وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن، فإن الذى يتفق للمسلمين فيه: استئصال لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم وأرض لم يطؤوها. وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التى لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحا. فالتفريق بينهما أيضا

مطابق للواقع[١] والاستفهام فى قوله ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ وفى قوله ﴿ألم نكن معكم﴾ للتقرير أى : لقد كنا معكم واستحوذنا عليكم ومنعناكم من المؤمنين.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين فقال : ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾.

والفاء هنا للإفصاح عن كلام مقدر. أى : إذا كان هذا هو حال المنافقين والكافرين فى الدنيا، فأبشركم - أيها المؤمنون - بأن الله سيحكم بينكم وبينهم يوم القيامة بحكمه العادل، فيثيبكم بالثواب الجزيل لأنكم أولياؤه، ويعاقبهم بالعقاب الأليم لأنهم أعداؤه، وأبشركم - أيضا - بأنه - سبحانه - لن يجعل لأعدائكم الكافرين سلطانا عليكم ما دمتم متمسكين بدينكم، ومعتصمين بحبل الله جميعا بدون فرقة أو تنازع أو فشل، وآخذين بالأسباب وبسنن الله الكونية التى تعينكم على الوصول إلى غاياتكم الشريفة، ومقاصدكم السليمة.

فالآية الكريمة تنفى أن يكون هناك سبيل للكافرين على المؤمنين فى الدنيا والآخرة.

ومنهم من يرى أن المراد بنفى السبيل هنا فى الآخرة.

وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذين الاتجاهين بقوله -تعالى- ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ أى : يوم القيامة كما روى عن على بن أبى طالب وغيره.

ويحتمل أن يكون المعنى : ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ أى : فى الدنيا، بأن يسلطوا عليهم تسليط استيلاء واستئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة، كما قال - تعالى - ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٢].

والذى نراه أولى أن تكون الجملة الكريمة عامة فى نفى أن يكون هناك سلطان للكافرين على المؤمنين ما دام المؤمنون متبعين اتباعا تاما تعاليم دينهم وآخذين فى الأسباب التى تجعل النصر حليفا لهم. وإذا كان الكافرون فى بعض الازمان والأحوال قد صارت لهم الغلبة على المسلمين، فذلك قد يكون نوعا من الابتلاء أو التأديب أو التمحيص. حتى يعود المسلمون إلى دينهم عودة كاملة تجعلهم يستجيبون لتوجيهاته. ويذعنون لأحكامه، ويطبقون أوامره ونواهيه. وهنا يحالفهم نصر الله الذى لا يقهر ووعده الذى لا يتخلف.

ثم تمضى السورة الكريمة بعد هذا الوعد المطمئن لقلوب المؤمنين، فى رسم صورة أخرى

---

(١) حاشية الكشاف جـ١ ص ٥٧٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٦٧ بتصريف وتلخيص.

للمنافقين مبالغة فى الكشف عن قبائحهم وفى التحذير من شرورهم فتقول : ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾.

وقوله : ﴿يخادعون﴾ من الخداع وهو أن يظهر الشخص من الأفعال ما يخفى أمره، ويستر حقيقته.

قال الراغب : الخداع : إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه. . .

ويقال : طريق خادع وخيدع. أى : مضل كأنه يخدع سالكه. وفى الحديث : (بين يدى الساعة سنون خداعة) أى : محتالة لتلونها بالجدب مرة وبالخصب مرة[1].

وقوله : ﴿خادعهم﴾ اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه.

والمعنى : إن المنافقين لسوء طواياهم، وخبث نواياهم ﴿يخادعون الله﴾ أى : يفعلون ما يفعل المخادع بأن يظهروا الإيمان ويبطنوا الكفر ﴿وهو خادعهم﴾ أى : وهو فاعل بهم ما يفعله الذى يغلب غيره فى الخداع، حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والأموال. وأعدلهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار.

ومنهم من جعل المراد بمخادعتهم لله مخادعتهم لرسوله وللمؤمنين فيكون الكلام على حذف مضاف. أى : إن المنافقين يخادعون رسول الله والمؤمنين وهو - سبحانه - خادعهم فهو كقوله - تعالى - ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾

وعبر - سبحانه - عن خداعهم بصيغة تدل على المشاركة والمغالبة وهى قوله ﴿يخادعون﴾، للإشعار بأنهم قد ينجحون فى خداعهم وقد لا ينجحون.

وعبر - سبحانه - عن خداعه لهم بصيغة اسم الفاعل، للدلالة على الغلب والقهر. لأن الله - تعالى - كاشف أمرهم، ومزيل مغبة خداعهم، ومحاسبهم حسابا عسيرا على ما ارتكبوه من جنايات وسيئات.

وقوله : ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ بيان للون آخر من قبائحهم.

و﴿كسالى﴾ جمع كسلان وهو الذى يعتريه الفتور فى أفعاله لكراهيته لها أو عدم اكتراثه بها. وهى حال لازمة من ضمير قاموا أى : إن هؤلاء المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة، قاموا متثاقلين

---

(١) مفردات القرآن ص ١٤٤

متباطئين لا نشاط عندهم لأدائها، ولا رغبة لهم فى القيام بها، لأنهم لا يعتقدون ثوابا فى فعلها، ولا عقابا على تركها.

وقوله ﴿يراءون الناس﴾ حال من الضمير المستكن فى كسالى. أو جملة مستأنفة جوابا لمن يسأل: وما قصدهم من القيام للصلاة مع هذا التثاقل والتكاسل عنها؟ فكان الجواب: يراءون الناس. أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة والخداع.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها. وهى الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها. وهذه صفة ظواهرهم.

ثم ذكر - سبحانه - صفة بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿يراءون الناس﴾ أى: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التى لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء فى وقت العتمة وصلاة الصبح فى وقت الغلس كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولوحبوا» وروى الحافظ أبو ليلى عن عبد الله قال: من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة. استهان بها ربه - عز وجل -[1].

وقوله: ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ معطوف على ﴿يراءون﴾ أى: أن من صفات المنافقين أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متقاعسين يقصدون الرياء والسمعة بصلاتهم، ولا يذكرون الله فى صلاتهم إلا ذكرا قليلا أو وقتا قليلا؛ لأنهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون، بل هم فى صلاتهم ساهون لاهون.

روى الإمام مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «تلك صلاة المنافق - تلك صلاة المنافق. يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فنقر أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا».

قال ابن كثير: وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر المدنى عن العلاء بن عبد الرحمن. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ومنهم من فسر قوله ﴿ولايذكرون الله إلا قليلا﴾ أى: ولايصلون إلا قليلا. لأنهم إنما يصلون رياء فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا. والأول أولى لأنه أعم وأشمل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٦٨ - بتصرف وتلخيص

قال صاحب الكشاف: قوله «ولا يذكرون الله إلا قليلا» أى: ولا يصلون إلا قليلا، لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به. وما يجاهرون به قليل أيضا، لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس فى قلوبهم لم يتكلفوه. أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكرا قليلا فى الندرة، وهكذا ترى كثيرا من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالى لم تسمع منه تهليلة ولا تسبيحة ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه..

فإن قلت مامعنى المراءاة وهى مفاعلة من الرؤية؟ قلت: فيها وجهان:

أحدهما: أن المرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسانه.

والثانى: أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل. فيقال: راءى الناس. يعنى رآهم كقولك نعمه وناعمه.. روى أبو زيد: رأت المرأة المرآة الرجل: إذا أمسكتها لترى وجهه..[1].

وقوله: ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ حال من فاعل يراءون واسم الإشارة «ذلك» مشار به إلى الإيمان والكفر المدلول عليه بذكر المؤمنين والكافرين.

قال القرطبى: المذبذب: المتردد بين أمرين. والذبذبة: الاضطراب. يقال: ذبذبته فتذبذب. ومنه قول النابغة - فى مدح النعمان بل المنذر -

ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى: يضطرب وقال ابن جنى: المذبذب: المهتز القلق الذى لا يثبت ولا يتمهل. فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين. لا مخلصين للإيمان ولا مصرحين بالكفر. وفى صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين - أى المترددة بين قطيعين - تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى»[2].

وقوله ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ فى محل نصب على أنه حال من ضمير ﴿مذبذبين﴾ أو على أنه بيان وتفسير له.

وقوله: ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ أى: ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق، بسبب إيثاره الغواية على الهداية. فلن تجد له سبيلا يوصله إلى الصراط المستقيم.

وبعد هذا الذم الشديد لما كان عليه المنافقون من خداع ورياء وضلال. وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن موالاة الكافرين فقال - تعالى -: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٧٩   (٢) القرطبى جـ ٥ ص ٤٢٤.

أى : يأيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان، لا يصح منكم ولا ينبغى لكم أن تتخذوا الكافرين بالحق الذى آمنتم به ﴿أولياء﴾ أى نصراء وأصدقاء، تاركين ولاية إخوانكم المؤمنين ونصرتهم، فإن ذلك لا يتفق مع الإيمان، ولا يتناسب مع تعاليم دينكم.

فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة الكفرة. أى : عن مناصرتهم وإفشاء أسرار المؤمنين إليهم، وعن كل ما من شأنه أن يكون مضرة بالمؤمنين. كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾(١).

وفى هذا النهى - أيضًا - توبيخ للمنافقين الذين مازال الحديث متصلا عن قبائحهم ورذائلهم، وتحذير من مسالكهم الخبيثة حيث كانوا يتركون ولاية المؤمنين وينضمون إلى صفوف الكافرين من اليهود وغيرهم ويقولون - كما حكى القرآن عنهم - ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾.

والاستفهام فى قوله : ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينًا﴾ للإنكار والتحذير من أن تقع هذه الموالاة منهم. والمراد بالسلطان : الحجة والدليل أى : إنكم إن اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فقد جعلتم لله عليكم حجة فى عقابكم، وفى تخليه عن نصرتكم ورعايتكم.

وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال، أتجعلون. للمبالغة فى التهويل من أمره؛ ببيان أنه مما لا ينبغى أن تصدر عن العاقل إرادته، فضلا عن صدوره فى نفسه.

قال بعضهم : وقد دلت الآية على تحريم موالاة المؤمنين للكافرين. قال الحاكم : وهى الموالاة فى الدين والنصرة فيه. لا المخالقة والإحسان.

وقال الزمخشرى : وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخٍ له؛ خالص المؤمن، وخالق الكافر والفاجر. فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن. وأنه يحق عليك أن تخالص المؤمن »(٢).

ثم بين - سبحانه - المصير الشنيع الذى سيصير إليه المنافقون يوم القيامة فقال - تعالى - : ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا﴾ أى : فى الطبقة السفلى من طبقاتها وسميت دركات لكونها متداركة أى : متتابعة بعضها تحت بعض. والدرك لغة فى الدرك وهو كالدرج، إلا أن الدرج يقال باعتبار الصعود. والدرك يقال باعتبار النزول والحدور. ولذا قيل : درجات الجنة ودركات النار.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٨

(٢) تفسير القاسمى جـ ٥ ص ١٦٢١

قال الآلوسى : والنار لها طبقات سبع : تسمى الأولى كما قيل : جهنم : والثانية : لظى . والثالثة : الحطمة. والرابعة : السعير. والخامسة : سقر. والسادسة : الجحيم. والسابعة : الهاوية. وقد تسمى النار جميعًا باسم الطبقة الأولى، وبعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها. . . [1].

والمعنى : إن هؤلاء المنافقين الذين مردوا على النفاق. وسرى فى طباعهم مسرى الدم سيكونون يوم القيامة فى الطبقة السفلى من النار، ولن تجدلهم نصيرًا ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه.

وإنما كان للمنافقين هذا العذاب الشديد، لأنهم أضافوا إلى كفرهم، الاستهزاء بالإسلام وأهله، وجمعوا بسوء طباعهم بين الكفر. والفسق والتضليل، والخداع، وإشاعة الفاحشة فى صفوف المؤمنين، وغير ذلك من رذائلهم المتعددة، وقبائحهم المتنوعة.

قال بعض العلماء : ولكن من هو المنافق الذى يستحق أشد العقاب، ويكون فى أعمق النيران يوم القيامة ؟ نقول فى الجواب عن ذلك : إنه المنافق الخالص الذى لم يكن فيه خصلة أو أكثر من خصلة فقط، ولكن هو الذى كفر بالله وبالرسالة المحمدية، ولم يكتف بذلك بل أظهر الإسلام ليفسد بين المسلمين ويتعرف أسرارهم.

ذلك أن النفاق درجات هذا أعلاها، وهو أشد الكفر. ودونه بعد ذلك مراتب تكون بين المسلمين ولا تخرج المسلم عن إسلامه، وإن كانت تجعل إيمانه ضعيفا. ومن ذلك ممالأة الحكام، والسكوت عن كلمة الحق مع النطق بالباطل ملقا وخداعا.

قيل لابن عمر – رضى الله عنهما – : ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه ! ! فقال : كنا نعده من النفاق.

ولقد جاء فى الحديث الشريف ما يفيد أن المنافقين فريقان : فريق خلص للنفاق، وهذا منكوس القلب والنفس والفكر. وقسم فيه خصلة من النفاق، وهذا يتنازعه الخير والشر. فقد قال – عليه الصلاة والسلام – فيما رواه الإمام أحمد. «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر. وقلب أغلف مربوط على غلافه. وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراجه فيه نوره. وأما القلب الأغلف : فقلب الكافر. وأما القلب المنكوس : فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح : فقلب فيه إيمان ونفاق.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ١٧٧.

ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم. فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه».

وإننا لهذا نقول: إن النفاق فى داخل الإسلام مراتب. وأعلاها أولئك الذين يتملقون الحكام، وينحدرون إلى درجة وضعهم فى مقام النبيين. ومنهم من يذهب به فرط نفاقه، فيفضل بعض عملهم على عمل النبيين، وهؤلاء نتردد فى الحكم بأنهم مسلمون. وقريب منهم الذين يتأولون النصوص من غير حجة فى التأويل. ويعبثون بظواهرها القاطعة لهوى الحكام[1].

ثم بعد هذا الوعيد الشديد للمنافقين فتح - سبحانه - باب التوبة ليدخل فيه كل من يريد أن يقلع عن ذنوبه من المنافقين وغيرهم، حتى ينجو من عقابه - سبحانه - فقال: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، فأولئك مع المؤمنين، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيما﴾.

أى: هذا الجزاء الذى بيناه هو جزاء المنافقين. لكن الذين تابوا منهم عن النفاق، وأصلحوا ما أفسدوا من أقوالهم وأفعالهم ﴿واعتصموا بالله﴾ أى تمسكوا بكتابه، وتركوا موالاة الكافرين ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ بحيث لا يريدون بطاعتهم سوى رضاه ومثوبته، ﴿فأولئك﴾ الذين فعلوا ذلك ﴿مع المؤمنين﴾ الصادقين الذين لم يصدر منهم نفاق. أى: معهم فى فضيلة الإيمان الصادق، وما يترتب على ذلك من أجر جزيل. وثواب عظيم. «وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيما» لا يقادر قدره، ولا يكتنه كنهه.

فقوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من المنافقين فى قوله ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: اشترط - سبحانه - فى إزالة العقاب عن المنافقين أمورًا أربعة:

أولها: التوبة.

وثانيها: إصلاح العمل. فالتوبة عبارة عن ترك القبيح، وإصلاح العمل عبارة عن الإقدام على الحسن.

وثالثها: الاعتصام بالله. وهو أن يكون غرضه من التوبة وإصلاح العمل طلب مرضاة الله.

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة ١٧ العدد ١٢.

ورابعها : الإخلاص : بأن يكون طلب مرضاة الله خالصا وأن لا يمتزج به غرض آخر(١).

والإشارة فى قوله ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ تعود إلى الاسم الموصول وهو ﴿الذين﴾ باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة.

والمقصود بالمعية فى قوله «مع المؤمنين» التشريف والتكريم بصحبة الأخيار والتعبير «بسوف» لتأكيد وقوع الأمر المبشر به فى المستقبل، وليس لمجرد التسويف الزمانى.

أى : وسوف يؤت الله المؤمنين ما وعدهم به إيتاء لا شك فى حصوله ووقوعه. ونكر - سبحانه - الأجر ووصفه بالعظم، للتنويه بشأنه. ولإفادة أنه أجر لا يكتنه كنهه.

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر رحمته بعباده، وفضله عليهم فقال - تعالى - : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليما﴾.

و ﴿ما﴾ استفهامية. والمراد بالاستفهام هنا النفى والإنكار على أبلغ وجه وآكده والجملة الكريمة استئنافية مسوقة لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم ومعاصيهم لا لشىء آخر.

والمعنى : أى منفعة له - سبحانه - فى عذابكم وعقوبتكم إن شكرتم نعمه، وأديتم حقها، وآمنتم به حق الإيمان؟ لا شك أنه - سبحانه - لا يفعل بكم شيئا من العذاب ما دام الشكر والإيمان واقعين منكم؛ فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن لا يعذب إلا من يستحق العذاب، بل إنه - سبحانه - قد يتجاوز عن كثير من ذنوب عباده رحمة منه وفضلا.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : قوله ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به نفعا؟ أم يستدفع به ضررًا؟ كما هو شأن الملوك. وهو الغنى المتعالى الذى لا يجوز عليه شىء من ذلك. وإنما هو أمر اقتضته الحكمة أن يعاقب المسىء. فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب(٢).

و ﴿ما﴾ فى محل نصب بـ﴿يفعل﴾ لأن الاستفهام له الصدارة. والباء فى قوله «بعذابكم» سببية متعلقة بيفعل. والاستفهام هنا معناه النفى كما سبق أن أشرنا. وعبر عن النفى بالاستفهام للإشارة إلى أنه - سبحانه - رتب الجزاء على العمل؛ وأنه يجب على كل عاقل أن يدرك أن عدالة الله قد اقتضت أنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، ويعفو عن كثير من السيئات بفضله ومنته.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٨٨.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٨١ - بتصرف يسير -.

وقوله : ﴿إن شكرتم﴾ جوابه محذوف دل عليه ما تقدم. أى : إن شكرتم وآمنتم فما الذى يفعله بعذابكم ؟

وقدم الشكر على الإيمان، لأن الشكر سبب فى الإيمان، إذ الإنسان عندما يرى نعم الله، ويتفكر فيها ويقدرها حق قدرها، يسوقه ذلك إلى الإيمان الحق، فالشكر يؤدى إلى الإيمان والإيمان متى رسخ واستقر فى القلب ارتفع بصاحبه إلى أسمى ألوان الشكر وأعظمها. فعطف الإيمان على الشكر من باب عطف المسبب على السبب.

وقوله : ﴿وكان الله شاكرا عليما﴾ تذييل قصد به تأكيد ما سبق من الله - سبحانه - لا يعذب عباده الشاكرين المؤمنين.

أى : وكان الله شاكرًا لعباده على طاعتهم. أى مثيبهم ومجازيهم الجزاء الحسن على طاعتهم، عليما بجميع أقوالهم وأفعالهم، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه. فالمراد بالشكر منه - سبحانه - مجازاة عباده بالثواب الجزيل على طاعتهم له ووقوفهم عند أمره ونهيه.

وسمى - سبحانه - ثواب الطائعين شكرًا منه، للتنويه بشأن الطاعة، وللتشريف للمطيع، ولتعليم عباده أن يشكروا للمحسنين إحسانهم. فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يقول :

وهو الشكور. فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل لديه بضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، والحمد للرحمن

وإلى هنا نرى أن الآيات الكريمة التى بدأت بقوله - تعالى - : ﴿بشر المنافقين﴾ قد كشفت عن حقيقة النفاق والمنافقين فى المجتمع الإسلامى، وأماطت اللثام عن طباعهم المعوجة، وأخلاقهم القبيحة، ومسالكهم الخبيثة، وهممهم الساقطة، ومصيرهم الأليم. وذلك لكى يحذرهم المؤمنون، ويتنبهوا إلى مكرهم وسوء صنيعهم. ثم نرى الآيات الكريمة خلال ذلك تفتح باب التوبة للتائبين من المنافقين وغيرهم وتعدهم إن تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله بالأجر العظيم. وأخيرا تجىء تلك اللفتة العجيبة المؤثرة العميقة. أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع الذى توعد الله به المنافقين، وبعد ذكر الأجر العظيم الذى وعد الله به المؤمنين. أخيرا بعد كل ذلك تجىء الآية الكريمة التى تنفى بأبلغ أسلوب أن يكون هناك عذاب من الله لعباده الشاكرين المؤمنين، لأنه - سبحانه - وهو الغنى الحميد، قد اقتضت حكمته وعدالته أن لا يعذب إلا من يستحق العذاب، وأنه - سبحانه - سيجازى الشاكرين المؤمنين

بأكثر مما يستحقون من خير عميم، ونعيم مقيم، وما أحكم قوله - تعالى - : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما﴾ إنها لآية كريمة تحض الناس على أن يقبلوا على ربهم بقلب سليم فيعبدوه حق العبادة، ويطيعوه حق الطاعة لينالوا ثوابه وجزاءه الحسن؛ ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾.

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه يبغض الجهر بالسوء من القول إلا فى أحوال تقتضى ذلك، وتوعد الكافرين به وبرسله بالعذاب المهين، وبشر المؤمنين حق الإيمان بالأجر العظيم فقال - تعالى - :

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ نهى للمؤمنين عن الاسترسال فى الجهر بالسوء إلا عندما يوجد المقتضى لهذا الجهر.

وعدم محبته - سبحانه - لشىء كناية عن غضبه على فاعله وعدم رضاه عنه، والجهر بالقول

معناه : النطق به فى إعلان، ونشره بين الناس، وإذاعته فيهم فهو يقابل السر والإخفاء.

والقول السوء : هو الذى يسوء من يقال فيه ويؤذيه فى شرفه، أو عرضه أو غير ذلك مما يلحق به شرا.

والمعنى : لا يحب الله - تعالى - لأحد من عباده أن يجهر بالأقوال السيئة أو الأفعال السيئة، إلا من وقع عليه الظلم فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول فى الحدود التى تمكنه من رفع الظلم عنه دون أن يتجاوز ذلك، كأن يجهر الخصم بما ارتكبه خصمه فى حقه من مآثم. وكأن يذكر المظلوم الظالم بالقول السىء فى المجالس العامة والخاصة متحريا البعد عن الكذب والبهتان.

قال القرطبى ما ملخصه : والذى يقتضيه ظاهر الآية أن للمظلوم أن ينتصر من ظالمه - ولكن مع اقتصاد - إن كان مؤمنا، فأما أن يقابل القذف بالقذف ونحوه فلا، وإن كان كافرا فأرسل لسانك وادع بما شئت من الهلكة وبكل دعاء كما فعل النبى ﷺ حيث قال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».

وإن كان مجاهرا بالظلم دعا عليه الداعى جهرا، ولم يكن لهذا المجاهر عرض محترم، ولابدن محترم ولا مال محترم. وقد روى أبو داود عن عائشة أنها قالت : سرق لها شىء فجعلت تدعو عليه - أى على السارق - فقال رسول الله ﷺ «لا تسبخى عنه» أى : لا تخففى عنه العقوبة بدعائك عليه. وروى أبو داود - أيضا - عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول ﷺ قال : «لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته» أى : المماطلة من القادر على دفع الحقوق لأصحابها ظلم يبيح للناس أن يذكروه بالسوء(١).

وقول السوء بدون مقتض يبغضه الله سواء أكان هذا القول سرا أو جهرا إلا أنه - سبحانه - خص الجهر بالذكر لأنه أشد فحشا، ولأنه أكثر جلبا للعداوة بين الناس، وأشد تأثيرا فى إشاعة الجرائم فى المجتمع، فإن كثرة سماع الناس للكلام السىء. وللقول الماجن، يغرى الكثير منهم بترديد ما سمعوه، وبحكايته فى أول الأمر بشىء من الحياء، ثم لا يلبث هذا الحياء أن يزول بسبب إلف الناس للكثير من الألفاظ النابية، والأقوال السيئة.

وأنت تقرأ القرآن فتراه فى عشرات الآيات يأمر أتباعه بالمداومة على النطق بالكلام الطيب حتى تنتشر بينهم المحبة والمودة. ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن، إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا﴾(٢).

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣.

(٢) سورة الأسراء الآية ٥٣.

والخلاصة أن الإسلام يحب لأتباعه أن يلتزموا النطق بالكلمة الطيبة، ويكره لهم أن يجهروا بالسوء من القول إلا فى حالة وقوع ظلم عليهم، ففى هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع الظالم عن ظلمه.

والاستثناء فى قوله ﴿إلا من ظلم﴾ استثناء منقطع، فتكون إلا بمعنى لكن.

أى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن من ظلم له أن يجهر بالسوء لكى يدفع ما وقع عليه من ظلم.

ويحتمل أن يكون متصلا فيكون المعنى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من أحد إلا ممن ظلم فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول لرفع الظلم عنه فيكون الاستثناء من الفاعل المحذوف وهو - من أحد - أو: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من ظلم فإنه ليس بخارج عن محبة الله لأن دفع الظلم واجب. فيكون الكلام على تقدير مضاف محذوف.

وقوله: ﴿وكان الله سميعا عليما﴾ تذييل قصد به التحذير من التعدى فى الجهر المأذون فيه، ووعد للمظلوم بأنه - تعالى - يسمع شكواه ودعاءه، ويعلم ظلم ظالمه.

أى: وكان الله سميعا لكل ما يسر به المسرون أو يجهر به المجاهرون، عليما بما يدور فى النفوس من بواعث وهواجس، وسيجازى كل إنسان بأقواله وأعماله، إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر.

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى، وحض على العفو والصفح وفعل الخير فقال: ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء، فإن الله كان عفوا قديرا﴾.

أى: إن تظهروا - أيها الناس - ﴿خيرا﴾ من طاعة وبر وقول حسن، وفعل حسن، أو ﴿تخفوه﴾ أى، تخفوا هذا الخير بأن تعملوه سرا ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ بأن تصفحوا عمن أساء إلكم، يكافئكم الله - تعالى - على ذلك مكافأة حسنة، ويتجاوز عن خطاياكم، ﴿فإن الله كان عفوا قديرا﴾ أى: كثير العفو عن العصاة مع كمال قدرته على مؤاخذتهم ومعاقبتهم فاقتدوا بهذه الصفات الحميدة لتنالوا محبة الله ورضاه.

فالآية الكريمة تدعو الناس إلى الإكثار من فعل الخير سواء أكان سرا أو جهرا، كما تدعو إلى العفو عن المسيئين إليهم.

قال ابن كثير: وفى الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٧١.

وقال الفخر الرازى : اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة فى أمرين : صدق مع الحق وخلق مع الخلق. والذى يتعلق بالخلق محصور فى قسمين : إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم. فقوله. ﴿إن تبدو خيرًا أو تخفوه﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم. وقوله : ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل فى هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر[١].

ثم بين - سبحانه - رذائل أهل الكتاب وأباطيلهم وسوء مصيرهم بعد حديثه القريب عن المنافقين. . فقال - تعالى - ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ بأن يجحدوا وحدانية الله، وينكروا صدق رسله - عليهم الصلاة والسلام - ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أى يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله - تعالى - وبين الإيمان برسله، بأن يعلنوا إيمانهم بوجود الله - تعالى - وأنه خالق هذا الكون، إلا أنهم يكفرون برسله أو ببعضهم.

قال القرطبى : نص - سبحانه - على أن التفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله كفر، وإنما كان كفرًا لأن الله سبحانه - فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا رسالة الرسل فقد ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع - سبحانه - وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية. وكذلك التفريق بين رسله فى الإيمان بهم كفر[٢].

وقوله - تعالى - ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ حكاية لما نطقوا به من كفر وجحود. أى. ويقولون على سبيل التبجح والعناد : نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم كما قال اليهود نؤمن بموسى والتوراة ونكفر بما وراء ذلك. وكما قال النصارى. نؤمن بعيسى والإنجيل ونكفر بما سوى ذلك.

وقوله ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ أى ويريدون بقولهم هذا أن يتخذوا بين الإيمان بالبعض والكفر بالبعض طريقا يسلكونه، ودينا يتبعونه مع أنه لا واسطة بينهما قطعا، لأن الرسل جميعا قد بعثهم الله - تعالى - لدعوة الناس إلى توحيده، وإخلاص العبادة له ونشر مكارم الأخلاق فى الأرض. فمن كفر بواحد منهم كفر بهم جميعا.

وقوله ﴿أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾ إخبار عن سوء مصيرهم، وشناعة عاقبتهم.

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة هم الكافرون الكاملون فى الكفر،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٩٠.
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص٤.

الراسخون فى ظلماته، وأعتدنا أى وهيأنا وادخرنا للكافرين جميعا عذابا يهينهم ويذلهم جزاء كفرهم وجحودهم.

وقوله ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، وعامله محذوف أى : أولئك الكافرون حق ذلك حقا. ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف. أى أولئك هم الكافرون كفرا حقا أى : كفرا كاملا لا شك فى وقوعه منهم وانغماسهم فيه.

هذا هو شأن الكافرين بالله ورسله، وتلك هى عاقبتهم أما المؤمنين الصادقون فقد بشرهم الله بقوله : ﴿والذين آمنوا بالله﴾ حق الإيمان وآمنوا ﴿برسله﴾ جميعا ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ أى : لم يفرقوا فى الإيمان بين رسول ورسول بل آمنوا بهم جميعا.

﴿أولئك﴾ الذين استقر الإيمان الكامل فى قلوبهم، والذين وصفهم الله - تعالى - بتلك الأوصاف الحميدة ﴿سوف يؤتيهم﴾ الله - تعالى - ﴿أجورهم﴾ التى وعدهم بها ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أى : وكان الله وما زال كثير المغفرة والرحمة لمن هذه صفاتهم، وتلك نعوتهم.

والتعبير بسوف لتأكيد الأجر الذى وعدهم الله به، وللدلالة على أنه كائن لا محاولة وإن تراخى. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد قابلت بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين؛ ليقلع الناس عن الكفر والمعاصى، ويستجيبوا لأوامر الله لينالوا رضاه.

* * *

ثم حكى - سبحانه - جانبا من الأسئلة المتعنتة التى كان اليهود يوجهونها إلى النبى ﷺ ومن النعم التى أنعم - سبحانه - بها عليهم ومن المنكرات التى قالوها وفعلوها، ومن العقوبات التى عاقبهم الله بها بسبب ظلمهم وفسوقهم.. استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك فيقول :

يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا

وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله – تعالى – ﴿يسألك أهل الكتاب﴾ . . الخ ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول

الله ﷺ فقالوا : يا محمد، إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا أنت بالألواح من عند الله حتى نصدقك. فأنزل الله - تعالى - ﴿يسألك أهل الكتاب﴾. إلى قوله ﴿وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ وعن السدى : قالت اليهود : يا محمد، إن كنت صادقا فأتنا بكتاب من السماء كما جاء به موسى.

وعن قتادة : أنهم سألوه أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا، تأمر بتصديقه واتباعه(١).

والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة، بدليل سياق الأيات الكريمة التى ذكرت أوصافا تنطبق عليهم، وبدليل ما ذكرناه فى سبب نزول الآيات.

والمعنى يسألك اليهود يا محمد على سبيل التعنت والعناد، أن تنزل عليهم كُتابا من السماء مكتوبا جملة كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة مكتوبة فى الألواح جملة. أو يسألونك أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا من السماء تأمرهم بتصديقك، وسؤالهم هذا مقصدهم من ورائه التعنت والجحود، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا لما وجهوا إليك هذه الأسئلة المتعنتة؛ لأن الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك.

وعبر بالمضارع فى قوله ﴿يسألك﴾ لقصد استحضار حالتهم العجيبة فى هذا السؤال، حتى لكأن السامع يراهم، وللدلالة على تكرار أسئلتهم وتجددها المرة تلو الأخرى بدون حياء أو خجل.

وقوله : ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾ بيان للون من رذائلهم وقبائحهم، وتسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى وسوء أدب.

والفاء فى قوله ﴿فقد سألوا﴾ معطوفة على جملة محذوفة والتقدير : لا تبتئس يا محمد من أقوال هؤلاء اليهود، ولا تهتم بأسئلتهم، فتلك شنشنة قديمة معروفة عن آبائهم، فقد سأل آباؤهم موسى أسئلة أكبر من ذلك فقالوا له : أرنا الله جهرة أى رؤية ظاهرة بحيث نعاينه ونشاهده بأبصارنا ويطلب إلينا الإيمان بك. ويصح أن تكون الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر، وإليه أشار صاحب الكشاف بقوله : ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾، جواب لشرط مقدر معناه (إن استكبرت ما سألوك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم. ومضاهين لهم فى التعنت(٢).

أى : أن حاضر هؤلاء اليهود الذين يعيشون معك يا محمد كماضى آبائهم الأقدمين،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٧.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٨٥.

وأخلاق الأبناء صورة من أخلاق الآباء، وجميعهم لا يبغون من سؤالهم الاهتداء إلى الحق وإنما يبغون إعنات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والإساءة إليهم.

والفاء فى قوله: ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ تفسيرية كما فى قولهم: توضأ فغسل وجهه.

وقوله: ﴿جهرة﴾ من الجهر الذى هو ضد الإخفاء. يقال جهر البئر - كمنع - واجتهرها، إذا أظهر ماءها. وجهر الشيء: كشفه، وجهر الرجل: رآه بلا حجاب.

أى: أرنا الله جهارا عيانا بحاسة البصر فيكون قوله ﴿جهرة﴾ مفعولا مطلقا، لأن لفظ ﴿جهرة﴾ نوع من مطلق الرؤية فيلاقى عامله فى الفعل.

ويصح أن يكون حالا من المفعول الأول أى: أرنا الله مجاهرين معاينين وقوله: «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم» بيان للعقوبة التى حلت بهم نتيجة سوء أدبهم وجرأتهم على خالقهم وعلى أنبيائهم.

والصاعقة - كما يقول ابن جرير -: كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفة[1].

وقال الراغب: الصاعقة على ثلاثة أوجه: الموت كقوله: ﴿فصعق من فى السموات ومن فى الأرض﴾. والعذاب كقوله: ﴿أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾، والنار كقوله: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ وما ذكره - سبحانه إنما هى أشياء حاصلة من الصاعقة؛ فإن الصاعقة هى الصوت الشديد فى الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهى فى ذاتها شيء واحد. وهذه الأشياء تأثيرات منها[2].

ويبدو أن المراد بالصاعقة هنا: ذلك الصوت الشديد المجلجل المزلزل المصحوب بنار هائلة، والذى كان من آثاره أن صعقوا: أى خروا مغشيا عليهم أو هلكوا، بسبب ظلمهم وعنادهم وفسوقهم عن أمر الله.

وقوله: ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانًا مبينًا﴾ بيان لنوع ثالث من جرائمهم، ولمظهر من مظاهر رحمة الله بهم.

أى: أن هؤلاء الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة، أخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٩٠

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٨١ للراغب الاصفهانى.

ظلمهم، لم يرتدعوا ولم يتزجروا، بل لجوا فى طغيانهم وضلالهم فاتخذوا العجل معبودا لهم من دون الله ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أى من بعد ما جاءتهم الدلائل القاطعة على وحدانية الله وصدق أنبيائه.

وقوله: ﴿فعفونا عن ذلك﴾ أى. عفونا عن اتخاذهم العجل إلها بعد أن تابوا وأقلعوا عن عبادته، لأن التوبة تجب ما قبلها.

وقوله. ﴿وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾ أى. أعطينا موسى بفضلنا ومنتنا حججا بينات ومعجزات باهرات، وقوه وقدرة على الانتصار على من خالفه و (ثم) فى قوله. ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ للتراخى الرتبى؛ لأن اتخاذهم العجل إلها أعظم جرما مما حكاه الله عنهم من جرائم قبل ذلك.

وقوله ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ بيان لفرط ضلالهم وانطماس بصيرتهم، لأنهم لم يعبدوا العجل عن جهالة، وإنما عبدوه من بعد ما وصلت إلى أسماعهم وعقولهم الدلائل الواضحة وعلى وحدانية الله، وعلى أن عبادة العجل لا يقدم عليها إنسان فيه شيء من التعقل وحسن الإدراك.

واسم الإشارة فى قوله ﴿فعفونا عن ذلك﴾ يعود إلى اتخاذ العجل معبودا من دون الله.

والجملة الكريمة حض لليهود المعاصرين للعهد النبوى على الدخول فى الإسلام فإنهم متى فعلوا ذلك غفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم كما غفر لآبائهم بعد أن تابوا من عبادة العجل.

هذا، وما حكته هذه الآية الكريمة من جرائم بنى إسرائيل بصورة مجملة قد جاء مفصلا فى مواطن أخرى ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم. وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[1].

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من عنادهم وجحودهم فقال: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾.

قال ابن كثير: وذلك أنهم حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاء به موسى - عليه السلام - رفع الله على رءوسهم جبلا. ثم ألزموا فالتزموا، وسجدوا،

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٥٤، ٥٦ وراجع تفسيرها فى كتابنا (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة) جـ ١ ص ٤٦٢.

وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم. كما قال - تعالى - : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾.. الآية[١].

وقوله - تعالى - : ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا﴾ أى : وقلنا لهم على لسان أنبيائهم ادخلوا باب القرية التى أمرناكم بدخولها ساجدين لله، أى : ادخلوها متواضعين خاضعين لله، شاكرين له فضله وكرمه، ولكنهم خالفوا ما أمرهم الله مخالفة تامة.

والمراد بالقرية التى أمرهم الله بدخول بابها ساجدين : قيل : هى بيت المقدس وقيل : إيلياء، وقيل : أريحاء. وقد أبهمها الله - تعالى - لأنه لا يتعلق بذكرها مقصد أو غرض. ولم يرد فى السنة الصحيحة بيان لها.

وقد تحدث القرآن عن قصة أمرهم بدخول هذه القرية ساجدين بصورة أكثر تفصيلا فى سورتى البقرة والأعراف، فقال - تعالى - فى سورة البقرة :

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدًا، وأدخلوا الباب سجدًا، وقولوا حطه، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ٥٨ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم. فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ ٥٩.

وقوله : ﴿وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت﴾ أى : وقلنا لهم كذلك لا تتجاوزوا الحدود التى أمركم الله بالتزامها فى يوم السبت والتى منها : ألا تصطادوا فى هذا اليوم، ولكنهم خالفوا أمر الله، وتحايلوا على استحلال محارمه.

وقصة اعتداء اليهود على محارم الله فى يوم السبت قد جاء ذكرها فى كثير من آيات القرآن الكريم. ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ٦٥ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ ٦٦.

وقال - تعالى - فى سورة الأعراف : ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر، إذ يعدون فى السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم : كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾. الآية ١٦٣.

وقوله ﴿وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ أى : وأخذنا منهم عهدا مؤكدا كل التأكيد، وموثقًا كل التوثيق، بأن يعملوا بما أمرهم الله به، ويتركوا ما نهاهم عنه. ولكنهم نقضوا عهودهم، وكفروا بآيات الله، ونبذوها وراء ظهورهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٧٣.

وأضاف - سبحانه - الأخذ إلى ذاته الكريمة تقوية لأمر هذا الميثاق، وتنويها بشأنه، وإشعارًا بوجوب الوفاء به؛ لأن ما أخذه الله على عباده من مواثيق من واجبهم أن يفوا بها إذ هو - سبحانه - وحده سيجازيهم على نكثهم ونقضهم لعهودهم.

ووصف - سبحانه - الميثاق الذى أخذه عليهم بالغلظ أى: بالشدة والقوة؛ لأنه كان قويا فى معناه وفى موضوعه وفى كل ما اشتمل عليه من أوامر ونواه وأحكام، ولأن نفوسهم كانت منغمسة فى الجحود والعناد فكان من المناسب لها تأكيد العهد وتوثيقه لعلها ترعوى عن ضلالها وفسوقها عن أمر الله.

ثم عدد - سبحانه - ألوانا أخرى من جرائمهم التى عاقبهمْ عليها عقابا شديدا فقال - تعالى - : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق. وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾.

والفاء فى قوله ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ للتفريع على ما تقدم من قوله ﴿وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ والباء للسببية، وما هنا مزيدة لتأكيد نقضهم للميثاق. والجر والمجرور متعلق بمحذوف لتذهب نفس السامع فى تقديره كل مذهب فى التهويل والتشنيع على هؤلاء الناقضين لعهودهم مع الله - تعالى - فيكون المعنى:

فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم وبسبب كفرهم بآياتنا، وبسبب قتلهم لأنبيائنا، وبسبب أقوالهم الكاذبة. بسبب كل ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من أنواع العقوبات الشديدة، وأنزلنا بهم ما أنزلنا من ذل ومهانة وصغار ومسخ.... الخ.

ويرى بعضهم أن الجار والمجرور متعلق بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾...

أى: فبسبب نقضهم للميثاق. وكفرهم بآيات الله حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم.

قال الفخر الرازى: واعلم أن القول الأول أولى ويدل عليه وجهان:

أحدهما: أن الكلام طويل جدًا من قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ إلى قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾.

الثانى: أن تلك الجنايات المذكورة بعد قوله - تعالى - ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ عظيمة جدا. لأن كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، وإنكارهم للتكليف بقولهم: قلوبنا غلف، أعظم الذنوب، وذكر الذنوب العظيمة، إنما يليق أن يفرع عليه العقوبة العظيمة، وتحريم

بعض المأكولات عقوبة خفيفة فلا يحسن تعليقه بتلك الجنايات الكبيرة»[١].

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد لعن بنى إسرائيل كما جاء فى قوله - تعالى - ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾ ومسخهم قردة وخنازير كما جاء فى قوله - تعالى - ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ وكما فى قوله - تعالى - ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾.

وتلك العقوبات كلها إنما كانت بسبب الجنايات والمنكرات التى سجلتها عليهم الآيات القرآنية؛ والتى من أجمعها هذه الآيات التى معنا.

فالآيات التى معنا تسجل عليهم نقضهم للمواثيق، ثم تسجل عليهم - ثانيا - كفرهم بآيات الله.

وقد عطف - سبحانه - كفرهم بآياته على نقضهم للميثاق الذى أخذه عليهم مع أن ذلك الكفر من ثمرات النقض، للاشعار بأن النقض فى ذاته إثم عظيم والكفر فى ذاته إثم عظيم - أيضا - من غير التفات إلى أن له سببًا أو ليس له سبب.

وسجل عليهم - ثالثا - قتلهم الأنبياء بغير حق. فقد قتلوا زكريا ويحيى وغيرهما من رسل الله - تعالى -

ولا شك أن قتل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يدل على شناعة جريمة من قتلهم وعلى توغله فى الجحود والعناد والفجور إلى درجة تعجز العبارات عن وصفها، لأنه بقتله للدعاة إلى الحق، لا يريد للحق أن يظهر ولا للفضيلة أن تنتشر، ولا للخير أن يسود، وإنما يريد أن تكون الأباطيل والرذائل والشرور هى السائدة فى الأرض.

وقوله: ﴿بغير حق﴾ ليس قيدا؛ لأن قتل النبيين لا يكون بحق أبدًا، وإنما المراد من قوله: ﴿بغير حق﴾ بيان أن هؤلاء القاتلين قد بلغوا النهاية فى الظلم والفجور والتعدى. لأنهم قد قتلوا أنبياء الله بدون أى مسوغ يسوغ ذلك، وبدون أية شبهة تحملهم على ارتكاب ما ارتكبوا، وإنما فعلوا ما فعلوا لمجرد إرضاء أحقادهم وشهواتهم وأهوائهم...

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله، فإن قلت: وقتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت. معناه أنهم قتلوهم بغير حق عندهم - ولا عند غيرهم -، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا. وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم. فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل[٢].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٩٧

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٤١٦

ثم سجل عليهم - رابعا - قولهم ﴿قلوبنا غلف﴾.

وقوله: ﴿غلف﴾ جمع أغلف - كحمر جمع أحمر - والشيء الأغلف هو الذى جعل عليه شيء يمنع وصول شيء آخر إليه.

والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين قد قالوا عندما دعاهم الرسول ﷺ إلى الحق إن قلوبنا قد خلقها الله مغطاة بأغطية غليظة، وهذه الأغطية جعلتنا لانعى شيئا مما تقوله يا محمد، ولا نفقه شيئا مما تدعونا إليه، فهم بهذا الكلام الذى حكاه القرآن عنهم، يريدون أن يتنصلوا من مسئوليتهم عن كفرهم، لأنهم يزعمون أن قلوبهم قد خلقها الله بهذه الطريقة التى حالت بينهم وبين فهم ما يراد منهم.

وقريب من هذا قوله - تعالى - حكاية عن المشركين: ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾[1].

وقيل: إن قوله: وغلف: جمع غلاف - ككتب وكتاب - وعليه يكون المعنى: أنهم قالوا إن قلوبنا غلف أى أوعية للعلم شأنها فى ذلك شأن الكتب، فلا حاجة بنا يا محمد إلى ما تدعونا إليه، لأننا عندنا ما يكفينا.

والذى يبدو لنا أن التأويل الأول أولى، لأنه أقرب إلى سياق الآية، فقد رد الله عليهم بقوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾. والطبع معناه. إحكام الغلق على الشيء وختمه بحيث لا ينفذ إليه شيء آخر.

والمعنى: أن هؤلاء القائلين إن قلوبهم غلف كاذبون فيما يقولون، وتخليهم عن مسئولية الكفر ليس صحيحا. لأن كفرهم ليس سببه أن قلوبهم قد خلقت مغطاة بأغطية تحجب عنها إدراك الحق - كما يزعمون - بل الحق أن الله - تعالى - ختم عليها، وطمس معالم الحق فيها، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة. فهو - سبحانه - قد خلق القلوب على الفطرة، بحيث تتمكن من اختيار الخير والشر، إلا أن هؤلاء اليهود قد أعرضوا عن الخير إلى الشر، واختاروا الكفر على الإيمان نتيجة انقيادهم لأهوائهم وشهواتهم. فالله - تعالى - طبع على قلوبهم بسبب إيثارهم سبيل الغى على سبيل الرشد، فصاروا لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا لا قيمة له عند الله -تعالى-.

فقوله ﴿إلا قليلا﴾ نعت لمصدر محذوف أى إلا إيمانا قليلا. كإيمانهم بنبوة موسى - عليه السلام - وإنما كان إيمانهم هذا لا قيمة له عند الله، لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر

(١) سورة فصلت. الآية ٥

بعضهم، يعتبره الإسلام كفرا بالكل كما سبق أن بينا فى قوله - تعالى - ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا﴾.

ومنهم من جعل قوله ﴿إلا قليلا﴾ صفة لزمان محذوف أى: فلا يؤمنون إلا زمانا قليلا. ومنهم من جعل الاستثناء فى قوله ﴿إلا قليلا﴾ من جماعة اليهود المدلول عليهم بالواو فى قوله ﴿فلا يؤمنون﴾ أى: فلا يؤمنون إلا عددا قليلا منهم كعبد الله بن سلام وأشباهه. والجملة الكريمة وهى قوله: ﴿طبع الله عليها بكفرهم﴾ معترضة بين الجمل المتعاطفة. وقد جىء بها للمسارعة إلى رد مزاعمهم الفاسدة، وأقاربهم الباطلة.

ثم سجل عليهم - خامسا وسادسا - جريمتين شنيعتين فقال: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾.

والمراد بالكفر هنا: كفرهم بعيسى - عليه السلام - وهو غير الكفر المذكور قبل ذلك فى قوله: ﴿طبع الله عليها بكفرهم﴾ لأن المراد به هنا مطلق الجحود الذى لا يجعل الشخص يستقر على شىء، فهو إنكار مطلق للحق.

وقد أشار إلى هذا المعنى الآلوسى بقوله: وقوله: ﴿وبكفرهم﴾ عطف على ﴿بكفرهم﴾ الذى قبله - وهو قوله - تعالى - ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ - ولا يتوهم أنه من عطف الشىء على نفسه ولا فائدة فيه؛ لأن المراد بالكفر المعطوف: الكفر بعيسى. والمراد بالكفر المعطوف عليه: إما الكفر المطلق. أو الكفر بمحمد - ﷺ -؛ لاقترانه بقوله - تعالى - ﴿قلوبنا غلف﴾. وقد حكى الله عنهم هذه المقالة فى مواجهتهم له - عليه الصلاة والسلام - فى مواضع. ففى العطف إيذان بصلاحية كل من الكفرين للسببية ويجوز أن يكون قوله: ﴿وبكفرهم﴾ معطوف على قوله ﴿فبما نقضهم﴾[1].

والبهتان: هو الكذب الشديد الذى لا تقبله العقول، بل يحيرها ويدهشها لغرابته وبعده عن الحقيقة. يقال: بهت فلان فلانا، إذا قال فيه قولا يدهشه ويحيره لغرابته وشناعته فى الكذب والافتراء.

والمعنى: إن من أسباب لعن اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم، كفرهم بعيسى - عليه السلام -، وهو الرسول المبعوث إليهم ليهديهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. وافتراؤهم الكذب على مريم أم عيسى، ورميهم لها بما هى بريئة منه، وغافلة عنه، فقد اتهموها بالفاحشة

---

(١) تفسير الالوسى جـ ٦ ص ٩

لولادتها لعيسى من غير أب. وقد برأها الله - تعالى - مما نسبوه إليها. فى قوله - تعالى - ﴿ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا، وصدقت بكلمات وبها وكتبه وكانت من القانتين﴾(١).

وقوله: ﴿بهتانا﴾ منصوب على أنه مفعول به لقوله - تعالى - ﴿وقولهم﴾، فإنه متضمن معنى كلام نحو: قلت خطبة وشعرا. ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف، أى: وبكفرهم وقولهم على مريم قولا بهتانا. أو هو مصدر فى موضع الحال أى: مباهتين. ووصفه بالعظم لشناعته وبلوغه النهاية فى الكذب والافتراء.

ثم سجل عليهم بعد ذلك رذيلة سابعة ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويفضحهم على رءوس الأشهاد فى كل زمان ومكان فقال: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ والمسيح: لقب تشريف وتكريم لعيسى - عليه السلام - قيل: لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم. وقيل: لأنه مسح بالبركة كما فى قوله - تعالى -: ﴿وجعلنى مباركا أينما كنت﴾ وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب.

أى: وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، لعنهم الله وغضب عليهم، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضا - بسبب جرائمهم السابقة.

وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم - فى زعمهم - نبيا من أنبياء الله، ورسولا من أولى العزم من الرسل. وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلا، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة، فدسوا عليه عند الرومان، ووصفوه بالدجل والشعوذة، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه، بل زعموا أنهم أسلموه فعلا لهم، ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم، وأبطل مكرهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، حيث نجى عيسى - عليه السلام - من شرورهم، ورفعه إليه دون أن يمسه سوء منهم.

ولا شك أن ما صدر عن اليهود فى حق عيسى - عليه السلام - من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه، لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم؛ لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب جريمة من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد.

---

(١) سورة التحريم الآية ١٢

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى -عليه السلام- كما بينا -، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم. ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره، وفى نيته، وفى شروعه الأثيم، لارتكاب ما نهى الله عنه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى - عليه السلام - أعداء له، عامدين لقتله، يسمونه الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فكيف قالوا: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾؟

قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون ﴿إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾. ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم، رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به، وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله: ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم. الذى جعل لكم الأرض مهدا﴾[1].

وقوله - تعالى - ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ رد على مزاعمهم الكاذبة، وأقاويلهم الباطلة التى تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى - عليه السلام -. أى: إن ما قاله اليهود متفاخرين به، وهو زعمهم أنه قتلوا عيسى - عليه السلام -، هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم؛ فإنهم ما قتلوه، وما صلبوه ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه عيسى - عليه السلام - فى الخلقة فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا. إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله.

قال الفخر الرازى: قوله: ﴿شبه﴾ مسندا إلى ماذا؟ إن جعلته مسندًا إلى المسيح فهو مشبه به وليس بمشبه. وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر؟ والجواب من وجهين:

الأول: أنه مسند إلى الجار والمجرور. وهو كقولك: خيل إليه. كأنه قيل: ولكن وقع لهم الشبه. الثانى: أن يسند إلى ضمير المقتول، لأن قوله: ﴿وما قتلوه﴾ يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار ذلك الغير مذكورا بهذا الطريق فحسن إسناد ﴿شبه﴾ إليه[2].

وقال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف قوله: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال: ﴿ولكن شبه لهم﴾. أى: شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونه المسيح وما هو فى الواقع، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء، ونجاه من شر الأعداء.

---

(١) وتفسير الكشاف جـ١ ص ٥٨٧

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٩٩

وقيل المعنى : ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهمهم بذلك أحبارهم[١].

هذا، وللمفسرين فى بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان :

الأول : أن الله – تعالى – ألقى شبه عيسى – عليه السلام – على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو (يهوذا الإسخربوطى) الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح ، والذى أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم : من أقبله أمامكم يكون هو المسيح ، فاقبضوا عليه لتقتلوه، فدخل بيت عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى.

وهذا الوجه قد جاء مفصلا فى بعض الأناجيل وأشار إليه الآلوسى بقوله : كان رجل من الحواريين ينافس عيسى – عليه السلام – فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما، فدخل بيت عيسى – عليه السلام – فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى[٢].

الثانى : أن الله –تعالى– ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حينما أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه، فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا. فألقى الله صورة عيسى عليه، فقتل ذلك الرجل وصلب.

وقد أطال الإمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه، ومنها قوله : عن ابن عباس قال : لما أراد الله – تعالى – أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فقال لهم إن منكم من يكفر بعدى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى.

قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى، ويكون معى فى درجتى؟

فقام شاب من أحدثهم سنا. فقال له : اجلس. ثم أعاد عليهم. فقام ذلك الشاب. فقال له : اجلس. ثم أعاد عليهم. فقام ذلك الشاب. فقال : أنا. فقال له عيسى، هو أنت ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء. قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن. قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية، وقال

(١) تفسير صفوة البيان ص ١٧٨ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٠.

غير واحد من السلف : أنه قال لهم. أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة. . . ؟[١].

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليه، ونجاه من مكر أعدائه، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه.

ثم قال -تعالى- : ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن﴾. أى : وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك دائم من حقيقة أمره. أى : فى حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه، أو فى شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة. ولا يقوم عليه برهان.

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيرًا. فمنهم من زعم أنه ابن الله. وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى. وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى. ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى.

ومنهم من قال : إن مريم ولدت العنصرين معا.

ولقد اختلفوا فى أمر قتله. فقال بعض اليهود : إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقيا، وتردد آخرون فقالوا : إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا. وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

وقال آخرون : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا.

إلى غير ذلك من خلافاتهم التى لا تنتهى حول حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه[٢].

فالمراد بالموصول فى قوله : ﴿وإن الذين اختلفوا﴾ ما يعم اليهود والنصارى جميعا. والضمير فى قوله (فيه) يعود إلى عيسى - عليه السلام -.

وقوله ﴿منه﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة الشك.

قال الآلوسى : وأصل الشك أن يستعمل فى تساوى الطرفين، وقد يستعمل فى لازم معناه وهو التردد مطلقا، وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو المراد هنا. ولذا أكده بنفى العلم الشامل لذلك أيضا بقوله - سبحانه - : ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص

(٢) إذا أردت المزيد من معرفة هذه المسألة فراجع تفسير القاسمى جـ٥ ص ١٦٢٩ إلى ص ١٧١٦. وتفسير المنار جـ٦ من ص ٢٣ إلى ٥٩

(٣) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١١

وقوله ﴿إلا أتباع الظن﴾ الراجح أن الاستثناء فيه منقطع، أى ماهم به من علم لكنهم يتبعون الظن.

وقيل: هو متصل، لأن العلم والظن يجمعهما مطلق الإدراك.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين. ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط، ولكن إن لاحت لهم أمارة ظنوا.

ولم يرتض هذا الجواب صاحب الانتصاف فقال: وليس فى هذا الجواب شفاء الغليل. والظاهر - والله أعلم - أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك فى أمره والتردد، فجاءت العبارة الأولى على ما يغلب من حالهم، ثم كانوا لا يخلون من ظن فى بعض الأحوال وعنده يقفون لا يرتفعون إلى العلم فيه البتة. وكيف يعلم الشيء على خلاف ما هو به؟ فجاءت العبارة الثانية على حالهم النادرة فى الظن نافية عنهم ما يترقى عن الظن[1].

وقوله: ﴿وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما﴾ تأكيد لنجاة عيسى مما يزعمونه من قتلهم له، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف.

واليقين: هو العلم الجازم الذى لا يحتمل الشك والضمير فى قوله ﴿وما قتلوه﴾ لعيسى.

وقوله ﴿يقينا﴾ ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشهرها: أنه نعت لمصدر محذوف مأخوذ من لفظ قتلوه: أى: ما قتلوه قتلا يقينا، أى متيقنين معه من أن المقتول عيسى عليه السلام - وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم.

أو هو حال مؤكدة لنفى القتل. أى انتفى قتلهم إياه إنتفاء يقينا. فاليقين منصب على النفى. أى: أن: نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به، وليس ظنا كظنكم أو وهما كوَهمكم يا معشر أهل الكتاب.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك بقوله: قوله: ﴿وما قتلوه يقينا﴾ أى: وما قتلوه قتلا يقينا. أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم ﴿إنا قتلنا المسيح﴾ أو يجعل ﴿يقينا﴾ تأكيدا لقوله: ﴿وما قتلوه﴾ كقولك: ما قتلوه حقا. أى حق انتفاء قتله حقا.

والمعنى: أن اليهود قد زعموا أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - وزعمهم هذا أبعد ما يكون عن الحق والصواب، لأن الحق المتيقن فى هذه المسألة أنهم لم يقتلوه، فقد نجاه الله من مكرهم،

(١) تفسير الكشاف وحاشيته جـ١ ص٨٥٧.

ورفع عيسى إليه، وكان الله ﴿عزيزا﴾. أى منيع الجناب، لا يلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه. ﴿حكيما﴾ فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور.

هذا، وجمهور العلماء على أن الله - تعالى - رفع عيسى إليه بجسده وروحه لا بروحه فقط

قال بعض العلماء: والجمهور على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء. والخصوصية له - عليه السلام - هى فى رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمر المقدر له[1].

وفى بعضهم الرفع فى قوله - تعالى - ﴿بل رفعه الله إليه﴾ بأنه رفع بالروح فقط.

وقد بسطنا القول فى هذه المسألة عند تفسيرنا لسورة آل عمران فى قوله تعالى - : ﴿إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى﴾[2].

و ﴿إن﴾ هنا نافية بمعنى ما النافية، والمخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه. أى: وما أحد من أهل الكتاب. وحذف أحد لأنه ملحوظ فى كل نفى يدخله الاستثناء. نحو: ما قام إلا زيد. أى ما قام أحد إلا زيد.

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان:

الأول: أن الضمير فى قوله ﴿قبل موته﴾ يعود إلى عيسى - عليه السلام - وعليه يكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى - عند نزوله فى آخر الزمان - حق الإيمان، ﴿قبل موته﴾ أى: قبل موت عيسى، ﴿ويوم القيامة يكون﴾ عيسى - عليه السلام - ﴿عليهم﴾ أى: على أهل الكتاب ﴿شهيدا﴾ فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى.

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير. فقد قال - بعد سرد الأقوال فى الآية - : وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال. تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى[3].

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقوله: ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح. لأن المقصود من سياق الآيات، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وبطلان تسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك. فقد أخبر الله - تعالى أن الأمر لم يكن

(١) تفسير صفوة البيان ص ١٠٩ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف

(٢) راجع تفسير الآية الكريمة فى سورة آل عمران.

(٣) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٢٣

كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك. ثم إن الله - تعالى - رفع إليه عيسى، وإنه باق حى، وإنه سينزل قبل يوم القيامة.

ثم عقد ابن كثير فصلا عنونه بقوله: ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم ساق ابن كثير جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها».

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾[1].

أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن الضمير فى قوله ﴿قبل موته﴾ يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾. وعليه يكون المعنى:

وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى له الحق، ويتبين له صحة ما كان ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى - عليه السلام - ويشهد بأنه عبد الله ورسوله، وأن الله واحد لا شريك له، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنه جاء فى وقت الغرغرة، وهو وقت لا ينفع فيه الإيمان، لانقطاع التكليف فيه.

قالوا: ويؤيد هذا التأويل قراءة أبى: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موتهم﴾ - بضم النون وبميم الجمع -.

وقد صدر صاحب الكشاف كلامه بذكر هذا التأويل فقال ما ملخصه: والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى. وبأنه عبد الله ورسوله. يعنى: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه.

فإن قلت: ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت فائدته الوعيد، وليكون علمهم بأنهم لابد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثا لهم وتنبيها على معالجة الإيمان به فى وقت الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجة لهم.

وقيل: الضميران لعيسى بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله[2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٧٧ - بتصرف يسير -.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٨٩

والذى نراه أولى أنه لا تعارض بين التأويلين. فإن كلا منهما حق فى ذاته.

فكل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقا فى نبوته، وأنه عبد الله، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده. وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه.

ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من جرائم اليهود، وحكى بعض العقوبات التى حلت بهم بسبب ظلمهم وبغيهم فقال - تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا عظيما﴾.

والفاء فى قوله ﴿فبظلم﴾ للتفريع على جرائمهم السابقة، والباء للسببية، والتنكير للتهويل والتعظيم. والجار والمجرور متعلق بحرمنا. وقدم الجار والمجرور على عامله للتنبيه على قبح سبب التحريم.

والمعنى فبسبب ظلم عظيم شنيع وقع من أولئك اليهود حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، ولو أنهم لم يقعوا فى هذا الظلم الشديد لما حرم الله عليهم هذه الطيبات التى هم فى حاجة إليها.

والآية الكريمة تعليل لبعض العقوبات التى نزلت بهم بسبب ظلمهم وبغيهم، ومن ضروب هذا الظلم والبغى ما سجله الله عليهم قبل ذلك من نقض للمواثيق، ومن كفر بآيات الله.

وما سجله عليهم - أيضا - بعد ذلك من صد عن سبيل الله، ومن أخذ للربا وقد نهاهم الله عن أخذه.

وهذه الطيبات التى حرمها الله عليهم منها ما حكاه - سبحانه - فى سورة الأنعام بقوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾.

والتعبير عنهم بقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ إيذان بشناعة ظلمهم، حيث إنهم وقعوا فى هذا الظلم الشديد بعد توبتهم ورجوعهم عن عبادة العجل. وقولهم: ﴿إنا هدنا إليك﴾ أى: تبنا ورجعنا إليك يا ربنا.

وقوله ﴿أحلت لهم﴾ هذه الجملة صفة للطيبات فهى فى محل نصب.

والمراد من وصفها بذلك. بيان أنها كانت حلالا لهم قبل أن يرتكبوا ما ارتكبوا من موبقات. أى: حرمنا عليهم طيبات كانت حلالا لهم، ثم حرمت عليهم بسبب بغيهم وظلمهم.

قال ابن كثير: يخبر - سبحانه - أنه بسبب ظلم اليهود، وبسبب ما ارتكبوه من ذنوب، حرمت عليهم طيبات كان قد أحلها لهم. وقرأ ابن عباس: طيبات كانت أحلت لهم. وهذا التحريم قد يكون قدريا. بمعنى أن الله قيضهم لأن يتأولوا فى كتابهم، وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالا لهم فحرموها على أنفسهم تضييقا، تنطعا. ويحتمل أن يكون شرعيا. بمعنى أنه -تعالى- حرم عليهم فى التوراة أشياء كانت حلالا لهم قبل ذلك. كما قال -تعالى- ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾[1].

وقوله: ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾ معطوف هو وما بعده من أخذهم الربا وغيره على الظلم الذى تعاطوه. من عطف الخاص على العام، لأن هذه الجرائم تفسير وتفصيل لظلمهم.

والصد والصدود: المنع. أى: وبسبب صدهم أنفسهم عن طريق الحق التى شرعها الله لعباده وصدهم غيرهم عنها صدا كثيرا، بسبب ذلك عاقبناهم وطردناهم من رحمتنا.

وقوله ﴿كثيرا﴾ صفة لمفعول محذوف منصوب بالمصدر وهو ﴿بصدهم﴾ أى: وبصدهم عن سبيل الله جمعا كثيرا من الناس. أو صفة لمصدر محذوف، أى: وبصدهم عن سبيل الله صدا كثيرا. وقوله: ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ بيان للون آخر من رذائلهم وقبائحهم. أى: ومن أسباب تحريم بعض الطيبات عليهم ولعنهم، أخذهم الربا مع نهيهم عنه على ألسنة رسلنا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، أى. على طريق الرشوة، والخيانة، والسرقة وغير ذلك من سائر الوجوه المحرمة.

وما حملهم على هذا الولوغ فى المحرمات بشراهة وعدم مبالاة إلا أنانيتهم وبيعهم الدين بالدنيا. وقوله. ﴿وقد نهوا عنه﴾ جملة حالية فى محل نصب.

قال الالوسى. وفى الآية دلالة على أن الربا كان محرما عليهم كما هو محرم علينا لأى النهى يدل على حرمة المنهى عنه، وإلا لما توعد - سبحانه - على مخالفته.

تلك هى بعض العقوبات التى عاقبهم الله بها فى الدنيا. أما عقوبة هؤلاء اليهود فى الآخرة فقد بينها - سبحانه - فى قوله. ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾.

أى. وهيأنا وأعددنا للكافرين من أولئك اليهود الذين فسدت نفوسهم عذابا موجعا أليما، جزاء ظلمهم وفسوقهم عن أمر الله.

وقوله ﴿للكافرين منهم﴾ احتراس قصد به إخراج من آمن منهم من هذا العذاب الأليم،

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٨٥

لأن العذاب إنما هو للكافرين منهم فحسب، أما من آمن منهم كعبدالله بن سلام وأشباهه فلهم أجرهم عند ربهم.

وقد أكد - سبحانه - هذا المعنى بعد ذلك، بأن أكرم من يستحق الإكرام منهم، وبشره بالأجر العظيم فقال، ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر. أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيما﴾.

وقوله ﴿الراسخون﴾ جمع راسخ. ورسوخ الشيء ثباته وتمكنه. يقال شجرة راسخة، أى ثابتة قوية لا تزحزحها الرياح ولا العواصف. والراسخ فى العلم هو المتحقق فيه، الذى لا تؤثر فيه الشبهات، المتقن لما يعلمه إتقانا يبعده عن الميل والانحراف عن الحق.

وقوله، ﴿لكن الراسخون فى العلم﴾ استدراك من قوله قبل ذلك ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾ وبيان لكون بعض أهل الكتاب على خلاف حال عامتهم فى العاجل والآجل.

والمعنى: إن حال اليهود على ما وصف لكم من سوء خلق فى الدنيا، ومن سوء عاقبة فى الآخرة، ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم﴾ أى الثابتون فيه، المتقنون المستبصرون الذين أدركوا حقائقه وصدقوها وأذعنوا لها، ورسخت فى نفوسهم رسوخا ليس معه شبهة تفسده، أو هوى يعبث به، أو ريب يزعزعه.

﴿والمؤمنون﴾ أى منهم. وقد وصفوا بالإيمان بعد وصفهم بما يوجبه وهو الرسوخ فى العلم بطريق العطف المبنى على المغايرة بين المتعاطفين تنزيلا للاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى.

وقوله ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾ خبر لقوله ﴿الراسخون﴾. أى هؤلاء الراسخون فى العلم من أهل الكتاب والمؤمنون منهم بالحق، يؤمنون بما أنزل إليك من قرآن، ويؤمنون بما ﴿أنزل من قبلك﴾ من كتب سماوية على أنبياء الله ورسله.

وقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ للعلماء فيه وجوه من الإعراب أشهرها أنه منصوب على المدح. أى: وأمدح المقيمين الصلاة.

قال صاحب الكشاف: وقوله ﴿والمقيمين الصلاة﴾ نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع. وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد. ولا يلتفت إلى مازعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف: وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، ومالهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان وغبى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة

ومثلهم فى الإنجيل، كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام، وذب المطاعن عنه، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم. وخرقا يرفوه من يلحق بهم وقيل: هو عطف على ﴿بما أنزل إليك﴾ أى: يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء. وفى مصحف عبد الله: ﴿والمقيمون﴾ بالواو. وهى قراءة مالك بن دينار، والجحدرى، وعيسى الثقفى[1].

وقوله: ﴿والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ معطوف على ﴿الراسخون﴾ أو على الضمير المرفوع فى ﴿يؤمنون﴾. أو على أنه مبتدأ والخبر ما بعده وهو قوله. ﴿أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيما﴾.

والمراد بالجميع مؤمنو أهل الكتاب الصادقون فى إيمانهم. فقد وصفهم - أولا - بالرسوخ فى العلم، ثم وصفهم - ثانيا - بالإيمان الكامل بما أوحاه الله على أنبيائه من كتب وهدايات، ثم مدحهم - ثالثا - بإقامة الصلاة إقامة مستوفية لكل أركانها وسننها وآدابها وخشوعها، ثم وصفهم - رابعًا - بإيتاء الزكاة لمستحقيها، ثم وصفهم - خامسا - بالإيمان بالله إيمانًا حقًا، وبالإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب.

وبعد هذا الوصف الكريم لهؤلاء المؤمنين الصادقين، بين - سبحانه - حسن عاقبتهم فقال: ﴿أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيما﴾.

أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة سنؤتيهم يوم القيامة أجرا عظيم لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب، لأنهم جمعوا بين الإيمان الصحيح وبين العمل الصالح.

هذا. والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة، يراها من أجمع الآيات التى تحدثت عن أحوال اليهود، وعن أخلاقهم السيئة، وعن فنون من رذائلهم وقبائحهم... فأنت تراها -أولا- تسجل عليهم أسئلتهم المتعنتة وسوء أدبهم مع الله، وعبادتهم للعجل من بعد أن قامت لديهم الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله وحده، وعصيانهم لأوامر الله ونواهيه، ونقضهم للعهود والمواثيق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، وبهتهم لمريم القانتة العابدة الطاهرة، وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله... إلى غير ذلك من الرذائل التى سجلها الله عليهم.

ثم تراها - ثانيا - تذكرهم وتذكر الناس جميعا ببعض مظاهر رحمة الله بهم، وعفوه عنهم، ونعمه عليهم، كما تذكرهم - أيضا - وتذكر الناس جميعا، ببعض العقوبات التى عاقبهم بها بسبب ظلمهم وبغيهم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٩٠

وكأن الآيات الكريمة تقول لهم وللناس إن نعم الله على عباده لا تحصى ورحمته بهم واسعة، فاشكروه على نعمه، وتوبوا إليه من ذنوبكم، فإن الإصرار على المعاصى يؤدى إلى سوء العاقبة فى الدنيا والآخرة.

ثم تراها - ثالثًا - تدافع عن عيسى وأمه مريم دفاعا عادلا مقنعًا وتبرئهما مما نسبه أهل الكتاب إليهما من زور وبهتان، وتصرح بأن أهل الكتاب لا حجة عندهم فيما تقولوه على عيسى وعلى أمه مريم، وأنهم فى أقوالهم ما يتبعون إلا الظن، ﴿وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا﴾ ثم تسوق الحقيقة التى لا باطل معها فى شأن عيسى، بأن تبين بأن الذين زعموا أنهم قتلوه كاذبون مفترون فإنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وسيؤمنون به عند نزوله فى آخر الزمان، أو عندما يكونون فى اللحظات الأخيرة من حياتهم، حين لا ينفع الإيمان.

ثم تراها - رابعًا - لا تعمم فى أحكامها، وإنما تحق الحق وتبطل الباطل فهى بعد أن تبين ما عليه اليهود من كفر وظلم وفسوق عن أمر الله، وتتوعدهم بالعذاب الشديد فى الآخرة. بعد كل ذلك تمدح الراسخين فى العلم منهم مدحا عظيما، وتكرم المؤمنين الصادقين منهم تكريما عظيما، وتبشرهم بالأجر الجزيل الذى يشرح صدورهم، ويطمئن قلوبهم. ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾.

هذا جانب مما اشتملت عليه هذه الآيات من عبر وعظات «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

***

وبعد هذا الحديث المستفيض عن شبهات اليهود وسوء طباعهم. ساق - سبحانه - ما يشهد بصدق النبى ﷺ فى دعوته، وأنه ليس بدعا من الرسل، بل هو واحد منهم إلا أنه خاتمهم، وأرفعهم منزلة عند الله - تعالى - فقال - سبحانه - :

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ
وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ

مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما حكى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وذكر - سبحانه - بعد ذلك أنهم لا يسألون لأجل الاسترشاد، ولكن لأجل العناد واللجاج، وحكى أنواعا كثيرة من فضائحهم وقبائحم . . . شرع - سبحانه - بعد ذلك فى الجواب عن شبهاتهم فقال : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[1].

وقوله ﴿أوحينا﴾ من الإيحاء أو الوحى. والوحى فى الأصل : الإعلام فى خفاء عن طريق الإشارة، أو الإيماء، أو الإلهام، أو غير ذلك من المعانى التى تدل على أنه إعلام خاص، وليس إعلاما ظاهرًا.

والمراد به هنا إعلام الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ ما أراد إعلامه به من قرآن أو غيره.

والمعنى : إنا أوحينا إليك يامحمد بكلامنا وأوامرنا ونواهينا وهداياتنا. . كما أوحينا إلى نبينا نوح وإلى سائر الأنبياء الذين جاءوا من بعده. فأنت يا محمد لست بدعا من الرسل، وإنما أنت رسول من عند الله - تعالى - تلقيت رسالتك منه - سبحانه - كما تلقاها غيرك من الرسل.

وأكد - سبحانه - خبر إيحائه ﷺ ، للاهتمام بهذا الخبر، ولإبطال ما أنكره المنكرون لوحى الله - تعالى - على أنبيائه ورسله فقد حكى القرآن عن الجاحدين للحق أنهم قالوا : ﴿ما أنزل الله على بشر من شىء﴾.

وبدأ سبحانه؛ بنوح عليه السلام، لأنه الأب الثانى للبشرية بعد آدم عليه السلام، ولأن فى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٠٨

ذكره معنى التهديد لأولئك الجاحدين للرسالة السماوية، فقد أجاب الله تعالى، دعاءه فى الكافرين فأغرقهم أجمعين.

قال الجمل : وإنما بدأ الله - تعالى - بذكر نوح - عليه السلام - لأنه أول نبى بعث بشريعة، وأول نذير على الشرك. وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته. وكان أطول الأنبياء عمرا[1].

والتشبيه فى قوله : ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ تشبيه بجنس الوحى، وإن اختلفت أنواعه، واختلف الموحى به.

والكاف فى قوله ﴿كما﴾ نعت لمصدر محذوف، و ﴿ما﴾ مصدرية. أى : إنا أوحينا إليك إيحاءً مثل إيحائنا إلى نوح - عليه السلام -.

وقوله ﴿من بعده﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة للنبيين أى : والنبيين الكائنين من بعده أى : من بعد نوح.

وقوله : ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ معطوف على أوحينا إلى نوح، داخل معه فى حكم التشبيه.

أى : أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وكما أوحينا إلى إبراهيم بن آزر، وكما أوحينا إلى ابنه اسماعيل، وابنه إسحاق، وكما أوحينا إلى يعقوب بن إسحاق، وكما أوحينا إلى الأسباط وهم أولاد يعقوب.

قال الآلوسى : والأسباط هم أولاد يعقوب - عليه السلام - فى المشهور. وقال غير واحد : إن الأسباط فى ولد إسحاق كالقبائل فى أولاد إسماعيل وقد بعث منهم عدة رسل. فيجوز أن يكون - سبحانه - أراد بالوحى إليهم، الوحى إلى الأنبياء منهم. كما تقول : أرسلت إلى بنى تميم، وتريد أرسلت إلى وجوههم ولم يصح أن الأسباط الذين هم إخوة يوسف كانوا أنبياء، بل الذى صح عندى - وألف فيه الجلال السيوطى رسالة - خلافه »[2].

وكرر - سبحانه - كلمة ﴿وأوحينا﴾ للإشعار بوجود فترة زمنية طويلة بين نوح وبين إبراهيم - عليهما السلام -.

ثم ذكر - سبحانه - عددًا آخر من الأنبياء تشريفا وتكريما لهم فقال ﴿وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورًا﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٨٨

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٦ ص ١٦

أى : أوحينا إليك يامحمد كما أوحينا إلى هؤلاء الأنبياء السابقين، وكما أوحينا إلى عيسى ابن مريم الذى أنكر نبوته اليهود الذين يسألونك الأسئلة المتعنتة، وإلى أيوب الذى ضرب به المثل فى الصبر، وإلى يونس بن متى الذى لم ينس ذكر الله وهو فى بطن الحوت، وإلى هارون أخى موسى، وإلى سليمان بن داود الذى آتاه الله ملكا لم يؤته لأحد من بعده.

وقوله : ﴿وآتينا داود زبورًا﴾ معطوف على قوله : أوحينا، وداخل فى حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء.

وأوثر. قوله هنا : وآتينا على أوحينا؛ لتحقق المماثلة فى أمر خاص وهو إيتاء الكتاب بعد تحققها فى مطلق الإيحاء.

والزبور - بفتح الزاى - اسم الكتاب الذى أنزله الله على داود - عليه السلام - قالوا : ولم يكن فيه أحكام، بل كان كله مواعظ وحكم وتقديس وتحميد وثناء على الله - تعالى -.

ولفظ (زبور) هنا بمعنى مزبور أى مكتوب. فهو على وزن فعول ولكن بمعنى مفعول. وزبر معناه كتب. أى : وآتينا داود كتابا مكتوبا.

ثم أجمل - سبحانه - بيان الرسل الذين أرسلهم فقال : ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾.

وقوله ﴿ورسلا﴾ منصوب بفعل مقدر قبله. أى : وأرسلنا رسلا قد أخبرناك عنهم، وقصصنا عليك أنباءهم فيما نزل عليك من قرآن قبل نزول هذه الآيات عليك. وأرسلنا رسلا آخرين غيرهم لم نقصص عليك أخبارهم؛ لأن حكمتنا تقتضى ذلك، ولأن فيما قصصناه عليك من أخبار بعضهم عظات وعبرا لقوم يؤمنون.

هذا، وقد تكلم بعض العلماء عن عدد الأنبياء والرسل، واستندوا فى كلامهم على أخبار وأحاديث لم تسلم أسانيدها من الطعن فيها.

قال ابن كثير: وقد اختلف فى عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور فى ذلك حديث أبى ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مردويه فى تفسيره حيث قال : حدثنا إبراهيم بن محمد. عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله : كم عدد الأنبياء؟ قال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت يا رسول الله. كم الرسل منهم؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر..»[1].

وقوله : ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ تشريف لموسى - عليه السلام - بهذه الصفة ولهذا يقال

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٨٦

له : موسى الكليم. أى. وخاطب الله موسى مخاطبة من غير واسطة.

قال الجمل : والجملة إما معطوفة على قوله : ﴿إنا أوحينا إليك﴾ عطف القصة على القصة، وإما حال بتقدير قد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات.

وقوله ﴿تكليما﴾ مصدر مؤكد لعامله رافع لاحتمال المجاز.

قال الفراء : العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل. ما لم يؤكد بالمصدر. فإن أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام[1].

فدل قوله ﴿تكليما﴾ على أن موسى قد سمع كلام الله - تعالى - حقيقة من غير واسطة، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - سبحانه -.

وقد ساق بعض المفسرين نقولا حسنة فى مسألة كلام الله - تعالى - فارجع إليها إن شئت[2].

وقوله : ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

بيان لوظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وللحكمة من إرسالهم. وقوله : ﴿رسلا﴾ منصوب على المدح، أو بفعل مقدر قبله، أى : وأرسلنا رسلا. والمراد بالحجة هنا : المعذرة التى يعتذر بها الكافرون والعصاة.

أى : وكما أوحينا إليك يامحمد بما أوحينا من قرآن وهدايات. وأرسلناك للناس رسولا، فقد أرسلنا من قبلك رسلا كثيرين مبشرين من آمن وعمل صالحا يرضا الله عنه فى الدنيا والآخرة، ومنذرين من كفر وعصى بسوء العقبى، وقد أرسل - سبحانه - الرسل مبشرين ومنذرين لكى ﴿لا يكون للناس على الله حجة﴾ يوم القيامة، أى لكى لا تكون لهم معذرة يعتذرون بها كأن يقولوا. يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك، ويعلمنا أحكامك وأوامرك ونواهيك، فقد أرسلنا إليهم الرسل مبشرين ومنذرين لكى لا تكون لهم حجة يحتجون بها، كما قال - تعالى - ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[3].

قال الآلوسى : فالآية ظاهرة فى أنه لابد من الشرع وإرسال الرسل. وأن العقل لا يغنى عن ذلك. وزعم المعتزلة أن العقل كاف وأن مسألة الرسل إنما هو للتنبيه عن سنة الغفلة التى تعترى الإنسان من دون اختيار. فمعنى الآية عندهم : لئلا يبقى للناس على الله حجة.

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٤٤٩

(٢) تفسير القاسمى جـ٥ من ص١٧٢٣ إلى ص١٧٥٢

(٣) سورة طه الآية ١٣٤.

وتسمية ما يقال عند ترك الإرسال حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه - سبحانه - حجة مجاز. بتنزيل المعذرة فى القبول عنده - تعالى - بمقتضى كرمه ولطفه منزلة الحجة القاطعة التى لامرد لها[1]».

وقوله: ﴿حجة﴾ اسم يكون. وخبره قوله «للناس» وقوله: على الله حال من حجة. وقوله: ﴿بعد الرسل﴾ أى: بعد إرسال الرسل وتبليغ الشريعة على ألسنتهم وهو متعلق بالنفى أى: لتنتفى حجتهم واعتذارهم بعد إرسال الرسل.

قال ابن كثير: وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «لا أحد أغير من الله، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين وفي لفظ آخر: «ومن أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه»[2].

وقوله: ﴿وكان الله عزيزا حكيما﴾ تذييل قصد به بيان قدرته التى لا تغالب وحكمته التى لا يحيط أحد بكنهها. أى: وكان الله - تعالى - ومازال هو القادر الغالب على كل شيء، الحكيم فى جميع أفعاله وتصرفاته، وسيجازى الذين أساؤا بما عملوا، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

هذا وللمرحوم الأستاذ الإمام محمد عبده كلام نفيس فى كتابه (رسالة التوحيد) عن: حاجة البشر إلى إرسال الرسل، وعن وظيفتهم - عليهم الصلاة والسلام - ومما قاله فى ذلك: الرسل يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته. ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان. على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة.

الرسل يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم. وتنازعته مصالحهم ولذاتهم. فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع. ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة. ولا يفوت به المصالح الخاصة.

الرسل يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة. يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم. كاحترام الدماء البشرية إلا بحق. مع بيان الحق الذى تهدر له، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق. مع بيان الحق الذى يبيح تناوله. واحترام الأعراض. مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٨٨

(٢) تفسير الألوسى جـ٦ ص ١٨

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله - جل شأنه -.

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم. ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى، لمن وقف عند حدوده. وأخذ بأوامره.

وبهذا تطمئن النفوس، وتثلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر، انتظارا لجزيل الأجر. أو إرضاء لمن بيده الأمر. وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى، لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم[1].

وقوله - سبحانه - : ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا﴾ استدراك قصد به الرد على جحود أهل الكتاب للحق الذى جاء به النبى ﷺ فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم: «إنى والله أعلم أنكم لتعلمون أنى رسولالله. فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله قوله: ﴿لكن الله يشهد﴾. الآية[2].

والمقصود من الآية الكريمة تسلية النبى ﷺ عن تكذيب كثير من الناس له، وإدخال الطمأنينة على قلبه، فكأنه - سبحانه - يقول له:

لم يشهد أهل الكتاب بأنك رسول من عند الله وصادق فيما تبلغه عنه ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أى: لكن الله يشهد بأن الذى أنزله إليك من قرآن هو الحق الذى لا ريب فيه.

وقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ أى: أنزله بعلم تام، وحكمة بالغة، أو بما علمه من مصالح عباده فى إنزاله عليك.

وقوله: ﴿والملائكة يشهدون﴾ أى: والملائكة يشهدون بأنك صادق فى رسالتك، وبأن ما أنزله الله عليك هو الحق الذى لا تحوم حوله شبهة.

وقوله. ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ أى: وكفى بشهادة الله شهادة بأنك على الحق وإن لم يشهد غيره لك. فإنه لا عبرة لإنكار المنكرين لنبوتك، ولا قيمة لجحود الجاحدين لما نزل عليك بعد شهادة الله لك بأنك نبيه ورسوله، لتخرج الناس بإذنه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام.

وقد أجاد صاحب الكشاف فى توضيح تلك المعانى حيث قال: فإن قلت الاستدراك لابد له

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ص ١١٧ وما بعدها.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٣١

من مستدرك فما هو فى قوله : ﴿لكن الله يشهد﴾.

قلت : لما سأل أهل الكتاب إنزال كتاب من السماء، واحتج عليهم بقوله ﴿إنا أوحينا إليك﴾ قال : لكن الله يشهد. بمعنى : أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد...

ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه، إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات وشهادة الملائكة : شهادة بأنه حق وصدق.

فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿أنزله بعلمه﴾ قلت : معناه أنزله متلبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره. وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة، لأنه بيان للشهادة. وقيل : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنك مبلغه. ويحتمل : أنه أنزله وهو عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة، والملائكة يشهدون بذلك[1].

هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد أثبتت صدق النبى ﷺ فى رسالته بالأدلة الساطعة. والحجج الواضحة؛ وبينت وظيفة الرسل - عليهم السلام - وحكمة الله فى إرسالهم، وزادت للنبى ﷺ طمأنينة بأنه على الحق، لأن الله قد شهد له بذلك، وكفى بشهادة الله شهادة، مهما خالفها المخالفون، وأعرض عنها المعرضون.

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما عليه الكافرون من ضلال وخسران، وما سيصير إليه حالهم يوم القيامة من ذل ومهانة، ووجه إلى الناس جميعا نداء أمرهم فيه بالإيمان وترك الكفر والعصيان فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٩٢

ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

وقوله: ﴿وصدوا﴾ من الصد بمعنى المنع والانصراف عن الشيء.

قال الراغب: والصد قد يكون انصرافا عن الشيء وامتناعا نحو: «يصدون عنك صدودًا» وقد يكون صرفا ومنعا نحو: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾.

والمعنى: إن الذين كفروا بالحق الذى جاءهم به محمد ﷺ ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ أى: وأعرضوا عن الطريق الذى أمر الله بسلوكه وهو طريق الإسلام ولم يكتفوا بذلك بل منعوا غيرهم أيضا عن سلوكه.

إنهم بفعلهم هذا ﴿قد ضلوا ضلالا بعيدا﴾ أى: قد ضلوا - بسبب كفرهم وصدهم أنفسهم والناس عن الحق - ضلالا بلغ الغاية فى الشدة والشناعة.

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله: ﴿إن الذين كفروا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وظلموا﴾ أنفسهم بإيرادها موارد التهلكة، وظلموا غيرهم بأن حببوا إليه الفسوق والعصيان وكرهوا إليه الطاعة والإيمان.

إن هؤلاء الذين جمعوا بين الكفر والظلم ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا﴾.

أى: لم يكن الله ليغفر لهم، لأنه - سبحانه - لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولم يكن - سبحانه - ليهديهم طريقا من طرق الخير، لكنه - سبحانه - يهديهم إلى طريق تؤدى بهم إلى جهنم خالدين فيها أبدا، بسبب إيثارهم الغى على الرشد، والضلالة على الهداية، وبسبب فساد استعدادهم، وسوء اختيارهم.

والتعبير بالهداية فى جانب طريق النار من باب التهكم بهم.

وقوله ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب فى ﴿يهديهم﴾، لأن المراد بالهداية هدايتهم فى الدنيا إلى طريق جهنم. أى: ما يؤدى بهم إلى الدخول فيها.

وقوله ﴿أبدا﴾ منصوب على الظرفية، وهو مؤكد للخلود فى النار؛ رافع لاحتمال أن يراد بالخلود المكث الطويل.

أى: خالدين فيها خلودا أبديا بحيث لا يخرجون منها.

وقوله : ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ تذييل قصد به تحقير شأنهم، وبيان أنه - سبحانه - لا يعبأ بهم.

والمراد : وكان ذلك - أى : انتفاء غفران ذنوبهم، وانتفاء هدايتهم إلى طريق الخير، وقذفهم فى جهنم وبئس المهاد - كان كل ذلك على الله يسيرا. أى : هينا سهلا لأنه - سبحانه - لا يستعصى على قدرته شىء.

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس جميعا يأمرهم فيه بالإيمان وينهاهم عن الكفر فقال : ﴿يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم﴾.

أى : يأيها المكلفون من الناس جميعا، قد جاءكم الرسول المشهود له بالصدق فى رسالته، بالهدى ودين الحق من ربكم، فآمنوا به وصدقوه وأطيعوه، يكن إيمانكم خيرا لكم فى الدنيا والآخرة.

فالخطاب فى الآية الكريمة للناس أجمعين، سواء أكان عربيا أم غير عربى أبيض أم أسود، بعيدا أم قريبا... لأن رسالته ﷺ عامة وشاملة للناس جميعا.

والمراد بالرسول محمد ﷺ فأل فيه للعهد : وإيراده بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته.

وقوله : ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من الرسول. أى : جاءكم الرسول ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل.

وقوله : ﴿من ربكم﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال أيضا من الحق. أو متعلق بجاء. أى : جاءكم من عند الله - تعالى - وليس متقولا.

ويرى بعضهم أن قوله ﴿خيرا﴾ خبر لكان المحذوفة مع اسمها، أى : فآمنوا به يكن إيمانكم خيرا لكم.

ويرى آخرون أنه صفة لمصدر محذوف. أى : فآمنوا إيمانا خيرا لكم. وهى صفة مؤكدة على حد أمس الدابر لا يعود، لأن الإيمان لا يكون إلا خيرًا.

فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد حضت الناس على الإيمان بالرسول ﷺ لأنه لم يجئهم بشىء باطل وإنما جاءهم بالحق الثابت الموافق لفطرة البشر أجمعين، ولأنه لم يجئهم بما جاءهم به من عند نفسه وإنما جاءهم بما جاءهم به من عند الله - تعالى -. ولأنه لم يجئهم بما يفضى بهم إلى الشرور والآثام، وإنما جاءهم بما يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا وإلى الفوز برضا الله فى الآخرة.

تلك هى عاقبة المؤمنين، أما عاقبة الكافرين فقد حذر - سبحانه - منها بقوله : ﴿وإن

تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض، وكان الله عليما حكيما﴾،

أى : وإن تكفروا - أيها الناس - فلن يضر الله كفركم، فإنه - سبحانه - له ما فى السموات والأرض خلقا وملكا وتصرفا، وكان الله - تعالى - عليما علما تاما بأحوال خلقه، حكيما فى جميع أفعاله وتدبيراته.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد توعدت الكافرين بسوء المصير، وحضت الناس على الدخول فى زمرة المؤمنين، وحذرتهم من الكفر حتى ينجوا يوم القيامة من عذاب السعير.

* * *

ثم وجهت السورة الكريمة بعد ذلك نداء إلى أهل الكتاب حذرتهم فيه من المغالاة فى شأن عيسى - عليه السلام - وبينت لهم وللناس أن عيسى إنما هو عبد الله ورسوله، وبشرت المؤمنين بالأجر الجزيل، وأنذرت المستكبرين بالعذاب الأليم. استمع إلى القرآن الكريم وهو يرشد إلى كل ذلك فيقول :

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ
ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ
وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

وقوله : ﴿لا تغلوا﴾ أى : لا تتجاوزوا الحد المشروع. مأخوذ من الغلو، وهو - كما يقول القرطبى - التجاوز فى الحد ومنه : غلا السعر يغلو غلاء. وغلا الرجل فى الأمر غلوا. وغلا الجارية لحمها وعظمها، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها - أى : أترابها -(١).

وقد تجاوز أهل الكتاب الحد وغالوا فى شأن عيسى. أما اليهود فقد أنكروا رسالته واتهموا أمه مريم بما هى منه بريئة.

وأما النصارى فقد رفعوا عيسى - عليه السلام - إلى مرتبة فوق مرتبة البشرية، واعتبره بعضهم إلها، واعتبره بعض آخر منهم ابنا لله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

والمعنى : يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحد المشروع والمعقول فى شأن دينكم، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الذى شرعه الله - تعالى -، وارتضته العقول السليمة.

وقد ناداهم - سبحانه - بعنوان أهل الكتاب. للتعريض بهم، حيث إنهم خالفوا كتبهم التى بين أيديهم.

والخطاب هنا وإن كان يشمل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصارى، إلا أن النصارى هم المقصودون هنا قصدا أوليا، بدليل سياق الآية الكريمة، فقد ذكرت حججا تبطل ما زعمه النصارى فى شأن عيسى، ولذا قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا﴾ : ينهى -سبحانه- أهل الكتاب عن الغلو والإطراء. وهذا كثير فى النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢١

دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه سواء أكان حقا أم باطلا، أم ضلالا أم رشادا، ولهذا قال - تعالى - ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾.

وفى الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

وقوله: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ من باب عطف الخاص على العام، للاهتمام بالنهى عن الافتراء الشنيع الذى افتروه على الله.

أى: لا تصفوه - سبحانه - بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد، ولا تقولوا عليه - سبحانه - إلا القول الحق الثابت القائم على الدليل المقنع، والبرهان الواضح.

وعدى - سبحانه - قولهم بحرف على، لتضمنه معنى الافتراء والكذب، فقد قالوا قولا وزعموا أنه من دينهم، مع أن الأديان السماوية بريئة مما زعموه وافتروه.

ثم بين - سبحانه - القول الفصل فى شأن عيسى فقال. ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾.

أى: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله. أرسله - سبحانه - لهداية الناس إلى الحق، ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ أى: أن عيسى مكون ومخلوق بكلمة من الله وهى كلمة (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة. وهذه الكلمة ألقاها - سبحانه - إلى مريم، أى: أوصلها إليها بنفخ جبريل فيها فكان عيسى بإذن الله بشرًا سويا.

وقوله: ﴿وروح منه﴾ أى: ونفخة منه، لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل فى درع مريم فكان عيسى بإذن الله. فنسب إلى أنه روح من الله، لأنه بأمره كان. وسمى النفخ روحًا لأنه ريح تخرج من الروح. قال - تعالى - : ﴿والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾(٢).

وقيل المراد بقوله: ﴿وروح منه﴾ أى: وذو روح من أمر الله، لأنه - سبحانه - خلقه كما يخلق سائر الأرواح.

وقيل: الروح هنا بمعنى الرحمة. كما فى قوله - تعالى - ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أى: برحمة منه. وصدر - سبحانه الجملة الكريمة بأداة القصر (إنما) للتنبيه على أن عيسى - عليه السلام - ليس إلا رسولا أرسله الله لهداية الناس إلى الحق.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٩٠٥

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩١

وذكره - سبحانه - بلقبه وباسمه وبنوته لمريم، للإشارة إلى أنه إنسان كسائر الناس، وبشر كسائر البشر، فهو مولود خرج من رحم انثى كما يخرج الأولاد من أمهاتهم. وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فيكفى أنه قد خرج من رحم أم، وكفى بذلك دليلا على بشريته.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وقوله: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ أى: خلقه بكلمة منه وهى (كن) كما خلق آدم. وكان عيسى بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر ببذر فى رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسباب التى تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته (كن) وبذلك سمى كلمة الله.

وتعلق النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته - تعلق باطل - فما كانت الكلمة من الله إلها يعبد. وإنما سمى بذلك، لأنه نشأ بكلمة لا بمنى من الرجل يمنى....
وقوله: ﴿وروح منه﴾ أى أنه - سبحانه - أنشأه بروح مرسل منه وهو جبريل الأمين. وقد يقال: إنه نشأ بروح منه - سبحانه - أى: أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال - تعالى - : ﴿الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾[1].

والرأى الأول أولى. وعلى ذلك يكون معنى قوله: ﴿وروح منه﴾ أى: أنه نشأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسيط سلالة بشرية، ونطفة تتشكل إنسانا، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل...

وسمى الله - تعالى - عيسى روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة، ولأنه غلبت عليه الروحانية..

وبهذا يزول الوهم الذى سيطر على عقول من غالوا فى شأن عيسى فنحلوه ما ليس له، وما ليس من شأنه، إذ جعلوه إلها، أو ابن إله...[2].

وقوله ﴿المسيح﴾ مبتدأ، و﴿عيسى﴾ عطف بيان له أو بدل منه. وقوله ﴿ابن مريم﴾ صفة له وقوله ﴿رسول الله﴾ خبر للمبتدأ. وقوله ﴿وكلمته﴾ معطوف على ما قبله وهو رسول الله. أو قوله ﴿ألقاها إلى مريم﴾ جملة حالية من الضمير المجرور فى ﴿كلمته﴾ بتقدير قد، والعامل فيها معنى الإضافة. والتقدير: وكلمته ملقيا إياها إلى مريم.

(١) سورة السجده الآيات من ٧ - ٩
(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة، بمجلة لواء الإسلام السنة ١٨ العدد ٩

وقوله ﴿وروح منه﴾ معطوف على ﴿كلمته﴾ والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لروح. ومن لابتداء الغاية مجازا وليست تبعيضية، أى أن الروح كائن من عند الله - تعالى - ونافخ بإذنه.

وبعد أن بين - سبحانه - القول الحق فى شأن عيسى، دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وبجميع رسله. ونهاهم عن التمسك بالضلال والوهم فقال - تعالى - ﴿فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة. انتهوا خيرا لكم: إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا﴾.

والفاء فى قوله: ﴿فآمنوا﴾ للافصاح عن جواب شرط مقدر.

أى: إذا كان ذلك هو الحق فى شأن عيسى، فآمنوا بالله إيمانا حقا بأن تفردوه بالألوهية والعبادة، وآمنوا برسله جميعا بدون تفريق بينهم، ولا تغالوا فى أحد منهم بأن تخرجوه عن طبيعته وعن وظيفته..

وقوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ نهى لهم عن النطق بالكلام بالباطل.

أى: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة، أو المعبودات ثلاثة. فثلاثة خبر لمبتدأ محذوف وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ بدل قوله - مثلا -: ولا تؤمنن بثلاثة؛ لأن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه قالوا تارة معناه: الآب والإبن والروح القدس، أى أنهم ثلاثة متفرقون. وتارة يقولون معناه: أن الأقانيم[1] ثلاثة والذات واحدة.. إلى غير ذلك من الأقوال التى ما أنزل الله بها من سلطان.

قال صاحب الكشاف: والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة. وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله - تعالى -: ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾.

والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: فى المسيح لاهوتيه وناسوتيه من جهة الأب والأم...)[2].

هذا، وقد أفاض بعض العلماء فى الرد على مزاعم أهل الكتاب فى عقائدهم[3]..

وقوله: ﴿انتهوا خيرا لكم﴾ أمر لهم بسلوك الطريق الحق، والإقلاع عن الضلالات والأوهام.

---

(١) الأقانيم جمع الأقنوم - بضم الهمزة وسكون القاف - بمعنى الأصل أو الصف.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٩٤

(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ٦ من ص٢٦ إلى ٣٦، وتفسير القاسمى جـ٥ ص١٧٦٥

أى : انتهوا عما أنتم فيه من ضلال يا معشر أهل الكتاب، واتركوا القول بالتثليث، يكن انتهاؤكم خيرا لكم، بعبادتكم لله وحده تكونون قد خرجتم من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية.

وقوله : ﴿إنما الله إله واحد﴾ إثبات لوحدانية الله - تعالى - بأقوى طريق. أى : إن المعبود بحق ليس إلا واحد، وهو الله - تعالى - ذو الجلال والإكرام، الخالق لهذا الكون، والمدبر لأمره.

وقوله : ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ تنزيه له - جل وعلا - عن صفات المخلوقين، وتوبيخ لمن وصفه بصفات لا تليق به.

وسبحان منصوب بفعل مقدر من لفظه : أى : أسبحه تسبيحا وأنزهه تنزيها عن أن يكون له ولد، لأن الأبوة والبنوة من صفات المخلوقين، وهو - سبحانه - منزه عن صفات المخلوقين، قال - تعالى - : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وقوله ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه أى أنه -سبحانه- مالك لجميع الموجودات علويها وسفليها، ولا يخرج عن ملكه منها شيء.

قال - تعالى - ﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا﴾ ومن كان شأنه كذلك تنزه عن أن يلد أو يولد أو يكون له شريك فى ملكه.

وقوله : ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ تذييل قصد به بيان سعة قدرته - سبحانه وهيمنته على هذا الكون. والوكيل : هو الحافظ والمدبر لأمر غيره.

أى : وكفى بالله وكيلا يكل إليه الخلق كلهم أمورهم، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه.

ومفعول كفى محذوف للعموم. أى : كفى كل أحد وكالة الله وحفظه وتدبيره، فتوكلوا عليه وحده، ولا تتوكلوا على من تزعمونه ابنا له.

ثم بين - سبحانه - أن المسيح عيسى - عليه السلام - عبد من عباد الله - تعالى -، وأنه لن يستنكف أبدا عن عبادة الله والإذعان لأمره فقال : ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون﴾.

وأصل ﴿يستنكف﴾ - يقول القرطبى : نكف، فالياء والسين والتاء زوائد. يقال : نكفت من الشيء واستنكفت منه وأنكفته أى : نزهته عما يستنكف منه. ومنه الحديث : سُئل رسول الله ﷺ عن ﴿سبحان الله﴾ فقال : «إنكاف الله من كل سوء».

يعنى : تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد.

قال الزجاج : استنكف أى : أنف مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك. ومنه الحديث «ما ينكف العرق عن جبينه» أى : ما ينقطع.

وقيل : هو من النِّكْف وهو العيب. يقال : ما عليه فى هذا الأمر من نِكْفٍ ولا وَكَف. أى عيب. أى لن يمتنع المسيح ولن يتنزه عن العبودية لله - تعالى - ولن ينقطع عنها. ولن يعاب أن يكون عبدًا لله تعالى[1].

والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير ما سبقها من تنزيه لله - تعالى - عن أن يكون له ولد، وإثبات لوحدانيته - عز وجل - وإفراده بالعبادة.

وقد روى المفسرون فى سبب نزولها أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : لم تعيب صاحبنا يا محمد؟ قال : «ومن صاحبكم؟ قالوا : عيسى، قال ﷺ : وأى شيء قلت؟ قالوا تقول : إنه عبد الله ورسوله. قال ﷺ : إنه ليس بعار أن يكون عبدًا لله»[2].

والمعنى : لن يأنف المسيح ولن يمتنع عن أن يكون عبدًا لله، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا ولن يمتنعوا عن ذلك، فإن خضوع المخلوقات لخالقها شرف ليس بعده شرف. والله - تعالى - ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته.

قال - تعالى - ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾.

وصدر - سبحانه - الجملة بحرف (لن) المفيدة للنفى المؤكد، لبيان أن عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين عن عبادة الله والخضوع له أمر مستمر وثابت ثبوتا لا شك فيه، لأنه - سبحانه - هو الذى خلق الخلق ورزقهم. ومن حقه عليهم أن يعبدوه،، ويذعنوا لأمره، بل ويشعروا باللذة والأنس والشرف لعبادتهم له - سبحانه - كما قال الشاعر الحكيم :

ومما زادنى عجبًا وتيها ... وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ... وجعلك خير خلقك لى نبيًا

هذا، وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وممن فهم هذا الفهم الإمام الزمخشرى فقد قال :

وقوله : ﴿لن يستنكف المسيح﴾ أى : لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة، (من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بإصبعك) ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ أى : ولا من هو أعلى منه قدرا،

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٦ - بتصرف يسير-.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١١٧.

وأعظم منه خطرا وهم الملائكة الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم.

ثم قال: فإن قلت: من أين دل قوله ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك. وذلك أن الكلام إنما سبق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع عيسى عن منزلة العبودية. فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أعلى منه درجة. فكأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة[١].

وهذا الفهم الذى اتجه إليه الزمخشرى من أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لم يوافقه عليه أكثر العلماء، فقد قال الإمام ابن كثير:

وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. وليس له فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع. والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل إنما ذكروا لأن بعض الناس اتخذهم آلهة مع الله كما اتخذ الضالون المسيح إلها أو ابنا لله. فأخبر - سبحانه - أنهم عبيد من عباده، وخلق من خلقه[٢].

وقد حاول بعض العلماء أن يجعل الآية الكريمة بعيدة عن موطن النزاع فقال: وعندى أن الترقى قائم، ولكن فى المعنى الذى سيق له الكلام. وذلك أن النصارى غلوا غلوًا كبيرا فى المسيح، لأنه ولد من غير أب، ولأنه جرت على يديه معجزات كثيرة، ولأنه روحانى المعانى، فيبين الله - تعالى - أنه مع كل هذا لن يستنكف أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف من هو أعلى منه فى هذه المعانى أن يكون عبدًا لله، وهم الملائكة الذين خلقوا من غير أب ولا أم. وأجرى على أيديهم ما هو أشد وأعظم من معجزات، ومنهم من كان الروح الذى نفخ فى مريم، وهم أرواح طاهرة مطهرة. فكان الترقى فى هذه المعانى، وهم فيها يفضلون عيسى وغيره. وبذلك تكون الآية بعيدة عن الأفضلية المطلقة، فلا تدل على أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله. وتكون الآية بعيدة عن موطن الخلاف، والترقى دائما يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون غيرها. وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل، ولكنه أعلى فى الفعل الذى كان فيه كقول القائل: لا تضرب حرا ولا عبدا. فالتدرج هنا فى النهى عن الضرب، لأنه إذا كان

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥٩٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٩١.

ضرب العبد غير جائز فأولى أن يكون ضرب الحر غير جائز.

وذكر وصف المقربين، لأنهم إذا كانوا لا يستنكفون فأولى بذلك غيرهم[١].

ثم هدد - سبحانه - كل من يمتنع عن عبادته والخضوع له فقال: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾.

أى: ومن يأنف من عبادة الله ويمتنع عنها، ويأبى الخضوع لطاعة الله ويستكبر عن كل ذلك، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب استنكافه واستكباره، فإن مرد العباد جميعا إليه - سبحانه - وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته.

فالضمير فى قوله ﴿فسيحشرهم﴾ يعود إلى المستنكفين والمستكبرين وإلى غيرهم من المؤمنين المطيعين بدليل أن الحشر عام للمؤمنين والكافرين، وبدليل التفصيل المفرع على هذا الحشر فى قوله - تعالى - بعد ذلك:

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أى: أن مرجع العباد جميعا إلى الله من استكبر عن عبادته وامتنع ومن لم يفعل ذلك بل آمن وأطاع. فأما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات، ولم يستنكفوا ولم يستكبروا، فسيعطيهم - سبحانه - ثواب أعمالهم كاملة غير منقوصة، ويزيدهم على ذلك شيئا عظيما من الرضا والفضل ومضاعفة الأجر. ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادة الله وطاعته ﴿فيعذبهم عذابا أليما﴾ لا يحيط به الوصف ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليا﴾ أى أحدا يدافع عنهم ويلى أمورهم، ولا يجدون كذلك «نصيرا» ينصرهم وينجيهم من عذاب الله وبأسه.

وبعد هذا الوعد والوعيد والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وجه - سبحانه - نداء عاما إلى الناس أمرهم فيه باتباع طريق الحق فقال - تعالى - ﴿يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينا﴾.

والمراد بالبرهان هنا الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه. ويصح أن يكون المراد به النبى ﷺ وسماه - سبحانه - بذلك بسبب ما أعطاه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه ﷺ، والمراد بالنور المبين: القرآن الكريم.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه - تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم عمم الخطاب. ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ فقال: ﴿يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾.

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة. مجلة لواء الإسلام العدد العاشر.

والبرهان: هو محمد ﷺ وإنما سماه برهانا، لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل. والنور المبين هو القرآن الكريم. وسماه نورا، لأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب(١)...

و ﴿من﴾ فى قوله: ﴿من ربكم﴾ لابتداء الغاية مجازا، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لبرهان. أى: قد جاءكم برهان كائن من ربكم.

وفى وصف البرهان بأنه من الله - تعالى -، تقوية وتشريف لمعنى البرهان، لأنه ما دام قد جاء من عند من له الخلق والأمر - سبحانه - فلابد أن يكون برهانا صادقا مقنعا لمن يريد أن يتبع الحق.

وقال - سبحانه - ﴿وأنزلنا إليكم﴾ بإسناد الإنزال إلى ذاته - تعالى -، للإشارة إلى أنه هو مصدر الإنزال.

وقال ﴿إليكم﴾ مع أن المنزل عليه هو النبى ﷺ للإشعار بكمال اللطف بهم، وللمبالغة فى إزالة أعذارهم.

ووصف الشرائع والمواعظ والآداب والحكم التى اشتمل عليها القرآن الكريم بالنور المبين أى الواضح الظاهر، لأن هذه الشرائع والآداب. لا يخفى صدقها واشتمالها على الحق إلا على من انطمست بصيرته، وفسدت مداركه.

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المستجيبين للحق، السالكين الطريق المستقيم، فقال: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾.

أى: أن الله - تعالى - قد أرسل إلى الناس رسوله وأنزل عليهم بواسطته قرآنه، فمنهم من آمن واهتدى، ومنهم من كفر وغوى، فأما الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان، واعتصموا به - سبحانه - مما يضرهم ويؤذيهم، فلم يستجيروا إلا به، ولم يخضعوا إلا له، ولم يعتمدوا إلا عليه.

هؤلاء الذين فعلوا ذلك سيدخلهم الله - تعالى فى رحمة منه وفضل أى سيدخلهم فى جنته ورضوانه، ويضفى عليهم من فضله وإحسانه بما يشرح صدورهم، ويبهج نفوسهم، ويصلح بالهم.

وقوله ﴿ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾ أى: ويوفقهم فى دنياهم إلى سلوك الطريق الحق وهو

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١١٩ - طبعة عبد الرحمن محمد.

طريق الإسلام، الذى يفضى بهم فى آخرتهم إلى السعادة والأمان والفوز برضا الله - عز وجل -.

وقد ذكرت الآية ثواب الذين آمنوا بالله واعتصموا به، ولم تذكر عقاب الذين كفروا إهمالا لهم، لأنهم فى حيز الطرد والطرح، أو لأن عاقبتهم السيئة معروفة لكل عاقل بسبب كفرهم وسوقهم عن أمر الله.

والسين فى قوله ﴿فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل﴾ للتأكيد. أى فسيدخلهم فى رحمة كائنة منه وفى فضل عظيم من عنده إدخالا لا شك فى حصوله ووقوعه.

وقوله ﴿صراطا﴾ مفعول ثان ليهدى لتضمنه معنى يعرفهم.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت أهل الكتاب عن المغالاة فى شأن عيسى - عليه السلام -، وعرفتهم حقيقته، ودعتهم إلى الإيمان بوحدانية الله، وبينت لهم ولغيرهم أن عيسى وغيره من الملائكة المقربين لن يستنكفوا عن عبادة الله، وان من امتنع عن عبادة الله فسيحاسبه - سبحانه - حسابا عسيرا، ويجازيه بما يستحقه من عقاب. أما من آمن بالله - تعالى - واتبع الحق الذى أنزله على رسله، فسينال منه - سبحانه - الرحمة الواسعة، والفضل العظيم، والسعادة التى ليست بعدها سعادة.

* * *

هذا، وكما اشتملت سورة النساء فى مطلعها على الحديث عن أحكام الأسرة وأحكام الزواج والمواريث. فقد اختتمت بهذه الآية المتعلقة ببعض أحكام المواريث وهى قوله -تعالى- :

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ
وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۗ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبدالله قال : دخل على النبى ﷺ وأنا مريض لا أعقل. فتوضأ فصب على أو قال : صبوا عليه. فعقلت فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة. فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. وفى بعض الألفاظ فأنزل الله آية الميراث ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة﴾ الآية. وفى رواية قال جابر : نزلت فى : ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة﴾[1].

ويبدو أن عددًا من الصحابة قد سألوا النبى ﷺ فى شأن ميراث الكلالة فى أزمنة متفرقة فنزلت هذه الآية للأجابة عن أسئلتهم المتعلقة بها. وقد سمى النبى ﷺ هذه الآية بآية الصيف، لأنها نزلت فى هذا الوقت.

قال القرطبى : قال عمر : إنى والله لا أدع شيئا أهم إلى من أمر الكلالة. وقد سألت رسول الله ﷺ عنها فما أغلظ لى فى شىء ما أغلظ لى فيها، حتى طعن بإصبعه فى جنبى أو فى صدرى ثم قال : «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التى أنزلت فى آخر سورة النساء»[2].

وقوله : ﴿يستفتونك﴾ من الاستفتاء بمعنى طلب الفتيا أو الفتوى. يقال : استفتيت العالم فى مسألة كذا. أى : سألته أن يبين حكمها. فالإفتاء معناه : إظهار المشكل من الأحكام وتبيينه.

والكلالة.. كما يقول الراغب - : اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة وروى أن النبى ﷺ سئل عن الكلالة فقال : «من مات وليس له ولد ولا والد»، فجعله اسما للميت. وقال ابن عباس : هو اسم لمن عدا الولد»[3].

وقال ابن كثير ما ملخصه : وكان - رضى الله عنه - يقول : الكلالة من لا ولد له. وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يقول : الكلالة ما عدا الولد والوالد.

ثم قال : وعن عمر أنه قال : إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر. وهذا الذى قاله الصديق، هو الذى عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة فى قديم الزمان وحديثه. وهو مذهب الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذى يدل عليه القرآن[4].

وقد ذكرت كلمة الكلالة مرتين فى هذه السورة.

أما المرة الأولى ففى قوله - تعالى -. فى آيات المواريث : ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٩٢
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٩
(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٤٣٧
(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٩٥.

امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث﴾.

وقد بينا عند تفسيرنا لهذه الجملة الكريمة أن المراد بالإخوة والأخوات فيها: الإخوة لأم والأخوات لأم.

أما هنا فالأمر يختلف إذ المراد بالإخوة والأخوات فى الآية التى معنا: الإخوة والأخوات الأشقاء أو من الأب فقط.

والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد فى كيفية ميراث الكلالة، قل الله يفتيكم فى ذلك، فاسمعوا حكمه وأطيعوه ولا تخالفوه.

وقوله ﴿فى الكلالة﴾ متعلق بقوله ﴿يفتيكم﴾.

وقد تولى - سبحانه - الإجابة مع أن المسئول هو النبى ﷺ، للتنويه بشأن الحكم المسئول عنه، ولتأكيد أن المواريث من الأمور التى تكفل الله ببيانها وتوزيعها وحده، فلا يصح لأحد أن يخالف ما شرعه الحكيم الخبير فى شأنها فهو - سبحانه - أعلم بمصالح عباده، وأرحم بهم من آبائهم ومن أبنائهم، ومن كل مخلوق.

وقوله: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ كلام مستأنف مبين للاجابة عما سألوا عنه فى شأن ميراث الكلالة.

والمختار الذى عليه المحققون من العلماء أن الولد هنا عام يتناول الذكر والأنثى، لأن الكلام فى الكلالة وهو من ليس له ولد أصلا لا ذكر ولا أنثى وليس له والد - أيضا - إلا أنه اقتصر على ذكر الولد ثقة بظهور الأمر. ولأن الولد مشترك معنوى وقع نكرة فى سياق النفى فيعم الإبن والبنت.

وقيل: المراد بالولد هنا الذكر خاصة لأنه المتبادر من معنى اللفظ.

والمراد بالأخت هنا - كما سبق أن أشرنا - الأخت الشقيقة أو الأخت لأب.

والمعنى: يسألك أصحابك يامحمد عن توريث الكلالة فقل لهم: الله يفتيكم فى ذلك، إذا مات إنسان ولم يترك أولادًا لا من الذكور ولا من الإناث. ولم يترك كذلك والدًا، وترك أختا شقيقة أو من أبيه، فلأخته فى تلك الحالة نصف ما تركه هذا الميت بالفرض، والباقى للعصبة، أولها بالرد إن لم يترك عصبة.

وإذا ماتت الأخت قبل أخيها ولم يكن لها ولد - ذكرًا كان أو أنثى -، ولم يكنَ لها كذلك والد، فإن الأخ فى تلك الحالة يحرز جميع مالها.

وقوله : ﴿امرؤ﴾ مرفوع بفعل محذوف يفسره ما بعده أى : إن هلك امرؤ وقوله : ﴿ليس له ولد﴾ فى محل رفع على أنه صفة لقوله ﴿امرؤ﴾ أى : هلك امرؤ غير ذى ولد ولا والد.

والفاء فى قوله ﴿فلها نصف ماترك﴾ واقعة فى جواب الشرط.

وقوله ﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ جملة مستأنفة. سدت مسد جواب الشرط فى قوله : ﴿إن لم يكن لها ولد﴾.

قال الألوسى : والآية كما أنها لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد، فإنها لم تدل على عدم سقوطهم به. وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب. إذ صح عنه - ﷺ أنه قال : «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى عصبة ذكر» ولا ريب فى أن الأب أولى من الأخ. وليس ما ذكر بأول حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة[1].

ثم بين - سبحانه - صورتين أخريين من صور الكلالة فقال : ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك. وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أى : فإن كانتا أى : الوارثتان بالأخوة اثنتين أو أكثر، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما المتوفى، وإن كان الورثة لهذا الأخ المتوفى إخوة من الرجال والنساء ففى هذه الحالة تقسم تركته بينهم للذكر مثل حظ الانثيين.

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد ذكرت صورا أربعا لميراث الإخوة والأخوات للميت الذى لم يترك ولدا ولا والدا. أى الميت الكلالة.

١ - أن يموت الميت وترثه أخت واحدة. ففى هذه الحالة يكون لها نصف تركته بالفرض والباقى للعصبة إن وجدوا، فإن لم يوجدوا فلها الباقى بالرد.

٢ - أن يكون الأمر بالعكس بأن تموت امرأة ويرثها أخ واحد. فيكون له جميع تركتها.

٣ - أن يكون الميت أخا أو أختا والوارث أختان فصاعدا، ففى هذه الحالة يكون لهما أو لهن الثلثان.

٤ - أن يكون الميت أخا أو أختا، والورثة عدد من الإخوة والأخوات، ففى هذه الحالة تقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

هذا، وظاهر الآية يفيد أنه لا فرق بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأب فى أنهم يشتركون فى التركة إذا اجتمعوا؛ ولكن هذا الظاهر غير مراد، فقد خصصت السنة هذا العموم، فقدمت الأشقاء على الإخوة لأب. فإذا ما اجتمع الصنفان حجب الإخوة الأشقاء الإخوة لأب.

(١) تفسير الألوسى جـ٦ ص ٤٥

وقد تكفلت كتب الفروع ببسط الكلام عن هذه الأحكام وأمثالها. هذا، وقوله - تعالى - ﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾ تذييل قصد به إظهار جانب من فضل الله - تعالى - على عباده، وتحذيرهم من مخالفة شرعه وأمره.

أى: يبين الله لكم هذه الأحكام المتعلقة بالمواريث كما يبين لكم غيرها خشية أن تضلوا طريق الحق فى ذلك. بأن تعطوا من لا يستحق أو تهملوا من يستحق، والله - تعالى - عليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيحاسبكم على أعمالكم، فيجازى المتبع لشرعه بالثواب العظيم، ويجازى المخالف له بالعذاب الأليم.

والمفعول فى قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ محذوف، والمصدر المنسبك من أن والفعل مفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف أى: يبين الله لكم الحلال والحرام وجميع الأحكام خشية أن تضلوا.

ويجوز أن يكون المصدر هو مفعول قوله ﴿يبين﴾ أى: يبين الله لكم ضلالكم لتجتنبوه، فإن الشر يعرف ليجتنب، والخير يعرف ليفعل.

ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير (اللام ولا) فى طرفى «أن» والمعنى: يبين الله لكم ذلك لئلا تضلوا.

* * *

ثم أما بعد: فهذا تفسير وسيط لسورة النساء.

تلك السورة التى نظمت المجتمع الإسلامى تنظيما دقيقا حكيما.

نظمته فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية، ونظمته فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية. أما فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية، فقد رأينا فيما سبق، كيف ساقت الأحكام والآداب والتوجيهات التى تكون مجتمعا فاضلا، يعرف الفرد فيه واجبه نحو خالقه، وواجبه نحو نفسه، وواجبه نحو غيره.

مجتمعا تقوم الأسرة فيه على دعائم ثابتة من الأمان والاطمئنان، والمحبة والمودة والوئام.

مجتمعا رجاله يكرمون نساءه، ويعطفون عليهن، ويعاشروهن بالمعروف. ونساؤه يحترمن رجاله، ويؤدين ما عليهن نحوهم من حقوق بأدب، وعفة، وإخلاص، ووفاء.

مجتمعا حكامه يحكمون بالعدل، ويراقبون الله فى أقوالهم وأعمالهم. المحكومون فيه يطيعون حكامهم فيما يأمرونهم به من حق وخير.

مجتمعا يرى أفراده أن خيراته وأمواله. هى أمانة فى أعناقهم جميعا، وأن ثمارها ومنافعها ستعود عليهم جميعا. لذا فهم يحرصون على استغلال ما يملكونه منها فيما يرضى الله، وفيما يعود

عليهم وعلى أمتهم بالخير والصلاح والاستغناء والفلاح.

وأما فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية، فقد رأينا - أيضا - فيما سبق، كيف كشفت النقاب عن رذائل المنافقين. وعن العقائد الفاسدة التى يتشبث بها أهل الكتاب. وعن المسالك الخبيثة، والوسائل المتعددة التى اتبعها هؤلاء جميعا لكيد الدعوة الإسلامية والإساءة إلى النبى ﷺ.

كما رأينا كيف أنها قد حذرت المؤمنين من شرور أعدائهم، وبصرتهم بما يجب عليهم نحوهم. وبما يجعلهم دائما على أتم استعداد لمقاومتهم، ولتأديبهم ولرد كيدهم فى نحورهم.

ولقد ساقت السورة الكريمة من الآيات التى ترغب فى الجهاد فى سبيل الله، ما يجعل المؤمنين يقبلون عليه بقلوب منشرحة، وبعزائم ثابتة، وبأرواح غايتها الشهادة فى سبيل الله.

وباتباع المسلمين السابقين لهذا التوجيه الحكيم الذى اشتملت عليه هذه السورة الكريمة، نالوا ما نالوا من مجد وسؤدد، وظفروا بما ظفروا به من عزة وسعادة، وأصابوا ما أصابوا من خير وفلاح.

وأخيرا، فإنى أحمد الله - تعالى - حمدا كثيرا على توفيقه لى لخدمة كتابه، وأضرع إليه بإخلاص أن يعيننى على إتمام ما بدأته من خدمة كتابه، إنه أعظم مسئول وأكرم مأمول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس اجمالى لتفسير سورة « النساء »

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٤٥	والله أعلم بأعدائكم	١٦٩
٤٦	من الذين هادوا يحرفون	١٧٠
٤٧	يأيها الذين أوتوا الكتاب	١٧٣
٤٨	إن الله لا يغفر أن يشرك به	١٧٧
٤٩	ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم	١٧٨
٥٠	انظر كيف يفترون	١٨٠
٥١	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا	١٨٠
٥٢	أولئك الذين لعنهم الله	١٨٢
٥٣	أم لهم نصيب من الملك	١٨٣
٥٤	أم يحسدون الناس	١٨٣
٥٥	فمنهم من آمن به	١٨٤
٥٦	إن الذين كفروا بآياتنا	١٨٥
٥٧	والذين آمنوا وعملوا الصالحات	١٨٦
٥٨	إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات	١٨٧
٥٩	يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله	١٩١
٦٠	ألم تر إلى الذين يزعمون	١٩٤
٦١	وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله	١٩٧
٦٢	فكيف إذا أصابتهم مصيبة	١٩٧
٦٣	أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم	١٩٨
٦٤	وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع	٢٠٠
٦٥	فلا وربك لا يؤمنون	٢٠٢
٦٦	ولو أنا كتبنا عليهم	٢٠٤
٦٧	وإذا لآتيناهم من لدنا	٢٠٦
٦٨	ولهديناهم صراطا مستقيما	٢٠٦

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١١٧	إن يدعون من دونه إلا إناثا	٣١٣
١١٨	لعنه الله وقال	٣١٤
١١٩	ولأضلنهم ولأمنينهم	٣١٥
١٢٠	يعدهم ويمنيهم	٣١٧
١٢١	أولئك مأواهم جهنم	٣١٧
١٢٢	والذين آمنوا وعملوا	٣١٨
١٢٣	ليس بأمانيكم	٣١٩
١٢٤	ومن يعمل من الصالحات	٣٢١
١٢٥	ومن أحسن دينا	٣٢٢
١٢٦	ولله ما فى السموات وما فى الأرض	٣٢٤
١٢٧	ويستفتونك فى النساء	٣٢٤
١٢٨	وإن امرأة خافت من بعلها	٣٢٩
١٢٩	ولن تستطيعوا أن تعدلوا	٣٣٣
١٣٠	وإن يتفرقا	٣٣٦
١٣١	ولله ما فى السموات وما فى الأرض	٣٣٧
١٣٢	ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا	٣٣٨
١٣٣	إن يشأ يذهبكم أيها الناس	٣٣٩
١٣٤	من كان يريد ثواب الدنيا	٣٤٠
١٣٥	يأيها الذين آمنوا كونوا	٣٤١
١٣٦	يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله	٣٤٦
١٣٧	إن الذين آمنوا ثم كفروا	٣٤٧
١٣٨	بشر المنافقين	٣٥٠
١٣٩	الذين يتخذون الكافرين	٣٥٠
١٤٠	وقد نزل عليكم فى الكتاب	٣٥٢

اخر الكتاب

تم بفضله وحمده

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير

سورة المائدة

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الرابع

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه رحمة للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور، ولينقذهم من الظلم والفجور.

قال - تعالى - : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾.

ولقد كان من فضل الله علينا، أن وفقنا لخدمة كتابه، فأعاننا على كتابة تفسير سور: الفاتحة والبقرة، وآل عمران، والنساء والأنعام والأعراف، ويسعدنى أن أتبع ذلك بتفسير محرر لسورة المائدة، حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه هذه السورة من هدايات جامعة وتشريعات حكيمة، وحجج باهرة، تقذف حقها على باطل الضالين فإذا هو زاهق.

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى تفسيرها بالتفصيل والتحليل، أن أسوق كلمة بين يديها تكون بمثابه التعريف بها، وبيان فضلها، ووجه اتصالها بالسورة التى قبلها، وزمان نزولها، والمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها.

وقد كان منهجى فى تفسير هذه السورة، هو المنهج الذى سلكته فى تفسير السور السابقة.

وملخصه: أنى أبدأ بشرح الألفاظ القرآنية شرحًا لغويًا مناسبًا، ثم أبين المراد منها - إذا كان الأمر يقتضى ذلك.

ثم أذكر سبب النزول للآية أو الآيات - إذا وجد وكان مقبولا -

ثم أذكر المعنى الإجمالى للجملة أو للآية، مستعرضًا ما اشتملت عليه من وجوه البلاغة وحسن التوجيه.

ثم أتبع هذا ببيان ما يؤخذ من الآية أو الآيات من أحكام وآداب وتشريعات.

وقد حرصت كثيرًا على تخريج الأحاديث التى أذكرها، وعلى بيان المصادر التى أنقل عنها. وتعمدت - عند النقل من المصدر لأول مرة - أن أبين زمان طبعته ومكانها ثم التزم النقل عنه بعد ذلك إلى نهاية السورة، دون أن ألجأ إلى طبعات أخرى إلا عند الضرورة القصوى.

وقد تجنبت التوسع فى وجوه الإعراب، واكتفيت بالراجح منها..

وذلك لأنى توخيت فيما أكتب إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة وتشريعات حكيمة وآداب سامية، وعظات بليغة وتوجيهات نافعة، وأقوال مأثورة.

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وأن يعيننا على إتمام مابدأناه من خدمة لكتابه، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

١٥ من ربيع الأول ١٤٠٧ هـ
١٧ من نوفمبر ١٩٨٦ م

د. **محمد سيد طنطاوى**
مفتى جمهورية مصر العربية

تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة المائدة هى السورة الخامسة من سور القرآن الكريم فى ترتيب المصحف، فقد سبقتها سور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء.

٢ - وهى مدنية باتفاق العلماء. بناء على القول الذى رجحه العلماء من أن القرآن المدنى هو الذى نزل على رسول الله ﷺ بعد الهجرة ولو كان نزوله فى غير المدينة.

٣ - وعدد آياتها عشرون ومائة آية عند الكوفيين؛ ويرى الحجازيون والشاميون أن عدد آياتها اثنتان وعشرون ومائة آية، ويرى البصريون أن عدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية.

٤ - ولهذه السورة الكريمة أسماء أشهرها: المائدة.

وسميت بهذا الاسم، لأنها انفردت بذكر قصة المائدة التى طلب الحواريون من عيسى - عليه السلام - نزولها من السماء. وقد حكى الله - تعالى - ذلك فى أواخر السورة فى قوله - تعالى -: ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ (الآيات من ١١٢ : ١١٥) وتسمى أيضًا بسورة العقود، لأنها السورة الوحيدة التى افتتحت بطلب الإيفاء بالعقود. قال - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ وتسمى - أيضًا - المنقذة.

قال القرطبى: وروى عنه ﷺ أنه قال: «سورة المائدة تدعى فى ملكوت الله المنقذة. تنقذ صاحبها من أيدى ملائكة العذاب»[1].

٥ - ووجه اتصالها بسورة النساء - كما يقول الآلوسى - «أن سورة النساء قد اشتملت على عدة عقود: صريحا وضمنا. فالصريح: عقود الأنكحة وعقد الصداق. وعقد الحلف. وعقد المعاهدة والأمان. والضمنى: عقد الوصية والوديعة. والوكالة. والعارية. والإجارة. وغير ذلك مما يدخل فى قوله - تعالى - ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾.

فناسب أن تعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود. فكأنه قيل: يأيها الناس أوفوا بالعقود التى فرغ من ذكرها فى السورة التى تمت، وإن كان فى هذه السورة - أيضًا - عقود.

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة. أن أول تلك ﴿يأيها الناس﴾ وفيها الخطاب بذلك فى

(١) تفسير القرطبى: جـ ٦ ص ٣٠ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٥٩

مواضع، وهى أشبه بتنزيل المكى. وأول هذه ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ وفيها الخطاب بذلك فى مواضع وهو أشبه بخطاب المدنى. وتقديم العام وشبه المكى أنسب[١].

٦ - وقد وردت روايات تفيد أن سورة المائدة نزلت على النبى - ﷺ - دفعة واحدة. ومن هذه الروايات ما أخرجه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: إنى لأخذة بزمام ناقة رسول الله العضباء، إذ نزلت عليه المائدة كلها. فكادت من ثقلها تدق عنق الناقة[٢].

وروى الإمام أحمد - أيضًا - عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها[٣].

وهناك روايات أخرى تحدثت عن زمان ومكان نزولها، ومن هذه الروايات ما أخرجه أبو عبيد عن محمد القرظى قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة[٤].

وقال القرطبى: وروى أنها نزلت عند منصرف رسول الله من الحديبية[٥].

وهناك روايات تحدثت عن زمان ومكان نزول بعض آياتها.

قال السيوطى فى كتابه «الإتقان» - عند حديثه عن معرفة الحضرى والسفرى -: وللسفرى أمثلة منها: قوله - تعالى - ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ففى الصحيح عن عمر بن الخطاب: أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة، عام حجة الوداع.

ومنها: آية التيمم. ففى الصحيح عن عائشة، أنها نزلت بالبيداء وهم داخلون المدينة - بعد انتهائهم من غزوة المريسيع كما جاء فى بعض الروايات.

ومنها: قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ فقد نزلت ببطن نخل.

ومنها: قوله - تعالى - ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فقد نزلت فى غزوة ذات الرقاع.

وهذه الآيات جميعها من سورة المائدة»[٦].

والذى تطمئن إليه النفس عند تلاوة سورة المائدة بتدبر وإمعان فكر، وعند مراجعة الروايات

(١) تفسير الألوسى جـ ٦ ص ٤٨. طبعة منير الدمشقى

(٢، ٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ طبعة عيسى الحلبى.

(٤) تفسير الألوسى جـ ٦ ص ٤٧.

(٥) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٠

(٦) الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٨ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٥١.

التى وردت فى سبب نزول بعض آياتها، يرى أن هذه السورة الكريمة لم تنزل دفعة واحدة، وإنما نزلت متفرقة وفى أوقات مختلفة.

ومما يشهد لذلك ماجاء فى كتب الحديث وفى كتب السيرة أن المقداد بن الأسود قد قال للنبى ﷺ قبيل التحام المسلمين مع المشركين فى غزوة بدر: يارسول الله امض لما أمرك الله. فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى. اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا، لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به. أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين - فى بدر - فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا.. ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك»[١].

فهذا النص يفيد أن الصحابة كانوا على علم قبل غزوة بدر بهذه الآيات التى وردت فى سورة المائدة، والتى تحكى موقف بنى إسرائيل من نبيهم موسى عندما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة[٢].

كذلك مما يشهد بأن سورة المائدة قد نزلت منجمة ولم تنزل دفعة واحدة ما نقلناه منذ قليل عن السيوطى من أن بعض آياتها قد نزلت فى أزمنة وأمكنة مختلفة.

وأيضًا مما يشهد لذلك، أن المتأمل فى بعض آياتها يراها تحكى لنا ألوانا من تعنت اليهود مع النبى ﷺ ومن تحاكمهم إليه لا من أجل الوصول إلى الحق وإنما من أجل إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة.

قال - تعالى - ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون. إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾.

وفعلهم هذا يدل على أنهم كانت لهم قوة ونفوذ فى المدينة عند نزول هذه الآيات.

ومن المعروف تاريخيًا أن نفوذ اليهود بالمدينة قد تلاشى بعد غزوة بنى قريظة فى السنة الخامسة من الهجرة. وأن قوتهم قد زالت بعد فتح خيبر فى أوائل السنة السابعة من الهجرة.

ومن كل هذا نستخلص أن بعض آيات هذه السورة يغلب على ظننا أنها نزلت على النبى ﷺ فى السنوات التى سبقت صلح الحديبية وأن الروايات التى نقلناها قبل ذلك عن بعض المفسرين، والتى يستفاد منها أن سورة المائدة قد نزلت دفعة واحدة، أو أنها نزلت عند منصرف

---

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٩٢ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٤٥ هـ

(٢) راجع الآيات من ٢٠ - ٢٦ من سورة المائدة.

الرسول ﷺ من الحديبية، أو فتح مكة أو فى حجة الوداع، أو عند رجوعه منها.. كل هذه الروايات فيها مقال - لأنها بجانب - تفرد بعض المحدثين بها فإنها تخالف ما جاء فى كتب السنة الصحيحة من أن بعض آياتها قد نزل فى حجة الوداع، وبعضها قد نزل بعد غزوة المريسيع، وبعضها كان معروفًا للصحابة قبل اشتراكهم فى غزوة بدر.

ولأن بعض آيات هذه السورة تحكى لنا أحداثا ومجادلات قد حصلت بين النبى ﷺ وبين اليهود، وهذه الأحداث وتلك المجادلات من المستبعد أن تكون قد حدثت بعد غزوة بنى قريظة فى السنة الخامسة من الهجرة، لأنه - كما سبق أن أشرنا - لم يبق لليهود نفوذ فى المدينة بعد غزوة بنى قريظة، حتى يستطيعوا أن يواجهوا النبى ﷺ بما واجهوه من مجادلات ومن تحاكم اليه بقصد إحراجه - كما سنفصل ذلك عند تفسيرنا للآيات المتعلقة بهذا الموضوع.

ومع كل هذا فنحن نرجح أن جانبا كبيرًا من آيات سورة المائدة قد نزل متأخرًا عن صلح الحديبية، بل عن فتح مكة، لأن بعض آياتها تقرر أن المشركين قد صاروا فى يأس من التغلب على المسلمين بعد أن فتح المسلمون مكة بعد أن أتم الله لهم دينهم. قال - تعالى ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

ولأن هناك آثارًا تشهد بأن سورة المائدة - فى مجموعها - من آخر ما نزل على النبى ﷺ من قرآن.

قال القرطبى: وروى عن النبى ﷺ أنه قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال: «يأيها الناس إن سورة المائدة من آخر مانزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها».

ونحوه عن عائشة - رضى الله عنها- موقوفًا. قال جبير بن نفير: دخلت على عائشة فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: فإنها من آخر ما أنزل الله. فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه»[(١)].

والخلاصة، أن الذى يغلب على ظننا أن سورة المائدة لم تنزل دفعة واحدة فى وقت معين أو فى زمان معين، وإنما نزل بعضها فى السنوات التى سبقت صلح الحديبية، ونزل معظمها بعد هذا الوقت، للأسباب التى سبق أن بيناها، وأن الروايات التى تقول بنزولها دفعة واحدة أو فى وقت معين وزمان معين من الممكن أن تحمل على أن المراد بها مجموع السورة لا جميعها.

٧ - هذا وعندما نستعرض سورة المائدة استعراضا إجماليًا نراها فى مطلعها تأمر المؤمنين

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣١

بالوفاء بالعهود، وبالتزام التكاليف التى كلفهم الله بها، ثم أردفت ذلك ببيان الحلال من الذبائح والحرام منها، ثم بيان حكم طعام أهل الكتاب، وحكم الزواج بالكتابيات.

وبعد أن تكلمت عن المباحات التى يحتاج إليها الجسد أتبعت ذلك بالحديث عن الصلاة التى هى غذاء الروح، فأمرت المؤمنين بأن يدخلوها متطهرين، ووضحت لهم أنه - سبحانه - لا يريد من وراء ما يشرعه لهم الضيق أو الحرج وإنما يريد لهم الخير والطهر وإتمام النعمة: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾.

ثم أمرت المؤمنين بالتزام العدل مع الأصدقاء. ومع الأعداء، ووعدت المطيعين لله - تعالى - بالمغفرة والأجر العظيم، وتوعدت الكافرين بآيات الله بعذاب الجحيم، ثم ذكرت المؤمنين بجانب من مظاهر فضل الله عليهم ورحمته بهم، حيث كف أيدى المعتدين عنهم. وحماهم من مكرهم. قال - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، فكف أيديهم عنكم، واتقوا الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[١].

- ثم نراها فى الربع الثانى[٢] منها تحكى لنا جانبا من رذائل أهل الكتاب. فتبين كيف أن الله - تعالى - أخذ عليهم العهد والميثاق بأن يؤمنوا به ويطيعوه ولكنهم نقضوا عهودهم، فكانت نتيجة ذلك أن لعنهم الله، وأن أدام بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

ثم وجهت نداء إلى أهل الكتاب أرشدتهم فيه إلى طريق الحق، وأمرتهم باتباعه. ووبخت الذين قالوا ﴿إن الله هو المسيح بن مريم﴾. وحكت جانبا من الدعاوى الباطلة التى ادعاها اليهود والنصارى، حيث قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.

ثم وجهت نداء ثانيا إلى أهل الكتاب أمرتهم فيه باتباع محمد ﷺ لأنهم بسبب عدم اتباعه سيكون مصيرهم إلى النار، ولن يقبل الله منهم عذرًا بعد أن أرسل إليهم - سبحانه - من يبشرهم وينذرهم.

قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير، والله على كل شىء قدير﴾.

ثم حكت السورة الكريمة قصة من قصص موسى - عليه السلام - مع بنى إسرائيل. فقد ساقت بأسلوبها البليغ إغراءه لهم بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم جبنوا واتخذوا

---

(١) الآيات من ١ - ١١
(٢) الآيات من ١٢ - ٢٦

عصيانه سبيلهم. فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم الله - تعالى - بالتيه. ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

- ثم نراها بعد ذلك فى الربع الثالث(١) تحكى لناقصة ابنى آدم بأسلوب مؤثر: تحكى لنا قصة أول جريمة وقعت على ظهر الأرض بسبب الحسد. وتحكى لنا تلك المحاورات التى دارت بين الأخوين: القاتل والقتيل.

وكيف أن القاتل قد تحير فى مواراة جثة أخيه، إلى أن تعلم كيفية مواراتها من غراب أخذ يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله.

وإذا كان الحسد حتى فى العبادات يؤدى إلى القتل وسفك الدماء، فقد شرع الله القصاص لحماية الأنفس والأموال والأعراض. فقد ذكر - سبحانه - بعد ذلك جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا. وجزاء السارق والسارقة. وجزاء الذين كفروا بالحق بعد أن جاءهم من عند الله.

وخلال ذلك أمر - سبحانه - عباده المؤمنين بتقوى الله. وبالتقرب إليه بالعمل الصالح، وبمداومة الجهاد فى سبيل الله، حتى ينالوا الفلاح فى الدنيا والآخرة.

- وبعد هذه التشريعات الحكيمة، نراها فى الربع الرابع(٢) تحكى لنا بعض الوسائل الخبيثة التى اتبعها اليهود فى محاربتهم للدعوة الإسلامية فذكرت بعض أقوالهم التى كانوا يقولونها عندما يأتون إلى النبى ﷺ ليتحاكموا إليه فى منازعاتهم ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ ووصفتهم بأنهم ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾.

وأرشدت الرسول - ﷺ إلى طريقة التعامل معهم ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم. وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئًا. وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾.

ثم بعد أن مدحت التوراة، ووصفت الذين لم يحكموا بما أنزل الله بالكفر. والظلم. بعد كل ذلك نوهت بشأن عيسى - عليه السلام - وبشأن الإنجيل، وأمرت أهله بأن يحكموا بما أنزل الله فيه.

قال: تعالى - ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾.

---

(١) الآيات من ٢٧ - ٤٠

(٢) الآيات من ٤١ - ٥٠

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن القرآن الكريم، فوصفته بأنه هو الكتاب المصدق لما بين يديه من الكتب، وهو المهيمن عليها، وهو الذى إليه المرجع فى الأحكام، وأن الذين يبغون التحاكم إلى غيره ضالون ظالمون.

قال - تعالى - ﴿أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾.

- ثم وجهت السورة الكريمة فى مطلع الربع الخامس[١] منها نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بأن يجعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم فى العقيدة، ونهتهم عن موالاة الذين يخالفونهم فى الدين. ووصفت الذين يتولون من غضب الله عليهم بالنفاق ومرض القلب، وبشرت المطيعين لله بالنصر والظفر قال - تعالى : ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾.

ثم أمرت السورة الكريمة النبى ﷺ أن يوبخ أهل الكتاب بسبب كراهيتهم لأهل الحق، وأن يخبرهم بأن المستحقين للكراهية هم أولئك الذين لعنهم الله وغضب عليهم، لكفرهم، ومسارعتهم فى الإثم والعدوان. ولافترائهم على الله - تعالى - الكذب، حيث وصفوه - سبحانه - بالبخل والشح.

قال - تعالى - : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا. بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء. وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا. وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، ويسعون فى الأرض فسادًا، والله لا يحب المفسدين﴾.

وبعد أن بينت السورة الكريمة لأهل الكتاب أنهم لو آمنوا بالحق الذى جاءهم به محمد ﷺ لكفر الله عنهم سيئاتهم، ولأدخلهم جنات النعيم، ولرزقهم من فضله الرزق الجزيل. بعد أن بينت كل ذلك، وجهت فى مطلع الربع السادس[٢] منها إلى النبى ﷺ نداء أمرته فيه بتبليغ ما أمره الله بتبليغه بدون خشية أو تردد، ووعدته بعصمة الله - تعالى - له من الناس كما أمرته بمصارحة أهل الكتاب بما هم فيه من باطل وضلال.

ثم ساقت جملة من الرذائل التى انغمس فيها أهل الكتاب، فحكت نقضهم للعهود والمواثيق، وتكذيبهم للرسل تارة وقتلهم إياهم تارة أخرى، كما حكت قولهم الباطل : ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾. وقولهم : ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾.

---

(١) الآيات من ٥٠ - ٦٦
(٢) الآيات من ٦٧ - ٨١

وقد هددتهم بالعذاب الأليم إذا ما تمادوا فى ضلالهم وطغيانهم، وحثتهم على التوبة والاستغفار، وأقامت لهم الأدلة على بطلان عقائدهم، وبينت لهم القول الحق فى شأن عيسى وأمه مريم حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

قال - تعالى - : ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾

ثم كشفت السورة عن الأسباب التى أدت إلى طرد الكافرين من بنى إسرائيل من رحمة الله، فذكرت أنهم قد استحقوا ذلك بسبب عصيانهم، واعتدائهم وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه، وولايتهم لأهل الكفر وعداوتهم لأهل الإيمان.

قال - تعالى - ﴿ترى كثيرًا منهم يتولون الذين كفروا، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيرًا منهم فاسقون﴾.

ثم وضحت السورة الكريمة فى مطلع الربع السابع[1] منها مراتب أعداء المؤمنين، فصرحت بأن أشد الناس عداوة للمؤمنين هم اليهود والذين أشركوا. وأن أقربهم مودة إلى المؤمنين أولئك الذين قالوا إنا نصارى ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون﴾.

ثم وجهت نداء إلى المؤمنين نهتهم فيه عن تحريم الطيبات التى أحلها الله لهم وأرشدتهم إلى ما يجب عليهم فعله إذا ما حنثوا فى أيمانهم. وأمرتهم بحفظ هذه الأيمان، وعدم اللجوء إليها إلا عند وجود المقتضى لها.

ثم أخبرتهم بأنه إذا كان الله - تعالى - قد أحل لهم الطيبات، فإنه فى الوقت نفسه قد حرم عليهم الخبائث، وعلى رأس هذه الخبائث: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، فعليهم أن يجتنبوا هذه الأرجاس لينالوا رضا الله فى عاجلتهم وآجلتهم.

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من مظاهر نعم الله على عباده ورحمته بهم حيث أباح لهم أن يتمتعوا بما أحله الله لهم مع مراقبته وخشيته فى كل ما يأتون وما يذرون، ومع التزامهم بتعاليم شريعة الله فى الحل وفى الحرم.

وبعد هذا الحديث المستفيض عما أحله الله وعما حرمه، أخذت السورة فى مطلع الربع الثامن[2] منها فى التنويه بشأن الكعبة وبشأن البيت الحرام، ووظيفة الرسول ﷺ.

---

(١) الآيات من ٨٢ - ٩٦

(٢) الآيات من ٩٧ - ١٠٨

ثم نهت المؤمنين عن الأسئلة التى لا منفعة من ورائها، فإن هذا يتنافى مع ما يقتضيه إيمانهم من أدب فى القول، ومن تطلع إلى ما ينفع ويفيد، قال - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾.

ثم حكت السورة أنواعًا من الأوهام التى تعلق بها أهل الجاهلية، حيث حرموا على أنفسهم بعض المطاعم التى أحلها الله، مستندين فى تحريمهم ما حرموه إلى عادات جاهلية اعتنقوها، وهذه العادات أبعد ما تكون عن شرع الله وعما تقتضيه العقول السليمة.

وفى وسط هذا الحديث عما أحله الله وحرمه، ساقت السورة توجيها حكيمًا للمؤمنين، حيث بينت لهم أن الداعى إلى الله متى قام بواجبه نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو غيره، فإنه لا يكون بعد ذلك مسئولا عن ضلال من يضل.

قال - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

وبعد أن بينت بعض الأحكام التى تتعلق بالوصية ووسائل إثباتها، نوهت السورة الكريمة فى الربع الأخير منها(١) بشأن عيسى - عليه السلام - وحكت بعض المعجزات التى أيده الله بها فى رسالته، وقصت ما طلبه الحواريون منه حيث قالوا له - كما حكى القرآن عنهم:

﴿هل يستطع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ وساقت مادار بينهم وبين عيسى - عليه السلام - من محاورات فى هذه المسألة.

ثم ختمت السورة حديثها عن عيسى بتلك الآيات التى تحكى براءته من كل ما افتراه المفترون عليه، وأنه - عليه السلام - لم يأمر قومه إلا بعبادة الله وحده، وأنه لم يكن إلا رسولا من رسل الله الذين أخلصوا له - سبحانه - العبادة والطاعة. استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى هذا المعنى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول:

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك. ما يكون لى أن أقول مال ليس لى بحق. إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك، إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدًا مادمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

---

(١) الآيات من ١٠٩ إلى نهاية السورة.

٨ - هذا عرض مجمل للتشريعات والقصص والآداب والتوجيهات التى اشتملت عليها سورة المائدة. ومن هذا العرض نستطيع أن نستخلص بعض الحقائق البارزة فى هذه السورة بصورة أظهر منها فى غيرها. ومن تلك الحقائق ما يأتى:

١ - أن السورة الكريمة زاخرة بالأحكام الشرعية المتنوعة، فأنت تقرؤها بتدبر وخشوع فتراها قد بينت أحكاما شرعية منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام فى فترة الإحرام وفى المسجد الحرام. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح، ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة والتيمم، ومنها ما يتعلق بوجوب التزام العدل فى القضاء وفى الشهادة وفى غيرهما. ومنها ما يتعلق بالحدود فى السرقة وفى قطع الطريق والإفساد فى الأرض. ومنها ما يتعلق بأهل الكتاب إذا ما تحاكموا إلينا. ومنها ما يتعلق بكفارات الأيمان وكفارات قتل الصيد فى حالة الإحرام. ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام. ومنها ما يتعلق بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى من الأنعام. ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت.. إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية التى أفاضت فى الحديث عنها هذه السورة الكريمة.

قال القرطبى: قال أبوميسرة: المائدة من آخر مانزل ليس فيها منسوخ. وفيها ثمانى عشرة فريضة ليست فى غيرها، وهى: ﴿المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع﴾ ﴿وما ذبح على النصب، وأن تستقسموا بالأزلام﴾ ﴿وما علمتهم من الجوارح مكلبين﴾ ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾، وتمام الطهور: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أى: إتمام ما لم يذكر فى سورة النساء - ﴿والسارق والسارقة﴾ ﴿ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ إلى قوله: ﴿عزيز ذو انتقام﴾. ﴿وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾. وقوله - تعالى - ﴿شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ الآية.

ثم قال القرطبى: قلت: وفريضة تاسعة عشرة وهى قوله - تعالى -: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة﴾ إذ ليس للآذان ذكر فى القرآن إلا فى هذه السورة أما ما جاء فى سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة. وهو فى هذه السورة عام لجميع الصلوات»(١).

٢ - إن الذى يقرأ سورة المائدة يراها قد وجهت جملة من النداءات إلى المؤمنين وقد تجاوزت هذه النداءات فى كثرتها، تلك النداءات التى وردت فى أطول سورة فى القرآن وهى سورة البقرة.

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٠

فقد وجهت سورة المائدة إلى المؤمنين ستة عشر نداء. وقد تضمن كل نداء تشريعًا من التشريعات، أو أمرا من الأوامر: أو نهيا من النواهى، أو توجيها من التوجيهات؛ مما يدل على أن هذه السورة قد اهتمت اهتمامًا ملحوظًا بتربية المؤمنين على المنهج الذى اختاره الله لهم. ولاسيما بعد أن أكمل - سبحانه - لهم دينهم، وأتم عليهم نعمته.

وهذه هى النداءات التى وجهها الله - تعالى - إلى المؤمنين نسوقها مرتبة كما وردت فى السورة.

١ - قال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الآية١
٢ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ الآية٢
٣ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ الآية٦
٤ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ الآية٨
٥ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ الآية١١
٦ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ الآية٣٥
٧ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الآية٥١
٨ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ الآية٥٤
٩ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا﴾ الآية٥٧
١٠ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ الآية٨٧
١١ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾ الآية٩٠
١٢ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد﴾ الآية٩٤
١٣ - وقال - تعالى- : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ الآية٩٥
١٤ - وقال -تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ الآية١٠١
١٥ - وقال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم﴾ الآية١٠٥
١٦ - وقال-تعالى- : ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ الآية١٠٦

هذه هى النداءات التى وجهها - سبحانه - إلى المؤمنين فى سورة المائدة، وأنت إذا تأملت فيها ترى كل نداء منها يعتبر قانونًا منظما لناحية من نواحى الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم، أو فيما يختص بعلاقتهم بغيرهم.

وسنفصل القول فى هذه الآيات المشتملة على تلك النداءات عند تفسيرنا لها-إن شاء الله-.

٣ - أن السورة الكريمة حافلة بالحديث عن أحوال أهل الكتاب، فقد تحدثت عن عقائدهم الفاسدة، وردت عليهم بما يبطل معتقداتهم بأسلوب منطقى رصين: ولم تكتف بهذا بل

أرشدتهم فى كثير من آياتها إلى طريق الحق حتى يسلكوه، وحتى لا يكون لهم عذر يوم القيامة.

وأمرت النبى ﷺ فى كثير من آياتها - أيضًا - أن يكشف لهم عن ضلالهم وفسوقهم عن أمر ربهم.

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿قل يا أهل الكتاب لاتغلو فى دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرًا، وضلوا عن سواء السبيل﴾.

وقد ذكرت السورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - ألوانا من مسالك اليهود الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية، كتحاكمهم إلى النبى ﷺ لا بقصد الوصول إلى الحق، وإنما بقصد إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم، وأبطل مكرهم، وكاستهزائهم بالدين الإسلامى وشعائره:

قال - تعالى - : ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

كما ذكرت - أيضًا - أنواعًا من رذائلهم التى من أشنعها: نقضهم للعهود والمواثيق، ومسارعتهم فى الإثم والعدوان، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وتكذيبهم للرسل تارة، وقتلهم لهم تارة أخرى.

أما فيما يتعلق بالنصارى فقد تميزت سورة المائدة بالإفاضة فى الحديث عنهم بصورة لاتكاد توجد فى غيرها بهذه السعة.

فقد تحدثت عن عقائدهم الباطلة، وعن أقوالهم الكاذبة فى شأن عيسى - عليه السلام - وفى شأن أمه مريم، وردت عليهم بما يدحض حجتهم، وبما يرشدهم إلى الصراط المستقيم.

وقد أنصفت السورة من يستحق الإنصاف منهم، وبشرت أولئك الذين اتبعوا الحق منهم بالثواب الجزيل من الله - تعالى.

٤ - أن الذى ينظر فى الأحكام والتشريعات والتوجيهات التى اشتملت عليها سورة المائدة يراها تمتاز بأنها أحكام نهائية لا تقبل النسخ.

وخذ على سبيل المثال ماورد فى هذه السورة بشأن تحريم الخمر، فإنك تراه قاطعا وحاسما فى التحريم.

فلقد مر تحريم الخمر بمراحل كان أولها قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ (الآية ٢١٩).

وكان ثانيها قوله - تعالى - فى سورة النساء : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ (الآية ٤٣).

وكان آخرها قوله - تعالى - هنا فى سورة المائدة : ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.

والسر فى أن الأحكام الشرعية التى وردت فى هذه السورة تعتبر نهائية ولا تقبل النسخ. أن معظم آياتها - كما سبق أن ذكرنا - كان من آخر ما نزل على النبى - ﷺ - من قرآن، وكان نزول كثير من آياتها بعد أن انزوى الشرك فى مخابئه، وصار المسلمون فى قوة ومنعة، كانوا بها أصحاب السلطان فى مكة وفى بيت الله الحرام، دون أن يتعرض لهم متعرض، أو ينازعهم منازع، فقد تم فتح مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

ولهذا فأنت لا ترى السورة الكريمة تتحدث عن الشرك أو عن المشركين، أو عن الجهاد فى سبيل الله وما يتعلق به من حض عليه ومن أحكام تختص به.

وإنما سورة المائدة تتحدث عن قضايا أخرى كان المسلمون فى حاجة إليها عند نزولها. ومن أهم هذه القضايا : حث المؤمنين على التزام العهود والمواثيق وتحذيرهم من الإخلال بشىء منها، وإنزال التشريعات التى هم فى حاجة إليها بعد أن تم لهم النصر على أعدائهم، وإرشادهم إلى طرق المحاجة والمناقشة التى يردون بها على ما يثيره أهل الكتاب من شبهات حول تعاليم الإسلام وآدابه وتشريعاته. وبيان وجه الحق فيما حكته السورة عن أهل الكتاب من أقوال باطله، ومن معتقدات فاسدة.

أما فيما يتعلق بالشرك والمشركين أو بالجهاد فى سبيل الله، فلم يكن مقتضى حال المسلمين يستدعى الكلام فى ذلك، لأن نزول معظمها كان بعد أن تم للمسلمين النصر على أعدائهم، وبعد أن أصبحت كلمتهم هى العليا، وكلمة المشركين هى السفلى.

وقد تكفلت السور المدنية الأخرى التى نزلت قبل سورة المائدة بالحديث المستفيض عن الشرك وعن المشركين، وعن الحض على الجهاد فى سبيل الله، وعن غير ذلك من القضايا التى تقتضيها حالة المسلمين.

وبعد : فهذا تمهيد بين يدى السورة الكريمة تعرضنا خلاله لمكان نزولها ولزمانه، ولوجه تسميتها بسورة المائدة. وللمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها وللأمور البارزة فيها.

وقد قصدنا بهذا التمهيد إعطاء القارئ الكريم فكرة واضحة عن هذه السورة، قبل البدء فى تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل. والله الهادى إلى سواء السبيل.

تفسير سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

وقوله : ﴿أوفوا﴾ من الإيفاء. ومعناه : الإتيان بالشيء وافيًا تاما لا نقص فيه، ولا نقض معه. يقال وفى بالعهد وأوفى به إذا أدى ما التزم به.

قال صاحب الانتصاف : ورد فى الكتاب العزيز ﴿وفى﴾ بالتضعيف فى قوله -تعالى- : ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾. وورد «أوفى» كثيرًا. ومنه ﴿أوفوا بالعقود﴾. وأما ﴿وفى﴾ ثلاثيًا فلم يرد إلا فى قوله -تعالى- : ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ لأنه بنى أفعل التفضيل من «وفى» : إذ لا يبنى إلا من ثلاثى»[(١)].

والعقود : جمع عقد - بفتح العين -. وهو العهد الموثق.

قال الراغب : الجمع بين أطراف الشيء. ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد الحبل، وعقد البناء. ثم يستعار ذلك للمعانى نحو عقد البيع والعهد وغيرهما : فيقال : عاقدته، وعقدته، وتعاقدنا.

وهو مصدر استعمل اسماً فجمع نحو. ﴿أوفوا بالعقود﴾[(٢)].

وقد فرق بعضهم بين العقد والعهد فقال : «والعقود جمع عقد وهو بمعنى المعقود وهو أوكد العهود. والفرق بين العقد والعهد أن العقد فيه معنى الاستيثاق والشد، ولايكون إلا بين متعاقدين. والعهد قد ينفرد به الواحد. فكل عقد عهد ولايكون كل عهد عقدا»[(٣)].

---

(١) حاشية ابن المنير على الكشاف جـ١ ص٦٠٠.

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص٢٤١.

(٣) تفسير الطبرسى جـ٦ ص٧ طبعة مكتبة دار الحياة سنة ١٣٨٠هـ.

والمراد بالعقود هنا: ما يشمل العقود التى عقدها الله علينا وألزمنا بها من الفرائض والواجبات والمندوبات، وما يشمل العقود التى تقع بين الناس بعضهم مع بعض فى معاملاتهم المتنوعة وما يشمل العهود التى يقطعها الإنسان على نفسه، والتى لا تتنافى مع شريعة الله - تعالى -.

وبعضهم يرى أن المراد بالعقود هنا: ما يتعاقد عليه الناس فيما بينهم كعقود البيع وعقود النكاح.

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا: العهود التى كانت تؤخذ فى الجاهلية على النصرة والمؤازرة للمظلوم حتى ينال حقه.

والأول أولى لأنه أليق بعموم اللفظ، إذ هو جمع محلى بأل المفيدة للجنس وأوفى بعموم الفائدة.

قال القرطبى: والمعنى: أوفوا بعقد الله عليكم، وبعقدكم بعضكم على بعض. وهذا كله راجع إلى القول بالعموم وهو الصحيح فى الباب. قال - ﷺ -: «المؤمنون عند شروطهم». وقال: «كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط».

فبين أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ماوافق كتاب الله: أى: دين الله. فإن ظهر فيها ما يخالف رد، كما قال ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[1].

والبهيمة: اسم لذوات الأربع من دواب البر والبحر.

قال الفخر الرازى: قالوا كل حى لا عقل له فهو بهيمة من قولهم: استبهم الأمر على فلان إذا أشكل عليه. وهذا باب مبهم أى: مسدود الطريق. ثم اختص هذا الاسم بكل ذات أربع فى البر والبحر».

والأنعام جمع نعم - بفتحتين - وأكثر ما يطلق على الإبل، لأنها أعظم نعمة عند العرب. والمراد بالأنعام هنا: ما يشمل الإبل والبقر والغنم ويلحق بها كل حيوان أو طير يتغذى من النبات، ولم يرد نص بتحريمه فيدخل الظبى وحمار الوحش وغيرهما من آكلات العشب، كما تدخل الطيور غير الجارحة وإضافة البهيمة إلى الأنعام إضافة بيانية من إضافة الجنس إلى ما هو أخص منه كشجر الأراك، وثوب الخز.

أى: أحل الله لكم أيها المؤمنون الانتفاع ببهيمة الأنعام. وهذا الانتفاع بلحمها وجلدها وعظمها وصوفها وما أشبه ذلك مما أحله الله منها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٣.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقال غير واحد : البهيمة اسم لكل ذات أربع من دواب البر والبحر. وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب خز. أى : أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام. وهى الأزواج الثمانية المذكورة فى سورتها.

وأفردت البهيمة لإرادة الجنس : وجمع الأنعام ليشمل أنواعها. وألحق بها الظباء وبقر الوحش. وقيل : هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام فى الاجترار وعدم الأنياب. وإضافتها إلى الأنعام حينئذ لملابسة المشابهة بينهما.

وقيل : المراد ببهيمة الأنعام : ما يخرج من بطونها من الأجنة بعد ذكاتها وهى ميتة، فيكون مفاد الآية صريحًا حل أكلها. وبه قال الشافعى(١).

وقوله : ﴿إلا مايتلى عليكم﴾ استثناء مما أحله -سبحانه- لهم من بهيمة الأنعام. أى : أحل الله لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم بعد ذلك فى كتابه أو على لسان رسوله فإنه محرم عليكم.

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ أى يقرأ عليكم فى القرآن والسنة من قوله - تعالى - فى الآية الثالثة من السورة نفسها - ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ . الخ، وقوله ﷺ «كل ذى ناب من السباع فأكله حرام».

فإن قيل : الذى يتلى علينا الكتاب وليس السنة؟ قلنا : كل سنة لرسول الله ﷺ فهى كتاب الله. والدليل عليه أمران :

أحدهما : حديث العسيف «لأقضين بينكما بكتاب الله» والرجم ليس منصوصًا عليه فى كتاب الله.

الثانى : حديث عبد الله بن مسعود : «ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله.

ويحتمل : إلا ما يتلى عليكم الآن. أو مايتلى عليكم فيما بعد من مستقبل الزمان على لسان رسول الله ﷺ فيكون فيه دليل على جواز تأخير البيان عن وقت لا يفتقر فيه إلى تعجيل الحاجة.

وقوله : ﴿غير محلى الصيد وأنتم حرم﴾ بيان لما حرم عليهم فى أحوال معينة، وبسبب أمور اقترنت به.

وقوله : ﴿حرم﴾ جمع حرام. يقال. أحرم الرجل فهو محرم وحرام وهم حرم.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص٤٩.

وقوله : ﴿محلى﴾ جمع محل بمعنى مستحل. والصيد مصدر بمعنى الاصطياد. أو اسم للحيوان المصيد.

وقوله : ﴿غير محلى الصيد﴾ حال من الضمير فى ﴿لكم﴾.

وقوله : ﴿وأنتم حرم﴾، حال من الضمير فى (محلى﴾

والمعنى : يأيها الذين آمنوا كونوا أوفياء بعهودكم مع الله ومع أنفسكم ومع غيركم، فقد أحل الله - تعالى - بهيمة الأنعام لتنتفعوا بها فضلا منه وكرما، إلا أنه - سبحانه - حرم عليكم أشياء رحمة بكم فاجتنبوها، كما حرم عليكم الاصطياد أو الانتفاع بالمصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة، سواء أكنتم فى الحل أم كنتم فى الحرم، ويدخل فى حكم المحرم من كان فى الحرم وليس محرما.

وذلك لأن المحرم أو من كان فى أرض الحرم يجب عليه أن يكون مشتغلا بما يرضى الله، وأن يحترم هذه الأماكن المقدسة التى جعلها الله أماكن أمان، واطمئنان وعبادة لله رب العالمين.

وقد دعا الله - تعالى - المؤمنين إلى الوفاء بالعقود وناداهم بوصف الإيمان، ليحثهم على امتثال ما كلفهم به، لأن الشأن فى المؤمن أن يمتثل لما أمره الله به أو لما نهاه عنه.

روى ابن أبى حاتم، أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إلى. فقال له : إذا سمعت الله يقول ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ فارعها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه
وقوله : ﴿إن الله يحكم مايريد﴾ تذييل قصد به بيان مشيئة الله النافذة، وإرادته الشاملة، وحكمه الذى لا يعقب عليه معقب.

أى : إن الله يحكم بما يريد أن يحكم به من الأحكام التى تتعلق بالحلال وبالحرام وبغيرهما، بمقتضى مشيئته المبنية على الحكم البالغة، دون أن ينازعه منازع، أو يعارضه معارض، فاستجيبوا - أيها المؤمنون - لحكمه لتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة.

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب الوفاء بالعهود التى شرعها الله - تعالى - وهذا المعنى ترى سورة المائدة زاخرة به فى كثير من آياتها.

فأنت ترى فى مطلعها هذه الآية الكريمة التى تحض على الوفاء بالعقود، ثم ترى الآية الثانية منها تنهى عن الاخلال بشىء من شعائر الله، ثم تراها بعد ذلك بقليل تذكر المؤمنين بنعم الله عليهم وبميثاقه الذى واثقهم به : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به﴾. ثم تحكى أن من الأسباب التى أدت إلى طرد بنى إسرائيل من رحمة الله، نقضهم لمواثيقهم. ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾.

وهكذا نرى السورة الكريمة حافلة بالتوجيهات التى تحض المؤمنين على التزام العهود والمواثيق التى شرعها الله وتحذرهم عاقبة إهمالها، أو الإخلال بشىء منها.

كما أخذ العلماء منها حل بهيمة الأنعام من جهة الانتفاع بلحومها وجلودها وأصوافها. وحرمة ما حرم الله - تعالى - منها فى مواطن أخرى.

كما أخذوا منها حرمة الاصطياد أو الانتفاع بالمصيد على من كان محرما بحج أو عمرة، وعلى من كان فى أرض الحرم ولو لم يكن محرما.

قال القرطبى : وهذه الآية تلوح فصاحتها. وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام فإنها تضمنت خمسة أحكام :

الأول : الأمر بالوفاء بالعقود.

الثانى : تحليل بهيمة الأنعام.

الثالث : استثناء ما يلى بعد ذلك.

الرابع : استثناء حال الإحرام فيما يصاد.

الخامس : ماتقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم.

وحكى النقاش أن أصحاب الكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا شيئًا مثل هذا القرآن فقال : نعم أعمل مثل بعضه. فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد. إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة. فنظرت فإذا هو نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عامًا، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا[1].

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى ما أحل لعباده من طيبات، وما حظره عليهم من أفعال، أتبع ذلك بنداء آخر إليهم نهاهم فيه عن استحلال أشياء معينة فقال -تعالى- :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ
وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ
ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ٦ ص٣١.

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

وقوله : ﴿لا تحلوا﴾ من الإحلال الذى هو ضد التحريم. ومعنى عدم إحلالهم لشعائر الله : تقرير حرمتها عملا واعتقادا، والالتزام بها بالطريقة التى قررتها شريعة الله.

والشعائر : جمع شعيرة - على وزن فعيلة - وهى فى الأصل ما جعلت شعارًا على الشيء وعلامة عليه من الإشعار بمعنى الاعلام. وكل شيء اشتهر فقد علم. يقال : شعرت بكذا. أى علمته.

والمراد بشعائر الله هنا : حدوده التى حدها، وفرائضه التى فرضها وأحكامه التى أوجبها على عباده.

ويرى بعضهم أن المراد بشعائر الله هنا : مناسك الحج وما حرمه فيه من لبس للثياب فى أثناء الاحرام. ومن غير ذلك من الأفعال التى نهى الله عن فعلها فى ذلك الوقت فيكون المعنى. لا تحلوا ما حرم عليكم حال إحرامكم.

والقول الأول أولى لشموله جميع التكاليف التى كلف الله بها عباده. وقد رجحه ابن جرير بقوله : وأولى التأويلات بقوله : ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ قول من قال : لا تحلوا حرمات الله، ولا تضيعوا فرائضه. فيدخل فى ذلك مناسك الحج وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه.

وإنما قلنا ذلك القول أولى، لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها، نهيا عامًا من غير اختصاص شيء من ذلك دون شيء. فلم يجز لأحد أن يوجه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها ولا حجة بذلك»[1].

وأضاف - سبحانه - الشعائر إليه. تشريفا لها، وتهويلا للعقوبة التى تترتب على التهاون بحرمتها. وعلى مخالفة ما أمر الله به فى شأنها.

وقوله. ﴿ولا الشهر الحرام﴾ معطوف على شعائر الله. والمراد به الجنس. فيدخل فى ذلك

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٥٥ بتصرف يسير.

جميع الاشهر الحرم. وهى أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم، ورجب.

وسمى الشهر حرامًا: باعتبار أن إيقاع القتال فيه حرام.

أى: لا تحلوا - أيها المؤمنون - القتال فى الشهر الحرام، ولا تبدأوا أعداءكم فيه بقتال.

قال ابن كثير: يعنى بقوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ تحريمه، والاعتراف بتعظيمه، وترك مانهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال كما قال - تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل قتال فيه كبير﴾. وقال - تعالى - ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا﴾ وفى صحيح البخارى عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض والسنة اثنا عشر شهرًا. منها أربعة حرم». وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت. كما هو مذهب طائفة من السلف.

وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ. وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم. واحتجوا بقوله - ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾.

والمراد أشهر التسيير الأربعة. قالوا: فلم يستثن شهرًا حراما من غيره[1].

والمقصود بالهدى فى قوله ﴿ولا الهدى﴾ ما يتقرب به الإنسان إلى الله من النعم ليذبح فى الحرم، وهو جمع هدية - بتسكين الدال -، أى: ولا تحلوا حرمة ما يهدى إلى البيت الحرام من الأنعام تقربا إلى الله - تعالى - بأن تتعرضوا له بنحو غصب وسرقة أو حبس عن بلوغه إلى محله.

وخص ذلك بالذكر مع دخوله فى الشعائر، لأن فيه نفعا للناس، لأنه قد يتساهل فيه أكثر من غيره، ولأن فى ذكره تعظيما لشأنه.

وقوله: ﴿ولا القلائد﴾ جمع قلادة، وهى ما يقلد به الهدى ليعلم أنه مهدى إلى البيت الحرام فلا يتعرض له أحد بسوء. وقد كانوا يضعون فى أعناق الهدى ضفائر من صوف، ويربط بعنقها نعلان أو قطعة من لحاء الشجر أو غيرهما ليعلم أنه هدى فلا يعتدى عليه.

والمراد: ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى بأن تتعرضوا لها بسوء.

وخصت بالذكر مع أنها من الهدى تشريفًا لها واعتناءً بشأنها، لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر. فكأنه قيل: لا تحلوا الهدى وخصوصًا ذوات القلائد منه.

ويجوز أن يراد النهى عن التعرض لنفس القلائد مبالغة فى النهى عن التعرض لذواتها أى: لا تتعرضوا لقلائد الهدى فضلا عن ذاته.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الوجهين بقوله: وأما القلائد ففيها وجهان:

أحدهما: أن يراد بها ذوات القلائد من الهدى وهى البدن. وتعطف على الهدى للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى كقوله ﴿وجبريل وميكال﴾ كأنه قيل: والقلائد منها خصوصا.

والثانى: أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى. على معنى: ولا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها. كما قال ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ فنهى عن إبداء الزينة مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها»[١].

وقوله: ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا﴾ معطوف على قوله: ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾.

وقوله: ﴿آمين﴾ جمع آم من الأم وهو القصد المستقيم. يقال: أممت كذا أى: قصدته أى: ولا تحلوا أذى قوم قاصدين زيارة البيت الحرام بأن تصدوهم عن دخوله حال كونهم يطلبون من ربهم ثوابًا. ورضوانًا لتعبدهم فى بيته المحرم.

ولكن ما المراد بهؤلاء الآمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانًا؟

قال بعضهم: المراد بهم المسلمون الذين يقصدون بيت الله للحج والزيارة. فلا يجوز لأحد أن يمنعهم من ذلك بسبب نزاع أو خصام لأن بيت الله - تعالى - مفتوح للجميع وعلى هذا يكون التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم فى قوله ﴿من ربهم﴾ للتشريف والتكريم.

وجملة ﴿يبتغون فضلا من ربهم ورضوانًا﴾ حال من الضمير المستكن فى قوله ﴿آمين﴾. وقد جىء بها لبيان مقصدهم الشريف، ومسعاهم الجليل.

أى: قصدوا البيت الحرام يبتغون رزقا أو ثوابًا من ربهم، ويبتغون ما هو أكبر من كل ذلك وهو رضاه - سبحانه - عنهم

وعلى هذا القول تكون الآية الكريمة محكمة ولا نسخ فيها، وتكون توجيها عامًا من الله -تعالى- لعباده بعدم التعرض بأذى لمن يقصد زيارة المسجد الحرام من إخوانهم المؤمنين، مهما حدث بينهم من نزاع أو خلاف.

وقال آخرون: المراد بهم المشركون. واستدلوا بما رواه ابن جرير عن السدى من أن الآية

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٠٢.

نزلت فى رجل من بنى ربيعة يقال له الحطيم بن هند، وذلك أنه أتى إلى النبى ﷺ فسأله إلام تدعو؟ فقال له النبى ﷺ : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فقال له : حسن ما تدعو إليه إلا أن لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم، ولعلى أسلم وآتى بهم. فلما خرج مر بسرح من سرح المدينة فساقه وانطلق به.

ثم أقبل من العام القادم حاجا ومعه تجارة عظيمة. فسأل المسلمون النبى ﷺأن يأذن لهم فى التعرض له. فأبى النبى ﷺ ثم نزلت الآية»[١].

وعلى هذا القول يفسر ابتغاء الفضل بمطلق الرزق عن طريق التجارة. وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون انهم على سداد من دينهم، وأن الحج يقربهم من الله، فوصفهم - سبحانه - على حسب ظنهم وزعمهم. ثم نسخ ذلك بقوله - تعالى - ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وعليه يكون ابتغاء الفضل والرضوان عاما الدنيوى والأخروى ولو فى زعم المشركين.

والذى نراه أولى هو القول الأول، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان ما يجب على المؤمنين أن يفعلوه نحو شعائر الله التى هى حدوده وفرائضه ومعالم دينه، ولأن قوله - تعالى - : ﴿يبتغون فضلا من ربهم ورضوانًا﴾ هذا الوصف إنما يليق بالمسلم دون الكافر، إذ المسلمون وحدهم الذين يقصدون بحجهم وزيارتهم لبيت الله الثواب والرضوان منه - سبحانه -.

قال الفخر الرازى : «أمرنا الله فى هذه الآية أن لا نخيف من يقصد بيته من المسلمين، وحرم علينا أخذ الهدى من المهدين إذا كانوا مسلمين. والدليل عليه أول الآية وآخرها.

أما أول الآية فهو : ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ وشعائر الله إنما تليق بنسك المسلمين وطاعتهم لا بنسك الكفار.

وأما آخر الآية فهو قوله : ﴿يبتغون فضلا من ربهم ورضوانًا﴾ وهذا إنما يليق بالمسلم لا بالكافر»[٢].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن استحلال أى شىء من الشعائر التى حرم الله -تعالى - استحلالها، وخصت بالذكر هذه الأمور الأربعة التى عطفت عليها اهتمامًا بشأنها وزجرا للنفوس عن انتهاك حرمتها، لأن هذه الأمور الأربعة منها ما ترغب فيه النفوس بدافع

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٥٧ - بتصرف وتلخيص

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٣٠

شهوة الانتقام، ومنها ما ترغب فيه النفوس بدافع المتعة والميل القلبى، ومنها ما ترغب فيه النفوس بدافع الطمع وحب التملك.

ثم أتبع - سبحانه - هذا النهى ببيان جانب من مظاهر فضله. حيث أباح لهم الصيد بعد الانتهاء من إحرامهم فقال: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾.

أى: وإذا خرجتم من إحرامكم أبيح لكم الصيد، وأبيح لكم أيضًا كل ما كان مباحًا لكم قبل الإحرام.

وإنما خص الصيد بالذكر، لأنهم كانوا يرغبون فيه كثيرًا. كبيرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم. والإشارة إلى أن الذى ينبغى الحرص عليه هو ما يعد قوتا تندفع به الحاجة فقط لا ما يكون من الكماليات ولا ما يكون إرضاء للشهوات.

والأمر فى قوله: ﴿فاصطادوا﴾ للإباحة، لأنه ليس من الواجب على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد. بل يباح له ذلك كما كان الشأن قبل الإحرام ومثله قوله - تعالى - ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض﴾ أى: أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة.

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين على أن يحملهم البغض السابق لقوم لأنهم صدوهم عن المسجد الحرام على أن يمنعوهم من دخوله كما منعهم من دخوله أولئك القوم فقال - تعالى - : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله: ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ لزيادة تقرير مضمونه.

ومعنى ﴿ولا يجرمنكم﴾ ولا يحملنكم مأخوذ من جرمه على كذا إذا حمله عليه، أو معناه: ولا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب، غير أنه فى كسب ما لا خير فيه ومنه الجريمة.

وأصل الجرم: قطع الثمرة من الشجرة، أطلق على الكسب، لأن الكاسب ينقطع لكسبه.

قال صاحب الكشاف: جرم يجرى مجرى «كسب» فى تعديه إلى مفعول واحد واثنين.

تقول: جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا، نحو كسبته إياه. ويقال: أجرمته ذنبا، على نقل المتعدى إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين. كقولهم: أكسبته ذنبا»[1].

والشنآن: البغض الشديد. يقال: شنئت الرجل أشنؤه شنأ وشنأة وشنآنا إذا أبغضته بغضا شديدًا.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٠٢

والمعنى : ولا يحملنكم - أيها المؤمنون - بغضكم الشديد لقوم بسبب أنهم منعوكم من دخول المسجد الحرام، لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم، فإن الشرك إذا كان يبرر هذا العمل، فإن الاسلام - وهو دين العدل والتسامح - لا يبرره ولا يقبله، ولكن الذى يقبله الإسلام هو احترام المسجد الحرام، وفتح الطريق إليه أمام الناس حتى يزداد المؤمن إيمانا، ويفىء العاصى إلى رشده وصوابه.

قال ابن كثير: وقوله : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ أى : ولا يحملنكم بغض قوم، «قد كانوا صدوكم عن المسجد الحرام - وذلك عام الحديبية -، على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد.. فإن العدل واجب على كل أحد. فى كل أحد، وفى كل حال. والعدل، به قامت السموات والأرض.

وقال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وعن زيد بن أسلم، قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه بالحديبية، حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم ناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة. فقال الصحابة. نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فنزلت هذه الآية»[١].

وقوله : ﴿شنآن قوم﴾ مصدر مضاف لمفعوله. أى : لا يحملنكم بغضكم قومًا.

وقوله : ﴿أن صدوكم﴾ - بفتح همزة أن - مفعول لأجله بتقدير اللام. أى : لأن صدوكم. فهو متعلق بالشنآن.

وقوله ﴿أن تعتدوا﴾ فى موضع نصب على أنه مفعول به.

أى : لا يحملنكم بغضكم قوما لصدهم إياكم عن المسجد الحرام الاعتداء عليهم.

وقراءة ﴿أن صدوكم﴾ بفتح الهمزة - هى قراءة الجمهور، وهى تشير إلى أن الصد كان فى الماضى، وهى واضحة ولا إشكال عليها.

قال الجمل : وفى قراءة لأبى عمرو وابن كثير بكسر همزة أن على أنها شرطية وجواب الشرط دل عليه ما قبله. وفيها إشكال من حيث إن الشرط يقتضى أن الأمر المشروط لم يقع. مع أن الصد كان قد وقع. لأنه كان فى عام الحديبية وهى سنة ست. والآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، وكانت مكة عام الفتح فى أيدى المسلمين فكيف يصدون عنه؟ وأجيب بوجهين :

أولهما : لا نسلم أن الصد كان قبل نزول الآية فإن نزولها عام الفتح غير مجمع عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٥

والثانى : أنه وإن سلمنا أن الصد كان متقدما على نزولها فيكون المعنى : إن وقع صد مثل ذلك الصد الذى وقع عام الحديبية - فلا تعتدوا -[١].

قال بعضهم : وهذا لا يمنع من الجزاء على الاعتداء بالمثل، لأن النهى عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرا لنفسه لا للحق. وحينئذ لا يراعى المماثلة ولا يقف عند حدود العدل»[٢].

ثم أمر الله - تعالى - عباده بالتعاون على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات فقال : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

والبر معناه : التوسع فى فعل الخير، وإسداء المعروف إلى الناس.

والتقوى تصفية النفس وتطهيرها وإبعادها عن كل مانهى الله عنه.

قال القرطبى : قال الماوردى : ندب الله - تعالى - إلى التعاون بالبر، وقرنه بالتقوى له، لأن فى التقوى رضا الله، وفى البر رضا الناس. ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته.

والإثم - كما يقول الراغب - اسم للأفعال المبطئة عن الثواب وجمعه آثام، والآثم هو المتحمل للإثم. ثم أطلق على كل ذنب ومعصية.

والعدوان : تجاوز الحدود التى أمر الشارع الناس بالوقوف عندها.

أى : وتعاونوا - أيها المؤمنون - على كل ما هو خير وبر وطاعة لله - تعالى -، ولا تتعاونوا على ارتكاب الآثام ولا على الاعتداء على حدوده، فإن التعاون على الطاعات والخيرات يؤدى إلى السعادة، أما التعاون على ما يغضب الله - تعالى - فيؤدى إلى الشقاء.

قال الألوسى : والجملة عطف على قوله ﴿ولا يجر منكم﴾ من حيث المعنى، فكأنه قيل : لا تعتدوا على قاصدى المسجد الحرام لأجل أن صدوكم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء.

وقال بعضهم : هو استئناف، والوقف على ﴿أن تعتدوا﴾ لازم.

هذا، وفى معنى هذه الجملة الكريمة وردت أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن أبى مسعود الانصارى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى أبدع بى - أى : هلكت دابتى التى أركبها - فاحملنى فقال : « ماعندى ». فقال رجل : يارسول الله، أنا أدله على من يحمله

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٤٥٩
(٢) تفسير المنار جـ٦ ص ١٢٦

فقال رسول الله ﷺ : «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[١] وروى الإمام مسلم - أيضًا - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه. لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[٢].

وقوله - تعالى - ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ تذييل قصد به إنذار الذين يتعاونون على الإثم والعدوان. أى : اتقوا الله - أيها الناس - واخشوه فيما أمركم ونهاكم، فإنه - سبحانه شديد العقاب لمن خالف أمره، وانحرف عن طريقه القويم.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن استحلال ما حرمه الله عليهم من محارم، وعن الإخلال بشىء من أحكامها كما نهتهم عن أن يحملهم بغضهم لغيرهم على الاعتداء عليه وأمرتهم بأن يتعاونوا على فعل الخير الذى ينفعهم وينفع غيرهم من الناس وعلى ما يوصلهم إلى طاعته - سبحانه - وحسن مثوبته، ولا يتعاونوا على الأفعال التى يأثم فاعلها، وعلى مجاوزة حدود الله بالاعتداء على غيرهم. ثم حذرتهم فى نهايتها من العقاب الشديد الذى ينزله سبحانه - بكل من عصاه، وانحرف عن هداه.

ثم شرع - سبحانه - فى بيان المحرمات التى أشار إليها قبل ذلك بقوله : ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ فبين ما يحرم أكله من الحيوان لأسباب معينة فقال - تعالى - :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

(١) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - جـ ٦ ص ٤١ - طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٠
(٢) صحيح مسلم - كتاب العلم - جـ ٨ ص ٦٢

﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

ففى هذه المحرمات يتلى فى قوله - تعالى - ﴿حرمت عليكم الميتة﴾..

والميتة كما يقول ابن جرير - كل ما له نفس - أى دم ونحوه - سائلة من دواب البر وطيره، مما أباح الله أكلها. أهليها ووحشيها فارقتها روحها بغير تذكية.

وقال: بعضهم: الميتة: هو كل مافارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية شرعية، مما أحل الله أكله»[1] أى: حرم الله عليكم - أيها المؤمنون - أكل الميتة لخبث لحمها، ببقاء بعض المواد الضارة فى جسمها.

وقد أجمع العلماء على حرمة أكل الميتة، أما شعرها وعظمها فقال الأحناف بطهارتهما وبجواز الانتفاع بهما. وقال الشافعية بنجاستهما وبعدم جواز استعمالهما.

وقد استثنى العلماء من الميتة المحرمة السمك والجراد. فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن أبى أوفى قال: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد»[2].

وفيهما - أيضًا - من حديث جابر، «إن البحر ألقى حوتًا ميتًا فأكل منه الجيش. فلما قدموا قالوا للنبى ﷺ: فقال: «كلوا رزقًا أخرجه الله لكم: أطعمونا منه إن كان معكم. فأتاه بعضهم بشىء منه»[3].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ: «أحل لنا ميتتان ودمان. فأما الميتتان فالسمك والجراد. وأما الدمان فالكبد والطحال»[4].

وثانى هذه المحرمات ماذكره - سبحانه - فى قوله: ﴿والدم﴾ أى: وحرم عليكم أكل الدم. والمراد به: الدم المسفوح. أى السائل من الحيوان عند التذكية. لقوله - تعالى - فى آية

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٦٧

(٢) أخرجه البخارى فى باب غزوة سيف البحر من كتاب المغازى جـ٥ ص٢١١

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٧

(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٧

أخرى ﴿أو دمًا مسفوحًا﴾[١] وهى خاصة. والآية التى معنا عامة. والخاص مقدم على العام.

وكان أهل الجاهلية يجعلونه فى الماعز ويشوونه ويأكلونه، فحرمه الله - تعالى - لأنه يضر الأجسام. أما الدم الذى يكون جامدًا بأصل خلقته كالكبد والطحال فإنه حلال كما جاء فى حديث ابن عمر الذى سقناه منذ قليل.

وثالث هذه المحرمات ما جاء فى قوله - تعالى - ﴿ولحم الخنزير﴾ أى: وحرم عليكم لحم الخنزير وكذلك شحمه وجلده وجميع أجزائه، لأنه مستقذر تعافه الفطرة، وتتضرر به الأجسام.

وخص لحم الخنزير بالذكر مع أن جميع أجزائه محرمة لأنه هو المقصود بالأكل قال ابن كثير ما ملخصه: وقوله - تعالى - : ﴿ولحم الخنزير﴾ يعنى إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع اجزائه حتى الشحم. كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد.. وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام. فقيل: يارسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود. ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا. هو حرام: ثم قال: قاتل الله اليهود. إن الله لما حرم شحومها جملوه - أى أذابوه - ثم باعوه فأكلوا ثمنه»[٢].

ورابع هذه المحرمات بينه - سبحانه - بقوله: ﴿وما أهل لغير الله به﴾.

الإهلال: رفع الصوت عند رؤية الهلال ثم استعمل لرفع الصوت مطلقًا. ومنه: إهلال الصبى أى: صراخه بعد ولادته، والإهلال بالحج أى رفع الصوت بالتلبية.

وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم، سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا. ثم توسع فيه فقيل لكل ذابح: مهل سمى أو لم يسم. جهر بالتسمية أو لم يجهر.

والمعنى: وحرم عليكم -سبحانه - أن تأكلوا مما ذبح فذكر عليه عند ذبحه غير اسم الله -تعالى- سواء اقتصر على ذكر غيره كقوله عند الذبح باسم الصنم فلان، أو باسم المسيح أوعزير أو فلان، أو جمع بين ذكر الله وذكر غيره بالعطف عليه كقوله: باسم الله واسم فلان.

أما إذا جمع الذابح بين اسم الله واسم غيره بدون عطف بأن قال: باسم الله المسيح نبى الله، أو باسم الله محمد رسول الله، فالأحناف يجوزون الأكل من الذبيحة ويعتبرون ذكر غير الله كلامًا مبتدأً بخلاف العطف فإنه يكون نصا فى ذكر غير الله.

---

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام.

(٢) ابن كثير جـ٢ ص ٧

وجمهور العلماء يحرمون الأكل من الذبيحة متى ذكر مع اسم الله آخر سواء أكان ذلك بالعطف أم بدونه.

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام، وإلى حل ذبائح أهل الكتاب مطلقًا والتحريم هنا ليس لذات الحيوان، بل لما صحبه من عمل فيه شرك بالله - تعالى -

ثم ذكر - سبحانه - أربعة أنواع أخرى من المحرمات فقال: ﴿والمنخنقة والموقوذة، والمتردية، والنطيحة﴾.

والمنخنقة: هى التى تموت خنقًا إما قصدًا بأن يخنقها آدمى. وإما اتفاقًا بأن يعرض لها من ذاتها ما يخنقها.

والموقوذة: هى التى تضرب بمثقل غير محدد كخشب أو حجر حتى تموت وكانوا فى الجاهلية يضربون البهيمة بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها.

والوقذ: شدة الضرب. وفلان وقيذ أى: مثخن ضربًا. ويقال: وقذه يقذه وقذا: ضربه ضربًا حتى استرخى وأشرف على الموت.

قال القرطبى: وفى صحيح مسلم عن عدى بن حاتم قال قلت يارسول الله فإنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب؟ - والمعراض: وهو سهم يرمى به بلا ريش وأكثر ما يصيب بعرض عوده دون حده - فقال النبى ﷺ: «إذا رميت بالمعراض فخزق - أى نفذ وأسال الدم - فكله. وإن أصاب بعرضه فلا تأكله».

والمتردية: هى التى تتردى أى: تسقط من أعلى إلى أسفل فتموت من التردى مأخوذ من الردى بمعنى الهلاك سواء تردت بنفسها أم رداها غيرها.

والنطيحة: هى التى تنطحها أخرى فتموت من النطاح يقال: نطحه ينطحه وينطحه أى أصابه بقرنه.

والمعنى: وحرم الله عليكم كذلك - أيها المؤمنون - الأكل من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، إذا ماتت كل واحدة من هذه الأنواع لهذه الأسباب دون أن تذكوها ذكاة شرعية، لأن الأكل منها فى هذه الحالة يعود عليكم بالضرر.

وتاسع هذه المحرمات ذكره - سبحانه - فى قوله: ﴿وما أكل السبع إلا ماذكيتم﴾.

المراد بالسبع كل ذى ناب وأظفار من الحيوان. كالأسد والنمر والذئب ونحوها من الحيوانات المفترسة.

وقوله ﴿ذكيتم﴾ من التذكية وهى الاتمام. يقال: ذكيت النار إذا أتممت اشتعالها.

والمراد هنا: إسالة الدم وفرى الأوداج فى المذبوح، والنحر فى المنحور.

والمعنى: وحرم عليكم - أيضًا - الأكل مما افترسه السبع حتى مات سواء أكل منه أم لم يأكل، إلا ما أدركتموه من هذه الأنواع وقد بقيت فيه حياة يضطرب معها اضطراب المذبوح وذكيتموه أى ذبحتموه ذبحا شرعيا: فإنه فى هذه الحالة يحل لكم الأكل منه. فقوله ﴿إلا ماذكيتم﴾ الاستثناء هنا يرجع إلى هذه الأنواع الخمسة.

وقيل: إن الاستثناء هنا مختص بقوله: ﴿وما أكل السبع﴾.

أى: وحرم عليكم ما أكل السبع بعضه فمات بسبب جرحه، إلا ما أدركتموه حيا فذكيتموه ذكاة شرعية فإنه فى هذه الحالة يحل الأكل منه، والأول أولى، لأن هذه الأنواع الخمسة تشترك فى أنها تعلقت بها أحوال قد تفضى بها إلى الهلاك، فإن هلكت بتلك الأحوال لم يبح أكلها لأنها حينئذ ميتة، وإذا أدركت بالذكاة فى وقت تنفع فيه الذكاة لها جاز الأكل منها.

أما النوع العاشر من هذه المحرمات فيتجلى فى قوله - تعالى - ﴿وما ذبح على النصب﴾ والنصب: جمع نصاب: ككتب وكتاب. أو جمع نصب كسقف وسقف. ويصح أن يكون لفظ النصب واحدًا وجمعه أنصاب مثل: طنب أطناب.

وعلى كل فهى حجارة كان الجاهليون ينصبونها حول الكعبة، وكان عددها ثلاثمائة وستين حجرًا، وكانوا يذبحون عليها قرابينهم التى يتقربون بها إلى أصنامهم. ويعتبرون الذبح أكثر قربة إلى معبوداتهم متى تم على هذه النصب. وليست هذه النصب هى الأوثان، فإن النصب حجارة غير منقوشة بخلاف الأوثان فإنها حجارة مصورة منقوشة.

والمعنى: وحرم عليكم - سبحانه - أن تأكلوا مما ذبح على النصب لأنه لم يتقرب به إلى الله، وإنما تقرب به إلى الأصنام وما تقرب به إلى غير الله فهو فسق ورجس يجب البعد عنه.

هذه عشرة أنواع من المأكولات حرمت الآية الكريمة الأكل منها، لما اشتملت عليه من مضرة وأذى، ولما صاحب بعضها من تقرب لغير الله، ويكفى لتجنب الأكل من هذه المطعومات أن الله - تعالى - قد حرمها، لأنه - سبحانه - لا يحرم إلا الخبائث. ومن شأن المؤمن الصادق فى إيمانه أن يقف عند ما أحله الله - تعالى - وحرم.

ثم ذكر - سبحانه - نوعا من الأفعال المحرمة، بعد ذكره لعشرة أنواع من المطاعم المحرمة فقال: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾.

وإنما ذكر - سبحانه - هذا الفعل المحرم مع جملة المطاعم المحرمة، لأنه مما ابتدعه أهل الجاهلية؛ كما ابتدعوا ما ابتدعوه فى شأن المطاعم.

والاستقسام : طلب معرفة ما قسم للإنسان من خير أو شر.

والأزلام : قداح الميسر واحدها زلم - بفتح اللام وبفتح الزاى أو ضمها - وسميت قداح الميسر بالأزلام، لأنها زلمت أى سويت، ويقال : رجل مزلم وامرأة مزلمة، إذا كان جيد القد، جميل القوام.

وكان لأهل الجاهلية طرق للاستقسام بالأزلام من أشهرها : أنه كانت لديهم سهام مكتوب على أحدها : أمرنى ربى وعلى الآخر : نهانى ربى. والثالث غفل من الكتابة، فإذا أرادوا سفرًا أو حربًا أو زواجًا أو غير ذلك أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها فإن خرج الآمر أقدموا على مايريدونه وإن خرج الناهى امسكوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية حتى يخرج الآمر أو الناهى.

والمعنى : وحرم عليكم - سبحانه - أن تطلبوا معرفة ما قسم لكم فى سفر أو غزو أو زواج أو ما يشبه ذلك بواسطة الأزلام، لأن هذا الفعل فسق، أى : خروج عن أمر الله وطاعته.

فاسم الإشارة «ذلكم» يعود إلى الاستقسام بالأزلام خاصة. ويجوز أن يعود إليه وإلى تناول ما حرم عليهم.

قال ابن كثير: وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها. وفى أيديهما الأزلام. فقال ﷺ : «قاتلهم الله. لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا».

وثبت فى الصحيحين أيضًا أن سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج فى طلب النبى ﷺ وأبى بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين : قال فاستقسمت بالأزلام. هل أضرهم أولا؟ فخرج الذى أكره : لاتضرهم، قال : فعصيت الأزلام واتبعتهم. ثم استقسم بها ثانية وثالثة. كل ذلك يخرج الذى يكره : لا تضرهم. وكان كذلك وكان سراقة لم يسلم إذ ذاك، ثم أسلم بعد ذلك»[1].

فإن قيل إن الاستقسام بالأزلام هو لون من التفاؤل، وكان ﷺ يحب الفأل الحسن فلم صار فسقًا؟

فالجواب أن هناك فرقا واسعًا بين الاستقسام بالأزلام وبين الفأل؛ فإن الفأل أمر اتفاقى تنفعل به النفس وتنشرح للعمل مع رجاء الخير منه بخلاف الاستقسام بالأزلام فان القوم كانوا يستقسمون بالأزلام عند الأصنام ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهى على تلك الأزلام

(١) ابن كثير ج٣ ص١١.

بإرشاد من الأصنام فلهذا كان الاستقسام بها فسقا وخروجا عن طاعة الله.

وفضلا عن هذا فإن الاستقسام بالأزلام طلب لمعرفة علم الغيب الذى استأثر الله به، وذلك حرام وافتراء على الله - تعالى -

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد ذكرت أحد عشر نوعًا من المحرمات عشرة منها تتعلق بالمأكولات، وواحدا يتعلق بالأفعال.

وهناك مطعومات أخرى جاء تحريمها عن طريق السنة النبوية، كتحريمه ﷺ الأكل من لحوم الحمر الأهلية.

وبعد أن بين - سبحانه - هذه الأنواع من المحرمات التى حرمها على المؤمنين رحمة بهم، ورعاية لهم، أتبع ذلك ببيان مظاهر فضله عليهم، وأمرهم بأن يجعلوا خشيتهم منه وحده، فقال - تعالى - : ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون﴾.

وقوله ﴿اليوم﴾ ظرف منصوب على الظرفية بقوله ﴿يئس﴾. والألف واللام فيه للعهد الحضورى، فيكون المراد به يوما معينًا وهو يوم عرفة من عام حجة الوداع.

ويصح أن لا يكون المراد به يوما بعينه، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية.

وقد حكى الإمام الرازى هذين الوجهين فقال ما ملخصه: وقوله: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ فيه قولان:

الأول: أنه ليس المراد به ذلك اليوم بعينه حتى يقال إنهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان أى لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار، لأنكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم فى توهين أمركم، ونظيره قوله: كنت بالأمس شابا واليوم قد صرت شيخًا. لا يريد بالأمس اليوم الذى قبل يومك، ولا باليوم يومك الذى أنت فيه.

الثانى: أن المراد به يوم نزول هذه الآية. وقد نزلت يوم الجمعة من يوم عرفة بعد العصر فى عام حجة الوداع سنة عشر من الهجرة، والنبى ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء»[1]

وقوله: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أى انقطع رجاؤهم فى التغلب عليكم، وفى إبطال أمر دينكم. وفى صرف الناس عنه بعد أن دخلوا فيه أفواجًا وبعد أن صار المشركون

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٣٧.

مقهورين لكم. أذلة أمام قوتكم. ومادام الأمر كذلك ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أى: فلا تجعلوا مكانًا لخشية المشركين فى قلوبكم فقد ضعفوا واستكانوا، بل اجعلوا خشيتكم وخوفكم وهيبتكم من الله وحده الذى جعل لكم الغلبة والنصر عليهم.

ثم عقب ذلك - سبحانه - ببيان أكبر نعمه وأعظم منته على هذه الأمة الإسلامية فقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

أى؛ اليوم أكملت لكم حدودى وفرائضى وحلالى وحرامى، ونصرى لكم على أعدائكم وتمكينى إياكم من أداء فريضة الحج دون أن يشارككم فى الطواف بالبيت أحد من المشركين.

وأتممت عليكم نعمتى، بأن أزلت دولة الشرك من مكة، وجعلت كلمتكم هى العليا وكلمة أعدائكم هى السفلى، ورضيت لكم الإسلام دينا، بأن اخترته لكم من بين الأديان. وجعلته الدين المقبول عندى، فيجب عليكم الالتزام بأحكامه وآدابه وأوامره ونواهيه قال -تعالى- : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصا قبل اليوم ثم أكمله، وإنما المراد أن من أحكامه قبل اليوم ما كان مؤقتًا فى علم الله قابلا للنسخ. ولكنها اليوم كملت وصارت مؤبدة وصالحة لكل زمان ومكان، وغير قابلة للنسخ، وقد بسط هذا المعنى كثير من المفسرين فقال الإمام الرازى: قال القفال: إن الدين ما كان ناقصا البتة بل كان أبدًا كاملا. يعنى: كانت الشرائع النازلة من عند الله فى كل وقت كافية فى ذلك الوقت إلا أنه - تعالى - كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ما هو كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ولا صلاح فيه. فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت. وكان يزيد بعد العدم. وأما فى آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة. فالشرع أبدًا كان كاملا. إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص. والثانى كمال إلى يوم القيامة. فلأجل هذا قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾(١).

وقال القرطبى ما ملخصه: لعل قائلا يقول: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يدل على أن الدين كان غير كامل فى وقت من الأوقات. وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار. قبل نزول هذه الآية - ماتوا على دين ناقص. ومعلوم أن النقص عيب؟

فالجواب أن يقال له: لم قلت إن كل نقص فهو عيب وما دليلك عليه؟ ثم يقال له: أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيبا، ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها..؟ لاشك أن هذا النقصان ليس بعيب.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٣٨.

وقوله : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يخرج على وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذى كان له عندى فيما قضيته وقدرته، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصا نقصان عيب، لكنه يوصف بنقصان مقيد فيقال له : إنه كان ناقصًا عما كان عند الله أنه ملحقه به، وضامه إليه. . وهكذا شرائع الإسلام شرعها الله شيئًا فشيئًا إلى أن أنهى - سبحانه وتعالى - الدين منتهاه الذى كان له عنده.

وثانيهما : أنه أراد بقوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أنه وفقهم للحج الذى لم يكن بقى عليهم من أركان الدين غيره، فحجوا فاستجمع لهم الدين أداء لأركانه، وقياما بفرائضه وفى الحديث : «بنى الإسلام على خمس» وقد كانوا تشهدوا، وصلوا، وزكوا، وصاموا، وجاهدوا، واعتمروا، ولم يكونوا حجوا، فلما حجوا ذلك اليوم مع النبى ﷺ أنزل الله وهم بالموقف عشية عرفة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾. أى : أكمل وضعه لهم.

وقد روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرءونها لو علينا أنزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال وأى آية؟ قال : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه والمكان الذى أنزلت فيه نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة فى يوم جمعة».

وروى أنها لما نزلت فى يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله - ﷺ بكى عمر، فقال له ما يبكيك؟ فقال : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص فقال له النبى ﷺ : «صدقت»(١).

وبعد أن ذكر - سبحانه - فى صدر الآية أحد عشر نوعا من المحرمات، وأتبع ذلك ببيان إكمال الذين وإتمام النعمة على المؤمنين. جاء ختام الآية لبيان حكم المضطر إلى أكل شىء من هذه المحرمات فقال - تعالى - : ﴿فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾.

وقوله ﴿اضطر﴾ من الاضطرار بمعنى الوقوع فى الضرورة.

والمخمصة : خلو البطن من الغذاء عند الجوع الشديد. يقال خمصه الجوع خمصا ومخمصة. إذا اشتد به. وفى الحيث : «إن الطير تغدو خماصًا - أى جياعا ضامرات البطون - وتروح بطانا - أى مشبعات». وقال الأعشى :

يبيتون فى المشتى ملاءً بطونهم ... وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٦١ - بتصرف وتلخيص -.

أى : وجاراتهم جوعى وقد ضمرت بطونهن من شدة الجوع.

وقوله ﴿متجانف﴾ من الجنف وهو الميل، يقال : جنف عن الحق - كفرح - إذا مال عنه وجنف عن طريقه - كفرح وضرب - جنفا وجنوفًا إذا مال عنه.

والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى كل شىء من هذه المحرمات فى مجاعة شديدة حالة كونه غير مائل إلى ارتكاب إثم من الآثام فلا ذنب عليه فى ذلك لأن الله - تعالى - واسع المغفرة. فهو بكرمه يغفر لعباده تناول ما كان محرما إذا اضطروا إلى تناوله لدفع الضرورة بدون بغى أو تعد، وهو واسع الرحمة حيث أباح لهم ما يدفع عنهم الضرر ولو كان محرما.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿غير متجانف لإثم﴾ أى غير مائل ومنحرف إليه ومختار له بأن يأكل منها زائدًا على ما يمسك رمقه فإن ذلك حرام. وقيل : يجوز أن يشبع عند الضرورة. وقيل : المراد غير عاص بأن يكون باغيا أو عاديا بأن ينزعها من مضطر آخر أو خارجًا فى معصية[1].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت ما يحرم فى حالة الاختيار، وما يحل فى حالة الاضطرار. وجاءت بين ذلك بجمل معترضة - وهى قوله ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ إلى قوله : ﴿ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ لتأكيد تحريم هذه الأشياء، لأن تحريمها من جملة الدين الكامل، والنعمة التامة، والإسلام المرضى عند الله.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ما يأتى :

١ - حرمة هذه الأنواع الأحد عشر التى ذكرها الله - تعالى - فى هذه الآية ووجوب الابتعاد عنها لأنها رجس أو فسق، ولأن استحلال شىء منها يكون خروجا عن تعاليم دين الله، وانتهاكا لحرماته.

٢ - حل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، متى ذبحت ذبحا شرعيًا وكانت بها بقية حياة تجعلها تضطرب بعد ذبحها اضطراب المذبوح.

وللفقهاء كلام طويل فى ذلك يؤخذ منه اتفاقهم على أن الخنق وما معه إذا لم يبلغ بالحيوان إلى درجة اليأس من حياته بأن غلب على الظن أنه يعيش مع هذه الحالة كانت الذكاة محللة له. أما إذا غلب على الظن أنه يهلك بما حصل له بسبب الخنق أو الوقذ أو التردى أو النطح أو أكل السبع منه، فقد أفتى كثير من العلماء بعمل الذكاة فيه، وقد أخذ بذلك الأحناف. فقد قالوا : متى كانت عينه أو ذنبه يتحرك أو رجله تركض ثم ذكى فهو حلال.

وقال قوم لا تعمل الذكاة فيه ويحرم أكله.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص٦١.

ومنشأ اختلافهم فى أن الذكاة تعمل أولا تعمل يعود إلى : هل الاستثناء هنا متصل أو منقطع ؟

فمن قال إنه متصل يرى أنه أخرج من الجنس بعض ما تناوله اللفظ، فما قبل حرف الاستثناء حرام، وما بعده خرج منه فيكون حلالا.

ومن قال إنه منقطع يرى أنه لا تأثير للاستثناء فى الجملة المتقدمة. وكأنه قال : ما ذكيتموه من غير الحيوانات المتقدمة فهو حلال أباح الله لكم التمتع به. أما هذه الحيوانات التى حرمها الله فى الآية فلا يجوز لكم الأكل منها مطلقا.

وقد رجح المحققون من العلماء أن الاستثناء متصل، وقالوا : يؤيد القول بأن الاستثناء متصل الإجماع على أن الذكاة تحلل ما يغلب على الظن أنه يعيش فيكون مخرجًا لبعض ما يتناوله المستثنى منه، فيكون الاستثناء فيه متصلا.

هذا ملخص لما قاله العلماء فى هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب الفروع.

٣ - إباحة تناول هذه المحرمات عند الضرورة لدفع الضرر، وأن هذه الاباحة مقيدة بقيود ذكرها الفقهاء من أهمها قيدان.

الأول : أن يقصد بالتناول دفع الضرر فقط.

الثانى : ألا يتجاوز ما يسد الحاجة، أما إذا قصد التلذذ أو إرضاء الشهوة، أو تجاوز المقدار الذى يدفع الضرر فإنه فى هذه الأحوال يكون واقعا فى المحرم الذى نهى الله عنه.

وقد تكلم الإمام ابن كثير عن هذه المسألة فقال : قوله - تعالى - ﴿فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾. أى : فمن احتاج إلى تناول شىء من هذه المحرمات التى ذكرها الله لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور له رحيم به، لأنه - تعالى - يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفر له.

وفى المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر - مرفوعا - قال : رسول الله ﷺ «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته».

ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجبا فى بعض الأحيان، وهو إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوبا، وقد يكون مباحًا بحسب الأحوال. واختلفوا : هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أوله أن يشبع ويتزود على أقوال، وليس من شرط تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعامًا، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم - بل متى اضطر إلى ذلك جاز له.

وقد روى الامام أحمد عن أبى واقد الليثى أنهم قالوا : يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها

المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقلا فشأنكم بها».

والأصطباح شرب اللبن بالغداة فما دون القائلة، وما كان منه بالعشى فهو الاغتباق ومعنى لم تحتفئوا: أى تقتلعوا.

وقوله: ﴿غير متجانف لاثم﴾ أى متعاط لمعصية الله.

وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصى بسفره لا يترخص بشىء من رخص السفر، لأن الرخص لاتنال بالمعاصى(١).

٤ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - ﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ أن الاستقسام بالأزلام محرم، ومحرم أيضًا كل ما يشبهه من القمار والتنجيم والرمل وما إلى ذلك قال بعض العلماء: من عمل بالأيام فى السعد والنحس معتقدًا أن لها تأثيرًا كفر وإن لم يعتقد أثم.

وقد روى أبو داود والنسائى وابن حبان عن قطن بن قبيصة، عن أبيه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يخط فى الأرض. وقيل: الطرق الضرب بالحصى الذى تفعله النساء.

وفى القاموس: عفت الطير عيافة زجرتها. وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها فتسعد وتتشاءم. وهو من عادة العرب كثيرًا. والطيرة: من اطيرت وتطيرت وهو ما يتشاءم من الفأل الردىء، وفى الحديث أنه ﷺ كان يحب الفأل ويكره الطيرة(٢).

والجبت: كل ما عبد من دون الله.

وقد روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى ﷺ أنه قال: «من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»

وروى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من أتى عرافًا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد -ﷺ-».

وعن عمران بن حصين مرفوعا: ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٤ - بتصرف وتلخيص -

(٢) لسان العرب جـ٦ ص١٨٤.

(٣) تفسير القاسمى جـ٦ ص١٨٣١.

٥ - استدل بعضهم بقوله - تعالى - ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ على نفى القياس وبطلان العمل به لأن إكمال الدين يقتضى أنه نص على أحكام جميع الوقائع إذ لو بقى بعض لم يبين حكمه لم يكن الدين كاملا.

وأجيب على ذلك بأن غاية ما يقتضيه إكمال الدين أن يكون الله - تعالى - قد أبان الطرق لجميع الأحكام وقد أمر الله بالقياس، وتعبد المكلفين به بمثل قوله - تعالى - ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾. فكان هذا مع النصوص الصريحة بيانًا لكل أحكام الوقائع، غاية الأمر أن الوقائع صارت قسمين: قسما نص الله على حكمه، وقسما أرشد الله - تعالى - إلى أنه يمكن استنباط الحكم فيه من القسم الأول. فلم تصلح الآية متمسكا لهم(١).

٦ - الآية الكريمة قد اشتملت على بشارات لأبناء هذه الأمة الإسلامية فقد بشرتهم - أولا - بأن أعداءهم قد انقطع رجاؤهم فى إبطال أمر الإسلام أو تحريفه أو تبديل أحكامه التى كتب الله لها البقاء.

وها نحن أولا. نراجع التاريخ فنرى المسلمين قد تغلب عليهم أعداؤهم فى معارك حربية ولكن هؤلاء الأعداء لم يستطيعوا التغلب على أحكام هذا الدين ومبادئه. بل بقيت محفوظة يتناقلها الخلف عن السلف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولقد روى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة حجة الوداع: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكنه رضى بالتحريش بينهم».

وبشرتهم - ثانيا - بإكمال هذا الدين، فأنت ترى نصوصه وافية بكل ما يحتاج إليه البشر، إما بالنص على كل مسألة يحتاجون إليها، أو باندراج هذه المسألة أو المسائل تحت العمومات الشاملة والمبادىء الكلية التى جاء بها دين الاسلام المكتمل فى عقائده وفى تشريعاته وفى آدابه، وفى غير ذلك مما يسعد الانسان.

وبشرتهم - ثالثا - بإتمام نعمة الله عليهم. وأى نعمة أتم على المؤمنين من إخراج الله إياهم من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية ومن تمكينه لهم فى الأرض واستخلافهم فيها، وجعل كلمتهم العليا بعد أن كانوا فى ضعف من أمرهم وفساد فى أحوالهم.

وبشرتهم - رابعا - بأن الله قد اختار لهم الإسلام دينا، وجعله هو الدين المرضى عنده وهو الذى يجب على الناس أن يدخلوا فيه، وأن يعملوا بأوامره ونواهيه، لأنه من الحمق والغباء أن يبتعد إنسان عن الدين الذى اختاره الله وارتضاه ليختاره لنفسه طريقًا من نزغات نفسه وهواه.

(١) تفسير آيات الأحكام جـ٢ ص١٦٤ للأستاذ الشيخ محمد على السايس.

وهذه بعض الأحكام والآداب التى استلهمها العلماء من الآية الكريمة. وهناك أحكام أخرى ذكرناها خلال تفسيرنا لألفاظ الآية الكريمة.

وبعد أن بين - سبحانه - أنواعًا من: المحرمات. شرع فى بيان ما أحله لهم من طيبات فقال - تعالى -

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا: يارسول الله، قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية[1].

والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد ما الذى أحل لهم من المطاعم بعد أن عرفوا ما حرم منها؟ قل لهم أحل الله لكم الطيبات.

والطيبات: جمع طيب وهو الشىء المستلذ. وفسره بعضهم بالحلال.

أى: قل لهم أحل الله لكم الأطعمة الطيبة التى تستلذها النفوس المستقيمة وتستطيبها ولا تستقذرها، والتى لم يرد فى الشرع ما يحرمها ويمنع من تناولها.

وفى قوله ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ التفات من الحاضر إلى الغائب، لأن فى السياق حكاية عنهم كما يقال: أقسم فلان ليفعلن كذا، لأن هذا الالتفات أدعى إلى تنبيه الأذهان، وتوجيهها إلى ما يراد منها.

وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يتولى الجواب عن سؤالهم لأنه هو المبلغ للرسالة وهو المبين لهم ما خفى عليهم من أمور دينهم ودنياهم.

وقوله ﴿ماذا﴾ اسم استفهام مبتدأ، وقوله ﴿أحل لهم﴾ خبره كقولك: أى شىء أحل لهم. وجواب سؤالهم جاء فى قوله تعالى: ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾.

وقوله: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ معطوف على الطيبات بتقدير مضاف و ﴿ما﴾ موصولة. والعائد محذوف.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٥.

و ﴿الجوارح﴾ جمع جارحة. وهى - كما يقول ابن جرير - الكواسب من سباع البهائم والطير. سميت جوارح لجرحها لأربابها، وكسبها إياهم أقواتهم من الصيد. يقال منه : جرح فلان لأهله خيرًا. إذا أكسبهم خيرًا وفلان جارحة أهله. يعنى بذلك : كاسبهم، ويقال : لا جارحة لفلانة إذا لم يكن لها كاسب».

ومنه قوله - تعالى - ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾(١) أى : كسبتم بالنهار. وقيل : سميت جوارح لأنها تجرح الصيد عند إمساكه.

وقوله : ﴿مكلبين﴾ أى : مؤدبين ومعودين لها على الصيد. فالتكليب : تعليم الكلاب وما يشبهها الصيد. فهو اسم فاعل مشتق من اسم هذا الحيوان المعروف لأن التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب. أو هو مشتق من الكلب بمعنى الضراوة. يقال : كلب الكلب يكلب واستكلب أى : ضرى وتعود نهش غيره وهو حال من فاعل علمتم.

والمعنى : أحل الله لكم الطيبات، وأحل لكم صيد ما علمتموه من الجوارج حال كونكم مؤدبين ومعودين لها على الصيد.

وقوله : ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ فى محل نصب على أنه حال ثانية من فاعل ﴿علمتم﴾ أو من الضمير المستتر فى ﴿مكلبين﴾.

أى : تعلمون هذه الجوارح بعض ماعلمكم الله إياه من فنون العلم والمعرفة بأن تدربوهن على وسائل التحايل وعلى الطرق المتنوعة للاصطياد وعلى الانقياد لأمركم عند الإرسال وعند الطلب، وعلى عدم الأكل من المصيد بعد صيده.

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان بعض مظاهر فضل الله على الناس، حيث منحهم العلم الذى عن طريقه علموا غيرهم ما يريدونه منه، وسخروا هذا الغير لمنفعتهم ومصلحتهم.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : قوله : ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ عطف على الطيبات : أى : أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح، فحذف المضاف أو تجعل «ما» شرطية وجوابها ﴿فكلوا﴾ والجوارح : الكواسب من سباع البهائم والطير، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازى، والمكلب : مؤدب الجوارح ومغريها بالصيد لصاحبها، ورائضهاذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب.

وانتصاب ﴿مكلبين﴾ على الحال من ﴿علمتم﴾.

فإن قلت : ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم؟ قلت : فائدتها أن يكون من يعلم

---

(١) سورة الأنعام. الآية ٦٠.

الجوارح نحريرا فى علمه، مدربا فيه، موصوفا بالتكليب.

قوله - تعالى - ﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية أو استئناف. وفيه فائدة جليلة وهى أن على كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أبرع أهله علما وأكثرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل. فكم من آخذ عن غير متقن، قد ضيع أيامه، وعض عند لقاء النحارير أنامله[1].

وقوله ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة، ومشيرة إلى نتيجة التعليم وأثره والأمر فيه للإباحة.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿مما أمسكن﴾ تبعيضية؛ إذ من الممسك ما لا يؤكل كالجلد والعظم ونحوهما. ويحتمل أن تكون بيانية أى: فكلوا الصيد وهو ما أمسكن عليكم.

و ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة والعائد محذوف أى: أمسكنه.

وقوله ﴿أمسكن﴾ أى: حبسن وصدن، والضمير المؤنث يعود للجوارح.

وقوله ﴿عليكم﴾ متعلق بأمسكن، وهو هنا بمعنى لكم، والاستعلاء مجازى.

والتقييد بذلك، لإخراج ما أمسكنه لأنفسهن لا لأصحابهن.

والمعنى: إذا علمتم الجوارح وتوفرت شروط الحل فيما تصيده، فكلوا مما أمسكنه محبوسا عليكم ولأجلكم.

والضمير فى ﴿عليه﴾ من قوله: ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ يعود إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾. أى: عند إرسالكم الجوارح للصيد فسموا عليها، ويدل عليه قوله ﷺ لعدى بن حاتم: «وإذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم - الله تعالى - فكل مما أمسك عليك».

وقال بعضهم إنه يعود على المصدر المفهوم من الفعل وهو الأكل. فكأنه قيل: واذكروا اسم الله عند الأكل مما صدن لكم. وقيل: يعود على قوله ﴿مما أمسكن﴾ أى: اذكروا اسم الله على ما أدركتم ذكاته مما أمسكن عليكم الجوارح. ولا بأس من عود الضمير إلى كل ما ذكر، بأن يذكر اسم الله عند إرسال الجوارح، وعند الأكل مما صادته. وعند تذكية الحيوان الذى صادته الجوارح.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾.

أى: واتقوا الله وراقبوه واخشوه فى كل شئونكم واحذروا مخالفة أمره فيما شرع لكم وفيما

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٠٦.

كلفكم به فإنه -تعالى- لا يعجزه شيء، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة أمر الله، وانتهاك محارمه. هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى:

١ - إباحة التمتع بالطيبات التى أحلها الله - تعالى - لعباده، والتى تستطيبها النفوس الكريمة، والعقول القويمة، من مطعومات ومشروبات وغير ذلك مما أحله - سبحانه - لعباده. وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة منها، قوله - تعالى - : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾[١].

٢ - إباحة الصيد بالجوارح بشرط كونها معلمة، وعلامة كونها معلمة أن تسترسل إذا أرسلت، وتنزجر إذا زجرت، وتمسك الصيد ولا تأكل منه، وتعود إلى صاحبها متى دعاها.

ويدخل فى الجوارح - عند جمهور الفقهاء - كل حيوان يصنع صنيع الكلب، وكل طير كذلك، لأن قوله - تعالى - ﴿من الجوارح﴾، يعم كل حيوان يصنع صنيع الكلب. وكان التعبير بمكلبين، لأن الكلاب أكثر الحيوانات استعمالا للصيد.

وقد جاء فى حديث عدى بن حاتم الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال له: «ما علمت من كلب أو باز ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك».

ويرى بعض الفقهاء أن الصيد لا يكون إلا بالكلاب خاصة.

قال القرطبى ما ملخصه: وقد ذكر بعض من صنف فى أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الإباحة تتناول ما علمناه من الجوارح وهو ينتظم الكلب وسائر جوارح الطير. وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع، فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها وبسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل. وهو الأكل من الجوارح. أى: الكواسب من الكلاب وسباع الطير.

وليس فى قوله ﴿مكلبين﴾ دليل على أنه إنما أبيح صيد الكلاب خاصة، وإن كان قد تمسك به من قصر الإباحة على الكلاب خاصة»[٢].

٣ - استدل بعض الفقهاء بقوله - تعالى - ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ على أن الكلب وما يشبهه من الجوارح إذا أكل من الصيد الذى أمسكه، فإنه فى هذه الحالة لا يحل الأكل منه، لأنه لم يمسك لمن أرسله وإنما أمسك لنفسه وبهذا قال الشافعية والحنابلة.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٢.

(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص٦٦.

ويرى المالكية أن الجارح مادام قد عاد بالصيد ولو مأكولا منه، فإنه يجوز الأكل منه، لأنه بعودته بما صاده قد أمسكه على صاحبه.

أما الأحناف فقالوا: إن عاد بأكثره جاز الأكل منه، لأنه فى هذه الحالة يكون قد أمسك لصاحبه، وإن عاد بأقله لا يجوز الأكل منه، لأنه يكون قد أمسك لنفسه. وهذه المسألة بأدلتها الموسعة مبسوطة فى كتب الفقه وفى بعض كتب التفسير(١).

٤ - استدل بعض العلماء بقوله - تعالى - ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ على وجوب التسمية عند إرسال الجوارح للصيد، ولقوله - تعالى - فى آية أخرى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾(٢).

ويرى بعضهم أن الأمر للندب، ويرى فريق ثالث أن التسمية إن تركت عمدا لا يحل الأكل من الصيد.

قال القرطبى: وقد ذهب الجمهور من العلماء إلى أن التسمية لابد منها بالقول عند الإرسال لقوله ﷺ لعدى بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك» فلو لم توجد التسمية على أى وجه كان لم يؤكل الصيد. وهو مذهب أهل الظاهر وجماعة أهل الحديث.

وذهب جماعة من أصحابنا وغيرهم إلى أنه يجوز أكل ما صاده المسلم وذبحه وإن ترك التسمية عمدا، وحملوا الأمر بالتسمية على الندب.

وذهب مالك فى المشهور إلى الفرق بين ترك التسمية عمدا أو سهوا فقال لا تؤكل مع العمد، وتؤكل مع السهو، وهو قول فقهاء الأمصار، وأحد قولى الشافعى»(٣).

ثم حكى - سبحانه - جانبًا آخر من مظاهر نعمه على عباده، ورحمته بهم وتيسيره عليهم فى أمور دينهم ودنياهم فقال:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ٦ ص٦٩. وتفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢١.

(٣) تفسير القرطبى جـ٦ ص٦٨.

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

وقوله ﴿اليوم أحل لكم﴾. يصح أن يراد به اليوم الذى نزلت فيه. فإنه يجوز أن تكون هذه الآية وماقبلها من قوله -تعالى- ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ قد نزلت جميعها فى يوم واحد وهو يوم عرفة من عام حجة الوداع.

ويصح أن يراد به الزمان الحاضر مع ما يتصل به من الماضى والمستقبل. والراد بالطيبات : ما يستطاب ويشتهى مما أحله الشرع.

والمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب : ذبائحهم خاصة. وهذا مذهب جمهور العلماء.

قالوا : لأن ما سوى الذبائح فهى محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب، وبعد أن صارت لهم. فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة. ولأن ما قبل هذه الآية فى بيان حكم الصيد والذبائح . فحمل هذه الآية عليه أولى، لأن سائر الطعام لا يختلف من تولاه من كتابى أو غيره. وإنما تختلف الذكاة. فلما خص أهل الكتاب بالذكر، دل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم.

وقيل المراد بطعام أهل الكتاب هنا : الخبز والحبوب والفاكهة وغير ذلك مما لا يحتاج فيه إلى تذكية. وينسب هذا القول إلى بعض طوائف الشيعة.

وقيل المراد به : ما يتناول ذبائحهم وغيرها من الأطعمة. وقد روى هذا القول عن ابن عباس، وأبى الدرداء، وقتادة ومجاهد وغيرهم.

والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى.

قال الألوسى : وحكم الصابئين كحكم أهل الكتاب عند أبى حنيفة. وقال صاحباه الصابئة صنفان : صنف يقرأون الزبور ويعبدون الملائكة وصنف لا يقرأون كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم.

واختلف العلماء فى حل ذبيحة اليهودى والنصرانى إذا ذكر عليها اسم غير الله - كعزير وعيسى - فقال ابن عمر : لا تحل. وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل. وهو قول الشعبى

وعطاء قالا : فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون»[١].

والمعنى : إن الله أسبغ عليكم نعمه - أيها المؤمنون - وأكمل لكم دينه، ويسر لكم شرعه، ومن مظاهر ذلك أنه - سبحانه - أحل لكم التمتع بالطيبات، كما أحل لكم أن تأكلوا من ذبائح أهل الكتاب. وأن تطعموهم من طعامكم.

قال ابن كثير: وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه ما هو منزه عنه - تعالى وتقدس -[٢].

وإنما قال : ﴿وطعامكم حل لهم﴾ أى يحل لكم ان تطعموهم من طعامكم للتنبيه على أن الحكم مختلف فى الذبائح عن المناكحة. فإن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين، بخلاف إباحة المناكحات فإنها فى جانب واحد، إذ لا يحل لغير المسلم أن يتزوج بمسلمة، لأنه لو جاز ذلك لكان لأزواجهن الكفار ولاية شرعية عليهن، والله - تعالى - لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعيا، بخلاف إباحة الطعام من الجانبين فإنها لا تستلزم محظورًا.

قال بعض العلماء : والجمهور على حل ذبائح أهل الكتاب إذا أهريق الدم، وقد اتفق الجمهور على حل هذه الذبائح، والخلاف عندهم فيما عدا الذبائح التى ثبت حلها بالنص، وأما غير الذبائح فهو قسمان :

القسم الأول : ما لا عمل لهم فيه كالفاكهة والبر وهو حلال بالاتفاق.

والقسم الثانى : ما لهم فيه عمل وهو قسمان - أيضًا - أحدهما، ما يحتمل دخول النجاسات فيه كاستخراج الزيوت من النباتات أو الحيوانات وهذا قد اختلف فيه الفقهاء. فمنهم من منعه لاحتمال النجاسة، ومن هؤلاء : ابن عباس، لأن احتمال النجاسة ثابت، وهو يمنع الحل. وقد تبع هذا الرأى بعض المالكية، ومن هؤلاء الطرطوسى وقد صنف فى تحريم جبن النصارى ويجرى مجرى الجبن الزيت، وعلى هذا الرأى يجرى مجراها السمن الهولاندى وما شابهه. ولكن الجمهور على جواز ذلك مادام لم يثبت أنه اختلط بهذا النوع من الطعام نجاسة، والثانى : المحرم، وهو ما ثبت أنه قد دخله نجاسة بأن دخله أجزاء من الخمر أو الميتة، أو الخنزير، أو غير ذلك من المحرمات»[٣].

---

(١) تفسير الألوسى جـ٦ ص ٦٥

(٢) ابن كثير جـ٢ ص ١٩

(٣) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. مجلة لواء الإسلام العدد الرابع من السنة التاسعة عشرة.

ثم بين - سبحانه - حكم نكاح نساء أهل الكتاب بعد بيان حكم ذبائحهم فقال: ﴿والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذى أخدان﴾.

وقوله: ﴿والمحصنات﴾ عطف على ﴿الطيبات﴾ وهو جمع محصنة.

والإحصان يطلق على معان منها: الإسلام. ولا موضع له هنا لأن الكلام فى غير المسلمات، ويطلق على التزوج، ولا موضع له هنا - أيضًا - لأنه لا يحل تزوج ذات الزوج. ويطلق على العفة وعلى الحرية وهذان المعنيان هما المختاران هنا.

فمن الفقهاء من قال: المراد بالمحصنات من أهل الكتاب هنا العفيفات ويكون الوصف للترغيب فى طلب العفة، والعمل على اختيار من هذه صفتها.

وعلى هذا الرأى يصح الزواج من الكتابيات سواء أكن حرائر أم إماء.

ومنهم من قال: المراد بالمحصنات من أهل الكتاب هنا: الحرائر أى أنه لا يحل الزواج بنساء أهل الكتاب إلا إذا كن حرائر.

والمراد بقوله ﴿أجورهن﴾ أى مهورهن. وعبر عن المهر بالأجر لتأكيد وجوبه. وعدم الاستهانة بأى حق من حقوقهن.

وقوله. محصنين - بكسر الصاد - أى متعففين بالزواج عن اقتراب الفواحش.

يقال أحصن الرجل فهو محصن أى: تعفف فهو متعفف وأحصن بالزواج الرجل فهو محصن - بفتح الصاد - أى: أعفه الزواج عن الوقوع فى الفاحشة.

وقوله ﴿مسافحين﴾ جمع مسافح. والسفاح. الزنا. يقال: سافح الرجل المرأة إذا ارتكب معها فاحشة الزنا، وسمى الزانى مسافحا. لأنه سفح ماءه أى: صبه ضائعًا.

وقوله: ﴿أخدان﴾ جمع خدن - بكسر الخاء وسكون الدال - بمعنى الصديق. ويطلق على الذكر والأنثى.

والمراد بالخدن هنا. المرأة البغى التى يخادنها الرجل أى يصادقها ليرتكب معها فاحشة الزنا. وغالبا ما تكون خاصة به.

والمعنى: وكما أحل الله لكم - أيها المؤمنون - الطيبات من الرزق، وأحل لكم ذبائح أهل الكتاب، وأحل لكم أن تطعموهم من طعامكم، فقد أحل لكم - أيضًا - نكاح المحصنات من المؤمنات. أى العفيفات الحرائر لأنهن أصون لعرضكم. وأنقى لنطفكم، وأحل لكم نكاح

النساء المحصنات أى : الحرائر العفيفات ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى : من اليهود والنصارى.

قال الآلوسى : وتخصيص المحصنات بالذكر فى الموضعين، للحث على ما هو الأولى والأليق، لا لنفى ما عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات بشرطه، صحيح بالاتفاق. وكذا نكاح غير العفائف منهن. وأما الإماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند الإمام الأعظم »[1].

وقوله : ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أى : مهورهن، وهى عوض عن الاستمتاع بهن.

قالوا : وهذا الشرط بيان للأكمل والأولى لا لصحة العقد، إذ لا تتوقف صحة العقد على دفع المهر، إلا أن الأولى هو إيتاء الصداق قبل الدخول.

وقوله : ﴿محصنين غير مسافحين ولامتخذى أخدان﴾ أمر لهم بالعفة والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وقوله ﴿محصنين﴾ حال من فاعل ﴿آتيتموهن﴾.

وقوله : ﴿غير مسافحين﴾ صفة لمحصنين، أو حال من الضمير المستتر فى محصنين.

وقوله : ﴿ولا متخذى أخدان﴾ يحتمل أن يكون مجرورا على أنه عطف على مسافحين، وزيدت فيه « لا » لتأكيد النفى المستفاد من لفظ غير. ويحتمل أن يكون منصوبا على أنه عطف على ﴿غير مسافحين﴾.

والمعنى : أبحنا لكم الزواج بالكتابيات المحصنات لتشكروا الله - تعالى - على تيسيره لكم فيما شرع، ولتطلبوا من وراء زواجكم العفة والبعد عن الفواحش، والصون لأنفسكم ولأنفس أزواجكم عن انتهاك حرمات الله فى السر أو العلن.

وقدم - سبحانه - المحصنات من المؤمنات على المحصنات من الذين أوتوا الكتاب للتنبيه على أن المحصنات من المؤمنات أحق باختيار الزواج بهن من غيرهن، وأن المحصنة المؤمنة الزواج بها أولى وأجدر وأحسن من الزواج بالمحصنة الكتابية.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله، وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

أى : ومن يكفر بشرائع الله وبتكاليفه التى أنزلها على نبيه ﷺ فقد حبط عمله، أى : خاب سعيه. وفسد عمله الذى عمله. وهو فى الآخرة من الهالكين الذين ضيعوا ما عملوه فى الدنيا من أعمال بسبب انتهاكهم لحرمات الله وأحكام دينه.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ٦٥ - بتصرف يسير.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة : الترهيب من مخالفة أوامر الله والترغيب فى طاعته -سبحانه-.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من الآية الكريمة :

١ - إباحة التمتع بالطيبات التى أنعم بها - سبحانه - على عباده، ولم يرد نص بحرمتها.

٢ - إباحة الأكل من ذبائح أهل الكتاب وإباحة إطعامهم من طعامنا.

٣ - الترغيب فى نكاح المرأة المحصنة أى التى أحصنت نفسها عن الفواحش وصانتها عن كل ريبة واعتصمت بالعفاف والشرف، وكان سلوكها المستقيم دليلا على أنها متمسكة بتعاليم دينها. وبالآداب الحميدة التى جاءت بها شريعة الإسلام.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»

ومعنى (تربت يداك) : افتقرت وندمت إن لم تبحث عن ذات الدين، وتجعلها محط طلبك للزواج بها.

وروى أبو داود والنسائى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن امرأتى لا تمنع يد لامس. قال ﷺ : «غربها -أى طلقها-». قال : أخاف أن تتبعها نفسى - أى : أرتكب معها ما نهى الله عنه بعد طلاقها - قال ﷺ : «فاستمتع بها». أى أبقها مع المحافظة عليها[1].

٤ - إباحة نكاح النساء الكتابيات - وهذا مذهب أكثر الفقهاء، لأن هذا هو الظاهر من معنى قوله تعالى : ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾.

قال ابن كثير : وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ويقول : لا أعلم شركا أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى، وقد قال الله - تعالى - ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ :

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ فحجز الناس عنهن حتى نزلت : ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب.

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ٢ ص ٢٧٧ للشيخ منصور على ناصف

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأسا أخذا بهذه الآية، وجعلوها مخصصة للتى فى سورة البقرة وهى قوله - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ إن قيل بدخول الكتابيات فى عمومها. وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غير موضع. كقوله - تعالى - ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾(١).

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أخذه الجمهور على عمومه، فأباحوا التزوج من أهل الكتاب وإن غيروا وبدلوا، ذميين كانوا أو حربيين. وقيده جماعة بالذميين دون الحربيين.

وذهب جماعة من السلف إلى أن أهل الكتاب قد غيروا أو بدلوا وعبدوا المسيح. وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة. فهم بذلك والمشركون فى العقيدة سواء وقد حرم الله التزوج من المشركات ونسب هذا الرأى إلى عبدالله بن عمر وغيره من الصحابة.

وتأولوا الآية بوجوه أقر بها أنها رخصة خاصة فى الوقت الذى نزلت فيه. قال عطاء : إنما رخص الله فى التزوج بالكتابية فى ذلك الوقت؛ لأنه كان فى المسلمات قلة. أما الآن ففيهن الكثرة العظيمة، فزالت الحاجة فلا جرم زالت الرخصة.

والذى نراه فى المسألة أنه ليس فى الآية ما يدل على أنه رخصة، ولا نعلم فى الشريعة ما يدل على أنه رخصة. والآية دالة على الإباحة المطلقة، ولم تقيد بوقت خاص، ولا بحالة خاصة.

نعم إن ما نراه اليوم فى بعض المسلمين من رغبة التزوج بنساء الإفرنج لا لغاية سوى أنها إفرنجية. ثم يضع نفسه وأولاده تحت تصرفها فتنشئهم على تقاليدها وعاداتها التى تأباها تعاليم الإسلام.

نعم إن ما نراه من كل ذلك يجعلنا نوجب على الحكومات التى تدين بالإسلام وتغار على قوميتها وشعائرها. . أن تمنع من التزوج بالكتابيات، وأن تضع حدا لهؤلاء الذين ينسلخون عن قوامتهم على المرأة. حفاظًا على مبادىء الدين وعلى عقيدة أولاد المسلمين.

وإن العمل على تقييد هذا الحكم فى التشريع الإسلامى أو منعه، لألزم وأوجب مما تقوم به بعض الحكومات الإسلامية، أو تحاول أن تقوم به، من تحديد سن الزواج للفتاة. وتقييد تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق، وما إلى ذلك من التشريعات التى ينشط لها كثير من رجال الحكم، سيرًا وراء مدنية الغرب المظلمة.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٠

ألا وإن انحلال الكثرة الغالبة ممن يميلون إلى التزوج بالكتابيات للمعانى التى أشرنا إليها لما يوجب الوقوف أمام هذه الإباحة التى أصبحت حالتنا لا تتفق والغرض المقصود منها.

وهذا معنى تشهد به كليات الدين وقواعده التى يتجلى فيها شدة حرصه على حفظ شخصية الأمة الإسلامية، وعدم انحلالها وفنائها فى غيرها»[١].

وبعد أن بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فيما يتعلق بمطاعمهم. وفيما يتعلق بما يحل لهم من النساء. أتبع ذلك ببيان مظاهر فضله عليهم فيما يتعلق بعبادتهم التى من أهمها الوضوء، والغسل. والصلاة. وأمرهم بالمحافظة على ما شرعه لهم من شرائع وأحكام فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ
وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ
أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا
فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم
بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٣٠. لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود شلتوت.

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - افتتح السورة بقوله : ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية.

فقوله : ﴿أوفوا بالعقود﴾ طلب الله -تعالى- من عباده أن يفوا بعهد العبودية. فكأنما قيل : يا إلهنا العهد نوعان : عهد الربوبية منك وعهد العبودية منا فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان. فقال - تعالى - : نعم أنا أوفى أولا بعهد الربوبية والكرم.

معلوم أن منافع الدنيا محصورة فى نوعين : لذات المطعم، ولذات المنكح فاستقصى - سبحانه - فى بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح. وعند تمام هذا البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب فى الدنيا من المنافع واللذات فاشتغل أنت فى الدنيا بالوفاء بعهد العبودية.

ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ -سبحانه- بذكر فرائض الوضوء فقال : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾[1].

والمراد بالقيام إلى الصلاة إرادة القيام اليها، والتهيؤ للدخول فيها من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب، للايجاز وللتنبيه على أن الشأن فى المؤمنين أن يكونوا دائمًا على ذكر من إرادتها وعدم الإهمال فى أدائها.

وإنما قلنا المراد بالقيام إلى الصلاة إرادتها لأنه لو بقى الكلام على حقيقته للزم تأخير الوضوء عن الصلاة، وهذا باطل بالاجماع.

وليس المراد بالقيام انتصاب القامة أو مايشبه ذلك، بل المراد به الاشتغال بأفعال الصلاة وأقوالها وكل ما يتعلق بذاتها.

قال الآلوسى ما ملخصه : وظاهر الآية يفيد وجوب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثا نظرا إلى عموم ﴿الذين آمنوا﴾ من غير اختصاص بالمحدثين. لكن الاجماع على خلاف ذلك، فقد أخرج مسلم وغيره أن النبى ﷺ صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد. فقال له عمر : يارسول صنعت شيئًا لم تكن تصنعه. فقال ﷺ : «عمدًا فعلته ياعمر».

يعنى : بيانا للجواز. فاستحسن الجمهور كون الآية مقيدة، والمعنى : إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون بقرينة دلالة الحال.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٥٠

ولأنه اشترط الحدث فى البدل وهو التيمم، فلو لم يكن له مدخل فى الوضوء مع المدخلية فى التيمم لم يكن البدل بدلا. وقوله - تعالى - ﴿فلم تجدوا ماء﴾ صريح فى البدلية.

ويحكى عن داود الظاهرى أنه أوجب الوضوء لكل صلاة لأن النبى ﷺ والخلفاء من بعده كانوا يتوضأون لكل صلاة، ورد بأن فعل النبى ﷺ والخلفاء لا يدل على أكثر من الندب والاستحباب وقد ورد: «من توضأ على طهر كتب الله - تعالى - له عشر حسنات»[1].

وقوله: ﴿فاغسلوا﴾ من الغسل وهو إمرار الماء على المحل حتى يسيل عنه وزاد بعضهم: مع الدلك.

وقوله: ﴿وجوهكم﴾ جمع وجه. وهو مأخوذ من المواجهة.

وحد الوجه من مبْدأ سطح الجبهة إلى منتهى الذقن طولا ومن الأذن إلى الأذن عرضًا.

والمرافق: جمع مرْفق - كمنبر ومجلس - وهو ملتقى عظم العضد بعظم الذراع.

والكعبين: تثنية كعب. وهما الجزءان البارزان فى أعلى القدم.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون حدثا أصغر، فاغسلوا وجوهكم، أى: فأسيلوا الماء على وجوهكم، وأسيلوه أيضًا على أيديكم الى المرافق وامسحوا بأيديكم المبللة بالماء رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين.

وهنا توسع الفقهاء وبعض المفسرين فى ذكر مسائل تتعلق بهذه الآية نرى من الواجب الالمام بأهمها فنقول:

أولا: أخذ جمهور الفقهاء من قوله - تعالى - ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ إلخ أن الوضوء لابد فيه من القصد إليه وإرادته لأجل الصلاة لا لأجل أى شىء آخر كالنظافة وغيرها مما يشبهها، وذلك لأن الوضوء عمل من الأعمال التى يقصد بها المسلم الطاعة لله، والنبى ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات» وعليه تكون النية ركنا من أركان الوضوء، فإذا لم يقصد بوضوئه إرادة الصلاة وابتغاء رضاء الله، لم تكن صلاته بهذا الوضوء صحيحة.

وقال الأحناف. إن النية فى الوضوء ليست بفرض. لأن الوضوء ليس عبادة مقصودة لذاتها. وإنما هو وسيلة لغيره وهو الصلاة، والنية إنما هى شرط فى العبادة نفسها وهى الصلاة باعتبارها المقصد، وليست شرطًا فى الوسيلة وهى الوضوء.

وعليه فالوضوء يتحقق بغسل ما يجب غسله من الأعضاء المعروفة، ومسح ما يجب مسحه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص٦٩

منها، وللمسلم أن يصلى بهذا الوضوء ماشاء من الفرائض والنوافل. قالوا: ومما يشهد بأن الوضوء وسيلة لعبادة ظاهر قوله - تعالى - ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ فإنه يدل على أن الصلاة هى المقصودة وهى الغاية أما الوضوء فقد شرع ليكون سبيلا إليها.

ثانيا: قوله ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ اتفق الفقهاء على وجوب غسل الوجه إلا أنهم اختلفوا فى دخول المضمضة والاستنشاق فيه.

فجمهور الفقهاء اتفقوا على أنهما لا يدخلان فى غسل الوجه، بل هما سنتان كان يفعلهما النبى ﷺ وأصحابه قبل غسل الوجه.

وقال بعض الفقهاء: المضمضة والاستنشاق داخلان فى الغسل.

ثالثا: أخذ كثير من الفقهاء من قوله - تعالى - ﴿إلى المرافق﴾.. و﴿إلى الكعبين﴾ أن المرافق داخلة مع اليدين فى وجوب الغسل، وأن الكعبين داخلان مع الرجلين فى وجوب الغسل.

قالوا: لأن ﴿إلى﴾ هنا بمعنى مع، ولأن بعض علماء اللغة وعلى رأسهم سيبويه قد قرروا أن ما بعد إلى إذا كان من نوع ما قبلها دخل فى الحد، وإذا لم يكن من نوعه لم يدخل. وهنا ما بعد إلى من نوع ما قبلها فوجب دخوله فى الحد.

ولأن جعل ما قبل المرفقين حدا، لايصلح أن يكون علامة واضحة على ذلك، ومن شأن العلامات أن تكون واضحة وهذا لا يتأتى إلا بغسل المرفقين والكعبين.

وفضلا عن كل ذلك فالمعروف من وضوء النبى ﷺ أنه كان يغسل المرفقين والكعبين.

قال القرطبى: وهذا هو الصحيح لما رواه الدارقطنى عن جابر أن النبى ﷺ كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه».

ويرى بعض الفقهاء أن غسل المرفقين والكعبين مستحب، لأن الغاية من قوله: ﴿إلى المرافق﴾ و﴿إلى الكعبن﴾ تحتمل أن تدخل المرافق والكعبين فى الوجوب وتحتمل عدم الدخول، ولا وجوب مع الاحتمال.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذه المسألة بقوله: قوله ﴿إلى المرافق﴾ تفيد معنى الغاية مطلقا. فأما دخولها فى الحكم وخروجها، فأمر يدور مع الدليل. فمما فيه دليل على الخروج قوله: ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ لأن الإعسار علة الإنظار. وبوجود الميسرة تزول العلة. ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظرا فى كلتا الحالتين معسرًا وموسرًا. وكذلك ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ لو دخل الليل لوجب الوصال فى الصوم. ومما فيه دليل على الدخول قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره - لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله. ومنه قوله - تعالى -: ﴿من المسجد

الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله ﴿إلى المرافق﴾ و ﴿إلى الكعبين﴾ لا دليل فيه على أحد الأمرين، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها فى الغسل. وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها. وعن النبى ﷺ أنه كان يدير الماء على مرفقيه»[1].

رابعا: أجمع الفقهاء على أن مسح الرأس من أركان الوضوء، لقوله - تعالى - ﴿وامسحوا برءوسكم﴾ إلا أنهم اختلفوا فى مقدار المسح.

فقال المالكية: يجب مسح جميع الرأس أخذا بالاحتياط، وتبعهم فى ذلك الحنابلة.

وقال الشافعية: يكفى مسح أقل ما يطلق عليه اسم المسح أخذا باليقين وقال الحنفية: يفترض مسح ربع الرأس.

ومنشأ الخلاف هنا اعتبار الباء زائدة أو أصلية. فقال المالكية والحنابلة إن الباء كما تكون أصلية تكون - أيضًا - زائدة لتقوية تعلق العامل بالمعمول واعتبارها هنا زائدة أولى، لأن التركيب حينئذ يدل على مسح جميع الرأس، ويكون البعض داخلا فى ذلك.

وقال الأحناف والشافعية الباء هنا للتبعيض، إلا أن البعض لم يقدره الشافعية بمقدار معين، وقدره الأحناف بمقدار ربع الرأس أخذا من حديث المغيرة بن شعبة أن النبى ﷺ كان فى سفر فنزل لحاجته ثم جاء فتوضأ ومسح على ناصيته» قالوا: والناصية تساوى ربع الرأس.

قال بعض العلماء: والسنة الصحيحة وردت بالبيان. وفيها ما يفيد جواز الاقتصار على مسح البعض فى بعض الحالات كما فى صحيح مسلم وغيره من حديث المغيرة أنه ﷺ أدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة. وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أنه مسح رأسه فأقبل وأدبر. وهذه هى التى استمر عليها ﷺ فاقتضى هذا أفضلية الهيئة التى كان يداوم عليها. وهى مسح الرأس مقبلا ومدبرًا. وإجراء غيرها فى بعض الأحوال[2].

خامسًا: قوله تعالى ﴿وأرجلكم﴾ وردت فيه قراءتان متواترتان.

احداهما: بفتح اللام وهى قراءة نافع وابن عامر وحفص والكسائى ويعقوب.

والثانية: بكسر اللام وهى قراءة الباقين.

أما قراءة النصب فعلى أن قوله ﴿وأرجلكم﴾ معطوف على قوله ﴿وجوهكم﴾ أو هو منصوب بفعل مقدر أى: وامسحو برءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين.

وأما قراءة الجر فعلى أن قوله ﴿وأرجلكم﴾ معطوف على ﴿برءوسكم﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٠

(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص١٨٨

قال القرطبى ما ملخصه : فمن قرأ بالنصب جعل العامل «اغسلوا» وبنى على ذلك أن الفرض فى الرجلين الغسل دون المسح. وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء وهو الثابت من فعل النبى ﷺ واللازم من قوله فى غير ماحديث. وقد رأى قوما يتوضئون وأعقابهم تلوح فنادى بأعلى صوته : «ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء» ثم إن الله حدهما فقال : ﴿إلى الكعبين﴾ كما قال فى اليدين ﴿إلى المرافق﴾ فدل على وجوب غسلهما.

ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء. فقال ابن العربى : اتفقت العلماء على وجوب غسلهما، وما علمت من رد ذلك سوى الطبرى من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم. وتعلق الطبرى بقراءة الخفض - أى قال بمسح الرجلين.

ثم قال : وقد قيل : إن قوله ﴿وأرجلكم﴾ بقراءة الخفض - معطوف على اللفظ دون المعنى -أى لفظ الرءوس- وهذا أيضًا يدل على الغسل، فإن المراعى المعنى لا اللفظ وإنما خفض للجوار كما تفعل العرب. وقد جاء هذا فى القرآن وغيره قال - تعالى - ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس﴾ بالجر لأن النحاس هو الدخان.

ثم قال : والقاطع فى الباب من أن فرض الرجلين الغسل ما قدمناه، وما ثبت من قوله ﷺ «ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار» فخوفنا ذكر النار على مخالفة مراد الله. ومعلوم أن النار لا يعذب بها إلا من ترك الواجب. ومعلوم أن المسح ليس من شأنه الاستيعاب. ولاخلاف بين القائلين بالمسح على الرجلين أن ذلك على ظهورهما لا على بطونهما فتبين بهذا الحديث بطلان من قال بالمسح. إذ لا مدخل لمسح بطونهما عندهم، وإنما ذلك يدرك بالغسل لا بالمسح.

ونقل الجمهور كافة عن كافة عن نبيهم ﷺ أنه كان يغسل رجليه فى وضوئه مرة واثنتين وثلاثا حتى ينقيهما. وحسبك بهذا حجة فى الغسل مع ما بيناه فقد وضح وظهر أن قراءة الخفض المعنى فيها الغسل لا المسح وأن العامل فى قوله ﴿وأرجلكم﴾ قوله ﴿فاغسلوا﴾ والعرب قد تعطف الشىء على الشىء بفعل ينفرد به أحدهما. تقول : أكلت الخبز واللبن. أى : وشربت اللبن[1].

وقد عقد الإمام ابن كثير فصلا أورد فيه - عند تفسيره لهذه الآية - كثيرًا من الأحاديث التى وردت فى غسل الرجلين، وجعل عنوانه : «ذكر الأحاديث الواردة فى غسل الرجلين وأنه لابد منه».

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٩١ - ص٩٦.

ومن هذه الاحاديث ماجاء فى الصحيحين والسنن عن عثمان وعلى وابن عباس. أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين فى وضوئه إما مرة، وإما مرتين أو ثلاثا. على اختلاف رواياتهم.

وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال: «هذا وضوء لايقبل الله الصلاة إلا به».

وعن جابر بن عبد الله قال: رأى النبى ﷺ فى رِجْل رَجل مثل الدرهم لم يغسله فقال: «ويل للأعقاب من النار».

ثم قال ابن كثير: ووجه الدلالة من هذه الاحاديث ظاهرة. وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك لما توعد على تركه، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل. بل يجرى فيه ما يجرى فى مسح الخف[1].

ويرى الزمخشرى أن قراءة الجر فى قوله ﴿وأرجلكم﴾ محمولة فى المعنى على النصب ويكون السبب فى عطفها على الرءوس المجرورة، للاشارة إلى وجوب عدم الإسراف فى الماء. فقد قال: فإن قلت: فما تصنع بقراءة الجر ودخولها فى حكم المسح؟ قلت: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها: فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهى عنه، فعطفت على الثالث المسموح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد فى صب الماء عليها.

وقد وضح هذا المعنى الشيخ ابن المنير بقوله: لم يوجه الزمخشرى قراءة الجر بما يشفى الغليل. والوجه فيه أن الغسل والمسح متقاربان من حيث أن كل واحد منهما مساس بالعضو، فيسهل عطف المغسول على الممسوح من ثم، كقوله: متقلدًا سيفًا ورمحًا. وعلفتها تبنا وماء باردا. ونظائره كثيرة.

ثم يقال: ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب؟ وهلا أسند إلى كل واحد منهما الفعل الخاص به على الحقيقة؟ فيقال: فائدته الإيجاز والاختصار. وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلا: واغسلوا أرجلكم غسلا خفيفا لا إسراف فيه كما هو المعتاد، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع الممسوح، ونبه بهذا التشريك - الذى لا يكون إلا فى الفعل الواحد أو الفعلين المتقاربين جدًا. على أن الغسل المطلوب فى الأرجل غسل خفيف يقارب المسح. وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة وهذا تقرير كامل لهذا المقصود»[2].

هذا ومن كل ما تقدم نرى وجوب غسل الرجلين فى الوضوء سواء أكانت القراءة بالنصب أم

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٦

(٢) تفسير الكشاف وحاشيته جـ١ ص ٦١٠

بالجر. وقد بسطت بعض كتب الفقه والتفسير هذه المسألة بسطا موسعا فليرجع إليها من شاء[1].

سادساً : أخذ الأحناف من هذه الآية الكريمة أن أركان الوضوء هى هذه الأربعة فحسب أى : غسل الوجه، واليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين.

وقد أضاف جمهور الفقهاء إلى ذلك النية - كما سبق أن أشرنا - كما أضافوا الترتيب بين الأركان بحيث يغسل الوجه أولا ثم اليدان ثم من بعدهما مسح الرأس، ثم غسل الرجلين، لأن هذه الأركان قد ذكرت بهذا التريب فى القرآن فيجب التزامه. ولأن النبى ﷺ لم يخالف هذا الترتيب ولو مرة واحدة فوجب اتباع ماجاء عنه ﷺ.

وقال الأحناف : الترتيب ليس فرضًا، لأن العطف بين الأركان بالواو وهى لاتقتضى ترتيبا ولاتعقيبا.

كذلك أضاف بعض الفقهاء إلى أركان الوضوء الموالاة بمعنى أن يواصل المتوضىء الاشتغال بوضوئه ولا ينقطع عنه. وذهب بعضهم إلى أن ذلك سنة.

والذى تطمئن إليه النفس أن المتوضىء إذا انقطع وضوؤه بعمل أجنبى لمدة جفت معها أعضاء الوضوء وجب عليه استئناف الوضوء مبتدئا بأوله. أما إذا قطع المتوضىء وضوءه لفترة قصيرة بحيث بقيت آثار الوضوء ظاهرة فإنه فى هذه الحالة يجوز له الاستمرار فيه.

تلك هى بعض المسائل التى رأينا أن نتكلم عنها بإيجاز بمناسبة حديثنا عن هذه الآية الكريمة وهناك مسائل أخرى تتعلق بها تكفلت كتب الفروع بتفصيلها. وقد انتقلت الآية الكريمة بعد حديثها عن الوضوء إلى الحديث عن الاغتسال وموجبه فقال - تعالى - ﴿وإن كنتم جنبًا فاطهروا﴾.

والجنب من أصابته الجنابة بسبب جماع أو احتلام أو غيرهما مما تتحقق معه الجنابه. وكلمة جنب من الألفاظ التى يستوى فيها الواحد والمثنىَ والجمع والمذكر والمؤنث لجريانها مجرى المصدر، فيقال : رجل جنب، وامرأة جنب، وهما جنب، ورجال ونساء جنب.. واشتقاقه من المجانبة بمعنى المباعدة، لأن الجنابة معنى شرعى يستلزم من المسلم اجتناب الصلاة وقراءة القرآن ومس المصحف ودخول المسجد إلى أن يتطهر.

وقوله ﴿فاطهروا﴾ أصله فتطهروا فأدغمت التاء فى الطاء فسكنت فأتى بالهمزة.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم الدخول فى الصلاة فعليكم أن تتوضئوا قبل دخولكم

(١) راجع تفسير الألوسى جـ ٦ ص ٦١٠

فيها بأن تغسلوا وجوهكم وتغسلوا أيديكم إلى المرافق، وتمسحوا برؤوسكم. وتغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، هذا إذا كنتم محدثين حدثًا أصغر وأردتم الصلاة أما إذا كنتم محدثين حدثا أكبر، بأن كنتم جنبا بسبب خروج منى أو التقاء ختانين وأردتم الدخول فى الصلاة فعليكم فى هذه الحالة أن تتطهروا. أى: تغسلوا بالماء جميع بدنكم. لأن الأمر بالتطهر لما لم يتعلق بعضو دون عضو، كان أمرًا شاملا لتطهير جميع البدن، بدليل أن الوضوء لما تعلق بعضو دون عضو نص الله -تعالى- فى الآية على تلك الأعضاء التى أوجب غسلها.

وإنما حملت الطهارة هنا على الطهارة بالماء لأن الماء هو الأصل كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾[١] ولأنه - سبحانه - قد ذكر بعد هذه الجملة ما يحل محل الماء عند فقده.

والتعبير بقوله ﴿فاطهروا﴾ فيه إشارة إلى وجوب العناية فى تعميم الماء على الجسد كله، وإيماء إلى أن النجاسة المعنوية قد عمت كل أجزاء الجسم، فوجب أن تكون الطهارة عامة لكل أجزاء الجسم ولاشك أن الاغتسال بعد الجنابة أو الحيض أو النفاس فيه إنعاش الجسم بعد أن أصابه التعب والإنهاك، وفيه كذلك طهارة نفسية، لأنه يبعث فى الإنسان حسن الاستعداد لذكر الله، ولأداء تكاليفه.

قال الفخر الرازى: والدلك غير واجب فى الغسل. وقال مالك: الدلك واجب وحجة غيره أن قوله ﴿فاطهروا﴾ أمر بتطهير البدن وتطهير البدن لا يعتبر فيه الدلك. ثم قال: والشافعى قال: المضمضة والاستنشاق غير واجبين فى الغسل - ومثله فى ذلك الإمام مالك.

وقال أبو حنيفة - والحنابلة - هما: واجبان لأن الآية تقول ﴿فاطهروا﴾ وهذا أمر بأن يطهروا أنفسهم. وتطهير النفس لا يحصل إلا بتطهير جميع أجزاء النفس، ما عدا الأجزاء الباطنة التى لا يمكن تطهيرها. وداخل الفم والأنف يمكن تطهيرهما. فوجب بقاؤهما تحت النص. ولأن الرسول ﷺ قال: «بلوا الشعر وأنقوا البشرة فإن تحت كل شعرة جنابة» فقوله «بلوا الشعر» يدخل فيه الأنف. لأن داخله شعر. وقوله «وأنقوا البشرة» يدخل فيه الجلدة التى داخل الفم. وحجة الشافعى - ومالك قوله ﷺ أما أنا فأحثى على رأسى ثلاث حثيات فإذا أنا قد طهرت» وقد قال النبى ﷺ ذلك فى مجلس جماعة من أصحابه كانوا يتحدثون أمامه فى أمر الغسل، وكل يبين ما يعمله[٢].

---

(١) سورة الأنفال الآية ١١

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٦٥ الطبعة البهية.

ثم شرع - سبحانه - فى بيان الاعذار التى تبيح التيمم من أجل الطهارة عند العجز عن استعمال الماء فقال - تعالى - : ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لا مستم النساء : فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾

والمراد بالمرضى فى قوله - تعالى - ﴿وإن كنتم مرضى﴾ المرض الذى يمنع من استعمال الماء مطلقًا كأن يكون استعمال الماء يزيد المرض شدة، أو يبطىء البرء.

وقوله ﴿أو على سفر﴾ فى محل نصب عطفا على خبر كان وهو قوله مرضى وليس المراد بالسفر هنا سفر القصر، وإنما المراد السير خارج العمران سواء أوصل المسافر إلى مسافة القصر أم لا، بخلافه فى قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ فان المراد به هناك سفر القصر، إنما قيد الأمر هنا بالسفر مع أن المنظور إليه عدم الماء لأن السفر هو الذى يغلب فيه عدم الماء بخلاف الحضر ولو فرض عدم الماء فى الحضر وجب التيمم على المحدث عند إرادة الصلاة عند الحنفية والمالكية والشافعية.

وقوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ معطوف على ماقبله والغائط : من الغيط وهو المكان المنخفض من الأرض. وهو هنا كناية عن الحدث لأن العادة جرت أن من يريد الحدث يذهب إلى ذلك المكان المنخفض ليتوارى عن أعين الناس.

وفى إسناد المجىء إلى واحد مبهم من المخاطبين، سمو فى التعبير. حيث تحاشى - سبحانه - التصريح بنسبتهم إلى مايستحيا من ذكره أو يستهجن التصريح به. وفى ذلك ما فيه من تعليم الناس الأدب فى الخطاب، والبعد عن الالفاظ التى تخدش الحياء، ويمجها الذوق السليم.

والمراد بالملامسة فى قوله تعالى ﴿أو لامستم النساء﴾ الجماع : فهو هنا كناية عما يكون بين الرجل والمرأة مما يوجب الاغتسال : وهى كناية قرآنية أراد - سبحانه - أن يعلم الناس منها حسن التعبير، والبعد عن الألفاظ التى تتنافى مع آداب الإسلام وتعاليمه السامية.

وإلى هذا الرأى اتجه كثير من الصحابة، منهم على بن أبى طالب وابن عباس وأبو موسى. وتبعهم فى ذلك كثير من الفقهاء كأبى حنيفة وأبى يوسف وزفر والثورى فقد قالوا : لا وضوء على من مس امرأة سواء أكان المس بشهوة أو بدونها. واستدلوا بأن النبى ﷺ كان يقبل نساءه ثم يصلى ولم يتوضأ وكان يقبلهن وهو صائم.

واستدلوا - أيضًا - بأن ظاهر مادة المفاعلة يكون فى الفعل من الجانبين مقصودًا، وذلك إنما يتأتى فى الجماع دون اللمس باليد. وأيضًا فإن اللمس وإن كان حقيقة فى اللمس باليد إلا أنه قد عهد فى القرآن إطلاقه كناية عن الجماع كما فى قوله - تعالى : ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن

تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة﴾[١].

ويرى جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وابن مسعود أن المراد بالملامسة هنا اللمس باليد، وكانا يوجبان على من مس امرأة الوضوء.

وقد سار الإمام الشافعى على هذا الرأى فقال: إذا مس جسدها فعليه الوضوء سواء أكان المس بشهوة أم بغير شهوة.

ومن أدلته أن اللمس حقيقة فى المس باليد، وهو فى الجماع مجاز أو كناية ولا يعدل عن الحقيقة إلى غيرها إلا عند تعذر الحقيقة ويرى الإمام مالك أن اللمس إن كان بشهوة وتلذذ فعليه الوضوء، وكذا إذا مسته بشهوة وتلذذ، وإن كان بغير شهوة فلا وضوء عليهما.

وقد انتصر كل فريق لرأيه بصورة أوسع من ذلك فى كتب الفروع. والذى نراه أولى بالصواب فى هذه المسألة ما قاله الإمام مالك - رحمه الله - لأنه بنى رأيه على وجود الشهوة وعدمها. والفاء فى قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ عطفت ما بعدها على الشرط السابق وهو قوله. ﴿وإن كنتم مرضى﴾.

والضمير فى قوله: ﴿فلم تجدوا﴾ يعود لكل من تقدم من مريض ومسافر ومتغوط وملامس وفيه تغليب للخطاب على الغيبة.

والمراد بعدم الوجدان فى قوله هنا ﴿فلم تجدوا ماء﴾ ما هو أعم من الوجود الحسى أى: أن قوله: «فلم تجدوا ماء» كناية عن عدم التمكن من استعماله وإن وجد حسا، إذ أن الشيء المتعذر استعماله هو والمعدوم سواء.

وقوله: ﴿فتيمموا صعيدًا طيبًا﴾ جواب الشرط وهو قوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾.

والمعنى: وإن كنتم - أيها المؤمنون - فى حالة مرض يحول بينكم وبين استعمال الماء أو كنتم مستقرين على سفر؛ أو كنتم محدثين حدثًا أصغر أو أكبر، أو لامستم النساء، فلم تجدوا ماء تستعملونه لطهارتكم، ولأداء ما كلفكم الله به من تكاليف، أو وجدتموه ولكن منعكم مانع من استعماله، أو كنتم فى حاجة ماسة إليه، فعليكم فى هذه الأحوال أن تتيمموا صعيدًا طيبا بدلا من الماء، فإن الله - تعالى - ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾.

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ يعود إلى الجميع ماعدا المرضى، لأن المرضى يباح لهم التيمم مع وجود الماء إذا تضرروا من استعماله. وعلى هذا الرأى يكون المراد بعدم الوجدان، عدم الوجدان الحسى.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧

والتيمم لغة القصد. يقال تيممت الشىء إذا قصدته.

ويطلق فى الشرع على القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به.

وأما الصعيد - بوزن فعيل - فيطلق على وجه الأرض البارز ترابا كان أو غيره. وقيل يطلق على التراب فحسب.

والطيب: الطاهر الذى لم تلوثه نجاسة ولا قذر.

وقوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ بيان لكيفية التيمم.

أى: إذا لم تجدوا ماء للتطهر به، أو وجدتموه ولكنكم عجزتم عن استعماله، فاقصدوا ترابا طاهرا فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم.

وقد استدل بعض الفقهاء بقوله: ﴿فتيمموا صعيدًا طيبًا﴾ على أن التيمم لايجوز إلا بالتراب الطاهر، لأنه هو المقصود بالصعيد الطيب.

ويرى بعض آخر أن التيمم يجوز بالتراب وبالحجر وبما ماثله من كل ما كان من جنس الأرض. متى كان طاهرًا. قالوا: لأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض. وهذه الصفة لاتختص بالتراب.

قال القرطبى - بعد أن ذكر آراء الفقهاء فى ذلك - «وإذا تقرر هذا فاعلم أن مكان الاجماع فيما ذكرناه أن يتيمم الرجل على تراب طاهر غير منقول ولا مغصوب. ومكان الإجماع فى المنع أن يتيمم الرجل على الذهب والصرف والفضة والياقوت والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما أو على النجاسات واختلف فى غير هذا كالمعادن، فأجيز وهو مذهب مالك وغيره ومنع وهو مذهب الشافعى وغيره»[1].

كما استدل الأحناف والشافعية بقوله - تعالى - ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ على أن التيمم المطلوب شرعا هو استعمال الصعيد فى عضوين مخصوصين على قصد التطهير. والعضوان هما الوجه واليدان إلى المرفقين، فقد جاء فى الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «التيمم ضربتان ضربة للوجه. وضربة للذراعين إلى المرفقين».

ويرى الحنابلة والمالكية أن العضوين هما الوجه واليدين إلى الرسغين. هذا، وقد تكلمنا عن هذه المسألة وغيرها بصورة أوسع عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة النساء: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أوجاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٣٧

صعيدًا طيبًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾[١].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان بعض مظاهر رحمته بعباده، ورعايته لمصالحهم فقال - تعالى ﴿مايريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾.

أى : ما يريد الله - تعالى - بما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة ومن الغسل بعد الجنابة، ومن الأمر بالتيمم عند وجود أسبابه، ما يريد - سبحانه - بذلك ﴿ليجعل عليكم من حرج﴾ أى ضيق ومشقة وعسر، ولكن يريد بذلك ليطهركم.

أى : ليطهر نفوسكم من الأرجاس الحسية والمعنوية وليزيل عنها ما علق بها من ذنوب وأوساخ، ويريد بذلك أيضًا ﴿ليتم نعمته عليكم﴾ بما شرع لكم من أحكام ميسرة ومن آداب عالية، ومن تكاليف جليلة لكى تشكروه على نعمه وإحسانه وتشريعاته، لأنكم متى شكرتموه زادكم من فضله ومننه.

وعبر - سبحانه - عن نفى الحرج بنفى إرادته، مبالغة فى بيان رأفته - سبحانه - بعباده، ورعايته لمصالحهم. فكأنه - سبحانه - يقول : ما كان من شأن الله - تعالى - مع عباده أن يشرع لهم مافيه مشقة أو حرج.

وقوله ﴿ليجعل﴾ يحتمل أن يكون الجعل بمعنى الخلق والإيجاد فيتعدى لواحد وهو قوله : ﴿من حرج﴾ وتكون ﴿من﴾ زائدة لتأكيد النفى وقوله ﴿عليكم﴾ متعلق بالجعل. ويحتمل أن يكون بمعنى التصيير فيكون قوله ﴿عليكم﴾ هو المفعول الثانى، وقوله : ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ استدراك قصد به بيان بعض مظاهر رحمته - سبحانه - بالمؤمنين ومحبته لسعادتهم ولتزكية نفوسهم وتطهيرها من الذنوب والأدران كما قصد به حضهم على مداومة شكره حتى يزيدهم من فضله.

وقريب من معنى هذه الجملة قوله - تعالى - ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[٢]. وقوله - تعالى - ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾[٣] وقوله تعالى - ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا﴾[٤].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت للمؤمنين ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا ما أرادوا

(١) راجع تفسيرنا لسورة النساء الآية ٤٣
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥
(٣) سورة الحج الآية ٧٨
(٤) سورة النساء الآية ٢٨

الدخول فى الصلاة، وما يجب عليهم أن يفعلوه إذا ما كانوا جنبا، وما يجب أن يفعلوه إذا ما فقدوا الماء أو عجزوا عن استعماله وكانوا يريدون الطهارة أو أداء ما عليهم من تكاليف، كما بينت لهم حكمة الله فى تشريعاته لهم، ورعايته لمصالحهم حتى يشكروه على نعمه فيزيدهم منها.

ثم بعد أن بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده ورحمته بهم، أتبع ذلك بأمرهم بمداومة شكره، وبالوفاء بعهده فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾.

أى: تنبهوا أيها المؤمنون - بعقولكم وقلوبكم لما أسبغه الله عليكم من منن فداوموا على شكرها ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بدين الإسلام الذى هديتم به إلى الصراط المستقيم، واذكروا كذلك ﴿ميثاقه الذى واثقكم به﴾ أى: عهده الوثيق الذى أخذه عليكم، وامركم بالتزامه بكل قوة.

وقوله: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ ظرف لقوله ﴿واثقكم به﴾ أى: إذ قلتم وقت أن أخذ عليكم العهد الموثق: سمعنا قولك وأطعنا أمرك.

فأنت ترى أن الآية الكريمة أوجبت على المؤمنين أمرين:

أولهما: التنبه إلى نعم الله وعلى رأس هذه النعم نعمة الهداية إلى دين الإسلام، ومداومة شكره - سبحانه - على ذلك.

وثانيهما: الوفاء بعهوده التى أخذها عليهم، وتقبلوها بالسمع والطاعة لأنهم متى شكروه على نعمه، وكانوا أوفياء بعهودهم، زادهم - سبحانه - من فضله وعطائه

قال الفخر الرازى: وإنما قال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ ولم يقل نعمه عليكم، لأنه ليس المقصود منه التأمل فى أعداد نعم الله، بل المقصود منه التأمل فى جنس النعم. كالنظر إلى الحياة والصحة والعقل والهداية وحسن التدبير والصون عن الآفات والعاهات. فجنس هذه النعم لا يقدر عليه سوى الله - تعالى - فيكون وجوب الاشتغال بشكرها أتم وأكمل.

وإنما قال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ وهو يشعر بنسيانها مع أن مثلها فى تواترها لا ينسى، للإشارة إلى أنه لكثرة هذه النعم وتعاقبها، صارت كالأمر المعتاد الذى لكثرة وجوده قد يغفل عنه المرء»[1]

والمراد بالميثاق الذى أخذه عليهم ما جرى بين النبى ﷺ وبين المؤمنين من عهود على أن

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص ١٧٨ - بتصرف وتلخيص -.

يسمعوا له ويطيعوا فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، كما حدث مع الأنصار ليلة العقبة، وكما حدث مع المؤمنين جميعا فى بيعة الرضوان

وإنما أضيف الميثاق إلى الله تأكيدًا لوجوب الوفاء به؛ ولأنه - سبحانه - هو الذى شرعه وهو الذى سيحاسبهم على نقضه وعدم الوفاء به

وقال مجاهد: المراد به الميثاق الذى أخذه الله على عباده حين أخرجهم من ظهر آدم، وضعف هذا القول بأن الخطاب هنا للمؤمنين وليس للبشر جميعًا.

قال ابن جرير ما ملخصه: وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك: قول ابن عباس، وهو أن معناه: واذكروا أيها المؤمنون - نعمة الله التى أنعمها عليكم بهدايته إياكم إلى الإسلام ﴿وميثاقه الذى واثقكم به﴾ يعنى: وعهده الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدًا ﷺ على السمع والطاعة له فى المنشط والمكره، والعسر واليسر، إذ قلتم سمعنا ما قلت لنا وأخذت علينا من المواثيق، وأطعناك فيما أمرتنا ونهيتنا عنه.. فأوفوا - أيها المؤمنون - بميثاقه الذى واثقكم به ونعمته التى أنعم عليكم بها يوف لكم بما ضمن لكم الوفاء به، من إتمام نعمته عليكم، وبإدخالكم جنته، وإنعامكم بالخلود فى دار كرامته وإنقاذكم من عذابه

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من قول من قال المراد بالميثاق ما أخذ عليهم فى صلب آدم، لأن الله بعد أن ذكر المؤمنين بميثاقه الذى واثقهم به، ذكر بعد ذلك أهل التوراة بالميثاق الذى أخذه الله عليهم فى قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل﴾ منبها بذلك المؤمنين على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بماعاهدهم عليه، ويعرفهم سوء عاقبة أهل الكتاب فى تضييعهم ما ضيعوا من ميثاقه[1]

وبعد أن ذكر الله - تعالى - المؤمنين بنعمته عليهم وبميثاقه الذى واثقهم به وأمرهم بالوفاء بما كلفهم به ختم - سبحانه - الآية بأمرهم بخشيته والخوف منه قال: ﴿واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾.

أى: اشكروا الله - أيها المؤمنون - على نعمته، وكونوا أوفياء بعهودكم واتقوا الله وراقبوه فى كل ما تأتون وما تذرون، وصونوا أنفسكم عن كل ما يكرهه لكم، فإنه - سبحانه - عليم علما تامًا بخفيات الأمور الكامنة فى الصدور. وبكل مايظهره الإنسان ويبطنه، وسيحاسبكم يوم القيامة على أعمالكم، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته و(ذات الصدور) هى الأمور المستقرة فى الصدور، فهى بالنسبة للصدور كالصاحب بالنسبة لصاحبه الذى يلازمه ولا يفارقه. ومثلوا لها بالنيات والاعتقادات وسائر الأمور القلبية.

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٤٠

والجملة الكريمة ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ تعليل لقوله ﴿واتقوا الله﴾ وكرر - سبحانه - اسمه الجليل لاشعار المؤمنين برقابته التامة عليهم. واطلاعه على أحوالهم المختلفة، وأعمالهم المتنوعة وللإشارة إلى أنه إذا كان - سبحانه - يعلم خفيات الأمور، فمن باب أولى يعلم جلياتها.

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده المؤمنين بالوفاء بمواثيقه، أتبع ذلك بأمرهم بالتزام الحق فى كل أقوالهم وأعمالهم، وذكرهم بما أفاء عليهم من نعم فقال - سبحانه - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

وقوله : ﴿قوامين﴾ جمع قوام. وهو صيغة مبالغة من قائم. والقوام : هو المبالغ فى القيام بالشىء. وفى الإتيان به على أتم وجه وأحسنه.

وقوله : ﴿شهداء﴾ جمع شهيد - بوزن فعيل - والأصل فى هذه الصيغة، دلالتها على الصفات الراسخة فى النفس ككريم وحكيم.

والقسط : العدل يقال أقسط فلان يقسط إذا عدل فى أقواله وأحكامه

وقوله ﴿ولا يجرمنكم﴾ أى : ولا يحملنكم من جرمه على كذا إذا حمله عليه أو معناه : ولا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب غير أنه فى كسب ما لا خير فيه ومنه الجريمة

وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة وأطلق على الكسب؛ لأن الكاسب ينقطع لكسبه

والشنآن : البغض الشديد. يقال : شنئت الرجل أشنؤه شنأ وشنأة وشنآنا، إذا أبغضته بغضا شديدًا.

والمعنى. يأيها الذين آمنوا بالحق إيمانا صادقًا ﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ أى. ليكن من أخلاقكم وصفاتكم أن تقوموا لله وحده بالحق فى كل ما يلزمكم القيام به. ومن العمل بطاعته، واجتناب منهياته، وليكن من دأبكم وشأنكم - أيضًا - أن تلتزموا العدل فى شهادتكم، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على عدم العدل معهم، فإن عدم العدل فى الأقوال والأحكام يتنافى مع تعاليم دين الإسلام. الذى آمنتم به، ورضيه الله لكم دينا.

وفى ندائه - سبحانه - لهم بصفة الإيمان، تنبيه إلى الأمر الخطير الذى ناداهم من أجله، ودعاهم إلى تنفيذه، من العمل بطاعته واجتناب منهياته.

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿كونوا قوامين﴾ بصفة الكينونة الدالة على الدوام، وبصيغة المبالغة الدالة على الكثرة. لتمكين صفة الطاعة له من نفوسهم، وترسيخها فى قلوبهم.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم : روضوا أنفسكم على طاعة خالقكم، وعودوها على التزام الحق والعدل. واجعلوا ذلك شأنكم فى جميع الظروف والأحوال فلا يكفى أن تلتزموا الطاعة والعدل مرة أو مرتين، وإنما الواجب عليكم أن يكون التزامكم لذلك فى كل أوقاتكم وأعمالكم.

وقوله : ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ تصريح بوجوب العدل بعد ما علم من النهى عن تركه فى قوله ﴿ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾ للتأكيد على وجوب التزامهم بما أمرهم - سبحانه - به وما نهاهم عنه، ولبيان العلة فى تكليفهم بذلك.

والضمير ﴿هو﴾ يعود إلى المصدر المفهوم من قوله : ﴿اعدلوا﴾.

أى : التزموا - أيها المؤمنون - العدل فى كل أحوالكم، فإن العدل مع الأعداء ومع غيرهم أقرب إلى اتقاء المعاصى، وإلى صيانة النفس عن الوقوع فى المهالك.

وقال - سبحانه ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ مع أن العدل دليل التقوى ولبابها لأن المؤمن فى حال حربه وتعامله مع عدوه قد يرى أن من التقوى أن يستبيح ماله، وأن يأخذ منه ما يمكن

أخذه، فبين له القرآن الكريم أن الأقرب إلى التقوى التامة أن يحسن معاملة عدوه، وأن لا يعتدى على حق من حقوقه.

قال صاحب الكشاف، قوله: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله ﴿أقرب للتقوى﴾ أى: العدل أقرب للتقوى، وأدخل فى مناسبتها. وفيه تنبيه على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

أى: واتقوا الله أيها المؤمنون - فى كل ما تأتون وما تذرون، وصونوا أنفسكم عمّا لا يرضيه، وافعلوا ما أمركم به، إن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه على حسب أعمالكم

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة أوامر الله، ومن انتهاك حرماته.

وبذلك نرى الآية الكريمة قد أمرت المؤمنين بالمداومة على طاعة الله فى جميع الأوقات والأحوال، وبأداء الشهادات على وجهها بدون محاباة ولا ظلم، وبوجوب العدل فى معاملة الأعداء والأصدقاء، وبمراقبة الله - تعالى - وخشيته فى السر والعلانية.

قال الآلوسى: وقد تقدم نظير هذه الآية فى سورة النساء ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾[2] - ولم يكتف بذلك لمزيد من الاهتمام بالعدل والمبالغة فى إطفاء ثائرة الغيظ. وقيل: لاختلاف السبب، فإن الأولى نزلت فى المشركين، وهذه فى اليهود. وذكر بعض المحققين وجها لتقديم القسط هناك وتأخيره هنا، وهو أن آية النساء جىء بها فى معرض الإقرار على نفسه ووالديه وأقاربه. بدأ فيها بالقسط الذى هو العدل من غير محاباة نفس، ولا والد ولا قرابة. والتى هنا جىء بها فى معرض ترك العداوة فبدأ فيها بالقيام لله - تعالى - لأنه أردع للمؤمنين، ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجىء فى كل معرض بما يناسبه»[3].

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - ﴿وعد الله﴾ بفضله وإحسانه ﴿الذين آمنوا﴾ إيمانا حقا ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ التى نالوا بها رضا الله، وعدهم بأن ﴿لهم مغفرة﴾ عظيمة ولهم ﴿أجر عظيم﴾ لا يعرف مقداره إلا

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦١٣
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء.
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٦ ص ٨٣

هو - سبحانه -. ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ التى جاء بها نبينا محمد ﷺ ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ أى: أولئك الموصفون بما ذكر من الكفر والتكذيب بآياتنا هم المستحقون لدخول النار المشتعلة الشديدة التأجج، بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان والتكذيب على التصديق.

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة أخرى من نعمه الجزيلة، حتى يزدادوا شكرًا له، ووفاء بعهده؛ والتزاما لطاعته فقال - تعالى -: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾.

وقد أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ماوراه عبد الرازق عن معمر الزهرى عن أبى أسامة عن جابر: أن النبى ﷺ نزل منزلا وتفرق الناس فى العضاة يستظلون تحتها. وعلق النبى ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله فأخذه فسله. ثم أقبل عليه فقال: من يمنعك منى؟ قال: الله - عز وجل - فسقط السيف من يد الأعرابى. فدعا النبى ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابى، وهو جالس إلى جانبه ولم يعاقبه.

قال ابن كثير: وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت فى شأن بنى النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول لله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم فى دية العامريين ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك. وأمروه إن جلس النبى ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه. فأطلع الله رسوله ﷺ على ما تمالأوا عليه. فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه. فأنزل الله فى ذلك هذه الآية[1].

وعلى هاتين الروايتين وما يشبههما يكون المراد بقوله - تعالى - ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث نجى نبيهم ﷺ مما أضمره له أعداؤه وأعداؤهم.

وقال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية. روى أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا بعسفان فى غزوة ذات أنمار. فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقالوا: إن لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم - يعنون صلاة العصر - وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها. فنزل جبريل بصلاة الخوف[2].

وعلى هذه الرواية يكون المراد بقوله - تعالى - ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ تذكيرهم برعاية الله لهم ولنبيهم ﷺ من كيد أعدائهم.

وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣١

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٦١٣

للنبى وأصحابه فقال : وأولى الأقوال بالصحة فى تأويل ذلك قول من قال : عنى الله بالنعمة التى ذكر فى هذه الآية نعمته على المؤمنين به وبرسوله التى أنعم بها عليهم فى استنقاذه نبيهم ﷺ مما كانت يهود بنى النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم فى الدية التى كان تحملها عن قتيلى عمرو بن أمية وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة فى تأويل ذلك لأن الله عقب ذكر ذلك برمى اليهود بسوء صنائعها، وقبيح أفعالها، وخيانتها ربها وأنبياءها(١).

والمعنى : يأيها الذين آمنوا تنبهوا إلى نعم الله عليكم وقابلوها بدوام الشكر والطاعة له - سبحانه - حيث أراد قوم من أعدائكم، أن يبسطوا إليكم أيديهم. أى : أن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ولكنه - سبحانه - رحمة بكم، ودفاعًا عنكم، حال بين أعدائكم وبين ما يريدونه بكم من سوء.

فالآية الكريمة تذكير للمؤمنين بنعمة عظيمة من نعم الله عليهم حيث نجاهم من كيد أعدائهم، ومن محاولتهم إهلاكهم. إثر تذكيرهم قبل ذلك بنعم أخرى كإكمال الدين، وهدايتهم إلى الإسلام، وغير ذلك من الآلاء والمنن.

وفى تكرار هذا التذكير ما فيه من الحض على تأكيد المداومة على طاعة الله والمواظبة على شكره.

وقوله ﴿إذهم قوم﴾ ظرف لقوله : ﴿نعمة الله﴾ والهم : إقبال النفس على فعل الشيء. أى : اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن قصدكم قوم من أعدائكم بالسوء والاهلاك.

وبسط اليد هنا كناية عن البطش والإهلاك. يقال : بسط يده إليه، إذا بطش به. وبسط إليه لسانه : إذا شتمه. والبسط فى الأصل : مطلق المد. وإذا استعمل فى اليد واللسان كان كناية عما ذكر.

وقوله : ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ معطوف على قوله : ﴿هَمَّ قوم﴾ وهذا الكف هو النعمة التى قصد تذكيرهم بها حتى يداوموا على شكره وطاعته

وعبر - سبحانه - بقوله ﴿إذهم قوم﴾ للإيذان بأن نعمة كف أيدى الأعداء عنهم قد جاءت عند شدة الحاجة إليها

والفاء فى قوله ﴿فكف﴾ للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها فهو - سبحانه - قد حال بين الأعداء وبين ما يشتهونه بمجرد أن قصدوا السوء بالمؤمنين.

وقال - سبحانه - ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ بإظهار الأيدى، ولم يقل فكفها عنكم؛ لزيادة

(١) تفسير ابن جرير ج٦ ص١٤٧

التقرير. وللإشارة إلى أنه - سبحانه - هو الذى قضى على موضع قوة أعدائهم، ومناط شدتهم إذ الأيدى هى من أهم وسائل البطش والقتل.

أى: أنه - سبحانه - قد منع أيديهم عن أن تمتد إليكم بالأذى عقيب همهم بذلك دفاعا عنكم - أيها المؤمنون - وحماية لكم من الشرور، فقابلوا ذلك بالشكر لخالقكم. وقوله: ﴿واتقوا الله﴾ معطوف على قوله: ﴿اذكروا﴾ وقوله: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أمر لهم بالاعتماد على الله وحده.

أى: داوموا على شكر نعم الله عليكم، وصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، وعليه وحده اعتمدوا وتوكلوا فإنه -سبحانه- هو الفعال لما يريد، وهو الذى يدفع الشر عمن توكل عليه، ويعطى الخير لمن شكره وأطاعه.

فالجملة الكريمة تذييل مقرر لما قبله، من وجوب المداومة على طاعة الله وشكره على نعمه.

وإلى هنا نرى أن السورة الكريمة قد وجهت إلى المؤمنين خمس نداءات، أمرتهم فى أول نداء منها بالوفاء بالعقود. ونهتهم فى الثانى عن إحلال شعائر الله، وأرشدتهم فى النداء الثالث إلى ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا أرادوا الدخول فى الصلاة، وأمرتهم فى النداء الرابع بالمداومة على القيام بالتكاليف التى كلفهم - سبحانه - بها وبالتزام العدل فى أقوالهم وأحكامهم، ثم أمرتهم فى النداء الخامس بالتنبه إلى نعم الله ومداومة شكره عليها حيث نجاهم - سبحانه - مما أراده لهم أعداؤهم من شرور واستئصال

وبعد هذه النداءات والتكليفات التى كلف الله - تعالى - بها المؤمنين، شرعت السورة الكريمة فى الحديث عن أحوال أهل الكتاب من اليهود، فذكرت ما أخذه الله عليهم من عهود موثقة، وموقفهم منها، وعقوبتهم على نقضهم لها. فقال -تعالى-:

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ
إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ
وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ
ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا
نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةًۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا
ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ
فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾

قال الفخر الرازى : قوله - تعالى - ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم﴾ اعلم أن فى اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه :

الأول : أنه - تعالى - خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾. ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بنى إسرائيل لكنهم نقضوه وتركوا الوفاء به، فلا تكونوا - أيها المؤمنون - مثلهم فى هذا الخلق الذميم.

الثانى : أنه لما ذكر قوله : ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم﴾ وقد ذكرت بعض الروايات أنها نزلت فى اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر بالمؤمنين. فلما ذكر - سبحانه - ذلك أتبعه بذكر فضائحهم، وبيان أنهم كانوا أبدا مواظبين على نقض العهود والمواثيق.

الثالث : أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين فى قبول التكاليف وترك التمرد والعصيان. فذكر - سبحانه - أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله فى التكليف والالزام غير مخصوصة بهم، بل هى عادة جارية له مع جميع عباده»(١).

والميثاق : العهد الموثق المؤكد، مأخوذ من لفظ وثق المتضمن معنى الشد والربط على الشيء بقوة وإحكام.

والمراد به : ما أخذه الله على بنى إسرائيل لكى يؤدوا ما أوجب عليهم من تكاليف ولكى يعملوا بما تضمنته التوراة من أحكام وتشريعات وغير ذلك مما جاء فيها.

والنقيب : كبير القوم. والكفيل عليهم والمنقب عن أحوالهم وأسرارهم فيكون شاهدهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٨٣

وضمينهم وعريفهم، وأصله من النقب وهو الثقب الواسع.

قال الآلوسى. والنقيب: قيل فعيل بمعنى فاعل مشتق من النقب بمعنى التفتيش ومنه ﴿فنقبوا فى البلاد﴾ وسمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأمرهم.

قال الزجاج: وأصله من النقب وهو الثقب الواسع والطريق فى الجبل:

ويقول: فلان حسن النقيبة. أى: جميل الخليقة، ويقال: فلان نقاب؛ للعالم بالأشياء، الذكى القلب، الكثير البحث عن الأمور(١).

والمعنى: ولقد أخذ الله العهود المؤكدة على بنى إسرائيل. لكى يعملوا بما كلفهم من تكاليف، وأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يختار متهم اثنى عشر نقيبا. وأن يرسل هؤلاء النقباء إلى الأرض المقدسة لكى يطلعوا على أحوال ساكنيها، ثم يخبروا نبيهم موسى - عليه السلام - بعد ذلك بما شاهدوه من أحوالهم.

وسنفصل القول فى شأن بعث هؤلاء النقباء عند تفسيرنا لقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا﴾.

وأكد - سبحانه - ما أخذه على بنى إسرائيل من عهود بقد وباللام، للاهتمام بشأن هذا الخبر، ولترغيب المؤمنين فى الوفاء بعهودهم مع الله - تعالى - حتى لا يصيبهم ما أصاب بنى إسرائيل من عقوبات بسبب نقضهم لمواثيقهم.

وأسند - سبحانه - الأخذ إليه، لأنه هو الذى أمر به موسى - عليه السلام - ولأن فى إسناد أخذ الميثاق إليه - سبحانه - زيادة فى توثيقه، وتعظيم توكيده وأى عهد يكون أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرب؟

وفى قوله: ﴿وبعثنا﴾ التفات إلى المتكلم العظيم - سبحانه - لتهويل شأن هذا الابتعاث، لأن الله - تعالى - هو الذى أمر به.

وإنما اختار موسى - عليه السلام - اثنى عشر نقيبا من بنى إسرائيل لأنهم كانوا اثنى عشر سبطا، كما قال - تعالى - ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطًا أمما﴾(٢) ولأن كل نقيب كان بمنزلة الرقيب على القبيلة التى هو منها يذكرها بالفضائل ويرغبها فى اتباع موسى - عليه السلام - وينهاها عن معصيته.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ٨٥

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٠.

والمعية فى قوله - تعالى - ﴿وقال الله إنى معكم﴾ معية مجازية بمعنى الحفظ والرعاية والنصرة.

أى : أخذ الله على بنى إسرائيل العهود الموثقة، وأمر نبيه موسى أن يرسل منهم اثنى عشر نقيبا لمعرفة أحوال الجبارين الذين يسكنون الأرض المقدسة وقال الله - تعالى - لهؤلاء النقباء، أو لبنى إسرائيل جميعا : إنى معكم لاتخفى علىَّ خافية من أحوالكم. وسأؤيدكم برعايتى ونصرى متى وفيتم بعهدى، واتبعتم رسلى. فالجملة الكريمة تحذير لهم من معصية الله؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ووعد لهم بالنصر متى أطاعوه.

ثم بين - سبحانه - بعض التكاليف التى كلفهم بها، وأخذ عليهم العهد بالمحافظة عليها فقال : ﴿لئن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسلى، وعزرتموهم، وأقرضتم الله قرضًا حسنا، لأكفرن عنكم سيئاتكم، ولأدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾.

واللام فى قوله ﴿لئن﴾ موطئة للقسم المحذوف، و«إن» شرطية، وقوله : ﴿لأكفرن﴾ جواب القسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه.

وقوله : ﴿وعزرتموهم﴾ من التعزيز بمعنى النصر والإعانة مع التعظيم والتفخيم يقال : عزر فلان فلانا إذا نصره وقواه، وأصل معناه : المنع والذب؛ لأن من نصر إنسانا منع عنه أعداءه.

والمعنى : لئن داومتم على إقامة الصلاة، وعلى أدائها على الوجه الأكمل بخضوع وخشوع، وأعطيتم الزكاة لمستحقيها ﴿وآمنتم برسلى﴾ إيمانا كاملا، ونصرتموهم مع تعظيمهم وطاعتهم ﴿واقرضتم الله قرضا حسنا﴾ بأن أنفقتم جانبا من أموالكم فى وجوه الخير والبر، لئن فعلتم ذلك ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ بأن أغفرها لكم، ولأدخلنكم فى الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كلف بنى إسرائيل بخمسة أمور نافعة ووعدهم على أدائها بتكفير سيئاتهم فى الدنيا، وبإدخالهم جناته فى الآخرة.

قال الإمام الرازى : وأخر - سبحانه - الإيمان بالرسل عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه مقدم عليها؛ لأن اليهود كانوا مقرين بأنه لابد فى حصول النجاة من الصلاة وإيتاء الزكاة، إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل. فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنه لابد من الإيمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود. وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير فى حصول النجاة بدون الإيمان بجميع الرسل»[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٨٥

والمراد بالزكاة فى قوله ﴿وآتيتم الزكاة﴾ الزكاة المفروضة.

والمراد بالقرض الحسن فى قوله ﴿وأقرضتم الله قرضًا حسنا﴾ الصدقات غير المفروضة التى يبذلها القادرون عليها فى وجوه الخير المتنوعة بدون رياء أو أذى وفى التعبير بقوله: ﴿وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾ تأنيس للقلوب وترغيب للنفوس فى البذل والعطاء، حيث شبه - سبحانه - ما يعطى للمحتاج رغبة فى الثواب بالقرض الذى سيكافىء الله - تعالى - صاحبه عليه بأضعافه من الخير والنعم.

وأضاف - سبحانه - الرسل إليه فى قوله ﴿وآمنتم برسلى﴾ لتشريفهم وتكريمهم وتعظيم شأن رسالاتهم وللإشارة إلى أن الايمان بهم جميعا واجب، فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن كفر بواحد منهم كفر بالله - تعالى -.

ثم بعد أن فتح لله - تعالى - لهم باب كرمه إن أدوا ما أمرهم به حذرهم من المخالفة والعصيان فقال: ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ أى: فمن جحد منكم شيئًا مما أمرته به فتركه، أو أعرض عن التكاليف التى كلفته بها بعد أن عرفها فقد بعد عن السبيل المستوية، أخطأ الطريق الواضح المستقيم، وسار فى متاهات الضلال التى لا هداية فيها ولا خير معها.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن ترك الدين الحق واتجه إلى الأديان الباطلة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: من كفر قبل ذلك أيضًا فقد ضل سواء السبيل، فلم قال: ﴿فمن كفر بعد ذلك﴾؟ قلت: أجل من كفر قبل ذلك أيضًا فقد ضل. ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم: لأن الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وبلغ النهاية العظمى»[1].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت أن الله - تعالى - قد أخذ الميثاق على بنى إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات التى كلفهم بها، وحذرهم من النقض والخيانة والكفر، ورغبهم فى الطاعة والإيمان فماذا كان موقفهم من عهود الله - تعالى -؟

لقد بين - سبحانه - جانبا من رذائلهم، ومن العقوبات التى عاقبهم بها بسبب فسوقهم عن أمره فقال: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم، لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾.

والفاء فى قوله: ﴿فبما نقضهم﴾ للتفريع على ما تقدم من الحديث عنهم، والباء للسببية

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦١٥

و «ما» مزيدة لتوكيد الكلام وتمكينه فى النفس والجار والمجرور - متعلق بقوله : ﴿لعناهم﴾

وقوله : ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ معطوف على ماقبله

وقوله : ﴿قاسية﴾ بوزن فاعلة - من القسوة بمعنى الصلابة واليبوسة يقال : قسا قلبه يقسو فهو قاس، إذا غلظ واشتد وصار يابسا صلبا

وقساوة القلب هنا مجاز عن عدم تأثره بالمواعظ والترغيب والترهيب

أى فبسبب جرائمهم الشديدة أبعدناهم من رحمتنا وجعلنا قلوبهم يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق ولا تتأثر بالمواعظ والنذر.

وقرأ حمزة والكسائى : ﴿وجعلنا قلوبهم قسية﴾ بتشديد الياء من غير ألف على وزن فعيلة.

وللمفسرين فى معناها رأيان :

أحدهما : أن (قسية) بمعنى قاسية، غير أن فيها مبالغة، إذ هى على وزن فعيلة، وهذه الصفة تدل على تمكن صفة القسوة من قلوبهم.

والثانى : أن معنى (قسية) هنا غير معنى قاسية، لأن قسية فى هذا الموضع مأخوذة من قولهم : درهم قسى - على وزن شقى - أى : فاسد ردىء لأنه مغشوش بنحاس أو غيره مما يخلو منه الدرهم السليم.

والمعنى على هذا الوجه : وجعلنا قلوبهم إيمانها ليس خالصا وإنما يخالطه كفر ونفاق كالدراهم القسية التى يخالط فضتها غش من نحاس أو رصاص أو غيرهما.

وقد رجح ابن جرير الرأى الأول - وهو أن قسية بمعنى قاسية غير أن فيها مبالغة - فقال (وأولى التأويلين عندى بالصواب تأويل من تأول فعيلة من القسوة كما قيل : نفس زكية وزاكية، وامرأة شاهدة وشهيدة، لأن الله - تعالى - وصف القوم بنقضهم ميثاقهم، وكفرهم به، ولم يصفهم بشىء من الإيمان فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانها يخالطه كفر كالدراهم القسية التى يخالط فضتها غش)[1]

وأما صاحب الكشاف فقد رد التفسير الثانى إلى الأول وجعل بينهما تعانقا وتلازمًا فى المعنى فقال : وقرأ عبد الله (قسية) أى : ردية مغشوشة. من قولهم : درهم قسى وهو من القسوة، لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين، والمغشوش فيه يبس وصلابة»[2].

وقوله : ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ استئناف مبين لشدة قساوة قلوبهم، فإنه لا قسوة

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ١٥٥

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦١٥

أشد من تحريف كلام الله - تعالى - والميل به عن الحق والصواب.

أى: أنهم بلغ بهم الحال فى قسوة قلوبهم، وعدم تأثرها بوعيد الله أنهم يميلون كلامه - سبحانه - عن الموضع الذى نزل فيه ولأجله عن طريق التأويل الباطل، أو التفسير الفاسد، أو التبديل للألفاظ بالزيادة تارة وبالنقصان أخرى، على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم الممقوتة

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿يحرفون﴾ بصيغة الفعل المضارع، لاستحضار صورة هؤلاء المحرفين. والدلالة على أن أبناءهم قد نهجوا نهج آبائهم فى هذا الخلق الذميم.

فإن هذا التحريف الذى حكاه الله - تعالى - فى هذه الآية قد كان من بنى إسرائيل بعد عهد موسى - عليه السلام - واستمروا على ذلك دون أن يصدهم عنه ما كان من نصح النبى ﷺ لهم ومن تحذيره إياهم.

والمراد بالنسيان فى قوله: ﴿ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ الترك والإهمال قال الراغب: (النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع. إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى يزول عن القلب ذكره).

والأنواع الثلاثة التى ذكرها الراغب كأسباب للنسيان قد فعلها بنو إسرائيل فهم قد أصابتهم الغفلة عن تدبر كتابهم والعمل بما فيه بسبب ضعف قلوبهم، واستيلاء المطامع والشهوات عليها وأهملوا امر دينهم وشريعتهم ولم يقيدوا أنفسهم بها عن تعمد وإصرار، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على دين الله وهذا ما تأباه نفوسهم الجامحة وشهواتهم العارمة.

والتنكير فى قوله: ﴿حظا﴾ للتكثير والتهويل. أى: تركوا نصيبا كبيرًا مما أمرتهم به شريعتهم وذكرتهم به توراتهم من وجوب اتباعهم للحق وإيمانهم بمحمد - ﷺ - عند ظهوره.

وهذه الجملة الكريمة وما يشبهها مما أورده القرآن فى هذا المعنى تعتبر من المعجزات الدالة على صدق القرآن الكريم فإن الناس قبل البعثة النبوية الشريفة لم يكونوا يعرفون أن اليهود نسوا حظا كبيرا مما ذكرتهم به توراتهم. فلما بين القرآن ذلك، عرفوا مالم يكونوا يعرفونه من قبل.

ولما كانت أخلاق الآباء كثيرًا ما يتوارثها الأبناء، فقد رأينا القرآن الكريم يحذر النبى ﷺ من اليهود المعاصرين له، والذين ورثوا رذائل آبائهم فقال: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم﴾.

وقوله ﴿خائنة﴾ بمعنى الخيانة أى عدم الوفاء بالعهد. فهى مصدر على وزن فاعله كالعافية والطاغية. قال - تعالى - ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ أى بالطغيان. ويحتمل أن يكون قوله

﴿خائنة﴾ صفة لموصوف محذوف أى على فرقة خائنة أو طائفة.

والمعنى : ولا تزال - أيها الرسول الكريم - ترى فى هؤلاء اليهود المعاصرين لك صورة السابقين فى الغدر والخيانة. وإن تباعدت الأزمان فهؤلاء الذين يعاصرونك فيهم خيانة أسلافهم، وغدرهم ونقضهم لعهودهم. إلا قليلا منهم دخلوا فى الإسلام فوفوا بعهودهم ولم يكونوا ناقضين لها.

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية للرسول - ﷺ عما لقيه من اليهود المعاصرين له من كيد ومكر وخيانة. فكأن الله - تعالى - يقول له إن ما تراه منهم من غدر وخداع ليس شيئًا مستبعدًا، بل هو طبيعة فيهم ورثوها عن آبائهم منذ زمن بعيد : وفيها - أيضًا - تحذير له ﷺ من شرورهم ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين فإن التعبير بقوله ﴿ولا تزال﴾ المفيد للدوام والاستمرار يدل على استمرار خيانتهم ودوام نقضهم لعهودهم ومواثيقهم

وقوله : ﴿إلا قليلا منهم﴾ استثناء من الضمير المجرور فى قوله ﴿خائنة منهم﴾ والمراد بهذا العدد القليل منهم، أولئك الذين دخلوا فى الإسلام، واتبعوا الحق كعبد الله بن سلام وأمثاله.

ثم ختم سبحانه - الآية بقوله : ﴿فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ والعفو عدم مقابلة الإساءة بمثلها.

والصفح : ترك اللوم والمعاتبة. ولذا قالوا : الصفح أعلى رتبة من العفو، لأن العفو ترك المقابلة بالمثل ظاهرًا. أما الصفح فهو يتناول السماحة النفسية واعتبار الإساءة كأن لم تكن فى الظاهر والباطن.

وللعلماء أقوال فى المراد بالذين أمر النبى ﷺ بالعفو والصفح عنه :

١ - فيرى بعضهم أن المراد بهم، القلة اليهودية التى أسلمت، واستثناها الله بقوله ﴿إلا قليلا منهم﴾ وهذا الرأى مردود بأنهم ماداموا قد آمنوا، فقد عصموا دماءهم وأموالهم، ولم يصبح للعفو والصفح عنهم موضع.

٢ - ويرى آخرون أن الذين أمر النبى ﷺ بالعفو والصفح عنهم هم كافة اليهود، إلا أن الآية نسخت بآية التوبة وهى قوله ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون﴾[1] وهذا الرأى ضعيف لأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا تعذر الجمع بين الآيتين وهو غير متعذر - كما سنبين.

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩

٣ - ويرى أبو مسلم أن المراد بهم اليهود الذين بقوا على كفرهم ولكنهم لم ينقضوا عهودهم.

والذى نراه أولى أن العفو والصفح عام لليهود، وأن من مظاهر ذلك مسالمتهم ومساكنتهم، ومجادلتهم بالتى هى أحسن ومعاملتهم بمبدأ لهم مالنا وعليهم ماعلينا، مع العفو عن زلاتهم التى لاتؤثر على كيان الدعوة الإسلامية.

فإذا مانقضوا عهودهم وخانوا الله ورسوله والمؤمنين، وأصبح العفو عنهم فيه مضرة بالمسلمين ففى هذه الحالة تجب معاملتهم بالطريقة التى تقى المسلمين شرورهم، لأن العفو عنهم - عند استلزام قتالهم للدفاع عن النفس وعن العقيدة - يكون إلقاء بالنفس إلى التهلكة ويكون قد وضع العفو فى غير موضعه. وهذا القول يقارب ماذهب إليه أبو مسلم. وربما اعتبر توضيحًا له. فكأن الله -تعالى- يقول لنبيه ﷺ فاعف عن هؤلاء اليهود الذين ورثوا الخيانة عن آبائهم، واصفح عن زلاتهم التى لا تؤثر فى سير الدعوة الإسلامية إلى الوقت المناسب لمحاسبتهم، إن الله تعالى يحب المحسنين.

وبذلك نرى السورة الكريمة قد بينت جانبًا مما أخذ الله على بنى إسرائيل من عهود ومواثيق، ورغَّبتهم فى الوفاء بها وحذرتهم. من نقضها، كما بينت بعض العقوبات التى عاقبهم الله بها بسبب فسوقهم عن أمره ورسمت للنبى ﷺ طريق معالجتهم ومعاملتهم بما يقى المسلمين من شرورهم ومكرهم.

وبعد أن بين - سبحانه - جانبًا من قبائح اليهود ونقضهم لمواثيقهم عقب ذلك ببيان حال النصارى فقال - تعالى- :

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

وقوله - تعالى : ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ معطوف على قوله قبل ذلك : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل﴾.

ونسب - سبحانه - تسميتهم نصارى إلى أنفسهم فقال : ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾

جمع نصران كندامى جمع ندمان، ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب. وقد صارت كلمة نصرانى لكل من اعتنق المسيحية.

وقد سموا بذلك لدعواهم أنهم أنصار عيسى على أعدائهم. أو نسبة إلى بلدة الناصرة التى فيها نشأ عيسى - عليه السلام - وأعلن دعوته للناس.

والمعنى: وكما أخذنا على بنى إسرائيل الميثاق بأن يعبدوا الله وحده ويطيعوا أنبياءه، ويستجيبوا لمحمد ﷺ الذى بشرت به الكتب السماوية، فقد أخذنا - أيضًا - من الذين قالوا إنا نصارى الميثاق بذلك، ولكنهم كان شأنهم فى الكفر ونقض العهود كشأن اليهود، إذ ترك هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى قدرًا كبيرًا، ونصيبًا عظيمًا مما ذكروا به على لسان عيسى عليه السلام - فقد أمرهم بتوحيد الله، وبشرهم بظهور رسول من بعده هو محمد ﷺ ودعاهم إلى الإيمان به، ولكنهم استحبوا الكفر على الايمان، فكان دأبهم كدأب بنى إسرائيل فى العناد والضلال.

ونسب - سبحانه - تسميتهم نصارى إلى أنفسهم فقال: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل: «ومن النصارى» للإشارة إلى أن ادعاءهم النصرانية وهى الدين الذى جاء به عيسى. إنما هو قول يقولونه بافواههم دون أن يتبعوه بقلوبهم إذ لو كانوا متبعين حقًا لما جاء به عيسى عليه السلام - لأقروا لله - تعالى - بالوحدانية ولآمنوا بمحمد ﷺ الذى بشر به عيسى - عليه السلام -.

وإلى هذا المعنى أشار - صاحب الكشاف بقوله: فإن قلت: فهلا قيل: ومن النصارى؟ قلت: لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله. ثم اختلفوا بعد: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية، أنصارًا للشيطان»[1].

وقوله - تعالى: ﴿ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ بيان لما حدث منهم بعد أخذ الميثاق.

أى: أخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم على أن يعبدوا الله وحده ويطيعوا أنبياءه ورسله ولكنهم لم يكونوا أوفياء بعهودهم، بل تركوا نصيبًا كبيرا مما أمروا بفعله ومما ذكروا به على لسان المسيح عيسى بن مريم. والمراد بالنسيان هنا الترك والإهمال عن تعمد وقصد، لأن الناسى حقيقة لا يؤاخذه الله - تعالى - :

والإتيان بالفاء فى قوله: ﴿فنسوا﴾ للاشارة إلى أن تركهم لما أخذ عليهم من ميثاق، كان عن تعجل وعدم تمهل بسبب استيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم.

والتنكير فى قوله تعالى: ﴿حظا﴾ للتهويل والتكثير. أى تركوا نصيبًا كبيرًا مما أمرتهم به

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦١٦ طبعة دار الكتاب العربى ببيروت

شريعتهم من وجوب اتباعهم للحق وإيمانهم بمحمد ﷺ عند ظهوره «فكان تركهم لهذا النصيب العظيم مما ذكروا به سببا فى ضلالهم وسوء عاقبتهم.

قال بعض العلماء: «وسبب نسيان حظ أى نصيب كبير مما ذكروا به، هو اضطهاد النصارى اضطهادًا شديدًا فى عهد الرومان حتى ضاعت كتبهم ولم يعرف شىء منها إلا قليل غير سليم بعد مائتى سنة من ترك المسيح هذه الدنيا. وما ظهرت هذه الأناجيل التى يتدارسونها - ولا يزالون يغيرون ويبدلون فيها على حسب الطبعات المختلفة - إلا بعد أن دخل قسطنطين أمبراطور الرومان فى المسيحية، وغير وبدل فى مجمع نيقية الذى انعقد فى سنة ٣٢٥ ميلادية. وقد ذهب لب الديانة وهو التوحيد»[١].

وقوله: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وعيد شديد لهم بسبب تركهم لما أرشدوا إليه، ولما ذكروا به.

فالفاء فى قوله - تعالى - ﴿فأغرينا﴾ للسببية وأغرينا أى: ألقينا وهيجنا وألصقنا. يقال: أغريت فلانا بكذا حتى أغرى به، أى: الزمته به وألصقته وأصل ذلك من الغراء وهو ما يلتصق به الشىء.

وقوله: ﴿بينهم﴾ ظرف لأغرينا. والضمير فيه يعود إلى فرق النصارى المتعددة عند جمهور المفسرين.

والمعنى: بسبب ترك هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى لما ذكروا به فرقناهم شيعًا وأحزابًا وجعلنا كل فرقة منهم تعادى الأخرى وتبغضها إلى يوم القيامة.

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله: ﴿بينهم﴾ تعود إلى اليهود والنصارى، فيكون المعنى: بسبب ما عليه الطائفتان من عناد وضلال، ألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، فهم فى عداوة شديدة، وكراهية مستحكمة.

وقد رجح ابن جرير عودة الضمير إلى فرق النصارى فقال:

وأولى التأويلين بالآية عندى: ما قاله الربيع بن أنس وغيره. وهو أن المعنى بالإغراء بينهم: النصارى فى هذه الآية خاصة وأن الهاء والميم عائدتان على النصارى، دون اليهود، لأن ذكر الإغراء فى خبر الله عن النصارى بعد تقضى خبره عن اليهود، وبعد ابتداء خبره عن النصارى، فلأن يكون ذلك معنيًا به النصارى خاصة. أولى من أن يكون معنيا به الحزبان جميعا لما ذكرناه»[٢]

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة -رحمه الله- مجلة لواء الإسلام السنة١٩ العددالتاسع ص٥٤٥.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٦٠

وقال ابن كثير: قوله - تعالى - : ﴿فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أى: فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلى يوم قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، فكل فرقة تحرم الأخرى ولاتدعها تلج معبدها. فالملكانية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون. وكذلك النسطورية الآريوسية كل طائفة تكفر الأخرى فى هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»(١).

والذى تطمئن إليه النفس أن قوله - تعالى - ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ يشمل ما بين اليهود والنصارى من عداوة ظاهرة مستحكمة يراها الرائى فى كل العصور واالأزمان، كما يشمل ما بين فرق النصارى من اختلاف وتباغض وتقاتل بسبب عقائدهم الزائغة وأهوائهم الفاسدة. وما نراه من تصارع وتقاتل بين طائفتى الكاثوليك والبروستانت فى. إيرلاندا وفى غيرها خير شاهد على صدق القرآن الكريم، وأنه من عند الله - عز وجل -

وقوله - تعالى: ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة بعد بيان ماحكم به عليه فى الدنيا من عداوة وبغضاء. و﴿سوف﴾ هنا لتأكيد الخبر وتقويته وبيان أنه وإن تأخر آت لا محالة.

والمعنى: لقد ألقينا العداوة والبغضاء بين هذه الطوائف الضالة وسوف يخبرهم الله فى الآخرة بما كانوا يصنعونه من كتمان الحق، ومخالفة للرسل، وانغماس فى الباطل، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون من عذاب شديد.

وبعد أن بين - سبحانه - بعض الرذائل التى انغمس فيها اليهود والنصارى. وجه إليهم نداء دعاهم فيه إلى الدخول فى الدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ فقال: تعالى:

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ
قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا
كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن
كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٣.

مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

والمعنى : ﴿يا أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ محمد ﷺ ﴿يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ أى : يظهر لكم كثيرًا من الأحكام والمسائل التى ذكرتها كتبكم وكتمتموها عن الناس، كإخفائكم صفة النبى ﷺ التى تجدونها فى التوراة والإنجيل وكتمانكم ما جاء فيها من بشارات تبشر به. وغير ذلك من الأحكام التى أخفاها علماؤكم عن العامة، وتولى الرسول ﷺ إعلانها إظهارا للحق، ووضعا للأمور فى نصابها.

وقوله : ﴿ويعفو عن كثير﴾ أى : يعرض ولا يظهر كثيرًا مما كنتم تخفونه، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره، ففى السكوت عنه رحمة بكم، وصيانة لكم عن الافتضاح والمؤاخذة.

يقال : عفا عن المذنب، أى : ستر عنه ذنبه فلم يعاقبه عليه.

والمراد بالكتاب فى قوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ جنس الكتب، فيشمل التوراة والإنجيل.

وفى ندائهم بهذا الوصف حمل لهم على الدخول فى الإسلام؛ فإن علمهم بما فى كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ يدعوهم إلى الإيمان به. فإذا لم يؤمنوا به مع علمهم بأنه رسول صادق فى رسالته كانت مذمتهم أشد وأقبح، وكان عقابهم على كتمانهم الحق أعظم وأقسى. وكان التعبير بقوله - تعالى - ﴿قد جاءكم﴾ للإشارة إلى أنه ﷺ قد وصل إليهم، ويعيش بينهم، فهم يرونه ويراهم، ويخاطبهم ويخاطبونه، ليسمعوا منه ما يشهد بصدقه بدون حجاب أو وساطة.

وفى التعبير بقوله - تعالى - ﴿رسولنا﴾ تشريف للرسول ﷺ حيث أضافه - سبحانه - إلى ذاته، وفيه كذلك إيذان بوجوب اتباعه لأنه رسول مبلغ عن الله - تعالى - ما يأمره بتبليغه بدون تغيير أو تبديل.

والمراد بالكتاب فى قوله : ﴿تخفون من الكتاب﴾ التوراة والإنجيل. فقد امتدت أيدى اليهود والنصاررى إلى هذين الكتابين فغيروا وبدلوا فيهما على حسب ماتمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم.

وفى إظهار الرسول ﷺ للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه، معجزة له، لأنه لم

يقرأ كتابا، ولم يجلس أمام معلم، فإخباره بأسرار ما فى كتبهم إخبار عن أمور مغيبة، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان به فيما يدعوهم إليه.

ثم مدح الله - تعالى - رسوله، وما جاء به من الخير والهدى فقال: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾.

والمراد بالنور هنا: محمد ﷺ فهو نور الأنوار - كما يقول الآلوسى.

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم الذى أنزله - تعالى - على نبيه ﷺ والجملة الكريمة مستأنفة مسووقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ﷺ ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع أخرى لا تحصى.

قال ابن جرير ما ملخصه، قوله: تعالى - ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل ا لكتاب: «قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور هو محمد ﷺ الذى أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام ومحق به الشرك» قوله ﴿وكتاب مبين﴾ يعنى: «كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذى أنزله على نبينا محمد ﷺ»[1].

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالنور وبالكتاب هنا: القرآن الكريم.

وقد اقتصر على هذا التفسير صاحب الكشاف فقال: قوله: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافيا عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز»[2].

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح، لأن العطف فى الغالب يقتضى المغايرة فى الذات إذ الرسول ﷺ قد جاء للناس برسالة هى نور فى شخصه ﷺ كما جاءهم بالقرآن الكريم الدال على صدقه فى رسالته.

ثم بين - سبحانه - الغاية من رسالته ﷺ فقال - تعالى - ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾.

والضمير فى قوله ﴿به﴾ يعود إلى مجموع ما ذكر، أو إلى الكتاب المبين باعتباره أقرب مذكور و﴿سبل﴾ جمع سبيل بمعنى طريق. و﴿السلام﴾ مصدر بمعنى السلامة.

والمعنى: قد جاءكم - يا معشر أهل الكتاب - من الله نور وكتاب مبين. يهدى الله -تعالى-

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص١٦١

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٦١٧

بذلك أو بالكتاب ﴿من اتبع رضوانه﴾ أى : من علم - سبحانه - منه أنه يريد اتباع ما يرضي بأن يخلص له العبادة ويستجيب للحق الذى أرسل به أنبياءه فإنه متى كان كذلك، أوصله - سبحانه - إلى ﴿سبل السلام﴾ أى : إلى طرق السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء، بأن يثبته فى الدنيا على طريق الحق، ويكرمه فى الآخرة بمثوبته وجنته هذه هى الثمرة الأولى من ثمار اتباع ما جاء من عند الله من نور وكتاب مبين. أما الثمرة الثانية فقد بينها - سبحانه - بقوله : ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾.

والضمير المنصوب فى قوله ﴿ويخرجهم﴾ وهو ﴿هم﴾ يعود إلى ﴿من﴾ فى قوله ﴿من اتبع رضوانه﴾ باعتبار المعنى.

أى : ويخرج - سبحانه - هؤلاء الأخيار الذين علم منهم اتباع ما يرضيه يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الحق والإيمان ﴿بإذنه﴾ أى : بإرادته وعلمه.

وقوله : ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ بيان للثمرة الثالثة من ثمار اتباع ماجاء من عند الله من حق وخير.

أى : ويهدى - سبحانه - هؤلاء الذين علم منهم اتباع ما يرضيه إلى صراط مستقيم، وطريق قويم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، وهو طريق الإسلام الذى يوصل إلى الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة.

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا أهل الكتاب إلى اتباع الحق الذى جاء به محمد - ﷺ من عند الله، بأوضح أسلوب، وأكمل بيان، وبينتا لهم ما يترتب على اتباعه ﷺ من منافع جليلة، وفوائد عظيمة تجعلهم يسارعون إلى تصديقه إن كانوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وبعد أن أرشد - سبحانه - أهل الكتاب إلى الطريق القويم الذى يجب عليهم أن يسلكوه، عقب ذلك ببيان ما عليه النصارى من ضلال وبطلان فقال :

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ
ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ
أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

اللام فى قوله : ﴿لقد كفر﴾ واقعة جوابًا لقسم مقدر.

والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره، والانغماس فى الباطل والضلال. والمعنى : أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح عيسى ابن مريم.

قال بعض العلماء ما ملخصه : «لقد اتفق النصارى على أن يسوع عندهم فيه عنصر إلهى» وإذا كان الأمر المعروف عندهم أن يسوع ابن الله وفيه عنصر إلهى فقد قالوا : إن الألوهية قد حلت فيه. ولازم ذلك القول أن يكون هو الله، أو هو إله يعبد ومهما يكن فقد قالوا باتحاد عنصر الألوهية فيه. وقد قال فى ذلك البيضاوى : «هم الذين قالوا بالاتحاد منهم. وقيل : لم يصرح به أحد منهم. ولكنهم لما زعموا أن فيه لاهوتا، وقالوا : لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم».

وذلك بلا ريب ينتهى إلى القول بأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله، وإن لم يصرحوا بذلك، فهو لازم قولهم باتحاد عنصر الأولوهية فيه مع الله.

وإن ذلك الكلام تخريج على أن النصارى مذهب واحد فى اعتقاد الألوهية وأنه ابن الله وبذلك يكون قوله - تعالى - فى أواخر هذه السورة ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ متلاقيا مع هذا النص الكريم فهنا صرح بلازم قولهم وهناك صرح بذات قولهم.

والحقيقة أن النصارى اليوم - وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون - يصرحون بأن الأقانيم ثلاثة. وأنها شىء واحد. وينتهون إلى أن المسيح هو الله، والله هو روح القدس. فقد قال الدكتور بوست فى تاريخ الكتاب المقدس : «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر هى : الله الآب، والله الإبن والله الروح القدس فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير. غير أن ثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء. أما مسألة التثليث فغير واضحة فى العهد القديم، كما هى فى العهد الجديد».

ومن هذا الكلام يتبين أن النصارى يصرحون بأن الابن هو الله، ولا يكون الكلام بطريق اللازم لقولهم، بل بطريق الصريح منه. فهم يصرحون بأن الله هو الابن، كما أن الله هو الآب، كما أن الله هو روح القدس[1]

هذا، وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد على أولئك الذين قالوا ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ بما يكشف عن جهلهم وضلالهم فقال - تعالى - :

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلالشيخ محمد أبوزهرة مجلة لواء الإسلام السنة ١٩ العدد ١١

﴿قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا﴾.

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء النصارى الذين قالوا : ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾، قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والتجهيل : من ذا الذى يملك من أمر الله وإرادته شيئًا يدفع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض، إن أراد الله - سبحانه - أن يهلكهم ويبيدهم ؟ لاشك أن أحدا لن يستطيع أن يمنع إرادته - سبحانه - لأنه هو المالك لأمر الوجود كله، ولا يملك أحد من أمره شيئًا يستطيع به أن يصرفه عن عمل يريده؛ أو يحمله على أمر لا يريده، أو يستقل بعمل دونه. ومادام الأمر كذلك فدعوى أن الله هو المسيح ابن مريم ظاهرة البطلان، لأن المسيح وأمه من مخلوقات الله التى هى قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها. وحاشا للمخلوق الفانى أن يكون إلها وإنما الألوهية لله الخالق الباقى ﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : «احتج - سبحانه - على فساد ماذهب إليه النصارى بقوله : ﴿فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا﴾. وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط.

والتقدير : إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا فمن الذى يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره. وقوله ﴿فمن يملك من الله شيئًا﴾ أى : فمن يملك من أفعال الله شيئًا والملك هو القدرة. يعنى فمن الذى يقدر على دفع شىء من أفعال الله - تعالى - ومنع شىء من مراده.

وقوله : ﴿ومن فى الأرض جميعا﴾ يعنى : أن عيسى مشاكل لمن فى الأرض فى الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال، فلما سلم كونه - تعالى - خالقا للكل مدبرًا للكل وجب أن يكون أيضًا خالقًا لعيسى»[1].

وفى توجيه الأمر إلى الرسول ﷺ للرد عليهم تثبيت له وتقوية لحجته حتى يبطل قولهم الفاسد إبطالا يزداد معه المؤمنون إيمانا بالحق الذى آمنوا به.

قال أبو السعود : وإنما نفيت المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكارى عن أحد مع تحقيق الإلزام والتبكيت لا بنفيها عن المسيح فقط، لتحقيق الحق بنفى الألوهية عن كل ماعداه -سبحانه- وإثبات المطلوب فى ضمنه بالطريق البرهانى.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٩١. طبعة عبد الرحمن محمد

وتعميم إرادة الإهلاك للكل - مع حصول المطلوب بقصرها على المسيح - لتهويل الخطب، وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره - تعالى - وملكوته. لا يقدر أحد على دفع ما أريد به. فضلا عن دفع ما أريد بغيره.

وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك، كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز، وعدم استحقاق الألوهية»[1].

وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها فى عموم المعطوف، لزيادة تأكيد عجز المسيح، وأنه هو وأمه عبدان من عباد الله لايقدران على رفع الهلاك عنهما.

وعطف عليهما قوله ﴿ومن فى الأرض جميعا﴾ من باب عطف العام على الخاص، ليكونا قد ذكرا مرتين. مرة بالنص عليهما. ومرة بالاندراج فى العام، وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة فى تعلق نفاذ الإرادة فيهما.

وقوله ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ تأكيد لاختصاص الألوهية به - تعالى - إثر بيان انتفائها عما سواه.

أى : ولله - تعالى - وحده دون أن ينازعه منازع. أو يشاركه مشارك، ملك جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها، إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة. فهو المالك للسموات وما فيها وللأرض وما عليها، ولما بينهما من فضاء تجرى فيه السحب بأمره، ويطير فيه الطير بإذنه وقدرته. وما المسيح وأمه إلا من جملة ما فى الأرض، فهما عبدان من عباد الله يدينان له - سبحانه - بالعبادة والطاعة والخضوع.

وقال - سبحانه - ﴿ومابينهما﴾ ولم يقل وما بينهن مع أن السموات بلفظ الجمع، لأن المراد بالسموات والأرض النوعان أو الصنفان.

أى : ولله - تعالى - وحده ملك السموات والأرض وما بين هذين النوعين من مخلوقات خاضعة لمشيئة الله وقدرته.

وقوله ﴿يخلق ما يشاء﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعترى النصارى من شبه فى أمر المسيح لولادته من غير أب، وإحيائه الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص، كل ذلك بإذن الله.

أى أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء أن يخلقه من أنواع الخلق بالكيفية التى يريدها تبعا لمشيئته وإرادته.

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٢ ص١٧ طبعة صبيح.

فتارة يخلق الإنسان من ذكر وانثى كما هو المعتاد بين الناس، وتارة يخلقه بدون أب أو أم كما هو الشأن فى خلق آدم، وتارة يخلقه بدون أب كما هو الشأن فى خلق عيسى، إلى ذلك من مخلوقاته التى ليست مقصورة على نوع واحد بل هى شاملة لهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد، فكل ما تعلقت إرادته بإيجاده أوجده، وكل ما تعلقت إرادته بإعدامه أعدمه، لاراد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا حائل دون نفاذ قدرته.

وقوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

أى: والله - تعالى - قدير على كل شيء ومالك لكل شيء ومهيمن على كل شيء لا يغلبه شيء طلبه، ولا يعجزه أمر أراده وماعيسى وأمه إلا من مخلوقاته وعبيده، وحاشا للمخلوق العاجز أن يكون إلها من دون الله - عز وجل -.

فهذه الآية الكريمة تحكى أقوال النصارى الباطلة فى شأن عيسى - عليه السلام - وترد عليهم بما يزهق باطلهم، ويثبت أن عيسى إنما هو عبد من عباد الله وأن العبادة إنما تكون لله الواحد القهار.

ثم ساق - سبحانه - بعض دعاوى أهل الكتاب الباطلة وأمر نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال - تعالى -:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

قال الإمام ابن كثير: روى محمد بن إسحاق وابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله - تعالى - وحذرهم نقمته فقالوا: ماتخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى؛ فأنزل الله - تعالى - فيهم.

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.. الآية[1].

وقوله - تعالى - ﴿وقالت اليهود والنصارى﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من أقاويل فاسدة ودعاوى باطلة، يدل على سفاهة عقولهم، وبلادة تفكيرهم، حيث قالوا فى حق الله - تعالى -

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٥

مالا يليق بعظمته - سبحانه -.

قال الآلوسى : ماملخصه : «ومرادهم بالأبناء : المقربون. أى نحن مقربون عند الله - تعالى - قرب الأولاد من والدهم. ومن مرادهم بالأحباء : جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب. ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء الخاصة، كما يقال : أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. ويجوز أن يكونوا أرادوا بما قالوا أنهم أشياع وأتباع من وصف بالبنوة. أى قالت اليهود : نحن أشياع ابنه عزير. وقالت النصارى : نحن أشياع ابنه عيسى. وأطلق الأبناء على الأشياع مجازا إما تغليبا أو تشبيها لهم بالأبناء فى قرب المنزلة. وهذا كما يقول أتباع الملك : نحن الملوك.

وقيل الكلام على حذف المضاف. أى : نحن أبناء أنبياء الله - تعالى - وهو خلاف الظاهر.

ومقصود الفريقين بقوله - تعالى - حكاية عنهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ هو المعنى المتضمن مدحا، وحاصل دعواهم أن لهم فضلا ومزية عند الله - تعالى - على سائر الخلق»(١).

والمعنى : وقالت طائفة اليهود التى تزعم أنها شعب الله المختار، وقالت طائفة النصارى التى تزعم أنها على الحق دون غيرهم قالت كل طائفة منهما : نحن فى القرب من الله - تعالى - بمنزلة أبنائه المدللين، وأحبائه المختارين، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس لغيرنا من البشر.

والذى حملهم على هذا القول الباطل، جهلهم بما اشتملت عليه كتبهم، وتخبطهم فى الكفر والضلال وفهمهم السقيم لمعانى الألفاظ.

قال ابن كثير : «ونقلوا عن كتبهم أن الله - تعالى - قال لعبده إسرائيل : أنت ابنى بكرى. فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم. وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام. كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم، يعنى : ربى وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها فى عيسى - عليه السلام - وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾(٢).

وعطف - سبحانه - قولهم : ﴿وأحباؤه﴾ على قولهم ﴿نحن أبناء الله﴾ للإشارة إلى غلوهم فى الجهل والغرور، حيث قصدوا أنهم أبناء محبوبون وليسوا مغضوبا عليهم من أبيهم بل هم محل رضاه وإكرامه.

وقد أمر الله - نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يكبتهم فقال : ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٠٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٤ طبعة عيسى الحلبى.

والفاء فى قوله ﴿فلم يعذبكم﴾ للافصاح، لأنها تفصح عن جواب شرط مقدر أى: قل يا محمد لهؤلاء المغرورين، إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه فلأى شىء يعذبكم إذ الحبيب لا يعذب حبيبه.

وإن واقعكم يا أهل الكتاب يناقض دعواكم، فقد عذبكم - سبحانه - فى الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسخ وتهييج العداوة والبغضاء بينكم إلى يوم القيامة.

أما فى الآخرة فإن كتبكم التى بين أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون فى الآخرة على ما تقترفون من آثام فى دنياكم.

وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم - فى زعمهم - أياما معدودات فى الآخرة وحكى القرآن عنهم ذلك فى قوله - تعالى - ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾:

وأقر النصارى بأن الله - تعالى - سيحاسب الناس يوم القيامة، وسجازى كل إنسان على حسب عمله إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر.

قال القرطبى: «رد الله عليهم قولهم فقال: ﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين، إما إن يقولوا هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذا أبناءه ولا أحباءه فإن الحبيب لا يعذب حبيبه. وأنتم تقرون بعذابه، فذلك دليل على كذبكم - وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف - أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذبوا ما فى كتبهم، وما جاءت به رسلهم. ويبيحوا المعاصى وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم»[(١)] وقوله: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ رد على أصل دعواهم الباطلة، وبيان لما هو الحق من أمرهم وهو معطوف على كلام مقدر.

أى: ليس الأمر كما زعمتم يا معشر اليهود والنصارى من أنكم أبناء الله وأحباؤه، بل الحق أنكم كسائر البشر من خلق الله. فإنكم إن آمنتم وأصلحتم أعمالكم نلتم الثواب من الله، وإن بقيتم على كفركم وغروركم حق عليكم العقاب، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.

قال أبو حيان قوله: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ إضراب عن الاستدلال من غير إبطال له إلى استدلال آخر من ثبوت كونهم بشرا من بعض خلقه، فهم مساوون لغيرهم فى البشرية والحدوث، وهما يمنعان البنوة، فإن القديم لا يلد بشرا، والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوجهين البنوة. وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحباء الله، فبطل الوصفان اللذان ادعوهما»[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٢٠.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٢ ص ٤٥١.

وقوله - سبحانه - ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ بيان لعموم قدرته، وشمول إرادته.

أى أنه - سبحانه - يغفر لمن يشاء أن يغفر له من خلقه، وهم المؤمنون به وبرسله، ويعذب من يشاء أن يعذبه منهم، وهم المنحرفون عن طريق الحق والهدى، لا راد لقضائه. ولا معقب لحكمه.

وقوله ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ تذييل قصد به تأكيد ماقبله من عموم قدرته، وشمول إرادته وهيمنته على سائر خلقه.

أى: ولله - تعالى - وحده ملك جميع الموجودات وهو صاحب التصرف المطلق فيها، إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة، وإليه وحده مصير الخلق يوم القيامة فيجازيهم على ماعملوا من خير أو شر. قال - تعالى - ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت حجة اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم ﴿أبناء الله وأحباؤه﴾ وأثبتت بالمنطق الواضح أنهم كذابون فيما يدعون؛ وأنه لافضل لأحد على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.

وبعد أن بين - سبحانه - فساد أقوال أهل الكتاب وبطلان عقائدهم، ورد عليهم بما لا يدع للعاقل متمسكا بتلك الضلالات. أتبع ذلك بتوجيه نداء آخر إليهم تكريرا لوعظهم، وتحريضا لهم على اتباع الحق فقال - تعالى -

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا
مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله. لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته. فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرًا بعده، فأنزل الله

فى قولها قوله : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ الآية[١].

وقوله ﴿على فترة من الرسل﴾ أى : على انقطاع من الرسل، إذ الفترة هى الزمن بين زمنين، ويكون فيها سكون عما يكون فى هذين الزمنين.

قال الراغب : الفتور سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة. قال - تعالى - ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ أى : سكون خال عن مجىء رسول الله ﷺ وقوله ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أى لا يسكنون عن نشاطهم فى العادة »[٢]. فأصل الفتور : السكون والانقطاع. يقال فتر عن عمله إذا انقطع عما كان عليه من الجد والنشاط.

والمعنى : يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يا من أنزل الله - تعالى - الكتب السماوية على أنبيائكم لهدايتكم وسعادتكم، ها هو ذا رسولنا محمد -ﷺ- قد جاءكم لكى يبين لكم شرائع الدين، والطريق الحق الذى يوصلكم إلى السعادة الدينية والدنيوية، وذلك بعد انقطاع من الرسل، وطموس من السبل، وضلال فى العقائد، وفساد فى الأفكار والمعاملات.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿على فترة من الرسل﴾ أى : بعد مدة متطاولة ما بين إرساله ﷺ وبين عيسى ابن مريم. وقد اختلفوا فى مقدار هذه الفترة كم هى؟ فعن قتادة خمسمائة وستون سنة.

وكانت هذه الفترة بين عيسى ابن مريم -آخر أنبياء بنى إسرائيل- وبين محمدﷺخاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق، كما ثبت فى « صحيح البخارى » عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أولى الناس بابن مريم ليس بينى وبينه نبى » وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبى يقال له خالد بن سنان.

والمقصود من هذه الآية، أن الله - تعالى - بعث محمدًا ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عُبَّاد الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم[٣].

وفى ندائه - سبحانه - لليهود والنصارى بقوله : ﴿يا أهل الكتاب﴾ تنبيه لهم إلى أن مصاحبتهم للكتاب وكونهم أهل معرفة، يوجبان عليهم المبادرة إلى اتباع الرسول ﷺ الذى بشرت بمبعثه كتبهم التى بين أيديهم، والذى يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم. وإلا فسيكون

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ١٦٦
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧١ للراغب الاصفهانى
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥

عقابهم أشد إذا ما استمروا فى كفرهم وضلالهم.

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿قد جاءكم﴾ للإيذان بأنه ﷺ قد أصبح بينهم، بحيث يشاهدهم ويشاهدونه، ويسمع منهم ويسمعون منه، وأنه قد صار من اللازم عليهم اتباعه، لأن الشواهد قد قامت على صدقه فيما يبلغه عن ربه.

وأضاف - سبحانه - الرسول ﷺ إلى ذاته فقال: ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ لتشريفه ﷺ وتكريمه، وللإشارة إلى قدسية هذه الرسالة وسمو منزلتها، وأنها لا تسوغ مخالفة من أتى بها، ولا يصح الخروج عن طاعته، لأنه رسول من عند الله - تعالى - الذى له الخلق والأمر.

ومفعول ﴿يبين﴾ محذوف. أى: يبين لكم الشرائع والأحكام، وما أمرتم به، وما نهيتم عنه، وحذف هذا المفعول اعتمادًا على ظهوره، إذ من المعلوم أن ما يبينه الرسول هو الشرائع والأحكام.

وقوله: ﴿على فترة﴾ متعلق بقوله ﴿جاءكم﴾ على الظرفية، وقوله: ﴿من الرسل﴾ متعلق بمحذوف صفة لفترة. أى: قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ على حين فتور من الإرسال وانقطاع الوحى، ومزيد الاحتياج إلى البيان.

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿على فترة﴾ فيه معنى فوقية الرسالة على الفترة، وعلوها عليها؛ كعلو البيان على الجهل، والنور على الظلمة، فمن الواجب عليهم أن يسارعوا إلى اتباع الرسول الذى جاءهم بالحق، وإلا كانوا ممن يرتضى لنفسه الانحدار من الأعلى إلى الأدنى، ومن العلم إلى الجهل، ومن الهدى إلى الضلال.

وقوله - تعالى - : ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ جملة تعليلية المقصود بها قطع معاذيرهم إذا احتجوا بالجهل وعدم معرفتهم لأوامر الله ونواهيه.

والمراد بالبشير: المبشر الذى يبشر أهل الحق والطاعة بالخير والسعادة.

والمراد بالنذير: المنذر الذى ينذر أهل الباطل والضلال بسوء المصير.

والمعنى: لقد جاءكم يا معشر أهل الكتاب رسولنا محمد ﷺ يبين لكم شرائع الله بعد فترة متطاولة من انقطاع الرسل، لكى لا تقولوا على سبيل المعذرة يوم الحساب، ما جاءنا من بشير يبشرنا بالخير عند الطاعة، ولا نذير ينذرنا بسوء العاقبة عند المعصية.

و﴿من﴾ فى قوله ﴿من بشير﴾ لتأكيد نفى المجىء.

والتنكير فى قوله: ﴿بشير ونذير﴾ للتقليل، أى: ما جاءنا أى بشير ولو كان صغيرا، وما جاءنا أى نذير ولو كان ضئيلا.

وهنا يسوق الله - تعالى - ما يبطل معاذيرهم، بإثبات أن البشير والنذير قد جاءهم فقال - تعالى - : ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾.

والفاء هنا للافصاح عن كلام مقدر قبلها. والتقدير. لا تعتذروا بقولكم ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم رسولنا الذى يبشركم بالخير إن آمنتم وينذركم بسوء المصير إذا ما بقيتم على كفركم. والتنكير هنا فى قوله : ﴿بشير ونذير﴾ للتعظيم من شأن الرسول ﷺ الذى هو خاتم النبيين، والذى أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين.

وقوله : ﴿بشير ونذير﴾ وإن كانا وصفين للرسول ﷺ إلا أن ثانيهما قد عطف على أولهما لتغايرهما فى المعنى، لأن التبشير عمل يختلف عن الإنذار، وكلاهما من وظائف النبوة.

وقوله - تعالى - ﴿والله على كل شىء قدير﴾ تذييل قصد به شمول قدرة الله وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء. أى : والله على كل شىء قدير، فلا يعجزه أن يرسل رسله تترى، كما لا يعجزه أيضا أن يرسلهم على فترات متباعدة.

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت سمو الرسالة المحمدية وعظمتها، وأنها جاءت والناس فى أشد الحاجة إليها، وأنه لا عذر لأهل الكتاب فى عدم الاستجابة لها بعد أن بلغتهم، وبشرتهم بالخير إن آمنوا وأطاعوا، وبالعذاب الأليم إن استمروا على كفرهم وضلالهم.

وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من رذائل أهل الكتاب، ومن أقوالهم الباطلة فى حق الرسول الذى أرسله الله - تعالى - لهدايتهم وسعادتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانبا مما حدث بين موسى - عليه السلام - وبين قومه بنى إسرائيل، ومما لقيه منهم من سفاهة وجبن وتخاذل وعصيان. إذ فى ذلك تسلية للرسول ﷺ عما شاهده منهم من عناد وجحود. استمع إلى القرآن وهو يحكى بعض قصص بنى إسرائيل مع نبيهم موسى فيقول :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا
وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ

فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا
فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾
قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ
أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ
يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من جبن شديد، وعزيمة خوارة، وعصيان لرسلهم. وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد وهى تحكى بأسلوبها البليغ قصة تاريخية معروفة، وملخص هذه القصة:

أن بنى إسرائيل بعد أن ساروا مع نبيهم موسى - عليه السلام - إلى بلاد الشام، عقب غرق فرعون أمام أعينهم. أوحى الله - تعالى - إلى موسى أن يختار من قومه اثنى عشر نقيبا، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون حينئذ. ليتحسسوا أحوال سكانها، وليعرفوا شيئا من أخبارهم.

وقد أشار القرآن قبل ذلك إلى هذه القصة بقوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا﴾[(١)].

ولقد نفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - سبحانه -، وكان مما قاله موسى للنقباء

(١) راجع تفسيرنا للآية رقم ١٢ من هذه السورة.

عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : «لاتخبروا أحدا سوى عما ترونه».

فلما دخل النقباء الأرض المقدسة، واطلعوا على أحوال سكانها. وجدوا منهم قوة عظيمة، وأجساما ضخمة. . فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له - وهو فى جماعة من بنى إسرائيل - : قد جئنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها، فإذا هى فى الحقيقة تدر لبنا وعسلا، وهذا شىء من ثمارها، غير أن الساكنين فيها أقوياء، ومدينتهم حصينة. وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال. إلا اثنين منهم، فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى - عليه السلام - وبقتال الكنعانيين معه. ولكن بنى إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة «وأصروا على عدم الجهاد، ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : يا ليتنا متنا فى مصر أو فى هذه البرية.

وحاول موسى - عليه السلام - أن يصدهم عما ترددوا فيه من جبن وعصيان وأن يحملهم على قتال الجبارين؛ ولكنهم عموا وصموا.

وأوحى الله - تعالى - إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم.

هذا هو ملخص هذه القصة كما وردت فى كتب التفسير والتاريخ. وقد حشا بعض المفسرين كتبهم بأوصاف للجبارين - الذين ورد ذكرهم فى الآيات الكريمة - لا تقبلها العقول السليمة، وليس لها أصل يعتمد عليه بل هى مما يستحى من ذكره كما قال ابن كثير[1].

هذا، وقوله - تعالى - : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان بعض ما فعله بنو إسرائيل من رذائل بعد أخذ الميثاق عليهم، وتفصيل لكيفية نقضهم لهذا الميثاق.

و ﴿إذ﴾ ظرف للزمن الماضى بمعنى وقت. وهو مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام، تقديره اذكر. وقد خوطب بهذا الفعل رسول الله - ﷺ - بطريق قرينة الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب، ليعدد عليهم ما سلف من بعضهم من جنايات.

أى : واذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك، قول موسى لآبائهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم. أى : تذكروا إنعامه عليكم بالشكر والطاعة.

والمراد بذكر الوقت تذكر ما حدث فيه من وقائع وخطوب.

قال أبو السعود : وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت، دون ما وقع فيه من حوادث، - مع أنها

---

(١) من ذلك ما جاء فى وصفهم من أن منهم عوج بن عنق الذى كان طوله ثلاثة آلاف ذراع. وأن سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا فى ظل واحد منهم. وقال الآلوسى بعد أن حكى ما قيل فيهم من صفات. وهى عندى حديث خرافة.

هى المقصودة، لأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلا فإذا استحضر كان ما وقع فيه بتفاصيله كأنه مشاهد عيانا»[١].

وفى قول موسى لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ تلطف معهم فى الخطاب، وحمل لهم على شكر النعمة، واستعمالها فيما خلقت له لكى يزيدهم الله منها. وفيه كذلك تذكير لهم بما يربطهم به من رابطة الدم والقرابة التى تجعله منهم، يهمه ما يهمهم، ويسعده ما يسعدهم، فهو يوجه إليهم ما هو كائن لهدايتهم وسعادتهم.

وقوله - تعالى - : ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ بيان لنعم ثلاث أسبغها الله عليهم.

أما النعمة الأولى : فهى جعل كثير من الأنبياء فيهم كموسى وهارون، واسحق، ، ويعقوب، ويوسف، -عليهم السلام-. وقد أرسل الله - تعالى - هؤلاء الأنبياء وغيرهم فى بنى إسرائيل، لكى يخرجوهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان، إلى نور الهداية والطاعة والإيمان.

والتنكير فى قوله ﴿أنبياء﴾ للتكثير والتعظيم. أى : تذكروا يا بنى إسرائيل نعم الله عليكم، وأحسنوا شكرها، حيث جعل فيكم أنبياء كثيرين يهدونكم إلى الرشد.

قال صاحب الكشاف : «لم يبعث الله فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء»[٢].

وأما النعمة الثانية : فهى جعلهم ملوكا. أى : جعلكم أحرارًا تملكون أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب.

أى : جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم، بعد أن كنتم لا تملكون شيئًا من ذلك وأنتم تحت سيطرة فرعون وقومه.

قال الآلوسى : «أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله : ألك زوجة تأوى إليها؟ قال : نعم، قال : ألك مسكن تسكنه؟ قال : نعم. قال : فأنت من الأغنياء. قال الرجل : فإن لى خادما. قال عبد الله : فأنت من الملوك.

واخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : كانت بنو إسرائيل

(١) تفسير أبى السعود جـ٢ ص ١٧ - بتصرف وتلخيص -
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦١٩

إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا»[١].

وهذه النعمة - أى : نعمة الحرية بعد الذل، والسعة بعد الضيق - من النعم العظمى التى لا يقدرها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة، التى تعاف الظلم، وتأبى الضيم، وتحسن الشكر لله - تعالى -.

قال صاحب الانتصاف : فإن قلت : فلماذا لم يقل إذ جعلكم أنبياء، كما قال : ﴿وجعلكم ملوكا﴾ ؟ قلت. لأن النبوة مزية غير الملك. وآحاد الناس يشارك الملك فى كثير مما به صار الملك ملكا، ولا كذلك النبوة، فإن درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته فى مزيتها وخصوصيتها ونعتها، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك»[٢].

وأما النعمة الثالثة : فهى أنه - سبحانه - : آتاهم من ألوان الإكرام والمنن ما لم يؤت أحدا من عالمى زمانهم. فقد فلق لهم البحر فساروا فى طريق يابس حتى نجوا وغرق عدوهم. وأنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا من الطيبات، وفجر لهم من الحجر اثنتى عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم.. إلى غير ذلك من ألوان النعم التى حباهم الله - تعالى - بها، والتى كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

قال الآلوسى : و«أل» فى ﴿العالمين﴾ للعهد : والمراد عالمى زمانهم. أو للاستغراق. والتفضيل من وجه لا يستلزم التفضيل من جميع الوجوه، فإنه قد يكون للمفضول ما ليس للفاضل : وعلى التقديرين لا يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية، لأن الخطابات السابقة واللاحقة لبنى إسرائيل، فوجود خطاب فى الأثناء لغيرهم مما يخل بالنظم الكريم»[٣].

وبعد هذا التذكير بالنعم، وجه إليهم نداء ثانيا طلب منهم فيه دخول الأرض المقدسة فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾.

ومعنى المقدسة : المطهرة المباركة بسبب أنها كانت موطنا لكثير من الأنبياء.

والمراد بها. بيت المقدس وقيل المراد بها : اريحاء وقيل : الطور وما حوله.

قال ابن جرير : وهى لا تخرج عن أن تكون من الأرض التى ما بين الفرات وعريش مصر، لإجماع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك».

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٦ ص١٠٥.
(٢) حاشية الكشاف جـ ١ ص ٦١٩
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٦ ص ١٠٦

ومعنى ﴿كتب الله لكم﴾ : قدر لكم سكناها، ووعدكم إياها متى آمنتم به وأطعتم أنبياءه، أو معناه : فرض عليكم دخولها وأمركم به كما أمركم بأداء الصلاة والزكاة - وسنفصل القول فى هذه المسألة بعد تفسيرنا للآيات -.

ومفعول ﴿كتب﴾ محذوف. أى كتب لكم أن تدخلوها وفرض عليكم دخولها لإنقاذكم من الأهوال التى نزلت بكم فى أرض مصر من فرعون وجنده.

وقد تعدى فعل ﴿كتب﴾ هنا باللام دون على، للإشارة إلى أن ما فرضه عليهم إنما هو لمنفعتهم ولعزتهم ورفعة شأنهم.

وفى تكرير النداء من موسى لهم بقوله : ﴿يا قوم﴾ مبالغة فى حثهم على الامتثال لما يأمرهم به، وتنبيه إلى خطر ما يدعوهم إليه وعظم شأنه.

وقوله : ﴿كتب الله لكم﴾ فيه حض شديد لهم على الاستجابة لأمره، وإغراء لهم بالنصر والفوز، لأن الذى كتب لهم أن يدخلوها متى آمنوا وأطاعوا هو الله الذى لا معقب لحكمه.

قال الإمام الرازى : فى قوله : ﴿كتب الله لكم﴾ فائدة عظيمة. وهى أن القوم كانوا جبارين إلا أن الله - تعالى - لما وعد هؤلاء الضعفاء بأن تلك الأرض لهم، فإن كانوا مؤمنين مقرين بصدق موسى - عليه السلام - علموا قطعا أن الله ينصرهم عليهم، فلابد وأن يقدموا على قتالهم من غير جبن ولا خوف ولا هلع»[1].

وقوله - تعالى - : ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ تحذير لهم من الجبن والإحجام، بعد ترغيبهم الشديد فى الشجاعة والإقدام.

وقوله ﴿ترتدوا﴾ من الارتداد وهو الرجوع إلى الخلف.

و ﴿الأدبار﴾ جمع دبر وهو الظهر.

وهذا التعبير استعارة تمثيلية فيها تشبيه حال من يرجع عن الجهاد بعد أن توافرت أسبابه، بحال من يتراجع سائرا بظهره إلى الوراء، بدل أن يسير بوجهه إلى الأمام. وهذا التعبير يصور قبح الجبن والتخاذل حسا ومعنى.

وقوله (فتنقلبوا) من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشيء وهو مجزوم عطفا على فعل النهى وهو ﴿ولا ترتدوا﴾.

والمعنى : آمضوا أيها القوم لأمر الله، وسيروا خلفى لقتال الأعداء ودخول الأرض المقدسة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص ١٩٨

التى أمركم - سبحانه - بدخولها، ولا ترجعوا القهقرى منصرفين عن القتال خوفا من أعدائكم، ومبتعدين عن طاعتى وأمرى، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الخسران فى الدنيا والآخرة، وإلى الحرمان من خيرات الأرض التى أوجب الله عليكم دخولها.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: وماكان وجه قيل موسى لقومه إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة: ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾. أو يستوجب الخسارة من لم يدخل أرضا جعلت له؟ قيل: إن الله - تعالى - كان أمره بقتال من فيها من أهل الكفر به، وفرض عليهم دخولها، فاستوجب القوم الخسارة بتركهم فرض الله عليهم من وجهين:

أحدهما: تضييع فرض الجهاد الذى كان الله فرضه عليهم.

والثانى: مخالفتهم أمر الله فى تركهم دخول الأرض المقدسة»[1].

هذا، وقد جاءت هذه الجملة الكريمة، وهى قوله - تعالى - : ﴿ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ تحمل طابع التحذير الشديد، وتنذرهم بالخسران المبين إذا لم يستجيبوا لأمر الله بعد أن ساق لهم موسى ألوانا من المشجعات والمرغبات فى الجهاد، وذلك لأنه - عليه السلام - كان متوقعًا منهم الإحجام عن القتال، بعد أن جرب عنادهم وعصيانهم ونكوصهم على أعقابهم فى مواطن كثيرة، فهذه التجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة يذكر لهم أكبر النعم ويسوق لهم أكرم الذكريات وأقوى الضمانات وأشد التحذيرات لكى يقبلوا على الجهاد بعزيمة صادقة.

ولكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل، مهما قيل لهم من ألوان الترغيب والترهيب فإن همتهم الساقطة وعزيمتهم الخائرة، وطبيعتهم المنتكسة لم تتركهم فقد قالوا لنبيهم متذرعين بالمعاذير الكاذبة: ﴿يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾ وقوله: ﴿جبارين﴾ جمع جبار «والجبار صيغة مبالغة من جبر الثلاثى. ويطلق فى اللغة على الطويل القوى العاتى الذى يجبر غيره على ما يريد. مأخوذ من قولهم: نخلة جبارة أى: طويلة لا ينال ثمرها بالأيدى.

أى: قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - إن الأرض التى وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على من يقاتلهم، ولا قدرة لنا على لقائهم وإنا لن ندخل هذه الأرض المقدسة التى أمرتنا بدخولها مادام هؤلاء الجبارون فيها، فإن يخرجوا منها لأى سبب من الأسباب التى لاشأن لنا بها، فنحن على استعداد لدخولها فى راحة ويسر، وبلا أدنى تعب أو جهد.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٧٣

ولا شك أن قولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ليدل على منتهى الجبن والضعف، لأنهم لا يريدون أن ينالوا نصرا باستخدام حواسهم البدنية أو العقلية، وإنما يريدون أن ينالوا مايبغون بقوة الخوارق والآيات، وأمة هذا شأنها لا تستحق الحياة الكريمة، لأنها لم تقدم العمل الذى يؤهلها لتلك الحياة:

وفى ندائهم لنبيهم باسمه مجردًا ﴿قالوا يا موسى﴾ سوء أدب منهم معه، حيث استهانوا بمقام النبوة فنادوه باسمه حتى يكف عن دعوتهم إلى الجهاد. وفى قولهم ﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ امتناع عن القتال بإصرار شديد، حيث أكدوا عدم دخولهم بحرف النفى ﴿لن﴾ وجعلوا غاية النفى أن يخرج الجبارون منها، مع أن خروجهم منها بدون قتال أمر مستبعد، وهم لا يريدون قتالا، بل يريدون دخولا من غير معاناة ومجاهدة.

ثم بين القرآن بعد ذلك أن رجلين مؤمنين منهم قد استنكروا إحجام قومهم عن الجهاد، وحرضاهم على طاعة نبيهم فقال: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما، ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

والمراد بالرجلين: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وكانا من الاثنى عشر نقيبًا.

وقد وصف الله - تعالى - هذين الرجلين بوصفين.

أولهما: قوله: ﴿من الذين يخافون﴾ أى: من الذين يخافون الله وحده ويتقونه ولا يخافون سواه وفى وصفهم بذلك تعريض بأن من عداهما من القوم لا يخافونه - تعالى - بل يخافون العدو.

وقيل المعنى: من الذين يخافون الأعداء ويقدرون قوتهم إلا أن الله - تعالى - ربط على قلبيهما بطاعته. فجعلهما يقولان ما قالا:

الوصف الثانى: فهو قوله: ﴿أنعم الله عليهما﴾ فهذه الجملة صفة ثانية للرجلين. أى: قال رجلان موصوفان بأنهما من الذين يخافون الله - تعالى - ولا يخافون سواه، وبأنهما من الذين أنعم الله عليهما بالإيمان والتثبيت والثقة بوعده، والطاعة لأمره قالا لقومهما. ادخلوا عليهم الباب.

هذا، وقد ذكر صاحب الكشاف وغيره وجها ثالثا فقال: ويجوز أن تكون الواو فى قوله: ﴿يخافون﴾ - لبنى إسرائيل. والراجع إلى الموصول محذوف. والتقدير: قال رجلان من الذين يخاف بنو إسرائيل منهم، -وهم الجبارون- وهما رجلان منهم «أنعم الله عليهما» بالإيمان فآمنا، قالا لهم: إن العمالقة أجسام لاقلوب فيها فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم،

يشجعانهم على قتالهم. وقراءة من قرأ: ﴿يخافون﴾ - بضم الياء - شاهدة له. وكذلك. أنعم الله عليهما»[1].

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح وهو أن الرجلين من بنى إسرائيل، وأن قوله - تعالى - ﴿من الذين يخافون أنعم الله عليهما﴾ صفتان للرجلين وأن مفعول يخافون محذوف للعلم به وهو الله - تعالى - أى: يخافون الله ويخشونه لأن هذا هو الظاهر من معنى الآية، وهو الذى صدر به المفسرون تفسيرهم للآية، ولأنه لم يرد نص يعتمد عليه فى أن أحد الجبارين قد آمن وحرض بنى إسرائيل على قتال قومه، بينما وردت الآثار فى بيان اسمى الرجلين وأنهما كانا من الاثنى عشر نقيبا - كما سبق أن ذكرنا - وقوله - تعالى - ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ تشجيع من الرجلين لقومهما ليزيلا عنهم الخوف من قتال الجبارين.

أى: قال الرجلان اللذان يخافان الله لقومهما: ادخلوا على أعدائكم باب مدينتهم وفاجئوهم بسيوفكم، وباغتوهم بقتالكم إياهم، فاذا فعلتم ذلك أحرزتم النصر عليهم، وأدركتم الفوز، فإنه «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا».

قال صاحب الكشاف: فان قلت: من أين علما أنهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك. ومن جهة قوله - تعالى - ﴿كتب الله لكم﴾. وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله فى نصرة رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى فى قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة»[2].

وقوله - تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ دعوة من الرجلين المؤمنين لقومهما، بأن يكلوا أمورهم إلى خالقهم بعد مباشرة الأسباب، وأن يعقدوا عزمهم على دخول الباب على أعدائهم، إن كانوا مؤمنين حقا، فإن النصر يحتاج إلى تأييد من الله - تعالى - لعباده، وإلى توكل عليه وحده، وإلى عزيمة صادقة، ومباشرة للأسباب التى توصل إليه.

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هذين الرجلين المؤمنين، لم تصادف من بنى إسرائيل قلوبا واعية، ولا آذانا صاغية بل قابلوها بالتمرد والعناد وكرروا لنبيهم موسى عليه السلام - نفيهم القاطع للإقدام على دخول الأرض المقدسة مادام الجبارون فيها فقالوا - كما حكى القرآن عنهم: ﴿يا موسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها﴾.

أى: قالوا غير عابئين بالنصيحة. بل معلنين العصيان والمخالفة: يا موسى إنا لن ندخل

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٣٠

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ١٢٦

هذه الأرض التى أمرتنا بدخولها فى أى وقت من الأوقات، مادام أولئك الجبارون يقيمون فيها، لأننا لا قدرة لنا على مواجهتهم.

وقد أكدوا امتناعهم عن دخول هذه الأرض فى هذه المرة بثلاث مؤكدات، هى: إن، ولن، وكلمة أبدا.

أى: لن ندخلها بأى حال من الأحوال مادام الجبارون على قيد الحياة ويسكنون فيها.

ثم أضافوا إلى هذا القول الذى يدل على جبنهم وخورهم، سلاطة فى اللسان، وسوء أدب فى التعبير، وتطاولا على نبيهم فقالوا: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾.

أى: إذا كان دخول هذه الأرض يهمك أمره، فاذهب أنت وربك لقتال سكانها الجبابرة وأخرجاهم منها لأنه - سبحانه - ليس ربا لهم - فى زعمهم - إن كانت ربوبيته تكلفهم قتال سكان تلك الأرض.

وقولهم: ﴿إنا ها هنا قاعدون﴾ تأكيد منهم لعدم دخولهم لتلك الأرض المقدسة.

أى: إنا ها هنا قاعدون فى مكاننا لن نبرحه، ولن نتقدم خطوة إلى الأمام لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال الجبارين فنحن فى غنى عنه، ولا رغبة لنا فيه.

وإن هذا الوصف الذى وصفوا به أنفسهم، ليدل على الخسة وسقوط الهمة، لأن القعود فى وقت وجوب النشاط للعمل الصالح يؤدى بصاحبه إلى المذمة، والمذلة، قال - تعالى - ذمًّا لأمثالهم: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾[1].

قال الآلوسى ما ملخصه: وقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا﴾ قالوا ذلك استهانة واستهزاء به - سبحانه - وبرسوله موسى وعدم مبالاة. وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبىء عنه غاية جهلهم، وقسوة قلوبهم والمقابلة: ﴿إنا ها هنا قاعدون﴾.

ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين اللذين قالا، كأنهم لم يجزموا بذهابهم، أو يعبأوا بقتالهم وأرادوا بالقعود عدم التقدم لا عدم التأخر ثم قصت علينا السورة الكريمة أن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه ما رأى من عناد وجبن، لجأ إلى ربه يشكو إليه منهم، يلتمس منه أن يفرق بينه وبينهم، فقال: ﴿رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾.

أى: قال موسى باثا شكواه وحزنه إلى الله، ومعتذرا إليه من فسوق قومه وسفاهتهم

(١) سورة التوبة الآية ٤٦

وجبنهم : رب إنك تعلم أنى لا أملك لنصرة دينك أمر أحد ألزمه بطاعتك سوى أمر نفسى، وأمر أخى هارون، ولا ثقة لى فى غيرنا أن يطيعك فى العسر واليسر والمنشط والمكره.

ولم يذكر الرجلين اللذين قالا لقومهما فيما سبق ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ لعدم ثقتة الكاملة فى دخولهما معه أرض الجبارين، وفى وقوفهما بجانبه عند القتال إذا تخلى بقية القوم عنه فإن بعض الناس كثيرا ما يقدم على القتال مع الجيش الكبير، ولكنه قد يحجم إذا رأى أن عدد المجاهدين قليل. ومن هنا لم يذكر أنه يملك أمر هذين الرجلين كما يملك أمر نفسه وامر أخيه.

وصرح موسى - عليه السلام - بأنه يملك أمر أخيه هارون كما يملك أمر نفسه، لمؤازرته التامة له فى كفاحه ظلم فرعون، ولوقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة فى كل موطن من مواطن الشدة وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله - تعالى.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت كأنه لم يثق بهما كل الوثوق، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه، وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبى المعصوم الذى لاشبهة فى أمره. ويجوز أن يكون قال ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه. ويجوز أن يريد ومن يؤاخينى على دينى »[1].

هذا وقد ذكر النحويون وجوها من الإعراب لقوله ﴿وأخى﴾ منها : أنه منصوب عطفا على قوله : ﴿نفسى﴾ أى : ولا أملك إلا أخى مع ملكى نفسى دون غيرهما.

وقوله - تعالى - : ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ بيان لما يرجوه موسى من ربه - عز وجل - بعد أن خرج بنو إسرائيل عن طاعته.

والفاء هنا لترتيب الفرق والدعاء به على ما قبله. والفرق معناه الفصل بين شيئين.

والمعنى : قال موسى مخاطبًا ربه : لقد علمت يا إلهى أنى لا أملك لنصرة دينك إلا أمر نفسى وأمر أخى، أما قومى فقد خرجوا عن طاعتى وفسقوا عن أمرك ومادام هذا شأنهم فافصل بيننا وبينهم بقضائك العادل، بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون فإنك أنت الحكم العدل بين العباد.

وهذا الرجاء من موسى لربه فى معنى الدعاء عليهم بسبب جبنهم وعصيانهم وقد أجاب الله - تعالى - دعاءه فيهم، بأن أضلهم ظاهرا كما ضلوا باطنا وجاء الحكم الفاصل ممن يملكه فقال - تعالى - : ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٢٣

وقوله : ﴿يتيهون﴾ من التيه وهو الحيرة. يقال : تاه يتيه ويتوه إذا تحير وضل الطريق. ووقع فلان فى التيه. أى : فى مواضع الحيرة.

وقوله : ﴿فلا تأس﴾ أى : فلا تحزن عليهم من الأسى وهو الحزن. يقال : أسى - كتعب - أى : حزن. فهو اسين مثل حزين. وأسا على مصيبته - من باب عدا - أى : حزن قال أمرؤ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

أى : يقولون لا تهلك نفسك حزنا وتجمل بالصبر.

والمعنى : قال الله - تعالى - لنبيه موسى مجيبا لدعائه : يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة، يسيرون خلالها فى الصحراء تائهين حيارى لايستقيم لهم أمر، ولايستقر لهم قرار، فلاتحزن عليهم بسبب هذه العقوبة؛ فإننا ماعاقبناهم بهذه العقوبة إلا بسبب خروجهم عن طاعتنا، وتمردهم على أوامرنا، وجبنهم عن قتال أعدائنا، وسوء أدبهم مع أنبيائنا.

قال الآلوسى. قوله : ﴿محرمة عليهم﴾ أى : لا يدخلونها ولا يملكونها. والتحريم تحريم منع لا تحريم تعبد، وجوز أن يكون تحريم تعبد والأول أظهر وقوله ﴿أربعين سنة﴾ متعلق بقوله : محرمة فيكون التحريم مؤقتا لا مؤبدًا، فلا يكون مخالفا لظاهر قوله - تعالى - ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم﴾. والمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم هذه المدة، لكن لا بمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها، بل بعضهم ممن بقى - يجوز له دخولها - فقد روى أن موسى سار بمن بقى من بنى إسرائيل - بعد انقضاء هذه المدة - إلى الأرض المقدسة.

وقوله : ﴿يتيهون فى الأرض﴾ استئناف لبيان كيفية حرمانهم. وقيل حال من ضمير ﴿عليهم﴾. وقيل : الظرف متعلق بقوله : ﴿يتيهون﴾ فيكون التيه مؤقتا والتحريم مطلقًا يحتمل التأبيد وعدمه»[1].

وقال الفخرى الرازى : اختلف الناس فى أن موسى وهارون - عليهما السلام - هل بقيا فى التيه أو لا؟ فقال قوم : إنهما ما كانا فى التيه؛ لأن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوات الأنبياء مجابة، لأن التيه كان عذابًا والأنبياء لا يُعذبون.

وقال آخرون : إنهما كانا مع القوم فى ذلك التيه، إلا أن الله - تعالى - سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على إبراهيم فجعلها بردا وسلامًا. وإنهما قد ماتا فى التيه وبقى يوشع بن

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٠٩ - بتصرف وتلخيص -

نون - وكان ابن أخت موسى ووصيه بعد موته - وهو الذى فتح الأرض المقدسة - بعد انقضاء مدة التيه.

وقيل بل بقى موسى بعد ذلك وخرج من التيه وحارب الجبارين وقهرهم وأخذ الأرض المقدسة »[١].

هذا ونرى من المناسب فى هذا المقام أن نتعرض بشىء من التفصيل للمسائل الآتية:

أولا: الرد على اليهود فى دعواهم أن الأرض المقدسة - فلسطين - ملك لهم مستندين إلى قوله - تعالى - : ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم﴾

ثانيا: الحكمة فى كون عقابهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض.

ثالثًا: ما يؤخذ من هذه الآيات من العبر والعظات.

وللإجابة على المسألة الأولى نقول: للمفسرين أقوال فى المراد من الكتابة فى قوله - تعالى - ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم﴾ أشهرها قولان:

أولهما: أن معنى ﴿كتب الله لكم﴾: أمركم بدخولها، وفرضه عليكم كما أمركم بالصلاة والزكاة فالكتب هنا مثله فى قوله - تعالى - ﴿كتب عليكم الصيام﴾: أى: فرض عليكم وهذا قول قتادة والسدى

والثانى: أن معنى ﴿كتب الله لكم﴾ قدرها لكم وقضى أن تكون مساكن لكم دون الجبارين. وهذا القضاء مشروط بالإيمان، وطاعة الأنبياء، والجهاد فى سبيل نصرة الحق، فإذا لم يكونوا كذلك - وهم لم يكونوا كذلك فعلا - لم يتحقق لهم التمكين فى الأرض المقدسة، ولذا بعد أن أغراهم نبيهم موسى - عليه السلام - بدخولها، حذرهم من الجبن والعصيان فقال لهم: ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾.

قال الآلوسى: «وترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الإيمان قطعًا»[٢].

وقال ابن عباس: كانت هبة من الله لهم ثم حرمها - سبحانه - عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم.

وقال الفخر الرازى: إن الوعد بقوله ﴿كتب الله لكم﴾ مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط لاجرم لم يوجد المشروط»[٣].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٩٩.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٠٦

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص١٩٧

والخلاصة أن الكتابة فى قوله - تعالى - ﴿كتب الله لكم﴾ : إما أن تكون تكليفية على معنى : أن الله - تعالى - كتب عليكم وفرض أن تدخلوها مجاهدين مطيعين لنبيكم فإذا خالفتم ذلك حقت عليكم العقوبة.

وإما أن تكون كتابة قدرية. أى : قضى وقدر - سبحانه - أن تكون لكم متى آمنتم وأطعتم. وبنو إسرائيل ما آمنوا وما أطاعوا، بل كفروا وعصوا فحرمها - سبحانه - عليهم.

وبذلك ترى أن دعوى اليهود بأن الأرض المقدسة ملك لهم، بدليل قوله - تعالى - ﴿كتب الله لكم﴾ لا أساس لها من الصحة ولا يشهد لها عقل أو نقل.

وللإجابة على المسألة الثانية نقول : اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل عقوبته لقوم مناسبة لما اجترحوا من ذنوب وآثام وبنو إسرائيل لطول ما ألفوا من ذل واستعباد، هانت عليهم نعمة الحرية. وضعف عندهم الشعور بالعزة. وأصبحت حياة الذلة مع القعود. أحب إليهم من حياة العزة مع الجهاد ولهذا عندما أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بدخول الأرض المقدسة اعتذروا بشتى المعاذير الواهية وأكدوا له عدم اقترابهم منها مادام الجبارون فيها : وقالوا : ﴿إنا ها هنا قاعدون﴾.

فاقتضت حكمة الله - تعالى - أن يحرمهم منها جزاء جبنهم وعصيانهم وان يعاقبهم بما يشبه القعود، بأن يحكم عليهم بالتيهان فى بقعة محدودة من الأرض، يذهبون فيها ويجيئون وهم حيارى لا يعرفون لهم مقرا وأن يستمروا على تلك الحالة أربعين سنة حتى ينشأ من بينهم جيل آخر سوى ذلك الجيل الذى استمرأ الذل والهوان.

قال ابن خلدون فى مقدمته. . ويظهر من مساق قوله - تعالى - ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾ ومن مفهومه : أن حكمة ذلك التيه مقصودة، وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر، وأفسدوا من عصبيتهم، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف القهر ولا يسام بالمذلة. فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر. فسبحان الحكيم العليم»[1].

هذا ولصاحب المنار كلام حسن فى حكمة هذه العقوبة، نرى من المناسب إثباته هنا، فقد قال - رحمه الله - فى ختام تفسيره لهذه الآيات :

«إن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستبداد، والاحساس بالظلم والاضطهاد، تفسد

(١) مقدمة ابن خلدون. نقلا عن تفسير القاسمى جـ٦ ص١٩٤٢

أخلاقها، وتذل نفوسها. وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية. والطبائع الخلقية، وإذا أخرجت صاحبها من بيئتها، ورفعت عن رقبته نيرها، ألفيته ينزع بطبعه إليها ويتفلت منك ليقتحم فيها، وهذا شأن البشر فى كل ما يألفونه، ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر.

أفسد ظلم فرعون فطرة بنى إسرائيل فى مصر، وطبع عليها بطابع المهانة والذل. وقد أراهم الله - تعالى - من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى - عليه السلام - وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل إلى الحرية. ولكنهم كانوا مع هذا كله إذا أصابهم ضرر يتطيرون بموسى، ويذكرون مصر ويحنون إليها.

وكان الله - تعالى - يعلم أنهم لا تطاوعهم أنفسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وأن وعده - تعالى - لأجدادهم إنما يتم على وفق سنته فى طبيعة الاجتماع البشرى، إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية والعبودية. ونشأ بعده جيل جديد فى حرية البداوة، وعدل الشريعة، ونور الآيات الإلهية، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم، حتى يبين لهم حجته عليهم، ليعلموا أنه لم يظلمهم إنما يظلمون أنفسهم.

وعلى هذه السُّنة العادلة أمر الله - تعالى - بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، فأبوا واستكبروا. فأخذهم الله بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قومًا آخرين.

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التى ضربها الله لنا، وأن نعلم أن إصلاح الأمم من بعد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بإنشاء جيل جديد جمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها[1].

وللإجابة على المسألة الثالثة - وهى ما يؤخذ من هذه الآيات من عظات وعبر - نقول: إن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على لون حكيم فى أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى - فقد بدأت بتذكير بنى إسرائيل بأمجادهم وبعظم نعم الله عليهم، لتغرس فيهم الشعور بالعزة؛ ولتغريهم بالاستجابة لما أمر به - سبحانه -.

كما اشتملت على تحذيرهم من مغبة الجبن والمخالفة لأن ذلك يؤدى إلى الخسران.

وفوق ذلك فقد صورت تصويرا معجزا طبيعة بنى إسرائيل على حقيقتها وكشفت عن خور عزيمتهم، وسقوط همتهم وسوء اختيارهم لأنفسهم.. بما جعلهم أهلا للعقوبات الرادعة وفى كل ذلك تسلية للرسول ﷺ عما لحقه من اليهود المعاصرين له من أذى، وتحذير لهم من السير

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٣٧ - بتصرف يسير.

على طريقة آبائهم المعوجة، حتى لايعرضوا أنفسهم للعقوبات التى حلت بأسلافهم.

قال الإمام ابن جرير: عند تفسيره للآيات الكريمة: وهذا - أيضًا - من الله - تعالى تعريف - لنبيه ﷺ يتمادى هؤلاء اليهود فى الغى، وبعدهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم وبطء إثابتهم إلى الرشاد، مع كثرة نعم الله عندهم، وتتابع آياته وآلائه عليهم، مسليا بذلك نبيه ﷺ عما ينزل به من مجادلاتهم فى ذات الله، يقول الله - له: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن الذهاب عن الله، والبعد عن الحق، وما فيه من الحظ لهم فى الدنيا والآخرة، من عاداتهم وعادات أسلافهم، وأوائلهم، وتعزّ بما لاقى منهم أخوك موسى - عليه السلام -[1].

وقال الإمام ابن كثير: وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم كليم الله وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان. وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم. هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من الغرق له ولجنوده فى اليم وهم ينظرون. لتقر به أعينهم - وما بالعهد من قدم - ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لاتوازن عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم. وظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام وافتضحوا فضيحة لايغطيها الليل، ولا يسترها الذيل.

وقال - رحمه الله - قبل ذلك: وما أحسن ما أجاب به الصحابة - رضى الله عنهم - يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم فى قتال قريش. فقد قالوا فأحسنوا.

لقد قال المقداد: يارسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى؛ ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن نقول لك: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»[2]

كذلك يؤخذ من هذه القصة أن معصية الله ورسله تؤدى إلى الخسران، فإن بنى إسرائيل لما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة، وعصوا أمر نبيهم، عاقبهم الله بالتيه مدة أربعين سنة، صارت قصتهم عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

وبعد أن ساق - سبحانه - جوانب متعددة من أحوال أهل الكتاب وما جبلوا عليه من أخلاق سيئة، أتبع ذلك بقصة ابنى آدم، فقال - تعالى -:

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٦٨

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٩ بتصرف وتلخيص.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ
لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ
لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى
سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا
ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾
مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ
نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

قال أبو حيان فى البحر «مناسبة هذه الآيات لما قبلها، هو أن الله لما ذكر تمرد بنى إسرائيل وعصيانهم أمره فى النهوض لقتال الجبارين، أتبع ذلك بذكر قصة ابنى آدم وعصيان قابيل أمر الله، وأنهم اقتفوا فى العصيان أول عاص لله وأنهم انتهوا فى خور الطبيعة. وهلع النفوس

والجبن والفزع إلى غاية بحيث قالوا لنبيهم الذى ظهرت على يديه خوارق عظيمة - ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منهم من الجسارة والعتو بأن أقدم على أكبر المعاصى بعد الشرك وهو قتل النفس التى حرم الله قتلها، بحيث كان أول من سن القتل، وكان عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة. فاشتبهت القصتان من حيث الجبن عن القتل والإقدام عليه. ومن حيث المعصية بهما وأيضًا فتقدم قوله فى أوائل الآيات :

﴿إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ وتبين ان عدم اتباع بنى إسرائيل للنبى ﷺ إنما سببه الحسد، وقصة بنى آدم انطوت على الحسد : وأن بسببه وقعت أول جريمة قتل على ظهر الأرض(١).

وقوله : ﴿واتل﴾ من التلاوة. وأصل التلاوة القراءة المتتابعة الواضحة فى مخارج حروفها. وفى النطق بها. والمراد بابنى آدم : ولداه وهما قابيل وهابيل.

قال القرطبى : واختلف فى ابنى آدم. فقال الحسن البصرى : ليسا من صلبه كانا رجلين من بنى إسرائيل - ضرب الله بهما المثل فى إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة، فتقربا بقربانين، ولم تكن القرابين إلا فى بنى إسرائيل قال ابن عطية : وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بنى إسرائيل يقتدى بالغراب؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبه. هذا قول الجمهور من المفسرين وهما قابيل وهابيل(٢).

والضمير فى قوله : ﴿عليهم﴾ يعود على بنى إسرائيل الذين سبق الحديث عنهم. أو على جميع الذين أرسل الرسول ﷺ لهدايتهم ويدخل فيه بنو إسرائيل دخولا أوليًا، لإعلامهم بما هو فى كتبهم حيث وردت هذه القصة فى التوراة.

وقوله ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر ﴿اتل﴾ أى : اتل عليهم تلاوة ملتبسة بالحق والصدق. والقربان : إسم لما يتقرب به إلى الله - تعالى - من صدقة أو غيرها. ويطلق فى أكثر الأحوال على الذبائح التى يتقرب إلى الله - بذبحها.

قال أبو حيان : وقد طول المفسرون فى سبب تقريب هذا القربان - من قابيل وهابيل - وملخصه : أن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكرًا وأنثى، وكان آدم يزوج ذكر هذا البطن أنثى ذلك البطن الآخر. ولا يحل للذكر نكاح توأمته : فولد مع قابيل أخت جميلة، وولد مع هابيل أخت دون ذلك. فأبى قابيل إلا أن يتزوج توأمته لا توأمة هابيل، وأن يخالف سنة النكاح ونازع قابيل هابيل فى ذلك، فاتفقا على أن يقدما قربانا - فأيهما قبل قربانه تزوجها، والقربان الذى

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ص ٤٦٠
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٣٣

قرباه هو زرع لقابيل - وكان صاحب زرع - وكبش لهابيل - وكان صاحب غنم - فتقبل من أحدهما وهو هابيل ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل. وكانت علامة التقبل أن تأكل نار نازلة من السماء القربان المتقبل وتترك غير المتقبل[١].

والمعنى: واتل - يا محمد - على هؤلاء الحسدة من اليهود، وعلى الناس جميعا قصة قابيل وهابيل، وقت أن قربا قربانًا لله - تعالى - فتقبل الله - عز وجل - قربان أحدهما - وهو هابيل - لصدقه وإخلاصه، ولم يتقبل من الآخر - وهو قابيل - بسوء نيته وعدم تقواه.

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الأخوين من حوار فقال: ﴿قال لأقتلنك﴾ أى قال قابيل متوعدا أخاه هابيل: لأقتلنك بسبب قبول قربانك، دون قربانى، فأنت ترى أن هذا الأخ الظالم قد توعد أخاه بالقتل - وهو من أكبر الكبائر. دون أن يقيم للأخوة التى بينهما وزنا ودون أن يهتم بحرمة الدماء وبحق غيره فى الحياة والذى حمله على ذلك الحسد له على مزية القبول.

وقد أكد تصميمه على قتله لأخيه بالقسم المطوى فى الكلام والذى، تدل عليه اللام. ونون التوكيد الثقيلة أى والله لأقتلنك بسبب قبول قربانك.

وهنا يحكى القرآن الكريم مارد به الأخ البار التقى هابيل على أخيه الظالم الحاسد قابيل، فيقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

أى: قال هابيل لقابيل ناصحا ومرشدًا: إنما يتقبل الله الأعمال والصدقات من عباده المتقين الذين يخشونه فى السر والعلن؛ وليس من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من نعم، فعليك أن تكون من المتقين لكى يقبل منك الله.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف كان قوله: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ جوابا لقوله: ﴿لأقتلنك﴾؟ قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلى، فلم تقتلنى؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أن الله - تعالى - لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق»[٢].

ثم انتقل الأخ التقى من وعظ أخيه بتطهير قلبه، إلى تذكيره بحقوق الأخوة وما تقتضيه من بر وتسامح فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٣٠

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٢ ص٤٦١.

إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين﴾ وبسط اليد : مدها والمراد هنا : مدها بالاعتداء.

والمعنى : لئن مددت إلى - يا أخى - يدك لتقتلنى ظلما وحسدًا ﴿ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك﴾ فإن القتل - وخصوصا بين الأخوة جريمة منكرة، تأباها شرائع الله - تعالى - وتنفر منها العقول السليمة.

وإذا كان الأخ الظالم قابيل قد أكد تصميمه على قتل أخيه هابيل بجملة قسمية وهى ﴿لأقتلنك﴾ فإن هابيل قد أكد عدم قتله له بجملة قسمية - أيضًا وهى ﴿لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك﴾.

فأنت ترى أن الجملة الكريمة تصور أكمل تصوير ما بين الأخيار والأشرار من تضاد.

قال الآلوسى : قيل كان هابيل أقوى من قابيل ولكنه تحرج عن قتله واستسلم له خوفًا من الله - تعالى - لأن المدافعة لم تكن جائزة فى ذلك الوقت، وفى تلك الشريعة. أو تحريًا لما هو الأفضل والأكثر ثوابا وهو كونه مقتولا، لا قاتلا»[1].

وقوله : ﴿إنى أخاف الله رب العالمين﴾ جملة تعليلية مسوقة لبيان سبب امتناع هابيل عن بسط يده إلى أخيه قابيل.

أى : إنى أخاف الله رب العالمين أن يرانى باسطًا يدى إليك بالقتل. وقد أكد خوفه من الله - تعالى - بأن المؤكدة للقول، وبذكره له - سبحانه - بلفظ الجلالة، المشعر بأنه هو وحده صاحب السلطان، وبوصفه له عز وجل بأنه رب العالمين، أى : منشىء الكون ومن ومافيه، وصاحب النعم التى لا تحصى على خلقه.

وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد لقابيل لخشية الله على أتم وجه، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله.

ثم انتقل هابيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه وبتذكيره بما تقتضيه الأخوة من بر وتسامح إلى تخويفه من عقاب الآخرة فقال : ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين﴾ :

وقوله : ﴿أن تبوء بإثمى وإثمك﴾، أى ترجع. وتقر : من البوء وهو الرجوع واللزوم، يقال : باء إليه : أى : رجع، وبؤت به إليه أى رجعت.

والآية الكريمة تعليل آخر لامتناعه عن بسط يده إلى أخيه، ولم تعطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها فى العلية، ولدفع توهم أن تكون جزء علة لا علة تامة.

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١١٢

والمعنى : ﴿إنى أريد﴾ بامتناعى عن التعرض لك ببسط يدى ﴿أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ أى : ترجع إلى بإثم قتلك إياى، وبإثمك الذى قد كان منك قبل قتلى، والذى بسببه لم يتقبل قربانك ﴿فتكون﴾ بسبب الإثمين ﴿من أصحاب النار﴾ فى الآخرة ﴿وذلك﴾ أى : كينونتك من أصحاب النار ﴿جزاء الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم.

قال الإمام الرازى : فإن قيل : كما لا يجوز للإنسان أن يريد من نفسه أن يعصى الله، فكذلك لا يجوز له أن يريد من غيره أن يعصى الله، فلم قال : ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ ؟

فالجواب : أن هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله، وكان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له : وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصحية فلابد وأن تترصد قتلى فى وقت أكون غافلا عنك وعاجزا عن دفعك فحيئذ لا يمكننى أن أدفعك عن قتلى إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبان. وهذا منى كبيرة ومعصية وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا، وبين أن يكون أنت، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لى.

ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير فى هذه الحالة، وعلى هذا الشرط لا يكون حراما. ويجوز أن يكون المراد : إنى أريد أن تبوء بعقوبة قتلى. ولا شك أنه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه»(١).

وقال صاحب الانتصاف : فأما إرادته - أى إرادة هابيل - لإثم أخيه وعقوبته - فى قوله - تعالى ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ - فمعناه : إنى لا أريد أن أقتلك فأعاقب. ولما لم يكن بد من إرادة أحد الأمرين إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم وكان غير مريد للأول. اضطر إلى الثانى.

فهو لم يرد إذا إثم أخيه لعينه، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل - ولم تكن حينئذ مشروعة - فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه. وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة. ومعناه أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه فى ذلك من الإثم، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذل نفسه فى سبيل الله»(٢).

وإلى هنا نرى. أن هابيل قد استعمل فى صرف أخيه عن جريمة القتل وسائل متنوعة فهو

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٢٠٧ - بتصرف وتلخيص,

(٢) حاشية تفسير الكشاف جـ١ ص٢٥.

أولا أرشده إلى أن الله - تعالى - إنما يتقبل الأعمال من المتقين، فإذا أراد أن يتقبل قربانه فعليه أن يكون منهم.

وأرشده ثانيا إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح.

وأرشده ثالثا إلى أنه لا يمنعه من بسط يده إليه إلا الخوف من الله رب العالمين.

وأرشده رابعًا إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدى به إلى عذاب النار يوم القيامة، بسبب قتله لأخيه ظلما وحسدًا.

فماذا كان وَقْعُ هذا النصح الحكيم، والإرشاد القويم فى نفس ذلك الإنسان الحاسد الظالم؟

لقد بين الله ذلك بقوله: ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾.

قال القرطبى: قوله ﴿فطوعت له نفسه﴾: أى: سولت وسهلت نفسه له الأمر. وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع سهل. يقال: طاع الشىء يطوع أى: سهل وانقاد. «وطوعه فلان له أى سهله»[1].

والمعنى: أن قابيل سهلت له نفسه وزينت له - بعد هذه المواعظ - ﴿قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ فى دنياه وفى أخراه.

أصبح من الخاسرين فى دنياه لأنه قتل أخاه، والأخ سند لأخيه وعون له، لما بينهما من رحم قوية ورابطة متينة.

وأصبح من الخاسرين فى آخرته، لأنه ارتكب جريمة من أكبر الجرائم وأشنعها وقد توعد الله مرتكبها بالغضب واللعنة والعذاب العظيم.

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿فطوعت﴾ تعبير دقيق بليغ، فإن هذه الصيغة - صيغة التفعيل - تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفسه، كانت هناك بواعث الشر التى تدعوه إلى الاقدام على قتله، ودوافع الخير التى تمنعه من الاقدام على قتل أخيه، وأخيرا تغلبت دوافع الشر على دوافع الخير فقتل أخاه.

وقد صور الإمام الرازى هذا المعنى تصويرا حسنا فقال:

قال المفسرون: فطوعت، أى: سهلت له نفسه قتل أخيه، وتحقيق الكلام ان الإنسان إذا تصور القتل العمد العدوان وكونه من اعظم الكبائر فهذا الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله فيكون هذا الفعل كالشىء العاصى المتمرد عليه الذى لا يطيعه بوجه ألبتة. فإذا أوردت النفس

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٣٨

أنواع وساوسها، صار هذا الفعل سهلا عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له، بعد أن كان كالعاصى المتمرد عليه، فهذا هو المراد بقوله: ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾(١).

هذا، والآية الكريمة بعد كل ذلك، تشير إلى شناعة الجريمة فى ذاتها من حيث الباعث عليها، إذ الباعث عليها هو الحسد ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول إذ هى صلة أخوة تقتضى المحبة والمودة والتراحم ومن حيث ذات الفعل فإنه أكبر جريمة بعد الاشراك بالله - تعالى -.

قال الآلوسى: أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها. لأنه أول من سن القتل» وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر - رضى الله عنه - قال: «إنا لنجد ابن آدم القاتل، يقاسم أهل النار العذاب. عليه شطر عذابهم»(٢).

ثم حكى القرآن بعض ما حدث بعد قتل الأخ أخاه فقال: ﴿فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين﴾.

وقوله: ﴿فبعث﴾ من البعث بمعنى الإرسال. وهو هنا مستعمل فى الإلهام بالطير إلى ذلك المكان بحيث يراه قابيل.

والغراب: طائر معروف. قالوا: والحكمة فى كونه المبعوث دون غيره من الطيور أو الحيوان، لأنه يتشاءم به فى الفراق والاغتراب. أو لأن من عادة الغراب دفن الأشياء.

وقوله: ﴿يبحث فى الأرض﴾ أى: ينبش التراب بمنقاره ورجليه بحيث يستخرجه من الأرض، ليعمل مايشبه الحفرة.

والتعبير بالمضارع، للإشارة إلى أن البحث قد مكث وقتا، وكان مجال استمرار.

وقوله: ﴿ليريه﴾ إما متعلق بقوله ﴿بعث﴾ فيكون الضمير فى الفعل لله - تعالى - أو متعلق بقوله: ﴿يبحث﴾ فيكون الضمير للغراب.

قال القرطبى: قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر ثم حفر فدفنه - فتعلم قابيل ذلك من الغراب - وكان ابن آدم هذا أول من قتل. وقيل إن الغراب

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٢٠٧

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٦ ص ١١٥

بحث الأرض على طعمه - أى: أكله - ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه، لأن عادة الغراب فعل ذلك، فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه»(١).

«والسوءة» ما تسوء رؤيته من الجسد، والمراد بها هنا: جميع جسد الميت وقيل: المراد بها العورة، لأنها تسوء ناظرها. وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، لأن سترها آكد.

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بكلام يسبقها لم يذكره القرآن الكريم لفهمه من السياق.

والتقدير: أن القاتل بعد أن ارتكب جريمته. ورأى جثة أخيه أمامه ملقاة فى العراء. تحير ماذا يفعل فيها حتى لا يتركها عرضة لنهش السباع والطيور. ﴿فبعث الله غرابًا يبحث﴾ أى: يحفر وينبش بمنقاره ورجليه متعمقا ﴿فى الأرض﴾ ﴿ليريه﴾ أى: ليعلم ذلك القاتل ويعرفه ﴿كيف يوارى سوءة أخيه﴾ أى: كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة، وأصبح عرضة للتغير والتعفن.

وقوله - تعالى - ﴿قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى﴾ بيان لما اعترى هذا القاتل من تحسر وندم.

وكلمة ﴿ياويلتى﴾ أصلها: ياويلتى. وهى كلمة جزع وتحسر. تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة كأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها، بعد تنزيلها منزلة من ينادى. ولا يكون ذلك إلا فى أشد الأحوال ألما، والويلة كالويل: ومعناهما الفضيحة والبلية والهلاك.

أى: قال القاتل لأخيه ظلما وحسدا بجزع وحسرة - بعد أن أرى غرابا يحفر حفرة ليدفن فيها شيئا - قال ﴿يا ويلتى﴾ أى: يا فضحيتى وبليتى أقبلى فهذا وقتك، لأنى قد نزلت بى أسبابك.

وقوله: ﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى﴾ أى: أضعفت عن الحيلة التى تجعلنى مثل هذا الغراب فأستر جسد أخى فى التراب كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه فى الأرض ما أراد دفنه؟! والاستفهام فى ﴿أعجزت﴾ للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب، مع أنه إنسان فيه عقل، والغراب طائر من أخس الطيور.

وقوله: ﴿فأوارى﴾ معطوف على قوله: ﴿أن أكون﴾.

وقوله: ﴿فأصبح من النادمين﴾، تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانا وحسدا، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٢٥

والندم : أسف الفاعل على فعل صدر منه .

قال الراغب : الندم والندامة التحسر من تغير رأى فى أمر فائت . قال - تعالى - : ﴿فأصبح من النادمين﴾ . وأصله من منادمة الحزن له وملازمته إياه »[١] .

والمعنى : فأصبح قابيل الذى قتل أخاه هابيل بغيا وحسدا من النادمين على ما اقترف من فواحش تدل على جهله ، وبغيه ، وتمكن الحقد من نفسه .

قال صاحب المنار : والندم الذى ندمه - قابيل - هو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ فى فعل فعله إذا ظهر له أن فعله كان شرا له لا خيرا . وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله ، والتألم من تعدى حدوده ، وهذا هو المراد بحديث « الندم توبة » - رواه أحمد والبخارى فى تاريخه والحاكم والبيهقى .

وأما الندم الطبيعى الذى أشرنا إليه فلا يعد وحده توبة . وفى حديث ابن مسعود فى الصحيحين مرفوعا : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل - أى نصيب - من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل »[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد أن ساق ما جرى بين ابنى آدم - ما شرعه من شرائع تردع المعتدى ، وتبشر التقى فقال - تعالى - : ﴿من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ .

وأصل معنى الأجل : الجناية التى يخشى منها آجلا . يقال : أجل الرجل على أهله شرًا يأجله - بضم الجيم وكسرها - أجلا إذا جناه أو أثاره وهيجه ، ثم استعمل فى تعليل الجنايات كما فى قولهم : من أجلك فعلت كذا . أى بسببك ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تعليل .

والجار والمجرور ﴿من أجل﴾ متعلق بالفعل ﴿كتبنا﴾ واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى ما ذكر فى تضاعيف قصة ابن آدم من أنواع المفاسد المترتبة على هذا القتل الحرام .

والمعنى : بسبب قتل قابيل لأخيه هابيل حسدًا وظلما ، ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفاسد ﴿كتبنا﴾ أى فرضنا وأوجبنا ﴿على بنى إسرائيل﴾ فى التوراة ما يردع المعتدى وما يبشر المتقى .

قال الجمل : قال بعضهم : إن قوله : ﴿من أجل ذلك﴾ من تمام الكلام الذى قبله - أى أنه

---

(١) مفردات القرآن للراغب الاصفهانى جـ ٤٨٦ .
(٢) تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٤٧ .

متعلق بقوله : ﴿فأصبح من النادمين﴾ - والمعنى : فأصبح من النادمين من أجل ذلك. يعنى من أجل أنه قتل أخاه هابيل ولم يواره، ويروى عن نافع أنه كان يقف على قوله : من أجل ذلك ويجعله من تمام الكلام الأول، ولكن جمهور المفسرين وأصحاب المعانى على أن قوله ﴿من أجل ذلك﴾ ابتداء كلام متعلق بقوله ﴿كتبنا﴾ فلا يوقف عليه[1].

و ﴿من﴾ هنا للسببية. أى : بسبب هذه الجنايه شرعنا ما شرعنا من أحكام لدفع الشر وإشاعة الخير.

وعبر - سبحانه - عن السببيه. بمن لبيان الابتداء فى الحكم. وأنه اقترن بوقوع تلك الجريمة النكراء التى ستكون آثارها سيئة إذا لم تشرع الأحكام لمنعها.

وقدم الجار والمجرور على ما تعلق به وهو ﴿كتبنا﴾ لإفادة الحصر أى : من ذلك ابتدىء الكتب ومنه نشأ لا من شيء آخر.

وعبر - سبحانه - بقوله ﴿كتبنا﴾ للإشارة إلى أن الأحكام التى كتبها، قد سجلت بحيث لا تقبل المحو أو التبديل، بل من الواجب على الناس أن يلتزموا بها، ولا يفرطوا فى شيء منها.

وخص بنو إسرائيل بالذكر مع أن الحكم عام - لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل الأنفس مكتوبا، وكان قبل ذلك قولا مطلقا، ولأنهم أكثر الناس سفكا للدماء، وقتلا للمصلحين، فقد قتلوا كثيرا من الأنبياء، كما قتلوا أكثر المرشدين والناصحين، ولأن الأسباب التى أدت إلى قتل قابيل لهابيل من أهمها الحسد، وهو رذيلة معروفة فيهم، فقد حملهم حسدهم للنبى ﷺ على الكفر به مع أنهم يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم، كما حملهم على محاولة قتله ولكن الله - تعالى نجاه من شرورهم.

وما أشبههم فى قتلهم للذين يأمرونهم بالخير بقابيل الذى قتل أخاه هابيل؛ لأنه أرشده إلى ما يصلحه.

وقوله - تعالى - : ﴿أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ بيان لما كتبه - سبحانه - من أحكام تسعد الناس متى اتبعوها.

والمعنى : بسبب قتل قابيل لأخيه هابيل ظلما وعدوانا، كتبنا فى التوراة على بنى إسرائيل ﴿أنه﴾ أى : الحال والشأن ﴿من قتل نفسا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بغير نفس﴾.

أى : بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص منه ﴿أو فساد فى الأرض﴾ أى : أو بغير فساد فى

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٤٨٥ - بتصرف يسير.

الأرض يوجب إهدار الدم - كالردة وزنا المحصن - ﴿فكأنما قتل الناس جميعا﴾ لأن الذى يقتل نفسا بغير حق، يكون قد استباح دما مصونا قد حماه الإسلام بشرائعه وأحكامه، ومن استباح هذا الدم فى نفس واحدة، فكأنه قد استباحه فى نفوس الناس جميعا، إذ النفس الواحدة تمثل النوع الإنسانى كله. ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ أى: ومن تسبب فى إحيائها وصيانتها من العدوان عليها، كأن استنقذها مما يؤدى بها إلى الهلاك والأذى الشديد، أو مكن الحاكم من إقامة الحد على قاتلها بغير حق، من فعل ذلك فكأنما تسبب فى إحياء الناس جميعا.

وفى هذه الجملة الكريمة أسمى ألوان الترغيب فى صيانة الدماء، وحفظ النفوس من العدوان عليها، حيث شبه - سبحانه - قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا، وإحياءها بإحياء الناس جميعا.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع، وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله، وثبوت الحرمة. فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته، وعلى العكس. فلا فرق إذًا بين الواحد والجميع فى ذلك.

فإن قلت: فما الفائدة فى ذكر ذلك؟ قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها فى القلوب وليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا فى المحاماة على حرمتها، لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعا، عظم ذلك عليه فثبطه - عن القتل - وكذلك الذى أراد إحياءها[1]».

وقال الإمام ابن كثير: قال الحسن وقتادة فى قوله - تعالى - ﴿أنه من قتل نفسا﴾.. الخ. هذا تعظيم لتعاطى القتل. قال قتادة: عظيم والله وزرها، وعظيم والله أجرها. وقيل للحسن: هذه الآية لنا كما كانت لبنى إسرائيل؟ فقال: إى والذى لا إله غيره - هى لنا - كما كانت لهم. وما جعل - سبحانه - دماءهم أكرم من دمائنا[2]».

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المراد بالنفس فى قوله ﴿أنه من قتل نفسا﴾: العموم أى: نفسا يحرم قتلها من بنى الإنسان.

وبعضهم يرى أن المراد نفس الامام العادل، لأن القتل فى هذه الحالة يؤدى إلى اضطراب أحوال الجماعة، وإشاعة الفتنة فيها. قال القرطبى: روى عن ابن عباس أنه قال: المعنى:

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦١٧.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٥١.

من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياه بأن شد عضده ونصره، فكأنما أحيا الناس جميعا»[1].

ويبدو لنا أن تفسير النفس بالعموم أولى، لأنه هو الذى عليه جمهور العلماء، ولأنه أدعى لحفظ الدماء الانسانية، وإعطائها ما تستحقه من صيانة واحترام.

وقوله. ﴿بغير نفس﴾ متعلق بالفعل قبله وهو (قتل). وقوله ﴿أو فساد﴾ مجرور عطفا على نفس المجرورة بإضافه غير إليها.

و «ما» فى قوله ﴿فكأنما﴾ كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها.

وقوله - تعالى - : ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم فى الأرض لمسرفون﴾ بيان لموقف بنى إسرائيل القبيح مما جاءهم من هدايات على أيدى أنبيائهم ومرشديهم.

أى: ولقد جاءت رسلنا لبنى إسرائيل بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات، ﴿ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك﴾ أى: بعد الذى كتبناه عليهم من شرائع، وبعد مجىء الرسل إليهم بالبينات ﴿فى الأرض لمسرفون﴾ أى: لمجاوزون الحد فى ارتكاب المعاصى والآثام، إذ الاسراف مجاوزة حدود الحق والعدل بدون مبالاة أو اهتمام بها. وأكد - سبحانه - جملة ﴿ولقد جاءتهم رسلنا﴾ بالقسم، لكمال العناية بمضمونها، ولبيان أن الرسل - عليهم السلام - ما قصروا فى إرشاد بنى إسرائيل إلى ما يسعدهم ويهديهم، فقد جاء وهم بالشرائع البينة الواضحة التى تحمل فى نفسها دليل صلاحها. والتعبير «بجاءتهم» يشير إلى أن الرسل - عليهم السلام - وصلوا إليهم، وصاروا قريبين منهم، بحيث يرونهم ويخاطبونهم ولايتركون أمرًا يهمهم إلا بينوه لهم.

وجملة ﴿ثم إن كثيرا منهم﴾ معطوفة على جملة ﴿ولقد جاءتهم﴾.

وكان العطف «بثم» المفيدة هنا للتراخى فى الرتبة، للإشارة إلى الفرق الشاسع بين ما جاءتهم به الرسل من بينات وهدايات، وبين ما كان عليه بنو إسرائيل من جحود وعناد وإفساد فى الأرض.

واسم الاشارة «ذلك» يعود إلى المذكور من مجىء الرسل إليهم بالبينات ومن كتابة الشرائع عليهم. وفى وصف الكثيرين من بنى إسرائيل بالاسراف احتراس فى الحكم، وإنصاف للقلة التى آمنت منهم، وهذا من عدالة القرآن الكريم فى أحكامه، ودقته فى تعبيراته.

وذكر - سبحانه - أن إسراف الكثيرين منهم ﴿فى الأرض﴾ مع أنه لا يكون إلا فيها، للإيذان بأن فسادهم وإسرافهم فى القتل والمعاصى لم يكن فيما بينهم فحسب، بل انتشر شره فى

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٤٦

الأرض، وسرى إلى غيرهم من سكانها المنتشرين فيها. وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا ما دار بين ابنى آدم من محاورات أدت إلى قتل أحدهما للآخر ظلما وحسدا، إذ الحسد يأكل القلوب، ويشعلها بالشر كما تشتعل النار فى الحطب، وبسببه ارتكبت أول جريمة قتل على ظهر الأرض، وبسببه كانت أكثر الجرائم فى كل زمان ومكان.. كما حكت لنا أن بنى إسرائيل - مع علمهم بشناعة جريمة القتل - قد أسرفوا فى قتل الأنبياء والمصلحين مما يدل على قسوة قلوبهم، وفى كل ذلك تسلية للنبى ﷺ ولأصحابه عما كانوا يلاقونه من اليهود المعاصرين لهم من عناد ومكر وأذى.

وبعد أن ذكر سبحانه - تغليظ الإثم فى قتل النفس بغير حق، وتعظيم الأجر لمن عمل على إحيائها، أتبع ذلك ببيان الفساد المبيح للقتل، فقال -تعالى- :

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقال بعضهم : نزلت فى قوم من أهل الكتاب كانوا أهل موادعة لرسول الله ﷺ فنقضوا العهد، وأفسدوا فى الأرض، فعرف الله نبيه الحكم فيهم...

وقال آخرون : نزلت فى قوم من المشركين.

وقال آخرون : بل نزلت فى قوم من عرينة وعكل - بضم العين وسكون الكاف - ارتدوا عن الإسلام، وحاربوا الله ورسوله، فعن أنس أن رهطا من عكل وعرينة أتوا النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا المدينة - أى : وجدناها

رديئة المناخ - فأمر لهم النبى ﷺ بذود وراع - أى : بعدد من الإبل ومعهم راع -، وأمرهم أن يخرجوا بها، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعى، واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم، فأتى بهم إلى النبى ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم فى الحرة حتى ماتوا، فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم.

ثم قال ابن جرير : وأولى الأقوال فى ذلك عندى أن يقال : أنزل الله هذه الآية على نبيه ﷺ : لمعرفة حكمه على من حارب الله ورسوله، وسعى فى الأرض فسادا، بعد الذى كان من فعل رسول الله ﷺ بالعرنيين»(١).

والذى يراه ابن جرير أولى هو الذى تطمئن إليه النفس، فإن الآية الكريمة تبين عقاب قطاع الطرق الذين يحاربون النظام القائم للأمة، ويرتكبون جرائم القتل والنهب والسلب والسرقة سواء أكانوا من المشركين أم من غيرهم؟ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقوله : سبحانه ﴿يحاربون﴾ من المحاربه. والمحاربة : مفاعلة من الحرب وهى ضد السلم، والأصل فى معنى كلمة الحرب : الأخذ والسلب. يقال : حربه، إذا سلبه ماله، والمراد بالمحاربة هنا : قطع الطريق على الآمنين بالاعتداء عليهم بالقتل أو السلب أو ما يشبه ذلك من الجرائم التى حرمها الله - تعالى - :

ومحاربة الناس لله - تعالى - على وجه الحقيقة غير ممكنة، لتنزهه - سبحانه - عن أن يكون من الجواهر والأجسام التى تُقَاتِلَ؛ ولأن، المحاربة تستلزم أن يكون كل من المتحاربين فى وجهة ومكان والله منزه عن ذلك، فيكون التعبير مجازًا عن المخالفة لشرع الله، وارتكاب ما يغضبه أو المعنى : يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله وهم المسلمون؛ فيكون الكلام على تقدير حذف مضاف.

وصدر - سبحانه - الآية بلفظ ﴿إنما﴾ المفيد للقصر، لتأكيد العقاب، ولبيان أنه عقاب لاهوادة فيه، لأنه حد من حدود الله - تعالى - على تلك الجريمة النكراء التى تقوض بنيان الجماعة، وتهدم أمنها، وتزلزل كيانها، وتبعث الرعب والخوف فى نفوس أفرادها.

وعبر - سبحانه - عمن يحارب أولياءه وشرعه بأنهم محاربون له ولرسوله لزيادة التشنيع عليهم، ولبيان أن كل من يهدد أمن المسلمين ويعتدى عليهم يكون محاربًا لله ولرسوله ومستحقًا لغضبه - سبحانه - وعقوبته.

وقوله : ﴿ويسعون فى الأرض فسادًا﴾ معطوف على قوله ﴿يحاربون﴾.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٢٠٨.

وقوله : ﴿ويسعون﴾ من السعى وهو الحركة السريعة المستمرة.

والفساد : ضد الصلاح. فكل ما خرج عن وضعه الذى يكون به صالحًا نافعًا، يقال إنه قد فسد. والسعى فى الأرض بالفساد المراد به هنا : قطع الطريق على الناس، وتهديد أمنهم، والتعرض لهم بالأذى فى أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم.

وقوله : ﴿فسادًا﴾ مفعول لأجله أى : يحاربون ويسعون لأجل الفساد. أو هو حال من فاعل ﴿يسعون﴾ بتأويله بمفسدين، أو ذوى فساد.

وقوله : ﴿أن يقتّلوا أو يصلّبوا﴾ ألخ. خبر عن المبتدأ الذى هو ﴿جزاء﴾

والمعنى : ﴿إنما جزاء﴾ أى : عقاب ﴿الذين يحاربون الله ورسوله﴾ أى : يخالفونهما ويعصون أمرهما، ويعتدون على أوليائهما ﴿ويسعون فى الأرض فسادًا﴾ أى : يعملون بسرعة ونشاط فى الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس، والاعتداء على أموالهم وأنفسهم. جزاء هؤلاء ﴿أن يقتلوا﴾ والتقتيل هو القتل، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة فى القتل وعدم التهاون فى إيقاعه عليهم لكونه حق الشرع وللإشارة إلى الاستمرار فى قتلهم ماداموا مستمرين فى الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا.

﴿أو يصلبوا﴾ والتصليب : وضع الجانى الذى يراد قتله مشدودا على مكان مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره، وردعًا له عن ارتكاب المعاصى والجرائم. قالوا : ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل : لمدة يوم واحد. وجىء هنا أيضًا بصيغة التضعيف لإفادة التشديد فى تنفيذ هذه العقوبة وإثبات أنه لاهوادة فيها.

﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ أى : تقطع مختلفة، فقوله ﴿من خلاف﴾ حال من أيديهم وأرجلهم أى : لاتكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل تكونان من جانبين مختلفين.

﴿أو ينفوا من الأرض﴾ أى، يطردوا من الأرض التى اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، مع مراقبتهم والتضييق عليهم. وفسر بعضهم النفى بالحبس فى السجون، لأن فيه إبعادا لهم وتفريقا لجمعهم.

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ذلك لهم خزى فى الدنيا﴾ يعود إلى العقاب المذكور فى الآية من القتل والصلب. . الخ.

والخزى : الذل والفضيحة أى ذلك العقاب المذكور ﴿لهم خزى فى الدنيا﴾ أى : ذل وفضيحة وعار عليهم، لأنه كشف أمرهم، وهتك سترهم، وجعلهم عبرة لغيرهم.

هذا هو عقاب الدنيا أما عقاب الآخرة فقد بينه - سبحانه - بقوله : ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ أى : لهم فى الآخرة عذاب عظيم فى شدته وآلامه جزاء ما اقترفوا من جرائم.

وقوله : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ بيان لحكم هؤلاء المحاربين إذا ما تابوا قبل القدرة عليهم.

أى نفذوا - أيها المسلمون - هذه العقوبات على هؤلاء المحاربين لأولياء الله وأولياء رسوله، والساعين فى الأرض بالفساد ماداموا مستمرين فى غيهم وعدوانهم ﴿إلا الذين تابوا﴾ منهم ﴿من قبل أن تقدروا عليهم﴾ أى : من قبل أن تتمكنوا من أخذهم، بأن أتوكم طائعين نادمين، ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أى واسع المغفرة والرحمة بعباده.

هذا وهناك مسائل تتعلق بهاتين الآيتين من أهمها ما يأتى :

١ - احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء فى أن المحاربة فى الأمصار وفى القرى وفى الصحراء على السواء، فحيثما تحققت إخافة المسلمين، كان الفاعلون لتلك الإخافة محاربين لله ولرسوله ويجب إنزال العقاب بهم، لقوله - تعالى - ﴿ويسعون فى الأرض فسادًا﴾ وكل هذه الأماكن من الأرض. وعلى هذا الرأى سار الإمام مالك والشافعى وأحمد وغيرهم.

ويرى الإمام أبو حنيفة أن قطع الطريق لا يتصور فى داخل المصر، إذ يمكن الإغاثة عند الإستغاثة ويد السلطان مبسوطة فى داخل الأمصار والقرى وإنما يتصور قطع الطريق فى الصحراء وخارج المدن والقرى.

والذى نراه متفقا مع الآية الكريمة أنه حيثما تحقق الوصف - وهو محاربة الآمنين؛ واستلاب أموالهم، والاعتداء على أرواحهم - كانت الحرابة، ولزمت العقوبة التى تردع هؤلاء المعتدين على أموال الناس وأنفسهم.

قال القرطبى : واختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة. فقال مالك : المحارب عندنا من حمل على الناس فى مصر أو فى برية وكابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة[1].

قال ابن المنذر : اختلف عن مالك فى هذه المسألة فأثبت المحاربة فى المصر مرة ونفى ذلك مرة. وقالت طائفة حكم ذلك فى المصر أو فى المنازل والطرق، وديار أهل البادية والقرى سواء وحدودهم واحدة.

قال ابن المنذر : كذلك هو، لأن كلا يقع عليه اسم المحاربة. والآية على العموم. وليس

(١) نائرة : أى هائجة يقال : نارت نارُه فى الناس بمعنى : هاجت هائجة.

لأحد أن يخرج من جملة الآية قوما بغير حجة. وقالت طائفة : لا تكون المحاربة فى المصر إنما تكون خارجة عن المصر[١].

وقال ابن العربى : والذى نختاره أن الحرابة عامة فى المصر والقفر، وإن كان بعضها أفحش من بعض. ولكن إسم الحرابة يتناولها، ومعنى الحرابة موجود فيها. ولو خرج بعض من فى المصر لقتل بالسيف. ويؤخذ فيه بأشد ذلك لا بأيسره. فإنه سلب وغيلة، وفعل الغيلة أقبح من فعل الظاهرة ولذلك دخل العفو فى قتل المجاهرة فكان قصاصا، ولم يدخل فى قتل الغيلة وكان حدا »[٢]

٢ - اختلف الفقهاء فى معنى التخيير فى قوله - تعالى - ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض﴾.

فقال قوم من السلف : الآية تدل على التخيير بين هذه الأجزية. فمتى خرج المحاربون بقطع الطريق، وقدر الإمام عليهم، فهو مخير بين أن يوقع بهم أى نوع من العقاب من هذه الأنواع الأربعة : القتل أوالصلب أوالتقطيع أوالنفى، حتى ولو لم يقتلوا ولم يأخذوا مالا، ماداموا قد اجتمعوا وقصدوا تهديد أمن الناس. فالمسألة متروكة لتقدير الحاكم، وعليه أن يوقع بهم مايراه مناسبًا لزجرهم وردعهم وجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يستشرى الشر فى الأمة.

قال ابن كثير: قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فيمن شهر السلاح فى قبة الإسلام. وأخاف السبيل ثم ظفر به الإمام وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله وإن شاء صلبه وإن شاء قطع يده ورجله، وكذا قال : سعيد بن المسيب ومجاهد، وعطاء، والحسن البصرى، وإبراهيم النخعى، والضحاك، كما رواه ابن جرير عن أنس - وهو مذهب المالكية.

ومستند هذا القول أن ظاهر ﴿أو﴾ للتخيير كما فى نظائر ذلك من القرآن، كما فى قوله - تعالى - فى كفارة الفدية : ﴿فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ فأوهنا للتخيير، وكذلك فى الآية التى معنا »[٣].

وقال قوم آخرون من السلف : الآية تدل على ترتيب الأحكام وتوزيعها على ما يليق بها من الجنايات. أى : أن ﴿أو﴾ لتنويع العقوبات على حسب طبيعة الجرائم. فإذا قتل هؤلاء المحاربون غيرهم وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا فقط قتلوا، وإذا أخذوا المال فحسب قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. وإذا تجمعوا واتفقوا على ارتكاب الجرائم من غير أن

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٥١.
(٢) أحكام القرآن لابن العربى جـ٢ ص٥٩٥.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥١ - بتلخيص يسير -

يرتكبوا بالفعل نفوا من الأرض.

وبهذا الرأى قال ابن عباس وقتادة والأوزاعى، وهو مذهب الشافعية والأحناف والحنابلة.

قال ابن كثير: وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، فعن ابن عباس أنه قال فى قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض.

ثم قال ابن كثير: ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره أن عبدالله بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أنها نزلت فى أولئك النفر العرنيين الذين ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعى، واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل. . قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عن القضاء فيمن حارب، فقال جبريل: من سرق مالا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته ومن قتل فاقتله. ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه»[1].

وقال الفخر الرازى: والذى يدل على ضعف القول الأول وجهان:

الأول: أنه لو كان المراد من الآية التخيير لوجب أن يمكن الإمام من الاقتصار على النفى، ولما أجمعوا على أنه ليس له ذلك علمنا أنه ليس المراد من الآية التخيير.

الثانى: أن هذا المحارب إذا لم يقتل ولم يأخذ المال فقدهمّ بالمعصية ولم يفعل، وذلك لا يوجب القتل كالعزم على سائر المعاصى فثبت أنه لا يجوز حمل الآية على التخيير، فيجب أن يضمر فى كل فعل على حدة فعلا على حدة، فصار التقدير: أن يقتلوا إن قتلوا، أو يصلبوا إن جمعوا بين أخذ المال والقتل أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال. أو ينفوا من الأرض إن أخافوا السبيل»[2].

والخلاصة أن أصحاب هذا الرأى الثانى يستدلون بأدلة نقلية - سبق بيانها - كما يستدلون بأدلة عقلية منها ما ذكر الإمام الرازى ومنها أن العقل يقضى أن يكون الجزاء مناسبا للجناية بحيث يزداد بازديادها، وينقص بنقصها، وليس من المعقول أن تكون جريمة الاتفاق على الإرهاب بدون تنفيذ، متساوية مع جريمة الإرهاب والقتل والسلب. إذاً فالعدالة توجب تنويع العقوبة.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥١.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٢١٦.

ومنها أن التخيير الوارد فى الأحكام المختلفة بحرف التخيير إنما يجرى على ظاهره إذا كان سبب الوجوب واحدًا كما فى كفارة اليمين وكفارة الفدية، أما إذا كان السبب مختلفا فإنه يخرج التخيير عن ظاهره -كما هنا-، ويكون الغرض بيان الحكم لكل واحد فى نفسه، وذلك لأن قطع الطريق متنوع وبين أنواعه تتفاوت الجريمة : فقد يكون باستلاب المال فقط، وقد يكون بالقتل فقط، وقد يكون بهما ومادام الأمر كذلك وجب أن يكون العقاب مختلفًا ووجب أن يحمل ظاهر النص على غير التخيير. بأن يحمل على بيان الحكم لكل نوع.

قالوا : ونظير ذلك قوله - تعالى - ﴿قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا﴾ فإنه ليس الغرض التخيير وإنما الغرض : ليكن شأنك مع قومك تعذيب من جحد وظلم، والإحسان إلى من آمن وعمل صالحا.

وإنما قلنا : ليس الغرض التخيير، لأنه لا يمكن أن يكون له الحق فى أى الأمرين من غير مرجح لأحدهما فى الاعتبار، إذ منطق العدالة يقتضى أن يكون العذاب لمن فسق وجحد، وأن يكون الإحسان لمن آمن واستقام.

قال بعض العلماء : «وإن الفقه فى التفرقة بين الرأيين أن الرأى الثانى يحدد جرائم معينة، ويعتبرها موضوع قطع بفعلها أو بالشروع فيها وهى القتل والسرقة. وأن الجرائم لا تخلو عن ذلك، ولذلك كانت العقوبات مترددة بين القطع والقتل، وأنه يكون ثمة تغليظ إذا ارتكبت الجريمتان معا.

وإن كان الشروع بالتجمع واتخاذ الأسباب، فإن العقوبة تكون بمنع الجريمة من الوقوع باتخاذ أسباب الوقاية بالنفى من الأرض، ولذلك كان التنويع، وكان تخريج حرف ﴿أو﴾ على ذلك الأساس، ليكون التكافؤ بين الجريمة والعقوبة، وإن لم تكن جريمة كانت الوقاية.

أما الرأى الأول فهو يتجه إلى أن عقوبة الحرابة لذات الحرابة والسعى فى الأرض بالفساد، ومنع الناس من السير والاستمتاع بأموالهم وحرياتهم الشخصية. وظاهر هذا الرأى أنه لا ينظر إلا إلى ذات الحرابة التى هى التخويف والإرهاب، ولا ينظر إلى الجرائم التى ارتكبوها فعلا، ولذلك يعمم الجرائم ولا يقصرها على القتل والسرقة كالرأى الثانى.

ويرى أن العقوبات فى جملتها هى لعلاج ذلك الشر، وحسم مادته، والقضاء على التفكير لمن يهم بمحاكاة من وقعوا فيه، ولذلك يجب إطلاق يدولى الأمر واعتبار تلك العقوبات فى يده كالدواء بين يدى الطبيب، يختار من أصنافه ما يراه أنجح فى علاج الآفة التى أصابت الجسم الاجتماعى.

وإنا نرى الرأى الثانى بالنسبة لتنويع العقاب، ونرى الرأى الأول بالنسبة لتعميم الجرائم

التى تفسد المجتمع. فإذا كانت عصابة تعمل لجمع الرجال على النساء وتخطف النساء لذلك الغرض، أو كانت عصابة لتجميع المواد المخدرة المحرم دينا وقانونا تناولها، فإنهم يكونون كقطاع الطريق، ويدخلون فى باب الحرابة[١].

٣ - تدل الآية بظاهرها على أن المحاربين يعاقبون فى الدنيا والآخرة، ولا يكون العقاب الدنيوى طهرة لهم ولو كانوا مسلمين لقوله - تعالى - ﴿ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾.

قال القرطبى : فقوله : ﴿ذلك لهم خزى فى الدنيا﴾ لشناعة المحاربة، وعظم ضررها وإنما كانت المحاربة عظيمة الضرر، لأن فيها سد سبيل الكسب على الناس. لأنه إذا أخيف الطريق انقطع الناس عن السفر، واحتاجوا إلى لزوم البيوت، فانسد باب التجارة عليهم، وانقطعت أكسابهم، فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلظة، وذلك الخزى فى الدنيا ردعا لهم عن سوء فعلهم، وفتحا لباب التجارة التى أباحها الله لعباده. وتكون هذه المعصية خارجة عن المعاصى ومستثناة من حديث عبادة بن الصامت فى قول النبى ﷺ : « فمن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ».

ويحتمل أن يكون الخزى لمن عوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم فى الدنيا، ويجرى هذا الذنب مجرى غيره. ولا خلود لمؤمن فى النار على ما تقدم، ولكن يعظم عقابه لعظم ذنبه، ثم يخرج إما بالشفاعة وإما بالقبضة وهذا الوعيد كغيره مقيد بالمشيئة، وله - تعالى - ان يغفر هذا الذنب »[٢].

٤ - دل قوله - تعالى - : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ على أن توبة المحاربين قبل الظفر بهم، تسقط عنهم حد المحاربين المذكور فى الآية، إلا أن كثيرا من الفقهاء قالوا إن الذى يسقط عنهم هو ما يتعلق بحقوق الله، أما ما يتعلق بحقوق العباد فلا يسقط عنهم بالتوبة قبل القدرة عليهم.

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ : استثنى - جل شأنه - التائبين قبل أن يقدر عليهم، وأخبر بسقوط حقه عنهم بقوله : ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾. أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط، وظاهر الآية أن من تاب بعد القدرة عليه فتوبته لا تنفع، وتقام الحدود عليه كما تقدم »[٣].

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة. مجلة لواء الإسلام العدد السابع. السنة العشرون.
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٥٧.
(٣) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٨٥.

وقال الآلوسى : قوله : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله - تعالى - كما ينبىء عنه قوله ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾. وأما ما هو من حقوق العباد - كحقوق الأولياء من القصاص ونحوه - فيسقط بالتوبة وجوبه على الإمام من حيث كونه حدا، ولا يسقط جوازه بالنظر إلى الأولياء من حيث كونه قصاصا؛ فإنهم إن شاءوا عفوا، وإن أحبوا استوفوا»[1].

ويرى ابن جرير وابن كثير أن توبة المحاربين قبل القدرة عليهم تسقط عنهم جميع الحدود.

فقد قال ابن جرير - بعد أن ساق الأقوال فى ذلك - : «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندى، قول من قال : توبة المحارب الممتنع بنفسه، أو بجماعة معه، قبل القدرة عليه، تضع عنه تبعات الدنيا التى كانت لزمته أيام حربه وحرابته، من حدود الله، وغرم لازم، وقود وقصاص، إلا ما كان قائما فى يده من أموال المسلمين والمعاهدين فيرد على أهله»[2].

وقال ابن كثير : وقوله - تعالى - ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ أما على قول من قال إنها فى أهل الشرك، فظاهر. - أى : فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم جميع الحدود المذكورة -. وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم تحتم القتل والصلب وقطع الرجل.

وهل يسقط قطع اليد؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة.

ثم ساق آثارا فى هذا المعنى منها : ما رواه ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان حارثة بن بدر التميمى من أهل البصرة - وكان قد أفسد فى الأرض وحارب - فكلم رجالا من قريش فكلموا عليا فيه فلم يؤمنه. فأتى سعيد بن قيس الهمدانى فخلفه فى داره ثم أتى عليا فقال : يا أمير المؤمنين : أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا، فقرأ حتى بلغ ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ فقال على : اكتب له أمانا. .»[3].

وبعد، فهذه بعض الأحكام التى تتعلق بقطاع الطريق الذين سماهم الله - تعالى - محاربين لله ولرسوله، وسمى الفقهاء عملهم حرابة.

وقد رأينا أن الله - تعالى - قد عاقبهم بتلك العقوبات الرادعة فى الدنيا. وأعد لهم العذاب

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٢٠.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٢٢٥.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٢.

العظيم فى الآخرة، ما داموا مستمرين فى عدوانهم وتهديدهم لأمن الناس، واستلابهم لأموالهم.

وإن المقصد من هذه العقوبات الشديدة، أن يكف المعتدون عن عدوانهم، وأن يحس الناس فى حياتهم بالأمان والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فإن الأمة التى ترتكب فيها الجرائم بدون خوف أو وجل، ويفتقد أبناؤها الأمان والاطمئنان، هذه الأمة التى هذا شأنها، لابد أن تضطرب كلمتها، ويهون أمرها، وتنتزع الثقة بين الحاكمين والمحكومين فيها، لذا فقد أوجب الإسلام على أتباعه أن يتكاتفوا ويتعاونوا للقضاء على كل من يحاول إثارة الفتن والاضطراب بين صفوفهم، حتى يعيشوا آمنين مطمئنين، مؤدين لما يجب عليهم نحو دينهم ودنياهم بدون خوف أو إزعاج.

وقد قال القرطبى فى هذا المعنى: «وإذا أخاف المحاربون السبيل، وقطعوا الطريق، وجب على الإمام قتالهم من غير أن يدعوهم، ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكفهم عن أذى المسلمين، فإن انهزموا لم يتبع منهم مدبرًا إلا أن يكون قد قتل وأخذ مالا، فإن كان كذلك أتبع ليؤخذ ويقام عليه ما وجب لجنايته[1].

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المحاربين له ولرسوله ﷺ وأخرج منهم من تاب إليه - سبحانه - قبل القدرة عليه بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه، وبالتقرب إليه بالعمل الصالح فقال - تعالى -:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله: ﴿اتقوا﴾ من التقوى بمعنى صيانة النفس عن كل ما يبغضه الله - تعالى -.

وقوله: ﴿وابتغوا﴾ من الابتغاء وهو الاجتهاد فى طلب الشىء.

و ﴿الوسيلة﴾ على وزن فعيلة بمعنى ما يتوصل به ويتقرب به إلى الله - تعالى -، من فعل

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٥٥.

الطاعات، واجتناب المعاصى، مأخوذة من وسل إلى كذا، أى. تقرب إليه بشىء. وقيل: الوسيلة الحاجة.

قال الراغب: الوسيلة: التوصل إلى الشىء برغبة، وهى أخص من الوصيلة، لتضمنها معنى الرغبة، وحقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة، وهى كالقربة. والواسل: الراغب إلى الله - تعالى...[1].

والمعنى: يأيها الذين آمنوا بالحق الذى جاء به محمد ﷺ ﴿اتقوا الله﴾ أى: خافوه وصونوا أنفسكم عن كل مالا يرضيه ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾: أى: اطلبوا باجتهاد ونشاط الزلفى والقربى إليه عن طريق مداومتكم على فعل الطاعات، والتزود من الأعمال الصالحات، واجتناب المعاصى والمنكرات.

﴿وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون﴾ أى: وجاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء، وكذلك جاهدوا أعداءكم حتى تكون كلمة الله هى العليا، رجاء أن تفوزوا بالفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة. وقد ناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من طاعة وإخلاص.

وقوله: ﴿إليه﴾ متعلق بالفعل قبله وهو ﴿وابتغوا﴾. أو بلفظ ﴿الوسيلة﴾ لأنها بمعنى المتوسل به، وقدم الجار والمجرور لإفادة التخصيص.

أى. اطلبوا برغبة وشدة ما يقربكم إلى الله من الأعمال الصالحة، ولا تتقربوا إلى غيره إلا فى ظل طلب رضاه - سبحانه -.

أو: اطلبوا متوجهين إليه - سبحانه - حاجتكم، فإن بيده مقاليد السموات والأرض، ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره.

وقد جاء لفظ الوسيلة فى الأحاديث النبوية على أنه اسم لأعلى الدرجات فى الجنة، وهذا المعنى متلاق مع أصل المعنى، وهو التقرب إلى الله والتوسل إليه وحده بالطاعات، لأن من يفعل ذلك ينال من الله - تعالى - أسمى الدرجات.

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الأحاديث فى هذا المعنى فقال ما ملخصه:

والوسيلة: القربة. كذا قال ابن عباس ومجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وغير واحد.

قال قتادة: أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه.

والوسيلة أيضًا: علم على أعلى منزلة فى الجنة وهى منزلة رسول الله ﷺ وداره فى الجنة،

---

(١) المرادات فى غريب القرآن ص٥٢٣.

وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش. وقد ثبت فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين سمع النداء - أى الأذان -: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة. آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة».

وثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبى - ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل الوسيلة حلت له شفاعتى»(١).

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد أرشدت المؤمنين إلى ما يسعدهم بأن ذكرت لهم ثلاث وسائل وغاية،، أو ثلاث مقدمات ونتيجة.

أما الوسائل الثلاث أو المقدمات الثلاث فهى: تقوى الله، والتقرب إليه بما يرضيه، والجهاد فى سبيله. وأما الغاية أو النتيجة لكل ذلك فهى الفلاح والفوز والنجاح.

ولو أن المسلمين تمسكوا بهذه الوسائل حق التمسك لو صلوا إلى ما يسعدهم فى دنياهم وفى آخرتهم.

هذا، وللعلماء كلام طويل فى التوسل والوسيلة، نرى أنه لا بأس من ذكر جانب منه.

قال الامام ابن تيمية: إن لفظ الوسيلة والتوسل فيه إجمال واشتباه، يجب أن تعرف معانيه ويعطى كل ذى حق حقه. فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه: وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك، ويعرف ما أحدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه فإن كثيرًا من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب.

إن لفظ الوسيلة ورد فى القرآن ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

الوسيلة التى أمر الله أن تبتغى إليه. هى ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات.

فجماع الوسيلة التى أمر الله الخلق بابتغائها، هو التوسل إليه باتباع ماجاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك.

ولفظ الوسيلة ورد - أيضًا - فى الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ «سلوا الله لى الوسيلة فإنها

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٣

درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد».

ثم قال: والتوسل بالنبى ﷺ والتوجه به فى كلام الصحابة، يريدون التوسل به وشفاعته. والتوسل به فى عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به.

وحينئذ فلفظ التوسل به ﷺ يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة.

أما المعنيان الصحيحان. **فأحدهما**: التوسل بالإيمان به وبطاعته.

والثانى: دعاؤه وشفاعته. ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا - العباس - فاسقنا أى بدعائه وشفاعته.

والتوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر - هو توسل بدعائه لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس.

فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس، علم أن ما يفعل فى حياته قد تعذر بموته.

وأما المعنى الثالث الذى لم ترد به سنة فهو التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته، فهذا لم يكن الصحابة يفعلونه لا فى حياته ولا بعد مماته ولا عند قبره ولا غير قبره. ولا يعرف فى شىء من الأدعية المشهورة بينهم وإنما ينقل شىء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة. أو عن من ليس قوله حجة»(١).

قال الآلوسى ما ملخصه: واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين، وجعلهم وسيلة بين الله - تعالى - وبين العباد والقسم على الله - تعالى - بهم، بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا. ومنهم من يقول للغائب أو للميت من عباد الله الصالحين: يافلان ادع الله أن يرزقنى كذا وكذا ويزعمون أن ذلك من ابتغاء الوسيلة وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل.

وتحقيق الكلام فى هذا المقام أن الاستغاثة بمخلوق وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لاشك فى جوازه إن كان المطلوب منه حيا، ولا يتوقف على أفضليته من الطالب، بل قد يطلب الفاضل من المفضول، فقد صح أنه ﷺ قال لعمر لما استأذنه فى العمرة: «لا تنسنا يا أخى من دعائك». ولم يرد عن أحد من الصحابة - وهم أحرص الناس على كل خير - أنه طلب من ميت شيئًا.

وأما القسم على الله - تعالى - بأحد من خلقه مثل أن يقال: اللهم إنى أقسم عليك أو

---

(١) من كتاب الوسيلة «للامام ابن تيمية» نقلا عن تفسير القاسمى جـ٦ ص ١٩٦٨

أسألك بفلان إلا ما قضيت لى حاجتى، فعن ابن عبد السلام جواز ذلك فى النبى ﷺ لأنه سيد ولد آدم. ولا يجوز أن يقسم على الله بغيره من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء. لأنهم ليسوا فى درجته.

ومن الناس من منع التوسل بالذات، والقسم على الله بأحد من خلقه مطلقًا، وهو الذى ترشح به كلام ابن تيمية ونقله عن أبى حنيفة وأبى يوسف، وغيرهما من العلماء الأعلام. ثم قال بعد كلام طويل:

وبعد هذا كله فأنا لا أرى بأسا فى التوسل إلى الله - تعالى - بجاه النبى ﷺ حيا وميتا ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته - تعالى - مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته فيكون معنى القائل: إلهى أتوسل بجاه نبيك ﷺ أن تقضى لى حاجتى، أى: إلهى أجعل محبتك له وسيلة فى قضاء حاجتى، بل لا أرى بأسا - أيضًا - فى الإقسام على الله - تعالى - بجاهه ﷺ بهذا المعنى.

ثم قال: وإن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله - تعالى - من الأولياء. الأحياء منهم والأموات وغيرهم. مثل يا سيدى فلان أغثنى. وليس ذلك من التوسل المباح فى شىء.. واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك. وأن لا يحوم حول حماه، وقد عده بعض العلماء شركا، وإن لا يكنه فهو قريب منه.

فالحزم ألتجنب عن ذلك وعدم الطلب إلا من الله - تعالى - القوى الغنى الفعال لما يريد»(١).

وبعد أن حض - سبحانه - عباده المؤمنين على تقواه والتقرب إليه بصالح الأعمال لكى ينالوا الفلاح والنجاح، عقب ذلك ببيان ما أعده للكافرين من عذاب أليم فقال - تعالى -:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٢٤

والمعنى : ﴿إن الذين كفروا﴾ بآياتنا وجحدوا الحق الذى جاءتهم به رسلنا ﴿لو أن لهم ما فى الأرض جميعًا﴾ أى : لو أن لهم جميع ما فى الأرض من أموال وخيرات ومنافع ﴿ومثله معه﴾ أى : وضعفه معه، وقدموا كل ذلك ﴿ليفتدوا به﴾ أى : ليخلصوا به أنفسهم ﴿من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم﴾ أى : ماقبله الله منهم، لأن سنته قد اقتضت أن تكون نجاة الإنسان من العذاب يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح، لا على الأموال وما يشبهها من حطام الدنيا مهما عظم شأنها وكثر عددها. ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أى : شديد فى آلامه وأوجاعه.

فالآية الكريمة تبين ما أعده الله - تعالى - يوم القيامة للكافرين بآياته من عذاب أليم، لن يصرفه عنهم صارف مهما قدموا من ثمن، أو بذلوا من أموال.

وقوله ﴿لو أن لهم﴾. إلخ، جملة شرطية جوابها قوله تعالى ﴿ما تقبل منهم﴾ وهذه الجملة الشرطية وجوابها خبر إن فى قوله : ﴿إن الذين كفروا﴾.

وصدرت الآية الكريمة بأداة التوكيد «إن» للرد على ما ينكره الكافرون من وقوع عذاب عليهم يوم القيامة فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾.

والمراد بقوله : ﴿لو ان لهم﴾ أى : لو أن لكل واحد منهم منفردًا، ما فى الأرض جميعا ومثله معه، وقدمه يوم القيامة ليخلص نفسه من العذاب، ما قبل منه ذلك الذى قدمه. وفى ذلك ما فيه من ثبوت العذاب عليهم ووقوعه بهم لا محالة. وقوله : ﴿جميعا﴾ توكيد للموصول وهو ﴿ما﴾ فى قوله : ﴿ما فى الأرض﴾ أو حال منه. وقوله : ﴿ومثله﴾ معطوف على اسم أن وهو (ما) الموصولة.

وقوله : ﴿معه﴾ ظرف واقع موقع الحال من المعطوف والضمير يعود إلى الموصول. وجاء الضمير المجرور فى قوله ﴿ليفتدوا به﴾ بصيغة الإفراد، مع أن الذى تقدمه شيئان وهما : ما فى الأرض جميعا ومثله. للإشارة إلى أنهما لتلازمهما قد صارا بمنزلة شيء واحد. أو لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة بأن يؤول المرجع المتعدد بالمذكور أى ليفتدوا بذلك المذكور من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم.

ونفى -سبحانه- قبول الفدية منهم بقوله : ﴿ما تقبل منهم﴾ لإفادة تأكيد هذا النفى واستبعاده، إذ أن صيغة «التقبل» تدل على تكلف القبول أى : أنه لا يمكن قبول الفداء منهم مهما قدموا من أموال ومهما بذلوا من محاولات فى سبيل الوصول لغرضهم.

قال الفخر الرازى : والمقصود من هذا الكلام التمثيل للزوم العذاب لهم، فإنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه(١).

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٢٢١.

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يابن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع. فيقال له. أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك: أن لا تشرك بالله شيئًا فيؤمر به إلى النار»(١).

وقوله - تعالى - ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ بيان لدوام نزول العذاب بهم بعد بيان شدة آلامه وأوجاعه.

أى: يريد هؤلاء الكافرون ﴿أن يخرجوا من النار﴾ بعد أن ذاقوا عذابها وآلامها، ﴿وما هم بخارجين منها﴾ أبدا، بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من قبائح ومنكرات ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أى: دائم ثابت لا ينقطع.

فأنت ترى هاتين الآيتين قد بينتا سوء عاقبة الكافرين، بعد أن رغب - سبحانه - المؤمنين فى التقرب إليه بالإيمان والعمل الصالح، وذلك لكى يزداد المؤمنون إيمانا. ولكى ينصرف الناس عن الكفر والفسوق والعصيان إلى الإيمان والطاعة والاستجابة لتعاليم الله الواحد القهار.

وبعد أن بين - سبحانه - عقوبة الذين يحاربون الله ورسوله، ودعا المؤمنين إلى التقرب إليه بالعمل الصالح وبين سوء عاقبة الكافرين. بعد أن بين كل ذلك أعقبه ببيان عقوبة السرقة فقال - تعالى:

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

(١) رواه البخارى فى باب «من نوقش الحساب عذب، ومن كتاب الرقاق» جـ٨ ص ١٣٩

قال الجمل ما ملخصه : قوله - تعالى : ﴿والسارق والسارقة﴾.. إلخ. شروع فى بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى.

وقرأ الجمهور : والسارق بالرفع وفيها وجهان :

أحدهما : وهو مذهب سيبويه والمشهور من أقوال البصريين - أن السارق مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير : فيما يتلى عليكم أو فيما فرض عليكم السارق والسارقة. أى : حكم السارق، ويكون قوله ﴿فاقطعوا﴾ بيانا لذلك الحكم المقدر. فما بعد الفاء مرتبط بما قبلها، ولذلك أتى بها فيه لأنه هو المقصود. ولو لم يؤت بالفاء لتوهم أنه أجنبى، والكلام على هذا جملتان : الأولى خبرية والثانية أمرية.

والثانى : وهو مذهب الأخفش وجماعة كثيرة - أنه مبتدأ - أيضًا - والخبر الجملة الأمرية من قوله ﴿فاقطعوا﴾ وإنما دخلت الفاء فى الخبر، لأنه يشبه الشرط إذ الألف واللام فيه موصولة بمعنى الذى والتى والصفة صلتها، فهى فى قوة قولك والذى يسرق والتى تسرق فاقطعوا »[1].

والمعنى : ﴿السارق﴾ أى : من الرجال ﴿والسارقة﴾ أى : من النساء ﴿فاقطعوا﴾ أيديهما، أى فاقطعوا يد كل منهما الذكر إذا سرق قطعت يده. والأنثى إذا سرقت قطعت يدها.

والخطاب فى قوله : ﴿فاقطعوا﴾ لولاة الأمر الذين إليهم يرجع تنفيذ الحدود وجمع - سبحانه - اليد فقال « أيديهما » ولم يقل يديهما بالتثنية، لأن فصحاء العرب يستثقلون إضافة المثنى إلى ضمير التثنية.

وقوله ﴿جزاء بما كسبا نكالا من الله﴾ بيان لسبب هذه العقوبة وللحكمة التى من أجلها شرعت. أى : اقطعوا أيديهما جزاء لهما بسبب فعلهما الخبيث، وكسبهما السيء، وخيانتهما القبيحة، ولكى يكون هذا القطع لأيديهما ﴿نكالا﴾ أى : عبرة وزجرا من الله - تعالى - لغيرهما حتى يكف الناس عن ارتكاب هذه الجريمة.

يقال : نكل فلان بفلان تنكيلا : أى : صنع به صنيعًا يحذر غيره.

والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك. وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد، وحديدة اللجام، لكونهما مانعين وجمعه انكال.

وسميت هذه العقوبة نكالا، لأنها تجعل غير من نزلت به يخاف من ارتكابها حتى لا ينزل به ما نزل بمرتكبها من قطع ليده، وفضيحة لأمره.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٤٨٨

وقوله : ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى : والله - تعالى - غالب على أمره، حكيم فى شرائعه وتكاليفه.

قال صاحب المنار ما ملخصه. وقد كانت العرب بدوها وحضرها تفهم الكثير من وضع اسماء الله - تعالى - فى الآيات بحسب المناسبة.

ومن ذلك ما نقل الأصمعى أنه قال : كنت أقرأ سورة المائدة، ومعى أعرابى، فقرأت هذه الآية فقلت ﴿والله غفور رحيم﴾ سهوا فقال الأعرابى كلام من هذا؟ فقلت : كلام الله. قال : أعد فأعدت ﴿والله غفور رحيم﴾ ثم تنبهت فقلت : ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال : الآن أصبت فقلت له. كيف عرفت؟ فقال : ياهذا ﴿عزيز حكيم﴾ فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع.

فقد فهم الأعرابى الأمى أن مقتضى العزة والحكمة، غير مقتضى المغفرة والرحمة وأن الله - تعالى - يضع كل اسم موضعه من كتابه»[1].

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب التوبة فقال - تعالى - : ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾.

أى : فمن تاب إلى الله - تعالى - توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها فى المعاصى التى من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التى تمحو السيئات ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ أى : يقبل توبته، ويغسل حوبته، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه - فتح لعباده باب التوبة والإنابة.

فالآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم فى التوبة إلى الله، وفى الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته.

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على شمول قدرته، ونفاذ إرادته بصيغة الاستفهام التقريرى فقال - تعالى - : ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ بحيث يتصرف فيهما وفى غيرهما من خلقه تصرف المالك فى ملكه بدون مدافع أو منازع.

فالاستفهام هنا لتقرير العلم وتأكيده. أى إنك تعلم أيها العاقل ذلك علما. متيقنا، فاعمل بمقتضى هذا العلم، بأن تكون مطيعا لخالقك فى كل ماأمر ونهى وبأن تدعو غيرك إلى هذه الطاعة.

وقوله : ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ تأكيد لشمول قدرته ونفاذ إرادته، أى : هو -

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٨٤

سبحانه - المالك لكل شىء، والخالق لكل شىء وهو صاحب السلطان المطلق فى خلقه، فله - سبحانه - أن يعذب من يشاء تعذيبه وله أن يرحم من يشاء رحمته.

قال الآلوسى: وكان الظاهر لحديث: «سبقت رحمتى غضبى»، تقديم المغفرة على التعذيب، وإنما عكس هنا، لأن التعذيب للمصر على السرقة، والمغفرة للتائب منها. وقد قدمت السرقة فى الآية أولا ثم ذكرت التوبة بعدها فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق.

أو لأن المراد بالتعذيب القطع، وبالمغفرة التجاوز عن حق الله - تعالى - والأول فى الدنيا والثانى فى الآخرة، فجىء به على ترتيب الوجود. ولأن المقام مقام الوعيد(١).

وقوله: ﴿والله على كل شىء قدير﴾ تذييل مؤكد لما قبله، ومقرر لشمول قدرته - سبحانه - على كل شىء.

هذا وقد تكلم العلماء عن معنى السرقة، وعن شروط إقامة حدها، وعن طريقة إثباتها. وعن غير ذلك من المسائل المتعلقة بها، تكلموا عن كل ذلك باستفاضة فى كتب الفقه وفى بعض كتب التفسير.

ونرى أنه لا بأس من ذكر خلاصة لبعض المسائل التى تحدثوا عنها فنقول:

١ - عرف الفقهاء السرقة شرعا بأنها أخذ العاقل البالغ مقدارا مخصوصًا من المال على طريق الاستخفاء من حرز بمكان أو حافظ وبدون شبهة.

٢ - وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئًا قطعت يده به، سواء أكان قليلا أم كثيرًا، لعموم هذه الآية.

ولكن جمهور الفقهاء يرون أنه لا تقطع يد السارق إلا إذا بلغ المسروق قدرًا معينًا من المال، وقد تفاوتت أنظارهم فى هذا القدر.

فالاحناف يرون أنه لا قطع إلا فى عشرة دراهم فصاعدًا، أو فيما قيمته عشرة دراهم. ومن حججهم مارواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا قطع فيما دون عشرة دراهم».

والمالكية والشافعية يرون أنه لا قطع إلا فى ربع دينار أو فيما قيمته ذلك.

ومن حججهم ما روى عن عائشة أنها قالت: «تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدًا».

قال القرطبى: وظاهر الآية العموم فى كل سارق وليس كذلك لقوله ﷺ «لاتقطع يد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٦ ص ١٣٥

السارق إلا فى ربع دينار فصاعدًا» فبين أنه إنما أراد بقوله ﴿والسارق والسارقة﴾ بعض السراق دون بعض، فلا تقطع يد السارق فى أقل من ربع دينار، ويقطع فى ربع دينار أو فيما قيمته ربع دينار أو فى ثلاثة دراهم.. وقال أحمد: إن سرق ذهبا فربع دينار. وإن سرق غير الذهب والفضة فالقيمة ربع دينار أو ثلاثة دراهم من الورق».

وقال أبو حنيفة وصاحباه والثورى: لا تقطع يد السارق إلا فى عشرة دراهم كيلا، أو فى دينار ذهبًا عينًا أو وزنًا. ولا يقطع حتى يخرج بالمتاع من ملك صاحبه.. ثم قال: وتقطع اليد من الرسغ. ولاخلاف فى أن اليمنى هى التى تقطع أولا»(١).

٣ - وقد اشترط الفقهاء فى المال المسروق الذى تقطع فيه يد السارق أن يكون مالا محرزًا، أى مصونًا محفوظًا معنيا بحفظه العناية اللائقة بمثله.

قال القرطبى: الحرز هو ما نصب عادة لحفظ أموال الناس، وهو يختلف فى كل شيء بحسب حاله. قال ابن المنذر: ليس فى هذا الباب خبر ثابت لا مقال فيه لأهل العلم. وإنما ذلك كالإجماع من أهل العلم. وحكى عن الحسن وأهل الظاهر أنهم لم يشترطوا الحرز. وفى الموطأ لمالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا قطع فى ثمر معلق - أى فى ثمر على الأشجار - ولا حريسة جبل - أى ما يحرس بالجبل - فإذا أواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن»(١).

كذلك اشترطوا عدم الشبهة فى المال المسروق، لقوله ﷺ: «ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم».

فلا يقطع من سرق مالا له فيه شركة، أو سرق من مدينه مثل دينه، ولا يقطع العبد إذا سرق من مال سيده. ولا الأب إذا سرق من مال ابنه وما أشبه ذلك لوجود الشبهة.

كذلك اشترطوا فى المسروق الذى يجب فيه الحد أن يكون مالا متقوما. أى: مما يتموَّل له الناس، ويعدونه لمقاصدهم المختلفة فلا تقطع يد السارق إذا سرق شيئًا تافها، أو سرق شيئًا مما لا يتمول كالتراب والطين والماء وما يشبه ذلك.

كذلك اشترطوا فيه ألا يكون مما يحرم تناوله أو إستعماله. فإذا كان مما يحرم تناوله أو استعماله كالخمر أو الخنزير أو أدوات اللهو والمجون فإنه فى تلك الأحوال لا تقطع يد السارق.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٦٠ بتصرف وتلخيص.

(١) فى المعجم الوسيط: المراح: مأوى الماشية جـ١ ص٣٨١. والجرين: الجرن، وهو الموضع الذى يداس به البر ونحوه وتجفف فيه الثمار جـ١ ص١١٩، والمجن: الترس يتقى به فى الحرب وثمنه ثلاثة دراهم.

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية وإن كانت قد شرعت العقوبات الشديدة لزجر العصاة والمفسدين والخائنين.. إلا أنها لا تطبق هذه العقوبات إلا على الذين يستحقونها، وفى أضيق الحدود، وبأدق الشروط، عملا بقول الرسول ﷺ «ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم».

ولو أن المسلمين ساروا على هدى شريعة الله لنالوا الأمان والاطمئنان فى دنياهم، والفوز والرضا من الله - تعالى - فى أخراهم.

٤ - كذلك أخذ أكثر الشافعية والحنابلة من قوله -تعالى- ﴿فمن تاب من بعد ظلمة وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾ أن التوبة تمنع إقامة الحد.

قالوا: لأن هذه الآية قد اقترنت بقوله - تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فكانت مخصصة للعموم فى الأمر بالقطع، وإلا ما اقترنت به ولأنه قد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن التوبة تجب ما قبلها ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»

ويرى الأحناف والمالكية أن التوبة لا تسقط الحد، لأن الأمر بالقطع عام يشمل التائب وغير التائب، والتوبة المنصوص عليها فى هذه الآية هى ما يكون بعد إقامة الحد كما جاءت بذلك الأحاديث النبوية.

قال ابن كثير: قوله - تعالى - ﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾. إلخ. أى: من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله إن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه. فأما أموال الناس فلابد من ردها اليهم أو رد بدلها. وهذا عند الجمهور.

وقال أبوحنيفة: متى قطع وقد تلفت فى يده فإنه لا يرد بدلها.

وقد روى الدار قطنى عن أبى هريرة أن رسول الله أتى بسارق قد سرق شملة فقال «ما إخاله قد سرق». فقال السارق: بلى يارسول الله. فقال ﷺ: «اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم ائتونى به». فقطع فأتى به فقال: تب إلى الله، فقال: تبت إلى الله. فقال: «تاب الله عليك» - أى: قبل توبتك.

وروى ابن ماجه عن ثعلبه الأنصارى: أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يارسول الله، إنى سرقت جملا لبنى فلان فطهرنى. فأرسل اليهم النبى ﷺ فقالوا: إنا افتقدنا جملا لنا. فأمر به فقطعت يده وهو يقول: الحمد لله الذى طهرنى منك. أردت أن تدخلى جسدى النار».

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن أمرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يارسول الله: إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها فقال

رسول الله ﷺ - «اقطعوا يدها. فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لى من توبة يارسول الله؟ قال: نعم. أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك، فأنزل الله - تعالى -: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾ الآية[1].

هذه خلاصة لبعض المسائل والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة، ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى ماكتبه الفقهاء فى كتبهم، وإلى ما كتبه بعض المفسرين فى تفاسيرهم[2].

وبعد أن بين - سبحانه - ما بين من تكاليف قويمة، وشرائع حكيمة، تهدى من اتبعها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة. أتبع ذلك بالحديث عن بعض الوسائل الخبيثة التى اتبعها اليهود وأشباههم لكيد الدعوة الإسلامية، فذكر تلاعبهم بأحكامه - تعالى -، ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ عند تقاضيهم أمامه، وحذر - سبحانه - رسوله من مكرهم وساق له ما يسليه ويشرح صدره، فقال - تعالى -:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٦.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٥٩ وما بعدها.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

وردت أحاديث متعددة فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة، ومن ذلك : ما أخرجه البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة قد زنيا. فقال النبى ﷺ ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام : كذبتم. إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها.

فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ماقبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك. فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا : صدق يا محمد؛ فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما.

فقال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجل يميل نحو المرأة يقيها الحجارة(١).

وروى مسلم فى صحيحه عن البراء بن عازب قال : مر على رسول الله ﷺ بيهودى محمم مجلود - أى قد وضع الفحم الأسود على وجهه للتنكيل به-

فدعاهم فقال. هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ فقالوا : نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال : انشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ فقال : لا والله ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، تجد حد الزانى فى كتابنا الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه. وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئًا نقيمه على الشريف والوضيع. فاجتمعنا على التحميم والجلد - مكان الرجم.

فقال النبى ﷺ اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قال : فأمر به فرجم. قال : فأنزل

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحدود جـ٨ ص ٢١٣ طبعه مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ

الله - تعالى - : ﴿يأيها الرسول لا يحزنك﴾[(١)].

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ ﴿وأولئك هم الظالمون﴾ ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾.

قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود. وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا[(٢)]. وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق. فكانوا على ذلك حتى قدم النبى ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق فقالت الذليلة : وهل كان فى حيين دينهما واحد ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا خوفا منكم، فأما إذ قدم محمد ﷺ فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما. ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ حكما بينهم. ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم. ولقد صدقوا. ما أعطونا هذا إلا خوفا منا. فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه. إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم لا تحكموه. فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رسول الله ﷺ فلما جاءوه أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا. فأنزل الله - تعالى - : ﴿يأيها الرسول لا يحزنك﴾ إلى قوله : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[(٣)].

قال ابن كثير - بعد أن ساق هذه الأحاديث وغيرها - فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بما يوافق حكم التوراة. وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله - تعالى - إليه بذلك وسؤالهم إياه عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطأوا على كتمانه وجحوده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة. فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، ظهر زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوه لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة مايحكم به، ولهذا قالوا : ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾، أى : إن حكم بالجلد والتحميم فاقبلوا حكمه، ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أى : وإن لم يحكم بذلك فاحذروا من قبوله واتباعه[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الحدود جـ ٥ ص ١٢٢ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٠ هـ
(٢) الوسق : ستون صاعًا.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٠
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨

وبمطالعتنا لهذه الأحاديث التى وردت فى سبب نزول الآيات، نراها جميعها قد وردت بأسانيدها صحيحة وفى كتب السنة المعتمدة، وأن بعضها قد حكى أن الآيات نزلت فى شأن القضية التى تحاكم فيها اليهود إلى النبى ﷺ وبعضها قد حكى أنها نزلت فى قضية دماء. ولا تعارض بين هذه الأحاديث، فقد يكون هذان السببان قد حصلا فى وقت واحد، أو متقارب، فنزلت هذه الآيات فيهما معا. وقد قرر العلماء أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات.

هذا، وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بنداء من الله - تعالى - لرسوله ﷺ فقال - سبحانه - : ﴿يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا﴾.

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿لا يحزنك﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاى. والحزن خلاف السرور. ويقال : حزن الرجل - بالكسر - فهو حزن وحزين »[1].

والمعنى : يأيها الرسول الكريم إن ربك يقول لك : لا تهتم ولا تبال بهؤلاء المنافقين، وبأولئك اليهود الذين يقعون فى الكفر بسرعة ورغبة، ويقولون بأفواههم آمنا بك وصدقناك، مع أن قلوبهم خالية من الإيمان، ومليئة بالنفاق والفسوق والعصيان. . لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بهؤلاء جميعا، فإنى ناصرك عليهم، وكافيك شرهم.

وفى ندائه ﷺ بعنوان الرسالة ﴿يأيها الرسول﴾ تشريف له وتكريم وإشعار بأن وظيفته كرسول أن يبلغ رسالة الله دون أن يصرفه عن ذلك عناد المعاندين، أو كفر الكافرين، فإن تكاليف الرساله تحتم عليه الصبر على أذى أعدائه حتى يحكم الله بينه وبينهم.

والنهى عن الحزن - وهو أمر نفسى لا اختيار للإنسان فيه - المراد به هنا : النهى عن لوازمه، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب. وتعظيم أمرها، وبذلك تتجدد الآلام، وتعز السلوى.

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية الرسول ﷺ وتأنيس لقلبه، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور حتى لا يتأثر بها عند وقوعها.

وفى التعبير بقوله : ﴿يسارعون فى الكفر﴾ ذم لهم على انحدارهم فى دركات الكفر بسرعة من غير مواناة ولا تدبر ولا تفكر. فهم يتنقلون بحركات سريعة فى ثنايا الكفر ومداخله دون أن

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٨١

يزعهم وازع من خلق أو دين.

قال صاحب الكشاف: يقال: اسرع فيه الشيب، وأسرع فيه الفساد بمعنى: وقع فيه سريعا. فكذلك مسارعتهم فى الكفر عبارة عن إلقائهم أنفسهم فيه على أسرع الوجوه، بحيث إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها»(١)

وقال أبو السعود: والمسارعة فى الشيء: الوقوع فيه بسرعة ورغبة. وإيثار كلمة ﴿فى﴾ على كلمة إلى، للإيمان إلى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه.

وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها، كإظهار موالاة المشركين، وإبراز آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك»(٢)

وقوله: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ بيان لأولئك المسارعين فى الكفر. والمتنقلين فى دركاته من دركة إلى دركة.

وقوله ﴿بأفواههم﴾ متعلق بقوله: ﴿قالوا﴾ وقوله: ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ جملة حالية من ضمير، قالوا.

وقوله: ﴿ومن الذين هادوا﴾ معطوف على قوله: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم﴾ وعليه فيكون الذين هادوا داخلين فى الذين يسارعون فى الكفر.

أى أن المسارعين فى الكفر فريقان: فريق المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وفريق اليهود الذين تميزوا بهذا الإسم واشتركوا مع المنافقين فى نفاقهم والمعنى: لاتهتم يا محمد بأولئك الذين يسارعون فى الكفر من المنافقين واليهود الذين من صفاتهم أنهم يظهرون الإيمان على أطراف ألسنتهم والحال أن قلوبهم خالية منه.

وعلى هذا المعنى يكون الكلام قد تم عند قوله - تعالى - ﴿ومن الذين هادوا﴾، ويكون ما بعده وهو قوله: ﴿سماعون للكذب﴾. ألخ. من أوصاف الفريقين معا، لأنهم مشتركون فى المسارعة فى الكفر.

ومنهم من يرى أن قوله تعالى: ﴿ومن الذين هادوا﴾ جمله مستأنفة لبيان أحوال فريق آخر من الناس وهم اليهود، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿سماعون للكذب﴾ الخ. من أوصاف هؤلاء اليهود، وأن الكلام قد تم عند قوله - تعالى - ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ وأن البيان بقوله: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ لفريق المنافقين.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٣٢ بتصرف يسير
(٢) تفسير أبو السعود جـ ٢ ص ٢٧

قال الفخر الرازى : قوله ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ ذكر الفراء والزجاج هاهنا وجهين :

الأول : أن الكلام إنما يتم عند قوله : ﴿ومن الذين هادوا﴾ ثم يبدأ الكلام من قوله ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين﴾ وتقدير الكلام لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من المنافقين ومن اليهود ثم بعد ذلك وصف الكل بكونهم سماعين للكذب.

الثانى : أن الكلام تم عند قوله - تعالى - : ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ ثم ابتدأ من قوله : ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب﴾ وعلى هذا التقدير فقوله ﴿سماعون﴾ صفة لمحذوف. والتقدير : ومن الذين هادوا قوم سماعون(١).

قال الجمل : الأولى والأحسن أن يكون قوله : و ﴿ومن الذين هادوا﴾ معطوفا على البيان وهو قوله : ﴿من الذين قالوا آمنا﴾ فيكون البيان بشيئين المنافقين واليهود. أما على القول الثانى فيكون البيان بشىء واحد وهو المنافقون»(٢).

وقوله : ﴿سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ صفتان أخريان لأولئك الذين يقعون فى الكفر بسرعة ورغبة.

وقوله : ﴿سماعون﴾ جمع سماع. وهو صيغة مبالغة جىء بها لافادة أنهم كثيرو السماع للكذب، وأنهم لفساد نفوسهم يجدون لذة فى الاستماع إليه من رؤسائهم وأحبارهم، ومن هم على شاكلتهم فى العناد والضلال.

واللام فى قوله : ﴿للكذب﴾ للتقوية أى : أنهم يسمعون الكذب كثيرًا سماع قبول وتلذذ، ويأخذونه ممن يقوله من أعداء الإسلام على أنه حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها.

وقيل إن اللام للتعليل أى أنهم كثيرو السماع لكلام الرسول ﷺ ولأخباره من أجل الكذب عليه، عن طريق تغيير وتبديل ما سمعوه على حسب ما تهواه نفوسهم المريضة.

وقوله : ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ بيان لمسلك آخر من مسالكهم الخبيثة بعد بيان احتفالهم بالأخبار الكاذبة، وتقبلها بفرح وسرور.

أى : أن هؤلاء المسارعين فى الكفر من المنافقين واليهود من صفاتهم أنهم كثيرو السماع للأكاذيب التى يروجها أعداء الدعوة الإسلامية ضدها كثيرو السماع والقبول والاستجابة لما يقوله عنها قوم آخرون من أعدائها لم يحضروا مجالس الرسول ﷺ تكبرا وعتوا.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٢٣٢

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٠٠

ويجوز أن يكون المعنى : أنهم كثيرو السماع للكذب عن محبة ورغبة، وأنهم كثيرو السماع لما يقوله الرسول ﷺ لينقلوه إلى قوم آخرين - من أشباههم فى الكفر والعناد - ولم يحضروا مجالس الرسول ﷺ أنفة وبغضًا فأنت ترى أن القرآن قد وصفهم بفساد بواطنهم حيث استحبوا الكذب على الصدق. كما وصفهم بضعف نفوسهم حيث صاروا مطايا لغيرهم يطيعون أمرهم ويبلغون أخبار المسلمين، فهم عيون على المسلمين ليبلغوا أخبارهم إلى زعماء الكفر والنفاق.

وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشاف بقوله : ومعنى ﴿سماعون للكذب﴾ : قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه، من قولك : الملك يسمع كلام فلان، ومنه سمع الله لمن حمده.

وقوله : ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ يعنى اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله ﷺ وتجافوا عنه لما أفرط فيهم من شدة البغضاء. وتبالغ من العداوة، أى : قابلون من الأحبار ومن أولئك المفرطين فى العداوة الذين لا يقدرون أن ينظروا إليك وقيل : سماعون إلى رسول الله ﷺ لأجل أن يكذبوا عليه، بأن يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه »[1].

وقوله : ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾. صفة أخرى للقوم الآخرين الذين لم يأتوا إلى مجالس الرسول ﷺ أنفة وبغضًا. أو للمسارعين فى الكفر من الفريقين.

وقوله : ﴿يحرفون﴾ من التحريف وأصله من الحرف وهو طرف الشيء.

ومعناه إمالة الكلام عن معناه، وإخراجه عن أطرافه وحدوده.

والكلم : اسم جنس جمعى للفظ كلمة ومعناه الكلام.

أى أن هؤلاء القوم الآخرين الذين لم يحضروا مجلسك نفورا منك، أوهم والمسارعون فى الكفر من المنافقين واليهود من صفاتهم ودأبهم تحريف جنس الكلم عن مواضعه. فهو يحرفون كلامك يا محمد، ويحرفون التوراة، ويحرفون معانى القرآن حسب أهوائهم وشهواتهم ويحرفون الحق الذى جئت به تارة تحريفًا لفظيًا، وتارة تحريفًا معنويًا، وتارة بغير ذلك من وجوه التحريف والتبديل.

وقوله : ﴿من بعد مواضعه﴾ أى : يحرفون الكلم من بعد استقرار مواضعه وبيان حلالها وحرامها.

(١) تفسير الكشاف وحاشيته جـ ١ ص ٦٣٣

وعبر هنا بقوله «من بعد مواضعه» وفى مواطن أخرى بقوله ﴿عن مواضعه﴾ لأن المقام هنا للحديث عن الأحكام المستقرة الثابتة التى حاول أولئك المسارعون فى الكفر تغييرها وإحلال أحكام أخرى محلها تبعا لأهوائهم كما حدث فى قضية الزنا وفى غيرها من القضايا التى تحاكموا فيها إلى رسول الله ﷺ فكان من المناسب هنا التعبير بقوله : ﴿من بعد مواضعه﴾ أى : من بعد استقرار مواضعه وثبوتها ثبوتًا لا يقبل التحريف أو التغيير أو الإهمال.

وقوله : ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ بيان لما نطقت به أفواه أولئك الذين لم يحضروا مجالس رسول الله من مكر وخداع وضلال.

أى : أن أولئك القوم الآخرين الذين لم يحضروا مجلس رسول الله ﷺ عنادا وتكبرا لم يكتفوا بتحريف الكلم عن مواضعه هم وأشياعهم. بل كانوا إلى جانب ذلك يقولون لمطاياهم السامعين منهم أو السامعين من أجلهم : يقولون لهم عندما أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ليحكم بينهم ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ أى : إن أفتاكم محمد ﷺ بمثل هذا الذى نفتيكم به - كالجلد والتحميم بدل الرجم - فاقبلوا حكمه وخذوه واعملوا به ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أى : وإن أفتاكم بغير ما أفتيناكم به فاحذروا قبول حكمه، وإياكم أن تستجيبوا له، أو تميلوا إلى ما قاله لكم.

واسم الإشارة هذا فى قوله : ﴿يقولون إن أوتيتم هذا﴾ يعود إلى القول المحرف الذى تواضع أحبار اليهود على الإفتاء به تبعًا لأهوائهم. كما حدث منهم فى قضية الزنا حيث غيروا حكم الرجم بحكم آخر هو الجلد والتحميم.

وفى ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم إيتاء المحرف، إشارة إلى تخوفهم الشديد من ميل أتباعهم إلى حكم رسول الله ﷺ فهم يحذرونهم بشدة من الاستماع إلى ما يقوله لهم مما يخالف ما تواضعوا عليه من أباطيل.

وقوله : ﴿إن أوتيتم﴾ مفعول لقوله ﴿يقولون﴾. واسم الإشارة ﴿هذا﴾ مفعول ثان «لأوتيتم» والأول نائب الفاعل وقوله : ﴿فخذوه﴾ جواب الشرط ثم بين -سبحانه- سوء عاقبتهم فقال : ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾.

أى : ومن يقض الله بكفره وضلاله، فلن تملك له - أيها الرسول الكريم - شيئا من الهداية لتدفع بها ضلاله وكفره، أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة لم يرد الله - تعالى - أن يطهر قلوبهم من النفاق والضلال؛ لأنهم استحبوا العمى على الهدى، ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ أى : فضيحة وهوان بسبب ظهور كذبهم، وفساد نفوسهم، وانتشار تعاليم

الإسلام التى يحاربونها ويشيعون الأباطيل حولها وحول من جاء بها ﷺ.

﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو خلودهم فى النار بسبب اجتراحهم السيئات، ومحاربتهم لمن جاءهم بالحق والهدى والسعادة.

ثم كشف - سبحانه - عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال - تعالى - : ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾.

والسحت : هو كل ما خبث كسبه وقبح مصدره، كالتعامل بالربا وأخذ الرشوة وما إلى ذلك من وجوه الكسب الحرام.

وقد بسط الإمام القرطبى هذا المعنى فقال : والسحت فى اللغة أصله الهلاك والشدة.

قال - تعالى - ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ أى : - فيهلككم ويستأصلكم بعذاب - ويقال للحالق : أسحت أى استأصل. وقال الفراء : أصل السحت كلب الجوع. يقال رجل مسحوت المعدة أى : أكول، فكأن بالمسترشى وآكل الحرام من الشره إلى ما يعطى مثل الذى بالمسحوت المعدة من النهم.

وعن النبى ﷺ أنه قال : «كل لحم نبت بالسحت فالنار أولى به» قالوا يا رسول الله وما السحت؟ قال : «الرشوة فى الحكم».

وقال بعضهم : من السحت أن يأكل الرجل بجاهه. وذلك بأن يكون له جاه عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها»[1].

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين واليهود من صفاتهم - أيضا - أنهم كثيرو السماع للكذب، وكثيرو الأكل للمال الحرام بجميع صوره وألوانه. ومن كان هذا شأنه فلا تنتظر منه خيرا، ولا تؤمل فيه رشدا.

وقوله : ﴿سماعون﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : هم سماعون. وكرر تأكيدا لما قبله، وتمهيدًا لما بعده وهو قوله : ﴿أكالون للسحت﴾.

وجاءت هاتان الصفتان - سماعون وأكالون - بصيغة المبالغة، للإيذان بأنهم محبون حبا جما لما يأباه الدين والخلق الكريم. فهم يستمرئون سماع الباطل من القول، كما يستمرئون أكل أموال الناس بالباطل :

إن اليهود بصفة خاصة قد اشتهروا فى كل زمان بتقبل السحت، وقد أرشد الله - تعالى -

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٨٣ بتصرف وتلخيص.

نبيه إلى ما يجب عليه نحوهم إذا ما تحاكموا إليه فقال : ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾ .

أى : فإن جاءك هؤلاء اليهود متحاكمين إليك - يا محمد - فى قضاياهم، فأنت مخير بين أن تحكم بما أراك الله، وبين أن تتركهم وتهملهم وتعرض عنهم، وإن تعرض عنهم، فيما احتكموا فيه إليك، قاصدين مضرتك وإيذاءك فلا تبال بشىء من كيدهم، لأن الله حافظك وناصرك عليهم، وإن اخترت الحكم فى قضاياهم، فليكن حكمك بالعدل الذى أمرت به، لأن الله - تعالى - يحب العادلين فى أحكامهم.

والفاء فى قوله : ﴿فإن جاءوك﴾ للإفصاح أى : إذا كان هذا حالهم وتلك صفاتهم فإن جاءوك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من خصومات ﴿فاحكم بينهم أو اعرض عنهم﴾ .

وجاء التعبير بإن المفيدة للشك -مع أنهم قد جاءوا إليه- للإيذان بأنهم كانوا مترددين فى التحاكم إليه ﷺ وأنهم ما ذهبوا إليه إلا ظنا منهم بأنه سيحكم فيهم بما يتفق مع أهوائهم، فلما حكم فيهم بما هو الحق كبتوا وندموا على مجيئهم إليه.

قال أبو السعود : وقوله : ﴿وإن تعرض عنهم﴾ بيان لحال الأمرين إثر تخييره ﷺ بينهما. وتقديم حال الإعراض، للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه، حيث كان مظنة الضرر، لما أنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم، فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم؛ فتشتد عداوتهم ومضارتهم له، فأمنه الله بقوله : ﴿فلن يضروك شيئا﴾ من الضر[1] .

وكان التعبير بإن أيضا فى قوله ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم﴾ للإشارة إلى أنه ﷺ ليس حريصًا على الحكم بينهم بل هو زاهد فيه، لأنهم ليسوا طلاب حق وانصاف بل هم يريدون الحكم كما يهوون ويشتهون، والدليل على ذلك أن التوراة التى بين أيديهم فيها حكم الله، إلا أنهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ مؤملين أن يقضى بينهم بغير ما أنزل الله، فيشيعوا ذلك بين الناس، ويعلنوا عدم صدقه فى نبوته، فلما حكم بما أنزل الله خاب أملهم وانقلبوا صاغرين.

وقوله : ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ تذييل مقرر لما قبله من وجوب الحكم بينهم بالعدل إذا ما اختار أن يقضى بينهم.

يقال : أقسط الحاكم فى حكمه، إذا عدل وقضى بالحق فهو مقسط أى عادل ومنه قوله -

---

(١) تفسير أبى السعود، جـ٢ ص ٢٩

تعالى - ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.

روى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن. وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»(١).

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ما يأتى:

١ - أن أكل السحت حرام سواء أكان عن طريق الرشوة أم عن أى طريق محرم سواها.

ولقد كان السابقون من السلف الصالح يتحرون الحلال. وينفرون من الحرام، بل ومن الشبهات، وكانوا يرون أن تأييد الحق ودفع الباطل واجب عليهم، وأنه لا يصح أن يأخذوا عليه أجرا..

قال ابن جرير: شفع مسروق لرجل فى حاجة فأهدى إليه جارية، فغضب مسروق غضبًا شديدا وقال: لوعلمت أنك تفعل هذا ما كلمت فى حاجتك، ولا أكلمه فيما بقى من حاجتك. سمعت ابن مسعود يقول: من شفع شفاعة ليرد بها حقا، أو يرفع بها ظلما، فأهدى له، فقبل، فهو سحت».

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به». قيل يا رسول الله وما السحت؟ قال ﷺ: «الرشوة فى الحكم».

وعن الحكم بن عبد الله قال: قال لى أنس بن مالك: إذا انقلبت إلى أبيك فقل له: إياك والرشوة فإنها سحت. وكان أبوه على شرط المدينة»(٢).

قال بعض العلماء: والرشوة قد تكون فى الحكم وهى محرمه على الراشى والمرتشى. وقد روى أنه ﷺ قال: «لعن الراشى والمرتشى والذى يمشى بينهما» لأن الحاكم حينئذ إن حكم له بما هو حقه كان فاسقًا من جهه أنه قبل الرشوة على أن يحكم بما يعرض عليه الحكم به. وإن حكم بالباطل كان فاسقًا من جهة أنه أخذ الرشوة. ومن جهة أنه حكم بالباطل.

وقد تكون الرشوة فى غير الحكم مثل أن يرشو الحاكم ليدفع ظلمه عنه فهذه الرشوة محرمة على آخذها غير محرمة على معطيها، فقد روى عن الحسن أنه قال: «لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه». وروى عن جابر بن زيد والشعبى أنهما قالا: «لا بأس بأن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم».

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة جـ ٦ ص ٧

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٢٤٠ - بتصرف يسير -

وقد ورد أنه ﷺ حين قسم غنائم بعض الغزوات وأعطى العطايا الجزيلة، أعطى العباس بن مرداس أقل من غيره، فلم يرق ذلك العباس وقال شعرا يتضمن التعجيب من هذا التصرف. فقال ﷺ «اقطعوا لسانه». فزادوه حتى رضى. فهذا نوع من الرشوة رخص فيه السلف لدفع الظلم عن نفسه يدفعه إلى من يريد ظلمه أو انتهاك عرضه»[١].

٢ - استدل بعض العلماء بقوله - تعالى - : ﴿فإن جاءك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ على أن الرسول ﷺ كان مخيرا فى الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم، وأن حكم التخيير غير منسوخ، لأن ظاهر الآية يفيد ذلك.

ويرى فريق من العلماء أن هذا التخيير قد نسخ بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾. قالوا: إن الرسول ﷺ كان أولا مخيرا ثم أمر بعد ذلك بإجراء الأحكام عليهم.

وقد رد القائلون بثبوت التخيير على القائلين بالنسخ بأن التخيير ثابت بهذه الآية.

أما قوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ فهو بيان لكيفية الحكم عند اختياره له.

ويرى فريق ثالث من العلماء: أن التخيير ورد فى المعاهدين الذين ليسوا من أهل الذمة كبنى النضير وبنى قريظة، فهؤلاء كان الرسول ﷺ مخيرا بين أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم:

وقوله - تعالى - ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ ورد فى أهل الذمة الذين لهم مالنا وعليهم ما علينا. وعلى هذا فلا نسخ فى الآية.

قال الآلوسى: قال أصحابنا: أهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام فى البيوع والمواريث وسائر العقود، إلا فى بيع الخمر والخنزير، فإنهم يقرون عليه، ويمنعون من الزنا كالمسلمين، ولا يرجمون لأنهم غير محصنين، واختلف فى مناكحتهم، فقال أبو حنيفة: يقرون عليها، وخالفه - فى بعض ذلك. محمد وزفر. وليس لنا عليهم اعتراض قبل التراضى بأحكامنا؛ فمتى تراضوا بها وترافعوا إلينا وجب إجراء الأحكام عليهم، وتمام التفصيل فى كتب الفروع.

٣ - أخذ العلماء من هذه الآية - أيضًا - أن الحاكم ينفذ حكمه فيما حكم فيه لأن اليهود حكموا رسول الله ﷺ فى بعض قضاياهم، فحكم فيهم بما أنزل الله، ونفذ هذا الحكم عليهم.

قال بعضهم: إنه ﷺ قد حكم بينهم بشريعة موسى - عليه السلام - ولكن هذا الحكم كان قبل أن تنزل عليه الحدود. أما الآن وقد أكمل الله الدين، وتقررت الشريعة، فلا يجوز لأى حاكم أن يحكم بغير الأحكام الإسلامية لا فرق بين المسلمين وغيرهم[٢].

---

(٢) تفسير آيات الأحكام جـ٢ ص١٩٣ لفضيلة الأستاذ محمد على السايس:

(٢) تفسير آيات الأحكام جـ٢ ص١٩٥ .

هذا، وبعد أن وصف الله - تعالى - اليهود وأشباههم بجملة من الصفات القبيحة، وخير رسول الله ﷺ بين أن يحكم فيهم بشرع الله وبين أن يعرض عنهم. بعد كل ذلك أنكر عليهم مسالكهم الخبيثة، وعجب كل عاقل من حالهم فقال - تعالى - : ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ أى أن أمر هؤلاء اليهود لمن أعجب العجب، لأنهم يحكمونك -يا محمد- فى قضاياهم مع أنهم لم يتبعوا شريعتك ومع أن كتابهم التوراة قد ذكر حكم الله صريحا واضحا فيما يحكمونك فيه.

فالاستفهام فى قوله: ﴿وكيف يحكمونك﴾ للتعجب من أحوالهم حيث حكموا من لا يؤمنون به فى قضية حكمها بين أيديهم، ظنا منهم أنه سيحكم بينهم بما اتفقوا عليه مما يرضى أهواءهم وشهواتهم.

وقوله: ﴿وعندهم التوراة﴾ جملة حالية من الواو فى ﴿يحكمونك﴾ والعامل ما فى الاستفهام من التعجيب.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت ﴿فيها حكم الله﴾ ما موضعه من الإعراب؟ قلت: إما أن ينتصب على الحال من التوراة، وكلمة التوراة هى مبتدأ والخبر ﴿عندهم﴾، وإما أن يرتفع خبرا عنها كقولك: وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله. وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة، لأن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم كما تقول: عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب فما تصنع بغيره[1].

وقوله ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ معطوف على ﴿يحكمونك﴾-

وجاء العطف بثم المفيدة للتراخى للإشارة إلى التفاوت الكبير بين ما فى التوراة من حق وبين ماهم عليه من باطل ومخادعة.

واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى حكم الله الذى فى التوراة، والذى حكم به النبى ﷺ.

أى: كيف يحكمونك يا محمد فى قضاياهم والحال أنهم عندهم التوراة فيها حكم الله واضحًا فيما تحاكموا إليك فيه، ثم هم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما قضى الله به فى كتابهم التوراة.

وقوله: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

ونفى الإيمان عنهم مع حذف متعلقه لقصد التعميم.

أى: وما أولئك الذين جاءوا يتحاكمون إليك من اليهود بالمؤمنين لا بكتابهم التوراة. لأنهم

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٣٦

لو كانوا مؤمنين به لنفذوا أحكامه، ولا بك يا محمد لأنهم لو كانوا مؤمنين بك استجابوا لك فيما تأمرهم به وتنهاهم عنه.

قال الفخر الرازى: قوله - تعالى -: ﴿وكيف يحكمونك﴾.. الخ: هذا تعجيب من الله لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما فى التوراة من حد الزانى، ثم تركهم قبول ذلك الحكم فعدلوا عما يعتقدونه حكما حقا إلى ما يعتقدونه باطلا طلبا للرخصة. فلا جرم ظهر جهلهم وعنادهم فى هذه الواقعة من وجوه:

أحدها: عدولهم عن حكم كتابهم.

والثانى: رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل.

والثالث: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه. فبين الله حال جهلهم وعنادهم لئلا يغتربهم مغتر أنهم أهل كتاب الله، ومن المحافظين على أمر الله»[1].

وبعد أن وصف الله - تعالى - اليهود وأشباههم بجملة من الصفات القبيحة، كمسارعتهم فى الكفر. وكثرة سماعهم للكذب، وتحريفهم للكلم عن مواضعه، وتهافتهم على أكل السحت. وبعد أن خير رسوله ﷺ فى أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم إذا ما تحاكموا إليه، وبعد أن عجب كل عاقل من أحوالهم. بعد كل ذلك شرع - سبحانه - فى بيان منزلة التوراة وفى بيان بعض ما اشتملت عليه من أحكام فقال - تعالى -:

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٢٣٦

فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

فقوله - تعالى - : ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ بيان لشرف التوراة قبل أن تمتد إليها الأيدى الأثيمة بالتحريف والتبديل. ويدل على شرفها وعلو مقامها أن الله - تعالى - هو الذى أنزلها لا غيره، وأنه - سبحانه - جعلها مشتملة على الهدى والنور. والمراد بالهدى، ما اشتملت عليه من بيان للأحكام والتكاليف والشرائع التى تهدى الناس إلى طريق السعادة.

والمراد بالنور: ما اشتملت عليه من بيان للعقائد السليمة، والمواعظ الحكيمة، والأخلاق القويمة.

والمعنى إنا أنزلنا التوراة على نبينا موسى -عليه السلام- مشتملة على ما يهدى الناس إلى الحق من أحكام وتكاليف وعلى ما يضئ لهم حياتهم من عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة.

ثم بين - سبحانه - بعض الوظائف التى جعلها للتوراة فقال: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾.

والمراد بقوله: ﴿النبيون﴾ من بعثهم الله فى بنى إسرائيل من بعد موسى لإقامة التوراة.

وقوله: الذين أسلموا صفة للنبيين. أى: أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة والطاعة.

وعن الحسن والزهرى وقتادة: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا محمدا ﷺ وذلك لأنه حكم على اليهوديين الذين زنيا بالرجم، وكان هذا حكم التوراة. وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له.

وقال ابن الأنبارى: هذا رد على اليهود والنصارى لأن بعضهم كانوا يقولون: الأنبياء كلهم يهود أو نصارى - فقال - تعالى - ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ يعنى أن الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية أو النصرانية، بل كانوا مسلمين لله منقادين لتكاليفه»[1].

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٣ - طبعة عبد الرحمن محمد

وقوله : ﴿للذين هادوا﴾ أى : رجعوا عن الكفر. والمراد بهم اليهود. واللام للتعليل.

وقوله : ﴿والربانيون﴾ معطوف على ﴿النبيون﴾ وهو جمع ربانى. وهم - كما يقول ابن جرير - العلماء والحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم(١).

وقوله : ﴿الأحبار﴾ معطوف أيضًا على ﴿النبيون﴾.

قال القرطبى ما ملخصه : والأحبار : قال ابن عباس : هم الفقهاء. والحبر بالفتح والكسر - الرجل العالم وهو مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين، فهم يحبرون العلم. أى : يبينونه، وهو محبر فى صدورهم(٢)

والباء فى قوله : ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ متعلقة بقوله ﴿يحكم﴾.

وقوله ﴿استحفظوا﴾ من الاستحفاظ بمعنى طلب الحفظ بعناية وفهم، إذ أن السين والتاء للطلب، والضمير فى ﴿استحفظوا﴾ يعود على النبيين والربانيين والأحبار.

والمعنى : إنا أنزلنا التوراة فيها هداية للناس إلى الحق، وضياء لهم من ظلمات الباطل، وهذه التوراة يحكم بها بين اليهود أنبياؤهم الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة والطاعة، ويحكم أيضًا بينهم الربانيون والأحبار الذين هم خلفاء الأنبياء. وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود، بسبب أنه - تعالى - حملهم أمانة حفظ كتابه، وتنفيذ احكامه وشرائعه وتعاليمه.

ويصح أن يكون قوله ﴿بما استحفظوا﴾ متعلقا بالربانيين والأحبار، وأن يكون الضمير عائدا عليهم وحدهم. أى : على الربانيين والأحبار ويكون الاستحفاظ بمعنى أن الأنبياء قد طلبوا منهم حفظه وتطبيق أحكامه.

والمعنى : كذلك الربانيون والأحبار كانوا يحكمون بالتوراة بين اليهود. بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب الله من التغيير والتبديل.

وقوله : ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ معطوف على ﴿استحفظوا﴾.

أى : وكان الأنبياء والربانيون والأحبار شهداء على الكتاب الذى أنزله الله - وهو التوراة - بأنه حق، وكانوا رقباء على تنفيذ حدوده، وتطبيق أحكامه حتى لا يهمل شىء منها.

قال الفخر الرازى قوله : ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ : حفظ كتاب الله على وجهين :

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٣٩
(٢) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٨٩

الأول : أن يحفظ فلا ينسى.

الثانى : أن يحفظ فلا يضيع.

وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من وجهين.

أحدهما : أن يحفظوه فى صدورهم ويدرسوه بألسنتهم.

والثانى : ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.

وقوله : ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أى : هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار كانوا شهداء على أن كل ما فى التوراة حق وصدق ومن عند الله فلا جرم كانوا يمضون أحكام التوراة ويحفظونها من التحريف والتغيير»[١].

ثم أمر الله - تعالى - اليهود - ولا سيما علماءهم وفقهاءهم - أن يجعلوا خشيتهم منه وحده. وألا يبيعوا دينهم بدنياهم فقال - تعالى - : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً﴾.

والخشية - كما يقول الراغب - خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها فى قوله : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[٢].

وكأن الراغب - رحمه الله - يريد أن يفرق بين الخوف والخشية فهو يرى أن الخشية خوف يشوبه تعظيم ومحبة للمخشى بخلاف الخوف فهو أعم من أن يكون من مرهوب معظم محبوب أو مرهوب مبغوض مذموم.

والفاء فى قوله ﴿فلا تخشوا﴾ للإفصاح عن كلام مقدر.

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكر من أن الله - تعالى - قد أنزل التوراة لتنفيذ أحكامها، وتطبيق تعاليمها.. فمن الواجب عليكم يا معشر اليهود أن تقتدوا بأنبيائكم وصلحائكم فى ذلك، وأن تستجيبوا للحث الذى جاء به رسولنا محمد ﷺ وأن تجعلوا خشيتكم منى وحدى لا من أحد من الناس، فأنا الذى بيدى نفع العباد وضرهم.

وقوله : ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا﴾ معطوف على قوله ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ والاشتراء هنا المراد به الاستبدال.

والمراد بالآيات : ما اشتملت عليه التوراة من أحكام وتشريعات وبشارات بالنبى ﷺ.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٤

(٢) المفردات من غريب القرآن ص ١٤٩. للراغب الأصفهانى.

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال والجاه وما إلى ذلك من متع الحياة الدنيا.

أى : ولا تستبدلوا بأحكام آياتى التى اشتملت عليها التوراة احكامًا أخرى تغايرها وتخالفها، لكى تأخذوا فى مقابل هذا الاستبدال ثمنا قليلا من حظوظ الدنيا وشهواتها كالمال والجاه وما يشبه ذلك.

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل استبدال الآيات؛ لأنه لا يكون إلا قليلا - وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا - بالنسبة لطاعة الله، والرجاء فى رحمته ورضاه.

وهذا النهى الذى اشتملت عليه هاتان الجملتان الكريمتان : ﴿فلا تخشوا، ولا تشتروا﴾ وإن كان موجها فى الأصل إلى رؤساء اليهود وأحبارهم. إلا أنه يتناول الناس جميعا فى كل زمان ومكان، لأنه نهى عن رذائل يجب أن يبتعد عنها كل إنسان يتأتى له الخطاب.

وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله : «﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات - إذ انتقل من الحديث عن الأحبار السابقين منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنبى ﷺ ويتناول غير أولئك المخاطبين بطريق الدلالة»(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء عاقبة من يفعل فعل اليهود، فيحكم بغير شريعة الله فقال - تعالى - ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

أى : كل من رغب عن الحكم بما أنزل الله : وقضى بغيره من الأحكام، فأولئك هم الكافرون بما أنزله - سبحانه - لأنهم كتموا الحق الذى كان من الواجب عليهم إظهاره والعمل به. والجملة الكريمة - كما يقول الآلوسى - تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير، وتحذير من الإخلال به أشد تحذير.

هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الأية ما يأتى :

١ - سمو منزلة التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام، فقد أضاف - سبحانه - إنزالها إليه، فكان لهذه الإضافة مالها من الدلالة على علو مقامها، كما بين - سبحانه - شرفها الذاتى بذكر ما اشتملت عليه من هداية إلى الحق، ومن نور يكشف للناس ما اشتبه عليهم من أمور دينهم ودنياهم.

وهذا السمو إنما هو للتوراة التى لم تمتد إليها أيدى اليهود بالتحريف والتبديل، والزيادة

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٤٥

والنقصان. أما تلك التوراة التى بين أيديهم الآن، والتى دخلها من التحريف ما دخلها فهى عارية عن الثقة فى كثير مما اشتملت عليه من قصص وأحكام.

٢ - قال الفخر الرازى: «دلت الآية على أنه يحكم بالتوراة النبيون والربانيون والأحبار، وهذا يقتضى كون الربانيين أعلى حالا من الأحبار، فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين. والأحبار كآحاد العلماء.

ثم قال: وقد احتج جماعة بأن شرع من قبلنا لازم علينا - إلا إذا قام الدليل على صيرورته منسوخا - بهذه الآية، وتقريره أنه - تعالى - قال فى التوراة هدى ونورًا، والمراد كونها هدى ونورا فى أصول الشرع وفروعه، ولو كان ما فيها منسوخا غير معتبر الحكم بالكلية لما كان فيها هدى ونور، ولا يمكن أن يحمل الهدى والنور على ما يتعلق بأصول الدين فقط، لأنه ذكر الهدى والنور ولو كان المراد منهما معا ما يتعلق بأصول الدين للزم التكرار، وأيضًا فإن هذه الآية إنما نزلت فى مسألة الرجم فلابد وأن تكون الأحكام الشرعية داخلة فيها لأنا - وإن اختلفنا فى أن غير سبب نزول الآية هل يدخل فيها أم لا - لكنا توافقنا على أن سبب نزول الآية يجب أن يكون داخلا فيها»[1].

٣ - استدل العلماء بهذه الآية على أن الحاكم من الواجب عليه أن ينفذ أحكام الله دون أن يخشى أحدا سواه، وأن عليه كذلك أن يبتعد عن أكل المحرم بكل صوره وأشكاله، وألا يغير حكم الله فى نظير أى عرض من أعراض الدنيا، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون، ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا﴾.

وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب الكشاف بقوله: قوله: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ نهى للحكام عن خشيتهم غير الله فى حكومتهم، وادهانهم فيها - أى ومصانعتهم فيها - وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد من الأقرباء والأصدقاء وقوله: ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا﴾ وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة فى الدنيا وطلبا للرياسة فهلكوا»[2].

٤ - قال بعض العلماء: فى قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ تغليظ فى الحكم بخلاف المنصوص عليه، حيث علق عليه الكفر هنا والظلم والفسق بعد. وكفر الحاكم لحكمه بغير ما أنزل الله مقيد بقيد الاستهانة به. والجحود له، وهذا ماسار عليه كثير من العلماء وأثروه عن عكرمة وابن عباس.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٤٠٢
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٧٣

وعن عطاء : هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. أى : أن كفر المسلم وظلمه وفسقه ليس مثل كفر الكافر وظلمه وفسقه. فإن كفر المسلم قد يحمل على جحود النعمة »(١).

وقال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف : قوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ : اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية والآيتان بعدها. فقيل فى اليهود خاصة وقيل : فى الكفار عامة. وقيل : الأولى فى هذه الأمة والثانية فى اليهود. والثالثة فى النصارى والكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ، لا على الكفر الذى ينقل عن الملة. والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أريد منهما العتو والتمرد فى الكفر. وعن ابن عباس : من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به فهو كافر. ومن أقربه ولم يحكم به فهو ظالم فاسق»(٢).

وقال الآلوسى ما ملخصه : واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر غير مؤمن. ووجه استدلالهم بها أن كلمة ﴿من﴾ فى قوله : ﴿ومن لم يحكم﴾ عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله فيدخل الفاسق المصدق أيضًا لأنه غير حاكم وغير عامل بما أنزل الله.

وأجيب عن شبهتهم بأن الآية متروكة الظاهر فإن الحكم وإن كان شاملا لفعل القلب والجوارح لكن المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق ولانزاع فى كفر من لم يصدق بما أنزل الله - تعالى »(٣).

والذى يبدو لنا أن هذه الجملة الكريمة عامة فى اليهود وفى غيرهم فكل من حكم بغير ما أنزل الله، مستهينًا بحكمه - تعالى - أو منكرًا له، يعد كافرًا لأن فعله هذا جحود وإنكار واستهزاء بحكم الله ومن فعل ذلك كان كافرًا.

أما الذى يحكم بغير حكم الله مع إقراره بحكم الله واعترافه به، فإنه لا يصل فى عصيانه وفسقه إلى درجة الكفر.

ثم بين - سبحانه - بعض ما اشتملت عليه التوراة من أحكام فقال ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص﴾.

فالآية الكريمة معطوفة على ما سبقها وهو قوله - تعالى : ﴿إنا أنزلنا التوراة﴾.

---

(١) تفسير القاسمى جـ١ ص ٢٠٠٠

(٢) تفسير «صفوة البيان» ص ١٩٤

(٣) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٤٥

وقوله : ﴿كتبنا﴾ بمعنى فرضنا وأوجبنا وقررنا. والمراد بالنفس : الذات.

أى : أنزلنا التوراة على موسى لتكون هداية ونورًا لبنى إسرائيل، وفرضنا عليهم (أن النفس بالنفس) أى : مقتولة أو مأخوذة بها إذا قتلتها بغير حق. وأن (العين) مفقوءة ﴿بالعين﴾ وأن ﴿الأنف﴾ مجدوع ﴿بالأنف﴾ وأن ﴿الأذن﴾ مقطوعة ﴿بالأذن﴾ وأن ﴿السن﴾ مقلوعة ﴿بالسن﴾ وأن ﴿الجروح قصاص﴾ أى : ذات قصاص، بأن يقتص فيها إذا أمكن ذلك، وإلا فما لا يمكن القصاص فيه - ككسر عظم وجرح لحم لا يمكن الوقوف على نهايته - ففيه حكومة عدل.

وعبر - سبحانه - عما فرض عليهم من عقوبات فى التوراة بقوله : ﴿كتبنا﴾ للإشارة إلى أن هذه العقوبات وتلك الأحكام لا يمكن جحدها أو محوها، لأنها مكتوبة والكتابة تزيد الكلام توثيقًا وقوة.

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿والعين بالعين والأنف بالأنف﴾. ألخ قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمزة بالنصب فى جميعها على العطف.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بنصب الكل إلا الجروح؛ فإنه بالرفع على القطع عما قبله والاستئناف به - أى أن الجروح مبتدأ وقصاص خبره.

وقرأ الكسائى وأبو عبيد : ﴿والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن، والجروح﴾ بالرفع فيها كلها.

قال أبو عبيد : حدثنا حجاج عن هارون عن عباد بن كثير، عن عقيل عن الزهرى، عن أنس أن النبى ﷺ قرأ ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف، والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾.

والرفع من ثلاث جهات، بالابتداء والخبر. والوجه الثانى : بالعطف على المعنى على موضع (أن النفس)، لأن المعنى قلنا لهم : النفس بالنفس والوجه الثالث - قاله الزجاج - يكون عطفًا على المضمر فى النفس. لأن الضمير فى النفس فى موضع رفع، لأن التقدير أن النفس هى مأخوذة بالنفس فالأسماء معطوفة على هى[(١)].

وقوله : ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ ترغيب فى العفو والصفح.

والضمير فى (به) يعود إلى القصاص. والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الحث عليه فإنه أدعى إلى صفاء النفوس. وإلى فتح باب التسامح بين الناس.

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٩٢

وقوله : ﴿فهو﴾ يعود إلى التصدق المدلول عليه بالفعل (تصدق) والضمير فى قوله ﴿له﴾ يعود إلى العافى المتصدق وهو المجنى عليه أو من يقوم مقامه.

والمعنى : ﴿فمن تصدق﴾ بما ثبت له من حق القصاص، بأن عفا عن الجانى فإن هذا التصدق يكون كفارة لذنوب هذا المتصدق، حيث قدم العفو مع تمكنه من القصاص.

وقيل إن الضمير فى ﴿له﴾ يعود على الجانى فيكون المعنى : فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص، بأن عفا عن الجانى، فإن هذا التصدق يكون كفارة له. أى لذنوب الجانى، بأن لا يؤاخذه الله بعد ذلك العفو. وأما المتصدق فأجره على الله.

وقد رجح ابن جرير عودة الضمير إلى العافى المتصدق وهو المجنى عليه أو ولى دمه فقال : وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : عنى به : فمن تصدق به فهو كفارة له أى المجروح، ولأنه لأن تكون الهاء فى قوله (له) عائدة على (من) أولى من أن تكون عائدة على من لم يجر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح، إذ الصدقة هى المكفرة ذنب صاحبها دون المتصدق عليه فى سائر الصدقات)[1].

وقوله : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ تذييل قصد به التحذير من مخالفة حكم الله. أى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون لأنفسهم، حيث تركوا الحكم العدل واتجهوا إلى الحكم الجائر الظالم.

قال الرازى : وفيه سؤال وهو أنه - تعالى -. قال : أولا : ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ وثانيًا ﴿هم الظالمون﴾ والكفر أعظم من الظلم، فلماذا ذكر أعظم التهديدات أولا وأى فائدة فى ذكر الأخف بعده؟

وجوابه : أن الكفر من حيث إنه إنكار لنعمة المولى وجحود لها فهو كفر، ومن حيث إنه يقتضى إبقاء النفس فى العقاب الدائم الشديد فهو ظلم على النفس. ففى الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره فى حق الخالق - سبحانه - وفى هذه الآية ذكر ما يتعلق بالتقصير فى حق نفسه »[2].

هذا، ومما أخذه العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - أن الآية الكريمة - ككثير غيرها - تنعى على بنى إسرائيل إهمالهم لأحكام الله - تعالى - وتهافتهم على ما يتفق مع أهوائهم.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٢٦٢ بتصريف وتلخيص.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص١٢.

قال ابن كثير: هذه الآية مما وبخت به اليهود أيضًا وقرعت عليه، فإن عندهم فى نص التوراة أن النفس بالنفس. وقد خالفوا حكم ذلك عمدًا وعنادًا فأقادوا النضرى من القرظى، ولم يقيدوا القرظى من النضرى وعدلوا إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزانى المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار. ولهذا قال هناك ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا. وقال هنا فى تتمة الآية ﴿فأولئك هم الظالمون﴾. لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخانوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض.

ثم قال: واستدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا بهذه الآية. وذلك إذا حكى مقررا ولم ينسخ. والحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة. وقال الحسن البصرى: هى عليهم وعلى الناس عامة»[١].

٢ - استدل جمهور الفقهاء بعموم هذه الآية على أن الرجل يقتل بالمرأة. ويؤيد ذلك مارواه النسائى وغيره أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم: أن الرجل يقتل بالمرأة.. وفى رواية للإمام أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، بل تجب ديتها[٢].

قال الآلوسى: واستدل بعموم ﴿أن النفس بالنفس﴾ من قال: يقتل المسلم بالكافر، والحر بالعبد، والرجل بالمرأة ومن خالف استدل بقوله - تعالى:

﴿الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى﴾ وبقوله ﷺ «لا يقتل مؤمن بكافر».

وأجاب بعض أصحابنا بأن النص تخصيص بالذكر فلا يدل على نفى ما عداه. والمراد بما روى فى الحديث الكافر الحربى وقد روى أنه ﷺ قتل مسلما بذمى»[٣].

٣ - استدل العلماء بجريان القصاص فى الأطراف لقوله - تعالى - ﴿العين بالعين، والأنف بالأنف﴾ إلخ. إلا أنهم قالوا بوجوب استيفاء ما يماثل فعل الجانى بدون تعد أو ظلم فتؤخذ العين اليمنى باليمنى عند وجودها، ولا تؤخذ اليسرى باليمنى.

وقالوا: إنما تؤخذ العين بالعين إذا فقأها الجانى متعمدًا. فإن أصابها خطأ ففيها نصف الدية: إن أصاب العينين معًا خطأ ففيهما الدية كاملة.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦١ بتصرف يسير.
(٣) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١١٨

ويرى بعضهم أن فى عين الأعور الدية كاملة لأن منفعته بها كمنفعة ذى عينين أو قريبة منها.

وقد توسع الإمام القرطبى فى بسط هذه المسائل فارجع إليه إن شئت[(١)].

٤ - أخذ العلماء من هذه الآية أن الله - تعالى - رغب فى العفو، وحض عليه، وأجزل المثوبة لمن يقوم به فقد قال - تعالى - ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾. أى: فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص فتصدقه كفارة لذنوبه.

وقد وردت فى الحض على العفو نصوص كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[(٢)] وقوله - تعالى - ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين﴾[(٣)].

وروى الإمام أحمد عن الشعبى أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح فى جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به»[(٤)].

وروى ابن جرير عن أبى السفر قال: دفع رجل من قريش رجلا من الأنصار، فاندقت ثنيته. فرفعه الأنصارى إلى معاوية. فلما ألح عليه الرجل قال معاوية: شأنك وصاحبك. قال: وأبو الدرداء عند معاوية. فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشىء من جسده، فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة». فقال الأنصارى: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناى ووعاه قلبى - فخلى سبيل القرشى. فقال معاوية: «مروا له بمال»[(٥)].

ومن هذه الآية وغيرها نرى أن الإسلام قد جمع فيما شرع من عقوبات بين العدل والرحمة فقد شرع القصاص زجرًا للمعتدى. وإشعارا له بأن سوط العقاب مسلط عليه إذا ما تجاوز حده، جبرا لخاطر المعتدى عليه، وتمكينا له من أخذ حقه ممن اعتدى عليه.

ومع هذا التمكين التام للمجنى عليه من الجانى فقد رغب الإسلام المجنى عليه فى العفو عن الجانى حتى تشيع المحبة والمودة بين أفراد الأمة، ووعده على ذلك بتكفير خطاياه، وارتفاع درجاته عند الله - تعالى -

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٩١ - ٢٠٩
(٢) سورة الشورى الآية ٤٠
(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤
(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٤.
(٥) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٢٦٠

وبعد أن بين - سبحانه - منزلة التوراة وما اشتملت عليه من هدايات وتشريعات أتبع ذلك ببيان منزلة الإنجيل وما اشتمل عليه من مواعظ وأحكام.. فقال - تعالى - :

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

وقوله : ﴿وقفينا﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿أنزلنا التوراة﴾ وأصل القفو اتباع الأثر : يقال قفاه يقفوه أى : اتبع أثره، والتقفية : الاتباع، يقال : قفيته بكذا أى أتبعته. وإنما سميت قافية الشعر قافية؛ لأنها تتبع الوزن، والقفا مؤخر الرقبة. ويقال : قفا أثره إذا سار وراءه واتبعه.

قال صاحب الكشاف : قفيته مثل عقبته، إذا أتبعته. ثم يقال قفيته وعقبته به، فتعديه إلى الثانى بزيادة الباء.

فإن قلت فأين المفعول الأول فى الآية؟ قلت هو محذوف. والظرف الذى هو «على آثارهم» كالسّادمسدّه، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه. والضمير فى قوله : ﴿على آثارهم﴾ يعود على النبيين فى قوله : ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾[(١)].

وقوله : ﴿آثارهم﴾ جمع أثر وهو العلم الذى يظهر للحس. وآثار القوم : ما أبقوا من أعمالهم. وقوله ﴿على آثارهم﴾ تأكيد لمدلول فعل «قفينا» وإيماء إلى سرعة التقفية.

وقوله. ﴿لما بين يديه﴾ أى : لما تقدمه، لأن ما بين يدى الإنسان كأنه حاضر أمامه.

والمعنى وأتبعنا على آثار أولئك النبيين الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة، والذين كانوا يحكمون بالتوراة - كموسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم - أتبعنا على آثارهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٣٩

بعيسى ابن مريم ناهجا نهجهم فى الخضوع والطاعة والإخلاص لله رب العالمين ومصدقا للتوراه التى تقدمته، ومنفذا لأحكامها إلا ما جاء نسخه فى الإنجيل منها.

وفى التعبير بقوله ﴿وقفينا على آثارهم﴾ إشارة إلى أن عيسى - عليه السلام - لم يكن بدعة من الرسل، وإنما هو واحد منهم، جاء على آثار من سبقوه، سالكا مسلكهم فى الدعوة إلى عبادة الله وحده وإلى التحلى بمكارم الأخلاق.

وفى التعبير بقوله ﴿بعيسى ابن مريم﴾ إيذان بأنه محدث كجميع المحدثات، وأنه قد ولد من أمه كما يولد سائر البشر من أمهاتهم، وأنه لا نسب له إلا من جهتها، فليس له أب، وليس ابنا لله - تعالى -، وإنما هو عبد من عباد الله أو جده بقدرته، وأرسله - سبحانه - لدعوة الناس إلى توحيده وعبادته.

وقوله: ﴿مصدقًا﴾ حال من عيسى - عليه السلام -:

قال بعض العلماء: «ولو سايرنا الواقع عند النصارى فى هذه الأيام، لكان لذكر كلمة التصديق فى هذا المقام معنى أعمق من مجرد التصديق بأصل النزول، بل بالتنفيذ، لأن الإنجيل ليس فيه أحكام عملية كثيرة، فأحكام الأسرة كلها مأخوذة عند النصارى من التوراة، وليس ثمة نص قاطع فى الأناجيل التى بين أيدينا يغاير ما جاء فى التوراة من أحكام تتعلق بالأسرة، ولا بأحكام العقوبات من حدود وقصاص

ولقد رويت عبارات عندهم منسوبة للمسيح - عليه السلام - تدل على العمل بأحكام التوراة، مثل قوله - عليه السلام - «ماجئت لأنقض الناموس» أى التوراة.

وكلمة ﴿بين يديه﴾ تعبير قرآنى، للدلالة على أن التوراة كانت حاضرة قائمة وقت مجىء عيسى - عليه السلام - وعلما عنده، وهو علم خال من التحريف والتبديل، أوحى الله به إليه.

ولفظ بين يديه فى دلالته على الأمر المهيأ القائم من الاستعارات الرائعة، ومضمونها أن الأمر معلوم علما يقينا لعيسى بن مريم - عليه السلام - كعلم المحسوس يكون موضوعًا بين يديه[1].

وقوله: ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقا لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين﴾ معطوف على ﴿قفينا﴾.

وقد وصف الله - تعالى - الإنجيل الذى أعطاه لعيسى بخمس صفات:

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة مجلة لواء الاسلام العدد الثالث من السنة ٢١

أولها : أنه فيه ﴿هدى﴾ أى : فيه هداية للناس إلى الحق الذى متى اتبعوه سعدوا فى دنياهم وآخرتهم.

وثانيها : أنه فيه ﴿نور﴾ أى : ضياء يكشف لهم ما التبس عليهم من أمور دينية ودنيوية.

وثالثها : كونه ﴿مصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ أى أن الإنجيل مؤيد ومقرر لما جاءت به التوراة من أحكام وآداب وشرائع أنزلها الله فيها.

ورابعها : كونه : ﴿هدى﴾ أى : هو بذاته هدى فضلا على اشتماله عليه.

وخامسها : كونه : ﴿موعظة للمتقين﴾ أى : تذكير لهم بما يرق له القلب، وتصفو به النفس، وتنزجر به القلوب عن غشيان المحرمات.

وقوله ﴿فيه هدى﴾ جملة مكونة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر. وقوله ﴿ونور﴾ معطوف على قوله ﴿هدى﴾ والجملة كلها فى موضع نصب على أنها حال من الإنجيل.

أى : أعطينا عيسى الإنجيل حالة كونه مشتملا على الهدى والنور.

وقوله : ﴿ومصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ حال أيضًا من الإنجيل. ولا تكرار بين﴿مصدقا﴾ الأولى وبين ﴿مصدقًا﴾ الثانية، لأن الأولى لبيان حال عيسى وأنه جاء يدعو الناس إلى التصديق بالتوراة وإلى تنفيذ أحكامها، والثانية لبيان حال الإنجيل وأنه جاء مقرر لما اشتملت عليه التوراة من أحكام أنزلها الله، وأن من الواجب على بنى إسرائيل أن يسيروا على هدى هذه الأحكام إلا ما نسخه الإنجيل منها فعليهم أن يتبعوا أحكام الإنجيل فيها.

قال ابن كثير: وقوله : ﴿ومصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ أى : متبعا لها غير مخالف لما فيها إلا فى القليل. مما بين لبنى إسرائيل بعض ماكانوا يختلفون فيه - كما قال - تعالى - إخبارا عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل : ﴿ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾. ولهذا كان المشهور من قول العلماء : «أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة»[1].

وقوله : ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ معطوف على ما تقدم ومنتظم معه فى سلك الحالية.

وقال أولا ﴿فيه هدى﴾ وقال ثانيا ﴿هدى﴾ لزيادة المبالغة فى التنويه بشأن الإنجيل، فهو مشتمل على ما يهدى الناس إلى الحق والخير، وهو فى ذاته هدى، لأنه منزل من عند الله، ولأنه بشارة بنبى يرسل من بعد عيسى اسمه أحمد.

قال الفخر الرازى : «وأما كونه ﴿هدى﴾ مرة أخرى، فلأن اشتمال الإنجيل على البشارة

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦٤

بمجىء محمد ﷺ سبب لاهتداء الناس إلى نبوته. ولما كان أشد وجوه الاختلاف والمنازعة بين المسلمين وبين اليهود، والنصارى فى ذلك، لاجرم أعاده الله - تعالى - مرة أخرى تنبيها على أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوة محمد ﷺ فكان هدى فى هذه المسألة التى هى أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير.

وأما كونه موعظة: فلاشتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة. وإنما خصها بالمتقين، لأنهم هم الذين ينتفعون بها»(١).

وقوله - تعالى - : ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أمر من الله - تعالى - لأتباع سيدنا عيسى - عليه السلام - الذين وجدوا قبل بعثة النبى ﷺ بأن يحكموا فيما بينهم بمقتضى أحكام الإنجيل بدون تحريف أو تبديل. أما الذين وجدوا بعد بعثة النبى ﷺ فمن الواجب عليهم أن يصدقوه ويتبعوا شريعته، لأن الشريعة التى جاء بها ﷺ نسخت ما قبلها من شرائع.

قال الآلوسى ما ملخصه، قوله: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها دلائل رسالته ﷺ وما قررته شريعته الشريفة من أحكام، وأما الأحكام المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله، بل هو إبطال وتعطيل له إذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها، لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة الأحمدية شاهدة بنسخها. واختار كونه أمرًا مبتدأ الجبائى.

وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على قوله ﴿وآتيناه﴾.

أى: - وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل فيه هدى ونور - وقلنا ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. وحذف القول - لدلالة ما قبله عليه - كثير فى الكلام. ومنه قوله -تعالى- : ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم﴾.

واختار ذلك على بن عيسى.

وقرأ حمزة ﴿وليحكم﴾ - بكسر اللام وفتح الميم - بأن مضمرة - بعد لام كى - والمصدر معطوف على ﴿هدى وموعظة﴾ على تقدير كونهما معللين. أى: وآتيناه ليحكم(٢).

وقوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ تذييل مقرر ومؤكد لوجوب الامتثال لأحكام الله - تعالى - . أى: ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم المتمردون الخارجون عن جادة الحق. وعن السنن القويم، والصراط المستقيم.

---

(١) تفسير الرازى جـ١٢ ص ٩

(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٥٠

قال أبو حيان : قوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ ناسب هنا ذكر الفسق، لأنه خرج عن أمر الله - تعالى - إذ تقدم قوله : ﴿وليحكم﴾ وهو أمر كما قال - تعالى - للملائكة ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾. أى : خرج عن طاعته»[1]

وقال صاحب المنار ما ملخصه : وأنت إذا تأملت الآيات السابقة ظهر لك نكتة التعبير بالكفر فى الأولى وبوصف الظلم فى الثانية، وبوصف الفسوق فى الثالثة.

ففى الآية الأولى كان الكلام فى التشريع، وإنزال الكتاب مشتملا على الهدى والنور، والتزام الأنبياء وحكماء العلماء بالعمل والحكم به. فكان من المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له، مؤثرا لغيره عليه. يكون كافرا به.

وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها فى أصل الكتاب الذى هو ركن الإيمان، بل فى عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء. فمن لم يحكم بحكم الله فى ذلك يكون ظالما فى حكمه.

وأما الآية الثالثة فهى فى بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب فى إقامة الشريعة على الوجه الذى يطابق مراد الشارع وحكمته. فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا فهم الفاسقون بالمعصية، والخروج عن محيط تأديب الشريعة[2].

وبعد أن تحدث - سبحانه - عن التوراة والإنجيل وما فيهما من الهدى والنور، وأمر باتباع تعاليمهما. عقب ذلك بالحديث عن القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله ﷺ فقال - تعالى - :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٣ ص ٥٠

(٢) تفسير المنار جـ٦ ص٤٠٤.

وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ
ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ
بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾. معطوف على قوله قبل ذلك ﴿إنا أنزلنا التوراة﴾.

والمراد بالكتاب الأول: القرآن الكريم وأل فيه للعهد.

والمراد بالكتاب الثانى: جنس الكتب السماوية المتقدمة فيشمل التوراة والإنجيل وأل فيه للجنس وقوله ﴿ومهيمنا عليه﴾ أى: رقيبا على ما سبقه من الكتب السماوية المحفوظة من التغيير، وأمينا وحاكما عليها؛ لأنه هو الذى يشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها.

قال ابن جرير: وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب. يقال: إذا رقب الرجل الشىء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه. فهو يهيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن»[1].

وقال صاحب الكشاف: وقرىء ﴿ومهيمنا عليه﴾ - بفتح الميم - أى هومن عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل كما قال - تعالى -: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

والذى هيمن عليه هو الله - عز وجل. أو الحفاظ فى كل بلد، لو حُرِّف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه له كل أحد، ولاشمأزوا، رادين ومنكرين»[2].

والمعنى: لقد أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٢٦٦
(٢) تفسير الكشاف جـ٦ ص ٦٤٠

الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية من هدايات وقد أنزلناه ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، وجعلناه ﴿مصدقًا لما بين يديه من الكتاب﴾ أى: مؤيدًا لما فى تلك الكتب التى تقدمته: من دعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق. وجعلناه كذلك «مهيمنا عليها» أى: أمينا ورقيبا وحاكما عليها.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أشار إلى سمو مكانة القرآن من بين الكتب السماوية بإشارات من أهمها:

أنه - سبحانه - لم يقل: وقفينا على آثارهم - أى على آثار الأنبياء السابقين - بمحمد ﷺ وآتيناه القرآن. كما قال فى شأن عيسى ابن مريم ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل﴾.. الخ.

لم يقل ذلك فى شأن الرسول ﷺ وفى شأن القرآن الكريم، وإنما قال: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ للإشارة إلى معنى استقلاله وعدم تبعيته لغيره من الكتب التى سبقته، وللإيذان بأن الشريعة التى هذا كتابها هى الشريعة الباقية الخالدة التى لا تقبل النسخ أو التغيير.

وأنه - سبحانه - لم يزد فى تعريف الكتاب الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ على تعريفه بلام العهد فقال: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ للإشارة إلى كماله وتفوقه على سائر الكتب.

أى: أنه الكتاب الذى هو جدير بهذا الإسم، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا ينصرف إلا إليه لأنه الفرد الكامل من بين الكتب فى هذا الوجود.

وأنه -سبحانه- قد وصفه بأنه قد أنزله ملتبسا بالحق والصدق، وأنه مؤيد ومقرر لما اشتملت عليه الكتب السماوية من الدعوة إلى الحق والخير، وأنه - فضلا عن كل ذلك - أمين على تلك الكتب، وحاكم عليها، فما أيده من أحكامها وأقوالها فهو حق، ومالم يؤيده منها فهو باطل.

قال ابن كثير: جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها، جعله أشملها وأعظمها وأكملها، لأنه - سبحانه - جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب وزاد فيه من الكمالات ما ليس فى غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينا وحاكما عليها كلها، وتكفل - سبحانه - بحفظه بنفسه فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

وقوله: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه ﷺ بأن يلتزم فى حكمه بين الناس الأحكام التى أنزلها - سبحانه -

(١) تفسير ابن جرير جـ٢ ص ٦٥

والفاء فى قوله : ﴿فاحكم﴾ للإفصاح عن شرط مقدر.

أى : إذا كان شأن القرآن كما ذكرت لك يا محمد فاحكم بين هؤلاء اليهود وبين غيرهم من الناس بما أنزله الله من أحكام ، فإن ما أنزله هو الحق الذى لا باطل معه ، ولا تتبع فى حكمك أهواء هؤلاء اليهود وأشباههم لأن اتباعك لأهوائهم يجعلك منحرفا ومائلا عما جاءك من الحق الذى لا مرية فيه ولا ريب. ولم يقل -سبحانه- « فاحكم بينهم به » بل ترك الضمير وعبر بالموصول فقال : ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ للتنبيه على علية ما فى حيز الصلة للحكم ، لأن الموصول إذا كان فى ضمن حكم تكون الصلة هى علة الحكم.

أى : التزم فى حكمك بينهم بما يؤيده القرآن لأنه الكتاب الذى أنزله الله عليك.

قال بعض العلماء : « وهذا يفيد أن اليهود الذين عاشروا النبى ﷺ ومن جاءوا بعدهم مخاطبون بشريعة القرآن ، وأنه نسخ ما قبله من الشرائع إلا ما جاء النص بوجوب العمل به كالقصاص ، أو مالم يثبت أنه نسخ والمعول عليه فى الحالين هو القرآن وما جاء به الرسول ﷺ ولقد روى أنه - عليه السلام - ذكر أن موسى لو كان حيا ما وسعه إلا الإيمان به - عليه السلام »[1].

والضمير فى قوله ، ﴿أهواءهم﴾ يعود إلى أولئك اليهود الذين كانوا يتحاكمون إلى النبى ﷺ لا بقصد الوصول إلى الحق ، وإنما بقصد الوصول إلى ما يسهل عليهم احتماله من أحكام.

قال الآلوسى : والنهى يجوز أن يكون لمن لا يتصور منه وقوع المنهى عنه ، ولا يقال : كيف نهى ﷺ عن اتباع أهوائهم ، وهو ﷺ معصوم عن ارتكاب مادون ذلك. وقيل الخطاب له ﷺ والمراد سائر الحكام »[2].

وقوله : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾ استئناف جىء به لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكمه ﷺ بما أنزل الله إليه من الحق.

والشرعة والشريعة بمعنى واحد. وهى فى الأصل الطريق الظاهر الموصل للماء. والمراد بها هنا ما اشتمل عليه الدين من أحكام تكليفية يجب العمل بها أمرا ونهيا وندبا وإباحة. وسمى ما اشتمل عليه الدين من أحكام شريعة تشبيها بشريعة الماء. من حيث إن كلا منهما سبب الحياة. إذ أن الشريعة الدينية سبب فى حياة الأرواح حياة معنوية. كما أن الماء سبب فى حياة الأرواح حياة مادية.

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ الاستاذ محمد أبوزهرة. مجلة لواء الاسلام العدد الرابع السنة ٢١

(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٥٢

والمنهاج : الطريق الواضح فى الدين، من نهج الأمر ينهج إذا وضح . والعطف باعتبار جمع الأوصاف.

قال بعضهم. هما كلمتان بمعنى واحد والتكرير للتأكيد.

وقيل : ليستا بمعنى واحد. فالشرعة ابتداء الطريق. والمنهاج الطريق المستقيم.

وقوله : ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين «كل».

أى : لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية وضعنا شرعة ومنهاجًا خاصين بها، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام -، كانت شرعتها ما فى التوراة من أحكام. والأمة التى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد - عليهما الصلاة والسلام كانت شرعتها ما فى الإنجيل. وأما هذه الأمة الإسلامية فشريعتها ما فى القرآن من أحكام، لأنه مشتمل على ما جاء فى الكتب السابقة عليه من أصول الدين وكلياته التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وزاد عليها ما يناسب العصر الذى نزل فيه، والعصور التى تلت ذلك إلى يوم القيامة.

وأهل الكتاب إنما أمروا بأن يتحاكموا إلى كتبهم قبل نسخها بالقرآن الكريم، أما بعد نزوله ومجىء النبى ﷺ خاتما للرسالات السماوية، فقد أصبح من الواجب عليهم الدخول فى الإسلام، واتباع رسوله محمد - ﷺ فى كل ما أمر به أو نهى عنه، وليس لأحد بعد بعثته ﷺ إيمان مقبول إلا باتباعه وتصديقه فى جميع أقواله وأعماله.

والاختلاف فى الشرائع إنما يكون فيما يتعلق ببعض الأوامر والنواهى، وببعض وجوه الحلال والحرام، وبغير ذلك من فروع الشريعة، فقد يحرم الله شيئًا على قوم عقوبة لهم، ويحله لقوم آخرين تخفيفا عنهم، كما قال -تعالى- : ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾(١).

وكما قال - تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام - : ﴿ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾(٢).

أما ما يتعلق بأصول الشريعة، وجوهر الدين، وأساس العقيدة كالأمر بعبادة الله وحده،

---

(١) سورة الأنعام. ص ١٤٦

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٠

والتحلى بمكارم الأخلاق، فلا يتعلق به اختلاف فى أى شريعة من الشرائع، أو أى دين من الأديان.

وقد تكلم عن هذا المعنى الإمام ابن كثير فقال: قوله: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾ هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد. كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات - أمهاتهم شتى - ودينهم واحد» يعنى بذلك التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال - تعالى - : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1]. وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى فقد يكون الشىء فى هذه الشريعة حرامًا ثم يحل فى الشريعة الأخرى. كما قال - تعالى - فى شأن شريعة عيسى: ﴿ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾ وبالعكس، قد يكون الشىء حلالا فى هذه الشريعة ثم يحرم فى شريعة أخرى، فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه، وذلك لما له - تعالى - فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة»[2].

وقال الآلوسى ما ملخصه: وقوله: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾ الخطاب فيه - كما قال جماعة من المفسرين - للناس كافة الموجودين والماضين بطريق التغليب. واستدل بالآية من ذهب إلى أننا غير متعبدين بشرائع من قبلنا، لأن الخطاب يعم الأمم، واللام للاختصاص فيكون لكل أمة دين يخصها.

والتحقيق فى هذا المقام أننا متعبدون بأحكام الشرائع السابقة من حيث إنها أحكام شريعتنا لا من حيث إنها شريعة للأولين»[3].

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته، وبالغ حكمته فقال: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾.

ومفعول المشيئة هنا محذوف لدلالة الجزاء عليه.

وقوله: ﴿ولكن ليبلوكم﴾ متعلق بمحذوف يستدعيه المقام.

والابتلاء: الاختبار والامتحان ليميز المطيع من العاصى.

والمعنى: لو شاء الله - تعالى - أن يجعل الأمم جميعا أمة واحدة تدين بدين واحد وبشريعة

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٧

(٣) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٥٤.

واحدة لفعل، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك، وإنما شاء أن يجعلكم أمما متعددة ليختبركم فيما آتاكم من شرائع مختلفة فى بعض فروعها ولكنها متحدة فى جوهرها وأصولها فيجازى من أطاعه بما يستحقه من ثواب؛ ويجازى من خالف أمره بما يستحقه من عذاب.

وقوله: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ حض منه - سبحانه - لعباده على الاجتهاد فى فعل الطاعات.

أى إذا كان الأمر كما وصفت لكم. فسارعوا إلى القيام بالأعمال الصالحة التى تسعدكم فى الدنيا والآخرة، وتنافسوا فى تحصيلها بكل عزيمة ونشاط لتنالوا رضا الله - تعالى - وجزيل مثوبته.

و﴿فاستبقوا﴾ بمعنى فتسابقوا، ولتضمنه معنى السبق والابتدار تعدى بنفسه من غير إلى كما فى قوله - تعالى - ﴿واستبقا الباب﴾ أى: حاول كل واحد منهما الابتدار والوصول إلى الباب قبل الآخر.

وقوله ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات.

وقوله ﴿فينبئكم﴾ أى فيخبركم والمراد بالإنباء والإخبار هنا المجازاة على الأعمال، وإنما عبر عنها بالإنباء لوقوعها موقع إزالة الاختلاف التى هى وظيفة الأنبياء.

أى: إلى الله وحده مصيركم ومرجعكم، فيخبركم عند الحساب بما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا، ويجازيكم بما تستحقون: فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم منه - سبحانه - جزيل الثواب. وأما الذين طغوا وآثروا الحياة الدنيا فلهم منه شديد العقاب.

ثم كرر - سبحانه - الأمر لنبيه محمد ﷺ بأن يحكم بين اليهود وغيرهم بما أنزله الله - تعالى - وحذره من مكرهم وكيدهم فقال: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه: فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم وإنا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا. وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدق فأبى رسول الله ﷺ ذلك. فأنزل الله فيهم: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾

إلى قوله : ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾[1].

وقوله : ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ فى محل نصب عطفا على الكتاب فى قوله : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾.

وقوله : ﴿أن يفتنوك﴾ بدل اشتمال من المفعول فى ﴿واحذرهم﴾ كأنه قيل : واحذر فتنتهم كما تقول : أعجبنى زيد علمه.

والمراد بالفتنة هنا محاولة إضلاله وصرفه عن الحكم بما أنزل الله.

والمعنى : وأنزلنا إليك الكتاب يا محمد فيه حكم الله، وأنزلنا إليك فيه أن أحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، واحذرهم أن يضلوك أو يصدوك عن بعض ما أنزلناه إليك ولو كان أقل قليل؛ بأن يصوروا لك الباطل فى صورة الحق، أو بأن يحاولوا حملك على الحكم الذى يناسب شهواتهم :

وقد كرر - سبحانه - على نبيه ﷺ وجوب التزامه فى أحكامه بما أنزل الله، لتأكيد هذا الأمر فى مقام يستدعى التأكيد، لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته ﷺ وإغراءه بالميل إلى الأحكام التى تتفق مع أهوائهم، ولأنه قد جاء فى الآية السابقة ما قد يوهم بأن لكل قوم شريعة خاصة بهم ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ وأن حكم القرآن ليس له صفة العموم فأراد -سبحانه- أن ينفى هذا الوهم نفيا واضحا وأن يؤكد أن شريعة القرآن هى الشريعة العامة الخالدة التى يجب أن يتحاكم إليها الناس فى كل زمان ومكان، لأنها نسخت ما سبقها من شرائع.

وقوله - تعالى - ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ تيئيس لأولئك اليهود الذين حاولوا إغراء الرسول ﷺ بأن يقضى لهم بما يرضيهم لكى يتبعوه، ونهى له ﷺ ولأتباعه عن الاستجابة لأهواء هؤلاء ولو فى أقل القليل مما يتنافى مع الحق الذى أمره الله - تعالى - بالسير عليه فى القضاء بين الناس.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة كل من يعرض عن حكم الله - تعالى - فقال : ﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾.

أى : فإن تولوا عن حكمك، وأعرضوا عنك بعد تحاكمهم إليك وأرادوا الحكم بغير ما أنزل الله. فاعلم أن حكمة الله قد اقتضت أن يعاقبهم بسبب بعض هذه الذنوب التى اقترفوها بتوليهم عن حكم الله، وإعراضهم عنك، وانصرافهم عن الهدى والرشاد إلى الغى والضلال، لأن الأمة التى لا تخضع لأحكام شرع الله، وتسير وراء لذائذها ومتعها وشهواتها وأهوائها

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٢٧٣.

الباطلة، لابد أن يصيبها العقاب الشديد بسبب ذلك.

وعبر - سبحانه - عما يصيبهم من عقاب بأنه بسبب ارتكابهم لبعض الذنوب، للإشارة بأن لهم ذنوبا كثيرة بعضها كاف لإنزال العقوبة الشديدة بهم.

وقوله: ﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله، ومتضمن تسلية الرسول ﷺ عما لقيه من مخالفيه ولا سيما اليهود.

أى: وإن كثيرا من الناس لخارجون عن طاعتنا، ومتمردون على أحكامنا، ومتبعون لخطوات الشيطان الذى استحوذ عليهم، وإذا كان الأمر كذلك فلا تبتئس يا محمد عما لقيته من أصحاب النفوس المريضة، بل اصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بتوبيخ أولئك الذين يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره فقال: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾.

فالهمزة هنا للاستفهام الإنكارى التوبيخى. والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام.

والمعنى: أينصرفون عن حكمك بما أنزل الله ويعرضون عنه فيبغون حكم الجاهلية مع أن ما أنزله الله إليك من قرآن فيه الأحكام العادلة التى ترضى كل ذى عقل سليم، ومنطق قويم.

وقدم - سبحانه - المفعول «أفحكم» لإفادة التخصيص المفيد لتأكيد الأنكار والتعجيب من أحوال أولئك اليهود الذين يريدون حكم الجاهلية.

إذ أن التولى عن حكم رسول الله ﷺ إلى حكم آخر منكر عجيب. وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب.

والمراد بالجاهلية: الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى، والمداهنة فى الأحكام، فيكون ذلك توبيخا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب؛ يبغون حكم الملة الجاهلية. وعدم الأخذ بشريعة المساواة. فيكون ذلك - أيضا - تعييرا لهم لاقتدائهم بأهل الجاهلية.

قال الآلوسى: فقد روى أن بنى النضير لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فى خصومة قتيل وقعت بينهم وبين بنى قريظة، طلب بعضهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل، فقال ﷺ: «القتلى سواء» - أى: متساوون - فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بحكمك، فنزلت هذه الآية»(١).

وقوله - تعالى - ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ إنكار منه - سبحانه - لأن يكون هناك حكم أحسن من حكمه أو مساو له.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٥٦.

أى : لا أحد أحسن حكما من حكم الله - تعالى - عند قوم يوقنون بصحة دينه، ويذعنون لتكاليف شريعته، ويقرون بوحدانيته، ويتبعون أنبياءه ورسله.

فاللام فى قوله : ﴿لقوم﴾ بمعنى عند، وهى متعلقة بأحسن، ومفعول ﴿يوقنون﴾ محذوف أى لقوم يوقنون بحكمه وأنه أعدل الأحكام. والجملة حالية متضمنة لمعنى الإنكار السابق.

وخص - سبحانه - الموقنين بالذكر، لأنهم هم الذين يحسنون التدبر فيما شرعه الله من أحكام، وينتفعون بما اشتملت عليه من عدل ومساواة.

هذا، وقد شدد الإمام ابن كثير النكير على الذى يرغبون عن حكم الله إلى أحكام من عند البشر، ووصف من يفعل ذلك بالكفر، وأفتى بوجوب مقاتلته حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فقال - رحمه الله - :

« ينكر - تعالى - على من خرج عن حكم الله - المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر - وعدل عنه إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات.

مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم « جنكزخان » الذى وضع لهم « الباسق » وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى. فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير.

قال - تعالى - ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ أى : ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن. وعلم أنه - سبحانه - أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؟ فإنه - تعالى - هو العالم بكل شىء، والقادر على كل شىء، والعادل فى كل شىء.

روى الطبرانى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ أبغض الناس إلى الله - تعالى - من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلين ومن طلب دم امرىء بغير حق ليريق دمه(١).

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد كشفت « باستفاضة » عن المسالك الخبيثة التى سلكها اليهود وأشباههم لكيد الإسلام والمسلمين.

فأنت تراها فى مطلعها قد نادت الرسول ﷺ بهذا النداء وأمرته بعدم المبالاة بما يصدر عن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٧ - بتصرف وتلخيص -

أولئك الذين يسارعون فى الكفر من مكر وخداع ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التى تجعل كل عاقل ينفر من الاقتراب منهم، وخيرت الرسول ﷺ بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم إذا ما تحاكموا إليه.

ووبخت اليهود على إعراضهم عن الأحكام العادلة التى أنزلها الله - تعالى - ووصفت المعرضين عن حكمه سبحانه بالكفر تارة وبالظلم تارة وبالفسق تارة أخرى.

وبعد أن مدحت التوراة والإنجيل، وبينت بعض ما اشتملا عليه من هدايات... عقبت ذلك ببيان منزلة القرآن الكريم وأنه الكتاب الجامع فى هدايته وفضله وتشريعاته لكل ما جاء فى الكتب السابقة.

ثم ختمت بتكرير الأمر للنبى ﷺ بأن يلتزم فى أحكامه بما أنزله الله، وبتحذيره وتحذير أتباعه من خداع أعدائهم ومكرهم، وتتوعد كل من يرغب عن حكم الله إلى حكم غيره، بسوء العاقبة، وشديد العذاب.

وبعد هذا الحديث المستفيض عن الكتب السماوية: وعن وجوب الحكم بما أنزل الله، وعن المسالك الخبيثة التى استعملها اليهود ومن على شاكلتهم لكيد الدعوة الإسلامية بعد كل ذلك وجه -سبحانه- نداء إلى المؤمنين حذرهم فيه من موالاة أعدائهم فقال -تعالى-:

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ
إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات منها:

ما رواه السدى من أنها نزلت فى رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد واقعة أحد: أما أنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودى فأواليه واتهود معه لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث. وقال الآخر: وأما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانى بالشام فأواليه واتنصر معه. فأنزل الله تعالى الآيات.

وقال عكرمة: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ: إلى بنى قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أى: إنه الذبح.

وقيل نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول فقد أخرج ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لى موالى من يهود كثير عددهم. وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله. فقال عبدالله بن أبى: إنى رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالى. فقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن أبى: يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه قال: قد قبلت. فأنزل الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء...﴾ إلى قوله: ﴿نادمين﴾[1].

والخطاب فى قوله عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ للمؤمنين جميعا فى كل زمان ومكان، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الأولياء جمع ولى ويطلق بمعنى النصير والصديق والحبيب.

والمراد بالولاية هنا: مصافاة أعداء الإسلام والاستنصار بهم، والتحالف معهم دون المسلمين.

أى: يا أيها الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا يتخذ أحد منكم أحدا من اليهود والنصارى وليا ونصيرا، أى: لا تصافوهم مصافاة الأحباب، ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعا يد واحدة عليكم، يبغونكم الغوائل، ويتربصون بكم الدوائر، فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاة؟.

وقد نادى - سبحانه - المؤمنين بصفة الإيمان، لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه، إذ أن وصفهم بما هو ضد صفات الفريقين - اليهود والنصارى - من أقوى الزواجر عن موالاتهما:

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٢٥٧ وتفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٨.

وقوله : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ جملة مستأنفة بمثابة التعليل للنهى، والتأكيد لوجوب اجتناب المنهى عنه.

أى لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء، لأن بعض اليهود أولياء لبعض منهم، وبعض النصارى أولياء لبعض منهم، والكل يضمرون لكم البغضاء والشر، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم، لكنهم متفقون على كراهية الإسلام والمسلمين.

وقوله ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ تنفير من موالاة اليهود والنصارى بعد النهى عن ذلك.

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضا بدينهم، والطعن فى دين الإسلام، كانت كفرا وخروجا عن دين الإسلام.

وإلى هذا المعنى أشار ابن جرير بقوله : قوله : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ أى : ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه راض. وإذا رضى دينه، فقد عادى من خالفه وسخطه. وصار حكمه حكمه».

وإذا كانت الولاية لهم ليست على سبيل الرضا بدينهم وإنما هى على سبيل المصافاة والمصادقة كانت معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة وبحسب اختلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالاة.

قال الفخر الرازى : قوله : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ قال ابن عباس : يريد كأنه مثلهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين.

روى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : قلت لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إن لى كاتبا نصرانيا فقال : مالك قاتلك الله، ألا اتخذت حنيفيا أما سمعت قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ قلت : له دينه ولى كتابته. فقال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله. ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله قلت لا يتم أمر البصرة إلا به. فقال : مات النصرانى والسلام.

يعنى : هب أنه مات فما تصنع بعد، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره»[1].

وقوله : ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ تعليل لكون من يواليهم منهم وتأكيد للنهى عن موالاتهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص١٦.

أى : إن الله لا يهدى القوم الظالمين لأنفسهم إلى الطريق المستقيم، وإنما يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلال، والفسوق والعصيان، بسبب وضعهم الولاية فى غير موضعها الحق، وسيرهم فى طريق أعداء الله.

وبعد هذا النهى الشديد عن موالاة أعداء الله، صور القرآن حالة من حالات المنافقين بين فيها كيفية توليهم لأعداء الله، وأشعر بسببه فقال : ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾.

والدائرة : من الصفات الغالبة التى لايذكر معها موصوفها. وأصلها داورة. لأنها من دار يدور. ومعناها لغة : ما أحاط بالشىء. والمراد بها هنا : المصيبة من مصائب الدهر التى تحيط بالناس كما تحيط الدائرة بما فى داخلها.

والمعنى : فترى - يا محمد أولئك المنافقين الذين ضعف إيمانهم، وذهب يقينهم، يسارعون فى مناصرة أعداء الإسلام مسارعة الداخل فى الشىء، قائلين فى أنفسهم أو للناصحين لهم بالثبات على الحق : اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من المصائب التى يدور بها الزمان كأن تمسنا أزمة مالية، أو ضائقة اقتصادية، أو أن يكون النصر فى النهاية لهؤلاء الذين نواليهم فنحن نصادقهم ونصافيهم لنتقى شرهم، ولننال عونهم عند الملمات والضوائق.

قال الجمل : والفاء فى قوله ﴿فترى﴾ إما للسببية المحضة : أى : بسبب أن الله لا يهدى القوم الظالمين المتصفين بماذكر ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ وإما للعطف على قوله : ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ من حيث المعنى.

والرؤية فى قوله ﴿ترى﴾. بصرية، فتكون جملة يسارعون حال. وقيل علمية فتكون جملة يسارعون مفعولا ثانيا. والأول أنسب بظهور نفاقهم.

وقوله : ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ حال من ضمير يسارعون[1].

والتعبير بقوله : ﴿فى قلوبهم مرض﴾ تعبير قوى رائع، وصف القرآن به المنافقين وأشباههم فى الكفر والضلال فى مواطن كثيرة، لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك. كان ضعف القلب الذى عبر عنه بالمرض يضرب مثلا للخور، والتردد والتزلزل، وانهيار النفس.

وهذه طبيعة المنافقين ومن على شاكلتهم فى كل زمان ومكان. إنهم لا يمكن أن يكونوا صرحاء فى انحيازهم إلى ناحية معينة. وإنما هم يترددون بين الناحيتين، ويلتمسون الحظوة فى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥٠٠.

الجانبين - فهم كما يقال: يصلون خلف على ويأكلون على مائدة معاوية - وأبلغ من كل ذلك وصف الله لهم بقوله: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

والتعبير بقوله - سبحانه - ترى.. تصوير للحال الواقعة منهم بأنها كالمرئية المكشوفة التى لا تخفى على العقلاء البصراء.

وفى ذلك تسلية للرسول ﷺ وتحذير له ولأصحابه من مكر أولئك الذين فى قلوبهم مرض.

والتعبير بقوله: ﴿يسارعون فيهم﴾ يشير إلى أنهم لا يدخلون ابتداء فى صفوف الأعداء «وإنما هم منغمرون فيهم دائما» ولا يخرجون عن دائرتهم بل ينتقلون فى صفوفهم بسرعة ونشاط من دركة إلى دركة، ومن إثم إلى آثام.

وقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ بيان لما اعتذروا به من معاذير كاذبة تدل على سقوط همتهم، وقلة ثقتهم بما وعد الله به المؤمنين من حسن العاقبة.

ولذا فقد رد الله عليهم بما يكبتهم، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم فقال تعالى: ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين﴾.

وعسى: لفظ يدل على الرجاء والطمع فى الحصول على المأمول، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع لأنه صادر من أكرم الأكرمين الذى لا يخلف وعده، ولا يخيب من رجاه.

والفتح يطلق بمعنى التوسعة بعد الضيق كما فى قوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء﴾. ويطلق بمعنى الفصل بين الحق والباطل. ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ ويطلق بمعنى الظفر والنصر كما فى قوله - تعالى - ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾.

ولفظ الفتح هنا يشمل هذه الأمور الثلاثة فهو سعة بعد ضيق، وفصل بين حق وباطل، ونصر بعد جهاد طويل.

والمعنى: لا تهتموا أيها المؤمنون بمسارعة هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض إلى صفوف أعدائكم وارتمائهم فى أحضانهم خشية أن تصيبهم دائرة، فلعل الله - عز وجل - بفضله وصدق وعده أن يأتى بالخير العميم والنصر المؤزر الذى يظهر دينه. ويجعل كلمته هى العليا.. أو يأتى بامر من عنده لا أثر لكم فيه فيزلزل قلوب أعدائكم، وينصركم عليهم، ويجعل الهزيمة والندم للموالين لأعدائكم، وبسبب شكهم فى أن تكون العاقبة للإسلام والمسلمين.

ولقد صدق الله وعده، ففضح المنافقين وأذلهم، وأنزل الهزيمة باليهود، وأورث المؤمنين

أرضهم وديارهم وأموالهم.

وقد جاء التعبير فى قوله - تعالى - : ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح﴾ بصيغة الرجاء، لتعليم المؤمنين عدم اليأس من رحمة الله، ومن مجىء نصره، ولتعويدهم على أن يتوجهوا إليه - سبحانه - فى مطالبهم بالرجاء الصادق، والأمل الخالص.

قال الفخر الرازى : فإن قيل : شرط صحة التقسيم أن يكون ذلك بين قسمين متنافيين.

وقوله : ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده﴾ ليس كذلك، لأن الإتيان بالفتح داخل فى قوله : ﴿أو أمر من عنده﴾.

قلنا : قوله : ﴿أو أمر من عنده﴾ معناه : أو أمر من عنده لا يكون للناس فيه فعل ألبتة، كبنى النضير الذين طرح الله فى قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير محاربة ولا عسكر[1].

والضمير فى قوله : ﴿فيصبحوا﴾ يعود على أولئك المنافقين الذين فى قلوبهم مرض والجملة معطوفة على ﴿أن يأتى﴾ داخل معه فى حيز خبر عسى.

وعبر - سبحانه - عن ندمهم بالوصف ﴿نادمين﴾ لا بالفعل، للايذان بأنه ندم دائم تصحبه الحسرات والآلام المستمرة، بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد، وأمل خائب.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المؤمنون الصادقون على سبيل الإنكار لمسالك المنافقين الخبيثة وتوبيخهم على ضعف إيمانهم، وهوان نفوسهم فقال - تعالى - : ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾.

قال الآلوسى : قوله : ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ كلام مستأنف لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة : - وهى قراءة عاصم وحمزه والكسائى بإثبات الواو مع الرفع.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر بغير واو على أنه استئناف بيانى، كأنه قيل : فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب : ويقول بالنصب عطفا على ﴿فيصبحوا﴾[2].

وقوله : ﴿جهد أيمانهم﴾ أى : أقوى أيمانهم وأغلظها. والجهد : الوسع والطاقة والمشقة. يقال جهد نفسه يجهدها فى الأمر إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه. والمراد : أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٩٢.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٥٩.

والمعنى : ويقول الذين آمنوا بعضهم لبعض مستنكرين ما صدر عن المنافقين من خداع وكذب، ومتعجبين من ذبذبتهم والتوائهم : يقولون مشيرين إلى المنافقين : أهؤلاء الذين أقسموا بالله مؤكدين ايمانهم بأقوى المؤكدات وأوثقها، بأن يكونوا مع الرسول ﷺ ومعنا فى ولايتهم ونصرتهم ومعونتهم. . . ؟.

فالاستفهام للإنكار والتعجيب من أحوال هؤلاء المنافقين الذين مردوا على الخداع والكذب.

وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر فى معنى ويقول الذين آمنوا فقال : فإن قلت : لمن يقولون هذا القول؟ قلت : إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجبا من حالهم، واغتباطا بما من الله عليهم من التوفيق فى الإخلاص ﴿أهؤلاء الذين أقسموا﴾ لكم بأغلظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار.

وإما أن يقولوه لليهود، لأنهم - أى المنافقون - حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة كما حكى الله عنهم ﴿ولئن قوتلتم لننصرنكم﴾ - ثم خذلوهم -،[1] :

وعلى كلا الوجهين فالجملة الكريمة تنعى على المنافقين كذبهم وجبنهم، وتعجب الناس من طباعهم الذميمة، وأخلاقهم المرذولة.

وقوله : ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ أى : فسدت أعمالهم وبطلت فصاروا خاسرين فى الدنيا والآخرة.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة مما حكاه الله - تعالى - من قول المؤمنين ويحتمل أنها من كلام الله - تعالى - وقد ساقها على سبيل الحكم عليهم بفساد أعمالهم، وسوء مصيرهم.

هذا، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على ضروب من توكيد النهى عن موالاة أعداء الله - تعالى - بأساليب متعددة.

منها : النهى الصريح كما فى قوله - تعالى - : ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾.

ومنها : بيان علة النهى كما فى قوله : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾.

ومنها : التصريح بأن من يواليهم فهو منهم وذلك فى قوله : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.

ومنها : تسجيل الظلم على من يواليهم كما فى قوله : ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾.

ومنها : الإخبار بأن موالاتهم من طبيعة الذين فى قلوبهم مرض قال - تعالى - : ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٣٤.

ومنها : قطع أطماع الموالين لهم وتبشير المؤمنين بالفوز قال - تعالى - : ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده﴾.

ومنها : الإخبار عن حال الموالين لهم بقوله : ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾.

وهنا قد يرد سؤال وهو : إن الآيات الكريمة وما يشبهها من الآيات القرآنية تؤكد النهى عن موالاة غير المسلمين ومودتهم فهل هذا النهى على إطلاقه؟

والجواب عن ذلك أن غير المسلمين أقسام ثلاثة : القسم الأول : وهم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم، ولا يعملون لحساب غيرهم؛ ولم يبدر منهم ما يفضى إلى سوء الظن بهم. وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولا مانع من مودتهم والإحسان إليهم كما فى قوله - تعالى - ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾(١).

والقسم الثانى : وهم الذين يقاتلون المسلمين، ويسيئون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم، ولا تجوز موالاتهم، وهم الذين عناهم الله فى الآيات التى معنا وفيما يشبهها من آيات كما فى قوله - تعالى - ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾(٢).

والقسم الثالث : قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدى.

ومهما تكن أحوال غير المسلمين؛ فإنه لا يجوز لولى الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية. أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يطلعون على الأمور التى يؤدى إفشاؤها إلى خسارة الأمة فى السلم أو الحرب.

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين من ولاية اليهود والنصارى، عقب ذلك بنداء آخر وجهه إليهم، وبين لهم فيه أن موالاة أعداء الله قد تجر إلى الارتداد عن الدين، وأنهم إن ارتدوا فسوف يأتى الله بقوم آخرين لن يكونوا مثلهم، وأن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولا يتهم لله ولرسوله وللمؤمنين فقال - تعالى - :

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨.
(٢) سورة الممتحنة آية ٩.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

قوله - تعالى - ﴿من يرتد﴾ من الارتداد. ومعناه: الرجوع إلى الخلف ومنه قوله - تعالى - ﴿ردوها على﴾ أى: ارجعوها على. وقوله: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾.

والمراد بالارتداد هنا: الرجوع عن دين الإسلام إلى الكفر والضلال، والخروج من الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ إلى غيره من الأباطيل والأكاذيب.

قالوا: وفى هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن من الذين دخلوا فى الإسلام من سيرتد عنه إلى غيره من الكفر والضلال، وقد كان الأمر كما أشارت الآية الكريمة؛ فقد ارتد عن الإسلام بعض القبائل كقبيلة بنى حنيفة - قوم مسيلمة الكذاب - وقبيلة بنى أسد، وقبيلة بنى مدلج وغيرهم.

وقد تصدى سيدنا أبوبكر الصديق ومن معه من المؤمنين الصادقين للمرتدين فكسروا شوكة الردة، وأعادوا لكلمة الإسلام هيبتها وقوتها.

قال الآلوسى ما ملخصه: هذه الآية من الكائنات التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها - وقد وقع المخبر به على وفقها فيكون معجزًا - فقد روى أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة.

ثلاث فى عهد الرسول ﷺ وهم: «بنو مدلج، ورئيسهم الأسود العنسى و«بنو حنيفة» قوم مسيلمة الكذاب و«بنو أسد» قوم طليحة بن خويلد الأسدى. وسبع فى عهد أبى بكر وهم: فزارة. وغطفان، وبنو سليم، وبنو يربوع، وبعض بنى تميم، وكنده، وبنو بكر ابن وائل.

وارتدت فرقة واحدة فى عهد عمر وهى قبيلة «غسان قوم جبلة بن الأيهم»(١).

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا يتخذ أحد منكم أحدا من أعداء الله وليا ونصيرًا لأن ولايتهم تفضى إلى مضرتكم وخسرانكم. بل وإلى ردتكم عن الحق الذى آمنتم به، ومن يرتدد منكم عن دينه الحق إلى غيره من الأديان الباطلة فلن يضر الله شيئا، لأنه - سبحانه - سوف يأتى بقوم آخرين مخلصين له، ومطيعين لأوامره، ومستجيبين لتعاليمه. بدل أولئك الذين ارتدوا على أدبارهم، وكفروا بعد إيمانهم. قال - تعالى - : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾(٢).

ولفظ ﴿فسوف﴾ جىء به هنا لتأكيد وقوع الأمر فى المستقبل، إذا ما ارتد بعض الناس على أدبارهم.

وقد وصف الله - تعالى - أولئك القوم الذين يأتى بهم بدل الذين كفروا بعد إيمانهم، وصفهم بعدد من الصفات الحميدة، والسجايا الكريمة.

وصفهم - أولا - بقوله : ﴿يحبهم ويحبونه﴾ :

ومحبة الله - تعالى - للمؤمنين هى أسمى نعمة يتعشقونها ويتطلعون إليها، ويرجون حصولها ودوامها. وهى - كما يقول الآلوسى - محبة تليق بشأنه على المعنى الذى أراده.

ومن علاماتها : أن يوفقهم - سبحانه - لطاعته، وأن ييسر لهم الخير فى كل شئونهم.

ومحبة المؤمنين لله - تعالى - معناها : التوجه إليه وحده بالعبادة، واتباع نبيه محمد ﷺ فى كل ما جاء به، والاستجابة لتعاليمه برغبة وشوق.

وقوله : ﴿يحبهم﴾ جملة فى محل جر صفة لقوم. وقوله «ويحبونه» معطوف على ﴿يحبهم﴾.

وقدم - سبحانه - محبته لهم على محبتهم له، لشرفها وسبقها، إذ لولا محبته لهم لما وصلوا إلى طاعته.

وصفهم - ثانيًا - بقوله : ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾.

وقوله : ﴿أذلة﴾ جمع ذليل، من تذلل إذا تواضع وحنا على غيره، وليس المراد بكونهم أذلة أنهم مهانون، بل المراد المبالغة فى وصفهم بالرفق ولين الجانب للمؤمنين.

وقوله : ﴿أعزة﴾ جمع عزيز وهو المتصف بالعزة بمعنى القوة والامتناع عن أن يغلب أو يقهر

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٦٠.

(٢) سورة محمد. الآية الأخيرة.

ومنه قوله - تعالى - ﴿وعزنى فى الخطاب﴾ أى : غلبنى فى الخطاب.

والمعنى : إن من صفات هؤلاء القوم الذين يأتى الله بهم بدل الذين كفروا بعد إيمانهم، أنهم أرقاء على المؤمنين، عاطفون عليهم متواضعون لهم، تفيض قلوبهم حنوا وشفقة بهم. وأنهم فى الوقت نفسه أشداء على الكافرين، ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب، لا نظرة الضعيف الخانع.

وهذه - كما يقول ابن كثير - صفات المؤمنين الكمل. أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه كما قال - تعالى - : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ومن صفات الرسول ﷺ : «أنه الضحوك القتال» فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه»(١).

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثانى : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين - خافضون لهم أجنحتهم»(٢).

وقال الطيبى : إن قوله - تعالى - ﴿أعزة على الكافرين﴾ جيء به للتكميل، لأنه لما وصفهم قبل ذلك بالتذلل، ربما يتوهم أحد أنهم أذلاء محقرون فى أنفسهم فدفع ذلك الوهم بأنهم مع ذلتهم على المؤمنين أعزة على الكافرين على حد قول القائل :

جلوس فى مجالسهم رزان ... وإن ضيم ألم بهم خفاف

ثم وصفهم - ثالثا - بقوله : ﴿يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ وقوله : ﴿يجاهدون﴾ من المجاهدة وهى بذل الجهد ونهاية الطاقة من أجل الوصول إلى المقصد الذى يسعى إليه الساعى.

وقوله : ﴿فى سبيل الله﴾ أى فى سبيل إعلاء دين الله، وإعزاز كلمته وليس فى سبيل الهوى أو الشيطان.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٧٠.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٩٨.

واللومة: هى المرة الواحدة من اللوم. وهو بمعنى اعتراض المعترضين، ومخالفة المخالفين وعدم رضاهم عن هؤلاء القوم.

والمعنى: أن من صفات هؤلاء القوم - أيضا - أنهم يبذلون أقصى جهدهم فى سبيل إعلاء كلمة الله والعمل على مرضاته، وأنهم فى جهادهم وجهرهم بكلمة الحق، وحرصهم على ما يرضيه - سبحانه - لا يخافون لوما قط من أى لائم كائنا من كان. لأن خشيتهم ليست إلا من الله وحده.

وعبر - سبحانه - بلومة - بصيغة الإفراد والتنكير، للمبالغة فى نفى الخوف عنهم سواء أصدر اللوم لهم من كبير أم من صغير. وسواء أكانت اللومة شديدة أم رفيقة..

فهم - كما يقول الزمخشرى -: صلاب فى دينهم، إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين لإنكار منكر أو أمر بمعروف - مضوا فيه كالمسامير المحماة، لا يرعبهم قول قائل، ولا اعتراض معترض، ولا لومة لائم، والجملة على هذا معطوفة على ﴿يجاهدون فى سبيل الله﴾. ويحتمل أن تكون الواو للحال. أى أنهم يجاهدون وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين الذين كانوا إذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئا مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم»[1].

وقد ذكر المفسرون أقوالا متعددة فى المراد بهؤلاء القوم الذين وصفهم الله - تعالى - بتلك الصفات الكريمة، والذين يأتى بهم بدل أولئك الذين يرتدون على أعقابهم.

قال بعضهم: المراد بهم أبو بكر ومن معه من المؤمنين الذين قاتلوا المرتدين.

وقال آخرون: المراد بهم الأنصار الذين نصروا النبى - ﷺ - وأيدوه.

وقال مجاهد: المراد بهم أهل اليمن... وقيل غير ذلك.

والذى نراه أنهم قوم ليسوا مخصوصين بزمن معين أو بلد معين، أو أشخاص معينين، وإنما هم كل من تنطبق عليهم هذه الصفات الجليلة. فكل من أحب الله وأحبه الله، وتواضع للمؤمنين وأغلظ على الكافرين. وجاهد فى سبيل الله دون أن يخشى أحدا سواه فهو منهم، أما ذواتهم فيعلمها الله وحده، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فى بيان المراد بهؤلاء القوم.

واسم الإشارة فى قوله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ يعود على ما تقدم ذكره من أوصاف القوم.

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٩٨.

أى : ذلك الذى أعطيناه لهم من صفات كريمة فضل الله وإحسانه، يؤتيه من يشاء إيتاءه من عباده، والله - تعالى - واسع الفضل والجود والعطاء، عليم بأحوال خلقه، لا تخفى عليه خافية من شئونهم.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المجاهدة فى سبيل إعلاء كلمة الله عن طريق قتال أعدائه - سبحانه - أو عن طريق الجهر بكلمة الحق، أو عن طريق إحقاق الحق وإبطال الباطل - دون أن يخاف المجاهد لومة لائم.

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ومن ذلك :

ما رواه الإمام أحمد عن أبى ذر : أمرنى خليلى ﷺ بسبع : أمرنى بحب المساكين والدنو منهم، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقى، وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرنى أن لا أسأل أحدا شيئا، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرًّا، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم، وأمرنى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن كنز تحت العرش».

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده. فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم».

وعنه - أيضا - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا : وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال : أن يرى أمر الله فيه مقال فلا يقول فيه. فيقال له يوم القيامة. ما منعك أن تكون قلت فى كذا وكذا؟ فيقول مخافة الناس. فيقول : إياى أحق أن تخاف»[(١)].

وهناك أحاديث أخرى فى هذا المعنى سوى التى ذكرها الإمام ابن كثير ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله - ﷺ - على السمع والطاعة فى المنشط والمنكره. وأن لا ننازع الأمر أهله. وأن نقول بالحق حيثما كنا. لا نخاف فى الله لومة لائم»[(٢)].

ثم بين - سبحانه - من تجب موالاتهم، بعد النهى عن تولى من تجب معاداتهم فقال : ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم راكعون﴾.

أى : ﴿إنما وليكم الله﴾ المفيض عليكم كل خير، والمرجو وحده فى الشدائد والكروب

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٧٠.
(٢) أخرجه البخارى فى باب كيف يبايع الإمام الناس من كتاب الأحكام جـ٩ ص٩٦.

﴿ورسوله﴾ الذى أخرجكم - بإذنه تعالى - من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد. ﴿والذين آمنوا﴾ الذين هم منكم وأنتم منهم والذين ﴿يقيمون الصلاة﴾ فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ﴿ويؤتون الزكاة﴾ لمستحقيها بسماحة وطيب نفس ﴿وهم راكعون﴾ أى: خاشعون متواضعون لله، وليسوا مرائين أو منانين.

وقوله: ﴿إنما وليكم الله﴾ جملة من مبتدأ وخبر. وقوله: ﴿ورسوله والذين آمنوا﴾ معطوف على الخبر.

قال صاحب الكشاف: ومعنى ﴿إنما﴾ وجوب اختصاصهم بالموالاة. فإن قلت قد ذكرت - الآية - جماعة فهلا قيل إنما أولياؤكم؟ قلت: أصل الكلام إنما وليكم الله، فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة، ثم نظم فى سلك إثباتها له، إثباتها لرسوله وللمؤمنين على سبيل التبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا، لم يكن فى الكلام أصل وتبع[1].

والمراد بالذين آمنوا عامة المؤمنين وليس فردا معينا منهم.

قال - تعالى -: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾[2].

وما ورد من آثار تفيد أن المراد بالذين آمنوا شخصا معينا وهو على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لا يعتمد عليها، لأنها كما يقول ابن كثير - «لم يصح شىء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها».

وقد توسع الإمام الرازى فى الرد على الشيعة الذين وضعوا هذه الآثار فارجع إليه إن شئت[3].

وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ بدل من الذين آمنوا.

وهما وصفان لهم ساقهما - سبحانه - على سبيل الثناء عليهم والمدح لهم.

وقوله: ﴿وهم راكعون﴾ حال من فاعل الفعلين - يقيمون ويؤتون -

أى: يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون خاضعون لله -تعالى- إذ الركوع قد يطلق بمعنى الخضوع لله - تعالى -:

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٤٨.

(٢) سورة التوبة الآية ٧١.

(٣) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص٢٦ وما بعدها.

قال الراغب : الركوع : الانحناء وتارة يستعمل فى الهيئة المخصوصة فى الصلاة، وتارة يستعمل فى التذلل والتواضع إما فى العبادة وإما فى غيرها»[١].

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين يوالون الله ورسوله والمؤمنين فقال : ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾. والحزب معناه الجمع من الناس يجتمعون على رأى واحد من أجل أمر حَزَبهم أى أهمهم وشغلهم.

والمعنى : ﴿ومن يتول الله﴾ - تعالى - بأن يطيعه ويتوكل عليه، ويتول ﴿رسوله﴾ بأن يتبعه ويتأسى به، ويتول ﴿الذين آمنوا﴾ بأن يناصرهم ويشد أزرهم ويتعاون معهم على البر والتقوى، من يفعل ذلك لا شك فى حسن عاقبته وظفره بالفلاح والنصر «فإن حزب الله هم الغالبون» لغيرهم من الأحزاب الأخرى التى استحوذ عليها الشيطان.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿ومن يتول الله﴾ شرطية، وقوله : ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾دليل على جواب الشرط.

أى : ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا يكن من حزب الله المنتصر القوى، فإن حزب الله هم الغالبون.

وقال - سبحانه - فإن حزب الله، ولم يقل حزب الله ورسوله، للإشارة إلى أن الرسول ﷺ لا يعمل إلا بأمر من الله - تعالى - وأنه ﷺ لا يستمد العون والنصرة إلا منه - سبحانه -.

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ معناه : فإنهم الغالبون.

فوضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى ﴿من﴾ دلالة على علة الغلبة.

وهو أنهم حزب الله. فكأنه قيل : ومن يتول هؤلاء فهو حزب الله،

وحزب الله هم الغالبون. تنويها بذكرهم، وتعظيما لشأنهم، وتشريفا لهم بهذا الاسم، وتعريضا لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان»[٢].

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين نهيا شديدا عن موالاة أعداء الله، لأن موالاتهم قد تجر إلى الارتداد عن الدين الحق، ومن يرتد عن الدين الحق فلن يضر الله شيئا، لأنه سبحانه - قادر على أن يأتى بقوم آخرين صادقين فى إيمانهم بدل أولئك الذين ارتدوا على

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٢٢.
(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٠٤٥.

أعقابهم. كما نراها قد أرشدت المؤمنين إلى من تجب موالاتهم، وبشرتهم بالفلاح والنصر متى جعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم فى العقيدة والدين.

ثم كرر - سبحانه - نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأعدائهم الذين استخفوا بتعاليم الإسلام، وشعائر دينه فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

قال الآلوسى : أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما. فأنزل الله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا﴾ . . . الآية[1].

والدين : هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة. فهو عنوان عقل المتدين، ورائد آماله، وباعث أعماله. والذى يتخذ دين امرىء هزوا ولعبا، فقد اتخذ ذلك المتدين بهذا الدين هزوا ولعبا.

وقوله : ﴿هزوا﴾ أى سخرية يقال : فلان هزىء من فلان إذا سخر منه، واستخف به. وأصله هزءًا، فأبدلت الهمزة واوا لضم ما قبلها.

وقوله : ﴿لعبا﴾ أى ملهاة وعبثا. وأصله من لعاب الطفل. يقال عن الطفل لعب - بفتح العين - إذا سال لعابه.

والمعنى : يأيها الذين اتصفوا بالإيمان ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم﴾ الذى هو سر سعادتكم وعزتكم ﴿هزوا ولعبا﴾ أى : اتخذوه مادة لسخريتهم وتهكمهم، وموضعا لعبثهم ولهوهم.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٧١.

و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾ بيانية.

أى: مبينة لأولئك الذين يستهزئون بدين الله ويجعلونه موضع عبثهم.

والمراد بالذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى.

وسموا بذلك؛ لأن أصل شرعهم ينتمى إلى كتاب منزل هو التوراة والإنجيل.

وفى وصفهم بذلك هنا، توبيخ لهم، حيث إنهم استهزؤوا بالدين الحق، مع أن كتابهم ينهاهم عن ذلك.

والمراد بالكفار هنا المشركون الذين لا كتاب لهم.

وقرأ الجمهور ﴿الكفار﴾ بالنصب عطفا على ﴿الذين اتخذوا دينكم﴾ المبين بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾.

وقرأ أبو عمرو والكسائى ﴿الكفار﴾ بالجر عطفا على ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾.

وقوله: ﴿أولياء﴾ أى: نصراء وأصفياء. وهو المفعول الثانى لقوله ﴿لا تتخذوا﴾ والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية كل عدو لله - تعالى - ولهم سواء أكان هذا العدو من أهل الكتاب أم من المشركين؛ لأن الجميع يشتركون فى الاستهزاء بتعاليم الإسلام، وفى العبث بشعائره.

وقوله: ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ تذييل قصد به استنهاض همتهم لامتثال أمر الله -تعالى- وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط.

أى: واتقوا الله فى سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه، فلا تضعوا موالاتكم فى غير موضعها، ولا تخالفوا لله أمرًا. إن كنتم مؤمنين حقا، ممتثلين صدقا، فإن وصفكم بالإيمان يحتم عليكم الطاعة التامة لله رب العالمين.

ثم ذكر - سبحانه - بعض مظاهر استهزاء أولئك الضالين بالدين وشعائره، فقال - تعالى - : ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا﴾.

والمراد بالنداء للصلاة: الإعلام بها عن طريق الأذان.

قال القرطبى: كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا. وقالوا فى حق الأذان: لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم. فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر[1].

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٢٢٤.

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا﴾ قال : كان رجل من النصارى بالمدينة، إذا سمع المنادى ينادى : أشهد أن محمدا رسول الله. قال : حرق الكاذب. فدخل خادمه ليلا من الليالى بنار، وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت. فاحترق هو وأهله »(١).

وقيل : كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيرا للناس منها.

أى : وإذا ناديتم - أيها المؤمنون - بعضكم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان، اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعا لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم.

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ذلك بأنهم قوم لايعقلون﴾ يعود إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية.

أى : ذلك الذى صدر عنهم من استهزاء وعبث سببه أنهم قوم سفهاء جهلاء، لا يدركون الأمور على وجهها الصحيح، ولا يستجيبون للحق الذى ظهر لهم بسبب عنادهم وأحقادهم.

قال ابن كثير : هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهى شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى، يتخذونها هزوا يستهزئون بها، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل.

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم(٢)

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين تحذيرا شديدا من موالاة أعدائه. عقب ذلك بتوبيخ أهل الكتاب على عنادهم وحسدهم، ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التى ينأى عنها العقلاء وأصحاب المروءة فقال - تعالى - :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٩١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٧٢.

مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

قال القرطبى : قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل - عليهم السلام - فقال : نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله : ونحن له مسلمون ». فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا : والله ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرًا من دينكم. فنزلت هذه الآية وما بعدها.

وتنقمون معناه : تسخطون. وقيل تكرهون. وقيل تنكرون. والمعنى متقارب يقال : نقم من كذا ينقم ونقم ينقم والأول أكثر. وفى التنزيل وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد». وانتقم منه أى : عاقبه : والأسم النقمة والجمع نقم[1]

والاستفهام، للانكار والتعجب من حالهم حيث يعيبون على المؤمنين ما هو المدح والثناء والتكريم.

والمعنى : قل يا محمد على سبيل التوبيخ لأهل الكتاب، والتعجب من أحوالهم قل لهم : ﴿يا أهل الكتاب﴾. يا من كتابكم عرفكم مواطن الذم ﴿هل تنقمون منا﴾ أى : ما تعيبون وتنكرون وتكرهون منا ﴿إلا أن آمنا بالله﴾ الذى يجب الإيمان به، والخضوع له، لأنه الخالق لكل شىء، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن الكريم وآمنا بما أنزل من قبل من كتب سماوية كالتوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه قبل إنزال القرآن الكريم.

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٢٣٣.

ولا شك أن إيماننا بذلك لا يعاب ولا ينكر، بل يمدح ويشكر، ولكن لأن ﴿أكثركم فاسقون﴾ - أى : خارجون عن دائرة هذا الايمان الحق - كرهتم منا ذلك، وأنكرتموه علينا، وحسدتمونا على توفيق الله إيانا لما يحبه ويرضاه.

وقال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿إلا أن آمنا﴾ مفعول لقوله ﴿تنقمون﴾ بمعنى تكرهون.

وهو استثناء مفرغ. وقوله : ﴿منا﴾ متعلق به. أى ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وأصل نقم أن يتعدى بعلى. تقول : نقمت عليه بكذا. وإنما عدى هنا بمن؛ لتضمنه معنى تكرهون وتنكرون.

وقوله : ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ يحتمل أن يكون فى محل رفع أو نصب أو جر فالرفع على أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أى : وفسقكم ثابت عندكم، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وجمع الأموال حملكم على العناد.

والنصب على أن يكون معطوفا على قوله ﴿أن آمنا﴾ ولكن الكلام فيه مضاف محذوف لفهم المعنى. والتقدير : واعتقاد أن أكثركم فاسقون وهو معنى واضح فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين أنهم - أى الكفار - فاسقون - أى : ما تعيبون منا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا. واعتقادنا أن أكثركم فاسقون..

وأما الجر فعلى أن يكون معطوفًا على علة محذوفة والتقدير : ما تنقمون منا إلا الايمان بالله وبما أنزل. لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم شهواتكم»[1].

هذا ومن بلاغة القرآن الكريم، وإنصافه فى الأحكام، واحتراسه فى التعبير أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم. بل جعل الحكم بالفسق منصبًا على الأكثرين منهم، حتى يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب.

وشبيه بهذا قوله فى آية أخرى : ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾.

قال بعض العلماء : فى الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر، موجبا للنقمة، مع كونه فى نفسه موجبا للقبول والرضا. وهذا مما تقصد العرب فى مثله تأكيد النفى والمبالغة فيه بإثبات شيء وذلك الشيء لا يقتضى إثباته فهو منتف أبدًا. ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس. فمن الأول قول القائل :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥٠٥.

وقول الآخر :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد ، فما يبقى من المال باقيًا

ومن الثانى هذه الآية وما يشبهها. أى : ما ينبغى لهم أن ينقموا شيئًا إلا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئًا إذًا فليس هناك شىء ينقمونه، وما دام الأمر كذلك، فينبغى لهم أن يؤمنوا ولا يكفروا. وفيه أيضًا تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع »[١].

ثم تابع - سبحانه - التهكم بهم، وتعجب الناس من أفن رأيهم، مع تذكيرهم بسوء مصيرهم فقال : - ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾ ؟

والمشار إليه بقوله : ﴿ذلك﴾ يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية وقيل يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبر عنها بقوله : ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾. وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره. أو لتأويله بالمذكور ونحوه.

والخطاب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم وقيل للكفار مطلقا، وقيل للمؤمنين.

والمثوبة : مصدر ميمى بمعنى الثواب الثابت على العمل، وأكثر استعمالها فى الخير.

وقد استعملت هنا بمعنى العقوبة على طريقة التهكم بهم كما فى قوله - تعالى : ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وهى منصوبة على أنها تمييز لقوله ﴿بشر﴾.

وقوله : ﴿من لعنه الله﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : هو من لعنه الله : والمراد اليهود لأن الصفات التى ذكرت فى الآية لاتنطبق إلا عليهم.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم : ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرا من دينكم قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم : هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو من ﴿لعنه الله﴾ أى أبعده من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ بأن منع عنه رضاه ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ بأن مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وجعل منهم من عبد الطاغوت » أى : من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التى اتبعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم.

فإن قيل : إن قوله -﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة﴾ يفيد أن ماعابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر. إلا أن ما عليه اليهود أشد شرا، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة بل هو عين الخير فكيف ذلك؟.

---

(١) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٥١ وما بعدها بتصرف يسير.

فالجواب، أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة، والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد، وزعمهم الباطل، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ إن هؤلاء اليهود - يا محمد - ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شرًا - مع أنه عين الخير - قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة :

لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرا لا خير فيه - فى زعمكم فشر منه عاقبة ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله . . . وشبيه بهذه الآية فى مجاراة الخصم فى زعمه قوله - تعالى - ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾[1].

وقوله : ﴿أولئك شر مكانًا وأضل عن سواء السبيل﴾ بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم . .

أى : أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك ﴿شر مكانا﴾ من غيرهم وأكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم فى الدنيا يشركون بالله، وينتهكون محارمه وفى الآخرة مأواهم النار وبئس القرار.

وقوله ﴿أولئك﴾ مبتدأ وقوله ﴿شر﴾ خبره، وقوله ﴿مكانا﴾ تمييز محول عن الفاعل.

وأثبت - سبحانه - الشرية لمكانهم ليكون أبلغ فى الدلالة على كثرة شرورهم، إذ أن إثبات الشرية لمكان الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه. فكأن شرهم قد أثر فى مكانهم، أو عظم وضخم حتى صار متجسما.

وقوله : ﴿وأضل﴾ معطوف على ﴿شر﴾ مقرر له. والمقصود من صيغتى التفضيل فى قوله : ﴿أولئك شر مكانا وأضل﴾ الزيادة مطلقا من غير نظر إلى مشاركة غيرهم فى ذلك. أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفار الذين لم يفجروا فجورهم، ولم يحقدوا على المؤمنين حقدهم.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نفاقهم وخداعهم فقال : ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾.

قال الآلوسى : نزلت كما قال قتادة والسدى - فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فيظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به نفاقا.

والخطاب للنبى ﷺ وأصحابه. والضمير فى ﴿جاءوكم﴾ يعود على اليهود المعاصرين للنبى ﷺ.

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٤.

أى : وإذا جاء إليكم - أيها المؤمنون - أولئك اليهود أظهروا أمامكم الإسلام، وقالوا لكم آمنا بأنكم على حق، وحالهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر، وخرجوا من عندكم وهم متلبسون به - أيضا - فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هى لا تتأثر بالمواعظ التى يلقيها الرسول ﷺ لأنهم قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم.

وقوله : ﴿وقد دخلوا بالكفر، وهم قد خرجوا به﴾ جملتان فى موضع الحال من ضمير الجمع فى﴿ قالوا﴾.

والباء فى قوله : ﴿بالكفر﴾ وقوله : ﴿به﴾ للملابسة. أى : دخلوا وخرجوا وهم متلبسون بالكفر من غير نقصان منه ولا تغيير فيه ألبتة.

قال الفخر الرازى : وذكر عند الدخول كلمة ﴿قد﴾ وذكر عند الخروج كلمة ﴿هم﴾ لأن الفائدة من ذكر كلمة ﴿قد﴾ تقريب الماضى من الحال. والفائدة من ذكر كلمة ﴿هم﴾ التأكيد فى إضافة الكفر إليهم، ونفى أن يكون للنبى ﷺ فى ذلك فعل، أى : لم يسمعوا منك يا محمد عند جلوسهم معك ما يوجب كفرا، فتكون أنت الذى ألقيتهم فى الكفر، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم»(١).

ويبدو لنا أنه عبر عن دخولهم بقوله ﴿وقد دخلوا بالكفر﴾ وعبر عن خروجهم بقوله : ﴿وهم قد خرجوا به﴾ بإضافة ضميرهم مع قد، للإشارة إلى أنهم عند خروجهم كانوا أشد كفرًا، وأقسى قلوبا منهم عند دخولهم.

وهذا شأن الجاحدين المنافقين، لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة، ولا النذر مهما كانت قوية، بخلاف قلوب المؤمنين فإن المواعظ تزيدها يقينا على يقينها، وإيمانا على إيمانها. ألا ترى إلى قوله - تعالى - :

﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون. وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾(٢).

وقوله - تعالى - ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ وعيد شديد لهم على كفرهم ونفاقهم.

أى : والله - تعالى - أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع عند دخولهم وعند خروجهم، لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص٢٨.

(٢) سورة التوبة. الآيتان ١٢٤ و ١٢٥.

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من رذائلهم فقال : ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾.

والرؤية فى قوله : ﴿وترى﴾ بصرية.

والإثم : هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله - تعالى -.

والعدوان : مجاوزة الحد فى الظلم والتعدى. والسحت : هو المال الحرام كالرشوة وغيرها.

أى : وترى - أيها الرسول الكريم أو أيها السامع - كثيرا من هؤلاء اليهود، يسارعون فى ارتكاب الآثام وفى التعدى والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث. والتعبير بقوله : ﴿وترى﴾ يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافيا أو مستورًا، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من وجوههم.

والمسارعة فى الشىء : المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، وأكثر استعمالها فى الخير كما قال - تعالى - ﴿أولئك يسارعون فى الخيرات﴾[1] ﴿نسارع لهم فى الخيرات﴾[2] وقد استعملت هنا فى مسارعتهم فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت، للإشارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها.

والتعدية بحرف ﴿فى﴾ تؤذن بأنهم مغمورون فى الآثام؛ وأنهم يتنقلون فيها من حال إلى حال أخرى شر منها، حتى لكأن السير فى طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم.

وقوله : ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ تذييل قصد به تقبيح أعمالهم التى يأباها الدين والخلق الكريم.

أى : لبئس شيئا كانوا يعملونه هذه المنكرات التى منها مسارعتهم فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت.

وهذه الجملة هى حكم من الله - تعالى - عليهم بذم أعمالهم. وقد جمع - سبحانه - فى حكمه بين صيغة الماضى ﴿كانوا﴾ وصيغة المضارع ﴿يعملون﴾ للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم فى الماضى، وأنهم قد استمروا عليه فى حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم.

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم بالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس الدالة على

(١) سورة المؤمنون. الآية ٦١.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٦.

شدة الذم. أى: أقسم لبئس العمل الذى كان هؤلاء يعملونه من مسارعتهم فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت.

ثم وبخ - سبحانه - رؤساء هؤلاء اليهود على سكوتهم على المنكر فقال:

﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾.

و ﴿لولا﴾ هنا للحض على الفعل فى المستقبل، وللتوبيخ على تركه فى الماضى فهى لتوبيخ علماء اليهود على تركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الماضى. ولحضهم على مباشرتها فى المستقبل. وهى هنا بمعنى هلا.

والربانيون: كما يقول ابن جرير - جمع ربانى. وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم.

والأحبار - جمع حبر - وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد فى التوراة من أقوال وأحكام.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود دأبهم المسارعة إلى اقتراف الآثام وإلى أكل المال الحرام، فهلا ينهاهم علماؤهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة، وعن تلك المآكل الخبيثة التى أكلوها عن طريق السحت.

والسحت - كما سبق أن بينا - هو المال الحرام كالربا والرشوة. سمى سحتا من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة أى مقطوعها. أو لأنه يذهب فضيلة الإنسان ويستأصلها. واليهود أرغب الناس فى المال الحرام وأحرصهم عليه.

وقد وبخ الله - تعالى - علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيهم لهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل، إذ القول الباطل الكاذب إذا ما تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل، وقال فى الناس ما ليس فيهم بدون تحرج أو حياء. وأكل السحت يقتل فى نفسه المروءة والشرف، ويجعله يستهين بحقوق الناس وأموالهم.

ولقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن هذا الأكل سيغفره الله لهم، ألا ترى قول الله - تعالى -: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾[1].

قال بعض العلماء: واقتصر - سبحانه - فى توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٩.

وأكل السحت، ولم يذكر العدوان - الذى ورد فى الآية السابقة إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون فى زجرهم إلى غيرهم لأن الاعتماد فى النصرة على غير المجنى عليه ضعف »[١].

وقوله : ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ تذييل قصد به ذم علماء اليهود بسبب تركهم لفضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقوله : ﴿يصنعون﴾ من الصنع وهو العمل بدقة ومهارة وإحكام.

أى : والله لبئس الصنع صنعهم حيث تركوا نهى عامتهم عن قول الإثم وأكل السحت.

وقد تكلم المفسرون عن السر فى أن الله تعالى - ذم اليهود بقوله : ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله : ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾.

وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازى فقال:والمعنى، أن الله - تعالى - استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصى، وذلك يدل على أن تارك النهى عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه - تعالى - ذم الفريقين. . بل نقول : إن ذم تارك النهى عن المنكر أقوى، لأنه - سبحانه - قال فى المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ وقال فى العلماء التاركين للنهى عن المنكر ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخا متمكنا، فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ. وذنب التاركين للنهى عن المنكر ذنبا راسخا. والأمر فى الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم ومازالت المعصية كان كمثل المرض الذى شرب صاحبه الدواء إلا أن المرض بقى كما هو»[٢].

وقال ابن جرير : كان العلماء يقولون : ما فى القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها[٣].

وقال ابن كثير : روى الإمام أحمد عن جرير قال : قال رسول الله ﷺ ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى، هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب.

وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب على بن أبى طالب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس !! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ولم ينههم الربانيون

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ٦ ص ٢٤٨

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٣٩

(٣) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٢٩٨

والأحبار. فلما تمادوا أخذتهم العقوبات. فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم. واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا، ولا يقرب أجلا(١).

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد وبخت اليهود على حسدهم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، ووصفتهم بجملة من الصفات الذميمة حتى يحذرهم المؤمنون، ويجعلوا ولاءهم لله ولرسوله ولإخوانهم فى العقيدة والدين.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من سوء معتقد اليهود، وخبث طويتهم، وسوء أدبهم مع الله - تعالى - فقال:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

قال ابن عباس: قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس: يا محمد إن ربك بخيل لا ينفق. فأنزل الله هذه الآية(٢).

وقد أضاف - سبحانه - المقالة إلى اليهود جميعا، لأنهم لم ينكروا على القائل ما قاله ورضوا به.

وقال عكرمة: إنما قال هذا فنحاص بن عازوراء وأصحابه. فقد كانت لهم أموال فلما كفروا بالنبى ﷺ قل ما لهم، فقالوا ما قالوا.

وقيل: إنهم لما رأوا النبى ﷺ فى فقر وقلة مال وسمعوا ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾ قالوا: إن إله محمد بخيل(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٧٤
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٧٥
(٣) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٣٨

وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ إخبار من الله عن جراءة اليهود عليه - سبحانه - وسوء أدبهم معه، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه التى لا تحصى.

وأرادوا بقولهم : ﴿يد الله مغلولة﴾ : أنه - سبحانه - بخيل عليهم، ممسك خيره عنهم، مانع فضله عن أن يصل إليهم، حابس عطاءه عن الاتساع لهم، كالمغلولة يده الذى لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف.

وأصل الغل - كما يقول الراغب - تدرع الشىء وتوسطه، ومنه الغلل للماء الجارى بين الشجر. والغل مختص بما يقيد به الشخص فيجعل الأعضاء وسطه، وجمعه أغلال(١).

وليس المراد باليد هنا الجارحة المعروفة بهذا الاسم، لأن الله - تعالى - منزه عن مشابهة الحوادث. وإنما غل اليد وبسطها مجاز مشهور عن التقتير والعطاء.

والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيما فى دفع المال وإنفاقه. فأطلقوا اسم السبب على المسبب، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والكف فقيل للجواد فياض اليد، مبسوط الكف، وقيل للبخيل : مقبوض اليد، كز الكف.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف بقوله : «غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله - تعالى - ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط. ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة، حتى إنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها. ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان البخل والجود. وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقول القائل :

جاد الحمى بسط اليدين بوابل ... شكرت نداه تلاعه ووهاده

ويقال : بسط اليأس كفيه فى صدرى، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفين.

وقد علق صاحب الانتصاف على قول صاحب الكشاف «غل اليد وبسطها مجاز» فقال : والنكتة فى استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا، وهى بسط اليد للجود وقبضها للبخل، ولا شىء أثبت من الصور الحسية فى الذهن، فلما كان الجود

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٦٣

والبخل معنيين لا يدر كان بالحس. عبر عنهما بلازمهما لفائدة الإيضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات(١).

وقوله: ﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ دعاء عليهم بالشح المرير والبخل الشنيع بأن يخلق - سبحانه - فيهم الشح الذى يجعلهم منبوذين من الناس ومن ثم كان اليهود أبخل خلق الله، وحكم عليهم بالطرد من رحمة الله -تعالى- بسبب سوء أدبهم معه - سبحانه - وجحودهم لنعمه.

وهذه الجملة تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم، وأساءوا الأدب مع خالقهم ورازقهم، فقالوا فى شأنه ماهو منزه عنه - ﴿تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا﴾.

قال الآلوسى ما ملخصه: ويجوز أن يكون المراد بغل الأيدى الحقيقة، بأن يغلوا فى الدنيا أسارى - وفى الآخرة معذبين فى أغلال جهنم. ومناسبة هذا لما قبله حينئذ من حيث اللفظ فقط فيكون تجنيسا. وقيل من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقوله: سبنى سب الله دابره أى قطعه، لأن السب أصله القطع(٢).

وقوله: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ معطوف على مقدر يقتضيه المقام، وتكذيب لهم فيما قالوه من باطل.

والمعنى: كلا - أيها اليهود - ليس الأمر كما زعمتم من قول باطل، بل هو - سبحانه - الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذى ما من شىء إلا عنده خزائنه.

فبسط اليد هنا كناية عن الجود والفضل والإنعام منه - سبحانه - على خلقه.

وعبر بالمثنى فقال: ﴿بل يداه﴾ للإشارة إلى كثرة الفيض والإنعام، لأن الجواد السخى إذا أراد أن يبالغ فى العطاء أعطى بكلتا يديه.

قال ابن كثير قوله: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ أى: بل هو الواسع الفضل. الذى ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له. كما قال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ والآيات فى هذا كثيرة.

وقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة - أى لا ينقصها الإنفاق - سحاء - أى مليئة - الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما فى يمينه. وكان عرشه على الماء، وفى يده الأخرى

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٥٥
(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٠٨

الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض وقال : يقول الله - تعالى - : أنفق أنفق عليك»[١].

وقوله : ﴿ينفق كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده، والدلالة على أنه على مقتضى حكمته ومشيئته فهو - سبحانه - يبسط الرزق لمن يشاء أن يبسطه له ويقبضه عمن يشاء أن يقبضه عنه، وقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه لا ينافى سعة كرمه، لأنه يعطى ويمنع على حسب مشيئته التى أقام بها نظام خلقه.

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى مما أنزله على رسوله ﷺ فقال : ﴿وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرا﴾.

أى : إن ما أنزلنا عليك يا محمد من قرآن كريم، وما أطلعناك عليه من خفى أمور هؤلاء اليهود، ومن أحوال سلفهم كل ذلك ليزيدن الكثيرين منهم كفرا على كفرهم، وطغيانا على طغيانهم، وذلك لأنهم قوم أكل الحقد قلوبهم، واستولى الحسد على نفوسهم.

وإذا كان ما أنزلناه إليك يا محمد فيه الشفاء لنفوس المؤمنين، فإنه بالنسبة لهؤلاء اليهود يزيدهم بغيا وظلما وكفراً.

قال - تعالى : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا﴾[٢].

فالجملة الكريمة بيان لموقف اليهود الجحودى من الآيات التى أنزلها الله على رسوله ﷺ وهى فى الوقت ذاته تسلية له ﷺ عما يلقاه منهم.

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بالقسم المطوى، وباللام الموطئة له، ونون التوكيد الثقيلة لكى ينتفى الرجاء فى إيمانهم، وليعاملهم النبى ﷺ وأتباعه على أساس مكنون نفوسهم الخبيثة، وقلوبهم المريضة بالحسد والخداع.

وقوله ﴿كثيرًا﴾ هو المفعول الأول لقوله ﴿وليزيدن﴾ وفاعله ما الموصولة فى قوله ﴿ما أنزل﴾ وقوله ﴿طغيانا﴾ هو المفعول الثانى.

ثم زاد - سبحانه - فى تسلية رسوله ﷺ فأصدر حكمه فيهم بدوام العدواة والبغضاء بين طوائفهم وفرقهم فقال : ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ فالضمير فى قوله ﴿بينهم﴾ يعود إلى فرق اليهود المختلفة من فريسيين وصدوقيين وقرائين، وكتبة وغير ذلك من فرقهم المتعددة.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٧٥
(٢) سورة الإسراء الآية ٨٢

وقيل : الضمير يعود إلى طائفتى اليهود والنصارى.

والأول أرجح لأن الحديث فى هذه الآية عن اليهود الذين وصفوا الله - تعالى - بما هو منزه عنه.

والعداوة والبغضاء يرى بعضهم أنهما اسمان لمعنى واحد.

ويرى آخرون أن معناهما مختلف. فالعداوة معناها المناوأة الظاهرة، والبغضاء هى الكراهية التى تكون فى القلب. فهما معنيان متغايران وإن كانا متلازمين أحيانا. فلا عداوة من غير بغضاء، ولكن قد يفترقان فتوجد البغضاء من غير إعلان للعداوة.

قال أبوحيان : والعداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض وقد يبغض من ليس بعدو. وقال ابن عطية. وكأن العداوة شىء يشهد، يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء لاتتجاوز النفوس(١).

والمعنى : وألقينا بين طوائف اليهود المتعددة العداوة الدائمة، والبغضاء المستمرة، فأنت تراهم كلمتهم مختلفة، وقلوبهم شتى وكل فرقة منهم تلصق النقائص بالأخرى، وهم على هذه الحال إلى يوم القيامة.

وما أظهره اليهود فى هذا العصر من تعاون وتساند جعلهم ينشئون دولة لهم بفلسطين، هو أمر مؤقت، فإن هذه الدولة لن تستمر طويلا، بل ستعود إلى أهلها المسلمين متى صدقوا فى جهادهم واتبعوا تعاليم دينهم.

قال الفخر الرازى : واعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها، هو أنه - تعالى - بين أن هؤلاء اليهود إنما ينكرون نبوته ﷺ بعد ظهور الدلائل على صحتها، لأجل الحسد. ولأجل حب الجاه والمال. ثم إنه - تعالى - بين أنهم لما رجحوا الدنيا على الآخرة، لا جرم أنه - تعالى - كما حرمهم سعادة الدين، فكذلك حرمهم سعادة الدنيا، لأن كل فريق منهم بقى مصرا على مذهبه ومقالته. . فصار ذلك سببا لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم. وانتهى الأمر فيه إلى أن بعضهم يكفر بعضا. ويحارب بعضهم بعضًا.

فإن قلت : فهذا المعنى حاصل أيضًا بين فرق المسلمين فكيف يمكن جعله عيبا على الكتابيين حتى يذموا عليه؟

قلنا : بدعة التفرق التى حصلت فى المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبوة وعصر الصحابة والتابعين. أما فى الصدر الأول فلم يكن شىء من ذلك حاصلا بينهم فحسن جعل ذلك عيبًا

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٣ ص ٥٢٤

على الكتابيين فى ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن»[١].

وقوله : ﴿كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾ أى : كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ والمؤمنين وهيأوا الأسباب لذلك وحاولوا تفريق كلمتهم وإثارة العداوة بينهم. كلما فعلوا ذلك أفسد الله عليهم خطتهم، وأحبط مكرهم، وألقى الرعب فى قلوبهم.

والتعبير بهذه الجملة الكريمة جاء على وفق ما جرى عليه العرب من أنهم كانوا إذا أرادوا حربًا بالإغارة على غيرهم أوقدوا نارًا يسمونها نار الحرب.

والتعبير هنا لذلك على سبيل المجاز إذ عبر - سبحانه - عن إثارة الحروب بإيقاد نارها. باعتبار أن الحروب فى ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة فى أخطارها ومصائبها.

وقوله : ﴿ويسعون فى الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين﴾ تذييل مقرر لما قبله من الصفات الذميمة التى دمغ الله - تعالى - بها اليهود.

أى : أن حال هؤلاء اليهود أنهم يجتهدون فى الكيد للاسلام وأهله وأنهم يسعون سعيا حثيثًا للافساد فى الأرض عن طريق إثارة الفتن، وإيقاظ الاحقاد بين الناس. والله - تعالى - لا يحب المفسدين بل يبغضهم ويمقتهم، لإيثارهم الضلالة على الهدى، والشر على الخير.

وبهذا نرى الآية الكريمة قد ردت على اليهود فى نسبتهم البخل إلى الله - تعالى - وبينت أنه - سبحانه - هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء وكشفت عن جوانب من رذائلهم وعنادهم وأوضحت أنه - سبحانه - يبغضهم لأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون.

ولقد بسطنا القول فى مظاهر فسادهم فى الأرض فى غير هذا الموطن فارجع إليه إن شئت[٢].

وبعد أن حكى - سبحانه - ما حكى من رذائل أهل الكتاب وخصوصًا اليهود عقب ذلك بفتح باب الخير لهم متى آمنوا واتقوا فقال - تعالى :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٤٥

(٢) راجع كتابنا «بنو إسرائيل فى القرآن والسنة» جـ٢ من ص ٢٨٨ إلى ص ٣٢٠

﴿فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

والمعنى : ﴿ولو أن أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿آمنوا﴾ برسول الله - ﷺ وبما جاء به من حق ونور ﴿واتقوا﴾ الله - تعالى - بأن صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضاه. لو أنهم فعلوا ذلك ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ بأن رفعنا عنهم العقاب وسترنا عليهم معاصيهم فلم نحاسبهم عليها، ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ فى الآخرة.

قال الفخر الرازى : واعلم أنه - سبحانه - لما بالغ فى ذمهم وفى تهجين طريقتهم عقب ذلك ببيان أنهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا. أما سعادات الآخرة فهى محصورة فى نوعين :

أحدهما : رفع العقاب.

والثانى : إيصال الثواب.

أما رفع العقاب فهو المراد بقوله : ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾. وأما إيصال التواب فهو المراد بقوله : ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾.

وأما سعادات الدنيا فقد ذكرها فى قوله بعد ذلك : ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة﴾[(١)].

وكرر - سبحانه - اللام فى قوله : ﴿لكفرنا﴾. ﴿ولأدخلناهم﴾ لتأكيد الوعد. وفيه تنبيه إلى كثرة ذنوبهم ومعاصيهم وإلى أن الإسلام يجب ما قبله من ذنوب مهما كثرت.

وفى إضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى ما يستحقونه من العذاب لو لم يؤمنوا ويتقوا.

وجمع - سبحانه - بين الإيمان والتقوى، للإيذان بأن الإيمان الذى ينجى صاحبه، ويرفع درجاته، هو ما كان نابعا عن يقين وإخلاص وخشية من الله، لا إيمان المنافقين الذين يدعون الإيمان وهو منهم برىء

والضمير فى قوله : ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ يعود إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين فتح الله لهم باب الإيمان ليدخلوا فيه كى ينالوا رضاه.

والمراد بإقامة التوراة والإنجيل : العمل بما فيهما من بشارات بصدق النبى ﷺ وحضهم على

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص٤٦ - بتصريف وتلخيص -

الإيمان به عند ظهوره وتنفيذ ما اشتملا عليه من أحكام أيدتها تعاليم الإسلام، وأصل الإقامة الثبات فى المكان. ثم استعير فى إقامة الشيء لتوفية حقه.

والمراد بما أنزل إليهم من ربهم القرآن الكريم، لأنهم مخاطبون به، وليسوا خارجين عن دائرة التكاليف التى دعا إليها.

قال - تعالى - ﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[1] أى: لأنذركم به يا أهل مكة، ولأنذر به أيضًا جميع من بلغه هذا الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم.

وقيل: المراد بما أنزل إليهم من ربهم. كتب أنبيائهم السابقين مثل كتاب شعياء، وكتاب حزقيل، وكتاب دانيال. فإنها مشتملة أيضًا على البشارة بالنبى ﷺ.

والمراد بقوله: ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ المبالغة فى شرح ما ينعم الله به عليهم من خيرات وأرزاق تعمهم من كل جهة من الجهات لا أن هناك فوقا وتحتا.

أى: لأكلوا أكلا متصلا وفيرًا، ولعمهم الخير والرزق من كل جهة بأن تعطيهم السماء مطرها وبركتها، وتعطيهم الأرض نباتها وخيرها، فيعيشوا فى رغد من العيش؛ وفى بسطة من الرزق.

وفى ذلك دلالة على أن الاستقامة على شرع الله، تأتى بالرزق الرغيد، ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى -:

﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا﴾[2].

وقال - تعالى - حكاية عن هود أنه قال لقومه: ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾[3].

والمعنى: ﴿ولو أنهم﴾ أى اليهود والنصارى ﴿أقاموا التوراة والإنجيل﴾ بأن عملوا بما فيهما من أقوال تدعوهم إلى الإيمان بالدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ وتركوا تحريف الكلم عن مواضعه.

ولو أنهم - أيضًا آمنوا بما ﴿أنزل إليهم من ربهم﴾ من قرآن مجيد فيه هدايتهم وسعادتهم لو أنهم فعلو ذلك لأتاهم الرزق الواسع من كل ناحية ولعمهم الخير من كل جهة، ولعاشوا آمنين مطمئنين.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٩

(٢) سورة الجن الآية ١٦

(٣) سورة هود الآية ٥٢

والمراد بالأكل الانتفاع مطلقًا، وعبر عن ذلك به لكونه أعظم الانتفاعات ويستتبع سائرها.

ومفعول «أكلوا» محذوف لقصد التعميم. أو القصد إلى نفس الفعل كما فى قولهم: فلان يعطى ويمنع.

وقوله: ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ مدح للقلة التى تستحق المدح من أهل الكتاب» وذم للكثيرين منهم الذين قبح عملهم وفسدت نفوسهم.

والأمة: الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين واحد. أو جنس واحد. أو مكان واحد. ومقتصدة من الاقتصاد وهو الاعتدال فى كل شىء والمراد به هنا: السير على الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الحق والخير، وهو طريق الإسلام.

والمعنى: من أهل الكتاب جماعة مستقيمة على طريق الحق، وهم قلة آمنت بالنبى - ﷺ وإلى جوار هذه الجماعة القليلة المستقيمة عدد كبير من أهل الكتاب ساء عملهم، واعوج سلوكهم، وكان من حالهم ما يثير العجب والدهشة.

والمراد بهذه الأمة المقتصدة من أهل الكتاب من دخل منهم فى الإسلام واتبع ما جاء به النبى - ﷺ.

وبذلك نرى هاتين الآيتين قد بشرت أهل الكتاب بالسعادة الدنيوية والأخروية متى آمنوا بالله تعالى - واتبعوا ماجاء به رسوله محمد ﷺ.

وبعد أن حكى الله - تعالى - فى الآيات السابقة ما كان عليه أعداء الإسلام - وخصوصًا اليهود - من محاولات لفتنة الرسول ﷺ ومن دسائس حاكوها لعرقلة سير الدعوة الإسلامية، ومن استهزاء بتعاليم الإسلام ومن حقد على المؤمنين لإيمانهم برسل الله وكتبه ومن سوء أدب مع خالقهم ورازقهم. بعد أن حكى - سبحانه - كل ذلك، أتبعه بتوجيه نداء إلى الرسول ﷺ أمره فيه بأن يمضى فى تبليغ رسالته إلى الناس دون أن يلتفت إلى مكر الماكرين، أو حقد الحاقدين. فإنه - سبحانه - قد حماه وعصمه منهم فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : لما غزا رسول الله ﷺ بنى أنمار، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل. فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه، فقال الحارث من بنى النجار : لأقتلن محمدا فقال له أصحابه : كيف تقتله؟ قال : أقول له أعطنى سيفك، فإذا أعطانيه قتلته به. قال : فأتاه فقال يا محمد. أعطنى سيفك أشيمه - أى أراه - فأعطاه إياه - فرعدت يده حتى سقط السيف من يده : فقال رسول الله ﷺ حال الله بينك وبين ما تريد.

فأنزل الله - تعالى - ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾.. الآية[1].

قال الفخر الرازى - بعد أن ذكر عشرة أقوال فى سبب نزولها - واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمل الآية على أن الله - تعالى - آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاما مع اليهود والنصارى، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها»[2].

وهذا الذى قاله الإمام الرازى هو الذى تسكن إليه النفس أى أن الآية الكريمة ساقها الله - تعالى - لتثبيت النبى ﷺ وتقوية قلبه وأمره بالمضى فى تبليغ رسالته بدون خوف من أعدائه الذين حدثه عن مكرهم به وكراهتهم له، حديثا مستفيضا، وقد بشره - سبحانه - فى هذه الآية بأنه حافظه من مكرهم وعاصمه من كيدهم.

وقوله : ﴿بلغ﴾ من التبليغ بمعنى : إيصال الشىء إلى المطلوب إيصاله إليه.

والمعنى : ﴿يأيها الرسول﴾ الكريم المرسل إلى الناس جميعا ﴿بلغ﴾ أى : أوصل إليهم ﴿ما أنزل إليك من ربك﴾ أى : كل ما أنزل إليك من ربك من الأوامر والنواهى والأحكام والآداب والأخبار دون أن تخشى أحدًا إلا الله. ﴿وإن لم تفعل﴾ ما أمرت به من إيصال وتبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك إلى الناس ﴿فما بلغت رسالته﴾ أى : وإن لم تبلغ كل ما أنزل إليك من ربك كنت كمن لم يبلغ شيئًا مما أوحاه الله إليه، لأن ترك بعض الرسالة يعتبر تركا لها كلها.

وقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف بقوله : قوله : ﴿وإن لم تفعل﴾ أى : وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فمابلغت رسالته﴾أى : فلم تبلغ إذا ماكلفت به من أداء الرسالة، ولم تؤد منها شيئًا قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعًا، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها، لإدلاء كل منها بما يدلى به

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٧٩.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٧٩

غيرها، وكونها لذلك فى حكم شىء واحد. والشىء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ؛ مؤمنا به غير مؤمن به»(١).

وفى ندائه ﷺ بوصف الرسالة تشريف له وتكريم وتمهيد لما يأمره به الله من وجوب تبليغ ما كلف بتبليغه إلى الناس دون أن يخشى أحدًا سواه.

لأن الله - تعالى - هو الذى خلقه ورباه وتعهده بالرعاية والحماية. وهو الذى اختاره لحمل هذه الرسالة دون غيره، فمن الواجب عليه ﷺأن يبلغ جميع ما أنزل إليه منه - سبحانه -

قال الجمل: وقوله: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ ظاهر هذا التركيب اتحاد الشرط والجزاء، لأنه يؤول ظاهرًا إلى وإن لم تفعل فما فعلت، مع أنه لا بد وأن يكون الجواب مغايرًا للشرط لتحصل الفائدة ومتى اتحدا اختل الكلام.

وقد أجاب عن ذلك ابن عطية بقوله أى: وإن تركت شيئًا فقد تركت الكل وصار ما بلغته غير معتد به فصار المعنى: وإن لم تستوف ما أمرت بتبليغه فحكمك فى العصيان وعدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئًا أصلا»(٢).

وقال صاحب الانتصاف ماملخصه: ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمرًا معلومًا عند الناس أنه عظيم شنيع، ينقم على مرتكبه بل إن عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع، فضلا عن كتمان الرسالة من الرسول: لما كان الأمر كذلك استغنى عن ذكر الزيادات التى يتفاوت بها الشرط والجزاء، للصوقها بالجزاء فى الأفهام وإن كان من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ماوراءه من الوعيد والتهديد، وحسن هذا الأسلوب فى الكتاب العزيز يذكر الشرط عامًا بقوله: ﴿وإن لم تفعل﴾ ولم يقل: فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة، حتى يكون اللفظ متغايرًا، وهذه المغايرة اللفظية - وإن كان المعنى واحدًا - أحسن رونقًا، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد فى الشرط والجزاء، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان»(٣).

هذا، ومن المعلوم الذى لاخفاء فيه عند كل مسلم، أن الرسول ﷺ قد بلغ ما أمره الله به البلاغ التام، وقام به أتم القيام دون أن يزيد شيئًا على ما كلفه به ربه أو ينقص شيئًا.

وقد ساق ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من النصوص التى تشهد بأن الرسول ﷺ قد امتثل أمر الله فى تبليغ رسالته، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن عائشة أنها قالت لمسروق: من حدثك أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٥٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥١٠

(٣) حاشية الكشاف جـ١ ص ٦٥٨

والله يقول: ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾.. الآية.

ثم قال: ابن كثير: وقد شهدت له ﷺ أمته بإبلاغ الرسالة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع. فقد قال فى خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسئولون عنى فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت»[١].

وقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ وعد منه - سبحانه - بحفظ نبيه من كيد أعدائه.

وقوله: ﴿يعصمك﴾ من العصم بمعنى الإمساك والمنع. وأصله - كما يقول ابن جرير - من عصام القربة، وهو ما تربط به من سير وخيط ومنه قول الشاعر:

وقلت عليكم بمالك إن مالكا سيعصمكم إن كان فى الناس عاصم

أى: سيمنعكم[٢].

والمعنى: عليك يا محمد أن تبلغ رسالة الله دون أن تخشى أحدا سواه، والله - تعالى - يحفظك من كيد أعدائك ويمنعك من أن تعلق نفسك بشىء من شبهاتهم واعتراضاتهم ويصون حياتك عن أن يعتدى عليها احد بالقتل أو الإهلاك:

فالمراد بالعصمة هنا: عصمة نفسه وجسمه ﷺ من القتل أو الإهلاك، وعصمة دعوته من أن يحول دون نجاحها حائل. وهذا لا ينافى ما تعرض له ﷺ من بأساء وضراء وأذى بدنى، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى سالت دماؤه، وشج وجهه وكسرت رباعيته فى غزوة أحد.

والمراد بالناس هنا: المشركون والمنافقون واليهود ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال والعناد، إذ ليس فى المؤمنين الصادقين إلا كل محب لله ولرسوله.

ولقد تضمنت هذه الجملة الكريمة معجزة كبرى للرسول ﷺ فقد عصم الله - تعالى - حياة رسوله عن أن يصيبها قتل أو إهلاك على أيدى الناس مهما دبروا له من مكر وكيد.

لقد نجاه من كيدهم عندما اجتمعوا لقتله فى دار الندوة ليلة هجرته إلى المدينة.

ونجاه من كيد اليهود عندما هموا بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم.

ونجاه من مكرهم عندما وضعت إحدى نسائهم السم فى طعام قدم إليه ﷺ.

إلى غير ذلك من الأحداث التى تعرض لها النبى ﷺ من أعدائه. ولكن الله - تعالى - نجاه منهم[٣].

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٧٧

(٢) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٣٩

(٣) إذا أردت المزيد من ذلك فارجع إلى كتاب «أعلام النبوة» للماوردى.

وهناك آثار تشهد بأن النبى ﷺ كان يحرس من بعض أصحابه فلما نزلت هذه الآية صرفهم عن حراسته.

فقد أخرج الترمذى والحاكم وابن أبى حاتم وابن جرير عن عائشة قالت: كان رسول الله يحرس ليلا حتى نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «أيها الناس انصرفوا لقد عصمنى الله»(١).

وقوله: ﴿إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ تذييل قصد به تعليل عصمته ﷺ وتثبيت قلبه أى: إن الله - تعالى - لا يهدى القوم الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم الغى على الرشد. ولا يوصلهم إلى ما يريدونه من قتلك ومن القضاء على دعوتك، بل سينصرك عليهم ويجعل العاقبة لك.

وبعد هذا التثبيت والتكريم لنبيه. أمره - سبحانه - أن يصارح أهل الكتاب بما هم عليه من باطل وأن يدعوهم إلى اتباع الحق الذى جاء به فقال - تعالى -:

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

قال الآلوسى: أخرج ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق، فقال النبى ﷺ بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمركم أن تبينوه للناس فبرئت من أحداثكم. قالوا: فإن لم تأخذ بما فى أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن بك ولانتبعك فأنزل الله ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شىء﴾ الآية(٢).

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين امتدت أيديهم إلى كتبهم بالتغيير والتبديل. قل لهم ﴿يا أهل الكتاب لستم على شىء﴾ يعتد به من الدين أو العلم أو المروءة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٧٨.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ٢٠٠

﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾.

أى: لستم على شىء يقام له وزن من أمر الدين حتى تعملوا بما جاء فى التوراة والإنجيل، من أقوال تبشر برسالة محمد ﷺ وحتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ربكم من قرآن كريم يهدى إلى الرشد: لأنكم مخاطبون به، ومطالبون بتنفيذ أوامره ونواهيه، ومحاسبون حسابًا عسيرًا على الكفر به، وعدم الإذعان لما اشتمل عليه.

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿لستم على شىء﴾ فيه مافيه من الاستخفاف بهم، والتهوين من شأنهم، أى: لستم على شىء يعتد به ألبته من أمر الدين. وذلك كما يقول القائل عن أمر من الأمور: هذا الأمر ليس بشىء يريد تحقيره وتصغير شأنه. وفى الأمثال، أقل من لا شىء.

فالجملة الكريمة تنفى عنهم أن يكون فى أيديهم شىء من الحق والصواب ماداموا لم يؤمنوا بالنبى ﷺ الذى بشرت به التوراة والإنجيل وأنزل الله عليه القرآن وهو الكتاب المهيمن على الكتب السماوية السابقة.

وقوله: ﴿وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا﴾ جملة مستأنفة مبينة لغلوهم فى العناد والجحود، وناعية عليهم عدم انتفاعهم بما يشفى النفوس، ويصلح القلوب. والضمير فى قوله ﴿منهم﴾ يعود إلى أهل الكتاب.

أى: وإن ما أنزلناه إليك يا محمد من هدايات وخيرات ليزيدن هؤلاء الضالين من أهل الكتاب طغيانا على طغيانهم. وكفرًا على كفرهم؛ لأن نفوسهم لا تميل إلى الحق والخير وإنما تنحدر نحو الباطل والشر.

وقوله: ﴿فلاتأس على القوم الكافرين﴾ تذييل قصد به تسلية الرسول ﷺ والفاء للإفصاح. والأسى: الحزن. يقال: أسى فلان على كذا يأسى أسى إذا حزن.

أى: إذا كان شأن الكثيرين كذلك فلا تحزن عليهم، ولا تتأسف على القوم الكافرين؛ فإنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى، وفى المؤمنين غنى لك عنهم.

وليس المراد نهيه ﷺ عن الحزن والأسى، لأنهما أمران طبيعيان لا قدرة للإنسان عن صرفهما، وإنما المراد نهيه عن لوازمهما، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب وتعظيم أمرها وبذلك تتجدد الألام ويحزن القلب.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الناس أمامه سواء وأنه لا تفاضل بينهم إلا بالإيمان والعمل الصالح، وأن الايمان الحق يقطع ماقبله من عقائد زائفة. وأفعال سيئة فقال - تعالى -:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

فالآية الكريمة تبين أن أساس النجاة يوم القيامة هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وما يستتبع ذلك من أفعال طيبة وأعمال صالحة.

وقد ذكر - سبحانه - فى هذه الآية أربع فرق من الناس:

أما الفرقة الأولى: فهى فرقة المؤمنين، وهم الذين عبر عنهم - سبحانه - بقوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ أى: آمنوا إيمانا صادقًا، بأن أذعنوا للحق الذى جاء به محمد ﷺ واتبعوه فى كل ما جاء به.

وقد ابتدأ القرآن بهم لشرفهم وعلو منزلتهم وللإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز يرضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك.

والفرقة الثانية: فرقة الذين هادوا. أى اليهود. يقال: هاد وتهود إذا دخل فى اليهودية. وسموا يهودا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - عليه السلام - وقد قلبت الذال فى كلمة يهوذا دالا فى التعريب. أو سموا حين تابوا من عبادة العجل من هاد يهود هودا بمعنى تاب ومنه قوله - تعالى - ﴿إنا هدنا إليك﴾ أى: تبنا ورجعنا إليك.

والفرقة الثالثة: فرقة الصابئين جمع صابئ وهو الخارج من دين إلى دين. يقال صبا الظلف والناب والنجم - منع وكرم - إذا طلع.

والمراد بهم قوم يعبدون الملائكة، أو الكواكب ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم، ولا تزال بقية منهم تعيش فى تخوم العراق، ومن العسير الجزم بحقيقة معتقدهم، لأنهم أكتم الناس لعقائدهم.

وأما الفرقة الرابعة: فهى فرقة النصارى جمع نصران بمعنى نصرانى قيل سموا بذلك لأنهم ادعوا أنهم أنصار عيسى - عليه السلام - وقيل سموا بذلك نسبة إلى قرية الناصرة التى ظهر بها عيسى - عليه السلام - واتبعه بعض أهلها.

والإيمان المشار إليه فى قوله: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ يفسره بعض العلماء بالنسبة

لليهود والنصارى والصابئين بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذى قرره الإسلام. فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام، وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقوم بالعمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه، فله أجره على ذلك عند ربه.

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم يؤمنون بغيرها؛ لأن شريعة الاسلام قد نسخت ما قبلها، والرسول ﷺ قال: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى».

ويفسرونه - أى الإيمان المشار إليه سابقا - بالنسبة للمؤمنين الذين عبر الله عنهم بقوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ على أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - ﴿وعمل صالحا﴾ على قوله ﴿آمن﴾ مع مشاركته هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على العمل الصالح من ثواب جزيل وعاقبة حميدة.

وبعض العلماء يرى أن معنى ﴿من آمن﴾ أى: من أحدث من هذه الفرق إيمانا بالنبى ﷺ وبما جاء به من عند ربه.

قالوا: لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملابسة له بالمقام، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته فى وقت من الأوقات.

وقوله: ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بيان لحسن عاقبتهم، وجزيل ثوابهم.

أى. فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة بل هم فى مأمن منها، ولاهم يحزنون على ما مضى من أعمارهم لأنهم أنفقوها فى العمل الصالح.

هذا وقد قرأ جمهور القراء ﴿والصابئون﴾ بالرفع. وقرأ ابن كثير بالنصب.

وقد ذكر النحويون وجوها من الإعراب لتخريج قراءة الرفع التى قرأها الأكثرون، ولعل خير هذه الوجوه ما ذكره الشيخ الجمل فى قوله: وقوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ أى: إيمانا حقا لا نفاقا. وخبر إن محذوف تقديره: فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. دل عليه المذكور، وقوله: ﴿والذين هادوا﴾ مبتدأ. فالواو لعطف الجمل أو للاستئناف وقوله ﴿والصابئون والنصارى﴾ عطف على هذا المبتدأ. وقوله ﴿فلا خوف عليهم﴾. خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة. وقوله: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ بدل من كل منها بدل بعض من كل فهو مخصص. فكأنه قال: الذين آمنوا من اليهود والنصارى ومن الصابئين لاخوف عليهم ولا هم

يحزنون. فالإخبار عن اليهود ومن بعدهم بما ذكر مشروط بالإيمان لا مطلقا[١].

وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر فقال: قوله: ﴿والصابئون﴾ رفع على الابتداء وخبره محذوف. والنية به التأخير عما فى حيز ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها. كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا. والصابئون كذلك.

ثم قال: فإن قلت ما التأخير والتقديم إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم؟

قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم؟ وذلك لأن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيا، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها أى: خرجوا»[٢].

والخلاصة، أن الآية الكريمة مسوقة للترغيب فى الايمان والعمل الصالح ببيان أن كل من آمن بالله واليوم الآخر، واتبع ما جاء به النبى ﷺ واستمر على هذا الإيمان وهذا الاتباع إلى أن فارق هذه الحياة، فإن الله - تعالى - يرضى عنه ويثيبه ثوابا حسنا، ويتجاوز عما فرط منه من ذنوب، لأن الإيمان الصادق يجب ما قبله، من عقائد زائفة، وأعمال باطلة وأقوال فاسدة.

وبعد أن فتح - سبحانه - باب الإيمان أمام أهل الكتاب وغيرهم لكى يدخلوه فينالوا رضاه ومثوبته. عقب ذلك باستئناف الحديث من أنواع أخرى من الرذائل التى عرفت عن بنى إسرائيل فقال - تعالى - :

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا
لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾
وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥١١.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦١

والمراد بالميثاق فى قوله : ﴿لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل﴾ : العهد الموثق الذى أخذه الله عليهم بواسطة أنبيائهم بأن يؤدوا ما كلفهم به من تكاليف وأن يتبعوا النبى ﷺ عند ظهوره.

وقد أكد الله هذا الميثاق الذى أخذه عليهم بلام القسم وبقد المفيدة للتحقيق أى : بالله لقد أخذنا الميثاق على بنى إسرائيل بأن يعبدونى ولا يشركوا بى شيئًا، وبأن ينفذوا ما كلفتهم به من المأمورات والمنهيات والشرائع والأحكام.

وقوله ﴿وأرسلنا إليهم رسلا﴾ معطوف على ﴿أخذنا﴾ والتنكير فى قوله : ﴿رسلا﴾ للتكثير والتعظيم.

أى : أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم، وأرسلنا إليهم رسلا ذوى عدد كثير، وأولى شأن خطير، لكى يتعهدوهم بالتبشير والانذار، ولكى يرشدوهم إلى ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم.

فأنت ترى أن الله - تعالى - مع أخذه الميثاق عليهم لم يتركهم هملا، بل أرسل إليهم الرسل ليعينوهم على تنفيذ ما جاء به.

ولم يذكر - سبحانه - هنا موضوع هذا الميثاق، اكتفاء بذكره فى مواطن أخرى كثيرة. ومن ذلك قوله - تعالى - قبل ذلك فى هذه السورة :

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، وقال الله إنى معكم، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة. وآمنتم برسلى وعزرتموهم، وأقرضتم الله قرضًا حسنًا﴾ الآية(١).

وقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين﴾.. الآية(٢).

وقوله : ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقًا يقتلون﴾ بيان لموقفهم الذميم من الميثاق الذى أخذ عليهم ومن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهدايتهم وسعادتهم.

أى : أخذنا الميثاق المؤكد عليهم، وأرسلنا إليهم رسلا كثيرين لهدايتهم ولكنهم نقضوا الميثاق، وعصوا الرسل، فكانوا ﴿كلما جاءهم رسول﴾ بما لاتشتهيه نفوسهم الشقية، وبما لا تميل إليه قلوبهم الردية، ناصبوه العداء؛ فكذبوا بعض الرسل، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب بل أضافوا إليه القتل.

ولقد كذب اليهود جميع الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ولم يؤمن بهم إلا قلة منهم. وقتلوا من

---

(١) سورة المائدة الآية ١٢

(٢) سورة البقرة الآية ٨٣

بين من قتلوا من الرسل بعد أن كذبوهم : زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - كما حاولوا قتل رسول الله ﷺ إلا أن الله - تعالى - نجاهما من مكرهم وكيدهم.

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿كلما جاءهم رسول﴾ جملة شرطية وقعت صفة لقوله : ﴿رسلا﴾. والرابط محذوف : أى : رسول منهم ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ أى بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم.

فإن قلت : أين جواب الشرط قلت : هو محذوف يدل عليه ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ فكأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه»[1].

والتعبير بقوله : ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ يدل على أن حال بنى إسرائيل بالنسبة للرسل يدور بين أمرين إما التكذيب لهم، والاستهانة بتعاليمهم وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق أرواحهم الشريفة. فكأن التكذيب والقتل قد صارا سجيتين لهم لا تتخلفان فى أى زمان ومع أى رسول، وذلك لأن لفظ «كل» يدل على العموم. «وما» مصدرية ظرفية دالة على الزمان، فكأنه - سبحانه - يقول : فى كل أوقات مجىء الرسل إليهم كذبوا ويقتلون دون أن يفرقوا بين رسول ورسول أو بين زمان وزمان.

وقال - سبحانه - ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ للمبالغة فى ذمهم، إذ هوى النفس ميلها فى الغالب إلى الشهوات التى لا تنبغى، والرسل ماأرسلهم الله - تعالى - إلا لهداية الأنفس، وكفها عن شهواتها التى يؤدى الوقوع فيها إلى المفاسد.

وبنو إسرائيل لا يكذبون الرسل، ويقتلونهم إلا لأنهم جاءوهم بما يخالف هواهم، ويتعارض مع أنانيتهم وشرههم ومطامعهم الباطلة.

وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها؛ وتسيطر عليها الأطماع والشهوات، ترى الحسن قبيحا، وتحارب من يهديها إلى الرشاد حتى لكأنه عدو لها.

وقدم - سبحانه - المفعول به فى قوله ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ للاهتمام بتفصيل أحوال بنى إسرائيل السيئة، وبيان ما لقيه الرسل الكرام منهم.

وعبر عن التكذيب بالفعل الماضى فقال : ﴿فريقا كذبوا﴾ وعن القتل بالفعل المضارع فقال : ﴿وفريقا يقتلون﴾ لحكاية الحال الماضية التى صدرت من أسلافهم بتصوير ما حصل فى الماضى كأنه حاصل وقت التكلم، ولا ستحضار جريمتهم البشعة فى النفوس حتى لكأنها واقعة

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦٢

في الحال، وفى ذلك ما فيه من النعى عليهم. والتوبيخ لهم والتعجيب من أحوالهم التى بلغت نهاية الشناعة والقبح.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك انهم مع ما فعلوه مع رسلهم من التكذيب والقتل لم ينزجروا، ولم يندموا. . . بلغ بهم الغرور والسفه أنهم ظنوا أن ما فعلوه شيئًا هينا وأنه لن يكون له أثر سيء فى حياتهم. فقال - تعالى - ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾.

وقوله: ﴿وحسبوا﴾ معطوف على قوله ﴿كذبوا﴾ وهو من الحسبان بمعنى الظن: وقوله: ﴿فتنة﴾ من الفتن وهو إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته. والمراد بها هنا: الشدائد والمحن والمصائب التى تنزل بالناس.

وقوله: ﴿فعموا وصموا﴾ من العمى الذى هو ضد الإبصار، ومن الصمم الذى هو ضد السمع. وقد استعير هنا للإعراض عن دلائل الهدى والرشاد التى جاء بها الرسل.

والمعنى إن بنى إسرائيل قد أخذنا عليهم العهد المؤكد، وأرسلنا إليهم الرسل لهدايتهم، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسل، وقتلوا البعض الأخر. ولم يكتفوا بهذا بل ظنوا - لسوء أعمالهم وفساد قلوبهم واستيلاء الغرور والتكبر على نفوسهم - أنهم لن يصيبهم بلاء ولا عقاب بتكذيبهم للرسل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا فى فنون البغى والفساد وعموا وصموا عن دلائل الهدى والرشاد التى جاء بها الرسل واشتملت عليها الكتب السماوية ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ أى: قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه من فساد ﴿ثم عموا وصموا﴾ أى: ثم نكسوا على رءوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم وضلالهم وعدوانهم على هداتهم، إلا عددا قليلا منهم بقى على إيمانه وتوبته فأنت ترى أن الآية الكريمة مسوقة لبيان فساد معتقدات بنى إسرائيل وما جبلت عليه نفوسهم من جحود وغرور. حيث ارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم ومنكرات تقشعر لها الأبدان ومع كل ذلك حسبوا أن الله - تعالى - لا يعاقبهم عليها، لأنهم - كما يزعمون - أبناء الله وأحباؤه. ثم إنهم بعد أن تاب الله عليهم نقضوا عهودهم معه وعادوا إلى عماهم عن الدين الذى جاءتهم به رسلهم وإلى صممهم عن الاستماع إلى الحق الذى ألقوه إليهم.

وقوله: ﴿ألا تكون﴾ قراءة أبو عمر والكسائى وحمزة بضم النون على اعتبار «أن» هى المخففة من الثقيلة، وأصله أنه لا تكون فتنة. فخففت ﴿أن﴾ وحذف ضمير الشأن - وهو اسمها - وحسبوا على هذه القراءة بمعنى علموا.

وتعليق فعل الحسبان بها وهى للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لتمكنه فى قلوبهم.

وقرأه الباقون بفتح النون على اعتبار أن «أن» ناصبة لتكون. وحسب على هذه القراءة على بابها من الشك والظن.

وسد مسد مفعولى حسب على القراءتين ما اشتمل عليه الكلام من المسند والمسند إليه وهو ﴿أن﴾ وما فى حيزها.

وقوله ﴿فعموا﴾ معطوف على ﴿حسبوا﴾ وجىء بالفاء التى للسببية للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها.

أى أن عماهم عن الطريق القويم وصممهم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه فى الدنيا.

ومن بديع إيجاز القرآن الكريم أن أومأ إلى عدم اهتمامهم بمصيرهم فى الآخرة ببيان أن ظنهم لن تنزل بهم مصائب فى الدنيا بسبب مفاسدهم، هذا الظن هو الذى جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح . . أما الآخرة فلا مكان لها فى تفكيرهم، لأنهم قوم تعساء يحرصون على الدنيا حرصا شديدًا دون أن يعيروا الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب أى اهتمام.

وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان وتغلب عليها حب الشهوات وضعف الوازع الدينى فى نفوس أفرادها. إنهم فى هذه الحالة يصير همهم مقصورا على تدبير شئون دنياهم، فإذا ما وجدوا فيها مأكلهم وشربهم وملذاتهم اغمضوا أعينهم عن آخرتهم، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة.

وجىء بحرف العطف ﴿ثم﴾ المفيد للتراخى فى قوله ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ للإشارة إلىٰ أن قبول توبتهم كان بعد مفاسد عظيمة وقعت منهم أى: ثم تاب الله عليهم بعد أن كان منهم ما كان من منكرات وجرائم وإعراض عن الرشد والهدى.

وقوله ﴿ثم عموا وصمُّوا﴾ بيان لنقضهم لعهودهم مع الله، وارتكاسهم فى الذنوب والخطايا والمنكرات. ارتكاسا شديدا بحيث صاروا ليسوا أهلا لقبول التوبة منهم بعد ذلك.

أى: بعد أن قبل الله توبتهم من جرائمهم المنكرة. عادوا إلى الانتكاس مرة أخرى فوقعوا فى الذنوب والجرائم بإصرار وعناد فأصابهم ما أصابهم من عقوبات لم يتب الله عليهم بعدها.

وقوله ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير فى قوله ﴿عموا وصموا﴾ وهذا الإبدال فى غاية الحسن. لأنه لو قال ﴿عموا وصموا﴾ بدون هذا البدل لأوهم ذلك أنهم جميعا صاروا كذلك. فلما قال ﴿كثير منهم﴾ دل على أن العمى والصمم قد حدث للكثيرين منهم، وهناك قلة منهم لم تنقض عهودها مع الله - تعالى - بل بقيت على إيمانها وصدق توبتها.

وهذا - كما قلنا مرارا - من إنصاف القرآن للناس فى أحكامه، ودقته فى ألفاظه، واحتراسه فيما يصدر من أحكامه.

وقوله: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ تذييل قصد به بطلان حسبانهم المذكور، والبصير مبالغة فى المبصر وهو هنا بمعنى العليم بكل ما يكون منهم من أعمال سواه أبصرها الناس أم لم يبصروها.

والمقصود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء. وسيحاسبهم على أعمالهم.

أى: والله - تعالى - عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية، وسيجازيهم على أعمالهم بما يستحقونه من عذاب أليم.

هذا، وقد تكلم المفسرون عن وقت التوبة التى كانت بعد عماهم وصممهم وعن العمى والصمم الذى أصابهم بعد ذلك وقد أجمل الإمام الرازى كلامهم فقال:

والآية تدل على أن عماهم وصممهم عن الهداية إلى الحق حصل مرتين. واختلف المفسرون فى المراد بهاتين المرتين على وجوه:

الأول: المراد أنهم عموا وصموا فى زمان زكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - ثم تاب الله على بعضهم حيث وفق بعضهم للإيمان: ثم عموا وصموا كثير منهم فى زمان محمد ﷺ بأن أنكروا نبوته. وقلة منهم هى التى آمنت به.

الثانى: المراد أنهم عموا وصموا حين عبدوا العجل، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت وهو طلبهم رؤية الله جهرة.

الثالث: قال القفال: ذكر الله - تعالى - فى سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية فقال: ﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرًا﴾(١).

والذى نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها هذا التحديد غير مقنع.

ولعل أحسن منه أن نقول: إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق. فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٥٧

دنيوى، فلما أصابهم العقاب الدنيوى كالقحط والوباء والهزائم. بسبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلا منهم -، وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها. ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(١).

وبعد أن بين - سبحانه - أنماطا من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع فى بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وحذرهم من السير فى طريق الغواية والعناد فقال - تعالى :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠

قال الفخر الرازى : اعلم أنه -تعالى- لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع هٰهنا فى الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم.

وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون : إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون : إن الله - تعالى - حل فى ذات عيسى واتحد بذات عيسى[1].

واللام فى قوله : ﴿لقد كفر﴾ واقعة جوابًا لقسم مقدر.

والمراد بالكفر: ستر الحق وإنكاره والانغماس فى الباطل والضلال.

أى : اقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم.

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا فى إطراء عيسى وفى وضعه فى غير موضعه كما غالت اليهود فى الكفر به وفى وصفه بالأوصاف التى هو برىء منها.

ثم حكى - سبحانه - ماقاله عيسى فى الرد على من جعلوه إلها فقال : ﴿وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم﴾.

أى : وقال المسيح مكذبا لمن وصفه بالألوهية : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، فهو ربى الذى خلقنى وتعهدنى بالتربية والرعاية، وهو ربكم - أيضًا - الذى أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات.

والواو فى قوله : ﴿وقال المسيح﴾ للحال. والجملة حالية من الواو التى هى فاعل ﴿قالوا﴾.

أى : قالوا ما قالوا، والحال أن عيسى قد تبرأ مما قالوه. وقال لبنى إسرائيل حين إرساله إليهم : اعبدوا الله ربى وربكم.

وقوله : ﴿ربى وربكم﴾ تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور؛ لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره فى العبودية لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الخالق له ولهم ولكل شىء.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذرًا من الإشراك فقال : ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾.

وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده. والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك : منعه من دخولها، لإشراكه مع الله آلهة أخرى.

والمأوى: المكان الذى يأوى إليه الإنسان. أى يرجع إليه ويستقر فيه.

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٥٩

أى : قال المسيح لبنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم، لأنه أى الحال والشأن ﴿من يشرك بالله﴾ شيئًا فى عبادته - سبحانه - ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ أى : منعه من دخولها، بسبب شركه وكفره، وجعل ﴿مأواه النار﴾ أى : جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم.

فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله، وبيان لما سيؤول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء.

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهى حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهى استقرارهم فى النار، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التى تدل على جهلهم وسفاهتهم.

والمراد بالظالمين : المشركون الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم فتكون ال للعهد.

ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا فتكون أل للجنس.

وقال - سبحانه - ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ بصيغة الجمع لكلمة «أنصار»، وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق، للإيذان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم.

أى : مالهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأى طريقة من الطرق.

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذى حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها - سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك.

وقوله - تعالى - ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ بيان لما قالته طائفة أخرى من طوائف النصارى الذين يتفرقون فى العقائد والنحل، ويتجمعون على الكفر والضلال، فهم شيع شتى، وفرق متنابذة، كل شيعة منهم تكفر الأخرى وتعارضها فى معتقداتها.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : فى تفسير قول النصارى ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ طريقان :

الأول : أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة. والذى يؤكد ذلك قوله - تعالى - للمسيح ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ فقوله : ﴿ثالث ثلاثة﴾ أى : أحد ثلاثة آلهة. أو واحد من ثلاثة آلهة.

والطريق الثانى : أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون : جوهر واحد، ثلاثة

أقانيم : أب، وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة. وعنوا بالأب الذات. وبالابن الكلمة.

وبالروح الحياة. وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا : إن الكلمة التى هى كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر أو اللبن فزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

ثم قال الإمام الرازى : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل. فإن الثلاثة لا تكون واحدًا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى فى الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى »(١) :

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين قالوا من النصارى إن الله ثالث ثلاثة هم النسطورية والمرقوسية(٢).

ومعنى ثالث ثلاثة : واحد من ثلاثة. أى : أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث فقد ذكر النحاة أن اسم الفعل المصوغ من لفظ اثنين وعشرة وما بينهما لك أن تستعمله على وجوه منها : أن تستعمله مع أصله الذى صيغ هو منه، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لاغير. فتقول : رابع أربعة أى : واحد من أربعة وليس زائدًا عليها، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله.

وقوله : ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل.

وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتمالها على « ما » و « إلا ». مع تأكيد النفى بمن المفيدة لاستغراق النفى.

والمعنى : لقد كفر الذين قالوا كذبا وزورا إن الله واحد من آلهة ثلاثة، والحق أنه ليس فى هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين، الذى خلق الخلق بقدرته، ورباهم بنعمته. وإليه وحده مرجعهم وإيابهم.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب فقال - تعالى - : ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿لقد كفر﴾ والمراد بانتهائهم : رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر.

والمراد بقوله : - ﴿عما يقولون﴾ : أى عما يعتقدون وينطقون به منْ زور وبهتان.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٦٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٥١٣

أى : لقد كفر أولئك الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة كفرًا شديدًا بينا والحق أنه ليس فى الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ويعتصموا بعروة التوحيد ﴿ليمسن الذين كفروا منهم﴾ أى : ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم.

فالجملة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار فى هذا القول الكاذب. والاعتقاد الفاسد الذى يتنافى مع العقول السليمة، والأفكار القويمة.

وقوله : ﴿ليمسن﴾ جواب لقسم محذوف، وهو ساد مسد جواب الشرط المحذوف فى قوله ﴿وإن لم ينتهوا﴾ والتقدير : والله إن لم ينتهوا ليمسن.

وأكد - سبحانه - وعيدهم بلام القسم فى قوله ﴿ليمسن﴾ ردًا على اعتقادهم أنهم لاتمسهم النار، لأن صلب عيسى - فى زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر.

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام : لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾(١).

وقال - سبحانه - ﴿ليمسنَّ الذين كفروا﴾ بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هى سبب الحكم.

ومن فى قوله ﴿منهم﴾ يصح أن تكون تبعيضية أى : ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصارى عذاب أليم، لأن كثيرا منهم لم يستمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخلوا فى دين الإسلام.

ويصح أن تكون بيانية، وقد وضح ذلك صاحب الكشاف بقوله : ومن فى قوله : ﴿ليمسنَّ الذين كفروا منهم﴾ للبيان كالتى فى قوله ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾.

والمعنى : ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة ﴿عذاب أليم﴾ أى نوع شديد الألم من العذاب. . كما تقول : أعطنى عشرين من الثياب. تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التى يجوز أن يتناولها عشرون»(٢).

وبعد هذا الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الأليم، فتح لهم - سبحانه - باب رحمته، حيث رغبهم فى الإيمان، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم عليه من عقائد فقال - تعالى - : ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾.

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٦

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦٤

والاستفهام هنا يتضمن حضهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال والتعجيب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التى لا يقبلها عقل سليم، ولا تصور قويم.

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام. أى: أيسمعون ما يسمعون من الحق الذى يزهق باطلهم ومن النذر التى ترقق القلوب فلا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا.

إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين ليدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم.

قال أبو السعود: وقوله ﴿والله غفور رحيم﴾ جملة حالية من فاعل ﴿يستغفرونه﴾ مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار.

أى: والحال أن الله: - تعالى - مبالغ فى المغفرة. فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله»[١].

وقال ابن كثير: هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه. مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. فكل من تاب إليه تاب عليه. كما قال ﴿والله غفور رحيم﴾ فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم[٢].

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتهما ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾.

وقوله ﴿صديقة﴾ صيغة مبالغة فى التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة فى الشرب والمسك.

قال الراغب: والصديق من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لم يكذب قط: وقيل: بل لمن لا يأتى منه الكذب لتعوده الصدق. وقيل، لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله.. قال تعالى - ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فالصديقون هم قوم دون الأنبياء فى الفضيلة[٣].

---

(١) تفسير أبو السعود جـ٧ ص ٥٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٨١

(٣) المفردات فى غريب القرآن الكريم ص ٢٧٧

والمعنى : إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. قد قالوا منكرا وزورا، إذ ليس الألوهية إلا لله وحده وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعى واحد منهم الألوهية. وأما أم عيسى مريم فما هى إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له فى سائر أمورها. وهما - أى عيسى وأمه مريم - عبدان من عباد الله كانا يأكلان الطعام، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوهما بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافيا تاما مع صفات الألوهية : إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم، وعظيم جهلكم.

وقوله ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول﴾ جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافى، أى أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهى الألوهية فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى فى عيسى أنه الله، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة.

وقوله : ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة للرسول وهو عيسى أريد بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه فى تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ وأنه ليس بدعا فى هذا الوصف وإذا فلا شبهة للذين زعموا انه إله «لأنه لم يجىء بشىء زائد على ما جاء به الرسل».

وقوله. ﴿وأمه صديقة﴾ معطوف على قوله : ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول﴾ والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها، ونفى أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، فهى ليست إلها. كما أنها ليست رسولا.

ولذا قال ابن كثير: دلت الآية على أن مريم ليست بنبية - كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ والذى عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال - قال تعالى - ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى﴾[1].

وقوله : ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى -

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس. لأنها صفة واضحة

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص٨١

ظاهرة للناس، ودالة على احتياجهما لغيرهما فى مطلب حياتهما، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون الها.

وقال صاحب الكشاف : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة. . وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا للإله أن يكون كذلك(١).

ففى هذه الجمل الكريمة رد على ما زعمه النصارى فى شأن عيسى وأمه بأبلغ وجه وأحكمه، ولذا عجب الله - تعالى - رسوله وكل من يصلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال : ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أى : يصرفون. يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشىء.

أى : انظر - يا محمد - كيف تبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحًا ظاهرًا. ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم.

فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوال النصارى الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة. مع أنه - سبحانه - أقام لهم الأدلة المتعددة على بطلان ذلك.

وكرر الله - سبحانه - الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب من أحوالهم الغريبة وجىء بثم المفيدة للتراخى فى قوله ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ لإظهار ما بين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من تفاوت شديد أى : أن بياننا للآيات أمر بديع فى بابه بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها، ويخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات. وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها وتعاضد ما يوجب قبولها - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم وسوء تفكيرهم.

ثم تابع - سبحانه - حديثه عن ضلال أهل الكتاب وجهالتهم فأمر رسوله - ﷺ أن يوبخهم على عنادهم وغفلتهم وأن يواصل دعوتهم إلى الدين الحق فقال - تعالى :

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦٥

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾

والاستفهام فى قوله ﴿أتعبدون﴾ لإنكار واقعهم والتعجيب مما وقع منهم، وتوبيخهم على جهلهم وغفلتهم.

و ﴿ما﴾فى قوله ﴿ما لا يملك﴾ يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذى وأن تكون نكرة موصوفة. والجملة بعدها صلة فلا محل لها أو صفة فمحلها النصب.

وقوله ﴿يملك﴾ من الملك بمعنى حيازة الشىء والتمكن من التصرف فيه بدون عجز.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم فى الكفر والشرك قل لهم : أتعبدون معبودات غير الله - تعالى - هذه المعبودات لا تملك أن تصيبكم بشىء من الضرر كالمرض والفقر، ولا تملك أيضًا أن تنفعكم بشىء من النفع كبسط الرزق ودفع الضر وغير ذلك مما أنتم فى حاجة إليه.

فالمراد بما لا يملك : كل ما عبد من دون الله من حجر أو وثن أو غيرهما فتكون «ما» للعموم وليست كناية عن عيسى وأمه فحسب.

وقد سار على هذا المعنى ابن كثير فقال : يقول- تعالى - منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، ومبينا له أنها لا تستحق شيئًا من الألوهية فقال - تعالى - ﴿قل﴾ أى : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم ودخل فى ذلك النصارى وغيرهم ﴿أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرًا ولا نفعا﴾[1].

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله : ﴿مالا يملك﴾ عيسى - عليه السلام - أو هو وأمه لأن الكلام مع النصارى الذين قال بعضهم : إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال آخرون منهم : إن الله ثالث ثلاثة، فتكون الآية دليلا آخر - بعد الأدلة السابقة - على فساد أقوال النصارى فى عيسى وأمه مريم.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون -من دون الله- عيسى وأمه وهما لا يستطيعان أن يضراكم بشىء من الضرر فى الأنفس والأموال، ولا أن ينفعاكم بشىء من النفع كإيجاد الصحة والخصب والسعة، لأن الضر والنفع من الله وحده وكل ما يستطيعه البشر من المضار أو المنافع هو بتمكين الله لهم وليس بقدرتهم الذاتية.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٨٢

وأوثرت «ما» على «من» لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأسا، ببيان انتظامهما فى مسلك الأشياء التى لا قدرة لها على شىء أصلا ولا شك أن من صفات الرب أن يكون قادرًا على كل شىء، فقول النصارى بأن الله هو المسيح ابن مريم أو هو ثالث ثلاثة، قول ظاهر البطلان واضح الفساد.

وعلى كلا القوالين فالآية الكريمة تنفى أن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - يستحق العبادة والخضوع، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شىء، والخالق لكل شىء ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

وقدم - سبحانه - الضر على النفع فقال: ﴿مالا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا﴾ لأن النفوس أشد تطلعا إلى دفعه من تطلعها إلى جلب الخير، ولأنهم كانوا يعبدون غير الله - تعالى - وهمهم الأكبر أن هذا المعبود يستطيع أن يقربهم إلى الله زلفى، وأن يمنع عنهم المصائب والأضرار.

وقوله: ﴿والله هو السميع العليم﴾ فى محل نصب على الحال. من فاعل ﴿أتعبدون﴾ أى أتعبدون آلهة سوى الله لا تملك ضرركم أو نفعكم وتتركون عبادة الله والحال أن الله وحده هو السميع لكل ما تنطقون به، العليم بجميع أحوالكم وأعمالكم، وسيحاسبكم على ذلك وسيجازيكم على أقوالكم الباطلة وعقائدكم الزائفة، بما تستحقون من عذاب أليم.

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى طريق الحق، ونهاهم عن الغلو الباطل فقال: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم﴾ والغلو مصدر غلا فى الأمر: إذا تجاوز الحد. وهو نقيض التقصير.

وقد نهى النبى - ﷺ - عن الغلو حتى فى الدين، فقد روى الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «إياكم والغلو فى الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين»[1].

وروى البخارى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»[2].

وروى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون. قالها ثلاثة»[3] والمتنطعون هم المتشددون المتجاوزون للحدود التى جاءت بها تعاليم الإسلام.

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٢ حديث رقم ٢٢٥ طبعة الحلبى.
(٢) صحيح البخارى باب واذكر فى الكتاب مريم من كتاب الأنبياء جـ٤ ص ٣٠٤
(٣) صحيح مسلم كتاب العلم جـ٨ ص ٥٨

وقد غالى أهل الكتاب فى شأن عيسى - عليه السلام - أما اليهود فقد كفروا به ونسبوه إلى الزنا وافتروا عليه وعلى أمه افتراء شديدًا وأما النصارى فقد وصفوه بالألوهية فوضعوه فى غير موضعه الذى وضعه الله فيه وهو منصب الرسالة. وكما غالوا فى شأن عيسى عليه السلام - فقد غالوا أيضا فى تمسكهم بعقائدهم الزائفة، مع أن الدلائل الواضحة قد دلت على بطلانها وفسادها.

وقوله ﴿غير الحق﴾ منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف. أى: لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق: أى: غلوا باطلا.

وقوله: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم﴾ معطوف على قوله: ﴿لا تغلوا﴾

قال الفخر الرازى: الأهواء - ههنا - المذاهب التى تدعو إليها الشهوة دون الحجة.

قال الشعبى: ماذكر الله لفظ الهوى فى القرآن إلا ذمه. قال: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ وقال: ﴿واتبع هواه فتردى﴾ وقال: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وقال: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾.

وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا فى الشر لا يقال: فلان يهوى الخير إنما يقال يريد الخير ويحبه.

وقيل: سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى النار. وأنشد فى ذم الهوى:

إن الهوى الهوان بعينه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانًا

وقال رجل لابن عباس: الحمد الله الذى جعل هو اى على هواك. فقال ابن عباس: كل هوى ضلالة»[1].

والمعنى: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين تجاوزوا الحدود التى تقرها الشرائع والعقول السليمة، قل لهم يا أهل الكتاب: ﴿لا تغلوا فى دينكم غير الحق﴾ أى: لا تتجاوزوا حدود الله تجاوزا باطلا، كأن تعبدوا سواه مع أنه هو الذى خلقكم ورزقكم، وكأن تصفوا عيسى بأوصاف هو برىء منها.

وقل لهم أيضًا: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم﴾ أى: ولا تتبعوا شهوات وأقوال قوم من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم ﴿قد ضلوا من قبل﴾ أى: قد ضلوا من قبل بعثة النبى ﷺ بتحريفهم للكتب السماوية وتركهم لتعاليمها جريًا وراء شهواتهم وأهوائهم ﴿وأضلوا كثيرًا﴾ أى أنهم لم يكتفوا بضلال أنفسهم بل أضلوا أناسًا كثيرين سواهم ممن قلدهم ووافقهم على أكاذيبهم وقوله: ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ معطوف على قوله ﴿قد ضلوا من قبل﴾.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٦٣

أى أنهم قد ضلوا من قبل البعثة النبوية الشريفة، وضلوا من بعدها عن ﴿سواء السبيل﴾ أى : عن الطريق الواضح الذى أتى به النبى ﷺ وهو طريق الإسلام وذلك لأنهم لم يتبعوه ﷺ مع معرفتهم بصدقه؛ بل كفروا به حسدا له على ما آتاه الله من فضله.

فأنت ترى أنه - تعالى - قد وصفهم - كما يقول الإمام الرازى - بثلاث درجات فى الضلال : فبين أنهم كانوا ضالين من قبل، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى الآن ضالون كما كانوا ولانجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقابه من هذه الحالة ويحتمل أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم فى ذلك الإضلال أنه إرشاد إلى الحق(١).

هذا، ومما أخذه العلماء من هذه الآية الكريمة أن الغلو فى الدين لا يجوز وهو مجاوزة الحق إلى الباطل وقد سقنا من الآثار ما يشهد بذلك عند تفسيرنا لصدر الآية الكريمة.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه دلت الآية على أن الغلو فى الدين غلوان «غلو حق» وهو أن يفحص عن حقائقه، ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون. وغلو باطل، وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه. كما يفعل أهل الأهواء والبدع والضلال(٢).

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الرذائل التى شاعت فى بنى إسرائيل، والتى بسببها استحقوا اللعن والطرد من رحمة الله فقال - تعالى - :

لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى
ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٦٤
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦٦

أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠
وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ
مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١

وقوله ﴿لعن﴾ من اللعن بمعنى الطرد من رحمة الله فالملعون هو المحروم من رحمته - سبحانه - ولطفه وعنايته.

والمعنى : لعن الله - تعالى - الذين كفروا من بنى إسرائيل بأن طردهم من رحمته، على لسان نبيين كريمين هما داود وعيسى - عليهما السلام -

وقد جاء الفعل «لعن» بالبناء للمجهول لأن الفاعل معلوم وهو الله - تعالى - ولأن الأنبياء ومنهم داود وعيسى لا يلعنون أحدا إلا بإذن الله - سبحانه -

وقوله : ﴿من بنى إسرائيل﴾ فى محل نصب على الحال من الذين كفروا أو من فاعل ﴿كفروا﴾ وهو واو الجماعة.

وقوله : ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ متعلق بلعن. أى : لعنهم - سبحانه - فى الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين الكريمين اللذين كان أولهما - بجانب منصب الرسالة - قائدا مظفرا قادهم إلى النصر بعد الهزيمة. وكان ثانيهما وهو عيسى - عليه السلام - رسولا مسالما جاءهم ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم.

قال الآلوسى : لعنهم الله - تعالى - فى الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بأن أنزل فى هذين الكتابين «ملعون من يكفر من بنى إسرائيل بالله أو بأحد من رسله».

وقيل : إن أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت قال داود : اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين فمسخهم الله قردة.

وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى قال : اللهم عذب من كفر من المائدة عذابا لم تعذبه أحدًا من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت»[1].

وقوله : ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ بيان لسبب لعنهم وطردهم من رحمة الله.

واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى اللعن المذكور.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ٢١١

أى : ذلك اللعن للكافرين من بنى إسرائيل سببه عصيانهم لله ولرسله، وعدوانهم على الذين يأمرونهم بالقسط من الناس.

أى أن لعنهم لم يكن اعتباطًا أو جزافًا، وإنما كان بسبب أقوالهم القبيحة وأفعالهم المنكرة، وسلوكهم السيء.

وقوله : ﴿ذلك بما عصوا﴾ جملة من مبتدأ وخبر. وقوله : ﴿وكانوا يعتدون﴾ معطوف على صلة ما وهو ﴿عصوا﴾ فيكون داخلا فى حيز السبب الذى أدى إلى لعنهم والجملة المكونة من اسم الإشارة ﴿ذلك﴾ وما بعدها مستأنفة واقعة موقع الجواب لسؤال تقديره لماذا لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل؟

وقد أفاد اسم الإشارة مع باء السببية ومع وقوع الجملة فى جواب سؤال مقدر أفاد مجموع ذلك ما يشبه القصر.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

أى : لم يكن ذلك اللعن الشنيع إلا لأجل المعصية والاعتداء لا لشىء آخر،[1].

وعبر - سبحانه - عن عصيانهم بالماضى فقال ﴿ذلك بما عصوا﴾ للإشارة إلى استقرار العصيان فى طبائعهم، وثباته فى نفوسهم وجوارحهم.

وعبر عن عدوانهم بالمضارع، للإيذان بأنه مستمر قائم، فهم لم يتركوا نبيًا إلا وآذوه، ولم يتركوا مصلحا إلا واعتدوا عليه فاعتداؤهم على المصلحين مستمر فى كل زمان ومكان.

ثم فسر - سبحانه - عصيانهم وعدوانهم بقوله ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون﴾.

وقوله ﴿يتناهون﴾ من التناهى.

قال الفخر الرازى : وللتناهى ههنا معنيان :

أحدهما : وهو الذى عليه الجمهور - أنه تفاعل من النهى. أى : كانوا لا ينهى بعضهم بعضًا.

روى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : «من رضى عمل قوم فهو منهم. ومن كثر سواد قوم فهو منهم»

والمعنى الثانى : فى التناهى أنه بمعنى الانتهاء عن الأمر، تناهى عنه إذا كف عنه»[2].

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦٧

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٦٤

والمنكر: هو كل ما تنكره الشرائع والعقول من الأقوال والأفعال.

أى أن مظاهر عصيان الكافرين من بنى إسرائيل وتعديهم مما أدى إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله أنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن اقتراف المنكرات. واجتراح السيئات، بل كانوا يرون المنكرات ترتكب فيسكتون عليها بدون استنكار مع قدرتهم على منعها قبل وقوعها.

وهذا شر ما تصاب به الأمم حاضرها ومستقبلها: أن تفشو فيها المنكرات والسيئات والرذائل فلا تجد من يستطيع تغييرها وإزالتها.

وقوله: ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ذم لهم على كثرة ولوغهم فى المعاصى والمنكرات وتعجب من سوء فعلهم.

واللام فى قوله ﴿لبئس﴾ لام القسم فكأنه - سبحانه - قال: أقسم لبئس ما كانوا يفعلون وهو ارتكاب المعاصى والعدوان وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ للتعجيب من سوء فعلهم مؤكدا لذلك بالقسم. فياحسرة على المسلمين فى إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير، وقلة عبئهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام فى شىء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات فى هذا الباب.

فإن قلت ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهى بعد الفعل؟ قلت: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله كماترى أمارات الخوض فى الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فتنكر»[1].

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهما قوام الأمم وسياج الدين ولاصلاح لأمة من الأمم إلا بالقيام بحقهما.

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث فى هذا المعنى.

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وروى الامام أحمد فى معنى الآية عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم أو فى أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٦٧.

قال ابن مسعود : وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس فقال : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرًا - أى تحملوهم على التزام الحق وتعطفوهم عليه ».

وروى الترمذى عن حذيفة بن اليمان : أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم ».

وروى الامام أحمد عن عدى بن عميرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله - لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه. فإذا فعلوا ذلك لعن الله العامة والخاصة ».

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال يارسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال : « إذا ظهر فيكم ماظهر فى الأمم قبلكم قلنا : يارسول الله، وما الذى ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال ﷺ : الملك فى صغاركم، والفاحشة فى كباركم، والعلم فى رذالتكم »[١] أى فى فساقكم.

هذا جانب من الأحاديث التى وردت فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فعلى الأمة الاسلامية أن تقوم بحقها حتى تكون مستحقة لمدح الله -تعالى- لها بقوله : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[٢].

ثم حكى - سبحانه - ما كان يقوم به اليهود فى العهد النبوى من تحالف مع المشركين ضد المسلمين فقال : ﴿ترى كثيرًا منهم يتولون الذين كفروا﴾.

أى : ترى - أيها الرسول الكريم - كثيرا من بنى إسرائيل المعاصرين لك يوالون الكافرين ويحالفونهم عليك؛ بسبب حسدهم لك على ما آتاك الله من فضله وبسبب كراهتهم للإسلام والمسلمين.

والذى يقرأ تاريخ الدعوة الاسلامية يرى أن اليهود كانوا دائما يضعون العراقيل فى طريقها، ويناصرون كل محارب لها، ففى غزوة الأحزاب انضم بنو قريظة إلى المشركين ولم يقيموا وزنا للعهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين المسلمين[٣].

وفى كل زمان ومكان نرى أن اليهود يحاربون الاسلام والمسلمين، ويؤيدون كل من يريد لهما الشرور والأضرار.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٨٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٣) راجع كتابنا بنو إسرائيل فى القرآن والسنة جـ٤ ص ٣٠٧ مبحث تحالفهم مع المنافقين ضد المسلمين.

وقوله : ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون﴾ ذم لهم على موالاتهم للمشركين وبيان لما حاق بهم من سوء المصير بسبب مناصرتهم لأعداء الله، ومحاربتهم لأوليائه.

أى : لبئس ما قدمت لهم أنفسهم من أقوال كاذبة وأعمال قبيحة وأفعال منكرة استحقوا بسببها سخط الله عليهم، ولعنه إياهم كما استحقوا أيضًا بسببها الخلود الدائم فى العذاب المهين.

قال الجمل : و﴿ما﴾ فى قوله ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ هى الفاعل، وقوله : ﴿وفى العذاب هم خالدون﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها فهى من جملة المخصوص بالذم. فالتقدير : سخط الله عليهم وخلدهم فى العذاب(١).

ثم بين - سبحانه - الدوافع التى حملت هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب على ولاية الكافرين ومصادقتهم ومعاونتهم على حرب المسلمين فقال :

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾.

فالضمير فى قوله ﴿كانوا﴾ يعود إلى أولئك الكثيرين من أهل الكتاب الذين حملهم حقدهم وبغضهم للنبى ﷺ ولأتباعه على موالاة الكافرين.

والمراد -هنا- بالنبى : موسى - عليه السلام - وبما أنزل إليه التوراة، لأن الحديث مع الكافرين من بنى إسرائيل الذين يزعمون أنهم من أتباع موسى.

وقيل المراد به النبى ﷺ؛ والمراد بما أُنزل إليه : القرآن.

أى : ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله إيمانا حقا، ويؤمنون بنبيهم موسى إيمانا صادقا ويؤمنون بالتوراة التى أنزلها الله عليه إيمانا سليما، لو كانوا مؤمنين هذا الإيمان الصادق، لكفوا عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصفياء، لأن تحريم موالاة المشركين متأكدة فى التوراة وفى كل شريعة أنزلها الله على نبى من أنبيائه.

وقوله : ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ استدراك لبيان حالهم، ولبيان سبب موالاتهم للكافرين وعداوتهم للمسلمين.

أى : ولكن كثيرًا من هؤلاء اليهود فاسقون، أى : خارجون عن الدين الحق إلى الأديان الباطلة، فدفعهم هذا الفسق وما صاحبه من حقد وعناد على موالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين.

وقد كرر سبحانه وصف الكثيرين منهم بالصفات الذميمة، إنصافا للقلة التى آمنت وتمييزا لها عن تلك الكثرة الكافرة الفاسقة..

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٦ ص ٦٥١

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت ما عليه الكافرون من بنى إسرائيل من صفات ذميمة، أفضت إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله، حتى يحذرهم المسلمون ويجتنبوا سلوكهم السيء، وخلقهم القبيح.

وبعد هذا الحديث الطويل الذى طوفت فيه سورة المائدة مع أهل الكتاب بصفة عامة ومع اليهود بصفة خاصة، والذى تحدثت خلاله عن علاقة المؤمنين بهم وعن العهود التى أخذها الله عليهم وموقفهم منها، وعن دعاواهم الباطلة وكيف رد القرآن عليها، وعن أخلاقهم السيئة، وعن مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين، وعن المصير السيء الذى ينتظرهم إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم، وعن المنهاج القويم الذى استعمله القرآن معهم فى دعوتهم إلى الدين الحق، بعد هذا الحديث الطويل معهم فى تلك الموضوعات وفى غيرها نرى السورة الكريمة فى نهاية المطاف تحدثنا عن أشد الناس عداوة للمؤمنين وعن أقربهم مودة لهم فتقول:

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشي وفدا إلى رسول ﷺ فأسلموا، قال : فأنزل الله فيهم : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود﴾ إلى آخر الآية. قال : فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم النجاشي فلم يزل مسلما حتى مات، فقال رسول الله ﷺ : إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه فصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة والنجاشي بالحبشه.

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى فى سبب نزول هذه الآيات : والصواب فى ذلك من القول عندى، أن الله - تعالى - وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى، وأن نبى الله ﷺ يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الايمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا، لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[1].

فقوله - تعالى - ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ جملة مستأنفة لتقرير ماقبلها من آيات سجلت على اليهود كثيرًا من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة.

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم اعتناء ببيان تحقق مضمونها، والخطاب للنبى - ﷺ ويصح أن يكون لكل من يصلح للخطاب للإيذان بأن حالهم لا تخفى على أحد من الناس.

والمعنى : أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهما اليهود والذين اشركوا، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور. وهذه الرذائل متى تمكنت فى النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق.

وقوله ﴿أشد الناس﴾ مفعول أول لقوله ﴿لتجدن﴾ ومفعوله الثانى ﴿اليهود﴾ وقوله ﴿عداوة﴾ تمييز.

قال الآلوسى : والظاهر أن المراد من اليهود العموم، أى من كان منهم بحضرة الرسول الله ﷺ من يهود المدينة وغيرهم ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ماخلا يهودى بمسلم إلا هم بقتله» وقيل المراد بهم يهود المدينة وفيه بعد، وكما اختلف فى عموم اليهود اختلف فى عموم الذين أشركوا. والمراد من ﴿الناس﴾. كما قال أبو حيان - الكفار : أى لتجدن أشد الكفار عداوة هؤلاء.

ووصفهم - سبحانه - بذلك لشدة كفرهم، وانهماكهم فى اتباع الهوى، وقربهم إلى

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ٣

التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء، وقد قيل : إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم فى الدين بأى طريق كان وفى تقديم اليهود على المشركين إشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة»[١].

وقوله : ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان.

أى : لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى.

قال ابن كثير : أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة : وما ذاك إلا لما فى قلوبهم - من لين عريكة - إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال - تعالى - ﴿وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية﴾ وفى كتابهم : «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» وليس القتال مشروعا فى ملتهم[٢].

وقال الجمل : فإن قلت : كفر النصارى أشد من كفر اليهود لأن النصارى ينازعون فى الألوهية فيدعون أن لله ولدا، واليهود ينازعون فى النبوة فينكرون نبوة بعض الأنبياء فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟

قلت : هذا مدح فى مقابلة ذم وليس مدحًا على إطلاقه، وإيضًا الكلام فى عداوة المسلمين وقرب مودتهم لا فى شدة الكفر وضعفه[٣].

وقوله : ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين.

والقسيسين : جمع قسيس. وأصله من قس إذا تتبع الشىء فطلبه، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم.

والرهبان : جمع راهب كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع، والراهب هو الرجل العابد الزاهد المنصرف عن الدنيا، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف. يقال : رهب فلان ربه يرهبه، أى : خافه.

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٧ ص ١

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥١٧

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٥١٧

والمعنى : ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى، وذلك لأن منهم القسيسين الذين يرغبون فى طلب العلم ويرشدون غيرهم إليه، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضًا فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبرين.

وفى ذلك تعريض باليهود والمشركين لأن غرورهم واستكبارهم جعلهم ينصرفون عن الحق فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار، وأن النبوة يجب أن تكون فيهم والمشركون يرون أن النبوة يجب أن تكون فى أغنيائهم وزعمائهم. وقد حملهم هذا الغرور على الكفر بالنبى ﷺ لأنهم وجدوا أكثر أتباعه من الفقراء.

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت.

ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال : ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ والمراد بالرسول : محمد ﷺ وبما أنزل إليه : القرآن الكريم.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله؛ ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ والضمير فى قوله ﴿سمعوا﴾ يعود على الذين قالوا إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به.

أى، أن من صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما تقدم، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله ﷺ من قرآن تأثرت قلوبهم. وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزارة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذى بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه.

وفى التعبير عنهم بقوله : ﴿ترى﴾ الدالة على الرؤية البصرية والتى هى أقوى أسباب العلم الحسى، مبالغة فى مدحهم، حيث يراهم الرائى وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق.

فلقد كانوا يحسون أنهم فى ظلام وضلال فلما سمعوا الحق أشرقت له نفوسهم ودخلوا فى نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له.

وقوله ﴿تفيض﴾ من الفيض وهو انصباب عن امتلاء : يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه.

وقد أجاد صاحب الكشاف فى تصوير هذا المعنى فقال : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿تفيض

من الدمع﴾ قلت: معناه تمتلىء من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلىء الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه. فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها. أى: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعا.

فإن قلت: أى فرق بين من ومن فى قوله: ﴿مما عرفوا من الحق﴾؟ قلت: الأولى لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية لتبيين الموصول الذى هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟[1].

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال: ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

أى: يقولون بعد أن سمعوا الحق: ياربنا إننا آمنا بما سمعنا إيمانا صادقا فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ التى آمنت به وشهدت بصدق رسولك محمد ﷺ وبصدق كل رسول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول فى الدين الحق، فقال. ﴿ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾.

فالآية الكريمة من تتمة قولهم.

والاستفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته، وظهور أماراته ووضوح أدلته وشواهده.

والمعنى: وأى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبما جاءنا على لسان رسوله محمد ﷺ من قرآن يهدى إلى الرشد ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا - مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقيدة السليمة، وبالعبادات الصحيحة وبالأخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبى الأمى محمد ﷺ فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت نفوسهم به تأثرًا شديداً فاضت معه أعينهم بالدمع. ثم بعد ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التى تشهد على غيرها يوم القيامة. ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته. وهذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٧٠

كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس:

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ونطمع أن يدخلنا﴾ يدل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد على الدين الحق والمسارعة إلى العمل الصالح، لم يجزموا بحسن عاقبتهم، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع فى مغفرته، وفى أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد ﷺ.

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء.

ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئًا عظيما، عبر عنه - سبحانه - بقوله: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها؛ وذلك جزاء المحسنين﴾.

أى: فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، جنات تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أى: باقين فى تلك الجنات بقاء لا موت معه. ﴿وذلك﴾ العطاء الجزيل الذى منحه الله لهم ﴿جزاء المحسنين﴾ أى: المؤمنين المخلصين فى أقوالهم وأعمالهم.

والمراد بقوله ﴿بما قالوا﴾: ما سبق أن حكاه عنهم -سبحانه- من قولهم: ﴿ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ورتب الثواب المذكور على القول: لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم، وعلى صدق يقينهم، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان.

قال الآلوسى: قوله. ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أى بسبب قولهم أو بالذى قالوه عن اعتقاد، فإن القول إذا لم يقيد بالخلو عن الاعتقاد يكون المراد به المقارن له، كما إذا قيل: هذا قول فلان، لأن القول إنما يصدر عن صاحبه لإفادة الاعتقاد.

وقيل: إن القول هنا مجاز عن الرأى والاعتقاد والمذهب كما يقال: هذا قول الامام الأعظم أى: هذا مذهبه واعتقاده. وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بهذا القول قولهم: ﴿ربنا آمنا﴾. وقولهم ﴿ومالنا لا نؤمن﴾[1]

وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا، بل أكبر مما طلبوا، فقد كانوا يطمعون فى أن يكونوا مع القوم الصالحين، وأن يكتبهم مع الشاهدين. فأعطاهم -

(١) تفسير الآلوسى جـ ٧ ص ٦

سبحانه - جنات تجرى من تحتها الأنهار. وسماهم محسنين. والإحسان أعلى درجات الإيمان، وأكرم أوصاف المتقين .

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فآمنوا به، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم. أما الذين سمعوا فأعرضوا وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيىء بقوله : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

أى : والذين كفروا وجحدوا الحق الذى جاءهم، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم، أى : النار الشديدة الاتقاد. يقال : جحم فلان النار إذا شدد إيقادها.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا فى الدين الحق بسرعة ورغبة، فأكرمهم الله غاية الإكرام، وهذا ينطبق على كل نصرانى ينهج نهجهم، ويسلك مسلكهم، فيدخل فى الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون .

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير.

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم عن تحريم الطيبات التى أحلها الله لهم، وأمرهم أن يتمتعوا بما رزقهم من رزق طيب حلال فقال - تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قال صاحب المنار بدأ الله - هذه السورة بآيات من أحكام الحلال والحرام والنسك.

ثم جاء بهذا السياق الطويل فى بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم، فكان أوفى وأتم ماورد فى القرآن من ذلك، ولم يتخلله إلا قليل من الأحكام. وهاتان الآيتان وما بعدهما عود إلى أحكام الحلال والحرام والنسك التى بدئت بها السورة.

وإنما لم تجعل آيات الأحكام كلها فى أول السورة وتجعل الآيات فى أهل الكتاب مفصلا

بعضها ببعض فى باقيها. لما بيناه غير مرة من حكمة مزج المسائل والموضوعات فى القرآن من حيث هو مثانى تتلى دائما للاهتداء بها، لاكتابا فنيًا ولا قانونا يتخذ لأجل مراجعة كل مسألة من كل طائفة من المعانى فى باب معين.

على أن نظمه وترتيب آياته يدهش أصحاب الأفهام الدقيقة بحسنه وتنسيقه كما ترى فى مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما مباشرة.

ذلك أنه - تعالى - ذكر أن النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا وذكر من سبب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا فكان من مقتضى هذا أن يرغب المؤمنون فى الرهبانية ويظن الميالون للتقشف والزهد أنها مرتبة كمال تقربهم إلى الله - تعالى - وهى إنما تتحقق بتحريم التمتع بالطيبات. وقد أزال الله - تعالى - هذا الظن وقطع طريق تلك الرغبة بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾[1].

هذا، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات متعددة منها ما أخرجه الترمذى وابن جرير عن ابن عباس: أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إنى إذا أكلت انتشرت للنساء، وأخذتنى شهوتى فحرمت على اللحم. فأنزل الله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لاتحرموا﴾. الآية[2].

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال، كان: أناس من أصحاب النبى ﷺ هموا بالخصاء وترك اللحم والنساء، فنزلت هذه الآية ﴿يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ وعن أبى قلابة قال: أراد أناس من أصحاب النبى ﷺ أن يرفضوا الدنيا، ويتركوا النساء ويترهبوا فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقالة. ثم قال: «إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وحجوا واعتمروا واستقيموا». قال: ونزلت فيهم: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا﴾ الآية وعن أبى طلحة عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح فى الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم. فقال النبى ﷺ: «لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتى فهو منى، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى».

وقد وجه سبحانه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان؛ لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم حتى يمتثلوا أوامر الله ونواهيه.

---

(١) تفسير المنار جـ٧ ص١٨ بتصرف وبتلخيص

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٨٧

والمراد بقوله : ﴿لا تحرموا﴾ : لا تعتقدوا تحريم ما أحل الله لكم من طيبات بأن تأخذوا على أنفسكم عهدا بعدم تناولها أو الانتفاع بها.

فالنهى عن التحريم هنا ليس منصبا على الترك المجرد. فقد يترك الإنسان بعض الطيبات لأسباب تتعلق بالمرض أو غيره. وإنما هو منصب على اعتقاد أن هذه الطيبات يجب تركها ويأخذ الشخص على نفسه عهدا بذلك.

والمراد بالطيبات : الأشياء المستلذة المستطابة المحللة التى تقوى بدن الإنسان وتعينه على الجهاد فى سبيل الله، من طعام شهى، وشراب سائغ. وملبس جميل.

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا، لا تحرموا على أنفسكم شيئًا من الطيبات التى أحلها الله لكم، فإنه - سبحانه - ما أحلها لكم إلا لما فيها من منافع وفوائد تعينكم على شئون دينكم ودنياكم.

وقوله : ﴿ولا تعتدوا﴾ تأكيد للنهى السابق. والتعدى معناه : تجاوز الحدود التى شرعها الله - تعالى - عن طريق الإسراف أو عن طريق التقتير. أو عن طريق الاعتداء على حق الغير أو عن أى طريق يخالف ما شرعه الله - تعالى -.

وقوله : ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ فى موضع التعليل لما قبله.

أى : لا تحرموا - أيها المؤمنون - على أنفسكم ما أحله الله لكم من طيبات ولا تتجاوزوا حدوده بالإسراف. أو بالتقتير أو بتناول ما حرمه عليكم فإنه - سبحانه - لا يحب الذين يتجاوزون حدود شريعته، وسنن فطرته. وهدى نبيه ﷺ.

وبعد أن نهى - سبحانه - عن تحريم الطيبات أمر بتناولها والتمتع بها فقال : ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبًا، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾.

والأمر فى قوله ﴿وكلوا﴾ للإباحة. وقيل إنه للندب. ويرى بعضهم أنه للوجوب لأن من الواجب على المؤمن ألا يترك أمرا أباحه الله - تعالى - تركا مطلقًا لأن هذا الترك يكون من باب تحريم ما أحله الله.

أى : وكلوا - أيها المؤمنون - من الرزق الحلال الطيب الذى رزقكم الله إياه، وتفضل عليكم به ﴿واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه، وتلتزموا فى مأكلكم ومشربكم وملبسكم وسائر شئونكم حدود شريعته، وتوجيهات رسوله ﷺ.

والمراد بالأكل هنا التمتع بألوان الطيبات التى أحلها الله، فيدخل فيه الشرب مما كان حلالا، وكذلك يدخل فيه كل ما أباحه - سبحانه - من متعة طيبة تميل إليها النفوس وتشتهيها.

وعبر عن مطلق التمتع بما أحله الله بالأكل، لأنه أعظم أنواع المتع، وأهم ألوان منافع الإنسان التى عليها قوام حياته.

وقد زكى - سبحانه - طلب التمتع بعطائه وخيره بأمور منها: أنه جعله مما رزقهم إياه، وأنه وصفه بكونه حلالا وليس محرما، ويكونه طيبًا وليس خبيثًا.

والمأكول أو المشروب أو غيرهما متى كان كذلك اتجهت نفس المؤمن إليه بارتياح وطمأنينة واجتهدت فى الشكر لواهب النعم على ما أنعم وأعطى.

قال الألوسى: قوله: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا﴾ أى: كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله - تعالى - فحلالا مفعول به لكلوا. و ﴿مما رزقكم﴾ حال منه وقد كان فى الأصل صفة له إلا أن صفة النكرة إذا قدمت صارت حالا. والآية دليل لنا فى شمول الرزق للحلال والحرام إذ لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة سوى التوكيد وهو خلاف الظاهر فى مثل ذلك.

وقوله: ﴿واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾ استدعاء إلى التقوى وامتثال الوصية بوجه حسن.

والآية ظاهرة فى أن أكل اللذائذ لا ينافى التقوى. وقد أكل النبى ﷺ ثريد اللحم ومدحه، وكان يحب الحلوى»(١).

وقال القرطبى: قال علماؤنا: فى هذه الآية وما شابهها، والأحاديث الواردة فى معناها، رد على غلاة المتزهدين، وعلى كل أهل البطالة من المتصوفين، إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه.

قال الطبرى: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح. ولذلك رد النبى ﷺ التبتل على ابن مظعون، فثبت أنه لا فضل فى ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو فى فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله ﷺ وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون.

وقد جاء رجل إلى الحسن البصرى فقال له: إن لى جارا لا يأكل الفالوذج فقال له ولم؟ قال: يقول، لا يؤدى شكره. فقال الحسن: أفيشرب الماء البارد؟ قال: نعم. فقال الحسن: إن جارك جاهل، فإن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذج(٢).

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٧ ص ٩

(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص٢٦٢ بتصرف وتلخيص

والخلاصة أن هاتين الآيتين تنهيان المؤمنين عن تحريم الطيبات التى أحلها الله لهم، وتأمرانهم بالتمتع بها بدون إسراف أو تقتير مع خشيتهم لله - تعالى وشكره على ما وهبهم من نعم.

وذلك لأن ترك هذه الطيبات يؤدى إلى ضعف العقول والأجسام، والإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أقوياء فى عقولهم وفى أجسامهم وفى سائر شئونهم، لأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف - كما جاء فى الحديث الشريف.

ولأن دين الإسلام ليس دين رهبانية، وفى الحديث الشريف «إن الله لم يبعثنى بالرهبانية»[(١)] وإنما دين الإسلام دين عبادة وعمل، فهو لا يقطع العابد عن الحياة، ولكنه يأمره أن يعيش عاملا فيها غير منقطع عنها.

وإن التفاضل بين المؤمنين يكون باستقامة النفس، وسلامة العبادة وكثرة إيصال النفع للناس. ولا يكون بالانقطاع عن الدنيا، وتحريم طيباتها التى أحلها الله - تعالى.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تؤيد معنى هاتين الآيتين الكريمتين.

أما الآيات فمنها قوله - تعالى - ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[(٢)].

ومنها قوله - تعالى - ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾[(٣)].

وأما الأحاديث فمنها ما أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالوها - أى عدوها قليلة - فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

قال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله - ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له. لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[(٤)].

---

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص ٩

(٢) سورة الأعراف الآية ٣١

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٢.

(٤) أخرجه البخارى فى باب الترغيب فى النكاح من كتاب النكاح جـ٧ ص٢، وأخرجه مسلم فى كتاب النكاح جـ٤

ورحم الله الحسن البصرى فقد قال : إن الله - تعالى - أدب عباده فأحسن أدبهم فقال - تعالى - ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ ما عاب قوما ما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه»(١).

فعلى المؤمن أن يجتنب تحريم الطيبات التى أحلها الله له، وأن يتمتع بها بدون إسراف أو تقتير، وأن يداوم على شكر الله على نعمه وآلائه، وأن يجعل جانبًا من هذه النعم للاحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

قال الفخر الرازى : لم يقل - سبحانه - : وكلوا ما رزقكم الله، ولكن قال : ﴿وكلوا مما رزقكم الله﴾ وكلمة «من» للتبعيض. فكأنه قال : اقتصروا فى الأكل على البعض واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات لأنه إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال : ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾(٢).

ثم بين - سبحانه - كفارة اليمين، وأمر المؤمنين بحفظ أيمانهم فلا يكثروا منها، فقال - تعالى -

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ فى القوم الذين كانوا حرموا على أنفسهم النساء واللحم : قالوا يارسول الله. كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها؟ فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٦٧٢.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٧٢.

ولكن يؤاخذكم بما عقدتم بالإيمان﴾ الآية[١] واللغو من الكلام - كما يقول الراغب : مالا يعتد به منه، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور. وقد يسمى كل قبيح لغوا. قال - تعالى - ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾[٢].

ولغو اليمين. أن يحلف الحالف على شيء يرى أنه صادق فيه ثم يتبين له خلاف ذلك.

ويرى بعضهم أن لغو اليمين هو الذى يجرى على اللسان بدون قصد، كقولك لا والله وبلى والله.

وقد رجح هذا القول ابن كثير فقال ما ملخصه. واللغو فى اليمين هو قول الرجل فى الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله وهو مذهب الشافعى. وقيل هو فى الهزل. وقيل فى المعصية : وقيل على غلبة الظن وهو قول أبى حنيفة وأحمد والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان﴾[٣].

وقوله : ﴿عقدتم﴾ من العقد وهو الجمع بين أطراف الشيء لتوثيقه وهو نقيض الحل : وقرأ حمزة والكسائى ﴿عقدتم﴾ بالتخفيف. وقرأ ابن عامر «عاقدتم».

والمراد بعقد الأيمان توكيدها وتوثيقها قصدا ونية.

والمعنى : لا يؤاخذكم الله - أيها المؤمنون - فضلا منه وكرما على اللغو فى اليمين وهو ما يجرى على ألسنتكم بدون قصد. ولكن يؤاخذكم بالعقوبة فى الآخرة أو بوجوب الكفارة بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد والنية، إذا حنثتم فيها، بأن تعمدتم الكذب فى أيمانكم.

فالمراد بعدم المؤاخذة فى قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ : عدم المعاقبة فى الدنيا بالكفارة ولا فى الآخرة بالعقوبة.

والمراد بالمؤاخذة فى قوله : ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ : العقوبة الأخروية عند جمهور الفقهاء ويرى الشافعى أن المراد بها الكفارة التى تجب على الحانث.

وقوله ﴿فى أيمانكم﴾ متعلق باللغو. وما فى قوله ﴿بما عقدتم﴾ مصدرية أى : ولكن يؤاخذكم بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها. ويحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف. أى ولكن يؤاخذكم بالذى عقدتم الأيمان عليه.

وقوله : ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص١٣.
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص٤٥١.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٨٩.

رقبة﴾ بيان لكيفية الكفارة والضمير فى قوله : فكفارته يعود على الحنث الدال عليه سياق الكلام وإن لم يجر له ذكر.

أى : فكفارة الحنث. ولا مانع من عودته إلى الحالف إذا حنث فى يمينه فيكون المعنى : فكفارة الحالف إذا حنث فى يمينه إطعام عشرة مساكين لأن الشخص الحانث فى يمينه هو الذى يجب عليه التكفير عن حنثه.

والكفارة من الكفر بمعنى الستر، وهى اسم للفعلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة، أى تسترها وتمحوها، لأن الشيء الممحى يكون كالشيء المستور الذى لا يرى ولا يشاهد.

وكلمة ﴿أوسط﴾ يرى بعضهم أنها بمعنى الأمثل والأحسن، لأن لفظ الأوسط كثيرًا ما يستعمل بهذا المعنى ومنه قوله - تعالى ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبحون﴾[١] أى : قال أحسنهم عقلا وأمثلهم فكرا ونظرًا.

ويرى آخرون أن الأوسط هنا بمعنى المتوسط لأن هذا هو الغالب فى استعمال هذه الكلمة، أى يطعمهم لا من أفخر أنواع الطعام ولا من اردئه ولكن من الطعام الذى يطعم منه أهله فى الغالب.

والمعنى : لقد تفضل الله عليكم - أيها المؤمنون - بأن رفع عنكم العقوبة والكفارة فى الأيمان اللغو، ولكنه - سبحانه - يؤاخذكم بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها إذا ما حنثتم فيها ومتى حنث أحدكم فى يمينه، فمن الواجب عليه لتكفير هذا اليمين ومحو إثمه أن يطعم عشرة مساكين طعاما يكون من متوسط ما يطعم منه أهله فى الجودة والمقدار، أو أن يكسو هؤلاء المساكين العشرة كساء مناسبا ساترا للبدن أو أن يحرر رقبة بأن يعتق عبدا من الرق فيجعله حرًا.

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿فكفارته إطعام﴾ مبتدأ وخبر.

وقوله : إطعام مصدر مضاف لمفعوله، وهو مقدر بحرف وفعل مبنى للفاعل أى فكفارته أن يطعم الحانث عشرة، وفاعل المصدر يحذف كثيرًا.

وقوله : ﴿من أوسط﴾ فى محل نصب مفعول ثان لإطعام؛ ومفعوله الأول عشرة أى : فكفارته أن تطعموا عشرة مساكين إطعاما من أوسط ما تطعمون أهليكم.. وقوله : ﴿ماتطعمون﴾ مفعوله الأول: أهليكم، ومفعوله الثانى:محذوف أى : « تطعمونه أهليكم »[٢].

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد خير الحانث فى يمينه بين أمور ثلاثة يختار إحداها، فإذا لم

(١) سورة ن الآية : ٢٨.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥٢١.

يستطع إحداها، فقد بين سبحانه له حكما آخر فقال: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾.

أى: فمن لم يجد ما يكفر حنثه فى يمينه من إطعام أو كساء أو تحرير رقبة فعليه حينئذ أن يصوم ثلاثة أيام، تطهيرا لنفسه، وتكفيرا عن ذنبه، وتقوية لإرادته وعزيمته.

واسم الإشارة فى قوله: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ يعود إلى المذكور من الإطعام والكساء وتحرير الرقبة والصوم.

أى: ذلك الذى شرعناه لكم كفارة لأيمانكم إذا حلفتم وحنثتم فيها، وخالفتم طريق الحق الذى أمركم الله تعالى باتباعه.

وقوله: ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أمر من الله تعالى لعباده بأن يصونوا أنفسهم عن الحنث فى أيمانهم، وعن الإكثار منها لغير ضرورة، فإن الإكثار من الحلف بغير ضرورة يؤدى إلى قلة الحياء من الله تعالى. كما أن الحلف الكاذب يؤدى إلى سخطه سبحانه على الحالف وبغضه له.

وقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ تذييل قصد به التذكير بنعم الله حتى يداوم الناس على شكرها وطاعة واهبها عز وجل.

أى: مثل هذا البيان البديع الجامع لوجوه الخير والفلاح، يبين الله لكم آياته المشتملة على الأحكام الميسرة، والتشريعات الحكيمة، والهدايات الجليلة لعلكم بذلك تستمرون على شكر الله وطاعته، وتواظبون على خشيته ومراقبته فتنالون ما وعدكم من فلاح وسعادة.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى:

١ - أن اليمين اللغو لا مؤاخذة فيها. أى: لا عقوبة عليها فى الآخرة ولا كفارة لها فى الدنيا لقوله تعالى: ﴿لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾.

ونعنى بها - كما سبق أن أشرنا - أن يقول الرجل من غير قصد الحلف لا والله وبلى والله.

ومع هذا فمن الأفضل للمؤمن ألا يلجأ إلى الحلف إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو لذلك؛ لأن الإكثار من الحلف يسقط مهابة الإنسان، وقد يفضى به إلى الاستهانة بالآداب الحميدة التى شرعها الله.

قال تعالى: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾[1].

٢ - أن اليمين التى يحلفها الحالف بالقصد والنية وهو كاذب فيها، يستحق صاحبها العذاب

(١) سورة النحل الآية ٩٤.

الشديد من الله - تعالى -، وهى التى يسميها الفقهاء باليمين الغموس، أى التى تغمس صاحبها فى النار - قال - تعالى - ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾.

أى : بما صممتم عليه منها وقصدتموه وأنتم حانثون فيها.

قال القرطبى ما ملخصه : خرج البخارى عن عبد الله بن عمرو قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما الكبائر؟ قال : «الإشراك بالله. قال : : ثم ماذا؟ قال : عقوق الوالدين. قال : ثم ماذا؟ قال : اليمين الغموس» قلت : وما اليمين الغموس؟ قال : التى يقتطع بها مال أمرىء مسلم وهو كاذب فيها».

وخرج مسلم عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة. فقال رجل : وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال ﷺ : وإن كان قضيبا من أراك».

وقد اختلف فى اليمين الغموس فالذى عليه الجمهور أنها يمين مكر وخديعة وكذب فلا تنعقد ولا كفارة فيها. لأن هذا الحالف قد جمع بين الكذب، واستحلال مال الغير، والاستخفاف باليمين بالله. فأهان ما عظمه الله، وعظم ما حقره الله، ولهذا قيل : إنما سميت اليمين الغموس غموسا، لأنها تغمس صاحبها فى النار.

وقال الشافعى : «هى يمين منعقدة، لأنها مكتسبة بالقلب، معقودة بخبر، مقرونة باسم الله - تعالى -، وفيها الكفارة.

والصحيح الأول : وهو قول مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة، وبه قال الأوزاعى والثورى وأهل العراق وأحمد وإسحاق وأصحاب الحديث وأصحاب الرأى من أهل الكوفة[1] :

٣ - أن ﴿أو﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة﴾ للتخيير.

أى : أن الحالف إذا حنث فى يمينه فهو مخير بين واحد من أمور ثلاثة ليكفر عن يمينه التى حنث فيها. وهذه الثلاثة هى الإطعام أو الكسوة، أو عتق الرقبة. فإذا لم يجد إحدى هذه الكفارات الثلاث انتقل إلى الصوم.

قال الفخر الرازى : وأعلم أن الآية دالة على أن الواجب فى كفارة اليمين أحد الأمور الثلاثة على التخيير، فإن عجز عنها جميعا فالواجب شىء آخر وهو الصوم.

ومعنى الواجب المخير أنه لا يجب عليه الإتيان بكل واحد من هذه الثلاثة ولا يجوز له تركها

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٢٦٨.

جميعا. ومتى أتى بأى واحد شاء من هذه الثلاثة فإنه يخرج عن العهدة. فإذا اجتمعت هذه القيود الثلاثة فذاك هو الواجب المخير»[١].

وللعلماء أقوال متعددة فى الإطعام المطلوب لكفارة اليمين.

قال القرطبى ما ملخصه: قوله - تعالى -: ﴿إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ لابد عندنا - أى المالكية - وعند الشافعى من تمليك ما يخرج لهم ودفعه إليهم حتى يتملكوه ويتصرفوا فيه.

وقال أبو حنيفة: لو غداهم وعشاهم جاز. والأوسط هنا منزلة بين منزلتين ونصفا بين طرفين - أى يطعمهم من غالب الطعام الذى يطعم منه أهله لا من أدناه حتى لا يبخس المساكين حقهم ولا من أعلاه حتى لا يتكلف ما يشق عليه -

والإطعام عند مالك: مد[٢] لكل واحد من المساكين العشرة. وبه قال الشافعى. وقال أبو حنيفة: يخرج من البر نصف صاع، ومن التمر والشعير صاعا. أى يخرج ما يجب فى صدقة الفطر.

ولا يجوز عندنا دفع الكفارة إلى مسكين واحد وبه قال الشافعى، لأن الله - تعالى - نص على العشرة فلا يجوز العدول عنهم، وأيضا فإن فيه إحياء جماعة من المسلمين وكفايتهم يوما واحدا، فيتفرغون فيه لعبادة الله ولدعائه، فغفر للمكفر بسبب ذلك.

وقال أبو حنيفه: يجزئه - أى: إذا أطعم واحدا عشر مرات أغنى عن إطعام العشرة - لأن المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه»[٣].

والكسوة التى تصلح لكفارة اليمين يلاحظ فيها أن تكون سابغة فى الجملة وهى تختلف باختلاف الأزمان والأحوال.

قال الشافعى: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة - من قميص أو سراويل - أجزأه ذلك.

وقال مالك وأحمد: لابد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلا أو امرأة كل بحسبه.

وقال أبو حنيفة: الكسوة فى كفارة اليمين لكل مسكين ثوب وإزار. ولا تجزىء القيمة عن

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص٧٤.
(٢) المد: ربع صاع
(٣) تفسير القرطبى جـ٧ ص٢٧٦.

الطعام والكسوة عند الشافعى.

وقال أبو حنيفة: تجزئ القيمة، لأن الغرض سد حاجة المحتاج، وقد تكون القيمة أنفع له.

والنوع الثالث الذى به تكون كفارة اليمين: تحرير رقبة أى: إعتاقها من الرق، والمراد بالرقبة جملة الإنسان.

قال الرازى: المراد بالرقبة: الجملة قيل: الأصل فى هذا المجاز أن الأسير فى العرب كانت تجمع يداه إلى رقبته بحبل. فإذا أطلق حل ذلك الحبل. فسمى الإطلاق من الرقبة فك الرقبة. ثم جرى ذلك على العتق. وقد أخذ بإطلاقها أبو حنيفة فقال: تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة. وقال الشافعى وآخرون: لابد أن تكون مؤمنة.

فإن قيل: أى فائدة فى تقديم الإطعام على العتق مع أن العتق أفضل لا محالة؟ قلنا له وجوه.

أحدها: أن المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب، لأنها لو وجبت على الترتيب لوجبت البداءة بالأغلظ.

وثانيها: قدم الإطعام لأنه أسهل، لكون الطعام أعم وجودا، والمقصود منه التنبيه على أنه - تعالى - يراعى التخفيف والتسهيل فى التكاليف.

وثالثها: أن الإطعام أفضل، لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام فيقع فى الضر. أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته[1].

٤ - يرى مالك والشافعى أن قوله: تعالى: ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ يصدق على الصيام المتتابع والمتفرق، فلو صام الحالف ثلاثة أيام متفرقة أجزأه ذلك، لأن التتابع صفة لا تجب إلا بنص أو قياس على منصوص وقد عدما.

ويرى أبو حنيفة وأحمد صوم الثلاثة أيام متتابعة، فقد قرأ أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وقراءتها لا تختلف عن روايتهما.

وقال ابن كثير: واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب ويجزىء التفريق؟ قولان:

أحدهما: لا يجب وهذا منصوص الشافعى فى كتاب الأيمان. وهو قول مالك، لإطلاق

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص٧٦ المطبعة البهية.

قوله : ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة كما فى قضاء رمضان لقوله : ﴿فعدة من أيام أخر﴾ ونص الشافعى فى موضع آخر فى الأم على وجوب التتابع كما هو مذهب الحنفية والحنابلة لأنه قد روى عن أبى بن كعب وغيره أنه كان يقرؤها «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وحكاها مجاهد والشعبى وأبوإسحاق عن عبدالله بن مسعود. وهذه، إذا لم يثبت كونها قرآنا متواترا فلا أقل من أن يكون خبر واحد أو تفسيرا من الصحابة وهو فى حكم المرفوع.

وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة يا رسول الله نحن بالخيار؟ قال : أنت بالخيار. إن شئت أعتقت. وإن شئت كسوتَ. وإن شئت أطعمت. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات[1].

ويبدو لنا أن الصيام المتتابع أفضل، لأن قراءة أبى وحديث حذيفة يزكيانه، ولأنه رأى عدد كبير من الصحابة منهم عبد الله بن مسعود.

٥ - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى : ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾ . . . الخ. أن الكفارة لا تكون إلا بعد الحنث؛ لأن السبب فى الكفارة هو الحنث، وما دام لم يتحقق فإنه لا كفارة.

وقال آخرون يجوز أن تتقدم الكفارة عند نية الحنث، وتقوم النية مقام الحنث بالفعل.

وقد تكلم عن هذه المسألة الإمام القرطبى فقال ما ملخصه : اختلف العلماء فى تقديم الكفارة على الحنث أتجزىء أم لا على ثلاثة أقوال:

أحدها : يجزىء مطلقا وهو مذهب أربعة وعشرين من الصحابة، وجمهور الفقهاء، وهو مشهور مذهب مالك، فقد قال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله ﷺ «وإنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير» رواه وأخرجه أبو داود.

ومن جهة المعنى أن اليمين سبب الكفارة، لقوله - تعالى ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ فأضاف الكفارة إلى اليمين والمعانى تضاف إلى أسبابها. وأيضا فإن الكفارة بدل عن البر فيجوز تقديمها قبل الحنث.

وثانيها : قال أبو حنيفة وأصحابه لا يجزىء بوجه لما رواه مسلم عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٩١ بتلخيص يسير.

خير - زاد النسائى - وليكفر عن يمينه».

ومن جهة المعنى أن الكفارة إنما هى لرفع الإثم، وما لم يحنث لم يكن هناك ما يرفع فلا معنى لفعلها. وأيضا فإن كل عبادة فعلت قبل وجوبها لم تصح اعتبارًا بالصلوات وسائر العبادات.

وثالثها: قال الشافعى: تجزىء بالإطعام والعتق والكسوة ولا تجزىء بالصوم؛ لأن عمل البدن لا يقدم قبل وقته. ويجزىء فى غير ذلك تقديم الكفارة»[1].

٦ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أن من الواجب على المؤمن أن يقلل من الأيمان فلا يلجأ إليها إلا عند الضرورة، وأن يحرص على أن يكون صادقا فيها حتى لا يحتاج إلى التكفير عنها؛ وأن يبادر إلى التكفير عنها إذا كانت المصلحة تستدعى الحنث فيها، لما سبق أن ذكره القرطبى من حديث أبى موسى الأشعرى وحديث عدى بن حاتم.

ولما رواه الشيخان عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبى ﷺ يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وأن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير».

هذا «وقد ساق صاحب المنار فى نهاية تفسيره لهذه الآية بحوثا تتعلق بالأيمان فقال ما ملخصه:

(أ) لا يجوز فى الإسلام الحلف بغير الله تعالى - وأسمائه وصفاته، لما رواه الشيخان من حديث ابن عمر: «من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله» ورويا عنه أيضا أن النبى ﷺ سمع رجلا يحلف بأبيه فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».

روى أحمد والبخارى وأصحاب السنن عن ابن عمر أيضا قال: كان أكثر ما يحلف به النبى ﷺ يحلف: لا ومقلب القلوب.

وهذه الأحاديث الصحيحة صريحة فى حظر الحلف بغير الله تعالى ويدخل النبى ﷺ فى عموم غير الله وكذلك الكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به.

(ب) ثم قال ويجوز الحنث للمصلحة الراجحة فقد روى الشيخان وأحمد عن عبد الرحمن بن سمرة قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وفى رواية فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير».

وينقسم الحلف باعتبار المحلوف عليه إلى أقسام:

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٢٧٥.

١ - أن يحلف على فعل واجب وترك حرام، فهذا تأكيد لما كلفه الله إياه فيحرم الحنث ويكون إثمه مضاعفا.

٢ - أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم، فهذا يجب عليه الحنث، لأنه يمين معصية على ترك فريضة من الفرائض، أو حق من الحقوق الواجبة عليه.

٣ - أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه، فهذا طاعة فيندب له الوفاء ويكره الحنث كذا قال بعضهم. والظاهر وجوب الوفاء كما قالوا فى النذر.

٤ - أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه، فيستحب له الحنث ويكره التمادى كذا قالوا. وظاهر الحديث وجوب الكفارة والحنث مطلقا.

٥ - أن يحلف على ترك مباح وقد اختلفوا فيه : فقال ابن الصباغ : إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

أى أن الحالف يوازن بين مقدار الضرر الذى سيترتب على الاستمرار فى الترك، والخير الذى يجلبه الحنث، فإن رجح أحدهما مضى فيه.

(جـ) ثم قال : وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : الأيمان - بحسب صيغتها وأحكامها - ثلاثة أقسام :

أحدها : ما ليس من أيمان المسلمين وهو الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء ونحو ذلك، فهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها باتفاق العلماء بل هى منهى عنها باتفاق أهل العلم والنهى نهى تحريم فى أصح الأقوال. ففى الحديث : «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» :

الثانى : اليمين بالله كقول القائل : والله لأفعلن كذا. فهذه يمين منعقدة فيها الكفارة إذا حنث فيها باتفاق المسلمين.

الثالث : أيمان المسلمين التى هى فى معنى الحلف بالله، ومقصود الحالف بها تعظيم الخالق لا الحلف بالمخلوقات كالحلف بالنذر والطلاق والعتاق كقوله إن فعلت كذا فعلى صيام شهر أو الحج إلى بيت الله.

فهذه الأيمان للعلماء فيها أقوال أظهرها أنه إذا حنث فيها لزمته كفارة يمين كما قال - تعالى - ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾. وقال تعالى ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾.

(د) ثم ختم صاحب المنار مباحثه بقوله : واليمين الغموس التى يهضم بها الحق أو يقصد بها الغش والخيانة، لن يكفرها عتق ولاصدقة ولا صيام، بل لابد من التوبة وأداء الحقوق

والاستقامة. قال - تعالى - ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾(١).

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت للمؤمنين ما يجب عليهم إذا ما حنثوا فى أيمانهم، وحضتهم على حفظ أيمانهم، لكى ينالوا من الله - تعالى - الرضا والفلاح.

وبعد أن نهى الله المؤمنين عن تحريم ما أحله لهم، وأمرهم بأن يتمتعوا بما رزقهم من خير بدون إسراف أو تقتير، وبين لهم حكم ما عقدوه من أيمان بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء ثانيا إليهم بين لهم فيه مضار الخمر وأشباهها من الرذائل، وأمرهم باجتنابها، فقال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

قال الفخر الرازى: اعلم أن هذا النوع الثالث من الأحكام المذكورة فى هذا الموضع - فقد أمر الله المؤمنين بعدم تحريم الطيبات ثم بين حكم الأيمان المنعقدة.

ووجه اتصال هذه الأيات بما قبلها أنه - تعالى - قال فيما تقدم: ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ إلى قوله: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا﴾. ثم لما كان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر، لا جرم أنه - تعالى - بين أنهما غير داخلين فى المحلات بل فى المحرمات(٢).

والخمر - بمعنى المصدر - هو الستر، ولذلك يقال لما يستر به الرأس عند النساء خمار.
والخمر - بمعنى الاسم - ما يخمر العقل ويستره، ويمنعه من التقدير السليم:

(١) تفسير المنار جـ٧ ص ٤٠ ، ٤٨
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٧٩

قال القرطبى : والخمر مأخوذة من خمر، إذا ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها. وكل شىء غطى شيئًا فقد خمره. ومنه : خمروا آنيتكم أى : غطوها.

وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا، لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر العجين، أى : : بلغ إدراكه. وخمر الرأى، أى ترك حتى يتبين فيه الوجه.

وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا، لأنها تخالط العقل. من المخامرة وهى المخالطة. ومنه قولهم : دخلت فى خمار الناس - بفتح الخاء وضمها - أى : اختلطت بهم. فالمعانى الثلاثة متقاربة، فالخمر تركت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، ثم خمرته والأصل الستر»[(١)].

والميسر : القمار - بكسر القاف - وهو فى الأصل مصدر ميمى من يسر كالموعد من وعد. وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجىء، للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ، ثم أصبح علما على كل ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه.

قال القرطبى : الميسر : الجزور الذى كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسرًا لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضوع التجزئة. وكل شىء جزأته فقد يسرته. والياسر : الجازر، لأنه يجزىء لحم الجزور. ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك»[(٢)].

والمراد بالميسر ما يشمل كل كسب يجىء بطريق الحظ المبنى على المصادفة فاللعب بالنرد على مال يسمى قمارًا، واللعب بالشطرنج على مال يسمى قمارًا وهكذا ما يشبه ذلك من ألوان تمليك المال بالمخاطرة وبطريق الحظ المبنى على المصادفة.

وتحريم الميسر تحريم لذات الفعل. فالعمل فى ذاته حرام، والكسب عن طريقه حرام.

والأنصاب : جمع نصب، وتطلق على الأصنام التى كانت تنصب للعبادة لها أو على الحجارة التى كانت تخصص للذبح عليها تقربًا للأصنام.

والأزلام : جمع زلم. وهى السهام التى كانوا يتقاسمون بها الجزور أو البقرة إذا ذبحت. فسهم عليه واحد، وسهم اثنان وهكذا إلى عشرة. أو هى السهام التى كانوا يكتبون على أحدها : أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى، ويتركون الثالث غفلا من الكتابة فإذا أرادوا سفرًا أو حربًا أو زواجًا أو غير ذلك، أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها، فإن خرج أمرنى ربى أقدموا

---

(١) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٥١
(٢) تفسير القرطبى جـ٣ ص ٥٣

على ما يرونه، وإن خرج نهانى ربى أمسكوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية حتى يخرج الآمر أو الناهى.

وقد نهى الله - تعالى - فى أوائل هذه السورة عن الاستقسام بالأزلام فقال ﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾[١].

وقوله: ﴿رجس﴾ أى قذر تأباه النفوس الكريمة والعقول السليمة لقذارته ونجاسته.

قال الفخر الرازى: والرجس فى اللغة كل ما استقذر من عمل. يقال: رجس الرجل رجسا إذا عمل عملا قبيحا: وأصله من الرجس - بفتح الراء - وهو شدة الصوت. يقال: سحاب رجاس إذا كان شديد الصوت بالرعد. فكأن الرجس هو العمل الذى يكون قوى الدرجة كامل الرتبة فى القبح »[٢].

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها: ما جاء فى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: نزلت فىّ آيات من القرآن، وفيه قال. وأتيت على نفر من الأنصار فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرًا وذلك قبل أن تحرم الخمر - قال فأتيتهم فى حش - أى بستان - فإذا رأس جزور مشوى عندهم وزق من خمر قال: فأكلت وشربت معهم. قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار. قال. فأخذ رجل - من الأنصار - لحى جمل فضربنى به فجرح أنفى، فأتيت رسول الله - ﷺ فأخبرته فأنزل الله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾.. الآيات[٣].

ومنها ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار. شربوا حتى ثملوا، فعبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا، جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل هذا بى أخى فلان - وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن - والله لو كان بى رءوفًا رحيما ما فعل بى هذا، حتى وقعت فى قلوبهم الضغائن فأنزل الله: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر﴾. إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾[٤].

والمعنى: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ إيمانا حقا. إنما تعاطى ﴿الخمر﴾ أى: الشراب الذى يخامر العقل ويخالطه ويمنعه من التفكير السليم ﴿والميسر﴾ أى القمار الذى عن طريقه يكون تمليك

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ٧٩
(٣) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٨٦
(٤) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ٣٤

المال بالحظ المبنى على المصادفة والمخاطرة ﴿والأنصاب﴾ أى : الحجارة التى تذبح عليها الحيوانات تقربا للأصنام. ﴿والأزلام﴾ أى : السهام التى عن طريقها يطلب الشخص معرفة ما قسم له من خير أو شر. هذه الأنواع الأربعة ﴿رجس من عمل الشيطان﴾ أى : مستقذرة تعافها النفوس الكريمة، وتأباها العقول السليمة، لأنها من تزيين الشيطان الذى هو عدو للإنسان، ولا يريد له إلا ماكان شيئًا قبيحًا.

قال - تعالى - : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

والفاء فى قوله ﴿فاجتنبوه﴾ للإفصاح، والضمير فيه يعود على الرجس الذى هو خبر عن تلك الأمور الأربعة وهى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

أى : إذا كان تعاطى هذه الأشياء الأربعة رجسا وقذرا ينأى عنه العقلاء فاجتنبوه لعلكم بسبب هذا الاجتناب والترك لذلك الرجس تنالون الفلاح والظفر فى دنياكم وآخرتكم.

والنداء بقوله : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ عام لجميع المؤمنين، وقد ناداهم - سبحانه - بهذه الصيغة لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم حتى يستجيبوا لما نودوا من أجله، وهو اجتناب تلك الرذائل وتركها تركا تامًا.

وقوله : ﴿رجس﴾ خبر عن هذه الرذائل الأربعة. وصح الإخبار به -مع أنه مفرد- عن متعدد هو هذه الأربعة، لأنه مصدر يستوى فيه القليل والكثير وشبيه بذلك قوله - تعالى - ﴿إنما المشركون نجس﴾.

وقيل : لأنه خبر عن الخمر، وخبر المعطوفات عليها محذوف ثقة بالمذكور

وقيل : لأن فى الكلام مضافا إلى تلك الأشياء، وهو خبر عنه. أى : إنما شأن هذه الأشياء أو تعاطيها رجس.

وقوله : ﴿من عمل الشيطان﴾ فى محل رفع على أنه صفة لقوله : ﴿رجس﴾ أى : رجس كائن من عمل الشيطان، لأنه ناجم عن تزيينه وتسويله، إذ هو خبيث والخبيث لا يدعو إلا إلى الخبيث فالمراد من إضافة العمل إلى الشيطان المبالغة فى كمال قبح ذلك العمل.

وعبر بقوله : ﴿فاجتنبوه﴾ للمبالغة فى الأمر بترك هذه الرذائل، فكأنه سبحانه يقول لا آمركم فقط بترك الرذائل، بل آمركم أيضًا بأن تكونوا أنتم فى جانب وهذه المنكرات فى جانب آخر. فالأمر هنا منصب على الترك وعلى كل ما يؤدى إلى اقتراف هذه المنكرات كمخالطة المرتكبين لها. وغشيان مجالسها. إلخ.

ثم أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر ببيان مفاسدهما الدنيوية والدينية فقال تعالى ﴿إنما يريد

الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.

أى : ﴿إنما يريد الشيطان﴾ بتزيينه المنكرات لكم ﴿أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾ بأن يقطع ما بينكم من صلات، ويثير فى نفوسكم الأحقاد والضغائن بسبب تعاطيكم للخمر والميسر، وذلك لأن شارب الخمر إذا ما استولت الخمر على عقله أزالت رشده. وأفقدته وعيه، وتجعله قد يسىء إلى من أحسن إليه، ويعتدى على صديقه وجليسه. وذلك يورث أشد ألوان العداوة والبغضاء بين الناس.

ولأن متعاطى الميسر كثيرًا ما يخسر ماله على مائدة الميسر. والمال كما نعلم شقيق الروح، فإذا ما خسره هذا المقامر صار عدوا لمن سلب ماله منه عند المقامرة، وأصبح يضمر له السوء. وقد يؤدى به الحال إلى قتله حتى يشفى غيظه منه، لأنه قد جعله فقيرًا بائسًا مجردا من أمواله بعد أن كان مالكها وفى ذلك ما فيه من تولد العداوة والبغضاء وإيقاد نار الفتن والشرور بين الناس.

فقوله تعالى : ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر﴾ إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية.

أما مفاسدهما الدينية فقد أشار إليها سبحانه بقوله : ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾.

أى : ويريد الشيطان أيضًا بسبب تعاطيكم للخمر والميسر - أن يصدكم أى يشغلكم ويمنعكم ﴿عن ذكر الله﴾ أى : عن طاعته ومراقبته والتقرب إليه ﴿وعن الصلاة﴾ التى هى الركن الثانى من أركان الإسلام.

وذلك لأن شارب الخمر يمنعه ما حل به من نشوة كاذبة، ومن فقدان لرشده عن طاعة الله وعن أداء ما أوجبه عليه من صلاة وغيرها.

ولأن متعاطى الميسر بسبب استحلاله لكسب المال عن هذا الطريق الخبيث، ويسبب فقدانه للعاطفة الدينية السليمة صار لا يفكر فى القيام بما أوجبه الله عليه من عبادات.

ورحم الله الآلوسى، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : ووجه صد الشيطان لهم عن ذكر الله وعن الصلاة بسبب تعاطيهم للخمر والميسر أن الخمر لغلبة السرور بها والطرب على النفوس. والاستغراق فى الملاذ الجسمانية، تلهى عن ذكر الله تعالى - وعن الصلاة.

وأن الميسر إن كان اللاعب به غالبا، انشرحت نفسه، وصده حب الغلب والقهر والكسب عما ذكر، وإن كان مغلوبا حصل له من الانقباض والقهر ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالبا فلا يخطر بقلبه غير ذلك.

وقد شاهدنا كثيرًا ممن يلعب بالشطرنج يجرى بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن ذكر الله تعالى ما ينفر منه الفيل وتكبو له الفرس ويحار لشناعته الفهم وتسود رقعة الأعمال[1].

وجمع - سبحانه - الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام فى الآية الأولى ثم أفردهما بالذكر فى هذه الآية، لأن الخطاب للمؤمنين، والمقصود نهيهم عن الخمر والميسر، وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة فى القبح والمفسدة، أى أن مجىء الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر إنما هو لتقبيح تعاطيهما، وتأكيد حرمتهما، حتى لكأن متعاطى الخمر والميسر يفعل أفعال أهل الجاهلية، وأهل الشرك بالله - تعالى - وكأنه - كما يقول الزمخشرى - : لا مباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله فى علم الغيب، وبين من شرب خمراً أو قامر.

وخص الصلاة بالذكر مع أنها لون من ألوان ذكر الله، تعظيما لشأنها، كما هو الحال فى ذكر الخاص بعد العام، وإشعارا بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان، لما أنها عماد الدين والفارق بين المسلم وبين الكافر.

والاستفهام فى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾ لإنكار استمرارهم على الخمر والميسر بعد أن بين لهم ما بين من مضارهما الدنيوية والدينية ولحضهم على ترك تعاطيهما فورا، أى : انتهوا سريعًا عنهما فقد بينت لكم ما يدعو إلى ذلك.

ولقد لبى الصحابة - رضى الله عنهم - هذا الأمر فقالوا : «انتهينا يارب؛ انتهينا يارب» وألقوا ما عندهم من خمر فى طرقات المدينة.

ثم أكد - سبحانه - وجوب هذا الانتهاء بأن أمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فقال : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾.

أى : اجتنبوا - أيها المؤمنون - هذه الرذائل وانتهوا عنها فقد بينت لكم مضارها، ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿واحذروا﴾ مخالفتهما، لأن مخالفة أوامرهما تؤدى إلى الحسرة والخسران.

وأمر - سبحانه - بطاعته وبطاعة رسوله مع أن طاعة رسوله طاعة له - سبحانه - لتأكيد الدعوة إلى هذه الطاعة، ولتكريم الرسول ﷺ حيث جعلت طاعته مجاورة لطاعة الله - تعالى -.

وقوله : ﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ تأكيد للتحذير السابق وتنبيه إلى سوء عاقبة العاصين لأمر الله ورسوله.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص ١٦

وجواب الشرط محذوف والتقدير: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - أيها المؤمنون - واحذروا مخالفة أمرهما، فإن توليتم وأعرضتم عن طاعتهما، فقد وقعتم في الخطيئة وستعاقبون عليها عقابا شديدا، واعلموا أنه ليس على رسولنا محمد ﷺ سوى التبليغ الواضح البين عن الله - تعالى - أما الحساب والجزاء، والثواب والعقاب فمن الله وحده.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا من التأكيدات، وألوانا من التهديدات التي تدعو إلى اجتناب الخمر والميسر اجتنابا تاما وتركهما تركا لا عودة بعده إليهما.

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى بقوله: أكد - سبحانه - تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد:

منها: تصدير الجملة بإنما.

ومنها: قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه قوله - ﷺ «شارب الخمر كعابد الوثن».

ومنها: أنه جعلهما رجسا كما قال - تعالى - ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾

ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان، لا يأتي منه إلا الشر البحت.

ومنها: أنه أمر بالاجتناب وظاهر الأمر للوجوب.

ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح. وإذا كان الاجتناب فلاحًا، كان الارتكاب خيبة وخسرانًا.

ومنها: أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال - وهو وقوع التعادي والتباغض - وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة.

ومنها: قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فهو من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم باقون على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا»[١].

هذا ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي:

١ - أن هذه الآيات الكريمة هي آخر ما نزل في القرآن لتحريم الخمر تحريما قاطعًا لأن التعبير بالانتهاء والأمر به فيه إشارة إلى تمهيدات سابقة للتحريم.

قال القرطبي: تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة. فإنهم كانوا مولعين بشربها، وأول ما نزل في شأن الخمر قوله - تعالى - ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾[٢] أي: في تجارتهم. فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة فيما فيه

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٧٥ - بتصرف يسير-
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٩

إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس. وقالوا : نأخذ منفعتها ونترك إثمها فنزلت هذه الآية ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[١] فتركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة فيها يشغلنا عن الصلاة وشربها بعض الناس فى غير أوقات الصلاة، حتى نزلت : ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ الآية. فصارت حرامًا عليهم حتى صار بعضهم يقول : ما حرم الله شيئًا أشد من الخمر»[٢].

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع أنه قال : لما نزلت آية البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ قال رسول الله ﷺ : «إن ربكم يقدم فى تحريم الخمر»، ثم نزلت آية النساء : ﴿لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فقال ﷺ : «إن ربكم يقدم فى تحريم الخمر»، ثم نزلت آية المائدة : ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ فحرمت عند ذلك.

ولما سمع عمر قوله - تعالى - ﴿فهل أنتم منتهون﴾ قال : انتهينا يارب[٣]

ولا شك فى أن تدرج القرآن فى تحريم الخمر يدل دلالة واضحة على رحمة الله -تعالى- بعباده المؤمنين وتربية حكيمة حتى يقلعوا عما تعودوه بسهولة ويسر وذلك لأن شرب الخمر كان من العادات المتأصلة فى النفوس ويكفى للدلالة على حب العرب لها قول أنس بن مالك : حرمت الخمر ولم يكن للعرب عيش أعجب منها. وما حرم عليهم شىء أشد عليهم من الخمر».

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يحبونه ويشتهونه، يمثل اسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأمر الله - تعالى - فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها فى الطرقات، بل وحطموا الأوانى التى كانت توضع فيها الخمر.

أخرج البخارى عن أنس قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ - أى : نقيع البسر فأمر رسول الله ﷺ مناديا ينادى «ألا إن الخمر قد حرمت».

قال : فقال لى أبو طلحة : أخرج فأهرقها. قال : فخرجت فهرقتها فجرت فى سكك المدينة[٤].

وأخرج ابن جرير عن قتادة عن أنس بن مالك قال : بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة، وأبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبى دجانة حتى مالت رءوسهم من

---

(١) سورة النساء الآية ٤٣

(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٨٦

(٣) تفسير الآلوسى جـ٧ ص ١٧

(٤) البخارى فى باب : صب الخمر من كتاب «المظالم والغضب» جـ٣ ص ١٧٣.

خليط بسر وتمر، فسمعنا مناديا ينادى: إن الخمر قد حرمت. قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا ثم خرجنا إلى المسجد وإذا رسول الله ﷺ يقرأ ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾.. إلى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾.

فقال رجل لقتادة: سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم وقال رجل لأنس أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وحدثنى من لم يكذب: والله ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب[1].

وأخرج ابن جرير -أيضًا- عن أبى بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن نشرب الخمر حلا، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾.. الآيات. فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم، إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ قال: وبعض القوم شربته فى يده قد شرب بعضًا وبقى بعض الإناء، فقال بالإناء تحت شفته[2] العليا، كما يفعل الحجام. ثم صبوا ما فى باطيتهم، فقالوا: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا»[3].

وهكذا ترى أن قوة الإيمان التى غرسها الإسلام فى نفوس اتباعه عن طريق تعاليمه الحكيمة وتربيته السامية. قد تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته الطبائع إلفا شديدًا.

٢ - أن كلمة خمر اسم لما خامر العقل وغطاه من الأشربة المسكرة، سواء كانت من عصير العنب، أم من الشعير، أم من التمر، أم من غير ذلك وكلها سواء فى التحريم قل المشروب منها أو كثر، سكر شاربها أو لم يسكر، وأن على الشارب حد الشرب فى الجميع.

وبهذا القول قال جمهور العلماء: ومن أدلتهم النقلية ما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال: خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ فقال: إنه قد نزل تحريم الخمر وهى خمسة أشياء: «العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل والخمر ما خامر العقل».

وأخرج أيضًا عن عائشة قالت: «سئل رسول الله - ﷺ عن البتع -وهو نبيذ العسل- وكان

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ٣٧.

(٢) قوله: «فقال بالإناء» الفعل قال هنا بمعنى أخذ أو فعل: والمعنى أنه أخذ الإناء الذى يشرب فيه الخمر فضرب به تحت شفته العليا حتى جرحها كما يجرح الحجام من يريد حجامته، والقصد من ذلك قهر نفسه والتصميم على الكف عن شرب الخمر كفا بانا. والباطية: إناء يوضع فيه الخمر.

(٣) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ٣٤

أهل اليمن يشربونه. فقال رسول الله ﷺ «كل ما أسكر فهو حرام».

وأخرج كذلك عن أنس قال: «حرمت علينا الخمر حين حرمت وما نجد - يعنى بالمدينة - خمر الأعناب إلا قليلا، وعامة خمرنا البسر والتمر»[1].

فهذه الأحاديث الصحيحة صريحة فى أن ما أسكر من هذه الأشربة المأخوذة من التمر أو الحنطة أو الشعير أو العنب يسمى خمرًا.

ومن أدلتهم العقلية أصل الاشتقاق اللغوى لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره.

ويرى الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم النخعى، وسفيان الثورى، وابن أبى ليلى: أن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط. أما المسكر من غيره كالشراب الذى من التمر والشعير فلا يسمى خمرا بل يسمى نبيذًا.

ومن حججهم أن الخمر حرمت ولم يكن العرب يعرفون الخمر فى غير المأخوذ من ماء العنب، فالخمر عندهم اسم لهذا النوع فقط. وما وجد فيه مخامرة للعقل من غير هذا النوع لا يسمى خمرًا: لأن اللغة لا تثبت من طريق القياس.

وقد ورد عن ابن عمر أنه قال: «حرمت الخمر وما بالمدينة منها شىء».

ولقد كان بالمدينة من المسكرات نقيع التمر والبسر، فدل على أن ابن عمر - وهو عربى - ما كان يرى أن اسم الخمر يتناول هذين.

ويقول الأحناف ومن وافقهم: إن الأحاديث التى استشهد بها الجمهور على أن الخمر اسم لكل مسكر من عصير العنب أو غيره هذه الأحاديث لبيان الحكم الشرعى، والحرمة بالقياس لتحقيق علة الحرمة وهى الإسكار فى القدر المسكر من هذه الأشياء.

وقد ابتنى على هذا الخلاف بين الجمهور والأحناف أحكام أخرى تتعلق بنجاسة هذه الأشياء، وبوجوب إقامة الحد على شاربها.. الخ وتفصيل هذه الأحكام يرجع فيه إلى كتب الفقه وأصوله.

هذا، وقد رجح المحققون من العلماء ما ذهب إليه الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم.

---

(١) صحيح البخارى كتاب الأشربة جـ٧ ص ١٣٦

قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها والصحيح مارواه الأئمة أن أنسا قال : «حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا القليل، وعامة خمرها البسر والتمر».

واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم بومئذ خمر عنب وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم – أى : أوانى الخمر – وبادروا إلى الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر[1] – أى : وأقرهم رسول الله على ذلك.

وقال الآلوسى : وعندى أن الحق الذى لا ينبغى العدول عنه، أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأى اسم سمى متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده فهو حرام، وقليله ككثيره، ويحد شاربه ويقع طلاقه، ونجاسته غليظة. وفى الصحيحين أنه ﷺ سئل عن النقيع – وهو نبيذ العسل – فقال : «كل شراب أسكر فهو حرام».

وروى أبو داود : «نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر».

وصح عنه ﷺ : «ما أسكر كثيره فقليله حرام». والأحاديث متضافرة على ذلك.

ولعمرى إن اجتماع الفساق فى زماننا على شرب المسكرات مما عدا الخمر، ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب الخمر ورغبتهم فيه بكثير. وقد وضعوا لها أسماء – كالعنبرية والأكسير – ونحوهما، ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة، وتبيح شربها للأمة –وهيهات هيهات– فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا إليه راجعون[2].

٣ – قال القرطبى ما ملخصه : «فهم الجمهور من تحريم الخمر، واستخباث الشرع لها، وإطلاق الرجس عليها، والأمر باجتنابها، الحكم بنجاستها.

وخالفهم فى ذلك – ربيعة والليث بن سعد والمزنى صاحب الشافعى. وبعض المتأخرين من البغداديين والقرويين فرأوا أنها طاهرة وأن المحرم إنما هو شربها.

والصحيح ما عليه الجمهور لأن وصفها بأنها ﴿رجس﴾ يدل على نجاستها فإن الرجس فى اللسان النجاسة.

وقوله : ﴿فاجتنبوه﴾ يقتضى الاجتناب المطلق الذى لا ينتفع معه بشىء بوجه من الوجوه وعلى هذا تدل الأحاديث الواردة فى هذا الباب.

روى مسلم عن ابن عباس أن رجلا أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، – أى قربة خمر –

(١) أحكام القرآن لابن العربى جـ١ ص ١٤٩

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١١٣

فقال له رسول الله ﷺ «هل علمت أن الله حرمها» قال : لا . قال : فسارَّ رجلا فقال له رسول الله ﷺ «بم ساررته»؟ قال : أمرته أن يبيعها، فقال : «إن الذى حرم شربها حرم بيعها».

ثم قال القرطبى : وهذه الآيات تدل على أن كل لهو دعا قليله إلى كثيره، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصد عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر، ووجب أن يكون حرامًا مثله[1].

٤- هذه الآيات الكريمة تدل على تأكيد تحريم الخمر وماذكر معها من رذائل، كما تدل على تحريم ما تؤدى إليه من مفاسد ومضار، وما يحيق بمرتكبها من سوء عاقبة.

وقد ساق ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث فى هذا المعنى، ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ لعنت الخمر على عشرة أوجه : «لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقيها وبائعها ومبتاعها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها».

وقال ابن وهب - قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى».

وروى أبو داود عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : «كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب؛ تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال، قيل : وما طينة الخبال يارسول الله؟ قال ﷺ : «صديد أهل النار»[2].

هذا جانب من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة، ومن الأحاديث التى وردت فى حرمة الخمر وفى سوء مصير شاربها.

وقد أتبع - سبحانه - ذلك ببيان حكم من شربها ومات قبل أن ينزل تحريمها فقال - تعالى - :

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٨٨ - بتصرف وتلخيص
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٩٢

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات متقاربة فى معناها، ومن ذلك مارواه الترمذى عن البراء بن عازب قال: مات ناس من أصحاب النبى ﷺ وهم يشربون الخمر. فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب الرسول ﷺ فكيف بأصحابنا الذين ما توا وهم يشربونها قال: فنزلت: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية

وعن ابن عباس قال: قالوا يارسول الله، أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر «لما نزل تحريم الخمر» فنزلت ﴿ليس على الذين آمنوا﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد من حديث أبى هريرة أنه بعد أن نزل قوله -تعالى- ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ الآيات، قال الناس: يارسول الله، ناس قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا على فرشهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر؛ وقد جعله الله رجسا ومن عمل الشيطان؟ فأنزل الله -تعالى- : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾الآية(١).

قال القرطبى: وهذه الآية وتلك الأحاديث نظير سؤالهم عمن مات إلى القبلة الأولى فنزلت ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

ومن فعل ما أبيح له حتى مات على فعله لم يكن له ولا عليه شىء، لا إثم ولا مؤاخذة ولا ذم ولا أجر ولا مدح، لأن المباح مستوى الطرفين بالنسبة إلى الشرع، وعلى هذا فما كان ينبغى أن يتخوف ولا يسأل عن حال من مات والخمر فى بطنه وقت إباحتها، فإما أن يكون ذلك القائل غفل عن دليل الإباحة فلم يخطر له، أو يكون لغلبة خوفه من الله - تعالى - وشفقته على إخوانه المؤمنين توهم مؤاخذة ومعاقبة لأجل شرب الخمر المتقدم، فرفع الله التوهم بقوله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية(٢).

وقال الآلوسى: وقيل إن هذه الآية نزلت فى القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهب كعثمان بن مظعون وغيره والأول هو المختار»(٣).

وقوله - تعالى - ﴿فيما طعموا﴾ أى: ذاقوا، مأخوذ من الطعم - بالفتح - وهو تذوق الشىء والتلذذ به، سواء أكان مأكولا أم مشروبا وهو المراد هنا.

قال القرطبى: وأصل هذه الكلمة فى الأكل. يقال: طعم الطعام وشرب الشراب لكن قد تجوز فى ذلك فيقال: لم أطعم خبزًا ولا ماء ولا نوما»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٩٥
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٩٣
(٣) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ٢١١
(٤) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٩٦

والمعنى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أى : حرج أو إثم ﴿فيما طعموا﴾ أى فيما تناولوه من خمر أو مايشبهها من محرمات قبل أن يحرمها الله - تعالى - وكذلك لا إثم ولا حرج على من مات قبل التحريم.

وقوله : ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ تحريض للمؤمنين على الأزدياد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

أى : إذا ما اتقوا الله وخافوه وتلقوا أوامره بالقبول، وثبتوا على الإيمان، وأكثروا من الأعمال الصالحات.

وقوله : ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ معطوف على ما قبله.

أى : ثم استمروا على تقواهم وامتلاء قلوبهم بخشية الله، والإيمان الحق به - سبحانه - فتكرير التقوى والإيمان هنا لبيان أنه يجب استمرارهم ومواظبتهم على ذلك، مع تمسكهم بما يقتضيه الإيمان والتقوى من فعل الخير وابتعاد عن الشر.

وقوله : ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ معطوف على ما قبله - أيضًا - لتأكيد معنى الاستمرار على هذه التقوى طول مدة حياتهم مع إحسانهم إلى أنفسهم بالإكثار من العمل الصالح، وإلى غيرهم بما يستطيعونه من إسداء الخير إليه.

وقوله : ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الحض على الإيمان والتقوى والإحسان، ومدح المتمسكين بتلك الصفات الحميدة.

أى : والله - تعالى - يحب المحسنين إلى أنفسهم بإلزامها بالوقوف عند حدود الله، والاستجابة له فيما أمر أونهى أو أحل أو حرم يرغبة ومسارعة، وإلى غيرهم بمد يد العون إليهم.

فالآية الكريمة من مقاصدها بيان جانب من مظاهر رحمة الله بعباده، ورأفته بهم؛ حيث بين لهم : أن من شرب الخمر أو لعب الميسر أو فعل ما يشبههما من محرمات، ثم مات قبل أن ينزل الأمر بتحريم هذه الأشياء فإن الله - تعالى - لا يؤاخذه على ذلك. لأن المؤاخذة على الفعل تبدأ من وقت تحريمه لا من قبل تحريمه.

وكذلك الحال بالنسبة لمن وقع فى هذه الأشياء قبل أن تحرم فإن الله لا يؤاخذه عليها، وإنما يؤاخذه عليها بعد نزول تحريمها وهذا من فضل الله على عباده، ورحمته بهم.

هذا، وقد تعددت أقوال المفسرين حول مسألتين تتعلقان بهذه الآية الكريمة.

أما المسألة الأولى فهى : كيف شرط الله فى رفع الجناح أى الإثم عن المطعومات والمشروبات الإيمان والتقوى، مع أن الجناح مرفوع عن المباح من هذه الأشياء حتى عن الكافرين؟

وقد قالوا فى الإجابة على ذلك : إن تعليق نفى الجناح أى الإثم بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها؛ فإن نفى الإثم عن الذى يتناول المباح قبل أن يحرم لا يشترط بشرط، وإنما تعليق نفى الجناح بهذه الأحوال - وهى التقوى والإيمان - وارد على سبيل المدح لهم، والثناء عليهم؛ والدلالة على أنهم جديرون بهذه الصفات، ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم حتى يوقنوا بأن من تعاطى شيئًا من المحرمات قبل تحريمها فلا يؤاخذه الله على ذلك، وإنما يؤاخذه إذا تعاطاها بعد تحريمها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : «قيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يارسول الله !! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر؟ فنزلت الآية ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾.. إلخ يعنى أن المؤمنين لاجناح عليهم فى أى شىء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم، ثم اتقوا وآمنوا وأحسنوا، على معنى : أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمدا لأحوالهم فى الايمان والتقوى والإحسان. ومثاله أن يقال لك : هل على زيد جناح فيما فعل؟ فتقول : وقد علمت أن ذلك أمر مباح : ليس على أحد جناح فى المباح إذا اتقى المحارم، وكان مؤمنًا محسنًا. تريد : أن زيدًا تقى مؤمن محسن، وأنه غير مؤاخذ بما فعل»[1].

وقال أبوالسعود ما ملخصه : ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة، لا دخل لها فى انتفاء الجناح. وإنما ذكرت فى حيز ﴿إذا﴾ شهادة باتصاف الذين سألوا عن حالهم بها، ومدحاً لهم بذلك، وحمدًا لأحوالهم. فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا كانوا فى طاعته تعالى : مع مالهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال، وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمها إذ ذاك، ولو حرما فى عصرهم لا تقوهما بالمرة»[2].

وأما المسألة الثانية التى كثرت أقوال المفسرين فيها فهى : تكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح. ومرة مع الإيمان ومرة مع الإحسان؟

وقد ذكر القرطبى فى ذلك أربعة أقوال فقال :

الأول : أنه ليس فى ذكر التقوى تكرار، والمعنى : اتقوا شربها وآمنوا بتحريمها، أو دام اتقاؤهم وإيمانهم، أو على معنى إضافة الإحسان إلى الاتقاء.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٧٦.

(٢) تفسير أبى السعود جـ٢ ص٥٧.

والثانى : اتقوا قبل التحريم فى غيرها من المحرمات، ثم اتقوا بعد تحريمها شربها، ثم اتقوا فيما بقى من أعمالهم وأحسنوا العمل.

الثالث : اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله، والمعنى الثانى ثم اتقوا الكبائر، وازدادوا إيمانا، والمعنى الثالث، ثم اتقوا الصغائر وأحسنوا أى تنفلوا.

الرابع : قال ابن جرير : الاتقاء الأول : هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق، والدينونة به العمل. والاتقاء الثانى : الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث : الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل»[١].

والذى يبدو لنا أن ما قاله ابن جرير أقرب إلى الصواب، وأن تكرير التقوى إنما هو لتأكيد وجوب امتلاء قلب المؤمن بها، واستمراره على ذلك حتى يلقى الله. فإن المؤمن بمداومته على خشيته - سبحانه - يتدرج من الكمال إلى الأكمل حتى يصل فى إيمانه وتقواه إلى مرتبة الإحسان التى ترفعه إلى أعلى عليين، والتى عرفها النبى - ﷺ - بقوله : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ولقد بين لنا القرآن فى مواطن كثيرة أن المؤمن يقوى إيمانه ويزداد، بكثرة تدبره ماأنزله الله من شرائع وهدايات. ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[٢].

وقال تعالى - ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا﴾[٣].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد طمأنت المؤمنين إلى أن الله - تعالى - لن يؤاخذهم بما تعاطوه من محرمات قبل تحريمها. وأن الواجب عليهم أن يستمروا على مراقبتهم له، وخشيتهم منه حتى يلقوه - عز وجل -.

وبعد أن حذر الله - تعالى - المؤمنين من تعاطى المنكرات كالخمر والميسر وبين لهم حكم من مات قبل تحريم هذه الأشياء بعد كل ذلك بين - سبحانه - بشىء من التفصيل بعض الأحكام التى تتعلق بالصيد فقال تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٢٩٦.

(٢) سورة التوبة؛ الآيتان ١٢٤، ١٢٥.

(٣) سورة المدثر الآية ٣١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

قال الألوسى : هذه الآية - كما خرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان - نزلت فى عمرة الحديبية، حيث ابتلاهم الله - تعالى - بالصيد وهم محرمون، فكانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم، وكانوا متمكنين من صيدها أخذًا بأيديهم وطعنا برماحهم فهموا بأخذها فنزلت[١].

وقوله : ﴿ليبلونكم﴾ أى : ليخبرنكم وليمتحننكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان.

ولفظ الصيد فى قوله : ﴿من الصيد﴾ مصدر بمعنى المصيد أى : مايصطادونه.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ليختبرن الله -سبحانه- إيمانكم ومبلغ قوته بأن يرسل إليكم وأنتم محرمون شيئًا من الصيد الذى تحبونه، بحيث يكون فى متناول أيديكم ورماحكم.

وقوله : ﴿ليبلونكم الله﴾ جواب قسم محذوف والتقدير : والله ليعاملنكم سبحانه معاملة المختبر ليتبين المطيع من العاصى.

وأكد - سبحانه - هذا الخبر بلام القسم ونون التوكيد للإشارة إلى أهمية هذا الاختبار حتى يسارعوا إلى طاعته - سبحانه وامتثال أمره.

والتنوين فى قوله ﴿بشىء﴾ للتقليل والتحقير. وإنما امتحنوا بهذا الشىء الصغير، تنبيها إلى أن من لم يثبت ويعصم نفسه عن ارتكاب هذه الأشياء الصغيرة فإنه لن يثبت أمام التكاليف الكبيرة.

ويمكن أن يقال، إن التنوين هنا للتعظيم باعتبار الجزاء الأليم المترتب على الاعتداء على الصيد فى حال الإحرام.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى التقليل والتصغير فى قوله : بشىء من الصيد؟

قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التى تدحض عندها أقدام الثابتين - كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال - وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه»[٢].

---

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص٢١.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٧٧.

وقوله : ﴿بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾ هو موضع الاختبار و﴿من﴾ في قوله ﴿من الصيد﴾ لبيان الجنس. أوالتبعيض، لأن المراد صيد البر دون البحر، وصيد الاحرام دون صيد الإحلال.

ومعنى ﴿تناله أيديكم ورماحكم﴾ تستطيع أيديكم أن تأخذ هذا الصيد بسهولة ويسر إذا كان صغيرا وقريبا منكم، وتستطيع رماحكم أن تناله إذا كان كبيرًا أو بعيدًا بعدا نسبيا منكم.

وخص الأيدى والرماح بالذكر، لأن معظم التصرفات التى تتعلق بالصيد تكون بالأيدى، ولأن معظم الآلات التى تستعمل فى الصيد تكون الرماح.

وقوله : ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ تعليل قصد به بيان الحكمة من وراء الابتلاء والاختبار.

والمراد بالعلم فى قوله : ﴿ليعلم الله . .﴾ إظهار ما علمه أزلا من أهل طاعته ومعصيته، حتى يتميز الخبيث من الطيب.

والمعنى : اختبرناكم أيها المؤمنون بنوع من البلايا - وهو تحريم صيد البر صغارًا وكبارًا - وأنتم محرمون أو فى الحرم، ليظهر ما علمه أزلا - - سبحانه - من أهل طاعته ومعصيته، وبذلك يتميز للناس الخبيث من الطيب، ويعرف الشخص الذى يخاف الله ويراقبه - مع أنه لم ير الله - سبحانه- من الشخص الذى لا يخافه بالغيب.

قال الجمل : وقوله ﴿بالغيب﴾ حال من فاعل يخافه، أى : يخاف الله حالة كونه غائبا عن الله ومعنى كون العبد غائبا عن الله، أنه لم ير الله تعالى.

أو حال من المفعول. أى : يخاف الله حال كونه -تعالى- ملتبسا بالغيب عن العبد، أى غير مرئى له[1].

وقوله : ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ بيان لسوء عاقبة المخالف لأوامر الله، والمتجاوز لحدوده.

واسم الاشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى مابينه - سبحانه - لعباده من أحكام.

والمعنى : لقد اختبرناكم - أيها المؤمنون - بما اختبرناكم به، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه، فمن تعدى منكم حدود الله بعد هذا البيان والإعلام، فله عذاب شديد الآلام عظيم الإهانة، لأن التعدى بعد الإنذار، دليل على عدم المبالاة بأوامر الله ومن لم يبال بأوامر الله ساءت عاقبته وقبح مصيره.هذا،ولقد نجحت الأمة الإسلامية وخصوصا سلفها الصالح فى هذا الاختبار فقد

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥٢٤.

تجنب أبناؤها وهم محرمون أو فى الحرم مصيد البر مهما أغراهم قربه منهم، وحبهم له على صيده والانتفاع به.

بينما أخفق بنو إسرائيل فيما يشبه هذا الاختبار؛ فقد نهاهم الله - تعالى - عن الصيد فى يوم السبت، فكانت الأسماك تظهر لهم فى هذا اليوم امتحانا من الله لهم، فما كان منهم إلا أن تحايلوا على صيدها، بأن حبسوها فى يوم السبت ليصيدوها فى غيره. . فاستحقوا من الله اللعنة والمسخ واستحقت الأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين نهيا صريحا عن قتل الصيد وهم حرم وبين ما يجب على القاتل. وكرر تحذيره وتهديده لمن يتعدى حدوده فقال - تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

قال القرطبى: قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ خطاب عام لكل مسلم، وهذا النهى هو الابتلاء المذكور فى قوله -تعالى- ﴿يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد﴾. . الآية وروى أن أبا اليسر - واسمه عمرو بن مالك الأنصارى - كان محرمًا عام الحديبية بعمرة فقتل حمار وحش فنزلت هذه الآية(١).

والمراد بالصيد هنا المصيد، لأنه هو الذى يقع عليه القتل.

وقوله ﴿حرم﴾ جمع حرام. وهذا اللفظ يتناول المحرم بالحج أو بالعمرة أو بهما وإن كان فى الحل، كما يتناول من كان فى الحرم وإن كان حلالا.

قال ابن جرير: والحرم جمع حرام، يقال: هذا رجل حرام، وهذه امرأة حرام، فإذا قيل محرم، قيل للمرأة محرمة والإحرام: هو الدخول فيه. يقال: أحرم القوم: إذا دخلوا فى الشهر الحرام أو فى الحرم، فتأويل الكلام: لاتقتلوا الصيد وأنتم محرمون»(٢).

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٠٢.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٧ ص٤٠.

والصيد المنهى عن قتله هنا: صيد البر، لأن صيد البحر قد أحله الله بعد ذلك بقوله: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ الآية.

والنهى كما يتناول قتل صيد البر بإزهاق روحه بأى طريق من طرق الإزهاق، يتناول -أيضًا- قتله بطريق التسبب كالإشارة إليه مثلا. ويتناول كذلك حظر الصيد نفسه، لقوله -تعالى- فى مطلع هذه السورة: ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم﴾.

ولقوله - تعالى - بعد هذه الآية التى معنا: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعًا لكم وللسيارة، وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما﴾.

فالنهى فى قوله - تعالى - ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ يتناول القتل عن طريق المباشرة أو التسبب كما يتناول أى عمل يؤدى إلى صيد الحيوان.

وإنما كان النهى فى الآية منصبا على القتل، لأنه هو المقصود الأعظم من وراء مباشرة عملية الصيد إذ الصائد يريد قتل المصيد لكى يأكله فى الغالب.

هذا، وقد اختلف الفقهاء فى المصيد الذى يحرم صيده على المحرم.

فذهب بعضهم إلى أن المراد به ما يصاد مطلقًا سواء أكان مأكولا أم غير مأكول ولا يستثنى من ذلك إلا ما جاء النص باستثنائه، وذلك لأن الصيد اسم عام يتناول كل ما يصاد من المأكول ومن غير المأكول.

وبهذا الرأى قال الأحناف ومن وافقهم من الفقهاء.

ويرى الشافعية أن المراد به المأكول فقط، لأن الصيد إنما يطلق على ما يحل أكله فحسب.

وقد انبنى على هذا الخلاف أن من قتل وهو محرم سبعًا، فالأحناف يرون أنه يجب عليه الجزاء الذى فصلته الآية. والشافعية يرون أنه لا يجب عليه ذلك.

قال الإمام ابن كثير: قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾.

هذا تحريم منه - تعالى - لقتل الصيد فى حال الإحرام، ونهى عن تعاطيه فيه. وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ما تولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعى يجوز قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضا ولا يستثنى من ذلك إلا ماثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور» - وفى رواية الحية بدل العقرب - ومن العلماء

كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور: الذئب والسبع والنمر والفهد، لأنها أشد ضررا منه»[١].

وقوله: ﴿ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ بيان لما يجب على المحرم فى حال قتله للصيد.

قال الآلوسى ما ملخصه: والمعنى: ﴿ومن قتله﴾ كائنا ﴿منكم﴾ حال كونه ﴿متعمدا﴾ أى: ذاكرا لإحرامه عالما بحرمة قتل ما يقتله، ومثله من قتله خطأ.

والفاء فى قوله ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ جزائية إذا اعتبرنا ﴿من﴾ شرطية وهو الظاهر، وإذا اعتبرناها موصولة تكون زائدة لشبه المبتدأ بالشرط.

وقوله: ﴿جزاء﴾ بالرفع والتنوين - مبتدأ، و﴿مثل﴾ مرفوع على أنه صفته، والخبر محذوف. أى: فعليه جزاء مماثل لما قتله، وبهذا قرأ الكوفيون ويعقوب. وقرأ باقى السبعة برفع ﴿جزاء﴾ بدون تنوين - ويجر «مثل» بالإضافة.

وقد خرجت هذه القراءة بتخريجات منها: أن تعتبر الإضافة بيانية أى: جزاء هو مثل ما قتل[٢].

وظاهر الآية يفيد ترتيب الجزاء على القتل العمد، إلا أنهم اختلفوا هنا على أقوال ذكرها القرطبى فقال ما ملخصه:

قوله - تعالى - : ﴿ومن قتله منكم متعمدًا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ ذكر - سبحانه - المتعمد ولم يذكر المخطىء ولا الناسى، والمتعمد هنا هو القاصد للشىء مع العلم بالإحرام. والمخطىء هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدا. والناسى هو الذى يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه. واختلف العلماء فى ذلك على خمسة أقوال:

الأول: ما أسنده الدارقطنى عن ابن عباس قال: إنما التكفير فى العمد، وإنما غلظوا فى الخطأ لئلا يعودوا.

الثانى: أن قوله ﴿متعمدا﴾ خرج على الغالب، فألحق به النادر كأصول الشريعة.

الثالث: أنه لا شىء على المخطىء والناسى وبه قال الطبرى وأحمد - فى إحدى روايته - وطاووس وداود وأبو ثور..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٩٨.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٢٤.

الرابع : أنه يحكم عليه فى العمد والخطأ والنسيان، وبه قال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم.

قال الزهرى : وجب الجزاء فى العمد بالقرآن، وفى الخطأ والنسيان بالسنة. فقد سئل النبى ﷺ عن الضبع فقال : «هى صيد» وجعل فيها إذا أصابها المحرم كبشا، ولم يقل عمدا ولا خطأ.

الخامس : أن يقتله متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه - وهو قول مجاهد -، لقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ قال : ولو كان ذاكرا لإحرامه لوجبت عليه العقوبة لأول مرة. قال : فدل على أنه أراد متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه»[١].

ويبدو لنا أن القول الرابع الذى قال به الأئمة أبو حنيفة والشافعى، ومالك أقرب إلى الصواب، لأن تخصيص العمد بالذكر فى الآية، لأجل أن يرتب عليه الانتقام عند العود، لأن العمد هو الذى يترتب عليه ذلك دون الخطأ، ولأن جزاء الخطأ معروف من الأدلة التى قررت التسوية فى ضمان المتلفات، إذ من المعروف أن من قتل صيد إنسان عمدا أو خطأ فى غير الحرم فعليه جزاؤه، فهذا حكم عام فى جميع المتلفات ومادام الأمر كذلك كان الجزاء ثابتا على المحرم متى قتل الصيد سواء أكان قتله له عمدا أم خطأ.

وقد اختلف العلماء - أيضا فى المراد بالمثل فى قوله - تعالى - ﴿ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾.

فجمهور الفقهاء يرون أن المراد بالمثل النظير. أى أن الجزاء يكون بالمماثلة بين الصيد المقتول وبين حيوان يقاربه فى الحجم والمنظر من النعم وهى الإبل والبقر والغنم.

ومن حججهم أن الله أوجب مثل المصيد المقتول مقيدا بكونه من النعم، فلابد أن يكون الجزاء مثلا من النعم، وعليه فلا تصح القيمة لأنها ليست من النعم.

قال ابن كثير: وفى قوله - تعالى - : ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ دليل لما ذهب إليه مالك والشافعى وأحمد من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسى، خلافا لأبى حنيفة حيث أوجب القيمة سواء أكان الصيد المقتول مثليا أو غير مثلى. قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه. وإن شاء اشترى به هديا.

والذى حكم به الصحابة فى المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا فى النعامة ببدنه، وفى بقرة

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٠٨.

الوحش ببقرة، وفى الغزال بعنز. وأما إذا لم يكن الصيد مثليا فقد حكم ابن عباس فيه بثمن يحمل إلى مكة»[١].

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك طريق معرفة الجزاء، ومآله، وأنواعه، فقال - تعالى - ﴿يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا﴾.

والضمير فى قوله ﴿به﴾ يعود على الجزاء المماثل للمصيد المقتول.

وقوله: ﴿هديا﴾ حال من جزاء، أو منصوب على المصدرية. أى يهديه هديًا.

والهدى: اسم لما يذبح فى الحج لاهدائه إلى فقراء مكة.

وقوله ﴿بالغ الكعبة﴾ صفة لقوله ﴿هديًا﴾ لأنه إضافته لفظية.

وقوله: ﴿أو كفارة﴾ معطوف على جزاء. وأو للتخيير، وكذلك فى قوله ﴿أو عدل ذلك صياما﴾.

والعدل - بالفتح - ما عادل الشىء من غير جنسه. وأما بالكسر فما عادله من جنسه. وقيل هما سيان ومعناهما المثل مطلقا.

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة: يأيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا، لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون، ومن قتل منكم الصيد وهو بهذه الصفة فعليه جزاء من النعم مماثل الصيد المقتول ومقارب له فى الخلقة والمنظر، أو فى القيمة، وهذا الجزاء المماثل للصيد المقتول يحكم به رجلان منكم تتوافر فيهما العدالة والخبرة حتى يكون حكمهما أقرب إلى الحق والصواب، ويكون هذا الجزاء الواجب على قاتل الصيد ﴿هديًا بالغ الكعبة﴾ أى: يصل إلى الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه، أو يكون على قاتل الصيد ﴿كفارة﴾ هى ﴿طعام مساكين﴾ بأن يطعمهم من غالب قوت البلد ما يساوى قيمة هذا الجزاء المماثل للصيد المقتول بحيث يعطى لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره، أو يكون عليه ما يعادل هذا الطعام صياما، بأن يصوم عن طعام كل مسكين يوما، وما قل عن طعام المسكين يصوم عنه يوما كاملا.

وإذا لم يجد للصيد المقتول مماثلا كالعصفور وما يشبهه فعليه قيمته، يشترى بها طعاما لكل مسكين مد، أو يصوم عن كل مد يوما.

وبهذا نرى أن المحرم إذا قتل الصيد فعليه جزاء من النعم مماثل للصيد المقتول فى الخلقة والمنظر أو عليه ما يساوى قيمة هذا الجزاء طعاما، أو عليه ما يعادل هذا الطعام صياما. وهذا ما يقول به جمهور الفقهاء.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٩٩.

أما أبو حنيفة فيرى - كما سبق أن أشرنا - أن المماثلة إنما تعتبر ابتداء بحسب القيمة، فيقوم الصيد المقتول من حيث هو، فإن بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجانى بين أن يشترى بها هديا يهدى إلى الكعبة ويذبح فى الحرم ويتصدق بلحمه على الفقراء، وبين أن يشترى بها طعامًا للمساكين، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما.

والمراد من الكعبة هنا الحرم؛ وإنما خصت بالذكر تعظيما لها.

قال بعض العلماء: ولا شك أن التخيير هنا ليس على حقيقته، إنما هو ترتيب مراتب على حسب القدرة على كل رتبة، فالأصل بلا ريب شراء هدى وذبحه فى الحرم، فإن تعذر ذلك كان الطعام، فإن تعذر كان الصيام.

هذا هو الظاهر عند الحنفية. وروى عنهم أنهم قالوا بالتخيير إذا عرفت القيمة بين الذبح عند الكعبة وبين إطعام المساكين، وبين الصوم.

وعندى أن الترتيب حسب القدرة أوضح وذلك هو رأى أحمد وزفر.

والمذاهب الأخرى تلتقى فى الجملة مع المذهب الحنفى بيد أنها تعتبر المماثلة فى الأوصاف.

وعندى أن المذهب الحنفى أوضح وأسهل تطبيقًا، وأدق فى تعرف المثل وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح، إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة»[1].

هذا، وقوله - تعالى - ﴿ليذوق وبال أمره﴾ تعليل لأيجاب الجزاء السابق على المحرم القاتل للصيد عن تعمد.

وقوله ﴿ليذوق﴾ من الذوق وهو إدراك المطعومات باللسان لمعرفة ما فيها من حلاوة أو مرارة أو غير ذلك. والمراد به هنا: إدراك ألم العذاب على سبيل الاستعارة.

والوبال فى الأصل: الثقل والشدة والوخامة. ومنه طعام وبيل إذا كان ثقيلا على المعدة. ومرعى وبيل وهو الذى يتأذى به بعد أكله.

والمراد به هنا: سوء عاقبة فعله.

والمعنى: شرعنا ما شرعنا من جزاء على المحرم فى حالة قتله للصيد، ليدرك سوء عاقبة قتله وفعله السىء، وليعلم أن مخالفته لأمر الله تؤدى إلى الخسارة فى الدنيا والآخرة.

قال الإمام الرازى: وإنما سمى الله - تعالى - ذلك وبالا، لأنه خيره بين ثلاثة أشياء: اثنان منها توجب تنقيص المال - وهو ثقيل على الطبع - وهما: الجزاء بالمثل والإطعام. والثالث:

---

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة مجلة لواء الإسلام العدد السادس من السنة ٢٢.

يوجب إيلام البدن وهو الصوم، وذلك أيضا ثقيل على الطبع.

والمعنى أنه - تعالى - أوجب على قاتل الصيد أحد هذه الأشياء التى كل واحد منها ثقيل على الطبع حتى يحترز عن قتل الصيد فى الحرم وفى حال الإحرام»[١].

وقوله: ﴿عفا الله عما سلف﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله بعباده ولطفه بهم، لأنه - سبحانه - لم يؤاخذهم على قتلهم للصيد وهم محرمون قبل تحريمها والنهى عنها.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتهديد شديد لمن تتكرر منه المخالفة لأوامر الله ونواهيه فقال: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾.

أى: ومن عاد وهو محرم إلى قتل الصيد بعد ورود النهى عن ذلك فإن الله - تعالى - ينتقم منه ويعاقبه عقابا شديدا فهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغالب ولا يقاوم، المنتقم الذى لا يدفع انتقامه بأى وسيلة من الوسائل.

هذا وجمهور العلماء على أن المحرم يتكرر الجزاء عليه فى قتل الصيد بتكرر القتل وأن عقوبة الآخرة - وهى انتقام الله من الجانى - لا تمنع وجوب الجزاء عليه فى الدنيا.

قال ابن كثير. ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ فى ذلك والعمد.

وقال على بن طلحة عن ابن عباس قال: من قتل شيئا من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كلما قتله. فإن قتله عمدا يحكم عليه فيه مرة واحدة. فإن عاد يقال له ينتقم الله منك»[٢].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين من التعرض للصيد فى حالة إحرامهم، وبينت الجزاء المترتب على من يفعل ذلك، وهددت من يستهين بحدود الله بالعذاب الشديد.

ثم بين - سبحانه - ما أحله للمحرم وما حرمه عليه مما يتعلق بالصيد فقال - تعالى -:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص٩٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٠١.

والمراد بصيد البحر : ما توالده ومثواه فى الماء. والمراد بالبحر : ما يشمل جميع المياه العذبة والملحة سواء أكانت أنهارا أم غدرانا أم غيرهما.

والمراد بالصيد : الاصطياد أو ما يصاد منه.

والمراد بطعامه : ما يطعم من صيده. وهو عطف على ﴿صيد﴾ من عطف الخاص على العام، ويكون الحل الواقع على الصيد المقصود به حل الانتفاع مطلقا ثم عطف عليه ما يفيد حل الأكل خاصة من باب إظهار الامتنان بالإنعام بما هو قوام الحياة وهو الأكل؛ فإن صيد البحر قد يقصد لمنافع أخرى غير الأكل، كالانتفاع بزيت بعض أنواع المصيد منه.

ويرى ابن أبى ليلى أن المراد بالصيد والطعام المعنى المصدرى، وقدر مضافا فى صيد البحر، وجعل الضمير فى ﴿طعامه﴾ يعود إليه لا إلى البحر، فيكون المعنى :

أحل لكم صيد حيوان البحر كما أحل لكم أن تأكلوا ما صدتموه منه. فهو يرى حل الأكل من جميع حيوانات البحر.

وقيل : بل المراد بصيد البحر ما أخذ بحيلة، وبطعامه ما ألقاه البحر من حيواناته أو انحسر عنه الماء وأخذه الآخذ من غير حيلة أو معالجة.

وقوله : ﴿متاعا﴾ مفعول لأجله.

وقوله : ﴿وللسيارة﴾ متعلق بأحل. وهو جمع سيار باعتبار الجماعة.

والمراد بالسيارة : القوم المسافرون.

والمعنى : أحل الله لكم أيها المحرمون صيد البحر كما أحل لكم أكل ما يؤكل منه، لأجل تمتعكم وانتفاعكم بذلك فى حال إقامتكم وفى حال سفركم فأنتم تتمتعون بهذه النعم مقيمين ومسافرين، وذلك يقتضى منكم الشكر لله لكى يزيدكم من هذه النعم.

قال ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية وبما أخرجه الشيخان عن جابر قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة وهم ثلاثمائة - قال : وأنا فيهم - قال فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد. قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت كبير. فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجه الله لكم. هل معكم من لحمه شىء فتطعمونا؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله».

وأخرج الإمام أحمد وأهل السنن ومالك والشافعى عن أبى هريرة : أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله !! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء. فإن توضأنا به عطشنا

أنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان؛ فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال».

رواه الشافعى وأحمد وابن ماجة والدارقطنى والبيهقى وله شواهد.

وقد احتج بهذه الآية أيضا من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئا. وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها.

وقال أبو حنيفة: لا يؤكل ما مات فى البحر كما لا يؤكل ما مات فى البر لعموم قوله - تعالى -: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾[1].

ثم أكد - سبحانه - حرمة صيد البر للمحرمين فقال: ﴿وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرمًا﴾ والمراد بصيد البر: ما كان توالده ومأواه فى البر مما هو متوحش بأصل خلقته.

وبعض الفقهاء يرى أن التحريم هنا منصب على الفعل، وعليه فالآية إنما تدل على حرمة الاصطياد فقط، وأما الأكل منه - أى من المصيد - بأن يصيده حلال فلا تدل عليه الآية.

وبعضهم يرى أن التحريم هنا منصب على ذات الصيد. وعليه فتكون الآية تقتضى تحريم جميع وجوه الانتفاع بالصيد إلا ما يخرجه الدليل.

وقد بسط القرطبى الكلام فى هذه المسألة فقال ما ملخصه: قوله - تعالى - ﴿وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما﴾ التحريم ليس صفة للأعيان وإنما يتعلق بالأفعال فمعنى قوله: ﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ أى فعل الصيد وهو المنع من الاصطياد.

أو يكون الصيد بمعنى المصيد وهو الأظهر لإجماع العلماء أنه لا يجوز للمحرم قبول صيد وهب له، ولا يجوز له شراؤه، ولا اصطياده، ولا استحداث ملكه بوجه من الوجوه.

وقد اختلف العلماء فيما يأكله المحرم من الصيد، فقال مالك والشافعى وأحمد. إنه لا بأس بأكل المحرم الصيد إذا لم يصد له ولا من أجله، لما رواه الترمذى والنسائى عن جابر عن النبى ﷺ قال: «صيد البر لكم حلال مالم تصيدوه أو يصد لكم»

وقال أبو حنيفة: أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذا اصطاده الحلال - سواء صيد من أجله أو لم يصد لظاهر قوله - تعالى - ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ فحرم صيده وقتله على المحرمين دون ما صاده غيرهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٠٢.

وروى عن على بن أبى طالب وابن عباس وابن عمر أنه لا يجوز للمحرم أكل صيد على حال من الأحوال سواء صيد من أجله أو لم يصد. لحديث الصعب بن جثامة الليثى، أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ حمارا وحشيا وهو بالأبواء فرده عليه رسول الله ﷺ قال: فلما أن رأى رسول الله ﷺ ما فى وجهى قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم» خرجه الأئمة واللفظ لمالك[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالدعوة إلى خشيته وتقواه وبالتذكير بالحشر وما فيه من حساب وعقاب فقال: ﴿واتقوا الله الذى إليه تحشرون﴾.

أى: واتقوا الله فى كل أحوالكم، وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها، واعلموا أن مرجعكم وحشركم إليه وحده، وسيجازيكم على أعمالكم التى عملتموها فى دنياكم.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أحلت للمحرم صيد البحر -فضلا من الله ورحمة-؛ لأن البحر بعيد عن الحرم، والمحرم قد يحرم فى منطقة قد تكون فيها بحار فتحريم صيد البحر عليه قد يؤدى إلى تعبه وإجهاده دون ان تكون هناك فائدة تعود على سكان الحرم.

أما الحكمة من وراء تحريم الصيد البرى على المحرمين فمنها: أن البيت الحرام بواد غير زرع، وسكان هذه المنطقة من وسائل حياتهم الصيد، فلو أبيح الصيد للمحرمين القادمين لزيارة البيت من كل فج عميق.. لأدى ذلك إلى قتل الكثير من الصيد البرى الذى هو مصدر انتفاع للقاطنين فى تلك المناطق. وفضلا عن كل ذلك ففى تحريم الصيد البرى الذى يعيش فى مناطق الحرم، تكريم لهذه المناطق، وتشريف لها، وإعلاء لشأنها ومكانتها. فهى أماكن الأمان والاطمئنان والسلام. لا للبشر وحدهم، بل للبشر ولغير البشر من مخلوقات الله التى نهت شريعته عن التعرض لها بسوء.

وبعد هذا النهى الشديد للمحرمين عن صيد البر وهم على هذه الحالة بين - سبحانه - المنزلة السامية للكعبة التى هى أشرف مكان، وأصلحه لأمان الناس واطمئنانهم كما بين -سبحانه- مكانة الأشهر الحرم وما يقدم فيها من خيرات لسكان الحرم - فقال - تعالى -:

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ
قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٤٢١.

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

قال الفخر الرازى: «اعلم أن اتصال هذه الآية - ﴿جعل الله الكعبة﴾ بما قبلها هو ان الله - تعالى - حرم فى الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم. فبين أن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير. فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول الخيرات والسعادات فى الدنيا والآخرة»(١).

والكعبة فى اللغة: البيت المكعب أى المربع. وقيل المرتفع.

قال القرطبى: وقد سميت الكعبة كعبة، لأنها مربعة.. وقيل: إنما سميت كعبة لنتوئها وبروزها، فكل ناتىء بارز كعب، ومنه كعب القدم وكعوب الفتاة، وكعب ثدى المرأة إذا ظهر فى صدرها»(٢).

وجعل هنا يحتمل أن تكون بمعنى صير فيتعدى لاثنين أولهما الكعبة وثانيهما قياما ويحتمل أن يكون بمعنى خلق أو شرع فيتعدى لواحد وهو الكعبة ويكون قوله: ﴿قياما﴾ حال من البيت الحرام.

والبيت الحرام: بدل من الكعبة أو عطف بيان جىء به على سبيل المدح والتعظيم ووصف بالحرام إيذانا بحرمته وإشعارا بشرفه، حيث حرم - سبحانه - القتل فيه، وجعله مكان أمان الناس واطمئنانهم.

وقوله ﴿قيامًا﴾ أصله قوامًا فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

والقيام والقوام ما به صلاح الشيء، كما يقال: الملك العادل قوام رعيته. لأنه يدبر أمرهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٣ ص٩٩.
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٢٤.

ويردع ظالمهم، ويحجز قويهم عن ضعيفهم، ومسيئهم عن محسنهم.

والمراد بالشهر الحرام : الأشهر الحرم على إرادة الجنس وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

وقيل المراد به شهر ذى الحجة فحسب، لأنه هو الذى تؤدى فيه فريضة الحج، فالتعريف للعهد وليس للجنس.

والهدى : اسم لما يهدى إلى الحرم من حيوان ليتقرب بذبحه إلى الله تعالى - وهو جمع هدية - بسكون الدال -

والقلائد جمع قلادة وهى ما يقلد به الهدى ليعلم أنه مهدى إلى البيت الحرام فلا يتعرض له أحد بسوء.

فالمراد بالقلائد هنا الحيوانات ذوات القلائد التى تساق إلى الحرم لذبحها فيه، فيكون ذكر القلائد بعد الهدى من باب التخصيص بالذكر على سبيل الاهتمام بشأنها، لأن الثواب فيها أكثر.

وقيل المراد بها : ما كان يفعله بعض الناس من وضع قلادة من شعر أو من غيره فى أعناقهم عندما يحرمون حتى لا يتعرض لهم أحد بسوء.

وقوله : ﴿والشهر الحرام والهدى والقلائد﴾ معطوف على ما قبله وهو الكعبة.

والمعنى : اقتضت حكمة الله - تعالى - ورحمته بعباده أن يصير الكعبة التى هى البيت الحرام ﴿قيامًا للناس﴾ أى به قوامهم فى إصلاح أمورهم دينا ودنيا، وكذلك جعل الأشهر الحرم والهدى وخصوصًا ما يقلد منه قيامًا للناس أيضًا.

وذلك لأن البيت الحرام الذى يأتى الناس إليه من كل فج عميق، يجدون فى رحابه ما يقوى إيمانهم، ويرفع درجاتهم، ويغسل سيئاتهم، ويصلح من شئون دنياهم عن طريق تبادل المنافع، وبذل الأموال، والشعور بالأمان والاطمئنان، وتوثيق الصلات الدينية والدنيوية التى ترضى الله - تعالى -، وتجعلهم أهلا لفضله ورحمته.

ولأن الأشهر الحرم تأتى للناس فتجعلهم يمتنعون عن القتال فيها، فتهدأ نفوسهم، ويحصل التآلف والتزاور بعد التدابر والتقاطع والتعادى ولأن الهدى والقلائد التى يسوقها المحرمون إلى الحرم لذبحها فيها ما فيها من التوسعة على الفقراء. وإشاعة روح المحبة والتسامح والإخاء.

ورحم الله الإمام القرطبى حيث يقول : « والحكمة فى جعل الله - تعالى - هذه الأشياء قياما للناس، أن الله - سبحانه - خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتقاطع والسلب

والغارة. فلم يكن بد فى الحكمة الإلـهية من وازع يزعهم - أى يزجرهم - عن التنازع، ويحملهم على التآلف، ويرد الظالم عن المظلوم، فقد روى مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن».

فجعل - سبحانه - الخليفة فى الأرض حتى لا يكون الناس فوضى، وعظم فى قلوبهم البيت الحرام، وأوقع فى نفوسهم هيبته، فكان من لجأ إليه معصوما به، وكان من اضطهد محميا بالكون فيه.

ولما كان لهذا البيت موضعا مخصوصا - ومكانا معينا - لا يدركه كل مظلوم، فقد جعل - سبحانه - الأشهر الحـرم ملجأ آخر. وقرر فى قلوبهم حرمتها، فكانوا لا يروعون فيها سربا - أى نفسا - ولا يطلبون فيها دما، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه. ثم شرع لهم الهدى والقلائد، فكانوا إذا أخذوا بعيرا وأشعروه دما، أو علقوا عليه قلادة أو فعل ذلك الرجل بنفسه. لم يروعه أحد حيث لقيه»[1].

واسم الإشارة فى قوله: ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السمـٰوات وما فى الأرض﴾.

يعود على الجعل المذكور الذى هو تصيير البيت الحرام وما عطف عليه قياما للناس، أى؛ صلاحا لأحوالهم الدينية والدنيوية.

والمعنى: فعل الله - تعالى - ذلك لتعلموا أنه - سبحانه - يعلم علما تاما شاملا ما فى السمـٰوات وما فى الأرض، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم، وهتاف أرواحهم. لأن تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار ولجلب المصالح الدينية والدنيوية دليل على أنه - سبحانه - يعلم ما فى السمـٰوات وما فى الأرض. وعلى أنه بكل شىء عليم دون أن تخفى عليه خافية مما فى هذا الكون: وكرر - سبحانه - «ما. وفى» فى المعطوف والمعطوف عليه للإشارة إلى دقة العلم وشموله، وأنه - سبحانه - لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقوله ﴿وأن الله بكل شىء عليم﴾ تعميم إثر تخصيص. للتأكيد وقدم الخاص على العام ليكون ذكر الخاص كالدليل على العام.

قال الجمل: واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه خبر لمبتدأ محذوف أى: الحكم الذى حكمناه ذلك لا غير.

والثانى: أنه مبتدأ وخبره محذوف أى: ذلك الحكم هو الحق لا غيره.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٢٥ بتصرف وبتلخيص.

والثالث : أنه منصوب بفعل مقدر يدل عليه السياق. أى : شرع الله ذلك. وهذا أقواها، لتعلق لام العلة به. وقوله ﴿لتعلموا﴾ منصوب بإضمار أن بعد لام كى. وقوله : ﴿وأن الله بكل شىء عليم﴾ معطوف على ما قبله وهو ﴿أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض﴾[1].

ثم رهب الله - تعالى - عباده من عقابه؛ ورغبهم فى ثوابه فقال : ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾.

أى : اعلموا - أيها الناس - أن الله شديد العقاب لمن انتهك حرماته، وتجاوز حدوده، وأنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة لمن أطاعه وتاب إليه توبة صادقة.

وفى تصدير الآية الكريمة بفعل الأمر ﴿اعلموا﴾ تنبيه شديد إلى أهمية ما سيلقى عليهم من أمر أو نهى، حتى يستقر فى قلوبهم، ويرسخ فى نفوسهم، فيسهل عليهم تنفيذه.

وجمع - سبحانه - بين الترهيب والترغيب، حتى يكون المؤمن بين الرجاء والخوف، فلا يقنط من رحمة الله ولا يجترىء على ارتكاب ما يغضبه - سبحانه -.

وبعد هذا الترغيب والترهيب بين - سبحانه - وظيفة رسوله ﷺ فقال : ﴿ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾.

وأصل البلاغ - كما يقول القرطبى - البلوغ، وهو الوصول. يقال : بلغ يبلغ بلوغا وأبلغه إبلاغا. وبلغه تبليغا، ومنه البلاغة، لأنها إيصال المعنى إلى النفس فى أحسن صورة من اللفظ»[2].

أى : ليس على رسولنا - أيها الناس - إلا تبليغ ما أمرناه بتبليغه إليكم وتوصيل ما كلفناه بتوصيله لكم، وهو لم يقصر فى ذلك، ولم يأل جهدا فى نصحكم وإرشادكم فأطيعوه لتسعدوا. واعلموا أن الله - تعالى - يعلم ما تظهرون وما تخفون من خير أو شر، وسيجازيكم بما تستحقون يوم القيامة.

فالآية الكريمة تأكيد لما اشتملت عليه سابقتها من ترغيب وترهيب، ومن تبشير وإنذار، وتصريح بأن الرسول ﷺ عليه تبليغ ما كلفه الله بتبليغه إلى الناس، وليس عليه بعد ذلك هدايتهم أو ضلالهم، وإنما الله وحده هو الذى بيده ذلك، وهو الذى بيده حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٥٢٨.
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٢٧.

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بأنه لا يستوى عنده الخبيث والطيب فقال: ﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾.

والخبيث - كما يقول الراغب - ما يكره رداءة وخساسة محسوسا كان أم معقولا، وأصله الردىء الدخلة الجارى مجرى خبث الحديد كما قال الشاعر:

سبكناه ونحسبه لجينا   فأبدى الكير عن خبث الحديد

وذلك يتناول الباطل فى الاعتقاد، والكذب فى المقال، والقبيح فى الفعال[1].

والطيب: الشىء الحسن الذى أباحته الشريعة ورضيته العقول السليمة، ويتناول الاعتقاد الحق، والمقال الصدق، والعمل الصالح.

والمعنى: قل - يا محمد - للناس: إنه لا يستوى عند الله ولا عند العقلاء القبيح والحسن من كل شىء، لأن الشىء القبيح - فى ذاته أو فى سببه أو فى غير ذلك من أشكاله - بغيض إلى الله وإلى كل عاقل، وسيكون مصيره إلى الهلاك والبوار.

أما الشىء الطيب الحسن فهو محبوب من الله ومن كل عاقل، ومحمود العاقبة دنيا ودينا.

وقوله: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ زيادة فى التنفير من الشىء الخبيث، وحض على التمسك بما هو طيب.

أى: لا يستوى فى ميزان الله ولا فى ميزان العقلاء الخبيث والطيب، حتى ولو كان الفريق الخبيث كثير المظهر، براق الشكل، تعجب الناظرين هيئته فلا تغتر به أيها العاقل، ولا تؤثر فى نفسك كثرته وسطوته فإنه مهما كثر وظهر وفشا. فإنه سىء العاقبة، سريع الزوال، لذته تعقبها الحسرة، وشهوته تتلوها الندامة، وسطوته تصحبها الخسارة والكراهية، وطريقه المليئة بالدنس والقذر يجب أن يوصد أبوابها الأخيار الشرفاء.

أما الفريق الطيب أو الشىء الطيب فهو محمود العاقبة، لذته الحلال يباركها الله، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وتستريح لها العقول السليمة، والقلوب النقية من كل دنس وباطل وطريقه المستقيم - مهما قل - سالكوه - هو الطريق الذى يوصل إلى كل خير وفلاح.

ولاشك أن العقل عندما يتخلص من الهوى سيختار الطيب على الخبيث لأن فى الطيب سعادة الدنيا والآخرة.

وما أحسن قول أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها: «ما تمتع الأشرار بشىء إلا وتمتع به

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص١٤١ للراغب الأصفهانى.

الأخيار، وزادوا عليهم رضا الله - عز وجل -.

والفاء فى قوله : ﴿فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون﴾ للافصاح عن كلام مقدر، والتقدير :

إذا كان الأمر كما بينت لكم - أيها الناس - من أنه لا يستوى الخبيث والطيب، لأن أهل الخبيث سيعاقبون ويندمون مهما كثروا وأهل الطيب سيثابون ويفرحون، إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله يا أصحاب العقول السليمة بأن تجتنبوا كل ما هو خبيث، وتقبلوا على كل ما هو طيب، لعلكم بسبب هذه التقوى والخشية من الله تنالون الفلاح والنجاح فى دنياكم وآخرتكم.

والجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد مامر من الترغيب فى الطاعات والتحذير من المعاصى.

قال الفخر الرازى : لما ذكر - سبحانه - هذه الترغيبات الكثيرة فى الطاعة، والتحذيرات من المعصية. أتبعها بوجه آخر يؤكدها فقال : ﴿فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون﴾ : أى : فاتقوا الله بعد هذه البيانات الجليلة والتعريفات القوية، ولا تقدموا على مخالفته لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة[1].

وبعد هذا الحديث المستفيض عن الحلال والحرام فى شريعة الإسلام اتجهت آيات السورة الكريمة إلى تربية المسلمين وإرشادهم إلى الآداب التى يجب أن يتمسكوا بها ونهيهم عن الأسئلة التى لاخير يرجى من وراء إثارتها.. فقال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟
عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات متعددة، منها ما حكاه القرطبى فى قوله : روى البخارى ومسلم وغيرهما - واللفظ للبخارى - عن أنس قال : قال رجل للنبى ﷺ يا رسول الله من أبى؟ قال : «أبوك فلان».

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٣ ص ١٠٤ وراجعه فى تفسير هذه الإيات إذا كنت تبغى المزيد من العلم والمعرفة، فقد أجاد فى هذا المقام وأبدع - رحمه الله -

وخرج البخارى أيضا عن أنس عن النبى ﷺ وفيه: «فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت فى مقامى هذا» فقام إليه رجل فقال: أين مدخلى يا رسول الله؟ قال «النار» فقام عبد الله بن حذافة - وكان إذا لا حى يدعى إلى غير أبيه - فقال من أبى يا رسول الله؟ فقال: أبوك حذافة..

وروى الدار قطنى والترمذى عن على رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ قالوا: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفى كل عام؟ قال: «لا ولو قلت نعم لوجبت» فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾.. الآية.

وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ثم قال القرطبى: ويحتمل أن تكون الآية نزلت جوابا للجميع، فيكون السؤال قريبا بعضه من بعض»[1].

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان، لا تسألوا نبيكم ﷺ أو غيره، عن أشياء تتعلق بالعقيدة أو بالأحكام الشرعية أو بغيرهما. هذه الأشياء ﴿إن تبدلكم﴾ وتظهر ﴿تسؤكم﴾ أى: تغمكم وتحزنكم وتندموا على السؤال عنها لما يترتب عليها من إحراجكم، ومن المشقة عليكم، ومن الفضيحة لبعضكم.

فالآية الكريمة - كما يقول ابن كثير - تأديب من الله لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم، وشق عليهم سماعها، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[2].

وقد وجه - سبحانه - النداء إليهم بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة فى نفوسهم، حتى يستجيبوا بسرعة ورغبة إلى ما كلفوا به.

وقوله: ﴿أشياء﴾ اسم جمع من لفظ شيء، فهو مفرد لفظا جمع معنى كطرفاء وقصباء - وهذا رأى الخليل وسيبويه وجمهور البصريين -.

ويرى الفراء أن أشياء جمع لشيء. وهو ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة، ومتعلق بقوله: ﴿تسألوا﴾.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٣٠
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٠٤

ومفعول ﴿تسألوا﴾ محذوف للتعميم. أى: لا تسألوا الرسول ﷺ ولا تسألوا غيره عن أشياء لا فائدة من السؤال عنها، بل إن السؤال عنها قد يؤدى إلى إحراجكم وإلى المشقة عليكم.

وقوله: ﴿إن تبدلكم تسؤكم﴾ صفة لأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها.

وعبر «بإن» المفيدة للشك وعدم القطع بوقوع الشرط والجزاء للإشارة إلى أن هذا الشك كاف فى تركهم للسؤال عن هذه الأشياء، فإن المؤمن الحق يبتعد عن كل مالا فائدة من ورائه من أسئلة أو غيرها.

وقوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله: ﴿إن تبدلكم تسؤكم﴾.

والضمير فى قوله ﴿عنها﴾ يعود على ﴿أشياء﴾ و ﴿حين﴾ ظرف زمان منصوب بالفعل ﴿تسألوا﴾.

والمعنى: لا تكثروا - أيها المؤمنون - من الأسئلة التى لا خير لكم فى السؤال عنها، وإن تسألوا عن أشياء نزل بها القرآن مجملة، فتطلبوا بيانها تبين لكم حينئذ لاحتياجكم إليها.

قال الفخر الرازى: السؤال على قمسين:

أحدهما: السؤال عن شىء لم يجر ذكره فى الكتاب والسنة بوجه من الوجوه. فهذا السؤال منهى عنه بقوله: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم﴾.

والنوع الثانى من السؤال: السؤال عن شىء نزل به القرآن لكن السامع لم يفهمه كما ينبغى فها هنا السؤال واجب، وهو المراد بقوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم﴾.

والفائدة فى ذكر هذا القسم، أنه لما منع فى الجملة الأولى من السؤال، أو هم أن جميع أنواع السؤال ممنوع منه، فذكر ذلك تمييزا لهذا القسم عن ذلك القسم.

فإن قيل: إن قوله ﴿وإن تسألوا عنها﴾ هذا الضمير عائد على الأشياء المذكورة فى قوله: ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾ فكيف يعقل فى ﴿أشياء﴾ بأعيانها أن يكون السؤال عنها ممنوعا وجائزًا معا؟

قلنا: الحواب عنه من وجهين:

الأول: جائز أن يكون السؤال عنها ممنوعًا قبل نزول القرآن بها ومأمورا به بعد نزول القرآن بها. **والثانى**: أنهما وإن كانا نوعين مختلفين، إلا أنهما فى حكم شىء واحد، فلهذا حسن اتحاد الضمير، وإن كانا فى الحقيقة نوعين مختلفين»[1]:

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١٠٧

وقال القرطبى : قوله -تعالى- ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ فيه غموض. وذلك أن فى أول الآية النهى عن السؤال، ثم قال : ﴿وإن تسألوا﴾ . الخ . فأباحه لهم.

فقيل : المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه، فحذف المضاف ولا يصح حمله على غير الحذف.

قال الجرجانى : الكناية فى «عنها» ترجع إلى أشياء أخر، كقوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ يعنى آدم، ثم قال : ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ أى : ابن آدم، لأن آدم لم يجعل نطفة فى قرار مكين، لكن لما ذكر الانسان وهو آدم دل على إنسان مثله، وعرف ذلك بقرينة الحال.

فالمعنى : وإن تسألوا عن أشياء - أخر - حين ينزل القرآن من تحليل أو تحريم أو حكم، أومست حاجتكم إلى التفسير، فإذا سألتم فحينئذ تبدلكم فقد اباح - سبحانه - هذا النوع من السؤال »[1].

والضمير فى قوله ﴿عفا الله عنها﴾ يعود إلى أشياء، والجملة فى محل جر صفه أخرى لأشياء.

أى : أن هذه الأشياء التى نهيتم عن السؤال عنها هى مما عفا الله عنه - رحمة منه وفضلا - حيث لم يكلفكم بها. ولم يفضحكم ببيانها.

ويجوز أن يعود الضمير إلى الأسئلة المدلول عليها بقوله ﴿لا تسألوا﴾ فتكون الجملة مستأنفة، ويكون المعنى : عفا الله عن أسئلتكم السالفة التى سألتموها قبل النهى، وتجاوز - سبحانه - عن معاقبتكم عليها رحمة منه وكرما؛ فمن الواجب عليكم بعد ذلك ألا تعودوا إلى مثلها أبدًا.

قال صاحب المنار : ولا مانع عندنا يمنعنا من إرادة المعنيين معا. فإن كل ما تدل عليه عبارات القرآن من المعانى الحقيقية والمجازية والكناية يجوز عندنا أن يكون مرادا منها مجتمعة تلك المعانى أو منفردة مالم يمنع مانع من ذلك كأن تكون تلك المعانى مما لا يمكن اجتماعها شرعًا أو عقلا، فحينئذ لا يصح أن تكون كلها مرادة بل يرجح بعضها على بعض بطرق الترجيح المعروفة من لفظية ومعنوية.

وقوله ﴿والله غفور حليم﴾ اعتراض تذييلى مقرر لعفوه - سبحانه - أى : عفا الله عن كل ذلك، وهو - سبحانه - واسع المغفرة والحلم والصفح ولذا لم يكلفكم بما يشق عليكم، ولم يؤاخذكم بما فرط منكم من أقوال وأعمال قبل النهى عنها.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر العبر والعظات والحكم من وراء نهيهم عن الأسئلة التى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٢٣

لاخير يرجى من ورائها فقال: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾.

والضمير فى قوله: ﴿قد سألها﴾ يعود إلى الأسئلة المنهى عنها فى قوله - تعالى - ﴿لا تسألوا﴾.

أى: قد سأل قوم من قبلكم - أيها المؤمنون - أمثال هذه الأسئلة التى لا خير يرجى من ورائها، ثم أصبحوا بعد إظهار الإجابة عليها كافرين بها، لأنهم استقلوا الإجابة عما سألوا عنه، وتركوا العمل بما تطلعوا إلى معرفته ويجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى أشياء فى قوله ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾ على تقدير السؤال عن حكمها أو عن سببها أو عن أصلها، أو عن غير ذلك مما لا فائدة من السؤال عنه.

إلى هذين المعنين أشار الآلوسى بقوله: ﴿قد سألها﴾ أى: المسألة، فالضمير فى موقع المصدر لا المفعول به. والمراد: سأل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال ﴿قوم﴾. وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير.

وجوز أن يكون الضمير للاشياء على تقدير المضاف أيضًا، فالضمير فى موقع المفعول به، وذلك من باب الحذف والإيصال. والمراد: سأل عنها واختلف فى تعيين القوم: فعن ابن عباس هم قوم عيسى: سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها وقيل: هم قوم صالح - عليه السلام - سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها، وقيل: هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم»[1]:

والذى نراه أن لفظ ﴿قوم﴾ يشمل هؤلاء الأقوام الذين ذكرهم الآلوسى كما يشمل غيرهم ممن سألوا عن أشياء لاخير من السؤال عنها فلما أجيبوا عما سألوا عنه لم يعملوا بما أخبروا به بل كفروا به وهجروه وأنكروه.

ونكر - سبحانه - لفظ ﴿قوم﴾ لأنه ليس الغرض تعيين ذواتهم، بل الغرض النهى عن التشبه بهم مهما كانت أجناسهم أو أزمانهم.

وجاء العطف فى الآية «بثم» المفيدة للتراخى، للدلاله على التباعد المعنوى بين اللجاجة فى السؤال وبين الجحود والكفر بعد ذلك؛ فكأنهم كانوا يريدون حكما يناسب أهواءهم فلما جاءهم الحكم الذى لا يهوونه كفروا به.

وقوله ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ يؤذن بأنهم قبل السؤال عن تلك الأشياء أوقبل الخوض فى تلك الأسئلة لم يكونوا كافرين، ولكنهم أصبحوا بسبب الخوض فيها والتفتيش عنها كافرين

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص ٤١

لأنهم لم يمتثلوا ما أجيبوا به، وإنما نبذوه وراء ظهورهم.

وبذلك ترى أن الآيتين الكريمتين تنهيان المؤمنين فى كل زمان ومكان عن الخوض فى الأسئلة عن أشياء يسوءهم الكشف عنها، وضربتا لهم الأمثال بحال الذين من قبلهم ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالأسئلة عن التكاليف والأحكام، فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها، ولو سكتوا عن هذه الأسئلة التى لا فائدة من ورائها لكان خيرا لهم وأقوم.

هذا، وقد ساق الشيخ القاسمى - رحمه الله - عقب تفسيره لهاتين الآيتين أقوالا متعددة للعلماء فيما يؤخذ منهما من آداب وأحكام، فقال - ما ملخصه - :

قال ابن كثير: ظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته فالأولى الإعراض عنها:

فقد روى الإمام أحمد ومسلم والنسائى عن أبى هريرة: أن النبى - ﷺ - قال:

«ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم. وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه».

وروى الدارقطنى وأبو نعيم عن أبى ثعلبة الخشنى: أن النبى ﷺ قال:

«إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها. وحد حدودا فلا تعتدوها. وحرم أشياء فلا تقربوها. وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها».

ثم قال الشيخ القاسمى: ثم رأيت فى «موافقات» الامام الشاطبى فى هذا الموضوع - مبحثا جليلا قال فيه.

الإكثار من الأسئلة مذموم. والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح. وهذه مواضع يكره السؤال فيها:

١ - السؤال عما لا ينفع فى الدين، كسؤال عبدالله بن حذافة: من أبى يا رسول الله؟ فأجابه أبوك حذافة.

٢ - أن يسأل عن شىء بينه القرآن، كما سأل الرجل عن الحج: أكل عام يارسول الله؟ مع أن قوله - تعالى ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ قاض بظاهره أنه للأبد لإطلاقه.

٣ - السؤال من غير احتياج إليه فى الوقت، وكأن هذا -والله أعلم- خاص بما لم ينزل فيه حكم، وعليه يدل قوله: «ذرونى ما تركتكم». وقوله: «وسكت عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها».

٤ - أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها، كما جاء فى النهى عن الأغلوطات[١].

٥ - أن يسأل عن علة الحكم وهو من قبيل التعبدات، أو يكون السائل ممن لا يليق به ذلك السؤال - كما فى حديث قضاء الصوم دون الصلاة.

- فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولاتقضى الصلاة؟ فقالت : أحرورية أنت؟

قلت : لست بحرورية، ولكنى أسأل. قالت عائشة : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة.

٦ - أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق، وعلى ذلك يدل ما أخرجه مالك فى الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج فى ركب، فيهم عمرو بن العاص. حتى وردوا حوضًا. فقال عمرو بن العاص : ياصاحب الحوض!! هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر بن الخطاب : ياصاحب الحوض! لا تخبرنا. فإنا نرد على السباع وترد علينا.

٧ - السؤال عن المتشابهات، وعلى ذلك يدل قوله - تعالى - ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه﴾. . الآية.

وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عرضًا للخصومات أسرع التنقل.

ومن ذلك سؤال رجل مالكا عن الاستواء؛ فقد جاء رجل إلى مالك فقال : يا أبا عبد الله «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟

قال راوى الحديث : فما رأيت مالكا وجد - أى غضب - فى شىء كموجدته من مقالته.

وعلاه الرحضاء - أى العرق - وأطرق القوم. فقال مالك : الاستواء معلوم، والكيف غير معقول. والإيمان به واجب. والسؤال عنه بدعة وإنى أخاف أن تكون ضالا.

٨ - السؤال عما شجر بين السلف الصالح، وقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كف الله عنها يدى، فلا أحب أن ألطخ بها لسانى.

٩ - سؤال التعنت والافحام وطلب الغلبة عند الخصام : وقد ذم القرآن هذا اللون من

---

(١) قال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى عند تعليقه على هذه الكلمة : أخرج أبو داود عن معاوية أن النبى ﷺ نهى عن الغلوطات بفتح الغين وضم اللام جمع غلوطة. . وهى المسائل يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنه. وقيل : أصلها أغلوطة خففت بطرح الهمزة كما تقول : لجر. وأنت تريد الأجر - حاشية تفسير القاسمى جـ٦ ص ٢١٧٨

الناس فقال. ﴿وهو ألد الخصام﴾[١] وقال، ﴿بل هم قوم خصمون﴾[٢]. وفى الحديث: أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم.

هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها، ويقاس عليها ما سواها، وليس النهى فيها واحدًا، بل فيها ما تشتد كراهيته ومنها ما يخفف، ومنها ما يحرم. ومنها ما يكون محل اجتهاد.

والنهى فى الآية مقيد بمالا تدعو إليه الحاجة من الأسئلة؛ لأن الأمر الذى تدعو إليه الحاجة فى أمور الدين قد أذن الله بالسؤال عنه فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[٣].

وفى الحديث: «قاتلهم الله!! هلا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء الجهل بالسؤال»[٤].

ثم حكى - سبحانه - بعض الأوهام والخرافات التى كان أهل الجاهلية يتمسكون بها، ويعتبرونها من العادات الدينية الراسخة فى نفوسهم، مع أنها لا أصل لها، وإنما هم الذين ابتدعوها ونسبوها إلى دين الله بدون دليل أو برهان فقال - تعالى:

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

قال الفخر الرازى: اعلم أنه - تعالى - لما منع الناس من البحث عن أمور ما كلفوا بالبحث عنها، كذلك منعهم عن التزام أمور ما كلفوا التزامها. ولما كان الكفار يحرمون على أنفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات - وإن كانوا فى غاية الاحتياج إلى الانتفاع بها - بين تعالى - أن ذلك باطل فقال: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٤

(٢) سورة الزخرف. الآية ٥٨

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧

(٤) تفسير القاسمى وحاشيته - بتصرف وتلخيص - جـ ٦ ص ٢١٦٦ ومابعدها

(٥) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١٠٩

وجعل هنا بمعنى شرع ووضع، و﴿من﴾ زائدة لتأكيد النفى والبحيرة بزنة فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق.

وكانوا فى الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، شقوا أذنها ومنعوا ركوبها، وتركوها لآلهتهم وامتنعوا عن نحرها وركوبها. وسموها «البحيرة» أى: مشقوقه الأذن.

وعن قتادة أنهم كانوا إذا أنجبت خمسة أبطن نظروا فى الخامس فإن كان ذكرا ذبحوه وأكلوه، وإن كان انثى شقوا أذنها وتركوها ترعى دون أن يستعملها أحد فى حلب أو ركوب.

والسائبة بزنة فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض. يقال ساب الماء إذا ترك يجرى.

قال أبو عبيدة: كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر أو شفى من مرض. سيب ناقته وخلاها وجعلها كالبحيرة وتسمى السائبة.

وقال محمد بن إسحاق: السائبة هى الناقة تلد عشرة أبطن إناث، فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف.

وعن ابن عباس: هى التى تسيب للأصنام، فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم.

والوصيلة بزنة فعيلة بمعنى فاعله. قال الفراء هى الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين - أى اثنين اثنين - وإذا ولدت فى آخرها انثى وذكرا. قيل: وصلت أخاها. فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء، وتجرى مجرى السائبة فى تركها دون أن يجز وبرها.

وقال الزجاج: هى الشاة إذا ولدت ذكرا كان لآلهتهم وإذا ولدت انثى كانت لهم وإذا ولدت ذكرا وانثى قالوا: وصلت أخاها فلا تذبح ويكون الذكر لآلهتهم.

وقيل: هى الناقة تبكر بأنثى ثم تثنى بأنثى، فكانوا يتركونها للطواغيت، ويقولون: قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر.

والحام اسم فاعل من حمى يحمى أى منع.

قال الفراء: هو الفحل إذا لقح ولد ولده قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء أو مرعى.

وقال أبو عبيدة: هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء أو مرعى.

هذه بعض الأقوال التى ذكرها العلماء فى تفسير هذه الألفاظ الأربعة، وهناك أقوال أخرى سواها تختلف عنها.

ويبدو أن الخلاف فى حقيقة هذه الأربعة مرجعه إلى اختلاف القبائل فى بلاد العرب واختلاف الأماكن التى يقيمون فيها، والعادات الباطلة التى شبوا عليها وألفوها.

هذا، وقد ذكر ابن كثير بعض الروايات التى وردت فى تفسيره هذه الألفاظ، كما ذكر أول من أدخل هذه العادات الباطلة فى بلاد العرب فقال ما ملخصه :[1] «روى البخارى ومسلم والنسائى عن سعيد بن المسيب قال. البحيرة : هى التى تكون درها للطواغيت. والسائبة : هى التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، والوصيلة : الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام : فحل الإبل يضرب الضرائب المعدود فإذا قضى ضرابه تركوه للطواغيت ولا يحملون عليه شيئًا.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال إن أول من سيب السوائب وعبد الإصنام أبوخزاعة عمرو بن لحى وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار.

والمعنى : ما شرع الله – تعالى – شيئًا مما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وهذه الحيوانات إنما حرم أهل الجاهلية أكلها والانتفاع بها من عند أنفسهم بدون علم أو برهان، وهم فى هذا التحريم إنما يفترون على الله الكذب الصريح القاطع بسبب كفرهم وضلالهم وأكثرهم لا يفقهون الحق ولا يستجيبون له انقيادا لأهوائهم ورؤسائهم.

والمراد بالذين كفروا فى قوله ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ رؤساؤهم وزعماؤهم الذين يأتون لعوامهم بالأحكام الفاسدة والمزاعم الباطلة، وينسبونها إلى دين الله كذبا وزورا.

والمراد بأكثرهم فى قوله : ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ عوامهم ودهماؤهم الذين يسيرون خلف كل ناعق بدون تفكير أو تدبر.

وقد عبر – سبحانه – بقوله ﴿وأكثرهم﴾ إنصافًا للقلة العاقلة التى خالفت هذه الأوهام الباطلة، وإستجابت للحق عند ظهوره.

ثم حكى – سبحانه – ما كان عليه هؤلاء العوام المقلدون من جمود وخضوع للباطل فقال.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٠٧

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾.

أى: وإذا قال قائل - على سبيل النصح والإرشاد إلى الخير - لهؤلاء المقلدين المنقادين انقيادا أعمى للأوهام إذا قال لهم هذا القائل: تعالوا أى: أقبلوا واستجيبوا لما أنزل الله فى كتابه، ولما أنزل على رسوله من هدايات لتسعدوا وتفوزوا قالوا: بعناد وغباء - ﴿حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا﴾: كافينا فى هذا الشأن ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وتقاليد وعادات. فلا نلتفت إلى ما سواه.

وهذه حجة كل ضال مقلد لمن سبقوه بغير تعقل ولا تدبر. إنه يترك معانى العزة والكرامة وإعمال الفكر ليعيش أسير ذلته للأوهام التى شب عليها وسار خلفها مقلدًا غيره ومنقادًا له انقياد الخانعين الأذلاء.

ولم يذكر -سبحانه- القائل فى قوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾ للإشارة إلى أن الذين يدعونهم إلى طريق الحق متعددون، فالنبى ﷺ يدعوهم، والمؤمنون يدعونهم. والأدلة الدالة على صدق هذا الدين تدعوهم. ومع كل ذلك فهم فى ضلالهم سادرون، وتحت سلطان سادتهم خانعون.

وقوله - تعالى - ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون﴾ رد عليهم بأسلوب التأنيب والتعجيب من جهالاتهم وخضوعهم للباطل بدون مراجعة أو تفكير.

والواو فى قوله ﴿أو لو كان آباؤهم﴾ وأو الحال. والهمزة التى دخلت عليها للانكار والتعجب من ضلالهم.

والمعنى: أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. ويغلقون على أنفسهم باب الهداية ليبقوا فى ظلمات الضلالة ولو كان آباؤهم لايعلمون شيئًا من الحق ولا يهتدون إليه لانطماس بصيرتهم.

وليس المراد أن آباءهم لو كانوا يعلمون شيئًا أو يهتدون إلى شىء لجاز لهم ترك ما أنزل الله وإنما المراد هنا تسجيل الواقع المظلم الذى كانوا عليه وكان عليه آباؤهم من قبلهم. فآباؤهم كانوا كذلك يتبعون ما شرعه لهم آباؤهم بدون تأمل أو تفكير.

فالآية الكريمة زيادة فى توبيخهم وتوبيخ آبائهم؛ لأنهم جميعا مشتركون فى الانغماس فى الضلال والجهل.

وبعد أن بين - سبحانه - ما بين من التكاليف والأحكام والحلال والحرام، وذم المقلدين لآبائهم تقليدًا أعمى. وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين، أمرهم فيه بأن يلزموا أنفسهم طاعة الله، وأنهم ليس عليهم شىء من آثام غيرهم ماداموا قد نصحوهم وأرشدوهم إلى الخير فقال - تعالى - :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾

وقوله ﴿عليكم﴾ اسم فعل أمر بمعنى : الزموا وقوله : ﴿أنفسكم﴾ منصوب على الإغراء بقوله : ﴿عليكم﴾.

قال الجمل : واختلف النحويون فى الضمير المتصل بها - أى بكلمة ﴿عليكم﴾ - والصحيح أنه فى موضع جر كما كان قبل أن تنقل الكلمة إلى الإغراء»[1].

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا، الزموا العمل بطاعة الله، بأن تؤدوا ما أمركم به، وتنتهوا عما نهاكم عنه، وأنتم بعد ذلك «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» أى : لا يضركم ضلال من ضل وغوى، ما دمتم أنتم قد أديتم حق أنفسكم عليكم بصيانتها عما يغضب الله وأديتم حق غيركم عليكم بإرشاده ونصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. فإن أبى هذا الغير الاستجابة لكم بعد النصح والإرشاد والأخذ على يده من الوقوع فى الظلم فلا ضير عليكم فى تماديه فى غيه وضلاله، فإن مصيركم ومرجعكم جميعًا إلى الله - تعالى - وحده ﴿فينبئكم﴾ يوم القيامة ﴿بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا من خير أو شر، ويجازى أهل الخير بما يستحقون من ثواب، ويجازى أهل الشر بما يستحقون من عقاب.

هذا، وقد يقول قائل : إن ظاهر هذه الآية قد يفهم منه بعض الناس، أنه لا يضر المؤمنين أن يتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ماداموا قد أصلحوا أنفسهم ؛ لأنها تقول : ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فهل هذا الفهم مقبول؟

والجواب على ذلك، أن هذا الفهم ليس مقبولا، لأن الآية الكريمة مسوقة لتسلية المؤمنين، ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم إذا لم يجدوا أذنا صاغية لدعوتهم.

فكأنها تقول لهم : إنكم - أيها المؤمنون - إذا قمتم بما يجب عليكم، لا يضركم تقصير غيركم. ولا شك أن مما يجب عليهم القيام به : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذ لا يكون المرء مهتديا إلى الحق مع تركه لفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإنما يكون مهتديا متى أصلح نفسه ودعا غيره إلى الخير والصلاح.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٥٢٣

أى أن الهداية التى ذكرها - سبحانه - فى قولهم ﴿إذا اهتديتم﴾ لا تتم إلا بإصلاح النفس ودعوة الغير إلى الخير والبر.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذه المعانى بقوله : كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة، يتمنون دخولهم فى الإسلام، فقيل لهم ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها فى طرق الهدى ﴿لا يضركم﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين. وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فإن من تركهما مع القدرة عليهما لا يكون مهتديا، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه(١).

ويبدو أن هذه الآية الكريمة قد فهمها بعض الناس فهما غير سليم - حتى فى الصدر الأول من الإسلام.

قال القرطبى : روى أبو داود والترمذى وغيرهما عن قيس بن أبى حازم قال : خطبنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فقال : أيها الناس - إنكم تقرءون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده».

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبه الخشنى فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية؟ فقال : أية آية؟ قلت : قوله - تعالى - ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا. سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحا مطاعًا وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة. وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم.

وفى رواية قيل يارسول الله! أجر خمسين منا أو منهم؟ قال «بل أجر خمسين منكم»(٢).

وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : كنت فى حلقة فيها أصحاب النبى ﷺ وإنى لأصغر القوم؛ فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فقلت أنا : أليس الله يقول : ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها. ولا تدرى ما تأويلها-حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت ـ ثم أقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن وإنك نزعت آية لا تدرى ما هى، وعسى أن تدرك ذلك

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٥٨
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٤٣

الزمان، إذا رأيت شحا مطاعًا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت»(١).

والخلاصة أن الآية الكريمة لا ترخص فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنها - كما قال الحاكم - لو استدل بها على وجوبها لكان أولى، لأن قوله ﴿عليكم أنفسكم﴾ معناه : الزموا أن تصلحوا أنفسكم باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله والعقليات المؤيدة بها، ودعوة الإخوان إلى ذلك، بإقامة الحجج ودفع الشبه، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ولا تقصروا فى ذلك»(٢).

ونقل الفخر الرازى عن عبد الله بن المبارك أنه قال : هذه أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإنه - سبحانه - قال ﴿عليكم أنفسكم﴾ يعنى عليكم أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار. وهذا كقوله فاقتلوا أنفسكم، يعنى أهل دينكم فقوله ﴿عليكم أنفسكم﴾ يعنى بأن يعظ بعضكم بعضًا. ويرغب بعضكم بعضًا فى الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات»(٣).

ثم ختمت السورة حديثها الطويل المتنوع عن الأحكام الشرعية ببيان بعض أحكام المعاملات فى المجتمع الإسلامى فتحدثت عن التشريع الخاص بالإشهاد على الوصية فى حالة السفر، وعن الضمانات التى شرعتها لكى يصل الحق إلى أهله كاملا غير منقوص فقال - تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ
بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا
عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ٩٦
(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص ٣٩١
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١١٢

وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ
أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ
مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة فى تفاصيلها إلا أنها متقاربة فى مغزاها.

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله: روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ قال: برىء الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له «بديل بن أبى مريم» بتجارة، معه جام من فضة أى إناء من فضة - يريد به الملك، وهو أعظم تجارته؛ فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك إلى أهله - أى: يوصلا ما تركه من متاع لورثته.

قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، واقتسمنا الثمن أنا وعدى، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره.

قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النبى ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها، فوثبوا عليه، فأمرهم النبى ﷺ أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه، فحلف فنزلت: ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة﴾ الآيات فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفاه فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٩٥

وقال القرطبى : ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات نزلت بسبب تميم الدارى وعدى بن بداء، روى البخارى والدارقطنى وغيرهما عن ابن عباس قال : كان تميم الدارى وعدى بن بداء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بنى سهم فتوفى بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاما من فضة مخوصا بالذهب - أى عليه صفائح الذهب مثل خوص النخل - فاستحلفهما رسول الله ﷺ «ماكتمتما ولا اطلعتما» ثم وجد الجام بمكة فقالوا : اشتريناه من عدى وتميم، فجاء رجلان من ورثة السهمى فحلفا أن الجام للسهمى، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا، قال : فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآيات[1].

هذا، والمعنى الإجمالى لهذه الآيات : أن الله - تعالى - شرع لكم - أيها المؤمنون - الوصية فى السفر فعلى من يحس منكم بدنو أجله وهو فى السفر أن يحضر رجلا مسلما يوصيه بإيصال ماله لورثته فإذا لم يجد رجلا مسلما فليحضر كافرا، والاثنان أحوط، فإذا أوصلا ما عندهما إلى ورثة الميت. وارتاب الورثة فى أمانة هذين الرجلين، فعليهم فى هذه الحالة أن يرفعوا الأمر للحاكم، وعلى الحاكم أن يستحلف الرجلين بالله بعد الصلاة بأنهما ماكتما شيئًا من وصية وما خانا.

فإذا ظهر بعد ذلك للحاكم أو لورثة الميت أن هذين الرجلين لم يكونا أمينين فى أداء ما كلفهما الميت بأدائه، فعندئذ يقوم رجلان من أقرب ورثة الميت، ليحلفا بالله أن شهادتهما أحق وأولى من شهادة الرجلين الأولين، وأن هذين الرجلين لم يؤديا الوصية على وجهها.

ثم بين - سبحانه - فى الآية الثالثة أن ما شرعه الله لهم هو أضمن طريق لأداء الشهادة على وجهها الصحيح وعليهم أن يراقبوه ويتقوه لكى يكونوا من المؤمنين الصادقين :

هذا هو المعنى الإجمالى للآيات الكريمة سقناه قبل تفصيل الفول فى تفسيرها حتى يتهيأ الذهن لفهمها بوضوح.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾ . . إلخ استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم، إثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم وفيه من إظهار العناية بمضمونه مالا يخفى.

وللشهادة معان منها، الإحضار والقضاء، والحكم، والحلف، والعلم والإيصاء، والمراد بها هنا الأخير، كما نص عليه جماعة من المفسرين»[2].

وقوله : ﴿شهادة﴾ يصح أن يكون مبتدأ وخبره قوله : ﴿اثنان﴾ على حذف مضاف. أى : شهادة اثنين.

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٤٦
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص ٤٦

ويصح أن يكون مبتدأ والخبر محذوف. أى: فيما أمرتم به أن يشهد اثنان: ويكون قوله ﴿اثنان﴾ فاعلا لقوله ﴿شهادة﴾ وعليه تكون إضافة قوله ﴿شهادة﴾ إلى الظرف وهو ﴿بينكم﴾ على التوسع.

قال القرطبى: قوله ﴿شهادة بينكم﴾ قيل: معناه شهادة ما بينكم فحذفت «ما» وأضيفت الشهادة إلى الظرف، ، واستعمل اسما على الحقيقة، وهو المسمى عند النحويين بالمفعول على السعة. ومنه قوله - تعالى - ﴿هذا فراق بينى وبينك﴾ أى: ما بينى وبينك»

والمراد بقوله: ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ ظهور أماراته وعلاماته وهو ظرف متعلق بقوله: «شهادة».

وقوله: ﴿حين الوصية﴾ بدل من الظرف. وفى هذا الابدال تنبيه على أن الوصية لا ينبغى أن يتهاون فيها.

وقوله: ﴿ذوا عدل منكم﴾ صفة لقوله ﴿اثنان﴾

وقوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾ معطوف على قوله ﴿اثنان﴾.

والمراد من غير المسلمين، ويرى بعضهم أن المراد بقوله ﴿منكم﴾ أى: من قبيلتكم، وبقوله: ﴿من غيركم﴾ أى: من غير قبيلتكم.

وقوله: ﴿إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ بيان لمكان الوصية وزمانها.

والمراد بالضرب فى الأرض السفر فيها وقيل للمسافر ضارب فى الأرض لأنه يضربها برجليه أو بعصاه.

والمراد بقوله: ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أى: فقاربتم نهاية أجلكم بأن احسستم بدنو الموت منكم. فليس المراد الموت بالفعل وإنما المراد مشارفته ومقاربته.

وسمى - سبحانه - الموت مصيبة، لأنه بطبيعته يؤلم، أو يصحبه أو يقاربه أو يسبقه آلام نفسية.

قال القرطبى: وفى الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت، فأوصيتم إلى اثنين عدلين فى ظنكم ودفعتم إليهما ما معكم من المال، ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا فى أمرهما، وادعو عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة، أى تستوثقوا منهما»[1].

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٥٢

فقوله : ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله﴾ كلام مستأنف لبيان ما يجب على الحاكم أن يفعله عند الشك فى أمانة الرجلين اللذين دفع إليهما الميت ما له ليوصلاه إلى أهله.

ومعنى ﴿تحبسونهما﴾ توقفونهما وتمسكونهما لأداء اليمين اللازمة عليهما والمراد بالصلاة : صلاة العصر. وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة من التابعين.

قال الفخر الرازى : إنما عرف هذا التعيين بوجوه :

أحدها : أن هذا الوقت كان معروفا عندهم بالتحليف بعده، فالتقييد بالمعروف المشهور أغنى عن التقييد باللفظ.

وثانيها : ما روى أنه لما نزلت هذه الآية صلى النبى ﷺ العصر، ودعا بعدى وتميم فاستحلفهما عند المنبر فصار فعل الرسول دليلا على التقييد.

وثالثها : أن جميع أهل الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله فيه، ويحترزون عن الحلف الكاذب(١).

وقال الزهرى : المراد بالصلاة، الصلاة مطلقًا : وإنما كان الحلف بعد الصلاة، لأنها داعية إلى النطق بالصدق، وناهية عن الكذب والزور.

أى : توقفون - أيها المسلمون - هذين الرجلين بعد الصلاة لأداء اليمين ﴿فيقسمان بالله﴾ أى : فيحلفان بالله ﴿إن ارتبتم﴾ فى صدقهما، بأن يقولا : ﴿لانشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى﴾ أى : لا نحصل بيمين الله عرضًا من أعراض الدنيا، ولو كان من نقسم له ونشهد عليه قريبا لنا.

﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ أى : ولا نكتم الشهادة التى أمرنا الله بإظهارها وأدائها ﴿إنا إذا لمن الآثمين﴾ أى : إنا إذا لتكونن معدودين من المستقرين فى الذنوب والآثام إن كتمناها وبدلناها عن وجهها الصحيح.

وقوله ﴿إن ارتبتم﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلا به، ومتى لم يقع ريب ولا اختلاف فلا يمين.

وجواب الشرط محذوف للعلم به مما قبله. أى : إن ارتبتم فحلفوهما.

والضمير فى قوله : ﴿به﴾ يعود إلى القسم المفهوم من قوله : ﴿فيقسمان﴾ أى : فيقسمان بالله لا نشترى بصحة القسم ثمنا مهما كان هذا الثمن.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١١٧

وقوله: ﴿ولو كان ذا قربى﴾ تأكيد لتنزههما عن الحلف الكاذب.

قال صاحب الكشاف: والضمير فى ﴿به﴾ للقسم وفى ﴿كان﴾ للمقسم له. يعنى: لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضا من الدنيا. أى: لا نحلف كاذبين لأجل المال، ولو كان من يقسم له قريبًا منا، على معنى: أن هذه عادتهم فى صدقهم وأمانتهم أبدًا، وأنهم داخلون تحت قوله - تعالى - ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[1].

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أكد هذا القسم بجملة من المؤكدات منها: أن الحالفين يحلفان بأنهما لا يحصلان بيمين الله ثمنا مهما كانت قيمته، وبأنهما لن يحابيا إنسانا مهما بلغت درجة قرابته وبأنهما لن يكتما الشهادة التى أمرهما الله بأدائها على وجهها الصحيح، وبأنهما يقران على أنفسهما باستحقاق عقوبة الآثم المذنب إن كتما أو خانا أو حادا عن الحق، وهذا كله لأجل أن تصل وصية الميت إلى أهله كاملة غير منقوصة.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا تبين أن الرجلين اللذين دفع إليهما الموصى ما له لم يكونا أمينين فقال: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

وقوله: ﴿عثر﴾ أى: اطلع. يقال عثر الرجل على الشىء عثورا إذا اطلع عليه. ويقال: عثرت منه على خيانة أى: اطلعت.

وقوله: ﴿الأوليان﴾ تثنية أولى بمعنى أقرب. فالمراد بقوله ﴿الأوليان﴾ أى: الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما بأحوال الميت.

والمعنى: فان اطلع بعد تحليف الشاهدين الوصيين من جهة الميت على أنهما ﴿استحقا إثما﴾ أى: فعلا ما يوجب الإثم من خيانة أو كتمان أو ما يشبههما ﴿فآخران يقومان مقامهما﴾ أى: فرجلان آخران يقومان مقام اللذين اطلع على خيانتهما: أى يقفان موقفهما فى الحبس بعد الصلاة والحلف ويكون هذان الرجلان الآخران ﴿من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

قال القرطبى: قال ابن السرى: أى من الذين استحق عليهم الإيصاء واختاره ابن العربى؛ وأيضًا فإن التفسير عليه، لأن المعنى عند أهل التفسير: من الذين استحقت عليهم الوصية[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٨٨

(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٥٨

وقال بعض العلماء: قوله ﴿من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ أى: من ورثة الميت الذين استحق من بينهم الأوليان أى: الأقربان إلى الميت، الوارثان له. الأحقان بالشهادة، أى: اليمين. فقوله ﴿الأوليان﴾ فاعل ﴿استحق﴾.

ومفعول ﴿استحق﴾ محذوف، قدره بعضهم «وصيتهما» وقدره ابن عطية «مالهم وتركتهم» وقدره الزمخشرى. أن يجردوهما للقيام بالشهادة لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين.

وقرىء ﴿استحق﴾ على البناء للمفعول. أى من الذين استحق عليهم الإثم أى «جنى عليهم»، وهم أهل الميت وعشيرته. وعليه فقوله: ﴿الأوليان﴾ هو بدل من الضمير فى ﴿يقومان﴾ أو من ﴿آخران﴾(٢).

وقوله: ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين﴾ بيان لكيفية اليمين التى يحلفها هذان الأوليان.

أى: فيحلف بالله هذان الأوليان - أى الأقربان إلى الميت - قائلان ﴿لشهادتنا﴾ أى: ليميننا ﴿أحق﴾ بالقبول ﴿من شهادتهما﴾ أى: من يمينهما ﴿وما اعتدينا﴾ أى: وما تجاوزنا الحق فى يميننا وفيما نسبناه إليهما من خيانة ﴿إنا إذاً لمن الظالمين﴾ أى إنا إذا اعتدينا وقلنا فيهما خلاف الحق لنكونن فى زمرة الظالمين لأنفسهم المستحقين لسخط الله وعقابه.

قال الآلوسى: وقوله ﴿فيقسمان بالله﴾ معطوف على ﴿يقومان﴾ فى قوله: ﴿فآخران يقومان مقامهما﴾ والسببية ظاهرة وقوله: ﴿لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ جواب القسم. والمراد بالشهادة هنا - عند الكثيرين - اليمين كما فى قوله - تعالى - ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾.

وصيغة التفضيل ﴿أحق﴾ إنما هى لإمكان قبول يمينهما فى الجملة باعتبار صدقهما فى إدعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما»(٢).

ثم بين - سبحانه - وجه الحكمة والمصلحة فيما شرعه مما تقدم تفصيله فقال ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾.

فاسم الإشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى ما شرعه الله من أحكام تتعلق بالوصية التى تكون فى السفر ويموت صاحبها.

أى: ذلك الحكم المذكور ﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أى: أقرب إلى أن يؤدى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٥١ - بتصريف وتلخيص

(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص ٦٦

الأوصياء الشهادة فى هذه الحادثة وأمثالها على وجهها الصحيح . أى : على حقيقتها من غير تغيير لها خوفا من عذاب الآخرة. فالوجه فى قوله ﴿على وجهها﴾ بمعنى الذات والحقيقة.

والجملة الكريمة بيان لحكمة مشروعية التحليف بالتغليظ المتقدم، وقوله : ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ بيان لحكمة رد اليمين على الورثة. وهو معطوف على مقدر ينبىء عنه المقام فكأنه قيل : ذلك الذى شرعناه لكم أقرب إلى أن يأتى الأوصياء بالشهادة على وجهها الصحيح ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا أن ترد أيمان على الورثة بعد أيمانهم فيظهر كذبهم على رؤوس الأشهاد، فيكون ذلك الخوف داعيا لهم إلى النطق بالحق وترك الكذب والخيانة.

فأى الخوفين حصل عندهم سيقودهم إلى التزام الحق وترك الخيانة وإيصال الحقوق لذويها كاملة غير منقوصة.

فمن لم يمنعه خوف الله من أن يكذب أو يخون لضعف دينه منعه خوف الفضيحة على رءوس الأشهاد.

ثم قال - سبحانه ﴿ذلك أدنى﴾ أى أقرب إلى الحق وأبعد عن الباطل لأن معرفة الحق من كل وجوهه وجزئياته، مرجعها إلى الله العليم بخفايا الأمور وبواطنها وبواعثها. أما الحاكم فإنه يحكم على حسب ما يظهر له من حق، وحكمه قابل للخطأ والصواب.

والضمير فى قوله ﴿يأتوا، ويخافوا، وأيمانهم﴾ يعود إلى الأوصياء الذين أوصاهم الميت بإيصال ما يريد إيصاله لورثته، ثم حدث شك من الورثة فى أمانتهم.

وجاء الضمير مجموعا مع أن السياق لاثنين فقط، لأن المراد ما يعم هذين المذكورين وما يعم غيرهما من بقية الناس.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾.

أى : واتقوا الله فى كل ما تأتون وتذرون من أموركم واسمعوا ماتؤمرون به سماع إذعان وقبول وطاعة واعلموا أن الله - تعالى - لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق الخير والفلاح، لأنهم آثروا الغى على الرشد واستحبوا العمى على الهدى.

فهذا الختام للآية الكريمة اشتمل على ابلغ الوان التحذير من معصية الله ومن مخالفة أمره.

هذا؛ ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - الحث على الوصية وتأكيد أمرها، وعدم التهاون فيها بسبب السفر أو غيره، لأن الوصية

تثبت الحقوق، وتمنع التنازع ولهذا شدد الإسلام فى ضرورة كتابة الوصية، والشخص قوى معافى، ففى صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شىء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده».

قال ابن عمر - راوى هذا الحديث - : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله قال ذلك إلا وعندى وصيتى»[١].

٢ - الإشهاد على الوصية فى الحضر والسفر، ليكون أمرها أثبت، والرجاء فى تنفيذها أقوى، فإن عدم الإشهاد عليها كثيرًا ما يؤدى إلى التنازع وإلى التشكك فى صحتها.

٣ - شرعية اختيار الأوقات والأمكنة والصيغ المغلظة التى تؤثر فى قلوب الشهود وفى قلوب مقسمى الأيمان، وتحملهم على النطق بالحق.

قال صاحب المنار: ويشهد لاختيار الأوقات جعل القسم بعد الصلاة، ومثله فى ذلك اختيار المكان ومما ورد فى السنة فى ذلك ما رواه مالك وأحمد وأبو داود. عن جابر مرفوعا، «لا يحلف أحد عند منبرى كاذبا إلا تبوأ مقعده من النار».

ويشهد بجواز التغليظ على الحالف فى صيغة اليمين - بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعا للحالف عن الكذب - ما جاء فى الآيات الكريمة من قوله - تعالى - ﴿فيقسمان بالله - إن ارتبتم - لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى، ولانكتم شهادة الله إنا إذًا لمن الآثمين﴾[٢].

٤ - جواز تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام أو الخصوم فى شهادتهم، وقد روى عن ابن عباس أنه حلف المرأة التى شهدت فى قضية رضاع بين زوجين.

٥ - جواز شهادة غير المسلمين على المسلمين عند الضرورة. وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الكاف والميم فى قوله ﴿اثنان ذوا عدل منكم﴾ ضمير للمسلمين، وفى قوله ﴿أو آخران من غيركم﴾ للكافرين. فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة فى السفر إذا كانت وصية. وهو الأشبه بسياق الآية، مع ما تقرر من الأحاديث.

وهو قول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وهم: أبو موسى الأشعرى وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس، وتبعهم فى ذلك جمع من التابعين، واختاره أحمدبن حنبل وقال:

---

(١) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٧٠

(٢) تفسير المنار جـ ٧ ص ٢٢٧ - بتصرف وتلخيص -

شهادة أهل الذمة جائزة على المسلمين فى السفر عند عدم المسلمين، كلهم يقولون: «منكم» من المؤمنين. ومعنى ﴿من غيركم﴾ يعنى الكفار.

القول الثانى: أن قوله - سبحانه - ﴿أو آخران من غيركم﴾ منسوخ وهذا قول زيد بن أسلم؛ والنخعى ومالك والشافعى وأبى حنيفة وغيرهم من الفقهاء.

واحتجوا بقوله - تعالى - ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ وبقوله: ﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾ فهؤلاء زعموا أن آية الدين من آخر ما نزل وأن فيها ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ فهو ناسخ لذلك، ولم يكن الإسلام يومئذ إلا بالمدينة فجازت شهادة أهل الكتاب.وهو اليوم طبق الأرض فسقطت شهادة الكفار وقد أجمع المسلمون على أن شهادة الفساق لا تجوز والكفار فساق فلا تجوز شهادتهم.

قال القرطبى: قلت: ما ذكرتموه صحيح إلا أنا نقول بموجبه وأن ذلك جائز فى شهادة أهل الذمة على المسلمين فى الوصية فى السفر خاصة للضرورة بحيث لا يوجد مسلم وأما مع وجود مسلم فلا.

ولم يأت ما ادعيتموه من النسخ عن أحد ممن شهد التنزيل، وقد قال بالأولى ثلاثة من الصحابة ومخالفة الصحابة إلى غيرهم ينفر عنه أهل العلم.

ويقوى هذا أن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا، حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما: إنه لا منسوخ فيها، وما ادعوه من النسخ لا يصح، فإن النسخ لابد فيه من إثبات الناسخ على وجه ينافى الجمع بينهما مع تراخى الناسخ فما ذكروه لا يصح أن يكون ناسخا، فإنه فى قصة غير قصة الوصية لمكان الحاجة والضرورة، ولا يمتنع اختلاف الحكم عند الضرورات.

القول الثالث: أن الآية لا نسخ فيها. قاله الزهرى والحسن وعكرمة، ويكون معنى قوله ﴿منكم﴾ أى من عشيرتكم وقرابتكم.. ومعنى ﴿أو آخران من غيركم﴾ أى: من غير القرابة والعشيرة.

وهذا ينبنى على معنى غامض فى العربية، وذلك أن معنى ﴿آخر﴾ فى العربيـة من جنس الأول، تقول: مررت بكريم وكريم آخر ولا تقول مررت بكريم وخسيس آخر، فوجب على هذا أن يكون قوله ﴿أو آخران من غيركم﴾ أى عدلان من غير عشيرتكم من المسلمين»[1].

وبعد أن ساقت السورة الكريمة قبل ذلك ما ساقت من تشريعات حكيمة ومن تفصيل لأحوال أهل الكتاب وعقائدهم الزائفة. بعد كل ذلك اتجهت السورة فى أواخرها إلى الكلام

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٤٩-٣٥١ بتصرف يسير

عن أحوال الناس يوم القيامة وعن معجزات عيسى - عليه السلام - وعن موقف الحواريين منه. قال - تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

قال الفخر الرازى: اعلم أن عادة الله تعالى - جارية فى هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام، أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء أو بشرح أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع فلا جرم لما ذكر - فيما تقدم أنواعا كثيرة من الشرائع، أتبعها بوصف أحوال القيامة.

ثم قال وفى هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها متصلة بما قبلها والتقدير: واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل - فيكون قوله: ﴿يوم بجمع﴾ بدل اشتمال من قوله فى الآية السابقة ﴿واتقوا الله﴾

والقول الثانى: أنها منقطعة عما قبلها والتقدير:

اذكروا ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾[1].

والمعنى : لقد سقنا لكم - أيها الناس - ماسقنا من الترغيب والترهيب وبينا لكم ما بينا من الأحكام والآداب، فمن الواجب عليكم أن تتقوا الله وأن تحذروا عقابه، وأن تذكروا ذلك اليوم الهائل الشديد يوم يجمع الله الرسل الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام. فى شتى الأمكنة والأزمان فيقول لهم : ماذا أجبتم من أقوامكم ؟

أى : ما الإجابة التى أجابكم بها أقوامكم ؟

وخص - سبحانه - الرسل بالذكر - مع أن الرسل وغيرهم سيجمعون للحساب يوم القيامة - لإظهار شرفهم وللإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم من الأقوام لأن هؤلاء الأقوام إنما هم تبع لهم.

وقال - سبحانه - ﴿ماذا أجبتم﴾ ولم يقل - مثلا - « هل بلغتم رسالتى أولا » ؟ للإشعار بأن الرسل الكرام قد بلغوا رسالة الله على أكمل وجه وأن الذين خالفوهم من أقوامهم سيتحملون وزر مخالفتهم يوم القيامة.

وقوله : ﴿قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ حكاية لاجابة الرسل فإن قيل : لماذا نفوا عن أنفسهم العلم مع أن عندهم بعض العلم ؟ فالجواب على ذلك أن هذا من باب التأدب مع الله - تعالى - فكأنهم يقولون : لا علم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكل شىء، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به أقوامنا، إلا أن معرفتنا هذه لا تتعدى الظواهر، أما علمك أنت - ياربنا - فشامل للظواهر والبواطن، أو أنهم قالوا ذلك إظهارا للتشكى والالتجاء إلى الله ليحكم بينهم وبين أقوامهم الذين كذبوهم. أو أن مرادهم لا علم لنا بما كان منهم بعد أن فارقناهم وفارقنا من جاء بعدنا من الناس، لأن علمنا مقصور على حال من شاهدناهم وعاصرناهم.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد حكى هذه الأقوال وغيرها بأسلوبه البليغ فقال :

فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم. كما كان سؤال الموءودة توبيخا للوائد. فإن قلت : كيف يقولون : «لا علم لنا وقد علموا بما أجيبوا ؟ ».

قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم - أى : بما ابتلوا به منهم -، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارا للتشكى واللجأ إلى ربهم فى الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة، وأفت فى أعضادهم، وأجلب لحسرتهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١١٢ - بتصرف وتلخيص -

وسقوطهم فى أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله لهم وتشكى أنبيائه منهم. ومثاله: أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة، قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه. فجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجى؟ - وهو عالم بما فعل به - يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بى، تفويضًا للأمر إلى علم سلطانه واتكالا عليه، وإظهارا للشكاية وتعظيما لما حل به منه. -ولله المثل الأعلى- وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم.

وقيل معناه: علمنا ساقط مع علمك ومغمور، لأنك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التى فيها إجابة الأمم لرسلهم.

وقيل معناه: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة، وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه موبخين»[1].

ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على عيسى وأمه فقال: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك﴾.

وقوله: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ بدل من قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ وقد نصب بإضمار اذكر.

والمعنى: اذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ يوم يجمع الله الرسل فيقول لهم ماذا أجبتم؟. واذكر - أيضًا - زيادة فى العبرة والعظة قوله - سبحانه - ﴿لعيسى ابن مريم﴾ تذكر يا عيسى نعمى المتعددة عليك وعلى والدتك - وعبر بالماضى فى قوله: ﴿إذ قال الله﴾ مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة، للدلالة على تحقيق الوقوع، وأن هذا القول سيحصل بلا أدنى ريب يوم القيامة.

قال أبو السعود: قوله - تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾ شروع فى بيان ما جرى بينه - تعالى - وبين واحد من الرسل المجموعين، من المفاوضة على التفصيل، إثر بيان ما جرى بينه - تعالى - وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين، وتخصيص شأن عيسى بالبيان، لما أن شأنه - عليه السلام - متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعت عليهم هذه السورة جناياتهم. فتفصيل شأنه يكون أعظم عليهم، وأجلب لحسراتهم، وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم»[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٩٠
(٢) تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٧٠

والمراد بالنعمة فى قوله ﴿اذكر نعمتى﴾ النعم المتعددة التى أنعم بها - سبحانه - على عيسى وعلى والدته مريم حيث طهرها من كل ريبة، واصطفاها على نساء العالمين. وفى ندائه - سبحانه - لعيسى بقوله ﴿يا عيسى ابن مريم﴾ إشارة إلى أنه ابن لها وليس ابنا لأحد سواها، فقد ولد من غير أب، ومن كان شأنه كذلك لا يصلح أن يكون إلها، لأن الإله الحق لا يمكن أن يكون مولودا أو محدثا.

وقوله : ﴿إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ تعديد للنعم التى أنعم الله - تعالى - بها على عيسى.

وقوله ﴿أيدتك﴾ أى قويتك من التأييد بمعنى التقوية.

والمراد بروح القدس : جبريل - عليه السلام - فإن من وظيفته أن يؤيد الله به رسله بالتعليم الإلهى، وبالتثبيت فى المواطن التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها.

وقيل : المراد ﴿بروح القدس﴾ روح عيسى حيث أيده - سبحانه - بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية وسيطرت.

أى : أيدتك بروح الطهارة والنزاهة والكمال، فكنت متسما بهذه الروح الطاهرة من كل سوء.

والمهد : سن الطفولة والصبا - والكهولة : السن التى يكون فى أعقاب سن الشباب.

والمعنى : اذكر يا عيسى نعمى عليك وعلى والدتك، وقت أن قويتك بروح القدس الذى تقوم به حجتك، ووقت أن جعلتك تكلم الناس فى طفولتك بكلام حكيم لا يختلف عن كلامك معهم فى حال كهولتك واكتمال رجولتك.

وقوله : ﴿إذ أيدتك﴾ ظرف لنعمتى. أى : اذكر إنعامى عليكما وقت تأييدى لك. وذكر - سبحانه - كلامه فى حال الكهولة - مع أن الكلام فى هذه الحالة معهود فى الناس - للإيذان بأن كلامه فى هاتين الحالتين - المهد والكهولة - كان على نسق واحد بديع صادر عن كمال العقل والتدبير، دون أن يكون هناك فرق بين حالة الضعف وحالة القوة. قال الرازى : وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له، وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده.

وقال ابن كثير: قوله ﴿اذكر نعمتى عليك﴾ أى فى خلقى إياك من أم بلا ذكر، وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى ﴿وعلى والدتك﴾ حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة و﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ وهو جبريل،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١٢٥

وجعلتك نبيا داعيا إلى الله فى صغرك وكبرك. فأنطقتك فى المهد صغيرًا: فشهدت ببراءة أمك من كل عيب. واعترفت لى بالعبودية. وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوتك إلى عبادتى ولهذا قال: ﴿تكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ أى: تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك. وضمّن ﴿تكلم﴾ معنى تدعو، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب»[1].

وقوله: ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عيسى.

والمراد بالكتاب: الكتابة. أى أن عيسى - عليه السلام - لم يكن أميا بل كان قارئا وكاتبا وقيل المراد به ما سبقه من كتب النبيين كزبور داود، وصحف إبراهيم، وأخبار الأنبياء الذين جاءوا من قبله.

والمراد بالحكمة: الفهم العميق للعلوم مع العمل بما فهمه وإرشاد الغير إليه.

أى: واذكر وقت أن علمتك الكتابة حتى تستطيع أن تتحدى من يعرفونها من قومك. ووقت أن علمتك ﴿الحكمة﴾ بحيث تفهم أسرار العلوم فهما سليما تفوق به غيرك، كما علمتك أحكام الكتاب الذى انزلته على أخيك موسى وهو التوراة وأحكام الكتاب الذى أنزلته عليك وهو الانجيل.

ثم ذكر - سبحانه - بعض معجزات عيسى، بعد أن بين بعض ما منحه من علم ومعرفة، فقال: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذنى﴾ أى: واذكر وقت أن وفقتك لأن تخلق أى تصور من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير (فتنفخ فيها﴾ أى فى تلك الهيئة المصورة ﴿فتكون﴾ أى فتصير تلك الهيئة المصورة ﴿طيرا بإذنى﴾ أى: تصير كذلك بقدرتى وإرادتى وأمرى.

ثم قال - تعالى: ﴿وتبرىء الأكمه﴾ وهو الذى يولد أعمى؛ وتبرىء كذلك ﴿الأبرص﴾ وهو المريض بهذا المرض العضال ﴿بإذنى﴾.

وقوله: ﴿وتبرىء﴾ معطوف على ﴿تخلق﴾.

وقوله: ﴿وإذ تخرج الموتى بإذنى﴾ معطوف على قوله: ﴿وإذ تخلق من الطين﴾.

أى: واذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون. وكل ذلك بإذنى ومشيئتى وإرادتى.

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء،

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١١٥

وكان دعاؤه ياحى ياقيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح[١].

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المعجزات التى أعطاها لعيسى لكى ينفع بها الناس، أتبعها بذكر ما دفعه عنه من مضار فقال: ﴿وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾.

أى: واذكر نعمتى عليك وقت أن صرفت عنك اليهود الذين أرادوا السوء، وسعوا فى قتلك وصلبك مع أنك قد بشرتهم وأنذرتهم وجئتهم بالمعجزات الواضحات التى تشهد بصدقك فى نبوتك.

وقوله ﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ تذييل قصد به ذمهم وتسجيل الحقد والجحود عليهم.

أى: لقد أعطيناك يا عيسى ما أعطيناك من النعم والمعجزات لتكون دليلا ناطقا بصدقك، وشاهدًا يحمل الناس على الإيمان بنبوتك، ولكن الكافرين من بنى إسرائيل الذين أرسلت إليهم لم يصدقوا ماجئتهم به من معجزات واضحات، بل سارعوا إلى كذيبك قائلين: ما هذا الذى جئتنا به ياعيسى إلا سحر ظاهر، وتخبيل بين.

وهكذا نرى أن الكافرين من بنى إسرائيل، لم تزدهم البينات التى جاء بها عيسى إلا جحودًا وعنادًا.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الحواريون لعيسى، وما طلبوه منه، مما يدل على إكرام الله - تعالى - لنبيه عيسى فقال:

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى
وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٦٩.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾

قال ابن كثير ما ملخصه: وقوله ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ هذا أيضًا من الامتنان على عيسى، بأن جعل الله له أصحابًا وأنصارًا - وهم الحواريون - والمراد بهذا الوحى الإلهام كما فى قوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ وكما فى قوله ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ وقال بعض السلف فى هذه الآية﴿وإذا أوحيت إلى الحواريين﴾ أى: ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا[1].

فأنت ترى أن الإمام ابن كثير يرى أن المراد بالوحى هنا الإلهام. وعلى ذلك كثير من المفسرين، ومنهم من يرى أن المراد بقوله ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ أى: أمرتهم فى الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على ألسنة رسلى.

قال الآلوسى معززًا هذا الرأى: وقد جاء استعمال الوحى بمعنى الأمر فى كلام العرب، كما قال الزجاج وأنشد:

الحمد لله الذى استقلت ... بإذنه السماء واطمأنت
أوحى لها القرار فاستقرت

أى: أمرها أن تقر فامتثلت[2].

والحواريون جمع حوارى. وهم أنصار عيسى الذين لازموه وآمنوا به وصدقوه. وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق.

يقال: فلان حوارى فلان. أى: خاصته من أصحابه. ومنه قول النبى ﷺ فى الزبير بن العوام: لكل نبى حوارى وحوارى الزبير».

وأصل مادة «حور» الدلالة على شدة الصفاء ونصوع البياض، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق: الحوارى وقالوا فى النساء البيض: الحواريات والحوريات.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١١٤
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص ٥٨

وقد سمى الله - تعالى - أنصار عيسى بالحواريين، لأنهم أخلصوا لله نياتهم، وطهروا نفوسهم من النفاق والخداع فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص البياض.

قال الراغب : والحواريون أنصار عيسى - عليه السلام - قيل كانوا صيادين وقال بعض العلماء إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم[١].

والمعنى : اذكر نعمتى عليك - ياعيسى - حين ﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك، وقلت لهم : ﴿أن آمنوا بى وبرسولى﴾ أى : آمنوا وصدقوا بأنى أنا الواحد الأحد المستحق للعبادة والخضوع وآمنوا برسولى عيسى بأنه مرسل من جهتى لهدايتكم وسعادتكم.

وفى ذكر كلمة ﴿برسولى﴾ إشارة إلى مقامه من الله - عز وجل - وانفصال شخصه عن ذات الله - سبحانه - وأن عيسى ما هو إلا رسول من رب العالمين وأن من زعموا أنه غير ذلك جاهلون وضالون.

وقوله : ﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ حكاية لما نطق به الحواريون من إيمان وطاعة.

أى : أن الحواريين عندما دعوا إلى الدين الحق ﴿قالوا آمنا﴾ بأن الله هو الواحد الأحد المستحق للعبادة وأنه لا والد له ولا ولد. ثم أكدوا إيمانهم هذا، بأن قالوا ﴿واشهد﴾ علينا يا الهنا واشهد لنا يا عيسى يوم القيامة ﴿بأننا مسلمون﴾ أى : منقادون لكل ما جئتنا به وما تدعونا إليه.

وقدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب، وأخروا ذكر الإسلام لأنه عبارة عن الانقياد الظاهر فكأنهم قالوا : لقد استقر الإيمان فى قلوبنا استقرارًا مكينا، كان من ثماره أن انقادت ظواهرنا لكل ما يأمرنا الله به على لسانك يا عيسى.

قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل : إنه - تعالى - قال فى أول الآية ﴿اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك﴾ ثم إن جميع ما ذكره - تعالى - من النعم مختص بعيسى، وليس لأمه تعلق بشىء منها. قلنا : كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل التضمن والتبع للأم ولذلك قال - تعالى - ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ فجعلهما معًا آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر.

وإنما ذكر - سبحانه قوله ﴿وإذ أوحيت﴾ فى معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبًا فى قلوبهم، من أعظم نعم الله على الإنسان.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٣٥

وقد عدد عليه من النعم سبعًا: ﴿إذ أيدتك﴾ ﴿وإذ علمتك﴾ ﴿وإذ تخلق﴾ ﴿وإذ تبرىء﴾. ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ ﴿وإذ كففت﴾ ﴿وإذ أوحيت﴾[1].

ثم حكى - سبحانه - بعض ما دار بين عيسى وبين الحواريين فقال: ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾.

«المائدة» الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يميد، إذا تحرك. فكأن المائدة تتحرك بما عليها. وقال أبو عبيدة: سميت «مائدة» لأنها ميد بها صاحبها. أى: أعطيها وتفضل عليه بها. والخوان: ما يؤكل عليه الطعام.

ويرى الأخفش وغيره أن المائدة هى الطعام نفسه، مأخوذة من «ماده» إذا أفضل.

و«إذ» فى قوله ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم﴾ متعلق بمحذوف تقديره: اذكر وقت قول الحواريين ياعيسى ابن مريم.

وقد ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولديته وقوله: ﴿هل يستطيع - ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ فيه قراءتان سبعيتان:

الأولى: ﴿يستطيع ربك﴾ بالياء - على أنه فعل وفاعل. وقوله ﴿أن ينزل﴾ المفعول. والاستفهام على هذه القراءة محمول على المجاز، لأن الحواريين كانوا مؤمنين، ولا يعقل من مؤمن أن يشك فى قدرة الله.

ومن تخريجاتهم فى معنى هذه القراءة أن قوله ﴿يستطيع﴾ بمعنى «يطيع» والسين زائدة. كاستجاب وأجاب.

أى: أن معنى الجملة الكريمة: هل يطيعك - ربك ياعيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء.

وسنفصل القول فى تخريج هذه القراءة، وفى اختلاف المفسرين فى إيمان الحواريين بعد انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة.

أما القراءة الثانية: فهى «هل تستطيع ربك» بالتاء وبفتح الباء فى «ربك» والمعنى: هل تستطيع ياعيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء. فقوله «ربك» منصوب على التعظيم بفعل محذوف يقدر على حسب المقام وهذه القراءة لا إشكال فيها، لأن الاستطاعة فيها متجهة إلى عيسى. أى: أتستطيع ياعيسى سؤال ربك إنزال المائدة أم لا تستطيع؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص١٢٨

قال القرطبى : قراءة الكسائى وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد «هل تستطيع» بالتاء «ربك» بالنصب وقرأ الباقون بالياء «هل يستطيع» «ربك» بالرفع.

والمعنى على قراءه الكسائى - بالتاء : هل تستطيع أن تسأل ربك..

قالت عائشة : كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا «هل يستطيع ربك» وقال معاذ : أقرأنا النبى ﷺ : هل تستطيع ربك قال معاذ : وسمعت النبى ﷺ مرارًا يقرأ بالتاء»[1].

وقوله - سبحانه - ﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ حكاية لما رد به عيسى على الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة :

أى قال لهم عيسى : اتقوا الله وقفوا عند حدوده، واملأوا قلوبكم هيبة وخشية منه، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فإن المؤمن الصادق فى إيمانه يبتعد عن أمثال هذه المطالب التى قد تؤدى إلى فتنته.

ثم حكى القرآن مارد به الحواريون على عيسى فقال : ﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾.

أى : قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب :

أولها : أننا نرغب فى الأكل منها لننال البركة، ولأننا فى حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك.

وثانيها : أننا نرغب فى نزولها لكى تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه عن ربك، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالى، مما يؤدى إلى رسوخ الإيمان، وقوة اليقين.

وثالثها : أننا نرغب فى نزولها لكى نعلم أن قد صدقتنا فى دعوى النبوة، وفى جميع ما تخبرنا به من مأمورات ومنهيات، لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية، وفى ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك فى نبوتك.

ورابع هذه الأسباب : أننا نرغب فى نزولها لكى نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل، ليزداد الذين آمنوا منهم إيمانًا، ويؤمن الذى عنده استعداد للإيمان.

وبذلك نرى ان الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون فى قدرة الله، أو فى نبوة عيسى أو أن مقصدهم من هذا الطلب

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٦٤. بتصرف وتلخيص

التعنت. وإنما هم يريدون نزولها لتلك الأسباب السابقة التى يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى فى نبوته.

ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من الحواريين ما قالوه فى سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال - تعالى - ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾.

وقوله: ﴿اللهم﴾ أى: يا الله. فالميم المشددة عوض عن حرف النداء، ولذلك لا يجتمعان. وهذا التعويض خاص بنداء الله ذى الجلال والإكرام.

وقوله: ﴿عيدا﴾ أى سرورا وفرحا لنا، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور.

قال القرطبى: والعيد واحد الأعياد. وأصله من عاد يعود أى: رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيدٌ، لأنهما يعودان كل سنة. وقال الخليل: العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه، وقال ابن الانبارى: سمى عيدا للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور»[1].

والمعنى: قال عيسى بضراعة وخشوع - بعد أن سمع من الحواريين حجتهم - ﴿اللهم ربنا﴾ أى: يا الله ياربنا ومالك أمرنا، ومجيب سؤالنا. أتوسل إليك أن تنزل علينا ﴿مائدة من السماء﴾. أى: أطعمة كائنة من السماء، هذه الأطعمة ﴿تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا﴾ أى: يكون يوم نزولها عيدا نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها، ويكون - أيضًا - يوم نزولها عيدًا وسرورًا وبهجة لمن سيأتى بعدنا ممن لم يشاهدنا.

قال ابن كثير. قال السدى: أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن ومن بعدنا. وقال سفيان الثورى: يعنى يوما نصلى فيه. وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وقال سلمان الفارسى: تكون عظة لنا ولمن بعدنا[2].

وقوله: ﴿وآية منك﴾ معطوف على قوله ﴿عيدًا﴾.

أى: تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيدًا لأولنا وآخرنا، وتكون أيضًا - دليلا - وعلامة منك - سبحانك - على صحة نبوتى ورسالتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك.

وقوله: ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ تذييل بمثابة التعليل لما قبله. أى: أنزلها علينا ياربنا وأرزقنا من عندك رزقا هنيئا رغدًا، فإنك أنت خير الرازقين، وخير المعطين، وكل عطاء من

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٦٧
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١١٦

سواك لا يغنى ولا يشبع.

وقد جمع عيسى فى دعائه بين لفظى «اللهم وربنا» إظهارا لنهاية التضرع وشدة الخضوع، حتى يكون تضرعه أهلا للقبول والإجابة.

وعبر عن مجىء المائدة بالإنزال من السماء للإشارة إلى أنها هبة رفيعة، ونعمة شريفة، آتية من مكان عال مرتفع فى الحس والمعنى، فيجب أن تقابل بالشكر لواهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع والإخلاص له.

وقوله ﴿تكون لنا عيدًا﴾ صفة ثانية لمائدة، وقوله ﴿لنا﴾ خبر كان وقوله ﴿عيدًا﴾ حال من الضمير فى الظرف.

قال الفخر الرازى: تأمل فى هذا الترتيب، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا فى طلبها أغراضا، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ﴿نريد أن نأكل منها﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية.

فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال: ﴿وارزقنا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح فى كون بعضها روحية، وبعضها جسمانية.

ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكر الرزق انتقل إلى الرازق بقوله ﴿وارزقنا﴾ لم يقف عليه: بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال: ﴿وأنت خير الرازقين﴾. فقوله: ﴿ربنا﴾ ابتداء منه بذكر الحق. وقوله ﴿أنزل علينا﴾ انتقال من الذات إلى الصفات.

وقوله ﴿تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة من المنعم.

وقوله: ﴿وآية منك﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال.

وقوله: ﴿وارزقنا﴾ إشارة إلى حصة النفس.

ثم قال الإمام الرازى: فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدون فالأدون

ثم قال: ﴿وأنت خير الرازقين﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها[1].

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحواريين من

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ١٣١

أقوال فقال - تعالى - : ﴿قال الله إنى منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾.

وقوله : ﴿منزلها﴾ ورد فيه قراءتان متواتران.

إحداهما : منزلها - بتشديد الزاى - من التنزيل وهى تفيد التكثير أو التدريج كما تنبىء عن ذلك صيغة التفعيل. وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع.

وقرأ الباقون ﴿منزلها﴾ بكسر الزاى - من الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة.

والمعنى : قال الله -تعالى- إنى منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولى عيسى -عليه السلام- ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ أى فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها الطالبون لها ﴿فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾ أى : فان الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياته عذابًا لا يعذب مثله أحدًا من عالمى زمانه أو من العالمين جميعًا.

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها : حرف إن فى قوله ﴿فإنى أعذبه﴾ ومنها : المصدر فى قوله ﴿فإنى أعذبه عذابًا﴾ إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب. ومنها : وصف هذا العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين.

وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه : أن الكفر بعد إجابة ما طلبوه، وبعد رؤيته ومشاهدته؛ وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله.

أقول : الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد، والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب، وأعظم العقاب.

هذا، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريمة، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشىء من التفصيل.

المسألة الأولى : آراء العلماء فى إيمان الحواريين وعدم إيمانهم.

المسألة الثانية : آراء العلماء فى نزول المائدة وعدم نزولها.

وللاجابة على المسألة الأولى نقول : لعل منشأ الخلاف فى إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى قولهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - ﴿هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾؟ فإن هذا القول يشعر بشكهم فى قدرة الله على إنزال هذه المائدة.

وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسهم الزمخشرى - إلى عدم إيمانهم، وجعلوا الظرف فى

قوله : ﴿إذ قال الحواريون﴾ متعلقا بقوله قبل ذلك ﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾.

أى : أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون، فى الوقت الذى قالوا له فيه ﴿هل يستطيع ربك﴾ فكأنهم ادعو الإيمان والاسلام ادعاء بدون إيقان وإذعان، وإلا فلو كانوا صادقين فى دعواهم لما قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام : ﴿هل يستطيع ربك﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قالوا : ﴿هل يستطيع ربك﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت : ما وصفهم الله بالايمان والاخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما، ثم اتبعه بقوله : ﴿إذ قالوا﴾ فإذن دعواهم كانت باطلة، وانهم كانوا شاكين، وقوله : ﴿هل يستطيع ربك﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم. وكذلك قول عيسى لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا فى اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه ولا تحكموا ماتشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أى : إن كانت دعواكم للايمان صحيحة[1].

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى ﴿هل يستطيع ربك﴾ كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

١ - أن الظرف فى قوله : ﴿إذ قال الحواريون﴾ ليس متعلقا بقوله : ﴿قالوا آمنا﴾ وإنما هو منصوب بفعل مضمر تقديره اذكر، وهذا مارجحه العلامة أبو السعود فى تفسيره فقد قال :

قوله : ﴿إذ قال الحواريون﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ماجرى بينه عليه السلام - وبين قومه منقطع عما قبله، كما ينبىء عنه الإظهار فى موضع الاضمار وإذ منصوب بمضمر. وقيل : هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الايمان والاخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم»[2].

٢ - أن قول الحواريين لعيسى ﴿هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ لا يسحب عنهم الايمان، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخريجات منها

(أ) أن قولهم لم يكن من باب الشك فى قدرة الله، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظرى بدليل أنهم قالوا بعد ذلك ﴿نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا﴾.

وشبيه بهذا قول إبراهيم ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٦٩٣

(٢) تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٧٢.

قال القرطبى ما ملخصه: «الحواريون خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم، وقد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شىء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ كما قال إبراهيم ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾[1].

(ب) أن السؤال إنما هو عن الفعل لا عن القدرة عليه، وقد بسط الآلوسى هذا المعنى فقال: إن معنى ﴿هل يستطيع ربك﴾ هل يفعل ربك كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم معى مبالغة فى التقاضى.

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من باب التعبير عن المسبب بالسبب، إذ هى - أى الاستطاعة - من أسباب الإيجاد[2].

(جـ) أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - ويشهد لذلك قول الفخر الرازى: قال السدى؛ قوله ﴿هل يستطيع ربك﴾. أى: هل يطيعك ربك إن سألته. وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة[3].

والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التى ذكرناها، ولأن الله - تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال:

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى﴾ ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم، فقد جرت سنته - سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذروهم.

ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين، لما أمر الله أتباع النبى ﷺ بالتأسى بهم فى إخلاصهم ورسوخ يقينهم قال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله﴾[4].

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٦٥
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص ٥٩
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص ١٢٩
(٤) الآية الأخيرة من سورة الصف.

وقال - تعالى - ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾[١].

فهاتان الآيتان صريحتان فى مدح الحواريين وفى أنهم قوم التفوا حول عيسى - عليه السلام - وناصروه مناصرة صادقة، وآمنوا به إيمانا سليما من الشك والتردد.

وأما المسألة الثانية: وهى آراء العلماء فى نزول المائدة: فالجمهور على أنها نزلت.

وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه: والصواب من القول عندنا فى ذلك أن يقال:

إن الله أنزل المائدة.. لأن الله لا يخلف وعده، ولا يقع فى خبره الخلف وقد قال -تعالى- مخبرا فى كتابه عن إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك ﴿إنى منزلها عليكم﴾ وغير جائز أن يقول الله إنى منزلها عليكم ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه - تعالى - خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر[٢].

وقد علق ابن كثير على مارجحه ابن جرير فقال: وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.

ومن الآثار ما خرجه الترمذى عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحما، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد: فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخهم قردة وخنازير.

قال الترمذى: وقد روى عن عمار من طريق موقوفا وهو أصح.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء. قال: فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها. عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة. فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم[٣].

والذى يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاما كثيرًا عما كان على المائدة من أصناف الطعام، وعن كيفية نزولها ومكانه، وعن كيفية استقبالها وكشف غطائها، والأكل منها والباقى عليها بعد الأكل. وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحا، لضعف أسانيده، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونكارة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثرا طويلا فى هذا المعنى ثم قال فى نهايته: هذا أثر غريب جدا قطعه ابن حاتم فى مواضع من هذه القصة، وقد جمعته

---

(١) سورة آل عمران. الآية ٥٢.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ١٣٥

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١١٦

أنا ليكون سياقه أتم »[(١)].

ويعجبنى فى هذا المقام قول ابن جرير : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة، فأن يقال : كان عليها مأكول. وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزًا، وجائز أن يكون من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالى الآية بظاهر ما احتمله التنزيل[(٢)].

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل، فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل.

وروى منصور بن زادان عن الحسن أيضًا أنه قال فى المائدة : إنها لم تنزل.

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء.

أى : مثل ضربه الله للناس نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه.

قال الحافظ ابن كثير : وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى. وليس فى كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله. وكان يكون موجودًا فى كتابهم متواترًا ولا أقل من الآحاد »[(٣)].

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال : ولنا أن نقول : إن هذا الاستدلال إن كان يعنى عدم نزولها فقط، فقد يكون له شىء من الوجاهة وإن كان يعنى أنها لم تنزل ولم يسأل، فهو محل نظر كبير، لأن السؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعى على نقله، لاسيما وعيسى فى بيئة محصورة : جماعة سألوا وأجيبوا، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سؤالها فى كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا وأكلوا منها. وتذوقوا طعامها، ولم يذكر عن ذلك شىء.

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - فى القرآن قد قصه فى غيره من الكتب المتقدمة، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شىء حتى بمثل هذه المحاورة الخاصة التى لم تنته بحادث كونى حتى يكون عدم ذكرهم إياها فى أنا جيلهم - التى وضعوها - دليلا على عدم سؤالها. فقصة السؤال إذن لم

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١١٩
(٢) تفسير ابن جرير جـ٧ ص ١٣٥
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١١٩

ترد فيها عند النصارى ولكنهاوردت فيها عند المسلمين.

ومن الجائز أن تكون مما ورد فى الأناجيل، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب، أو ضاع منهم علمه بسبب ما. والقرآن كما وصف نفسه مهيمن على كتبهم التى وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيرًا منها، وأنه يبين لهم كثيرًا مما كانوا يخفون»[1].

هذا ومما سبق يتبين لنا أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها، كما جاء فى الآية الكريمة.

ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا؟ فالجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك فى قوله ﴿إنى منزلها عليكم﴾ والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب عليه من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا: لا حاجة لنا فيها. فلم تنزل. ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب، لأن ظاهر الآيات يؤيده، وكذلك الآثار التى وردت فى ذلك.

ثم حكت السورة الكريمة ما سيقوله الله لعيسى يوم القيامة، وما سيرد به عيسى على خالقه - عز وجل - حتى تزداد حسرة الذين وصفوا المسيح وأمه. بما هما بريئان منه فقال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى
وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى
نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٨١، لفضيلة الامام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت.

وقوله: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿إذ قال الحواريون﴾.

والخطاب للنبى ﷺ وهذا القول إنما يكون فى الآخرة - على الصحيح -

والمعنى: واذكر أيها الرسول الكريم وليذكر معك كل مكلف وقت أن يسأل الله - تعالى - عبده ورسوله عيسى فيقول له يا عيسى: أأنت قلت للناس ﴿اتخذونى﴾ أى: اجعلونى ﴿وأمى إلهين من دون الله﴾ أى من غير الله.

قال القرطبى: اختلف فى وقت هذه المقالة، فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين: إنما يقول له هذا يوم القيامة. وقال السدى وقطرب: قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت فإن ﴿إذ﴾ فى كلام العرب لما مضى والأول أصح، يدل عليه ما قبله من قوله ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ الآية. كما يدل عليه ما بعده وهو قوله: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾.

وعلى هذا تكون إذ بمعنى إذا كما فى قوله: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت﴾ أى: إذا فزعوا فعبر عن المستقبل بلفظ الماضى. لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه. كأنه قد وقع[1].

وكان النداء بقوله - سبحانه - ﴿يا عيسى ابن مريم﴾ أى: بغير ذكر النبوة، للإشارة إلى الولادة الطبيعية التى تنفى أن يكون إلها أو ابن إله أو فيه عنصر الألوهية بأى وضع من الأوضاع لأن الألوهية والبشرية نقيضان لا يجتمعان فلا يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية، ولا إله فيه بشرية.

والتعبير بقوله ﴿اتخذونى﴾ يدل على أنه ليس له حقيقة، بل هو فى ذاته اتخاذ بما لا أصل له.

والمقصود بالاستفهام فى قوله: ﴿أأنت قلت﴾ توبيخ للكفرة من قومه وتبكيت كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما، وفضيحتهم على رءوس الأشهاد فى ذلك اليوم العصيب، لأن عيسى سينفى عن نفسه أمامهم أنه قال ذلك «وإنما هو أمرهم بعبادة الله وحده. ولا شك أن النفى يعد السؤال أبلغ فى التكذيب وأشد فى التوبيخ والتقريع وادعى لقيام الحجة على من وصفوه بما هو برىء منه.

قال الآلوسى: واستشكلت الآية بأنه لايعلم أن أحدًا من النصارى اتخذ مريم إلها.

وأجيب عنه بأجوبة

الأول: أنهم لما جعلوا عيسى إلها لزمهم أن يجعلوا والدته أيضًا كذلك لأن الولد من جنس

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٧٤

من يلده، فذكر ﴿إلهين﴾ على طريق الإلزام لهم.

والثانى : أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها اسم الإله كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان فى قوله : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾.

والثالث : أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك. ويعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر الإمامى عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم : المريمية، يعتقدون فى مريم الألوهية وهو أولى الأوجه عندى(١).

وقوله - تعالى - ﴿قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق﴾ بيان لما أجاب به عيسى على خالقه - عز وجل -.

أى : قال عيسى مجيبا ربه بكل أدب وإذعان : تنزيها لك - يا إلهى - عن أن أقول هذا القول، فإنه ليس من حقى ولا من حق أحد أن ينطق به.

فأنت ترى أن سيدنا عيسى - عليه السلام - قد صدر كلامه بالتنزيه المطلق لله - عز وجل - ثم عقب ذلك بتأكيد هذا التنزيه، بأن أعلن بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول، لأنه عبد له - تعالى - ومخلوق بقدرته. ومرسل منه لهداية الناس فكيف يليق بمن كان شأنه كذلك أن يقول لمن أرسل إليهم ﴿اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾.

ثم أضاف إلى كل ذلك الاستشهاد بالله - تعالى - على براءته، وإظهار ضعفه المطلق أمام علم خالقه وقدرته فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولاأعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾.

أى : إن كنت قلت هذا القول وهو ﴿اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ فأنت تعلمه ولا يخفى عليك منه شيء - لأنك أنت - يا إلهى - تعلم مافى ﴿نفسى﴾ أى ما فى ذاتى، ولا أعلم ما فى ذاتك.

والمراد : تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم، وتعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك، وتعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل إنك أنت - يا إلهى - علام الغيوب.

فهذه الجملة الكريمة بجانب تأكيدها لنفى ما سئل عنه عيسى - عليه السلام - تدل بأبلغ تعبير على إثبات شمول علم الله - تعالى - بكل شيء، وقد أكد عيسى ذلك، بإن المؤكدة وبالضمير أنت، وبصيغة المبالغة «علاّم» وبصيغة الجمع للفظ «الغيوب» فهو لم يقل : إنك أنت عالم الغيب وإنما قال - كما حكى القرآن عنه - ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ بكل أنواعها،

---

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص ٦٥

وبكل ما يتعلق بالكائنات كلها.

وبعد هذا التنزيه من عيسى - عليه السلام - لله عز وجل -، وبعد هذا النفى المؤكد لما سئل عنه بعد كل ذلك يحكى القرآن ما قاله عيسى لقومه فيقول: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدًا مادمت فيهم﴾ أى: ما قلت لهم - يا إلهى - ﴿اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ وإنما القول الذى قلته لهم هو الذى أمرتنى أن أبلغهم إياه وهو عبادتك وحدك لا شريك لك، فأنت ربى وربهم، وأنت الذى خلقتنى وخلقتهم، فيجب أن ندين لك جميعًا بالعبادة والخضوع والطاعة، وأنت تعلم يا الهى - أننى لم أقصر فى ذلك، وأننى كنت رقيبًا وشهيدًا على قومى، وداعيًا لهم إلى اخلاص العبادات لك والعمل بموجب أمرك مدة بقائى فيهم.

قال الفخر الرازى: وأن فى قوله ﴿أن اعبدوا الله﴾ مفسرة والمفسر هو الهاء فى (به) من قوله ﴿إلا ما أمرتنى به﴾ وهو يعود إلى القول المأمور به.

والمعنى: ما قلت لهم إلا قولا أمرتنى به، وذلك القول هو أن: اعبدوا الله ربى وربكم. واعلم أنه كان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولا على موجب الأدب الحسن لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معا، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة[1].

وقوله: ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد﴾ بيان لانتهاء مهمته بعد فراقه لقومه.

أى: أنت تعلم يا إلهى بأنى ما أمرتهم إلا بعبادتك وبأنى ما قصرت فى حملهم على طاعتك مدة وجودى معهم، ﴿فلما توفيتنى﴾ يا إلهى أى: قبضتنى بالرفع إلى السماء حيا، كنت أنت الرقيب عليهم، أى: كنت أنت وحدك الحفيظ عليهم المراقب لأحوالهم، العليم بتصرفاتهم. الخبير بمن أحسن منهم وبمن أساء وأنت - يا إلهى - عل كل شىء شهيد، لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك.

هذا. وما ذهبنا إليه من أن معنى ﴿فلما توفيتنى﴾ أى: قبضتنى بالرفع إلى السماء حيا قول جمهور العلماء.

ومنهم من يرى أن معنى ﴿فلما توفيتنى﴾ أى: أمتنى وزعموا أن رفعه إلى السماء كان بعد موته.

---

(١) الفخر الرازى جـ١٢ ص١٢٥ المطبعة البهية.

قال بعض العلماء مؤيدا ما ذهب أليه الجمهور قوله : ﴿فلما توفيتنى﴾ أى فلما أخذتنى وافيا بالرفع إلى السماء حيا، إنجاء لى مما دبروه من قتلى، من التوفى وهو أخذ الشىء وافيا أى كاملا. وقد جاء التوفى بهذا المعنى فى قوله -تعالى- ﴿ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا...﴾.

ولايصح أن يحمل التوفى على الإماتة، لأن إماتة عيسى فى وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها، ورفعه إلى السماء جثة هامدة سخف من القول، وقد نزه الله السماء أن تكون قبرا لجثث الموتى، وإن كان الرفع بالروح فقط، فأى مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة فالحق أنه -عليه السلام- رفع إلى السماء حيا بجسده وروحه وقد جعله الله آية، والله على كل شىء قدير»[١].

وقال الشيخ القاسمى : وقد دلت الآية الكريمة على أن الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوى، ونقلهم إلى البرزخ لايعلمون أعمال أمتهم وقد روى البخارى هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ فقال ﷺ : «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا» أى غير مختونين - ثم قال : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾. ثم قال ﷺ : «ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصحابى فيقال : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، فيقال لى : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[٢].

وبعد أن أجاب عيسى على سؤال ربه تلك الإجابة الموفقة. فوض الأمر إليه - سبحانه - فى شأن قومه. فقال - كما حكى القرآن عنه ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

أى : إن تعذب - يا إلهى - قومى، فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم بقدرتك، والذين تملكهم ملكا تاما، ولااعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بمملوكه. وإن تغفر لهم، وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فذلك إليك وحدك، لأن صفحك عمن تشاء من عبادك هو صفح القوى القاهر الغالب الذى لا يعجزه شىء. والذى يضع الأمور فى مواضعها بمقتضى حكمته السامية وقد قال بعض المفسرين هنا : كيف جاز لعيسى أن يقول : ﴿وإن تغفر لهم﴾ والله - تعالى - لا يغفر أن يشرك به؟

---

(١) تفسير صفوة البيان لمعانى القرآن ص٢١٣ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف.
(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٢٢٣.

وقد أجاب عن ذلك الإمام القرطبى بقوله : قول عيسى ﴿وإن تغفر لهم﴾ قاله على وجه الاستعطاف لهم، والرأفة بهم، كما يستعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك. وقيل قاله على وجه التسليم لأمره، والاستجارة من عذابه، وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر وقيل. الهاء والميم فى ﴿إن تعذبهم﴾ لمن مات منهم على الكفر. والهاء والميم فى قوله : ﴿وإن تغفر لهم﴾ لمن تاب منهم قبل الموت. وهذا وجه حسن»[1].

أقول : هذا الوجه الثالث الذى ذكره القرطبى قد اكتفى به بعض المفسرين فقال : قوله : ﴿إن تعذبهم﴾ أى : من أقام على الكفر منهم ﴿فإنهم عبادك﴾ وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وإن تغفر لهم﴾ أى : لمن آمن منهم ﴿فإنك أنت العزيز﴾ الغالب على أمره ﴿الحكيم﴾ فى صنعه[2].

ومع وجاهة هذا الوجه فإننا نرى أن الآية الكريمة حكاية للتفويض المطلق الذى فوضه عيسى إلى ربه - سبحانه - فى شأن قومه ولهذا قال ابن كثير :

هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله - تعالى - فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وكذبوا على رسوله، وجعلوا لله ندا وصاحبة وولدا.

وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها.

فقد روى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : صلى النبى ﷺ ذات ليلة : فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية فلما أصبح قلت : يارسول الله ألم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال : إنى سألت ربى - عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها - وهى نائلة - إن شاء الله - لمن لا يشرك بالله شيئًا»[3].

وبعد أن حكى القرآن الكريم مارد به عيسى عليه السلام - على قول ربه وخالقه - سبحانه - ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ وقد تضمن هذا الرد - كما سبق أن بينا - التنزيه المطلق لله - تعالى -، والنفى التام لأن يكون عيسى قد قال هذا القول. بعد كل ذلك ختم - سبحانه تلك المجاوبة ببيان حسن عاقبة الصادقين يوم القيامة فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٣٧٨

(٢) تفسير الجلالين - ومعه حاشية الجمل - جـ١ ص ٥٤٦

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٢١

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

قال الآلوسى : ﴿قال الله﴾ كلام مستأنف ختم به - سبحانه - حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل. وأشير إلى نتيجته ومآله. والمراد بقول الله -تعالى- عقيب جواب عيسى الإشارة إلى صدقه ضمن بيان حال الصادقين الذين هو فى زمرتهم[1].

والمراد باليوم فى قوله ﴿هذا يوم﴾ يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت وقد قرأ الجمهور برفع ﴿يوم﴾ من غير تنوين على أنه خبر لاسم الإشارة أى : قال الله - تعالى - : إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينتفع الصادقون فيه بصدقهم فى إيمانهم وأعمالهم، لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدموا من خيرات فى دنياهم.

أى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة، بخلاف صدق الكفار يوم القيامة فإنه لا ينفعهم، لأنهم لم يكونوا مؤمنين فى دنياهم.

وقرأ نافع (يوم) بالنصب من غير تنوين على أنه ظرف لقال. أى : قال الله - تعالى - هذا القول لعيسى يوم ينفع الصادقين صدقهم.

وقوله : ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا﴾ جملة مستأنفه لبيان مظاهر النفع الذى ظفر به الصادقون فى هذا اليوم.

أى : أن هؤلاء الصادقين فى دنياهم قد نالوا فى آخرتهم جنات تجرى من تحت أشجارها وسررها الأنهار ﴿خالدين فيها أبدًا﴾ أى : مقيمين فيها إقامة دائمة لا يعتريها انقطاع وقوله : ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ أى : رضى الله عنهم فأعطاهم بسبب إيمانهم الصادق وعملهم الصالح عطاء هو نهاية الآمال والأمانى. ورضوا عنه بسبب هذا العطاء الجزيل الذى لا تحيط العبارة بوصفه.

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ يعود إلى ما انتفع به الصادقون من جنات

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٧١

تجرى من تحتها الأنهار. ومن رضا الله عنهم. أى : إلى النعيم الجثمانى المتمثل فى الجنات وما يتبعها من عيشة هنيئة، وإلى النعيم الروحانى المتمثل فى رضا الله عنهم.

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما أخبر أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب. وحقيقة الثواب : أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله : ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله ﴿خالدين فيها أبدا﴾ إشارة إلى الدوام. واعتبر هذه الدقيقة : فإنه أينما ذكر الثواب قال ﴿خالدبن فيها أبدًا﴾ وأينما ذكر العقاب للفساق من أهل الإيمان، ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأبيد، وأما قوله : ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ فتحته أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها»[1].

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه لكل شىء فى هذا الكون فقال : ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير﴾

أى : لله -تعالى- وحده دون أحد سواه الملك الكامل للسموات وللأرض ولما فيهن من كل كائن وهو- سبحانه - على كل شىء قدير لا يعجزه أمر أراده، ومن زعم أن له شريكا - سواء أكان هذا الشريك عيسى أو أمه أو غيرهما - فقد أعظم الفرية وتسربل بالجهل، وكان مستحقا لخزى الدنيا، وعذاب الآخرة.

وقال - سبحانه - ﴿وما فيهن﴾ فغلب غير العقلاء، للإشارة إلى أن كل المخلوقات مسخرة فى قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره وهم فى ذلك التسخير كالجمادات التى لا قدرة لها. إذ أن قدرة سائر المخلوقات بالنسبة لقدرة الله كلا قدرة.

وإن هذه الآية الكريمة، لمتسقة كل الاتساق مع الآية التى قبلها، لأنه -سبحانه- بعد أن بين جزاء الصادقين فى دنياهم عقبه ببيان سعة ملكه، وشمول قدرته الدالين على أن هذا الجزاء لايقدر عليه أحد سواه - سبحانه -.

وإن هذه الآية الكريمة - أيضًا - لمتسقة كل الاتساق لأن تكون خاتمة لهذه السورة التى ساقت ماساقت من تشريعات وأحكام وآداب وهدايات ومن حجج حكيمة، وأدلة ساطعة دحضت بها الأقوال الباطلة التى افتراها أهل الكتاب -وخصوصا النصارى- على عيسى وأمه مريم، وبرهنت على أن عيسى وأمه ما هما إلا عبدان من عباد الله، يدينان له بالعبادة والطاعة والخضوع، ويأمران غيرهما بأن ينهج نهجهما فى ذلك.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص١٣٨ المطبعة البهية.

ثم أما بعد : فهذا ما وفقنى الله - تعالى - لكتابته فى تفسير سورة المائدة، تلك السورة التى اشتملت - من بين ما اشتملت - على كثير من التشريعات التى تتعلق بالحلال والحرام وبالعبادات والحدود والقصاص والأيمان. كما اشتملت على كثير من الآيات التى تتعلق بأهل الكتاب فذكرت حكم أطعمتهم وحكم الزواج بالمحصنات من نسائهم، كماذكرت أقوالهم الباطلة فى شأن عيسى وأمه وردت على مزاعمهم بما يدحض مفترياتهم فى هذا الشأن وفى غيره.

والله أسأل أن يجعل ما كتبناه خالصا لوجهه، ونافعا وشفيعًا لنا يوم نلقاه ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

والحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه إلى يوم الدين.

د. محمد السيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير سورة « المائدة

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٢٢	قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين	١٠٧
٢٣	قال رجلان من الذين يخافون	١٠٨
٢٤	قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا	١٠٩
٢٥	قال رب إنى لا أملك إلا	١١٠
٢٦	قال فإنها محرمة عليهم	١١١
٢٧	واتل عليهم نبأ ابنى آدم	١١٧
٢٨	لئن بسطت إلى يدك	١٢٠
٢٩	إنى أريد أن تبوء	١٢٠
٣٠	فطوعت له نفسه	١٢٢
٣١	فبعث الله غرابا يبحث	١٢٣
٣٢	من أجل ذلك كتبنا على	١٢٥
٣٣	إنما جزاء الذين يحاربون	١٢٩
٣٤	إلا الذين تابوا من قبل	١٣٧
٣٥	يٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله	١٣٨
٣٦	إن الذين كفروا لو أن لهم	١٤٢
٣٧	يريدون أن يخرجوا من النار	١٤٤
٣٨	والسارق والسارقة فاقطعوا	١٤٤
٣٩	فمن تاب من بعد ظلمه	١٤٦
٤٠	ألم تعلم أن الله له ملك	١٤٦
٤١	يٰأيها الرسول لا يحزنك	١٥٠
٤٢	سماعون للكذب أكالون	١٥٨
٤٣	وكيف يحكمونك وعندهم	١٦٢
٤٤	إنا أنزلنا التوراة	١٦٣
٤٥	وكتبنا عليهم فيها أن	١٦٩
٤٦	وقفينا على آثارهم بعيسى	١٧٤
٤٧	وليحكم أهل الإنجيل	١٧٧
٤٨	وأنزلنا إليك الكتاب بالحق	١٧٨

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٧٦	قل أتعبدون من دون الله	٢٤٣
٧٧	قل يا أهل الكتاب لاتغلو	٢٤٥
٧٨	لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل	٢٤٧
٧٩	كانوا لا يتناهون	٢٤٩
٨٠	ترى كثيرًا منهم	٢٥١
٨١	ولو كانوا يؤمنون	٢٥٢
٨٢	لتجدن أشد الناس	٢٥٣
٨٣	وإذا سمعوا ما أنزل	٢٥٦
٨٤	ومالنا لا نؤمن بالله	٢٥٧
٨٥	فأثابهم الله بما قالوا	٢٥٨
٨٦	والذين كفروا وكذبوا	٢٥٩
٨٧	يٰأيها الذين آمنوا لا تحرموا	٢٥٩
٨٨	وكلوا مما رزقكم الله	٢٦١
٨٩	لا يؤاخذكم الله باللغو	٢٦٤
٩٠	يٰأيها الذين آمنوا إنما الخمر	٢٧٤
٩١	إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم	٢٧٨
٩٢	وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٢٧٩
٩٣	ليس على الذين آمنوا وعملوا	٢٨٥
٩٤	يٰأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله	٢٩٠
٩٥	يٰأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد	٢٩٢
٩٦	أحل لكم صيد البحر وطعامه	٢٩٨
٩٧	جعل الله الكعبة البيت الحرام	٣٠١
٩١	اعلموا أن الله شديد العقاب	٣٠٥
٩٩	ما على الرسول إلا البلاغ	٣٠٥
١٠٠	قل لا يستوى الخبيث والطيب	٣٠٦
١٠١	يٰأيها الذين آمنوا لا تسألوا	٣٠٧
١٠٢	قد سألها قوم من قبلكم	٣١١

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٨٨٠٠
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3860 - 0	ISBN

١ / ٩١ / ٣٦٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سورتي

الأنعام والأعراف

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الخامس

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا تفسير وسيط لسورة الأنعام، حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية، وآداب عالية، وهدايات محكمة، ووصايا جليلة، وحجج باهرة تقذف حقها على باطل الملحدين فتدمغه فإذا هو زاهق، وتقيم الأدلة الساطعة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله محمد ﷺ وعلى صحة البعث والحساب، والثواب والعقاب.

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى تفسير هذه السورة الكريمة، أن أقدم بين يديها تعريفًا لها، أتحدث فيه عن زمان ومكان نزولها، وعن طبيعة الفترة التى نزلت فيها، وعن سبب تسميتها بهذا الاسم، وعن مناسبتها لما قبلها وعن المقاصد والأهداف التى اشتملت عليها، وعن فضائل هذه السورة الكريمة ومزاياها..

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، ونافعًا لعباده، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدى السورة

١ - متى نزلت سورة الأنعام؟

سورة الأنعام عدد آياتها خمس وستون ومائة آية وهى أول سورة مكية من طوال المفصل بالنسبة لترتيب المصحف، وتعتبر بالنسبة لهذا الترتيب السورة السادسة، فقد سبقتها سور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وهى سور مدنية باستثناء سورة الفاتحة.

أما ترتيبها فى النزول فقد قال العلماء: إنها السورة السادسة والخمسون، وإن نزولها كان بعد نزول سورة «الحجر».

ويغلب على الظن أن نزول سورة الأنعام كان فى السنة الرابعة من البعثة النبوية الشريفة، وذلك لأن سورة الحجر التى نزلت قبيلها فيها آية تأمر النبى ﷺ بأن يجهر بدعوته وهى قوله - تعالى - ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[1].

ومن المعروف تاريخيا أن النبى ﷺ مكث يدعو الناس سرا إلى عبادة الله زهاء ثلاث سنين، ثم بدأت مرحلة الجهر بالدعوة فى السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمره الله بأن يصدع بما يؤمر به، أى: يجهر بما يكلف بتبليغه للناس، مأخوذ من صدع بالحجة إذا جهر بها.

قال ابن إسحاق عند حديثه عن مرحلة الجهر بالدعوة الإسلامية: «ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، ثم إن الله - تعالى - أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله - تعالى - بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغنى - من مبعثه، ثم قال الله - تعالى - له: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[2].

٢ - طبيعة الفترة التى نزلت فيها سورة الأنعام:

قلنا إن سورة الأنعام نزلت - غالبا فى السنة الرابعة من البعثة النبوية، وهذه الفترة من تاريخ الدعوة الإسلامية كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك، ففيها بدأ النبى ﷺ يجهر بدعوته ويصارح قريشا برسالته، ويدعوهم بأعلى صوته إلى الإيمان بالله وملائكته

(١) سورة الحجر الآية ٩٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، جـ١ ص ٢٧٤ طبعة المكتبة التجارية.

وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبين لهم بجرأة ووضوح بطلان عقائدهم، وسخافة تفكيرهم واعوجاجهم عن الطريق المستقيم.

وأخذ المشركون يدافعون عن معتقداتهم بكل وسيلة بعد أن رأوا الدعوة الإسلامية يزداد نورها يوما بعد يوم، ورأوا أتباع النبى ﷺ يزيدون ولا ينقصون، ويجهرون بتعاليم دينهم بعد أن كانوا يخفونها ويتحملون فى سبيل نشرها الكثير من ألوان التعذيب والترهيب.

وقد صور بعض العلماء طبيعة هذه الفترة التى كانت تجتازها الدعوة الإسلامية عند نزول سورة الأنعام فقال:

«وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف، مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذى صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء، وأن تتحدى فى صوت عال، ونداء جهير، بعد ما كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم، والرسول ﷺ ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه، وفيه إنذار لهم وتفنيد لمعتقداتهم، وتسفيه لآرائهم، وإنكار لآلهتهم، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية.

يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدية، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم، ويترقبون يوما قريبا لانتصارها وانهزامهم، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة، بادعائهم كذب الرسول ﷺ وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم ملائكة، وإنكارهم البعث والدار الآخرة، واستماتوا فى الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم، ونسوا أن محمدا ﷺ عاش فيهم عمرا طويلا لم يقل فيه يوما قولة كاذبة، ولم يخن فيه يوما أمانة أؤتمن عليها، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

لم يذكروا شيئا من ذلك ولم يفكروا فيه، ولكنهم فكروا فقط فى أن الدعوة الجديدة التى استعلنت بعد استخفاء، وتحدت بعدما ظنوه بها من الاستخذاء، يجب أن تموت فى مهدها ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب.

ورحبت الدعوة الإسلامية بهذا النضال، وتحملت أعباءه وأثقاله، وكان ذلك أول النصر، لأن النور لا يظهر إلا بعد الاحتكاك.

وأخذت سور القرآن فى هذه المرحلة تتلاحق، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر، وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد، وكان أولها وأحفلها بما نزلت له من أغراض بعد أمر الرسول

ﷺ بإعلان الدعوة والصدع بها، هو سورة «الأنعام»؛ فقد جمعت كل العقائد الصحيحة، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شبه الملحدين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتركيز مبادىء الأخلاق الفاضلة[1].

وبذلك يتبين لنا أن ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد وأهداف وأحكام ومعتقدات يوافق كل الموافقة طبيعة المرحلة التى كانت تجتازها الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت.

٣ - أين نزلت سورة الأنعام:

يرى جمهور العلماء أن سورة الأنعام كلها مكية، ويرى فريق منهم أنها كلها نزلت بمكة ما عدا الآيات ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١٠٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣.

ولعل الذى حمل أصحاب هذا الرأى على القول بأن هذه الآيات التسع مدنية ورود بعض الروايات بذلك، وأنها آيات نزلت فى بيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام من التكاليف العملية، وهى لهذا كانت أنسب بالمدينة.

والذى تطمئن إليه النفس وعليه المحققون من المفسرين أن سورة الأنعام قد نزلت كلها بمكة جملة واحدة، ويشهد لما ذهبنا إليه ما يأتى:

(أ) كثرة الآثار التى صرحت بنزولها بمكة دفعة واحدة، ومن هذه الآثار ما ورد عن ابن عباس أنه قال: لقد نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد[2].

(ب) المحققون من المفسرين عندما بدأوا فى تفسير سورة الأنعام صرحوا بأنها جميعها مكية، وأنها قد نزلت جملة واحدة، وتجاهلوا قول القائل إن فيها آيات مدنية.

فهذا - مثلا - الإمام ابن كثير ساق فى مطلع تفسيره لهذه السورة الروايات التى تثبت أنها مكية، ولم يذكر رواية واحدة تثبت أن فيها آية أو آيات قد نزلت بالمدينة.

وابن كثير - كما نعرف - من الحفاظ النقاد الذين يعرفون كيف يتخيرون الروايات، وكيف يميزون بين صحيحها وضعيفها.

(جـ) الروايات التى اعتمد عليها القائلون بأن تلك الآيات التسع مدنية روايات فيها

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص١٦ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدنى - رحمه الله -
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٢

مقال، ولم يعتمدها المحققون من العلماء، فقد نقل السيوطى عن ابن الحصار قوله:

استثنى من سورة الأنعام تسع آيات - مدنية - ولا يصح به نقل، خصوصا وأنه قد ورد أنها نزلت جملة(١).

(د) الذى يقرأ سورة الأنعام بتدبر يجد فيها سمات القرآن المكى واضحة جلية، فهى تتحدث باستفاضة عن وحدانية الله، وعن مظاهر قدرته، وعن صدق النبى ﷺ فى دعوته، وعن الأدلة الدامغة التى تؤيد صحة البعث والثواب والعقاب يوم القيامة، إلى غير ذلك من المقاصد التى كثر الحديث عنها فى القرآن المكى.

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن كبير فى تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها، وتفند شُبه المعارضين لها، واقتضت لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل - مع طولها وتنوع آياتها - جملة واحدة، وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء.

ومن ذلك يتبين أنه لا مجال للقول بأن بعضها من قبيل المدنى، ولا بأن آية كذا نزلت فى حادثة كذا، فكلها جملة واحدة نزلت بمكة لغاية واحدة، هو تركيز الدعوة بتقرير أصولها والدفاع عنها(٢).

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن سورة الأنعام كلها مكية، وأنها نزلت على النبى ﷺ جملة واحدة.

٤ - لماذا سميت بسورة الأنعام؟

الأنعام لغه تطلق على ذوات الخف والحافر من الحيوان، وهى - الإبل والبقر والغنم - وقد سميت سورة الأنعام بهذا الإسم، لأنها فصلت الحديث عن هذه الأنواع بطريقة متعددة الجوانب، متنوعة الأهداف.

وقد تكرر لفظ الأنعام فى تلك السورة ست مرات فى أربع آيات.

أما الآية الأولى فقد حكى القرآن فيها ما كانوا يفعلونه من قسمتهم الحرث والأنعام إلى قسمين: قسم جعلوه لله يتقربون به إليه عن طريق إكرام الضيف ومساعدة المحتاج.

وقسم جعلوه لآلهتهم فذبحوه على الأنصاب، وأنفقوا منها على سدنتها وخدمها، ثم هم بعد ذلك العمل الباطل لا يعدلون فى القسمة، يجورون أحيانا على القسم الذى جعلوه لله؛ بينما

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، جـ١ ص٢٨ طبعة مكتبة المشهد الحسينى سنة ١٣٨٧ هـ.
(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص٤٠١ طبعة دار القلم.

يتحرزون عن الجور على القسم الذى جعلوه لشركائهم.

قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾(١).

وأما الآية الثانية فقد ورد فيها لفظ «الأنعام» ثلاث مرات، وقد كشف القرآن فيها عن بعض أعمال المشركين المنكرة، وهى أنهم جعلوا الأنعام ثلاثة أقسام:

قسما لا يأكل منه عند ذبحه إلا سدنة الأوثان والرجال دون النساء. وقسما يحرم ركوبه كالبحيرة والسائبة والحامى، وقسما لا يذكرون اسم الله عليه عند الذبح وإنما يذكرون أسماء آلهتهم.

قال تعالى: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾(٢).

وفى الآية الثالثة تحدث القرآن عن لون من ألوان ظلمهم وجهلهم، فقد كانوا يجعلون بعض ما فى بطون أنعامهم إذا نزل حيًا كان خاصًا بالرجال دون النساء، وإذا نزل ميتًا فالرجال والنساء فيه شركاء.

قال تعالى: ﴿وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾(٣).

أما الآية الرابعة، فقد بين القرآن فيها جانبًا من نعم الله على عباده، إذ جعل لهم من الأنعام أنواعا تذبح لينتفعوا بلحومها وشحومها وجلودها وأنواعا تحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

قال تعالى: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشًا، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾(٤).

وهناك آيات أخرى سوى هذه الآيات السابقة تناول الحديث فيها أحكامًا أخرى تتعلق بالأنعام، وسنفصل القول فيها عند تفسيرنا لها - بعون الله - تعالى -.

---

(١) الآية ١٣١
(٢) الآية ١٣٨
(٣) الآية ١٣٩
(٤) الآية ١٤٣

٥ - مناسبتها لما قبلها :

وقد جرت عادة بعض المفسرين أن يعقدوا مناسبة بين السورة وبين سابقتها، ولعل أكثرهم توسعًا فى ذلك الإمام الألوسى فقد قال : «ووجه مناسبتها لآخر المائدة أنها افتتحت بالحمد والمائدة اختتمت بفصل القضاء وهما متلازمان، كما قال - سبحانه - ﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾[1].

وقال الجلال السيوطى فى وجه المناسبة : «إنه - تعالى - لما ذكر فى آخر المائدة ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ على سبيل الإجمال، افتتح - جل شأنه - هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله، فبدأ - سبحانه - بذكر خلق السموات والأرض، وضم - تعالى - إليه أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه ما فيهن، ثم ذكر أنه خلق النوع الإنسانى وقضى له أجلا وجعل له أجلا آخر للبعث، وأنه - جل جلاله - منشىء القرون قرنا بعد قرن، ثم قال - تعالى - ﴿قل لمن ما فى السموات والأرض﴾ الخ . فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرف المكان. ثم قال ﴿وله ما سكن فى الليل والنهار﴾ فأثبت أنه ملك جميع المظروفات لظرف الزمان، ثم ذكر - سبحانه - خلق سائر الحيوان من الدواب والطير، ثم خلق النوم واليقظة والموت، ثم أكثر فى أثناء السورة من ذكر الإنشاء والخلق لما فيهن من النيرين والنجوم وفلق الإصباح وفلق الحب والنوى، وإنزال الماء وإخراج النبات والثمار بأنواعها، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات إلى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن».

هذا، وقد عقد فضيلة الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - مقارنة ضافية بين سورة الأنعام وبين ما سبقها من سور مدنية فقال ما ملخصه :

وأما السور الأربع المدنية التالية لسورة الفاتحة - والسابقة لسورة الأنعام - وهى سور : البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، فهى بحكم مدنيتها تشترك كلها فى هدف واحد وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام، وإلى الأساس الذى يرجعون إليه ويحكمونه فى التعامل معهم فى حالتى السلم والحرب، وقلما تعرض هذه السور المدنية إلى شىء من شئون الشرك ومناقشة المشركين.

وهذه السور مع اشتراكها فى أصل الهدف العام، تختلف قلة وكثرة فيما تتناوله من التشريع الداخلى الخاص بالمسلمين، والتشريع الخارجى الذى يرتبط بهم مع من يخالفهم فى الدين.

(١) تفسير الألوسى جـ ٨ ص ٧٦ طبعة منير الدمشقى.

إن سورة البقرة قد نزلت فى أوائل الهجرة، وقد صار للمسلمين بالهجرة كيان خاص وجوار خاص، وبذلك كان أمامها هدفان :

الأول : نظم يأخذ بها المسلمون أنفسهم فى عباداتهم ومعاملاتهم : شخصية ومدنية وجنائية .

والهدف الآخر : إرشاد إلى طريق المناقشة فيما كان مجاوروهم يثيرونه حول الدين والدعوة من شبه وتشكيكات، وقد تجلى هذان الهدفان بصورة واضحة فى سورة البقرة، برز أحد الهدفين فى نصفها الأول، وبرز الهدف الثانى فى نصفها الأخير، واقرأ فى الأول على وجه عام من قوله - تعالى - ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون﴾ (الآية ٤٠) إلى قوله -تعالى- : ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق. وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد﴾ (الآية ١٧٦).

واقرأ فى الهدف الثانى قوله - تعالى - : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ (الآية ١٧٧) إلى نهاية الآية ٢٨٣ : ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرهان مقبوضة﴾.

وقد عرضت فى هذا السبح الطويل بعد أن أجملت أوصاف الصادقين فى إيمانهم المتقين فى أعمالهم لجملة من الأحكام التى تسوس الأمة فيما بينها.

عرضت القصاص، والوصية، والصيام، والقتال، وبعض أحكام الحج. إلخ.

ثم تجىء سورة آل عمران، فتصرف عناية خاصة إلى مناقشة النصارى فى قضية الألوهية، وإلى كشف بعض صور التزييف التى كان يصطنعها أهل الكتاب إخفاء لحق الإسلام ودعوته.

ثم ترشد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم، ويقيهم شر الوقوع فى مخالب الأعداء وترسم لهم فى ذلك الطرق الحكيمة التى تجعل منهم قوة الجهاد فى تأييد الحق وهزيمة الباطل.

وعلى أساس من مشاركة سورة النساء لزميلاتها المدنيات فى أصل الهدف تناولت الأمرين : تنظيم جماعة المسلمين، ومناقشة أهل الكتاب فى موضوع الألوهية والرسالة، غير أن عنايتها بجانب التنظيم كانت أشد من عنايتها بجانب المناقشة.

ثم تجىء سورة المائدة فتأخذ سبيل أخواتها أيضًا، فتشرع للمسلمين فى خاصة أنفسهم، وفى معاملة من يخالطون من أهل الكتاب، مع الإرشاد إلى طرق محاجتهم والتنبيه على أخطائهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه. وتذكيرهم بسيئاتهم مع أنبيائهم. وقد استغرق ذلك معظم السورة.

أما سورة الأنعام فإنها لم تعرض لهدف من الأهداف الأصلية التى تميزت بها السور الأربع المدنية قبلها.

فهى أولا : لم تعرض لشىء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين، كالصوم والحج فى العبادات، والعقوبات فى الجنايات، والمداينة والربا فى الأموال، وأحكام الأسرة فى الأحوال الشخصية.

وهى ثانيًا : لم تذكر فى قليل ولا كثير شيئًا يتعلق بالقتال ومحاربة الخارجين عن دعوة الإسلام.

وهى ثالثًا : لم تتحدث فى شىء ما عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك لم تتحدث عن طوائف المنافقين ولا عن أخلاقهم السيئة ومسالكهم المظلمة.

وهى رابعًا : لا نجد فيها مع ذلك كله نداء واحدا للمؤمنين باعتبارهم جماعة تنتظمها وحدة الإيمان، لا نجد فيها شيئًا من هذا كله كما وجدناه جميعًا فى السور الأربع السابقة، وإنما نجد الحديث فيها يدور بشدة وقوة حول العناصر الأولى للدعوة، ونجد سلاحها فى ذلك، الحجة المتكررة، والآيات المصرفة، والتنويع العجيب فى طرق الإلزام والإقناع : تذكر توحيد الله فى الخلق وفى الإيجاد، وفى العبادة والتشريع، وتذكر موقف المكذبين وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين، وتذكر شبههم فى الرسالة، وتذكر يوم البعث والجزاء.

ولعلنا بعد هذا نلمس الفرق الجلى الواضح بين منهج سورة الأنعام، ومنهج السور الأربع المدنية قبلها»[1].

٦ - عرض عام لسورة الأنعام :

عندما نفتح كتاب الله لنتدبر ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد حكيمة، وتوجيهات نافعة، نراها فى مطلعها قد ابتدأت بحمد الله والثناء عليه وبيان استحقاقه لذلك، لأنه - سبحانه - هو الخالق للسموات والأرض وما بينهما، وهو العليم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

قال تعالى : ﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون* هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا، وأجل مسمى عنده، ثم أنتم تمترون* وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص٣٦٢ وما بعدها. لفضيلة الشيخ محمود شلتوت طبعه دار القلم.

ثم تحدثت السورة الكريمة عن طبائع المعاندين، وأنذرتهم بسوء المصير إذا ما استمروا فى عتوهم وجحودهم، وساقت لهم - ليعتبروا، ما حل بالمكذبين الذين سبقوهم والذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا، فعليهم أن يفيئوا إلى رشدهم حتى لا يصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم.

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ المؤثر، فيقول تعالى: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين* فقد كذبوا بالحق لما جاءهم، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون* ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض، ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين﴾.

ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى تسلية الرسول ﷺ فترسم صورة عجيبة لمكابرة المشركين وأنهم قد غدوا -لانطماس بصيرتهم واستيلاء الجحود على قلوبهم- لايجدى معهم توجيه أودليل، حتى أنهم لو نزل عليهم كتاب من السماء فلمسوه بأيديهم، وقرأوه بأعينهم، وعرفوا منه صدق نبوتك يا محمد، لقالوا بعد كل ذلك ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾.

قال تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتابًا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين* وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون* ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون* ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثانى من سورة الأنعام، ألفيناها تسوق حشودا من البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته بطريقة تحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى، وبأسلوب يسكب فى القلوب السكينة والطمأنينة، ويقنع العقول السليمة بأن المستحق للعبادة والخضوع إنما هو الله وحده.

﴿قل لمن ما فى السموات والأرض، قل لله، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون* وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم* قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين* قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم* من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين* وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو* وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير* وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير* قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن

لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى. قل لا أشهد. قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون﴾.

ثم ذكرت السورة بعد ذلك حال المكذبين بيوم القيامة. فوضحت أنهم فى هذا اليوم الهائل الشديد ينكرون أنهم كانوا مشركين ولكن هذا الإنكار لن ينفعهم شيئا لأن الذى يخاطبهم هو العليم الخبير.

﴿ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون* ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين* أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾.

ثم تمضى الآيات فى الحديث عن مشاهد يوم القيامة، فتصور حسرتهم وندمهم عندما يقفون على النار التى كانوا يكذبون بها فى الدنيا، وعندما يقفون أمام ربهم الذى كانوا يشركون معه آلهة أخرى فتقول:

﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين* بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون* وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين* ولو ترى إذ وقفوا على ربهم، قال: أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

ثم بعد هذا التصوير المؤثر لأحوال المشركين يوم القيامة، يتركهم القرآن مؤقتًا ليوجه خطابه إلى النبى ﷺ مسليا له، ومثبتا لقلبه، وداعيا إياه إلى الصبر على تحمل الرسالة بدون كلل أو ملل، وإلى التأسى بمن سبقوه من أولى العزم من الرسل.

قال تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون* ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبإى المرسلين. وإن كان كبر عليك إعراضهم، فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض أوسلمًا فى السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾.

أما الربع الثالث من السورة الكريمة فقد افتتح ببيان أن الذين يستجيبون لدعوة الحق إنما هم الذين يسمعون ويتعظون وهم الأحياء حقا، أما من ماتت قلوبهم فصارت لا تتفتح للحق، ولا تتقبل الهداية فإن مصيرهم إلى الله، فهو - سبحانه وتعالى - سيجازيهم بسبب جحودهم وعنادهم ومطالبتهم لنبيهم بالمطالب المتعنتة التى لا فائدة من ورائها.

قال تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله، ثم إليه يرجعون* وقالوا:

لولا نزل عليه آية من ربه. قل: إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

ثم تدعوهم السورة بعد ذلك بأسلوب تلقيني إنذارى إلى التفكر والتدبر فى مظاهر قدرة الله وتبين لهم بطريقة منطقية مقنعة أن الله وحده هو القادر على سلب أسماعهم وأبصارهم، وهو القادر على إنزال العذاب بهم أو رفعه عنهم. استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه الفريد فيقول:

﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين* بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾.

ثم يقول: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به. انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون* قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾.

ثم وضحت السورة أن وظيفة الرسل إنما هى التبشير للمتقين والإنذار للمكذبين وأن النبى ﷺ لم يقل لهم إنى أملك خزائن الأرض، أو إنى أعلم الغيب، أو إنى ملك من الملائكة. وإنما قال لهم: إنى بشر مثلكم أتبع ما يوحى إلى من ربى، والناس مختلفون بعد ذلك فى تلقى نور الوحى، وجزاؤهم على حسب حالهم وعملهم، فلا يستوى المحسن والمسيء كما لا يستوى الأعمى والبصير:

قال تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إلى، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾.

ثم تمضى السورة فى سرد توجيهاتها وحكمها فتسوق البشارة للمؤمنين الذين اقترفوا بعض السيئات ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا، كما تسوق الإنذار الحاسم للمشركين الذين لم يتبعوا الطريق القويم فتقول:

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم* وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾.

ثم يمضى السياق مع المكذبين المستعجلين بالعذاب فيطلعهم ويطلع غيرهم فى الربع الرابع من السورة على صورة شاملة لعلم الله الواسع، وقدرته النافذة، وحكمته الحكيمة، ويطوف بهم فى مجاهل الغيب الذى لا يعلمه إلا هو، وفى عالم البر والبحر الذى لا يخرج منه شيء عن إرادته، وفى ظلمات الأرض المخبوءة التى لا يحيط بها إلا علمه، ثم يريهم كيف أنهم محكومون

بإرادته. وأن حركاتهم وسكناتهم مردها إليه، وأنهم فى ساعة الشدة والكرب لا يلوذون إلا بحماه.

تدبر كتاب الله وهو يحكى كل ذلك بطريقته المقنعة للعقل والعاطفة فيقول:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين* وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون* وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين* قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين* قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون* قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾.

وبعد هذا البيان الذى تعددت مظاهر عظاته وعبره، وتنوعت ألوان هداياته وإرشاداته اتجه القرآن بالخطاب إلى النبى ﷺ ليقول له مسليًا ومثبتًا: إن قومك قد كذبوك مع أن ما معك هو الحق المبين قل لهم:

﴿لست عليكم بوكيل* لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون﴾.

ثم يأمره ويأمر كل من يتأتى له الخطاب بالإعراض عن الجاهلين الذين يخوضون فى آيات الله بغير علم فيقول:

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين* وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾.

ثم تبدأ السورة فى الربع الخامس منها جولة جديدة لتثبيت العقيدة السليمة فتسلك طريق القصة، وتتخذ من إبراهيم أبى الأنبياء نموذجا لاستقامة الفطرة، وسلامة التفكير وحسن الإدراك ويقظة العقل، فقد رأى إبراهيم - عليه السلام - بفطرته النقية أن الأصنام لا يعقل أن تكون آلهة. وخاطب أباه وقومه بذلك، واعتبرهم بهذا الإشراك فى ضلال مبين، ثم اتجه إلى التعرف على الإله الحق فتخيله فى كوكب، ولكنه حين أفل وزال قال: ﴿لا أحب الآفلين﴾ لأن الإله الحق لا يغيب ولا يزول. ثم ظن الألوهية فى ذلك القمر الذى ينسكب نوره فى الوجود

فيضىء الليل البهيم، ولكنه رأى القمر - أيضًا - يأفل ويغيب فأعرض عن اتخاذه إلها والتمس من الإله الحق أن يهديه إلى الصراط المستقيم.

فلما أصبح الصباح ورأى الشمس وقد أشرقت وعم ضوؤها الآفاق قال: ﴿هذا ربى﴾ لأنها أكبر مصادر الضوء، فلما غابت الشمس أدرك بفطرته السليمة أن الإله لا يغيب ولا يكون شيئا محسوسا، فقرر البراءة من الشرك، واتجه إلى الخالق الحق الذى تدل آثاره على وجوده وعلى مخالفته لمخلوقاته فقال: ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾. ثم أخذ بعد ذلك يجادل قومه ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، ويقيم لهم الأدلة على بطلان معتقداتهم.

تأمل معى - أيها القارىء الكريم - تلك الآيات الكريمة التى تحكى كل هذه المعانى بأسلوبها البديع فتقول:

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين* وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين* فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى، فلما أفل قال لا أحب الآفلين* فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين* فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون* إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

ثم مضت السورة الكريمة فى الحديث عن رسل الله الذين آتاهم الله الحجة على أقوامهم، وختمت الحديث عنهم بالثناء عليهم ووجوب الاقتداء بهم فى هديهم وسلوكهم.

﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين* أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرًا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾.

وبعد هذا القصص المذكر، والتوجيه المنبه، والتدليل الواضح على وحدانية الله وقدرته ساقت لنا السورة فى الربع السادس منها حشودًا متنوعة من مظاهر قدرة الله ومن نعمه التى لا تحصى على عباده. إنها هنا توقفنا أمام هذا الكون الرائع البديع لتقول لنا: انظروا ماذا فى السموات والأرض، ثم اتجهوا بالعبادة والخضوع إلى الله رب العالمين، فهو الذى فلق الحب فكان منه النبات، وفلق النوى فكان منه الشجر، وهو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، وهو الذى يأتيكم بالضياء بعد الليل المظلم لكى تبتغوا من فضله، ويأتيكم بالليل بعد النهار لكى تسكنوا فيه بعد طول الكدح والعناء، وهو الذى يسير الشمس والقمر بتقدير

دقيق وحساب لا يتخلف، وهو الذى زين السماء بالنجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، وهو الذى أوجدكم جميعا من نفس واحدة لها مستقر فى أصلاب الرجال ومستودع فى أرحام النساء، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شيء. لأن الماء قوام الحياة.

استمع إلى القرآن وهو يحكى كل هذه النعم الدالة على قدرة الله وفضله فيقول:

﴿إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى، ذلكم الله فأنى تؤفكون* فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، ذلك تقدير العزيز العليم* وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون* وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون* وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وبعد أن ساق القرآن كل هذه النعم التى أسبغها الله على الناس، والتى من شأنها أن تجعلهم يخصونه بالعبادة والاستعانة، بعد كل ذلك صرح بأنه – مع كل هذه النعم – أضحى الكثيرون من خلقه يشركون معه آلهة أخرى، ويزعمون أن له بنين وبنات.

ولقد رد القرآن على هؤلاء الجاحدين بالحجة البالغة التى تدمغ باطلهم وتخرس ألسنتهم، وتنزه الخالق – عز وجل – عما قالوه وافتروه بغير علم فقال:

﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون* بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾.

ثم تتابع فى الربع السادس منها حديثها عن المكابرين الذين لم يكتفوا بالقرآن معجزة للنبى ﷺ، بل طلبوا منه – على سبيل التعنت – معجزات أخرى حسية، فتحكى السورة أقوالهم وترد عليهم بما يفضح أكاذيبهم، لأنهم لعنادهم وجحودهم لو أن الله – تعالى – أجاب لهم مطالبهم ما كانوا ليؤمنوا، إذ هم لا تنقصهم الآيات الدالة على صدق النبى ﷺ وإنما الذى ينقصهم هو القلب المنفتح للحق، والنفس المتقبلة للهداية.

قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون* ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة

ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ثم تستطرد السورة الكريمة فتحكى بعض رذائل المشركين فى مآكلهم وذبائحهم، وتنهى المؤمنين عن الأكل من الذبائح التى لم يذكر اسم الله عليها إلا فى حالة الاضطرار، ثم تغرس فيهم خلق الحياء من الله فتأمرهم أن يتركوا الفواحش ما ظهر وما بطن، ثم تبين لهم أن المشركين سيثيرون الشكوك والشبهات حول عقيدتهم فعليهم أن يهملوا مجادلاتهم وأن يتركوهم فى طغيانهم يعمهون:

قال تعالى: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين* وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه، وإن كثيرًا ليضلون بأهوائهم بغير علم، إن ربك هو أعلم بالمعتدين* وذروا ظاهر الإثم وباطنه، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون* ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾.

ثم تضرب السورة الأمثال للكفر والإيمان، فتشبه الكفر بالموت وتشبه الإيمان بالحياة، فكما أنه لا يتساوى الميت مع الحى، فكذلك لا يتساوى الضال الذى هو كالميت مع المؤمن الذى يحيا حياة طيبة وله نور يمشى به فى الناس، ثم تبين أنه من دأب الجاحدين والحاقدين محاربة الحق، وأنه ليس بغريب أن يحارب زعماء قريش الدعوة الإسلامية لأنهم يحسدون صاحبها على ما آتاه الله من فضله، ويطلبون أن تكون النبوة فيهم مع أن النبوة هبة من الله يهبها لمن يشاء من عباده، وأنهم بسبب هذا الحقد سيصيبهم عذاب شديد من الله - عز وجل -.

قال تعالى: ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون* وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون* وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله* الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون* فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد فى السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون* وهذا صراط ربك مستقيمًا قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾.

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثامن من سورة الأنعام، رأيناها تعرض مشهدا من مشاهد يوم القيامة، تعرض مشهد الحشر للجن والإنس وهم يتناقشون ويتلاومون ويتحسرون، ولكن ذلك لن يفيدهم لأنهم قد وسوس بعضهم إلى بعض زخارف من الأباطيل والأكاذيب. تعرض

مشهدهم عندما يقفون أمام ربهم فيسألهم : ﴿ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾؟ وهنا لا يملكون، إلا الشهادة على أنفسهم بأن الرسل الكرام قد بشروهم وأنذروهم، ولكن الشيطان هو الذى استحوذ عليهم فجعلهم يستحبون العمى على الهدى.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذا المشهد بأسلوبه الرائع فيقول :

﴿ويوم يحشرهم جميعًا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله، إن ربك حكيم عليم* وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بماكانوا يكسبون* يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

ومع أن السورة الكريمة قد تعرضت - فيما سبق منها - بصورة موجزة للأباطيل التى كان يتبعها المشركون فى ذبائحهم ومآكلهم ومشاربهم، إلا أنها هنا - فى أواخر الربع الثامن وفى معظم الربع التاسع - قد أفاضت القول فى استعراض رذائل المشركين التى تتعلق بنذورهم ومطاعمهم وذبائحهم وما أحلوه وما حرموه، وذلك لأن السورة الكريمة تريد أن تنقى العقيدة الإسلامية من كل ما كان سائدا فى الجاهلية من معتقدات باطلة، وأفعال قبيحة، وتقاليد وثنية موروثة، وعادات جاهلية مرذولة، فتحدثت عن أوهامهم التى منها أنهم جعلوا لله مما خلق نصيبًا وجعلوا لآلهتهم نصيبًا آخر، ثم هم بعد ذلك لا يعدلون فى قسمتهم مع بطلانها، بل تارة يأخذون من نصيب الله الذى هو للفقراء فيجعلونه لسدنة أصنامهم وخدامها. ومنها أن بعضهم كانوا يقتلون أولادهم سفها بغير علم لأن الشياطين زينت لهم ذلك. ومنها أنهم شرعوا لأنفسهم أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان.

ولقد حكى القرآن بعض هذه الرذائل التى كانت متفشية فيهم، ووبخهم عليها ونهى المؤمنين عن سلوك مسلكهم فقال :

﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون* وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾.

ثم قال : ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

ثم انتقلت السورة بعد ذلك - فى الربع التاسع منها - إلى الحديث عن الطيبات التى أحلها الله لعباده فى مأكهم ومشربهم، فذكرت ألوانا من النعم التى خلقها الله وأنشأها لعباده، فقد أنشأ - سبحانه - الجنات المعروشات أى المرفوعات على ما يحملها كالأعناب وما يشبهها، وأنشأ الجنات غير المعروشات كالبر تقال وغيره، كما أنشأ الزروع والأشجار المختلفة الأنواع والثمار. وذلك كله لكى يقبل النّاس على عبادة خالقهم، ويشكروه على نعمه التى لا تحصى.

قال تعالى: ﴿وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفًا أكله والزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾.

ثم أخذت السورة تناقش المشركين فيما أحلوه وحرموه من الأنعام بأسلوب منطقى رصين، يقيم عليهم الحجة، ويكشف عن سخافة تفكيرهم وتفاهة عقولهم، واتباعهم خطوات الشيطان فى تحريم بعضها وتحليل البعض الآخر، فهذه الأنعام ثمانية أزواج، من الضأن اثنان، ومن المعز اثنان، ومن الإبل اثنان، ومن البقر اثنان، فلماذا حرم المشركون على أنفسهم بعضها دون بعض؟ إن كان التحريم للأنوثه فعليهم أن يحرموا جميع الإناث، وإن كان للذكورة فعليهم أن يحرموها، إذًا فتحريمهم لبعض الذكور دون بعض يدل على ضلال فى التفكير، وجهالة فى الأحكام، وافتراء على الله بغير علم.

استمع إلى القرآن وهو يحكى أوهامهم ثم يرد عليها بما يدمغها فيقول:

﴿ثمانيه أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين* ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾،

ثم صرحت السورة الكريمة أن ما حرمه الله على اليهود من المطاعم كان بسبب بغيهم، وقساوة قلوبهم، وأنهم وأمثالهم -الذين يتنصلون من تبعة الضلال ويحيلونها على مشيئة الله - كاذبون فيما يزعمون، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون، وإلا فأين دليلهم على هذا التنصل؟ وأين حجتهم على أن الله قد حرم هذا وأحل هذا؟

لقد حكى القرآن مزاعمهم ثم فندها بالبراهين الدامغة، والحجة البالغة فقال:

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون* فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين* سيقول الذين أشركوا لو شاء الله

ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون* قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين. قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾.

فإذا ما انتهينا إلى الربع العاشر - والأخير - من سورة الأنعام رأيناها تخاطب أولئك الذين أحلوا لأنفسهم ما حرمه الله وحرموا عليها ما لم يأذن به فتقول لهم ولغيرهم «تعالو أتل ما حرم ربكم عليكم» ثم تسوق عشر وصايا رسمت للإنسان طريق علاقته بربه، ووضعت الأساس المكين الذى يبنى عليه صرح الأسرة الفاضلة التى منها تتكون الأمة القوية الناجحة فى الحياة، وأوصدت منافذ الشرور والآثام التى تصيب المسلم فى نفسه أو ماله أو عرضه ثم ذكرت أهم المبادىء التى تسمو بالمحافظة عليها الحياة الاجتماعية الكريمة، وختمت هذه الوصايا ببيان أنها هى الصراط المستقيم الذى يجب على كل إنسان أن يتبع هداه حتى لا يزل أو يضل.

استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه الوصايا الحكيمة فيقول:

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون* ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون* وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾.

وبعد أن ساقت السورة الكريمة هذه الوصايا الحكيمة اتجهت فى ختامها إلى دعوة الناس للعمل بكتاب الله الذى أنزله ليكون هداية ورحمة لهم، وأنذرت الذين يعرضون عن هديه الحكيم بسوء العذاب، وحثت كل عاقل على المبادرة إلى الإيمان بالله من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه الإيمان، ولا تنفع فيه الأعمال، لأنه يوم جزاء وحساب، وأمرت فى ختامها كل مسلم بأن يخلص عمله لله، وأن يحمده على هدايته إياه إلى طريق الحق والرشاد، وبينت منزلة الإنسان فى هذا الوجود وحضته على أن يكون بقوله وعمله أهلا لهذه المنزلة السامية حتى ينال رضا الله.

وقد ساقت السورة فى ختامها كل هذه المعانى بأسلوب ساحر يخلب الألباب، ويرقق

القلوب، ويصفى النفوس، ويشيع فى وجدان المؤمن الأنس والبهجة والخوف والرجاء.

قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون* قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم* دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين* قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين* قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون* وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾.

هذه هى أهم المقاصد التى اشتملت عليها سورة الأنعام، ومنها نستخلص أن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها السورة الكريمة تتركز فيما يلى:

(ا) إقامة الأدلة على وحدانية الله وقدرته، وأنه سبحانه - هو المستحق للعبادة والخضوع، وأن شريعته وحدها هى التى يجب أن تكون مرجعنا فى كل ما يتعلق بعبادتنا ومعاملاتنا وسائر شئوننا.

(ب) إقامة الأدلة على صدق النبى ﷺ فى دعوته، مع بيان وظيفته وتسليته عما يلاقيه من أعدائه.

(جـ) إقامة الأدلة على أن يوم القيامة حق، وعلى أن الناس سيحاسبون فيه على أعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(د) تفنيد الشبهات التى أثارها المشركون حول هذه الأمور الثلاثة السابقة بأسلوب يقنع العقول، ويهدى القلوب، ويرضى العواطف، ويحمل العقلاء على المسارعة إلى الدخول فى هذا الدين عن طواعية واختيار.

٧ - من فضائل سورة الأنعام ومزاياها:

تكاثرت الروايات فى بيان فضائل سورة الأنعام وأنها قد نزلت مشيعة بالملأ العظيم من الملائكة، كما تكلم العلماء عن المميزات التى تميزت بها هذه السورة فى عرضها للحقائق التى اشتملت عليها.

وفى ذلك يقول الإمام الرازى: هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة.

أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة.

والثانى: أنها شيعها سبعون ألفا من الملائكة، والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل

التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين»[1].

ويقول الإمام القرطبى : (هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة، لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين[2] . .).

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت :

ويجدر بنا أن نلفت النظر إلى أن سورة الأنعام قد عرضت ما عرضت فى أسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بتلك الكثرة فى غيرها من السور :

أما الأسلوب الأول فهو أسلوب التقرير، فهى تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرده بالملك والتصرف، والقدرة والقهر، فى صورة الشأن المسلم الذى لا يقبل الإنكار أو الجدل، وتضع لذلك ضمائر الغائب عن الحس الحاضر فى القلب، وتجرى عليه أفعاله وآثار قدرته ونعمته البارزة للعيان، والتى لا يمارى قلب سليم فى أنه مصدرها ومفيضها وصاحب الشأن فيها :

﴿هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾.

﴿وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾.

﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾.

﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرجتم بالنهار﴾.

﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾ . . ألخ

هذا هو أحد الأسلوبين.

أما الأسلوب الثانى فهو أسلوب تلقين الحجة، والأمر بقذفها فى وجه الخصم حى تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، وتحيط به من جميع جوانبه فلا يستطيع التفلت منها، ولا يجد بدا من الاستسلام لها.

ففى حجج التوحيد والقدرة يقول : ﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله، كتب على نفسه الرحمة﴾.

﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢ المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٨٢. طبعة دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ م.

﴿قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾.

﴿قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء﴾.

وفى حجج الوحى وبيان مهمة الرسول ﷺ وأن الرسالة لا تنافى البشرية وفى إيمان الرسول بدعوته واعتماده فيها على الله، وعدم اكتراثه بهم، أو انتظار الأجر منهم يقول.

﴿قل أى شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بينى وبينكم﴾.

﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك﴾.

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾.

وفى وعيدهم على التكذيب يقول: ﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾.

هذان الأسلوبان: (هو كذا) و (قل كذا) قد تناوبا معظم ما تضمنته هذه السورة من الحجج وقضايا التبليغ، وهما وإن جاءا فى غيرها من سور القرآن إلا أنهما وخاصة الأسلوب الثانى وهو أسلوب (قل كذا) لم يوجد فى غيرها بهذه الكثرة التى نراها فى هذه السورة، وهما بعد ذلك: أسلوبان من أساليب الحجة القوية التى تدل على قوة المعارضين وإسرافهم فى المعارضة، وأنهم بحالة تستوجب تلك الشدة التى تستخرج الحق من نفوسهم..

ويدل الأسلوبان من جهة أخرى على أنهما صدرا فى موقف واحد، وفى مقصد واحد، لخصم واحد بلغ من الشدة والعتو مبلغًا استدعى من القوى القاهر تزويد المهاجم بعدة قوية تتضافر أسلحتها فى حملة شديدة يقذف بها فى معسكر الأعداء فتزلزل عمده، وتهد من بنيانه فيخضع للتسليم بالحق الذى يدعى إليه.

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية، ذات شأن كبير فى تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها، وتفند شبه المعارضين لها، واقتضت لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل - مع طولها وتنوع آياتها - جملة واحدة وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء ا هـ[1].

وبعد: فهذا تمهيد بين يدى تفسير سورة الأنعام، تعرضنا خلاله لبيان مكان نزولها، ولبيان الفترة الزمنية التى نزلت فيها، ولطبيعة هذه الفترة، ولسبب تسميتها بهذا الاسم، ولمناسبتها للسور التى قبلها، وللأهداف الأجمالية التى اشتملت عليها، ولجانب من فضائلها ومزاياها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص٣٩٨ طبعة دار القلم.

ولعلنا بذلك - أيها القارىء الكريم - نكون قد قدمنا لك فكرة مجملة عن هذه السورة الكريمة تعينك على تفهم أسرارها، ومقاصدها، وتوجيهاتها، عند تفسيرنا لآياتها بشيء من التفصيل والتحليل. والله نسأل أن يوفقنا جميعًا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل.
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

افتتحت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين، وهى أن المستحق للحمد المطلق، والثناء الكامل هو رب العالمين.

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها.

وأل فى ﴿الحمد﴾ للاستغراق، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان الثناء هو الله تعالى، وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شىء، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو فى الحقيقة حمد لله، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك، وأعانهم عليه.

وقد بين بعض المفسرين الحكمة فى ابتداء السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿الحمد لله﴾ كما بين الفرق بين المدح والحمد والشكر فقال : «اعلم أن المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر، أما بيان أن المدح أعم من الحمد، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله، وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان فثبت أن المدح أعم من الحمد، وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل

ما صدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد وهو أعم من الشكر. إذا عرفت هذا فنقول : إنما لم يقل المدح لله لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره. أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار، فكان قوله الحمد لله تصريحا بأن المؤثر فى وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة. وإنما لم يقل الشكر لله، لأنا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك، وهذا مشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة، فحينئذ يكون المطلوب الأصلى له وصول النعمة إليه وهذه درجة حقيرة فأما إذا قال الحمد لله فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه - تعالى أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب فى مشاهدة نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت»[1].

هذا وفى القرآن الكريم خمس سور مكية اشتركت فى الافتتاح بتقرير أن الحمد لله وحده، ولكن كان لكل سورة منهج خاص فى بيان أسباب ذلك الحمد.

أما السورة الأولى فهى سورة الفاتحة التى تقول فى مطلعها ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

أى : أن الحمد لله وحده، الذى ربى هذا العالم تربية خلقية أساسها الإيجاد والتصوير، ورباه تربية عقلية أساسها منح قوى التفكير والإدراك، كما أنه رباه تربية تشريعية قوامها الأحكام التى أوحى بها إلى رسله فتربط استحقاق الحمد لله بربوبيته للعالمين، والربوبية المطلقة تنتظم التربية الخلقية جسمية وعقلية، عن طريق الإيجاد والتصوير، كما تنتظم التربية التشريعية التى أساسها الأحكام التى أوحاها الله إلى أنبيائه ورسله.

وتجىء بعد سورة الفاتحة فى الترتيب المصحفى سورة الأنعام فأثبتت أيضًا استحقاق الحمد لله وحده، لأنه «خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، فهى تهتم بالحديث عن نوع خاص من التربية، وهو التربية الخلقية التى أساسها الخلق والإيجاد والتسوية والتصوير الحقيقى.

ثم تجىء بعدهما سورة «الكهف» فتثبت أن الحمد لله، لأنه ﴿أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا﴾ فتراها تهتم بإبراز التربية التشريعية التى تهذب الروح، وتهدى الفكر.

والسورة الرابعة التى افتتحت بإثبات أن ﴿الحمد لله﴾ هى سورة سبأ، لأنه -سبحانه- ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾، ثم تراها بعد ذلك

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب جـ٤ ص٣ للفخر الرازى المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ.

زاخرة بالحديث عن أنواع التربية المطلقة التى تتجلى فى ارساء مظاهر علم الله الشامل، وملكه المطلق، وتدبيره المحكم وقدرته النافذة التى تجعله أهلا لكل حمد وثناء.

أما السورة الخامسة فهى سورة فاطر، فقد أثبتت فى مطلعها أن الحمد لله، لأنه ﴿فاطر السمٰوات والأرض، جاعل الملائكة رسلا، أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير﴾ والذى يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر يراها تهتم بإبراز إثبات أن الحمد لله وحده عن طريق الجمع بين التربيتين الخلقية والتشريعية فهى تذكر خلق السمٰوات والأرض والجبال وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر. كما تذكر أنواع الناس فى الانتفاع بوحى الله، وبهدى أنبيائه ورسله.

وهكذا نجد أن السور الخمس قد اشتركت فى أنها افتتحت بجملة ﴿الحمد لله﴾ وفى قصر الحمد والثناء عليه وحده. إلا أن كل واحدة منها قد سلكت منهجا خاصا فى تقرير هذه الحقيقة، وفى إقامة الأدلة على صدقها.

وقد أحسن القرطبى عندما قال: «فإن قيل: قد افتتح غيرها - أى سورة الأنعام - بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائره فيقال: لأن لكل واحدة منه معنى فى موضعه، لا يؤدى عن غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة، وأيضًا فلما فيه من الحجة فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون»[1].

ثم بين القرآن بعد ذلك الأسباب التى تحمل العقلاء على أن يجعلوا حمدهم كله لله - تعالى - فقال:

﴿الذى خلق السمٰوات والأرض، وجعل الظلمات والنور﴾.

والمعنى: الحمد كله لله الذى أنشأ بقدرته هذه العوالم العلوية والسفلية، وأوجد ما فيها من مخلوقات ناطقة وصامتة، وظاهرة وخافية، وأحدث ما يتعاقب عليها من تحولات وتقلبات ونور وظلمات. فالجملة الكريمة قد اشتملت على صفتين من صفات الله - تعالى - تثبتان وجوب استحقاق الحمد الكامل لله - عز وجل - وهما خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

وعبر - سبحانه - فى جانب السمٰوات والأرض بخلق، وفى جانب الظلمات والنور بجعل، لأن الخلق معناه هنا الإنشاء والإيجاد الابتدائى من العدم، أما الجعل فيتضمن معنى تكوين شىء من شىء أو من أشياء، فالظلمات تتولد من اختفاء الشمس عن الأرض، والنور يتكون من بزوغ الشمس على الأرض، وهذه التقلبات الكونية هى بتقدير الله العزيز العليم.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٨٤ طبعة دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧م.

قال صاحب الكشاف: «والفرق بين الخلق والجعل. أن الخلق فيه معنى التقدير، وفى الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك ﴿وجعل منها زوجها﴾ ﴿وجعل الظلمات والنور﴾، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار»[١].

وقال الفخر الرازى: «وإنما حسن لفظ الجعل هنا، لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما كأنما تولد من الآخر»[٢].

وقال أبو السعود: «والجعل هنا هو الانشاء والإبداع كالخلق، خلا أن ذلك - أى الخلق - مختص بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة والتشريعى أيضًا كما فى قوله - تعالى - ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾[٣].

وقد وردت نصوص تصرح بأن الأرض سبع طبقات كالسموات. إلا أنها فى كثير من المواضع القرآنية تفرد - أى الأرض - وتجمع السماء كما هنا، لعظم السماء. ولإحاطتها بالأرض، ولأنه لم يعرف أن الله - تعالى - قد عصى فيها، ولأن طبقاتها متمايزة ينفصل بعضها عن بعض، بخلاف طبقات الأرض فإنها متصلة.

والمراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية، كما أن المراد بالنور النور الحسى لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولأنهما إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان، ولأن القرآن يستشهد عليهم بمقتضى ما يعلمونه من تفرده بالخلق وهم يعلمون تفرده - سبحانه - بخلق هذه الأشياء.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالظلمات، ظلمات الشرك والكفر والنفاق، وأن المراد بالنور، نور الإيمان والإسلام واليقين، وعلى هذا الرأى يكون المراد بهما معنويا لا حسيا.

قال صاحب المنار: قال الواحدى: والأولى حمل اللفظين عليهما، واستشكله الرازى لأنه مبنى على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز، والمختار عندنا جوازه، وجواز استعمال المشترك فى معنييه أو معانيه إذا احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا، والتعبير بالجعل دون الخلق يلائم هذا فإن الجعل يشمل الخلق والأمر - أى الشرع - كما تقدم، فيفسر جعل كل نور بما يليق به[٤].

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٣ للزمخشرى. طبعة دار الكاتب العربى ببيروت.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٥.
(٣) تفسير أبو السعود جـ٢ ص٧٧ طبعة صبيح.
(٤) تفسير المنار جـ٧ ص٢٩٥ للشيخ رشيد رضا. طبعة دار المنار سنة ١٣٦٧ هجرية.

وعبر القرآن فى جانب الظلمات بصيغة الجمع، وفى جانب النور بالإفراد لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته. أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها، فهناك ظلمة الليل، وهناك ظلمة السجون، وهناك ظلمة القبور، وهناك ظلمة الغمام، وهى تتغير حقائقها بتغير أسبابها. ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها، فهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الأهواء، والشهوات وطمس القلوب.

والنور واحد ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ فالنور فى هذا واحد[1].

ثم بين - سبحانه - الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من قضية الألوهية فقال ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾.

العدل: المراد به هنا التسوية، فقال: عدل الشىء بالشىء إذا سواه به والمعنى: أن الله - تعالى - هو الذى خلق السمٰوات والأرض، وهو الذى جعل الظلمات والنور، فهو لذلك من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده وأن يخصوه بالحمد والثناء، ولكن المشركين مع كل هذه الدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته يساوون به غيره فى العبادة، ويشركون معه آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿الحمد لله﴾ على معنى أن الله - تعالى - حقيق بالحمد على ما خلق من نعم، وأوجد من كائنات ثم الذين كفروا يجحدون كل ذلك فيشركون معه آلهة أخرى.

ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة «خلق السمٰوات والأرض» على معنى أن الله - تعالى - قد خلق الأشياء العظيمة التى لا يقدر عليها أحد سواه، ثم إن المشركين بعد ذلك يعدلون به جمادًا لا يقدر على شىء أصلا.

وجاء العطف «بثم» لإفادة استبعاد واستقباح ما فعله الكافرون. فانهم رغم البراهين الواضحة والدالة على وحدانية الله وقدرته، قد نزلوا بمداركهم إلى الحضيض فسووا فى العبادة بين الخالق والمخلوق.

قال القرطبى: قال ابن عطية: فثم دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلق السمٰوات والأرض قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمنى! ولو وقع

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ٥ السنة ٢٣: تفسير سورة الأنعام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة.

العطف بالواو فى هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم»[(١)].

ثم ساق القرآن فى الآية الثانية دليلا آخر على أن الله - تعالى - هو المستحق للعبادة والحمد، وعلى أن يوم القيامة حق، فتحدث عن أصل خلق الإنسان، بعد أن تحدث فى الآية الأولى عن خلق السمٰوات والأرض فقال:

﴿هو الذى خلقكم من طين، ثم قضى أجلا، وأجل مسمى عنده، ثم أنتم تمترون﴾.

أى: هو الذى أنشأكم من طين، ثم تعهدكم برعايته فى مراحل خلقكم بعد ذلك، كما قال - تعالى - : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾.

وفى ذكر خلق الإنسان من طين، دليل على قدرة الله وعظمته، لأنه - سبحانه - هو الذى حول هذا الطين إلى بشر سوى مفكر، يختار الخير فيهتدى ويختار الشر فيردى، كما أن فيه تذكيرًا له بأصله حتى لا يستكبر أو يطغى، وحتى يوقن بأن من خلقه من هذا الأصل قادر على أن يعيده إليه.

قال تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.

قال أبو السعود: (وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث، مع أن ما ذكر من خلق السمٰوات والأرض من أوضحها وأظهرها. لما أن محل النزاع بعثهم، فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر، وهم بشئون أنفسهم أعرف، والتعامى عن الحجة البينة أقبح)[(٢)].

وقال الجمل: (وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم - عليه السلام - وهو المخلوق منه حقيقة. لتوضيح منهاج القياس، والمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس، مع ما فيه من تحقيق الحق، والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه - عليه السلام - منه. حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد البشر انطواء إجماليا، فكان خلقه - عليه السلام - من الطين خلقا لكل أحد من فروعه)[(٣)].

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص٣٨٧.
(٢) تفسير أبى السعود - جـ٢ ص٧٨.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٤.

ثم قال - تعالى - ﴿ثم قضى أجلا، وأجل مسمى عنده﴾. الأجل فى اللغة عبارة عن الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاء عمره. والمعنى : أنه سبحانه - قدر لعباده أجلين : أجلا تنتهى عنده حياتهم بعد أن عاشوا زمنا معينا، وأجلا آخر يمتد من وقت موتهم إلى أن يبعثهم الله من قبورهم عند انتهاء عمر الدنيا ليحاسبهم على أعمالهم، هذا هو الرأى الأول فى معنى الأجلين.

وقيل : المراد من الأجل الأول آجال الماضين من الخلق، ومن الثانى آجال الباقين منهم. وقيل المراد من الأول النوم ومن الثانى الموت. وقيل : المراد من الأول ما مضى من عمر الإنسان ومن الثانى ما بقى منه.

والذى نرجحه هو الرأى الأول لأسباب منها.

١ - أن من تتبع ذكر الأجل المسمى فى القرآن فى سياق الكلام عن الناس يراه قد ورد فى عمر الإنسان الذى ينتهى بالموت، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1].

وقوله - تعالى - : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾[2].

٢ - أن الآية الكريمة مسوقة لإثبات وحدانية الله ولتقرير أن البعث حق، فالمناسب أن يكون المراد بالأجل الثانى هو انتهاء عمر الدنيا وبعث الناس من قبورهم.

ولذا قال أبو السعود فى تضعيفه للآراء المخالفة للرأى الأول : «ومن هٰهنا تبين أن ما قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت، أو أن الأول أجل الماضين والثانى أجل الباقين، أو أن الأول مقدار ما مضى من عمر كل أحد والثانى مقدار ما بقى منه؛ مما لا وجه له أصلا، لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى. فحيث أريد به أحد ما ذكر من الأمور الثلاثة ففى أى شىء تمترون؟»[3].

٣ - أن الرأى الأول هو الرأى المأثور عن بعض الصحابة، وبه قال جمهور المفسرين، وقد عزاه ابن كثير فى تفسيره إلى عشرة من التابعين[4].

(١) سورة النحل : الآية ٦١.
(٢) سورة نوح الآية ٤.
(٣) تفسير أبى السعود جـ٢ ص٨٠.
(٤) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣ طبعة عيسى الحلبى.

وعطفت الجملة الكريمة بثم، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان المختلفة، فهو فى أصله من سلالة من طين، ثم يصيره الله - تعالى - نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاما، ثم يكونه - سبحانه - وتعالى خلقا آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين».

ووصف الأجل الثانى بأنه (مسمى عنده)، لأن وقت قيام الساعة من الأمور التى لا يعلمها إلا الله قال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

وجاء قوله تعالى ﴿واجل مسمى﴾ مقدما على (عنده) لأنه مبتدأ، والذى سوغ الابتداء به مع كونه نكرة تخصصه بالوصف فقارب المعرفة لذلك، فهو كقوله - تعالى - ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾.

ومعنى (عنده) أى: فى علمه الذى لا يعلمه أحد سواه، فهى عندية تشريف وخصوصية.

ثم ختمت الآية الكريمة بتوبيخ الشاكين فى البعث والحساب فقال - تعالى - :

﴿ثم أنتم تمترون﴾. الامتراء: هو التردد الذى ينتهى إلى محاجة ومجادلة وقد ينتهى إلى شك ثم إلى إنكار. مأخوذ من مرى الضرع إذا مسحه للدر ووجه المناسبة فى استعماله فى الشك، أن الشك سبب لاستخراج العلم الذى هو كاللبن الخالص من بين فرث ودم.

والمعنى: ثم إنكم بعد كل هذه الأدلة الدالة على وحدانية الله، وعلى أن يوم القيامة حق، تشكون فى ذلك، وتجادلون االمؤمنين فيما تشكون فيه «بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير».

وجاء العطف بثم لبيان التفاوت الكبير بين الحقائق الثابتة الناصعة، وبين ما سولته لهم أنفسهم من المجادلة فيها.

قال الآلوسى: «والمراد استبعاد امترائهم فى وقوع البعث وتحققه فى نفسه مع مشاهدتهم فى أنفسهم من الشواهد ما يقع مادة ذلك بالكلية فإن من قدر على إفاضة الحياة على مادة غير مستعدة لشيء من ذلك، كان أوضح اقتدارًا على إقامته على مادة قد استعدت له وقارنته مدة»[2].

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة فى الآيتين السابقتين على أنه هو المستحق للعبادة والحمد، وعلى أن يوم القيامة حق، جاءت الآية الثالثة لتصفه - سبحانه بأنه هو صاحب السلطان المطلق

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧.

(٢) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ٧ ص٨٨ طبعة منير الدمشقى.

فى هذا الكون فقال تعالى - : ﴿وهو الله فى السمٰوات وفى الأرض، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾.

أى : أنه - سبحانه - هو المعبود بحق فى السمٰوات والأرض، العليم بكل شىء فى هذا الوجود، الخبير بكل ما يكسبه الإنسان من خير أو شر فيجازيه عليه بما يستحقه.

والضمير «هو» الذى صدرت به الآية يعود إلى الله - تعالى - الذى نعت ذاته فى الآيتين السابقتين بأنه هو صاحب الحمد المطلق، وخالق السمٰوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، ومنشىء الإنسان من طين، وأنه لذلك يكون مختصًا بالعبادة والخضوع.

وقوله -تعالى- : ﴿وهو الله﴾ جملة من مبتدأ وخبر، معطوفة على ماقبلها، سيقت لبيان شمول ألوهيته لجميع المخلوقات.

قال أبو السعود : وقوله ﴿فى السمٰوات وفى الأرض﴾ متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل إما باعتبار أصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق، كأنه قيل : وهو المعبود فيهما. وإما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال، فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة، فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل : وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما، كما فى قوله - تعالى - : ﴿وهو الذى فى السماء إلـٰه وفى الأرض إلـٰه﴾[1].

وجملة ﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ تقرير لمعنى الجملة الأولى لأن الذى استوى فى علمه السر والعلن هو الله وحده. ويجوز أن تكون كلاما مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم، أو خبرًا ثانيا.

ثم صور - سبحانه - طبيعة الجاحدين الذين هم - لانطماس بصائرهم واصرارهم على العناد - غدوا لا يجدى معهم دليل ولا تنفع معهم حجة، وساق لهم أخبار من سبقوهم. فقال - تعالى - :

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ

(١) تفسير أبو السعود جـ٢ ص٨٠.

يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

والمعنى الإجمالى للآية الأولى: أن هؤلاء الجاحدين لرسالات الله، لا تأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على صدقك - يا محمد - فيما تبلغه عن ربك إلا تلقوها بالإعراض، واستقبلوها بالنبذ والاستخفاف.

فالآية الكريمة، كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله - تعالى - وإعراضهم عنها بالكلية بعد بيان كفرهم بالله - تعالى - وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد. وامترائهم فى البعث، وإعراضهم عن أدلته[1].

و ﴿من﴾ الأولى لاستغراق الجنس الذى يقع فى حيز النفى، كقولك: ﴿ما أتانى من أحد﴾ والثانية للتبعيض، أى: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التى توجب النظر والتأمل والاعتبار، إلا أهملوه وأعرضوا عنه. لقسوة قلوبهم وعدم تدبرهم للعواقب.

وإضافة الآيات إلى اسم الرب - عز وجل - تدل على تفخيم شأنها، وعلى أن تكذيبهم لها إنما هو تكذيب لما عرفوا مصدره، كما يدل على شدة عنادهم وإيغالهم فى الكفر والجحود.

والآية الكريمة بأسلوبها المتضمن الحصر، وباشتمالها على كان وخبرها المفيد للدوام، والاستمرار، تفيد أن الإعراض عن الحق دأبهم، وأنهم ليسوا على استعداد لتقبل الحق مهما اتضحت معالمه، وأسفرت حججه.

ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بالإعراض عن الحق، بل تجاوزوا ذلك إلى التهكم بدعاته، والتطاول عليهم، وأنهم نتيجة لذلك المسلك الأثيم ستكون عاقبتهم خسرا فقال - تعالى - : ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾.

فالآية الكريمة كشفت بأسلوب مؤكد عن جانب من عتوهم وسفههم وسوء أدبهم، بعد أن كشفت سابقتها عن عنادهم ونأيهم عن الحق.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص٩١.

وقد بين الفخر الرازى مراحل تماديهم فى الباطل كما صورها القرآن فقال «اعلم أنه -تعالى- رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب:

فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل فى الدلائل والتفكر والبينات.

والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبا به، بل يكون غافلا عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذبا به فقد زاد على الإعراض.

والمرتبة الثالثة: كونهم مستهزئين بها، لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى فى الإنكار، فبين - سبحانه - أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب»[١].

والمراد بالحق الذى كذبوا به: قيل إنه القرآن، وقيل إنه المعجزات، وقيل إنه الشرع الذى أتى به محمد ﷺ، وقيل: إنه الوعد الذى يرغبهم به تارة، والوعيد الذى يحذرهم بسببه تارة أخرى..

والذى نراه أن تكذيبهم قد شمل كل ذلك، لأنهم بعدم دخولهم فى الإسلام قد صاروا مكذبين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والتعبير بقوله ﴿لما جاءهم﴾ يفيد أن الحق قد وصل إليهم، وطرق قلوبهم وأسماعهم، ولكنهم عموا وصموا عنه.

والأنباء: جمع نبأ وهو ما يعظم وقعه من الأخبار، والمراد بها فى قوله - تعالى -: ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ الإخبار عن العذاب الذى توعدهم الله به عند إصرارهم على كفرهم، ونظيره قوله - تعالى -: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾.

قال صاحب الكشاف: ﴿فسوف يأتيهم أنباء﴾ الشيء الذى ﴿كانوا به يستهزئون﴾ وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأى شيء استهزءوا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو فى يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته[٢].

ثم ساق القرآن لهم على سبيل النصيحة والإرشاد أخبار من سبقوهم فى الكفر والبطر وبين لهم سوء عاقبتهم ليعتبروا ويتعظوا فقال - تعالى -:

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب جـ٤ ص١١ للفخر الرازى، المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤هـ.
(٢) الكشاف جـ٢ ص٦ للزمخشرى طبعة دار الكتاب العربى بيروت.

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم﴾.

قال القرطبى: «القرن الأمة من الناس والجمع القرون. قال الشاعر:

إذا ذهب القرن الذى كنت فيهم   وخلفت فى قرن فأنت غريب

فالقرن كل عالم فى عصره، مأخوذ من الاقتران، أى عالم مقترن بعضهم إلى بعض، وفى الحديث الشريف: «خير الناس قرنى - يعنى أصحابى - ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» فالقرن على هذا مدة من الزمان، قيل: ستون عاما، وقيل: سبعون، وقيل، ثمانون، وقيل مائة - وعليه أكثر أصحاب الحديث - أن القرن مائة سنة، واحتجوا بأن النبى ﷺ قال لعبد الله ابن بشر: «تعيش قرنا» فعاش مائة[1].

والاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة لتوبيخ الكفار وتبكيتهم، وإنكار ما وقع منهم من إعراض واستهزاء، وهو داخل على فعل محذوف دل عليه سابق الكلام ولاحقه.

والتقدير: أعموا عن الحق وأعرضوا عن دلائله، ولم يروا بتدبر وتفكر كم أهلكنا من قبلهم من أقوام كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا.

وجملة ﴿أهلكنا﴾ سدت مسد مفعول رأى إن كانت بصرية، وسدت مسد مفعوليها إن كانت علمية، و ﴿كم﴾ مفعول مقدم لأهلكنا، و ﴿من قبلهم﴾ على حذف المضاف، أى: من قبل زمنهم ووجودهم.

قال صاحب المنار: وكان الظاهر أن يقال: مكناهم فى الأرض - أى القرون - ما لم نمكنهم، أى الكفار المحكى عنهم المستفهم عن حالهم، فعدل عن ذلك بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب، لما فى إيراد الفعلين بضميرى الغيبة من إيهام اتحاد مرجعهما، وكون المثبت عين المنفى، فقيل ما لم نمكن لكم[2].

و﴿ما﴾ فى قوله ﴿ما لم نمكن لكم﴾ يحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذى، وهى حينئذ صفة لمصدر محذوف. والتقدير: مكناهم فى الأرض التمكين الذى لم نمكن لكم، والعائد محذوف: أى الذى لم نمكنه لكم. ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها والعائد محذوف. أى: مكناهم فى الأرض شيئًا لم نمكنه لكم[3].

وفى تعدية الأول وهو ﴿مكناهم﴾ بنفسه والثانى وهو ﴿نمكن لكم﴾ باللام إشارة إلى أن

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٩٠.
(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٣٠٧ للشيخ رشيد رضا.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٧ بتصرف وتلخيص.

السابقين قد مكنوا بالفعل من وسائل العيش الرغيد ما لم يتيسر مثله لهؤلاء المنكرين لدعوة الإسلام، وهذا أعظم فى باب القدرة على إهلاك هؤلاء الذين هم أعجز من سابقيهم.

هذا، وقد وصف الله أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسيئات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشركين المعاصرين للنبى ﷺ.

وصفهم - أولا - بأنهم كانوا أوسع سلطانا، وأكثر عمرانا، وأعظم استقرارًا، كما يفيده قوله تعالى ﴿مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم﴾.

قال صاحب الكشاف: «والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام، والسعة فى الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا»[١].

ووصفهم - ثانيا - بأنهم كانوا أرغد عيشا، وأسعد حالا، وأهنأ بالا، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا﴾ أى: أنزلنا عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها.

ووصفهم - ثالثا - بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون، فيبنون مساكنهم على ضفافها. ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة، كما يرشد إليه قوله - تعالى -: ﴿وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم﴾ أى: صيرنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم.

ولكن ماذا كانت عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التى لم تتيسر لأهل مكة؛ كانت عاقبتهم - كما أخبر القرآن عنهم - ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ أى: فكفروا بنعمة الله وجحدوا فأهلكناهم بسبب ذلك، إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم.

والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران:

أحدهما: أن الذنوب ذاتها تهلك الأمم، إذ تشيع فيها الترف والغرور والفساد فى الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل وتذهب قوتها.

والمظهر الثانى: إهلاك الله - تعالى - لها عقابا على أوزارها[٢].

وقوله - تعالى - فى ختام الآية ﴿وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ يدل على كمال قدرة الله،

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٦.

(٢) تفسير سورة الأنعام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، مجلة لواء الإسلام السنة٢٣ العدد الخامس ص٢٤٢.

ونفاذ إرادته، وأن إهلاكه لتلك الأمم بسبب ذنوبها لم ينقص من ملكه شيئا، لأنه - سبحانه - كلما أهلك أمة أنشأ من بعدها أخرى.

قال - تعالى - ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[1].

ثم بين القرآن توغلهم فى الجحود والعناد، وانصرافهم عن الحق مهما قويت أدلته، وساق جانبا من أقوالهم الباطلة ثم رد عليهم بما يدحضها فقال - تعالى -:

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا
يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

الكتاب فى الأصل مصدر كالكتابة، ويستعمل غالبا بمعنى المكتوب، فيطلق على الصحيفة المكتوبة وعلى مجموعة الصحف.

والقرطاس - بكسر القاف وقد تفتح وتضم فى بعض اللغات - ما يكتب فيه سواء كان من رق أو من ورق أو من غيرهما: ولا يطلق على ما يكتب فيه قرطاس إلا إذا كان مكتوبا.

والمعنى: إن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدقك يا محمد. ولكن الذى ينقصهم

---

(١) سورة محمد الآية ٣٨.

هو التفتح للحق، والإنقياد للهداية، فإننا لو نزلنا عليك كتابا من السماء فى قرطاس - كما اقترحوا - فشاهدوه بأعينهم وهو نازل عليك ولمسوه بأيديهم منذ وصوله إلى الأرض وباشروه بعد ذلك بجميع حواسهم بحيث يرتفع عنهم كل ارتياب، ويزول كل إشكال. لو أننا فعلنا ذلك. استجابة لمقترحاتهم المتعنتة، لقالوا بلغة العناد والجحود ما هذا الذى أبصرناه ولمسناه إلا سحر مبين.

فالآية الكريمة تصور مكابرتهم المتبجحة، وعنادهم الصفيق، وإدبارهم عن الحق مهما تكن قوة أدلته، ونصاعة حجته.

قال الإمام الرازى «بين الله - تعالى - فى هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به بل حملوه على أنه سحر. والمراد من قوله ﴿فى قرطاس﴾ أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة فى صحيفة واحدة فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر»[1].

و ﴿لو﴾ فى الآية الكريمة حرف امتناع، أى: أنه - سبحانه - قد امتنع عن إجابة مقترحاتهم لأنه يعلم أن إجابتها لا ثمرة لها، ولا فائدة من ورائها، لأن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدق النبى ﷺ فى دعوته، وإنما الذى ينقصهم هو الاستجابة للحق والاتجاه السليم لطلبه، والاستماع إليه بعناية وتفكير.

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿فلمسوه بأيديهم﴾. مع أن اللمس هو باليد غالبا - للتأكيد وزيادة التعيين، ودفع احتمال المجاز. فالجملة الكريمة المقصود بها تصوير فرط جحودهم ومكابرتهم، وإعراضهم عن الحق مهما تكن قوة الدليل وحسيته.

وفى قوله - تعالى - ﴿لقال الذين كفروا﴾ إشارة إلى أن الكافرين وحدهم هم الذين بسبب كفرهم - ينتحلون الأعذار لضلالهم، ويصفون الحق الواضح بأنه سحر مبين. أما المؤمنون فإنهم يقابلون الحق بالتصديق والإذعان.

وقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾، فأكدوا حكمهم الباطل بطريق النفى والإثبات - أى: أنه مقصور على أنه سحر - وبالإشارة إليه، وبأنه بين واضح فى كونه سحرًا، وذلك يدل على أن تبجحهم قد بلغ النهاية، وأن مكابرتهم قد كذبت ما شهدت بصدقه حواسهم، وإن قومًا بهذه الدرجة من العناد لا تجدى فيهم معجزة، ولا ينفع معهم دليل.

وفى معنى هذه الآية قد وردت آيات أخرى فى القرآن الكريم منها قوله - تعالى - ﴿ولو أننا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٢.

نزلنا إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾[١].

ومنها قوله - تعالى - ﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[٢].

ثم حكى القرآن بعض مقترحاتهم المتعنتة ورد عليها بما يدحضها فقال:

﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون* ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾.

أى: قال الكافرون للنبى ﷺ هلا كان معك ملك يا محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه، ونرى هيئته، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك.

قال محمد بن إسحاق «دعا رسول الله ﷺ - قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلده، وعبد بن يغوث وأبى بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك».

فهم لا يريدون ملكا لا يرونه، وإنما يريدون ملكا يمشى معه ويشاهدونه بأعينهم.

وأسند - سبحانه - القول إليهم مع أن القائل بعضهم، لأنهم جميعا متعنتون جاحدون، وما يصدر عن بعضهم إنما هو صادر فى المعنى عن جميعهم لأن الباعث واحد، ولولا هنا للتحضيض فلا تحتاج إلى جواب.

أى: وقال الكافرون للنبى ﷺ هلا كان معك ملك يا محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه، ونرى هيئته، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك.

وقد رد الله تعالى - على قولهم هذا بردين حكيمين:

أما الرد الأول: فقال فيه: ﴿ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون﴾.

أى: لو أنزلنا ملكا كما اقترح هؤلاء الكافرون وهم على ما هم عليه من الكفر والجحود، لقضى الأمر بإهلاكهم، ثم لا ينظرون، أى: لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلا، فقد مضت سنة الله فيمن قبلهم، أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١١١.

(٢) سورة الحجر الآيتان ١٤، ١٥.

يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك، والله - تعالى - لا يريد أن يهلك هذه الأمة التى بعث فيها خاتم رسله نبى الرحمة ﷺ بسبب إجابة مقترحات أولئك المعاندين المستكبرين.

وأما الرد الثانى فقال فيه: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾.

أى: لو جعلنا الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - لكانت الحكمة تقتضى أن نجعله فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذى يبلغه عن الله - تعالى - وفى هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم فى صورة بشر -: لست ملكا، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرًا.

ومعنى ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ لخلطنا عليهم مثل ما يخلطون على أنفسهم بسبب استبعادهم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم.

قال الإمام القرطبى: قوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى - الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له، ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم»[1].

وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن الكريم قد دحض شبهات أولئك الجاحدين، وبين أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، قال تعالى: - ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى﴾.

ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى ﷺ عما أصابه من قومه فقال:

﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

والمعنى: لا تحزن يا محمد لما أصابك من قومك، فإن من شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين فى سبيله أن ينالهم الأذى من أعدائهم، ولقد أوذى من سبقك من الرسل الكرام، وسخر الساخرون منهم، فصبروا على ذلك، وجاءهم فى النهاية نصرنا الذى وعدناهم به. أما أعداؤهم الذين استهزأوا بهم، فقد أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[2].

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٩٤.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٠.

فالآية الكريمة تهدف إلى تسلية الرسول ﷺ والترويح عن نفسه، وتبشيره بحسن العاقبة وتثبيت قلبه حتى لا يتأثر أو يضعف أمام سفه المشركين وتطاولهم عليه.

والاستهزاء بالشيء: الاستهانة به، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره. وتنكير الرسل للتكثير والتعظيم، والفاء فى قوله ﴿فحاق﴾ للسببية، أى: بسبب هذا الاستهزاء برسل الله الكرام، أحاط العذاب بأولئك المستهزئين فأهلكهم.

وقال - سبحانه - ﴿فحاق بالذين سخروا﴾ ولم يقل بالساخرين، للإشارة إلى أن ما أصابهم من عذاب لم يكن تجنيًا عليهم، وإنما كان بسبب سخريتهم برسل الله والاستخفاف بهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هى علة الحكم.

وفى قوله - تعالى - : ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ مجاز علاقته السببية، لأن الذى حاق بهم هو العذاب المسبب عن الاستهزاء، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب، وذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفك عنها، فحيثما وجد التطاول على أولياء الله والدعاة إلى دينه، وجد معه عذاب الله وسخطه على المتطاولين والمستهزئين.

ثم أمر القرآن النبى ﷺ أن يذكرهم بحال من سبقوهم عن طريق التطلع إلى آثارهم، والتدبر فيما أصابهم. والاتعاظ بما حل بهم فقال - تعالى - :

﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾.

أى: قل - يا محمد - لأولئك المكذبين لك، المستهزئين بدعوتك، لا تغتروا بما أنتم فيه من قوة وجاه، فإن ذلك لا دوام له، وسيروا فى فجاج الأرض متدبرين متأملين، فسترون بأعينكم آثار أقوام كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا، ولكن ذلك لم يمنع وقوع العذاب بهم حين بدلوا نعمة الله كفرا، وحاربوا رسل الله والدعاة إلى دينه.

وقد ذكر القرآن الكريم فى سور متعددة أن آثار أولئك الأقوام المهلكين، ما زال بعضها باقيا، وإنها لتدعو العقلاء إلى الاتعاظ والاعتبار فقال - تعالى - : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾[1].

وقال - تعالى - فى شأن قوم لوط: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين* وبالليل، أفلا تعقلون﴾[2].

(١) سورة هود الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧، ١٣٨.

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يطلب منهم السير فى الأرض للتفكر والتدبر، لأنهم كانوا يستهزئون به ﷺ فكانت المخاطبة منه لهم من قبيل النصيحة والتحذير.

وليس المراد مجرد النظر فى قوله ﴿ثم انظروا﴾، بل المراد منه التفكر والتدبر والاعتبار الذى يهدى إلى الإيمان، ويعين على اتباع الصراط المستقيم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين قوله ﴿فانظروا﴾ وبين قوله ﴿ثم انظروا﴾؟ قلت : جعل النظر مسببا عن السير فى قوله ﴿فانظروا﴾ فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر، ولاتسيروا سير الغافلين. وأما قوله ﴿سيروا فى الأرض ثم انظروا﴾ فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر فى آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح(١).

وقد علق الشيخ ابن المنير على عبارة صاحب الكشاف فقال : «وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحدًا، ليكون ذلك سببا فى النظر، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية، وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود والوسيلة».

والذى نرجحه أن التعبير بثم هنا المفيدة للتراخى للإشارة إلى أن السير الذى هو وسيلة للتفكر مطلوب فى ذاته كما أن النظر الذى يصحبه التفكر والاعتبار مطلوب أيضًا، وكأنه أمر بدهى نتيجة للسير، أما التعبير بالفاء فى قوله «فانظروا» فلإبراز كون النظر مسببا عن السير، ومترتبا عليه، وكلا الأسلوبين مناسب للمقام الذى سيق من أجله، ومتناسق مع البلاغة القرآنية.

ثم ساق القرآن الكريم ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته وعلى أنه هو المهيمن على هذا الكون، فقال - تعالى - :

قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٨.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين -على سبيل التوبيخ والتنبيه- من الذى يملك السمٰوات والأرض وما فيهما من إنس وجن وحيوان ونبات وغير ذلك من المخلوقات، إن الإجابة الصحيحة التى يعترفون بها ولا يستطيعون إنكارها أن جميع المخلوقات لله رب العالمين. قال - تعالى - ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ فالمقصود بالاستفهام تبكيتهم على عنادهم، وتنبيههم إلى ضلالهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

قال الإمام الرازى: وقوله: ﴿قل لمن ما فى السمٰوات والأرض﴾ سؤال، وقوله ﴿قل لله﴾ جواب. فقد أمره الله - تعالى - بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا، وهذا إنما يحسن فى الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ فى الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع، وهنا كذلك لأن القوم كانوا معترفين بأن العالم كله لله وتحت تصرفه وقهره وقدرته»[1].

ثم قال - تعالى - ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أى: أوجب - سبحانه - على نفسه رحمته التى وسعت كل شيء والتى من مظاهرها أنه منح خيره ونعمه فى الدنيا للطائعين والعصاة، وأنه سيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش، إن رحمتى تغلب غضبى».

وجملة، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، يرى بعض العلماء أنها جواب لقسم محذوف

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٤.

أى : والله ليجمعنكم، وجملة القسم والجواب لا محل لها من الإعراب، وإن تعلقت بما قبلها من حيث المعنى وعلى هذا الرأى يكون الكلام قد تم عند قوله - تعالى - ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾.

ويرى الزجاج ومن شايعه أن جملة (ليجمعنكم) فى محل نصب بدل من الرحمة، وفسر (ليجمعنكم) بمعنى أمهلكم وأمدلكم فى العمر والرزق مع كفركم، فهو تفسير الرحمة، كما قال - تعالى - فى السورة نفسها (كتب على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم)(١).

والمقصود بهذه الجملة الكريمة (ليجمعنكم) بيان عدل الله بين عباده. فهو لم يجمعهم يوم القيامة لتعذيبهم جميعا، وإنما يجمعهم لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء.

ولما كان الكافرون ينكرون حصول البعث والحساب فقد أكد الله - تعالى - حصولهما باللام وبنون التوكيد الثقيلة، وبتعدية الفعل بإلى دون فى للإشارة إلى أن هذا الجمع نهايته يوم القيامة - وبأنه يوم لا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه لوضوح أدلته.

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبتهم السيئة فقال - تعالى - ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾. أى : الذين خسروا أنفسهم بانطماس فطرتهم، وإصرارهم على العناد والجمود، لا يتسرب الإيمان إلى قلوبهم لأنها قست وأظلمت.

قال الألوسى : (الفاء) فى قوله (فهم لا يؤمنون) - للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل والانهماك فى التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان)(٢).

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول علمه وقدرته فقال : ﴿وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم﴾.

قال القرطبى : (سكن معناه هدأ واستقر، والمراد ما سكن وما تحرك، فحذف لعلم السامع، وقيل : خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة، وقيل : المعنى، ما خلق، فهو عام فى جميع المخلوقات متحركها وساكنها، فإنه يجرى عليه الليل والنهار، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق وهذا أحسن ما قيل لأنه يجمع شتات الأقوال)(٣).

---

(١) حاشية الجمل جـ٣ ص٩.

(٢) تفسير روح المعانى للألوسى جـ٧ ص١٢٢.

(٣) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٩١.

والمعنى : ولله - سبحانه - جميع ما استقر وتحرك ووجد فى كل زمان ومكان من إنسان وحيوان ونبات وغير ذلك من المخلوقات، وهو - سبحانه - السميع لكل دقيق وجليل، العليم بكل الظواهر والبواطن، والتعبير بما فى قوله : ﴿وله ما سكن﴾ للدلالة على العموم والشمول.

ثم أمر - سبحانه - نبيه ﷺ أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد، وأن ينفى عن نفسه بشدة ما ترددوا فيه من جهالة وضلالة فقال :

﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السمٰوات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم﴾.

أى : قل لهم - يا محمد - موبخا وزاجرا، بأى عقل أبحتم لأنفسكم الإشراك بالله، واتخذتم من دونه معبودا سواه، مع أنه - سبحانه - باعترافكم هو الخالق لكم وللسمٰوات والأرض ولكل شىء؟

وقد سلطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل، للإيذان بأن المستنكر إنما هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولى مطلقا، ونظير هذه الآية قوله - تعالى - ﴿قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون﴾.

ثم دلل - سبحانه - على أنه هو وحده المستحق للعبادة بأمرين.

أولهما : قوله - تعالى - ﴿فاطر السمٰوات والأرض﴾.

أى خالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق، فالفطر - كما قال اللغويون - الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال يحتذى.

وثانيهما : قوله - تعالى - ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾.

أى : أنه - سبحانه - هو الذى لا يحتاج إلى أحد وكل ما سواه محتاج إليه وهو الرازق لغيره، والمنافع كلها من عنده.

وقرأ أبو عمرو (وهو يطعم ولا يطعم) بفتح الياء فى الثانى. أى : وهو يرزق غيره ويطعمه أما هو - سبحانه - فلا يتناول طعاما ولا شرابا.

وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولى سوى الله، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون إلى الطعام، وأنه - سبحانه - هو الذى خلق لهم هذا الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه.

ثم أمره - سبحانه - بأن يصرح أمامهم بأنه برىء من شركهم ومن أفعالهم القبيحة فقال - تعالى - ﴿قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾.

أى : قل أيها الرسول الكريم بعد إيراد هذه الآيات والحجج الدالة على وحدانية الله : إنى

أمرت من خالقى أن أكون أول من يسلم له وجهه ويخصه بالعبادة، كما أنى نهيت عن أن أكون من المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى.

وصح عطف الجملة الثانية الإنشائية على الأولى الخبرية لأن الأولى خبرية فى اللفظ ولكنها إنشائية فى المعنى فكانت فى قوة الجملة الطلبية والتقدير: كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين، ويجوز عطفها على جملة ﴿قل إنى أمرت﴾ وهى إنشائية فى اللفظ والمعنى.

ثم أمره - سبحانه - بأن يعلن أمامهم بأن خوفه من خالقه يحتم عليه أن يبتعد عن كل معصية فقال:

﴿قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾.

أى: قل لهم - يا محمد - على سبيل الإنذار والتحذير من الاستمرار فى الكفر إنى أخاف إن عصيت خالقى عذاب يوم عظيم الأهوال تذهل فيه ﴿كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾.

وفى هذا التحذير أسمى الوان التعبير والتصوير لأنه إذا كان النبى ﷺ وهو أحب الخلق إلى الله سينا له العذاب إن كان - على سبيل الفرض والتقدير - قد عصى ربه فى الدنيا. فكيف بأولئك الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى؟ فمن الواجب عليهم أن يقتدوا بالنبى ﷺ فى عبادته وإخلاصه لربه.

وكلمة ﴿عذاب﴾ مفعول لأخاف، وجواب الشرط محذوف والتقدير: إن عصيت ربى استحققت العذاب العظيم.

ثم بين - سبحانه - أن النجاة من هول هذا اليوم غنيمة ليس بعدها غنيمة فقال: ﴿من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز العظيم﴾.

أى: من يصرف عنه عذاب هذا اليوم، فإنه يكون ممن شملتهم رحمة الله ورعايته، وذلك هو الفوز الذى ليس بعده فوز.

والضمير الذى يعتبر نائب فاعل ليصرف، يعود على العذاب العظيم الذى سيحل بالمجرمين يوم القيامة.

وفى قراءة لحمزة والكسائى وأبى بكر عن عاصم (من يصرف) بفتح الياء فيكون الضمير عائدا على الله - ويكون المفعول محذوفًا. والتقدير من يصرف الله عنه هذا العذاب العظيم فى ذلك اليوم فقد شملته رحمة الله، وعلى كلتا القراءتين فالضمير فى قوله (فقد رحمه) يعود على الله - تعالى -:

هذا، وفى هذه الآيات الخمس نجد القرآن قد أمر النبى ﷺ بقوله ﴿قل﴾ خمس مرات وهو أسلوب إنذارى تلقينى كثر استعماله فى هذه السورة - كما سبق أن قلنا فى التمهيد لها - لأنه يلقن النبى ﷺ الحجج التى تزلزل كيان المشركين وتأتى على بنيانهم من القواعد. وفضلا عن ذلك فهو لون من التفنن فى أسلوب الدعوة إلى أن يحتاج إليه المرشدون والدعاة. لأن التزام أسلوب واحد فى إقامة الحجة على الخصم يفضى إلى السآمة والملل، ومن هنا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها، وصدق الله إذ يقول ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾.

ثم بين - سبحانه - أن نواصى العباد بيديه، وأنه هو المتصرف فى خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه فقال - تعالى - :

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

المس: أعم من اللمس فى الاستعمال. يقال: مسه السوء والكبر والعذاب والتعب. أى: أصابه ذلك ونزل به.

«والضر: اسم للألم والحزن والخوف وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما كما أن النفع اسم للذة

والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما»[١].

والخير: اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبله.

والمعنى: إن الناس جميعًا تحت سلطان الله وقدرته، فما يصيبهم من ضر كمرض وتعب وحزن اقتضته سنة الله فى هذه الحياة، فلا كاشف له إلا هو، وما يصيبهم من خير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو - سبحانه - قادر على حفظه عليهم، وإبقائه لهم، لأنه على كل شىء قدير.

والخطاب فى الآية يصح أن يكون موجها إلى النبى ﷺ لتقويته فى دعوته، وتثبيته أمام كيد الأعداء وأذاهم، كما يصح أن يكون لكل من هو أهل للخطاب.

قال صاحب المنار: «ومن دقائق بلاغة القرآن المعجزة، تجرى الحقائق بأوجز العبارات، وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفته بعضها فى بادىء الرأى لما هو الأصل فى التعبير، كالمقابلة هنا بين الضر والخير، وإنما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر، فنكتة المقابلة أن الضر من الله ليس شرا فى الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وأدبًا وعلمًا وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب فى الآخرة مقدم على النعيم»[٢]:

وقوله: ﴿وإن يمسسك بخير﴾ جوابه محذوف تقديره: فلا راد له غيره.

وقوله: ﴿فهو على كل شىء قدير﴾ تعليل لكل من الجوابين المذكورين فى الشرطية الأولى والمحذوف فى الثانية.

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾[٣].

وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

ثم بين - سبحانه - كمال قدرته، وعظيم سلطانه فقال: ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾.

أى أنه - كما قال ابن كثير - «هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجباه. وعنت له الوجوه، وقهر كل شىء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه».

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٨.
(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٣٣٥.
(٣) سورة فاطر: آية ٢.

ثم أمر الله : نبيه ﷺ : فى بيان رائع حكيم، أن يسأل المشركين عن أى شىء فى هذا الكون أعظم وأزكى شهادة بحيث تقبل شهادته ولا ترد فقال - تعالى - : ﴿قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم﴾.

روى بعض المفسرين أن أهل مكة قالوا : يا محمد، أرنا من يشهد أنك رسول الله، فإنا لا نرى أحدا نصدقه، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فأنزل الله - تعالى - : ﴿قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يخاصمونك فيما تدعو إليه : أى شىء فى هذا الوجود شهادته أكبر شهادة وأعظمها بحيث تقبلونها عن تسليم وإذعان؟ ثم أمره أن يجيبهم على هذا السؤال بالحقيقة التى لا يمارى فيها عاقل وهى أن شهادة الله هى أكبر شهادة وأقواها وأزكاها، لأنها شهادة من يستحيل عليه الكذب أو الخطأ، وقد شهد - سبحانه - : بصدقى فيما أبلغه عنه فلماذا تعرضون عن دعوتى، وتتنكبون الطريق المستقيم؟

وصدرت الآية الكريمة بقل وبصيغة الاستفهام تنبيهًا إلى جلال الشاهد، وإلى سلامة دعوى النبى ﷺ لكى يدركوا ما فيها من حق وما هم فيه من ضلال.

وأوثرت كلمة« شىء » فى قوله - تعالى - : ﴿قل أى شىء أكبر شهادة﴾ لأنها تفيد الشمول والإحاطة والاستقصاء.

قال صاحب الكشاف : ما ملخصه قوله - تعالى - : ﴿قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم﴾أراد : أى شهيد أكبر شهادة، فوضع شيئًا مقام شهيد ليبالغ فى التعميم، ويحتمل أن يكون تمام الجواب عنه قوله : ﴿قل الله﴾ بمعنى : الله أكبر شهادة، ثم ابتدأ. ﴿شهيد بينى وبينكم﴾ أى : هو شهيد بينى وبينكم. وأن يكون ﴿الله شهيد بينى وبينكم﴾ هو الجواب، لدلالته على أن الله - تعالى - : (إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شىء شهادة من هو شهيد له)(١).

والمراد بشهادة الله ما جاء فى آياته القرآنية من أنه - سبحانه - : قد أرسل رسوله محمدا ﴿بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾.

ثم بين - سبحانه - : أن القرآن هو المعجزة الخالدة للنبىﷺ فقال : ﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾.

أى : أن الله - تعالى - : قد أنزل هذا القرآن عن طريق وحيه الصادق، لأنذركم به يا أهل

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١١.

مكة، ولأنذر به - أيضًا - جميع من بلغه هذا الكتاب الكريم ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم فى كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

فهذه الجملة تدل على عموم بعثة النبى ﷺ كما تدل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله، وتعم - أيضًا - الذين وجدوا بعد نزوله وبلغتهم دعوته. ولم يروا النبى ﷺ ففى الحديث الشريف: «بلغوا عن الله - تعالى - فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله»[1].

وعن محمد بن كعب قال: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ وذلك لأن القرآن الكريم لما كان متواترا بلفظه ومعناه، كان من بلغه بعد وفاة النبى ﷺ: كأنما سمعه منه وإن كثرت الوسائط، لأنه هو الذى بلغه بلا زيادة ولا نقصان، أما من لم تبلغه دعوة القرآن فلا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة، وحينئذ لا يكون مخاطبا بتعاليم هذا الدين، وإثمه يكون فى أعناق الذين قصروا فى تبليغ دعوة الإسلام إليه.

ثم أمره - سبحانه - أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد، وأن يعلن براءته منهم ومن معبوداتهم فقال - تعالى -: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهه أخرى، قل: لا أشهد، قل إنما هو إلـه واحد وإننى برىء مما تشركون﴾.

أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إذا كنتم قد ألغيتم عقولكم. وترديتم فى مهاوى الشرك والضلال، وشهدتم بأن مع الله آلهة أخرى، فإنى برىء منكم ومن أعمالكم القبيحة، ومحال أن أشهد بما شهدتم به، وإنما الذى أشهد به وأعتقده، أن الله - تعالى - واحد لا شريك له، وإننى بعيد كل البعد عن ضلالكم وجحودكم.

والاستفهام فى قوله ﴿أئنكم﴾ إنكارى، جىء به لاستقباح ما وقع منهم من شرك، وأكد قوله ﴿لتشهدون﴾ للإشارة إلى تغلغل الضلال فى نفوسهم، واستيلاء الجحود على قلوبهم.

وعبر عن أوثانهم بأنها ﴿آلهة أخرى﴾ مجاراة لهم فى زعمهم الباطل ومبالغة فى توبيخهم والتهكم بهم.

وفى أمره - سبحانه - لنبيه ﷺ بأن يصارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم «قل: لا أشهد» توبيخ لهم على جهالتهم، وتوجيه لأتباعه إلى الاقتداء به فى شجاعته أمام الباطل، وفى ثباته على مبدئه.

وقد تضمن قوله - تعالى: ﴿قل إنما هو إلـه واحد﴾ اعتراف كامل بوحدانية الله، وقصرها عليه - سبحانه -، وتصريح بالبراءة التامة من الأوثان وعابديها، وتنديد شديد بهذا العمل الباطل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٦.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد تضمنت شهادة من الله - تعالى - بأن رسوله محمدا ﷺ صادق فى رسالته، وشهادة من هذا الرسول الكريم بأن الله واحد لا شريك له، وأنه برىء من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين.

ثم ساق القرآن شهادة ثالثة بصدق النبى ﷺ وهى شهادة أهل الكتاب فقال ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾:

قال الجمل فى حاشيته على الجلالين: «روى أن النبى ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر: إن الله أنزل على نبيه بمكة: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى!! فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال: أشهد أنه رسول الله حقًا ولا أدرى ما تصنع النساء»(١).

والمعنى: إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يعرفون صدق ما جاء به محمد ﷺ معرفة تماثل معرفتهم لأبنائهم الذين هم من أصلابهم، فهى معرفة بلغت حد اليقين وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته.

والضمير فى ﴿يعرفونه﴾ يرى أكثر المفسرين أنه يعود على النبى ﷺ ويؤيد ذلك سبب نزول الآية، ويرى بعضهم أنه يعود على القرآن لتقدمه فى قوله ﴿وأوحى إلى هذا القرآن﴾ أو على التوحيد لدلالة قوله ﴿قل إنما هو إله واحد﴾.

والأولى عودة الضمير على جميع ما ذكر، لأن معرفتهم بما فى كتابهم يتناول كل ذلك.

ثم بين - سبحانه - علة إنكار المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوته ﷺ فقال: ﴿الذين خسروا أنفسهم لا يؤمنون﴾.

قال صاحب الكشاف: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فهم لا يؤمنون﴾ به(٢) جمعوا بين أمرين متناقضين فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح حيث قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ وقالوا ﴿والله أمرنا بها﴾ وقالوا: «الملائكة بنات الله» ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحرًا ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ.

---

(١) حاشية الجمل: جـ٢ ص١٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٢.

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قيل أنها مدنية، والصحيح أنها مكية، ويشهد لذلك سبب النزول الذى سقناه عن عمر - رضى الله عنه - فقد قال لعبد الله بن سلام: «إن الله أنزل على نبيه بمكة» إلخ.

ويؤكد كونها مكية - أيضا - سياق الآيات قبلها، فالآية التى قبلها وهى قوله - تعالى - : ﴿قل أى شيء أكبر شهادة﴾. إلخ. فيها شهادة من الله لنبيه ﷺ بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه، والآية التى معنا فيها شهادة من أهل الكتاب بأنهم يعرفون صدق محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ومن المعروف أن أهل مكة كانوا يسألون أهل الكتاب عن النبى ﷺ وفضلا عن ذلك لم يرد نص صحيح يثبت أن هذه الآية الكريمة قد نزلت بالمدينة.

قال بعض العلماء: ويظهر أنهم - أى القائلون بأن الآية مدنية - لما وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب، ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به، وهى قوله - تعالى - : فى سورة البقرة ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ الآية ١٤٦، ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة وفى المدينة دون مكة، لما وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية، فالمسألة ليست إلا اجتهادًا حسب رواية مسندة، وهو اجتهاد غير صحيح[1].

ولما كان هذا الخسران أكبر ظلم ظلم به هؤلاء الكفار أنفسهم فقد قال - تعالى - فى شأنهم: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾.

أى: لا أحد أشد ظلمًا من أولئك المشركين الذين كذبوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإن هؤلاء الذين سقطوا فى أقصى دركات الكذب لن يفوزوا ولن يفلحوا، والاستفهام فى الآية الكريمة إنكارى للنفى، وفيه توبيخ للمشركين.

ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم عندما يحشرون يوم القيامة، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص٥ لفضيلة الأستاذ محمد المدنى.

﴿قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

الحشر: الجمع، والمراد به جمعهم يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم الدنيوية.

والمعنى: واذكر لهم أيها الرسول الكريم - ليعتبروا ويتعظوا - حالهم يوم نجمعهم جميعًا فى الآخرة لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم، ثم نسألهم سؤال إفضاح لا إيضاح - كما يقول القرطبى -: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاء لكى يدافعوا عنكم فى هذا اليوم العصيب.

و﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية بفعل مضمر بعده أى: ويوم نحشرهم كان كذا وكذا، وحذف هذا الفعل من الكلام ليبقى على الإبهام الذى هو أدخل فى التخويف والتهويل، وقيل إنه منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف قبله والتقدير، واذكر يوم نحشرهم، أى: اذكر هذا اليوم من حيث ما يقع فيه، والضمير فى ﴿نحشرهم﴾ للذين افتروا على الله كذبا، أو كذبوا بآياته.

وفائدة كلمة ﴿جميعًا﴾ رفع احتمال التخصيص، أى: أن جميع المشركين ومعبوداتهم سيحشرون أمام الله للحساب.

وكان العطف بثم لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين، إذ قبل ذلك سيكون قيامهم من قبورهم، ويكون هول الموقف، ويكون إحصاء الأعمال وقراءة كل امرىء لكتابه... الخ، ثم يقول الله - تعالى - ﴿للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾؟

ووبخهم - سبحانه - بقوله: ﴿أين شركاؤكم﴾ مع أنهم محشورون معهم، لأنهم لا نفع يرجى من وجودهم معهم، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب كما تقول لمن جعل أحدًا ظهيرًا يعينه فى الشدائد إذا لم يعنه وقد وقع فى ورطة بحضرته أين فلان؟ فتجعله لعدم نفعه - وإن كان حاضرًا- كالغائب[1].

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص١٢١.

ثم أخبر - سبحانه - عما يكون منهم من تخبط وحسرة فقال:

﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين﴾.

الفتنة مأخوذة من الفتن، وهو إدخال الذهب فى النار لتعرف جودته من رداءته، ثم استعمل فى معان أخرى كالاختبار، والعذاب، والبلاء، والكفر.

والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق، وارتفعت الدعاوى إلا أن قالوا مؤكدين ما قالوا بالقسم الكاذب والله يا ربنا ما كنا مشركين. ظنا منهم أن تبرأهم من الشرك فى الآخرة سينجيهم من عذاب الله كما نجا المؤمنين بفضله ورضوانه.

قال ابن عباس: يغفر الله - تعالى - لأهل الإخلاص ذنوبهم. ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين. فقال الله - تعالى -: أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعندئذ يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثًا، فذلك قوله: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا﴾[1].

ثم قال - تعالى - ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾.

والمراد بالنظر هنا: التدبر والتفكير.

والمعنى: انظر - أيها العاقل - وتأمل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم فى قولهم والله ربنا ما كنا مشركين، وغاب عن عملهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من الأقوال الباطلة، وما كانوا يفعلونه من جعلهم لله شركاء.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشًا: ألا تراهم يقولون ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ وقد علموا أنه لا يقضى عليهم»[2].

وبعد أن بين - سبحانه - أحوال الكفار فى الآخرة أتبعه بما يوجب اليأس من إيمان بعضهم فقال: ﴿ومنهم من يستمع إليك، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا﴾.

قال ابن عباس: إن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٤٠١.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٣.

وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف. استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذى جعلها بيته ما أدرى ما يقول، إلا أنى أرى تحرك شفتيه يتكلم بشىء فما يقول إلا أساطير، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه فأنزل الله هذه الآية»[١].

والأكنة: جمع كنان كغطاء وأغطية لفظا ومعنى والوقر - بالفتح - الثقل فى السمع.

والمعنى: ومن هؤلاء المشركين يا محمد من يستمع إليك حين تقرأ القرآن وقد جعلنا - بسبب عنادهم وجحودهم - على قلوبهم أغطية تحول بينهم وبين فقهه، كما جعلنا فى أسماعهم صمما يمنع من سماعه بتدبر وتعقل.

قال صاحب المنار: «وجعل الأكنة على القلوب والوقر فى الآذان فى الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية؛ فإن القلب الذى لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شىء. والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم، لأن سمعها وعدمه سواء[٢].

وقال بعض العلماء: «وهنا يسأل سائل: إذا كان منع الهداية من الله - تعالى - بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها وبالوقر فى آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابا عسيرا بالعذاب الأليم؟

والجواب عن ذلك أن الله - سبحانه - يسير الأمور وفق حكمته العليا فمن يسلك سبيل الهداية يرشده وينير طريقه ويثيبه، ومن يقصد إلى الغواية ويسير فى طريقها تجيئه النذر تباعًا إنذارا بعد إنذار، فإن أيقظت النذر ضميره وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر. ومن لم تجد فيه النذر المتتابعة ولم توقظ له ضميرا ولم تبصره من عمى فقد وضع الله - تعالى - على قلبه غشاوة وفى آذانه وقرا»[٣].

ثم صور - سبحانه - عنادهم وإعراضهم عن الحق مهما وضحت براهينه فقال: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾.

أى: وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك فلن يؤمنوا بها لا ستحواذ الغرور والعناد على قلوبهم.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص١٢٥.
(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٣٤٧.
(٣) مجلة لواء الإسلام لسنة ٢٣ العدد ٩ تفسير الآيات الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

والمراد من الرؤية هنا البصرية، ومن الآيات المعجزات الحسية كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة.

وهذه الجملة الكريمة المقصود بها ذمهم لعدم انتفاعهم بحاسة البصر بعد ذمهم لعدم انتفاعهم بعقولهم وأسماعهم.

وجيء بكلمة ﴿كل﴾ لعموم النفى، أى: أنهم لا يؤمنون بأية معجزة يرونها مهما وضحت براهينها، ومهما كانت دلالتها ظاهرة على صدق النبى ﷺ.

ثم بين - سبحانه - ما كان يجرى منهم مع رسول الله ﷺ فقال:

﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

الأساطير جمع إسطارة أو أسطورة ومعناها الخرافات والترهات.

أى: حتى إذا ما صاروا إليك أيها الرسول ليخاصموك وينازعوك فى دعوتك فإنهم يقولون لك بسبب كفرهم وجحودهم، ما هذا القرآن الذى نسمعه منك إلا أقاصيص الأولين المشتملة على خرافاتهم وأوهامهم.

وفى قوله - تعالى - ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ إشارة إلى أن مجيئهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق، وإنما كان من أجل المجادلة المتعنتة مع الرسول الكريم ﷺ.

ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بمحاربة الدعوة الإسلامية، بل هم لفجورهم - يحرضون غيرهم على محاربتها معهم فقال - تعالى -:

﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

النهى: الزجر، والنأى: البعد، والضمير «هم» يعود على المشركين.

والمعنى: إن هؤلاء المشركين لا يكتفون بمحاربة الحق، بل يزجرون الناس عن اتباعه، ويبعدونهم عن الاستماع إليه. فهم قد جمعوا بين فعلين قبيحين: محاربتهم للحق وحمل غيرهم معهم على محاربته والبعد عنه.

وهم بهذا العمل الباطل القبيح ما يهلكون إلا أنفسهم ولكنهم لا يشعرون بذلك لانطماس بصيرتهم، وقسوة قلوبهم.

وعملهم هذا يدل على أنهم كانوا معترفين فى قرارة أنفسهم بأن القرآن حق، لأنهم لو كانوا يعتقدون أنه أساطير الأولين - كما زعموا - لتركوا الناس يسمعونها ليتأكدوا من أنها خرافات وأوهام، ولكنهم لما كانوا مؤمنين ببلاغة القرآن وصدقه، فإنهم نهوا غيرهم عن سماعه حتى

لا يؤمن به وابتعدوا هم عنه حتى لا يتأثروا به فيدخلوا فى دين الإسلام، ولقد حكى الله عنهم هذا المعنى فى قوله - تعالى - ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾(1).

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿عنه﴾ يرجع إلى النبى ﷺ وما جاء به من آيات.

ويرى بعض المفسرين أن الضمير «هم» يرجع إلى عشيرة النبى ﷺ فيكون المعنى: وهم - أى أعمام النبى ﷺ وعشيرته ينهون الناس عن إيذائه والتعرض له بسوء، ولكنهم فى الوقت نفسه ينأون عنه أى يبتعدون عن دعوته فلا يؤمنون بها، ولعل أوضح مثل لذلك أبو طالب، فقد كان يدافع عن النبى ﷺ إلا أنه لم يدخل فى الإسلام مع تصريحه بأنه هو الدين الحق.

ومما روى عنه فى هذا المعنى قوله:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد فى التراب دفينًا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منك عيونًا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ... فلقد صدقت وكنت قبل أمينًا
وعرضت دينًا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتنى سمحًا بذاك يقينًا

والذى تطمئن إليه النفس أن الرأى الأول هو الأرجح. لأن الكلام مسوق فى بيان موقف المشركين من النبى ﷺ، وأنهم قد بلغ بهم السفه والعناد أنهم لا يكتفون بالإعراض عن الحق الذى جاء به محمد ﷺ بل تعدى شرهم إلى غيرهم، وأنهم كانوا يحرضون الناس على إيذائه وعلى الابتعاد عنه.

ثم يصور - سبحانه - حالهم عند ما يعرضون على النار، وعندما يقفون أمام ربهم، وحكى ما يقولونه فى تلك المواقف الشديدة فقال تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ

(1) سورة فصلت آية ٢٦.

وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿لو﴾ شرطية، حذف جوابها لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب وذلك أبلغ من ذكره.

و ﴿وقفوا﴾ بالبناء للمفعول بمعنى: وقفهم غيرهم. يقال: وقف على الأطلال أى: عندها مشرفًا عليها، ويقال وقف على الشيء عرفه وتبينه.

والمعنى: إنك أيها النبى الكريم - أو أيها الإنسان العاقل - لو اطلعت على هؤلاء المشركين عندما يقفون على النار ويشاهدون لهيبها وسعيرها. لرأيت شيئًا مروعًا مخيفًا يجعلهم يتحسرون على ما فرط منهم، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليصدقوا بآيات الله التى طالما كذبوها. وليكونوا من المؤمنين.

وعبر - سبحانه - بإذ التى تدل على الماضى - مع أن الحديث عما سيحصل لهم فى الآخرة فكان يناسبه إذا - لإفادة تحقق الوقوع وتأكده، وليتصور المستقبل على أنه موجود لا على أنه سيوجد، وعطف بالفاء فى قوله: ﴿فقالوا﴾ للدلالة على أن أول شيء يقع فى قلوبهم حينئذ إنما هو الندم على ما سلف منهم، وتمنى الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا.

ثم يعقب - سبحانه - على قولتهم هذه فيما لو أجيبوا إلى طلبهم على سبيل الفرض والتقدير فيقول: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل. ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

بل هنا للإضراب عما يدل عليه تمنيهم من إداركهم لقبح الكفر وسوء مغبته، ولحقيقة الإيمان وحسن عاقبته.

والمعنى : ليس الأمر كما يوهمه كلامهم فى التمنى من أنهم يريدن العودة للهداية، بل الحق أنهم تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن استقبلتهم النار بلهبها، وبعد أن ظهر لهم ما كانوا يخفونه فى الدنيا من أعمال قبيحة، ومن أفعال سيئة، وبعد أن بدا لهم ما كانوا يكذبون به، وينكرون تحققه، ولو أنهم ردوا إلى الدنيا بمتعها وشهواتها وأهوائها لعادوا لما نهوا عنه من التكذيب بالآيات، والسخرية من المؤمنين، وإنهم لكاذبون فى كل ما يدعون.

فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وافتراء، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم - على سبيل الفرض والتقدير - لما تخلوا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء وللمصلحين.

ثم بين - سبحانه - بعض مفترياتهم فى الدنيا واغترارهم بها فقال - تعالى - ﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾.

أى : أن هؤلاء الكافرين قد بلغ بهم الحب للدنيا والتعلق بها أنهم قالوا : ما الحياة التى تسمى حياة فى نظرنا إلا هذه الدنيا التى نتمتع فيها بما نريد من شهوات وما نحن بمبعوثين ولا محاسبين بعد ذلك.

فالآية الكريمة تحكى عنهم أنهم ينكرون أى حياة سوى الحياة التى يعيشونها، وينفون وقوع البعث والحساب والثواب والعقاب نفيًا مؤكدًا بالباء وبالجملة الإسمية.

ويرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تتمة للآية السابقة لها من حيث المعنى، وأن قوله ﴿وقالوا﴾ معطوف على ﴿لعادوا﴾ والتقدير، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسيىء الأعمال وقالوا ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، ويكون قوله ﴿وإنهم لكاذبون﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى عودتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا، إذ هى تكذيب لادعائهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم.

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يقفون ليستمعوا إلى ما يوجهه إليهم ربهم من توبيخ وتقريع بسبب كفرهم فقال :

﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق﴾.

أى : قال لهم -سبحانه - أليس هذا البعث الذى تشاهدونه بأعينكم ثابتًا بالحق؟ وهنا يجيبون خالقهم مصدقين لأن الواقع يحتم عليهم ذلك فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - ﴿بلى وربنا﴾ أى : قالوا : بلى يا ربنا إنه للحق الذى لا شك فيه، ولا باطل يحوم من حوله، وأكدوا اعترافهم بالقسم شاهدين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا.

وهنا يحكم الله فيهم بحكمه العادل فيقول : ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أى : إذا كان الأمر كما ذكرتم وشهدتم على أنفسكم، فانغمسوا فى العذاب ذائقين لآلامه وأهواله بسبب كفركم بآيات الله، وإنكاركم لهذا اليوم العصيب.

والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه.

ثم صور - سبحانه - عاقبتهم السيئة، وخسارتهم التى ليس بعدها خسارة فقال : ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾.

أى : أن أولئك الكفار الذين أنكروا البعث والحساب قد خسروا أعز شىء فى هذه الحياة، ومن مظاهر ذلك أنهم خسروا الرضا الذى سيناله المؤمنون من ربهم، وخسروا العزاء الروحى الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء، لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله.

وإن هؤلاء الخاسرين سيستمرون فى تكذيبهم بالحق وإعراضهم عنه ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾.

أى : حتى إذا جاءتهم الساعة مباغته مفاجئة وهم فى طغيانهم يعمهون، اعتراهم الهم، وحل بهم البلاء وقالوا : بعد أن سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا يا حسرتنا أقبلى فهذا أوانك، فإننا لم نستعد لهذا اليوم، بل أهملناه ولم نلتفت إليه. وعلى ذلك يكون المراد بالساعة يوم القيامة وما فيه من حساب.

وقيل : المراد بالساعة وقت مقدمات الموت، فالكلام على حذف المضاف، أى : جاءتهم مقدمات الساعة وهى الموت وما فيه من الأهوال. فلما كان الموت من مبادىء الساعة سمى باسمها، ولذا قال ﷺ «من مات فقد قامت قيامته»[1].

وسميت القيامة ساعة لسرعة الحساب فيها، ولأنها تحمل أشد الأهوال ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة : فانية وأخرى باقية.

وفى قوله - تعالى - ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ إشارة إلى أنها تفاجئهم بأهوالها من غير أن يكونوا مستعدين لها أو متوقعين لحدوثها، أما المؤمنين - فإنهم رغم عدم علمهم بمجيئها - فإنهم يكونون فى حالة استعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

والبغت والبغتة مفاجأة الشىء بسرعة من غير إعداد له، وكلمة ﴿بغتة﴾ يصح أن تكون مصدرًا فى موضع الحال من فاعل جاءتهم أى : جاءتهم مباغتة، ويصح أن تكون مفعولا مطلقًا لفعل محذوف من لفظها أى : تبغتهم بغتة، والحسرة : شدة الغم والندم على ما فات وانقضى.

ثم قال - تعالى - : ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾.

الأوزار جمع وزر وهو - بكسر الواو - الحمل الثقيل، ويطلق على الإثم والذنب لأنهما أثقل الأحمال النفسية التى تنوء بها القوة.

والجملة الكريمة من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت حالهم وما يحملونه يوم القيامة من ذنوب ثقيلة مضنية، بهيئة المثقل المجهد بحمل كبير يحمله على ظهره وينوء به. ثم حذفت الهيئة الدالة على المشبه به ورمز إليها بشيء من لوازمها.

وقيل إن الكلام على حقيقته وأنهم سيحملون ذنوبهم على ظهورهم فعلا، حيث إن الذنوب والأعمال ستتجسم يوم القيامة، وبهذا الرأى قال كثير من أهل السنة.

والمعنى : إن هؤلاء الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون ذنوبهم وآثامهم على ظهورهم، ألا ما أسوأ ما حملوا، وما أشد ما سيستقبلونه بعد ذلك من عذاب أليم.

ثم عقد - سبحانه - مقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة. بين فيها أن الحياة الآخرة هى الحياة العالية السامية الباقية، أما الحياة الدنيا فهى إلى زوال وانتهاء فقال - تعالى - :

﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾.

اللعب : هو العمل الذى لا يقصد به مقصدًا صحيحًا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة، واللهو: هو طلب ما يشغل عن معالى الأمور وعما يهم الإنسان ويعنيه.

والمعنى : إن هذه الحياة التى نعتها الكفار بأنها لا حياة سواها ما هى إلا لهو ولعب لمن يطلبها بأنانية وشره من غير استعداد لما يكون وراءها من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء، وفيها النعيم الذى لا ينتهى، وفيها السعادة التى لا تحد، بالنسبة للذين اتقوا ربهم، ونهوا أنفسهم عن الهوى.

فالحياة الدنيا لعب ولهو لمن اتخذوها فرصة للتكاثر والتفاخر وجمع الأموال من حلال وحرام، ولم يقيموا وزنا للأعمال الصالحة التى كلفهم الله - تعالى - بها. أما بالنسبة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. فإن الحياة الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضا الله الذى يظفرون به يوم القيامة، وإن ما يحصل عليه المؤمنون فى هذا اليوم من ثواب جزيل ومن نعيم مقيم هو خير من الدنيا وما فيها من متعة زائلة ومن شهوات لا دوام لها.

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿أفلا تعقلون﴾ للحث على التدبر والتفكر والموازنة بين اللذات العاجلة الفانية التى تكون فى الدنيا، وبين النعيم الدائم الباقى الذى يكون فى الآخرة.

ثم أخذ القرآن الكريم فى مخاطبة النبى ﷺ وفى تسليته عما أصابه من قومه فقال :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ
نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾
۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

﴿قد﴾ هنا للتحقيق وتأكيد العلم وتكثيره، والتحقيق هنا جاء من موضوعها لا من ذاتها كما أن التكثير راجع إلى متعلقات العلم، لا إلى العلم نفسه، لأن صفة القديم لا تقبل الزيادة والتكثير وإلا لزم حدوثها. والحزن ألم يعترى النفس عند فقد محبوب، أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ. فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون﴾ أى : قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم وقوله ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أى : هم لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن ناجيه عن على قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. وعن أبى يزيد المدنى أن النبى ﷺ لقى أبا جهل فصافحه فقال

له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابىء؟ فقال : والله إنى لأعلم أنه لنبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعًا؟ وتلا أبو يزيد ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾(١) .

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبى ﷺ عما كان يصيبه من المشركين ومما لا شك فيه أنه - عليه الصلاة والسلام - كان حريصًا على إسلامهم، فإذا ما رآهم معرضين عن دعوته حزن وأسف، وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾(٢) .

ومنها قوله - تعالى - ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾(٣) .

ومنها قوله - تعالى - ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾(٤) .

قال الجمل : والفاء فى قوله ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ للتعليل، فإن قوله ﴿قد نعلم إنه ليحزنك﴾ بمعنى لا يحزنك، كما يقال فى مقام المنع والزجر نعلم ما تفعل. ووجه التعليل : أن التكذيب فى الحقيقة لى وأنا الحليم الصبور، فتخلق بأخلاقى. ويحتمل أن يكون المعنى : إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لى فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم(٥) .

والمعنى : إن هؤلاء الكفار - يا محمد - لا ينسبونك إلى الكذب، فهم قد لقبوك بالصادق الأمين، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع اعتقادهم صدقها.

والجحود هو الإنكار مع العلم، أى نفى ما فى القلب ثبوته، أو إثبات ما فى القلب نفيه، وفى التعبير بالجحود بعد نفى التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود.

وقال - سبحانه - ﴿ولكن الظالمين﴾ ولم يقل ﴿ولكنهم﴾ ، لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذى استقر فى نفوسهم، وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب.

ثم زاد القرآن فى تعزية النبى ﷺ وتسليته عن طريق إخباره بما حدث للأنبياء من قبله فإن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٣٠ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٦ .
(٣) سورة فاطر الآية ٨ .
(٤) سورة يس الآية ٧٦ .
(٥) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٢٣ .

عموم البلوى مما يخفف وقعها فقال : ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾.

أى : أن الرسل من قبلك - يا محمد - قد كذبتهم أقوامهم وأنزلت بهم الأذى، فليس بدعا أن يصيبك من أعدائك ما أصاب الأنبياء من قبلك، ولقد صبر أولئك الأنبياء الكرام على التطاول والسفه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر، فعليك - وأنت خاتمهم وإمامهم - أن تصبر كما صبروا حتى تنال ما نالوا من النصر، فإن سنة الله لا تتخلف فى أى زمان أو مكان.

وجاء قوله - تعالى - ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ مؤكدا بقد وباللام، للإشارة إلى تأكيد التسلية والتعزية، وإلى تأكيد التمسك بفضيلة الصبر التى سيعقبها النصر الذى وعد الله به الصابرين.

و ﴿ما﴾ فى قوله ﴿على ما كذبوا﴾ مصدرية، ﴿وأوذوا﴾ معطوف على قوله ﴿كذبت﴾ أى : كذبت الرسل وأوذوا فصبروا على كل ذلك.

وقوله ﴿حتى أتاهم نصرنا﴾ غاية للصبر، أى : صبروا على التكذيب وما قارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا وفيه بشارة للنبى ﷺ مؤكدًا للتسلية بأنه - سبحانه - سينصره على القوم الظالمين.

وقوله - تعالى - ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ معناه : لا مغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز﴾[1].

وقوله - تعالى - ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون﴾[2]. وقوله - تعالى - ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات التى بشر فيها عباده المؤمنين بالفلاح وحسن العاقبة.

ويرى المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه، وصفاته، وأحكامه، وسننه فى كونه، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه من النصر والظفر. وهذا الرأى أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل.

وإضافة الكلمات إليه - سبحانه - للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها لأنه - سبحانه -

(١) سورة المجادلة الآية ٢١.

(٢) سورة الصافات الآيات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣.

(٣) سورة غافر الآية ٥١.

لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال، ولا يقع منه خلف فى قول من الأقوال، فما دام المؤمنون يخلصون له العبادة والقول والعمل ويجتهدون فى مباشرة الأسباب واتخاذ الوسائل النافعة، فإنه - سبحانه - سيجعل العاقبة لهم.

وقوله - تعالى - ﴿ولقد جاءك من نبإى المرسلين﴾ تأكيد وتقرير لما قبله أى: ولقد جاءك من أخبار المرسلين وأنبائهم - مما قصه عليك فى كتابه - ما فيه العظات والعبر، فلقد صبر المرسلون على الأذى فكافأهم الله - تعالى - على ذلك بالظفر على أعدائهم.

ثم بين - سبحانه - أنه لا سبيل إلى إيمان هؤلاء الجاحدين إلا بمشيئة الله وإرادته فقال ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية﴾.

كبر عليك: أى شق وعظم عليك. والنفق: السرب النافذ فى الأرض الذى يخلص إلى مكان.

والمعنى: وإن كان - يا محمد - قد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سببًا فى إيمانهم، فإن استطعت أن تطلب مسلكا عميقًا فى جوف الأرض، أو مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل فإن ذلك لن يفيد شيئًا لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك، ولكنهم يعرضون عن دعوتك عنادًا وجحودًا.

ثم قال - تعالى - ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾.

أى: لو شاء الله جمعهم على ما جئت به من الهدى والرشاد لفعل، بأن يوفقهم إلى الإيمان فيؤمنوا، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنهم بسوء اختيارهم آثروا الحياة الدنيا، فلا تكونن من الجاهلين بحكمة الله فى خلقه، وبسننه التى اقتضاها علمه.

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للإيمان والاستجابة للحق فقال:

﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أى: إنما يستجيب لك أيها الرسول الكريم أولئك الذين يسمعون توجيهك وأقوالك سماع تدبر وتفهم وتأثر، أما هؤلاء الذين يعاندونك فقد طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون.

فالمراد بالاستجابة هنا، الإجابة المقرونة بالتفكر والتأمل، فهى إجابة محكمة دقيقة لأنها أتت بعد استقراء وتدبر وهذا ما تدل عليه السين.

ثم بين - سبحانه - حال الكفار فقال: ﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ أى: وموتى

القلوب الذين لا يسمعون سماع تدبر وتقبل وهم المشركون، سيبعثهم الله من قبورهم يوم القيامة ويحاسبهم حسابا عسيرا على أقوالهم الباطلة وأعمالهم السيئة.

فالمراد بالموتى هنا الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم - سبحانه - بموتى الأجساد، وهذا من باب التهكم بهم والتحقير من شأنهم.

وقيل: إن لفظ الموتى على حقيقته وأن الله - تعالى - بقدرته النافذة سيبعث الجميع يوم القيامة ويرجعهم إليه فيجازى الذين أساؤا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التى تذرع بها المشركون تعنتا، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم، وبما يؤكد قدرته النافذة وعلمه المحيط فقال - تعالى - :

وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

﴿ولولا﴾ هنا تحضيضية بمعنى هلا. والمعنى: وقال أولئك الكافرون: هلا نزل عليك يا محمد معجزة حسية كتفجير الأنهار، وفلق البحر، ونزول الملائكة معك.. إلخ.

فهذه الآيات الكريمة تحكى عنهم أنهم لم يكتفوا بالقرآن معجزة خالدة للنبى ﷺ وإنما يريدون معجزات حسية من جنس معجزات الأنبياء السابقين.

وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل على رسول الله ﷺ من الآيات، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، حتى لكأنه لم ينزل عليه شىء عنادا وجحودا منهم.

وفى قولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ ببناء الفعل للمجهول وذكر لفظ الرب، للإشارة إلى أنهم لا يوجهون الطلب إلى النبى ﷺ وإنما يوجهونه إلى الله تعالى، لأنه إذا كان رسولا من عنده، فليجب له هذا الطلب الذى نتمناه ونكون من بعده مؤمنين.

وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التوبيخ والتقريع إن الله - تعالى - قادر على تنزيل ما اقترحوا من آيات، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء، ولكنه - سبحانه - ينزل ما تقتضيه حكمته، إلا أنهم لجهلهم وعنادهم لا يعلمون شيئًا من حكم الله فى أفعاله، ولا من سننه فى خلقه.

وقوله - تعالى - : ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يفيد أنهم لا يؤمنون حتى ولو جاءتهم الآيات التى اقترحوها، لأن عدم إيمانهم ليس عن نقص فى الدليل ولكنه عن تكبر وجحود.

ثم ذكر - سبحانه - بعض الآيات الكونية المبثوثة فى الأرض والجو والمعروضة على البصائر والأبصار فقال - تعالى - :

﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾.

الدابة : كل ما يدب على الأرض من حيوان. والطائر : كل ذى جناح يسبح فى الهواء، والأمم : جمع أمة وهى جماعة يجمعهم أمر ما.

والمعنى : إنه لا يوجد نوع ما من أنواع الأحياء التى تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التى تسبح فى الهواء إلا وهى أمم مماثلة لكم فى أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما الغرض من ذكر ذلك؟ قلت : الدلالة عن عظم قدرة الله. وسعة سلطانه، وتدبير تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها، وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان»[١].

وذكر الجناحين فى الطير لتوجيه الأنظار إلى بديع صنعه - سبحانه - وحسن خلقه.

قال - تعالى - : ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير﴾[٢].

ثم قال - تعالى - : ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون﴾.

التفريط فى الأمر : التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت. والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقيل المراد به القرآن.

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٢١.
(٢) سورة الملك : الآية ١٩.

والمعنى : ما تركنا فى الكتاب شيئًا لم نحصه ولم نثبته، وإنما أحطنا بكل شىء علمًا، وليس من مخلوق صغر أو كبر فى هذا الوجود إلا وسيجمع يوم القيامة أمام خالقه.

فالآية الكريمة مسوقة لبيان سعة علم الله - تعالى - وكمال قدرته، لتكون كالدليل على أنه -سبحانه- قادر على تنزيل الآية التى اقترحوها، وإنما لم ينزلها لأن حكمته تقتضى ذلك.

وجملة ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾ معترضة لتقرير مضمون ما قبلها.

والتعبير بثم فى قوله ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ للإشارة إلى أنهم أعداد لا يحصيها العد، وجمعهم ليس يسيرا فى ذاته، وإن كان بالنسبة لقدرته - تعالى - أمرا هينا.

ويرى بعض العلماء أن المراد بحشر البهائم موتها. ويرى آخرون أن المراد بعثها يوم القيامة لقوله - تعالى - : ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾. وفى الحديث الشريف عن أبى ذر الغفارى أن النبى ﷺ رأى شاتين تتناطحان فقال : يا أبا ذر هل تدرى فيم تتناطحان؟ قال : لا. قال : ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما.

ثم قال - تعالى - : ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات﴾.

أى : مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل الأصم الذى لا يسمع، والأبكم الذى لا يتكلم وهو مع ذلك فى ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق القويم أو يخرج مما هو فيه من ضلال.

ففى التعبير القرآنى استعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين المعرضين عن كل دليل وبرهان بحال الصم البكم الذين يعيشون فى الظلام من حيث لا نور يهديهم.

ثم قال - تعالى - : ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾.

أى : من يشأ الله له الضلالة أضله بأن يجعله يسير فى طريق هواه بسبب إعراضه عن طريق الخير، وإيثاره العمى على الهدى، ومن يشأ الله له الهداية يهده، لأنه قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فالهداية والضلالة ليسا إجباريين لا اختيار للعبد فيهما، وإنما الحق أن للعبد اختيارا فى الطريق الذى يسلكه، فإن كان خيرا خطا فيه إلى النهاية، وإن كان شرا سار فيه إلى الهاوية.

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين عند ما تحيط بهم المصائب والأهوال لا يتوجهون بالضراعة والدعاء إلا إلى الله، وأنهم مع ذلك لا يخصونه بالعبادة كما يخصونه بالدعاء لكشف الضر، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿أرأيتكم﴾ المقصود به أخبرونى، وكلمة أرأيت فى القرآن تستعمل للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل، فهو استفهام للتنبيه مؤداه : أرأيت كذا فإن لم تكن رأيته فانظره وتأمله.

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين : أخبرونى عن حالكم عندما يداهمكم عذاب الله الدنيوى كزلزال مدمر، أو ريح صر صرعاتية، أو تفاجئكم الساعة بأهوالها وشدائدها ألستم فى هذه الأحوال تلتجئون إلى الله وحده وتنسون آلهتكم الباطلة، لأن الفطرة حينئذ هى التى تنطق على ألسنتكم بدون شعور منكم ؟ وما دام الأمر كذلك فلماذا تشركون مع الله آلهة أخرى ؟ إن أحوالكم هذه لتدعو إلى الدهشة والغرابة، لأنكم تلجأون إليه وحده عند الشدائد والكروب ومع ذلك تعبدن غيره ومن لا يملك ضرا ولا نفعا.

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿أغير الله تدعون﴾ للتوبيخ والتقريع والتعجب من حالهم.

وجواب الشرط محذوف، والتقدير : إن كنتم صادقين فى أن الأصنام تنفعكم فادعوها.

ثم أكد - سبحانه - أنهم عند الشدائد والكروب لا يلجأون إلا إلى الله فقال - تعالى - : ﴿بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾.

بل للإضراب الانتقالى عن تفكيرهم وأوهامهم، أى : بل تخصونه وحده بالدعاء دون الآلهة، فيكشف ما تلتمسون كشفه إن شاء ذلك، لأنه هو القادر على كل شيء ﴿وتنسون ما تشركون﴾ أى : تغيب عن ذاكرتكم عند الشدائد والأهوال تلك الأصنام الزائفة والمعبودات الباطلة.

وقدم - سبحانه - المفعول على الفعل فى قوله : ﴿بل إياه تدعون﴾ لإفادة الاختصاص، أى : لا تدعون إلا إياه، وذلك يدل على أن المشركين مهما بلغ ضلالهم فإنهم عند الشدائد يتجهون بتفكيرهم إلى القوة الخفية الخالقة لهذا الكون.

وفى قوله ﴿فيكشف ما تدعون﴾ استعارة حيث شبه حال إزالة الشر بحال كشف غطاء غامر مؤلم بجامع إزالة الضر فى كل وإحلال السلامة محله.

والمقصود فيكشف الضر الذى تدعونه أن يكشفه : فالكلام على تقدير حذف مضاف.

وجواب الشرط لقوله : ﴿إن شاء﴾ محذوف لفهم المعنى ودلالة ما قبله عليه، أى إن شاء أن يكشف الضر كشفه، لأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل.

ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى ﷺ وفى بيان أحوال الأمم الماضية فقال - تعالى - : ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾.

البأساء : تطلق على المشقة والفقر الشديد، وعلى ما يصيب الأمم من أزمات تجتاحها بسبب الحروب والنكبات. والضراء. تطلق على الأمراض والأسقام التى تصيب الأمم والأفراد.

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلا إلى أقوامهم، فكان هؤلاء الأقوام أعتى من قومك فى الشرك والجحود، فعاقبناهم بالفقر الشديد والبلاء المؤلم، لعلهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشركهم.

فالآية الكريمة تصور لونًا من ألوان العلاج النفسى الذى عالج الله به الأمم التى تكفر بأنعمه، وتكذب أنبياءه ورسله، إذ أن الآلام والشدائد علاج للنفوس المغرورة بزخارف الدنيا ومتعها إن كانت صالحة للعلاج.

ولقد بين - سبحانه - بعد ذلك. أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها من شدائد فقال : ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾.

ولولا هنا للنفى، أى أنهم ماخشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا.

وقيل إنها للحث والتحضيض بمعنى هلا، أى : فهلا تضرعوا تائبين إلينا وقت أن جاءهم بأسنا.

وقد اختار صاحب الكشاف أنها للنفى فقال : ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ معناه : نفى التضرع، كأنه قيل. فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم »[1].

ثم بين - سبحانه - أن أمرين حالا بينهم وبين التوبة والتضرع عند نزول الشدائد بهم.

أما الأمر الأول : فهو قسوة قلوبهم، وقد عبر - سبحانه - عن هذا الأمر الأول بقوله : ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ أى : غلظت وجمدت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة.

وأما الأمر الثانى : فهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة، بأن يوحى إليهم بأن ما هم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب، وأن ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيرًا لأنه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم.

هذان هما الأمران اللذان حالا بينهم وبين التضرع إلى الله والتوبة إليه.

ثم بين - سبحانه - أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عالجهم بالشدائد فلم يرتدعوا فقال - تعالى - :

﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾.

والمعنى : فلما أعرضوا عن النذر والعظات التى وجهها إليهم الرسل، فتحنا عليهم أبواب كل شىء من الرزق وأسباب القوة والجاه. حتى إذا اغتروا وبطروا بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتة فإذا هم متحسرون يائسون من النجاة.

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فلما نسوا﴾ لتفصيل ما كان منهم. وبيان ما ترتب على كفرهم من عواقب قريبة وأخرى بعيدة.

والمراد بالنسيان هنا : الإعراض والترك. أى : تركوا الإهتداء بما جاء به الرسل حتى نسوه أو جعلوه كالمنسى فى عدم الاعتبار والاتعاظ به لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٢٣.

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ يرسم صورة بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها، وبكل قوتها وإغرائها، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضراء.

وعبر - سبحانه - عن إعطائهم النعمة بقوله: ﴿بما أوتوا﴾ بالبناء للمجهول لأنهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم، كما قال قارون من قبل ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾.

وأضاف - سبحانه - الأخذ إلى ذاته فى قوله ﴿أخذناهم﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون ذلك، بل كانوا ينسبون الخلق والإيجاد إلى الله - تعالى -.

وكان الأخذ بغتة ليكون أشد عليهم وأفظع هولا، أى أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم. أو حال كونهم مبغوتين، فقد فجأهم العذاب على غرة بدون إمهال.

وإذا فى قوله ﴿فإذا هم مبلسون﴾ فجائية، والمبلس: الباهت الحزين البائس من الخير، الذى لا يحير جوابًا لشدة ما نزل به من سوء الحال.

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال: «وإذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»، ثم تلا قوله - تعالى - ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾. الآية.

ثم قال - تعالى -: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾.

الدابر: الآخر، والمعنى: فأهلك الله - تعالى - أولئك الأقوام عن آخرهم بسبب ظلمهم وفجورهم، والحمد لله رب العالمين الذى نصر رسله وأولياءه على أعدائهم، وفى ختام هذه الآية بقوله ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ تعليم لنا، إذ أن زوال الظالمين نعمة تستوجب الحمد والثناء على الله - تعالى -

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمه عليهم فى خلقهم وتكوينهم، وبين لهم إذا سلبهم شيئًا من حواسهم فإنهم لا يتجهون إلا إليه فقال - تعالى -:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ

بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين : أخبرونى إن سلب الله عنكم نعمتى السمع والبصر فأصبحتم لا تسمعون ولا تبصرون، وختم على قلوبكم فصرتم لا تفقهون شيئًا، من إلـه غيره يقدر على رد ما سلب منكم وأنتم تعرفون ذلك ولا تنكرونه فلماذا تشركون معه آلهة أخرى؟ ثم التفت عنهم إلى التعجيب من حالهم فقال - تعالى - ﴿انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾ أى : انظر كيف ننوع الآيات والحجج والبراهين فنجعلها على وجوه شتى ليتعظوا ويعتبروا ثم هم بعد ذلك يعرضون عن الحق، وينأون عن طريق الرشاد.

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿أرأيتم﴾ للتنبيه أى : ان لم تكونوا قد رأيتم ذلك فتبينوه وتأملوا ما يدل عليه.

والضمير فى ﴿به﴾ يعود إلى المأخوذ وهو السمع والبصر والفؤاد.

وفى قوله ﴿انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾ تعجيب من عدم تأثرهم رغم كثرة الدلائل وتنوعها من أسلوب إلى أسلوب.

وجملة ﴿ثم هم يصدفون﴾ معطوفة على جملة نصرف الآيات وداخلة فى حكمها، وكان العطف بثم لإفادة الاستبعاد المعنوى، لأن تصريف الآيات والدلائل يدعو إلى الإقبال، فكان من المستبعد فى العقول والأفهام أن يترتب عليه الإعراض والابتعاد.

قال القرطبى : ﴿يصدفون﴾ أى : يعرضون. يقال : صدف عن الشيء إذا أعرض صدفا وصدوفا فهو صادف. فهم ماثلون معرضون عن الحجج والدلالات[1].

ثم وجه عقولهم إلى لون آخر من ألوان الإقناع فقال - تعالى - :

﴿قل أرأيتكم أن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة، هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾. بغتة : أى مفاجأة، وجهرة : أى جهارا عيانا.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٤٢٨.

والمعنى : قل لهم أيها الرسول الكريم أخبرونى عن مصيركم إن أتاكم عذاب الله مباغتًا ومفاجئًا لكم من غير ترقب ولا انتظار، أو أتاكم ظاهرًا واضحًا بحيث ترون مقدماته ومباديه، هل يهلك به إلا القوم الظالمون ؟.

والاستفهام فى قوله ﴿هل يهلك﴾ بمعنى النفى، أى : ما يهلك به إلا القوم الظالمون، الذين أصروا على الشرك والجحود، فهلاكهم سببه السخط عليهم والعقوبة لهم، لأنهم عموا وصموا عن الهداية.

ثم بين - سبحانه - وظيفة الرسل فقال : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾، أى : تلك سنتنا وطريقتنا فى اهلاك المكذبين للرسل، والمعرضين عن دعوتهم، فإننا ما نرسل المرسلين إليهم إلا بوظيفة معينة محددة هى تقديم البشارة لمن آمن وعمل صالحًا، وسوق الإنذار لمن كذب وعمل سيئًا.

فالجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لبيان وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولإظهار أن ما يقترحه المشركون عليهم من مقترحات باطلة ليس من وظائف المرسلين أصلا.

ثم بين - سبحانه - عاقبة من آمن وعاقبة من كفر فقال : ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾.

والمعنى : فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح فى عمله. فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذى يحل بالمكذبين، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم.

والمس اللمس باليد، ويطلق على ما يصيب المرء من ضر أو شر - فى الغالب - وفى قوله ﴿يمسهم العذاب﴾ استعارة تبعية، فكأن العذاب كائن حى يفعل بهم ما يريد من الآلام والعذاب.

ثم لقن الله - تعالى - رسوله ﷺ الأجوبة الحاسمة التى تدمغ شبهات الكافرين، وتبين ضلال مقترحاتهم فقال :

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقترحون عليك المقترحات الباطلة قل لهم: ليس عندى خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون، وإنما ذلك لله - تعالى - فهو الذى له خزائن السموات والأرض، وقد كان المشركون يقولون للنبى ﷺ إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع عيشنا ويغنى فقرنا، وقل لهم كذلك إنى لا أعلم الغيب فأخبركم بما مضى وبما سيقع فى المستقبل، وإنما علم ذلك عند الله، وقد كانوا يقولون له أخبرنا بما ينفعنا ويضرنا فى المستقبل. حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار، وقل لهم: إنى لست ملكا فأطلع على مالا يطلع عليه الناس وأقدر على مالا يقدرون عليه. وقد كانوا يقولون: ما لهذا الرسول يأكل طعاما ويمشى فى الأسواق ثم يتزوج النساء.

ثم بين لهم وظيفته فقال: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾ أى إن وظيفتى اتباع ما يوحى إلى من ربى. فأنا عبده وممتثل لأمره، وحاشاى أن أدعى شيئا من تلك الأشياء التى اقترحتموها على. فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لإظهار تبريه عما يقترحونه عليه.

ثم بين لهم - سبحانه - الفرق بين المهتدى والضال فقال. ﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾.

أى: قل لهم: هل يستوى أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه، وذو البصيرة المنيرة التى اهتدت إلى الحقِّ فآمنت به واتبعته؟

فالمراد بالأعمى الكافر الذى لم يستجب للحق، وبالبصير المؤمن الذى انقاد له.

والاستفهام للانكار ونفى الوقوع، أى: كما أنه لا يتساوى أعمى العينين وبصيرهما، فكذلك لا يتساوى المهتدى والضال والرشيد والسفيه، بل إن الفرق بين المهتدى والضال أقوى وأظهر، لأنه كم من أعمى العينين وبصير القلب هو من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء وكم من بصير العينين أعمى القلب هو أضل من الأنعام، ولذا قرعهم الله - تعالى - بقوله: ﴿أفلا تتفكرون﴾؟ أى: أفلا تتفكرون فى ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام، وبين صفات الرب وصفات الإنسان. والاستفهام هنا للتحريض على التفكر والتدبر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يجتهد فى إنذار قوم يتوقع منهم الصلاح والاستجابة للحق، بعد أن أمره قبل ذلك بتوجيه دعوته إلى الناس كافة فقال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون﴾.

والمعنى: عظ وخوف يا محمد بهذا القرآن أولئك الذين يخافون شدة الحساب والعقاب، وتعتريهم الرهبة عندما يتذكرون أهوال يوم القيامة لأنهم يعلمون أنه يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة، فهؤلاء هم الذين ترجى هدايتهم لرقة قلوبهم وتأثرهم بالعظات والعبر.

فالمراد بهم المؤمنون العصاة الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، ولذا قال ابن كثير: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ أى وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب أى: يوم القيامة، ﴿ليس لهم﴾ يومئذ ﴿من دون الله ولى ولا شفيع﴾ أى: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿لعلهم يتقون﴾ فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ويضاعف لهم الجزيل من ثوابه)[1].

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقرب فقراء المسلمين من مجلسه لأنهم مع فقرهم أفضل عند الله من كثير من الأغنياء. فقال تعالى:

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾.

أى: لا تبعد أيها الرسول الكريم عن مجالسك هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم صباح مساء، ويريدون بعملهم وعبادتهم وجه الله وحده بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك فهم أفضل عند الله من الأغنياء المتغطرسين والأقوياء الجاهلين.

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ. وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا: يا محمد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٤.

أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعًا لهؤلاء؟ لا-اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك. فنزلت هذه الآية[1]:

ففى الآية الكريمة نهى النبى ﷺ عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء من مجلسه. لأنه وإن كان ﷺ يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للاسلام لينال بقوتهم قوة، إلا أن الله تعالى بين له أن القوة فى الإيمان والعمل الصالح، وأن هؤلاء الضعفاء من المؤمنين قد وصفهم خالقهم بأنهم يتضرعون إليه فى كل أوقاتهم ولا يقصدون بعبادتهم إلا وجه الله، فكيف يطردون من مجالس الخير؟.

ثم قال تعالى: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾.

أى: إن الله تعالى هو الذى سيتولى حسابهم وجزاءهم ولن يعود عليك من حسابهم شيء، كما أنه لا يعود عليهم من حسابك شيء، فهم مجزبون بأعمالهم، كما أنك أنت يا محمد مجزى بعملك، فإن طردتهم استجابة لرضى غيرهم كنت من الظالمين. إذ أنهم لم يصدر عنهم ما يستوجب ذلك، وحاشا للرسول ﷺ أن يطرد قوما تلك هى صفاتهم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أما كفى قوله ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ حتى ضم إليه ﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾؟ قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعًا كأنه قيل: لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه.

وقيل: الضمير للمشركين. والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين)[2].

وهنا تخريج آخر لقوله: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء﴾ بأن المعنى: ما عليك شيء من حساب رزقهم ان كانوا فقراء، وما من حسابك فى الفقر والغنى عليهم من شيء، أى أنت مبشر ومنذر ومبلغ للناس جميعًا سواء منهم الفقير والغنى، فكيف تطرد فقيرًا لفقره، وتقرب غنيا لغناه؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك.

وقوله ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب للنهى عن الطرد، وقوله ﴿فتطردهم﴾ جواب لنفى الحساب.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص١٠٤.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص٢٣.

ثم قال تعالى : ﴿وكذلك فتنا بعضم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا. أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

والمعنى : ومثل ذلك الفتن. أى الابتلاء والاختبار، جعلنا بعض البشر فتنة لبعض، ليترتب على هذه الفتن أن يقول المفتونون الأقوياء فى شأن الضعفاء : أهؤلاء الصعاليك خصهم الله بالإيمان من بيننا ! وقد رد الله عليهم بقوله ﴿أليس الله بأعلم الشاكرين﴾ أى : أليس هو بأعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

والكاف فى قوله ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف والتقدير : ومثل ذلك الفتون المتقدم الذى فهم من سياق أخبار الأمم الماضية فتنا بعض هذه الأمم ببعض، ومن مظاهر ذلك أننا ابتلينا الغنى بالفقير، والفقير بالغنى، فكل واحد مبتلى بضده، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم، فامتنعوا عن الدخول فى الإسلام لذلك، فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم. فكان ذلك فتنة لهم[1].

واللام فى قوله ﴿ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾ تعليلية لأنها هى للباعث على الاختبار أى : ومثل ذلك الفتون فتنا ليقولوا هذه المقالة ابتلاء منا وامتحانا.

والاستفهام فى قوله ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ للتقرير على أكمل وجه لأنه سبحانه محيط بكل صغير وكبير ودقيق وجليل.

وكذلك تكون الآيات الكريمة قد قررت أن الفضل ليس بالغنى ولا بالجاه ولا بالقوة فى الدنيا، ولكنه بمقدار شكر الله على ما أنعم، وأنه سبحانه هو العالم وحده بمن يستحق الفضل علمًا ليس فوقه علم.

وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا

(١) حاشية الجمل جـ٢ ص٣٤.

بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾
قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ
أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

السلام والسلامة مصدران من الثلاثى. يقال سلم فلان من المرض أو من البلاء سلامًا وسلامة ومعناهما البراءة والعافية. ويستعمل السلام فى التحية، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل سوء، فهو آية المودة والأمان والصفاء.

والمعنى: وإذا حضر إلى مجالسك يا محمد أولئك الذين يؤمنون بآياتنا ويعتقدون صحتها فقل لهم: تحية لكم من خالقكم وبشارة لكم بمغفرته ورضوانه مادمتم متبعين لهديه، ومحافظين على فرائضه.

﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أى أنه سبحانه أوجب على نفسه الرحمة لعباده تفضلا منه وكرما.

ثم بين سبحانه أصلا من أصول الدين فى هذه الرحمة المكتوبة فقال ﴿أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾.

أى أنه من عمل منكم عملا تسوء عاقبته متلبسًا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء كغضب شديد ثم تاب من بعد تلك الجهالة وأصلح خطأه وندم على ما بدر منه، ورد المظالم إلى أهلها، فالله سبحانه شأنه فى معاملته لهذا التائب النادم أنه غفور رحيم».

ثم قال تعالى ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ المنزلة فى بيان الحقائق التى يهتدى بها أهل النظر الصحيح والفقه الدقيق.

﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ أى ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فيمتازوا بها عن جماعة المسلمين.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ، أن يصارح أعداءه ببراءته من شركهم ومن اتباع باطلهم فقال - تعالى -: ﴿قل إنى نهيت﴾.

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين. ذكر فى هذه الآية أنه - تعالى - نهى عن سلوك سبيلهم فقال : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد لا على سبيل الحجة والدليل، لأنها جمادات وأحجار وهى أخس مرتبة من الإنسان بكثير. وكون الأشرف مشتغلا بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل، وأيضًا فالقوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه، فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى ومضادة للهدى »[١].

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك أن تركن إليهم : إن الله نهانى وصرفنى بفضله، وبما منحنى من عقل مفكر عن عبادة الآلهة التى تعبدونها من دون الله، وقل - أيضًا - لهم بكل صراحة وقوة : إنى لست متبعا لما تمليه عليكم أهواؤكم وشهواتكم من انقياد للأباطيل، ولو أنى ركنت إليكم لضللت عن الحق وكنت خارجا عن طائفة المهتدين.

فالآية الكريمة قطعت بكل حسم ووضوح أطماعهم الفارغة فى استمالة النبى ﷺ إلى أهوائهم، ووصمتهم بأنهم فى الضلال غارقون، وعن الهدى مبتعدون.

وجاءت كلمة ﴿نهيت﴾ بالبناء للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهوره، أى : نهانى الله - تعالى - عن ذلك. وأجرى على الأصنام اسم الموصول الموضوع للعقلاء لأنهم عاملوهم معاملة العقلاء فأتى لهم بما يحكى اعتقادهم.

قال أبو حيان : و« تدعون » معناه تعبدون : وقيل معناه تسمونهم آلهة من دعوت ولدى زيدًا أى سميته بهذا الإسم. وقيل تدعون فى أموركم وحوائجكم وفى قوله تدعون من دون الله استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا منه على غير بصيرة، ولفظة نهيت أبلغ من النفى بلا أعبد إذ ورد فيه ورود تكليف »[٢].

وجملة ﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾ مستأنفة، وعدل بها عن العطف إلى الاستئناف لتكون غرضًا مستقلا، وأعيد الأمر بالقول زيادة فى الاهتمام بالاستئناف واستقلاله ليكون هذا النفى شاملا للاتباع فى عبادة الأصنام وفى غيرها من ألوان ضلالهم كطلبهم طرد المؤمنين من مجلسه، وعبر بقوله ﴿قل لا أتبع أهواء كم﴾ دون لا أتبعكم. للإشارة إلى أنهم فى عبادتهم لغير الله تابعون

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٥٤ طبعة المطبعة الشرفية ١٣٢٤.
(٢) البحر المحيط لأبى حيان جـ٤ ص١٤٢.

للأهواء الباطلة، نابذون للأدلة العقلية، وفى هذا أكبر برهان على انطماس بصيرتهم، وبنائهم لدينهم على الأوهام والأباطيل.

وجملة ﴿قد ضللت إذًا﴾ جواب لشرط مقدر. أى: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت إذًا وما اهتديت.

وجملة ﴿وما أنا من المهتدين﴾ معطوفة على جملة ﴿قد ضللت﴾ ومؤكدة لمضونها أى: إنه إن فعل ذلك - على سبيل الفرض والتقدير - خرج عن الحالة التى هو عليها الآن من كونه فى عداد المهتدين إلى كونه فى زمرة الضالين.

والتعبير بقوله ﴿وما أنا من المهتدين﴾ أبلغ من قوله وما أنا مهتد، لأن التعريف فى المهتدين تعريض للجنس، وإخبار المتكلم عن نفسه بأنه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التى تعرف عند الناس بفئة المهتدين، فيفيد أنه مهتد بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التى هى إثبات الشىء بإثبات ملزومه وهى أبلغ من التصريح. ولذا قال صاحب الكشاف: قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم، لأنك تشهد له بكونه معدودًا فى زمرتهم ومعرفة مساهمته معهم فى العلم».

وبعد أن أمر الله - تعالى - نبيه بمصارحة المشركين بأنه لن يكون فى يوم من الأيام متبعًا لأهوائهم، أمره أن يخبرهم بأنه على الحق الواضح الذى لا يضل متبعه، وبأن الله وحده هو الذى سيقضى بينه وبينهم فقال - تعالى -:

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾
۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

البينة : الدلالة الواضحة من بان يبين إذا ظهر، أو الحجة الفاصلة بين الحق والباطل على أنها من البينونة أى الانفصال.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك اتباع أهوائهم كيف يتأتى لى ذلك وأنا على شريعة واضحة وملة صحيحة لا يعتريها شك، ولا يخالطها زيغ لأنها كائنة من ربى الذى لا يضل ولا ينسى.

والتنوين فى كلمة ﴿بينة﴾ للتفخيم والتعظيم، وهى صفة لموصوف محذوف للعلم به فى الكلام، أى : على حجة بينة واضحة محقة للحق ومبطلة للباطل فأنا لن أتزحزح عنها أبدا.

وفى ذلك تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، وإنما هم قد اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وجملة ﴿وكذبتم به﴾ فى موضع الحال من ﴿بينة﴾ وهى تفيد التعجب منهم حيث كذبوا بما دلت عليه البينات، واتفقت على صحته العقول السليمة.

والضمير فى قوله ﴿به﴾ يعود على الله - تعالى - أى : وكذبتم بالله مع أن دلائل توحيده ظاهرة واضحة.

وقيل : يعود على البينة والتذكير باعتبار أنها بمعنى البيان.

وقيل : يعود على القرآن أى والحال أنكم كذبتم بالقرآن الذى هو بينتى من ربى.

وقوله : ﴿ما عندى ما تستعجلون به﴾ أى : ليس فى مقدورى أن أنزل بكم ما تستعجلونه من العذاب، وإنما ذلك مرجعه إلى الله وحده.

وهذه الجملة الكريمة رد على المشركين الذين استعجلوا نزول العذاب عندما أنذرهم النبى ﷺ بسوء المصير إذاما استمروا فى ضلالهم، فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ فكان رد النبى ﷺ عليهم بأن الذى يملك إنزال العذاب بهم إنما هو الله وحده، وتأخير العذاب عنهم إنما هو لحكمة يعلمها الله، فهو وحده الذى يقدر وقت نزوله.

وقوله ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أى : ما الحكم فى تعجيل العذاب أو تأخيره وفى كل شأن من شئون الخلق إلا لله وحده فهو - سبحانه - الذى ينزل قضاءه حسب سنته الحكيمة، وموازينه الدقيقة.

وقرأ الكسائى وغيره «يقص الحق»، أى : يقص - سبحانه - القضاء الحق فى كل شأن من شئونه.

وقوله ﴿يقص الحق﴾ أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أى : القاضين بين عباده.

قال ابن جرير : ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أى : وهو من ميز بين المحق والمبطل وأعدلهم، لأنه لا يقع فى حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة إليه ولا لقرابة ولا مناسبة، ولا فى قضائه جور لأنه لا يأخذ الرشوة فى الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين»[1].

ثم بين - سبحانه - حالهم فيما لو كان أمر إنزال العذاب عليهم بيد النبى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿قل لو أن عندى﴾ أى : قل لهم يا محمد لو أن فى قدرتى وإمكانى العذاب الذى تتعجلونه، لقضى الأمر بينى وبينكم.

قال صاحب الكشاف أى : لأهلكتكم عاجلا غضبًا لربى. وامتعاضًا من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريًعا»[2].

وجملة ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ تذييل، أى : والله أعلم منى ومن كل أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله، لأنه العليم الخبير الذى عنده ما تستعجلون به.

والتعبير ﴿بالظالمين﴾ إظهار فى مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنهم ظالمون فى شركهم وظالمون فى تكذيبهم لما جاء به النبى ﷺ.

قال ابن كثير : فإن قيل : فكيف الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال : «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[3] فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فيها فإذا جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقلت له : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له».

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص١٣٥.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣٠ طبعة بيروت.

(٣) قرن الثعالب أو قرن المنازل : اسم مكان على بعد يوم وليلة من مكة وهو ميقات أهل نجد.

قال ابن كثير : فالجواب على ذلك - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة يكتنفانها جنوبا وشمالا فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم »[١].

ثم يمضى السياق القرآنى مع المكذبين المتعجلين للعذاب، فيسوق لهم صورة لعلم الله الشامل الذى لا يند عنه شىء ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾.

قال القرطبى : ﴿مفاتح﴾ جمع مفتح، ويقال مفتاح ويجمع مفاتيح، وهى قراءة ابن السميقع، والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقًا محسوسًا كان كالقفل على البيت، أو معقولا كالنظر، وروى ابن ماجه فى سننه وأبى حاتم البستى فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه »، وهو فى الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل فى الشاهد بالمفتح إلى الغيب عن الإنسان. ولذلك قال بعضهم هو مأخوذ من قول الناس افتح على كذا، أى : أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به فالله - تعالى - عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه »[٢].

والغيب : ما غاب عن علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى معرفته، وهو يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن، ويشمل الأعراض الخفية ومواقيت الأشياء وغير ذلك. وقدم الظرف لإفادة الاختصاص، أى : عنده لا عند غيره مفاتيح الغيب، وجملة «لا يعلمها إلا هو» فى موضع الحال من مفاتح، وهى مؤكدة لمضمون ما قبلها.

ومعنى ﴿لا يعلمها إلا هو﴾ أى : لا يعلم الغيوب علمًا تامًا مستقلا إلا هو - سبحانه - فأما ما أطلع عليه بعض أصفيائه من الغيوب فهو إخبار منه لهم، فكان فى الأصل راجعًا إلى علمه هو. قال - تعالى - ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾.

ثم بين - سبحانه - أن علمه ليس مقصورًا على المغيبات، وإنما هو يشملها كما يشمل المشاهدات فقال : ﴿ويعلم ما فى البر والبحر﴾.

قال الراغب : أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير، وقيل إن أصله الماء الملح

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٦.

(٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص١ طبعة دار الكتاب العربى.

دون العذب وأطلق على النهر بالتوسع أو التغليب، والبر ما يقابله من الأرض وهو ما يسمى باليابسة.

وهذه الجملة معطوفة على جملة، وعنده مفاتح الغيب، لإفادة تعميم علمه - سبحانه - بالأشياء الظاهرة المتفاوتة فى الظهور بعد إفادة علمه بما لا يظهر للناس.

وقدم ذكر البر على البحر على طريقة الترقى من الأقل إلى الأعظم، لأن قسم البحر من الأرض أكبر من قسم البر، وخفاياه أكثر وأعظم، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر.

ثم صرح - سبحانه - بشمول علمه لكل كلى وجزئى، ولكل صغير وكبير، ولكل دقيق وجليل، فقال - تعالى - ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها. ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾.

أى: وما تسقط ورقة ما من شجرة من الأشجار ولا حبة فى باطن الأرض وأجوافها، ولا رطب ولا يابس من الثمار أو غيرها إلا ويعلمه الله علما تاما شاملا، لأن كل ذلك مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلـهى الثابت.

وجملة ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ معطوفة على جملة، ويعلم ما فى البر والبحر، لقصد زيادة التعميم فى الجزئيات الدقيقة.

والمراد بظلمات الأرض بطونها، وكنًّى بالظلمة عن البطن لأنه لا يدرك ما فيه كما لا يدرك ما فى الظلمة.

وقوله ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ تأكيد لقوله «لا يعلمها» لأن المراد بالكتاب المبين علم الله - تعالى - الذى وسع كل شىء، أو اللوح المحفوظ الذى هو محل معلوماته - عز وجل -.

قال الإمام الرازى: قال الزجاج: يجوز أن الله - تعالى -: أثبت كيفية المعلومات فى كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال - تعالى -: ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها﴾.

ثم قال الإمام الرازى: وفائدة هذا الكتاب أمور:

أحدها: أنه - تعالى -: إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علمه فى المعلومات، وأنه لا يغيب عنه مما فى السمٰوات والأرض شىء، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقًا له.

وثانيها : أنه يجوز أن يقال : أنه - تعالى - : ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب، وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شىء، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى.

وثالثها : أنه - تعالى - : علم أحوال جميع الموجودات، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم وإلا لزم الجهل، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع - أيضًا - تغييرها، وإلا لزم الكذب، فتصير كتابة جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجبا تاما، وسببا كاملا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال ﷺ «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»(١).

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أمور من أهمها :

أن علم الله - تعالى - : محيط بالكليات والجزئيات، وبكل شىء فى هذا الكون، وبذلك يتبين بطلان رأى بعض الفلاسفة الذين قالوا بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

أن علم الغيب مرده إلى الله وحده، قال الحاكم : دل قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئًا من الغيب».

وقال القاسمى : قال صاحب «فتح البيان» : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من مدعى الكشف والإلهام ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم. ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم سوى خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ «من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد» قال ابن مسعود «أوتى نبيكم كل شىء إلا مفاتيح الغيب».

وروى البخارى بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله. لا يعلم أحد ما يكون فى غد إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله. ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يدرى أحد متى يجىء المطر»(٢).

وقال القرطبى : قال علماؤنا : أضاف - سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٥٧.

(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٣٤٣.

كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، وكذلك من قال: إنه يعلم ما فى الرحم فهو كافر. وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾. ثم قال: وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان لا سيما بالديار المصرية فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقر والدين فلجأوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل[١]، ومن أديانهم على الفساد والضلال، وكل ذلك من الكبائر لحديث النبى ﷺ «من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين يوما» والعراف هو الحازر والمنجم الذى يدعى علم الغيب[٢].

وبعد أن بين - سبحانه -: شمول علمه لكل شىء، أتبع ذلك بالحديث عن كمال قدرته، ونفاذ إرادته فقال - تعالى -:

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ
أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ

---

(١) السراب: ما يراه الشخص فى منتصف النهار ملتصقا بالأرض كأنه ماء جار وهو ليس بشىء، الآل: ما يراه بالضحى كأنه الماء بين السماء والأرض.

(٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣.

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ
ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قوله - تعالى - : ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ أى : ينيمكم فيه. والتوفى أخذ الشيء وافيًا، أى تاما كاملا. والتوفى يطلق حقيقة على الإماتة، وإطلاقه على النوم -كما هنا- مجاز لشبه النوم بالموت فى انقطاع الإدراك والعمل والإحساس قال - تعالى - : ﴿والله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ فهذه الآية صريحة فى أن التوفى أعم من الموت، فقد صرحت بأن الأنفس التى تتوفى فى منامها غير ميتة، فهناك وفاتان : وفاة كبرى وتكون بالموت، ووفاة صغرى وتكون بالنوم. والمعنى : وهو - سبحانه - الذى يتوفى أنفسكم فى حالة نومكم بالليل، دون غيره لأن غيره لا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورا.

﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أى : ما كسبتم وعملتهم فيه من أعمال. وأصل الجرح تمزيق جلد الحى بشيء محدد مثل السكين والسيف والظفر والناب وأطلق هنا على ما يكتسبه الإنسان بجوارحه من يد أو رجل أو لسان.

وتخصيص الليل بالنوم، والنهار بالكسب جريًا على المعتاد، لأن الغالب أن يكون النوم ليلا، وأن يكون الكسب والعمل نهارًا، قال - تعالى - :

﴿ وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا﴾.

﴿ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾ أى : ثم إنه بعد توفيكم بالنوم يوقظكم منه فى النهار، لأجل أن يقضى كل فرد أجله المسمى فى علم الله - تعالى -، والمقدر له فى هذه الدنيا، فقد جعل - سبحانه - لأعماركم آجالا محددة لابد من قضائها وإتمامها.

وجملة ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ معطوفة على ﴿يتوفاكم بالليل﴾ فتكون ثم للمهلة الحقيقية وهو الأظهر.

﴿ثم إليه مرجعكم، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أى : ثم إليه وحده يكون رجوعكم بعد انقضاء حياتكم فى هذه الدنيا، فيحاسبكم على أعمالكم التى اكتسبتموها فيها، إن خيرًا فخير وإن شرا فشر.

فالآية الكريمة تسوق للناس مظهرًا من مظاهر قدرة الله وتبرهن لهم على صحة البعث

والحساب يوم القيامة، لأن النشأة الثانية - كما يقول القرطبى - منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى.

هذا، ويرى جمهور المفسرين أن ظاهر الخطاب فى الآية للمؤمنين والكافرين، ولكن الزمخشرى خالف فى ذلك فجعلها خطابا للكافرين فقال: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ الخطاب للكفرة، أى: أنتم منسدحون الليل كله كالجيف - أى مسطحون على القفا - ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ ما كسبتم من الآثام فيه ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ من القبور فى شأن ذلك الذى قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ وهو الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم)[1].

والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح لأنه لم يرد نص يدل على تخصيص الخطاب فى الآية للكافرين.

ثم قال - تعالى - : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أى: وهو الغالب المتصرف فى شئون خلقه يفعل بهم ما يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وأماتة وإثابة وعقابا إلى غير ذلك، والمراد بالفوقية فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة.

قال الإمام الرازى: وتقرير هذا القهر من وجوه:

الأول: أنه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد.

والثانى: أنه قهار للوجود بالإفناء والإفساد، فإنه - تعالى - هو الذى ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة، ومن الوجود إلى العدم تارة أخرى، فلا وجود إلا بإيجاده، ولا عدم إلا بإعدامه فى الممكنات.

والثالث: أنه قهار لكل ضد بضده، فيقهر النور بالظلمة، والظلمة بالنور، والنهار بالليل، والليل بالنهار، وتمام تقريره فى قوله: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير﴾[2].

وقوله ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ أى: ويرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها وتسجل ما تعملونه من خير أو شر. قال: - تعالى - : ﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ وقال - تعالى - : ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣٢.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٥٨.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر؛ ثم يعرج بالذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادى فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

قال صاحب الكشاف: فإن قلت إن الله - تعالى - غنى بعلمه عن كتابة الملائكة فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على رءوس الأشهاد فى مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء)[1].

وجملة ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ يجوز أن تكون معطوفة على اسم الفاعل الواقع صلة لـ(أل)، لأنه فى معنى يقهر والتقدير وهو الذى يقهر عباده ويرسل،فعطف الفعل على الإسم لأنه فى تأويله.

وقوله ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ أى: حتى إذا احتضر أحدكم وحان أجله قبضت روحه ملائكتنا الموكلون بذلك حالة كونهم لا يتوانون ولا يتأخرون فى أداء مهمتهم.

قال الآلوسى: وحتى فى قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما يحفظون منكم مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدة أحدكم وجاءت أسباب الموت ومباديه توفته رسلنا الآخرون المفوض إليهم ذلك، وانتهى هناك حفظ الحفظة. والمراد بالرسل -على ما أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس- أعوان ملك الموت[2].

وقال الجمل: فإن قلت: إن هناك آية تقول: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وثانية تقول: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ والتى معنا تقول ﴿توفته رسلنا﴾ فكيف الجمعُ بين هذه الآيات؟.

فالجواب على ذلك أن المتوفى فى الحقيقة هو الله، فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه، وقيل المراد من قوله ﴿توفته رسلنا﴾ ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له[3].

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٣٣.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٧٦.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٤٠.

ثم صرح - سبحانه - بأن مصير الخلق جميعا إليه فقال : ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أى : ثم رد الله - تعالى - هؤلاء الذين توفتهم الملائكة إلى مالكهم الحق الذى لا يشوب ملكه باطل ليتولى حسابهم وجزاءهم على أعمالهم.

فالضمير فى ﴿ردوا﴾ يعود على الخلائق الذين توفتهم الملائكة والمدلول عليهم بأحد. والسر فى الإفراد أولا والجمع ثانيًا وقوع التوفى على الأفراد والرد على الاجتماع. أى : ردوا بعد البعث فيحكم فيهم بعدله. قال - تعالى - ﴿قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾.

وقيل إن الضمير فى ﴿ردوا﴾ يعود على الملائكة. أى : ثم ردوا أولئك الرسل بعد إتمام مهمتهم بإماتة جميع الناس فيموتون هم أيضًا. وجملة ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ تذييل ولذلك ابتدىء بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر.

أى : ألا له الحكم النافذ لا لغيره وهو - سبحانه - أسرع الحاسبين لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلائق من تفكر واشتغال بحساب عن حساب.

وبذلك تكون هذه الآيات الثلاث قد أقامت أقوى البراهين وأصحها على كمال قدرة الله، ونفاذ إرادته، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا.

ثم ساق القرآن لونًا آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله وسابغ رحمته وفضله وإحسانه فقال - تعالى - : ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾.

قال صاحب الكشاف : ظلمات البر والبحر مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما.

يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل»[1].

وقيل : حمله على الحقيقة أولى فظلمة البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل ومن ظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب، وظلمة البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى الهلاك.

والتضرع : المبالغة فى الضراعة مع الذل والخضوع. والخفية - بالضم والكسر - الخفاء والاستتار. وللكرب الغم الشديد مأخوذ من كرب الأرض وهو إثارتها وقلبها بالحفر. فالغم يثير النفس كما يثير الأرض كاربها.

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣٣.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين من الذى ينجيكم من ظلمات البر والبحر عندما تغشاكم بأهوالها المرعبة، وشدائدها المدهشة، إنكم فى هذه الحالة تلجأون إلى الله وحده تدعونه إعلانا وإسرارا بذلة وخضوع وإخلاص قائلين له : لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الشدائد والدواهى المظلمة لنكونن لك من الراسخين فى الشكر المداومين عليه ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ أى قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى ينجيكم من هذه المخاوف والأهوال ومن كل غم يأخذ بنفوسكم، ثم أنتم بعد هذه النجاة تشركون معه غيره، مخلفين بذلك وعدكم حانثين فى أيمانكم.

قال الإمام الرازى : «والمقصود من ذلك أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله، وهذا الرجوع يحصل ظاهرا وباطنا، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله، وينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وهو المراد من قوله ﴿تضرعا وخفية﴾ فبين - سبحانه - أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية فى هذه الحالة بأن لا ملجأ إلا إلى الله ولا تعويل إلا على فضله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص فى كل الأحوال، لكن الإنسان ليس كذلك فإنه بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية ويقدم على الشرك.

ولفظ الآية يدل على أنه عند حصول الشدائد يأتى الإنسان بأمور :

أحدها : الدعاء.

وثانيها : التضرع.

وثالثها : الإخلاص بالقلب وهو المراد من قوله ﴿خفية﴾.

ورابعها : التزام الاشتغال بالشكر. ونظير هذه الآية قوله - تعالى - ﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ وقوله ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين﴾ وبالجملة فعادة أكثر الناس أنهم إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به»[1].

ثم بين - سبحانه - قدرته على تعذيبهم تهديدا لهم حتى يخشوا بأسه أثر بيان قدرته على تنجيتهم فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص٦٢.

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين، إن الله - تعالى - وحده هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا عظيما من فوقكم أى: من جهة العلو كما أرسل على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، أو من تحت أرجلكم أى من السفل كما حدث بالنسبة لفرعون وجنده من الغرق، وبالنسبة لقارون حيث خسف به الأرض.

وقيل: من فوقكم أى من قبل سلاطينكم وأكابركم، ومن تحت أرجلكم أى: من قبل سفلتكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات.

وتصوير العذاب بأنه آت من أعلى أو من أسفل أشد وقعا فى النفس من تصويره بأنه آت من جهة اليمين أو من جهة الشمال، لأن الآتى من هاتين الجهتين قد يتوهم دفعه، أما الآتى من أعلى أو من أسفل فهو عذاب قاهر مزلزل لا مقاومة له ولا ثبات معه.

وقوله ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ أى: يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء، متباينة المشارب، مضطربة الشئون، كل فرقة تتبع إماما لها تقاتل معه غيرها، فيزول الأمن ويعم الفساد.

و ﴿شيعا﴾ جمع شيعة وهم الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، وقوله ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ معطوف على ما قبله، أى: يسلط بعضكم على بعض بالعذاب

والقتل، لأن من عواقب ذلك اللبس التقاتل والتصارع. وفى هاتين الجملتين تصوير مؤثر للعذاب الذى يذوقه الناس بحواسهم إذ يجعلهم - سبحانه - شيعا وأحزابا غير منعزل بعضها عن بعض، فهى أبدا فى جدال وصراع وفى خصومة ونزاع، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك، وذلك أشنع ما تصاب به الجماعة فيأكل بعضها بعضا.

ثم تختم الآية بهذا التعبير الحكيم ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾.

أى: انظر وتدبر - أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل كيف ننوع الآيات والعبر والعظات بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى لعلهم يفقهون الحق ويدركون حقيقة الأمر، فينصرفوا عن الجحود والمكابرة، ويكفوا عن كفرهم وعنادهم.

هذا، وقد ساق ابن كثير عقب تفسير هذه الآية جملة[1] من الأحاديث منها ما رواه الإمام مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبى ﷺ ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه. ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربى ثلاثا فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة. سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها، وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».

بعد هذا التهديد الشديد للمعاندين اتجه القرآن إلى الرسول ﷺ فأمره أن يصارح قومه بسوء مصيرهم إذا ما استمروا فى ضلالهم فقال:

﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ أى: وكذب جمهور قومك بهذا العذاب الذى حدثناك عنه فظنوا أن الله لن يعذبهم بسبب إعراضهم عن دعوتك، أو كذبوا بهذا القرآن الذى هو معجزتك الكبرى.

والتعبير عنهم بقومك تسجيل عليهم بسوء المعاملة لمن هو من أنفسهم وجملة ﴿وهو الحق﴾ مستأنفة لقصد تحقيق القدرة على بعث العذاب عليهم، أو حال من الهاء فى به، أى: كذبوا حال كونه حقا، وهو أعظم فى القبح قل لهم - يا محمد - ﴿لست عليكم بوكيل﴾ أى: لم يفوض إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق، فأنا لست بقيم عليكم وإنما أنا منذر وقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكنكم لا تحبون الناصحين.

ثم ختم هذا التهديد بقوله - تعالى - ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾.

قال الراغب: «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة».

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٤٠ وما بعدها.

والمستقر: وقت الاستقرار.

أى: لكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول لابد منه، وسوف تعلمونه فى المستقبل عند حلوله بكم متى شاء الله ذلك، قال - تعالى - ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من قدرة الله، وهددت المعاندين فى كل زمان ومكان بسوء المصير.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله وأتباعه بأن يهجروا المجالس التى لا توقر فيه آيات الله وشرائعه، فقال - تعالى - :

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم﴾.

قال الراغب: الخوض هو الشروع فى الماء والورود فيه، ثم استعير للأخذ فى الحديث فقيل: تخاوضوا فى الحديث، أى: أخذوا فيه على غير هدى، وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله - تعالى - ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾[1].

والمعنى: وإذا رأيت أيها النبى الكريم، أو أيها المؤمن العاقل، الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والطعن والاستهزاء فأعرض عنهم. وانصرف عن مجالسهم، وأرهم من نفسك الاحتقار لتصرفاتهم، ولا تعد إلى مجالسهم حتى يخوضوا فى حديث آخر، لأن آياتنا المنسوبة إلينا من حقها أن تعظم وأن تحترم لا أن تكون محل تهكم واستهزاء.

قال ابن جريج: كان المشركون يجلسون إلى النبى ﷺ يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزأوا فنزلت هذه الآية فجعل ﷺ إذا استهزأوا قام فحذروا وقالوا: لا تستهزئوا فيقوم.

وإنما عبر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض، لأنهم لا يتحدثون إلا فيما لا جدوى فيه ولا منفعة من ورائه غالبًا.

وقوله ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أى: وإما ينسينك الشيطان ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين على سبيل الفرض والتقدير فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها، وقد جاء الشرط الأول بإذا لأن خوضهم فى الآيات محقق، وجاء الشرط الثانى بإن لأن إنساء الشيطان له قد يقع وقد لا يقع.

فإن قيل: النسيان فعل الله فلم أضيف إلى الشيطان؟ أجيب بأن السبب من الشيطان وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر فأضيف إليه لذلك، كما أن من ألقى غيره فى النار فمات يقال: إنه القاتل وإن كان الإحراق فعل الله.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١٦٠ للراغب الأصفهانى.

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاما من أهمها ما يأتى:

١ - وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله، وأن لا يقعد لأن فى القعود إظهار عدم الكراهة، وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله ﷺ.

قال القرطبى: من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجرته، مؤمنا كان أو كافرًا، وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم وبيعهم، وكذلك منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع. فقد قال بعض أهل البدع لأبى عمران النخعى: اسمع منى كلمة فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمة.

وروى الحاكم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ «من وقر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام»[1].

وقال صاحب المنار: وسبب هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادى فيه وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه والمشاركة فى الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر قال - تعالى - ﴿وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾[2].

٢ - جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض. لأنه إنما أمرنا بالإعراض فى حالة الخوض، وأيضا فقد قال - تعالى - ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾.

قال بعض العلماء: «وحتى غاية الإعراض، لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أو جبته رعاية المصلحة، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصلحة»[3].

٣ - استدل بهذه الآية على أن الناسى غير مكلف، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف فيعفى عما ارتكبه حال نسيانه ففى الحديث الشريف «إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه الطبرانى عن ثوبان مرفوعا وإسناده صحيح.

٤ - قال القرطبى: قال بعضهم إن الخطاب فى الآية للنبى ﷺ والمقصود أمته، ذهبوا إلى

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص١٣.

(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٥٠٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ٧ ص٢٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور.

ذلك لتبرئته ﷺ من النسيان. وقال آخرون إن الخطاب له ﷺ والنسيان جائز عليه فقد قال ﷺ مخبرا عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى» فأضاف النسيان إليه. واختلفوا بعد جواز النسيان عليه هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أولا؟ فذهب إلى الأول - فيما ذكره القاضى عياض - عامة العلماء والأئمة كما هو ظاهر القرآن والأحاديث، لكن اشترط الأئمة أن الله - تعالى - ينبهه على ذلك ولا يقره عليه. ومنعت طائفة من العلماء السهو عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعية كما منعوه اتفاقا فى الأقوال البلاغية»(١).

قال الآلوسى: «وأنا أرى أن محل الخلاف النسيان الذى لا يكون منشؤه اشتغال السر بالوساوس والخطرات الشيطانية فإن ذلك مما لا يرتاب مؤمن فى استحالته على رسول الله ﷺ»(٢).

ثم بين - سبحانه - أنه لا تبعة على المؤمنين ما داموا قد أعرضوا عن مجلس الخائضين فقال - تعالى - ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾.

أى: وما على الذين يتقون الله شىء من حساب الخائضين على ما ارتكبوا من جرائم وآثام ما داموا قد أعرضوا عنهم، ولكن عليهم أن يعرضوا عنهم ويذكروهم ويمنعوهم عما هم فيه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير لعل أولئك الخائضين يجتنبون ذلك، ويتقون الله فى أقوالهم وأفعالهم.

وعليه يكون الضمير فى قوله: ﴿لعلهم يتقون﴾ يعود على الخائضين.

وقيل يجوز أن يكون الضمير فى قوله: ﴿لعلهم يتقون﴾ للذين اتقوا أى: عليهم أى يذكروا أولئك الخائضين، لأن هذا التذكير يجعل المتقين يزدادون إيمانا على إيمانهم، ويثبتون على تقواهم.

روى البغوى عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم﴾ . . إلخ قال المسلمون: كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدًا؟ فأنزل الله - تعالى - ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء﴾ يعنى إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعة ما يقولون، وما عليكم نصيب من إثم ذلك الخوض.

قال الجمل: قوله (ولكن ذكرى) فيه أربعة أوجه:

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص١٤.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص١٨٣.

أحدها : أنها منصوبة على المصدر بفعل مضمر وقدره بعضهم أمرًا، أى : ولكن ذكروهم ذكرى، وبعضهم قدره خبرًا. أى : ولكن يذكرونهم ذكرى.

والثانى : أنه مبتدأ خبره محذوف : أى : ولكن عليكم ذكرى، أى : تذكيرهم.

والثالث : أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو ذكرى أى : النهى عن مجالستهم والامتناع منها ذكرى.

والرابع : أنه عطف على موضع شىء المجرور بمن أى : ما على المتقين من حسابهم شىء ولكن عليهم ذكرى فيكون من عطف المفردات وأما على الأوجه السابقة فهو من عطف الجمل »[1].

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ بأن ينطلق فى تبليغ دعوته دون أن يشغل نفسه بسفاهة السفهاء، وأن يذكر المعاندين بسوء مصيرهم فقال - تعالى - :

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٤٤.

وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

والمعنى: واترك يا محمد هؤلاء الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذى كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعبا ولهوا حيث سخروا من تعاليمه واستهزأوا بها، وغرتهم الحياة الدنيا حيث اطمأنوا إليها، واشتغلوا بلذاتها وزعموا أنه لا حياة بعدها.

ولم يقل - سبحانه - اتخذوا اللعب واللهو دينًا لأنهم لم يجعلوا كل ما هو من اللعب واللهو دينًا لهم، وإنما هم عمدوا إلى أن ينتحلوا دينًا فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو وسموها دينًا.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: ومعنى ﴿ذرهم﴾: أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم فى نظرك وزنًا، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه قال له بعده ﴿وذكر به﴾ وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم لا ترك إنذارهم وتخويفهم.. ومعنى اتخاذ دينهم لعبا ولهوا، أنهم اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم، أو أن الكفار كانوا يحكمون فى دين الله بمجرد التشهى والتمنى مثل تحريم السوائب والبحائر، ولم يكونوا يحتاطون فى أمر الدين، بل كانوا يكتفون فيه بمجرد التقليد فعبر الله عنهم لذلك بأنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا. وأنهم اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا قال ابن عباس: جعل الله لكل قوم عيدا يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله، ثم إن المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا أما المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله...»[1].

والضمير فى قوله ﴿وذكر به﴾ يعود إلى القرآن: وقد جاء مصرحا به فى قوله -تعالى- ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

وقوله ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أى: وذكر بهذا القرآن أو بهذا الدين الناس مخافة أن تسلم نفس إلى الهلاك، أو تحبس أو ترتهن أو تفتضح، أو تحرم الثواب بسبب كفرها واغترارها بالحياة الدنيا، واتخاذها الدين لعبا ولهوا.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٦٥.

ولفظ تبسل مأخوذ من البسل بمعنى المنع بالقهر أو التحريم أو الحبس ومنه أسد باسل لمنعه فريسته من الإفلات. وشراب بسيل أى متروك وهذا الشيء بسيل عليك أى محرم عليك.

ثم بين - سبحانه - أن هذه النفس المعرضة للحرمان ليس لها ما يدفع عنها السوء فقال: ﴿ليس لها من دون الله ولى ولاشفيع وإن تعدل كل عدل لايؤخذ منها﴾أى: ليس لهذه النفس من غير الله ناصر ينصرها ولا شفيع يدفع عنها، ومهما قدمت من فداء فلن يقبل منها، فالمراد بالعدل هنا الفداء فهو كقوله - تعالى - ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به﴾.

قال الإمام الرازى: والمقصود من هذه الآية بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة فلا ولى يتولى دفع ذلك المحذور عنها، ولا شفيع يشفع فيها، ولا فدية تقبل منها ليحصل الخلاص بسبب قبولها، حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع. فإذا كانت وجوه الخلاص هى الثلاثة فى الدنيا وثبت أنها لا تفيد فى الآخرة البتة وظهر أنه ليس هناك إلا الإبسال الذى هو الارتهان والاستسلام فليس لها البتة دافع من عذاب الله، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على معاصى الله»[1].

ثم بين - سبحانه - عاقبة أولئك الغافلين فقال: ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

أى: أولئك الذين أسلموا للهلاك بسبب ما اكتسبوه فى الدنيا من أعمال قبيحة لهم شراب من حميم أى من ماء قد بلغ النهاية فى الحرارة يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم ساق القرآن صورة منفرة للشرك والمشركين تدعو المؤمنين إلى أن يزدادوا إيمانًا على إيمانهم فقال - تعالى -: ﴿قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾.

قال ابن كثير: قال السدى: قال المشركون للمؤمنين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ﷺ فأنزل الله - عز وجل - ﴿قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا﴾[2].

والمعنى: قل يا محمد أو أيها العاقل لهؤلاء المشركين الذين يحاولون رد المسلمين عن الإسلام، قل لهم: أنعبد من دون الله مالا يقدر على نفعنا إن دعوناه ولا على ضرنا إن تركناه

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٦٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٤٥.

﴿ونرد على أعقابنا﴾ أى نرجع إلى الشرك الذى كنا فيه، بعد أن هدانا الله إلى الإسلام وأنقذنا من الكفر والضلال. يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها: قد رد على عقبيه.

والاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار والنفى، وجىء بنون المتكلم ومعه غيره، لأن الكلام مع الرسول ﷺ عن نفسه وعن المسلمين كلهم.

والمراد بما لا ينفع ولا يضر: تلك الأصنام فإنها مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضر، ولو كانت تستطيع الضر لأضرت بالمسلمين لأنهم خلعوا عبادتها، وسفهوا أتباعها، وأعلنوا حقارتها.

وجملة ﴿ونرد على أعقابنا﴾معطوفة على﴿ندعوا﴾و«على»داخلة فى حيز الإنكار والنفى. والتعبير عن الشرك بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الإشارة إلى أن الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر، ومن المستحيل أن يرجع إليها من ذاق حلاوة الإيمان.

وحرف ﴿على﴾ فى قوله ﴿ونرد على أعقابنا﴾ للاستعلاء، أى رجع على طريق هى جهة عقبه أى مؤخر قدمه كما يقال: رجع وراءه ثم استعمل هذا التعبير فى التمثيل للتلبس بحالة ذميمة كان قد فارقها صاحبها ثم عاد إليها وتلبس بها.

وفى الحديث الشريف «اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم».

ثم ساق القرآن صورة مؤثرة دقيقة للضلالة والحيرة التى تناسب من يشرك بعد التوحيد فقال: ﴿كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾.

﴿استهوته الشياطين﴾ أى استغوته وزينت هواه ودعته إليه، والعرب تقول: استهوته الشياطين، لمن اختطف الجن عقله فسيرته كما تريد دون أن يعرف له وجهة فى الأرض.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أتريدون منا أن نعود إلى الكفر بعد أن نجانا الله منه فيكون مثلنا كمثل الذى ذهبت به مردة الشياطين فألقته فى صحراء مقفرة وتركته تائها ضالا عن الطريق القويم ولا يدرى ماذا يصنع وله أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم قائلين له: ائتنا لكى تنجو من الهلاك ولكنه لحيرته وضلاله لا يجيبهم ولا يأتيهم.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم ويقولون: ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من

يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ. ومحمد ﷺ هو الذى يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام »[١].

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يرد على الكفار بما يخرس ألسنتهم فقال:

﴿قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن هدى الله الذى أرسلت به رسله هو الهدى وحده وما وراءه ضلال وخذلان، وأمرنا لنسلم وجوهنا لله رب العالمين.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: فما محل الكاف فى قوله «كالذى استهوته» قلت: النصب على الحال من الضمير فى ﴿نرد على أعقابنا﴾ أى: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين؟ فإن قلت ما معنى ﴿استهوته﴾؟ قلت هو استفعال من هوى فى الأرض أى ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويه وحرصت عليه، فإن قلت: فما محل أمرنا؟ قلت: النصب عطفًا على محل قوله: ﴿إن هدى الله هو الهدى﴾ على أنهما مقولان كأنه قيل: قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم[٢].

وقوله ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ معطوف على محل ﴿لنسلم﴾ كأنه قيل أمرنا لنسلم وأمرنا أيضًا بإقامة الصلاة والاتقاء.

وفى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع وعطفها على الأمر بالإسلام، وقرنها بالأمر بالتقوى دليل على تفخيم أمرها وعظمة شأنها.

وقوله ﴿وهو الذى إليه تحشرون﴾ جملة مستأنفة موجبة لامتثال ما أمر من الأمور الثلاثة، أى: هو الذى تعودون إليه يوم القيامة للحساب لا إلى غيره.

وقوله ﴿وهو الذى خلق السمٰوات والأرض بالحق﴾ معطوف على قوله ﴿وهو الذى إليه تحشرون﴾.

قال الآلوسى: «ولعله أريد بخلقهما خلق ما فيهما - أيضًا - وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات.

وقوله «بالحق» متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل «خلق» أى: قائما بالحق، وجوز أن يكون صفة لمصدر الفعل المؤكد أى: خلقا متلبسا بالحق».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٤٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣٧.

والحق فى الأصل مصدر حق إذا ثبت، ثم صار اسما للأمر الثابت الذى لا ينكر، وهو ضد الباطل.

وقوله ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أى: وقضاؤه المعروف بالحقيقة كائن، حين يقول - سبحانه - لشىء من الأشياء «كن فيكون» ذلك الشىء ويحدث.

و﴿يوم﴾ خبر مقدم، و﴿قوله﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿الحق﴾ صفته.

والجملة الكريمة بيان لقدرته - تعالى - على حشر المخلوقات بكون مراده لا يتخلف عن أمره، وإن قوله هو النافذ وأمره هو الواقع قال - تعالى - ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾.

وفى قوله ﴿قوله الحق﴾ صيغة قصر للمبالغة أى: هو الحق الكامل، لأن أقوال غيره وإن كان فيها كثير من الحق فهى معرضة للخطأ وما كان فيها غير معرض للخطأ فهو من وحى الله أو من نعمته بالعقل والإصابة للحق.

وقوله ﴿وله الملك يوم ينفخ فى الصور﴾ أى: أن الملك لله تعالى وحده فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه.

قال أبو السعود: «وتقييد اختصاص الملك له - تعالى - بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة، فهو كقوله -تعالى- ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ وقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾.

المراد «بالصور» القرن الذى ينفخ فيه الملك نفخة الصعق والموت، ونفخة البعث والنشور والله أعلم بحقيقته.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: إن أعرابيًا سأل النبى ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه» رواه أبو داود والترمذى والحاكم عنه أيضًا.

وقيل المراد بالصور هنا جمع صورة والمراد بها الأبدان أى: يوم ينفخ فى صور الموجودات فتعود إلى الحياة.

ثم ختمت الآية بما يدل على سعة علم الله - تعالى - وعظم إتقانه فى صنعه فقال - تعالى -: ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾.

الغيب. ما غاب عن الناس فلم يدركوه. الشهادة: ضد الغيب وهى الأمور التى يشاهدها الناس ويتوصلون إلى علمها.

وصفة ﴿الحكيم﴾ تجمع إتقان الصنع فدل على عظم القدرة مع تعلق العلم بالمصنوعات. وصفة ﴿الخبير﴾ تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيها.

أى: فهو - سبحانه - وحده العالم بأحوال جميع الموجودات ما غاب منها وما هو مشاهد، وهو ذو الحكمة فى جميع أفعاله والعالم بالأمور الجلية والخفية.

وبعد أن ساق القرآن ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله وسعةعلمه وقدرته أخذ فى التدليل على بطلان الشرك وإثبات التوحيد عن طريق القصة، فحكى لنا جانبًا مما قاله إبراهيم لأبيه وقومه فقال - تعالى -:

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ
أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ
أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

والمعنى: واذكر يا محمد وذكر قومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن قال إبراهيم لأبيه آزر منكرًا عليه عبادة الأصنام ﴿أتتخذ أصنامًا آلهة﴾ تعبدها من دون الله الذى خلقك فسواك فعدلك ﴿إنى أراك وقومك﴾ الذين يتبعونك فى عبادتها فى ضلال مبين، أى فى انحراف ظاهر بين عن الطريق المستقيم.

قال الآلوسى : (وآزر بزنة آدم علم أعجمى لأبى إبراهيم - عليه السلام - وكان من قرية من سواد الكوفة، وهو بدل من إبراهيم أو عطف بيان عليه، وقيل : إنه لقب لأبى إبراهيم واسمه الحقيقى تارح وأن آزر لقبه، وقيل هو اسم جده ومنهم من قال اسم عمه، والعم والجد يسميان أبا مجازا)[١].

والاستفهام فى قوله ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ للإنكار. والتعبير بقوله ﴿أتتخذ﴾ الذى هو افتعال من الأخذ، فيه إشارة بأن عبادته هو وقومه لها شيء مصطنع، و الأصنام ليست أهلا للألوهية، وفى ذلك ما فيه من التعريض بسخافة عقولهم، وسوء تفكيرهم.

والرؤية يجوز أن تكون بصرية قصد منها فى كلام إبراهيم أن ضلال أبيه وقومه صار كالشيء المشاهد لوضوحه، وعليه فقوله ﴿فى ضلال مبين﴾ فى موضع المفعول.

ويجوز أن تكون الرؤية علمية وعليه فقوله ﴿فى ضلال مبين﴾ فى موضع المفعول الثانى.

ووصف الضلال بأنه مبين يدل على شدة فساد عقولهم حيث لم يتفطنوا لضلالهم مع أنه كالمشاهد المرئى.

قال الشيخ القاسمى : قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين لاسيما للأقارب، فإن من كان أقرب فهو أهم، ولهذا قال - تعالى - ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ وقال - تعالى - : ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾ وقال ﷺ «أبدأ بنفسك ثم بمن تعول» ولهذا بدأ النبى ﷺ بعلى وخديجة وزيد وكانوا معه فى الدار فآمنوا وسبقوا، ثم بسائر قريش، ثم بالعرب، ثم بالموالى، وبدأ إبراهيم بأبيه ثم بقومه، وتدل هذه الآية -أيضا- على أن النصيحة فى الدين، والذم والتوبيخ لأجله ليس من العقوق، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة «وعلى وجه آزر قترة وغبره» فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله -تعالى- «إنى حرمت الجنة على الكافرين».

ثم قال الشيخ القاسمى : والآية حجة على الشيعة فى زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا، وأن آزر عم إبراهيم لا أبوه، وذلك لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ومثله لا يجزم به من غير نقل»[٢].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص١٤٩.
(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٣٦٨.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم فقال - تعالى - ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

أى : وكما أرينا إبراهيم الحق فى خلاف ما عليه أبوه وقومه من الشرك، نريه - أيضا - مظاهر ربوبيتنا، ومالكيتنا للسموات والأرض، ونطلعه على حقائقها. ليزداد إيمانا على إيمانه وليكون من العالمين علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق وأن مخالفيه على الباطل.

والرؤية هنا المقصود بها الانكشاف والمعرفة. فتشمل المبصرات والمعقولات التى يستدل بها على الحق.

وإنما قال ﴿نرى إبراهيم﴾ بصيغة المضارع، مع أن الظاهر أن يقول «أريناه» لاستحضار صورة الحال الماضية التى كانت تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته - تعالى - فى ذلك الملكوت العظيم.

والملكوت : مصدر كالرغبوت والرحموت والجبروت، وزيدت فيه الواو والتاء للمبالغة فى الصفة، والمراد به الملك العظيم وهو مختص بملكه - تعالى - كما قال الراغب فى مفرداته.

ثم بين - سبحانه - ثمار تلك الإراءة التى أكرم بها نبيه إبراهيم فقال : ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى﴾.

﴿جن عليه الليل﴾ : أى ستره بظلامه وتغشاه بظلمته، وأصل الجن : الستر عن الحاسة. يقال : جنه الليل وجن عليه يجن جنا وجنونا، ومنه الجن والجنة - بالكسر - والجنة - بالفتح - وهى البستان الذى يستر بأشجاره الأرض.

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم رأى كوكبا قال هذا ربى، قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان، مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليه بالإبطال، ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال.

قال صاحب الكشاف : «كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال. ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلـها. لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثا أحدثها، وصانعا صنعها، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها. وقول إبراهيم ﴿هذا ربى﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما روى غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة[1].

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٧٦.

وجملة ﴿قال هذا ربى﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن مضمون جملة «رأى كوكبا» وهو أن يسأل سائل : فماذا كان منه عندما رآه، فيكون قوله : ﴿قال هذا ربى﴾ جوابا لذلك.

وقوله ﴿فلما أفل﴾ أى : غاب وغرب : يقال أفل الشىء يأفل أفلا وأفولا أى : غاب.

وقوله ﴿قال لا أحب الآفلين﴾ أى : لا أحب عبادة الأرباب المتنقلين من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال، لأن الأفول غياب وابتعاد، وشأن الإلـه الحق ان يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده.

وجاء بالآفلين بصيغة جمع المذكر المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة فى الأكوان.

ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم على وحدانية الله فقال - تعالى - : ﴿فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى﴾ أى : فلما رأى إبراهيم القمر مبتدئا فى الطلوع، منتشرا ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربى.

وبازغا : مأخوذ من البزوع وهو الطلوع والظهور. يقال : بزغ الناب بزوغا إذا طلع.

﴿فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين﴾.

أى : فلما أفل القمر كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جناب الحق وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم، لأن هذا القمر الذى يعتوره الأفول - أيضًا - لا يصلح أن يكون إلـها.

وفى قول إبراهيم لقومه هذا القول تنبيه لهم لمعرفة الرب الحق وأنه واحد وأن الكواكب والقمر كليهما لا يستحقان الألوهية. وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب. ثم عرض بقومه بأنهم ضالون، لأن قوله «لأكونن من القوم الضالين» يدخل على نفوسهم الشك فى معتقدهم أنه لون من الضلال.

وإنما استدل على بطلان كون القمر إلها بعد أفوله، ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره مع أن أفوله محقق، لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم.

ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال - تعالى - ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر﴾ أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مبتدئة فى الطلوع وقد عم نورها الآفاق، قال مشيرا إليها ﴿هذا ربى هذا أكبر﴾ أى : أكبر الكواكب جرما وأعظمها قوة، فهو أولى بالألوهية ان كان المدار فيها على التفاضل والخصوصية.

فقوله ﴿هذا أكبر﴾ تأكيد لما رامه من إظهار النصفة للقوم، ومبالغة فى تلك المجاراة الظاهرة لهم، وتمهيد قوى لإقامة الحجة البالغة عليهم، واستدراج لهم إلى ما يريد أن يلقيه على مسامعهم بعد ذلك.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت ما وجه التذكير فى قوله ﴿هذا ربى﴾ والإشارة للشمس؟ قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شىء واحد، كقولهم: ما جاءت حاجتك ومن كانت أمك، وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا فى صفة الله علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازًا من علامة التأنيث[1].

وقوله ﴿فلما أفلت﴾ قال: ﴿يا قوم إنى برىء مما تشركون﴾ أى فلما غابت الشمس واحتجب ضوؤها، جاهر إبراهيم قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال: يا قوم إنى برىء من عبادة الأجرام المتغيرة التى يغشاها الأفول، وبرىء من إشراككم مع الله آلهة أخرى.

قال الآلوسى: وإنما احتج - عليه السلام - بالأفول دون البزوغ مع أنه انتقال، لأن الأفول متعدد الدلالة أيضًا إذ هو انتقال مع احتجاب ولا كذلك البزوغ، ولأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة يعرفها كل أحد، فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول[2].

هذا والمتأمل فى هذه الحالات الثلاث يرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى الاستدلال على وحدانية الله، فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريدها بأسلوب يقنع العقول السليمة، ورحم الله صاحب الانتصاف فقد بين ذلك بقوله: «والتعريض بضلالهم ثانيا أى فى قوله ﴿لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين﴾ أصرح وأقوى من قوله أولا ﴿لا أحب الآفلين﴾ وإنما ترقى إلى ذلك، لأن الخصوم قد أقام عليهم بالاستدلال الأول حجة، فأنسوا بالقدح فى معتقدهم، ولو قيل هذا فى الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض - صلوات الله عليه - بأنهم فى ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره. والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود[3].

ثم ختم إبراهيم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله بقوله - كما حكى القرآن

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤١.
(٢) تفسير الالوسى جـ٢ ص٢٢.
(٣) الانصاف على الكشاف لأحمد بن المنير جـ٢ ص٤٠.

عنه - : ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السمٰوات والأرض حنيفا﴾ أى : إنى صرفت وجهى وقلبى فى المحبة والعبادة لله الذى أوجد وأنشأ السمٰوات والأرض على غير مثال سابق.

ومعنى ﴿حنيفا﴾ مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق، وهو - أى حنيفا - حال من ضمير المتكلم فى ﴿وجهت﴾.

وقوله ﴿وما أنا من المشركين﴾ أى : وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم. وقد أفادت هذه الجملة التأكيد لجملة ﴿إنى وجهت وجهى﴾ . . إلخ.

وبذلك يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أقام الأدلة الحكيمة والبراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - وسفه المعبودات الباطلة وعابديها.

ثم بين - سبحانه - بعض ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومخاصمات فقال :

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ
سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

المحاجة : المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة، والحجة الدلالة المبينة للمحجة أى : المقصد المستقيم - كما قال الراغب - وتطلق الحجة على كل ما يدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه.

فمعنى ﴿وحاجه قومه﴾ أى : جادلوه وخاصموه أو شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد تارة

بإيراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد، وأخرى بالتهديد والتخويف، فقد حكى القرآن أنهم قالوا له عندما نهاهم عن عبادة الأصنام ﴿وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾.

وقد رد عليهم إبراهيم ردًا قويًا جريئًا فقال لهم: ﴿أتحاجونى فى الله وقد هدان﴾ أى أتجادلوننى فى شأنه - تعالى - وفى أدلة وحدانيته، والحال أنه - سبحانه - قد هدانى إلى الدين الحق وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة.

والاستفهام للانكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معقتداتهم.

وجملة ﴿وقد هدان﴾ حال مؤكدة للانكار أى لا جدوى من محاجتكم إياى بعد أن هدانى الله إلى الطريق المستقيم، وجعلنى من المبغضين للأصنام المحتقرين لها.

ثم صارحهم بأنه لا يخشى أصنامهم ولا يقيم لها وزنا فقال: ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أى لا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تقرب ولا تشفع. ويبدو أن قومه كانوا قد خوفوه بطش أصنامهم وقالوا له كما قالت قبيلة عاد لنبيها هود ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ فرد عليهم إبراهيم هذا الرد القوى الصريح.

وقوله ﴿إلا أن يشاء ربى شيئًا﴾ استثناء مما قبله أى: لا أخاف معبوداتكم فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئًا من المكروه يصيبنى من جهتها بأن يسقط على صنم يشجنى، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته لا بقدرة أصنامكم أو مشيئتها، وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه صاحب الكشاف يكون الاستثناء متصلا.

ويرى ابن عطية وغيره أن الاستثناء منقطع على معنى: لا أخاف معبوداتكم ولكن أخاف أن يشاء ربى خوفى مما أشركتم به.

وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم - عليه السلام - مع ربه، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان وكافر بتلك الآلهة كل الكفران، إلا أنه ترك الأمر كله لمشيئة الله، وعلق مستقبله على ما يريد الله فيه.

وقوله ﴿وسع ربى كل شيء علمًا﴾ أى: أن علم ربى وسع كل شيء وأحاط به، فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال ما يخفينى من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب.

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا فكأن قومه قد قالوا: كيف يشاء ربك شيئا تخافه فكان جوابه عليهم: ﴿وسع ربى كل شيء علما﴾ فأنا وإن كنت عبده وناصره إلا أنه أعلم بإلحاق الضر أو النفع بمن يشاء من عباده.

و ﴿علما﴾ منصوب على التمييز المحول عن الفاعل، إذ الأصل فى هذا التعبير «أن يقال:

وسع علم ربى كل شىء، ولكن عدل به عن هذا النسق، وأسند الفعل فيه إلى الله لا إلى علمه، وجعل لفظ العلم تمييزا لا فاعلا ليكون الوسع والإحاطة والشمول لله، فيخلع التعبير ظلا أشمل وأفخم وأعمق وقعا فى النفس.

وقوله ﴿أفلا تتذكرون﴾ أى تعرضون أيها الغافلون عن التأمل والتذكير بعد أن أوضحت لكم بما لا يقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة وأن هذه المعبودات التى سواه لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

فالاستفهام للإنكار والتوبيخ لعدم تذكرهم مع وضوح الدلائل.

وفى إيراد التذكر دون التفكر ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز فى العقول ولا يتوقف إلا على التذكير.

ثم حكى القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أنه بعد أن صارح قومه بأنه لا يخشى آلهتهم، أخذ فى التهكم بهم والتعجب من شأنهم لأنهم يخوفونه مما لايخيف فقال: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا﴾.

أى: كيف ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع، وأنتم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل.

فالاستفهام للإنكار التعجبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع أعظم المخوفات وأهوالها وهو إشراكهم بالله.

قال بعض العلماء: وجملة ﴿وكيف أخاف﴾.. إلخ. معطوفة على جملة ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ ليبين لهم أن عدم خوفه من آلهتهم أقل عجبًا من عدم خوفهم من الله، وهذا يؤذن بأن قومه كانوا يعرفون الله وأنهم أشركوا معه فى الإلهية غيره فلذلك احتج عليهم بأنهم أشركوا بربهم المعترف به دون أن ينزل عليهم سلطانا بذلك[1].

وقال الآلوسى: وقوله ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ استئناف - كما قال شيخ الإسلام - مسوق لنفى الخوف عنه - عليه السلام - بحسب زعم الكفر بالطريق الإلزامى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر، وفى توجيه الإنكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال: أأخاف لما أن كل موجود لا يخلو عن كيفية، فإذا انتفت جميع كيفياته فقد انتفى من جميع الجهات بالطريق البرهانى»[2].

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد عاشور جـ٧ ص٣٣٠.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٢٠٦.

وما فى قوله ﴿ما أشركتم﴾ موصولة والعائد محذوف أى : ما أشرككم به، ثم ركب - عليه السلام - على هذا الإنكار التعجبى ما هو نتيجة له فقال : ﴿فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.

أى : فأى الفريقين فريق الموحدين أم فريق المشركين أحق وأولى بالأمن من لحوق الضرر به، إن كنتم تعلمون ذلك فأخبرونى به وأظهروه بالدلائل والحجج. فجواب الشرط محذوف تقديره أخبرونى بذلك.

وهذا لون من إلجائهم إلى الاعتراف بالحق إن كانوا ممن يعقل أو يسمع، وحث لهم على الإجابة.

قال صاحب المنار : «ونكتة عدوله عن قوله «فأينا أحق بالأمن» إلى قوله «فأى الفريقين» هى بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك، لا خاصة به وبهم، فهى متضمنة لعلة الأمن. وقيل إن نكتته الاحتراز عن تزكية النفس، واسم التفضيل على غير بابه، فالمراد أينا حقيق بالأمن، ولكنه عبر باسم التفضيل ناطقا فى استنزالهم عن منتهى الباطل وهو ادعاؤهم أنهم هم الحقيقون بالأمن وأنه الحقيق بالخوف إلى الوسط النظرى بين الأمرين؛ وهوْ أى الفريقين أحق، واحترازا عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله كله»[1].

ثم بين - سبحانه - من هو الفريق الأحق بالأمن فقال - تعالى - :

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ أى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك كما يفعله فريق المشركين حيث إنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنهم ما عبدوها إلا ليتقربوا بها إلى الله زلفى، أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم فى ضلال مبين.

هذا وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك، ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله : فأينا لا يظلم نفسه؟ قال : «إنه ليس الذى تعنون. ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ إنما هو الشرك».

---

(١) تفسير المنار جـ٧ ص٢٧٩.

قال الإمام الرازى : والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت فى نفى الشركاء والأضداد والأنداد، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات فوجب حمل الظلم ها هنا على ذلك »(١).

وقد فسر الزمخشرى فى كشافه الظلم بالمعصية فقال : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس(٢). أى : لأن لبس الإيمان بالشرك أى خلطه به مما لا يتصور لأنهما ضدان لا يجتمعان فى رأى الزمخشرى.

قال الشيخ القاسمى : وفهم الزمخشرى هذا مدفوع بأنه يلابسه، لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق سواء كان باللسان أو غيره فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق. وكذا إن أريد تصديق القلب لجواز أن يصدق بوجود الصانع دون وحدانيته لما فى قوله - تعالى - : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر، فلا يلزم من لبس الإيمان بالكفر الجمع بينهما، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك، بل تغطيته بالكفر وجعله مغلوبا مضمحلا، أو اتصافه بالإيمان ثم الكفر، ثم الإيمان ثم الكفر مرارا »(٣).

وقال صاحب الانتصاف : « وإنما يروم الزمخشرى بذلك تنزيل الآية على معتقده فى وجوب وعيد العصاة وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار. ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصى. ونحن نسلم ذلك ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة هو الخوف اللاحق للكفار، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود، وأما الكفار فغير آمنين بوجه ما »(٤).

والذى نراه أنه مادام قد ورد عن الصادق المصدوق ﷺ فى الحديث الصحيح أنه قد فسر الظلم فى الآية بالشرك فيجب أن نسلم به وأن نعض عليه بالنواجذ، واجتهاد الزمخشرى هنا - لتأييد مذهبه - مجانب للصواب، لأنه لا اجتهاد مع النص. لا سيما وأن حديث عبد الله بن مسعود المتقدم قد خرجه الشيخان وغيرهما من أعلام السنة.

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على نبيه إبراهيم - فقال - تعالى :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٨٢.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٢.
(٣) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٢٠٩.
(٤) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ٢ ص٤٢.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

قال الإمام الرازى : إعلم أنه - تعالى - لما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه أظهر حجة الله فى التوحيد ونصرها، وذب عنها، عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه.

فأولها : قوله ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها، وأوقفنا عقله على حقيقتها.

وثانيها : أنه - تعالى - خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية وهى قوله ﴿نرفع درجات من نشاء﴾.

وثالثها : أنه جعله عزيزا فى الدنيا وذلك لأنه - تعالى - جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته وأبقى هذه الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك[1].

والإشارة فى قوله - تعالى - ﴿وتلك حجتنا﴾ إلى جميع ما تكلم به إبراهيم فى مجادلة قومه فى شأن وحدانية الله وبطلان الشرك.

وأضاف - سبحانه - الحجة إليه مع ذكر اللفظ الدال على العظمة وهو «نا» تنويها بشأنها وتفخيما لأمرها، والمراد بالحجة جنسها لا فرد من أفرادها.

أى : وتلك الحجة التى لا يمكن نقضها أو مغالبتها فى إثبات الحق وتزييف الباطل أعطيناها إبراهيم ليكون مستعليًا بها على قومه، قاطعًا لألسنتهم عن المجادلة والمخاصمة.

وجملة ﴿آتيناها﴾ فى محل نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة.

وقوله ﴿على قومه﴾ متعلق «بحجتنا» إن جعل خبرا لتلك، وبمحذوف إن جعل بدله. أى : آتيناها حجة ودليلا على قومه الكثيرين لتكون الغلبة عليهم.

وقوله ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ أى نرفع من شئنا من عبادنا درجات عالية من العلم والحكمة.

والدرجات فى الأصل تطلق على مراقى السلم. والمراد بها هنا المراتب المعنوية فى الخير على سبيل التمثيل، فقد شبهت حالة المفضل على غيره بحال المرتقى فى سلم إذا ارتفع من درجة إلى درجة.

والجملة مستأنفة على سبيل التقرير لما قبلها، وقيل هى حال من فاعل ﴿آتينا﴾ أى حال كوننا رافعين.

ومفعول المشيئة محذوف. أى : من نشاء رفعه على حسب ما تقتضيه حكمتنا. وقد دل قوله ﴿من نشاء﴾ على أن هذا التكريم لا يكون لكل أحد لأنه لو كان حاصلا لكل الناس لم يحصل الرفع ولا التفضيل.

وقوله - تعالى - ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، أى : إن ربك الذى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٨٢.

خلقك فسواك فعدلك ﴿حكيم﴾ فى كل ما يفعل من رفع هذا وخفض ذاك، ﴿عليم﴾ كل العلم بحال خلقه وسياسة عباده.

قال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآية من أدل الدلائل على أن كمال السعادة فى الصفات الروحانية لا فى الصفات الجسمانية، والدليل على ذلك أن الله - تعالى - قال ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ ثم قال بعده ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ وذلك يدل على أن الموجب لحصول هذه الرفعة هو إيتاء تلك الحجة وهذا يقتضى أن وقوف النفس على حقيقة تلك الحجة واطلاعها على إشراقها اقتضى ارتفاع الروح من حضيض العالم الجسمانى إلى أعالى العالم الروحانى، وذلك يدل على أنه لا رفعة ولا سعادة إلا فى الروحانيات»[١].

وقوله : ﴿ووهبنا له إسحـٰق ويعقوب كلا هدينا﴾ أى : ووهبنا لإبراهيم فضلا منا وكرما وعوضًا عن قومه لما اعتزلهم؛ إسحاق وهو ولده من زوجه سارة، ويعقوب وهو ابن إسحاق لتقر عينه ببقاء عقبه؛ إذ فى رؤية أبناء الأبناء سرور للنفس، وراحة للفؤاد.

وقوله ﴿كلا هدينا﴾ أى : كلا من إسحاق ويعقوب هديناه الهداية الكبرى بلحقوهما بدرجة أبيهما فى النبوة.

ولفظ ﴿كلا﴾ مفعول لما بعده وقدم لإفادة اختصاص كل منهما بالهداية على سبيل الاستقلال والتنويه بشأنهما.

وقوله : ﴿ونوحًا هدينا من قبل﴾ أى : وهدينا نوحًا من قبل إبراهيم إلى مثل ما هدينا إليه إبراهيم وذريته من النبوة والحكمة.

وهذا لون آخر من تشريف إبراهيم حيث أنه من نسل نوح الذى وصفه الله بالهداية، ولا شك أن شرف الآباء يسرى على الأبناء.

وقال ابن كثير، «وكل منهما له خصوصية عظيمة. أما نوح فإن الله لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبيا إلا من ذريته كما قال - تعالى - ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب﴾[٢].

ثم قال - تعالى - ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٨٣.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٠٤.

الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ومن ذريته﴾ يرى ابن جرير وغيره أنه يعود إلى نوح لأنه أقرب مذكور.

ويرى جمهور المفسرين أنه يعود على إبراهيم لأن الكلام فى شأنه وفى شأن النعم التى منحها الله إياه.

وقد ذكر الله فى هذه الآيات أربعة عشر نبيا وهم:

١ - داود بن يسى من سبط يهوذا من بنى إسرائيل وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق. م تقريبا وهو الذى قتل جالوت كما جاء فى القرآن الكريم ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق م تقريبا.

٢ - سليمان بن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ ق.م. وتوفى سنة ٩٧٥ ق.م. وقد جاء ذكر داود وسليمان فى كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾.

٣ - أيوب، قال ابن جرير: هو ابن موصى بن روم بن عيص بن إسحاق، وروى الطبرانى أن مدة عمره كانت ثلاثا وتسعين سنة.

٤ - يوسف وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وكانت ولادته قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - بألفى سنة تقريبا.

٥ - موسى وهو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب وكانت ولادته حوالى القرن الرابع عشر ق. م.

٦ - هارون وهو أخو موسى لأمه وقيل لأبيه وأمه، وقيل مات قبيل موسى بزمن يسير.

٧ - زكريا وهو ابن أزن بن بركيا ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - وكان قريب العهد بعيسى حيث تولى كفالة أمه مريم كما جاء فى القرآن الكريم ﴿وكفلها زكريا﴾.

٨ - يحيى وهو ابن زكريا.

٩ - عيسى وهو ابن مريم. قال ابن كثير. وفى ذكر عيسى فى ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم.

١٠ - الياس وهو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى وهو المعروف فى كتب الإسرائيليين باسم «إيليا» وقد أرسله الله إلى بنى إسرائيل حين عبدوا الأوثان قال - تعالى - ﴿وإن الياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين﴾.

ويقال إنه كان موجودًا فى زمن الملك «آخاب» ملك بنى إسرائيل فى حوالى سنة ٩١٨ق م.

١١ - إسماعيل وهو الابن الأكبر لإبراهيم -عليهما السلام- وجد محمد ﷺ.

١٢ - اليسع وهو ابن شافاط وكانت وفاته حوالى سنة ٨٤٠ق م ودفن بالسامرة.

١٣ - يونس وهو ابن متى أرسله الله إلى أهل نينوى من بلاد آشور فى حوالى القرن الثامن ق م.

١٤ - لوط وهو ابن هاران بن تارح فهو ابن أخى إبراهيم وكانت رسالته إلى أهل سدوم من شرق الأردن.

وقوله ﴿وكلا فضلنا على العالمين﴾ أى: وكل واحد من هؤلاء الأنبياء المذكورين لا بعضهم دون بعض فضلناه بالنبوة على العالمين من أهل عصره.

قال الجمل: اعلم أن الله -تعالى- ذكر هنا ثمانية عشر نبيًا من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لأن الواو لا تقتضى الترتيب، ولكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب وهى أن الله -تعالى- خص كل طائفة من الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولا نوحًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم يرجع حسبهم جميعًا. ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله من ذلك داود وسليمان حظًا وافرًا. ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب. ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة، ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر، ومن المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ثم ذكر الله بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة كان هذا الترتيب حسنًا والله أعلم بمراده وأسرار كتابه[1]».

ومن المعروف أن الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم على التفصيل خمسة وعشرون نبيًا. وهم هؤلاء الثمانى عشرة الذين ذكروا فى هذه الآيات، يضاف إليهم سبعة نظمهم الناظم فى قوله:

حتم على كل ذى التكليف معرفة بأنبياء على التفصيل قد علموا
فى تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس، هود، شعيب، صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٥٩.

ثم ذكر - سبحانه - فضائل من يتصل بهؤلاء الأنبياء الكرام فقال:

﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي: ومن آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم من هديناه إلى الطريق المستقيم فمن هنا للتبعيض.

والجملة معطوفة على ﴿كلا﴾ أي: كلا من هؤلاء الأنبياء فضلنا، وفضلنا بعض آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وهديناه.

وجملة ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صرامستقيم﴾ معطوفة على ﴿فضلنا﴾ أي: فضلنا هؤلاء الأنبياء واخترناهم وهديناهم إلى الطريق الواضح. قال الراغب: «والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال - تعالى - ﴿فاجتباه ربه﴾ واجتباء العبد تخصيصه إياه بفيض إلـهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء»[١].

وقوله: ﴿ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده﴾ أي: ذلك الهدى إلى صراط مستقيم الذى اهتدى إليه أولئك الأخيار هو هدى الله الذى يهدى به من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك.

وفى قوله ﴿من يشاء من عباده﴾ من الإبهام ما يبعث النفوس على طلب هدى الله -تعالى- والتعرض لنفحاته.

وقوله ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ أى، ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهديون المختارون لبطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملونه من أعمال صالحة فكيف بغيرهم.

قال ابن كثير: فى هذه الآية تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كقوله - تعالى - ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ والشرط لا يقتضى جواز الوقوع، فهو كقوله، ﴿قل إن كان للرحمـٰن ولد فأنا أول العابدين﴾ وكقوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لأتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[٢].

وقوله ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ اسم الإشارة فيه يعود إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشرة والمعطوفين عليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة.

---

(١) مفردات القرآن جـ٨٧ للراغب الأصفهانى.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٥٥.

وقصر بعضهم عودته على الأنبياء فحسب وإليه ذهب ابن جرير والرازى أى : أولئك المصطفون الأخيار هم الذين آتيناهم الكتاب أى جنسه المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية.

والمراد بإيتائه : التفهيم التام لما اشتمل عليه من حقائق وأحكام، وذلك أعم من أن يكون بالإنزال ابتداء أو بالإيراث بقاء، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين.

والحكم أى : الحكمة وهى علم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام. أو الإصابة فى القول والعمل. أو القضاء بين الناس بالحق.

و ﴿النبوة﴾ أى : الرسالة.

وقوله ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ أى : فإن يكفر بهذه الثلاث التى اجتمعت فيك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة، فلن يضرك كفرهم لأنا قد وفقنا للإيمان بها قوما كراما ليسوا بها بكافرين فى وقت من الأوقات وإنما هم مستمرون على الإيمان بك والتصديق برسالتك وفى ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله ﷺ عن إعراض بعض قومه عن دعوته.

والمراد بالقوم الذين وكلوا بالقيام بحق هذه الرسالة ووفقوا للإيمان بها أصحاب النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار مطلقًا، لأنهم هم الذين دافعوا عن دعوة الإسلام وبذلوا فى سبيل إعلانها نفوسهم وأموالهم، ويدخل معهم كل من سار على نهجهم فى كل زمان ومكان.

وقيل : المراد بهم أهل المدينة من الأنصار. وقيل : المراد بهم الأنبياء المذكورون وأتباعهم، وقيل غير ذلك.

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح لأن أصحاب النبى ﷺ هم المقابلون لكفار قريش الذين كفروا بها.

وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشىء ومراعاته، وإيذان بفخامة وعلو قدرها.

قال الإمام الرازى : «دلت هذه الآية على أن الله - تعالى - سينصر نبيه، ويقوى دينه، ويجعله مستعليا على كل من عاداه، قاهرًا لكل من نازعه، وقد وقع هذا الذى أخبر الله عنه فى هذا الموضع، فكان جاريا مجرى الإخبار عن الغيب فيكون معجزًا»[1].

ثم قال - تعالى - ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ أى : أولئك الأنبياء الذين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٨٦.

ذكرناهم لك - يا محمد - هم الذين هديناهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فبهداهم، أى : فبطريقتهم فى الإيمان بالله وفى تمسكهم بمكارم الأخلاق كن مقتديا ومتأسيا.

والمقصود إنما هو التأسى بهم فى أصول الدين، أما الفروع القابلة للنسخ فإنهم يختلفون فيها ويجوز عدم الاقتداء بهم بالنسبة لها قال - تعالى - ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾.

وتكرير اسم الإشارة لتأكيد تمييز المشار إليه، ولما يقتضيه للتكرير من الاهتمام بالخبر. وفى قوله ﴿فبهداهم اقتده﴾ تعريض بالمشركين إذ أن النبى ﷺ ما جاء إلا على سنة الرسل كلهم وأنه ما كان بدعا منهم، أما هم فقد اختلقوا لأنفسهم عبادات ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ختم الله - تعالى - هذا السياق بقوله : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا﴾ أى : قل أيها الرسول الكريم لمن بعثت إليهم لا أطلب منكم على ما أدعوكم إليه من خير وما أبلغكم إياه من قرآن أجرا قليلا أو كثيرا.

﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ أى : ما هذا القرآن إلا تذكيرا وموعظة للناس أجمعين فى كل زمان ومكان.

قال بعضهم : وفى الآية دليل على أنه ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن والإنس وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق.

* * *

وبعد أن بين - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وقومه من مجالات تتعلق بإثبات وحدانية الله، وإبطال الشرك، وحكى جانبا من النعم التى أنعم بها على خليله وعلى كل من سار على نهجه، وأخبر بأن هذا القرآن ما هو إلا تذكير للعالمين وأن المذكر به - لا يريد منهم أجرا على تبليغه، بعد كل ذلك أخذ القرآن فى الرد على منكرى نزول الكتب السماوية وفى بيان عاقبتهم الوخيمة بسبب هذا الجحود فقال - تعالى - :

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ
تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟
أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ

أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ
وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ
مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ
لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ كلمة ﴿قدروا﴾ مأخوذة من القدر - بفتح فسكون -، وأصل القدر معرفة مقدار الشيء بالسبر والحزر، يقال: قدر الشيء يقدره إذا سبره وحزره ليعرف مقداره، ثم استعمل فى معرفة الشيء على أتم الوجوه حتى صار حقيقة فيه.

والمعنى: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم، بل أخلوا بحقوقه إخلالا عظيما، وضلوا ضلالا كبيرا، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب، وقالوا تلك المقالة الشنعاء ما أنزل الله على بشر شيئًا من الأشياء، قاصدين بهذا القول الطعن فى نبوة النبى ﷺ وفى أن القرآن من عند الله.

ولفظ ﴿حق﴾ منصوب على المصدرية، وهو فى الأصل صفة للمصدر، أى: قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يلزمهم بما يخرس ألسنتهم، وأن يرد على سلبهم العام

بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم فقال - تعالى - : ﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورًا وهدى للناس﴾ أى : قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين بأن الله ما أنزل على بشر شيئًا من الأشياء : قل لهم من الذى أنزل التوراة وهو الكتاب الذى جاء به موسى ﴿نورًا وهدى للناس﴾ أى : ضياء من ظلمة الجهالة وهداية تعصم من الأباطيل والضلالة.

وكلمة ﴿نورا﴾ حال من الضمير فى به أو من الكتاب.

ثم بين - سبحانه - ما فعله الجاحدون بكتبه من تحريف وتغيير فقال : ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾.

القراطيس : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق ونحوه.

أى : تجعلون هذا الكتاب الذى أنزله الله نورا وهداية للناس أوراقا مكتوبة مفرقة لتتمكنوا من إظهار ما تريدون إظهاره منها، ومن إخفاء الكثير منها على حسب ما تمليه عليكم نفوسكم السقيمة وشهواتكم الأثيمة.

فالمراد من هذه الجملة الكريمة ذم المحرفين لكتب الله، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع، الذى قصدوا من ورائه الطعن فى نبوة النبى ﷺ والتوصل إلى ما يبغونه من مطامع وأهواء.

وقوله ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ أى : وعلمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من المعارف التى لا يرتاب عاقل فى أنها تنزيل ربانى.

وقوله ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾.

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين : الله - تعالى - هو الذى أنزل الكتاب على موسى، ثم بعد هذا القول الفصل ذرهم فى باطلهم الذى يخوضون فيه يلعبون، وفى غيهم يعمهون حتى يأتيهم من الله اليقين.

وفى أمره ﷺ بأن يجيب عنهم، إشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره، وتنبيهه على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب.

وكان العطف بثم فى قوله ﴿ثم ذرهم﴾ للدلالة على الترتيب الرتبى أى : أنهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى، وإنما كان الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم.

هذا، وللمفسرين لهذه الآية قولان :

الأول : أنها مكية النزول تبعًا للسورة، وأن الذين قالوا ﴿ما أنزل الله على بشر من شىء﴾

مشركو مكة، وإنما ألزمهم الله بإنزال التوراة لأنهم كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرون أن الله قد أنزلها على موسى.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال: عنى بذلك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ مشركو قريش. وذلك أن ذلك فى سياق الخبر عنهم. فأن يكون ذلك أيضًا خبرا عنهم أشبه من أن يكون خبرا عن اليهود ولما يجر لهم ذكر.. وليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وموسى..)[(١)].

وقد تابع ابن كثير رأى ابن جرير وقال: وهذا الرأى هو الأصح، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبى ﷺ لأنه من البشر كما قال - تعالى - ﴿أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ وكذا قالوا هنا ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾[(٢)].

الثانى: أن هذه الآية مدنية النزول، وكون سورة الأنعام مكية لا يمنع من وجود بعض آيات منها مدنية كما نص عليه كثير من العلماء.

ومما يؤيد كون هذه الآية مدنية ما ورد من آثار فى أسباب نزولها، ومن هذه الآثار ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال: قالت اليهود: والله ما أنزل الله من السماء كتابا) فنزل قوله - تعالى - ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.. الخ وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير - مرسلا - قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبى ﷺ فقال له النبى: «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين» -وكان حبرا سمينا- فغضب وقال: (هل أنزل الله على بشر من شيء) فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية[(٣)].

والذى نراه أن الآية الكريمة تصلح للرد على الفريقين: فريق المشركين وفريق اليهود إلا أن سياقها يجعلنا نرجح أن الخطاب فيها موجه بالأصالة إلى اليهود وإلى غيرهم بالتبع، لأنهم هم الذين جعلوا التوراة قراطيس أى أوراقا مفرقة ليظهروا منها ما يناسب أهواءهم وليخفوا منها ما فيه شهادة بصدق النبى ﷺ ولأن هناك آثارا متعددة تثبت أنها نزلت فى شأنهم.

وتوجيه الخطاب إلى اليهود لا يتنافى مع كونها مكية، لأنه ليس بلازم أن يكون كل قرآن مكى خطابا لغير اليهود.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص١٧٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٥٦.

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى هامش الجلالين ص٢٢٢.

وبعد أن أبطل -سبحانه- بالدليل قول من قال «ما أنزل الله على بشر من شىء» أتبعه ببيان أن هذا القرآن من عند الله وأنه مصدق للكتب السماوية السابقة ومهيمن عليها فقال - تعالى - :

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه﴾.

والمعنى : وهذا القرآن كتاب أنزلناه على قلبك يا محمد وهذا الكتاب من صفاته أنه مبارك أى : كثير الفوائد لاشتماله على منافع الدين والدنيا.

والمبارك اسم مفعول من باركه وبارك فيه، إذا جعل له البركة، ومعناها كثرة الخير ونماؤه.

وقدم هنا وصفه بالإنزال على وصفه بالبركة بخلاف قوله «وهذا ذكر مبارك أنزلناه» لأن الأهم هنا وصفه بالإنزال، إذ جاء عقيب إنكارهم أن ينزل الله على بشر من شىء بخلافه هناك.

ووقعت الصفة الأولى جملة فعلية لأن الإنزال يتجدد وقتا فوقتا، والثانية اسمية لأن الاسم يدل على الثبوت والاستقرار وهو مقصود هنا أى : أن بركته ثابتة مستقرة.

قال الإمام الرازى : العلوم إما نظرية وإما عملية، أما العلوم النظرية فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى فى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده فى هذا الكتاب، وأما العلوم العملية فالمطلوب إما أعمال الجوارح، وإما أعمال القلب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله بأن الباحث فيه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة»[1].

وقوله ﴿مصدق الذى بين يديه﴾ أى أن هذا القرآن موافق ومؤيد للكتب التى قبله فى إثبات التوحيد ونفى الشرك، وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ.

وقوله : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ أى : ولتنذر بهذا الكتاب أم القرى أى مكة، ومن حولها من أطراف الأرض شرقا وغربا لعموم بعثته ﷺ قال - تعالى - ﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ وقال - تعالى - ﴿قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾، وسميت مكة بأم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها كما يتبع الفرع الأصل، وفى ذكرها بهذا الاسم المنبىء عما ذكر إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة.

---

(١) تفسير الرازى جـ٤ ص٩٩.

ووجه الاقتصار على مكة ومن حولها فى هذه الآية أنهم الذين جرى الكلام والجدال معهم فى قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾.

قال الآلوسى : ويمكن أن يقال خصهم بالذكر لأنهم الأحق بإنذاره ﷺ فهو كقوله -تعالى- : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ولذا أنزل كتاب كل رسول بلسان قومه »(١).

وقال صاحب المنار « وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب فخصه بمن قرب منها عرفا، واستدلوا به على أن بعثة النبى ﷺ خاصة بقومه العرب. والاستدلال باطل وإن سلم التخصيص المذكور، فإن إرساله إلى قومه لا ينافى إرساله إلى غيرهم، وقد ثبت عموم بعثته ﷺ من آيات أخرى كقوله -تعالى- ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا﴾(٢).

وقوله ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾.

أى : والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يؤمنون بهذا الكتاب الذى أنزله الله هداية ورحمة لأن من صدق بالآخرة خاف العاقبة، وحرص على العمل الصالح الذى ينفعه.

ثم ختمت الآية بهذا الثناء الجميل عليهم فقالت ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أى يؤدونها فى أوقاتها مقيمين لأركانها وآدابها فى خشوع واطمئنان، وخصت الصلاة بالذكر لكونها أشرف العبادات وأعظمها خطرًا بعد الإيمان.

قال الإمام الرازى : « ويكفيها شرفا أنه لم يقع اسم الإيمان على شىء من العبادات الظاهرة إلا عليها كما فى قوله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أى صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شىء من المعاصى إلا على ترك الصلاة، ففى الحديث الشريف « من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر » فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر فى هذا المقام »(٣).

وبعد أن بين - سبحانه - مزايا هذا القرآن أتبع ذلك ببيان عاقبة الذين يفترون الكذب على الله - تعالى -، وصور أحوالهم عند النزع الأخير وعندما يقفون أمام ربهم للحساب بصورة ترتجف لها الأفئدة فقال - تعالى - :

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٢١٢.
(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٦٢٠.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٩٣.

والمعنى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق الكذب على الله فجعل له شركاء من خلقه، وأنكر ما جاء به النبى ﷺ من هدايات، وحلل وحرم بهواه ما لم يأذن به الله.

والاستفهام إنكارى فهو فى معنى النفى. و ﴿من﴾ اسم موصول والمراد به الجنس. أى: كل من افترى على الله كذبا، وليس المراد فردا معينا.

﴿أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء﴾ أى: قال بأن الله أوحى إلى بالرسالة أو النبوة مع أنه كاذب فى دعواه، فإن الله ما أوحى إليه شيئا، وهذا يصدق على ما ادعاه مسيلمة الكذاب والأسود العنسى من أنهما نبيان يوحى إليهما. ويصدق - أيضًا - على كل مدع للوحى والنبوة فى كل زمان ومكان.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على صلة ﴿من﴾ من عطف الخاص على العام، لأن هذا القول هو نوع من أنواع افتراء الكذب.

﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ أى: ولا أحد أظلم - أيضًا - ممن قال بأنى قادر على أن أنزل قرآنا مثل الذى أنزله الله كالذين حكى القرآن عنهم قوله: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد توعدت بأشد ألوان الوعيد كل مفتر على الله الكذب، وكل مدع أنه يوحى إليه شىء وكل من زعم أنه فى قدرته أن يأتى بقرآن مثل هذا القرآن كما حدث من النضر بن الحارث وعبد الله بن سعد بن أبى سرح.

ثم بين - سبحانه - مصير كل ظالم أثيم فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت﴾ أى: ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حالة أولئك الظالمين وهم فى غمرات الموت أى: فى شدائده وكرباته وسكراته لرأيت شيئا فظيعا هائلا ترتعد منه الأبدان، فجواب الشرط محذوف.

والغمرات: جمع غمرة وهى الشدة. وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها، يقال غمره الماء إذا علاه وستره ثم استعمل فى الشدائد والمكاره.

وتقييد الرؤية بهذا الوقت لإفادة أنه ليس المراد مجرد الرؤية، بل المراد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر.

وقوله ﴿والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أى والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم باسطوا أيديهم إليهم بالإماتة والعذاب قائلين لهم على سبيل التوبيخ والزجر: أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم.

والأمر هنا للتعجيز أى : أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن استطعتم إلى ذلك سبيلا .

قال الآلوسى : وذهب بعضهم إلى أن هذا تمثيل لفعل الملائكة فى قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه فى المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ولا أبرح مكانى حتى انتزعه منك[1] . وفى الكشاف : أنه كناية عن العنف فى السياق والإلحاح والتشديد فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ولا بسط ولا قول حقيقة هناك واستظهر ابن المنير أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فلا معدل عنها » .

ولعل مما يؤيد قول ابن المنير فى تعليقه على ما قال صاحب الكشاف ما جاء فى آية أخرى وهى قوله - تعالى - ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾[2] .

وقوله : ﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ هذا القول من تتمة ما تقوله الملائكة لأولئك الظالمين.

أى : تقول لهم أخرجوا أنفسكم، اليوم تلقون عذاب الذل والهوان لا بظلم من الرحمن، وإنما بسبب أنكم كنتم فى دنياكم تفترون على الله الكذب، وبسبب أنكم كنتم معرضين عن آياته، مستكبرين عنها ولا تتأملون فيها، ولاتعتبرون بها.

والمراد باليوم مطلق الزمن لا اليوم المتعارف عليه، وهو إما حين الموت أو مايشمله ومابعده.

والهون معناه : الهوان والذل، وفسره صاحب الكشاف، بالهوان الشديد وقال : « وإضافة العذاب إليه كقولك، رجل سوء يريد العراقة فى الهوان والتمكن فيه »[3] .

ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يعرضون للحساب فقال : ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ .

أى : ولقد جئتمونا للحساب والجزاء منعزلين ومنفردين عن الأموال والأولاد وعن كل ما جمعتموه فى الدنيا من متاع، أو منفردين عن الأصنام والأوثان التى زعمتهم أنها شفعاؤكم عند الله .

---

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص٢٢٤ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٥٠ .
(٣) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٧ .

وفرادى قيل هو جمع فرد، وفريد وقيل: هو اسم جمع لأن فردًا لا يجمع على فرادى وقول من قال إنه جمع: أراد أنه جمع له فى المعنى.

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة جاءت لبيان ما سيقوله الله لهؤلاء الظالمين يوم القيامة، بعد بيان ما تقوله ملائكة العذاب عند موتهم.

وقوله: ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ تشبيه للمجىء أريد منه معنى الإحياء بعد الموت الذى كانوا ينكرونه فقد رأوه رأى العين.

أى: جئتمونا منعزلين عن كل ما كنتم تعتزون به فى الحياة الدنيا، مجيئا مثل مجيئكم يوم خلقناكم أول مرة حفاة عراة. فالكاف فى محل نصب صفة لمصدر محذوف.

روى الشيخان عن ابن عباس قال: قام رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾»[1].

ورويا - أيضًا - عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «تحشرون حفاه عراة غرلا. قالت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[2].

وروى الطبرانى بسنده عن عائشة أنها قالت قرأت قول الله -تعالى- ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ فقالت: يا رسول الله واسوأتاه! الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال رسول الله ﷺ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال، شُغل بعضهم عن بعض.

قوله: ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أى: تركتم ما أعطيناكم وملكناكم فى الدنيا من أموال وأولاد وغيرهما وراء ظهوركم ولم تحملوا منه معكم نقيرا عندما جئتمونا للحساب.

الخول: ما أعطاه الله لعباده من النعم: يقال: خوله الشىء تخويلا، ملكه إياه ومكنه منه. ومنه التخول بمعنى التعهد.

والجملة الكريمة تتضمن توبيخهم، لأنهم لم يقدموا منه شيئًا فى دنياهم ليكون نافعا لهم فى أخراهم، بل جمعوه وتركوه لغيرهم دون أن ينتفعوا به فى معاذهم.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء باب قوله - تعالى - ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق. باب كيف الحشر.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالى! مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»(١).

وقوله: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ تقريع وتوبيخ لهم على شركهم.

أى: ما نرى وما نبصر معكم من زعمتم أنهم سيشفعون لكم عند الله من الأصنام والأوثان التى توهمتم أنهم شركاء لله تعالى فى ربوبيتكم واستحقاقه عبادتكم.

وقوله ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أى: لقد تقطع الاتصال الذى كان بينكم فى الدنيا واضمحل. ففاعل ﴿تقطع﴾ ضمير يعود على الاتصال المدلول عليه بلفظ ﴿شركاء﴾ و ﴿بينكم﴾ منصوب على الظرفية.

وقرىء بالرفع أى: لقد تقطع شملكم فإن البين مصدر يستعمل فى الوصل وفى الفراق بالاشتراك؛ والأصل لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به أى: تقطع ما بينكم من الأسباب والصلات.

﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أى: وغلب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء، ورجاء الأنداد والأصنام. كما قال - تعالى - ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾(٢).

وهكذا يسوق القرآن مشهد هؤلاء الظالمين بتلك الصورة التى تهز النفوس، وتحمل العقلاء على الإيمان والعمل الصالح.

* * *

وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانًا من الدلائل على وحدانيته، وعلى صدق نبيه ﷺ فيما يبلغه عن ربه، شرع - سبحانه - فى سرد مظاهر قدرته، وكمال علمه وحكمته عن طريق التأمل فى هذا الكون العجيب، وفى بدائع مخلوقاته فقال - تعالى - :

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق.
(٢) سورة البقرة الآيتان: ١٦٦، ١٦٧.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟
بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

قوله : ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾.

فالق : أى شاق، والفلق هو الشق وقيل، فالق بمعنى خالق وأنكر ابن جرير الطبرى ذلك وقال : لا يعرف فى كلام العرب فلق الشىء بمعنى خلق.

والحب. ما ليس له نوى كالحنطة والشعير.

والنوى : جمع نواة وهو الموجود فى داخل الثمرة، مثل نوى التمر وغيره.

والمعنى : إن الله وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامى، ويشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية، وفى ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التى لا تحد وعلى أنه هو المستحق للعبادة لا غيره.

هذا، وقد أفاض الإمام الرازى وهو يتحدث عن هذه الآية فى بيان قدرة الله فقال ما ملخصه :

«إذا عرفت هذا فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله - تعالى - فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر، فالأول يخرج منها الشجرة الصاعدة إلى الهواء، والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ثم إن ها هنا عجائب.

فإحداها : أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضى الهوى فى عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض؟ فلما تولد منها الشجرتان مع أن الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى - علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين.

وثانيها : أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوى فيه، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة وبحيث لو دلكها الإنسان بإصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ فى تلك الأرض الصلبة، والغوص فى بواطن تلك الأجرام الكثيفة. فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التى هى فى غاية اللطافة لابد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم.

ثم قال - رحمه الله - بعد كلام طويل : فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والأوتار فيها، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة فى الأرواح البشرية، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له، ويظهر لك أن أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية كما قال : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة»[(١)].

وقوله ﴿يخرج الحى من الميت﴾ أى : يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة.

والجملة الكريمة مستأنفة مبينة لما قبلها ولذلك ترك العطف، وقيل خبر ثان ولم يعطف لاستقلاله فى الدلالة على عظمة الله - تعالى -.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٩٧.

وقوله : ﴿ومخرج الميت من الحى﴾ أى : مخرج الميت كالحب والنوى من النبات والبيضة والنطفة من الحيوان.

قال صاحب المنار : فإن قيل إن علماء المواليد يزعمون أن فى كل أصول الأحياء حياة فكل ما ينبت من ذلك ذو حياة كامنة إذا عقم بالصناعة لا ينبت، قلنا : إن هذا اصطلاح لهم يسمون القوة أو الخاصية التى يكون بها الحب قابلا للإنبات حياة، ولكن هذا لا يصح فى اللغة إلا بضرب من التجوز وإنما حقيقة الحياة فى اللغة ما يكون به الجسم متغذيًا ناميًا بالفعل، وهذا أدنى مراتب الحياة عند العرب، ولها مراتب أخرى كالإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام، وهذا أعلى مراتب الحياة فى المخلوق»[1].

ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس أن معنى الجملتين : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ومثله إخراج البار من الفاجر والصالح من الطالح والعالم من الجاهل وعكسه، وذلك بحمله الحياة والموت على المعنوى منها كما فى قوله - تعالى - ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه﴾.

ويبدو لنا أن حمل الحياة والموت هنا على المعنى المعنوى لا يناسبه سياق الآيات التى معنا، لأنها تتحدث عن آثار قدرة الله المحسوسة ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ويتأمل كل ذى عقل فى مظاهر قدرة الله فى كونه يهتدى إلى طريق الحق والصواب.

وقوله ﴿ومخرج الميت من الحى﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله ﴿يخرج الحى من الميت﴾ لأنه إخبار بضد مضمونه وهو وضع آخر عجيب دال على كمال القدرة.

وجىء بجملة ﴿يخرج الحى من الميت﴾ فعليه لإرادة تصوير إخراج الحى من الميت واستحضاره فى ذهن السامع. وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضى.

ويرى صاحب الكشاف أن قوله : ﴿ومخرج الميت من الحى﴾ معطوف على ﴿فالق﴾ لا على ﴿يخرج﴾ لأنه بيان لفالق الحب والنوى.

قال - رحمه الله : فإن قلت : كيف قال ﴿ومخرج الميت من الحى﴾ بلفظ اسم الفاعل بعد قوله : ﴿يخرج الحى من الميت﴾؟ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفعل، ويخرج الحى من الميت : موقعه موقع الجملة المبينة لقوله ﴿فالق الحب والنوى﴾ لأن فالق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحى من الميت، لأن النامى فى حكم الحيوان ألا ترى إلى قوله - تعالى - ﴿ويحيى الأرض بعد موتها﴾[2].

(١) تفسير المنار جـ٧ ص٦٣١.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٨.

﴿ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾ الأفك - بفتح الهمزة - مصدر أفكه يأفكه من باب ضرب إذا صرفه عن مكان أو عن عمل، ويقال أفكت الأرض أفكا: أى صرف عنها المطر.

والإشارة بذلكم لزيادة التمييز، وللتعريض بغباوة المخاطبين والمشركين لغفلتهم عن هذه الدلالة على أنه هو المستحق للعبادة.

والمعنى: ذلكم المتصف بما ذكر من مقتضى الحكمة البالغة والقدرة النافذة هو الله خالق كل شيء فكيف تصرفون عن عبادة من يخلق إلى عبادة من لا يخلق، وتشركون معه من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرًا؟.

قال الإمام الرازى: والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان، فحصول المثل عن المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية. أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية بل لابد أن يكون بتقدير المقدر الحكيم والمدبر العليم»[1].

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من مظاهر قدرته وحكمته فقال: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانا﴾.

الإصباح: مصدر سمى به الصبح، أى: شاق ظلمة الصبح - وهى الغبش فى آخر الليل الذى يلى الفجر المستطيل الكاذب - عن بياض النهار فيضيء الوجود، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده، ويجيء النهار بضيائه.

وجملة «فالق الإصباح» خبر لمبتدأ محذوف أى: هو فالق، أو خبر آخر لإنّ ﴿وجعل الليل سكنا﴾ أى وجعل الليل محلا لسكون الخلق فيه، وراحة لهم بعد معاشهم بالنهار وسعيهم للحصول على رزقهم.

قال صاحب الكشاف: السكن: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحا إليه، من زوج أو حبيب. ومنه قيل للنار سكن لأنه يستأنس بها، ألا تراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن إليه المتعب بالنهار لاستراحته فيه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكونا فيه من قوله: ﴿لتسكنوا فيه﴾[2].

﴿والشمس والقمر حسبانا﴾ الحسبان فى الأصل مصدر حسب - بفتح السين - كالغفران والشكران تقول حسبت المال حسبانا: أى أحصيته عددا. والمعنى: وجعل الشمس والقمر يجريان فى الفلك بحساب مقدر معلوم لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهى إلى أقصى منازلهما بحيث

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٨.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٩.

تتم الشمس دورتها فى سنة ويتم القمر دورته فى شهر، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها، قال - تعالى - ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾(١).

وقوله ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أى: ذلك الجعل والتسيير البديع الشأن تقدير العزيز، أى: الغالب القاهر الذى لا يتعاصاه شىء من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص، العليم بكل شىء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ما ملخصه:

«اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته فالنوع المتقدم - أى قوله ﴿إن الله فالق﴾ . . . إلخ - كان مأخوذا من دلالة أحوال النبات والحيوان، والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعًا من الأحوال الأرضية».

وبعد أن ساق - رحمه الله - الأدلة على ذلك قال: والعزيز إشارة إلى كمال قدرته، والعليم إشارة إلى كمال علمه، ومعناه: أن تقدير الأفلاك بصفاتها المخصوصة، وهيآتها المحدودة، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات، وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار والله أعلم»(٢).

ثم ساق - سبحانه - نوعا ثالثا من الدلائل على كمال قدرته ورحمته وحكمته فقال - تعالى - ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾ أى: وهو - سبحانه - وحده الذى أنشأ لكم هذه الكواكب النيرة لتهتدوا بها إلى الطرق والمسالك خلال سيركم فى ظلمات الليل بالبر والبحر حيث لا ترون شمسا ولا قمرا.

وجملة ﴿لتهتدوا بها﴾ بدل اشتمال من ضمير ﴿لكم﴾ بإعادة العامل، فكأنه قيل: جعل النجوم لاهتدائكم.

﴿قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ أى: قد وضحنا وبينا الآيات الدالة على قدرته -تعالى-

---

(١) سورة يونس: الآية ٥.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٩٩.

ورحمته بعباده، لقوم يعلمون وجه الاستدلال بها فيعملون بموجب علمهم، ويزدادون إيمانا على إيمانهم.

فالجملة الكريمة مستأنفة للتسجيل والتبليغ وقطع معذرة من لم يؤمنوا.

والتعريف فى الآيات للاستغراق فيشمل آية خلق النجوم وغيرها.

ثم ساق - سبحانه - لونا رابعا من دلائل كمال قدرته ورحمته. فقال - تعالى - : ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾.

أى: وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم - عليه السلام - قال - تعالى - ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة تذكير بنعمة أخرى من نعم الله على خلقه، لأن رجوع الناس إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتراحم والتعاطف، وفيها - أيضًا - دليل على عظيم قدرته -عز وجل-. والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فمستقر ومستودع﴾ للتفريع عن أنشأكم.

أى: أنشأكم من نفس واحدة فلكم موضع الاستقرار فى الأرحام أو فى الأرض وموضع استيداع فى الأصلاب أو فى القبور.

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس، وقد زكاه الإمام الرازى فقال: ومما يدل على قوة هذا القول أن النطفة الواحدة لا تبقى فى صلب الأب زمانا طويلا فالمستقر أقرب إلى الثبات من المستودع »[1].

وقيل المستقر حالة الإنسان بعد الموت لأنه إن كان سعيدا فقد استقرت تلك السعادة، وكذلك إن كان شقيا، والمستودع حالة قبل الموت لأن الكافر قد ينقلب مؤمنا.

وقيل: المستقر من خلق من النفس الأولى ودخل الدنيا واستقر فيها، والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق.

والذى نراه أن الرأى الأول هو الصحيح لأنه رأى جمهور المفسرين، ولأن شواهد القرآن تؤيده كما فى قوله - تعالى - ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وكما فى قوله - تعالى - ﴿ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾.

وقرىء ﴿فمستقِر﴾ - بكسر القاف - أى: فمنكم مستقر فى الأرحام ومنكم مستودع.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٠٤.

وقوله ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ أى : قد فصلنا الآيات الدالة على قدرتنا ووضحناها لقوم يفقهون ما يتلى عليهم ويتدبرونه فينتفعون بذلك.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل «يعلمون» مع ذكر النجوم و﴿يفقهون﴾ مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنته وتدقيق نظره مطابقا له[1].

وقد علق صاحب الانتصاف على كلام الزمخشرى بما ملخصه : «جواب الزمخشرى صناعى، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ، لما فى ذلك من التكرار فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسينًا للنظم واتساقا فى البلاغة، ويحتمل وجهًا آخر فى تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته وكانت الآية الأولى خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلـهية فى تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر، ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة، وتقلباتهم فى أطوار مختلفة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلا وهم الذين لا يتبصرون فى أنفسهم، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة فخص به أسوأ الفريقين حالا.. وإذا قيل : فلان «لا يفقه شيئًا» كان أذم فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئًا وكأن معنى قولك لا يفقه شيئًا ليست له أهلية الفهم وإن فهم، وأما قولك «لا يعلم شيئًا» فغايته نفى حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم»[2].

ثم ساق - سبحانه - حجة خامسة تدل دلالة واضحة على كمال قدرته وعلمه ورحمته وإحسانه إلى خلقه فقال - تعالى - :

﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء﴾.

أى : وهو - سبحانه - الذى أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب ذلك كل صنف من أصناف النبات والثمار المختلفة فى الكم والكيف والطعوم والألوان، قال - تعالى - ﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٥١.

(٢) حاشية الانتصاف على تفسير الكشاف جـ٢ ص٥ لابن المنير.

ونفضل بعضها على بعض فى الأكل، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

وسمى السحاب سماء لأن العرب تسمى كل ما علا سماء، ونزول الماء من السحاب قد جاء صريحًا فى مثل قوله - تعالى - ﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من السماء﴾ ابتدائية، لأن ماء المطر يتكون فى طبقات الجو العليا الباردة عند تصاعد البخار الأرضى إليها فيصير البخار كثيفا وهو السحاب ثم يتحول إلى ماء، والباء فى ﴿به﴾ للسببية. حيث جعل الله - تعالى - الماء سببًا فى خروج النبات، والفاء فى قوله ﴿فأخرجنا به﴾ للتفريع و ﴿أخرجنا﴾ عطف على ﴿أنزل﴾ والالتفات إلى التكلم إظهار لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله.

ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل ما أجمل من الإخراج فقال : ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ أى : فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له نباتا غضا أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة، وخضر بمعنى أخضر اسم فاعل. يقال : خضر الزرع - من باب فرح - وأخضر، فهو خضر وأخضر.

وقوله ﴿نخرج منه حبًا متراكبًا﴾. أى : نخرج من هذا النبات الخضر ﴿حبًا متراكبًا﴾ أى : متراكما بعضه فوق بعض كما فى الحنطة والشعير وسائر الحبوب، يقال : ركبه - كسمعه - ركوبًا ومراكبًا. أى : علاه.

وجملة ﴿نخرج منه﴾ صفة لقوله «خضرا». وعبر عنها بصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة لأن إخراج الحب المتراكب من هذا الخضر الغض يدعو إلى التأمل والإعجاب بمظاهر قدرة الله.

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى فقال : ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾.

الطلع : أول ما يبدو ويخرج من تمر النخل كالكيزان. وقشره يسمى الكفرى؛ وما فى داخله يسمى الإغريق لبياضه.

والقنوان. جمع قنو وهو العرجون بما فيه الشماريخ، وهو ومثناه سواه لا يفرق بينهما إلا فى الإعراب. أى : ونخرج بقدرتنا من طلع النخل قنوان دانية القطوف، سهلة التناول أو بعضها دان قريب من بعض لكثرة حملها.

قال صاحب الكشاف : و ﴿قنوان﴾ رفع بالابتداء، و ﴿من النخل﴾ خبره و ﴿من طلعها﴾

بدل منه. كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان دانية. وذكر القريبة وترك ذكر البعيدة، لأن النعمة فيها أظهر وأدل، واكتفى بذكر القريبة على ذكر البعيدة كقوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾[1].

وقوله: ﴿وجنات من أعناب﴾ معطوف على ﴿نبات كل شىء﴾ أى: فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شىء وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب. وجعله: بعضهم عطفًا على ﴿خضرا﴾. وقيل هو معطوف على ﴿حبًا﴾.

وقوله: ﴿والزيتون والرمان﴾ منصوب على الاختصاص أى: وأخص من نبات كل شىء الزيتون والرمان، وقيل معطوف على ﴿نبات كل شىء﴾.

قال الآلوسى: وقوله: ﴿مشتبها وغير متشابه﴾ إما حال من الزيتون لسبقه اكتفى به عن حال ما عطف عليه وهو الرمان والتقدير: والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك، وإما حال من الرمان لقربه ويقدر مثله فى الأول.

وأياما كان ففى الكلام مضاف مقدر وهو بعض. أى بعض ذلك مشتبهًا وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها، وحكمة منشئها ومبدعها كما قال - تعالى - ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل﴾[2].

ثم أمر الله عباده أن يتأملوا فى بديع صنعه فقال: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أى: انظروا نظر تأمل واعتبار إلى ثمار كل واحد مما ذكرنا حال ابتدائه حين يكون ضئيلا ضعيفًا لا يكاد ينتفع به، وحال ينعه أى: نضجه كيف يصير كبيرًا أو جامعًا لألوان من المنافع والملاذ.

يقال: أينعت الثمرة إذا نضجت.

وقوله ﴿إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ أى: إن فى ذلكم الذى ذكرناه من أنواع النبات والثمار، وذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم لقوم يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار لهو المستحق للعبادة دون ما سواه أو هو القادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم.

قال الشيخ القاسمى: قال بعضهم: القوم كانوا ينكرون البعث فاحتج عليهم بتعريف ما خلق ونقله من حال إلى حال وهو ما يعلمونه قطعًا ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها،

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٥١.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٢٤٠.

وإخراج أنواع النبات والثمار منها. وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله - تعالى - فبين أنه - سبحانه - كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء، ثم إنبات الأجساد كالنبات، ثم جعلها خضرة بالحياة ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة، وإفادة أمور زائدة وتفريعها، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة غير متشابهة فى اللذة جزاء عليها»[١].

هذا وقد أفاض الإمام الرازى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية فى بيان مظاهر قدرة الله وكمال رحمته وحكمته فقال ما ملخصه :

«اعلم أنه - تعالى - ذكره هنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان. وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفاكهة، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب. وإنما ذكر العنب عقيب النخيل، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعًا به إلى آخر الحال. وأما الزيتون فهو - أيضًا - كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو وينفصل - أيضًا - عنه دهن كثير عظيم النفع. وأما الرمان فحاله عجيب جدًا. واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفى بشرحها مجلدات، فلهذا السبب ذكر - سبحانه - هذه الأقسام الأربعة التى هى أشرف أنواع النبات، واكتفى بذكرها تنبيهًا على البواقى.

ثم قال : وقد أمر - سبحانه - بالنظر فى حال ابتداء الثمر ونضجه لأن هذا هو موضوع الاستدلال، والحجة التى هى تمام المقصود من هذه الآية وذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد فى أول حدوثها عن صفات مخصوصة وعند تمامها لا تبقى على حالاتها الأولى بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة، وربما كانت فى أول الأمر باردة بحسب الطبيعة فتصير فى آخر أمرها حارة بحسب الطبيعة - أيضًا - فحصول هذه المتبدلات والمتغيرات لابد له من سبب، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك، لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسبابًا لحدوث الحوادث المختلفة. ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والأنجم والأفلاك وجب إسناده إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة، والمصلحة الحكيمة»[٢].

---

(١) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٤٢٩.

(٢) راجع الفخر الرازى جـ٤ ص١٠٧ طبع المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤هـ.

وبعد أن ذكر - سبحانه - تلك الدلائل الدالة على عظيم قدرته، وباهر حكمته ووافر نعمته. واستحقاقه الألوهية، أتبعها بتوبيخ المشركين والرد عليهم بما يرشدهم إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال - تعالى - :

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ أى : وجعل هؤلاء المشركون لله - سبحانه - شركاء فى الألوهية والربوبية من الجن.

وفى المراد بالجن هنا أقوال :

أحدها : أنهم الملائكة حيث عبدوهم. وقالوا إنهم بنات الله وتسميتهم جنا مجازًا لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين كالجن.

والثانى : أن المراد بالجن هنا الشياطين. ومعنى جعلهم شركاء أنهم أطاعوهم فى أمور الشرك والمعاصى كما يطاع الله - تعالى -.

والثالث : أن المراد بالجن إبليس فقد عبده قوم وسموه ربا ومنهم من سماه إله الشر والظلمة وخص البارى بألوهية الخير والنور. وقد نقل هذا الرأى عن ابن عباس، وقد قال الرازى عن هذا الرأى أنه أحسن الوجوه المذكورة فى هذه الآية.

أما ابن كثير فقد رجح الرأى الثانى وقال : فإن قيل كيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟.

فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم لهم بذلك كقوله : ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ وكقوله ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان، إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم﴾ وتقول الملائكة يوم القيامة : ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾[1].

وقال - سبحانه - ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ ولم يقل : وجعلوا الجن شركاء لله. لإفادة أن محل الغرابة والنكارة أن يكون لله شركاء. ولو قال وجعلوا الجن شركاء لله لأوهم أن موضع الإنكار أن يكون الجن شركاء لله لكونهم جنا. وليس الأمر كذلك، بل المنكر أن يكون لله شريك من أى جنس كان.

وجملة : ﴿وخلقهم﴾ حال من فاعل ﴿جعلوا﴾ مؤكدة لما فى جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان.

أى : وجعلوا لله شركاء الجن والحال أنهم قد علموا أن الله وحده هو الذى خلقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق، وعليه فالضمير فى خلقهم يعود على المشركين الذين جعلوا لله شركاء.

وقيل الضمير للشركاء أى : والحال أنهم قد علموا أن الله هو الذى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له ؟.

وقوله ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ أى : واختلقوا وافتروا له بجهلهم وانطماس بصيرتهم بنين وبنات من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رميًا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية. أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره، وفيه ذم لهم بأنهم يقولون ما يقولون بمجرد الرأى والهوى وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه - تعالى - إلا ما قام الدليل على صحته.

قال الراغب : «أصل الخرق قطع الشىء على سبيل الفساد من غير تدبر ولا تفكر، قال - تعالى - ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾، وهو ضد الخلق لأن الخلق هو فعل الشىء بتقدير ورفق»[2].

ثم ختمت الآية الكريمة بتنزيه الله - تعالى - عما نسبوه إليه فقال - تعالى - : ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ أى : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه به هؤلاء الضالون من الأجداد والأولاد والنظراء والشركاء.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٠.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص١٤٦.

ثم ساق - سبحانه - الأدلة المبطلة لما تفوه به المشركون من مزاعم فقال - تعالى - ﴿بديع السمٰوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾.

أى : هو مبدعهما ومنشئهما وخالقهما على غير مثال سبق، ومنه سميت البدعة بدعة لأنه لا نظير لها فيما سلف.

وقوله : ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أى : من أين وكيف يكون له ولد - كما زعموا - والحال أنه ليس له صاحبة يكون الولد منها، ويستحيل ضرورة وجود الولد بلا والدة وإن أمكن وجوده بلا والد، وأيضًا الولد لا يحصل إلا بين متجانسين ولا مجانس له - سبحانه -.

وجملة ﴿أنى يكون له ولد﴾ مستأنفة لتقرير تنزهه عن ذلك، وجملة ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ حال مؤكدة لاستحالة ما نسبوه إليه من الولد.

وقوله ﴿وخلق كل شيء﴾ جملة أخرى مستأنفة لتحقيق ما ذكر من الاستحالة، أو حال ثانيه مقررة لها.

أى : كيف يكون له ولد والحال أنه خلق كل شيء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولدًا له - تعالى - فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدًا لخالقه؟

قال صاحب الكشاف : «وفى هذه الآية الكريمة إبطال لأن يكون لله ولد من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن مبتدع السمٰوات والأرض وهى أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة. لأن الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسمًا حتى يكون والدًا.

والثانى : أن الولادة لا تكون إلا لمن له صاحبة والله - تعالى - لا صاحبة له فلم تصح الولادة.

والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيًا عن كل شيء والولد إنما يطلبه المحتاج[(١)].

وجملة ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ببطلان أن يكون له ولد.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٥٢.

أى : أنه - سبحانه - عالم بكل المعلومات، فلو كان له ولد فلابد أن يتصف بصفاته ومنها عموم العلم، وهو منفى عن غيره بالإجماع.

وبعد أن أبطل - سبحانه - الشرك ونعى على معتنقيه سوء تفكيرهم، دعا المكلفين إلى إخلاص العبودية لله وحده فقال - تعالى - :

﴿ذلكم الله ربكم لا إلـه إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾.

أى ذلكم الموصوف بما سمعتم من جلائل الصفات هو الله ربكم لا من زعمتم من الشركاء، فأخلصوا له العبادة فهو - سبحانه - الخالق لكل شيء وما عداه فهو مخلوق يجب أن يعبد خالقه.

وقوله ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أى وهو مع تلك الصفات الجليلة رقيب على عباده حفيظ عليهم، يدبر أمرهم، ويتولى جميع شئونهم.

وقوله : ﴿لا تدركه الأبصار﴾ جملة مستأنفة إما مؤكدة لقوله ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فيجب أن يخاف ويحذر، وأما مؤكدة أعظم تأكيد لما تقرر قبل من تنزهه وتعاليمه عما وصفه به المشركون، ببيان أنه لا تراه الأبصار المعبودة وهى أبصار أهل الدنيا لجلاله وكبريائه وعظمته. فكيف يكون له ولد؟.

والإدراك : اللحاق والوصل إلى الشيء والإحاطة به. والأبصار جمع بصر يطلق - كما قال الراغب - على الجارحة الناظرة وعلى القوة التى فيها.

والمعنى : لا تحيط بعظمته وجلاله على ما هو عليه - سبحانه - أبصار الخلائق، أو لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة بكنهه وحقيقته فإن ذلك محال والإدراك بهذا المعنى أخص من الرؤية التى هى مجرد المعاينة، فنفيه لا يقتضى نفى الرؤية، لأن نفى الأخص لا يقتضى نفى الأعم فأنت ترى الشمس والقمر ولكنك لا تدرك كنههما وحقيقتهما.

هذا، وهناك خلاف مشهور بين أهل السنة والمعتزلة فى مسألة رؤية الله - تعالى - فى الآخرة.

أما أهل السنة فيجيزون ذلك ويستشهدون بالكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله - تعالى - ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ ومن السنة ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلى قال : كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾.

قال الإمام ابن كثير: تواترت الأخبار عن النبى ﷺ أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات»[١].

أما المعتزلة فيمنعون رؤية المؤمنين لله - تعالى فى الآخرة، واستدلوا فيما استدلوا بهذه الآية، وقالوا: إن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين ما أدركته ببصرى ورأيته إلا فى اللفظ.

والذى نراه أن رأى أهل السنة أقوى لأن ظواهر النصوص تؤيدهم ولا مجال هنا لبسط حجج كل فريق، فقد تكفلت بذلك كتب علم الكلام[٢].

وقوله ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أى: وهو يدرك القوة التى تدرك بها المبصرات. ويحيط بها علما، إذ هو خالق القوى والحواس.

وقوله ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أى: هو الذى يعامل عباده باللطف والرأفة وهو العليم بدقائق الأمور وجلياتها.

* * *

ثم أخذ القرآن فى تثبيت النبى ﷺ وفى تسليته. وفى مدح ما جاء به من هدايات فقال - تعالى -:

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ
فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦١.
(٢) راجع تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٤٤٦ وما بعدها.

يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا
جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

قوله ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ البصائر: جمع بصيرة، وهى للقلب بمنزلة البصر للعين، فهى النور الذى يبصر به القلب، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين.

والمراد بها آيات القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة. أى: قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالقكم هذا القرآن بآياته وحججه وهداياته لكى تميزوا بين الحق والباطل، وتتبعوا الصراط المستقيم.

وإطلاق البصائر على هذه الآيات من إطلاق اسم المسبب على السبب.

وقوله: ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾ أى: فمن أبصر الحق وعلمه بواسطة تلك البصائر وآمن به فلنفسه أبصر وإياها نفع، ولسعادتها ما قدم من ألوان الخير، ومن عمى عن الحق وجهله بإعراضه عن هذه البصائر فعلى نفسه وحدها جنى وإياها ضرب العمى وهذا كقوله - تعالى -: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ وقوله: ﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

واختتمت الآية بقوله ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أى: وما أنا عليكم برقيب أحصى عليكم أعمالكم، وأحفظكم من الضلال، وإنما أنا علىَّ البلاغ والله وحده هو الذى يحصى عليكم أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون.

وقوله: ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أى: وكما فصلنا الآيات الدالة على التوحيد فى هذه السورة تفصيلا بديعا محكما نفصل الآيات ونبينها ونتوعها فى كل موطن لتقوم على الجاحدين الحجة، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم.

﴿وليقولوا درست﴾ يقال درس الكتاب يدرسه دراسة إذا أكثر قراءته وذلك للحفظ. وأصله من درس الحنطة يدرسها درسا ودراسا إذا داسها، فكأن التالى يدوس الكلام فيخفف على لسانه.

والمعنى : وليقول المشركون فى الرد عليك : إنك يا محمد قد قرأت الكتب على أهل الكتاب وتعلمت منهم، وحفظت عن طريق الدراسة أخبار من مضى، ثم جئتنا بعد كل ذلك تزعم أن ما جئت به من عند الله، وما هو من عند الله.

وقد حكى القرآن فى مواضع كثيرة التهم الباطلة التى وجهها المشركون إلى النبى ﷺ ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[1].

قال ابن عباس : ﴿وليقولوا﴾ يعنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن ﴿درست﴾ يعنى : تعلمت من يسار وخير - وكانا عبدين من سبى الروم - ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله.

وقال الفراء : معناه، تعلمت من اليهود لأنهم كانوا معروفين عند أهل مكة بالعلم والمعرفة.

وقرىء (دارست) - بالألف وفتح التاء - أى : دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية كأهل الكتاب، من المدارسة بين الإثنين، أى : قرأت عليهم وقرءوا عليك.

قال تعالى : ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾.

وقرىء - أيضًا - (درست) - بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء - أى : وليقولوا مضت وقدمت وتكررت على الأسماع، وقد حكى القرآن أنهم قالوا أساطير الأولين قال - تعالى - ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

وهذه القراءات الثلاث متواترة وهناك قراءات أخرى شاذة لا مجال لذكرها هنا.

وقوله : ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ أى : ولنبين ونوضح هذا القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه، فهم المنتفعون به دون سواهم.

فالضمير فى ﴿ولنبينه﴾ يعود إلى القرآن لكونه معلوما وإن لم يجر له ذكر، وقيل : يعود إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين اللامين فى ﴿وليقولوا﴾ و﴿لنبينه﴾ ؟

(١) سورة الفرقان آية ٤، ٥.

قلت : الفرق بينهما أن الأول مجاز والثانية حقيقة، وذلك لأن الآيات صرفت للنبيين ولم تصرف ليقولوا درست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل للنبيين شبه به فسيق مساقه[1].

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمر فى دعوته دون أن يعول على تعنت المشركين فقال - تعالى - ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إلـه إلا هو وأعرض عن المشركين﴾.

أى عليك يا محمد أن تداوم على تبليغ رسالتك، متبعا فى ذلك ما أوحاه إليك ربك الذى لا إلـه إلا هو من آيات وهدايات، معرضا عن المشركين الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون.

وجملة ﴿لا إلـه إلا هو﴾ معترضة لتأكيد إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة لقوله «من ربك» بمعنى : منفردًا فى الألوهية.

ثم هون عليه أمر إعراضهم فقال - تعالى - ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾. أى : ولو شاء الله عدم إشراكهم لما أشركوا، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك لأنه جرت سنته برعاية الاستعدادات.

قال الآلوسى : وهذا دليل أهل السنة على أنه تعالى - لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه يمنعه عنه مع توجهه إليه، ولكن بمعنى أنه - تعالى - لا يريده منه لسوء اختياره الناشىء من سوء استعداده»[2].

وقوله ﴿وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل﴾ أى : وما جعلناك عليهم حفيظا يحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم وتجازيهم عليها وما أنت عليهم بوكيل تدبر عليهم أمورهم وتتصرف فيها، وإنما أنت وظيفتك التبليغ قال - تعالى - ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وقال - تعالى - ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾.

ثم أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، فنهاهم عن سب آلهة المشركين حتى لا يقابلهم المشركون بالمثل فقال - تعالى - : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾.

السب : الشتم الوضيع وذكر مساوىء الغير لمجرد التحقير والإهانة.

وعدوا : مصدر بمعنى العدوان والظلم والتجاوز من الحق إلى الباطل وهو مفعول مطلق

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٥٥.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٢٥٠.

«لتسبوا». من معناه، لأن السب عدوان، وقيل هو حال من ضمير ﴿يسبوا﴾ مؤكدة لمضمون الجملة وكذلك قوله ﴿بغير علم﴾.

والمعنى: ولا تسبوا ايها المؤمنون آلهة المشركين الباطلة فيترتب على ذلك أن يسب المشركون معبودكم الحق جهلا منهم وضلالا.

قال الآلوسي: ومعنى سبهم لله - تعالى - إفضاء كلامهم إليه كشتمهم له ﷺ ولمن يأمره وقد فسر ﴿بغير علم﴾ بذلك أى: فيسبوا الله - تعالى - بغير علم أنهم يسبونه وإلا فالقوم كانوا يقرون بالله - تعالى - وعظمته وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عنده - سبحانه - فكيف يسبونه؟ ويحتمل أن يراد سبهم له - عز وجل - صراحة ولا إشكال بناء على أن الغضب والغيظ قد يحملهم على ذلك، ألا ترى أن المسلم قد تحمله شدة غيظة على التكلم بالكفر! ومما شاهدناه أن بعض جهلة العوام رأى بعض الرافضة يسب الشيخين - أبا بكر وعمر - فغاظه ذلك جدًا فسب عليا - كرم الله وجهه - فسئل عن ذلك فقال: ما أردت إلا إغاظتهم ولم أر شيئًا يغيظهم مثل ذلك فاستتيب عن هذا الجهل العظيم»[١].

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما رواه معمر عن قتادة قال. كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم فنزلت»[٢].

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: سب الآلهة الباطلة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه وإنما يصح النهى عن المعاصى؟ قلت رب طاعة علم أنها تؤدى إلى مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة. كالنهى عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ووجب النهى عن ذلك كما يجب النهى عن المنكر»[٣].

وقال الشيخ القاسمى: قال ابن الفارس فى الآية: إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن لم يجز أن يسبوا الهتهم ولا دينهم، وهذا أصل فى سد الذرائع».

وقال السيوطى: «وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى وكذا كل مفعول مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه».

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٤٥١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٤.
(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٦.

وقال الحاكم: نهوا عن سب الأصنام لوجهين:

أحدهما: أنها جماد لا ذنب لها.

والثانى: أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسب الله - تعالى -. والذى يجب علينا إنما هو بيان بغضها وأنه لا تجوز عبادتها، وأنها لا تضر ولا تنفع، وأنها لا تستحق العبادة، وهذا ليس بسب. ولهذا قال أمير المؤمنين على - يوم صفين - «لا تسبوهم ولكن اذكروا قبيح أفعالهم»(١).

وقال بعض العلماء: ووجه النهى عن سب أصنامهم هو أن السب لا تترتب عليه مصلحة دينية، لأن المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله - تعالى فذلك الذى يتميز به المحق من المبطل، فأما السب فإنه مقدور للمحق وللمبطل فيظهر بمظهر التساوى بينهما، وربما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه مالا يستطيعه المحق، فيلوح للناس أنه تغلب على المحق. على أن سب آلهتهم لما كان يحمى غيظهم ويزيد تصلبهم صار منافيًا لمراد الله من الدعوة فقد قال لرسول الله ﷺ ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾. وأصبح هذا السب متمحضًا للمفسدة وليس مشوبًا بمصلحة، وليس هذا مثل تغيير المنكر إذا خيف إفضاؤه إلى مفسدة، لأن تغيير المنكر مصلحة بالذات وإفضاؤه إلى المفسدة بالعرض. وذلك مجال تتردد فيه أنظار العلماء المجتهدين بحسب الموازنة بين المصالح والمفاسد قوة وضعفًا وتحققًا واحتمالا، وكذلك القول فى تعارض المصالح والمفاسد كلها(٢).

وهذه الآية الكريمة ليست منسوخة بآية السيف - كما قيل - وإنما هى محكمة ولذا قال القرطبى: قال العلماء: حكمها باق فى هذه الأمة على كل حال فمتى كان الكافر فى منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبى ﷺ أو الله - تعالى - فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدى إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية»(٣).

وقوله ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾.

التزيين تفعيل من الزين وهو الحسن.

والمعنى: مثل ذلك التزيين الذى حمل المشركين على الدفاع عن عقائدهم الباطلة جهلا منهم وعدوانا، زينا لكل أمة من الأمم عملهم، من الخير والشر والإيمان والكفر، فقد مضت سننا فى أخلاق البشر أن يستحسنوا ما تعودوه، وأن يتعلقوا بما ألفوه.

---

(١) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٤٦٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ٧ ص٤٣٠ للشيخ محمد بن عاشور.

(٣) تفسير القرطبى جـ٧ ص٦٠.

وقيل : المراد بكل أمة أمم الفكر لأن الكلام فيهم. والمراد بعملهم. شرورهم ومفاسدهم. والمشبه به تزيين سب الله - تعالى - لهم.

أى : كما زينا لهؤلاء المشركين سوء أعمالهم زينا لكل أمة من الأمم الماضية على الضلال عملهم السيء.

قال الألوسى : «وقد استدل بالآية على أنه - تعالى - هو الذى زين للكافر كفره كما زين للمؤمن إيمانه. وأنكر ذلك المعتزلة فتأولوا الآية بما لا يخفى ضعفه».

وقال صاحب المنار : فظهر بهذا التزيين أثر لأعمال اختيارية لا جبر فيها ولا إكراه وليس المراد به أن الله خلق فى قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر، وفى قلوب بعضها الآخر تزيينا للإيمان والخير خلقا ابتدائيًا من غير أن يكون لهم عمل اختيارى نشأ عنه ذلك، إذ لو كان الأمر كما ذكر لكان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائب الخلقية التى تعد الدعوة إليها والترغيب فيها وما يقابلها من النهى والترهيب عنها من العبث الذى يتنزه الله عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله. وقد غفلت المعتزلة عن هذا التحقيق فأول بعضهم الآية بأنها خاصة بالمؤمنين الذين زين الله فى قلوبهم الإيمان، وبعضهم بغير ذلك»[1].

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أى : ثم إلى ربهم أمورهم ورجوعهم ومصيرهم بعد البعث، فيخبرهم من غير تسويف أو تأخير بما كانوا يعملونه فى الدنيا، ويجازيهم على ذلك بما يستحقونه. وفى هذه الجملة الكريمة تهديد وتوبيخ لأولئك المشركين الذين تجاسروا على مقام الله، وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا.

ثم حكى القرآن بعض المقترحات المتعنتة التى كان يقترحها المشركون على رسول الله ﷺ فقال : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾.

الجهد : الوسع والطاقة من جهد نفسه يجهدها فى الأمر إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها فيه. وهو مصدر فى موضع الحال.

أى : وأقسم أولئك المشركون بالله مجتهدين فى أيمانهم، مؤكدين إياها بأقصى ألوان التأكيد، معلنين أنهم لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التى اقترحوها عليك يا محمد ليؤمنن بها أنها من عند الله وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك.

وقد لقن الله - تعالى - رسوله ﷺ الرد المفحم لهم فقال : ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾.

أى : قل لهم يا محمد إن هذه الآيات التى اقترحتموها تعنتا وعنادا مردها إلى الله، فهو وحده

(١) تفسير المنار جـ٧ ص٦٦٩.

القادر عليها والمتصرف فيها حسب مشيئته وحكمته، إن شاء أنزلها وإن شاء منعها، أما أنا فليس ذلك إلىَّ.

أخرج ابن جرير - بسنده - عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم نفر من قريش رسول الله ﷺ فقالوا له، يا محمد» تخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا بآية من هذه الآيات حتى نصدقك، فقال لهم رسول الله ﷺ : «أى شىء تحبون أن آتيكم به»؟ قالوا، تجعل لنا الصفا ذهبا، فقال لهم «فإن فعلت تصدقونى»؟ قالوا نعم. والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاءه جبريل فقال، إن شئت أصبح الصفا ذهبا على أن يعذبهم الله إذا لم يؤمنوا، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال ﷺ «بل أتركهم حتى يتوب تائبهم»، فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾. إلى قوله ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾[1].

وقوله : ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾.

أى : وما يدريكم أيها المؤمنون الراغبون فى إنزال هذه الآيات طمعا فى إسلام هؤلاء المشركين أنها إذا جاءت لا يؤمنون أى : إذا جاءت هذه الآيات فأنا أعلم أنهم لا يؤمنون وأنتم لا تعلمون ذلك ولذا توقعتم إيمانهم ورغبتم فى نزول الآيات.

فالخطاب هنا للمؤمنين، والاستفهام فى معنى النفى، وهو إخبار عنهم بعدم العلم وليس للانكار عليهم.

أى : إنكم أيها المؤمنون ليس عندكم شىء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبى الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إن جاءتهم الآيات التى يقترحونها على رسول الله ﷺ تعنتا وجهلا.

قال صاحب الكشاف : ﴿ومايشعركم﴾ ومايدريكم ﴿أنها﴾ أى الآية التى تقترحونها ﴿إذا جاءت لايؤمنون﴾ يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لايؤمنون بها وأنتم لاتدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون فى إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها، فقال - عز وجل - وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، وقيل : إنها بمعنى «لعل» من قول العرب : أئت السوق أنك تشترى حمارًا.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٤.

وقال امرؤ القيس.

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

أى : لعلنا نبكى الديار.

وقرىء بكسر «إنها» على أن الكلام قد تم قبله بمعنى : وما بشعركم ما يكون منهم؟ ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال : إنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة»[1].

وقوله ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ معطوف على ﴿لا يؤمنون﴾ وداخل معه فى حكم ﴿وما يشعركم﴾ مقيد بما قيد به.

أى : وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، كشأنهم فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من آيات. وهدايات على لسان رسول الله ﷺ قبل أن يقترحوا عليه تلك المقترحات الباطلة.

إنكم أيها المؤمنون لا تدرون ذلك ولا تشعرون به لأن علمه عند الله وحده.

قال الآلوسى : وهذا التقليب ليس مع توجه الأفئدة والأبصار إلى الحق واستعدادها له، بل لكمال نبوها عنه وإعراضها بالكلية، ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعارا بأصالتهم فى الكفر، وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه - تعالى - مشاعرهم بطريق الإجبار»[2].

وقوله ﴿ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ معطوف على ﴿لا يؤمنون﴾.

والعمه : التردد فى الأمر مع الحيرة فيه، يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها إذا تردد وتحير.

أى : ونتركهم فى تجاوزهم الحد فى العصيان يترددون متحيرين، لا يعرفون لهم طريقا، ولا يهتدون إلى سبيل.

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين الذين يزعمون أنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها كاذبون فى أيمانهم الفاجرة، فقال - تعالى - :

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٥٧.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٢٥٥.

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا
شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

والمعنى : ولو أننا يا محمد لم نقتصر على إيتاء ما اقترحه هؤلاء المشركون من آيات كونية، بل أضفنا إلى ذلك أننا نزلنا عليهم الملائكة يشهدون بصدقك وأحيينا لهم الموتى فشهدوا بحقيقة الإيمان، وزدنا على ذلك فجمعنا لهم جميع الخلائق مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم بأنك على الحق، لو أننا فعلنا كل ذلك ما استقام لهم الإيمان لسوء استعدادهم وفساد فطرهم، وانطماس بصيرتهم، فإن قوما يمرون على تلك الآيات الكونية التى زخر بها هذا الكون والتى استعرضتها هذه السورة فلا تتفتح لها بصائرهم، ولا تتحرك لها مشاعرهم، ليسوا على استعداد لأن يخالط الإيمان شغاف قلوبهم، والذى ينقصهم إنما هو القلب الحى الذى يتلقى ويتأثر ويستجيب وليس الآيات التى يقترحونها فإن أمامهم الكثير منها، واقتراحاتهم إنما هى نوع من العبث السخيف، والتعنت المرذول الذى لا يستحق أن يهتم به.

و ﴿قبلا﴾ - بضم القاف والباء - حال من «كل شىء» وفيه أوجه :

الأول : أنه جمع قبيل بمعنى كفيل مثل قليب وقلب، أى : وحشرنا عليهم كل شىء من المخلوقات ليكونوا كفلاء بصدقك.

والثانى : أنه مفرد كقبل الإنسان ودبره فيكون معناه المواجهة والمعاينة ومنه آتيك قبلا لا دبرا أى آتيك من قبل وجهك والمعنى. وحشرنا عليهم كل شىء مواجهة وعيانا ليشهدوا بأنك على الحق.

والثالث : أن يكون قبلا جمع قبيل لكن بمعنى جماعة جماعة أو صنفًا صنفا والمعنى : وحشرنا

عليهم كل شيء فوجا فوجا ونوعا نوعا من سائر المخلوقات ليشهدوا بصدقك.

وجملة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ جواب لو.

أي : لو فعلنا لهم كل ذلك ما كانوا ليؤمنوا فى حال من الأحوال بسبب غلوهم فى التمرد والعصيان، إلا فى حال مشيئة الله إيمانهم فيؤمنوا، لأنه - سبحانه - هو القادر على كل شيء.

وقوله ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

أي : ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا فهم لذلك يحلفون الأيمان المغلظة بأنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها. أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات.

وقيل الضمير يعود على المؤمنين فيكون المعنى. ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمان أولئك المشركين عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئة الله - تعالى - لإيمانهم، فيتمنون مجيء الآيات طمعًا فى إيمانهم.

قال الشيخ القاسمى : فى قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾ حجة واضحة على المعتزلة لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله - تعالى - حتى الإيمان والكفر. وقد اتفق سلف هذه الأمة وحملة شريعتها على أنه «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن». والمعتزلة يقولون «إلا أن يشاء الله مشيئة قسر وإكراه»[1].

ثم سلى الله - تعالى - نبيه عن تعنت المشركين وتماديهم فى الباطل ببيان أن كل نبى كان له أعداء يسيئون إليه ويقفون عقبة فى طريق دعوته فقال :

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن﴾.

والمعنى : ومثل ما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعاندونك جعلنا لكل نبى من قبلك - أيضًا - أعداء، فلا يحزنك ذلك، قال - تعالى - ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾[2].

وقال - تعالى - ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرًا﴾[3].

والمراد بشياطين الإنس والجن، المردة من النوعين. والشيطان : كل عات متمرد من الإنس والجن.

---

(١) تفسير للقاسمى جـ٧ ص٢٤٧١.
(٢) سورة فصلت الآية ٤٣.
(٣) سورة الفرقان الآية : ٣١.

وجملة ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا﴾ الخ مستأنفة لتسلية النبى ﷺ عما يشاهده من عداوة قريش له، والكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر مؤكد لما بعده.

و﴿جعل﴾ ينصب مفعولين أولها ﴿عدوا﴾ وثانيهما ﴿لكل نبى﴾ و﴿شياطين﴾ بدل من المفعول الأول، وبعضهم أعرب ﴿شياطين﴾ مفعولا أولا و﴿عدوا﴾ مفعولا ثانيا، و﴿لكل نبى﴾ حالا من ﴿عدوا﴾.

وقوله: ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا﴾.

الوحى: الإعلام بالأشياء من طريق خفى دقيق سريع. زخرف القول: باطله الذى زين ومُوه بالكذب. وأصل الزخرف. الزينة المزوقة، ومنه قيل للذهب: زخرف،ولكل شيء حسن مموه: زخرف.

والغرور: الخداع والأخذ على غرة وغفلة.

والمعنى: يلقى بعضهم إلى بعض بطرق خفية دقيقة القول المزين المموه الذى حسن ظاهره وقبح باطنه لكى يخدعوا به الضعفاء ويصرفونهم عن الحق إلى الباطل.

والجملة مستأنفة لبيان إحكام عداوتهم، أو حال من الشياطين وقد ورد أن النبى ﷺ أمر أتباعه أن يستعيذوا بالله من شياطين الإنس والجن، فعن أبى ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ فى مجلس. قد أطال فيه الجلوس فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟ قلت: لا يا رسول الله. قال: قم فاركع ركعتين قال: ثم جئت فجلست إليه فقال: يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟ قال: قلت لا يارسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال:نعم، هم شر من شياطين الجن».

وقد ساق الإمام ابن كثير عدة روايات عن أبى ذر فى هذا المعنى، ثم قال فى نهايتها: فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته»[1].

وقوله: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾.

أى: ولو شاء ربك ألا يفعل هؤلاء الشياطين ما فعلوه من معاداة الأنبياء ومن الإيحاء بالقول الباطل لتم له ذلك، لأنه - سبحانه - هو صاحب المشيئة النافذة، والإرادة التامة ولكنه -سبحانه- لم يشأ أن يجبرهم على خلاف ما زينته لهم أهواؤهم باختيارهم، لكى يميز الله

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٦.

الخبيث من الطيب. فدعهم يا محمد وما يفترون من الكفر وغيره من ألوان الشرور، فسوف يعلمون سوء عاقبتهم.

وقوله: ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾. معطوف على ﴿غرورًا﴾ فيكون علة أخرى للإيحاء، والضمير فى ﴿إليه﴾ يعود إلى زخرف القول.

وأصل الصغو: الميل. يقال: صغا يصغو ويصغى صغوا، وصغى يصغى صغًا أى: مال، وأصغى إليه مال إليه يسمعه، وأصغى الإناء: أماله. ويقال: صغت الشمس والنجوم صغوا: مالت إلى الغروب.

والمعنى: يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول ليغروا به الضعفاء، ولتميل إلى هذا الزخرف الباطل من القول قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لموافقته لأهوائهم وشهواتهم.

وخص عدم إيمانهم بالآخرة بالذكر - مع أنهم لا يؤمنون بأمور أخرى يجب الإيمان بها - لأن من لم يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يمشى دائما وراء شهواته وأهوائه ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله.

ثم بين - سبحانه - تدرجهم السىء فى هذا العمل الأثيم فقال: ﴿وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾.

أى: وليرضوا هذا الفعل الخبيث لأنفسهم بعد أن مالت إليه قلوبهم، وليقترفوا ما هم مقترفون أى: وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الأعمال السيئة فإن الله - تعالى - سيجازيهم عليها بما يستحقونه.

وأصل القرف والاقتراف. قشر اللحاء عن الشجر، والجلدة عن الجرح. واستعير الاقتراف للاكتساب مطلقا ولكنه فى الإساءة أكثر. فيقال: قرفته بكذا إذا عبته واتهمته.

قال أبو حيان: وترتيب هذه المفاعيل فى غاية الفصاحة، لأنه أولا يكون الخداع، فيكون الميل، فيكون الرضا، فيكون الاقتراف، فكل واحد مسبب عما قبله[1].

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يصارح المشركين بأن الله وحده هو الحكم الحق، وإن كتابه هو الآية الكبرى الدالة على صدقه فيما يبلغه عنه فقال - تعالى -:

---

(١) تفسير أبى حيان جـ٤ ص٤٠٨.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

روى أن مشركى مكة قالوا لرسول الله ﷺ إجعل بيننا حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزل قوله - تعالى - ﴿أفغير الله أبتغى حكما﴾ الآية[1].

وقوله : ﴿أفغير الله أبتغى حكما﴾ كلام مستأنف على إرادة القول، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام.

والحكم - بفتحتين - هو من يتحاكم إليه الناس ويرضون بحكمه، وقالوا : إنه أبلغ من الحاكم « وأدل على الرسوخ، كما أنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين، أأميل إلى زخارف الشياطين، فأطلب معبودا سوى الله - تعالى - ليحكم بينى وبينكم، ويفصل المحق منها من المبطل.

وأسند ﷺ الابتغاء لنفسه لا إلى المشركين، لإظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم : إجعل بيننا وبينك حكما.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٨ ص٨.

و ﴿غير﴾ مفعول ﴿لأبتغى﴾ و ﴿حكما﴾ إما أن يكون حالا لغير أو تمييزا له. وجملة ﴿وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا﴾ حالية مؤكدة للإنكار أى: أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم، والحال أنه - سبحانه - هو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا، أى مبينا فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، وغير ذلك من الأحكام التى أنتم فى حاجة إليها فى دينكم ودنياكم، وأسند الإنزال إليهم لاستمالتهم نحو المنزل واستدعائهم إلى قبول حكمه، لأن من نزل الشيء من أجله، من الواجب عليه أن يتقبل حكمه.

ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على أن القرآن حق فقال: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾.

أى: والذين آتيناهم الكتاب أى التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن منزل عليك من ربك بالحق. لأنهم يجدون فى كتبهم البشارات التى تبشر بك، ولأن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك مصدق لكتبهم ومهيمن عليها.

فهذه الجملة الكريمة تقرير لكون القرآن منزلا من عند الله، لأن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته وأنه منزل من عند الله.

وقوله: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى: فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق، لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده إلى الحسد والجحود، وهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد، وتثبيت لليقين، كى لا يجول فى خاطره طائف من التردد فى هذا اليقين.

قال ابن كثير: وهذا كقوله - تعالى - ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ قال: وهذا شرط، والشرط لا يقتضى وقوعه، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل»(١).

وقيل: الخطاب لكل من يتأتى له الخطاب على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فلا ينبغى أن يشك فى ذلك أحد.

وقيل: الخطاب للنبى ﷺ والمقصود أمته، لأنه ﷺ حاشاه من الشك.

ثم بين - سبحانه - أن هذا الكتاب كامل من حيث ذاته بعد أن بين كماله من حيث إضافته إليه - تعالى - بكونه منزلا منه بالحق فقال - تعالى -: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾ وقرىء (كلمات ربك).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٧.

والمراد بها - كما قال قتادة وغيره - القرآن.

أى : كمل كلامه - تعالى - وهو القرآن، وبلغ الغاية فى صدق أخباره ومواعيده، وفى عدل أحكامه وقضاياه.

وصدقا وعدلا مصدران منصوبان على الحال من ﴿ربك﴾ أو من ﴿كلمة﴾ وقيل : هما منصوبان على التمييز.

وجملة ﴿لا مبدل لكلماته﴾ مستأنفة لبيان فضل هذه الكلمات على غيرها أثر بيان فضلها فى ذاتها. أى : لا مغير لها بخلف فى الأخبار، أو نقض فى الأحكام، أو تحريف أو تبديل كما حدث فى التوراة والإنجيل، وهذا ضمان من الله - تعالى - لكتابه بالحفظ والصيانة، قال - تعالى - ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ثم ختمت الآية بقوله ﴿وهو السميع العليم﴾ أى : هو - سبحانه - السميع لكل ما من شأنه أن يسمع، العليم بكل ما يسرون وما يعلنون.

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وصدق نبيه ﷺ أتبع ذلك بنهيه ﷺ عن الالتفات إلى جهالات أعدائه فقال - تعالى - : ﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾.

أى : وإن تطع أكثر من فى الأرض من الناس الذين استحبوا العمى على الهدى يضلوك عن الطريق المستقيم، وعن الدين القويم الذى شرعه الله لعباده، لأن هؤلاء المجادلين ما يتبعون فى جدالهم وعقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذى تزينه لهم أهواؤهم، وما هم إلا يخرصون أى : يكذبون.

وأصل الخرص : القول بالظن. يقال : خرصت النخل خرصًا - من باب قتل - حزرت ثمره وقدرته بالظن والتخمين. واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة، فيقال : خرص فى قوله - كنصر - أى : كذب.

قال صاحب المنار : «وهذا الحكم القطعى بضلال أكثر أهل الأرض ظاهر بما بيّنه به من اتباع الظن والخرص ولا سيما فى ذلك العصر - تؤيده تواريخ الأمم كلها، فقد اتفقت على أن أهل الكتاب كانوا قد تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالا بعيدًا، وكذلك أمم الوثنية التى كانت أبعد عهدًا عن هداية رسلهم وهذا من أعلام نبوته ﷺ وهو أمى لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا شيئًا يسيرًا من شئون المجاورين لبلاد العرب خاصة»[1].

---

(١) تفسير المنار جـ٧ ص١٦.

وقوله - سبحانه - ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ تقرير للآية السابقة، وتأكيد لما يفيده مضمونها، أى : إن ربك الذى لا تخفى عليه خافية هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن طريق الحق وهو أعلم منك ومن سائر الخلق - أيضًا - بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم، فعليك - أيها العاقل - أن تكون من فريق المهتدين لتسعد كما سعدوا واحذر أن تركن إلى فريق الضالين، فتشقى كما شقوا.

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد قررت أن الله وحده هو الحكم العدل، وأن كتابه هو المهيمن على الكتب السابقة، وأن أهل الكتاب يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، وأنه - سبحانه - قد تكفل بحفظ كتابه من التغيير والتبديل، وأن الطبيعة الغالبة فى البشر هى اتباع الظنون والأهواء، لأن طلب الحق متعب، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتمحيص، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين فى أحكامهم، والله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده.

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وكمال قدرته. وسعة علمه ورد على الشبهات التى أثارها المشركون حول الدعوة الإسلامية بما يخرس ألسنتهم. وأثبت - سبحانه - أنه هو الحكم الحق، وأن كتابه هو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن أكثر أهل الأرض يتبعون الظن فى أحكامهم. بعد كل ذلك انتقل القرآن إلى الكلام فى مسألة كثر فيها الجدل بين المسلمين والمشركين، وهى مسألة الذبائح ما ذكر عليه اسم الله منها وما لم يذكر فقال - تعالى - :

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ
بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ

﴿أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : أتى ناس إلى النبى - ﷺ - فقالوا يا رسول الله إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله - فأنزل الله - ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾. إلى قوله ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾(١).

وذكر الواحدى أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها. قالوا. فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر أو الكلاب حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الآية :(٢).

والخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين الذين ضايقهم جدال المشركين لهم فى شأن الذبائح.

والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه واتركوا ما ذكر عليه اسم غيره كالأوثان أو ما ذبح على النصب، أو ما ذكر اسم مع اسمه - تعالى - أو ما مات حتف أنفه، ولا تضرنكم مخالفتكم للمشركين فى ذلك فإنهم ما يتبعون فى عقائدهم ومآكلهم وأعمالهم إلا تقاليد الجاهلية وأوهامها التى لا ترتكز على شىء من الحق.

والفاء فى قوله : ﴿فكلوا﴾ يرى الزمخشرى أنها جواب لشرط مقدر والتقدير : إن كنتم محقين فى الإيمان فكلوا، ويرى غيره أنها معطوفة على محذوف والتقدير «كونوا على الهدى فكلوا».

وقوله : ﴿إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ أى : إن كنتم بآياته التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن مؤمنين، فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه واجتناب ما حرمه.

ثم أنكر - سبحانه - عليهم ترددهم فى أكل ما أحله الله من طعام لأنهم لم يتعودوه قبل ذلك فقال : ﴿وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأضاحى - باب ذبائح أهل الكتاب. حديث رقم ٢٨١ طبعة فؤاد عبد الباقى.
(٢) تفسير الألوسى جـ٨ ص١٢.

أى : أى مانع يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك؟ فالاستفهام لإنكار أن يكون هناك شيء يدعوهم إلى اجتناب الأكل من الذبائح التى ذكر اسم الله عليها سواء أكانت تلك الذبائح من البحائر أو السوائب أو غيرها مما حرمه المشركون على أنفسهم بدون علم.

وقوله ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾ جملة حالية مؤكدة للإنكار السابق أى والحال أن الله - تعالى - قد فصل لكم على لسان رسولكم ﷺ ما حرمه عليكم من المطعومات، وبين لكم ذلك فى كتابه كما فى قوله - تعالى - ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم بطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾.

إذًا فمن الواجب عليكم أيها المسلمون أن تأكلوا وأنتم مطمئنون من جميع المطاعم التى أحلها الله لكم وذكر اسمه عليها ولو خالفتم فى ذلك المشركين وأن تتجنبوا أكل ما حرمه الله عليكم ولو كان مما يستبيحه المشركون.

وقوله ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ استثناء مما حرم الله عليهم أكله.

أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع ففى هذه الحالة يباح لكم أن تأكلوا من هذه المحرمات ما يحفظ عليكم حياتكم. هذا هو حكم الله الذى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر فعليكم أن تتبعوه، وألا تلقوا بالا إلى أوهام المتخرصين وأصحاب الظنون الباطلة.

ثم نعى على المشركين جهالاتهم فقال ﴿وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾.

قرأ الجمهور «ليضلون» بضم الياء، والمعنى عليه : وإن كثيرًا من الكفار ليضلون غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام بسبب أهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة، دون أن يكون عندهم أى علم مقتبس من وحى الله ومستنبط من عقل سليم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «ليضلون» بفتح الياء، والمعنى عليه : وإن كثيرا من الكفار لينحرفون عن الحق ويقعون فى الضلال بسبب اتباعهم لأهوائهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وقراءة الجمهور أبلغ فى الذم لأنها تتضمن قبح فعلهم حيث ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم.

وقوله : ﴿بغير علم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا أى : يضلون مصاحبين للجهل.

وقوله ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أى : أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال والحرام.

ففى الجملة الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول ﷺ.

قال الإمام الرازى : وقد دلت هذا الآية على أن القول فى الدين بمجرد التقليد حرام، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة، والآية دلت على أن ذلك حرام[1].

ثم أمر الله عباده أن يتركوا ما ظهر من الآثام وما استتر فقال :

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ أى اتركوا جميع المعاصى ما كان منها سرا وما كان منها علانية، أو ما كان منها بالجوارح وما كان منها بالقلوب، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء.

ثم بين - سبحانه - عاقبة المرتكبين للآثام فقال : ﴿إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ أى : إن الذين يعملون المعاصى ويرتكبون القبائح الظاهرة والباطنة لن ينجو من المحاسبة والمؤاخذة بل سيجزون بما يستحقونه من عقوبات بسبب اجتراحهم للسيئات.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، نهاهم صراحة عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لشدة العناية بهذا الأمر فقال - تعالى - :

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أى : لا تأكلوا أيها المسلمون من أى حيوان لم يذكر عليه اسم الله عند ذبحه، بأن ذكر عليه اسم غيره، أو ذكر اسم مع اسمه - تعالى -، أو غير ذلك مما سبق بيانه من المحرمات.

وقوله ﴿وإنه لفسق﴾ جملة حالية والضمير يعود على الأكل من الذى لم يذكر اسم الله عليه، أى : وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبوح الذى لم يذكر اسم الله عليه لخروج عن طاعة الله - تعالى - وابتعاد عن الفعل الحسن إلى الفعل القبيح، وفى ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

ثم كشف للمسلمين عن المصدر الذى يمد المشركين بمادة الجدل حول هذه المسألة فقال : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾.

أى : وإن إبليس وجنوده ليوسوسون إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من المشركين ليجادلوكم فى تحليل الميتة وفى غير ذلك من الشبهات الباطلة ﴿وإن أطعتموهم﴾ فى استحلال ما حرمه الله عليكم ﴿إنكم لمشركون﴾.

قال ابن كثير : أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٢٧.

فهذا هو الشرك، كقوله - تعالى - ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ الآية، وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم فقال : «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[١].

هذا، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلما، وقد اختلف الفقهاء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال.

فمنهم من قال لا تحل الذبيحة التى يترك ذكر اسم الله عليها سواء كان الترك عمدا أو سهوا، وإلى هذا الرأى ذهب ابن عمر ونافع وعامر والشعبى ومحمد بن سيرين، وداود الظاهرى وفى رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل.

واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية التى وصفت ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه بأنه فسق، كما احتجوا بقوله - تعالى - ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ وبالأحاديث التى وردت فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديث عدى بن حاتم وفيه «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل»[٢].

وحديث رافع بن خديج وفيه «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه»[٣]

أما القول الثانى فيرى أصحابه أن التسمية ليست شرطا بل هى مستحبة، وتركها عن عمد أو نسيان لا يضر، وقد حكى هذا المذهب عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وهو مذهب الشافعى وأصحابه وفى رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل.

وحجتهم أن هذه الآية ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه. . . ﴾ واردة فيما ذبح لغير الله بأن يذكر على الذبيحة اسم الصنم كما كان يفعل المشركون عند ذبائحهم.

واحتجوا أيضًا بما رواه الدار قطنى عن ابن عباس أنه قال : «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله»[٤].

أما القول الثالث فيرى أصحابه أن ترك التسمية نسيانا لا يضر، أما عمدا فلا تحل الذبيحة، وإلى هذا المذهب ذهب على وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وهو المشهور من مذهب أحمد بن حنبل وعليه أبو حنيفة وأصحابه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧١.
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب «الذبائح والصيد»، حديث رقم ١٤١ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى.
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب «الذبائح والصيد».
(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٩.

واحتجوا لمذهبهم بأحاديث منها ما رواه عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(١)].

ولعل هذا المذهب أقرب المذاهب إلى الصواب، لأن المتعمد هو الذى يؤاخذ على عمله أما الناسى فليس مؤاخذا.

وقد تولت بعض كتب التفسير بسط الأقوال فى هذه المسألة فليرجع إليها من شاء[(٢)].

ثم ضرب الله مثلا لحال المؤمن والكافر فقال:

﴿أو من كان ميتًا فأحييناه﴾.

الهمزة للاستفهام الإنكارى، وهى داخلة على جملة محذوفة للعلم بها من الكلام السابق.

والتقدير: أأنتم أيها المؤمنون مثل أولئك المشركين الذين يجادلونكم بغير علم وهل يعقل أن من كان ميتًا فأعطيناه الحياة وجعلنا له نورًا عظيما يمشى به فيما بين الناس آمنا كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها.

فالآية الكريمة تمثيل بليغ للمؤمن والكافر لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين بعد أن نهاهم صراحة عن طاعتهم قبل ذلك فى قوله ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾.

فمثل المؤمن المهتدى إلى الحق كمن كان ميتا هالكا فأحياه الله وأعطاه نورًا يستضىء به فى مصالحه، ويهتدى به إلى طرقه. ومثل الكافر الضال كمن هو منغمس فى الظلمات لا خلاص له منها فهو على الدوام متحير لا يهتدى فكيف يستويان؟.

والمراد بالنور: القرآن أو الإسلام، والمراد بالظلمات: الكفر والجهالة وعمى البصيرة. فهو كقوله - تعالى -: ﴿وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور، وما يستوى الأحياء ولا الأموات﴾.

وقوله: ﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أى: مثل ذلك التزيين الذى تضمنته الآية - وهو تزيين نور الهدى للمؤمنين وظلمات الشرك للضالين قد زين للكافرين ما كانوا يعملونه من الآثام كعداوة النبى ﷺ وذبح القرابين لغير الله - تعالى - وتحليل الحرام، وتحريم الحلال وغير ذلك من المنكرات.

وجمهور المفسرين يرون أن المثل فى الآية عام لكل مؤمن وكل كافر وقيل إن المراد بمن أحياه الله وهداه عمر بن الخطاب، والمراد بمن بقى فى الظلمات ليس بخارج منها عمرو بن هشام،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧٠.

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٦٨ وما بعدها وتفسير الألوسى جـ٨ ص١٤ وما بعدها.

فقد أخرج ابن أبى الشيخ أن الآية نزلت فيهما، وقيل نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل، وقيل فى حمزة وأبى جهل.

والذى نراه أن الآية عامة فى كل من هداه الله إلى الإيمان بعد أن كان كافرًا، وفى كل من بقى على ضلاله مؤثرًا الكفر على الإيمان ويدخل فى ذلك هؤلاء المذكورون دخولا أوليا.

ثم سلى الله - تعالى - نبيه ﷺ ببيان أن المترفين فى كل زمان ومكان هم أعداء الإصلاح، وأن ما لقيه ﷺ من أكابر مكة ليس بدعا بل هو شىء رآه الأنبياء قبله على أيدى أمثال هؤلاء المترفين فقال - تعالى - :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ
ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾
فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ
أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

أكابر: جمع أكبر، وهم الرؤساء والعظماء فى الأمم. والمجرمون: جمع مجرم، من أجرم إذا اكتسب أمرا قبيحا، ومنه الجرم والجريمة للذنب والإثم.

والمعنى: وكما جعلنا فى قريتك مكة رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك جعلنا فى كل قرية

من قرى الرسل من قبلك رؤساء من المجرمين مثلهم ليمكروا فيها، ويتجبروا على الناس، ثم كانت العاقبة للرسل، فلاتبتئس يا محمد مما يصيبك من زعماء مكة فتلك طبيعة الحياة فى كل عصر، أن يكون زعماء الأمم وكبراؤها أشد الناس عداوة للرسل والمصلحين.

قال الجمل: وقوله: ﴿أكابر﴾ مفعول أول لجعل، وأكابر مضاف ومجرميها مضاف إليه، و ﴿فى كل قرية﴾ المفعول الثانى لجعل، ووجب تقديمه ليصح عود الضمير عليه، فهو على حد قوله:

كذا إذا عاد عليه مضمر ... مما به عنه مبينا يخبر

هذا أحسن الأعاريب[1] وهناك أوجه أخرى للأعراب لا تخلو من مقال.

وخص الأكابر بالمكر، لأنهم هم الحاملون لغيرهم على الضلال، وهم الذين يتبعهم الضعفاء فى كفرهم وفجورهم.

قال ابن كثير: والمراد بالمكر هنا دعاؤهم غيرهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله - تعالى - إخبارًا عن قوم نوح ﴿ومكروا مكرا كبارًا﴾، وكقوله: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين* قال الذين استكبرو للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين* وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾... الآية[2]. وقوله - سبحانه - ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾.

أى وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل والمصلحين فى كل وقت إلا بأنفسهم، حيث يعود ضرره عليهم وحدهم فى الدنيا والآخرة ولكنهم لانطماس بصيرتهم، لا يشعرون بأن مكرهم سيعود عليهم ضرره، بل يتوهمون أنهم سينجون فى مكرهم بغيرهم من الأنبياء والمصلحين.

فالجملة الكريمة بيان لسنة من سنن الله فى خلقه، وهى أن المكر السىء لا يحيق إلا بأهله، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ عما يصيبه منهم، وبشارة له، ولأصحابه بالنصر عليهم، ووعيد لأولئك الماكرين بسوء المصير.

وجملة ﴿وما يشعرون﴾ حال من ضمير يمكرون، وهى تسجل عليهم بلاهتهم وجهالتهم حيث فقدوا الشعور بما من شأنه أن يعترف به كل عاقل.

(١) حاشية الجمل جـ٢ ص٨٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧٣.

ثم حكى القرآن لونًا من ألوان مكرهم فقال : ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله﴾.

أى : وإذا جاءت أولئك المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم «لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» حجة قاطعة تشهد بصدقك يا محمد فيما تبلغه عن ربك، قالوا حسدا لك، لن نؤمن لك يا محمد حتى نعطى من الوحى والرسالة مثلما أعطى رسل الله، وأضافوا الإيتاء إلى رسل الله، لأنهم لا يعترفون بما أوتيه ﷺ من الوحى والرسالة.

روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبى ﷺ:لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأنى أكبر منك سنًا وأكثر مالا فأنزل الله هذه الآية».

وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد المطلب فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، فأنزل الله هذه الآية»[1].

وقد رد الله - تعالى - على هؤلاء الحاسدين ردا حاسما فقال : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أى : الله - سبحانه - أعلم منهم ومن كل أحد بالموضع الصالح للرسالة فيضعها فيه فهو - سبحانه - يختار لها بحكمته وعلمه من يستحقها وينهض بها. ويهب نفسه لها، وينسى فى سبيلها ذاته.

قال الإمام الرازى : وقوله - تعالى - ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أى : أن للرسالة موضوعا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه، فمن كان مخصوصًا موصوفا بتلك الصفات لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولا وإلا فلا، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله - تعالى - ثم قال : وفى هذه الجملة الكريمة تنبيه على دقيقة أخرى وهى أن أقل ما لابد منه فى حصول النبوة والرسالة البراءة عن المكر والغدر والغل والحسد، وقوله ﴿لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله﴾ عين المكر والغدر والغل والحسد، فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات»[2].

وهذه الجملة حجة لأهل الحق على أن الرسالة هبة من الله يختص بها من يشاء من عباده، ولا ينالها أحد بكسبه ولا بذكائه ولا بنسبه.

ولذا قال الإمام الآلوسى : وجملة ﴿الله أعلم﴾... الخ. استئناف بيانى، والمعنى : أن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٨٦.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٤٢.

منصب الرسالة ليس مما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد، وتعاضد الأسباب والعدد، وإنما ينال بفضائل نفسانية، ونفس قدسية أفاضها الله - تعالى - بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده»[١].

هذا. وقد وردت أحاديث كثيرة تحدث النبى ﷺ فيها عن اصطفاء الله له وفضله عليه، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن واثلة ابن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله - عز وجل - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفى من بنى هاشم محمدا ﷺ»[٢].

وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبى وداعة عن العباس عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فريقين، فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة، وجعلهم بيوتا، فجعلنى فى خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا»[٣].

ثم بين - سبحانه - عاقبة أولئك الماكرين الحاسدين للنبى - ﷺ - على ما آتاه الله من فضله فقال: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾.

قال القرطبى ماملخصه: الصغار: الضيم والذل والهوان. والمصدر الصغر بالتحريك - وأصله من الصغر دون الكبر فكأن الذل يصغر إلى المرء نفسه وقيل: أصله من الصغر وهو الرضا بالذل. والصاغر: الراضى بالذل. وأرض مصغرة: نبتها صغير لم يطل. ويقال: صغر -بالكسر- يصغر صغرًا وصغارًا فهو صاغر إذا ذل وهان»[٤].

والمعنى: سيصيب الذين أجرموا بعد تكبرهم وغرورهم وتطاولهم ذل عظيم وهوان شديد ثابت لهم عند الله فى الدنيا والآخرة، وبسبب مكرهم المستمر، وعدائهم الدائم لرسل الله وأوليائه.

والجملة الكريمة استئناف آخر ناع على أولئك الماكرين ما سيلقونه من ألوان العقوبات بعد ما نعى عليهم حرمانهم مما أنكره من إيتائهم مثل ما أوتى رسل الله، والسين للتأكيد.

والعندية فى قوله «عند الله» مجاز عن حشرهم يوم القيامة، أو عن حكمه سبحانه - وقضائه

(١) تفسير الألوسى جـ٨ ص٢١.
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل.
(٣) المسند للإمام أحمد جـ١ ص٢١٠ طبعة الحلبى.
(٤) تفسير القرطبى جـ٧ ص٨٠.

فيهم بذلك، كقولهم : ثبت عند فلان القاضى كذا أى : فى حكمه، ولذا قدم الصغار على العذاب لأنه يصيبهم فى الدنيا.

قال ابن كثير: ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدًا. وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ينصب لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان» والحكمة فى ذلك أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علما منشورًا على صاحبه بما فعل»[1].

ثم بين - سبحانه - حال المستعد لهداية الإسلام، وحال المستعد للضلال فقال :

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

أى : فمن يرد الله أن يهديه للإسلام، ويوفقه له، يوسع صدره لقبوله، ويسهله له بفضله وإحسانه.

وشرح الصدر : توسعته، يقال : شرح الله صدره فانشرح، أى : وسعه فاتسع، وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها. مصفاة عما يمنعه وينافيه.

روى عبد الرازق أن النبى ﷺ سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ فقال : «نور يقذف فينشرح له وينفسح، قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»[2].

وقوله : ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ أى ومن يرد أن يضله لسوء اختياره، وإيثاره الضلالة على الهداية يصير صدره ضيقا متزايد الضيق لا منفذ فيه للإسلام.

والحرج : مصدر حرج صدره حرجا فهو حرج، أى : ضاق ضيقا شديدًا. وصف به الضيق للمبالغة، كأنه نفس الضيق، وأصل الحرج مجتمع الشىء ويقال : للحديقة الملتفة الأشجار التى يصعب دخولها حرجة.

وقرىء حرجا - بكسر الراء - صفة لقوله ﴿ضيقا﴾.

روى أن جماعة من الصحابة قرأوا أمام عمر - رضى الله عنه - «ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا» بكسر الراء فقال عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ؟ قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التى لا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧٤.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧٤.
(٣) تفسير الألوسى جـ٨ ص٢.

وقوله ﴿كأنما يصعد فى السماء﴾ استئناف، أو حال من ضمير الوصف، أو وصف آخر لقلب الضال، والمراد المبالغة فى ضيق صدره حيث شبه بمن يزاول ما لا يقدر عليه. فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة.

أى: كأنما إذا دعى إلى الإسلام قد كلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيعه بحال. ويصعد أى: يتصعد، بمعنى يتكلف الصعود فلا يقدر عليه.

وفيه إشارة إلى أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود.

وقوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أى: مثل جعل الصدر ضيقا حرجا بالإسلام، يجعل الله الرجس. أى: العذاب، أو الخذلان، أو اللعنة فى الدنيا على الذين لا يؤمنون بالإسلام.

ثم بين - سبحانه - أن طريق الإسلام هو الطريق الحق المستقيم فقال:

﴿وهذا صراط ربك مستقيما﴾ أى: وهذا البيان الذى جاء به القرآن، أو سبيل التوحيد، وإسلام الوجه إلى الله، هو طريق ربك الواضح المستقيم الذى ارتضاه لعباده، والذى لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال.

و ﴿مستقيما﴾ حال مؤكدة لصاحبها وعاملها محذوف وجوبا مثل: هذا أبوك عطوفا، وقيل حال مؤسسة والعامل فيها معنى الإشارة أو (ها) التى للتنبيه.

وقوله: ﴿فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ أى: جعلناها بينة واضحة مفصلة لقوم يتذكرون ما فيها من هدايات وإرشادات فيعملون بها لينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة.

* * *

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمتذكرين فقال:

۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ
وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم
مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ
أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ

رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

أى : أن هؤلاء المتذكرين المتقين لهم جنة عرضها السموات والأرض فى جوار ربهم وكفالته، وهو - سبحانه - ﴿وليهم﴾ أى : متولى إيصال الخير إليهم، أو محبهم أو ناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة. وسميت الجنة بدار السلام، لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة من جميع المكاره.

قال الجمل : وقوله ﴿عند ربهم﴾ فى المراد بهذه العندية وجوه :

أحدها : أنها معدة عنده كما تكون الحقوق معدة مهيأة حاضرة كقوله ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾.

وثانيها : أن هذه العندية تشعر بأن هذا الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله بالشرف والرتبة لا بالمكان والجهة لتنزهه - تعالى - عنها.

وثالثها : هى كقوله - تعالى - فى صفة الملائكة ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته﴾. وقوله : أنا عند المنكسر قلوبهم وأنا عند ظن عبدى بى»[1].

ثم بين - سبحانه - جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة عند ما يقفون أمام ربهم للحساب فقال : ﴿ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾.

ففى هذه الآيات عرض مؤثر زاخر بالحوار والاعتراف والمناقشة والحكم تحكيه السورة الكريمة وهى تصور مشاهد المجرمين يوم القيامة.

وقوله : ﴿ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٩٠.

المعشر: الجماعة الذين يعاشر بعضهم بعضا أو الذين يربطهم أمر مشترك بينهم والمراد بالجن شياطينهم ومردتهم.

والمعنى: واذكر يا محمد - أو أيها العاقل - يوم نحشر الضالين والمضلين جميعًا من الإنس والجن، فنقول للمضلين من الجن: ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أى: قد أكثرتم من إغوائكم الإنس وإضلالكم إياهم، أو قد أكثرتم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم، وأهل طاعتكم. ووسوستم لهم بالمعاصى حتى غررتموهم وأوردتموهم هذا المصير الأليم.

و «يوم» منصوب على الظرفية والعامل فيه مقدر، أى: اذكر يوم نحشرهم جميعًا. والضمير المنصوب فى «نحشرهم» لمن يحشر من الثقلين. وقيل للكفار الذين تتحدث عنهم هذه الآيات.

ووجه الخطاب إلى معشر الجن، لأنهم هم الأصل فى إضلال أتباعهم من الإنس، وهم السبب فى صدهم عن السبيل القويم.

والمقصود من هذا القول لهم توبيخهم وتقريعهم على ما كان يصدر منهم من إغواء الغافلين من الإنس.

وهنا يحكى القرآن رد الضالين من الإنس على هذا التوبيخ فيقول: ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا﴾.

أى: وقال الذين أطاعوهم وانقادوا لهم من الإنس يا ربنا، لقد استمتع بعضنا ببعض.

أى: انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على المفاسد وما يوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس، حيث أطاعوهم واستجابوا لوسوستهم، وخالفوا أمر ربهم.

وقال الحسن: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس. أى: فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة.

وقيل: استمتاع الإنس بالجن معناه أن الرجل فى الجاهلية كان إذا سافر فنزل بأرض قفر خاف على نفسه من الجن فيقول. أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه، فيبيت فى جوارهم. وأما استمتاع الجن بالإنس فهو أنهم قالوا. سدنا الإنس حتى عاذوا بنا، فيزدادون بذلك شرفا فى قومهم وعظما فى أنفسهم.

وقيل: استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة، واستمتاع الجن بالإنس هو طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من المعاصى فصاروا كالرؤساء لهم.

والذى نراه. أن استمتاع الجن بالإنس والإنس بالجن يتناول كل ذلك، حيث انتفع كل

فريق من صاحبه باللذة العاجلة التى أوردته إلى سوء المصير.

وقولهم هذا، هو تحسر منهم على حالهم، إذ قالوه اعترافًا بما فعلوه من طاعة للشياطين واتباع الهوى، وتكذيب أمر البعث.

وإنما قال الأتباع من الإنس هذا القول مع أن الخطاب موجه إلى المتبوعين من شياطين الجن، للإيذان بأن شياطين الجن قد أفحموا. ولم يستطيعوا أن ينطقوا أو يجيبوا. ثم أتبعوا تحسرهم هذا بتحسر آخر وهو قولهم: «وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا».

أى: ها نحن يا ربنا قد استمتع بعضنا ببعض فى الدنيا عن طريق الشهوات المحرمة. واللذات الفانية القبيحة، وها نحن قد وصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذى حددته لنا، وهو يوم القيامة والجزاء. ونحن فى أقبح صورة وأسوأ عيش.

وهنا يأتيهم الرد الحاسم. والحكم النافذ من الله العلى الكبير. حيث يقول - سبحانه - ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾.

مثواكم: الثواء مع الإقامة مع الاستقرار. يقال: ثوى يثوى ثواء أى: استقر، والثوية مأوى الغنم.

والمعنى: قال الله - تعالى - لهؤلاء الظالمين المعترفين على أنفسهم بارتكاب الموبقات: النار منزلكم ومحل إقامتكم الدائمة. فأنتم خالدون فيها فى كل وقت إلا فى وقت مشيئة الله بخلاف ذلك، لأن الأمور كلها متروكة إليه، وخاضعة لمشيئته.

والأرجح أن المراد بهذا الاستثناء وبنظائره فى آيات أخر، المبالغة فى الخلود.

أى: أنه لا ينتفى فى وقت ما إلا وقت مشيئته - تعالى - وهو سبحانه لا يشاء ذلك. فقد أخبر فى آيات متعددة من كتابه أن هؤلاء الكفار لا يخرجون من النار أبدا.

وفى إيراد هذا المعنى بتلك الصورة، بلاغ للناس بأن مرد الأمور كلها إلى مشيئة الله، وأن خلود المشركين فى نار جهنم إنما هو بمحض مشيئته، ولو شاء غير ذلك ما خلدوا، وفيه إلى جانب ذلك تنكيل آخر بهؤلاء الأشقياء لأنهم قد صاروا فى حيرة دائمة من أمرهم. تجعلهم مشتتين بين الطمع فى الخروج مما هم فيه، واليأس منه.

وهذا التفسير للجملة الكريمة هو الذى نختاره ونرجحه، وهناك وجوه أخرى فى تفسيرها منها ما ذهب إليه الزمخشرى حيث قال:

وقوله: ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أى: يخلدون فى عذاب النار الأبد كله إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد روى أنهم يدخلون واديًا فيه من

الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو أن يكون من قول الموتور - أى المظلوم - الذى ظفر بواتره، ولم يزل يحرق عليه أنيابه، وقد طلب أن ينفس عن خناقه. أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئتُ، علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنت والتشديد. فيكون قوله إلا إذا شئت من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع(١).

ومنها: ما نقل عن ابن عباس أنه - تعالى - استثنى قوما قد سبق فى علمه أنهم يدخلون فى الإسلام، وهو مبنى على أن الاستثناء. ليس من المحكى وأن «ما» بمعنى «من».

ومنها: أنهم تفتح لهم أبواب الجنة ويخرجون من النار فإذا توجهوا للدخول أغلقت فى وجوههم استهزاء بهم. فهم فيها إلا الوقت الذى يخرجون منها متجهين إلى الجنة حيث تقفل فى وجوههم ليكون ذلك أعظم فى حسرتهم.

ومنها: أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار. أى: إلا وقت مشيئة الله فناءها وزوال عذابها. وهى مسألة خلافية بين العلماء.

وهناك أقوال أخرى لا مجال لذكرها. والقول الذى نرجحه ونعتمده هو الذى سقناه أولا كما أشرنا إلى ذلك من قبل لأنه قول المحققين من العلماء؛ ولأنه يتناسب مع ما يليق بذات الله من كمال قدرته. ونفاذ إرادته.

وجملة «إن ربك حكيم عليم» تسلية لبيان ما تقتضيه حكمته وإرادته. أى: إن ربك حكيم فى التعذيب والإثابة وفى كل أفعاله. عليم بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من جزاء.

ثم يعقب القرآن على هذا الاستمتاع المتبادل بين الضالين والمضلين من الجن والإنس فيقول: ﴿وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾.

ونولى: من الولاية بمعنى القرابة، والنصرة، والمحالفة وما إلى ذلك من أنواع الاتصال.

أى: ومثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس وإضلالهم لما بينهم من التناسب والمشاكلة، نولى بعض الظالمين من الإنس بعضا آخر منهم بأن نجعلهم يزينون لهم السيئات، ويؤثرون فيهم بالإغواء. بسبب ما كانوا مستمرين على اكتسابه من الكفر والمعاصى.

قال الإمام الرازى: «لأن الجنسية علة الضم» فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها فى الخبث. وكذا القول فى الأرواح الطاهرة، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله فى النصرة والمعونة والتقوية. ثم قال: والآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله - تعالى - يسلط عليهم

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٦٥.

ظالما مثلهم. فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم»[١].

وقال ابن كثير: معنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم»[٢].

وقال الفضيل بن عياض: إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم. فقف وانظر فيه متعجبا.

فالآية الكريمة تصور لنا مشهدا واقعا فى حياة الأمم، وهو أن الظالمين من الناس يوالى بعضهم بعضا، ويناصر بعضهم بعضا، بسبب ما بينهم من صلات فى المشارب والأهداف والطباع وأن الأمة التى لا تتمسك بمبدأ العدالة بل تسودها روح الظلم والاعتداء يكون حكامها عادة على شاكلتها لأن الحاكم الظالم لا يستطيع البقاء عادة فى مجتمع أفراده تسودهم العدالة والشجاعة فى الحق.

والآية فى الوقت ذاته تهدد الظالمين، وتتوعدهم بسوء المصير إذا لم يقلعوا عن ظلمهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويقيدوا أنفسهم بمبدأ العدالة ورعاية الحق ثم بعد هذا التعقيب بتلك الآية التى بينت طبيعة الأشرار يعود القرآن إلى سؤال الإنس والجن فيقول: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾؟.

قال الإمام ابن جرير: وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عما هو قائل يوم القيامة، لهؤلاء العادلين به من مشركى الإنس والجن، يخبر أنه -تعالى- يقول لهم:﴿يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى﴾ يقول: يخبرونكم بما أوحى إليهم من تنبيهى إياكم على مواضع حججى، وتعريفى لكم أدلتى على توحيدى وتصديقى أنبيائى والعمل بأمرى والانتهاء إلى حدودى، ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ يقول: يحذرونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا وعقابى على معصيتكم إياى فتنتهوا عن معاصى، وهذا من الله -تعالى- تقريع لهم وتوبيخ على ماسلف منهم فى الدنيا من الفسوق والمعاصى ومعناه، قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطأ ماكنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيد الله، فلم تقبلوا ولم تتذكروا»[٣].

وقوله ﴿رسل منكم﴾ استدل به من قال إن الله قد أرسل رسلا من الجن إلى أبناء جنسهم إلا أن جمهور العلماء يخالفون ذلك ويرون أن الرسل جميعا من الإنس، وإنما قيل: رسل منكم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص١٥١.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧٧.

(٣) تفسير ابن جرير جـ٨ ص٢٧.

لأنه لما جمع الثقلان فى الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، وإنما يخرجان من أحدهما وهو الماء الملح دون العذب.

قال أبو السعود: والمعنى: ألم يأتكم رسل من جملتكم: لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معًا بل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب اتباعهم، والإيذان بتقاربهما ذاتا، واتحادهما تكليفا وخطابا. كأنهما من جنس واحد، ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر، وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل، وقد ثبت أن الجن استمعوا إلى النبى ﷺ وأنذروا بما سمعوه. أقوامهم، إذ حكى القرآن عنهم أنهم ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ وأنهم قالوا لهم: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾[١].

وقال صاحب المنار، وجملة القول فى الخلاف أنه ليس فى المسألة نص قطعى، والظواهر التى استدل بها الجمهور يحتمل أن تكون خاصة برسل الإنس، لأن الكلام معهم، وليست أقوى من ظاهر ما استدل به من قال إن الرسل من الفريقين. والجن عالم غيبى لا نعرف عنه ألا ماورد به النص. وقد دل القرآن وكذا السنة على رسالة نبينا محمد ﷺ إليهم، فنحن نؤمن بما ورد ونفوض الأمر فيما عدا ذلك إلى الله - تعالى -»[٢].

ثم يحكى القرآن أنهم قد شهدوا على أنفسهم بالكفر فقال: ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أن الرسل قد بشرونا وأنذرونا، ولم يقصروا فى تبليغنا وإرشادنا.

وقوله - سبحانه - ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أى غرهم متاع الحياة الدنيا من الشهوات والمال والجاه وحب الرياسة، فاستحبوا العمى على الهدى، وباعوا آخرتهم بدنياهم. ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أى: شهدوا على أنفسهم عندما وقفوا بين يدى الله للحساب فى الآخرة أنهم كانوا كافرين فى الدنيا بما جاءتهم به الرسل.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما لهم مقرين فى هذه الآية - على أنفسهم بالكفر - جاحدين فى قوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾؟ قلت. يوم القيامة يوم طويل، والأحوال فيه مختلفة فتارة يقرون واخرى يجحدون، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم، فإن من عظم خوفه كثر الاضطراب فى كلامه. أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم. فإن قلت: لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت:

الأولى: حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون.

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٢ ص١٣٧.
(٢) تفسير المنار جـ٨ ص١٠٧.

والثانية : ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة وكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر، والاستسلام لربهم، وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم»[1].

هذا، وإنك لتقرأ هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التى تصور مشهدًا من مشاهد يوم القيامة فيخيل إليك أنك أمام مشهد حاضر أمام عينيك ترى فيه الظالمين وحسراتهم، والضالين والمضلين وهم يتبادلون التهم وذلك من إعجاز القرآن الكريم وأنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا.

ثم يحدثنا القرآن بعد ذلك عن عدالة الله فى أحكامه، وعن سعة غناه ورحمته، وعن حسن عاقبة المؤمنين، وسوء مصير الكافرين فيقول :

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

قال الآلوسى : «ذلك» إشارة إلى إتيان الرسل، أو السؤال المفهوم من ﴿ألم يأتكم﴾، أو ما قص من أمرهم، أعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر وهو إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر أى : الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره مقدر، أو خبره قوله - سبحانه - ﴿أن لم يكن ربك مهلك

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٦٦.

القرى﴾ بخلاف اللام على أن ﴿أن﴾ مصدرية، أو مخففة من أن وضمير الشأن اسمها.

وإما منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر كخذ ذلك، أو فعلنا ذلك.

وفى قوله ﴿بظلم﴾ متعلق بمهلك أى: بسبب ظلم. أو بمحذوف وقع حالا من القرى أى: ملتبسة بظلم..»[١].

والمعنى: ذلك الذى ذكرناه لك يا محمد من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله، سببه أن ربك لم يكن من شأنه ولا من سننه فى تربية خلقه أن يهلك القرى من أجل أى ظلم فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه، وينهوا عنه بواسطة الأنبياء والمرسلين، فربك لا يظلم، ولا يعذب أحدًا وهو غافل لم ينذر قال - تعالى - ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ وقال - تعالى - ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾.

فالآية الكريمة صريحة فى أن - سبحانه - قد أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتبيين الآيات، وإلزام الحجة ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ثم بين - سبحانه - أن الدرجات إنما هى على حسب الأعمال فقال - تعالى - ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أى: ولكل من المكلفين جنًا كانوا أو إنسًا درجات أى منازل ومراتب ﴿مما عملوا﴾ أى: من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة أو من أجل أعمالهم إذ الجزاء من جنس العمل والعمل متروك للناس يتسابقون فيه، والجزاء ينتظرهم عادلا لا ظلم فيه.

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ بل هو عالم بأعمالهم ومحصيها عليهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

ثم صرح - سبحانه - بغناه عن كل عمل وعن كل عامل، وبأنه هو صاحب الرحمة الواسعة، والقدرة النافذة فقال: ﴿وربك الغنى ذو الرحمة﴾.

أى: وربك يا محمد هو الغنى عن جميع خلقه من كل الوجوه، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، وهو وحده صاحب الرحمة الواسعة العامة التى شملت جميع خلقه.

والجملة الكريمة تفيد الحصر. وقوله: وربك مبتدأ، والغنى خبره، وقوله ﴿ذو الرحمة﴾ خبر بعد خبر. وجوز أن يكون هو الخبر و«الغنى» صفة لربك.

وفى هذه الجملة تنبيه إلى أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل وغيره، ليس لنفعه -سبحانه-،

---

(١) تفسير الألوسى جـ٨ ص٨٨.

بل لترحمه على العباد، وتمهيد لقوله بعد ذلك. ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ أى : أنه - سبحانه - إن يشأ إذهابكم أيها الناس بالإهلاك لفعل ذلك فهو قدير على كل شيء وعلى أن ينشيء بعد إذهابكم ما يشاء من الخلق الذين يعملون بطاعته، ولا يكونون أمثالكم.

والكاف فى قوله : ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ فى موضع نصب والمعنى : إن الله - تعالى- قادر على أن يستخلف من بعدكم مايشاء استخلافه مثل ماأنشأكم من ذرية قوم آخرين. ونظيره قوله - تعالى - ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا﴾ وقوله ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد* إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾.

ثم بين - سبحانه - أن أمر البعث والحساب كائن لا ريب فيه فقال : ﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾.

أى : «إن ماتوعدون من أمر القيامة والحساب، والعقاب والثواب لواقع لا شك فيه، وما أنتم بمعجزين، أى : بجاعليه عاجزا عنكم، غير قادر على إدراككم. من أعجزه بمعنى جعله عاجزا. أو : بفائتين العذاب، من أعجزه الأمر. إذا فاته. أى لا مهرب لكم من عذابنا بل هو مدرككم لا محالة.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن ينفض يده من هؤلاء المشركين، وان يتركهم لأنفسهم. وأن ينذرهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم فقال - تعالى - ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون. من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المصرين على كفرهم اعملوا على غاية تمكنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم. مصدر مكن - ككرم - مكانة، إذا تمكن أبلغ التمكن وأقواه، أو المعنى اعملوا على جهتكم واثبتوا على كفركم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم. مكان ومكانة كمقام ومقامة.

قال الزمخشرى : يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة : مكانك يا فلان أى : اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه.

والأمر للتهديد والوعيد، وإظهار ما هو عليه ﷺ فى غاية التصلب فى الدين، ونهاية الوثوق بأمره، وعدم المبالاة بأعدائه أصلا.

وقوله ﴿إنى عامل فسوف تعلمون﴾ أى : إنى عامل على مكانتى، ثابت على الإسلام لا أتزحزح عن الدعوة إليه، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدنيا.

وقوله : ﴿فسوف تعلمون﴾ بجانب إفادته للإنذار، فيه إنصاف فى المقال، وحسن أدب فى

الخطاب، حيث لم يقل - مثلا - العاقبة لنا، وإنما فوض الأمر إلى الله، فهو كقوله - تعالى - ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾ وفيه تنبيه على وثوق المنذر بأنه على الحق.

قال الجمل - وسوف لتأكيد مضمون الجملة، وهذه الجملة. تعليل لما قبلها والعلم عرفان، ومن استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وخبرها جملة تكون، وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون. أى: فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله هذه الدار لها، ويجوز أن تكون موصولة فيكون محلها النصب على أنها مفعول لتعلمون. أى: فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار»[١].

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أى: لن يظفروا بمطلوبهم بسبب ظلمهم، وقيل المراد بالظلم هنا الكفر، ووضع الظلم موضع الكفر، إيذانًا بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده.

قال ابن كثير، وقد أنجز الله موعوده لرسوله ﷺ فمكن له فى البلاد، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب. ، وكل ذلك فى حياته، ثم فتحت الأقاليم والأمصار بعد وفاته. قال - تعالى - ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٢].

ثم تبدأ السورة بعد ذلك حديثًا مستفيضًا عن أوهام المشركين وجهالاتهم التى تتعلق بمآكلهم، ومشاربهم، ونذورهم، وذبائحهم، وعاداتهم البالية، وتقاليدهم الموروثة، فتناقشهم فى كل ذلك مناقشة منطقية حكيمة، وترد عليهم فيما أحلوه وحرموه بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير، وترشدهم إلى الطريق السليم الذى من الواجب عليهم أن يسلكوه. استمع إلى سورة الأنعام وهى تحكى كل ذلك فى بضع عشرة آية بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول:

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٩٣.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٧٩.

وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾
وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ
خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ
سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ
قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

لقد حكت هذه الآيات الكريمة بعض الرذائل التى كانت متفشية فى المجتمع الجاهلى، أما الرذيلة الأولى فملخصها أنهم كانوا يجعلون من زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبًا لله ونصيبًا لأوثانهم، فيشركونها فى أموالهم فما كان لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما كان للأوثان أنفقوه عليها وعلى سدنتها فإذا رأوا ما جعلوه لله أزكى بدلوه بما للأوثان، وإذا رأوا ما جعلوه للأوثان أزكى تركوه لها.

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا﴾.

«ذرأ» بمعنى خلق يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا أى : خلقهم وأوجدهم وقيل. الذرأ الخلق على وجه الاختراع.

أى : وجعل هؤلاء المشركون مما خلقه الله - تعالى - من الزروع والأنعام نصيبًا لله يعطونه للمساكين وللضيوف وغيرهم، وجعلوا لأصنامهم نصيبًا آخر يقدمونه لسدنتها، وإنما لم يذكر النصيب الذى جعلوه لأصنامهم اكتفاء بدلالة ما بعده وهو قوله : ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾.

أى : فقالوا فى القسم الأول : هذا لله نتقرب به إليه.

وقالوا فى الثانى : وهذا لشركائنا نتوسل به إليها.

وقوله - تعالى - فى القسم الأول ﴿هذا لله بزعمهم﴾ أى : بتقولهم ووضعهم الذى لا علم لهم به ولا هدى.

قال الجمل : ومن المعلوم أن الزعم هو الكذب، وإنما نسبوا للكذب فى هذه المقالة مع أن كل شىء لله، لأن هذا الجعل لم يأمرهم به الله وإنما هو مجرد اختراع منهم(١).

وقال أبو السعود : وإنما قيد الأول بالزعم للتنبيه على أنه فى الحقيقة جعل لله - تعالى - غير مستتبع لشىء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله - لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، فإن ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى، ويجوز أن يكون ذلك تمهيدًا لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لا يعملون بمقتضاه الذى هو اختصاصه - تعالى - به(٢).

ثم فصل - سبحانه - ما كانوا يعملونه بالنسبة للقسمة فقال : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾.

أى : فما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الذى يتقرب به إلى شركائهم، فإنهم يحرمون الضيفان والمساكين منه ولا يصل إلى الله منه شىء، وما كان منها من القسم الذى يتقرب به إلى الله عن طريق إكرام الضيف والصدقة، فإنهم يجورون عليه ويأخذون منه ما يعطونه لسدنة الأصنام وخدامها.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٩٣.
(٢) تفسير أبى السعود جـ٢ ص١٩٣.

فهم يجعلون قسم الأصنام لسدنتها وأتباعها وحدهم، بينما القسم الذى جعلوه لله بزعمهم ينتقصونه ويضعون الكثير منه فى غير موضعه، ويقولون : إن الله غنى وإن آلهتنا محتاجة.

وقد عقب القرآن على هذه القسمة الجائرة بقوله : ﴿ساء ما يحكمون﴾ أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقا عاجزا عن كل شيء، على خالق قادر على كل شيء، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا فى القسمة.

هذه هى الرذيلة الأولى من رذائلهم، أما الرذيلة الثانية فهى أن كثيرًا منهم كانوا يقتلون أولادهم، ويئدون بناتهم لأسباب لا تمت إلى العقل السليم بصلة وقد حكى القرآن ذلك فى قوله.

﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾.

أى : ومثل ذلك التزيين فى قسمة الزروع والأنعام بين الله والأوثان، زين للمشركين شركاؤهم من الشياطين أو السدنة قتل بناتهم خشية العار أو الفقر فأطاعوهم فيما أمروهم به من المعاصى والآثام.

والتزيين : التحسين، فمعنى تزيينهم لهم أنهم حسنوا لهم هذه الأفعال القبيحة، وحضوهم على فعلها.

سموا شركاء لأنهم اطاعوهم فيما امروهم به من قتل الأولاد، فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم، أو سموا شركاء لأنهم كانوا يشاركون الكفار فى أموالهم التى منها الحرث والأنعام.

و ﴿شركاؤهم﴾ فاعل ﴿زين﴾ وأخر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدم واهتماما به، لأنه موضع التعجب.

وقوله : ﴿ليردوهم﴾ أى ليهلكوهم؛ من الردى وهو الهلاك. يقال ردى - كرضى - أى : هلك.

وقوله : ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ معطوف على ليردوهم، أى : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسماعيل - عليه السلام - حتى زالوا عنه إلى الشرك.

ويلبسوا مأخوذ من اللبس بمعنى الخلط بين الأشياء التى يشبه بعضها بعضًا وأصله الستر بالثوب، ومنه اللباس، ويستعمل فى المعانى فيقال : لبس الحق بالباطل يلبسه ستره به. ولبست عليه الأمر. خلطته عليه وجعلته مشتبها حتى لا يعرف جهته، فأنت ترى أن شركاءهم قد حسنوا لهم القبيح من أجل أمرين : إهلاكهم وإدخال الشبهة عليهم فى دينهم عن طريق

التخليط والتلبيس. ثم سلى الله تعالى نبيه ﷺ وهدد أعداءه فقال: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾.

أى. ولو شاء الله ألا يفعل الشركاء ذلك التزيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات بسبب ما يفعلونه، بل دعهم وما يفترونه من الكذب، فإنهم لسوء استعدادهم آثروا الضلالة على الهداية.

والفاء فى قوله ﴿فذرهم﴾ فصيحة. أى: إذا كان ما قصصناه عليك بمشيئة الله، فدعهم وافتراءهم ولا تبال بهم، فإن فيما يشاؤه الله حكما بالغة.

ثم حكى القرآن رذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة، وهى أن أوهام الجاهلية وضلالاتها ساقتهم إلى عزل قسم من أموالهم لتكون حكرا على آلهتهم بحيث لا ينتفع بها أحد سوى سدنتها، ثم عمدوا إلى قسم من الأنعام فحرموا ركوبها وعمدوا إلى قسم آخر فحرموا أن يذكر اسم الله عليها عند ذبحها أو زكوبها إلى آخر تلك الأوهام المفتراة.

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾.

حجر: بمعنى المحجور أى: الممنوع من التصرف فيه، ومنه قيل للعقل حجر لكون الإنسان فى منع منه مما تدعوه إليه نفسه من اثام.

أى: ومن بين أوهام المشركين وضلالاتهم أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها ويقولون: هذه الأنعام وتلك الزروع محجورة علينا أى: محرمة ممنوعة، لا يأكل منها إلا من نشاء، يعنون: خدم الأوثان والرجال دون النساء أى: لا يأكل منها إلا خدم الأوثان والرجال فقط.

وقوله: ﴿بزعمهم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قالوا. أى: قالوا ذلك متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة.

وقوله: ﴿وقالوا هذه﴾ الإشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم، والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله: ﴿أنعام وحرث﴾ وقوله ﴿حجر﴾ صفة لأنعام وحرث، وقوله ﴿لا يطعمها﴾ صفة ثانية لأنعام وحرث.

هذا هو النوع الأول الذى ذكرته الآية من أنواع ضلالاتهم.

أما النوع الثانى فهو قوله - تعالى - ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ أى: وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم: هذه أنعام حرمت ظهورها فلا تركب ولا يحمل عليها، يعنون بها

البحائر والسوائب والوصائل والحوامى[١] التى كانوا يزعمون أنها تعتق وتقصى لأجل الآلهة. فقوله ﴿وأنعام﴾ خبر لمبتدأ محذوف والجملة معطوفة على قوله ﴿هذه أنعام﴾.

وأما النوع الثالث من أنواع اختراعاتهم الذى ذكرته الآية فهو قوله : ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾.

أى : وقالوا أيضًا هذه أنعام لا يذكر اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكر عليها أسماء الأصنام لأنها ذبحت من أجلها.

وقد عقب - سبحانه - على تلك الأقسام الثلاثة الباطلة بقوله : ﴿افتراء عليه﴾ أى فعلوا ما فعلوا من هذه الأباطيل وقالوا ما قالوا من تلك المزاعم من أجل الافتراء على الله وعلى دينه، فإنه - سبحانه - لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم.

ثم ختمت الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال : - سبحانه - ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ أى : سيجزيهم الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح.

ثم يحكى القرآن الرذيلة الرابعة من رذائلهم وملخصها : أنهم زعموا أن الأجنة التى فى بطون هذه الأنعام المحرمة، ما ولد منها حيًا فهو حلال للرجال ومحرم على النساء، وما ولد ميتًا اشترك فى أكله الرجال والنساء.

استمع إلى القرآن وهو يفضح زعمهم هذا فيقول : ﴿وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾ ومرادهم بما فى بطون هذه الأنعام أجنة البحائر والسوائب.

أى : ومن فنون كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون هذه الأنعام المحرمة إذا نزل منها حيًا فأكله حلال للرجال دون والنساء، وإذا نزل ميتًا فأكله حلال للرجال والنساء على السواء.

وفى رواية العوفى عن ابن عباس أن المراد بما فى بطونها اللبن، فقد كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه، وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء.

قال بعضهم : «ومن مباحث اللفظ فى الآية أن قوله «خالصة» فيه وجوه :

---

(١) البحيرة : الناقة التى تلد خمسة أبطن آخرها ذكر كانوا يشقون أذنها ويتركونها لآلهتهم والسائبة : اسم للناقة التى يتركها صاحبها فلا تنحر لأنها نجت فى الحرب أو نذرها للأصنام.

والوصيلة : اسم للناقة التى تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى كانوا يتركونها للأصنام والحام : اسم للفحل إذا لقح ولد ولده قالوا حمى ظهره فلا يركب ويترك حتى يموت.

أحدها : أن التاء قيد للمبالغة فى الوصف كراوية وداهية فلا يقال إنه غير مطابق للمبتدأ على القول بأنه خبر.

وثانيا : أن المبتدأ وهو ﴿ما فى بطون هذه الأنعام﴾ مذكر اللفظ مؤنث المعنى، لأن المراد به الأجنة فيجوز تذكير خبره باعتبار اللفظ وتأنيثه باعتبار المعنى.

وثالثها : أنه مصدر فتكون العبارة مثل قولهم : عطاؤك عافية والمطر رحمة والرخصة نعمة.

ورابعها : أنه مصدر مؤكد أو حال من المستكن فى الظرف وخبر المبتدأ ﴿لذكورنا﴾[(١)].

وقوله : ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾ تهديد لهم أى : سيجزيهم بما هم أهله من العذاب المهين جزاء وصفهم أو بسبب وصفهم الكذب على الله فى أمر التحليل والتحريم على سبيل التحكم والتهجم بالباطل على شرعه. إنه - سبحانه - حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه، عليم بأعمال عباده من خير أو شر وسيجازيهم عليها.

قال الآلوسى : ونصب ﴿وصفهم﴾ - على ما ذهب إليه الزجاج - لوقوعه موقع مصدر ﴿يجزيهم﴾ فالكلام على تقدير مضاف. إى : جزاء وصفهم. وقيل. التقدير. سيجزيهم العقاب بوصفهم أى : بسببه فلما سقطت الباء نصب وصفهم.

ثم قال : وهذا كما قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبديعه، فإنهم يقولون، كلامه يصف الكذب إذا كذب، وعينه تصف السحر، أى ساحرة، وقد يصف الرشاقة، بمعنى رشيق. مبالغة، حتى كأن من سمعه أو رآه وصفُ له ذلك بما يشرحه له»[(٢)].

وإلى هنا تكون الآيات الأربعة التى بدأت بقوله - تعالى ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا﴾.. إلخ. قد قصت علينا أربع رذائل من أفعال المشركين وأقوالهم.

وإن العاقل ليعجب وهو يستعرض هذه الضلالات - التى حكتها الآيات. يعجب لما تحمله فى سبيل ضلالاتهم من أعباء مادية وخسائر وتضحيات، يعجب للعقيدة الفاسدة وكيف تكلف أصحابها الكثير ومع ذلك فهم مصرون على اعتناقها، وعلى التقيد بأغلالها، وأوهامها، وتبعاتها.

لكأن القرآن وهو يحكى تلك الرذائل وما تحمله أصحابها فى سبيلها يقول لأتباعه - من بين ما يقول - إذا كان أصحاب العقائد الفاسدة قد ضحوا حتى بفلذات أكبادهم إرضاء

(١) تفسير المنار جـ٨ ص١٢٩.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٢٦.

لشركائهم.. فأولى بكم ثم أولى أن تضحوا فى سبيل عقيدتكم الصحيحة، وملتكم الحنيفية السمحاء بالأنفس والأموال.

هذا وقد عقب القرآن بعد إيراده لتلك الرذائل بقوله.

﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله﴾.

قال الإمام ابن كثير: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا على أنفسهم فى أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم. وأما فى الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم»[١].

والتعبير بخسر بدون ذكر مفعول معين يقع عليه الفعل للإشارة إلى أن خسارتهم خسارة مطلقة من أى تحديد، فهى خسارة دينية وخسارة دنيوية - كما قال ابن كثير.

وقرأ ابن عامر ﴿قتّلوا﴾ بالتشديد. أى: فعلوا ذلك كثيرًا، إذ التضعيف يفيد التكثير.

و﴿سفها﴾ منصوب على أنه علة لقتلوا أى: لخفة عقولهم وجهلهم قتلوا أولادهم. أو منصوب على أنه حال من الفاعل فى قتلوا وهو ضمير الجماعة.

والسفه: خفة فى النفس لنقصان العقل فى أمور الدنيا أو الدين.

وقوله ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ أى من البحائر والسوائب ونحوهما، وهو معطوف على ﴿قتلوا﴾.

ثم بين - سبحانه - نتيجة ذلك القتل والتحريم فقال: ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أى: قد ضلوا عن الصراط المستقيم بأقوالهم وأفعالهم القبيحة وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب.

قال الشهاب، وفى قوله ﴿وما كانوا مهتدين﴾ بعد قوله ﴿قد ضلوا﴾ مبالغة فى نفى الهداية عنهم، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال بعد أن لم يكن. فلذا أردف بهذه الحال لبيان عراقتهم فى الضلال، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض»[٢].

روى البخارى عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨١.
(٢) تفسير القاسمى جـ٦ ص٢٥٢٤.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨١.

ثم بين - سبحانه - أنه هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة، وأن من الواجب عليهم أن يستعملوا نعم الله فيما خلقت له فقال - تعالى - :

۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ
مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ
مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ
حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾
ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ
قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ
أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ
أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله - تعالى - ﴿وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾.

أنشأ: أى أوجد وخلق. والجنات: البساتين والكروم الملتفة الأشجار.

ومعروشات: أصل العرش فى اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش، يقال عرشت الكرم أعرشه عرشًا من بابى - ضرب ونصر -، وعرشته تعريشًا إذا جعلته كهيئة السقف. فالمادة تدل على الرفع ومنها عرش الملك. قال ابن عباس: المعروشات. ما انبسط على الأرض وانبسط من الزروع مما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه، كالكرم والبطيخ والقرع ونحو ذلك. وغير المعروشات ما قام على ساق واستغنى باستوائه وقوة ساقه عن التعريش كالنخل والشجر.

وقيل المعروشات وغير المعروشات كلاهما فى الكرم خاصة، لأن منه ما يعرش ومنه مالا يعرش بل يبقى على وجه الأرض منبسطا.

وقيل المعروشات ما غرسه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم أو غيره، وغير المعروشات. هو ما أنبته الله فى البرارى والجبال من كرم وشجر.

أى: وهو - سبحانه - الذى أوجد لكم هذه البساتين المختلفة التى منها المرفوعات عن الأرض، ومنها غير المرفوعات عنها، فخصوه وحده بالعبادة والخضوع.

وقوله: ﴿والنخل والزرع مختلفا أكله﴾ عطف على جنات، أى: أنشأ جنات، وأنشأ النخل والزرع، والمراد بالزرع جميع الحبوب التى يقتات بها.

وإنما أفردهما مع أنهما داخلان فى الجنات لما فيهما من الفضيلة على سائر ما ينبت فى الجنات.

و ﴿مختلفا أكله﴾ أى، ثمره وحبه فى اللون والطعم والحجم والرائحة.

والضمير فى أكله راجع إلى كل واحد منهما، أى: النخل والزرع والمراد بالأكل المأكول أى، مختلف المأكول فى كل منهما فى الهيئة والطعم.

قال الجمل: وجملة. ﴿مختلفا أكله﴾ حال مقدرة، لأن النخل والزرع وقت خروجه لا أكل منه حتى يكون مختلفا أو متفقا، فهو مثل قولهم: مررت برجل معه صقر صائدًا له غدا».

وقوله: ﴿والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ أى: وأنشأ الزيتون والرمان متشابها فى المنظر وغير متشابه فى الطعم أو متشابها بعض أفرادهما فى اللون أو الطعم أو الهيئة «وغير متشابه فى بعضها.

قال القرطبى: وفيه أدلة ثلاثة.

أحدها: ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لابد لها من مغير.

الثانى : على المنة منه - سبحانه - علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء، لأنه لا يجب عليه شىء.

الثالث : على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته : الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها وأين الفلاسفة وأسسها، هل هى فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان أو ترتب هذا الترتيب العجيب. كلا، لا يتم ذلك فى العقول إلا لحى قادر عالم مريد، فسبحان من له فى كل شىء آية ونهاية.

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب. وأشركوا معه وحللوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم»[1].

ثم ذكر - سبحانه - المقصود من خلق هذه الأشياء فقال : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ أى : كلوا من ثمر تلك الزروع والأشجار التى أنشأناها لكم، شاكرين الله على ذلك. والأمر للإباحة. وفائدة التقييد بقوله ﴿إذا أثمر﴾ إباحة الأكل قبل النضوج والإدراك.

وقيل فائدته : الترخيص للمالك فى الأكل من قبل أداء حق الله - تعالى - لأنه لما أوجب الحق فيه ربما يتبادر إلى الأذهان أنه يحرم على المالك تناول شىء منه لمكان شركة المساكين له فيه، فأباح الله له هذا الأكل.

ثم أمرهم - سبحانه - بأداء حقوق الفقراء والمحتاجين مما رزقهم فقال : ﴿وآتو حقه يوم حصاده﴾ أى، كلوا من ثمر ما أنشأنا لكم، وأدوا حق الله فيه للفقراء والمحتاجين يوم حصاده.

ويرى بعض العلماء أن المراد بهذا الحق الصدقة بوجه عام على المستحقين لها، بأن يوزع صاحب الزرع منه عند حصاده على المساكين والبائسين ما يسد حاجتهم بدون إسراف أو تقتير.

وأصحاب هذا الرأى فسروا هذا الحق بالصدقة الواجبة من غير تحديد للمقدار وليس بالزكاة المفروضة لأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة.

وهم يرون أن هذا الحق لم ينسخ بالزكاة المفروضة، بل على صاحب الزرع أن يطعم منه المحتاجين عند حصاده.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٩٩.

ويرى بعض آخر من العلماء أن المراد بهذا الحق ما فصلته السنة النبوية من الزكاة المفروضة وهذه الآية مدنية وإن كانت السورة مكية.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح، لأنه لا دليل على أن هذه الآية مدنية ولأن فرضية الزكاة لا تمنع إعطاء الصدقات، وفى الأمر بإيتاء هذا الحق يوم الحصاد، مبالغة فى العزم على المبادرة إليه.

والمعنى: اعزموا على إيتاء هذا الحق واقصدوه، واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء.

وقيل: إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفًا على أصحاب الزروع حتى لا يحسب عليهم ما أكل قبله.

ثم ختمت الآية بالنهى عن الإسراف فقالت، ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾. أى لا تسرفوا فى أكلكم قبل الحصاد ولا فى صدقاتكم ولا فى أى شأن من شئونكم، لأنه - سبحانه - لا يحب المسرفين.

وقال ابن جريج، نزلت فى ثابت بن قيس، قطع نخلا له فقال. لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فنزلت هذه الآية.

وقال عطاء، نهوا عن السرف فى كل شيء.

وقال إياس بن معاوية، ما جاوزت به أمر الله فهو سرف.

ثم بين - سبحانه - حال الأنعام، وأبطل ما تقولوه عليه فى شأنها بالتحريم والتحليل فقال. ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا﴾.

الحمولة، هى الأنعام الكبار الصالحة للحمل. والفرش هى صغارها الدانية من الأرض، مثل الفرش المفروش عليها.

وقيل الحمولة كل ما حمل عليه من إبل وبقر وبغل وحمار. والفرش ما اتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش.

أى: وأنشأ لكم - سبحانه - من الأنعام حمولة وهى ما تحملون عليه أثقالكم، كما أنشأ لكم منها فرشا وهى صغارها التى تفرش للذبائح من الضأن والمعز والإبل والبقر.

والجملة معطوفة على جنات، والجهة الجامعة بينهما إباحة الانتفاع بهما.

وقوله ﴿كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

أى: كلوا مما رزقكم الله من هذه الثمار والزروع والأنعام وغيرها، وانتفعوا منها بسائر أنواع

الانتفاع المشروعة، ولا تتبعوا وساوس الشيطان وطرقه فى التحريم والتحليل كما اتبعها أهل الجاهلية، إذ حرموا ما رزقهم الله افتراء عليه، إن الشيطان عداوته، ظاهرة واضحة لكم، فهو يمنعكم مما يحفظ روحكم، ويطهر قلوبكم، فالجملة الكريمة ﴿إنه لكم﴾ تعليل للنهى عن اتباع خطوات الشيطان.

ثم بين القرآن بعد ذلك بعض ما كان عليه الجاهليون من جهالات، وناقشهم فيما أحلوه وحرموه مناقشة منطقية حكيمة فقال:

﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾.

وقوله - سبحانه - ﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشا﴾ بناء على كونهما قسمين لجميع الأنعام على الراجح، وقيل أن لفظ ثمانية منصوب بفعل مضمر أى: وأنشأ لكم ثمانية أزواج، أو هو مفعول به لفعل ﴿كلوا﴾ وقوله ﴿ولا تتبعوا﴾... الخ» معترض بينهما.

والزوج يُطلق على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل، وكذا يطلق على الاثنين فهو مشترك والمراد هنا الاطلاق الأول.

والمعنى: ثمانية أصناف خلقها الله لكم، لتنتفعوا بها أكلا وركوبا وحملا وحلبًا وغير ذلك.

ثم فصل الله - تعالى - هذه الأزواج الثمانية فقال: ﴿من الضأن اثنين﴾ أى. من الضأن زوجين اثنين هما الكبش والنعجة، ﴿ومن المعز اثنين﴾ أى. ومن المعز زوجين اثنين هما التيس والعنز.

ثم أمر الله -تعالى- نبيه ﷺ أن يبكتهم على جهلهم فقال ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾.

أى: قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ وإلزامهم الحجة. أحرم الله الذكرين وحدهما من الضأن والمعز أم الأنثيين وحدهما، أم الأجنة التى اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما سواء أكانت تلك الأجنة ذكورًا أم إناثا؟

وقوله: ﴿نبئونى بعلم إن كنتم صادقين﴾ أى: أخبرونى بأمر معلوم من جهته - تعالى - جاءت به الأنبياء، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئًا مما حرمتموه إن كنتم صادقين فى دعوى التحريم.

والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض.

وقوله - تعالى - ﴿ومن الإبل اثنين﴾ عطف على قوله ﴿من الضأن اثنين﴾ أى: وأنشأ لكم

من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ﴿ومن البقر اثنين﴾ هما الثور وأنثاه البقرة.

﴿قل﴾ إفحاما فى أمر هذين النوعين أيضًا ﴿آلذكرين حرم﴾ الله -تعالى- منهما، ﴿أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين﴾ من ذينك النوعين؟

قال الآلوسى : والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء : إنكار ان الله - تعالى - حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة. وأولادها كيفما كانت تارة أخرى، مسندين ذلك كله إلى الله - سبحانه -.

ثم قال : وإنما لم يل المنكر - وهو التحريم - الهمزة، والجارى فى الاستعمال أن ما نكر وليها لأن ما فى النظم الكريم أبلغ.

وبيانه - على ما قاله السكاكى - أن إثبات التحريم يستلزم إثبات محله لا محالة، فإذا انتفى محله وهو الموارد الثلاثة لزم انتفاء التحريم على وجه برهانى. كأنه وضع الكلام موضع من سلم أن ذلك قد تم، وطالبه ببيان محله كى يتبين كذبه، ويفتضح عند الحاجة.

وإنما لم يورد - سبحانه - الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة، بأن يقال : قل ءآلذكور حرم أم الإناث أما اشتملت عليه أرحام الإناث، لما فى التكرير من المبالغة أيضا فى الإلزام والتبكيت »[1].

وقوله - تعالى - ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ تكرير للإفحام والتبكيت.

أى : أكنتم حاضرين حين وصاكم الله وأمركم بهذا التحريم؟ لا، ما كنتم حاضرين فمن أين لكم هذه الأحكام الفاسدة؟.

فالجملة الكريمة تبكتهم غاية التبكيت على جهالاتهم وافترائهم الكذب على الله، والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ للنفى والإنكار.

أى : لا أحد أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب بنسبتهم إليه -سبحانه- تحريم ما لم يحرمه لكى يضلوا الناس عن الطريق القويم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٤١.

وقوله، ﴿بغير علم﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل افترى، أى: افترى عليه - تعالى - جاهلا بصدور التحريم.

وإنما وصف بعدم العلم مع أن المفترى عالم بعدم الصدور، إيذانًا بخروجه فى الظلم عن الحدود والنهايات، لأنه إذا كان المفترى بغير علم يعد ظالمًا فكيف بمن يفترى الكذب وهو عالم بذلك.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ أى لا يهديهم إلى طريق الحق بسبب ظلمهم، وإيثارهم طريق الغى على طريق الرشد.

هذا، والمتأمل فى هاتين الآيتين الكريمتين يراهما قد ردتا على المشركين بأسلوب له - مع سهولته وتأثيره - الطابع المنطقى الذى يزيد المؤمنين إيمانًا بصحة هذا الدين، وصدق هذا القرآن، ويقطع على المعارضين والملحدين كل حجة وطريق.

وتقرير ذلك - كما قال بعض العلماء - أن تطبق قاعدة (السير والتقسيم) فيقال، إن الله - تعالى - خلق من كل صنف من المذكورات نوعين: ذكرًا وأنثى، وأنتم أيها المشركون حرمتم بعض هذه الأنعام، فلا يخلو الأمر فى هذا التحريم من:

١ - أن يكون تحريمًا معللا بعلة.

٢ - أو أن يكون تحريمًا تعبديًا ملقى من الله - تعالى -.

ولا جائز أن يكون تحريمًا معللا، لأن العلة إن كانت هى (الذكورة) فأنتم أبحتم بعض الذكور وحرمتم بعضا، فلم تجعلوا الأمر فى الذكورة مطردًا وإن كانت العلة هى (الأنوثة) فكذلك الأمر: حيث حرمتم بعض الإناث وحللتم بعضا، فلم تطرد العلة، ومثل هذا يقال إذا جعلت العلة هى اشتمال الرحم من الأنثى على النوعين، لأنها حينئذ تقتضى أن يكون الكل حراما فلماذا أحلوا بعضه.

وهذا كله يؤخذ من قوله - تعالى - ﴿قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾.

فبطل إذن أن يكون التحريم معللا.

ولا جائز أن يكون التحريم تعبديا لا يدرى له علة، أى: مأخوذ عن الله، لأن الأخذ عن الله إما بشهادة توصيته بذلك وسماع حكمه به، وقد أنكر هذا عليهم بقوله: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ وإما أن يكون برسول أبلغهم ذلك، وهم لم يأتهم رسول بذلك، وفى هذا يقول - جل شأنه متحديا لهم ﴿نبئونى بعلم إن كنتم صادقين﴾ ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾.

وإذن فما قالوه من التحريم إنما هو افتراء وضلال»[1].

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بعد إلزام المشركين وتبكيتهم، وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء محض - بعد كل ذلك أمره بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال:

قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

أى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب فى أمر التحليل والتحريم وغيرهما ﴿لاأجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه﴾.

أى: لا أجد فيما أوحاه الله إلى من القرآن طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله من ذكر أو أنثى ردًا على قولهم﴿ محرم على أزواجنا﴾.

والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحى وليس مجرد الهوى والتشهى، وأن الأصل فى الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم.

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للاسلام ص٨٣ لفضيلة الأستاذ محمد المدنى.

و ﴿محرما﴾ صفة لموصوف محذوف، أى: شيئًا محرما، أو طعاما محرما، وهو المفعول الأول لأجد، أما المفعول الثانى فهو ﴿فيما أوحى إلى﴾ قدم للاهتمام به.

وقوله ﴿يطعمه﴾ فى موضع الصفة لطاعم جىء به قطعا للمجاز كما فى قوله ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾.

ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال: ﴿إلا أن يكون ميتة، أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا، أهل لغير الله به﴾.

أى: لا أجد فيما أوحاه الله إلى الآن شيئًا محرما من المطاعم إلا أن يكون هذا الشىء أو ذلك الطعام ﴿ميتة﴾ أى: بهيمة ماتت حتف أنفها.

﴿أو دما مسفوحا﴾ أى: دما مصبوبا سائلا كالدم الذى يخرج من المذبوح عند ذبحه، لا الدم الجامد كالكبد والطحال، والسفح: الصب والسيلان.

﴿أو لحم خنزير فإنه﴾ أى اللحم لأنه المحدث عنه، أو الخنزير لأنه الأقرب أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير.

﴿رجس﴾ أى: قذر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان ﴿أو فسقا أهل لغير الله به﴾ أى: خروجا عن الدين، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه - تعالى - من صنم أو وثن أو طاغوت أو نحو ذلك.

والإهلال: رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا.

وإنما سمى ﴿ما أهل به لغير الله﴾ فسقا، لتوغله فى باب الفسق، والخروج عن الشريعة الصحيحة، ومنه قوله - تعالى - ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾.

ثم بين - سبحانه - حكم المضطر فقال: ﴿فمن اضطر﴾:

أى: فمن أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء مما ذكر، بأن ألجىء بإكراه أو جوع مهلك - مع فقد الحلال - إلى أكل شىء من هذه المحرمات التى كانوا فى الجاهلية يستحلونها، فلا إثم عليه فى أكلها.

واضطر: مأخوذ من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء، يقال: اضطره إليه، أى أحوجه وألجأه فاضطر.

ثم قيد - سبحانه - حالة الاضطرار بقوله: ﴿غير باغ ولا عاد﴾.

أى : فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة كونه غير باغ فى أكله، أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره. أو غير طالب له للذته، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن الآخر.

أو حالة كونه - أيضًا - غير عاد فيما يأكل، أى : غير متجاوز سد الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال.

وباغ : مأخوذ من البغاء وهو الطلب تقول : بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى : طلبته.

وعاد : اسم فاعل بمعنى متعد، تقول : فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد، ومنه قوله - تعالى - ﴿بل أنتم قوم عادون﴾.

وقوله ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ أى : فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين، ولا يكلف الناس بما فوق طاقتهم، وإنما هو رءوف رحيم بهم يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

والجملة الكريمة جواب الشرط باعتبار لازم المعنى وهو عدم المؤاخذة. وقيل جواب الشرط محذوف : أى فمن اضطر، فلا مؤاخذة عليه وهذه الجملة تعليل له.

هذا، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها.

قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك. فأمر - تعالى - رسوله أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه. فكيف تزعمون أنه حرام؟ ! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله - تعالى -؟ ! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا. كما جاء النهى عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير»[1].

وقال القرطبى : والآية مكية، ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد فى المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك، وحرم رسول الله ﷺ بالمدينة أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير، وقد اختلف العلماء فى حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال :

الأول : ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول الله أو جاء فى الكتاب

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨٤.

مضموم إليها، فهو زيادة حكم من الله على لسان نبيه. على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر»[١].

والخلاصة: أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين، وذلك أن الكفار. كما قال الإمام الشافعى - لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم. فكأنه قال - سبحانه - لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة. فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا للنفى والإثبات على الحقيقة.

فهو - تعالى - لم يقصد حل ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

قال إمام الحرمين: وهذا فى غاية الحسن، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك - رضى الله عنه - فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية»[٢].

وفى حكم هذه الآية وتأويلها أقوال أخرى بسطها العلماء فارجع إليها إذا شئت[٣].

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وبغيهم فقال -تعالى- ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر﴾.

فقوله - تعالى - ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا﴾ بيان لما حرمه الله - تعالى - على بنى إسرائيل جزاء ظلمهم، وفى هذا البيان رد على اليهود، وتكذيب لهم، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئًا، وإنما هم حرموا على أنفسهم ما حرمه إسرائيل على نفسه، فجاءت هذه الآية الكريمة لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التى كانت حلالا لهم - بسبب فسقهم وطغيانهم.

والمراد بقوله تعالى ﴿كل ذى ظفر﴾ ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير، كالإبل والنعام والأوز والبط، كما روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة.

قال الإمام الرازى: قوله - تعالى -: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر﴾ يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين:

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص١١٦.
(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ١ ص٨٤ للسيوطى.
(٣) راجع تفسير القرطبى جـ٧ ص١١٥ وما بعدها وتفسير المنار جـ٨ ص٢٤٩ وما بعدها.

الأول : أن قوله - تعالى - ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا﴾ كذا وكذا يفيد الحصر فى اللغة. لتقدم المعمول على عامله.

الثانى : أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة فى حق الكل لم يبق لقوله ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا﴾ فائدة[١].

ثم بين - سبحانه - ما حرم عليهم من غير ذوى الظفر فقال - تعالى - : ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم﴾.

والشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان وبها يكون لحمه سمينًا والعرب تسمى سنام البعير، وبياض البطن شحمًا، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان.

والحوايا : - كما قال ابن جرير - جمع حاوياء وحاوية، وحوية وهى ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وفسرت بالمباعر، والمرابض التى هى مجتمع الأمعاء فى البطن[٢].

والمعنى : كما حرمنا على اليهود كل ذى ظفر، فقد حرمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة، إلا ما استثنيناه من هذه الشحوم وهو ما حملت ظهورهما أو ما حملت حواياهما، أو اختلط من هذه الشحوم بعظمهما. فقد أحللناه لهم.

ثم بين - سبحانه - أن هذا التحريم كان نتيجة لطغيانهم فقال تعالى : ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ أى. هذا الذى حرمناه على الذين هادوا من الأنعام والطير ومن البقر والغنم، وهذا التضييق الذى حكمنا به عليهم، إنما ألزمناهم به، بسبب بغيهم وظلمهم، وتعديهم حدود الله تعالى.

قال قتادة : إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديدًا عليهم.

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود، من الأنباء التى لم يكن النبى ﷺ وقومه يعلمون عنها شيئًا لأميتهم، وكان تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عليهم عقوبة لهم، لما كان الأمر كذلك، أكد الله هذا النبأ بقوله : ﴿وإنا لصادقون﴾. أى : وإنا لصادقون - يا محمد - فيما أخبرناك به، ومن بينه ما أعلمناك عنه مما حرمناه على اليهود من الطيبات وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه.

ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله لهم منها محرمة عليهم، فإنهم تحايلوا على شرع الله،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٥ ص١٦.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٨ ص٧٥.

وأخذوا يذيبونها ويستعملونها فى شئونهم المختلفة أو يبيعونها ويأكلون ثمنها، ولقد لعنهم النبى ﷺ بسبب هذا التحايل فى أحاديث متعددة.

من ذلك ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان قاعدًا خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء وقال: «لعن الله اليهود - ثلاثا - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شىء إلا حرم عليهم ثمنه»(١).

وعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود، وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس، فقال: (لا. هو حرام) ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك (قاتل الله اليهود)، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوها. أى: أذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها»(٢).

ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان، فقال - تعالى -: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أى: فإن كذبك - يا محمد - هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين، فيما أخبرناك عنه من أنا حرمنا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات عقوبة لهم، فقل لهم. إن الله - تعالى - ذو رحمة واسعة حقًا ورحمته وسعت كل شىء، ومن مظاهر رحمته أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم المستمرين على اقتراف المنكرات، وارتكاب السيئات.

فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغى والكفران، حتى يعودوا إلى طريق الحق. إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى، ويعتبر بالموعظة.

ثم حكى القرآن بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التى تمسك بها المشركون فى شركهم وجهالاتهم ورد عليها بما يبطلها ويخرس ألسنة قائليها أو المتذرعين بها فقال:

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ
لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨٥.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

إن هذه الآيات الكريمة تعرض لشبهة قديمة جديدة: قديمة لأن كثيرا من مجادلى الرسل موهوابها، وحديثة لأنها دائما تراود كثيرا من المتمسكين بالأوهام فى سبيل إرضاء نزواتهم من المتع الباطلة والشهوات المحرمة.

إنهم يقولون عندما يرتكبون القبائح والمنكرات: هذا أمر الله، وهذا قضاؤه، وتلك مشيئته وإرادته، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها وإذا كان الله قد قضى علينا بها فما ذنبنا؟ ولماذا يعاقبنا عليها؟ إلى غير ذلك من اللغو الباطل، والكلام العابث الذى يريدون من ورائه التحلل من أوامر الله ونواهيه.

ولنتدبر سويًا أيها القارىء الكريم - هذه الآيات، وهى تحكى تلك الشبهات الباطلة، ثم تقذفها بالحق الواضح، والبرهان القاطع، فإذا هى زاهقة.

يقول - سبحانه - ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء﴾.

أى: سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا يشرك به آباؤنا من قبلنا، لنفذت مشيئته، ولما أشركنا نحن ولا آباؤنا.

ولو شاء كذلك ألا نحرم شيئًا مما حرمناه من الحرث والأنعام وغيرها لتمت مشيئته ولما حرمنا شيئًا مما حرمنا.

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام، وأن نحرم ما نحرم من الحرث والأنعام وقد رضى لنا ذلك فلماذا تطالبنا يا محمد بتغيير مشيئة الله، وتدعونا إلى الدخول فى دينك الذى لم يشأ الله دخولنا فيه؟.

قال الآلوسى ما ملخصه : «وهم لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح ، لأنهم لم يعتقدوا قبح أفعالهم وإنما مرادهم من هذا القول الاحتجاج على أن ما ارتكبوه - من الشرك والتحريم - حق ومشروع ومرضى عند الله ، بناء على أن المشيئة والإرادة تسابق الأمر وتستلزم الرضا، فيكون حاصل كلامهم :

إن ما نرتكبه من الشرك والتحريم وغيرهما تعلقت به مشيئة الله وإرادته، وكل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنده. فينتج أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم مشروع ومرضى عند الله »(١).

وقد حكى القرآن فى كثير من آياته ما يشبه قولهم هذا، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم﴾(٢).

وقوله - تعالى - ﴿وقالوا لو شاء الرحمـٰن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾(٣). وقد رد القرآن على قولهم بما يبطله فقال : ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾.

أى : مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول ﷺ فيما جاء به من إبطال الشرك، قد كذب الذين من قبلهم لرسلهم، واستمروا فى تكذيبهم لهم حتى أنزلنا على هؤلاء المكذبين عذابنا ونقمتنا.

ومن مظاهر تكذيب هؤلاء المشركين لرسلهم، أنهم عندما قال لهم الرسل عليهم السلام - اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا. كذبوهم واحتجوا عليهم بأن ما هم عليه من شرك واقع بمشيئة الله ، وزعموا أنه ما دام كذلك فهو مرضى عنده - سبحانه - فكان الرد عليهم بأنه لو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيا عنده - سبحانه - : لما أذاق أسلافهم المكذبين - الذين قالوا لرسلهم مثل قولهم - عذابه ونقمته. ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال الآلوسى ما ملخصه : وحاصل هذا الرد أن كلام المشركين يتضمن تكذيب الرسل وقد دلت المعجزة على صدقهم، ولا يخفى أن المقدمة الأولى وهى أن كل شيء بمشيئة الله : لا تكذيب فيها، بل هى متضمنة لتصديق ما تطابق فيه العقل والشرع من كون كل شيء بمشيئة الله ، وامتناع أن يجرى فى ملكه خلاف ما يشاء. فمنشأ التكذيب هو المقدمة الثانية، وهى أن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٥٠.
(٢) سورة النحل الآية ٣٥.
(٣) سورة الزخرف الآية ٢٠.

كل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنه، لأن الرسل عليهم السلام : يدعونهم إلى التوحيد ويقولون لهم : إن الله لا يرضى لعباده الكفر دينا ولا يأمر بالفحشاء، فيكون قولهم : إن ما نرتكبه مشروع ومرضى عنده سبحانه : تكذيب لقول الرسل. وحيث كان فساد هذه الحجة باعتبار المقدمة الثانية تعين أنها ليست بصادقة، وحينئذ يصدق نقيضها وهى أنه ليس كل ما تعلقت به المشيئة والإرادة بمشروع ومرضى عنده -سبحانه- بناء على أن الإرادة لا تساوق الأمر[1].

ثم بعد هذا الرد المفحم للمشركين أمر الله : تعالى : رسوله أن يطالبهم بدليل على مزاعمهم فقال : ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾.

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ ! إن كان عندكم هذا العلم فاخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه، ونعرضه على ما جئتكم به من آيات بينة ودلائل ساطعة. فإن العاقل هو الذى لا يتكلم بدون علم، ولا يحيل على مشيئة الله التى لا ندرى عنها شيئًا.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿من علم﴾ زائدة، وعلم مبتدأ، وعندكم خبر مقدم.

وقوله : ﴿فتخرجوه﴾ منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية الواقعة بعد الاستفهام الإنكارى.

ثم بين حقيقة حالهم فقال : ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنت إلا تخرصون﴾.

أى : أنتم لستم على شيء ما من العلم، بل ما تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن الباطل الذى لايغنى من الحق شيئا. وما أنتم إلا تخرصون أى تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

وأصل الخرص : القول بالظن. يقال : خرصت النخل خرصا - من باب قتل - حزرت ثمره وقدرته بالظن والتخمين، واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة، فيقال : خرص فى قوله - كنصر - أى كذب.

وبعد أن نفى - سبحانه - عنهم أدنى ما يقال له علم وحصر ما هم عليه من دين فى أدنى مراتب الظن مع أن أعلاها لا يغنى من الحق شيئًا، ووصمهم بالكذب فيما يدعون، بعد كل ذلك أثبت لذاته - سبحانه - فى مقابلة ذلك الحجة العليا التى لا تعلوها حجة فقال :

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٥٠.

﴿قل فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين﴾.

الحجة : كما قال الراغب فى مفرداته : الدلالة المبينة للمحجة، أى : المقصد المستقيم.

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين الذين بنوا قواعد دينهم على الظن والكذب بعد أن عجزوا عن الإثبات بأدنى دليل على مزاعمهم، قل لهم : لله وحده الحجة البالغة. أى البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة، والتى وصلت إلى أعلى درجات الكمال فى قطع عذر المحجوج وإزالة الشكوك عمن تدبرها وتأملها.

وقوله. ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أى : لو شاء - سبحانه - هدايتكم جميعا لفعل؛ لأنه لا يعجزه شيء، ولكنه لم يشأ ذلك، بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق، وشاء ضلالة آخرين، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل.

ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله.

نحن معكم فى أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا مايشاؤه، فالطائع تحت المشيئة والعاصى تحت المشيئة، ولكن المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون، وليس العلم صفة تأثير وجبر.

ولقد شاء الله - تعالى - أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر، ووهبهم العقل ليهتدوا به وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم وسن لهم شريعة لتكون مقياسًا ثابتا لما يأخذون وما يدعون، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها.

وإذن فمشيئة الله متحققة حسب سنته التى ارتضاها مختارا - وهو قادر على اختيار غيرها وعلى تغييرها وتبديلها - متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال، وهو مؤاخذ إن ضل ومأجور إذا اهتدى. غير أن سنة الله اقتضدت أن من يفتح عينه يبصر النور، ومن يغمضها لا يراه، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى. ومن يحجب قلبه عنها يضل، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وإذن فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا على معنى أنه أجبرهم عليه فهم لا يستطيعون عنه فكاكا، إنما هو زعم باطل لا سند له من العلم والتفكير الصحيح فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيدت بها، وهذه السنة هى أنه لا جبر على طاعة ولا قسر على معصية.

وتقرير ذلك يؤخذ من قوله - تعالى - ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أى : فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقدرته وقدره لهداكم، ولكنه لم يشأ إجباركم على الضلالة، فهى مشيئة المنح والتيسير وليست مشيئة الإلجاء والتسخير قال - تعالى - ﴿فأما من

أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بأن يطالب المشركين بإحضار من يشهد لهم بأن الله قد حرم عليهم ما زعموا تحريمه من الحرث والأنعام وغيرها فقال:

﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾.

هلم: لفظ يقصد به الدعوة إلى الشىء، وهى اسم فعل بمعنى أقبل إذا كان لازما، وبمعنى أحضر وائت إذا كان متعديا كما هنا، ويستوى فيه الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث فى لغة الحجازيين.

أى: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه، وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم.

والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم الحجة، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة، ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصر مذهبهم.

ثم قال - سبحانه - ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أى: فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود الذين عرفوا بضلالهم فلا تصدقهم ولا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن الباطل فى مثل هذا المقام كالشهادة به وإنما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم بواسطة ما آتاك الله من حجج وبينات.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرما ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت: أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شىء لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم فى أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به. وقوله ﴿فلا تشهد معهم﴾ يعنى فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهيد معهم مثل شهادتهم وكان واحدا منهم[1].

ثم قال - سبحانه - ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ أى: ولا تتبع أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا التى أنزلها الله عليك لتكون هداية ونورا لقوم يعقلون، فإن شهادتهم - إن وقعت - فإنما هى صادرة عن هوى وضلال.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٧٨.

ولم يقل - سبحانه - ولا تتبع أهواءهم بل قال : ولا تتبع أهواء الذين كذبوا، فوضع الظاهر موضع الضمير لبيان أن المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة إمعانا فى التمسك بتقاليده الباطلة، إنما هو صاحب هوى وظن لا صاحب علم وحجة.

وقوله ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ عطف على الموصوف قبله لتعدد صفاتهم القبيحة.

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله، وبين الكفر بالآخرة، وبين جعلهم لله عديلا أى شريكا مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء، لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق، ولا للثقة بهم، وإنما للاحتقار فى الدنيا، ولسوء العذاب فى الآخرة.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكت فى بضع عشرة آية جانبا من رذائل المشركين وسخف تقاليدهم وعبث أهوائهم وفساد معاذيرهم وبطلان شبهاتهم وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويبطل حجتهم، فيما أحلوه وحرموه فى شأن النذور والذبائح والمطاعم والمشارب وغير ذلك مما حكته الآيات الكريمة.

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى أفق أرحب وأوسع، وإلى ميدان أفسح وأشمل فتناديهم بأسلوب مؤثر بليغ ليستمعوا إلى ما حرم الله عليهم فيجتنبوه وإلى ما كلفهم به فيعملوه، تناديهم ليتدبروا فى الأصول الكلية التى تقوم عليها العقيدة السليمة، ويسعد بها المجتمع، ويحيا فى ظلها الأفراد والجماعات فى أمان واطمئنان. تناديهم ليسمعوا البيان الصحيح الحق فيما أحل الله وحرم من الأفعال والأقوال ليسمعوه ممن له وحده الحق فى أن يقوله، وفى أن يتلقى عنه تناديهم فتقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

إن المتأمل فى هذه الآيات يراها قد رسمت للإنسان علاقته بربه علاقة ينال بها السعادة والثواب، ورسمت له علاقته بأسرته بحيث تقوم على المودة والمحبة وسدت فى وجهه أبواب الشر التى تؤدى إلى انتهاك حرمات الأنفس والأموال والأعراض، وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة اسم «الوصايا العشر» نظرا لتذييل آياتها الثلاث بقوله - تعالى - ﴿ذلكم وصاكم به﴾.

روى الترمذى - بسنده - عن ابن مسعود أنه قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات ﴿قل تعالوا أتل﴾. إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾.

وروى الحاكم وصححه، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث، ثم تلا قوله - تعالى -: ﴿قل تعالوا أتل﴾. حتى فرغ منها ثم قال: من وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء الله أخذه، وإن شاء عفا عنه»(١).

وروى البيهقى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال. لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى منى وأنا وأبو بكر معه، فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومضاربهم. فسلم عليهم وردوا السلام، وكان فى القوم مفروق بن عمرو وهانى بن قبيصة

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨٧.

والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو أغلب القوم لسانًا وأفصحهم بيانًا، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال له:

إلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال النبى ﷺ ادعوكم إلى شهادة أن أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله، وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى اؤدى حق الله الذى أمرنى به، فإن قريشًا تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد.

فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول ﷺ ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾. إلى آخر الآيات الثلاث.

فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه. فتلا رسول الله ﷺ ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾. الآية.

فقال له مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعت مقالتك، واستحسنت قولك يا أخا قريش، ويعجبنى ما تكلمت به، فبشرهم الرسول - إن آمنوا - بأرض فارس وأنهار كسرى. فقال له النعمان: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرًا ونذيرًا. وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ ثم نهض رسول الله ﷺ.

هذا جانب من فضائل هذه الآيات الثلاث، وذلك هو تأثيرها فى نفوس العرب، والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لها فنقول:

لقد بدئت الآيات بقوله - تعالى - ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾.

أى: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم، تعالوا إلى وأقبلوا نحوى لأبين لكم ما حرمه ربكم عليكم، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به، وما نهاكم عنه خالقكم ومربيكم، فإنكم إن أقبلتم نحوى وأطعمتمونى سعدتم فى دينكم ودنياكم.

وفى تصدير هذه الوصايا بكلمة ﴿قل﴾ إشعار من أول الأمر بأن هذا بيان إلـهى، ليس الرسول فيه إلا ناقلا مبلغا، وفيه - أيضا - دلالة على أن المأمور به يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام وقد سبق أن بينا أن سورة الأنعام زاخرة بهذا الأسلوب التلقينى الذى يبدأ بكلمة ﴿قل﴾.

والأصل فى كلمة ﴿تعال﴾ أن يقولها من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم اتسع فيها

حتى عمت، وهى تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعتهم من انحطاط هم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون إليه، وتتضمن كذلك أن المتكلم يريد منهم أن يلتفوا من حوله لتتحد وجهتهم، ولا تتفرق بهم الأهواء والسبل.

وفى قوله ﴿أتل﴾ إيماء قوى بأن المتكلم يقدر المخاطبين، ويرتفع بهم إلى درجة أنهم لا يحتاجون فى الإرشاد إلا لأن يتلو عليهم ما يريدهم أن يعملوه ثم هم بعد ذلك سيمتثلون لحسن استعدادهم لقبول الحق.

- وإنه لأسلوب قد بلغ الغاية فى اللطف وفى التكريم وفى حسن الموعظة وتوجيه الخطاب.

- وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا قد اشتملت على المحرمات وعلى غيرها لأن سياق الآيات قبل ذلك كان منصبا على كشف ما اخترعه المشركون من تحريم فى الحرث والنسل ما أنزل الله به من سلطان، ولأن بيان أصول المحرمات يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل.

وفى نسبة التحريم إلى الرب الذى هو منبع الخير والإحسان. حض لهم على التدبر والاستجابة. لأن الذى حرم عليهم ذلك هو مربيهم، فليس معقولا أن يحرم عليهم ما فيه منفعة لهم، وإنما هو بمقتضى ربوبيته قد حرم عليهم ما فيه ضررهم.

- وقوله ﴿أتل﴾ جواب الأمر، أى: إن تأتونى أتل. و﴿ما﴾ فى قوله ﴿ما حرم﴾ موصولة بمعنى الذى والعائد محذوف أى: أقرأ الذى حرمه ربكم عليكم، وهى فى محل نصب مفعول به، ويحتمل أن تكون مصدرية، أى أتل تحريم ربكم، ونفس التحريم لا يتلى وإنما هو مصدر واقع موقع المفعول به،، أى: أتل محرم ربكم الذى حرمه هو. و﴿عليكم﴾ متعلق بـ﴿حرم﴾ أو بـ﴿أتل﴾.

قال بعض العلماء: وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا - وهى ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة. لا مفر من قبولها والبناء عليها، فالله - تعالى - يأمر رسوله بأن يبلغهم، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب ﴿ما حرم ربكم﴾ ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضبًا للرب الذى قرره. مستحقًا لعقوبته، وإذن فهناك دار للجزاء»[1]. ولننظر بعد ذلك فى الوصايا.

الوصية الأولى: ﴿أن لا تشركوا به شيئًا﴾ أى: أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة

---

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص٩١ لفضيلة الأستاذ محمد المدنى - رحمه الله -.

أخرى. بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شيء.

وصدر - سبحانه - هذه الوصايا بالنهى عن الشرك، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفسادًا للفطرة، ولأنه هو الجريمة التى لا تقبل المغفرة من الله، بينما غيره قد يغفره - سبحانه - قال - تعالى - : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وقد ساق القرآن مئات الآيات التى تدعو إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة، والبراهين الدامغة على وحدانية الله - عز وجل -.

هذا، وقد ذكر الشيخ الجمل فى إعراب هذه الجملة الكريمة ألا تشركوا به شيئًا عدة آراء منها:

١ - أنّ ﴿أن﴾ تفسيرية، لأنه تقدمها ما هو بمعنى القول لا حروفه، ولا ناهية ولا تشركوا مجزوم بها.

٢ - أن تكون ﴿أن﴾ ناصية للفعل بعدها، وهى وما فى حيزها فى محل نصب بدلا من ﴿ما حرم﴾ ولا زائدة لئلا يفسد المعنى كزيادتها فى قوله: ﴿ألا تسجد﴾، ﴿ولئلا يعلم﴾.

٣ - تكون ﴿أن﴾ ناصبة وما فى حيزها منصوب على الإغراء بعليكم ويكون الكلام قد تم عند قوله ﴿ربكم﴾ ثم ابتدأ فقال: عليكم ألا تشركوا أى الزموا نفى الشرك.

٤ - أنها وما فى حيزها فى محل نصب أو جر على حذف لام العلة، والتقدير تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئًا.

٥ - أن تكون هى وما بعدها فى محل نصب بإضمار فعل تقديره: أوصيكم ألا تشركوا.

ونكتفى بهذا القدر من وجوه الإعراب التى توسع فيها النحاة توسعًا كبيرًا، بسبب ورود بعض هذه الوصايا بصيغة النهى، وبعضها بصيغة الأمر، مع تقدم فعل التحريم على جميعها[1].

أما الوصية الثانية: فى قوله - تعالى - ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أى: أحسنوا بهما إحسانا كاملا لا إساءة معه.

وقد قرن - سبحانه - هذه الوصية بالوصية الأولى التى هى توحيده وعدم الإشراك به، فى هذه الآية وفى غيرها، للإشعار بعظم هذه الوصية وللتنبيه إلى معنى واحد - يجمعها مع الأولى وهو أن المنعم يجب أن يشكر؛ فالوالدان سبب فى حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما، والله - تعالى - هو الخالق المنعم فيجب أن يشكر ويفرد بالعبادة والطاعة.

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٠٧ وتفسير الآلوسى جـ٨ ص٥٧.

- قال بعض العلماء: وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان إلى الوالدين، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة، سموا بالإنسان عن أن تظن به الاساءة إلى الوالدين، وكأن الإساءة إليهما، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها، ولأن الخير المنتظر من هذه الوصية وهو تربية الأبناء على الاعتراف بالنعم وشكر المنعمين عليها إنما يتحقق بفعل الواجب، وهو الإحسان لا بمجرد ترك المحرم وهو الإساءة. لهذا وذاك قال - سبحانه - ﴿وبالوالدين إحسانا﴾.

- والإحسان يتعدى بحرفى الباء وإلى، فقال: أحسن به، وأحسن إليه، وبينهما فرق واضح، فالباء تدل على الإلصاق، وإلى تدل على الغاية، والإلصاق يفيد اتصال الفعل بمدخول «الباء» دون انفصال ولا مسافة بينهما، أما الغاية فتفيد وصول الفعل إلى مدخول ﴿إلى﴾ ولو كان منه على بعد أو كان بينهما واسطة، ولا شك أن الإلصاق فى هذا المقام أبلغ فى تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين، ومن هنا لم يعد الإحسان بالباء فى القرآن إلا حيث أريد ذلك التأكيد، وقد جاءت جميع الآيات القرآنية التى توحى بالإحسان بالوالدين على هذا الأسلوب»[1].

ثم جاءت الوصية الثالثة وهى قوله - تعالى - ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾.

الإملاق: الفقر، مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافتقر.

أى: لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم.

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾.

ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم. فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم خوفا من الفقر، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لكم ولهم.

والمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار، لا يمكن أن يصلح شأنه، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده يسودهم التشاؤم، وتتغشاهم الأوهام، لأنهم يظنون أن الله يخلق خلقًا لا يدبر لهم حقهم من الرزق، ويعتدون على روح بريئة طاهرة تخوفا من جريمة متوهمة، وذلك هو الضلال المبين.

- وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله - تعالى - ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ وليس إحداهما

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص٤٣٤ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت.

تكرارًا للأخرى. وإنما كل واحدة منها تعالج حالة معينة.

- فهنا يقول - سبحانه - ﴿من إملاق﴾ أى: لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم أيها الآباء لذا قال: ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ فجعل الرزق للآباء ابتداء، لأن الفقر الذى يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلا.

- وفى سورة الإسراء يقول: ﴿خشية إملاق﴾ أى: خوفا من فقر ليس حاصلا، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر، ليكف الآباء عن هذا التوقع، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء.

ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله، والاعتماد عليه.

وجملة ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ تعليلية لإبطال ما اتخذوه سببًا لمباشرة جريمتهم، وضمان منه - سبحانه - لأرزاقهم أى: نحن نرزق الفريقين لا أنتم وحدكم، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء وهى قتل الأولاد لأن الأولاد قطعة من أبيهم، والشأن حتى فى الحيوان الأعجم أنه يضحى من أجل أولاده، ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم.

أما الوصية الرابعة فتقول: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ الفواحش. جمع فاحشة وهى كما قال الراغب فى مفرداته - ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال يقال: فحش فلان، أى صار فاحشًا مرتكبًا للقبائح، والمتفحش هو الذى يأتى بالفحش من القول أو الفعل، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة الزور.

وأنهاكم عن أن تقتربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان منها ظاهرًا وما كان منها خافيًا.

وقد تعلق التحريم والنهى بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة - كما يقول علماء الأصول - فكأنه قال. إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها.

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك «فواحش» يجب أن تجتنب، و«محاسن» يجب أن تلتمس هو المجتمع الفاضل الطهور.

أما المجتمع الذى يسوى بين القبيح والحسن، ويقوم على الإباحية التى لا تفرق بين ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك، فلابد أن يكون مصيره إلى التدهور والتعاسة والمهانة.

وجملة ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ بدل اشتمال من الفواحش.

وتعليق النهى بقربانها للمبالغة فى الزجر عنها لأن قربانها قد يؤدى إلى مباشرتها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح، لأنه إذا حصل النهى

عن القرب من الشيء، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى.

ثم جاءت الآية فى ختامها بالوصية الخامسة فقالت: ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾.

أى: لا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها بأن عصمها بالإسلام إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعًا كردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم.

قال ابن كثير: وهذا مما نص - تبارك وتعالى - على النهى عنه تأكيدا، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[1].

وقوله ﴿إلا بالحق﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿تقتلوا﴾ أى: لا تقتلوها ملتبسين بالحق، ويجوز أن يكون وصفًا لمصدر محذوف أى: قتلا ملتبسًا بالحق، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أى: لا تقتلوها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق.

وذلك لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناه الله فلا يحق لأحد أن يهدمه إلا بالحق، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة فكأنما قد اعتدى على الناس جميعًا: ﴿أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا﴾.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾.

أى: ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة، وتكاليف حكيمة، وصاكم الله به، وطلبه منكم. لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح.

فاسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ مشار به إلى الوصايا الخمس السابقة، وهو مبتدأ وجملة وصاكم به خبر. ولفظ وصاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أو صياء له - تعالى - ما يحمل النفوس على الطاعة والاستجابة.

هذه هى الوصايا الخمس التى تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها، ولم يكن ثبوتها إلا تجاوبا مع الفطرة، فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة عقيديا وعمليا أم لم يؤمنوا، وشكر النعمة يقتضى الإحسان

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٩٠.

إلى الوالدين طبعا ووضعا، وللنسل حق الحياة والحفظ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب، والنفوس معصومة فليس لأحد أن يهدمها إلا بحق، ولاتفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة، وختمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعه إلى حكم العقول ﴿لعلكم تعقلون﴾.

والوصية السادسة تأتى فى مطلع الآية الثانية فتقول: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده﴾.

أى: لا تقربوا مال اليتيم الذى فقد الأب الحانى، ولا تتعرضوا لما هو من حقه بوجه من الوجوه إلا بالوجه الذى ينفعه فى الحال أو المآل، كتربيته وتعليمه، وحفظ ماله واستثماره.

وإذن، فكل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لا يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - محظور، ومنهى عنه.

قال بعض العلماء: وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء، وضابطه بالاستقراء: أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن «القربان» ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم، وكان من ذلك فى الوصايا السابقة النهى عن الفواحش، ومن هذا الباب ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ إلخ.

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه. ومن ذلك فى الوصايا السابقة الشرك بالله، وقتل الأولاد، وقتل النفس التى حرم الله قتلها، فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحا وأعظم جرما عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته، وإنما هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك، يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها أو فى حكم الكاره»[1].

وقوله: ﴿حتى يبلغ أشده﴾ ليس غاية للنهى، إذ ليس المعنى فإذا بلغ أشده فاقربوه لأن هذا يقتضى إباحة أكل الولى له بعد بلوغ الصبى، بل هو غاية لما يفهم من النهى كأنه قيل: احفظوه حتى يصير بالغا رشيدًا فحينئذ سلموا إليه ماله.

والخطاب للأولياء والأوصياء. أى: احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه.

والأشد: قوة الإنسان واشتعال حرارته: من الشدة بمعنى القوة والارتفاع. يقال: شد النهار إذا ارتفع. وهو مفرد جاء بصيغة الجمع. ولا واحد له.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص٤٤١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت.

والوصية السابعة: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾.

أى: أتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون.

فالجملة الكريمة أمر من الله - تعالى - لعباده بإقامة العدل فى التعامل: بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة.

والكيل والوزن: مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن، كالعيش بمعنى ما يعاش به. وبالقسط حال من فاعل أوفوا أى: أوفوهما مقسطين أى: متلبسين بالقسط. ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى: أوفوا الكيل والميزان بالقسط أى: تامّين.

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل، وكل مجتمع محتاج إليها، فالناس لا بد لهم من التعامل، ولابد لهم من التبادل، والكيل والوزن هما وسيلة ذلك، فلابد من أن يكونا منضبطين بالقسط.

والمجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها أحدا يغبن عن جهل أو غفلة، وهى أيضًا المجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه. أو يعطى أقل مما يجب عليه.

وقوله ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ أى: لا نكلف نفسا إلا ما يسعها ولا يعسر عليها. والجملة مستأنفة جىء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، للترخيص فيما خرج عن الطاقة، ولبيان قاعدة من قواعد الإسلام الرافعة للحرج وذلك لأن التبادل التجارى لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة أو التعادل، فلابد من تقبل اليسير من الغبن فى هذا الجانب أو ذاك.

والوصية الثامنة تقول: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾.

أى: وإذا قلتم قولا فاعدلوا فيه ولو كان المقول له أو عليه صاحب قرابة منكم.

إذ العدل هو أساس الحكم السليم: العدل فى القول، والعدل فى الحكم، والعدل فى كل فعل.

وإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى الأقوال والأفعال وفى كل شىء، لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة، والحكم، ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال. فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية يحدث نفسه فى شأنها، ويراوده معنى العدل وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل، فإذا لم يكن صادقا فى هذا القول فقد جافى العدل وقال زورًا وكذبا.

أما قوله ﴿ولو كان ذا قربى﴾ فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من التأثر بصلات القربى فى المحاباة للأقرباء والظلم لغيرهم.

فالقرآن يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى سامق رفيع، على هدى من العقيدة فى الله، بأن يكلفه بتحرى العدل فى كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه.

أما الوصية التاسعة والأخيرة فى هذه الآية فهى قوله - تعالى - ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أى: كونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها.

إذ الوفاء أصل من الأصول التى يتحقق بها الخير والصلاح، وتستقر عليها أمور الناس.

وقوله: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ يفيد الحصر لتقديم المعمول، وفى هذا إشعار بأن هناك عهودًا غير جديرة بأن تنسب إلى الله، وهى العهود القائمة على الظلم أو الباطل، أو الفساد، فمثل هذه العهود غير جديرة بالاحترام، ويجب العمل على التخلص منها.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ أى: ذلكم المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهى وصاكم الله به فى كتابه رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به وتجتنبوا ما نهيتم عنه أو رجاء أن يذكِّر بعضكم بعضا فإن التناصح واجب بين المسلمين.

أما الوصية العاشرة فهى قوله - تعالى - فى الآية الثالثة من هذه الآيات: ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

قرأ الجمهور بفتح همزة ﴿أن﴾ وتشديد النون. ومحلها مع ما فى حيزها الجر بحذف لام العلة. أى: ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه، فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به.

ويحتمل أن يكون محلها مع ما فى حيزها النصب على ﴿ما حرم﴾ أى: وأتلو عليكم أن هذا صراطى مستقيما.

وقرأ حمزة والكسائى «إن» بكسر الهمزة على الاستئناف.

وقوله ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ يعنى الأديان الباطلة، والبدع والضلالات الفاسدة ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ أى. فتفرقكم عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لكم.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿وأن هذا صراطى مستقيما﴾.

وقد أفرد - سبحانه - الصراط المستقيم وهو سبيل الله، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة، والبدع الفاسدة، والشبهات الزائفة، والفرق الضالة وغيرها.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ أى: ذلكم المذكور من اتباع سبيله - تعالى - وترك اتباع السبل وصاكم الله به لعلكم تتقون اتباع سبل الكفر والضلالة، وتعملون بما جاءكم به هذا الدين.

قال أبو حيان: ولما كانت الخمسة المذكورة فى الآية الأولى من الأمور الظاهرة الجلية مما يجب تعلقها وتفهمها ختمت الآية بقوله ﴿لعلكم تعقلون﴾، ولما كانت الأربعة المذكورة فى الآية الثانية خافية غامضة ولابد فيها من الاجتهاد والتفكر حتى يقف الإنسان فيها على موضع الاعتدال ختمت بقوله: ﴿لعلكم تذكرون﴾ ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر - سبحانه - باتباعه ونهى عن اتباع السبل المختلفة ختم ذلك بالتقوى التى هى اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية»[1].

وبعد: فهذه هى الوصايا العشر التى جاءت بها هذه الآيات الكريمة، والمتأمل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة فى توحيد الله - تعالى - وبنت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالأبناء، وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التى هى منبع كل خير وسبيل كل فلاح.

فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا؟ إنهم لو عملوا بها لعزوا فى دنياهم ولسعدوا فى أخراهم، فهل تراهم فاعلون؟.

اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك وجنبنا مالا يرضيك.

ولما كان هذا الصراط قديمًا، والديانات قبله كانت فى اتجاهه، أشار - سبحانه - إلى موسى وكتابه، وبين منزلة هذا القرآن، وأمر الناس باتباعه فقال:

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ٤ ص٢٥٤.

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قال الآلوسى : قوله ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾. الخ. كلام مستأنف مسوق من جهته - تعالى - تقريرا للوصية وتحقيقا لها، وتمهيدًا لما تعقبه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله ﴿ذلكم وصاكم به﴾ بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريرًا لمضمونه، فعلنا ذلك ﴿ثم آتينا﴾ وقيل عطف على ﴿ذلكم وصاكم به﴾. وعند الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة، كأنه قيل : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ ﴿ثم أتل عليهم ما آتاه الله موسى﴾[(١)].

وكلمة ثم لا تفيد الترتيب الزمنى هنا، وإنما تفيد عطف معنى على معنى، فكأنه - سبحانه - يقول : لقد بينت لكم فى هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونورًا.

وقوله : ﴿تمامًا على الذى أحسن﴾ قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله ضمير الذى، أى : آتينا موسى الكتاب تمامًا للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائنًا من كان. فالذى لجنس المحسنين.

وتدل عليه قراءة عبد الله «تمامًا على الذين أحسنوا» وقراءة الحسن «على المحسنين».

ويجوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى : آتينا

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٥٩.

موسى الكتاب تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى - عليه السلام - و «تمامًا» مفعول لأجله أى : آتيناه لأجل تمام نعمتنا، أو حال من الكتاب، أى : حال كونه أى الكتاب تامًا. أو مصدر لقوله «آتينا» من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة. كأنه قيل : أتممنا النعمة إتمامًا. فهو «كنباتًا» فى قوله : ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتًا﴾ أى إنباتًا.

وقرأ يحيى بن يعمر «على الذى أحسن» بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، و «الذى» وصف للدين أى : تمامًا على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه.

قال ابن جرير : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح، لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قراء الأمصار»[1].

وقوله : ﴿وتفصيلا لكل شيء﴾ معطوف على ما قبله، أى : وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم.

وقوله : ﴿وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ أى : هذا الكتاب هداية لهم إلى طريق الحق، ورحمة لمن عمل به لعلهم -أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب- يصدقون بيوم الجزاء، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد.

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال : ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ أى : وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه رسولنا ﷺ كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين، وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة، والسعادة الثابتة.

﴿فاتبعوه﴾ أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام.

﴿واتقوا﴾ مخالفته واتباع غيره.

﴿لعلكم ترحمون﴾ أى : لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه.

ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال : ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾.

أى : أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة، أو لئلا تقولوا لو لم ننزله : إنما أنزل الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كائنتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى، وإنا كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشيء منها لأنها ليست بلغتنا.

---

(1) تفسير ابن جرير جـ٨ ص٦٧.

فقوله : ﴿أن تقولوا﴾ مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدرًا مدلولا عليه بنفس أنزلناه الملفوظ به فى الآية السابقة أى : أنزلناه كراهية أن تقولوا.

وقيل إنه مفعول به والعامل فيه قوله فى الآية السابقة - أيضًا - ﴿واتقوا. . .﴾ أى. واتقوا قولكم كيت وكيت. وقوله ﴿لعلكم ترحمون﴾ معترض جار مجرى التعليل.

والمراد بالكتاب جنسه المنحصر فى التوراة والإنجيل والزبور.

وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام.

والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول ﷺ.

ثم ساق - سبحانه - آية أخرى لقطع أعذارهم فقال ﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾.

أى : وأنزلنا الكتاب - أيضًا - خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا، لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع منهم استجابة لله ولرسوله لمزيد ذكائنا، وتوقد أذهاننا، وتفتح قلوبنا.

وقوله : ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ جواب قاطع لأعذارهم وتعلاتهم أى : فقد جاءكم من ربكم عن طريق نبيكم محمد ﷺ هذا الكتاب الواضح المبين، والذى هو هداية لكم إلى طريق الحق، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات.

وقوله : ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف تنبىء عنه الفاء الفصيحة إما معلل به أى : لا تعتذروا فقد جاءكم. . . وإما شرط له أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون به. فقد حصل ما فرضتم وجاءكم بينة من ربكم.

والاستفهام فى قوله ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ للإنكار والنفى. أى : لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته ببيناتها الكاملة، وهداياتها الشاملة.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى : وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم. . ؟ ومعنى : وصدف عنها أى : أعرض عنها غير متفكر فيها، أو صرف الناس عنها وصدهم عن سبيلها. فجمع بين الضلال والإضلال.

ثم ختم - سبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته بقوله : ﴿سيجزى الذين

يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ أى : سنجزيهم أسوأ العذاب وأشده بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها.

فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم القيامة المكذبون لرسول الله ﷺ وللقرآن الكريم، وتتوعدهم بأشد ألوان العذاب.

ثم يمضى القرآن فى تهديدهم خطوة أخرى. ردًا على ما كانوا يطلبون من الآيات الخارقة، وتحذيرًا من إعراضهم وتقاعسهم عن طريق الحق مع أن الزمن لا يتوقف، والفرص لا تعود فيقول :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

أى : ما ينتظر مشركو مكة وغيرهم من المكذبين بعد إعراضهم عن آيات الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم من أجسادهم.

والجملة الكريمة مستأنفة لبيان أنهم لا يتأتى منهم الإيمان بإنزال ما ذكر من البينات والهدى.

قال البيضاوى : وهم ما كانوا منتظرين لذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين.

وقوله : ﴿أو يأتى ربك﴾ أى : إتيانًا يناسب ذاته الكريمة بدون كيف أو تشبيه للقضاء بين الخلق يوم القيامة، وقيل المراد بإتيان الرب، إتيان ما وعد به من النصر للمؤمنين والعذاب للكافرين.

وقوله : ﴿أو يأتى بعض آيات ربك﴾ أى : بعض علامات قيام الساعة، وذلك قبل يوم القيامة، وفسر فى الحديث بطلوع الشمس من مغربها.

فقد روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها. فإذا رآها الناس آمن من عليها. فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل».

وفى رواية لمسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

ثم بين - سبحانه - أنه عند مجىء علامات الساعة لا ينفع الإيمان فقال :

﴿يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانهم لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا﴾.

أى : عند مجىء بعض أشراط الساعة، يذهب التكليف، فلا ينفع الإيمان حينئذ نفسًا كافرة لم تكن آمنت قبل ظهورها، ولا ينفع العمل الصالح نفسًا مؤمنة تعمله عند ظهور هذه الأشراط، لأن العمل أو الإيمان عند ظهور هذه العلامات لا قيمة له لبطلان التكليف فى هذا الوقت.

قال الطبرى : معنى الآية لا ينفع كافرًا لم يكن آمن قبل الطلوع - أى طلوع الشمس من مغربها - إيمان بعد الطلوع. ولا ينفع مؤمنًا لم يكن عمل صالحًا قبل الطلوع، بعد الطلوع. لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ. حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة، وذلك لا يفيد شيئًا. كما قال - تعالى - ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ وكما ثبت فى الحديث الصحيح : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1].

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لم يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك فإن كان مصلحًا فى عمله فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحًا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث، وعليه يحمل قوله - تعالى - : ﴿أو كسبت فى إيمانها خيرًا﴾ أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك»[2].

وقوله : ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ تهديد لهم. أى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين : انتظروا

(١) تفسير ابن جرير جـ٨ ص٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٩٥.

ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون، فإنا منتظرون معكم لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة.

ثم بين - سبحانه - أحوال الفرق الضالة بوجه عام فقال: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء﴾.

أى: إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه فجعلوه أهواء متفرقة، ومذاهب متباينة: ﴿وكانوا شيعًا﴾ أى فرقًا ونحلا تتبع كل فرقة إمامًا لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها بدون نظر إلى الحق.

وقوله: ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ تهديد لهم. أى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون، فإنا منتظرون معكم لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة.

ثم بين - سبحانه - أحوال الفرق الضالة بوجه عام فقال: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء﴾.

أى: إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه فجعلوه أهواء متفرقة، ومذاهب متباينة: ﴿وكانوا شيعًا﴾ أى فرقًا ونحلا تتبع كل فرقة إمامًا لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها بدون نظر إلى الحق.

وقوله: ﴿لست منهم فى شىء﴾ أى: أنت برىء منهم محمى الجناب عن مذاهبهم الباطلة، وفرقهم الضالة. أو لست من هدايتهم إلى التوحيد فى شىء إذ هم قد انطمست قلوبهم فأصبحوا لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الهدى.

وقوله: ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ تعليل للنفى المذكور قبله أى: هو يتولى وحده أمرهم جميعًا، ويدبره حسب ما تقتضيه حكمته، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون».

وقوله: ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ أى: ثم يخبرهم يوم القيامة بما كانوا يفعلونه فى الدنيا من آثام وسيئات، ويعاقبهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات.

والآية الكريمة عامة فى كل من فارق تعاليم الإسلام سواء أكان مشركا أم كتابيًا، ويندرج فيها أصحاب الفرق الباطلة والمذاهب الفاسدة فى كل زمان ومكان، كالقاديانية، والباطنية، والبهائية، وغير ذلك من أصحاب الأهواء والبدع والضلالات.

قال ابن كثير: «والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله

بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لااختلاف فيه ولاافتراق. فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شِيَعًا﴾ أى: فرقا كأهل الأهواء والملل والنحل والضلالات، فإن الله قد برأ رسوله منهم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك﴾. الآية.

وفى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات. ديننا واحد» فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها كما قال - تعالى - ﴿لست منهم فى شىء﴾(١).

ثم بين - سبحانه - لطفه فى حكمه، وفضله على عباده، بمناسبة الحديث عن الجزاء فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾.

أى: من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة. فله عشر حسنات أمثالها فى الحسن، فضلا من الله - تعالى - وكرمًا.

قال بعضهم: وذلك - ولله المثل الأعلى - كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب يعطيه بما يليق بسلطنته لا قيمة العنقود. والعشر أقل ما وعد من الأصناف، وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أى: بالأعمال السيئة ﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ أى: فلا يجزى بحكم الوعد إلا بمثلها فى العقوبة واحدة بواحدة ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب. فإن ربك لا يظلم أحدا.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى معنى الآية منها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله -تعالى-: إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلاتكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها. وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة. فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة».

ثم ختمت السورة الكريمة بخمس آيات جامعة لوجوه الخير، من تأملها تجلى له أنها ختام حكيم يناسب هذه السورة التى هى سورة البلاغ والإعلان، والمبادىء العليا لدعوة الإيمان.

أما الآيات الخمس فهى قوله - تعالى -:

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٩٦.

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، ولغيرهم ممن أرسلت إليهم، قل لهم جميعًا : لقد هدانى خالقى ومربيني إلى دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده ﴿دينًا قيمًا﴾ أى : ثابتًا أبدًا لا تغيره الملل والنحل ولا تنسخه الشرائع والكتب.

وقوله ﴿دينًا﴾ نصب على البدل من محل ﴿إلى صراط﴾ لأن معناه هدانى صراطًا، أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور. أى : عرفنى دينًا.

وقوله ﴿قيمًا﴾ صفة لـ﴿دينا﴾ والقيِّمُ والقِيَم لغتان بمعنى واحد وقرىء بهما.

وقوله ﴿ملة إبراهيم﴾ منصوب بتقدير أعنى أو عطف بيان لـ ﴿دينا﴾ و﴿حنيفا﴾ حال من إبراهيم. أى : هدانى ربى ووفقنى إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم والدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم الذى كان مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق، والذى ما كان أبدا ﴿من المشركين﴾ مع الله آلهة أخرى فى شأن من شئونه. لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم.

ثم قل لهم للمرة الثانية : إن صلاتى التى أتوجه بها إلى ربى ﴿ونسكى﴾ أى عبادتى وتقربى إليه – وهو من عطف العام على الخاص – وقيل المراد به ذبائح الحج والعمرة. ﴿ومحياى

ومماتى﴾ أى : ما أعمله فى حياتى من أعمال وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

كل ذلك ﴿لله رب العالمين﴾ فأنا متجرد تجردًا كاملا لخالقى ورازقى بكل خالجة فى القلب، وبكل حكة فى هذه الحياة.

فهو - سبحانه - رب كل شىء. ولا شريك له فى ملكه، بذلك القول الطيب، وبذلك العمل الخالص أمرت وأنا أول المسلمين الممتثلين لأوامر الله والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة.

ثم قل لهم للمرة الثالثة على سبيل التعجب من حالهم، والاستنكار لواقعهم : ﴿أغير الله أبغى ربًا﴾ أى : أغير الله - تعالى - تريدوننى أن أطلب ربًا فأشركه فى عبادته، والحال والشأن أنه - سبحانه - هو رب كل شىء ومليكه، وهو الخالق لكل شىء.

فجملة ﴿وهو رب كل شىء﴾ حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال.

ثم بين - سبحانه - أن كل إنسان مجازى بعمله فقال : ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ أى : لا تجترح نفس إثما إلا عليها من حيث عقابه. فلا يؤاخذ سواها به، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به.

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أى : ولا تحمل نفس مذنبة ولا غير مذنبة ذنب نفس أخرى، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب.

قال القرطبى : وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ وهو هنا الذنب كما فى قوله تعالى ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾[1].

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ بتمييز الحق من الباطل، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب عمله.

ثم ختمت السورة بهذه الآية ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾ أى : خلائف القرون الماضية، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم.

وخلائف : جمع خليفة، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه.

وقوله : ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أى : فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك.

ثم بين-سبحانه-العلة فى ذلك فقال : ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم، يختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير فى فقره ويسأله عن صبره.

---

(١) القرطبى جـ٧ ص١٥٧.

وفى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة. وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء ».

ثم رهب - سبحانه - من معصيته، ورغب فى طاعته فقال. ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وخالف رسله. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين.

أما بعد : فهذه هى سورة الأنعام التى عالجت من مبدئها إلى نهايتها قضية العقيدة بكل مقوماتها علاجًا قويًا حكيمًا يهدى إلى الرشد لمن عنده الاستعداد لذلك، والتى طوفت بالنفس البشرية فى الكون كله لترشدها إلى خلق هذا الكون، وتجعلها تستجيب له وتنتفع بما منحها من نعم، والتى كشفت عن مواطن الشرك ومظاهره فى كل مظانه ومكامنه. لتدمغه وتدحضه وتخلص النفس البشرية والحياة الإنسانية من أمراضه وأدرانه.

تلك هى سورة الأنعام التى نزلت مشيعة بالملأ العظيم من الملائكة وذلك تفسير تحليلى لها، لا نزعم أننا استقصينا فيه كل ما يتعلق بهذه السورة الكريمة، من توجيهات وهدايات، وإنما هو قبسات من نور القرآن الكريم، نرجو الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تفسير
سُورَةُ الأعرَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا تفسير تحليلي لسورة الأعراف، توخينا فيه أن نبرز ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية، وآداب عالية، وهدايات شاملة، وحكم جليلة.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، ونافعًا لعباده إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

١٤٠٥/٢/١٤هـ - ١٩٨٤/١٢/٧م

تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة الأعراف هى السورة السابعة فى الترتيب المصحفى، وهى أطول سورة مكية فى القرآن الكريم، وعدد آياتها ست ومائتا آية.

والرأى الراجح عند العلماء أنها جميعها مكية، وقيل إن الآيات من ١٦٣ - ١٧٠ مدنية، وكان نزولها بعد سورة «ص».

٢ - **ومناسبتها** لسورة الأنعام التى قبلها أن سورة الأعراف تعتبر كالتفصيل لها، فإن سورة الأنعام قد تكلمت عن أصول العقائد وكليات الدين كلاما إجماليًا، ثم جاءت سورة الأعراف فكانت كالشرح والتفصيل لذلك الإجمال، خصوصًا فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم وبعثة النبى ﷺ.

٣ - **مقاصدها ومميزاتها**: وقد اشتملت سورة الأعراف على المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها السور المكية، كإقامة الأدلة على وحدانية الله، وعلى صدق رسوله محمد ﷺ وعلى أن يوم القيامة حق.. إلخ.

والذى يتأمل هذه السورة الكريمة يراها تهتم بعرض الحقائق فى أسلوبين بارزين فيها، أحدهما أسلوب التذكير بالنعم، والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنقم.

أما أسلوب التذكير بالنعم فتراه واضحا فى لفتها لأنظار الناس إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم فى الأرض، ونعمة خلقهم وتصويرهم فى أحسن تقويم، ونعمة تمتع الإنسان بما فى هذا الكون من خيرات سخرها الله له.

وأما أسلوب التخويف بالعذاب فالسورة الكريمة زاخرة به، تلمس ذلك فى قصص نوح، وهود، وصالح. ولوط، وشعيب، وموسى -عليهم السلام- مع أقوامهم.

وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها، وقد ساقت لنا السورة الكريمة ما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام الذين لم يستجيبوا لنصائح المرسلين إليهم.

٤ - **عرض إجمالى لها**: ونحن عندما نستعرض سورة الأعراف نراها فى الربع الأول منها تطالعنا بالحديث عن عظمة القرآن وتأمرنا باتباعه، وتحذرنا من مخالفته، وتحثنا على المسارعة إلى العمل الصالح الذى تثقل به موازيننا يوم القيامة.

قال تعالى : ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون﴾.

ثم ساقت لنا بأسلوب منطقى بليغ قصة آدم مع إبليس، وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة، فلما أكل منها هو وزوجه.

﴿بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

ثم وجهت إلى بنى آدم نداء فى أواخر هذا الربع نهتهم فيه عن الاستجابة لوسوسة الشيطان.

قال تعالى : ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

وفى الربع الثانى منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد، وتخبرنا بأن الله - تعالى -، قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التى أحلها لنا، وتبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا، ثم تسوق لنا فى بضع آيات عاقبة المكذبين لرسل الله، وكيف أن كل أمة من أمم الكفر عندما تقف بين يدى الله للحساب تلعن أختها.

قال تعالى : ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار، قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون* وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بماكنتم تكسبون﴾.

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

وفى أواخر هذا الربع وفى أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك المحاورات التى تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتحكى لنا ما يحصل بينهم من نداءات ومجادلات، تنتهى بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل : ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾.

فيجيبهم أصحاب الجنة : ﴿إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا﴾.

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانبا من مظاهر نعم الله على خلقه، وتدعونا إلى شكره عليها لكى يزيدنا من فضله.

وفى الربع الرابع منها وكذلك فى أواخر الثالث، تحدثنا السورة الكريمة عن قصة نوح مع قومه، ثم عن قصة هود مع قومه، ثم عن قصة صالح مع قومه، ثم عن قصة لوط مع قومه، ثم عن قصة شعيب مع قومه. ولقد ساقت لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات ما يهدى القلوب، ويشفى الصدور ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين.

أما فى الربع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله فى خلقه، ومن مظاهر هذه - السنن أنه - سبحانه - لا يعاقب قوما إلا بعد الابتلاء والاختبار، وأن الناس لو آمنوا لفتح - سبحانه - عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون.

قال تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾.

ثم عقب على ذلك ببيان أن الله - تعالى - قد ساق قصص السابقين للعظة والاعتبار.

ثم أسهبت السورة فى الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فقصت علينا فى زهاء سبعين آية - استغرقت الربع السادس والسابع والثامن - ما دار بينه وبين فرعون من محاورات ومناقشات، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾.

ثم حكت لنا ما لقيه موسى من قومه بنى إسرائيل من تكذيب وجهالات، مما يدل على أصالتهم فى التمرد والعصيان، وعراقتهم فى الكفر والطغيان.

وفى الربع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذى أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ثم حضتنا على التفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى علام الغيوب، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله، ثم هم بعد ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

أما فى الربع العاشر والأخير فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله، ووبخت المشركين على شركهم، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء.

﴿واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين * إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾.

وبعد : فهذا عرض سريع لما اشتملت عليه سورة الأعراف من توجيهات حكيمة، وآداب عالية، وعظات سامية، ولعلنا بذلك نكون قد أعطينا القارىء الكريم فكرة مجملة عنها قبل أن نفسرها تفسيرًا تحليليًا مفصلا. والله نسأل أن يلهمنا جميعًا الرشد والسداد فيما نقول ونعمل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

سورة الأعراف من السور التى ابتدأت ببعض حروف التهجى «ألمص» ولم يسبقها فى النزول من هذا النوع من السور سوى ثلاثة وهى سور: (ن، ق، ص) ويبلغ عدد السور القرآنية التى ابتدئت بالحروف المقطعة تسعًا وعشرين سورة.

هذا، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود من حروف التهجى التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ويمكن إجمال اختلافهم فى رأيين:

الرأى الأول: أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس – فى إحدى الروايات عنه – كما ذهب إليه الشعبى، وسفيان الثورى، وغيرهما من العلماء؛ فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال: «إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فواتح السور» وروى عن ابن عباس أنه قال: «عجزت العلماء عن إدراكها» وعن على – رضى الله عنه – أنه قال: «إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى» وفى رواية أخرى للشعبى أنه قال: «سر الله فلا تطلبوه».

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها.

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول – ﷺ – كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين. ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور. وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأى لا مجال لذكرها هنا.

أما الرأى الثانى: فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه، وأصحابَ هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى:

١ – أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبى ﷺ: «من قرأ حم السجدة، حفظ إلى أن يصبح»، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها، كسورة «ص» وسورة «يس» إلخ.

ولا يخلو هذا القول من الضعف، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة؛ لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه. وأيضا فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها فى ذاتها.

٢ – وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣ – وقيل إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله تعالى، وبعضها من صفاته، فمثلا: «ألم» أصلها أنا الله أعلم.

٤ – وقيل إنها اسم الله الأعظم، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال، والتى أوصلها الإمام السيوطى فى كتابه «الإتقان»، إلى أكثر من عشرين قولا.

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو جنس ما تؤلفون منه كلامكم. ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله، أو ادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونوكم فى ذلك.

ومما يشهد بصحة هذا الرأى أن الآيات التى تلى هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل معجزة للرسول ﷺ وكثيرًا ما تبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة، مثل قوله تعالى : ﴿ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ أو ضمنا مثل قوله -تعالى- : فى أول سورة الأعراف ﴿ألمص. كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به﴾ وأيضا فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى نهايتها اثبات الرسالة عن طريق هذا الكتاب المنزل.

هذه خلاصة موجزة لأراء العلماء فى الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب « البرهان » للزركشى، وإلى كتاب « الإتقان » للسيوطى[١].

ثم مدح - سبحانه - الكتاب الذى أنزله على نبيه ﷺ فقال : ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه﴾.

المراد بالكتاب جملة القرآن الكريم، وقيل : المراد به هنا السورة. وحرج الصدر ضيقه وغمه، مأخوذ من الحرجة التى هى مجتمع الشجر المشتبك الملتف الذى لا يجد السالك فيه طريقا يخرج منه.

والمعنى، هذا كتاب كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية الثقلين، فبلغ تعاليمه للناس. ولا تحزن أو تضجر إذا وجدت من بعضهم صدودًا عنه، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

ولقد حكى لنا القرآن أن المشركين وصفوا النبى ﷺ بأنه ساحر. أو مجنون، كما وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله، فكان ﷺ يضيق صدره لذلك.

قال تعالى : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾.

فالمقصود بقوله - تعالى - : ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه﴾ تقوية قلب

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ٣ ص ١ للإمام السيوطى. طبعة مكتبة المشهد الحسينى.

النبى ﷺ، وتثبيت فؤاده، وتسليته عما يتقوله المشركون من أكاذيب وأباطيل، وإفهام الداعى إلى الله فى كل زمان ومكان أن من الواجب عليه أن يكون قوى القلب فى تحمل مهمته، مطمئن البال على حسن عاقبته، لا يتأثر بالمخالفة، ولا يضيق صدره بالإنكار.

وقد فسر صاحب الكشاف الحرج بالشك فقال: ﴿فلا يكن فى صدرك حرج منه﴾ أى شك منه كقوله: ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك﴾ وسمى الشك حرجا لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه. أى: لا تشك فى أنه منزل من الله، ولا تتحرج من تبليغه، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم. فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم»[1].

وعلى أية حال فإن من فسر الحرج بالضيق راعى مدلول الكلمة الأصلى ومن فسره بالشك راعى الاستعمال المجازى ولذا قال الآلوسى:

قوله تعالى -: ﴿فلا يكن فى صدرك حرج منه﴾ أى: شك. وأصله الضيق، واستعماله فى الشك مجاز علاقته اللزوم، فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر، كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه»[2].

ولفظ ﴿كتاب﴾ يكون مبتدأ إذا جعلنا «ألمص» اسما للسورة، وإلا كان خبرًا لمبتدأ محذوف والتقدير: هذا كتاب. وتنكيره للتفخيم والتعظيم وجملة ﴿أنزل إليك﴾ صفة له دالة على كمال تعظيم قدره وقدر من أنزل عليه.

وإنما قيل: ﴿أنزل﴾ ولم يقل أنزله الله وأنزلناه، للإيذان بأن المنزل مستغن عن التعريف لشرفه وغاية ظهوره.

ثم بين - سبحانه - العلة فى إنزال الكتاب فقال: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾.

الإنذار: هو الإعلام المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة.

أى: أنزلنا إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس، وتذكر به أهل الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة، لأنهم هم المستعدون لذلك، وهم المنتفعون بإرشادك.

قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾.

وقال تعالى: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾.

وقال تعالى: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٨٦، طبعة دار الكتاب العربى ببيروت.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٧٤ منبر الدمشقى.

قال صاحب الكشاف : فما محل ذكرى؟ قلت يحتمل الحركات الثلاث. النصب بإضمار فعلها. كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيرا، لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير، والرفع عطفا على كتاب، أولأنه خبر مبتدأ محذوف. والجر للعطف على محل لتنذر، أى : للإنذار وللذكر»(١).

ثم أمر القرآن الناس باتباع تعاليم الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ فقال : ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذكرون﴾.

أى : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، لأن الذى أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربكم الذى هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم والعليم بما فيه مصلحتكم وحذار من أن تتركوا شريعة الإسلام التى تدعوكم إلى إفراد الله بالعبودية، وتتخذوا معه شركاء يزينون لكم الأباطيل، ويصرفونكم عن دينه القويم فالآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين لحضهم على افراد الله بالعبودية، ونهيهم عن اتباع أحد من الخلق فيما يتعلق بالأمور الدينية التى وضحتها الشريعة الإسلامية.

وقوله - تعالى - : ﴿قليلا ما تذكرون﴾ معناه : تذكرًا قليلا تتذكرون، أو زمنًا قليلا تتذكرون فهو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو لظرف زمان محذوف. وما مزيدة لتأكيد القلة.

ثم ساق لهم بعد ذلك على سبيل الإنذار والتخويف جانبا من العذاب الذى نزل بمن سبقوهم بسبب ظلمهم وعنادهم فقال - تعالى - :

﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾.

كم هنا خبرية بمعنى كثير. وهى فى محل رفع على الابتداء والجملة بعدها خبرها، و﴿من قرية﴾ تمييز.

والقرية تطلق على مكان اجتماع الناس. وبأسنا : أى عذابنا وعقابنا. وبياتا : أى ليلا ومنه البيت لأنه يبات فيه. يقال : بات يبيت بيتا وبياتا. وقائلون من القائلة وهى القيلولة وهى نوم نصف النهار. وقيل : هى الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم. ودعواهم، أى : دعاؤهم واستغاثتهم بربهم أو قولهم.

والمعنى : وكثيرًا من القرى الظالمة أردنا إهلاكها، فنزل على بعضها عذابنا فى وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٨٦.

شعيب، فما كان منهم عندما باغتهم العذاب فى وقت اطمئنانهم وراحتهم إلا أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا على سبيل التحسر والندم وطمعا فى الخلاص : إنا كنا ظالمين.

فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان بأجلى بيان أن هلاك الأمم سببه بغيها وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم، وتلك سنة الله التى لا تختلف فى أى زمان أو مكان. وأن الظالمين عندما يفاجأون بالعقوبة يتحسرون ولا يستطيعون إنكار ما ارتكبوه من جرائم ومنكرات ولكن ذلك لن ينفعهم لأن ندمهم وتحسرهم قد فات وقته، وكان الأجدر بهم أن يتوبوا من ذنوبهم عندما جاءتهم النذر، وقبل حلول العذاب.

ولذا قال ابن كثير: قال ابن جرير : فى هذه الآية الدلالة الواضحة فى صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله : «ما هلك قوم حتى يعذروا عن أنفسهم[1]».

و ﴿أو﴾ فى قوله : ﴿فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون﴾ للتنويع، أى أن بعضهم جاءهم عذابنا ليلا وبعضهم جاءهم نهارًا عند استراحتهم. وإنما خص هذان الوقتان بنزول العذاب، لأنهما وقتا غفلة ودعة واستراحة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأوجع.

ومن العبر التى نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل هو الذى يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهى، ولا يأمن صفو الليالى، ورخاء الأيام، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه ﴿لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

وبعد أن بين القرآن ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى. عقبه ببيان ما سيحل بهم من عذاب أخروى، فقال :

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين : فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾.

والمراد بالذين أرسل إليهم جميع الأمم التى بلغتها دعوة الرسل، يسأل كل فرد منها عن رسوله إليه وعن تبليغه لدعوة الله، ويسأل المرسلون عن التبليغ منهم وعن إجابة أقوامهم لهم، وقد ورد ذلك فى كثير من آيات القرآن. قال - تعالى - : ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾.

وقال تعالى : ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾؟

والمعنى : فلنسألن المرسل إليهم عما أجابوا به رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم، ولنسألن المرسلين عما أجيبوا به من أقوامهم وعن تبليغهم لرسالات الله، ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم كل ما وقع منهم عن علم دقيق وإحصاء شامل، لأننا لا يغيب عنا شىء من أحوالهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠١.

وعطفت جملة ﴿فلنسألن﴾ على ما قبلها بالفاء، لأن هذا السؤال سيكون فى الآخرة، وما ذكر قبل ذلك من عقوبات هو آخر أمرهم فى الدنيا. فالآية الكريمة بيان لعذابهم الأخروى إثر بيان عذابهم الدنيوى.

وأكد الخبر بلام القسم ونون التوكيد، لأن المخاطبين كانوا ينكرون البعث والجزاء.

فإن قيل: قد أخبر الله عنهم قبل ذلك أنهم قالوا عند نزول العذاب بهم ﴿إنا كنا ظالمين﴾ فلماذا يسألون يوم القيامة مع أنهم اعترفوا بظلمهم فى الدنيا؟

فالجواب: أنهم لما اعترفوا سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم، والمقصود من هذا السؤال تقريعهم وتوبيخهم لكفرهم وعنادهم.

فإن قيل: فما فائدة سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا الأمانة ونصحوا للأمة؟

فالجواب من فوائده الرد على من أنكر من المشركين أن الرسل قد بلغوهم، فقد حكى القرآن أن بعضهم قال: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ ومن فوائده - أيضًا - مضاعفة الثواب لهؤلاء الرسل الكرام حيث إنهم قد بذلوا قصارى جهدهم فى التبشير والإنذار، ولم يصدر عنهم تقصير قط. فسؤال المرسل إليهم إنما هو سؤال توبيخ وإفضاح، وسؤال المرسلين إنما هو سؤال استشهاد بهم وإفصاح.

فإن قيل: هناك بعض الآيات تثبت أن المجرمين لن يسألوا يوم القيامة كما فى قوله تعالى: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ وكما فى قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ فكيف نجمع بين هذه الآيات التى تنفى السؤال والآيات التى تثبته كما فى قوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾؟

فالجواب، أن فى يوم القيامة مواقف متعددة، فقد يسألون فى موقف الحساب ولا يسألون فى موقف العقاب. أو أن المراد بالسؤال فى قوله: ﴿فلنسألن الذين﴾ التوبيخ والتقريع. والمنفى فى قوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه﴾ سؤال الاستعلام، أى أن المذنب لا يسأل يوم القيامة هل أذنبت أولا، لأن الله لا تخفى عليه خافية، وإنما يسأل: لم فعلت كذا؟ بعد أن يعرفه - سبحانه - بما فعله، ويؤيد هذا القول قوله - تعالى -: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ أى: فلنخبرنهم بما فعلوا إخبارا ناشئا عن علم منا.

قال بعض العلماء: «والذى يهمنا هنا، أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار، وإنما هو سؤال تبكيت وتنديد، فليس فى السائل مظنة أن يجهل، ولا فى المسئول مظنة أن ينكر:، وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم، وشعور المرسلين بتبليغهم، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها وأعرض عنها فى الوقت الذى كان يجديه

الإقبال عليها والإيمان بها، وهو نوع من زيادة الحسرة، وقطع الآمال فى النجاة بوضع يد المجرم على جسم جريمته، وهو فى الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسل فى القيام بدعوتهم وتبليغهم ما أمروا بتبليغه، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله - تعالى - : ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾[1].

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال :

﴿والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾.

الوزن : عمل يعرف به قدر الشيء، يقال : وزنته وزنا وزنة. وهو مبتدأ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره. والحق صفته. أى : والوزن الحق يوم القيامة.

ومعنى الآيتين الكريمتين : والوزن الحق ثابت فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والمرسل إليهم. ويخبرهم جميعا بما كان منهم فى الدنيا، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح، فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعيم، ومن خفت موازين أعماله بالكفر والمعاصى فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب.

قال تعالى : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾.

وقد اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم : إن التى توزن هى صحائف الأعمال التى كتبت فيها الحسنات والسيئات تأكيدًا للحجة وإظهارًا للنصفة، وقطعا للمعذرة. قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة».

وقيل : إن الوزن هنا كناية عن القضاء السوى، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال، وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه. أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن.

والذى نراه أن من الواجب علينا أن نؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء، وأنه وزن أو ميزان يليق بما يجرى فى ذلك اليوم الهائل الشديد، أما كيفية هذا الوزن فمرده إلى الله، لأنه شيء استأثر الله بعلمه، وعلينا أن نعفى أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد فى حقيقته خبر قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٠٤ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت -رحمه الله-.

قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : فإن قلت : أليس الله - تعالى - يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة فى وزنها؟ قلت فيه حكم : منها، إظهار العدل وأن الله - تعالى - لا يظلم عباده، ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى. ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه - سبحانه - أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ وفى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه»(١).

وقوله - تعالى - : ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على غيرها، كما أن خفة الموازين المراد بها رجحان الأعمال القبيحة على ما سواها.

وقوله - تعالى - : ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ متعلق بخسروا؛ أى : أن خسرانهم لأنفسهم فى الآخرة كان سببه جحودهم لآيات الله واستهزاءهم بها فى الدنيا.

ثم حكى القرآن جانبًا من مظاهر نعم الله على خلقه فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

مكناكم : من التمكين بمعنى التمليك،أو معناه : جعلنا لكم فيها مكانا وقرارًا وأقدرناكم على التصرف فيها ومعايش : جمع معيشة وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وما تكون به الحياة.

والمعنى : ولقد جعلنا لكم - يا بنى آدم - مكانا وقرارا فى الأرض، وأقدرناكم على التصرف فيها، وأنشأنا لكم فيها أنواعا شتى من المطاعم والمشارب التى تتعيشون بها عيشة راضية، ولكن كثيرًا منكم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والكفران. وفضلا عن ذلك فنحن الذين خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك.

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٢٢.

أو المعنى نحن الذين خلقناكم فى ظهر آدم. ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق، ثم أمرنا بعد ذلك ملائكتنا بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين.

والسجود: لغة، التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره، وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

وللعلماء أقوال فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم وأرجح هذه الأقوال. أن السجود المأمور به فى الآية يحمل على المعنى المعروف فى اللغة. أى: أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيما، وإقرارًا له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه، وعلى هذا الرأى سار علماء أهل السنة.

وقيل إن السجود كان لله. وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليه الساجدون تحية له. وإلى هذا الرأى اتجه علماء المعتزلة، وقد قالوا ذلك هربا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم، إذ أن أهل السنة قالوا: إبليس من الملائكة والصالحون من البشر أفضل من الملائكة. واحتجوا بسجود الملائكة لآدم وخالفت المعتزلة فى ذلك، وقالت الملائكة أفضل من البشر، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة.

والذى نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح لأن ما ذهب إليه المعتزلة يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة، وإظهار فضله عليهم لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود: وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم، هو لون من الابتلاء والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحكم.

وإبليس: اسم مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس وفعله بلس. والراجح أنه اسم أعجمى، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حى، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس، إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه. قال - تعالى -: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾.

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أولا قولان:

أحدهما: أنه كان منهم، لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصيًا ولما استحق الخزى والنكال، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه.

والثانى : أنه ليس منهم لقوله - تعالى - : ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

ففى هاتين الآيتين بيان لنعمتين عظيمتين من نعم الله على عباده :

أولاهما : نعمة التمكين فى الأرض واتخاذهم إياها وطنا مزودًا بضروب شتى مما يحتاجون إليه من معايشهم وما به قوام حياتهم وكمالها.

وثانيهما : نعمة خلقهم من أب واحد، تجمعهم به رحم واحدة، وبسببها كانوا خلفاء فى الأرض وفى عمارة الكون، وفضلوا على كثير من الخلق، فكان الواجب عليهم أن يقابلوهما بالشكر والإيمان.

ثم حكى القرآن الكريم الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال :

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

أى : قال الله - تعالى - لإبليس : ما ألزمك واضطرك إلى أن لا تسجد لآدم؟ فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار. أو ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد؟ فالمنع مجاز عن الحمل. والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

و (لا) فى قوله : ﴿ألا تسجد﴾ مزيدة للتنبيه على أن الموبخ عليه ترك السجود. وتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه، كأنه قيل : ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك.

وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : ﴿قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ أى : قال إبليس أنا خير من آدم، لأنى مخلوق من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين، والأشرف لا يليق به الانقياد لمن هو دونه.

قال ابن كثير : «وقول إبليس - لعنه الله - ﴿أنا خير منه﴾. . إلخ. من العذر الذى هو أكبر من الذنب، إذ بين بأنه خير من آدم لأنه خلق من النار وآدم خلق من الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله - تعالى - خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا فى مقابلة نص، وهو قوله - تعالى - : ﴿فقعوا له ساجدين﴾، فشذ من بين الملائكة لترك السجود فأبعده الله عن رحمته، وكان قياسه فاسدًا لأن النار ليست

أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله. وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت:

«قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(١).

وقد حكى القرآن ما رد الله به على إبليس بقوله:

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾

أى: قال الله - تعالى - لإبليس: فاهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى.

وقيل إن الضمير فى ﴿منها﴾ يعود على المنزلة التى كان فيها قبل أن يطرده الله من رحمته. أى: فاهبط من رتبة الملكية التى كنت فيها إلى رتبة العناصر الشريرة.

وقيل: إن الضمير يعود على روضة كانت على مرتفع من الأرض خلق فيها آدم - عليه السلام -.

وقوله: ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ معناه: فما يصح ولا يستقيم ولا يليق بشأنك أن تتكبر فيها، لأنها ليست مكانا للمتكبرين وإنما هى مكان للمطيعين الخاشعين المتواضعين.

وقوله: ﴿فاخرج﴾ تأكيد للأمر بالهبوط ومتفرع عليه.

وقوله: ﴿إنك من الصاغرين﴾ تعليل للأمر بالخروج. أى: فاخرج منها فأنت من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك.

ثم حكى القرآن ما طلبه إبليس من الله - تعالى - وما أجاب الله به عليه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٣ بتصرف وتلخيص.

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أى : قال إبليس لله - تعالى - أخرنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة. وقد أراد بذلك النجاة من الموت : إذ لا موت بعد البعث. كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الإغواء لبنى آدم.

وقوله : ﴿أنظرنى﴾ مأخوذ من الإنظار بمعنى الإمهال والتأخير. تقول أنظرته بحقى أنظره إنظارا أى : أمهلته.

وقوله : ﴿قال إنك من المنظرين﴾ معناه : قال الله - تعالى - له : إنك من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وهو - على الراجح - وقت النفخة الأولى فيموت كما يموت غيره. وقيل : المراد به الوقت المعلوم فى علم الله أنه يموت فيه.

قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل. لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

ثم حكى القرآن ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : ﴿قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾.

الباء للقسم أو للسببية أى : فأقسم بإغوائك إياى، أو بسبب إغوائك إياى، لأترصدن لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها فأصدنهم عنها وأحاول بكل السبل أن أصرفهم عن صراطك المستقيم، ولن أتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم.

والإغواء: خلق الغى بمعنى الضلال. وأصل الغى الفساد، ومنه غوى الفصيل - كرضي- غوى، إذا بشم من اللبن ففسدت معدته، أو منع الرضاع فهزل وكاد يهلك، ثم استعمل فى الضلال، يقال: غوى يغوى غيًا وغواية فهو غاو، وغوى إذا ضل، وأغواه غيره: أضله. وقوله: ﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ زيادة بيان لحرص الشيطان على إضلال بنى آدم بشتى الوسائل، أى: آتيهم من الجهات الأربع التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها، والمراد: لأسولنّ لهم ولأضلنّهم بحيث لا أفتر عن ذلك ولا أيأس.

وقيل إن معنى ﴿ثم لآتيتهم من بين أيديهم﴾ أى: من قبل الآخرة لأنها مستقبلة آتية، وما هو كذلك فكأنه بين الأيدى. ﴿ومن خلفهم﴾ أى من قبل الدنيا لأنها ماضية بالنسبة إلى الآخرة ولأنها فانية متروكة «وعن أيمانهم وعن شمائلهم» أى: من جهة حسناتهم وسيئاتهم بحيث أزين لهم السيئات وأزهدهم فى الحسنات.

وقوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أى: مطيعين مستعملين لقواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله.

وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن كقوله - تعالى - : ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين﴾.

ولقد وردت آيات كثيرة وأحاديث متعددة فى التحذير من الشيطان وكيده، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾. وجاء فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد عن سبرة بن الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول - أى كالفرس المربوطة بالحبل. قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمال. فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال، قال فعصاه فجاهد: فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة».

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عبد الله بن عمر قال لم يكن رسول الله ﷺ يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى. يقول: اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى. اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى. اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك ان اغتال من تحتى.

ثم حكى القرآن ما توعد الله به الشيطان واتباعه فقال : ﴿قال اخرج منها مذءوما﴾ أى : اخرج من الجنة أو من تلك الروضة مهانا محقرا.

يقال : ذأمه يذأمه ذأمًا إذا عاقبه وحقره فهو مذءوم، وقوله : ﴿مدحورا﴾ أى : مطرودا مبعدا. يقال : دحره دحرا ودحورا طرده وأبعده.

﴿لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أى : لمن أطاعك من الجن والإنس لأملأن جهنم من كفاركم. كقوله - تعالى - : ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾.

واللام فى قوله : ﴿لمن﴾ لتوطئة القسم والجواب ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ ثم حكى القرآن ما أمر الله - تعالى - به آدم فقال :

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

صدر الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به، وتخصيص الخطاب بآدم - عليه السلام - للإيذان بأصالته بالتلقى وتعاطى المأمور به.

وقوله : ﴿اسكن﴾ من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار، دون السكون الذى هو ضد الحركة.

والزوج. يطلق على الرجل والمرأة. والمراد به هنا حواء، حيث تقول العرب للمرأة زوج ولا تكاد تقول زوجة.

والجنة. هى كل بستان ذى شجر متكاثف ملتف الأغصان، يظلل ما تحته ويستره من الجن وهو ستر الشيء عن الحواس.

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الاطلاق.

ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض، خلقه الله لاسكان آدم وزوجته. واختلفوا فى مكانه، فقيل انه بفلسطين، وقيل بغيرها.

وقد ساق ابن القيم فى كتابه «حادى الأرواح» أدلة الفريقين دون أن يرجح شيئا منها.

والذى نراه أن الأحوط والأسلم. الكف عن تعيينها وعن القطع به، وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدى فى التأويلات، إذ ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة.

وتوجيه الخطاب إليهما فى قوله : ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به. أى : كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا واسعا من أى مكان أردتم.

ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

القرب : الدنو والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة. وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل، إذ فى النهى عن القرب من الشىء نهى عن فعله من باب أولى. وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلما. فقال : ﴿فتكونا من الظالمين﴾ وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التى كانا يعيشان فيها عيشة راضية.

وقد تكلم العلماء كثيرا عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هى التينة، وقيل هى السنبلة، وقيل هى الكرمة. . . إلخ إلا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سياق القصة إلى بيانه.

وقد أحسن ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال : «والصواب فى ذلك أن يقال : ان الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل كانت شجرة البر، وقيل شجرة العنب، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وان جهله جاهل لم يضره جهله به»(١).

فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٥٢١.

عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قوله - تعالى - : ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أى : ألقى إليهما إبليس الوسوسة، والوسوسة فى الأصل الصوت الخفى، ومنه قيل لصوت الحلى. وسواس. والمراد بها هنا : الحديث الخفى الذى يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان ليقارف الذنب.

وقوله : ﴿ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما﴾. ﴿وورى﴾ من المواراة وهى الستر. والسوءة. فرج الرجل والمرأة، من السوء. وسميت بذلك، لأن انكشافها يسوء صاحبها. وقيل الكلام كناية عن إزالة الحرمة وإسقاط الجاه.

والمعنى : أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة المحرمة لتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وفى هذا التعبير تصريح بأن كشف العورة من أقبح الفواحش التى نهى الله - تعالى - عنها.

وقد حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة، وإنما خدعهما بقوله : ﴿مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾.

أى قال لهما : ما نهاكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين.

وقوله : ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ استثناء مفرغ من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفى ليكون علة. أى كراهية أن تكونا ملكين.

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة أو بالقول المجرد، وإنما أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : ﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾ أى : أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما.

قال الآلوسى : إنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة، لأن من يبارى أحدًا فى فعل يجد فيه. وقيل

المفاعلة على بابها، والقسم وقع من الجانبين، لكنه اختلف متعلقه، فهو أقسم لهما على النصح وهما أقسما له على القبول[١].

ثم حكى القرآن كيف نجح إبليس فى خداع آدم وحواء فقال: ﴿فدلاهما بغرور﴾. أى: فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية، وأطمعهما فى غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم.

ودلاهما مأخوذ من التدلية، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء، فيكون مدليا فيها بغرور. والغرور إظهار النصح مع إضمار الغش، وأصله من غررت فلانا أى أصبت غرته وغفلته ونلت منه ماأريد.

ثم بين القرآن الآثار التى ترتبت على هذه الخديعة من إبليس لهما فقال: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

أى: فلما خالفا أمر الله - تعالى - بأن أكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها، أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتساقط عنهما لباسهما، وظهرت لهما عوراتهما. وشرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترها.

ويخصفان: مأخوذ من الخصف، وهو خرز طاقات النعل ونحوه بإلصاق بعضها ببعض، وفعله من باب ضرب.

قال بعض العلماء: «ولعل المعنى - والله أعلم - أنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلا، وخلعا ثوب الطاعة، وبدت منهما سوأة المعصية، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها، وما لهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك. فلما سمعا النداء الربانى بتقريعهما ولومهما ألهما أن يتوبا إلى الله ويستغفرا من ذنبهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم، وقال لهما فقط أولهما ولذريتهما، أو لهما ولإبليس: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته فى الأرض، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى. ومنازعة عدوهم لهم فيها، ﴿إنّ الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾[٢].

ثم بين القرآن ما قاله الله - تعالى - لهما بعد أن خالفا أمره. فقال: ﴿وناداهما ربهما﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾. أى عن الأكل منها ﴿وأقل لكما إن الشيطان

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٠٠.
(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٢٥٥، لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف.

لكما عدو مبين﴾ أى: ظاهر العداوة لا يفتر عن إيذائكما وإيقاع الشر بكما.

وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ أى: أضررناها بالمعصية والمخالفة ﴿وإن لم تغفر لنا﴾ ما سلف من ذنوبنا ﴿وترحمنا﴾ بقبول توبتنا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ أى: لنصيرن من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة».

وقد حكى القرآن ما رد به الله على آدم وحواء وإبليس، فقال: ﴿قال اهبطوا﴾أى من الجنة إلى ما عداها. وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما. وقيل الخطاب لهما فقط لقوله - سبحانه - فى آية أخرى: ﴿قال اهبطا منها جميعا﴾ والقصة واحدة، وضمير الجمع لكونهما أصل البشر.

وجملة ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ فى موضع الحال من فاعل اهبطوا، والمعنى اهبطوا إلى الأرض حالة كون العداوة لا تنفك بين آدم وذريته، وبين إبليس وشيعته ﴿ولكم فى الأرض مستقر﴾ أى موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ أى: تمتع ومعيشة ﴿إلى حين﴾ أى: إلى حين انقضاء آجالكم.

قال: ﴿فيها﴾ أى فى الأرض ﴿تحيون﴾ تعيشون ﴿وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ أى: يوم القيامة للجزاء، كما فى قوله - تعالى - : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.

وبعد أن قص القرآن على بنى آدم قصة خلقهم وتصويرهم وما جرى بين أبيهم وبين إبليس، وكيف أن إبليس قد خدع آدم وزوجه خداعا ترتب عليه إخراجهما من الجنة. بعد كل ذلك أورد القرآن أربع نداءات لبنى آدم حضهم فيها على تقوى الله وحذرهم من وسوسة الشيطان وذكرهم بنعمه عليهم، فقال فى النداء الأول:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

السوءة: العورة. والريش: لباس الزينة، استعير من ريش الطائر، لأنه لباسه وزينته. وقال الجوهرى: الريش والرياش بمعنى كاللبس واللباس، وهو اللباس الفاخر».

والمعنى: يا بنى آدم تذكروا واعتبروا واشكروا الله على ما حباكم من نعم، فإنه - سبحانه - قد هيأ لكم سبيل الحصول على الملبس الذى تستترون به عوراتكم، وتتزينون به فى مناسبات التجمل والتعبد.

والمراد بإنزال ما ذكر أنه خلق لبنى آدم مادة هذا اللباس التى تتكون من القطن والصوف والحرير وما إليها، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وصناعتها بالغزل والنسج والخياطة.

والتعبير بأنزلنا يفيد خصوصية البشر باللباس الذى يستر العورة، وبالرياش التى يتزينون بها، أى أنزلنا عليكم لباسين: لباسا يوارى سوآتكم، ولباسا يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح وحبها من طبيعة البشر. قال - تعالى -: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾.

قال الجمل: «وقوله - تعالى -: ﴿وريشا﴾ يحتمل أن يكون من باب عطف الصفات. والمعنى: أنه وصف اللباس بوصفين: مواراة السوأة، والزينة. ويحتمل أن يكون من باب عطف الشيء على غيره. أى: أنزلنا عليكم لباسا موصوفا بالمواراة، ولباسا موصوفا بالزينة»(١).

ثم بين - سبحانه - أن هناك لباسا آخر أفضل وأكمل من كل ذلك فقال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ أى: أن اللباس الذى يصون النفس من الدنايا والأرجاس، ويسترها بالإيمان والعمل الصالح هو خير من كل لباس حسى يتزين به البشر. فاسم الإشارة هنا يعود على لباس التقوى. وقد عبر القرآن هنا عن التقوى بأنها لباس، وعبر عنها فى موضع آخر بأنها زاد مشاكلة للسياق الذى وردت فيه هنا أو هناك. وذلك من باب تجسيم المعنويات وتنسيقها مع الجو العام الذى وردت فيه، وتلك طريقة انفرد بها القرآن الكريم.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿ولباس التقوى﴾ مبتدأ، وخبره إما الجملة التى هى ﴿ذلك خير﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. وإما المفرد الذى هو خير، وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير»(٢).

وقوله - تعالى -: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ معناه: ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم، لعلهم بعد ذلك لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية.

قال صاحب الكشاف: وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهور العورات وخصف الورق عليها، إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى(٣).

ثم أتبع القرآن النداء الأول بنداء آخر مبالغة فى وعظ بنى آدم وتذكيرهم بفضل الله عليهم، فقال -تعالى-:

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص ١٣٢. (٢، ٣) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٩٧.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾

والمعنى: يا بنى آدم لا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله، بأن تمكنوه من أن يوقعكم فى المعاصى كما أوقع أبويكم من قبل فيها، فكان ذلك سببًا فى خروجهما من الجنة التى كانا يتمتعان بنعيمها.

وقوله: ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾ جملة حالية من أبويكم. أى أخرجهما من الجنة حال كونه نازعًا عنهما لباسهما. وأسند النزع إلى الشيطان لأنه كان متسببًا فيه. ثم أكد تحذيرهم من الشيطان بجملة تعليلية فقال: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أى: إن الشيطان وجنوده يرونكم يا بنى آدم وأنتم لا ترونهم، فالجملة الكريمة تعليل للنهى السابق. وهو قوله: ﴿لا يفتننكم﴾ وتأكيد للتحذير، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف، ولذا قال مالك بن دينار: «إن عدوًا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله».

وقوله: ﴿وقبيله﴾ معطوف على الضمير المستتر فى قوله: ﴿يراكم﴾ المؤكد بقوله: ﴿هو﴾.

قال الآلوسى ما ملخصه: والقضية مطلقة لا دائمة، فلا تدل على ما ذهب إليه المعتزلة من أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس أصلا ولا يتمثلون. ويشهد لما قلنا ما صح من رؤية النبى ﷺ لأحدهم حين رام أن يشغله عن الصلاة فأمكنه الله منه، وأراد أن يربطه فى سارية من سوارى المسجد ثم ذكر دعوة سليمان فى قوله: ﴿رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى﴾ فتركه[1].

ثم بين - سبحانه - سنته فى خلقه فقال: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾. أى: إنا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون، مسلطين عليهم، متمكنين من إغوائهم، لأن حكمتنا اقتضت أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن، متجانسين مع الكافرين الذين هم شرار الإنس.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٠٥.

وبذلك نرى أن الآية الأولى التى ورد فيها النداء الأول قد ذكرت بنى آدم بجانب من نعم الله عليهم، ثم جاءت هذه الآية مصدرة بنداء آخر حذرتهم منه من وسوسة الشيطان ومداخله حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أبوهم آدم من قبل.

ثم حكى القرآن بعض القبائح التى كان يفعلها المشركون، ورد على أكاذيبهم بما يدحضها فقال:

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

الفاحشة: هى كل فعل قبيح يتنافى مع تعاليم الشريعة مثل الإشراك بالله، والطواف بالبيت الحرام بدون لباس يستر العورة.

قال الإمام ابن كثير: «كانت العرب - ما عدا قريشا - لا يطوفون بالبيت الحرام فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحمس[١] - يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوبا جديدًا ولا أعاره أحمسى ثوبا طاف عريانا، وربما كانت المرأة تطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة ليلا، وكان هذا شيئا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله فأنكر الله عليهم ذلك وقال: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾[٢].

فالآية الكريمة تحكى عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يرتكبون القبائح التى نهى الله عنها كالطواف بالكعبة عرايا، وكالإشراك بالله، ثم بعد ذلك يحتجون بأنهم قد وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، وبأن الله قد أمرهم بذلك، ولا شك أن احتجاجهم هذا من الأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان، ولذا عاجلهم القرآن بالرد المفحم، فقال: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

---

(١) سمو بالحمس لأنهم تحمسوا فى دينهم أى: تشددوا. والحماسة: الشجاعة.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٨.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب : إن كلامكم هذا يناقضه العقل والنقل. أما أن العقل يناقضه ويكذبه. فلأنه لا خلاف بيننا وبينكم فى أن ما تفعلونه هو من أقبح القبائح بدليل أن بعضكم قد تنزه عن فعله ، وأما أن النقل يناقضه ويكذبه فلأنه لم يثبت عن طريق الوحى أن الله أمر بهذا، بل الثابت أن الله لا يأمر به، لأن الفاحشة فى ذاتها تجاوز لحدود الله ، وانتهاك لحرماته، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرماته؟ والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿أتقولون﴾ للإنكار والتوبيخ وفيه معنى النهى.

ثم بين - سبحانه - ما أمر به من طاعات عقب تكذيبه للمشركين فيما افتروه فقال :

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

أى : قل لهم يا محمد إن الذى أمر الله به هو العدل فى الأمور كلها، لأنه هو الوسط بين الإفراط والتفريط، كما أنه - سبحانه - قد أمركم بأن تتوجهوا إليه وحده فى كل عبادة من عباداتكم، وأن تكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه، فإنه مخ العبادة.

ثم ذكرهم - سبحانه - بمبدئهم ونهايتهم فقال : ﴿كما بدأكم تعودون فريقًا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة﴾.

أى : أن الذى قدر على ابتدائكم وإنشائكم ولم تكونوا شيئا، يقدر على إعادتكم ليجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة والطاعة.

قال صاحب المنار : «وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز؛ فإنها دعوى متضمنة الدليل، بتشبيه الإعادة بالبدء فهو يقول : كما بدأكم ربكم خلقا وتكوينا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين، فريقا هداهم فى الدنيا فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده فى العبادة ودعائه مخلصين له الدين، وفريقا حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن، وكل فريق يموت على ما عاش ويبعث على ما مات عليه، ومعنى حقت عليهم الضلالة، ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية، لأنها جعلت غريزة لهم

فكانوا مجبورين عليها، يدل على هذا تعليلها على طريق الاستئناف البيانى بقوله : ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء، أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه لهم من الفواحش والمنكرات، ويحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين إياه من الشبهات[١] ».

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء ثالثا إلى بنى آدم أمرهم فيه بالتمتع بالحلال، وبزينة الله التى أخرجها لعباده بدون إسراف أو تبذير فقال - تعالى - :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾

والمعنى : عليكم يا بنى آدم أن تتجملوا بما يستر عورتكم، وأن تتحلوا بلباس زينتكم كلما صليتم أو طفتم، واحذروا أن تطوفوا بالبيت الحرام وأنتم عرايا.

قال القرطبى : « يا بنى آدم هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا، فإنه عام فى كل مسجد للصلاة، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢] ».

وقال ابن عباس : « كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل. يقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ». فأنزل الله -تعالى- : ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[٣].

ثم أمرهم - سبحانه - أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال : ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾.

أى : كلوا من المآكل الطيبة، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا لا فى زينتكم ولا فى مأكلكم أو مشربكم. لأنه - سبحانه - يكره المسرفين.

قال الإمام ابن كثير : « قال بعض السلف : جمع الله الطب فى نصف آية فى قوله : ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ « وقال البخارى : قال ابن عباس : « كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة »[٤].

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ١٧٩.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ١٧٩.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٨ ص ١٢٥.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١.

وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدى الله فى عبادتهم وهم فى أكمل زينة، فهذا - مثلا - الإمام الحسن بن على، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقيل له؛ ياابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال، فأنا أتجمل لربى، لأنه هو القائل : ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾(١).

وقال الكلبى : «كانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون لحما ولا دسما يعظمون بذلك حجهم، فهم المسلمون أن يفعلوا كفعلهم فأنزل - تعالى - : ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

فهذه الآية الكريمة تهدى الناس إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التى أحلها الله، ولكن بدون إسراف أو بطر، ولذا جاء الرد على المتنطعين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله فى قوله - تعالى - بعد ذلك :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا، ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا الحكم الذى عن طريقه حرمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده؟ فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه.

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : ﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾.

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا، ويشاركهم فيها المشركون أيضًا، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى.

وقوله - تعالى - : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ معناه : مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون مافى تضاعيفها من توجيهات سامية، وآداب عالية.

(١) تفسير الألوسى جـ ٨ ص ١٠٨.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من المحرمات التى نهى عباده عن اقترافها فقال تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسعه الله، قل لهم : إن ما حرمه الله عليكم فى كتبه وعلى ألسنة رسله هو هذه الأنواع الخمس التى أولها ﴿الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾، أى : ما كان قبيحًا من الأقوال والأفعال سواء أكان فى السر أو العلن، وثانيها وثالثها ﴿الإثم والبغى بغير الحق﴾ والإثم : هو الشىء القبيح الذى فعله يعتبر معصية، والبغى : هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد.

قال الإمام ابن كثير : «وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى هو التعدى على الناس، فحرم الله هذا وهذا»[1].

وقيد البغى بكونه بغير الحق، لأنه لا يكون إلا كذلك. إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد. يقال : بغى الجرح. إذ تجاوز الحد فى فساده.

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه، فإنه يسمى بغيا فى الجملة. لكنه بحق، وهو قول ضعيف لأن دفع البغى لا يسمى بغيا، وإنما يسمى انتصافا من الظالم، ولذا قال القرآن : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾.

وقيل إن القيد هنا لإخراج الأمور التى ليس لهم فيها حقوق، أو التى تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمنفعة أو مصلحة لهم يرجونها ببذلها.

ورابع الأمور التى حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾.

أى : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء فى عبادته بدون حجة و برهان. وقوله : ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ بيان للواقع من شركهم، إذ أنهم لا حجة عندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل، فالجملة الكريمة قد اشتملت على التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٢.

وخامسها قوله - تعالى - : ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أى : حرم عليكم أن تقولوا قولا يتعلق بالعبادات أو المحللات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون، وبغير بينة على صدق ما تدعون.

قال صاحب المنار : «ومن تأمل هذه الآية حق التأمل، فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئًا ويوجب عليهم شيئا فى دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله، بل يجتنب - أيضا - أن يقول : هذا مندوب أو مكروه فى الدين بغير دليل واضح من النصوص، وما أكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع»[1].

وبعد أن بين القرآن ما أحله الله وما حرمه. عقب على ذلك بأن بين أن أجل الناس فى هذه الدنيا محدود، وأنهم إن آجلا أو عاجلا سوف يقفون أمام ربهم للحساب فقال :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

أى : لكل أمة من الأمم ولكل جيل من الأجيال مدة من العمر محدودة فى علم الله، فإذا ما انتهت هذه المدة انقطعت حياتهم وفارقوا هذه الدنيا بدون أى تقديم أو تأخير.

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذى هو فى غاية القلة.

ثم أورد القرآن بعد ذلك النداء الرابع والأخير لبنى آدم، وحضهم فيه على اتباع الرسل، والسير على الطريق المستقيم فقال :

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٣٩٩.

والمعنى : يا بنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم ، يتلون عليكم آياتى التى أنزلتها عليهم لهدايتكم فآمنوا بهم وعزروهم وانصروهم ، فإن من آمن بهم واتقى ما نهاه عنه ربه ، وأصلح نفسه وعمله ، فأولئك لا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون لمفارقتهم الدنيا ، أما الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

فالآيتان الكريمتان تخبران جميع بنى آدم أن رسل الله قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، فعلى المرسل إليهم أن يطيعوهم حتى يفوزوا برضاء خالقهم.

قال الجمل : «وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحدا وهو النبى ﷺ ، لأنه خاتم الأنبياء ، وهو مرسل إلى كافة الخلق ، فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله : ﴿يا بنى آدم﴾ لأهل مكة ومن يلحق بهم. وقيل أراد جميع الرسل. وعلى هذا الخطاب فى قوله : ﴿يا بنى آدم﴾ عام لكل بنى آدم ، وإنما قال منكم أى : من جنسكم ومثلكم من بنى آدم ، لأن الرسول إذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم ، لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله ، فإذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذى أتى به معجزة له ، وحجة على من خالفه»[1].

ثم تعرض السورة الكريمة بعد ذلك لمشاهد يوم القيامة فى خمس عشرة آية فتصور لنا فى أسلوبها البليغ المؤثر حال المشركين عند قبض أرواحهم ، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين ، وتحكى لنا ما يجرى بين رؤساء المشركين ومرءوسيهم من مجادلات وملاعنات ، ثم تعقب على ذلك ببيان ما أعده الله للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل ، ثم يختم هذه المشاهدة بالحديث عما يدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من محاورات ونداءات. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بطريقته التصويرية المعجزة فيقول :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٣٧.

أى : لا أحد أشد ظلما ممن افترى الكذب على الله، بأن أحل ما حرمه أو حرم ما أحله، أو كذب بآياته المنزلة على أنبيائه، والاستفهام فى قوله : ﴿فمن أظلم﴾ للإنكار.

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال : ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾

أى : أولئك الذين كذبوا بآيات الله سينالهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من رزق وأجر، وخير وشر، والمراد بالكتاب، كتاب الوحى الذى أنزل على الرسل، فإنه يتضمن ما أعده الله للمؤمنين من ثواب وما أعده للكافرين من عقاب، وقيل المراد به اللوح المحفوظ، أى أولئك ينالهم نصيبهم المكتوب لهم فى كتاب المقادير، وهو : اللوح المحفوظ.

ثم صور القرآن حالهم عند قبض أرواحهم فقال : ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم، قالوا : أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

أى : أولئك المفترون ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم، حتى إذا ما انتهت آجالهم وجاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم سألتهم سؤال توبيخ وتقريع : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله لكى تنقذكم من هذا الموقف العصيب؟ وهنا يجيب المشركون على الملائكة بقولهم بحسرة وندامة : ﴿ضلوا عنا﴾ أى : غابوا عنا وصرنا لا ندرى مكانهم، ولا نرجو منهم خيرا أو نفعا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بعبادتهم لغير الله الواحد القهار.

وهنا يصدر عليهم قضاء الله العادل الذى صوره القرآن فى قوله :

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

أى : قال الله - تعالى - لأولئك المكذبين ادخلوا فى ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتكم فى الكفر، وشاركتكم فى الضلالة.

ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم فقال : ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ أى : كلما دخلت أمة من أمم الكفر النار لعنت أختها فى الدين والملة، فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة

لأنها زادتها ضلالا، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة لأنها كانت سببا فى عذابها.

ثم قال - تعالى - : ﴿حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا﴾ أى : حتى إذا ما اجتمعوا جميعا فى النار الرؤساء والأتباع، والأغنياء، والفقراء، قالت أخراهم دخولا أو منزلة وهم الأتباع، لأولاهم دخولا أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعين ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار﴾.

أى : قال الأتباع : يا ربنا هؤلاء الرؤساء هم السبب فى ضلالنا وهلاكنا، فأذقهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فضلا عن أنفسهم.

وهنا يأتيهم الجواب الذى يحمل لهم التهكم والسخرية، فيقول الله لهم : ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ أى : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار. أما أنتم فبسبب تقليدكم الأعمى، وأما هم فبسبب إضلالهم لكم ولغيركم، ولكنكم يا معشر المقلدين لا تعلمون ذلك لجهلكم وانطماس بصيرتكم.

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

أى : قال الزعماء لأتباعهم بعد أن سمعوا رد الله عليهم : إنا وإياكم متساوون فى استحقاق العذاب، وكلنا فيه سواء، لأنا لم نجبركم على الكفر، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم، وضللتم بسبب جهلكم، فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من قبائح ومنكرات :

فقوله - تعالى - : ﴿بما كنتم تكسبون﴾ بيان لأسباب الحكم عليهم.

وأنهم ما وردوا هذا المصير الأليم إلا بسبب، ما اكتسبوه من آثام : وا اجترحوه من سيئات.

ثم بين القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان عذاب المكذبين فقال :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

فهاتان الآيتان تصوران أكمل تصوير استحالة دخول المشركين الجنة بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها.

وقد فسر بعض العلماء قوله - تعالى - : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ بمعنى، لا تقبل أعمالهم ولا ترفع إلى الله كما ترفع أعمال الصالحين. قال - تعالى - : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾.

وفسره بعضهم بمعنى أن أرواحهم لا تصعد إلى السماء بعد الموت، لأنها قد أغلقت عليهم بسبب شركهم، ولكنها تفتح لأرواح المؤمنين.

والمراد أن الكافرين عند موتهم وعند حسابهم يوم القيامة يكونون على غضب الله ولعنته بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرك وظلم.

أما قوله - تعالى - : ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ فمعناه : أن هؤلاء المشركين لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يدخل ما هو مثل فى الضخامة وهو الجمل الكبير، فيما هو مثل فى الضيق وهو ثقب الإبرة.

وفى قراءة ﴿حتى يلج الجمل﴾ - بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها - وهو الحبل الغليظ أى : لا يدخلون الجنة حتى يدخل الحبل الغليظ الذى تربط به السفن فى ذلك الثقب الصغير للإبرة، وهيهات أن يحصل هذا، فكما أنه غير ممكن حصول ذلك فكذلك غير ممكن دخول المشركين الجنة.

قال الجمل فى حاشيته : ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط. الولوج : الدخول بشدة، ولذلك يقال هو الدخول فى ضيق فهو أخص من مطلق الدخول. والجمل معروف وهو الذكر من الإبل، وسم الخياط، ثقب الإبرة، وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبرها، وثقب الإبرة من أضيق المنافذ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الإبرة الضيق محالا فثبت أن الموقوف على المحال محال، فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة ميئوس منه قطعا[1]».

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص ١٤١.

وقوله : ﴿وكذلك نجزى المجرمين﴾ معناه : ومثل ذلك الجزاء الرهيب نجزى جنس المجرمين، الذين صار الاجرام وصفا لازما لهم.

ثم بين - سبحانه - ما أعد لهم فى النار فقال : ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وكذلك نجزى الظالمين﴾.

جهنم : اسم لدار العذاب. والمهاد : الفراش. والغواشى جمع غاشية، وهى ما يغشى الشيء أى يغطيه ويستره.

أى : أن هؤلاء المكذبين لهم نار جهنم تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، فهى من تحتهم بمنزلة الفراش، ومن فوقهم بمثابة الغطاء، ومثل ذلك الجزاء نجزى كل ظالم ومشرك. وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر مصور حال المشركين عندما تقبض أرواحهم، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب، وحالهم عندما يلعن بعضهم بعضا، وحالهم والعذاب من فوقهم ومن أسفل منهم، وهى مشاهد تفزع النفوس، وتحمل العقلاء على الاستقامة والاهتداء.

ثم نرى السورة بعد ذلك تسوق لنا ما أعده الله للمؤمنين بعد أن بينت فيما سبق عاقبة الكافرين فقال - تعالى - :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

أى : والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة التى لا عسر فيها ولا مشقة، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أولئك الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

وجملة - لا نكلف نفسًا إلا وسعها - معترضة بين المبتدأ الذى هو قوله : ﴿والذين آمنوا﴾ وبين الخبر الذى هو قوله : ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾.

قال الجمل : «وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر، لأنه من جنس هذا الكلام، لأنه - سبحانه - لما ذكر عملهم الصالح، ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة[1]».

وقال صاحب الكشاف : «وجملة ﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾ معترضة بين المبتدأ والخبر، للترغيب فى اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو فى الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح[2]».

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه فى الجنة من صفاء نفسى ونقاء قلبى فقال - تعالى - : ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار﴾ أى : قلعنا ما فى قلوبهم من تحاقد وعداوات فى الدنيا، فهم يدخلون الجنة بقلوب سليمة، زاخرة بالتواد والتعاطف حالة كونهم تجرى من تحتهم الأنهار فيرونها وهم فى غرفات قصورهم فيزداد سرورهم وحبورهم.

﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾. أى : قالوا شاكرين لله أنعمه ومننه : الحمد لله الذى هدانا فى الدنيا إلى الإيمان والعمل الصالح، وأعطانا فى الآخرة هذا النعيم الجزيل، وما كنا لنهتدى إلى ما نحن فيه من نعيم لولا أن هدانا الله إليه بفضله وتوفيقه. وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير : ولولا هداية الله موجودة ما اهتدينا.

وقوله : ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ جملة قسمية، أى : والله لقد جاءت رسل ربنا فى الدنيا بالحق، لأن ما أخبرونا به قد وجدنا مصداقه فى الآخرة.

﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أى : ونودوا من قبل الخالق - عز وجل - بأن قيل لهم : تلكم هى الجنة التى كانت الرسل تعدكم بها فى الدنيا قد أورثكم الله إياها بسبب ما قدمتوه من عمل صالح.

فالآية الكريمة صريحة فى أن الجنة قد ظفر بها المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة.

فإن قيل : إن هناك أحاديث صحيحة تصرح بأن دخول الجنة ليس بالعمل وإنما بفضل الله،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٤٣.

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٠٤.

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحدًا عمله الجنة، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته».

فالجواب على ذلك أنه لا تنافى فى الحقيقة، لأن المراد أن العمل لا يوجب دخول الجنة، بل الدخول بمحض فضل الله، والعمل سبب عادى ظاهرى. وتوضيحه أن الأعمال مهما عظمت فهى ثمن ضئيل بالنسبة لعظمة دخول الجنة، فإن النعمة الأخروية سلعة غالية جدًا فمثل هذه المقابلة كمثل من يبيع قصورًا شاهقة وضياعا واسعة بدرهم واحد.

فإقبال البائع على هذه المبادلة ليس للمساواة بين العمل ونعمة الجنة، بل لتفضله على المشترى ورحمته به، فمن رحمته بعباده المؤمنين أن جعل بعض أعمالهم الفانية وأموالهم الزائلة ثمنا لنعيم لا يبلى، ولذلك قال ابن عباس عندما قرأ قوله - تعالى - : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ : نعمت الصفقة، أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها ثم يمنحنا عليها الجنة.

على أنه - سبحانه - هو المتفضل فى الحقيقة بالثمن والمثمن جميعًا. لا جرم كان دخول الجنة بفضله - سبحانه - وهو الموفق للعمل والمعين عليه.

ويمكن أن يجاب - أيضًا - بأن الفوز بالجنة ونعيمها إنما هو بفضل الله والعمل جميعا، فقوله : ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أى : مع فضل الله - تعالى -، وإنما لم يذكر ذلك لئلا يتكلوا. وقوله ﷺ : «لن يدخل أحدا عمله الجنة..» أى مجردا من فضل الله، وإنما اقتصر على هذا لئلا يغتروا.

هذا أصح الآراء فى الجمع بين الآية والحديث، وهناك آراء أخرى لم نذكرها لضعفها.

وبعد هذه الموازنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين، بدأ القرآن يسوق لنا مشهدًا آخر من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

استمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذا المشهد المؤثر بأسلوبها العجيب فتقول :

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ

رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

والمعنى : أن أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة فيقولون لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا من الثواب ومن الجزاء، فهل وجدتم أنتم ما وعدكم ربكم حقا من العقاب وسوء المصير؟ قالوا : نعم. أى : قال أهل النار : نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله حقا.

وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار.

والظاهر أن هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد. فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا.

وعبر بالماضى مع أن هذا النداء يكون فى الآخرة لتحقق الوقوع وتأكده.

وكلمة ﴿حقا﴾ نصبت فى الموضعين على الحالية، وقيل إنها مفعول ثان ويكون وجد بمعنى علم.

ثم بين - سبحانه - ما جرى بعد ذلك فقال: ﴿فأذن مؤذن بينهم، أن لعنة الله على الظالمين. الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا﴾.

التأذن: رفع الصوت بالإعلام بالشيء. واللعنة: الطرد والإبعاد مع الخزى والإهانة.

والمعنى: بعد أن قامت الحجة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين. نادى مناد بين الفريقين بقوله: لعنة الله على الظالمين لأنفسهم، ولغيرهم، الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله، ويريدون لها أن تكون معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها الناس، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب جاحدون مكذبون.

وفى قوله: ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾. نكر المؤذن؛ لأن معرفته غير مقصودة بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عن رسول الله ﷺ فيه شيء، فهو من أمور الغيب التى لا تعلم علما صحيحا إلا بالتوقيف المستند إلى الوحى، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لا يعتمد عليها.

قال بعض العلماء: «وفى هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب، وهى نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزى والنكال، ويشعرهم بالحسرة والندامة، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقعا فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان، وأحسوا به كذلك واقعا.

وفى هذا نرى صورة من الحديث الذى يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب. ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر. ويصور الحكم النافذ الذى لا مرد له ولا محيص عنه يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه ولا يعلم من هو ولا ما صوته ولا كيف يلقى أذانه، ولا كيف يكون أثر هذا الأذن فى نفوس سامعه.

وإنه لتصوير قوى بارع، يحرك إليه النفوس، ويهز المشاعر، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم، والطرد والحرمان من رحمة الله، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم الذى كونه صدهم عن سبيل الله، وبغيهم إياها عوجا وانحرافا وكفرهم بدار الجزاء»[1].

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول:

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

﴿وبينهما حجاب﴾ أى : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهما، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر،

ويرى بعض العلماء أن هذا الحجاب هو السور الذى ذكره الله فى قوله -تعالى- فى سورة الحديد : ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾.

ثم قال -تعالى- : ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾.

الأعراف : جمع عرف، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها. ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذى يكون فى أعلى الرقبة.

والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز - أى فى أعلاه - رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فيعرفون كلا منهم بسيماهم وعلاماتهم التى وصفهم الله بها فى كتابه كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة، وسوادها بالنسبة لأهل النار، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم وتحية لكم ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾.

هذا، وللعلماء أقوال فى أصحاب الأعراف أوصلها بعض المفسرين إلى اثنى عشر قولا من أشهرها قولان :

أولهما : أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقد روى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف.

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : «سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون».

وعن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار. قال : فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم[1]».

وهناك آثار أخرى تقوى هذا الرأى ذكرها الإمام ابن كثير فى تفسيره[2]».

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦.

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها.

أما الرأى الثانى : فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف الخلق وعدولهم كالأنبياء والصديقين والشهداء. وينسب هذا القول إلى مجاهد وإلى أبى مجلز فقد قال مجاهد : «أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء» وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار. ومعنى كونهم رجالا - فى قول أبى مجلز أى : فى صورتهم.

وقد رجح بعض العلماء الرأى الثانى فقال : «وليس أصحاب الأعراف ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء فى بعض الروايات، لأن ما نسب إليهم من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة، انظر قولهم للمستكبرين :

﴿ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ فإن هذا الكلام لا يصدر إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكانتهم. ولذا أرجح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على الناس، وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل[١]».

والذى نراه : أن هناك حجابًا بين الجنة والنار، الله أعلم بحقيقته، وأن هذا الحجاب لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة، وأن هذا الحجاب من فوقه رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسبه، يحيون أهل الجنة ويقرعون أهل النار، وأن هؤلاء الرجال - يغلب على ظننا - أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم. لأن هذا القول هو قول جمهور العلماء من السلف والخلف، ولأن الآثار تؤيده، ولذا قال ابن كثير : «واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله[٢]».

وقوله : ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه فى أصحاب الأعراف، أى أن أصحاب الأعراف عندما رأوا أهل الجنة سلموا عليهم حال كونهم - أى أصحاب الأعراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون فى دخولها مترقبون له.

وثانيهما : أنه فى أصحاب الجنة : أى : أنهم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون فى دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب. وكريم اللقاء.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص٥٠٣ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢١٦.

ثم قال - تعالى - : ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

أى : وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة النار قالوا مستعيذين بالله من سوء ما رأوا من أحوالهم : يا ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين، ولا تجعلنا وإياهم فى هذا المكان المهين.

قال صاحب المنار : «وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة، بل بصارف يصرفهم إليها قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم[1]».

ثم بين - سبحانه - ما يقوله أهل الأعراف لرءوس الكفر فى هذا الموقف العصيب فقال : ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وماكنتم تستكبرون﴾.

أى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار وكانوا أصحاب وجاهة وغنى فى الدنيا، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم فى الأرض بغير الحق. فقد صرتم فى الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين.

وقد كرر - سبحانه - ذكرهم مع قرب العهد بهم، فلم يقل «ونادوا» لزيادة التقرير، وكون هذا النداء خاصًا فى موضوع خاص فكان مستقلا.

وقوله : ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه، وظهور الذلة على وجوههم. أو يعرفونهم بصورهم التى كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا.

ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم فيقولون لهم : ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

أى : أن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين فى الأرض ثم يقولون لرءوس الكفر الذين كانوا يعذبونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم فى الدنيا أن الله

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٣٤.

-تعالى- لاينالهم برحمة فى الآخرة لأنه لم يعطهم فى الدنيا مثل ماأعطاكم من مال وبنين وسلطان.

وهنا ينادى مناد من قبل الله - تعالى - على هؤلاء الفقراء فيقول لهم: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

أى: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى المستقبل، ولا أنتم تحزنون على ما خلفتموه فى الدنيا.

وقيل: إن قوله - تعالى -: ﴿ادخلوا﴾. من كلام أصحاب الأعراف - أيضًا، فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم: امكثوا فى الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة.

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهدًا ختاميا من مشاهد يوم القيامة تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول:

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أومما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين* الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، وماكانوا بآياتنا يجحدون﴾.

إفاضة الماء: صبه، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة.

والمعنى: أن أهل النار - بعد أن أحاط بهم العذاب المهين - أخذوا يستجدون أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله من طعام، لكى نستعين بهما على ما نحن فيه من سموم وحميم.

وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم: إن الله منع كلا منهما على الكافرين، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، أى الذين اتخذوا دينهم - الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه - مادة للسخرية والتلهى، وصرف الوقت فيما لا يفيد، فأصبح الدين - فى زعمهم - صورة ورسوما لا تزكى نفسًا، ولا تطهر قلبًا، ولا تهذب خلقا وهم فوق ذلك قد غرتهم الحياة الدنيا - أى شغلتهم بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله، ويهديهم إلى طريقه القويم.

وقوله - تعالى -: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ معناه فاليوم نفعل بهم فعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم فى النار تركا كليا بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم، وبسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها أنبياؤهم.

فالنسيان فى حق الله - تعالى - مستعمل فى لازمه، بمعنى أن الله لا يجيب دعاءهم، ولا يرحم ضعفهم وذلهم، بل يتركهم فى النار كما تركوا الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا.

وهكذا تسوق لنا السورة الكريمة مشاهد متنوعة لأهوال يوم القيامة، فتحكى لنا أحوال الكافرين، كما تصور لنا ما أعده الله للمؤمنين. كما تسوق لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات ومناقشات فيها العبر والعظات «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن الكريم فى إثباته للرسالة المحمدية عن طريق الإخبار بأحوال الأمم السابقة وبيان سوء عاقبة من كذب به، فقال:

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه﴾... إلخ.

التفصيل: عبارة عن جعل الحقائق والمسائل بيانها مفصولا بعضها عن بعض بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس.

والمعنى: ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا محمد بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، فصلنا آياته تفصيلا حكيما، وبينا فيه ما هم فى حاجة إليه من أمور الدنيا والآخرة بيانا شافيا يؤدى إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا بهديه».

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وقيل هو لهم وللمؤمنين، والمراد بالكتاب: القرآن الكريم.

وقوله: ﴿على علم﴾ حال من فاعل «فصلناه»، أى: فصلناه على أكمل وجه وأحسنه حالة كوننا عالمين بذلك أتم العلم.

فالمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما فى هذا القرآن من أحكام وتفصيل وهداية، لم يحصل عبثا، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من فوائد متكاثرة، ومنافع متزايدة.

وقرأ ابن محيص «فضلناه» بالضاد المعجمة. أى: فضلناه على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك.

وقوله: ﴿هدى ورحمة﴾ حال من مفعول «فصلناه» وقرىء بالجر على البدلية من «علم» وبالرفع على إضمار المبتدأ، أى: هو هدى عظيم ورحمة واسعة.

وقال: ﴿لقوم يؤمنون﴾ لأنهم هم المنتفعون بهديه، والمستجيبون لتوجيهاته ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الذى أنزله الله هداية ورحمة فقال: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾.

النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية. فالمراد بينظرون: ينتظرون ويتوقعون، وتأويل الشىء: مرجعه ومصيره الذى يئول إليه ذلك الشىء والاستفهام بمعنى النفى.

والمعنى: إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شىء ينتظرونه بعد أن أصروا على شركهم إلا ما يئول إليه أمر هذا الكتاب وما تتجلى عنه عاقبته، من تبين صدقه، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد والبعث والحساب، وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه.

فإن قيل: كيف ينتظرون ذلك مع كفرهم به؟

فالجواب: أنهم قبل وقوع ما هو محقق الوقوع، صاروا كالمنتظرين له، لأن كل آت قريب، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به، وسينزل بهم لا محالة.

ثم بين - سبحانه - حالهم يوم الحساب فقال: ﴿يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل﴾.

أى: يوم يأتى يوم القيامة الذى أخبر عنه القرآن، والذى يقف الناس فيه أمام خالقهم للحساب، يقول هؤلاء الكافرون الذين جحدوا هذا اليوم عندما تكشف لهم الحقائق، ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ وتبين صدقهم ولكننا نحن الذين كذبناهم وسرنا فى طريق الضلال، ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ فى هذه الساعة العصيبة ويدفعوا عنا مانحن فيه من كرب وبلاء، أو نرد إلى الدنيا فنعمل عملا صالحا غير الذى كنا نعمله من الجحود واللهو واللعب.

أى: أنه لاطريق لنا إلى الخلاص ممانحن فيه من العذاب الشديد إلاأحد هذين الأمرين، وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب، أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا نعمل.

فالجملة الكريمة تصور حسرتهم يوم القيامة تصويرا يهز المشاعر، ويحمل العقلاء على الإيمان والعمل الصالح.

والاستفهام فى قوله: ﴿فهل لنا من شفعاء﴾ للتمنى والتحسر، ومن مزيدة للاستغراق والتأكيد وشفعاء مبتدأ مؤخر ولنا خبر مقدم.

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال: ﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾.

أى: قد خسر هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا أنفسهم، بسبب إشراكهم بالله، وذهب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من أن أصنامهم ستشفع لهم يوم الجزاء، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم.

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من بديع صنعه، وجليل قدرته، لكى يدل على أنه هو المعبود الحق فقال - تعالى - :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

أى: إن سيدكم ومالككم الذى يجب عليكم أن تفردوه بالعبادة هو الله الذى أنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام.

قال الشهاب: اليوم فى اللغة مطلق الوقت، فإن أريد هذا فالمعنى فى ستة أوقات. وإن أريد المتعارف وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها فالمعنى فى مقدار ستة أيام، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات فيقدر فيه مضاف[1].

وقال صاحب فتح البيان: «قيل هذه الأيام من أيام الدنيا، وقيل من أيام الآخرة، قال ابن عباس: يوم مقداره ألف سنة وبه قال الجمهور وقال سعيد ابن جبير، «كان الله قادرا على أن

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٧٠٠.

يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة، فخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الأمور»[١].

وقوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ قال الشيخ القاسمى:

ورد الاستواء على معان اشترك لفظه فيها، فجاء بمعنى الاستقرار، ومنه ﴿استوت على الجودى﴾ وبمعنى القصد ومنه ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان﴾ وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه. قال الفراء: تقول العرب استوى إلى يخاصمنى أى: قصد لى وأقبل على. ويأتى بمعنى الاستيلاء.

قال الشاعر: * قدْ استوى بشر على العراق *

ويأتى بمعنى العلو ومنه هذه الآية.

قال البخارى فى آخر صحيحه فى كتاب الرد على الجهمية فى باب قوله - تعالى -: ﴿وكان عرشه على الماء﴾. قال مجاهد: استوى وعلا على العرش.

وقال ابن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أى: علا وارتفع[٢].

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محمولا.

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية. وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات.

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» وأنه يجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى -.

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - فى تفسير قوله - تعالى -: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أنها قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والاقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وقال الإمام مالك: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

---

(١) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان جـ ٢ ص ٣٤٢.
(٢) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٨٠٢.

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه.

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه - أى الاستواء - عن ظاهره لاستحالته، وأن المراد منه - كما قال الإمام القفال - أنه استقام ملكه، واطرد أمره ونفذ حكمه - تعالى - فى مخلوقاته، والله - تعالى - دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم «تنبيها على عظمته وكمال قدرته» وذلك مشروط بنفى التشبيه، ويشهد بذلك قوله - تعالى - : ﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾[1].

هذا وللعلماء كلام طويل حول هذه المسألة التى تتعلق بالمحكم والمتشابه فليرجع إليها من شاء.

وقوله : ﴿يغشى الليل النهار﴾ التغشية : التغطية والستر، أى : يجعل الليل غاشيا للنهار مغطيا له فيذهب بنوره، ويصير الكون مظلما بعد أن كان مضيئا، ويجعل النهار غاشيا لليل فيصير الكون مضيئا بعد أن كان مظلما، وفى ذلك من منافع الناس ما فيه وبه تتم الحياة، وهو دليل القدرة والحكمة والتدبير من الإله العلى العظيم.

ولم يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله - تعالى - : ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أو لدلالة الحال عليه، أو لأن اللفظ يحتملهما : يجعل الليل مفعولا أول والنهار مفعولا ثانيا أو بالعكس.

والآية الكريمة من باب أعطيت زيدًا عمرًا، لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشيًا ومغشيًا، فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوى، والنهار هو المفعول من غير عكس لئلا يلتبس المعنى.

وقد قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾.

وقوله : ﴿يطلبه حثيثًا﴾ أى : يطلب الليل النهار أو كلاهما يطلب الآخر طلبًا سريعًا حتى يلحقه ويدركه، وهو كناية عن أن أحدهما يأتى عقب الآخر ويخلفه بلا فاصل، فكأنه يطلبه طلبًا سريعًا لا يفتر عنه حتى يلحقه.

والحث على الشىء : الحض عليه. يقال : حث الفرس على العدو يحثه حثًا صاح به أو وكزه برجل أو ضرب. وذهب حثيثًا أى : مسرعًا.

---

(١) تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

والجملة حال من الليل، لأنه هو المتحدث عنه أو حال من النهار أى : مطلوب حثيثًا، أو من كل منهما على الرأى الثانى الذى يفسر «يطلبه حثيثًا» بأن كليهما يطلب الآخر.

وقوله : ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أى : وخلق الشمس والقمر والنجوم كونهن مذللات خاضعات لتصرفه، منقادات لمشيئته، كأنهن مميزات أمرن فانقدن، فتسمية ذلك أمر على سبيل التشبيه.

قال الآلوسى : ويصح حمل الأمر على الإرادة. أى : هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لإرادته : ومنهم من حمل الأمر على الأمر الكلامى وقال : إنه - سبحانه - أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء ولا مانع أن يعطيها الله إدراكا وفهما لذلك[1]».

وقرأ الجمهور بنصب الألفاظ الثلاثة على أنها معطوفة على السموات، أى : خلق السموات وخلق الشمس والقمر والنجوم. وبنصب ﴿مسخرات﴾ أيضا على أنها حال من هذه الثلاثة.

وقرأ أبو عامر بالرفع فى جميعها على الابتداء والخبر مسخرات.

وقوله : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ألا : أداة يفتتح بها القول الذى يهتم بشأنه لأجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله. والخلق : إيجاد الشىء من العدم. والأمر : التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه. فهو - سبحانه - الخالق والمدبر للعالم على حسب إرادته وحكمته لا شريك له فى ذلك.

وهذه الجملة الكريمة كالتذييل للكلام السابق أى : أنه - سبحانه - هو الذى خلق الأشياء كلها ويدخل فى ذلك السموات والأرض وغيرهما، وهو الذى دبر هذا الكون على حسب إرادته ويدخل فى ذلك ما أشار إليه بقوله : ﴿مسخرات بأمره﴾.

وقوله : ﴿تبارك الله رب العالمين﴾.

تبارك : فعل ماض لا يتصرف، أى لم يجىء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل. من البركة بمعنى الكثرة من كل خير. وأصلها النماء والزيادة. أى : كثر خيره وإحسانه وتعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين.

أو من البركة بمعنى الثبوت. يقال : برك البعير، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه. وكل شىء ثبت ودام فقد برك. أى : ثبت ودام خيره على خلقه.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص ١٣٨.

أو المعنى: تعالى الله رب العالمين وتعظم وارتفع وتنزه عن كل نقص.

ثم أمر الله - تعالى - عباده أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء الخالص فقال:

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

التضرع: تفعل من الضراعة وهى الذلة والاستكانة. يقال: ضرع فلان ضراعة: أى خشع وذل وخضع. ويقال: تضرع، أى أظهر الضراعة والخضوع. وتضرعا حال من الضمير فى ادعوا.

الخفية: بضم الخاء وكسرها - مصدر خفى كمرض بمعنى اختفى أى: استتر وتوارى ولم يجهر بدعائه.

والمعنى: سلوا ربكم - أيها الناس - حوائجكم بتذلل واستكانة وإسرار واستتار فإنه - سبحانه - يسمع الدعاء، ويجيب المضطر، ويكشف السوء، وهو القادر على إيصالها إليكم، وغيره عن ذلك عاجز.

وإنما أمر الله عباده بالإكثار من الدعاء فى ضراعة وإسرار، لأن الدعاء ما هو إلا اتجاه إلى الله بقلب سليم، واستعانة به بإخلاص ويقين، لكى يدفع المكروه، ويمنح الخير، ويعين على نوائب الدهر، ولا شك أن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى، والنقاء النفسى، ويكون كذلك مؤديًا لأشرف ألوان العبادة والخضوع لله الواحد القهار، معترفا لنفسه بالعجز والنقص. ولربه بالقدرة والكمال[1].

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية من آداب الدعاء الخشوع والإسرار واستدلوا على ذلك بأحاديث وآثار متعددة منها ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا. فقال النبى ﷺ: «أيها الناس،

(١) راجع كتابنا «الدعاء» معناه، فضله، آدابه. شروطه، فوائده.. إلخ من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية الكتاب السادس والعشرون.

اربعوا على أنفسكم -أى ارفقوا بها- وأقصروا من الصياح - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إنه معكم. إنه سميع قريب. تبارك اسمه وتعالى جده»(١).

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور - أى الزوار - وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدًا. ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله -تعالى- يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾ وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضى فعله وهو زكريا فقال: ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا﴾(٢).

وقال ابن المنير: «وحسبك فى تعين الإسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية، فالاخلال بالضراعة إلى الله إخلال بالدعاء. وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى. فكذلك دعاء لا خفية فيه ولا وقار يصحبه. وترى كثيرًا من أهل زمانك يعمدون إلى الصراخ والصياح فى الدعاء خصوصا فى الجوامع حتى يعظم اللفظ ويشتد، وتستك المسامع وتنسد، ويهتز الداعى بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت فى الدعاء وفى المسجد، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة بالآثار. وما هى إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة فى الدعاء. وفى خفض الصوت به أوفر وأوفى وأزكى فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق. اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه»(٣).

وقوله: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ الاعتداء تجاوز الحد أى: لا يحب المتجاوزين حدودهم فى كل شىء، ويدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا. ومن مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يترك هذين الأمرين وهما التضرع والإخفاء، كذلك من مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يتكلف فيه.

روى أبو داود فى سننه أن سعد بن أبى وقاص سمع ابنا له يدعو ويقول: اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال له يا بنى: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ثم قرأ سعد هذه

---

(١) أخرجه البخارى - واللفظ له - فى كتاب الجهاد. باب ما يكره من رفع الصوت: وأخرجه مسلم فى كتاب «الذكر والدعاء».

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٣.

(٣) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ ٢ ص ١١٠ من تفسير الكشاف.

الآية ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل(١) ».

ثم نهى الله عباده عن كل لون من ألوان المعاصى فقال : ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ أى : لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاح الله إياها، بأن خلقها على أحسن نظام، فالجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الافساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان.

روى أبو الشيخ عن أبى بكر بن عياش أنه سئل عن قوله - تعالى - : ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ فقال : إن الله بعث محمدًا ﷺ إلى أهل الأرض وهم فى فساد فأصلحهم الله به، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض »..

قال صاحب المنار : وقال - سبحانه - : ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ لأن الإفساد بعد الإصلاح أشد قبحًا من الإفساد على الإفساد، فإن وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه. فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه؟ ولذا خص بالذكر وإلا فالإفساد مذموم ومنهى عنه فى كل حال »(٢).

وقوله : ﴿وادعوه خوفا وطمعًا﴾.

أصل الخوف : انزعاج فى الباطن يحصل من توقع أمر مكروه يقع فى المستقبل.

والمعنى : وادعوه خائفين من عقابه إياكم على مخالفتكم لأوامره، طامعين فى رحمته وإحسانه وفى إجابته لدعائكم تفضلا منه وكرما.

قال الجمل : فإن قلت : قال فى أول الآية : ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾ وقال هنا : ﴿وادعوه خوفا وطمعًا﴾ وهذا عطف للشيء على نفسه فما فائدة ذلك؟ قلت : الفائدة أن المراد بقوله - تعالى - : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ بيان شرطين من شروط الدعاء وبقوله : ﴿وادعوه خوفا وطمعا﴾ بيان شرطين آخرين، والمعنى : كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم ولاتطمعوا أنكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما »(٣).

وقوله : ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أى إن رحمته - تعالى - وإنعامه على عباده قريب من المتقنين لأعمالهم، المخلصين فيها، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن عبادته

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الوتر باب الدعاء حديث رقم ١٤٨٠ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى.

(٢) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٦١.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٥١.

نال عليها الثواب الجزيل، ومن أحسن فى أمور دنياه كان أهلا للنجاح فى مسعاه، ومن أحسن فى دعائه كان جديرًا بالقبول والإجابة.

قال الشيخ القاسمى: وفى الآية الكريمة ترجيح للطمع على الخوف، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف، ولكنه إذا رأى سعة رحمته - سبحانه - وسبقها، غلب الرجاء عليه. وفيها تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة وهو الاحسان فى القول والعمل.

قال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين»[١].

هذا، وكلمة «قريب» وقعت خبرًا للرحمة، ومن قواعد النحو أن يكون الخبر مطابقا للمبتدأ فى التذكير والتأنيث، فكان مقتضى هذه القواعد أن يقال إن رحمة الله قريبة. وقد ذكر العلماء فى تعليل ذلك بضعة عشر وجها، منها أن تذكير «قريب» صفة لمحذوف أى أمر قريب، أو لأن كلمة الرحمة مؤنثة تأنيثا مجازيا، فجاز فى خبرها التذكير والتأنيث أو لأن الرحمة هنا بمعنى الثواب وهو مذكر فيكون تذكير قريب باعتبار ذلك وقيل غير ذلك مما لا مجال لذكره هنا.

وبعد أن بيَّن - سبحانه - أنه هو الخالق للسموات والأرض، وأنه هو المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأن رحمته قريبة من المحسنين الذين يكثرون من التضرع إليه بخشوع وإخلاص.

بعد كل ذلك تحدث - سبحانه - عن بعض مظاهر رحمته التى تتجلى فى إرسال الرياح، وإنزال المطر، وعن بعض مظاهر قدرته التى تتجلى فى بعث الموتى للحساب، وفى هداية من يريد هدايته وإضلال من يريد ضلالته فقال - تعالى - :

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته﴾ معطوف على ما سبق من

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٧٥٦.

قوله - تعالى - : ﴿إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض﴾ لبيان مظاهر قدرته ورحمته.
وقرأ حمزة والكسائى «الريح» بالافراد:

و ﴿بشرا﴾ - بضم الباء فسكون الشين - مخفف و ﴿بشرا﴾ - بضمتين - جمع بشير كنذر ونذير، أى: مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق.

وقرأ أهل المدينة والبصرة «نشرا» - بضم النون والشين - جمع نشور - كصبور وصبر - بمعنى ناشر من النشر ضد الطى، وفعول بمعنى فاعل يطرد جمعه.

وهناك قراءات أخرى غير ذلك.

والمعنى وهو - سبحانه - الذى يرسل الرياح مبشرات عباده بقرب نزول الغيث الذى به حياة الناس.

وقوله: ﴿بين يدى رحمته﴾ أى بين يدى المطر الذى هو من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده.

قال تعالى: ﴿وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد﴾.

وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن يرسِلَ الرياح مبشرات﴾.

قال الإمام الرازى: وقوله: ﴿بين يدى رحمته﴾ من أحسن أنواع المجاز، والسبب فى ذلك أن اليدين يستعملهما العرب فى معنى التقدمة على سبيل المجاز. يقال: إن الفتن تحصل بين يدى الساعة يريدون قبيلها، كذلك مما حسن هذا المجاز أن يدى الإنسان متقدمة، فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز لأجل هذه المشابهة، فلما كانت الرياح تتقدم المطر، لا جرم عبر عنه بهذا اللفظ»[1].

وقوله: ﴿حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت﴾ حتى: غاية لقوله: ﴿يرسل﴾.
وأقلت: أى حملت. وحقيقة أقله وجده قليلا ثم استعمل بمعنى حمله. لأن الحامل لشىء يستقل ما يحمله بزعم أن ما يحمله قليل.

و ﴿سحابا﴾ أى: غيما، سمى بذلك لانسحابه فى الهواء، وهو اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة، وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع.

و ﴿ثقالا﴾ جمع ثقيلة من الثقل - كعنب - ضد الخفة. يقال: ثقل الشىء - ككرم - ثقلا وثقالة فهو ثقيل وهى ثقيلة.

والمعنى: أن الله - تعالى - هو الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول الغيث، حتى إذا حملت

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٤٢ طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ هـ.

الرياح سحابا ثقالا من كثرة ما فيها من الماء، سقناه - أى السحاب إلى «بلد ميت» أى إلى أرض لانبات فيها ولا مرعى، فاهتزت وربت وأخرجت النبات والمرعى. فأطلق - سبحانه - الموت على الأرض التى لا نبات فيها، وأطلق الحياة على الأرض الزاخرة بالنبات والمرعى لأن حياتها بذلك.

قال - تعالى - : ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾(١).

وقوله : ﴿فأنزلنا به الماء﴾ أى : فأنزلنا فى هذا البلد الميت الماء الذى يحمله السحاب. فالباء فى ﴿به﴾ للظرفية.

وقيل إن الضمير فى ﴿به﴾ للسحاب، أى : فأنزلنا بالسحاب الماء وعليه فتكون الباء للسببية.

وقوله : ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ أى : فأخرجنا بهذا الماء من كل أنواع الثمرات المعتادة فى كل بلد، تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها.

فليس المراد أن كل بلد ميت تخرج منه جميع أنواع الثمار التى خلقها الله، متى نزل به الماء، وإنما المراد أن كل بلد تخرج منه الثمار التى تناسب تربته على حسب مشيئة الله وفضله وإحسانه، إذ من المشاهد أن البلاد تختلف أرضها فيما تخرجه، وهذا أدل على قدرة الله، وواسع رحمته.

وقوله : ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ إشارة إلى إخراج الثمرات، أو إلى إحياء البلد الميت.

أى : مثل ما أحيينا الأرض بعد موتها وجعلناها زاخرة بأنواع الثمرات بسبب نزول الماء عليها، نخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء فى اليوم الآخر لنحاسبهم على أعمالهم، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم. وهذا رد على منكرى البعث بدليل ملزم، لأن من قدر على إخراج النبات من الأرض بعد نزول الماء عليها، قادر - أيضا - على إخراج الموتى من قبورهم.

وقوله : ﴿لعلكم تذكرون﴾ تذييل قصد به الحث على التدبر والتفكر، أى : لعلكم تذكرون وتعتبرون بما وصفنا لكم فيزول إنكاركم للبعث والحساب.

قال الشيخ القاسمى : «من أحكام الآية كما قال الجشمى : أنها تدل على عظم نعمة الله

(١) آية ٩ من سورة فاطر.

علينا بالمطر، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر، وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء. وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده، لضرب من المصلحة دينا ودنيا . . »[1].

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لاختلاف استعداد البشر للخير والشر فقال :

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا﴾.

أصل النكد : العسر القليل الذى لا يخرج إلا بعناء ومشقة. يقال : نكد عيشه ينكد، اشتد وعسر. ونكدت البئر : قل ماؤها، ومنه : رجل نكد، ونكد وأنكد، شؤم عسر. وهم أنكاد ومناكيد.

وقال فى اللسان : والنكد : قلة العطاء، قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت، أعطيت تافها نكدا

أى : عطاء قليلا لا جدوى منه.

والمعنى : أن الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وافيا حسنا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، والذى خبث من الأرض كالسبخة منها لايخرج نباته إلا قليلا عديم الفائدة.

فالأول : مثل ضربه الله للمؤمن يقول : هو طيب وعمله طيب.

والثانى : مثل للكافر، يقول : هو خبيث وعمله خبيث، وفيهما بيان أن القرآن يثمر فى القلوب التى تشبه الأرض الطيبة التربة، ولا يثمر فى القلوب التى تشبه الأرض الرديئة السبخة.

ونكدا منصوب على أنه حال أو على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير : والذى خبث لا يخرج إلا خروجا نكدا.

قال صاحب الكشاف : «وهذا مثل لمن ينجح فيه الوعظ والتذكير من المكلفين، ولمن لا يؤثر فيه شىء من ذلك. وعن مجاهد : آدم وذريته منهم خبيث وطيب. وعن قتادة : المؤمن سمع

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٧٥٨.

كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت. والكافر بخلاف ذلك. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر. وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد»(٢).

وقريب من معنى الآية الكريمة ما رواه الشيخان عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»(١).

وقوله: ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أصل التصريف: تبديل حال بحال ومنه تصريف الرياح. والآيات: الدلائل الدالة على قدرة الله.

أى: مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الآيات الدالة على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جلية واضحة لقوم يشكرون نعمنا، باستعمالها فيما خلقت له، فيستحقون مزيدنا منها وإثابتنا عليها.

وعبر هنا بالشكر لأن هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد، بينما عبر فى الآية السابقة عليها بالتذكر لأن موضوعها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله - تعالى - فى إحياء الموتى.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - عن عظمة القرآن الكريم وعن وجوب اتباعه، وعن قصة آدم وما فيها من عبر وعظات، وعما أحله الله وحرمه، وعما يدور بين أهل النار من مجادلات واتهامات، وعن العاقبة الطيبة التى أعدها الله للصالحين من عباده، وعن المحاورات التى تدور بينهم وبين أهل النار، ثم عن مظاهر قدرة الله، وأدلة وحدانيته.

وبعد كل ذلك تبدأ السورة جولة جديدة مع الأمم الخالية، والقرى المهلكة التى جاء ذكرها فى مطلعها.

﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون﴾.

فتحدثنا السورة الكريمة عن مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٢.
(١) أخرجه البخارى فى كتاب العلم، وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل.

شعيب، ثم حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل.

وقد تكلم الإمام الرازى عن فوائد مجىء قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم فى هذه السورة بعد أن تحدثت عن أدلة توحيده وربوبيته - سبحانه - فقال: اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة، وبينات قاهرة، وبراهين باهرة أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات. ليس من خواص قوم النبى ﷺ بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم، وحكاية إصرارهم وعنادهم، يفيد تسلية للنبى ﷺ وتخفيف ذلك على قلبه.

ثانيها: أنه - تعالى - يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا، والخسارة فى الآخرة، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة، وذلك يقوى قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين.

وثالثها: التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين، ولكنه لا يهملهم، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه.

ورابعها: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ لأنه كان أميًا. وما طالع كتابًا ولا تتلمذ على أستاذ. فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله - تعالى -»[1].

والآن فلنستمع بتدبر واعتبار إلى السورة الكريمة وهى تحدثنا عن قصة نوح مع قومه فتقول:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٤٥ طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ.

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

تلك هى قصة نوح مع قومه كما وردت فى هذه السورة، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سورة هود، والمؤمنون، ونوح وغيرها.

وقوله : ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ جواب قسم محذوف، أى : والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة.

قال الألوسى : «واطرد استعمال هذه اللام مع قد فى الماضى - على ما قال الزمخشرى - وقل الاكتفاء بها وحدها. والسر فى ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدا للجملة المقسم عليها التى هى جوابها، فكانت مظنة لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه، لأن القسم دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد»(١).

وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا.

وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد. وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة.

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.

قال ابن كثير: قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له»(٢).

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٨ ص ١٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٢.

وقوله : ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ حكاية لما وجهه نوح لقومه من إرشادات، أى : قال لهم بتلطف وأدب تلك الكلمة التى وجهها كل رسول لمن أرسل إليهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له، فإنه هو المستحق للعبادة، أما سواه فلا يملك نفعا أو ضرا.

وكلمة ﴿غيره﴾ قرئت بالحركات الثلاث، بالرفع على أنها صفة لإله باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية. وقرأ الكسائى بالجر باعتبار اللفظ، وقرىء بالنصب على الاستثناء بمعنى، ما لكم من إله إلا إياه.

ثم حكى القرآن أن نوحا حذر قومه من سوء عاقبة التكذيب، وأظهر لهم شفقته بهم وخوفه عليهم فقال : ﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أى : إنى أخاف عليكم إذا ما سرتم فى طريق الكفر والضلال وتركتم عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم، ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه ولتكميل الإنذار.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما موقع الجملتين بعد قوله : ﴿اعبدوا الله﴾ قلت : الأولى - وهى ما لكم من إله غيره - بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية وهى - إنى أخاف . . . إلخ - بيان الداعى إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله. واليوم العظيم : يوم القيامة، أو يوم نزول العذاب بهم وهو الطوفان»[1].

بهذا الأسلوب المقنع المهذب دعا نوح قومه إلى وحدانية الله. فكيف كان ردهم عليه؟

لقد ردوا عليه ردا سقيما حكاه القرآن فى قوله : ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين﴾.

الملأ : الأشراف والسادة من القوم. سموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة. وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء. والملأ : اسم جمع لا واحد له من لفظه : كرهط.

والجملة الكريمة مستأنفة، كأنه قيل فماذا قالوا له؟ فقيل : قال الملأ . . . إلخ والرؤية هنا قلبية ومفعولاها الضمير والظرف، وقيل : بصرية فيكون الظرف فى موضع الحال. أى : قال الأشراف من قوم نوح له عندما دعاهم إلى وحدانية الله : إنا لنراك بأمرك لنا بعبادة الله وحده وترك آلهتنا فى انحراف بين عن طريق الحق والرشاد.

يقال : ضل الطريق يضل وضل عنه ضلالا وضلالة، أى زل عنه فلم يهتد إليه، وجعلوا الضلال ظرفا له ﴿فى ضلال مبين﴾ مبالغة فى وصفهم له بذلك وزادوا فى المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجملة المصدرة بإن ولام التأكيد.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٢٧١.

ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية. وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كقوله - تعالى - : ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾[١].

﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات[٣].

ويرد نوح على قومه بأسلوب عف مهذب، فينفى عن نفسه الضلالة، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول - كما حكى القرآن عنه - :

﴿قال يا قوم ليس بى ضلالة﴾ أى: قال نوح لقومه مستميلا لقلوبهم: يا قوم ليس بى أدنى شىء مما يسمى بالضلال فضلا عن الضلال المبين الذى رميتمونى به، فقد نفى الضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه، لأن التاء فى - ضلالة - للمرة الواحدة منه، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى، والمقام يقتضى ذلك، لأنهم لما بالغوا فى رميه بالضلال المبين، رد عليهم بما يبرئه من أى لون من ألوانه. وفى تقديم الظرف (بى) تعريض بأنهم هم فى ضلال واضح.

ثم قفى على نفى الضلالة عنه بإثبات مقابلها لنفسه وهى الهداية والتبليغ عن الله - تعالى - فقال: ﴿ولكنى رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربى، وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

فأنت ترى أن نوحًا - عليه السلام - بعد أن نفى عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات كريمة:

أولها: قوله: ﴿ولكنى رسول من رب العالمين﴾ أى: لست بمنجاة من الضلال الذى أنتم فيه فحسب، ولكنى فضلا عن ذلك رسول من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر.

قال الجمل: (وقد جاءت لكن هنا أحسن مجىء لأنها بين نقيضين، لأن الإنسان لا يخلو من أحد شيئين: ضلال أو هدى، والرسالة لا تجامع الضلال و ﴿من رب العالمين﴾ صفة لرسول ومن لابتداء الغاية)[٤].

وثانيها: قوله: ﴿أبلغكم رسالات ربى﴾ أى: أبلغكم ما أوحاه الله إلىّ من الأوامر والنواهى، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنذائر، والعبادات والمعاملات.

قال الآلوسى: وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبى واحدة، رعاية لاختلاف أوقاتها أو

(١) سورة المطففين الآية ٢٢.
(٢) سورة الأحقاف الآية ١١.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٢.
(٤) حاشية الجمل جـ ٢ ص ١٥٤.

تنوع معانى ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات - أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس - عليه السلام -)[١] والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير رسالته وتقرير أحكامها.

وثالثها: قوله: ﴿وأنصح لكم﴾ أى: أبلغكم جميع تكاليف الله وأتحرى ما فيه صلاحكم وخيركم فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه.

وأنصح: مأخوذ من النصح - وهو كما قال القرطبى - إخلاص النية من شوائب الفساد، يقال: نصحته ونصحت له نصيحة ونصاحة - أى أرشدته إلى ما فيه صلاحه - ويقال: رجل ناصح الجيب، أى: نقى القلب. والناصح الخالص من العسل وغيره، مثل الناصع. وكل شىء خلص فقد نصح[٢].

والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصح، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها، وأما النصح فمعناه أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه.

وأما الصفة الرابعة فهى قوله: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أى: أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم عن إخلاص، وأعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى أشياء لا علم لكم بها، لأن الله قد خصنى بها.

أو المعنى: وأعلم من قدرة الله الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه، ما لا تعلمونه فأنا أحذركم عن علم، وأنذركم عن بينة ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾.

قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا نصيحًا عالمًا بالله لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا: «أيها الناس، إنكم مسئولون عنى، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم، ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد[٣].

وبعد أن وصف نوح نفسه بتلك الصفات الأربع، وبين لهم وظيفته أكمل بيان أخذ ينكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله بالنبوة فقال:

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٥٢.
(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٢٣٤.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٣.

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم، ولتتقوا، ولعلكم ترحمون﴾ الهمزة فى أول الجملة للاستفهام الإنكارى، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الهمزة.

والمعنى: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى موعظة من ربكم وخالقكم على لسان رجل من جنسكم، تعرفون مولده ونشأته.

ولقد حكى القرآن عن قوم نوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم، قال -تعالى-: ﴿فقال الملأ الذين استكبروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين﴾[1].

وقوله: ﴿لينذركم﴾ علة للمجىء، أى: وليحذركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصى.

وقوله: ﴿ولتتقوا﴾ علة ثانية مرتبة على العلة التى قبلها، أى: ولتوجد منكم التقوى، وهى الخشية من الله بسبب الإنذار.

وقوله: ﴿ولعلكم ترحمون﴾ علة ثالثة مترتبة على التى قبلها. أى: ولترحموا بسبب التقوى إن وجدت منكم.

قال بعض العلماء: وهذا الترتيب فى غاية الحسن، لأن المقصود من الإرسال الإنذار، ومن الإنذار التقوى. ومن التقوى الفوز بالرحمة.

وفائدة حرف الترجى ﴿ولعلكم﴾ التنبيه على عزة المطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هى منوطة بفضل الله، وأن المتقى ينبغى ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله»[2].

وإلى هنا نكون قد عرفنا أسلوب نوح فى دعوته كما جاء فى هذه السورة الكريمة، فماذا كان موقف قومه؟

لقد صرحت السورة الكريمة بأن موقفهم كان قبيحا، ولذا عوقبوا بما يناسب جرمهم قال -تعالى-: ﴿فكذبوه﴾ أى: فكذب قوم نوح نبيهم ومرشدهم نوحا، وأصروا على التكذيب مع أنه دعاهم إلى الهدى ليلا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ومع أنه مكث فيهم «ألف سنة إلا خمسين عاما» كانت نتيجة ذلك - كما حكى القرآن:

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.
(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ١٥٥.

﴿فأنجيناه والذين معه فى الفلك﴾ أى: فأنجيناه من الغرق هو والذين آمنوا معه بأن حملناهم فى السفينة التى صنعها. والفاء فى ﴿فأنجيناه﴾ للسببية.

قيل كان عدد الذين آمنوا معه أربعين رجلا وأربعين امرأة. وقيل غير ذلك. والقرآن قد صرح بأن المؤمنين به كانوا قلة، فقال: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين﴾ عمين: جمع عم صفة مشبهة، يقال: هو عم - كفرح - لأعمى البصيرة.

أى: وأغرقنا بالطوفان أولئك الذين كذبوا بآياتنا من قوم نوح لأنهم كانوا قومًا عمى البصائر عن الحق والإيمان لا تنفع فيهم المواعظ ولم يجد معهم التذكير.

وهذه سنة الله فى خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين، وسوء العذاب للجاحدين.

ثم تحكى لنا السورة بعد ذلك قصة هود -عليه السلام- مع قومه، فيقول الله -تعالى-:

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧)
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾

تلك هى قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكتها سورة الأعراف. وقد وردت - أيضًا - فى سورة أخرى، منها: سورة هود، والشعراء، والأحقاف... إلخ.

وينتهى نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - كما قال بعض المؤرخين. فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[1].

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل.

وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله، فأرسل الله إليهم هودًا لهدايتهم، ويقال بأن هودًا - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى، أما عاد الثانية فهم قوم صالح، وبينهما مائة سنة.

وقوله: ﴿وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ إلخ معطوف على قوله - تعالى -: ﴿لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ والمعنى:

وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودًا فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

ووصفه بأنه أخاهم لأنه من قبيلتهم نسبًا، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية. ثم حكى القرآن أن

---

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ للشيخ عبد الوهاب النجار.

هودًا أنكر على قومه عبادتهم لغير الله، وحضهم على إفراده بالعبادة فقال: ﴿أفلا تتقون﴾ أى: أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه.

قال أبو حيان: وفى قوله: ﴿أفلا تتقون﴾ استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى. ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر فى العالم مثلها قال لهم: ﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم: ﴿أفلا تتقون﴾. والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذى اشتهر خبره فى الدنيا، فقوله: ﴿أفلا تتقون﴾ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة[1]».

وكأنما عظم على هؤلاء الطغاة أن يستنكر عليهم هود - عليه السلام - عبادتهم لغير الله، فردوا عليه ردا قبيحا حكاه القرآن فى قوله:

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه، إنا لنراك فى سفاهة﴾ أى: قال الأغنياء الذين كفروا من قوم هود له: إنه لنراك متمكنا فى خفة العقل، راسخا فيها، حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر. وجعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز، فقد أرادوا أنه متمكن فيها، غير منفك عنها.

وأصل السفه: الخفة والرقة والتحرك والاضطراب، يقال: ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفه، أو كان باليا رقيقًا: تسفهت الريح الشجر: مالت به. وزمام سفيه: كثير الاضطراب لمنازعة الناقة إياه. وشاع السفه فى خفة العقل وضعف الرأى.

ولم يكتفوا بوصفه بالسفه بل أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أى: وإنا لنظنك من الكاذبين فى دعوى التبليغ عن الله تعالى.

وأكدوا ظنهم الآثم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم فى الإساءة إليه. ويرجح بعض العلماء أن الظن هنا على حقيقته، لأنهم لو قالوا وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين، لكانوا كاذبين على أنفسهم فى ذلك، لأنهم يعلمون منه الصدق وحسن السيرة.

ومن بلاغة القرآن وإنصافه فى أحكامه أنه قيد القائلين لهود هذا القول الباطل بأنهم «الملأ الذين كفروا من قومه» ليخرج منهم الملأ - أى الأشراف الذين آمنوا من قومه.

وبعد هذا الرد القبيح منهم، أخذ هود يدافع عن نفسه ويبين لهم وظيفته بأسلوب حكيم فقال: ﴿يا قوم ليس بى سفاهة﴾ أى: ليس بى أى نوع من أنواع السفاهة كما تزعمون ﴿ولكنى رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين﴾.

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٤ ص ١٢٣ لأبى حيان.

فأنت ترى أن هودا فى هذا الرد الحكيم على قومه، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفته وطبيعة رسالته، ثم أخبرهم بعد ذلك بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم - فإن الرائد لا يكذب أهله -، وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عما يسوءهم :

قال صاحب الكشاف : «وفى إجابة الأنبياء - عليهم السلام - على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء، وترك المقابلة بماقالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - فى إجابتهم هذه أدب حسن، وخلق عظيم، وحكاية الله -عز وجل- ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على مايكون منهم»[1].

ونلمس من خلال التعبير القرآنى أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة كما تعجب قوم نوح من قبلهم من ذلك، فأخذ هود - عليه السلام - فى إزالة هذا العجب من نفوسهم، فقال :

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه وحسبه، إن ما عجبتم له ليس موقع عجب، بل هو عين الحكمة فقد اقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم من يرشدهم إلى الطريق القويم و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه لكى يحملهم على شكر الله فقال :

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أى : اذكروا بتأمل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وجحودهم.

قال الآلوسى ما ملخصه : و«إذ» منصوب على المفعولية لقوله : ﴿واذكروا﴾ أى : اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكره، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضرا بتفاصيله. وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : لاتعجبوا وتدبروا فى أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٦.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٥٦.

ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال : ﴿وزادكم فى الخلق بسطة﴾ أى : زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة، أو زادكم بسطة فى قوة أبدانكم وضخامة أجسامكم، ومن حق هذا الإستخلاف وتلك القوة، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين.

وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهى روايات ضعيفة لا يعتد بها، ولذا أضربنا عنها، ويكفينا أن القرآن الكريم قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما فى قوله - تعالى - : ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ وكما فى قوله : ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

ثم كرر هود - عليه السلام - تذكيرهم بنعم الله فقال : ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾. أى : فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك إلا بعبادتكم له وحده - عز وجل -.

وآلاء الله : نعمه الكثيرة. والآلاء جمع إلى كحمل وأحمال. أو ألى، كقفل وأقفال. أو إلى، كمعى وأمعاء.

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد رد على قومه ردًا مقنعًا حكيما، كان المتوقع من ورائه أن يستجيبوا له، وأن يقبلوا على دعوته، ولكنهم لسوء تفكيرهم وانطماس بصيرتهم، أخذتهم العزة بالإثم فماذا قالوا لنبيهم ومرشدهم ؟.

﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين﴾ أى : قالوا له على سبيل الإنكار والاستهزاء : أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام إن هذا لن يكون منا أبدًا فأتنا بما تعدنا به من العذاب ان كنت من الصادقين فيما تخبر به.

وننظر فى هذا الرد من قوم هود فنراه طافحا بالتهور والتحدى والاستهزاء واستعجال العذاب.

حتى لكأن هودا - عليه السلام - يدعوهم إلى منكر لا يطيقون سماعه ولا يصبرون على الجدل فيه !!.

أليس هو يدعوهم إلى وحدانية الله وإفراده بالعبادة وترك ما كان يعبد آباؤهم، وهذا فى زعمهم أمر منكر لا يطيقون الصبر عليه.

وهكذا يستحوذ الشيطان على قلوب بعض الناس وتفكيرهم فيصور لهم الحسنات فى صورة سيئات، والسيئات فى صورة حسنات.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجىء فى قوله : ﴿أجئتنا﴾، قلت فيه أوجه : أن يكون لهود - عليه السلام - مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم. وأن يريدوا به الاستهزاء، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله - تعالى - لا يرسل إلا الملائكة، فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجىء الملك. وأنهم لايريدون حقيقة المجىء. ولكن التعريض بذلك والقصد كما يقال : ذهب يشتمنى ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك »(١).

وقولهم : ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله. إذا استمروا على شركهم، ويدل - أيضا - على تصميمهم على الكفر، واحتقارهم لأمر هود - عليه السلام - واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدى، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبدًا.

وإزاء هذا التحدى السافر من قوم هود له ولدعوته ولوعيد الله لهم، ما كان من هود - عليه السلام - إلا أن جابهم بالرد الحاسم الذى تتجلى فيه الشجاعة التامة، والثقة الكاملة بأن الله سينصره عليهم وينتقم له منهم.

﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أى : قال هود لقومه بعد أن لجوا فى طغيانهم : قد حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد.

والرجس والرجز بمعنى، وأصل معناه الاضطراب يقال : رجست السماء أى : رعدت رعدًا شديدًا، وهم فى مرجوسة من أمرهم أى : فى اختلاط والتباس. ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حل به.

وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه ﴿قد وقع﴾ مبالغة فى تحقيق الوقوع، وأنه أمر لامفر لهم منه.

وعطف الغضب على الرجس، للإشارة إلى ما سينزل بهم من عذاب هو انتقام لا يمكن دفعه، لأنه صادر من الله الذى غضب عليهم بسبب كفرهم، وبعد أن أنذرهم هددهم بوقوع العذاب عليهم، ووبخهم على مجادلتهم إياه بدون علم فقال : ﴿أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم﴾ ؟

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٧.

أى : أتجادلونى وتخاصمونى فى شأن أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شىء، أما هذه الأصنام التى زعمتم أنها آلهة فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

فأنت ترى أن هودًا - عليه السلام - قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئًا وراء الاسم الذى يطلق عليها، وهذا أعمق فى الإنكار عليهم، والاستهزاء بعقولهم.

وقوله : ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أى : ما أنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها أو فى كونها شفعاء لكم عند الله، وإنما هى أصنام باطلة قلدتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير.

ثم هدد بالعاقبة المقررة المحتومة فقال : ﴿فانتظروا إنى معكم من المنتظرين﴾ أى : فانتظروا نزول العذاب الذى استعجلتموه وطلبتموه حين قلتم ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ فإنى معكم من المنتظرين لما سيحل بكم بسبب شرككم وتكذيبكم.

ولم يطل انتظار هود عليهم، فقد حل بهم العقاب الذى توعدهم به سريعا ولذا قال - تعالى - : ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا﴾ الفاء فصيحة. أى : فوقع ما وقع فأنجينا هودا والذين اتبعوه فى عقيدته برحمة عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا.

﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ أى : استأصلناهم عن آخرهم بالريح العقيم التى ﴿ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾.

فقطع الدابر كناية عن الاستئصال والاهلاك للجميع يقال قطع الله دابره أى : أذهب أصله.

وقوله : ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ عطف على ﴿كذبوا﴾ داخل معه حكم الصلة أى : أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرجعوا عن ذلك أصلا.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة نفى الإيمان عنهم فى قوله : ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم - كمرثد بن سعد - ومن نجا مع هود - عليه السلام - كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ليؤذن أن الهلاك للمكذبين ونجى الله المؤمنين»(١).

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق قبل ذلك فى قوم نوح.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٩.

ثم قصت علينا السورة بعد ذلك قصة صالح - عليه السلام - مع قومه فقالت :

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن
رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ
فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ
ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ
مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ
أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

هذه قصة صالح مع قومه كما حكتها سورة الأعراف، وقد وردت هذه القصة فى سور أخر كسور هود والشعراء والنمل والقمر وغيرها.

وصالح - كما قال الحافظ البغوى - هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد ابن حاذر بن ثمود: وينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام -.

وثمود اسم للقبيلة التى منها صالح سميت باسم جدها ثمود، وقيل سميت بذلك لقلة مائها لأن الثمد هو الماء القليل.

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم -، والحجر مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، وموقعه الآن، تقريبًا - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح إلى اليوم، وقد مر النبى ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة.

وقبيلة صالح من قبائل العرب، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام - بعد أن هلكوا فورثوا أرضهم، وآتاهم الله نعما وفيرة، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل إليهم نبيهم صالحا مبشرا ونذيرا.

قال - تعالى - : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾.

أى : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام - فقال لهم الكلمة التى دعا بها كل نبى قومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله سواه، قد جاءتكم معجزة ظاهرة الدلائل، شاهدة بنبوتى وصدقى فيما أبلغه عن ربى.

وقوله : ﴿من ربكم﴾ متعلق بمحذوف صفة لبينة، أى هذه البينة كائنة من ربكم وليست من صنعى فعليكم أن تصدقونى لأنى مبلغ عن الله - تعالى -.

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أى : هذه التى ترونها وأشير إليها ناقة الله، والتى جعلها - سبحانه - علامة لكم على صدقى.

وأضاف الناقة إلى الله للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها. وقيل : لأنه -سبحانه- خلقها على خلاف سنته فى خلق الإبل وصفاتها، وقيل : لأنها لم يكن لها مالك.

وقد ذكر المفسرون عنها قصصًا لا تخلو من ضعف، لذا اكتفينا بما ورد فى شأنها فى القرآن الكريم.

ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوها فقال : ﴿فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾.

أى اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء، لأنكم لوفعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم.

والفاء فى قوله : ﴿فذروها﴾ للتفريع على كونها آية من آيات الله، فيجب إكرامها وعدم التعرض لها بسوء. و﴿تأكل﴾ مجزوم فى جواب الأمر.

وأضيفت الأرض إلى الله - أيضا - قطعا لعذرهم فى التعرض لها، فكأنه يقول لهم، الأرض أرض الله والناقة ناقته، فذروها تأكل فى أرضه لأنها ليست لكم، وليس ما فيها من عشب ونبات من صنعكم، فأى عذر لكم فى التعرض لها؟

وفى نهيهم عن أن يمسوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكراما لها فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى. فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمسها بسوء.

وقوله : ﴿فيأخذكم عذاب عظيم﴾ الفعل المضارع منصوب فى جواب النهى.

وبعد أن بين لهم صالح - عليه السلام - وظيفته، وكشف لهم عن معجزته، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره، أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم. وبمصائر الماضين قبلهم.

فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾.

أى : واذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس، بعد أن أهلكهم الله بسبب طغيانهم وشركهم.

وقوله : ﴿وبوأكم فى الأرض﴾ أى : أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومساكن لكم. يقال : بوأه منزلا، أى : أنزله وهيأه له ومكن له فيه.

والمراد بالأرض : أرض الحجر التى كانوا يسكنونها وهى بين الحجاز والشام، تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا.

السهول : الأراضى السهلة المنبسطة. والجبال : الأماكن المتحجرة المرتفعة.

أى أنزلكم فى أرض الحجر، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة، ودورا عالية، ومن جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها.

يقال : نحته ينحته - كيضربه وينصره ويعلمه - أى : براه وسواه.

قيل إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ولما فيها من الدفء. أما فى غير الشتاء فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل ومن التعبير القرآنى نلمح أثر النعمة والتمكين فى الأرض لقوم صالح، وندرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه، فهو سهل وجبل، يتخذون فى السهل القصور، وينحتون فى الجبال البيوت، فهم فى حضارة عمرانية واضحة المعالم، ولذا نجد صالح - عليه السلام - يكرر عليهم التذكير بشكر النعم فيقول :

﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾.

أى : فاذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم، واشكروه على هذه النعم الجزيلة، وخصوه وحده بالعبادة، ولا تتمادوا فى الفساد حال إفسادكم فى الأرض.

والمقصود النهى عما كانوا عليه من التمادى فى الفساد. مأخوذ من العيث وهو أشد الفساد. يقال : عثى - كرضى - عثوا إذ أفسد أشد الإفساد.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ذكرت لنا جانبا من النصائح التى وجهها صالح لقومه فماذا كان موقفهم منه.

لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعناد عن موقف قوم نوح وقوم هود، وهاك ما حكاه القرآن عنهم :

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾؟

أى : قال المترفون المتكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين الذين هداهم الله إلى الحق : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم لعبادته وحده لا شريك له؟

وهو سؤال قصد المترفون منه تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم، لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحا مرسل من ربه.

ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال بأن يقولوا لهم : نعم أنه مرسل من ربه، وإنما ردوا عليهم بقولهم : ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾، مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإظهارًا للإيمان الذى استقر فى قلوبهم، وتنبيها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام - من الظهور والوضوح حيث لا ينبغى لعاقل أن يسأل عنه، وإنما الشىء الجدير بالسؤال عنه هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم، والامتثال لما يقتضيه العقل السليم.

وهو رد من المؤمنين المستضعفين يدل على شجاعتهم فى الجهر بالحق وعلى قوة إيمانهم، وسلامة يقينهم.

وقوله: ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من ﴿الذين استضعفوا﴾ بإعادة الجار بدل كل من كل، والضمير فى ﴿منهم﴾ يعود على قوم صالح.

وهنا يعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناد، وصلف وجحود، واستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول: ﴿قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾.

أى: قال المستكبرون ردا على المؤمنين الفقراء: إنا بما آمنتم به كافرون، ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون، إظهارا لمخالفتهم إياهم، وردا على مقالتهم ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾.

قال صاحب الانتصاف: ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا، بما أرسل به كافرون ولكنهم أبوا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، فأثبت إرساله تهكما، وليس المقام هنا مقام التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فرد كل فريق على الآخر بما يناسبه»[1].

ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح بفعل أقبح يتجلى فى قوله - تعالى - عنهم: ﴿فعقروا الناقة﴾ أى: نحروها وأصل العقر: قطع عرقوب البعير، ثم استعمل فى النحر، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره.

أى: عقروا الناقة التى جعلها الله حجة لنبيه صالح - عليه السلام - والتى قال لهم صالح فى شأنها: ﴿لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾.

وأسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم، ويقال للقبيلة الكبيرة أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم، لكونه بين أظهرهم.

وقوله: ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أى: استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه. من العتو وهو النبو، أى: الارتفاع عن الطاعة والتكبر عن الحق والغلو فى الباطل. يقال: عتا يعتو عتيا، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار. فهو عات وعتى.

وقد اختار القرآن كلمة ﴿عتوا﴾ لإبراز ما كانوا عليه من تجبر وتبجح وغرور خلال اقترافهم

---

(١) الانتصاف على الكشاف جـ ٨ ص ١٢٣ لابن المنير.

للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقر الناقة، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على ارتكاب المنكر.

ثم لم يكتفوا بكل هذا، بل قالوا لنبيهم فى سفاهة وتطاول: ﴿يا صالح ائتنا، بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾.

نادوه باسمه تهوينا لشأنه، وتعريضا بما يظنون من عجزه؛ وقالوا له على سبيل تعجل العذاب الذى توعدهم به إذا استمروا فى طغيانهم ائتنا بما توعدتنا به إن كنت صادقا فى رسالتك.

ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم واستكبارهم سريعا؛ قال - تعالى - ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾:

الرجفة: الزلزلة الشديدة. يقال: رجفت الأرض ترجف رجفا، إذا اضطربت وزلزلت؛ ومنه الرجفان للاضطراب الشديد.

وجاثمين: من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل، يقال جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره أو لزم مكانه فلم يبرحه.

والمعنى: فأخذت أولئك المستكبرين الرجفة، أى: الزلزلة الشديدة فأهلكتهم، فأصبحوا فى بلادهم أو مساكنهم باركين على الركب، ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون. وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ويتركهم القرآن على هيئتهم جاثمين، ليتحدث عن نبيهم صالح الذى كذبوه فيقول: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾.

أى: فأعرض عنهم نبيهم صالح، ونفض يديه منهم، وتركهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم، وأخذ يقول متحسرًا على ما فاتهم من الإيمان: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى كاملة غير منقوصة، ونصحت لكم بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم».

هذا وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول ﷺ قد مر على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة، فأمر أصحابه أن يدخلوها خاشعين وجلين كراهة أن يصيبهم ما أصاب أهلها، ونهاهم عن أن يشربوا من مائها.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا

القدور باللحم، فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»(١).

وروى الشيخان عن ابن عمر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين. فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوزوا الوادى(٢).

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين، وحلت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها ويستهزئون بها.

ثم حكت لنا السورة بعد ذلك جانبا مما دار بين لوط وقومه فقالت:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

قال ابن كثير: لوط. هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم، وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة الحلبى.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى: باب نزول النبى - ص - الحجر الحديث رقم ٢٨٤ محمد فؤاد عبد الباقى؛ وأخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق حديث ٣٨.

الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم «حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله[١]».

وقوله - تعالى - : ﴿ولوطا﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق أى : وأرسلنا لوطا و ﴿إذ قال لقومه﴾ ظرف لأرسلنا، وجوز أن يكون ﴿لوطا﴾ منصوبا باذكر محذوفا فيكون من عطف القصة على القصة، و ﴿إذ﴾ بدل من لوط بدل اشتمال بناء على أنها لا تلزم الظرفية.

وقوله : ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾.

أى : أتفعلون تلك الفعلة التى بلغت نهاية القبح والفحش، والتى مافعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان فأنتم أول من ابتدعها فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة، والاستفهام، للانكار والتوبيخ قال عمر بن دينار : «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط».

وقال الوليد بن عبدالملك : «لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ماظننت أن ذكرًا يعلو ذكرا» والباء فى ﴿بها﴾ كما قال الزمخشرى - للتعدية، من قولك سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله ومن قوله ﷺ : «سبقك بها عكاشة» و﴿من﴾ فى قوله : ﴿من أحد﴾ لتأكيد النفى وعمومه المستغرق لكل البشر.

والجملة - كما قال أبو السعود - مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح، فأنكر عليهم أولا إتيان الفاحشة، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها».

ثم أضاف لوط إلى إنكاره على قومه إنكارا آخر وتوبيخا أشنع فقال : ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾.

أى : إنكم أيها القوم الممسوخون فى طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله ليأتوا النساء، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة.

والاتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع. من أتى المرأة إذا غشيها.

وفى إيراد لفظ ﴿الرجال﴾ دون الغلمان والمردان ونحوهما، مبالغة فى التوبيخ والتقريع.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٣٠.

قال صاحب الكشاف : و ﴿شهوة﴾ مفعول له، أى للاشتهاء ولا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر. ولاذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه. أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماحة»(١).

وقوله : ﴿من دون النساء﴾ حال من الرجال أو من الواو فى تأتون، أى : تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللائى هن موضع الاشتهاء عند ذوى الطبائع السليمة، والأخلاق المستقيمة.

قال الجمل : وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث، لأن الله - تعالى - خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا، وجعل النساء محلا للشهوة وموضعا للنسل. فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى، لأنه وضع الشىء فى غير محله وموضعه الذى خلق له، لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة للإنسان»(٢).

وقوله : ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ إضراب عن الإنكار إلى الاخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح، وهى أنهم قوم عادتهم الاسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء.

أى : أنتم أيها القوم لستم ممن يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم، لا تقفون عند حد الاعتدال فى عمل من الأعمال.

وقد حكى القرآن أن لوطا - عليه السلام - قال لهم فى سورة العنكبوت : ﴿إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل، وتأتون فى ناديكم المنكر﴾.

وقال لهم فى سورة النمل : ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أى : متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة.

وقال لهم فى سورة النمل : ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ وهو يشمل الجهل الذى هو ضد العلم، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش.

ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل، وانحطاط الخلق، وإيثار الغى والعدوان على الرشاد والتدبر.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٥.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٦٢.

ولقد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم، فقال: ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم﴾.

أى: وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط - عليه السلام - إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطا ومن معه من المؤمنين من قريتكم سدوم التى استوطنتموها وعشتم بها.

وقوله: ﴿إلا أن قالوا﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء، أى: ما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوهم.

لماذا هذا الإخراج؟ بين القرآن أسبابه كما تفوهت به ألسنتهم الخبيثة، واتفقت عليه قلوبهم المنكوسة فقال: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ بهذه الجملة التعليلية.

أى: إن لوطا وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونه مناسبا لهم. يقال: تطهر الرجل، أى: تنزه عن الآثام والقبائح.

وما أعجب العقول عندما تنتكس، والأخلاق عندما ترتكس، إنها تستنكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش، وتعمل على إخراجه، ليبقى لها الملوثون الممسوخون. وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين الذين انحطت طباعهم، وانقلبت موازينهم، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال: وقولهم: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد»[1].

ثم حكت السورة عاقبة الفريقين فقالت: ﴿فأنجيناه وأهله﴾ أى: أنجينا لوطا ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين به.

قالوا: ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال - تعالى -: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾.

وقوله: ﴿إلا امرأته﴾ استثناء من أهله، أى: فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإنا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها.

قال ابن كثير: إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - ليسرى بأهله أمر أن

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ١٢٧.

لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا : ﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أى : «الباقين فى العذاب»(١).

والغابر : الباقى. يقال : غبر الشىء يغبر غبورا، أى «بقى». وقد يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من الأضداد، ومنه قول الأعشى : فى الزمن الغابر. أى : الماضى.

وقوله : ﴿وأمطرنا عليهم مطرًا﴾ أى : وأرسلنا على قوم لوط نوعا من المطر عجيبا أمره، وقد بينه الله فى آية أخرى بقوله : ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾(٢).

أى : جازيناهم بالعقوبة التى تناسب شناعة جرمهم فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء، أهلكناهم بالعقوبة التى قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من طين متجمد.

ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال - تعالى - : ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾.

أى : فانظر أيها العاقل نظرة تدبر واتعاظ فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يصيبك ما أصابهم وسر فى الطريق المستقيم لتنال السعادة فى الدنيا والآخرة.

هذا، وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس.

قال : قال رسول الله ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط. فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم، سواء أكان محصنا أو غير محصن(٣).

ثم قصت علينا سورة الأعراف بعد ذلك قصة شعيب مع قومه، فقالت :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣١..
(٢) سورة الحجر الآية ٧٤.
(٣) راجع تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٨٠٧ وما بعدها. وتفسير الآلوسى جـ ٧ ص ١٧٢ وما بعدها.

وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن
رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ
إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ
مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ
فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

وقوله : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا. ومدين اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى معان بين حدود الحجاز والشام، وهم أصحاب الأيكة - والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية معان، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا.

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم فى النسب وكان النبى ﷺ إذا ذكر شعيب قال : «ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه، وقوة حجته.

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان فدعاهم إلى توحيد الله - تعالى - ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق.

وعن السدى وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة،

وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة، وأنه لم يبعث نبى مرتين إلا شعيب - عليه السلام -.

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة فأهل مدين هم أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أى السحابة -، وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر.

وبعد أن دعاهم إلى وحدانية الله شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم قال لهم: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ أى: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى توجب عليكم الإيمان بى والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾، ولأنه لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر معجزات نبينا ﷺ فيه[1].

ثم أخذ فى نهيهم عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم فقال - كما حكى القرآن عنه -:

﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ الكيل والميزان مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن به، كالعيش بمعنى ما يعاش به. أو المكيل والموزون.

أى: فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أى: ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات.

يقال: بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه. وظلمه فيه «وتبخسوا» تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثانى أشياءهم.

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

قال الآلوسى: وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقا فإنهم كانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه. وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم. قيل ويدخل فى ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ما هو عليه للسائل عنه. وكثير ممن ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٧.

البخس، وليتهم قنعوا به بل جمعوا «حشفا وسوء كيلة» فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

ثم نهاهم عن الافساد بوجه عام فقال: ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ أى: لا تفسدوا فى الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغى، وكفر وعصيان، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون الذين يعدلون فى معاملاتهم ويلتزمون الحق فى كل تصرفاتهم.

ثم ختمت الآية بتلك الجملة الكريمة التى استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان فى نفوس قومه حيث قال لهم: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

أى: ذلكم الذى آمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم.

فاسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الافساد فى الأرض.

ثم انتقل شعيب إلى نهيهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ توعدون: من التوعد بمعنى التخويف والتهديد. أى: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل، وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون بى وأنا نبيكم التهم التى أنا برىء منها، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتى: إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم.

وقوله: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به، وتبغونها عوجا﴾ أى: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد ما يكون عن شائبه الاعوجاج.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: صراط الحق واحد ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ فكيف قيل: بكل صراط؟ قلت: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحدًا يشرع فى شىء منها أوعدوه وصدوه فإن قلت: إلام يرجع الضمير فى ﴿آمن به﴾؟ قلت: إلى كل صراط، والتقدير: توعدون من آمن به وتصدون عنه. فوضع الظاهر الذى هو سبيل الله موضع الضمير زيادة فى تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدون عنه[2].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٧٧.

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٨.

وقوله: توعدون. وتصدون، وتبغون هذه الجمل أحوال، أى: لا تقعدوا موعدين وصادين، وباغين، ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب، ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ أى: اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد، وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة ثم اتبع هذا التذكير بالنعم بالتخويف من عواقب الافساد فقال: ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أى: انظروا نظر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية، والقرون الماضية، كقوم لوط وقوم صالح، فسترون أنهم قد دمروا تدميرًا بسبب إفسادهم فى الأرض، وتكذيبهم لرسلهم ﴿فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار.

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر، وأن يتركوا أتباعه أحرارًا فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين، فقال: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به، وطائفة لم يؤمنوا، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾.

أى: إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل أصر على شركه وعناده، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل، الذى يتجلى فى نصرة المؤمنين، وإهلاك الظالمين، وهو - سبحانه - خير الحاكمين.

قال صاحب الكشاف: وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم، كقوله: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ أو هو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم. ويجوز أن يكون خطابا للفريقين. أى: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب[1]».

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكت لنا جانبا من الحجج الناصعة، والنصائح الحكيمة، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب - خطيب الأنبياء - إلى قومه.

وارجع البصر - أيها القارئ الكريم - فى هذه النصائح ترى شعيبا - عليه السلام - يأمر قومه بوحدانية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٨.

كانت متفشية فيهم، فيأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان، وينهاهم عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض، وعن القعود فى الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق، بإلقاء الشبهات، وإشاعة الأباطيل. مستعملا فى وعظه التذكير بنعم الله تارة. وبنقمه من المكذبين تارة أخرى.

ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلا حسنا، وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول:

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

أى: قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له ردًا على مواعظه لهم: والله لنخرجنك

يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم، ودفعا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها. فعليك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين: الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا.

هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب.

وجملة ﴿قال الملأ﴾ إلخ. مستأنفة استئنافا بيانيا، كأنه قيل: فماذا كان رد قوم شعيب على نصائحه لهم؟ فكان الجواب: قال الملأ... إلخ.

وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للمبالغة فى إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ ما يريدونه منه ومن أتباعه.

ونسبوا الاخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا، للتنبيه على أصالته فى ذلك، وأن الذين معه إنما هم تبع له، فإذا ما خرج هو كان خروج غيره أسهل.

وجملة: ﴿أو لتعودن فى ملتنا﴾ معطوفة على جملة ﴿لنخرجنك﴾ وهى -أى جملة ﴿أو لتعودن فى ملتنا﴾ المقصود الأعظم عندهم، فهؤلاء المستكبرون يهمهم فى المقام الأول أن يعود من فارق ملتهم وديانتهم إليها ثانية.

والتعبير بقولهم: ﴿أو لتعودن فى ملتنا﴾ يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها، وهذا محال بالنسبة لشعيب -عليه السلام- فإن الأنبياء معصومون -حتى قبل النبوة- عن ارتكاب الكبائر فضلا عن الشرك.

وقد أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ما قالوا من باب التغليب، لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيبا، قالوا لهم: إما أن تخرجوا مع نبيكم الذى اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى ملتنا التى سبق أن كنتم فيها، فأدرجوا شعيبا معهم فى الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا، هذا هو الجواب الذى ارتضاه كثير من العلماء وعلى رأسهم صاحب الكشاف، فقد قال: فإن قلت: كيف خاطبوا شعيبا عليه السلام - بالعود فى الكفر فى قولهم: ﴿أو لتعودن فى ملتنا﴾ وكيف أجابهم بقوله: ﴿إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ والأنبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلا عن الكبائر، فضلا عن الكفر؟ قلت: قالوا: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ فعطفوا على ضميره الذين دخلوا فى الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلب الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعًا، إجراء للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب - عليه السلام - جوابه فقال:

﴿إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ وهو يريد عودة قومه، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب(١).

هذا هو الجواب الذى اختاره الزمخشرى وتبعه فيه بعض العلماء، وهناك أجوبة أخرى ذكرها المفسرون ومنها:

١ - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان فى ملتهم، لسكوته قبل البعثة عن الانكار عليهم.

٢ - أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسا على الناس وإيهامًا لهم بأنه كان على دينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على طريق المشاكلة.

٣ - أن قولهم: ﴿أو لتعودون فى ملتنا﴾ بمعنى: أو لتصيرن، إذ كثيرًا ما يرد «عاد» بمعنى «صار» فيعمل عمل كان. ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو الانتقال من حال سابقة إلى حال مؤتنفة، وكأنهم قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفارًا مثلنا».

قال الإمام الرازى: تقول العرب: قد عاد إلى فلان مكره، يريدون: قد صار منه المكر ابتداء.

وقال صاحب الانتصاف: إنه يسلم استعمال «العود» بمعنى الرجوع إلى أمر سابق، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله - تعالى -: ﴿والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾. والاخراج يستدعى دخولا سابقا فيما وقع الاخراج منه. ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الإيمان لم يدخل قط فى ظلمة الكفر، ولا كان فيها. وكذلك الكافر الأصلى، لم يدخل قط فى نور الإيمان ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التى خلق الله العبد متيسرًا لكل واحد منهما متمكنا منه لو أراده، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله إلى الإيمان، إخبارًا بالاخراج من الظلمات إلى النور توفيقا من الله له، ولطفا به، وبالعكس فى حق الكافر وفائدة اختياره فى هذه المواضع، تحقيق التمكن والاختيار؛ لإقامة حجة الله على عباده»(٢).

هذه بعض الأجوبة التى أجاب بها العلماء على قول قوم شعيب ﴿أو لتعودن فى ملتنا﴾ ولعل أرجحها هو الرأى الذى اختاره صاحب الكشاف «لبعده عن التكلف، واتساقه مع رد شعيب عليهم». فقد قال لهم:

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٩.
(٢) الانتصاف على الكشاف جـ ٢ ص ١٢٩.

﴿أو لو كنا كارهين﴾. أى: أتجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها، لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة والأخلاق المستقيمة. لا. لن نعود إليها بأى حال من الأحوال. فالهمزة لانكار الوقوع ونفيه، والتعجيب من أحوالهم الغريبة حيث جهلوا أن الدخول فى العقائد اختيارى محض ولا ينفع فيه الاجبار أو الاكراه.

ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم فقال: ﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾.

أى: قد اختلقنا على الله - تعالى - أشنع أنواع الكذب إن عدنا فى ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهدايتنا إلى الدين الحق وتنزيهنا عن الاشراك به - سبحانه -.

قال صاحب المنار: وهذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين بالرفض والكراهية، وهو إنشاء فى صورة الخبر. فإما أن يكون تأكيدًا قسميا لرفض دعوة الملأ إياهم إلى العودة فى ملتهم، كما يقول القائل: برئت من الذمة إن فعلت كذا، فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه فى التوكيد وإما أن يكون تعجبا خرج لا على مقتضى الظاهر، وأكد بقد والفعل الماضى، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله - تعالى - إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا إلى صراطه المستقيم»(١).

ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما﴾ أى ما يصح لنا ولا يتأتى منا أن نعود فى ملتكم الباطلة فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مشيئة الله - المتصرف فى جميع الشئون - عودتنا إليها، فهو وحده القادر على ذلك ولا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن، لأننا موقنون بأن ملتكم باطلة وملتنا هى الحق والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره وإنما ذلك بيد مقلب القلوب، الذى وسع علمه كل شىء.

وهذا اللون من الأدب العالى، حكاه القرآن عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم، فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبدًا، مع ذلك هو يفوض الأمر إلى الله تأدبًا معه، فلا يجزم بمشيئته هو، بل يترك الأمر لله، فقد يكون فى علمه سبحانه ما يخفى على البشر، مما تقتضيه حكمته وإرادته.

قال صاحب الإنتصاف: «وموقع قوله: ﴿وسع ربنا كل شىء علما﴾ الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة، فإن العود إلى الكفر جائز فى قدرة الله أن يقع من العبد: ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه. فالحذر قائم، والخوف لازم، ونظيره

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥.

قول إبراهيم - عليه السلام - «ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون»، لما رد الأمر إلى المشيئة وهى مغيبة، مجد الله - تعالى - بالانفراد بعلم الغائبات»[1].

ثم يترك شعيب - عليه السلام - قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول: ﴿على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾.

أى: على الله وحده وكلنا أمرنا، فهو الذى يكفينا أمر تهديدكم ووعيدكم، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ربنا احكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين، لخلو حكمك عن الجور والحيف.

فقوله: ﴿على الله توكلنا﴾ إظهار للعجز من جانب شعيب، وأنه فى مواجهته لأولئك المستكبرين لا يعتمد إلا على الله وحده، ولا يأوى إلا إلى ركنه المكين، وحصنه الحصين. والجملة الكريمة تفيد الحصر لتقديم المعمول فيها.

وقوله: ﴿ربنا افتح بيننا﴾ إعراض عن مجادلتهم ومفاوضتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفههم، وإقبال على الله - تعالى - بالتضرع والدعاء.

والفتح: أصله إزالة الأغلاق عن الشيء، واستعمل فى الحكم، لما فيه من إزالة الاشكال فى الأمر. ومنه قيل للحاكم: فاتح وفتاح لفتحه أغلاق الحق، وقيل للحكومة: الفتاحة - بضم الفاء وكسرها.

أخرج البيهقى عن ابن عباس قال: ما كنت أدرى قوله - تعالى -: ﴿ربنا افتح﴾ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينها وبينه كلام: تعال أفاتحك، تريد أقاضيك وأحاكمك.

وقوله: ﴿بالحق﴾ بهذا القيد إظهارا للنصفة والعدالة.

والخلاصة أنك إذا تأملت فى رد شعيب - عليه السلام - على ما قاله المستكبرون من قومه، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان، فهو يرد على وعيدهم وتهديدهم بالرفض التام لما يبغون، والبغض السافر لما يريدونه منه، ثم يكل الأمور كلها إلى الله، مظهرا الاعتماد عليه وحده، ثم يتجه إليه - سبحانه - بالدعاء متلمسا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحقين والمبطلين.

وهنا نلمح أن الملأ من قوم شعيب قد يئسوا من استمالة شعيب وأتباعه إلى ملتهم، فأخذوا

(١) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ ٢ ص ١٣٠.

يحذرون الناس من السير فى طريقه، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه، لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذًا لخاسرون﴾.

أى: قال الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم: ﴿لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ لشرفكم ومجدكم، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم، وخاسرون لثروتكم وربحكم المادى. لأن اتباعكم له سيحول بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم.

وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب، وتثبيطهم عن الإيمان به، وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة، وتقاليدهم البالية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فهم لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم، بل عملوا على إضلال غيرهم. وقولهم هذا معطوف على قوله - تعالى - فيما سبق: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾. وليس ردًا على شعيب، لأنه لو كان كذلك لجاء مفصولا بدون عطف، وقد أكدوا قولهم بعدة مؤكدات منها اللام الموطئة للقسم، والجملة الاسمية المصدرة بإن. وذلك لكى يخدعوا السامعين بأنهم ما يريدون إلا خيرهم وعدم خسرانهم.

وحذف متعلق الخسران ليعم كل أنواعه الدينية والدنيوية.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أين جواب القسم الذى وطأته اللام فى قوله: ﴿لئن اتبعتم﴾ وجواب الشرط؟ قلت: قوله: ﴿إنكم إذًا لخاسرون﴾ ساد مسد الجوابين»[1].

وبعد هذه المحاورات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه، جاءت الخاتمة التى حكاها القرآن فى قوله: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾. أى: فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا فى دارهم هامدين صرعى لا حراك بهم.

قال ابن كثير ما ملخصه: أخبر - سبحانه - هنا بأنهم أخذتهم الرجفة، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم فى سورة هود بأنهم أخذتهم الصيحة، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به فى قولهم: ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك﴾ فجاءت الصيحة فأسكتتهم. وقال فى سورة الشعراء: ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة ﴿فأسقط علينا كسفًا من السماء﴾ فأخبر - سبحانه - أنهم أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة. وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٣١.

شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام»[١].

ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم: إن من يتبع شعيبا خاسر، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خالفوه وكذبوه، فيقول: ﴿الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾.

أى: الذين كذبوا شعيبا وتطاولوا عليه وهددوه وأتباعه بالاخراج من قريتهم، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا فى ديارهم ناعمى البال، يظلهم العيش الرغيد، والغنى الظاهر.

يقال: غنى بالمكان يغنى، أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد.

والجملة الكريمة استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ فكأن سائلا، قال: فكيف كان مصيرهم؟ فكان الجواب: الذين هددوا شعيبا ومن معه وأنذروهم بالاخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لكأنهم لم يقيموا بها، ولم يعيشوا فيها مطلقا، لأنه متى انقضى الشىء صار كأنه لم يكن.

والاسم الموصول ﴿الذين﴾ مبتدأ، وخبره جملة ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾.

ثم أعاد القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير، وللإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين فقال: ﴿الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين﴾.

أى: الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا ودنيويا، وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون.

وبهذا القدر اكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا، وقد صرح بإنجائه فى سورة هود فقال: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه﴾.

قال صاحب الكشاف: وفى هذا الاستئناف والابتداء، وهذا التكرير، مبالغة فى رد مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم».

وأخيرًا تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشيعة إياهم بالتبكيت والاهمال من رسولهم وأخيهم فى النسب فتقول: ﴿فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾.

الأسى: الحزن. وحقيقته اتباع الفائت بالغم. يقال: أسيت عليه - أسًا، أى: حزنت عليه.

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٢.

والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النقمة والعذاب وقال مقرعا إياهم يا قوم: ﴿لقد أبلغتكم رسالات ربى﴾ التى أرسلنى بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ ﴿ونصحت لكم﴾ بما فيه إصلاحكم وهدايتكم «فكيف أحزن على قوم كافرين» بذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم، ولكنهم كرهوا النصح، واستحبوا العمى على الهدى.

لا، لن آسى عليهم. ولن أحزن من أجل هلاكهم، لأنهم لا يستحقون ذلك.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصص نوح وهود، وصالح، ولوط، وشعيب مع أقوامهم. بعد أن بدأت بقصة آدم وإبليس وسنراها بعد قليل تحدثنا حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل.

ويلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت فى حديثها عن هؤلاء الرسل الكرام التسلسل التاريخى، وذلك لأهداف من أهمها:

١ - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا، فأنت رأيت أن كل رسول أتى قومه ليقول لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، يقولها ثم يسوق لهم بأسلوبه الخاص أنصع الدلائل، وأقوى الحجج، وخير البراهين ومختلف وجوه الارشاد، لكى يقنعهم بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

٢ - تصوير وحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعة الكفر فى نفوس الناس على مدار التاريخ، فالمؤمنون يلتفون حول رسولهم يصدقون قوله، ويتأسون به فى كل أحواله ويدافعون عن عقيدتهم بقوة وشجاعة، والكافرون يستكبرون أن يرسل الله رسولا من البشر، ويأبون بدافع الحقد والعناد والتطاول الاستجابة لرجل منهم، ويلقون التهم جزافا لكى يصرفوا الناس عنه.

وهكذا نرى أن نفوس المؤمنين تتشابه فى إخلاصها ونقائها وصفائها وحسن تقبلها للخير. بينما نفوس الكافرين تتشابه -أيضًا- فى ظلامها وقسوتها وفجورها وسوء تقبلها للهداية.

٣ - بيان العاقبة الطيبة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصبرهم وعملهم الطيب، والعاقبة السيئة التى حاقت بالكافرين المستكبرين، بسبب إعراضهم عن الحق، واستهزائهم بأصحابه، ﴿فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وبعد هذا الحديث الزاخر بالعظات والعبر عن بعض الأنبياء مع أقوامهم تمضى السورة الكريمة فى سرد هداياتها، فتسوق للناس ألوانا من سنن الله التى لا تتغير ولا تتبدل، لعل قلوبهم

ترق، ونفوسهم تتذكر، وعقولهم تعى.

وكأن السورة الكريمة تقول للناس: لقد سقت لكم الكثير من أخبار الماضين. وقصصت عليكم ما فيه الذكر لكل قلب سليم من أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم، وأريتكم كيف كانت عاقبة الأخيار، وكيف كانت عاقبة الأشرار، فاجتهدوا فى طاعة الله، وسيروا فى طريق الأخيار لتسعدوا كما سعدوا. واجتنبوا سبيل الأشرار حتى لا يصيبكم ما أصابهم، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه يمهل ولا يهمل، وأن يبتلى الناس بالسراء والضراء لعلهم يضرعون، وأن يفتح أبواب خيراته وبركاته لمن آمن به واتقاه، وأبواب عقوباته لمن كفر به وعصاه.

واستمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذه المعانى وغيرها بأسلوبها الحكيم فتقول:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِى قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ
أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا
ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ
مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

هذه هى الآيات التى جاءت فى السورة الكريمة بعد حديثها المتنوع عن بعض الأنبياء مع أقوامهم، وقبل حديثها المستفيض - الذى سنراه بعد قليل عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل.

وقد بدئت بقوله - تعالى - : ﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ البأساء : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر. والضراء : ما يضر الإنسان فى بدنه أو معيشته كالمرض والمصائب.

والمعنى : ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد شأن الرسل السابقين مع أقوامهم الهالكين وقد جرت سنتنا أننا ما أرسلنا فى قرية من نبى كذبه أهلها إلا أخذناهم وأنزلنا بهم قبل إهلاكنا لهم ألوانا من الشدائد والمصائب لعلهم ينقادون لأمر الله، ويثوبون إلى رشدهم، ويكثرون من التضرع إليه والاستجابة لهديه.

فالآية الكريمة إشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم، إثر بيان أحوال الأمم التى سبق الحديث عنها وهى أمة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم السلام - .

والمقصود منها التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم، لينزجروا عن الضلال والعناد، ويستجيبوا لله ولرسوله.

وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين بعث إليهم، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام.

وقوله : ﴿من نبى﴾ فيه حذف وإضمار والتقدير : من نبى كذبه قومه أو أهل القرية لأن قوله : ﴿إلا أخذنا أهلها﴾ لا يترتب على الارسال، وإنما يترتب على التكذيب والعصيان. و ﴿من﴾ لتأكيد النفى.

والاستثناء فى قوله : ﴿إلا أخذنا أهلها﴾ مفرغ من أعم الأحوال، و﴿أخذنا﴾ فى موضع نصب على الحال من فاعل ﴿أرسلنا﴾ أى : وما أرسلنا -فى قرية من القرى المهلكة بسبب ذنوبها- نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال إلا حال كوننا آخذين أهلها بالبأساء والضراء. قبل إنزال العقوبة المستأصلة لهم.

وجملة ﴿لعلهم يضرعون﴾ تعليلية. أى : فعلنا ما فعلنا لكى يتضرعوا ويتذللوا ويتوبوا من ذنوبهم.

فما يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ليس من أجل التسلية والتشفى - تعالى الله عن ذلك - وإنما من أجل أن ترق القلوب الجامدة، وتتعظ المشاعر الخامدة، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم، يتضرعون إليه ويستغفرونه، عما فرط منهم من خطايا.

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان ابتلائه للناس فقال : ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ المراد بالسيئة ما يسوء ويحزن كالشدائد والأمراض. وبالحسنة السعة والصحة وأنواع الخيرات.

أى : ثم بعد أن ابتلينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء رفعنا ذلك عنهم، وابتليناهم بضده، بأن أعطيناهم بدل المصائب نعما، فإذا الرخاء ينزل بهم مكان الشدة، واليسر مكان الحرج، والعافية بدل الضر، والذرية بدل العقم. والكثرة بدل القلة، والأمن محل الخوف.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ثم بدلنا﴾ معطوف على ﴿أخذنا﴾ داخل فى حكمه، وهو - أى بدلنا - متضمن معنى أعطى الناصب لمفعولين وهما هنا الضمير المحذوف والحسنة أى : أعطيناهم الحسنة فى مكان السيئة ومعنى كونها فى مكانها أنها بدل منها.

ويرى بعض العلماء أن لفظ ﴿مكان﴾ مفعول به لبدلنا وليس ظرفا، والمعنى بدلنا مكان الحال السيئة الحال الحسنة، فالحسنة هى المأخوذة الحاصلة فى مكان السيئة المتروكة[1].

وقوله : ﴿حتى عفوا﴾ أى : كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم. يقال : عفا النبات، وعفا الشحم إذا كثر وتكاثف. وأعفيته. أى : تركته يعفو ويكثر، ومنه قوله ﷺ : «وأعفوا اللحى» أى : وفروها وكثروها.

فماذا كان موقفهم من ابتلاء الله إياهم بالشدائد تارة وبالنعم أخرى؟ لقد كان موقفهم يدل على فساد فطرتهم، وانحطاط نفوسهم، وعدم اتعاظهم بما تجرى به الأقدار، وبما بين أيديهم من

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٩.

سراء وضراء تحمل كل عاقل على التفكير والاعتبار.

استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم فيقول: ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾.

أى: أنهم حينما رأوا ألوان الخيرات بين أيديهم بعد أن كانوا فى بأساء وضراء، لم يعتبروا ولم يشكروا الله على نعمه، بل قالوا بغباء وجهل. قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر، وتناوبهم ما ينفع وما يضر، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم، وقد أخذنا دورنا من الضراء كما أخذوا، وجاء دورنا فى السراء فلنغنمها فى إرواء شهواتنا. وإشباع متعنا، فتلك عادة الزمان فى أبنائه ولا داعى لأن ننظر إلى السراء والضراء على أنهما نوع من الابتلاء والاختبار.

وهذا شأن الغافلين الجاهلين فى كل زمان ومكان، إنهم لا يعتبرون بأى لون من ألوان العبر، ولا يستشعرون فى أنفسهم تحرجا من شىء يعملونه.

وإن قولهم هذا ليوحى بحالة نفسية خاصة «حالة عدم المبالاة والاستهتار» وهى حالة أكثر ما تكون مشاهدة فى أهل الرخاء والجاه. فهم يسرفون ويبذرون بدون تحرج، ويرتكبون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون اكتراث، وتغشاهم العبر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومع كل ذلك لا يعتبرون ولا يتعظون.

هذا شأنهم، أما المؤمنون فإنهم ليسوا كذلك، وإنما هم كما وصفهم رسول الله ﷺ فى قوله: «عجبا لأمر المؤمن: إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

ولم يترك القدر أولئك الغافلين بدون قصاص، وإنما فاجأهم بالعقوبة التى تناسبهم، قال - تعالى -: ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أى: فكان عاقبة بطرهم وأشرهم وغفلتهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة، من غير شعور منهم بذلك، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم، لأنهم كانوا - لغبائهم - يظنون أنهم سيعيشون حياتهم فى نعم الحياة ورغدها بدون محاسبة لهم على أعمالهم القبيحة، وأقوالهم الذميمة.

فالجملة الكريمة تشير إلى أن أخذهم بالعقوبة كان أليما شديدا، لأنهم فوجئوا بها مفاجأة بدون مقدمات. وجملة ﴿وهم لا يشعرون﴾ حال من المفعول به فى ﴿أخذناهم﴾ مؤكدة لمعنى البغتة.

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد جرت بفتح أبواب خيراته للمحسنين، وبإنزال نقمه على المكذبين الضالين فقال: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

البركات : جمع بركة : وهى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء، وسمى بذلك لثبوت الخير فيه كما يثبت الماء فى البركة.

قال الراغب: ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة»[1].

والمعنى: ولو أن أهل تلك القرى المهلكة آمنوا بما جاء به الرسل. واتقوا ما حرمه الله عليهم، لآتيناهم بالخير من كل وجه. ولوسعنا عليه الرزق سعة عظيمة، ولعاشوا حياتهم عيشة رغدة لا يشوبها كدر، ولا يخالطها خوف.

وفى قوله : ﴿فتحنا﴾ استعارة تبعيه، لأنه شبه تيسير البركات وتوسعتها عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول.

وقيل : المراد بالبركات السماوية المطر، وبالبركات الأرضية النبات والثمار وجميع ما فيها من خيرات.

وقوله : ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ بيان لموقفهم الجحودى.

أى : ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم فكانت نتيجة تكذيبهم وتماديهم فى الضلال أن عاقبناهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم واكتسابهم للمعاصى، فتلك هى سنتنا التى لا تتخلف، نفتح للمؤمنين المتقين أبواب الخيرات، وننتقم من المكذبين الضالين بفنون العقوبات.

وقد يقال : إننا ننظر فنرى كثيرا من الكافرين والعصاة مفتوحا عليهم فى الرزق والقوة والنفوذ وألوان الخير، وترى كثيرا من المؤمنين مضيقًا عليهم فى الرزق وفى غيره من وجوه النعم، فأين هذا من سنة الله التى حكتها الآية الكريمة؟

والجواب على ذلك أن الكافرين والعصاة قد يبسط لهم فى الأرزاق وفى ألوان الخيرات بسطا كبيرًا، ولكن هذا على سبيل الاستدراج كما فى قوله - تعالى - : ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾.

ومما لا شك فيه أن الابتلاء بالنعمة الذى مر ذكره فى الآية السابقة ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾ لا يقل خطرًا عن الابتلاء بالشدة. فقد ابتلى الله كثيرًا من الناس بألوان النعم فأشروا وبطروا ولم يشكروه عليها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٤ للراغب الأصفهانى.

وشتان بين نعم تساق لإنسان على سبيل الاستدراج فى الشرور والآثام فتكون نقمة على صاحبها لأنه يعاقب عقابا شديدًا بسبب سوء استعمالها، وبين النعم التى وعد بها من يؤمنون ويتقون. إنها نعم مصونة عن المحق والسلب والخوف، لأن أصحابها شكروا الله عليها. واستعملوها فيما خلقت له، فكانت النتيجة أن زادهم الله غنى على غناهم، وأن منحهم الأمان والاطمئنان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم يتجه القرآن إلى الغافلين، ليوقظ فيهم مشاعر الخوف من بأس الله وعقابه فيقول: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون﴾.

البيات: قصد العدو ليلا. يقال: بيت القوم بياتا، إذا أوقعوا به ليلا، وهو حال بمعنى بائتين.

والاستفهام للانكار والتعجيب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل، والمراد بأهل القرى: أهل مكة وغيرهم من القرى التى بعث إليها الرسول ﷺ.

وقيل المراد بهم الأمة المحمدية من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما أنزل بغيرها كما يرشد إليه قوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾.

وقيل المراد بهم من ذكر حالهم فيما تقدم من القرى المهلكة بسبب ذنوبها.

قال الجمل: والفاء للعطف على ﴿أخذناهم بغتة﴾ وما بينهما وهو قوله: ﴿ولو أن أهل القرى﴾ إلى هنا اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه جىء به للمسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور إنما هو بما كسبت أيديهم. والمعنى: أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون[1]؟

فالآية الكريمة تحذر الناس من الغفلة عن طاعة الله، وتحثهم على التيقظ والاعتبار: وقوله: ﴿أو أمن أهل القرى﴾ إنكار بعد إنكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ أى: أن يأتيهم عقابنا فى ضحوة النهار وانبساط الشمس، وهم لاهون لاعبون من فرط الغفلة.

فقد خوفهم - سبحانه - بنزول العذاب بهم فى الوقت الذى يكونون فيه فى غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل، وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذى يغلب على المرء التشاغل فيه باللذات.

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص ١٦٨.

وقوله : ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ تكرير لمجموع الإنكارين السابقين، جمعا بين التفريق قصدا إلى زيادة التحذير والإنذار.

والمكر فى الأصل الخداع، ويطلق على الستر يقال : مكر الليل أى : ستر بظلمته ما هو فيه، وإذا نسب إليه - سبحانه - فالمراد به استدراجه للعبد العاصى حتى يهلكه فى غفلته تشبيها لذلك بالخداع.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم رجع فعطف بالفاء قوله : ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ ؟

قلت : هو تكرير لقوله : ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ومكر الله : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون فى خوفه من مكر الله كالمحارب الذى يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة. وعن الربيع بن خثعم أن ابنته قالت له : مالى أراك لا تنام والناس ينامون؟ فقال : يا بنتاه إن إباك يخاف البيات. أراد قوله : ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتا﴾[1].

والمعنى : أفأمنوا مكر الله وتدبيره الخفى الذى لا يعلمه البشر فغفلوا عن قدرتنا على إنزال العذاب بهم بياتًا أو ضحوة؟ لئن كانوا كذلك فهم بلا ريب عن الصراط لناكبون، وعن سنن الله فى خلقه غافلون، فإنه ﴿لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ أى : إلا القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم، ولم يستفيدوا شيئا من أنواع العبر والعظات التى بثها الله فى أنحاء هذا الكون.

هذا، ويرى الإمام الشافعى وأتباعه أن الأمن من مكر الله كبيرة من الكبائر، لأنه استرسال فى المعاصى اتكالا على عفو الله.

وقال الحنفية إن الأمن من مكر الله كفر كاليأس، لقوله - تعالى - : ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ وقوله : ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

ثم بين - سبحانه - أن من الواجب على الأحياء الذين يرثون الأرض من أهلها الذاهبين المهلكين، الذين أهلكتهم ذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم، وعوقبوا على استهتارهم وغرورهم من الواجب على هؤلاء الأحياء أن يعتبروا ويتعظوا ويحسنوا القول والعمل حتى ينجوا من العقوبات.

قال - تعالى - : ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٤.

الاستفهام للانكار والتوبيخ. ويهد: أى يتبين، يقال: هداه السبيل أو الشىء وهداه إليه، إذا دله عليه وبينه له.

أى: أو لم يتبين لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التى ورثوها بعد أهلها المهلكين، أننا فى قدرتنا أن ننزل بهم العذاب بسبب ذنوبهم كما أنزلناه بأولئك المهلكين.

والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها، أهل مكة ومن حولها الذين أرسل النبى ﷺ لهدايتهم. وقيل المراد بهم الأحياء فى كل زمان ومكان الذين يخلفون من سبقهم من الأمم.

قال الجمل: وفاعل ﴿يهد﴾ فيه وجوه أظهرها: أنه المصدر المؤول من أن وما فى حيزها والمفعول محذوف. والتقدير: أو لم يهد أى يبين ويوضح للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك»[1].

وقوله: ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ جملة مستأنفة لإثبات حصول الطبع على قلوبهم.

أى: ونحن نطبع على قلوبهم ونختم عليها، بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان، فهم لذلك لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ.

والذى يتأمل فى الآيات السابقة يراها تحذر الناس بأساليب متنوعة حكيمة من الغفلة عن العظات والعبر، وتحضهم على التخلص من الأمن الكاذب، والشهوات المردية. والمتع الزائلة.

وما يريد القرآن بهذا أن يعيش الناس قلقين، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم فى لحظة من ليل أو نهار.

كلا، ما يريد منهم ذلك لأن القلق الدائم من المستقبل، يشل طاقة البشر، وقد ينتهى بهم إلى اليأس من العمل والإنتاج وتنمية الحياة.

وإنما الذى يريده القرآن منهم أن يتعظوا بآيات الله فى كونه، وأن يكونوا دائمًا على صلة طيبة به، وأن يبتغوا فيما آتاهم الله من فضله الدار الآخرة دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، وألا يغتروا بطراوة العيش، ورخاء الحياة، وقوة الجاه، كى لا يقودهم ذلك إلى الفساد والطغيان، والاستهتار والانحلال.

وإذا كان القرآن فى هذه الآية قد حذرو أنذر، فلأنه يعالج كل أمة وجماعة بالطب الذى يناسبها ويلائمها، فهو يعطيها جرعات من الأمن والثقة والطمأنينة حين يرسخ الإيمان فى قلوب أبنائها، وحين يراقبون خالقهم فى سرهم وعلنهم، ويشكرونه على نعمه، وهو يعطيها جرعات

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٣٤.

من التحذير والتخويف، حين تستولى الشهوات على النفوس، وحين تصبح الدنيا بمتعها ولذائذها المطلب الأكبر عند الناس.

هذا وبعد أن انتهت السورة الكريمة من الحديث عما جرى لبعض الأنبياء مع أقوامهم، ومن بين سنن الله فى خلقه، وبعد أن حذرت وأنذرت، اتجهت بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لتطلعه على النتيجة الأخيرة لابتلاء تلك القرى، وما تكشف عنه من حقائق تتعلق بطبيعة الكفر وطبيعة الإيمان فقالت: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾.

أى: تلك القرى التى طال الأمد على تاريخها، وجهل قومك أيها الرسول الكريم أحوالها. وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب، نقص عليكم ما فيه العظات والعبر من أخبارها. ليكون ذلك تسلية لك وتثبيتًا لفؤادك، وتأييدًا لصدقك فى دعوتك.

قال الزمخشرى: قوله - تعالى -: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ كقوله: ﴿هذا بعلى شيخًا﴾ فى أنه مبتدأ وخبر وحال. ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبرًا، وأن يكون ﴿القرى نقص﴾ خبرًا بعد خبر. فإن قلت: ما معنى ﴿تلك القرى﴾؟ حتى يكون كلاما مفيدًا. قلت: هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة فى قولك: هو الرجل الكريم. فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلت: معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أخبارها ولها أنباء أخرى لم نقصها عليك»[1].

وإنما قص الله - تعالى - على رسوله ﷺ أنباء أهل هذه القرى، لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم، فتوهموا أنهم على الحق، فذكرها الله لمن أرسل إليهم الرسول ﷺ ليحترسوا عن مثل تلك الأعمال، وليعتبروا بما أصاب الغافلين الطاغين من قبلهم.

ثم بين - سبحانه - أنه قد أعذر إليهم بأن وضح لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل فقال: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ أى: ولقد جاء إلى أهل تلك القرى رسلهم بالدلائل الدالة على صدقهم، فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات من رسلهم بما كانوا قد كذبوا به قبل رؤيتها منهم، لأنهم لجحودهم وعنادهم تحجرت قلوبهم، واستوت عندهم الحالتان: حالة مجىء الرسل بالمعجزات وحالة عدم مجيئهم بها.

وقيل إن المعنى: ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم، ونظيره قوله - تعالى - ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾.

وقوله: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أى: «مثل ذلك الطبع الشديد المحكم

---

(١) حاشية على الجلالين جـ٣ ص١٦٩.

الذى طبع الله به على قلوب أهل تلك القرى المهلكة، يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين جاءوا من بعدهم بسبب إيثارهم الضلالة على الهداية.

ثم كشف القرآن عن طبيعتهم فقال: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾.

أى: ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم فى الإيمان والتقوى، بل الحال والشأن أننا علمنا أن أكثرهم فاسقين، أى خارجين عن طاعتنا، تاركين لأوامرنا، منتهكين لحرماتنا.

وبعضهم يجعل الضمير فى ﴿أكثرهم﴾ لأهل القرى المهلكة، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله بعهد نقضوه ولم يوفوا به. والأول أرجح.

والمراد بالعهد ما عاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

ومن فى قوله ﴿من عهد﴾ مزيدة للاستغراق وتأكيد النفى.

وإنما حكم على الأكثرين منهم بنقض العهود، لأن الأقلية منهم قد آمنوا ووفوا بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والعمل الصالح.

وهذا لون من الاحتراس الذى امتاز به القرآن فى عرضه للحقائق، فهو لا يلقى التهم جزافًا، وإنما يعطى كل ذى حق حقه، فإن كان الأكثرون قد استحقوا الذم لكفرهم ونقضهم لعهودهم، فإن هناك قلة آمنت فاستحقت المدح والثناء.

قال الآلوسى: و﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف، ولا عمل لها فيه لأنها ملغاة على المشهور. وذهب الكوفيون إلى أن ﴿إن﴾ هنا نافية واللام فى ﴿لفاسقين﴾ بمعنى إلا، أى: ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين»[1].

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى جاءت فى أعقاب الحديث عن أهل القرى المهلكة، قد بينت لنا السنن الإلـهية فى سعادة الأمم وشقائها، وكشفت لنا عن حكمته - سبحانه - فى ابتلائه لعباده بالسراء تارة وبالضراء أخرى، وحضت الناس على المراقبة لله وشكره على نعمائه، وحذرتهم من الغفلة والأمان من مكره - سبحانه - فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ثم اتجهت فى النهاية بالخطاب إلى رسول الله ﷺ.

فأطلعته على الطبائع الغالبة فى البشر حتى لا يضيق ذرعًا بأحوال من أرسل إليهم.

ثم عادت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم،

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٣٥.

فحدثتنا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل بعد حديثها قبل ذلك عن شعيب الذى كان معاصرًا لموسى - عليهما السلام -.

فأنت ترى أن السورة الكريمة قد التزمت الترتيب التاريخى فى حديثها عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

ولقد قلنا من قبل إن الأسلوب البارز فى هذه السورة الكريمة وهى تدعو الناس إلى وحدانية الله يتجلى فى تذكيرهم بنعم الله التى لا تحصى، وتخويفهم عن طريق سرد أحوال الأمم المهلكة، بسبب مخالفتها لرسلها، وعتوها عن أمر ربها، ولعل هذا هو السر فى أنها ساقت لنا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أممهم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ولم تذكر لنا - مثلا - قصة إبراهيم مع قومه مع أن لوطا - عليه السلام - كان معاصرًا له، وذلك لأن قوم إبراهيم لم يهلكوا، ولم يلتمس هو من ربه ذلك، بل اعتزلهم وما يعبدون من دون الله.

فالسورة الكريمة قد التزمت فى مجموعها الحديث عن مصارع المكذبين ليكونوا عبرة لكل عاقل، وذكرى لكل عبد منيب.

ومن هنا فهى لا تحدثنا عن قصة موسى من أولها كما جاء فى سورة القصص مثلا وإنما هى تبدأ حديثها عنها بالغرض الذى جاءت من أجله وهو التخويف من عواقب التكذيب فتقول: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾.

وهكذا تصرح السورة الكريمة فى أول آية من قصة موسى بالهدف الذى سيقت من أجله وهو النظر والتدبر فى عاقبة المفسدين.

ثم بعد ذلك تحدثنا حديثًا مستفيضًا زاخرًا بالعبر والعظات عما دار بين موسى وفرعون من محاورات ومجادلات انتهت بغرق فرعون وقومه، ثم عما دار بين موسى وبين بنى إسرائيل من مجادلات تدل على أصالتهم فى الكذب والافساد والفسوق عن أمر الله.

والآن فلنستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى لنا قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل فى نحو سبعين آية تبدؤها بقوله - تعالى -:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم
بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ
جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠
قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ
لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ
لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ
أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦
۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا
يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ
فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ

فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

هذا هو الدرس الأول من قصة موسى مع فرعون وفيه نرى مادار بين موسى وفرعون من محاورات، ومادار بين موسى والسحرة من مناقشات ومساجلات انتهت بإيمان السحرة وهم يضرعون إلى الله بلسان صادق، وقلب سليم فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين﴾. ولنبدأ فى تفسير آيات هذا الدرس من أولها فنقول :

قوله - تعالى - ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ معطوف على ما قبله من قصص الأنبياء الذين تحدثت عنهم السورة الكريمة.

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب. ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وان بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى.

وفرعون : لقب لملوك مصر القدماء، كلقب قيصر لملوك الروم، وكسرى لملوك الفرس، والمعنى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين سبق الحديث عنهم - وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا التى تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه إلى فرعون وملئه، وهم اشراف قومه، ووجهاء دولته.

قال بعض العلماء : «ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه، لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبنى إسرائيل، وبيدهم أمرهم، وليس لسائر المصريين من الأمر شىء، ولأنهم كانوا مستعبدين - أيضا ولكن الظلم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشد»[1].

وقوله ﴿بآياتنا﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا، أو صفة لمصدره. أى : بعثناه - عليه السلام - ملتبسا بها. أو بعثناه بعثًا ملتبسًا بها.

والمراد بها الآيات التسع وهى العصا، واليد البيضاء، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٩ ص١٧.

ثم بين - سبحانه - فى الآية الأولى من هذه القصة كيف تلقى فرعون وملؤه دعوة موسى وآياته فقال : ﴿فظلموا بها﴾ أى : فكفروا بهذه الآيات تكبرًا وجحودًا، فكان عليهم وزر ذلك، وقد عدى الظلم هنا بالباء مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى الكفر، إذ هما من واد واحد قال - تعالى - ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

ويجوز أن تكون الباء للسببية والمفعول محذوف، أى : ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعقاب المهين. أو ظلموا الناس بصدهم عن الإيمان بهذه الآيات، واستمروا على ذلك إلى أن حق عليهم العذاب الأليم.

ثم ختمت الآية بالأمر بالتدبر فى أحوال هؤلاء الظالمين وفيما حل بهم من سوء المصير فقال - تعالى - ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أى : فانظر أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل - كيف كانت عاقبة فرعون وملئه الذين أفسدوا فى الأرض، لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليم، وموسى وقومه ينظرون إليهم، وتلك عاقبة كل من طغى وآثر الحياة الدنيا.

ووضع - سبحانه - المفسدين موضع ضميرهم للايذان بأن الظلم مستلزم للافساد.

و ﴿كيف﴾ خبر لكان مقدم عليها لاقتضائه الصدارة. وعاقبة، اسمها، وهذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على إسقاط حرف الجر، إذ التقدير : فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلناه بهم.

وهكذا نرى السورة الكريمة ترينا فى أول آية من هذه القصة الغرض الذى سيقت من أجله وهو التدبر فى عواقب المكذبين، والتخويف من المصير الذى ساروا إليه، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن السير على منوالهم. والسورة الكريمة عندما ترينا ذلك فى مطلع هذه القصة تكون متناسقة كل التناسق مع أسلوبها الذى اختارته فى دعوة الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق، وهو أسلوب التذكير بالنعم، والتحذير من عواقب الظلم والطغيان - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى التمهيد بين يدى السورة.

ثم بعد هذا التنبيه الاجمالى إلى مآل المفسدين، أخذت السورة تحكى لنا ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون بصورة مفصلة فقالت : ﴿وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين﴾ أى : قال موسى - عليه السلام - لفرعون فى أدب واعتزاز إنى رسول من رب العالمين، أرسلنى إليك لأدعوك لعبادته والخضوع له.

ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول إلا كلمة الحق فقال : ﴿حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق﴾ أى : جدير بألا أقول على الله إلا القول الحق.

و ﴿حقيق﴾ : صفة ﴿رسول﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف أى : أنا حقيق. أو خبر بعد خبر. و ﴿على﴾ بمعنى الباء.

وقرأ أبيّ «حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق» وقرأ عبد الله ابن مسعود «حقيق ألا أقول».

وقرأ نافع «حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق» أى : واجب وحق على أن لا أخبر عنه - تعالى - إلا بما هو حق وصدق.

ثم قال : ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ أى : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا على صدقى فيما جئتكم به. وفى قوله ﴿من ربكم﴾ إشعار بأن ما جاء به من حجج وبراهين لم يكن من صنعه. وإنما هو من عند رب العالمين، الذى بيده ملكوت كل شىء.

﴿فأرسل معى بنى إسرائيل﴾ أى : قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن فى الدلالة على صدقى. فأطلق بنى إسرائيل من أسرك واعتقهم من رقك وقهرك، ودعهم يخرجون أحرارًا من تحت سلطانك ليذهبوا معى إلى دار سوى دارك.

وإلى هنا يكون موسى - عليه السلام - قد بين لفرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين فماذا كان رد فرعون.

يحكى القرآن رده فيقول : ﴿قال إن كنت جئت بآية﴾ أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى ﴿فأت بها﴾ أى : فأحضرها عندى ليثبت بها صدقك فى دعواك ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فى دعواك أنك من الملتزمين لقول الحق.

وعبر بإن المفيدة للشك فى تحقيق مضمون الجملة الشرطية، للايذان بأنه ليس معتقدًا فى صدق موسى - عليه السلام.

وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : ﴿فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين﴾ : أى فألقى موسى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هى ثعبان مبين، أى : ظاهر بين لاخفاء فى كونه ثعبانًا حقيقيًا يسعى فى خفة وسرعة كأنه جان.

والثعبان : الذكر العظيم من الحيات، وقيل : إنه الحية مطلقا.

وقد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله، إلا أننا أضربنا عنها صفحا لضعفها.

ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقة فقال : ﴿ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين﴾ النزع : إخراج الشىء من مكانه. أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أو من طوق قميصه، أو من إبطه فإذا هى بيضاء بياضًا عجيبا خارقا للعادة من غير أن يكون

بها علة من مرض أو غيره. قيل: إنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس.

قال الآلوسى: قوله ﴿فإذا هى بيضاء للناظرين﴾ أى: بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظار. وقيل المعنى: بيضاء لأجل النظار لا أنها بيضاء فى أصل خلقتها، لأنه - عليه السلام - كان آدم - أى أسمر - شديد الأدمة فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ «وأما موسى فآدم جثيم سبط كأنه من رجال الزط» وعنى ﷺ بالزط جنسا من السودان والهنود»(١).

وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملأه إلى الإيمان به فهل آمنوا؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظهم ما جاء به موسى، يدل على ذلك قوله - تعالى - ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾.

أى: قال الأشراف من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم، أى: راسخ فى علم السحر، ماهر فيه. ولم يكتفوا بهذا القول الباطل، بل أخذوا يثيرون الناس على موسى، ويهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾.

أى: يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملككم، وأن يصبح هو ملكا على مصر، فماذا تأمرون لإتقاء هذا الخطر الداهم؟ وبماذا تشيرون فى أمره؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة. يقال: آمرته فآمرنى. أى: شاورته فأشار على.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء حيث قال: ﴿قال للملأ حوله﴾ أى قال فرعون للملأ حوله ﴿إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟﴾ وهنا عزى إلى الملأ فكيف الجمع، قلت: قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله هناك وقولهم ههنا. أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم. أوقالوه عنه للناس عن طريق التبليغ كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة، ثم تبلغه الخاصة العامة.. وقولهم: ﴿فماذا تأمرون﴾ من امرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى: وقيل: ﴿فماذا تأمرون﴾ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم « كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ فأجابوه: ارجه وأخاه.. »(٢).

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص٢١.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٣٩.

ثم حكى القرآن ما أشار به الملأ من قوم فرعون فقال: ﴿قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾.

أرجه: أصله أرجئه - وقد قرىء به - حذفت الهمزة وسكنت الهاء، تشبيها للضمير المنفصل بالضمير المتصل. والإرجاء التأخير. يقال: ارجيت هذا الأمر وارجأته، إذا أخرته. ومنه ﴿ترجى من تشاء منهن﴾.

والمدائن: اى: البلاد جمع مدينة، وهى من مدن بالمكان - كنصر - إذا أقام به، و ﴿حاشرين﴾ أى: جامعين، يقال. حشر الناس - من باب نصر وضرب - يحشرهم حشرا إذا جمعهم، ومنه: يوم الحشر والمحشر.

والمعنى: قال الملأ من قوم فرعون حين استشارهم فى أمر موسى: أخر أمره وأمر أخيه ولا تتعجل بالقضاء فى شأنهما، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يجمعون إليك السحرة المهرة، لكى يقفوا فى وجه هذا الساحر العليم، ويكشفوا عن سحره ويبطلوه بسحر مثله أو أشد» وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من أهل مملكته.

وقال بعضهم: الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر، وهو الهم بقتله، فقالوا له: أخره ليتبين حاله للناس.

وقال القاسمى: تدل الآية على معجزة عظيمة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه إلا الله وتدل على أن من عادة البشر أن من رأى أمرًا عظيما أن يعارضه، فلذلك دعا فرعون بالسحرة وتدل على أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال، لذلك قالوا ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين، المحافظة على الرياسة والمال والجاه كما هى عادة الناس فى هذا الزمن»[1].

وقوله ﴿فى المدائن﴾ متعلق بأرسل، و ﴿حاشرين﴾ نعت لمحذوف أى: رجالا حاشرين. ومفعوله محذوف. أى: حاشرين السحرة، بدليل ما بعده.

ولا يذكر السياق القرآنى بعد ذلك أنهم أرسلوا إلى السحرة، ولا أنهم جمعوهم، وإنما يترك ذلك للعقل يفهمه حيث لا داعى لذكر هذه التفاصيل. ويتجه القرآن إلى الحديث عما دار بين السحرة وبين فرعون بعد أن جمعوا من مدائن الصعيد بمصر حيث كان مقرهم هناك فيقول:

(١) تفسير القاسمى جـ٤ ص٢٨٣٣.

﴿وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين. قال : نعم وإنكم لمن المقربين﴾.

أى : وأقبل السحرة سريعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما يعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجرًا عظيما إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولا من جزالة الأجر وضخامته. وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه، وفضلا عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى. فهو يغريهم بالأجر المادى ويعدهم بالقرب المعنوى من قلبه تشجيعا لهم على الإجادة، وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة التى لا يستطيع الوقوف فى وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم.

هذا، وقد اختلف المفسرون فى عدد هؤلاء السحرة فقيل، كانوا اثنين وسبعين ساحرًا، وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير.

وبعد أن اطمأن السحرة على الأجر، وتطلعت نفوسهم إليه، يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى بلغة الواثق من قوته، المتحدى لخصمه : ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين﴾.

أى : أنت يا موسى مخير بين أن تلقى عصاك أولا؛ وبين أن نلقى نحن أولا وأنت تفعل ما تشاء بعدنا، وكأنهم يقولون له : وفى كلتا الحالتين فنحن على ثقة من الفوز والنصر فأرح نفسك واستسلم لنا مقدما.

ويرى الزمخشرى أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا فى الصراع[1].

ولقد حكى لنا القرآن فى سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه فى معركة هم الخاسرون فيها قطعا فقال : ﴿قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾[2].

أما هنا فيحكى لنا القرآن أن موسى - عليه السلام - قد طلب منهم أن يلقوا أولا مستهينا بتحديهم له، غير مبال بهم ولا بمن جمعهم، لأنه قد اعتمد على خالقه ﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾.

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٤٠.
(٢) الآية ٦١ من سورة طه.

أى : قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون أولا، فلما ألقوا ما كان معهم من الحبال والعصى ﴿سحروا أعين الناس﴾ أى : خيلو إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، ولذا لم يقل - سبحانه - سحروا الناس.

وقوله ﴿واسترهبوهم﴾ أى : خوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر. ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾ أى : فى باب السحر، أو فى عين من رآه، فإنه ألقى كل واحد منهم عصاه، فصارت كأنها ثعابين.

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿واسترهبوهم﴾ تعبير مصور بليغ، فهو يوحى بأنهم استجاشوا وجدان الناس قسرا، وساقوهم سوقا بوسائل مصطنعة مفتعلة لا تستند إلى واقع سليم.

روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا.

وروى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة. قيل. جعلوا فيها الزئبق.

وقال بعض العلماء : قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابًا ملؤها نارا، فلما طرحت عليها العصى المجوفة المملوءة بالزئبق حركها، لأن شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فأخبر الله أن ذلك كان مموها على غير حقيقته. فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية»[1].

ويمضى القرآن فيبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم، قد تهاوى فى لحظة، وانطوى فى ومضة، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه، استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف مايأفكون* فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون*فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾.

اللقف : التناول بسرعة. يقال : لقف الشىء يلقفه لقفا ولقفانا، أخذه بسرعة.

والإفك : الكذب. يقال أَفَكَ يأفِك، وأفك يأفك إفكا وأفكا - كضرب وعلم - إذا كذب، واصله من الأفك - بفتح أوله - وهو بمعنى صرف الشىء عن وجهه الذى يجب أن يكون عليه. واطلق على الكذب إفك - بكسر الهمزة - لكونه مصروفا عن وجه الحق، ثم صار حقيقة فيه.

والمعنى : وأوحينا إلى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر السحرة - أن الق عصاك ولا تخف إنك أنت الأعلى، فألقاها فإذا هى تبتلع وتلتقم بسرعة ما يكذبون ويموهون به أولئك السحرة ﴿فوقع الحق﴾ أى : ظهر وتبين وثبت الحق الذى عليه موسى - وفسد وبطل ما كانوا

(١) تفسير المنار جـ٩ ص٦٦.

يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره. وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملأه وسحرته فى ذلك المجمع العظيم، الذى حشر الناس له فى يوم عيدهم وزينتهم، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء، بعد أن أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة.

وان قوله ﴿أن ألق﴾ يجوز أن تكون مفسرة لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه وهو الإيحاء، ويجوز أن تكون مصدرية فتكون هى وما بعدها مفعول الايحاء.

والفاء فى قوله ﴿فإذا هى تلقف﴾ فصيحة أى: فألقاها فصارت حية فإذا هى تلقف ما يأفكون.

وإنما حذف هذا المقدر للإيذان بمسارعة موسى إلى الالقاء، وبغاية سرعة الانقلاب، كأن ابتلاعها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالإلقاء.

و ﴿ما﴾ فى قوله ﴿ما يأفكون﴾ موصولة والعائد محذوف أى: الذى يأفكونه، أو مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول أى: فإذا هى تلقف المأفوك.

وفى التعبير بقوله - سبحانه - ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ تجسيم لهذا الحق الذى كان عليه موسى، وتثبيت واستقرار له، حتى لكأنه شىء ذو ثقل نزل على شىء آخر خفيف الوزن فأزاله ومحاه من الوجود.

وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه لفترة من الوقت، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان، حتى ليخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف. ولكن ما إن يواجهه الحق الهادىء الثابت المستقر بقوته التى لاتغالب حتى يزهق ويزول، وينطفىء كشعلة الهشيم، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار، وهم يرون صروحهم تتهاوى، وآمالهم تتداعى، أمام نور الحق المبين، وإذا بتحديهم الصريح، وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين، وذل مشين.

ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعد أن رأوا بأعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر فقال: ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين﴾ أى: خروا سجدا، كأنما - كما قال الزمخشرى - قد القاهم ملق لشدة خرورهم أو لم يتمالكوا أنفسهم مما رأو فكأنهم ألقوا.

والمراد أن ظهور بطلان سحرهم، وإدراكهم بأن موسى على الحق، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن نور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكأن أحدا قد دفعهم إليه دفعا، وألقاهم إليه إلقاء.

وقوله ﴿قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾ أى: قال السحرة بعد أن تبين لهم

الحق وخروا ساجدين لله، آمنا بمالك أمر العالمين ومدبر شئونهم، والمتصرف فيهم، وجملة ﴿رب موسى وهارون﴾ بدل من الجملة التى قبلها، أو صفة لرب العالمين، أو عطف بيان. وفائدة ذلك نفى توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله - تعالى - كقول فرعون ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

وهكذا نرى أثر الحق عندما تخالط بشاشته القلوب الواعية، لقد آمن السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ما جاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر، والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعدادًا للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذى لا يجحده إلا مكابر حقود.

ولكن فرعون وملأه لم يرقهم ما شاهدوا من إيمان السحرة، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب، فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول: ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ أى: قال فرعون منكرًا على السحرة إيمانهم، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أنا بذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان.

ثم أضاف إلى ذلك اتهامهم بأن إيمانهم لم يكن عن إخلاص ليصرف الناس عنهم فقال: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أى: إن ما صنعتموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن اقتناع منكم بذلك، بل هو حيلة احتلتموها أنتم وموسى قبل أن يلقى كل منكم بسحره، لكى تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل.

وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان السحرة كان عن تواطؤ مع موسى، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى إخراجهم من أوطانهم، فعليهم. -أى القبط- أن يستمسكوا بدينهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة ولبنى إسرائيل.

ولا شك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من ورائه فرعون صد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام -.

ثم أتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال: ﴿فسوف تعلمون﴾ أى: فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم. ثم فصل هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾.

أى: أقسم لأقطعن من كل شق منكم عضوًا مغايرًا للآخر، كاليد من الجانب الأيمن، والرجل من الجانب الأيسر، ثم لأصلبنكم أجمعين تفضيحًا لكم، وتنكيلا لأمثالكم. ومع أن

فرعون قد توعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسى البطىء المرهوب، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل، والإيمان العميق، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات واطمئنان: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ قال صاحب الكشاف: فيه أوجه: أن يريدوا إنا لا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك. أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب. أو إنا جميعًا يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا. أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لابد لنا منه»(١).

ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ أى: وما تكره منا وتعيب إلا الإيمان بالله، مع أن ما تكرهه منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا، لأنه خير الأعمال، وأعظم المناقب، فلا نعدل عنه طلبًا لمرضاتك.

يقال: نقم عليه أمره، ونقمت منه نقما - من باب ضرب - عبته وكرهته أشد الكراهة.

قال الجمل: وقوله ﴿إلا أن آمنا﴾ يجوز أن يكون فى محل نصب مفعول به، أى: ما تعيب علينا إلا إيماننا. ويجوز أن يكون مفعولا من أجله. أى: ما تنال منا وتعذبنا لشىء من الأشياء إلا لإيماننا. وعلى كل من القولين فهو استثناء مفرغ»(٢).

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه والالتجاء إلى الله - تعالى - فقالوا: ﴿ربنا افرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين﴾ أى: يا ربنا افض علينا صبرًا واسعًا لنثبت على دينك، وتوفنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك، مستسلمين لقضائك.

وبذلك يكون السحرة قد ضربوا للناس فى كل زمان ومكان أروع الأمثال فى التضحية من أجل العقيدة، وفى الوقوف أمام الطغيان بثبات وعزة، وفى الصبر على المكاره والآلام، وفى المسارعة إلى الدخول فى الطريق الحق بعد أن تبين لهم، وفى التعالى عن كل مغريات الحياة.

قال قتادة: كانوا فى أول النهار كفارًا سحرة. وفى آخره شهداء بررة، فرضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم.

وبعد هذا الحديث الذى ساقته السورة عما دار بين موسى وفرعون، وبين موسى والسحرة، والذى انتهى بإيمان السحرة برب العالمين بعد ذلك بدأت السورة تحكى لنا ما قاله الملأ من قوم فرعون بعد هزيمتهم المنكرة، وما قاله موسى - عليه السلام - لقومه بعد أن بلغهم وعيد فرعون وتهديده لهم، وما رد به قومه عليه مما يدل على سفاهتهم فقالت:

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٤١.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص١٧٩.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا
مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله - تعالى - ﴿وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك﴾.

أى : قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له، بعد أن أصابتهم الهزيمة والخذلان فى معركة الطغيان والإيمان، قالوا له على سبيل التهييج والإثارة : أتترك موسى وقومه أحرارًا آمنين فى أرضك، ليفسدوا فيها بإدخال الناس فى دينهم، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم.

روى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا عددًا كبيرًا من الناس، قد دخل فى الإيمان متبعًا السحرة الذين قالوا ﴿آمنا برب العالمين﴾.

وقوله ﴿ويذرك وآلهتك﴾ معناه : أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك، فيظهر للناس عجزك وعجزها، فتكون الطامة الكبرى التى بها بفسد ملكك.

قال السدى : إن فرعون كان قد صنع لقومه أصنامًا صغارًا وأمرهم بعبادتها، وسمى نفسه الرب الأعلى.

وقال الحسن إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للعالم السفلى كله، وهو رب النوع الانسانى.

وقد قرئ ﴿ويذرك﴾ بالنصب والرفع أما النصب فعلى أنه معطوف على ﴿ليفسدوا﴾ وأما الرفع فعلى أنه عطف على ﴿أتذر﴾ أو على الاستئناف، أو على أنه حال بحذف المبتدأ أى : وهو يذرك.

والمتأمل فى هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن الملأ من قوم فرعون، يراه يطفح بأشد ألوان التآمر والتحريض. فهم يخوفونه فقدان الهيبة والسلطان بتحطيم الأوهام التى يستخدمها السلطان، لذا نراه يرد عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : ﴿سنقتل أبناءهم، ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾.

أى : لا تخافوا ولا ترتاعوا أيها الملأ فإن قوم موسى أهون من ذلك، وسننزل بهم ما كنا نفعله معهم من قبل وهو تقتيل الأبناء، وترك النساء أحياء، وإنا فوقهم غالبون كما كنا ما تغير شىء من حالنا، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء، وهم الأذلة ونحن الأعزة.

فأنت ترى أن ما قاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية السوء فى كل عهود الطغيان فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله إفساد فى الأرض، لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد. ولأنها هى الدعوة إلى وحدانية الله التى ستحرر الناس من ظلمهم وجبروتهم، وتفتح العيون على النور الذى يخشاه أولئك الفاسقون.

وترى أن ما قاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائمًا. فهم يلجأون إلى قوتهم المادية ليحموا بها آثامهم، وشهواتهم، وسلطانهم القائم على الظلم، والبطش، والمنافع الشخصية.

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال موسى - عليه السلام - ؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل أوصى قومه بالصبر، ولوح لهم بالنصر. استمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى - عليه السلام - فيقول :

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين﴾.

أى : قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسلية حين ضجوا وارتعبوا من تهديدات فرعون وملئه : يا قوم استعينوا بالله فى كل أموركم. واصبروا على البلاء، فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه، وإنما هى ملك لله رب للعالمين، وهو - سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحدًا سواه.

بهذا الأسلوب المؤثر البليغ، وبهذه الوصايا الحكيمة، وصى موسى قومه بنى إسرائيل فماذا كان ردهم عليه؟ لقد كان ردهم يدل على سفاهتهم، فقد قالوا له : ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا﴾ أى : قال بنو إسرائيل لموسى ردًا على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من

فرعون قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألوانًا من الظلم والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى من سوء أحوالنا. واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهينة، فنحن لم نستفد من رسالتك شيئًا، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التى لا جدوى من ورائها؟.

ومع هذا الرد السفيه من قوم موسى عليه، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ فرعون الذى فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم، وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد.

﴿ويستخلفكم فى الأرض﴾ أى يجعلكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته. ﴿فينظر كيف تعملون﴾ أى: فيرى - سبحانه - الكائن منكم من العمل، حسنه وقبيحه، ليجازيكم على حسب أعمالكم، فإن استخلافكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان، فإن أحسنتم زادكم الله من فضله، وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم.

وفى التعبير «بعسى» الذى يدل على الرجاء، أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل -: وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامى مع خالقهم، وفيه كذلك منع لهم من الاتكال وترك العمل، لأنه لو جزم لهم فى الوعد فقد يتركون السعى والجهاد اعتمادًا على ذلك.

وقيل: إن موسى ساق لهم ما وعدهم به فى صيغة الرجاء لئلا يكذبوه، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه، واستعظامهم لملكه وقوته، فكأنهم يرون أن ما قاله لهم موسى مستبعد الحصول، لذا ساقه لهم فى صورة الرجاء.

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك فتحدثنا فى بضع آيات عن العذاب الذى أخذ الله به آل فرعون بسبب ظلمهم وطغيانهم، وكيف أن الله - تعالى - قد حقق لموسى رجاءه، وكيف أن أولئك الظالمين لم يمنعهم العذاب الذى نزل بهم من ارتكاب المنكرات والآثام.

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ
لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

تدبر معنا أيها القارىء الكريم تلك الآيات الكريمة التى تحكى كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر.

قال القرطبى : قوله – تعالى – : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ يعنى الجدب، وهذا معروف فى اللغة، يقال : أصابتهم سنة، أى : جدب. وتقديره : جدب سنة، وفى الحديث «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحول. ومنه

أسنت القوم، أى أجدبوا وقحطوا[١].

وقال الآلوسى : هذا شروع فى تفصيل مبادىء الهلاك الموعود به، وإيذان بأنهم لم يمهلوا حتى تحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال[٢].

والمعنى : ولقد أخذنا آل فرعون أى : اختبرناهم وامتحناهم بالجدب والقحط، وضيق المعيشة، وانتقاص الثمرات لعلهم يثوبون إلى رشدهم؛ ويتذكرون ضعفهم أمام قوة خالقهم، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والعصيان، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب، وتصفى النفوس، وترغب فى الضراعة إلى الله، وتدعو إلى اليقظة والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلايا.

وصدرت الآية الكريمة بالقسم، لاظهار الاعتناء بمضمونها.

والمراد بآل فرعون قومه وأتباعه، فهم مؤاخذون بظلمه وطغيانه، لأن قوته المالية والجندية منهم، وقد خلقهم الله أحرارًا؛ وأكرمهم بالعقل والفطرة التى تكره الظلم والطغيان بالغريزة فكان حقا عليهم ألا يقبلوا استعباده لهم وجعلهم آلة لطغيانه، لاسيما بعد بعثة موسى - عليه السلام - ووصول دعوته إليهم، ورؤيتهم لما أيده الله به من الآيات[٣].

وإضافة الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف، لما فيه من الشرف الدنيوى الظاهر، وإن كان فى نفس الأمر خسيسا.

ثم بين - سبحانه - أن آل فرعون لم يعتبروا بهذا الأخذ والامتحان، وإنما ازدادوا تمردا وكفرا فقال : ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه﴾.

أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء، قالوا بغرور وصلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا أهل له، ونحن مستحقوه وبكدنا واجتهادنا وامتيازنا على غيرنا ناسين فضل الله عليهم، ولطفه بهم، غافلين عن شكره على نعمائه.

﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أى : وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أى : حالة تسوءهم كجدب أو قحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا.

وأصل ﴿يطيروا﴾ يتطيروا فأدغمت التاء فى الطاء لمقاربتها لها. والتطير التشاؤم والأصل فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص٢٩٣.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٨ ص١٣٨.
(٣) تفسير المنار جـ٩ ص٨٦.

إطلاق التطير على التشاؤم : أن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وهو ما طار إلى الجهة اليسرى، وتتيامن بالسانح وهو ما طار إلى الجهة اليمنى. ومنه سموا الشؤم طيرا وطائرًا، والتشاؤم تطيرا. وقد يطلق الطائر على الحظ والنصيب خيرًا كان أو شرًا، ولكنه غالب فى الشر.

وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق - وهى إذا - لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات، لأن العناية الإلهية اقتضت سبق الرحمة وعموم النعمة قبل حصول الأعمال. ونكر السيئة وذكرها بأداة الشك - وهى إن - لندورها وعدم تعلق الإرادة بإحداثها إلا بالتبع، فإن النقمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بسبب الأعمال السيئة.

وقوله - تعالى - ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباطيلهم. وصدر بلفظ «ألا» الذى يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر.

أى : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله، فهى التى ساقت إليهم ما يسوءهم وليس لموسى ولا لمن معه أى تدخل فى ذلك. ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة، فيقولون ما يقولون مما تمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم.

وفى إسناد عدم العلم إلى أكثرهم، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك، ولكنها لا تعمل بمقتضى علمها.

هذا، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا لا بالرخاء ولا بالشدائد. الرخاء العظيم، والخصب الواسع زادهم غرورًا وبطرًا، والشدائد والمحن جعلتهم ينسبون أسبابها إلى غيرهم دون أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم. مع أن الشدائد - كما يقول صاحب الكشاف - تجعل الناس «أضرع خدودًا وألين أعطافا، وأرق أفئدة».

ثم تحكى السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجوا فى طغيانهم يعمهون فقالت : ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾.

أى : قال الملأ من بنى إسرائيل لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : إنك يا موسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها، أى تصرفنا بها عما نحن فيه، فما نحن لك بمصدقين، ولا لرسالتك بمتبعين.

ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود، فهم قد صاروا فى حالة نفسية لا يجدى معها دليل ولا ينفع فيها إقناع، لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم، ومسخت نفوسهم وأظلمت

مشاعرهم، حين يدمغهم الحق، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح، إنهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أى لون من ألوان التفكير والتدبر.

قال الجمل: و﴿مهما﴾ اسم شرط جازم - يدل على العموم -، و﴿من آية﴾ بيان له، والضميران فى «به» و«بها» راجعان لمهما الأول مراعاة للفظها لإبهامه، والثانى مراعاة لمعناها»[1].

وسموا ما جاء به موسى - عليه السلام - آية من باب المجاراة له والاستهزاء بها حيث زعموا أنها نوع من السحر كما ينبىء عنه قولهم ﴿لتسحرنا بها﴾.

ثم حكت السورة الكريمة ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقالت: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع والدم، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾.

أى: فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان.

قال الآلوسى: أى: ما طاف بهم، وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر وسيل، فهو اسم جنس من الطواف. وقد اشتهر فى طوفان الماء، وجاء تفسيره هنا بذلك فى عدة روايات عن ابن عباس وجاء عن عطاء ومجاهد تفسيره بالموت، وفسره بعضهم بالطاعون وكانوا أول من عذبوا به»[2].

وأرسلنا عليهم ﴿الجراد﴾ فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة.

وأرسلنا عليهم ﴿القمل﴾ وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية، وقيل: هو السوس الذى أكل حبوبهم وما اشتملت عليه بيوتهم.

وأرسلنا عليهم ﴿الضفادع﴾ فصعدت من الأنهار والخلجان والمنابع فغطت الأرض وضايقتهم فى معاشهم ومنامهم.

وأرسلنا عليهم ﴿الدم﴾ فصارت مياه الأنهار مختلطة به، فمات السمك فيها، وقيل المراد بالدم الرعاف الذى كان يسيل من أنوفهم.

تلك هى النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام -.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٨١.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٢٣.

وقوله : ﴿آيات﴾ حال من العقوبات الخمس المتقدمة.

وقوله : ﴿مفصلات﴾ أى : مبينات واضحات لا يشك عاقل فى كونها آيات إلـهية لا مدخل فيها للسحر كما يزعمون.

وقيل ﴿مفصلات﴾ أى : مميزا بعضها عن بعض، منفصلة بالزمان لامتحان أحوالهم. وكان بين كل اثنين منها شهر، وكان امتداد كل واحدة منها شهرا، كما أخرج ذلك ابن المنذر عن ابن عباس[1] :

ثم وضحت الآية فى نهايتها موقفهم من هذا الابتلاء وتلك العقوبات فقالت :

﴿فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ أى فاستكبروا عن الإيمان بموسى - عليه السلام - وعما جاء به من معجزات، وكانوا قوما طبيعتهم الاجرام ودينهم الكفر والفسوق.

ثم بين - سبحانه - حالهم عند نزول العقاب بهم فقال : ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بنى إسرائيل﴾.

أى وحين وقع على فرعون ومثله العذاب المذكور فى الآية السابقة، والمتمثل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، حين وقع عليهم ذلك أخذوا يقولون لموسى بتذلل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات : يا موسى ادع لنا ربك واسأله بحق ما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لانقاذنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب، ونحن نقسم لك بأنك إن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل.

قال صاحب الكشاف : ﴿بما عهد عندك﴾ ما مصدرية، والمعنى بعهده عندك وهو النبوة. والباء إما أن تتعلق بقوله : ﴿ادع لنا ربك﴾ على وجهين :

أحدهما : أسفنا إلى مانطلب إليك من الدعاء لنا بحق ماعندك من عهد الله وكرامته بالنبوة. أو ادع الله لنا متوسلا إليه بعهده عندك.

وإما أن يكون قسما مجابا بلنؤمنن، أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك »[2].

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى فقال : ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾ أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى الوقت الذى أجل لهم وهو

---

(١) تفسير الألوسى جـ٩ ص٣٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٤٨.

وقت إغراقهم فى اليم، إذا هم ينكثون أى : ينقضون عهدهم الذى التزموه، ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة.

وينكثون : من النكث. وأصله فك طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانيا، ثم استعير لنقض العهد بعد إبرامه.

قال الآلوسى. وجواب «لما» فعل مقدر يؤذن به إذا الفجائية لا الجملة المقترنة بها، أى : فلما كشفنا عنهم ذلك فاجأوا بالنكث من غير توقف»[1].

هذا، وقد ساق بعض المفسرين آثارا متعددة فى كيفية نزول هذا العذب بهم. ومن هذه الآثار ما رواه أبو جعفر بن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال :

لما أتى موسى - عليه السلام - فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا. فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل. فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فداسوا وأحرزوا فى البيوت فقالوا : قد أحرزنا. فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلم يرد منها إلا ثلاثة أقفزة - والجريب والقفيز مكيالان للحبوب، والجريب أربعة أقفزة - فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا. فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثبت الضفدع فى فيه فقالوا لموسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا، فشكوا إلى فرعون، فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال : إنه قد سحركم، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا؟

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٢٦.

فأتوه وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل»[1].

قال ابن كثير: قد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدى وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بهذا.

ثم حكت السورة الكريمة نهايتهم الأليمة، بسبب نقضهم لعهودهم ومواثيقهم فى كل مرة، وبسبب تكذيبهم لآيات الله. وعصيانهم لنبيهم موسى - عليه السلام - فقالت : ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم، بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أى : فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لإهلاكهم. بأن أغرقناهم فى اليم - أى البحر -، وذلك بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة، وحججنا الساطعة، وكانوا عنها غافلين بحيث لا يتدبرونها، ولا يتفكرون فيما تحمله من عظات وعبر.

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة، فلا يفصل خطواته كما فصلها فى مواطن أخرى، وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل. إن الحسم السريع هنا أوقع فى النفس، وأرهب للحس، وأزجر للقلب، وأدعى إلى العظة والاعتبار، ولأن سورة الأعراف - كما سبق أن بينا - يغلب عليها هذا الأسلوب الذى يزلزل قلوب الطغاة، ويغرس فى النفوس الرهبه والخوف وهى تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه، وهو ما حل بالأمم السابقة التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها.

ثم وهى تحكى لهم ما أعد للمستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم وانتهاكهم لحرمات الله.

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أن بين نهاية فرعون وآله فقال : ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾.

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملئه بالاستعباد وقتل الأبناء، وسوء العذاب، أعطيناهم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التى باركنا فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق، وبكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم، واختبارا لنفوسهم.

وجمع -سبحانه- بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٤١.

وتجدده، والمراد بهم بنو إسرائيل، وذكروا بعنوان القوم، إظهارا لكمال اللطف بهم، وعظيم الإحسان إليهم، حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة.

وقوله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا﴾، أى: ونفذت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة، حيث رزقهم - سبحانه - النصر على أعدائهم. والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون وملئه.

قال الزمخشرى: وحسبك به حاثا على الصبر. ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه. ومن قابله بالصبر، وانتظار النصر، ضمن الله له الفرج.

وعن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله - تعالى - ثم تلا هذه الآية ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا...﴾ ومعنى «خف» طاش جزعا وقلة صبر، ولم يرزق رزانة أولى الصبر»[1].

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ من بناء القصور الشاهقة والمنازل القوية، وما كانوا يرفعونه من البساتين، والصروح المشيدة، كصرح هامان وغيره.

و ﴿يعرشون﴾ بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشىء المسقف المرفوع.

قال الجمل: وقوله ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ فى إعرابه أوجه:

أحدها: أن يكون فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم، والجملة الكونية صلة والعائد محذوف. والتقدير: ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه.

والثانى: أن اسم كان ضمير عائد على ما الموصولة، ويصنع مسند لفرعون. والجملة خبر عن كان، والعائد محذوف، والتقدير: ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون.

الثالث: أن تكون كان زائدة وما مصدرية والتقدير ودمرنا ما يصنع فرعون أى: صنعه»[2].

وهكذا تنهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والغادرين من دمار وخراب، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف فى الأرض.

ثم بدأت السورة بعد ذلك مباشرة حديثًا طويلا عن هؤلاء المستضعفين من بنى إسرائيل بينت فيه ألوانا من جحودهم لنعم الله، ونسيانهم لماكانوا فيه من ذل واستعباد، وتفضيلهم

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٤٩.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٨٥.

عبادة الأصنام على عبادة الخالق - عز وجل وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم، واستمع إلى القرآن وهو يحكى لونا من رذائلهم فيقول:

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبنى إسرائيل ملخصها: أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون وجنده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذى غرق فيه عدوهم والذى مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام، فماذا كان من بنى إسرائيل؟.

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية، فطلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - الذى جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التى يعبدها أولئك القوم.

وهنا غضب عليهم موسى غضبًا شديدًا. ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق، وبين لهم فساد ما عليه المشركون، وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة، يوجب عليهم إفراده بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر.

وقوله - تعالى - ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ بيان للمنة العظيمة التى منحهم الله إياها، وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى، يصحبهم لطف الله، وتحدوهم عنايته ورعايته.

وجاوز بمعنى أصل الفعل الذى هو جاز، أى: قطعنا بهم البحر. يقال: جاز الوادى وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره.

والمراد بالبحر: بحر القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر.

وقوله تعالى ﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه، وأن ينفروا مما أبصروه، لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - لكى يزيدهم من فضله.

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تفارقهم، فهاهم أولاء ما إن وقعت أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم[1]، حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم، أن يجعل لهم وثنًا كغيرهم لكى يعبدوه من جديد. لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر، ما لبثوا أن قالوا لنبيهم ﴿يا موسى اجعل لنا إلـها كما لهم آلهة﴾. قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم، ما زال متمكنًا من نفوسهم، ومسيطرًا على عقولهم، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط؛ وما تكاد تسير فى طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس.

وفى قولهم لنبيهم ﴿اجعل لنا إلـها كما لهم آلهة﴾ بصيغة الأمر؛ أكبر دليل على غباء عقولهم، وسوء أدبهم؛ لأنهم لو استأذنوه - مثلا - فى اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة؛ ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله تعالى؛ والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكى يعبدوه كغيرهم!!.

---

(١) اختلف المفسرون فى شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم عند مرور بنى إسرائيل بهم، فقيل هم من عرب لخم. وقيل هم من لخم وجذام. وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى - قومه بقتالهم، وقيل إنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر.

قال القرطبي: ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط - لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة في كل سنة يومًا، قال الأعراب: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر. قلتم والذى نفسي بيده كما قال قوم موسى ﴿اجعل لنا إلـها كما لهم آلهة﴾ لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة[1] حتى إنهم لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه» وكان هذا فى مخرجه إلى حنين[2].

ولقد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم ردًا قويًا فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ أى: إنكم يا بنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم، وغطى على عقولكم، فصبرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم، وسفه النفس، وفساد العقل. وسوء التقدير.

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم، وفرط جهالاتهم، بين لهم فساد ما طلبوه فى ذاته، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾.

متبر: من التتبير بمعنى الإهلاك أو التكسير والتحطيم يقال: تبره يتبره وتبره أى أهلكه ودمره.

أى: إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان، محكوم على ما هم فيه بالدمار، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار، وستصير العبادة لله الواحد القهار.

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون، وصرح لهم بأن مصير ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير.

قال الإمام الرازى: (والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر، وتحقيق القول فى هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سببا لاستحكام ذكر الله تعالى فى القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها، فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعلق قلبه بغيره، ويصير ذلك التعلق سببا

---

(١) القذة: ريش السهم. قال ابن الأثير: يضرب مثلا للشيئين يستويان ولايتفاوتان.

(٢) تفسير القرطبي جـ٧ ص٢٧٣.

لإعراض القلب عن ذكره تعالى. وإذا ثبت هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع. وسعى فى تحصيل ضد هذا الشىء ونقيضه، لأنا بينا أن المقصود من العبادة رسوخ معرفة الله - تعالى - فى القلب. والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب، فكان هذا ضد الغرض ونقيضا للمطلوب - والله أعلم -)[1].

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب، ويبين لهم أن الله وحده هو المتستحق للعبادة فقال: ﴿أغير الله أبغيكم إلـها وهو فضلكم على العالمين﴾.

أى قال موسى - عليه السلام مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع: أغير الله أطلب لكم معبودًا أحملكم على العبودية له، وهو فضلكم على عالمى زمانكم، وقد كان الواجب عليكم أى تخصوه بالعبادة، كما اختصكم هو بشتى النعم الجليلة. فالاستفهام فى الآية الكريمة للانكار المشرب معنى التعجب لابتغائهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمرهم بنعمه، وأحاطهم بألوان إحسانه.

و«غير» كما قال الجمل -منصوب على أنه مفعول به لأبغيكم على حذف اللام والتقدير: أأبغى لكم غير الله إلـها، فلما حذف الحرف وصل الفعل بنفسه وهو غير منقاس. و«إلـها» تمييز لغير.

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل، ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون، فقال تعالى: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾.

«إذ» بمعنى وقت، وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى: اذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون. والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث.

وآل الرجل: أهله وخاصته وأتباعه. ويطلق غالبًا على أولى الشأن والخطر من الناس، فلا يقال آل الحجام أو الاسكاف.

و﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ يبغون لكم أشد العذاب وأفظعه من السوم وهو مطلق الذهاب، أو الذهاب فى ابتغاء الشىء. يقال: سامت الابل فهى سائمة، أى ذهبت إلى المرعى. وسام السلعة، إذا طلبها وابتغاها.

والسوء - بالضم - كل ما يحزن الإنسان ويغمه من الأمور الدنيوية أو الأخروية. ويستحيون: أى يستبقون. يقال: استحياه أى: استبقاه، وأصله: طلب له الحياة والبقاء.

(١) تفسير الرازى جـ٤ ص٢٩١.

والبلاء : الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر.

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم، ويستبقون نفوس نسائكم ليستخدموهن ويستذلوهن. وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان لكم لتشكروا الله على نعمه، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الاذلال فى الدنيا، والعذاب فى الأخرى.

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه، مع أنه هو الآمر بتعذيب بنى إسرائيل، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا له على إذاقتهم سوء العذاب، وفى إنزال ألوان الأذلال بهم.

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل - مع أنه فى ظاهره نعمة لهم - لأن هذا الابقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن، واستعمالهن فى شتى أنواع الخدمة، وإذلالهن بالاسترقاق، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل؛ وعذاب أليم، تأباه النفوس الكريمة، والطباع الحرة الأبية.

قال الامام الرازى ما ملخصه : فى قتل الذكور دون الاناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال، وذلك يقضى انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة فى ذلك، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعا.

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة.

فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها الرجال. لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد.

ثالثها : ان قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل الكد، والرجاء القوى فى الانتفاع به من أعظم العذاب. فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة.

رابعًا : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهن، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء. وذلك نهاية الذل والهوان(١).

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا الأطفال لا البالغين، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك، ولأن قتل الرجال لايفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال لما قامت أم موسى بإلقائه فى اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٣٨٥.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال، لا الأطفال، لأن لفظ الأبناء هنا جعل فى مقابلة النساء، والنساء هن البالغات.

والذى نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا، ولأنه أتم فى إظهار نعمة الانجاء، حيث كان آل فرعون يقتلون الصغار قطعًا للنسل، ويسترقون الأمهات استعبادًا لهن، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير، وسفاهة تفكير. فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلـهًا كما لغيرهم آلهة، ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه فى ذاته، لأن مصيره إلى الزوال والهلاك، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون الـهًا، ثم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لا تجوز بأى حال، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر، ثم ذكرتهم فى ختامها بوجوه النعم التى أسبغها الله عليهم، لتشعرهم بأن ما طلبوه من نبيهم، هو من قبيل مقابلة الاحسان بالجحود والنكران، ولتحملهم على أن يتدبروا أمرهم، ويراجعوا أنفسهم، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحا. ان كانوا ممن ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلات.

ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهد تطلع موسى - عليه السلام - للقاء ربه، ووصيته لأخيه هارون قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم فقالت:

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قال صاحب الكشاف: «روى أن موسى - عليه السلام - وعد بنى إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم اتاهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة، فلما اتم الثلاثين انكر خلوف فمه فتسوك. فقالت له الملائكة: كنا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله - تعالى - ان يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك. وقيل أمره الله أن يصوم ثلاثين يوما وان يعمل فيها بما يقربه من الله ثم انزل الله عليه فى العشر التوراة وكلمه فيها»[1].

والمواعدة مفاعلة من الجانبين، وهى هنا على غير بابها، لأن المراد بها هنا أن الله - تعالى - أمر موسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيدًا لإعطائه التوراة، ويؤيد ذلك قراءة أبى عمرو ويعقوب «وعدنا».

وقيل المفاعلة على بابها على معنى أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال.

وقوله ﴿ثلاثين﴾ مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف، أى: إتمام ثلاثين ليلة أو إتيانها.

والضمير فى قوله ﴿وأتممناها بعشر﴾ يعود على المواعدة المفهومة من قوله ﴿واعدنا﴾ أى: وأتممنا مواعدته بعشر، أو أنه يعود على ثلاثين:

وحذف تمييز عشر لدلالة الكلام عليه، أى: وأتممناها بعشر ليال.

و ﴿أربعين﴾ منصوب على الحالية أى: فتم ميقات ربه بالغًا أربعين ليلة.

ثم حكى - سبحانه - ما وصى به موسى أخاه هارون فقال: ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى﴾ أى: قال موسى لأخيه هارون حين استودعه ليذهب لمناجاة ربه: كن خليفتى فى قومى، وراقبهم فيما يأتون ويذرون فإنهم فى حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم ﴿وأصلح ولا تتبع طريق المفسدين﴾ الذين ﴿إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا﴾.

وإننا لنلمح من هذه الوصية أن موسى - عليه السلام - كان متوقعًا شرًا من قومه، ولقد

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٥١.

صح ما توقعه، فإنهم بعد أن فارقهم موسى استغلوا جانب اللين فى هارون فعبدوا عجلا جسدًا له خوار صنعه لهم السامرى. .

ثم حكى القرآن ما كان من موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه فقال: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ أى: وحين حضر موسى لموقتنا الذى وقتناه له وحددناه، وكلمه ربه، أى: خاطبه من غير واسطة ملك ﴿قال رب أرنى أنظر إليك﴾ أى: قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه: رب أرنى ذاتك الجليلة. والمراد مكنى من رؤيتك. أو تجل لى أنظر إليك وأراك.

و ﴿أرنى﴾ فعل أمر مبنى على حذف الياء. وياء المتكلم مفعول، والمفعول الثانى محذوف أى: ذاتك أو نفسك ولم يصرح به لأنه معلوم، وزيادة فى التأدب مع الخالق -عز وجل-.

وجملة ﴿قال لن ترانى﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيا، كأنه قيل: فماذا قال الله - تعالى - حين قال موسى ذلك، فكان الجواب ﴿قال لن ترانى﴾ أى: لن تطيق رؤيتى، وأنت فى هذه النشأة وعلى الحالة التى أنت عليها فى هذه الدنيا فنفى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية، أما فى الآخرة فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم فى روضات الجنات.

ثم قال - تعالى - ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى﴾ أى: لن تطيق رؤيتى يا موسى وأنت فى هذه الحياة الدنيا، ولكن انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك، فإن استقر مكانه أى ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت من هذا التجلى، فسوف ترانى أى تثبت لرؤيتى إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتى.

وفى هذا الاستدراك ﴿ولكن انظر﴾ . . . الخ، تسلية لموسى - عليه السلام - وتلطف معه فى الخطاب، وتكريم له، وتعظيم لأمر الرؤية، وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته.

ثم بين - سبحانه - ما حدث للجبل عند التجلى فقال: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾ أى: فحين ظهر نوره - سبحانه - للجبل على الوجه اللائق بجلاله ﴿جعله دكا﴾ أى مدقوقا مفتتا، فنبه - سبحانه - بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته مادام لم يستقر عند هذا التجلى، فالآدمى مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر. والدك والدق بمعنى، وهو تفتيت الشىء وسحقه وفعله من باب رد.

قال الآلوسى: وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التى يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم، أو التأويل بما يليق بجلال ذاته - تعالى -.

وقوله ﴿وخر موسى صعقا﴾ أى: سقط من هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلى مغشيا عليه، كمن أخذته الصاعقة.

يقال : صعقتهم السماء تصعقهم صعقا فهو صعق أى : غشى عليه .

وقوله : ﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ أى : فلما أفاق موسى من غشيته، وعاد إلى حالته الأولى التى كان عليها قبل أن يخر مغشيا عليه، قال تعظيما لأمر الله ﴿سبحانك﴾ أى تنزيها لك من مشابهة خلقك فى شىء ﴿تبت إليك﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك أو وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد.

قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون : ولكن يقول أنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. قال ابن كثير: وهو قول حسن.

هذا، وقد توسع بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية فى الحديث عن رؤية الله - تعالى - وعلى رأس هذا البعض الإمام الآلوسى، فقد قال - رحمه الله - : «واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته - سبحانه - بهذه الآية على جوازها فى الجملة، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك، وقامت الحرب بينهما على ساق، وخلاصة الكلام فى ذلك أن أهل السنة قالوا : إن الآية تدل على إمكان الرؤية من وجهين :

الأول : أن موسى - عليه السلام - سألها بقوله ﴿رب أرنى أنظر إليك﴾ ولو كانت مستحيلة فإن كان موسى عالما بالاستحالة فالعالم -فضلا عن النبى مطلقا، فضلا عمن هو من أولى العزم- لا يسأل المحال ولا يطلبه. وإن لم يكن عالما بذلك، لزم أن يكون آحاد المعتزلة أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبى الصفى، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة وحيث بطل القول بالاستحالة تعين القول بالجواز.

والثانى : أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن فى ذاته وما علق على الممكن ممكن».

ثم قال ما ملخصه : واعترض الخصوم على الوجه الأول بوجوه منها أنا لا نسلم أن موسى سأل الرؤية وإنما سأل العلم الضرورى به - تعالى - إلا أنه عبر عنه بالرؤية مجازًا. أو أنه سأل رؤية علم من أعلام الساعة بطريق حذف المضاف، أى : أرنى أنظر إلى علم من أعلامك الدالة على الساعة. أو أنه سأل الرؤية لا لنفسه ولكن لدفع قومه القائلين ﴿أرنا الله جهره﴾ وإنما أضاف الرؤية إليه دونهم ليكون منعه أبلغ فى دفعهم وردعهم عما سألوه تنبيها بالأدنى على الأعلى.

واعترضوا على الوجه الثانى بأنا لا نسلم أنه علق الرؤية على أمر ممكن، لأن التعليق لم يكن على استقرار الجبل حال سكونه وإلا لوجدت الرؤية ضرورة وجود الشرط، لأن الجبل حال سكونه كان مستقرا، بل على استقراره حال حركته وهو محال لذاته.

ثم أورد الآلوسى بعد ذلك ما رد به كل فريق على الآخر مما لا مجال لذكره هنا[1].

والذى نراه أن رؤية الله فى الآخرة ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك، أما فى الدنيا فقد منع العلماء وقوعها، وقد بينا ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى - ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[2].

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله - تعالى - به موسى - عليه السلام فقال: ﴿قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾.

الاصطفاء. افتعال من الصفوة، وصفوة الشىء خالصه وخياره أى: قال الله تعالى - لموسى إنى اخترتك واجتبيتك على الناس الموجودين فى زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده، فهو اصطفاء على جيل معين من الناس بحكم هذه القرينة.

وقوله ﴿برسالاتى﴾ أى: بأسفار التوراة، أو بإرسالى إياك إلى من أرسلت إليهم. و﴿بكلامى﴾ أى: بتكليمى إياك بغير واسطة قال - تعالى - ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾.

والجملة الكريمة مسوقة لتسليته - عليه السلام - عما أصابه من عدم الرؤية فكأنه - سبحانه - يقول له: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه ودم على شكرى.

وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق، أو ليترقى إلى الأشرف.

ثم قال - تعالى - ﴿فخذ ما آتيك وكن من الشاكرين﴾ أى: فخذ يا موسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراسخين فى الشكر على ما أنعمت به عليك، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ٩ من ص٤٦ - ٥٥.
(٢) راجع تفسير سورة الأنعام ص٢٢٨.

ثم فصل - سبحانه - بعض النعم التى منحها لنبيه موسى وقال : ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء﴾.

والمراد بالألواح كما قال ابن عباس - ألواح التوراة، واختلف فى عددها فقيل : سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك. كما اختلف فى شأنها فقيل كانت من سدر الجنة، وقيل كانت من زبرجد أو زمرد. . . . إلخ.

والذى نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله - ﷺ - فى عددها أو كيفيتها.

والمعنى : وكتبنا لموسى - عليه السلام - فى ألواح التوراة من كل شىء يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح. ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر فى قلوبهم ترغيبًا وترهيبًا، كما كتبنا له فى تلك الألواح تفصيل كل شىء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية.

وإسناد الكتابة إليه - تعالى - إما على معنى أن ذلك كان بقدرته - تعالى - وصنعه ولا كسب لأحد فيه، وإما على معنى أنها كتبها بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو ملك من ملائكته - عز وجل -.

قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة : وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة. والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الإجمالى، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبه بها الله - تعالى - فى أوقات الحاجة إليها»[1].

وقوله ﴿موعظة وتفصيلا لكل شىء﴾ بدل من قوله ﴿من كل شىء﴾ باعتبار محله وهو النصب لأن من مزيدة كما يرى كثير من النحاة. أى : كتبنا له فيها كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام.

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿فخذها بقوة﴾ يعود إلى الألواح. والفاء عاطفة لمحذوف على كتبنا، والمحذوف هو لفظ قلنا وقوله ﴿بقوة﴾ حال من فاعل خذها أى : كتبنا له فى الألواح من كل شىء، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم، وصبر وجلد، لأنه - عليه السلام - قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم فى الذل والاستعباد، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى ما فيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين، فإنه قد يعجز عن تربيتهم. ويفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم.

قال الجمل : وقوله - تعالى - ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أى التوراة ومعنى بأحسنها

(١) تفسير المنار جـ٩ ص١٩٠.

بحسنها إذ كل ما فيها حسن، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، وفعل الخير أحسن من ترك الشر، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب. أو أن فيها حسنًا وأحسن كالقود والعفو، والانتصار والصبر، والمأمور به والمباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثوابا[١].

وقوله - تعالى - ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والتهديد.

أى: سأريكم عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتى، كيف يصير إلى الهلاك والدمار، فتلك سنتى التى لا تتغير ولا تتبدل.

قال ابن كثير: وإنما قال ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدًا ما يصير إليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره[٢]

وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر، كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم.

وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم.

وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون. فإنهم لم يدخلوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون.

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله فى خلقه، وهذه السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمر ربها تكون عاقبتها الذل والدمار، ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين.

فالآية الكريمة قد اشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى -عليه السلام- كما إشتملت على الأمر الصريح منه - سبحانه - له بأن يهيىء نفسه لحمل تكاليف الرسالة بعزم وصبر، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا بأكملها وأعلاها بدون ترخيص أو تحايل، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة وعزيمتهم ضعيفة، ونفوسهم منحرفة. كما اشتملت على التحذير الشديد لكل من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرماته.

ثم بين - سبحانه - عاقبة من يتكبرون فى الأرض بغير الحق فقال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٩٠.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٤٦.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله - تعالى - ﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق﴾ استئناف مسوق لبيان أن أعداء دعاة الحق هم المستكبرون، لأن من شأن التكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على وجوه الخير. ومعنى صرف هؤلاء المتكبرين عن الانتفاع بآيات الله وحججه، منعهم عن ذلك بالطبع على قلوبهم لسوء استعدادهم لا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يعتبرون.

أى: سأطبع على قلوب هؤلاء الذين يعدون أنفسهم كبراء، ويرون أنفسهم أنهم أعلى شأنًا من غيرهم، مع أنهم أجهل الناس عقلا، وأتعسهم حالا.

وقوله ﴿بغير الحق﴾ صلة للتكبر على معنى يتكبرون ويتطاولون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، وسفههم المفرط، أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله، أى يتكبرون متلبسين بغير الحق.

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه من عناد وجحود فقال: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أى: وإن يروا كل آية من الآيات التى تهدى إلى الحق وترشد إلى الخير لا يؤمنوا بها لفساد قلوبهم، وحسدهم لغيرهم على ما آتاه الله من فضله، وتكبرهم على الناس. والجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿يتكبرون فى الأرض بغير الحق﴾ داخلة معها فى حكم الصلة.

والمقصود بالآية إما المنزلة فيكون المراد برؤيتها مشاهدتها والإحساس بها عن طريق السماع. وإمَّا ما يعمها وغيرها من المعجزات، فيكون المراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والإبصار.

﴿وإن يروا سبيل الرشد﴾ أى : الصلاح والاستقامة والسداد ﴿لا يتخذوه سبيلا﴾ أى : لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه لمخالفته لأهوائهم وشهواتهم ﴿وإن يروا سبيل الغى﴾ أى : طريق الضلال عن الحق ﴿يتخذوه سبيلا﴾ أى : طريقًا يميلون إليه، ويسيرون فيه بدون تفكر أو تدبر. وهذا شأن من مرد على الضلال، وانغمس فى الشرور والآثام. إنه لإلفه المنكرات صار الحسن عنده قبيحا والقبيح حسنا، وصدق الله إذ يقول : ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان الأسباب التى أدت بهم إلى هذا الضلال العجيب فقال - تعالى : ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أى : ذلك المذكور من التكبر وعدم الإيمان بشىء من الدلائل الدالة على الحق وإعراضهم عن سبيل الهدى. وإقبالهم التام على طريق الغواية، كائن بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على بطلان ما هم عليه من أباطيل، وبسبب أنهم كانوا عن هذه الآيات غافلين لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بما اشتملت عليه من عظات.

فالله - تعالى - لم يخلقهم مطبوعين على شىء مما ذكر طبعًا، ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراهًا، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق.

واسم الإشارة ﴿ذلك﴾ مبتدأ، وخبره الجار والمجرور بعده، أى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم.

ثم قال - تعالى - ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ أى : بطلت وفسدت وصارت هباء منثورا، بسبب تكذيبهم لآيات الله، وإنكارهم للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

والاستفهام فى قوله ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ للنفى : أى : لا يجزون يوم القيامة إلا الجزاء الذى يستحقونه بسبب أعمالهم فى الدنيا. فربك - سبحانه - لا يظلم أحدا.

وقوله ﴿والذين كذبوا﴾ فى خبره وجهان :

أحدهما : أنه الجملة من قوله : ﴿حبطت أعمالهم﴾ وهل يجزون خبر ثان أو مستأنف.

والثانى : أن الخبر ﴿هل يجزون﴾ والجملة من قوله ﴿حبطت أعمالهم﴾ فى محل نصب على الحال وقد مضمرة عند من يشترط ذلك، وصاحب الحال فاعل كذبوا.

وقوله ﴿ولقاء الآخرة﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه من باب إضافة المصدر لمفعوله والفاعل محذوف والتقدير : ولقائهم الآخرة.

والثانى : أنه من باب إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد الله فى الآخرة»[١].

ثم قصت السورة علينا رذيلة من رذائل بنى إسرائيل المتعددة، وذلك أنهم بعد أن تركهم موسى - عليه السلام - وذهب لمناجاة ربه مستخلفا عليهم أخاه هارون، انتهزوا لين جانب هارون معهم، فعبدوا عجلا جسدًا له خوار صنعه لهم السامرى من الحلى التى استعارها نساؤهم من نساء قبط مصر.

وحاول هارون - عليه السلام - أن يصدهم عن ذلك بشتى السبل، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾، وأعلم الله - تعالى - موسى بما حدث من قومه فى غيبته فعاد إليهم مغضبا حزينا، فوبخهم على كفرهم وجهالاتهم، وعاتب بشدة أخاه هارون لتركه إياهم يعبدون العجل ولكن هارون اعتذر له، وأقنعه بأنه لم يقصر فى نصيحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين.

وعلى مشهد من بنى إسرائيل أحرق موسى العجل، وقال للسامرى رأس الفتنة ومدبرها ﴿وانظر إلى إلـهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفًا * إنما إلـهكم الله الذى لا إلـه إلا هو وسع كل شىء علمًا﴾ وبذلك أثبت موسى - عليه السلام - لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله رب العالمين.

واستمع معى إلى هذه الآيات التى قصت علينا ما حدث منهم بأسلوبها البليغ فقالت:

وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ
سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا
رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي
مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٦١.

أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ
يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي
رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار﴾ بيان لما صنعه بنو إسرائيل بعد فراق موسى - عليه السلام - لهم، وذهابه لتلقى التوراة عن ربه. مستخلفا عليهم أخاه هارون.

والحلى[١] - بضم الحاء والتشديد - جمع حلى - بفتح فسكون - كثدى وثدى - وهى اسم لما يتزين به من الذهب والفضة، وهذه الحلى كان نساء بنى إسرائيل - قبيل خروجهن من مصر - قد استعرنها من نساء المصريين، فلما أغرق الله - تعالى - فرعون وقومه، بقيت تلك الحلى فى أيديهن، فجمعها السامرى بحجة أنها لا تحل لهن، وصاغ منها عجلا جسدا له خوار، وأوهمهم بأن هذا إلـههم وإلـه موسى فعبدوه من دون الله.

قال الحافظ ابن كثير: (وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر، على قولين والله أعلم[٢]

والمعنى: واتخذ قوم موسى من بعد فراقه لهم لأخذ التوراة عن ربه عجلا جسدا له صوت البقر ليكون معبودا لهم.

---

(١) قال القرطبى: (من حليهم) هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما (من حليهم) بكسر الحاء، وقرأ يعقوب حليهم (بفتح الحاء والتخفيف). اهـ جـ٧ ص٢٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٤٧.

وقوله ﴿عجلا﴾ مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعمل. وقيل إن اتخذ متعد إلى اثنين وهو بمعنى صير والمفعول الثانى محذوف أى: إلٰها.

و﴿جسدا﴾ بدل من ﴿عجلا﴾ أو عطف بيان أو نعت له بتأويل متجسدا.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت لم قيل: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا﴾ والمتخذ هو السامرى؟ قلت فيه وجهان:

أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم لأن رجلا منهُم باشره ووجد بين ظهرانيهم، كما يقال بنو تميم قالوا كذا، وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد. ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به فكأنهم أجمعوا عليه.

والثانى: أن يراد واتخذوه إلـها وعبدوه. فإن قلت لم قال من حليهم ولم تكن الحلى لهم إنما كانت عارية فى أيديهم؟ قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسه وكونها عوارى فى أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾[1] اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا﴾ تقريع لهم على جهالاتهم. وبيان لفقدان عقولهم، والمعنى: أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم، أنهم لم يفطنوا حين عبدوا العجل، أنه لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر، من الكلام والارشاد إلى أى طريق من طرق الإفادة، وليس ذلك من صفات ربهم الذى له العبادة، لأن من صفاته - تعالى - أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى طريق الخير، وينهاهم عن طرق الشر!!

ثم أكد - سبحانه - ذمهم بقوله ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أى: اتخذوا العجل معبودا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأى كلام، ولا يرشدهم إلى أى طريق، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله، وبوضعهم الأمور فى غير مواضعها.

وفى التعبير عن ظلمهم بلفظ (كانوا) المفيد للدوام والاستمرار، إشعار بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ وأن ما صدر عنهم ليس بدعا منهم ولا أول مناكيرهم، فقد سبق لهم أن قالوا لنبيهم بمجرد أن أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون﴾.

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى: ﴿ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أى وحين اشتد

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٥٩.

ندمهم على عبادة العجل، وتبينوا ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أى لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم.

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه الله التوراة، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ وبدليل أن موسى - عليه السلام - لما رجع أنكر عليهم ما هم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بما هم عليه من ضلال مبين.

ولذلك قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ولما سقط فى أيديهم﴾ (ولما ندم الذين عبدوا العجل الذى وصف - جل ثناؤه - صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم، وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف، وعاجز عن شىء: قد سقط فى يديه وأسقط، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك بأن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه، فيرمى به من بين يديه إلى الأرض ليأسره، فالمرمى به مسقوط فى يدى الساقط به، فقيل لكل عاجز عن شىء ومتندم على مافاته: سقط فى يديه وأسقط)[1].

وعبر - سبحانه - عن شدة ندمهم بقوله تعالى: ﴿ولما سقط فى أيديهم﴾ لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطًا فيها، لأن فاه قد وقع فيها. وكأن أصل الكلام ولما سقطت أفواههم فى أيديهم، أى ندموا أشد الندم.

قال صاحب تاج العروس: وفى (العباب) هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ولا عرفته العرب (والأصل فيه نزول الشىء من أعلى إلى أسفل)، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه، وذكر اليد لأن الندم يحدث فى القلب. وأثره يظهر فى اليد، كقوله تعالى: ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ ولأن اليد هى الجارحة العظمى، فربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾[2] اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ بيان للحالة التى كان عليها موسى - عليه السلام - عند رجوعه من الطور، ومشاهدته للعجل الذى عبده قومه، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله - تعالى - وحزينا لفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار.

قال الإمام الرازى: فى الأسف قولان:

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٩ ص٦٢.

(٢) تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٨٥٩.

الأول : أن الأسف الشديد : الغضب، وهو قول أبى الدرداء وعطاء عن ابن عباس، واحتجوا له بقوله تعالى : ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ أى : أغضبونا :

والثانى : أن الأسف هو الحزن، وهو قول الحسن والسدى وغيرهما، واحتجوا له بحديث عائشة أنها قالت : «إن أبا بكر رجل أسيف أى حزين».

قال الواحدى : والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن، والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت. وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والأخرى غضبا»[١].

وقوله ﴿غضبان أسفًا﴾ منصوبان على الحال من موسى عند من يجيز تعدد الحال. وعند من لا يجيزه يجعل أسفا حالا من الضمير المستكن فى غضبان فتكون حالا متداخلة.

وقول موسى لقومه : ﴿بئسما خلفتمونى من بعدى﴾ ذم منه لهم، والمعنى : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم. حيث عبدتم العجل، وأشربت قلوبكم محبته، ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به إليكم، من توحيد الله، وإخلاص العبادة، والسير على سنتى وشريعتى.

قال الجمل : و «بئس» فعل ماض لإنشاء الذم، وفعله مستتر تقديره هو، و«ما» تمييز بمعنى خلافة، وجملة خلفتمونى صفة لما. والرابط محذوف، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم[٢].

وقوله ﴿من بعدى﴾ معناه : من بعد ما رأيتم منى توحيد الله، ونفى الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت احمل بنى إسرائيل على التوحيد واكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا ﴿اجعل لنا إلـها كما لهم آلهة﴾. ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه.

وقوله تعالى ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ معناه أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم وهو انتظارى حافظين لعهدى، وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله، فغيرتم وعبدتم العجل قيل : كانوا قد استبطأوا نزوله من الجبل، فخدعهم السامرى وصنع لهم العجل فعبدوه، وجعلوا يغنون ويرقصون حوله ويقولون : هذا هو الإلـه الحق الذى انقذنا من الظلم، قال صاحب الكشاف : يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام. ويضمن معنى

---

(١) تفسير الرازى جـ٤ ص٣٠٢.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٩٣.

سبق فعدى تعديته فقال : عجلت الأمر. والمعنى : اعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم، فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم.

وروى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل : هذا إلـهكم وإلـه موسى، وأن موسى لن يرجع وأنه قد مات.

وروى أنهم عدوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا(١).

ثم بين - سبحانه - أن غضب موسى ترتب عليه أمران يدلان على شدة الانفعال :

أولهما : قوله تعالى : ﴿وألقى الألواح﴾ أى طرحها من يديه لما اعتراه من فرط الدهش، وشدة الضجر، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، فإلقاؤه الألواح لم يكن إلا غضبا لله، وحمية لدينه، وسخطا على قومه الذين عبدوا ما يضرب به المثل فى البلادة.

قال الآلوسى : قوله - تعالى - ﴿وألقى الألواح﴾ حاصله أن موسى لما رأى من قومه ما رأى غضب غضبا شديدا حمية لدينه فعجل فى وضع الألواح لتفرغ يده فيأخذ برأس أخيه فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء تفظيعا لفعل قومه حيث كانت معاينته سببا لذلك وداعيا إليه، وليس فيه ما يتوهم منه الإهانة لكتاب الله بوجه من الوجوه. وإنكسار بعض الألواح حصل من فعل مأذون فيه ولم يكن غرض موسى ولا مر بباله ولا ظن ترتيبه على ما فعل. وليس هناك إلا العجلة فى الوضع الناشئة من الغيرة لله. وقد أنكر بعض العلماء أن يكون شىء منها قد تكسر، لأن ظاهر القرآن خلافه. نعم أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال. قال رسول الله ﷺ «يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها»(٢).

وثانيهما : قوله تعالى : وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ أى. أخذ موسى بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه غضبا منه، لظنه أنه قد قصر فى نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل. ولكن هارون - عليه السلام - أخذ يستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، ليسكن من غضبه الشديد. وليكشف له عن طبيعة الموقف، وليبرىء ساحته من مغبة التقصير، فقال له : ﴿يا ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلاتشمت بى الأعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين﴾. أى : قال هارون لموسى مستعطفا : يا ابن أمى -بهذا النداء الرقيق وبتلك الوشيجة الرحيمة- لاتعجل بلومى وتعنيفى، فإنى ما آليت جهدا فى الإنكار عليهم،

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٠.
(٢) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٦٧.

وما قصرت فى نصيحتهم ولكنهم لم يستمعوا إلى، بل قهرونى واستضعفونى، وأوشكوا أن يقتلونى عندما بذلت أقصى طاقتى لأخفف هياجهم واندفاعهم نحو العجل، فلا تفعل بى ما هو أمنيتهم ومحل شماتتهم، من الاستهانة بى والإساءة إلى، فإن من شأن الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء، ولا تجعلنى فى زمرة القوم الظالمين، فإنى برىء منهم، ولقد نصحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين.

وهنا اقتنع موسى - عليه السلام - ببراءة هارون من مغبة التقصير فقال:

﴿رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ أى: قال موسى ليرضى أخاه، وليظهر لأهل الشماتة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته: رب اغفر لى ما فرط منى من قول أو فعل فيه غلظة على أخى. واغفر له كذلك ما عسى أن يكون قد قصر فيه مما أنت أعلم به منى، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء فأنت أرحم بعبادك من كل راحم.

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير، وأثبت أنه قد عرض نفسه للأذى فى سبيل أن يصرف عابدى العجل عن عبادته وفى ذلك تصحيح لما جاء فى التوراة (الفصل الثانى والثلاثين من سفر الخروج) من أن هارون - عليه السلام - هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل ليعبدوه فى غيبة موسى - عليه السلام -.

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى شأن عبدة العجل فقال تعالى:

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين﴾.

والمعنى. إن الذين اتخذوا العجل معبودا، واستمروا على ضلالتهم سيحيق بهم سخط شديد من ربهم، ولا تقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وسيصيبهم كذلك هوان وصغار فى الحياة الدنيا، وبمثل هذا الجزاء نجازى المفترين جميعا فى كل زمان ومكان، لخروجهم عن طاعتنا، وتجاوزهم لحدودنا، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة من بنى إسرائيل وغيرهم.

ثم فتح - سبحانه - بابه لكل تائب صادق فى توبته فقال تعالى: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.

والمعنى: والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحا، ورجعوا إلى الله - تعالى - معتذرين نادمين مخلصين الإيمان له، فإن الله - تعالى - من بعد الكبائر التى أقلعوا عنها لساتر عليهم اعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين.

• وإلى هنا تكون الآيات الكريمة - بعد أن دمغت بنى إسرائيل بما يستحقونه من تقريع ووعيد - قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة ليفيئوا إلى نور الحق، وليتركوا ما انغمسوا فيه من ضلالات وجهالات.

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال:

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

السكوت فى أصل اللغة ترك الكلام، والتعبير القرآنى هنا يشخص الغضب كأنما هو كائن حى يدفع موسى ويحركه، ثم تركه بعد ذلك. ففى الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آمر، ناه. وأثبت له السكوت على طريق التخييل.

قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ هذا مثل. كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك، وقطع الإغراء. ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبل شُعب البلاغة. وإلا، فما لقراءة معاوية بن قرة «ولما سكن عن موسى الغضب» لا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة، وطرفا من تلك الروعة»(١).

والمعنى: وحين سكت غضب موسى بسبب اعتذار أخيه وتوبة قومه أخذ الألواح التى كان قد ألقاها.

وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تتكسر، ولم يرفع من التوراة شىء، وأنه أخذها بعينها.

وقوله ﴿وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ أى: أخذ موسى الألواح التى سبق له أن ألقاها، وفيما نسخ فى هذه الألواح أى: كتب هداية عظيمة إلى طريق الحق، ورحمة واسعة للذين هم لربهم يرهبون. أى: يخافون أشد الخوف من خالقهم -عز وجل-.

والنسخ: الكتابة، ونسخة هنا بمعنى منسوخة أى. مكتوبة، والمراد وفى منسوخها ومكتوبها هدى ورحمة.

و ﴿هم﴾ مبتدأ. ويرهبون خبره، والجملة صلة الموصول، واللام فى ﴿للذين﴾ متعلقة

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٦٣.

بمحذوف صفة لرحمة أى: كائنة لهم. أو هى لام العلة أى. هدى ورحمة لأجلهم. واللام فى لربهم» لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله - تعالى - : ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أو هى أيضا لام العلة والمفعول محذوف، أى: يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا للرياء والتباهى.

ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع السبعين الذين اختارهم من قومه فنقول:

وَٱخْتَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾
۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى
وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قال الآلوسى: قوله - تعالى - ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا﴾ تتمة لشرح أحوال بنى إسرائيل وقال البعض: إنه شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها. واختار -من الاختيار بمعنى الانتخاب والاصطفاء- وهو يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن وقد حذفت هنا وأوصل الفعل والأصل من قومه، والمفعول الأول سبعين»[1].

أى: اختار موسى سبعين رجلا من قومه للميقات الذى وقته الله له، ودعاهم للذهاب معه.

وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلا من

(١) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٧١.

القوم جميعا فى الاختيار، وكأن بنى إسرائيل على كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلاء سوى هؤلاء السبعين.

وتختلف روايات المفسرين فى سبب هذا الميقات وزمانه، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم الله فيه موسى تكليما فقد كان معه سبعون رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة، فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى، وأن يروه جهرة فأخذتهم الصاعقة، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد عبدوا العجل فى غيبته.

والذى نرجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول، وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى، فقد عرفنا أن الله قد أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة، فرجع موسى إليهم مسرعا ووبخهم على صنيعهم وأحرق العجل، وأمره الله - تعالى - بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فاختار موسى هؤلاء السبعين، وهناك روايات ترجح ذلك منها ما جاء عن محمد بن إسحاق قال: إن موسى - عليه السلام - لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه والسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم، اختار من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخيّر فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، فصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون - فيما ذكر لى - حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه. ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه، أفعل ولا تفعل، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا له: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة﴾ وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد فماتوا جميعًا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى﴾ قد سفهوا، أتهلك من ورائى من بنى إسرائيل»[1].

وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بنى إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى -

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٤٩.

عليه السلام - مالا يصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف.

وقوله : ﴿فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى﴾ أى : فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى يا رب إننى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل، لأنهم سيقولون لى : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم.

ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى موتهم جميعا ثم أحياهم الله -تعالى- بعد ذلك، ويرى آخرون أنهم غشى عليهم ثم أفاقوا.

وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التى اقترفها قومه. بعد أن من عليهم - سبحانه - بالنعم السابقة الوافرة، وأنقذهم من فرعون وقومه. فكأنه يقول : يا رب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جريًا على مقتضى كرمك.

ومفعول المشيئة محذوف، أى : لو شئت إهلاكهم لأهلكتهم.

وقوله ﴿وإياى﴾ معطوف على الضمير فى ﴿أهلكتهم﴾، وقد قال موسى ذلك تسليما منه لأمر الله وقضائه وإن كان لم يسبق منه ما يوجب هلاكه، بل الذى سبق منه إنما هو الطاعة الكاملة لله رب العالمين.

والاستفهام فى قوله ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ للاستعطاف الذى بمعنى النفى أى : ألجأ إليك يا مولانا ألا تهلكنا بذنب غيرنا فلئن كان هؤلاء السفهاء قد خرجوا عن طاعتك، وانتهكوا حرماتك. فنحن يا رب مطيعون لك وخاضعون لأمرك.

قوله ﴿إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ استئناف مقرر لما قبله، و ﴿إن﴾ نافية. والفتنة : الابتلاء والاختبار، والباء فى ﴿بها﴾ للسببية أى : ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك، فأنت الذى ابتليتهم واختبرتهم، فالأمر كله لك وبيدك. لا يكشفه إلا أنت. كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت. فنحن عائذون بك منك. ولاجئون منك إليك. ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

وقوله ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ أى : أنت القائم بأمورنا كلها لا أحد غيرك، فاغفر لنا ما فرط منا، وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شيء، وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغرض نفسانى ، كحب الثناء، واجتلاب المنافع، أما أنت - يا إلهنا - فمغفرتك لا لطلب عوض أو غرض وإنما هى لمحض الفضل والكرم.

ثم أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعوات أخرى فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة﴾ أى : وأثبت لنا فى هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق، وأثبتت لنا فى الآخرة - أيضا - ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السمٰوات والأرض.

وقوله ﴿إنا هدنا إليك﴾ استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة الصادقة تجعل الدعاء جديرا بالإجابة، أى : لأنا تبنا إليك من المعاصى التى جئناك للاعتذار منها. فاكتب لنا الحسنات فى الدارين، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل.

وهدنا : بمعنى تبنا. يقال : هاد يهود إذا رجع وتاب.

وصدرت الجملة الكريمة بـ«إن» المفيدة للتحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة فى مضمونها. وقوله : ﴿قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - عند دعاء موسى، فكان الجواب : قال عذابى... الخ.

ثم قال الله - تعالى - لموسى ردا على دعائه : يا موسى إن عذابىْ الذى تخشى أن يصيب قومك اصيب به من اشاء تعذيبه من العصاة، فلا يتعين ان يكون قومك محلا له بعد توبتهم، فقد اقتضت حكمتى ان اجازى الذين اساءوا بما عملوا واجازى الذين احسنوا بالحسنى. ﴿ورحمتى وسعت كل شىء﴾ فلاتضيق عن قومك، ولا عن غيرهم من خلقى ممن هم أهل لها.

وقد استفاضت الآيات والأحاديث التى تصرح بأن رحمة الله - تعالى - قد وسعت كل شىء ومن ذلك قوله ﷺ : إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة.

ثم بين - سبحانه - من هم أهل لرحمته فقال : ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

أى : فسأكتب رحمتى للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم.

وتخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى. لأن إيتاءها كان شاقًا على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال.

ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات. اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة

عن فعل الواجبات بأسرها. وترك المنهيات عن آخرها.

وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيمانا تاما خالصًا لا رياء فيه. ولا نقص معه.

ثم أضاف - سبحانه - صفات أخرى لمن هم أهل لرحمته ورضوانه.

وهذه الصفات تنطبق كل الانطباق على محمد ﷺ الذى أمر بنو إسرائيل وغيرهم باتباعه فقال تعالى:

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله - تعالى - ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى﴾ فى محل جر على أنه نعت لقوله: ﴿للذين يتقون﴾ أو بدل منه. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. أى: هم الذين يتبعون.... الخ.

وقد وصف الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ بأوصاف كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به.

الوصف الأول: أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيرًا و نذيرًا.

الوصف الثانى: أنه نبى أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين.

الوصف الثالث: أنه أمى ما قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله - تعالى - أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل - عليه السلام -، وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادىء توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية، فأميته مع هذه العلوم التى يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى من الله إليه.

قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا﴾(١).

وقال - سبحانه - ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون﴾(٢).

الصفة الرابعة: أشار إليها بقوله ﴿الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ أى هذا الرسول النبى الأمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، ووجود اسمه ونعته فى كتبهم من أكبر الدواعى إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه ولقد كان اليهود يبشرون ببعثة النبى ﷺ قبل زمانه ويقرؤون فى كتبهم ما يدل على ذلك، فلما بعث الله - تعالى - نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى، وأما الذين استنكفوا واستكبروا، وحسدوا محمدا ﷺ على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبى ﷺ فيها، «أو يؤولونه تأويلا فاسدًا أو يكتمونه عن عامتهم.

ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم أو تأويلهم السقيم له، أو كتمانه عن الأميين منهم. أبى الله - تعالى - إلا أن يتم نوره، إذ بقى فى التوراة والإنجيل ما بشر بالنبى ﷺ وصرح بنعوته وصفاته، بل وباسمه صريحا.

وقد تحدث العلماء الاثبات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته، وها نحن نذكر طرفا مما قاله العلماء فى هذا الشأن.

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢.
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٨.

قال الإمام الماوردى فى (أعلام النبوة) : (وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء، بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على أممهم، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه الله - تعالى - على غيبه، ليكون عونا للرسل، وحثا على القبول، فمنهم من عينه باسمه، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه، ومنهم من أضافه إلى بلده، ومنهم من خصه بأفعاله، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره، وقد حقق الله - تعالى - هذه الصفات جميعها فيه، حتى صار جليًا بعد الاحتمال، ويقينا بعد الارتياب)[1].

وجاء فى (منية الأذكياء فى قصص الأنبياء) : (إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - قد بشر به الأنبياء السابقون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يجدهم نفعا، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان فى اسم، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف. لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات ليبعد صدقها على النبى ﷺ فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره، ولا ما قصد به. ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم. لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها»[2].

وقال المرحوم الشيخ (رحمة الله الهندى) فى كتابه (إظهار الحق) (إن الأخبار الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن - أيضا- مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب. ومن عرف أولا طريق أخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر. ثم نظر ثانيا بنظر الانصاف إلى هذه الاخبارات وقابلها بالاخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى - عليه السلام - جزم بأن الاخبارات المحمدية فى غاية القوة)[3].

وقد جمع صاحب كتاب (إظهار الحق) وغيره من العلماء والمؤرخين كثيرًا من البشائر التى وردت فى التوراة والإنجيل خاصة بالنبى ﷺ ومبينة نعوته وصفاته.

ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصًا بالنبى ﷺ ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : (قرأت فى التوراة صفة النبى ﷺ (محمد رسول الله : عبدى ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة

---

(١) الباب الخامس عشر: فصل (بشائر الأنبياء بنبوة محمد ﷺ).

(٢) نقلا عن تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٨٧٤.

(٣) كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندى.

السيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إلـه إلا الله)[١].

كذلك مما يشهد بوجود النبى ﷺ فى التوراة، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى صخر العقيلى قال : (حدثنى رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة[٢]. إلى المدينة فى حياة النبى ﷺ فلما فرغت من بيعى قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشيان، فتبعتهم حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال له رسول الله ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى) فقال برأسه هكذا، أى : لا ، فقال ابنه : أى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك، وإنى أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال الرسول ﷺ «أقيموا اليهودى عن أخيكم» ثم تولى كفنه والصلاة عليه.

هذا، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء فى ذلك[٣].

ثم وصف الله - تعالى - رسوله ﷺ بصفة خامسة فقال تعالى : ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ أى هذا الرسول النبى الأمى الذى يجده أهل الكتاب مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور التى جاء بها الشرع الحنيف. وارتاحت لها العقول السليمة، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى ومساوىء الأخلاق.

ثم وصف الله - تعالى - رسوله محمدًا ﷺ بصفة سادسة فقال تعالى : ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ أى : يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم عقوبة لهم، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به الله كلحوم الإبل وألبانها، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى المأكولات، وكأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذلك سعادتهم وفلاحهم.

ثم وصف الله تعالى - رسوله ﷺ بصفة سابعة فقال تعالى : ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾.

الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه. أى يحبسه عن الحركة لثقله، ويطلق على العهد كما فى

---

(١) صحيح البخارى. باب «كراهة الصخب فى الأسواق» من «كتاب البيوع» جـ٣ ص٨٣.

(٢) الحلوبة : الشاة ذات اللبن وهى للواحد وللجمع.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥١.

قوله تعالى : ﴿قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى﴾ أى عهدى.

قال القرطبى : «وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال، كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض، ومؤاكلتها ومضاجعتها. فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه. وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا حاضت المرأة لم يقربوها. إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره»(١).

والأغلال : جمع غل. وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد. والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة. فقد شبه - سبحانه - ما أخذ به بنو إسرائيل من الشدة فى العبادات والمعاملات والمأكولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أثقالا يئن من حملها وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل؛ والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه.

والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبى الأمى أنه جاءهم ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم. لأنه - عليه الصلاة والسلام جاء بالتبشير والتخفيف. وبعث بالحنيفية السمحة. ومن وصاياه ﷺ : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا».

قال الإمام ابن كثير : «وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم. فوسع الله على هذه الأمة أمورها. وسهلها لهم. ولهذا قال رسول الله ﷺ «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل».وقال : «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به. واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.
وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلت قد فعلت»(٢).

إذًا، فمن الواجب على بنى إسرائيل أن يتبعوا محمدًا ﷺ الذى هذه صفاته، والذى فى اتباعه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم، ولهذا ختم الله - تعالى - الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبيه فقال تعالى :

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون﴾.

أى : فالذين آمنوا بهذا الرسول النبى الأمى من بنى إسرائيل وغيرهم وعزروه، بأن منعوه

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٥٤.

وحموه من كل من يعاديه، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر ﴿واتبعوا النور الذى أنزل معه﴾ وهو القرآن والوحى الذى جاء به ودعا إليه الناس، ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أى الفائزون الظافرون برحمة الله ورضوانه.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبى ﷺ بأحسن الصفات وأكرم المناقب، وأقامت الحجة على أهل الكتاب بما يجدونه فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنه ما جاء إلا لهدايتهم وسعادتهم، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه، كانوا من ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾.

ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة، فقال تعالى: ﴿قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا﴾ أى: قل يا محمد لكافة البشر من عرب وعجم، إنى رسول الله إليكم جميعًا، لا فرق بين نصرانى أو يهودى، وإنما رسالتى إلى الناس عامة، وقد جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته.

أما فى القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾.

أى وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى ﷺ وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين.

وأما فى السنة فمن ذلك ما رواه البخارى عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»[2].

قال الإمام ابن كثير: والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم[3] هـ.

(١) صحيح البخارى (باب التيمم) جـ١ ص٧٧
(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد).
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥٥.

ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال تعالى: ﴿الذى له ملك السمٰوات والأرض لا إلـه إلا هو يحيى ويميت﴾ أى: قل - يا محمد - للناس إنى رسول إليكم من الله الذى له التصرف فى السمٰوات والأرض، والذى لا معبود بحق سواه والذى بيده الاحياء والإماتة، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره، وأن يترك ما نهى عنه، وأن يصدق رسوله. ثم بنى - سبحانه - على هذه النعوت الجليلة التى وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ أى: فآمنوا أيها الناس جمعًا بالله الواحد الأحد وآمنوا - أيضًا برسوله محمد ﷺ النبى الأمى الذى يؤمن بالله، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه واسلكوا سبيله، واقتفوا آثاره، فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم.

وفى وصفه ﷺ بالأمية مرة ثانية، إشارة إلى كمال علمه، لأنه مع عدم مطالعته للكتاب، أو مصاحبته لمعلم. فتح الله له أبواب العلم، وعلمه ما لم يكن يعلم من سائر العلوم التى تعلمها الناس عنه، وصاروا بها أئمة العلماء وقادة المفكرين، فأكرم بها من أمية تضاءل بجانبها علم العلماء فى كل زمان ومكان.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله ﷺ بأشرف الصفات وأقامتا أوضح الحجج وأقواها على صدقه فى نبوته، ودعتا اليهود بل الناس جميعًا إلى الإيمان به لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة ولأنه ﷺ ما جاءهم إلا بالخير، وما نهاهم إلا عن الشر. ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة، ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون، ولأن رسالته عامة للجن والانس، ومن كانت هذه صفاته، وتلك شريعته، جدير أن يتبع، وقمين أن يصدق ويطاع، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا.

ثم بين القرآن الكريم أن قوم موسى لم يكونوا جميعا ضالين. وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال - تعالى -:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

أى: ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاءهم به من عند الله، وبالحق - أيضا - يسيرون فى أحكامهم فلا يجورون، ولا يرتشون، وإنما يعدلون فى كل شئونهم.

والمراد بهم أناس كانوا على خير وصلاح فى عهد موسى - عليه السلام، مخالفين لأولئك السفهاء من قومه.

وقيل المراد بهم من آمن بالنبى ﷺ عند بعثته.

وهذا لون من ألوان عدالة القرآن فى أحكامه، وإنصافه لمن يستحق الانصاف من الناس. إنه لا يسوق أحكامه معممة بحيث يندرج تحتها الصالح والطالح بدون تمييز، كلا وإنما القرآن يسوق أحكامه بإنصاف واحتراس، فهو يحكم للصالحين بما يستحقون، وتلك هى العدالة التى ما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى السير على طريقها، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - :

﴿ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا﴾.

وقوله ﴿بالحق﴾ الباء للملابسة، وهى مع مدخولها فى محل الحال من الواو فى يهدون. أى: يهدون الناس حال كونهم ملتبسين بالحق.

ثم ذكر القرآن بعض النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل، وكيف وقفوا من هذه النعم موقف الجاحد الكنود فقال - تعالى :

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

قوله ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما﴾ أى : فرقنا قوم موسى وصيرناهم اثنتى عشرة أمة تتميز كل أمة عن الأخرى.

والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب. والسبط : ولد الولد فهو كالحفيد. وقد يطلق السبط على الولد.

وكان بنو إسرائيل اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدًا هم أولاد يعقوب - عليه السلام - قالوا : والظاهر أن قطعناهم متعد لواحد لأنه لم يضمن معنى ما يتعدى لاثنين، فعلى هذا يكون اثنتى عشرة حالا من مفعول ﴿قطعناهم﴾ وهو ضمير الغائبين «هم».

ويرى الزمخشرى وغيره أن «قطعناهم» بمعنى صيرناهم وأن ﴿اثنتى عشرة﴾ مفعول ثان، وتمييز اثنتى محذوف لفهم المعنى والتقدير وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة.

و ﴿أسباطا﴾ بدل من ذلك التمييز، و ﴿أمما﴾ بدل بعد بدل من اثنتى عشرة.

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها من أخبار بنى إسرائيل، لمشاركتها لها فى كل ما يقصد به من العظات والعبر.

وقوله : ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾.

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر. وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - فى خشوع واستكانة، وقد سأل موسى - عليه السلام - ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش بعد ما كانوا فى التيه.

فعن ابن عباس أنه قال : كان ذلك فى التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها»[1].

وقيل : كان الاستسقاء فى البرية ولكن الآثار التى تدل على أنه كان فى التيه أصح وأكثر.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٠٠.

والمعنى : وأوحينا إلى موسى حين طلب منه قومه الماء أن اضرب بعصاك الحجر فضربه فخرج منه الماء من اثنتى عشرة عينا ليروا بأعينهم مظاهر قدرتنا، وليشاهدوا دليلا من الأدلة المتعددة التى تؤيد موسى فى أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل -.

وقوله ﴿إذ استسقاه قومه﴾ يفيد أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى وحده، لتظهر كرامته لدى ربه عند قومه، وليشاهدوا بأعينهم كيف أن الله - تعالى - قد أكرمه حيث أجاب دعاءه ففجر لهم الماء من الحجر.

وال فى ﴿الحجر﴾ لتعريف الجنس، أى : اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجرا معينا معروفا لموسى - عليه السلام - بوحى من الله - تعالى - وقد أورد بعض المفسرين فى ذلك آثارًا حكم عليها المحققون من العلماء بالضعف، ولذا لم نعتد بها.

والذى نرجحه أن «أل» هنا لتعريف الجنس، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر فى إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى، إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا إن انفجار الماء منه لمعنى خاص بهذا الحجر، وليس لكرامة موسى عند ربه - عز وجل -.

والفاء فى قوله ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾ معطوفة على محذوف والتقدير : فضرب فانبجست. .

قال بعضهم : والانبجاس والانفجار واحد. يقال بجست الماء أبجسه فانبجس، بمعنى فجرته فانفجر.

وقيل : إن الانبجاس خروج الماء من مكان ضيق بقلة، والانفجار خروجه بكثرة.

ولا تنافى بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ﴿فانفجرت﴾ وبين قوله هنا ﴿فانبجست﴾ لأنه انبجس أولا ثم انفجر ثانيا. وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا بحسب عدد أسباط بنى إسرائيل إتماما للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع أو تشاجر.

وقوله ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينا. أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه فلا يتعداه إلى غيره، وفى ذلك ما فيه من استقرار أمورهم، واطمئنان نفوسهم، وعدم تعدى بعضهم على بعض.

ثم ذكر - سبحانه - نعما أخرى مما أنعم به عليهم فقال : ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾.

الغمام : جمع غمامة وهى السحابة : وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض.

أى : وسخرنا لبنى إسرائيل الغمام بحيث يلقى عليهم ظله ليقيهم من حر الشمس.

وقوله ﴿وأنزلنا عليهم المن والسلوى﴾ معطوف على ما قبله.

والمن : اسم جنس لا واحد له من لفظه، وهو - على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط من الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل.

والسلوى : اسم جنس جمعى واحدته سلواه، وهو طائر برى لذيذ اللحم، سهل الصيد يسمى بالسمانى، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا بدون تعب.

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم كان فى مدة تيههم بين مصر والشام المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾.

إليه بقوله - تعالى - : ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾.

أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل والسلوى وهو طائر يشبه السمانى فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا : هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين. فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ! فظلل الله عليهم بالغمام فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب فذلك قوله - تعالى - ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾[(١)].

وقوله ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا ربكم على هذه النعم لكى يزيدكم منها.

وقوله : ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ معطوف على محذوف أى : فعصوا أمر ربهم وكفروا بهذه لنعم الجليلة وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ويرى البعض أنه لا حاجة إلى هذا التقدير، وأن جملة ﴿وما ظلمونا﴾ معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل.

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة «كانوا» والفعل المضارع «يظلمون» يدل على أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٩٧.

ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم، لأنك لا تقول فى ذم إنسان «كان يسىء إلى الناس» إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى.

قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة ما ملخصه: «هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا» فاكتفى بما ظهر عما ترك. وقوله: ﴿وما ظلمونا﴾ أى: ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها. فان الله - تعالى - لا تضره معصية عاص، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ولا تنفعه طاعة مطيع، ولايزيد فى ملكه عدل عادل، لنفسه يظلم الظالم، وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل»(١).

وقوله - تعالى - ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا﴾.... الخ. تذكير لهم بصفة جليلة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها، وما رعوها حق رعايتها، وهى نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك.

قال الآلوسى: وقوله ﴿وإذ قيل لهم﴾ معمول لفعل محذوف تقديره: اذكر. وإيراد الفعل هنا مبنيا للمفعول جريا على سنن الكبرياء «مع الإيذان بأن الفاعل غنى عن التصريح. أى: أذكر لهم وقت قولنا لأسلافهم»(٢).

والقرية هى البلدة المشتملة على مساكن، والمراد بها هنا بيت المقدس - على الراجح - وقيل المراد بها أريحاء.

والحطة: كجلسة: إسم للهيئة، من الحط بمعنى الوضع والإنزال، وأصله إنزال الشىء من علو. يقال: استحطه وزره: سأله أن يحطه عنه وينزله.

وهى خبر مبتدأ محذوف أى: مسألتنا حطة، والأصل فيها النصب بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات.

والمعنى: واذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوى من بنى إسرائيل وقت أن قيل لأسلافكم اسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه، وقيل لهم كذلك كلوا من خيراتها أكلا واسعا، وأسألوا الله أن يحط عنكم ذنوبكم، وادخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكرا لله على

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٣٧.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٨٨.

نعمه، فإنكم إن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم.

وقوله - تعالى - ﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾ فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها، حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا.

وقوله : ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا﴾ إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم عمله نحو خالقهم، وتوجههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم بأيسر الطرق وأسهل السبل لأن كل ما كلفهم الله - تعالى - به أن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم خطيئاتهم، وأن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله عليهم مخبتين.

وقوله ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ مجزوم فى جواب الأمر.

وهذه الجملة الكريمة بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم وإغراء لهم على الامتثال والشكر - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء هو غفران الذنوب.

وقوله - تعالى - ﴿سنزيد المحسنين﴾ وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن.

وقد أمر الله - تعالى - أن يفعلوا ذلك، وأن يقولوا هذا القول، لأن تغلبهم على أعدائهم نعمة من أجل النعم التى تستدعى منهم الشكر الجزيل لله - تعالى -. ولهذا كان النبى ﷺ يظهر أقصى درجات الخضوع، وأسمى ألوان الشكر عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا وهو خاضع لربه، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكرا لله على نعمة الفتح، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح.

ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات عند أول دخولها شكرا لله، وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص عندما دخل إيوان كسرى. فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات.

ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح.

لقد حكى القرآن ما كان منهم من جحود وبطر فقال : ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم﴾.

قال صاحب الكشاف : «أى وضعوا مكان حطة قولا غيرها، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر

مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤخذوا به، كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك، أو اللهم أعف هنا وما أشبه ذلك»[١].

وقال الإمام ابن كثير: «وحاصل ما ذكره المفسرون ومادل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل. فقد أمروا أن يدخلوا الباب سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعى رؤوسهم. وأمروا أن يقولوا حطة -أى احطط عنا ذنوبنا- فاستهزأوا وقالوا حنطة فى شعيرة. وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته»[٢].

وأخرج البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا. حبة فى شعيرة»[٣].

والعبرة التى تؤخذ من هذه الجملة الكريمة أن من أمره الله - تعالى بقول أو فعل فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله دخل فى زمرة الظالمين، وعرض نفسه لسوء المصير.

وقوله - تعالى - ﴿فأرسلنا عليهم رجزا مّن السماء بما كانوا يظلمون﴾ تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله.

والرجز: هو العذاب، سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها.

وفى النص على أن الرجز قد أتاهم من السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه، وأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها، يل رمتهم به الملائكة من جهة السماء فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم.

هذا وقد وردت فى سورة البقرة آيتان تشبهان فى ألفاظها هاتين الآيتين اللتين معنا هنا فى سورة الأعراف، أما آيتا سورة البقرة فهما قوله - تعالى - :

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة، نغفر لعلكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾.

وقد عقد الإمام الرازى مقارنة بين أسلوب الآيتين فى كل من السورتين فقال ما ملخصه: إن ألفاظ الآيتين فى سورة الأعراف تخالف ألفاظ آيتى سورة البقرة من وجوه:

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص١٤٣.
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٩٩.
(٣) صحيح البخارى باب «وإذ قلنا ادخلوها هذه القرية» جـ٦ ص٢٢.

الأول : أنه قال – سبحانه – فى سورة البقرة : ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ وهنا قال : وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية.

الثانى : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿فكلوا﴾ بالفاء، وقال هنا ﴿وكلوا﴾ بالواو.

الثالث : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿رغدا﴾ وهذه الكلمة غير مذكورة هنا.

الرابع : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ وقال هنا على التقديم والتأخير.

الخامس : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ وقال ههنا ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾.

السادس : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿وسنزيد المحسنين﴾ وههنا حذف حرف الواو.

السابع : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ وقال ههنا ﴿فأرسلنا عليهم﴾.

الثامن : أنه قال فى سورة البقرة : ﴿بما كانوا يفسقون﴾ وقال ههنا ﴿بما كانوا يظلمون﴾.

واعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها البتة، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة من وجوه.

الأول : وهو أنه قال فى سورة البقرة ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ وقال ههنا اسكنوا، فالفرق أنه لابد من دخول القرية أولا ثم سكناها ثانيا.

الثانى : أنه هناك قال ﴿فكلوا﴾ بالفاء وهنا بالواو. والفرق أن الدخول حالة مخصوصة، فإنه إنما يكون داخلا فى أول دخوله، وأما ما بعد ذلك فيكون سكونا لا دخولا، إذا ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار فلا جرم أن يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال : ﴿ادخلوا هذه القرية فكلوا﴾ وأما السكون فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل حاصلا معه لا عقيبه، فظهر الفرق.

وأما الثالث : وأنه ذكر هناك ﴿رغدا﴾ ولم يذكره هنا، فالفرق أن الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم، ولما كان الأمر كذلك ذكر كلمة « رغدا » وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون فى محل الحاجة الشديدة ولم تكن اللذة فيه متكاملة. فلا جرم ترك قوله ﴿رغدا﴾ فيه.

وأما الرابع : وهو قوله هناك ﴿وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ وهنا على العكس،

فالمراد التنبيه على أنه لا منافاة فى ذلك، لأن المقصود هو تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له، فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير.

وأما الخامس : وهو أنه قال هناك ﴿خطاياكم﴾ وقال هنا ﴿خطيئاتكم﴾ فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهى مغفورة عند الإتيان بهذا التضرع والدعاء.

وأما السادس : وهو قوله هناك ﴿وسنزيد المحسنين﴾ بالواو، وقال هنا ﴿سنزيد﴾ بحذفها، فالفائدة فى حذف الواو أنه تعالى وعد بشيئين : بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا بعد الغفران فقيل : إنه سيزيد المحسنين.

وأما السابع : وهو الفرق بين أنزلنا وبين أرسلنا، فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها. فكأنه - سبحانه - بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيرًا.

وأما الثامن : فهو الفرق بين قوله هناك ﴿يفسقون﴾ وقوله هنا ﴿يظلمون﴾ فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين لأجل أنهم ظلموا أنفسهم، وبكونهم فاسقين لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله. فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين منهم.

ثم قال : فهذا ما خطر بالبال فى ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة، وتمام العلم بها عند الله - تعالى - »[1].

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أن بنى إسرائيل مكنوا من النعمة فنفروا منها، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها، فكانت عاقبتهم أن محقت النعم من بين أيديهم، وسلط الله عليهم عذابا شديدا من عنده بسبب ظلمهم وفسوقهم عن أمره.

وفى ذلك إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب انتهاكهم لحرمات الله وتحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصابهم من عذاب أليم.

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة أخرى من رذائل بنى إسرائيل الكثيرة، وهى تحايلهم على استحلال محارم الله بسبب جهلهم وجشعهم وضعف إرادتهم.

وذلك أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم السبت، وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، واختبارًا منه - سبحانه - لإيمانهم ووفائهم بعهودهم أرسل

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ من ص٣٠٧.

إليهم الحيتان فى يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم، قريبة المأخذ، سهلة الاصطياد.

وهنا سال لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا فى حيلة لاصطياد هذه الحيتان فى يوم السبت فقالوا: لا مانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك فى يوم السبت أحواضا تنساب إليها المياه ومعها الأسماك، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة فى الأحواض فى يوم السبت - لأنها لا تستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذى فى الأحواض. ثم نصطادها بعد ذلك فى غير يوم السبت، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك.

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على محارم الله، وأن حبس الحيتان فى الأحواض هو صيد لها فى المعنى، وهو فسوق عن أمر الله ونقض لعهوده.

ولكنهم لجهلهم واستيلاء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلتهم الشيطانية، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم وموعظة للمتقين.

واستمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول:

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

قوله - تعالى - ﴿واسألهم عن القرية﴾ . . . الخ . معطوف على اذكر المقدر فى قوله - تعالى - : ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا﴾ . والخطاب للنبى ﷺ وضمير الغيبة للمعاصرين له من اليهود .

أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحايلوا على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم فى كتبهم ولا يستطيعون كتمانها .

والمقصود من سؤالهم تقريعهم على عصيانهم ، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من علومهم المعروفة لهم والتى لا يستطيعون إنكارها ، والتى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أخبرهم بها النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له . ودليلا على أنه نبى صادق موحى إليه بها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : (أى واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم «لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى «أيلة» وهى على شاطىء بحر القلزم ، أى - البحر الأحمر -)[1] .

وقال الإمام القرطبى : وهذا سؤال تقرير وتوبيخ ، وكان ذلك علامة لصدق النبى ﷺ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لأنا من سبط إسرائيل . ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزير فنحن أولادهم . فقال الله - عز وجل - لنبيه سلهم - يامحمد- عن القرية . أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة[1] .

وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية . قرية (أيلة) التى تقع بين مدين والطور ، وقيل هى قرية طبرية ، وقيل هى مدين .

ومعنى كونها ﴿حاضرة البحر﴾ : قريبة منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار أى قريبا منها .

وقوله ﴿إذ يعدون فى السبت﴾ أى يظلمون ويتجاوزون حدود الله - تعالى - بالصيد فى يوم السبت ويعدون بمعنى يعتدون ، يقال : عدا فلان الأمر واعتدى إذا تجاوز حده .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٥٦ .

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ .

وقوله تعالى ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ بيان لموضع الاختبار والامتحان.

و ﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ ظرف ليعدون. وحيتان جمع حوت وهو السمك الكبير. وشرعا: أى: شارعة ظاهرة على وجه الماء. جمع شارع، من شرع عليه إذا دنا وأشرف وكل شىء دنا من شىء فهو شارع، وقوله: شرعا حال من الحيتان.

والمعنى: إذ تأتيهم حيتانهم فى وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دانية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة، فإذا مر يوم السبت وانتهى لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه، ابتلاء من الله - تعالى - لهم.

قال ابن عباس: (اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به، وحرم عليهم الصيد فيه، وأمرهم بتعظيمه، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت المقبل، وذلك بلاء ابتلاهم الله به، فذلك معنى قوله تعالى ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾[(١)].

وقال الإمام القرطبى: (وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود - عليه السلام - وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء. فيأخذونها يوم الأحد)[(٢)].

وقوله تعالى ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ معناه: بمثل هذا الابتلاء، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت، واختفائه فى غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم، وتحايلهم القبيح على شريعتهم، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه، وأجل له ثواب أخراه، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدا، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾.

والذى يفهم من الآية الكريمة، -وعليه جمهور المفسرين- أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق.

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٣١٦ طبعة الأميرية الأزهرية سنة ١٣٠٨هـ.
(٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٦.

١ - فرقة المعتدين فى السبت، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار.
٢ - فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم.
٣ - فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت.

وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله : ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾ أى : قالت فرقة من أهل القرية، لإخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت، لم تعظون قوما لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم، أو بتعذيبهم عذابًا شديدًا، جزاء تماديهم فى الشر، وصممهم عن سماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم ﴿معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾.

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين :

الأولى : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والثانية : الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة حتى ينجو من العقوبة، ويسيروا فى طريق المهتدين.

وقيل : إن أهل القرية كانوا فرقتين، فرقه أقدمت على الذنب فاعتدت فى السبت، وفرقة أحجمت عن الاقدام، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدا فى زعمكم؟ فاجابتهم الناصحة بقولها. معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون.

والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين - لأن هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية (ولعلكم تتقون) بكاف الخطاب، بدل قولهم (ولعلهم يتقون) الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة، والفرقة الناصحة.

قال الإمام القرطبى عند تفسيره الآية الكريمة : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق « فرقة عصت وصدت، وكانوا، نحوا من سبعين ألفًا، فرقة نهت واعتزلت، وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفًا، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة هى التى قالت للناهية، لم تعظون

قوما - عصاة - الله مهلكهم، أو معذبهم على غلبة الظن. وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية؟)[١].

وقوله ﴿معذرة﴾ بالنصب على أنها مفعول لأجله أى: وعظناهم لأجل المعذرة، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى: نعتذر معذرة وقرئت «معذرة» بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى: موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليله: لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنفًا ولكنهم قيل لهم لم تعظون؟ فقالوا موعظتنا معذرة.

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال تعالى ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾ أى: فلما لج الظالمون فى طغيانهم، وعموا وصموا عن النصيحة أنجينا الناصحين، وأخذنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله.

والآية الكريمة صريحة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء، أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين، فقد سكتت عنها.

ويرى بعض المفسرين: أنها لم تنج، لأنها لم تنه عن المنكر. فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم.

ويرى جمهور المفسرين: أنها نجت، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت ولم ترتكب شيئًا مما ارتكبوه، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه، فلا جدوى وراء وعظهم، وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: الأمة الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا - من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين. قلت من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين، غرضًا صحيحًا لعلمهم بحال القوم. وإذا علم الناهى حال المنهى، وأن النهى لا يؤثر فيه، سقط عنه النهى، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثًا منك، ولم يكن إلا سببًا للتلهى بك، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين، ولم يخبروهم كما

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٧.

خبروهم. أو لفرط حرصهم وجدهم فى أمرهم، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾[١].

وقال الإمام ابن كثير: (ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة، ما أدرى ما فعل بهم، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقال ﴿لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة)[٢].

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين فى السبت موقفًا سلبيًا استحقت معه الإهمال، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخذة.

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أى فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك.

قال الآلوسى: (والأمر فى قوله تعالى ﴿قلنا﴾ تكوينى لا تكليفى، لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به، وهذا كقوله تعالى ﴿إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل)[٣].

وقيل فى تفسير الآية: إن الله تعالى - عاقب القوم أولا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم، مسخهم مسخا خِلقيا وجسميا، فكانوا قردة على الحقيقة، وهو الظاهر من الآية، وعليه الجمهور:

وقيل: مسخهم مسخًا خُلقيًا ونفسيًا، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها، وهذا مروى عن مجاهد.

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصيحة، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٥.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦٧.
(٣) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٩٣.

هذا وقد استدل العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل القبيحة التى يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة. وغاياتهم الدنيئة ومطامعهم الخسيسة.

وقد أفاض الإمام ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان) فى إيراد الأدلة الدالة على هذا التحريم، فقال ما ملخصه: (ومن مكايد الشيطان التى كاد بها الإسلام وأهله، الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرضه، ومضادته فى أمره ونهيه، وهى من الباطل الذى اتفق السلف على ذمه، فإن الرأى رأيان: رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار، وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به. ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار، وهو الذى ذموه وأهدروه.

وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله - تعالى - به وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام وتخليص المحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه. ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالما، والظالم مظلوما، والحق باطلا، والباطل حقا. فهذا الذى اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.. ثم قال:

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة، لما تحايلوا على إباحة ما حرمه الله - تعالى - عليهم من الصيد، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد، أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة: ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه، إذ الفقيه من يخشى الله - تعالى - بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، وليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبًا لموسى - عليه السلام - وكفرًا بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال، ظاهره ظاهر الإيفاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا مسخوا قردة، لأن صورة القردة فيها شبه من صورة الإنسان، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض مظاهره دون حقيقته، مسخهم سبحانه قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا، وفى الحديث الشريف (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)[1].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال:

(١) إغاثة اللهفان جـ١ ص٣٥٨.

(قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها)(١).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «بلغ عمر - رضى الله عنه - أن سمرة باع خمرًا فقال: قاتل الله سمره. ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها - أى أذبواها - فباعوها»(٢).

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين فى السبت من اليهود، برذيلة الجهالة وضعف الإرادة، وتحايلهم القبيح على استحلال محارم الله، مما جعلهم أهلا للعذاب الشديد والمسخ الشنيع، جزاء إمعانهم فى المعصية وصممهم عن سماع الموعظة، وما ربك بظلام للعبيد.

ثم بين - سبحانه - ما توعد به أولئك اليهود من عقوبات بسبب كفرهم وفسوقهم وإفسادهم فى الأرض فقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

قوله ﴿وإذ تأذن ربك﴾ منصوب على المفعولية بمقدر معطوف على ﴿واسألهم﴾ أى: واذكر يا محمد لليهود وقت أن تأذن ربك.

وتأذن بمعنى آذن، أى: أعلم. يقال: آذن الأمر وبالأمر أى: أعلمه. وأذن تأذينًا: أكثر الإعلام.

وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله، ولذلك جىء بلام القسم ونون التوكيد فى جوابه وهو قوله - تعالى - «ليبعثن عليهم.... إلخ».

(١) صحيح البخارى: باب (لا يذاب شحم الميتة) جـ٣ ص١٠٢، وأخرجه مسلم فى «كتاب المساقاة» جـ٢ ص١٢٠٦ طبعة الحلبى.

(٢) صحيح البخارى: باب (لا يذاب شحم الميتة) جـ٣ ص١٠٢، وأخرجه مسلم فى «كتاب المساقاة» جـ٢ ص١٢٠٧.

وقوله ﴿إلى يوم القيامة﴾ متعلق بقوله ﴿ليبعثن﴾.

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن أعلم الله - تعالى - هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر، وجانب طريق الحق، وإنه لغفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحًا. وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى لا ييأس العاصى من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل الصالح كما قال - تعالى - ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾.

ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن من دولة وصولة ولكن الذى نعتقده أن هذا الوعيد ما توقف مع ما لهم من دولة، فإنهم ما زالوا محل احتقار الناس وبغضهم، وحتى الدول التى تناصرهم إنما تناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك بينما شعوب هذه الدول تكره أولئك اليهود وتزدريهم وتنفر منهم.

وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فرطوا فى حق خالقهم، وفى حق أنفسهم، ولم يأخذوا بالأسباب التى شرعها الله لهم لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم فى قلب البلاد الإسلامية وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التى شرعها الله مباشرة سليمة، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة.

وصدق الله إذ يقول : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

هذا وقوله - تعالى - ﴿وقطعناهم فى الأرض أممًا﴾ إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم، وتتمثل هذه العقوبة فى تفريقهم فى الأرض، وتمزيقهم شر ممزق حتى لا تكون لهم شوكة.

و ﴿أممًا﴾ حال من مفعول ﴿قطعناهم﴾ أو مفعول ثان لقطعناهم على أنه بمعنى صيرناهم.

أى : أن هؤلاء اليهود قد مزقناهم فى الأرض شر ممزق بسبب عصيانهم وفسوقهم، وصيرناهم فرقا متقطعة الأوصال، مشتتة الأهواء. وقوله ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ بيان لحالهم.

أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فصلح حالها، وحسنت عاقبتها، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين، بسبب فسوقهم عن

أمر الله، وانتهاكهم لحرماته.

والجملة من المبتدأ والخبر، فى موضع نصب على أنها صفة لـ ﴿أممًا﴾.

وقوله ﴿ومنهم دون ذلك﴾ الجار والمجرور خبر مقدم و ﴿دون ذلك﴾ نعت لمنعوت محذوف هو المبتدأ والتقدير: ومنهم ناس أو جماعة دون ذلك.

وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة وتقرير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء، فهو يمدح من يستحق المديح، ويذم من هو أهل الذم، وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى التخلق بهذه الأخلاق.

وقوله - تعالى - ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ أى عاملناهم معاملة المبتلى الممتحن تارة بالنعم الكثيرة كالصحة والخصب وسعة الأرزاق، وتارة بالنقم المتنوعة كالجدب والأمراض والشدائد، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم، ويتركون ما نهوا عنه من المعاصى والسيئات.

يقال: بلاه يبلوه بلوا، وابتلاه ابتلاء، إذا جربه واختبره، ولقد كانت نتيجة هذا الابتلاء والاختبار أن تكشفت الحقائق عن أن الكثرة من بنى إسرائيل سلكت طريق الضلالة والغواية، والقلة هى التى آمنت وأصلحت ولذا عاقب الله تلك الكثرة بالعقوبة التى تناسبها جزاءً وفاقا.

هذا، وما أخبر به القرآن من أن الله - تعالى - قد توعد بنى إسرائيل وأخبرهم بأنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب بسبب كفرهم وفسوقهم قد شهد بصدقه التاريخ، وأيدته الحوادث، وهذه نماذج قليلة من تلك العقوبات التى نزلت بهم فى الأزمنة المختلفة[1].

أولا: بعد وفاة سليمان - عليه السلام - حوالى سنة ٩٧٥ق.م انقسمت مملكته إلى قسمين: مملكة الشمال، واسمها (إسرائيل) ومقرها (السامرة)[2] وتتكون من الأسباط العشرة.

ومملكة الجنوب واسمها (يهوذا) ومقرها (أورشليم)[3] وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين.

وقد استمرت المنازعات بين المملكتين مدة طويلة، انتهت بانقضاض (سرجون) ملك آشور على مملكة الشمال (إسرائيل) سنة ٧٢١ق.م. فقتل الآلاف من رجالها، وأسر البقية منهم

---

(١) ذكرنا هنا نماذج قليلة من تلك العقوبات ومن أراد معرفة المزيد فليرجع إلى كتابنا «بنو إسرائيل فى القرآن والسنة» جـ٢ ص٣٢٦ وما بعدها.

(٢) السامرة وهى نابلس الآن.

(٣) أورشليم هى بيت المقدس الآن.

فرحلهم إلى ما وراء نهر الفرات، وقضى على هذه المملكة قضاء لم تقم لها بعده قائمة.

وأما مملكة الجنوب (أورشليم) فقد حاولت أن تتشبث بالبقاء، ولكن معاول الهدم غزتها من الشرق ومن الجنوب وكانت نهايتها على يد بختنصر البابلى سنة ٥٨٦ق م.

ويصور أحد الكتاب الغربيين قصة النكبات التى أدت إلى زوال مملكة (يهوذا وإسرائيل) فيقول: (هى قصة نكبات وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء النكبة القاضية، هى قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ق م «محت يد الأسر الأشورى مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ق م.

ثانيا: استرد اليهود بعض أنفاسهم بعد وقوعهم تحت حكم الفرس من حوالى سنة ٥٣٦ إلى سنة ٣٣٢ق م فقد عادوا فى هذه الفترة إلى فلسطين، ووقعوا تحت سيطرة الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٠ق م.

وفى سنة ٣٢٠ق م. سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر، فهدم القدس، ودك أسوارها، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر، لأنهم ثاروا عليه.

ثالثًا: فى سنة ٢٠ ق م تقريبا، وقع اليهود تحت سيطرة السلوقيين السوريين بعد انتصارهم على البطالسة، ورأى بعض الحكام السلوقيين من اليهود تمردًا وعصيانا، فأنزلوا بهم أشد العقوبات فى عدة مواقع، وكان من أبرز المنكلين باليهود (انطو خيوس) ما بين سنة ١٧٠. وسنة ١٦٨ ق م فقد هاجم (أورشليم) وهدم أسوارها وهيكلها. ونهب ما فيها من أموال وقتل من أهلها أربعين ألفا فى ثلاثة أيام وباع مثل ذلك العدد عبيدا منهم ولم يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا إلى الجبال، وقد أقام (انطو خيوس) قمة على أحد الجبال ليشاهد منها كل من يقترب من اليهود إلى أورشليم ليقتله، وقد وصل به الحال أنه أُكره عددًا كبيرًا منهم على ترك الديانة اليهودية وجعل هيكلهم فى أورشليم معبدا لإلهه.

رابعًا: وفى سنة ٦٣ ق م أغار الرومان بقيادة (بامبيوس) على أورشليم فاحتلوها، واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤م. وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات باءت كلها بالفشل، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألوانا من القتل والسبى والتشريد.

كان من أشهرها ما أنزله بهم «تيطس الرومانى» سنة ٧٠م فقد اقتحم فى هذه السنة أورشليم فدمرها تدميرا، وقتل الآلاف من اليهود وأحرق هيكلهم.

خامسًا: بعد هذه النماذج التى سقناها لما أنزله الرومان من عقوبات على اليهود، نتابع سيرنا فى سرد بعض العقوبات التى أنزلها المسلمون باليهود بسبب بغيهم وخياناتهم فنقول:

بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، عامل اليهود القاطنين والمجاورين لها معاملة طيبة، وعقد معهم معاهدة ضمنت لهم حقوقهم ولكنهم نقضوا عهودهم، ولم يتركوا وسيلة من وسائل الكيد للإسلام والمسلمين إلا فعلوها، وحاول الرسول ﷺ أن يثنيهم عن جحودهم وبغيهم ولكنهم لم يستجيبوا له. فعاقب ﷺ كل طائفة منهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم وخيانتهم وتكفل للمسلمين أن يعيشوا فى مأمن من شرورهم، ومن بين العقوبات التى أنزلها النبى ﷺ بهم إجلاؤه لبنى قينقاع ولبنى النضير عن المدينة، وقتله لبنى قريظة وإهداره لدم بعض كبرائهم ككعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق، ومحاربته ليهود خيبر ومصالحته لهم بعد مقتل عدد كبير منهم، ورفعهم راية الأمان، والاستسلام، وقبولهم الشروط التى اشترطها عليهم النبى ﷺ.

ولقد كان من آخر الكلمات التى نطق بها الرسول ﷺ قبل وفاته قوله موصيا أصحابه (أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى فى جزيرة العرب دينان)[1].

وفى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تم إخراج جميع اليهود من جزيرة العرب، استجابة لوصية الرسول ﷺ.

سادسًا: وفى ختام عرضنا لبعض العقوبات التى نزلت باليهود فى الأزمنة المختلفة جزاء إجرامهم وإثارتهم للفتن نسوق بعض الأمثلة لما حل بهم على أيدى بعض الدول الأوربية.

(أ) ففى بريطانيا: لقى اليهود فى بعض العهود ألوانًا من التعذيب، وصنوفًا من القتل والتشريد.

١ - من ذلك أن الملك الإنجليزى (يوحنا) أصدر أمرا بحبسهم فى جميع أنحاء مملكته.

وفى سنة ١٣٢٨م جأر الشعب البريطانى بالشكوى من اليهود، فأصدر الملك ادوارد الأول أمرا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية فى غضون ثلاثة أشهر، إلا أن الشعب البريطانى لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات وفى قلعة (بورك) التى احتمى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودى وقد اضطر الملك إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا فى كل مكان، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون تقريبا. ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦م فى عهد الطاغية (كرومويل) الذى اغتصب الملك (شارل الأول) بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة فى سبيل بلوغ أغراضه.

---

(١) صحيح البخارى باب إخراج اليهود جـ٤ ص١٢٠.

(ب) وفى فرنسا : تعرض اليهود فى أزمنة مختلفة لنقمة الشعب الفرنسى وغضبه، لأنهم دمروا اقتصاده الوطنى، وخنقوه بالربا الفاحش، والمعاملات السيئة.

١ - ففى عهد (لويس التاسع) تدهورت الحالة الاقتصادية فى فرنسا فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون، ثم أصدر أمرا بإحراق جميع كتبهم المقدسة، وخاصة التلمود. وقد قال أحد المؤرخين إنهم أحرقوا فى باريس وحدها محمول أربع وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها[1].

٢ - وخلال تولى (فيليب الجميل) حكم فرنسا. أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد، ثم طردوا من فرنسا نهائيا، ولكنهم عادوا إليها بعد أن دفعوا (لفيليب) ثلثى الديون التى لهم فى فرنسا.

٣ - وفى سنة ١٣٢١م هاجمهم الشعب الفرنسى وذبح عددا كبيرا منهم، ونكل بهم تنكيلا شديدا، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم ولم يستطيعوا العودة إليها إلا فى أواسط القرن السادس عشر.

٤ - وفى أوائل القرن التاسع عشر حاول (نابليون) أن يستغلهم لبلوغ مطامعه، ولكنهم خانوه، فاحتقرهم، وبطش بعدد منهم، وقال عنهم إنهم حثالات البشر وجراثيمه.

ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسى إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

(جـ) وفى إيطاليا، حاربهم البابوات حربا شعواء وأطلقوا عليهم اسم (الشعب المكروه) وأغروا الشعب الإيطالى بهم فأعمل فيهم القتل والتشريد وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على التلمود.

وفى سنة ١٢٤٢م أعلن البابا (جريجورى) التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود الذى يطعن فى المسيح والمسيحية، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخه.

وفى سنة ١٥٤٠ ثار الشعب الإيطالى على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا.

(د) وفى أسبانيا : ذاق اليهود من الشعب الأسبانى وملوكه صنوف الذل وألوان الهوان، ولم يظفروا بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا. ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد.

---

(١) تاريخ الإسرائيلين ص٨٣ شاهين مكاريوس.

فى عهد الملك (فرديناند) وزوجته (إيزابلا) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها؛ لتغلغلهم فى الحياة الأسبانية، واستيلائهم على اقتصادها وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف. . . فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى طردهم من أسبانيا طردا نهائيا.

وفى ٣١ من مارس سنة ١٩٥٢ صدر المرسوم التالى عن الملك (فرديناند) : (يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة. وهى تعمل دائما على توقيع العقوبة على المذنبين، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محاكم التفتيش، ثبت بأن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم، ويؤدى بالتالى إلى القضاء على المذهب الكاثوليكى، ولذا قررنا نفى اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تميز فى الجنس أو الأعمار أن يغادروا البلاد فى غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو سبب[1].

وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود شر طردة من أسبانيا بعد أن أرغموا على ترك ذهبهم ونقودهم، وبعد أن نفثوا سمومهم فى أسبانيا زهاء سبعة قرون وكان عددهم عندما خرجوا منها مطرودين يبلغ نصف مليون نسمه ويعتبر بعض اليهود هذا القرار وما تلاه من طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم.

(هـ) وفى روسيا: كان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر وقد استعملوا طول مدة إقامتهم فى روسيا كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب، ففتحوا الحانات وتاجروا فى الخمور، وأقرضوا بالربا الفاحش، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسى عندما مكنتهم الظروف من ذلك وكونوا الجمعيات السرية التى عملت على هدم نظام الحكم القيصرى واستمرت فى نشاطها حتى أزالته بواسطة الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧م هذه الثورة التى كان معظم قوادها من اليهود. ولم ينس الروس لليهود ما قاموا به نحوهم من عدوان واستغلال، فانقضوا عليهم عدة مرات للتخلص منهم وأعملوا فيهم الذبح والقتل بلا رحمة، وكان من أبرز المذابح التى أوقعها الروس باليهود مذبحة سنة ١٨٨١م ومذبحة سنة ١٨٨٢م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود تدميرا فى هاتين السنتين.

---

(١) خطر اليهود العالمية على (الإسلام والمسيحية) ص١٨ لعبد الله التل.

وعندما نشر الكاتب الروسى (نيلوس) نسخا قليلة من (بروتوكولات حكماء صهيون) سنة ١٩٠٢م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع، جن جنونهم خوفا وفزعا. وعمت المذابح ضدهم فى روسيا حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة آلاف يهودى.

(و) وفى ألمانيا: انتشر اليهود فى كثير من مدنها منذ القرن الثامن الميلادى، وسكنوا على ضفاف نهر الراين. واستغلوا الشعب الألمانى أسوأ استغلال حتى كادوا يستولون على أمواله عن طريق الربا الفاحش واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام. ولقد هاج الشعب الألمانى ضدهم فى أوقات مختلفة، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرد.

يقول صاحب كتاب (تاريخ الإسرائيليين) وظل القتل والذبح منتشرا فى اليهود إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء - ألمانيا - فى أزمنة متتابعة، وذلك ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر، حتى لم يكد يبقى منهم واحدا فيها)[1].

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد «هتلر» ابتداء من توليه الحكم فى ألمانيا سنة ١٩٣٣ إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥.

وفى كل البلاد التى نزل بها اليهود، تعرضوا لنقمة السكان وغضبهم وازدرائهم، يستوى فى ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث، لقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة، وعقوبات صارمة، شملت التنكيل والطرد والسجن والقتل ومصادرة الأموال.

ويقرر أحد الكتاب الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت فى اضطهاد اليهود وإنزال مختلف العقوبات بهم، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها[2].

هذا، والشىء الذى نؤكده بعد سرد هذه النماذج من العقوبات التى نزلت باليهود فى مختلف العصور والأمم، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب من أهمها:

أولا: أنانيتهم وأطماعهم التى لا حدود لها «فقد سوغت لهم أنانيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه، وأن عليهم متى حلوا فى أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وإن يجمعوا أموالها بأى طريقة، فإن المال هو معبود اليهود من قديم.

وأنانية اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل، جعلهم محل نقمة العالم وغضبه،

---

(١) تاريخ الإسرائيليين ص٨٨.

(١) اليهودية ص٧٣ الدكتور أحمد شلبى.

ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغل اليهود فى بلاده، فأخذ يطردهم منها، ويحذر أبناء أمته من شرورهم، ومن هؤلاء الزعماء العقلاء (بنيامين فرانكلين) أحد رؤساء الولايات المتحدة، فإنه ألقى خطابا سنة ١٧٨٩ قال فيه : (هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر هو (اليهود). أيها السادة : حيثما استقر اليهود، تجدونهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف. إنهم لا يندمجون بالشعب. لقد كونوا. حكومة داخل الحكومة. وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا. . إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور. ففى أقل من مائتى سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا. إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لن يمضى أكثر من مائتى سنة ليصبح أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود. . ، إنى أحذركم أيها السادة. إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال. والنمر لا يستطيع تغيير لونه. اليهود خطر على هذه البلاد. وإذا دخلوها فسوف يخربونها ويفسدونها)[١].

وللتعليق على هذا الخطاب نقول : ما أصدق ما توقعه (فرانكلين) لولا أنه قد أخطأ التقدير فى المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود، فقد قدر (فرانكلين) هذه المدة بمائتى سنة أى فى سنة ١٩٨٩ ، بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها، وأموالها وعلمها ونفوذها وخيراتها، لمنفعتهم الخاصة فى مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة.

ثانيا : غرورهم وتعاليهم : فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه، وشعبه المختار. ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله، وقسم آخر يسمونه الأمم (الجوييم) أى غير اليهود ومعنى (جوييم) عندهم، وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس. وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهوديًا وأن يغشوه ويكذبوا عليه ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله. ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[٢].

(١) كتاب (اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية) ص ١٣٠ لإيليا أبو الروس.
(٢) سورة آل عمران آية ٧٥.

وكتب اليهود - لا سيما التلمود - طافحة بالوصايا التى تبيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم، من ذلك ما جاء فى التلمود : إذا خدع يهود أحدًا من الأمم وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التى أرسلها إليهما (يهواه)(١) ويهواه هو إله اليهود.

ونتيجة لهذا الغرور والتعالى الذى تميز به اليهود، وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذى سلبوه منهم، وليوقع بهم أقسى العقوبات جزاء غرورهم الكاذب، وتعاليهم الباطل.

ثالثا : عزلتهم وعصبيتهم وخيانتهم للبلاد التى آوتهم فهم متعصبون متحزبون، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره. وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لا محيد لهم عنه.

ويصف الدكتور (ويزمان) أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله : (وكان اليهود فى موتول (مسقط رأسه) بروسيا، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكمشين، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم).

ولعل أدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها، ما ذكره (سلامون شحتر) فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا حيث قال : (إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية. وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات)(٢).

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة، فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها عداء وريبة وحذر، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم الإخلاص لاية هيئة دينية أو دنيوية. وعدم الولاء للأوطان التى يعيشون فيها ويأكلون من خيراتها، وإنما يجعلون ولاءهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها، لأن اليهودى يهودى قبل كل شيء، مهما تكن جنسيته، ومهما يعتنق من عقائد ومبادىء فى الظاهر، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته ناصر يهوديته، وحاول أن يشيع الخراب والدمار فى الأمة التى هو فرد من أفرادها خصوصا إذا أمن العقاب والصهيونية العالمية تأمر اليهود فى كل مكان أن يجعلوا ولاءهم لإسرائيل وليس للدولة التى يعيشون فيها.

تقول جولدا مايير وزيرة خارجية إسرائيل سابقا : (إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف

(١) الصهيونية العالمية ص٤٤ للأستاذ عباس محمود العقاد.
(٢) كتاب (اليهودية) ص٣٣ للدكتور أحمد شلبى.

مشتتة تعيش فى المنفى، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شىء، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التى يسبغونها على أنفسهم، وإن اليهودى الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيته نشيد (حفظ الله الملكة) لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا)[١].

وما أكثر الحوادث التى قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التى يعيشون فيها لحساب أعدائها، واظهر مثل على ذلك ما قام به اليهود المقيمون فى ألمانيا من خيانات لها خلال الحرب العالمية الأولى، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا، ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطنى وعد (بلفور) من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧م.

وقد عدد (هتلر) خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح وإفساد التعليم والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية، والسيطرة على دور النشر، والتدخل فى سياسة الدولة لغير مصلحة ألمانيا وفى القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا الذى احترفه عدد كبير منهم.

ويختم هتلر حديثه الطويل عن اليهود بقوله (وإذا قيض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم، فسيكون تاجه إكليل جنازة البشرية، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه فى الأثير كما فعل منذ ملايين السنين لن يكون هناك بشر على سطحه.. لهذا أعتقد أنى تصرفت معهم حسبما شاء خالقنا، لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى، أنما أناضل فى سبيل الدفاع، عن عمل الخالق)[٢].

وإذن فعزلة اليهود، وعصبيتهم، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم، كان جزاؤها العادل ما حل بهم من دمار وتشريد خلال العصور المختلفة.

رابعًا: اضطهادهم لغيرهم متى ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية لذلك وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم وملىء بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كان لهم النصر عليها، وقد ساعدهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة عليه، ففى سفر الخروج ما نصه.

(حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن إجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا

---

(١) من محاضرة مطبوعة عن (اليهود ودولة إسرائيل).
(٢) كتاب «كفاحى» لهتلر.

دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما)[1].

ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق فى كل أدوار تاريخهم فلقد قتلوا فى روما وحدها مائة ألف مسيحى سنة ٢١٤م بإيعاز من الإمبراطور (مارك أوريل).

وما لنا نذهب بعيدًا فى الاستشهاد على إجرامهم، ومعارك فلسطين مازالت ماثلة فى أذهاننا، يقول أحد الكتاب المعاصرين: (إن مذبحة دير ياسين كانت من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود. فقد قتلوا مائتين وخمسين إنسانا فى قرية صغيرة ومثلوا بأجسامهم، وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام أعينهن). وحدث ما يشبه هذه المذابح فى كثير من مدن فلسطين كحيفا ويافا وقبية وكفر قاسم.

والحق، أن مفاهيم اليهود الباطلة، وأنانيتهم الطاغية، وطباعهم اللئيمة وأخلاقهم الفاسدة، وعصبيتهم الذميمة، وقلوبهم القاسية، واستباحتهم لقتل غيرهم، وإهدار كرامته، كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، ومن يمزقهم شر ممزق.

ويعجبنى فى هذا المقام قول المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» «لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم».

والآن، بعد سرد هذه العقوبات التى حلت ببنى إسرائيل فى مختلف العصور تأييدًا لقوله - تعالى - ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ بسبب أعمالهم السيئة نعود إلى السورة الكريمة فنراها تحدثنا عن لون من ألوان الدعاوى الباطلة التى حكاها القرآن عنهم، وهو زعمهم أن ذنوبهم مغفورة لهم، وأنهم مهما فعلوا من ذنوب، وارتكبوا من موبقات، واستحلوا من أموال حرام، فلن يحاسبهم الله على ذلك إلا حسابا يسيرًا لأنهم أبناؤه وأحباؤه، واستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى ذلك عنهم فتقول:

(١) سفر التثنية، الإصحاح العشرون.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾

قال الإمام القرطبى : الخلْف - بسكون اللام - الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء، الخلف - بفتح اللام - البدل، ولدًا كان أو غريبا. وقال ابن الأعرابى : الخلف - بفتح اللام - الصالح، وبسكونها الطالح، ومنه قيل للردى من الكلام خلف - بسكون اللام - ومنه المثل السائر «سكت ألفا ونطق خلْفا» قال لبيد.

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم - وبقيت فى خلف كجلد الأجرب.

فخلْف فى الذم بالإسكان، وخَلَف بالفتح فى المدح، هذا هو المستعمل المشهور، وفى الحديث الشريف (يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له) وقد يستعمل كل واحد منها موضع الآخر[1].

والعرض- بفتح الراء - متاع الدنيا وحطامها من المال وغيره.

قال صاحب الكشاف : قوله تعالى : ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أى حطام هذا الشىء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وفى قوله هذا تخسيس وتحقير، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة)[2].

والضمير فى قوله ﴿من بعدهم﴾ يعود إلى اليهود الذين وصفهم الله فى الآية السابقة بقوله ﴿وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾.

والمعنى : فخلف من بعد أولئك القوم الذين قطعناهم فى الأرض أمما خلف سوء، ورثوا

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣١٠.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٦.

كتاب الله وهو التوراة فقرأوه وتعلموه، ووقفوا على ما فيه من تحليل وتحريم وأمر ونهى ولكنهم لم يتأثروا به بل خالفوا أحكامه، واستحلوا محارمه مع علمهم بها، فهم يتهافتون على حطام الدنيا ومتاعها ويتقبلون المال الحرام بشراهة نفس. ويأكلون السحت أكلا لما ويقولون وهم والغون فى المعاصي ومصرون على الذنوب: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال، لأننا من نسل أنبيائه، فنحن شعبه الذى اصطفاه من سائر البشر، إلى غير ذلك من الأقاويل التى يفترونها على الله وهم يعلمون.

وجملة ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ مستأنفة لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إياه. وقيل: هى حال من الضمير فى ورثوا.

ثم أخبر - سبحانه - عنهم بأنهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة فقال تعالى: (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى: أنهم يأخذون عرض الحياة الدنيا ويعرضون عن شريعة الله التى أنزلها عليهم فى التوراة ويزعمون أن الله لا يؤاخذهم بما فعلوا. ثم هم بعد ذلك لا يتوبون إلى الله ولا يستغفرونه، وإنما حالهم أنهم إن لاح لهم عرض حرام آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل، تهافتوا عليه من جديد واستحلوه وأكلوه فى بطونهم، وبدون توبة أو ندم.

قال مجاهد قوله تعالى (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ لا يشرف لهم شيء من متاع الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراما، ويتمنون المغفرة (ويقولون سيغفر لنا) وإن يجدوا عرضا مثله يأخذوه(١).

وقال السدى: (كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له ما شأنك ترتشي فى الحكم؟ فيقول سيغفر لى، فيطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل صنعه فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه قبل الرشوة، يقول الله: (وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه)(٢).

ثم أنكر - سبحانه - عليهم ما زعموه بقولهم: (سيغفر لنا) وهم مصرون على معصيتهم فقال تعالى: (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه).

والمعنى: لقد أخذ الله العهد فى التوراة على هؤلاء المرتشين فى أحكامهم: والقائلين سيغفر الله فعلنا هذا ألا يقولوا على الله إلا القول الحق، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق ولا يخالفوا أمره.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٩.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦٠.

ولاينقضوا عهده، ولايتجاوزوا حدوده، وقد درس هؤلاء الكتاب، أى: قرأوه وفهموه، ولكنهم لم يعملوا بما أخذ عليهم من عهود ولم يتبعوا أوامر كتابهم ونواهيه، لأنهم درسوه ولم يتأثروا به، ولم تخالط تعاليمه شغاف قلوبهم، فضيعوه واشتروا به ثمنًا قليلا فبئس ما يشترون.

وقوله ﴿أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ بدل من ميثاق الكتاب أو عطف بيان له. وقيل إنه مفعول لأجله أى: لئلا يقولوا.

وجملة ﴿ودرسوا ما فيه﴾ معطوفة فى المعنى على قوله تعالى ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ أى أن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق فى التوراة ودرسوه.

قال ابن دريد: (كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له[1]).

ثم بين الله لهم أن ما أعده فى الآخرة للمتقين الذين يتعففون عن السحت وعن أكل أموال الناس بالباطل خير من متاع الدنيا وزهرتها الذى آثره هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب فقال تعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ أى: والدار الآخرة وما أعده فيها من نعيم لأولئك الذين يتقونه حق تقاته فى السر والعلن، خير من عرض هذا الأدنى الذى استحله هؤلاء اليهود بدون حق وآثروه على ما عند الله من نعيم مقيم وثواب جزيل ﴿أفلا تعقلون﴾ - يا من أكلتم أموال الناس بالباطل وقلتم سيغفر الله لنا ذنوبنا - هذا الحكم الواضح، الذى لا يخفى على ذى عقل سليم، لم تطمسه الشهوات، ولم يستحوذ عليه الشيطان.

وفى هذا إشارة إلى أن الطمع فى متاع الحياة الدنيا هو الذى جعل بنى إسرائيل يقولون على الله غير الحق. ويتشبعون من المال الحرام بدون تعفف ويبيعون دينهم بدنياهم.

قال الإمام الآلوسى: (والمراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على الذنوب وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما نص عليه المحققون، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إنهم وبخوا على إيجابهم على الله - تعالى - غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ثم لا يتوبون منها.

وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمنى على الله، ورووا عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) ومن هنا قيل: إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وبإتباعهم أنفسهم هواها

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣١٢.

وتمنيهم على الله - سبحانه - الأماني، ووبخوا على افترائهم على الله في الأحكام التي غيروها، وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها، وقالوا على الله ما ليس بحق من القول)[1].

ثم أثنى الله - تعالى - على من تمسك بكتابه، فأحل حلاله وحرم حرامه، ولم يتقول على الله الكذب فقال تعالى: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾.

والمراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموما.

والمعنى: والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذى أنزله الله ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم إنا لا نضيع أجرهم لأنهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وخص الصلاة بالذكر مع دخولها فيما قبلها إظهارا لمزيتها لكونها عماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وبختا اليهود لافترائهم على الله الكذب وردتا عليهم فى دعواهم أن ذنوبهم مغفورة لهم مع تعمدهم أكل أموال الناس بالباطل، وبينتا لهم طريق الفلاح لكى يسيروا عليها، إن كانوا ممن ينتفع بالذكر، ويعتبر بالمثلات.

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل عن بنى إسرائيل بتذكيرهم بالعهد الذى أخذه الله عليهم، وبأمرهم بالإيمان والعمل الصالح فقالت:

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾
۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

والآية الكريمة معطوفة على ما سبق من أحوال بنى إسرائيل بتقدير: اذكر.

ونتقنا: من النتق وهو الزعزعة والرفع والجذب بشدة، يقال: نتق الشىء ينتقه وينتقه، جذبه واقتلعه.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٩ ص٩٧ بتصرف وتلخيص.

والمراد بالجبل جبل الطور الذى سمع موسى عليه الكلام من ربه.

قيل : «إن موسى لما أتى بنى إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا ما فيها من التغليظ كبر ذلك عليهم، وأبوا أن يقبلوا ذلك، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رءوسهم مقدار عسكرهم، فلما نظروا إليه فوق رءوسهم خروا ساجدين، فسجدوا كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفا من أن يسقط فوقهم[1].

أى : واذكر يا محمد وذكر بنى إسرائيل المعاصرين لك وقت أن رفعنا الجبل فوق آبائهم الذين كانوا فى عهد موسى حتى صار كأنه غمامة أو سقيفة فوق رءوسهم لنريهم آية من الآيات التى تدل على قدرتنا وعلى صدق نبينا موسى - عليه السلام -.

قال بعض العلماء : «ورفع الجبل فوقهم لإرشادهم آية من آيات الله تقوى إيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله، وقوة الإيمان من شأنها أن تدفع إلى العمل بما فى الكتاب المنزل بجد واجتهاد»[2].

وقوله ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ أى : ووقع فى نفوسهم أن الجبل ساقط عليهم إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام -.

قال الجمل : وقوله ﴿وظنوا﴾ فيه أوجه :

أحدها : أنه فى محل جر نسقا على نتقنا المخفوض بالظرف تقديرا.

والثانى : أنه حال، و«قد» مقدرة عند بعضهم، وصاحب الحال الجبل.

أى : كأنه ظلة فى حال كونه مظنونا وقوعه بهم.

والثالث : أنه مستأنف فلا محل له. والظن هنا على بابه، وقيل بمعنى اليقين».

وقوله ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ مقول لقول محذوف دل عليه المعنى.

والتقدير : وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة، أى تمسكوا به واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبلوه بحسن استعداد وبدون تقصير أو تردد.

والمراد بقوله : ﴿بما آتيناكم﴾ التوراة التى أنزلها الله على موسى لتكون هدى ونورًا لهم.

وقوله ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى : احفظوه وتدبروه وتدارسوه واعملوا به بلا تعطيل لشىء منه.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٣٠٦.

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين. مجلة لواء الإسلام : السنة الثانية : العدد السابع ص٥.

قال القرطبى : وهذا هو من المقصود من الكتب : العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان فحسب، فقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه»[1].

و«لعل» فى قوله ﴿لعلكم تتقون﴾ إما للتعليل فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة لتتقوا الهلاك فى دنياكم وآخرتكم. وإما للترجى، وهو منصرف إلى المخاطبين فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين.

ولكن بنى إسرائيل لم يذكروا ولم يتدبروا بل نقضوا العهد، ولجوا فى المعصية، فاستحقوا لعنة الله وغضبه، وما ربك بظلام للعبيد.

وبذلك تكون سورة الأعراف قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - من مطلعها إلى هنا عن هداية القرآن الكريم، وعن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب، وجنة ونار، وعن النداءات التى وجهها الله - تعالى - لبنى آدم تذكيرًا وتوجيهًا وتعليمًا حتى يسعدوا فى دينهم ودنياهم، وعن أحوال السعداء والأشقياء فى الآخرة وما يدور بينهم من مناقشات ومحاورات، وعن قصة آدم وإبليس وعن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم، ثم أفاضت السورة الكريمة فى حديثها عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل.

والهدف الأول الذى قصدته السورة مما عرضته من قصص وتوجيهات وإرشادات هو إثبات وحدانية الله، وإخلاص العبادة له، وحمل الناس على السير فى الطريق المستقيم، وقد استعملت السورة فى عرضها لتلك الحقائق أساليب الترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم والتحذير من النقم، وإقامة الحجج ودفع الشبه.

ثم بدأت السورة بعد أن انتهت من حديثها عن بنى إسرائيل وحتى نهايتها تحدثنا عن قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة، زاوية الفطرة التى فطر الله عليها البشر، ولنتصاحب سويا - أيها القارىء الكريم - متأملين فيما ساقته لنا السورة الكريمة فى الربعين الأخيرين منها من آيات تزخر بالأدلة العقلية والمنطقية التى تثبت وحدانية الله وتبطل الشرك والشركاء، مستعينة فى ذلك بما تهدى إليه الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية.

تدبر معى قوله - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٤٣٧.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

قال صاحب المنار: هذه الآيات بدء سياق جديد فى شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من الاستعداد للايمان به وتمجيده وشكره، فى إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب فى قصة بنى إسرائيل. فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة، ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة أو سياق على سياق[1].

قوله ﴿وإذ أخذ ربكم من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ الظهور: جمع ظهر وهو العمود الفقرى لهيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته.

والذرية: سلالة الإنسان من الذكور والإناث.

وقوله ﴿من ظهورهم﴾ بدل بعض من قوله ﴿من بنى آدم﴾ و﴿ذريتهم﴾ مفعول أخذ.

والمعنى: واذكر أيها الرسول وذكر كل عاقل وقت أن استخرج الله - تعالى - من أصلاب بنى آدم ذريتهم، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها - سبحانه - فى أرحام الأمهات، وجعلها علقة ثم مضغة، ثم جعلها بشرًا سويا، وخلقا كاملا مكلفًا.

قال الآلوسى: وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الإنباء عن الإجتباء والاصطفاء وهو السبب فى إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى. وقيل إن إيثار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق، فإن الذى يناسبه هو الأخذ دون الإخراج.

والتعبير بالرب لما أن ذلك الأخذ باعتبار ما يتبعه من آثار الربوبية.

وقوله: ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ أى: أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص٣٨٦.

وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعته، وبما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان، وفى عقولهم من مدارك تهديهم إلى معرفة ربهم وخالقهم.

وقوله : ﴿ألستُ بربكم﴾ مقول لقول محذوف : أى : قائلا لهم - بعد أن أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل الوحدانية - ألست بربكم، ومالك أمركم، ومربيكم على الإطلاق، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم ﴿قالوا بلى شهدنا﴾ أى : قالوا بلى شهدنا على أنفسنا عن عقيدة وإقناع بأنك أنت ربنا وخالقنا ولا رب لنا سواك، فإن آثار رحمتك وعجائب خلقك، ومظاهر قدرتك تجعلنا لا نتردد فى هذه الشهادة.

و ﴿بلى﴾ حرف جواب، وتختص بالنفى فلا تقع إلا جوابه فتفيد إبطاله سواء أكان مجردا أم مقرونا بالاستفهام ولذلك قال ابن عباس وغيره، لو قالوا نعم لكفروا. لأن نعم حرف تصديق للمخبر بنفى أو إيجاب.

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ من باب التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع فى كلام الله - تعالى - وفى كلام رسوله ﷺ وفى كلام العرب. ونظيره قوله تعالى - ﴿إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وقوله ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾. ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما تمثيل وتصوير للمعنى»[1].

والمقصود من الآية الكريمة الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته - تعالى - معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الاقرار منهم والشهادة. قال - تعالى - : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾.

والفطرة هى معرفة ربوبيته - سبحانه - :

وقد وردت أحاديث كثيرة تشهد بأن الناس قد فطرهم الله - تعالى - على معرفته، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود الا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء - أى سالمة الأذن - هل تحسون فيها من جدعاء - أى مقطوعة الأذن.

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - ﷺ : يقول الله -تعالى- إنى

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٧٧.

خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم - أى صرفتهم عن دينهم - وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وروى الطبرى عن الحسن الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ «كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها» ولذلك يتبين لنا أن المعنى الإجمالى للآية الكريمة أن الله - تعالى - نصب للناس فى كل شيء من مخلوقاته - ومنها أنفسهم - دلائل توحيده وربوبيته، وركز فيهم عقولا وبصائر يتمكنون بها تمكنا تاما من معرفته والاستدلال بها على التوحيد والربوبية حتى صاروا بمنزلة من إذا دعى إلى الإيمان بها سارع إليه بدون شك أو تردد.

فالكلام على سبيل المجاز التمثيلى لكون الناس قد فطرهم الله - تعالى - على معرفته والإيمان به، وجعلهم مستعدين جميعا للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحدانيته، ولا إخراج للذرية ولا قول ولا إشهاد بالفعل.

وعلى هذا الرأى سار المحققون من مفسرى السلف والخلف:

ويرى بعض المفسرين أن معنى الآية الكريمة: أن الله -تعالى- مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته كالذر، وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق، وألهمهم ذلك الاقرار، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم آدم، واستشهدوا لذلك بأحاديث وآثار ليست صحيحة الاسناد، وما حسن إسناده منها فقد أوله العلماء بما يتفق مع منطوق الآية الكريمة.

وقد رد أصحاب الرأى الأول على هذا البعض بردود منها: أن الله - تعالى قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم﴾ ولم يقل من آدم، وقال ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره، وقال ﴿ذريتهم﴾ ولم يقل ذريته. قال ﴿ وإنما أشرك آباؤنا﴾ ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك، لأن آدم حاشاه من الشرك بالله - تعالى:

قال الإمام ابن كثير بعد أن ساق عددًا كبيرًا من الأحاديث فى هذا المعنى: ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض والأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك»[1].

ثم بين - سبحانه - سبب الاشهاد وعلله فقال: ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ أى: فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا، أو منعا من أن تقولوا يوم القيامة معتذرين عن شرككم: إنا كنا عن هذا الأمر وهو إفراد الله - تعالى - بالربوبية غافلين لم ننبه إليه، لأنهم

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦٤.

ما داموا قد خلقوا على الفطرة، ونصب الله لهم فى كل شيء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته، وجاءتهم الرسل فبشرتهم وأنذرتهم. فقد بطل عذرهم، وسقطت حجتهم.

ثم بين - سبحانه - سببا آخر لهذا الاشهاد فقال: ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾.

أى. وفعلنا ذلك - أيضا منعا لكم من أن تقولوا يوم الحساب: إن آباءنا هم الذين سنوا هذا الاشراك وساروا عليه فنحن قد اتبعناهم فى ذلك بمقتضى أننا أبناؤهم، وننهج نهجهم من بعدهم، فإن قولكم هذا غير مقبول بعد أن هيأ الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لنور الحق لو كنتم مستعدين لقبوله.

والاستفهام فى قوله ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ للإنكار. أى: أنت يا ربنا حكيم وعادل فهل تؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك وأسسوا من الباطل أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال الرسل؟ إنك يا ربنا قد وعدت أنك لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ونحن قد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل فكيف تؤاخذنا؟.

والجواب على ذلك أن الإقرار بالربوبية والتوحيد هو فى أصل فطرتكم فلم لم ترجعوا إليه عندما دعاكم رسولنا الكريم إلى وحدانية الله ونبذ الشركاء إن انقيادكم للاباء بعد أن وهبكم الله العقول المفكرة، وأرسل إليكم الرسل مبشرين ومنذرين لن يعفيكم من المسئولية، ولن ينقذكم من العذاب.

ثم قال - تعالى - ﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أى: ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم، ولعلهم يرجعون إلى فطرتهم وما استكن فيها من ميثاق، وإلى خلقتهم وما كمن فيها من ناموس. فالرجوع إلى الفطرة القويمة كفيل بغرس عقيدة التوحيد فى القلوب، وردها إلى بارئها الواحد القهار الذى فطرها على الحق، وصرفها عن الجهل والتقليد.

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآيات أمورا من أهمها:

١ - فساد التقليد فى الدين، وأنه - تعالى - قد أزاح العذر، وأزال العلل بحيث أصبح لا يعذر أحد بكفره أو شركه.

٢ - أن معرفته - تعالى - فطرية ضرورية. قال - تعالى - ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾.

وروى الترمذى عن عمران بن الحصين قال: قال النبى ﷺ لأبى: يا حصين كم إلـها تعبد

اليوم. قال أبي: سبعة؛ ستة في الأرض وواحدا في السماء قال. فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك. قال: الذي في السماء.

فالله - تعالى - فطر الخلق كلهم على معرفة فطرة التوحيد، حتى من خلق مجنونا لا يفهم شيئا ما يحلف إلا به. ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس[١].

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لمن لا يعمل بعلمه فقال - تعالى -:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قال صاحب المنار: هذا مثل ضربه الله - تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله محمد ﷺ وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها حافظا لقواعدها وأحكامها قادرا على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفا تمام المخالفة لعلمه فسلب هذه الآيات، لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض، أو كان في التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه، والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد قول الشاعر:

خلقوا، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا، وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

---

(١) تفسير القاسمي جـ٧ ص٢٩٠٢.

فحاصل معنى المثل: أن المكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله مع إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذى حرم ثمرة الانتفاع من علمه، لأن كلا منهما لم ينظر فى الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص»[1].

وقوله - تعالى - ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آتينا فانسلخ منها﴾ أى: أقرأ على قومك يا محمد ليعتبروا ويتعظوا خبر ذلك الانسان الذى آتيناه آياتنا بأن علمناه إياها، وفهمناه مراميها، فانسلخ من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة، أو الحية من جلدها.

والمراد أنه خرج منه بالكلية بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات.

وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شىء فارق شيئا على أتم وجه انسلخ منه. وفى التعبير به مالا يخفى من المبالغة وقوله: ﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ أى: فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين:

وفى التعبير بقوله ﴿فأتبعه الشيطان﴾ مبالغة فى ذم هذا الإنسان وتحقيره، جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه، فهو على حد قول الشاعر:

وكان فتى من جند إبليس فارتقى به الحال حتى صار إبليس من جنده

قال الجمل: أتبعه فيه وجهان:

أحدهما: أنه متعد لواحد بمعنى أدركه ولحقه، وهو مبالغة فى حقه حيث جعل إماما للشيطان.

وثانيهما: أن يكون متعديا لاثنين لأنه منقول بالهمزة من تبع، والمفعول الثانى محذوف تقديره: فأتبعه الشيطان خطواته، أى جعله تابعا لها:

وقوله ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان ما ذكر من الانسلاخ وما يتبعه.

والضمير فى قوله ﴿لرفعناه﴾ يعود إلى الشخص المعبر عنه بالاسم الموصول ﴿الذى﴾ والضمير فى قوله ﴿بها﴾ يعود إلى الآيات. ومفعول المشيئة محذوف.

أى: ولو شئنا رفعه بسبب تلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان لرفعناه لأننا

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص٤٠٥.

لا يستعصى على قدرتنا شيء، ولكننا لم نفعل ذلك لأن سنتنا جرت أن نرفع من عنده الاستعداد لذلك أما الذين استحبوا العمى على الهدى فنذرهم فى ضلالهم يعمهون.

وقد بين القرآن هذا المعنى فى قوله : ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ أخلد إلى الأرض : أى ركن إليها. وأصل الإخلاد اللزوم للمكان من الخلود.

أى : ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات ولكنه هو الذى ركن إلى الدنيا، واطمأن بها، واستحوذت بشهواتها على نفسه، واختار لنفسه طريق التسفل المنافى للرفعة، واتبع هواه فى ذلك فلم ينتفع بشيء من الآيات التى آتيناه إياه.

أى : أن مقتضى هذه الآيات أن ترفع صاحبها إلى أعلى عليين، ولكن هذا المقتضى عارضه مانع وهو إخلاد من أوتى هذه الآيات إلى الأرض واتباعه للهوى، فتغلب المانع على المقتضى، فهو كما قال القائل :

قالوا فلان عالم فاضل ... فأكرموه مثلما يقتضى
فقلت : لما لم يكن عاملا ... تعارض المانع والمقتضى

قال الآلوسى : وما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه - تعالى - ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد، مع أن الكل من الله - تعالى -، أذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه. ومن هنا قال ﷺ اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك»[1].

وقوله ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾.
اللهث : إدلاع اللسان بالنفس الشديد. يقال : لهث الكلب يلهث - كسمع ومنع - لهثا ولهاثا، إذا أخرج لسانه فى التنفس.

والمعنى : فمثل هذا الإنسان الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها وأصبح إيتاء الآيات وعدمها بالنسبة له سواء، مثله كمثل الكلب إن شددت عليه وأتبعته لهث، وإن تركته على حاله لهث - أيضا -، فهو دائم اللهث فى الحالين. لأن اللهث طبيعة فيه، وكذلك حال الحريص على الدنيا، المعرض عن الآيات بعد إيتائها، إن وعظته فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص - أيضا - على الدنيا وشهواتها.

والإشارة فى قوله ﴿ذلك مثل القوم﴾ إلى وصف الكلب أو إلى المنسلخ من الآيات، أى :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٩ ص١١٤.

ذلك المثل البعيد الشأن فى الغرابة مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين المنسلخين عن الهدى بعد أن كان فى حوزتهم.

وقوله ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أى : إذا ثبت ذلك، فاقصص على قومك أيها الرسول الكريم المقصوص عليك من جهتنا لعلهم يتفكرون فينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال.

والفاء فى قوله ﴿فاقصص﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. والقصص مصدر بمعنى اسم المفعول، واللام فيه للعهد، وجملة الترجى فى محل نصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو فى موضع المفعول له. أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم، أو رجاءً لتفكرهم.

وقوله : ﴿ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ استئناف مسوق لبيان كمال قبحهم بعد البيان السابق. و ﴿ساء﴾ بمعنى بئس وفاعلها مضمر. و ﴿مثلا﴾ تمييز مفسر له، والمخصوص بالذم قوله - تعالى - ﴿القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾.

أى : ساء مثلا مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا حيث شبهوا بالكلاب إما فى استواء الحالتين فى النقصان وأنهم ضالون وعظوا أم لم يوعظوا، وإما فى الخسة، فإن الكلاب لاهمة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن خير الهدى والعلم وأقبل على هواه صار شبيها بالكلب، وبئس المثل مثله ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لنا مثل السوء. العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه».

وقوله ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ معطوف على ﴿كذبوا﴾ داخل معه فى حكم الصلة بمعنى أنهم جمعوا بين أمرين قبيحين : التكذيب وظلمهم أنفسهم أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم وحدها بارتكابهم تلك الموبقات والخطيئات. فإن العقوبة لا تقع إلا عليهم لا على غيرهم.

هذا، والذى ذهب إليه المحققون من العلماء أن هذه الآيات الكريمة المثل فيها مضروب لكل إنسان أوتى علما ببعض آيات الله، ولكنه لم يعمل بمقتضى علمه، بل كفر بها ونبذها وراء ظهره وصار هو والجاهل سواء.

وقيل : إن الآيات الكريمة واردة فى شخص معين، واختلفوا فى هذا المعين.

فبعضهم قال إنها فى أمية بن أبى الصلت، فإنه كان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولا وتمنى أن يكون هو هذا الرسول، فلما أرسل الله - تعالى - نبيه محمدًا ﷺ حسده ومات كافرًا.

وبعضهم قال : نزلت فى أبى عامر الراهب الذى سماه النبى ﷺ : « الفاسق » كان يترهب فى الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق.

وبعضهم قال : إنها فى منافقى أهل الكتاب، كانوا يعرفون صفة النبى ﷺ ومخرجه، فلما بعثه الله - تعالى - كفروا به.

وبعضهم قال : إنها نزلت لتحكى قصة رجل من علماء اليهود اسمه بلعم ابن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله ثم انسلخ منها بأن كفر بها ونبذها بعد أن رشاه اليهود.

والذى نراه أن الرأى الأول الذى عليه المحققون من المفسرين هو الراجح ، وأن هؤلاء الذين ذكروا يندرجون تحته، لأنه لم يرد نص صحيح يعين اسم الذى وردت الآيات فى حقه، فوجب أن نحملها على أنها واردة فى شأن كل من علم الحق فأعرض عنه واتبع هواه.

ثم يعقب القرآن على هذا المثل ببيان أن الهداية والضلال من الله وأن هناك أقوامًا من الجن والإنس قد خلقوا لجهنم بسبب إيثارهم طريق الشر على طريق الخير قال - تعالى - :

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله ﴿من يهد الله فهو المهتدى﴾ أى : من يوفقه الله - تعالى - إلى سلوك طريق الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدى حقًا، الواصل إلى رضوان الله صدقًا.

﴿ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ أى : ومن يخذله - سبحانه - بالحرمان من هذا التوفيق بسبب إيثاره السير فى طريق الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم.

وأفرد - سبحانه - المهتدى فى الجملة الأولى مراعاة للفظ ﴿من﴾، وجمع الخاسرين فى الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم.

وحكمة إفراد المهتدى للإشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد ولا يتنوع، وحكمة جمع الثانى وهو قوله ﴿الخاسرون﴾ للإشارة إلى تعدد أنواع الضلال، وتنوع وسائله وأساليبه.

وقوله ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله ومفصل له.

و «الذرء» الخلق. يقال: ذرأ الله خلقه يذرؤهم ذرءًا، أى: خلقهم. واللام فى ﴿لجهنم﴾ للعاقبة والصيرورة.

أى: ولقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب بها كثيرًا من الجن والانس وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها، الذين علم الله منهم أزلا اختيارهم الكفر فشاءه منهم وخلقه فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك.

ثم بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيىء فقال. ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أى: لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى الكمالات مع أن دلائل الإيمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب المتفتحة، والبصائر المستنيرة.

وجملة ﴿لهم قلوب﴾ فى محل نصب صفة أخرى لقوله ﴿كثيرًا﴾ وجملة ﴿لا يفقهون بها﴾ فى محل رفع صفة لقلوب.

وقوله ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ أى: لهم أعين لا يبصرون بها ما فى هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار، فهم كما قال - تعالى -، ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو اعتبار، فكأن وجودها وعدمه سواء.

وقوله ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أى: لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، أى أنهم لا ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية.

قال صاحب الكشاف: «هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم: وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم -لإعراقهم فى الكفر وشدة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار- مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم فى الموبقات، وتوغلهم فيما يؤهلهم لدخول النار»[1].

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٧٩.

وقوله ﴿أولئك كالأنعام﴾ أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات المذكورة كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببًا للهداية.

وقوله ﴿بل هم أضل﴾ تنقيص لهم عن رتبة الأنعام، أى : بل هم أسوأ حالا من الأنعام، إذ أن الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التى تهديها أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعى، والعقل المدرك، والعين المبصرة، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال، فإذا لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية.

وقوله ﴿أولئك هم الغافلون﴾ أى أولئك المنعوتون بما ذكرهم الكاملون فى الغفلة عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم، بسبب استحواذ الهوى والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحدا.

وبعد أن بين - سبحانه - حال المخلوقين لجهنم بسبب غفلتهم وإهمالهم لعقولهم وحواسهم، أعقبه ببيان العلاج الذى يشفى من ذلك، وبالنهى عن اتباع المائلين عن الحق فقال - تعالى - :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ أمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - ومجانبة الملحدين والمشركين. قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته : يا رحمن يا رحيم. فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدًا فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فنزلت»[(١)].

والأسماء : جمع اسم، وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقا كالرحمـٰن، والرحيم، أو مصدرًا كالرب والسلام.

والحسنى : تأنيث الأحسن أفعل تفضيل، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها، لأنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها.

والمعنى : ولله - تعالى - وحده جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فادعوه أى سموه واذكروه ونادوه بها.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٢٥.

روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله تسعة وتسعين اسمًا من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر».

قال الآلوسى: والذى أراه أنه لا حصر لأسمائه - عزت أسماؤه - فى التسعة والتسعين، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من أصابه هم أو حزن فليقل: اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتى فى يدك ماضى فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وذهاب همى وجلاء حزنى... إلخ» فهذا الحديث صريح فى عدم الحصر.

وحكى النووى اتفاق العلماء على ذلك وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، وهو لا ينافى أن له - تعالى - أسماء غيرها»[1].

ثم قال - تعالى - ﴿وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

ذروا: فعل أمر لم يرد فى اللغة استعمال ماضيه ولا مصدره، وهو بمعنى الترك والإهمال.

ويلحدون من الإلحاد وهو الميل والانحراف، يقال: ألحد إلحادًا إذا مال عن القصد والاستقامة، وألحد فى دين الله: حاد عنه؛ ومنه لحد القبر لأنه يمال بحفره إلى جانبه بخلاف الضريح فإنه يحفر فى وسطه.

والمعنى: ولله - تعالى - أشرف الأسماء وأجلها فسموه بها أيها المؤمنون، واتركوا جميع الذين يلحدون فى أسمائه - سبحانه - بالميل بألفاظها أو معانيها عن الحق من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل أو ما ينافى وصفها بالحسنى اتركوا هؤلاء جميعا فإنهم سيلقون جزاء عملهم من الله رب العالمين.

ومن مظاهر إلحاد الملحدين فى أسمائه - تعالى - تسمية أصنامهم بأسماء مشتقة منها، كاللات: من الله - تعالى -، والعزى: من العزيز، ومناة: من المنان وتسميته - تعالى - بما يوهم معنى فاسدا، كقولهم له - سبحانه -: يا أبيض الوجه كذلك من مظاهر الإلحاد فى أسمائه - تعالى -، تسميته بما لم يسم به نفسه فى كتابه، أو فيما صح من حديث رسوله، إلى غير ذلك مما يفعله الجاهلون والضالون.

ثم تمضى السورة الكريمة فى هديها وتوجيهها فتفصل صنوف الخلق، وتمدح من يستحق المدح وتذم من يستحق الذم فتقول:

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٩ ص١٢٣.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

وقوله ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ معطوف على قوله ﴿ولقد ذرأنا﴾ قبل ذلك، لأن كلتيهما تفصيل لإجمال قوله - تعالى - ﴿من يهد الله فهو المهتدى﴾.

أى: وممن خلقنا للجنة -لأنه فى مقابلة ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾- أمة يهدون بالحق، أى: يدعون إليه ويسيرون عليه، وبه يعدلون أى: به يقضون وينصفون الناس.

وقد وردت آثار تفيد أن المراد بهذه الأمة: الأمة المحمدية ففى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة، وفى رواية: «حتى يأمر الله وهم على ذلك»:

وقال قتادة: بلغنا أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذا الآية يقول: هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها.

وعن الربيع بن أنس - فى هذه الآية - قال: قال رسول الله ﷺ إن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل».

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة.

ثم ذكر - سبحانه - حال المكذبين فقال. ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾.

الاستدراج : - كما قال القرطبى - هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة. والدرج لف الشيء، يقال : أدرجته ودرجته. ومنه أدرج الميت فى أكفانه. وقيل : هو من الدرجة، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود. قال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة »[1].

وقال صاحب الكشاف : الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومنه : درج الصبى إذا قارب بين خطوه، وأدرج الكتاب. طواه شيئا بعد شيء، ودرج القوم : مات بعضهم فى أثر بعض. ومعنى ﴿سنستدرجهم﴾ سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم. ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم فى الغى، فكلما جدد عليهم نعمة، ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم محبة من الله وتقريب. وإنما هى خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج من الله - تعالى - نعوذ بالله منه »[2].

وقد قيل : إذا رأيت الله - تعالى - أنعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج.

وقوله : ﴿وأملى لهم إن كيدى متين﴾ الإملاء : الإمداد فى الزمن والإمهال والتأخير، مشتق من الملاوة والملوة، وهى الطائفة الطويلة من الزمن. والملوان : الليل والنهار.

ويقال : أملى له إذا أمهله طويلا، وأملى للبعير : إذ أرخى له فى الزمام ووسع له فى القيد ليتسع المرعى.

والكيد كالمكر، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه من مخبره وغايته. وإضافته إلى الله - تعالى - يحمل على المعنى اللائق به، كإبطال مكر أعدائه أو إمدادهم بالنعم ثم أخذهم بالعذاب.

ومتين : من المتانة بمعنى الشدة والقوة. ومنه المتن للظهر أو للحم الغليظ.

والمعنى. والذين كذبوا بآياتنا سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم بكثرة النعم بين أيديهم، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أن صنعنا هذا معهم هو لون من الاستدراج. وأمهل لهؤلاء المكذبين المستدرجين فى العمر، وأمد لهم فى أسباب الحياة الرغدة، إن كيدى شديد متين لا يدافع بقوة ولا بحيلة. وفى الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ».

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٢٩.
(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٨٢.

وقوله ﴿وأملى لهم﴾ جوز بعضهم أن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف أى : وأنا أملى لهم . وقيل هو معطوف على قوله ﴿سنستدرجهم﴾ وقيل هو مستأنف .

ثم أمر - سبحانه - هؤلاء الظالمين بالتفكر والتدبر فقال : ﴿أو لم يتفكروا، ما بصاحبهم من جنة، إن هو إلا نذير مبين﴾ .

الهمزة للانكار والتوبيخ ، وهى داخلة على فعل حذف للعلم به من سياق القول، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام .

والجنة : مصدر كالجلسة بمعنى الجنون . وأصل الجن الستر عن الحاسة .

والمعنى : أكذب هؤلاء الظالمون رسولهم ﷺ ولم يتفكروا فى أنه ليس به أى شىء من الجنون، بل هو أكمل الناس عقلا، وأسدهم رأيا، وأنقاهم نفسًا .

والتعبير ﴿بصاحبهم﴾ للايذان بأن طول مصاحبتهم له مما يطلعهم على نزاهته عما اتهموه به ، فهو ﷺ قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة كانوا يلقبونه فيها بالصادق الأمين، ويعرفون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم والتفكير المستقيم .

قال الجمل : وجملة « ما بصاحبهم من جنة » فى محل نصب معمولة ليتفكروا فهو عامل فيها محلا لا لفظا لوجود المعلق له عن العمل وهو ما النافية .

ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله ﴿أو لم يتفكروا﴾ ثم ابتدأ كلاما آخر إما استفهام إنكار وإما نفيًا . ويجوز أن تكون « ما » استفهامية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم . والتقدير : أى شىء استقر بصاحبهم من الجنون »[1] .

وقوله ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ بيان لوظيفته ﷺ أى : ليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون وإنما هو مبالغ فى الإنذار، مظهر له غاية الإظهار . فهو لا يقصر فى تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب، ولا يتهاون فى نصيحتكم وإرشادكم إلى ما يصلح من شأنكم .

ثم دعاهم القرآن إلى النظر والاستدلال العقلى فقال : ﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء﴾ .

الملكوت : هو الملك العظيم زيدت فيه اللام والتاء للمبالغة كما فى جبروت .

والجملة الكريمة مسوقة لتوبيخهم على إخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية إثر تقريعهم على عدم تفكرهم فى أمر نبيهم ﷺ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٢١٥ .

أى : أكذبوا ولم يتفكروا فى شأن رسولهم ﷺ وما هو عليه من كمال العقل، ولم ينظروا نظر تأمل واعتبار واستدلال فى ملكوت السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفى ملكوت الأرض من البحار والجبال والدواب وغيرها، ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف مما يشهد بأن لهذا الكون خالقا قادرا هو المستحق وحده للعبادة والخضوع.

وقوله ﴿من شيء﴾ بيان «لما» وفى ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السموات والأرض، بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده.

وقوله : ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ فى محل جر معطوف على ما قبله، و ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو ﴿أن يكون﴾.

والمعنى : أو لم ينظروا - أيضا - فى اقتراب آجالهم، وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم ونزول العذاب بهم وهم فى أتعس حال.

إنهم لو تفكروا فى أمر رسولهم ﷺ ولو نظروا فيما خلق الله من مخلوقات بعين التدبر والاتعاظ، لآمنوا وهدوا إلى صراط العزيز الحميد.

وقوله : ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو أكمل كتب الله بيانا، وأقواها برهانا، فبأى كلام بعده يؤمنون؟.

والجملة الكريمة مسوقة للتعجب من أحوالهم. ولقطع أى أمل فى إيمانهم لأنهم ما داموا لم يؤمنوا بهذا الرسول المؤيد بالمعجزات، وبهذا الكلام المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية، فأحرى بهم ألا يؤمنوا بغير ذلك.

ثم عقب القرآن على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بقوله : ﴿من يضلل الله فلا هادى له، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾.

أى : من يرد الله إضلاله بسبب اختياره للضلالة، وصممه عن الاستماع للحق فلا قدرة لأحد على هدايته، وهو - سبحانه - يترك هؤلاء الضالين فى طغيانهم متحيرين مترددين.

ثم بينت السورة الكريمة أن أمر الساعة مرده إلى الله - تعالى -، وأن السائلين عن وقتها من الأحسن لهم أن يستعدوا لها بدل أن يكثروا من السؤال عن زمن مجيئها فقالت :

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قال الآلوسى: عن ابن عباس أن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا. إنا نعلم متى هى، وكان ذلك امتحانا منهم، مع علمهم أن الله -تعالى- قد استأثر بعلمها. وأخرج ابن جرير عن قتادة أن جماعة من قريش قالوا: يا محمد أسر إلينا متى الساعة لما بيننا وبينك من القرابة فنزلت»[1].

وقوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم.

والساعة فى الأصل اسم لمدار قليل من الزمان غير معين، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة وهو المراد بالسؤال هنا.

وأطلق على يوم القيامة ساعة إما لوقوعه بغتة، أو لسرعة ما فيه من الحساب، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى -.

و ﴿أيان﴾ ظرف زمان متضمن معنى متى. و ﴿مرساها﴾ مصدر ميمى من أرساها إذا اثبته وأقره، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا فى الشىء الثقيل كما فى قوله - تعالى - ﴿والجبال أرساها﴾ ونسبته هنا إلى الساعة باعتبار تشبيه المعانى بالأجسام. و ﴿أيان﴾ خبر مقدم و ﴿مرساها﴾ مبتدأ مؤخر.

(١) تفسير الآلوسى جـ٩ ص١٣٢.

والمعنى: يسألك يا محمد هؤلاء القوم عن الساعة قائلين أيان مرساها؟.

أى متى إرساؤها واستقرارها، أو متى زمن مجيئها وحصولها؟.

وقوله ﴿قل إنما علمها عند ربى﴾ جواب عن سؤالهم: أى: قل أيها الرسول الكريم: علم الساعة أو علم قيامها عند ربى وحده ليس عندى ولا عند غيرى من الخلق شىء منه.

والتعبير بإنما المفيد للحصر للاشعار بأنه - سبحانه - هو الذى استأثر بعلم ذلك ولم يخبر أحدا به من ملك مقرب أو نبى مرسل.

وقوله ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ بيان لاستمرار إخفائها إلى حين قيامها وإقناط كلى عن إظهار أمرها بطريق الإخبار.

والتجلية: الكشف والإظهار. يقال: جلى لى الأمر وانجلى وجلاه تجلية بمعنى: كشفه وأظهره أتم الاظهار.

والمعنى: لا يكشف الحجاب عن خفائها، ولا يظهرها للناس فى الوقت الذى يختاره إلا الله وحده.

قال بعضهم: والسبب فى إخفاء الساعة عن العباد لكى يكونوا دائما على حذر، فيكون ذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية، فإنه متى علمها المكلف ربما تقاصر عن التوبة وأخرها.

ثم عظم - سبحانه - أمر الساعة فقال ﴿ثقلت فى السمٰوات والأرض﴾ أى: كبرت أو شقت على أهلها لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة، وعن السدى: أن من خفى عليه علم شىء كان ثقيلا عليه.

أو المعنى: ثقلت عند الوقوع على نفس السمٰوات حتى انشقت وانتثرت نجومها وكورت شمسها، وعلى نفس الأرض حتى سيرت جبالها، وسجرت بحارها، وقوله: «لا تأتيكم إلا بغتة» أى: لا تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة من غير توقع ولا انتظار.

وقد وردت أحاديث متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة، ومنها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أى ناقته ذات اللبن - فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - أى يطليه بالجص أو الطين - فلا يسقى فيه. ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها».

ثم قال - تعالى - ﴿يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

أى : يسألونك يا محمد هذا السؤال كأنك حفى عنها أى : كأنك عالم بها. من حفى عن الشيء إذا بحث عن تعرف حاله بتتبع واستقصاء ومن بحث عن شيء وسأل عنه استحكم علمه به، وعدى ﴿حفى﴾ بعن اعتبارًا لأصل معناه، وهو السؤال والبحث.

قال صاحب الكشاف : ﴿كأنك حفى عنها﴾ عالم بها. وحقيقته كأنك بليغ فى السؤال عنها، لأن من بالغ فى المسألة عن الشيء والتنقير عنه. استحكم علمه فيه ورصن - أى ثبت وتمكن -، وهذا التركيب معناه المبالغة ومنه احفاء الشارب، واحتفاء البقل، استئصاله، وأحفى فى المسألة إذا ألحف - أى ألح وتشدد - وحفى بقلان وتحفى به : بالغ فى البربه.. وقيل : إن قريشا قالت له إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل : يسألونك عنها كأنك حفى تتحفى بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله فى اخبارك به، لكنت مبلغه للقريب والبعيد من غير تخصيص، كسائر ما أوحى إليك.

ثم قال : فإن قلت : لم كرر يسألونك وإنما علمها عند الله؟ قلت : للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله ﴿كأنك حفى عنها﴾ وعلى هذا تكرير العلماء والحذاق»[(1)].

وقال صاحب الانتصاف : وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى إلا فى الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها. وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرار أن الكلام إذا بنى على مقصد واعترض فى أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال، وسيأتى، وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام. بقوله «يسألونك عن الساعة أيان مرساها» ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله ﴿قل إنما علمها عند ربى﴾ إلى قوله ﴿بغته﴾ أن يدمغ تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن فى قوله ﴿كأنك حفى عنها﴾ وهو شديد التعلق بالسؤال وقد بعد عهده، فطرى ذكره تطرية عامة، ولا تراه أبدًا يطرى إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم. فمن ثم قيل ﴿يسألونك﴾ ولم يذكر المسئول عنه وهو «الساعة» اكتفاء بما تقدم، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال : ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه»[(1)].

هذا، وإذا كان علم الساعة مرده إلى الله وحده، فإن هناك نصوصًا من الكتاب والسنة تحدثت عن أماراتها وعلاماتها، ومن ذلك قوله - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٨٥.

(١) الانتصاف على الكشاف جـ٢ ص١٨٤ لابن المنير.

﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها. فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾.

والأشراط: جمع شرط - بفتح الشين والراء - وهى العلامات الدالة على قربها، وأعظم هذه العلامات بعثة النبى - ﷺ - إذ بها كمل الدين وما بعد الكمال إلا الزوال.

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويفرج بين أصبعيه الوسطى والسبابة.

وفى حديث جبريل المشهور أنه سأل النبى ﷺ عن الساعة، فقال له ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها:

«إذا ولدت الأمة ربها - أى سيدها -، وإذا تطاول رعاة الإبل فى البنيان».

ومن علامات الساعة - كما صرحت بذلك الأحاديث - قبض العلم، ففى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» ومنها - أى من علامات الساعة - كثرة الزلازل، وتقارب الزمان - أى قلة البركة فى الوقت بحيث يمر الشهر كأنه أسبوع -، وظهور الفتن وكثرة الهرج - أى القتل إلى غير ذلك من العلامات التى وردت فى الأحاديث النبوية، وقد ساق بعض المفسرين وعلى رأسهم ابن كثير جملة منها[1].

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله - تعالى -، وأن علم الغيب كله مرجعه إليه - سبحانه - فقال:

﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًا﴾ أى: لا أملك لأجل نفسى جلب نفع ما ولا دفع ضرر ما.

وقوله ﴿لنفسى﴾ متعلق بأملك. أو بمحذوف وقع حالا من ﴿نفعا﴾ والمراد: لا أملك ذلك فى وقت من الأوقات.

وقوله ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء متصل. أى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًا فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئة الله بأن يمكننى من ذلك، فإننى حينئذ أملكه بمشيئته.

وقيل الاستثناء منقطع، أى لكن ما شاء الله من ذلك كائن.

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٧١.

وقوله ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء﴾ أى : لكانت حالى - كما قال الزمخشرى - على خلاف ما هى عليه من استكثار الخير، واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسنى شىء منها ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى فى الحروب، ورابحا وخاسرا فى التجارات ومصيبا ومخطئا فى التدابير»[١].

قال الجمل : فان قلت : قد أخبر ﷺ عن المغيبات وقد جاءت أحاديث فى الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته فكيف نوفق بينه وبين قوله - تعالى - ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ . . الخ . ؟ قلت : يحتمل أنه قاله على سبيل التواضع والأدب، والمعنى : لا أعلم الغيب إلا أن يطلعنى الله عليه ويقدره لى .

ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله على علم الغيب . فلما أطلعه الله أخبر به كما قال -تعالى- ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم، ثم بعد ذلك أظهره - سبحانه - على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته[٢].

ثم بين القرآن وظيفة الرسول ﷺ فى قوله ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ أى : ما أنا إلا عبد أرسلنى الله نذيرًا وبشيرًا، وليس من مهمتى أو وظيفتى معرفة علم الغيب .

وقوله ﴿لقوم يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بقوله ﴿نذير وبشير﴾ جميعا لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير، ويجوز أن يتعلق بقوله ﴿بشير﴾ وحده، وعليه يكون متعلق النذير محذوف أى : للكافرين . وحذف للعلم به :

وبهذا الإعلان من جانب الرسول ﷺ للناس عن وظيفته، تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق من الشرك فى أية صورة من صوره، وتنفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها فيها بشر ولو كان هذا البشر محمدًا ﷺ فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشرى، وتقف القدرة البشرية، إذ علم الغيب إنما هو لله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن مظاهر قدرة الله وأدلة وحدانيته، فذكرت الناس بمبدأ نشأتهم، وكيف أن بعضهم قد انحرف عن طريق التوحيد إلى طريق الشرك، وساقت ذلك فى صورة القصة لضرب المثل من واقع الحياة فقالت :

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٨٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٢١٨ .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

قوله - تعالى - ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ استئناف مسوق لبيان ما يقتضى التوحيد الذى هو المقصد الأعظم.

أى. إن الذى يستحق العبادة والخضوع، والذى عنده مفاتح الغيب هو الله الذى خلقكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم، وجعل من نوع هذه النفس وجنسها زوجها حواء، ثم انتشر الناس منهما بعد ذلك كما قال - تعالى - ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء﴾.

وقوله ﴿ليسكن إليها﴾ أى: ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس. وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه.

فالأصل فى الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار وهذه نظرة الاسلام إلى تلك الحياة قال - تعالى - ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

والضمير المستكن فى ﴿يسكن﴾ يعود إلى النفس، وكان الظاهر تأنيثه لأن النفس من المؤنثات السماعية ولذا أنثت صفتها وهى قوله ﴿واحدة﴾ إلا أنه جاء مذكرا هنا باعتبار أن المراد من النفس هنا - آدم عليه السلام - «ولو أنث على حسب الظاهر لتوهم نسبة السكون إلى الأنثى، فكان التذكير كما يقول الزمخشرى - أحسن طباقا للمعنى.

وقوله ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به﴾.

الغشاء : غطاء الشيء الذى يستره من فوقه، والغاشية؛ الظلة التى تظل الإنسان من سحابة أو غيرها. والتغشى كناية عن الجماع. أى فلما تغشى الزوج الذى هو الذكر الزوجة التى هى الأنثى وتدثرها لقضاء شهوتهما ﴿حملت حملا خفيفا﴾. أى : حملت منه محمولا خفيفا وهو الجنين فى أول حملة لا تجد المرأة له ثقلا لأنه يكون نطفة ثم مضغة، ولا ثقل له يذكر فى تلك الأحوال ﴿فمرت به﴾ أى : فمضت به إلى وقت ميلاده من غير نقصان ولا إسقاط. أو المعنى : فاستمرت به كما كانت من قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت من غير مشقة وتلك هى المرحلة الأولى من مراحل الحمل.

وتأمل معى - أيها القارىء الكريم - مرة أخرى قوله - تعالى : ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا﴾ لترى سمو القرآن فى تعبيره، وأدبه فى عرض الحقائق. إن أسلوبه يلطف ويدق عند تصوير العلاقة بين الزوجين، فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة تتناسب مع جو السكن والمودة بين الزوجين وتتسق مع جو الستر الذى تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة بين الرجل والمرأة، ولا نجد كلمة تؤدى هذه المعانى أفضل من كلمة ﴿تغشاها﴾.

ثم تأتى المرحلة الثانية من مراحل الحمل فيعبر عنها القرآن بقوله : ﴿فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين﴾.

أى : فحين صارت ذات ثقل يسبب نمو الحمل فى بطنها، فالهمزة للصيرورة كقولهم : أتمر فلان وألبن أى : صار ذا تمر ولبن.

أى : وحين صارت الأم كذلك وتبين الحمل، وتعلق به قلب الزوجين، توجها إلى ربهما يدعوانه بضراعة وطمع بقولهما : ﴿لئن آتينا صالحا﴾ أى لئن أعطيتنا نسلا سويا تام الخلقة، يصلح للأعمال الإنسانية النافعة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على نعمائك التى من أجلها هذه النعمة واستجاب الله للزوجين دعاءهما، فرزقهما الولد الصالح فماذا كانت النتيجة؟.

لقد كانت النتيجة عدم الوفاء لله فيما عاهداه عليه، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أى : فحين أعطاهما - سبحانه - الولد الصالح الذى كانا يتمنيانه، جعلا لله - تعالى - شركاء فى هذا العطاء، وأخلا بالشكر فى مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال، حيث نسبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبعيون أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله - تعالى - بالعبادة والشكر.

وقوله ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ تنزيه فيه معنى التعجب من أحوالهم. أى : تنزه - سبحانه - وتقدس عن شرك هؤلاء الأغبياء الجاحدين الذين يقابلون نعم الله بالإشراك والكفران.

والضمير فى ﴿يشركون﴾ يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء: هذا والمحققون من العلماء يرون أن هاتين الآيتين قد سيقتا توبيخا للمشركين حيث إن الله - تعالى - أنعم عليهم بخلقهم من نفس واحدة، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن، وأعطاهم الذرية، وأخذ عليهم العهود بشكره على هذه النعم، ولكنهم جحدوا نعمه وأشركوا معه فى العبادة والشكر آلهة أخرى ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بهذا السياق آدم وحواء، واستدلوا على ذلك بما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن النبى ﷺ قال: «لما طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره.

وقد أثبت ابن كثير فى تفسيره ضعف هذا الحديث من عدة وجوه، ثم قال: قال الحسن: عنى الله - تعالى - بهذه الآية ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وقال قتادة: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا. قال ابن كثير: وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ونحن على مذهب الحسن البصرى فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾[1].

وقال صاحب الانتصاف: والأسلم والأقرب أن يكون المراد - والله أعلم - جنسى الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين. وكأن المعنى خلقكم جنسا واحدًا، وجعل أزواجكم منكم أيضًا لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر، الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت. وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون على حد قولهم: «بنو فلان قتلوا قتيلا» يعنى من نسبة البعض إلى الكل[1].

والذى نراه أن الآيتين واردتان فى توبيخ المشركين على شركهم ونقضهم لعهودهم مع الله - تعالى - لأن الأحاديث والآثار التى وردت فى أنهما وردتا فى شأن آدم وحواء لتسميتهما ابنهما بعبد الحارث اتباعًا لوسوسة الشيطان لهما - ليست صحيحة، كما أثبت ذلك علماء الحديث.

ثم أخذت السورة بعد ذلك فى توبيخ المشركين، وفى إبطال شركهم بأسلوب منطقى حكيم فقالت:

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٧٤.

(٢) الانتصاف على الكشاف جـ٢ ص١٨٦ لابن المنبر - بتصرف يسير -.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾
إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ
وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

قوله - تعالى - ﴿أيشركون مالا يخلق شيئًا وهم يخلقون﴾ أى : أيشركون به - تعالى - وهو الخالق لهم ولكل شىء، مالا يخلق شيئًا من الأشياء مهما يكن حقيرًا، بل إن هذه الأصنام التى تعبد من دون الله مخلوقة ومصنوعة، فكيف يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر.

والاستفهام للإنكار والتجهيل. والمراد بما فى قوله ﴿مالا يخلق شيئًا﴾ أصنامهم، ورجع الضمير إليها مفردًا لرعاية لفظها، كما أن إرجاع ضمير الجمع إليها فى قوله ﴿وهم يخلقون﴾ لرعاية معناها.

وجاء بضمير العقلاء فى ﴿يخلقون﴾ مسايرة لهم فى اعتقادهم أنها تضر وتنفع.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون﴾ أى : أن هذه الأصنام فضلا عن كونها مخلوقة، فإنها لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصرا على أعدائهم، بل إنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شرًا، ومن هذه صفته كيف يعبد من دون الله؟ قال - تعالى - ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾.

ثم بين - سبحانه - عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفى عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب فقال : ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ أى : وإن تدعو أيها المشركون هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم، أى أنهم لا ينفعوكم بشيء ولا ينتفعون منكم بشيء.

وقوله ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله.

أى : مستو عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم، فإنه لا يتغير حالكم فى الحالين، كما لا يتغير حالهم بحكم أنهم جماد.

ثم مضى القرآن فى دعوته إياهم إلى التدبر والتعقل فقال : ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾.

أى : إن هذه الآصناف التى تعبدونها من دون الله، أو تنادونها لدفع الضر أو جلب النفع ﴿عباد أمثالكم﴾ أى : مماثلة لكم فى كونها مملوكة لله مسخرة مذللة لقدرته كما أنكم أنتم كذلك فكيف تعبدونها أو تنادونها؟.

وأطلق عليها لفظ ﴿عباد﴾ -مع أنها جماد- وفق اعتقادهم فيها تبكيتا لهم وتوبيخا.

وقوله ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى : فادعوهم فى رفع ما يصيبكم من ضر، أو فى جلب ما أنتم فى حاجة إليه من نفع ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى زعمكم أن هذه الأصنام قادرة على ذلك.

ثم تابع القرآن تقريعه لهذه الأصنام وعابديها فقال : ﴿ألهم أرجل يمشون بها، أم لهم أيد يبطشون بها، أم لهم أعين يبصرون بها، أم لهم آذان يسمعون بها﴾.

الاستفهام للإنكار، والمعنى : أن هذه الأصنام التى تزعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى هى أقل منكم مستوى لفقدها الحواس التى هى مناط الكسب إنها ليس لها أرجل تسعى بها إلى دفع ضر أو جلب نفع؛ وليس لها أيد : تبطش بها أى تأخذ بها ما تريد أخذه، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم، وتعرف بواسطتها مطالبكم، فأنتم

أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله - تعالى - من حواس السمع والبصر وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضول، وكيف ينقاد الأقوى للأضعف؟.

ثم أمر الله - تعالى رسوله ﷺ أن يناصبهم الحجة وان يكرر عليهم التوبيخ فقال: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ أى: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين هبطوا بعقولهم إلى أحط المستويات نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى وإلحاق الضر بى من غير انتظار أو إمهال، فإنى أنا معتز بالله، وملتجىء إلى حماه ومن كان كذلك فلن يخشى شيئا من المخلوقين جميعا.

وهذا نهاية التحدى من جانب الرسول ﷺ لهم والحط من شأنهم وشأن آلهتهم.

ثم بين لهم الأسباب التى دعته إلى تحديهم وتبكيتهم فقال ﴿إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾.

أى: قل يا محمد لهؤلاء الضالين إننى ما تحديتكم وطلبت كيدكم وكيد أصنامكم - إن كنتم أنتم وهم تقدرون على ذلك على سبيل الفرض - إلا لأنى معتز بالله وحده، فهو ناصرى ومتولى أمرى، وهو الذى نزل هذا القرآن لأخرجكم به من الظلمات إلى النور، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يتولى الصالحين وأن يجعل العاقبة لهم.

قال الحسن البصرى: إن المشركين كانوا يخوفون الرسول ﷺ بآلهتهم فقال - تعالى - ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ الآية - ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلى بوجه من الوجوه. وهذا كما قال هود - عليه السلام - لقومه ردًا على قولهم. ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء - قال: إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون. من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون﴾.

ثم قال - تعالى - ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ أى: والذين تعبدونهم من دون الله أو تنادونهم لدفع الضر أو جلب النفع لا يستطيعون نصركم فى أى أمر من الأمور، وفضلا عن ذلك فهم لا يستطيعون رفع الأذى عن أنفسهم إذا ما اعتدى عليهم معتد.

ثم قال - تعالى - ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ أى: إلى أن يرشدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك ﴿لا يسمعوا﴾ أى: لا يسمعوا شيئًا مما تطلبونه منهم، ولو سمعوا - على سبيل الفرض - ما استجابوا لكم لعجزهم عن فعل أى شىء.

وقوله ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، أى: وترى هذه الأصنام كأنها تنظر إليك بواسطة تلك العيون الصناعية

التى ركبت فيها ولكنها فى الواقع لا تبصر لخلوها من الحياة.

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد وبخت المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ، وأثبتت بالأدلة المنطقية الحكيمة، وبوسائل الحس والمشاهدة أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، وأن الذين قالوا فى شأنها ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ هم قوم غافلون جاهلون، قد هبطوا بعقولهم إلى أحط الدركات، لأنهم يتقربون إلى الله زلفى عن طريق مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا، بل لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه.

وفى الوقت نفسه فالآيات دعوة قوية لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته وخضوعه لله الواحد القهار.

ثم تتجه السورة الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرسول ﷺ فترسم له ولكل عاقل طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج والضيق فتقول.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

العفو: يطلق فى اللغة على خالص الشىء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه.

أى: خذ ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس، وارض منهم بما تيسر من أعمالهم وتسهل من غير كلفة. ولا تطلب منهم ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا، وكن لينا رفيقًا فى معاملة أتباعك، فإنك ﴿لو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ ﴿وأمر بالعرف﴾ أى: مر غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال، وهو كل ما عرف حسنه فى الشرع، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير، فإن النفوس حين تتعود الخير الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال، يسلس قيادها، ويسهل توجيهها.

﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ الذين لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والكلمات فيما يبدر منهم من أنواع السفاهة والإيذاء لأن الرد على أمثال هؤلاء ومناقشتهم لا تؤدى إلى خير، ولا تنتهى إلى نتيجة. والسكوت عنهم احتزام للنفس، واحترام للقول، وقد يؤدى الإعراض عنهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها.

وهذه الآية على قصرها تشتمل - كما قال العلماء - على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وهى طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار، وقد جاءت فى أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وأبطال الشرك والشركاء، لكى

تبين للناس فى كل زمان ومكان أن التحلى بمكارم الأخلاق إنما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد، الفرد الصمد.

قال القرطبى: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات.

فقوله ﴿خذ العفو﴾ دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل فى قوله ﴿وأمر بالعرف﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله فى الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفى قوله ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق المجيدة والأفعال الرشيدة»[1].

ثم يرشد القرآن المسلمين فى شخص الرسول الكريم ﷺ إلى ما يهدىء غضبهم ويطفىء ثورتهم فيقول:

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

النزغ والنخس والغرز بمعنى واحد، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا ونحوها فى الجلد.

أى: وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك، وتحملك على خلاف ما أمرت به من أخذ العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين، فالتجىء إلى الله، واستعذ بحماه، فإنه - سبحانه - سميع لدعائك، عليم بكل أحوالك. وهو وحده الكفيل بصرف وسوسة الشياطين عنك، وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٤٤.

ثم بين - سبحانه - حالة المتقين فقال ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾.

طائف من الطواف والطواف بالشيء أي: الاستدارة به أو حوله. يقال: طاف بالشيء إذا دار حوله. والمراد به هنا وسوسة الشيطان وهمزاته.

أي: إن الذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما يغضبه إذا مسهم شيء من وسوسة الشيطان ونزغاته التي تلهيهم عن طاعة الله ومراقبته ﴿تذكروا﴾ أي: تذكروا أن المس إنما هو من عدوهم الشيطان فعادوا سريعا إلى طاعة الله، وإلى خوف مقامه ونهوا أنفسهم عن اتباع همزات الشياطين.

والجملة الكريمة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، وأن الإخلال بها من طبيعة الضالين.

وفى قوله ﴿إذا مسهم طائف﴾ إشعار بعلو منزلتهم، وقوة إيمانهم، وسلامة يقينهم لأنهم بمجرد أن تطوف بهم وساوس الشيطان أو بمجرد أن يمسهم شيء منه فإنهم يتذكرون عداوته، فيرجعون سريعا إلى حمى ربهم يستجيرون به ويتوبون إليه.

وفى التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنها وإن مست هؤلاء المتقين فإنها لا تؤثر فيهم، لأنها كأنها طافت حولهم دون أن تصل إليهم.

وقوله ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي: فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ، وخطوات الشيطان، فينتهون عنها.

وفى هذه الآية الكريمة ما يهدى العقول، ويطب النفوس، إذ هى تبين لنا أن مس الشيطان قد يغلق بصيرة الإنسان عن كل خير، ولكن التقوى هى التي تفتح هذه البصيرة، وهى التي تجعل الإنسان دائمًا يقظًا متذكرًا لما أمره الله به أو نهاه عنه، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ونقاء وكشفًا.

أما الذين لم يتقوا الله، ولم يلجأوا إلى حماه، ولم يخالفوا الشيطان فقد عبر عنهم القرآن بقوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون﴾.

يمدونهم من المد، وهو الزيادة يقال: مده يمده أي: زاده. والغى: الضلال، مصدر غوى يغوى غيا وغواية.

أي: وإخوان الشياطين من المشركين والغافلين تزيدهم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بأرتكاب المعاصى والموبقات ﴿ثم لا يقصرون﴾ أي: ثم لا يكف هؤلاء

الشياطين عن إمداد أو ليائهم من الإنس بألوان الشرور والآثام حتى يهلكوهم. ويجوز أن يعود الضمير لإخوانهم : أى ثم لا يكف هؤلاء الناس عن الغى والضلال مهما وعظهم الواعظون وأرشدهم المرشدون.

و ﴿يقصرون﴾ من أقصر عن الشيء إذا كف عنه ونزع مع القدرة عليه.

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غوايتهم وضلالهم فقال :

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

الاجتباء : افتعال من الجباية بمعنى الجمع، يقال : جبيت الماء فى الحوض أى جمعته، ومنه قيل للحوض جابية :

والمعنى : وإذا لم تأت أيها الرسول هؤلاء المشركين بآية من القرآن وتراخى الوحى بنزولها، أو بآية مما اقترحوه عليك من الآيات الكونية، إذا لم تفعل ذلك قالوا لك بجهالة وسفاهة ﴿لولا اجتبيتها﴾ أى : هلا جمعتها من عند نفسك واخترعتها اختراعا بعقلك، أو هلا ألححت فى الطلب على ربك ليعطيك إياها ويجمعها لك.

قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت ردًا على تهكمهم بك ﴿إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى﴾ أى إنما أنا متبع لا مبتدع فما يوحيه الله إلى من الآيات أنا أبلغه إليكم بدون تغيير أو تبديل.

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال : ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

أى : هذا القرآن بمنزلة البصائر للقلوب، به تبصر الحق. وتدرك الصواب وهو هداية لكم من الضلالة، ورحمة من العذاب لقوم يؤمنون به، ويعملون بإرشاداته ووصاياه.

وكما افتتحت السورة بالثناء على القرآن ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ فقد اتجهت فى أواخرها إلى أمر الناس بحسن الاستماع إلى هذا القرآن، وإلى تدبره والعمل به فقالت :

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

أى وإذا قرىء القرآن الذى ذكرت خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبر وخشوع، واصغوا إليه بأسماعكم وكل جوارحكم لتفهموا معانيه، وتفقهوا توجيهاته، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى تعظيما له، وإكبارا لشأنه، لكى تفوزوا برحمة الله ورضاه.

وبعض العلماء يحمل القراءة فى الآية على القراءة خلف الإمام فى الصلاة، أى أن على المؤتم أن يستمع إلى قراءة الإمام بتدبر وخشوع، واستدلوا على ذلك بأحاديث فى هذا المعنى. وبعضهم يجعل الآية عامة فى وجوب الاستماع إلى قراءة القرآن بتدبر وإنصات وخشوع فى الصلاة وفى غير الصلاة وحملوا الأحاديث التى أوردها أصحاب الرأى الأول على العموم أيضا.

والذى نراه أن الآية تأمر بوجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة، لأن تعاليم الإسلام وآدابه تقتضى منا أن نستمع إلى القرآن بتدبر وإنصات وخشوع، ليؤثر تأثيره الشافى فى القلوب، وليقودها إلى الطاعة والتقوى، فتنال المغفرة والرحمة.

ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث عن ذكر الله الذى هو طب القلوب ودواؤها وعافية الأبدان وشفاؤها فقالت:

وَٱذْكُر رَّبَّكَ
فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

أى: استحضر عظمة ربك - جل جلاله - فى قلبك. واذكره بما يقربك إليه عن طريق قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك.

وقوله ﴿تضرعا وخيفة﴾ فى موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أى. اذكره متضرعا متذللا له وخائفا منه - سبحانه -:

وقوله ﴿ودون الجهر من القول﴾ معطوف على قوله ﴿فى نفسك﴾ أى: اذكر ربك ذكرًا فى نفسك، وذكرا بلسانك دون الجهر.

والمراد بالجهر: رفع الصوت بإفراط، وبما دونه مما هو أقل منه، وهو الوسط بين الجهر والمخافتة، قال ابن عباس: هو أن يسمع نفسه.

وقوله ﴿بالغدو والآصال﴾ متعلق باذكر، والغدو جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

والآصال جمع أصيل وهو من العصر إلى الغروب.

أى: اذكر ربك مستحضرا عظمته، فى كل وقت، وراقبه فى كل حال، لاسيما فى هذين الوقتين لأنهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا برعاية ربه.

قيل: وخص هذان الوقتان بالذكر لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد. وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاش.

ثم نهى - سبحانه - عن الغفلة عن ذكره فقال: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ الذين شغلتهم الدنيا عن ذكر الله.

وفيه إشعار بطلب دوام ذكره - تعالى - واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية.

قال بعض العلماء: ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن للذكر آدابا من أهمها:

١ - أن يكون فى النفس لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء.

٢ - أن يكون على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير.

٣ - أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من المؤاخذة على التقصير فى العمل لتخشع النفس ويخضع القلب.

٤ - أن يكون دون الجهر لأنه أقرب إلى حسن التفكر، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ يأيها الناس: اربعوا على أنفسكم - أى هونوا على أنفسكم - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إن الذى تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

٥ - أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله ﴿ودون الجهر﴾ لأن معناه ومتكلما كلامًا دون الجهر، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة، معطوفًا على ﴿تضرعًا﴾ أو هو معطوف على ﴿فى نفسك﴾ أى: اذكره ذكرًا فى نفسك وذكرًا بلسانك دون الجهر[1].

(١) تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٩٣٦

ثم ذكر - سبحانه - ما يقوى دواعى الذكر، وينهض بالهمم إليه، بمدحه للملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾ وهم ملائكة الملأ الأعلى. والمراد بالعندية القرب من الله - تعالى - بالزلفى والرضا لا المكانية لتنزهه - سبحانه - عن ذلك.

﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به بخضوع وطاعة.

﴿ويسبحونه﴾ أى: ينزهونه عن كل مالا يليق بجلاله على ابلغ وجه.

﴿وله يسجدون﴾ أى: يخصونه وحده بغاية العبودية والتذلل والخضوع، ولا يشركون معه أحدًا فى عبادة من عباداتهم.

أما بعد: فهذه هى سورة الأعراف التى سبحت بنا سبحًا طويلا وهى تحدثنا عن أدلة وحدانية الله، وعن هداية القرآن الكريم، وعن مظاهر نعم الله على خلقه، وعن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وعن بعض الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم، وكيف كانت عاقبة هؤلاء الأقوام، وعن سنن الله - تعالى - فى إسعاد الأمم وإشقائها، وغير ذلك من أصول التشريع وآداب الاجتماع، وشئون البشر.

وقد استعملت السورة فى أوامرها ونواهيها وتوجيهاتها أساليب التذكير بالنعم، والتخويف من النقم، وإيراد الحجج المقنعة، ودفع الشبهات الفاسدة.

وهذا تفسير لها تناولنا فيه بالشرح والتحليل ما اشتملت عليه من توجيهات سامية، وآداب عالية، ومقاصد جليلة، وحجج باهرة، ومواعظ مؤثرة.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ونافعا لنا يوم الدين.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

فهرس إجمالى لتفسير سورة «الأنعام»

فهرس إجمالى لتفسير سورة «الأعراف»

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٨٩٣٩
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3867 – 8 ISBN

١ / ٩١ / ٣٦٤
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سورتى

الأنفال والتوبة

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد السادس

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه

وبعد فهذا تفسير لسورة الأنفال أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ونافعًا لعباده إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدى تفسير السورة

١ - سورة الأنفال هى السورة الثامنة فى ترتيب المصحف ، فقد تقدمتها سورة الفاتحة وهى مكية ، ثم جاءت بعد سورة الفاتحة أربع سور مدنية ، هن أطول السور المدنية فى القرآن الكريم ، وهن سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة . ثم جاءت بعد هذه السور الأربع سورتان مكيتان ، وهما أطول السور المكية فى القرآن ، سورتا : الأنعام والأعراف .

ثم جاءت سورة الأنفال بعد ذلك ، فكانت الثامنة فى ترتيب سور المصحف .

٢ - وعدد آياتها خمس وسبعون آية فى المصحف الكوفى، وست وسبعون فى الحجازى، وسبع وسبعون فى الشامى .

٣ - وقد سميت سورة الأنفال بهذا الاسم ، لحديثها عن الأنفال أى الغنائم فى أكثر من موضع .

وقد أطلق عليها بعض الصحابة سورة بدر ، فقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عنها فقال : تلك سورة بدر[1] .

٤ - وسورة الأنفال كلها مدنية ، وممن قال بذلك : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وعطاء بن أبى رياح والحسن ، وعكرمة .

قال صاحب المنار : وقيل إنها مدنية إلا آية « ٦٤ » وهى قوله - تعالى - : ﴿ ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب ، فعلى هذا وضعت فى سورة الأنفال وقرنت مع آياتها التى نزلت فى التحريض على القتال فى غزوة بدر لمناسبتها للمقام ، وروى عن مقاتل استثناء قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ﴾... « الآية « ٣٠ »؛ لأن موضوعها ائتمار قريش بالنبى - ﷺ - قبيل الهجرة ، بل فى الليلة التى خرج فيها رسول الله - ﷺ - مع صاحبه أبى بكر بقصد الهجرة وباتا فى الغار ، وهذا استنباط من المعنى ، وهو استنباط يرده ما صح عن ابن عباس من أن الآية نفسها نزلت فى المدينة .

وزاد بعضهم استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ﴾ .. إلى قوله : ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ « الآيات من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٥٧ .

٣١ - ٣٥ » ؛ لأن موضوعها حال كفار قريش فى مكة ، وهذا لا يقتضى نزولها فى مكة ، بل ذكَّر الله بها رسوله بعد الهجرة ، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدنى »[١] .

والذى ترتاح إليه النفس أن سورة الأنفال جميعها مدنية ، وأن ما فى بعض آياتها من أوصافٍ لأحوال المشركين فى مكة قبل الهجرة لا يعنى كون هذه الآيات مكية ؛ لأن هذه الآيات إنما هى من باب تذكير الرسول وأصحابه بما كان عليه أولئك القوم من عناد ومكابرة وانحراف عن الطريق القويم ، أدى بهم إلى الهزيمة فى بدر وفى غيرها من المعارك التى كان النصر فيها للمؤمنين .

٥ - وقد ذكر بعض المفسرين - ومنهم الزمخشرى - أن سورة الأنفال نزلت بعد سورة البقرة ، ولعل مرادهم بذلك أن نزولها كان بعد نزول بعض الآيات من سورة البقرة ، لأنه من المعروف أن سورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما ابتدأ نزولها بعد الهجرة ، ثم امتد هذا النزول لآياتها إلى قبيل وفاة الرسول - ﷺ - بمدة قصيرة .

٦ - قال الآلوسى : ووجه مناسبتها لسورة الأعراف أن سورة الأعراف فيها ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ... ﴾ وفى هذه - أى الأنفال - كثير من أفراد المأمور به ، وفى الأعراف ذكر قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم ، وفى هذه ذكره - ﷺ - وذكر ما جرى بينه وبين قومه .

وقد فصل - سبحانه - فى تلك - قصص آل فرعون وأضرابهم وما حل بهم وأجمل فى هذه ذلك فقال : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .. ﴾ .

وأشار هناك إلى سوء زعم الكفرة فى القرآن بقوله - تعالى - : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ... ﴾ وصرح بذلك هنا إذ يقول .. ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا ... ﴾ إلى غير ذلك من المناسبات .

ثم قال الآلوسى : « والظاهر أن وضعها هنا توقيفى ، وكذا وضع براءة بعدها ، وإلى ذلك ذهب غير واحد ... »[٢] .

والحق أنه بمطالعتنا لما يقوله الآلوسى وغيره من المفسرين فى بيان وجه مناسبة السورة للتى قبلها ، نرى أن هذه الأقوال لا تخلو من تكلف ، وأن كثيرًا مما ذكروه من مناسبات بين سورتين معينتين لا يختص بهما ، بل هو موجود فيهما وفى غيرهما .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٣٧ - بتصرف يسير .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٥٨ بتصرف يسير .

فالآلوسى - مثلًا - يجعل من وجوه مناسبة الأنفال للأعراف أن الأعراف فيها ﴿ وأمر بالعرف ﴾. وأن الأنفال فيها كثير من أفراد المأمور به ..

وهذا المعنى نراه فى كثير من السور المتتالية ، فسورة آل عمران - مثلًا - من بين آياتها قوله - تعالى - : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. ﴾[1] .

وسورة النساء - التى بعدها - فيها - أيضًا - كثير من أفراد المأمور به ؛ لأن الأمر بالمعروف من الدعائم التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى .

والذى تميل إليه النفس أن ترتيب السور توقيفى ، وأن كل سورة لها موضوعاتها التى نراها بارزة بصورة تميزها عن غيرها .

٧ - وسورة الأنفال عندما نتأمل ما اشتملت عليه من آيات ، نراها تحدثنا - فى مجموعها - عن غزوة بدر ، فتعرض أحداثها الظاهرة ، كما تعرض بشارات النصر فيها ، وتكشف عن قدرة الله وتدبيره فى وقائع هذه الغزوة الحاسمة ، وتبين كثيرًا من الإرشادات والتشريعات الحربية التى يجب على المؤمنين اتباعها حتى ينالوا النجاح والفلاح .

أخرج البخارى عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت فى بدر[2]:

(أ) لقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن قسمة الأنفال ه أى الغنائم - مردها إلى الله ورسوله ، وأن على المؤمنين أن يذعنوا لما يفعله فيها رسولهم - ﷺ - ثم وصفت المؤمنين الصادقين أكمل وصف ، وبشرتهم بأسمى المنازل ، وأرفع الدرجات .

قال - تعالى - : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقًا ، هم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

(ب) وبعد هذا الحديث الطيب عن أوصاف المؤمنين الصادقين ، تبدأ السورة فى الحديث عن حال بعض الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وكيف أنهم كرهوا القتال فى أول الأمر ، لأنهم لم يخرجوا من أجله وإنما خرجوا من أجل الحصول على التجارة التى قدم بها مشركوا قريش من بلاد الشام لكن الله - تعالى - أراد أن يعلمهم وغيرهم أن الخير فيما قدره ، لا فيما يقدرون ويريدون .

---

(١) الآية ١٠٤ .
(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير جـ ٦ ص ٧٧ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .

استمع إلى السورة الكريمة بتأمل وتدبر وهى تصور هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول .

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

(جـ) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانًا من البشارات التى تُشعِر المؤمنين بأن الله - تعالى - قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه - سبحانه - سيجعل النصر فى هذه المعركة حليفًا لهم .

ومن مظاهر هذه البشارات أن الله - تعالى - أمدهم بألف من الملائكة مردفين ، وأمدهم بالنعاس ليكون مصدر طمأنينة لقلوبهم ، وأمدهم بمياه الأمطار ليتطهروا بها ، ولتثبت الأرض من تحتهم ، وأمدهم قبل ذلك وبعده بعونه الذى جعلهم يقبلون على قتال أعدائهم بقلوب ملؤها الإقدام والشجاعة .

قال - تعالى - : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ .

(د) ثم وجهت السورة الكريمة خمس نداءات إلى المؤمنين ، أرشدتهم فى كل واحد منها إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم .

فقد أمرتهم فى النداء الأول بالثبات فى وجوه أعدائهم ، ونهتهم عن الفرار منهم ، وهددت من يوليهم دبره بسوء المصير ، وأخبرتهم بأن الله معهم ما داموا معتمدين عليه ، ومستجيبين لما يدعوهم إليه .

وأمرتهم فى النداء الثانى بطاعة الله ورسوله ، وحذرتهم من المعصية ، ومن التشبه بالكافرين الذين « قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » .

وأمرتهم فى النداء الثالث بالمسارعة إلى أداء ما كلفوا به من تكاليف فيها سعادتهم وفلاحهم ، وخوفتهم من ارتكاب ذنوب لا يحيق شرها بالذين ارتكبوها وحدهم ، وإنما يعمهم وغيرهم ممن رأوا المنكر فلم يعملوا على تغييره .

ونهتهم فى النداء الرابع عن خيانة الله ورسوله ، أى : عن ترك فرائض الله ، وعن هجر

سنة رسوله .. وحذرتهم من أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله وعن أداء واجباته .

ثم بشرتهم فى النداء الخامس بأنهم إذا ما اتقوا الله حق تقاته ، فإنه – سبحانه – سيرزقهم الهداية والنصر والنجاة من كل مكروه .

تدبر معى – أخى القارىء – هذه النداءات ، وما اشتملت عليه من توجيهات سامية وإرشادات عالية ، حيث يقول – سبحانه – :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ..

(هـ) ثم أخذت السورة بعد ذلك فى تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ليزدادوا له شكرًا ، وفى تصوير ما عليه الكافرون من جهل وعناد وخسران .

فحكت ما قالوه فى شأن القرآن من كذب ومكابرة .

وحكت استهزاءهم بالدين ، وإمعانهم فى الجحود ، وتعجلهم للعذاب ..

وحكت ما كانوا يقومون به من تصفيق ولغو عند قراءة القرآن ، حتى يشغلوا الناس عن سماعه ..

وحكت مسارعتهم إلى إنفاق أموالهم ، لا فى وجوه الخير ، ولكن فى وجوه الشر التى ستكون عاقبتها الخسران وسوء المصير .

وبعد أن حكت كل هذه الرذائل عن الكافرين ، أمرت الرسول – ﷺ – أن يبلغهم أنهم إذا ما انتهوا عن كفرهم وعنادهم ، فإن الله – تعالى – سيغفر لهم ما سلف من ذنوبهم . أما إذا استمروا فى طغيانهم وجحودهم ، فستدور الدائرة عليهم .

قال – تعالى – : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

(و) وبعد أن افتتحت السورة الكريمة بالحديث المجمل عن الغنائم وساقت فى أعقابه ما ساقت من توجيه وإرشاد وترغيب وترهيب .

بعد كل ذلك عادت السورة إلى الحديث عن الغنائم ، ففصلت ما أجملته فى مطلعها ، وذكّرت المؤمنين بنعم أخرى منحهم الله إياها فى بدر .

ومن ذلك : أنه - سبحانه - هيأ لهم المكان المناسب لقتال أعدائهم ، وجعل اللقاء الحاسم بين الفريقين بدون موعد سابق .. وقلل كل فريق فى عين الآخر ليقضى - سبحانه - قضاءه النافذ ..

قال - تعالى - : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ .

(ز) ثم يأتى بعد ذلك النداء السادس والأخير للمؤمنين ، فيأمرهم - سبحانه - فيه بالثبات عند لقائهم لأعدائهم ، وبالإكثار من ذكره ، وبالطاعة التامة له ولرسوله ، وبالابتعاد عن التنازع والاختلاف .

ثم ينهاهم عن التشبه بالمرائين ، والمتكبرين ، والمغرورين ، الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم - ولكنه عندما تراءى الجمعان نكص على عقبيه - والذين سيكون مصيرهم الهزيمة فى الدنيا ، والعذاب المهين فى الآخرة بسبب كفرهم بآيات الله ، وإيثارهم الضلالة على الهداية .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط. وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ .

(ح) ثم تمضى السورة الكريمة فى تصوير رذائل الكافرين ، وفى تشجيع المؤمنين على قتالهم ، وإعداد العدة لدحرهم وتشريدهم ما داموا مستمرين على كفرهم وخيانتهم .. ، فإن جنحوا للسلم . ومالوا إلى المصالحة والمهادنة فاقبل منهم ذلك - أيها الرسول الكريم ،

واحترس من خداعهم وغدرهم، وحرض أتباعك على قتالهم بصبر وجلد.

قال - تعالى - : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم(٦١) ».

(ط) ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن أسرى غزوة بدر من المشركين فبينت ما كان يجب على الرسول - ﷺ - والمؤمنين فى شأنهم، وعاتبتهم لإيثارهم أخذ الفداء على ما عند الله من ثواب عظيم، وأباحت لهم أن يأكلوا مما غنموه، فإنه حلال طيب، وأمرت النبى - ﷺ - أن يدعو الأسرى إلى الدين الحق، وأن يخبرهم بأنهم متى آمنوا ظفروا بخير الدنيا والآخرة ..

تأمل معى - أخى القارئ - هذه الآيات الكريمة التى ساقتها السورة فى هذا المعنى.

﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. فكلوا مما غنمتم حلالا طيبًا واتقوا الله إن الله غفور رحيم. يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم. وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ».

(ى) وإذا كانت السورة قد تحدثت فى أوائلها عن صفات المؤمنين .. الصادقين، وعن حال الذين كرهوا الخروج إلى القتال فى بدر .. فإنها قد تحدثت فى ختامها - أيضًا - عن أصناف المؤمنين .. فمدحت المهاجرين السابقين، ومدحت الأنصار الذين آووا ونصروا، لأنهم قد اشتركوا جميعًا فى بذل أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله .. ثم بينت ما يجب عليهم نحو غيرهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا، بل ظلوا فى أرض الشرك. ثم مدحت المؤمنين الذين تأخرت هجرتهم عن صلح الحديبية - وإن كانوا أقل فى الدرجات من المهاجرين السابقين.

قال - تعالى - : ﴿ إن الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجر ما لكم من ولايتهم

من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

٨ - هذا عرض مجمل لما اشتملت عليه سورة الأنفال من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وتشريعات حكيمة ...

ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أبرزها ما يلى :

(ا) تربية المؤمنين على العقيدة السليمة ، وعلى الطاعة لله ولرسوله . وإصلاح ذات بينهم ، والثبات فى وجه أعدائهم ، والإكثار من التقرب إلى خالقهم ، والمداومة على مراقبته وخشيته وشكره ، فهو الذى هداهم للإيمان ، وهو الذى آواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات .. بعد أن كانوا ضالين ومستضعفين فى الأرض .

ولقد أفاضت السورة فى غرس هذه المعانى فى نفوس المؤمنين لأنها نزلت كما سبق أن بينا - فى أعقاب اللقاء الأول بينهم وبين أعدائهم - فكان من المناسب أن تكرر غرس هذه المعانى فى القلوب حتى تستمر على طاعة الله ورسوله ، تلك الطاعة التى من ثمارها الظفر الدائم والخير الباقى ..

(ب) تذكير المؤمنين بما عليه أعداؤهم من جحود وعناد ، وبما كان منهم من مكر برسولهم - ﷺ - ومن استهزائهم بدينهم وقرآنهم ومن عداوة شديدة للحق وأهله ، ومن صفات ذميمة جعلتهم أهلاً لاستحواذ الشيطان عليهم ...

وهذا التذكير قد تكرر كثيرًا فى سورتنا هذه ، لكى يستمر المؤمنون على حسن استعدادهم ، ولكى لا تنسيهم نشوة النصر فى بدر ما يضمره لهم أعداؤهم من كراهية وبغضاء ، وما يبيتونه لهم من سوء وشر .

(جـ) إرشاد المؤمنين إلى المنهاج الذى يجب أن يسيروا عليه فى حالتى حربهم وسلمهم ، لأنه متى ساروا عليه حالفهم النصر ، وصاحبهم التوفيق .

ففى حالة الحرب : أمرتهم السورة الكريمة بأن يعدوا لأعدائهم كل ما يستطيعون من قوة . وأن يبذلوا أموالهم بسخاء من أجل نصرة الحق .. وأن يقاتلوا خصومهم بشجاعة وإقدام ، وأن يكثروا من التقرب إلى الله بصالح الأقوال والأعمال - خصوصًا فى مواطن القتال - .. وأن

يجعلوا غايتهم فى قتالهم إحقاق الحق وإبطال الباطل ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ... ﴾ .

وأن يؤثروا السلم على الحرب متى وجد السبيل إليه ، فإن السلم هو الأصل أما الحرب فهى أمر لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة التى تقتضيها .. أما فى حالة سلمهم : فقد أمرتهم السورة الكريمة بالتآخى والتناصر والتواد والتراحم والتصالح .. ونبذ التنازع والتخاصم والاختلاف والبطر .

كما أمرتهم بتقوى الله وبإيثار ما عنده من ثواب وأجر على الأموال والأولاد .

قال - تعالى - : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

وهناك موضوعات أخرى تعرضت لها السورة :

كحديثها عن الغنائم ، وعن الأسرى ، وعن المعاهدات ، وعن أحداث غزوة بدر ، وعن المشاعر التى تحركت فى نفوس بعض المشتركين فيها قبل أن تبدأ المعركة وخلالها وبعدها .

وقد ساقت السورة الكريمة كل ذلك بأسلوب يهدى القلوب ، ويشرح الصدور ، ويرشد الناس إلى مواطن عزهم وسعادتهم .

هذا ، ونرى من المناسب - أخى القارئ - أن نختم هذا العرض المجمل لسورة بدر - كما سماها ابن عباس - بتلخيص لقصة هذه الغزوة لنتنسم الجو الذى نزلت فيه هذه السورة ، ولندرك مرامى النصوص فيها .. لأننا نعتقد أن ما يعين على فهم الآيات القرآنية فهمًا قويمًا مستنيرًا ، أن يكون القارئ أو المفسر لها ملمًا بأسباب نزولها وبالجو التاريخى الذى نزلت فيه ، وبالأحداث التى لابست نزولها .. بجانب إلمامه بمدلولاتها اللغوية والبيانية ..

قال الإمام ابن هشام عند حديثه عن « غزوة بدر الكبرى »[1] .

قال ابن إسحاق : لما سمع رسول الله - ﷺ - بأبى سفيان مقبلاً من الشام فى عير لقريش عظيمة .. ندب المسلمين إليها وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله - ﷺ - يلقى حربًا .

وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان : تخوفًا على أمر الناس - أى : على أموالهم التى معه فى القافلة حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ومعها شرحها للإمام السهيلى جـ ٥ ص ٩١ طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشًا فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها فى أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة .

فلما وصلها أخذ يصرخ ببطن الوادى .. ويقول يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة - أى : العير التى تحمل الطيب والمسك والثياب .. - أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث .

فتجهز الناس سراعًا وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين ، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد .

- خرجوا بالقيان والدفوف يغنين فى كل منهل ، وينحرون الجزر، وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً ، وقادوا مائة فرس ، عليها مائة درع سوى درع المشاة ، وكانت إبلهم سبعمائة بعير.

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله - ﷺ - فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه : واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس ، واستعمل على المدينة أبا لبابة .. ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير .

وكان إبل المسلمين يومئذ سبعين بعيرًا ، فاعتقبوها - أى كانوا يركبونها بالتعاقب - وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ .

وسلك رسول الله - ﷺ - طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة .. ثم نزل قريبًا من بدر .. وأتى إلى رسول الله - ﷺ - الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال رسول الله - ﷺ - أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك لأنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلى ديارنا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فلما قال رسول الله - ﷺ - ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؛ لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، وإنا

لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

ففرح - رسول الله - ﷺ - بقول سعد ..

ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله - تعالى - قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم .

قال ابن إسحاق : ثم ركب رسول الله - ﷺ - ومعه أبو بكر فسارا حتى وقفا على شيخ من العرب . فسأله الرسول - ﷺ - عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال رسول الله - ﷺ - إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به المسلمون .

وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى فيه قريش .

فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله - ﷺ - نحن من ماء ، ثم انصرف عنه .

ثم رجع رسول الله - ﷺ - إلى أصحابه فلما أمسى أرسل بعضهم إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له .. فأصابوا ساقيين لقريش فأتوا بهما .. فقال لهما النبى - ﷺ - أخبرانى عن قريش .

قالا : هم والله وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

فقال لهما : كم القوم ؟ قالا كثير قال : ما عددهم ؟ قالا لا ندرى قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا . فقال : القوم فيما بين التسعمائة والألف ثم قال لهما . فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف .. فأقبل رسول الله - ﷺ - على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ..

قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، فنقيم عليه ثلاثة ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف عليناالقيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها .

وقال الأخنس بن شريق لبنى زهرة ، يابنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم فارجعوا فرجعوا فلم يشهد غزوة بدر زهرى واحد .

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى : وبعث الله السماء بالماء فأصاب المسلمون منه مالبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشًا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه فخرج رسول الله - ﷺ - يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء ماء نزل به ..

فقال الحباب بن المنذر يارسول الله ؟ أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟.

فقال رسول الله - ﷺ : - بل هو الرأى والمكيدة والحرب .

فقال الحباب يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلبُ - أى : ثم نغطى ما خلفه من الآبار - ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله - ﷺ - « لقد أشرت بالرأى » ثم نهض ومعه الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء . ثم قال سعد بن معاذ يارسول الله ، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا . كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا . فقد تخلف عنك أقوام - يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك .

فأثنى عليه رسول الله - ﷺ - ودعا له بخير ، ثم بنى لرسول الله عريش فكان فيه .

ثم ارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما رآها رسول الله - ﷺ - قادمة من الكثيب إلى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم احتهم الغداة » .

ثم أرسلت قريش عمير بن وهب الجمحى فقالوا له : احزر لنا أصحاب محمد ، فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا ..

ولقد رأيت - يامعشر قريش - البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فرَوْا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد

إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى أن تفعل شيئًا تذكر به بخير إلى آخر الدهر ؟ فقال عتبة : وما ذاك ياحكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى ...

قال عتبة : قد فعلت .. ثم قام عتبة خطيبًا فى الناس فقال :

يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه . قتل ابن عمه أو ابن خاله .. فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ؛ فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون ..

وبلغ كلام عتبة أبا جهل فسبه .. ثم بعث أبو جهل إلى ابن الحضرمى فقال له : هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك - أى : فقم فاطلب من الناس الوفاء بالعهد والأخذ بثأر أخيك ..

فقام ابن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ : واعمراه ، واعمراه ، فحميت الحرب ، واشتد أمر الناس ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل الرأى الذى دعا عتبة الناس إليه ..

قال ابن إسحاق : ثم خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى - وكان شرسًا سىء الخلق - فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه فلما دنا منه خرج إليه حمزة بن عبد المطلب . فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه - أى . أطارها - وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه . ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، فضربه حمزة حتى قتله فى الحوض ..

ثم خرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة .. فنادى يا محمد : أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله - ﷺ - قم ياعبيدة وقم ياحمزة وقم ياعلى .. أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه - أى : جرحه جرحًا شديدًا لا يملك معه الحركة - وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا عبيدة فحازاه إلى أصحابه .

قال ابن إسحاق : ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله الناس أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : « إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل » ...

ثم عدل رسول الله - ﷺ - الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله - ومعه أبو بكر الصديق .. وأخذ الرسول - ﷺ - يناشد ربه ويقول فيما يقول : « اللهم إن تهلك هذه

العصابة اليوم لا تعبد ، وأبو بكر يقول : يارسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك » .

ثم خفق رسول الله - ﷺ - خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس .. يقوده على ثناياه النقع » - أى الغبار .

وكان قد رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل ، فكان أول قتيل .. من المسلمين .

ثم رمى حارثة بن سراقة وهو يشرب من الحوض بسهم فقتل .

ثم خرج رسول الله - ﷺ - إلى الناس فحرضهم وقال : « والذى نفس محمد بيده . لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبًا ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ...

ثم إن رسول الله - ﷺ - أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشًا بها ، ثم نفخهم بها وأمر أصحابه فقال : « شدوا » فكانت الهزيمة فقتل الله - تعالى - من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم ..

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله - ﷺ - فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ﷺ - متوشحًا السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله - ﷺ - فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم ! » .

فقال سعد : أجل والله يارسول الله ؟ كانت هذه أول موقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال ..

ثم قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه يومئذ : « إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا ، ولا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقى أبا البحترى فلا يقتله ..

قال ابن إسحاق : - وبعد انتهاء المعركة - أمر رسول الله - ﷺ - بالقتلى من المشركين أن يطرحوا فى القليب فلما طرحوا وقف عليهم فقال : « بئس العشيرة كنتم لنبيكم - يا أهل القليب - لقد كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس »..

ثم قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا » فقال المسلمون : يارسول الله ! أتنادى قومًا قد جَيَّفوا ؟

فقال - ﷺ - : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

ثم إن رسول الله - ﷺ - أمر بما فى العسكر مما جمع الناس فجمع ، فاختلف فيه المسلمون ، فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو .. : والله لولا نحن ما أصبتموه ..

ثم بعث رسول الله - ﷺ - عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشر أهل المدينة بنصر الله لهم على المشركين .

ثم فرق الرسول - ﷺ - الأسرى من المشركين بين أصحابه وقال لهم : « استوصوا بالأسارى خيرًا » .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال ، قتل عتبة ، وشيبة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف .. فلما جعل يعدد أشراف قريش الذين قتلوا ، قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى !! فقالو له : ما فعل صفوان بن أمية ؟ فقال : ها هو ذاك فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا ..

ولما قدم أبو سفيان بن الحارث قال له أبو لهب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر !! فجلس إليه الناس قيام عليه فقال له أبو لهب : يابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟

فقال أبو سفيان : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ..

أما بعد : فهذا ملخص لغزوة بدر سقناه قبل البدء فى التفسير التحليلى لسورة الأنفال ، وقصدنا من ذكر هذا الملخص لهذه الغزوة الحاسمة : أن نتنسم الجو الذى نزلت فيه السورة - كما سبق أن أشرنا ه وأن نستعين به على فهم الآيات فهما واضحًا مستنيرًا ..

لأن سورة الأنفال هى سورة بدر كما سماها ابن عباس - رضى الله عنه - وفى ختام هذا التعريف بسورة الأنفال ، نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا لتفسير آياتها تفسيرا واضحًا مقبولاً ، بعيدًا عن الانحراف . محررًا من لغو القول وباطله ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

لعل من الخير قبل أن نتكلم فى تفسير هذه الآيات الكريمة أن نذكر بعض الروايات التى وردت فى سبب نزولها ، فإن معرفة سبب النزول يعين على الفهم السليم .

قال الإمام ابن كثير - ما ملخصه - روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله - ﷺ - فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله - تعالى - العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون . وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله - ﷺ - لكى لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله - ﷺ - : لستم بأحق بها منا . نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - مخافة أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به - فنزلت :

﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ .. فقسمها رسول الله - ﷺ - بين المسلمين .

وروى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - عن ابن عباس قال : « لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ - من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم . فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءًا لكم ، لو انكشفتم لثبتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول .. ﴾ .

وقال الثورى ، عن الكلبى ، عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ - : « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » ، فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يارسول الله صلى الله عليك - أنت وعدتنا . فقام سعد بن عبادة فقال : يارسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شىء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول - ﷺ - فقسمه بين المسلمين عن بواء - أى : على السواء[1] .

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، ومنها يتبين لنا أن نزاعًا حدث بين بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، حول الغنائم التى ظفروا بها من هذه الغزوة ، فأنزل الله - تعالى - فى هذه الآيات بيان حكمه فيها .

والضمير فى قوله ﴿ يسألونك ﴾ يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأن السورة نزلت فى هذه الغزوة ، ولأن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم الذين يهمهم حكمها ، ويعنيهم العلم بكيفية قسمتها .

قال الإمام الرازى - ما ملخصه - : فإن قيل من هم الذين سألوا ؟ فالجواب : إن قوله ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم ، وحسن ذلك ههنا ، لأنه فى حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلومًا معينًا فانصرف اللفظ إليهم . ولا شك أنهم كانوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٣ .

أقوامًا لهم تعلق بالغنائم والأنفال ، وهم أقوام من الصحابة اشتركوا فى غزوة بدر[١].

والأنفال جمع نفل - بفتح النون والفاء - كسبب وأسباب - وهو فى أصل اللغة من النفل - بفتح فسكون - أى : الزيادة ، ولذا قيل للتطوع نافلة ، لأنه زيادة عن الأصل وهو الفرض وقيل لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال - تعالى - : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة[٢] ﴾ .

قال الآلوسى : ثم صار النفل حقيقة فى العطية ، لأنها لكونها تبرعًا غير لازم كان زيادة ، ويسمى به الغنيمة أيضا وما يشترطه الإمام للغازى زيادة على سهمه لرأى يراه سواء أكان لشخص معين أو لغير معين ، وجعلوا من ذلك ما يزيده الإمام لمن صدر منه أثر محمود فى الحرب كبراز وحسن إقدام ، وغيرهما .

وإطلاقه على الغنيمة ، باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة خص الله بها هذه الأمة ، أو باعتبار أنها منحة من الله - تعالى - من غير وجوب .

ثم قال : ومن الناس من فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص . فقيل : الغنيمة ما حصل مستغنمًا سواء أكان بتعب أو بغير تعب ، قبل الظفر أو بعده ، والنفل ما كان قبل الظفر ، أو ما كان بغير قتال وهو « الفىء » .

والمراد بالأنفال هنا الغنائم كما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وطائفة من الصحابة وغيرهم[٣] .

هذا ، وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله - ﷺ - عن الأنفال - أى الغنائم - إنما هو حكمها وعن المستحق لها ، فيكون المعنى :

يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ؟ ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه - سبحانه - وللرسول - ﷺ - فهو الذى يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها .

وفى هذه الإجابة على سؤالهم تربية حكيمة لهم - وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله . أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التى تأتيهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٣ ، طبعة عبد الرحمن محمد ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٢ .

(٣) تفسير الآلوسى بتصرف وتلخيص جـ ٩ ص ١٦ طبعة منير الدمشقى .

من وراء جهادهم فعليهم ألا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم ، وأن يفوضوا الأمر فيها لله ورسوله عن إذعان وتسليم .

وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن المراد بالأنفال ماشرط للغازى زيادة على سهمه ، وأن حرف « عن » زائد ، أو هو بمعنى من ، فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يامحمد إعطاءهم الأنفال التى وعدتهم بها زيادة على سهامهم فيها . قل لهم : الأنفال لله ولرسوله .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح وذلك لأمور منها :

١ - بعض الروايات التى وردت فى أسباب نزول هذه الآية تؤيده تأييدًا صريحًا ، ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن عبادة بن الصامت أنه قال : « فينا معشر أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا . فجعله إلى الرسول - ﷺ - فقسمه بين المسلمين عن بواء » .

٢ - ولأن غزوة بدر كانت أول غزوة لها شأنها وأثرها بين المسلمين والكافرين ، وكانت غنائمها الضخمة التى ظفر بها المؤمنون من المشركين ، حافزًا لسؤال بعض المؤمنين رسولهم - ﷺ - عن حكمها وعن المستحق لها .

٣ - ولأن الجواب عن السؤال بقوله - تعالى - : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ يؤيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن مصرفها ، إذ أن هذا الجواب يفيد أن اختصاص أمرها وحكمها مرجعه إلى الله ورسوله دون تدخل أحد سواهما .

ولو كان السؤال للاستعطاء لما كان هذا جوابًا له ، فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالله والرسول لا ينافى إعطاءه إياهم بل يحققه ، لأنهم إنما يسألونه بموجب شرطه لهم الصادر عنه بإذن الله - تعالى - لا بحكم سبق أيديهم إليه أو نحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور »[1] .

٤ - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .. إلخ » يؤيد أن السؤال عن حكم الأنفال ومصرفها بعد أن تنازعوا فى شأنها ، فهو - سبحانه - ينهاهم عن هذا التنازع ، ويأمرهم بأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضب الله ... ولو كان السؤال للاستعطاء - بناء على ما شرطه الرسول - ﷺ - لبعضهم زيادة على سهامهم - لما كان هناك محذور يجب اتقاؤه ، لأنهم لم يطلبوا من الرسول إلا ما وعدهم به وهذا لا محظور فيه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٦١ .

٥ - ولأن الآية الكريمة بمنطوقها الواضح ، وبتركيبها البليغ ، وبتوجيهها السامى ، تفيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن المستحق لها .. أما القول بأن السؤال سؤال استعطاء وأن عن زائدة أو بمعنى من فهو تكلف لا ضرورة إليه .

والمعنى الواضح الجلى للآية الكريمة - كما سبق أن بينا - : يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ، ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ولرسوله يقسمها بحسب حكم الله فيها ، فهو - سبحانه - العليم بمصالح عباده ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه الجمع بين ذكر الله والرسول فى قوله : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ ؟

قلت : معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على ماتقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر فى قسمتها مفوضاً إلى رأى أحد ، والمراد : « أن الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافى »[1] .

وقوله : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ حض لهم على تقوى الله وامتثال أمره ، وإصلاح ذات بينهم ، وتحذير لهم من الوقوع فى المعاصى والنزاع والخلاف .

وكلمة ﴿ ذات ﴾ بمعنى حقيقة الشىء ونفسه ، ولا تستعمل إلا مضافة إلى الظاهر ، كذات الصدور ، وذات الشوكة .

وكلمة ﴿ بينكم ﴾ ، من البين ، وهو مصدر بان يبين بيناً ، متى بعد ، ويطلق على الاتصال والفراق ، أى : على الضدين ، ومنه قول الشاعر :

فوالله لولا البين لم يكن الهوى ... ولولا الهوى ما حس للبين آلف

والمراد به فى الآية الاتصال .

أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - ، وأصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال والصفة التى بينكم والتى تربط بعضكم ببعض وهى رابطة الإسلام . وإصلاحها يكون بما يقتضيه كمال الإيمان من الموادة والمصافاة ، وترك الاختلاف والتنازع ، والتمسك بفضيلة الإيثار .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٥ ، طبعة دار الكتاب العربى بيروت .

وكلمة ﴿ ذات ﴾ على هذا المعنى مفعول به .

ومنهم من يرى أن كلمة « ذات » بمعنى صاحبة ، وأنها صفة لمفعول محذوف ، فيكون المعنى : فاتقوا الله وأصلحوا أحوالا ذات بينكم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : ما حقيقة قوله : ﴿ ذات بينكم ﴾ .

قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومودة واتفاق . كقوله : ﴿ بذات الصدور ﴾ وهى مضمراتها .

ولما كانت أحوال ملابسة للبين قيل لها : ذات البين ، كقولهم : اسقنى ذا إنائك ، يريدون ما فى الإناء من الشراب ... »[١] .

وقوله ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ معطوف على ما قبله، وهو قوله: ﴿ فاتقوا الله ﴾ .

أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فى كل أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة ومودة ، وأطيعوا الله ورسوله فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال وفى غيرها ، من كل أمر ونهى ، وقضاء وحكم ...

وقد كرر - سبحانه - الاسم الجليل فى هذه الآية ثلاث مرات ، لتربية المهابة فى القلوب ، وتعليل الحكم حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم .

وذكر - سبحانه - رسوله معه مرتين فى هذه الآية ، لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإيذان بأن طاعته - ﷺ - طاعة لله - تعالى - ، ومخالفته مخالفة لأمر الله - تعالى - . قال - سبحانه - : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حقيظا ﴾[٢] .

ووسَّط - سبحانه - الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية بالإصلاح ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة .

وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة ، وهى : التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله .

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، أى : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٠ .

قال الآلوسى: قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه، أو المذكور هو الجواب على الخلاف المشهور . وأيا ما كان فالمراد بيان ترتب ما ذكر عليه لا التشكيك فى إيمانهم ، وهو يكفى فى التعليق بالشرط .

والمراد بالإيمان : التصديق . ولا خفاء فى اقتضائه ما ذكر ، على معنى أنه من شأنه ذلك لا أنه لازم له حقيقة .

وقد يراد بالإيمان الإيمان الكامل والأعمال شرط فيه أو شطر ، فالمعنى : إن كنتم كاملى الإيمان ، فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة : الاتقاء ، والإصلاح ، وإطاعة الله - تعالى - .

ويؤيد إرادة الكمال قوله -سبحانه- بعد ذلك ﴿إنما المؤمنون...﴾ إذ المراد به قطعا الكاملون فى الإيمان وإلا لم يصح الحصر .. »[1] .

وعلى أية حال ففى هذا التذييل تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على الامتثال والطاعة ، ودعوة لهم إلى أن يكون إيمانهم إيمانا عميقا راسخا ، متفقا مع كل ما جاءهم به رسولهم - ﷺ - من هدايات وإرشادات ، ومتساميا عن كل ما يخدش صفاءه ونقاءه من متع وشهوات .

ثم وصف - سبحانه - المؤمنين الصادقين بخمس صفات ، وبشرهم بأعلى الدرجات ، فقال فى بيان صفتهم الأولى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .. ﴾ فالجملة الكريمة مستأنفة وهى مسوقة لبيان أحوال المؤمنين الذين هم أهل لرضا الله وحسن ثوابه ، حتى يتأسى بهم غيرهم .

وقوله ﴿ وَجِلَتْ ﴾ من الوجَل وهو استشعار الخوف . يقال : وجل يوجل وجلا فهو وجل ، إذا خاف وفزع .

والمراد بذكر الله : ذكر صفاته الجليلة ، وقدرته النافذة ، ورحمته الواسعة ، وعقابه الشديد ، وعلمه المحيط بكل شىء ، وما يستتبع ذلك من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر اسم الله وذكرت صفاته أمامهم ، خافت قلوبهم وفزعت ، استعظاماً لجلاله وتهيبا من سلطانه ، وحذراً من عقابه ، ورغبة فى ثوابه ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وشدة مراقبتهم لله - عز وجل - ووقوفهم عند أمره ونهيه ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٦٤ .

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من صيغ القصر وهى « إنما » ، للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون فى إيمانهم وإخلاصهم ، أما غيرهم ممن لم تتوفر به هذه الصفات ، فأمره غير أمرهم ، وجزاؤه غير جزائهم .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : إنه - تعالى - قال ههنا : ﴿ وجلت قلوبهم ﴾ وقال فى آية أخرى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله[1]...﴾ فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : الاطمئنان : إنما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل : إنما يكون من خوف العقوبة . ولا منافاة بين هاتين الحالتين . بل نقول : هذان الوصفان اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله - تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله[2] .. » .

والمعنى تقشعر الجلود من خوف عذاب الله ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله[3] .

والصفة الثانية من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ .

أى أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله أى : حججه وهى القرآن ؛ زادتهم إيمانا ، أى : زادتهم قوة فى التصديق ، وشدة فى الإذعان ، ورسوخا فى اليقين ، ونشاطا فى الأعمال الصالحة ، وسعة فى العلم والمعرفة .

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول فى قوله:﴿ ذكر الله ﴾ و ﴿ تليت عليهم آياته ﴾ ، للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون عندما يسمعون من غيرهم آيات الله .. فإنهم يكونون أشد خوفا وفزعا عند ذكرهم لله وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم .

فالمقصود من هذه الصيغة : مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان الأثر الطيب الذى يترتب على ذكر الله وعلى تلاوة آياته .

والصفة الثالثة من صفاتهم قوله - تعالى - : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضاً - أنهم يعتمدون على ربهم الذى خلقهم

---

(١) سورة الرعد . الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزمر . الآية ٣٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٨ .

بقدرته ، ورباهم بنعمته ، فيفوضون أمورهم كلها إليه وحده - سبحانه - لا إلى أحد سواه ، كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : أى : أنهم لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك لا شريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : « التوكل على الله جماع الإيمان »[1] .

ومن الواضح عند ذوى العقول السليمة أن التوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب التى شرعها - سبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها لبلوغ الغايات ، لدليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن طاعته - سبحانه - فيما شرعه وفيما أمر به .

وليس من الإيمان ولا من العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظر الإنسان ثماراً بدون غرس ، أو شبعا بدون أكل ، أو نجاحا بدون جهد ، أو ثواباً بدون عمل صالح .

إنما المؤمن العاقل المتوكل على الله ، هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة .. ثم بعد ذلك يترك النتائج له - سبحانه - يُسيِّرها كيف يشاء ، وحسبما يريد ..

أما الصفتان الرابعة والخامسة من صفات هؤلاء المؤمنين فهما قوله - تعالى - ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

والمراد بإقامة الصلاة : أداؤها فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وآدابها وخشوعها - من أقام الشىء إقامة إذا قومه وأزال عوجه لأن الشأن فى صلاة المؤمنين أن تكون : إحساسا عميقا بالوقوف بين يدى الله ، وانقطاعا تاما لمناجاته ، وتمثلا حياً لجلاله وكبريائه ، واستغراقا كاملا فى دعائه .

والمراد بقوله : ﴿ ينفقون ﴾ يخرجون ويبذلون ، من الإنفاق وهو إخراج المال وبذله وصرفه .

والجملة الكريمة فى محل رفع صفة للموصول فى الآية السابقة أو بدل منه أو بيان له .

والمعنى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يؤدون الصلاة فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها .. وأنهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٦ .

نفس ، وسخاء يد ، استجابة لتعاليم دينهم .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف هؤلاء المؤمنين بخمس صفات : الأولى والثانية والثالثة منها ترجع إلى العبادات القلبية التى تدل على شدة خشيتهم من ربهم ، وقوة تأثرهم بآيات خالقهم ، واعتمادهم عليه - سبحانه - وحده لا على أحد سواه .

والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية ، وهى إقامة الصلاة بإخلاص وخشوع .

أما الصفة الخامسة فترجع إلى العبادات المالية ، وهى إنفاق المال فى سبيل الله ولاشك أن هذه الصفات متى تمكنت فى النفس ، كان صاحبها أهلا لمحبة الله ؛ ورضوانه ، ولذا مدح - سبحانه - أصحاب هذه الصفات ، وبين ما أعده لهم من ثواب جزيل فقال : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

أى: أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم المؤمنون إيمانا حقا ﴿لهم درجات﴾ عالية ، ومكانة سامية ﴿ عند ربهم ﴾ ولهم ﴿ مغفرة ﴾ شاملة لما فرط منهم من ذنوب ، ولهم ﴿ رزق كريم ﴾ فى الجنة ، يجعلهم يحيون فيها حياة طيبة ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ .

وقوله ﴿ حقاً ﴾ منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً .

والتنوين فى قوله ﴿ درجات ﴾ للتعظيم والتهويل أى : لهم درجات رفيعة ، ومنازل عظيمة ، وفى وصف هذه الدرجات بأنها ﴿ عند ربهم ﴾ مزيد تشريف لهم ، ولطف بهم ، وإيذان بأن ما وعدهم به متيقن الوقوع ، لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده - سبحانه -

وفى وصف الرزق الذى أعده لهم بالكرم ، زيادة فى إدخال السرور على قلوبهم ؛ لأن لفظ الكريم يصف به العرب كل شىء حسن فى بابه ، بحيث يكون لا قبح فيه ولا شكوى معه .

وبذلك نرى أن أصحاب تلك الصفات الحميدة قد مدحهم الله - تعالى - مدحاً عظيما ، وكافأهم على إيمانهم الحق بالدرجات العالية ، والمغفرة الشاملة ، والرزق الكريم : ﴿ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

هذا ، وقد استنبط العلماء من تلك الآيات جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - حرص الصحابة على سؤال النبى - ﷺ - عما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم .

فإن قيل : كيف تأتى لأصحابه الذين شهدوا بدراً - وهم من هم فى عفتهم وزهدهم - أن يختلفوا فى شأن الغنائم .

فالجواب ،، أن بعض الصحابة المشتركين فى هذه الغزوة هم الذين حدث بينهم الخلاف فى

شأنها ؛ لأنهم لم يكن لهم عهد سابق بكيفية تقسيمها ، أما أكثر الصحابة فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه الغنائم ، بل تركوا أمرها إلى رسول الله ﷺ - يضعها كيف يشاء .

وأيضاً فإن هؤلاء الذين حدث بينهم الخلاف فى شأن الغنائم ، كان من الدوافع التى دفعتهم إلى هذا الخلاف ، ما فهموه من أن حيازة الغنائم تدل على حسن البلاء ، وشدة القتال فى سبيل الله ، فكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بهذا المظهر المشرف وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم .

وعندما جاوز هذا الحرص حده ، بأن غطى على ما يجب أن يسود بينهم من سماحة وصفاء ، نزل القرآن ليربيهم بتربيته الحكيمة ، وليؤدبهم بأدبه السامى ، وليخبرهم بحكم الله فى شأن هذه الأنفال .. وبعد أن عرفوا حكم الله فى شأنها ، قابلوه بالرضا والإذعان والتسليم .

٢ - أن القرآن فى ترتيبه للحوادث ، لا يلزم سردها على حسب زمن وقوعها ، وإنما يرتبها بأسلوبه الخاص الذى يراعى فيه مقتضى حال المخاطب .

فلقد افتتحت السورة التى معنا بالحديث عن الغنائم التى غنمها المسلمون فى بدر - مع أن ذلك كان بعد انتهاء الغزوة - ليشعر المخاطبين من أول الأمر أن النصر فى هذه الغزوة كان للمسلمين ، وأن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله فيها .

وهذا اللون من الافتتاح هو ما يعبر عنه البلغاء ببراعة الاستهلال .

ولقد أفاض بعض العلماء فى شرح هذا المعنى فقال ما ملخصه .

وقد بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم فى قسمتها وسؤالهم عنها ، فساقت فى ذلك أربع آيات ، هن : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله .. ﴾ إلى قوله - ﴿ ورزق كريم ﴾ .

وقد عالجت هذه الآيات نفوس المؤمنين ، وعملت على تطهيرها من الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة ، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة من أكبر أسباب الفشل .

ولأهمية هذا الموضوع فى حياة المؤمنين بدأت به السورة ، وإن كان اختلافهم فى قسمة الأنفال متأخراً فى الوجود عن اختلافهم فى الخروج إلى بدر ، وقتال الأعداء .

وقد عرفنا من سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتطلبه من الأحكام والحكم .

وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال للمسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذى كفله الله للمؤمنين .

وليس من تربية النفوس أن نبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف ، متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة ..

ولا كذلك يكون الأمر إذا بدئت ببيان تثاقلهم فى الخروج إلى الغزوة ، وانظر كيف يكون وقع المطلع إذا جاء على هذا الوجه « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ... الخ » .

لا ريب أنه مطلع شديد الوقع على النفوس ، يصور علاقة المؤمنين بنبيهم فى صورة يأباها إيمانهم به وامتثالهم لأمره . يصورهم فى شقاق واختلاف مع قائدهم ورسولهم ويصورهم فى ثوب الكراهية الشديدة لمعالى الأمور وعز الحياة .

لهذا كله جاء الأسلوب فى سرد الوقائع غير مكترث بمخالفة ترتيبها فى الوجود الخارجى[1] .

٣ - استدل جمهور العلماء بقوله - تعالى - ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ على أن الإيمان يزيد وينقص ..

ومن المفسرين الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الآلوسى ، فقد قال ما ملخصه :

قوله - تعالى - ﴿ وإذا تليت عليهم آياته ﴾ أى : القرآن ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ أى : تصديقا كما هو المتبادر ، فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج مما لاريب فى كونه موجبا لذلك .

وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وبه أقول لكثرة الظواهر الدالة على ذلك من الكتاب والسنة من غير معارض لها عقلا .

بل قد احتج عليه بعضهم بالعقل - أيضا - وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين فى الفسق والمعاصى ، مساويا لإيمان الأنبياء والملائكة ، واللازم باطل فكذا الملزوم .

وقال النووى : إن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقينا وإخلاصا منه فى بعضها ، فكذا التصديق والمعرفة يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٤٤ لفضيلة الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله -

وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واختاره إمام الحرمين ، محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان ، وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان فالمصدق إذا أتى بالطاعات أو ارتكب المعاصى فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا ، وإنما يتفاوت إذا كان اسما للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة .

وذهب جماعة منهم الإمام الرازى إلى أن الخلاف فى زيادة الإيمان ونقصانه وعدمهما لفظى ، وهو فرع تفسير الإيمان ، فمن فسره بالتصديق قال : إنه لا يزيد ولا ينقص ، ومن فسره بالأعمال مع التصديق قال : إنه يزيد وينقص ، وعلى هذا قول البخارى « لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو المعنى بما روى عن ابن عمر أنه قال . قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ، قال ، نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار[1] .

ويبدو لنا أن رأى جمهور العلماء فى هذه المسألة ، أولى بالقبول ؛ لأنه من الواضح أن إيمان الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – أرسخ وأقوى من إيمان آحاد الناس ، ولأنه كلما تكاثرت الأدلة كان الإيمان أشد رسوخا فى النفس وأعمق أثراً فى القلب ، فلا تزلزله الشبهات ولا تزعزعه العوارض والفتن .

ومن أوضح الأدلة على أن الإيمان يقوى بقوة البرهان إلى درجة الاطمئنان ، ما حكاه الله – تعالى – عن إبراهيم فى قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى[2] ﴾ .

فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن مقام الطمأنينة فى الإيمان ، يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا . إن إبراهيم – عليه السلام – لاشك أنه كان مؤمنا عندما سأل ربه هذا السؤال ، سأله ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة أعلى : وهى مرتبة عين اليقين ...

هذا ، وشبيه بهذه الآية فى الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان قوله – تعالى – : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ..[3] ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ..[١] ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون[٢] ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[٣] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى وردت فى هذا المعنى .

٤ - فى هذه الآيات الكريمة تربية ربانية للمؤمنين ، وتوجيه لهم إلى ما يسعدهم ، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه ، هو الذى يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وأن المؤمن متى جمع بين هذه الصفات ارتفع إلى أعلى الدرجات ، وأحس بحلاوة الإيمان فى قلبه ..

روى الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله - ﷺ - فقال له : « كيف أصبحت يا حارث » ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، فقال له الرسول - ﷺ - : « انظر ما تقول فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟ فقال الحارث : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى . وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال - ﷺ - : « يا حارث عرفت فالزم » ثلاثا[٤] .

ثم أخذت السورة - بعد هذا الافتتاح المشتمل على أروع استهلال وأبلغه وأحكمه .. ، فى الحديث عن الغزوة التى كان من ثمارها تلك الأنفال ، فاستعرضت مجمل أحداثها ، وصورت نفوس فريق من المؤمنين الذين اشتركوا فيها أكمل تصوير ، استمع معى - أخى القارئ - بتدبر وتعقل إلى قوله - تعالى - :

---

(١) سورة الفتح ، الآية ٤ .
(٢) سورة التوبة : الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢٢ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٦ طبعة عيسى الحلبى .

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ
وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا
لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾

الكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ كما أخرجك ربك .. ﴾ بمعنى مثل ، أى : للتشبيه وهى خبر لمبتدأ محذوف هو المشبه ، وما بعدها هو المشبه به ، ووجه الشبه مطلق الكراهة ، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين .

والمعنى : حال بعض أهل بدر فى كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ، مثل حال بعضهم فى كراهة الخروج للقتال ، مع ما فى هذه القسمة والقتال من خير وبركة .

ونحن عندما نستعرض أحداث غزوة بدر ، نرى أنه قد حدث فيها أمران يدلان على عدم الرضا من فريق من الصحابة ، ثم أعقبها الرضا والإذعان والتسليم لحكم الله ورسوله .

أما الأمر الأول فهو أن فريقا من الصحابة - وأكثرهم من الشبان - كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسوية فيها إجحاف بحقهم ، لأنهم هم الذين قاموا بالنصيب الأوفر فى القتال ، وأن غيرهم لم يكن له بلاؤهم - كما سبق أن بينا فى أسباب نزول قوله - تعالى - « يسألونك عن الأنفال .. الخ » .

ولكن الرسول - ﷺ - قسم غنائم بدر بين الجميع بالسوية ، كما أمره الله - تعالى - .

وكان هذا التقسيم خيراً للمؤمنين ، إذ أصلح الله به بينهم ، وردهم إلى حالة الرضا والصفاء ..

وأما الأمر الثانى : فهو أن جماعة منهم كرهوا قتال قريش بعد نجاة العير التى خرجوا من أجل الحصول عليها ، وسبب كراهيتهم لذلك أنهم خرجوا بدون استعداد للقتال ، لا من حيث العدد ولا من حيث العدد .

ولكنهم استجابوا بعد قليل لما نصحهم به رسولهم - ﷺ - من وجوب قتال قريش .

وكان فى هذه الاستجابة نصر الإسلام ، ودحر الطغيان .

قال ابن كثير : روى الحافظ بن مردويه - بسنده - عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ - ونحن بالمدينة : « إنى أخبرت عن عير أبى سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمنا إياها ؟ فقلنا نعم . فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا :

« ماترون فى قتال القوم ؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم » ؟ فقلنا : مالنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العير ، ثم قال : « ما ترون فى قتال القوم » ؟ فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .. ﴾ ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وفى رواية أن أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ تكلموا بكلام سر له رسول الله - ﷺ -[1] .

هذا ، وما قررناه قبل ذلك من أن الكاف فى قوله - تعالى - ﴿ كما أخرجك ربك .. ﴾ بمعنى مثل ، هو ما نرجحه من بين أقوال المفسرين التى أوصلها بعضهم إلى عشرين قولا .

قال الجمل ، قوله ﴿ كما أخرجك ربك .. ﴾ فيه عشرون وجهاً ، أحدهما : أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره ؛ الأنفال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك ربك ، أى : ثبوتاً بالحق كإخراجك من بيتك ، يعنى أنه لا مرية فى ذلك .

الثانى : أن تقديره وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ، وقد التفت من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد .

الثالث : تقديره : وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك أى : كما أن إخراج الله إياك لا مرية فيه ولا شبهة . الخ[2] .

والحق أن معظم الوجوه النحوية التى ذكرها الجمل وغيره من المفسرين - كأبى حيان والآلوسى - أقول : إن معظم هذه الوجوه يبدو عليها التكلف ومجانبة الصواب .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أهمل أكثر ما ذكره المفسرون فى ذلك ، واكتفى بوجهين فقال :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٧ - بتصرف وتلخيص .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٢٦ ، طبعة عيسى الحلبى .

قوله : ﴿ كما أخرجك ربك ﴾ . فيه وجهان أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيل الغزوة مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب .

والثانى : أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر فى قوله : ﴿ الأنفال لله والرسول ﴾ أى : الأنفال استقرت لله والرسول ، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون[1] .

والوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما صاحب الكشاف هو الذى نميل إليه ، وهو الذى ذكرناه قبل ذلك بصورة أكثر تفصيلا .

وأضاف - سبحانه - الإخراج إلى ذاته فقال : ﴿ كما أخرجك ربك ﴾ للإشعار بأن هذا الإخراج كان بوحى منه - سبحانه - وبأنه هو الراعى له فى هذا الخروج .

والمراد بالبيت فى قوله : ﴿ من بيتك ﴾ مسكنه - ﷺ - بالمدينة أو المراد المدينة نفسها ، لأنها مثواه ومستقره ، فهى فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أخرجك ﴾ والباء للسببية ، أى : أخرجك بسبب نصرة الحق ، وإعلاء كلمة الدين ، وإزهاق باطل المبطلين .

ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من مفعول أخرجك ، وتكون الباء للملابسة ، أى : أخرجك إخراجاً متلبساً بالحق الذى لايحوم حوله باطل .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ ، أى : للخروج ، إما لعدم الاستعداد للقتال ، أو للميل للغنيمة ، أو للنفرة الطبيعية عنه ، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار ، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة .

والجملة فى موضع الحال ، وهى حال مقدرة ؛ لأن الكراهة وقعت بعد الخروج[2] .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : حال بعض المسلمين فى بدر فى كراهة قسمة الغنيمة بالسوية بينهم ، مثل حال فريق منهم فى كراهة الخروج للقتال ، مع أنه قد ثبت أن هذه القسمة وذلك القتال ، كان فيهما الخير لهم ، إذ الخير فيما قدره الله وأراده ، لا فيما يظنون .

وقوله - تعالى - : ﴿ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ حكاية لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال ، وتصوير معجز لما استبد به من خوف وفزع .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٠ .

والمراد بقوله ﴿يجادلونك﴾ مجادلتهم للنبي ﷺ في شأن القتال وقولهم له : ما كان خروجنا إلا للعير ، ولو أخبرتنا بالقتال لأعددنا العدة له .

والضمير يعود للفريق الذى كان كارهاً للقتال .

والمراد بالحق الذى جادلوا فيه : أمر القتال الذى حضهم الرسول - ﷺ - على أن يعدوا أنفسهم له .

وقوله : ﴿ بعد ما تبين ﴾ متعلق : ﴿ يجادلونك ﴾ و ﴿ ما ﴾ مصدرية والضمير فى الفعل ﴿ تبين ﴾ يعود على الحق .

والمراد بتبينه : إعلام الرسول - ﷺ - لهم بأنهم سينصرون على أعدائهم فقد روى أن الرسول - ﷺ - أخبرهم قبل نجاة العير بأن الله وعده الظفر بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، فلما نجت العير علم أن الظفر الموعود به إنما هو النفير ، أى : على المشركين الذين استنفرهم أبو سفيان للقتال لا على العير ، أى : الإبل الحاملة لأموال المشركين .

والمعنى : يجادلك بعض أصحابك - يا محمد - ﴿ فى الحق ﴾ أى فى أمر القتال ﴿ بعدما تبين ﴾ أى ، بعدما تبين لهم الحق بإخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم ، وأنه لا مفر لهم من لقاء قريش تحقيقاً لوعد الله الذى وعد بإحدى الطائفتين .

وقوله : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أى : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، ومشاهد لموجباته .

والجملة فى محل نصب على الحالية من الضمير فى قوله : ﴿ لكارهون ﴾ .

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير معجز لما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال بسبب قلة عددهم وعددهم .

وقوله : ﴿ بعد ما تبين ﴾ زيادة فى لومهم ، لأن الجدال فى الحق بعد تبينه أقبح من الجدال فيه قبل ظهوره .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين ، مع جزع بعضهم من قتال عدوه وعدوهم ، وإيثارهم العير على النفير فقال : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ .

والمراد بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، والخطاب للمؤمنين .

والمراد بغير ذات الشوكة : العير ، والمراد بذات الشوكة : النفير .

والشوكة فى الأصل واحدة الشوك وهو النبات الذى له حد ، ثم استعيرت للشدة والحدة ، ومنه قولهم : رجل شائك السلاح أى : شديد قوى .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن وعدكم الله - تعالى - على لسان رسوله - - بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير هى لكم تظفرون بها ، وتتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وأنتم مع ذلك تودون وتتمنون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح وهى العير .

وعبر - سبحانه - عن وعده لهم بصيغة المضارع ﴿ يعدكم ﴾ مع أن هذا الوعد كان قبل نزول الآية ، لاستحضار صورة الموعود به فى الذهن ، ولمداومة شكره - سبحانه - على ما وهبهم من نصر وفوز .

وإنما وعدهم - سبحانه - إحدى الطائفتين على الإبهام مع أنه كان يريد إحداهما وهى النفير ، ليستدرجهم إلى الخروج إلى لقاء العدو حتى ينتصروا عليه ، وبذلك تزول هيبة المشركين من قلوب المؤمنين .

وقوله ﴿ إحدى ﴾ مفعول ثان ليعد ، وقوله: ﴿ أنها لكم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ إحدى ﴾ مبين لكيفية الوعد .

أى : يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم ، ومختصة لكم ، تتسلطون عليها تسلط الملاك ، وتتصرفون فيها كيفما شئتم .

وقوله : ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ يعدكم ﴾ أى : وعدكم - سبحانه - إحدى الطائفتين بدون تحديد لإحداهما ، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة العير التى لا قتال فيها يذكر ، على طائفة النفير التى تحتاج منكم إلى قتال شديد ، وإلى بذل للمهج والأرواح .

وفى هذه الجملة تعريض بهم ، حيث كرهوا القتال ، وأحبوا المال ، وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين .

ثم بين لهم - سبحانه - أنهم وإن كانوا يريدون العير ، إلا أنه - سبحانه - يريد لهم النفير ، ليعلو الحق ، ويزهق الباطل ، فقال : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ﴾ .

أى : ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، ﴿ أن يحق الحق بكلماته ﴾ أى أن يظهر الحق ويعلمه بآياته المنزلة على رسوله ، وبقضائه الذى لا يتخلف ، وأن يستأصل الكافرين ويذلهم ،

ويقطع دابرهم ؛ أى آخرهم الذى يدبرهم .

والدابر : التابع من الخلف ، يقال : دبر فلان القوم يدبرهم دبورا ، إذا كان آخرهم فى المجىء ، والمراد أنه سبحانه يريد أن يستأصلهم استئصالا .

وقد هلك فى غزوة بدر عدد كبير من صناديد قريش الذين كانوا يحاربون الإسلام ، ويستهزئون بتعاليمه .

قال صاحب الكشاف فى معنى الآية الكريمة ، قوله : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته... ﴾ يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفساف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله – عز وجل – يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة والفوز فى الدارين ، وشتان ما بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها »[1] .

ثم بين – سبحانه – الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ، ونصرتهم عليهم فقال : ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

أى : فعل ما فعل من النصرة والظفر بالأعداء ﴿ ليحق الحق ﴾ أى : ليثبت الدين الحق دين الإسلام ﴿ ويبطل الباطل ﴾ أى : ويمحق الدين الباطل وهو ما عليه المشركون من كفر وطغيان .

وقوله : ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ بيان لنفاذ إرادته – سبحانه – ، أى : اقتضت إرادته أن يعز الدين الحق وهو دين الإسلام ، وأن يمحق ما سواه ، ولو كره المشركون ذلك ؛ لأن كراهيتهم لاوزن لها ، ولا تعويل عليها ..

وبهذا يتبين أنه لا تكرار بين الآيتين السابقتين ، لأن المراد بإحقاق الحق فى قوله – تعالى – ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ : إعلاؤه وإظهاره ونصرته عن طريق قتال المؤمنين للمشركين .

والمراد بإحقاق الحق فى قوله بعد ذلك فى الآية الثانية ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ : تثبيت دين الإسلام وتقويته وإظهار شريعته ، ويمحق دين الكفر .

فكان ما اشتملت عليه الآية الأولى هو الوسيلة والسبب وما اشتملت عليه الآية الثانية هو المقصد والغاية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٩ .

وقد بسط هذا المعنى الإمام الرازى فقال ما ملخصه : فإن قيل : أليس قوله : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ ثم قوله بعد ذلك : ﴿ ليحق الحق ﴾ تكرارا محضا ، فالجواب : ليس ههنا تكرير ؛ لأن المراد بالأول سبب ما وعد به فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء ، والمراد بالثانى ؛ تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة ، لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين ، كان سببا لعزة الدين وقوته ، ولهذا السبب قرنه بقوله ﴿ ويبطل الباطل ﴾ الذى هو الشرك ، وذلك فى مقابلة ﴿ الحق ﴾ الذى هو الدين والإيمان [١] .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حدثتنا فى الأربع الآيات الأولى منها عن حكم الله - تعالى - فى غنائم بدر بعد أن اختلف بعض المؤمنين فى شأنها ، وعن صفات المؤمنين الصادقين الذين يستحقون من الله - تعالى - أرفع الدرجات .

ثم حدثتنا فى الأربع الآيات الثانية منها عن حال بعض المؤمنين عندما دعاهم النبى - ﷺ - إلى قتال أعدائهم ، وعن مجادلتهم له فى ذلك ، وعن إيثارهم المال على القتال ، وعن إرادة ما هو خير لهم فى دنياهم وآخرتهم ، وفى ذلك ما فيه من العبر والعظات لقوم يعقلون .

ثم ساق - سبحانه - بعض مظاهر تدبيره المحكم فى هذه الغزوة ، وبعض النعم التى أنعم بها على المؤمنين ، وبعض البشارات التى تقدمت تلك الغزوة أو صاحبتها ، والتى كانت تدل دلالة واضحة على أن النصر سيكون للمسلمين فقال - تعالى - :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٢٨ .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ
ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

قال القرطبى : قوله – تعالى – : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الاستغاثة : طلب الغوث والنصر ، يقال : غوّث الرجل ، أى : قال واغوثاه ، والاسم الغوث والغوات ، واستغاثنى فلان فأغثته ، والاسم الغياث[١] .

وقوله ﴿ ممدكم ﴾ من الإمداد بمعنى الزيادة والإغاثة ، وقد جرت عادة القرآن أن يستعمل الإمداد فى الخير ، وأن يستعمل المد فى الشر والذم .

قال – تعالى – : ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون[٢] ﴾ .

وقال – تعالى – : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً[٣] ﴾ .

قال – تعالى – : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً[٤] ﴾ .

وقال – تعالى – : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون[٥] ﴾ .

وقوله : ﴿ مردفين ﴾ من الإرداف بمعنى التتابع .

قال الفخر الرازى : قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿ مردفين ﴾ – بفتح الدال – وقرأ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٧٠ ، مطبعة دار الكتب سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٠ م .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ١٣٢ – ١٣٤ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٦ .
(٤) سورة مريم ، الآية ٧٥ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٥ .

الباقون بكسرها ، والمعنى على الكسر ، أى : متتابعين يأتى بعضهم فى إثر البعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب .

والمعنى على قراءة الفتح ، أى : فعل بهم ذلك ، ومعناه أن الله – تعالى – أردف المسلمين وأمدهم بهم[1] أى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم .

والمعنى : اذكروا – أيها المؤمنون – وقت أن كنتم – وأنتم على أبواب بدر – ﴿ تستغيثون ربكم ﴾ أى : تطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم ﴿ فاستجاب لكم ﴾ دعاءكم ، وكان من مظاهر ذلك أن أخبركم على لسان نبيكم – ﷺ – بأنى ﴿ ممدكم ﴾ أى : معينكم وناصركم بألف من الملائكة مردفين ، أى : متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ، أو أن الله – تعالى – جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .

ويروى الإمام مسلم عن ابن عباس قال: حدثنى عمر بن الخطاب قال: كان يوم بدر، نظر رسول الله – ﷺ – إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، فاستقبل نبى الله – – القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ، فمازال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله !! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله – عز وجل – : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ الآية فأمده الله بالملائكة[2] .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبى – ﷺ – يوم بدر ، اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال حسبك ، فخرج – ﷺ – وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر »[3] .

وروى سعيد بن منصور عن طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله – ﷺ – إلى المشركين وتكاثرهم ، وإلى المسلمين فاستقلهم ، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله – ﷺ – وهو فى صلاته : « اللهم لا تودع منى ، اللهم لا تخذلنى ، اللهم لا تترنى – أى لا تقطعنى عن أهلى وأنصارى – أو لا تنقصنى شيئاً من عطائك – اللهم أنشدك ما وعدتنى – أى : أستنجزك وعدك » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٠ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٥٦ . طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٤ م .
(٣) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٩٣ . طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .

وروى ابن إسحاق فى سيرته أنه - ﷺ - قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى[1] .

فإن قيل : إن هذه النصوص يؤخذ منها أن هذه الاستغاثة كانت من رسول الله - ﷺ - فلماذا أسندها القرآن إلى المؤمنين ؟

فالجواب : أن المؤمنين كانوا يؤمنون على دعائه - ﷺ - ويتأسون به فى الدعاء ، إلا أن الروايات ذكرت دعاء الرسول - ﷺ - ، لأنه هو قائد المؤمنين ، وهو الذى يحرص الرواة على نقل دعائه ، أكثر من حرصهم على نقل دعاء غيره من أصحابه .

وقيل : إن الضمير فى قوله ﴿ تستغيثون ﴾ للرسول - ﷺ - ، وجئ به مجموعا على سبيل التعظيم ، ويعكر على هذا القيل أن السياق بعد ذلك لا يلتئم معه ، لأنه خطاب للمؤمنين بالنعم التى أنعم بها - سبحانه - عليهم .

وعبر - سبحانه - بالمضارع ﴿ تستغيثون ﴾ مع أن استغاثتهم كانت قبل نزول الآية - استحضارا للحال الماضية ، حتى يستمروا على شكرهم لله ، ولذلك عطف عليه . فاستجاب لكم ، بصيغة الماضى مسايرة للواقع .

وكان العطف بالفاء للإشعار بأن إجابة دعائهم كانت فى أعقاب تضرعهم واستغاثتهم وهذا من فضل الله عليهم ، ورحمته بهم ، حيث أجارهم من عدوهم ، ونصرهم عليه - مع قلتهم عنه - نصرا مؤزرا .

والسين والتاء فى قوله : « تستغيثون » للطلب ، أى : تطلبون منه الغوث بالنصر .

فإن قيل : إن الله - تعالى - ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة ، وذكر فى سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما ؟ .

فالجواب أن الله - تعالى - أمد المؤمنين بألف من الملائكة فى يوم بدر ، كما بين هنا فى سورة الأنفال ، ثم زاد عددهم إلى ثلاثة آلاف كما قال - تعالى - فى سورة آل عمران : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ... ﴾ ، ثم زاد عددهم مرة أخرى إلى خمسة آلاف ، قال - تعالى - ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين[2] ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٥٦ مطبعة دار المنار ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ هـ .
(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٢٣ - ١٢٥ .

وقد صبروا واتقوا وأتاهم المشركون من مكة فورا حين استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير .. فكان المدد خمسة آلاف ..

واختار ابن جرير أنهم وعدوا بالمدد بعد الألف ، ولا دلالة فى الآيات على أنهم أمدوا بما زاد على ذلك ، ولا على أنهم لم يمدوا ، ولا يثبت شىء من ذلك إلا بنص .

وهذا بناء على أن المدد الذى وعد الله به المؤمنين فى آيات سورة آل عمران كان خاصاً بغزوة بدر .

أما على الرأى القائل بأن هذا المدد الذى بتلك الآيات كان خاصا بغزوة أحدفلا يكون هناك إشكال بين ما جاء فى السورتين .

وقد بسط القول فى هذه المسألة الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه :

« اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين :

أحدهما : أن قوله - تعالى - : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ﴾ متعلق بقوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ .

وهذا قول الحسن والشعبى والربيع بن أنس وغيرهم ..

، فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآيات - التى فى سورة آل عمران وبين قوله فى سورة الأنفال - : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ .

فالجواب : أن التنصيص على الألف هنا ، لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله - تعالى - ﴿ مردفين ﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم .

قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف » .

والقول الثانى يرى أصحابه أن هذا الوعد - وهو قوله - تعالى - : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ﴾ . متعلق بقوله - قبل ذلك - ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ . وذلك يوم أحد .

وهو قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وغيرهم .

لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ فروا .

وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى - ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير بتصرف وتلخيص جـ ١ ص ٤٠١ .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ورحمته بهم فى هذا الإمداد فقال : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ فالآية الكريمة كلام مستأنف ساقه - سبحانه - لبيان بعض مظاهر فضله على المؤمنين ، ولبيان أن المؤثر الحقيقى هو الله وحده حتى يزدادوا ثقة به ، وحتى لا يقنطوا من النصر عند قلة أسبابه .

أى : وما جعل الله - تعالى - هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم - أيها المؤمنون - بالنصر على أعدائكم فى هذه الغزوة الحاسمة وقوله ﴿ بشرى ﴾ مفعول لأجله مستثنى من أعم العلل .

وقوله : ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ معطوف عليه : أى : ولتسكن بهذا الإمداد قلوبكم ، ويزول عنكم الخوف ، وتهاجموا أعداءكم بنفوس لا يداخلها الإحجام أو التردد ..

- وقوله : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ ، أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كائن من عند الله وحده ، لأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء ، والقادر على كل شىء ..

وإن الوسائل مهما عظمت ، والأسباب مهما كثرت ، لا تؤدى إلى النتيجة المطلوبة والغاية المرجوة ، إلا إذا أيدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .

وقوله : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أى : غالب لا يقهره شىء ، ولا ينازعه منازع حكيم فى تدبيره وأفعاله .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التعليل لما قبله ، وفيه إشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات حكمته البالغة - سبحانه -.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المنن الأخرى التى منحها للمؤمنين قبل أن يلتحموا مع أعدائهم فى بدر فقال : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ﴾ .

وقوله : ﴿ يغشيكم ﴾ بتشديد الشين من التغشية بمعنى التغطية من غشاه تغشية أى : غطاه .

والنعاس : أول النوم قبل أن يثقل ،وفعله - على الراجح - على وزن منع .

والأمنة : مصدر بمعنى الأمن . وهو طمأنينة القلب وزوال الخوف ، يقال : أمنت من كذا أمنة وأمنا وأمانا بمعنى .

قال الجمل : فى قوله : ﴿ إذ يغشاكم النعاس ﴾ ثلاث قراءات سبعية .

الأولى : يغشاكم كيلقاكم ، من غشيه إذا أتاه وأصابه وفى المصباح : غشيته أغشاه من باب تعب بمعنى أتيته - وهى قراءة أبى عمرو وابن كثير .

الثانية : يُغْشِيكم - بإسكان الغين وكسر الشين - من أغشاه . أى أنزله بكم وأوقعه عليكم - وهو قراءة نافع -

الثالثة : يغشيكم - بتشديد الشين وفتح الغين وهى قراءة الباقين - من غشاه تغشية بمعنى غطاه .

أى : يغشيكم الله النعاس أى يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم .

والنعاس على القراءة الأولى مرفوع على الفاعلية ، وعلى الأخيرتين منصوب على المفعولية . وقوله : « أمنة » حال أو مفعول لأجله[1] .

وقال القرطبى : وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم ، ولكن الله ربط جأشهم .

وعن على - رضى الله عنه - قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم سوى رسول الله - ﷺ - تحت شجرة يصلى حتى أصبح .

وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : - أحدهما : أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد .

الثانى : أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم : كما يقال : الأمن منيم ، والخوف مسهر »[2] .

وقال ابن كثير : وجاء فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله - ﷺ - سنة من النوم . ثم استيقظ متبسما ، فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع » . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله - تعالى - ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[3] .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - أيضًا ، وقت أن كنتم متعبين وقلقين على مصيركم فى هذه المعركة ، فألقى الله عليكم النعاس ، وغشاكم به قبل التحامكم بأعدائكم ، ليكون أمانا لقلوبكم ، وراحة لأبدانكم ، وبشارة خير لكم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٠ - بتصرف يسير .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩١ .

هذا ، ومن العلماء الذين تكلموا عن نعمة النعاس التى ساقها الله للمؤمنين قبل المعركة ، الإمامان الرازى ومحمد عبده .

أما الامام الرازى فقد قال ما ملخصه : واعلم أن كل نوم ونعاس لا يحصل إلا من قبل الله - تعالى - فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله لابد فيه من مزيد فائدة ، وذكروا فى ذلك وجوها : منها : أن الخائف إذا خاف من عدوه فإنه لا يأخذه النوم ، وإذا نام الخائفون أمنوا . فصار حصول النوم لهم فى وقت الخوف الشديد ، يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن .

ومنها : أنهم ما ناموا نوما غرقا يتمكن معه العدو من معافصتهم ، بل كان ذلك نعاسا يزول معه الإعياء والكلال ، ولو قصدهم العدو فى هذه الحالة لعرفوا وصوله ، ولقدروا على دفعه .

ومنها : أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس للجمع العظيم فى الخوف الشديد أمر خارق للعادة . فلهذا السبب قيل : إن ذلك النعاس كان فى حكم المعجز[1] .

وقال الامام محمد عبده : لقد مضت سنة الله فى الخلق ، بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هولا كبيرا ، ومصابا عظيما ، فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه فيصبح خاملا ضعيفا . وقد كان المسلمون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بلغهم أن جيشا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدا فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرض والسهاد .. ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس : غشيهم فناموا ، واثقين بالله ، مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه .. فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها »[2] .

وبذلك نرى أن النعاس الذى أنزله الله تعالى - على المؤمنين قبل لقائهم بأعدائهم فى بدر كان نعمة عظيمة ومنة جليلة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ معطوف على قوله ﴿ يغشيكم ﴾ وهو - أى : إنزال الماء من السماء نعمة عظمى تحمل فى طياتها نعما وسننا .

أولها : يتجلى فى هذه الجملة الكريمة ، أنه - سبحانه - أنزل على المؤمنين المطر من السماء ليطهرهم به من الحدثين : الأصغر والأكبر ، فإن المؤمن - كما يقول الإمام الرازى - « يكاد

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٢ .
(٢) تفسير المنار جـ ٤ ص ١٨٥ .

يستقذر نفسه إذا كان جنبا ، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب[١] .

وثانيها : قوله - تعالى - : ويذهب عنكم رجز الشيطان » .

وأصل الرجز : الاضطراب ويطلق على كل ما تشتد مشقته على النفوس .

قال الراغب : أصل الرجز الاضطراب ، ومنه قيل رجز البعير رجزا فهو أرجز ، وناقة رجزاء إذا تقارب خطوها واضطرب لضعفها .. »[٢] .

والمراد برجز الشيطان : وسوسته للمؤمنين ، وتخويفه إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء وإلقاؤه الظنون السيئة فى قلوبهم .

أى : أنه - سبحانه - أنزل عليكم الماء - أيها المؤمنون - ليطهركم به تطهيرا حسيا وليزيل عنكم وسوسة الشيطان ، بتخويفه إياكم من العطش وبإلقائه فى نفوسكم الظنون والأوهام .. وهذا هو التطهير الباطنى .

وثالثها قوله - تعالى - : ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أى : وليقويها بالثقة فى نصر الله ، وليوطنها على الصبر والطمأنينة .. ولا شك أن وجود الماء فى حوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم ، وثباتاً على ثباتهم ، أما فقده فإنه يؤدى إلى فقد الثقة والاطمئنان ، بل وإلى الهزيمة المحققة .

وأصل الربط : الشد . ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ، أى : حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط الجأش . أى : ثابت متمكن .

ورابع هذه النعم التى تولدت عن نزول الماء من السماء على المؤمنين ، قبل خوضهم معركة بدر ، يتجلى فى قوله - تعالى - ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - أنزل عليهم المطر قبل المعركة لتطهيرهم حسياً ومعنوياً ، ولتقويتهم وطمأنينتهم ، وليثبت أقدامهم به حتى لا تسوخ فى الرمال ، وحتى يسهل المشى عليها ، إذ من المعروف أنه من العسير المشى على الرمال ، فإذا ما نزلت عليها الأمطار جمدت وسهل السير فوقها ، وانطفأ غبارها .. فالضمير فى قوله ﴿ به ﴾ يعود على الماء المنزل من السماء .

قال الزمخشرى : ويجوز أن يعود للربط - فى قوله ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ ، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم فى مواطن القتال .

هذا ، وقد وردت آثار متعددة توضح ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من نعم جليلة ،

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٣ .
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ١٧٨ . الأصفهانى . طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦١ .

ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزل النبى - ﷺ - يعنى حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة - أى كثيرة مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم ، تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم .. » [١] .

وعن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادى دهساً فأصاب رسول الله - ﷺ - وأصحابه مالبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشاً مالم يقدروا على أن يرحلوا معه » [٢] .

ومن هذا القول المنقول عن عروة - رضى الله عنه - نرى أن المطر كان خيراً للمسلمين ، وكان شراً على الكافرين ، لأن المسلمين كانوا فى مكان يصلحه المطر ، بينما كان المشركون فى مكان يؤذيهم فيه المطر .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم فى نصرهم على المشركين فقال - سبحانه - : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

والبنان : - كما يقول القرطبى - واحده بنانه . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء .. وهو - أى البنان - مشتق من قولهم أَبَنَّ الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعتَملُ به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء ......

وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان .. » [٣] .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمد بهم المسلمين فى بدر ﴿ أنى معكم ﴾ أى بعونى وتأييدى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ أى فقووا قلوبهم ، واملأوا نفوسهم ثقة بالنصر ، وصححوا نياتهم فى القتال حتى تكون غايتهم إعلاء كلمة الله .

قال الآلوسى : والمراد بالتثبيت : الحمل على الثبات فى موطن الحرب والجد فى مقاساة شدائد القتال . وكان ذلك هنا - فى قول - بظهورهم لهم فى صورة بشرية يعرفونها ، ووعدهم

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ١٩٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٣ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٧٩ .

إياهم النصر على أعدائهم ، فقد أخرج البيهقى فى الدلائل أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشىء ، والله معكم . كروا عليهم .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم . وللملك قوة إلقاء الخير فى القلب ويقال له إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له وسوسة ، [1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين .

أى : سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفزع منكم - أيها المؤمنون - ، وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم .

والرعب : انزعاج النفس وخوفها من توقع مكروه ، وأصله التقطيع من قولهم : رعبت السنام ترعيباً إذا قطعته مستطيلا ، كأن الخوف يقطع الفؤاد .

وقوله : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ الخطاب فيه للمؤمنين ، وقيل ، للملائكة .

والمراد بما فوق الأعناق الرءوس كما روى عن عطاء وعكرمة . أو المراد بها الأعناق ذاتها فتكون فوق بمعنى : على وهو قول أبى عبيدة .

ويرى صاحب الكشاف أن المراد بما فوق الأعناق : أعالى الأعناق التى هى المذابح ، لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها جزا وتطييرا للرءوس .

والمراد بالبنان - كما سبق أن بينا - الأصابع أو مطلق الأطراف .

والمعنى : لقد أعطيتكم - أيها المؤمنون - من وسائل النصر ما أعطيتكم ، فهاجموا أعدائى واعداءكم بقوة وغلظة ، واضربوهم على أعناقهم ورءوسهم ومواضع الذبح فيهم . واضربوهم على كل أطرافهم حتى تشلوا حركتهم ، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

ثم بين سبحانه - السبب فى تكليفه المؤمنين بمجاهدة الكافرين والإغلاظ عليهم وقتلهم .

فقال - تعالى - ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

فاسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وأمرهم بضرب الكافرين .. وهو فى محل رفع على الابتداء . وقوله ﴿ بأنهم ... ﴾ خبره . والباء للسببية .

وقوله : ﴿ شاقوا ﴾ من المشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة مشتقة من الشق - أى الجانب - ، فكل واحد من المتعاديين أو المتخالفين صار فى شق غير شق صاحبه .

والمعنى : ذلك الذى ذكره الله - تعالى - فيما سبق ، من تأييده للمؤمنين وأمره إياهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١١٧ - بتلخيص يسير -

بضرب الكافرين ، سببه أن هؤلاء الكافرين ﴿ شاقوا الله ورسوله ﴾ أى : عادوهما وخالفوا شرعهما : ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ بأن يسير فى غير الطريق الذى أمرا به ، ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ لهذا المعادى والمخالف .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ إما نفس الجزاء ، وقد حذف منه العائد عند من يكتفى ولا يلتزم بالعائد فى الربط. أى: شديد العقاب له. أو قائم مقام الجزاء المحذوف أى : يعاقبه الله - تعالى - فإن الله شديد العقاب . وأياما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريق برهانى . كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان ، فله بسبب ذلك عقاب شديد ، فإن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله عقابا شديدا[1] .

ثم يوجه - سبحانه - خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقوا الله ورسوله ، متوعدا إياهم بسوء المصير فيقول : ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ فاسم الإشارة ﴿ ذلكم ﴾ يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وخذلان الكافرين وإنزال العقوبة بهم .

أى ذلكم الذى نزل بكم - أيها الكافرون - من القتل والأسر فى بدر ، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشركم وعنادكم ، فذوقوا آلامه ، وتجرعوا غصصه ، وعيشوا فى مذلته .

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلكم عذاب النار الذى هو أشد وأبقى من عذاب الدنيا . فاتركوا الكفر ، وادخلوا فى الإيمان لتنجوا من العذاب وتنالوا الثواب .

قال الجمل ما ملخصه وقوله : ﴿ ذلكم فذوقوه .. ﴾ يجوز فيه وجوه من الأعراب أحدها أن يرفع بالابتداء والخبر محذوف أى ذلكم العقاب . الثانى : أن يرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى: العقاب ذلكم أو الأمر ذلكم وعلى هذين الوجهين يكون قوله ﴿ فذوقوه ﴾ لا تعلق له بما قبله من جهة الاعراب فهو مستأنف، والوقف يتم على قوله: ﴿ ذلكم ﴾ الثالث : أن يرتفع بالابتداء. والخبر قوله ﴿ فذوقوه ﴾ وهذا على رأى الأخفش .

وقوله ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ معطوف على قوله ﴿ ذلكم ﴾ أو منصوب على أنه مفعول معه ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم فى الآخرة،ووضع الظاهر فيه موضع المضمر - بأن قال ﴿ فذوقوه وأن للكافرين ﴾ ولم يقل فذوقوه وأن لكم - للدلالة على أن الكفر سبب للعذاب الآجل أو للجمع بينهما[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٩ .
(٢) حاشية الجمل الجلالين جـ ٩ ص ١٧٩ .

ومن هذا نرى أن تلك الآيات الكريمة قد ذكّرت المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر بألوان من نعم الله عليهم ، وبأنواع من البشارات التى كانت تدل على أن النصر سيكون لهم .

١ - ذكّرتهم بوعد الله لهم بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير ستكون لهم ، وقد وفّى لهم - سبحانه - بوعده ، حيث جعل النصر لهم ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ .

٢ - وذكرتهم بإجابة الله لدعائهم ، حيث أمدهم بألف من الملائكة مردفين .

٣ - وذكرتهم بالنعاس الذى ألقاه - سبحانه - عليهم قبل المعركة ، ليكون أماناً لهم ، وراحة لأبدانهم .

٤ - وذكرتهم بنزول المطر عليهم من السماء ليكون طهارة ظاهرية وباطنية لهم ، وليكون طمأنينة لقلوبهم ، وتثبيتاً لأقدامهم .

٥ - وذكرتهم بأمر الله لملائكته أن يثبتوهم ، بأن يغرسوا فى قلوبهم الثقة فى نصر الله لهم ، والاستهانة بقوة أعدائهم .

٦ - وذكرتهم بما ألقاه - سبحانه - فى قلوب الكافرين من رعب وفزع وجزع ، جعلهم ينهزمون أمامهم .

٧ - وذكرتهم بأن ما أصاب أعداء الله وأعداءهم من قتل وأسر وخسران كان سببه كفرهم وعنادهم وإيثارهم سبيل الغى على سبيل الرشد ، وأنهم - إذا استمروا فى كفرهم - فسيلقون فى الآخرة عذاباً أشد وأبقى مما نزل بهم فى الدنيا .

ولاشك أن هذا التذكير من مقاصده الأساسية حض المؤمنين على الاستجابة لله ولرسوله : وعلى مداومة الشكر لخالقهم ، فهو - سبحانه - الذى منحهم هذه النعم الجزيلة التى تمكنوا معها من رقاب أعدائهم ، وهو الذى جعلهم يغنمون كل هذه الغنائم بعد أن خرجوا من ديارهم بلا مال ولا ظهر ولا عتاد .

هذا ، ومن الخير قبل أن ننتقل من هذه الآيات إلى غيرها ، أن نتكلم بشىء من التفصيل عن مسألة كثر الحديث عنها .

وهذه المسألة هى : ماذا كانت وظيفة الملائكة فى بدر ؟ أكانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فحسب أم أنهم بجانب هذا التثبيت قاتلوا فعلا معهم ؟ إننا بمطالعتنا لما كتبه الكاتبون عن هذه المسألة نراهم فى كتاباتهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) أما القسم الأول منهم ، فيرى أن الملائكة فى غزوة بدر لم تكن وظيفتهم التثبيت فحسب ، وإنما هم قاتلوا مع المؤمنين فعلا ، ويستدلون على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلا يقول : أقدم حيزوم ،

فخر المشرك مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه . فجاء فحدث رسول الله - ﷺ - فقال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة [١] .

٢ - وجاء عنه أنه قال - أيضاً - : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء ، ويوم أحد عمائم خضراء ، ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى بدر وكانوا فيما سواه عددا ومددا [٢] .

٣ - وعن أبى داود المزنى قال : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر . فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى .

٤ - وروى عن عبد الله بن مسعود أن أبا جهل سأله يوم بدر : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمعه ولا نرى شخصاً ؟ فقال : من الملائكة ، فقال له أبو جهل : هم إذن غلبونا لا أنتم [٣] .

٥ - وقال القرطبى : وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت . ومن ذلك قول أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدرا : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب- أى الطريق فى الجبل- الذى خرجت منه الملائكة. لا أشك ولا أمارى.

وعن سهل بن حنيف قال : لقد رأيتنا يوم بدر إن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه [٤] .

هذه أهم الروايات التى استند إليها العلماء الذين يرون أن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القرطبى ، فهو يرى أن هذا هو الصحيح وأنه رأى الجمهور .

(ب) أما القسم الثانى من العلماء فيرى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فى المعركة ، وتقوية أرواحهم وقلوبهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - أنه ليس فى الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر آية واحدة صريحة فى أن الملائكة قد قاتلت بالفعل ، وإنما هى صريحة فى أن الله - تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة ، وجعل هذا الإمداد بشارة لهم .

قال الآلوسى عند تفسيره لقوله - تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى .. ﴾ وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالا ، وهو مذهب لبعضهم . ويشعر ظاهرها بأن النبى - ﷺ - أخبرهم بذلك الإمداد ، وفى الأخبار ما يؤيد ذلك . بل جاء فى غير ما خبر أن

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٨ .
(٢) معالم التنزيل للبغوى جـ ١ ص ١٠ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٩٢ .

الصحابة رأوا الملائكة - عليهم السلام - [١] .

٢ - أن بعض الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر قد وضحت وظيفة الملائكة توضيحاً تاماً ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

قال ابن جرير فى معنى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال أعدائهم من المشركين ..

وقال فى معنى قوله - تعالى - ﴿ فاضربوا فوق الأعناق .. ﴾ : والصواب من القول فى ذلك أن يقال إن الله أمر المؤمنين معلما إياهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف ، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدى والأرجل ... » [٢] .

وقال الفخر الرازى : قوله ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ فيه وجهان : الأول : أنه أمر للملائكة متصل بقوله - تعالى - ﴿ فثبتوا ﴾ . وقيل : بل أمر للمؤمنين ، وهذا هو الأصح لما بينا أنه - تعالى - ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة ..[٣] .

٣ - أن الروايات التى استند إليها من قال بأن الملائكة قاتلت مع المؤمنين فى بدر لم ترد فى كتب السنة المعتمدة ، بل لم يذكر معظمها الإمام ابن جرير مع علمنا باهتمامه بالمرويات فى تفسيره . وفضلا عن ذلك فإن أكثر هذه الروايات لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلت .

فمثلا رواية أبى داود المازنى لم تصرح بأن المشرك الذى أراد هو أن يقتله قد قتله ملك . وكذلك الحال بالنسبة لروايتى أبى أسيد وسهيل بن حنيف وأما قول أبى جهل لابن مسعود : « هم إذن غلبونا - يعنى الملائكة - لا أنتم ، فنرجح أنه من باب التبرير والمغالطة . فهو يريد أن ينفى - حقداً منه وعناداً - قوة المؤمنين الذين صرعوا أمثاله من الطغاة ..

والخلاصة أن معظم هذه الروايات - مع ضعفها - لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر .

٤ - استبعد كثير من العلماء اشتراك الملائكة فى القتال ، ومن هؤلاء العلماء الإمام أبو بكر الأصم فقد قال :

« إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط . فإذا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٤ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ١٩٧ ، ص ١٩٨ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٥ .

حضر هو يوم بدر - وجميع الروايات تذكر أنه كان على رأس الملائكة - فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ بل أى حاجة حينئذ إلى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أوْ لا .. وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ، ولم يقل أحد بذلك .. وعلى الثانى كان يلزم جز الرءوس ، وتمزيق البطون ، وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ، ومثل هذا من أعظم المعجزات ، فكان يجب أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف ... »[1] .

وقال صاحب المنار: مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ إلخ .

وقوله - تعالى - ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .. ﴾ إلخ بدء كلام خوطب به النبى ﷺ - والمؤمنون تتمة للبشرى . فيكون الأمر بالضرب موجهاً إلى المؤمنين قطعاً ، وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعاً لما قبله من الآيات .

ثم قال : وفى كتب السير وصف للمعركة علم منه القاتلون والآسرون لأشد المشركين بأسا ، فهل تعارض هذه البينات النقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل .

كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التى شوهت التفسير وقلبت الحقائق ، حتى إنها خالفت نص القرآن نفسه فالله - تعالى - يقول فى إمداد الملائكة ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم .. ﴾ وهذه الروايات تقول بل جعله مقاتلة ، وإن هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلا باجتماع ألف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة .

ألا إن فى هذا من تعظيم شأن المشركين ، وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل ، إلا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ، ولم يرفع منها إلا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسى وغيره بغير سند . وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيرا ، فرواياته عنها حتى فى الصحيح مرسله . ،[2] .

---

(١) تفسير المنار جـ ٤ ص ١١٣ .

(٢) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٦٥ .

هذه أهم الأدلة التى استند إليها القائلون بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين ، وتقوية عزائمهم . وتصحيح نياتهم .

(جـ) أما القسم الثالث من العلماء الذين كتبوا فى هذه المسألة ، فمنهم الذى اكتفى بسرد الآراء دون أن يرجح بينها ، ومن هؤلاء صاحب الكشاف ، فقد قال :

فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه . فقيل : نزل جبريل فى يوم بدر فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل فى خمسمائة على الميسرة وفيها على بن أبى طالب فى صورة الرجال . فقاتلت . وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب .. وقيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ، ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا كلهم .. [1] .

ومنهم الذى يرى أن البحث فى تفاصيل أمثال هذه المسائل ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة ، ومن هؤلاء صاحب « فى ظلال القرآن » فقد قال ما ملخصه :

« تروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر : عددهم وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين ، وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . ونحن - على طريقتنا فى الظلال - نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المتيقنة من قرآن أو سنة ، والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة .. ﴾ فهذا عددهم ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا .. ﴾ فهذا عملهم . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . وبحسبنا أن تعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والاعداء كثرة ، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله سبحانه فى كلماته .. إننا نؤمن بوجود خلق أسماهم الملائكة ، ولكننا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلا نملك من إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصرة المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى . وقد أوحىُ إليهم ربهم : أنى معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا .

- لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندرى كيف فعلوا .

إن البحث التفصيلى فى كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠١ .

الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الترف العقلى على النفوس والعقول . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله – سبحانه – للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لهى أنفع واجدى .. "(١) .

وبعد فهذه أهم الأقول التى قالها العلماء فى مسألة وظيفة الملائكة فى بدر ، بسطناها بشىء من التفصيل لتتضح آراؤهم فيها .

والذى نراه بعد كل ذلك : أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، هو القول الذى ذهب أصحابه إلى أن الملائكة فى بدر لم تقاتل ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت وتقوية عزائم المؤمنين .. وذلك لما سبق أن بيناه من أدلة وحجج – والله أعلم بالصواب .

وبعد أن بين – سبحانه – بعض البشارات والنعم التى ساقها للمؤمنين الذين اشتركوا فى بدر . وجه – سبحانه – نداء إليهم أمرهم فيه بالثبات فى وجوه أعدائهم ، وذكرهم بجانب من مننه عليهم .

فقال – تعالى – :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ

(١) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٩ ص ٨١٥ للمرحوم الأستاذ سيد قطب .

وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله - سبحانه - ﴿ زحفا ﴾ : مصدر زحف وأصله للصبى ، وهو أن يزحف على إسته قبل أن يمشى . ثم أطلق على الجيش الكثيف المتوجه لعدوه لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه جسم واحد يزحف ببطء وإن كان سريع السير .

قال الجمل : وفى المصباح : زحف القوم زحفا وزحوفا . ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف مثل فلس وفلوس . ونصب قوله : ﴿ زحفا ﴾ على أنه حال من المفعول وهو ﴿ الذين كفروا ﴾ أى إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين نحوكم .

والأدبار : جمع دبر - بضمتين - وهو الخلف ، ومقابله القبل وهو الأمام ، ويطلق لفظ الدبر على الظهر وهو المراد هنا .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا ﴾ زاحفين نحوكم لقتالكم ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أى . فلا تفروا منهم ، ولا تولوهم ظهوركم منهزمين ، بل قابلوهم بقوة وغلظة وشجاعة ، فإن من شأن المؤمن أن يكون شجاعا لا جبانا ، ومقبلا غير مدبر .

فالمراد من تولية الأدبار : الانهزام ، لأن المنهزم يولى ظهره وقفاه لمن انهزم منه .

وعدل من لفظ الظهور إلى الأدبار ، تقبيحا للانهزام ، وتنفيرا منه ، لأن القبل والدبر يكنى بهما عن السوءتين .

ثم بين - سبحانه - أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين فقال - تعالى - : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

وقوله : ﴿ متحرفا ﴾ من التحرف بمعنى الميل والانحراف من جهة إلى جهة بقصد المخادعة فى القتال وهو منصوب على الحالية .

وقوله ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ من التحيز بمعنى الانضمام . تقول : حزت الشىء أحوزه إذا ضممته إليك . وتحوزت الحية أى انطوت على نفسها .

والفئة : الجماعة من الناس . سميت بذلك لرجوع بعضهم إلى بعض فى التعاضد

والتناصر . من الفىء بمعنى الرجوع إلى حالة محمودة .

والمعنى : أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون المؤمن عند توليته الأدبار مائلا عن مكانه إلى مكان آخر أصلح للقتال فيه ، أو أن يكون منعطفا إلى قتال طائفة من الأدبار أهم من الطائفة التى أمامه ، أو أن يوهم عدوه بأنه منهزم أمامه استدراجا له ، ثم يكر عليه فيقتله .

الحالة الثانية : أن يكون فى توليه منحازا إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضما إليها للتعاون معها على القتال ، حيث إنها فى حاجة إليه .

وهذا كله من أبواب خدع الحرب ومكايدها .

وقد توعد - سبحانه - الذى ينهزم أمام الأعداء فى غير هاتين الحالتين بقوله : ﴿ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

أى : ومن يول الكافرين يوم لقائهم دبره غير متحرف ولا متحيز فقد رجع متلبسا بغضب شديد كائن من الله - تعالى - ومأواه الذى يأوى إليه فى الآخرة جهنم وبئس المصير هى .

وقوله : ﴿ فقد باء بغضب من الله .. ﴾ جواب الشرط لقوله ، ومن يولهم .

هذا ، ومن الاحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - وجوب مصابرة العدو ، والثبات فى وجهه عند القتال ، وتحريم الفرار منه .

قال الآلوسى : فى الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المتحرف أو المتحيز . أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

ثم قال : وجاء عد - التولى يوم الزحف - من الكبائر فى غير ما حديث [١] .

٢ - أن الخطاب فى الآيتين لجميع المؤمنين وليس خاصاً بأهل بدر . قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلف المفسرون فى أن هذا الحكم - وهو تحريم التولى أمام الزحف - هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق ؟

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٢٨ .

فنقل عن أبي سعيد الخدرى والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهزم يوم بدر . قالوا : والسبب فى اختصاص بدر بهذا الحكم أن رسول الله - ﷺ - كان حاضراً يوم بدر .. وأنه - سبحانه - شدد الأمر على أهل بدر ، لأنه كان أول الجهاد ، ولو اتفق للمسلمين انهزام فيه لزم منه الخلل العظيم .

والقول الثانى : أن الحكم المذكور فى هذه الآية كان عاماً فى جميع الحروب بدليل أن قوله - تعالى - ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ... ﴾ عام فيتناول جميع الصور . أقصى ما فى الباب أنه نزل فى واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » [١] .

وهذا القول الثانى هو الذى نرجحه ، لأن ظاهر الآية يفيد العموم لكل المؤمنين فى كل زمان ومكان ، ولأن سورة الأنفال كلها قد نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها .

٣ - أن ا لآيتين محكمتان وليستا منسوختين . أى أن تحريم التولى يوم الزحف على غير المتحرف أو المتحيز ثابت لم ينسخ .

وقد رجح ذلك الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه : « سئل عطاء بن أبى رباح عن قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فقال : هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال بعد ذلك وهى قوله - تعالى - : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ... ﴾ وليس لقوم أن يفروا من مثليهم .

وقال آخرون : بل هذه الآية حكمها عام فى كل من ولى الدبر عن العدو منهزما .

وأولى التأويلين بالصواب فى هذه الآية عندى : قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر . وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين . وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال ، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين ، حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما- بغير نية إحدى الخلتيين اللتين أباح الله التولية بها - فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

وإنما قلنا : هى محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا فى غير موضع ، أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ وله فى غير النسخ وجه ، إلا بحجة يجب التسليم لها : من خبر يقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قوله - تعالى - ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ﴾ [٢] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٣ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٣ .

ثم بين لهم - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ليزدادوا شكراً له ، وطاعة لأمره فقال - تعالى - : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ ، أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسول الله - ﷺ - لما صدروا عن بدر .

ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال : قتلت كذا ، وأسرت كذا ، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بكسبه وقصده ... »[1] .

وقال ابن كثير : قال على بن طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله - ﷺ - ، يديه - يعنى يوم بدر - فقال : « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا ، فقال جبريل : « خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم » فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

وقال السدى : قال رسول الله - ﷺ - لعلى يوم بدر « أعطنى حصا من الأرض » فناوله حصا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شىء ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .. ﴾ .

وقال أبو معشر المدنى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » ، فدخلت فى أعينهم كلهم . وأقبل أصحاب رسول الله - ﷺ - وأنزل الله . ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[2] .

وهناك روايات أخرى ذكرت أن قوله - تعالى - ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ المقصود به رميه - ﷺ - لأبى بن خلف يوم أحد ، أو رميه لكنانة بن أبى الحقيق فى غزوة خيبر ، أو رميه المشركين فى غزوة حنين .

قال ابن كثير : وقد روى فى هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت فى رمية النبى - ﷺ - يوم بدر ... وسياق الآية فى سورة الأنفال فى قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٨٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٥ .

والمعنى : إنكم - أيها المؤمنون - لم تقتلوا المشركين فى بدر بقوتكم وشجاعتكم ، ولكن الله - تعالى - هو الذى أظفركم بحوله وقوته ، بأن خذلهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، ومنحكم من معونته ورعايته ما بلغكم هذا النصر .

والفاء فى قوله : ﴿ فلم تقتلوهم .. ﴾ يرى صاحب الكشاف أنها جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ لأنه هو الذى أنزل الملائكة ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وأذهب عن قلوبكم الفزع والجزع .

وقوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ خطاب للنبى - ﷺ - بطريق التلوين .

أى : ﴿ وما رميت ﴾ بالرعب فى قلوب الأعداء ﴿ إذ رميت ﴾ فى وجوههم بالحصباء يوم بدر ﴿ ولكن الله ﴾ - تعالى - هو الذى ﴿ رمى ﴾ بالرعب فى قلوبهم فهزمهم ونصركم عليهم .

أو المعنى : ما أوصلت الحصبا إلى أعينهم إذ رميتهم بها ، ولكن الله هو الذى أوصلها إليها .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : يعنى أن الرمية التى رميتها - يا محمد - لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم.. فأثبت الرمية لرسول الله - ﷺ - لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ، لأن أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله - عز وجل - ، فكان الله - تعالى - هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول - ﷺ - أصلا [١] .

وقال الآلوسى : واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه - تعالى - وإنما لهم كسبها ومباشرتها وقال الإمام : أثبت - سبحانه - كونه - ﷺ - راميا ، ونفى كونه راميا ، فوجب حمله على أنه - ﷺ - رمى كسبا ، والله - تعالى - رمى خلقا [٢] .

فإن قيل : لماذا ذكر مفعول القتل منفياً ومثبتاً ولم يذكر للرمى مفعول قط ؟

فالجواب - كما يقول أبو السعود - : « أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا وإثباتا ، إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر ، وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شيء من ذلك » [٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ بيان لبعض وجوه حكمته - سبحانه - فى خذلان الكافرين ، ونصر المؤمنين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٨٥ .

(٣) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٢٣ .

وقوله ﴿ ليبلى ﴾ من البلاء بمعنى الاختبار. وهو يكون بالنعمة لإظهار الشكر، كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر. والمراد به هنا: الإحسان والنعمة والعطاء، ليزداد المؤمنون شكراً لربهم الذى وهبهم ما وهب من نعم.

واللام للتعليل متعلقة بمحذوف مؤخر.

والمعنى، ولكى يحسن - سبحانه - إلى عباده المؤمنين، وينعم عليهم بالنصر والغنائم، ليزدادوا شكراً له، فعل ما فعل من خذلان الكافرين وإذلالهم.

وقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ تذييل قصد به الحض على طاعة الله، والتحذير من معصيته، أى: إن الله سميع لأقوالكم ودعائكم، عليم بضمائركم وقلوبكم، فاستبقوا الخيرات لتنالوا المزيد من رعايته ونصره.

ثم يقرر - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف، وهى تقوية الحق وتوهين الباطل، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، وثباتا على ثباتهم فيقول: ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾.

قال الإمام الرازى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ موهن ﴾ - بفتح الواو وتشديد الهاء والتنوين. من التوهين. تقول وهنت الشىء أى ضعفته -، ﴿ كيد ﴾ بالنصب على المفعولية. وقرأ حفص عن عاصم ﴿ موهن كيد ﴾ بالإضافة. وقرأ الباقون ﴿ موهن ﴾ بالتخفيف، - من أوهننه فأنا موهنه بمعنى أضعفته - ﴿ وكيد ﴾ بالنصب وتوهين الله كيدهم ومكرهم يكون بأشياء منها: إطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، وتفريق كلمتهم، [1].

واسم الإشارة ﴿ ذلكم ﴾ يعود إلى ما سبق من نعمة الإبلاء والقتل والرمى وغير ذلك من النعم. وهو مبتدأ وخبره محذوف، وقوله: ﴿ وأن الله موهن .... ﴾ معطوف عليه.

المعنى: ذلكم الذى منحته إياكم من العطاء الحسن، والقتل للمشركين، والإمداد بالملائكة، وإنزال الماء عليكم. ذلكم كله نعم منى إليكم، ويضاف إلى ذلك كله أنه - سبحانه - مضعف لكيد الكافرين ومفسد لمكرهم بكم.

قال ابن كثير: وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، وأنهم فى تبار ودمار» [2] وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده المؤمنين بما حباهم به من منن فى غزوة بدر، ليستمروا على طاعتهم له ولرسوله .. أتبع ذلك بتوجيه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرسوخ فى الكفر على أن يدعو الله أن يجعل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٦.

الدائرة فى بدر على أضل الفريقين فقال - تعالى - : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين ﴾ .

روى الإمام أحمد والنسائى والحاكم وصححه ، عن ثعلبة ، أن أبا جهل قال حين التقى القوم - فى بدر - : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحنه - أى فأهلكه - الغداة . فكان المستفتح [1] .

وعن السدى أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أهدى الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال - تعالى - ﴿ إن تستفتحوا .. الآية ﴾[2] .

قال الراغب : وقوله : ﴿ إن تستفتحوا ... ﴾ أى : إن طلبتم الظفر ، أو طلبتم الفتاح أى الحكم .. والفتح إزالة الإغلاق والإشكال ... ويقال : فتح القضية فتاحا . أى فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها . قال - تعالى - : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . والاستفتاح : الاستنصار - أى طلب النصر - قال - تعالى - ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ... ﴾[3] .

والمعنى : إن تطلبوا الفتح أى : القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ أى : فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم حيث حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين ، بأن أعزهم ونصرهم لأنهم على الحق ، وخذلكم وأذلكم لأنكم على الباطل .

فالخطاب مسوق للكافرين على سبيل التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، حيث طلبوا من الله - تعالى - القضاء بينهم وبين المؤمنين ، والنصر عليهم ، فكان الأمر على عكس ما أرادوا حيث حكم الله فيهم بحكمه العادل وهو خذلانهم لكفرهم وجحودهم ، وإعلاء كلمة المؤمنين ، لأنهم على الطريق القويم .

وقوله : ﴿ وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾ أى : وإن تنتهوا عن الكفر وعداوة الحق ، يكن هذا الانتهاء خيراً لكم من الكفر ومحاربة الحق .

وقوله : ﴿ وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ... ﴾ تحذير لهم من التمادى فى الباطل بعد ترغيبهم فى الانقياد للحق .

أى : ﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى محاربة الرسول - ﷺ - والمؤمنين وعداوتهم ﴿ نعد ﴾

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٨ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٧٠ - بتصرف وتلخيص .

عليكم بالهزيمة والذلة . وعلى المؤمنين بالنصر والعزة ، ولن تستطيع فئتكم وجماعتكم - ولو كثرت - أن تدفع عنكم شيئاً من تلك الهزيمة وهذه الذلة ، فإن الكثرة والقوة لا وزن لها ولا قيمة إذا لم يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده .

وقوله : ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ تذييل قصد به تثبيت المؤمنين ، وإلقاء الطمأنينة فى نفوسهم .

أى : وأن الله مع المؤمنين بعونه وتأييده ، ومن كان الله معه فلن يغلبه غالب مهما بلغت قوته .

قال الجمل : « قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بفتح « أن » والباقون بكسرها . فالفتح من أوجه :

أحدها : أنه على لام العلة والمعلل تقديره ، ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت .

والثانى : أن التقدير : ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم . والثالث أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : والأمر أن الله مع المؤمنين .

والوجه الأخير يقرب فى المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف [1] .

هذا وما جرينا عليه من أن الخطاب فى قوله - تعالى - ﴿ إن تستفحوا .. ﴾ للمشركين هو رأى جمهور المفسرين .

ومنهم من يرى أن الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، وعليه يكون المعنى : ﴿ إن تستفتحوا ... ﴾ أى تطلبوا - أيها المؤمنون - النصر على أعدائكم ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ أى : فقد جاءكم النصر من عند الله كما طلبتم .

﴿ وإن تنتهوا ﴾ أى عن المنازعة فى أمر الانفال ، وعن التكاسل فى طاعة الله ورسوله ، ﴿ فهو ﴾ أى هذا الانتهاء ﴿ خير لكم ﴾ .

﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى المنازعات والتكاسل ﴿ نعد ﴾ عليكم بالإنكار وتهييج الأعداء .

﴿ ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أى : ولن تفيدكم كثرتكم شيئاً مهما كثرت إن لم يكن الله معكم بنصره .

وأن الله - تعالى - مع المؤمنين الصادقين فى إيمانهم وطاعتهم له .

والذى يبدو لنا أن كون الخطاب للكافرين أرجح ، لأن أسباب النزول تؤيده ، فقد سبق أن بينا أن الكافرين عند خروجهم إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر اهدى الجندين .. وأن أبا جهل قال حين التقى القوم :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٦ .

اللهم أينا أقطع للرحم .. فأحنه الغداة . قال ابن جرير : فكان ذلك استفتاحه ، فأنزل الله فى ذلك ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. ﴾[١] .

ولعل مما يرجح أن الخطاب فى قوله- تعالى- ﴿ إن تستفتحوا ... ﴾ للكافرين، أن بعض المفسرين - كابن جرير وابن كثير - ساروا فى تفسيرهم للآية على ذلك ، وأهملوا الرأى القائل بأن الخطاب للمؤمنين فلم يذكروه أصلا .

أما صاحب الكشاف فقد ذكره بصيغة « وقيل » وصدر كلامه بكون الخطاب للكافرين فقال : قوله - تعالى - : ﴿ إن تستفتحوا .. ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف ، وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للعانى ... »[٢] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة التى افتتحت بنداء المؤمنين ، قد أمرتهم بالثبات عند لقاء الأعداء .. وبينت لهم جوانب من مظاهر فضل الله عليهم ، ورعايته لهم .. ورغبت المشركين فى الانتهاء عن شركهم وعن محاربتهم للحق ، وحذرتهم من التمادى فى باطلهم وطغيانهم .. وأخبرتهم فى ختامها بأن الله - تعالى - مع المؤمنين بتأييده ونصره .

ثم وجهت السورة الكريمة نداء ثانياً إلى المؤمنين ، أمرتهم بطاعة الله ورسوله ، ونهتهم عن التشبه بالكافرين وأمثالهم من المنافقين .

فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ
تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ
لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ
وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٨ .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا حق الإيمان ، أطيعوا الله ورسوله فى كل أحوالكم ، ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ أى ولا تعرضوا عنه ، فإن فى إعراضكم عنه خسارة عظيمة لكم فى دنياكم وآخرتكم .

قال الآلوسى : « وأعيد الضمير إليه - ﷺ - ، لأن المقصود طاعته ، وذكر طاعة الله - تعالى - توطئة لطاعته ، وهى مستلزمة لطاعة الله - تعالى - ، لأنه مبلغ عنه ، فكان الراجع إليه - ﷺ - كالراجع إلى الله - تعالى - »[1] .

وقوله : ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ جملة حالية مسوقة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقا ، لا لتقييد النهى عنه بحال السماع .

أى أطيعوا الله ورسوله - أيها المؤمنون - ولا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ تأكيد لما قبله ، ونهى لهم عن التشبه بالضالين .

أى أطيعوا الله ورسوله فى كل أحوالكم عن إخلاص وإذعان ، ولا تقصروا فى ذلك فى وقت من الأوقات ، وإياكم أن تتشبهوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادعوا السماع فقالوا سمعنا ، والحال أنهم لم يسمعوا سماع تدبر واتعاظ ، لأنهم لم يصدقوا ما سمعوه ، ولم يتأثروا به . بل نبذوه وراء ظهورهم .

فالمنفى فى قوله - تعالى - ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ سماع خاص ، وهو سماع التدبر والاتعاظ ، لكنه جيء به على سبيل الإطلاق ، للإشعار بأنهم قد نزلوا منزلة من لم يسمع أصلا ، بجعل سماعهم بمنزلة العدم ، حيث إنه سماع لا وزن له ، ولا فائدة لهم من ورائه ، مع أنهم لو فتحوا آذانهم وقلوبهم للحق لاستفادوا ، ولكنهم آثروا الغى على الرشد .

ثم وصف - سبحانه - الكفار والمنافقين وأشباههم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم ، فقال - تعالى - : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون .. ﴾ .

والدواب : جمع دابة وهى كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى - : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع .. ﴾[2] .

قال الجمل : « وإطلاق الدابة على الإنسان لما ذكروه فى كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا ، وفى المصباح : الدابة كل حيوان فى الأرض مميزا أو غير مميز »[3] .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى نفر من بنى عبد الدار ، كانوا يقولون : نحن صم بكم عما

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٨ .
(٢) سورة النور الآية ٤٥ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٦ .

جاء به محمد ، فقتلوا جميعا يوم بدر .

وهذا لا يمنع أن الآية الكريمة يشمل حكمها جميع المشركين والمنافقين ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والمعنى : إن شر ما يدب على الأرض ﴿ عند الله ﴾ أى : فى حكمه وقضائه ، هم أولئك ﴿ الصم ﴾ عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن النطق به ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ أى لا يعقلون التمييز بينه وبين الباطل .

ووصفهم - سبحانه - بذلك مع أنهم يسمعون وينطقون ، لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس ، بل استعملوها فيما يضر ويؤذى ، فكان وجودها فيهم كعدمها .

وقدم الصمم على البكم ، لأن صممهم عن سماع الحق متقدم على بكمهم فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له ، كما أن النطق به من فروع سماعه .

وقوله ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ تحقيق لكمال سوء حالهم ، لأن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما فهم بعض الأمور .. أما إذا كان بجانب صممه وبكمه فاقد العقل ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد بلغ الغاية فى سوء الحال ..

قال صاحب المنار : وقوله : ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ أى : فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ،ولو سمعوا لنطقوا وبينوا ، وتذكروا وذكروا .. فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى .. بل هم شر من ذلك لأنهم اعطيت لهم المشاعر والقوى فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله لأجله ، فهم كما قال الشاعر :

خِلقوا ، وما خُلِقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رُزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم فى آية الأعراف وآيتى البقرة ، لأن المقام هنا مقام تعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن »[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ... ﴾ بيان لما جبلوا عليه من إيثار الغي على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : ولو علم الله - تعالى - فى هؤلاء الصم البكم ﴿ خيرا ﴾ أى : استعدادا للإيمان ورغبة فيما يصلح نفوسهم وقلوبهم ﴿ لأسمعهم ﴾ سماع تفهم وتدبر ، أى : لجعلهم سامعين للحق ، ومستجيبين له ، ولكنه - سبحانه - لم يعلم فيهم شيئا من ذلك ، فحجب خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٧٨ .

ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ أى : ولو أسمعهم سماع تفهم وتدبر ، وهم على هذه الحالة العارية من كل خير لتولوا عما سمعوه من الحق ﴿ وهم معرضون ﴾ عن قبوله جحودا وعنادا .

قال الفخر الرازى : قوله - تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ أى : أن كل ما كان حاصلا ، فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه ، فلا جرم حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده ، وتقرير الكلام : لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا به ، ولتولوا وهم معرضون »[1] .

ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين نداء ثالثا أمرهم فيه بالاستجابة لتعاليمه ، وحذرهم من الأقوال والأعمال التى تكون سبباً فى عذابهم ، وذكّرهم بجانب من مننه عليهم ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول .. ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف ، والاستجابة :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٤ .

الإجابة .. قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب [١]

أى : فلم يجبه عند ذاك مجيب .

وكان الإمام القرطبى يرى أن السين والتاء فى قوله : « استجيبوا » زائدتان .

ولعل الأحسن من ذلك أن تكون السين والتاء للطلب ، لأن الاستجابة هى الإجابة بنشاط وحسن استعداد .

وقوله ﴿ لما يحييكم ﴾ أى لما يصلحكم من أعمال البر والخير والطاعة ، التى توصلكم متى تمسكتم بها إلى الحياة الكريمة الطيبة فى الدنيا ، وإلى السعادة التى ليس بعدها سعادة فى الآخرة .

وهذا المعنى الذى ذكرناه لقوله ﴿ لما يحييكم ﴾ أدق مما ذكره بعضهم من أن المراد بما يحييهم القرآن ، أو الجهاد ، أو العلم ... إلخ .

وذلك ، لأن أعمال البر والخير والطاعة تشمل كل هذا .

والمعنى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ بالله حق الإيمان ، ﴿ استجيبوا لله وللرسول ﴾ عن طواعية واختيار ، ونشاط وحسن استعداد ﴿ إذا دعاكم ﴾ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿ لما يحييكم ﴾ أى : إلى ما يصلح أحوالكم ، ويرفع درجاتكم ، من الأقوال النافعة ، والأعمال الحسنة ، التى بالتمسك بها تحيون حياة طيبة : وتظفرون بالسعادتين : الدنيوية والأخروية .

والضمير فى قوله ﴿ دعاكم ﴾ يعود إلى رسول الله - ﷺ - لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله ، ولأن فى الاستجابة له استجابة لله - تعالى -

قال - سبحانه - : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾[٢] .

وقوله : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تحذير لهم من الغفلة عن ذكر الله ، وبعث لهم على مواصلة الطاعة له - سبحانه - .

وقوله : ﴿ يحول ﴾ من الحول بين الشىء والشىء ، بمعنى الحجز والفصل بينهما .

قال الراغب : أصل الحول تغير الشىء وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل حال الشىء يحول حولا واستحال تهيأ لأن يحول : وباعتبار الانفصال قيل حال بينى وبينك كذا ... أى فصل .. » [٣] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٨٩ .
(٢) سورة النساء . الآية ٨٠ .
(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ١٣٧ .

هذا ، وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال متعددة أهمها قولان :

أما القول الأول فهو أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه - كما يقول ابن جرير - : أنه - سبحانه - أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك شيئا من إيمان أو كفر ، أو أن يعى به شيئا ، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته ، وذلك أن الحول بين الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما ، وإذا حجز - جل ثناؤه - بين عبد وقلبه فى شيء أن يدركه أو يفهمه ، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيل ، وإذا كان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان .

وقول من قال : يحول بينه وبين عقله . وقول من قال : يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .. فالخبر على العموم حتى يخصصه ما يجب التسليم له ،[1] .

وقد رجح ابن جرير هذا القول بعد أن ذكر قبله بعض الأقوال الأخرى .

وقال ابن كثير - بعد أن لخص القول الذى رجحه ابن جرير - : وقد وردت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - يقول : إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : (اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك) .

وروى : الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه عن النواس بن سمعان الكلابى قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول : ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه »[2] .

أما القول الثانى فهو أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه - كما يقول الزمخشرى - « أنه - سبحانه - يميت المرء فتفوته الفرصة التى هو واجدها ، وهى التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليما كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله ،[3] .

أو - كما يقول الفخر الرازى - بعبارة أوضح : « أن المراد أنه - تعالى - يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه ، فإن الأجل يحول دون الأمل . فكأنه قال : بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع فى قلوبكم من توقع طول البقاء ، فإن ذلك غير موثوق به ،

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٨ - باختصار يسير -

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٠ .

وإنما حسن إطلاق لفظ القلب على الأمانى الحاصلة فى القلب ، لأن تسمية الشىء باسم ظرفه جائزة كقولهم : سال الوادى ، "[1] .

والذى نراه أن القول الثانى أولى بالقبول ، لأن الآية الكريمة ساقته لحض المؤمنين على سرعة الاستجابة للحق الذى دعاهم إليه رسوله ﷺ والذى باتباعه يحيون حياة طيبة ، وتذكيرهم بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، كما قال - تعالى - فى ختامها ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ .

وليست مسوقة لإثبات قدرة الله ، وأنه أملك لقلوب عباده منهم : وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء .

فالمعنى الذى ذكره ابن جرير - وتابعه عليه ابن كثير وغيره ، معنى وجيه فى ذاته ، إذ لا ينكر أحد أن الله مقلب القلوب ومالكها .. ولكن ليس مناسبا هنا مناسبة المعنى الذى ذكره الزمخشرى والرازى ، لأن الآية التى معنا والتى بعدها صريحتان فى دعوة المؤمنين إلى الاستجابة للحق قبل أن يفاجئهم الموت ، وقبل أن تحل بهم مصيبة لا تصيب الظالمين منهم خاصة .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ﴾ بعزيمة صادقة ، وسرعة فائقة ، ﴿ إذا دعاكم ﴾ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿ لما يحييكم ﴾ أى لما به تحيون حياة طيبة من الأقوال والأعمال الصالحة ﴿ واعلموا ﴾ علما يقينا ﴿ أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ أى يحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبه من شهوات الدنيا ومتعها : فكم من إنسان يؤمل أنه سيفعل كذا غدا ، وسيجمع كذا فى المستقبل ، وسيحصل على كذا قريبا .. ثم يحول الموت ويفصل بينه وبين آماله وأمانيه .. فبادروا إلى اغتنام الأعمال الصالحة من قبل أن يفاجئكم الموت .

وقوله : ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ تذييل قصد به تذكيرهم بأهوال يوم القيامة . والضمير فى قوله ﴿ وأنه ﴾ يعود إلى الله تعالى - أو هو ضمير الشأن . أى : وأنه - سبحانه - إليه وحده ترجعون لا إلى غيره ، فيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم ، ويجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جمعت بين الترغيب . فى العمل الصالح بسرعة ونشاط ، وبين الترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله .

ثم يؤكد - سبحانه - بعد ذلك ترهيبه لهم من التراخى فى تغيير المنكر فيقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤٨ - وقد ذكر بضعة أقوال غير هذا القول فراجعه إن شئت .

والفتنة : من الفتن . وأصله - كما يقول الراغب - : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار .

كما فى قوله - تعالى - ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أى : عذابكم . وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه نحو قوله - تعالى - : ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ . وتارة فى الاختيار نحو قوله - تعالى - ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ [1] .

والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوى ، كالأمراض ، والقحط ، واضطراب الأحوال ، وتسلط الظلمة ، وعدم الأمان .. وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التى تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب ، وإقرارهم للمنكرات ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والخطاب لجميع المؤمنين فى كل زمان ومكان .

فالمعنى : داوموا أيها المؤمنون على طاعة الله بقوة ونشاط ، واحذروا من أن ينزل بكم عذاب سيعم عند نزوله الأخيار والفجار والمحسنين والمسيئين .

وقوله ، ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ المراد منه الحث على لزوم الاستقامة خوفا من عقاب الله - تعالى - .

أى : واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ، وانتهك حرماته .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ لا تصيبن ﴾ لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر ، أو نهيا بعد أمر ، أو صفة لفتنة .

فإذا كان جواباً فالمعنى : إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم ... وإذا كانت نهيا بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً أو عقاباً ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله الجميع وليس من ظلم منكم خاصة .

فإن قلت : كيف جاز دخول النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟

قلت : لأن فيه معنى النهى - ومتى كان كذلك جاز إدخال النون المؤكدة - كما إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحنك . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [2] .

وقوله ﴿ خاصة ﴾ منصوب على الحال من الفاعل المستكن فى قوله ﴿ لا تصيبن ﴾ . ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف . والتقدير : إصابة خاصة .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧١ للراغب الأصفهانى .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢١١ - بتصريف يسير -

هذا ، وقد دلت الآية الكريمة على وجوب الإقلاع عن المعاصى ، ووجوب محاربة مرتكبيها ، فإن الأمة التى تشيع فيها المعاصى والمظالم والمنكرات .. ثم لا تجد من يحاربها ويعمل على إزالتها ، تستحق العقوبة جزاء سكوتها واستخذائها وجبنها .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى حق بعض الصحابة الذين اشتركوا فى واقعة الجمل فيما بعد .

ولكن هذا القول غير صحيح ؛ لأن الآية الكريمة تخاطب المؤمنين جميعاً فى كل زمان ومكان ، وأمرهم بالبعد عن المعاصى والمنكرات التى تفضى بهم إلى العذاب الدنيوى قبل الأخروى . وليست خاصة بفريق دون فريق .

لذا قال ابن كثير : والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عدى بن عميرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - تعالى - لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلاينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جرير بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى وهم أعز وأكثر ممن يعملون ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب »[(١)] .

وقال الإمام القرطبى : قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب .

ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله - ﷺ - فقالت له : يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » .

وفى صحيح الترمذى : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه ، أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

وفى صحيح البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى - ﷺ - قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا - أى اقترعوا - على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٩ - وهناك أحاديث أخرى ذكرها فى هذا فراجعها إن شئت .

ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة .

قال علماؤنا : فالفتنة إذا عمت هلك الكل وذلك عند ظهور المعاصى ، وانتشار المنكر وعدم التغيير . وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها .

روى ابن وهب عن مالك قال : تهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها .

واحتج بصنيع أبى الدرداء فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها .

فإن قيل : فقد قال الله - تعالى - ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وقال : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب ؟

فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكت عليه فكلهم عاص ؛ هذا بفعله وهذا برضاه ، وقد جعل الله فى حكمه الراضى بمنزلة العامل ؛ فانتظم فى العقوبة[1] .

وقال بعض العلماء : وذكر القسطلانى « أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذى يقع فى الدين بفعل المعاصى ، فلا يتحقق كون الإنسان كارها له ، إلا إذا تألم للخلل الذى يقع فى الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده . فكل من لم يكن بهذه الحالة ، فهو راض بالمنكر ، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار[2] .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالاستجابة له ونهاهم عن الوقوع فى المعاصى .. أخذ فى تذكيرهم بجانب من فضله عليهم فقال : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ... ﴾ .

أى : ﴿اذكروا﴾ يا معشر المؤمنين ﴿إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾ أى : وقت أن كنتم قلة مستضعفة فى أرض مكة تحت أيدى كفار قريش . أو فى أرض الجزيرة العربية حيث كانت الدولة لغيركم من الفرس والروم .

وقوله : ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أى : تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذا سريعا . لقوتهم وضعفكم . يقال خطفه - من باب تعب - أى : استلبه بسرعة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٩١ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٢٩٧٧ .

والمراد بالتذكر فى قوله : ﴿ اذكروا ﴾ أن يتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نعم الله، وأن يداوموا على شكرها حتى يزيدهم - سبحانه - من فضله .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف بمعنى وقت . و ﴿ أنتم ﴾ مبتدأ ، أخبر عنه بثلاثة أخبار بعده وهى ﴿ قليل ﴾ و﴿ مستضعفون ﴾ و﴿ تخافون ﴾ .

والمراد بالناس : كفار قريش ، أوهم وغيرهم من كفار العرب والفرس والروم .

وقوله : ﴿ فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات ﴾ بيان لما من به عليهم من نعم بعد أن كانوا محرومين منها .

أى : اذكروا وقت أن كنتم قلة ضعيفة مستضعفة تخشى - أن يأخذها أعداؤها أخذا سريعا ، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال ، وأبدلكم خيرا منها ، بأن ﴿ آواكم ﴾ إلى المدينة ، وألف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ فى غزوة بدر ، وقذف فى قلوب أعدائكم الرعب منكم ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى : ورزقكم من الغنائم التى أحلها لكم بعد أن كانت محرمة على الذين من قبلكم ، كما رزقكم - أيضا بكثير من المطاعم والمشارب الطيبة التى لم تكن متوفرة لكم قبل ذلك .

وقوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ تذييل قصد به حضهم على مداومة الشكر والطاعة لله - عز وجل - أى : نقلكم الله - تعالى - من الشدة إلى الرخاء ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الفقر إلى الغنى .. حتى تستمروا على طاعة الله وشكره ، ولا يشغلكم عن ذلك أى شاغل .

قال ابن جرير : قال قتادة فى قوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض .. ﴾ :

« كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس . فبالاسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله - تعالى - »[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الثلاثة قد جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير ... الترغيب

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٠ .

كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ... ﴾ .

والترهيب كما فى قوله - تعالى - : ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ... ﴾ .

والتذكير كما فى قوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ... ﴾ .

وبالترغيب فى الطاعات ، وبالترهيب من المعاصى ، وبالتذكير بالنعم ، ينجح الدعاة فى دعوتهم إلى الله .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء رابعا وخامسا إلى المؤمنين فقال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا ﴾ روايات منها :

ما جاء عن ابن عباس من أنها نزلت فى أبى لبابة حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة فقالوا له : يا أبالبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه . أى أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح فلا تنزلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماى - عن مكانهما - حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله .

ومنها ما جاء عن جابر بن عبد الله من أنها نزلت فى منافق كتب إلى أبى سفيان يطلعه على سر من أسرار المسلمين .

ومنها ما جاء عن السدى من أنها نزلت فى قوم كانوا يسمعون الشىء عن النبى - صلى الله

عليه وسلم - ثم يحدثون به المشركين ..[١] .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ؛ فإن الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو المعتمد عند الجماهير من العلماء .

وقوله ﴿ لا تخونوا ﴾ من الخون بمعنى النقص . يقال خونه تخويناً أى : نسبه إلى الخيانة ونقصه .

قال صاحب الكشاف : معنى الخون : النقص ، كما أن معنى الوفاء التمام . ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ؛ لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه . وقد استعير فقيل : خان الدلو الكرب - والكرب حبل يشد فى رأس الدلو - وخان المشتار السبب . والمشتار مجتنى العسل والسبب الحبل - لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له »[٢] .

والمقصود بخيانة الله : ترك فرائضه وأوامره التى كلف العباد بها ، وانتهاك حرماته التى نهى عن الاقتراب منها .

والمقصود بخيانة الرسول - ﷺ - : إهمال سننه التى جاء بها وأمرنا بالتقيد بتعاليمها .

والمقصود بالأمانات : الأسرار والعهود والودائع وغير ذلك من الشئون التى تكون بينهم وبين غيرهم مما يجب أن يصان ويحفظ .

والمعنى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ﴾ بأن تهملوا فرائضه ، وتتعدوا حدوده ، ولا تخونوا ﴿ الرسول ﴾ - ﷺ - ، بأن تتركوا سنته وتنصرفوا إلى غيرها ، وتخالفوا ما أمركم به وتجترحوا ما نهاكم عنه ، ولا تخونوا ﴿ أماناتكم ﴾ بأن تفشوا الأسرار التى بينكم ، وتنقضوا العهود التى تعاهدتم على الوفاء بها ، وتنكروا الودائع التى أودعها لديكم غيركم ، وتستبيحوا ما يجب حفظه من سائر الحقوق المادية والمعنوية ، فقوله : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ معطوف على قوله ﴿ لا تخونوا ﴾ .

وأعاد النهى للإشعار بأن كل واحد من المنهى عنه مقصود بذاته اهتماما به .

وقوله : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ الواو للحال ، والمفعول محذوف . أى . والحال أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله وللأمانات التى اؤتمن عليها ، فعليكم أن تتجنبوا الخيانة فى جميع صورها ؛ لتنالوا رضى الله ومثوبته .

---

(١) راجع تفسير بن جرير جـ ٩ ص ٢٢١ . وتفسير الفخر الرازى جـ٥ ص١٥١ وابن كثير جـ٢ ص٣٠٠.
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٣ .

ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعى الاقدام على الخيانة، نبه - سبحانه - إلى ذلك فقال : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون - أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، أى امتحان واختبار لكم من الله - تعالى - ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه .

أما قوى الإيمان فلا يشغله ماله وولده عن طاعة الله ، وأما ضعيف الإيمان فيشغله ذلك عن طاعة الله ، ويجعله يعيش حياته عبداً لأمواله ، ومطيعا لمطالب أولاده حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافية مع تعاليم دينه وآدابه .

وقال صاحب المنار : الفتنة هى الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه ، أو قبوله أو إنكاره .

وأموال الإنسان عليها مدار حياته ، وتحصيل رغائبه وشهواته ، ودفع كثير من المكاره عنه ، فهو يتكلف فى طلبها المشاق ، ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه فى القصد والاعتدال فى إنفاقها .

وأما الأولاد فحبهم - كما يقول الأستاذ الامام - ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم فى قلوب الأمهات والآباء ، فيحملهم على بذل كل ما يستطاع بذله فى سبيلهم .

روى أبو ليلى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا « الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة » . فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام ، وعلى الجبن ، وعلى البخل ، وعلى الحزن .

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى يكسب المال من وجوهه الحلال ، وإنفاقه فى وجوهه المشروعة .. واتقاء خطر الفتنة الثانية باتباع ما أوجبه الله على الآباء من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنبهم أسباب المعاصى والرذائل »[1] .

وقوله ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ تذييل قصد به ترغيب المؤمنين فى طاعة الله ، بعد أن حذرهم من فتنة المال والولد .

أى : واعلموا أن الله عنده أجر عظيم لمن آثر طاعته ورضاه على جمع المال وحب الأولاد ، فكونوا - أيها المؤمنون - من حزب المؤثرين لحب الله على حب الأموال والأولاد لتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٩٤ - بتصرف وتلخيص .

ثم ختم سبحانه - نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذى يهديهم إلى سبل الخير والفلاح فقال - سبحانه - ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

والفرقان فى كلام العرب - كما يقول ابن جرير - مصدر من قولهم فرقت بين الشىء والشىء أفرق بينهما فرقاً وفرقاناً - أى أفرق وأفصل بينهما .

وقد اختلف أهل التأويل فى العبارة عند تأويل قوله ﴿يجعل لكم فرقانا﴾ فقال بعضهم: يجعل لكم مخرجا . وقال بعضهم نجاة ، وقال بعضهم فصلا وفرقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم .. وكل ذلك متقارب المعنى ، وإن اختلفت العبارة .. » [1] .

وقال الآلوسى : ﴿ فرقانا ﴾ أى : هداية ونورا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل - كما روى عن ابن جريج وابن زيد - أو نصرا يفرق به بين الحق والباطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين - كما قال الفراء - أو نجاة فى الدارين - كما هو كلام السدى - أو مخرجا من الشبهات - كما جاء عن مقاتل - أوظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم - كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق - من بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح . وكل المعانى ترجع إلى الفرق بين أمرين . وجوز البعض من المحققين الجمع بينها » [2] .

ونحن مع هذا البعض من المحققين فى جواز الجمع بين هذه المعانى فيكون المعنى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله ﴾ بأن تصونوا أنفسكم عن كل مايغضبه، وتطيعوه فى السر والعلن ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ أى هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ونصرا تعلو به كلمتكم على كلمة أعدائكم ، ومخرجا من الشبهات التى تقلق النفوس ، ونجاة مما تخافون ، .. وفضلا عن كل ذلك فإنه - سبحانه - يكفر عنكم سيئاتكم ، أى يسترها عليكم فى الدنيا ، ﴿ ويغفر لكم ﴾ أى : ويغفر لكم يوم القيامة ما فرط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه وقوله : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل قصد به التعليل لما قبله ، والتنبيه على أن ماوعد به - سبحانه - المؤمنين على تقواهم إنما هو تفضل منه لهم ، فهو - سبحانه - صاحب العطاء الجزيل ، والخير العميم . لمن أطاعه واتقاه ، وصان نفسه عما يسخطه ويغضبه .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد رتب على تقواه وعلى الخوف منه نعما عظمى ، ومننا كبرى ، وأى نعم يتطلع إليها المؤمنون أفضل من هداية القلوب وتكفير الخطايا والذنوب ؟ .

اللهم لا تحرمنا من هذه النعم والمنن بفضلك وإحسانك ، فأنت وحدك صاحب العطاء العميم ، وأنت وحدك ذو الفضل العظيم ، وأنت وحدك على كل شىء قدير .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٤ - بتصرف وتلخيص .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٩٦ .

وبعد : فنحن - أخى القارىء - لو استعرضنا سورة الأنفال من مطلعها إلى هنا ، لرأيناها تحدثنا - على سبيل الإجمال - عن :

(أ) أحكام الأنفال ، وأن مرد الحكم فيها إلى الله ورسوله ..

(ب) وعن الصفات الكريمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون لينالوا مغفرة الله ورضوانه .

(جـ) وعن أحوال بعض المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وكانوا يفضلون العير على النفير . ولكن - الله تعالى - بين لهم أن الخير فيما قدره لا فيما يفضلون .

(د) وعن النعم والبشارات وأسباب النصر التى أمد الله بها المؤمنين فى بدر والتى كان من آثارها ارتفاع شأنهم ، واندحار شأن أعدائهم .

(هـ) وعن التوجيهات الحكيمة التى أعقبت تلك النداءات الخمسة التى نادى الله بها المؤمنين ، فقد أمرهم - سبحانه - بالثبات فى وجه أعدائهم ، وبالطاعة التامة له ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالاستجابة السريعة للحق الذى جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. ونهتهم عن التولى يوم الزحف؛ وعن التشبه بمن قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وعن إقرار المنكرات والبدع والرضا بها ، وعن خيانة الله والرسول ، وعن خيانة الأمانات التى تجب صيانتها والمحافظة عليها .

ووعدهم - سبحانه - بهداية القلوب ، وتكفير الخطايا والذنوب ، متى اتقوه ووقفوا عند حدوده .

(و) والآن ، وبعد هذاالتوجيه الحكيم ، والتأديب القويم ، والتعليم النافع والتذكير بالنعم ، والتحذير من النقم .. ماذا نرى ؟

نرى السورة الكريمة تأخذ فى تذكير المؤمنين بجوانب من جرائم أعدائهم فتقص عليهم ما كان من هؤلاء الأعداء من تآمر على حياة رسولهم - ﷺ - ومن تهكم بالقرآن الكريم وادعاء أنهم فى استطاعتهم أن يأتوا بمثله لو شاءوا ، ومن استهزاء بتعاليم الإسلام ، وسخرية بشعائره وعباداته ، ومن إنفاق لأموالهم ليصدوا الناس عن الطريق للحق ، ومن إصرار على العناد والجحود جعلهم يستعجلون العذاب .

ومع كل هذا فالسورة الكريمة تفتح الباب فى وجوه هؤلاء الجاحدين المعاندين ، وتأمر المؤمنين أن ينصحوهم بالدخول فى دين الله .. فإذا لم يستجيبوا لنصحهم فعليهم أن يقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

استمع - أخى القارىء - بتدبر إلى الآيات التى تحكى كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ
فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ

كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قال ابن كثير : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ أنه قال : تشاورت قريش ليلة بمكة - فى شأن النبى - صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر ، وأن غيرهم قد آمن به - فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق . وقال بعضهم بل اقتلوه . وقال بعضهم بل أخرجوه . ثم اتفقوا أخيرا على قتله - ، فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه ، فأمر النبى - ﷺ - عليا أن يبيت مكانه ففعل وخرج النبى - ﷺ - حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى - ﷺ - فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليا قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى . فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار ، فرأو على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال .

وقد ذكر ابن كثير وغيره روايات أخرى تتعلق بهذه الآية ، إلا أننا نكتفى بهذه الرواية ، لإفادتها بالمطلوب فى موضوعنا ، ولأن غيرها قد اشتمل على أخبار أنكرها بعض المحققين ، كما أنكرها ابن كثير نفسه [1] .

وقوله : ﴿ وإذ يمكر .. ﴾ تذكير من الله - تعالى - لنبيه وللمؤمنين ببعض نعمه عليهم ، حيث نجى نبيه - ﷺ - من مكر المشركين حين تآمروا على قتله وهو بينهم بمكة .

قال ابن جرير : أنزل الله على النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة سورة الأنفال ، يذكره نعمه عليه - ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا .. الآية ﴾ [2] .

وقوله ﴿ يمكر ﴾ من المكر ، وهو - كما يقول الراغب - صرف الغير عما يقصده بحيلة

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٣ وتفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٨ .

وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بمكره فعلا جميلا ومنه قوله - تعالى - ﴿ والله خير الماكرين ﴾ . ومكر مذموم ، وهو أن يتحرى بمكره فعلا قبيحا ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا .. ﴾ وقال - سبحانه وتعالى - فى الأمرين : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ [١] .

وقوله : « ليثبتوك » أى ليحبسوك . يقال أثبته إذا حبسته .

والمعنى : واذكر - يامحمد - وقت أن نجيتك من مكر أعدائك ، حين تآمروا عليك وأنت بين اظهرهم فى مكة ، لكى ﴿ يثبتوك ﴾ أى : يحبسوك فى دارك ، فلا تتمكن من لقاء الناس ومن دعوتهم إلى الدين الحق ﴿ أو يقتلوك ﴾ بواسطة مجموعة من الرجال الذين اختلفت قبائلهم فى النسب ، حتى يتفرق دمك فيهم فلا تقدر عشيرتك على الأخذ بثأرك من هذه القبائل المتعددة .. ﴿ أو يخرجوك ﴾ أى : من مكة منفيا مطاردا حتى يحولوا بينك وبين لقاء قومك .

وقوله : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ بيان لموضع النعمة والمنة ، أى : والحال أن هؤلاء المشركين يمكرون بك وبأتباعك المكر السىء ، والله - تعالى - يرد مكرهم فى نحورهم ، ويحبط كيدهم ، ويخيب سعيهم ، ويعاقب عليه عقابا شديداً ، ويدبر أمرك وأمر أتباعك ، ويحفظكم من شرورهم ، فهو - سبحانه - أقوى الماكرين . وأعظمهم تأثيرا ، وأعلمهم بما يضر منه وما ينفع .

قال الآلوسى : قوله ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ أى : برد مكرهم ويجعل وخامته عليهم ، أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين ، وذلك بأن أخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما يشيب منه الوليد .

﴿ والله خير الماكرين ﴾ إذ لا يعتد بمكرهم عند مكره - سبحانه - . وإطلاق هذا المركب الإضافى عليه - تعالى - إن كان باعتبار أن مكره - سبحانه - أنفذ وأبلغ تأثيرا فالإضافة للتفضيل ، لأن لمكر الغير - أيضا - نفوذا أو تأثيراً فى الجملة .. وإن كان باعتبار أنه - سبحانه - لا ينزل إلا الحق ولا يصيب إلا ما يستوجب الممكور به ، فلا شركة لمكر الغير فيه ، وتكون الإضافة حينئذ للاختصاص ، لانتفاء المشاركة .. » [٢] .

هذا والصورة التى يرسمها قوله - تعالى - : ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ صورة عميقة التأثير ، ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من روائهم محيط ، ويمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٧١ للراغب الأصفهانى - بتصريف يسير .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٩٨ .

إنها صورة ساخرة ، وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة .. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة .. قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شيء محيط ؟

والتعبير القرآنى يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة فى التصوير ، فيهز بها القلوب ، ويحرك بها أعماق الشعور »[1] .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جانبا من الدعاوى الكاذبة التى تفوه بها المشركون فقال - تعالى - ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن القائل لهذا القول : النضر بن الحارث ؛ فإنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم .. ولما قدم مكة ووجد رسول الله - ﷺ - يتلو القرآن قال للمشركين : لو شئت لقلت مثل هذا ، وكان - ﷺ - إذا قام من مجلس ، جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث المشركين بأخبار ملوك الفرس والروم ، وغيرهم ثم قال : أينا أحس قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله منه يوم بدر ، فقد أسره المقداد بن عمرو ، فأمر النبى - ﷺ - بضرب عنقه وقال فيه : « إنه كان يقول فى كتاب الله - عز وجل - ما يقول »[2] .

وأسند - سبحانه - قول النضر إلى جميع المشركين ، لأنهم كانوا راضين بقوله ، ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية .

والأساطير - كما يقول ابن جرير - : جمع أسطر ، وهو جمع الجمع ، لأن واحد الأسطر سطر . ثم يجمع السطر : أسطر وسطور ، ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر . وقد كان بعض أهل العربية يقول : واحد الأساطير : أسطورة - كأحاديث وأحدوثة[3] .

والمراد بها : تلك القصص والحكايات التى كتبها الكاتبون عن القدامى ، والتى يغلب عليها طابع الخرافة والتخيلات التى لا حقيقة لها .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذب والتمادى فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الله ﴿ قالوا ﴾ بصفاقة ووقاحة : ﴿ قد سمعنا ﴾ أى : قد سمعنا ماقرأته علينا - يا محمد - ووعيناه ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ أى لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التى سطرها بعضهم عنهم وليس من عند الله - تعالى -

---

(١) من « فى ظلال القرآن » جـ ٩ ص ٨٤٤ للأستاذ سيد قطب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٤ بتصرف وتلخيص .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٣١ .

ولا شك أن قولهم هذا يدل على تعمدهم الكذب على أنفسهم وعلى الناس فإن هذا القرآن - الذى زعموا أنهم لو شاءوا لقالوا مثله - قد تحداهم فى نهاية المطاف أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وانقلبوا خاسرين .

والذى نعتقده أن قولهم هذا ، ماهو إلا من قبيل الحرب النفسية التى كانوا يشنونها على الدعوة الإسلامية ، بقصد تضليل البسطاء ، والوقوف فى وجه تأثير القرآن فى القلوب ، ومحاولة طمس معالم الحق ولو إلى حين .

ولكنهم لم يفلحوا . فإن نور الحق لاتحجبه الشبهات الزائفة ، ولا يعدم الحق أن يجد له أنصاراً حتى من أعدائه ، يكفى هنا أن نستشهد بما قاله الوليد بن المغيرة فى وصف القرآن الكريم : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن اسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر .. ومايقول هذا بشر » .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا .. ﴾ : نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة ، فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه، مع فرط أنفتهم، واستنكافهم أن يغلبوا فى باب البيان خاصة ... » [1] .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن رذائل مشركى قريش ، فتحكى لونا عجيبا من ألوان عنادهم ، وجحودهم للحق . فتقول : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ..

وقائل هذا القول : النضر بن الحارث صاحب القول السالف ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا .. ﴾ ذكر ذلك عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير .

وأخرج البخارى عن أنس بن مالك أن قائل ذلك : أبو جهل بن هشام . وأخرجه ابن جرير عن ابن رومان ومحمد بن قيس أن قريشا قال بعضها لبعض : أأكرم الله محمدا - ﷺ - من بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء [2] .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا بإنكار أن القرآن من عند الله ، وأن محمدا قد جاءهم بالحق .. بل أضافوا إلى ذلك قولهم : اللهم إن كان هذا الذى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٦ وقوله : « نفاجة » أى : تكبر ، والصلف:الغرور ومجاوزة الحد . والراعدة:السحابة وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يعمل شيئًا .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ٩٩ .

جاءنا به محمد من قرآن وغيره هو الحق المنزل من عندك ، فعاقبنا على إنكاره والكفر به ، بأن تنزل علينا حجارة من السماء تهلكنا . أو تنزل علينا عذابا أليما يقضى علينا .

قال الجمل: قوله: ﴿هو الحق﴾ قرأ العامة «الحق» بالنصب على أنه خبر الكون ولفظ ﴿ هو ﴾ للفصل . وقرأ الأعمش وزيد بن على « الحق » بالرفع ووجهها ظاهر برفع لفظ «هو» على الابتداء، والحق خبره، والجملة خبر الكون[1].

وفى إطلاقهم ﴿ الحق ﴾ على ما جاء به الرسول ﷺ ، وجعله من عند الله ؛ تهكم بمن يقول ذلك سواء أكان هذا القائل - رسول الله - ﷺ - أو المؤمنين .

وأل فيه للعهد : أى الحق الذى ادعى محمد أنه جاء به من عند الله .

وقوله : ﴿ من السماء ﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿ حجارة ﴾ . وفائدة هذا الوصف الدلالة على أن المراد بها حجارة معينة مخصوصة لتعذيب الظالمين .

قال صاحب الكشاف : وهذا أسلوب من الجحود بليغ . يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . ومرادهم نفى كونه حقا ، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا ، فكان تعليق العذاب بكونه حقا ، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال فى قولك : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة من السماء .

فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ من السماء ﴾ والأمطار لا تكون إلا منها ؟

قلت : كأنهم يريدون أن يقولوا : فأمطر علينا السجيل وهى الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل .

وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة . فقال الرجل : أجهل من قومى قومك ، فقد قالوا لرسول الله - ﷺ - حين دعاهم إلى الحق : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ... ﴾ ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له [2] .

ولقد كان هذا الرجل حكيما فى رده على معاوية ، لأنه كان الأولى بأولئك المشركين أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه .. ولكن العناد الجامح الذى استولى عليهم جعلهم يؤثرون الهلاك على الإذعان للحق ويفضلون عبادة الأصنام على اتباع محمد - ﷺ - الذى دعاهم إلى عبادة الله وحده .. وهكذا النفوس عندما تنغمس فى الأحقاد وتتمادى فى الجحود . وتنقاد للأهواء والشهوات ، وتأخذها العزة بالإثم . ترى الباطل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٦ .

حقا ، والحق باطلا ، وتؤثر العذاب وهى سادرة فى باطلها ، على الخضوع للحق والمنطق والصواب .

ثم تعقب السورة على هذا الدعاء الغريب الذى حكته عن مشركى مكة ، فتبين الموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم فتقول : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

أى : وما كان الله مريداً لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك ، وأنت مقيم فيهم - يا محمد - بمكة ، فقد جرت سنته - سبحانه - ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين .

واللام فى قوله ﴿ ليعذبهم ﴾ لتأكيد النفى ، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول - ﷺ - بين أظهرهم غير مستقيم فى الحكمة .

والمراد بالاستغفار فى قوله : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ استغفار من بقى بينهم من المؤمنين المستضعفين الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة بعد أن هاجر منها النبى - ﷺ - والمؤمنون .

أى : ما كان الله مريداً لتعذيبهم وأنت فيهم - يا محمد - وما كان - أيضا - مريداً تعذيبهم وبين أظهرهم بمكة من المؤمنين المستضعفين من يستغفر الله ، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرتها واللحاق بك فى المدينة .

قالوا : ويؤيد أن هذا هو المراد بالاستغفار قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (١) ﴾ أى : لو تميز المؤمنون عن الكافرين لعذبنا الذين كفروا عذابا أليما .

وأسند - سبحانه - الاستغفار إلى ضمير الجميع ، لوقوعه فيما بينهم ، ولتنزيل ما صدر عن البعض منزلة ما صدر عن الكل . كما يقال : قتل أهل بلدة كذا فلانا والمراد بعضهم .

ويرى بعضهم أن المراد بالاستغفار المذكور : استغفار الكفرة أنفسهم كقولهم : غفرانك . فى طوافهم بالبيت ، أو ما يشبه ذلك من معانى الاستغفار وكأن هذا البعض يرى أن مجرد طلب المغفرة منه - سبحانه - يكون ما نعا من عذابه ولو كان هذا الطلب صادرا من الكفرة .

ويرجح ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ وهم يستغفرون ﴾ نفى الاستغفار عنهم فقد قال بعد أن ذكر بضعة آراء :وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب قول من قال : تأويله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يامحمد ، وبين أظهرهم مقيم ، حتى أخرجك من بين أظهرهم ، لأنى لا أهلك قرية وفيها نبيها ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم وكفرهم ، ولكنهم

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

لا يستغفرون من ذلك بل هم مصرون عليه ، فهم للعذاب مستحقون ... »[1] .

قال بعض المحققين : والقول الأول أبلغ لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

ثم قال : روى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - أنزل الله على أمَانَين لأمتى « وما كان الله ليعذبهم ... » الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامَة » .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا مارواه الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبى سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله - تعالى - فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى »[2] .

ثم بين - سبحانه - بعض الجرائم التى ارتكبها المشركون ، والتى تجعلهم مستحقين لعذاب الله ، فقال - تعالى - : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

والمعنى : وأى شىء يمنع من عذاب مشركى قريش بعد خروجك - يا محمد - وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم ؟ إنه لا مانع أبدا من وقوع العذاب عليهم وقد وجد مقتضيه منهم ، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد .

فالاستفهام فى قوله ﴿ وما لهم .. ﴾ إنكارى بمعنى النفى . أى : لا مانع من تعذيب الله لهم وقوله ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم الشنيعة ، أى : لا مانع يمنع من تعذيبهم : وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام ، ومن زيارته . ومن مباشرة عباداتهم عنده ..؟ إنهم لابد أن يعذبوا على هذه الجرائم .

ولقد أوقع الله بهم عذابه فى الدنيا : ومن ذلك ما حدث لهم يوم بدر من قتل صناديدهم ومن أسر وجهائهم .

وأما عذابهم فى الآخرة فهو أشد وأبقى من عذابهم فى الدنيا .

وقوله : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ رد على ما كانوا يقولونه بالباطل : نحن ولاة البيت الحرام ، فلنا أن نصد من نشاء عن دخوله ، ولنا أن نبيح لمن نشاء دخوله .

أى : إن هؤلاء المشركين ما كانوا فى يوم من الأيام أهلا لولاية البيت الحرام بسبب شركهم وعداوتهم - لله تعالى - رب هذا البيت .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٦ .

وقوله ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ بيان للمستحقين لولاية البيت الحرام ، بعد نفيها عن المشركين .

أى : إن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا لولاية البيت الحرام ، وليسوا أهلا لأن يكونوا أولياء لله - تعالى - بسبب كفرهم وجحودهم ، وإنما المستحقون لذلك هم المتقون الذين صانوا أنفسهم عن الكفر وعن الشرك وعن كل ما يغضب الله ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم وتماديهم فى الجحود والضلال .

وقد جاءت جملة ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ مؤكدة بأقوى ألوان التأكيد ، لنفى كل ولاية على البيت الحرام سوى ولا يتهم هم .

ونفى - سبحانه - العلم عن أكثر المشركين ، لأن قلة منهم كانت تعلم أنه لا ولاية لها على المسجد الحرام ولكنها كانت تجحد ذلك عناداً وغروراً . أو أن المراد بالأكثر الكل ، لأن للأكثر حكم الكل فى كثير من الأحكام ، كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزلة العدم .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان ضلال هؤلاء المشركين وجحودهم فقال : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفرون ، فكان ذلك عبادة فى ظنهم .

والمكاء : الصفير . يقال مكا يمكو مكوا ومكاء إذا صفر .

والتصدية : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدية إذا صفق .

قال قتادة : المكاء : ضرب بالأيدى ، والتصدية : الصياح .[1]

والمعنى : أن هؤلاء المشركين لم تكن صلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيقا وتصفيراً ، وهرجا ومرجا لاوقار فيه ، ولا استشعار لحرمة البيت ، ولا خشوع لجلالة الله - تعالى - ، وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ولحرصهم على أن يسيئوا إلى النبى - ﷺ - وهو يقرأ القرآن ، أو وهو يطوف بالبيت ، أو وهو يؤدى شيئا من شعائر الإسلام وعباداته . فقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء ليمنعوا الناس من سماعه . قال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[2] .

وروى ابن جرير أن ابن عمر حكى فعلهم ، فصفر ، وأمال خده وصفق بيديه .

وقال مجاهد إنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبى - ﷺ - صلاته .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٤٠ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبى - ﷺ - فى الطواف يستهزئون به ، يصفرون ويصفقون [١] .

وقال الفخر الرازى : فإن قيل المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة فكيف جاز استثناؤهما من الصلاة ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من جنس الصلاة فخرج هذا الاستثناء على حسب ، معتقدهم .

الثانى : أن هذا كقولك : وددت الأمير فجعل جفائى صلتى . أى : أقام الجفاء مقام الصلة فكذا هنا .

الثالث : الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له . كما تقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء . يريد من كان السخاء عيبه فلا عيب له [٢] .

وقوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وعيد لهم على كفرهم وجحودهم ، واستهزائهم بشعائر الله .

أى : فذوقوا - أيها الضالون - العذاب الشديد بسبب كفركم وعنادكم واستهزائكم بالحق الذى جاءكم به محمد - ﷺ - من عند الله ، ثم حكى - سبحانه - ما كانوا يفعلونه من إنفاق أموالهم لا فى الخير ولكن فى الشرور والآثام وتوعدهم على ذلك بسوء المصير فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون .. ﴾ .

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما ذكره محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلُّهم - أى جيشهم المهزوم - إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أميةفى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم فى بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا . ففعلوا . قال : ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .. ﴾ الآية [٣] .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، استأجر يوم غزوة أحد ألفين من الأحابيش من بنى كنانة ، فقاتل بهم النبى - ﷺ - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٤٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٠ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٧ .

وروى عن الكلبى والضحاك ومقاتل انها نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش .. كان كل واحد منهم يطعم الناس كل يوم عشر جزر[1] .

قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا .

أى : أن الآية الكريمة تتناول بوعيدها كل من يبذل أمواله فى الصد عن سبيل الله ، وفى تأييد الباطل ومعارضة الحق .

المعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم ﴿ ينفقون أموالهم ﴾ لافى جوه الخير ، وإنما ينفقونها ﴿ ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أى : ينفقونها ليمنعوا الناس عن الدخول فى الدين الذى يوصلهم إلى رضا الله وإلى طريقه القويم .

واللام فى قوله : ﴿ ليصدوا ﴾ لام الصيرورة ، ويصح أن تكون للتعليل ؛ لأن غرضهم منع الناس عن الدخول فى دين الله الذى جاء به النبى - ﷺ - ، والذى يرونه ديناً مخالفاً لما كان عليه الآباء والأجداد فيجب محاربته فى زعمهم .

وقوله : ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ... ﴾ بيان لما سيؤول إليه أمرهم فى الدنيا من الخيبة والهزيمة والندامة .

أى : فسينفقون هذه الأموال فى الشرور والعدوان ، ثم تكون عاقبة ذلك حسرة وندامة عليهم ، لأنهم لم يصلوا - ولن يصلوا - من وراء إنفاقها إلى ما يبغون ويؤملون . وفضلا عن كل هذا فستكون نهايتهم الهزيمة والإذلال فى الدنيا ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يجعل النصر فى النهاية لأتباع الحق لالأتباع الباطل .

وقوله : ﴿ فسينفقونها ﴾ خبر إن فى قوله ﴿ إن الذين كفروا .. ﴾ واقترن الخبر بالفاء لتضمن المبتدأ الموصول مع صلته معنى الشرط ، فصار الخبر بمنزلة الجزاء بحسب المعنى .

وفى تكرير الإنفاق فى شبه الشرط والجزاء ، إشعار بكمال سوء إنفاقهم ، حيث إنهم لم ينفقوا أموالهم فى خير أو ما يشبه الخير ، وإنما أنفقوها فى الشرور المحضة .

وجاء العطف بحرف ﴿ ثم ﴾ للدلالة على البون الشاسع بين ما قصدوه من نفقتهم وبين ما آل ويئول إليه أمرهم . فهم قد قصدوا بنفقتهم الوقوف فى وجه الحق والانتصار على المؤمنين .. ولكن هذا القصد ذهب أدراج الرياح ، فقد ذهبت أموالهم سدى ، وغلبوا المرة بعد المرة ، وعاد المؤمنون إلى مكة فاتحين ظافرين بعد أن خرجوا منها مهاجرين .

وقوله : ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان حسرتهم وهزيمتهم فى الدينا .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٤٥ .

أى : أن هؤلاء الكافرين ستكون عاقبة إنفاقهم لأموالهم الحسرة والهزيمة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فسيكون مصيرهم الحشر والسوق إلى نار جهنم لا إلى غيرها .

وقوله : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم... ﴾ بيان لحكمته - سبحانه - فى هزيمة الكافرين وحشرهم إلى جهنم .

وقوله : ﴿ فيركمه ﴾ أى : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض يقال : ركم الشىء يركمه ، إذا جمعه وألقى بعضه على بعضه . وارتكم الشىء وتراكم أى : اجتمع .

والمعنى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل من خذلان الكافرين وحشرهم إلى جهنم ، ومن تأييد المؤمنين وفوزهم برضوانه ، ليتميز الفريق الخبيث وهو فريق الكافرين ، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين ، فإذا ما تمايزوا جعل - سبحانه - الفريق الخبيث منضما بعضه على بعض ، فيلقى به فى جهنم جزاء خبثه وكفره . واللام فى قوله ﴿ ليميز ﴾ متعلقة بقوله ﴿ يغلبون ﴾ أو بقوله ﴿ يحشرون ﴾ ويجوز أن يكون المراد بالخبيث ما أنفقه الكافرون من أموال للصد عن سبيل الله ، وبالطيب ما أنفقه المؤمنون من أموال لإعلاء كلمة الله .

وعليه تكون اللام فى قوله ﴿ ليميز ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ أى : أنه - سبحانه - يميز هذه الأموال بعضها من بعض ، ثم يضم الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقى بها وبأصحابها فى جهنم .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ فيركمه جميعاً ﴾ تعبير مؤثر بليغ ، لأنه يصور الفريق الخبيث كأنه لشدة تزاحمه وانضمام بعضه إلى بعض شىء متراكم مهمل ، يقذف به فى النار بدون اهتمام أو اعتبار .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ يعود إلى هذا الفريق الخبيث ، أى : أولئك الكافرون الذين أنفقوا أموالهم فى الصد عن سبيل الله هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم .

وبعد كل هذا التهديد والوعيد للكافرين .. يوجه - سبحانه - خطابه إلى نبيه - ﷺ - يأمره فيه أن يبلغهم حكم الله إذا ما انتهوا عن كفرهم ، كما يأمر المؤمنين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هى العليا ، فيقول - سبحانه - : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ .

أى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، من أهل مكة وغيرهم ، قل لهم : ﴿ إن ينتهوا ﴾ عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ من كفرهم ومعاصيهم ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى قتالك ويستمروا فى ضلالهم وكفرهم وطغيانهم ، انتقمنا منهم ،

ونصرنا المؤمنين عليهم ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ على ذلك .

أى : فقد مضت سنة الله - تعالى - فى الأولين ، وسنته لا تتخلف فى أنه - سبحانه - يعذب المكذبين بعد إنذارهم وتبليغهم دعوته ، وينصر عباده المؤمنين وينجيهم ويمكن لهم فى الأرض . وقد رأى هؤلاء المشركون كيف كانت عاقبة أمرهم فى بدر ، وكيف أهلك - سبحانه - الكافرين من الأمم قبلهم .

وجواب الشرط لقوله ﴿وإن يعودوا﴾ محذوف والتقدير: وإن يعودوا ننتقم منهم. وقوله ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ تعليل للجواب المحذوف .

قال الآلوسى : قوله ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ أى عادة الله الجارية فى الذين تحزبوا على الأنبياء ، من نصر المؤمنين عليهم وخذلانهم وتدميرهم . وأضيفت السنة إليهم لما بينهما من الملابسة الظاهرة . ونظير ذلك قوله - سبحانه - ﴿ سنة من قد أرسلنا ﴾ فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته لقوله - سبحانه - ﴿ ولا تجد لسنتنا تبديلا ﴾ باعتبار جريانها على أيديهم . ويدخل فى الأولين الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر .

والآية حث على الإيمان وترغيب فيه .. واستدل بها على أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إتلاف مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله فى المرتد إذا تاب لعموم الآية ... »[1] .

وقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .. ﴾ أمر من الله - تعالى - للمؤمنين بقتال الكافرين إذا ما استمروا فى كفرهم وطغيانهم .

والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما استمر أولئك الكافرون فى كفرهم وعدوانهم ، أن تقاتلوهم بشدة وغلظة ، وأن تستمروا فى قتالهم حتى تزول صولة الشرك ، وحتى تعيشوا أحرارا فى مباشرة تعاليم دينكم ، دون أن يجرؤ أحد على محاولة فتنتكم فى عقيدتكم أو عبادتكم .. وحتى تصير كلمة الذين كفروا هى السفلى .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وقاتلوهم .. ﴾ معطوف على قوله ﴿ قل للذين كفروا ﴾ . ولكن لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبى وحده جاء بالإفراد . ولما كان الغرض من الثانى تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا جميعا »[2] .

وقوله ﴿ فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ أى : فإن انتهوا عن كفرهم وعن معاداتكم ، فكفوا أيديكم عنهم، فإن الله- تعالى- لا يخفى عليه شىء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٤٤ .

وقوله ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين بالنصر والتأييد .

أى : وإن أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر والطغيان ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أى : ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بولايته ونصرته ، فهو - سبحانه - ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ لأنه لا يضيع من تولاه ، ولا يهزم من نصره .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد فتحت الباب للكافرين حتى يفيئوا إلى رشدهم ، وينتهوا عن كفرهم ، وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك غفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم .. أما إذا استمروا فى كفرهم ومعاداتهم للحق ، فقد أمر الله عباده المؤمنين بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ..

أى أن القتال فى الإسلام شرعه الله - تعالى - من أجل إعلاء كلمته ومن أجل رفع الأذى والفتنة والعدوان عمن يعتنقون دينه وشريعته .

هذا ، وقد ساق ابن كثير عند تفسيره الآيات جملة من الأحاديث التى تشهد بأن القتال فى الإسلام إنما شرعه الله - تعالى - لإعلاء كلمته ، وليس لأجل الغنيمة أو السيطرة على الغير .. وأنه لا يجوز لمسلم أن يقتل إنسانا بعد نطقه بالشهادتين . فقال - رحمه الله - : وقوله - تعالى - ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .. ﴾ .

روى البخارى عن ابن عمر أن رجلا جاءه - فى فتنة ابن الزبير - فقال له يا أبا عبدالرحمن ، ألا تصنع ما ذكره الله فى كتابه ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا...﴾ الآية [1] . فما يمنعك من القتال ؟ فقال يا ابن أخى لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلى من أن أعير بالآية التى تقول : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها .. ﴾ الآية [2] .

فقال الرجل: فإن الله يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ فقال ابن عمر: « قد فعلنا على عهد رسول الله - ﷺ - إذ كان الإسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن فى دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ..

وعن سعيد بن جبير قال : خرج إلينا ابن عمر فقال له قائل : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال له ابن عمر وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد - ﷺ - يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك .

وفى رواية أنه قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٩ . (٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .

ثم قال ابن كثير : وقوله ﴿ فإن انتهوا ﴾ أى: بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ ..

وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال الرجل لاإله إلا الله ، فضربه فقتله فذكر ذلك للرسول - ﷺ - فقال لأسامة : أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ فكيف تصنع « بلا إله إلا الله » يوم القيامة ؟ فقال : يارسول الله إنما قالها تعوذا فقال . هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ، قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ(١) .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مكر الكافرين وعن دعاويهم الكاذبة ، وعن وجوب مقاتلتهم إذا ما استمروا فى طغيانهم وعدوانهم .. بعد كل ذلك بين - سبحانه - للمؤمنين كيفية قسمة الغنائم التى كثيرا ما تترتب على قتال أعدائهم ، فقال - تعالى - :

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

وقوله : ﴿ غنمتم ﴾ من الغنم بمعنى الفوز والربح يقال : غنم غنما وغنيمة إذا ظفر بالشىء قال القرطبى ما ملخصه : الغنيمة فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله - تعالى - : ﴿ غنمتم من شىء ﴾ مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر .

وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين : غنيمة وفيئا .

فالشىء الذى يناله المسلمون من عدوهم بالسعى وإيجاف الخيل والركاب يسمى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٨ - بتصرف وتلخيص .

والفىء مأخوذ من فاء يفىء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف . كخراج الأرضين ، وجزية الجماجم[١] .

والمعنى الاجمالى للآية الكريمة : ﴿واعلموا﴾ -أيها المسلمون- ﴿أن ما غنمتم من شىء﴾ أى : ما أخذتموه من الكفار قهراً ﴿ فأن لله ﴾ الذى منه - سبحانه - النصر المتفرع عليه الغنيمة ﴿ خمسه ﴾ أى خمس ما غنمتموه شكرا له على هذه النعمة ﴿ وللرسول ﴾ الذى هو سبب فى هدايتكم ﴿ ولذى القربى ﴾ أى : ولأصحاب القرابة من رسول الله - ﷺ - والمراد بهم على الراجح بنو هاشم وبنو المطلب .

﴿ واليتامى ﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا .

﴿ والمساكين ﴾ وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر الذى نفد ماله وهو فى الطريق قبل أن يصل إلى بلده .

وقوله ﴿واعلموا﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة..﴾ الخ و﴿ ما ﴾ فى قوله : ﴿ أن ما غنمتم ﴾ موصولة والعائد محذوف .

وقوله : ﴿ من شىء ﴾ بيان الموصول محله النصب على أنه حال من العائد المقدر .

أى : أن ما غنمتموه من شىء سواء أكان هذا الشىء قليلا أم كثيرا ﴿ فأن لله خمسه ﴾ .

وقوله : ﴿ فأن لله خمسه ﴾ خبر مبتدأ محذوف والتقدير : فحكمه أن لله خمسه والجار والمجرور خبر ﴿ أن ﴾ مقدم ، وخمسه اسمها مؤخر . والتقدير : فأن خمسه كائن لله وللرسول ولذى القربى ... إلخ .

وأعيدت اللام فى قوله ﴿ ولذى القربى ﴾ دون غيرهم من الأصناف التالية لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى - ﷺ - لمزيد اتصالهم به .

وقوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله .. ﴾ شرط جزاؤه محذوف .

أى : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان ، وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا محمد - ﷺ - ﴿ يوم الفرقان ﴾ أى يوم بدر ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أى : جمع المؤمنين وجمع الكافرين .. إن كنتم آمنتم بكل ذلك ، فاعملوا بما علمتم ، وارضوا بهذه القسمة عن إذعان وتسليم وحسن قبول .

وما أنزله الله على نبيه - ﷺ - يوم بدر . يتناول ما نزل من آيات قرآنية ، كما يتناول نزول الملائكة لتثبيت المؤمنين ، وتبشيرهم بالنصر كما يتناول غير ذلك مما أيدهم الله به فى بدر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١ . طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ م .

وسمى يوم بدر بيوم الفرقان ، لأنه اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل وقوله ﴿ والله على شىء قدير ﴾ تذييل قصد به بيان أن ما أصابه المؤمنون يوم بدر من غنيمة ونصر إنما هو بقدرة الله التى لا يعجزها شىء فعليهم أن يداوموا على طاعته وشكره ليزيدهم من عطائه وفضله .

هذا ، وقد ذكر العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل والأحكام من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الآية وضحت أن غنائم الحرب تخمس فيجعل الخمس الأول منها لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والأربعة الأخماس الباقية بينت السنة أنها تقسم على الجيش : للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم أو سهمان .

قال ابن كثير : ويؤيد هذا ما رواه البيهقى بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبى - ﷺ - ، وهو بوادى القرى ، وهو معترض فرسا فقلت : يارسول الله ، ما تقول فى الغنيمة ، فقال : لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش ، قلت : فما أحد أولى به من أحد ، قال : لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم[1] .

وقال بعض العلماء : أفادت الآية أن الواجب فى المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله - تعالى - وقسمة الباقى بين الغانمين بالعدل ، للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه . هكذا قسم النبى - ﷺ - الغنائم عام خيبر .

ومن الفقهاء من يقول : للفارس سهمان . والأول هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤنة نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين .

ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يحابى أحدا ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله وفى صحيح البخارى أن سعد بن أبى وقاص رأى أن له فضلا على من دونه ، فقال النبى - ﷺ - « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ؟[2] .

ذهب جمهور العلماء إلى أن المقصود بإيتاء لفظ الجلالة فى قوله ﴿ فأن لله خمسه ﴾ : التبرك والتعظيم والحض على إخلاص النية عند القسمة وعلى الامتثال والطاعة له - سبحانه - .

وليس المقصود أن يقسم الخمس على ستة منها الله - تعالى - ، فإنه - سبحانه - له الدنيا والآخرة ، وله ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٢٩٩٧ .

وعليه يكون خمس الغنيمة مقسما على خمسة أقسام : للرسول ، ولذى القربى،واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

ويرى أبو العالية والربيع والقاسم أن هذا الخمس يقسم إلى ستة أقسام ، عملا بظاهر الآية ، وأن سهم الله - تعالى - يصرف فى وجوه الخير ، أو يؤخذ للكعبة .

وقد رجح ابن جرير رأى الجمهور فقال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب من قال : قوله ﴿ فأن لله خمسه ﴾ افتتاح كلام ، وذلك لاجتماع الحجة على أن الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم . ولو كان لله فيه سهم - كما قال أبو العالية - لوجب أن يكون خمس الغنيمة مقسوما على ستة أسهم . وإنما اختلف أهل العلم فى قسمه على خمسة فما دونها .

فأما على أكثر من ذلك فلا نعلم قائلا قاله غير الذى ذكرنا من الخبر عن أبى العاليه . وفى إجماع من ذكرت - الدلالة الواضحة على ما اخترناه[1] .

وسهم النبى - ﷺ - الذى جعله الله - تعالى - له فى قوله ﴿ وللرسول ﴾ كان مفوضا إليه فى حياته ، يتصرف فيه كما شاء ، ويضعه حيث يشاء .

روى الإمام أحمد أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ، ما كلمات رسول - ﷺ - فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله - ﷺ - صلى بهم فى غزوهم إلى بعير من المقسم . فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - فتناول وبرة فقال : إن هذه من غنائمكم ، وأنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس فى الله تبارك وتعالى القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله لومة لائم ، وأقيموا الحدود فى الحضر والسفر ، وجاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . ينجى الله به من الغم والهم ، قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو داود والنسائى عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله - ﷺ - صلى بهم إلى بعير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال : ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم[2] .

هذا بالنسبة لسهمه - ﷺ - فى حياته ، أما بعد وفاته ، فمنهم من يرى : أن سهمه - ﷺ - يكون لمن يلى الأمر من بعده . روى هذا عن أبى بكر وعلى وقتادة وجماعة . .

ومنهم من يرى أن سهمه - ﷺ - يصرف فى مصالح المسلمين . روى ابن جرير عن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ٤ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ٨ .

الأعمش عن إبراهيم قال : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبى - ﷺ - فى الكراع والسلاح .

ومنهم من يرى صرفه لبقية الأصناف : ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقد رجح ابن جرير هذا الرأى فقال : والصواب من القول فى ذلك عندنا : ان سهم رسول الله - ﷺ - مردود فى الخمس ، والخمس مقسوم على أربعة اسهم على ما روى عن ابن عباس : للقرابة سهم ، ولليتامى سهم ، وللمساكين سهم ، ولابن السبيل سهم ، لأن الله - تعالى - أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات ، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين . وقد اجمعوا أن حق أهل الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم ، فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم ..» .

٤ - المراد بذى القربى - كما سبق أن أشرنا - بنو هاشم وبنو المطلب على الراجح . وعليه فإن السهم المخصص لذى القربى لا يصرف إلا لهم .

قال القرطبى ما ملخصه : اختلف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال :

أولها : أن المراد بهم قريش كلها : قاله بعض السلف ، لأن النبى - ﷺ - لما صعد الصفا جعل يهتف يابنى فلان يابنى عبد مناف .. أنقذوا أنفسكم من النار .

ثانيها : أن المراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب . قاله الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد .. لأن النبى - ﷺ - لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب قال : « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبك بين أصابعه . أخرجه البخارى والنسائى .

ثالثها : أن المراد بهم بنو هاشم خاصة . قاله مجاهد وعلى بن الحسين . وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم[1] .

وقال الآلوسى : وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول الله - ﷺ - على خمسة أسهم سهم له - ﷺ - وسهم للمذكورين من ذوى القربى ، وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية .

وأما بعد وفاته - ﷺ - فسقط سهمه .. وكذا سقط سهم ذوى القربى ، وإنما يعطون بالفقر ، ويقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم ، ولا حق لأغنيائهم ، لأن الخلفاء الأربعة قسموا الخمس كذلك وكفى بهم قدوة .. .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٢ .

ثم قال : ومذهب المالكية أن الخمس لا يلزم تخميسه ، وأنه مفوض إلى رأى الإمام .

– أى انهم يرون أن خمس الغنيمة يجعل فى بيت المال فينفق منه على من ذكر وعلى غيرهم بحسب ما يراه الامام من مصلحة المسلمين ، وكأنهم يرون أن هذه الأصناف إنما ذكرت على سبيل المثال ، وأنها من باب الخاص الذى قصد به العام ، بينما يرى غيرهم أن هذه الاصناف من باب الخاص الذى قصد به الخاص .

ثم قال : ومذهب الإمامية أنه ينقسم إلى ستة أسهم كما ذهب أبو بالعالية ، إلا أنهم قالوا : إن سهم الله – تعالى – ، وسهم رسوله – ﷺ – وسهم ذوى القربى الكل للإمام القائم مقام الرسول – ﷺ – أما الاسهم الثلاثة الباقية فهم لليتامى من آل محمد – ﷺ – ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لايشركهم فى ذلك غيرهم . رووا ذلك عن زين العابدين ، ومحمد بن على الباقر ..

ثم قال : والظاهر أن الاسهم الثلاثة الأولى التى ذكروها اليوم تخبأ فى السرداب ، إذ القائم مقام الرسول – ﷺ – قد غاب عندهم فتخبأ له حتى يرجع من غيبته ..»[1] .

هذا ، ومن كل ما سبق نرى أن أكثر العلماء يرون أن خمس الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام ، ومنهم من يرى أنه يقسم الى ستة أقسام ، ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه إلى خمسة أقسام أو الى ستة ، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده .. ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفروع .

٥ – ذكرنا عند تفسيرنا لقوله – تعالى – فى مطلع السورة ﴿ يسألونك عن الأنفال ... ﴾ أن المراد بالأنفال : الغنائم وعليه تكون الآية التى معنا وهى قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم .. ﴾ مفصلة لما أجملته الآية التى فى مطلع السورة .

أى أن الآية التى فى مطلع السورة بينت أن الأمر فى قسمة الانفال مفوض إلى الله ورسوله ، ثم جاءت الآية التى معنا ففصلت كيفية قسمة الغنائم حتى لا يتطلع أحد إلى ما ليس من حقه .

وهذا أولى من قول بعضهم : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى فى مطلع السورة : لأن النسخ لا يصار إليه إلا عند التعارض وهنا لا تعارض بين الآيتين .

٦ – الآية الكريم أرشدت المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يخلصوا فى طاعتهم لله – تعالى – ولرسوله – ﷺ – وأن يجعلوا غايتهم من جهادهم إعلاء كلمة الله ، لكى يكونوا مؤمنين حقا .

(١) تفسير الآلوسى – بتصرف وتلخيص جـ ١٩ ص ٣ .

ويشعر بهذا الإرشاد تصديره - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه .. ﴾ كما يشعر به قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان .. ﴾ ، فإن كل ذلك فيه معنى الحض على إخلاص النية لله - تعالى - والامتثال لحكمه ، والمداومة على شكره ، حيث منحهم - سبحانه - هذه النعم بفضله وإحسانه .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ : قلت بمحذوف يدل عليه قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم .. ﴾ والمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكنه العلم المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله - تعالى - ، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر[1] .

هذه بعض المسائل والأحكام التى استنبطناها من الآية الكريمة ، وهناك مسائل وأحكام اخرى تتعلق بها ذكرها بعض المفسرين فارجع إليها إن شئت[2] .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله وحكمه فى غزوة بدر ، فبين الأماكن التى نزل فيها كل فريق ، كما بين الحكمة فى لقاء المؤمنين والكافرين على غير ميعاد ، والحكمة فى تقليل كل فريق منهما فى عين الآخر ... فقال تعالى :

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ من ص ١ إلى ص ٢٠ .

يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا .. ﴾ بدل من قوله ﴿ يوم الفرقان .. ﴾ أو معمول لفعل محذوف . والتقدير : اذكروا .

والعدوة - مثلثة العين - جانب الوادى وحافته . وهى من العدو بمعنى التجاوز سميت بذلك لأنها عدت .. - أى منعت - ما فى الوادى من ماء ونحوه أن يتجاوزها .

والدنيا : تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب . والقصوى : تأنيث الأقصى بمعنى الأبعد.والركب : اسم جمع لراكب ، وهم العشرة فصاعدا من راكبى الإبل .

قال القرطبى : ولا تقول العرب : ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل . .

والمراد بهذا الركب : أبو سفيان ومن معه من رجال قريش الذين كانوا قادمين بتجارتهم من بلاد الشام ومتجهين بها إلى مكة ، فلما بلغ النبى - ﷺ - أمرها ، أشار على أصحابه بالخروج لملاقاته ، كما سبق أن بينا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق .. ﴾ .

والمعنى: اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن خرجتم إلى بدر ، فسرتم إلى أن كنتم ﴿ بالعدوة الدنيا ﴾ أى : بجانب الوادى وحافته الأقرب الى المدينة ، وكان اعداؤكم الذين قدموا لنجدة العير ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى : بالجانب الآخر الأبعد من المدينة ، وكان أبو سفيان ومن معه من حراس العير ﴿ أسفل منكم ﴾ أى : فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه ، بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، على بعد ثلاثة أميال منكم .

قال الجمل : قوله ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ الأحسن فى هذه الواو ، والواو التى قبلها الداخلة على ﴿ هم ﴾ أن تكون عاطفة ما بعدها على ﴿ أنتم ﴾ لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوهم ويجوز أن يكونا واو حال ، واسفل منصوب على الظرف النائب عن الخبر ، وهو فى الحقيقة صفة لظرف مكان محذوف . أى : والركب فى مكان أسفل من مكانكم وكان الركب على ثلاثة أميال من بدر .. »[1] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٦ .

وقال الإمام الزمخشرى - رحمه الله - فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم؟ .

قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة الشأن للعدو ، وتكامل عدته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، والتياث أمرهم ، وأن غلبتهم فى هذه الحال ليس إلا صنعا من الله - سبحانه - ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته .

وذلك أن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون ، كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا بأس بها . ولا ماء بالعدوة الدنيا ، وهى خبار - أى أرض لينة رخوة - تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة .

وكانت العير وراء ظهور العدو ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم ، وتشحذ فى المقاتلة عنها نياتهم ، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذب عن الحريم على بذل جهودهم فى القتال .

وفيه تصوير ما دبر - سبحانه - من أمر غزوة بدر ﴿ ليقضى أمرا كان مفعولا ﴾ ومن إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج ، وأقلق قريشا ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم ، فنفروا ليمنعوا عيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ، ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب فى ساق ، وكان ما كان »[1] .

وقوله : ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولا ﴾ بيان لتدبير الله الحكيم ، وإرادته النافذة .

أى : ولو تواعدتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لتخلفتم عن الميعاد المضروب بينكم ، لأن كل فريق منكم كان سيتهيب الإقدام على صاحبه ، ولكن الله - تعالى - بتدبيره الخفى شاء أن يجمعكم للقتال على غير ميعاد ، ليقضى - سبحانه - أمرًا كان مفعولا ، أى : ثابتا فى علمه وحكمته ، وهو : إعزاز الإسلام وأهله ، وخذلان الشرك وحزبه .

روى ابن جرير من حديث كعب بن مالك - رضى الله عنه - قال : إنما خرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . وروى - أيضا - عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الكرب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله - ﷺ - وأصحابه فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة قال : ونظر الناس بعضهم إلى بعض »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١ .

وقوله ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ﴾ بدل من قوله ﴿ ليقضى ﴾ بإعادة الحروف ، أو هو متعلق بقوله ﴿ مفعولا ﴾ .

والمراد بالهلاك والحياة هنا ما يشمل الحسى والمعنوى منهما .

والمراد بالبينة الحجة الظاهرة الدالة على حقية الإسلام وبطلان الكفر .

قال الآلوسى : أى : ليموت من يموت عن حجة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محل للتعلل بالأعذار، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة والحجج الغر المحجَّلة .

ويجوز أن يراد بالحياة : الإيمان ، وبالموت : الكفر على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل بأن يراد بالبينة : إظهار كمال القدرة الدالة على الحجة الدامغة .

أى : ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح وبينة وإلى هذا ذهب قتادة وابن اسحاق . والظاهر أن ﴿عن﴾ هنا بمعنى بعد كقوله -تعالى- ﴿عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر ويعقوب ﴿ حيى ﴾ - على وزن تعب - بفك الإدغام . وقرأ الباقون بإدغام الياء الأولى فى الثانية على وزن شد ومد[1] .

وقوله ﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ تذييل قصد به الترغيب فى الإيمان - والترهيب من الكفر ، أى : وإن الله لسميع لأقوال أهل الايمان والكفر عليم بما تنطوى عليه قلوبهم وضمائرهم ، وسيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب على حساب ما يعلم وما يسمع منه .

ثم يبين - سبحانه - بعض وجوه نعمه على المؤمنين ، وتدبيره الخفى لنصرهم وفوزهم فيقول : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى : اذكر يامحمد فضل الله عليك وعلى أصحابك ، حيث أراك فى منامك الكافرين قليلا عددهم ، ضئيلا وزنهم فأخبرت بذلك اتباعك فازدادوا ثباتا واطمئنانا وجرأة على عدوهم ﴿ ولو أراكهم كثيرا ﴾ أى : ولو أراك الأعداء عددا كثيرا ﴿ لفشلتم ﴾ أى : لتهيبتم الإقدام عليهم ، لكثرة عددهم،من الفشل وهو ضعف مع جبن ﴿ ولتنازعتم فى الأمر ﴾ أى : فى أمر الإقدام عليهم و الاحجام عنهم . فمنكم من يرى هذا ومنكم من يرى ذلك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٧ - بتصرف وتلخيص .

وقوله ﴿ ولكن الله سلَّم ﴾ بيان لمحل النعمة . أى: ولكن الله - تعالى - بفضله وإحسانه أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع وتفرق الآراء فى شأن القتال : حيث ربط على قلوبكم ، ورزقكم الجرأة على أعدائكم وعدم المبالاة بهم بسبب رؤيا نبيكم .

وقوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تذييل يدل على شمول علمه - سبحانه - .

أى : إنه -سبحانه - عليم بكل ما يحصل فى القلوب وما يخطر بها من شجاعة وجبن . ومن صبر وجزع ولذلك دبر ما دبر .

قال الفخر الرازى ، قال مجاهد : أرى الله النبى - ﷺ - كفار قريش فى منامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا : رؤيا النبى حق . القوم قليل ، فصار ذلك سببا لجرأتهم وقوة قلوبهم .

فإن قيل : رؤية الكثير قليلا غلط ، فكيف يجوز من الله - تعالى - أن يفعل ذلك ؟

قلنا : ذهبنا أنه - تعالى - يفعل ما يشاء ويحكم ما يريده وأيضا لعله - سبحانه - أراه البعض دون البعض فحكم الرسول على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون[١] .

ونستطيع أن نضيف إلى ما أجاب به الفخر الرازى أنه يجوز أن يكون المراد بالقلة : الضعف وهوان الشأن ..

أى : أن المشركين وإن كانوا فى حقيقتهم يقاربون الألف - أى أكثر من ثلاثة أمثال المؤمنين - إلا أنهم لا قوة لهم ولا وزن ، فهم كثير عددهم ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم فى المعركة . لأنهم ينقصهم الإيمان الصحيح الذى يقوى القلوب ، ويدفع النفوس إلى الإقدام لنصرة الحق لكى تفوز برضا الله وحسن مثوبته .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : وقد تقدم أن النبى - ﷺ - قدر عدد المشركين بألف وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع هذا أنه رآهم فى منامه قليلا ، لا أنهم قليل فى الواقع ، فالظاهر أنهم أولوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلا ، وأن كيدهم يكون ضعيفا ، فتجرءوا وقويت قلوبهم[٢] .

هذا ، ونسب الى الحسن أنه ذكر أن هذه الآراء كانت فى اليقظة ، وأن المراد من المنام العين التى هى موضع النوم . قال الزمخشرى . وهذا تفسير فيه تعسف . وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن .

وقال الآلوسى : وعن الحسن أنه فسر المنام بالعين ، لأنها مكان النوم كما يقال للقطيفة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٩ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٢ .

المنامة لأنها ينام فيها ، فلم يكن عنده هناك رؤيا أصلا بل كانت رؤية ، وإليه ذهب البلخى . ولا يخفى ما فيه ، لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر ميمى . ففى الحمل على خلاف ذلك تعقيد ولا نكتة فيه .. على أن الروايات الجمة برؤيته - ﷺ - إياهم مناما ، وقص ذلك على أصحابه مشهورة لا يعارضها كون العين مكان النوم نظرا إلى الظاهر .. ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة ، فانه الفصيح العالم بكلام العرب[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ... ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا .... ﴾ وذلك لتأكيد الرؤيا المنامية بالرؤية فى اليقظة .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن التقيتم مع أعدائكم وجها لوجه فى بدر ، فكان من فضل الله عليكم قبل أن تلتحموا معهم أن جعل عددهم قليلا فى أعينكم وجعل عددكم قليلا فى أعينهم ، وذلك لإغرائهم على خوض المعركة .

أما أنتم فتخوضونها بدون مبالاة بهم لقلتهم فى أعينكم ، ولثقتكم بنصر الله إياكم ..

وأما هم فيخوضونها معتمدين على غرورهم وبطرهم وقلتكم فى أعينهم ، فيترتب على ذلك أن يتركوا الاستعداد اللازم لقتالكم ، فتكون الدائرة عليهم ..

قال ابن مسعود - وهو ممن حضر بدرا - : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا[٢] .

وقال أبو جهل - فى ذلك اليوم وقبل الالتحام - : إن محمداً وأصحابه أكلة جزور - أى هم قليل يشبعهم لحم ناقة واحدة - خذوهم أخذا أو اربطوهم بالحبال ..

وقد أجاد صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية حيث يقول : قوله ﴿ وإذ يريكموهم ﴾ الضميران مفعولان يعنى : وإذ يبصركم إياهم . و﴿ قليلا ﴾ حال ، وإنما قللهم فى أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله - ﷺ - ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا ..

فإن قلت : الغرض من تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض من تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟

قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ، ليجترئوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، وتقل شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن فى حسابهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٨ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٩ ص ١٣ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٣ .

وتقديرهم ، وذلك قوله ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ﴾[1] ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم فاستيضاح الآية البينة من قلتهم أولا ، وكثرتهم آخرا .

ثم قال : فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا ؟

قلت : بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر ، أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث فى أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين .

قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين - وكان بين يديه ديك واحد - فقال : ما لى لا أرى هذين الديكين أربعة[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ بيان لحكمة تدبيره ، ونفاذ قدرته ، وشمول إرادته .

أى فعل - سبحانه - ما فعل من تقليل كل فريق فى عين الآخر ، ليقضى أمرا كان مفعولا ، أى : ثابتا فى علمه وحكمته ، وهو نشوب القتال المفضى إلى انتصار المؤمنين ، واندحار الكافرين وإلى الله وحده ترجع الأمور لا إلى إحد سواه ، فإن كل شىء عنده بمقدار ، ولأن كل شىء فى هذا الكون بقضائه وقدره ، وما من شىء إلا مصيره ومرده إليه .

قال بعض العلماء : ولا يقال إن قوله - تعالى -: ﴿ ليقضى الله امراً كان مفعولا ﴾ مكرر مع ما سبق ، لأننا نقول : ان المقصود من ذكره أولا - فى قوله : إذ أنتم بالعدوة الدنيا .. هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبى - ﷺ - والمقصود منه هنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم فى أعين المشركين ثم تكثيرهم للحكم المتقدمة[3] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة حكت لنا جانبا من أحداث غزوة بدر بأسلوب تصويرى بديع فى استحضار لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن جوانب من مظاهر قدرة الله ، ومن تدبيره المحكم الذى كان فوق تدبير البشر ، ومن تهيئة الأسباب الظاهرة والخفية التى أدت إلى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

وبعد هذا التذكير النافع ، والتصوير المؤثر لأحداث غزوة بدر ، وجه - سبحانه - فى هذه السورة إلى المؤمنين النداء السادس والأخير ، حيث أمرهم بالثبات فى وجه أعدائهم ، وبالمداومة على ذكره وطاعته .. ، ونهاهم عن التنازع والاختلاف فقال - تعالى - :

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠١٠ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

وقوله : ﴿ لقيتم ﴾ من اللقاء بمعنى المقابلة والمواجهة ، ويغلب استعماله فى لقاء القتال وهو المراد هنا .

وقوله : ﴿ فئة ﴾ أى : جماعة . مشتقة من الفىء بمعنى الرجوع ، لأن بعضهم يرجع إلى بعض .

والمراد بها هنا : جماعة المقاتلين من الكافرين وأشباههم .

والمتتبع لاستعمال القرآن لهذه الكلمة ، يراه يستعملها - فى الأعم الأغلب - فى الجماعة المقاتلة أو الناصرة أو ما يشبه ذلك .

قال - تعالى - : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ... ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ... ﴾[2] .

وقال - تعالى - : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ﴾[3] .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، ﴿ إذا لقيم فئة ﴾ أى : حاربتم جماعة من أعدائكم ، فاثبتوا لقتالهم وأغلظوا عليهم فى النزال ، ولا تولوهم الأدبار ، ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ لاسيما فى مواطن الحرب ، فإن ذكر الله عن طريق القلب واللسان من أعظم وسائل النصر : لأن المؤمن متى استحضر عظمة الله فى قلبه لا تهوله قوة عدوه ، ولا تخيفه كثرته ..

وقوله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى : لعلكم تظفرون بمرادكم من النصر وحسن الثواب ، متى فعلتم ذلك عن إخلاص .

وقوله ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : اثبتوا عند لقاء الأعداء ، وأكثروا من ذكر الله ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل أقوالكم وأعمالكم ، وفى سركم وجهركم ،

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(٣) سورة الكهف الآية ٤٣ .

وفى كل ما تأتون وما تذرون .

وقوله ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ نهى لهم عن الاختلاف المؤدى إلى الفشل وضياع القوة بعد أمرهم بالثبات والمداومة على ذكر الله وطاعته .

وقوله ﴿ تنازعوا ﴾ من النزع بمعنى الجذب وأخذ الشىء .. والتنازع والمنازعة المجاذبة كأن كل واحد من المتنازعين يريد أن ينزع ما عند الآخر ويلقى به .

والمراد بالتنازع هنا : الخصام والجدال والاختلاف المفضى إلى الفشل أى : الضعف .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ ، قال الأخفش : الريح مستعارة للدولة . لشبهها بها فى نفوذ أمرها وتمشيه ، ومن كلامهم هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد . وركدت رياحه إذا ولت عنه وأدبر أمره . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدرى السكون متى يكون[1]

والمعنى : كونوا - أيها المؤمنون - ثابتين ومستمرين على ذكر الله وطاعته عند لقاء الأعداء ، ولا تنازعوا وتختصموا وتختلفوا ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الفشل أى الضعف ، وإلى ذهاب دولتكم ، وهوان كلمتكم ، وظهور عدوكم عليكم .

﴿ واصبروا ﴾ على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهوائكم التى تحملكم على التنازع ، ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ بتأييده ومعونته ونصره .

هذا والمتأمل فى هاتين الآيتين يراهما قد رسمتا للمؤمنين فى كل زمان ومكان الطريق التى توصلهم إلى الفلاح والظفر .

إنهما يأمران بالثبات ، والثبات من أعظم وسائل النجاح ، لأنه يعنى ترك اليأس والتراجع وأقرب الفريقين إلى النصر أكثرهما ثباتا .

ويأمران بمداومة ذكر الله ، لأن ذكر الله هو الصلة التى تربط الإنسان بخالقه الذى بيده كل شىء ، ومتى حسنت صلة الإنسان بخالقه ، صغرت فى عينه قوة أعدائه مهما كبرت .

ويأمران بطاعة الله ورسوله ، حتى يدخل المؤمنون المعركة بقلوب نقية ، وبنفوس صافية ... لا مكان فيها للتنازع والاختلاف المؤدى إلى الفشل ، وذهاب القوة .. ويأمران بالصبر ، أى بتوطين النفس على ما يرضى الله ، واحتمال المكاره والمشاق فى جلد . وهذه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٤ .

الصفة لابد منها لمن يريد أن يصل إلى آماله وغاياته .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين : « هذا تعليم من الله -تعالى - لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء » .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله - ﷺ - انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قام وقال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم» .

وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله - تعالى - « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه » أى : لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانتى .

وعن قتادة فى هذه الآية : « افترض الله ذكره عند اشغل ما يكون . الضرب بالسيوف » .

ثم قال : « وقد كان للصحابة - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد من بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول - ﷺ - وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس ... قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فى أقل من ثلاثين سنة فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم إنه كريم وهاب »[1] .

وبعد هذه التوجيهات السامية التى رسمت للمؤمنين طريق النصر ، نهاهم - سبحانه - عن التشبه بالكافرين الذين صدهم الشيطان عن السبيل الحق ، فقال تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦ .

ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال الفخر الرازى عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا .... ﴾ المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير . خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف ، فلما وردوا الجحفة ، بعث خفاف الكنانى - وكان صديقا لأبى جهل - بهدايا إليه مع ابن له ، فلما أتاه قال : إن أبى ينعمك صباحا ويقول لك : إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك ، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معى من قرايتى فعلت .

فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله والرحم خيرا . إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة . وإن كنا إنما نقاتل الناس ، فوالله إن بنا على الناس لقوة .

والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور، وتعزف فيها القيان، فإن بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم . وحتى تسمع العرب - بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد - .

قال المفسرون : فوردوا بدرا ، وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان[1] .

وقوله ﴿ بطرأ ﴾ مصدر بطر - كفرح - ومعناه كما يقول الراغب : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، وصرفها إلى غير وجهها[2] .

أى أن البطر ضرب من التكبر والغرور واتخاذ نعم الله - تعالى - وسيلة إلى مالا يرضيه وهو مفعول لأجله ، أو حال ، أى : حال كونهم بطرين .

وقوله ﴿ ورئاء ﴾ مصدر رأى ومعناه : القول أو الفعل الذى لا يقصد معه الإخلاص، وإنما يقصد به التظاهر وحب الثناء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٧٢ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٥٠ .

والمعنى : كونوا أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء الأعداء ، ومكثرين من ذكر الله وطاعته ، وصابرين فى كل المواطن .. واحذروا أن تتشبهوا بأولئك المشركين الذين خرجوا من مكة ﴿ بطرا ورئاء الناس ﴾ أى خرجوا غرورا وفخرا وتظاهرا بالشجاعة والحمية ... حتى ينالوا الثناء منهم ..

وقوله : ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ معطوف على ﴿ بطرا ﴾ والسبيل : الطريق الذى فيه سهولة . والمراد بسبيل الله : دينه . لأنه يوصل الناس إلى الخير والفلاح .

أى : خرجوا بطرين بما أوتوا من نعم ومرائين بها الناس ، وصادين إياهم عن دين الإسلام الذى باتباعه يصلون إلى السعادة والنجاح .

وعبر عن بطرهم وريائهم بصيغة الاسم الدال على التمكن والثبوت ، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث ، للإشعار بأنهم كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والرياء ، وأن هذه الصفات دأبهم وديدنهم ، أما الصد عن سبيل الله فلم يحصل منهم إلا بعد أن دعا الرسول - ﷺ - الناس إلى الإسلام .

وقوله : ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ تذييل قصد به التحذير من الاتصاف بهذه الصفات الذميمة، لأنه -سبحانه- محيط بكل صغيرة وكبيرة وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . فعلى المؤمنين أن يخلصوا لله - تعالى - أعمالهم .

وقوله : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم .. ﴾ تذكير للمؤمنين بما خدع به الشيطان الكافرين من وعود كاذبة ، وأمانى باطلة .

والمراد بهذا التذكير : حضهم على المداومة على طاعة الله وشكره ، حيث إنه - سبحانه - لم يجعلهم كأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان .

والمعنى : احذروا - أيها المؤمنون - أن تتشبهوا بأولئك الذين خرجوا من ديارهم بطرا ومفاخرة .. واذكروا وقت أن ﴿ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ فى معاداتكم ، بأن وسوس لهم بأنهم على الحق وانتم على الباطل ، وحسن لهم ما جبلوا عليه من غرور ومراءاة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم عند لقائكم ، بأن قال لهم ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ أى : لن يغلبكم أحد من الناس ، لا محمد - ﷺ - وأصحابه ، ولا غيرهم من قبائل العرب ، وإنى مجير ومعين وناصر لكم ، إذ المراد بالجار هنا : الذى يجير غيره . أى : يؤمنه مما يخاف ويخشى .

قال الآلوسى : أى : ألقى فى روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم ، وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات - تجعله مجيرا لهم ، وحافظا إياهم عن السوء

حتى قالوا : اللهم انصر اهدى الفئتين ، وأفضل الدينين .

فالقول مجاز عن الوسوسة . والإسناد فى قوله ﴿ وإنى جار لكم ﴾ من قبيل الاسناد إلى السبب الداعى . و﴿ لكم ﴾ خبر ﴿ لا ﴾ أو صفة ﴿ غالب ﴾ والخبر محذوف . أى : لا غالب كائنا لكم موجود . و﴿ اليوم ﴾ معمول الخبر . و ﴿ من الناس ﴾ حال من ضمير الخبر ... »[1] .

وقوله : ﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ بيان لما فعله الشيطان وقاله بعد أن رأى ما رأى من قوة لا طاقة له بها ..

وقوله ﴿ تراءت الفئتان ﴾ أى : تقاربتا بحيث صارت كل فئة ترى الأخرى رؤية واضحة .

ومنهم من جعل ﴿ تراءت ﴾ بمعنى التقت وقوله ﴿ نكص على عقبيه ﴾ أى: ولى هاربا ورجع القهقرى . وأبطل كيده وذهب ما مناهم به من النصرة والعون يقال : نكص عن الأمر نكوصا ونكصا أى : تراجع عنه وأحجم . والعقب : مؤخر القدم .

والمعنى : لقد حرض الشيطان جنوده من الكافرين على حربكم - أيها المؤمنون - ، ومناهم بالنصر عليكم ... ولكنه حينما تراءت الفئتان : فئتكم وفئته ، ورأى ما أمدكم الله به من الملائكة، ولى مدبرا وقال للكافرين: ﴿ إنى برىء منكم ﴾ أى: من عهدكم وجواركم ونصرتكم ، ﴿ إنى أرى ﴾ من الملائكة النازلة لتأييد المؤمنين مالا ترونه أنتم ﴿ إنى أخاف الله ﴾ أن يعذبنى قبل يوم القيامة ، أو إنى أخاف الله أن يصيبنى بمكروه من قبل ملائكته .

وقوله ﴿ والله شديد العقاب ﴾ يحتمل أنه من كلام إبليس الذى حكاه الله - تعالى - عنه ، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه عز وجل .

أى : والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره .

هذا ، وهناك قولان فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين :

أحدهما : أن هذا التزيين لم يكن حسيا ، وإنما كان معنويا عن طريق الوسوسة دون أن يتحول الشيطان إلى صورة إنسان .

وعليه يكون قوله ﴿ لا غالب لكم اليوم ... ﴾ مجازا عن الوسوسة . وقوله ﴿ نكص على عقبيه ﴾ استعارة لبطلان كيده ، شبه بطلان كيده بعد وسوسته بمن رجع القهقرى عما يخافه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٥ .

وثانيهما : أن هذا التزيين كان حسيا بمعنى أن الشيطان تمثل لهم فى صورة إنسان ، وقال لهم ما قال مما حكاه الله - تعالى - عنه .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين فى تفسير الآية فقال : واذكر ﴿ إذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ التى عملوها فى معاداة رسول الله - ﷺ - ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم ، فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى : بطل كيده حين نزلت جنود الله .

وكذا عن الحسن - رحمه الله - قال : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم .

وقيل : لما اجتمعت قريش على السير - لحرب المسلمين فى بدر - ذكرت الذى بينها وبين كنانة من الحرب ، فكاد ذلك يثنيهم عن حرب المسلمين ، فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة ابن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى - وكان من أشرفهم - فى جند من الشياطين معه راية وقال : لا غالب لكم اليوم وإنى مجيركم من بنى كنانة . فلما رأى الملائكة تنزل ، نكص .

وقيل : كانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين ؟ أتخذلنا فى هذه الحال ؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون ، ودفع صدر الحارث وانطلق وانهزموا .

فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم . فلما أسلموا علموا أنه الشيطان .

وفى الحديث - الذى أخرجه مالك فى الموطأ - : « وما رئى إبليس يوما أصغر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة . إلا مارئى يوم بدر »[1] .

وقد ذكر ابن جرير وابن كثير روايات أخرى تتفق فى جملتها مع ما ذكره صاحب الكشاف ، وإن كانت تختلف عنها فى التفصيل ، ومن ذلك قول ابن جرير :

« وكان تزيينه ذلك لهم كما حدثنى المثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه رايته فى صورة رجل من بنى مدلج ، فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما اصطف الناس ، أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من التراب ، فرمى بها فى وجوه المشركين ، فولوا الأدبار .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٧ وقوله : « ولا ادحر » الدحور : الطرد والإبعاد قال ابن حجر : والحديث أخرجه مالك فى الموطأ من رواية طلحة ابن عبيد الله ابن كريز مرسلا ، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرازق والطبرى والبيهقى فى الشعب ، وانفراد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلى عن مالك فقال : عن طلحة عن أبيه : قال ابن عبد البر : الصواب مرسل ، حاشية الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٨ .

وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده فى يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته .

فقال الرجل : ياسراقة تزعم أنك لنا جار ؟ قال : ﴿ إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ وذلك حين رأى الملائكة .

ثم قال: وحدثنا أحمد بن الفرج، قال: حدثنا عبدالملك بن عبدالعزيز الماجشون، قال: حدثنا مالك ، عن ابراهيم بن أبى عبلة ، عن طلحة بن عبد ابن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله - ﷺ - قال : « مارئى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أغيظ ولا أدحر من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر» قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة أى : يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب »[١] .

وقد سار - ابن جرير وابن كثير - فى تفسيرهما للآية على أن التزيين من الشيطان كان حسيا .

فابن جرير يقول . بعد أن ذكر بضع روايات فى تفسير الآية : فتأويل : وإن الله لسميع عليم فى هذه الأحوال ، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم . ايها المؤمنون لحربكم وقتالكم ، وحسن ذلك لهم ، وحثهم عليكم وقال لا غالب لكم اليوم ، من بنى آدم ، فاطمئنوا وابشروا وإنى جار لكم من كنانة أن تأتيكم من ورائكم ... واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ يقول : فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين ، وجنود الشيطان من الكافرين ، ونظر بعضهم إلى بعض ﴿ نكص على عقبيه ﴾ أى : رجع القهقرى على قفاه هاربا .. وقال للمشركين ﴿ إنى أرى مالا ترون ﴾ يعنى أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددا للمؤمنين ، والمشركون لا يرونهم[٢] .

وابن كثير يقول : وقوله - تعالى - ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ... ﴾ الآية .

أى : حسن لهم -لعنه الله- ما جاءوا له ، وما هموا به . وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بنى مدلج .. ثم قال : فلما رأى إبليس الملائكة ﴿ نكص على عقبيه ﴾ وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون ، وهو فى صورة سراقة ، وأقبل أبو جهل يحض أصحابه ويقول لهم : لايهولنكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه .. »[٣] .

ومن هذا يتضح أن هذين الإمامين الجليلين يسيران فى تفسيرهما للآية الكريمة ، على أن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٨ ، وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٢٠ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٧ ، ص ٣١٨ .

التزيين كان حسياً ، ويهملان القول بغير ذلك وممن تابعهما فى هذا الإمام القرطبى ، فقد ذكر بعض الروايات التى وردت فى معنى الآية ، والتى صرحت بأن الشيطان قد تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وبنى تفسيره للآية على ذلك ..[١] .

وقد خالف صاحب المنار هؤلاء الأئمة ، فرجح القول الأول وهو أن التزيين لم يكن حسياً ، أى أن ما قاله الشيطان لهم من قبيل الوسوسة ، وأنه لم يتمثل لهم فى صورة إنسان .

فقد قال - رحمه الله - قوله : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ... ﴾ أى : واذكر ايها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم لا غالب لكم اليوم من الناس .

﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴾ أى : فلما قرب كل من الفريقين من الآخر . نكص ، أى : رجع القهقرى .. والمراد أنه كف عن تزيينه لهم ، وتغريره إياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشىء ، وتركها بحال من ينكص عنه ويوليه دبره ، ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم ، وهو ﴿ وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله ﴾ أى : تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .

ثم قال - بعد أن ضعف الروايات التى أوردها ابن جرير وابن كثير - والمختار عندنا فى تفسير الآية أن الشيطان القى فى قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبهم ..[٢] .

والخلاصة : أننا بمراجعتنا لأقوال المفسرين فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين ، تراهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم منهم ذكر القولين السابقين فى كيفية التزيين دون أن يرجح أحدهما على الآخر ، وممن فعل ذلك الزمخشرى ، والفخر الرازى والآلوسى .

(ب) وقسم منهم سار فى تفسيره على أن التزيين كان حسياً ، بمعنى أن الشيطان تمثل للمشركين فى صورة إنسان وقال لهم ما قال ، وأهمل القول بأن التزيين لم يكن حسياً ، وممن فعل ذلك ابن جرير ، وابن كثير ، والقرطبى .

(جـ) وقسم منهم رجح ان التزيين لم يكن حسياً ، بل كان عن طريق الوسوسة ، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وقد سار فى هذا الاتجاه صاحب المنار مشككا فى صحة ما سواه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٦ .
(٢) راجع تفسير المنار جـ ١٠ ص ٣١ للشيخ رشيد رضا .

والذى نراه بعد هذا العرض لأقوال المفسرين : أن الآية الكريمة صريحة فى أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم - ما حكاه القرآن عنه : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ وأنه حين تراءى الجمعان كذب فعلُهُ قوله ، فقد ﴿ نكص على عقبيه ﴾ وقال للمشركين الذين وعدهم ومناهم بالنصر ﴿ إنى برئ منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

ومن العسير علينا بعد ذلك أن نحدد تحديداً قاطعاً كيفية هذا التزيين والقول والنكوص : أهو حسى أم غير حسى ؛ لأن التحديد القاطع لابد أن يستند إلى نص صريح فى دلالته على المعنى المراد ، وصحيح فى نسبته إلى رسول الله - ﷺ - .

وهذا النص غير موجود ، لأن الحديث الذى أخرجه الإمام مالك فى موطئه - والذى سبق أن ذكرناه - قال عنه ابن كثير وابن حجر إنه حديث مرسل ، وزيادة على ذلك ففى بعض رجاله من هو ضعيف الحديث كابن الماجشون ، ولأن الروايات التى رويت فى تمثيل الشيطان بصورة سراقة قد جاء معظمها عن ابن عباس ، وابن عباس - كما يقول صاحب المنار - كان سنه يوم بدر خمس سنين . فروايته لأخبارها منقطعة .

إذا فنحن نؤمن بما أثبته القرآن من أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم ما قاله - مما حكاه القرآن عنه - ، وأنه قد نكص على عقبيه .. إلا أننا لا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك .

ويعجبنى فى هذا المقام قول بعض الكاتبين عند تفسيره لهذه الآية : « وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخروج ... وأنه بعد ذلك « نكص على عقبيه .. » فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم .

ولكننا لا نعلم الكيفية التى زين لهم بها أعمالهم والتى قال لهم بها : لا غالب لكم اليوم من الناس ... والتى نكص بها كذلك .

الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشىء من أمره إلا بنص قرآنى أو حديث نبوى صحيح ، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث .

فإلى هنا ينتهى اجتهادنا ، ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده فى محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلا معينا ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم ، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية .

﴿ وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم ... ﴾ واذكر أيها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان

لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم : لا غالب لكم اليوم من الناس ... الخ ما ذكره الشيخ رشيد فى تفسير الآية[١] .

هذا ، وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم .. ﴾ بيان لصنفين آخرين من أعداء المسلمين بعد بيان العدو الرئيسى وهم المشركون الذين خرجوا بطرا ورئاء الناس لمحاربة الإسلام وقد شجعهم الشيطان على ذلك .

، قال الفخر الرازى : أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج - كانوا يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ولم يخرج منهم أحد إلى بدر سوى عبد الله بن أبى - وأما الذين فى قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا ولم يهاجروا .

ثم إن قريشا لما خرجوا لحرب رسول الله - ﷺ - قال أولئك : نخرج مع قومنا فإن كان محمد فى كثرة خرجنا إليه ، وإن كان فى قلة أقمنا فى قومنا ..

وعامل الاعراب فى « إذ » فيه وجهان : الأول : التقدير ، والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون » ..

والثانى : اذكروا إذ يقول المنافقون.. »[٢] .

وقوله : ﴿ غر ﴾ أى : خدع ، من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهرة وشيطان .

أى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن قال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم : أى خدعهم ، لأنكم أقدمتم على قتال قوم يفوقونكم عدة وعددا ، وهذا القتال - فى زعمهم - لون من إلقاء النفس إلى التهلكة ، لأنهم قوم لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم لخراب بواطنهم من العقيدة السليمة ، لا يعرفون أثرها فى الإقدام من أجل نصرة الحق ولا يقدرون ما عليه أصحابها من صلة طيبة بالله - عز وجل - الذى بيده النصر والهزيمة ..

وماداموا قد فقدوا تلك المعرفة ، وهذا التقدير ، فلا تستبعدوا منهم - أيها المؤمنون - أن يقولوا هذا القول عنكم ، فذلك مبلغهم من العلم ، وتلك موازينهم فى قياس الأمور ...

والحق ، أن الإنسان عندما يتدبر ما قاله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض فى حق المؤمنين عندما أقدموا على حرب أعدائهم فى بدر ...

---

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٠ ص ٣٠ - للأستاذ سيد قطب - وقد نقلنا قبل ذلك جانبا من كلام صاحب المنار .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٧٦ .

أقول : عندما يتدبر ذلك ليرى أن هذا القول دأب كل المنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى كل زمان ومكان .

إننا فى عصرنا الحاضر رأينا كثيرين من أصحاب العقيدة السليمة ، والنفوس النقية ، والقلوب المضحية بكل شىء فى سبيل نصرة الحق .. رأينا هؤلاء يبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه ويهاجمون الطغاة والمبطلين والفجار ، ليمكنوا لدين الله فى الأرض ، حتى ولو أدت بهم هذه المهاجمة إلى بذل أرواحهم .

ورأينا فى مقابل هؤلاء الصادقين أقواما - ممن آثروا شهوات الدنيا على كل شىء - لا يكتفون بالصمت وهم يشاهدون أصحاب العقيدة السليمة يصارعون الطغاة .

بل هم - بسبب خلو نفوسهم من المثل العليا - يلقون باللوم على هؤلاء المؤمنين ، ويقولون ما حكاه القرآن من أقوال فى أشباههم السابقين من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم .

إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنونها بميزان الإيمان .

إن المؤمن يرى التضحية فى سبيل الحق مؤدية إلى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

أما هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، فلا يرون الحياة إلا متعة وشهوة وغنيمة ﴿ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ حض للمؤمنين على التمسك بما يدعوهم إليه إيمانهم من استقامة وقوة ..

أى : ومن يكل أمره إلى الله ، ويثق به - ينصره - سبحانه - على أعدائه ، فإنه - عز وجل - عزيز لا يغلبه شىء ، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد صورت تصويرا بديعا ما عليه الكافرون وأشباههم من بطر ومفاخرة وصد عن سبيل الله .. ومن طاعة للشيطان أوردتهم المهالك .

وحكت ما قالوه من أقوال تدل على جبنهم وجهلهم وانطماس بصيرتهم .

ونهت المؤمنين عن التشبه بهم ، لأن البطر والمفاخرة والبغى ، واتباع الشيطان : كل ذلك يؤدى إلى خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ولقد كان أبو جهل قمة فى البغى والبطر والمراءاة عندما قال - بعد أن نصحه الناصحون

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٨ .

بالرجوع عن الحرب فقد نجت العير : « لا لن نرجع حتى نرد بدراً ، فتقيم ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبدا » .

وعندما بلغت مقالة أبي جهل أبا سفيان قال : « واقوماه !! هذا عمل عمرو ابن هشام « يعنى أبا جهل » كره أن يرجع ؛ لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النفير ذللنا » .

وصدقت فراسة أبي سفيان ، فقد أصاب محمد - ﷺ - النفير وتسربل المشركون بالذل والهوان فى بدر بسبب بطرهم وريائهم وصدهم عن سبيل الله ، واتباعهم لخطوات الشيطان .

فاللهم نسألك أن توفقنا إلى ما يرضيك ، وأن تجنبنا البطر والرياء وسوء الأخلاق .

وبعد هذا البيان لأحوال الكافرين فى حياتهم ؛ انتقل القرآن لبيان أحوالهم عند مماتهم . فقال - تعالى - :

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى .. ﴾ للنبى - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب و ﴿ لو ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف لتفظيع الأمر وتهويله .

والمراد بالذين كفروا : كل كافر، وقيل المراد بهم قتلى غزوة بدر من المشركين .

قال ابن كثير : وهذا السياق وإن كان سببه غزوة بدر ، ولكنه علم فى حق كل كافر . ولهذا لم يخصصه الله بأهل بدر بل قال - سبحانه - ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ... ﴾[1] .

والفعل المضارع هنا وهو ﴿ ترى ﴾ بمعنى الماضى ، لأن لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا .

والفعل ﴿ يتوفى ﴾ فاعله محذوف للعلم به وهو الله - عز وجل - وقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول وعليه يكون : ﴿ الملائكة ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿ يضربون وجوههم ... ﴾ خبر .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٩ .

والمعنى ولو عاينت وشاهدت أيها العاقل حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم ، لعاينت وشاهدت منظراً مخيفا ، وأمراً فظيعاً تقشعر من هوله الأبدان .

ثم فصل الله - سبحانه - هذا المنظر المخيف بجملة مستأنفة فقال : ﴿ الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ والمراد بوجوههم : ما أقبل منهم وبأدبارهم : ما أدبر وهو كل الظهر .

أى : الملائكة عندما يتوفى الله - تعالى - هؤلاء الكفرة يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ، لإعراضهم عن الحق ، وإيثارهم الغى على الرشد .

ومنهم من يرى أن الفعل ﴿ يتوفى ﴾ فاعله ﴿ الملائكة ﴾ وأن قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول وقدم على الفاعل للاهتمام به .

وعليه تكون جملة ﴿ يضربون وجوههم .. ﴾ حال من الفاعل وهو الملائكة .

فيكون المعنى : ولو رأيت - أيها العاقل - حال الكافرين عندما تتوفى الملائكة أرواحهم فتضرب منهم الوجوه والأدبار ، لرأيت عندئذ ما يؤلم النفس ، ويخيف الفؤاد .

ويبدو لنا أن التفسير الأول أبلغ ، لأن توضيح وتفصيل الرؤية بالجملة الاسمية المستأنفة خير منه بجملة الحال ، ولأن إسناد التوفى إلى الله أكثر مناسبة هنا ، إذ أن الله - تعالى - قد بين وظيفة الملائكة هنا فقال : ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

وخص - سبحانه - الضرب للوجوه والأدبار بالذكر ، لأن الوجوه أكرم الأعضاء ، ولأن الأدبار هى الأماكن التى يكره الناس التحدث عنها فضلا عن الضرب عليها . أو لأن الخزى والنكال فى ضربها أشد وأعظم .

وقوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ معطوف على قوله ﴿ يضربون ﴾ بتقدير القول . أى يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا .

والذوق حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه .

والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وهو أيضا يشعر بأن ما وقع عليهم من عذاب إنما هو بمنزلة المقدمة لما هو أشد منه ، كما أن الذوق عادة يكون كالمقدمة للمطعوم أو الشىء المذاق .

وقوله : ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ بيان للأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء . وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بشؤم صنيعهم ، وانقيادهم للهوى والشيطان .

أى : ذلك الذى نزل بكم - أيها الكافرون - من الضرب وعذاب النار ، سببه ما قدمته أيديكم من عمل سيء ، وفعل قبيح ، وقول منكر ، وجحود للحق . وأن الله - تعالى - ليس بذى ظلم لكم ولا لغيركم ، لأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت ألا يعذب أحدا إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وجرم اقترفه .

فاسم الإشارة « ذلك » يعود إلى الضرب وعذاب الحريق ، وهو مبتدأ ، وخبره قوله ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ .

والمراد بالأيدى : الأنفس والذوات . والتعبير بالأيدى عن ذلك من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .

وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، وأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى . ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به ، والاتصال بذاته .

وقوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله .

أى : ذلك الذى نزل بكم سببه ما قدمته أيديكم ، والأمر أن الله - تعالى - ليس بمعذب لعبيده من غير ذنب جنوه .

ويجوز أن يكون معطوفا على (ما) المجرورة بالباء . أى : ذلك بسبب ما قدمته أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قال بعض العلماء : فإن قيل ما سر التعبير بقوله ﴿ ظلام ﴾ بالمبالغة ، مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، وبرجوع النفى للقيد ؟ .

وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل ظالم لفلان ولفلان وهلم جرا ، فلما جمع هؤلاء عدل إلى ﴿ ظلام ﴾ لذلك ، أى : لكثرة الكمية فيه .

ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم يظلم للانتفاع بالظلم ، فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركا .

ومنها : أن « ظلاما » للنسب كعطار ، أى : لا ينسب إليه الظلم أصلا .

ومنها : أن كل صفة له - تعالى - فى أكمل المراتب ، فلو كان - سبحانه - ظالما ، كان ظلاما ، فنفى اللازم نفى للملزوم .

ومنها : أن نفى ﴿ الظلام ﴾ لنفى الظالم ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالا من اللازم إلى الملزوم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه ، فالمراد تنزيهه - تعالى - وهو جدير بالمبالغة .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله - ﷺ - أن الله - تعالى - يقول : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا »[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد بينتا حالة المشركين عند قبض أرواحهم بيانا يحمل النفوس على الإيمان والطاعة لله - تعالى - فقد رسم القرآن صورة مفزعة لهم ، صورة الملائكة وهى تضرب وجوههم وأدبارهم بأمر من الله - تعالى - الذى ما ظلمهم ، ولكنهم هم الذين أحلوا بأنفسهم هذا المصير المؤلم المهين ، حيث كفروا بالحق ، وحاربوا أتباعه ، واستحبوا العمى على الهدى ثم بين سبحانه - أن هؤلاء الكافرين عادتهم فى كفرهم وطغيانهم كعادة من سبقهم من الأمم الظالمة وإن من سنة الله تعالى - فى خلقه ألا يعاقب إلا بذنب ، وألا يغير النعمة إلا لسبب . فقال - تعالى :

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠١٦ .

والكاف فى قوله : ﴿ كدأب ﴾ ، للتشبيه ، والجار والمجرور فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف .

والدأب : أصله الدوام والاستمرار ، يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأباً - بفتح الهمزة - ودأباً - بسكونها - ودؤوباً ، إذا دوام عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة ، لأن الذى يستمر فى عمل أمداطويلا يصير هذا العمل عادة من عاداته ، وحالا من أحواله ، فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

والآل - كما يقول الراغب - مقلوب عن الأهل ، ويصغر على أهيل ، إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة يقال : آل فلان ، ولا يقال : آل رجل ، ولا يقال : آل الحجام .. بل يضاف إلى الأشرف والأفضل يقال : آل الله ، وآل السلطان ، والأهل يضاف إلى الكل ، فيقال : أهل الله ، وأهل الحجام ، وأهل زمان كذا ..[1] .

والمقصود بآل فرعون : هو وأعوانه وبطانته ، لأن الآل يطلق على أشد الناس التصاقا واختصاصا بالمضاف إليه .

والمعنى : شأن هؤلاء الكافرين الذين حاربوك يا محمد ، والذين هلك منهم من هلك فى بدر ، شأنهم وحالهم وعادتهم فيما اقترفوه من الكفر والعصيان وفيما فعل بهم من عذاب وخذلان ، كشأن آل فرعون الذين استحبوا العمى على الهدى ، والذين زينوا له الكفر والطغيان حتى صار عادة له ولهم ، وقد أخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب كفرهم وفجورهم .

وقد خص - سبحانه - فرعون وآله بالذكر من بين الأمم الكافرة ، لأن فرعون كان أشد الطغاة طغيانا ، وأكثرهم غرورا وبطرا ، وأكثرهم فى الاستهانة بقومه وفى الاحتقار لعقولهم وكيانهم .

ألم يقل لهم - كما حكى القرآن عنه - ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[2] .

وألم يبلغ به غروره أن يقول لهم : ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ﴾[3] ؟ .

أما آله وبطانته وأعوانه ، فهم الذين زينوا له السوء ، وحرضوه على البطش بموسى لأنه

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٠ .
(٢) سورة النازعات الآية ١٤ .
(٣) سورة الزخرف الآية ٥١ .

جاءهم بالحق ، ولقد حكى الله عنهم نفاقهم وضلالهم وانغماسهم فى الآثام فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾(١) .

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وتفاهة العقل ، والخروج عن كل مكرمة فقال : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾(٢) وذلك لأن الأمة التى تترك الظالم وبطانته يعيثون فى الأرض فسادًا ، لا تستحق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .

وقوله ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ تفسير لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على الفساد والضلال .

والمراد بآيات الله : ما يعم المتلوة فى كتب الله - تعالى - ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .

وفى إضافتها إلى الله : تعظيم لها وتشريف ، وتنبيه إلى قوة دلالتها على الحق والخير .

وقوله : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ معطوف على قوله ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ لبيان ما ترتب على كفرهم من عقوبات أليمة .

وفى التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العذاب ، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذى لا يستطيع الفكاك من آسره .

والباء فى قوله : ﴿ بذنوبهم ﴾ للسببية أى كفروا بآيات الله فعاقبهم - سبحانه - بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمره .

ويجوز أن تكون للملابسة ، أى : أخذهم وهم ملتبسون بذنوبهم دون أن يتوبوا منها ، أو يقلعوا عنها .

وعلى الوجهين فالجملة الكريمة تدل على كمال عدل الله - تعالى - لأنه ما عاقبهم إلا لأنهم استحقوا العقاب .

والمراد بذنوبهم : كفرهم وما ترتب عليه من فسوق وعصيان ، وأصل الذنب : الأخذ بذنب الشىء أى بمؤخرته ، ثم أطلق على الجريمة ، لأن مرتكبها يعاقب بعدها .

وقوله : ﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ الشديد ، بسبب الكفر والمعاصى .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٣ .

أى : إن الله - تعالى - قوى لا يغلبه غالب ، ولا يدفع قضاءه دافع ، شديد عقابه لمن كفر بآياته ، وفسق عن أمره .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ﴾ بيان لسنة من سننه - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لتعذيب أولئك الكفار ، ولسلب نعمه عنهم وعن أشباههم من العصاة والجاحدين واسم الإشارة : ﴿ ذلك ﴾ يعود إلى تعذيب الكفرة المعبر عنه بقوله - تعالى - ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ .

وهو ، أى : اسم الإشارة مبتدأ ، وخبره قوله - سبحانه - ﴿ بأن الله لم يك مغيراً .. ﴾ إلخ .

والمعنى : ذلك الذى نزل بهؤلاء الكفرة من التعذيب والخذلان عدل إلهى ، فقد جرت سنته - سبحانه - فى خلقه ، واقتضت حكمته فى حكمه ألا يبدل نعمه بنقم إلا بسبب ارتكاب الذنوب ، واجتراح السيئات ، فإذا لم يتلق الناس نعمه - عز وجل - بالشكر والطاعة ، وقابلوها بالكفر والعصيان ، بدل نعمتهم بنقم جزاء وفاقا .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

قال الفخر الرازى : قال القاضى : معنى الآية أنه - تعالى - أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ، ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله - تعالى - على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم ، والمنح بالمحن .

قال : وهذا من أوكد مايدل على أنه - تعالى - لا يبتدئ أحدا بالعذاب والمضرة[2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركى مكة حتى غير الله نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة ؟ .

قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول - ﷺ - إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب[3] .

(١) سورة الرعد الآية ١١ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٨١ المطبعة البهية .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٠ .

وقوله : ﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ بأن الله لم يك مغيرا نعمة .. ﴾ إلخ .

أى : ذلك التعذيب بسبب جحودهم للنعم ، وبسبب أنه - سبحانه - سميع لما نطقوا به من سوء ، وعليم بما ارتكبوه من قبائح ومنكرات ، وقد عاقبهم على ذلك بما يستحقون من عذاب : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ثم ذكر - سبحانه - ما عليه المشركون من جحود وغرور وعناد على سبيل التأكيد والتوبيخ فقال : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون ، وكل كانوا ظالمين ﴾ .

أى : أن شأن هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشأن آل فرعون ومن تقدمهم من الأقوام السابقة ، كقوم نوح وقوم هود .. ، كذب أولئك جميعا بآيات ربهم التى أوجدها - سبحانه - لهدايتهم وسعادتهم .. فكانت نتيجة ذلك أن أهلكهم - سبحانه - بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، وبسبب استعمالهم النعم فى غير ما خلقت له .

﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ الذين زينوا له الكفر والبطر والطغيان .

﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ أى : وكل من الأقوام المذكورين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم لهم ، وإعراضهم عنهم مع أن الأنبياء ما جاءوا إلا لهدايتهم .

وجمع الضمير فى ﴿ كانوا ﴾ و﴿ ظالمين ﴾ مراعاة لمعنى ﴿ كل ﴾ لأنها متى قطعت عن الإضافة جاز مراعاة لفظها تارة ، ومراعاة معناها أخرى ، واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل .

قال الجمل : فإن قلت : ما الفائدة من تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟ .

قلت : فيها فوائد منها : أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول ، لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم ، والثانية ذكر إغراقهم فذلك تفسير للأول .

ومنها : أنه ذكر فى الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ، ففى الآية إشارة إلى أنهم كفروا بآيات الله وجحدوها ، وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها ، وكفرهم بها .

ومنها : أن تكرير هذه القصة للتأكيد[1] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥١ .

وبعد ، فإن المتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور تصويرا واضحا سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أنه - سبحانه - لا يسلب نعمه عن قوم إلا بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنه - تعالى - لا ينزل عقوباته بهم إلا بعد لجاجهم فى طغيانهم ، وإدبارهم عن نصح الناصحين .

ورحم الله الأستاذ الإمام محمد عبده فقد كتب مقالا جيداً صدره بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. ﴾ .

ومما جاء فى هذا المقال قوله : تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

أرشدنا - سبحانه - إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها - سبحانه - على أساس الحكمة البالغة ، إن الله لا يغير ما بقوم من عز وسلطان ، ورفاعة وخفض عيش ، وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل ، وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ، أو حل بهم الدمار . ثم لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلامة فى الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصرته والتعاون على حمايته .. خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية .. فأخذهم بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين .

هكذا جعل الله بقاءالأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها .

سنة ثابتة لاتختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته - سبحانه - فى الخلق والإيجاد ، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال .. »[1] .

وبعد أن شرح - سبحانه - أحوال المهلكين من شرار الكفرة ، شرع فى بيان أحوال الباقين منهم ، وتفصيل أحكامها ، فقال - تعالى :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ٢ ص ٤٦ ففيه المقال بتمامه .

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم
مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وصف كل الكفار بقوله : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ أفرد بعضهم بمزية فى الشر والعناد فقال : ﴿ إن شر الدواب عند الله ﴾ أى : فى حكمه وعلمه من حصلت له صفتان :

الأولى : الكافر الذى يكون مستمراً على كفره مصرا عليه ...

الثانية : أن يكون ناقضا للعهد على الدوام ...

قال ابن عباس : هم بنو قريظة ، فإنهم نقضوا عهد رسول الله - ﷺ - وأعانوا عليه المشركين بالسلاح فى يوم بدر ، ثم قالوا : أخطأنا ، فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضا يوم الخندق ...[١] .

والدواب : جمع دابة . وهى كل ما يدب على الأرض قال - تعالى - ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع .. ﴾[٢] .

قال الجمل : وإطلاق الدابة على الإنسان إطلاق حقيقى ، لما ذكروه فى كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا . وفى المصباح : « الداية كل حيوان فى الأرض مميزاً وغير مميز »[٣] .

والمعنى : إن شر ، ما يدب على الأرض ﴿ عند الله ﴾ أى : فى حكمه وقضائه ﴿ الذين كفروا ﴾ أى : الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه .

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم شر الدواب لا شر الناس ، للإشعار بأنهم بمعزل عما يتحلى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٢ المطبعة البهية .
(٢) سورة النور ، الآية ٤٥ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٦ .

به الناس من تعقل وتدبر للأمور ، لأن لفظ الدواب وإن كان يطلق على الناس ، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلا خاصا يجعل العقول تتجه إلى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التى لا تعقل أقرب منهم إلى الآدميين العقلاء ، وفى وصفه - سبحانه - لهم بأنهم شر الدواب زيادة توبيخ لهم ، لأنهم ليسوا دوابا فحسب بل هم شرها وأخسها .

وقوله : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ تذييل جيء به على وجه الاعتراض بالبيان أى : أنهم - بسبب إصرارهم على الكفر - صار الإيمان بعيدا عنهم ، وأنهم سواء أنذروا أو لم ينذروا مستمرون فى الضلال والعناد .

وقوله : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة .. ﴾ بدل من الموصول الأول وهو قوله : ﴿ الذين كفروا .. ﴾ أو عطف بيان له .

أى : إن شر الدواب عند الله الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه ، الذين ﴿ عاهدت منهم ﴾ أى : أخذت منهم عهدهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة دون أن يفوا بعهودهم ولو مرة واحدة من المرات المتعددة .

فقوله : ﴿ عاهدت ﴾ مضمن معنى الأخذ ، ولذا عدى بمن .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ الذين عاهدت منهم .. ﴾ بدل من الموصول الأول ، أو عطف بيان ، أو نعت ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو نصب على الذم ، وعائد الموصول قيل : ضمير الجمع المجرور ، والمراد : عاهدتهم ، و﴿ من ﴾ للإيذان بأن المعاهدة - التى هى عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين - معتبرة هنا من حيث أخذه - ﷺ - ، إذ هو المناط لما نعى عليهم من النقض ، لا إعطاؤه - عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل : الذين أخذت منهم عهدهم ، وقال أبو حيان : تبعيضية ، لأن المباشر بعضهم لا كلهم .. »[1] .

وقوله : ﴿ ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ﴾ معطوف على الصلة .

وكان العطف « بثم » المفيدة للتراخى ، للإيذان بالتفاوت الشديد بين ما أخذ عليهم من عهود ، وبين ما ترددوا فيه من نقض لها ، واستهانة بها .

وجيء بصيغة المضارع ﴿ ينقضون ﴾ المفيدة للحال والاستقبال ، للدلالة على تعدد النقض وتجدده ، وأنهم على نيته فى كل مرة يعاهدون فيها غيرهم .

وقوله : ﴿ وهم لا يتقون ﴾ فى موضع الحال من فاعل ﴿ ينقضون ﴾ .

أى : أن هؤلاء القوم دأبهم نقض العهود والمواثيق فى كل وقت ، ومع ذلك فحالهم وشأنهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٢٢ .

أنهم لا يشعرون خلال نقضهم للعهود بأى تحرج أو خجل ، بل يرتكبون ما يرتكبون من المنكرات دون أن يتقوا عارها ، أو يخشوا سوء عاقبتها .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء الناقضين لعهودهم فى كل مرة بدون حياء أو تدبر للعواقب فقال : ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ فالفاء فى قوله ﴿ فإما ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

وقوله : ﴿ تثقفنهم ﴾ من الثقف بمعنى الحذق فى إدراك الشىء وفعله .

قال الراغب : يقال ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق فى النظر ، ثم يتجوز فيه فيستعمل فى الإدراك وإن لم تكن معه ثقافته .

قال - تعالى - ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب ﴾[1] .

وقوله : ﴿ فشرد بهم ﴾ التشريد وهو عبارة عن التفريق مع الاضطراب ، يقال شردت بنى فلان ، أى : قلعتهم عن مواطنهم وطردتهم عنها حتى فارقوها قال الشاعر :

أطوف فى الأباطح كل يوم   مخافة أن يشرد بى حكيم

أى : مخافة أن يسمع بى ويطردنى حكيم ، وحكيم رجل من بنى سليم كانت قريش قد ولته الأخذ على أيدى السفهاء .

والمعنى : إنك يا محمد إذا ما أدركت فى الحرب هؤلاء الكافرين الناقضين لعهودهم وظفرت بهم - وهم بنو قريظة ومن لف لفهم - .. فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل يتفرق معه جمع كل ناقض للعهد ، ويفزع منه كل من كان على شاكلتهم فى الكفر ونقض العهود ، ويعتبر به كل من سمعه من أهل مكة وغيرهم .

فالباء فى قوله ﴿ فشرد بهم ﴾ للسببية ، وقوله ﴿ من خلفهم ﴾ مفعول شرد .

والمراد بمن خلفهم : كفار مكة وغيرهم من الضالين ، أى : افعل ببنى قريظة ما يشرد غيرهم خوفا وفزعا .

وقوله ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أى : لعل أولئك المشردين يتعظون بهذا القتل والتنكيل الذى نزل بهؤلاء الناقضين لعهودهم فى كل مرة ، فيمنعهم ذلك عن نقض العهد .

هذا ، وإن تلك الآية الكريمة لمن أحكم الآيات التى ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم العهود أخذاً شديداً رادعا .. حتى يبقى للمجتمع الإسلامى أمانه واستقراره وهيبته أمام أعدائه .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٧٩ .

إن الآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود ، فما بال من يحل به هذا الأخذ الشديد ؟

إنها الضربة المروعة ، بأمر الله - تعالى - رسوله أن ينزلها على رأس كل مستحق لها بسبب كفره وتلاعبه بالعهود .. وبذلك تبقى لدين الله هيبته وسطوته .

هذا هو حكم المصرين على كفرهم الناقضين لعهودهم .. أما الذين تخشى منهم الخيانة فقد بين - سبحانه - حكمهم بقوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

وقوله : ﴿ تخافن ﴾ من الخوف والمراد به هنا العلم .

وقوله ﴿ فانبذ ﴾ من النبذ بمعنى الطرح ، وهو مجاز عن إعلامهم بأنهم لا عهد لهم بعد اليوم ، فشبه - سبحانه - العهد بالشىء الذى يرمى لعدم الرغبة فيه ، وثبت النبذ له على سبيل التخييل ، ومفعول « فانبذ » محذوف أى : فانبذ إليهم عهودهم .

قال الجمل : وقوله : ﴿ على سواء ﴾ حال من الفاعل والمفعول معا ، أى : فاعل الفعل وهو ضمير النبى - ﷺ - ومفعوله وهو المجرور بإلى .

أى : حال كونكم مستوين فى العلم بطرح العهد . فعلمك أنت به لأنه فعل نفسك ، وعلمهم به بإعلامك إياهم ، فكأنه قيل فى الآية : فانبذ عهدهم وأعلمهم بنبذه ، ولا تقاتلهم بغتة لئلا يتهموك بالغدر وليس هذا من شأنك ولا من صفاتك »[1] .

والمعنى : وإما تعلمن - يا محمد - من قوم بينك وبينهم عهد أنهم على وشك نقضه منهم ، بأمارات تلوح لك تدل على غدرهم ، فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستو ظاهر : بأن تعلمهم بنبذك عهدهم قبل أن تحاربهم ، حتى تكون أنت وهم فى العلم بنبذ العهد سواء ، لأن الله - تعالى - لا يحب الخائنين وإن من مظاهر الخيانة التى يبغضها الله - تعالى - أن يحارب أحد المتعاهد معه دون أن يعلمه بإنهاء عهده .

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة عن أبى الفيض عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب منها ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر الله أكبر ، وفاء لا غدرا : إن رسول الله - ﷺ - قال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء » .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٢ .

قال : فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عيسة .

ثم قال ابن كثير ، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة ، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذى حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن سلمان الفارسى أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله - ﷺ - يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله إلى الإسلام ؛ فإن أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ، يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله »[1] .

وقال الفخر الرازى : قال أهل العلم : آثار نقض العهد إذا ظهرت ، فإما أن تظهر ظهوراً محتملا ، أو ظهورا مقطوعا به .

فإن كان الأول : وجب الإعلام على ما هو مذكور فى هذه الآية ، وذلك لأن بنى قريظة عاهدوا النبى - ﷺ - ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ، فحصل لرسول الله - ﷺ خوف الغدر منهم به وأصحابه ، فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب .

أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعا به ، فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد ، وذلك كما فعل رسول الله - ﷺ - بأهل مكة ، فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى - ﷺ - وصل إليهم جيش رسول الله بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة[2] .

أى : أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله - ﷺ - الذى جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان .

وبذلك ترى أن تعاليم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أسمى آفاق الوفاء والشرف والأمان .. وتحقر من شأن الخيانة والخائنين ، وتتوعدهم بالطرد من رحمة الله ، وبالبعد عن رضوانه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الكافرين لن ينجوا من عقابه ، وبشر المؤمنين بالنصر فقال : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٣٢٠ .

وقوله ﴿ يحسبن ﴾ من الحسبان بمعنى الظن ، وقد قرأ ابن عامر وحفص وحمزة « يحسبن » بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء .

وقوله : ﴿ يعجزون ﴾ من العجز ، وأصله - كما يقول الراغب - : التأخر عن الشيء .. ثم صار فى التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة ... والعجوز سميت بذلك لعجزها فى كثير من الأمور .. »[1] .

والمعنى - على القراءة بالياء - : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم أنهم قد سبقوا الله فنجوا من عقابه ، وخلصوا من عذابه .. كلا إن حسبانهم هذا باطل - لأنهم لا يعجزون الله ، بل هو - سبحانه - قادر على إهلاكهم وتعذيبهم فى كل وقت ...

وأن نجاتهم من القتل أو الأسر فى الدنيا لن تنفعهم شيئاً من العذاب المهين فى الآخرة .

وعلى هذه القراءة يكون فاعل ﴿ يحسبن ﴾ قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ ويكون المفعول الأول ليحسبن محذوف أى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، والمفعول الثانى جملة ﴿ سبقوا ﴾ .

وأما على القراءة الثانية ﴿ ولا تحسبن ﴾ فيكون قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول الأول . وجملة ﴿ سبقوا ﴾ هى المفعول الثانى .

أى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء الكافرين قد سبقونا بخيانتهم لك ، أو أفلتوا من عقابنا وصاروا فى مأمن منا ... كلا ، إنهم لايعجزوننا عن إداركهم وإنزال العقوبة بهم فى أى وقت نريده فنحن لا يعجزنا شيء ..

وعلى كلتا القراءتين فالمقصود من الآية الكريمة قطع أطماع الكافرين فى النجاة ، وإقناطهم من الخلاص ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن من لم يصبه عذاب الدنيا ، فسوف يصيبه عذاب الآخرة ، ولا مفر له من ذلك مادام قد استحب الكفر على الإيمان ، أما المؤمنون فلهم من الله - تعالى - التأييد والنصر وحسن العاقبة .

ثم أمر - سبحانه - المؤمنين باعداد وسائل القوة التى بها يصلون إلى النصر ، وإلى بعث الرعب فى قلوب أعدائهم .. فقال - عز وجل - :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ

---

(١) المفردات فى غريب القرآن جـ ٣٢٢ .

لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وقوله : ﴿ وأعدوا .. ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو من الإعداد بمعنى تهيئة الشىء للمستقبل ، والخطاب لكافة المؤمنين .

والرباط فى الأصل مصدر ربط ، أى شد ، ويطلق ، بمعنى المربوط مطلقا ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل الله . فالإضافة إما باعتبار عموم المفهوم الأصلى ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركا بين معان أخر كملازمة الثغور ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان .

قال صاحب الكشاف : والرباط : اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال - يقال نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل[1] .

والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تعدوا لقتال أعدائكم ما تستطيعون إعداده من وسائل القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها .

وجاء - سبحانه - بلفظ ﴿ قوة ﴾ منكراً ، ليشمل كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان .

قال الجمل : وقوله ﴿ من قوة ﴾ فى محل نصب على الحال ، وفى صاحبها وجهان : أحدهما أنه الموصول . والثانى : أنه العائد عليه ، إذ التقدير ما استطعتموه حال كونه بعض القوة ، ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ لبيان الجنس[2] .

وقوله : ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ معطوف على ما قبله من عطف الخاص على العام .

أى : أعدوا لقتال أعدائكم ، ما أمكنكم من كل ما يتقوى به عليهم فى الحرب ، من نحو : حصون وقلاع وسلاح . ومن رباط الخيل للغزو والجهاد فى سبيل الله .

وخص رباط الخيل بالذكر من بين ما يتقوى به ، لمزيد فضلها وغنائها فى الحرب ، ولأن الخيل كانت الأداة الرئيسية فى القتال فى العهد النبوى ، وقوله : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ بيان للمقصود من الأمر بإعداد ما يمكنهم إعداده من قوة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٣ .

وقوله : ﴿ ترهبون ﴾ من الرهبة وهى مخافة مع تحرز واضطراب .

والضمير المجرور - وهو قوله ﴿ به ﴾ - يعود إلى الإعداد المأخوذ من قوله ﴿ وأعدوا ﴾ .

أى : أعدوا ما استطعتم من قوة ، حالة كونكم مرهبين بهذا الإعداد عدو الله وعدوكم ، من كل كافر ومشرك ومنحرف عن طريق الحق ، وعلى رأس هؤلاء جميعا . كفار مكة الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق، ويهود المدينة الذين لم يتركوا وسيلة للإضرار بكم إلا فعلوها.

وقوله ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : ترهبون بهذا الإعداد أعداء معروفين لكم - كمشركى مكة ويهود المدينة ، وترهبون به أيضاً أعداء آخرين غيرهم أنتم لا تعرفونهم لأنهم يخفون عداوتهم لكم ، ولكن الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء يعلمهم ، وسيحبط أعمالهم .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بهؤلاء الأعداء الذين عبر الله عنهم بقوله لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فمنهم من قال : المراد بهم بنو قريظة ومنهم من قال : المراد بهم أهل فارس والروم .

ورجح ابن جرير أن المراد بهم : كفار الجن .. لأن المؤمنين كانوا عالمين بمداراة بنى قريظة وفارس والروم لهم ... والمعنى ترهبون بذلك الإعداد عدو الله وعدوكم من بنى آدم الذين علمتم عداوتهم ، وترهبون به جنسا آخر من غير بنى آدم لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم ؛ الله يعلمهم دونكم ، لأن بنى آدم لا يرونهم »[1] .

ورجح الفخر الرازى أن المراد بهم المنافقون ، قال : لأن المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات ، ويحتال فى إلقاء الإفساد والتفريق بين المسلمين - بطرق قد لا تعرف ، فإذا شاهد كون المسلمين فى غاية القوة خافهم وترك الأفعال المذمومة »[2] .

ولعل ما رجحه الفخر الرازى هو الأقرب إلى الصواب ، لأن عداوة المنافقين للمؤمنين كثيراً ما تكون خافية ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾[3] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق فى سبيله ، وبشر المنفقين بحسن الجزاء فقال: ﴿وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٣٢ طبعة مصطفى الحلبى - الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣ هـ ، سنة ١٩٥٤ م .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٦ المطبعة البهية .
(٣) سورة التوبة الآية ١٠١ .

أى : ﴿ وما تنفقوا ﴾- أيها المؤمنون- ﴿ من شىء ﴾ قل أو كثر هذا المنفق ﴿ فى سبيل الله ﴾ أى فى وجوه الخيرات التى من أجَلِّها الجهاد لإعلاء كلمة الدين ﴿ يوف إليكم ﴾ أى : يصل إليكم عوضه فى الدنيا وأجره فى الآخرة ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ أى : لا تنقصون شيئاً من العوض أو الأجر .

قالوا : والتعبير بالظلم – مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما – لبيان كمال نزاهته – سبحانه – عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه – تعالى – من القبائح ، وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه – تعالى – »[1] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ – وجوب إعداد القوة الحربية للدفاع عن الدين وعن الوطن وعن كل ما يجب الدفاع عنه ، لأن أعداء الإسلام إذا ما علموا أن أتباعه أقوياء هابوهم ، وخافوا بأسهم ، ولم يجرؤوا على مهاجمتهم .

قال القرطبى : وقوله – تعالى – ﴿ وأعدوا لهم ﴾ . أمر الله المؤمنين بإعداد القوة للأعداء ، بعد أن أكد تقدمة التقوى . فإن الله – تعالى – لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل فى وجوههم ، وبحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله – ﷺ – ، ولكن أراد أن يبتلى بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ ... »[2] .

وقال بعض العلماء : دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إتقاء بأس العدو وهجومه ، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزًا ، عظيمًا ، أبى الضيم ، قوى القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار .

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف ، فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض ، ولذا تعانى اليوم من غصته ما تعانى .

وكيف لا يطمع العدو فى بلاد الإسلام ، وهو لا يرى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو ؟

أما آن لها أن تتنبه من غفلتها ، فتعد العدة التى أمر الله بها لأعدائها ، وتتلافى ما فرطت قبل أن يداهم العدو ما بقى منها بخيله ورجله ..؟

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥ .

إن القوة التى طلب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء ، تتناول كل ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أقوياء . كإعداد الجيوش المدربة ، والأسلحة المتنوعة التى تختلف بحسب الأزمنة والأمكنة .

وما روى من تفسير القوة – التى وردت فى الآية – بالرمى ، فإنما هو على سبيل المثال ، ولأن الرمى كان فى ذلك الوقت أقوى ما يتقوى به[١] .

قال الفخر الرازى عند تفسيره للآية ، والمراد بالقوة هنا ما يكون سببًا لحصول القوة ، وذكروا فيه وجوها :

الأول : المرَاد من القوة أنواع الأسلحة .

الثانى : روى أنه – ﷺ – قرأ هذه الآية على المنبر وقال : « ألا إن القوة الرمى » قالها ثلاثًا .

الثالث : قال بعضهم : القوة هى الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعانى : الأولى أن يقال : هذا عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله – ﷺ – : « القوة هى الرمى » لا ينفى كون غير الرمى معتبرًا . كما أن قوله – ﷺ – « الحج عرفه » « والندم توبة » لا ينفى اعتبار غيره . بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هنا .

وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل ، والسلاح ، وتعليم الفروسية ، والرمى فريضة إلا أنه من فروض الكفايات[٢] .

إن رباط الخيل للجهاد فى سبيل الله فضله عظيم ، وثوابه كبير ، فقد كانت الخيل هى خير ما عرف العرب من وسائل الانتقال فى الحرب وأسرعها ، وما زالت الخيل لها قيمتها فى بعض أنواع الحروب .

قال القرطبى ، فإن قيل : إن قوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ كان يكفى ، فلماذا خص الخيل بالذكر ؟.

قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحرب وأوزارها[٣] التى عقد الخير فى نواصيها ، وهى

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٢٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٥ المطبعة البهية .

(٣) أوزار الحرب : أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره .

أقوى القوة ، وأشد العدة ، وحصون الفرسان ، وبها يجال فى الميدان ، لما كانت كذلك خصها بالذكر تشريفًا ، وأقسم بغبارها تكريمًا ، فقال : « والعاديات ضبحا »[١] .

وقال الإمام ابن العربى : وأما رباط الخيل فهو فضل عظيم ومنزلة شريفة .

روى الأئمة عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « الخيل ثلاثة ، لرجل ستر ، ولرجل أجر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى عليه وزر فرجل ربطها رياء وفخرًا ونواء لأهل الإسلام - أى : مناوأة ومعاداة - فهى عليه وزر .

وأما الذى هى عليه ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ، ولم ينس حق الله فى ظهورها فهى عليه ستر .

وأما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء إلا كتب الله له عدد ما أكلت حسنات .. » .

وروى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله - ﷺ - يلوى ناصية فرس بأصبعيه وهو يقول : « الخير معقود فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة »[٢] .

٤ - أن المقصود من إعداد العدة فى الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا فى الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين فى ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحدًا سواه - عز وجل ..

وليس المقصود بإعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله - تعالى - ..

ولذلك وجدنا الآية صريحة فى بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو - كما عبرت عنه ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ... ﴾ .

وهناك آيات أخرى صريحة فى بيان سبب مشروعية القتال فى الإسلام ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧ .

(٢) أحكام القرآن - القسم الثانى ص ٨٦٢ لابن العربى . طبعة عيسى الحلبى . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٣ .

والخلاصة : أن من تتبع آيات القرآن الواردة فى القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال فى الإسلام ينحصر فى رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقيدة ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

٥ - وجوب الإنفاق فى سبيل الله ، ومن أشرف وجوه الإنفاق فى سبيل الله أن يبذل المسلم ما يستطيع بذله فى الجهاد الذى هو ذروة سنام الإسلام ، والذى ما تركه قوم إلا ذلوا ... وألقوا بأنفسهم فى التهلكة .

ولقد بشرت الآية الكريمة المنفقين فى سبيل الله ، بأنه - سبحانه - سيجازيهم على إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .

قال - تعالى - ﴿ وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ وفى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى عن أبى يحيى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف »[1] .

ثم أمر - تعالى - رسوله - ﷺ - بقبول السلم والمصالحة ، إذا ما رغب أعداؤه فى ذلك ، وكانت ظواهرهم وأفعالهم تدل على صدق نواياهم فقال - تعالى - :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

وقوله ﴿ جنحوا ﴾ من الجنوح بمعنى الميل ، يقال : جنح فلان للشىء وإليه - يجنح - مثلث النون - جنوحًا . أى : مال إليه .

---

(١) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٤٨٩ طبعة عيسى الحلبى .

قال القرطبى : والجنوح : الميل . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه . ومنه قيل للأضلاع جوانح ، لأنها مالت على الحشوة - بضم الحاء وكسرها - أى : الأمعاء .

وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها فى السير قال ذو الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه   بذكراك والعيس المراسيل جنح[1]

وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيص « للسلم » - بكسر السين - وقرأ الباقون بالفتح . وإنما قال ﴿ لها ﴾ لأن السلم مؤنثة - تأنيث نقيضها وهى الحرب .. ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة[2] .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تنكل فى الحرب بأولئك الكافرين الناقضين لعهودهم فى كل مرة ، وأن تهيئ ما استطعت من قوة لإرهابهم فإن مالوا بعد ذلك إلى ﴿ السلم ﴾ أى : المسالمة والمصالحة فوافقهم ومل إليها ما دامت المصلحة فى هذه المسالمة .

وقوله ﴿ وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ معطوف على ﴿ فاجنح لها ﴾ لقصد التثبيت وبعث الطمأنينة فى قلبه .

أى : اقبل المسالمة ما دام فيها مصلحتك ، وفوض أمرك إلى الله - تعالى - ولا تخش مكرهم وكيدهم وغدرهم ، إنه - سبحانه - ﴿ هو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم ، فيجازيهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم فى نحورهم .

وعبر - سبحانه - عن جنوحهم إلى السلم بحرف ﴿ إن ﴾ الذى يعبر به عن الشىء المشكوك فى وقوعه ، للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلا لاختيار المسالمة أو المصالحة لذاتها ، وإنما هم جنحوا إليها لحاجة فى نفوسهم ، فعلى المؤمنين أن يكونوا دائما على حذر منهم ، وألا يأمنوا مكرهم .

هذا وقد اختلف العلماء فيمن عنى بهذه الآية . فمنهم من يرى أن المعنى بها أهل الكتاب ، ومنهم من يرى أن الآية عامة ، أى تشمل أهل الكتاب والمشركين . ثم اختلفوا بعد ذلك فى كونها منسوخة أولا ؟

وقد حكى ابن جرير معظم هذه الخلافات ورجح أن المقصود بهذه الآية جماعة من أهل الكتاب ، وأن الآية ليست منسوخة فقال ما ملخصه :

عن قتادة أن قوله ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .. ﴾ منسوخة بقوله فى سورة براءة

---

(١) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير وجنح : مائلة صدورها إلى الأرض .
(٢) تفسير القرطبى بتصرف يسير جـ ٨ ص ٣٩ .

﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾[١] . وبقوله ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾[٢] .

فقد كانت هذه - أى الآية التى معنا وهى قوله - تعالى - ﴿ وإن جنحوا للسلم ... ﴾ - قبل براءة . كان النبى - ﷺ - يوادع القوم إلى أجل ، فإما أن يسلموا ، وإما أن يقاتلهم ، ثم نسخ ذلك بعد فى براءة فقال : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

وعن عكرمة والحسن البصرى قالا : ﴿ وإن جنحوا للسلم ... ﴾ نسختها الآية التى فى براءة وهى قوله - تعالى - ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... ﴾[٣] الآية .

ثم قال ابن جرير : فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن هذه الآية منسوخة ، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل .

لأن قوله ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .. ﴾ إنما عنى به بنو قريظة - كما قال مجاهد - وكانوا يهودا أهل كتاب وقد أذن الله - جل ثناؤه - للمؤمنين بصلح أهل الكتاب ، ومتاركتهم الحرب ، على أخذ الجزية منهم ، وأما قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .. ﴾ فإنما عنى به مشركو العرب من عبدة الأوثان ، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم ، فليس فى إحدى الآيتين نفى حكم الأخرى ، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه ..[٤] .

هذا ما يراه ابن جرير . أما ابن كثير فقد وافقه على أن الآية ليست منسوخة ، وخالفه فى أن المقصود بها بنو قريظة ، فهو يرى أن الآية عامة فقد قال - رحمه الله - :

قوله : ﴿ وإن جنحوا ﴾ أى : مالوا ﴿ للسلم ﴾ أى المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فاجنح لها ﴾ أى : فمل إليها واقبل منهم ذلك . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله - ﷺ - تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر ...

وقال مجاهد : نزلت فى بنى قريظة ، وهذا فيه نظر ، لأن السياق كله فى موقعة بدر ، وذكرها مكتنف لها كله .

وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى وعكرمة والحسن وقتادة : إن الآية منسوخة بآية السيف فى براءة ، وهى قوله - تعالى - ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من االذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ .

---

(١) سورة براءة « التوبة » الآية ٥ .
(٢) سورة براءة « التوبة » الآية ٣٦ .
(٣) سورة براءة « التوبة » الآية ٢٩ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٣٤ .

وفيه نظر أيضًا ، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إذا كان العدو كثيفًا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ﴿ وإن جنحوا ... ﴾ وكما فعل النبى - ﷺ - يوم الحديبية . فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص ..»[1] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن كثير أرجح ، لأن الآية الكريمة تقرر مبدأ عامًا فى معاملة الأعداء ، وهو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم ما دام ذلك فى مصلحة المسلمين .

ولعل هذا هو ما قصده صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآية - : « والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم . وليس بحتم أن يقاتلوا أبدًا . أو يجابوا إلى الهدنة أبدًا »[2] .

ثم أمن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - من خداع أعدائه ، إن هم أرادوا خيانته ، وبيتوا له الغدر من وراء الجنوح إلى السلم فقال - تعالى - : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ .

أى : وإن يرد هؤلاء الأعداء الذين جنحوا إلى السلم فى الظاهر أن يخدعوك - يامحمد - لتكف عنهم حتى يستعدوا لمقاتلتك فلا تبال بخداعهم ، بل صالحهم مع ذلك إذا كان فى الصلح مصلحة للإسلام وأهله ، ولا تخف منهم ، فإن الله كافيك بنصره ومعونته ، فهو - سبحانه - الذى أمدك بما أمدك به من وسائل النصر الظاهرة والخافية ، وهو - سبحانه - الذى أيدك بالمؤمنين الذين هانت عليهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل إعزاز هذا الدين ، وإعلاء كلمته ..

فالآية الكريمة تشجيع للنبى - ﷺ - على السير فى طريق الصلح ما دام فيه مصلحة للإسلام وأهله ، وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء بإظهار الميل إلى السلم المخادعة والمراوغة . وقوله : ﴿ حسبك ﴾ صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل . أى . بحسبك وكافيك .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : أليس قد قال - تعالى - ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم ... ﴾ أى : أظهر نقض ذلك العهد ، وهذا يناقض ما ذكره فى هذه الآية ؟

قلنا : قوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ محمول على ما إذا تأكد ذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها،وتحمل هذه المخادعة على ما إذا حصل فى قلوبهم نوع نفاق وتزوير ، إلا أنه لم تظهر أمارات على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة ، بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسالمة وترك المنازعة ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٣ .

فإن قيل : لما قال : ﴿ هو الذى أيدك بنصره ﴾ فأى حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال ﴿ وبالمؤمنين ﴾ ؟

قلنا : التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين : أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة والثانى ما يحصل بواسطة أسباب معلومة .

فالأول هو المراد من قوله ﴿ أيدك بنصره ﴾ والثانى هو المراد من قوله : ﴿ وبالمؤمنين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله فى كيفية تأييده لرسوله بالمؤمنين فقال - تعالى - : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ .

أى : أن من مظاهر فضل الله عليك يا محمد أن أيدك - سبحانه - بنصره وأن أيدك بالمؤمنين ، بأن حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، وجعل منهم قوة موحدة ، فصاروا بفضله - تعالى - كالنفس الواحدة ، بعد أن كانوا متنازعين متفرقين وأنت يا محمد ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ﴾ من الذهب والفضة وغيرهما ما استطعت أن تؤلف بين قلوبهم المتنافرة المتنازعة ﴿ ولكن الله ﴾ بفضله وقدرته هو وحده الذى ﴿ ألف بينهم ﴾ فصاروا إخوانًا متحابين متصافين ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ عزيز ﴾ أى : غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن ﴿ حكيم ﴾ فى كل أفعاله وأحكامه ..

وهذه الآية الكريمة يؤيدها التاريخ ، ويشهد بصدقها أحداثه ، فنحن نعلم أن العرب - وخصوصًا الأوس والخزرج - كانوا قبل الإسلام فى حالة شديدة من التفرق والتخاصم والتنازع والتحارب .. فلما دخلوا فى الإسلام تحول بغضهم إلى حب ، وتخاصمهم إلى مودة ، وتفرقهم إلى اتحاد ... وصاروا فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، إلى مستوى لم يعرفه التاريخ من قبل ...

ولقد أجاد صاحب الكشاف - رحمه الله - فى تصويره لهذه المعانى حيث قال : « التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله - ﷺ - من الآيات الباهرة ، لأن العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة .. - لا يكاد يأتلف منهم قلبان ، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله - ﷺ - واتحدوا ، وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط عنهم من التباغض

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٨ .

والتماقت ، وكلفهم من الحب ، فى الله والبغض فى الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كيف يشاء ، ويصنع فيها ما يريد .

قيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ، ويديم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها ، وتكرهه وتنفر منه .

فأنساهم الله - تعالى - ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا أنصارًا ، وعادوا أعوانًا ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه ، وبليغ قدرته »[١] . هذا ، وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما خطب الأنصار فى شأن غنائم « حنين » قال لهم : يامعشر الأنصار !! ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ؛ وعالة فأغناكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ فكانوا يقولون كلما قال شيئًا : الله ورسوله أمن »[٢] .

وروى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتنكر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء . ثم يقرأ قوله - تعالى - : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ... ﴾[٣] .

ثم مضت السورة الكريمة فى تثبيت الطمأنينة فى قلب النبى - ﷺ - وفى قلوب أصحابه ، فبينت لهم أن الله كافيهم وناصرهم ، وأن القلة منهم تغلب الكثرة من أعداء الله وأعدائهم فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ
يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٣ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٠٠ من « كتاب المغازى » طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٤٥ وصحيح مسلم جـ ٣ ص ١٠٨ من « كتاب الزكاة » .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٣ .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء ، وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقًا على جميع التقديرات ، وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار ؛ لأن المعنى فى الآية الأولى : إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم .

والمعنى فى هذه الآية عام فى كل ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا .

وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ... »[1] .

وقوله : ﴿ حسبك ﴾ صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل ، والكاف فى محل جر .

والواو فى قوله ﴿ ومن اتبعك ﴾ بمعنى مع ، و ﴿ من ﴾ فى محل نصب عطفًا على الموضع ، فإن قوله ﴿ حسبك ﴾ بمعنى كافيك فى جميع أمورك .

والمعنى : يأيها النبى كافيك الله وكافى متبعيك من المؤمنين فهو - سبحانه - ناصركم ومؤيدكم على أعدائكم وإن كثر عددهم وقل عددكم ، وما دام الأمر كذلك ، فاعتمدوا عليه وحده ، وأطيعوه فى السر والعلن ؛ لكى يديم عليكم عونه وتأييده ونصره .

قال بعض العلماء : قال ابن القيم عند تفسيره لهذه الآية : أى : الله وحده كافيك وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وههنا تقديران :

أحدهما : أن تكون الواو عاطفة للفظ « من » على الكاف المجرورة ..

والثانى : أن تكون الواو بمعنى « مع » وتكون « من » فى محل نصب عطفًا على الموضع ، فإن « حسبك » فى معنى كافيك أى : الله يكفيك ويكفى من اتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيدا درهم ، قال الشاعر :

وإذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٩١ . طبعة عبد الرحمن محمد .

وهذا أصح التقديرين. وفيها تقدير ثالث؛ أن تكون «من» فى موضع رفع بالابتداء: أى ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله .

وفيها تقدير رابع وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون « من » فى موضع رفع عطفا على اسم الله . ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك .

هذا وإن قال به بعض الناس فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة ... »(١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بتحريض المؤمنين على القتال من أجل إعلاء كلمة الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ... ﴾ .

وقوله : ﴿ حرض ﴾ من التحريض بمعنى الحث على الشىء بكثرة التزيين له ، وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس .

قال الراغب : الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ، ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك حرض . قال - تعالى - ﴿ حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ ..

والتحريض : الحث على الشىء .. فكأنه فى الأصل إزالة الحرض نحو حرضته وقذيته أى : أزلت عنه الحرض والقذى .. »(٢) .

والمعنى : يأيها النبى بالغ فى حث المؤمنين وإحمائهم على القتال بصبر وجلد ، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل .

ولهذا كان رسول الله - ﷺ - يحرض أصحابه على القتال عند صفهم ومواجهة الأعداء كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » . فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله : نعم . فقال عمير : بخ بخ ، فقال - ﷺ - : « ما يحملك على قولك بخ بخ » ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها ، قال - ﷺ - « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن » ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل - رضى الله عنه -(٣) .

وقوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٣٠ .
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ١١٣ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٤ .

من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ بشارة من الله - تعالى - للمؤمنين ووعد لهم بالظفر على أعدائهم .

أى : قاتلوا - أيها المؤمنون أعداءكم بقوة وإقدام ، فإنكم إن يوجد منكم عشرون رجلاً صابرون يغلبوا - بسبب إيمانهم وصبرهم - مائتين من الكافرين ، وإن يوجد منكم مائة يغلبوا ألفًا منهم ، وذلك بسبب أن هؤلاء الكافرين قوم جهلة بحقوق الله - تعالى - وبما يجب عليهم نحوه .

فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : « يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم » فيقل ثباتهم . ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ، ويستحقون الخذلان . بخلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله - تعالى - »[1] .

وقال صاحب المنار : والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وإرتقاء الأمم . وأن حرمان الكفار من هذا العلم هو السبب فى كون المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين ...

وهكذا كان المؤمنون فى قرونهم الأولى .. أما الآن فقد أصبح المسلمون غافلين عن هذه المعانى الجليلة ، فزال مجدهم ..[2] .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله على المؤمنين ورحمته بهم فقال : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله .. ﴾ .

وقوله ﴿ ضعفًا ﴾ قرأه بعضهم بفتح الضاد ، وقرأه آخرون بضمها ، وهما بمعنى واحد عند الجمهور ، والمراد به الضعف فى البدن .

وقيل الضعف - بالفتح - يكون فى الرأى والعقل ، وبالضم يكون فى البدن .

والمعنى : لقد فرضنا عليكم - أيها المؤمنون - أول الأمر أن يثبت الواحد منكم أمام عشرة من الكافرين .. والآن وبعد أن شق عليكم الاستمرار على ذلك ، ولم تبق هناك ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عددكم .. شرعنا لكم التخفيف رحمة بكم ، ورعاية لأحوالكم ، فأوجبنا عليكم أن يثبت الواحد منكم أمام اثنين من أعدائكم بدلاً من عشرة ، وبشرناكم بأنه إن يوجد منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من أعدائكم ، وإن يوجد منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله وتيسيره وتأييده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٨٩ بتصريف وتلخيص .

وقوله : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أي : والله - تعالى - مع الصابرين بتأييده ورعايته ونصره ، فاحرصوا على أن تكونوا من المؤمنين الصادقين لتنالوا منه - سبحانه - ما يسعدكم فى دنياكم وآخرتكم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت الآية السابقة عليها ، ومنهم من يرى غير ذلك .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون .. ﴾ شرط فى معنى الأمر بمصابرة الواحد العشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا - بعون الله وتأييده - فالجملة خبرية لفظًا إنشائية معنى .

والمعنى : ليصبرن الواحد لعشرة ؛ وليست بخبر محض ...

وقوله : ﴿ الآن خفف الله عنكم .. ﴾ أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون .. ﴾ شق ذلك على المسلمين إذ فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف وهل يعد ذلك نسخا أوْ لا ؟ قولان: اختار بعضهم الثانى منهما وقال : إن الآية مخففة ، ونظير ذلك التخفيف على المسافر بالفطر .

وذهب الجمهور إلى الأول ، وقالوا : إن الآية الثانية ناسخة للأولى[1] . وقال بعض العلماء : فرض الله على المؤمنين أول الأمر ألا يفر الواحد من المؤمنين من العشرة من الكفار ، وكان ذلك فى وسعهم ، فأعز الله بهم الدين على قلتهم ، وخذل بأيديهم المشركين على كثرتهم ، وكانت السرايا تهزم من المشركين أكثر من عشر أمثالها تأييدًا من الله لدينه .

ولما شق على المؤمنين الاستمرار على ذلك ، وضعفوا عن تحمله ، ولم تبق ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عدد المسلمين ممن دخلوا فى دين الله أفواجًا نزل التخفيف ، ففرض على الواحد الثبات للاثنين من الكفار ، ورخص له فى الفرار إذا كان العدو أكثر من اثنين .

وهو رخصة كالفطر للمسافر ، وذهب الجمهور إلى أنه نسخ »[2] .

وقال الشيخ القاسمى : إن قيل : إن كفاية عشرين لمائتين تغنى عن كفاية مائة لألف ، وكفاية مائة لمائتين تغنى عن كفاية ألف لألفين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة فى الأولى ، وثبات الواحد للاثنين فى الثانية فما سر هذا التكرير ؟

أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل على الكثير لزيادة التقرير المفيد لزيادة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣١ بتصريف وتلخيص .
(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٣٠٧ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف .

الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين ، وتغلب المائة الألف ، وأما الترتيب فى المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعى .

وقيل فى سر ذلك : إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددهم العشرات والمئات إلى الألوف .

ثم قال : وقال فى البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت فى الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت فى الثانية قيد كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت فى أولى جملتى التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ مبالغة فى شدة المطلوبية ، وإشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتمًا ، لأن من كان الله معه لا يغلب ... »[1] .

وبعد هذا الحديث المستفيض عن القتال فى سبيل الله .. عقب - سبحانه - ذلك بالحديث عن بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرى بمناسبة ما فعله الرسول - ﷺ - مع أسرى غزوة بدر من الكافرين ، فقال - تعالى - :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب : أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله - ﷺ - إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتنى .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٣٩ .

فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله - ﷺ - لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى أن يهديهم الله إلى الإسلام .

فقال رسول الله - ﷺ - ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، - حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين : فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله - ﷺ - ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت :

فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يارسول الله . أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك . فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال رسول الله - ﷺ - : أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة « لشجرة قريبة منه - ﷺ - وأنزل الله - عز وجل - : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ... ﴾ إلخ الآيات[1] .

وروى الإمام أحمد والترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ - « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى » ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله ! قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : يارسول الله ! كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ، أنت بواد كثير الحطب فأضرم الوادى عليهم نارًا ثم ألقهم فيه .

قال : فسكت رسول الله - ﷺ - فلم يرد شيئًا . ثم قال فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ؛ ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

---

(١) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٥٦ من كتاب الجهاد والسير طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٠ .

إبراهيم إذ قال ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾[١] وكمثل عيسى إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[٢] .

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ﴾[٣] ، وكمثل موسى إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] .

ثم قال - ﷺ - : « أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

قال ابن مسعود : فقلت يارسول ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : « إلا سهيل بن بيضاء » . وأنزل الله - عز وجل - ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ... ﴾ إلى آخر الآية[٥] .

وقال ابن إسحاق - وهو يحكى أخبار غزوة بدر - : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله - ﷺ - في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ﷺ - متوشحًا السيف ، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون عليه الكرة . ورأى رسول الله - فيما ذكر لى - في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال رسول الله - ﷺ - « والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم » ؟ فقال : أجل والله يارسول الله : كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال[٦] .

قوله : ﴿ أسرى ﴾ : جمع أسير كقتلى جمع قتيل . وهو مأخوذ من الأسر بمعنى الشد بالإسار أى : القيد الذى يقيد به حتى لا يهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق على كل من يؤخذ من فئته في الحرب ولو لم يشد بالإسار .

وقوله ﴿ يثخن ﴾ من الثخانة وهى في الأصل الغلظ والصلابة. يقال: ثخن الشيء يثخن ثخونة وثخانة وثخنًا ، أى : غلظ وصلب فهو ثخين ، ثم استعمل في النكاية والمبالغة في قتل العدو فقيل : أثخن فلان في عدوه . أى : بالغ في قتله وإنزال الجراحة الشديدة به ، لأنه بذلك يمنعه من الحركة فيصير كالثخين الذى لا يسيل ولا يتحرك .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .
(٢) سورة المائدة الآية ١١٨ .
(٣) سورة نوح الآية ٢٦ .
(٤) سورة يونس الآية ٨٨ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٥ .
(٦) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ ٥ ص ١٠٦ .

والمراد بالنبى فى قوله ﴿ ما كان لنبى ﴾ : نبينا محمد - ﷺ - وإنما جىء باللفظ منكرًا تلطفًا به - ﷺ - حتى لا يواجه بالعتاب .

والمعنى : ما صح وما استقام لنبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أن يكون له أسرى ﴾ من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرًا ﴿ حتى يثخن فى الأرض ﴾أى : حتى يبالغ فى قتلهم ، وإنزاله الضربات الشديدة عليهم إذلالاً للكفر وإعزازا لدين الله .

وقوله : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ استئناف مسوق للعتاب .

والعرض ؛ ما لا ثبات له ولا دوام من الأشياء ، فكأنها تعرض ثم تزول ، والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذوه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا سراحهم .

تريدون - أيها المؤمنون - بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لا ثبات له ، والله - تعالى - يريد لكم ثواب الآخرة .

فالكلام فى قوله : ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : والله - تعالى - يرضى لكم العمل الذى يجعلكم تظفرون بثوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل إذلال الشرك على أخذ الفداء من أهله .

وقوله : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أى : والله - تعالى - ﴿ عزيز ﴾ لا يغالب بل هو الغالب على أمره ﴿ حكيم ﴾ فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين ، لأنهم آثروا الفداء على القتل والإثخان فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين الشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين آثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل لكان ذلك أدعى لكسر شوكة الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها ، وأصرح فى بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها ، وأنهم لا يوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته ، وهذا ما عبر عنه عمر - رضى الله عنه - بقوله : « وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين » .

والخلاصة أن غزوة بدر - بظروفها وملابساتها التى سبق أن أشرنا إليها - كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا فى قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة .

ورضى الله - تعالى - عن « سعد بن معاذ » فقد ظهرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وقال - كما سبق أن بينا - : « .. كانت غزوة بدر - أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال ».

قال الفخر الرازى : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا قليلين ، فلما كثروا وقوى سلطانهم أنزل الله بعد ذلك فى الأسارى ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾[١] .

ثم قال الرازى : وأقول : إن هذا الكلام يوهم أن قوله ﴿ فإما مَنًّا بعد وإما فداء ﴾ يزيد على حكم الآية التى نحن فى تفسيرها : وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كلتيهما تدل على أنه لابد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء »[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ .

والمراد بالكتاب هنا : الحكم ، وأطلق عليه كتاب لأن هذا الحكم مكتوب فى اللوح المحفوظ .

وللمفسرين أقوال فى تفسير هذا الحكم السابق فى علم الله - تعالى - :

فمنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب المخطئ فى اجتهاده .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال قوله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ . أى : لولا حكم منه سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو أنه - سبحانه - لا يعاقب أحدًا بخطأ ، وكان هذا خطأ فى الاجتهاد ، لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سببًا فى إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد فى سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم ، وأفل لشوكتهم .. »[٣] .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب قومًا إلا بعد تقديم النهى عن الفعل ولم يتقدم نهى عن أخذ الفداء .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذبهم ما دام رسول الله - ﷺ - بينهم .

أو أنه - سبحانه - لا يعذب أحدًا ممن شهد بدرًا .

وقد ساق الإمام الرازى هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن المراد بالكتاب الذى سبق : هو حكمه - سبحانه - فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

---

(١) سورة محمد - عليه السلام - الآية ٥ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٣ ص ٢٠٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٧ .

أما الإمام ابن جرير فهو يرى : أن الآية خبر عام غير محصور على معنى دون معنى ، وأنه لا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى .. فقال : يقول الله - تعالى - لأهل بدر الذين أخذوا من الأسرى الفداء ﴿ لولا كتاب من الله سبق .. ﴾ .

أى : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر فى اللوح المحفوظ بأن الله يحل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى أنه لا يضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، وأنه لا يعذب أحدًا شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر .. لولا كل ذلك لنالكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم »[1] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعانى - أولى بالقبول ، لأنه لم يوجد نص صحيح عن النبى - ﷺ - يحدد تفسير المراد من هذا الكتاب السابق فى علمه - تعالى - .

ولعل الحكمة فى هذا الإبهام لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، ويدل عليه المقام ، ولكى يعرفوا أن أخذهم الفداء كان ذنبًا يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله - تعالى - قدر فى الأزل العفو عنهم بسبب وجود النبى - ﷺ - فيهم ، ولأنهم قد أخطأوا فى اجتهادهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهى عن ذلك ، ولأنهم قد شهدوا هذه الغزوة التى قال الرسول فى شأن من حضرها على لسان ربه - عز وجل - : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله - ﷺ - قال لعمر فى قصة حاطب بن أبى بلتعة عند ما أخبر المشركين بأن الرسول سيغزوهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدرًا : « وما يدريك لعل الله - تعالى - اطلع على أهل بدر وقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[2] .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أى : لولا حكم من الله - تعالى - سبق منه فى الأزل ألا يعذب المخطئ على اجتهاده أو ألا يعذب قومًا قبل تقديم البيان إليهم .. ولولا كل ذلك ﴿ لمسكم ﴾ أى لأصابكم ﴿ فيما أخذتم ﴾ أى بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿ عذاب عظيم ﴾ لا يقادر قدره فى شدته وألمه .

قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيرًا إلا ضرب عنقه وقال : يارسول الله مالنا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٥ .

وللغنائم ؟ نحن قوم نجاهد فى دين الله حتى يعبد الله فقال رسول الله - ﷺ - : « لو عذبنا فى هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك » ..

وقال ابن اسحاق : لما نزلت ﴿ لولا كتاب من الله سبق ... ﴾ الآية . قال رسول الله - ﷺ - « لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يانبى الله ، كان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال »[١] .

وقال بعض العلماء : قال القاضى ، وفى الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لا يقرون عليه[٢] .

ثم زاد - سبحانه - المؤمنين فضلا ومنة فقال: ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبًا ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

قال الآلوسى روى أنه لما نزلت الآية الأولى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ..﴾ كف الصحابة أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت هذه الآية .

فالمراد بقوله ﴿ مما غنمتم ﴾ إما الفدية وإما مطلق الغنائم ، والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية ، وإلا فحل الغنيمة مما عداها علم سابقًا من قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ ..

وقيل المراد بقوله : ﴿ مما غنمتم ﴾ الغنائم من غير اندراج الفدية فيها ، لأن القوم لما نزلت الآية الأولى امتنعوا عن الأكل والتصرف فيها تزهدًا منهم ، لا ظنًا لحرمتها .. والفاء للعطف على سبب مقدر ، أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم [٣] .

والمعنى : لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون - فيما وقعتم فيه من تفضيلكم أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأبحث لكم الانتفاع بالغنائم فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حلالا طيبًا ، أى لذيذًا هنيئًا لا شبهة فى أكله ولا ضرر ﴿ واتقوا الله ﴾ فى كل أحوالكم بأن تخشوه وتراقبوه ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ولذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح لكم ما أخذتموه من فداء . فسبحانه من إله واسع الرحمة والمغفرة ، لمن اتقاه وتاب إليه توبة صادقة .

وقوله ﴿ حلالا ﴾ حال من « ما » الموصولة فى قوله : ﴿ مما غنمتم ﴾ أو صفة لمصدر محذوف ، أى : أكلا حلالا .

ووصف هذا المأمور بأكله بأنه حلال طيب ، تأكيدًا للإباحة حتى يقبلوا على الأكل منه بدون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٤٨ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٩٣٩ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٦ .

تحرج أو تردد، فإن معاتبتهم على أخذ الفداء قبل ذلك جعلتهم يترددون فى الانتفاع به وبما غنموه من أعدائهم .

ثم أمرت السورة النبى - ﷺ - أن يخبر الأسرى بأنهم إذا ما فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، - سبحانه - سيعوضهم عما فقدوه خيرًا منه ، أما إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم فإن الدائرة ستدور عليهم.استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذا المعنى بأسلوبها البليغ فتقول :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

قال : ابن كثير : عن الزهرى عن جماعة سماهم قالوا : بعثت قريش إلى رسول الله - ﷺ - فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا .

وقال العباس : يارسول الله ! قد كنت مسلمًا ! فقال رسول الله - ﷺ - : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر » .

قال العباس : ما ذاك عندى يارسول الله ، فقال له رسول الله - ﷺ - « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنىّ : الفضل ، وعبد الله ، وقثم » ؟

قال : والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله . إن هذا الشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى : - عشرين أوقية من مال كان معى - .

فقال رسول الله - ﷺ - : « لا ، ذاك شىء أعطانا الله منك » .

ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه . فأنزل الله - تعالى - فيه ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ... ﴾ الآية .

قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبدًا كلهم فى يده مال يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله - تعالى -[(١)] .

وفى صحيح البخارى عن أنس : أن رجالاً من الأنصار قالوا : يارسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه .

فقال - ﷺ - : « لا والله ! لا تذرون منه درهما » . هذا ، والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت فى العباس إلا أنها عامة فى جميع الأسرى ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولأن الخطاب فيها موجه إلى سائر الأسرى لا إلى فرد منهم دون آخر .

والمعنى : ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم ﴾ أى : قل للذين تحت تصرف أيديكم ﴿ من الأسرى ﴾ أى : من أسرى المشركين فى بدر الذين أخذتم منهم الفداء لتطلقوا سراحهم .

قل لهم - أيها النبى الكريم - ﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا ﴾ أى : إيمانًا وتصديقًا وعزمًا على اتباع الحق ونبذ الكفر والعناد .. إن يعلم الله - تعالى - منكم ذلك ﴿ يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ﴾ من فداء ، بأن يخلفه عليكم فى الدنيا ، ويمنحكم الثواب الجزيل فى الآخرة .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده مع من آمن وعمل صالحًا من هؤلاء الأسرى ، فأعطاهم الكثير من نعمه كما قال العباس - رضى الله عنه -

وقوله : ﴿ ويغفر لكم ﴾ زيادة فى حضهم على الدخول فى الإيمان .

وقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الوعد بالخير والمغفرة .

أى : والله - تعالى - واسع المغفرة ، والرحمة لمن استجاب للحق ، وقدم العمل الصالح .

والتعبير ، بقوله : ﴿ لمن فى أيديكم ﴾ للإشعار بأن هؤلاء الأسرى المشركين قد صاروا فى قبضة المؤمنين وتحت تصرفهم ، حتى لكأن أيديهم قابضة عليهم .

وأسند وجود الخير فى قلوبهم إلى علم الله - تعالى - للإشارة إلى أن ادعاء الإيمان باللسان فقط لا يكفل لهم الحصول على الخير الذى فقدوه ولا يوصلهم إلى مغفرة الله - تعالى - فعليهم أن يخلصوا لله فى إيمانهم حتى ينالوا فضله وثوابه ، فهو - سبحانه - عليم بذات الصدور .

وقوله : ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ . إنذار لهم بسوء المصير إذا مالجوا فى عنادهم وغدرهم ، وبشارة من الله - تعالى - لرسوله والمؤمنين بأن العاقبة ستكون لهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٨ .

أى : وإن يرد هؤلاء الأسرى نقض عهودهم معك - يا محمد - والاستمرار فى محاربتك ومعاداتك .. فلا تهتم بهم ، ولا تجزع من خيانتهم فهم قد خانوا الله - تعالى - من قبل هذه الغزوة بكفرهم وجحودهم لنعمه فكانت نتيجة ذلك أن أمكنك منهم ، وأظفرك بهم ، وسينصرك عليهم بعد ذلك كما نصرك عليهم فى بدر ، والله - تعالى - عليم بما يسرونه وما يعلنونه ، حكيم فى تدبيره وصنعه .

فالآية الكريمة إنذار للأسرى إذا ما استحبوا العمى على الهدى ، وتبشير للرسول - ﷺ - بأن خيانتهم سيكون وبالها عليهم .

قال الفخر الرازى : وقوله ﴿ فأمكن منهم ﴾ قال الأزهرى : يقال أمكننى الأمر يمكننى فهو ممكن ومفعول الإمكان محذوف .

والمعنى : فأمكن المؤمنين منهم ، أى : أنهم خانوا الله بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر . فأمكن الله منهم قتلا وأسرا ، وذلك نهاية الإمكان والظفر . فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ، فإن عادوا كان التمكين منهم ثابتًا حاصلاً ، وفيه بشارة للرسول - ﷺ - أنه يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده »[1] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى حدثت عن أسرى غزوة بدر ما يأتى :

١ - أن على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يجعلوا جهادهم خالصًا لوجه الله ومن أجل إعلاء كلمته ونصرة دينه ، وذلك بأن يبالغوا فى قتال أعدائه وأعدائهم إذلالا للكفر وإعزازًا للحق ، وأن يؤثروا كل ذلك على أعراض الدنيا ومتعها .

٢ - أن أخذ الفداء من الأسرى لا شىء فيه فى ذاته ، وإنما عاتب الله المؤمنين على أخذه من أسرى بدر ، لأن هذه الغزوة كانت المعركة الأولى بين المؤمنين والمشركين ، وكان إذلال المشركين فيها عن طريق المبالغة فى قتلهم أهم من أخذ الفداء منهم ، وأظهر فى كسر شوكتهم ، وعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين .

قال ابن كثير . وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام مخير فيهم ، إن شاء قتل - كما فعل ببنى قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله - ﷺ - فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٠٦ .

هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء ، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه »[١] .

٣ - أن الذين شهدوا بدرًا من المسلمين كانت لهم مكانتهم السامية ، ومنزلتهم العالية ، عند الله - تعالى - .

ومما يدل على ذلك أنه - سبحانه - عفا عن خطئهم فى أخذ الفداء من الأسرى ثم زادهم فضلاً ومنة فجعل غنائم الحرب حلالا لهم ، بعد أن كانت محرمة على أتباع الرسل السابقين .

ففى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى . نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[٢] .

٤ - أن الإسلام لايستبقى الأسرى لديه للإذلال والقهر والاستغلال، وإنما يستبقيهم ليوقظ فى فطرتهم نور الحق الذى باتباعه يعوضهم الله عما أخذ منهم فى الدنيا ، ويمنحهم ثوابه ومغفرته فى الآخرة .

أما إذا استمروا فى عداوتهم للحق ، فان الدائرة ستدور عليهم .

٥ - أن الإيمان لايكون صحيحا إلا إذا صاحبه التصديق والإذعان .

قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين فى بدر ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافا جازما ، ويشبه أنهم أرادوا أن يتقربوا من المسلمين ولا يبعدوا عن المشركين فنزلت الآية : ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى .. ﴾ الآية .

قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا ، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا إلا ما كان من الوسوسة التى لايقدر المرء على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها .

وقد بين الله لرسوله -ﷺ- الحقيقة فقال : ﴿وإن يريدوا خيانتك ﴾ أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك ، فأمكنك منهم . وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل ذلك منهم ، ويعوضهم خيرا مما

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٧ .
(٢) صحيح البخارى « باب التيمم » جـ ١ ص ٩١ .

أخذ منهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم[١] .

ثم ختم الله - تعالى - سورة الأنفال بالحديث عن علاقة المسلمين بعضهم ببعض ، وعن علاقتهم بغيرهم من الكفار وعن الأحكام المنظمة لهذه العلاقات

فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ
وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى
ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟
وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ
بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

هذه الآيات الكريمة التى ختم الله - تعالى - بها سورة الأنفال ، وضحت أن المؤمنين فى العهد النبوى أقسام ، وذكرت حكم كل قسم منهم .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربى جـ ٢ ص ٧٨٤ طبعة عيسى الحلبى الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ م .

أما القسم الأول : فهم المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى .
وأما القسم الثانى : فهم الأنصار من أهل المدينة .
والقسم الثالث : المؤمنون الذين لم يهاجروا .
والقسم الرابع : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

وقد عبر - سبحانه - عن القسمين : الأول والثانى بقوله: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ... ﴾ .

أى : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله - تعالى - حق الإيمان ﴿ وهاجروا ﴾ أى تركوا ديارهم وأوطانهم وكل نفيس من زينة الحياة الدنيا . من أجل الفرار بدينهم من فتنة المشركين ، ومن أجل نشر دين الله فى الأرض ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ أى : أنهم مع إيمانهم الصادق ، وسبقهم بالهجرة إرضاء لله - تعالى - ، قد بالغوا فى إتعاب أنفسهم من أجل نصرة الحق ، فقدموا ما يملكون من أموال ، وقدموا نفوسهم رخيصة لا فى سبيل عرض من أعراض الدنيا ، وإنما فى سبيل مرضاة الله ونصرة دينه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا القسم الأول من المؤمنين وهم الذين سبقوا إلى الهجرة . بأعظم الصفات وأكرمها .

فقد وصفهم بالإيمان الصادق ، وبالمهاجرة فرارا بدينهم من الفتن ، وبالمجاهدة بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله .

وقد جاءت هذه الأوصاف الجليلة مرتبة حسب الوقوع ، فإن أول ما حصل منهم هو الإيمان ، ثم جاءت من بعده الهجرة ، ثم الجهاد .

ولعل تقديم المجاهدة بالأموال هنا على المجاهدة بالأنفس ، لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا ، وأتم دفعا للحاجة ، حيث لاتتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالأموال .

وقوله ﴿ فى سبيل الله ﴾ متعلق بقوله ﴿ جاهدوا ﴾ لإبراز أن جهادهم لم يكن لأى غرض دنيوى ، وإنما كان من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمته - سبحانه -

وقوله : ﴿ والذين آووا ونصروا ﴾ بيان للقسم الثانى من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى ، وهم الأنصار من أهل المدينة الذين فتحوا للمهاجرين قلوبهم ، واستقبلوهم أحسن استقبال ، حيث أسكنوهم منازلهم ، وبذلوا لهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم .

فالآية الكريمة قد وصفت الأنصار بوصفين كريمين .

أولهما : الإيواء الذى يتضمن معنى التأمين من الخوف ، إذا المأوى هو الملجأ والمأمن مما

يخشى منه ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ... ﴾ [١] ، وقوله - تعالى - ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ... ﴾[٢] .

ولقد كانت المدينة مأوى وملجأ للمهاجرين ، وكان أهلها مثالا للكرم والإيثار ...

ثانيهما : النصرة ، لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول - ﷺ - والمهاجرين بكل ما يملكون من وسائل التأييد والمؤازرة ، فقد قاتلوا من قاتلهم ، وعادوا من عاداهم ، ولذا جعل الله - تعالى - حكمهم وحكم المهاجرين واحدا فقال : ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

فاسم الإشارة يعود إلى المهاجرين السابقين ، وإلى الأنصار .

وقوله : ﴿ أولياء ﴾ جمع ولى ويطلق على الناصر والمعين والصديق والقريب ...

والمراد بالولاية هنا : الولاية العامة التى تتناول التناصر والتعاون والتوارث ..

أى : أولئك المذكورون الموصوفون بهذه الصفات الفاضلة يتولى بعضهم بعضا فى النصرة والمعاونة والتوارث .. وغير ذلك ، لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة .

قال الالوسى ما ملخصه : « روى عن ابن عباس أن النبى - ﷺ - آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصارى ، إذا لم يكن له بالمدينة ولى مهاجرى وبالعكس ، واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة .. وعليه فالآية منسوخة بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. ﴾ .

وقال الأصم : الآية محكمة ، والمراد الولاية بالنصرة والمظاهرة[٣] .

والذى نراه أن الولاية هنا عامة فهى تشمل كل ما يحتاج إليه المسلمون فيما بينهم من تعاون وتناصر وتكافل وتوارث وغير ذلك ..

وقوله - تعالى - : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا .. ﴾ بيان لحكم القسم الثالث من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى ..

أى : هذا الذى ذكرته لكم قبل ذلك فى الآية هو حكم المهاجرين السابقين والأنصار الذى آووهم ونصروهم أما حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وهم المقيمون فى أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم . فإنهم ليس بينهم وبين المهاجرين والأنصار ولاية إرث ﴿ حتى يهاجروا ﴾ إلى المدينة ، كما أنكم - أيها المؤمنون - لاتنتظروا منهم تعاونا أو مناصرة ، لأنهم

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠ .

(٢) سورة يوسف الآية ٦٩ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٧ .

بسبب إقامتهم فى أرض الشرك وتحت سلطانه - أصبحوا لايملكون وسائل المناصرة لكم .

ثم قال- تعالى: ﴿وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ .

أى : وان طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم فى الدين ، فيجب عليكم أن تنصروهم ، لأنهم إخوانكم فى العقيدة ، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء عهد ومهادنة ، فإنكم فى هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا ، لأن فى نصرتهم - على من بينكم وبينهم عهد - نقضا لهذا العهد .

أى : إن نصرتكم لهم إنما تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار المعاهدين وهذا يدل على رعاية الإسلام للعهود ، واحترامه للشروط والعقود .

قال الجمل : أثبت الله - تعالى - للقسمين الأولين النصرة والإرث ، ونفى عن هذا القسم الإرث وأثبت له النصرة[1] .

وقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تذييل قصد به الترغيب فى طاعة الله ، والتحذير من معصيته .

أى : والله - تعالى - مطلع على كل أعمالكم فأطيعوه ، ولا تخالفوا أمره .

قبل أن تذكر السورة القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، تتحدث عن ولاية الكفار بعضهم لبعض فتقول : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ .

أى : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض فى النصرة والتعاون على قتالكم وإيذائكم - أيها المؤمنون - فهم وإن اختلفوا فيما بينهم إلا أنهم يتفقون على عداوتكم وإنزال الأضرار بكم .

وقوله : ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ تحذير شديد للمؤمنين عن مخالفة أمره - سبحانه - .

أى : إلا تفعلوا - أيها المؤمنون - ما أمرتكم به من التناصر والتواصل وتولى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة كبيرة فى الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ، لأنكم إذا لم تصيروا يداً واحدة على الشرك ، يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصيرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وعرضكم .. وبذلك تعم الفتنة ، وينتشر الفساد .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٩ .

وقوله - تعالى - ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا .. ﴾ كلام مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار .

إذ أن الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة قد ساقها الله - تعالى - لايجاب التواصل بينهم ، أما هذه الآية فقد ساقها سبحانه - للثناء عليهم والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الايمان وأكمله ، بخلاف من أقام من المؤمنين بدار الشرك ، مع الحاجة إلى هجرته وجهاده .

قال الفخر الرازى : أثنى الله - تعالى - على المهاجرين والأنصار من ثلاثة أوجه :

أولها - قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ فإن هذه الجملة تفيد المبالغة فى مدحهم ، حيث وصفهم بكونهم محقين فى طريق الدين .

وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محقا فى دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال .

وثانيها - قوله : ﴿ لهم مغفرة ﴾ والتنكير يدل على الكمال ، أى : مغفرة تامة كاملة .

وثالثها - قوله : ﴿ ورزق كريم ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع .

والحاصل : أنه - سبحانه - شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فقد وصفهم بقوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ .

وأما فى الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب ، وإما جلب الثواب .

أما دفع العقاب فهو المراد بقوله ﴿ لهم مغفرة ... ﴾ وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله ﴿ ورزق كريم ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان القسم الرابع من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى فقال : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم .. ﴾ .

أى : والذين آمنوا من بعد المؤمنين السابقين إلى الايمان والهجرة ، وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا مع المهاجرين السابقين والأنصار من أجل إعلاء كلمة الله ، فأولئك الذين هذا شأنهم ﴿ منكم ﴾ أى : من جملتكم - أيها المهاجرون والأنصار فى استحقاق الموالاة والنصرة ، واستحقاق الأجر من الله ، إلا أن هذا الأجر ينقص عن أجركم ، لأنه لا يتساوى السابق فى الإيمان والهجرة والجهاد مع المتأخر فى ذلك .

قالوا : والمراد بهذا القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، أهل الهجرة الثانية التى وقعت بعد

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢١٢ .

الهجرة الأولى ، وقيل المراد بهذا القسم المهاجرون بعد صلح الحديبية ، أو بعد غزوة بدر ، أو بعد نزول هذه الآية ، فيكون الفعل الماضى ﴿ آمنوا ﴾ وما بعده بمعنى المستقبل .

وقوله : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. ﴾ بيان لحقوق الأقارب بالنسب

والأرحام جمع رحم ، وأصله رحم المرأة الذى هو موضع تكوين الولد فى بطنها ، وسمى به الأقارب ، لأنهم فى الغالب من رحم واحدة وأولو الأرحام فى اصطلاح علماء الفرائض : هم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب .

أى : وذوو القرابة بعضهم أولى فى التوارث وفى غير ذلك مما تقتضيه مطالب الحياة من التكافل والتراحم .

وقوله : ﴿ فى كتاب الله ﴾ أى : فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام فى هذه الآية وغيرها .

قال الآلوسى : « أخرج الطيالسى والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس قال : آخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب »[1] .

أى أن هذه الآية الكريمة نسخت ما كان بين المهاجرين والانصار من التوارث بسبب الهجرة والمؤاخاة .

وقوله : ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ تذييل ختمت به السورة الكريمة لحض المؤمنين على التمسك بما اشتملت عليه من آداب وتشريعات وأحكام لينالوا رضاه وثوابه .

أى : إن الله - تعالى - مطلع على كل شىء مما يدور ويجرى فى هذا الكون ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المهاجرين والأنصار مدحا عظيما ، كما مدحت المؤمنين من بعدهم ، وحضت على الجهاد فى سبيل الله ، وأمرت بالوفاء بالعهود ، وبالوقوف صفا واحدا فى وجه الكفار حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

وبعد : فهذا ما وفق الله إليه فى تفسير سورة الأنفال ، أو سورة بدر - كما سماها ابن عباس - لأنها تحدثت باستفاضة عن أحداث هذه الغزوة وعن أحوال المشتركين فيها ، وعن

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٩ .

بشارات النصر التى تقدمتها وصاحبتها وعن غنائمها وأسراها .

كما تحدثت عن صفات المؤمنين الصادقين ، وعن الأقوال والأعمال التى يجب عليهم أن يتمسكوا بها لينالوا رضا الله ونصره ، وعن رذائل المشركين ومسالكهم القبيحة لمحاربة الدعوة الاسلامية ، وعن المبادىء التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى حربهم وسلمهم ، وعن سنن الله فى خلقه التى لا تتغير ولا تتبدل ، والتى من أهمها :

أنه - سبحانه - لا يسلب نعمة عن قوم إلا بسبب معاصيهم وتنكبهم الطريق القويم ، قال - تعالى - : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وأنه - سبحانه - قد جعل العاقبة الحسنة للمؤمنين ، والعاقبة السيئة للفاسقين ، وأخبر المنحرفين عن صراطه بأنه سيغفر لهم ما سلف من خطاياهم متى أقلعوا عنها ، وأخلصوا له العبادة .

قال - تعالى - ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ .

وختاما : نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا للمداومة على خدمة كتابه ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، وأن يتمم لنا نورنا ويغفر لنا إنه على كل شىء قدير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

تفسير

سُورَةُ التَّوبَةِ

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليلى لسورة التوبة ، توخيت فيه أن أبرز ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ، وتراكيب بليغة ..

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده ، وشفيعًا لنا عنده – سبحانه – يوم نلقاه ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

تحريرًا فى ١٩ من شوال سنة ١٣٩٥ هـ
الموافق ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٧٥ م

المؤلف
د . محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدى تفسير سورة التوبة

نقصد بهذا التمهيد - كما سبق أن بينا فى تفسير السور السابقة - إعطاء القارىء صورة واضحة عن السورة التى سنفسرها قبل أن نبدأ فى تفسيرها آية آية . فنقول :

١ - سورة التوبة هى السورة التاسعة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال .

٢ - وعدد آياتها مائة وتسعة وعشرون آية عند الكوفيين . ومائة وثلاثون آية عند جمهور العلماء .

٣ - أسماؤها :

عرفت هذه السورة منذ العهد النبوى بجملة من الأسماء منها :

(ا) التوبة : وسميت بهذا الاسم لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم ... ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم ... ﴾[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ... ﴾[5] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تكررت فى هذه السورة عن التوبة والتائبين .

(ب) براءة : وسميت بذلك لافتتاحها بقوله - سبحانه - : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ... ﴾ .

وهذان الاسمان - التوبة وبراءة - هما أشهر أسماء هذه السورة الكريمة .

(جـ) الفاضحة : وسميت بهذا الاسم لحديثها المستفيض عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم .. وفضيحتهم على رءوس الأشهاد .

---

(١) الآية ٣ .
(٢) الآية ١١ .
(٣) الآية ٢٧ .
(٤) الآية ١٠٢ .
(٥) الآية ١٠٦ .

أخرج البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة قال : التوبة هى الفاضحة . ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لن تبقى أحدًا منهم إلا ذكر فيها[1] .

(د) المنقرة : وسميت بذلك ، لأنها نقرت عما فى قلوب المنافقين والمشركين فكشفت عنه ، وأظهرته للناس .

(هـ) المثيرة : وسميت بهذا الاسم ، لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم . أى : أخرجتها من الخفاء إلى الظهور .

(و) المبعثرة : لأنها بعثرت أسرارهم . أى بينتها وعرفتها للمؤمنين .

(ز) المدمرة : أى المهلكة لهم .

إلى غير ذلك من الأسماء التى اشتهرت بها هذه السورة الكريمة[2] .

هذا ، وليس فى سور القرآن الكريم أكثر أسماء منها ومن سورة الفاتحة .

٤ - زمان ومكان نزولها :

قال ابن كثير : هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله - ﷺ - كما قال البخارى ... »[3] .

وقال صاحب المنار : هى مدنية بالاتفاق . وقيل : إلا قوله - تعالى - ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ... ﴾ الآية وذلك لما روى فى الحديث المتفق عليه من نزولها فى النهى عن استغفاره - ﷺ - لعمه أبى طالب - كما سيأتى تفصيله عند تفسيرها .

ويجاب عنه بجواز أن يكون نزولها تأخر عن ذلك ، وبما يقوله العلماء فى مثل هذا المقام من جواز نزول الآية مرتين : مرة منفردة ومرة فى أثناء السورة .

واستثنى ابن الفرس قوله - تعالى - ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... ﴾ إلى آخر الآيتين اللتين فى آخرها ؛ فزعموا أنهما مكيتان .

ويرده ما رواه الحاكم وأبو الشيخ فى تفسيره عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين من آخر ما نزل من القرآن ، كما يرده أيضا قول الكثيرين من أن هذه السورة نزلت تامة .

---

(١) صحيح البخارى : جـ ٦ ص ١٨٣ - طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٦ . الطباعة المنيرية الطبعة الثانية .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣١ . طبعة عيسى الحلبى .

وما يعارض هذا مما ورد فى أسباب نزول بعض الآيات ، يجاب عنه بأن أكثر ما روى فى أسباب النزول ، كان يراد به أن الآية نزلت فى حكم كذا . أعنى أن الرواة كانوا يذكرونها كثيرًا فى مقام الاستدلال . وهذا لا يدل على نزولها وحدها ، ولا على كون النزول كان عند حدوث ما استدل بها عليه ، كما قلنا آنفا فى احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين فى المدينة ، وإن كان ما ذكروه من سببها حدث بمكة قبل الهجرة »[١] .

وقال بعض العلماء : ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ، ومراجعة ما جاء فى الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته ، ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك .. يتبين أن السورة بجملتها نزلت فى العام التاسع من الهجرة . ولكنها لم تنزل دفعة واحدة .

ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التى نزلت فيها مقاطع السورة فى خلال العام التاسع ، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى منها : كانت قبل غزوة تبوك فى شهر رجب من هذا العام .

والمرحلة الثانية : كانت فى أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم فى ثناياها .

والمرحلة الثالثة : كانت بعد العودة منها .

أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها ، فقد نزلت متأخرة فى نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج من ذى القعدة أو فى ذى الحجة .

وهذا - على الإجمال - هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه[٢] .

والذى نراه أن هذا القول هو الذى تسكن إليه النفس فى الحديث عن زمان ومكان نزول السورة الكريمة ؛ لأن الذى يستعرض آياتها يراها - فى مجموعها - ترسم للمؤمنين ما يجب أن تكون عليه علاقاتهم مع المشركين ، ومع أهل الكتاب ومع المنافقين ؛ ومع غيرهم من الطوائف .

كما يراها ترسم لهم الطريق الذى يجب عليهم أن يتخذوه أساسًا لدولتهم . ومنهاجًا لحياتهم ، حتى تستمر عزتهم ، وتبقى كلمتهم عالية قوية بعد أن فتح الله لهم مكة وأذل الشرك وأهله .

كما يراها - أيضًا - تتحدث باستفاضة عن أحداث قد وقعت خلال غزوة تبوك أو قبلها أو بعدها . وغزوة تبوك قد كانت فى السنة التاسعة من الهجرة .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٧٤ .
(٢) تفسير « فى ظلال القرآن » للمرحوم سيد قطب . الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ وسنة ١٩٦٧ م .

٥ - لماذا لم تذكر البسملة فى أول سورة التوبة ؟.

للإجابة على هذا السؤال ذكر العلماء أقوالاً متعددة لخصها القرطبى تلخيصًا حسنا فقال :

واختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أول هذه السورة على أقوال خمسة :
الأول : - أنه قيل كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه ، كتبوا إليهم كتابًا ولم يكتبوا فيه بسملة ؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذى كان بين النبى - ﷺ - والمشركين ، بعث بها النبى - ﷺ - على بن أبى طالب فقرأها عليهم فى الموسم ، ولم يبسمل فى ذلك على ما جرت به عادتهم فى نقض العهود من ترك البسملة .

وقول ثان : - روى النسائى قال : حدثنا أحمد قال : حدثنا محمد بن المثنى عن يحيى بن سعيد قال : حدثنا عوف ، قال : حدثنا يزيد الرقاشى - وفى صحيح الترمذى يزيد الفارسى - قال : قال لنا ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى « الأنفال » وهى من المثانى ، وإلى « براءة » وهى من المئين فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؛ فما حملكم على ذلك ؟

قال عثمان : إن رسول الله - ﷺ - كان إذا نزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : « ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل - أى بعد الهجرة ، و « براءة » من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها . وقبض رسول الله - ﷺ - ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم .

وقول ثالث : روى عن عثمان أيضًا . وقال مالك فيما رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أولها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه .

وروى ذلك عن ابن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قربها فذهب منها : فلذلك لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال سعيد بن جبير : كانت مثل سورة البقرة .

وقول رابع : - قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله - ﷺ - فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان معًا ، وثبت حجتاهما فى المصحف .

وقول خامس : قال عبد الله بن عباس : سألت على بن أبى طالب لماذا لم يكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان .

– وكذا قال المبرد : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود ، فلذلك لم تفتتح بالتسمية .

ثم قال القرطبى والصحيح أن التسمية لم تكتب ، لأن جبريل – عليه السلام – ما نزل بها فى هذه السورة .. »[1] .

هذا ، وقول القرطبى : والصحيح أن التسمية لم تكتب ... إلخ ، هو القول الذى نعتمده ، وتطمئن إليه قلوبنا ، وقد رجحه المحققون من العلماء .

فقد قال الفخر الرازى – وقد ذكر ستة أوجه فى سبب إسقاط التسمية من أولها – : الصحيح أنه – ﷺ – أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيا ، وأنه حذف بسم الله الرحمن الرحيم من أول هذه السورة وحيا[2] .

وقال الجلال : ولم تكتب فيها البسملة لأنه – ﷺ – لم يأمر بذلك ، كما يؤكد من حديث رواه الحاكم .

أى أنه – كما يقول الجمل – لا مدخل لرأى أحد فى الإثبات والترك ، وإنما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف .وحيث لم يبين النبى – ﷺ – ذلك تعين ترك التسمية ، لأن عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم »[3] .

وقال بعض العلماء : ولم تكتب فى أولها البسملة لعدم أمره – ﷺ – بكتابتها ، إذ لم ينزل بها جبريل – عليه السلام – والأصل فى ذلك التوقيف » .

أما الأقوال الخمسة التى نقلناها عن القرطبى – منذ قليل – فى سبب سقوط البسملة من أول سورة التوبة ، فإننا لا نرى واحدًا منها يعتمد عليه فى هذا الأمر . لأن القول الأول الذى حكاه بقوله : قيل كان من شأن العرب ... إلخ . إنما هو تعليل عقلى على سبيل الاجتهاد لبيان الحكمة فى عدم كتابة البسملة فى أولها . ومثل هذا التعليل يقال فى القول الخامس الذى حكاه ابن عباس ، عن على بن أبى طالب .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦١ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦١ م .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢١٦ . طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٨ م .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين . جـ ٢ ص ٢٦١ . طبعة عيسى الحلبى .

وأما القول الثانى - وهو الحديث الذى رواه النسائى والترمذى - فقد علق عليه أحد العلماء المحققين بقوله : « فى إسناده نظر كثير ، بل هو عندى ضعيف جدًا ، بل هو حديث لا أصل له . يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » .. ويزيد الفارسى هذا اختلف فيه : أهو يزيد بن هرمز أم غيره .

قال البخارى فى التاريخ الكبير : « قال لى على : قال عبد الرحمن: يزيد الفارسى هو ابن هرمز . قال : فذكرته ليحيى فلم يعرفه ، قال : « وكان يكون مع الأمراء » . وفى التهذيب : « قال ابن أبى حاتم : اختلفوا هل هو يعنى ابن هرمز يزيد الفارسى أو غيره ...

فهذا يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً ، حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره .

ويذكره البخارى فى الضعفاء ، فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به ، وفيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى ، قراءة وسماعا وكتابة فى المصاحف . وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور ، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، وحاشاه من ذلك .

فلا علينا إذا قلنا إنه « حديث لا أصل له » تطبيقًا للقواعد الصحيحة التى لا خلاف فيها بين أئمة الحديث .

قال السيوطى فى تدريب الراوى فى الكلام على أمارات الحديث الموضوع : أن « يكون منافيا لدلالة الكتاب القطعية ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعى » ...[1] .

وأما القول الثالث الذى يقول « إنه لما سقط أولها سقط معه بسم الله الرحمن الرحيم ... » فهو قول ساقط لا يعتد به ، لأنه لا دليل عليه ولا سند له ، ويؤدى الالتفات إليه إلى المساس بقداسة القرآن الكريم ، حيث إن بعض سوره كانت طويلة ثم سقط منها ما سقط .

وأما القول الرابع الذى يزعم قائلوه أن بعض الصحابة قال : « براءة والأنفال سورة واحدة ... » فهو قول ضعيف ولا يعتد به - أيضًا - كسابقه ، لأنه قد عرف واشتهر بأنهما سورتان مستقلتان منذ عهد النبى - ﷺ - إلى يومنا هذا .

ولأن الذى يقرأ السورتين بإمعان وتدبر ، يرى أن لكل منهما موضوعاتها الخاصة بها ، والتى اهتمت بها أكثر من غيرها ، فسورة الأنفال تحدثت باستفاضة عن غزوة بدر وما يتعلق بها .. بينما سورة التوبة قد تحدثت باستفاضة عن غزوة تبوك أى فى السنة التاسعة .

(١) راجع « المسند للإمام أحمد » شرح وتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر . جـ ١ حديث رقم ٢٩٩ طبعة دار المعارف ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٩ ، فقد تكلم الأستاذ أحمد شاكر على هذا الحديث كلامًا طويلاً فانظره .

قال الحاكم : استفاض النقل أنهما سورتان .

وقال أبو السعود : اشتهارها - أى سورة التوبة - بهذه الأسماء المتقدمة - براءة والفاضحة ... إلخ - يقضى بأنها سورة مستقلة ، وليست بعضًا من سورة الأنفال ... »[١] :

وقال بعض العلماء : وهذه الأسماء وغيرها مما ثبت إطلاقه على السورة - أى سورة التوبة - من الصدر الأول ، لم يعرف إطلاق واحد منها على السورة التى قبلها وهى سورة الأنفال ، كما لم يعرف أنه أطلق اسم سورة الأنفال على هذه السورة . وبذلك احتفظت كل من السورتين منذ العهد الأول بما لها من اسم لم تشاركها فيه صاحبتها .

وكما احتفظت كل من السورتين بما لها من اسم ، احتفظت كل منهما بوقت نزولها ، فسورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر . أى : فى السنة الثانية من الهجرة . وسورة التوبة نزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد خروج أبى بكر على رأس المسلمين إلى الحج . أى : فى أواخر السنة التاسعة .

وكما احتفظت كل منهما بهذا وذاك ، احتفظت كل منهما - أيضًا - بهدفها الخاص .

فسورة التوبة عالجت شئونًا حدثت بعد زمن طويل من نزول سورة الأنفال ، ومعرفتها باسم سورة الأنفال . وسورة الأنفال عالجت شئونًا حدثت قبل نزول سورة التوبة ولم يرد لها ذكر فيها .

ولا شك أن كل هذه الاعتبارات الواضحة المبينة والمحققة فى السورتين من الصدر الأول ، تدل دلالة واضحة على أنهما سورتان منفصلتان ، وأن عدهما سورة واحدة رأى لا قيمة له ، كما لا قيمة للاشتباه فى استقلال كل منهما حتى يقال : تركت البسملة بينهما نظرًا لاحتمال وحدتهما ، وتركت بينهما فرجة نظرا لاحتمال انفصالهما .

وقد عرف مع ترك التسمية بينهما أنهما سورتان مستقلتان من عهد النبى - ﷺ - إلى يومنا هذا .

وقد جاءتا كذلك فى المصاحف الأولى : مصحف عثمان ، وعلى ، وابن عباس ، فلا معنى بعد هذا كله لإثارة شبهة قد تمس من قرب أو بعد قداسة تنظيم كتاب الله وترتيبه بناء على روايات ضعيفة أو موضوعة[٢] .

والخلاصة أن القول بأنهما سورة واحدة ، قول لا وزن له ، ولا يعول عليه للأسباب التى ذكرناها آنفًا .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٥٠ . طبعة محمد عبد اللطيف .
(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦٠٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت . طبعة دار القلم . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ .

٦ - مناسبتها لسورة الأنفال :

قال الآلوسى : ووجه مناسبتها للأنفال أن فى الأولى قسمة الغنائم وجعل خمسها لخمسة أصناف على ما علمت ، وفى هذه قسمة الصدقات وجعلها لثمانية أصناف على ما ستعلم إن شاء الله .

وفى الأولى - أيضًا - ذكر العهود وهنا نبذها . وأنه - سبحانه - أمر فى الأولى بالإعداد فقال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ونعى هنا على المنافقين عدم الإعداد بقوله : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ .

وأنه - سبحانه - ختم الأولى بإيجاب أن يوالى المؤمنون بعضهم بعضًا وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، وصرح - جل شأنه - فى هذه بهذا المعنى فقال : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. ﴾ .

إلى غير ذلك من وجوه المناسبة[1] .

وقال صاحب المنار: وأما التناسب بينها وبين ما قبلها فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض ، فهى - أى التوبة - كالمتممة لسورة الأنفال فى معظم ما فيهما من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع وأحكام المعاهدات .. فما بدىء به فى الأولى أتم فى الثانية ، مثال ذلك .

١ - أن العهود ذكرت فى سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها ، ولا سيما نبذها الذى قيد فى الأولى بخوف خيانة الأعداء .

٢ - تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب فى كل منهما .

٣ - ذكر فى الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء فى الثانية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ... ﴾ .

٤ - ذكر فى أول الأولى صفات المؤمنين الكاملين ، وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين . ثم ذكر فى آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين . وجاء فى الثانية مثل هذا فى مواضع أيضًا[2] .

والحق أن الذى يقرأ السورتين بتأمل وتدبر يراهما تعطيانه ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة لدعوة النبى - ﷺ - وجهاده إلى أن أتم الله له نعمة النصر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٦ .

(٢) تفسير المنار - بتصرف وتلخيص - جـ ١٠ ص ١٧٥ . للسيد محمد رشيد رضا .

فمثلاً عندما نقرأ سورة الأنفال نراها تتحدث عن حالة المسلمين قبل الهجرة كما فى قوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ... ﴾ الآية ٢٦ .

كما تتحدث عن المكر السيء الذى صدر عن المشركين والذى كان من أسباب الهجرة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ الآية ٣٠ .

ثم نراها تفيض فى الحديث عن غزوة بدر ، وتشير إلى ما ظهر من المنافقين فيها ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ . الآية ٤٩ . وإلى ما حدث من اليهود من نقض للعهود ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ الآية ٥٨ .

أما سورة التوبة فنراها تذكر المسلمين بالنصر الذى منحه الله لهم فى مواطن كثيرة قال - تعالى - ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ... ﴾ « الآية ٢٥ » كما تصف بالتفصيل مواقف المنافقين فى غزوة تبوك وغيرها .

ولعل قيام السورتين الكريمتين بإعطاء القارىء ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة للدعوة الإسلامية هو الحكمة فى وضعهما مقترنتين وفى تسميتهما بالقرينتين .

قال القرطبى : كانتا تدعيان القرينتين ؛ فوجب أن تجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذى لزمهما من الاقتران ورسول الله - ﷺ - حى .[1] .

٧ - المقاصد الإجمالية لسورة التوبة :

عندما نقرأ سورة التوبة بتأمل وتدبر نراها فى مطلعها تحدد تحديدًا حاسمًا المنهاج الذى يجب أن يسلكه المؤمنون فى علاقتهم مع المشركين ، وتبين بوضوح وجلاء الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى التزام هذا المنهاج .

فهى فى أولها تعلن براءة الله ورسوله من المشركين بسبب خيانتهم ، وتمنحهم الأمان لمدة أربعة أشهر لكى يدبروا فيها أمر أنفسهم ، وتعلن للناس عامة يوم الحج الأكبر أن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأنها قد نبذت إليهم ، وتستثنى من هؤلاء المشركين أولئك الذين لم ينقضوا ، فتأمر المؤمنين بأن يتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، فإذا ما انتهت مدة الأمان فعلى المؤمنين أن يقتلوا المشركين الناكثين حيث وجدوهم ، وأن يؤمنوا من يطلب الأمان منهم حتى يسمع القرآن ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الإسلام . وبذلك لا يبقى له عذر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦٣ .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور كل هذه المعانى بأسلوبها البليغ الحاسم فتقول :

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ؛ فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك الأسباب التى دعت إلى البراءة من المشركين . والتى أوجبت على المؤمنين قتالهم ، وحرضتهم على ذلك بأنواع من المشجعات فقالت :

﴿ ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ .

ثم توجه السورة الكريمة خطابها إلى الذين شق عليهم القتال من المؤمنين ، وتبين أن الحكمة فى الأمر به ، إنما هى الامتحان والتمحيص فتقول :

﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾ .

ثم تصرح السورة الكريمة بعد ذلك بأن المؤمنين وحدهم هم الذين من حقهم أن يعمروا مساجد الله ... أما المشركون فليس من حقهم ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم .

قال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثانى من سورة التوبة رأيناها فى أوائله توجه إلى المؤمنين نداء تأمرهم فيه أن يؤثروا محبة الله ورسوله على محبة الآباء والأبناء والأموال .. وتهدد من يخالف ذلك فتقول :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تذكير المؤمنين بألوان من نعم الله عليهم ، حيث نصرهم . سبحانه : على أعدائهم فى مواطن كثيرة ، وحيث أيدهم بعونه بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

قال تعالى : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مديرين* ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

ثم وجهت إليهم نداء ثانياً نهتهم فيه عن تمكين المشركين من قربان المسجد الحرام ، وبشرتهم بأن الله - تعالى - سيغنيهم من فضله متى تابوا إليه وأطاعوه .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ (الآية ٢٨) .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حددت تحديداً حاسماً المنهاج الذى يجب أن يسلكه المؤمنون فى علاقاتهم مع المشركين ، وأبرزت بصورة واضحة ومقنعة الأسباب المتنوعة التى أوجبت سلوك هذا المنهاج .

وتلك عادة القرآن الكريم فى تشريعاته ، لا تكاد تجد تشريعاً من تشريعاته إلا وقد صاحبته الحكمة التى كان لأجلها هذا التشريع ، والتى من شأنها أن تدفع الناس إلى المسارعة فى التنفيذ والامتثال .

ثم بدأت السورة بعد ذلك فى تحديد المنهاج الذى يجب أن يسلكه المؤمنون فى علاقاتهم مع المنحرفين من أهل الكتاب ، وأبرزت ، أيضاً : الأسباب التى تدعو إلى التزام هذا المنهاج ، فأمرت باستمرار قتالهم ، وذكرت ما هم عليه من صفات سيئة تحمل المؤمنين على تأديبهم ، وأرشدت إلى ما كان عليه رؤساؤهم من أكل لأموال الناس بالباطل ، ومن صد عن سبيل الله ، استمع إلى الآيات الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون* وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل

ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

ثم وجهت السورة نداء رابعاً إلى المؤمنين ، نعت فيه على المتثاقلين الذين دعوا إلى الجهاد فتكاسلوا عنه .. وحذرتهم من سوء عاقبة هذا التكاسل وذكرتهم بما كان من نصر الله - تعالى لنبيه وقت أن أحاط به المشركون وهو فى الغار ، وأمرتهم بالخروج للجهاد فى حالتى اليسر والعسر والمنشط والمكره .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً، والله على كل شىء قدير ﴾.

وبعد هذه الدعوة الحارة للمؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والأموال بدأت السورة الكريمة فى الحديث عن المنافقين ، فكشفت عن أصنافهم وأوصافهم ، ورسمت أحوالهم النفسية والعملية ، وفضحت مواقفهم فى غزوة تبوك وما كان منهم قبلها وبعدها وأثناءها ، وأظهرت حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم عن القتال ، وأزاحت الستار عن أساليب نفاقهم وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين ، وحكت ما كانوا ينطقون به من سوء فى حق النبى ﷺ وفى حق أصحابه .

وقد استغرق الحديث عن المنافقين زهاء نصف سورة التوبة - أى من أواخر الربع الثالث منها إلى نهاية الربع السابع .

وقد تركتهم السورة الكريمة - بعد هذا الكشف السافر لأحوالهم : عراة من الخير أمام المؤمنين ، منبوذين من جماعة المسلمين ، مميزين بصفاتهم القبيحة التى فصلها القرآن تفصيلا يجعل العقلاء يعرفونهم ويحذرونهم .

فمن صفاتهم الذميمة ومسالكهم الخبيثة التى تحدثت السورة عنها :

(أ) الفرار من مواطن الجد والجهاد ، والتعلل بالأعذار الكاذبة ، والتستر بالأيمان الفاجرة ، وقد حكت السورة عنهم ذلك فى مواضع كثيرة منها .

قال تعالى : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .

(ب) إشاعة الفتنة فى صفوف الجيش الإسلامى متى وجدوا فيه ، أى أن خلو الجيش منهم خير وبركة ووجودهم فيه شر وفتنة .

قال تعالى ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

(جـ) كراهتهم الخير للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، ومحبتهم السوء لهم .

قال تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ .

(د) تكاسلهم عن أداء الشعائر الدينية بسبب فسوقهم وكفرهم :

قال تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قومًا فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ .

(هـ) تظاهرهم بالإسلام تقية وجبنهم عن التصريح بما هم عليه من كفر .

قال تعالى : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

(و) طعنهم على الرسول - ﷺ فى قسمة الأموال وفى توزيع الصدقات بقصد إشاعة التهم الباطلة حوله .

قال تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزُكَ فى الصدقاتِ ، فإن أُعطُوا منها رضوا وإنْ لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطون ﴾ .

(ز) وصفهم للرسول - ﷺ بأنه أُذُن - أى يصدق كل ما يقال له بدون تثبت ...

قال تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبىَّ ويقولون هو أُذن قل أذنُ خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذونَ رسولَ اللهِ لهم عذاب أليم ﴾ .

(ح) استهزاؤهم بتعاليم الإسلام فيما بينهم ، واعتذارهم عن ذلك بأنهم لم يكونوا جادين فيما ينطقون به من سوء ، وتكذيب الله لهم فيما اعتذروا عنه .

قال تعالى : ﴿ يحذر المنافقونَ أن تنزل عليهم سورة تنبئُهم بما فى قلوبهم ، قل استهزئوا إنّ الله مخرج ما تحذَرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوضُ ونلعبُ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذُروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ .

(ط) تعاطفهم فيما بينهم وتعاونهم على الإثم والعدوان لا على البر والتقوى .

قال تعالى: ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرونَ بالمنكر وينهوْن عن المعروف، ويَقبضون أيديهمُ نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ .

(ى) سخريتهم من فقراء المؤمنين ، لأنهم يتصدقون بالقليل الذى لا يملكون سواه .

قال تعالى : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

(ك) نقضهم للعهود ، وبخلهم بما آتاهم الله من فضله .

قال تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ .

(ل) اتخاذهم مسجداً لهم لا من أجل العبادة ، وإنما من أجل المضارة وإيذاء المسلمين ومحاولة تفريق كلمتهم ، وتشتيت وحدتهم .

قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضرارًا وكفرًا وتفريقاً بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد تتبعت المنافقين ، فكشفت عن أصنافهم وأوصافهم وأحوالهم .. بصورة تجعل المؤمنين الصادقين يعرفونهم ويحذرونهم .

بعد ذلك اتجهت السورة : فى أواخرها بالحديث إلى المؤمنين الصادقين .

(أ) فذكرتهم بالتعاقد الذى بينهم وبين خالقهم : عز وجل . وبشرتهم برضوانه ومحبته متى وفوا بعهودهم فقال ، تعالى :

﴿ إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(ب) وأعلمتهم بأن إيمانهم يحتم عليهم عدم الاستغفار لمن خالفهم فى الدين مهما بلغت درجة قرابته.

﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾.

(جـ) وأمرتهم بأن يصحبوا رسولهم : ﷺ : فى جهاده للأعداء ، وأن يكابدوا معه الشدائد والأهوال برغبة ونشاط ؛ لأن كل تعب يلحقهم معه مكتوب لهم فى سجل حسناتهم.

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾.

(د) وأرشدتهم إلى أنه فى حالة عدم خروج النبى ﷺ معهم للجهاد ، عليهم أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين : قسم يخرج للجهاد وقسم آخر يبقى مع النبى ﷺ ليتعلم منه العلم ويحفظ عنه ما تجدد من أحكام.

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ :

(هـ) ثم ختم . سبحانه . هذه السورة الكريمة بهاتين الآيتين الدالتين على سابغ رحمته بعباده ، حيث أرسل إليهم رسولا من أنفسهم حريصاً على منفعتهم رحيما بهم ، فقال تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

أما بعد : فهذا عرض إجمالى لما اشتملت عليه سورة التوبة من موضوعات ومن هذا العرض يتبين لنا أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور معينة من أهمها مايأتى :

١ - رسم المنهاج النهائى الذى يجب أن يسير عليه المسلمون فى علاقاتهم مع مشركى العرب ، ومع أهل الكتاب ، ومع المنافقين ، مع بيان الأسباب التى تدعو المسلمين إلى التزام هذا المنهاج.

٢ - كشف الغطاء عن المنافقين وأصنافهم وأوصافهم ، وعما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد ، وعما سلكوه من مسالك خبيثة لمحاربة الدعوة الإسلامية ، ومناوأة أتباعها الصادقين.

وقد أفاضت السورة فى الحديث عن ذلك إفاضة لا توجد فى غيرها من سور القرآن الكريم.

٣ - حددت السورة الكريمة معالم المجتمع الإسلامى بعد أن تم فتح مكة ، وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا .

فأثنت على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ووعدتهم بالفوز العظيم .

قال تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وحكمت على كل فريق من المتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة وما حولها بالحكم الذى يناسبه .

قال تعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾.

وقال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾.

وقال تعالى : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾.

وهكذا نرى السورة الكريمة قد وضحت الطوائف المتنوعة التى كان المجتمع الإسلامى يتكون منها عند نزولها ، أى : بعد أن تم فتح مكة .

٤ - يؤخذ من الحديث المستفيض الذى ساقته السورة عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم .. أنهم بعد فتح مكة بدأت دولتهم تعود إلى الظهور فى المجتمع الإسلامى بينما كانت قبيل الفتح قد أوشكت على التلاشى والاندثار .

ولعل السبب فى ذلك : أن كثيراً من الناس قد دخل فى الإسلام بعد أن فتحت مكة ، لأسباب دنيوية متنوعة، دون أن يستقر الإيمان بالله فى قلوبهم، وإنما بقيت آثار الجاهلية لها وزنها فى تحريك طباعهم واتجاهاتهم وأفكارهم .

قال بعض العلماء : سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى فترة مابعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوى ، ومن هذه الصورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ، كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال ، ومن النفاق والضعف ، والتردد فى الواجبات والتكاليف ، والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين

المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى ، وعدم المفاضلة الكاملة على أساس العقيدة ، وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار ، مما استدعى حملات مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير تفى بحاجة المجتمع إليها .

وإن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس فى الإسلام بعد الفتح ، لم تتم تربيتها ، ولم تنطبع بعد بالطابع الإسلامى الأصيل[1] .

٥ - عرضت السورة لبيان كثير من الأحكام والإرشادات التى تحتاج إليها الدولة الناشئة ، كحديثها عن مصارف الزكاة ، وعن الجهاد وموجباته ، وعن العهود وأحكامها ، وعن الأشهر الحرم .. إلى غير ذلك من الأحكام .

هذا ، ولعلنا ، بعد هذا التمهيد الذى سقناه بين يدى تفسير سورة التوبة نكون قد أعطينا القارئ الكريم فكرة واضحة عن أسماء هذه السورة ، وعن زمان ومكان نزولها ، وعن السبب فى عدم ذكر البسملة فى أولها ، وعن مقاصدها وموضوعاتها الإجمالية .

والله نسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يجنبنا الزلل والانحراف عن الطريق القويم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

---

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب ص ٩٠ وما بعدها . طبعة دار إحياء التراث العربى ببيروت . الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ سنة ١٩٦٨ م .

تفسير سورة التوبة

قال تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١)
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
(٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾

قال الإمام ابن كثير : أول هذه السورة نزل على رسول الله - ﷺ لما رجع من غزوة « تبوك » وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أميرا على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس ﴿ براءة من الله ورسوله .. ﴾ ، فلما قفل أتبعه بعلى ابن أبى طالب ، ليكون مبلغا عنه - ﷺ ليكونه عصبة له[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣١ طبعة عيسى الحلبى .

وقال محمد بن إسحاق : لما نزلت ﴿ براءة ﴾ على رسول الله - ﷺ - وقد كان بعث أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ، لو بعثت بها إلى أبي بكر ؟ فقال : « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » .

ثم دعا على بن أبي طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله - ﷺ - عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبي طالب على ناقة رسول الله - ﷺ - « العضباء » حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية .

حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله . ﷺ . فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله« ﷺ » فهو إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، إلا أحد كان له عند رسول الله ، ﷺ ، عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله . ﷺ[1] .

وقال الفخر الرازى : روى أن النبى ، ﷺ ، لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وأرجفوا الأراجيف ، جعل المشركون ينقضون العهد ، فنبذ رسول الله ، ﷺ . العهد إليهم[2] .

هذه بعض الآثار التى ذكرها المفسرون فى هذا المقام .

وقوله - تعالى - : ﴿ براءة ﴾ مصدر بَرِئَ « كتعب » ، وأصل البراءة : التباعد عن الشيء والتخلص منه . تقول : برئت من هذا الشيء أبرأ براءة فأنا منه برئ ، إذا أزلته عن نفسك ، وقطعت الصلة بينك وبينه . ومنه قولهم : برئت من الدين أى تخلصت منه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٥٥ هـ سنة ١٩٣٦ م تحقيق مصطفى السقا .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢١٧ طبعة عبد الرحمن محمد .

ولفظ ﴿ براءة ﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتنوين فيه للتفخيم و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، والعهد : العقد الموثق باليمين ، والخطاب فى قوله ﴿ عاهدتم ﴾ للمسلمين .

والمعنى : هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين بسبب نقضهم لعهودهم ، وإصرارهم على باطلهم ...

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين ؟ .

قلت : قد أذن الله فى معاهدة المشركين أولا ، فاتفق المسلمون مع رسول الله - ﷺ - وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد أوجب الله - تعالى - النبذ إليهم ، فخوطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقيل لهم : اعلموا أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين .

وروى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا إلا ناسا منهم ، فنبذ العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر آمنين .. »[1] .

وقال بعض العلماء : والمعنى أن الله قطع ما بينه وبين المشركين من صلات فلا عهد ولا تعاهد ولا سلم ولا أمان ، وتركهم تعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى يقوموهم أو يبيدوهم . ولا يدخل فى هذا التبرى قطع رحمته العامة عنهم التى كتبها على نفسه من جهة أنه الخالق وأنهم المخلوقون ... فهو مع هذا التبرى لايزال من هذه الجهة يرحمهم بمنح الحياة وموارد الرزق ، والتمكين من العمل حسب تقديره العام وسنته الشاملة فى خلقه ولو أن التبرى كان على إطلاقه لما عاش كافر طرفة عين ، ولما استطاع كافر أن يقف فى وجه مسلم .

فالآية تقرر حكما تكليفيا للمسلمين فى شأن معاملة المشركين ..

وإعتبار أن الآية تقرر حكما شرعيا والمشرع هو الله أضيف صدور البراءة إليه - سبحانه - وعطف عليه الرسول - ﷺ - فى هذا المقام ، لأنه هو المبلغ عنه ، والمنفذ لما يبلغه ..

ولما كان التعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذا لأمر الله به ، وأصله حق لجماعتهم ، وإنما يقوم الإمام به نائبا عن الجماعة ، أضيف - أى التعاهد - إلى جماعة المسلمين ، فقيل : ﴿ عاهدتم ﴾ .. وكثيراً ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين ...

ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين فى هذه الآية جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٢ طبعة دار الكتاب العربى ببيروت .

عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة فى ذلك ، كأن خيف منهم خيانة ، أو نقضوا شيئا من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى ، وذلك كله أخذا من هذا المقام ، ومن قوله - تعالى - فى سورة الأنفال : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ .

كما يؤخذ أن عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة ، يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص فى موضوع المعاهدة ، وما هو فى مصلحة الجماعة ، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ... ﴾ بيان للمهلة التى منحها - سبحانه - للمشركين ليدبروا فيها أمرهم .

والسياحة فى الأصل : جريان الماء وانبساطه على موجب طبيعته ، ثم استعملت فى الضرب فى الأرض والاتساع فى السير والتجوال . يقال : ساح فلان فى الأرض سيحا وسياحة وسيوحا إذا تنقل بين أرجائها كما يشاء .

والخطاب للمؤمنين على تقدير القول . أى : فقولوا أيها المؤمنون للمشركين سيحوا فى الأرض أربعة أشهر .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين أنفسهم على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور ، لقصد تهيئة خطابهم بالوعيد المذكور بعد ذلك فى قوله - سبحانه - ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ .

والمقصود بالأمر فى قوله : ﴿ فسيحوا ﴾ الإباحة والإعلام بحصول الأمان لهم فى تلك المدة من أن يقتلوا أو يقاتلوا أو يعتدى عليهم ..

والمعنى : قولوا أيها المسلمون للمشركين - بعد هذه البراءة منهم ، سيحوا فى الأرض ، أى : سيروا فيها مقبلين ومدبرين حيث شئتم وأنتم آمنون فى هذه المدة .

وفى التعبير بقوله ﴿ فسيحوا ﴾ من الدلالة على كمال التوسعة ، ما ليس فى قوله ﴿ سيروا ﴾ أو مايشبهه ، لأن لفظ السياحة يدل على الاتساع فى السير والبعد عن المدن وعن موضع العمارة .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٢ لفضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت .

والحكمة فى إعطائهم هذه المدة تمكينهم من النظر والتدبر فى أمر أنفسهم حتى يختاروا ما فيه مصلحتهم ، ويعلموا أنهم ليس أمامهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو السيف ، ولكى لا ينسب إلى المسلمين الغدر ونبذ العهد دون إعلام أو إنذار .

وهذا من سمو تعاليم الإسلام . تلك التعاليم التى لم تبح لأتباعها أن يأخذوا أعدى أعدائهم على غرة ، بل منحت هؤلاء الأعداء مهلة كافية يدبرون فيها أمر أنفسهم وهم آمنون من أن يتعرض لهم أحد من المسلمين بأذى .

ومتى كان ذلك ؟ كان ذلك فى الوقت الذى نقض فيه المشركون عهودهم عند أول بادرة لاحت لهم ، وفى الوقت الذى أرجف فيه المرجفون أن المسلمين لن يعودوا من تبوك سالمين ، بل إن الروم سيأخذونهم أسرى ، وفى الوقت الذى كانت المجتمعات فيه يغزو بعضها بعضا بدون إنذار أو إعلام ...

فإن قيل : وما الحكمة فى تقدير هذه المهلة بأربعة أشهر ؟

فالجواب - كما يقول الجمل - اقتصر على الأربعة - هنا لقوة المسلمين إذ ذاك ، بخلاف صلح الحديبية فإنه كان لمدة عشر سنين لضعف المسلمين إذ ذاك ، والحاصل أن المقرر فى الفروع أنه إذا كان بالمسلمين ضعف جاز عقد الهدنة عشر سنين فأقل ، وإذا لم يكن بهم ضعف لم تجز الزيادة على أربعة أشهر[1] .

وقال بعض العلماء : ولعل الحكمة فى تقدير تلك المدة بأربعة أشهر ، أنها هى المدة التى كانت تكفى - إذ ذاك بحسب ما يألفون - لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة فى الأرض ، والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير ، وفيه فوق ذلك مسايرة للوضع الإلهى فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة .

على أنا نجد فى القرآن جعل الأربعة الأشهر أمدا فى غير هذا فمدة إيلاء الرجل من زوجه أربعة أشهر - وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر .

ولعل ذلك - وراء ما يعلم الله - أنها المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٣ . طبعة عيسى الحلبى .

ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء فى هذا المقام تقرر مبدأ الهدنة والصلح فى الإسلام ، طلبها العدو أم تقدم بها المسلمون ، وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله - تعالى - فى سورة الأنفال .. ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة فى قوله - تعالى - ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾[١] .

وقد اختلف المفسرون فى ابتداء هذه الأشهر الأربعة فقال مجاهد والسدى وغيرهما : كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر من السنة التاسعة ونهايتها فى العاشر من شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة ، وذلك لأن المشركين قد أعلموا بهذه المهلة يوم النحر من السنة التاسعة على لسان على بن أبى طالب - كما سبق أن بينا .

وقيل كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم النحر لعشر من ذى القعدة من السنة التاسعة ونهايتها فى اليوم العاشر من شهر ربيع الأول من السنة العاشرة ، وذلك لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت بسبب النسىء الذى ابتدعه المشركون .

والرأى الأول أرجح وعليه الأكثرون ، لأن معظم الآثار تؤيده . وكذلك اختلف المفسرون اختلافا كبيرا فيمن تنطبق عليهم هذه المهلة ، فقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ، ومن كان عهده بغير أجل حد بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك ، ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن[٢] .

وقال آخرون : كانت هذه الأربعة الأشهر مهلة لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت هذه المدة لقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ .

وهذا القول قد اختاره ابن جرير وغيره ، فقد قال ابن جرير - بعد أن ذكر عدة أقوال فى ذلك :

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : الأجل الذى جعله الله إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله - ﷺ - ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته . فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ، ولم يظاهروا عليه ، فإن الله - تعالى - أمر نبيه - ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ ، ثم قال : وبعد ففى

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٦ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت . طبعة دار القلم . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٣ .

الأخبار المتظاهرة عن رسول الله - ﷺ - أنه حين بعث عليا ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم « ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته » . وهو أوضح دليل على صحة ما قلنا .

وذلك أن الله لم يأمر نبيه - ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل ، فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه ، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل ، أو كان له عهد إلى أجل غير محدود ، فأما من كان أجل عهده محدودا ، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا ، فإن رسول الله - ﷺ - كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورا ، وبذلك بعث مناديه فى أهل الموسم من العرب .. »[1] .

والذى يبدو لنا بعد مراجعة الأقوال المتعددة فى شأن من تنطبق عليهم هذه المهلة من المشركين - أن ما اختاره ابن جرير هو خير الأقوال وأقواها ، لأن النصوص من الكتاب والسنة تؤيده .

ومن أراد معرفة هذه الأقوال بالتفصيل فليراجع ما كتبه المفسرون فى ذلك .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الإمهال للمشركين لن ينجيهم من إنزال العقوبة بهم متى استمروا على كفرهم فقال - تعالى - : ﴿واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين ﴾ .

أى : واعلموا - أيها المشركون - أنكم بسياحتكم فى الأرض خلال تلك المهلة لن تعجزوا الله - تعالى - فى طلبكم ، فأنتم حيثما كنتم تحت سلطانه وقدرته ، واعلموا كذلك أنه - سبحانه - مذل للكافرين ، فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب المهين .

فالآية الكريمة قد ذيلت بما يزلزل قلوب المشركين بالحقيقة الواقعة ، وهى أن ذلك الإمهال لهم ، وتلك السياحة فى الأرض منهم ، كل هذا لن يجعلهم فى مأمن من عقاب الله ، ومن إنزال الهزيمة بهم ، لأنهم فى قبضته .

ومهما أعدوا خلال تلك المهلة من عَدد وعُدد لقتال المؤمنين ، فإن ذلك لن ينفعهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن يجعل النصر والفوز للمؤمنين والخزى والسوء على الكافرين .

قال الفخر الرازى ما ملخصه ، وقوله : ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ . المقصود منه : أنى أمهلتكم - أيها المشركون - وأطلقت لكم السياحة فى الأرض - فافعلوا كل ما

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٦٢ طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ .

أمكنكم فعله من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تعجزون الله بل الله هو الذى يعجزكم ، لأنكم حيث كنتم فأنتم فى ملكه وتحت سلطانه ..[١] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموعد الذى تعلن فيه هذه البراءة من المشركين حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الإعلان فقال - تعالى - :

﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ... ﴾ .

الأذان : الإعلام تقول : آذنته بالشىء إذا أعلمته به . ومنه الأذان للصلاة أى الإعلام بحلول وقتها . وهو بمعنى الإيذان كما أن العطاء بمعنى الإعطاء .

قال الجمل : وهو مرفوع بالابتداء . و ﴿ من الله ﴾ إما صفته أو متعلق به ﴿ إلى الناس ﴾ الخبر ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف . أى : وهذه ، أى : الآيات الآتى ذكرها إعلام من الله ورسوله ...[٢] .

والمعنى : وهذه الآيات إيذان وإعلان من الله ورسوله إلى الناس عامة يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأن هذه العهود قد نبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم .

وأسند - سبحانه - الأذان إلى الله ورسوله ، كما أسندت البراءة إليهما ، إعلاء لشأنه وتأكيدا لأمره :

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية ؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت .

فإن قلت : لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس ؟ قلت : لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الأذان فعام لجميع الناس «من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث[٣] » .

واختير يوم الحج الأكبر لهذا الإعلام ، لأنه اليوم الذى يضم أكبر عدد من الناس يمكن أن يذاع الخبر عن طريقهم فى جميع أنحاء البلاد .

وأصح ما قيل فى يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر . وقيل : هو يوم عرفة ، وقيل : هو جميع أيام الحج .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٢٠ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٥ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٤ .

وقد رجح ابن جرير - بعد أن بسط الأقوال فى ذلك - أن المراد بيوم الحج الأكبر : يوم النحر فقال . وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة عندنا : قول من قال : يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من الصحابة أن علياً نادى بما أرسله به رسول الله - ﷺ - إلى المشركين يوم النحر ، هذا مع الأخبار التى ذكرناها عن رسول الله - ﷺ - أنه قال يوم النحر : « أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم الحج الأكبر[١] » .

وقال بعض العلماء : قال ابن القيم : والصواب أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر ، لأنه ثبت فى الصحيحين أن أبا بكر وعليا أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة . وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله - ﷺ - قال: «يوم الحج الأكبر يوم النحر»، وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة .. ويكون فيه ذبح القرابين ، وحلق الرءوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج[٢] .

وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التى حكت ما كان ينادى به على بن أبى طالب والناس يوم الحج الأكبر ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال : كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه النبى - ﷺ - ينادى ، فكان إذا صحل ناديت - أى كان إذا بح صوته وتعب من كثرة النداء ناديت - قلت : بأى شىء كنتم تنادون ؟ قال : بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، ومن كان له عهد عند رسول الله - ﷺ - فعهده إلى مدته[٣] .

وسمى يوم النحر بالحج الأكبر ، لأن العمرة كانت تسمى بالحج الأصغر ولأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - كما قال ابن القيم .

هذا ، وللعلماء أقوال فى إعراب لفظ ﴿ ورسوله ﴾ من قوله - تعالى - ﴿ أن الله برئ من المشركين ورسوله ﴾ . وقد لخص الشيخ الجمل هذه الأقوال تلخيصا حسنا فقال : قوله ﴿ ورسوله ﴾ بالرفع باتفاق السبعة وقرئ شاذا بالجر على المجاورة . أو على أن الواو للقسم وقرئ شاذا أيضاً بالنصب على أنه مفعول معه ، أو معطوف على لفظ الجلالة ، وفى الرفع ثلاثة

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ من ص ٦٧ إلى ص ٧٦ .

(٢) تفسير القاسمى - بتصرف يسير - جـ ٨ ص ٢٠٦٨ . طبعة عيسى الحلبى الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ - سنة ١٩٥٨ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٣ .

وجوه: أحدها أنه مبتدأ والخبر محذوف أى: ورسوله برىء منهم، وإنما حذف للدلالة عليه. والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى الخبر ... والثالث: أنه معطوف على محل اسم أن[1].. » .

ثم أردف -سبحانه- هذا الإعلام بالبراءة من عهود المشركين بترغيبهم فى الإيمان وتحذيرهم من الكفر والعصيان فقال: ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ .

أى: فإن تبتم أيها المشركون من كفركم ، ورجعتم إلى الإيمان بالله وحده واتبعتم ما جاءكم به محمد - ﷺ - فهو أى المتاب والرجوع إلى الحق ﴿ خير لكم ﴾ من التمادى فى الكفر والضلال: ﴿ وإن توليتم ﴾ وأعرضتم عن الإيمان ، وأبيتم إلا الإقامة على باطلكم ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ أى: فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات لكم من أخذه وبطشه ، لأنكم أينما كنتم فأنتم فى قبضته وتحت قدرته .

وقوله: ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ تذييل قصد به تأكيد زجرهم عن التولى والإعراض عن الحق .

أى: وبشر - يا محمد - هؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم بالعذاب الأليم فى الآخرة بعد إنزال الخزى والمذلة بهم فى الدنيا .

ولفظ البشارة ورد هنا على سبيل الاستهزاء بهم ، كما يقال: تحيتهم الضرب ، وإكرامهم الشتم .

وقوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ استثناء من المشركين فى قوله: ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ .

والمعنى: اعلموا . أيها المؤمنون أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين بسبب نقضهم لها ، لكن الذين عاهدتموهم منهم ولم ينقضوا عهودهم ، ولم ينقصوكم شيئاً من شروط العهد ، ولم يعاونوا عليكم أحدا من الأعداء، فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم معاملة الناكثين .

فالآية الكريمة تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ الله ورسوله منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر ، هم أولئك الذين عرفوا بنقض العهود .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٤ .

أما الذين عاهدوا ووفوا بعهودهم ، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى مدتهم وفاء بوفاء ، وكرامة بكرامة .

وعبر – سبحانه – بثم فى قوله : ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ﴾ للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة وتطاولها .

وقراءة الجمهور ﴿ ينقصوكم ﴾ بالصاد المهملة ، وعليها يجوز أن يتعدى لواحد فيكون شيئاً منصوباً على المصدرية أى : لم ينقصوكم شيئا من النقصان لا قليلا ولا كثيرا ، ويجوز أن يتعدى لاثنين فيكون شيئا مفعوله الثانى ، أى : لم ينقصوكم شيئا من شروط العهد بل أدوها بتمامها .

وقرأ عطاء بن السائب الكوفى وعكرمة وأبو زيد ﴿ ثم لم ينقضوكم ﴾ بالضاد المعجمة وهى على حذف مضاف أى : ثم لم ينقضوا عهدكم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وفى تنكير كلمة « شيئا » وكلمة « أحدا » دلالة على أن انتقاص المعاهدة ولو شيئا يسيرا ، وأن معاونة الأعداء بأى وسيلة مهما قلت ... كل ذلك مبيح لنبذ العهد ، لأن الخيانة الصغيرة كثيرا ما تؤدى إلى الخيانة الكبيرة .

قالوا : والمراد بهؤلاء الذين أمر المسلمون بإتمام عهدهم معهم : بنو ضمرة وبنو مدلج وهم من قبائل بنى بكر وكان قد بقى من عهدهم تسعة أشهر ، ولم ينقضوا مواثيقهم .

وقوله ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ تذييل قصد به التعليل لوجوب الامتثال ، والتنبيه على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ويحبهم بسببها .

قال صاحب المنار : والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام مادام العهد معقودا ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته وأن شرط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره .

فإن نقص شيئاً ما من شروط العهد ، وأخل بغرض ما من إغراضه عد ناقضاً ، لقوله – تعالى – ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ﴾ ، ولفظ شىء أعم الألفاظ وهو نكرة فى سياق النفى فيصدق بأدنى إخلال بالعهد .

ومن الضرورى أن من شروطه التى ينتقض بالإخلال بها ، عدم مظاهرة أحد من أعدائنا وخصومنا علينا ، وقد صرح بهذا للاهتمام به ، وإلا فهو يدخل فى عموم ما قبله ، وذلك أن الغرض الأول من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر ، فمظاهرة أحدهما لعدو الآخر ، أى معاونته ومساعدته على قتاله وما يتعلق به ، كمباشرته للقتال بنفسه .

يقال : ظاهره إذا عاونه ، وظاهره عليه إذا ساعده عليه ، وتظاهروا عليهم تعاونوا وكله من الظهر الذى يعبر به عن القوة ، ومنه بعير ظهير أى قوى »[١] .

وقال بعض العلماء : ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر فى حالة نبذ العهود لزوم إعلان العدو بذلك النبذ ، على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته .

وفى ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه الحنفى ، وهو بصدد قوله ، تعالى . ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ أنه لا يكفى مجرد إعلانهم ، بل لابد من مضى مدة يتمكن فيها مَلِكُهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته ، ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شىء من أطرافهم قبل مضى المدة .

وذلك كله أثر من آثار وجوب رعاية العهد والبعد عن النكث بكل ما يستطاع[٢] .

وبعد أن قررت السورة الكريمة براءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت بالوفاء لمن وفى بعهده منهم .. بعد كل ذلك أخذت فى بيان كيفية معاملة المشركين بعد انتهاء المهلة الممنوحة لهم فقال - تعالى - :

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

وقوله : ﴿ انسلخ ﴾ من السلخ بمعنى الكشط ، يقال : سلخ الإهاب عن الشاة يسلخه ويسلخه سلخاً إذا كشطه ونزعه عنها . أو بمعنى الإخراج من قولهم : سلخت الشاة عن الإهاب إذا أخرجتها منه ، ثم استعير للانقضاء والانتهاء فانسلاخ الأشهر إستعارة لانقضائها والخروج منها .

قال الآلوسى : والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة ؛ وذلك أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد على الحيوان ، وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة كالأيام والشهور والسنين ، فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه ، وفى ذلك مزيد لطف لما فيه من التلويح

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٨٤ .
(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٨ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

بأن تلك الأشهر كانت حرزاً لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها »[١] .

والمراد بالأشهر الحرم : أشهر الأمان الأربعة التى سبق ذكرها فى قوله ، تعالى ، ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ ، وعليه فتكون أل فى قوله ﴿ الأشهر الحرم ﴾ للعهد الذكرى .

وسميت حرما لأنه . سبحانه . جعلها فترة أمان للمشركين ، ونهى المؤمنين عن التعرض لهم فيها .

ووضع - سبحانه - المظهر موضع المضمر حيث لم يقل فإذا انسخلت ، ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة ، تأكيداً لما ينبئ عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها .

وقيل المراد بالأشهر الحرم هنا : الأشهر المعروفة وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، روى ذلك عن ابن عباس والضحاك والباقر واختاره ابن جرير .

قال ابن كثير : وفيه نظر ، والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال مجاهد ، وعمرو بن شعيب ، وابن إسحاق ، وقتادة والسدى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ ، ثم قال ﴿ فإذا أنسلخ الأشهر الحرم ﴾ أى : إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى وهى قوله - تعالى - ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ... ﴾[٢] .

والمراد بالمشركين فى قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أولئك الخائنون الذين انتهت مدة الأمان لهم ، أما الذين لم يخونوا ولهم عهود مؤقتة بمدة معينة فلا يحل للمسلمين قتالهم ، إلا بعد انتهاء هذه المدة ، كما سبق أن بينا قبل قليل تفسير قوله - تعالى - : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ... ﴾ .

والمعنى : فإذا انتهت هذه الأشهر الأربعة التى جعلها الله مهلة للخائنين ، فاقتلوا - أيها المؤمنون - أعداءكم المشركين ﴿ حيث وجدتموهم ﴾ أى : فى أى مكان تجدونهم فيه

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٤٤ . طبعة منير الدمشقى .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٥ - بتصرف يسير - .

﴿ وخذوهم ﴾ وهو كناية عن الأسر ، وكانت العرب تعبر عن الأسير بالأخيذ ، ﴿ واحصروهم ﴾ أى : وامنعوهم من الخروج إذا كانت مصلحتكم فى ذلك ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ والمرصد الموضع الذى يقعد فيه للعدو لمراقبته ، يقال : رصدت الشىء أرصده رصْدا ورصَدا إذا ترقبته .

والمعنى : واقعدوا لهم فى كل موضع يجتازون منه فى أسفارهم ، حتى تسد السبل فى وجوههم ، وتضعف شوكتهم ، وتذهب ريحهم ، فيستسلموا لكم .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يرى أن هذه الوسائل الأربع - القتل والأسر والمحاصرة والمراقبة - هى الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء ، ولا يخلو عصر من العصور من استعمال بعضها أو كلها عند المهاجمة .

وهكذا نرى تعاليم الإسلام تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة لكيد أعدائهم ، والعمل على هزيمتهم .. ، مادام هؤلاء الأعداء مستمرين فى طغيانهم وعدوانهم وانتهاكهم لحدود الله - تعالى - .

أما إذا فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، فإن الآية الكريمة ترفع عنهم السيف ، وتأمر المؤمنين بإخلاء سبيلهم .

استمع إلى بقيتها حيث تقول: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

أى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما انتهت أشهر الأمان الأربعة أن تقتلوا المشركين الناكثين لعهودهم أينما وجدتموهم وأن تأسروهم وتحبسوهم وتراقبوهم على كل طريق حتى تضعف شوكتهم فينقادوا لكم .. ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الشرك بأن دخلوا فى الإسلام فاتركوا التعرض لهم ، وكفوا عن قتالهم ، وافتحوا المسالك والطرق فى وجوههم .

واكتفى - سبحانه - بذكر الصلاة والزكاة عن ذكر بقية العبادات ، لكونهما الأساسين للعبادات البدنية والمالية .

وقوله : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ تذييل قصد به التعليل لوجوب إخلاء سبيلهم أى ، إن فعلوا ذلك فخلوا سبيلهم ، ولا تعاملوهم بما كان منهم من شرك ، فإن الإسلام يَجُب ما قبله ، وإن الله قد غفر لهم ما سلف من الكفر والغدر بفضله ورحمته .

قال الإمام ابن كثير : وقد اعتمد الصديق - رضى الله عنه - فى قتال ما نعى الزكاة على هذه الآية وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى

هى حق الله - تعالى - وبعدها الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء ، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله الصلاة والزكاة .

وقد جاء فى الصحيحين عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» .

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » ورواه البخارى وغيره .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ثم قال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه[1] .

وبذلك ترى هذه الآية قد جمعت فى إرشادها بين الترغيب والترهيب ؛ فقد أمرت المؤمنين بأن يستعملوا مع أعدائهم كل الوسائل المشروعة لإرهابهم ثم أمرتهم فى الوقت نفسه بإخلاء سبيلهم متى تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ..

وبعد أن بين - سبحانه - حكم المصرين على الشرك وهو قتالهم وأخذهم ، وحكم الراجعين عنه وهو إخلاء سبيلهم . بعد ذلك بين - سبحانه - حكم المشركين الذين يطلبون الأمان لمعرفة شرائع الإسلام فقال - تعالى - :

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

وقوله : استجارك ، أى ، طلب جوارك وحمايتك من الاعتداء عليه ، وقد كان من الأخلاق الحميدة المتعارف عليها حماية الجار والدفاع عنه ، حتى سمى النصير جارا ، وعلى هذا المعنى جاء قوله . تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم[2] ﴾ أى : نصير لكم .

و ﴿ إن ﴾ شرطية و ﴿ أحد ﴾ مرفوع بفعل مضمر يفسره الفعل الظاهر وهو

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٥ . بتصرف وتلخيص .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

﴿ استجارك ﴾ والمعنى : وإن استأمنك - يامحمد - أحد من المشركين ، وطلب جوارك وحمايتك بعد انقضاء مدة الأمان المحددة له ، ﴿ فأجره ﴾ أى : فأمنه وأجبه إلى طلبه ، ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ أى : لكى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه من تعاليم مقنعة للعقول السليمة بأن الشرك ظلم عظيم ..

واقتصر على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شىء آخر فى الفهم ، لأنهم من أهل الفصاحة والبلاغة ، وقد كان سماع بعضهم لشىء من كلام الله سببا فى هدايته .

وقوله : ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ بيان لما يجب على المسلمين نحو هذا المشرك المستجير إذا ما استمع إلى كلام الله ثم بقى على شركه .

أى : عليك - يا محمد - أن تجيره حتى يسمع كلام الله ويتدبره ولا يبقى له عذر فى الاصرار على شركه ، فإن آمن بعد سماعه صار من أتباعك ، وإن بقى على شركه وأراد الرجوع إلى جماعته ، فعليك أن تحافظ عليه حتى يصل إلى مكان أمنه واستقراره ، وهو ديار قومه : ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك ، ويعامل بما يعاملون به .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ يعود إلى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن .

أى : ذلك الذى أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين وإبلاغه مأمنه إذا لم يسلم ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون الإسلام ولا حقيقة ما تدعوهم إليه أى قوم يحتاجون إلى فترة من الوقت يسمعون كلام الله فيها وهم آمنون ، وبهذا السماع منك ومن أصحابك لا يبقى لهم عذر أصلا فى استمرارهم على الباطل .

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى إلى محمد - ﷺ - بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أولحاجة: قتل؟ فقال له على:لا ، لأن الله يقول ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ الآية[1] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآية مايأتى :

١ - أن المستأمن لا يؤذى ، بل يجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وعرضه مادام فى دار الإسلام ، وقد حذر الإسلام أتباعه من الغدر أشد تحذير ، ومن ذلك ما رواه البخارى والنسائى عن النبى ﷺ أنه قال : « من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برئ من القاتل وإن كان المقتول كافرا » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .

وروى الشيخان وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة[١] » .

٢ - يلحق بالمستجير الطالب لسماع كلام الله ؛ من كان طالبا لسماع الأدلة على كون الإسلام حقا ، ومن كان طالبا للجواب على الشبهات التى أثارها أعداء الإسلام ، لأن هؤلاء وأمثالهم يطرقون باب الفهم والمعرفة ويبحثون عن الحق فعلينا أن نحميهم ، وأن نبذل أقصى الجهود فى تعليمهم وإرشادهم وإزالة الشبهات عنهم ، لعل الله أن يشرح صدورهم للاسلام بسبب هذا التعليم والإرشاد .

قال ابن كثير : كان رسول الله - ﷺ - يعطى الأمان لمن جاءه مسترشدا أو فى رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد ، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين لرسولهم - ﷺ - ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم ، وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم[٢] .

٣ - على الإمام أو من يقوم مقامه أن يعطى المستأمن المهلة التى يراها كافية لفهمه حقائق الاسلام وأن يبلغه مأمنه بعد انقضاء حاجته ، وأن لا يمكنه من الإقامة فى دار الاسلام إلا بمقدار قضاء حاجته .

قال الامام الرازى : ليس فى الآية ما يدل على أن مقدار هذه المهلة كم يكون ، ولعله لا يعرف مقدارها إلا بالعرف ، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أمهل وترك ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالأكاذيب لم يلتفت اليه[٣] .

٤ - أخذ العلماء من هذه الآية وجوب التفقه فى الدين ، وعدم الاكتفاء بالظنون والتقليد للغير ، وقد وضح الإمام الرازى هذا المعنى فقال :

دلت الآية على أن التقليد غير كاف فى الدين ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا ، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن نقتلك . فلما لم يقل له ذلك - بل أمهل وأزيل الخوف عنه ووجب تبليغه مأمنه - علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد فى الدين ، وأنه لابد من الحجة والدليل : فلذا أمهل ليحل له النظر والاستدلال »[٤] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٠٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٢٧ .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٢٧ .

٥ - تكلم العلماء عمن له حق إعطاء الأمان للمستأمن فقال القرطبى : « ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز ؛ لأنه مقدم النظر والمصلحة . نائب عن الجميع فى جلب المصالح ودفع المضار . واختلفوا فى أمان غير الخليفة ، فالحر يمضى أمانه عند كافة العلماء . وأما العبد فله الأمان فى مشهور مذهب المالكية وبه قال الشافعى وأحمد .

وقال أبو حنيفة : لا أمان له . والأول اصح لقوله - ﷺ - « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » .

قالوا : فلما قال « أدناهم » جاز أمان العبد ...»[1] .

وقال بعض العلماء: هذه الآية كانت أصلا عند الفقهاء فى إباحة تأمين المشرك، وقد توسع الإسلام فى باب الأمان فقرر به عصمة المستأمن ، وأوجب على المسلمين حمايته مادام فى دار الإسلام ، وجعل للمسلمين حق إعطاء ذلك الأمان ، ولم يشترط فى ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم ، بأن لا تظهر على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين .

ولا ينسى الإسلام - وهو يعطى هذا الحق للافراد - حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين ، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة ، وتقديره لوجوه المصلحة ، حق إبطال أى أمان لم يصادف محله ، أو لم يستوف شروطه ، كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة فى ذلك .

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وفى سائر الشئون ما لم يتصل شىء منها بضرر الدولة [2] .

٦ - هذه الآية الكريمة تشهد بسمو تعاليم الاسلام وسماحتها وحرصها على هداية الناس الى الحق ، وعلى صيانة دمائهم وأموالهم وأعراضهم من العدوان عليها .. حتى ولو كان هؤلاء الناس من أعداء الإسلام .

وقد بسط هذا المعنى بعض العلماء فقال ما ملخصه : إن هذه الآية تعنى أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يثوب ، وأن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه ، فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم أن تتفتح وتستجيب وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٨٦ .
(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦٢٢ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الاسلام .. ولكن قمة القمم هذه الحراسة للمشرك - عدو الإسلام والمسلمين - حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار السلام .

إنه منهج الهداية لا منهج الابادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام .

إن هذا ا لدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه ..(١) .

وبعد أن صرحت السورة الكريمة ببراءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت المؤمنين بإعطائهم مهلة يسيحون فيها فى الأرض ، ويتدبرون خلالها أمرهم ، ثم بعد ذلك على المؤمنين أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وأن يستعملوا معهم كل الوسائل المشروعة لإذلالهم ، وأن يؤمنوا المشرك الذى يريد أن يسمع كلام الله ، وأن يحافظوا عليه حتى يصل الى مكان استقراره . .

بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان الاسباب التى أوجبت البراءة من عهود المشركين ، والحِكَم التى من أجلها أمر الله يقتالهم والتضييق عليهم فقال - تعالى - :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ

(١) راجع تفسير (فى ظلال القرآن) جـ ١ ص ١٤٢ للأستاذ سيد قطب .

فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ
أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ الاستفهام فيه للانكار والاستبعاد لأن يكون للمشركين عهد . وهو إنكار للوقوع لا للواقع . أى ؛ تحذير للمؤمنين من أن يقع منهم ذلك فى المستقبل .

والمراد بالمشركين أولئك الذين نقضوا عهودهم ، لأن البراءة إنما هى فى شأنهم .

والعهد : ما يتفق شخصان أو طائفتان من الناس على التزامه بينهما ، فإن أكداه ووثقاه بما يقتضى زيادة العناية بالوفاء به سمى ميثاقا ، لا شتقاقه من الوثاق - بفتح الواو - وهو الحبل أو القيد . وإن أكداه باليمين خاصة سمى يمينا .

وسمى بذلك لوضع كل من المتعاقدين يمينه فى يمين الآخر عند عقده .

والمعنى : لا ينبغى ولا يجوز أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله لأن هؤلاء المشركين لا يدينون لله بالعبودية ، ولا لرسوله بالطاعة ، ولأنهم قوم دأبهم الخيانة . وعادتهم الغدر ، ومن كان كذلك لا يكون له عهد عند الله ولا عند رسوله .

قالوا : وفى توجيه الإنكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى ثبوته ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال، فإذا انتفت جميع أحوال وجوده ، فقد انتفى وجوده بالطريق البرهانى. وتكرير كلمة ﴿ عند ﴾ للايذان بعدم الاعتداد بعهودهم عند كل من الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - على حدة .

و ﴿ يكون ﴾ من الكون التام و﴿ كيف ﴾ محلها النصب على التشبيه بالحال أو الظرف . أو من الكون الناقص فيكون قوله ﴿ عهد ﴾ اسمها ، وقوله ﴿ كيف ﴾ خبرها وهو واجب التقديم ، لأن الاستفهام له صدر الكلام[1] .

وقوله : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم .. ﴾ استثناء من المشركين الذين استنكرت الآية أن تكون لهم عهود عند الله وعند رسوله .

---

(١) تفسير الآلوسى . بتصرف وتلخيص . جـ ١٠ ص ٤٩ .

والمراد بالمشركين الذين استثنوا هنا : أولئك الذين سبق الحديث عنهم فى قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم.. ﴾ .

وهم - كما رجحه ابن جرير والخازن - بنو خزيمه وبنو مدلج وبنو ضمرة من قبائل بنى بكر ، وكانوا قد وفوا بعهودهم مع المسلمين(١) .

وأعيد ذكر استثنائهم هنا ، لتأكيد هذا الحكم وتقريره .

والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، فيكون الكلام على حذف مضاف .

أى : عند قرب المسجد الحرام .

والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام ، لزيادة بيان اصحابها ، وللإشعار بسبب وجوب الوفاء بها .

والمعنى : لا ينبغى ولا يصح أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، لكن الذين عاهدتموهم - أيها المؤمنون - عند المسجد الحرام من المشركين ولم ينقضوا عهودهم ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ .

أى : فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم ، فتكون ﴿ ما ﴾ مصدرية منصوبة المحل على الظرفية .

ويصح أن تكون شرطية وعائدها محذوف فيكون المعنى : فأى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم ، إذ لا يجوز أن يكون نقض العهد من جهتكم .

وقوله : ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ تذييل قصد به التعليل لوجوب الامتثال ، وتبيين أن الوفاء بالعهد إلى مدته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ، ويحبهم بسبب تمسكهم بها .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية : ان العهد المعتد به فى شريعة الإسلام ، هو عهد الأوفياء غير الناكثين ، وأن من استقام على عهده عاملناه بمقتضى استقامته ، وأن الالتزام بالعهود من تقوى الله التى يحبها لعباده .

وقوله - سبحانه - ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ... ﴾ لا ستبعاد ثبات المشركين على العهد ، ولاستنكار ان يكون لهم عهد حقيق بالمراعاة ، وبيان لما يكون عليه أمرهم عند ظهورهم على المؤمنين .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٨٢ - وحاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٦ .

وفائدة هذا التكرار للفظ ﴿ كيف ﴾ : التأكيد والتمهيد لتعداد الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مجاهدتهم والإغلاظ عليهم ، والحذر منهم .

قال الآلوسى : وحذف الفعل بعد كيف هنا لكونه معلوما من الآية السابقة، وللإيذان بأن النفس مستحضرة له ، مترقبة لورود مايوجب استنكاره .

وقد كثر الحذف للفعل المستفهم عنه مع كيف ويدل عليه بجمله حالية بعده . ومن ذلك قول كعب الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار :

وخبرتمانى أنما الموت بالقرى   فكيف وماتا هضبة وقليب

يريد فكيف مات والحال ماذكر .

والمراد هنا : كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله وحالهم أنهم ﴿ إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يظهروا عليكم ﴾ يظفروا بكم ويغلبوكم . يقال : ظهرت على فلان أى : غلبته ومنه قوله - تعالى - ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي : غالبين .

وقوله : ﴿ لا يرقبوا فيكم ﴾ أى : لا يراعوا فى شأنكم . يقال : رقب فلان الشىء يرقبه إذا رعاه وحفظه .. ورقيب القوم حارسهم .

والإل : يطلق على العهد ، وعلى القرابة ، وعلى الحلف .

قال ابن جرير - بعد أن ساق أقوالا فى معنى الإل - وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : والإل : اسم يشتمل على معان ثلاثة : وهى العهد والعقد ، والحلف ، والقرابة .. ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى القرابة قول ابن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا   قطعوا الإل وأعراق الرحم

أى قطعوا القرابة .

ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى العهد قول القائل :

وجدناهم كاذبا إلهم   وذو الإل والعهد لا يكذب

وإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك كما عم بها - جل ثناؤه - معانيها الثلاثة ...[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى - بتصرف يسير - جـ ١٠ ص ٤٩ .
(٢) تفسير ابن جرير - بتصرف وتلخيص - جـ ١٠ ص ٨٣ .

والذمة : كل أمر لزمك بحيث إذا ضيعته لزمك مذمة أو هى ما يتذمم به أى يجتنب فيه الذم .

والمعنى : بأية صفة أو بأية كيفية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، والحال المعهود منهم أنهم إن يظفروا بكم ويغلبوكم ، لا يراعوا فى أمركم لا عهدا ولا حلفا ولا قرابة ولا حقا من الحقوق .

وقوله - تعالى - : ﴿ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ﴾ زيادة بيان للأحوال القبيحة الملازمة لهؤلاء المشركين .

أى : أن هؤلاء المشركين إن غلبوكم - أيها المؤمنون - فعلوا بكم الأفاعيل ، وتفننوا فى إيذائكم من غير أن يقيموا وزنا لما بينكم وبينهم من عهود ومواثيق ، وقرابات وصلات ... أما إذا كانت الغلبة لكم فإنهم فى هذه الحالة ﴿ يرضونكم بأفواههم ﴾ أى : يعطونكم من ألسنتهم كلاما معسولا إرضاء لكم ، وهم فى الوقت نفسه ﴿ تأبى قلوبهم ﴾ المملوءة حقدا عليكم وبغضا لكم تصديق ألسنتهم ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾[1] .

وتقييد الإرضاء بالأفواه ، للإشعار بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم .

وقوله : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ أى : خارجون عن حدود الحق ، منفصلون عن كل فضيلة ومكرمة ، إذ الفسق هو الخروج والانفصال . يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها وفسق فلان إذا خرج عن حدود الشرع .

وإنما وصف أكثرهم بالفسوق ، لأن هؤلاء الاكثرين منهم ، هم الناقضون لعهودهم ، الخارجون على حدود ربهم ، أما الأقلون منهم فهم الذين وفوا بعهودهم ، ولم ينقصوا المؤمنين شيئا ، ولم يظاهروا عليهم أحدا .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وصفت هؤلاء المشركين وصفا فى نهاية الذم والقبح ، لأنهم إن كانوا أقوياء فجروا واسرفوا فى الإيذاء ، نابذين كل عهد وقرابة وعرف ... أما إذا شعروا بالضعف فإنهم يقدمون للمؤمنين الكلام اللين الذى تنطق به ألسنتهم ، وتأباه قلوبهم الحاقدة الغادرة .

أى أن الغدر ملازم لهم فى حالتى قوتهم وضعفهم ، لأنهم فى حالة قوتهم ﴿ لا يرقبون فى

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٧ .

مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ . وفى حالة ضعفهم يخادعون ويداهنون حتى تحين لهم الفرصة للانقضاض على المؤمنين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك السبب الأصيل الذى جعل الغدر ديدنهم ، والحقد على المؤمنين دأبهم فقال : ﴿ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

والمراد بالاشتراء هنا الاستبدال والاستيعاض .

والمراد بآيات الله : كل ما جاء به النبى - ﷺ - من آيات قرآنية ، ومن تعاليم سامية تهدى إلى الخير والفلاح .

والمعنى ؛ إن السبب الأصيل الذى حمل هؤلاء المشركين على الغدر ، وعلى الفجور والطغيان عند القوة وعلى المداهنة والمخادعة عند الضعف . هو أنهم استبدلوا بآيات الله المتضمنة لكل خير وفلاح ... ثمنا قليلا . أى : عرضا حقيرا من أعراض الدنيا وزخارفها .

وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات . بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات . لأن كل ثمن يؤخذ فى مقابل آيات الله فهو قليل وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا وزينتها .

وقوله : ﴿ فصدوا عن سبيله ﴾ بيان لما ترتب على استبدالهم بآيات الله ثمنا قليلا .

والصد : المنع والحيلولة بين الشىء وغيره ، ويستعمل لازما فيقال : صد فلان عن الشىء صدودا بمعنى أعرض عنه . ويستعمل متعديا فيقال : صده عنه إذا صرفه عن الشىء .

وهنا تصح إرادة المعنيين فيكون التقدير : أن هؤلاء المشركين قد اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، يترتب على ذلك أن أعرضوا عن طريق الله الواضحة المستقيمة التى جاء بها نبيه محمد - ﷺ - ، ولم يكتفوا بهذا بل صرفوا غيرهم عنها ، ومنعوه من الدخول فيها .

وقوله : ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ تذليل قصد به بيان سوء عاقبتهم ، وقبح أعمالهم .

أى : إنهم ساء وقبح عملهم الذى كانوا يعملونه من اشترائهم بآيات الله ثمنا قليلا ، ومن صدودهم عن الحق وصدهم لغيرهم عنه .. وسيجازيهم الله على ذلك بما يستحقونه عن عقاب شديد .

ثم بين - سبحانه - أن عداوة هؤلاء المشركين ليست خاصة بالمؤمنين الذين يقيمون معهم ، وإنما هى عداوة عامة شاملة لكل مؤمن مهما تباعد عنهم فقال - تعالى - :

﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾ .

أى : أن هؤلاء المشركين لا يراعون فى أمر مؤمن يقدرون على الفتك به عهدا يحرم الغدر ، ولا قرابة تقتضى الود ، ولا ذمة توجب الوفاء خشية الذم ... وإنما يبيتون الحقد والغدر والأذى لكل مؤمن ، من غير أن يقيموا للعهود أو للفضائل وزنا .

وهذه الآية الكريمة أعم من قوله - تعالى : قبل ذلك : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ﴾ لأن هذه بينت أن عدوانهم على المؤمنين مقيد بظهورهم عليهم، أما التى معنا فقد بينت أن عدوانهم ليس مقيدا بشىء، فهم متى وجدوا الفرصة اهتبلوها فى الاعتداء على المؤمنين ولأن التى معنا بينت أن عداوتهم قد شملت كل مؤمن مهما كان موضعه . أما الآية السابقة فهى تخاطب المؤمنين الذين كان بينهم وبين المشركين الكثير من الحروب والدماء .

وقوله ﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ تذييل قصد به ذمهم والتحقير من شأنهم .

أى : وأولئك المشركون الموصوفون بتلك الصفات السيئة هم المتجاوزون لحدود الله والخارجون على كل فضيلة ومكرمة .

وبعد أن وضحت السورة الكريمة طبيعة هؤلاء المشركين بالنسبة لكل مؤمن ، وبينت الاسباب التى جعلتهم بمعزل عن الحق والخير .. شرعت فى بيان ما يجب أن يفعله المؤمنون معهم فى حالتى إيمانهم وكفرهم فقال تعالى .

﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ .

أى : فان تابوا عن شركهم ومايتبعه من رذائل ومنكرات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، على الوجه الذى أمر الله به فهم فى هذه الحالة ﴿ إخوانكم فى الدين ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم وهذه الأخوة تَجُبُّ ما قبلها من عداوات .

وقوله : ﴿ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ جملة معترضة ، جىء بها للحث والتحري على ما فصله - سبحانه - من أحكام المشركين ، وعلى الالتزام بها .

هذا ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .. أما إن كانت الاخرى ، أى إذا لم يتوبوا واصروا على عداوتهم ، فقد بين سبحانه . ما يجب على المؤمنين نحوهم فى هذه الحالة فقال : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ﴾ .

أى : وإن نقضوا عهودهم من بعد أن تعاقدوا معكم على الوفاء بها .

وقوله : ﴿ نكثوا ﴾ من النكث بمعنى النقض والحل . يقال نكث فلان الحبل إذا نقض فتله

وحل خيوطه ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وطعنوا فى دينكم ﴾ معطوف على ما قبله . أى : وعابوه وانتقضوه .

وقوله : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ أى : فقاتلوهم فهم أئمة الكفر ، وحملة لوائه . فوضع - سبحانه - الاسم الظاهر المبين لشر صفاتهم موضع الضمير عل سبيل الذم لهم .

وقيل : المراد بأئمة الكفر رؤساؤهم وصناديدهم الذين كانوا يحرضونهم على عداوة المؤمنين ، ويقودونهم لقتال النبى - ﷺ - وأصحابه .

وعطف . سبحانه - قوله ﴿ وطعنوا فى دينكم ﴾ على ما قبله مع أن نقض العهد كاف فى إباحة قتالهم ، لزيادة تحريض المؤمنين على مجاهدتهم والاغلاظ عليهم .

وقوله : ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ تعليل للأمر بقتالهم أى قاتلوا هؤلاء المشركين بعزيمة صادقة ، وقلوب ثابتة . لأنهم قوم لا أيمان ولا عهود لهم على الحقيقة ، لأنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان .

وقرأ ابن عامر ﴿ إنهم لا إيمان لهم ﴾ - يكسر الهمزة . على أنها مصدر آمنه إيمانا بمعنى إعطاء الأمان . أى إنهم لا أمان لهم فاحذروا الاغترار بهم . أو المراد الإيمان الشرعى . أى إنهم لا تصديق ولا دين لهم ، ومن كان كذلك فلا وفاء له .

وقوله : ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ .

أى : ليكن مقصدكم من مقاتلتهم - بعد أن وجد منهم ما وجد من إيذائكم الرجاء فى هدايتهم ، والانتهاء عن كفرهم وخيانتهم .. واحذروا أن يكون مقصدكم من ذلك العدوان واتباع الهوى .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات سوى ما سبق - ما يأتى :

١ - أن ما ذكرته الآيات من كون المشركين ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، يقرر حقيقة واقعة ، ومن الأدلة على ذلك ما فعله التتار بالمسلمين - وخاصة مسلمى بغداد . سنة ٦٥٦ . وما فعله الوثنيون الهنود مع مسلمى باكستان ، وما فعله الشيوعيون . فى روسيا والصين وغيرها - مع المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم[2] .

٢ - أن هؤلاء المشركين متى تابوا عن كفرهم ، وأقلعوا عن شركهم ، واندمجوا فى جماعة المؤمنين .. صاروا إخوة لنا فى الدين .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٢ .
(٢) لمعرفة ذلك بالتفصيل راجع تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٠ من ص ١٤١ إلى ص ١٤٥ .

وهذه الأخوة الدينية - كما يقول صاحب المنار - مما يحسدنا جميع أهل الملل عليها فهى لاتزال أقوى فينا منها فيهم برا وتعاونا . وعاصمة لنا من فوضى الشيوعية ، واثرة المادية وغيرها ، على ما منيت به شعوبنا من الضعف وإختلال النظام ، وإختلاف الجنسيات والأحكام ..[١] .

٣ - قال القرطبى : استدل بعض العلماء بهذه الآية ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم ﴾ - على وجوب قتل كل من طعن فى الدين ، إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليه ما لايليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين لما ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله واستقامة فروعه .

وقال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبى - ﷺ - عليه القتل . وممن قال بذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق والشافعى[٢] .

٤ - أخذ بعضهم من قوله - تعالى - ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ أن الكافر لا يمين له على الحقيقة .

قال الفخر الرازى : وبه تمسك أبو حنيفة . رحمه الله . فى أن يمين الكافر لا يكون يميناً . وعند الشافعى . رحمه الله - يمينهم يمين . ومعنى الآية عنده : أنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان . والدليل على أن أيمانهم أيمان أنه - سبحانه - وصفها بالنكث فى قوله ﴿ وإن نكثوا أيمانهم .. ﴾ ولو لم يكن منعقداً لما صح وصفها بالنكث[٣] .

٥ - دل قوله تعالى ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ على أن قتال المؤمنين للمشركين لا يراد به سلب أموالهم ولا هتك أعراضهم .. وإنما المراد به الرجاء فى هدايتهم ، والأمل فى انتهائهم عن الكفر وسوء الأخلاق .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ .

أى : ليكن غرضكم فى مقاتلتهم - بعدما وجد منهم ما وجد من العظائم - أن تكون المقاتلة سببا فى انتهائهم عما هم عليه . وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسىء بالرحمة كلما عاد[٤] .

وبعد أن بينت السورة الكريمة الأسباب الموجبة لقتال المشركين : شرعت فى تحريض المؤمنين على مهاجمتهم ومقاتلتهم بأسلوب يثير الحمية فى النفوس ، ويحمل على الأقدام وعدم المبالاة بهم .. فقال تعالى :

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٢٨ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٨٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٣٤ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥١ .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قال الآلوسى : قوله تعالى ﴿ ألا تقاتلون قوما ... ﴾ تحريض على القتال بأبلغ وجه - ، لأن الاستفهام فيه للإنكار ، والاستفهام الإنكارى فى معنى النفى ، وقد دخل هنا على نفى ، ونفى النفى إثبات . وحيث كان الترك منكرا أفاد بطريق برهانى أن إيجاده أمر مطلوب مرغوب فيه ، فيفيد الحث والتحريض عليه . بأقوى الأدلة ، وأسمى الأساليب[1] .

وقد ذكر - سبحانه - هنا ثلاثة أسباب كل واحد منها يحمل المؤمنين على قتال المشركين بغلظة وشجاعة .

أما السبب الأول فهو قوله تعالى : ﴿ نكثوا أيمانهم ﴾ أى : نقضوا عهودهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها لتأكيد هذه العهود .

ومن مظاهر ذلك أن هؤلاء المشركين الذين تعاهدوا معكم فى صلح الحديبية على ترك القتال عشر سنين . قد نقضوا عهودهم بمساعدة حلفائهم بنى بكر على قتال حلفائكم بنى خزاعه عند أول فرصة سنحت لهم .

والسبب الثانى قوله . سبحانه . ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ والهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه .

أى : وهموا بإخراج الرسول - ﷺ - من مكة التى ولد فيها وعاش بها زمنا طويلا .. لكنهم لم يستطيعوا ذلك ، بل خرج باختيار . وبإذن الله له فى الهجرة .

وقد فصل سبحانه . ما هموا به فى قوله ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٦٤ - بتصرف يسير .

يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [١] .

وإنما اقتصر ، سبحانه ، فى الآية التى معنا على همهم بإخراجه . صلى الله عليه وسلم . من مكة ، مع أن آية الأنفال قد بينت أنهم قد هموا بأحد أمور ثلاثة - لأن الإخراج هو الذى وقع أثره فى الخارج بحسب الظاهر ، أما القتل والحبس فلم يكن لهما أثر فى الخارج .

وقيل : إنه . سبحانه . قد اقتصر على الأدنى وهو الهم بالإخراج ، ليعلم غيره بالطريق الأولى ، إذ الإخراج أهون من القتل والحبس .

وأما السبب الثالث فهو قوله . سبحانه . ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ أى : وهم الذين كانوا بادئين بقتالكم فى أول لقاء بينكم وبينهم وهو يوم بدر ، كما كانوا بادئين بالعدوان عليكم فى كل قتال بعد ذلك ، كما حدث منهم فى أحد والخندق وكما حدث منهم مع حلفائكم من بنى خزاعة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ أى : وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله - ﷺ - جاءهم أولا بالكتاب المنير ، وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال . فهم البادئون بالقتال والبادىء أظلم ، فما يمنعكم من أن تقابلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ؟ [٢] .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد ذكرت ثلاثة أمور كل واحد منها كفيل بحمل المؤمنين على قتال المشركين .. فكيف وقد توفرت هذه الأمور الثلاثة فى هؤلاء المشركين ؟ .

ولم تكتف الآية الكريمة بهذا التهييج والتحريض للمؤمنين على القتال ، بل أمرتهم بأن تكون خشيتهم من الله وحده ، فقال سبحانه ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أى : أتتركون - أيها المؤمنون - قتال هؤلاء المشركين الذين ﴿ نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ﴾ خشية منهم .. ؟ لا ، إن هذا لا يليق بكم ، وإنما الذى يليق بكم - إن كنتم مؤمنين حقا - أن تكون خشيتكم من الله وحده .

قال الإمام الرازى : وهذا الكلام يقوى داعية القتال من وجوه :

الأول : أن تعديد الموجبات القوية وتفصيلها مما يقوى هذه الداعية .

الثانى : أنك إذا قلت للرجل : أتخشى خصمك ؟ كان ذلك تحريكا لأن يستنكف أن ينسب إلى كونه خائفا من خصمه .

الثالث : أن قوله : ﴿ فالله أحق أن تخشوه ﴾ يفيد ذلك كأنه قيل : إن كنت تخشى أحدا

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣ .

فالله أحق أن تخشاه ، لكونه فى غاية القدرة والكبرياء والجلالة ..

الرابع : أن قوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ معناه : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا ، وجب عليكم أن تقدموا على هذه المقاتلة ومعناه : أنكم إذا لم تقدموا لا تكونوا كذلك ، فثبت أن هذا الكلام مشتمل على سبعة أنواع من الأمور التى تحملهم على مقاتلة أولئك الكفار الناقضين للعهد [١] .

ثم أمرهم - سبحانه - أمراً صريحاً قاطعاً بمقاتلة المشركين . ورتب على هذه المقاتلة خمسة أنواع من الفوائد فقال : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ .

أى : أقدموا على قتالهم وباشروه بشجاعة وإخلاص كما أمركم ربكم ، فإنكم متى فعلتم ذلك ﴿ يعذبهم الله بأيديكم ﴾ بسبب ما تنزلونه بهم من قتل وأسر وجراحات بليغة ، واغتنام للأموال .

وأسند - سبحانه - التعذيب إليه ، لأنه أمر زائد على أسبابه من الطعن والضرب وما يفضيان إليه من القتل والجرح .. والأسر . تلك هى الفائدة الأولى من قتالهم .

أما الفائدتان الثانية والثالثة فتتجليان فى قوله . تعالى . ﴿ ويخزهم ؛ وينصركم عليهم ﴾ .

أى : ويخزهم بسبب ما ينزل بهم من هزيمة وهوان وهم يتفاخرون بقواتهم وبأسهم ، وينصركم عليهم بأن يجعل كلمتكم هى العليا وكلمتهم هى السفلى .

قال الإمام الرازى : فإن قالوا : لما كان حصول ذلك الخزى مستلزما لحصول هذا النصر ، كان إفراده بالذكر عبثاً ؟

فتقول : ليس الأمر كذلك ، لأنه من المحتمل أن يحصل الخزى لهم من جهة المؤمنين ، إلا أن المؤمنين قد تحصل لهم آفة لسبب آخر ، فلما قال : ﴿ وينصركم عليهم ﴾ دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر » [٢] .

والفائدة الرابعة بينها - سبحانه - فى قوله . ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ .

أى : أنكم بقتالكم لهم وانتصاركم عليهم ، تشفون قلوب جماعة من المؤمنين من غيظها المكظوم ، لأن هذه الجماعة قد لقيت ما لقيت من أذى المشركين وظلمهم وغدرهم .. فكان انتصاركم عليهم شفاء لصدورهم .

قالو : والمراد بهؤلاء القوم بنو خزاعة الذين غدر بهم بنو بكر بمساعدة قريش .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٣٥ - بتصرف يسير .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٢ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٩٣٨ .

والأولى أن تكون الجملة الكريمة عامة فى كل من آذاهم المشركون .

أما الفائدة الخامسة فقد بينها - سبحانه . فى قوله ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ : أى : ويذهب غيظ قلوب هؤلاء القوم المؤمنين ويزيل كربها وغمها ، لأن الشخص الذى طال أذى خصمه له . ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه فإن هذا الشخص فى هذه الحالة يعظم سروره ، ويفرح قلبه ، ويتحول غيظه السابق إلى غبطة وارتياح نفسى .

قال الآلوسى : « وظاهر العطف أن إذهاب الغيظ غير شفاء الصدور . ووجه بأن الشفاء يكون بقتل الأعداء وخزيهم ، وإذهاب الغيظ يكون بالنصر عليهم ... وقيل : إذهاب الغيظ كالتأكيد لشفاء الصدر ، وفائدته المبالغة فى جعلهم مسرورين بما يمن الله به عليهم من تعذيبه لأعدائهم ، ونصرته لهم عليهم ، ولعل إذهاب الغيظ من القلب أبلغ مما عطف عليه ، فيكون ذكره من باب الترقى ... »[1] .

وقوله: تعالى- ﴿ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ كلام مستأنف لبيان شمول قدرة الله - تعالى - ، وواسع رحمته ، وبالغ حكمته .

أى : ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه من عباده فيوفقه للايمان ، ويشرح صدره للاسلام ، والله - تعالى عليم بسائر شئون خلقه ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، فامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وهذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين فى علم الله - تعالى - إيمانا حقيقيا ؛ لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة بالغضب وبالحمية من أجل الدين ، ومن أجل الرغبة الشديدة فى علو دين الإسلام ، وهذه الأحوال لا تحصل إلا فى قلوب المؤمنين الصادقين .

كما تدل على أنها من المعجزات ، لأنه - تعالى - أخبر عن حصول هذه الأحوال ، وقد وقعت كما أخبر فقد انتصر المؤمنون ، وأسلم من المشركين أناس كثيرون - فيكون ذلك إخبارا عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة »[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة التى حرضت المؤمنين على القتال أعظم تحريض ، ببيان بعض الحكم التى من أجلها شرع الجهاد فى سبيل الله ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٥٥ - بتصرف وتلخيص .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤ .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

و« أم » هنا للاستفهام الانكارى . وحسب - كما يقول الراغب - مصدره الحسبان وهو أن يحكم الشخص لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، فيحسبه ويعقد عليه الأصابع ، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك . ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن أن يخطر النقيضان بباله فيغلب أحدهما على الآخر[1] .

والواو فى قوله : ﴿ ولما يعلم الله ... ﴾ حالية ، و ﴿ لما ﴾ للنفى مع توقع الحصول،ونفى العلم هنا مجاز عن نفى التبيين والاظهار والتمييز .

وقوله : ﴿ وليجة ﴾ أى ، بطانة ومداخلة . من الولوج فى الشىء أى الدخول فيه .

يقال : ولج يلج ولوجا إذا دخل . وكل شىء أدخلته فى شىء ولم يكن منه فهو وليجة .

والمراد بالوليجة هنا : البطانة من المشركين الذين يطلعون على أسرار المؤمنين ويداخلونهم فى أمورهم .

قال ابن جرير : قوله : ﴿ وليجة ﴾ هو الشىء يدخل فى آخر غيره . يقال منه : ولج فلان فى كذا يلجه فهو وليجة . وإنما عنى بها فى هذا الموضع : البطانة من المشركين ، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء يفشون إليهم أسرارهم[2] .

والمعنى : أحسبتم - أيها المؤمنون - أن تتركوا دون أن تؤمروا بقتال المشركين ، والحال أن الله - تعالى - لم يظهر الذين جاهدوا منكم بإخلاص ولم يتخذوا بطانة من أعدائكم .. ممن جاهدوا منكم بدون إخلاص ؟

لا . أيها المؤمنون ، إن كنتم حسبتم ذلك فهو حسبان باطل ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يميز المخلص فى جهاده من غيره ، وأن يجعل من حكم مشروعية الجهاد الامتحان والتمحيص .

قال ابن كثير : والحاصل أنه - تعالى - لما شرع الجهاد لعباده ، بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو - تعالى - العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١١٧ للراغب الأصفهانى .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٩٢ .

كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه »[1] .

وقوله تعالى . ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه لجميع شئون خلقه .

أى : والله - تعالى - خبير بجميع أعمالكم ، مطلع على نياتكم ، فأخلصوا له العمل والطاعة ، لتنالوا ثوابه ورضاه وعونه .

وبذلك نرى السورة الكريمة من أولها إلى هنا قد أعلنت براءة الله ورسوله من عهود المشركين ، وأعطتهم مهلة يتدبرون خلالها أمرهم ، وأمرت المؤمنين بعد هذه المهلة - أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم .. ثم ساقت الأسباب التى تدعو إلى مجاهدتهم ، والفوائد التى تترتب على هذه المجاهدة ، والحكم التى من أجلها شرعت هذه المجاهدة .

ثم أخذت السورة بعد ذلك فى إعلان حكم آخر يتعلق بتعمير مساجد الله ، فبينت أنه يحرم على المشركين أن يعمروا مساجد الله ، وأن المستحقين لذلك هم المؤمنون الصادقون ، فقال - تعالى - :

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، منهم العباس بن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - يعيرونهم

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٠ .

بالشرك . وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله - ﷺ - وقطيعة الرحم .

فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقيل له : وهل لكم محاسن ؟ قال : نعم . ونحن أفضل منكم . إنا لنعمر المسجد الحرام . ونحجب الكعبة - أى نخدمها - ، ونسقى الحجيج ، ونفك العانى - أى الأسير - فنزلت هذه الآية [١] .

وقال صاحب المنار : والمراد أن هذه الآية تتضمن الرد على ذلك القول الذى كان يقوله ويفخر به العباس وغيره من كبراء المشركين ، لا أنها نزلت عندما قال ذلك القول لأجل الرد عليه فى أيام بدر من السنة الثانية من الهجرة ، بل نزلت فى ضمن السورة بعد الرجوع من غزوة تبوك كما تقدم [٢] .

وقوله : ﴿ يعمروا ﴾ من العمارة التى هى نقيض الخراب . يقال : عمر فلان أرضه يعمرها عمارة إذا تعهدها بالخدمة والاصلاح والزراعة .

والمراد بعمارة المساجد ، هنا : ما يشمل إقامة العبادة فيها ، وإصلاح بنائها وخدمتها ، ونظافتها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل مالا يتناسب مع الغرض الذى بنيت من أجله .

وقوله : ﴿ مساجد الله ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿ مسجد الله ﴾ بالإفراد ، فيكون المراد به المسجد الحرام : لأنه أشرف المساجد فى الأرض ، ولأنه قبلة المساجد كلها .. فلا يجوز للمشركين دخوله أو الخدمة فيه .

وقرأ الجمهور ﴿ مساجد الله ﴾ بالجمع ، فيكون المراد من المساجد جميعها لأنها جمع مضاف فى سياق النفى فيعم سائر المساجد ، ويدخل فيها المسجد الحرام دخولا أولياً ، لأن تعميره مناط افتخارهم ، وأهم مقاصدهم . وهذه القراءة آكد فى النفى ، لأن نفى الجمع يدل على النفى عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكناية ، كما لو قلت : فلان لا يقرأ كتب الله ، فإن قولك هذا أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك .

قوله : ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ حال من الواو فى قوله ﴿ يعمروا ﴾ . وفائدة المجىء بهذه الجملة : الأشعار بأن كفرهم كفر صريح ، وأنهم يعترفون به اعترافاً لا يملكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا إقراره .

والمعنى : لا ينبغى ولا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله التى بنيت لعبادته وحده -

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٤٩ .

سبحانه . وذلك لأن هؤلاء المشركين قد شهدوا على أنفسهم بالكفر شهادة نطقت بها ألسنتهم ، وأيدتها أعمالهم .

فهم لا ينطقون بكلمة التوحيد ، وإنما ينطقون بالكفر والاشراك . وهم لا يعملون أعمال المؤمنين ، وإنما يعملون الأعمال القبيحة التى تدل على إصرارهم على باطلهم كسجودهم للأصنام عقب الطواف بالكعبة .

قال الفخر الرازى : وذكروا فى تفسير هذه الشهادة وجوها :

الأول - وهو الأصح : أنهم أقروا على أنفسهم بعبادة الأوثان ، وتكذيب القرآن ، وإنكار نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - وكل ذلك كفر ؛ فمن يشهد على نفسه بكل هذه الأشياء فقد شهد على نفسه بما هو كفر فى نفس الأمر ، وليس المراد أنهم شهدوا على أنفسهم بأنهم كفرة .

الثانى . قال السدى : شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن يقول عابد الوثن أنا عابد الوثن .

الثالث : أنهم كانوا يطوفون عراة ؛ وكلما طافوا شوطاً سجدوا للأصنام . وكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك [1] .

ثم بين - سبحانه : فى ختام الآية سوء عاقبتهم فقال ﴿ أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾ :

أى : أولئك المشركون الشاهدون على أنفسهم بالكفر قد فسدت أعمالهم التى كانوا يفتخرون بها مثل العمارة والحجابة والسقاية لأنها مع الكفر لا قيمة لها ، ﴿ وفى النار هم خالدون ﴾ يوم القيامة بسبب كفرهم وإصرارهم على باطلهم .

ثم بين . سبحانه . أن المؤمنين الصادقين هم الجديرون بعمارة مساجد الله ، فقال : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ .

أى : ليس المشركون أهلا لعمارة مساجد الله ؛ وإنما الذين هم أهل لذلك المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من فرائض فأدوها بالكيفية التى أرشدهم إليها نبيهم - ﷺ - فهم فى صلاتهم خاشعون ؛ وللزكاة معطون بسخاء وإخلاص .

وهم بجانب ذلك لا يخشون أحداً إلا الله فى تبليغ ما كلفوا بتبليغه من أمور الدين ؛

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٨ .

ولا يقصرون فى العمل بموجب أوامر الله ونواهيه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا ذكر الإيمان برسول الله - ﷺ - قلت : لما عُلِم وشهر أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول . عليه الصلاة والسلام . لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين كأنهما شىء واحد .. انطوى تحت ذكر الإيمان بالله . تعالى . الإيمان بالرسول - ﷺ - فإن قلت : كيف قال : ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها .

قلت : هى الخشية والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف : وإذا اعترض أمران : أحدهما حق الله والآخر حق نفسه ، آثر حق الله على حق نفسه [١] .

وقوله - تعالى - ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ تذييل قصد به حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .

أى : فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة من الإيمان بالله واليوم الآخر .. أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة وما أعد فيها من خير عميم ، ورزق كبير .

قال الآلوسى : وإبراز اهتدائهم لذلك - مع ما بهم من تلك الصفات الجليلة - فى معرض التوقع ، لحسم أطماع الكافرين عن الوصول إلى مواقف الاهتداء لأن هؤلاء المؤمنين . وهم من هم . إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى فكيف يقطع المشركون . وهم بيت المخازى والقبائح . أنهم مهتدون ؟! .

وفيه قطع اتكال المؤمنين على أعمالهم ، وإرشادهم إلى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء [٢] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أن أعمال البر الصادرة عن المشركين . كإطعام الطعام ، وإكرام الضيف .. إلخ . لا وزن لها عند الله ، لا قترانها بالكفر والإشراك به - سبحانه - .

قال . تعالى . : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[٣] .

٢ - أن عمارة مساجد الله من حق المؤمنين وحدهم ، أما المشركون فإنهم لا يصح منهم ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٥ - بتصريف يسير .

(٢) تفسير الأولوسى جـ ١٠ ص ٥٩ - بتصريف وتلخيص .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

قال الجمل . لا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله بدخولها والقعود فيها . فإذا دخل الكافر المسجد بغير إذن من مسلم عُزِّر ، وإن دخل بإذنه لم يعزر لكن لا بد من حاجة . فيشترط للجواز الإذن والحاجة . ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبى - ﷺ - شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سوارى المسجد وهو كافر [١] .

٣ - التنويه بشأن بناء المساجد ، والتعبد فيها ، وإصلاحها ، وخدمتها ، وتنظيفها ، والسعى إليها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل ما يتنافى مع الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، ومن ذلك : ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عثمان بن عفان . رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

وروى الشيخان . أيضاً . عن أبى هريرة . رضى الله عنه . قال : رسول الله - ﷺ - « من غدا إلى المسجد أو راح - أى سار قبل الزوال أو بعده لعبادة الله فى المسجد - أعد الله له نزلا - أى مكاناً طيبا فى الجنة - كلما غدا أو راح » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى - ﷺ - قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله . تعالى - : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ..﴾ الآية .

وروى أبو داود والترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله - ﷺ - نهى عن الشراء والبيع فى المسجد ، وأن تنشد فيه ضالة ؛ أو ينشد فيه شعر » . وروى مسلم فى صحيحه عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر ، إنما هى لذكر الله . تعالى . وقراءة القرآن » [٢] .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت بشأن المساجد .

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك أنه لا يصلح أن يسوى بين هؤلاء المشركين - لمجرد سقايتهم الحجاج وعمارتهم المسجد الحرام . وبين المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيل الله لإعلاء كلمته فقال - سبحانه - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) من كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووى ص ٤١٨ ، ص ٤١٩ ، ص ٦١٤ ، ٦١٥ طبعة عيسى الحلبى .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما رواه مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبى . - ﷺ - فى نفر من أصحابه فقال رجل : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبى - ﷺ - وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله - ﷺ - فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله . تعالى . : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج .. الآية ﴾[1] .

وأخرج ابن جرير عن عبيد بن سليمان قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج .. ﴾ : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك . فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام . ونفك العانى ، ونحجب البيت ، ونسقى الحاج فأنزل الله . تعالى . : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج .. ﴾ [2] .

وقال صاحب المنار ، بعد أن ساق عدداً من الروايات فى سبب نزول هذه ا لآيات . :

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٦٠ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٩٦ .

والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده ، وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها فى المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابه . من أعمال البر الهينة المستلذة . وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهى أشق العبادات البدنية والمالية [١] .

والسقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر . بتخفيف الميم .

والمراد بسقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان العباس . رضى الله عنه . هو الذى يتولى إدارة هذا العمل .

قال الجمل : السقاية هى المحل الذى يتخذ فيه الشراب فى الموسم . كان يشترى الزبيب فينبذ فى ماء زمزم ويسقى للناس ، وكان يليها العباس جاهلية وإسلاماً ، وأقرها النبى - ﷺ - له .. ويظهر أن المراد بها هنا المصدر . أى : إسقاء الحجاج وإعطاء الماء لهم [٢] .

والمراد بعمارة المسجد الحرام : ما يشمل العبادة فيه ، وإصلاح بنائه ، وخدمته ، وتنظيفه .. كما سبق أن بينا .

والهمزة فى قوله . ﴿ أجعلتم ﴾ للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى .

والكلام على حذف مضاف ، لأن العمارة والسقاية مصدران ولا يتصور تشبيهها بالأعيان ، فلابد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين حتى يتأتى التشبيه والمعنى : أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ ويؤيده قراءة ﴿ أجعلتم سقاة الحاج ﴾ بضم السين . جمع ساق . ﴿ وعمرة المسجد الحرام ﴾ بفتح العين والميم جمع عامر .

وعلى هذا المعنى يكون التقدير فى جانب الصفة ، ويجوز أن يكون التقدير فى جانب الذات فيكون المعنى . أجعلتموهما ، أى السقاية والعمارة . كإيمان من آمن وجهاد من جاهد ؟

والخطاب يشمل بعض المؤمنين الذين آثروا السقاية والعمارة على الجهاد كما جاء فى حديث النعمان . كما يشمل المشركين الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سقاة الحجيج ، وعمار المسجد الحرام .

والمقصود من الجملة الكريمة إنكار التسوية بين العملين وبين الفريقين . وقد جاء هذا الانكار صريحاً فى قوله تعالى . ﴿ لا يستوون عند الله ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٥٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٧١ .

أى : لا يساوى الفريق الأول الفريق الثانى فى حكم الله ، إذ أن الفريق الثانى له بفضل إيمانه الصادق . وجهاده الخالص الأجر الجزيل عند الله .

فالجملة الكريمة مستأنفة لتقرير الانكار المذكور وتأكيده ثم ختم - سبحانه . الآية الكريمة بقوله . ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

أى . والله تعالى . لا يوفق القوم الظالمين إلى معرفة الحق ، وتمييزه من الباطل ، لأنهم قد آثروا الشر على الخير والضلالة على الهداية .

وقوله . ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله .. » استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة فى الرد ، وتكميلا له .

أى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ بالله - تعالى - إيماناً حقاً ، ﴿ وهاجروا ﴾ من دار الكفر إلى دار الايمان فراراً بدينهم، ﴿ وجاهدوا فى سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ هؤلاء الذين توفرت فيهم هذه الصفات الجليلة ﴿ أعظم درجة عند الله ﴾ أى : أعلى مقاماً وأشرف منزلة فى حكم الله وتقديره من أهل سقاية الحاج ، وعمارة المسجد ﴿ الحرام ﴾ ومن كل من لم يتصف بهذه الصفات الأربعة الكريمة وهى : الايمان ، والهجرة ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالنفس .

قال الفخر الرازى . فان قيل : لما أخبرتم أن هذه الصفات كانت بين المسلمين والكافرين . كما جاء فى بعض روايات أسباب النزول . فكيف قال فى وصفهم اعظم درجة مع أنه ليس للكفار درجة .

قلنا . الجواب عنه من وجوه . الأول أن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لأنفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ، ونظيره قوله . سبحانه ﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ [1] .

الثانى : أن يكون المراد أن أولئك أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفًا بهذه الصفات ، تنبيهًا على أنهم لما كانوا أفضل من المؤمنين الذين ما كانوا موصوفين بهذه الصفات ، فبأن لا يقاسوا إلى الكفار أولى .

الثالث : أن يكون المراد أن المؤمن المجاهد المهاجر أفضل ممن على السقاية والعمارة . والمراد منه ترجيح تلك الأعمال . ولا شك أن السقاية والعمارة من أعمال الخير ، وإنما بطل ثوابها فى حق الكفار بسبب كفرهم [2] .

---

(١) سورة النمل : الآية ٥٩ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ١٤ وتلخيص يسير .

وقوله : ﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ أى : وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، هم الفائزون ، بثواب الله الأعظم ، وبرضائه الأسمى الذى لا يصل إليه. سواهم ممن لم يفعل فعلهم .

ثم فصل - سبحانه - هذا الفوز فقال : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

أى يبشرهم ربهم على لسان نبيهم - ﷺ - فى الدنيا وعلى لسان الملائكة عند الموت ﴿ برحمة منه ﴾ أى : برحمة واسعة منه - سبحانه - وبرضائه التام عنهم ، وبجنات عالية لهم فيها نعيم عظيم لا يزول ولا يبيد .

﴿ خالدين فيها أبدًا ﴾ أى : ماكثين فى تلك الجنات مكثًا أبديًا .

﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ لا يقادر قدره لهؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

قال الآلوسى : ذكر أبو حيان أنه - تعالى - لما وصف المؤمنين بثلاث صفات الإيمان والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث : الرحمة ،والرضوان ، والجنة .

وبدأ - سبحانه - بالرحمة فى مقابة الإيمان لتوقفها عليه ، ولأنها أعم النعم وأسبقها كما أن الإيمان هو السابق .

وثنى - سبحانه - بالرضوان الذى هو نهاية الإحسان فى مقابلة الجهاد الذى هو بذل الأنفس والأموال .

وثلث بالجنات فى مقابلة الهجرة وترك الأوطان ، إشارة إلى أنهم لما آثروا تركها - فى سبيله أعطاهم بدلها دارًا عظيمة دائمة وهى الجنات .

وفى الحديث الصحيح يقول الله - سبحانه - : « يا أهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك ؟ فيقول - سبحانه - لكم عندى أفضل من ذلك ، فيقولون : وما أفضل من ذلك ؟ فيقول جل شأنه : أحل لكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا »[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت أنه لا تصح المساواة بين المؤمنين الصادقين

(١) تفسير الآلوسى جـ ٦٠ ص ٦٢ .

الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبين غيرهم ممن لم يفعل فعلهم ، ولم يجاهد جهادهم ...

وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده من عطاء عظيم للمؤمنين الصادقين ، الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ... أتبع ذلك بتوجيه نداء إليهم ، حثهم فيه على أن يجردوا أنفسهم لعقيدتهم ، وأن يقاطعوا أعداءهم فى الدين مهما بلغت درجة قرابتهم منهم ، وأن يؤثروا حب الله ورسوله على كل شىء من زينة الحياة الدنيا فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

والمعنى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ إيمانًا حقًا ﴿ لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم ﴾ المشركين ﴿ أولياء ﴾ وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم ، وتطلعونهم على ما لا يجوز إطلاعهم عليه من شئونكم ، وتلقون إليهم بالمودة .. فإن ذلك يتنافى مع الإيمان الحق ، ومع الإخلاص للعقيدة وإيثارها على كل ما سواها من زينة الحياة..

والمراد النهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة أى فرد من أفراد المشركين ، لأن الجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٢ .

قال القرطبى : وخص - سبحانه - الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . فنفى الموالاة بينهم ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان .

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ، إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء . والإحسان والهبة مستثناه من الولاية . قالت أسماء : يارسول الله إن أمى قدمت على راغبة وهى مشركة أفأصلها ؟ قال نعم . « صلى أمك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ قيد فى النهى عن اتخاذهم أولياء . والاستحباب : طلب المحبة : يقال : استحب له بمعنى أحبه كأنه طلب محبته .

أى : لا تتخذوهم أولياء إن اختاروا الكفر على الإيمان وأصروا على شركهم وباطلهم .. أما إذا أقلعوا عن ذلك ودخلوا فى دينكم ، فلا حرج عليكم من اتخاذهم أولياء وأصفياء .

وقوله : ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ تذييل قصد به الوعيد والتهديد لمن يفعل ذلك .

أى : ومن يتولهم منكم فى حال استحبابهم الكفر على الإيمان ، فأولئك الموالون لهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم وضعوا الموالاة فى غير موضعها ، وتجاوزوا حدود الله التى نهاهم عن تجاوزها ، وسيجازيهم - سبحانه - على ذلك بما يستحقونه من عقاب .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يعلن للناس هذه الحقيقة : وهى أن محبة الله ورسوله يجب أن تفوق كل محبة لغيرهما فقال - تعالى - : ﴿ قل ﴾ يا محمد لمن اتبعك من المؤمنين : ﴿ إن كان آباؤكم ﴾ الذين أنتم بضعة منهم ، ﴿ وأبناؤكم ﴾ الذين هم قطعة منكم ﴿ وإخوانكم ﴾ الذين تربطكم بهم وشيجة الرحم ﴿ وأزواجكم ﴾ اللائى جعل الله بينكم وبينهن مودة ورحمة ﴿ وعشيرتكم ﴾ أى : أقاربكم الأدنون الذين تربطكم بهم رابطة المعاشرة والعصبة ﴿ وأموال اقترفتموها ﴾ أى : اكتسبتموها فهى عزيزة عليكم .

وأصل القرف والاقتراف قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة عن الجرح ثم استعير الاقتراف للاكتساب مطلقًا :

﴿ وتجارة تخشون كسادها ﴾ أى : تخافون بوارها وعدم رواجها بسبب اشتغالكم بغيرها من متطلبات الايمان .

يقال : كسد الشىء من باب نصر وكرم . كسادًا وكسودًا ، إذا قل رواجه وربحه . ﴿ ومساكن ترضونها ﴾ أى : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ الآية ٩٤ .

قل لهم يا محمد : إن كان كل ذلك - من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن - ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ .

أى : إن كانت هذه الأشياء أحسن فى نفوسكم وأقرب إلى قلوبكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، فانتظروا حتى يحكم الله فيكم ، وهو العذاب العاجل أو العقاب الآجل .

فالجملة الكريمة تهديد وتخويف لمن آثر محبة الأباء والأبناء ... على محبة الله ورسوله ، وعلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدين .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ تذييل قصد به تأكيد التهديد السابق أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن لا يوفق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مثوبته ورضاه .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

(١) تحريم موالاة الكافرين مهما بلغت درجة قرابتهم ، واعتبار هذه الموالاة من الكبائر ، لوصف فاعلها بالظلم : قال - تعالى - : ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

(٢) قوة إيمان الصحابة ، وسرعة امتثالهم لأوامر الله ، فإنهم فى سبيل عقيدتهم قاطعوا أقرب الناس إليهم ممن خالفوهم فى الدين ، بل وحاربوهم وقتلوهم .

قال ابن كثير : روى الحافظ البيهقى من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه . فلما أكثر الجراح ، قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية - التى بآخر سورة المجادلة - ﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1] .

(٣) إن المؤمن لا يتم إيمانه إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدمة على كل محبوب ، وقد وردت عدة أحاديث فى هذه المعنى ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى والإمام أحمد عن أبى عقيل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٢ .

زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى . فقال رسول الله - ﷺ - « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر : فأنت والله أحب إلى من نفسى . فقال رسول الله ﷺ « الآن يا عمر »(١) .

(٤) فى الآية الثانية دليل على أنه إذا تعارضت مصلحة من مصالح الدين مع مهمات الدنيا ، وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا ليبقى الدين سليمًا ، وهذا عمل لا يستطيعه إلا الأتقياء .. ولذا قال الإمام الزمخشرى : وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها . كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين . فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دينه ، ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شىء منها لمصلحته ، فلا يدرى أى طرفيه أطول ؟ ويغويه الشيطان عن أجَلِّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟(٢).

(٥) قال بعض العلماء : وليس المطلوب . من قوله - تعالى - ﴿ قل إن كان آباؤكم ...﴾ إلخ . أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة .. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يفرغ لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة الحاكمة ، وهى المحركة الدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ، على أن يكون مستعدًا لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الحياة ؟ فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والعشيرة والزوج .. ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن . ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق . فى غير سرف ولا مخيلة .

بل إن المتاع حينئذ لمستحب ، باعتباره لونًا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده . وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ثم انتقلت السورة الكريمة من نهى المؤمنين عن موالاة المشركين مهما بلغت درجة قرابتهم ، وعن إيثارهم محبة الآباء والأبناء على محبة الله .. انتقلت من ذلك إلى تذكيرهم بجانب من نعم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٧ .

الله عليهم . حيث نصرهم - سبحانه - فى حنين بعد أن ولوا مدبرين دون أن تنفعهم كثرتهم وقوتهم فقال - تعالى - :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)
ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٢٧)

قال ابن كثير . هذه أول آية نزلت من براءة يذكر - تعالى - المؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده - تعالى - : وبتأييده وتقديره لا بعَددهم ولا بعُددهم ، ونبههم إلى أن النصر من عنده سواء قل الجمع أم كثر ، فإنهم يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم ... ثم أنزل الله نصره على رسوله والمؤمنين .

وقد كانت واقعة حنين بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة : وذلك أنه لما فرغ - ﷺ - من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله - ﷺ - بلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، ومعهم ثقيف بكمالها وبنو سعد بن بكر .

فخرج إليهم رسول الله - ﷺ - فى جيشه الذى جاء للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين . فسار بهم رسول الله - ﷺ - إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين ، فكانت فيه الموقعة فى أول النهار فى غلس الصبح .

انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد .. فعند ذلك ولى المسلمون الأدبار ، وثبت رسول الله - ﷺ - وثبت معه من أصحابه قريب من مائة .

ثم أمر - ﷺ - عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة - أى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم .. فجعلوا يقولون : لبيك لبيك .

وانعطف الناس فتراجعوا .. فأمرهم رسول الله - ﷺ - أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب ثم رمى بها القوم ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله - ﷺ -[1] .

هذه خلاصة لغزوة حنين التى اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش تعداده اثنا عشر ألفًا ، فلما أعجبتهم هذه الكثرة والقوة .. أصيبوا بالهزيمة فى أول معركة .. ليعلموا أن كثرتهم لن تغنى عنهم شيئًا إذا لم يكن عون الله معهم .

فقوله - تعالى - : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا ﴾ تذكير للمؤمنين ببعض نعم الله عليهم ؛ حتى يداوموا على طاعته ومحبته . وحتى لا يغتروا بقوتهم مهما كثرت .

والمواطن : جمع موطن . وهو المكان الذى يقيم فيه الإنسان . يقال : استوطن فلان بمكان كذا ، إذا جعله وطنا له .

والمراد بالمواطن هنا : الأماكن التى حدثت فيها الحروب بين المسلمين وأعدائهم .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ ويوم حنين ﴾ معطوف على محل مواطن وعطف ظرف الزمان على ظرف المكان وعكسه جائز .. وأوجب الزمخشرى كون ﴿ يوم ﴾ منصوبًا بفعل مضمر والعطف من قبيل عطف الجملة على الجملة .

أى : « ونصركم يوم حنين .. »[2] .

وقوله : ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ بدل من يوم حنين ، أو عطف بيان له .

---

(١) تفسير ابن كثير . بتصرف وتلخيص . جـ ٢ ص ٣٤٣ . وراجع تفاصيل هذه الغزوة فى السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ من ص ٨٠ إلى ص ١٤٣ . طبعة الحلبى سنة ١٩٣٦ تحقيق مصطفى السقا وزميليه .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٦٥ - بتصرف وتلخيص :

وأعجبتكم : من الإعجاب بمعنى السرور بما يتعجب منه . وسبب هذا الإعجاب أن عدد المسلمين كان اثنا عشر ألفا ، وعدد أعدائهم كان أربعة آلاف .

وقوله : ﴿ فلم تغن عنكم شيئًا ﴾ بيان للأثر السيء الذى أعقب الإعجاب بالكثرة ، وأن سرورهم بهذه الكثرة لم يدم طويلاً ، بل تبعه الحزن والهزيمة .

وقوله : ﴿ تغن ﴾ من الغناء بمعنى النفع . تقول : ما يغنى عنك هذا الشيء ، أى : ما يجزىء عنك وما ينفعك .

وقوله : ﴿ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ﴾ بيان لشدة خوفهم وفزعهم .

قال القرطبى : والرحب - بضم الراء - السعة . تقول منه : فلان رحب الصدر .

والرحب - بالفتح - الواسع . تقول منه : بلد رحب وأرض رحبة .

وقيل : الباء بمعنى مع ، أى : وضاقت عليكم الأرض مع رحبها . وقيل بمعنى على . أى : على رحبها . وقيل المعنى برحبها فتكون « ما » مصدرية[1] .

والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - نعم الله عليكم ، وحافظوا عليها بالشكر وحسن الطاعة ، ومن مظاهر هذه النعم أنه - سبحانه - قد نصركم على أعدائكم مع قلتكم . فى مواقف حروب كثيرة ؛ كغزوة بدر ، وغزوة بنى قينقاع والنضير ... كما نصركم . أيضًا . فى يوم غزوة حنين ، وهو اليوم الذى راقتكم فيه كثرتكم فاعتمدتم عليها حتى قال بعضكم : لن نغلب اليوم من قلة ...

ولكن هذه الكثرة التى أعجبتم بها لم تنفعكم شيئًا من النفع فى أمر العدو بل انهزمتم أمامه فى أول الأمر ، وضاقت فى وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها بسبب شدة خوفكم ، فكنتم كما قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة   على الخائف المطلوب كِفَّة حابل[2]

وقوله : ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله وهو شدة خوفهم .

ووليتم : من التولى بمعنى الإعراض . ومدبرين : من الإدبار بمعنى الذهاب إلى الخلف .

أى : ثم وليتم الكفار ظهوركم منهزمين لا تلوون على شيء .

وهكذا ، نرى الآية الكريمة تصور ما حدث من المؤمنين فى غزوة حنين تصويرًا بديعًا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠١ .

(٢) الكفة . بالكسر . حبالة الصائد . والحابل : الذى ينصب الحبالة .

معجزًا .. فهى تنتقل من تصوير سرورهم بالكثرة ، إلى تصوير عدم نفعهم بهذه الكثرة ، إلى تصوير شدة خوفهم حتى لكأن الأرض على سعتها تضيق بهم ، وتقفل فى وجوههم ، إلى تصوير حركاتهم الحسية المتمثلة فى تولية الأدبار ، والنكوص على الأعقاب .

وبعد هذا الخوف الشديد الذى أصاب المؤمنين فى مبدأ لقائهم بأعدائهم فى غزوة حنين ، يجيء نصر الله الذى عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .. ﴾ .

والسكينة : الطمأنينة والرحمة والأمنة وهى فعيلة من السكون : وهو ثبوت الشيء بعد التحرك . أو من السكن وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيرهم .

أى : ثم أنزل الله - تعالى - على رسوله - ﷺ - وعلى المؤمنين رحمته التى تسكن إليها القلوب ، وتطمئن بها اطمئنانا يستتبع النصر القريب .

وقد كان الرسول - ﷺ - فى حاجة إلى هذه السكينة ؛ لأنه مع شجاعته وثباته ووقوفه فى وجه الأعداء كالطود الأشم . أصابه الحزن والأسى لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه عنه .

وكان المؤمنون الذين ثبتوا من حوله فى حاجة إلى هذه السكينة ؛ ليزدادوا ثباتًا على ثباتهم ، وإيمانًا على إيمانهم .

وكان الذين فروا فى حاجة إلى هذه السكينة ، ليعود إليهم ثباتهم ، فيقبلوا على قتال أعدائهم بعد أن دعاهم رسولهم - ﷺ - إلى ذلك .

وقوله : ﴿ وأنزل جنودًا لم تروها ﴾ بيان لنعمة أخرى سوى إنزال السكينة .

أى : وأنزل مع هذه السكينة جنودًا من الملائكة لم تروها بأبصاركم ، ولكنكم وجدتم آثرها فى قلوبكم ، حيث عاد إليكم ثباتكم وإقدامكم .

وقوله : ﴿ وعذب الذين كفروا ﴾ ، بيان لنعمة ثالثة سوى السابقتين .

أى : أنزل سكينته وأنزل جنودًا لم تروها ، وعذب الذين كفروا بأن سلطكم عليهم فقتلتم منهم من قتلتم ، وأسرتم من أسرتم .

وقوله ﴿ وذلك جزاء الكافرين ﴾ أى وذلك الذى نزل بهؤلاء الكافرين من التعذيب جزاء لهم على كفرهم ، وصدهم عن سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ورحمته بعباده فقال - تعالى - ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ .

أى : ثم يتوب الله - تعالى - من بعد هذا التعذيب للذين كفروا فى الدنيا ، على من يشاء أن يتوب عليه منهم ، بأن يوفقه للدخول فى الإسلام ، والله - تعالى - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، لا يحاسب الكافرين بعد إيمانهم على ما حصل منهم من كفر .

قال - تعالى - : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾[١] .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ... ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا ، وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ، ما بين صبى وامرأة فرده عليهم : وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسا من الطلقاء لكى يتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطاهم مائة من الإبل مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه[٢] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ذكرت المؤمنين بجانب من نعم الله عليهم . ومن رحمته بهم ، وأرشدتهم إلى أن النصر لا يتأتى لمن أعجبوا بكثرتهم فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه - سبحانه - وإنما النصر يتأتى لمن أخلصوا لله سرائرهم وعلانيتهم . وباشروا الأسباب التى شرعها - سبحانه - للوصول إلى الفوز والظفر .

قال ابن القيم : افتتح الله - تعالى - غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، لهذا يقرن بين هاتين بالذكر ، فقال بدر وحنين وإن كان بينهما سبع سنين .. وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله - ﷺ - والمسلمين . فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله[٣] .

وبعد هذا التذكير والتوجيه من الله - تعالى - لعباده المؤمنين .. وجه - سبحانه - إليهم نداء أمرهم فيه بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام ، ووعدهم بالعطاء الذى يغنيهم ، فقال :

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٠٩٩ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله : ﴿ نجس ﴾ بالتحريك - مصدر نجس الشيء ينجس فهو نجس إذا كان قذرًا غير نظيف ، وفعله من باب « تعب » وفي لغة من باب « قتل » .

قال صاحب الكشاف : النجس : مصدر . يقال نجس نجسا وقذر قذرا ، لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة فى وصفهم بها[1] .

قيل : وجوز أن يكون لفظ « نجس » صفة مشبهة - وإليه ذهب الجوهرى ولابد حينئذ من تقدير موصوف مفرد لفظًا مجموع معنى ، ليصح الإخبار به عن الجمع . أى جنس نجس ونحوه[2] .

وقوله : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ فيه ما فيه من التعبير البديع المصور المجسم لهم ، حتى لكأنهم بأرواحهم وماهيتهم وكيانهم : النجس يمشى على الأرض فيتحاشاه المتطهرون ، ويتحاماه الأتقياء من الناس .

وقوله : ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ تفريع على نجاستهم والمراد النهى عن الدخول إلا أنه عبر عنه بالنهى عن القرب مبالغة فى إبعادهم عن المسجد الحرام .

والنهى وإن كان موجهًا إلى المشركين ، إلا أن المقصود منه نهى المؤمنين عن تمكينهم من ذلك ، والمراد بقوله : ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ العام الذى حصل فيه النداء بالبراءة من المشركين ، وبعدم طوافهم بالمسجد الحرام .. وهو العام التاسع من الهجرة .

قال ابن كثير : أمر الله عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتًا بنفى المشركين الذين هم نجس دينا - عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية . وكان نزولها فى سنة تسع.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٦١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٦٨ .

ولهذا بعث رسول الله - ﷺ - عليا صحبة أبي بكر رضى الله عنهما - عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا[1] .

وقوله : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ بشارة من الله تعالى للمؤمنين بأن سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المشركين .

والعيلة : الفقر والفاقة : يقال : عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقر ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه ... وما يدرى الغنى متى يقيل

وقرىء « عائلة » بمعنى المصدر كالعافية : اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر أى : حالا عائلة .

قال ابن جرير - بعد أن ساق روايات فى سبب نزول الآية - : عن عطية العوفى قال : لما قيل « ولا يحج بعد العام مشرك » قالوا : قد كنا نصيب من بياعاتهم فى الموسم ، قال فنزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ... ﴾ الآية[2] .

والمعنى : لا تمكنوا أيها المؤمنون . المشركين من دخول المسجد الحرام بعد هذه السنة ، لأنهم نجس .. ولا تخشوا الفقر والفاقة بسبب عدم تمكينهم ، حيث إنكم تتبادلون معهم التجارات والمبايعات .. لأن الله - تعالى - قد وعدكم أن يغنيكم من فضله بالعطايا والخيرات التى تكفيكم أمر معاشكم ..

وقد أنجز الله - تعالى - لهم وعده ، فأرسل السماء عليهم مدرارا ، وفتح لهم البلاد ، فكثرت بين أيديهم الغنائم وألوان الخيرات ، ودخل فى دين الله من هم أيسر حالا وأغنى مالا من هؤلاء المشركين ..

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ أى : من عطائه أو من تفضله بوجه آخر ، فأرسل عليهم السماء مدرارا ، فأغزر بها خيرهم ، وأكثر مسيرهم . وأسلم أهل تبالة[3] وجرس فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به : فكان أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٨ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٠٧ .
(٣) تبالة : بلد باليمن خصبة ومثلها جرس .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٠ .

والتقييد بالمشيئة فى قوله : ﴿ إن شاء ﴾ ليس للتردد ، بل هو لتعليم المؤمنين رعاية الأدب مع الله - تعالى - كما فى قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ . ولبيان أن هذا الاغناء بإرادته - سبحانه - وحده ، فعليهم أن يجعلوا اعتمادهم عليه ، وتضرعهم إليه لا إلى غيره ، وللتنبيه على أن عطاءه سبحانه لهم ، هو من باب التفضل لا الوجوب ، لأنه لو كان واجبا ما قيده بالمشيئة .

ولما كانت مشيئته - سبحانه - تجرى حسب مقتضى علمه وحكمته ، فقد ختم الآية بقوله : ﴿ إن الله عليم حكيم ﴾ .

أى : إن الله عليم بأحوالكم ومصالحكم ، وبما يكون عليه أمر حاضركم ومستقبلكم حكيم فيما شرعه لكم . فاستجيبوا له لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى استنبطها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - أن المراد بالمشركين فى الآية ما يتناول عبدة الأوثان وغيرهم من أهل الكتاب . كما هو مقتضى ظاهر اللفظ ، وكما يدل عليه قوله - تعالى - ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. ﴾[1] .

أى : لا يغفر أن يشرك به بأى لون من ألوان الشرك .

ويرى كثير من الفقهاء أن المراد بالمشركين هنا عبدة الأوثان فحسب ، لأن الحديث خاص بهم من أول السورة إلى هنا .

٢ - يرى جمهور الفقهاء أن نجاسة المشركين مرجعها إلى خبث بواطنهم لعبادتهم سوى الله - تعالى - أما أبدانهم فطاهرة .

وقد بسط صاحب المنار القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : « قال بعضهم بنجاسة أعيان المشركين ، ووجوب تطهير ما تصيبه أبدانهم مع البلل .

حكى هذا القول عن ابن عباس والحسن البصرى .. وجمهور الظاهرية ..

ويرى جمهور السلف والخلف وأصحاب المذاهب الأربعة أن أعيانهم طاهرة . لأنه من المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم . ومع هذا فالنبى - ﷺ - لم يأمر بغسل شىء مما أصابته أبدانهم .. بل الثابت أنه - ﷺ - توضأ من مزادة مشركة ،وأكل من طعام اليهود ... وأطعم هو وأصحابه وفدًا من الكفار ولم يأمر بغسل الأوانى التى أكلوا وشربوا فيها ..

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨ .

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ، فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا ... »[١] .

٣ - اختلف الفقهاء فى المراد بالمسجد الحرام فى قوله - تعالى - ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... ﴾ .

فقال ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء : المراد به الحرم كله فيشمل المسجد الحرام ومكة ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق فى القرآن فالمراد به الحرم كله . وعليه فالكافر يمنع من دخول الحرم كله ..

ويرى الشافعى أن المراد المسجد الحرام بخصوصه أخذا بظاهر اللفظ .

قال القرطبى : وقال الشافعى : الآية عامة فى سائر المشركين ، خاصة فى المسجد الحرام ، ولا يمنعون من دخول غيره ، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد »[٢] .

ويرى الإمام مالك أن المراد المسجد الحرام بالنص وبقية المساجد تقاس عليه ، لأن العلة - وهى النجاسة - موجودة فى المشركين ، والحرمة موجودة فى كل مسجد .

وعليه فلا يجوز تمكينهم لا من المسجد الحرام ولا من غيره من المساجد .

ويرى الأحناف أن المراد بالمسجد الحرم كله ، إلا أن النهى هنا ليس منصبًا على دخوله وإنما هو منصب على المنع من الحج والعمرة . ومن الحج إليه أى : لا تمكنوا - أيها المؤمنون - المشركين من الطواف بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا .

قال الآلوسى : ويؤيده قوله - تعالى - ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ ، فإن تقييد النهى يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام . أى : لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة .. ويدل عليه نداء على - كرم الله وجهه - يوم نادى ببراءة ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، وكذا قوله - سبحانه - ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أى : فقرًا بسبب منعهم ، لما أنهم كانوا يأتون فى الموسم بالمتاجر ، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم كما لا يخفى .

ثم قال : والحاصل أن الإمام الأعظم يقول بالمنع عن الحج والعمرة ويحمل النهى عليه ، ولا يمنعون عنده من دخول المسجد الحرام ومن دخول سائر المساجد »[٣] .

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ١٠ ص ٣٢٢ وما بعدها .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٠٥ .
(٣) تفسير الألوسى جـ ١٠ ص ٦٨ .

٤ - قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز ، وليس ذلك بمناف للتوكل ، وإن كان الرزق مقدرًا ، ولكنه علقه بالأسباب لتظهر القلوب التى تتعلق بالأسباب ، من القلوب التى تتوكل على رب الأرباب وقد تقدم أن السبب لا ينافى التوكل ، ففى الحديث الذى أخرجه البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا »[1] - أى : تغدو صباحا وهى جياع ، وتعود عشية وهى ممتلئةالبطون - .

هذا ، وبتدبر آيات السورة الكريمة - من أولها إلى هنا - نراها قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين وعبدة الأوثان ، وفصلت كثيرًا من الأحكام التى تخص الفريقين ، ومن ذلك أنها قررت :

١ - براءة الله ورسوله من عهود المشركين الذين مردوا على نقض المواثيق .

٢ - إعطاؤهم مهلة مقدارها أربعة أشهر يتدبرون خلالها أمرهم ، دون أن يتعرض المسلمون لهم بسوء .

٣ - إعلان الناس جميعًا يوم الحج الأكبر بهذه البراءة ..

٤ - أمر المؤمنين بإتمام مدة العهد لمن حافظ من المشركين على عهده .

٥ - بيان ما يجب على المؤمنين فعله إذا ما انقضت أشهر الأمان التى أعطيت للمشركين .

٦ - إرشاد المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم تأمين المشرك المستجير بهم حتى يسمع كلام الله ، ويطلع على حقيقة الإسلام .. ثم توصيله إلى موضع أمنه إن لم يسلم .

٧ - بيان الأسباب التى تدعو إلى قتال المشركين ، وإلى وجوب البراءة منهم .

٨ - بيان بعض الحكم والأسرار التى من أجلها شرع الجهاد فى الإسلام .

٩ - بيان أن المشركين ليسوا أهلاً لعمارة مساجد الله .. وأن الذين هم أهل لذلك : المؤمنون الصادقون .

١٠ - توجيه المؤمنين إلى أن إيمانهم يحتم عليهم أن يؤثروا محبة الله ورسوله على أى شىء آخر ، من الآباء والأبناء والإخوان .

١١ - تذكيرهم بجانب من نعم الله عليهم حيث نصرهم فى مواطن كثيرة ونصرهم يوم غزوة حنين ، بعد أن هزموا فى أول المعركة دون أن تنفعهم كثرتهم التى أعجبوا بها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٧ - بتصرف يسير -

١٢ - نهيهم عن تمكين المشركين من قربان المسجد الحرام ، وإزالة الوساوس التى قد تخطر ببالهم بسبب هذا النهى ، بأن وعدهم - سبحانه - بأنه سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المكاسب التى تأتيهم عن طريق تبادل المنافع مع المشركين فى موسم الحج .

هذه أهم الموضوعات التى تعرضت لها سورة التوبة فى ثمان وعشرين آية من أولها إلى هنا . وهى موضوعات وضحت . كما أسلفنا . الأحكام النهائية فى علاقات المسلمين بالمشركين عبدة الأوثان .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك سبع آيات بينت فيها ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من المنحرفين من أهل الكتاب ، كما حكت بعض أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، التى تدعو المسلمين إلى قتالهم حتى يخضعوا لسلطان الإسلام ، وقد بدئت هذه الآيات بقوله - تعالى -

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه لما ذكر - سبحانه - حكم المشركين فى إظهار البراءة من عهدهم ، وفى إظهار البراءة عنهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم ، وفى تبعيدهم عن المسجد الحرام .. ذكر بعده حكم أهل الكتاب ، وهو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية فحينئذ يقرون على ما هم عليه بشرائط ، ويكونون عند ذلك من أهل الذمة والعهد[1] .

وقال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى . وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله - ﷺ - لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة . ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك فى عام جدب ، ووقت قيظ حر . وخرج رسول الله - ﷺ -

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٢٧ .

يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريبًا من عشرين يومًا ، ثم استخار الله فى الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس .... »[1] .

وقوله : ﴿ قاتلوا الذين .... ﴾ أمر منه - سبحانه - للمؤمنين بقتال أهل الكتاب ، وبيان للأسباب التى اقتضت هذا الأمر ، وهى أنهم :

أولاً : ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ لأنهم لو كانوا مؤمنين به إيمانًا صحيحًا ، لاتبعوا رسوله محمداً - ﷺ - ، ولأن منهم من قال : ﴿ عزير ابن الله ﴾ ومنهم من قال : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ .

وقولهم هذا كفر صريح ، لأنه - سبحانه - منزه عما يقولون .

قال - تعالى - ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ .

وثانيًا : أنهم « لا يؤمنون باليوم الآخر » على الوجه الذى أمر الله - تعالى - به ، ومن كان كذلك كان إيمانه . على فرض وجوده . كلا إيمان .

قال الجمل ما ملخصه : فإن قلت : اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم ذلك ؟

قلت : إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد ، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبى - ﷺ - فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم فصح نفيه فى الآية ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه ، والنصارى يعتقدون الحلول ، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك .

وأيضًا فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد ، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون - أى أنهم يرون نعيم الجنة وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك . ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن[2] .

وثالثًا : أنهم ﴿ لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ أى : أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله محمد - ﷺ - فى القرآن والسنة ، وفضلاً عن ذلك فهم لا يلتزمون ما حرمته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٧٥ .

شريعتهم على ألسنة رسلهم ، وإنما غيروا وبدلوا فيها على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم .

أى أنهم لا يحرمون ما حرمه الله لا فى شريعتنا ولا فى شريعتهم .

فاليهود - بجانب كفرهم بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم ، بدليل أنهم استحلوا أكل أموال الناس بالباطل مع أنها . أى شريعتهم . نهتهم عن ذلك .

قال - تعالى - ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ... ﴾[1] .

والنصارى - بجانب كفرهم - أيضًا - بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم بدليل أنهم ابتدعوا الرهبانية مع أن شريعتهم لم تشرع لهم ذلك .

قال - تعالى - ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾[2] .

ورابعًا : ﴿ لا يدينون دين الحق ﴾ . وقوله : ﴿ يدينون ﴾ بمعنى يعتقدون ويطيعون . يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده وأطاع أوامره ونواهيه .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الناسخ لغيره من الأديان .

أى : أنهم لا يتخذون دين الإسلام دينًا لهم ، مع أنه الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، والذى لا يقبل - سبحانه - دينًا سواه . قال - تعالى - : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ... ﴾[3] .

وقال - تعالى - : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[4] .

ويصح أن يكون المراد بدين الحق . ما يشمل دين الإسلام وغيره من الأديان السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون .

أى : ولا يدينون بدين من الأديان التى أنزلها الله على أنبيائه ، وشرعها لعباده ، وإنما هم يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم .

---

(١) سورة النساء . الآية ١٦١ .
(٢) سورة الحديد ٢٧ .
(٣) سورة المائدة . الآية ٣ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

وعبر عنهم فى قوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون .. ﴾ بالاسم الموصول للإيذان بعلية ما فى حيز الصلة للأمر بالقتال .

أى أن العلة فى الأمر بقتالهم ، كونهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق .

وقوله : ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ بيان للمتصفين بهذه الصفات الأربعة وهم اليهود والنصارى ؛ لأن الحديث عنهم ، وعن الأسباب التى توجب قتالهم .

والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والإنجيل .

أى : قاتلوا من هذه صفاتهم ، وهم اليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل - عن طريق موسى وعيسى - عليهما السلام - ولكنهم لم يعملوا بتعاليمهما وإنما عملوا بما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم .

والمقصود بقوله : ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ تميزهم عن المشركين عبدة الأوثان فى الحكم ، لأن حكم هؤلاء قتالهم حتى يسلموا ، أما حكم أهل الكتاب فهو القتال ، أو الإسلام ، أو الجزية :

وقوله : ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ غاية لإنهاء القتال .

أى : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن طوع وانقياد ، فإن فعلوا ذلك فاتركوا قتالهم .

والجزية : ضرب من الخراج يدفعه أهل الكتاب للمسلمين وهى - كما يقول القرطبى : - من جزى يجزى - مجازاة - إذا كافأ من أسدى إليه . فكأنهم أعطوها للمسلمين جزاء ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسة ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى[1]

والمراد بإعطائها فى قوله : ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ ، التزام دفعها وإن لم يذكر الوقت المحدد لذلك .

واليد هنا : يحتمل أن تكون كناية عن الاستسلام والانقياد . أى : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وإنقياد .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١١٤

ويحتمل أن تكون كناية و « عن » الدفع نقدًا بدون تأجيل . أى : حتى يعطوها نقدًا بدون تسويف أو تأخير .

ويحتمل أن تكون على معناها الحقيقى، و«عن» بمعنى الباء أى: حتى يعطوها بيدهم إلى المسلمين لا أن يبعثوا بها بيد أحد سواهم .

وهذه المعانى لليد إنما تتأتى إذا أريد بها يد المعطى . أى : يد الكتابى .

أما إذا أردنا بها اليد الآخذة – وهى يد الحاكم المسلم – ففى هذه الحالة يكون معناها القوة والقهر والغلبة .

أى : حتى يعطوها عن يد غالبة قوية لا قبل لهم بالوقوف أمامها .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال:قوله : « عن يد » إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ فمعناه على إرادة يد المعطى حتى يعطوها عن يده ، أى عن يد مؤاتية غير ممتنعة ؛ إذ أن من أبى وامتنع لم يعط يده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده ، إذا انقاد وأصحب – أى : سهل بعد صعوبة – ألا ترى إلى قولهم : نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربقة الطاعة عن عنقه .

أو المعنى : حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدًا غير نسيئة ، لا مبعوثًا بها على يد أحد ، ولكن يد المعطى إلى يد الآخذ .

ومعناه على إرادة يد الآخذ : حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية – وهى يد المسلمين – أو حتى يعطوها عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم ، وترك أرواحهم لهم ، نعمة عظيمة عليهم »[1] .

وقوله : ﴿ وهم صاغرون ﴾ من الصغار بمعنى الذل والهوان . يقال : صغر فلان يصغر صغرًا وصغارًا إذا ذل وهان وخضع لغيره .

والمعنى : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يدفعوا لكم الجزية عن طواعية وانقياد . وهم أذلاء خاضعون لولايتكم عليهم ... فإن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرمه الله ورسوله . ولا يتخذون الدين الحق دينًا لهم . يستحقون هذا الهوان فى الدنيا ، أما فى الآخرة فعذابهم أشد وأبقى .

هذا . ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ – إن هذه الآية أصل فى مشروعية الجزية ، وأنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عند

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٤ .

كثير من الفقهاء - لأن أهل الكتاب هم الذين يخيرون بين الإسلام أو القتال أو الجزية ، أما غيرهم من مشركى العرب فلا يخيرون إلا بين الإسلام أو القتال .

قال القرطبى ما ملخصه : وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية فقال الشافعى : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة ، عربا كانوا أو عجمًا لهذه الآية : فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم ، لقوله - تعالى - فى شأن المشركين : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب .

وقال الشافعى : وتقبل من المجوس لحديث « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » أى : فى أخذ الجزية منهم .

وبه قال أحمد وأبو ثور . وهو مذهب الثوري وأبى حنيفة وأصحابه وقال الأوزاعى : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب .

وكذلك مذهب مالك : فإنه يرى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد ، عربيا أو عجميًا تغلبيا أو قرشيًا ؛ كائنا من كان إلا المرتد .. »[1] .

٢ - أن أخذ الجزية منهم إنما هو نظير ما ينالهم ، وكفنا عن قتالهم ، ومساهمة منهم فى رفع شأن الدولة الإسلامية التى أمنتهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم ، ومقدساتهم .. وإقرار منهم بالخضوع لتعاليم هذه الدولة وأنهم متى التزموا بدفعها وجب علينا حمايتهم ، ورعايتهم ، ومعاملتهم بالعدل والرفق والرحمة ..

وفى تاريخ الإسلام كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا المعنى ، ومن ذلك ، ما جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف أنه قال فى خطابه لهارون الرشيد « وينبغى يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد - ﷺ - والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ؛ فقد روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « من ظلم من أمتى معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » .

وكان فيما تكلم عمر بن الخطاب عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله - ﷺ - أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم »[2] .

وجاء فى كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » أن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ، ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٨ هـ ١٩٦١ م .
(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤ .

شوكة التتار ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية ، أمير التتار بإطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لابد من إطلاق جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له »[1] .

وجاء فى كتاب « الإسلام والنصرانية » للأستاذ الإمام محمد عبده ما ملخصه :

« ... الإسلام كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين . ثم يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونًا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة .

خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديرة للعبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يعن على القتال .

جاءت السنة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » و « من آذى ذميا فليس منا » .

واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى أبناء الإسلام فضيق الصدر من طبع الضعيف .

ثم قال : أما المسيحية فترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله ، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم - بعد العجز عن إخراجهم من دينهم - طردتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيًا .

ولا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها ، بشىء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء ، لا يعكرون معه

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٢ .

صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها سوى ضمائرهم »[١] .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : قال السيوطى : استدل بقوله - تعالى - ﴿ وهم صاغرون ﴾ من قال إنها تؤخذ بإهانة ، بأن يجلس الآخذ ويقوم الذمى ويطأطىء رأسه ، ويحنى ظهره ، ويقبض الآخذ لحيته ... إلخ .

وقد رد الإمام ابن القيم على هذا القائل بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله - ﷺ - ولا عن أصحابه .

والصواب فى الآية ، أن الصغار : هو التزامهم بجريان أحكام الله عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعى »[٢] .

والذى نراه أن ما قاله الإمام ابن القيم فى رده هو عين الصواب ، وأن ما نقله السيوطى عن بعضهم ... يتنافى مع سماحة الإسلام وعدله ورحمته بالناس .

هذا ، وهناك أحكام أخرى تتعلق بالجزية لا مجال لذكرها هنا ، فليرجع إليها من شاء فى بعض كتب الفقه والتفسير[٣] .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض رذائل أهل الكتاب على سبيل الإجمال ، اتبع ذلك بتفصيل هذه الرذائل ، فحكى أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، ونواياهم السيئة فقال - تعالى - :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ

(١) الإسلام والنصرانية ص ٧٤ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٠٨ .
(٣) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٩ . وتفسير المنار جـ ١٠ ص ٣٣١ وتفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٠٥ .

مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ
لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾
يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله - ﷺ - سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى . وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك - يا محمد - وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .. ﴾ الآية[1] .

و « عزير » كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق م تقريبًا ، ومن أعماله أنه جمع أسفار التوراة ؛ وأدخل الأحرف الكلدانية عوضًا عن العبرانية القديمة ، وألف أسفار : الأيام ، وعزرا ، ونحميا .

وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة ، وأطلقوا عليه لقب « ابن الله » .

قال البيضاوى : وإنما قالوا ذلك - أى : عزير ابن الله - لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة « بختصر » - سنة ٥٨٦ ق م ه من يحفظ التوراة . وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظًا فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله »[2] .

وقال صاحب المنار ما ملخصه : جاء فى دائرة المعارف اليهودية الانكليزية - طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية الذى تفتحت فيه أزهاره ، وعبق شذا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٠ .
(٢) تفسير البيضاوى ص ٢٢٣ .

ورده . وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة .. »[١] .

وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً متعددة فى الأسباب التى حملت اليهود على أن يقولوا « عزير ابن الله » وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولذا فقد ضربنا عنها صفحا[٢] .

وقد نسب - سبحانه - القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكانوا مشاركين لهم فى الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب .

وأما قول النصارى « المسيح ابن الله » فهو شائع مشهور ، ومن أسبابه أن الله - تعالى - قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته فى التوالد والتناسل ، فقالوا عنه « ابن الله » .

وقد حاجهم - سبحانه - فى سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغى أن يكون عيسى كآدم .

قال - تعالى - ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ .

وقوله: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ ذم لهم على ما نطقوا به من سوء يمجه العقل السليم، والفكر القويم .

أى : ذلك الذى قالوه فى شأن « عزير والمسيح » قول تلوكه ألسنتهم فى أفواههم بدون تعقل ، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افترائهم واختلاقهم ، فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .

قال - تعالى - ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[٣] .

ولقد أنذر ، سبحانه ، الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواهم إن يقولون إلا كذبا ﴾[٤] .

---

(١) راجع تفسير المنار ص ٣٧٧ وما بعدها ففيه كلام مفيد عن عقيدة اليهود والنصارى .
(٢) راجع - على سبيل المثال - تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١١ . وتفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٧٢ .
(٣) سورة مريم الآيات : ٩٢ - ٩٥ .
(٤) سورة الكهف الآيتان ٥ ، ٦ .

وأسند ، سبحانه ، القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا بها ، لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ، حتى لكأنها مسموعة مرئية ولبيان أن هذا القول لا وجود له فى عالم الحقيقة والواقع ، وإنما هو قول لغو ساقط وليد الخيالات والأوهام ، ولزيادة التأكيد فى نسبة هذا القول إليهم ، أى : أنه قول صادر منهم وليس محكيا عنهم .

قال صاحب الكشاف ، فإن قلت : كل القول يقال بالفم فما معنى قوله ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ ؟ .

قلت : فيه وجهان : أحدهما - أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من أى معنى تحته ، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم ، لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثر فى القلب ، وما لا معنى له مقول بالفم لاغير .

والثانى - أن يراد بالقول : المذاهب ، كقولهم « قول أبى حنيفة » يريدون مذهبه وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر فى القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة فى انتفاء الولد »[1] .

وقوله : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ ذم آخر لهم على تقليدهم لمن سبقوهم بدون تعقل أو تدبر .

قال الجمل ما ملخصه : قرأ العامة ﴿ يضاهون ﴾ بضم الهاء بعدها واو - . وقرأ عاصم «يضاهئون» بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة - فقيل هما بمعنى واحد وهو المشابهة، وفيه لغتان : ضاهأت وضاهيت ... »[2] .

والمراد بالذين كفروا من قبل : قيل ، أهل مكة وأمثالهم من المشركين السابقين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله وقيل ، المراد بهم قدماء أهل الكتاب ، أى ، أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبى - ﷺ - يشابه قولهم فى العزير وعيسى قول آبائهم الأقدمين ، - أى المعاصرين للعهد النبوى - قد ورثوا الكفر كابرا عن كابر .

والأولى من هذين الوجهين أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل . جميع الأمم التى ضلت وانحرفت عن الحق ، وأشركت مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

قال صاحب المنار ، وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٧٧ .

الابن لله والحلول والتثليث ، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء المصريين وقدماء الفرس .

وهذه الحقيقة التاريخية - والتى بينها القرآن فى هذه الآية - من معجزاته لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم ، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان »[١] .

والمعنى . أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم «عزير ابن الله» وقال البعض الآخر « المسيح ابن الله » ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم « فهم على آثارهم يهرعون »[٢] .

وقوله . ﴿ قاتلهم الله ﴾ تعجيب من شناعة قولهم ، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من قاتله الله لابد أن يقتل ، ومن غالبه لابد أن يغلب .

وعن ابن عباس ، أن معنى ﴿ قاتلهم الله ﴾ لعنهم الله وكل شىء فى القرآن قتلٍ فهو لعن[٣] .

وقوله : ﴿ أنى يؤفكون ﴾ تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى الباطل المظلم المعقد .

و ﴿ أنى ﴾ بمعنى كيف . و ﴿ يؤفكون ﴾ من الإفك بمعنى الانصراف عن الشىء والابتعاد عنه ، يقال ، أفكه عن الشىء يأفكه أفكا ، أى ، صرفه عنه وقلبه . ويقال ، أفكت الأرض أفكا ، أى : صرف ، عنها المطر .

والمعنى : قاتل الله هؤلاء الذين قالوا ﴿ عزير ابن الله ﴾ والذين قالوا ﴿ المسيح ابن الله ﴾ لأنهم بقولهم هذا محل مقت العقلاء وعجبهم ، إذ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له - تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .. ؟ ! .

إن ماقالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم .

وقوله - سبحانه ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة ، وأفعال ذميمة .

---

(١) تفسير المنار - بتصرف وتلخيص جـ ١٠ ص ٣٩٩ وراجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٠ ص ٢٠٠ .
(٢) سورة الصافات . الآية ٧٠ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٣ .

والضمير فى قوله ﴿ اتخذوا ﴾ يعود إلى الفريقين اللذين حكت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان .

والأحبار : علماء اليهود جمع حبر ، بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه ، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين ، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة والحسن ، والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا ، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى .

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، أنهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم ، وفيما حرموه عليهم ، ولو كان هذا التحليل والتحريم مخالفاً لشرع الله .

وهذا التفسير مأثور عن رسول الله - ﷺ - فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله ، ﷺ ، فر إلى الشام : وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومها ، ثم مَنَّ رسول الله - ﷺ - على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله - ﷺ - فقدم عدى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ ، وفى عنق عدى صليب من فضة ، وكان الرسول يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ... ﴾ .

قال عدى : فقلت ، إنهم لم يعبدوهم ، فقال ، بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية : أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[١] .

وقال الآلوسى : وقيل اتخاذهم أربابًا بالسجود لهم ونحوه مما لايصلح إلا لله ، تعالى ، وحينئذ فلا مجاز ، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله ﷺ .

والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ، لكلام علمائهم ورؤسائهم ، والحق أحق بالاتباع ، فمتى ظهر الحق فعلى المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهاد مقلده »[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٧٥ .

وقوله : ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ معطوف على قوله ﴿ أحبارهم ﴾ والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى : اتخذوه رباً وإلهاً .

قال صاحب المنار ما ملخصه : جمع - سبحانه . بين اليهود والنصارى فى اتخاذ رجال دينهم أربابا بأن أعطوهم حق التشريع فيهم : وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح ربا وإلها يعبدونه واليهود لم يعبدوا عزيرا ، ولم يؤثر عمن قال منهم إنه ابن الله ، أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح : إنه هو الله الخالق المدبر لأمور العباد »[1] .

وقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدو إلها واحدا لا إله إلا هو ﴾ جملة حالية أى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب من اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، بأن أطاعوهم فيما يحلونه لهم وفيما يحرمونه عليهم ولو كان ذلك مخالفاً لشرع الله ؛ وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً وإلهاً .

والحال أنهم جميعاً ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده ، فهو المعبود الذى لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا يكون الاعتماد إلا عليه ، وكل ما سواه فهو مخلوق له .

وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ صفة ثانية لقوله ﴿ إلها ﴾ . أو هو استئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده ، وأنه - سبحانه - هو المستحق لذلك شرعا وعقلا .

وقوله : ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾ تنزيه له عن الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة له .

أى : تنزه الله - عز وجل - وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين ، وخالق الخلائق أجمعين ..

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : ومن النص القرآنى الواضح الدلالة ، ومن تفسير رسول الله - ﷺ - للآية وهو فصل الخطاب ، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار وهى : أن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير الرسول - ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيتهم ، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم ... ومع هذا فقد حكم الله ، سبحانه ، عليهم

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٢٦ .

بالشرك فى هذه الآية ، وبالكفر فى آية تالية فى السياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها - فهذا وحده دون الاعتقاد والشعائر يكفى لاعتبار من يفعله مشركا بالله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين .

إن النص القرآنى يسوى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله ، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه ، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر فى العبادة[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقاويلهم الكاذبة ، ودعاواهم الباطلة فقال : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

والمراد بنور الله : دين الإسلام الذى ارتضاه . سبحانه - لعباده ديناً وبعث به رسوله ، ﷺ ، وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه ، وعلى صحته ما جاء به مما يهدى القلوب ، ويشفى النفوس ، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله الواحد القهار .

وقيل المراد بنور الله : حججه الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقيل المراد به ، القرآن ، وقيل المراد به : نبوة النبى - ﷺ - وكلها معان متقاربة .

والمراد بإطفاء نور الله : محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لأتباعهم وأشياعهم على الوقوف فى وجهه ، وعلى محاربته .

والمراد بأفواههم . أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التى تنطق بما لا وزن له ولا قيمة .

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها نبيه - ﷺ - عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة ...

قال الآلوسى ما ملخصه : فى الكلام استعارة تمثيلية ، حيث شبه - سبحانه - حال أهل

---

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٠ ص ٢٠٣ للأستاذ سيد قطب . طبعة دار إحياء التراث العربى الطبعة الخامسة .

الكتاب فى محاولة إبطال نبوة النبى ، ﷺ ، عن طريق تكذيبهم له ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم مثبت فى الآفاق ليطفئه بنفخه ..

وروعى فى كل من المشبه والمشبه به معنى الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال والتكذيب بالإطفاء بالفم ، ونسب النور إلى الله - تعالى - العظيم الشأن .

ومن شأن النور المضاف إليه - سبحانه - أن يكون عظيما ، فكيف يطفأ بنفخ الفم[1] .. ؟ !!

وقوله : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين ، وتقرير لسنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى جعل العاقبة للحق وأتباعه .

والفعل ﴿ يأبى ﴾ هنا بمعنى لا يريد أو لا يرضى - أى : أنه جار مجرى النفى ، ولذا صح الاستثناء منه .

قال أبو السعود : وإنما صح الاستثناء المفرغ - وهو قوله ﴿ إلا أن يتم نوره ﴾ . من الموجب ، وهو قوله ﴿ ويأبى الله ﴾ - لكونه بمعنى النفى ، ولوقوعه فى مقابلة قوله : ﴿ يريدون ﴾ ، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الإرادة ، أى : لا يريد شيئا من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلا عن الإطفاء .

وفى إظهار ﴿ النور ﴾ فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره - سبحانه - زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشعار بعلة الحكم »[2] .

وجواب ﴿ لو ﴾ فى قوله ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والمعنى : يريد أعداء الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله - تعالى - لا يريد إلا إتمام هذا النور ، ولو كره الكافرون هذا الإتمام لأتمه - سبحانه - دون أن يقيم لكراهتهم وزنا .

فالآية الكريمة وعد من الله ، تعالى للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكى يمضوا قدماً إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو تثاقل ، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم .

- ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : ﴿ هو الذى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٧٦ - بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٦٧ . طبعة صبيح .

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

والمراد بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الارشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان .

وقوله ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .

والضمير فى ﴿ ليظهره ﴾ يعود على الدين الحق أو الرسول - ﷺ - والمعنى : هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمدا - ﷺ ، بالقرآن الهادى للتى هى أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة ، ولاظهار رسوله ، ﷺ ، على أهل الأديان كلها ، بما أوحى إليه - سبحانه - من هدايات ، وعبادات ، وتشريعات ، وآداب ... فى اتباعها سعادة الدنيا والآخرة .

وختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ وختم التى قبلها بقوله : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ للاشعار بأن هؤلاء الذين قالوا : « عزير ابن الله والمسيح ابن الله » قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا ، بين رذيلتى الكفر والشرك ، وأنه ، سبحانه ، سيظهر أهل دينه على جميع أهل الأديان الأخرى .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك ، منها : ما ثبت فى الصحيح عن رسول الله . ﷺ . أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض من مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

وروى الإمام أحمد عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول : « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » .

وروى أيضا عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزا ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر ». وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وأخرج أيضا عن عدى بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ، ﷺ فقال : « يا عدى أسلم تسلم » ، فقلت يا رسول الله : إنى من أهل دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم ، ألست من الركوسية[1] ، وأنت تأكل مرباع قومك »[2] .

قلت : بلى . قال : « فإن هذا لا يحل لك فى دينك » .

ثم قال - ﷺ - : « أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، ومن رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة » ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بها .

قال : « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » .

قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله - ﷺ - قد قالها[3] .

وإلى هنا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد كذبت أهل الكتاب فى قولهم « عزير ابن الله والمسيح ابن الله » ، وأرشدتهم إلى الطريق الحق الواضح المستقيم ليسيروا عليه ، ووبختهم على تشبههم فى هذه الأقوال الباطلة بمن سبقهم من الضالين ، وعلى انقيادهم لأحبارهم ورهبانهم بدون تعقل أو تدبر ، وبشرت المؤمنين بظهور دينهم الذى ارتضاه الله لهم على الأديان كلها .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن أهل الكتاب بتوجيه نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الرذائل التى انغمس فيها الأحبار والرهبان ، وكيف جمعوا بين ضلال أنفسهم وإضلال أتباعهم ، حيث أمروا هؤلاء الأتباع بالانقياد لهم فيما يأتون ويذرون ... فقال - تعالى - :

---

(١) الركوسية « بفتح الراء المشددة » قوم لهم دين بين النصارى والصابئين .

(٢) المرباع بمعنى الربع ، كالمعشار بمعن العشر . وكان الناس فى الجاهلية يعطون رئيسهم ربع ما يغنمونه خالصًا له دون أن يشاركه فيه أحد . وكان عدى رئيسًا لقومه .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٩ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ
وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق ، وصفهم فى هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس ، تنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر ، أخذ أموال الناس بالباطل .

ولعمرى من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير فى زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا فى شأنهم ، وفى شرح أحوالهم ، فترى الواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت إلى الدنيا ، ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات ، وأنه فى الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين ؛ حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ؛ ويتحمل نهاية الذل والدناءة فى تحصيله[1] .

والمراد بالأكل فى قوله ؛ ﴿ ليأكلون ﴾ مطلق الأخذ والانتفاع .

وعبر عن ذلك بالأكل ، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال ، فسمى الشىء باسم ما هو أعظم مقاصده ، على سبيل المجاز المرسل ، بعلاقة العلية والمعلولية . وأكلهم أموال الناس بالباطل ، يتناول ما كانوا يأخذونه من سفلتهم عن طريق الرشوة والتدليس أو التحايل أو الفتاوى الباطلة . كما يتناول ما سوى ذلك مما كانوا يأخذونه بغير وجه حق .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤١ .

وأسند - سبحانه - هذه الجريمة - وهى أكل أموال الناس بالباطل - إلى كثير من الأحبار والرهبان ولم يسندها إلى جميعهم ، إنصافا للعدد القليل منهم الذى لم يفعل ذلك ، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام ، ويقيدون أنفسهم بالحلال .

قال صاحب المنار : وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق فى عبارات الكتاب العزيز ، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر ، أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه .

فمن الأول قوله - تعالى - فى اليهود : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانون يصنعون[1] ﴾.

ومن الثانى قوله - تعالى - فى اليهود أيضا : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون[2] ﴾.

ومن الثالث قوله - سبحانه - فى شأن المحرفين للكلم الطاعنين فى الإسلام من اليهود + أيضا - : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا[3] ﴾.

وقد نبهنا فى تفسير هذه الآيات وأمثالها على العدل الدقيق فى أحكام القرآن على البشر وإنما نكرره لعظيم شأنه ... »[4] .

وقوله : ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ جريمة من جرائمهم الكثيرة .

والصد : المنع والصرف عن الشىء .. وسبيل الله : دينه وشريعته .

أى ، أن هؤلاء الكثيرين من الأحبار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال الناس بالباطل ، بل إنهم يضيفون إلى ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة وهى إنهم ينصرفون عن الدين الحق وهو دين الإسلام انقياداً لأحقادهم وشهواتهم ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل ، كأن

(١) سورة المائدة الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) سورة المائدة الآية ٥٩ .
(٣) سورة النساء الآية ٤٦ .
(٤) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٦٢ - بتصرف يسير .

يصفوه لهم بأنه دين باطل ، أو بأن رسوله - ﷺ - ليس هو الرسول الذى بشرت به الكتب السماوية السابقة ... إلى غير ذلك من وسائلهم المتنوعة فى صرف الناس عن الحق .

والاسم الموصول فى قوله : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله .. ﴾ يرى بعضهم أن المراد به أولئك الأحبار والرهبان ، لأن الكلام مسوق فى ذمهم ، وتكون هذه الجملة ذما لهم على رذيلة ثالثة هى الحرص والبخل ، بعد ذمهم على رذيلتى أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله .

ويرى آخرون أن المراد بهم البخلاء من المسلمين ، وأن الجملة مستأنفة لذم مانعى الزكاة بقرينة قوله : ﴿ ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ ويكون نظمهم مع أهل السوء من الأحبار والرهبان من باب التحذير والوعيد والإشارة إلى أن الأشحاء المانعين لحقوق الله ، مصيرهم كمصير الأحبار والرهبان فى استحقاق البشارة بالعذاب .

وترى طائفة ثالثة من العلماء أن المراد به كل من كنز المال ، ولم يخرج الحقوق الواجبة فيه ، سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم ، لأن اللفظ مطلق ، فيجب إجراؤه على إطلاقه وعمومه ، إذ لم يرد ما يقيده أو يخصصه .

وقوله : ﴿ يكنزون ﴾ من الكنز ، وأصله فى اللغة العربية : الضم والجمع .
يقال : كنزت التمر فى الوعاء إذا جمعته فيه . وكل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها فهو كنز ، وجمعه كنوز .

وخص الذهب والفضة بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب فى الأموال ولأنهما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - شيئين هما الذهب والفضة ثم قال : ﴿ ولا ينفقونها ﴾ - وكان الظاهر أن يقول « ولا ينفقونهما » والجواب من وجهين :
الأول : أن الضمير عائد إلى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد منهما جملة وافية ؛ وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله - تعالى - ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا .. ﴾

أو أن يكون التقدير : والذين يكنزون الكنوز ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيكون الضمير عائد إلى الكنوز المدلول عليها بالفعل ﴿ يكنزون ﴾ .
الثانى : أن يكون الضمير عائد إلى اللفظ ، ويكون ذكر أحدهما يغنى عن ذكر الآخر ،

كقوله - تعالى - ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها[١] ﴾ جعل الضمير للتجارة ... »[٢] .

وقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر الموصول .

والتعبير بالبشارة من باب التهكم بهم ، والسخرية منهم ، فهو كقولهم : تحيتهم الضرب ؛ وإكرامهم الشتم .

وقوله : ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. ﴾ تفصيل لهذا العذاب الأليم ، وبيان لميقاته ، حتى يقلع البخلاء عن بخلهم ، والأشحاء عن شحهم ...

والظرف ﴿ يوم ﴾ منصوب بقوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ ؛ أو بفعل محذوف يدل عليه هذا القول .

أى : يعذبون يوم يحمى عليها ، أو بفعل مقدر ؛ أى : اذكر يوم يحمى عليها .

وقوله ﴿ يحمى ﴾ يجوز أن يكون من حميت وأحميت - ثلاثيا ورباعيا - يقال : حميت الحديدة وأحميتها ، أى : أوقدت عليها لتحمى .

وقوله : ﴿ عليها ﴾ جار ومجرور فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون القائم مقام الفاعل مضمرا ، أى : يحمى الوقود أو الجمر عليها .

قال الآلوسى : وأصله تحمى بالنار من قولك : حميت الميسم وأحميته فجعل الإحماء للنار مبالغة ؛ لأن النار فى ذاتها ذات حمى ، فإذا وصفت بأنها تحمى دل على شدة توقدها . ثم حذفت النار ، وحول الإسناد إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود بأتم وجه فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير . فإذا طرحت القصة وأسند الفعل إلى الجار والمجرور قلت : رفع إلى الأمير ، وقرأ ابن عامر ﴿ تحمى ﴾ بالتاء بإسناده إلى النار كأصله »[٣] . والمعنى : بشر - يا محمد - أولئك الذين يكنزون الأموال فى الدنيا ولا ينفقونها فى سبيل الله ، بالعذاب الأليم يوم الحساب يوم تحمى النار المشتعلة على تلك الأموال التى لم يؤدوا حق الله فيها ﴿ فتكوى بها جباههم ﴾ أى : فتحرق بها جباههم التى كانوا يستقبلون بها الناس ، والتى طالما ارتفعت غرورا بالمال المكنوز ، وتحرق بها - أيضا - « جنوبهم » التى كثيرا ما انتفخت من شدة الشبع وغيرها جائع ، وتحرق بها كذلك « ظهورهم » التى نبذت وراءها حقوق الله بجحود وبطر ...

---

(١) سورة الجمعة الآية ١١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤٧ - بتصرف وتلخيص .

(٣) تفسير الآلوسى : جـ ١٠ ص ٧٨ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء بالكى ؟

قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها فى سبيل الله - إلا الأغراض الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم ، يتلقون بالجميل ويحيون بالإكرام ، ويبجلون ويحتشمون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك ، هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطر ببالهم قول رسول الله - ﷺ - « ذهب أهل الدثور بالأجر كله » .

وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه ، وتولوا بأركانهم ، وولوه ظهورهم .. »[1] .

وقوله : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ مقول لقول محذوف .

والتفسير : تقول لهم ملائكة العذاب على سبيل التبكيت والتوبيخ ، وهى تتولى حرق جباههم وجنوبهم وظهورهم : هذا العذاب الأليم النازل بكم فى الآخرة هو جزاء ما كنتم تكنزونه فى الدنيا من مال لمنفعة أنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه . فذوقوا وحدكم وبال كنزكم . وتجرعوا غصصه ، وتحملوا سوء عاقبته فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم ، لأنكم لم تشكروا الله على هذه الأموال . بل استعملتموها فى غير ما خلقت له .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين مايأتى .

١ - التحذير من الانقياد لدعاة السوء ، ومن تقليدهم فى رذائلهم وقبائحهم ووجوب السير على حسب ما جاء به الإسلام من تعاليم وتشريعات ...

ولذا قال ابن كثير عند تفسيره للآية الأولى : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينه : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من أحبار اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من رهبان النصارى .

وفى الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ وفى رواية : فارس والروم ؟ قال : « فمن الناس إلا هؤلاء » والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم[2] .

هذا ، ونص الحديث الصحيح الذى ذكره الإمام ابن كثير - كما رواه الشيخان - هكذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٠ .

عن أبي سعيد الخدرى أن النبى . ﷺ . قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟[١] .

أما الحديث الذى جاء فيه حذو القذة بالقذة ، فقد أخرجه الإمام أحمد عن شداد بن أوس ونصه : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم . أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة »[٢] .

٢ - يرى جمهور العلماء أن المقصود بالكنز فى قوله ، تعالى ، ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ﴾.. ألخ المال الذى لم تؤد زكاته ، أما إذا أديت زكاته فلا يسمى كنزا ، ولا يدخل صاحبه تحت الوعيد الذى اشتملت عليه الآية .

وقد وضح الإمام القرطبى هذه المسألة فقال : واختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أولا ؟ .

فقال قوم : نعم . رواه أبو الضحا عن جعدة بن هبيرة عن على قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أديت زكاته ، ،،، ولا يصح .

وقال قوم : ما أديت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكنز،قال ابن عمر:ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل مالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح .

وروى البخارى عن أبي هريرة قال : قال رسوله الله ﷺ - من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك .. » .

وفيه أيضا عن أبي ذر قال : انتهيت إلى النبى - ﷺ - فقال : « والذى نفسى بيده ، ما من رجل تكون له إبل أو بقر أوغنم ، لا يؤدى حقها ، إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه ، تطؤه بأخفافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس» .

فدل دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر فى صحيح البخارى هذا المعنى . قال له أعرابى : أخبرنى عن قول الله . تعالى - ﴿ والذين يكنزون

(١) أخرجه الترمذى فى باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، جـ ٤ ص ٢٠٦ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .
(٢) راجع المسند جـ ٤ ص ١٢٥ ، طبعة عيسى الحلبى . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

الذهب والفضة ..﴾ الآية فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال .

وروى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة .. ﴾ كبر ذلك على المسلمين ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق فقال : يا نبى الله ، إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال - ﷺ - « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم » قال : فكبر عمر . ثم قال له رسول الله - ﷺ - : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » [1] .

٣ - أخذ بعض الصحابة من هذه الآية تحريم اكتناز الأموال التى تفيض عن حاجات الإنسان الضرورية .

قال ابن كثير : كان من مذهب أبى ذر - رضى الله عنه - تحريم ادخار ماز اد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ويأمرهم به ، ويغلظ فى خلافه ، فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشى أن يضر بالناس فى هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة - وهى بلدة قريبة من المدينة - وبها مات - رضى الله عنه - فى خلافة عثمان .

وروى البخارى فى تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت له : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . فقال معاوية : ما هذه فينا ما هذه إلا فى أهل الكتاب . قال : قلت : إنها لفينا وفيهم .

ثم قال ابن كثير : وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأبى ذر : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شىء إلا دينار أرصده لدين » فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أباذر على القول بهذا » [2] .

وقال الشيخ القاسمى : قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش ، فهو كنز يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٢ - بتصرف وتلخيص .

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى حيث قال : هل على غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع »[١] .

وحديث طلحة الذى أشار إليه ابن عبد البر ، قد جاء فى صحيح البخارى ونصه : عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام .

فقال رسول الله - ﷺ - « خمس صلوات فى اليوم والليلة . فقال : هل على غيرها ؟ :

قال :«لا .. إلا أن تطوع ، قال رسول الله ﷺ : « وصيام رمضان » قال : هل على غيره ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » ، قال . وذكر له رسول الله - ﷺ - الزكاة ، قال . هل على غيرها ؟ قال « لا إلا أن تطوع » .

قال ، فأدبر الرجل وهو يقول . والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص . فقال ، رسول الله - ﷺ - « أفلح إن صدق »[٢] .

هذا ؛ ومما استدل به جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء ، على عدم حرمة اقتناء الأموال التى تفيض عن الحاجة - مادام قد أدى حق الله فيها - مايأتى :

(أ) أن قواعد الشرع لا تحرم ذلك ، وإلا لما شرع الله المواريث لأنه لو وجب إنفاق كل مازاد عن الحاجة ، لما كان لمشروعية المواريث فائدة .

(ب) ثبت فى الحديث الصحيح أن سعد بن أبى وقاص عندما كان مريضاً ، وزاره رسول الله - ﷺ - قال له : يا رسول الله : أأوصى بمالى كله ؟ قال : « لا . قال سعد : فالشطر ؟ قال : لا . قال سعد : فالثلث ؟ فقال له - ﷺ - : فالثلث والثلثَ كثير . إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ... »[٣] .

ولو كان جمع المال واقتناؤه محرما ، لأقر النبى - ﷺ - سعدا على التصدق بجميع ماله ، ولأمر المسلمين أن يحذوا حذو سعد ، ولكنه ﷺ - لم يفعل ذلك ، بل قال لسعد : « إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس .. » .

وقد كان فى عهده - ﷺ - من الصحابة من يملكون الكثير من الأموال - كعثمان بن

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٣٧ .

(٢) صحيح البخارى جـ ١ ص ١٨ باب : الزكاة من الإسلام . من كتاب الإيمان .

(٣) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣ باب « أن يترك ورثته أغنياء » . من كتاب الوصايا .

عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما - ومع هذا فلم يأمرهم بإنفاق كل ما زاد عن حاجتهم الضرورية .

قال القرطبى : قرر الشرع ضبط الأموال وأداء حقها ، ولو كان ضبط المال ممنوعا ، لكان حقه أن يخرج كله ، وليس فى الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم - رضوان الله عليهم - وأما ما ذكر عن أبى ذر فهو مذهب له[1] .

(جـ) ما ورد من آثار فى ذم الكنز والكانزين كان قبل أن تفرض الزكاة أو هو فى حق من امتنع عن أداء حق الله فى ماله .

قال صاحب الكشاف . فإن قلت فما تصنع فى قوله - ﷺ - « من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » .

قلت . كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرضيتها ، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه .

ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله يقتنون الأموال ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لأن الإعراض اختيار للأفضل ، والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه ، ولكل شىء حد[2] » .

٤ - أن الإسلام وإن كان قد أباح للمسلم اقتناء المال - بعد أداء حق الله فيه - إلا أنه أمر أتباعه أن يكونوا متوسطين فى حبهم لهذا الاقتناء ، حتى لا يشغلهم حب المال عن طاعة الله .

ورحم الله الإمام الرازى ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه ، اعلم أن الطريق الحق أن يقال ، الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير ، إلا أنه لم يمنع عنه فى ظاهر الشرع . فالأول محمول على التقوى والثانى على ظاهر الفتوى .

أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فلوجوه منها :

أن كثرة المال سبب لكثرة الحرص فى الطلب ، والحرص متعب للروح والنفس والقلب .. والعاقل هو الذى يحترز عما يتعب روحه ونفسه وقلبه . وأن كسب المال شاق شديد ؛ وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب ، فيبقى الإنسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل ؛ وأخرى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٨ .

فى تعب الحفظ وأن كثرة الجاه والمال تورث الطغيان ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾[١] .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث فى ذم التكثر من الذهب والفضة ، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن حسان بن عطية قال :

كان شداد بن أوس - رضى الله عنه - فى سفر ، فنزل منزلا فقال لغلامه : ائتنا بالسفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه ذلك . فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها عنى واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ؛ وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، واسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم . إنك أنت علام الغيوب[٢] .

وبعد : فهذه سبع آيات عن أهل الكتاب ، بدأت - بقوله تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

وقد بينت هذه الآيات ما يجب أن يكون عليه موقف المؤمنين منهم ، وكشفت عن أقوالهم الباطلة ، وعن جحود رؤسائهم للحق ، وعن انقياد : عامتهم للضلال ، وعن استحلال كثير من أحبارهم ورهبانهم لمحارم الله ...

ثم عادت السورة بعد ذلك إلى تكملة الحديث عن أحوال المشركين السيئة ، وعن وجوب مقاتلتهم ، فقال تعالى .

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥١ .

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قال صاحب المنار ، هاتان الآيتان عود إلى الكلام فى أحوال المشركين ، وما يشرع من معاملاتهم بعد الفتح ، وسقوط عصبية الشرك ، وكان الكلام قبل هاتين الآيتين - فى قتال أهل الكتاب وما يجب أن ينتهى به من إعطاء الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما ذكر قبله من أحكام قتال المشركين ومعاملتهم ، وقد ختم الكلام فى أهل الكتاب ببيان حال كثير من رجال الدين الذين أفسدت عليهم دينهم المطامع المالية ، التى هى وسيلة العظمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، وإنذار من كانت هذه حالهم بالعذاب الشديد يوم القيامة وجعل هذا الإنذار موجهاً إلينا وإليهم جميعاً .. »[1].

والعدة - فى قوله . إن عدة الشهور - : على وزن فعله من العدد وهى بمعنى المعدود . قال الراغب : العدة : هى الشىء المعدود ، قال - تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى : وما جعلنا عددهم إلا فتنة للذين كفروا ..

والشهور : جمع شهر . والمراد بها هنا : الشهور التى تتألف منها السنة القمرية وهى شهور . المحرم . وصفر. وربيع الأول ..الخ .

وهذه الشهور عليها مدار الأحكام الشرعية ، وبها يعتد المسلمون فى عبادتهم وأعيادهم وسائر أمورهم .

والمراد بقوله : ﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾ : الوقت الذى خلقهما فيه ، وهو ستة أيام كما جاء فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش[2] ﴾.

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

والمعنى : إن عدد الشهور « عند الله » أي : في حكمه وقضائه ﴿ اثنا عشر شهراً ﴾ هي الشهور القمرية التي عليها يدور فلك الأحكام الشرعية .

وقوله ﴿ في كتاب الله ﴾ ، أي : في اللوح المحفوظ .

قال القرطبي : وأعاده بعد أن قال ﴿ عند الله ﴾ لأن كثيراً من الأشياء يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب في كتاب الله ، كقوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة[1] ﴾.

وقيل معنى « في كتاب الله » أي فيما كتبه - سبحانه - وأثبته وأوجب على عباده العمل به منذ خلق السموات والأرض .

قال الجمل : وقوله . ﴿ في كتاب الله ﴾ صفة لاثني عشر ، وقوله : ﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾ متعلق بما تعلق به الظرف قبله من معنى الثبوت والاستقرار ، أو بالكتاب ، إن جعل مصدرا .

والمعنى : أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة[2] أي : أن المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن كون الشهور كذلك حكم أثبته - سبحانه - في اللوح المحفوظ منذ أوجد هذا العالم ، وبينه لأنبيائه على هذا الوضع .. فمن الواجب اتباع ترتيب الله لهذه الشهور ، والتزام أحكامها ونبذ ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقديم بعض الشهور أو تأخيرها أو الزيادة عليها ، أو انتهاك حرمة المحرم منها .

وقوله ، ﴿ حرم ﴾ جمع حرام - كسحب جمع سحاب - مأخوذ من الحرمة وذلك لأن الله تعالى - أوجب على الناس احترام هذه الشهور ، ونهى عن القتال فيها :

وقد أجمع العلماء على أن المراد بها ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله - ﷺ - .

فقد أخرج البخاري عن أبي بكر عن النبي ﷺ - أنه قال في خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »[3] .

وسماه - ﷺ - رجب مضر ، لأن بني ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ١٣٢ .
(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٢٨٠ .
(٣) صحيح البخاري جـ ٦ ص ٨٣ - كتاب التفسير .

رجباً وكانت قبيلة مضر تحرم رجباً نفسه ، لذا قال - ﷺ فيه « ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

قال ابن كثير . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاثة سرد . وواحد فرد لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل الحج شهراً وهو ذو القعدة يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ، ويشتغلون بأداء المناسك ، وحرم بعده شهرا آخر هو المحرم ، ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمنا[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ يعود إلى ما شرعه الله - تعالى من أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً، ومن أن منها أربعة حرم .

والقيم : القائم الثابت المستقيم الذى لا التواء فيه ولا اعوجاج أى : ذلك الذى شرعناه لكم من كون عدة الشهور كذلك ، ومن كون منها أربعة حرم : هو الدين القويم ، والشرع الثابت الحكيم ، الذى لا يقبل التغيير أو التبديل .. لا ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم من تقديم بعض الشهور وتأخير بعضها استجابة لأهوائهم وشهواتهم ، وإرضاء لزعمائهم وسادتهم .

والضمير المؤنث فى قوله ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ يرى ابن عباس أنه يعود على جميع الشهور أى : فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسكم ، بأن تفعلوا فيها شيئاً مما نهى الله عن فعله ، ويدخل فى هذا النهى هتك حرمة الأشهر الأربعة الحرم دخولا أوليا .

ويرى جمهور العلماء أن الضمير يعود إلى الأشهر الأربعة الحرم ، لأنه إليها أقرب ؛ لأن الله تعالى قد خص هذه الأربعة بمزيد من الاحترام تشريفا لها .

وقد رجح ابن جرير ما ذهب إليه الجمهور فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب قول من قال : فلا تظلموا فى الأشهر الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وعن قتادة : إن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم .. فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ما وصفت ، فقد يكون مباحا لنا ظلم أنفسنا فى غيرهن من سائر شهور السنة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٤ .

قيل : ليس ذلك كذلك ، بل ذلك حرام علينا فى كل وقت ولكن الله عظم حرمة هؤلاء الأشهر وشرفهم على سائر شهور السنة : فخص الذنب فيهن ، بالتعظيم كما خصهن بالتشريف ، وذلك نظير قوله - تعالى - ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى ﴾ ولاشك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضات كلها بقوله : ﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ . ولم يبح ترك المحافظة عليهن بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى ، ولكنه تعالى - زادها تعظيما ، وعلى المحافظة عليها توكيداً ، وفى تضييعها تشديداً ، فكذلك فى قوله ﴿ منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ .

وقد كانت الجاهلية تعظم هذه الأشهر الحرم وتحرم القتال فيهن ، حتى لو لقى الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يهجه[1] .

وقال القرطبى : لا يقال كيف جعلت بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض فإنا نقول : للبارى - تعالى - أن يفعل ما شاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ليس لعمله علة ، ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى[2] .

وقوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ تحريض للمؤمنين على قتال المشركين بقلوب مجتمعه ، وعزيمة صادقة .

وكلمة ﴿ كافة ﴾ مصدر فى موضع الحال من ضمير الفاعل فى ﴿ قاتلوا ﴾ أو من المفعول وهو لفظ المشركين . ومعناها : جميعا .

وقالوا : وهذه الكلمة من الكلمات التى لا تثنى ولا تجمع ولا تدخلها أل ولا تعرب إلا حالا فهى ملتزمة للإفراد والتأنيث مثل : عامة وخاصة[3] .

أى : قاتلوا - أيها المؤمنون - المشركين جميعا ، كما يقاتلونكم هم جميعا ، بأن تكونوا فى قتالكم لهم مجتمعين متعاونين متناصرين . لا مختلفين ولا متخاذلين .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ تذييل قصد به إرشادهم إلى ما ينفعهم فى قتالهم لأعدائهم بعد أمرهم به .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون أن الله تعالى - مع عباده المتقين بالعون والنصر والتأييد ، ومن كان الله معه فلن يغلبه شىء فكونوا - أيها المؤمنون من عباد الله المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى عنه ؛ لتنالوا عونه وتأييده .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٢٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٦ .
(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٨٢ . وتفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٨٤ .

ثم نعى - سبحانه - على ما كانوا يفعلون من تحليل وتحريم للشهور على حسب أهوائهم .. فقال تعالى : ﴿ إنما النسىء زيادة فى الكفر .. ﴾ والنسىء : مصدر بزنة فعيل مأخوذ من نسأ الشىء إذا أخره . ومنه نسأت الإبل عن الحوض إذا أخرتها عنه . ومنه : أنسأ الله فى أجل فلان ، أى : أخره والمراد به : تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى الأسباب التى جعلت المشركين يحلون الأشهر الحرم فقال : « كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر - وكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها - حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ؛ فكانوا يحرمون من شتى شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ أى ليوافقو العدة التى هى الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين[1] .

والمعنى : إنما النسئ الذى يفعله المشركون ، من تأخيرهم حرمة شهر إلى آخر ، ﴿ زيادة فى الكفر ﴾ أى : زيادة فى كفرهم ؛ لأنهم قد ضموا إلى كفرهم بالله كفرا آخر ، هو تحليلهم لما حرمه الله وتحريمهم لما أحله وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر فى العقيدة والكفر فى التشريع .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ زيادة فى الكفر ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها أنواعا من الكفر ، فإنها أنكرت وجود البارى - تعالى - فقالت : ﴿ وما الرحمن ﴾ فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ ، وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه ﴾ وزعمت أن التحليل والتحريم إليها ، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها فأحلت ما حرمه الله : ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون »[2] .

وقوله ﴿ يضل به الذين كفروا ﴾ قرأه الكوفيون بضم الياء وفتح الضاد بالبناء للمفعول .

أى : يوقع الذين كفروا بسبب ارتكابهم للنسىء فى الضلال والموقع لهم فى هذا الضلال كبراؤهم وشياطينهم .

وقرأه أهل الحرمين وأبو عمرو ﴿ يضل ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد بالبناء للفاعل .

أى : يضل الله الذين كفروا ، بأن يخلق فيهم الضلال بسبب مباشرتهم لما أدى إليه وهو ارتكابهم للنسىء .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٩ .

ويصح أن يكون الفاعل هو الذين كفروا أى يضل الذين كفروا عن الحق بسبب استعمالهم للنسىء الذى هو لون من ألوان استحلال محارم الله .

وقوله : ﴿ يحلونه عاما ويحرمونه عاما ﴾ بيان وتفسير لكيفية ضلالهم .

والضمير المنصوب فى ﴿ يحلونه ويحرمونه ﴾ يعود إلى النسىء ، أى الشهر المؤخر عن موعده .

والمعنى أن هؤلاء الكافرين من مظاهر ضلالهم ، أنهم يحلون الشهر المؤخر عن وقته عاما من الأعوام ، ويحرمون مكانه شهرا آخر ليس من الأشهر الحرم ، وأنهم يحرمونه أى : يحافظون على حرمة الشهر الحرام عاما آخر ، إذا كانت مصلحتهم فى ذلك .

والمواطأة : الموافقة . يقال : واطأت فلاناً على كذا إذا وافقته عليه بدون مخالفته .

والمعنى : فعل المشركون ما فعلوه من التحليل والتحريم للأشهر على حسب أهوائهم ، ليوافقوا بما فعلوه عدة الأشهر الحرم ، بحيث تكون أربعة فى العدد وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة فى شريعة الله .

قال ابن عباس : ما أحل المشركون شهراً من الأشهر الحرم إلا حرموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال . وما حرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الأشهر الحرام ، لكى يكون عدد الأشهر الحرم أربعة .[1] .

وقوله : ﴿ فيحلوا ما حرم الله ﴾ تفريع على ما تقدم .

أى : فيحلوا بتغييرهم الشهور المحرمة ، ما حرمه الله فى شرعه . فهم وإن كانوا وافقوا شريعة الله فى عدد الشهور المحرمة ، إلا أنهم خالفوه فى تخصيصها فقد كانوا - مثلا - يستحلون شهر المحرم ويحرمون بدله شهر صفر .

وقوله : ﴿ زين لهم سوء أعمالهم ﴾ ذم لهم على انتكاس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم .

أى: زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فجعلهم يرون العمل القبيح عملا حسنا. وقوله: ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ تذييل قصد به التنفير والتوبيخ للكافرين .

أى : والله تعالى . اقتضت حكمته أن لا يهدى القوم الكافرين إلى طريقه القويم ، لأنهم بسبب سوء اختيارهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا طريق الغى على طريق الرشاد .. فكان أمرهم فرطا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٥٨ - بتصرف يسير .

١ - أن السنة اثنا عشر شهراً ، وأن شهور السنة القمرية هى المعول عليها فى الأحكام لا شهور السنة الشمسية .

قال الفخر الرازى ، اعلم أن السنة عند العرب عبارة عن اثنى عشر شهراً من الشهور القمرية ، والدليل عليه هذه الآية - ﴿ إن عدة الشهور .﴾ الآية . وقوله . تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب .. ﴾ فجعل تقدير القمر بالمنازل علة للسنين والحساب وذلك إنما يصح إذا كانت السنة معلقة بسير القمر .

وأيضاً قوله . تعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج ..) .

ثم قال ، واعلم أن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية ، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل . عليهما السلام . فأما عند اليهود والنصارى ، فليس الأمر كذلك ..) [١] .

وقال الجمل : قوله (اثنا عشر شهرا) هذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل ، وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم . وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً . والسنة الشمسية عبارة عن دوران الشمس فى الفلك دورة تامة، وهى ثلثمائة وخمسة وستون يومًا. وربع يوم . فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام ، فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف) [٢] .

هذا ، وقد تكلم بعض المفسرين عن الشهور القمرية ، وعن سبب تسميتها بما سميت به فارجع إليه إن شئت [٣] .

٢ - وجوب التقييد بما شرعه الله من أحكام بدون زيادة أو نقصان عليها .

قال القرطبى ما ملخصه : وضع - سبحانه - هذه الشهور وسماها بأسمائها على مارتبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة ، وهو معنى قوله : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ﴾ . وحكمها باق على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها ، وتقديم المقدم فى الاسم منها .

والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها ، ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٥٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٣٤ .

ولذا قال - ﷺ - فى خطبته فى حجة الوداع : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات الأرض» .

ثم قال القرطبى ؛ كانوا يحرمون شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . فهذا معنى قوله - ﷺ - «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» [1] .

٣ - أخذ بعضهم من قوله تعالى - ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت لم ينسخ ، وأنه لا يصح القتال فيها إلا أن يكون دفاعاً .

قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها .

وذهب جمهور العلماء إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم قد نسخ ، بدليل أن الله - تعالى - بعد أن نهى المؤمنين عن أن يظلموا أنفسهم بالقتال فيها أمرهم بقتال المشركين من غير تقيد يزمن فقال ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ فدل ذلك على أن القتال فى الأشهر الحرم مباح .

وبدليل أن النبى - ﷺ - حاصرأهل الطائف فى شهر حرام وهو شهر ذى القعدة .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى هوازن فى شوال ، فلما كسرهم .. لجأوا إلى الطائف ، فعمد - ﷺ - إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام - أى . فى شهر ذى القعدة .

ثم قال ما ملخصه : وأما قوله - تعالى - ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهييج للمؤمنين على قتال أعدائهم .. ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال أعدائهم فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم - . أى من الأعداء : كما قال : - تعالى - ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ وكما قال - تعالى - ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ .

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله - ﷺ - أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها ، فإنهم الذين بدأوا القتال للمسلمين .. فعند ذلك قصدهم رسول الله - ﷺ - فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم

---

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ١٣٧ .

من حصونهم فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة منهم .. واستمر حصار المسلمين لهم أربعين يوماً ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم ، لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر [١] .

ومن كلام ابن كثير . رحمه الله - نستنتج أنه يميل إلى القول بأن المنهى عنه هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم ، لا إتمام القتال فيها متى بدأ الاعداء ذلك وهو قريب من قول القائل : لا يحل القتال فيها ولا فى الحرم إلا إن يكون دفاعاً .

وهذا القول هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه لم يثبت أن الرسول - ﷺ - بدأ أعداءه القتال فى الأشهر الحرم ، وإنما الثابت أن الاعداء هم الذين ابتدأوا قتال المسلمين فيها ، فكان موقف المسلمين هو الدفاع عن أنفسهم :

٤ - ذكر المفسرون روايات فى أول من أخر حرمة شهر إلى آخر ، فعن مجاهد قال : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس . إنى لا أعاب ولا أخاب ولا مرد لما أقول . إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له « القلمس » وكان فى الجاهلية . وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام . يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمد إليه يده . فلما كان هو قال لقومه : أخرجوا بنا - أى للقتال - . فقالوا له : هذا المحرم . قال : ننسئه العام ، هى العام صفران . فإذا كان العام القابل قضينا .. جعلنا هما محرمين .

قال : ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا فى صفر . حرموه مع المحرم . هما محرمان » [٢] .

وقد كان بعض أهل الجاهلية يتفاخر بهذا النسىء ، ومن ذلك قول شاعرهم :

ومنا ناسىء الشهر القلمس

قال آخر :

ألسنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٥ بتصريف يسير .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٦ .

وقد أبطل الإسلام كل ذلك ، وأمر بترتيب الشهور على ما رتبها - سبحانه - عليه يوم خلق السموات والأرض .

وبعد : فهذه سبع وثلاثون آية من أول السورة إلى هنا ، نراها - فى مجموعها كما سبق أن بينا - قد حددت العلاقات النهائية بين المسلمين وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، كما نراها قد أبرزت الأسباب التى دعت إلى هذا التحديد بأسلوب حكيم مؤثر ، يقنع العقول ، ويشبع العواطف .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن غزوة تبوك وما جرى فيها من أحداث متنوعة .. وقد استغرق هذا الحديث معظم آيات السورة ، لا سيما فيما يتعلق بهتك أستار المنافقين ، والتحذير منهم .

وقد بدأت السورة حديثها عن غزوة تبوك بتوجيه نداء إلى المؤمنين نعت فيها على المتثاقلين عن الجهاد ، وحرضت عليه بشتى ألوان التحريض قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال الإمام ابن كثير : هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة تبوك ، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر ، وحمارة القيظ ، [1] .

وتبوك : اسم لمكان معروف فى أقصى بلاد الشام من ناحية الجنوب ، ويبعد عن المدينة المنورة من الجهة الشمالية بحوالى ستمائة كيلو متر .

وكانت غزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة ، وهى آخر غزوة لرسول الله ، - ﷺ .

وكان السبب فيها أن الرسول - ﷺ - بلغه أن الروم قد جمعوا له جموعا كثيرة على أطراف الشام ، وأنهم يريدون أن يتجهوا إلى الجنوب لمهاجمة المدينة .

فاستنفر . - ﷺ - الناس إلى قتال الروم ، وكان - ﷺ - قلما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها حتى يبقى الأمر سراً .

ولكنه فى هذه الغزوة صرح للمسلمين بوجهته وهى قتال الروم ، وذلك لبعد المسافة ، وضيق الحال ، وشدة الحر ، وكثرة العدو .

وقد لبى المؤمنون دعوة رسولهم . - ﷺ - لقتال الروم ، وصبروا على الشدائد ، والمتاعب وبذلوا الكثير من أموالهم ، ولم يتخلف منهم إلا القليل .

أما المنافقون وكثير من الأعراب ، فقد تخلفوا عنها ، وحرضوا غيرهم على ذلك ، وحكت السورة . فى كثير من آياتها الآتية . ما كان منهم من جبن ومن تخذيل الناس عن القتال ، ومن تحريض لهم على القعود وعدم الخروج .

وبعد أن وصل الرسول - ﷺ - والمؤمنون إلى تبوك ، لم يجدوا جموعا للروم . فأقاموا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩ بتصرف وتلخيص .

هناك بضع عشرة ليلة ، ثم عادوا إلى المدينة »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ انفروا ﴾ من النفر وهو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لسبب من الأسباب الداعية لذلك .

يقال : نفر فلان إلى الحرب ينفر وينفر نفراً ونفوراً ، إذا خرج بسرعة ويقال : استنفر الإمام الناس ، إذا حرضهم على الخروج للجهاد . ومنه قوله - ﷺ - : ﴿ وإذا استنفرتم فانفروا ﴾ أى : وإذا دعاكم الإمام إلى الخروج معه للجهاد فاخرجوا معه بدون تثاقل .

واسم القوم الذين يخرجون للجهاد : النفير والنفرة والنفر .

ويقال : نفر فلان من الشىء ، إذا فزع منه ، وأدبر عنه ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ اثاقلتم ﴾ : من الثقل ضد الخفة . يقال : تثاقل فلان عن الشىء ، إذا تباطأ عنه ولم يهتم به .. ويقال : تثاقل القوم : إذا لم ينهضوا لنجدة المستجير بهم . وأصل ﴿ اثاقلتم ﴾ تثاقلتم ، فأبدلت التاء ثاء ثم أدغمت فيها ، ثم اجتلبت همزة الوصل من أجل التوصل للنطق بالساكن .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، ﴿ مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ أى : ما الذى جعلكم تباطأتم عن الخروج إلى الجهاد ، حين دعاكم رسولكم - ﷺ - إلى قتال الروم ، وإلى النهوض لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه ؟

وقد ناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان الصادق من طاعة لله ولرسوله . والاستفهام فى قوله : ﴿ مالكم ﴾ لإنكار واستبعاد صدور هذا التثاقل منهم ، مع أن هذا يتنافى مع الإيمان والطاعة .

قال الجمل : و « ما » مبتدأ ، و « لكم » خبر ، وقوله « اثاقلتم » حال . وقوله : « إذا قيل لكم » ظرف لهذه الحال مقدم عليها .

والتقدير : أى شىء ثبت لكم من الأعذار . حال كونكم متثاقلين فى وقت قول الرسول لكم : انفروا فى سبيل الله[٣] .

وقوله . « إلى الأرض » متعلق بقوله : « اثاقلتم » على تضمينه معنى الميل إلى الراحة ،

---

(١) لمعرفة تفاصيل غزوة تبوك : راجع « سيرة ابن هشام » جـ ٤ ص ١٥٩ . طبعة الحلبى .

(٢) سورة الإسراء . الآية ٤٦ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٢ .

والإخلاد إلى الأرض ، ولذا عدى بإلى .

أى : اثاقلتم مائلين إلى الراحة وإلى شهوات الدنيا الفانية ، وإلى الإقامة بأرضكم ودياركم ، وكرهتم الجهاد مع أنه ذروة سنام الإسلام .

وإن التعبير بقوله ، سبحانه ، ﴿ اثاقلتم ﴾ لفى أسمى درجات البلاغة ، وأعلى مراتب التصوير الصادق ، لأنه بلفظه وجرسه يمثل الجسم المسترخى الثقيل الذى استقر على الأرض .. والذى كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إليه ثقله فسقط من بين أيديهم ، وأخلد إلى الأرض .

وذلك لأن ما استولى عليه من حب للذائذ الدنيا وشهواتها ، أثقل بكثير من حبه لنعيم الآخرة وخيراتها .

وقوله ، سبحانه ، : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ إنكار آخر لتباطئهم عن الجهاد ، وتعجب من ركونهم إلى الدنيا مع أن إيمانهم يتنافى مع ذلك .

وقوله . ﴿ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة الدائم .

والمعنى : أى شىء حال بينكم ، أيها المؤمنون ، وبين المسارعة إلى الجهاد عندما دعاكم رسولكم - ﷺ - إليه . أرضيتم براحة الحياة الدنيا ولذائذها الناقصة .

إن كان أمركم كذلك ، فقد أخطأتم الصواب ، لأن متاع الحياة الدنيا مهما كثر فهو قليل مستحقر بجانب متاع الآخرة الباقى ، ونعيمها الخالد .

قال الآلوسى ما ملخصه : « فى » من قوله ﴿ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة ﴾ تسمى بفى القياسية . لأن المقيس يوضع فى جنب ما يقاس به . وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ، ويستدعى الرغبة فيها ، وتجريد الآخرة عن ذلك مثل مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة ورفعتها .

وقد أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المستورد ، أخى بنى فهر ، قال : قال رسول الله - ﷺ - « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم ترجع »[1] .

وقال الفخر الرازى : اعلم أن هذه الآية تدل على وجوب الجهاد فى كل حال ، لأنه ،

---

(١) الآلوسى تفسير جـ ١٠ ص ٨٥ .

سبحانه ، نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر ، ولو لم يكن الجهاد واجبا لما كان هذا التثاقل منكرا . وليس لقائل أن يقول : الجهاد إنما يجب فى الوقت الذى يخاف هجوم الكفار فيه ، لأنه عليه السلام ، ما كان يخاف هجوم الروم عليه ، ومع ذلك فقد أوجب الجهاد معهم .. وأيضا هو واجب على الكفاية ، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين . والخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تقاعسوا فى الخروج إلى غزوة تبوك مع رسول الله - ﷺ -[1] .

ثم هددهم ، سبحانه ، بالعذاب الأليم ، إن لم ينفروا للجهاد فى سبيله فقال ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئاً ﴾ .

أى : ﴿ إلا تنفروا ﴾ ، أيها المؤمنون ، للجهاد كما أمركم رسولكم ﴿ يعذبكم ﴾ الله ﴿ عذابا أليما ﴾ فى الدنيا بإنزال المصائب ، بكم ، وفى الآخرة بنار جهنم .

وقوله : ﴿ ويستبدل قوما غيركم ﴾ أى : ويستبدل بكم قوما يطيعون رسوله فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره .. كما قال ، : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

قال صاحب المنار : قيل المراد بهؤلاء القوم : أهل اليمن ، وقيل أهل فارس وليس فى محله ، فإن الكلام للتهديد ، والله يعلم أنه لا يقع الشرط ولا جزاؤه .

وإنما المراد يطيعونه - سبحانه - ويطيعون رسوله ، لأنه قد وعده بالنصر ؛ وإظهار دينه ، فإن لم يكن هذا الإظهار بأيديكم . فلابد أن يكون بأيدى غيركم ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ .

وقد مضت سنته - تعالى - بأنه لا بقاء للأمم التى تتثاقل عن الدفاع عن نفسها وحفظ حقيقتها وسيادتها ، ولا تتم فائدة القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الامام ، فكيف إذا كان الأمام والقائد هو النبى الموعود من ربه بالنصر ..[2] .

والضمير فى قوله ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ يعود إلى الله ، تعالى .

أى : إن تباطأتم « أيها المؤمنون » عن الجهاد ، يعذبكم الله عذاباً أليما ويستبدل بكم قوماً سواكم لنصرة نبيه ، ولن تضروا الله شيئاً من ا لضرر بسبب تقاعسكم . لأنكم أنتم الفقراء إليه ، وهو ، سبحانه ، الغنى الحميد .

وقيل : الضمير يعود للرسول ، - ﷺ - أى : ولا تضروا الرسول شيئاً ما من الضرر بسبب تثاقلكم عن الجهاد ، لأن الله قد وعده بالنصر ووعده كائن لا محاله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص - جـ ١٦ ص ٦٠ .
(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٩٥ - بتصرف وتلخيص .

وقوله : ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ تذييل مؤكد لما قبله .

أى : والله ، تعالى : على كل شىء من الأشياء قدير ، ولا يعجزه أمر ، ولا يحول دون نفاذ مشيئته حائل ، فامتثلوا أمره لتفوزوا برضوانه .

فأنت ترى أن هذه الآية وسابقتها قد اشتملت على أقوى الأساليب التى ترغب فى الجهاد ، وترهب من النكوص عنه ، وتبعث على الطاعة لله ولرسوله .

ثم ذكرهم ، سبحانه ، بما يعرفونه من حال الرسول - ﷺ - حيث نصره الله . تعالى ، على أعدائه بدون عون منهم ، وأيده بجنود لم يروها فقال ، ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ .

قال ابن جرير . هذا إعلام من الله لأصحاب رسوله - ﷺ - أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم ، أعانوه أو لم يعينوه ، وتذكير منه لهم بأنه فعل ذلك به ، وهو من العدد فى قلة ، والعدو فى كثرة فكيف به وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة [1] .

والمعنى : إنكم ، أيها المؤمنون ، إن آثرتم القعود والراحة على الجهاد وشدائده ، ولم تنصروا رسولكم الذى استنفركم للخروج معه . فاعلموا أن الله سينصره بقدرته النافذة ، كما نصره ، وأنتم تعلمون ذلك ، وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة ﴿ ثانى اثنين ﴾ أى : أحد اثنين . والثانى : أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه .

يقال . فلان ثالث ثلاثة ، أو رابع أربعة .. أى : هو واحد من الثلاثة أو من الأربعة .

فإذا قيل : فلان رابع ثلاثة أو خامس أربعة ، فمعناه أنه صير الثلاثة أربعة بإضافة ذاته اليهم ، أو صير الأربعة خمسة .

وأسند سبحانه الإخراج الى المشركين مع أن الرسول - ﷺ - قد خرج بنفسه بإذن من الله ، تعالى ، لأنهم السبب فى هذا الخروج حيث اضطروه إلى ذلك ، بعد أن تآمروا على قتله .

قيل : وجواب الشرط فى قوله ، ﴿ الا تنصروه ﴾ محذوف وقوله ﴿ فقد نصره الله ﴾ تعليل لهذا المحذوف .

والتقدير : إلا تنصروه ينصره الله فى كل حال . ﴿ فقد نصره ﴾ سبحانه وقت أن أخرجه الكافرون من بلده ولم يكن معه سوى رجل واحد .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت . كيف يكون قوله ﴿ فقد نصره الله ﴾ جواباً للشرط ؟. قلت « فيه وجهان » أحدهما : إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٣٥ .

واحد . ولا أقل من الواحد ، فدل بقوله . ﴿ فقد نصره الله ﴾ على أنه ينصره فى المستقبل كما نصره فى ذلك الوقت .

والثانى . أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً فى ذلك الوقت ، فلن يخذل من بعده ، "[١] .

وقوله : ﴿ ثاني اثنين ﴾ حال من الهاء فى قوله ﴿ أخرجه ﴾ أى اخرجه الذين كفروا حال كونه منفرداً عن جميع الناس إلا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه .

وقوله : ﴿ إذ هما فى الغار ﴾ بدل من قوله ﴿ إذ أخرجه ﴾ .

والغار : النقب العظيم يكون فى الجبل . والمراد به هنا : غار جبل ثور . وهو جبل فى الجهة الجنوبية لمكة ، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ بدل ثان من قوله ﴿إذ أخرجه﴾ .

أى . إلا تنصروه فقد نصره الله وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة ، ووقت أن كان هو وصاحبه أبو بكر فى الغار ، ووقت أن كان - ﷺ - يقول لصاحبه الصديق : لا تحزن إن الله معنا بتأييده ونصره وحمايته .

وذلك أن أبا بكر وهو مع النبى - ﷺ - فى الغار ، أحس بحركة المشركين من فوق الغار ، فخاف خوفا شديداً لا على حياته هو ، وإنما على حياة النبى - ﷺ - فلما رأى النبى - ﷺ - منه ذلك ، أخذ فى تسكين روعه وجزعه وجعل يقول له : لا تحزن إن الله معنا .

أخرج الشيخان عن أبى بكر قال . نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار ، وهم على رءوسنا ، فقلت . يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال : « يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا »[٢] .

وقوله : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. ﴾ بيان لما أحاط الله به نبيه - ﷺ - من مظاهر الحفظ والرعاية .

والسكينة : من السكون ، وهو ثبوت الشىء بعد التحرك . أو من السكن - بالتحريك - وهو كل ما سكنت إليه نفسك ، واطمأنت به من أهل وغيرهم .

والمراد بها هنا : الطمأنينة التى استقرت فى قلب النبى - ﷺ - فجعلته لا يبالى بجموع المشركين المحيطين بالغار ، لأنه واثق بأنهم لن يصلوا إليه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة التوبة جـ ٦ ص ٨٣ وأخرجه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » جـ ٧ ص ١٠٨ .

والمراد بالجنود المؤيدين له . الملائكة الذين أرسلهم - سبحانه - لهذا الغرض : والضمير فى قوله : ﴿ عليه ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ .

أى . فأنزل الله سكينته وطمأنينته وأمنه على رسوله - ﷺ - وأيده وقواه بجنود من الملائكة لم تروها أنتم ، كان من وظيفتهم حراسته وصرف أبصار المشركين عنه .

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ﴿ عليه ﴾ يعود إلى أبى بكر الصديق ، لأن الأصل فى الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور ، وأقرب مذكور هنا هو الصاحب ولأن الرسول لم يكن فى حاجة إلى السكينة . وإنما الذى كان فى حاجة إليها هو أبو بكر ، بسبب ما اعتراه من فزع وخوف .

وقد رد أصحاب الرأى الأول على ذلك بأن قوله ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ الضمير فيه لا يصح إلا للنبيٍ - ﷺ - وهو معطوف على ما قبله فوجب أن يكون الضمير فى قوله ﴿ عليه ﴾ عائداً إلى النبى - ﷺ - حتى لا يحصل تفكك فى الكلام .

أما نزول السكينة فلا يلزم منه أن يكون لدفع الفزع والخوف ، بل يصح أن يكون لزيادة الاطمئنان ، وللدلالة على علو شأنه - ﷺ .

قال ابن كثير قوله ﴿ فأنزل الله سكينته عليه ﴾ أى . تأييده ونصره عليه أى . على الرسول - ﷺ - فى أشهر القولين . وقيل . على أبى بكر .

قالوا : لأن الرسول - ﷺ - لم تزل معه سكينة . وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ أى : الملائكة [١] .

وقوله : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ بيان لما ترتب على إنزال السكينة والتأييد بالملائكة .

والمراد بكلمة الذين كفروا . كلمة الشرك ، أو كلمتهم التى اجتمعوا عليها فى دار الندوة وهى اتفاقهم على قتل رسول الله - ﷺ .

والمراد بكلمة الله : دينه الذى ارتضاه لعباده ، وهو دين الإسلام ، وما يترتب على اتباع هذا الدين من نصر وحسن عاقبة ، أى : كانت نتيجة إنزال السكينة والتأييد بالملائكة ، أن جعل كلمة الشرك هى السفلى ، أى . المقهورة الذليلة . وكلمة الحق والتوحيد المتمثلة فى دين الإسلام هى العليا أى : هى الثابتة الغالبة النافذة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٨ .

وقراءة الجمهور برفع . ﴿ كلمة ﴾ على الابتداء . وقوله ﴿ هى ﴾ مبتدأ ثان : وقوله : ﴿ العليا ﴾ خبرها ، والجملة خبر المبتدأ الأول .

ويجوز أن يكون الضمير ﴿ هى ﴾ ضمير فصل ، وقوله ﴿ العليا ﴾ هو الخبر وقرأ الأعمش ويعقوب ﴿ وكلمة الله ﴾ بالنصب عطفاً على مفعول جعل وهو ﴿ كلمة الذين كفروا ﴾ .

أى : وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وجعل كلمة الله هى العليا .

قالوا : وقراءة الرفع أبلغ وأوجه ، لأن الجملة الأسمية تدل . على الدوام والثبوت ، ولأن الجعل لم يتطرق إلى الجملة الثانية وهى قوله : ﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾ لأنها فى ذاتها عالية ثابتة ، بدون جعلها كذلك فى حادثة معينة . بخلاف علو غيرها فهو غير ذاتى ، وإنما هو علو مؤقت فى حالة معينة ، ثم مصيرها إلى الزوال والخذلان بعد ذلك .

وقوله : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - ﴿ عزيز ﴾ لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ، ولا ينصر من عاقبه ناصر ، ﴿ حكيم ﴾ فى تصريفه شأن خلقه ، لا قصور فى تدبيره ، ولا نقص فى أفعاله .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : الدلالة على فضل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وعلى علو منزلته ، وقوة إيمانه ، وشدة اخلاصه لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - .

ومما يشهد لذلك ، أن الرسول - ﷺ - عندما أذن الله له بالهجرة ، لم يخبر أحدا غيره لصحبته فى طريق هجرته إلى المدينة .

ولقد أظهر الصديق - رضى الله عنه - خلال مصاحبته للرسول - ﷺ - الكثير من ألوان الوفاء والإخلاص وصدق العقيدة [1] .

قال الآلوسى ما ملخصه : واستدل بالآية على فضل أبى بكر .. فإنها خرجت مخرج العتاب للمؤمنين ماعدا أبا بكر .. فعن الحسن قال : عاتب الله جميع أهل الأرض غير أبى بكر فقال : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ الآية .

---

(١) راجع قصة الهجرة فى كتاب « السيرة النبوية » لابن هشام جـ ٢ ص ٤٨٠ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٥ .

ولأن فيها النص على صحبته للرسول - ﷺ - ولم يثبت ذلك لأحد من الصحابة : لأنه هو المراد بالصاحب فى قوله ﴿ إذ يقول لصاحبه ﴾ وهذا مما وقع عليه الإجماع .

ومن هنا قالوا : من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر ، لإنكار كلام الله ، وليس ذلك لسائر الصحابة [١] .

وقد ساق الإمام الرازى ، والشيخ رشيد رضا ، عند تفسيرهما لهذه الآية اثنى عشر وجهاً فى فضل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ، فارجع إليهما إن شئت [٢] .

وبعد هذا التذكير للمؤمنين بما كان منه - سبحانه - من تأييد لرسوله عند هجرته ، أمرهم - جل شأنه - بالنفير فى كل حال فقال : ﴿ انفروا خفافا وثقالا . وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما توعد من لا ينفر مع الرسول - ﷺ - ، وضرب له من الأمثال ما وصفنا ، اتبعه بهذا الأمر الجازم فقال : ﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾ .

والمراد : انفروا سواء أكنتم على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها ، أو على الصفة التى يثقل . وهذا الوصف يدخل تحته أقسام كثيرة .

منها : ﴿ خفافا ﴾ فى النفور لنشاطكم له ، و ﴿ ثقالا ﴾ عنه لمشقته عليكم .

ومنها : ﴿ خفافاً ﴾ لقلة عيالكم ، و ﴿ ثقالا ﴾ لكثرتها .

ومنها : ﴿ خفافا ﴾ من السلاح ، و ﴿ ثقالا ﴾ منه .

والصحيح ما ذكرنا ، إذ الكل داخل فيه ، لأن الوصف المذكور وصف كلى يدخل فيه كل هذه الجزئيات » [٣] .

والمعنى : ﴿ انفروا ﴾ - أيها المؤمنون - ﴿ خفافاً وثقالا ﴾ أى : فى حال سهولة النفر عليكم ، وفى حال صعوبته ومشقته .

﴿ وجاهدوا ﴾ أعداءكم ببذل أموالكم . وببذل أنفسكم ﴿ فى سبيل الله ﴾ أى : فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله - ﷺ - .

فمن استطاع منكم الجهاد بالمال والنفس وجب عليه الجهاد بهما . ومن قدر على أحدهما

---

(١) راجع تفسير الالوسى جـ ١٠ ص ٨٩ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٦٣ . تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤١٧ .
(٣) تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٦٩ .

دون الآخر ، وجب عليه ما كان فى قدرته منها .

قال القرطبى روى أبو داود عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : ﴿ جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم ﴾ .

وهذا وصف لأكمل ما يكون الجهاد وأنفعه عند الله - تعالى - فقد حض - سبحانه - على كمال الأوصاف .

وقدم الأموال فى الذكر ، إذ هى أول مصرف وقت التجهيز ، فرتب الأمر كما هو فى نفسه [١] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يعود إلى المذكور من الأمرين السابقين وهما : النفور والجهاد .

أى : ذلكم الذى أمرتم به من النفور والجهاد فى سبيل الله ، خير لكم فى دنياكم وفى آخرتكم من التثاقل عنهما ، إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين لكم خالقكم ومربيكم على لسان رسوله - ﷺ - .

ولقد أدرك المؤمنون الصادقون هذا الخير فامتثلوا أمر ربهم ، ونفروا للجهاد فى سبيله خفافاً وثقالا ، بدون تباطؤ أو تقاعس .

وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية كثيراً من الأمثلة التى تدل على محبة السلف الصالح للجهاد فى سبيل الله ، ومن ذلك .

ما جاء عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة ، فأتى على هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾ فقال : أى بنى ، جهزونى جهزونى . فقال بنوه . يرحمك الله !! لقد غزوت مع النبى - ﷺ - حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات . ومع عمر حتى مات . فنحن نغزو عنك . فقال : لا ، جهزونى . فغزوا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير - رضى الله عنه .

وقال الزهرى: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل : فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع [٢] .

وأخرج ابن جرير عن حيان بن زيد الشرعبى قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو: وكان

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٣ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥١ .

والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً هرما ، على راحلته فيمن نفر ، فأقبلت عليه فقلت : يا عماه لقد أعذر الله إليك .

قال : فرفع حاجبيه فقال . ياابن أخى ، استنفرنا الله خفافا وثقالا ، من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله [1] .

وعن أبى راشد الحبرانى قال . وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله - ﷺ - جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وهو يريد الغزو - وقد تقدمت به السن - فقلت له : لقد أعذر الله إليك .

فقال : أبت علينا سورة البعوث ذلك . يعنى هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾[2] .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية تجعل الجهاد على الجميع حتى المريض والزمن والفقير .. وليس الأمر كذلك ، فما معنى هذا الأمر ؟ .

قلت . من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ بقوله - تعالى - ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى .. ﴾[3] .

ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب .

والصحيح أنها منسوخة ، لأن الجهاد من فروض الكفاية ، ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك ، وأن النبى - ﷺ - خلف فى المدينة فى تلك الغزوة النساء وبعض الرجال ، فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفايات ، وأنه ليس على الأعيان [4] .

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست منسوخة ، فقد قال الإمام القرطبى - ما ملخصه - واختلف فى هذه الآية ، فقيل إنها منسوخة بقوله - تعالى - ﴿ ليس عن الضعفاء ولا على المرضى ﴾ .

والصحيح أنها ليست بمنسوخة .

روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله - تعالى - : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ قال : شباناً وكهولا . ما سمع الله عذر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات .

ثم قال - بعد أن ساق نماذج متعددة لمن خرجوا للجهاد خفافاً وثقالا - فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين قلنا . إن النسخ لا يصح .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٤٠ - بتصريف يسير .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٩٣ - بتصريف يسير .
(٣) سورة التوبة الآية ٩١ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٥ .

فقد تكون هناك حالة يجب فيها نفير الكل ، وذلك إذا تعين الجهاد لغلبة العدو على قطر من الأقطار الإسلامية ، أو بحلوله فى العقر . ففى هذه الحالة يجب على جميع أهل الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالا ؛ شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته . ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج .

فإن عجز أهل تلك البلدة عن صد عدوهم ؛ كان على من قاربهم أن يخرجوا معهم لصد العدو ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل من علم بضعفهم عن عدوهم فالمسلمون كلهم يد على من سواهم .

حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى نزل العدو عليها ، سقط الفرض عن الآخرين .

ثم قال - رحمه الله - : ومن الجهاد أيضاً ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة .. لإظهار القوة ، وإعزاز دين الله .

ثم قال : وقال ابن العربى ، ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله . سنة سبع وعشرين وخمسمائة : فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا .. فقلت للوالى والمولى عليه : عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس .. فيحاط به فيهلك .

فغلبت الذنوب ، ورجفت القلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره (١) ، وإن رأى المكيدة بجاره .

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٢) .

والذى نراه . أن ما ذهب إليه الإمام القرطبى ، من أن الآية الكريمة ليست منسوخة ، أولى بالاتباع .

لأن الجهاد قد يكون فرض كفاية فى بعض الحالات ، وقد يكون فرض عين فى حالات أخرى والآية الكريمة التى معنا تدعو المؤمنين إلى النفير العام فى تلك الحالات الأخرى التى يكون الجهاد فيها فرض عين وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تدعو إلى النفير العام . والآيات التى تعفى بعض الناس من مشاقه ومتاعبه .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن هذه الآيات الأربع قد عاتبت المؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك عتاباً شديداً ؛ وأنذرتهم بالعذاب الأليم إن لم ينفروا .. وذكرتهم بما كان من نصر الله لنبيه حين أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين .. وأمرتهم بالنفور إلى الجهاد خفافاً وثقالا .

---

(١) الوجار بكسر الواو وفتحها - بيت الثعلب .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٠ .

وبمجاهدة المشركين بأموالهم وأنفسهم ، فذلك هو الخير لهم فى عاجلتهم وآجلتهم .

ثم أخذت السورة الكريمة فى بيان قبائح المنافقين ، ومعاذيرهم الواهية ، ومسالكهم الخبيثة . وأيمانهم الفاجرة .. فقال - تعالى - :

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

قال الفخر الرازى هذه الآية نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك [١] والعرض . ما يعرض للانسان من منافع الدنيا وشهواتها .

والسفر القاصد : هو السفر القريب السهل الذى لا يصاحبه ما يؤدى إلى التعب الشديد . من القصد بمعنى التوسط والاعتدال فى الشىء .

والشقة : المسافة التى لا تقطع إلا بعد تكبد المشقة والتعب ، فهى مأخوذة من المشقة وشدة العناء .

قال القرطبى : حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة : السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شقة شاقة . والمراد بذلك كله غزوة تبوك .. » [٢] .

والمعنى : لو كان الذى دعوتهم إليه يا محمد ، متاعاً من متع الحياة الدنيا ، وسفراً سهلا قريباً ، لا تبعوك فيما دعوتهم إليه ، لأنه يوافق أهواءهم ، ويشبع رغباتهم ، ولكنهم حين عرفوا أن ما دعوتهم إليه هو الجهاد فى سبيل الله وما يصحبه من أسفار شاقة . وتضحيات جسيمة .. تعلّلوا لك بالمعاذير الكاذبة ، وتخلفوا عن الخروج معك ، جبناً منهم ، وحباً للراحة والسلام .

وشبيه بهذه الآية من حيث المعنى ، قول الرسول - ﷺ - فى شأن المتخلفين عن صلاة الجماعة « لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً ، أو مرماتين [٣] حسنتين لشهد العشاء » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٢ - المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ هـ الطبعة الثانية .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٤ طبعة دار الكاتب العربى سنة ١٩٤٧ .
(٣) مرماتين : تثنية مرماة ، وهى ظلف الشاة ، أو ما بين ظلفها من اللحم .

أى : لو يعلم أحد هؤلاء المتخلفين عن صلاة العشاء فى جماعة ، أنه يجد عند حضور صلاتها فى جماعة شيئاً من اللحم لحضرها .

ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من الجهاد فقال : ﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ .

أى . وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله - كذباً وزوراً - قائلين . لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد فى تبوك لخرجنا : فاننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين ، فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التى حملتنا على التخلف !!

وأتى - سبحانه - بالسين فى قوله : ﴿ وسيحلفون ﴾ لأنه من قبيل الإخبار بالغيب . فقد كان نزول هذه الآية قبل رجوعه - ﷺ - من تبوك . وحلفهم هذا كان بعد رجوعه منها .

قال الفخر الرازى : قالوا : الرسول - ﷺ - أخبر عنهم أنهم سيحلفون ، وهذا إخبار عن غيب يقع فى المستقبل ، والأمر لما وقع كما أخبر كان هذا إخباراً عن الغيب فكان معجزاً »[1] .

والمراد بالاستطاعة فى قوله : « لو استطعنا » : وجود وسائل للجهاد معهم ، من زاد وعدة وقوة فى البدن ، وغير ذلك مما يستلزمه الجهاد فى سبيل الله .

وقوله : ﴿ لخرجنا معكم ﴾ ساد مسد جوابى القسم والشرط .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب كذبهم ونفاقهم فقال : ﴿ يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ :

أى . أن هؤلاء المتخلفين عن الجهاد يهلكون أنفسهم بسبب حلفهم الكاذب ، وجرأتهم على الله . تعالى . فى اختلاق المعاذير الباطلة ، مع أنه . سبحانه . يعلم إنهم لكاذبون فى أيمانهم ، وفيما انتحلوه من أعذار .

قال ابن جرير قوله : ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ فى قولهم : ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ ، لأنهم كانوا للخروج مطيقين ، بوجود السبيل إلى ذلك بالذى كان عندهم من الأموال ، مما يحتاج إليه الغازى فى غزوه ، وصحة الأبدان ، وقوة الأجسام[2] .

هذا ، ومن الإحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ، أن الأيمان الكاذبة تؤدى إلى الخسران والهلاك : وفى الحديث الشريف : « اليمين الغموس تدع الديار بلاقع » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٢٧١ طبعة دار المعارف . تحقيق محمود شاكر .

ثم عاتب الله . تعالى . نبيه - ﷺ - عتاباً رقيقاً لأنه اذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد حين طلبوا منه ذلك ، دون أن يتبين أحوالهم فقال . تعالى .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

قال ابن كثير . قال مجاهد . نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله - ﷺ - فإن أذن لكم فاقعدوا . وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .

والعفو : يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير ، كما يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل ، وهو المراد هنا .

والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك فى غزوة تبوك ، حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة ، وكان الأولى بك أن تتريث وتتأنى فى السماح لهم بالتخلف ، حتى يتبين لك الذين صدقوا فى اعتذارهم من الذين كذبوا فيه ، فقد كانوا - إلا قليلا منهم - كاذبين فى معاذيرهم ، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به .

وقدم سبحانه . العفو على العتاب . وهو قوله : ﴿ لم أذنت لهم ﴾ - للإشارة إلى المكانة السامية التى له - ﷺ - عند ربه .

قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا ؟ لقد خاطبه سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه .

وقال العلامة أبو السعود ما ملخصه : وعبر - سبحانه - عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث ، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام ، للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وبأن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ، ناشىء عن رسوخهم فى الكذب .

وعبر عن ظهور الصدق بالتبين ، وعما يتعلق بالكذب بالعلم ، لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق ، والكذب احتمال عقلى ، فظهور صدق الخبر إنما هو تبين ذلك المدلول ، وانقطاع احتمال نقيضه بعدما كان محتملا له احتمالا عقلياً . وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة

للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبيناً له ، بل نقيض لمدلوله . فما يتعلق به يكون علما مستأنفاً ..[١] .

هذا ، ومن الأمور التى تكلم عنها العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية ما يأتى :

١ - أن النبى - ﷺ - كان يحكم بمقتضى اجتهاده فى بعض الوقائع . وقد بسط القول فى هذه المسألة صاحب المنار فقال ما ملخصه :

وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهاداً منه - ﷺ - فيما لا نص فيه من الوحى ، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحى ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو أن يخطىء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ويؤيده حديث طلحة فى تأبير النخل إذ رآهم - ﷺ - يلقحونها فقال : « ما أظن يغنى ذلك شيئاً » فأخذوا بذلك فتركوه ظناً منهم أن قوله هذا من أمر الدين ، فنفضت النخل وسقط ثمرها . فأخبر بذلك فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فانى ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فانى لن أكذب على الله عز وجل » .

وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ فى الاجتهاد على الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام ؛ قالوا : ولكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه .. »[٢] .

٢ - أن من الواجب على المسلم التريث فى الحكم على الأمور .

قال الفخر الرازى : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد[٣] .

٣ - أن المتتبع لآراء العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية يرى لهم ثلاثة أقوال :

أما القول الأول فهو لجمهور العلماء : وملخصه : أن المراد بالعفو فى قوله سبحانه: ﴿ عفا الله عنك ﴾ عدم مؤاخذته : - ﷺ - فى تركه الأولى والأفضل ، لأنه كان من الأفضل له ألا يأذن للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حتى يتبين أمرهم .

وهذا القول هو الذى نختاره ونرجحه ، لأنه هو المناسب لسياق الآية ولما ورد فى سبب نزولها :

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٧٢ ، طبعة صبيح .
(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٥٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٤ .

وأما القول الثانى فهو لصاحب الكشاف : وملخصه : أن العفو هنا كناية عن الجناية ، فقد قال : قوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ، ومعناه . أخطأت وبئس ما فعلت ، وقوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو[1] .

ولم يرتض كثير من العلماء ما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن العفو هنا كناية عن الجناية ، ووصفوا ما ذهب إليه بالخطأ وإساءة الأدب .

قال أبو السعود : ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسمافعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئس ما فعلت .

هب أنه كناية ، أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العقاب ؟ :[2] .

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ليس له - أى الزمخشرى : - أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أحل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصاً فى حق المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فالزمخشرى على كلا التقديرين ذهل عما يجب فى حقه - ﷺ - .

ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله - تعالى - بنبيه ، أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء « لم أذنت لهم » لتفطر قلبه - عليه الصلاة والسلام . فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر - عليه الصلاة والسلام[3] .

وأما القول الثالث فهو للامام الفخرى الرازى ، ولمن حذا حذوه كالقرطبى وغيره ، وملخص هذا القول أنه يجوز أن يكون المراد بالعفو هنا : المبالغة فى تعظيم النبى - ﷺ - وتوقيره ، أو أن قوله - سبحانه - : ﴿ عفا الله عنك ﴾ افتتاح كلام .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : لا نسلم أن قوله - تعالى - ﴿ عفا الله عنك ﴾ يوجب الذنب ، ولم لا يجوز أن يقال : إن ذلك يدل على مبالغة الله ، تعالى فى تعظيمه وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده ، عفا الله عنك ماصنعت فى أمرى .. فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم .

ويؤيد ذلك قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفـا الله عنـك ألا حـرمـة تـعـوذ بعـفـوك أن أبـعـد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٦ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) حاشية تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٢ .

ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ورشيداً هدى
أقلنى أقالك من لم يزل يقيك، ويصرف عنك الردى [١]

وقال القرطبى : قوله : - تعالى - ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ قيل : هو افتتاح كلام ؛ كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا .. [٢] .

والذى نراه أن القول الأول هو الراجح لما سبق أن بيناه .

ثم بين - سبحانه - الصفات التى يتميز بها المؤمنون الصادقون ، عن غيرهم من ضعاف الإيمان ، فقال - تعالى - :

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

أى : ليس من شأن المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك - يا محمد - فى ﴿ أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .. وإنما الذى من شأنهم وعادتهم - كما أثبته واقعهم وتاريخهم - أن ينفروا خفافا وثقالا عندما يدعو الداعى إلى الجهاد ، دون أن ينتظروا إذنا من أحد .

فهم لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة إليه ، وبنفوس تتمنى الموت عن طريقه .

وهم فى ذلك ممتثلون لقول النبى - ﷺ - : « من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هيعة - أى صيحة - وفزعا طار على متنه يبتغى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٣ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ١٥٤ .

القتل أو الموت فى مظانه »[١] .

وقوله : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ تحريض لهم على الاتصاف بهذه الصفة الكريمة ، وهى صفة التقوى .

والمراد بالعلم هنا لازمه ، وهو مجازاتهم بالثواب الجزيل على تقواهم .

أى : والله - تعالى - عليم بهؤلاء الذين ملأت خشيته قلوبهم . وسيثيبهم على ذلك ثوابا يرضيهم .

هذا ، وقد استنبط العلماء من هذه الآية أنه ينبغى على المؤمن أن يقوم بأداء الأعمال الحسنة ، والأفعال الجميلة بدون تردد أو استئذان .

قال صاحب الانتصاف عند تفسيره لهذه الآية : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفا ، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاما ؛ فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره . وصلوات الله وسلامه على خليله إبراهيم ، فقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه الله - تعالى - : بهذه الخلة الجميلة ، فقال : ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .. ﴾ أى : ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به ..[٢] .

وقال صاحب المنار : وقد استنبط من الآية أنه لا ينبغى الاستئذان فى أداء شىء من الواجبات ، ولا فى الفضائل والفواضل من العادات ، كقرى الضيف ، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف .

ويعجبنى قول بعض العلماء ما معناه : من قال لك أتأكل ؟ هل آتيك بكذا من الفاكهة مثلا ؟ فقل له : لا فإنه لو أراد أن يكرمك لما استأذنك[٣] .

ثم بين سبحانه - الصفات التى يعرف بها المنافقون ، بعد بيانه للصفات التى يعرف بها المؤمنون الصادقون فقال : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم .. ﴾ .

أى : إنما يستأذنك - يا محمد - فى القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيمانا كاملا ، ولا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب إيمانا يقينيا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٠ .
(٢) حاشية الكشاف جـ ٣ ص ٢٧٤ - طبعة دار الكاتب العربى ببيروت .
(٣) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٥٤ .

قال الآلوسى : وتخصيص الإيمان بهما - أى بالله واليوم الآخر - فى الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما ، فمن آمن بهما قاتل فى سبيل دينه ، وهان عليه القتل فيه لما يرجوه فى اليوم الآخر من النعيم المقيم ، ومن لم يؤمن كان بمعزل عن ذلك . على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر ما يجب الإيمان به » [1] .

وقوله : ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ صفة ثالثة من صفاتهم الذميمة .

أى : أنهم بجانب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، رسخ الريب فى قلوبهم فصاروا يشكون فى صحة ما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، ويقفون من تعاليمك وتوجيهاتك ، موقف المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن .

وأضاف الشك والارتياب إلى القلوب ، لأنها محل المعرفة والإيمان . وأوثرت صيغة الماضى - ارتابت ، للدلالة على تحقق الريب وتوبيخهم . وأصل معنى التردد : الذهاب والمجىء . والمراد به هنا التحير على سبيل المجاز ، لأن المتحير لا يستقر فى مكان ، ولا يثبت على حال .

أى : فهم فى شكهم الذى حل بهم يتحيرون ، فنراهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى . ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. ﴾ [2] .

أى : متحيرين بين الكفر وبين الإيمان .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا السمات التى بها يتميز المؤمنون الصادقون عن غيرهم من الذين قالوا آمنا وما هم بمؤمنين .

ثم حكى - سبحانه - بعض المسالك الخبيثة التى كان يتبعها هؤلاء المنافقون لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وكيف أنه - سبحانه - أحبط مكرهم فقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٠ .
(٢) سورة النساء الآية ١٤٣ .

ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

وقوله : ﴿ ولو أرادوا الخروج .. ﴾ كلام مستأنف لبيان المزيد من رذائل المنافقين . أو معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك ﴿ لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصداً لاتبعوك ﴾ .

وقوله : ﴿ انبعاثهم ﴾ أى : نهوضهم وانطلاقهم للخروج بنشاط وهمة . من البعث وهو إثارة الإنسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشىء بقوة وخفة .

تقول : بعثت البعير فانبعث إذا أثرته للقيام والسير بسرعة .

وقوله : « فثبطهم » أى : فمنعهم وحبسهم ، من التثبيط « وهو رد الإنسان عن الفعل الذى هم به عن طريق تعويقه عنه ومنعه منه .

يقال : ثبطه تثبيطا ، أى : قعد به عن الأمر الذى يريده ومنعه منه بالتخذيل ونحوه .

والمعنى : ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك - يا محمد - إلى تبوك لأعدوا لهذا الخروج عدته اللازمة له من الزاد والراحلة ، وغير ذلك من الأشياء التى لا يستغنى عنها المجاهد فى سفره الطويل ، والتى كانت فى مقدورهم وطاقتهم .

وقوله . ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ استدراك على ما تقدم .

أى : ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، لأن الله - تعالى - كره خروجهم معك ، فحبسهم عنه ، لما يعلمه - سبحانه - من نفاقهم وقبح نواياهم ، وإشاعتهم للسوء فى صفوف المؤمنين .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . كيف موقع حرف الاستدراك ؟ قلت : لما كان قوله ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ معطيا معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو، قيل: ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ ، كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ، كما تقول . ما أحسن إلى زيد ولكن أساء إلى ، [١] .

وقال الجمل . وهاهنا يتوجه سؤال ، وهو أن خروج المنافقين مع رسول الله - ﷺ - إما

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٥ .

أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة ، فإن كان فيه مصلحة فلم قال : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ وإن كان فيه مفسدة فلماذا عاتب نبيه - ﷺ - فى إذنه لهم فى القعود ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن خروجهم مع رسول الله - ﷺ - كان فيه مفسدة عظيمة : بدليل أنه - سبحانه - أخبر بتلك المفسدة بقوله ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ .

بقى أن يقال . فلم عاتب الله نبيه بقوله : ﴿ لم أذنت لهم ﴾ فنقول : إنه - ﷺ - اذن لهم قبل إتمام الفحص ، وإكمال التدبير والتأمل فى حالهم ، فلهذا السبب قال - تعالى - ﴿ لم أذنت لهم ﴾ وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه فى أمرهم بالقعود [١] .

وقوله . ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ تذييل المقصود منه ذمهم ووصفهم بالجبن الخالع ، والهمة الساقطة ، لأنهم بقعودهم هذا سيكونون مع النساء والصبيان والمرضى والمستضعفين الذين لا قدرة لهم على خوض المعارك والحروب .

قال الآلوسى . وقوله : ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ : تمثيل لخلق الله داعية القعود فيهم ، وإلقائه كراهة الخروج فى قلوبهم بالأمر بالقعود أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك فليس هناك قول حقيقة . ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض ؛ أو حكاية لإذن الرسول - ﷺ - لهم فى القعود ، فيكون القول على حقيقته [٢] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية . أن الفعل يحسن بالنية ؛ ويقبح بها . أيضاً . ، وإن استويا فى الصورة ، لأن النفير واجب مع نية النصر . وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح ، وذلك لأنه . تعالى . أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل من إرادة المكر بالمسلمين .

ومنها : أن للامام أن يمنع من يتهم بمضرة المسلمين من الخروج للجهاد ؛ حماية لهم من شروره ومفاسده .

ومنها : أن إعداد العدة للجهاد أمر واجب ، وقد قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ [٣] .

ثم بين - سبحانه - المفاسد المترتبة على خروج المنافقين فى جيش المؤمنين فقال : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ﴾ ، وأصل الخبال . الاضطراب والمرض الذى يؤثر فى العقل كالجنون ونحوه . أو هو الاضطراب فى الرأى .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١١ . بتصرف يسير .
(٣) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٦٧ .

أى : لو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها المؤمنون إلى تبوك مازادوكم شيئاً من الأشياء إلا اضطراباً فى الرأى ؛ وفسادا فى العمل ، وضعفا فى القتال ، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التى تكره لكم الخير ، وتحب لكم الشر .

قال الآلوسى . والاستثناء مفرغ متصل ، والمستثنى منه محذوف ، ولا يستلزم أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه ؛ لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذى وقع منه الاستثناء .

وقال أبو حيان : إنه كان فى تلك الغزوة منافقون لهم خبال فلو خرج هؤلاء أيضاً واجتمعوا بهم زاد الخبال ، فلا فساد فى ذلك الاستلزام لو ترتب[1] .

وقوله : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ معطوف على قوله : « مازادوكم » . والإيضاع . كما يقول القرطبى . سرعة السير قال الراجز .

يـا ليـتـنى فيـهـا جـذع أخـب فـيـهـا وأضـع

يقال : وضع البعير . إذا أسرع فى السير ، وأوضعته . حملته على العدو[2] .

والخلل الفرجة بين الشيئين . والجمع الخلال ، أى : الفرج التى تكون بين الصفوف وهو هنا ظرف مكان بمعنى بين ، ومفعول الإيضاع محذوف ، أى . ولأسرعوا بينكم ركائبهم بالوشايات والنمائم والإفساد .

ففى الكلام استعارة تبعية ، حيث شبه سرعة إفسادهم لذات البين بسرعة سير الراكب ، ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل وأصل الكلام ولأوضعوا ركائبهم ، ثم حذفت الركائب .

وجملة ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل (أوضعوا) .

أى : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ، ولأسرعوا بينكم بالإشاعات الكاذبة ، والأقوال الخبيثة ، حال كونهم باغين وطالبين لكم الافتتان فى دينكم ، والتشكيك فى صحة عقائدكم ، والتثبيط عن القتال ، والتخويف من قوة أعدائكم ، ونشر الفرقة فى صفوفكم .

فالمراد بالفتنة هنا : كل ما يؤدى إلى ضعف المسلمين فى دينهم أو فى دنياهم .

وقوله : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ بيان لأحوال المؤمنين فى ذلك الوقت .

أى . وفيكم . فى ذلك الوقت . يا معشر المؤمنين ، أناس كثيرو السماع لهؤلاء المنافقين ، سريعو الطاعة لما يلقون إليهم من أباطيل .

قال ابن كثير . قوله : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أى : مطيعون لهم ، ومستحسنون

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٢ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٥٧ .

لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ، (وفيكم سماعون لهم) أى : عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام فى جمع الأحوال .

والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق . وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

وقال محمد بن إسحاق : كان الذين استأذنوا ، فيما بلغنى ، من ذوى الشرف ، منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافا فى قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فقال : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾[1] .

وقوله : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ تذييل المقصود منه وعيد هؤلاء المنافقين وتهديدهم بسبب ما قدمت أيديهم من مفاسد .

أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين، وسيعاقبهم بالعقاب المناسب لجرائمهم ورذائلهم .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وضحت أن هناك ثلاث مفاسد كانت ستترتب على خروج هؤلاء المنافقين مع المؤمنين إلى تبوك .

أما المفسدة الأولى : فهى زيادة الاضطراب والفوضى فى صفوف المجاهدين .

وأما المفسدة الثانية : فهى الإسراع بينهم بالوشايات والنمائم والإشاعات الكاذبة .

وأما المفسدة الثالثة : فهى الحرص على تفريق كلمتهم ، وتشكيكهم فى عقيدتهم .

وهذه المفاسد الثلاث ما وجدت فى جيش إلا وأدت إلى انهزامه وفشله .

ومن هنا كان تثبيط الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين ، نعمة كبرى للمؤمنين .

ومن هنا - أيضاً - كانت الكثرة العددية فى الجيوش لا تؤتى ثمارها المرجوة منها ، إلا إذا كانت متحدة فى عقيدتها ، وأهدافها ، واتجاهاتها .. أما إذا كانت هذه الكثرة مشتملة على عدد كبير من ضعاف الإيمان ، فإنها فى هذه الحالة يكون ضررها أكبر من نفعها .

ثم ذكر الله تعالى - نبيه - ﷺ - بطرف من الماضى المظلم لهؤلاء المنافقين فقال : ﴿ لقد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦١ .

ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ .

أى : لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الشرور والمفاسد فى صفوف المسلمين ، من قبل ما حدث منهم فى غزوة تبوك .

ومن مظاهر ذلك أنهم ساءهم انتصاركم فى غزوة بدر ، وامتنعوا عن مناصرتكم فى غزوة أحد ، متبعين فى ذلك زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ثم واصلوا حربهم لكم سراً وجهراً حتى كانت غزوة تبوك التى فضح الله فيها أحوالهم .

فالمراد بقوله : ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل هذه الغزوة التى كانت آخر غزوة غزاها رسول الله - ﷺ - .

أى أن ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالك خبيثة خلال غزوة تبوك ليس هو الأول من نوعه ، بل هم لهم فى هذا المضمار تاريخ مظلم بدأ منذ أوائل عهد الدعوة الإسلامية بالمدينة .

وقوله: ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ بيان لتفننهم فى وجوه الأذى للنبى- ﷺ - وتقليب الأمر : تصريفه ، وترديده ، وإجالة الرأى فيه ، والنظر إليه من كل نواحيه : لمعرفة أى ناحية منه توصل إلى الهدف المنشود .

والمراد أن هؤلاء المنافقين قد ابتغوا الأذى للدعوة الإسلامية من قبل هذه الغزوة ، ودبروا لصاحبها - ﷺ - المكايد ، واستعملوا قصارى جهدهم ، ومنتهى اجتهادهم ، وخلاصة مكرهم ، من أجل صد الناس عن الحق الذى جاء به محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله .. ﴾ غاية لمحذوف ،والتقدير : أن هؤلاء المنافقين استمروا على حربهم للدعوة الإسلامية « حتى جاء الحق » أى : النصر الذى وعد الله عباده به « وظهر أمر الله » أى : دينه وشرعه « وهم » أى المنافقون وأشباههم « كارهون » لذلك ؛ لأنهم يكرهون انتصار دين الإسلام ، ويحبون هزيمته وخذلانه ، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم ، وأحبط مكرهم .

قال الإمام ابن كثير : عندما قدم النبى - ﷺ - المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبى ، واصحابه : هذا أمر قد توجه ، فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم وساءهم ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦١ .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فحكت جانبا من أعذارهم الكاذبة ، ومن أقوالهم الخبيثة .. فقال - تعالى - :

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

روى محمد بن إسحاق ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله - ﷺ - ذات يوم وهو فى جهازه - أى لغزوة تبوك - للجد بن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك ياجد فى جلاد بنى الأصفر»؟- يعنى الروم- فقال الجد : يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فو الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله - ﷺ - وقال قد أذنت لك » .

ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ﴾[1] .

أى : ومن هؤلاء المنافقين الذين لم ينته الحديث عنهم بعد « من يقول » لك - يا محمد -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٢ .

« ائذن لى » فى القعود بالمدينة ، « ولا تفتنى » أى ولا توقعنى فى المعصية والإثم بسبب خروجى معك إلى تبوك ، ومشاهدتى لنساء بنى الأصفر .

وعبر - سبحانه - عن قول هذا المنافق بالفعل المضارع ، لاستحضار تلك الحال لغرابتها ، فإن مثله فى نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء إذ لا يجد من دينه ما نعا من غشيان الشهوات الحرام .

وقوله : ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ رد عليه فيما قال ، وذم له على ما تفوه به .

أى : ألا إن هذا وأمثاله فى ذات الفتنة قد سقطوا ، لافى أى شىء آخر مغاير لها .

وبدأ - سبحانه - الجملة الكريمة بأداة التنبيه « ألا » ، لتأكيد الخبر ، وتوجيه الأسماع إلى ما اشتمل عليه من توبيخ لهؤلاء المنافقين .

وقدم الجار والمجرور على عامله ؛ للدلالة على ا لحصر . أى فيها لا فى غيرها قد سقطوا وهووا إلى قاع سحيق .

قال الآلوسى : وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين [1] .

وقال الفخرى الرازى ما ملخصه : « وفيه تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا فى الفتنة ، فالله - تعالى - بيّن أنهم فى عين الفتنة واقعون ، لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكاليف التى كلفنا الله بها .. » [2] .

وقوله : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وعيد وتهديد لهم على أقوالهم وأفعالهم .

أى : وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند الله ، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر .

وعبر عن إحاطتها بهم باسم الفاعل الدال على الحال ، لإفادة تحقيق ذلك حتى لكأنه واقع مشاهد .

قالوا : ويحتمل أنها محيطة بهم الآن ، بأن يراد بجهنم الأسباب الموصلة إليها من الكفر والنفاق وغير ذلك من الرذائل التى سقطوا فيها .

وقوله : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم .. ﴾ بيان لنوع آخر من خبث نواياهم ، وسوء بواطنهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٠ ص ١١٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٨ .

أى : « إن تصبك » يا محمد حسنة من نصر أو نعمة أو غنيمة - كما حدث يوم بدر - « تسؤهم » تلك الحسنة ، وتورثهم حزنا وغما ، بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك .

« وإن تصبك مصيبة » من هزيمة أو شدة - كما حدث يوم أحد - « يقولوا » باختيال وعجب وشماتة « قد أخذنا أمرنا من قبل » .

أى : قد تلافينا ما يهمنا من الأمر بالحزم والتيقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين ، ولم نلق بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمون .

وقوله : ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ تصوير لحالهم ، ولما جبلوا عليه من شماتة بالمسلمين .

أى : عندما تصيب المسلمين مصيبة أو مكروه ، ينصرف هؤلاء المنافقون إلى أهليهم وشيعتهم - والفرح يملأ جوانحهم - ليبشروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه .

قال الجمل : فإن قلت : فلم قابل الله الحسنة بالمصيبة ، ولم يقابلها بالسيئة كما قال فى سورة آل عمران : « وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها » ؟ .

قلت : لأن الخطاب هنا للنبى - ﷺ - وهى فى حقه مصيبة يثاب عليها ، لا سيئة يعاتب عليها ، والتى فى آل عمران خطاب للمؤمنين »[1] .

وقوله : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا .. ﴾ إرشاد للرسول - ﷺ - إلى الجواب الذى يكبتهم ويزيل فرحتهم .

أى : « قل » يا محمد - لهؤلاء المنافقين الذين يسرهم ما يصيبك من شر ، ويحزنهم ما يصيبك من خير ، والذين خلت قلوبهم من الإيمان بقضاء الله وقدره ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت . لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا وقدره علينا « هو مولانا » الذى يتولانا فى كل أمورنا ، ونلجأ إليه فى كل أحوالنا . وعليه وحده - سبحانه نكل أمورنا وليس على أحد سواه .

وقوله : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين .. ﴾ إرشاد آخر للرسول - ﷺ - إلى الجواب الذى يخرس ألسنة هؤلاء المنافقين ويزيل فرحتهم .

وقوله : ﴿ تربصون ﴾ التربص بمعنى الانتظار فى تمهل . يقال : فلان يتربص بفلان الدوائر ، إذا كان ينتظر وقوع مكروه به .

والحسنيان : مثنى الحسنى . والمراد بهما : النصر أو الشهادة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٨ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين - أيضا - إنكم ما تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما أحسن من جميع العواقب ، وهما إما النصر على الأعداء ، وفى ذلك الأجر والمغنم والسلامة ، وإما أن نقتل بأيديهم وفى ذلك الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار .

قال الآلوسى : والحاصل أن ما تنتظرونه بنا - أيها المنافقون - لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل فى الغزو سوء ، ولذلك سررتم به .

وصح من حديث أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « تكفل الله - تعالى - لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته أن يدخله الجنة . أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة »[1] .

وقوله : ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ بيان لما ينتظر المؤمنون وقوعه بالمنافقين .

أى : ونحن معشر المؤمنين نتربص بكم أيها المنافقون إحدى السوءين من العواقب : إما « أن يصيبكم الله بعذاب » كائن « من عنده » فيهلككم كما أهلك الذين من قبلكم ، وإما أن يصيبكم بعذاب كائن « بأيدينا » بأن يأذن لنا فى قتالكم وقتلكم .

والفاء فى قوله : ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ للإفصاح .

أى إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ، فإنا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، وسترون أن عاقبتنا على كل حال هى الخير ، وأن عاقبتكم هى الشر .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد حكت طرفا من رذائل المنافقين ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ، ويفضحهم على رءوس الأشهاد .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين نفقاتهم غير مقبولة ، لأن قلوبهم خالية من الإيمان . ولأن عباداتهم ليست خالصة لوجه الله ، وأن ما ينفقونه سيكون عليهم حسرة فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٦ .

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

روى أن بعض المنافقين قال للنبى - ﷺ - عندما دعاهم إلى الخروج معه إلى تبوك : ائذن لى فى القعود وهذا مالى أعينك به ، فنزل قوله - تعالى - : ﴿ قل انفقوا طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم .. ﴾ .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء ؛ أنفقوا ما شئتم من أموالكم فى وجوه الخير حالة كونكم طائعين ، أى : من غير إجبار أحد لكم ، أو كارهين ، أى بأن تجبروا على هذا الإنفاق إجباراً ، فلن يقبل منكم ذلك الإنفاق .

والكلام وإن كان قد جاء فى صورة الأمر ، إلا أن المراد به الخبر وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف بقوله .

فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ ؟

قلت : هو أمر فى معنى الخبر ، كقوله - تعالى - ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرها ، ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ وقول الشاعر .

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

أى : لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم .. أم لم تستغفر لهم.ولا نلومك سواء أسأت إلينا أم أحسنت ... [1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٩ .

وجاء الكلام فى صورة الأمر ، للمبالغة فى تساوى الأمرين ، وعدم الاعتداد بنفقتهم سواء أقدموها عن طواعية أم عن كراهية .

وقوله . ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ بيان لثمرة إنفاقهم . أى : لن يتقبل منكم ما أنفقتموه ، ولن تنالوا عليه ثواباً .

وقوله : ﴿ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ تعليل لعدم قبول نفقاتهم .

أى : لن تقبل منكم نفقاتكم بسبب عتوكم فى الكفر ، وتمردكم على تعاليم الإسلام وخروجكم عن الطاعة والاستقامة .

قال القرطبى ما ملخصه . وفى الآية دليل على أن أفعال الكافر إذا كانت براً كصلة القرابة ، وجبر الكسير ، وإغاثة الملهوف ، لا يثاب عليها ، ولا ينتفع بها فى الآخرة ، بيد أنه يطعم بها فى الدنيا .

دليله ما رواه مسلم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قلت يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟

قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين .

وروى عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها »[1] .

وقال الجمل : وهذه الآية وإن كانت خاصة فى إنفاق المنافقين ، فهى عامة فى حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله ، بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه[2] .

ثم بين - سبحانه - على سبيل التفصيل لمظاهر فسقهم - أن هناك ثلاثة أسباب أدت إلى عدم قبول نفقاتهم .

أما السبب الأول فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله .. ﴾ .

أى : وما منعهم قبول نفقاتهم شىء من الأشياء إلا كفرهم بالله - تعالى - ورسوله - ﷺ - .

فالاستثناء من أهم الأشياء . والضمير فى « منعهم » هو المفعول الأول للفعل ، وقوله :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٦١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٩ .

﴿ أن تقبل ﴾ هو المفعول الثانى، لأن الفعل « منع » يتعدى لمفعولين تارة بنفسه كما هنا ، وتارة يتعدى إلى المفعول الثانى بحرف الجر وهو حرف « من » أو « عن » .

والفاعل ما فى حيز الاستثناء وهو قوله : ﴿ إلا أنهم كفروا .. ﴾ .

وأما السبب الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ .

ولفظ « كسالى » . جمع كسلان ، مأخوذ من الكسل بمعنى التثاقل عن الشىء ، والفتور عن أدائه . وفعله بزنة فرح .

أى : ولا يأتون الصلاة التى كتبها الله عليهم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال كونهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان ، فصاروا لا يرجون من وراء أدائها ثواباً ولا يخشون من وراء تركها عقاباً ، وإنما يؤدونها رياء أو تقية للمسلمين .

وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - فى سورة النساء : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ .

وأما ، السبب الثالث فقد عبر عنه - سبحانه- بقوله : ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ .

أى . ولا ينفقون نفقة فى سبيل الله إلا وهم كارهون لها لأنهم يعدونها مغرماً ، ويعتبرون تركها مغنما ، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء أو المخادعة أو الخوف من انكشاف أمرهم ، وافتضاح حالهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم الله - تعالى - طائعين فى قوله « طوعاً » ثم وصفهم هنا بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون فكيف ذلك ؟

قلت : المراد بطوعهم أنهم يبذلون نفقتهم من غير إلزام من رسول الله - ﷺ - أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار[1] .

أى : أن نفقتهم فى جميع الأحوال لا يقصد بها الاستجابة لشرع الله ، وإنما يقصد بها الرياء أو المخادعة ، أو خدمة مصالحهم الخاصة .

ثم نهى الله - تعالى - المؤمنين فى شخص نبيهم - ﷺ - عن التطلع إلى ما فى أيدى هؤلاء المنافقين فقال . ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم .. ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٠ .

والإعجاب بالشيء معناه : أن تسر به سروراً يجعلك راضياً به ومتمنياً له ، والفاء فى قوله : ﴿ فلا تعجبك ﴾ للإفصاح .

أى إذا كان هذا هو شأن المنافقين ، فلا تستحسن . أيها العاقل . ما أعطيناهم إياه من أموال وأولاد ، فإنه نوع من الاستدراج .

وقوله : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ تعليل للنهى عن الإعجاب بما أعطاهم الله من أموال وأولاد .

أى : إنما يريد الله بعطائهم تلك الأموال والأولاد أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وقد بسط الإمام الرازى مظاهر تعذيب المنافقين فى الدنيا بالأموال والأولاد فقال ما ملخصه :

المنافقون يعذبهم الله بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا من وجوه :

أحدها : أن الرجل إذا آمن بالله واليوم الآخر ، علم أنه خلق للآخرة لا للدنيا ، وبهذا العلم يفتر حبه للدنيا ، وأما المنافق فإنه لما اعتقد أنه لا سعادة له إلا فى هذه الخيرات العاجلة ، عظمت رغبته فيها ، واشتد حبه لها ، وكانت الآلام الحاصلة بسبب فواتها أكثر فى حقه .. فهذا النوع من العذاب حاصل لهم فى الدنيا بسبب الأموال والأولاد .

وثانياً : أن النبى - ﷺ - كان يكلفهم إنفاق تلك الأموال فى وجوه الخيرات ، ويكلفهم إرسال أولادهم إلى الجهاد والغزو ، وذلك يوجب تعريض أولادهم للقتل ، وهم كانوا يعتقدون أن محمداً ليس صادقا فى كونه رسول ، وكانوا يعتقدون أن إنفاق تلك الأموال تضييع لها من غير فائدة وأن تعريض أولادهم للقتل التزام لهذا المكروه الشديد من غير فائدة ، ولاشك أن هذا كله تعذيب لهم .

وثالثاً : أنهم كانوا يبغضون محمداً - ﷺ - بقلوبهم ، ثم إنهم كانوا يحتاجون إلى بذل أموالهم وأولادهم فى خدمته . ولا شك أن هذه الحالة شاقة شديدة عليهم .

ورابعاً : أنهم كانوا خائفين من أن يفتضحوا ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فيصيرون أمثال سائر أهل الحرب من الكفار . وحينئذ يتعرض الرسول - ﷺ - لهم بالقتل وسبى الأولاد .. وكل ذلك يوجب ألمهم وقلقهم .

وخامسا : أن كثيراً من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء كحنظلة بن أبى عامر وعبد الله بن عبد الله بن أبى .. وكانوا لا يرتضون طريقة آبائهم فى النفاق ، ويقدحون فيهم .

والإبن إذا صار هكذا عظم تأذى الأب به ، واستيحاشه منه ، فصار حصول تلك الأولاد سببا لعذابهم ..[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٣ .

وقوله : ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة بعد بيان عذابهم فى الدنيا .

وزهوق النفس : خروجها من الجسد بصعوبة ومشقة . يقال : زهقت نفسه تزهق إذا خرجت ، وزهق الشىء إذا هلك واضمحل ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ... ﴾ .

والمعنى : لا تعجبك - أيها العاقل - أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، ويريد كذلك أن تخرج أرواحهم من أجسادهم وهم كافرون ، فيعذبهم بسبب كفرهم عذابا أليما .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت المنافقين بسوء المصير فى الآخرة ولن يحسد إنسان مصيره كهذا المصير .

قال الإمام الرازى : ومن تأمل فى هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ، فإنه - سبحانه - لما بين قبائح أفعالهم ، وفضائح أعمالهم ، بين مالهم فى الآخرة من العذاب الشديد ، ومالهم فى الدنيا من وجوه المحنة والبلية ، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة ألبتة ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنونه من منافع الدنيا ، فهو فى حقيقته سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند ذلك يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدنيا والدين ، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا ... »[1] .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أن هؤلاء المنافقين قد خسروا الدنيا والآخرة ، أتبعت ذلك بالحديث عن رذائلهم وقبائحهم التى على رأسها الجبن والكذب فقال - تعالى - :

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

أى : أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - « إنهم لمنكم » أى : فى الدين والملة ، والحق أنهم ما هم منكم ، لأنهم يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى قوله : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٢ .

لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

وقوله : ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ استدراك للرد عليهم فيما قالوه وأقسموا عليه كذبا وزورا .

وقوله : ﴿ يفرقون ﴾ من الفرق ، بمعنى الفزع الشديد من أمر يتوقع حصوله .

يقال : فرق فرقا إذا اشتد خوفه وهلعه .

أى : أن هؤلاء المنافقين لشدة خوفهم وهلعهم - أيها المؤمنون - يحلفون لكم كذبا وزورا بأنهم منكم ، والحق أنهم ما هم منكم ، ولكنهم قوم جبناء . لا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة ، ولا يجرؤون على مجابهتكم بما تخفيه قلوبهم لكم من بغضاء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات ... ﴾ تأكيد لما كان عليه أولئك المنافقون من جبن خالع .

والملجأ : اسم للمكان الذى يلجأ إليه الخائف ليحتمى به سواء أكان حصنا أو قلعة أو غيرهما .

والمغارات : جمع مغارة وهى المكان المنخفض فى الأرض أو فى الجبل . قال بعضهم : والغور - بفتح الغين - من كل شىء قعره . يقال : غار الرجل غورا إذا أتى الغور وهو المنخفض من الأرض [1] .

والمدخل - بتشديد الدال اسم للموضع الذى يدخلون فيه ، بصعوبة ومشقة لضيقه ، كالنفق فى الأرض .

وقوله : ﴿ يجمحون ﴾ أى : يسرعون أشد الإسراع مأخوذ من الجموح وهو أن يغلب الفرس صاحبه فى سيره وجريه . يقال : جمح الفرس براكبه جموحا ، إذا استعصى عليه حتى غلبه .

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لو يجدون حصنا يلتجئون إليه أو مغارات يستخفون فيها . أو سردابا فى الأرض ينجحرون فيه ، لأقبلوا نحوه مسرعين أشد الإسراع دون أن يردهم شىء ، كالفرس الجموح الذى عجز صاحبه عن منعه من النفور والعَدْو .

فالآية الكريمة تصوير معجز لما كان عليه أولئك المنافقون من خوف شديد من المؤمنين ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩٠ .

ومن بغض دفين لهم ، حتى إنهم لو وجدوا شيئا من هذه الأمكنة - التى هى منفور منها - لأسرعوا نحوها إسراعا شديداً .

ثم تمضى السورة بعد ذلك فى الكشف عن الأقوال المنكرة ، والأفعال القبيحة التى كانت تصدر عن المنافقين فتقول .

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود من هذا ، شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم فى الرسول - ﷺ - بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل ،[1] .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :

ما أخرجه البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : بينما النبى - ﷺ - يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل » ؟ ، فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : ائذن لى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله - ﷺ - : « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم فى الرمية ... » .

قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات .. ﴾ .

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « لما قسم النبى - ﷺ - غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبى - ﷺ -

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٥ .

فذكرت له ذلك فقال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . ونزل ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يلمزك ﴾ أى : يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات وغيرها من الأموال ، مأخوذ من اللمز وهو العيب. يقال لمزه وهمزه يلمزه ويهمزه إذا عابه وطعن عليه، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ .

وقيل : اللمز ما كان يحضره الملموز ، والهمز ما كان فى غيابه .

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين - يا محمد - من يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات والغنائم ، زاعمين أنك لست عادلا فى قسمتك .

وقوله : ﴿ فان اعطوا منها رضوا ... ﴾ بيان لفساد لمزهم وطعنهم ، وأن الدافع إليه إنما هو الطمع والشره فى حطام الدنيا ، وليس الغضب من أجل إحقاق الحق : أو من أجل نشر العدالة بين الناس .

أى : أن هؤلاء المنافقين إن أعطيتهم . يا محمد . من تلك الصدقات ، رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلماً ، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك ، واتهموك بأنك غير عادل ، حتى ولو كان عدم عطائهم هو الحق بعينه ، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضبا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين .. وإنما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية .

قال الجمل . وقوله ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ إذا هنا فجائية ، قائمة مقام فاء الجزاء فى الربط على حد قوله : « وتخلف الفاء إذا المفاجأة » . والأصل . فهم يسخطون ، وغاير . سبحانه . بين جوابى الجملتين ، للاشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول ولا يفنى بخلاف رضاهم[2] .

وقال صاحب المنار . وقد عبر . سبحانه . عن رضاهم بصيغة الماضى : للدلالة على أنه كان يكون لأجل العطاء فى وقته وينقضى ، فلا يعدونه نعمة يتمنون دوام الإسلام لدوامها ، وعبر عن سخطهم بإذا الفجائية وبالفعل المضارع ، للدلالة على سرعته واستمراره . وهذا دأب المنافقين وخلقهم فى كل زمان ومكان ، كما نراه بالعيان حتى من مدعى كمال الإيمان ، والعلم والعرفان[3] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٦٦ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩١ .
(٣) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٦٧ .

ثم وضح - سبحانه - : المنهج الذى يليق بأصحاب العقيدة السليمة فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله .. ﴾ .

أى . ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك . يامحمد . فى الصدقات ، رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء ، وقالوا - على سبيل الشكر والقناعة - « حسبنا الله » أى : كفانا فضله وما قسمه لنا ، « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » أى : سيعطينا الله فى المستقبل الكثير من فضله وإحسانه ، وسيعطينا رسوله من الصدقات وغيرها « إنا إلى الله راغبون » أى : إنا إلى الله راغبون فى أن يوسع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقات وغيرها من أموال الناس ومن صلاتهم ، لأنه - سبحانه - له خزائن السموات والأرض .

وجواب « لو » محذوف . والتقدير : ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والآية تدل على أن من طلب الدنيا - بطمع وشراهة - آل أمره فى الدين إلى النفاق ، وأما من طلب الدنيا بتوسط وبغرض التوسل إلى مصالح الدين ، فهذا هو الطريق الحق ، والأصل فى هذا الباب أن يكون راضياً بقضاء الله .

ألا ترى أنه - سبحانه - ذكر هنا فى هذه الآية مراتب أربعة :

أولها : الرضا بما آتاهم الله ورسوله ، لعلمه بأنه - تعالى - حكم منزه عن العبث ، وكل ما كان حكما له وقضاء كان حقا وصوابا ولا اعتراض عليه .

وثانيها : أن يظهر أثر ذلك الرضا على لسانهم وهو قولهم : « حسبنا الله » يعنى : أن غيرنا أخذ المال ، ونحن قد رضينا بحكم الله وقضائه . وفزنا بهذه المرتبة العظيمة فى العبودية .

وثالثها : وهى أن الإنسان إذا لم يبلغ تلك الدرجة العالية التى عندها يقول : « حسبنا الله»، نزل منها إلى مرتبة أخرى وهى أن يقول : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » .

ورابعها : أن يقول : « إنا إلى الله راغبون » فنحن لا نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال ، وإنما نطلب اكتساب سعادات الآخرة ..[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - المنهج اللائق بأصحاب العقيدة السليمة فى طلب الدنيا عقب ذلك ببيان المستحقين للصدقات فقال - تعالى - .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٦ طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ - الطبعة الثانية .

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

قال الإمام ابن كثير . لما ذكر الله - تعالى - اعتراض المنافقين الجهلة على النبى - ﷺ - ولمزهم إياه فى قسم الصدقات . بين - سبحانه - أنه هو الذى قسمها ، وبين حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين ، كما رواه أبو داود فى سننه عن زياد بن الحارث الصدائى قال . أتيت النبى - ﷺ - فبايعته . فأتى رجل فقال . أعطنى من الصدقة فقال له . « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره . فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك »[1] .

والمراد بالصدقات هنا - عند كثير من العلماء - الزكاة المفروضة .

ولفظ الصدقات . مبتدأ ، والخبر محذوف ، والتقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء والمساكين ... إلخ .

والفقراء . جمع فقير ، وهو من له أدنى شىء من المال . أو هو من لا يملك المال الذى يقوم بحاجاته الضرورية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن .

يقال فقر الرجل يفقر - من باب تعب - إذا قل ماله .

قالوا : وأصل الفقير فى اللغة : الشخص الذى كسر فقار ظهره ، ثم استعمل فيمن قل ماله لانكساره بسبب احتياجه إلى غيره .

أو هو من الفقرة بمعنى الحفرة ، ثم استعمل فيما ذكر لكونه أدنى حالا من أكثر الناس ، كما أن الحفرة أدنى من مستوى سطح الأرض المستوية .

والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لاشىء له ، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٤ .

وهو مأخوذ من السكون الذى هو ضد الحركة ، لأن احتياجه إلى غيره أسكنه وأذله .

وقيل . المسكين هو الذى له مال أو كسب ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون قريب الشبه بالفقير .

وقوله : ﴿ والعاملين عليها ﴾ بيان للصنف الثالث من الأصناف الذين تجب لهم الزكاة .

والمراد بهم . من كلفهم الإمام بجمع الزكاة وتحصيلها ممن يملكون نصابها .

ويدخل فيهم العريف ، والحاسب ، والكاتب ، وحافظ المال ، وكل من كلفه الإمام أو نائبه بعمل يتعلق بجمع الزكاة أو حفظها ، أو توزيعها .

وقوله . ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ بيان للصنف الرابع .

والمراد بهم الأشخاص الذين يرى الإمام دفع شىء من الزكاة إليهم تأليفاً لقلوبهم ، واستمالة لنفوسهم نحو الإسلام ، لكف شرهم ، أو لرجاء نفعهم ، وهم أنواع :

منهم قوم من الكفار ، كصفوان بن أمية ، فقد أعطاء النبى - ﷺ - من غنائم حنين ، وكان صفوان يومئذ كافرا ، ثم أسلم وقال : والله لقد أعطانى النبى - ﷺ - وكان أبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى . حتى أسلمت وإنه لأحب الناس إلى .

ومنهم قوم كانوا حديثى عهد بالإسلام وكانوا من ذوى الشرف فى أقوامهم فكان النبى - ﷺ - يعطيهم ، ليثبت إيمانهم ، وليدخل معهم فى الإسلام أتباعهم .

ومن أمثلة ذلك ما فعله الرسول - ﷺ - مع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، فقد أعطاهم - ﷺ - لمكانتهم فى عشيرتهم ، ولشرفهم فى أقوامهم . وليدخل معهم فى الإسلام غيرهم .

ومنهم قوم كانوا ضعاف الإيمان ، فكان - ﷺ - يعطيهم تأليفاً لقلوبهم ، وتقوية لإيمانهم . لكى لا يسرى ضعف إيمانهم إلى غيرهم .

ومن أمثلة هذا الصنف العباس بن مرداس السلمى ، فقد أعطاه النبى - ﷺ - تأليفاً لقلبه ، وتثبيتاً لإيمانه .

والخلاصة أن النبى - ﷺ - كان يتألف قلوب بعض الناس بالعطاء ، دفعاً لشرهم ، أو أملا فى نفعهم ، أو رجاء هدايتهم .

وقوله : ﴿ وفى الرقاب ﴾ بيان لنوع خامس من مصارف الزكاة . وفى الكلام مجاز بالحذف ، والتقدير : وتصرف الصدقات أيضا فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشىء منها

على أداء بدل الكتابة؛ لكن يصيروا أحراراً. أو بأن يشترى بجزء منها عددًا من العبيد لكى يعتقوا من الرق.

وذلك لأن الإسلام يحبب أتباعه فى عتق الرقاب، وفى مساعدة الأرقاء على أن يصيروا أحراراً.

وقوله: «والغارمين» من الغرم بمعنى الملازمة للشىء ومنه قوله. تعالى: ﴿إن عذابها كان غراما﴾ أى: عذاب جهنم كان ملازماً لأهلها من الكافرين.

والمراد بالغارمين: من لزمتهم الديون فى غير معصية لله، ولا يجدون المال الذى يدفعونه لدائنيهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على سداد ديونهم.

وقوله: ﴿وفى سبيل الله﴾ بيان لنوع سابع من مصارف الزكاة.

والسبيل: الطريق الذى فيه سهولة، وجمعه سبل. وأضيف إلى الله تعالى للإشارة إلى أنه هو السبيل الحق الذى لا يحوم حوله باطل، وهو الذى يوصل السائر فيه إلى مرضاة الله ومثوبته.

أى: وتصرف الصدقات فى سبيل الله، يدفع جزء منها لمساعدة المجاهدين والغزاة والفقراء الذين خرجوا لإعلاء كلمة الله.

قال بعض العلماء ما ملخصه: قال أبو حنيفة ومالك والشافعى. يصرف سهم سبيل الله المذكور فى الآية الكريمة إلى الغزاة .. ، لأن المفهوم فى الاستعمال المتبادر إلى الأفهام أن سبيل الله هو الغزو، وأكثر ما جاء فى القرآن الكريم كذلك.

وقال الإمام أحمد: يجوز صرف سبيل الله إلى مريد الحج.

وقال بعضهم. يجوز صرف سبيل الله إلى طلبة العلم.

وفسره بعضهم بجميع القربات. فيدخل فيه جميع وجوه الخير، مثل تكفين الموتى، وبناء القناطر، والحصون، وعمارة المساجد «وفى سبيل الله» عام فى الكل ..[1].

وقوله: ﴿وابن السبيل﴾ بيان للصنف الثامن والأخير من الأصناف الذين هم مصارف الزكاة.

والمراد بابن السبيل: المسافر المنقطع عن ماله فى سفره. ولو كان غنياً فى بلده، فيعطى من الزكاة ما يساعده على بلوغ موطنه.

وقد اشترط العلماء لابن السبيل الذى يعطى من الصدقة، أن يكون سفره فى غير معصية

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٤٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس.

الله . فإن كان فى معصية لم يعط : لأن إعطاءه يعتبر إعانة له على المعصية ، وهذا لا يجوز .

وقد ألحقوا بابن السبيل ، كل من غاب عن ماله ، ولو كان فى بلده .

وقوله . فريضة من الله ، منصوب بفعل مقدر أى : فرض الله لهم هذه الصدقات فريضة ، فلا يصح لكم أن تبخلوا بها عنهم ، أو تتكاسلوا فى إعطائها لمستحقيها .

فالجملة الكريمة زجر للمخاطبين عن مخالفة أحكامه . سبحانه .

وقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل قصد به بيان الحكمة من فرضية الزكاة .

أى : والله – تعالى – عليم بأحوال عباده ، ولا تخفى عليه خافية من تصرفاتهم ، حكيم فى كل أوامره ونواهيه ، فعليكم . أيها المؤمنون . أن تأتمروا بأوامره ، وأن تنتهوا عن نواهيه لتنالوا رضاه .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ – أن المراد بالصدقات هنا ما يتناول الزكاة المفروضة وغيرها من الصدقات المندوبة ، وذلك لأن اللفظ عام فيشمل كل صدقة سواء أكانت واجبة أم مندوبة ، ولأن لفظ الصدقة فى عرف الشرع وفى صدر الاسلام ، كان يشمل الزكاة المفروضة ، والصدقة المندوبة ، ويؤيده قوله – تعالى – : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالصدقات فى الآية : الزكاة المفروضة ، لأن (أل) فى الصدقات للعهد الذكرى والمعهود هو الصدقات الواجبة التى أشار إليها القرآن . بقوله قبيل هذه الآية . ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ ولأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها فى غير الأصناف الثمانية كبناء المساجد والمدارس .

ويبدو لنا أن لفظ الصدقات فى الآية عام بحيث يتناول كل صدقة ، إلا أن الزكاة المفروضة تدخل فيه دخولا أوليا .

٢ – قال بعض العلماء : ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف ، ويؤيد هذا وجهان .

الأول . ما يقتضيه اللفظ اللغوى ، إن قلنا . الواو للجمع والتشريك .

والثانى . ما رواه أبو داود فى سننه من قوله – ﷺ – « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء » .

وقد ذهب إلى هذا الشافعى وعكرمة والزهرى ، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى الآخرين بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد . منهم عمر وابن عباس وعطاء وابن جبير ومالك وأبو حنيفه .

قال فى التهذيب : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر بوجوه :

الأول : أن الله - تعالى - قال فى سورة البقرة : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾[1] فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها .

الثانى : الخبر ، وهو قوله - ﷺ - لمعاذ : « أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم .

الثالث : حديث سلمة بن صخر . فإنه - ﷺ - جعل له صدقة بنى زريق .

الرابع : أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه [2] .

٣ - يرى جمهور العلماء أن الفقراء والمساكين صنفان من مصارف الزكاة لأن الله . - تعالى - قد ذكر كل صنف منها على حدة ، إلا أنهم اختلفوا فى أيها أسوأ حالا من الآخر . فالشافعية يرون أن الفقير أسوأ حالا من المسكين .

ومن أدلتهم على ذلك ، أن الله . تعالى . بدأ فى الآية بالفقراء ، وهذا البدء . يشير إلى أنهم أشد حاجة من غيرهم ، لأن الظاهر تقديم الأهم على المهم .

ولأن لفظ الفقير أصله فى اللغة المفقور الذى نزعت فقرة من فقار ظهره ؛ فلا يستطيع التكسب ، ومعلوم أنه لا حال فى الاقلال والبؤس آكد من هذه الحال .

ولأن الله . تعالى . وصف بالمسكنة من كانت له سفينة من سفن البحر فقال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر .. ﴾[3] .

أما الأحناف والمالكية فيرون أن المسكين أسوأ حالا من الفقير .

ومن أدلتهم على ذلك : أن علماء اللغة عرفوا المسكين بأنه أسوأ حالا من الفقير ، وإلى هذا ذهب يعقوب بن السكيت ، والقتبى ، ويونس بن حبيب .

ولأن الله - تعالى - وصف المسكين وصفاً يدل على البؤس والفاقة فقال : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أى : مسكيناً ذا حاجة شديدة ، حتى لكأنه قد لصق بالتراب من شدة الفاقة ، ولم يصف الفقير بذلك .. [4] .

---

(١) الآية ٢٧١ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٨٢ .
(٣) سورة الكهف . الآية ٧٩ .
(٤) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٦٨ .

قال بعض العلماء : وأنت إذا تأملت أدلة الطرفين وجدت أنها متعارضة ومحل نظر ، وأياما كان فقد اتفق الرأيان على أن الفقراء والمساكين صنفان .

وروى عن أبى يوسف ومحمد أنهما صنف واحد واختاره الجبائى ، ويكون العطف بينهما لاختلاف المفهوم . وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا أوصى لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال إنهما صنف واحد جعل لفلان نصف الموصى به ، ومن قال إنهما صنفان جعل له الثلث من ذلك [١] .

٤ - ظاهر الآية يدل على أن الزكاة يجوز دفعها لكل من يشمله اسم الفقير والمسكين ، إلا أن هذا الظاهر غير مراد ؛ لأن الأحاديث الصحيحة قد قيدت هذا الإطلاق .

قال القرطبى : اعلم أن قوله - تعالى - : ﴿ للفقراء ﴾ مطلق ليس فيه شرط وتقييد ، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء ، سواء أكانوا من بنى هاشم أو من غيرهم ، إلا أن السنة وردت باعتبار شروط ، منها : ألا يكونوا من بنى هاشم ، وألا يكونوا ممن تلزم المتصدق نفقته ، وهذا لا خلاف فيه .

وشرط ثالث ألا يكن قوياً على الاكتساب ؛ لأنه - سبحانه - قال : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى » .

ولا خلاف بين علماء المسلمين فى أن الصدقة المفروضة لا تحل للنبى - ﷺ - ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم .. [٢] .

وكذلك لا يصح أن تعطى لغير المسلمين ، ففى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » فاقتضى ذلك ان الصدقة مقصورة على فقراء المسلمين .

إلا أنه نقل عن أبى حنيفة جواز دفع صدقة الفطر إلى الذمى .

٥ - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى - ﴿ والعاملين عليها ﴾ أنه يجب على الإمام أن يرسل من يراه أهلا لجمع الزكاة ممن تجب عليهم .

وقد تأكد هذا الوجوب بفعل النبى - ﷺ - فقد ثبت فى أحاديث متعددة أنه أرسل بعض الصحابة لجمع الزكاة .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٣٤ للأستاذ محمد على السايس - بتصرف وتلخيص -
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٩١ .

روى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال : استعمل رسول الله - ﷺ - رجلا على صدقات بنى سليم يدعى ابن اللتبية ، فلما جاء حاسبه [١] .

٦ - أخذ بعض العلماء - أيضاً - من قوله - تعالى - ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ أن حكمهم باق ، لأنهم قد ذكروا من بين مصارف الزكاة ، ولأن الرسول - ﷺ - قد أعطاهم ، فيعطون عند الحاجة .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى بقاء المؤلفة قلوبهم .

فقال عمر والحسن والشعبى وغيرهم : انقطع هذا الصنف بعز الإسلام وظهوره .

وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى .

قال بعض علماء الحنفية . لما أعز الله الإسلام وأهله ، أجمع الصحابة فى خلافة أبى بكر على سقوط سهمهم .

وقال جماعة من العلماء : هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين .

وقال ابن العربى . الذى عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله - ﷺ - يعطيهم ، فإن فى الصحيح « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » [٢] .

والذى يبدو لنا أن ما قاله ابن العربى أقرب الأقوال إلى الصواب لأن مسألة إعطاء المؤلفة قلوبهم تختلف باختلاف الأحوال ؛ فإن كان الإمام يرى أن من مصلحة الإسلام إعطاءهم اعطاهم ، وإن كانت المصلحة فى غير ذلك لم يعطهم .

٧ - دلت الآية الكريمة على أن الزكاة ركن من أركان الاسلام ، لقوله تعالى « فريضة من الله » .

قال بعض العلماء ما ملخصه ، تلك هى فريضة الزكاة . ليست أمر الرسول وإنما هى أمر الله وفريضته وقسمته وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين .

وهذه الزكاة تؤخذ من الأغنياء على أنها فريضة من الله ، وترد على الفقراء على أنها فريضة من الله ، وهى محصورة فى طوائف من الناس عينهم القرآن وليست متروكة لاختيار أحد حتى ولا اختيار الرسول نفسه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٧٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٨١ .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعاً ولا تفضلا ممن فرضت عليهم ، فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافا من القاسم الموزع فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محدودة . وهى . ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ ، كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ولن يقوم .

إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل - بكل صنوفه وألوانه - على الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه .

والزكاة ضريبة تكافل اجتماعى بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع ، متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذاً شريعة الله لا يبتغى له شرعاً ولا منهجاً سواه .

إن فريضة الزكاة تؤدى فى صورة عبادة إسلامية ، ليطهر الله بها القلوب من الشح ، وليجعلها شرعة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة .

إنها فريضة من الله ، الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدير أمرها بالحكمة ﴿ والله عليم حكيم ﴾[1] .

وبعد هذا الحديث عن الصدقات التى كان المنافقون يلمزون الرسول - ﷺ - فيها ، أخذت السورة فى مواصلة حديثها عن رذائل المنافقين ، وعن سوء أدبهم .. فقال تعالى - :

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت ورفاعة ابن عبد المنذر ،

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٠ .

ووديعة بن ثابت وغيرهم ، قالوا مالا ينبغى فى حقه - ﷺ - .

فقال رجل منهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمدًا ما تقولونه فيقع فينا . فقال الجلاس : بل نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمدًا أذن[1] .

فمرادهم بقولهم « هو أذن » أى : كثير الاستماع والتصديق لكل ما يقال له .

قال صاحب الكشاف : الأذن : الرجل الذى يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ، سمى بالجارحة التى هى آلة السماع كأن جملته أذن سامعة ونظيره قولهم للربيئة - أى الطليعة - عين »[2] .

وقال بعضهم : « الأذن » الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الذكر والانثى والواحد والجمع . فيقال : رجل أذن ، وامرأة أذن ورجال ونساء أذن ، فلا يثنى ولا يجمع . إنما سموه باسم العضو تهويلا وتشنيعًا فهو مجاز مرسل أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته - لفرط استماعه - آلة السماع ، كما سمى الجاسوس عينًا لذلك »[3] .

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين قوم يؤذون النبى - ﷺ - فيقولون عنه أنه كثير السماع والتصديق لكل ما يقال له بدون تمييز بين الحق والباطل .

وقوله: ﴿قل أذن خير لكم﴾ رد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويكبت أنفسهم وهو من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة على سبيل المبالغة فى المدح كقولهم رجل صدق أى قد بلغ النهاية فى الصدق والاستقامة .

والمعنى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتبكيت : سلمنا . كما تزعمون . أنى كثير السماع والتصديق لما يقال ، لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير بدون تمييز وإنما هى للخير ولما وافق الشرع فحسب .

ويجوز أن تكون الإضافة فيه على معنى « فى » ، أى هو أذن فى الخير والحق ، وليس بأذن فى غير ذلك من وجوه الباطل والشر .

وهذه الجملة الكريمة من أسمى الأساليب وأحكمها فى الرد على المرجفين والفاسقين ، لأنه - سبحانه - صدقهم فى كونه - ﷺ - أذنًا ، وذلك بما هو مدح له ، حيث وصفه بأنه أذن خير لا شر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٢٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٤ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٨٦ .

قال صاحب الإنصاف : لا شئ أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه فى الأول إطماع لهم بالموافقة ثم كر على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم فى تنقصه باليأس ، منه ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه[1] .

وقوله : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ تفسير وتوضيح لكونه - ﷺ - أذن خير لهم لا أذن شر عليهم .

أى : أن من مظاهر كونه - ﷺ - أذن خير ، أنه « يؤمن بالله » إيمانًا حقًا لا يحوم حوله شيء من الرياء ، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السوء « ويؤمن للمؤمنين » أى : يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع لأنهم أصحابه الذين أطاعوه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فهم أهل للتصديق والقبول . دون غيرهم من المنافقين والفاسقين .

قال الفخر الرازى : فإن قيل لماذا عدى الإيمان إلى الله بالباء ، وإلى المؤمنين باللام ؟

قلنا : لأن الإيمان المعدى إلى الله المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالباء . والإيمان المعدى إلى المؤمنين المراد منه الاستماع منهم ، والتسليم لقولهم فعدى باللام ، كما فى قوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ . أى بمصدق لنا . وقوله : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ وقوله : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أذن خير لكم ﴾ .

أى : أن هذا الرسول الكريم بجانب أنه أذن خير لكم هو رحمة للذين آمنوا منكم - أيها المنافقون - إيمانًا صحيحًا ، لأنه عن طريق إرشاده لهم إلى الخير ، واتباعهم لهذا الإرشاد يصلون إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا من المنافقين : أولئك الذيم صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا لله قلوبهم ، وتركوا النفاق والرياء .

أو أن المراد بالذين آمنوا منهم : أولئك الذين أظهروا الإيمان ، فيكون المعنى :

أن هذا الرسول الكريم رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم - أيها المنافقون - حيث إنه - ﷺ - عاملهم بحسب الظاهر ، دون أن يكشف أسرارهم ، أو يهتك أستارهم ؛ لأن الحكمة تقتضى ذلك .

وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشاف فقد قال : وهو رحمة لمن آمن منكم ، أى : أظهر

---

(١) حاشية الكشاف لابن المنير جـ ٢ ص ١٩ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٦٥ .

الإيمان - أيها المنافقون - ، حيث يسمع منكم ، ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى الله من المصلحة فى الإبقاء عليكم ...[١] .

وقوله : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ تذييل قصد به تهديدهم وزجرهم عن التعرض لرسول الله - ﷺ - بأية إساءة .

أى : والذين يؤذون رسول الله بأى لون من ألوان الأذى ، لهم عذاب أليم فى دنياهم وآخرتهم ؛ لأنهم بإيذائهم له يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله رحمة للعالمين .

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من جبنهم وعجزهم عن مصارحة المؤمنين بالحقائق ، فقال - سبحانه - :

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

قال القرطبى : روى أن قومًا من المنافقين اجتمعوا ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه وتكلموا فقالوا : إن كان ما يقوله محمد حقًا لنحن شر من الحمير . فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقوله محمد - ﷺ - لحق ، ولأنتم شر من الحمير . ثم أخبر النبى - ﷺ - بقولهم فحلفوا إن عامرا كاذب .

فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية[٢] .

فقوله - سبحانه - : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ خطاب للمؤمنين الذين كان المنافقون يذكرونهم بالسوء ، ثم يأتون إليهم بعد ذلك معتذرين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٩٣ - بتصرف يسير -

أى : إن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - ليرضوكم ، فتطمئنوا إليهم ، وتقبلوا معاذيرهم .

قال أبو السعود : وإفراد إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول - ﷺ - للإيذان بأن ذلك بمعزل عن أن يكون وسيلة لإرضائه ، وأنه - عليه الصلاة والسلام - إنما لم يكذبهم رفقا بهم ، وسترا لعيوبهم ، لا عن رضا بما فعلوا ، وقبول قلبى لما قالوا ... [1] .

وقوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ جملة حالية فى محل نصب من ضمير « يحلفون » جىء بها لتوبيخهم على إيثارهم رضا الناس على رضا الله ورسوله .

أى : هم يحلفون لكم . والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم لأن الله - تعالى - هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم ، وهو العليم بما ظهر وبطن من أحوالهم . ولأن رسوله - ﷺ - هو المبلغ لوحيه - عز وجل -

قال صاحب المنار ما ملخصه : وكان الظاهر أن يقال : « يرضوهما » ونكتة العدول عنه إلى « يرضوه » : الإعلام بأن إرضاء رسوله عين إرضائه سبحانه ... وهذا من بلاغة القرآن فى نفس الإيجاز . ولو قال « يرضوهما » لما أفاد هذا المعنى ؛ إذ يجوز فى نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما فى غير ما يكون به إرضاء الآخر ، وهو خلاف المراد هنا ، وكذلك لو قيل : « والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه » لا يفيد هذا المعنى أيضًا وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل ...

وقد خرجه علماء النحو على قواعدهم ... وأقرب الأقوال إلى قواعدهم قول سيبويه : إن الكلام جملتان حذف خبر إحداهما لدلالة خبر الأخرى عليه ، كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف .

فهذا لا تكلف فيه من ناحية التركيب العربى ، ولكن تفوت به النكتة التى ذكرناها ... [2] .

وقوله : ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ تذييل قصد به بيان أن الإيمان الحق لا يتم إلا بإرضاء الله ورسوله عن طريق طاعتهما والانقياد لأوامرهما .

أى : إن كانوا مؤمنين حقًا ، فليعملوا على إرضاء الله ورسوله ، بأن يطيعوا أوامرهما ،

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٧٩ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ويجتنبوا نواهيهما ، وإلا كانوا كاذبين فى دعواهم الإيمان ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب مخالفتهم لله ورسوله فقال :

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدًا فيها ... ﴾

وقوله : ﴿ يحادد ﴾ من المحادة بمعنى المخالفة والمجانبة والمعاداة ، مأخوذة من الحد بمعنى الجانب ، كأن كل واحد من المتخاصمين فى جانب غير جانب صاحبه . ويقال : حاد فلان فلانا ، إذا صار فى غير حده وجهته بأن خالفه وعاداه .

والاستفهام فى الآية الكريمة للتوبيخ والتأنيب وإقامة الحجة .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين مردوا على الفسوق والعصيان أنه من يخالف تعاليم الله ورسوله ، فجزاؤه نار جهنم يصلاها يوم القيامة خالدًا فيها ؟! إن كانوا لا يعلمون ذلك - على سبيل الفرض - فأعلمهم يامحمد بسوء مصيرهم إذا ما استمروا على نفاقهم ومعاداتهم لله ولرسوله .

قال الجمل ما ملخصه : « من » شرطية مبتدأ . وقوله : ﴿ فأن له نار جهنم ﴾ فى موضع المبتدأ المحذوف الخبر ، والتقدير . فحق أن له نار جهنم ، أى : فكون نار جهنم له أمر حق ثابت . وهذه الجملة جواب من الشرطية ، والجملة الشرطية ، أى مجموع اسم الشرط وفعله والجزاء خبر أن الأولى ، وهى ﴿ أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ وجملة أن الثانية واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى يعلم إن لم يكن بمعنى العرفان ، ومسد مفعوله أى الواحد إن كان بمعنى العرفان[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك الخزى العظيم ﴾ يعود على ما ذكر من العذاب أى : ذلك الذى ذكرناه من خلودهم فى النار يوم القيامة هو الذل العظيم ، الذى يتضاءل أمامه كل خزى وذل فى الدنيا .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا جانبًا من رذائل المنافقين وأكاذيبهم ، وتوعدتا كل مخالف لأوامر الله ورسوله بسوء المصير .

ثم واصلت السورة حملتها على المنافقين ، فكشفت عن خباياهم ، وهتكت أستارهم ، وأبطلت معاذيرهم ، وتوعدتهم بسوء المصير فقال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩٥ .

يَحْذَرُ الْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قال صاحب المنار : هذه الآيات فى بيان شأن آخر من شئون المنافقين التى كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك . أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله - تعالى - : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ﴾ ...

قال : كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون : عسى أن لا يفشى علينا هذا .

وعن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة . فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المنبئة . أنبأت بمثالبهم وعوراتهم[1] .

والضمير فى قوله : ﴿ عليهم ﴾ وفى قوله : ﴿ تنبئهم ﴾ يعود على المنافقين . فيكون المعنى : ﴿ يحذر المنافقون ﴾ ويخافون من ﴿ أن تنزل عليهم ﴾ أى : فى شأنهم وحالهم « سورة من سور القرآن الكريم » ، تنبئهم بما فى قلوبهم . أى : تخبرهم بما انطوت عليه قلوبهم من أسرار خفية ، ومن أقوال كانوا يتناقلونها فيما بينهم ، ويحرصون على إخفائها عن المؤمنين .

وفى التعبير بقوله : ﴿ تنبئهم ﴾ مبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم ، حتى أنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه هم عن أنفسهم ، فتنبئهم بهذا الذى لا يعلمونه ، وتنعى عليهم قبائحهم ورذائلهم . وتذيع على الناس ما كانوا يخشون ظهوره من أقوال ذميمة ، وأفعال أثيمة .

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٦١٠ .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ عليهم ﴾ وقوله : ﴿ تنبئهم ﴾ يعود على المؤمنين ، فيكون المعنى : يحذر المنافقون ويخشون من أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين من أضغان وأحقاد وفسوق عن أمر الله .

وقد ذكر هذين الوجهين صاحب الكشاف فقال : والضمير فى « عليهم » و « تنبئهم » للمؤمنين ، و « فى قلوبهم » للمنافقين . وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه .

ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين : لأن السورة إذا نزلت فى معناهم - أى فى شأنهم وأحوالهم - فهى نازلة عليهم . ومعنى « تنبئهم بما فى قلوبهم » كأنها تقول لهم : فى قلوبكم كيت وكيت : يعنى أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها »[1] .

وقال الإمام الرازى . فإن قيل : المنافق كافر فكيف يحذر نزول الوحى على الرسول - ﷺ - ؟ قلنا فيه وجوه ؟

قال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول - ﷺ - يذكر كل شىء ، ويدعى أنه عن الوحى ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره ، وفى قوله : ﴿ قل استهزئوا ﴾ دلالة على ما قلناه .

٢ - أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول - ﷺ - إلا أنهم شاهدوا أنه - ﷺ - كان يخبرهم بما يضمرونه ويكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف فى قلوبهم .

٣ - قال الأصم . إنهم كانوا يعرفون كون الرسول - ﷺ - صادقا ، إلا أنهم كفروا به حسدًا وعنادًا ...

٤ - معنى الحذر : الأمر بالحذر . أى : ليحذر المنافقون ذلك .

٥ - أنهم كانوا شاكين فى صحة نبوته ، وما كانوا قاطعين بفسادها ، والشاك خائف ، فلهذا السبب خافوا أن ينزل عليه فى أمرهم ما يفضحهم[2] . والذى نراه أن الرأى الخامس أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن المنافقين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر : فهم كما وصفهم الله - تعالى - ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. ﴾ .

ومن شأن هذا التذبذب أن يغرس الخوف والحذر فى القلوب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٨ .

أى أن هذا الحذر والإشفاق . كما يقول بعض العلماء . أثر طبيعى للشك والارتياب ، لأنهم لو كانوا موقنين بتكذيب الرسول - ﷺ - لما خطر لهم هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بتصديقه ، لما كان هناك محل لهذا الحذر « لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان »(١) .

وقوله : ﴿ قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ تهديد ووعيد لهم على نفاقهم وسوء أدبهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المذبذبين بين الحق والباطل ، قل لهم ، على سبيل التهديد والتبكيت : افعلوا ما شئتم من الاستخفاف بتعاليم الإسلام إن الله - تعالى - مظهر ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التى تفضحكم على رءوس الأشهاد ، والتى تكشف عن أسراركم ، وتهتك أستاركم ، وتظهر للمؤمنين ما أردتم إخفاءه عنهم .

وأسند الإخراج إلى الله - تعالى - للإشارة إلى أنه - سبحانه - يخرج ما يحذرونه إخراجًا لا مزيد عليه من الكشف والوضوح ، حتى يحترس منهم المؤمنون ولا يغتروا بأقوالهم المعسولة .

وقوله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب .. ﴾ بيان للون آخر من معاذيرهم الكاذبة ، وجبنهم عن مواجهة الحقائق .

وأصل الخوض - كما يقول الآلوسى - الدخول فى مائع مثل الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسمًا لكل دخول فيه تلويث وأذى(٢) .

أى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب استهزائهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار ، إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد .

وقوله : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ إبطال لحجتهم ، وقطع لمعاذيرهم ، وتبكيت لهم على جهلهم وسوء أخلاقهم .

أى : قل لهم يا محمد - على سبيل التوبيخ والتجهيل - ألم تجدوا ما تستهزئون به فى مزاحكم ولعبكم - كما تزعمون - سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذى جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور ؟

فالاستفهام للانكار والتوبيخ ، ودفع ما تذرعوا به من معاذير واهية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ... ﴾ تأكيد لإبطال ما أظهروه من معاذير .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٦١٠ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣١ .

والاعتذار معناه محاولة محو أثر الذنب ، مأخوذ من قولهم : اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت ، لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المستهزئين بما يجب إجلاله واحترامه وتوقيره : قل لهم على سبيل التوبيخ والتجهيل أيضًا - لا تشتغلوا بتلك المعاذير الكاذبة فإنها غير مقبولة ، لأنكم بهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أى : قد ظهر كفركم وثبت ، بعد إظهاركم الإيمان على سبيل المخادعة ، فإذا كنا قبل ذلك نعاملكم معاملة المسلمين بمقتضى نطقكم بالشهادتين فنحن الآن نعاملكم معاملة الكافرين بسبب استهزائكم بالله وآياته ورسوله - ﷺ - لأن الاستهزاء بالدين . كما يقول الإمام الرازى . يعد من باب الكفر ، إذ أنه يدل على الاستخفاف ، والأساس الأول فى الإيمان تعظيم الله - تعالى - بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدله - سبحانه - ورحمته .

أى : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ - أيها المنافقون - بسبب توبتهم وإقلاعهم عن النفاق ، ﴿ نعذب طائفة ﴾ أخرى منكم بسبب إصرارهم على النفاق ، واستمرارهم فى طريق الفسوق والعصيان .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها :

ما جاء عن زيد بن أسلم : أن رجلًا من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء !! فقال له عوف : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله - ﷺ - فذهب عوف إلى رسول الله - ﷺ - ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه .

قال زيد : قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه - أى إلى المنافق - متعلقًا بحقب[2] ناقة رسول الله - ﷺ - تنكبه[3] الحجارة يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له الرسول - ﷺ - « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون »[4] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٦٠ .
(٢) الحقب - بفتحتين - حبل يشد به الرحل فى بطن البعير ..
(٣) تنكبه الحجارة : تصيبه وتؤذيه .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٣٣ طبعة دار المعارف .

وعن قتادة قال : بينما رسول الله - ﷺ - يسير فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها !! هيهات هيهات !.

فأطلع الله نبيه - ﷺ - على ذلك ، فقال نبى الله - ﷺ - : « أحبسوا على الركب » فأتاهم فقال لهم . قلتم كذا ، قلتم كذا . فقالوا : « يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب » فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون(١) .

وقال ابن اسحاق : كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت .. ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له « مخشى بن حمير » يسيرون مع رسول الله - ﷺ - وهو منطلق إلى تبوك - فقال بعضهم - أتحسبون جلاد بنى الأصفر - أى الروم - كقتال العرب بعضهم ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبًا للمؤمنين .

فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة ، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه .

وقال رسول الله - ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر - أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا . فانطلق إليهم عمار ؛ فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه .

فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله - ﷺ - واقف على راحلته - يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب .

فقال مخشى بن حمير : يارسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيدًا ، لا يعلم مكانه . فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر(٢) .

هذه بعض الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، وهى توضح ما كان عليه المنافقون من كذب فى المقال ، وجبن عن مواجهة الحقائق .

ثم مضت السورة الكريمة بعد ذلك فى تقرير حقيقة المنافقين ، وفى بيان جانب من صفاتهم ، والمصير السيء الذى ينتظرهم فقال - ﷺ - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٧ .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ، والمقصود بيان أن إناثهم كذكورهم فى تلك الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة فقال : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ أى : فى صفة النفاق ، وذلك كما يقول إنسان لآخر : أنت منى وأنا منك . أى : أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة ... [(١)] .

وقوله : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ تفصيل لجانب من رذائلهم ، ومن مسالكهم الخبيثة .

أى : يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع ، وتستقبحه العقول ، وينهونه عن كل أمر دعت إليه الأديان ، وأحبته القلوب السليمة .

وقوله : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ كناية عن بخلهم وشحهم ، لأن الإنسان السخى يبسط يده بالعطاء ، بخلاف الممسك القتور فإنه يقبض يده عن ذلك .

أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال فى وجوهه المشروعة .

وقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ كناية عن رسوخهم فى الكفر ، وانغماسهم فى كل ما يبعدهم عن الله - تعالى - .

والمقصود بالنسيان هنا لازمه ، وهو الترك والإهمال ؛ لأن حقيقة النسيان محالة على الله - تعالى - ، كما أن النسيان الحقيقى لا يذم صاحبه عليه لعدم التكليف به .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٧٠ .

أى : تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته ، فتركهم - سبحانه - وحرمهم من هدايته ورحمته وفضله .

وقوله : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ تذييل قصد به المبالغة فى ذمهم .

أى : إن المنافقين هم الكاملون فى الخروج عن طاعة الله ، وفى الانسلاخ عن فضائل الإيمان ، ومكارم الأخلاق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ... ﴾ بيان لسوء مصيرهم ، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة .

أى : وعد الله - تعالى - المنافقين والمنافقات والكفار المجاهرين بكفرهم « نار جهنم خالدين فيها » خلودًا أبديًا .

وقوله : ﴿ هى حسبهم ﴾ أى : إن تلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم .

وقوله : ﴿ ولعنهم الله ﴾ أى : طردهم وأبعدهم من رحمته ولطفه .

وقوله : ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أى : ولهم عذاب دائم لا ينقطع ؛ فهم فى الدنيا يعيشون فى عذاب القلق والحذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم ، وفى الآخرة يذوقون العذاب الذى هو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد بينتا جانبًا من قبائح المنافقين ، ومن سوء مصيرهم فى عاجلتهم وآجلتهم .

ثم ساقت السورة الكريمة - لهؤلاء المنافقين - نماذج لمن حبطت أعمالهم بسبب غرورهم ، وضربت لهم الأمثال بمن هلك من الطغاة السابقين بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال - تعالى - :

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة ... ﴾ جاء على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزجر المنافقين ، وتحريك نفوسهم إلى الاعتبار والاتعاظ .

والكاف فى قوله : ﴿ كالذين ﴾ للتشبيه ، وهى فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف .

والتقدير : أنتم - أيها المنافقون - حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من الطغاة فى الانحراف عن الحق ، والاغترار بشهوات الدنيا وزينتها ، ولكن هؤلاء الطغاة المهلكين ، يمتازون عنكم بأنهم « كانوا أشد منكم قوة » فى أبدانهم ، وكانوا « أكثر » منكم « أموالاً وأولادًا » .

وقوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ بيان لموقف هؤلاء المهلكين من نعم الله - تعالى - والخلاق : مشتق من الخلق بمعنى التقدير . وأطلق على الحظ والنصيب لأنه مقدر لصاحبه .

أى : كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولادًا ، ولكنهم لم يشكروا الله على إحسانه ، بل فتنوا بما بين أيديهم من نعم ، واستمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الحياة الدنيا ، استمتاع الجاحدين الفاسقين .

والتعبير بالفاء المفيدة للتعقيب فى قوله : ﴿ فاستمتعوا ﴾ ؛ للإشعار بأن هؤلاء المهلكين بمجرد أن امتلأت أيديهم بالنعم ، قد استعملوها فى غير ما خلقت له ، وسخروها لإرضاء شهواتهم الخسيسة ، وملذاتهم الدنيئة .

وقوله : ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ذم للمخاطبين وللذين سبقوهم ؛ لانتهاجهم جميعًا طريق الشر والبطر .

أى : فأنتم - أيها المنافقون - قد استمتعتم بنصيبكم المقدر لكم من ملاذ الدنيا ، وشهواتها الباطلة ، كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم فى ذلك .

وقوله : ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وخضتم - أيها المنافقون - فى حمأة الباطل وفى طريق الغرور والهوى ، كالخوض الذى خاضه السابقون من الأمم المهلكة .

قال الآلوسى قوله : « وخضتم » أى : دخلتم فى الباطل « كالذى خاضوا » .

أى : كالذين فحذفت نونه تخفيفًا ، كما فى قول الشاعر :

إن الذى حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

ويجوز أن يكون « الذى » صفة لمفرد اللفظ ، مجموع المعنى ، كالفوج والفريق ، فلوحظ فى الصفة اللفظ . وفى الضمير المعنى ، أو هو صفة لمصدر محذوف ، أى : كالخوض الذى خاضوه ، ورجح بعدم التكلف فيه[1] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فائدة فى قوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ وقوله : ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ مغن عنه كما أغنى قوله : ﴿ كالذى خاضوا ﴾ عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟

قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الرضا به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون : كان يقتل بغير جرم ، ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل ما فعله .

وأما « وخضتم كالذى خاضوا » فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة »[2] .

وقوله : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الدارين .

واسما الإشارة يعودان على المتصفين بتلك الصفات القبيحة من السابقين واللاحقين .

أى : أولئك المستمتعون بنصيبهم المقدر لهم فى الشهوات الخسيسة ، والخائضون فى الشرور والآثام « حبطت أعمالهم » أى : فسدت وبطلت أعمالهم التى كانوا يرجون منفعتها « فى الدنيا والآخرة » لأن هذه الأعمال لم يكن معها إيمان أو إخلاص ، وإنما كان معها الرياء

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٨ .

والنفاق ، والفسوق والعصيان ، والله - تعالى - لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم .

وقوله : ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ أى : الكاملون فى الخسران ، الجامعون لكل ما من شأنه أن يؤدى إلى البوار والهلاك .

ثم ساق لهم - سبحانه - من أخبار السابقين ما فيه الكفاية للعظة والاعتبار لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود ... ﴾ .

والاستفهام للتقرير والتحذير . والمراد بنبأ الذين من قبلهم : أخبارهم التى تتناول أقوالهم وأعمالهم ، كما تتناول ما حل بهم من عقوبات ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم .

والمعنى : ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين ، خبر أولئك المهلكين من الأقوام السابقين بسبب عصيانهم لرسلهم ، ومن هؤلاء الأقوام « قوم نوح » الذين أغرقوا بالطوفان ، وقوم « عاد » الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وقوم « ثمود » الذين أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، « وقوم إبراهيم » الذين سلب الله نعمه عنهم ، وأذل غرور زعيمهم الذى حاج إبراهيم فى ربه ، « وأصحاب مدين » وهم قوم شعيب الذين أخذتهم الصيحة ، « والمؤتفكات » وهم أصحاب قرى قوم لوط ، التى جعل الله عاليها سافلها ...

والائتفاك : معناه الانقلاب بجعل أعلى الشىء أسفله . يقال : أفكه يأفكه إذا قلبه رأسًا على عقب .

وذكر - سبحانه - هنا هذه الطوائف الست ، لأن آثارهم باقية ، ومواطنهم هى الشام والعراق واليمن ، وهى مواطن قريبة من أرض العرب ، فكانوا يمرون عليها فى أسفارهم ، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ كلام مستأنف لبيان أنبائهم وأخبارهم .

أى : أن هؤلاء الأقوام المهلكين السابقين ، قد أتتهم رسلهم بالحجج الواضحات الدالة على وحدانية الله وعلى وجوب إخلاص العبادة له ..

والفاء فى قوله : ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ للعطف على كلام مقدر يدل عليه المقام .

أى : أتتهم رسلهم بالبينات ، فكذبوا هؤلاء الرسل ، فعاقبهم الله - تعالى - على هذا التكذيب . وما كان من سنته - سبحانه - ليظلمهم ، لأنه لا يظلم الناس شيئًا « ولكن كانوا

---

(١) سورة الصافات . الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

أنفسهم يظلمون » بسبب كفرهم وجحودهم ، واستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الغى على الرشد .

هذا ، ومن هاتين الآيتين الكريمتين نرى بوضوح ، أن الغرور بالقوة ، والافتتان بالأموال والأولاد ، والانغماس فى الشهوات والملذات الخسيسة . والخوض فى طريق الباطل ، وعدم الاعتبار بما حل بالطغاة والعصاة ..

كل ذلك يؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة ، وإلى التعرض لسخط الله وعقابه .

كما نرى منها أن من سنة الله فى خلقه ، أنه - سبحانه - لا يعاقب إلا بذنب ، ولا يأخذ العصاة والطغاة أخذ عزيز مقتدر ، إلا بعد استمرارهم فى طريق الغواية ، وإعراضهم عن نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين . وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئًا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن أحوال المنافقين ، وصفاتهم ، وسوء عاقبتهم ..

أتبعت ذلك بالحديث عن المؤمنين الصادقين ، وعما أعده الله لهم من نعيم مقيم ، فقال - سبحانه - :

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

قال الإمام ابن كثير : لما ذكر - سبحانه - صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

أى : يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الحديث الصحيح : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» . وفى الصحيح - أيضا - : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[1] .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ بينما قال فى المنافقين ﴿ بعضهم من بعض ﴾ للإشعار بأن المؤمنين فى تناصرهم وتعاضدهم وتراحمهم مدفوعون بدافع العقيدة الدينية التى ألفت بين قلوبهم ، وجعلتهم أشبه ما يكونون بالجسد الواحد ، أما المنافقون فلا توجد بينهم هذه الروابط السامية ، وإنما الذى يوجد بينهم هو التقليد واتباع الهوى ، والسير وراء العصبية الممقوتة ، فهم لا ولاية بينهم ، وإنما الذى بينهم هو التقليد وكراهية ما أنزل الله على رسوله - ﷺ - .

وقوله ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .... ﴾ بيان للآثار التى تترتب على تلك الولاية الخالصة ، وتفصيل للصفات الحسنة التى تحلى بها المؤمنون والمؤمنات .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين جمعتهم العقيدة الدينية على التناصر والتراحم .. من صفاتهم ﴿ أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أى يأمرون بكل خير دعا إليه الشرع ، وينهون عن كل شر تأباه تعاليم الإسلام الحنيف .

وقوله : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ أى : يؤدونها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ..

وقوله : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أى : يعطونها لمستحقيها بدون منٍّ أو أذى ..

وقوله : ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أى : فى سائر الأحوال بدون ملل أو انقطاع أو تكاسل ..

وقوله : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ بيان للجزاء الطيب الذى ادخره الله - تعالى - لهم .

أى : أولئك المؤمنون والمؤمنات المتصفون بتلك الصفات السامية ، سيرحمهم الله - تعالى - برحمته الواسعة ، إنه - سبحانه - « عزيز » لا يعجزه شىء « حكيم » فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب الكشاف : « والسين هنا مفيدة لوجود الرحمة ، فهى تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد كما فى قولك : سأنتقم منك يوما ، تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك ، ونحوه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(٢) تفسير الكشاف - بتصرف يسير - جـ ٢ ص ٢٨٩ .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر رحمته للمؤمنين والمؤمنات أصحاب تلك الصفات السابقة فقال : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

أي : ﴿ وعد الله ﴾ بفضله وكرمه ﴿ المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار ﴾ أى : من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها ﴿ خالدين فيها ﴾ فى تلك الجنات خلودا أبديا .

ووعدهم كذلك « مساكن طيبة » أى : منازل حسنة ، تنشرح لها الصدور وتستطيبها النفوس .

وقوله : « فى جنات عدن » أى فى جنات ثابته مستقرة . يقال : فلان عدن بمكان كذا ، إذا استقر به وثبت فيه ، ومنه سمى المعدن معدنا لاستقراره فى باطن الأرض .

وقيل : إن كلمه « عدن » علم على مكان مخصوص فى الجنة ، أى فى جنات المكان المسمى بهذا الاسم وهو « عدن » .

ثم بشرهم - سبحانه - بما هو أعظم من كل ذلك فقال : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

أى أن المؤمنين والمؤمنات ليس لهم هذه الجنات والمساكن الطيبة فحسب وإنما لهم ما هو أكبر من ذلك وأعظم وهو رضا الله - تعالى - عنهم ، وتجليه عليهم ، وتشرفهم بمشاهدة ذاته الكريمة ، وشعورهم بأنهم محل رعاية الله وكرمه .

والتنكير فى قوله : ﴿ ورضوان ﴾ للتعظيم والتهويل ، وللإشارة إلى أن الشيء اليسير من هذا الرضا الإلهى على العبد ، أكبر من الجنات ومن المساكن الطيبة ، ومن كل حطام الدنيا .

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله - عز وجل - يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : ياربنا وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

وروى البزار فى مسنده عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله - تعالى - : هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟

قالوا : ياربنا وما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضوانى أكبر »[1] .

وقوله : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أى : ذلك الذى وعد الله به المؤمنين والمؤمنات فى جنات ومساكن طيبة ، ومن رضا من الله عنهم ، هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٧٠ .

نعيم ، ولا يسامى شرفه شرف ..

وبهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المؤمنين والمؤمنات بأعظم البشارات ، ووصفتهم بأشرف الصفات ، وقابلت بين جزائهم وبين جزاء الكفار والمنافقين ، بما يحمل العاقل على أن يسلك طريق المؤمنين ، وعلى أن ينهج نهجهم ، ويتحلى بأوصافهم ... وبذلك يفوز بنعيم الله ورضاه كما فازوا ، ويسعد كما سعدوا ، وينجو من العذاب الذى توعد الله به المنافقين والكافرين، بسبب اصرارهم على الكفر والنفاق ، وإيثارهم الغىّ على الرشد .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بمجاهدة الكفار والمنافقين بكل وسيلة ، لأنهم جميعا لا يريدون الانتهاء عن المكر السىء بالدعوة الإسلامية فقال - تعالى - :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ جاهد ﴾ من المجاهدة ، بمعنى بذل الجهد فى دفع ما لا يرضى ، سواء أكان ذلك بالقتال أم بغيره .

وقوله : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ من الغلظة التى هى نقيض الرقة والرأفة . يقال أغلظ فلان فى الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق .

ونحن عندما نقرأ السيرة النبوية ، نجد أنه - ﷺ - بعد هجرته إلى المدينة، ظل فترة طويلة يلاين المنافقين ، ويغض الطرف عن رذائلهم . ويصفح عن مسيئهم .. إلا أن هذه المعاملة الحسنة لهم زادتهم رجسا إلى رجسهم .. لذا جاءت هذه السورة - وهى من أواخر ما نزل من القرآن لتقول للنبى - ﷺ - لقد آن الأوان لإحلال الشدة والحزم ، محل اللين والرفق ، فإن للشدة مواضعها وللين مواضعه ..

والمعنى : عليك - أيها النبى الكريم - أن تجاهد الكفار بالسيف إذا كان لا يصلحهم سواه ، وأن تجاهد المنافقين - الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر - بما تراه مناسبا لردهم وزجرهم وإرهابهم ، سواء أكان ذلك باليد أم باللسان أم بغيرهما ، حتى تأمن شرهم .

قال الإمام ابن كثير ، أمر الله رسوله - ﷺ - بجهاد الكفار والمنافقين ، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين .. وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : بعث رسول الله - ﷺ - بأربعة أسياف . سيف للمشركين ﴿ فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... ﴾ وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿ قاتلوا الذين

لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ... ﴾ وسيف للمنافقين ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ وسيف للبغاة ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فليكشر فى وجهه - أى فليلق المنافق بوجه عابس لا طلاقة فيه ولا انبساط .

وقال ابن عباس : أمره الله - تعالى - بجهاد المنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم .

وقد يقال أنه لا منافاة بين هذه الأقوال ، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا ، وتارة بهذا على حسب الأحوال ...[1] .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ يعود على الفريقين : الكفار والمنافقين أى : جاهدهم بكل ما تستطيع مجاهدتهم به ، مما يقتضيه الحال ، واشدد عليهم فى هذه المجاهدة بحيث لا تدع مجالا معهم للترفق واللين ، فإنهم ليسوا أهلا لذلك ، بعد أن عموا وصموا عن النصيحة ، وبعد أن لجوا فى طغيانهم .

وقوله : ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ تذييل قصد به بيان سوء مصيرهم فى الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم فى الدنيا .

أى : عليك - أيها النبى - أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فإن جهنم هى دارهم وقرارهم .

والمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبئس المصير مصيرهم ، فانه لا مصير أسوأ من الخلود فى جهنم .

ومن هذه الآية الكريمة نرى أن على المؤمنين - فى كل زمان ومكان - أن يجاهدوا أعداءهم من الكفار والمنافقين بالسلاح الذى يرونه كفيلا بأن يجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المنافقون من كذب وفجور ، ومن خيانة وغدر ، وفتح أمامهم باب التوبة ، وأنذرهم بالعذاب الأليم إذا ما استمروا فى نفاقهم فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨١ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه قال : نزلت هذه الآية : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ . الآية فى الجلاس بن سويد بن الصامت . أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء . فقال الجلاس : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها !!

فقال مصعب : أما والله ياعدو الله لأخبرن رسول الله - ﷺ - بما قلت : قال مصعب : فأتيت النبى - ﷺ - . وخشيت أن ينزل فى القرآن أو تصيبنى قارعة .. فقلت يارسول الله : أقبلت أنا والجلاس من قباء . فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة ان أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك .

قال مصعب : فدعا رسول الله - ﷺ - الجلاس فقال له : أقلت الذى قال مصعب ؟ فحلف الجلاس بأنه ما قال ذلك . فأنزل الله الآية »[1] .

وأخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن وفيه ذكر المنافقين قال الجلاس بن سويد : والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير . فسمعه عمير بن سعد فقال : والله ياجلاس إنك لأحب الناس إلى . وأحسنهم عندى أثراً . ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها هلكت ، ولإحداهما أشد على من الأخرى .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٦٢ بتصرف يسير . طبعة دار المعارف .

فمشى عمير إلى رسول الله - ﷺ - فذكر ما قال الجلاس . فسأل رسول الله - ﷺ - الجلاس عما قاله عمير ، فحلف بالله ما قال ذلك ، وزعم أن عميرا كذب عليه فنزلت هذه الآية[١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل .

قال : لما أقبل رسول الله - ﷺ - من غزوة تبوك أمر مناديه فنادى إن رسول الله - ﷺ - أخذ طريق العقبة ـ وهو مكان مرتفع ضيق ـ فلا يأخذها أحد .

قال : فبينما رسول الله - ﷺ - يقود ركابه حذيفة ويسوقه عمار ، إذا أقبل رهط ملثمون على الرواحل ، فغشوا عمارًا وهو يسوق برسول الله - ﷺ - ، فأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل . فقال رسول الله - ﷺ - لحذيفة : « قد ، قد » . أي حسبك حسبك . حتى هبط رسول الله - ﷺ - ورجع عمار .

فقال رسول الله - ﷺ - يا عمار : « هل عرفت القوم » ؟ فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : « هل تدرى ما أرادوا » ؟ قال : الله ورسوله اعلم . قال : « أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - راحلته فيطرحوه » ..[٢] .

هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية وهي تكشف عن كذب المنافقين وغدرهم .

وقوله . سبحانه : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ... ﴾ استئناف مسوق لبيان جانب مما صدر عنهم من جرائم تستدعى جهادهم والإغلاظ عليهم .

أى : يحلف هؤلاء المنافقون بالله كذبا وزورا أنهم ما قالوا هذا القول القبيح الذى بلغك عنهم يا محمد .

والحق أنهم قد قالوا «كلمة الكفر» وهى تشمل كل ما نطقوا به من اقوال يقصدون بها إيذاءه . - ﷺ - ، كقولهم : « هو أذن » وقولهم . « لئن كان ما جاء به حقا فنحن أشر من حمرنا ... » وغير ذلك من الكلمات القبيحة التى نطقوا بها .

وأنهم قد « كفروا بعد إسلامهم » أى : أظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام .

وأنهم قد « هموا بما لم ينالوا » أى : حاولوا إلحاق الأذى برسول الله - ﷺ - ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لأن الله تعالى . عصمه من شرورهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٢ . بتصرف وتلخيص .

وقوله: ﴿ومانقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ توبيخ لهم على جحودهم وكنودهم ومقابلتهم الحسنة بالسيئة .

ومعنى : نقموا : كرهوا وعابوا وأنكروا ، يقال نقم منه الشىء إذا أنكره ، وكرهه وعابه ، وكذا إذا عاقبه عليه .

أى : وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام شيئا ، إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها من وجوه الخيرات التى كانوا لا يجدونها قبل حلول الرسول - ﷺ - وأصحابه بينهم .

وهذه الجملة الكريمة جاءت على الأسلوب الذى يسميه علماء البلاغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم .

قال الجمل : كأنه قال - سبحانه - ليس له - ﷺ - صفة تكره وتعاب ، سوى أنه ترتب على قدومه إليهم وهجرته عندهم ، إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة ، وهذه ليست صفة ذم - بل هى صفة مدح - فحينئذ ليس له صفة تذم أصلا »[1] .

وشبيه بهذا الاسلوب قول الشاعر يمدح قوما بالشجاعة والإقدام .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بترغيبهم وترهيبهم فقال : ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم . وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة .. ﴾

أى : فإن يتب هؤلاء المنافقون عن نفاقهم وشقاقهم وقبائح أقوالهم وأفعالهم ، يكن المتاب خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم . « وإن يتولوا » ويعرضوا عن الحق : ويستمروا فى ضلالهم « يعذبهم الله عذابًا أليما فى الدنيا والآخرة » .

أما عذاب الدنيا فمن مظاهره : حذرهم وخوفهم من أن يطلع المؤمنون على أسرارهم وجبنهم عن مجابهة الحقائق ، وشعورهم بالضعف أمام قوة المسلمين ، وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ومعاقبة الرسول - ﷺ - إياهم بالعقوبة المناسبة لجرمهم ..

وأما عذاب الآخرة ، فهو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على النفاق ، وإعراضهم عن دعوة الحق .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٠ - بتصرف يسير -

وقوله : ﴿ وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾ تذييل قصد به تيئيسهم من كل معين أو ناصر .

أى: أن هؤلاء المنافقين ليس لهم أحد فى الأرض يدفع عنهم عذاب الله، أو يحميهم من عقابه ، لأن عقاب الله لن يدفعه دافع إلا هو ؛ فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يتوبوا إلى ربهم قبل أن يحل بهم عذابه .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك نماذج أخرى من جحودهم ، ونقضهم لعهودهم ، وبخلهم بما آتاهم الله من فضله فقال - سبحانه - .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى ، أن سبب نزول هذه الآيات أن ثعلبة ابن حاطب الانصارى قال لرسول الله - ﷺ - يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا . فقال له الرسول - ﷺ - : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم قال له مرة أخرى : « أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فو الذى نفسى بيده لو شئت أن تصير الجبال معى ذهبا وفضة لصارت » .

فقال ثعلبة ، والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه .

فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم ارزق ثعلبة مالا » .

فاتخذ ثعلبة غنما فنمت ، ثم ضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، ثم ترك الجمعة ..

وأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ فبعث الرسول - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين .. وقال لهما : « مرا على ثعلبة وعلى فلان . رجل من بنى سليم . فخذا صدقاتهما » .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله . فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى .

فانطلقا وسمع بهما السلمى « فنظر الى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة . ثم استقبلهم بها . فلما رأوها قالوا له : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال : بل خذوها فإن نفسى بذلك طيبة ، فأخذاها منه ومرا على ثعلبة فقال لهما : أرونى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية ... انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى أتيا النبى - ﷺ - ، فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة . فأخبراه بالذى صنعه ثعلبة معهما ..

فأنزل الله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين .. ﴾ الآيات .

فسمع رجل من أقارب ثعلبة هذه الآيات فذهب إليه وأخبره بما أنزل فيه من قرآن .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبى - ﷺ - وسأله أن يقبل منه صدقته فقال له : إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك ..

ثم لم يقبلها منه بعد ذلك أبو بكر أو عمر أو عثمان ، وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان[1] .

هذا ، وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث ، لأسباب تتعلق بسنده ، وبصاحب القصة وهو ثعلبة بن حاطب .

والذى نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكى صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوى . والذين عاهدوا الله فنقضوا عهودهم معه ، وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٤ - بتصرف وتلخيص .

وتلك الصورة قد تكون لثعلبة بن حاطب وقد تكون لغيره ، لأن المهم هو حصولها فعلا من بعض المنافقين .

وهذه الآيات - أيضا - تنطبق فى كل زمان ومكان على من يقابل نعم الله بالكفران ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين الذين أغناهم الله ورسوله من فضله بعد الفقر والإملاق ، ويوجد مثلهم فى كل زمان ، وهم الذين يلجأون إلى الله - تعالى - فى وقت العسرة والفقر ، أو الشدة والضر ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشرعه ، إذا هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم . فإذا استجاب لهم نكسوا على رءوسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وبطروا الحق ، وهضموا حقوق الخلق وهذا مثل من شر أمثالهم »[1] .

ومعنى الآيات الكريمة : ومن المنافقين قوم « عاهدوا الله » وأكدوا عهودهم بالايمان المغلظة فقالوا : « لئن آتانا » الله - تعالى - من فضله مالا وفيرا ، لنصدقن منه على المحتاجين ، ولنعطين كل ذى حق حقه ولنكونن من عباده « الصالحين » الذين يؤدون واجبهم نحو الله والناس ، والذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون .

قال الجمل وقوله : ﴿ من عاهد الله ﴾ فيه معنى القسم ، وقوله : ﴿ لئن آتانا من فضله ﴾ تفسير لقوله : عاهد الله . واللام موطئة لقسم مقدر . وقد اجتمع هنا قسم وشرط ، فالمذكور وهو قوله : « لنصدقن ».. جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف ... واللام فى قوله « لنصدقن » ... واقعة فى جواب القسم[2] .

وقوله : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾... بيان لموقفهم الجحودى من عطاء الله وكرمه .

أى : فلما أعطى الله - تعالى - من فضله هؤلاء المنافقين ما تمنوه من مال وفير « بخلوا به » أى : بخلوا بهذا المال ، فلم ينفقوا منه شيئا فى وجوهه المشروعة ، ولم يعترفوا فيه بحقوق الله أو حقوق الناس ، ولم يكتفوا بذلك بل « تولوا وهم معرضون » .

أى : أدبروا عن طاعة الله وعن فعل الخير ، وهم قوم دأبهم التولى عن سماع الحق ، وشأنهم الانقياد للهوى والشيطان .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٦٤٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠١ .

وقوله : ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ... ﴾ تصوير للآثار الذميمة التى ترتبت على بخلهم وإعراضهم عن الحق والخير .

أى : فجعل الله - تعالى - عاقبة فعلهم نفاقا وسوء اعتقاد فى قلوبهم إلى يوم يلقونه للحساب ، فيجازيهم بما يستحقون على بخلهم وإعراضهم عن الحق .

فالضمير المستتر فى « أعقب » لله - تعالى - وكذا الضمير المنصوب فى قوله : « يلقونه » .

ويصح أن يكون الضمير فى « أعقب » يعود على البخل والتولى والإعراض ، فيكون المعنى : فأعقبهم وأورثهم ذلك البخل والتولى والإعراض عن الحق والخير ، نفاقا راسخا فى قلوبهم ، وممتدا فى نفوسهم إلى اليوم الذى يلقون فيه ربهم ، فيعاقبهم عقابا أليما على سوء أعمالهم .

والباء فى قوله : ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ للسببية .

أى : أن النفاق قد باض وفرخ فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - تعالى - ، بسبب إخلافهم لوعودهم مع خالقهم ، وبسبب استمرارهم على الكذب ، ومداومتهم عليه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتوبيخهم على إصرارهم على المعاصى ، مع علمهم بأنه - عز وجل - عليم رقيب عليهم ، ومطلع على أحوالهم فقال : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب ﴾ .

أى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله - تعالى - يعلم ما يسرونه فى أنفسهم من نفاق ، وما يتناجون به فيما بينهم من أقوال فاسدة ، وأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ بلى إنهم ليعلمون ذلك علم اليقين ، ولكنهم لاستيلاء الهوى والشيطان عليهم ، لم ينتفعوا بعلمهم .

فالاستفهام فى قوله : ﴿ ألم يعلموا .. ﴾ للتوبيخ والتهديد والتقرير ، وتنبيهم إلى أن الله عليم بأحوالهم ، وسيجازيهم عليها .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات مايأتى :

١ - وجوب الوفاء بالعهود ، فإن نقض العهود ، وخلف الوعد ، والكذب كل ذلك يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به .

ومذهب الحسن البصرى - رحمه الله - أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية

وبقوله - ﷺ - : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[١] .

٢ - أن للإمام أن يمتنع عن قبول الصدقة من صاحبها إذا رأى المصلحة فى ذلك ، اقتداء بما فعله الرسول - ﷺ - مع ثعلبة ، فإنه لم يقبل منه الصدقة بعد أن جاء بها .

قال الإمام الرازى : فإن قيل إن الله - تعالى - أمره - أى ثعلبه - بإخراج الصدقة فكيف يجوز من الرسول - ﷺ - أن لا يقبلها منه ؟

قلنا : لا يبعد أن يقال أنه - تعالى - منع رسوله عن قبول الصدقة منه على سبيل الإهانة له ، ليعتبر غيره به ، فلا يمتنع عن أداء الصدقات .

ولا يبعد - أيضا - أنه إنما أتى بها على وجه الرياء لا على وجه الإخلاص وأعلم الله رسوله بذلك ، فلم يقبل تلك الصدقة لهذا السبب .

ويحتمل - أيضا - أنه - تعالى - لما قال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبه مع نفاقه ، فلهذا السبب امتنع رسول الله -ﷺ- عن أخذ تلك الصدقة[٢] .

٣ - أن النفس البشرية ضعيفة شحيحة - إلا من عصم الله .

وأن مما يعين الإنسان على التغلب على هذا الضعف والشح ، أن يوطن نفسه على طاعة الله ، وأن يجبرها إجباراً على مخالفة الهوى والشيطان ، وأن يؤثر ما عند الله على كل شيء من حطام الدنيا ...

أما إذا ترك لنفسه أن تسير على هواها ، فإنها ستورده المهالك ، التى لن ينفع معها الندم ، وستجعله أسير شهواته وأطماعه ونفاقه إلى أن يلقى الله ، وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - موقف هؤلاء المنافقين من المؤمنين الصادقين الذين كانوا يبذلون أموالهم فى سبيل الله ، فقال - سبحانه :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٧٨ . طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٧٦ . طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل ، قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشىء يسير قالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، كما روى البخارى عن أبى مسعود - رضى الله عنه - قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا - أى : نؤاجر أنفسنا فى الحمل - فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا هذا يقصد الرياء ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت هذه الآية[1] .

وأخرج ابن جرير عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه : أن رسول الله - ﷺ - قال : « تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثا ، - أى إلى تبوك - قال : فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله .. إن عندى أربعة آلاف : ألفين أقرضهما الله ، وألفين لعيالى .

قال : فقال رسول الله - ﷺ - : « بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت » ؟ ! فقال رجل من الأنصار : وإن عندى صاعين من تمر ، صاعا لربى ، وصاعا لعيالى ، قال : فلمز المنافقون وقالوا : ما أعطى أبو عوف هذا إلا رياء !!

وقالوا : أو لم يكن الله غنيا عن صاع هذا !! فأنزل الله - تعالى - ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ...﴾[2] .

وقال ابن اسحاق : كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات : عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدى - أخابنى عجلان - وذلك أن رسول الله - ﷺ رغب فى الصدقة وحض عليها . فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما ، وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذى تصدق بجهده أبا عقيل - أخابنى أنيف - أتى بصاع من تمر ، فأفرغها فى الصدقة ، فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل »[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٨٦ . طبعة دار المعارف .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٥ .

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ، وهناك روايات أخرى ، قريبة فى معناها بما ذكرناها .

وقوله : « يلمزون » من اللمز ، يقال : لمز فلان فلانا إذا عابه وتنقصه .

والمراد بالمطوعين : أغنياء المؤمنين الذين قدموا أموالهم عن طواعية واختيار ، من أجل إعلاء كلمة الله .

والمراد بالصدقات : صدقات التطوع التى يقدمها المسلم زيادة على الفريضة .

والمراد بالذين لا يجدون إلا جهدهم : فقراء المسلمين . الذين كانوا يقدمون أقصى ما يستطيعونه من مال مع قلته ، إذ الجهد : الطاقة ، وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان .

والمعنى : إن من الصفات القبيحة - أيضاً - للمنافقين ، أنهم كانوا يعيبون على المؤمنين ، إذا ما بذلوا أموالهم لله ورسوله عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، وسماحة ضمير ....

وذلك لأن هؤلاء المنافقين - لخلو قلوبهم من الإيمان - كانوا لايدركون الدوافع السامية ، والمقاصد العالية من وراء هذا البذل ..

ومن أجل هذا كانوا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وكانوا يقولون عن المقل : إن الله غنى عن صدقته ، فهم - لسوء نواياهم وبخل نفوسهم ، وخبث قلوبهم - لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون فى إرضاء الله ورسوله .

وقوله : ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ المطوعين ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافقين يلمزون الأغنياء المطوعين بالمال الكثير ، ويلمزون الفقراء الباذلين للمال القليل ؛ لأنه هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم .

وقوله : ﴿ فيسخرون منهم ﴾ بيان لموقفهم الذميم من المؤمنين .

أى : إن هؤلاء المنافقين يستهزئون بالمؤمنين عندما يلبون دعوة رسول الله - ﷺ - إلى الإنفاق فى سبيل الله .

وجاء عطف ﴿ فيسخرون ﴾ على ﴿ يلمزون ﴾ بالفاء ، للإشعار بأنهم قوم يسارعون إلى الاستهزاء بالمؤمنين ، بمجرد أن يصدر عن المؤمنين أى عمل من الأعمال الصالحة التى ترضى الله ورسوله .

وقوله : ﴿ سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ بيان لجزائهم وسوء عاقبتهم .

أى : إن هؤلاء الساخرين من المؤمنين جازاهم الله على سخريتهم فى الدنيا ، بأن فضحهم وأخزاهم ، وجعلهم محل الاحتقار والازدراء ...

أما جزاؤهم فى الآخرة فهو العذاب الأليم الذى لا يخف ولا ينقطع .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت جانبا من طبائع المنافقين وردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم ويبشرهم بالعذاب الأليم .

ثم عقب الله - تعالى - هذا الحكم عليهم بالعذاب الأليم ، بحكم آخر وهو عدم المغفرة لهم بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق ، فقال - تعالى - :

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

قال الجمل : قال المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين ، وفى بيان نفاقهم ، وظهر أمرهم للمؤمنين ، جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه ، ويقولون : استغفر لنا فنزلت هذه الآية .

وهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر، والتقدير : استغفارك وعدمه لهم سواء[١] .

وإنما جاء هذا الخبر هنا فى صورة الأمر للمبالغة فى بيان استوائهما .

وقد جاء هذا الحكم فى صورة الخبر فى موضع آخر هو قوله - تعالى - ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٢] .

والمقصود بذكر السبعين فى قوله: ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ إرادة التكثير، والمبالغة فى كثرة الاستغفار ، فقد جرت عادة العرب فى أساليبهم على استعمال هذا العدد للتكثير لا للتحديد ، فهو لا مفهوم له .

ونظيره قوله - تعالى - ﴿ ذرعها سبعون ذراعا .. ﴾[٣] .

أى : مهما استغفرت لهم يا محمد فلن يغفر الله لهم .

وقوله : ﴿ ذلك أنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ بيان للأسباب التى أدت إلى عدم مغفرة الله لهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) سورة « المنافقون » الآية ٦ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٣٢ .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى امتناع المغفرة لهم ، المفهوم من قوله : ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ .

أى : ذلك الحكم الذى أصدرناه عليهم بعدم مغفرة ذنوبهم مهما كثر استغفارك لهم،سببه : أنهم قوم « كفروا بالله ورسوله » ومن كفر بالله ورسوله ، فلن يغفر الله له ، مهما استغفر له المستغفرون ، وشفع له الشافعون .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله ، أى والله - تعالى - لا يهدى إلى طريق الخير أولئك الذين فسقوا عن أمره ، وخرجوا عن طاعته ، ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين ، وإنما آثروا الغواية على الهداية .

هذا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، شدة شفقته - ﷺ - بأمته ، وحرصه على هدايتها ، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة ، وأنه مع إيذاء المنافقين له كان يستغفر لهم - أملا فى توبتهم - إلى أن نهاه الله عن ذلك .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية ، قال الرسول - ﷺ - أسمع ربى قد رخص لى فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ، فلعل الله أن يغفر لهم ، فقال الله - تعالى - من شدة غضبه عليهم ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ... ﴾ .

وعن قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبى - ﷺ - : « وقد خيرنى ربى فلأزيدنهم على السبعين » فقال الله - تعالى - : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ... ﴾[1] .

وهكذا أصدر الله حكمه العادل فى هؤلاء المنافقين ، بعدم المغفرة لهم ، بسبب كفرهم به وبرسوله ...

وبعد هذا الحديث الطويل المتنوع عن أحوال المنافقين ومسالكهم الخبيثة ، أخذت السورة الكريمة فى الحديث عن حال المنافقين الذين تخلفوا فى المدينة ، وأبوا أن يخرجوا مع الرسول - ﷺ - إلى تبوك ، فقال - تعالى - :

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٩٧ .

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

وقوله : « المخلفون » اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلانا وراءه إذا تركه خلفه .

والمراد بهم : أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك بسبب ضعف إيمانهم ، وسقوط همتهم ، وسوء نيتهم ..

قال الجمل : وقوله ﴿ خلاف رسول الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر مدلول عليه بقوله «مقعدهم» لأنه فى معنى تخلفوا أى: تخلفوا خلاف رسول الله . الثانى : أن خلاف مفعول لأجله والعامل فيه إما فرح وإما مقعد . أى : فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله - ﷺ حيث مضى هو للجهاد وتخلفوا هم عنه . أو بقعودهم لمخالفتهم له ، وإليه ذهب الطبرى والزجاج ، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : « خلف رسول الله » - بضم الخاء واللام ، الثالث : أن ينتصب على الظرف . أى بعد رسول الله ، يقال : أقام زيد خلاف القوم ، أى : تخلف بعد ذهابهم ، وخلاف يكون ظرفا ، وإليه ذهب أبو عبيدة وغيره ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس ، وأبى حيوه ، وعمرو بن ميمون ، « خلف رسول الله » - بفتح الخاء وسكون اللام[1] .

والمعنى : فرح المخلفون : من هؤلاء المنافقين ، بسبب قعودهم فى المدينة ، وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٤ .

وإنما فرحوا بهذا القعود ، وكرهوا الجهاد ؛ لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالى الأمور ، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقى .

وفى التعبير بقوله : ﴿ المخلفون ﴾ تحقير لهم ، وإهمال لشأنهم ، حتى لكأنهم شىء من سقط المتاع الذى يخلف ويترك ويهمل ؛ لأنه لا قيمة له ، أو لأن ضرره أكبر من نفعه .

قال الآلوسى : وإيثار ما فى النظم الكريم على أن يقال ، وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ إيذان بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب التى ينبغى أن يتنافس فيها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله ﷺ ، وفى الكلام تعريض بالمؤمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه »[1] .

وقوله : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر ﴾ حكاية لأقوالهم التى تدل على ضعفهم وجبنهم ، وعلى أنهم قوم لا يصلحون للأعمال التى يصلح لها الرجال .

أى . وقال هؤلاء المنافقون المخلفون لغيرهم ، اقعدوا معنا فى المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ، فإن الحر شديد ، والسفر طويل ، وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب ، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم ، وبذلك ننال بغيتنا من تثبيط همة المجاهدين عن الجهاد فى سبيل الله .

وقوله : ﴿ قل نار جهنم أشد حرا ﴾ رد على أقولهم القبيحة ، وأفعالهم الخبيثة ، أى ، قل يا محمد لهؤلاء المنافقين على سبيل التهكم بهم ، والتحقير من شأنهم : نار جهنم أشد حرا من هذا الحر الذى تخشونه وترونه مانعا من النفير بل هى أشد حرا من نار الدنيا ...

روى الإمام مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ .قال : « نار بنى آدم التى توقدونها . جزء من سبعين جزءا من نار جهنم .. »[2] .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقوله : ﴿ قل نار جهنم أشد حرا ﴾ استجهال لهم ، لأن من تصون مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل ، ولبعضهم :

مسرة أحقاب تلقيت بعدها ... مساءة يوم أريها شبه الصاب
فكيف بأن تلقى مسرة ساعة ... وراء تقضيها مساءة أحقاب[3]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٥١ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٦ فقد ساق هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .
(٣) الأحقاب : الأزمان الطويلة . والأرى : السل والصاب نبات مر .

أى : أن حزن يوم واحد يجعل المسرات الطويلة قبله تتحول إلى ما يشبه الصاب مرارة ، فكيف يكون الحال إذا كانت المسرات ساعة واحدة تعقبها أحقاب طويلة من المساءات ؟ !! .

وقوله : ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ تذييل قصد به الزيادة فى توبيخهم وتحقيرهم .

أى : لو كانوا يفقهون أن نار جهنم أشد حرا ويعتبرون بذلك ، لما فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، ولما كرهوا الجهاد ، ولما قالوا ما قالوا ، بل لحزنوا واكتأبوا على ما صدر منهم ، ولبادروا بالتوبة والاستغفار ، كما فعل أصحاب القلوب والنفوس النقية من النفاق والشقاق .

وقوله : ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً .. ﴾ وعيد لهم بسوء مصيرهم ، وإخبار عن عاجل أمرهم وآجله ، من الضحك القليل فى الدنيا والبكاء الكثير فى الآخرة .

والمعنى : إنهم وإن فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم فى الدنيا ، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والمنقطع الفانى قليل بالنسبة إلى الدائم الباقى .

قال صاحب المنار : وفى معنى الآية قوله - ﷺ - « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » متفق عليه ، بل رواه الجماعة إلا أبا داود من حديث أنس ، ورواه الحاكم من حديث أبى هريرة بلفظ « لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا » .

ثم قال : وإنما كان الأمر فى الآية بمعنى الخبر ، لأنه إنذار بالجزاء لا تكليف وقد قيل فى فائدة هذا التعبير عن الخبر بالإنشاء ، إنه يدل على أنه حتم لا يحتمل الصدق والكذب كما هو شأن الخبر لذاته فى احتمالها ، لأن الأصل فى الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم .. »[1] .

وقوله : ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ تذييل قصد به بيان عدالته ، سبحانه ، فى معاملة عباده .

أى : أننا ما ظلمناهم بتوعدنا لهم بالضحك القليل وبالبكاء الكثير ، وإنما هذا الوعيد جزاء لهم على ما اكتسبوه من فنون المعاصى ، وما اجترحوه من محاربة دائمة لدعوة الحق .

وقوله : ﴿ جزاء ﴾ مفعول للفعل الثانى . أى : ليبكوا جزاء ، ويجوز أن يكون مصدرا حذف ناصبه . أى : يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء .

وجمع - سبحانه - فى قوله ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ بين صيغتى الماضى والمستقبل ، للدلالة على الاستمرار التجددى ماداموا فى الدنيا .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرسول نحو هؤلاء المخلفين الكارهين للجهاد ، فقال :

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٦٦٠ .

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا .. ﴾ .

قوله : ﴿ رجعك ﴾ من الرجع بمعنى تصيير الشىء إلى المكان الذى كان فيه أولا . والفعل رجع أحياناً يستعمل لازما كقوله - تعالى - : ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً .. ﴾ .

وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجوع ، وأحيانا يستعمل متعديا كالآية التى معنا ، وكقوله - تعالى - : ﴿ فرجعناك إلى أمك كى تقرعينها ولا تحزن .. ﴾ وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجع لا الرجوع .

قال الآلوسى : و « رجع » هنا متعد بمعنى رد ومصدره الرجع ، وقد يكون لازما ومصدره الرجوع ، وأوثر هنا استعمال المتعدى - وإن كان استعمال اللازم كثيرا - إشارة إلى أن ذلك السفر لما فيه من الخطر يحتاج الرجوع منه إلى تأييد إلهى ، ولذا أوثرت كلمة « إن » على « إذا »[1] .

والمعنى : فإن ردك الله - تعالى - من سفرك هذا - أيها الرسول الكريم - إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك « فاستأذنوك للخروج » معك فى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة « فقل » لهم على سبيل الإهانة والتحقير « لن تخرجوا معى أبدا » مادمت على قيد الحياة « ولن تقاتلوا معى عدوا » من الأعداء الذين أمرنى الله بقتالهم ، والسبب فى ذلك « إنكم » أيها المنافقون « رضيتم بالقعود » عن الخروج معى وفرحتم به فى « أول مرة » دعيتم فيها إلى الجهاد ، فجزاؤكم وعقابكم أن تقعدوا « مع الخالفين » أى : مع الذين تخلفوا عن الغزو لعدم قدرتهم على تكاليفه كالمرضى والنساء والصبيان . أو مع الأشرار الفاسدين الذين يتشابهون معكم فى الجبن والنفاق وسوء الأخلاق .

قال الإمام الرازى ما ملخصه ، ذكروا فى تفسير الخالف وجوها :

الأول : قال أبو عبيدة الخالفون جمع ، واحدهم خالف ، وهو من يخلف الرجل فى قومه ، ومعناه : فاقعدوا مع الخالفين من الرجال الذين يخلفون فى البيت فلا يبرحونه .

الثانى : أن الخالفين فسر بالمخالفين ، يقال : فلان خالفة أهل بيته إذا كان مخالفا لهم ، وقوم خالفون أى : كثيرو الخلاف لغيرهم .

الثالث : أن الخالف هو الفاسد . قال الأصمعى : يقال : خلف عن كل خير يخلف خلوفا إذا فسد ، وخلف اللبن إذا فسد .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٥٢ .

إذا عرفت هذه الوجوه الثلاثة فلاشك أن اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها ، لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة ... »[١] .

وقال - سبحانه - ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ... ﴾ ولم يقل فإن رجعك الله إليهم ، لأن جميع الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول - ﷺ - إلى تبوك ، لم يكونوا من المنافقين ، بل كان هناك من تخلف بأعذار مقبولة ، كالذين أتوا إلى الرسول - ﷺ - ليحملهم معه ، فقال لهم : « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا « وأعينهم تفيض من الدمع حزنا » .

وسيأتى الحديث عنهم بعد قليل .

وقوله : ﴿ لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا ﴾ إخبار فى معنى النهى للمبالغة وجمع - سبحانه - بين الجملتين زيادة فى تبكيتهم ، وفى إهمال شأنهم ، وفى كراهة مصاحبتهم ...

وذلك ، لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوهم إلا خبالا ، ولو قاتلوا معهم ، لكان قتالهم خاليا من الغاية السامية التى من أجلها قاتل المؤمنون وهى إعلاء كلمة الله ، وكل قتال خلا من تلك الغاية كان مآله إلى الهزيمة ..

هذا ، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على أسوأ صفات المنافقين ، كما اشتملت على أشد ألوان الوعيد لهم فى الدنيا والآخرة « جزاء بما كانوا يكسبون » .

قال الجمل : وفى قوله - تعالى - ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ...﴾ الآية دليل على أن الشخص إذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة ، يجب الانقطاع عنه ، وترك مصاحبته ، لأنه - سبحانه - منع المنافقين من الخروج مع الرسول - ﷺ - إلى الجهاد ، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات[٢] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب أن يفعله الرسول - ﷺ - معهم فى حياتهم ، أتبع ذلك ببيان ما يجب أن يفعله معهم بعد مماتهم فقال - تعالى :

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٨٢ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٥ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له ، أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين .

فقد روى البخارى عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله- ﷺ- فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه، فأعطاه إياه، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله - ﷺ - ليصلى عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله - ﷺ - وقال : يا رسول الله ، تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال الرسول - ﷺ -« وإنما خيرنى الله » فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق - قال : فصلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا .. ﴾ الآية :

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله ابن أبى دعى رسول الله - ﷺ - للصلاة عليه ، فقام عليه « فلما وقف عليه - يريد الصلاة - تحولت حتى قمت فى صدره فقلت : يا رسول الله ، أعلى عدو الله : عبد الله بن أبى القائل يوم كذا ، كذا وكذا ، - وأخذ يعدد أيامه . قال : ورسول الله - ﷺ - يبتسم حتى إذا أكثرت عليه قال : تأخر عنى يا عمر . إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى : ﴿ استغفر لهم ... ﴾ الآية . لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه . قال : فعجبت من جرأتى على رسول الله - ﷺ - والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ الآية . قال : فما صلى رسول الله - ﷺ - بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله - عز وجل »(١) .

والمعنى : « لا تصل » - أيها الرسول الكريم - « على أحد » من هؤلاء المنافقين « مات أبدا ولا تقم على قبره » أى : ولا تقف على قبره عند الدفن أو بعده بقصد الزيارة أو الدعاء له ، وذلك لأن صلاتك عليهم ، ووقوفك على قبورهم شفاعة لهم ، ورحمة بهم ، وتكريم لشأنهم . وهم ليسوا أهلا لذلك .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٨ ففيه جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .

وقوله : ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ تعليل للنهى عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبورهم .

أى : نهيناك - يا محمد - عن ذلك ، لأن هؤلاء المنافقين قد عاشوا حياتهم كافرين بالله ورسوله ، ومحاربين لدعوة الحق ، وماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإيمان .

وجمع - سبحانه - بين وصفهم بالكفر ووصفهم بالفسق زيادة فى تقبيح أمرهم ، وتحقير شأنهم ؛ فهم لم يكتفوا بالكفر وحده ، وإنما أضافوا إليه الفسق ، وهو الخروج عن كل قول طيب ، وخلق حسن ، وفعل كريم .

قال بعضهم : فإن قلت : الفسق أدنى حالا من الكفر ، فما الفائدة فى وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؟ قلت إن الكافر قد يكون عدلا بأن يؤدى الأمانة ، ولا يضمر لأحد سوءًا ، وقد يكون خبيثا كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير ، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ، ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة ، وصفهم الله - تعالى - بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر »[1] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية مايأتى :

١ - تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ،ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له .

قال الإمام ابن كثير : ولما نهى الله - تعالى - عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين ، فشرع ذلك وفى فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، من شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل : وما القيراطان ، قال : « أصغرهما مثل أحد » . وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات ، فروى أبو داود عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله ﷺ - إذا فرغ من الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » .

٢ - وجوب منع كل مظهر من مظاهر التكريم - فى الحياة وبعد الممات عن الذين يحاربون دعوة الحق ، ويقفون فى وجه انتشارها وظهورها :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٦ - بتصرف يسير .

أما منع تكريمهم فى حياتهم فتراه فى قوله - تعالى - فى الآية السابقة :

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً ﴾ .

وأما منع تكريمهم بعد مماتهم فتراه فى هذه الآية : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ﴾ .

ولاشك أن حجب كل تكريم عن أولئك المنافقين فى العهد النبوى ، كان له أثره القوى فى انهيار دولتهم ، وافتضاح أمرهم ، وذهاب ريحهم ، وتهوين شأنهم ..

هذا ، وما فعله الرسول - ﷺ مع عبد الله بن أبى من الصلاة عليه ، والقيام على قبره إنما كان قبل نزول هذه الآية ..

أو أنه - ﷺ - فعل ذلك تطييباً لقلب ابنه الذى كان من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاما .

فقد سبق أن ذكرنا ما رواه البخارى عن ابن عمر أنه قال : لما توفى عبد الله ابن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - ﷺ - فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه ثم سأله أن يصلى عليه .. الحديث.

ثم نهى الله - تعالى - كل من يصلح للخطاب عن الاغترار بما عند هؤلاء المنافقين من مال وولد ، فقال - تعالى :

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

أى : عليك - أيها العاقل - أن لا تغتر بما عند هؤلاء المنافقين من أموال وأولاد ، وأن لا يداخل قلبك شيء من الإعجاب بما بين أيديهم من نعم ، فإن هذه النعم - التى من أعظمها الأموال والأولاد - إنما أعطاهم الله إياها ، ليعذبهم بسببها فى الدنيا عن طريق التعب فى تحصيلها ، والحزن عند فقدها وهلاكها .

وقوله : ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان عذابهم فى الدنيا ، وزهوق النفس : خروجها من الجسد بمشقة وتعب .

أى : أنهم فى الدنيا تكون النعم التى بين أيديهم ، مصدر عذاب لهم ، وأما فى الآخرة

فعذابهم أشد وأبقى ، لأن أرواحهم قد خرجت من أبدانهم وهم مصرون على الكفر والضلال .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء المنافقين بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة ، ومن كان مصيره كهذا المصير ، لا يستحق الإعجاب أو التكريم وإنما يستحق الاحتقار والإهمال .

وهذه الآية الكريمة ، قد سبقتها فى السورة نفسها آية أخرى شبيهة بها . وهى قوله - تعالى - : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[١] .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى سر هذا التكرار فقال : « وقد أعيد قوله ﴿ ولا تعجبك ... ﴾ ؛ لأن تجدد النزول له شأنه فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه »[٢] .

ثم بين - سبحانه - موقف المنافقين وموقف المؤمنين بالنسبة للجهاد ، كما بين عاقبة كل فريق فقال - تعالى - :

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

(١) الآية رقم ٥٥ وراجع تفسيرنا لها .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٩ .

والمراد بالسورة فى قوله - سبحانه - ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ : كل سورة ذكر الله - تعالى - فيها وجوب الإيمان به والجهاد فى سبيله .

أى : أن من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين ، أنهم كلما نزلت سورة قرآنية ، تدعو فى بعض آياتها الناس إلى الإيمان بالله والجهاد فى سبيله ، ماكان منهم عند ذلك إلا الجبن والاستخذاء والتهرب من تكاليف الجهاد ...

وقوله : ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ... ﴾ بيان لحال هؤلاء المنافقين عند نزول هذه السورة .

والطول - بفتح الطاء - يطلق على الغنى والثروة ، مأخوذ من مادة الطول بالضم التى هى ضد القصر .

والمراد بأولى الطول : رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على تكاليف الجهاد .

أى : عند نزول السورة الداعية إلى الجهاد ، يجئ هؤلاء المنافقون أصحاب الغنى والثروة ، إلى الرسول - ﷺ - ليستأذنوا فى القعود وعدم الخروج ... وليقولوا له بجبن واستخذاء ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ .

أى : اتركنا يا محمد مع القاعدين فى المدينة من العجزة والنساء والصبيان ، واذهب أنت وأصحابك إلى القتال .

وإنما خص ذوى الطول بالذكر ، تخليداً لمذمتهم واحتقارهم ؛ لأنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ، لأنهم يملكون وسائل الجهاد والبذل ، لا ليتخاذلوا ويعتذروا ، ويقولوا ما قالوا مما يدل على جبنهم والتوائهم .

وقوله : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ زيادة فى تحقيرهم وذمهم .

والخوالف : جمع خالفة ، ويطلق على المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها ، كما يطلق لفظ الخالفة - أيضاً - على كل من لا خير فيه .

والمعنى : رضى هؤلاء المنافقون لأنفسهم ، أن يبقوا فى المدينة مع النساء ، ومع كل من لا خير فيه من الناس ، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ، وسقطت مروءته ، وألف الذل والصغار .

وقوله ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ بيان لما ترتب على استمرارهم فى النفاق ، وعدم رجوعهم إلى طريق الحق .

أى : أنه ترتب على رسوخهم فى النفاق ، وإصرارهم على الفسوق والعصيان أن ختم الله

على قلوبهم ، فصارت لا تفقه ما فى الإيمان والجهاد من الخير والسعادة ، وما فى النفاق والشقاق من الشقاء والهلاك .

وقوله - سبحانه - ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ استدارك لبيان حال الرسول - ﷺ والمؤمنين ، بعد بيان حال المنافقين .

أى : إذا كان حال المنافقين كما وصفنا من جبن وتخاذل وهوان ... فإن حال المؤمنين ليس كذلك ، فإنهم قد وقفوا إلى جانب رسولهم - ﷺ - فجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ، وأطاعوه فى السر والعلن ، وآثروا ما عند الله على كل شىء فى هذه الحياة ...

وقد بين - سبحانه - جزاءهم الكريم فقال : ﴿ أولئك لهم الخيرات ﴾ أى : أولئك المؤمنون الصادقون لهم الخيرات التى تسر النفس ، وتشرح الصدر فى الدنيا والآخرة ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بسعادة الدارين .

« أعد الله » - تعالى - لهؤلاء المؤمنين الصادقين « جنات تجرى من » تحت ثمارها وأشجارها ومساكنها « الأنهار خالدين »فى تلك الجنات خلودا أبديا ، و « ذلك » العطاء الجزيل ، هو « الفوز العظيم » الذى لا يدانيه فوز ، ولا تقاربه سعادة .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين لجبنهم ، وسوء نيتهم ، وتخلفهم عن كل خير ... ومدحت الرسول - ﷺ - والمؤمنين ، الذين نهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا مايجب عليهم نحو خالقهم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمته - سبحانه .

وبعد أن بين - سبحانه - أحوال المنافقين من سكان المدينة ، أتبع ذلك بالحديث عن المنافقين من الأعراب سكان البادية فقال - تعالى :

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ قرأ الأعرج والضحاك المعذرون مخففا ، ورواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم ... وهى من

أعذر ، ومنه قد أعذر من أنذر ، أى : قد بالغ فى العذر من تقدم إليك فأنذرك ، وأما ، « المعذرون » بالتشديد - وهى قراءة الجمهور - ففيها قولان :

أحدهما : أنه يكون المحق ، فهو فى المعنى المعتذر ، لأن له عذرًا ، فيكون « المعذرون » على هذه أصله المعتذرون ، ثم أدغمت التاء فى الذال ...

وثانيهما : أن المعذر قد يكون غير محق ، وهو الذى يعتذر ولا عذر له .

والمعنى ، أنهم اعتذروا بالكذب ...

قال الجوهرى : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذرين،كان الأمر عنده أن المعذر - بالتشديد - هو المظهر للعذر ، اعتلالاً من غير حقيقة له فى العذر ... »[١] .

ومن هذه الأقوال التى نقلناها عن القرطبى يتبين لنا أن من المفسرين من يرى أن المقصود من المعذرين : أصحاب الأعذار المقبولة .

وقد رجح الإمام ابن كثير هذا الرأى فقال : بين الله - تعالى - حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد ، وهم الذين جاءوا رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة .

قال الضحاك عن ابن عباس : إنه كان يقرأ « وجاء المعذرون » - بالتخفيف ، ويقول : هم أهل العذر ... وهذا القول أظهر فى معنى الآية ؛ لأنه - سبحانه - قال بعد هذا : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ .

أى : لم يأتوا فيعتذروا ... »[٢] .

وعلى هذا الرأى تكون الآية قد ذكرت قسمين من الأعراب : قسما جاء معتذرا إلى رسول الله - ﷺ - وقسما لم يجئ ولم يعتذر ، وهذا القسم هو الذى توعده الله بسوء المصير .

ومنهم من يرى أن المقصود بالمعذرين : أصحاب الأعذار الباطلة ، وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشاف فقال : « المعذرون » من عذر فى الأمر ، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد فيه ، وحقيقته أنه يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له .

أو المعتذرون بإدغام التاء فى الذال ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ، كقوله ، يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ...

وقرئ « المعذرون » بالتخفيف : وهو الذى يجتهد فى العذر ويحتشد فيه . قيل هم أسد

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٢٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨١ .

وغطفان . قالوا : إن لنا عيالا ، وإن بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف .

وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طئ على أهالينا ومواشينا ، فقال - ﷺ - « سيغنينى الله عنكم » وعن مجاهد : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله - تعالى - وعن قتادة : اعتذروا بالكذب ...[1] .

وعلى هذا الرأى تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين - أيضاً - من الأعراب ، إلا أن أولهما قد اعتذر بأعذار غير مقبولة ، وثانيهما لم يعتذر ، بل قعد فى داره مصرا على كفره ، ولذا قال أبو عمرو بن العلاء : كلا الفريقين كان سيئا : قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله - تعالى . بقوله ﴿ وجاء المعذرون ﴾ ، وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله وهم المنافقون ، فتوعدهم الله بقوله : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ؛ لتناسقه مع ما يفيده ظاهر الآية ، لأن الآية الكريمة ذكرت نوعين من الأعراب ، أحدهما : المعذرون .

أى أصحاب الأعذار ، وثانيهما : الذين قعدوا فى بيوتهم مكذبين لله ولرسوله ، فتوعدهم - سبحانه - بالعذاب الأليم ، ولأنه لا توجد قرينة قوية تجعلنا نرجح أن المراد بالمعذرين هنا ، أصحاب الأعذار الباطلة ، لأن التفسير اللغوى للكلمة - كما نقلنا عن القرطبى - يجعلها صالحة للأعذار المقبولة ، فكان الحمل على حسن الظن أولى ، والله ، تعالى ، بعد ذلك هو العليم بأحوال العباد ، ما ظهر منها وما بطن .

وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة : وعندما استنفر النبى ، ﷺ ، الناس إلى غزوة تبوك ، جاءه أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه فى عدم الخروج معه ، فقبل - ﷺ - ما هو حق منها .

وقوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ بيان للفريق الثانى من الأعراب وهو الذى لم يجئ إلى الرسول ﷺ معتذرا .

أى : وقعد عن الخروج إلى تبوك ، وعن المجئ إلى رسول الله - ﷺ - للاعتذار ، أولئك الذين كذبوا الله ورسوله فى دعوى الإيمان ، وهم الراسخون فى النفاق والعصيان من الأعراب سكان البادية .

وقوله : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ وعيد لهم بسوء العاقبة فى الدارين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٠ .

أى : سيصيب الذين أصروا على كفرهم ونفاقهم من هؤلاء الأعراب ، عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، أما الذين رجعوا عن كفرهم ونفاقهم منهم، وتابوا إلى الله -تعالى- توبة صادقة ، فهؤلاء عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا .

ثم ذكر - سبحانه - الأعذار الشرعية المقبولة عنده وعند رسوله ، والتى تجعل صاحبها لا حرج عليه إذا ما قعد معها عن القتال ، فقال ، تعالى :

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات ، منها ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال كنت أكتب لرسول الله - ﷺ - فكنت أكتب « براءة » ، فإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ... ﴾ الآية .

وروى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه . فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مقرن المزنى ، فقالوا : يا رسول الله ، احملنا . فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم فى كتابه فقال : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ ... الآية .

وقال محمد بن إسحاق - فى سياق غزوة تبوك - : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله - ﷺ - وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ... فاستحملوا رسول الله - ﷺ ، وكانوا أهل حاجة فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون .

والضعفاء : جمع ضعيف ، وهو من ليس عنده القوة على القيام بتكاليف الجهاد ، كالشيوخ والنساء والصبيان ...

والمرضى : جمع مريض ، وهم الذين عرضت لهم أمراض حالت بينهم وبين الاشتراك فى القتال ، وهؤلاء عذرهم ينتهى بزوال أمراضهم .

والمعنى : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة أقعدتهم ، ﴿ ولا على المرضى ﴾ الذين حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ﴾ وهم الفقراء القادرون على الحرب ، ولكنهم لا يجدون المال الذين ينفقونه فى مطالب الجهاد ، ولا يجدون الرواحل التى يسافرون عليها إلى أرض المعركة ، ليس على هؤلاء جميعا ﴿ حرج ﴾ أى : إثم أو ذنب بسبب عدم خروجهم مع النبى - ﷺ - إلى تبوك لقتال الكافرين ...

وقوله : ﴿ إذا انصحوا لله ورسوله ﴾ : بيان لما يجب عليهم فى حال قعودهم .

قال الجمل : ومعنى النصح - هنا - أن يقيموا فى البلد ، ويحترزوا عن إنشاء الأراجيف ، وإثارة الفتن ، ويسعوا فى إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله ؛ ويتابعوا الرسول - ﷺ - ، فجملة هذه الأمور تجرى مجرى النصح لله ورسوله ،[1] .

وقوله : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله .

والمحسنون . جمع محسن ، وهو الذى يؤدى ما كلفه الله به على وجه حسن .

والسبيل : الطريق السهل الممهد الموصل إلى البغية . ومن ، زائدة لتأكيد النفى .

أى : ليس لأحد أى طريق يسلكها لمؤاخذة هؤلاء المحسنين ، بسبب تخلفهم عن الجهاد ، بعد أن نصحوا لله ولرسوله ، وبعد أن حالت الموانع الحقيقية بينهم وبين الخروج للجهاد .

قال الآلوسى : والجملة استئناف مقرر لمضمون ما سبق على أبلغ وجه : وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، أى : لا يمر بهم العاتب ، ولا يجوز فى أرضهم ، فما أبعد العتاب عنهم ، وهو جار مجرى المثل .

ويحتمل أن يكون تعليلا لنفى الحرج عنهم و ﴿ المحسنين ﴾ على عمومه . أى : ليس عليهم حرج ، لأنه ما على جنس المحسنين سبيل ، وهم من جملتهم[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٥٨ .

وقال صاحب المنار : « والشرع الإلهى يجازى المحسن بأضعاف إحسانه ، ولا يؤاخذ المسىء إلا بقدر إساءته ، فإذا كان أولئك المعذورون فى القعود عن الجهاد محسنين فى سائر أعمالهم بالنصح المذكور . انقطعت طرق المؤاخذة دونهم والإحسان أعم من النصح المذكور فالجملة الكريمة تتضمن تعليل رفع الحرج عنهم مقرونا بالدليل ، فكل ناصح لله ورسوله محسن ، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه فى الحرج ، وهذه المبالغة فى أعلى مكانة من أساليب البلاغة[1] .

وقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى ، والله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة ، يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من تقصير تقتضيه طبيعتهم البشرية .

وقوله: ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ... ﴾ معطوف على ما قبله ، من عطف الخاص على العام ، اعتناء بشأنهم ، وجعلهم كأنهم لتميزهم جنس آخر ، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك « لا يجدون ما ينفقون » .

أى : لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، إذا ما تخلفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ولا إثم - أيضاً - على فقراء المؤمنين ، الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل التى يركبونها لكى يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل قلت لهم يا محمد « لا أجد ما أحملكم عليه » .

وفى هذا التعبير ما فيه من تطييب قلوب هؤلاء السائلين فكأنه - ﷺ - يقول لهم إن ما تطلبونه أنا أسأل عنه ، وأفتش عليه فلا أجده ، ولو وجدته لقدمته إليكم .

وقوله : ﴿ تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون ﴾ بيان للآثار التى ترتبت على عدم وجود ما يحملهم من رواحل : لكى يخرجوا مع الرسول ﷺ إلى تبوك .

أى : أن هؤلاء المؤمنين الفقراء ، عندما اعتذرت لهم بقولك : « لا أجد ما أحملكم عليه » انصرفوا من مجلسك ، وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأنهم لا يجدون المال الذى ينفقونه فى مطالب الجهاد ، ولا الرواحل التى يركبونها فى حال سفرهم إلى تبوك .

فالجملة الكريمة تعطى صورة صادقة مؤثرة للرغبة الصادقة فى الجهاد ، وللألم الشديد للحرمان من نعمة أدائه .

وبمثل هذه الروح ارتفعت راية الإسلام ، وعزت كلمته ، وانتشرت دعوته .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى نستطيع أن نأخذها من هاتين الآيتين مايأتى :

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٥٨ .

١ - أن التكاليف الإسلامية تقوم على اليسر ورفع الحرج ، ومن مظاهر ذلك : أن الجهاد . وهو ذروة سنام الإسلام ، قد أعفى الله - تعالى - منه الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون وسائله ومتطلباته .

قال الإمام القرطبى[١] : قوله تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى .. ﴾ هذه الآية أصل فى سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شىء مسقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال . ونظير هذه الآية قوله . تعالى - : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها[٢] ﴾ وقوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج[٣] ﴾ .

٢ - أنه متى وجدت النية الصادقة فى فعل الخير . حصل الثواب وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا للجهاد لعذر شرعى ، بشرهم النبى ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج فى الأجر .

قال الإمام ابن كثير : فى الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله - ﷺ قال . « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم قالوا : وهم بالمدينة قال نعم حبسهم العذر » .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شاركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض[٤] » .

٣ - أن الصحابة - رضى الله عنهم - ضربوا أروع الأمثال فى الحرص على الجهاد والاستشهاد وأن أعذارهم الشرعية لم تمنع بعضهم من المشاركة فى القتال ...

فهذا عبد الله بن أم مكتوم وكان يخرج إلى غزوة أحد ويطلب أن يحمل اللواء . وهذا عمرو ابن الجموح- وكان أعرج- يخرج فى مقدمة الجيوش فيقول له الرسول- ﷺ : «إن الله قد عذرك » فيقول : « والله لأحفرن بعرجتى هذه الجنة » - أى لأتركن آثار أقدامى فيها .

ومن كان يؤتى به وهو يمشى بين الرجلين معتمدا عليهما من شدة ضعفه» ومع ذلك يقف فى صفوف المجاهدين .

وبهذه القلوب السليمة ، والعزائم القوية والنفوس النقية التى خالط الإيمان شغافها ..

---

(١) تفسير القرطبى - بتصرف يسير جـ ٨ ص ٢٢٦ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٣) سورة الفتح الآية ١٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٦ .

ارتفعت كلمة الحق ، وعزت كلمة الإسلام .

وبعد أن بين - سبحانه - أحكام أصحاب الأعذار المقبولة ، أتبع ذلك ببيان أحكام الأعذار الكاذبة ، والصفات القبيحة ، فقال تعالى .

۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

فهذه الآيات الكريمة بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا فى المدينة بدون عذر ، بعد أن يرجع الرسول ﷺ إليهم والمؤمنون من تبوك .

والمعنى : إذا كان الضعفاء والمرضى ومن فى حكمهم ، لا إثم ولا عقوبة عليهم بسبب تخلفهم عن الجهاد ، فإن « السبيل » أى الإثم والعقوبة « على الذين يستأذونك » فى التخلف « وهم أغنياء » أى يملكون كل وسائل الجهاد من مال وقوة وعدة .

وقوله : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ استئناف تعليلى مسبوق لمزيد مذمتهم .

أى : استأذنوك فى القعود مع غناهم وقدرتهم على القتال ، لأنهم لخلو قلوبهم من الإيمان ، ولسقوط همتهم وجبنهم ، رضوا لأنفسهم أن يقبعوا فى المدينة مع الخالف من النساء والصبيان والعجزة .

وقوله : ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ بيان لسوء مصيرهم .

أى : وبسبب هذا الإصرار على النفاق ، والتمادى فى الفسوق والعصيان ، ختم الله - تعالى - على قلوبهم ، فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية ودنيوية وأخروية .

وقوله : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ ، إخبار عما سيقولونه للمؤمنين عند لقائهم بهم .

أى : أن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد مع قدرتهم عليه ، سيعتذرون إليكم - أيها المؤمنون - إذا رجعتم إليهم من تبوك ، بأن يقولوا لكم مثلا: إن قعودنا فى المدينة وعدم خروجنا معكم كانت له مبرراته القوية . فلا تؤاخذونا .

وهذه الجملة الكريمة من الأنباء التى أنبأ الله بها نبيه - ﷺ - عن أحوال المنافقين وعما سيقولونه له وللمؤمنين بعد عودتهم إليهم ، وهذا يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة ، وقبل وصول الرسول وأصحابه إلى المدينة من تبوك .

وقوله : ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ ، إبطال لمعاذيرهم ، وتلقين من الله - تعالى - لرسوله بالرد الذى يخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عندما يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لهم : دعوكم من هذه المعاذير الكاذبة ، ولا تتفوهوا بها أمامنا ، فإننا « لن نؤمن لكم » ولن نصدق أقوالكم ، فإن الله ، تعالى . قد كشف لنا عن حقيقتكم ووضح لنا أحوالكم ، وبين لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان ، وما دام الأمر كذلك ، فوفروا على أنفسكم هذه المعاذير الكاذبة .

وقال ، سبحانه . ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ ولم يقل قد نبأنى ، للاشعار بأن الله - تعالى - قد أمر رسوله . ﷺ . أن يبلغ المؤمنين بأحوال هؤلاء المنافقين حتى يكونوا على بينة من أمرهم .

وقوله : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ تهديد لهم على نفاقهم وكذبهم .

أى : دعوا عنكم هذه الأعذار الباطلة ، فإن الله - تعالى - مطلع على أحوالكم ، وسيعلم سركم وجهركم علما يترتب عليه الجزاء العادل لكم ، ويبلغ رسوله - ﷺ - بأخباركم ، هذا

فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فأنتم « ستردون » يوم القيامة « إلى عالم الغيب والشهادة » الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء « فينبئكم بما كنتم تعملون » أى : فيخبركم بما كنتم تعملونه فى الدنيا من أعمال قبيحة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب .

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن هؤلاء المنافقين ، سيؤكدون أعذارهم الكاذبة بالأيمان الفاجرة فقال : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ... ﴾ .

أى : أنهم سيحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إذا مارجعتم إليهم من تبوك وذلك لكى تعرضوا عنهم فلا توبخوهم على قعودهم ، ولا تعنفوهم على تخلفهم .

وقوله ﴿ فأعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾ تعليل لوجوب الإعراض عنهم ، لا على سبيل الصفح والعفو ، بل على سبيل الإهمال والترك والاحتقار .

أى : فأعرضوا - أيها المؤمنون - عن هؤلاء المنافقين المتخلفين ، لأنهم « رجس » .

أى : قذر ونجس لسوء نواياهم ، وخبث طواياهم .

وقد جعلهم - سبحانه - نفس الرجس ، مبالغة فى نجاسة أعمالهم ، وقبح بواطنهم .

وقوله : ﴿ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة .

أى : أنهم فى الدنيا محل الاحتقار والازدراء لنجاسة بواطنهم ، أما فى الآخرة فمستقرهم وموطنهم جهنم بسبب ما اكتسبوه من أعمال قبيحة ، وما اجترحوه من أفعال سيئة .

وقوله : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ بدل مما قبله .

ولم يذكر - سبحانه - المحلوف به لظهوره أى : يحلفون بالله لترضوا عنهم ، ولتصفحوا عن سيئاتهم ...

وقوله : ﴿ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ بيان لحكم الله - تعالى - فيهم ، حتى يكون المؤمنون على حذر منهم .

أى : إن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد يحلفون بالله لكم بأنهم ما تخلفوا إلا لعذر ، لكى تصفحوا عنهم ، أيها المؤمنون ، فإن صفحتم عنهم على سبيل الفرض فإن الله - تعالى - لا يصفح ولا يرضى عن القوم الذين فسقوا عن أمره ، وخرجوا عن طاعته .

وقال الآلوسى ، « والمراد من الآية الكريمة ، نهى المخاطبين عن الرضا عنهم ، وعن الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده ، فإن الرضا عمن لايرضى عنه الله - تعالى - مما لا يكاد يصدر عن المؤمنين ، والآية نزلت على ما روى عن ابن عباس فى جد بن قيس ،

ومعتب بن قشير ، وأصحابهما من المنافقين ، وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبى - ﷺ - المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة : ألا يجالسوهم ولا يكلموهم فامتثلوا »[١] .

وقال - سبحانه - ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ ولم يقل فإن الله لا يرضى عنهم ، لتسجيل الفسق عليهم ، وللإيذان بشمول هذا الحكم لكل من كان مثلهم فى الفسوق وفى الخروج عن طاعة الله ، تعالى .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ محذوف ، والتقدير : فإن ترضوا عنهم على سبيل الفرض ، فإن رضاكم عنهم لن ينفعهم ، لأن الله تعالى . لا يرضى عن القوم الذين خرجوا عن طاعته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت جانباً آخر من الأحوال القبيحة للمنافقين ، وردت على معاذيرهم الكاذبة ، وأيمانهم الفاجرة بما يفضحهم ويخزيهم ، وتوعدتهم بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ثم بعد الحديث الطويل عن النفاق والمنافقين ، أخذت السورة الكريمة . فى الحديث عن طوائف أخرى منها الصالح ، ومنها غير الصالح ، وقد بدأت بالحديث عن الأعراب سكان البادية ، فقال - تعالى - :

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟
حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ
عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٤ .

قال صاحب المنار : قوله ، سبحانه : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ . بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين ، لأنه مما يسأل عنه بعد ما تقدم فى منافقى الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى .

والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده : أعرابى ، والأنثى أعرابية ، والجمع أعاريب ، والعرب : اسم جنس لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره ، واحده : عربى .. »[١] .

والمراد بالأعراب هنا : جنسهم لا كل واحد منهم ، بدليل أن الله . تعالى . قد ذم من يستحق الذم منهم ، ومدح من يستحق المدح منهم ، فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده .

وقد بدأ ، سبحانه ، بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ، إلحاقا لهم بمنافقى المدينة الذين تحدثت السورة عنهم قبل ذلك مباشرة حديثاً مستفيضاً ، وبهذا الترتيب الحكيم تكون السورة الكريمة قد واصلت الحديث عن منافقى الحضر والبدو .

والمعنى : « الأعراب » سكان البادية « أشد كفراً ونفاقا » من الكفار والمنافقين الذين يسكنون الحضر والقرى .

وذلك ، لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة وكروفر فى الصحراء ، وخشونة فى الحياة ... كل ذلك جعلهم أقسى قلوباً ، وأجفى قولا ، وأغلظ طبعا ، وأبعد عن سماع ما يهدى نفوسهم إلى الخير من غيرهم سكان المدن .

وقوله : ﴿ وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ معطوف على ما قبله لتعديد صفاتهم الذميمة .

قال القرطبى : قوله : « وأجدر » عطف على « أشد » ومعناه : أخلق ، وأحق ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى : خليق به . وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدراء وجديرون ، وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء فقوله : هو أجدر بكذا ، أى : أقرب إليه وأحق به[٢] .

والمعنى : الأعراب أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر الكفار والمنافقين ، وهم كذلك أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، بسبب ابتعادهم عن مجالس رسول الله . ﷺ . وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه . ﷺ .من شرائع وآداب وأحكام .

---

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ٨ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٣٣ .

وقوله: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أى: «عليم» بأحوال عباده الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شيء من صفاتهم وطباعهم « وحكيم » فى صنعه بهم ، وفى حكمه عليهم ، وفيما يشرعه لهم من أحكام ، وفيما يجازيهم به من ثواب أو عقاب .

هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا أمثلة متعددة لجفاء الأعراب وجهلهم ، ومن ذلك قول الإمام ابن كثير :

قال الأعمش عن ابراهيم قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صومان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم « نهاوند » فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى وإن يدك لتريبنى !! فقال زيد : وما يريبك من يدى ؟ إنها الشمال !! فقال الأعرابى : والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال !! فقال زيد : صدق الله إذ يقول : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .. ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » .

وروى الإمام مسلم عن عائشة قال : قدم ناس من الاعراب على رسول الله - ﷺ - فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقال - ﷺ - نعم . فقالوا : لكنا والله ما نقبل !! فقال - ﷺ - « وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[1] .

ثم بين - سبحانه - حال فريق آخر من منافقى الاعراب فقال : ﴿ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ﴾ .

أى : ومن الاعراب قوم آخرون يعتبرون ما ينفقونه فى سبيل الله غرامة وخسارة عليهم لأنهم لا ينفقون ما ينفقونه طمعا فى ثواب، أو خوفا من عقاب وإنما ينفقونه تقية ورياء ومداراة للمسلمين ، لا مساعدة للغزاة والمجاهدين، ولا حبا فى انتصار المؤمنين .

قال الجمل: وقوله: «من يتخذ ما ينفق مغرما» «من» مبتدأ، وهى موصولة أو موصوفة، و« مغرما » . مفعول ثان ، لأن « اتخذ » هنا بمعنى صير ، والمفعول الأول قوله : « ما ينفق » .

والمغرم : الخسران ، مشتق من الغرم وهو الهلاك لأنه سببه ، وقيل أصله الملازمة ، ومنه الغريم للزومه من يطالبه »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٣ بتصرف وتلخيص .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢١١ .

وقوله : ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ معطوف على ما قبله ، والتربص : الانتظار والترقب والدوائر : جمع دائرة . وهو ما يحيط بالإنسان من مصائب ونكبات ، كما تحيط الدائرة بالشىء الذى بداخلها .

أى : أنهم بجانب اعتبارهم ما ينفقونه غرامة وخسارة ، ينتظرون بكم - أيها المؤمنون - صروف الدهر ونوائبه التى تبدل حالكم من الخير إلى الشر ومن النصر الى الهزيمة ، ومن الصحة الى المرض والأسقام ، ومن الأمان والاطمئنان إلى القلق والاضطراب ..

وقوله : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ جملة معترضة ، جىء بها للدعاء عليهم .

أى : عليهم لا عليكم - أيها المؤمنون - تدور دائرة السوء ، التى يتبدل بها حالهم إلى الهلاك والفساد .

والسوء - بفتح السين - مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا فعل به ما يكره ، والسوء - بالضم - اسم منه . وقيل المفتوح بمعنى الذم ، والمضموم بمعنى العذاب والضرر .

وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة ، كما فى قولهم : رجل صدق .

وفى هذا التعبير ما فيه من الذم لهؤلاء المنافقين ، لأنه - سبحانه - جعل السوء كأنه دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ، وتدور بهم فلا تدع لهم مهربا أو منجاة من عذابها وضررها .

وقوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ تذييل قصد به تهديدهم وتحذيرهم بما ارتكسوا فيه من نفاق وكفر وشقاق .

والله تعالى - « سميع » لكل ما يتفوهون به من أقوال ، « عليم » بكل ما يظهرونه وما يبطنونه من أحوال ، وسيحاسبهم على ما صدر منهم حسابا عسيرا يوم القيامة : وينزل بهم العقاب الذى يناسب جرائمهم ..

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال هؤلاء الأعراب المنافقين ، أتبعه ببيان حال المؤمنين الصادقين منهم فقال : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

أى : ومن الأعراب قوم آخرون من صفاتهم أنهم يؤمنون بالله إيمانا صادقا ، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

وقوله : ﴿ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ مدح لهم على إخلاصهم وسخائهم وطاعتهم ...

والقربات : جمع قربة وهى ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من أعمال الخير، والمراد

بصلوات الرسول : دعواته للمتقربين الى الله بالطاعة .

أى : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر إيمانا حقا ، ويعتبر كل ما ينفقه فى سبيل الله وسيلة للتقرب إليه - سبحانه - وتعالى بالطاعة ، ووسيلة للحصول على دعوات الرسول - ﷺ - له بالرحمة والمغفرة ، وبحسنات الدنيا والآخرة .

ولقد كان من عادة النبى - ﷺ - أن يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، فقد ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله - ﷺ - دعا لآل أبى أوفى عندما تقدموا إليه بصدقاتهم فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » أى : ارحمهم وبارك لهم فى أموالهم ..

وقوله : ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ شهادة لهم منه سبحانه - بصدق إيمانهم ، وخلوص نياتهم ، وقبول صدقاتهم .

والضمير فى قوله ﴿ إنها ﴾ يعود على النفقة التى أنفقوها فى سبيل الله و﴿ ألا ﴾ أداة استفتاح جىء بها لتأكيد الخبر والاهتمام به . أى : ألا إن هذه النفقات التى تقربوا بها إلى الله ، مقبولة عنده - سبحانه - قبولا مؤكدا ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من أجر جزيل ...

وقوله ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ وَعْدٌ لهم بإحاطة رحمته بهم . والسين للتحقيق والتأكيد .

أى : أن هؤلاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ، والمتقربين إليه سبحانه بالطاعات ، سيغمرهم الله تعالى برحمته التى لا شقاء معها .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنتين بثبات الأمر وتمكنه ، وكذلك قوله : ﴿ سيدخلهم ﴾ وما فى السين من تحقيق الوعد. وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها [١] .

وقوله : « إن الله غفور رحيم » تذييل مقرر لما قبله على سبيل التعليل .

أى : إن الله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة للمخلصين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت من يستحق الذم من الأعراب ومدحت من يستحق المدح منهم ، وبينت مصير كل فريق ليكون عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٤ .

وبعد هذا التقسيم للأعراب ، انتقلت السورة للحديث عن المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب الرسول - ﷺ - ، وأطاعوه فى السر والعلن ، فقال تعالى :

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

فهذه الآية الكريمة قد مدحت ثلاث طوائف من المسلمين المعاصرين للعهد النبوى .

الطائفة الأولى « السابقون الأولون من المهاجرين » وهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة ، وهاجروا الى الحبشة ، ثم الى المدينة من أجل إعلاء كلمة الله واستمروا فى المدينة مع رسول الله - ﷺ - إلى أن تم الفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وقيل المراد بهم : الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل : الذين شهدوا غزوة بدر .

والطائفة الثانية : السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبى - ﷺ - قبل أن يهاجر اليهم إلى المدينة بيعة العقبة الأولى والثانية .

وكانت بيعة العقبة الأولى فى السنة الحادية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعة أفراد .

أما بيعة العقبة الثانية فكانت فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعين رجلا وامرأتين .

ثم يلى هؤلاء أولئك المؤمنون من أهل المدينة الذين دخلوا فى الإسلام على يد مصعب بن عمير ، قبل وصول الرسول - ﷺ - اليها .

ثم يلى هؤلاء جميعا أولئك الذين آمنوا بالنبى - ﷺ - بعد مقدمه إلى المدينة .

والطائفة الثالثة : « الذين اتبعوهم بإحسان » أى : الذين اتبعوا السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، اتباعا حسنا فى أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ونصرتهم لدعوة الحق .

قال الآلوسى ما ملخصه : وكثير من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين ، جميع المهاجرين والأنصار . ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .

روى عن حميد بن زياد قال : قلت يوما لمحمد بن كعب القرظى ، ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم من الفتن ؟ فقال لى : إن الله - تعالى - قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم ، فقلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ، فقال : سبحان الله !! ألم تقرأ قوله . تعالى - : ﴿ والسابقون الأولون .. ﴾ الآية فقد أوجب . سبحانه لجميع الصحابة الجنة وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسنا لا سوءًا ..[١] .

وقوله : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ بيان لسمو منزلتهم ، وارتفاع مكانتهم .

أى : رضى الله عنهم فى إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ، ورفع درجاتهم وتجاوز عن زلاتهم ، ورضوا عنه ، بما أسبغه عليهم من نعم جليلة ، وبما نالوه منه . سبحانه . من هداية وثواب .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان ما هيأه لهم فى الآخرة من إكرام فقال : ﴿ وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - بجانب رضاه عنهم ورضاهم عنه فى الدنيا ، قد أعد لهم - سبحانه - فى الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها خلودا أبديا وذلك الرضا والخلود فى الجنات من الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا تدانيه سعادة .

قال الإمام ابن كثير : أخبر الله - تعالى - فى هذه الآية « أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . فياويل من أبغضهم ، أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم ، عياذا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الايمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضى الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون[٢] .

وبهذا نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧١ .

تبعهم بإحسان ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم وإيثارهم ما عند الله على هذه الدنيا وما فيها ..

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن أصناف أخرى من الناس ، منهم قوم . أجادوا النفاق ، ومرنوا عليه ، ولجوا فيه . ومنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ومنهم قوم موقوف أمرهم إلى أن يظهر الله حكمه فيهم فقال تعالى :

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ
مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ
إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قال القرطبى : ومعنى : « مردوا على النفاق » أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ، أو لجوا فيه وأبوا غيره وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجرد، فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه رملة مرداء

أى لانبت فيها ، وغصن أمرد . أى : لا ورق له ... ويقال : مرد يمرد مرودًا ومرادة »[1] .

والمعنى : اذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون ، فاحترسوا منهم ، واحترسوا - أيضا - من قوم آخرين يسكنون معكم داخل المدينة ، مردوا على النفاق ، أى : مرنوا عليه ، وأجادوا فنونه ، حتى بلغوا فيه الغاية .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالموصول . فى قوله « وممن حولكم » . قبائل:جهينة ، ومزينة وأشجع ، وأسلم ... وكانت منازلهم حول المدينة وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين .

واستشكل ذلك بأن النبى - ﷺ - مدح بعض هذه القبائل ودعا لبعضها فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أنه قال : « قريش ، والأنصار ، وجهينة ، ومزينة ، وأشجع وأسلم ، وغفار ، موالى الله - تعالى - ورسوله لا والى لهم غيره » .

وأجيب ذلك باعتبار الأغلب منهم[2] .

وقوله : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ بيان لتمردهم فى النفاق وتمهرهم فيه .

أى : أنت أيها الرسول الكريم . لا تعرف هؤلاء المنافقين . مع كمال فطنتك ، وصدق فراستك لأنك تعامل الناس بظواهرهم ، وهم قد أجادوا النفاق وحذقوه ، واجتهدوا فى الظهور بمظهر المؤمنين ، أما نحن فإننا نعلمهم لأننا لا يخفى علينا شىء من ظواهرهم أو بواطنهم ..» .

قال الإمام ابن كثير : وقوله تعالى ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ لا ينافى قوله تعالى ﴿ ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ... ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان - ﷺ - يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا ، وإن كان يراه صباحا ومساء .

وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قلت : يارسول الله ، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة ، فقال : « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب » وأصغى إلى رسول الله - ﷺ - برأسه فقال : « إن فى أصحابى منافقين » : ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين بما لا صحة له من الكلام ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم .

---

(١) تفسير القرطبى بتصرف وتلخيص جـ ٨ ص ٢٤٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٠ .

ثم قال : وقد تقدم فى تفسير قوله - تعالى - ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ أنه - ﷺ - أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقا . وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم .

وروى الحافظ بن عساكر عن أبى الدرداء ، أن رجلا يقال له حرملة أتى النبى - ﷺ - فقال : الإيمان ها هنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ها هنا وأشار بيده إلى قلبه فقال رسول الله - ﷺ - « اللهم اجعل له لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حبى ، وحب من يحبنى ، وصير أمره إلى خير » .

فقال الرجل يارسول الله : إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ فقال : - ﷺ - : « ومن أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد سترا »[1] .

وقال الآلوسى . واستدل بالآية على أنه لا ينبغى الإقدام على دعوى معرفة الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها ، فقد أخرج عبد الرازق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة : أنه قال : ما بال أقوام يتكلفون على الناس يقولون : فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدرى . لعمرى لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه نبى . فقد قال نوح عليه السلام « وما علمى بما كانوا يعملون » وقال شعيب عليه السلام « وما أنا عليكم بحفيظ » ، وقال الله تعالى لنبيه محمد - ﷺ - ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ .

وهذه الآيات ونحوها أقوى دليل فى الرد على من يزعم الكشف والاطلاع على المغيبات بمجرد صفاء القلب ، وتجرد النفس عن الشواغل .

ثم قال : والجملة الكريمة « لا تعلمهم نحن نعلمهم » تقرير لما سبق من مهارتهم فى النفاق ، أى : لا يقف على سرائرهم المذكورة فيهم ، إلا من لا تخفى عليه خافية ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص[2] .

وقوله : ﴿ سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وعيد لهم بسوء المصير فى الدنيا والآخرة .

أى : هؤلاء المنافقون الذين مردوا على النفاق ، سنعذبهم فى الدنيا مرتين ، مرة عن طريق فضحيتهم وهتك أستارهم وجعلهم يعيشون فى قلق وهم دائم ، والأخرى عن طريق ضرب

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١١ .

الملائكة لوجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم وما يتبع ذلك من عذابهم فى قبورهم إلى أن تقوم الساعة ، فيجدون العذاب الأكبر الذى عبر عنه - سبحانه - بقوله ﴿ ثم يردون الى عذاب عظيم ﴾ .

أى : ثم يعودن ويرجعون إلى خالقهم - سبحانه - يوم القيامة فيعذبهم عذابا عظيما بسبب إصرارهم على النفاق ، ورسوخهم فى المكر والخداع .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير ، كما فى قوله تعالى ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور[١] ﴾ أى : كرة بعد أخرى[٢] .

ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من المسلمين فقال : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ ..

قال الآلوسى : قوله : وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين على الصحيح . وقيل هم طائفة من المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم[٣] .

والمعنى : ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم اعترفوا بذنوبهم أى أقروا بها ولم ينكروها .

وقوله : ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ أى خلطوا عملهم الصالح وهو جهادهم فى سبيل الله قبل غزوة تبوك ، بعمل سىء وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة .

وقوله : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أى عسى الله تعالى : أن يقبل توبتهم ، ويغسل ، حوبتهم ، ويتجاوز عن خطاياهم .

وعبر - سبحانه - بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل الشخص ، بل يكون على خوف وحذر .

وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله تعالى - فهى متحققة الوقوع ، لأنها صادرة من كريم ، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدًا فى شىء لا يعطيه إياه .

وقوله : إن الله غفور رحيم ، تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه ، إن الله تعالى كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

---

(١) سورة الملك الآية ٣ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٩٣ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١١ .

هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية ولعل أرجح هذه الروايات ما رواه ابن جرير من أن هذه الآية نزلت فى أبى لبابة وأصحابه ، وكانوا تخلفوا عن النبى - ﷺ - فى غزوة تبوك ، فلما قفل رسول الله - ﷺ - من غزوته ، وكان قريبا من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله وقالوا : نكون فى الظلال والأطعمة والنساء ونبى الله فى الجهاد واللأواء . والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى ، ثم لانطلقها حتى يكون نبى الله هو الذى يطلقنا .

وأوثقوا أنفسهم . وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فقدم رسول الله - ﷺ - من غزوته فمر بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم ، فقيل له : إنه أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يانبى الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم .

فقال - ﷺ - : « لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ... ﴾ الآية ، فأطلقهم رسول الله - ﷺ - وعذرهم[1] .

ثم أمر الله تعالى - نبيه - ﷺ - أن يأخذ الصدقات من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ومن غيرهم ، فقال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أطلق رسول الله - ﷺ - أبا لبابة وأصحابه جاءوا بأموالهم إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا له يارسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا ، فقال : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » .

فأنزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة .... ﴾ الآية [2] .

وقال الإمام ابن كثير : أمر الله تعالى - رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها . وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم .

ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان هذا خاصا بالرسول - ﷺ - ولهذا احتجوا بقوله : - تعالى - : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ..... ﴾ الآية .

وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ، وقاتلوهم حتى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٠٥ طبعة دار المعارف .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٠٢ .

أدوا الزكاة الى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله - ﷺ - حتى قال الصديق : « والله لومنعونى عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه[١] » .

والمعنى : خذ - أيها الرسول الكريم - من أموال هؤلاء المعترفين بذنوبهم ، ومن غيرهم من أصحابك « صدقة » معينة ، كالزكاة المفروضة ، أو غير معينة كصدقة التطوع .

وقوله : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ بيان للفوائد المترتبة على هذه الصدقة .

أى : من فوائد هذه الصدقة أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع .. وتزكى القلوب من الأخلاق الذميمة ، وتنمى الأموال والحسنات قال بعضهم : قوله : « تطهرهم » قرئ مجزوما على أنه جواب للأمر . وقرئ . مرفوعا على أنه حال من ضمير المخاطب فى قوله : « خذ » أو صفة لقوله « صدقة » والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده أى : تطهرهم بها ...

وقوله : « وتزكيهم » لم يقرأ إلا بإثبات الياء ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكيهم بها .

هذا على قراءة الجزم فى « تطهرهم » ، وأما على قراءة الرفع فيكون قوله « وتزكيهم بها » معطوف على قوله « تطهرهم » حالا أو صفة[٢] .

وقوله : وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم أى : وادع لهم بالرحمة والمغفرة ، وقبول التوبة ، فإن دعاءك لهم تسكن معه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، ويجعلهم فى ثقة من أن الله - تعالى - قد قبل توبتهم ، فأنت رسوله الأمين ، ونبيه الكريم .

فالمراد بالصلاة هنا : الدعاء لهم بالرحمة والمغفرة .

قال بعضهم : « وظاهر » قوله : « وصل عليهم » أنه يجب على الإمام أو نائبه إذا أخذ الزكاة أن يدعو للمتصدق . وبهذا أخذ داود وأهل الظاهر .

وأما سائر الفقهاء فقد حملوا الأمر هنا على الندب والاستحباب ، لأن الرسول - ﷺ - قال لمعاذ : « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » ولم يأمره بالدعاء ..

أما صيغة الدعاء فلم يرد فيها تعيين إلا ما رواه الستة - غير الترمذى من قوله - ﷺ - « اللهم صل على آل أبى أوفى » - عندما أخذ منهم الزكاة - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٦ .
(٢) تفسير القاسمى - بتصرف وتلخيص - جـ ٨ ص ٣٢٥٢ .

ومن هنا قال الحنابلة وداود وأهل الظاهر لا مانع من أن يقول آخذ الزكاة : اللهم صلى على آل فلان .

وقال باقى الأئمة لا يجوز أن يقال : اللهم صل على آل فلان ، وإن ورد فى الحديث ، لأن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالانبياء - صلوات الله عليهم - ، كما أن قولنا : - عز وجل - صار مخصوصا بالله - تعالى - .

قالوا : وإنما أحدث الصلاة على غير الأنبياء مبتدعو الرافضة فى بعض الأئمة ، والتشبه بأهل البدع منهى عنه .

ولا خلاف فى أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء تبعا لهم فيقال : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته .. لأن السلف استعملوا ذلك ، وأمرنا به فى التشهد ، ولأن الصلاة على التابع تعظيم للمتبوع .. »[1] .

وقوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ أى : سميع لا عترافهم بذنوبهم وسميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، وعليم بندمهم وتوبتهم ، وبكل شىء فى هذا الكون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم حرضهم - سبحانه - على التوبة النصوح ، وحثهم على بذل الصدقات فقال : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ... ﴾ .

أى : ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنوبهم ، أن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يقبل التوبة الصادقة من عباده المخلصين ، وأنه - سبحانه - هو الذى « يأخذ الصدقات » .

أى : يتقبلها من أصحابها قبول من يأخذ شيئا ليؤدى بدله : فالتعبير بالأخذ للترغيب فى بذل الصدقات ، ودفعها للفقراء . والاستفهام للتقرير والتحضيض عل تجديد التوبة وبذل الصدقة .

وقوله : ﴿ وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ تذييل قصد به تقرير ما قبله وتأكيده .

أى : وأن الله وحده هو الذى يقبل توبة عباده المرة بعد الأخرى ، وأنه هو الواسع الرحمة بهم ، الكثير المغفرة لهم :

قال ابن كثير : قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات .. ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحقها ، وأخبر - تعالى - أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله

---

(١) تفسير آيات الأحكام - بتصرف وتلخيص جـ ٣ ص ٤٨ .

يتقبلها بيمينه ، فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله - ﷺ - . فعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ . وقوله : ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : إن الصدقة تقع فى يد الله - تعالى - قبل أن تقع فى يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية . ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ... ﴾[1] .

ثم أمر - سبحانه - بالتزود من العمل الصالح ، وحذر من الوقوع فى العمل السىء ، فقال - تعالى - : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

أى : وقل -أيها الرسول الكريم - لهؤلاء التائبين وغيرهم ، قل لهم : اعملوا ما تشاءون من الأعمال ، فإن الله مطلع عليها ، وسيطلع رسوله والمؤمنون عليها كذلك .

وخص - سبحانه - رسوله والمؤمنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يهتم المخاطبون باطلاعهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ فسيرى الله عملكم ... ﴾ تعليل لما قبله ، أو تأكيد لما يستفاد منه من الترغيب والترهيب ، والسين للتأكيد .. والمراد من رؤية الله العمل - عند جمع - الاطلاع عليه ، وعلمه علما جليا ، ونسبة ذلك للرسول - ﷺ - والمؤمنين ، باعتبار ان الله - تعالى - لا يخفى ذلك عنهم ، بل يطلعهم عليه ... »[2] .

وقوله : ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بيان لما سيكون عليه حالهم فى الآخرة .

أى : وسترجعون بعد موتكم إلى الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء ، فينبئكم بما كنتم تعملونه فى الدنيا من خير أو شر ، وسيجازيكم بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - حال قسم آخر من أقسام المتخلفين عن غزوة تبوك ، فقال - تعالى - : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. ﴾ .

قال الجمل : قوله : « وآخرون مرجون ... » قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عمر وأبو بكر عن عاصم « مرجأون » بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة . وقرأ الباقون « مرجون » دون

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦ .

تلك الهمزة .. وهما لغتان ، يقال أرجأته وأرجيته .. »[١] .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .. ﴾ .

والمعنى : ومن المتخلفين عن الخروج معك إلى تبوك - يامحمد - قوم آخرون موقوف أمرهم إلى أن يحكم الله فيهم بحكمه العادل ، فهو - سبحانه - « إما يعذبهم » بأن يميتهم بلا توبة « وإما يتوب عليهم » أى : يقبل توبتهم .

وهذا الترديد الذى يدل عليه لفظ « إما » ، إنما هو بالنسبة للناس ، وإلا فالله - تعالى - عليم بما هو فاعله بهم .

والحكمة من إيهام أمرهم ، إثارة الهم والخوف فى قلوبهم لتصح توبتهم ؛ لأن التوبة عندما تجىء بعد ندم شديد ، وتأديب نفسى .. تكون مرجوة القبول منه - سبحانه - .

وقوله ﴿ والله عليم ﴾ أى : والله - تعالى - عليم بأحوال خلقه وبما يصلحهم فى أمورهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من أحكام .

قال الآلوسى : والمراد بهؤلاء « المرجون لأمر الله .. » كما جاء فى الصحيحين : هلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، كانوا قد تخلفوا عن رسول - ﷺ - فى غزوة تبوك ، وهموا باللحاق به فلم يتيسر لهم ذلك - فقعدوا فى المدينة كسلا وميلا إلى الدعة - ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبى - ﷺ - وكان ما كان من أمر المتخلفين - قالوا : لا عذر لنا إلا الخطيئة ، ولم يعتذروا كما اعتذر غيرهم ، فأمر رسول الله - ﷺ - باجتنابهم .. إلى أن نزل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار ﴾ ... ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا .. ﴾ فأمر - ﷺ - بمخالطتهم ، وكانت مدة وقفهم خمسين ليلة بقدر مدة التخلف ، إذ كانت مدة غيبته - ﷺ - عن المدينة خمسين ليلة ، فلما تمتعوا بالراحة فى تلك المدة مع تعب إخوانهم فى السفر ، عوقبوا بهجرهم ووقفهم تلك المدة .. »[٢] .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد ذكرت ثلاث طوائف من المتخلفين عن غزوة تبوك .

أما الطائفة الأولى فهى التى مردت على النفاق ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق .. ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣١٦ .
(٢) تفسير الآلوسى - بتصرف - جـ ١١ ص ١٧ .

وأما الطائفة الثانية فهى التى سارعت إلى الاعتذار والاعتراف بالذنب ، فقبل الله توبتهم ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ .

وأما الطائفة الثالثة فهى التى لم تجد عذرا تعتذر به ، فأوقف الله أمرهم إلى أن حكم بقبول توبتهم بعد خمسين ليلة ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل المتنوع عن النفاق والمنافقين ، بالحديث عن مسجد الضرار الذى بناه المنافقون ليكون مكانا للإضرار بالإسلام والمسلمين ، فقال - تعالى - .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

قال الإمام ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله - ﷺ - إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى

الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله - ﷺ - مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز العداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارا إلى كفار مكة ليمالئهم على حرب المسلمين فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام « أحد » فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله - تعالى - وكانت العاقبة للمتقين .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول الله - ﷺ - وأصيب فى ذلك اليوم ، فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه . وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته . فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله لك عينا يا فاسق ياعدو الله ، ونالوا منه وسبوه .

وكان رسول الله - ﷺ - قد دعاه إلى الله قبل فراره - إلى مكة - وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا عليه رسول الله - ﷺ - أن يموت بعيدا طريداً فنالته هذه الدعوة .

وذلك أنه لما فرغ الناس من « أحد » ورأى أمر الرسول - ﷺ - فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى - ﷺ - ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم ، أنه سيقدم بجيش ليقاتل به النبى - ﷺ - ويغلبه ، ويرده عما هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليه بعد ذلك .

فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله - ﷺ - إلى تبوك ، وجاءوا فسألوه أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم ، وأهل العلة فى الليلة الشاتية !! فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على سفر ولكنا إذا رجعنا - إن شاء الله - أتيناكم فصلينا لكم فيه » .

فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم . مسجد قباء . الذى أسس من أول يوم على التقوى فبعث رسول الله - ﷺ - إلى مسجد الضرار من هدمه قبل مقدمه إلى المدينة[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٨٢ .

وقوله : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ منصوب على الذم . أى : وأذم الذين اتخذوا مسجدا ضراراً .. أو معطوف على ما سبق من أحوال المنافقين ، والتقدير : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

وقوله « ضراراً » مفعول لأجله أى : اتخذوا هذا المسجد لا من أجل العبادة والطاعة لله تعالى . وإنما اتخذوه من أجل الإضرار بالمؤمنين . وإيقاع الأذى بهم .

وقوله « وكفرا » معطوف على « ضراراً » ؛ وهو علة ثانية لاتخاذ هذا المسجد .

أى : اتخذوه للإضرار بالمؤمنين ، وللازدياد من الكفر الذى يضمرونه ومن الغل الذى يخفونه .

وقوله : ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ علة ثالثة .

أى : واتخذوه أيضاً للتفريق بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يصلون فى مسجد واحد هو مسجد قباء ، فأراد هؤلاء المنافقون من بناء مسجد الضرار إلى جوار مسجد قباء ، أن يفرقوا وحدة المؤمنين ، بأن يجعلوهم يصلون فى أماكن متفرقة . حسدا لهم على نعمة الإخاء والتآلف والاتحاد التى غرسها الإسلام فى قلوب أتباعه .

وقوله : ﴿ وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ﴾ علة رابعة لاتخاذ هذا المسجد .

أى : واتخذوه ليكون مكانا يرقبون فيه قدوم « من حارب الله ورسوله » وهو أبو عامر الراهب ، الذى أعلن عداوته لدعوة الإسلام « من قبل » بناء مسجد الضرار .

فقد سبق أن ذكرنا فى أسباب نزول هذه الآيات ، أن أبا عامر هذا ، كتب إلى جماعة من قومه . وهو عند هرقل . يعدهم ويمنيهم ، ويطلب منهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه فشرعوا فى بناء هذا المسجد .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد ذكرت أربعة من الأغراض الخبيثة التى حملت المنافقين على بناء هذا المسجد ، وهى : مضارة المؤمنين ، وتقوية الكفر ، وتفريق كلمة أهل الحق وجعله معقلا لالتقاء المحاربين لله ولرسوله .

وقد خيب الله تعالى مسعاهم ؛ وأبطل كيدهم ، بأن أمر نبيه - ﷺ - بهدمه وإزالته .

وقوله : ﴿ وليحلفن أن أردنا إلا الحسنى ﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة ، وأقوالهم الكاذبة .

أى : أن هؤلاء المنافقين قد بنوا مسجد الضرار لتلك المقاصد الخبيثة . ومع ذلك فهم يقسمون بأغلظ الأيمان بأنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة الحسنى التى عبروا عنها قبل ذلك .

كذبا . بقولهم : « إننا بنيناه للضعفاء ، وأهل العلة فى الليلة الشاتية » .

وقوله : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ زيادة فى مذمتهم وتحقيرهم .

أى : والله - تعالى - يعلم ويشهد أن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى أيمانهم بأنهم ما أرادوا من بناء مسجدهم إلا الحسنى ، فانهم فى الحقيقة لم يريدوا ذلك ، وإنما أرادوا تلك الأغراض القبيحة السابقة ، وهى مضارة المؤمنين ، وتفريق كلمتهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله والمؤمنين عن الصلاة فى هذا المسجد نهيا مؤكداً فقال - سبحانه - : ﴿ لا تقم فيه ، أبداً ﴾ .

أى : لا تصل . أيها الرسول الكريم . فى هذا المسجد فى أى وقت من الأوقات لأنه لم يبن لعبادة الله ، وإنما بنى للشقاق والنفاق .

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ يعنى مسجد الضرار . لا تقم فيه للصلاة ، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام . يقال : فلان يقوم الليل أى : يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقد روى أن رسول الله - ﷺ - لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها هذا المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار ... »[1] .

وقوله : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ جملة مسوقة لمدح مسجد قباء وتشريفه .

أى : لمسجد بنى أساسه ، ووضعت قواعده على تقوى الله وإخلاص العبادة له منذ أول يوم بدئ فى بنائه . أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره .

قال الآلوسى ما ملخصه : واللام فى قوله « لمسجد » إما للابتداء أو للقسم ، أى : والله لمسجد ، وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ ، والجملة بعده صفته ، وقوله « أحق أن تقوم فيه » خبر المبتدأ : « وأحق » أفعل تفضيل ، والمفضل عليه كل مسجد . أو مسجد الضرار على الفرض والتقدير ، أو على زعمهم ، وقيل إنه بمعنى حقيق ، أى : ذلك المسجد بأن تصلى فيه .. »[2] .

وقوله : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ جملة مسوقة لتكريم رواد هذا المسجد ومديحهم .

أى : فى هذا المسجد رجال أتقياء الظاهر والباطن ، إذهم يحبون الطهارة من كل رجس

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٥٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٩ .

حسى ومعنوى ، ومن كان كذلك أحبه الله ورضى عنه .

ثم بين – سبحانه – أنه لا يستوى من أسس بنيانه على الحق ، ومن أسس بنيانه على الباطل فقال : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم .. ﴾ .

قال صاحب الكشاف: قرئ أَسَّسَ بنيانَه ، وأُسِسّ بنيانُه على البناء للفاعل والمفعول. والشفا : الحرف والشفير . وحرف الوادى : جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول ، فيبقى واهيا ، والهار وهو المتصدع الذى أوشك على التهدم – وهار صفة لجرف ، أى جرف موصوف بأنه هائر أى متساقط .

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من » أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل « شفا جرف هار » فى قلة الثبات والاستمساك . وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى .

فإن قلت : فما معنى قوله : « فانهار به فى نار جهنم » .

قلت : لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل ، قيل : فانهار به فى نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل فى نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذى هو للجرف ، وليتصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنم . فانهار به ذلك الجرف فهوى فى قعرها ، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ، ولا أدل منه على حقيقة الباطل وكنه أمره » [1] .

وقال صاحب المنار ما ملخصه : والمراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذى هو دين الإسلام وقوته ، ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وثمرته فى عمل أهله وجماعها التقوى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله وقرب زواله ، وخيبة صاحبه ، وسرعة انقطاع آماله .

وقد ذكر فى وصف بنيان الفريق الأول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به لأنه هو المقصود بالذات ؛ وذكر من وصف الفريق الثانى – وهم المنافقون – الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لأنه ذكر قبل ذلك مقاصدهم الخبيثة من بناء مسجد الضرار . وهذا من دقائق إيجاز القرآن » [2] .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى مضت سنة الله – تعالى – فى خلقه أنه – سبحانه – لا يهدى إلى طريق الخير ، أولئك الذين استحبوا العمى على الهدى وظلموا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٠ – بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ٤٥ .

أنفسهم بوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ثم بين - سبحانه - الآثار التى ترتبت على هدم مسجد الضرار ، فى نفوس هؤلاء المنافقين الأشرار فقال - تعالى - : ﴿ لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم ﴾ .

الريبة : اسم من الريب بمعنى الشك والقلق والحيرة ، وتقطع - بفتح التاء - أصلها تتقطع فحذفت إحدى التاءين ، من التقطع بمعنى التمزق . وقرأ بعضهم . « تقطع » - بضم التاء - من التقطيع بمعنى التفريق والتمزيق .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال ، والمستثنى منه محذوف ، والتقدير : لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون موضع ريبة وقلق فى نفوسهم فى كل وقت وحال إلا فى وقت واحد وهو وقت أن تتمزق قلوبهم بالموت والهلاك أى : أنهم لا يزالون فى قلق وحيرة ما داموا أحياء ، أما بعد موتهم فستتكشف لهم الحقائق ، ويجدون مصيرهم الأليم .

والسبب فى أن هذا البناء كان مثار ريبتهم وقلقهم حتى بعد هدمه ، أنهم بنوه بنية سيئة ، ولتلك المقاصد الأربعة الخبيثة التى بينتها الآية الأولى ... فكانوا يخشون أن يطلع الله نبيهم على مقاصدهم الذميمة ، فهذه الخشية أورثتهم القلق والريبة ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على أغراضهم ، وتم هدم مسجد الضرار ، وانهار الجرف المتداعى المتساقط ، استمر قلقهم وريبهم ؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك ماذا سيفعل المؤمنون بهم .

وهكذا شأن الماكرين فى كل زمان ومكان ، إنهم يعيشون طول حياتهم فى فزع وقلق وخوف من أن ينكشف مكرهم ، ويظهر خداعهم .

وقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل قصد به تهديدهم وزجرهم .

أى : والله - تعالى - عليم بكل شىء فى هذا الكون ، وبكل ما يقوله ويفعله هؤلاء المنافقون سرا وجهرا : حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله وفى صنعه بهم ، وسيجازيهم يوم القيام بما يستحقونه من عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات مايأتى :

١ - وجوب بناء المساجد على تقوى من الله ورضوان ، لأنها إذا بنيت على هذا الأساس ، كانت محل القبول والثواب من الله ، أما إذا بنيت لأى مقصد يتنافى مع آداب الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، فإنها تكون بعيدة عن رضا الله - تعالى - وقبوله .

قال بعض العلماء ، دلت الآيات على أن كل مسجد بنى على ما بنى عليه مسجد الضرار ، أنه لا حكم له ولا حركة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضى بالله - الخليفة

العباسى - كثيرا من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة[١] .

وقال الزمخشرى: قيل كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة ، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار .

وعن عطاء : لما فتح الله . تعالى . الأمصار على عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وألا يتخذوا فى مدينة مسجدين ، يضار أحدهما صاحبه[٢] .

٢ - أن مسجد قباء هو المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ... ﴾ وذلك لأن سياق الآيات فى الحديث عنه ، وفى بيان أحقية الصلاة فيه ، وقد كان رسول الله - ﷺ - يزوره راكبا وماشيا ويصلى فيه ركعتين .

ولا منافاة بين كون مسجد قباء هو المقصود هنا ، وبين الأحاديث التى وردت فى أن المسجد الذى أسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان ، هو المسجد النبوى ، لأن كليهما قد أسس على ذلك .

قال الإمام ابن كثير : وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف منهم ابن عباس ، وعروة بن الزبير ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله - ﷺ - الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح .

ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، أنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله - ﷺ - بطريق الأولى والأحرى »[٣] .

٣ - أن المحافظة على الطهارة من الصفات التى يحبها الله - تعالى - فقد قال - تعالى - : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها : ما جاء عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، بعث رسول الله - ﷺ - إلى عويم بن مساعدة فقال له : « ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم به » ؟ .

فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه . فقال - ﷺ - : « هو هذا[٤] » .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٢٦٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٩ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٩ .

٤ - كذلك يؤخذ من الآيات الكريمة ، استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحة ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابسة القاذورات[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنواع المتخلفين عن غزوة تبوك ، أتبع ذلك بالترغيب فى الجهاد وفى بيان فضله فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

قال الفخر الرازى : أعلم الله - تعالى - لما شرع فى شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، فلما تم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم وفرع كل قسم ما كان لائقا به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته فقال - تعالى - : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ... ﴾ الآية[2] .

وقال القرطبى : نزلت هذه الآية فى البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى وهى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله - ﷺ - عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبى - ﷺ - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى - ﷺ - : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا فمالنا ؟ قال :

« لكم الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية[3] .

ثم هى بعد ذلك عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد - ﷺ - إلى يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ تمثيل للثواب الذى منحه الله - تعالى - للمجاهدين فى سبيله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٠ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥٠٦ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٦٧ .

فقد صور - سبحانه - جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابته - سبحانه - لهم على ذلك بالجنة ، صور كل ذلك بالبيع والشراء .

أى : أن الله - تعالى - وهو المالك لكل شيء ، قد اشترى من المجاهدين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله ، وأعطاهم فى مقابل ذلك الجنة .

قال أبو السعود : الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ... وقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبّر عن قبول الله - تعالى - من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله - تعالى - وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد : أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة : الجنة .

ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ؛ ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إيذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم .

ثم إنه لم يقل « بالجنة » بل قال : « بأن لهم الجنة » مبالغة فى تقرر وصول الثمن إليهم « واختصاصه بهم » فكأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم[1] .

وقوله : ﴿ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ جملة مسأنفة جئ بها لبيان الوسيلة التى توصلهم إلى الجنة وهى القتال فى سبيل الله .

أى : أنهم يقاتلون فى سبيل الله ، فمنهم من يقتل أعداء الله ، ومنهم من يقتل على أيدى هؤلاء الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاؤه الجنة .

وقرأ حمزة والكسائى « فيقتلون ويقتلون » بتقديم الفعل المبنى للمفعول على الفعل المبنى للفاعل .

وهذه القراءة فيها إشارة إلى أن حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل ؛ لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وإلى الحياة الباقية الدائمة ..

وقوله : ﴿ وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ تأكيد للثمن الذى وعدهم الله به .

أى : أن هذه الجنة التى هى جزاء المجاهدين ، قد جعلها - سبحانه - تفضلا منه وكرما ،

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٩١ .

حقا لهم عليه ، وأثبت لهم ذلك فى الكتب السماوية التى أنزلها على رسله .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « وعدا عليه » مصدر مؤكد لمضمون الجملة وقوله « حقا » نعت له ، وقوله « عليه » فى موضع الحال من قوله « حقا » لتقدمه عليه ، وقوله : « فى التوراة والإنجيل والقرآن » متعلق بمحذوف وقع نعتا لقوله « وعدا » أيضاً .

أى : وعدا مثبتاً فى التوراة والإنجيل كما هو مثبت فى القرآن ، فالمراد إلحاق مالا يعرف بما يعرف . إذ من المعلوم ثبوت هذا الحكم فى القرآن . ثم إن ما فى الكتابين إما أن يكون أن أمة محمد - ﷺ - اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بذلك ، أو أن من جاهد بنفسه وماله . من حقه ذلك ، وفى كلا الأمرين ثبوت موافق لما فى القرآن ... »[1] .

وقوله : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ جملة معترضة مسوقة لتأكيد مضمون ما قبلها من حقية الوعد وتقريره : والاستفهام للنفى .

أى : لا أحد أوفى بعهده من الله - تعالى - لأنه إذا كان خلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم ، فكيف يكون الحال من جانب الخالق - عز وجل - المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال .

وقوله : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون فى هذه الصفقة .

والاستبشار : الشعور بفرح البشرى ، شعورا تنبسط له أسارير الوجه .

أى : إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذى بايعتم به غاية الفرح ، وارضوا به نهاية الرضى ، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذى لا فوز أعظم منه .

قال بعض العلماء : ولا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه فى صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صك . وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم . وهو استعارة تمثيلية ، حيث صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء وأتى بقوله : « يقاتلون » .. بيانا لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ - « الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم أمضاه بقوله « وذلك هو الفوز العظيم »[2] .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٩ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٢٧٣ .

ويروى عن الحسن البصرى أنه قرأ هذه الآية فقال : انظروا إلى كرم الله . تعالى . أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها فى سبيله بالجنة .

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين بجملة من الأوصاف الكريمة ، فقال :

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قال الجمل ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - فى هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين ، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق ، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق ، والوصف التاسع يعم القبيلين .

وقوله : ﴿ التائبون ﴾ فيه وجوه من الأعراب منها : أنه مرفوع على المدح . فهو خبر لمبتدأ محذوف وجوباً للمبالغة فى المدح أى : المؤمنون المذكورون التائبون ، ومنها أن الخبر هنا محذوف ، أى : التائبون الموصوفون بهذه الأوصاف من أهل الجنة .... »[1] .

والمعنى : « التائبون » عن المعاصى وعن كل ما نهت عنه شريعة الله ، « العابدون » لخالقهم عبادة خالصة لوجهه ، « الحامدون » له - سبحانه - فى السراء والضراء ، وفى المنشط والمكره ، وفى العسر واليسر ، « السائحون » فى الأرض للتدبر والاعتبار وطاعة الله . والعمل على مرضاته « الراكعون الساجدون » لله - تعالى - عن طريق الصلاة التى هى عماد الدين وركنه الركين « الآمرون » غيرهم « بالمعروف » أى : بكل ما حسنه الشرع « والناهون » له « عن المنكر » الذى تأباه الشرائع والعقول السليمة ، « والحافظون لحدود الله » أى : لشرائعه وفرائضه وأحكامه وآدابه .. هؤلاء المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، بشرهم . يا محمد . بكل ما يسعدهم ويشرح صدورهم ، فهم المؤمنون حقاً ، وهم الذين أعد الله - تعالى - لهم الأجر الجزيل ، والرزق الكريم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين بتصريف وتلخيص جـ ٢ ص ٣٢١ .

ولم يذكر - سبحانه - المبشر به فى قوله : « وبشر المؤمنين » ، للاشارة إلى أنه أمر جليل لا يحيط به الوصف ، ولا تحده العبارة .

ولم يذكر - سبحانه - فى الآية لهذه الأوصاف متعلقاً ، فلم يقل « التائبون » من كذا ، لفهم ذلك من المقام ، لأن المقام فى مدح المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا نفوسهم لله ، تعالى . فصاروا ملتزمين طاعته فى كل أقوالهم وأعمالهم .

وعبر عن كثرة صلاتهم وخشوعهم فيها بقوله . « الراكعون الساجدون » للاشارة إلى أن الصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس . وإنما عطف النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف للإيذان بأنهما فريضة واحدة لتلازمهما فى الغالب ، أو لما بينهما من تباين إذ الأمر بالمعروف طلب فعل ، والنهى عن المنكر طلب ترك أو كف .

وكذلك جاء قوله . « والحافظون لحدود الله » بحرف العطف ومما قالوه فى تعليل ذلك . أن سر العطف هنا التنبيه على أن ما قبله مفصل للفضائل وهذا مجمل لها ، لأنه شامل لما قبله وغيره ، ومثله يؤتى به معطوفاً ، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء ، فلمغايرته لما قبله بالإجمال والتفصيل والعموم والخصوص عطف عليه [1] .

هذا ، وما ذكرناه من أن المراد بقوله : « السائحون » أى : السائرون فى الأرض للتدير والاعتبار والتفكر فى خلق الله ، والعمل على مرضاته .. هذاالذى ذكرناه رأى لبعض العلماء . ومنهم من يرى أن المراد بهم الصائمون ومنهم من يرى أن المراد بهم: المجاهدون.

قال الآلوسى : وقوله : « السائحون » أى الصائمون . فقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - سئل عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين . وجاء عن عائشة : « سياحة هذه الأمة الصيام » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أن السائحين هم المهاجرون ، وليس فى أمة محمد - ﷺ - سياحة إلا الهجرة .

وعن عكرمة أنهم طلبة العمل ، لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه .

وقيل : هم المجاهدون فى سبيل الله ، لما أخرج الحاكم وصححه والطبرانى وغيرهما ، عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله - ﷺ - فى السياحة فقال : إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله [2] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٨٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣١ .

والذى نراه أقرب إلى الصواب أن المراد بالسائحين هنا : السائرون فى الأرض لمقصد شريف ، وغرض كريم . كتحصيل العلم ، والجهاد فى سبيل الله ، والتدبر فى ملكوته - سبحانه - والتفكر فى سننه فى كونه ، والاعتبار بما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب .

ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ « السائحون » معناه السائرون ، لأنه مأخوذ من السيح وهو الجرى على وجه الأرض ، والذهاب فيها . وهذه المادة تشعر بالانتشار ، يقال : ساح الماء أى جرى وانتشر .

وما دام الأمر كذلك فمن الأولى حمل اللفظ على ظاهره ، مادام لم يمنع ما نع من ذلك ، وهنا لا مانع من حمل اللفظ على حقيقته وظاهره .

أما الأحاديث والآثار التى استشهد بها من قال بأن المراد بالسائحين الصائمون فقد ضعفها علماء الحديث .

قال صاحب المنار : وأقول : وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة مرفوعاً وموقوفا حديث : « السائحون هم الصائمون » لا يصح رفعه .. [١] .

وفضلا عن كل هذا ، فإن تفسير السائحين بأنهم السائرون فى الأرض لكل مقصد شريف ، وغرض كريم .. يتناول الجهاد فى سبيل ، كما يتناول الرحلة فى طلب العلم ، وغير ذلك من وجوه الخير .

وما أكثر الآيات القرآنية التى حضت على السير فى الأرض ، وعلى التفكر فى خلق الله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٢] .

وقوله تعالى . ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[٣] .

قال الإمام الرازى : للسياحة أثر عظيم فى تكميل النفس لأن الإنسان يلقى الأكابر من الناس ، فيحتقر نفسه فى مقابلتهم ، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة فينتفع بها ، وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله . تعالى . فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية فى الدين [٤] .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يصح للنبى - ﷺ - ولا للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت درجة قرابتهم ، لأن رابطة العقيدة هى الوشيجة الأساسية فيما بينهم فقال - تعالى :

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ١١ ص ٥٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١١ .
(٣) سورة الحج الآية ٤٦ .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥٠٩ .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضوع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه ، بين فى هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم وإن كانوا فى غاية القرب من الإنسان ، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم ، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات ، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب[١] .

والمعنى : ما كان من شأن النبى - ﷺ - ولا من شأن أصحابه المؤمنين، أن يدعوا الله - تعالى - بأن يغفر للمشركين فى حال من الأحوال . ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب أقربائهم « من بعد ما تبين لهم » أى : للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، أن هؤلاء المشركين من أصحاب الجحيم ، بسبب موتهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، وعدم اعترافهم بدين الإسلام .

قال الآلوسي ما ملخصه : والآية على الصحيح نزلت فى أبى طالب ، فقد أخرج الشيخان

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥١٠ .

وغيرهما عن المسيب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبى - ﷺ - وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال النبى - ﷺ - أى عم ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله - ﷺ - يعرضها عليه . وأبو جهل وعبد الله بن أمية يعاودانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله - ﷺ - لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عن ذلك فنزلت : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين .. الآية ﴾ .

ثم قال . واستبعد بعضهم ذلك ، لأن موت أبى طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة .

وهذا الاستبعاد مستبعد ، لأنه لا بأس من أن يقال : كان النبى - ﷺ - يستغفر لأبى طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول هذه الآية وعليه فلا يراد من قوله « فنزلت » فى الخبر أن النزول كان عقيب القول بل يراد أن ذلك سبب النزول فحسب . فتكون الفاء للسببية لا للتعقيب [1] .

وقال القرطبى : هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين . فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز . ، وقال كثير من العلماء. بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ما داما حيين، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له[2] .

ثم بين - سبحانه - السبب الذى حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، ثم على ترك هذا الاستغفار فقال : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ ..

قال القرطبى : روى النسائى عن على بن أبى طالب قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان . فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه . فأتيت النبى - ﷺ - فذكرت له ذلك فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ الآية .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم ، لأبيه ، لأن استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر له بذلك . فلما أصر « آزر » أبو إبراهم على كفره ، ومات مشركا بالله ،

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٣٣ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٧٣ .

تبرأ إبراهيم منه ومن عمله .

والمراد بهذا الوعد ما جاء فى القرآن من قوله له : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ [١] .

وقوله : ﴿ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾ [٢] .

وقوله : « إن إبراهيم لأواه حليم » جملة مستأنفة مسوقة لبيان الداعى الذى دعا إبراهيم إلى الاستغفار لأبيه قبل التبين .

أى : إن إبراهيم لكثير التأوه والتوجع من خشية الله ، وكثير الحلم والصفح عمن آذاه .

قال الآلوسى : قوله « إن إبراهيم لأواه حليم » أى لكثير التأوه،وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله الحزين .. وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة . ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد . قال رجل : يارسول الله ما الأواه ؟ قال : «الخاشع المتضرع الكثير الدعاء» [٣] .

ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أنه لا يجوز لمسلم أن يستغفر لمشرك بعد موته على الشرك مهما بلغت درجة قرابته له .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه العامة فى خلقه ، وهى تدل على سعة رحمته ، ووافر عدله فقال : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون .. ﴾ .

أى : وما كان من شأن الله - تعالى - فى لطفه وعدله .. أن يصف قوما بالضلال عن طريق الحق « بعد إذ هداهم » إلى الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ فى الاجتهاد .

وإنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيهه - سبحانه -

قال صاحب الكشاف : يعنى - سبحانه - أن ما أمر باتقائه واجتنا به كالاستغفار للمشركين وغيرها مما نهى عنه وبين أنه محظور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ، ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم .

---

(١) سورة مريم الآية ٤٧ .
(٢) سورة الممتحنة الآية ٤ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٣٥ - بتصرف وتلخيص .

وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه . وفى هذه الآية شديدة ما ينبغى أن يغفل عنها : وهى أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله صار داخلا فى حكم الإضلال »[١] .

وقال صاحب المنار : أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن مسعود كان يخطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالما أو متعلما فليفعل ، ولا يغدو لسوى ذلك ، فإن العالم والمتعلم شريكان فى الخير . أيها الناس : إنى والله لا أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم ، وقد قال - تعالى - ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون .. ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ تعليل لما قبله ، أى إن الله - تعالى - عليم بكل شىء ، ولا يخفى عليه شىء من أقوال الناس وأفعالهم ، وسيحاسبهم يوم القيامة على ذلك ، وسيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان أنه - سبحانه - هو المالك لكل شىء ، والخالق لكل شىء ، فقال : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - هو المالك للسموات والأرض وما بينهما ، ولاشريك له فى خلقهما ، ولا فى تدبير شئونهما ، وهو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إماتته ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ أى : وليس لكم - أيها الناس - أحد سوى الله يتولى أمركم وينصركم على أعدائكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين عن الاستغفار للمشركين المصرين على شركهم ، كما بشرتهم بأنه - سبحانه - لا يؤاخذهم على استغفارهم لهم قبل نهيهم عن ذلك . كما أخبرتهم بأن ملك هذا الكون إنما هو لله وحده ، فعليهم أن يستجيبوا لأمره ، لكى ينالوا رحمته ورضاه .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده المؤمنين ، حيث تقبل توبتهم ، وتجاوز عن زلاتهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٦ .
(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٣١٦ .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما استقصى فى شرح أحوال غزوة تبوك ، وبين أحوال المتخلفين عنها ، وأطال القول فى ذلك على الترتيب الذى لخصناه فيما سبق ، عاد فى هذه الآية إلى شرح ما بقى من أحكامها ، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله - ﷺ - ما يجرى مجرى ترك الأولى ، وصدر عن المؤمنين كذلك نوع زلة ، فذكر - سبحانه - أنه تفضل عليهم ، وتاب عليهم ، فى تلك الزلات ، فقال - تعالى - : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار .. ﴾[1] .

وللعلماء أقوال فى المراد بالتوبة التى تابها الله على النبى - ﷺ - وعلى المهاجرين والأنصار : فمنهم من يرى أن المراد بها قبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، والتجاوز عن زلاتهم التى حدثت منهم فى تلك الغزوة أو فى غيرها ، وإلى هذا المعنى أشار القرطبى بقوله :

قال ابن عباس : كانت التوبة على النبى - ﷺ - لأجل أنه أذن للمنافقين فى القعود ، بدليل قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم .. ﴾ .

وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه - أى : إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك[2] .

ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها ، والحض على تجديدها ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : « تاب الله على النبى » كقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وكقوله : « واستغفر لذنبك » . وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبى والمهاجرين والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح ..[3] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥١٥ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٨٧ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٦ .

ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا : دوامها لا أصلها ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله : لقد تاب الله على النبى .. » أى : أدام توبته على النبى والمهاجرين والأنصار . وهذا جواب عما يقال : من أن النبى معصوم من الذنب ، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا فى هذه القضية ، بل اتبعوه من غير تلعثم ، قلنا : المراد بالتوبة فى حق الجميع دوامها لا أصلها .. » [1] .

ومنهم من يرى أن ذكر النبى هنا إنما هو من باب التشريف ، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات . وقد وضح هذا المعنى الإمام الآلوسى فقال : قال أصحاب المعانى : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار ، إلا أنه جىء فى ذلك بالنبى - ﷺ - تشريفا لهم ، وتعظيما لقدرهم ، وهذا كما قالوا فى ذكره - تعالى - فى قوله : ﴿ فان لله خمسه وللرسول.. ﴾ الآية أى : عفا - سبحانه - عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين ... » [2] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله - تعالى - على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت فى هذه الغزوة وهذه الهفوات صدرت منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ، وبمقتضى الاجتهاد فى أمور لم يبين الله - تعالى - حكمه فيها ، فهى لا تنقص من منزلة الرسول - ﷺ - ولا من منزلة أصحابه الصادقين فى إيمانهم .

والمعنى ، لقد تقبل الله - تعالى - توبة النبى - ﷺ - كما تقبل توبة أصحابه المهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه عن طواعية واختيار وإخلاص فى ساعة العسرة . أى فى وقت الشدة والضيق ، وهو وقت غزوة تبوك ، فالمراد بالساعة هنا مطلق الوقت .

وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، كما كان الجيش الذى اشترك فيها يسمى بجيش العسرة ، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وفقر فى الزاد والماء والراحلة .

قال ابن كثير : قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر فى الزاد والماء . وقال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر - أى شدته - على ما يعلم الله من

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٤ - بتصرف يسير .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٣٩ .

الجهد ، أصابهم فيها تعب شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما [١] .

وقال الحسن : كان العشرة منهم يعتقبون بعيرا واحداً ، يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان النفر منهم يخرجون وليس معهم إلا التمرات اليسيرة فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يشرب عليها جرعة من الماء .. ومضوا مع النبى - ﷺ - على صدقهم ويقينهم - رضى الله عنهم [٢] .

وقوله : ﴿ من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ بيان لتناهى الشدة ، وبلوغها الغاية القصوى .

أى : تاب - سبحانه - على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار ، من بعد أن أشرف فريق منهم على الميل عن التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، لما لابسها وصاحبها من عسر وشدة وتعب .

وفى ذكر « فريق منهم » إشارة إلى أن معظم المهاجرين والأنصار ، مضوا معه - ﷺ - إلى تبوك دون أن تؤثر هذه الشدائد فى قوة إيمانهم وصدق يقينهم ، ومضاء عزيمتهم ، وشدة إخلاصهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وفى « كاد » ضمير الشأن و « قلوب » فاعل « يزيغ » والجملة فى موضع الخبر لكاد .. وهذا على قراءة « يزيع » بالياء ، وهى قراءة حمزة ، وحفص ، والأعمش . وأما على قراءة « تزيغ » بالتاء ، وهى قراءة الباقين . فيحتمل أن يكون « قلوب » اسم كاد « وتزيع » خبرها ، وفيه ضمير يعود على اسمها » [٣] .

وقوله : ﴿ ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾ تذييل مؤكد لقبول التوبة ولعظيم فضل الله عليهم . ولطفه بهم .

أى : ثم تاب عليهم - سبحانه - بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة ومجاهدة النفس . إنه بهم رءوف رحيم .

قال بعضهم : فإن قلت : قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار ؟

قلت : إنه - سبحانه - ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه - تعالى - قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله - سبحانه - ﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾ تأكيدا

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٦ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٤ .
(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٤٠ .

لذلك . والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ، [١] .

وقال القرطبى: قوله «ثم تاب عليهم» قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ؛ وتلك سنة الحق - سبحانه - مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك ، أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم .

قال الشاعر :

منك أرجو ولست أعرف ربا ... يرتجى منه بعض ما منك أرجو
وإذا اشتدت الشدائد فى الأر ... ض على الخلق فاستغاثوا وعجوا
وابتليت العباد بالخوف والجو ... ع ، وصروا على الذنوب ولجوا
لم يكن لى سواك ربى ملاذ ... فتيقنت أننى بك أنجو

وكما تقبل الله - تعالى - توبة المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا رسولهم - ﷺ - فى ساعة العسرة .. فقد تقبل توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن الاشتراك فى غزوة تبوك ، فقال - تعالى - :

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

هذه الآية الكريمة معطوفة على الآية السابقة لها . والمعنى : لقد تقبل الله - تعالى - بفضله وإحسانه توبة النبى والمهاجرين والأنصار ، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كسلا وحبا للراحة ، والذين سبق أن أرجأ الله حكمه فيهم بقوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. ﴾ [٢] .

وقوله : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٥ .
(٢) راجع تفسير الآية رقم ١٠٦ من هذه السورة ص ٣٩٩ .

لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ كناية عن شدة تحيرهم ، وكثرة حزنهم ، واستسلامهم لحكم الله فيهم .

أى : حتى إذا ضاقت عليهم الأرض على سعتها ، بسبب إعراض الناس عنهم ، ومقاطعتهم لهم ، وضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب الهم والغم الذى ملأها واعتقدوا أنهم لا ملجأ ولا مهرب لهم من حكم الله وقضائه إلا إليه .

حتى إذا كان أمرهم كذلك ، جاءهم فرج الله ، حيث قبل توبتهم ، وغفر خطأهم وعفا عنهم .

وقوله : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ أى : بعد هذا التأديب الشديد لهم ، تقبل - سبحانه - توبتهم ، ليتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، لا تكاسل معها بعد ذلك عن طاعة الله وطاعة رسوله ، إن الله - تعالى - هو الكثير القبول لتوبة التائبين ، وهو الواسع الرحمة بعباده المحسنين .

هذا ، والمقصود بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ؛ وكلهم من الأنصار .

وقد ذكرت قصتهم فى الصحيحين وفى غيرهما من كتب السنة والسيرة ، وهاك خلاصة لها :

قال الإمام ابن كثير : روى الإمام أحمد أن كعب بن مالك قال ، لم أتخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزة غزاها قط إلا فى تبوك .

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة تبوك . أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة .

وغزا رسول الله - ﷺ - تلك ا لغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز لها المؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم . فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً .. فأقول لنفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت .. ولم يزل ذلك شأنى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليتنى فعلت - ولكن لم يقدر لى ذلك .

ولم يذكرنى رسول الله - ﷺ - حتى بلغ تبوك فقال : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه برداه والنظر فى عطفيه .

فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت . والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله - ﷺ - . قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله قد توجه قافلا من تبوك ، حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ .

وعندما عاد الرسول - ﷺ - إلى المدينة جاءه المتخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه .. وجئت إليه فقال : تعال .. ما خلفك ؟ ! ألم تكن قد اشتريت ظهرا ؟

فقلت يا رسول الله ؛ إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر . والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كاذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله أن يسخطك على . ولئن حدثتك بصدق تغضب على فيه ، إنى لأرجو عقبى ذلك من الله - تعالى - والله ما كان لى من عذر .

قال - ﷺ - أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضى الله فيك . وكان هناك رجلان قد قالا مثل ما قلت هما مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

قال : ونهى رسول الله - ﷺ - كلامنا ، فاعتزلنا الناس وتغيروا لنا .. ولبثنا على ذلك خمسين ليلة .. ثم أمرنا أن نعتزل نساءنا ففعلنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتها فبينا أنا على الحال التى ذكرها الله عنا ، قد ضاقت على نفسى .. سمعت صارخا يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك .

وذهبت إلى رسول الله - ﷺ - فقال : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال : وأنزل الله - تعالى - ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا .. ﴾ الآية .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث بتمامه : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها » [1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا جانبا من فضل الله على عباده ، حيث قبل توبتهم ، وغسل حوبتهم . إنه بهم رءوف رحيم .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتقوا الله حق تقاته وأن يكونوا مع الصادقين ، وأوجب عليهم الغزو مع رسول الله - ﷺ - ووعدهم عليه بجزيل الثواب ، وتوعد المتخلفين عنه بشديد العقاب فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم

(١) راجع الحديث بتمامه فى تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٧ .

مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

والمعنى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر .. اتقوا الله حق تقاته ، بأن تفعلوا ما كلفكم به . وتتركوا ما نهاكم عنه ، « وكونوا مع الصادقين » فى دين الله نية وقولا وعملا وإخلاصا ؛ فإن الصدق ما وجد فى شىء إلا زانه ، وما وجد الكذب فى شىء إلا شانه .

قال القرطبى : حق من فهم عن الله وعقل عنه ؛ أن يلازم الصدق فى الأقوال والإخلاص فى الأعمال ، والصفاء فى الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى ربنا الغفار .

قال - ﷺ - « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » .

والكذب على الضد من ذلك . قال - ﷺ - « إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار . وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

فالكذب عار ، وأهله مسلوبو الشهادة ، وقد رد - ﷺ - شهادة رجل فى كذبة كذبها .

وسئل شريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعته يكذب متعمدا ، أصلى خلفه ؟ قال : لا [1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٩٢٨ .

ثم أوجب - سبحانه - على المؤمنين مصاحبة رسولهم - ﷺ - فى غزواته فقال : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ... ﴾ .

والمراد بالنفى هنا النهى . أى : ليس لأهل المدينة أو لغيرهم من الأعراب سكان البادية الذين يسكنون فى ضواحى المدينة ، كقبائل مزينة وجهينة وأشجع وغفار .

ليس لهؤلاء جميعا أن يتخلفوا عن رسول الله - ﷺ - إذا ما خرج للجهاد ، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، لأن هذا التخلف يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله .

وليس لهم كذلك « أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » أى ليس لهم أن يؤثروا أنفسهم بالراحة على نفسه ، بأن يتركوه يتعرض للآلام والأخطار . دون أن يشاركوه فى ذلك ، بل من الواجب عليهم أن يكونوا من حوله فى البأساء والضراء ، والعسر واليسر ؛ والمنشط والمكره .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت - مع كرامتها وعزتها - للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت - أى تتساقط - فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيمون لها وزنا ، وتكون أخف شىء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية »[٢] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله .. ﴾ يعود على مادل عليه الكلام من وجوب مصاحبته وعدم التخلف عنه .

أى : ذلك الذى كلفناهم به من وجوب مصاحبته - ﷺ - والنهى عن التخلف عنه ، سببه أنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ أى عطش ﴿ ولا نصب ﴾ أى : تعب ومشقة ﴿ ولا مخمصة ﴾ أى : مجاعة شديدة تجعل البطون خامصة ضامرة ﴿ فى سبيل الله ﴾ أى : فى جهاد أعدائه وإعلاء كلمة الحق ﴿ ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ﴾ أى : ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغاظتهم وإزعاجهم .. ﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ أى : ولا يصيبون من عدو من أعدائهم إصابة كقتل أو أسر أو غنيمة .

---

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢١ .

إنهم لا يفعلون شيئا ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ أى : إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، ينالون بسببه الثواب الجزيل من الله ، لأنه - سبحانه - ﴿ لا يضيع أجر المحسنين ﴾ وإنما يكافئهم على إحسانهم بالأجر العظيم .

وقوله : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة .. ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وكذلك لا يتصدقون بصدقة صغيرة ، كالتمرة ونحوها ، ولا كبيرة كما فعل عثمان - رضى الله عنه - فى هذه الغزوة ، فقد تصدق بالكثير .

﴿ ولا يقطعون واديا ﴾ من الوديان فى مسيرهم إلى عدوهم ، أو فى رجوعهم عنه .

لا يفعلون شيئا من ذلك أيضا ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أى : إلا كتب لهم ثوابه فى سجل حسناتهم .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أى : أمرهم بمصاحبة نبيهم فى كل غزواته ، وكلفهم بتحمل مشاق الجهاد ومتاعبه . ليجزيهم على ذلك أحسن الجزاء وأعظمه ، فأنت ترى أن الله - تعالى - قد حرض المؤمنين على الجهاد فى هاتين الآيتين ، وبين لهم أن كل ما يلاقونه فى جهادهم من متاعب له ثوابه العظيم ، وما دام الأمر كذلك فعليهم أن يصاحبوا رسولهم - ﷺ - فى جميع غزواته ، لأن التخلف عنه لا يليق بالمؤمنين الصادقين ، فضلا عن أن هذا التخلف - بدون عذر شرعى - سيؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على الجهاد فى سبيله ، وحذرهم من التخلف عن الخروج مع رسوله - ﷺ - أتبع ذلك بالحديث عما يجب عليهم إذا لم تكن المصلحة تقتضى النفير العام ، فقال - تعالى - :

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن النبى - ﷺ - لما بالغ فى الكشف عن عيوب المنافقين ، وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك . قال المسلمون : والله لا نتخلف عن رسول

الله - ﷺ - ، ولا عن سرية بعثها ، فلما قدم - ﷺ - المدينة من تبوك ، وبعث السرايا ، أراد المسلمون أن ينفروا جميعا للغزو وأن يتركوا النبى - ﷺ - وحده فنزلت هذه الآية [1] .

والمعنى ، وما كان من شأن المؤمنين ، أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، ويتركوا الرسول - ﷺ - وحده بالمدينة ، وإنما يجب عليهم النفير العام إذا ما دعاهم - ﷺ - إلى ذلك .

وقوله : ﴿ فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ... ﴾ معطوف على كلام محذوف ، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : فحين لم يكن هناك موجب لنفير الكافة ، فهلا نفر من كل فرقة من المؤمنين طائفة للجهاد ، وتبقى طائفة أخرى منهم « ليتفقهوا فى الدين » أى : ليتعلموا أحكامه من رسولهم - ﷺ - « ولينذروا قومهم » أى : وليعلموهم ويخبروهم بما أمروا به أو نهوا عنه « إذا رجعوا إليهم » من الغزو « لعلهم يحذرون » أى : لعل هؤلاء الراجعين إليهم من الغزو يحذرون ما نهوا عنه .

أى : أن على المسلمين فى حالة عدم النفير العام ، أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين .

قسم يبقى مع الرسول - ﷺ - ليتفقه فى دينه ، وقسم آخر يخرج للجهاد فى سبيل الله ، فإذا ما عاد المجاهدون ، فعلى الباقين مع الرسول - ﷺ - أن يبلغوا العائدين ما حفظوه عن الرسول - ﷺ - من أحكام .

وبذلك يجمع المسلمون بين المصلحتين : مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ، ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور العلماء يكون الضمير فى قوله « ليتفقهوا ولينذروا » يعود إلى الطائفة الباقية مع الرسول - ﷺ -

أما الضمير فى قوله « لعلهم يحذرون » فيعود على الطائفة التى خرجت للجهاد ثم عادت .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « ليتفقهوا ، ولينذروا » يعود على الطائفة التى خرجت للجهاد .

وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن جرير فقال : وأما قوله « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » فإن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لتتفقه الطائفة

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٩ - بتصرف يسير .

النافرة بما تعاين من نصر الله لأهل دينه ولأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به ، فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر الإسلام ، وظهوره على الأديان ، من لم يكن فقهه ، « ولينذروا قومهم » فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله ، مثل الذى نزل بمن شاهدوا ، ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك ، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم « لعلهم يحذرون » أى : لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك ، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله ، حذرا من أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم ... »[1] .

وقد علق صاحب المنار على رأى ابن جرير هذا بقوله : وهذا تأويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم ، فإن اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر - وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقها فى الدين ، وإن كان يدخل فى عموم معنى الفقه ، فإن التفقه هو التعلم الذى يكون بالتكلف والتدرج ، والمتبادر من الدين علمه ، ولا يصح هذا المعنى فى ذلك العهد إلا فى الذين يبقون مع النبى - ﷺ - فيزدادون فى كل يوم علما وفقها بنزول القرآن ... »[2] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب طلب العلم ، والتفقه فى دين الله وتعليم الناس إياه .

قال القرطبى : هذه الآية أصل فى وجوب طلب العلم ؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبى - ﷺ - مقيم لا ينفر فيتركوه وحده « فلولا نفر » بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم « من كل فرقة منهم طائفة » وتبقى بقيتها مع النبى - ﷺ - ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا ، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوه وعلموه ، وفى هذا إيجاب التفقه ، فى الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان .. »[3] .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن الجهاد فى سبيل الله ، بدعوة المؤمنين إلى قتال أعدائهم بشدة وغلظة فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٥٧٣ - طبعة دار المعارف .
(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ٨٠ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٩٣ .

وقوله : ﴿ يلونكم ﴾ من الولى بمعنى القرب ، تقول جلست مما يلى فلان أى : يقاربه .

قال ابن كثير : أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا ، الأقرب فالأقرب ، إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ الرسول - ﷺ - بقتال المشركين فى جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة واليمن .. وغير ذلك من أقاليم العرب ، دخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين الله أفواجا ، شرع فى قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الاسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس ، وجدب البلاد ، وضيق الحال ، ذلك سنة تسع من الهجرة ، ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد حجة الوداع بأحد وثمانين يوما وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على نهجه .

وقوله ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أى : وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم ، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا بأخيه المؤمن ، غليظا على عدوه الكافر . قال - تعالى - : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

وفى الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال : « أنا الضحوك القتال » يعنى : أنه ضحوك فى وجه وليه المؤمن ، قتال لهامة عدوه الكافر »[1] .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ تذييل قصد به حض المؤمنين على التسلح بسلاح الإيمان والتقوى حتى ينالوا نصر الله وعونه .

أى : واعلموا أن الله - تعالى - مع المتقين بنصره ومعونته ، فاحرصوا على هذه الصفة ليستمر معكم نصره - سبحانه - وعونه .

وإنما أمر الله - تعالى - المؤمنين أن يبدأوا قتالهم مع الأقرب فالأقرب من ديارهم ، لأن القتال شرع لتأمين الدعوة الإسلامية ، وقد كانت دعوة الإسلام موجهة إلى الأقرب فالأقرب ، فكان من الحكمة أن يبدأوا قتالهم مع المجاورين لهم حتى يأمنوا شرهم ، ولأنه من المعلوم أنه ليس فى طاقة المسلمين قتال جميع الكفار ، وغزو جميع البلاد فى زمان واحد ، فكان من قرب أولى ممن بعد .

ثم ختمت السورة - أيضاً - حديثها الطويل المتنوع عن المنافقين ببيان موقفهم من نزول الآيات القرآنية على الرسول - ﷺ -

---

(١) تفسير ابن كثير - بتصرف وتلخيص - جـ ٢ ص ٤٠١ .

فقال - تعالى - :

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ
إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
(١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

والمعنى : وإذا ما أنزلت سورة من سور القرآن عليك يا محمد : تساءل المنافقون عنها فى حذر وريبة « فمنهم من يقول » لأشباهه فى الكفر والنفاق على سبيل الاستهزاء والتهوين من شأن القرآن الكريم « أيكم زادته هذه إيمانا » أى : أى واحد منكم زادته هذه السورة النازلة إيمانا ؟

وهنا يجىء الرد الحاسم الذى يخرس ألسنتهم ، من جهته - تعالى - فيقول : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ .

أى : فأما الذين آمنوا فزادهم نزول السورة القرآنية ، إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم ، « وهم » فوق ذلك « يستبشرون » ويفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية ، وأما المنافقون ، فقد صور القرآن حالهم بقوله ﴿ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ .

أى : وأما الذين فى قلوبهم شك ونفاق وارتياب ، فزادهم نزول السورة كفرا على كفرهم السابق .

وسمى - سبحانه - الكفر رجسا ، لأنه أقبح الأشياء وأسوؤها .

وقوله : ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ تذييل قصد به بيان سوء عاقبتهم فى الآخرة بعد بيان سوء أعمالهم فى الدنيا .

أى : لقد قضى هؤلاء المنافقون حياتهم فى الكفر والفسوق والعصيان ، ثم لم يتوبوا عن ذلك ولم يرجعوا عنه ، بل ماتوا على الكفر والنفاق .

وقوله : ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين .. ﴾ توبيخ لهم على قسوة قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ .

أى : أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء ، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين ؟

ومن هذه الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق إطلاع رسول الله - ﷺ - على ما يضمرونه من سوء ، وما يقولونه من منكر ، وما يفعلونه من أفعال خبيثة ، وحلول المصائب والأمراض بهم ، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين .

قال الآلوسى : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم - مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .

وقوله : ﴿ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ بيان لرسوخهم فى الجهل والجحود .

أى : ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم ، لا يتوبون من نفاقهم « ولا هم يذكرون » ويتعظون ، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة ، وأعمالهم القبيحة ، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن ، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير .

ثم تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا ، مشهدهم عندما تنزل السورة القرآنية على الرسول - ﷺ - وهم حاضرون فى مجلسه فتقول : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ أو آيات منها ، على الرسول- ﷺ- وهم موجودون فى مجلسه ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ فى ريبة ومكر ، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم فى لؤم وخسة ثم تساءلوا: ﴿هل يراكم من أحد﴾ أى: هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس ، قبل أن يتلو الرسول - ﷺ - هذه السورة أو الآيات التى قد تفضحكم وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم .

﴿ ثم انصرفوا ﴾ من مجلس الرسول - ﷺ - متسللين فى حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين .

وقوله : ﴿ صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ ذم لهم لإيثارهم الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون مافيه خيرهم ونفعهم . وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم .

هذا ، وإن الناظر فى هذه الآيات الكريمة بتدبر وإمعان ، ليراها قد صورت أحوال المنافقين وأخلاقهم وحركاتهم تصويرا دقيقا معجزا ، حتى إنه ليخيل إلى القارىء لهذه الآيات الكريمة أو السامع لها ، أنه يشاهد المنافقين مشاهدة حسية وهم على تلك الحالة من التحرك المريب والنظرات الخبيثة ، والخروج من مجلس النبى - ﷺ - فى حذر وريبة ..

وهذا كله مما يشهد بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله العليم بخفايا الصدور ، وبطوايا النفوس .

ثم ختم - سبحانه سورة التوبة ، بآيتين كريمتين ، اشتملتا على أسمى النعوت ، وأكرم الصفات للرسول - ﷺ - فقال - تعالى - :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

وجمهور المفسرين على أن الخطاب فى قوله - سبحانه - : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ للعرب : فهو كقوله : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ .

أى : لقد جاءكم - يامعشر العرب - رسول كريم « من أنفسكم » أى : جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربى مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب فى الإيمان بالنبى - ﷺ - وفى طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه ، وفخرهم بفخره ، وهم فى الوقت نفسه قد شهدوا له فى صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب ، والأخلاق الحميدة .

قال القرطبى : قوله « من أنفسكم » يقتضى مدحا لنسب النبى - ﷺ - وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قرش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » وعنه - ﷺ - أنه قال : « إنى من نكاح ولست من سفاح »[1] .

وقال الزجاج إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ، لعموم بعثته - ﷺ - ، ومعنى كونه - ﷺ - « من أنفسكم » أنه من جنس البشر .

ويبدو لنا أن الرأى الأول ارجح ؛ لأن الآية الكريمة ليست مسوقة لإثبات رسالته - ﷺ - وعمومها ، وإنما هى مسوقة لبيان منته وفضله - سبحانه - على العرب ، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم ، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به ، لأنه ليس غريبا عنهم ، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم ، والعقوبة لهم أعظم .

وقوله : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أى : شديد وشاق عليه عنتكم ومشقتكم ، لكونه بعضا منكم ؛ فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع فى العذاب .

يقال : عزَّ عليه الأمر أى صعب وشق عليه ، والعنت المشقة والتعب ومنه قولهم : أكمة عنوت ، إذا كانت شاقة مهلكة ، والفعل عنت بوزن فرح .

وقوله : ﴿ حريص عليكم ﴾ أى : حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة .

والحرص على الشىء معناه : شدة الرغبة فى الحصول عليه وحفظه .

وقوله : « بالمؤمنين رءوف رحيم » أى : شديد الرأفة والرحمة بكم - أيها المؤمنون - والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ، فهو - ﷺ - يسعى بشدة فى إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفى إزالة كل مكروه عنهم .

قال بعضهم : لم يجمع الله - تعالى - لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى - ﷺ - فإنه قال « بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال عن ذاته - سبحانه - ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾[2] .

ثم انتقل - سبحانه - من خطاب المؤمنين إلى خطابه - ﷺ - فقال : ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو .. ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٠١ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٠٢ .

أى : فإن أعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك ، فلا تبتئس ولا تيأس ، بل قل « حسبى الله » أى : هو كافينى ونصيرى « لا إله إلا هو » - سبحانه - « رب العرش العظيم » الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا الله - عز وجل - .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفات التى منحها - سبحانه - لرسوله محمد - ﷺ - ، ودعوة له - ﷺ - إلى أن يفوض أمره إلى خالقه فهو - سبحانه - كافيه وناصره .

وبعد فهذه سورة التوبة .

السورة التى احتوت على بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين المجتمع الإسلامى ، والمجتمعات الأخرى .

السورة التى حرضت المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله ، وساقت لهم من وسائل الترغيب فى ذلك ، ما يجعلهم يقدمون على قتال أعدائهم بصبر وثبات واستبشار .

السورة التى أوجبت على المؤمنين أن تكون محبتهم لله ولرسوله ، ولإعلاء كلمة الحق ، فوق محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال .

السورة التى ذكرت المؤمنين بنصر الله لهم فى مواطن كثيرة ، وحذرتهم من الغرور بأنفسهم . والعجب بقوتهم ، وأمرتهم بنصرة رسوله فى السراء والضراء والعسر واليسر ، والمنشط والمكره .

السورة التى أمرت المؤمنين بأن يخلصوا فى دفاعهم عن دين الله وعن حرماته وعن مقدساته . وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك ، فسوف يغنيهم الله من فضله .

السورة التى فضحت المنافقين ، وكشفت عن أساليبهم الخبيثة ، ومسالكهم القبيحة ، وأقوالهم المنكرة ، وأفعالهم الأثيمة ، وسجلت عليهم الخزى والعار وحذرت المؤمنين من شرورهم ...

السورة التى رسمت أسس التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة الإسلامية ، عن طريق مشروعية الزكاة ، ووجوب أدائها لمستحقيها .

السورة التى ساقت ألوانا من فضل الله على عباده المؤمنين ، حيث تقبل سبحانه توبتهم ، وغسل حوبتهم ، وتجاوز عن خطئهم .

السورة التى صنفت المجتمع الإسلامى فى أواخر العهد النبوى تصنيفا دقيقا .

فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهناك الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً .

وهناك المرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .

وهناك الأعراب المنافقون ، وهناك الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة .

وقد بينت السورة الكريمة ما يستحقه كل قسم من الأقسام من ثواب أو عقاب .

السورة التى أوجبت على المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم على أساس العقيدة الدينية لا على أساس القرابة الجسدية ، فنهتهم أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى .

هذا جانب من المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ونسأل الله – تعالى – أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ؛ وأن يرزقنا الإخلاص والتوفيق فى القول والعمل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد السيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير سورة الأنفال

فهرس إجمالى لتفسير آيات سورة التوبة

﴿ تم بحمد الله ﴾

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ١٠٢٣٤
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3917 - 8	ISBN

١ / ٩٢ / ١٩٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير

سورة يونس سورة هود
سورة يوسف سورة الرعد
سورة إبراهيم

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد السابع

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « يونس » - عليه السلام - حاولت فيه أن أكشف عن بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية وآداب عالية ، وهدايات جامعة ، وإرشادات حكيمة ، وحجج باهرة ، تقذف حقها على باطل الضالين فتدمغه فإذا هو زاهق ..

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى تفسيرها أن أسوق كلمة بين يديها ، تكون بمثابة التعريف بها ، وبمقاصدها الإجمالية .

وأحمد الله - تعالى - أجزل الحمد وأوفاه ، أن وفقنى قبل ذلك لتفسير سور : الفاتحة ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة » ...

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، إنه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تحريرا فى ١٧ من المحرم سنة ١٤٠٠ هـ
الموافق ٧ من ديسمبر سنة ١٩٧٩ م

المؤلف د . محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة يونس - عليه السلام - هى السورة العاشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور : « الفاتحة ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة » .

٢ - وكان نزولها بعد سورة « الإسراء » .

٣ - وعدد آياتها : تسع ومائة آية عند الجمهور . وفى المصحف الشامى مائة وعشر آيات .

٤- وسميت بهذا الاسم تكريما ليونس - عليه السلام - ولقومه الذين آمنوا به واتبعوه قبل أن ينزل بهم العذاب ، وفى ذلك تقول السورة الكريمة : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾[1] .

٥ - وسورة يونس من السور المكية ، وعلى هذا سار المحققون من العلماء .

وقيل إنها مكية سوى الآية الأربعين منها وهى قوله - تعالى - ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴾ والآيتين الرابعة والتسعين ، والخامسة والتسعين وهما قوله - تعالى - : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ .

قال صاحب المنار : وقال السيوطى فى الإتقان : استثنى منها الآيات ٤٠ ، ٩٤ ،٩٥ ، فقيل إنها مدنية نزلت فى اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين آية مكى ، والباقى مدنى ، حكاه ابن الفرس والسخاوى فى جمال القراء .

ثم قال صاحب المنار : وأقول إن موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية ، وهو مما لم تثبت به رواية ، وكون المراد بالذين يقرأون الكتاب فى الآية (٩٤) اليهود لا يقتضى أن تكون نزلت بالمدينة ، وبيان ذلك من وجهين :

أحدهما : أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ، ولذلك قال الرسول

---

(١) الآية ٩٨ .

- ﷺ - : « لا أشك ولا أسأل » ، وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس ،وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى .

وثانيهما : أن هذا المعنى نزل فى سورة مكية أخرى، كقوله - تعالى - فى سورة الإسراء : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - فى سورة الأنبياء : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[2] .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة يونس جميعها مكية ، كما قال المحققون من العلماء ، لأن الذين قالوا بوجود آية أو آيات مدنية فيها لم يأتوا برواية صحيحة تصلح مستندا لهم، ولأن السورة الكريمة من مطلعها إلى نهايتها تشاهد فيها سمات القرآن المكى واضحة جلية ، فهى تهتم بإثبات وحدانية الله ، وبإثبات صدق النبى - ﷺ - وبإثبات أن هذا القرآن من عند الله ، وأن البعث حق ، وأن ما أورده المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، قد تولت السورة الكريمة دحضه بأسلوب منطقى رصين ..

والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وخشوع ، يراها فى مطلعها تتحدث عن سمو القرآن الكريم فى هدايته وإحكامه ، وعن موقف المشركين من النبى - ﷺ - ودعوته ، وعن الأدلة على وحدانية الله وقدرته .

قال - تعالى - : ﴿ الر . تلك آيات الكتاب الحكيم.أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ثم نراها فى الربع الثانى منهاتصور بأسلوب حكيم طبيعة الإنسان فتقول ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ الآية ١٢ .

ثم تحكى مصارع الظالمين ، وأقوالهم الفاسدة ، ورد القرآن عليهم فتقول : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين.ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

وبعد أن تمضى السورة الكريمة فى دحض أقوال المشركين ، وفى بيان الطبائع البشرية ، نراها فى مطلع الربع الثالث . تصور لنا حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الضالين ، فتقول :

---

(١) الآية ١٠١ .

(٢) الآية ٧ تفسير المنار جـ ١١ ص ١٤١ الطبعة الرابعة - مكتبة القاهرة .

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ثم تأمر السورة الكريمة النبى - ﷺ - أن يسأل المشركين بأسلوب توبيخى عمن يرزقهم فى السموات والأرض ، وعمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، وعمن يهدى إلى الحق ، فتقول : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ .

وبعد أن تتحدى السورة الكريمة المشركين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم . وتعلن عن عجزهم على رءوس الأشهاد ، تأخذ فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى تصوير جانب من أحوالهم فى حياتهم وبعد مماتهم فتقول :

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين . وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ..﴾ .

ثم نراها فى الربع الرابع توجه نداء إلى الناس كافة تدعوهم فيه إلى الإقبال على ما جاء به الرسول - ﷺ - من مواعظ فيها الشفاء لما فى الصدور ، وفيها الهداية لما فى النفوس فتقول :

﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ .

ثم تسوق جانبا من مظاهر قدرة الله النافذة ، وعلمه المحيط بكل شىء ، فتقول : ﴿ وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ .

وفى مطلع الربع الخامس منها تحكى لنا جانبا من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أنه نصحهم ، وذكرهم بآيات الله ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان قال - تعالى - :

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ .

ثم تحكى لنا جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، ومن المحاورات، والمجادلات التى دارت بينهما، ومن الدعوات المستجابة التى توجه بها موسى إلى خالقه، فتقول : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

ثم نراها فى الربع السادس والأخير منها ، تحكى لنا ما قاله فرعون عندما أدركه الغرق ، كما تخبرنا عن النهاية الطيبة التى لقوم يونس - عليه السلام - بسبب إيمانهم ، ثم تسوق ألوانا من مظاهر قدرة الله ، ومن حكمه العادل بين عباده ، ومن رعايته لأوليائه ورسله فتقول : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ .

ثم تختم السورة الكريمة بتوجيه نداء إلى الناس تبين لهم فيه أن من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، وأن من ضل فإنما يضل عليها فتقول : ﴿ قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل.واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ .

تلك أهم المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنها نرى بوضوح أن السورة الكريمة قد عنيت عناية بارزة بإثبات وحدانية الله وقدرته النافذة ، وعلمه المحيط بكل شىء ، تارة عن طريق مخلوقاته التى يشاهدونها كما فى قوله - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ... ﴾ .

وتارة عن طريق اعترافهم بأن الله وحده هو خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ .

وتارة عن طريق لجوئهم إليه وحده لاسيما عند الشدائد والمحن ، كما حدث من فرعون عندما أدركه الغرق .

كذلك نرى السورة الكريمة قد عنيت بدعوة الناس إلى التدبر والتفكر وإلى الاعتبار بمصارع الظالمين ، وإلى عدم التعلق بزخرف الحياة الدنيا ..

﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون . إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

كذلك نرى السورة الكريمة قد اهتمت بالرد على الشبهات التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم ، وحول البعث وما فيه من ثواب وعقاب ...

فأثبتت أن هذا القرآن من عند الله ، وتحدتهم أن يأتوا بسورة من مثله فقالت : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

كما اثبتت أن يوم القيامة حق ، وأنهم لن ينجيهم من عذاب الله فى ذلك اليوم ندمهم أو ما يقدمونه من فداء فقالت : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

هذا ، والسورة الكريمة بعد كل ذلك تمتاز بأنها قد عرضت ما عرضت من هدايات وتوجيهات بأسلوب بليغ مؤثر ، تقشعر منه الجلود ، وتلين منه القلوب ، وتخشع له النفوس .. مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله.ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

سورة يونس من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى .

وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

فالسور التى افتتحت بحرف واحد ثلاثة ، وهى سورة : ص ، ق ، ن .

والسور التى افتتحت بحرفين تسعة ، وهى : طه ، طس ، يس ، وحم فى ست سور ، هى : غافر ، فصلت ، الزخرف . الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .

والسور التى بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهى : ألم فى ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، والر فى خمس سور هى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر ، وطسم فى سورتين هما : الشعراء ، القصص .

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الأعراف ، الرعد . وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ، والشورى .

فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة .

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى ، وغيرهم من العلماء . فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور .

ويروى عن ابن عباس انه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن على - رضى الله عنه - قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك ، بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس ، فالرسول - ﷺ - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى - ﷺ - « من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح» . وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها ، كسورة « ص » وسورة « يس » .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ - وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة ، وابتداء أخرى .

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته فمثلا « ألم » أصلها أنا الله أعلم .

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم ، الى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال . والتى أوصلها السيوطى فى كتابه « الإتقان » إلى أكثر من عشرين قولا .

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلا عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيترتب على ذلك أن يسمعوا حكما ، وهدايات قد تكون سببا فى إيمانهم . ولعل مما يشهد بصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة ، تتحدث عن القرآن وعن كونه معجزة للرسول - ﷺ - فى أغلب المواضع .

ومن ذلك قوله - تعالى - : فى أول سورة البقرة ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾. وقوله سبحانه فى أول سورة هود : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ وقوله - سبحانه - فى أول سورة إبراهيم : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وهكذا نرى أن كثيرا من السور التى افتتحت بالحروف المقطعة ، قد أعقبت هذا الافتتاح بالحديث الصريح أو الضمنى عن القرآن الكريم ، وأن هذه السور إذا تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الاساسية إثبات وحدانية الله ، وإثبات صحة الرسالة المحمدية ، وإثبات أن هذا القرآن الذى هو معجزة الرسول الخالدة - منزل من عند الله - تعالى - .

هذه خلاصة لآراء العلماء فى المراد بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب « الإتقان » للسيوطى ، وإلى كتاب « البرهان » . للزركشى ، وإلى تفسير الآلوسى .

ثم قال - تعالى - : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .

﴿ تلك ﴾ اسم إشارة والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم . ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب : ضم أديم إلى أديم بالخياطة ، واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط والمراد به القرآن الكريم على الصحيح .

قال الآلوسى : « وأما حمل الكتاب على الكتب التى خلت قبل القرآن من التوراة والانجيل وغيرهما ، كما أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة فهو فى غاية البعد[1] » .

والحكيم - بزنة فعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع . تقول حكمت الفرس أى وضعت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والنفور .

والمقصود أن هذا الكتاب ممتنع عن الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « وفى وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة - فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر - ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم والإحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا تغيره الدهور أو المراد منه براءته من الكذب والتناقض[2] ».

والمعنى : تلك الآيات السامية ، والمنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله : - تعالى - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من دعوته فقال : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ ..

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لما بعث الله - تعالى - رسوله محمدا - ﷺ -

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٥٨ الطبعة المنيرية .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٥ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٧ م .

أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ أكان للناس عجبا ... الآية ﴾[1] .

والهمزة فى قوله « أكان » لإنكار تعجبهم ، ولتعجب السامعين منه لوقوعه فى غير موضعه .

وقوله ﴿ للناس ﴾ جار ومجرور حالا من قوله ﴿ عجبا ﴾ والمراد بهم مشركو مكة ومن لف لفهم فى إنكار ما جاء به النبى - ﷺ - .

وقوله : ﴿ عجباً ﴾ خبر كان ، والعجب والتعجيب - استعظام أمر خفى سببه .

وقوله : ﴿ أن أوحينا ﴾ فى تأويل مصدر أى : إيحاؤنا ، وهو اسم كان . والوحى : الإعلام فى خفاء ، والمقصود به ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قرآن وغيره .

وقوله : ﴿ إلى رجل منهم ﴾ أى إلى بشر من جنسهم يعرفهم ويعرفونه .

وقوله : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ الإنذار إخبار معه تخويف فى مدة تتسع التحفظ من المخوف منه ، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار ، وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله - تعالى - :

والمراد بالناس هنا : جميع الذين يمكنه - ﷺ - أن يبلغهم دعوته .

وقوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ البشارة : إخبار معه ما يسر فهو أخص من الخبر ، سمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة التى هى ظاهر الجلد .

وقوله : ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ أى أن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم .

وأصل القدم العضو المخصوص . وأطلقت على السبق ، لكونها سببه وآلته ، فسمى المسبب باسم السبب من باب المجاز المرسل ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد .

وأصل الصدق أن يكون فى الأقوال ، ويستعمل أحيانا فى الأفعال فيقال : فلان صدق فى القتال ، إذا وفاه حقه ، فيعبر بصفة الصدق عن كل فعل فاضل .

وإضافة القدم إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم : مسجد الجامع ، والأصل قدم صدق . أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق . ثم جعل الصدق كأنه صاحبها .

ويجوز أن تكون إضافة القدم إلى الصدق من باب إضافة المسبب إلى السبب ، وفى ذلك

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٦ طبعة عيسى الحلبى .

تنبيه إلى أن ما نالوه من منازل رفيعة عند ربهم . إنما هو بسبب صدقهم فى أقوالهم وأفعالهم ونياتهم .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : واختلف أهل التأويل فى معنى قوله : ﴿ قدم صدق ﴾ فقال بعضهم معناه : أن لهم أجرا حسنا بسبب ما قدموه من عمل صالح ..

وقال آخرون معناه : أن لهم سابق صدق فى اللوح المحفوظ من السعادة .

وقال آخرون : معنى ذلك أن محمدا - ﷺ - شفيع لهم .

ثم قال : وأولى هذه الاقوال عندى بالصواب قول من قال معناه : أن لهم أعمالا صالحة عند الله يستحقون بها منه الثواب ، وذلك أنه محكى عن العرب قولهم : هؤلاء أهل القدم فى الإسلام . أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيرا ، فكان لهم فيه تقديم .

ويقال : لفلان عندى قدم صدق وقدم سوء ، وذلك بسبب ما قدم إليه من خير أو شر ، ومنه قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا فى طاعة الله تابع[1]

ومعنى الآية الكريمة : أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركى مكة ومن على شاكلتهم ، أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لكى يبلغهم الدين الحق ، أمرا عجبا ، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه - ﷺ - حتى لكأن النبوة فى زعمهم تتنافى مع البشرية .

إن الذى يدعو الى العجب حقا هو ما تعجبوا منه ، لأن الله - تعالى - اقتضت حكمته أن يجعل رسله الى الناس من البشر ، لأن كل جنس يأنس لجنسه ، وينفر من غيره ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله ﴿ أكان للناس عجبا ﴾ وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجبا ؟

قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها . ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم . وليس فى « عند الناس » هذ المعنى .

والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر . وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم . فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب . وأن يذكر لهم البعث . وينذر بالنار ويبشر بالجنة . وكل واحد من هذه الأمور ليس

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ٥٨ . طبعة دار المعرفة بيروت .

بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرا مثلهم .

وقال الله - تعالى - : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[١] .

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضا - لأن الله - تعالى - إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة . والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب فى شىء قال - تعالى - : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾[٢] .

والبعث للجزاء على الخير والشر . هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا إنما العجب والمنكر فى العقول ، تعطيل الجزاء[٣] .

وقدم - سبحانه - خبر كان وهو ﴿ عجبا ﴾ على اسمها وهو ﴿ أن أوحينا ﴾ . لأن المقصود بالإنكار فى الآية إنما هو تعجبهم ودهشتهم من أن يكون الرسول بشراً .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ، لأن التخلية مقدمة على التحلية،وإزالة مالا ينبغى مقدم فى الرتبة على فعل ما ينبغى .

ولم يذكر المنذر به ، لتهويله وتعميمه حتى يزداد خوفهم وإقبالهم على الدين الحق ، الذى يؤدى اتباعه إلى النجاة من العذاب .

وخص التبشير بالمؤمنين لأنهم وحدهم المستحقون له، بخلاف الإنذار فإنه يشمل المؤمن والكافر . ولذا قال - سبحانه - ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أى جميع الناس .

وذكر - سبحانه - فى جانب التبشير المبشر به - وهو حصولهم على المنزلة الرفيعة عند ربهم - لكى تقوى رغبتهم فى طاعته . ومحبتهم لعبادته ، وبذلك ينالون ما بشرهم به .

ثم وضح - سبحانه - ما قاله الكافرون عند مجىء الرسول - ﷺ - بدعوته فقال : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

أى : قال الكافرون المتعجبون من أن يكون - ﷺ - رسولا إليهم ، إن هذا الإنسان الذى يدعى النبوة لساحر بيِّن السحر واضحه . حيث إنه استطاع بقوة تأثيره فى النفوس أن يفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

(٢) سورة « سبأ » الآية ٣٧ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٤ . طبعة مصطفى الحلبى .

وعلى هذه القراءة التى وردت عن ابن كثير والكوفيين تكون الإشارة إلى الرسول - ﷺ - .

وقرأ الباقون : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ أى : إن هذا القرآن لسحر واضح ، لأنه خارق للعادة فى جذبه النفوس إلى الايمان بما جاء به محمد - ﷺ - .

قال ابو حيان ما ملخصه : « ولما كان قولهم فيها لا يمكن أن يكون سحرا ظاهر الفساد ، لم يحتج إلى جواب ، لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة ، وخلطتهم له ، - وأنه لا علم له بالسحر - وقد أتاهم بعد بعثته بكتاب إلهى مشتمل على مصالح الدنيا والآخرة مع الفصاحة والبلاغة التى أعجزتهم ..

وقولهم هذا؛هو دين الكفرة مع أنبيائهم . فقد قال فرعون وقومه فى موسي - عليه السلام - ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ وقال قوم عيسى فيه عندما جاءهم بالبينات ﴿ هذا سحر مبين ﴾ ودعوى السحر إنما هى على سبيل العناد والجحد »[1] .

وقال الآلوسى « وفى قولهم هذا اعتراف منهم بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر ، نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ، ولكنهم يسمونه سحرا تماديا فى العناد ، كما هو شنشنة المكابر اللجوج ، وشنشنة المفحم المحجوج »[2] .

وجاءت الجملة الكريمة بدون حرف عطف ، لكونها استئنافا مبنيا على سؤال مقدر ، فكأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا التعجب ؟ فكان الجواب : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ويرى الامام ابن جرير أن الآية فيها كلام محذوف ، فقد قال : - رحمه الله - : « وفى الكلام حذف استغنى بدلالة ما ذكر عما ترك ذكره ، وتأويل الكلام : أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، فلما أتاهم بوحى الله وتلاه عليهم وبشرهم وأنذرهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله إن هذا الذى جاءنا به محمد - ﷺ - لسحر مبين »[3] .

وقد اشتملت جملة ﴿ إن هذا لساحر مبين ﴾ على جملة من المؤكدات ، للإشارة إلى رسوخهم فى الكفر ، وإلى أنهم مع وضوح الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - لم يزدادوا إلا جحودا وعنادا ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ١٢٣ - طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٣٨ هـ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٣ . (٣) تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ٦٠ طبعة بولاق سنة ١٣٢٧ هـ .

ثم ساق - سبحانه - من مظاهر قدرته ، ما يبطل تعجبهم فقال - تعالى - :

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحى والبعثة والرسالة ثم إنه - تعالى - أزال ذلك التعجب بأنه لايبعد ألبتة فى أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم .. كان هذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين :

أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلها قاهرا قادرا ، نافذ الحكم بالأمر والنهى .

والثانى : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولها .

فلا جرم أنه - سبحانه - ذكر فى هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين .

أما الأول : وهو إثبات الألوهية فبقوله - تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ... ﴾ .

وأما الثانى : فهو إثبات المعاد والحشر والنشر بقوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ... ﴾ .

فثبت أن هذا الترتيب فى غاية الحسن ، ونهاية الكمال »[1] .

والمعنى : إن ربكم ومالك أمركم - الذى عجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم هو الله الذى خلق السموات والأرض فى مقدار ستة أيام أى أوقات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٨ .

فالمراد من اليوم معناه اللغوى وهو مطلق الوقت .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن تلك الايام من أيام الآخرة التى يوم منها كألف سنة مما تعدون .

قال الآلوسى : « وقيل هى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب بالمقام ، لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة فى مثل تلك المدة اليسيرة ، ولأنه تعريف لنا بما نعرفه »[١] .

وقال بعض العلماء : « ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة ، فهى لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها ، وإنما ذكرت لبيان حكمة التدبير والتقدير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر ، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو الإشارة الى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذى يسير مع الكون من بدئه إلى منتهاه »[٢] .

وقال سعيد بن جبير : كان الله قادرا على أن يخلق السموات والأرض فى لمحة ولحظة . ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ، لكى يعلم عباده التثبت والتأنى فى الأمور .

وقوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ معطوف على ما قبله ، لتأكيد مزيد قدرته وعظمته - سبحانه - .

والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ .

أى : استقرت ، ومن معانيه - أيضا - الاستيلاء والقهر والسلطان ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق أى : استولى عليه

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محمولا »[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٤ .
(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ١١ ص ١٧٦٢ - طبعة دار الشروق .
(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٢٩ .

وقد ذكر العرش فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية ، وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة الى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولو جوب تنزيهه عمالا يليق به فيجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلى الله - تعالى - .

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت فى تفسير قوله - تعالى - ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ : الكيف غير معقول ، والاستواء مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرازى : « إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه » .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر لاستحالة حملها على ما يفيده ظاهر اللفظ ، لأنه - سبحانه - مخالف للحوادث ، ووجوب حملها على ما يليق به - سبحانه - .

وعليه فإن الاستواء هنا : كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسلطان وقوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ استئناف مسوق لتقرير عظمته - سبحانه - ولبيان حكمة استوائه على العرش .

والتدبير معناه : النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود .

والمراد به هنا : التقدير الجارى على وفق الحكمة التى اقتضتها إرادة الله ومشيئته .

والمراد بالأمر : ما يتعلق بأمور المخلوقات كلها من إنس وجن وغير ذلك من مخلوقاته التى لا تعد ولا تحصى .

أى أنه سبحانه يدبر أمر مخلوقاته تدبيرا حكيما ، حسبما تقتضيه إرادته وعبر بالمضارع فى قوله : ﴿ يدبر ﴾ للإشارة الى تجدد التدبير واستمراره ، إذ أنه - سبحانه - لا يهمل شئون خلقه .

وقوله : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ استئناف آخر مسوق لبيان تفرده فى تدبيره وأحكامه .

والشفيع مأخوذ من الشفع وهو ضم الشىء إلى مثله ، وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو

أعلى منزلة إلى من هو أدنى منه لإعانته على ما يريده .

والاستثناء هنا مفرغ من أعم الأوقات والأحوال . أى : ما من شفيع يستطيع أن يشفع لغيره فى جميع الأوقات والأحوال إلا بعد إذنه - سبحانه - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾[1] .

وقوله - سبحانه -: ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[2] .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ يعود إلى ذات الله - تعالى - الموصوفة بتلك الصفات الجليلة .

أى : ذلكم الموصوف بالخلق والتدبير والتصرف فى شئون خلقه وفق مشيئته ، هو الله ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ولا تشركوا معه أحدا فى ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بالتذكر فقال : ﴿أفلا تذكرون ﴾ أى : أتعلمون أن الله - تعالى - هو خالقكم وهو القادر على كل شىء ، ومع ذلك تستبعدون أن يكون الرسول بشرا ، فهلا تذكرتم قدرة الله وحكمته حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتتبعوا الحق الذى جاءكم به نبيكم - ﷺ - : وإيثار ﴿ تذكرون ﴾ على تفكرون للإيذان بظهور الأمر وأنه كالمعلوم الذى لا يفتقر الى عمق فى التفكير والبحث والتأمل . إذا أن مظاهر قدرة الله وعظمته نراها واضحة جلية فى الأنفس والآفاق .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقت ألوانا من مظاهر قدرة الله - تعالى - وبالغ حكمته ، ونفاذ أحكامه حتى يخلص له الناس العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع العباد جميعا إليه ، وأنه سيجازى كل إنسان بما يستحق . فقال - تعالى - ﴿ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا ﴾ .

أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجعكم جميعا بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ، وقد وعد الله بذلك وعدا صدقا ، ولن يخلف الله وعده .

قال أبو حيان : وانتصب ﴿ وعد الله ﴾ و ﴿ حقا ﴾ على أنهما مصدران مؤكدان لمضمون الجملة ، والتقدير وعد الله وعدًا ، فلما حذف الناصب أضاف المصدر الى الفاعل ، وذلك كقوله

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٢) سورة النجم الآية ٢٦ .

« صبغة الله » و« صنع الله » والتقدير فى ﴿ حقا ﴾ : حق ذلك حقا »[1] .

وقوله : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ كالتعليل لما أفاده قوله - سبحانه - ﴿ إليه مرجعكم ﴾ فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء المناسب على الأعمال الدنيوية .

أى : إن شأنه - سبحانه - أن يبدأ الخلق عند تكوينه ثم يعيده الى الحياة مرة أخرى بعد موته وفنائه .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من الإعادة بعد الموت فقال : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .

والقسط - كما يقول الراغب - النصيب بالعدل . يقال : قسط الرجل إذا جار وظلم . ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ ويقال أقسط فلان إذا عدل ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ .

والحميم : الماء الذى بلغ أقصى درجات الحرارة ، قال - تعالى - ﴿ وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ﴾ أى : فعل ما فعل سبحانه من بدء الخلق وإعادتهم ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله الجزاء الطيب الذى أعده لهم ، وأما الذين كفروا فيجزيهم - أيضا - بعدله ما يستحقونه من شراب حميم يقطع أمعاءهم ، ومن عذاب مؤلم لابدانهم ، وذلك بسبب كفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ حال من فاعل ﴿ ليجزى ﴾ ليجزيهم ملتبسا بالقسط .

ويصح أن يكون المعنى : فعل ما فعل ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن بسبب عدلهم وتمسكهم بتكاليف دينهم ، وأما الذين كفروا فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم .

قال الجمل ما ملخصه : وقال - سبحانه - ﴿ والذين كفروا لهم شراب .... ﴾ بتغيير فى الأسلوب للمبالغة فى استحقاقهم للعقاب . وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، والعذاب وقع بالعرض . وأنه - تعالى - يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ، ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته فى خلق السموات والأرض ، أتبع ذلك

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ١٢٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٤ طبعة حجازى بالقاهرة .

بذكر مظاهر أخرى لقدرته ، تتمثل فى خلق الشمس والقمر والليل والنهار فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

ففى هاتين الآيتين - كما يقول الآلوسى - تنبيه على الاستدلال على وجوده - تعالى - ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته . بآثار صنيعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر ، وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير إليه إشارة إجمالية ، وإرشاد إلى أنه - سبحانه - حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع ، فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب أولى وأحرى[1] » .

وقوله ﴿ جعل ﴾ يجوز أن يكون بمعنى أنشأ وأبدع ، فيكون لفظ ﴿ ضياء ﴾ حال من المفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى صير فيكون اللفظ المذكور مفعولا ثانيا .

وقوله ﴿ ضياء ﴾ جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، وقيل هو مصدر ضاء يضوء ضياء كقام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، وعلى كلا الوجهين فالكلام على حذف مضاف .

والمعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكى تنتفعوا بهما فى مختلف شئونكم .

قال الجمل : « وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر »[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٤ .

هذا دليل . ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر فى نورهما قوله - تعالى - : ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾[١] وقوله - سبحانه - : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ وقدره منازل ﴾ معطوف على ما قبله .

والتقدير : جعل الشىء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الزمان أو المكان أو غيرهما قال - تعالى - : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ .

المنازل : جمع منزل ، وهى أماكن النزول ، وهى - كما يقول بعضهم - ثمانية وعشرون منزلا ، وتنقسم إلى اثنى عشر برجا وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، لكل برج منها منزلان وثلث منزل ، وينزل القمر فى كل ليلة منزلا منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين .

ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوما[٣] .

والضمير فى قوله : ﴿قدرناه﴾ يعود الى القمر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

أى : الله - تعالى - هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدر للقمر منازل ينزل فيها فى كل ليلة على هيئة خاصة ، وطريقة بديعة تدل على قدرة الله وحكمته .

قالوا : وكانت عودة الضمير إلى القمر وحده ، لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس : ولأن منازله معلومة محسوسة ، ولأنه العمدة فى تواريخ العرب ، ولأن أحكام الشرع منوطة به فى الأغلب[٤] .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير للشمس والقمر معا ، أى : وقدر لهما منازل ، أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانها فى السير ، ولا يتعدى أحدهما على الآخر كما قال - تعالى - : ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾[٥] .

وإنما وحد الضمير للإيجاز كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ بيان للحكمة من الخلق والتقدير .

---

(١) سورة نوح الآية ١٦ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦١ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٤ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٦٩ .
(٥) سورة يس الآية ٤٠ .
(٦) سورة التوبة الآية ٦٢ .

أى : جعل - سبحانه - الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التى يفيدكم علمها فى مصالحكم الدينية والدنيوية ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو القمر يكون صغيرا ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام »

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ يعود إلى المذكور من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل .

أى : ما خلق الله ذلك الذى ذكره لكم إلا خلقا ملتبسا بالحق ، ومقترنا بالحكمة البالغة التى تقتضيها مصالحكم .

وقوله : ﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ استئناف مسوق لبيان المنتفعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده .

أى : يفصل - سبحانه - ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ، ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان قدرته ورحمته فقال : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار ﴾ طولا وقصرا ، وحرا وبردا، وتعاقبا دقيقا لا يسبق أحدهما معه الآخر ﴿ وما خلق الله فى السموات والأرض ﴾ من أنواع الانس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التى لا تعد ولا تحصى ..

إن فى كل ذلك الذى خلقه ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أى : لدلائل عظيمة كثيرة دالة على قدرة الله ورحمته ووحدانيته ، لقوم يتقون الله - تعالى - فيحذرون عقابه ، ويرجون رحمته .

وخص - سبحانه - المتقين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبر فى هذه الدلائل .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد سلك أنجع الوسائل فى مخاطبة الفطرة البشرية ، حيث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٨ .

لفت الأنظار إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من مخلوقات شاهدة محسوسة ، تدل على وحدانية الله ، وقدرته النافذة ، ورحمته السابغة بعباده .

* * *

ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله من عذاب للكافرين ، وما أعده من ثواب للطائعين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما أقام الدلائل على صحة القول بإثبات الإله القادر الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده فى شرح أحوال من يكفر بها وفى شرح أحوال من يؤمن بها »[1] .

والمراد بلقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم فى الدنيا ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ رضاء جعلهم لا يفكرون إلا فى التشبع من زينتها ومتعها ، وأطمأنوا بها ، اطمئنانا صيرهم يفرحون بها ويسكنون إليها ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ غافلون ﴾ بحيث لا يخطر على بالهم شىء مما يدل عليه هذه الآيات من عبر وعظات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٣٨ .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة .

وصفهم - أولا - بعدم الرجاء فى لقاء الله - تعالى - بأن صاروا لا يطمعون فى ثواب ، ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة .

ووصفهم - ثانيا - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصورا فيها ، وفى لذائذها وشهواتها .

قال الإمام الرازى : واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن اللذات الروحانية ، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية ، وأما هذه الصفة الثانية فهى إشارة إلى من استغرقه الله فى طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها ، واستغراقه فى طلبها »[1] .

ووصفهم - ثالثا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئنان الشخص إلى الشىء الذى لا ملاذ له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا .

ووصفهم - رابعا - بالغفلة عن آيات الله التى توقظ القلب ، وتهدى العقل ، وتحفز النفس إلى التفكير والتدبير .

وبالجملة فهذه الصفات الأربعة تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم على أخراهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

فماذا كان مصيرهم كما بينه - سبحانه - فى قوله : ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الخسيسة ، مقرهم وملجأهم الذى يلجأون إليه النار وبئس القرار ، بسبب ما اجترحوه من سيئات وما اقترفوه من منكرات .

هذه هى صفات هؤلاء الأشقياء ، وذلك هو جزاؤهم العادل ، أما السعداء فقد بين الله - تعالى - بعد ذلك صفاتهم وثوابهم فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

أى : آمنوا بما يجب الإيمان به ، وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحة التى ترفع درجاتهم عند ربهم .

﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أى يرشدهم ربهم ويوصلهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح الى غايتهم وهى الجنة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٣٩ .

وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس إليها ، بعد أن عرف أن مأوى الكافرين النار وبئس القرار ..

قال الإمام ابن كثير : يحتمل أن تكون الباء فى قوله ﴿ بإيمانهم ﴾ للسببية ، فيكون التقدير بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ : أى : يكون إيمانهم لهم نورا يمشون به وقال ابن جريج فى الآية : يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله - تعالى - ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ . والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة . وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار .. »[1] .

وقوله : ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ﴾ أى : تجرى من تحت منازلهم أو مقاعدهم الأنهار ، وهم آمنون مطمئنون فى الجنات ، يتنعمون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ أى : دعاؤهم فى هذه الجنات يكون بقولهم : سبحانك اللهم . فالدعوى هاهنا بمعنى الدعاء . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى . كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى .

ولفظ سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يذكر معه .

ولفظ اللهم أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلت هذه الميم المشددة فى آخره عوضا عن حرف النداء .

قال الإمام الرازى : « ومما يقوى أن المراد من الدعوى هنا الدعاء ، أنهم قالوا : اللهم . وهذا نداء الله - تعالى - ومعنى قولهم : سبحانك اللهم . إنا نسبحك . كقول القانت فى دعاء القنوت « اللهم إياك نعبد » .

ثم قال : ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أى : وما تعبدون ، فيكون معنى الآية : أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٨ .

الابتهاج بذكر الله - تعالى - »[١] .

وقوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ معطوف على ما قبله . والتحية : التكرمة بالحال الجليلة ، وأصلها أحياك الله حياة طيبة . والسلام : بمعنى السلامة من كل مكروه .

أى : دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وتحيتهم التى يحيون بها هى السلامة من كل مكروه .

وهذه التحية تكون من الله - تعالى - لهم كما فى قوله - سبحانه - ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[٢] .

وتكون من الملائكة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٣] .

وتكون منهم فيما بينهم كما يتبادر من قوله - تعالى - ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما .. ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : وختام دعائهم يكون بقولهم : الحمد لله رب العالمين .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : « ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل والتسبيح والحمد قد يسمى دعاء ».

روى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم » . قال الطبرى : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب .

والذى يقطع النزاع ويثبت أن هذا يسمى دعاء ، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شىء ، وإنما هو تعظيم لله - تعالى - وثناء عليه ، ما رواه النسائى عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - : « دعوة ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لن يدعو بها مسلم فى شىء إلا استجيب له » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٤٣ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .
(٣) سورة الرعد الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة مريم الآية ٦١ .

ويستحب للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال الله - تعالى - حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[١].

* * *

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه ورحمته بالناس ، وما جبلوا عليه من صفات وطبائع فقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

قال صاحب المنار : « هاتان الآيتان فى بيان شأن من شئون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم فى حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم بالحاجة إلى الله - تعالى - واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور قبل أوانها وهو تعريض بالمشركين ، وحجة على ما يأتون من شرك وما ينكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ، ولذلك عطف عليه[٢] .

وقوله : ﴿ يعجل ﴾ من التعجيل بمعنى طلب الشىء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب التعجيل بالشىء .

والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة . وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاء عمره .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣١٣ .
(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ٣١١ .

والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين - : المشركون الذى وصفهم الله - تعالى - قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها .

ولقد حكى القرآن فى كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول - ﷺ - فى نزول العذاب ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[1] ، وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[2] .

والمعنى : ولو يعجل الله - تعالى - لهؤلاء المشركين العقوبة التى طلبوها ، تعجيلا مثل استعجالهم الحصول على الخير ﴿ لقضى إليهم أجلهم ﴾ أى : لأميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولكن الله - تعالى - الرحيم بخلقه ، الحكيم فى أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة التى طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها ؛ فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل فى الإسلام ، ويتبع الرسول - ﷺ - .

قال الإمام الرازى : « فقد بين - سبحانه - فى هذه الآية : أنهم لا مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليهم ، لأنه - تعالى - لو أوصل ذلك العقاب إليهم لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إماتتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضى أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر »[3] .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية الكريمة تحكى لونا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم .

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه فى تفسيرهم الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يخبر - تعالى - عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم ، أو أموالهم أو أولادهم بالشر فى حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والسخاء ، ولهذا قال : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم .. ﴾ أى لو استجاب لهم جميع ما دعوه به فى ذلك لأهلكهم .

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٤٨ طبعة عبد الرحمن محمد .

ثم قال : ولكن لا ينبغى الإكثار من ذلك ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم [1] .

أما الإمام الآلوسى فقد حكى هذين الوجهين ، ورجح الأول منهما فقال : « قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ... ﴾ وهم الذين لا يرجون لقاء الله - تعالى - المذكورون فى قوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ... ﴾ والمراد لو يعجل الله لهم الشر الذى كانوا يستعجلون به تكذيبا واستهزاء ... » ، وأخرج ابن جرير عن قتادة : أنه قال : « هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له ، وفيه حمل الناس على العموم ، والمختار الأول ، ويؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث حين قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »[2] .

والذى يبدو لنا أن كون لفظ الناس للجنس أولى ، ويدخل فيه المشركون دخولا أوليا ، لأنه لا توجد قرينة تمنع من إرادة ذلك ، وحتى لو صح ما قيل من أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ منصوب على المصدرية ، والأصل : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم بالخير ، فحذف تعجيلا وصفته المضافة ، وأقيم المضاف إليه مقامها .

ثم بين - سبحانه - ما يشير إلى الحكمة فى عدم تعجيل العقوبة فقال : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

والطغيان : مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه طغى الماء إذا ارتفع وتجاوز حده .

ويعمهون : من العمه ، يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تحير وتردد فهو عمه وعامه .

أى : لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا إلى يوم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٩ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٧٩ .

القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج فى الدنيا فى طغيانهم يتحيرون ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر .

ثم صور - سبحانه - طبيعة الإنسان فى حالتى العسر واليسر فقال : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .. ﴾.

والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة .

والضر : ما يصيب الإنسان من سوء الحال فى نفسه أو بدنه أو غيرهما مما يحبه ويشتهيه .

والمعنى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ عن طريق المرض أو الفقر أو غيرها ﴿ دعانا ﴾ بإلحاح وتضرع لكى نكشفه عنه ، فهو تارة يدعونا وهو مضطجع على جنبه ، وتارة يدعونا وهو قاعد ، وتارة يدعونا وهو قائم على قدميه .

﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ وما أصابه من سوء ﴿ مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ أى : مضى واستمر فى غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كروب ، ولم يسبق له أن دعانا بإلحاح لكشفها .

وخص - سبحانه - هذه الأحوال بالذكر ، لعدم خلو الإنسان عنها فى العادة .

وقيل : يصح أن يراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار ، لأنها قد تكون خفيفة فيدعو الله وهو قائم ، وقد تكون متوسطة فيدعوه وهو قاعد ، وقد تكون ثقيلة فيدعوه وهو نائم .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : « فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلت : معناه أن المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا فى حالاته كلها ، سواء أكان منبطحا عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أم كان قائما لا يطيق المشى .

ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالا وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف ، وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس .. »[1] .

وفى التعبير بالمس إشارة إلى أن ما أصابه من ضر حتى ولو كان يسيراً فإنه لا يترك الدعاء والابتهال إلى الله بأن يكشفه عنه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٢ .

وقوله ﴿ لجنبه ﴾ فى موضع الحال من فاعل ﴿ دعانا ﴾ و ﴿ أو ﴾ لتنويع الأحوال ، أو لأصناف المضار .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ مر ﴾ يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذى يدعو الله عند البلاء ، وينساه عند الرخاء ، فهو فى حالة البلاء يدعو الله فى كل الأحوال ، فإذا ما انكشف عنه البلاء مر واندفع فى تيار الحياة . يدون كابح ، ولا زاجر ، ولا مبالاة ، وبدون توقف ليتدبر أو ليعتبر ..

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أى : كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ، زين لهؤلاء المسرفين المتجاوزين لحدود الله ، ماكانوا يعملون من إعراض عن ذكره ، ومن غفلة عن حكمته وعن سننه فى كونه .

قال الآلوسى : « وفى الآية ذم لمن يترك الدعاء فى الرخاء ، ويهرع إليه فى الشدة ، واللائق بحال العاقل التضرع إلى مولاه فى السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة . ففى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال : ادع الله يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك .

وفى حديث للترمذى عن أبى هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد « من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكروب ، فليكثر من الدعاء عند الرخاء » [1] .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « وقد ذم الله - تعالى - من هذه طريقته وصفته فى الدعاء . أما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك ، - لأنه يدعو الله فى الشدة والرخاء - ، وفى الحديث الشريف: «عجبا لأمر المؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » [2] .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من شأنه مع الناس ومن شأنهم معه . أتبع ذلك ببيان مصير الأمم الظالمة ليكون فى ذلك عبرة وعظة فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٩ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

والخطاب فى قوله : ﴿ ولقد أهلكنا .. ﴾ لأهل مكة الذين كانوا معاصرين للنبى - ﷺ - ومناوئين لدعوته ، ويدخل فيه غيرهم ممن يصلح للخطاب على سبيل التبع .

والقرون جمع قرن . والقرن - كما يقول القرطبى - الأمة من الناس ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى كنت فيهم ... وخلفت فى قرن فأنت غريب

فالقرن كل عالم فى عصره ، مأخوذ من الاقتران ، أى : عالم مقترن بعضهم إلى بعض .

وفى الحديث الشريف : « خير القرون قرنى - يعنى أصحابى - ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

فالقرن على هذا مدة من الزمان . قيل : ستون عاما ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وقيل : مائة سنة ، وعليه أكثر أصحاب الحديث ، أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبى - ﷺ - قال لعبد الله بن بسر : « تعيش قرنا » فعاش مائة سنة [1] .

و ﴿ لما ﴾ ظرف بمعنى حين ، وهو متعلق بقوله ﴿ أهلكنا ﴾ .

والمعنى : ولقد أهلكنا أهل القرون السابقة عليكم يا أهل مكة . حين استمروا فى ظلمهم وعنادهم ، وحين أصروا على كفرهم بعد أن جاءتهم رسلهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى صدقهم فيما يبلغونه عن ربهم ، فعليكم - أيها الغافلون - أن تتوبوا إلى رشدكم ، وأن تتبعوا الحق الذى جاءكم به نبيكم كى لا يصيبكم ما أصاب الظالمين من قبلكم .

وقوله : ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يدل على إفراط أولئك المهلكين فى الظلم ،

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٩٤ .

وبلوغهم فيه أقصى الغايات ، لأنهم مع وضوح الشواهد على صدق الرسل ، استمروا فى جحودهم وظلمهم .

وقوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ معطوف على ﴿ ظلموا ﴾ . أى : أهلكنا أهل القرون السابقين عليكم حين استمروا على ظلمهم ، وحين علم الله - تعالى - منهم الإصرار على الكفر ، فإهلاكهم كان بسبب مجموع هذين الأمرين .

وقوله : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : مثل ذلك الجزاء الأليم وهو إهلاك الظالمين ، نجزى القوم المجرمين فى كل زمان ومكان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ معطوف على قوله ﴿ أهلكنا ﴾ .

والخلائف جمع خليفة . وهو كل من يخلف غيره ويأتى من بعده .

أى : ثم جعلناكم أيها المكلفون باتباع النبى - ﷺ - خلفاء فى الأرض من بعد أولئك الأقوام المهلكين لنرى ونشاهد ونعلم أى عمل تعملون فى خلافتكم فنجازيكم على ذلك بالجزاء المناسب الذى تقتضيه حكمتنا وإرادتنا ، و ﴿ كيف ﴾ مفعول مطلق لـ ﴿تعملون﴾ لا ﴿ لننظر ﴾ لأن الاستفهام له الصدارة ، فلا يعمل فيه ما قبله .

قال الآلوسى : واستعمال النظر بمعنى العلم مجاز ، حيث شبه بنظر الناظر . وعيان المعاين فى تحققه . والمراد نعاملكم معاملة من يطلب العلم بأعمالكم ليجازيكم بحسبها ، كقوله - تعالى - ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[1] .

قال قتادة : صدق الله ربنا ، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا ، بالليل والنهار .

ثم حكى - سبحانه - بعض المقترحات الفاسدة التى اقترحها المشركون على النبى - ﷺ - ورد عليها بما يبطلها فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٨٣ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ
أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : « عن مقاتل قال : إن الآية ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا .. ﴾ نزلت فى جماعة من قريش قالوا للنبى - ﷺ - إن كنت تريد أن نؤمن لك ، فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى وليس فيه ما يعيبها . وإن لم ينزل الله - تعالى - عليك ذلك فقل أنت هذا من نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلالا ، ومكان حلال حراما »[1] .

والمعنى : وإذا تتلى على أولئك المشركين آياتنا الواضحة المنزلة عليك - يا محمد - قالوا على سبيل العناد والحسد : ائت بقرآن آخر سوى هذا القرآن الذى تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها سب لآلهتنا ، آية أخرى فيها مدح لها .

وفى الآية الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إظهاراً للإعراض عنهم ، حتى لكأنهم غير حاضرين ، وغير أهل لتوجيه الخطاب إليهم .

والمراد بالآيات : الآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وأضافها - سبحانه - إليه على سبيل التشريف

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٨٥ .

والتعظيم ، وأسند التلاوة إلى الآيات بصيغة المبنى للمفعول ، للإشارة إلى أن هذه الآيات لوضوحها ، ولمعرفتهم التامة لتاليها ، صارت بغير حاجة إلى تعيين تاليها - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فماذا كان غرضهم - وهم أدهى الناس وأمكرهم - فى هذا الاقتراح ؟

قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ولاختبار الحال ، وأنه إذا وجد منه تبديل ، فإما أن يهلكه الله فينجوا هم منه أوْ لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحا لافترائه على الله » [1] .

وقوله : ﴿ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ هذا القول أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يزهق باطلهم .

وكلمة ﴿ تلقاء ﴾ مصدر من اللقاء كتبيان من البيان ، وكسر التاء فيهما سماعى ، والقياس فى هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ : لا يصح لى بحال من الأحوال ، أن أبدل هذا القرآن من عند نفسى ومن جهتها ؛ وإنما أنا أبلغكم ما أنزل الله على منه ، بدون زيادة أو نقصان ، أو تغيير أو تبديل .

وقوله : ﴿ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ تعليل لمضمون ما قبله من امتناع الإتيان بغيره أو تبديله ، والاقتصار على اتباع الوحى .

أى : إنى أخاف إن عصيت ربى أية معصية ، عذاب يوم عظيم الهول ، وإذا كان شأنى أن أخشاه - سبحانه - من أية معصية ولو كانت صغيرة ، فكيف لا أخشاه إن عصيت بتبديل كلامه استجابة لأهوائكم ؟

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - رداً آخر عليهم ، زيادة فى تسفيه أفكارهم فقال - تعالى - : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ وقوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ بمعنى ولا أعلمكم وأخبركم به ، أى : بهذا القرآن . يقال : دريت الشىء وأدرانى الله به ، أى أعلمنى وأخبرنى به .

وأدرى فعل ماض ، وفاعله مستتر يعود على الله - عز وجل - والكاف مفعول به .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٩ .

والمعنى : قل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - لو شاء الله - تعالى - أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لفعل ، ولو شاء أن يجعلكم لا تدرون منه شيئا ، لفعل - أيضا - ، فإن مرد الأمور كلها إليه ، ولكنه - سبحانه - شاء وأراد أن أتلوه عليكم ، وأن يعلمكم به بواسطتى ، فأنا رسول مبلغ ما أمرنى الله بتبليغه .

قال القرطبى : « وقرأ ابن كثير : ﴿ ولأدراكم به ﴾ بغير ألف بين اللام والهمزة . والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل » [1] .

وجاءت الآية الكريمة بدون عطف على ما قبلها ، إظهارا لكمال شأن المأمور به . وإيذاناً باستقلاله ، فإن ما سبق كان للرد على اقتراحهم تبديل القرآن . وهذه الآية للرد على اقتراحهم الإتيان بغيره .

ومفعول المشيئة محذوف . لأن جزاء الشرط ينبىء عنه ، أى : لو شاء الله عدم تلاوته ما تلوته عليكم :

وقوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ تعليل للملازمة المستلزمة لكون عدم التلاوة وعدم العلم منوط بمشيئة الله - تعالى - وقوله : ﴿ عمراً ﴾ منصوب على الظرفية وهو كناية عن المدة الطويلة . أى : فأنتم تعلمون أنى قد مكثت فيما بينكم ، مدة طويلة من الزمان ، قبل أن أبلغكم هذا القرآن ، حفظتم خلالها أحوالى ، وأحطتم خبرا بأقوالى وأفعالى ، وعرفتم أنى لم أقرأ عليكم من آية أو سورة مما يشهد أن هذا القرآن إنما هو من عند الله - تعالى - .

والهمزة فى قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ داخلة على محذوف . وهى للاستفهام التوبيخى . والتقدير : أجهلتم هذا الأمر الجلى الواضح ، فصرتم لا تعقلون أن أمثال هذه الاقتراحات المتعنتة التى اقترحتموها لا يملك تنفيذها أحد إلا الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما جاء فى هذه الآية وتقريره : أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله - ﷺ - من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله . وأنه ما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه ، جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٣٠ .

لا يحصل إلا بالوحى والإلهام من الله - تعالى - [١] .

ثم ختم - سبحانه - الرد على هؤلاء الذين لا يرجون لقاءه ، بالحكم عليهم بعدم الفلاح فقال - تعالى - ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون ﴾ والاستفهام فى قوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا أحد أشد ظلما عند الله ، وأجدر بعقابه وغضبه ، ممن افترى عليه الكذب ، بأن نسب إليه - سبحانه - ما هو برىء منه ، أو كذب بآياته وحججه التى أنزلها لتأييد رسله .

وقوله : ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن حال وشأن هؤلاء المجرمين ، أنهم لا يفلحون . ولا يصلون إلى ما يبغون ويريدون .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الشواهد الدالة على صدق النبى - ﷺ - فيما بلغه عن ربه فقال عند تفسيره لهذه الآية : « لا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا ، وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك .. ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء . فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا . فلابد أن الله ينصب من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فإن الفرق بين محمد - ﷺ - وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل فى حندس الظلماء . فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد - ﷺ - وكذب مسيلمة .. » [١] .

ثم حكى - سبحانه - أقبح رذائلهم ، وهى عبادتهم لغير الله ، ودعواهم أن أصنامهم ستشفع لهم فقال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١ .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا .. ﴾ عطف القصة على القصة .

والعبادة : الطاعة البالغة حد النهاية فى الخضوع والتعظيم .

أى : وهؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا ، ويطلبون قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله ، بلغ من جهلهم وسفههم أنهم يعبدون من دون الله أصناما لا تضرهم ولا تنفعهم ، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك .

والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع : بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون مثيبا على الطاعة و معاقبا على المعصية .

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ يعبدون ﴾ أى : يعبدونها متجاوزين الله وتاركين طاعته .

و ﴿ ما ﴾ موصولة أو نكرة موصوفة . والمراد بها الأصنام التى عبدوها من دون الله .

قال الجمل : « ونفى الضر والنفع هنا عن الأصنام باعتبار الذات ، وإثباتها لها فى سورة الحج فى قوله ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ باعتبار السبب ، فلا يرد كيف نفى عن الأصنام الضر والنفع ، وأثبتها لها فى سورة الحج »[1] .

وقوله : ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ حكاية لأقوالهم السخيفة عندما يُدعَوْن إلى عبادة الله وحده .

والشفعاء : جمع شفيع ، وهو من يشفع لغيره فى دفع ضر أو جلب نفع .

أى : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعة لنا عند الله فى دنيانا ، بأن نتوسل إليه بها فى إصلاح معاشنا ، وفى آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فيقول : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون ولا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون شفاعته . فهل تعلمون أنتم مالا يعلمه ، وهل

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٣٧ .

تخبرونه بما لا يعلم له وجوداً فى السموات ولا فى الأرض ؟!!

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة التهكم بهم ، والسخرية بعقولهم وأفكارهم ، ونفى أن تكون الأوثان شفعاء عند الله بأبلغ وجه .

والعائد فى قوله ﴿ بما لا يعلم ﴾ محذوف . والتقدير بما لا يعلمه .

وقوله ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ حال من العائد المحذوف ، وهو مؤكد للنفى ، لأن مالا يوجد فيهما فهو منتف عادة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت كيف : أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل . فكأنهم يخبرونه بشىء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بمالا يعلمه .

وقوله ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ تأكيد لنفيه ، لأن مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم »[١] .

وقوله : ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ عن كل شريك ، وعما قاله هؤلاء الجاهلون من أن الأصنام شفعاء عنده .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبخت المشركين على عبادتهم لغير الله وعلى جهالاتهم وتقولهم على الله بغير علم .

ثم بين – سبحانه – أن عبادة الناس لغيره – تعالى – إنما حدثت بعد أن اختلفوا واتبعوا الهوى . فقال :

وَمَا كَانَ
ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

والمراد بالناس : الجنس البشرى كله فى جملته ، فإنهم كانوا أمة واحدة . ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣١ .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الذى ابتدع لهم عبادة الأصنام .

قال الآلوسى : « قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ أى : وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف ، وروى هذا عن ابن عباس والسدى ومجاهد .. وذلك من عهد آدم - عليه السلام - إلى أن قتل قابيل هابيل . وقيل إلى زمن إدريس - عليه السلام - وقيل إلى زمن نوح . وقيل كانوا كذلك فى زمنه - عليه السلام - بعد أن لم يبق على الأرض من الكافرين ديار إلى أن ظهر بينهم الكفر .

وقيل : من لدن إبراهيم - عليه السلام - إلى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الأصنام ، وهو المروى عن عطاء . وعليه فالمراد من الناس العرب خاصة . وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى عنهم من رذائل ، وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك »(١) .

وقوله : ﴿ فاختلفوا ﴾ أى ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم رسله ، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء العقاب .

والفاء للتعقيب ، وهى لا تنافى امتداد زمان اتفاقهم على الحق ، لأن المراد بيان أن وقوع الاختلاف بينهم إنما حدث عقيب انتهاء مدة الاتفاق ، لا عقيب حدوثه .

والمراد بالكلمة فى قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ﴾ ما قضاه الله - تعالى - وأراده من تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة .

أى : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير القضاء بين الطائعين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم - سبحانه - فى هذه الدنيا . فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين والعصاة العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه - سبحانه - اقتضت حكمته عدم تعجيل العقوبة فى الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هى دار الجزاء والثواب والعقاب .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الوعيد الشديد على الاختلاف المؤدى إلى التفرقة فى الدين ، وإلى الشقاق والنزاع ، كما تضمنت تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه : فكأنه - سبحانه - يقول إن الاختلاف من طبيعة البشر ، فلا تنتظر من الناس جميعا أن يكونوا مؤمنين . ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان تعنت المشركين وجهالاتهم فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٩٠ .

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ومرادهم بالآية التى طلبوها : آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه - ﷺ - ناقة كناقة صالح - عليه السلام - أو تكون معه عصا كعصا موسى - عليه السلام - وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقه - ﷺ - .

ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه - ﷺ - حتى يروا ذلك بأعينهم .

أى : ويقول هؤلاء المشركون لنبيهم - ﷺ - هلا أنزل الله عليك آية أخرى سوى القرآن الكريم تكون شاهدة لك بالنبوة ، كأن تعيد إلى الحياة آباءنا ، وكأن تحول جبال مكة إلى بساتين » .

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والتثبت ، قال - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله .. ﴾[1] .

وقوله : ﴿ فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يفحمهم .

أى : قل لهم فى الجواب على هذه المطالب المتعنتة : إن هذه المطالب التى طلبتموها هى من علم الغيب الذى استأثر الله به ، فقد يجيبكم إليها - سبحانه - وقد لا يجيبكم ، فانتظروا فيما يقضيه الله فى أمر تعنتكم فى مطالبكم ، إنى معكم من المنتظرين لقضائه وقدره ، ولما يفعله بى وبكم .

فالجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم ، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم ، مع أنه أصدق معجزة للرسول - ﷺ - وأعظمها .

ولقد حكى القرآن - فى آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى - ﷺ - والتى تدل على عنادهم وجحودهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[١] .

كما حكى أيضاً - سبحانه - أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون فقال - تعالى - ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون.ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[٣] .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة جانبا من أقوال الذين لا يرجون لقاء الله ومن مقترحاتهم الباطلة ومن معتقداتهم الفاسدة ، أتبعت ذلك بتصوير بعض الطبائع البشرية تصويرا صادقا يكشف عن أحوال النفوس فى حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ
ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ
وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ
ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ .
(٢) سورة يونس الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٧ .

وقوله ﴿ أذقنا ﴾ من الذوق وحقيقته إدراك الطعام ونحوه بالذوق باللسان واستعمل هنا على سبيل المجاز فى إدراك مايسر وما يؤلم من المعنويات كالرحمة والضراء .

قال الآلوسى « والمراد بالناس كفار مكة على ما قيل ، لما روى من أن الله - تعالى - سلط عليهم القحط سبع سنين ، حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه أن يدعو لهم بالخصب ، ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم ورحمهم الله - تعالى - بالمطر ، طفقوا يطعنون فى آياته - تعالى - ويعاندون نبيه - ﷺ - .

وقيل : إن الناس عام لجميع الكفار »[1] .

والضراء من الضر ، وهو ما يصيب الإنسان فى نفسه من أمراض وأسقام .

والمكر : هو التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يتوقعه من مضرة وكيد .

والمعنى : وإذا أذقنا الناس منا رحمة كأن منحناهم الصحة والسعادة والغنى من بعد ضراء أصابتهم فى أنفسهم أو فيمن يحبون ، ما كان منهم إلا المبادرة إلى الطعن فى آياتنا الدالة على قدرتنا ، والاستهزاء بها والتهوين من شأنها .

وأسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة ، وأسند المساس إلى الضراء ، رعاية للأدب مع الله - تعالى - ، لأنه وإن كان كل شىء من عنده ، إلا أن الأدب معه - سبحانه - يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وفى الحديث : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك » .

وإذا الأولى شرطية ، والثانية فجائية والجملة بعدها جواب الشرط .

وجاء التعبير بإذا الفجائية فى الجواب ، للإشارة إلى توغلهم فى الجحود والكنود فهم بمجرد أن حلت النعمة بهم محل النقمة ، عادوا إلى عنادهم وجهلهم ، ونسبوا كل خير إلى غيره - تعالى - .

قال الرازى : « واعلم أنه - تعالى - ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة فى قوله - تعالى - ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .. ﴾ إلا أنه - تعالى - زاد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها فى تلك الآية ، وتلك الدقيقة هى أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٩٣ .

وفى الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر [1] .

وقوله : ﴿ قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يبطل مكرهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين الذين يسرعون بالمكر فى مقام الشكر ، إن الله - تعالى - أسرع مكراً منكم ؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من مكركم ، ولأن الحفظة من الملائكة يسجلون عليكم أقوالكم وأفعالكم ، التى ستحاسبون عليها فى يوم القيامة حساباً عسيراً ، وسترون أن مكركم السيء لا يحيق إلا بكم .

وقوله : ﴿ أسرع ﴾ أفعل تفضيل من الفعل الثلاثى سرع - كضخم وحسن - ، أو من الفعل الرباعى « أسرع » عند من يرى ذلك .

والجملة الكريمة تحقيق للانتقام منهم . وتنبيه على أن مكرهم الخفى غير خاف على الحفظة من الملائكة فضلا عن الخالق - عز وجل - الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وسمى - سبحانه - إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكراً ، لأنهم كانوا كثيراً ما يتجمعون سراً ، ليتشاوروا فى المؤامرات التى يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفى الشبهات التى يوجهونها إلى النبى - ﷺ - .

ثم ساق - سبحانه - مشهدا حياً . تراه العيون ، وتهتز له القلوب ، ويجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء فقال - تعالى - ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر .. ﴾ .

والسير معناه : الانتقال من مكان إلى آخر . والتسيير معناه : جعل الإنسان أو الحيوان أو غيرهما يسير بذاته ، أو بواسطة دابة أو سفينة أو غيرهما ، مما سخره الله - تعالى - له بقدرته ورحمته .

أى : هو - سبحانه - الذى يسيركم بقدرته ورحمته فى البر والبحر ، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير ، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرها مما تستعملونه فى سفركم ، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم .

ثم قال - تعالى - ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ... ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٦٥ .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ عند كثير من العلماء للواحد والجمع . والظاهر أن المراد به هنا الجمع ، بدليل قوله ﴿ وجرين ﴾ أى : السفن .

والمراد بالريح الطيبة : الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لا تجاهها .

أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينقلكم من مكان إلى آخر فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات تسييركم راكبين فى السفن التى سخرها لكم ، وجرت هذه السفن بمن فيها بسبب الريح الطيبة إلى المكان الذى تقصدونه ، وأنتم فى حالة فرح غامر ، وسرور شامل .. ﴿ جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ... ﴾ .

والريح العاصف : هى الريح الشديدة القوية . يقال : عصفت الريح واعصفت فهى عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد الراجح ، وقوله : ﴿ أحيط بهم ﴾ ، أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ، جاءت إليهم ريح عاصفة شديدة السرعة والتقلب ، وارتفع إليها الموج من كل مكان ، واعتقد ركابها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين - أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .

وقوله : ﴿ بهم ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم . لكن جاء الكلام على أسلوب الالتفات للمبالغة فى تقبيح أحوالهم ، وسوء صنيعهم .

قال صاحب الكشاف « فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت : المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح »[١] .

وقوله : ﴿دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم لك ياربنا ، ويامن لا يعجزك شىء ، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها ، لنكونن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣١ .

من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك .

وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة . وانخفضت الأمواج ، وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطىء الأمان فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق .. ﴾ .

أى : فحين أنجاهم الله - تعالى - بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذى كانوا فيه ، إذا هم يسعون فى الأرض فساداً . ويرتكبون البغى الفاضح الذى لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغى معناه : تجاوز الحق ، يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ تأكيد لما يفيده البغى من التعدى والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فإنه يسمى بغيا فى الجملة ، لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغيا وإنما يسمى إنصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن الكريم : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[1] .

وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية ، للإشعار بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى الأرض ، دون أن يردعهم رادع ، أو يصدهم ترغيب أو ترهيب .

والتعبير بقوله ﴿ فى الأرض ﴾ للإشارة إلى أن بغيهم قد شمل أقطارها ، ولم يقتصر على جانب من جوانبها .

وقوله - سبحانه - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ خطاب منه - سبحانه - لأولئك البغاة فى كل زمان ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يأيها الناس الذين تضرعوا إلينا فى ساعات الشدة ، وهرولوا إلى البغى بعد زوال تلك الشدة ، اعلموا أن بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم فأنتم وحدكم الذين ستتحملون سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤١ .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التى لا بقاء لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : ﴿ إنما بغيكم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ على أنفسكم ﴾ أى هو عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم .

وقوله : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ : قرأ حفص عن عاصم ﴿ متاع ﴾ بفتح العين على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر . أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة الدنيا . وقوله : ﴿ ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تذييل قصد به تهديدهم على بغيهم ، ووعيدهم عليه بسوء المصير حتى يرتدعوا وينزجروا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن من الواجب على العاقل أن يكثر من ذكر الله فى حالتى الشدة والرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر وينسونه عند العافية ، ففى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

٢ - ان الناس جبلوا على الرجوع إل الله وحده عند المصائب والمحن ، وفى ذلك يقول الآلوسى : « روى أبو داود والنسائى وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا . فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، ما ينجينى فى البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما . قال : فجاء فأسلم .

وفى رواية ابن سعد عن أبى مليكه : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله - تعالى - ويوحدونه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعونا إليه محمد - ﷺ - فارجعوا بنا » . فرجع وأسلم ... » [1] .

وقال الفخر الرازى : « يحكى أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لى دليلا على إثبات

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٩٧ .

الصانع ؟ فقال له : أخبرنى عن حرفتك : فقال : أنا رجل أتجر فى البحر . فقال له : صف لى كيفية حالك . فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة . فقال جعفر : هل وجدت فى قلبك تضرعا ودعاء . فقال : نعم . فقال جعفر : فإلهك هو الذى تضرعت إليه فى ذلك الوقت »[١] .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها « أن رجلا إنجليزيا قرأ ترجمة قوله - تعالى - ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر . ﴾ فراعته بلاغة وصفها لطغيان البحر .. وكان يعمل قائدا لإحدى السفن .. فسأل بعض المسلمين : أتعلمون أن نبيكم - ﷺ - قد سافر فى البحار ؟ فقالوا له : لا .. فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله - تعالى ... »[٢] .

٣ - دل قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ... ﴾ على أن البغى يجازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الآخرة فهو مادل عليه إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه أسوأ الجزاء .

وأما فى الدنيا فبدليل قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ويؤيده مارواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة سوى البغى وقطيعة الرحم »[٣] .

قال الآلوسى . وفى الآية من الزجر عن البغى مالا يخفى « فقد أخرج أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال رسول الله - ﷺ - : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا - ﷺ - قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ . وقوله - تعالى - ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله - ﷺ - : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما » .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٧ .
(٢) راجع تفسير النار جـ ١١ ص ٣٤٤ .
(٣) راجع تفسير المنار جـ ١١ ص ٣٤٣ .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

يا صاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله [1]

ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا الزائل ، ولزخرفها الفانى ، فقال - تعالى -:

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ إنما مثل ... ﴾ المثَل بمعنى المِثْل ، والمِثْل : النظير والشبيه ، ثم اطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية وأشباهها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام نعيمها بعد إقباله . كحال ماء ﴿ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أى : فكثر بسببه نبات الأرض حتى التف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره وتجاوزه ونمائه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٠٠ .

وشبه - سبحانه - الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص - بخلاف ماء الأرض - فكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقوله : ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه . وبعضه مما تأكله الأنعام كالحشائش والأعشاب المختلفة .

وجملة ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ حال من النبات .

وقوله : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت .. ﴾ تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من كل زوج بهيج .

ولفظ ﴿ حتى ﴾ غاية لمحذوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذى ما زال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها .

والزخرف : الذهب وكمال حسن الشيء . ومن القول أحسنه ، ومن الأرض ألوان نباتها .

أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشاف : « وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها ، وتزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت »[1] .

وقوله : ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ أى : وظن أهل تلك الأرض الزاخرة بالنباتات النافعة . أنهم قادرون على قطف ثمارها ، ومتمكنون من التمتع بخيراتها ، ومن الانتفاع بغلاتها .

وقوله : ﴿ أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا .. ﴾ تصوير معجز لما أصاب زرعها من هلاك بعد نضرته واستوائه و ﴿ أو ﴾ للتنويع أى : تارة يأتى ليلا وتارة يأتى نهارا .

والجملة الكريمة جواب إذا فى قوله ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها .. ﴾ .

أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع زروعها ، أتاها قضاؤنا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٣ .

النافذ ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها نائمون ، أو بالنهار وهم لا هون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة ، التى استؤصل زرعها .

وقوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ تأكيد لهلاكها واستئصال ما عليها من نبات بصورة سريعة حاسمة .

أى : جعلناها كالأرض المحصودة التى قطع زرعها ، حتى لكأنها لم يكن بها منذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والنخل الباسق ، والطلع النضيد .

قال القرطبى قوله : ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أى : لم تكن عامرة . من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمغانى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس »[1] .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ أى كأنها ما كانت حينا قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، ولهذا جاء فى الحديث الشريف : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط فيقول لا »[2] .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضى القريب : لا خصوص اليوم الذى قبل يومك .

وقوله : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

أى : كهذا المثل فى وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها نفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر فى ملكوت السموات والأرض .

قال الجمل ما ملخصه : « وهذه الآية مثل ضربه الله - تعالى - للمتشبث فى الدنيا الراغب فى زهرتها وحسنها .. ووجه التمثيل أن غاية هذه الدنيا التى ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به ، وقع اليأس منه ، ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها »[3] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٢٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٣ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٤٢ .

. وبعد أن بين – سبحانه – حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعا إلى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى الجنة فقال – تعالى – :

وَٱللَّهُ

يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التى أعدها الله – تعالى – لعباده المؤمنين ، وسميت بذلك ، لأنها الدار التى سلم أهلها من كل ألم وآفة . أو لأن تحيتهم فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله – تعالى – فأضيفت إليه تعظيما لشأنها ، وتشريفا لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ... ﴾ معطوف على محذوف يدل عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله – تعالى – يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذى يوصلهم إلى دار كرامته .

وقوله : ﴿ ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وهو المؤدى بصاحبه إلى رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذى شرعه الله لعباده . وبلغه لهم عن طريق نبيه محمد – ﷺ – .

وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... ﴾ بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزلة الحسنى ، والمثوبة الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله - تعالى - عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم - رضى الله عنهم .

ومستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن والتى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - : تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .. ﴾ .

وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا . يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم »[1] .

وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : « مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر أو مغفرته - سبحانه - ما فرط منهم فى الدنيا ، ورضوانه عليهم فى الآخرة » .

والحق ان التفسير الوارد عن الصحابة . والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه . ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما يمن من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

ولذا قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ وزيادة ﴾ هى تضعيف ثواب الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فإنه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن جمع من السلف والخلف ، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبى - ﷺ - فى ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن » . عز وجل .

وعن أبى بن كعب أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن قول الله - تعالى - ﴿ للذين

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى .

أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - »[١] .

والمقصود بقوله : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان .

وقوله : ﴿ يرهق ﴾ من الرهق بمعنى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه يرهقه رهقا - من باب طرب - أى غشيه وغطاه بسرعة .

والقتر والقترة : الغبار والدخان الذى فيه سواد والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان يذل ذلة وذلا ، إذا أصابه الصغار والحقارة .

أى : ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شىء مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من المعانى ، توحى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال والكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشاعر ، فهناك وجوه ﴿ عليها غبرة . ترهقها قترة ﴾ وهناك وجوه ﴿ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ .

وقوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ تذييل قصد به تأكيد مدحهم ومسرتهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ، وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة فقال - تعالى - : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما ﴾.

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين اجترحوا السيئات ، واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها كما قال - تعالى - ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾.

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سيئ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٤ .

وقوله : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أى : وتغشاهم وتغطيهم ذلة عظيمة ومهانة شديدة ، وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيذان بأنها محيطة بهم من كل جانب .

وقوله : ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو يجيرهم أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ﴾ تصوير بديع للظلام الحسى والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .

أى : كأنما ألبست وجوههم قطعا من الليل المظلم ، والسواد الحالك ، حتى صارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، وتعاسة أحوالهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا أبديا لا نهاية له .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى فى رفع درجاتهم ، وفى رضا الله - تعالى - عنهم : كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال الخارجين عن طاعته ؛ ووصفا للمصير المؤلم ، الذى ينتظرهم يوم القيامة ، ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من الأقوال التى تدور بين المشركين وبين شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

وقوله : ﴿ نحشرهم ﴾ أى نجمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .

ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجمع الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ أى : ثم نقول للمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاءه فيكم ، فقوله : ﴿ مكانكم ﴾ ظرف مكان منصوب بفعل مقدر ، وقوله ﴿ وشركاؤكم ﴾ معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله ﴿ أنتم ﴾ تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .

وجاء العطف بثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها ، فثم هنا للتراخى النسبى .

وقال - سبحانه - ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء الله - من باب التهكم بهم . وللإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا .

وجاء وصفهم بالشرك فى حيز الصلة ، للإيذان بأنه أكبر جناياتهم ؛ وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .

وقوله : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أى : ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .

وزيلنا : من التزييل بمعنى التمييز والتفريق ، يقال : زيلت الشىء أزيله إذا نحيته وأبعدته ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾[1] أى : لو تميزوا وتفرقوا .

وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز ؛ قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التذييل سيكون فى الآخرة ، للإيذان بتحقيق الوقوع ، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم .

وقوله : ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ معطوف على ما قبله .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

والمراد بالشركاء ؛ كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك .

أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم أيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فانقدتم له بدون تدبر أو تعقل .

والمقصود بقولهم هذا - التبرى من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة .

وقوله : ﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ تأكيد لهذا التبرى والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و ﴿ إن ﴾ فى قوله ﴿ إن كنا ﴾ مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة : ما سلف منها من أعمال ، فترى ما كان نافعاً أو ضاراً من هذه الأعمال ، وترى الجزاء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .

وهكذا ترى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويرا بليغا مؤثرا ، يتجلى فيه موقف الشركاء من عابديهم ، وموقف كل إنسان من عمله الذى أسلفه فى الدنيا .

وبعد هذا الحديث المعجز عن يوم الحشر وأهواله ، ساقت السورة الكريمة بضع آيات فيها الأدلة المقنعة على وحدانية الله وقدرته ، ولكن بأسلوب السؤال والجواب ، فقال - تعالى :

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ

فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها ، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار ، وغير ذلك مما تخرجه الأرض .

وقوله : ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ أى : بل قل لهم – أيضا – من الذى يملك ما تتمتعون به من سمع وبصر ، ومن الذى يستطيع خلقهما وتسويتهما بالطريقة التى أوجدها – سبحانه .

وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان ، ولأنهما قد اشتملتا فى تركيبهما على ما بهر العقول ، ويشهد بقدرته – تعالى – وعجيب صنعه فى خلقه .

و ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل ، وهى هنا للإضراب الانتقالى لا الإبطالى ، وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام فى الدلالة على المقصود ، وهو إثبات قدرة الله – تعالى – ووجوب إخلاص العبادة له .

وقوله : ﴿ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته .

أى : وقل لهم كذلك من سوى الله – تعالى – يملك إخراج النبات وهو كائن حى من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان وهو كائن حى من النطفة وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس .

وقوله : ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أى : وقل لهم – أيضاً – من الذى يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وأماتة ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص ، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها .

وقوله : ﴿ فسيقولون الله ﴾ حكاية للجواب الذى لا يستطيعون إنكاره ، لأنهم مقرون معترفون بأن الله – تعالى – هو الذى خلقهم ، وهو الذى يدبر أمرهم ، وإنما كانوا يتخذون

الشركاء للزلفى ، كما حكى القرآن عنهم فى قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .. ﴾ وفى قوله - سبحانه - حكاية عنهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. ﴾ .

ولفظ الجلالة مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : فسيقولون الله وحده هو الذى فعل كل ذلك .

وقوله : ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بهذا الرد .

والهمزة لإنكار واقعهم الذميم ، وهى داخلة على كلام مقدر ، ومفعول تتقون محذوف .

أى : أتعلمون وتعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل ما سبق ، ومع ذلك تشركون معه آلهة فى العبادة ، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة ؟ .

إن مسلككك هذا إنما يدل على ضعف فى التفكير ، وانطماس فى العقول ، وجهالة ليس بعدها جهالة .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ... ﴾ .

أى : فذلكم الذى فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم ، هو الله المربى لكم بنعمه ، وهو الذى لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده .

إذا كان الأمر كذلك ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أى لا يوجد غير الحق شىء يتبع سوى الضلال ، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده ، فقد وقع فى الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى .

قال القرطبى : « ثبت عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : « اللهم لك الحمد » الحديث ، وفيه : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ... » .

فقوله : أنت الحق ، أى الواجب الوجود ، وأصله من حق الشىء إذا ثبت ووجب - وهذا الوصف لله - تعالى - بالحقيقة ، إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، ويجوز عليه لحاق العدم ، ووجوده من موجده لا من نفسه .

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما فى هذه الآية .. والضلال حقيقته الذهاب عن

الحق مأخوذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سمته ، يقال : ضل الطريق وأضل الشىء إذا أضاعه .. »[١] .

وقوله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أى : فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الضلال ، بعد اعترافكم وإقراركم بأن خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم هو الله - تعالى - وحده .

فأنى هنا بمعنى كيف ، والاستفهام لإنكار واقعهم المخزى واستبعاده والتعجب منه .

ومن الأحكام التى تؤخذ من هذه الآية الكريمة : أن الحق والباطل ، والهدى والضلال ، نقيضان لا يجتمعان ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فى وقت واحد بل متى ثبت أن أحدهما هو الحق ، وجب أن يكون الآخر هو الباطل .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل ، فقال - تعالى - :

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ .

والكاف للتشبيه بمعنى مثل . وحقت بمعنى وجبت وثبتت .

والمراد بالكلمة هنا : حكمه وقضاؤه - سبحانه - .

والمعنى : مثل ما ثبت أن الله - تعالى - هو الرب الحق ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال ، ثبت - أيضا - الحكم والقضاء منه - سبحانه - على الذين فسقوا عن أمره ، وعموا وصموا عن الحق ، أنهم لا يؤمنون به ، لأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .

فالمراد بالفسق هنا : التمرد فى الكفر ، والسير فيه إلى أقصى حدوده .

ثم ساق - سبحانه - أنواعا أخرى من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . فقال :

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٣٦ .

يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين عن الحق : هل من شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، أو أشركتموهم مع الله ، من له القدرة على أن يبدأ خلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ... ثم ينشئه خلقا آخر ، ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ...

وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ والإفك الصرف والقلب عن الشيء . يقال : أفكه عن الشيء يأفكه أفكا ، إذا قلبه عنه وصرفه .

أى فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق ، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ؟ ! .

وجاءت جملة ﴿ قل هل من شركائكم .. ﴾ بدون حرف العطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها فى حصول المطلوب ، وإثبات المقصود .

وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال والاستفهام ، لأن الكلام إذا كان واضحا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المسئول كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب .

وجعل - سبحانه - إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم فى التدليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها ، للإيذان بسطوع أدلتها ، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه .. ﴾[1] .

فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة ، نزل إنكارهم لها منزلة العدم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : كيف قيل لهم هل من

---

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهم غير معترفين بالإعادة ؟ .

قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرا رادا الظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، ودلالة على أنهم فى إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء . وقال لنبيه - ﷺ - : ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ فأمره بأن ينوب عنهم فى الجواب . يعنى أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلم أنت عنهم .. »[1] .

وقوله : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق ﴾ . حجة أخرى تدمغ جهلهم ، جيء بها لتكون دليلا على قدرة الله على الهداية والإضلال ، عقب إقامة الأدلة على قدرته - سبحانه - على بدء الخلق وإعادتهم .

أى : قل لهم يا محمد - أيضا - على سبيل التهكم من أفكارهم : هل من شركائكم من يستطيع أن يهدى غيره إلى الدين الحق ، فينزل كتاباً ، أو يرسل رسولا ، أو يشرع شريعة ، أو يضع نظاما دقيقا لهذا الكون . أو يحث العقول على التدبر والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ... ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره .

وقوله : ﴿ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى .. ﴾ توبيخ آخر لهم على جهالاتهم وغفلتهم عن إدراك الأمور الواضحة .

أى : قل لهم يا محمد : أفمن يهدى غيره إلى الحق وهو الله - تعالى - . أحق أن يتبع فيما يأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أت يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره أحق بالاتباع ؟ لاشك أن الذى يهدى غيره إلى الحق أحق بالاتباع من الذى هو فى حاجة إلى أن يهديه غيره .

وقوله : ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ استفهام قصد به التعجيب من أحوالهم التى تدعو إلى الدهشة والغرابة .

أى : ما الذى وقع لكم ، وما الذى أصابكم فى عقولكم حتى صرتم تشركون فى العبادة مع الله الخالق الهادى ، مخلوقات لا تهدى بنفسها وإنما هى فى حاجة إلى من يخلقها ويهديها .

قال الإمام الرازى : « واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ثم بالهداية

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٦ .

ثانيا ، عادة مطردة فى القرآن ، فقد حكى - سبحانه - عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ وعن موسى أنه قال : ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وأمر محمدا - ﷺ - بذلك فقال : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى. الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾ .وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية ، فها هنا أيضا لما ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى وهو قوله : ﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية[1] .

وقوله : ﴿ أم من لا يهدى ﴾ ورد فيه ست قراءات ، منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ، ومنها قراءة حمزة والكسائى بالتخفيف كيرمى ، ومنها قراءة ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع « يهدى » فتح الياء والهاء وتشديد الدال ..[2] .

والاستثناء فى قوله : ﴿ أم من لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ مفرغ من أعم الأحوال .

والتقدير : أفمن يهدى إلى الحق أحق بالاتباع ، أم من لا يستطيع الهداية إلا أن يهديه إليها غيره أحق بالاتباع ؟

وجاء قوله - سبحانه - ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ باستفهامين متواليين ، زيادة فى توبيخهم وتقريعهم ، ولفت أنظارهم إلى الحق الواضح الذى لا يخفى على كل ذى عقل سليم .

وقوله : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ... ﴾ توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون ، وتسلية للرسول - ﷺ -عما أصابه منهم من إساءات .

أى : إن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، لا يتبعون فى عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التى ورثها الأبناء عن الآباء .

وخص أكثرهم بالذكر ، لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لا يتبعونه عنادا وجحودا وحسدا ، كما قال - تعالى - ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[3] .

ويجوز أن يكون - سبحانه - خص أكثرهم بالذكر ، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق ، وستتبعه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٩٠ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٤١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

والتنكير فى قوله ﴿ ظنا ﴾ للتنويع . أى لا يتبع أكثرهم إلا نوعا من الظن الواهى الذى لا يستند إلى دليل أو برهان .

وقوله : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ استئناف مسوق لبيان شأن الظن وبطلانه .

والمراد بالظن هنا : ما يخالف العلم واليقين ، والمراد بالحق : العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع .

أى : إن الظن الفاسد المبنى على الأوهام لا يغنى صاحبه شيئا من الإغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب فى ثبوته وصحته .

وقوله ﴿ شيئا ﴾ مفعول مطلق أى : لا يغنى شيئا من الإغناء ، ويجوز أن يكون مفعولا به على جعل يغنى بمعنى يدفع .

وقوله : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن الله - تعالى - عليم بأقوالهم وأفعالهم ، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة ، وسينالون ما يستحقونه من عقاب بسبب أقوالهم الباطلة . وأفعالهم الفاسدة .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقينى واجب فى الاعتقاديات ، ويدخل فى الاعتقاديات الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية ، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ...

أما مادون العلم اليقينى مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال ، كاجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر فى الإدارة والسياسة ، مع التقيد بالشورى وتحرى العدل .. »[1] .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فتحدت أعداءه أن يأتوا بسورة مثله ، ووصفتهم بالجهالة وسفاهة الرأى ، وصورت أحوالهم ومواقفهم من دعوة الحق تصويرا بليغا . استمع إلى السورة الكريمة وهى تتحدث عن كل ذلك فتقول :

---

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ٣٦٤ .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ
فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾
بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾
وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ
ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير « هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعانى الغزيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله – تعالى – الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ولا فى أقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال – تعالى – : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾[1] .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٧ .

والنفى هنا للشأن الذى هو أبلغ فى النفى ، وأعمق فى الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله ، من نفى الشىء فى ذاته مباشرة .

أى : وليس من شأن هذا القرآن المعجز ، أن يخترعه أو يختلقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما ؛ لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايات جامعة ... يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر .

وقوله : ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب ﴾ بيان لكمال هداية القرآن الكريم ، وهيمنته على الكتب السماوية السابقة .

والمراد بالذى بين يديه : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزبور .

وقوله ﴿ بين يديه ﴾ فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يدى الشىء يكون أمامه ، فوصف - سبحانه - ما مضى من الكتب بأنها بين يدى القرآن لشدة ظهورها واشتهارها ، ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة : تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية الله - تعالى - ، ومن أمر باتباع الرسول - ﷺ - عند ظهوره .

وأل فى ﴿ الكتاب ﴾ للجنس ، فالمراد به جنس الكتب السماوية التى أنزلها - سبحانه - على بعض أنبيائه .

والمعنى : ليس من شأن هذا الكتاب فى إعجازه وهدايته أن يكون من عند غير الله ، لأن غيره - سبحانه - لا يقدر على ذلك ، ولكن من شأنه أن يكون مؤيداً للكتب السماوية السابقة فيما دعت إليه من إخلاص العبودية لله - تعالى - ومن اتباع لرسله ، وأن يكون مفصلا وموضحا لما اشتملت عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام .

وقوله ﴿ تصديق ﴾ منصوب على أنه معطوف على خبر كان ، أو على أنه خبر لكان المقدرة أى : ولكن كان تصديق .

وقوله ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ بيان لمصدره .

أى : هذا الكتاب لا ريب ولاشك فى كونه منزلا على رسوله محمد - ﷺ - من الله - تعالى - رب العالمين .

وفصلت جملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ عما قبلها لأنها مؤكدة له ، ومقررة لمضمونه .

ونفى - سبحانه - عن القرآن الريب على سبيل الاستغراق : مع وقوع الريب فيه من المشركين ، حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ، لأنه لروعة بيانه ، وسطوع حجته ، ووضوح دلائله ، لا يرتاب ذو عقل متدبر فى كونه وحياً سماوياً ، ومصدر هداية وإصلاح .

فجملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ تنفى الريب فى القرآن عمن شأنهم أن يتدبروه ، ويقبلوا على النظر فيه بروية ومن ارتاب فيه فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية ، أو بصيرة نافذة أو قلب سليم .

وقوله - سبحانه ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ انتقال من بيان كون القرآن من عند الله ، إلى بيان مزاعمهم فيه .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام ، أى : بل أيقولون إن محمداً - ﷺ - هو الذى أتى بهذا القرآن من عند نفسه لا من عند الله .

وقوله ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ . أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم : يا محمد على سبيل التبكيت والتحدى : إن كان الأمر كما زعمتم من أنى أنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة مثل سوره فى البلاغة والهداية وقوة التأثير ، وقد أبحت لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم فى بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله - تعالى - وجاءت كلمة « سورة » منكرة ، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة ، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن ، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه .

والضمير فى ﴿ مثله ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، والمراد بمثله هنا : ما يشابهه فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وسداد المعنى ، وقوة التأثير .

وقوله : ﴿ وادعوا ﴾ من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى نادوهم .

وكلمة ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من استطعتم ﴾ تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة .

وكلمة ﴿ دون ﴾ هنا بمعنى غير أى : ادعوا لمساعدتكم كل من تستطيعون دعوته غير الله - تعالى - فإنه وحده القادر على أن يأتى بمثله .

وقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ جملة شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام السابق عليه ، أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا سورة مثله مفتراة ، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد تحدتهم وأثارت حماستهم ، وأرخت لهم الحبل ، وعرضت بعدم صدقهم ، حتى تتوافر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

قال الآلوسى : « هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن ، لأنه - ﷺ - تحدى مصاقع العرب بسورة ما منه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا فلو أتوا بذلك لنقل إلينا ، لتوفر الدواعى على نقله »[١] .

هذا وقد عقد صاحب الظلال فصلا طويلا للحديث عن إعجاز القرآن فقال : « وقد ثبت هذا التحدى ، وثبت العجز عنه ، ومايزال ثابتاً ولن يزال ، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان ، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الحاجة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة من العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال ، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات والتقسيات وما إليها ... »[٢] .

ثم انتقلت السورة الكريمة من توبيخهم على كذبهم وجحودهم ، إلى توبيخهم على جهلهم وغباوتهم فقال - تعالى - : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ... ﴾ .

أى : أن هؤلاء الأشقياء لم يكتفوا بما قالوه فى شأن القرآن الكريم من أقاويل فاسدة ، بل هرولوا إلى تكذيب ما فيه من هدايات سامية ، وآداب عالية ، وأخبار صادقة ، بدون فهم أو تدبر ، وبدون انتظار لتفسير معانيه وأخباره التى لم يهتدوا إلى معرفتها بعد .

قال صاحب الكشاف قوله ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ أى : بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها فى أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١١٩ .

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ١١ ص ١٧٨٥ وما بعدها طبعة دار الشروق .

فإن قلت : فما معنى التوقع فى قوله : ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا ، وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم .

ويجوز أن يكون معنى ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه »[1] .

وقال الآلوسى : وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ دون أن يقال . بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه للإيذان بكمال جهلهم به ، وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ، وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ، لما أن تعليق الحكم بالموصول مشعر بعلية ما فى حيز الصلة له ، وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل منه إلى ما فى النظم الكريم لأنه أبلغ .

ونفى إتيان التأويل بكلمة ﴿ لما ﴾ الدالة على توقع منفيها بعد نفى الإحاطة بعلمه بكلمة « لم » ؛ لتأكيد الذم ، وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة فى تكذيب الشىء ، قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا »[2] .

وقوله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ تهديد لهم ووعيد على التمادى فى العناد .

أى : كما كذب المشركون نبيهم محمدا - ﷺ - عن جهل وجحود : كذب الذين من قبلهم أنبياءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[3] .

ثم فصل - سبحانه - أحوالهم ومواقفهم من القرآن الكريم فقال : ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٢٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

أى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به أبدا لاستحبابه العمى على الهدى .

وعليه يكون المراد بمن يؤمن به ، أولئك الذين وفقهم الله لا تباع الحق عن يقين وإذعان .

وقيل إن المعنى : ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون فى قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله ، ولكنهم يكذبونك جحودا وعنادا ومنهم من لا يؤمن به أصلا لا نطماس بصيرته ، وإيثاره الغى على الرشد .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به : أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه .

وقوله : ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أى : وربك أعلم بالمفسدين فى الأرض بالشرك والظلم والفجور ، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حسابا عسيرا ، ويذيقهم العذاب الذى يستحقونه ، فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب والعقاب .

وقوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إذا ما لج أعداؤه فى طغيانهم .

أى : وإن تمادى هؤلاء الأشرار فى طغيانهم وفى تكذيبهم لك يا محمد ، فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه - سبحانه - وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذونى عليه ، وأنا برئ كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذنى الله عليها .

فالآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه . وإعلام له بأن وظيفته البلاغ ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله - تعالى - .

ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحكم فقال - تعالى - : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ .

أى : ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم القرآن وترشدهم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر أوفهم ، فهل أنت - يا محمد - فى إمكانك أن تسمع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم ، لأن الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشاف - ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر .

ومنهم - أيضاً - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ، فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحودا وعنادا ، فهل أنت فى إمكانك أن تهدى العمى ولو

انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد نعتا على المشركين جهالاتهم ، وانطماس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون بنعم الله التى أنعم بها عليهم .

فقد وصمهم - سبحانه - بفقدان السمع والبصر والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون ، لأنهم لما لم يستعملوا نعم الله فيما خلقت له ، صارت هى والعدم سواء .

والاستفهام فى الآيتين للإنكار والاستبعاد .

وجواب ﴿ لو ﴾ فى الآيتين محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم فى الحالتين ؟ كلا لا تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سننه فى خلقه ، أن لا يظلمهم شيئاً ، كأن يعذبهم - مثلا - مع إيمانهم وطاعتهم له ، أو كأن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم .. ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، بإيرادها موارد المهالك عن طريق اجتراح السيئات ، واقتراف الموبقات ، الموجبة للعقوبات فى الدنيا والآخرة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نفت تصور أن يكون هذا القرآن من عند غير الله ، وتحدت المشركين أن يأتوا بسورة مثله ، ووصمتهم بالتسرع فى الحكم على شىء لم يحيطوا بعلمه ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يثبت على دعوة الحق ، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا ، وأن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته ألا يعذب الناس إلا إذا فعلوا ما يوجب العقوبة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما ﴾ .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أحوال أولئك المشركين فى الدنيا ، ومواقفهم من الدعوة الإسلامية ، أتبعت ذلك بالحديث عن أحوالهم يوم الحشر ، ومن استعجالهم للعذاب ، وعن رد الرسول - ﷺ - عليهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ

وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ بيان لأحوالهم السيئة عند جمعهم لحساب يوم القيامة .

إذ الحشر - كما يقول الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها »[1] .

والمراد به هنا : إخراج الناس من قبورهم وجمعهم فى الموقف لحسابهم على أعمالهم الدنيوية .

والمقصود بالساعة هنا : المدة القليلة من الزمان ، فقد جرت العادة أن يضرب بها المثل فى الوقت القصير .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم ، وذكر هؤلاء المشركين الذين عموا وصموا عن الحق ، يوم يجمعهم الله - فى الآخرة للحساب والعقاب ، فيشتد كربهم ، وينسون تلك الملذات والشهوات .. التى استمتعوا بها فى الدنيا ، حتى لكأنهم لم يلبثوا فيها وفى قبورهم ، إلا ساعة من النهار أى : إلا مدة قصيرة من النهار ، يتعارفون بينهم ، أى : لا تتسع تلك المدة إلا للتعارف فيما بينهم .

وقوله : ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ جملة حالية من ضمير الجمع فى يحشرهم .

وخصت الساعة بكونها من النهار ، لأنها أعرف لهم من ساعات الليل .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١١٩ .

والمقصود بالتشبيه : بيان أن هذه السنوات الطويلة التى قضاها هؤلاء المشركون فى الدنيا يتمتعون بلهوها ولعبها، ويستبعدون معها أن هناك بعثا وحسابا .. قد زالت عن ذاكرتهم فى يوم القيامة ، حتى لكأنهم لم يمكثوا فيها سوى وقت قصير لا يتسع لأكثر من التعارف القليل مع الأقارب والجيران والأصدقاء ، حتى لكأن ذلك النعيم الذى تقلبوا فيه دهراً طويلا لم يروه من قبل ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأحقاف : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[1] وقوله - سبحانه ، فى سورة الروم ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ﴾[2] .

فإن قيل : إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عندما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا فى الدنيا يوما أو بعض يوم ، أو عشية أو ضحاها كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾[3] . وكما فى قوله - تعالى - ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[4] فكيف نجمع بين هذه الآيات التى اختلفت إجابتهم فيها ؟ .

فالجواب : أن أهل الموقف يختلفون فى تقدير الزمن الذى لبثوه فى الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ، وعلى حسب أهوال كل موقف ، فإن فى يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض .

وقوله ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ جملة حالية أيضا من ضمير الجمع فى يحشرهم .

قال القرطبى : « وهذا التعارف توبيخ وافتضاح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى وحملتنى على الكفر ، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف ... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخى عند مشاهدة أهوال القيامة ، لقوله - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ ...

فأما قوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ وأشباهه فمعناه : لا يسأله سؤال رحمة وشفقة .. »[5] .

وقوله : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان

---

(١) الآية ٣٥ .
(٢) الآية ٥٥ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .
(٤) سورة النازعات الآية الأخيرة .
(٥) تفسير القرطبى - بتصرف وتلخيص - جـ ٨ ص ٣٤٨ .

حكم الله عليهم فى آخرتهم بعد أن ضيعوا دنياهم .

والمراد بلقاء الله : مطلق الحساب والجزاء الكائن فى يوم القيامة .

أى : أن هؤلاء الأشقياء الذين أعرضوا عن الحق وأنكروا الحشر ، قد خسروا سعادتهم الأبدية ، وحق عليهم العذاب المهين ، بسبب كفرهم وطغيانهم ، وعدم اهتدائهم إلى طريق النجاة .

وقوله : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ تأكيد لخسرانهم ، ولوقوع العذاب بهم ، وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم و « إن » شرطية . و « ما » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، وجملة ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ جواب للشرط وما عطف عليه .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين الذين ناصبوك العداوة أيها الرسول الكريم لا يخفى علينا أمرهم ونحن إما نرينك ببصرك بعض الذى نعدهم به من العذاب الدنيوى ، وإما نتوفينك ، قبل ذلك ، وفى كلتا الحالتين فإن مرجعهم إلينا وحدنا فى الآخرة ، فنعاقبهم العقوبة التى يستحقونها .

وقال - سبحانه - ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب دنيوى ، هو جزء من العذاب المدخر لهم فى الآخرة .

وقد أنجز الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - فسلط عليهم القحط والمجاعة ، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخانا . ونصر المسلمين عليهم فى غزوتى بدر والفتح ، وكل ذلك حدث فى حياة النبى - ﷺ - .

وقال - سبحانه - ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ ولم يقل بعض الذى وعدناهم ، لاستحضار صورة العذاب ، والدلالة على تجدده واستمراره .

أى : نعدهم وعدا متجددا على حسب ما تقتضيه حكمتنا ومشيئتنا ، من إنذار عقب إنذار ، ومن وعيد بعد وعيد .

والمراد من الشهادة فى قول ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ لازمها وهو المعاقبة والمجازاة ، فكأنه - سبحانه - يقول : ثم الله - تعالى - بعد ذلك معاقب لهم على ما فعلوه من سيئات ، وما يرتكبونه من منكرات .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون فى الدارين فما معنى ثم ؟

قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، فكأنه قال : ثم الله معاقبهم على ما يفعلون . ويجوز أن يراد أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق

جلودهم وألسنتهم وأيديهم فتكون شاهدة عليهم »[١] .

هذا ، وفى معنى هذه الآية وردت آ يات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[٢] وقوله - تعالى - ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون[٣] ﴾

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر رحمته بعباده ، أن جعل لكل أمة رسولا يهديها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أن يجعل لكل جماعة من الناس ، رسولا يبلغهم ما أمره الله بتبليغه ، ويشهد عليهم بذلك يوم القيامة ، فإذا جاء رسولهم وشهد بأنه قد بلغهم ما أمره الله به ، قضى - سبحانه - بينه وبينهم بالعدل ، فحكم بنجاة المؤمن وبعقوبة الكافر ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية « فكل أمة تعرض على الله - تعالى - بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق ، فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين »[٤] .

وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم .

أى : أن هؤلاء لم يكتفوا بالإعراض عن دعوة الحق ، بل قالوا لرسولهم - ﷺ - الذى حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم : متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذى تهددنا ؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين فى دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا .

وهذا القول منهم يدل على توغلهم فى الكفر والجحود ، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول - ﷺ - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٩ .
(٢) سورة الرعد الآية ٤٠ .
(٣) سورة غافر الآية ٧٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٩ .

ولذا أمر الله تعالى : رسوله -ﷺ- أن يرد عليهم فقال : ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرًّا ولا نفعا إلا ما شاء الله ... ﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين المتعجلين للعذاب : إننى لا أملك لنفسى - فضلا عن غيرها - شيئا من الضر فأدفعه عنها ، ولا شيئا من النفع فأجلبه لها ، لكن الذى يملك ذلك هو الله وحده ، فهو - سبحانه - الذى يملك أن ينزل العذاب بكم فى أى وقت يشاء ، فلماذا تطلبون منى ما ليس فى قدرتى . وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا .

ويجوز أن يكون متصلا فيكون المعنى : قل لهم يا محمد إننى لا أملك لنفسى شيئا من الضر أو النفع ، إلا ما شاء الله - تعالى - أن يجعلنى قادرا عليه منهما ، فإننى أملكه بمشيئته وإرادته .

وقدم - سبحانه - الضر على النفع هنا ، لأن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين تعجلوا نزول العذاب الذى هو نوع من الضر .

أما الآية التى فى سورة الأعراف ، وهى قوله - تعالى - ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .. ﴾ فقد قدم فيها النفع على الضر ، لأنها مسوقة لبيان الحقيقة فى ذاتها . وهى أن الرسول - ﷺ - لا يملك لنفسه شيئا من التصرف فى هذا الكون ، وللإشعار بأن النفع هو المقصود بالذات من تصرفات الإنسان .

وقوله : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ تأكيد لما قبله ، وتقرير لقدرة الله - تعالى - النافذة .

أى : لكل أمة من الأمم أجل قدره الله - تعالى - لانتهاء حياتها ، فإذا حان وقت هذا الأجل هلكت فى الحال دون أن تتقدم على الوقت المحدد لموتها ساعة أو تتأخر أخرى .

* * *

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا أخرى من الأجوبة التى لقنها الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - لكى يرد بها على المشركين الذين تعجلوا العذاب كما صورت أحوالهم عندما يرون العذاب ، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

وقوله «أرأيتم » بمعنى أخبرونى . وكلمة أرأيت تستعمل فى القرآن للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداه : أرأيت كذا أو عرفته ؟ إن لم تكن أبصرته أو عرفته فانظره وتأمله وأخبرنى عنه .

ولما كانت الرؤية للشىء سببا لمعرفته وللإخبار عنه ، أطلق السبب وأريد المسبب فهو مجاز مرسل علاقته السببية والمسببية .

وقوله : بياتا أى : ليلا ، ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا .

والمعنى : أخبرونى أيها الجاهلون الحمقى : أى دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب ؟ إن وقوع العذاب سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه ، ولا يمكن أن يتعجله عاقل ، لأنه - كما يقول صاحب الكشاف - : كل مكروه ، مر المذاق ، موجب للنفار منه ، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شىء فيه هلاككم ومضرتكم ؟ ! !

وقال - سبحانه - ﴿ بياتا ﴾ ولم يقل ليلا ، للإشعار بمجىء العذاب فى وقت غفلتهم ونومهم بحيث لا يشعرون به ، فهم قد يقضون جانبا من الليل فى اللهو واللعب ، ثم ينامون فيأتيهم العذاب فى هذا الوقت الذى هجعوا فيه .

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شىء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه .

ولذا قال القرطبى : « قوله : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ استفهام معناه التهويل

والتعظيم . أى : ما أعظم ما يستعجلون به . كما يقال لمن يطلب أمرا تستوخم عاقبته : ماذا تجنى على نفسك »[١] .

وجواب الشرط لقوله : ﴿ إن أتاكم ... ﴾ محذوف والتقدير : إن أتاكم عذابه فى أحد هذين الوقتين أفزعكم وأهلككم فلماذا تستعجلون وقوع شىء هذه نتائجه ؟

وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر بعد أن ذكر هذاالوجه فقال : فإن قلت : فهلا قيل ماذا يستعجلون منه ؟ قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأن من شأن المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ - فضلا عن أن يستعجله - ويجوز أن يكون ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ جوابا للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تطعمنى[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ... ﴾ زيادة فى تجهيلهم وتأنيبهم والهمزة داخلة على محذوف ، و ﴿ ثم ﴾ حرف عطف يدل على الترتيب والتراخى وجىء به هنا للدلالة على زيادة الاستبعاد .

والمعنى : إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فيما تطلبون ، لأنكم قبل وقوع العذاب تتعجلون وقوعه ، فإذا ما وقع وشاهدتم أهواله . وذقتم مرارته .. آمنتم بأنه حق ، وتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر .

وقوله : ﴿ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ قصد به زيادة إيلامهم وحسرتهم ولفظ ﴿ آلآن ﴾ ظرف زمان يدل على الحال الحاضرة ، وهو فى محل نصب على أنه ظرف لفعل مقدر .

أى : قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم بأنه حق ؟ مع أنكم قبل ذلك كنتم به تستهزئون ، وتقولون للرسول - ﷺ - ولأتباعه : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ ألا فلتعلموا : أن إيمانكم فى هذا الوقت غير مقبول ، لأنه جاء فى غير أوانه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٠ .
(٣) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

تأكيد لتوبيخهم وتأنيبهم بعد أن نزل بهم العذاب ، وهو معطوف على لفظ « قيل » المقدر قبل لفظ ﴿ آلآن ﴾ .

أى : قيل لهم : آلآن آمنتم بأن العذاب حقيقة بعد أن كنتم به تستعجلون؟ ثم قيل لهؤلاء الظالمين الذين أصروا على الكفر واقتراف المنكرات : ذوقوا عذاب الخلد أى العذاب الباقى الدائم ، إذ الخلد والخلود مصدر خلد الشىء إذا بقى على حالة واحدة لا يتغير .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ للنفى والإنكار . أى لا تجزون إلا بالجزاء المناسب لما كنتم تكسبونه فى الدنيا من كفر بالحق ، وإيذاء للدعاة إليه ، وتكذيب بوحى الله - تعالى - .

ثم قال - سبحانه - ﴿ ويستنبئونك أحق هو ﴾ النبأ : كما يقول الراغب . خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن[1] .

والاستنباء : طلب الأخبار الهامة .

أى : إن هؤلاء الضالين يطلبون منك - أيها الرسول الكريم - على سبيل التهكم والاستهزاء ، أن تخبرهم عن هذا العذاب الذى توعدتهم به ، أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة ، أم هو غير واقع ولكنك تحدثهم عنه على سبيل الإرهاب والتهديد ؟

وقوله : ﴿ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إلى الجواب الذى يرد به عليهم .

ولفظ ﴿ إى ﴾ بكسر الهمزة وسكون الياء - حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، إلا أنه لا يستعمل إلا مع القسم .

أى : قل لهم يا محمد : نعم وحق ربى إن العذاب الذى أخبرتكم به لا محيص لكم عنه وما أنتم بمعجزى الله - تعالى - إذا أراد أن ينزله بكم فى أى وقت يريده ، بل أنتم فى قبضته وتحت سلطانه وملكه ، فاتقوا الله ، بأن تخلصوا له العبادة ، وتتبعوا رسوله - ﷺ - فيما جاءكم به من عنده - سبحانه - .

وقد أكد سبحانه - الجواب عليهم بأتم وجوه التأكيد ، لأنهم كانوا قوما ينكرون أشد الإنكار أن يكون هناك عذاب وحساب وبعث وجنة ونار .

قال ابن كثير : « وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله - تعالى - رسوله فيهما أن يقسم به على من أنكر المعاد ، أما الآية الأولى فهى قوله

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨١ .

- تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم .. ﴾[١] وأما الآية الثانية فهى قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن .. ﴾[٢] .

وجملة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ إما معطوفة على جواب القسم ، أو مستأنفة سبقت لبيان عجزهم عن الخلاص ، وتأكيد وقوع العذاب عليهم .

ثم بين - سبحانه - أنهم لن يستطيعوا افتداء أنفسهم من العذاب عند وقوعه فقال - تعالى - : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به ﴾ .

أى : ولو أن لكل نفس تلبست بالظلم بسبب شركها وفسوقها ، جميع ما فى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنها أن تقدمه كفداء لها من العذاب يوم القيامة ، لقدمته سريعا دون أن تبقى منه شيئا حتى تفتدى ذاتها من العذاب المهين .

ومفعول ﴿ افتدت ﴾ محذوف . أى لافتدت نفسها به .

ولو هنا امتناعية ، أى : امتنع افتداء كل نفس ظالمة ، لامتناع ملكها لما تفدى به ذاتها وهو جميع ما فى الأرض من أموال ، ولامتناع قبول ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفرض .

وقوله ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ بيان لما انتابهم من حسرات عند مشاهدتهم لأهوال العذاب المعد لهم .

و﴿أسروا﴾ من الإسرار بمعنى الإخفاء والكتمان . يقال : أسر فلان الحديث . أى : خفض صوته به ، ويقابله الإعلان والجهر ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

والندامة والندم : ما يجده الإنسان فى نفسه من آلام وحسرات على أقوال أو أفعال سيئة ، فات أوان تداركها .

أى : وأخفى هؤلاء الظالمون الندامة حين رأوا بأبصارهم مقدمات العذاب ، وحين أيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، ولا مصرف لهم عنه .

قال صاحب الكشاف : « قوله - سبحانه - ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ، ولم يخطر ببالهم ، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ، ما سلبهم قواهم ، وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع ، سوى إسرار الندم

---

(١) سورة سبأ الآية ٣ .
(٢) سورة التغابن الآية ٧ .

والحسرة فى القلوب ، كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب ، حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا .

وقيل : أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم ..

وقيل أسروا الندامة : أظهروها من قولهم أسر الشىء إذا أظهره وليس هناك تجلد »[1] .

وقوله : ﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ بيان لعدالة الله فى أحكامه بين عباده .

أى : وقضى الله - تعالى - بين هؤلاء الظالمين وبين غيرهم بالعدل دون أن يظلم أحدا .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته ، وعلى أنه وحده الذى يملك التحليل والتحريم ، ويعلم السر وأخفى فقال - تعالى - :

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ
وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٥٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ
(٥٧) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا
يَجۡمَعُونَ (٥٨) قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ
فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ
تَفۡتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَشۡكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤١ .

وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

أى : ألا إن لله وحده لا لغيره ، ملك ما فى السموات ومافى الارض من مخلوقات ، وهو - سبحانه - يتصرف فيها وفق إرادته ومشيئته كما يتصرف المالك فيما يملكه ، فهو يعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ويتوب على من يشاء ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

وقوله : ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ أى : ألا إن كل ما وعد الله به الناس من ثواب وعقاب وغيرهما ، ثابت ثبوتا لا ريب فيه ، وواقع وقوعا لا محيص عنه .

وصدرت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ الدالة على التنبيه ، لحض الغافلين عن هذه الحقيقة على التذكر والاعتبار والعودة إلى طريق الحق .

وأعيد حرف التنبيه فى جملة ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ لتمييزها بهذا التنبيه عن سابقتها ، لأنها مقصودة بذاتها : إذ أن المشركين كانوا يظنون أن ما وعدهم به الرسول - ﷺ - هو من باب الترغيب والترهيب وليس من باب الحقائق الثابتة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى ولكن أكثر هؤلاء الناس الذين بعثت إليهم يا محمد ، لا يعلمون ما جئت به علما نافعا لسوء استعدادهم ، وضعف عقولهم ، وخبث نفوسهم .

وقال ﴿ أكثرهم ﴾: إنصافا للقلة المؤمنة التى علمت الحق فاتبعته وصدقته ، ووقفت إلى جانب الرسول - ﷺ - تؤيده وتفتدى دعوته بالنفس والمال .

وقوله : ﴿ هو يحيى ويميت وإليه ترجعون ﴾ بيان لكمال قدرته ، إثر بيان عظم ملكوته ، ونفاذ وعده .

أى : هو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ويميت من يريد إماتته وإليه وحده ترجعون جميعا ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بالانتفاع بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، من خيرات وبركات فقال - تعالى - : ﴿ يـأيها الناس قد جاءتكم موعظة من

ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ .

والموعظة معناها : التذكير بالتزام الحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأسلوب يلين القلوب ، ويرقق النفوس .

والشفاء : هو الدواء الشافى من كل ما يؤذى ، ويجمع على أشفيه .

والهدى : هو الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل الى المقصد والبغية ، والرحمة معناها الإحسان ، أو إرادة الإحسان .

والمعنى : يـأيهـا الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة ترق لها القلوب ، وتخشع لها النفوس . وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم . ومن هداية لكم إلى طريق الحق والخير ، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم الى أعلى الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات .

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء ، استمالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب ، وأكمل بيان ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويتنبهوا من غفلتهم .

ووصفت الموعظة بأنها من ربكم . لتذكيرهم بما يزيدها تعظيما وقبولا ، لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هى صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم بما يصلحها ويشفيها .

وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين ، لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم وتقواهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، فقد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال إنى اشتكى صدرى ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « اقرأ القرآن ، يقول الله - تعالى - شفاء لما فى الصدور » .

وأخرج البيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبى - ﷺ - وجع حلقه ، فقال له : « عليك بقراءة القرآن » .

وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم ، والخبر الثانى لا يدل عليه ، إذ ليس فيه أكثر من أمره - ﷺ - الشاكى بقراءة القرآن إرشادا له إلى ما ينفعه ويزول به وجعه .

ونحن لا ننكر أن لقراءة القرآن بركة ، قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع ، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك .

والخبر الأول وإن كان ظاهرا فى المقصود ، لكن ينبغى تأويله ، كأن يقال : لعله - ﷺ - اطلع على أن فى صدر الرجل مرضا معنويا قلبيا ، قد صار سببا للمرض الحسى البدنى ، فأمره - ﷺ - بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثانى .

والحسن البصرى ينكر كون القرآن شفاء للأمراض ، فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرنا »[١] .

وقوله : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ﴾ حض للناس على اغتنام ما فى تعاليم الإسلام من خيرات ، وإيثارها على ما فى الدنيا من شهوات .

أى : قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة : اجعلوا فرحكم الأكبر ، وسروركم الأعظم ، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد - ﷺ - ، وبرحمته التى وسعت كل شىء وهى بالمؤمنين أوسع ، لا بما تجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية .

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن ، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن ، ورحمته بالإسلام . ومنهم من فسرهما بالجنة والنجاة من النار .

ولعل تفسير هما بما يشمل كل ذلك أولى : لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق - ﷺ - يحدد المراد منهما ، وما دام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أى : بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة .

فعن أيفع بن عبد الكلاعى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضى الله عنه - خرج عمر ومولى له ، فجعل يعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله - تعالى - ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذى يقول الله - تعالى - ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٤٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢١ .

أى : ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين .

ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة ، للإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به .

والجار والمجرور فى كل منهما متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام : قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص ، وأدخلت الفاء لإفادة السببية ، فكأنه قيل : إن فرحوا بشىء فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضل ورحمة ، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا .

قال القرطبى : « والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد ذم الله الفرح فى مواضع ، كقوله - سبحانه - ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ وكقوله ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرح لم يكن ذما ، لقوله - تعالى - ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكقوله - سبحانه - هنا ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ... »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ أى : قل لهم يا محمد - أيضا - أخبرونى أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم : إن الله - تعالى - قد أفاض عليكم ألوانا من الرزق الحلال فجئتم أنتم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم منه حلالا وجعلتم منه حراما .

وقد حكى الله - تعالى - فعلهم هذا فى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾[2] .

قال الإمام ابن كثير : « قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ... الآيات ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق ، سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا رث الهيئة فقال : هل لك مال ؟ قلت : نعم . قال : من أى المال ؟ قال : قلت : من كل

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ص ١٣٩ .

المال . من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : إذا آتاك الله مالا فلير عليك ثم قال : هل تنتج إبلك صحاحا آذانها ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول : هذه بحر . وتشق جلودها وتقول ؛ هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك . قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل . ساعد الله أشد من ساعدك . وموسى الله أحد من موساك »[١] .

وقوله : ﴿ قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ استفهام قصد به التوبيخ والزجر أى : قل لهم يامحمد على سبيل التوبيخ والزجر : إن الله وحده هو الذى يملك التحليل والتحريم ، فهل هو - سبحانه - أذن لكم فى ذلك ، أو إنما أنتم الذين حللتم وحرمتم على حسب أهوائكم . لأنه لو أذن لكم فى ذلك لبينه على لسان رسوله - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : « وقوله : ﴿ آلله أذن لكم ﴾ متعلق بأرأيتم ، وقل . تكرير للتوكيد . والمعنى أخبرونى آلله أذن لكم فى التحليل والتحريم ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة ، بمعنى : بل أتفترون على الله ، تقريرا للافتراء .

ثم قال : وكفى بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام ، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد فى شىء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله »[٢] .

ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ... ﴾ .

أى : هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أيظنون أن الله سيتركهم بدون عقاب ؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افترائهم عليه الكذب .

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتهويل والتعظيم ، حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى - :

وقال - سبحانه - ﴿ وما ظن ... ﴾ بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض .

وقوله : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ تذييل قصد به حض الناس على شكر خالقهم ، واتباع شريعته فيما أحل وحرم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٢ .

أى : إن الله لذو فضل عظيم على عباده ، حيث خلقهم ورزقهم ، وشرع لهم ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم ، لأنهم يستعملونها فى غير ما خلقت له .

وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، عطف على ذلك تذكيره إياهم بإحاطة علمه بكل صغير وكبير فى هذا الكون فقال : ﴿ وماتكون فى شأن . وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا ... ﴾ .

أى : وما تكون - أيها الرسول الكريم - فى شأن من الشئون أو فى حال من الأحوال .

وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن يهدى الى الرشد .

ولا تعملون - أيها الناس - عملا ما صغيرا أو كبيرا ، إلا كنا عليكم مطلعين .

ومن فى قوله ﴿ منه ﴾ للتعليل ، والضمير يعود إلى الشأن ، إذ التلاوة أعظم شئونه - ﷺ - ولذا خصت بالذكر . ويجوز أن يعود للقرآن الكريم ، ويكون الإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ، وتعظيم أمره .

ومن فى قوله ﴿ من قرآن ﴾ مزيدة لتأكيد النفى .

وقال الآلوسى : « والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنسانى ، وسيد المخاطبين - ﷺ - هذا . وقوله ﴿ ولا تعملون ... ﴾ عام يشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعى فى كل من المقامين ما يليق به ، فعبر فى مقام الخصوص فى الأول بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وفى الثانى بالعمل العام للجليل والحقير . وقيل : الخطاب الأول عام للأمة أيضا كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم ﴾ .

وقوله : ﴿ إلا كنا عليكم شهودا ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة . أى : وما تلابسون بشىء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه ، حافظين له »[1] .

وقوله : ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أى : تخوضون وتندفعون فى ذلك العمل ، لأن الإفاضة فى الشىء معناها الاندفاع فيه بكثرة وقوة .

وقوله : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٤٤ .

ويعزب : أى يبعد ويغيب ، وأصله من قولهم : عزب الرجل يعزب بإبله إذا أبعد بها وغاب فى طلب الكلأ والعشب . والكلام على حذف مضاف .

أى : وما يغيب ويخفى عن علم ربك مثقال ذرة فى الوجود علويه وسفليه ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهو معلوم ومسجل عنده فى كتاب عظيم الشأن ، تام البيان .

وقوله : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ تمثيل لقلة الشىء ودقته ، ومن فيه لتأكيد النفى وقدمت الأرض على السماء هنا ، لأن الكلام فى حال أهلها ، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه - سبحانه - بتفاصيلها . فكأنه - سبحانه - يقول : إن من يكون هذا شأنه لا يخفى عليه شىء من أحوال أهل الأرض مع نبيهم - ﷺ - .

وقوله : ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ جملة مستقلة ليست معطوفة على ما قبلها .

و ﴿ لا ﴾ نافية للجنس و ﴿ أصغر ﴾ اسمها منصوب لشبهه بالمضاف ، و ﴿ أكبر ﴾ معطوف عليه . و ﴿ فى كتاب مبين ﴾ متعلق بمحذوف خبرها .

وقدم ذكر الأصغر على الأكبر ، لأنه هو الأهم فى سياق العلم بما خفى من الأمور .

وقرأ حمزة ويعقوب وخلف ﴿ ولا أصغر ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : ولا ما هو أصغر من ذلك .

والمراد بالكتاب المبين : علم الله الذى وسع كل شىء ، أو اللوح المحفوظ الذى حفظ الله فيه كل شىء .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة على شمول قدرة الله - تعالى - لكل شىء ، وعلى دعوة الناس إلى الانتفاع بما جاء به القرآن من خيرات وبركات ، وعلى وجوب التزامهم بما شرعه - سبحانه - وعلى إحاطة علمه بما ظهر وبطن من الأمور .

وبعد أن وجه - سبحانه - نداء إلى الناس دعاهم فيه إلى الانتفاع بما جاء فى القرآن من خيرات ، وتوعد الذين شرعوا شرائع لم يأذن بها الله ، وأقام الأدلة على نفاذ قدرته ، وشمول علمه .

بعد كل ذلك ، بشر أولياءه بحسن العاقبة ، وأنذر أعداءه بسوء المصير ، ورد على الذين قالوا اتخذ الله ولدًا بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ
ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

والأولياء : جمع ولى مأخوذ من الولى بمعنى القرب والدنو ، يقال : تباعد فلان من بعد ولى أى : بعد قرب .

والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم ، وحسنت بالله - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه ، ويجتنبون كل ما يكرهه .

قال الفخر الرازى : « ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شيء هو الذى يكون قريبا منه .

والقرب من الله إنما يتم إذا كان القلب مستغرقًا فى نور معرفته ، فإن رأى رأى دلائل قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن نطق نطق بالثناء عليه ، وإن تحرك تحرك فى خدمته ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعته ، فهنالك يكون فى غاية القرب من الله - تعالى - ويكون وليا له - سبحانه - .

وإذا كان كذلك كان الله - وليا له - أيضًا - كما قال : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ .

وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ وبحرف التوكيد ﴿ إن ﴾ لتنبيه الناس إلى وجوب الاقتداء بهم ، حتى ينالوا ما ناله أولئك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية .

وقوله : ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تمييز لهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم .

والخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصول ما يكرهه .

والحزن اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

أى : أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً .

والمعنى : ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا ، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله - سبحانه - ، فمتى فعلوا ما يؤدى إلى ذلك هان كل ما سواه .

وقوله : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ استئناف مسوق لتوضيح حقيقتهم فكأن سائلا قال : ومن هم أولياء الله ؟ فكان الجواب هم الذين توفر فيهم الإيمان الصادق ، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .

وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضى ، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ . لا تزلزله الشكوك ، ولا تؤثر فيه الشبهات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٢٦

وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والاستقبال للإيذان بأن اتقاءهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال ، يتجدد ويستمر دون أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب أو ترهيب .

وقوله - سبحانه - ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ زيادة تكريم وتشريف لهم .

والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان ، فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس .

أى : لهم ما يسرهم ويسعدهم فى الدنيا من حياة آمنة طيبة ، ولهم - أيضًا - فى الآخرة ما يسرهم من فوز برضوان الله ، ومن دخول جنته .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والثابت فى أكثر الروايات ، أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة .. فقد أخرج الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى .. وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله - تعالى - ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ فقال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » .

وقيل المراد بالبشرى: البشرى العاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ومحبة الناس ، وغير ذلك .

ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغى العدول عما ورد عن رسول الله - ﷺ - فى تفسير ذلك إذا صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوفه على ذلك فيما أظن ، فالأولى أن تحمل البشرى فى الدارين على البشارة بما يحقق نفى الخوف والحزن كائنًا ما كان ... »[1] .

وقوله : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أى : لا تغيير ولا خلف لأقوال الله - تعالى - ولا لما وعد به عباده الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه البشرى التى تسعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ يعود إلى ما ذكر من البشرى فى الدارين .

أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والذى لا يفوقه نجاح أو فضل .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٥٢ .

هذا ، وقد نقل الشيخ القاسمى – رحمه الله – كلاما حسنا من كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فقال ما ملخصه :

هذه الآيات أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين – سبحانه – فى كتابه ، وبين رسوله فى سنته أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء .

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون . كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب .. »

والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد – ﷺ – خاتم النبيين .. فلا يكون وليا إلا من آمن به واتبعه ، ومن خالفه كان من أولياء الشيطان ...

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله – تعالى – فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون فى ولاية الله – عز وجل – بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى .

ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، كان كاذبًا فى دعواه ، أو كان مجنونًا .

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصير .. بل يوجدون فى جميع طبقات الأمة . فيوجدون فى أهل القرآن ، وأهل العلم ، وفى أهل الجهاد والسيف ، وفى التجار والزراع والصناع ...

وليس من شرط الولى أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطيء ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين .. »[1] .

وبعد أن بين – سبحانه – ما عليه أولياؤه من سعادة دنيوية وأخروية ، أتبع ذلك بتسلية الرسول – ﷺ – عما لقيه من أعدائه من أذى فقال : ﴿ ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعًا ، هو السميع العليم ﴾ .

أى : ولا يحزنك يا محمد ما قاله أعداؤك فى شأنك ، من أنك ساحر أو مجنون ، لأن قولهم هذا إنما هو من باب حسدهم لك ، وجحودهم لدعوتك .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٣٧٤ ، طبعة الحلبى سنة ١٩٥٨ .

والنهى عن الحزن - وهو أمر نفسى لا اختيار للإنسان فيه - المراد به هنا النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية له - ﷺ - وتأنيس لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور ، حتى لا يتأثر بها عند وقوعها .

وقوله : ﴿ إن العزة لله جميعًا هو السميع العليم ﴾ تعليل للنهى على طريقة الاستئناف ، فكأنه - ﷺ - قد قال : وما لى لا أحزن وهم قد كذبوا دعوتى ؟ فكان الجواب : إن الغلبة كلها ، والقوة كلها لله وحده لا لغيره ، فهو - سبحانه - القدير على أن يغلبهم ويقهرهم ويعصمك منهم ، وهو ﴿ السميع ﴾ ، لأقوالهم الباطلة ، ﴿ العليم ﴾ بأفعالهم القبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك يوم القيامة عقابًا أليمًا .

ولا تعارض بين قوله - سبحانه - ﴿ إن العزة لله جميعًا ﴾ وبين قوله فى آية أخرى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[1] ، لأن كل عزة لغيره - سبحانه - فهى مستمدة من عزته ، وكل قوة من تأييده وعونه ، والرسول - ﷺ - والمؤمنون ، إنما صاروا أعزاء بفضل ركونهم إلى عزة الله - تعالى - وإلى الاعتماد عليه ، وقد أظهرها - سبحانه - على أيديهم تكريمًا لهم .

ولذا قال القرطبى[2] - رحمه الله - قوله : ﴿ إن العزة لله جميعًا ﴾ أى : القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصرك ومعينك ومانعك . و ﴿ جميعًا ﴾ نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فإن كل عزة بالله فهى كلها لله ، قال - سبحانه - ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾[3] .

ثم قال - تعالى - ﴿ ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ أى : ألا إن لله وحده ملك جميع من فى السموات ومن فى الأرض من إنس وجن وملائكة .

وجاء التعبير القرآنى هنا بلفظ ﴿ من ﴾ الشائع فى العقلاء ، للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم ، لأنهم إذا كانوا مع شرفهم وعلو منزلتهم مملوكين لله - تعالى - كان غيرهم ممن لا يعقل أولى بذلك .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ يعنى العقلاء

---

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥٩ .

(٣) سورة الصافات آية ١٨٠ .

المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم بالذكر ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفى ملكه ، فهم عبيد كلهم ، وهو - سبحانه - ربهم ، ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكًا له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكًا ، وليدل على أن من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنس ، فضلًا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر »[1] .

وقوله : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم لغير الله شركاء فى الحقيقة ، وإنما يتبعون أشياء أخرى سموها من عند أنفسهم شركاء جهلا منهم ، لأن الله - تعالى - تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك أو شركاء فى ملكه أو فى عبادته .

وعلى هذا التفسير تكون ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ وما يتبع ﴾ نافية ، وقوله ﴿ شركاء ﴾ مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : وما يتبع الذين يدعون من دون الله آلهة شركاء .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهامية منصوبة بقوله ﴿ يتبع ﴾ ، ويكون قوله ﴿ شركاء ﴾ منصوب بقوله ﴿ يدعون ﴾ وعليه يكون المعنى .

أى شىء يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم ؟ إنهم يعبدون شركاء سموهم بهذا الاسم من عند أنفسهم ، أما هم فى الحقيقة فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى : ما يتبعون فى عبادتهم لغير الله إلا الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئًا ، وإلا الخرص المبنى على الوهم الكاذب ، والتقدير الباطل .

وأصل الخرص : الحزر والتقدير للشىء على سبيل الظن لا على سبيل الحقيقة .

قال الراغب : وحقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص ، سواء أكان مطابقًا للشىء أو مخالفًا له ، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص فى خرصه - أى : كفعل من يخرص الثمر على الشجر - وكل من قال قولًا على هذا النحو قد يسمى كاذبًا وإن كان قوله مطابقًا للمقول المخبر عنه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٤ .

وقيل : الخرص : الكذب كما فى قوله - تعالى - ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى يكذبون[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبًا من مظاهر نعمه على عباده فقال - تعالى - ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا ... ﴾ .

أى : الله وحده - سبحانه - هو الذى جعل لكم الليل مظلمًا ، لكي تستقروا فيه بعد طول الحركة فى نهاركم من أجل معاشكم ، وهو الذى جعل لكم النهار مضيئًا لكى تبصروا فيه مطالب حياتكم .

والجملة الكريمة بيان لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، بعد بيان سعة علمه ، ونفاذ قدرته ، وشمولها لكل شىء فى هذا الكون .

وقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أى : إن فى ذلك الجعل المذكور لدلائل واضحات لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر وتعقل ، يدل على سعة رحمة الله - تعالى - بعباده ، وتفضله عليهم بالنعم التى لا تحصى .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان أقبح الرذائل التى تفوه بها المشركون فقال : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا .... ﴾ .

والمراد بهؤلاء القائلين : اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله - والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وكفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وغيرهم ممن نحا نحوهم فى تلك الأقوال الشائنة .

وقوله : ﴿ سبحانه هو الغنى له ما فى السموات ومافى الأرض ﴾ تنزيه له - عز وجل - عما قالوا ، فى حقه من أقاويل باطلة .

أى : تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، لأنه هو الغنى بذاته عن الولد وعن كل شىء ، وهو المالك لجميع الكائنات علويها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدراته .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا . لقد جئتم شيئًا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٤٦ - بتصرف وتلخيص .

عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ تجهيل لهم ورد عليهم . و ﴿ إن ﴾ هنا نافية ، و ﴿ من ﴾ مؤكدة لهذا النفى ، ومفيدة للعموم . والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على مازعمتوه من أن لله ولدا ، وإنما قلتم ما قلتم لانطماس بصيرتكم ، واستحواذ الشيطان على نفوسكم .

وقوله - سبحانه - ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ توبيخ آخر لهم على جهلهم وكذبهم .

أى : أتقولون على الله - تعالى - قولاً ، لا علم لكم به ، ولا معرفة لكم بحقيقته ؟ إن قولكم هذا هو دليل على جهلكم وعلى تعمدكم الكذب والبهتان .

قال الآلوسى : « وفى الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة . وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء »[2] .

وقوله : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على شركهم .

أى : قل لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذار والتهديد : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الولد إليه ، والشريك له ، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً .

وقوله - سبحانه - ﴿ متاع فى الدنيا ﴾ بيان لتفاهة ما يحرصون عليه من شهوات الحياة الدنيا . وهو خبر لمبتدأ محذوف .

أى : أن ما يتمتعون به فى الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل مهما كثر ، لأنه إلى فناء واندثار .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد أن غرتهم الدنيا بشهواتها فقال : ﴿ ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

أى : ثم إلينا لا إلى غيرنا مرجعهم يوم القيامة ، ثم نحاسبهم حسابًا عسيرًا على أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياتنا ، وتكذيبهم لنبينا - ﷺ - .

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٥٦ .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد مدحت أولياء الله الصالحين ، وبشرتهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ، وأقامت الأدلة على قدرة الله النافذة ورحمته الواسعة ، وردت على افتراءات المشركين بما يبطل أقوالهم ، ويفضح مزاعمهم .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة ما ساقت من الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله - ﷺ - وعلى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين .. بعد كل ذلك تحدثت عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فبدأت بجانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أن الله - تعالى - أغرقهم بعد أن تمادوا فى ضلالهم ، فقال - سبحانه - :

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - سبحانه - لما بالغ فى تقرير الدلائل والبينات وفى الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك فى بيان بعض قصص الأنبياء - عليهم السلام - لوجوه :

أحدها : أن الكلام إذا طال فى تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر ، انشرح صدره . ووجد فى نفسه رغبة جديدة .

وثانيها : ليكون للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن

الرسول - ﷺ - إذا سمع أن معاملة الكفار لأنبيائهم سيئة .. خف ذلك على قلبه ، لأن المصيبة إذا عمت خفت .

وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سببا فى انكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل فى نفوسهم . وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة ... »[1] .

ونوح - عليه السلام - : واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وكان قومه يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نوحًا ليدلهم على طريق الرشاد .

وقد تكررت قصته مع قومه فى سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح ... بصورة أكثر تفصيلًا .

أما هنا فى سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا ، إبراز جانب التحدى من نوح لقومه ، بعد أن مكث فيهم زمانًا طويلًا ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره .

والمعنى : واتل - يامحمد - على مسامع هؤلاء المشركين الذين مردوا على افتراء الكذب ، نبأ نوح - عليه السلام - مع قومه المغترين بأموالهم وكثرتهم ليتدبروا ما فى هذا النبأ من عظات وعبر . وليعلموا أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .

والمقصود من هذه التلاوة ، دعوة مشركى مكة وأمثالهم ، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم ، لعلهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذى جاءهم به نبيهم محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت .. ﴾ بيان لما قاله لهم بعد أن مكث فيهم زمنا طويلا ،، وسمع منهم ما سمع من استهزاء بدعوته ،، وتطاول على أتباعه .

أى : قال نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلا ونهارا : يا قوم إن كان ﴿ كبر عليكم ﴾ .

أى : شق وعظم عليكم ﴿ مقامى ﴾ فيكم ووجودى بين أظهركم عمرا طويلا ﴿ وتذكيرى ﴾ إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ،، والتى تستلزم منكم إخلاص العبادة له والشكر لنعمه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٣٥ .

إن كان كبر عليكم ذلك فعلى الله وحده توكلت ، وإليه وحده فوضت أمرى ولن يصرفنى عن الاستمرار فى تبليغ ماأمرنى بتبليغه وعد أو وعيد منكم .

وخاطبهم - عليه السلام - بقوله : ﴿ ياقوم ﴾ استمالة لقلوبهم وإشعارا لهم بأنهم أهله وأقرباؤه الذين يحب لهم الخير ، ويكره لهم الشر .

وجملة ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ جواب الشرط . وقيل جواب الشرط محذوف والتقدير : إن كان كبر عليكم ذلك فافعلوا ما شئتم فإنى على الله وحده توكلت فى تبليغ دعوته لكم .

وقوله : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ معطوف على ما قبله .

والفعل ﴿ أجمعوا ﴾ بقطع الهمزة مأخوذ من أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه عزما مؤكدا ووطنت نفسك على المضى فيه بدون تردد أو تقاعس .

والمراد بالأمر هنا : المكر والكيد والعداوة وما يشبه ذلك .

والمراد بشركائهم : أصنامهم التى عبدوها من دون الله وظنوا فيها النفع والضرر والتمسوا فيها العون والنصرة .

والمعنى : أن نوحا - عليه السلام - قد قال لقومه بصراحة ووضوح : ياقوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى بآيات الله الدالة على وحدانيته فاجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بى ، ثم ادعوا شركاءكم ليساعدوكم فى ذلك فإنى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله به ، بدون مبالاة بمكركم وبدون اهتمام بكيدكم .

قال الآلوسى : « وقوله ﴿ وشركاءكم ﴾ منصوب على أنه مفعول معه لأن الشركاء عازمون لا معزوم عليهم . وقيل إنه منصوب بالعطف على قوله ﴿ أمركم ﴾ بحذف المضاف . أى فأجمعوا أمركم وأمر شركائكم .

وقرأ نافع : فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع وعطف الشركاء على الأمر فى هذه القراءة ظاهر بناء على أنه يقال : جمعت شركائى ، كما يقال جمعت أمرى ... »[1] .

وقوله : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

وكلمة ﴿ غمة ﴾ بمعنى الستر والخفاء . يقال : غم على فلان الأمر أى : خفى عليه واستتر .

ومنه الحديث الشريف : « صوموا لرؤيته - أى الهلال - وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٤٠ .

فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » أى فإن استتر وخفى عليكم الهلال وحال دون رؤيتكم له حائل من غيم أو ضباب فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما .

أى : اجمعوا ما تريدون جمعه لى من مكر وكيد واستعينوا على ذلك بشركائكم ثم لا يكن أمركم ، الذى أجمعتم على تنفيذه فيه شىء من الستر أو الخفاء أو الالتباس الذى يجعلكم مترددين فى المضى فيه أو متقاعسين عن مجاهرتى بما تريدون فعله معى .

ومنهم من يرى أن كلمة ﴿ غمة ﴾ هنا بمعنى الغم كالكربة بمعنى الكرب أى : ثم لا يكن حالكم غما كائنا عليكم بسبب مقامى فيكم وتذكيرى إياكم بآيات الله .

وقد أشار صاحب الكشاف الى هذين الوجهين فقال : « فإن قلت : ما معنى الأمرين : أمرهم الذى يجمعونه وأمرهم الذى لا يكون عليهم غمة ؟

قلت : أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعنى : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه ، وابذلوا وسعكم فى كيدى . وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته بهم وثقته بما وعده به ربه من كلاءته وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا .

وأما الثانى ففيه وجهان : أحدهما أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم ، المكروهة عندهم . يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببى غصة عليكم . وحالكم عليكم غمة . أى : غما وهما . والغم والغمة كالكرب والكربة .

وثانيهما : أن يراد به ما أريد بالأمر الأول . والغمة السترة من غمة إذا ستره ، وفى الحديث « لا غمة فى فرائض الله » أى لا تستر ولكن يجاهر بها .

يعنى : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم . ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به »[1] .

وقوله : ﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾ زيادة فى تحديهم وإثارتهم .

والقضاء هنا بمعنى الأداء ، من قولهم : قضى المدين للدائن دينه ، إذا أداه إليه ، وقضى فلان الصلاة . أى أداها بعد مضى وقتها .

أى : ثم أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون أداءه من إيذائى أو إهلاكى بدون إنظار أو إمهال .

ويصح أن يكون القضاء هنا بمعنى الحكم ، أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٥ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٦ .

ولا تتركوا لى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها على فى الحال .

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة كيف أن نوحا - عليه السلام - كان فى نهاية الشجاعة فى مخاطبته لقومه ، بعد أن مكث فيهم ما مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده .

فهو - أولا - يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره الله بالمضى فيه ، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق ، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده .

وهو - ثانيا - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكيده وحربه .

وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء ، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد ، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصريحا .

وهو - رابعا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار ، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم .

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا . حتى إنه ليغريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه - إن استطاعوا ذلك - .

وما لجأ - عليه السلام - إلى هذا التحدى الواضح المثير إلا لأنه كان معتمدا على الله - تعالى - الذى تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تدبيره وتقديره .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة فى كل زمان ومكان تلك المواقف المشرفة لرسل الله - عليهم الصلاة والسلام - لكى يقتدوا بهم فى شجاعتهم ، وفى اعتمادهم على الله وحده ، وفى ثباتهم أمام الباطل مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته .

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم لأنه - سبحانه - تعهد أن ينصر من ينصره .

ولنمض مع القصة حتى النهاية لنرى الدليل على ذلك فقد حكى - سبحانه - ما دار بين نوح وبين قومه بعد هذا التحدى السافر لهم فقال :

﴿ فإن توليتم ﴾ أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولى ، وعن تذكيرى إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى . فما سألتكم من أجر أى : فإنى ما سألتكم فى مقابل تذكيرى لكم ، أو دعوتى إياكم الى الحق ، من أجر تؤدونه لى - ﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ وحده ، فهو الذى يثيبنى على قولى وعملى وهو الذى يعطينى من الخير

ما يغنينى عن أجركم وعطائكم وهو - سبحانه - الذى أمرنى ﴿ أن أكون من المسلمين ﴾ أى : المنقادين لأمره . المتبعين لهديه ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم بين - سبحانه - العاقبة الطيبة التى آل إليها أمر نوح عليه السلام والعاقبة السيئة التى انتهى إليها حال قومه فقال : ﴿ فكذبوه ﴾ أى : فكذب قوم نوح نبيهم نوحا بعد أن دعاهم إلى الحق ليلا ونهارا وسرا وعلانية .

فماذا كانت نتيجة هذا التكذيب ؟ كانت نتيجته كما حكته السورة الكريمة ﴿ فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ أى : فنجينا نوحا ومن معه من المؤمنين ، بأن أمرناهم أن يركبوا فى السفينة التى صنعوها بأمر الله ، حتى لا يغرقهم الطوفان الذى أغرق المكذبين .

وقوله : ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض لأولئك المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام - وعموا وصموا عن الحق الذى جاءهم به ودعاهم اليه .

هذه هى عاقبة نوح والمؤمنين معه أما عاقبة من كذبوه فقد بينها - سبحانه - فى قوله : ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى : وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أى : فانظر وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذر والآيات التى جاءهم بها نبيهم نوح - عليه السلام - .

فالمراد بالأمر بالنظر هنا : التأمل والاتعاظ والاعتبار لا مجرد النظر الخالى عن ذلك .

وهكذا نجد أن من العبر والعظات التى من أجلها ساق الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - بهذه الصورة الموجزة هنا : إبراز ما كان عليه نوح - عليه السلام - من شجاعة وقوة وهو يبلغ رسالة الله إلى الناس واعتماده التام على خالقه وتوكله عليه وحده وتحديه السافر للمكذبين الذين وضعوا العراقيل والعقبات فى طريق دعوته ، وتحريضه لهم بمثيرات القول على مهاجمته إن كان فى إمكانهم ذلك ومصارحته لهم بأنه فى غنى عن أموالهم لأن خالقه - سبحانه - قد أغناه عنهم ، وبيان أن سنة الله لا تتخلف ولا تتبدل وهذه السنة تتمثل فى أنه - سبحانه - قد جعل حسن العاقبة للمؤمنين وسوء العاقبة للمكذبين .

ثم حكت السورة الكريمة أن الله - تعالى - قد أرسل رسلا كثيرين بعد نوح - عليه السلام - فكان موقف أقوامهم منهم مشابها لموقف قوم نوح منه ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

أى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين ذوى قدر عظيم إلى أقوامهم، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان فهود - عليه السلام - أرسلناه إلى قوم عاد، وصالح - عليه السلام - أرسلناه إلى ثمود، و هكذا أرسلنا رسلا كثيرين إلى أقوامهم.

وقوله : ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أى : فأتى كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات، وبالحجج الساطعات الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه.

وقوله - ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ بيان لموقف هؤلاء الأقوام الجاحدين من رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم.

وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال :

فمنهم من يرى أن الضمائر فى « كانوا، ويؤمنوا، وكذبوا » تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن المراد بقوله : ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل مجىء الرسل إليهم.

والمعنى على هذا الرأى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام الأشقياء. استمروا على كفرهم وعنادهم، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجىء الرسل إليهم وهو إفراد الله - تعالى - بالعبادة والطاعة فكان حالهم فى الإصرار على الكفر والجحود قبل مجىء الرسل إليهم، كحالهم بعد أن جاءوهم بالهدى ودين الحق، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام البيضاوى فقد قال : « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ أى : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر، وخذلان الله إياهم .. بما كذبوا به من قبل، أى بسبب تعودهم تكذيب الحق، وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - »[1].

---

(١) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٤٥٤ طبعة مصطفى الحلبى - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨ هـ.

ومنهم من يرى - أيضا - أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله ﴿ من قبل ﴾ : أى : من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام .

وعليه يكون المعنى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم ، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم ، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم ، فكان تكذيبهم لهم فى آخر أحوالهم معهم ، يشبه تكذيبهم لهم من قبل . أى : فى أول مجيئهم إليهم .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى : الإمام ابن كثير فقد قال : « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم ، كما قال - تعالى - ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [١] .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « كانوا ويؤمنوا » يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن الضمير فى قوله « كذبوا » يعود إلى قوم نوح ، وعلى هذا الرأى يكون المعنى :

ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا إلى أقوامهم . فجاءوهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم ، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأبوا أن يؤمنوا بوحدانية الله التى كذب بها قوم نوح من قبل .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام ابن جرير فقد قال « قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ يقول : « فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم وبما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية .. » [٢] .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا وصموا عن الحق ، واستمروا على ذلك دون أن تحولهم الآيات البينات التى جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم .

وقوله : ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه التى لا تتخلف ولا تتبدل . والطبع : الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشىء ما دخل فيه ، ولا يدخل فيه ما خرج منه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ طبعة دار الشعب ص ٢٣٠ المجلد الرابع .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٠ طبعة دار المعرفة - بيروت .

أى : مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود فى الكفر والجحود ، وذلك بخذلانهم ، وتخليتهم وشأنهم ، لانهماكهم فى الغواية والضلال .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فبدأت بحكاية بعض المحاورات التى دارت بينه وبينهم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم بعثنا .. ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم ... ﴾ من باب عطف القصة على القصة ، وهو من قبيل عطف الخاص على العام ، لما فى هذا الخاص من عبر وعظات .

والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبينات . ﴿ موسى وهارون ﴾ عليهما السلام .. ﴿ إلى فرعون ﴾ الذى قال لقومه « أنا ربكم الأعلى » وإلى ﴿ ملئه ﴾ أى : خاصته وأشراف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .

﴿ بآياتنا ﴾ أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات وتوجيهات .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التسع التى جاء ذكرها فى قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .. ﴾ [1] .

---

(١) الآية ١٠١

قال الجمل : « وتقدم فى الأعراف منها ثمانية ، ثنتان فى قوله - تعالى - ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ [١] وقوله : ﴿ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ [٢] .

وواحدة فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ [٣] وخمسة فى قوله - تعالى - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .... ﴾ [٤] . والتاسعة فى هذه السورة - سورة يونس - فى قوله - تعالى - : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ [٥] .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ .

والاستكبار : ادعاء الكبر من غير استحقاق ، والفاء فصيحة ، والتقدير : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه ، فأتياهم ليبلغاهم دعوة الله ، ويأمراهم بإخلاص العبادة له ، فاستكبروا عن طاعتهما ، وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم وديدنهم الإجرام ، وهو ارتكاب ما عظم من الذنوب ، وقبح من الأفعال .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : فاستكبروا عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها » [٦] .

ثم بين - سبحانه - ماتفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم موسى بدعوته فقال : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ .

أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من عندنا لا من غيرنا ﴿ قالوا ﴾ على سبيل العناد والحقد والغرور ﴿ إن هذا ﴾ الذى جئت به يا موسى ﴿ لسحر مبين ﴾ أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير .

والتعبير بقوله ﴿ جاءهم ﴾ يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .

وفى قوله ﴿ من عندنا ﴾ تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

---

(١) الآية ١٠٧ (٢) الآية ١٠٨

(٣) الآية ١٣٠ (٤) الآية ١٣٣

(٥) الآية ٨٨ - حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣١٥

(٦) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٤ .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التى جاءهم بها موسى - عليه السلام - لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ بالقسم المؤكد : يدل على تبجحهم الذميم ، وكذبهم الأثيم ، حيث وصفوا الحق الذى لا باطل معه بأنه سحر واضح ، وهكذا عندما تقسو القلوب وتفسق النفوس ، تتحول الحقائق فى زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم فقال : ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴾ .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

قال موسى لفرعون وملئه منكرا عليهم غرورهم وكذبهم ، ﴿ أتقولون للحق ﴾ الذى هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهدتكم له .

أتقولون عنه ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ .

يا سبحان الله !! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذى يدل على الجهالة والغباء ، انظروا وتأملوا ﴿ أسحر هذا ﴾ الذى ترون حقيقته بأعينكم ، وترتجف من عظمته قلوبكم ، والحال أنه ﴿ لا يفلح الساحرون ﴾ فى أى عمل من شأنه أن يهدى إلى الخير والحق .

فقد حذفت جملة ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ لدلالة قوله ﴿ أسحر هذا ﴾ عليه .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : إن هذا لسحر مبين ، على أنه سحر فكيف قيل لهم أتقولون : أسحر هذا ؟

قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله : ﴿ أتقولون للحق ﴾ : أتعيبونه وتطعنون فيه ، وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول ، إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه .

وأن يحذف مفعول أتقولون وهو مادل عليه قولهم : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ كأنه قيل : أتقولون ما تقولون : يعنى قولهم : إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ؟

وأن يكون جملة قوله « أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا أجئتنا إلينا بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ ولا يفلح الساحرون .. ﴾[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٧ .

وقال الجمل : « قوله - تعالى - ﴿ قال موسى أتقولون .. ﴾ أى : قال جملا ثلاثة : الأولى : ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ والثانية ﴿ أسحر هذا ﴾ والثالثة ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ .

وقوله ﴿ للحق ﴾ أى فى شأنه ولأجله ، وقوله ﴿ لما جاءكم ﴾ أى : حين مجيئه إياكم من أول الأمر من غير تأمل وتدبر ، وهذا مما ينافى القول المذكور .

وقوله : ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ هنا مقول القول محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وإشارة إلى أنه لا ينبغى أن يتفوه به .

وقوله - سبحانه - حكاية عن موسى ﴿ أسحر هذا ﴾ مبتدأ وخبر ، وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته - عليه السلام - تكذيبا لقولهم ، وتوبيخا إثر توبيخ ، وتجهيلا بعد تجهيل » [1] .

وقوله : ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ جملة حالية من ضمير المخاطبين ، وقد جىء بها تأكيدا للإنكار السابق ، وما فيه من معنى التوبيخ والتجهيل .

أى : أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح فاعله ، أى : لا يظفر بمطلوب ، ولا ينجو من مكروه ، وأنا قد أفلحت ، وفزت بالحجة ، ونجوت من الهلكة .

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين فقال - تعالى - : ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

واللفت : الصرف واللى يقال : لفته يلفته لفتا ، أى : صرفه عن وجهته إلى ذات اليمين أو الشمال .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجئتنا يا موسى بما جئتنا به ﴿ لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أى : لتصرفنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون ﴿ الكبرياء فى الأرض ﴾ أى السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى - عليه السلام - من الدين الحق فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أى وما نحن لكما بمصدقين فيما جئتما به ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٦٥ .

لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكنا الذى تتمتع بكبريائه خاصتنا ، وتعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا .

وأفردوا موسى - عليه السلام - بالخطاب فى قولهم ﴿ أجئتنا لتلفتنا .. ﴾ لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف عن غرورهم وغبائهم .

وجمعوا بين موسى وهارون - عليهما السلام - فى قولهم ﴿ وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما ، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون - عليهما السلام - ، هى تهمة قديمة جديدة فقوم نوح - مثلا - يمتنعون عن قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾[1] . أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم ، فيكون زعيما وأنتم له تابعون .

ولقد أفاض فى شرح هذا المعنى صاحب الظلال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ما ملخصه :

وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسى والاقتصادى ، وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .

إنها العلة القديمة الجديدة التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة دعوات الإصلاح ورمى الدعاة بأشنع التهم ؛ والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة .. إنها هى « الكبرياء فى الأرض » وما تقوم عليه من معتقدات باطلة ، يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة فى قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف وفساد ، وأوهام وخرافات ، لأن تفتح القلوب على العقيدة الصحيحة ، خطر على القيم الجاهلية الموروثة .

وما كان رجال من أذكياء قريش - مثلا - ليخطئوا إدراك ما فى رسالة محمد - ﷺ - من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من تهافت وفساد ، ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

الموروثة ، القائمة على ما فى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد ، كما خشى الملأ من قوم فرعون على سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متبجحين ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[1] .

ثم حكت الآيات الكريمة بعد ذلك ما طلبه فرعون من ملئه ، وما دار بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة من محاورات فقال - تعالى - :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى ثعبان مبين .

قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام - ﴿ ائتونى ﴾ أيها الملأ ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ أى : بكل ساحر من أفراد مملكتى تكون عنده المهارة التامة فى فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .

وقوله : ﴿ فلما جاء السحرة ... ﴾ معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام والتقدير ، فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا فى إحضار السحرة ، فلما جاءوا والتقوا بموسى - عليه السلام - وخيروه بقوله ﴿ إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ .

﴿ قال لهم موسى ﴾ على سبيل التحدى ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ من ألوان سحركم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم ، وليميزوا بين حقى وباطلكم .

﴿ فلما ألقوا ﴾ أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم .

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ على سبيل السخرية مما صنعوه .

---

(١) تفسير (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب جـ ١١ ص ٤٦٦ .

﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أى : قال لهم موسى : أيها السحرة ، إن الذى جئتم به هو السحر بعينه ، وليس الذى جئت به أنا مما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبين .

وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرنى الله به - سبحانه - من إلقاء عصاى، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يصلح عمل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح .

وقوله : ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ تأكيد لسنة الله - تعالى - فى تنازع الحق والباطل ، والصلاح والفساد .

أى : أنه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين ، بل يمحقه ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى يثبته ويقويه ويؤيده ﴿ بكلماته ﴾ النافذة ، وقضائه الذى لا يرد ، ووعده الذى لا يتخلف ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لا تعطل مشيئة الله ، ولا تحول بين تنفيذ آياته وكلماته وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى ﴿ أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة للحديث عن جانب مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين قومه بنى إسرائيل ، إثر الحديث عن جانب مما دار بينه وبين فرعون وملئه وسحرته فقال - تعالى - :

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا

(١) سورة الأعراف الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قال الجمل : « قوله - سبحانه - ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه .. ﴾ . لما ذكر الله - تعالى - ما أتى به موسى - عليه السلام - من المعجزات العظيمة الباهرة ، أخبر - سبحانه - أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه . وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد - ﷺ - لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه ، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . لأن ما جاء به موسى من المعجزات ، كان أمرا عظيما . ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه »[1] .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدل عليه السياق ، والتقدير : لقد أتى موسى - عليه السلام - بالمعجزات التى تشهد بصدقه ، والتى على رأسها ، أن ألقى عصاه فإذا هى تبتلع ما فعله السحرة ، ومع كل تلك البراهين الدالة على صدقه ، فما آمن به إلا ذرية من قومه .

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد أن تخلف عن الإيمان آباؤهم وأغنياؤهم .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ أى : إلا أولاد بعض بنى إسرائيل حيث دعا - عليه السلام - الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، وأجابته طائفة من شبابهم فالمراد من الذرية : الشبان لا الأطفال[2] .

والضمير فى قوله ﴿ من قومه ﴾ يعود لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون المعنى :

فما آمن لموسى - عليه السلام - فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٧
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤٨

العذاب ، أما آباؤهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعا فى عطائه ، وخوفا من بطشه بهم .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير فى قوله ﴿ من قومه ﴾ يعود إلى فرعون لا إلى موسى .

فيكون المعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قوم فرعون .

قال ابن كثير ما ملخصه مرجحا هذا الرأى : « يخبر الله - تعالى - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات والحجج ، إلا قليل من قوم فرعون ، من الذرية - وهم الشباب - ، على وجل وخوف منه ومن ملئه .

قال العوفى عن ابن عباس : « إن الذرية التى آمنت لموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه » .

ثم قال : واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية ، أنها من بنى إسرائيل ، لا من قوم فرعون . لعود الضمير على أقرب مذكور .

وفى هذا نظر ، لأن من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى . واستبشروا به ، فقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به .

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ؟ »[1] .

والذى نراه أن ما اختاره ابن جرير من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - أرجح ، لأن هناك نوع خفاء فى إطلاق كلمة الذرية على من آمن من قوم فرعون ، ومنهم زوجته ، وامرأة خازنه .

ولأنه لا دليل على أن بنى إسرائيل كلهم قد آمنوا بموسى ، بل الحق أن منهم من آمن به ومنهم من كفر به ، كقارون والسامرى وغيرهما .

ولأن رجوع الضمير إلى موسى - عليه السلام - هو الظاهر المتبادر من الآية ، لأنه أقرب مذكور ، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر .

ورحم الله ابن جرير فقد قال فى ترجيحه لما ذهب إليه من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - ماملخصه :

وأولى هذه الأقوال عندى بتأويل الآية ، القول الذى ذكرته عن مجاهد وهو أن الذرية فى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٣ .

هذا الموضع ، أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بنى إسرائيل ، وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب ، لأنه لم يجر فى هذه الآية ذكر لغير موسى ، فلأن تكون الهاء فى قوله ﴿ من قومه ﴾ من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون ، لبعد ذكره منها .

ولأن فى قوله ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ الدليل الواضح على أن الهاء فى قوله ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ من ذكر موسى لا من ذكر فرعون ، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام على خوف منه ، ولم يكن على خوف من فرعون .. »[1] .

وقوله : ﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ... ﴾ حال من كلمة ﴿ ذرية ﴾ ، و ﴿ على ﴾ هنا بمعنى مع . والضمير فى قوله ﴿ ملئهم ﴾ يعود إلى ملأ الذرية ، وهم كبار بنى إسرائيل الذين لا ذوا بفرعون طمعا فى عطائه أو خوفا من عقابه ولم يتبعوا موسى - عليه السلام - .

والمعنى : فما آمن لموسى الا عدد قليل من شباب قومه ، والحال أن إيمانهم كان مع خوف من فرعون ومن أشراف قومهم أن يفتنوهم عن دينهم ، أى : يعذبوهم ليحملوهم على ترك اتباع موسى - عليه السلام .

والضمير فى ﴿ يفتنهم ﴾ يعود إلى فرعون خاصة ، لأنه هو الآمر بالتعذيب ولأن الملأ إنما كانوا يأتمرون بأمره ، وينتهون عن نهيه ، فهم كالآلة فى يده يصرفها كيف يشاء .

وجملة ﴿ أن يفتنهم ﴾ فى تأويل مصدر ، بدل اشتمال من فرعون ، أى : على خوف من فرعون فتنته .

وقوله : ﴿ وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون المتكبر متجبر فى أرض مصر كلها ، وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد فى الظلم والبغى وادعاء ما ليس له .

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتماد على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ .

أى : قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٤ طبعة دار المعرفة - بيروت .

اعتمدوا ، وبجنابه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأييده .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : ﴿ فقالوا ﴾ أى مجيبين لنصيحة نبيهم ﴿ على الله ﴾ وحده لا على غيره ﴿ توكلنا ﴾ واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أى ياربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين . بأن تمكنهم منا فيسوموننا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - فى زعمهم - لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه فى المباعدة بينهم وبين الظالمين فقالوا ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

أى : نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجينا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

قال الإمام الشو كانى : « وفى هذا الدعاء الذى تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم »[1] .

وبعد هذا الدعاء المخلص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى ما يوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة .. ﴾.

وقوله ﴿تبوءا﴾ من التبوؤ وهو اتخاذ المباءة أى المنزل، كالتوطن بمعنى اتخاذ الوطن .

يقال بوأته وبوأت له منزلا إذا أنزلته فيه ، وهيأته له .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون فى طغيانه وفى إنزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم فى مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقوله ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أى : واجعلوا هذه البيوت التى حللتم بها مكانا لصلاتكم وعبادتكم ، بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

---

(١) تفسير (فتح القدير) للإمام الشوكانى جـ ٢ ص ٤٦٦ .

قال القرطبى : « المراد صلوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ، وذلك حين أخافهم فرعون ، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقدام على الصلاة ، والدعاء ، إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البيع والكنائس ماداموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى بيوتهم ... »[١] .

وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، فإن فى أدائها بهذه الصورة . وسيلة إلى تفريج الكروب ، وفى الحديث الشريف : « كان رسول الله - ﷺ - إذا حز به أمر صلى » .

وقوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ تذييل قصد به بعث الأمل فى نفوسهم متى أدوا ماكلفوا به .

أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل فى الآخرة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف نوع الخطاب فثنى أولا ، ثم جمع ، ثم وحد آخرا ؟

قلت : خوطب موسى وهارون - عليه السلام - أن يتبوآ لقومهما بيوتا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور . ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التى هى الغرض تعظيما لها ، وللمبشر بها »[٢] .

ولأن بشارة الأمة - كما يقول الآلوسى - وظيفة صاحب الشريعة ، وهى من الأعظم أَسَرُّ وأوقع فى النفس[٣] .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التى نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح ، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات ، بعد أن يئس من إيمان فرعون وملئه فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٧١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٥٢ .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأوانى الطعام والشراب ، ووسائل الركوب .. وغير ذلك مما يستعمله الإنسان فى زينته ورفاهيته .

والمال : يشمل أصناف الزينة ، ويشمل غير ذلك مما يتملكه الإنسان .

والمعنى : وقال موسى – عليه السلام – مخاطبا ربه ، بعد أن فقد الأمل فى إصلاح فرعون وملئه : ياربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وأصحاب الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتنعم ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم ؛ قد يضعف الإيمان فى بعض النفوس ، إما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون ، بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام فى قوله ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ لام العاقبة والصيرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر ، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال ، فأزل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

قال القرطبى : « اختلف فى هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها – وهو قول الخليل وسيبويه – أنها لام العاقبة والصيرورة ، وفى الخبر : « إن لله – تعالى – ملكا ينادى كل يوم :

لدوا للموت وابنو للخراب » أى : لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال ، صار كأنه أعطاهم ليضلوا »[١] .

وقال صاحب المنار : « قوله : ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أى : لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك لأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس ، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك ، وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى ﴾ .

فاللام فى قوله ﴿ ليضلوا ﴾ تسمى لام العاقبة والصيرورة ، وهى الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها ، يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ، ولا بقصد فاعل الفعل الذى تتعلق به كقوله - تعالى - ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ... ﴾[٢] .

ومنهم من يرى أن هذه اللام للتعليل ، والفعل منصوب بها ، فيكون المعنى :

وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك قد أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغيانا على طغيانهم ، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وشبيه بهذه الجملة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾[٣] .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال : « والصواب من القول فى ذلك عندى أنها لام كىْ ، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه ، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم ، وهذا كما قال جل ثناؤه ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه . ﴾[٤] .

ومنهم من يرى أن هذه اللام هى لام الدعاء ، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية فيكون المعنى :

وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ؛ اللهم ياربنا زدهم ضلالا على ضلالهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧٤ .
(٢) راجع تفسير المنار جـ ١١ ص ٤٧٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٨ .

وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشاف . فقد قال ما ملخصه : « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾؟

قلت : هو دعاء بلفظ الأمر كقوله : ربنا اطمس واشدد . وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح والمواعظ زمانا طويلا . وحذرهم من عذاب الله ومن انتقامه ، وأنذرهم سوء عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة إلا نبوا ، ولم يبق له مطمع فيهم . وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بوحى من الله ، أنه لايجىء منهم إلا الغى والضلال .

لما رأى منهم كل ذلك : اشتد غضبه عليهم ، وكره حالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره وهو ضلالهم .

فكأنه قال : ليثبتوا على ماهم عليه من الضلال .. » [١] .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، لكل واحد منها اتجاهه فى التعبير عن ضيق موسى - عليه السلام - لإصرار فرعون وشيعته على الكفر ، ولما هم فيه من نعم لم يقابلوها بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والبطر .

وإن كان الرأى الأول هو أظهرها فى الدلالة على ذلك ، وأقربها إلى سياق الآية الكريمة .

قال الشوكانى : « وقرأ الكوفيون ﴿ ليضلوا ﴾ بضم الياء . أى : ليوقعوا الإضلال على غيرهم . وقرأ الباقون بالفتح أى يضلون فى أنفسهم »[٢] .

وقوله : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم . فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ دعا عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلال .

والطمس : الإهلاك والإتلاف ومحو أثر الشىء يقال : طمس الشىء ويطمس طموسا إذا زال بحيث لا يرى ولا يعرف لذهاب صورته .

والشد : الربط والطبع على الشىء ، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج منه .

والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل قابلوا عطاءك بالجحود ، اللهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥ .

(٢) تفسير فتح القدير ، للإمام الشوكانى جـ ٢ ص ٤٧٠ .

يا ربنا اطمس على أموالهم بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .

﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها مع استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذى لا ينفع عند إتيانه إيمان ، ولا تقبل معه توبة ، لأنهما حدثا فى غير وقتهما .

قال الجمل : « وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتيها موسى - عليه السلام -[1] .

وقال الإمام ابن كثير : « وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله - تعالى - ولدينه على فرعون وملئه . الذين تبين له أنه لا خير فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا .. ﴾ ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم .. »[2] .

فقال : ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام - : أبشرا فقد أجبت دعوتكما فى شأن فرعون وملئه ﴿ فاستقيما ﴾ على أمرى ، وامضيا فى دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان بى والطاعة لأمرى .

﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ ما جرت به سنتى فى خلقى ، ولا يدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون ، مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآيات السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه موسى والتأمين لون من الدعاء .

هذا ، ومن الحكم والعظات التى نأخذها من هاتين الآيتين الكريمتين : أن من علامات الإيمان الصادق . أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة من بين أيدى المصرين على جحودهم وفسوقهم وبطرهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا ما يكون سببا فى إيذاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس بعضهم .

وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٧٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٥ .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فى هذه السورة الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين فقال - تعالى - :

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

قوله - سبحانه - ﴿ وجاوزنا ﴾ هو من جاوز المكان ، إذا قطعه وتخطاه وخلفه وراء ظهره وهو متعد بالباء إلى المفعول الأول الذى كان فاعلا فى الأصل ، وإلى الثانى بنفسه .

والمراد بالبحر هنا : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر . وقوله ﴿ بغيا وعدوا ﴾ أى ظلما واعتداء . يقال : بغى فلان على فلان بغيا ، إذا تطاول عليه وظلمه . ويقال : عدا عليه عَدْواً وعدوانا إذا سلبه حقه .

وهما مصدران منصوبان على الحالية بتأويل اسم الفاعل . أى : باغين وعادين . أو على المفعولية لأجله أى : من أجل البغى والعدوان .

والمعنى : وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث جعلناه لهم طريقا

يبسا ، فساروا فيه حتى بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب البغى والعدوان .

قال الآلوسى : « وذلك أن الله - تعالى - لما أخبر موسى وهارون - عليهما السلام - بإجابته دعوتهما ، أمرهما بإخراج بنى إسرائيل من مصر ليلا ، فخرجا بهم على حين غفلة من فرعون وملئه ، فلما أحس بذلك ، خرج هو وجنوده على أثرهم مسرعين ، فالتفت القوم فإذا الطامة الكبرى وراءهم ، فقالوا يا موسى ، هذا فرعون وجنوده وراءنا . وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص ، فأوحى الله - تعالى - إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم ، وصار لكل سبط طريق فسلكوا ، ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وبنو إسرائيل قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله ، فسلكه فرعون وجنوده ، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج من البحر ، انطبق عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ماقاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلـه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ .

أى : لقد اتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعاين الموت وأيقن أنه لا نجاة له منه ، قال آمنت وصدقت . بأنه لا معبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ﴾.

أى : آلآن تدعى الإيمان حين يئست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على تكذيب الحق الذى جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - والظرف « آلآن » متعلق بمحذوف متأخر ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار .

وقوله : ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ جملة حالية من فاعل الفعل المقدر ، أى : آلآن تدعى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٠ .

الإيمان والحال أنك عصيت قبل وكنت من المفسدين .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا الذى حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك . من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله .

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل لى يا محمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طينًا أسود من طين البحر - فدسسته فى فمه مخافة أن تناله الرحمة » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث ، حماد بن سلمة وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية .. ﴾ تهكم به ، وتخييب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه،والمعنى إن دعواك الإيمان الآن مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، نلقى بجسمك الذى خلا من الروح على مكان مرتفع من الأرض لتكون عبرة وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة أو الإخبار ، سوء عاقبة المكذبين ، وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

قال الإمام الشوكانى : « قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك .. ﴾ قرئ ننجيك بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل .

أى : نلقيك على نجوة من الأرض . وذلك ان بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه .

ومعنى ﴿ ببدنك ﴾ بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل معناه بدرعك والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٧ ، طبعة دار الشعب .

أراد بالأبدان الدروع[١] - وباليلب - بفتح الياء واللام - الدروع اليمانية كانت تتخذ من الجلود .

وقوله : ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ تذييل قصد به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .

أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء . كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبى - ﷺ - المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبى - ﷺ - لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم فصوموه »[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أن أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾ .

وقوله : ﴿ بوأنا ﴾ أى : أنزلنا وأسكنا ، من التبوء ، وهو اتخاذ المباءة أى : المنزل والمسكن .

وفى إضافة المبوأ إلى الصدق مدح له ، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق إذا كان متحليا بمكارم الأخلاق .

قال الآلوسى : « والمراد بهذا المبوأ ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك : الشام ومصر ، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا فى زمان موسى - عليه السلام - وهم المرادون هنا ، ملكوا ذلك حسبما ذهب إليه جمع من الفضلاء[٣] .

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس ، واختاره بعضهم ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك .

وينبغى أن يراد ببنى إسرائيل على القولين ، ما يشمل ذريتهم بناء على أنهم ما دخلوا الشام فى حياة موسى - عليه السلام - إنما دخلها أبناؤهم - بقيادة يوشع بن نون .

وقيل المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشام ، وببنى إسرائيل : الذين كانوا على عهد نبينا محمد - ﷺ - .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٧٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٧ .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا ، فيه الأمان ، والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التى أحللناها لهم .

وقوله : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم .... ﴾ توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحى الذى أمرهم الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وأن لا يستخدموه فى التأويلات الباطلة .

فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه - فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل .

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقونه من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، ومع قومه بنى إسرائيل ، وجه القرآن خطابا إلى النبى - ﷺ - تثبيتا لقلبه ، وتسلية له عما أصابه من أذى ، فقال - تعالى - :

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

والمراد ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ هنا : ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قصص حكيم يتعلق بأنبياء الله - تعالى - ورسله .

قال الآلوسى : « وخصت القصص بالذكر ، لأن الأحكام المنزلة عليه - ﷺ - ناسخة لأحكامهم ، ومخالفة لها فلا يتصور سؤالهم عنها »[١] .

والمراد بالكتاب : جنسه فيشمل التوراة والإنجيل .

والمعنى : فإن كنت أيها الرسول الكريم - على سبيل الفرض والتقدير - فى شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرهما ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ماقصصناه عليك ثابت فى كتبهم .

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول - ﷺ - وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الثبوت .

قال ابن كثير : « قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا أشك ولا أسأل » .

وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصرى ، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم بأن صفة نبيهم - ﷺ - موجودة فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب ، كما قال - تعالى - ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .. ﴾[٢] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى شأن عيسى - عليه السلام - : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته .. ﴾ .

فعيسى - عليه السلام - يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك ، وإنما يفرض قوله فرضا . ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله - تعالى - منه .

أى : إن كنت قلته - على سبيل الفرض والتقدير - فقولى هذا لا يخفى عليك .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك .. ﴾؟

قلت : هو على سبيل الفرض والتمثيل . كأنه قيل : فإن وقع لك شك - مثلا - وخيل

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣١ .

لك الشيطان خيالا منه تقديرا ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب ﴾ .

والمعنى : أن الله - عز وجل - قدم ذكر بنى إسرائيل ، وهم قرأة الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله - ﷺ - مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد - ﷺ - ويبالغ فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا . فسل علماء أهل الكتاب يعنى أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ، فضلا عن غيرك .

فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله - ﷺ - لا وصفه بالشك فيه .

ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين .. ﴾ ولذلك قال - ﷺ - عند نزوله : «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق » .

وقيل : خوطب رسول الله - ﷺ - والمراد خطاب أمته .

ومعناه : « فإن كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم .. »[1] .

وقوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ كلام مستأنف مؤكد لاجتثاث إرادة الشك .

والتقدير : أقسم لقد جاءك الحق الذى لا لبس فيه من ربك لا من غيره ، فلا تكونن من الشاكين المترددين فى صحة ذلك .

وقوله : ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ تعريض بأولئك الشاكين والمكذبين له - ﷺ - من قومه . أى : ولا تكونن من القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما تبلغه عنا ، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وأخراهم .

قال الآلوسى : « وفائدة النهى فى الموضعين التهييج والإلهاب نظير مامر . والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا فى القبح والمحذورية إلى حيث ينبغى أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما ، فكيف بمن يمكن اتصافه بذلك .. »[2] .

وقوله : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦٨ .

العذاب الأليم ﴾ توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق .

والمراد بكلمة ربك : حكمه النافذ ، وقضاؤه الذى لا يرد ، وسننه التى لا تتغير ولا تتبدل فى الهداية والإضلال .

والمراد بالآية : المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول - ﷺ - .

أى : إن الذين حكم الله - تعالى - عليهم بعدم الإيمان - لأنهم استحبوا العمى على الهدى - لا يؤمنون بالحق الذى جئت به - أيها الرسول الكريم .. مهما سقت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك ..

ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق ، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل جانب .

وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان ، لأنه جاء فى غير وقته ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا .. ﴾[1] .

وسيكون حالهم كحال فرعون ، الذى عندما أدركه الغرق قال آمنت .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد نهت عن الشك والافتراء فى شأن الحق الذى جاء به الرسول - ﷺ - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ، كما بينت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه ، فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبينات الدالة على طريق الحق .

ثم فتحت السورة الكريمة للمكذبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم يونس - عليه السلام - الذين نجوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كما ذكرتهم بإرادة الله التامة ، وقدرته النافذة ، ودعتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بما اشتمل عليه هذا الكون .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تسوق كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ

---

(١) سورة غافر الآية ٨٥ .

جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قال القرطبى ما ملخصه : « روى فى قصة يونس - عليه السلام - عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل - بالعراق - وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم. فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل . وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم ، فهو نزول العذاب لاشك ...

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأصبحوا فلم يجدوه ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم ..

قال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا العذاب لما نفعهم الإيمان »[1] .

وكلمة ﴿ لولا ﴾ فى قوله - سبحانه - ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ... ﴾ للحث والتحضيض ، فهى بمعنى هلا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٨٧ .

والمقصود بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان . وقوله ﴿ آمنت ﴾ خبرها . وقوله ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ معطوف على ﴿ آمنت ﴾ .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذى حل بهم فقطع دابرهم ، كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا أمارات العذاب الذى أنذرهم به نبيهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، ومتعهم بالحياة المقدرة لهم ، إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الإمام الشوكانى : والاستثناء بقوله : ﴿ إلا قوم يونس .. ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرية لأن المراد أهلها .

والمعنى : فهلا قرية واحدة من القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدا به - وذلك بأن يكون خالصا لله - قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخره كما أخره فرعون ، لكن قوم يونس « لما آمنوا » إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم « كشفنا عنهم عذاب الخزى » أى : الذل والهوان .

وقيل يجوز أن يكون متصلا ، والجملة فى معنى النفى ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس .. »[1] .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : « وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب نزل عليهم ، وجعل يدور على رءوسهم .. ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة ...

وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « عرض على الأنبياء ، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبى معه الرجل ، والنبى معه الرجلان ، والنبى ليس معه أحد »[2] .

وفى الآية الكريمة - أيضا - تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب إعراض

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٦ ص ٣٤٠٠ .

قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية لرسوله - ﷺ - تسلية أخرى فقال : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ... ﴾ ومفعول المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - يا محمد - إيمان أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا دون أن يتخلف منهم أحد ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأنه مخالف للحكمة التى عليها أساس التكوين والتشريع ، والإثابة والمعاقبة ، فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الكفر والإيمان ، وأن يحذر من الكفر ويحض على الإيمان ، ثم بعد ذلك من كفر فعليه تقع عقوبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه .

والهمزة فى قوله - سبحانه - ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ للاستفهام الإنكارى، والفاء للتفريع .

والمراد بالناس : المصرين على كفرهم وعنادهم .

والمعنى : تلك هى مشيئتنا لو أردنا إنفاذها لنفذناها ، ولكننا لم نشأ ذلك فهل أنت يا محمد فى وسعك أن تكره الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان ؟ .

لا ، ليس ذلك فى وسعك ولا فى وسع الخلق جميعا ، بل الذى فى وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه .

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية أخرى للرسول - ﷺ - ودفع لما يضيق به صدره ، من إعراض بعض الناس عن دعوته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ... ﴾ تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله - تعالى - أى : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس ، أن تؤمن فى حال من الأحوال ، إلا بإذن الله » أى : إلا بإرادته ومشيئته وتوفيقه وهدايته .

وقوله : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾. معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد ، والرجس : يطلق على الشىء القبيح المستقذر .

والمعنى : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، فيأذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان ، ويجعل الرجس أى الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير ، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيل والشرور .

ولما كان التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، يعين على التفكير السليم ، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير ، أمر الله - تعالى - الناس بالنظر والاعتبار فقال - سبحانه - : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك : انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شموس وأقمار ، وكواكب ونجوم ، وسحاب وأمطار ...

وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار ، ومن جبال وأشجار ، ومن حيوانات ودواب متنوعة .

انظروا إلى كل ذلك وتفكروا ، فإن هذا التفكر يهدى أصحاب العقول السليمة إلى أن لهذا الكون إلها واحدا عليما قديرا ، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ توبيخ للغافلين عن النظر السليم الذى يؤدى إلى الهداية .

و ﴿ ما ﴾ نافية ، والمراد بالآيات : ما أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك بقوله : ﴿ ماذا فى السموات والأرض ﴾ والنذر : جمع نذير ، وهو من يخبر غيره بأمر مخوف حتى يحذره .

والمعنى : انظروا وتفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من آيات بينات دالة على وحدانية الخالق وقدرته ..

ومع ذلك فإن الآيات مهما اتضحت ، والنذر مهما تعددت ، لا تجدى شيئا ، بالنسبة لمن تركوا الإيمان ، وأصروا على الجحود والعناد .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ للاستفهام الإنكارى ، فيكون المعنى وأى شىء تجدى الآيات السماوية والأرضية ، والنذر بحججها وبراهينها ، أمام قوم جاحدين معاندين ، قد استحبوا الكفر على الإيمان ؟ .

ثم ساق - سبحانه - للمكذبين برسوله - ﷺ - تهديدا يخلع قلوبهم فقال : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ .

قال القرطبى : « الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما ، كقوله - تعالى - ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ ، وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٨٦ .

والمعنى : إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إثابتنا للمؤمنين ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لدعوتك ، إلا العذاب الذى نزل بالمكذبين لدعوة الرسل من قبلك ؟ فالاستفهام للتهكم والتقريع .

وقوله : ﴿ قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ بأن يستمر فى تهديدهم ووعيدهم .

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاحدين للحق الذى جئت به : إذاً فانتظروا العذاب الذى نزل بالسابقين من أمثالكم ، إنى معكم من المنتظرين لوعد ربى لى ، ولوعيده لكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل فقال : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ .

والجملة الكريمة عطف على محذوف ، والتقدير : تلك سنتنا فى خلقنا نهلك الأمم المكذبة ﴿ ثم ننجى رسلنا ﴾ الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وننجى - أيضا - الذين آمنوا برسلنا وصدقوهم وقوله ﴿ كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ الكاف فى ﴿ كذلك ﴾ بمعنى : مثل ، وهى صفة لمصدر محذوف ، واسم الإشارة يعود على الإنجاء الذى تكفل الله به للرسل السابقين ولمن آمن بهم ولفظ ﴿ حقا ﴾ منصوب بفعل مقدر أى : حق ذلك علينا حقا أى : مثل ذلك الإنجاء الذى تكفلنا به لرسلنا ولمن آمن بهم ، ننج المؤمنين بك - أيها الرسول الكريم - ، ونعذب المصرين على تكذيبك ، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلا منا وكرما .

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾[1] وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضت الضالين على الاقتداء بقوم يونس - عليه السلام - لكى ينجوا من العذاب ، وذكرتهم بنفاذ إرادة الله وقدرته ، ودعتهم إلى التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية فى إنجاء المؤمنين ، وفى إهلاك المكذبين .

وبعد هذا الحديث المتنوع الذى زخرت به سورة يونس - عليه السلام - عن وحدانية الله وقدرته ، وعن صدق الرسول - ﷺ ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها ، وعن يوم القيامة وأهوالها ...

بعد كل ذلك وجهت فى ختامها نداءين إلى الناس أمرتهم فيهما بإخلاص العبادة لله - تعالى - وبالاعتماد عليه وحده ، وبتزكية نفوسهم ...

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٧ .

استمع إلى السورة الكريمة فى ختامها وهى تقول :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

والمعنى : ﴿ قل ﴾ أيها الرسول الكريم ، لجميع من ارتاب فى دينك .

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى ﴾ الذى جئتكم به من عند الله - تعالى - ، وترغبون فى تحويلى عنه ، فاعلموا أنى برىء من شككم ومن أديانكم التى أنتم عليها .

ومادام الأمر كذلك ، فأنا « لا أعبد الذين تعبدون من دون الله » من آلهة باطلة فى حال من الأحوال .

﴿ ولكن أعبد الله ﴾ - تعالى - الذى خلقكم و ﴿ الذى يتوفاكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ، ويعاقبكم على كفركم .

وقوله ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ تأكيد لإخلاص عبادته - ﷺ - لله وحده .

أى : وأمرت من قبل خالقى - عز وجل - بأن أكون من المؤمنين بأنه لا معبود بحق سواه .

وأوثر الخطاب باسم الجنس « الناس » مع تصديره بحرف التنبيه ، تعميما للخطاب ، وإظهارا لكمال العناية بشأن المبلغ إليهم .

وعبر عن شكهم « بإن » المفيدة ؛ لعدم اليقين ، مع أنهم قد شكوا فعلا فى صحة هذا الدين بدليل عدم إيمانهم به ، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لساحة هذا الدين عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها .

وقدم - سبحانه - ترك عبادة الغير على عبادته - عز وجل - ، إيذانا بمخالفتهم من أول الأمر ، ولتقديم التخلية على التحلية .

وتخصيص التوفى بالذكر ، للتهديد والترهيب ، أى : ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولأنه أشد الأحوال مهابة فى القلوب .

وقوله : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ... ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أن أكون من المؤمنين ﴾ .

و ﴿ حنيفا ﴾ حال من الدين أو من الوجه ، والحنيف : هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام .

وخص الوجه بالذكر ، لأنه أشرف الأعضاء .

والمعنى : أن الله - سبحانه - أمره بالاستقامة فى الدين . والثبات عليه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال .

قال الآلوسى : « إقامة الوجه للدين ، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته - تعالى - ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات .

أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده . وهو معطوف على ﴿ أقم ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٧٨ .

أى : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده واثبت على ذلك ، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تأكيدا آخر فقال : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ .

أى : ولا تدع من دون الله فى أى وقت من الأوقات ﴿ مالا ينفعك ﴾ إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ ولا يضرك ﴾ إذا تركته وأهملته .

﴿ فإن فعلت ﴾ شيئا مما نهيناك عنه ﴿ فإنك إذا ﴾ تكون ﴿ من الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المهالك ، لإشراكها مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

ثم بين - سبحانه - أنه وحده هو الضار والنافع فقال : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ .

« المس » : أعم من اللمس فى الاستعمال ، يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب ، أى : أصابه ذلك ونزل به .

والضر : اسم للألم والحزن وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما .

والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة .

والمعنى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ كمرض وتعب وحزن ، فلا كاشف له ، أى : لهذا الضر ﴿ إلا هو ﴾ - سبحانه - .

﴿ وإن يردك بخير ﴾ كمنحة وغنى وقوة ﴿ فلا راد لفضله ﴾ أى : فلا يستطيع أحد أن يرد هذا الخير عنك .

وعبر - سبحانه - بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات .

وقوله ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ أى : يصيب بذلك الفضل والخير ﴿ من يشاء ﴾ إصابته ﴿ من عباده ﴾ .

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أى : وهو الكثير المغفرة والرحمة لمن تاب إليه ، وتوكل عليه ، وأخلص له العبادة .

وفى معنى هذه الآية جاء قوله - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ،

وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال ابن كثير : « وروى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم »[٢] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء آخر - أمر رسوله - ﷺ - أن يوجهه للناس فقال : ﴿ قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ... ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا جميع الناس ، سواء منهم من سمع نداءك أو من سيبلغه هذا النداء من بعدك قل لهم جميعا : ﴿ قد جاءكم الحق ﴾ المتمثل فى كتاب الله وفى سنتى ﴿ من ربكم ﴾ وليس من أحد سواه .

﴿ فمن اهتدى ﴾ إلى هذا الحق ، وعمل بمقتضاه ﴿ فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أى : فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره .

﴿ ومن ضل ﴾ عن هذا الحق وأعرض عنه ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أى : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه .

﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أى بحفيظ يحفظ أموركم ، وإنما أنا بشير ونذير والله وحده هو الذى يتولى محاسبتكم على أعمالكم .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين ﴾.

أى : ﴿ واتبع ﴾ - أيها الرسول الكريم - فى جميع شئونك ﴿ ما يوحى إليك ﴾ من ربك من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ..

﴿ واصبر ﴾ على مشاق الدعوة وتكاليفها ..

﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين قومك ، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ . لأنه هو العليم بالظواهر والبواطن ، وهو الذى لا معقب لحكمه .

وبعد : فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، ونفاذ إرادته ، وسعة رحمته ، وسمو عزته ..

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٤ .

وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضاً - على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه .

وكيف أنها ساقت الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أحوال الناس فيه ، مما يرقق القلوب القاسية ، ويبعث فى النفوس الخشية وحسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد ، وكيف أنها ساقت جانبا من أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وقررت سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وهى نجاة رسل الله والمؤمنين بهم ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون .

وكيف أنها بينت أحوال الناس فى السراء والضراء ... بيانا صادقا قوياً مؤثراً ، من شأنه أن يحملهم على التحلى بالأخلاق الكريمة والتخلى عن الأخلاق الذميمة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين .

المدينة المنورة السبت ٧ من المحرم سنة ١٤٠١

الموافق ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م

تفسير

سُورَةُ هُودٍ

عليه السلام

تعريف بسورة هود - عليه السلام -

١ - سورة هود - عليه السلام - هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب المصحف « فقد سبقتها فى هذا الترتيب سورة الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس .

أما ترتيبها فى النزول ، فهى السورة الثانية والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة يونس .

٢ - وعدد آياتها : ثلاث وعشرون ومائة آية .

٣ - وقد سماها النبى - ﷺ - بسورة هود ، فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قد شبت ! قال : «شيبتنى» « هود » و « الواقعة » ، و « المرسلات » و « عم يتساءلون » و « إذا الشمس كورت » .

وفى رواية : شيبتنى هود وأخواتها .

قال القرطبى بعد أن ساق بعض الأحاديث فى فضل هذه السورة . ففى تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس . وتشيب منه الرءوس »[1] .

٤ - متى نزلت سورة هود ؟

جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية ، وقيل هى مكية إلا ثلاث آيات منها : وهى قوله - تعالى - ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك ... ﴾ الآية ١٢ .

وقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ الآية ١٧ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ﴾ الآية ١١٤ .

والذى نرجحه أن السورة كلها مكية ، وسنرى عند تفسيرنا لهذه الآيات التى قيل بأنها مدنية ، ما يشهد لصحة ما ذهبنا إليه .

كذلك نرجح أن هذه السورة الكريمة ، كان نزولها فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ، وذلك لأن نزولها - كما سبق أن أشرنا - كان بعد سورة يونس ، وسورة يونس كان نزولها بعد سورة الإسراء ، التى افتتحت بالحديث عنه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢ طبعة دار الكاتب العربى بالقاهرة .

وهذه الفترة التى كانت قبيل حادث الإسراء والمعراج والتى أعقبته ، تعتبر من أشق الفترات وأحرجها وأصعبها فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففى هذه الفترة مات أبو طالب عم النبى - ﷺ - والمدافع عنه ، وماتت كذلك السيدة خديجة - رضى الله عنها - التى كانت نعم المواسى له عما يصيبه من أذى ... ففقد الرسول - ﷺ - بموتهما نصيرين عزيزين ، كانت لهما مكانتهما العظيمة فى نفسه ، وتعرض - ﷺ - فى هذه الفترة لألوان من الأذى والاضطهاد فاقت كل ما سبقها وبلغت الحرب المعلنة من المشركين عليه وعلى دعوته ، أقسى وأقصى مداها ..

قال ابن إسحاق خلال حديثه عن هذه الفترة : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله - ﷺ - المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبى طالب - وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، ومنعة وناصرًا على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

ثم قال ابن إسحاق : فحدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - ﷺ - ذلك التراب دخل رسول الله - ﷺ - بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهى تبكى ، ورسول الله - ﷺ - يقول لها : « لا تبكى يابنية ، فإن الله مانع أباك » ..

قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب »[1] .

وسنرى عند استعراضنا للسورة الكريمة ، أنها صورت هذه الفترة أكمل تصوير .

٥ - مناسبتها لسورة يونس - عليه السلام - :

قال الآلوسى - رحمه الله -: ووجه اتصالها بسورة يونس ، أنه ذكر فى سورة يونس قصة نوح - عليه السلام - مختصرة جدًا ومجملة ، فشرحت فى هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط فى غيرها من السور .. ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإن قوله - تعالى - هنا ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ... ﴾ نظير قوله - سبحانه - هناك ﴿ الر . تلك آيات الكتاب الحكيم ... ﴾ بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط - أيضًا - ، حيث ختمت بنفى الشرك ، واتباع الوحى ، وافتتحت هذه ببيان الوحى والتحذير من الشرك[2] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٧٨ الطبعة المنيرية .

٦ - عرض إجمالى للسورة الكريمة :

عندما نطالع سورة هود بتدبر وتأمل ، نراها فى الربع الأول[١] منها - قد افتتحت بالتنويه بشأن القرآن الكريم . وبدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وإلى التوجه إليه بالاستغفار والتوبة الصادقة ، حتى ينالوا السعادة فى دنياهم وآخرتهم .

قال - تعالى - : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾ .

ثم وضحت السورة جانبًا من مسالك الكافرين ، تلك المسالك التى تدل على جهالاتهم بعلم الله التام ، وبقدرته النافذة ، وفصلت مظاهر هذه القدرة ، وشمول هذا العلم ..

قال - تعالى - : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

ثم بينت أحوال الإنسان فى حالة منحه النعمة ، وفى حالة سلبها عنه ، وساقت للرسول - ﷺ - من الآيات ما يسليه عما أصابه من كفار مكة ، وتحدتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم ، وأنذرتهم بسوء عاقبة المعرضين عن دعوة الله ، الصادين عن سبيله ، الكافرين بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، وبشرت المؤمنين بحسن العاقبة ، وضربت المثل المناسب لكل من فريقى الكافرين والمؤمنين .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ... ﴾ .

إلى أن تقول بعد حديث مفصل عن الكافرين وسوء عاقبتهم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ، أفلا تذكرون ﴾ .

فإذا ما وصلنا إلى الربع[٢] الثانى من سورة هود ، وجدناها تسوق لنا بأسلوب مفصل ،

(١) الآيات من ١ - ٢٤ .
(٢) الآيات من ٢٥ - ٤٠ .

قصة نوح – عليه السلام – مع قومه ، فتحكى أمره لهم بعبادة الله وحده ، كما تحكى الرد القبيح الذى رد به عليه زعماؤهم ، وكيف أنه – عليه السلام – لم يقابل سفاهتهم بمثلها ، بل خاطبهم بلفظ « ياقوم » الدال على أنه واحد منهم ، يسره ما يسرهم ، ويؤلمه ما يؤلمهم ، ومع هذا فقد لجوا فى طغيانهم وقالوا له – كما حكى القرآن عنهم – ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ... ﴾ .

فكان رده عليهم ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ... ﴾ .

وقد أتاهم الله – تعالى – بالعذاب الذى استعجلوه فأغرقهم بالطوفان الذى غشيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، والذى قطع دابرهم .

ثم نراها بعد ذلك فى الربع[1] الثالث ، تقص علينا مشهدًا مؤثرًا ، مشهد نوح – عليه السلام – وهو ينادى ابنه الذى استحب الكفر على الإيمان فيقول له بشفقة وحرص : ﴿ يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ .

ولكن الابن العاق لا يستمع إلى نصيحة أبيه العطوف بل يقول له : ﴿ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ .

ويجيبه الأب بحزن وحسم ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

ويتضرع الأب الحزين إلى ربه فيقول : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ .

ويأتيه الجواب من الله – تعالى – : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

ويلجأ نوح – عليه السلام – إلى خالقه ، مستعيذًا به من غضبه فيقول : ﴿ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ .

فيقبل الله – تعالى – ضراعته فيقول : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ .

ثم يختم الله – تعالى – قصة نوح ، بتسلية النبى – ﷺ – ، وبما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ .

---

(١) الآيات من ٤١ – ٦٠ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - ، ومصارحته إياهم بأنه لا يريد منهم أجرًا على دعوته ؛ وإرشادهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ؛ وقوة على قوتهم ، ولكنهم قابلوا تلك النصائح الغالية بالتكذيب والسفاهة ، فقالوا له - كما حكت السورة عنهم - ﴿ ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .... ﴾ .

فيرد عليهم هود بقوله : ﴿ إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ... ﴾ .

ثم كانت النتيجة بعد هذه المحاورات والمجادلات أن نجى الله هودا ، والذين آمنوا معه ، أما الكافرون بدعوته ، فقد نزل بهم العذاب الغليظ ، الذى تركهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ...

وفى الربع[1] الرابع منها تسوق لنا السورة الكريمة ، ما دار بين صالح وقومه ، حيث أمرهم بعبادة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وحذرهم من الاعتداء على الناقة التى هى لهم آية .. ولكنهم استخفوا بتذكيره وبتحذيره فكانت النتيجة إهلاكهم ...

قال - تعالى - ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ، ما فعله إبراهيم - عليه السلام - عندما جاءه رسل الله بالبشرى ، وكيف أنهم قالوا له عندما أنكرهم وأوجس منهم خيفة : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ... ﴾ .

ثم وضحت حال لوط - عليه السلام - عندما جاءه هؤلاء الرسل ؛ وحكت ما دار بينه وبين قومه الذين جاءوه يهرعون إليه عندما رأوا الرسل ، فقال لهم : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد .... ﴾ .

فيقولون له فى صفاقة وانحراف عن الفطرة السليمة : ﴿ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

وأسقط فى يد لوط - عليه السلام - ، وأحس بضعفه أمام هؤلاء المنحرفين المندفعين إلى

---

(١) الآيات من ٦٢ - ٨٣ .

ارتكاب الفاحشة ، اندفاع المجنون إلى حتفه ، فقال بأسى وحزن : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

وهنا كشف له الرسل عن طبيعتهم ، وأخبروه بمهمتهم ؛ وطلبوا منه أن يغادر هو ومن آمن معه مكان إقامتهم ، فإن العذاب نازل بهؤلاء المجرمين بعد وقت قصير .

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

ثم تتابع السورة الكريمة فى الربع الخامس[1] ، حديثها عن جانب من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فتحدثنا عن قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أنه قال لهم مقالة كل رسول لقومه ﴿ ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

ثم نهاهم بأسلوب رصين حكيم ، عن ارتكاب الفواحش التى كانت منتشرة فيهم ، وهى إنقاص الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ...

ولكنهم - كعادة السفهاء الطغاة - قابلوا نصائحه بالتهكم والاستخفاف والوعيد ... فكانت النتيجة أن حل بهم عذاب الله الذى أهلكهم ، كما أهلك أمثالهم .

قال - تعالى - ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباوالذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك بإيجاز ، جانبًا من قصة موسى مع فرعون وملئه ، الذين اتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد .

ثم تعقب على كل تلك القصص السابقة ، بتعقيب يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ... قال - تعالى - : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب ... ﴾ .

أما فى الربع السادس[2] والأخير منها ، فنراها تبين بأسلوب قوى منذر ، أن الناس سيأتون

---

(١) الآيات من ٨٤ - ١٠٧ .

(٢) الآيات ص ١٠٨ إلى آخر السورة .

يوم القيامة ، منهم الشقى ومنهم السعيد ، وأنه - سبحانه - سيوفى كل فريق منهم جزاءه غير منقوص .

ثم ترشد إلى ما يوصل إلى السعادة ، فتدعو إلى الاستقامة على أمر الله ، وإلى عدم الركون إلى الظالمين ، وإلى إقامة الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، وإلى الصبر الجميل .

قال - تعالى - : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن من أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، تثبيت فؤاد النبى - ﷺ - وتقوية قلبه ، وتسليته عما أصابه ، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه .

قال - تعالى - : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

٧ - أهم الموضوعات التى عنيت السورة الكريمة بالحديث عنها :

من استعراضنا لسورة هود ، ومن معرفة الفترة التى نزلت فيها ، نستطيع أن نقول : إن السورة الكريمة قد عنيت بالحديث عن موضوعات متنوعة من أهمها ما يأتى :

(ا) ترغيب الناس فى طاعة الله ، وتحذيرهم من معصيته ، وهذا المعنى نراه فى كثير من آيات سورة هود ، ومن ذلك :

قوله - تعالى - : ﴿ ألا تعبدو إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ... ﴾ .

وقوله - تعالى - حكاية عن هود - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ... ﴾ .

وقوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ... ﴾ .

(ب) تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، ومن مظاهر هذه التسلية ، أن

السورة الكريمة قد اشتملت فى معظم آياتها على قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فقد ذكرت نواحى متنوعة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه ...

وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة ، والمجادلات الباطلة ، التى اتبعها الطغاة مع أنبيائهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم .

كما ختمت كل قصة من هذه القصص ، ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ..

وفى ذلك ما فيه من التسلية للرسول الكريم - ﷺ - عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء عليه وعلى أصحابه .

وكأن ما ورد فى هذه السورة من قصص طويل متنوع ، يقول للرسول - ﷺ - : إن ما أصابك من قومك يا محمد ، قد أصاب الأنبياء السابقين من أقوامهم ، فاصبر كما صبروا ، فإنه ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

(جـ) إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام البشر ..

فقد تحداهم هنا أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، ثم تحداهم فى موطن آخر أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا ، وساق لهم - على لسان الرسول - ﷺ - الكثير من أخبار الأولين ، ومن قصص الأنبياء مع أقوامهم مع أن الرسول - ﷺ - لم يكن معاصرا لهؤلاء السابقين ، ولم يكن قارئا لأخبارهم فدل ذلك على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه .

قال - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ .

(د) بيان سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وهى أنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئا ؛ ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ؛ بإعراضهم عن الحق ، واتباعهم للهوى ، واستحقاقهم للعقوبة التى هى جزاء عادل لكل ظالم .

وهذا البيان نراه فى مواضع متعددة من السورة ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى ختام الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء ، لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد .... ﴾ .

وبعد : فهذه تعريفات عن سورة هود ، رأينا أن نذكرها قبل البدء فى تفسيرها ، وأرجو أن يكون فى ذكرها ما يعطى القارئ صورة واضحة عن هذه السورة الكريمة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة فى ٢١ من صفر سنة ١٤٠١ هـ
٢٨ / ١٢ / ١٩٨٠ م

محمد سيد طنطاوى

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

سورة هود - عليه السلام - من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن تكلمنا بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء فى المراد بهذه الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور .

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتؤلفون به كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند

الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة .

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ، ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

وقوله : ﴿ أحكمت آياته ﴾ من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شيء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : أتقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق : ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب .

وقوله : ﴿ ثم فصلت ﴾ من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بيانها ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا ، وأتقنها إتقانا معجزا ، بحيث لا يتطرق إليها خلل فساد . ثم فصل - سبحانه - هذه الآيات تفصيلا حكيما ، بأن أنزلها نجوما ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ﴿ أحكمت آياته ﴾ أى : نظمت نظما رصينا محكما ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف .. وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، قال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم أن أغضبا

﴿ ثم فصلت ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة »[1] .

و ﴿ ثم ﴾ فى قوله - سبحانه - « ثم فصلت » للتراخى فى الرتبة كما هو شأنها فى عطف الجمل ، لما فى التفصيل من الاهتمام لدى النفوس ، لأن العقول ترتاح إلى التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإيجاز .

وجملة ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ صفة أخرى للكتاب ، وصف بها ، لإظهار شرفه من

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٨ .

حيث مصدره ، بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات أى : هذا الكتاب الذى أتقنت آياته إتقانا بديعا ، وفصلت تفصيلا رصينا ، ليس هو من عند أحد من الخلق ، وإنما هو من عند الخالق الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها .

قال الشوكانى : وفى قوله ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها خبير ، عالم بمواقع الأمور[1] .

وقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ جملة تعليلية ، أى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير ، لكى تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتتركوا عبادة غيره ؛ لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز ، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة .

وقوله : ﴿ إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ بيان لوظيفة الرسول - ﷺ - .

والضمير المجرور فى « منه » يعود على الله - تعالى - .

أى : عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فإنه - سبحانه - قد أرسلنى إليكم لكى أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة ، وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين ، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

قال بعضهم : « والجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ما نضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله . بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثانى »[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعته من خيرات فقال : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ،ويؤت كل ذى فضل فضله .. ﴾ .

والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله - تعالى - .

والتوبة : الإقلاع عن كل ما نهى الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٨٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ١١ ص ٣١٥ .

ويمتعكم : من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك أى : أطال لنا بقاءك .

والآية الكريمة معطوفة على قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله .. ﴾ .

والمعنى : وعليكم - أيها الناس - بعد أن نبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديموا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿ يمتعكم ﴾ الله - تعالى - ﴿ متاعا حسنا ﴾ بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة .

قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله لكم فى هذه الدنيا .

وقوله : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ أى : ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح . والمراد بالفضل الثانى الثواب الجزيل من الله - تعالى - .

فالجملة الكريمة ، وعد كريم عن الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحا .

وجملة ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ معطوفة على استغفروا . و ﴿ ثم ﴾ هنا على بابها من التراخى ، لأن الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح التى لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .

ووصف المتاع بالحسن ، ليدل على أنه عطاء ليس مشوبا بالمكدرات والمنغصات التى تقلق الإنسان فى دنياه ، وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه ، مع المداومة على شكره - سبحانه - على هذه النعم .

قال - تعالى - ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم حذر - سبحانه - من الإعراض عن طاعته فقال : ﴿ وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ .

أى : ذكرهم أيها الرسول الكريم بأن فى إخلاصهم العبادة لله ، وفى طاعتهم له ، سعادتهم الدنيوية والأخروية ، وفى إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .

أى : إن تتولوا - أيها الناس - عن الحق الذى جئتكم به ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذى هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

فتنكير ﴿ يوم ﴾ للتهويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، حيث

إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أزجر لنفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .

وفى وصفه بالكبر ، زيادة - أيضا - فى تهويله وشدته ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾ تحذير آخر لهم ، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم به نبيهم - ﷺ - .

والمرجع : مصدر ميمى بمعنى الرجوع الذى لا انفكاك لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .

أى : إلى الله - تعالى - وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم ، ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء ، وهو - سبحانه - على كل شىء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل .

وما دام الأمر كذلك ، فأخلصوا لله العبادة ، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من جهالات المنحرفين عن الحق ، ومن أوهامهم الباطلة ، فقال - تعالى - :

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

وقوله : ﴿ يثنون ﴾ من الثنى بمعنى الطى والستر . يقال : ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة .

وثنى الصدور : إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة . والاستخفاء : محاولة الاختفاء عن الأعين ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم .. ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يستغشون ثيابهم .. ﴾ أى : يتدثرون ويتغطون بها ، مبالغة فى الاستخفاء عن الأعين . فالسين والتاء فيه للتأكيد ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ واستغشوا ثيابهم ... ﴾ أى : جعلوها كالغشاء عليهم .

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنه كان الرجل من الكفار

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٨ .

يدخل بيته ، ويرخى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله ما فى قلبى فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت فى المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبى - ﷺ - ثنى صدره . وتغشى بثوبه لئلا يراه .

وقيل : نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - ﷺ - المحبة ، ويضمر فى قلبه ما يضادها .. » [1] .

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة تصور تصويرا بديعا جهالات بعض الضالين بعلم الله - تعالى - المحيط بكل شىء ، كما تصور تصويرا دقيقا أوضاعهم الحسية حين يأوون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبى - ﷺ - .

والضمير المجرور فى قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - وعليه يكون المعنى ألا إن هؤلاء المشركين يلوون صدورهم عن الحق الذى جاءهم به نبيهم - ﷺ - توهما منهم أن فعلهم هذا يخفى على الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ - وعليه يكون المعنى :

ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء النبى - ﷺ - ويطأطئون رءوسهم عند رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحر بيانه .

ومع أن كلا القولين له وجاهته وله من سبب النزول ما يؤيده ، إلا أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يؤيد عودة الضمير إليه - سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .

وافتتحت الآية الكريمة بحرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ وجىء به مرة أخرى فى قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم .. ﴾ للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطماس بصيرة .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شىء من أحوالهم فقال : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بثيابهم ، يعلم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٨٥ .

الله - تعالى - ما يسرونه فى قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال ، لأنه - سبحانه - محيط بما تضمره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار .

وجملة ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليلية لتأكيد ما قبلها من علمه - سبحانه - بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور : الأسرار المستكنة فيها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى فى سبب نزول هذه الآية فقال : قال ابن عباس :

كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخارى من حديث ابن جريج .

وفى لفظ آخر له قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم .. » [١] .

وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم ، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن الآية مسوقه للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق ، وجهلوا صفات الله - تعالى - .

قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس : وتنزيل الآية على هذا القول بعيد جدا ، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة فى حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله ويذم بمقتضى سياق الآية » [٢] .

وإذاً فالذى يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات ، كون الآية فى ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله ، وشمول علمه فقال - تعالى - :

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٨٠ .

عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : الدابة اسم لكل حيوان ذى روح ، ذكرا كان أو أنثى . عاقلا أو غيره ، مأخوذ من الدبيب وهو فى الأصل المشى الخفيف .. واختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بها هنا المعنى اللغوى باتفاق المفسرين ... » [١] .

قال - تعالى - ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير ﴾[٢] .

والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذى به قوام حياتها .

والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ﴿ على الله ﴾ على متعلقه وهو ﴿ رزقها ﴾ لإفادة القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها .

وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى فى سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد فى استعمال كافة الوسائل المشروعة من أجل الحصول على ما يغنيهم ويسد حاجتهم .

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ،وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[٣] .

وجملة ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء فى هذا الكون .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢ .
(٢) سورة النور الآية ٤٥ .
(٣) سورة الملك الآية ١٥ .

والمستقر والمستودع : اسما مكان لمحل الاستقرار والإيداع للدابة فى هذا الكون ، سواء أكان ذلك فى الأصلاب أم فى الأرحام أم فى القبور أم فى غيرها .

قال الشوكانى : أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس فى قوله ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ قال : حيث تأوى . ومستودعها قال : حيث تموت .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها فى الأرحام ومستودعها حيث تموت .

قال : ويؤيد هذا التفسير الذى ذهب اليه ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى - ﷺ - قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتيحت له اليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى »[1] .

وقوله : ﴿ كل فى كتاب مبين ﴾ تذييل قصد به بيان دقة علمه - سبحانه - بعد بيان شمول هذا العلم وإحاطته بكل شىء .

والتنوين فى ﴿ كل ﴾ هو تنوين العوض ، أى : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ومستودعها مسجل فى كتاب مبين ، أى : فى كتاب واضح جلى ظاهر فى علم الله - سبحانه - ، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بعظيم قدرته فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ... ﴾ .

والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذى لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

أى : وهو - سبحانه - الذى أنشأ السموات والأرض وما بينهما ، على غير مثال سابق ، فى ستة أيام من أيامه - تعالى - ، التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو .

وقيل : أنشأهن فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - : كان الله قادرا على خلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة ، فخلقهن فى ستة أيام ، تعليما لعباده التثبت والتأنى فى الأمور .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٨٤ .

وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأرض فى يومين ، وخلق السموات فى يومين وخلق ما بينهما فى يومين ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ... ﴾[1] .

وجملة ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ اعتراضية بين قوله ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وبين ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ويجوز أن تكون حالية من فاعل خلق وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى - من الألفاظ التى لا يعلمها البشر إلا بالاسم . وقد جاء ذكر العرش فى القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة .

ونحن مكلفون بأن نؤمن بأن له - سبحانه - عرشا ، أما كيفيته فنفوض علمها إليه - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه قبل خلقهما ليس تحته شىء سوى الماء .

قالوا : وفى ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود السموات والأرض .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ بين - سبحانه - أن خلق العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء ...

ثم قال : وروى البخارى عن عمران بن حصين قال كنت عند النبى - ﷺ - إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقالوا : جئنا لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

قال : « إن الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء. ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شىء »[2] .

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : قال رسول الله - ﷺ - إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق

---

(١) سورة فصلت الآيات من ٩ - ١٢ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٨ .

السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء .

وروى الإمام أحمد عن لقيط بن عامر العقيلى قال : قلت يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك[١] .

والعماء : السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب مدبرا له ، وعاليا عليه . والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فوقه سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله – تعالى – شىء آخر .

وقوله – سبحانه – ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ جملة تعليلية . ويبلوكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .

أى : خلق ما خلق من السموات والأرض وما فيهما من كائنات ، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ، ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليتميز المحسن من المسىء ، والمطيع من العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، ويعاقب المسيئين والعاصين بما هم أهله من عقاب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت الى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو مقصود الله – تعالى – من عباده ، فخصهم بالذكر ، واطرح ذكر من وراءهم ، تشريفا لهم ، وتنبيها على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفا للسامعين ، وترغيبا فى حيازة فضلهم[٢] .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة ببيان موقف الكافرين من البعث والحساب فقال : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾.

أى ، ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين أرسلك الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم ﴿ إنكم مبعوثون ﴾ يوم القيامة ﴿ من بعد الموت ﴾ الذى سيدركم فى هذه الدنيا عند نهاية آجالكم ﴿ ليقولن ﴾ لك هؤلاء الكافرون على سبيل الآنكار والتهكم ما هذا الذى تقوله يا محمد ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أى : إلا سحر واضح جلى ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

وقرأ حمزة والكسائى وخلف ﴿ إلا ساحر مبين ﴾ فتكون الإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ إلى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٠ طبعة الشعب .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٠ .

الرسول - ﷺ - أى : أنه فى زعمهم يقول كلاما ليسحرهم به ، وليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين ، كما بين أحوال بعض الناس فى حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قال القرطبى ما ملخصه : الأمة : اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمة تكون الجماعة ، كقوله - تعالى - : ﴿ وجد عليه أمة من الناس ... ﴾ والأمة : أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام ، والأمة: الرجل الجامع للخير الذى يقتدى به ، كقوله - تعالى - ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ والأمة : الدين والملة ، كقوله - تعالى - : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ والأمة : الحين والزمان كقوله - تعالى - : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ والأمة : القامة وهو طول الانسان وارتفاعه ، يقال من ذلك : فلان حسن الأمة ، أى القامة ، والأمة : الرجل المنفرد بدينه وحده ، لا يشركه فيه أحد . قال - ﷺ - يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » والأمة : الأم . يقال : « هذه أمة زيد ، أى أم زيد... »[1] والمراد بالأمة هنا : الحين والزمان والمدة .

والمعنى : ولئن أخرنا - بفضلنا وكرمنا- عن هؤلاء المشركين « العذاب » المقتضى

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠ .

لجحودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسلنا « إلى أمة معدودة » أى : إلى وقت معين من الزمان على حساب إرادتنا وحكمتنا : « ليقولن » على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، « ما يحبسه » أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد - ﷺ - محبوسا عنا ، وغير نازل بنا...

ولاشك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والطغيان ، حيث قابلوا رحمة الله - تعالى - المتمثلة هنا فى تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن يصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به وإعراضهم عمن حذرهم منه .

واللام فى قوله ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب ﴾ موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله « ليقولن ما يحبسه » .

والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلا ، كما حكى عنهم - سبحانه - فى الآية السابقة فى قوله : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

قال الآلوسى : والظاهر بأن المراد العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر وابن ابى حاتم عن قتادة قال : لما نزل ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ، ثم عادوا إلى أعمالهم السوء : فأنزل الله - تعالى - ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله - تعالى - قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية »[1] .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ إيماء إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة طويلة ، لأن ما يحصره العد : جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ، ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صناديدهم ، والأسر الذى أذل كبرياءهم .

وافتتحت جملة ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ﴾ بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ للاهتمام

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤ .

بمضمون الخبر ، وللإشارة الى تحقيقه ، وإدخال الروع فى قلوبهم .

وعبر بالماضى ﴿ حاق ﴾ مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى أنه آت لا ريب فيه ، عندما يأذن الله - تعالى - بذلك .

ثم بين - سبحانه - جانبا من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال - تعالى - ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منًّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور... ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء الآتى بعد ذلك فى قوله ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه -تعالى- استثنى منه قوله ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فثبت أن الانسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر .

الثانى : أن هذه الأية موافقة على هذا التقرير لقوله - سبحانه - : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات ... ﴾.

الثالث : أن مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز . قال ابن جريج فى تفسير هذه الآية : « يابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤوس قنوط »[1] .

وقيل المراد بالانسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .

والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا ، وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والغنى والأمان وما يشبه ذلك من ألوان النعم .

واليؤوس والكفور : صيغتا مبالغة للشخص الكثير اليأس ، والكفر ، والقنوط : الشديد الجحود لنعم الله - تعالى - يقال : يئس من الشىء ييأس ، إذا قنط منه .

والمعنى : ولئن منحنا الإنسان - بفضلنا وكرمنا - بعض نعمنا ، كالصحة والغنى والسلطان والأمان ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضى ذلك .

﴿ إنه ﴾ فى هذه الحالة ﴿ ليؤوس كفور ﴾ أى : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع اليه ما سلب منه أو مثله ، ولكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن .

قال الشوكانى : وفى التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٩٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

ينعم الله بها عليه : لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم »[١] .

وفى قوله « ثم نزعناها منه » إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه.

وجملة ﴿ إنه ليؤوس كفور ﴾ جواب القسم ، وأكدت بإن وباللام ، لقصد تحقيق مضمونها ، وأنه حقيقة ثابتة .

وهى تصوير بليغ صادق لما يعترى نفس هذا الانسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن ذاقها ، فهو - لقلة إيمانه وضعف ثقته بربه - قد فقد كل أمل فى عودة هذه النعمة إليه ، ولكأن هذه النعمة التى سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ثم بين - سبحانه - حالة هذا الانسان اليؤوس الكفور ، عندما تأتيه السراء بعد الضراء فقال : ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور ﴾ .

والنعماء : النعمة التى يظهر أثرها على صاحبها ، واختير لفظ النعماء لمقابلته للضراء .

والضراء : ما يصيب الإنسان من مصائب يظهر أثرها السىء عليه .

والمراد بالسيئات : الأضرار التى لحقته كالفقر والمرض .

والمعنى : ولئن أذقنا هذا الانسان اليؤوس الكفور ﴿ نعماء ﴾ بعد ضراء مسته كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل..

﴿ليقولن ذهب السيئات عنى ﴾ أى : ليقولن فى هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر ، وغرور وتكبر ، لقد ولت المصائب عنى الأدبار ، ولن تعود إلى .

وعبر - سبحانه - فى جانب الضراء بالمس ، للإشارة إلى أن الإصابة بها أخف مما تذوقه من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده فى كل الاحوال .

وجملة ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ جواب القسم .

أى : إنه لشديد الفرح والبطر بالنعمة : كثير التباهى والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه - سبحانه - .

وإنها - أيضا - لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى ، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يعتبر بتقلبات الأيام ، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة ، وهو بطر فخور إذا عادت إليه ، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مرذولة .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٨٥ .

وقوله : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات.. ﴾ استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند الرخاء .

أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله - تعالى - .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بذلك ﴿ لهم ﴾ من الله - تعالى - ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة تمسح ذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ منه - سبحانه - لهم . جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .

وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ثم بين - سبحانه - بعض أقوال المشركين ، التى كان النبى - ﷺ - يضيق بها صدره ، ويحزن منها نفسه ، فقال - تعالى - :

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا . وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية »[1] .

ولفظ ﴿ لعل ﴾ - كما يقول الآلوسى - للترجى ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم من توقع الشىء وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه - ﷺ - مما لا يليق بمقام النبوة ، لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته - ﷺ - عن كتم شىء أمر بتبليغه ... والمقصود بهذا الاسلوب هنا تحريضه - ﷺ - وتهييج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذ التوقع » .

و ﴿ تارك ﴾ اسم فاعل من الفعل ترك . و ﴿ ضائق ﴾ اسم فاعل من الفعل ضاق ، وهو معطوف على ﴿ تارك ﴾ .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٩٢ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ .

والمراد ببعض ما يوحى إليه - ﷺ - فى قوله -سبحانه - ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ : ما نزل عليه : من قرآن فيه استهزاء بآلهتهم ، وتسفيه لعقولهم التى استساغت أن تشرك مع الله - تعالى - فى عبادتها آلهة أخرى » .

والضمير المجرور فى قوله - سبحانه - ﴿ وضائق به صدرك ﴾ يعود الى البعض الموحى به ، وقيل يعود للتبليغ ، وقيل للتكذيب .

وجملة ﴿ أن يقولوا ﴾ فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .

والكنز : يطلق على المال الكثير المجموع بعضه إلى بعض سواء أكان فى بطن الأرض أم فى ظهرها ، ومرادهم بإنزاله هنا : أن ينزل على الرسول - ﷺ - من السماء مال كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم فى رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم من فقر وفاقة ..

والمعنى : ليس خافيا علينا - أيها الرسول الكريم - ما يفعله المشركون معك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب متعنتة يطلبونها منك ...

ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء مسالكهم القبيحة هذه، تارك تبليغ بعض ما يوحى اليك ، وهو ما يثير غضبهم ، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك ، وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء مال كثير تستغنى به وتغنى أتباعك ، وهلا كان معك ملك يصاحبك فى دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك . ويؤيدك فى تحصيل مقصودك ..

لا - أيها الرسول الكريم - لا تترك شيئا من تبليغ ما أمرك الله بتبليغه لهؤلاء المشركين ، ولا يضيق صدرك بأفعالهم الذميمة ، وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا الإنذار ، أما نحن فإلينا إيابهم ، وعلينا حسابهم .

وعبر - سبحانه - عن تأثر الرسول - ﷺ - من مواقفهم المتعنتة باسم الفاعل ﴿ ضائق ﴾ لا بالصفة المشبهة « ضيق » لمراعاة المقابل وهو قوله ﴿ تارك ﴾ ، وللإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - ﷺ - أحيانا ، وليس صفة ملازمة له ،لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .

وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار للرسول - ﷺ - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد فى الإساءة إليه - ﷺ - .

وقوله - سبحانه - ﴿والله على كل شىء وكيل﴾ تذييل قصد به زيادة تثبيته وتحريضه

على المضى فى تبليغ دعوته .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مبال بما يصدر عنهم من مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تعبر أكمل تعبير عن الفترة الحرجة التى نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت فى الفترة التى أعقبت وفاة النصيرين الكبيرين للرسول - ﷺ - وهما أبو طالب وخديجة - رضى الله عنها - وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول - ﷺ - حيث تكاثر فيها إيذاء المشركين له ولأصحابه ..

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة تحث النبى - ﷺ - على الثبات والصبر ، وعلى تبليغ ما يوحى اليه ، مع عدم المبالاة بما يضعه المشركون فى طرقه من عقبات ..

هذا ، وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة - أيضا - أن من العلماء من يرى أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معى -أيها القارىء الكريم - فى أنه لا يوجد أى دليل نقلى أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى تؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن الآية مكية كبقية السورة .

وهناك آيات أخرى مكية تشبه هذه الآية فى أسلوبها وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ... ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة ، وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا القرآن المفترى فى زعمهم ، فقال - تعالى - :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(١) سورة الفرقان الآيتان ٨،٧ .

و ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد جرما ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم ، واخترعته من عند نفسك .

وقوله : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ... ﴾ أمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويكبت نفوسهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر كما تزعمون من أنى قد افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم وبشر مثلكم فهاتوا أنتم عشر سور مختلقات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به فى حسن النظم ، وبراعة الأسلوب ، وحكمة المعنى ، وادعوا لمعاونتكم فى بلوغ هذا الامر كل من تتوسمون فيه المعاونة غير الله - تعالى - لأنه هو - سبحانه - القادر على أن يأتى بمثله .

وجواب الشرط فى قوله - سبحانه - ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف دل عليه ما تقدم . أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - قد تحدى المشركين تارة بأن يأتوا بمثله كما فى سورتى الإسراء والطور . ففى سورة الإسراء يقول - سبحانه - ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] وفى سورة الطور يقول - سبحانه - ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[2] .

وتارة تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما فى هذه السورة ، وتارة تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما فى سورتى البقرة ويونس ، ففى سورة البقرة ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله... ﴾[3] وفى سورة يونس يقول - سبحانه - : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[4] . وقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم فى فصاحتهم ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو

---

(١) الآية ٨٨ .
(٢) الآية ٣٤ .
(٣) الآية ٢٣ .
(٤) الآية ٣٨ .

فهل أنتم مسلمون ﴾ إرشاد لهؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو كانوا يعقلون ، إذ الخطاب موجه اليهم لعلهم يثوبون إلى الرشد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين تحديتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن ، وأبحت لهم أن يستعينوا فى ذلك بمن شاءوا من البشر ، قل لهم : فإن لم يستجب لدعوتكم من استعنتم بهم فى الإتيان بعشر سور من مثل القرآن .. وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الناس أن هذا القرآن ﴿ أنزل بعلم الله ﴾ وحده ، وبقدرته وحدها . ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا - أيضا - أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ - سبحانه - فهو الإله الحق ، الذى تعنو له الوجوه ، وتخضع له القلوب ، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .

﴿ فهل أنتم ﴾ أيها المشركون بعد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن هذا القرآن من عنده ﴿ مسلمون ﴾ أى : داخلون فى الإسلام ، متبعون لما جاءكم به الرسول - ﷺ - .

والمراد بالعلم فى قوله ﴿ فاعلموا أنما أنزل ... ﴾ : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن هذا القرآن ما أنزل إلا ملابسا لعلم الله - تعالى - المحيط بكل شىء .

والفاء فى قوله ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود به الحض على الفعل وعدم تأخيره .

أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق ما جاءكم به نبينا محمد - ﷺ - تشكون فى أن الإسلام هو الدين الحق؟ إن الشك فى ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول فى الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .

ويرى بعض العلماء أن الخطاب فى هذه الآية موجه إلى النبى - ﷺ - والمسلمين ، أو إليه وحده - ﷺ - وعلى سبيل التعظيم وعليه يكون المعنى :

« فإن لم يستجب لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتموهم به ﴿ فاعلموا ﴾ أى فازدادوا علما ويقينا وثباتا ، بأن هذا القرآن « إنما أنزل بعلم الله » الذى لا يعزب عنه شىء ، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو - سبحانه - مستحق للعبادة والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك ﴿ مسلمون ﴾ أى ثابتون على الإسلام ، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه .

ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل

بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق الآيات السابقة فى شأنهم فلأن يكون الخطاب لهم هنا أولى .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين لا يريدون بأقوالهم وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أى : من كان يريد بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر ، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية ، بدون التفات إلى مايقربه من ثواب الآخرة .

من كانوا يريدون ذلك ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ أى: نوصل إليهم - بإرادتنا ومشيئتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا .

والتعبير بكان فى قوله ﴿ من كان يريد ... ﴾ يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم ، بدون تطلع إلى خير الآخرة .

وعدى الفعل ﴿ نوف ﴾ بإلى ، مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمينه معنى نوصل .

وقوله - سبحانه - ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما سبقه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده فى دنياهم .

والبخس : نقص الحق ظلما . يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه ونقصه .

أى : وهم فى هذه الدنيا لا ينقصون شيئا من نتائج جهودهم وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهودا لا إخلاص معها ولا إيمان .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة فى الدنيا وبقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة فى الآخرة .

﴿ وحبط ما صنعوا فيها ﴾ أى : وفسد ما صنعوه فى الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله - تعالى - وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس ...

وقوله ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أى : وباطل فى نفسه ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب فى الآخرة لأن الأعمال بالنيات ، ونيات هؤلاء المرائين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، وإنما كانت متجهة اتجاها كليا إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[2] .

هذا ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان فى شأن الكفار ومن على شاكلتهم من الضالة كاليهود والنصارى والمنافقين ... لأن قوله - تعالى - ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ... ﴾ لا يليق إلا بهم .

والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على شاكلتهم تناولا أوليا ، ولكن هذا لا يمنع من أنهما يندرج تحت وعيدهما كل من قصد بأقواله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبذ كل معانى الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ومما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من الرياء ، وتوعدت مقترفه بأشد أنواع العقوبات ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » - أى رائحتها -[3] .

وصفوة القول : أن الآيتين الكريمتين تسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، هى أن الله - تعالى - لا ينقص الناس شيئا من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهرها الصلاح ، إن كان المقصود بها الحياة الدنيا وزينتها

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠ .
(٢) سورة الإسراء الآيات من ١٧ - ٢٠ .
(٣) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووى من باب « تحريم الرياء » ص ٦١٩ .

وجدوا نتائجها وثمارها فى الدنيا فحسب .

وإن كان المقصود بها رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثمارها ونتائجها الحسنة يوم القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم فى الدنيا من طيبات .

وذلك لأن العمل للحياة الأخرى - فى شريعة الإسلام - لا يحول بين العمل النافع فى الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئا من آثاره وثماره ، بل إنه يزكيه وينميه ويباركه .. ورحم الله القائل : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفِّى ثوابها فإن كان مسلما مخلصا وُفِّى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفى ثوابها فى الدنيا .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، أتبع ذلك بيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيما يفعلون ويتركون فقال - تعالى - :

أَفَمَن كَانَ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قال صاحب المنار ما ملخصه : البينة ما تبين به الحق من كل شىء بحسبه كالبرهان فى العقليات والنصوص فى النقليات ، والخوارق فى الإلهيات ، والتجارب فى الحسيات ، والشهادات فى القضائيات ، والاستقراء فى إثبات الكليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن كل نبى منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءهم ببينة من ربهم ، كما ترى فى قصصهم فى هذه السورة وفي غيرها ... »[1] .

وقوله : ﴿ ويتلوه ... ﴾ من التلو بمعنى الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان تابعا له ومقتفيا أثره . والمراد به هنا : التأييد والتقوية .

وللمفسرين أقوال متعددة فى المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ وبقوله - سبحانه - ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٥٠ .

وفى مرجع الضمائر فى قوله « ربه - ويتلوه - ومنه » ...

وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب أن يكون المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ الرسول - ﷺ - وأتباعه المؤمنون .

وبقوله تعالى - ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ليكون معجزة له شاهدة بصدقه .

والضمير فى قوله من ربه يعود إلى النبى - ﷺ - وفى قوله ﴿ ويتلوه ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، وفى قوله ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - .

وعلى هذا القول يكون المعنى: أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه تهديه الى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ويؤيده ويقويه فى دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر البشر..

أفمن كان هذا شأنه كمن ليس كذلك ؟

أو أفمن كان هذا شأنه كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا وزينتها ؟ كلا إنهما لا يستويان .

وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول - ﷺ - فى دعوته ، تتجلى فى إعجازه ، فقد تحدى النبى - ﷺ - أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وإنما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الذى يتسق مع ما يفيده ظاهر الآية الكريمة ، ولأننا عندما نقرأ هذه السورة الكريمة وغيرها ، نجد الرسل الكرام كثيرا ما يؤكدون لأقوامهم - أنهم - أى الرسل على بينة من ربهم .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ .

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ ياقوم أرأيتم إن كنت على بنية من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ... ﴾ .

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا .. ﴾

وهكذا نجد كل نبى يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة من ربه وما دام الأمر كذلك فسيدنا رسول الله - ﷺ - هو أفضل من جاء قومه على بينة من ربه ، والمؤمنون به - ﷺ - يقتدون به فى ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم . وبالشاهد إعجازه وبالموصول مؤمنو أهل الكتاب وأن الضميرين فى قوله « ويتلوه - ومنه » يعودان إلى القرآن الكريم وإعجازه .

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ويؤيده ويقويه - أى القرآن - شاهد منه على كونه من عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ : أصل البينة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا .. والتنوين فيها للتعظيم ، أى : بينة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو البرهان جاء الضمير الراجع إليها فى قوله ﴿ ويتلوه ﴾ مذكرا وقوله ﴿ ويتلوه ﴾ أى يتبعه ﴿ شاهد ﴾ عظيم يشهد بكونه من عند الله وهو إعجازه .. » .

ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له ، أنه وصف له لا ينفك عنه .. وكذا الضمير فى « منه » - يعود إلى القرآن - وهو متعلق بمحذوف وقع صفته لشاهد ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه .. »[1] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالبينة القرآن الكريم - أيضا - ويرى أن المراد بالشاهد جبريل - عليه السلام - وأن قوله - سبحانه - ﴿ ويتلوه ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة لا من التّلوِ بمعنى الاتباع .

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ويتلو هذا القرآن على الرسول - ﷺ - شاهد من الله - تعالى - هو جبريل - عليه السلام - .

فالضمير فى ﴿ ويتلوه ﴾ على هذا الرأى يعود الى جبريل - عليه السلام - وفى « منه » يعود على الله تعالى - .

وهناك أقوال أخرى فى تفسير الآية الكريمة رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لضعفها[2] .

وقوله ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ﴾ دليل آخر على صدق النبى - ﷺ - فى دعوته . وهو معطوف على شاهد والضمير فى قوله ﴿ ومن قبله ... ﴾ يعود على شاهد -أيضا - .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٥ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٥ .

وقوله ﴿ إماما ورحمة ﴾ منصوبان على الحالية من قوله ﴿ كتاب ﴾ .

والمعنى ومن قبل هذا الشاهد على صدق الرسول - ﷺ - وهو القرآن الكريم أنزل الله - تعالى - على موسى كتابه التواره مشتملا على صفات الرسول - ﷺ - و ﴿ إماما ﴾ يؤتم به فى أمور الدين والدنيا ورحمة لبنى اسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا تعاليمه .

قال الشوكانى : وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه - أى الشاهد بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى .

وهى شهادة كتاب موسى وهو التوراة أنه بشر بمحمد - ﷺ - وأخبر بأنه رسول من الله - تعالى -[1] .

واسم الإشاره فى قوله ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعود الى الموصوفين بأنهم على بينة من ربهم وهم النبى - ﷺ - وأتباعه المؤمنون الصادقون .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم يؤمنون بأن الاسلام هو الدين الحق وبأن رسول الله - ﷺ - رسول صدق وبأن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .

فالضمير فى قوله ﴿ به ﴾ يعود على كل ما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه ويدخل فى ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم .

وقوله : ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده ﴾ بيان لسوء عاقبة الكافرين بما جاء به الرسول - ﷺ - بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين به .

والأحزاب جمع حزب وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم لمحاربة الرسول - ﷺ - ودعوته .

أى : ومن يكفر بهذا القرآن وبما جاء به الرسول - ﷺ - من هدايات فإن نار جهنم هى المكان الذى ينتظره وينتظر كل متحزب ضد دعوته - ﷺ - .

وفى جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن إشعار بأن فيها مالا يحيط به الوصف من ألوان العذاب الذى يجعله لا يموت فيها ولا يحيا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يؤدى إلى اليقين بأن ما جاء به الرسول - ﷺ - هو الحق الذى لا يشو به باطل فقال - تعالى - : ﴿ فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٨٨ .

أى: فلا تك - أيها العاقل - فى شك من أن هذا القرآن من عند الله ومن أن ما جاء به الرسول - ﷺ - هو الصدق ، بل عليك أن تعتقد اعتقادا جازما فى صحة ذلك ، لأن ما جاء به - ﷺ - هو الحق الثابت من عند ربك و لكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك لا نطماس بصائرهم ، ولتقليدهم لآبائهم ، ولإيثارهم الغى على الرشد .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل وساقت حشودا من الأدلة الدالة على صدق الرسول - ﷺ - فى دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذى آمنوا به ، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بنار جهنم التى هى بئس القرار .

هذا ، وهذه الآية الكريمة هى من الآيات التى قيل بأنها مدنية ، وبمراجعتنا لتفسيرها لم نجد ما يؤيد ذلك ، بل الذى نراه أن السورة كلها مكية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى المقدمة .

ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا . وبين سوء مصيرهم كما بين حسن عاقبة المؤمنين وضرب مثلا لحال الفريقين فقال - تعالى - :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾
لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم فى تحصيلها ، وقد أبطل الله - تعالى - هذه الطريقة بقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... ﴾ إلى آخر الآية . ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول - ﷺ - ويقدحون فى معجزاته وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ... ﴾ .

ومنها أنهم كانوا يزعمون فى الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله ... »[1] .

وجمله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .... ﴾ معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفى ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .

وقوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ بيان لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جمع شهيد كشريف وأشراف . أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم - على الراجح - جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء والمؤمنين .

والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله - تعالى - يعرضون يوم الحساب ، على ربهم ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

﴿ ويقول الأشهاد ﴾ الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا الكذب على الله ﴿ هؤلاء ﴾ المجرمون هم ﴿ الذين كذبوا على ربهم ﴾ بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٠٣ طبعة عبد الرحمن محمد .

﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ الذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها ، فأوردوا أنفسهم المهالك » .

وجىء باسم الإشارة ﴿ هؤلاء ﴾ زيادة فى التشنيع عليهم ، وفى تمييزهم عن غيرهم وصدرت جملة ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ بأداة الاستفتاح ﴿ألا ﴾ لتأكيد الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى - بسبب افترائهم الكذب .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأشهاد ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله - ﷺ - يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - عز وجل - يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه - أى ستره وعفوه - ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾[1] .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل الاستئناف بعد أن قال الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من أفعالهم الشنيعة فقال : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ... ﴾

و ﴿ يصدون ﴾ من صد بمعنى صرف الغير عن الشىء ومنعه منه . يقال صد يصد صدودا وصدا .

و ﴿ سبيل الله ﴾ طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملة الإسلام .

﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أى يطلبون لها العوج ، يقال : بغيت لفلان كذا إذا طلبته له .

والعوج -بكسر العين - الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح وما يشبههما . أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى المحس .

والمعنى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٢٤٧ طبعة دار الشعب .

عن الحق بل يحاولون صرف غيرهم عنه ويطلبون لملة الإسلام العوج و يصفونها بذلك تنفيرا للناس منها ، وقوله عوجا مفعول ثان ليبغون ، أو حال من سبيل الله .

وقوله ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ بيان لعقيدتهم الباطلة فى شأن البعث والحساب .

أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

وكرر الضمير ﴿ هم ﴾ لتأكيد كفرهم وللإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم حتى لكأن كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .

ثم بين - سبحانه - أنه كان قادرا على تعذيبهم فى الدنيا قبل الآخرة ولكنه أخر عذابهم إملاء لهم فقال : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ... ﴾ .

وقوله : معجزين من الإعجاز بمعنى عدم المقدرة على الشىء .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم يكن - سبحانه - عاجزا عن إنزال العذاب الشديد بهم فى الدنيا . وما كان لهم من غيره من نصراء ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد ، يقال أعجزنى فلان أى : منعنى عن مرادى ...

والمقصود أن قوله ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ﴾ دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله : ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ دل على أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من عذابه . فجمع - سبحانه - بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم ، ووضح بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة »[1] .

وقوله : ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير العذاب عنهم فى الدنيا مضاعفة العذاب لهم فى الآخرة .

وقوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ تصوير بليغ لاستحواذ الشيطان عليهم .

أى أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذى جاءهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم - ﷺ - .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٠٦ .

فليس المراد نفى السماع والإبصار الحسيين عنهم وإنما المراد أنهم لا نطماس بصائرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب تعمدهم الكذب على الله ، ﴿ وضل عنهم ﴾ أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من اعتقادات باطلة وادعاءات فاسدة .

وقوله ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ زيادة فى تأكيد خسرانهم .

وكلمة ﴿ لا جرم ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع . وفى كل موضع جاءت متلوة بأن واسمها .

وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل : حق أو ثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل .

أى : وثبت كونهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس و« جرم » اسمها وما بعدها خبرها .

والمعنى . لا محالة ولاشك فى أنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

قال الجمل : والإخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب . ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فمعناه : خشع وخضع له . فقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إشارة الى جميع أعمال الجوارح . وقوله : ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ إشارة إلى أعمال القلوب وهى الخشوع والخضوع لله - تعالى - »[1] .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات التى ترضيه - سبحانه - واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخشعوا له أولئك الموصوفون بذلك هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلودا أبديا وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٨٩ .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ﴾ .

وقوله : ﴿ مثل الفريقين ... ﴾ أى : حالهم وصفتهم .

وأصل المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير والشبيه ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - أى الذى ورد فيه أولا .

ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس وعرض الغائب فى صورة الشاهد . فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب وأثبت فى النفوس .

والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .

أما الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم . لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون لكنهم لم ينتفعوا بذلك فصاروا كالفاقد لهما .

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم والسمع الواعى لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله وقدرته وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإسلام .

والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال وجهالة لعلهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم ، فيدخلون فى دين الإسلام وتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيمانا على إيمانهم .

والاستفهام فى قوله ﴿هل يستويان مثلا﴾ للإنكار والنفى، أى: هل يستوى فى الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما؟ كلا إنهما لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلا

وقوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ حض على التذكر والتدبر والتفكر .

أى : أتشكون فى عدم استواء الفريقين ؟ لا إن الشك فى عدم استوائهما لا يليق بعاقل وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما والدخول فى صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأخبتوا إلى ربهم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين وذكرت من أوصافهم أربعة

عشر وصفا أولها : افتراء الكذب ... وآخرها : الخسران فى الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود فى الجنة : ثم ضربت مثلا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات ..

وفى ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته وعن إعجاز القرآن الكريم وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ساقت السورة الكريمة بترتيب حكيم قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها فقد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوه بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم النبى - ﷺ - ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم وعنادهم يفيد تسلية النبى - ﷺ - وتخفيف ذلك على قلبه .

وثانيها : أنه - تعالى - يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا والخسارة فى الآخرة . وعاقبة أمر المحقين الى الدولة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين.

وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة النبى - ﷺ - لأنه كان أميا ، وما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفه بالوحى من الله - تعالى -[١] .

وقد بدأت السورة الكريمة قصصها بقصة نوح مع قومه ، وقد وردت هذه القصة فى سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة المؤمنون ، وسورة نوح ... إلا أنها وردت هنا بصورة أكثر تفصيلا من غيرها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٤٠ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وقوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... ﴾ جواب لقسم محذوف . أى والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة .

وافتتحت القصة بصيغة القسم لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم نوح بسبب كفرهم نزلوا منزلة المنكر لرسالته .

وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام : فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده »[1] .

وقوله : ﴿ إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله ... ﴾ بيان للوظيفة التى من أجلها أرسل الله - تعالى - نوحا إلى قومه .

قال الشوكانى : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة فى ﴿ إنى ﴾ على تقدير

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٢ .

حرف الجر أى : أرسلناه بأنى. أى : أرسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول . أى : أرسلناه قائلا لهم ﴿ إنى لكم نذير مبين ﴾[1] .

ونذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف ..

ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار ..

أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم يا قوم : إنى لكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات العذاب التى تتمثل فى عبادتكم لغير الله - تعالى - .

واقتصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله - تعالى - إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

وجملة ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ بدل من قوله ﴿ إنى لكم نذير مبين ﴾ أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله .

وقوله : ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ جملة تعليلية ، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم .

أى إنى أحذركم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب الأليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب .

ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ، جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليما أى مؤلما .

ثم حكى - سبحانه - مارد به قوم نوح عليه فقال : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ .

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وهو - كما يقول الآلوسى - : مأخوذ من قولهم فلان مليء بكذا : إذا كان قادرا عليه ... أو لأنهم متمالئون أى متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون ...

ووصفهم بالكفر ، لتسجيل ذلك عليهم من أول الأمر زيادة فى ذمهم .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤٩٣ .

أى : بعد هذا النصح الحكيم الذى وجهه نوح - عليه السلام - لقومه ، رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم ﴿ ما نراك ﴾ يا نوح إلا بشرا مثلنا ، أى : إلا إنسانا مثلنا ، ليست فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا ...

فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لاتجامع البشرية ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم ، حتى تتم فائدة التفاهم معه ، والاقتداء به فى أخلاقه وسلوكه .

وقد حكى القرآن قولهم هذا فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب بما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ... ﴾[1] .

ثم إنهم فى التعليل لعدم اتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك إلا بشر مثلنا : بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ ومرادهم بقولهم : ﴿ أراذلنا ﴾ أى فقراؤنا ومن لا وزن لهم فينا .

قال الجمل : ولفظ ﴿ أراذلنا ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه جمع الجمع فهو جمع أرذل - بضم الذال - جمع رذل - بسكونها - نحو كلب وأكلب وأكالب ...

ثانيهما : انه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر وأكابر .. والأرذل هو المرغوب عنه لرداءته »[2] .

ومرادهم بقولهم : ﴿ بادى الرأى ﴾ أى: أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشىء أولا وعليه تكون الياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها ويؤيده قراءة أبى عمرو « بادئ الرأى » .

أى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أقلنا شأنا وأحقرنا حالا من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، ولو تثبتوا وتفكروا ما اتبعوك ويصح أن يكون مرادهم بقولهم ﴿ بادى الرأى ﴾ أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا ، ويكون لفظ ﴿ بادى ﴾ من البدو بمعنى الظهور . يقال : بدا الشىء يبدو بدواً وبُدوءًا وبداء أى ظهر وعليه يكون المعنى : وما نراك اتبعك يانوح إلا الذين هم أهوننا أمرا ، ومع ذلك فإن اتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهى تدين بعقيدتنا .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٩١ .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾[١] .

قال صاحب الكشاف : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية لأنهم أى الملأ من قوم نوح - كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زال عنهم أن التقدم فى الدنيا - مع ترك الآخرة - لا يقرب أحدا من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا عن أن يجعله سببا فى الاختيار للنبوة والتأهيل لها ... »[٢] .

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعما جديدا فقالوا : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ .

والفضل : الزيادة فى الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الانسان عن غيره .

والمراد هنا : آثاره التى تدل عليه .

أى : أنت يا نوح لست إلا بشرا مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأنا ، وما نرى لك ولمتبعيك شيئا من الزيادة علينا لا فى العقل ولا فى غيره ، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون فى دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق فى نظرنا هو فى عبادة هذه الاصنام التى عبدها من قبلنا آباؤنا .

وهكذا نرى أن الملأ من قوم نوح - عليه السلام - قد عللوا كفرهم بما جاءهم به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولأتباعه عليهم ..

وهى كلها علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطماس بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح - عليه السلام - الذى حكاه القرآن فى قوله - تعالى - :

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ

(١) سورة الشعراء الآية ١١١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٥ .

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى..... ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الملأ الذين كفروا من قومه : ﴿ يا قوم ﴾ أى : يا أهلى وعشيرتى الذين يسرنى ما يسرهم ويؤلمنى ما يؤلمهم .

﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ أى : اخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربى ، بها يتبين الحق من الباطل .

﴿ وآتانى رحمة من عنده ﴾ أى : ومنحنى بفضله وإحسانه النبوة التى هى طريق الرحمة لمن آمن بها ، واتبع من اختاره الله لها . فالمراد بالرحمة هنا النبوة ﴿ فعميت عليكم ﴾ أى : فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استحب العمى على الهدى .

يقال : عُمِّى على فلان الأمر : أى أخفى عليه حتى صار بالنسبة اليه كالأعمى قال صاحب المنار : قرأ الجمهور فعميت - بالتخفيف - كخفيت وزنا ومعنى . قال -تعالى - ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالتشديد والبناء للمفعول ﴿ فعميت ﴾ أى : فحجبها عنكم جهلكم وغروركم ..

والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد أنواع الخفاء[1] .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ للإنكار والنفى .

أى : إذا كانت الهداية إلى الخير التى جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها ،

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٦٤ .

فهل استطيع أنا وأتباعى أن نجبركم إجبارا ، ونقسركم قسرا على الإيمان بى ، وعلى التصديق بنبوتى ، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها .

كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع و اختيار لا عن إكراه وإجبار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ فى القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناسق الفنى بين الألفاظ ، ومن أمثله ذلك قوله - تعالى - فى قصة نوح مع قومه ﴿ أنلزمكموها .... ﴾ فأنت تحس أن كلمة انلزمكموها تصور جو الإكراه ، بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق ، وشد بعضها الى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ، وهكذا يبدو لون من التناسق فى التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية[1] .

ثم وجه نوح - عليه السلام - نداء ثانيا إلى قومه زيادة فى التلطف معهم ، وطمعا فى إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ .

أى : لا أطلب منكم شيئا من المال فى مقابل تبليغ ما أمرنى ربى بتبليغه إليكم : لأن طلبى هذا قد يجعلكم تتوهمون أنى محب للمال ..

﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ - تعالى وحده ، فهو الذى يثيبنى على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفى هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله - تعالى - مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا ، لأنه جزاء على العمل الصالح .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ وجملة ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لا أسألكم عليه مالا ﴾ لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، إذ أن زهده فى مالهم يقتضى تمسكه بأتباعه المؤمنين .

الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا .

أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة ... وإنما يقيسهم بمقياس الإيمان و التقوى .

قال الآلوسى : والمروى عن ابن جريج أنهم قالوا له : يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء الأراذل - وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٥٤٢ .

وذلك كما قال زعماء قريش للنبى - ﷺ - فى شأن فقراء الصحابة : اطرد هؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك فإنا نستحى أن نجلس معهم فى مجلسك ... »[1] .

وجملة ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ تعليل لنفى طردهم .

أى : لن أطردهم عن مجلسى أبدا ، لأنهم قد آمنوا بى ، ولأن مصيرهم إلى الله - تعالى - ، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التى تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملأ الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب .

وقوله : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ استدراك مؤكد لمضمون ما قبله .

أى : لن اطردهم ، لأن ذلك ليس من حقى بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بمحاسبتهم ، ولكنى مع هذا البيان المنطقى الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الناس عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم ، وتتطاولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .

وحذف مفعول ﴿ تجهلون ﴾ للعلم به ، وللإشارة الى شدة جهلهم .

أى : تجهلون كل ما ينبغى ألا يجهله عاقل .

ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلهم يفيئون إلى رشدهم فقال : ﴿ ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون ﴾ .

أى : افترضوا يا قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فمن ذا الذى يحمينى ويجيرنى من عذاب الله ، لأنه - سبحانه - ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ، إن أكرم الناس عنده هو أتقاهم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عنده - سبحانه - منكم ، فكيف أطردهم ؟

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .

أى : أتصرون على جهلكم ؛ فلا تتذكرون أن لهم ربا ينصرهم إن طردتهم ؟ إنكم إن بقيتم على هذا الإصرار سيكون أمركم فرطا ، وستتعرضون للعذاب الأليم الذى يهلككم .

ثم أخذ نوح - عليه السلام - فى تفنيد شبهاتهم ، وفى دحض مفترياتهم ، وفى تعريفهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٣٥ .

بحقيقة أمره فقال : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك .. ﴾ .

والخزائن : جمع خزانة - بكسر الخاء - وهو المكان الذى يخزن فيه المال أو الطعام أو غيرهما خشية الضياع ، والمراد منها هنا : أنواع رزقه - سبحانه - التى يحتاج إليها عباده ، وأضيفت إليه - سبحانه - لاختصاصه بها . وملكيته لها .

أى : إنى لا أقول لكم إن النبوة التى وهبنى الله إياها ، تجعلنى أملك خزائن أرزاقه - سبحانه - فأصير بذلك من الأثرياء ، وأعطى من أشاء بغير حساب ...

كلا . إنى لا أملك شيئا من ذلك ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، أرسلنى لأخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وهذه الجملة الكريمة رد على قولهم السابق ! ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ .

وأيضا لا أقول لكم إنى أعلم الغيوب التى اختص الله بعلمها ، فأدعى قدرة ليست للبشر ، أو أزعم أن لى صلة بالله - تعالى - غير صلة النبوة - أو أدعى الحكم على قلوب الناس وعلى منزلتهم عند الله ، كما ادعيتم أنتم فقلتم ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ... ﴾ .

وأيضاً فإنى لا أقول لكم إنى ملك ، بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه ، وأشرب مما تشربون منه ، إلا أن الله - تعالى - اختصنى من بينكم بالنبوة ، والبشرية مقتض للنبوة وليست مانعا منها - كما تزعمون - حيث قلتم ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ .

ولم يكتف نوح - عليه السلام - بهذا الرد المبطل لدعاواهم الفاسدة ، بل أضاف إلى ذلك - كما حكى القرآن عنه - ﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ تزدرى ﴾ من الازدراء بمعنى التحقير والانتقاص ، يقال : ازدرى فلان فلانا إذا احتقره وعابه .

أى : أنا لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الله ، أو بأنى أعلم الغيب ، أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تنظرون إليهم نظر احتقار واستصغار : إنهم - كما تزعمون - ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا ﴾ يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، بل أقول لكم إنه - سبحانه - سيؤتيهم ذلك - إذا شاء - لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر - أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ؛ و ﴿ إنى إذًا لمن الظالمين ﴾ لنفسى ولغيرى إذا ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى .

قال البيضاوى ما ملخصه ، وأسند - سبحانه - الازدراء إلى الأعين فى قوله ﴿ تزدرى أعينكم ﴾ للمبالغة والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادئ الرؤية - أى بمجرد نظرهم إليهم - من غير روية بسبب ما عاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم ، دون تأمل فى معانيهم وكمالاتهم »[1]

وهذا الإسناد من باب المجاز العقلى ، لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة « فى نظر الناظر » فتكون الأعين سببا فى هذا الازدراء .

وأكد جملة ﴿ إنى إذا لمن الظالمين ﴾ بعدة مؤكدات ، تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتكذيبا لأولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين ، وزعموا أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزهقها ...

وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا - على عادة طبقتهم - إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم :

قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

أى : قال قوم نوح - عليه السلام - له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ... ﴾

أى : خاصمتنا ونازعتنا فأكثرت فى ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك ، والجدال : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله - كما يقول الآلوسى - من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجديل - أى الحبل المفتول - ، وجدلت البناء : أحكمته ، والأجدل :

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٤٦٧ .

الصقر المحكم البنية ، والمجدل - كمنبر القصر المحكم البناء ....

وسميت المنازعة فى الرأى جدالا ، لأن كل واحد من المتجادلين كأنما ، يفتل الآخر عن رأيه - أى بصرفه عنه - ...

وقيل : الأصل فى الجدال الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة - بفتح الجيم - أى : الأرض الصلبة »[1] .

ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجة سفاهة فى القول فقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

أى : لقد سئمنا مجادلتك لنا ومللناها ، فأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ، وكارهون لما تدعونا إليه .

وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه يشهر السيف إذا أعجزته الحجة ، ويعلن التحدى إذا يئس عن مواجهة الحق ...

ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولم يقعده عناد قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله ﴿ إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين ﴾ .

أى : إنما يأتيكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله - تعالى - وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه هو الذى يملكه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى : وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت مشيئته - سبحانه - إنزاله لكم ، لأنه - تعالى - لا يعجزه شىء .

ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدرة الله - تعالى - اعترافا آخر بشمول إرادته فقال : ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ﴾ .

والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للمنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .

يقال : نصحته ونصحت له ... أى : أرشدته إلى ما فيه صلاحه .

ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان نقى القلب طاهر السريرة . والناصح الخالص من كل شىء .

أى : إنى قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة ومع ذلك فإن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٤١ .

نصحى الدائم لن يفيدكم شيئا ، مادامت قلوبكم فى عمى عنه ، وأسماعكم فى صمم منه ، ونفوسكم على غير استعداد له .

وجواب الشرط فى قوله ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

وقوله ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ : زيادة تأكيد منه - عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .

أى : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء الذى تستحقونه .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالا سريعا بقارئها إلى الحديث عن مشركى مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله ، ووقفوا من نبيهم ﷺ - موقفا يشبه موقف قوم نوح منه - عليه السلام - فترد عليهم بقوله - تعالى - :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

وأم هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والإجرام : اكتساب الجرم وهو الشىء القبيح الذى يستحق فاعله العقاب .

يقال : أجرم فلان وجرم واجترم ، بمعنى اقترف الذنب الموجب للعقوبة وللمفسرين فى معنى هذه الآية اتجاهان :

الاتجاه الأول يرى أصحابه : أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه ، وأنها فى شأن مشركى مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله .

وعليه يكون المعنى . لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا

القرآن ، قل لهم : إن كنت قد افتريته - على سبيل الفرض - فعلى وحدى تقع عقوبة إجرامى وافترائى الكذب ، وأنا برىء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب .

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة ، وإنما هى من قصة نوح عليه السلام - وعليه يكون المعنى : بل أيقول قوم نوح إن نوحا - عليه السلام - قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبه إلى الله - تعالى - قل لهم إن كنت قد افتريته فعلى سوء عاقبة إجرامى وكذبى ، وأنا برىء مما تقترفونه من منكرات ، وما تكتسبونه من ذنوب .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أرجح ، لأن التعبير عن أفكارهم بيقولون ، وعن الرد عليهم بقل ، الدالين على الحال والاستقبال ، يقوى أن الآية الكريمة فى شأن مشركى مكة .

وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول ، ولم يذكر شيئا عن الاتجاه الثانى مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال ما ملخصه : يقول - تعالى - ذكره : أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك : افترى محمد هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح ، قل لهم : إن افتريته فتخرصته واختلقته فعلى إثمى فى افترائى ما افتريت على ربى دونكم .. وأنا برىء مما تذنبون وتأثمون فى حقى وحق ربكم ... »[1] .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من مجادلة قوم نوح له ، ومن تطاولهم عليه ، ومن تحديهم لدعوته ، كما حكت لنا رده عليهم بأسلوب حكيم ، جعلهم يعجزون عن مجابهته فماذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك ؟

* * *

لقد تابعت السورة الكريمة حديثها عن هذه القصة ، فبينت بعد ذلك قضاء الله العادل فى هؤلاء الظالمين ، حيث حكت لنا ما أوحاه الله إلى نوح - عليه السلام - فى شأنهم ، وما أمره بصنعه ... فقال - تعالى - :

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

(١) تفسير ابن جرير جـ١٢ ص ٢٠ .

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟
مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ معطوف على قوله ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا .. ﴾ .

أى : بعد أن لج قوم نوح فى طغيانهم ، وصموا آذانهم عن سماع دعوته .. أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ..

وقوله : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ تسلية له - عليه السلام - عما أصابه منهم من أذى .

والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالأمر ، إذا بلغه مايكرهه ويغمه ، والمبتئس : الكاره الحزين فى استكانة .

أى : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماديهم فى سفاهاتهم وطغيانهم ، فقد آن الأوان للانتقام منهم .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - فى هذه الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته وهى ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ فمنذ ذلك أوحى الله - تعالى - إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم »[1] .

وقوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... ﴾ معطوف على قوله .. ﴿ فلا تبتئس ... ﴾ .

والفلك : ما عظم من السفن ، ويستعمل هذا اللفظ للواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح - عليه السلام - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٢ طبعة دار الشعب .

والباء فى قوله ﴿ بأعيننا ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير اصنع .

أى : واصنع الفلك يا نوح ، حالة كونك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ نهى له عن المراجعة بشأنهم .

أى : ولا تخاطبنى يا نوح فى شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجونى فى رحمتهم أو فى دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .

وقوله - تعالى - ﴿ ويصنع الفلك ﴾ بيان لامتثال نوح لأمر ربه .

وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان فى الماضى : استحضارا لصورة الصنع ، حتى لكأن نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .

ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال : ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ... ﴾ .

والسخرية : الاستهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا استخف به وضحك منه .

أى : امتثل نوح لأمر ربه ، فطفق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها استهزأوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على سبيل التهكم به ، يا نوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء فى بعض الآثار .

وهنا يرد عليهم نوح بقوله : ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ .

أى قال نوح لهم : إن تسخروا منى ومن أتباعى اليوم لصنعنا السفينة ، وتستجهلوا منا هذا العمل ، فإنا سنسخر منكم فى الوقت القريب سخرية محققة فى مقابل سخريتكم الباطلة .

قال الإمام الرازى : وقوله ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فيه وجوه :

الأول : التقدير : إن تسخروا منا فى هذه الساعة فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة .

الثانى : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا .

الثالث : إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم ، واستجهالكم أقبح وأشد ، لأنكم لا تستجهلون

إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر ، والاغترار بظاهر الحال ، كما هو عادة الأطفال[١] .

ثم أضاف نوح - عليه السلام - إلى تهديدهم تهديدا آخر فقال : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

أى : فسوف تعلمون عما قريب ، من منا الذى سينزل عليه العذاب المخزى المهين فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة .

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت حكم الله الفاصل فى شأن قوم نوح - عليه السلام - بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق ، ولكنهم صموا آذانهم عنه فماذا كان من أمره وأمرهم بعد ذلك .

كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - أن يحمل فى السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى ، ثم نزل الطوفان ، وسارت السفينة بمن فيها ، وأغرق الله - تعالى - الظالمين ، وقد حكى - سبحانه - كل ذلك فقال - تعالى .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ
وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ
فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ
فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٢٤ .

مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

فقوله – سبحانه – ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... ﴾ بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح – عليه السلام – مع قومه .

و ﴿ حتى ﴾ هنا حرف غاية لقوله – تعالى – قبل ذلك ﴿ ويصنع الفلك .. الخ ﴾ .

والمراد بالأمر فى قوله – سبحانه – ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ... ﴾ حلول وقت نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا .. قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشىء على أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السفينة ، وللأرض بتفجير عيونها ، وللسماء بإنزال أمطارها ... قلنا احمل فيها ...

وجملة ، وفار التنور ، معطوفة على ﴿ جاء أمرنا ﴾ ، وكلمة ﴿ فار ﴾ من الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع القوى ، يقال فى الماء إذا غلا وارتفع ... ويقال فى النار إذا هاجت قال – تعالى – ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ﴾ ...

ومن المجاز : فار الغضب ، إذا اشتد ... »[1] .

وللمفسرين فى المراد بلفظ ﴿ التنور ﴾ أقوال منها : أن المراد به الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الكانون ...

ومنها أن المراد به وجه الأرض ...

ومنها : أن المراد به موضع اجتماع الماء فى السفينة ...

ومنها : أن المراد به طلوع الفجر من قولهم : تنور الفجر ...

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٧٥ .

ومنها : أن المراد به أعالى الأرض والمواضع المرتفعة فيها ..

وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ فار التنور ﴾ التمثيل بحضور العذاب ، كقولهم ، حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال[1] .

وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنور فى اللغة يطلق على الشىء الذى يخبز فيه ، وفورانه معناه : نبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفور الماء فى القدر عند الغليان ، ولعل ذلك كان علامة لنوح - عليه السلام - على اقتراب وقت الطوفان .

وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى التنور : « وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله ﴿ التنور ﴾ قول من قال : هو التنور الذى يخبز فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شىء منه بخلاف ذلك ، فيسلم لها .

وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بماخاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به .

أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه ... وفار التنور الذى جعلنا فورانه بالماء آية مجىء عذابنا .. احمل فيها - أى السفينة من كل زوجين اثنين .. »[2] .

وقال الإمام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال - فى معنى التنور .. ؟ .

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ، ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه ، فوجب حمل اللفظ عليه ...

ثم قال : والذى روى من أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة ، وقد وعد الله - تعالى - المؤمنين النجاة فلابد أن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين « فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة »[3] .

وجملة ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾ جواب إذا

ولفظ ﴿ زوجين ﴾ تثنية زوج ، والمراد به هنا الذكر والأنثى من كل نوع .

قراءة الجمهور : ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بدون تنوين للفظ كل ، وإضافته إلى زوجين .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٢٥ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٢٦ .

وقرأ حفص : ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بتنوين لفظ كل وهو تنوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى .

ويكون لفظ ﴿ زوجين ﴾ مفعولا لقوله ﴿ احمل ﴾ واثنين صفة له .

والمراد بأهله : أهل بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما فى قوله - ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ... ﴾[1] .

والمراد بأهله : من كان مؤمنا منهم .

وجملة ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ استثناء من الأهل .

أى : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التى جاء ذكرها فى سورة التحريم فى قوله - تعالى ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما .. ﴾ وابنه الذى أبى أن يركب معه السفينة .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى (واعلة) بالعين المهملة ، وفى رواية (والقه) وابنه منها واسمه (كنعان) .. وكانا كافرين »[2] .

وجملة ﴿ ومن آمن ﴾ معطوفة على قوله ﴿ وأهلك ﴾ أى : واحمل معك من آمن بك من قومك .

والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة، حتى إذا ما تم صنعها، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لنوح : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكر أو أنثى ، واحمل فيها أيضا من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به فقال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٩ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٥٠ .

أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم قرونا متطاولة يدعوهم إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قال الآلوسى بعد أن ساق أقوالا فى عدد من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه : ... والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم ... » [1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ .

ومجريها ومرساها ، قرأهما الجمهور بضم الميمين فيهما ، وهما مصدران من جرى وأرسى . والباء فى ﴿ باسم الله ﴾ للملابسة ، والآية الكريمة معطوفة على جملة ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

أى : قلنا له ذلك فامتثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلموا أمركم لمشيئة الله - تعالى - وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها فى هذا الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساءها فى المكان الذى يريد الله - تعالى - إرساءها فيه .

قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل ﴿ اركبوا ﴾ بفى ، جريا على الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك فيعدى بفى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ، فلا يقال : ركب السفينة ؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقى والركوب المشابه له ، وهى تفرقة حسنة » [2] .

وجملة ﴿ إن ربى لغفور رحيم ﴾ تعليل للأمر بالركوب المصاحب لذكر الله - تعالى - :

أى : إن ربى لعظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعا له مخلصا فى عبادته .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول الله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة ﴿ اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها .. ﴾ .

وقال - سبحانه - فى موضع آخر : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين﴾ .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب فى السفينة وعلى الدابة .

فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - قال : «أمان أمتى من الغرق إذا

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٥٠ .

(٢) تفسير سورة هود ص ٧٣ .

ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك .. بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم »[١] .

ثم بين - سبحانه - حال السفينة وهى تمخر بهم عباب الماء فقال :

﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ .

والموج : ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشىء يموج إذا اضطرب ومنه قوله - تعالى - ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . بم اتصل قوله - تعالى - ﴿ وهى تجرى بهم ﴾؟

قلت : اتصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل : فركبوا فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهى تجرى بهم . أى تجرى بهم وهم فيها فى موج كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة بالجبل فى تراكمها وارتفاعها .. »[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ تصوير لتلك اللحظة الرهيبة الحاسمة التى أبصر فيها نوح - عليه السلام - ابنه الكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين .

والمعزل : مكان العزلة ، أى : الانفراد .

أى : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كنعان ، وكان هذا الابن فى مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة يا بنى اركب معنا فى السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيلفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه ، لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور ، بل رد على أبيه : ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ... ﴾ .

أى : قال : سألتجئ إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكى أتحصن به من وصول الماء إلى .

وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .. ﴾ .

أى : قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه - سبحانه - بلطفه وإحسانه ، وأما الجبال وأما الحصون .. وأما غيرهما من وسائل النجاة ، فسيعلوها الطوفان ، ولن تغنى عن المحتمى بها شيئا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٥٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٠ .

وعبر عن العذاب بأمر الله ، تهويلا لشأنه .

وقوله : ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى آل إليها أمر الابن الكافر .

أى : وحال وفصل الموج بهديره وسرعته بين الابن وأبيه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين الكافرين المغرقين .

والتعبير بقوله : ﴿ وحال ... ﴾ يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداده ، حتى لكأن هذه السرعة لم تمهلهما ليكملا حديثهما .

والتعبير بقوله : ﴿ فكان من المغرقين ﴾ يشير إلى أنه لم يغرق وحده ، وإنما غرق هو وغرق معه كل من كان على شاكلته فى الكفر .

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة مادار بين نوح وابنه من محاورات فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التى يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم .

وبعد أن غرق الكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين ، وجه الله - تعالى - أمره إلى الأرض وإلى السماء .. فقال : ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

أى : وبعد أن أدى الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله - تعالى - الكافرين ، قال الله - تعالى - للأرض : ﴿ يا أرض ابلعى ماءك ﴾ .

أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ، وابتلعيه بسرعة فى باطنك كما يبتلع الإنسان طعامه فى بطنه بدون استقرار فى الفم .

وقال - سبحانه - للسماء ﴿ ويا سماء أقلعى ﴾ أى : أمسكى عن إرسال المطر يقال : أقلع فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله . ويقال : أقلعت الحمى عن فلان ، إذا تركته .

فامتثلتا - أى الأرض والسماء - لأمر الله - تعالى - فى الحال ، فهو القائل وقوله الحق : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

وقوله ﴿ وغيض الماء ﴾ أى : نقص ونضب . يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل ونقص .

---

(١) سورة يس الآية ٨٢ .

والمراد به هنا : الماء الذى نشأ عن الطرفان .

وقوله : ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى : تم ونفذ ما وعد الله - تعالى - به نبيه نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للقوم الظالمين .

والضمير فى قوله : ﴿ واستوت على الجودى ﴾ للسفينة ، والجودى ، جبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام .

أى : واستقرت السفينة التى تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : مر النبى - ﷺ - بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا الصوم ؟ قالوا ، هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى . فصامه نوح وموسى - عليه السلام - شكرا لله .

فقال النبى - ﷺ - « أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم » . فصامه ، وقال لأصحابه : من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه » [1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : وقيل بعدا للقوم الظالمين .

أى : هلاكا وسحقا وطردا من رحمة الله - تعالى - للقوم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .

قال الجمل : ﴿ وبعدا ﴾ مصدر بعد - بكسر العين - ، يقال بعد بعدا - بضم فسكون - وبعداً - بفتحتين - إذا بعد بعدا بعيدا بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء ، وهو منصوب على المصدر بفعل مقدر . أى : وقيل بعدًا بعدا ... » [2] .

هذا وقد تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة فى هذه الآية كلاما طويلا ، نكتفى بذكر جانب مما قاله فى ذلك الشيخ القاسمى فى تفسيره .

قال - رحمه الله - ما ملخصه : « هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان بإبراز ذلك ، ومن أوسعهم مجالا فى مضمار معارفها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٠٠ .

الإمام « السكاكى » فقد أطال وأطنب فى كتابه « المفتاح » فى الحديث عنها .

فقد قال - عليه الرحمة - فى بحث البلاغة والفصاحة :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فأذكر لك على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها من وجوهها ما عسى أن يكون مستورا عنك ، وهذه الآية هى قوله - تعالى - ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ... ﴾ .

والنظر فى هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعانى ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان .. فتقول : إنه - عز سلطانه - لما أراد أن يبين معنى هو : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض لما أراد ذلك : بنى الكلام على التشبيه ، بأن شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه أن يعصى أمره .. وكأنهما عقلاء مميزون فقال : ﴿ يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ... ﴾

ثم قال : ﴿ ماءك ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك .

ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع الذى هو ترك الفاعل للفعل .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ... فذلك أنه اختير ﴿ يا ﴾ دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال ... واختير لفظ « ابلعى » على « ابتلعى » لكونه أخصر . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى . نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة .

ولا تظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت [١] .

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٤٦ وتفسير المنار جـ ١٢ ص ٩٠ .

ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الضراعة التى تضرع بها نوح - عليه السلام - بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذى رد به الخالق - عز وجل - على نوح - عليه السلام ، وبتعقيب على القصة يدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه قال - تعالى - :

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ
وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

والمراد بالنداء فى قوله - سبحانه - : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾.. الدعاء والضراعة إلى الله - تعالى -

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها .

أى : وبعد أن تخلف ابن نوح عليه السلام عن الركوب معه فى السفينة ، وقضى الأمر بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .. تضرع نوح - عليه السلام - إلى ربه فقال فى استعطاف ورجاء :

يارب ! إن إبنى « كنعان » ﴿ من أهلى ﴾ فهو قطعة منى ، فأسألك أن ترحمه برحمتك ﴿ إن وعدك الحق ﴾ أى : وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق وأنت - ياربى - قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابنى وفى رحمتك له .

وقوله : ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ أى : وأنت يا إلهى - لا راد لما تحكم به ، ولا معقب لحكمك ، وحكمك هو الحق والعدل ، وهو المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه صادر عن كمال العلم والحكمة .

واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول : ﴿ رب إن ابنى من أهلى . وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله - تعالى - وحياء منه - سبحانه - واعتقاداً منه بأنه - سبحانه - عليم بما يريده ،وخبير بما يجول فى نفسه .

وهذا لون من الأدب السامى ، سلكه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم لربهم - عز وجل - ومن أولى منهم بذلك ؟!!

ولعل نوحا - عليه السلام - عندما تضرع إلى ربه - سبحانه - بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن طلب الرحمة أو النجاة لابنه الكافر ممنوع ، فكان حاله فى ذلك كحال النبى - ﷺ - عندما قال لعمه أبى طالب : « لأستغفرن لك مالم أنه عن ذلك » واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله - تعالى - ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى .. ﴾[1] .

وقال الشيخ القاسمى : وإنما قال نوح ذلك - أى : رب إن ابنى من أهلى .. ألخ - لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل - لفرط التأسف على ابنه - عن استثنائه - تعالى - بقوله : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده)[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك .. ﴾ رد من الله - تعالى - على نوح فيما طلبه منه .

أى : قال الله - تعالى - مجيبا لنوح - عليه السلام - فيما سأله إياه : يا نوح إن ابنك

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة التوبة جـ ٦ ص ٣١ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٤٨ .

هذا ﴿ ليس من أهلك ﴾ لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره .

فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه ، لخلوه عن الدليل .

قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلا أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زنية .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت أمرأة نبى قط ، ثم قال : وقوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أى : الذين وعدتك بنجاتهم .

وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه ؛ فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن امرأة نبى من الفاحشة[1] .

وجملة ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ تعليل لنفى الأهلية .

وقد قرأ الجمهور (عمل) بفتح الميم وتنوين اللام - على أنه مصدر مبالغة فى ذمه حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام إنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمداومته عليه .

وقرأ الكسائى ويعقوب ﴿ عمل ﴾ بوزن فرح بصيغة الفعل الماضى - أى : إنه عمل عملا غير صالح وهو الكفر والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك فى دينك ومعتقدك من الأباعد فى المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك)[2] .

وقال الفخر الرازى : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين ، لا جرم نفاه الله - تعالى - بأبلغ الألفاظ وهو : قوله : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٩ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٣ .

والفاء فى قوله : ﴿ فلا تسألن ماليس لك به علم .. ﴾ للتفريع .

أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتمسا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير صواب ، بل عليك أن تتثبت من صحة ما تطلبه ، قبل أن تقدم على طلبه .

وجملة ﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال فى المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .

أى : إنى أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

وهنا بين الله - تعالى - أن نوحا - عليه السلام - قد تنبه إلى ما أرشده إليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه - سبحانه - فقال : ﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم .. ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - ملتمسا الصفح من ربه : رب إنى أستجير بك ، وأحتمى بجنابك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولائق ﴿ وإلا تغفر لى ﴾ ما فرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .

﴿ وترحمنى ﴾ برحمتك الواسعة التى وسعت كل شىء .

﴿ أكن من الخاسرين ﴾ الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك . ثم بشر - سبحانه - نبيه نوحا - عليه السلام - بقبول توبته فقال : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .. ﴾ .

والسلام : التحية المقرونة بالأمان والاطمئنان ، وأصله السلامة ، والباء فيه للمصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركه أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركة لثبوت الماء فيها .

والأمم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .

أى : قال الله - تعالى - مبشرا نوحا - عليه السلام - بقبول توبته : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التى ستهبط معك ، بعد أن أنجاكم الله - تعالى -

بفضله ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك ..

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يا نوح اهبط بسلام .. ولكن جاء التعبير بقيل ، مسايرة للتعبيرات السابقة فى أجزاء القصة ، مثل قوله - سبحانه - ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك .. ﴾ وقوله : ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

وقوله ﴿ اهبط بسلام .. ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته ، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين ، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم .

والتعبير بقوله ﴿ منا ﴾ لزيادة التكريم ، وتأكيد السلام . أى : انزل بسلام ناشىء من عندنا ، وليس من عند غيرنا ؛ لأن كل سلام من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا .

وقوله ﴿ عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ متعلق بسلام وبركات .

وفى هذا إشارة إلى أنه - سبحانه - سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين ، أمما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله .

أى : أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منهم له منا السلام ، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح .

وقسم آخر سنمتعه فى الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها ، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا ، وعصيانه لرسلنا .

فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول ، وأن يتجنب القسم الثانى .

ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة ، بقوله : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى ما قصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر الهام . والغيب : مصدر غاب ، وهو مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

أى : تلك القصة التى قصصناها عليك يا محمد بهذا الأسلوب الحكيم ، من أخبار الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا .

ونحن ﴿ نوحيها إليك ﴾ ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها ﴿ ما كنت تعلمها ﴾ أنت يا محمد ، وما كان يعلمها ﴿ قومك ﴾ أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب .

﴿ من قبل ﴾ هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فاصبر ﴾ صبرا جميلا على تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل .

وجملة ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ تعليل للأمر بالصبر .

والعاقبة : الحالة التى تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق فى حالة الخير كما فى قوله - تعالى - ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ . وأل فيها للجنس ، واللام فى قوله ﴿ للمتقين ﴾ للاختصاص .

أى : إن العاقبة الحسنة الطيبة فى الدنيا والآخرة ، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - ، وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى .

والآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصد به الامتنان على النبى - ﷺ - والموعظة ، والتسلية .

فالامتنان نراه فى قوله - تعالى - ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ .

والموعظة نراها فى قوله - سبحانه - ﴿ فاصبر ﴾ .

والتسلية نراها فى قوله - عز وجل - ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ .

وبعد ، فهذه قصة نوح - عليه السلام - كما وردت فى هذه السورة الكريمة ، ومن العبر والعظات والهدايات والحقائق التى نأخذها منها ما يأتى :

١ - الدلالة على صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، فقد أخبرنا عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وعن غيرها من القصص ، التى هى من أنباء الغيب ، والتى لا يعلم حقيقتها وتفاصيلها أحد سوى الله - عز وجل - .

٢ - أن نوحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله - تعالى - أحسن الأساليب وأحكمها ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده فى الليل وفى النهار . وفى السر وفى العلانية ، وأقام لهم ألوانا من الأدلة على صدقه ، ورغبهم فى الإيمان بشتى ألوان الترغيب ، وحذرهم من الكفر بشتى أنواع التحذير ، وصبر على أذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم

وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل به حججهم .. مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدى والتعنت .

وما أحوج الدعاة إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع قومه .

٣ - أن النسب مهما شرف وعظم لن ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح ليسا مرتبطين بالوراثة والأنساب لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك .. ﴾ : « وفى هذه الآية تسلية للآباء فى فساد أبنائهم وإن كان الآباء صالحين »، فقد روى أن ابنا لمالك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك فقال : « الأدب أدب الله ، لا أدب الأباء والأمهات ، والخير خير الله ، لاخير الآباء والأمهات .. »[1] .

٤ - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأله لابنه لم يكن - كما قال صاحب المنار معصية لله - تعالى - خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ فى اجتهاد رأى بنية صالحة .

وإنما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، هبطت بضعفه البشرى ، وما غرس فى الفطرة من الرحمة والرأفة بالأولاد إلى اتباع الظن ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فيقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم آنا بعد آن ، بما يصعدون به فى معارج العرفان »[2] .

٥ - إن القرآن فى إيراده للقصص والأخبار ، لا يهتم إلا بإبراز النافع المفيد منها ، أما ماعدا ذلك مما لا فائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث عنه .

فمثلا فى قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التى قضاها نوح فى صنع السفينة . ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها ، ولا لتفاصيل الأنواع التى حملها معه فى السفينة ، ولا لبيان الفترة التى عاشها نوح ومن معه فيها .

ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح بعد أن استوت السفينة على الجودى .. ولا لبيان

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٤٧ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٨٦ .

الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض .

وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التى لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل .

ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء ، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان .

وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فتوى فى هذا الشأن ، ملخصها كما يقول صاحب المنار : أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض .

وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا)[1] .

٦ - أن سنة الله - تعالى - فى خلقه لا تتخلف ولا تتبدل وهى أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار .

فلقد لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة مالقى من الأذى ... ولكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم .

ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو يتحدث عن هذا المعنى فقال ما ملخصه : « ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله - سبحانه - .

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما .

إن هذه الحفنة - وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء ... وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها .

وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم .

إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٠٨ .

إفراد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لا ينبغى له أن يقبس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى ، وهو عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : (أنى مغلوب فانتصر) .

إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية تملك قواها .. ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - ،وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب !! .

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملا ، ثم يتركوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ .

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عبادة ، فهم على هذا الانتظار مأجورون .. والعاقبة للمتقين »[1] .

ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، بعد حديثها عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

وَإِلَىٰ عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٨٥ للأستاذ سيد قطب .

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

تلك هى قصة هود – عليه السلام – مع قومه كما حكتها هذه السورة ، وقد وردت قصته معهم فى سور أخرى منها : سورة الأعراف ، والشعراء ، والأحقاف .

وينتهى نسب هود إلى نوح – عليهما السلام – فهو – كما قال بعض المؤرخين – : هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح)[1] .

وقومه هم قبيلة عاد – نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم – ، وكانت مساكنهم بالأحقاف – جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل – ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالى جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود – عليه السلام – يعبدون الأصنام ، فأرسله الله إليهم لهدايتهم .

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار .

ويقال إن هودا – عليه السلام – قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما زهاء مائة سنة .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ معطوف على قصة نوح التى سبق الحديث عنها .

أى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده ، أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ .

ووصفه – سبحانه – بأنه ﴿ أخاهم ﴾ لأنه من قبيلتهم فى النسب ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية وناداهم بقوله : ﴿ ياقوم ﴾ زيادة فى التلطف معهم ، استجلابا لقلوبهم ، وترضية لنفوسهم ، وجملة ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ فى معنى العلة لما قبله .

أى : أنا آمركم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة سواه ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى يحييكم ويميتكم .

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله : ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا شبهة لصاحبه فى النطق به .

أى : ما أنتم إلا متعمدون للكذب فى جعلكم الألوهية لغير الله – تعالى – .

ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا فى مقابل دعوته إياهم إلى الحق فقال : ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى ... ﴾ .

وفطرنى : أى خلقنى وأبدعنى على غير مثال سابق ، يقال : فطر الأمر . أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر : الشق ، ثم استعمل فى الخلق والإنشاء مجازا .

والمعنى : ويا قوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله الذى خلقنى بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء .

ومقصده من هذا القول ، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك فى نفوسهم ، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجعله موسرا فيهم ..

والهمزة فى قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ للاستفهام الإنكارى ، وهى داخلة على محذوف .

أى : أتجهلون ما هو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله – تعالى – رب العالمين ورازقهم .

ثم أرشدهم إلى ما يؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والأشر

فقال : ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ .

والاستغفار : طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المؤاخذة على الخطايا :

والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ما حصل منه فى الماضى .

أى : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح .

وثم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك : مقدم على طلب المغفرة .

وجملة ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ جواب الأمر فى قوله ﴿ استغفروا ﴾ .

والمراد بالسماء هنا السحاب أو المطر ، تسمية للشىء باسم مصدره .

ومدرارا : مأخوذ من الدر أى : سيلان اللبن وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير يقال : درت السماء بالمطر تدر وتدر درا ... إذا كثر نزول المطر منها .

وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .

والمعنى : أن هودا - عليه السلام - قال لقومه يا قوم اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه .. فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم المطر غزيرا متتابعا فى أوقات حاجتكم إليه ؛ لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم .

وجملة ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ معطوفة على ما قبلها .

أى : وأيضا إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزا إلى عزكم ، وشدة إلى شدتكم التى عرفتم بها ، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة .

قال الآلوسى : « رغبهم - عليه السلام - بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة بالتناسل ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٧٣ .

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ والتولى : هو الإعراض عن الشيء بإصرار وعناد .

أى : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من إجرام وجحود وعناد .

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضح لقومه دعوته ، ورغبهم فى الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وناداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات ، توددا إليهم ، وتذكيرا لهم بآصرة القرابة التى تجمعهم وإياه . لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

ولكن قوم هود - عليه السلام - قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة .. ﴾ .

والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل . أى : قالوا له يا هود إنك لم تجئنا بحجة تقنعنا بأنك على الحق فيما تدعو إليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ﴾ .

أى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل : اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .

ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم بقولهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أى : بمستجيبين لك ومصدقين .

ثم أضافوا إلى إصرارهم هذا استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ... » .

ومعنى اعتراك : أصابك ومسك . يقال عراه الأمر واعتراه أى أصابه ، وأصله من قولهم : عراه يعروه ، أى : غشيه وأصابه . ومنه قول الشاعر :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... أى : تصيبنى .

أى : ما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين ، بل عليك أن تيأس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك : إن سبك لآلهتنا جعل بعضها - لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته نحوك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض .

ولم يقولوا : « اعتراك آلهتنا بسوء » بل قالوا : ﴿ بعض آلهتنا ﴾ تهديدا له وإشارة إلى

أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تدرجوا فيها من السىء إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقبح .. مما يدل على توغلهم فى الطغيان ،وبلوغهم النهاية فى العناد والكفر والجحود .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .. » .

أى : مسك بجنون لسبك إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء ، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين .

ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ،ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد .

وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا فى حجارة أنها تنتصر وتنتقم ... »[1] .

والآن وبعد أن استمع هود - عليه السلام - إلى ردودهم القبيحة ماذا كان موقفه منهم ؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم والمعتمد على الله - تعالى - وحده فى الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :

﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾ .

أى : قال هود - عليه السلام - للطغاة من قومه بعزة وثقة ﴿ إنى أشهد الله ﴾ الذى لا رب سواه على براءتى من عبادتكم لغيره .

﴿ واشهدوا ﴾ أنتم أيضا على ﴿ أنى برىء مما تشركون من دونه ﴾ .

أى : على براءتى من كل عبادة تعبدونها لغير الله - تعالى - لأنها عبادة باطلة . يحتقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

فأنت تراه فى هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم ، وبراءته من شركهم ،وإستخفافه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٥ .

بأصنامهم التى زعموا أن بعضها قد أصابه بسوء ، ويوثق هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم .

وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله وأشهدك على أنى فعلت بك كذا وكذا ، وقلت فى حقك كذا وكذا ... فافعل أنت ما بدا لك !!

ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول : ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ .

أى : لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنى برىء من شرككم ، وهاأنذا فى مواجهتكم ، فانضموا إلى آلهتكم ،وحاربونى بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إمهال ، فإنى لن أكف عن الجهر بدعوتى ، ولن أتراجع عن احتقار الباطل الذى أنتم عليه .

وهذا - كما يقول صاحب الكشاف - من أعظم الآيات ، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه ،وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم ..[1] .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذى دعاه إلى البراءة من شركهم ، وإلى عدم المبالاة بهم فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إنى توكلت على الله ربى وربكم ... ﴾ .

أى : إنى فوضت أمرى إلى الله الذى هو ربى وربكم ، ومالك أمرى وأمركم ، والذى لا يقع فى هذا الكون شىء الا بإرادته ومشيئته .

وفى قوله : ﴿ ربى وربكم ﴾ مواجهة لهم بالحقيقة التى ينكرونها ، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له ، وأنه إنكار عن جحود وعناد .. فهو - سبحانه - ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ تصوير بديع لشمول قدرته - سبحانه - والأخذ : هو التناول للشىء عن طريق الغلبة والقهر .

والناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .

قال الإمام الرازى : واعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان . أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون ..[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٣ .

والمعنى : إنى اعتمدت على الله ربى وربكم : ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا والله - تعالى - مالكها وقاهر لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه .

وفى هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم هود وشدتهم . وصلابة أجسامهم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم .. فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : إنكم مهما بلغتم من القوة والبطش ، فما أنتم الا دواب من تلك الدواب التى يأخذ ربى بناصيتها . ويقهرها بقوته قهراً يهلكها - إذا شاء ذلك - فكيف أخشى دوابا مثلكم مع توكلى على الله ربى وربكم ؟!

ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله - تعالى - بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول : ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾ .

أى : إن ربى قد اقتضت سنته أن يسلك فى أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لأنه - حاشاه - أن يسلط من كان متمسكا بالباطل ، على من كان متمسكا بالحق .

واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للإشارة إلى أن لطفه - سبحانه - يشمل هودا وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

ثم ختم هود - عليه السلام - رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ... ﴾ .

أى : فإن تتولوا عن دعوتى ، وتعرضوا عن الحق الذى جئتكم به من عند ربى ، فتكون عاقبتكم خسرا ، وأمركم فرطا .

أما أنا فقد أديت واجبى ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربى بدون تكاسل أو تقصير . وقوله ﴿ ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ﴾ وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .

أى : وهو - سبحانه - سيهلككم بسبب إصراركم على كفركم فى الوقت الذى يشاؤه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم، يرثون دياركم وأموالكم، ولن تضروا الله شيئا من الضرر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للدمار فى الدنيا ، وللعذاب الدائم فى الآخرة .

وقوله : ﴿ إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾ أى : إن ربى قائم على كل شىء بالحفظ والرقابة والهيمنة ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أن يحفظ رسله وأولياءه ، وأن يخذل أعداءه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا بأسلوب بليغ حكيم، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فماذا كانت نتيجة هذا الحوار والجدال؟

لقد كانت نتيجته إنجاء هود والذين آمنوا معه، وإهلاك أعدائهم.

قال - تعالى - ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا، ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾.

والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه - ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ الأمر بنزول العذاب بهم.

أى: وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا فى قوم هود، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم ﴿ نجينا هودا والذين آمنوا معه ﴾ تنجية مصحوبة ﴿ برحمة ﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

﴿ ونجيناهم ﴾ كذلك ﴿ من عذاب غليظ ﴾ أى: من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

ووصف العذاب بأنه غليظ، بهذا التصوير المحسوس، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة فى الأجسام، ومن تفاخر بالقوة.

قال - تعالى - ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ... ﴾[1].

وكان عذابهم كما جاء فى آيات أخرى بالريح العقيم، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .. ﴾.

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ وتلك عاد ... ﴾ يعود إلى القبيلة أو إلى آثارهم التى خلفوها من بعدهم. أى: وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها هود - عليه السلام - وتلك هى عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة.

وقوله: ﴿ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .. ﴾ بيان لجرائمهم التى استحقوا بسببها العذاب الغليظ.

والجحد: الإنكار الشديد للحق الواضح.

(١) سورة فصلت الآية ١٥.

وآيات ربهم : الحجج والبراهين التى جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة على صدقهم .

والجبار : هو الشخص المتعالى المتعاظم على الناس ، المترفع عن الاستجابة للحق .

والعنيد : المعاند الطاغى الذى يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .

أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تفكر أو تدبر .

وقال - سبحانه - ﴿ وعصوا رسله ﴾ مع أنهم قد عصوا رسولا واحدا هو هود - عليه السلام - ، للإشارة إلى أى معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسل جميعا ، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى : عبادة الله - تعالى - وحده ، والتقيد بأوامره ونواهيه .

والإشارة أيضا إلى ضخامة جرائمهم ، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلا لا رسولا .

وقد وصفهم - سبحانه - فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح والشناعة : أولها : جحودهم لآيات ربهم . وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعهم أمر رؤسائهم الطغاة .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله : ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾.

والإتْباع : اقتفاء أثر الشىء بحيث لا يفوته . يقال : أتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره لكى يدركه أو يسير على نهجه .

واللعنة : الطرد بإهانة وتحقير .

أى : أنهم هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرد من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ تسجيل لحقيقة حالهم ، ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيد لسخط الله عليهم .

أى : ألا إن قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى .

وتكرير حرف التنبيه « ألا » وإعادة لفظ « عاد » للمبالغة فى تهويل حالهم وللحض على الاعتبار والاتعاظ بمآلهم .

هذا ، ومن العبر البارزة فى هذه القصة :

١ - أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر المدعوين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، ويرغبهم فى اتباع الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم .

وأن الانحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم .

انظر إلى قول هود - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾ .

٢ - وأن الداعى إلى الله - تعالى - عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - فى تبليغ رسالته ، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد .

فإنه فى هذه الحالة سيقف فى وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم .. لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر فى قصة هود عليه السلام .

ألا تراه وهو رجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين ، يدلون بقوتهم ويقولون فى زهو وغرور : من أشد منا قوة .

ومع كل ذلك عندما يتطاولون على عقيدته ؛ ويراهم قد أصروا على عصيانه .

يواجههم بقوله : ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون .. ﴾ .

أرأيت كيف واجه هود - عليه السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق الذى يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو تهديدهم .. ؟

وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب .. يجعل الإنسان يجهر به دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى - .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى -

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ
ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

هذه قصة صالح – عليه السلام – مع قومه كما ذكرتها هذه السورة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الأعراف ، والشعراء ، والنمل ، والقمر .

وصالح – عليه السلام – ينتهى نسبه إلى نوح – عليه السلام – فهو صالح بن عبيد بن آسف بن ما سح بن عبيد بن حاذر بن ثمود .. بن نوح .

وثمود : اسم للقبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها ثمود ،وقيل سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وموقعه الآن - تقريبا - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم .

وقبيلة صالح من القبائل العربية ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام فقد قال - سبحانه - : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا .. ﴾[1] .

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - اليهم صالحاً ليأمرهم بعبادة الله وحده .

وقوله : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ معطوف على ما قبله من قصتى نوح وهود - عليهما السلام -

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدرة الله - تعالى - وبنعمه عليهم فقال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ .

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشىء على غير مثال سابق .

واستعمركم من الإعمار ضد الخراب فالسين والتاء للمبالغة . يقال : أعمر فلان فلانا فى المكان واستعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع .

أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى ابتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم المعمرين لها ، والساكنين فيها ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتا ... ﴾ .

قال - تعالى - فى شأنهم .. ﴿ أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ﴾[2] .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد ذكرهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضاله عليهم ، لكى يستميلهم إلى التفكر والتدبر ، وإلى تصديقه فيما يدعوهم إليه .

والفاء فى قوله ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ للتفريع على ما تقدم .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء الآيات من ١٤٦ - ١٥٠ .

أى : إذا كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فعليكم أن تخلصوا له العبادة ، وأن تطلبوا مغفرته عما سلف منكم من ذنوب .

ثم تتوبوا إليه توبة صادقة : تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر ، وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .

ثم فتح أمامهم باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾ .

أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب الدعاء الداعين المخلصين ، فاقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله .

ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا رجلا فاضلا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك .. قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك ، وصرت فى رأينا رجلا مختل التفكير .

فالإشارة فى قوله ﴿ قبل هذا ﴾ إلى الكلام الذى خاطبهم به حين بعثه الله إليهم .

والاستفهام فى قولهم ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ للتعجيب والإنكار .

أى : أجئتنا بدعوتك الجديدة لتنهانا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا من قبلنا ؟

لا ، إننا لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإننا على آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بقولهم : ﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .

أى : لن نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، وإننا لفى شك كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه .

فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل ، ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم فيقول :

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ .

أى قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى .

﴿ وآتانى منه رحمة ﴾ أى : وأعطانى من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارنى لحمل رسالته . وتبليغ دعوته .

وجملة ﴿ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ﴾ جواب الشرط وهو قوله ﴿ إن كنت على بينة ﴾ .

أى : إذا كان الله - تعالى - قد منحنى كل هذه النعم ، وأمرنى بأن أبلغكم دعوته فمن ذا الذى يجيرنى ويعصمنى من غضبه ، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت فى تبليغ دعوته ، احتفاظا برجائكم فى ، ومسايرة لكم فى باطلكم ؟

لا ، إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .

والتخسير : مصدر خسر ، يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران . أى : فما تزيدوننى بطاعتكم ومعصية ربى غير الوقوع فى الخسران ، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - تعالى - ، ومن ثبات على دعوته ومن حرص على طاعته - سبحانه -

ثم أرشد صالح - عليه السلام - إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال :

﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية .. ﴾ أى : معجزة ، واضحة دالة على صدقى وفى إضافة الناقة إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتشريف لحالها ، وتنبيه على أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التى تستعمل فى الركوب والنحر وغيرهما . لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها .

وقد ذكر بعض المفسرين من صفات هذه الناقة وخصائصها . مالا يؤيده نقل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ، ونكتفى بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة مميزة ، تجعل قوم صالح يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق نبيهم - عليه السلام - فيما يدعوهم إليه .

وقوله : ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره .

أى : اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله الواسعة ؛ ومن رزقه الذى تكفل به لكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بشىء من السوء مهما كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب .

والتعبير بقوله ﴿ فيأخذكم ﴾ بفاء التعقيب وبلفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحذيره ، بل قابلوه بالطغيان والعصبان ، ﴿ فعقروها ﴾ أى : فعقروا الناقة ﴿ وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾[1] .

والفاء معطوفة على محذوف : أى فخالفوا ما نهاهم عنه نبيهم فعقروها أى نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر لأن ناحر البعير يعقله ثم ينحره فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقرها ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ .

والتمتع : الانتفاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج إليه الإنسان فى هذه الحياة من مأكل ومشرب وغيرهما .

والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التى يعيشون فيها .

أى : قال لهم نبيهم بعد نحرهم للناقة : عيشوا فى بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام : فقط ، فهى آخر ما بقى لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .

﴿ ذلك ﴾ الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .

﴿ وعد غير مكذوب ﴾ فيه لأنه صادر من الله - تعالى - الذى لا يخلف وعده .

وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .

قال الجمل : « ومكذوب » يجوز أن يكون مصدرًا على وزن مفعول ، وقد جاء منه ألفاظ نحو : المجلود والمعقول والمنشور والمغبون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه وفيه تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعًا مستترًا فى الصفة ومثله : يوم مشهود . والثانى : أنه جعل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به ، وإذا وفى به فقد صدق »[2] .

ولقد تحقق ما توعدهم به نبيهم ، فقد حل بهم العذاب فى الوقت الذى حدده لهم ، قال

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٨ .

- تعالى - ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى : فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم فى الوقت المحدد .

﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أى برحمة عظيمة كائنة منا .

ونجيناهم أيضًا ﴿ من خزى يومئذ ﴾ أى : من خزى وذل ذلك اليوم الهائل الشديد الذى نزل فيه العذاب بالظالمين من قوم صالح - عليه السلام - فأبادهم .

فالتنوين فى قوله ﴿ يومئذ ﴾ عوض عن المضاف إليه المحذوف .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - وللمؤمنين عما أصابهم من أذى .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوى الذى لا يعجزه شىء ، العزيز الذى لا يهون من يتولاه ويرعاه ، فلا تبتئس عما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله بالظالمين السابقين من أمثالهم .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويرا يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدًا لثمود ﴾ .

والصيحة : الصوت المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : انصاح الخشب والثوب ، إذا انشق فسمع له صوت .

و ﴿ جاثمين ﴾: من الجثوم وهو للناس وللطير بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم .. إذا وقع على صدره ، ولزم مكانه فلم يبرحه .

ويغنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان يغنى إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - عن طريق الصيحة الشديدة التى صيحت بهم بأمر الله - تعالى - ﴿ فأصبحوا ﴾ بسببها ﴿ فى ديارهم جاثمين ﴾ أى : هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ...

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : كأن هؤلاء القوم الظالمين لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلاً وهم فى رخاء من عيشهم .

﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ أى : ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحودها ؛ ألا بعدًا وسحقًا وهلاكًا لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .

وفى تكرار حرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ وتكرار لفظ ﴿ ثمود ﴾ تأكيد لطردهم من رحمة الله ،

وتسجيل لما ارتكبوه من منكرات .

وبذلك انطوت صفحة أولئك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما انطوت من قبلهم صحائف قوم نوح وهود - عليهما السلام - .

ومن أبرز العبر والعظات التى نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت فى هذه السورة الكريمة : أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا انتكست ، تعجب مما لا عجب فيه ؛ وتستنكر ما هو حق وصدق ، وتسىء ظنها بالشخص الذى كان بالأمس القريب موضع رجائها وثقتها ، لأنه أتاهم بما لم يألفوه ... حتى ولو كان ما أتاهم به فيه سعادتهم وهدايتهم ...

فصالح - عليه السلام - كان مرجوا فى قومه قبل أن يكون نبيًا ، فلما صار نبيًا وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملهم فيه ، وساء ظنهم به ، وجاهروه بالعداوة والعصيان ... مع أنه أتاهم بما يسعدهم ...

وصدق الله إذ يقول : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[1] .

هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - ﷺ - قد مر على ديار ثمود وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله - ﷺ - بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى .

ثم ساقت السورة الكريمة جانبًا من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة ، الذين جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟
سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ .

قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

هذه قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، وبإخباره بإهلاك قوم لوط - عليه السلام - .

وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الحجر فى قوله - تعالى - : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا ، قال إنا منكم وجلون ... ﴾[1] .

ومنها سورة الذاريات فى قوله - تعالى - ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا ، قال سلام قوم منكرون ... ﴾[2] .

والمراد بالرسل فى قوله - سبحانه - ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ جماعة من الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .

وقد اختلفت الروايات فى عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل . وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى أنهم كانوا أحد عشر ملكًا ..

والحق أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله - تعالى - .

---

(١) الآيات من ٥١ إلى ٦٠ .
(٢) الآيات من ٢٤ إلى ٣٧ .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيد للاهتمام بمضمونها ، وللرد على مشركى قريش وغيرهم ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله - سبحانه - ﴿ بالبشرى ﴾ للمصاحبة والملابسة ، أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : ﴿ قالوا سلامًا قال سلام ﴾ حكاية لتحيتهم له ولرده عليهم .

﴿ وسلاما ﴾ منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاما .

﴿ وسلام ﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .

وقرأ حمزة والكسائى : قال سلم وهو اسم للمسالمة .

ثم بين - سبحانه - ما فعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم فقال : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ .

و « ما » فى قوله ﴿ فما لبث ﴾ نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث فى المكان معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .

والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض . يقال : حنذ الشاة يحنذها حنذًا أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل بمجرد أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ ...

وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف ..

قال أبو حيان : والأقرب فى إعراب ﴿ فما لبث أن جاء ... ﴾ أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ و ﴿ أن جاء ﴾ فاعل لبث والتقدير ؛ فما تأخر مجيئه ...

ويجوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف الجر ، أى فما تأخر فى أن جاء بعجل حنيذ ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : ﴿ فلما

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ٢٤١ طبعة دار الفكر ببيروت .

رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... ﴾ .

ومعنى ﴿ نكرهم ﴾ : نفر منهم ، وكره تصرفهم . نقول : فلان نكر حال فلان - كعلم - وأنكره نكرًا ونكورًا ... إذا وجده على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .

﴿ وأوجس ﴾ من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف والفزع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفًا ورعبًا ؛ لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع - يشعر بأن هذا الضيف ينوى شرًا به ... والتقاليد فى كثير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .

ولذا قالت الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

أى : لا تخف يا إبراهيم فإنا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى - أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

وقد جاء فى بعض الآيات أنه صارحهم بالخوف منهم ، ففى سورة الحجر قال - تعالى - : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ... ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك فقال : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

والمراد بامرأته - كما يقول القرطبى - « سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن أرغو ، ابن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم »[1] .

وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف ... أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاجها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا حقيقته . أى : فضحكت سرورًا وابتهاجًا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا ...

قال الشوكانى : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب والسرور كما قاله الجمهور .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٠ .

وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لآتى العرس عند طهورها وأهجرها يومًا إذا تك ضاحكا

وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت[1] .

أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ... كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك « ضحكت » سرورًا وفرحًا لزوال خوفه ﴿ فبشرناها ﴾ عقب ذلك بمولودها ﴿ إسحاق ﴾ كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله ﴿ يعقوب ﴾ ، فهى بشارة مضاعفة . إذ أنها تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها ...

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ﴿ ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا إن هذا لشىء عجيب ﴾ .

وكلمة ﴿ ياويلتا ﴾ تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه .

والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهى كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له ، ويتعجبن منه .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل، ﴿ وهذا بعلى ﴾ أى : زوجى إبراهيم « شيخا » كبيرًا متقدمًا فى السن .

قال الجمل : وهاتان الجملتان - ﴿ وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ﴾ - فى محل النصب على الحال من الضمير المستتر فى ﴿ أألد ﴾ ، وشيخًا حال من بعلى ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل »[2] .

وقوله - كما حكى القرآن عنها - ﴿ إن هذا لشىء عجيب ﴾ أى : إن هذا الذى بشرتمونى به من حصول الولد لى فى تلك السن المتقدمة ﴿ لشىء عجيب ﴾ فى مجرى العادة عند النساء وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ ؟!!

أى : أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة ؟ لا إنه لا ينبغى لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله لا يعجزها شىء . فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥١٠ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١١ .

وقوله : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ حكاية لما قالته الملائكة لها ، زيادة فى سرورها وفى إدخال الطمأنينة على قلبها .

أى رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب .

وإلى ذلك أشارت الملائكة فى قولهم ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ .

أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب . والكلام مستأنف علل به إنكار التعجب . كأنه قيل : « إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنه حميد مجيد ﴾ تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

أى إنه - سبحانه - ﴿ حميد ﴾ أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده ﴿ مجيد ﴾ أى : كريم واسع الإحسان ، فليس بعيدًا منه أن يعطى الولد للآباء بعد الكبر .

قال صاحب المنار ما ملخصه : وأصل المجد فى اللغة أن تقع الإبل فى أرض واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال : مجدت الإبل تمجد من باب نصر - مجدًا ومجادة ، وأمجدها الراعى .

والمجد فى البيوت والأنساب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نوالهم .

ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ، وسعة كرمه وفضله على عباده ... »[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن إلى ضيوفه فقال : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ أى : الخوف والفزع ، بسبب اطمئنانه إلى ضيوفه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر .

﴿ وجاءته البشرى ﴾ منهم بالولد ، واتصال النسل ، فازداد سرورا بهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨١ .
(٢) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٣٠ .

بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾ أى : يجادل رسلنا ويحاورهم فى شأن قوم لوط ، وفى كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاكهم .

وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فمجادلة إبراهيم لهم هى مجادلة فى تنفيذ أمره - تعالى - .

وقال - سبحانه - ﴿ يجادلنا ﴾ مع أنها كانت فى الماضى ، لتصوير هذه الحالة فى الذهن تصويرًا حاضرًا ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .

وهذه المجادلة التى كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، قد حكاها - سبحانه - فى سورة العنكبوت فى قوله : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ أى القرية التى يسكنها قوم لوط ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطًا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ الآيتان ٣١ - ٣٢ .

وهذا التفسير للمجادلة التى دارت بين إبراهيم والملائكة فى عقاب قوم لوط هو الصحيح لأن خير تفسير للقرآن هو ما كان بالقرآن .

وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى النقل الصحيح .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ بيان للدواعى التى حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة فى شأن إهلاك قوم لوط .

والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان .

والأواه : هو الذى يكثر التأوه من خشية الله .

قال الآلوسى : وأصل التأوه قوله : آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يا رسول الله ما الآواه ؟ قال : « الخاشع المتضرع الكثير الدعاء »[1] .

والمنيب : السريع الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .

أى أن إبراهيم لصبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، كثير التضرع إلى الله ، سريع الرجوع إليه فى كل ما يحبه ويرضاه .

ولكن حلم إبراهيم وإنابته ... لم يرد قضاء الله العادل فى شأن قوم لوط ولذا قالت الملائكة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٣٥ .

له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ الجدال فى أمر قوم لوط، وفى طلب إمهال عقوبتهم ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ بإهلاكهم ﴿ وإنهم ﴾ بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش ﴿ آتيهم ﴾ من ربهم ﴿ عذاب ﴾ شديد ﴿ غير مردود ﴾ عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه ، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات وفوائد .

منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة - أيضًا - لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : ﴿ قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

ومنها : استحباب نزول المبشر - بالكسر - على المبشر - بالفتح - لأن الملائكة أرسلهم الله - تعالى - لذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله - تعالى - على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم ﴿ سلام ﴾ بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة ؛ أى فى خدمة أضياف إبراهيم ... وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه - ﷺ - من أهل بيته[1] :

ومنها : - كما يقول الإمام ابن كثير - استدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٦٧ .

إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح اسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه :[1]

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما دار بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حوار وجدال فقال - تعالى - :

وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ
وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٦ .

- تلك هى قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه ومع قومه المجرمين ، كما حكتها سورة هود .

- وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى وبأساليب متنوعة ، ومنها سورة الأعراف ، والحجر ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، والذاريات ، والقمر ..

قال الإمام ابن كثير : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، فهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل بلدة سدوم وما حولها يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن أحد من بنى آدم يعهده ولا يألفه ولا يخطر بباله ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهم قرية بوادى الأردن عليهم لعائن الله »[1] .

- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعترى لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ... ﴾ .

- أى : وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم ..

قال ابن كثير ما ملخصه : « يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم .. فأتوا لوطًا - عليه السلام - وهو على ما قيل فى أرض له . وقيل فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم ... »[2] .

- وقوله : ﴿ وضاق بهم ذرعًا ﴾ تصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .

قال القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعًا على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه القىء أى غلبه .

أى : ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٦ .

وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه ... »[١] .

- و ﴿ ذرعا ﴾ تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ : أى وقال لوط - عليه السلام - فى ضجر وألم : هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف ، يوم « عصيب » أى : شديد هوله وكربه .

وأصل العصب : الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها فى الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص له منه ضاق به ذرعًا . ثم يصدر تعبيرًا عن المعانى يريح به نفسه »[٢] .

- ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام - عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات ... ﴾ .

- ويهرعون - بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول - أى : يدفع بعضهم بعضًا بشدة ، كأن سائقًا يسوقهم إلى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .

يقال : هُرع الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فيهما - إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك .

قال الآلوسى : والعامة على قراءته مبنيًا للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون - بفتح الياء مع البناء للفاعل - من هرع - بفتح الهاء والراء - وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان ، كأن بعضه يدفع بعضًا[٣] .

أى : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضًا إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجىء ، كان هؤلاء القوم الفجرة ، يرتكبون السيئات الكثيرة ، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الغرض الذى جاءوا من أجله ، وأشار إليه بقوله : ﴿ ومن

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٤ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور جـ ١٢ ص ١٣٥ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٩٥ .

قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة ، فلا يسعون إلا من أجل قضائها .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ ...

والمراد بناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه ؛ لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ... ﴾ يرشدهم إلى نسائهم ، فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم فى آية أخرى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ ...

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبى أبو أمته ...

وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم ، هن بناته وهو أب لهم ...[1] .

ومنهم من يرى أن المراد بناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن ...

ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء فى بعض الروايات - وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرًا ، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج ..؟

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازى بأن قال ما ملخصه : « وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه . منها : أنه قال ﴿ هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل ..

ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ... »[2] .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التى ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : برجاء ورفق ﴿ ياقوم ﴾ هؤلاء نساؤكم اللائى بمنزلة بناتى ارجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم معهن فهن أطهر لكم نفسيًا وحسيًا من التلوث

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٣٢ .

برجس اللواط ، وأفعل التفضيل هنا وهو ﴿ أطهر ﴾ ليس على بابه ، بل هو للمبالغة فى الطهر .

قال القرطبى : وليس ألف أطهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن فى نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى كبير - ... ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه ... »[1] .

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادًا آخر فقال : ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ... ﴾ .

قال الجمل : ولفظ الضيف فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلًا إلى المضيف ، ولذا يقع على المفرد والمذكر وضديهما بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال : « أضياف وضيوف ... »[2] .

وتخزون : من الخزى وهو الإهانة والمذلة . يقال : خزى الرجل يخزى خزيًا ... إذا وقع فى بلية فذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدهم إلى نسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله . ولا تجعلونى مخزيًا مفضوحًا أمام ضيوفى بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطًا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله :

﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والرذيلة . فيقف إلى جانبى ، ويصرفكم عن ضيوفى ؟

ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الآسنة . ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يالوط علما لا شك معه ، أننا لا رغبة لنا فى النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٨٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١٣ .

قال الشوكانى : قوله ﴿ مالنا فى بناتك من حق ﴾ أى : مالنا فيهن من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء . ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا فى نكاحهن ... »[1] .

وقولهم : ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علمًا يقينيا الشيء الذى نريده فلماذا ترجعنا ؟!

وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور ..

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد اليائس من ارعوائهم عن غيهم ، المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم ... ﴿ قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره .

وآوى : أى ألجأ وأنضوى تقول : أويت إلى فلان فأنا آوى إليه أَوِيًّا أى : انضممت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص القوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به ...

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع والتحسر : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصًا قويًا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ...

قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك ؛ لأنه كان غريبًا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ أى : إنا رسل

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٥١٤ .

ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك يسوء فى نفسك أو فينا .

روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والكرب بسببهم قالوا له : يالوط إن ركنك لشديد ... ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - فى سورة القمر : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر ﴾ .

وقوله : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبًا بالمؤمنين من أهلك فى جزء من الليل يكفى لابتعادك عن هؤلاء المجرمين .

قال القرطبى : قرىء « فاسر وفأسر بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . قال - تعالى - ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وقال « سبحان الذى أسرى بعبده ... ﴾ وقيل « فأسر » بالقطع تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار ... »[1] .

وقوله : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ... ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ فأسر بأهلك ... ﴾ .

أى : فأسر بأهلك فى جزء من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، ﴿ إلا امرأتك ﴾ يالوط فاتركها ولا تأخذها معك لأنها كافرة خائنة ، ولأنها سيصيبها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين . فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله ﴿ إلا امرأتك ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك ...

وأما الذين رفعوا فالتقدير : ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم .

روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت واقوماه فأصابها حجر فأهلكها »[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٩ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٣٦ .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ بشارة أخرى للوط - عليه السلام - الذى تمنى النصرة على قومه .

أى : إن موعد هلاك هؤلاء المجرمين يبتدىء من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه ؟

قال - تعالى - فى سورة الحجر : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاؤه وقت الشروق .

والجملة الكريمة ﴿ إن موعدهم الصبح ... ﴾ كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدره من استعجاله العذاب لهؤلاء المجرمين .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ للتقرير أى : بلى إنه لقريب .

قال الآلوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له ؛ موعدهم الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا له ؛ أليس الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين[1] .

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ .

أى : « فلما أمرنا » بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين ؛ وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ...

وقوله : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ زيادة فى عقوبتهم ولعنهم .

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليها حجارة ﴿ من سجيل ﴾ أى : من حجر وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب ﴿ منضود ﴾ أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من النضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض .

﴿ مسومة عند ربك ﴾ أى : معلمة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو ، ومعدة إعدادًا خاصًا لإهلاك هؤلاء القوم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٠١ .

﴿ وما هى ﴾ أى تلك القرى المهلكة ﴿ من الظالمين ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ ببعيد ﴾ أى : ببعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .

قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعظوا ؟؟

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ﴿ وما هى ﴾ يعود إلى الحجارة التى أهلك الله بها هؤلاء القوم .

أى : وما هى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهيئة بقدرة الله - تعالى - لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، ولم يتبع ما جاء به الرسول - ﷺ - .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام -

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء فى الحديث الشريف بشأن لوط - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله - ﷺ - « رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد » إنما هو من باب الإنكار على لوط - عليه السلام - فى قوله ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطًا - عليه السلام - إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه - تعالى - إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ - ١٣٨ .

ولا جناح على لوط - عليه السلام - فى طلب قوة من الناس - فقد قال الله - تعالى - ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ .

وقد طلب رسول الله - ﷺ - من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرًا هو فعله ؟!!

تالله ما أنكر ذلك رسول الله - ﷺ - ، وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط علم بأنهم ملائكة ... ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب - عليه السلام - وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب بليغ حكيم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم قال - تعالى - :

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ
وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ
أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٧٢ .

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ
اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

تلك هى قصة شعيب - عليه السلام - كما حكتها هذه السورة الكريمة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها : سورتى الأعراف والشعراء ..

ومدين اسم للقبيلة التى تنتسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .

وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى (معان) وتقع بين حدود الحجاز والشام .

وأهل مدين يسمون أيضًا بأصحاب الأيكة .

والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية (معان) ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبًا إليهم جميعًا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم فى النسب .

وكان النبى - ﷺ - إذا ذكر شعيب قال : (ذلك خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه يعبدون الأصنام . ويطففون فى الكيل والميزان ... فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

ويرى بعض العلماء : أن شعيبًا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ؛ وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله - تعالى - لم يبعث نبيًا مرتين سوى شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة ، فأهل مدين هم أصحاب الأيكة ، أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أى السحابة - وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ... ﴾ معطوف على ما سبقه من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحًا - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبًا - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم ، وهو الذى إليه مرجعكم ...

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان فقال : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ .

والمكيال والميزان : اسمان للآلة التى يكال بها ويوزن .

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - ﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ... ﴾ .

ثم بين لهم الأسباب التى دعته إلى أمرهم ونهيهم فقال : ﴿ إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويغنيه ويسره .

ومحيط : أى شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف ...

أى : أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون فى رغد من العيش ، وفى بسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله - تعالى - وأن يستعملها استعمالاً يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإنى - أيضًا - أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى مخالفة ما آمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها ...

قال الشوكانى : وصف - سبحانه - اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن العذاب واقع فى اليوم ، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لا يشذ منهم أحد عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا »[1] .

فأنت ترى أن شعيبًا - عليه السلام - بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم .. ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعًا لعذرهم حتى لا يقولوا له نحن فى حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ما حمله على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥١٨ .

النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب فى دعوته فقال : ﴿ وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ ..

أى : وياقوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم العدل والقسط .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ... ﴾ أى : ولا تنقصوهم شيئًا من حقوقهم . يقال : بخس فلان فلانًا حقه إذا ظلمه وانتقصه . وهو يشمل النقص والعيب فى كل شىء ..

والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردىء ...

قال الجمل ما ملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء .. لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد ، ولا شك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ... »[1] .

وقوله : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله فى غير ما خلقت له .

قال ابن جرير : « وأصل العثى شدة الإفساد ، بل هو أشد الإفساد . يقال عثى فلان فى الأرض يعثى - كرضى يرضى - إذا تجاوز الحد فى الإفساد .. »[2] .

أى : ولا تسعوا فى أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصى ، فتسلب عنكم ثم أرشدهم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال : ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

ولفظ ﴿ بقية ﴾ اسم مصدر من الفعل : بقى ، ضد : فنى . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشريف وتيمن .

أى : ما يبقيه الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة فى حياتكم ... بسبب التزامكم بالقسط فى معاملاتكم ، هو خير لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٨ .

وجملة « إن كنتم مؤمنين » معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .

أى : ما يبقيه الله لكم من الحلال ... هو خير لكم ، إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فلن تكون بقية الله خيرا لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتى لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم .

وجملة « وما أنا عليكم بحفيظ » تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .

أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه . وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربى بتبليغه ، وهو وحده - سبحانه - الذى سيتولى مجازاتكم .

وإلى هنا نجد شعيبًا - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صِلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى للتى هى أقوم ..

فماذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم عليه - كما حكاه القرآن الكريم - طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ﴿ ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له - على سبيل التهكم والاستهزاء - : ياشعيب أصلاتك - التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها - تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه ..

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه - عليه السلام - كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه .

وجملة « أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص الكيل والميزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

أى : أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن نترك ما تعودنا فعله فى أموالنا من التطفيف فى الكيل والميزان ...

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فهى فى نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونًا من ألوان جنونك وهذيانك ..

وجملة « إنك لأنت الحليم الرشيد » زيادة منهم فى السخرية منه - عليه السلام - وفى

التهكم عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقينى بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه ، الرشيد الذى يرشد غيره إلى ما ينفعه ؟

إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام .

قال صاحب الكشاف : وأرادوا بقولهم : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغى ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذى لا يبض حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للمتواصف بالحلم والرشد فى قومك . يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما اشتهرت به ... »[1] .

هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعه ، ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريرته !!

ومع كل هذه السفاهة ؛ ترى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى .. ﴾ والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة منحنى إياها ربى ومالك أمرى .

﴿ورزقنى منه ﴾ - سبحانه - ، ﴿ رزقا حسنا ﴾ يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى بين يدى ، وفى الحياة الطيبة التى أحياها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبرونى إن كنت كذلك ، هل يليق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسايرة لأهوائكم ؟ كلا إنه لا يليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بتبليغه دون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ... ﴾ .

أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وبنهيى إياكم عن التطفيف والبخس ، مجرد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٧ .

مخالفتكم ومنازعتكم ومعاكستكم ، أو أن آمركم بشىء ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية ..

كلا ، كلا إنى لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : قوله ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه . وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .

ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفنى إلى الماء ، يريد أنه ذهب إليه واردا ، وهو ذهب عنه صادراً ، ومنه قوله - سبحانه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يعنى : ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم »[(١)] .

وقال الإمام ابن كثير ، وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود - رضى الله عنه - فقالت له : أأنت الذى تنهى عن الواصلة - أى التى تصل شعرها بشعر آخر - ؟ قال : نعم . فقالت : فلعله فى بعض نسائك ، فقال : ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[(٢)] .

ثم بين لهم أنه ما يريد لهم إلا الإصلاح فيقول : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... ﴾ .

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله - تعالى - فيقول : ﴿ وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد الله وعونه، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذرا إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول : ﴿ ويا قوم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٥ .

لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ... ﴾ .

ومعنى ﴿ لا يَجْرِمَنَّكم ﴾ لا يحملنكم ، مأخوذ من جرمه على كذا ، إذا حمله عليه .

أو بمعنى لا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب، غير أنه لا يكون إلا فى كسب مَا لَا خير فيه، ومنه الجريمة ، وهى اقتراف الجرم والذنب .

وأصل الجرم : قطع الثمرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن الكاسب لشىء ينقطع له .

وقوله ﴿ شقاقى ﴾ من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كأن كل واحد من المتعاديين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر ، والشق : الجانب .

والمعنى ، ويا قوم لا تحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب على ، وعلى التمادى فى عصيانى ومحاربتى . فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ : تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .

أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

والمراد بالبعد - فى قوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ - بعد الزمن والمكان والنسب .

فزمن لوط - عليه السلام - غير بعيد من زمن شعيب - عليه السلام - .

وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة بجوار معان مما يلى الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت .

وكان مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وهو جد قبيلة شعيب ، المسماة باسمه ، متزوجا بابنة لوط » .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل فى رحمة الله ، إن هم تابوا إليه - سبحانه - وأنابوا فقال : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ .

أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه توبة صادقة نصوحا :

﴿ إن ربى ﴾ ومالك أمرى ﴿ رحيم ﴾ أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ﴿ ودود ﴾ أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه النصح ، وينوع

لهم المواعظ ، ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب ..

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه ... فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بقولهم : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ... ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم تتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص فى الكيل والميزان حتى مللنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على عقولنا ..

فمرادهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه : لا أدرى ما تقوله ، ولا أفهم ما تتفوه به من ألفاظ .

قال أبو السعود ما ملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ، أى : ما نفهم مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا ... كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقابل النصائح البينات بالسب والإبراق والإرعاد ... إذ جعلوا كلامه المشتمل على الحكم من قبيل مالا يفهم معناه .... »[1] .

ثم قالوا له - ثانيا - ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ أى : لا قوة لك إلى جانب قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له .. ثالثا - ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ ورهط الرجل : قومه وعشيرته الأقربون . ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه ...

ولفظ (الرهط) اسم جمع يطلق غالبا على العصابة دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك .

ثم قالوا له - رابعا - ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أى : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فينا الضعيف المكروه ...

وهنا نجد شعيبا - عليه السلام - ينتقل فى أسلوب مخاطبته لهم من اللين إلى الشدة ، ومن

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ص

التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه - سبحانه - فيقول لهم : ﴿ قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ... ﴾ .

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أعز وأكرم عندكم من الله - تعالى - الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم ..

﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئتكم بها من لدنه - سبحانه - كالشىء المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بسبب كفركم وطغيانكم ﴿ إن ربى بما تعملون محيط ﴾ أى : إن ربى قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب ﴾ والمكانة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشىء مكانه ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن ، والأمر فى قوله ﴿ اعملوا ﴾ للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ... ؟ .

وإنى سأقابل عملكم السىء هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب .. ﴾ استئناف مؤكد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .

﴿ وارتقبوا ﴾ عاقبة تكذيبكم للحق ﴿ إنى معكم رقيب ﴾ أى : إنى معكم منتظر ومراقب لما سيفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمات الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لما يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فقال :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا .. ﴾ .

أى : وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من غيرنا .

﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ من قومه ﴿ الصيحة ﴾ التى زلزلتهم وأهلكتهم ﴿ فأصبحوا فى ديارهم ﴾ التى كانوا يسكنونها .

﴿ جاثمين ﴾ أى : هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا ..

من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل ، يقال ، جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء والأمان ...

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد ...

﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ أى : ألا هلاكا مصحوبا بالخزى واللعنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب .. عليه السلام - كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليه السلام - .

هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى ما يقنع العقل ويقنع العاطفة ...

ففى هذه القصة نجد شعيبا - عليه السلام - يبدأ دعوته بأمر قومه بعبادة الله - تعالى - ، ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت منتشرة وهى نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التى حملته على ذلك : ﴿ إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو صالح وما هو طالح : وبقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين .. » .

ثم يذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... ﴾

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين من قبلهم : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ... ﴾ .

ثم يفتح لهم باب الأمل فى عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ .

ثم تراه يثور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالنسبة لله - تعالى - وللحق الذى جاءهم به من عنده - سبحانه - : ﴿ أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ... ﴾

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول - ﷺ - يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير ، والتوجيه السديد .

وليت الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب .. عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى .

* * *

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، من نسل « لاوى » بن يعقوب .

ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار إليها فى قوله - تعالى - « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... »[1] .

وهى : العصا ، واليد البيضاء ، والسنون العجاف ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة ، والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى ، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبراؤهم ...

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فساده والضمير فى قوله ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ يعود إلى الملأ .

أى : فاتبعوا أمره فى كل ما قرره من كفر ، وفى كل ما أشار به من فساد .

وفى هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزمخشرى - تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠١ .

وقال - سبحانه - ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمه الذى صرح به فى قوله - سبحانه - ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ .

والرشيد بزنة - فعيل - من الفعل رشد من باب نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة الرأى ، وجودة التفكير ، وأضيف الرشد إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة فى اشتمال أمر فرعون على مايناقض الرشد والسداد ، ويطابق الغى والفساد .

أى : ما شأن فرعون وأمره بذى رشد وهدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه ...

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ .

ويقدم - كينصر - بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال - تقول : قدم الرجل يقدم قدماً وقدوما بمعنى : تقدم ، ومنه قادمة الرحل بمعنى مقدمته .

وقوله ﴿ فأوردهم ﴾ من الإيراد وهو جعل الشيء واردا إلى المكان - وداخلا فيه .

والورد - بكسر الواو - يطلق على الماء الذى يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب .

والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم فى الكفر فى الدنيا ، فأوردهم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[1] .

وقوله وبئس الورد المورود ، أى : وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمته ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح - سبحانه - بلعنتهم فى الدارين فقال : ﴿ وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ ...

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعتهم فى الدنيا وفى الأخرى ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[2] .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٥ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٢ .

وجملة ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ذكر اللعنة ، أى بئس الرفد هى .

الرفد العطاء والعون يقال رفد فلان فلانا يرفده رفدا أى أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه ، أى : بئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لابستهم فى الدنيا والآخرة .

وسميت اللعنة رفدا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع . فكأنه - سبحانه - يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر ...

وبئس العطاء عطاؤه لهم ...

وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع قومه ، وعن قصة موسى مع فرعون وملئه .

ويلاحظ أن السورة الكريمة قد ساقت لنا تلك القصص حسب ترتيبها التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :

١ - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فكل نبى قد قال لقومه : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه فيما بلغه عن ربه .

٢ - إبراز أن الناس فى كل زمان ومكان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق ...

٣ - بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح ... والعاقبة السيئة التى انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق ...

قال - تعالى - ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

* * *

ثم ساقت السورة بعد ذلك حتى نهايتها آيات كريمة اشتملت على تعليقات وتعقيبات

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٠ .

متنوعة ، وهذه التعليقات والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات ...

وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة التى منها ما هو قائم ومنها ما هو حصيد ، ما ظلم الله - تعالى - أهلها ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم الرسل ، وإصرارهم على الكفر والعناد ، قال - تعالى - :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة ، وهو جزء ﴿ من أنباء القرى ﴾ المهلكة .

ونحن نقصه عليك ، فى هذا القرآن عن طريق وحينا الصادق ، ليعتبر به الناس ، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذى لا علم لهم به من عند الله .

وافتتح - سبحانه - الكلام باسم الإشارة المفيد للبعد ، للتنويه بشأن هذه الأنباء التى سبق الحديث عنها ، وللإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر لقوم يعقلون .

والضمير فى قوله : منها قائم وحصيد ، يعود إلى تلك القرى المهلكة ، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار ، فكأن سائلا سأل ما حال هذه القرى الباقية آثارها أم عفى عليها الزمن ؟ فكان الجواب : منها قائم وحصيد .

أى : من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها ، كآثار قوم ثمود .

ومنها ما أثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذى استؤصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كديار قوم نوح .

ففى هذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ ، حيث شبه - سبحانه - القرى التى بعض آثارها مازال باقيا بالزرع القائم على ساقه ، وشبه مازال منها واندثر بالزرع المحصود .

وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه ، أى منها قائم ومنها حصيد .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم : .. ﴾ بيان لمظاهر عدله فى قضائه وأحكامه .

والضمير المنصوب فى ﴿ ظلمناهم ﴾ يعود إلى أهل هذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث .

أى : وما ظلمنا أهل هذه القرى بإهلاكنا إياهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسل الذين جاءوا لهدايتهم ...

ثم بين - سبحانه - موقف آلهتهم المخزى منهم فقال : ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك .. ﴾ .

أى : أن هؤلاء المهلكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله شيئا من النفع ... بل هى لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فما أغنت ﴾ للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم ... من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم .

و ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من شىء ﴾ لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تغن عنهم شيئا ولو قليلا من الإغناء ؛ ولم تنفعهم لا فى قليل ولا كثير ...

وجملة ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ تأكيد لنفى النفع ، وإثبات للضر والخسران .

والتتبيب : مصدر تب بمعنى خسر ، وتبب فلان فلانا إذا أوقعه فى الخسران .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ أى : هلكتا وخسرتا كما قد هلك وخسر هو .

أى : وما زادتهم أصنامهم التى كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .

قال الإمام الرازى : والمعنى : أن الكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ، ثم إنه - تعالى - أخبرأنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ، ما وجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد

زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارها ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران »[١] .

ثم بين - سبحانه - سنته فى عقاب الظالمين فى كل زمان ومكان فقال : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ... ﴾ .

والكاف فى ﴿ وكذلك ﴾ بمعنى مثل ، والمراد بالقرى : أهلها الظالمون .

والأخذ : هو العقاب المباغت السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل به بسرعة وقوة .

أى : ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين ، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتى بعدهم وينهج نهجهم .

وجملة ، وهى ظالمة ، فى موضع الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم ، وفى ذلك ما فيه من التحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل فوات الآوان .

والمراد بالظلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصى التى نهى الله عنها ، كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ زيادة فى التحذير من الوقوع فى الظلم .

أى : إن أخذه - سبحانه - للظالمين عظيم إيلامه ، شديد وقعه ، لا هوادة فيه ، ولا مخلص منه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - ﷺ - قال : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله - ﷺ - ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - أن ما ساقه فى هذا القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذى ينقسم الناس فيه إلى شقى وسعيد ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٥٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٩ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ
ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي
النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

أى ﴿ إن فى ذلك ﴾ القصص الذى قصصناه عليك - يا محمد - والمشتمل على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين .

﴿ لآية ﴾ أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة .

﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه ، وإيقانه بأن هناك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية ..

أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعة أو فلكية أو غيرهما ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم ...

« لأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا من عقاب ، يزداد إيمانا على إيمانه ، وتصديقا على تصديقه ، بأن الله - تعالى - قادر على أن يعذبهم فى الآخرة عذابا أشد وأبقى من عذاب الدنيا ...

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فقال : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾.

واسم الإشارة فى الموضعين ، يعود إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر عذاب الآخرة قبل ذلك ، واللام فى قوله - سبحانه - ﴿ مجموع له ﴾ لام العلة .

أى : ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على

أعمالهم ، ويشهده جميع الخلائق الذين يؤمرون بشهوده ، دون أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشاف : و ﴿ الناس ﴾ رفع باسم المفعول الذى هو ﴿ مجموع ﴾ كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس .

فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله ؟

قلت : لما فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لابد من أن يكون ميعادا مضروبا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت - أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه .

ونظيره قول المهدد : إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل ...

والمراد بالمشهود : الذى كثر شاهدوه ، ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود ، وطعام محضور ... والغرض من ذلك ، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام ، بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ... »[1] .

ثم قال - تعالى - ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾.

والأجل فى اللغة : الوقت المضروب لانتهاء مدة معينة ، فأجل الإنسان : هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .

والمعدود : أصله المحسوب ، والمراد به هنا : المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها ولا يتأخر عنها .

أى : أننا لا نؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدد معلوم لنا ، فإذا ما جاء موعد هذا الوقت ، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، الذى اقتضت حكمتنا عدم إطلاع أحد على موعده .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال الناس فيه فقال : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ .

والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو الشخص المتلبس بالشقاوة . والشقاء : أى سوء الحال - بسبب إيثاره الضلالة على الهداية ، والباطل على الحق ...

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٢ - بتصرف وتلخيص .

والسعيد : هو الشخص المتلبس بالسعادة ، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح .

والمعنى : حين يأتى هذا اليوم ؛ وهو يوم القيامة ، لا تتكلم فيه نفس بأى كلام إلا بإذن الله - تعالى - ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله ، وتفريطه فى حقوق الله ..

وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه : وعمله الصالح ..

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى تنفى الكلام عن كل نفس إلا بإذن الله وبين قوله - تعالى - ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... ﴾ .

فالجواب : أن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، ففى بعضها يجادل الناس عن أنفسهم ، وفى بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفى بعضها يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ...

وفى هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أن أصنامهم ستدافع عنهم ، وستشفع لهم يوم القيامة .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ... ﴾ أى : يوم يأتى هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[1] .

وقال - سبحانه - ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾[2] .

- فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - فى حديث الشفاعة الطويل : - « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم »[3] .

ثم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال : ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ .

قال الألوسى : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملا بمشقة فتردد فيه نفسه ، ومنه قيل للإماء الحاملاتِ الماءَ : زوافر .

---

(١) سورة النبأ الآية ٣٨ .

(٢) سورة طه الآية ١٠٨ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٩ .

والشهيق . رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء .

والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق ه حتى صار فى كرب شديد[1] .

والمعنى : فأما الذين كان نصيبهم الشقاء فى الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصى فى الدنيا ، فمصيرهم إلى الاستقرار فى النار ، لهم فيها من ضيق الأنفاس . وحرج الصدور ، وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم . وخص - سبحانه - من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق ؛ تنفيرا من الأسباب التى توصل إلى النار ، وتبشيعا لتلك الحالة التى فيها ما فيها من سوء المنظر ، وتعاسة الحال ...

ثم أكد - سبحانه - خلودهم فى النار فقال : ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ... ﴾ .

أى أن الأشقياء لهم فى النار العذاب الأليم ، وهم ماكثون فيها مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام السموات التى تظلهم ، والأرض التى تقلهم فهو فى معنى قوله - تعالى - ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمقصود من هذا التعبير : التأبيد ونفى الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذا ، مالاح كوكب ، وما أضاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار ... إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم ...

وليس المقصود منه تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها .

وجوز أن يحمل ذلك على التعليق ، ويراد بالسموات والأرض ، سماوات الآخرة وأرضها ، وهما دائمتان أبدا ...)[2] .

أما قوله - سبحانه - ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ فقد ذكر العلماء فى المقصود به أقوالا متعددة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر قولا من أشهرها :

أن هذا الاستثناء فى معنى الشرط فكأنه - سبحانه - يقول :

١ - خالدين فيها خلودا أبديا إن شاء ربك ذلك إذ كل شىء خاضع لمشيئة ربك وإرادته .. وعليه يكون المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٢٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٢٦ .

إليه - سبحانه - وإعلامهم بأن كل شيء خاضع لإرادته ومشيئته فهو الفاعل المختار الذى لا يجب عليه شيءولا حق لأحد عليه ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ .

وليس المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله نفى خلودهم فى النار لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئةولأنه قد أخبرنا - سبحانه - فى كتابه بخلود الكافرين خلودا أبديا فى النار .

قال - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[١] .

وشبيه بهذا الاستثناء ما حكاه - سبحانه - عن نبيه شعيب - عليه السلام - فى قوله :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما .... »[٢] .

فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله تأدبا معه - سبحانه ..

فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أى ملة الكفر - إلا أن يشاء ربنا شيئا غير ذلك وهذا من الأدب العالى فى مخاطبة الأنبياء لخالقهم - عز وجل .

وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال فى معنى الآية ، وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض صاحب المنار ، وصاحب محاسن التأويل ...

أما صاحب المنار فقد قال : قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أى : أن هذا الخلود الدائم هو المعد لهم فى الآخرة ... إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، فهو إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى فى قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء فى سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئة الله - تعالى .. فقط ، لا لإفادة عدم عمومها ... »[٣] .

وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيها من غير استثناء ؟ .

فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

---

(١) سورة النساء . الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف ص ٣٢٣ .
(٣) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٦٠ .

والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن يغيرها لفعل .

وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : يعنى أن دوامهم فيها ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئته - تعالى - »[١] .

٢ - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .

ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير .

أما ابن جرير فقد قال ما ملخصه بعد أن سرد الأقوال فى ذلك :

« وأولى الأقوال فى تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذى ذكرناه عن الضحاك وقتادة من أن ذلك استثناء فى أهل التوحيد من أهل الكبائر ، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدا ، إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة - أى العصاة من المؤمنين ... »[٢] .

وأما ابن كثير فقد وضح ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال ما ملخصه :

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير ، واختار : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله - ﷺ - ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة »[٣] .

وقد ذكر الشيخ الشوكانى هذا القول ضمن أحد عشر قولا فقال ما ملخصه :

وقوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ : قد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء على أقوال منها :

(أ) أنه من قوله ﴿ ففى النار ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ...

(ب) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين وإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٨٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٧٠ .
(٣) تفسير ابم كثير جـ ٤ ص ٢٨١ .

خالدين ، وتكون ﴿ ما ﴾ بمعنى ﴿ من ﴾ ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .

(جـ) أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ... »[1] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك :

﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ما شاء من الأفعال كان ومالم يشاء لم يكن .

وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ﴿ فعال ﴾ للإشارة إلى أنه - سبحانه - لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، ﴿ ففى الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ .

أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم ، يقال : جذ الشىء يجذه جذا ، أى : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم - لما تكسر من الشىء كما فى قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم ﴾ ...

وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء والأشقياء ، تفصيلا يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا طريق الأشقياء .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسلية للنبى - ﷺ - عما أصابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، وما فيه إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى - :

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

(١) راجع تفسير الشوكانى جـ ٢ ص ٥٢٥ .

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول ﷺ - أحوال الكفار من قومه فقال : ﴿ فلاتك فى مرية .. ﴾ والمعنى : فلا تكن ، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن حرف النون إذا وقع على طرف الكلام ، لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة ، فلا جرم أسقطوه .. »[1] .

والمرية بكسر الميم - الشك المتفرع عن محاجة ومجادلة بين المتخاصمين .

والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبينا لك مصير السعداء والأشقياء ... ومادام الأمر كذلك ، فلاتك فى شك من أن عبادة هؤلاء المشركين

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٦٨ .

لأصنامهم إنما هى تقليد لما كان يعبده آباؤهم من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدى بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .

والخطاب وإن كان للرسول - ﷺ - على سبيل التسلية والتثبيت ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحته كل من يصلح للخطاب .

وهذا الأسلوب كثيرا ما يكون أوقع فى النفس ، وأشد تأثيراً فى القلب ، لأنه يشعر المخاطب بأن ما بينه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - إنما هو من قبيل القضايا الموضوعية التى لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل فيها فإنما يجادل فى الحق الواضح بدافع الحسد والعناد ، لأن الواقع يشهد بصحة ما بينه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - .

وجملة ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ مستأنفة ، لبيان أن الخلف قد ساروا فى الجهالة والجحود على طريقة السلف .

وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت فى الماضى بقرينة ﴿ من قبل ﴾ . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن أبناءهم لم ينقطعوا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آبائهم الضالين بدون تفكر أو تدبر .

والمضاف إليه فى قوله ﴿ من قبل ﴾ محذوف ، والتقدير : من قبلهم .

وقوله ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ تذييل قصد به تأكيد العقاب الذى سينزل بهم فى الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .

وموفوهم من التوفية ، وهى إعطاء الشىء كاملا بدون نقص .

والمراد بالنصيب هنا : المقدار المعد لهم من العذاب ، وسماه نصيبا على سبيل التهكم بهم .

أى : وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهج آبائهم فى عبادة غير الله ، نصيبهم وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شىء منه ، كما ساروا هم على طريقة سلفهم فى الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل الجزاء على الأعمال الدنوية والأخروية .

قال صاحب المنار : أى ، وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى الدنيا والآخرة وافيا تاما لا ينقص منه شىء ، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ، فإنه ما من خير يعمله أحد منهم كبرٍّ الوالدين وصلة الأرحام .... إلا ويوفيهم الله جزاءهم عليه فى الدنيا بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا ينقصه شىء يجزون عليه فى الآخرة .. »[1] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٦٢ .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الآية الكريمة يؤيده إذ الكلام فيها فى شأن جزاء الذين ساروا على نهج آبائهم فى الضلال ، وليس فى بيان الجزاء العام فى الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف الناس فى الحق موجود قبل بعثة النبى - ﷺ - فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه .. ﴾ .

أى : كما اختلف قومك - أيها الرسول الكريم - فى شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من قبلك فى شأن التوراة التى أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ...

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لاختلاف قومك فى شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس فى كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من مشركى قومه .

وجاء الفعل ﴿ اختلف ﴾ بصيغة المبنى للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتعلق به غرض ، وإنما الذى يتعلق به الغرض هو ما نجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ﴾ .

والمراد بالكلمة التى سبقت : تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا .

قال الشوكانى: قوله - سبحانه - ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم .. ﴾ أى : لولا أن الله - تعالى - قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ، لقضى بينهم ، أى : بين قومك ، أو بين قوم موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين ، فأثيب المحق وعذب المبطل ، أو الكلمة ؛ هى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له - ﷺ - »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ .

والمريب اسم فاعل من أراب . يقال أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة والحيرة .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥٢٩ .

أى : وإن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب لفى شك منه ، وهذا الشك قد أوقعهم فى الريبة والتخبط والاضطراب .

وهذا شأن المعرضين عن الحق ، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره ، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه ، وتأويله تأويلا سقيما يدعو إلى الريبة والقلق .

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير فى قوله ﴿ وإنهم ﴾ إلى قوم موسى ، وفى قوله ﴿ منه ﴾ إلى كتابهم التوراة .

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبى - ﷺ - والثانى إلى القرآن الكريم .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أظهر فى معنى الآية ، لأن الكلام فى موسى - عليه السلام وقومه الذين اختلفوا فى شأن كتابهم التوراة اختلافا كبيرا ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول - ﷺ - كانوا فى شك من القرآن ، أوقعهم هذا الشك فى الريبة والحيرة .

فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول - ﷺ - عما قاله بعض المشركين فى شأن القرآن الكريم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب ، الشاكين فى صدقه ، سوف يجمعهم الله - تعالى - مع غيرهم يوم القيامة للجزاء والحساب على أعمالهم فقال - تعالى - ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ .

وقد وردت فى هذه الآية الكريمة عدة قراءات متواترة[1] منها : قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد ، إن ولما ، وقد قيل فى تخريجها :

إن لفظ ، ﴿ كلا ﴾، اسم ﴿ إن ﴾، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام فى ، ﴿ لما ﴾، هى الداخلة فى خبر ﴿ إن ﴾ وما بعد اللام هو حرف « من » الذى هو من حروف الجر ، و « ما » موصولة أو نكره موصوفة والمراد بها من يعقل ، فيكون تقدير الكلام : وإن كلا « لمن ما » ، فقلبت النون ميما للإدعام فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت « لما » والجار والمجرور خبر ﴿ إن ﴾ ، واللام فى ﴿ ليوفينهم ﴾، جواب قسم مضمر ، والجملة صلة أو صفة ﴿ لما ﴾ .

والتقدير : وإن كلا من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم بحق ربك

---

(١) لمعرفة هذه القراءات راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٢٦ وتفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٣٣ .

ليوفينهم - سبحانه - جزاء أعمالهم دون أن يفلت منهم أحد ، إنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء منها .

وفى الآية الكريمة توكيدات متنوعة ، حتى لا يشك فى نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل ، وحتى لا يشك أحد - أيضا - فى أن ما عليه المشركون هو الباطل الذى لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذى تلقاه الخلف عن السلف .

وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية فى تلك الفترة التى نزلت فيها هذه السورة - وهى فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة - يستلزم هذه التأكيدات تثبيتا لقلوب المؤمنين ، وتوهينا للشرك والمشركين .

قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض الأفاضل قال : إنه - تعالى - لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين فى هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات :

أولها : كلمة « إن » وهى للتأكيد ، وثانيها كلمة « كل » وهى أيضا للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة على خبر « إن » وهى تفيد التأكيد - أيضا - ، ورابعها حرف « ما » إذا جعلناه على قول الفراء موصولا ، وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم والله ليوفينهم : وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة فى قوله « ليوفينهم » .

فجميع هذه المؤكدات السبعة تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق ... » [1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال - سبحانه - : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ .

والفاء للتفريع على ما تقدم من الأوامر والنواهى .

والاستقامة - كما يقول القرطبى - هى الاستمرار فى جهة واحدة من غير أخذ فى جهة اليمين والشمال ... » [2] .

والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغى الماء ، أى ارتفع وتجاوز الحدود المناسبة .

والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء وحال الأشقياء ، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٧٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣٦ .

وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق ، وداوموا على ذلك كما أمركم الله ، بدون إفراط أو تفريط ، واحذروا ان تتجاوزوا حدود الاعتدال فى كل أقوالكم وأعمالكم .

ووجه - سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبى - ﷺ - تنويها بشأنه ، وليبنى عليه قوله - ﴿ كما أمرت ﴾ ، فيشير بذلك إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .

وقد جمع قوله - تعالى - ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أصول الإصلاح الدينى وفروعه ، كما جمع قوله - تعالى - « ولا تطغوا » أصول النهى عن المفاسد وفروعه ، فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفاسد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين فى هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة ، لأن ذلك من العون على النصر على الأعداء ، وينهاهم عن الطغيان وهو البغى ، لأنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك » .

وقال الآلوسى : والاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق .

أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال ، لما نزلت هذه الآية قال - ﷺ - شمروا شمروا ، وما رؤى بعد ضاحكا » .

وعن ابن عباس قال : ما نزلت على رسول الله - ﷺ - آية أشد من هذه الآية ولا أشق » [١] .

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » [١] .

وجملة ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة وللنهى عن الطغيان .

أى : الزموا المنهج القويم ، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه - سبحانه - مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر ، العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم يوم القيامة عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٣٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠٧ .

والركون إلى الشيء : الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه فى قضاء مصالحه .

والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله .

والمعنى : واحذروا - أيها المؤمنون - أن تميلوا إلى الظالمين ، أو تسكنوا إليهم ؛ لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل .

قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحبة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبى إليه .

وقوله ﴿ فتمسّكم النار ﴾ أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم ، والاعتماد عليهم ، والرضا بأفعالهم .

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ فى موضع الحال من ضمير ﴿ تمسكم ﴾ .

أى : والحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب النازل بكم ، بسبب ركونكم إلى الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم .

وثم فى قوله ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ للتراخى الرتبى . أى ثم لا تجدون بعد ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين مالهم من أنصار .

قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس فى حمأته ؟!!

ثم قال : وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ، والأعمال بالنيات . والتفصيل أولى .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو الخير . فلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيناسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا .. »[1] .

ثم أرشد - سبحانه - عباده المؤمنين إلى ما يعينهم على الاستقامة وعلى عدم الركون إلى الظالمين ، فقال : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

---

(١) تفسير القاسمى - بتصرف يسير - جـ ٩ ص ٣٤٩١ .

والمراد بإقامتها الإتيان بها فى أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص لله رب العالمين .
والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية ، المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها ثانية أركان الإسلام ، وإليها يفزع فى النوائب ، وكان النبى - ﷺ - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة »[١] .

وطرفى النهار : أى أول النهار وآخره ، لأن طرف الشىء منتهاه من أوله أو من آخره .

والنهار : يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس . سمى بذلك لأن الضياء ينهر فيه أى يبرز كما يبرز النهر .

والصلاة التى تكون فى هذين الوقتين ، تشمل صلاة الغداة وهى صلاة الصبح ، وصلاة العشى وهى صلاة الظهر والعصر ، لأن لفظ العشى يكون من الزوال إلى الغروب .

وقيل الصلاة التى تكون فى هذين الوقتين هى صلاة الصبح والمغرب .

وقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ معطوف على طرفى النهار .

والزلف جمع زلفة ه كغرف وغرفة - والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار ، إذا الإزلاف معناه القرب ومنه قوله - تعالى - ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ... ﴾ أى : قربت منهم . وتقول أزلفنى فلان منه : أى قربنى .

فمعنى ﴿ وزلفا من الليل ﴾ طائفة من أوله . وصلاة الزلف تطلق على صلاتى المغرب والعشاء قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء . قال رسول الله - ﷺ - « هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء » .

ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ فى حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه أيضا فى قول »[٢] .

وجملة ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٤ .

وأكدت بحرف ﴿ إن ﴾ للاهتمام وتحقيق الخبر ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .

والمعنى : إن الأعمال الحسنة - كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار .. يذهبن الأعمال السيئات ، أى يذهبن المؤاخذة عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة .

والمراد بالسيئات هنا صغار الذنوب ، لقوله - تعالى - ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾[1] . ولقوله - تعالى - ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ... ﴾[2] ، ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة .

وقوله ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ أى : ذلك الذى أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله .. فيه التذكرة النافعة ، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد ذكرنا فى التمهيد بين يدى السورة ، أن سورة هود ترجح أنها كلها مكية ، وليس فيها آيات مدنية .

ومما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ما سبقها من آيات لتسلية النبى - ﷺ - ولإرشاده وأتباعه إلى ما يعينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .

ولأن بعض الروايات التى وردت فى شأنهالم تذكر أنها نزلت فى المدينة ، بل ذكرت أن الرسول - ﷺ - تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله إنى وجدت امرأة فى بستان ، ففعلت بها كل شىء ، غير أنى لم أجامعها ، فافعل بى ما شئت ، فلم يقل رسول الله - ﷺ - شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه الرسول - ﷺ بصره ثم قال : ردوه على فردوه عليه فقرأ عليه : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل .. ﴾ الآية ، فقال معاذ - وفى رواية عمر - يا رسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة »[3] .

---

(١) سورة النساء الآية ٣١ .
(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٦ .

والروايات التى ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، فى الإمكان أن تؤول أن المراد أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ، ولجميع ما يماثلها من إصابة الذنوب سوى الكبائر .

هذا ، ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التى كلفكم الله - تعالى - بها ، فإنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال الآلوسى : ومن البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبى - ﷺ وإن كانت عامة فى المعنى ، والمناهى جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول - ﷺ عند ربه[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وعلى الحكم التى من أجلها ساق الله - تعالى - تلك القصص فى كتابه فقال - تعالى - :

فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤٣ .

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ... ﴾ إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات ..

ولولا : حرف تحضيض بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبى - ﷺ - ومن سيأتى بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .

والقرون : جمع قرن ، والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجح أن القرن مائة عام .

و ﴿ أولو بقية ﴾ أى : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة ...

وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم ، أى : من خيارهم وأهل الفضل فيهم ، قال الشاعر :

إن تذنبوا ثم تأتينى بقيتكم ... فما على بذنب منكم فوت

وفى الأمثال : فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا .

والفساد فى الأرض : يشمل ما يكونَ فيها من المعاصى واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .

والمعنى : فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول ينهون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد

فى الأرض ، وعن انتهاك الحرمات ؟ .

كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيناهم بسبب إيمانهم ونهيهم عن الفساد فى الأرض .

وفى هذا من التوبيخ لأهل مكة ولكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما فيه ، لأن الله - تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذى حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيهم عن الفساد فى الأرض .

قال الشوكانى : والاستثناء فى قوله ﴿ إلا قليلا .. ﴾ منقطع ، أى : لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، وقيل : هو متصل ، لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، ومن فى قوله ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ بيانية ، لأنه لم ينج إلا الناهون »[١] .

وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » ولهذا قال : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ... ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ واتبعَ الذين ظلموا ما أترفوا فيه ... ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء القاعدين عن النهى عن الإفساد فى الأرض ، قد استمروا على فجورهم وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .

وأترفوا من الترف ومعناه التقلب فى نعم الله - تعالى - مع ترك شكره - سبحانه - عليها .

والمترف : هو الشخص الذى أبطرته النعمة ، فانغمس فى الشهوات والمعاصى ، وأعرض عن الأعمال الصالحة ..

والجملة الكريمة معطوفة على كلام مقدر يقتضيه الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا فى طغيانهم ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنىء والشهوات العاجلة ، فكفروا النعمة ، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أى مصرين على ارتكاب الجرائم

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٥٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٠ .

والمنكرات ، فحق عليهم العقاب الذى يستحقونه بسبب هذه السيئات .

ثم بين - سبحانه - أن رحمته بعباده تقتضى عدم ظلمه لهم فقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

والمراد بالظلم هنا ما يشمل الإشراك بالله - تعالى - وغيره من الوقوع فى المعاصى والمنكرات .

والباء فى ﴿ بظلم ﴾ للملابسة ، والتنوين فيه للإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم يتنزه الله - تعالى - عنه على أبلغ وجه ، وإن كانت أفعاله - عز وجل - لا ظلم فيها أيا كانت هذه الأفعال .

والمعنى : وما كان من شأن ربك - أيها الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من القرى إهلاكًا متلبسًا بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون ، لأن ذلك الإهلاك مع تلك الحال يتنافى مع ما كتبه على نفسه من الرحمة والعدل .

قال - تعالى - ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ... ﴾ وقال - تعالى - ﴿ ولا يظلم ربك أحدًا ﴾ .

وقال - تعالى - ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

ومنهم من فسر الظلم هنا بالشرك ، وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن ربك أن يهلك أهل قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم فى تعاطى الحقوق فيما بينهم ، وإنما يهلكهم عندما يضمون إلى الكفر الإفساد فى الأرض كما أهلك قوم شعيب لشركهم وإنقاصهم المكيال والميزان .

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين دون أن يرجح بينهما فقال : القول فى تأويل قوله - تعالى - ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

يقول - تعالى - ذكره : وما كان ربك يا محمد ليهلك القرى التى أهلكها والتى قص عليك نبأها ظلمًا وأهلها مصلحون فى أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم فى أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلمًا ، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله ؛ وتماديهم فى غيهم ..

وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله : وذلك قوله بظلم يعنى بشرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا »[1] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٨٤ .

والذى نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص بدون مخصص ، حيث لم يرد عن رسول الله - ﷺ - حديث صحيح يخصصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقى الذى يتناول الشرك وغيره .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شىء فقال : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ .

والأمة : القوم المجتمعون على أمر واحد ؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من « أم » بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده فى مختلف شئونه .

ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعًا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى ... ﴾ .

وقوله ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ تأكيد لما اقتضته سنته من اختلاف الناس .

أى : ولا يزالون ما بقيت الدنيا مختلفين فى شأن الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين رحمهم ربك منهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فعصمهم الله - تعالى - من الاختلاف المذموم .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أى : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبى - ﷺ - الأمى خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضا : إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة . وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم يارسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩١ .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ يعود على المصدر المفهوم من مختلفين قال الآلوسى : فكأنه قيل : وللاختلاف خلق الناس ، على معنى لثمرة الاختلاف من كون فريق فى الجنة وفريق فى السعير خلقهم .

واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله - سبحانه - ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولأنهم لو خلقهم له - أى للاختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل .... »[1] .

ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور ، فيكون التقدير : إلا من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .

وصح تذكير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى .

ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله ﴿ عوان بين ذلك ﴾ أى بين الفارض والبكر .

فيكون المعنى : « وللاختلاف والرحمة خلقهم » أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .

وقد رجح الإمام القرطبى هذا الوجه فقال : قوله « ولذلك خلقهم » قال الحسن ومقاتل وعطاء :

الإشارة إلى الاختلاف ، أى : وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك :

الإشارة إلى الرحمة : أى : ولرحمته خلقهم .

وقيل : الإشارة إلى الاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك إلى شيئين متضادين ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ .

وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أى : ولما ذكر خلقهم .. أى : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير . أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة ... »[2] .

والمراد بكلمة ربك فى قوله - سبحانه - ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ قضاؤه النافذ ، وإرادته التى لا تتخلف ، وحكمه الأزلى .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١١٤٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١١٥ .

أى : وتمت كلمة ربك ، ونفذ قضاؤه ، وثبت حكمه الذى أكده وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ، ومن عصاة الإنس أجمعين ، لأنه من المعروف أن الوعيد إنما هو للعصاة والمذنبين وليس للمؤمنين الصادقين .

قال الآلوسى: وفى معنى ذلك ما قيل من أن المراد بالجنة والناس أتباع إبليس لقوله - تعالى - فى سورة الأعراف وفى سورة ص ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ فاللازم دخول جميع تابعيه فى جهنم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا .. » [1] .

ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - ﷺ - من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم فقال : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... ﴾ .

والتنوين فى قوله ﴿ وكلا ﴾ للعوض عن المضاف إليه . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام :

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه . فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكانتكم : مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٤٨ .

دعوتك ، قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى كيدكم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإنا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

أى : ولله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .

ومادام الأمر كذلك ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ أى : فأخلص له العبادة ، واجعل توكلك عليه وحده .

﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لا يعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة هود - عليه السلام - أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . **وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .**

المدينة المنورة - صباح الخميس ٥ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠١ هـ الموافق ٩ من أبريل سنة ١٩٨١ م .

محمد سيد طنطاوى

تفسير

سورة يوسف عليه السلام

تعريف بسورة يوسف - عليه السلام -

١ - سورة يوسف - عليه السلام - هى السورة الثانية عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقها فى الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران،والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس وهود ..

أما ترتيبها فى النزول ، فكانت السورة الثالثة والخمسين ، وكان نزولها بعد سورة هود - عليه السلام - .

وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وجه تسميتها بهذا الاسم ظاهر ، لأنها مشتملة على قصته - عليه السلام - مع إخوته ، ومع امرأة العزيز ، ومع ملك مصر فى ذلك الوقت ..

ولم يذكر اسم يوسف - عليه السلام - فى غير هذه السورة سوى مرتين : إحداهما فى سورة الأنعام فى قوله -تعالى - ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ... ﴾ الآية ٨٤ .

والثانية فى سورة غافر فى قوله - تعالى - ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ...﴾ الآية ٣٤ .

والقول الصحيح أن سورة يوسف جميعها مكية ، ولا التفات إلى قول من قال بأن فيها آيات مدنية ، لأن هذا القول لا دليل عليه .

قال الآلوسى : سورة يوسف مكية كلها على المعتمد ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : هى مكية إلا ثلاث آيات من أولها . واستثنى بعضهم رابعة وهى قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ .

٢ - وكل ذلك واه جدا لا يلتفت إليه ، وما اعتمدناه - كغيرنا - من أنها كلها مكية - هو الثابت عن الحبر أى عن ابن عباس »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٠ طبعة منير الدمشقى .

٣ - وقد ورد فى سبب نزولها روايات متعددة ، منها ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : أنزل القرآن على رسول الله - ﷺ - فتلاه على أصحابه زمانا ، فقالوا : يارسول الله ، لو قصصت علينا فنزلت سورة يوسف ...»[1] .

٤ - طبيعة الفترة التى نزلت فيها هذه السورة : قلنا إن سورة يوسف كان نزولها بعد سورة هود ، وسبق أن بينا عند تفسيرنا لسورة هود ، أن هذه السورة الكريمة كان نزولها - على الراجح - فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ..

ويبدو أن سورة يوسف - أيضا- كان نزولها فى هذه الفترة ، التى تعتبر من أشق الفترات فى حياة النبى - ﷺ - إذ تعرض خلالها للكثير من أذى المشركين ، بعد أن فقد - ﷺ - فى هذه الفترة عمه أبا طالب ، وزوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها .

ونزول سورة يوسف فى هذه الفترة ، كان من أعظم المسليات التى واسى الله - تعالى - بها نبيه - ﷺ - فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته ، وعما تعرض له هذا النبى الكريم من مصائب وأذى ..

ولاشك أن فى قصة يوسف وما يشبهها ، تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه .

٥ - والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها قد اشتملت على أوضح الدلائل ، وأنصع البراهين ، التى تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ...

فقد قصت علينا قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مشوق حكيم ، يهدى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التى لا يعلمها أحد إلا الله - تعالى - ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا ..

كما يراها قد ساقت ما ساقت من حكم وأحكام ، وعبر وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، حتى إننا لنستطيع أن نقسم أهم الموضوعات التى تحدثت عنها إلى عشرة أقسام .

(أ) أما القسم الأول[2] منها ، فنراها تتحدث فيه عن جانب من فضائل القرآن الكريم ، وعن رؤيا يوسف - عليه السلام - وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٠ .
(٢) الآيات من ١ - ٦ .

قال – تعالى – ﴿ ألر . تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين * إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ .

(ب) وفى القسم الثانى[1] منها نراها تحدثنا عن مكر إخوة يوسف به ، وحسدهم له ، وتآمرهم على الانتقام منه وإجماعهم على أن يلقوا به فى الجب ، وتنفيذهم لذلك بعد خداعهم لأبيهم ، وزعمهم له بأنهم سيحافظون على أخيهم يوسف ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البديع المعجز فيقول : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أواطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب . يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إلى أن يقول – سبحانه – : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾.

(جـ) ثم نراها فى القسم الثالث[2] منها تحدثنا عن انتشال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس دراهم معدودة ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التى راودته عن نفسه ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ وعن خروجه من هذه المحنة بريئا ، نقى العرض ، طاهر الذيل .. بعد أن شهد ببراءته شاهد من أهلها .

قال – تعالى – : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ .

إلى أن يقول – سبحانه – : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ... ﴾ .

---

(١) الآيات من ٧ – ١٨ .
(٢) الآيات من ١٩ – ٢٩ .

ثم يختم - سبحانه - هذا القسم من السورة بحكاية ما قاله الزوج لامرأته وليوسف ، بعد أن تبين له صدق يوسف وكذب امرأته فيقول : ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(د) ثم تحدثنا السورة بعد ذلك فى القسم الرابع[1] منها عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعما فعلته تلك المرأة مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لجوء يوسف - عليه السلام - الى ربه يستجير به من كيد هؤلاء النسوة ..

قال - تعالى - حاكيا هذا المشهد بأسلوب معجز : ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطَّعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

(هـ) ثم تحدثنا السورة الكريمة بعد ذلك فى القسم[2] الخامس منها ، عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أنه لم يمنعه السجن من دعوة رفاقه فيه إلى وحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له - سبحانه - ..

﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(و) ثم تحدثنا السورة الكريمة فى القسم[3] السادس منها عن الرؤيا المفزعة التى رآها ملك مصر فى ذلك الوقت ، وكيف أن حاشيته عجزت عن تفسيرها ، ولكن يوسف الصديق فسرها تفسيرا صحيحا أعجب الملك ، وحمله على دعوته للالتقاء به ، إلا أن يوسف - عليه السلام -

---

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٥ .
(٢) الآيات من ٣٩ - ٤٢ .
(٣) الآيات من ٤٣ - ٥٧ .

أبى الالتقاء به إلا بعد أن يحقق الملك فى قضيته بنفسه ، ويعلن براءته على رءوس الأشهاد ..

وبعد أن استجاب الملك لطلب يوسف ، وثبتت براءته - عليه السلام - حضر معززا مكرما وقال للملك بعزة وإباء : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى هذا المشهد بأسلوبها الزاخر بالمحاورات والمفاجآت ، فتقول : ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ...﴾ .

وينتهى هذا المشهد ببيان سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف ، والتى تتمثل فى حسن عاقبة المؤمنين حيث يقول - سبحانه - : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

(ز) ثم تنتقل السورة الكريمة فى القسم السابع[1] منها إلى الحديث عن اللقاء الأول الذى تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا من بلادهم بفلسطين إلى مصر يلتمسون الزاد والطعام ... وكيف أنه عرفهم دون أن يعرفوه .. وكيف أنه - عليه السلام - طلب منهم بعد أن أكرمهم أن يحضروا إليه من بلادهم ومعهم أخوهم من أبيهم - وهو شقيقه « بنيامين » .

وكيف أن أباهم وافق على إرسال « بنيامين » معهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق لكى يحافظوا عليه ..

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم

---

(١) الآيات من ٥٨ - ٦٨ .

لعلم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ... ﴾ .

(ح) ثم حدثتنا السورة الكريمة فى القسم الثامن[1] منها عن اللقاء الثانى الذى تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا إليه فى هذه المرة ومعهم « بنيامين » شقيق يوسف ، وكيف قام يوسف بالتعرف عليه ، ثم كيف احتجزه عنده بحيلة دبرها بإلهام من الله - تعالى - وكيف رد على إخوته الذين طلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكان « بنيامين ».. .

وماذا قال «يعقوب» - عليه السلام - بعد أن عاد إليه أبناؤه ، وليس معهم « بنيامين » .

استمع الى السورة الكريمة وهى تحكى كل هذه المشاهد والأحداث فتقول :

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ... ﴾ .

وبنتهى هذا القسم بقول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بعد أن عادوا إليه وليس معهم أخوهم بنيامين : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم * وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون . يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

(ط)ثم حدثتنا السورة الكريمة بعد ذلك فى القسم التاسع[2] منها عن اللقاء الثالث والأخير بين يوسف وإخوته ، فحكت لنا أن يوسف - عليه السلام - كشف لإخوته عن نفسه فى هذا اللقاء . وأمرهم بأن يذهبوا بقميصه ليلقوا به على وجه أبيه ... كما أمرهم أن يعودوا إليه ومعهم جميع أهلهم .

---

(١) الآيات من ٦٩ - ٨٧ .

(٢) الآيات من ٨٨ - ١٠١ .

كما حكت لنا لقاء يوسف بأبويه ، وإكرامه لهما ، وشكره لله - تعالى - على ما وهبه من نعم ..

قال - تعالى - حاكيا ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يوسف وأبيه فى هذا اللقاء : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين * قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا . وأتونى بأهلكم أجمعين .. ﴾ .

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

ثم ختم -سبحانه - قصة يوسف بهذا الدعاء الذى حكاه - سبحانه - عنه فى قوله : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ .

(ى) أما القسم العاشر[1] والأخير من السورة الكريمة ، فقد كان تعقيبا على ما جاء فى تلك القصة من حكم وأحكام ، ومن عبر وعظات ، ومن آداب وهدايات ..

وقد بين - سبحانه - فى هذا القسم ما يدل على أن القرآن من عند الله ، وما يشهد بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ..

كما بين - سبحانه - وظيفة الرسول - ﷺ - وموقف المشركين من دعوته وأنه - ﷺ - ليس بدعا من الرسل وأن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون * وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين * وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .. ﴾ .

ثم يختتم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٠٢ - ١١١ .

٦ - هذا عرض مجمل لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة يوسف - عليه السلام - ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أهمها ما يأتى :

(أ) إبراز الحقائق والهدايات ، بأسلوب المحاورات والمجادلات والمناقشات ... ومن مظاهر ذلك :

المحاورات التى دارت حول إخوة يوسف فى شأن الانتقام منه ، والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمحاورات التى دارت بينهم وبين أبيهم فى شأن اصطحابهم ليوسف ، والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون * قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ .

والمحاورات التى دارت بين يوسف وإخوته ، بعد أن عرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن ترددوا عليه ثلاث مرات للحصول على حاجتهم من الزاد .. والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

وهكذا نجد السورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات والمناقشات والمجادلات . تارة بين يوسف وإخوته ، وتارة بين إخوته فيما بينهم ، وتارة بينهم وبين أبيهم ، وتارة بين يوسف وامرأة العزيز ، وتارة بينه وبين ملك مصر فى ذلك الوقت .

وهذه المحاورات التى حفلت بها السورة الكريمة ، قد أكسبتها لونا من العرض المشوق ، الذى يجعل القارىء لها يتعجل حفظ كل موضوع من موضوعاتها ، ليصل الى الموضوع الذى يليه .

وهذا الأسلوب فى عرض الحقائق من أسمى الأساليب التى تعين القارىء على حفظ القرآن الكريم ، وعلى تدبر معانيه ، وعلى الانتفاع بهداياته ..

(ب) إبرازها لجوهر الأحداث ولبابها .. أما تفاصيل هذه الأحداث . فتركت معرفتها لفهم القارىء وفطنته ، وسلامة تفكيره ، وحسن تدبره لكلام الله - تعالى - ..

وهذا اللون من العرض للأحداث ، يسمى فى عرف البلغاء ، بأسلوب الإيجاز بالحذف والقارىء لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها على رأس السور القرآنية التى كثر فيها هذا الأسلوب البليغ .

فمثلا قوله - تعالى - : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ...﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وانصرفوا لشئونهم « جاءوا على قميصه بدم كذب » لكى يخدعوا أباهم ، فلما أخبروه بأن الذئب قد أكله قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ...﴾ .

وكذلك قوله - تعالى - : ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ... ﴾ مترتب على كلام محذوف يفهم من سياق الآيات .

والتقدير : وبعد أن سمع ما قالته النسوة بشأنه عندما دخل عليهن بأمر من امرأة العزيز ، وسمع تهديد هذه المرأة له بقولها : ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

بعد أن سمع يوسف كل ذلك ، وتيقن من مكرهن به ، لجأ إلى ربه مستجيرا به من كيدهن فقال : ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ...﴾ .

وأيضا قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان ... ﴾ . يعتبر من بديع أسلوب الإيجاز بالحذف ، إذ تقدير الكلام :

وبعد أن عجز الملأ عن تفسير رؤيا الملك ، وقالوا له : إن رؤياك أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، قال الذى نجا منهما ، أى : من صاحبى يوسف فى السجن وهو الساقى ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ أى وتذكر بعد نسيان طويل ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ إلى من عنده تفسير هذه الرؤيا تفسيرا صحيحا - وهو يوسف - فاستجابوا له وأرسلوه إلى يوسف ، فذهب إليه فى السجن ، فلما دخل عليه قال له : يا يوسف يأيها الصديق، أفتنا فى سبع بقرات سمان ... إلخ .

وهذا الأسلوب الذى زخرت به السورة الكريمة ، وهو أسلوب الإيجاز بالحذف ، من شأنه

أنه ينشط العقول ، ويبعثها على التأمل والتدبر فيما تقرؤه ، ويعينها على الاتعاظ والاعتبار ..

وهو أسلوب أيضا تقتضيه هذه السورة الكريمة، لأنها تتحدث عن قصة نبى من أنبياء الله - تعالى - . والحديث عن ذلك يستلزم إبراز جوهر الأحداث ولبابها ، لا إبراز تفاصيلها وما لا فائدة من ذكره .

فاشتمال السورة الكريمة على هذا الأسلوب البليغ ، هو من باب رعاية الكلام لمقتضى الحال ، وهو أصل البلاغة وركنها الركين .

(جـ) السورة الكريمة اهتمت اهتماما واضحا بشرح أحوال النفس البشرية وتحليل ما يصدر عنها فى حال رضاها وغضبها ، وفى حال صلاحها وانحرافها ، وفى حال غناها وفقرها ، وفى حال عسرها ويسرها ، وفى حال صفائها وحقدها ..

وقد حدثتنا عن الشخصيات التى وردت فيها حديثا صادقا أمينا ، كشفت لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم ، وسلوكهم ، وميولهم ، وأفكارهم .. وأعطت كل واحد منهم حقه فى الحديث عنه .

(١) فيوسف - عليه السلام - وهو الشخصية الرئيسية فى القصة - حدثتنا عنه حديثا مستفيضا نستطيع من خلاله ، أن نرى له - عليه السلام - مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتى :

امتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات ، بسبب خوفه لمقام ربه ، ونهيه لنفسه عن الهوى ..

ولا أدل على ذلك من قوله - تعالى - : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ..﴾ .

قال الشيخ القاسمى : قال الإمام ابن القيم ماملخصه : « لقد كانت دواعى متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها : ماركبه الله فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ..

ومنها : أنه كان شابا غير متزوج .. ومنها : أنها كانت ذات منصب وجمال .. وأنها كانت غير آبية ولا ممتنعة .. بل هى التى طلبت وأرادت وبذلت الجهد ..

ومنها : أنه كان فى دارها وتحت سلطانها .. فلا يخشى أن تنم عليه ..

ومنها : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن ، وشكت حالها إليهن ..

ومنها : أنها توعدته بالسجن والصغار إن لم يفعل ماتأمره به ..

ومنها : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ..

ومع كل هذه الدواعى ، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته ، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يغضبه .. »[١] .

٢ - صبره الجميل على المحن والبلايا ، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها : ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .. ﴾ .

٣ - نشره للدين الحق ، ودعوته لعبادة الله وحده ، حتى وهو بين جدران السجن ، فهو القائل لمن معه فى السجن : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار * ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ...﴾ .

٤ - حسن تدبيره للأمور ، وتوصله إلى ما يريده بأحكم الأساليب ، وحرصه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك ، ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ..﴾ .

٥ - عزة نفسه ، وسمو خلقه ، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان براءته ﴿ وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ..﴾ .

٦ - تحدثه بنعمة الله ، ومعرفته لنفسه قدرها ، وطلبه المنصب الذى يناسبه ، ويثق بقدرته على القيام بحقوقه ﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

٧ - ذكاؤه وفطنته ، فقد تعرف على إخوته مع طول فراقه لهم : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ....﴾ .

٨ - عفوه وصفحه عمن أساء إليه ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ..﴾ .

٩ - وفاؤه لأسرته ولعشيرته ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ .

١٠ - شكر الله - تعالى - على نعمه ومننه ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٥٥ .

هذا جانب من حديث السورة الكريمة عن يوسف - عليه السلام - ، وهو حديث يدل على أنه كان فى الذروة العليا من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ..

(د) وتحدثت السورة الكريمة عن يعقوب - عليه السلام - فذكرت من بين ما ذكرت عنه ، صفات الصبر الجميل ، والأمل فى رحمة الله مهما اشتدت الخطوب ، والحرص على سلامة أبنائه من كل ما يؤذيهم حتى ولو أساءوا إليه ، والنظر إلى الأمور بعين تختلف عن عيون أبنائه ، والحكم عليها بحكم يختلف عن أحكامهم ..

يدل على ذلك قوله - تعالى - ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ... ﴾ .

وقوله : - تعالى - : ﴿ وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ .

(هـ) وتحدثت عن إخوة يوسف حديثا مستفيضا ، تبدو فيه غيرتهم من يوسف ، وحسدهم له ، وتآمرهم على حياته ، وحقدهم عليه حتى وهو بعيد عنهم .. ثم ندمهم فى النهاية على ما فرط منهم فى حقه بعد أن مكن الله له فى الأرض ..

نرى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم..﴾ .

وفى قوله : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ...﴾ .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

(و) وتحدثت عن امرأة العزيز حديثا يكشف عن حال المرأة عندما تحب .. وكيف أنها فى سبيل الحصول على رغبتها تحطم كل الموانع النفسية والاجتماعية .. وتستخدم كل الوسائل التى تظن أنها ستوصلها إلى مرادها . حتى ولو كانت هذه الوسائل تخالف ما عرف عن المرأة من أنها حريصة على أن تكون مطلوبة من الرجل لا طالبة له ..

(ز) وتحدثت عن العزيز حديثا قصيرا يناسب حجمه وسلوكه وتبلد شعوره ، فهو مع إيقانه بخطأ امرأته لم يزد عن أن قال ليوسف ولها ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(ح) وتحدثت عن ملك مصر فى ذلك الوقت ... وعن البيئة التى وصل الحال بها أن تزج بيوسف البرىء فى السجن ، إرضاء لشهوات النفوس الجامحة ..

قال - تعالى - : ﴿ ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

وهكذا نجد السورة الكريمة تحدثنا عن نماذج من البشر ، فتصف كل نموذج بما يناسبه من صفات ، بصدق وأمانة ، وتحكم عليه بالحكم الذى يناسبه .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وإيحاءاتها ، بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة ..

ففى الوقت الذى كان الرسول - ﷺ - يعانى من الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش - منذ عام الحزن - كان الله - تعالى - يقص عليه قصة أخ له كريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهو يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات ..

محنة كيد الإخوة ، ومحنة الجب ، ومحنة الرق ، ومحنة كيد امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان ..

فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبى الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك .. تسلية للرسول - ﷺ - ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم ، وتسرية لقلوبهم وتطمينا لنفوسهم .

ولكأن الله - تعالى - يقول لنبيه - ﷺ - : كما أخرج يوسف من حضن أبيه ليواجه هذه الابتلاءات كلها ، ثم لينتهى بعد ذلك إلى النصر والتمكين ..

كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مكة مهاجرا ... ثم تعود إليها فى الوقت الذى يشاؤه الله ظافرا منتصرا[1] .

---

(١) تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٢ ص ١٩٥٠ .

وبعد : فهذا تعريف لسورة يوسف ، رأينا أن نسوقه قبل البدء فى تفسيرها ، لعله يعين على فهم ما اشتملت عليه من حكم وأحكام . ومن عبر وعظات ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة :

مساء الخميس ٩ من شعبان سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ١١/٦/ ١٩٨١ م

د . محمد سيد طنطاوى

« التفسير »

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ (٤) قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

افتتحت سورة يوسف - عليه السلام - ببعض الحروف المقطعة . وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء فى هذه الحروف فى سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود .

وقلنا ما ملخصه : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الايقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم

القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .. فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تراها تتحدث - صراحة أو ضمنا - عن القرآن الكريم وعن كونه من عند الله - تعالى - وعن كونه معجزة للرسول - ﷺ - ففى مطلع سورة البقرة : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ...﴾ .

وفى مطلع سورة آل عمران : ﴿ ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل .. ﴾ .

وفى أول سورة الأعراف : ﴿ ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ..﴾ .

وفى أول سورة يونس : ﴿ ألر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ...﴾ .

وفى أول سورة هود : ﴿ ألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... ﴾ .

وهكذا نجد أن معظم الآيات التى تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث عن أن هذا الكتاب من عند الله - سبحانه - ومنها ما يتحدث عن وحدانية الله - تعالى - ، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول - ﷺ - فى دعوته ..

وهذا كله لتنبيه الغافلين إلى أن هذاالقرآن من عند الله ، وأنه المعجزة الخالدة للرسول - ﷺ - .

ثم قال - تعالى - : ﴿تلك آيات الكتاب المبين ﴾ .

و« تلك » اسم إشارة ، المشار إليه الآيات ، والمراد بها آيات القرآن الكريم ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب . وأصل الكتب ضم أديم الى آخر بالخياطة . واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، والمراد به القرآن الكريم .

والمبين : أى الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أى ظهر .

والمعنى : تلك الآيات التى نتلوها عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة وفى غيرها ، هى آيات الكتاب الظاهر أمره ، الواضح إعجازه ، بحيث لا تشتبه على العقلاء حقائقه ، ولا تلتبس عليهم هداياته .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب الكريم ، مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ .

أى : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد - ﷺ - بلسان عربى مبين ، لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به ، تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهداياته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله - عز وجل - .

فالضمير فى « أنزلناه » يعود إلى الكتاب ، وقرآنا حال من هذا الضمير أو بدلا منه .

والتأكيد بحرف إن متوجه إلى خبرها وهو أنزلناه ، للرد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .

وجملة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ بيان لحكمة إنزاله بلغة العرب وحذف مفعول « تعقلون » للإشارة إلى أن نزوله بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصول تعقل أشياء كثيرة لا يحصيها العد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وفى أشرف شهور السنة ، فكمل له الشرف من كل الوجوه»[١] .

وقال الجمل : « واختلف العلماء هل يمكن أن يقال : فى القرآن شىء غير عربى .

قال أبو عبيدة : من قال بأن فى القرآن شىء غير عربى فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٣ . طبعة دار الشعب .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربى مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، وإستبرق ونحو ذلك .

وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبى عبيدة بلسان العرب . وكلا القولين صواب - إن شاء الله - .

ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية فى الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمكن الجمع بينهما»[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها فقال - تعالى - : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : « القصص : إتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة قال - تعالى - ﴿ وقالت لأخته قصيه .. ﴾ أى اتبعى أثره . وقال - تعالى - : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ أى : اتباعًا . وإنما سميت الحكاية قصصا ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، كما يقال : « تلا فلان القرآن ، أى قرأه آية فآية » [2] .

والمعنى : نحن نقص عليك - أيها الرسول الكريم « أحسن القصص » أى : أحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله .

وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص ، لا شتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبر والعظات .

والباء فى قوله ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ للسببية متعلقة بنقص ، و ﴿ ما ﴾ مصدرية .

أى : نقص عليك أحسن القصص ، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى هو فى الذروة العليا فى بلاغته وتأثيره فى النفوس .

وجملة ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ فى موضع الحال من كاف الخطاب فى ﴿ إليك ﴾ و « وإن » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٣٢ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٨٥ .

والضمير فى قوله ﴿ من قبله ﴾ يعود إلى الإيحاء المفهوم من قوله ﴿ أوحينا ﴾ .

والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحيناه إليك من هذا القرآن . والحال أنك كنت قبل إيحائنا إليك بهذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .

قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثال لأحسن القصص فقال - تعالى - ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

ويوسف : اسم أعجمى ، مشتق - كما يقول الآلوسى - من الأسف ، وسمى به لأسف أبيه عليه . وأبوه : هو يعقب بن إسحاق بن إبراهيم . وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وقوله : ﴿ يا أبت ﴾ أصله يا أبى ، فحذفت الياء وعوض عنها تاء التأنيث ، ونقلت إليها كسرة الباء ، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - وقت أن قال يوسف لأبيه ، يا أبت إنى رأيت فى منامى ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ تسجد لى ، ورأيت كذلك ﴿ الشمس والقمر ﴾ لى ﴿ ساجدين ﴾ .

ولم يدرج الشمس والقمر فى الكواكب مع أنها منها ، لإظهار مزيتها ورفعا لشأنها ، وجملة ﴿ رأيتهم لى ساجدين ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها .

وأجريت هذه الكواكب مجرى العقلاء فى الضمير المختص بها ، لوصفها بوصفهم حيث إن السجود من صفات العقلاء ، والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته .

قال ابن كثير : « وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة وسفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ،

وهو سريره . وإخوته بين يديه .. وخروا له سجدا وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا ... » [1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : ﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ .

وقوله ﴿ يا بنى ﴾ تصغير ابن . والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه ، والتلطيف معه .

وقوله ﴿ رؤياك ﴾ من الرؤيا التى هى مصدر رأى العلمية الدالة على ما وقع للإنسان فى نومه ، أما رأى البصرية فيقال فى مصدرها الرؤية .

وقوله « فيكيدوا لك .. » من الكيد وهو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار والفعل كاد يتعدى بنفسه ، فيقال : كاده يكيده كيدا ، إذا احتال لإهلاكه . ولتضمنه معنى احتال عدى باللام .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بشفقة ورحمة ، بعد أن سمع منه ما رآه فى منامه : « يا بنى » لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه ..

وإنما قال له ذلك ، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله - تعالى - سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما . ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، ومن عدوانهم عليه .

والتنوين فى قوله « كيدا » للتعظيم والتهويل ، زيادة فى تحذيره من قص الرؤيا عليهم .

وجملة « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » واقعة موقع التعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته ، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذى يغريهم بالكيد له إذا ما قص عليهم ما رآه ، وهو بذلك لا يثير فى نفسه الكراهة لإخوته .

أى : لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، فيفرح هو بذلك ، إذ كل قبيح يقوله أو يفعله الناس يفرح له الشيطان .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٨ .

أنه يجوز للانسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه . ومن الأحاديث التى وردت فى فضل الرؤيا الصالحة ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله - ﷺ - من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. » .

وفى حديث آخر : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » .

وفى حديث ثالث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له »[1] .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « والظاهر أن القوم - أى إخوة يوسف - كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء[2] .

وهذا ما عليه الأكثرون سلفا وخلفا . أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم .

وأما الخلف فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأى من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، فى مؤلف له خاص بهذه المسألة ، وقد قال فيه :

الذى يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار ، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس فى القرآن ولا فى السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء ... » .

ثم حكى - سبحانه - ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال :

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم ﴾ .

والكاف فى قوله ﴿ وكذلك ﴾ حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهى داخلة على كلام محذوف .

---

(١) لمعرفة المزيد عن الرؤيا المنامية راجع تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥٠٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٦٤ .

وقوله ﴿ يجتبيك ﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشىء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

و ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ معناه تفسيرها تفسيرا صحيحا ، إذ التأويل مأخوذ من الأَوْل بمعنى الرجوع ، وهو رد الشىء إلى الغاية المرادة منه .

والأحاديث جمع تكسير مفرده حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها .

والمعنى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه - سبحانه - يجتبيك ويختارك لأمور عظام فى مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحسِّ ، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكا سليما ، وتعبر الرؤى تعبيرا صحيحا صادقاً .

« ويتم نعمته عليك » بالنبوة والرسالة والملك والرياسة « وعلى آل يعقوب » وهم إخوته وذريتهم ، بأن يسبغ عليهم الكثير من نعمه .

﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ أى: من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت .

وقوله « إبراهيم وإسحاق » بيان لأبويه .

أى : يتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما - سبحانه - النبوة والرسالة .

وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف ، مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام - ، وللمبالغة فى إدخال السرور على قلبه ، ولأن هذا الاستعمال مألوف فى لغة العرب ، فقد كان أهل مكة يقولون للنبى - ﷺ - يا ابن عبد المطلب ، وأثر عنه - ﷺ - أنه قال : أنا النبى لا كذب - أنا ابن عبد المطلب . وجملة « إن ربك عليم حكيم » مستأنفة لتأكيد ما سبقها من كلام .

أى : إن ربك عليم بمن يصطفيه لحمل رسالته ، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته ، حكيم فى صنعه وتصرفاته .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وساقت بأسلوب حكيم ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بعد أن قص ما رآه فى المنام .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه . وحالتهم وهم ينفذون مؤامراتهم المنكرة وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا

إلى أبيهم ليلا يتباكون فقال - تعالى - :

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟
يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ
بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾
فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته ، بعد أن بين - سبحانه - صفة القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف فى منامه ، وما قاله أبوه له .

وإخوة يوسف هم : رأوبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشير ، وبنيامين .

والآيات : جمع آية والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

والمعنى : لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر ، وعلى ما للحسد والبغى من شرور وخذلان .

وقوله : « للسائلين » أى : لمن يتوقع منهم السؤال ، بقصد الانتفاع بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام .

أى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، ومن تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة .. ﴾ . بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم ، قبل أن ينفذوا جريمتهم .

و « إذ » ظرف متعلق بالفعل « كان » فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته .. ﴾.

واللام فى قوله ﴿ ليوسف ﴾ لتأكيد أن زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه ، أمر ثابت ، لا يقبل التردد أو التشكك .

والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو « بنيامين » وكان أصغر من يوسف - عليه السلام - أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

ولم يذكروه باسمه ، للاشعار بأن محبة يعقوب له ، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد .

وجملة « ونحن عصبة » حالية . والعصبة كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أو لأن الأمور تعصب بهم . أى تشتد وتقوى .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكر به : ليوسف وأخوه «بنيامين» أحب إلى قلب

أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخيه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ تذييل قصدوا به درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف وإلقائه على أبيه الذى فرق بينهم - فى زعمهم - فى المعاملة .

والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء فى موضعها الصحيح ، وليس المراد به الضلال فى العقيدة والدين .

أى : إن أبانا لفى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته .

قال القرطبى : لم يريدوا بقولهم ﴿ إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ الضلال فى الدين إذلو أرادوه لكانوا كفارا ، بل أرادوا : إن أبانا لفى ذهاب عن وجه التدبير فى إيثاره اثنين على عشرة ، مع استوائهم فى الانتساب إليه » [1] .

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس فى محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة .

وقال بعضهم : إن زيادة حبه ليوسف وأخيه ، صغرهما ، وموت أمهما ، وقد قيل لإحدى الأمهات : أى بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .

ولا لوم على الوالد فى تفضيله بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما يدخل تحت وسع البشر .. » [2] .

ثم أخبر - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال - تعالى - : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ .

ولفظ « اطرحوه » مأخوذ من الطرح ، ومعناه رمى الشىء وإلقاؤه بعيداً ، ولفظ « أرضاً » منصوب على نزع الخافض ، والتنوين فيه للإبهام . أى : أرضا مجهولة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧١ .

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولى بذلك منهما ؛ وما دام هو مصراً على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت فيها غريبا .

قال الآلوسى : « وحاصل المعنى : اقتلوه أو غربوه ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود ، ولعمرى لقد ذكروا أمرين مرين ، فإن الغربة كربة أية كربة ، ولله - تعالى - در القائل :

حسنوا القول وقالوا غربة   إنما الغربة للأحرار ذبح

وجملة « يخل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر .

والخلو : معناه الفراغ . يقال خلا المكان يخلو خلوا وخلاء ، إذا لم يكن به أحد .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو اقذفوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه إليكم وحدكم ، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف .

قال صاحب الكشاف : « يخل لكم وجه أبيكم » أى : يقبل عليكم إقبالة واحدة ، لا يلتفت عنكم إلى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشىء أقبل عليه بوجهه ... » [1] .

وقوله ﴿ وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ معطوف على جواب الأمر .

أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه فى أرض بعيدة ، قوما صالحين فى دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم ، وصالحين فى دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التى كان يثيرها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر فى صورة الكبائر ، والكبائر فى صورة الصغائر .

فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم ، يستحق إزهاق روح الأخ . وفى الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شىء هين ، فى الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم ،وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٥ .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ بيان للرأى الذى اقترحه أحدهم ، واستقر عليه أمرهم .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ﴿ وألقوه فى غيابة الجب ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابة الجب » بالإفراد - وقرأ أهل المدينة « فى غيابات الجب » - بالجمع - .

وكل شىء غيب عنك شيئا فهو غيابة ، ومنه قيل للقبر غيابة - قال الشاعر :

فإن أنا يوما غيبتنى غيابتى ... فسيروا بسيرى فى العشيرة والأهل

والجب : الركية - أى الحفرة - التى لم تطو - أى لم تبن بالحجارة - فإذا طويت فهى بئر . وسميت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعا . وجمع الجب جببه وجباب وأجباب .

وجمع بين الغيابة والجب ، لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين ... » [1] .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون فى السير ليصلوا إلى مقصودهم .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف أفزعه ماهم مقدمون عليه بشأن أخيهم الصغير : لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلا من ذلك ، ألقوه فى قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم .

ولم يذكر القرآن اسم هذا القائل أو وصفه ، لأنه لا يتعلق بذكر ذلك غرض ، وقد رجح بعض المفسرين أن المراد بهذا القائل « يهوذا » .

والفائدة فى وصفه بأنه منهم ، الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو طرحه فى أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وأتى باسم يوسف دون ضميره . لاستدرار عطفهم عليه ، وشفقتهم به ، واستعظام أمر قتله .

وجواب الشرط فى قوله « إن كنتم فاعلين » محذوف لدلالة « وألقوه » عليه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣٢ .

والمعنى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه فى غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تطرحوه أرضا .

وفى هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التغريب بأسلوب بليغ ، حيث فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به ، فكان أمثلهم رأيا ، وأقربهم إلى التقوى .

قالوا : وفى هذا الرأى عبرة فى الاقتصاد عند الانتقام ، والاكتفاء بما حصل به الغرض دون إفراط ، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن أبيهم . وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه فى غيابة الجب .

ثم حكى - سبحانه - محاولاتهم مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم - محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم - : يا أبانا « مالك لا تأمنا على يوسف » أى : أى شىء جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف فى خروجه معنا ، والحال أننا له لناصحون ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصادق .

وفى ندائهم له بلفظ « يا أبانا » استمالة لقلبه ، وتحريك لعطفه ، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم .

والاستفهام فى قولهم « مالك لا تأمنا .. » للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته ، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك فى اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب .. ﴾ .

والرتع والرتوع هو الاتساع فى الملاذ والتنعم فى العيش ، يقال : رتع الإنسان فى النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت ، وفعله كمنع والمراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السآمة ، كالتسابق عن طريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .

أى : أرسله معنا غدا ليتسع فى أكل الفواكه ونحوها ،وليدفع السآمة عن نفسه عن طريق القفز والجرى والتسابق معنا .

﴿ وإنا له لحافظون ﴾ . كل الحفظ من أن يصيبه مكروه ، أو يمسه سوء .

وقد أكدوا هذه الجملة والتى قبلها وهى قوله « وإنا له لناصحون » بألوان من المؤكدات ، لكى يستطيعوا الحصول على مقصودهم فى اصطحاب يوسف معهم .

وهو أسلوب يبدو فيه التحايل الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مآرب سيئة .

ثم أخبر – سبحانه – عما رد به عليهم أبوهم فقال : ﴿ قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .

والخوف : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

والذئب : حيوان معروف بعدوانه على الضعاف من الإنسان ومن الحيوان ، وأل فيه للجنس ، والمراد به أى فرد من أفراد الذئاب .

أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب يوسف للذهاب معهم يا أبنائى إننى ليحزننى حزناً شديداً فراق يوسف لى ، وفضلا عن ذلك فإننى أخشى إذا أخذتموه معكم فى رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ، بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه .

قالوا : وخص الذئب بالذكر من بين سائر الحيوانات ، ليشعرهم بأن خوفه عليه مما هو أعظم من الذئب توحشا وافتراسا أشد وأولى .

أو خصه بالذكر لأن الأرض التى عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب .

وقوله – سبحانه – : ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ رد مؤكد من إخوة يوسف على تخوف أبيهم وتردده فى إرساله معهم . إذ اللام فى قوله : « لئن » موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله : « إنا إذا لخاسرون » .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه : يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا فى هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء نافع .

وأخيراً استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف . ولتسير قصة حياته فى الطريق الذى شاء الله تعالى – له أن تسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة

الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

أى : فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى الغد إلى حيث يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به فى قعر الجب ، فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة .

فالفاء فى قوله فلما : للتفريع على كلام مقدر ، وجواب « لما » محذوف ، دل عليه السياق . وفعل « أجمع » يتعدى إلى المفعول بنفسه ، ومعناه العزم والتصميم على الشىء ، تقول : أجمعت المسير أى : عزمت عزما قويا عليه .

وقوله « أن يجعلوه » مفعول أجمعوا .

قال الآلوسى : « والروايات فى كيفية إلقائه فى الجب ، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ماله سند يعول عليه »[1] .

والضمير فى قوله ، وأوحينا إليه يعود على يوسف - عليه السلام - .

أى : وأوحينا إليه عند إلقائه فى الجب عن طريق الإلهام القلبى ، أو عن طريق جبريل - عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا الصالحة . ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ أى : لتخبرنهم فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فى مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك فى صغرك من إلقائك فى الجب ، ومن إنجاء الله - تعالى - لك ، فالمراد بأمرهم هذا : إيذاؤهم له وإلقاؤهم إياه فى قعر الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به ، لشدة شناعته .

وجملة « وهم لا يشعرون » حالية ، أى : والحال أنهم لا يحسون ولا يشعرون فى ذلك الوقت الذى تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف . لاعتقادهم أنك قد هلكت ولطول المدة التى حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك وحالهم فى ذلك الوقت ، فأنت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء يطلبون عونك ورفدك .

وقد تحقق كل ذلك - كما سيأتى - عند تفسير قوله تعالى - : ﴿ ولما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر .. ﴾ .

وكان هذا الإيحاء - على الراجح - قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا .

وكان المقصود منه ، إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيره بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٧ .

قالوا : وكان هذا الجب الذى ألقى فيه يوسف على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - بفلسطين .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يبكون فقال :

وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

فقوله :﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقى من بقايا شعاع الشمس ، وبدء حلول الظلام والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه - فى زعمهم - أنهم لم يقصروا فى حق أخيهم .

أى : وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتباكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : « دموع الفاجر بيديه » .

﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى : نتسابق عن طريق الرمى بالسهام ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أى : تسابقا حتى ينظر أيها يسبق الآخر .

﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى : عند الأشياء التى نتمتع بها وننتفع فى رحلتنا ، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك .

﴿ فأكله الذئب ﴾ فى تلك الفترة التى تركناه فيها عند متاعنا .

والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا ندفنه .

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ أى : وما أنت بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن

يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .

وهذه الجملة الكريمة توحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المريب أن يقول خذونى - كما يقولون - .

ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكى وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويها آخر حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ... ﴾ أى : بدم ذى كذب ، فهو مصدر بتقدير مضافه ، أو وصف الدم بالمصدر مبالغة ، حتى لكأنه الكذب بعينه ، والمصدر هنا بمعنى المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ، أى : بدم مكذوب .

والمعنى : وبعد أن ألقوا بيوسف فى الجب ، واحتفظوا بقميصه معهم ، ووضعوا على هذا القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم شىء آخر قد يكون ظبيا وقد يكون خلافه .

وقال - سبحانه - ﴿ على قميصه ﴾ للإشعار بأنه دم موضوع على ظاهر القميص وضعا متكلفا مصطنعا ، ولو كان من أثر افتراس الذئب لصاحبه ، لظهر التمزق والتخريق فى القميص ، ولتغلغل الدم فى قطعة منه .

ولقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من قسمات وجوههم ، ومن دلائل حالهم ، ومن نداء قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبروا له مكيدة ما ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له ، ولذا جابهم بقوله : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ... ﴾ .

والتسويل : التسهيل والتزيين. يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل أى زينته وحسنته له ، وصورته له فى صورة الشىء الحسن مع أنه قبيح .

أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيئته .

ونكر الأمر فى قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ لاحتماله عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع فى الأسواق لأنه لم يكن يعلم على سبيل اليقين ما فعلوه به .

وفى هذا التنكير والإبهام - أيضا - ما فيه من التهويل والتشنيع لما اقترفوه فى حق أخيهم .

وقوله ﴿ فصبر جميل ﴾ أى : فصبرى صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه لأحد سوى الله - تعالى - ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أى : والله - تعالى - هو الذى أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابنى يوسف قد أكله الذئب .

أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونه على إظهار حقيقة ما تصفون ، وإثبات كونه كذبا ، وأن يوسف مازال حيا ، وأنه - سبحانه - سيجمعنى به فى الوقت الذى يشاؤه .

قال الآلوسى : « أخرج ابن ابى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوا به فى الجب - أخذوا ظبيا فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تا الله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا الذئب !! أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه ... »[1] .

وقال القرطبى : « استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - قد استدل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات ... »[2] .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : « وفى الآية من الفوائد : أن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه ... وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله - تعالى - فضحه الله - عز وجل - ، وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجى منه ... »[3] .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تآمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ورأيا ، وما تحايلوا به على أبيهم لكى يصلوا إلى مآربهم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم فى أخيهم . بأن ألقوا به فى الجب ..

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتشاله من الجب ، وعن بيعه بثمن بخس وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٥٠ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٢٠ .

وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ
وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ
دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ... ﴾ شروع فى الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته فى الجب .

والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر .

والوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى للناس الذين معه . ويقع هذا اللفظ على الفرد والجماعة . فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورود .

وقوله ﴿ فأدلى ﴾ من الإدلاء بمعنى إرسال الدلو فى البئر لأخذ الماء .

والدلو : إناء معروف يوضع فيه الماء .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليستقوا ، فوجد جبا ، فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورآه فرح به وقال : يابشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى ، للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل يستحق النداء ، أى : يا بشارتى أقبلى فهذا أوان إقبالك .

وقيل المنادى محذوف والتقدير : يارفاقى فى السفر أبشروا فهذا غلام ، وقد خرج من الجب .

وقرأ أهل المدينة ومكة : يابشراى هذا غلام . بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم . والضمير المنصوب وهو الهاء فى قوله : ﴿وأسروه بضاعة﴾ يعود إلى يوسف .

أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة ، وأسر من الإسرار الذى هو ضد الإعلان .

والبضاعة : عروض التجارة ومتاعها . وهذا اللفظ مأخوذ من البضع بمعنى القطع ، وأصله جملة من اللحم تبضع أى : تقطع . وهو حال من الضمير المنصوب فى ﴿ وأسروه ﴾ .

والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبره بضاعة سرية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء .

ولعل يوسف - عليه السلام - قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب .

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا فى بيعه والانتفاع بثمنه .

ومن المفسرين من يرى أن الضمير المرفوع فى قوله ﴿ وأسروه ﴾ يعود على الوارد ورفاقه ، فيكون المعنى :

وأسر الوارد ومن معه أمر يوسف عن بقية أفراد القافلة ، مخافة أن يشاركوهم فى ثمنه إذا علموا خبره ، وزعموا أن أهل هذا المكان الذى به الجب دفعوه إليهم ليبيعوه لهم فى مصر على أنه بضاعة لهم .

ومنهم من يرى أن الضمير السابق يعود إلى إخوة يوسف .

قال الشوكانى ما ملخصه : وذلك أن يهوذا كان يأتى إلى يوسف كل يوم بالطعام . فأتاه يوم خروجه من الجب فلم يجده ، فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا إلى السيارة وقالوا لهم : إن الغلام الذى معكم عبد لنا قد أبق ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذه إخوته فيقتلوه »[1] .

وعلى هذا الرأى يكون معنى ﴿وأسروه بضاعة﴾ : أخفى إخوة يوسف كونه أخا لهم ،

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٣ .

واعتبروه عرضا من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .

ويكون المراد بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ الشراء الحقيقى ، بمعنى أن السيارة اشتروا يوسف من إخوته بثمن بخس .

والحق أن الرأى الأول هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأنه بعيد عن التكلف الذى يرى واضحا فى القولين الثانى والثالث .

وقوله : ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أى : لا يخفى عليه شىء من إسرارهم . ومن عملهم السيء فى حق يوسف . حيث إنهم استرقوه وباعوه بثمن بخس ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم . كما جاء فى الحديث الشريف .

وقوله : - سبحانه - ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لما فعله السيارة بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .

وقوله ﴿ شروه ﴾ هنا بمعنى باعوه .

والبخس : النقص ، يقال بخس فلان فلانا حقه ، إذا نقصه وعابه . وهو هنا بمعنى المبخوس .

و ﴿ دراهم ﴾ جمع درهم ، وهى بدل من ﴿ ثمن ﴾ .

و ﴿ معدودة ﴾ صفة لدراهم ، وهى كناية عن كونها قليلة ، لأن الشيء القليل يسهل عده ، بخلاف الشيء الكثير ، فإنه فى الغالب يوزن وزنا .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضا من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة ، ذكر بعضهم أنها لا تزيد على عشرين درهما .

وقوله : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لعدم حرصهم على بقائه معهم ، إذ أصل الزهد قلة الرغبة فى الشيء ، تقول زهدت فى هذا الشى ء ، إذا كنت كارها له غير مقبل عليه .

أى : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين فى بقائه معهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وزهدهم فيه سببه أنهم التقطوه من الجب ، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالى أن يبيعه بأى ثمن خوفا من أن يعرض له مستحق ينزعه منه ... »[1] .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٠٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ...﴾ بيان لبعض مظاهر رعاية الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ولقبه القرآن بالعزيز كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق...﴾ .

و ﴿ من مصر ﴾ صفة لقوله ﴿ الذى اشتراه ﴾ .

وامرأته : المراد بها زوجته ، واسمها كما قيل زليخا أو راعيل .

ومثواه من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال : ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أطال الإقامة به . ومنه قوله - تعالى - ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين ....﴾ أى مقيما معهم .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لامرأته : اجعلى محل إقامته كريما ، وأنزليه منزلا حسنا مرضيا .

وهذا كناية عن وصيته لها بإكرامه على أبلغ وجه ، لأن من أكرم المحل بتنظيفه وتهيئته تهيئة حسنة فقد أكرم صاحبه .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ أكرمى مثواه ﴾ أى : اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما : أى حسنا مرضيا بدليل قوله بعد ذلك ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ .

والمراد : تفقديه بالإحسان ، وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ، ساكنة فى كنفنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده وهل يراعى حق نزولك به ؟ واللام فى ﴿ لامرأته ﴾ متعلق بقال ... »[1] .

وقوله : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه .

أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وأمارات الأدب وحسن الخلق .

قالوا وهذه الجملة ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ توحى بأنها لم يكن عندهما أولاد . والكاف فى قوله - سبحانه - ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾ فى محل نصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف والإشارة الى ما تقدم من إنجائه من إخوته ، وانتشاله من الجب ، ومحبة العزيز له ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ .

و « مكنا » من التمكين بمعنى التثبيت ، والمراد بالأرض : أرض مصر التى نزل فيها .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهى فيها .

وقوله - سبحانه - ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ علة لمعلل محذوف ، فكأنه قيل : وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ، واستنارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الرؤى تفسيرا صحيحا صادقا .

وقوله : ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ تذييل قصد به بيان قدرة الله - تعالى - ونفاذ مشيئته .

فأمر الله هنا : هو ما قدره وأراده .

أى : والله - تعالى - متمم ما قدره وأراده، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا ينازعه منازع ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال .

والتعبير بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ احتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله - تعالى - من فضله ما يجعلهم لا يندرجون فى الكثرة التى لا تعلم ، بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون مالا يعلمه غيرهم .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾ .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية فى ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع ، يقال : شد النهار إذا ارتفع .

ويرى بعضهم أنه مفرد جاء بصيغة الجمع ويرى آخرون أنه جمع لا واحد له من لفظه وقيل هو جمع شدة كأنعم ونعمة .

والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، وهى السن التى كان فيها - على ما قيل - ما بين الثلاثين والأربعين .

﴿ آتيناه ﴾ أى : أعطيناه بفضلنا وإحساننا .

﴿ حكما ﴾ أى : حكمة ، وهى الإصابة فى القول والعمل أو هى النبوة .

و ﴿ علما ﴾ أى فقها فى الدين . وفهما سليما لتفسير الرؤى ، وإدراكا واسعا لشئون الدين والدنيا .

وقوله : ﴿وكذلك نجزى المحسنين ﴾ أى : ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم ،

نعطى ونجازى الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله أحسن الله - تعالى - جزاءه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، فى حياة يوسف - عليه السلام - وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده ، وآتاه الله - تعالى - حكما وعلما ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى بأسلوبها البليغ ما فعلته معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد ... فتقول :

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا
ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ... ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف فى منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين ، تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

والمراودة - كما يقول صاحب الكشاف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحايل لمواقعته إياها[1] .

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل . وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفا من الله - تعالى ..

وقال - سبحانه - ﴿ التى هو فى بيتها ﴾ دون ذكر لاسمها ، سترا لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .

والمراد ببيتها : بيت سكناها ، والإخبار عن المراودة بأنها كانت فى بيتها . أدعى لإظهار كمال نزاهته ه عليه السلام - فإن كونه فى بيتها يغرى بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها ، ولم يطاوعها فى مرادها .

وعدى فعل المراودة بعن ، لتضمنه معنى المخادعة .

قال بعض العلماء : و« عن » هنا للمجاوزة ، أى : راودته مباعدة له عن نفسه ، أى : بأن يجعل نفسه لها ، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم ، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة ، قاله ابن عطيه ، أى : فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه فى نفسه »[2] .

وقوله ﴿ وغلّقت الأبواب ﴾ أى : أبواب بيت سكناها الذى تبيت فيه بابا فباباً ، قيل : كانت الأبواب سبعة .

والمراد أنها أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقا شديدا محكما ، كما يشعر بذلك التضعيف فى « غلّقت » زيادة فى حمله على الاستجابة لها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٥٠ للشيخ الفاضل بن عاشور .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أى : هأنذا مهيئة لك فأسرع فى الإقبال على ...

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت من المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة ...

و « هيت » اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهى كلمة حض وحث على الفعل ، واللام فى « لك » لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما فى قولهم : سقيا لك وشكراً لك . وهى متعلقة بمحذوف فكأنما تقول : إرادتى كائنة لك .

قال الجمل ما ملخصه : « ورد فى هذه الكلمة قراءات : « هَيتِ » كليت ، و « هِيتَ » كفيل و « هَيتُ » كحيث ، و « هِئتُ » بكسر الهاء وضم التاء ، و « هِئتَ » بكسر الهاء وفتح التاء .

ثم قال : فالقراءات السبعية خمسة ، وهذه كلها لغات فى هذه الكلمة ، وهى فى كلها اسم فعل بمعنى هلم أى أقبل وتعال[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ بيان لما ردّ به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

و « معاذ » مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف أى : قال يوسف فى الرد عليها : أعوذ بالله معاذا مما تطلبينه منى ، وأعتصم به اعتصاما مما تحاولينه معى ، فإن ما تطلبينه وتلحين فى طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشرف .. ولا يفعله إلا من خبث منبته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .

وقوله ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ تعليل لنفوره مما دعته إليه ، واستعاذ بالله منه .

والضمير فى « إنه » يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظ ربى بمعنى خالقى . والتقدير : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله - تعالى - بما أكرمنى به من النجاة من الجب ، ومن تهيئة الأسباب التى جعلتنى أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يغضبه ؟ .

وجوز بعضهم عودة الضمير فى « إنه » إلى زوجها ، فيكون لفظ ربى بمعنى سيدى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٤٤ .

ومالكى ، والتقدير : معاذ الله أن أقابل من اشترانى بماله ، وأحسن منزلى ، وأمرك بإكرامى - بالخيانة له فى عرضه .

وفى هذه الجملة الكريمة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواقعتها ، لأنه يؤدى إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .

وجملة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر لصدها عما تريده منه .

والفلاح : الظفر وإدراك المأمول .

أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران وعدم الفلاح فى الدنيا والآخرة فكيف تريدين منى أن أكون كذلك ؟ .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها ، هيت لك : بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله - كما حكى القرآن عنه - ﴿ معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة ...

ولكن نداء العقل ونداء الشهوة الجامحة لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا بعد ذلك صداما آخر بينهما فيقول : ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ... ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى خلط المفسرون فيها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة .

وسنبين أولا الرأى الذى نختاره فى تفسيرها ، ثم نتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : الْهَمّ : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول هممت على فعل هذا الشىء ، إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال : بعض العلماء : الهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه ، وهَمٌّ بمعنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد فى الأعيان .

روى الشيخان وأهل السنن عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن الله

تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به »[١] .

وقد أجمع العلماء على أن همَّ امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة وتغليق الأبواب ، وقولها « هيْت لك » .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية : من غير جزم وعزم ...

وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوّة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه هو : ما غرسه الله - تعالى - فى قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .

أو هو - كما يقول ابن جرير - رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان همّ به ..

والمعنى : ولقد همت به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز مواقعة يوسف - عليه السلام - قصداً جازما ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل فلم يستجب لها ...

﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أى : ومال إلى مطاوعتها بمقتضى طبيعته البشرية وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل ...

ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون الله - تعالى - له على مقاومة شهوته .... كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل ، وصرفه عنه صرفا كليا ، وجعله يفر هاربا طالبا النجاة مما تريده منه تلك المرأة .

هذا هو الرأى الذى نختاره فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال ما ملخصه .

وقوله - تعالى - ﴿ ولقد همت به ﴾ معناه : ولقد همت بمخالطته ؛ « وهم بها » أى : وهم بمخالطتها « لولا أن رأى برهان ربه » جوابه محذوف تقديره ؛ لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله. معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٢٨ .

فإن قلت : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟ .

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه بأنه من عباده المخلصين »[1] .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الآلوسى ، فقد قال ما ملخصه :

قوله : « ولقد همت به » أى : بمخالطته .. والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزما جازما ، لا يلويها عنها صارف بعدما باشرت مباديها ...

والتأكيد - باللام وقد - لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .

﴿ وهم بها ﴾ أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ... ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به ... « لولا أن رأى برهان ربه » أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .

والمراد برؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين ... »[2] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بهمها به : الهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .

وأن المراد بهمه بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه آثر الهرب .

وقد قرر هذا الرأى ودافع عنه وأنكر سواه صاحب المنار ، فقد قال ما ملخصه :

« ولقد همت به » أى : وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ... فخرجت بذلك عن طبع أنوثتها فى التمنع .. مما جعلها تحاول البطش به

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٩١ .

بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام معهود من مثلها ، وممن دونها فى كل زمان ومكان ...

وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله ، وهو قوله - تعالى - ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه فى سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - ﴿ والله غالب على أمره ﴾ وهو إما النبوة ... وإما معجزتها .. وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهى مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه »[1] .

وما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الاعتداء الذى وقع عليه منها ... أقول : ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم بذلك ، لا أرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة ...

ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف - عليه السلام - عن أن يكون قدهم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن لا نرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطور المناهى فى الأذهان ، لا مؤاخذة عليها ، مادامت لم يصاحبها عزم أو قصد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل .

هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين فى معنى الآية الكريمة ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ؛ لأنه لا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل ولا من اللغة ... وإنما هى من الأوهام الإسرائيلية التى تتنافى كل التنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف - عليه السلام .

قوله - سبحانه - ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .

والكاف : نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله « لولا أن رأى برهان ربه » أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشىء من مكان إلى مكان والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه ، أى : أريناه مثل هذه الإراءة أو ثبتناه تثبيتا مثل هذا التثبيت لنعصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء - أى فى المنكر والفجور والمكروه - والفحشاء - أى كل ما فحش وقبح من الأفعال كالزنا ونحوه .

« إنه من عبادنا المخلصين » - بفتح اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتناوعصمناهم من كل ما يغضبنا .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٣٧٨ .

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو « المخلصين » - بكسر اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

والجملة الكريمة على القراءتين تعليل لحكمة صرفه - عليه السلام - عن السوء والفحشاء .

وقوله - سبحانه - ﴿ واستبقا الباب ... ﴾ متصل بقوله - سبحانه - قبل ذلك ﴿ ولقد همت به ... ﴾ وقوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ... ﴾ اعتراض جىء به بين المتعاطفين تقريرا لنزاهته .

وقوله ﴿ واستبقا .. ﴾ من الاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

ووجه تسابقهما : أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التى طلبتها منه . وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وأفرد - سبحانه - الباب هنا ، وجمعه فيما تقدم ، لأن المراد به هنا الباب الخارجى ، الذى يخلص منه يوسف إلى خارج الدار ، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أى : واستبقا إلى الباب .

وجملة « وقدت قميصه من دبر » حالية ، والقد : القطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولا ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله : ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أى : وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم .

وقال - سبحانه - ﴿ وألفيا سيدها ﴾ لأن ملك العزيز ليوسف - عليه السلام - لم يكن ملكا صحيحا ، فيوسف ليس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبيع السيارة له ، إنما كان على سبيل التخلص منه بعد أن التقطوه من الجب .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ حكاية لما قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف .

أى قالت تلك المرأة لزوجها عندما فوجئت به لدى الباب : ليس من جزاء لمن أراد

بأهلك - تعنى نفسها - سوءا ، أى ما يسوءك ويؤلمك ، إلا أن يسجن ، عقوبة له ، أو أن يعذب عذابا أليما عن طريق الضرب أو الجلد ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على أهلك .

وهذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن الكريم عنها ، تدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء والتحكم فى إرادة زوجها ...

ورحم الله الآلوسى فقد علق على قولها هذا الذى حكاه القرآن عنها بقوله ما ملخصه : « ولقد آتت - تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى - حيث شاهدها زوجها على تلك الحالة المريبة - بحيلة جمعت فيها غرضيها ، وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه ...

ولم تصرح بالاسم ، بل أتت بلفظ عام « من أراد بأهلك سوءا .. » تهويلا للأمر ، ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءاً .

وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز ، إعظاما للخطب ...

ثم إن حبها الشديد ليوسف - عليه السلام - حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، لاسيما أن قولها : « إلا أن يسجن .. » قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين ... »[1] .

والحق أن هذه الجملة التى حكاها القرآن عنها ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء - كما سبق أن أشرنا - ومن مظاهر ذلك ، محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسعى زوجها فى التخلص منه ببيعه - مثلا - .

وفى الوقت نفسه إفهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هى الآمرة الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يجد مفرا من الرد على هذا الاتهام الباطل ، فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى ... ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٩٥ .

أي : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إني ما أردت بها سوءا كما تزعم وإنما هي التي بالغت في ترغيبي وإغرائي بارتكاب ما لا يليق معها ..

ثم قال - تعالى - : ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عم لها ..

قال صاحب المنار : « ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ، أنه كان صبيا في المهد ، ويؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال : « تكلم في المهد أربعة وهم : صفار ابن ماشطة ابنة فرعون . وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم » .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : « عيسى ابن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهد » وهذا موقوف ، والمرفوع ضعيف ، وقد اختاره ابن جرير ، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا تضعيف ...»[1] .

وعلى أية حال فالذي يهمنا أن الله - تعالى - قد سخر في تلك اللحظة الحرجة ، من يدلي بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز .

وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقد قال هذا الشاهد في شهادته - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إن كان قميصه قد من قُبُل ﴾ أي : من أمام « فصدقت » في أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دافعته من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها . « وهو من الكاذبين » في قوله « هي راودتني عن نفسي ».

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أي من خلف ﴿ فكذبت ﴾ في دعواها على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ﴿ وهو من الصادقين ﴾ في دعواه أنها راودته عن نفسه .

وسمى القرآن الكريم ذلك الحكم بينهما شهادة ، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق في قضية التبس فيها الأمر على العزيز .

وقدم الشاهد في شهادته الغرض الأول وهو - إن كان قميصه قد من قبل - لأنه إن صح

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٨٧ .

يقتضى صدقها ، وقد يكون هو حريصا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله - تعالى - أظهر ما هو الحق ، تكريما ليوسف - عليه السلام - أو يكون قد قدم ذلك باعتبارها سيدة ، ويوسف فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول رحمة بها .

وزيادة جملة « وهو من الكاذبين » بعد « فصدقت » وزيادة جملة « وهو من الصادقين » بعد « فكذبت » تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو الشأن فى إصدار الأحكام .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ... ﴾ بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد قطع من الخلف . وجه كلامه إلى زوجته معاتبا إياها بقوله : إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من « كيدكن » ومكركن وحيلكن « إن كيدكن عظيم » فى بابه ، لأن كثيرا من الرجال لا يفطنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجه له بهذا الأسلوب الناعم الهادىء ، بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها بل الجنس كله « إنه من كيدكن » .

ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له « يوسف أعرض عن هذا » أى : يايوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه . ولا تتحدث به خوفا من الفضيحة ، وحفاظا على كرامتى وكرامتها .

وقوله : ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتا تاما .

أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بإساءتك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برىء منه .

وجملة : « إنك كنت من الخاطئين » تعليل لطلب الاستغفار . أى توبى إلى الله مما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخذة .

وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسما وجزما فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادىء البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين يهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة .. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى

بيتها ، بعد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما .

هذا ومن العبر والعظات والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة :

١ - أن اختلاط الرجال بالنساء . كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر طبيعى ، وما بالذات لا يتغير .

ووجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد فى سن كانت هى فيه مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا .. أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر بعد إغراءات شتى له منها : « هيت لك » .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التى جعلتها تقول هذا القول العجيب وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرم الإسلام تحريما قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع فى الفتن ، ومنعا من تهيئة الوسائل للوقوع فى الفاحشة .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما رواه الشيخان عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار ، أفرأيت الحمو يارسول الله ؟ قال: الحمو الموت[1] » . والحمو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وسئلت امرأة انحرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك فقالت : قرب الوساد ، وطول السواد[2] .

أى : حملنى على ذلك قربى ممن أحبه وكثرة محادثتى له !

٢ - أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول فى مرحلة التصميم والتنفيذ ، لا مؤاخذة فيه .

قال القرطبى ما ملخصه : « الهم الذى هم به يوسف ، من نوع ما يخطر فى النفس ، ولا يثبت فى الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « قالت الملائكة ياربنا ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال : ارقبوه فإن

---

(١) من كتاب (رياض الصالحين) ص ٦٢١ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) الوساد معروف وهو ما يتوسد به الإنسان عند نومه - والسواد - بكسر السين مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .

قالوا : وهذه الكلمة كانت لابنة الخص ، اعتذرت بها عن نفسها بعد أن فتنت فقيل لها لماذا هذا السلوك وأنت سيدة قومك ؟ فقالت هذه الكلمة التى ذهبت مثلا .. راجع تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٧٨ .

عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من أجلى » .

وفى الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به[1] » .

٣ - أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يذكِّر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها .. كما قال يوسف - عليه السلام - ﴿ معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

٤ - أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة ونقاء العرض ، من الله - تعالى - ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة ، يوسف - عليه السلام - وتلك المرأة وزوجها ، ورب العالمين .. والكل شهد ببراءة يوسف عن المعصية ، أما يوسف - عليه السلام - فقد قال « هى راودتنى عن نفسى » وقال : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » ..

وأما امرأة العزيز فقد قالت : « أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

وأما زوجها فقد قال : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. » .

أما شهادة رب العالمين ببراءته ففى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

فقد شهد الله - تعالى - على طهارته فى هذه الآية أربع مرات ، أولها : لنصرف عنه السوء » وثانيها « الفحشاء » وثالثها « إنه من عبادنا » ورابعها « المخلصين »[2] .

٥ - أن موقف العزيز من امرأته كان موقفا ضعيفا متراخيا .. وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة المتحكمة فى زمام زوجها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشف واستهتار : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين» .

٦ - أن القرآن الكريم صور تلك المحنة فى حياة يوسف وامرأة العزيز ، تصويرا واقعيا صادقا ، ولكن بأسلوب حكيم ، بعيد عما يخدش الحياء أو يجرح الشعور

قال بعض العلماء : « والذى خطر لى أن قوله - تعالى - : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف فى أول الأمر

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١١٦ .

واستعصم ، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة ، ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة ، لأنه المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة وفى محيط الحياة البشرية المكتملة كذلك فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا..»[1] .

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء ، بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد ان سمع ما سمع من تهديدهن وإغرائهن .. قال - تعالى - :

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

(١) من تفسير « فى ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب جـ ١٢ ص ١٩٨١ طبعة دار الشروق .

قوله - سبحانه - ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. ﴾ حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء ، أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور فى مجالسهن ، ولا يكتمنها خصوصا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة .. كامرأة العزيز .

والنسوة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومفرده حيث المعنى : امرأة .

والمراد بالمدينة : مدينة مصر التى كان يعيش فيها العزيز وزوجته والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لنسوة .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر - على سبيل النقد والتشهير والتعجب - إن امرأة العزيز ، صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال فى انقيادها لهواها ، وفى خروجها عن طريق العفة .. أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى : تطلب منه مواقعتها ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم ، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع ، ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء فى مدينة كبيرة كمصر وفى وصفها بأنها « امرأة العزيز » زيادة فى التشهير بها . فقد جرت العادة بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارا بينهم ، وأشد فى النقد والتجريح .

والتعبير بالمضارع فى قوله - سبحانه - ﴿ تراود ﴾ يشعر بأنها كانت مستمرة على ذلك ، دون أن يمنعها منه افتضاح أمرها ، وقول زوجها لها « واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

والمراد بفتاها يوسف - عليه السلام - ووصفْنَه بذلك لأنه كان فى خدمتها ، والمبالغة فى رميها بسوء السلوك ، حيث بلغ بها الحال فى احتقار نفسها ، أن تكون مراودة لشخص هو خادم لها ..

وجملة « قد شغفها حبا » بيان لحالها معه ، وهى فى محل نصب حال من فاعل تراود أو من مفعوله والمقصود بها تكرير لومها ، وتأكيد انقيادها لشهواتها .

وشغف مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه أو حجابه ، يقال : شغف الهوى قلب فلان شغفا ، أى بلغ شغافه .

والمراد أن حبها إياه قد شق شغاف قلبها . وتمكن منه تمكنا لامزيد عليه و « حبا » تمييز

محول عن الفاعل ، والأصل : شغفها حبها إياه .

وجملة ﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها ، والمراد بالضلال : مخالفة طريق الصواب .

أى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا ، وصادق علمنا . فى خطأ عظيم واضح بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ، لأنها - وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير - تراود خادمها عن نفسه .

والتعبير «بإنا لنراها ..» للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال المبين الصادر عنها .

قال صاحب المنار : « وهن ما قلن هذا إنكاراً للمنكر ، وكرها للرذيلة ، ولا حبا فى المعروف ، ونصرا للفضيلة . وإنما قلنه مكرا وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن ، وإراءتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عذلنها عليه فهو مكر لا رأى »[1] .

وهنا تحكى السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال - تعالى - :

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ أى : باغتيابهن لها . وسوء مقالتهن فيها ، وسمى ذلك مكرا لشبهه به فى الإخفاء والخداع .

أو قصدن بما قلنه - كما سبق أن أشرنا - إثارتها ، لكى تطلعهن على فتاها الذى راودته عن نفسه ، ليعرفن السر فى هذه المراودة ، وعلى هذا يكون المكر على حقيقته . ومثل هذا المكر ليس غريبا على النساء فى مثل هذه الأحوال .

وقوله : ﴿ أرسلت إليهن .. ﴾ الخ بيان لما فعلته معهن .

أى : أرسلت إلى النسوة اللائى وصفنها بأنها فى ضلال مبين ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام .

﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ أى : وهيأت لهن فى مجلس طعامها ، ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق وما يشبه ذلك .

فالمتكأ : اسم مفعول من الاتكاء ، وهو الميل إلى أحد الجانبين فى الجلوس كما جرت بذلك

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٩١ .

عادة المترفين عند تناول الطعام ، وعند ما يريدون إطالة المكث مع انتصاب قليل فى النصف الأعلى من الجسم والاستراحة بعد الأكل .

أخرج ابن شيبة عن جابر عن النبى - ﷺ - أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن يأكل متكئا[1] .

﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ أى : وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم وفاكهة .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الحضارة المادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت قد بلغت شأوا بعيدا ، وأن الترف فى القصور كان عظيما ، فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية»[2] .

وهنا نجد المرأة الجريئة الماكرة ، تقول ليوسف - عليه السلام - كما حكى القرآن عنها : « اخرج عليهن » أى ابرز لهن ، وادخل عليهن ، وهن على تلك الحالة من الأكل والاتكاء وتقطيع ما يحتاج إلى تقطيع الطعام ..

وهى ترمى من وراء خروجه عليهن إلى إطلاعهن عليه حتى يعذرنها فى حبها له وقد كان لهذه المفاجأة من يوسف لهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، أثرها الشديد فى نفوسهن ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على كلام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : قالت امرأة العزيز ليوسف اخرج عليهن ، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة فلما رأينه أكبرنه ، أى : أعظمنه ، ودهشن لهيئته ، وجمال طلعته وحسن شمائله .

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أى : جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى فى أيديهن دون أن يشعرن بذلك ، لشدة دهشتهن المفاجئة بهيئة يوسف ..

﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشرا ﴾ وحاش فعل ماض ، واللام فى « لله » للتعليل ، والمراد بهذه الجملة الكريمة التعبير عن عجيب صنع الله فى خلقه أى : وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن : ننزه الله - تعالى - تنزيها كبيرا عن صفات العجز ، ونتعجب تعجبا شديدا من قدرته - سبحانه - على خلق هذا الجمال البديع ، وما هذا الذى نراه أمامنا بشرا كسائر

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٠٤ .

(٢) تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٢ ص ١٩٨٤ .

البشر ، لتفوقه فى الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب .

ووصفوه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ما هو مفرط فى الجمال والعفة بالملك وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشيطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها ، اللائى عذلنها فى حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى ، وبدون استحياء أو تلميح : ﴿ قالت فذلكن الذى لمتنَّنى فيه ﴾ .

والفاء هنا فصيحة ، والخطاب للنسوة اللائى قطعن أيديهن دهشا من جمال يوسف ، والإشارة إليه - عليه السلام - .

أى : قالت لهن على سبيل التشفى والتباهى والاعتذار عما صدر منها معه : إن كان الأمر كما قلتن ، فذلك هو الملك الكريم الذى لمتننى فى حبى له ، وقلتن ما قلتن فى شأنى لافتتانى به ، فالآن بعد رؤيتكن له ، وتقطيع أيديكن ذهولا لطلعته ، قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه ..

ثم جاهرت أمامهن بأنها أغرته بمواقعتها فلم يستجب فقالت :

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم.. ﴾ . أى : والله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لى ، فأبى وامتنع امتناعا بليغا ، وتحفظ تحفظا شديدا .

والتعبير بقوله « فاستعصم » للمبالغة فى عصمته لنفسه من الزلل ، فالسين والتاء للمبالغة ، وهو من العصمة بمعنى المنع . يقال : عصمة الطعام أى : منعه من الجوع . وعصم القربة أى : شدها بالعصام ليمنع نزول الماء منها .

وفى الآية - كما يقول الآلوسى - دليل على أنه - عليه السلام - لم يصدر منه ما سوَّد به القصَّاص وجوه الطروس[1] - أى الأوراق .

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم، والله لئن لم يفعل ما آمره به،- وأنا سيدته الآمرة الناهية لاغيرى - ليسجنن عقوبة له ، وليكونا من الصاغرين ، أى : من الأذلاء

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٢٠٩ .

المهانين المقهورين ، من الصغار . يقال : صغر فلان - كفرح - يصغر صغارا ، إذا ذل وهان .

قالوا : وأكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحققه فى نظرها ، وأكدت الصغار بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق فيه ، ولأنه من توابع السجن ولوازمه .

وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر ..

ويترامى على مسامع يوسف - عليه السلام - هذا التهديد السافر .. فيلجأ إلى ربه مستجيرا به . ومحتميا بحماه ويقول : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه .. » .

أى : قال يوسف - عليه السلام - متضرعا إلى ربه - تعالى - يارب السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى ، وآثر عندى مما يدعوننى إليه من ارتكاب الفواحش .

وقال أحب إلى مما يدعوننى إليه، ولم يقل مما تدعونى إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه ، وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار ..

قال الآلوسى : « وإسناد الدعوة إليهن ، لأنهن خوفنه من مخالفتها ، وزين له مطاوعتها .

فقد روى أنهن قلن له أطع مولاتك ، واقض حاجتها ، لتأمن عقوبتها .. وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته ، فلما خلت به دعته إلى نفسها ..

وقوله : ﴿ وإن لا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ واعتراف منه - عليه السلام - بضعفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء ، إذا لم يكن معه عون الله - تعالى - وعنايته ورعايته .

و﴿ أصب ﴾ من الصبوة وهى الميل إلى الهوى، يقال : صبا فلان يصبو صبوا وصبوة، إذا مال إلى شهوات نفسه واتبع طريق الشر ، ومنه ريح الصبا ، وهى التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها واعتدال هوائها .

والمعنى : وإلا تدفع عنى يا إلهى كيد هؤلاء النسوة ، ومحاولاتهن إيقاعى فى حبائلهن ، أمل إليهن . وأطاوعهن على ما يردنه منى ، وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ بيان

لتقبل الله - تعالى - لدعائه بفضله ورحمته .

أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعته ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى نفوسهن من الطمع فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخدع بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن .

« إنه » سبحانه « هو السميع » لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعة المخلصين « العليم » بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

وقال - سبحانه - ﴿ فاستجاب ﴾ بفاء التعقيب للإشارة إلى أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء عبده يوسف - عليه السلام - بدون تأخير أو إبطاء .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ... ﴾ وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله ، تدعوه سيدته ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ويختار السجن خوفا من الله ، ورجاء فى ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله»[1] .

ثم ساقت لنا السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف - عليه السلام - السجن ، مع ثبوت براءته ، مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو فى السحن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما يدعو إليه ، وفسر لصاحبيه فى السجن رؤياهما تفسيرا صادقا صحيحا ..

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٣ . طبعة دار الشعب .

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى

ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقوله – سبحانه – ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف – عليه السلام – بعد أن ثبتت براءته .

وبدا هنا من البداء – بالفتح – وهو – كما يقول الإمام الرازى – عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى السابق .

والضمير فى « لهم » يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته ، كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهى الكاذبة ... والحين : الزمن غير المحدد بمدة معينة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا وعاينوا البراهين المتعددة الدالة على صدق يوسف – عليه السلام – وطهارة عرضه .. بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم فى شأنه ، وأن يسجنوه فى المكان المعد لذلك ، إلى مدة غير معلومة من الزمان .

واللام فى قوله « ليسجننه » جواب لقسم محذوف على تقدير القول أى : ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .

ولاشك أن الأمر بسجن يوسف – عليه السلام – كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذا لتهديدها بعد أن صمم يوسف – عليه السلام – على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾[1] .

ولاشك – أيضا – أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهى تقوده حيث تريد كما يقود الرجل دابته .

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف فقال ما ملخصه : قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات.... ﴾

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١٣٣ .

وهى الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعا لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من أحواله بعد أن دخل السجن فقال: ﴿ ودخل معه السجن فتيان... ﴾ .

والفتيان : تثنية فتى ، وهو من جاوز الحلم ودخل فى سن الشباب .

قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازا للملك وصاحب طعامه وكان الثانى : ساقيا للملك ، وصاحب شرابه .

وقد أدخلهما الملك السجن غضبا عليهما ، لأنها اتهما بخيانته .

والجملة الكريمة عطف على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير بعد أن بدا للعزيز وحاشيته سجن يوسف . نفذا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه فى السجن فتيان من خدم الملك « قال أحدهما » وهو ساقى الملك ليوسف - عليه السلام - :

« إنى أرانى أعصر خمرا » أى : إنى رأيت فيما يرى النائم . أنى أعصر عنبا ليصير خمرا . سماه بما يؤول إليه .

« وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه » أى : وقال الثانى وهو خباز الملك ، إنى رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأسى سلالا بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ يعود إلى المرئى فى المنام أى : أخبرنا بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، إذ نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك ، من السجناء الذين أنت واحد منهم .

وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام ه فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمهد لذلك بأن يعرفهما

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٩ . وقوله (وفتلها منه فى الذروة والغارب) مثل يضرب لمن يتلطف فى خداع غيره ، حتى يتمكن من إخضاعه له ، ومن انقياده لأمره والذروة - بالكسر والضم - أعلى الشىء والمراد به هنا أعلى سنام البعير ، والغارب المكان الذى العنق والسنام منه ، والمراد أن صاحب الجمل يخفى الخطام ويأخذ فى التحايل على الجمل حتى يتمكن منه فيضع فيه الخطام ويقوده به .

بنفسه ، وبعقيدته ، ويدعوهما إلى عبادة الله وحده ويقيم لهما الأدلة على ذلك ..

وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس ، إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم ..

وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ فى رده عليهما بقوله : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .. ﴾ .

أى : قال يوسف لرفيقيه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما : « لايأتيكما » أيها الرفيقان « طعام ترزقانه » فى سجنكما ، فى حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بما هيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول ، فيستجيبا لدعوته لهما إلى وحدانية الله بعد ذلك .

وقوله « ذلكما مما علمنى ربى » نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والأخبار عن المغيبات ، كأخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ..

ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق الكهانة أو التنجيم كما يفعل غيرى .

وقوله : « مما علمنى ربى » فيه إشعار بأن ما أخبرهما به من مغيبات هو جزء من علوم كثيرة علمها إياه ربه - عز وجل - فضلا منه - سبحانه - وكرما..

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إنى تركت ملة قوم » أى دين قوم « لا يؤمنون بالله » أى لا يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ، وإنما يدينون بالعبودية لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .

« وهم بالآخرة » وما فيها من ثواب وعقاب « هم كافرون » جاحدون لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه ، من إشراك وكفر ، ولم يواجه الفتيان بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه ..

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير .

ولما كان تركه لملة هؤلاء القوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، تراه يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : ﴿ واتبعت ملة آبائى ﴾ الكرام المؤمنين بوحدانية الله وبالآخرة وما فيها من حساب وجزاء .

﴿ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ . وسماهم آباء جميعا ، لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون ابراهيم هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليهم السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة ، بيان منه - عليه السلام - لرفيقيه فى السجن ، بأنه من سلسلة كريمة ، كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف ، وقوله ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ﴾ تنزه عن الشرك بأبلغ وجه .

أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شىء من الإشراك ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله - تعالى - عن ذلك .

و « من » فى قوله « من شىء » لتأكيد النفى وتعميمه . أى : ما كان لنا أهل هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإشراك ، قليلا ذلك الشىء أو حقيرا .

وقوله ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس... ﴾ اعتراف منه - عليه السلام - برعاية الله - تعالى - له ولآبائه .

واسم الإشارة . يعود إلى الإيمان بالله - تعالى - المدلول عليه بنفى الشرك .

أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه - علينا معاشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس ، الذين هداهم إلى الإيمان الحق .

وقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ إنصاف للقلة الشاكرة لله - تعالى - .

أى : ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - تعالى - على نعمه الجزيلة وآلائه التى لا تحصى .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبملته وبآبائه . شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ .

أى : ياصاحبى ورفيقى فى السجن أخبرانى بربكما ، أعبادة عدد من الأرباب المتفرقة فى

ذواتها وصفاتها « خير » لكما « أم » عبادة الله - تعالى - « الواحد » فى ذاته وصفاته « القهار » لكل من غالبه أو نازعه ؟

وكرر نداءهما بالصحبة ليتحبب إليهما بهذه الصفة التى فيها إيناس للقلوب ، وليسترعى انتباههما إلى ما سيقوله لهما .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « وقوله : أأرباب متفرقون خير ... » هذا استفهام تقرير بعد تخيير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون المخاطبون به ، يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين فى ذواتهم وفى صفاتهم وفى الأعمال التى يسندونها إليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه أأرباب متفرقون ، أى عديدون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام « خير » لكما ولغيركما « أم الله الواحد القهار.. »[1] .

ولاشك أن الجواب الذى لا يختلف فيه عاقلان ، أن عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، هى العبادة الصحيحة التى توافق الفطرة السليمة والعقول القويمة .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة والأوهام الكاذبة فقال : « ما تعبدون من دونه » أى من دون الله - تعالى - المستحق للعبادة .

﴿ إلا أسماء ﴾ أى ألفاظا فارغة لا قيمة لها .

﴿ سميتموها ﴾ آلهة بزعمكم « أنتم وآباؤكم » أما هى فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .

ومفعول ﴿ سميتموها ﴾ الثانى محذوف . والتقدير سميتموها آلهة .

وقوله « وآباؤكم » لقطع عذرهم ، حتى لا يقولوا : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فكأنه - تعالى - يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد منكم جهلا وضلالا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا بهم .

والمراد بالسلطان فى قوله - تعالى - ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ الحجة والبرهان .

أى : ما أنزل الله - تعالى - بتسميتها أربابا - كما سميتموها بزعمكم - من برهان أو دليل يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتم عليها هذه الأسماء .

وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم ..

---

(١) تفسير المنار جـ ١٧ ص ٣٠٧ .

أي : ما الحكم فى شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفى صحتها أو عدم صحتها إلا لله - تعالى - وحده ، لأنه الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء .

وقوله ﴿ أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته - سبحانه - إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أي : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وهو يحييهم ويميتهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أي : ذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الدين القيم .

أي : الحق المستقيم الثابت ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على أن عبادة الله - تعالى - وحده هى الدين الحق ودعاهما إلى الدخول فيه ..

بعد كل ذلك شرع فى تفسير رؤياهما ليزيدهما ثقة فى قوله ، فقال : ﴿ ياصاحبى السجن أما أحدكما ﴾ وهو ساقى الملك ، فيخرج من السجن بريئا ويسقى « ربه » أى : سيده الملك « خمرا » .

﴿ وأما الآخر ﴾ وهو خباز الملك وصاحب طعامه « فيصلب » أى : فيقتل ثم يصلب « فتأكل الطير من رأسه » بعد موته .

ولم يعين يوسف - عليه السلام - من هو الذى سيسقى ربه خمرا ، ومن هو الذى سيصلب ، وإنما اكتفى بقوله « أما أحدكما ... وأما الآخر » تلطفا معهما ، وتحرجا من مواجهة صاحب المصير السيء بمصيره، وإن كان فى تعبيره ما يشير الى مصير كل منهما بطريق غير مباشر .

ثم أكد لهما الأمر واثقا من صدق العلم الذى علمه الله إياه ، فقال : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ .

والاستفتاء : مصدر استفتى إذا طلب الفتوى من غيره فى أمر خفى عليه فهمه أى : تم التفسير الصحيح لرؤييكما اللتين سألتمانى عن تأويلها .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - حديثه مع صاحبيه فى السجن ، بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما ، اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ .

أى : « وقال » يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد أنه سينجو منهما وهو ساقى الملك ، أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك ، اذكر حقيقة حالى عنده ، وأنى سجين مظلوم .

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف - عليه السلام - فى السجن مظلوما بضع سنين .

والبضع - بالكسر - من ثلاث إلى تسع ، وهو مأخوذ من البضع - بالفتح - بمعنى القطع والشق . يقال : بضعت الشىء أى : قطعته .

وقد اختلفوا فى المدة التى قضاها يوسف فى السجن على أقوال من أشهرها أنه لبث فيه سبع سنين .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، ويكون المراد بربه أى : سيده ملك مصر .

وهناك من يرى أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى يوسف - عليه السلام - وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - ، وعليه يكون المعنى .

وقال يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك : اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه . واذكر له إحسانى لتفسير الرؤى ..

وقوله ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أى : فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله وحده ، ولا يذكرها للساقى ليبلغها إلى الملك .

فكانت النتيجة أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين بسبب هذا الاعتماد على المخلوق .

والذى يبدو لنا أن التفسير الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ... ﴾ يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد بربه أى سيده .

وقد علق الإمام الرازى على هذه الآية تعليقا يشعر بترجيحه للرأى الثانى فقال ما

ملخصه : « واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزا لعامة الخلق ، إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية ، وألا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب ..

ثم قال : والذى جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله ، صار ذلك سببا إلى البلاء وإلى المحنة .. وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه السابعة والخمسين من عمرى .

ثم قال : واعلم أن الحق هو قول من قال إن الضمير فى قوله : « فأنساه الشيطان ذكر ربه » راجع إلى يوسف .. والمعنى : أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وخالقه ..»[1] .

ونحن مع احترامنا لرأى الفخر الرازى ، إلا أننا مازلنا نرى أن عودة الضمير فى قوله « فأنساه » إلى الساقى الذى ظن يوسف أنه هو الناجى من العقوبة ، أولى لما سبق أن ذكرناه .

قال ابن كثير : وقوله ﴿ اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ... ﴾

أى :«قال يوسف اذكر قصتى عند ربك وهو الملك، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكايد الشيطان .. هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله : «فأنساه » .. عائد على الناجى كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد...»[2] .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم جانبا من حياة يوسف - عليه السلام - فى السجن فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن أراد الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - ، وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلا صحيحا سوى يوسف - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ

---

(١) تفسير الرازى جـ ١٨ ص ١٤٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٦ طبعة دار الشعب وراجع تفسير المنار جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

فقوله - سبحانه -: ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ﴾ شروع فى حكاية الرؤيا التى رآها ملك مصر فى ذلك الوقت ..

قال ابن كثير : « هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله - تعالى - أنها كانت سببا لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معززا مكرما ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك... »[1] .

وقوله « عجاف » جمع عجفاء والعجف - بفتح العين والجيم - ذهاب السمن ، يقال : هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء ، إذا ظهر ضعفها وهزالها ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢١٧ .

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته : إنى رأيت فيما يرى النائم « سبع بقرات » قد امتلأن شحما ولحما ﴿ يأكلهن سبع عجاف ﴾ أى : يأكل هذه البقرات السبع السمان ، سبع بقرات أخرى عجاف أى : مهازيل ضعاف .

ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم « سبع سنبلات خضر» قد امتلأت حبا ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات « أخر يابسات » قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

﴿ يأيها الملأ ﴾ أى : الأشراف والعلماء من قومى « أفتونى فى رؤياى » أى : فسروا لى رؤياى هذه وبينوا لى ما تدل عليه .

﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتأويلها معرفة سليمة ، وتعلمون تعبيرها علما مستمرا .

و« تعبرون » من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

قال بعض العلماء : والتعريف فى « الملك » للعهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها « الهكسوس » وهم العمالقة الذين ملكوا مصر من ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٥٢٥ ق . م .

فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلمى ..[1] .

وقال « إنى أرى » بصيغة المضارع مع أنه قد رأى بالفعل ، اسحتضارا لصورة الرؤيا حتى لكأنها ماثلة أمامه .

وقال « وأخر يابسات » بدون إعادة لفظ سبع كما فى البقرات ، للاكتفاء بدلالة المقابل فى البقرات عليه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل فى الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر ؟

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٨٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ، ويكون قوله « وأخر يابسات » بمعنى : وسبعا أخر يابسات »[١] .

وفى نداء الملك لقومه قوله ﴿ يأيها الملأ أفتونى .. ﴾ تشريف لهم ، وحض على استعمال عقولهم وعلومهم فى تفسير هذه الرؤيا التى أزعجته .

واللام فى قوله « للرؤيا » لتقوية الفعل « تعبرون » حيث تأخر عن معموله .

ويبدو أن القوم فى ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم ...

فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه فى السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك ، فى زمن كثر فيه البارعون فى تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ حكاية لما رد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع فى حزمة واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس .

والأحلام : جمع حلْم وحلُم - بإسكان اللام وضمها تبعا للحاء - وهو ما يراه النائم فى منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففى الحديث الصحيح : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان »[٢] .

أى : قال الملأ للملك : ما رأيته أيها الملك فى نومك ما هو إلا تخاليط أحلام ومنامات باطلة ، فلا تهتم بها .

فهم قد شبهوا مارآه بالأضغاث فى اختلاطها ، وعدم التجانس بين أطرافها .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

أى : إننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التعبير جـ ٩ ص ١٧ .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم ، بمعرفة تفسير رؤيا الملك ، ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فقد أتى بإن المفيدة للشك .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد فلماذا قالوا أضغاث أحلام فجمعوا ! ؟ .

قلت : هو كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامة فردة ، تزيدا فى الوصف ، فهؤلاء أيضا تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام - ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا سواها »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملأ من قوم الملك عن تأويل رؤياه فقال : ﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك .

﴿ وادكر بعد أمة ﴾ : وتذكر بعد حين طويل من الزمان كيف فسر له يوسف رؤياه تفسيرا صادقا أيام أن كان معه فى السجن .

وأصل « ادكر » اذتكر بوزن افتعل ، مأخوذ من الذكر - بتشديد الذال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الذال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال ، لأنها أخف من الذال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله « اذكرنى عند ربك » فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه ، تذكر هذا الساقى حال يوسف .

قالوا : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من السجن .

وقوله ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أى : قال الساقى للملك وحاشيته : أنا أخبركم بتأويله: بتفسير رؤيا الملك التى خفى تفسيرها على الملأ من قومه . فأرسلون ، أى : فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه ، وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف - عليه السلام - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٤ .

وقال ﴿ فأرسلون ﴾ ليشعرهم أن هذا التأويل ليس من عند نفسه ، وإنما هو من عند من سيرسلونه إليه وهو يوسف - عليه السلام .

وقوله ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ... ﴾ من بديع الإيجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون إلى من عنده العلم بذلك ، فأرسلوه فجاء إلى يوسف فى السجن فقال له : يا يوسف يأيها الصديق .

والصديق : هو الإنسان الذى صار الصدق دأبه وشيمته فى كل أحواله ، ووصفه بذلك لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه فى السجن .

وقوله « أفتنا » أى فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز الناس عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » .

وقوله « لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » تعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف - عليه السلام .

أى : فسر لنا هذه الرؤيا « لعلى أرجع إلى الناس » وهم الملك وأهل الحل والعقد فى مملكته ، « لعلهم يعلمون » تأويلها ، فينتفعون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

وهنا تجد يوسف - عليه السلام - لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤولها تأويلا صادقا صحيحا ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال ، فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ... ﴾ .

وتزرعون ههنا : خبر فى معنى الأمر ، بدليل قوله بعد ذلك « فذروه » ..

وعبر عن الأمر بالمضارع مبالغة فى التعبير عن استجابتهم لنصيحته ، فكأنهم قد امتثلوا أمره ، وهو يخبر عن هذا الامتثال .

و﴿ دأبا ﴾ مصدر دأب على الشىء إذا استمر عليه ولازمه يقال : دأب فلان على فعل هذا الشىء يدأب دأْبا ودأَبا إذا داوم عليه ، وهو حال من ضمير « تزرعون » أى قال يوسف للساقى : فارجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿ فما حصدتم ﴾ من زرعكم فى كل سنة ، فذروه فى سنبله ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه : إلا قليلا مما تأكلون،

أى : اتركوا الحب فى سنبله فلا تخرجوه منها ، إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى مأكلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا فى مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

قال القرطبى : هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ولا خلاف ، فإن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله - تعالى - وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده ... »[1] .

وقوله ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك ﴾ أى : من بعد تلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿ سبع شداد ﴾ أى : سبع سنين صعاب على الناس، لما فيهن من الجدب والقحط ، يأكلن ما قدمتم لهن ، أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنابلها .

وأسند الأكل إلى السنين على سبيل المجاز العقلى ، من إسناد الشىء إلى زمانه .

وقوله ﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾ أى : أن تلك السنين المجدبة ستأكلون فيها ما ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئا قليلا منه يبقى محرزا ، لتنتفعوا به فى زراعتكم لأرضكم .

فقوله ﴿ تحصنون ﴾ من الإحصان بمعنى الإحراز والادخار ، يقال أحصن فلان الشىء ، إذا جعله فى الحصن ، وهو الموضع الحصين الذى لا يوصل إليه إلا بصعوبة .

وحاصل تفسير يوسف - عليه السلام - لتلك الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخصبة . وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التى ستأتى فى أعقاب السنين المخصبة وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع فى السنين المخصبة ، فى السنين المجدبة .

ولقد كان هذا التأويل لرؤيا الملك تأويلا صحيحا صادقا من يوسف - عليه السلام - بسببه أنقذ الله - تعالى - مصر من مجاعة سبع سنين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٠٣ .

وقوله ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ تبشير لهم بأن الخير سيأتيهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ ﴿ يغاث ﴾ من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التى يسوقها الله - تعالى - لهم بعد تلك السنوات الشداد التى قل فيها المطر .

يقال : غاث الله - تعالى - البلاد غيثا ، إذا ساق لها المطر بعد أن يئسوا من نزوله ، ويعصرون من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج ما فيه من مائع سواء كان هذا المائع زيتاً أم ماء أم غيرهما .

أى : ثم يأتى من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ونقص الأموال عن الناس ، بسبب إرسال الله - تعالى - المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه .

وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، وما قاله يوسف - عليه السلام - عن هذا العام الذى يأتى فى أعقاب السنوات السبع الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة التبشير للملك والناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما بوحى من الله - تعالى - الذى يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .

وإلى هنا نرى أن يوسف - عليه السلام - قد فسر رؤيا الملك تفسيرا سليما حكيما ، من نتائجه الخير للملك وقومه ...

فماذا فعل الملك مع يوسف - عليه السلام - بعد ذلك ؟

لقد قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته وما رد به يوسف - عليه السلام - على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة العزيز فى شأن يوسف وما طلبه - عليه السلام - من الملك ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه الخاص فيقول :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى
بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ
ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ
ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

فقوله - سبحانه - ﴿وقال الملك ائتونى به ...﴾ حكاية لما طلبه الملك فى ذلك الوقت من معاونيه فى شأن يوسف - عليه السلام - ، وفى الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير : وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف فى تفسير الرؤيا أحضروا لى يوسف هذا لأراه وأسمع منه ، وأستفيد من علمه .

وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازى - على فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية ؟[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١٥١ .

قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم ﴾ بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك ... .

أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد لقاءه ، قال له يوسف بأناة وإباء : ارجع إلى ربك ، أى إلى سيدك الملك « فاسأله » قبل خروجى من السجن وذهابى إليه « ما بال النسوة اللائى قطعن أيديهن » أى : ما حالهن ، وما حقيقة أمرهن معى ، لأن الكشف عن حقيقة أمرهن معى يهمنى أن يكون واضحا فى الأذهان والعقول ، حتى يعرف الجميع أننى برئ ، وأننى نقى العرض طاهر الذيل .

والمراد بالسؤال فى قوله « ارجع إلى ربك فاسأله » الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللائى قطعن أيديهن .. .

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه لزيادة تهييجه على البحث والتقصى إذ من شأن الإنسان - خصوصا إذا كان - حاكما - أن يأنف من أن يسأل عن شىء مهم ، ثم لا يهتم بالإجابة عنه .

وقد آثر يوسف - عليه السلام - أن يكون هذا السؤال وهو فى السجن لتظهر الحقيقة خالصة ناصعة ، دون تدخل منه فى شأنها .

وجعل السؤال عن النسوة اللائى قطعن أيديهن دون امرأة العزيز ، وفاء لحق زوجها ، واحترازا من مكرها ، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه ، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف ﴿ فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، سترا لهن ، وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوؤهن .

ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

أى إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - هو الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولا شك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته ... .

ولقد أجاد صاحب الكشاف فى تعليله لامتناع يوسف عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تثبت براءته فقال :

« إنما تأنى وتثبت يوسف فى إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قذف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده . ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره .

وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم ، واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها »[١] .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث فى فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك - أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى - ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ... ﴾ أن رسول الله ﷺ - قال : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر » .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ - : لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ؛ والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى .

ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر »[٢] .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ حكاية لما فعله الملك بعد أن بلغه الرسول بما طلبه يوسف منه .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف ، استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٧ ، وما ورد فى هذه الأحاديث إنما هو من باب التواضع من سيدنا رسول الله - ﷺ - وإلا فإنه - ﷺ - أقوى الرسل عزما ، وأرفعهم مقاما ، وأشدهم صبرا .

والخطب : مصدر خطب يخطب ، ويطلق - غالبا - على الأمر المهم الذى يجعل الناس يتحدثون فيه كثيراً ، وجمعه خطوب .

والمعنى : بعد أن جمع الملك النسوة قال لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه ؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكنَّ .. ؟

قال صاحب الظلال ما ملخصه : « والخطب الأمر الجلل ... فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ، فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل ..

ومن هذا نعلم شيئاً بما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير ، وما قالته النسوة ليوسف ، وما لمحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى بلغ حد المراودة .

ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموغل فى التاريخ ، فالجاهلية هى الجاهلية دائما ، وأنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ثياب الأرستقراطية »[1] .

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملكن الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : ﴿ حاش لله ﴾ أى : معاذ الله .

﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ قط ، وإنما الذى علمناه منه هو الاستعصام عن كل سوء .

وهنا ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ ويبدو أنها كانت حاضرة ، معهن عند الملك .

﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى : الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا والفعل حصحص أصله حص ، كما قيل ، كبكب فى كب ، وهو مأخوذ من الحص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حص شعره إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته ...

ثم أضافت إلى ذلك قولها « أنا راودته عن نفسه » أى : أنا التى طلبت منه ما طلبت « وإنه لمن الصادقين » فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » .

وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللائى قطعن أيديهن .

قال صاحب الكشاف : « ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ١٩٥٥ .

أنفسهن بأنه لم يتعلق بشىء مما قذفنه به لأنهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال »[1] - إذ الفضل ما شهدت به الأعداء - .

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ .

أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسى من أنى راودته عن نفسه ، إنما قلته ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئاً يسوؤه بعد أن فارقنى ، ولبث بعيدا عنى فى السجن بضع سنين ، وإنما أنا أقرر أمام الملك وحاشيته بأنه من الصادقين ...

وإنما قررت ذلك لأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ، أى : لا ينفذ كيدهم ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان .

لذا فأنا التزمت الأمانة فى الحديث عنه ، وابتعدت عن الخيانة ، لأن الله - تعالى - لا يرضاها ولا يقبلها .

فأنت ترى أن هذه المرأة التى شهدت على نفسها شهادة لا تبالى بما يترتب عليها بشأنها ، قد عللت شهادتها هذه بعلتين :

إحداهما : كراهتها أن تخونه فى غيبته بعد أن فقد الدفاع عن نفسه وهو فى السجن ..

وثانيتهما : علمها بأن الله - تعالى - لا يهدى كيد الخائنين ولا يسدده ، وإنما يبطله ويزهقه ..

ثم أضافت إلى كل ذلك قولها : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم ﴾ .

أى : ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنى لم أخنه بالغيب ، إلا أنى مع كل ذلك لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برىء منه ، فأنا التى قلت لزوجى فى حالة دهشتى وانفعالى الشديد ، ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ وما حملنى على هذا القول إلا هواى وشهواتى ، ونفسى ؛ إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، كنفس يوسف - عليه السلام -

وجملة ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ تعليل لما قبلها ، أى : إن ربى كثير الغفران وكثير الرحمة ، لمن يشاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٦ .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، رغم الإغراءات المصحوبة بالترغيب والترهيب ، ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه ، عن غيره من الناس الذين رأتهم .

هذا ، ويرى كثير من المفسرين أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ وأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... ﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ هو من كلام يوسف - عليه السلام - ، فيكون المعنى :

وذلك ليعلم « أى العزيز » أنى لم أخنه ، فى أهله ﴿ بالغيب ﴾ أى فى غيبته ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ من النساء والرجال ، بل يبطل هذا الكيد ويفضحه .

﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ أى : ولا أنزهها عن السوء ، وهذا من باب التواضع منه - عليه السلام - ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أى : إن هذا الجنس من الأنفس البشرية ، شأنه الأمر بالسوء والميل إلى الشهوات .

﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء .

﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من خلقه .

والذى نراه أن الرأى الأول الذى سرنا عليه هو الجدير بالقبول ، لأنه هو المناسب لسياق الآيات من غير تكلف ، ولأنه لا يؤدى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض ، بخلاف الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - « وإنه لمن الصادقين » فإنه يؤدى إلى تفكك الكلام ، وعدم ارتباط بعضه ببعض ، فضلا عن أن وقائع التاريخ لا تؤيده ، لأن يوسف - عليه السلام - كان فى السجن عندما أحضر الملك النسوة وقال لهن : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ... » . وعندما قالت امرأة العزيز أمام الملك وأمامهن : « الآن حصحص الحق .. » إلى قوله - تعالى - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ .

ومن المفسرين الذين أيدوا الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... » تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسى ، بأنى راودت هذا الشاب

فامتنع ، ﴿ وما أبرئ نفسى ... ﴾ تقول المرأة : ولست أبرئ نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء .

﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ أى : من عصمه الله - تعالى - ...

ثم قال : « وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام . لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف - عليه السلام - عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك »[1] .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - القسم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته ...

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته عليه السلام .

وهو جانب الرخاء والعز والتمكين فى حياته ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ... ﴾ .

وفى الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير : وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف - عليه السلام - انكشافا تاما ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز ، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به ، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه ..

بعد كل ذلك قال الملك لخاصته : ائتونى بيوسف هذا ، ليكون خالصا لنفسى ، وخاصا بى فى تصريف أمورى ، وكتمان أسرارى ، وتسيير دفة الحكم فى مملكتى .

والسين والتاء فى قوله « أستخلصه » للمبالغة فى الخلوص له ، فهما للطلب كما فى استجاب ، والاستخلاص طلب خلوص الشىء من شوائب الشركة .

فكأن الملك قد شبه يوسف - عليه السلام - بالشىء النفيس النادر ، الذى يجب أن يستأثر به الملك دون أن يشاركه فيه أحد سواه .

والفاء فى قوله « فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » معطوفة على محذوف يفهم من السياق .

والضمير المنصوب فى « كلّمه » يعود على الملك - على الراجح - .

والمراد باليوم : الزمان الذى حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٠ .

و ﴿ مكين ﴾ صفة مشبهة من الفعل مكن - بضم الكاف - ، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة ، يقال : مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته ، ويقال : مكنت فلانا من هذا الشىء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدرة .

﴿ أمين ﴾ بزنة فعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون على ما نكلفك به ، ومحل ثقتنا .

والمعنى : وقال الملك لجنده ائتونى بيوسف هذا أستخلصه لنفسى فأتوه به إلى مجلسه .

فازداد حب الملك له وتقديره إياه وقال له : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شىء فى هذه المملكة ، وتلك المقالة من الملك ليوسف ، هى أولى بشائر عاقبة الصبر ؛ وعزة النفس ، وطهارة القلب ، والاستعصام بحبل الله المتين ...

وهنا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها ﴿ قال : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ والخزائن جمع خزانة - بكسر الخاء وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء ، والمراد بالأرض : أرض مصر .

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى خزائن أرض مملكتك ، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من أموال وأطعمة ، لأنى شديد الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصريفها فيما يفيد وينفع ...

فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وتدبير شئونها ... لأنها مقبلة على سنوات عجاف ، تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته وكفاءته ، وعلمه ...

قال صاحب الكشاف : « وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى - وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله - لا لحب الملك والدنيا »[1] .

وقال القرطبى ما ملخصه : « ودلت الآية - أيضًا - على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٨ .

فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فى الأحاديث الصحيحة من نهيه عن طلب الإمارة ...

فالجواب : أولاً : أن يوسف - عليه السلام - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ...

الثانى : أنه لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لأنى حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إنى جميل مليح ... وإنما قال ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله - تعالى - ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ... ﴾[1] .

والخلاصة أن يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قال للملك ، وطلب ما طلب منه ، لأنه علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه فى ذلك الوقت وفى تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لأجر منفعة شخصية لنفسه ...

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله - تعالى - الذى أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب تزكية النفس المحظورة .

هذا ، وقوله - سبحانه - ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ... ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه ، من كونه - سبحانه - لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أى : ومثل هذا التمكين العظيم . مكنا ليوسف فى أرض مصر ، بعد أن مكث فى سجنها بضع سنين ، لا لذنب اقترفه ، وإنما لاستعصامه بأمر الله .

وقوله ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ تفصيل للتمكين الذى منحه الله - تعالى - ليوسف فى أرض مصر ، والتبوأ اتخاذ المكان للنزول به . يقال : بوأ فلان فلانا منزلاً . أى مكنه منه وأنزله به أى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حيث هيأنا له أن يتنقل فى أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها .

فالجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل فى جميع أرض مصر ، كما يتصرف ويتنقل الرجل فى منزله الخاص .

وقوله : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ... ﴾ بيان لكمال قدرته ونفاذ إرادته - سبحانه -

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢١٦ .

أى : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاءه من عبادنا بمقتضى حكمتنا ومشيئتنا .

﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه ، بل نوفيهم أجورهم على إحسانهم فى الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك .

﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ وأبقى ﴿ للذين آمنوا ﴾ بالله - تعالى - إيمانًا حقا ﴿ وكانوا يتقون ﴾ خالقهم - عز وجل - فى كل ما يأتون وما يذرون ، بأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه .

وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثًا تكل معرفتها إلى فهم القارىء وفطنته ، فهى لم تحدثنا - مثلاً - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ للدلالة على كفايته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السبع العجاف ، وفى السنوات الخضر لأن هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أمينًا على خزائن الأرض ، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالاً للناس منازلهم ، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد ، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

لم تحدثنا السورة الكريمة عن كل ذلك ، فى أعقاب حديثها عن تمكين الله - تعالى - ليوسف فى الأرض ، وإنما انتقلت بنا بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ، وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم ...

قال تعالى :

وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ

أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ
لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قال الفخر الرازى – رحمه الله – اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل أيضًا إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب – عليه السلام – وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه : إن بمصر صالحًا يمير الناس – أى يعطيهم الطعام وما هم فى حاجة إليه فى معاشهم – فاذهبوا إليه بدراهمكم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة وبقى « بنيامين » مع أبيه ، ودخلوا على يوسف – عليه السلام – وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف مع إخوته ، وظهور صدق ما أخبره الله – تعالى – عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوه فى الجب ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾[1] .

وقد جاءوا إليه جميعًا – ما عدا « بنيامين » وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون فى أوقات الجدب والجوع .

وعبر عن معرفة يوسف لهم بالجملة الفعلية ، وعن جهلهم له بالجملة الإسمية للإشعار بأن معرفته لهم حصلت بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فعدم معرفتهم له كان أمرا ثابتًا متمكنًا منهم .

قال صاحب الكشاف : « لم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التى بلغها من الملك والسلطان عن حاله التى فارقوه عليها طريحًا فى البئر ، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأن الملك مما يبدل الزى ، ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف ... »[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ١٦٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٩ .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة التى حدثت فى السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد - كما سبق أن أشرنا - .

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف - عليه السلام - وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده ، دون غيره من المسئولين فى مصر .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم .. ﴾ بيان لما فعله يوسف معهم بعد أن عرفهم دون أن يعرفوه .

وأصل الجهاز - بفتح الجيم وكسرها قليل - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال : جهزت المسافر ، أى هيأت له جهازه الذى يحتاج إليه فى سفره ، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها ، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه فى دفنه ...

والمراد : أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم . وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه ، وهيأ لهم ما هم فى حاجة إليه من الطعام وغيره ، ثم استدرجهم بعد ذلك فى الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم .

وذلك لأن قوله لهم ﴿ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ يستلزم أن حديثًا متنوعًا نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف ، أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة ، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك .

ومن هنا قال المفسرون : إن قوله ﴿ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ يقتضى كلامًا دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب ، ومما قالوه فى توضيح هذا الكلام : ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليه قال لهم : من أنتم وما شأنكم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام ، جئنا نمتار ، ولنا أب شيخ صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب ، فقال لهم : كم عددكم قالوا عشرة ، وقد كنا اثنى عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه ، هو باق لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ : ائتونى بأخ لكم من أبيكم »[1] .

ويروى أنه قال لهم ذلك بعد أن طلبوا منه شيئًا زائدًا عن عددهم ، لأن لهم أخًا لم يحضر معهم ، فأعطاهم ما طلبوه ، واشترط عليهم إحضار أخيهم هذا معهم ، ليتأكد من صدقهم »[2] .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٣٧ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٣١ .

والمعنى : وبعد أن أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه ، وعرف منهم أن لهم أخًا من أبيهم قد تركوه فى منازلهم ولم يحضر معهم ، قال لهم : أنا أريدكم فى الزيارة القادمة لى ، أن تحضروه معكم لأراه ...

وقوله « من أبيكم » حال من قوله « أخ لكم » أى : أخ لكم حالة كونه من أبيكم ، وليس شقيقًا لكم ، فإن هذا هو الذى أريده ولا أريد غيره .

وهذا من باب المبالغة فى عدم الكشف لهم عن نفسه ، حتى لكأنه لا معرفة له بهم ولا به إلا من ذكرهم إياه له .

وقوله: ﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم فى ذلك حتى ينشطوا فى إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى منزلاً كريمًا ... وما دام أمرى معكم كذلك ، فلابد من أن تأتونى معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

والمراد بإيفاء الكيل : إتمامه بدون تطفيف أو تنقيص .

وعبر بصيغة الاستقبال « ألا ترون ... » مع كونه قد قال هذا القول بعد تجهيزه لهم . للدلالة على أن إيفاءه هذا عادة مستمرة له معهم كلما أتوه .

وجملة ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ حالية ، والمنزل : المضيف لغيره . أى : والحال أنى خير المضيفين لمن نزل فى ضيافتى ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقائكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقائكم القادم معى ، فإن لم تأتونى به معكم عند عودتكم إلى ، فإنى لن أبيعكم شيئًا مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك فإنى أحذركم من أن تقربوا بلادى فضلاً عن دخولها .

هذا التحذير منه - عليه السلام - لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ حكاية لما رد به إخوة يوسف عليه .

أى قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيهم لأبيهم معهم : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ أى : سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة « وإنا لفاعلون » هذه المراودة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم - وهو « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف - ، ليس أمرًا سهلًا أو ميسورًا ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ .

والفتيان : جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله .

والبضاعة فى الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التى تقتنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .

والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذى أعطاه لهم يوسف - عليه السلام - .

والرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتعتهم ، فيجدون فيها الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه من طعام وغيره .

لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه .

وكأن يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم « بنيامين » لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وقوله ﴿لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ تعليل لأمره فتيانه بجعل البضاعة فى رحال إخوته . إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا يتم إلا بعد انقلابهم - أى رجوعهم - إلى أهلهم ، وبعد تفريغها عندهم .

وقوله « لعلهم يرجعون » جواب للأمر . أى : اجعلوها كذلك ، لعلهم بعد اكتشافهم أنهم ما دفعوا لنا ثمن ما أخذوه ، يرجعون إلينا ليدفعوا لنا حقنا .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه

فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم ... فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد حكت لنا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم فى اصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما حكت ما رد به أبوهم عليهم . قال - تعالى - :

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ

لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به .

والمراد بالكيل : الطعام المكيل الذى هم فى حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه فى المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يدرك من السياق والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ما طلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل .

﴿ يا أبانا ﴾ لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة إذا لم نأخذ معنا أخانا « بنيامين » ليراه عند عودتنا إليه ؛ فقد قال لنا مهددًا عند مغادرتنا له : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

وأنت تعلم أننا لابد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ، فنرجوك أن توافقنا على اصطحاب « بنيامين » معنا « وإنا له لحافظون » حفظًا تامًا من أن يصيبه مكروه .

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله ...

وكأنهم فعلوا ذلك ليشعروه بأن إرسال بنيامين معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيترتب عليه منع الطعام عنهم .

وقرأ حمزة والكسائى « فأرسل معنا أخانا يكتل »- بالياء - أى : فأرسله معنا ليأخذ نصيبه من الطعام المكال ، لأن عزيز مصر لا يعطى طعامًا لمن كان غائبًا .

وعلى كلا القراءتين فالفعل مجزوم فى جواب الطلب .

وقالوا له ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ بالجملة الإسمية ، لتأكيد حفظهم له : وأن ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتًا لا مناص منه .

ولكن يبدو أن قولهم هذا قد حرك كوامن الأحزان والآلام فى نفس يعقوب ، فهم الذين سبق أن قالوا له فى شأن يوسف - أيضًا - ﴿ أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

لذا نجده يرد عليهم فى استنكار وألم بقوله : ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ... ﴾ .

أى : قال يعقوب لأولاده بعد أن طلبوا منه بإلحاح إرسال أخيهم معهم ، وبعد أن تعهدوا بحفظه : أتريدون أن أأتمنكم على ابنى « بنيامين » ، كما أئتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التى تعرفونها جمعًا ، وهى فراق يوسف لى فراقًا لا يعلم مداه إلا الله - تعالى - ؟!! لا ، إننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف .فالاستفهام فى قوله « هل آمنكم .. » للإنكار والنفى .

وقوله ﴿ فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين ﴾ تفريع على استنكاره لطلبهم إرسال « بنيامين » معهم ، وتصريح منه لهم بأن حفظ الله - تعالى - خير من حفظهم .

أى : إننى لا أثق بوعودكم لى بعد الذى حدث منكم بالنسبة ليوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته « فالله » - تعالى - « خير حافظًا » لمن يشاء حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه يوسف من قبل حين ائتمنتكم عليه « وهو » - سبحانه - ﴿ أرحم الراحمين ﴾ لخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى « بنيامين » ، كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .

ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد إمكان إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهذا - أى رد يعقوب عليهم - ميل منه - عليه السلام - إلى الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة ، وفيه أيضًا من التوكل على الله - تعالى - ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله - تعالى - قال : « وعزتى وجلالى لأردهما عليك إذ توكلت على ... » وقرأ أكثر السبعة ﴿ فالله خير حفظا ... ﴾ وقرأ حمزة والكسائى وحفص « حافظا ... » وعلى القراءتين فهو منصوب على أنه تمييز ... »[1] .

ثم اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا ما بها من زاد حضروا به من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله :

﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ... ﴾ .

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر . فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد رد إليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١١ .

دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين :

﴿ يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ أى : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر ؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

فما فى قوله ﴿ ما نبغى ﴾ استفهامية ، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر ، وهى مفعول نبغى ، ونبغى من البُغَاء - بضم الباء - وهو الطلب .

والمراد ببضاعتهم : الثمن الذى دفعوه للعزيز فى مقابل ما أخذوه منه من زاد .

وجملة ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ مستأنفة لتوضيح ما دل عليه الاستفهام من التعجب ، بسبب ما فعله معهم عزيز مصر من مروءة وسخاء .

فكأنهم قالوا لأبيهم : كيف لا نعجب وندهش ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندرى ومعها الأحمال التى اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شىء ؟

وقوله ﴿ ونمير أهلنا ﴾ معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » فننتفع بها فى معاشنا ، ونمير أهلنا ، أى : نجلب لهم الميرة - بكسر الميم وسكون الياء - وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ عند سفره معنا من أى مكروه .

﴿ ونزداد ﴾ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر .

﴿ كيل بعير ﴾ أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظرًا لوجود أخينا معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير ، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتى بطعام آخر .

وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر .

ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزيز مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهم وازدياد الأطعمة بسبب وجوده معهم .

ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن فى قوله :

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ﴾ .

والموثق : العهد الموثق باليمين ، وجمعه مواثيق .

أى : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم « بنيامين » إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله ، بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك ، « إلا أن يحاط بنا » أى : إلا أن نهلك جميعًا ، أو أن نغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقولون : أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص ، واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالبًا .

وسمى الحلف بالله - تعالى - موثقًا ، لأنه مما تؤكد به العهود وتقوى وقد أذن الله - تعالى - بذلك عند وجود ما يقتضى الحلف به - سبحانه - .

وقوله : « لتأتننى به » جواب لقسم محذوف والاستثناء فى قوله « إلا أن يحاط بكم » مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله وتقولوا : والله لنأتينك به معنا عند عودتنا ، فى جميع الأحوال والظروف إلا فى حال هلاككم أو فى حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبين الإتيان به معكم .

وقوله ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر .

« قال » لهم على سبيل التأكيد والحض على وجوب الوفاء : الله - تعالى - على ما نقول أنا وأنتم وكيل ، أى : مطلع ورقيب ، وسيجازى الأوفياء خيرًا ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب .

قال ابن كثير : « وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بدًا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال ﴿ وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

أى : وقال يعقوب - الأب العطوف - لأبنائه وهو يودعهم : يابنى إذا وصلتم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلاً بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب .

قالوا : وكانت أبواب مصر فى ذلك الوقت أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسبابًا متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى فى قوله : نهاهم عن الدخول من باب واحد ، حذرًا من إصابة العين ه أى من الحسد ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة .. فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى لأن يحسدوا - إذا ما دخلوا كوكبة واحدة ...

ثم قال : والعين حق ، كما صح عن رسول الله - ﷺ - وصح أيضًا بزيادة « ولو كان شىء يسبق القدر سبقته العين » ...

وقد ورد أيضًا : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »[1] .

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ، فيترامى فى أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم ، أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - ...

وقوله ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شىء ﴾ اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره - تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة .

أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئًا قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشىء قليلاً .

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أى : ما الحكم فى كل شىء إلا لله - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع . ولا يدافعه مدافع .

« وعليه » وحده « توكلت » فى كل أمورى .

« وعليه » وحده « فليتوكل المتوكلون » أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .

---

(١) تفسير الآلوسى - بتصرف وتلخيص - جـ ١٣ ص ١٥ .

إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - معها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد . ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبًا مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها ...

ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾ .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، خوفًا عليهم من الحسد . ومعنى « قضاها » أظهرها ولم يستطع كتمانها يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوهم بالدخول منها ، « ما كان » هذا الدخول « يغنى عنهم » أى يدفع عنهم من قدر « الله من شىء » قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة أى رغبة خطرت فى نفسه « قضاها » أى : أظهرها ووصاهم بها ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم مع اعتقاده بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ ثناء من الله - تعالى - على يعقوب بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب - عليه السلام - لذو علم عظيم ، للشىء الذى علمناه إياه عن طريق وحينا ، فهو لا ينسى منه شيئًا إلا ما شاء الله .

وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى : لا يعلمون ما يعلمه يعقوب - عليه السلام - من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله - تعالى - أو : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمور .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيهم معهم .. فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن سافر إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف ، والتقوا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات

والمفاجآت والمحاورات ... التى حكاها القرآن فى قوله - تعالى - :

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ... ﴾ شروع فى بيان ما دار بين يوسف - عليه السلام - وبين شقيقه « بنيامين » بعد أن حضر مع إخوته .

وقوله ﴿ آوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم . يقال : آوى فلان فلانًا إذا ضمه إلى نفسه ، ويقال : تأوت الطير وتآوت ، إذا تضامت وتجمعت .

وقوله ﴿ فلا تبتئس ﴾ : افتعال من البؤس وهو الشدة والضر . يقال بَئِس - كسَمِع - فلان بؤسًا وبئوسًا ، إذا اشتد حزنه وهمه .

والمعنى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئنًا ومواسيًا : إنى أنا أخوك الشقيق . فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله - تعالى - قد عوض صبرنا خيرًا ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه « بنيامين » وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وقال : « لا تبتئس » أى : لا تأسف على ما صنعوا

بى ، وأمره بكتمان هذا عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرمًا معظمًا[١] .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، لكى يبقى أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ... ﴾ والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ..

والسقاية : إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف - عليه السلام - يكتال به فى ذلك الوقت نظرًا لقلة الطعام وندرته .

وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع أى :

وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع فى متاع أخيه « بنيامين » دون أن يشعر بهم أحد ..

وقوله ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل .

والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به . والمراد بالعير هنا : أصحابها . والأصل فيها أنها اسم للإبل التى تحمل الطعام وقيل العير تطلق فى الأصل على قافلة الحمير ، ثم تجوز فيها فأطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة .

أى : ثم نادى مناد على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم يتجهزون للسفر ، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل فى شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والذى يظهر أن ما فعله يوسف ، من جعله السقاية فى رحل أخيه . ومن اتهامه لإخوته بالسرقة .. إنما كان بوحى من الله - تعالى - لما علم - سبحانه - فى ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك .ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢ .

وتفقدون : من الفقد ، وهو غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه .

أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون ، قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون ؟!!!

وهنا رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس : ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أى : صاعه الذى يشرب فيه ، ويكتال به للممتارين .

﴿ ولمن جاء به ﴾ أى بهذا الصاع ، أو دل على سارقه .

﴿ حمل بعير ﴾ من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له .

﴿ وأنا به زعيم ﴾ أى : وأنا بهذا الحمل كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

ويبدو أن القائل لهذا القول هو المؤذن السابق ، ولعله قد قال ذلك بتوجيه من يوسف - عليه السلام - .

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردًا يدل على استنكارهم لهذه التهمة وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة : تالله ياقوم ، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكى نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم لنرتكب هذه الجريمة ، لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك ، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم ، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه بقولهم : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ .

أى : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفيًا تامًا .

إذًا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم ، وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين .

فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم بقولهم : ﴿ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ .

والمراد بالجزاء : العقاب الذى يعاقب به السارق فى شريعتهم ، والضمير فى قوله « جزاؤه » يعود إلى السارق .

أى : قال إخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحله ومتاعه أن يسترق لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله « جزاؤه » مبتدأ ، وقوله « من وجد فى رحله » خبر المبتدأ .

والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله - أى استرقاقه لمدة سنة - ، وتكون جملة « فهو جزاؤه » لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج وقوله « فهو جزاؤه » زيادة فى البيان . أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير »[1] .

وقالوا « جزاؤه من وجد فى رحله » ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته ، للإشارة إلى كمال نزاهتهم ، وبراءة ساحتهم من السرقة ، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها فى هذا المقام .

وقوله : ﴿ كذلك نجزى الظالمين ﴾ مؤكد لما قبله ، أى مثل هذا الجزاء العادل ، وهو الاسترقاق لمدة سنة ، نجازى الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من المقام .

والتقدير : وبعد هذه المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف وبين الذين اتهموهم بالسرقة أخبر الإخوة بتفتيش أمتعتهم للبحث عن الصُّواع بداخلها .

« فبدأ » المؤذن بتفتيش أوعيتهم ، قبل أن يفتش وعاء « بنيامين » فلم يجد شيئًا بداخل أوعيتهم .

فلما وصل إلى وعاء « بنيامين » وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعًا .

ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد ومرأى من يوسف - عليه السلام - وكان أيضًا بتدبير وتوجيه منه للمؤذن ومن معه ، فهو الذى أمر المؤذن بأن ينادى « أيتها العير إنكم لسارقون » ، وهو الذى أشار عليه بأن يسألهم عن حكم السارق فى شريعتهم ، وهو الذى أمره بأن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء شقيقه « بنيامين » دفعا للتهمة ، ونفيا للشبهة ...

روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء « بنيامين » لتفتيشه قال يوسف - عليه السلام - : ما أظن هذا أخذ شيئًا ؟ فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا »[2] .

---

(١) تفسير فتح القدير للامام الشوكانى جـ ٣ ص ٤٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢٨ .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزى ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل « بنيامين » وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .. يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقول أن تتصوره ...

ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية فى رحل أخيه ، ومن سؤال إخوته عن جزاء السارق فى شريعتهم فيقول ﴿ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ... ﴾ .

و « كدنا » من الكيد وأصله الاحتيال والمكر ، وهو صرف غيرك عما يريده بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح ، ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمراد به هنا : النوع المحمود ، واللام فى « ليوسف » للتعليل .

والمراد بدين الملك : شريعته التى يسير عليها فى الحكم بين الناس .

والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم .. وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه ، لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال فى شريعة يعقوب ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك ، فهو - سبحانه - الذى ألهمه أن يدس السقاية فى رحل أخيه ، وهو - سبحانه - الذى ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق فى شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك فى رحله منهم .

والجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف حيث ألهمه ما يوصله إلى مقصوده بأحكم أسلوب .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « كذلك كدنا ليوسف » أى : مثل ذلك الكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور ... دبرنا وصنفنا من أجل يوسف ما يحصل به غرضه ...

وقوله « ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » أى فى حكمه وقضائه والكلام استئناف وتعليل لذلك الكيد ، كأنه قيل : لماذا فعل ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده فى دين الملك فى أمر السارق إلا بذلك الكيد ، لأن جزاء السارق فى دينه أن يضاعف

عليه الغرم ... دون أن يسترق كما هو الحال فى شريعة يعقوب .

وقوله « إلا أن يشاء الله » أى : لم يكن يوسف ليتمكن من أخذ أخيه فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئته - تعالى - التى هى عبارة عن ذلك الكيد المذكور .. »[١] .

قالوا : وفى الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعًا ثابتًا »[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾ استئناف لبيان قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته وعطائه .

أى : نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب .. كما رفعنا درجات يوسف - عليه السلام - .

﴿ وفوق كل ذى علم ﴾ من أولئك المرفوعين « عليم » يزيد عنهم فى علمهم وفى مكانتهم عند الله - تعالى - فهو - سبحانه - العليم بأحوال عباده ، وبمنازلهم عنده ، وبأعلاهم درجة ومكانة .

وقال - سبحانه - « نرفع » بصيغة الاستقبال وللأشعار بأن ذلك سنة من سننه الإلهية التى لا تتخلف ولا تتبدل ، وأن عطاءه - سبحانه - لا يناله إلا الذين تشملهم إرادته ومشيئته كما تقتضيه حكمته .

وجاءت كلمة « درجات » بالتنكير ، للإشارة إلى عظمها وكثرتها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على أخيه « بنيامين » فقال - تعالى - ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .... ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف - عليه السلام - بعد هذا الموقف المحرج لهم . إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك .

وقولهم هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنًا من نفوسهم .

وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مرادهم بقولهم هذا ، ومن بين هذه الروايات ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - أنه قال فى الآية : سرق يوسف - عليه السلام - صنمًا لجده وكان هذا الصنم من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ، فعير إخوته بذلك »[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢٩ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ٤٣ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٣٢ .

وقوله ﴿ فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ بيان لموقفه من مقالتهم ، والضمير فى « فأسرها » يعود إلى تلك المقالة التى قالوها .

أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله إخوته فى حقه وفى حق شقيقه فساءه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه وإنما رد عليهم بقوله « بل أنتم » أيها الإخوة « شر مكانا » أى : موضعًا ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخدعتموه ، وقلتم له بعد أن ألقيتم أخاكم فى الجب ، لقد أكله الذئب .

« والله » - تعالى - «أعلم » منى ومنكم « بما تصفون » به غيركم من الأوصاف التى يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوا ليوسف على سبيل الرجاء والاستعطاف لكى يطلق لهم أخاهم حتى يعود معهم إلى أبيهم فقال : ﴿ قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : ﴿ يأيها العزيز ﴾ الذى أكرمنا وأحسن إلينا « إن » أخانا هذا الذى أخذته على سبيل الاسترقاق لمدة سنة ، قد ترك من خلفه فى بلادنا « أبا شيخًا كبيرًا » متقدمًا فى السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حبًا جمًا فإذا كان ولابد من أن تأخذ واحدا على سبيل الاسترقاق بسبب هذه السرقة « فخذ أحدنا مكانه » حتى لا نفجع أبانا فيه .

وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لأننا « نراك من المحسنين » إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا « بنيامين » ليسافر معنا .

ولكن هذا الرجاء والتلطف والاستعطاف منهم ليوسف ، لم ينفعهم شيئًا ، فقد رد عليهم فى حزم وحسم بقوله : ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... ﴾ و « معاذ » منصوب بفعل محذوف .

أى : قال يوسف لهم : نعوذ بالله - تعالى - معاذا ، من أن نأخذ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو « بنيامين » .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعًا لشريعتكم .

﴿إنا إذا لظالمون﴾ إذا أخذنا شخصًا آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده . والظلم تأباه

شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدال فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدال ، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال إخوته فى العفو عن بنيامين أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه ..

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ... ﴾ .

وقوله « استيأسوا » يئسوا يأسًا تامًا فالسين والتاء للمبالغة .

و « خلصوا » من الخلوص بمعنى الانفراد .

و « نجيا » حال من فاعل خلصوا . وهو مصدر أطلق على المتناجين فى السر على سبيل المبالغة .

والفاء فى قوله ﴿ فلما استيأسوا منه ... ﴾ معطوفة على محذوف يفهم من الكلام .

والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيهم بنيامين ، فلما يئسوا يأسًا تامًا من الوصول إلى مطلوبهم ، انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولا يجد معهم « بنيامين » ..

هذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى - ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ من أبلغ الجمل التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك الإمام الثعالبى فى كتاب « الإيجاز والإعجاز » فقد قال : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله - تعالى - فى إخوة يوسف ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس ، وتقليبهم الآراء ظهرًا لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة ، معانى القصة الطويلة »[1] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٥٧٨ .

وقوله : ﴿ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم .... ﴾ إلخ بيان لما قاله لهم أحدهم خلال تناجيهم مع بعضهم فى عزلة عن الناس .

ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض منهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد به « روبيل » لأنه أسنهم ، وذكر بعضهم أنه « يهوذا » لأنه كبيرهم فى العقل ...

أى : وحين اختلى إخوة يوسف بعضهم مع بعض لينظروا فى أمرهم بعد أن احتجز عزيز مصر أخاهم بنيامين ، قال لهم كبيرهم :

« ألم تعلموا » وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم وليس معكم « بنيامين » .

« أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله » عندما أرسله معكم ، بأن تحافظوا عليه ، وأن لا تعودوا إليه بدونه إلا أن يحاط بكم .

وألم تعلموا كذلك أنكم فى الماضى قد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتم به فى الجب .

والاستفهام فى قوله : « ألم تعلموا ... » للتقرير . أى : لقد علمتم علما يقينا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علما يقينا بخيانتكم لعهد أبيكم فى شأن يوسف ، فبأى وجه ستعودون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين ؟

قال الشوكانى : قوله : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ﴾ أى عهدا من الله - تعالى - بحفظ ابنه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه بإذنه .

وقوله ﴿ ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ﴾ معطوف على ما قبله . والتقدير : ألم تعلموا أن أباكم ... وتعلموا تفريطكم فى يوسف ، فقوله « ومن قبل » متعلق بتعلموا .

أى : تعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل . على أن ما مصدرية[1] .

وقوله ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى .. ﴾ حكاية للقرار الذى اتخذه كبيرهم بالنسبة لنفسه .

أى : قال كبير إخوة يوسف لهم : لقد علمتم ما سبق أن قلته لكم ، فانظروا فى أمركم ، أما أنا « فلن أبرح الأرض » أى : فلن أفارق أرض مصر « حتى يأذن لى أبى » بمفارقتها ، لأنه قد أخذ علينا العهد الذى تعلمونه بشأن أخى بنيامين . « أو يحكم الله لى » بالخروج منها

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٤٦ .

وبمفارقتها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق مع أبى « وهو » - سبحانه - « خير الحاكمين » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : « ارجعوا » يا إخوتى « إلى أبيكم » يعقوب « فقولوا » له برفق وتلطف . « يا أبانا إن ابنك » بنيامين « سرق » صواع الملك ، ووجد الصواع فى رحله وقولوا له أيضًا : إننا « ما شهدنا إلا بما علمنا » أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا ويقيننا بأنه سرق .

« وما كنا للغيب حافظين » أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا .

وقولوا كذلك على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل « القرية التى كنا فيها » والمراد بالقرية أهلها .

أى : فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية التى حصلت فيها حادثة السرقة فإنهم سيذكرون لك تفاصيلها .

قالوا : ومرادهم بالقرية مدينة مصر التى حدث فيها ما حدث ، وعبروا عنها بالقرية لأنهم يقصدون مكانا معينًا منها ، وهو الذى حصل فيه التفتيش لرحالهم ، والمراجعة بينهم وبين عزيز مصر ومعاونيه .

وقوله : ﴿ والعير التى أقبلنا فيها ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : اسأل أهل القرية التى كنا فيها ، واسأل « العير » أى : قوافل التجارة التى كنا فيها عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك « بنيامين ».

وقوله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أى : وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به . فكن واثقًا من صدقنا .

وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ، زيادة فى تأكيد صدقهم ، لأن ماضيهم معه يبعث على الريبة والشك ، فهم الذين قالوا له قبل ذلك فى شأن يوسف : « أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » ثم ألقوا به فى الجب ، « وجاؤا أباهم عشاء يبكون ... » .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب .. ما دار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ومعهم شقيقه « بنيامين » .

* * *

فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن الحكيم – على عادته فى هذه السورة الكريمة – أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق لنا رده عليهم ، الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله فى رحمة الله – تعالى – فيقول :

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى
يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا
مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

أى : « قال » يعقوب لبنيه ، الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيج أحزانه ....

قال لهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل ﴾ أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمرًا أنتم أردتموه ، فصبرى على ما قلتم صبر جميل ، أى لا جزع معه ، ولا شكوى إلا لله – تعالى – .

قال ابن كثير : « قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل » .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم ، وظن أن ما فعلوه

بنيامين يشبه ما فعلوه بيوسف فقال : « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ... » .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبا على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ... » .

والخلاصة أن الذى حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول لهم ، المفيد لتشككه فى صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ما ضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه فى يوسف بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة الله ، وفى رجائه الذى لا يخيب فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعًا فقال - عليه السلام - ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعًا - يوسف وبنيامين وروبيل الذى تخلف عنهم فى مصر - إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل ما يفعله ويقضى به .

وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ، وحسن صلته بالله - تعالى - وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه - سبحانه - .

وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، ما يراه غيره بحواسه وجوارحه .

ثم يصور - سبحانه - ما اعترى يعقوب من أحزانه على يوسف ، جددها فراق بنيامين له فقال - تعالى - ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ .

وقوله « يا أسفا » من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من أحداث . يقال : أسف فلان على كذا يأسف أسفا ، إذا حزن حزنًا شديدًا .

وألفه بدل من ياء المتكلم للتخفيف والأصل يا أسفى .

وكظيم بمعنى مكظوم ، وهو الممتلىء بالحزن ولكنه يخفيه من الناس ولا يبديه لهم .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ أى : المخفين له ، مأخوذ من كظم فلان السقاء : إذا سده على ما بداخله .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله له أبناؤه ، ورد عليهم .. انتابته الأحزان والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون .. فتركهم واعتزل مجلسهم وقال :

« يا أسفا على يوسف » أى : ياحزنى الشديد على يوسف أقبل فهذا أوان إقبالك .

﴿ وابيضت ﴾ عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف بصره ، حيث انقلب سواد عينيه بياضًا من كثرة البكاء .

﴿ فهو كظيم ﴾ أى : ممتلىء حزنا على فراق يوسف له ، إلا أنه كاتم لهذا الحزن لا يبوح به لغيره من الناس .

قالوا : وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - بنيامين وروبيل - مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ... لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب ولأن حبه ليوسف كان حبًا خاصًا لا يؤثر فيه مرور الأعوام ... ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى متمم ابن نويرة فى رثائه لأخيه مالك فقال :

لقد لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والد كادك
فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى ... فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف جاز لنبى الله يعقوب أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن .

ولقد بكى النبى - ﷺ - على ولده إبراهيم وقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد له ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب »[1] .

ثم يحكى القرآن ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم والحزن فيقول : ﴿ قالوا تا لله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين ﴾ .

قال الشوكانى : قوله « تفتأ » أى : لا تفتأ ، فحذف حرف النفى لأمن اللبس . قال الكسائى : فتأت وفَتِئْتُ أفعل كذا : أى ما زلت أفعل كذا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢ .

وقال الفراء : إن « لا » مضمرة . أى لا تفتأ ... ومنه قول الشاعر :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى : « لا أبرح قاعدا ... »[1] .

و « حرضا » مصدر حرض . كتعب - والحرض : الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض أو غيرهما .

والمعنى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهويتحسر على فراق يوسف له : تالله - يا أبانا - ما تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ، والحزن المضنى ، « حتى تكون حرضا » . أى : مشرفا على الموت لطول مرضك .

« أو تكون من الهالكين » المفارقين لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم وأمل ... ﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

و « البث » ما ينزل بالإنسان من مصائب يعظم حزن صاحبها بسببها . حتى أنه لا يستطيع إخفاء هذا الحزن ، وأصله التفريق وإثارة الشىء ومنه قولهم : بثت الريح التراب إذا فرقته .

قالوا : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزنًا ، وإذا لم يقدر على كتمه كان بثا ...

والمعنى : قال يعقوب لأولاده الذين لاموه على شدة حزنه على يوسف : إنما أشكو ، « بثى » أى : همى الذى انطوى عليه صدرى « إلى الله » - تعالى - وحده ، لا إلى غيره ، فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى ، فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى . فإنى « أعلم من الله » أى : من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة « ما لا تعلمون » أنتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يلطف بى ، وأن يجمع شملى بمن فارقنى من أولادى ، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .

قال صاحب الظلال : « وفى هذه الكلمات - التى حكاها القرآن عن يعقوب - عليه السلام - ، يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ، كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٤٨ .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلاً عن عودته إلى أبيه ... إن هذا كله لا يؤثر شيئاً فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة ...

وهذه قيمة الإيمان بالله ...

إن هذه الكلمات « أعلم من الله ما لا تعلمون » تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب ... والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبلغ الشدائد منه - مهما - بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق ... »[1] .

ثم يمضى يعقوب - عليه السلام - فى رده على أولاده فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وأن لا يقنطوا من رحمة الله فيقول : ﴿ يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

والتحسس : هو طلب الشىء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث .

أى : قال يعقوب لأبنائه : يابنى « اذهبوا » إلى أرض مصر وإلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه « فتحسسوا » أمرهما . وتخبروا خبرهما ، وتعرفوا نبأهما بدون كلل أو ملل .

وفى التعبير بقوله « فتحسسوا » إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى « ولا تيأسوا من روح الله » أى : ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته ، وأصل معنى الروح التنفس . يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير لحلول الفرج .

وكلمة « روح » - بفتح الراء - أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما تتنسمه الأرواح من رحمة الله .

وقوله ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ تعليل لحضهم على التحسس أى : لا تقصروا فى البحث عن يوسف وأخيه ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بالله - تعالى - وبصفاته وبعظيم قدرته ، وبواسع رحمته ...

أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبدًا ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب ...

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٣ ص ٢٠٢٦ .

واستجاب الأبناء لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا فى طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزيز مصر الذى احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة الكريمة ما دار بينهم وبينه فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ
إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا
وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟

يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

وقوله - تعالى - ﴿ ولما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد أن امتثلوا أمر أبيهم ، فخرجوا إلى مصر للمرة الثالثة ، ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، وليشتروا من عزيزها ما هم فى حاجة إليه من طعام .

والبضاعة : هى القطعة من المال ، يقصد بها شراء شىء .

والمزجاة : هى القليلة الرديئة التى ينصرف عنها التجار إهمالاً لها .

قالوا : وكانت بضاعتهم دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة - أى : بأقل قيمة - وقيل غير ذلك .

وأصل الإزجاء : السوق والدفع قليلاً قليلاً ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ... ﴾ . أى : يرسله رويدا رويدا ...

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف ، بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة « يأيها العزيز » أى : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة فى الرزق ، « مسنا وأهلنا الضر » أى : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجدب والهزل من شدة الجوع .

﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أى : وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار ، إهمالاً لها ، واحتقارا لشأنها .

وإنما قالوا له ذلك : استدرارًا لعطفه ، وتحريكًا لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذى حكاه القرآن فى قوله :

﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ... ﴾ أى : هذا هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة ، ما دام أمرنا كذلك ، فأتم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئًا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿ إن الله يجزى المتصدقين ﴾ على غيرهم جزاء كريما حسنا

ويبدو أن يوسف - عليه السلام - قد تأثر بما أصابهم من ضر وضيق حال ، تأثرًا جعله لا يستطيع أن يخفى حقيقته عنهم أكثر من ذلك ، فبادرهم بقوله : ﴿ قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ .

أى : قال لهم يوسف - عليه السلام - على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم : هل علمتم ما فعلتموه بيوسف وأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان .

قالوا : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه ...

وقيل : نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل ، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم .

والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات بعد ذلك ، من عفوه عنهم ، وطلب المغفرة لهم .

وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيهم يوسف ، فيقولون له فى دهشة وتعجب ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ ؟.

أى : أئنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا ... والذى فارقناه وهو صغير فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئونها ؟..

فرد عليهم بقوله ﴿ قال أنا يوسف ﴾ الذى تتحدثون عنه . والذى فعلتم معه ما فعلتم ...

« وهذا أخى » بنيامين الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم ...

« قد منَّ الله » - تعالى - « علينا » حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ومن ضيق إلى فرج ...

ثم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه فى قوله ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن كل ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه - تعالى - يرحمه برحمته ، ويكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وتلك سنته - سبحانه - التى لا تتخلف ...

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم الخزى والخجل ،

حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان عليهم ، فقالوا له فى استعطاف وتذلل : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ أى : نقسم بالله - تعالى - لقد اختارك الله - تعالى - لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة .

أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك من جرائم ، ولذلك أعزك الله - تعالى - وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

فرد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

والتثريب : التعيير والتوبيخ والتأنيب . وأصله كما يقول الآلوسى : من الثرب ، وهو الشحم الرقيق فى الجوف وعلى الكرش ... فاستعير للتأنيب الذى يمزق الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال ، كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب ، فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال .

أى : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتى : لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وآثام وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

وقوله « لا تثريب » اسم لا النافية للجنس ، و « عليكم » متعلق بمحذوف خبر لا ، و « اليوم » متعلق بذلك الخبر المحذوف .

أى : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم .

وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت فى غيره ، بل المراد نفيه عنهم فى كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه فى أول لقاء معه على أخطائه فلأن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن فقال :

﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ .

أى . اذهبوا يا إخوتى بقميصى هذا « فألقوه على وجه أبى » الذى طال حزنه بسبب فراقى له « يأت بصيرا » أى يرتد إليه كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن .

« وأتونى » معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعًا من رجال ونساء وأطفال .

وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه - الذى ألهمه أن إلقاء

قميصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملاً ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكريمين .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ويصور القرآن ما حدث فيقول : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ .

و « فصلت العير » أى خرجت من مكان إلى مكان آخر . يقال : فصل فلان من بلده كذا فصولاً ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .

و « تفندون » من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن .

والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب - عليه السلام - لمن كان جالسًا معه من أهله وأقاربه ، استمعوا إلى « إنى لأجد ريح يوسف » .

أى : رائحته التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به .

و « لولا » أن تنسبونى إلى الفند وضعف العقل لصدقتمونى فيما قلت ، أو لولا أن تنسبونى إلى ذلك لقلت لكم إنى أشعر أن لقائى بيوسف قد اقترب وقته وحان زمانه .

فجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .

وقد أشم الله - تعالى - يعقوب - عليه السلام - ما عبق من القميص من رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزةظاهرة له - عليه الصلاة والسلام - .

وقال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله - تعالى - ريح قميص يوسف ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا ما شمه ، ولم يجدوا ما وجده ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ .

قالوا له على سبيل التسلية : إنك يا يعقوب مازلت غارقًا فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك . وهو حبك ليوسف وأملك فى لقائه والإكثار من ذكره .

وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف .. وحل أوان المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى

يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة أكرم الله - تعالى - بها نبيه يعقوب - عليه السلام - حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لأبنائه ولمن أنكر عليه قوله ﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ ﴿ ألم أقل ﴾ قبل ذلك ﴿ إنى أعلم من الله ﴾ أى : من رحمته وفضله وإحسانه ﴿ ما لا تعلمون ﴾ أنتم .

وهنا قال الأبناء لأبيهم فى تذلل واستعطاف : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ .

أى : تضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخوينا يوسف وبنيامين .

﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ فى حقك وفى حق أخوينا ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عمن اعترف له بالخطأ .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ أى : سوف أتضرع إلى ربى لكى يغفر لكم ذنوبكم .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو الغفور ﴾ أى الكثير المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ أى : الكثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه فى هذا اللقاء المثير الحافل بالمفاجآت والبشارات .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وبشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فى نهاية القصة فيقول :

فَلَمَّا
دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ
لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ... ﴾ معطوف على كلام محذوف والتقدير :

استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا . وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ فأتوا بأهلهم أجمعين ، حيث رحلوا جميعًا من بلادهم إلى مصر ومعهم أبوهم ، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقًا حارًا .

وقال للجميع ﴿ ادخلوا ﴾ بلاد ﴿ مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من الجوع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلامًا يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعًا لاستقبالهم كما ذكروا أن المراد بأبويه : أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت وهو صغير .

إلا أن ابن كثير قال : « قال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، وأنه لم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها » ..

ثم قال : « وهذا الذى ذكره ابن جرير ، هو الذى يدل عليه السياق »[1] .

والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن فى ربوعها .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩١ .

قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقيموا فى مصر ما بين الثمانين والتسعين .

والمراد بالعرش فى قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ السرير الذى يجلس عليه .

أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى يجلس عليه ، تكريمًا لهما ، وإعلاء من شأنهما .

﴿ وخروا له سجدًا ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - .

« وقال » يوسف متحدثًا بنعمة الله ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ... ﴾ .

أى : وقال يوسف لأبيه : هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى رأيتها فى صغرى . فقد جعل ربى هذه الرؤيا حقًا ، وأرانى تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة .

والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن فى مطلع هذه السورة فى قوله ﴿ يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

ثم قال يوسف لأبيه أيضًا : ﴿ وقد أحسن بى ﴾ ربى - عز وجل - ﴿ إذ أخرجنى من السجن ﴾ بعد أن مكثت بين جدرانه بضع سنين .

وعدى فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى بإلى ، لتضمنه معنى اللطف ولم يذكر نعمة إخراجه من الجب ، حتى لا يجرح شعور إخوته الذين سبق أن قال لهم : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ .

وقوله ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ معطوف على ما قبله تعدادا لنعم الله - تعالى -

أى : وقد أحسن بى ربى حيث أخرجنى من السجن ، وأحسن بى أيضًا حيث يسر لكم أموركم ، وجمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية فى أرض كنعان بفلسطين .

وقوله ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ أى جمعنى بكم من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الجب .

وأصل ﴿ نزغ ﴾ من النزغ بمعنى النخس والدفع . يقال : نزغ الراكب دابته إذا نخسها ودفعها لتسرع فى سيرها .

وأسند النزغ إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك سترًا على إخوته وتأدبًا معهم .

وقوله ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقى ، لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون .

إنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه علمًا تامًا ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء الذى حكاه القرآن عنه فى قوله : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾ أى : يارب قد أعطيتنى شيئًا عظيمًا من الملك والسلطان بفضلك وكرمك .

﴿ وعلمتنى ﴾ - أيضًا - شيئًا كثيرًا ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرًا صادقًا بتوفيقك وإحسانك .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى : خالقهما على غير مثال سابق ، وهو منصوب على النداء بحرف مقدر أى : يا فاطر السموات والأرض .

﴿ أنت وليى ﴾ وناصرى ومعينى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ .

﴿ توفنى ﴾ عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقنى ﴿ مسلمًا ﴾ مدة حياتى .

﴿ وألحقنى ﴾ فى قبرى ويوم الحساب ﴿ بالصالحين ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وبهذا الدعاء الجامع الذى توجه به يوسف إلى ربه - تعالى - يختتم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاؤه عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب ..

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا معهم ، ويلحقنا بهم ، ويوفقنا للسير على نهجهم ...

* * *

ثم يختتم الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وبما يدخل التسلية على قلب الرسول - ﷺ - وبما يفتح له باب الأمل فى النصر على أعدائه ... فيقول :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ
سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. ﴾ . يعود على ما ذكره الله - تعالى - فى هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة ، وما قصصناه عليك فى غيرها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى : من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علمًا تاما شاملاً إلا الله - تعالى - وحده .

ونحن ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبر والعظات .

وقوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ مسوق للتدليل على أن هذا القصص من أنباء الغيب الموحاة إلى النبى - ﷺ - .

أى : ومما يشهد بأن هذا الذى قصصناه عليك فى هذه السورة من أنباء الغيب ، أنك - أيها الرسول الكريم - ما كنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، ثم استقر رأيهم على إلقائه فى الجب ، وما كنت حاضرًا أيضًا وقت أن مكرت امرأة العزيز بيوسف ، وما كنت مشاهدًا لتلك الأحداث المتنوعة التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، ولكنا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس ، ولينتفعوا بما فيه من حكم وأحكام ، وعبر وعظات .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى خلال قصة نوح - عليه السلام - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - فى خلال قصة موسى - عليه السلام - ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾[2] .

---

(١) سورة هود الآية ٤٩ .
(٢) سورة القصص الآية ٤٤ .

وقوله - تعالى - فى خلال حديثه عن مريم ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾[1] .

إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأن النبى - ﷺ - لم يكن معاصرا لمن جاء القرآن بقصصهم ، ولم يطلع على كتاب فيه خبرهم ، فلم يبق لعلمه - ﷺ - بذلك طريق إلا طريق الوحى .

ثم ساق - سبحانه - ما يبعث التسلية والتعزية فى قلب النبى - ﷺ - فقال : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

أى : لقد جئت - أيها الرسول - للناس بدين الفطرة ، الذى ترتاح له النفوس وتتقبله القلوب بسرور وانشراح . ولكن أكثر الناس قد استحوذ عليهم الشيطان ، فمسخ نفوسهم وقلوبهم ، فصاروا مع حرصك على إيمانهم ، ومع حرصك على دعوتهم إلى الحق على بصيرة ، لا يؤمنون بك ، ولا يستجيبون لدعوتك ، لاستيلاء المطامع والشهوات والأحقاد على نفوسهم .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ وما أكثر الناس ... ﴾ إشعار بأن هناك قلة من الناس قد استجابت بدون تردد لدعوة النبى - ﷺ - ، فدخلت فى الدين الحق ، عن طواعية واختيار .

وقوله ﴿ ولو حرصت ﴾ جملة معترضة لبيان أنه مهما بالغ النبى - ﷺ - فى كشف الحق ، فإنهم سادرون فى ضلالهم وكفرهم ، إذ الحرص طلب الشىء باجتهاد .

قال الآلوسى ما ملخصه : « سألت قريش واليهود رسول الله - ﷺ - عن قصة يوسف ، فنزلت مشروحة شرحًا وافيًا ، فأمل النبى - ﷺ - أن يكون ذلك سببًا فى إسلامهم ، فلما لم يفعلوا حزن - ﷺ - فعزاه الله - تعالى - بذلك »[2] .

وقوله ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ زيادة فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى إعلاء شأنه .

أى أنك - أيها الرسول الكريم - ما تسألهم على هذا القرآن الذى تتلوه عليهم لهدايتهم وسعادتهم من أجر ولو كان زهيدًا ضئيلاً . كما يفعل غيرك من الكهان والأحبار والرهبان ... وإنما تفعل ما تفعل ابتغاء رضا الله - تعالى - ونشر دينه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٦٥ .

وقوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : ما هذا القرآن الذى تقرؤه عليهم إلا تذكير وعظة وهداية للعالمين كافة لا يختص به قوم دون قوم ، ولا جنس دون جنس .

قالوا : وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، لأن التذكير العام لكل الناس ، يتنافى مع أخذ الأجرة من البعض دون البعض ، وإنما تتأتى الأجرة ، إذا كانت الدعوة خاصة وليست عامة .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين تطالعهم الدلائل والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ولكنهم فى عمى عنها فقال : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

و ﴿ كأين ﴾ كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم تنوسى معنى جزئيتها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير .

والمراد بالآية هنا : العبرة والعظمة الدالة على وحدانية الله وقدرته يمر بها هؤلاء المشركون فلا يلتفتون إليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .

قال ابن كثير ما ملخصه : يخبر - تعالى - فى هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير فى آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه - سبحانه - فى السموات من كواكب زاهرات ، وسيارات وأفلاك ... وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وحيوانات ونبات ... فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا فقال - تعالى - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

أى : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله فى إقرارهم بوجوده ، وفى إعترافهم بأنه هو الخالق ، إلا وهم مشركون به فى عقيدتهم وفى عبادتهم وفى تصرفاتهم ، فإنهم مع اعترافهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتقربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهرًا أم خفيًا ، كبيرًا أم صغيرًا . وقد ساق ابن كثير هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، كلها تنهى عن الشرك أيًا كان لونه ، منها قوله ﷺ :

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤١ طبعة دار الشعب .

عندما سئل أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » ومنها قوله ؛ : «إن الرقى والتمائم والتولة شرك » .

ومنها قوله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

ومنها قوله ﷺ : فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : يقول الله - تعالى - « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه »[1] .

فالآية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لله رب العالمين .

ثم هددهم - سبحانه - بحلول قارعة تدمرهم تدميرًا فقال - تعالى - : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

والغاشية ؛ كل ما يغطى الشيء ويستره ، والمراد بها : ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

والمعنى : أفأمن هؤلاء الضالون ، أن يأتيهم عذاب من الله - تعالى - يغشاهم ويغمرهم ويشمل كل أجزائهم . وأمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها ، بحيث لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها .

إن كانوا قد أمنوا كل ذلك ، فهم فى غمرة ساهون ، وفى الكفر والطغيان غارقون ، فإنه ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ : أن يسير فى طريقه الذى رسمه له ، وأن يدعو الناس إليه فقال : ﴿ قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ... ﴾ والبصيرة : المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل .

أى : قل -أيها الرسول الكريم - للناس هذه طريقى وسبيلى واحدة مستقيمة لا عوج فيها ولا شبهة ، وهى أنى أدعو إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ببصيرة مستنيرة ، وحجة واضحة ، وكذلك أتباعى يفعلون ذلك ... ولن نكفّ عن دعوتنا هذه مهما اعترضتنا العقبات .

واسم الإشارة ﴿ هذه ﴾ مبتدأ . و ﴿ سبيلى ﴾ خبر ، وجملة ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ... ﴾ حالية ، وقد جىء بها على سبيل التفسير للطريقة التى انتهجها الرسول - ﷺ - فى دعوته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣١ طبعة دار الشعب .

وقوله ﴿ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ تنزيه لله - تعالى - عن كل ما لا يليق به على أبلغ وجه .

أى : وأنزه الله - تعالى - تنزيهًا كاملًا عن الشرك والشركاء ، وما أنا من المشركين به فى عبادته أو طاعته فى أى وقت من الأوقات .

ثم بين - سبحانه - أن رسالته - ﷺ - ليست بدعا من بين الرسالات السماوية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه فى الدعوة إلى الله ، فقال - تعالى - ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى .... ﴾ .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ أوامرنا ونواهينا إلى الناس ، إلا رجالاً مثلك ، وهؤلاء الرجال اختصصناهم بوحينا ليبلغوه إلى من أرسلوا إليهم ، واصطفيناهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصفى عقولاً وأكثر حلما .

وإنما جعلنا الرسل من الرجال ولم نجعلهم من الملائكة أو من الجن أو من غيرهم ، لأن الجنس إلى جنسه أميل ، وأكثرهم تفهما وإدراكًا لما يلقى عليه من أبناء جنسه .

ثم نعى - سبحانه - على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقال : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ... ﴾ .

أى : أوصلت الجهالة والغفلة بهؤلاء المشركين ، أنهم لم يتعظوا بما أصاب الجاحدين من قبلهم من عذاب دمرهم تدميرًا ، وهؤلاء الجاحدين الذين دمروا ما زالت آثار بعضهم باقية وظاهرة فى الأرض . وقومك - يا محمد - يمرون عليهم فى الصباح وفى المساء وهم فى طريقهم إلى بلاد الشام ، كقوم صالح وقوم لوط - عليهما السلام - .

فالجملة توبيخ شديد لأهل مكة على عدم اعتبارهم بسوء مصير من كان على شاكلتهم فى الشرك والجحود .

وقوله ﴿ ولدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم دائم ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أيها المشركون ما خاطبناكم به فيحملكم هذا التعقل والتدبر إلى الدخول فى الإيمان ، ونبذ الكفر والطغيان .

ثم حكى - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل فقال : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ... ﴾ .

وفى قوله ﴿ قد كذبوا ﴾ وردت قراءتان سبعيتان إحداهما بتشديد الذال والثانية بالتخفيف .

وعلى القراءتين فالغاية فى قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ غاية لكلام محذوف دل عليه السياق .

والمعنى على القراءة التى بالتشديد . لقد أرسلنا رسلنا لهداية الناس ، فأعرض الكثيرون منهم عن دعوتهم ، ووقفوا منهم موقف المنكر والمعاند والمحارب لهدايتهم ، وضاق الرسل ذرعًا بموقف هؤلاء الجاحدين ، حتى إذا استيأس الرسل الكرام من إيمان هؤلاء الجاحدين ، وظنوا - أى الرسل - أن أقوامهم الجاحدين قد كذبوهم فى كل ما جاءوهم به لكثرة إعراضهم عنهم ، وإيذائهم لهم ... أى : حتى إذا ما وصل الرسل إلى هذا الحد من ضيقهم بأقوامهم الجاحدين جاءهم نصرنا الذى لا يتخلف .

والمعنى على القراءة الثانية التى هى بالتخفيف : حتى إذا يئس الرسل من إيمان أقوامهم يأسًا شديدًا ، وظن هؤلاء الأقوام أن الرسل قد كذبوا عليهم فيما جاءوهم به ، وفيما هددوهم به من عذاب إذا ما استمروا على كفرهم ..

حتى إذا ما وصل الأمر بالرسل وبالأقوام إلى هذا الحد ، جاء نصرنا الذى لا يتخلف إلى هؤلاء الرسل ، فضلًا منا وكرمًا ..

فالضمير فى قوله ﴿ كُذِّبوا ﴾ بالتشديد يعود على الرسل ، أما على قراءة التخفيف ﴿ كُذِبوا ﴾ فيعود إلى الأقوام الجاحدين .

ومنهم من جعل الضمير - أيضًا - على قراءة ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف يعود على الرسل ، فيكون المعنى : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظنوا - أى الرسل - أن نفوسهم قد كذبت عليهم فى تحديد موعد انتصارهم على أعدائهم لأن البلاء قد طال . والنصر قد تأخر .. جاءهم - أى الرسل - نصرنا الذى لا يتخلف .

قال الشيخ القاسمى فى بيان هذا المعنى : قال الحكيم الترمذى : ووجهه - أى هذا القول السابق - أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف النصر ، لا عن تهمة بوعد الله ، بل عن تهمة لنفوسهم أن تكون قد أحدثت حدثًا ينقض ذلك الشرط ، فكان النصر إذا طال انتظاره واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة »[1] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٦١٥ .

وهذا يدل على شدة محاسبة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لنفوسهم ، وحسن صلتهم بخالقهم - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ معطوف على ما قبله ، ومتفرع عليه .

أى : جاءهم نصرنا الذى وعدناهم به ، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم ، فنجَا من نشاء إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل ، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ أى : لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وأحكامِ ، وآداب وهدايات .

و ﴿ ما كان ﴾ هذا المقصوص فى كتاب الله - تعالى - ﴿ حديثًا يفترى ﴾ أى يختلق .

﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذى بين يديه ﴾ من الكتب السابقة عليه ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، فهو المهيمن على هذه الكتب ، والمؤيد لما فيها من أخبار صحيحة ، والمبين لما وقع فيها من تحريف وتغيير ، والحاكم عليها بالنسخ أو بالتقرير .

﴿ وتفصيل كل شىء ﴾ أى : وكان فى هذا الكتاب - أيضًا - تفصيل وتوضيح كل شىء من الشرائع المجملة التى تحتاج إلى ذلك .

﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أى : وكان هداية تامة ، ورحمة شاملة ، لقوم يؤمنون به ، ويعملون بما فيه من أمر ونهى ، وينتفعون بما اشتمل عليه من وجوه العبر والعظات .

وبعد : فهذا تفسير لسورة يوسف - عليه السلام - تلك السورة الزاخرة بالحكم والأحكام ، وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها . وعطائها ومنعها وسرها وعلانيتها ، ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها ..

أسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بهدى كتابه ، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم نلقاه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

تفسير

سُورَةِ الرَّعْدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فهذا تفسير تحليلى لسورة « الرعد » توخيت فيه أن أبرز ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات تامة ، وأحكام حكيمة ، وتراكيب بليغة ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده وشفيعًا لنا يوم نلقاه ، إنه - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

المؤلف

الدكتور محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدى سورة الرعد

نريد بهذا التمهيد - كما سبق أن ذكرنا فى تفسير السورة السابقة - إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن سورة الرعد ، قبل أن نبدأ فى تفسيرها آية فآية فنقول - وبالله التوفيق :

١ - سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها اثنتا عشرة سورة ، هى سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

٢ - وسميت بهذا الاسم منذ العهد النبوى ، ولم يعرف لها اسم سوى هذا الاسم ، ولعل سبب تسميتها بذلك ، وورود ذكر الرعد فيها ، فى قوله - تعالى - ﴿ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ... ﴾[1] .

٣ - وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية فى المصحف الكوفى ، وأربع وأربعون آية فى المدنى ، وخمس وأربعون فى البصرى ، وسبع وأربعون فى الشامى[2] .

٤ - والذى يقرأ أقوال المفسرين فى بيان زمان نزولها ، يراها أقوالاً ينقصها الضبط والتحقيق .

فهناك روايات صرحت بأنها مكية ، وأخرى صرحت بأنها مدنية ، وثالثة بأنها مكية إلا آيات منها فمدنية ، ورابعة بأنها مدنية إلا آيات منها فمكية ...

قال الآلوسى : « جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلى بن أبى طلحة أنها مكية » .

وروى ذلك عن سعيد بن جبير - أيضًا - .

قال سعيد بن منصور فى سننه ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر قال : سألت ابن جبير عن قوله - تعالى - ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ هل هو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية .

---

(١) الآية رقم ١٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٧٦ طبعة منير الدمشقى .

وأخرج مجاهد عن ابن الزبير ، وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس ، ومن طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء عنه أنها مدنية .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنها مدنية إلا قوله - تعالى - ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة .. الآية ﴾ فإنها مكية .

وروى أن من أولها إلى آخر قوله - تعالى - ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ... ﴾ .

نزل بالمدينة ، أما باقيها فنزل فى مكة ..[1] .

هذه بعض الروايات فى زمان نزولها ، وهى - كما ترى - التعارض فيها واضح .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن السورة الكريمة يبدو بوضوح فيها طابع القرآن المكى ، سواء أكان ذلك فى موضوعاتها ، أم فى أسلوبها ، أم فى غير ذلك من مقاصدها وتوجيهاتها .

وأن نزولها - على الراجح - كان فى الفترة التى أعقبت موت أبى طالب ، والسيدة خديجة - رضى الله عنها .

وهى الفترة التى لقى فيها الرسول - ﷺ - ما لقى من أذى المشركين وعنتهم ، وطغيانهم ..

والذى جعلنا نرجح أن نزولها كان فى هذه الفترة ، ما اشتملت عليه السورة الكريمة ، من أدلة متنوعة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومن تسلية له - ﷺ - عما أصابه من قومه - كما سنرى ذلك عند تفسيرنا لآياتها ، كذلك مما جعلنا نرجح أن نزولها كان فى هذه الفترة ، قول السيوطى فى كتابه الإتقان : « ونزلت بمكة سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ... »[2] .

وقد رجحنا عند تفسيرنا لسورة يونس ، وهود ، ويوسف - عليهم السلام - أن هذه السور قد نزلت فى تلك الفترة من حياة النبى - ﷺ - ونرجح هنا أن نزول سورة الرعد كان فى تلك الفترة - أيضًا - لمناسبة موضوعاتها لأحداث هذه الفترة .

٥ - عرض إجمالى لسورة الرعد :

(ا) لقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبالإشارة إلى إعجازه ، ثم ساقت ألوانًا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وعظيم حكمته ...

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٧٥ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٢ طبعة مصطفى الحلبى .

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .. ﴾ .

(ب) ثم حكت السورة بعد ذلك جانبًا من أقوال المشركين فى شأن البعث ، وردت عليهم بما يكبتهم فقال - تعالى - ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ، أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ... ﴾ .

(جـ) ثم بينت السورة الكريمة ما يدل على كمال علمه - تعالى - وعلى عظم سلطانه ، وعلى حكمته فى قضائه وقدره فقال - تعالى - : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ... ﴾ .

(د) ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يسأل المشركين سؤال تهكم وتوبيخ عمن خلق السموات والأرض فقال - تعالى - : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ .

(هـ) ضربت السورة الكريمة مثلين للحق والباطل . وعقدت مقارنة بين مصير أتباع الحق ، ومصير أتباع الباطل فقال - تعالى - : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .. ﴾ .

(و) ثم حكت السورة الكريمة بعض المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى - ﷺ - وردت عليهم بما يمحق باطلهم ، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم فقال - تعالى - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .. ﴾ .

(ز) ثم حكت السورة الكريمة لونًا آخر من غلوهم فى كفرهم ، ومن مقترحاتهم الفاسدة ، حيث طلبوا من النبى - ﷺ - أن يسير لهم بالقرآن جبال مكة ليتفسحوا فى أرضها ، ويفجر لهم فيها الأنهار والعيون ليزرعوها ، ويحيى لهم الموتى ليخبروهم بصدقه ... فقال - تعالى - : ﴿ ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به

الموتى بل لله الأمر جميعًا ، أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ... ﴾ .

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وبالثناء على القرآن الكريم ، وبتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من أعدائه وبالشهادة له بالرسالة ، وبتهديد المشركين بالعذاب الأليم ، فقال - تعالى - ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ ...

﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق * ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب * ﴾ ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ، قل كفى بالله شهيدًا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت بالحديث عن موضوعات من أبرزها ما يأتى :

(ا) إقامة الأدلة المتنوعة على كمال قدرة الله - تعالى - وعظيم حكمته . تارة عن طريق التأمل فى هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد ، وأرض صالحة للاستقرار عليها ، وشمس وقمر وكواكب مسخرة لمنافع الناس ، وجبال لتثبيت الأرض ، وأنهار لسقى الزرع ...

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وتارة عن طريق علمه المحيط بكل شىء ، فهو العليم بما تنقصه الأرحام وما تزداده فى الخلقة وفى المدة وفى غير ذلك ، وهو العليم بأحوال عباده سواء أكانوا ظاهرين بالنهار أم مستخفين بالليل .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار ... ﴾ .

وتارة عن طريق الظواهر الكونية التى يرسلها - سبحانه - لعباده خوفًا وطمعًا ، ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب الثقال * ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ... ﴾ .

وتارة عن طريق العطاء والمنع لمن يشاء من عباده : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ... ﴾ .

وتارة عن طريق المصائب والقوارع التى ينزلها - سبحانه - بالكافرين ﴿ ولا يزال الذين

كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

(ب) إثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، والرد على المشركين فيما طلبوه من النبى - ﷺ - من مطالب متعنتة ، ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - :

﴿ تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ .

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾ .

(جـ) تثبيت فؤاد النبى - ﷺ - وتسليته عما لحقه من أذى ، وذلك لأن السورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - مكية ، وأنها - على الراجح - قد نزلت فى فترة اشتد فيها إعراض المشركين عن دعوة الحق وتكذيبهم لها ، وتطاولهم على صاحبها - ﷺ - ومطالبتهم له بالخوارق التى لا يؤيدها عقل سليم .

فنزلت السورة الكريمة لتثبت الرسول - ﷺ - وأتباعه ، ولتمزق أباطيل المشركين عن طريق حشود من الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعًا، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ، ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيدًا

بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ هذه بعض الموضوعات التى نرى السورة الكريمة قد اهتمت بتفصيل الحديث عنها .

وهناك موضوعات أخرى يراها كل من تأمل آياتها بفكر سليم ، وعقل قويم ، وروح صافية ...

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا فهم كتابه ، والعمل بما فيه من آداب وأحكام ، وهدايات ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لقد افتتحت سورة الرعد ببعض الحروف المقطعة ، وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء فى هذه الحروف فى سور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون من كلامكم ، ومنظومًا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها كلماتكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا سورة واحدة من مثله ..

ومع كل هذا التساهل معهم فى التحدى ، فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

و ﴿ تلك ﴾ اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويدخل فيها آيات السورة التى معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذى أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

وقوله ﴿ والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم ، ورد على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين .

أى : تلك الآيات التى نقرؤها عليك - يامحمد - فى هذه السورة هى آيات الكتاب الكريم ، وما أنزله الله - تعالى - عليك فى هذا الكتاب ، هو الحق الخالص الذى لا يلتبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ من ربك ﴾ مزيد من التلطف فى الخطاب معه - ﷺ - فكأنه - سبحانه - يقول له : إن ما نزل عليك من قرآن هو من عند ربك الذى تعهدك بالرعاية والتربية حتى بلغت درجة الكمال .

واسم الموصول ﴿ الذى ﴾ مبتدأ ، والجملة بعده صلة ، والحق هو الخبر ...

وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك لبيان موقف أكثر الناس من هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : لقد أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بالحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم ...

وفى هذا الاستدراك ، مدح لتلك القلة المؤمنة من الناس ، وهم أولئك الذن فتحوا قلوبهم للحق منذ أن وصل إليهم ، فآمنوا به ، واعتصموا بحبله ، ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم وعلى رأس هذه القلة التى آمنت بالحق منذ أن بلغها : أبو بكر الصديق وغيره من السابقين إلى الإسلام .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة المتنوعة ه عن طريق المشاهدة - على كمال قدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له فقال - تعالى - ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ .

والعمد : جمع عماد ، وهو ما تقام عليه القبة أو البيت .

وجملة ﴿ ترونها ﴾ فى محل نصب حال من السموات .

أى : الله - سبحانه - هو الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يسندها ، وبغير أعمدة تعتمد عليها ، وأنتم ترون ذلك بأعينكم بجلاء ووضوح .

والمراد بقوله ﴿ رفع ﴾ أى خلقها مرتفعة منذ البداية ، وليس المراد أنه - سبحانه - رفعها بعد أن كانت منخفضة .

ولا شك أن خلق السموات على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقًا قادرًا حكيمًا ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو دليل آخر على قدرة الله - تعالى - عن طريق الغائب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك بعد أن أقام الأدلة على ذلك عن طريق الحاضر المشاهد .

الاستواء فى اللغة يطلق على معان منها الاستقرار كما فى قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ أى : استقرت ، وبمعنى الاستيلاء والقهر .

وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم - كما يقول الراغب - .

وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية ، كما ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات من القرآن الكريم .

والمعنى : ثم استوى على العرش استواء يليق بذاته - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين .

قال الإمام مالك - رحمه الله - : « الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ . والتسخير : التذليل والخضوع .

أى : أن من مظاهر فضله أنه - سبحانه - سخر ذلك وأخضع لقدرته الشمس والقمر ، بأن جعلهما طائعين لما أراده منهما من السير فى منازل معينة ، ولأجل معين محدد لا يتجاوزانه ولا يتعديانه . بل يقفان عند نهاية المدة التى حددها - سبحانه - لوقوفهما وأفولهما .

قال - تعالى - ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾[١] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ . وتدبير الأمر : تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها .

والآيات : جمع آية . والمراد بها هنا : ما يشمل الآيات القرآنية ، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته - سبحانه - .

أى : أنه - سبحانه - يقضى ويقدر ويتصرف فى أمر خلقه على أكمل الوجوه وأنه - سبحانه - ينزل آياته القرآنية واضحة مفصلة ، ويسوق الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته بطرق متعددة ، وبوجوه متنوعة .

وقد فعل - سبحانه - ما فعل - من رفعه السماء بلا عمد ، ومن تسخيره للشمس والقمر ، ومن تدبيره لأمور خلقه ، ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق ، توقنون بلقائه ، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة ، لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم ، لكى يحاسبكم على أعمالكم .

وقال - سبحانه - ﴿ يدبر ﴾ و ﴿ يفصل ﴾ بصيغة المضارع . وقال قبل ذلك ﴿ رفع السموات ﴾ و ﴿ سخر الشمس والقمر ﴾ بصيغة الماضى . لأن التدبير للأمور ، والتفصيل للآيات ، يتجددان بتجدد تعلق قدرته - سبحانه - بالمقدورات .

وأما رفع السماوات ، وتسخير الشمس والقمر ، فهى أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فى عالم السماوات ، أتبعه بذكر بعض هذه المظاهر فى عالم الأرض فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ والمد : البسط والسعة . ومنه ظل مديد أى متسع .

---

(١) سورة يس الآية ٤٠ .

والرواسي : الجبال مأخوذ من الرسو ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة ، يقال : رسا الشيء يرسو رسْوا ورسُوًّا ، إذا ثبت واستقر ، وأرسيت الوتد فى الأرض إذا أثبته فيها .

ولفظ رواسي : صفة لموصوف محذوف . وهو من الصفات التى تغنى عن ذكر موصوفها .

والأنهار : جمع نهر ، وهو مجرى الماء الفائض ، ويطلق على الماء السائل على الأرض .

والمراد بالثمرات : ما يشملها هى وأشجارها ، وإنما ذكرت الثمرات وحدها ، لأنها هى موضع المنة والعبرة .

والمراد بالزوجين : الذكر والأنثى ، وقيل المراد بهما الصنفان فى اللون أو فى الطعم أو فى القدر وما أشبه ذلك .

والمعنى : وهو - سبحانه - الذى بسط الأرض طولاً وعرضًا إلى المدى الذى لا يدركه البصر ، ليتيسر الاستقرار عليها .

ولا تنافى بين مدها وبسطها . وبين كونها كروية ، لأن مدها وبسطها على حسب رؤية العين ، وكرويتها حسب الحقيقة .

وجعل فى هذه الأرض جبالاً ثوابت راسخات ، لتمسكها من الاضطراب ، وجعل فيها - أيضًا - أنهارًا ، لينتفع الناس والحيوان وغيرهما بمياه هذه الأنهار .

وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرا وأنثى .

قال صاحب الكشاف : « أى خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت .

وقيل : أراد بالزوجين : الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة »[1] .

وقال صاحب الظلال : « وهذه الجملة تتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريبًا ، وهى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنونًا أنه ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة فى زهرة ، أو متفرقة فى العود ... »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٩ . طبعة دار المعرفة - بيروت .

(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٠٤٦ طبعة دار الشروق .

وقوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .

ولفظ ﴿ يغشى ﴾ من التغشية بمعنى التغطية والستر .

والمعنى : أن من مظاهر قدرته - سبحانه - أنه يجعل الليل غاشيا للنهار مغطيًا له فيذهب بنوره وضيائه . فيصير الكون مظلمًا بعد أن كان مضيئًا . ويجعل النهار غاشيًا لليل ، فيصير الكون مضيئًا بعد أن كان مظلمًا ، وفى ذلك من منافع الناس ما فيه ، إذ بذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، وبين السعى والسكون .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى فعله الله - تعالى - من بسط الأرض طولاً وعرضًا ومن تثبيتها بالرواسى ، ومن شقها بالأنهار ... لآيات باهرة ، ودلائل ظاهرة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، لقوم يحسنون التفكر ، ويطيلون التأمل فى ملكوت السموات والأرض .

ثم ساق - سبحانه - مظاهر أخرى لقدرته فقال - تعالى - : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ .

والقطع : جمع قطعة - بكسر القاف - وهى الجزء من الشىء ، تشبيها لها ، بما يقتطع من الشىء .

ومتجاورات . أى : متلاقيات ومتقاربات .

وليس هذا الوصف مقصودًا لذاته ، بل المقصود أنها مع تجاورها وتقاربها مختلفة فى أوصافها مما يشهد بقدرة الله - تعالى - العظيمة .

ولذا قال ابن كثير ما ملخصه : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ أى : أراض يجاور بعضها بعضًا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئًا ، وهذه تربتها حمراء ، وتلك تربتها سوداء ... وهذه محجرة وتلك سهلة ... والكل متجاورات ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ولا رب سواه[1] .

وقال - سبحانه - ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ بإعادة اسم الأرض الظاهر ، ولم يقل وفيها قطع متجاورات كما قال : ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ فى الآية السابقة ، وذلك ليكون كلامًا مستقلا ، وليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة . وقوله ﴿ وجنات من أعناب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٥٣ طبعة دار الشعب .

وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ... ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .

والجنات : جمع جنة ، والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف ، الملتف الأغصان الذى يظلل ما تحته ويستره .

والأعناب : جمع عنب وهو شجر الكرم .

والمراد بالزرع : أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها وقوله ﴿ صنوان ﴾ صفة لنخيل ، وهو جمع صنو .

والصنو : الفرع الذى يجمعه مع غيره أصل واحد ، فإذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد ، فكل واحدة منهن يطلق عليها اسم صنو .

ويطلق على الاثنتين صنوان - بكسر النون - ويطلق على الجمع صنوان - بضم النون - .

والصنو : بمعنى المثل ومنه قيل لعم الرجل : صنو أبيه ، أى : مثله ، فأطلق على كل غصن صنو لمماثلته للآخر فى التفرع من أصل واحد « والأكل » اسم لما يؤكل من الثمار والحب .

والمعنى : أن من مظاهر قدرة الله - أيضا - ومن الأدلة على وحدانيته - سبحانه - أنه جعل فى الأرض بقاعا كثيرة متجاورة ومع ذلك فهى مختلفة فى أوصافها وفى طبيعتها .. وفيها أيضًا بساتين كثيرة من أعناب ومن كل نوع من أنواع الحبوب .

وفيها كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فهى صنوان ، ونخيل أخرى لا يجمعها أصل واحد فهى غير صنوان .

والكل من الأعناب والزرع والنخيل وغيرها ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ لا اختلاف فى ذاته سواء أكان السقى من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار ومع وجود أسباب التشابه ، فإننا لعظيم قدرتنا وإحساننا ﴿ نفضل بعضها على بعض ﴾ آخر منها ﴿ فى الأكل ﴾ أى : فى اختلاف الطعوم .

قال الإمام الرازى : « قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ كلها بالرفع عطفا على قوله ﴿ وجنات ﴾ وقرأ الباقون بالجر عطفًا على الأعناب ... »[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٧٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

وخص - سبحانه - النخيل بوصفه بصنوان ، لأن العبرة به أقوى ، إذ المشاهدة له أكثر من غيره .

ووجه زيادة ﴿ غير صنوان ﴾ تجديد العبرة باختلاف الأحوال ، واقتصر - سبحانه - فى التفاضل على الأكل ، لأنه أعظم المنافع .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ تذييل قصد به الحض على التعقل والتدبر .

أى : إن فى ذلك الذى فصل الله - تعالى - أحواله من اختلاف أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وأوراقها ... مع أنها تسقى بماء واحد . وتنبت فى أرض متجاورة ، إن فى ذلك كله لدلائل باهرة ، على قدرة الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة ، لقوم يستعملون عقولهم فى التفكير السليم ، والتأمل النافع .

أما الذين يستعملون عقولهم فيما لا ينفع ، فإنهم يمرون بالعبر والعظات وهم عنها معرضون .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ساق فى هذه الآيات أدلة متعددة ومتنوعة من العالم العلوى والسفلى ، وكلها تدل على عظيم قدرته ، وجليل حكمته .

وهذه الأدلة منها :

١ - خلقه السموات مرتفعة بغير عمد .

٢ - تسخيره الشمس والقمر لمنافع الناس .

٣ - خلقه الأرض بتلك الصورة الصالحة للاستقرار عليها .

٤ - خلقه الجبال فيها لتثبيتها .

٥ - خلقه الأنهار فيها لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات .

٦ - خلقه زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الثمار .

٧ - معاقبته بين الليل والنهار .

٨ - خلقه بقاعا فى الأرض متجاورة مع اختلافها فى الطبيعة والخواص .

٩ - خلقه أنواعًا من الزروع المختلفة فى ثمارها وأشكالها .

١٠ - خلقه النخيل صنوانًا وغير صنوان ، وجميعها تسقى بماء واحد .

ومع كل ذلك فضل - سبحانه - بعضها على بعض فى الأكل .

وهذه الأدلة يشاهدها الناس بأبصارهم ، ويحسونها بحواسهم ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى خلقه ، ساق - سبحانه - بعض أقوال المشركين الفاسدة ، ورد عليها بما يدحضها فقال - تعالى - :

۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ أى : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين . فأعجب منه تكذيبهم بالبعث - لأن من شاهد ما عدد - سبحانه - من الآيات الدالة على قدرته . أيقن بأن من قدر على إنشائها ، كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره ، والله - تعالى - لا يتعجب ، ولا يجوز عليه التعجب ، لأنه - أى التعجب - تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وذلك فى حقه - تعالى - محال ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون »[1] .

وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أى : وإن تعجب أيها العاقل لشىء بعد أن شاهدت من مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ما شاهدت فازدد تعجبا ممن ينكر بعد كل هذا قدرته - سبحانه - على إحياء الموتى .

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٨٤ طبعة دار الكتب .

قال الجمل : وقوله ﴿ فعجب قولهم ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر ، ولابد من حذف صفة لتتم الفائدة ، أى : فعجب أى عجب قولهم . أو فعجب غريب قولهم . والثانى أنه مبتدأ ، وسوغ الابتداء ما ذكرته من الوصف المقدر ، ولا يضر حينئذ كون خبره معرفة[١] .

والتنكير فى قوله ﴿ فعجب ﴾ للتهويل والتعظيم .

وجملة ﴿ أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد ﴾ فى محل نصب مقول القول .

أى : وإن تعجب من شىء - أيها الرسول الكريم - فاعجب من قول أولئك المشركين : أئذا صرنا ترابا وعظاما نخرة بعد موتنا أئنا بعد ذلك لنعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد .

والاستفهام للإنكار ، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم ، كما حكى القرآن عنهم قولهم فى آية أخرى : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد ﴾[٢] .

وكرر همزة الاستفهام فى ﴿ أئذا ، وأئنا .. ﴾ لتأكيد هذا الإنكار .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جزاءهم على هذا القول الباطل فقال - تعالى - ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ... ﴾ .

أى : أولئك المنكرون لقدرة الله - تعالى - على البعث، هم الذين كفروا بربهم ﴿وأولئك الأغلال فى أعناقهم ﴾ والأغلال : جمع غل . وهو قيد من حديد تشد به اليد إلى العنق ، وهو أشد أنواع القيود .

أى : وأولئك هم الذين توضع الأغلال والقيود فى أيديهم وأعناقهم يوم القيامة ، عندما يساقون إلى النار بذلة وقهر ، بسبب إنكارهم لقدرة الله على إعادتهم إلى الحياة ، وبسبب جحودهم لنعم خالقهم ورازقهم .

قال - تعالى - : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[٣] .

وقيل إن الجملة الكريمة تمثيل لحالهم فى الدنيا ، حيث شبه - سبحانه - امتناعهم عن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٩١ طبعة عيسى الحلبى .
(٢) سورة ق الآية ٣ .
(٣) سورة غافر الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

الإيمان ، وعدم التفاتهم إلى الحق ، بحال قوم فى أعناقهم قيود لا يستطيعون معها التفاتا أو تحركًا .

والأول أولى لأن حمل الكلام على الحقيقة واجب ، ما دام لا يوجد مانع يمنع منه ، وهنا لا مانع ، بل صريح القرآن يشهد له .

وقوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أى : وأولئك الموصوفون بما ذكر ، هم أصحاب النار التى لا ينفكون عنها . ولا يخرجون منها .

وكرر - سبحانه - اسم الإشارة ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعده من عقوبات .

وجاء به للبعيد ، للإشارة إلى بعد منزلتهم فى الجحود والضلال .

ثم حكى - سبحانه - لونًا آخر من طغيانهم واستهزائهم برسولهم - ﷺ - فقال : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ، وقد خلت من قبلهم المثلات ... ﴾ .

والمراد بالسيئة : الحالة السيئة كالعقوبات والمصائب التى تسوء من تنزل به .

والمراد بالحسنة : الحالة الحسنة كالعافية والسلامة .

والمثلات : جمع مثلة - بفتح الميم وضم الثاء كسمرة ، وهى العقوبة الشديدة الفاضحة التى تنزل بالإنسان فتجعله مثالاً لغيره فى الزجر والردع .

والاستعجال : طلب حصول الشيء قبل حلول وقته .

أى أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول - ﷺ - بعقاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم ، سخروا منه ، وتهكموا به وقالوا له على سبيل الاستهزاء : ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماءِ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[2] .

والجملة الكريمة تحكى لونًا عجيبًا من ألوان توغلهم فى الجحود والضلال ، حيث طلبوا من الرسول - ﷺ - تعجيل العقوبة التى توعدهم بها ، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية .

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

وجملة ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ فى موضع الحال ، لزيادة التعجب من جهلهم وطغيانهم ، لأن آثار الأقوام المهلكين بسبب كفرهم ما زالت ماثلة أمام أبصارهم ، وهم يمرون عليها فى أسفارهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يعتبروا بها .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ بيان لرحمة الله - تعالى - بعباده ، ولشدة عقابه للمصرين على الكفر منهم أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو مغفرة عظيمة للناس مع ظلمهم لأنفسهم ، حيث أطاعوها فى ارتكاب الذنوب والمعاصى .

ومن مظاهر هذه المغفرة أنه - سبحانه - لم يعاجلهم بالعقوبة . بل صبر عليهم ، وأمهلهم ، لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويقلعون عن ذنوبهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ... ﴾[1] .

وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لشديد العقاب للمصرين على كفرهم وضلالهم ومعاصيهم .

وقدم - سبحانه - مغفرته على عقوبته ، فى مقابل تعجل هؤلاء الكافرين للعذاب ، ليظهر الفارق الضخم بين الخير الذى يريده - سبحانه - لهم ، وبين الشر الذى يريدونه لأنفسهم بسبب انطماس بصائرهم ...

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - سبحانه - ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ .

أى : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار .

ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف . كما قال - تعالى - ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ .

وقال - تعالى - ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ .

وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ... ﴾ قال رسول الله - ﷺ - « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدًا العيش . ولولا

(١) سورة فاطر الآية ٤٥ .

وعيده وعقابه لاتكل كل أحد »[1] .

ثم حكي - سبحانه - لونًا آخر من رذائلهم ، وهو عدم اعتدادهم بالقرآن الكريم ، الذى هو أعظم الآيات والمعجزات فقال - تعالى - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ... ﴾ .

و ﴿ لولا ﴾ هنا حرف تحضيض بمعنى هلا .

ومرادهم بالآية : معجزة كونية كالتى جاء بها موسى من إلقائه العصى فإذا هى حية تسعى ، أو كالتى جاء بها عيسى من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله ، أو كما يقترحون هم من جعل جبل الصفا ذهبًا ...

لأن القرآن - فى زعمهم - ليس كافيًا لكونه معجزة دالة على صدقه - ﷺ - .

أى : ويقول هؤلاء الكافرون الذين عموا وصموا عن الحق واستعجلوا العذاب . هلا أنزل على محمد - ﷺ - آية أخرى غير القرآن الكريم تدل على صدقه .

ولقد حكى القرآن مطالبهم المتعنتة فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ... ﴾[2] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم ببيان وظيفة النبى - ﷺ - فقال ﴿ إنما أنت منذر ... ﴾ .

أى : أن وظيفتك - أيها الرسول الكريم - هى إنذار هؤلاء الجاحدين بسوء المصير ، إذا ما لجوا فى طغيانهم ، وأصروا على كفرهم وعنادهم وليس من وظيفتك الإتيان بالخوارق التى طلبوها منك .

وإنما قصر - سبحانه - هنا وظيفة النبى - ﷺ - على الإنذار ، لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة .

وقوله ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى : ولكل قوم نبى يهديهم إلى الحق والرشاد بالوسيلة التى يراها مناسبة لأحوالهم ، وأنا - أيها الرسول الكريم - قد جئتهم بهذا القرآن الهادى للتى هى أقوم . والذى هو خير وسيلة لإرشاد الناس إلى ما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

قال الشيخ القاسمى : « أو المعنى : ولكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم . هو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٥ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ وما بعدها .

الله - تعالى - فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم كما قال - تعالى - : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ... ﴾ .

أو المعنى : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى : قائد يهديهم إلى الرشد ، وهو الكتاب المنزل عليهم ، الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم .

يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى ، وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وحده ... »[1] .

* * *

ثم صور - سبحانه - سعة علمه تصويرًا عميقًا ، تقشعر منه الجلود ، وترتجف له المشاعر ، وساق سنة من سننه التى لا تتغير ولا تتبدل ، فقال - تعالى - :

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ
ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ
بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٦٤٨ .

﴿ وتغيض ﴾ من الغيض بمعنى النقص . يقال : غاض الماء إذا نقص .

و ﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف . أى : الله وحده هو الذى يعلم ما تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة أو مضغة ومن ذكر أو أنثى ... وهو وحده - سبحانه - الذى يعلم ما يكون فى داخل الأرحام من نقص فى الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص فى العدد أو زيادة فيه ...

قال ابن كثير : « قوله : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ ، قال البخارى : حدثنا إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن ، حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : أن رسول الله - ﷺ - قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﴾ .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعنى السقط ﴿ وما تزداد ﴾ .

يقول : مازادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص . فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله - تعالى - وكل ذلك بعلمه - سبحانه -[1] .

وقوله : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ أى : وكل شىء عنده - سبحانه - بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كما قال - تعالى - ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[2] . وكما قال - تعالى - ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾[3] . فهو - سبحانه - يعلم كمية كل شىء وكيفيته وزمانه ومكانه وسائر أحواله .

وقوله ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ تأكيد لعموم علمه - سبحانه - ودقته .

والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو : مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

والشهادة : مصدر شهد يشهد ، وهى هنا بمعنى الاشياء المشهودة .

والمتعال : المستعلى على كل شىء فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله - سبحانه - .

أى : أنه - سبحانه - هو وحده الذى يعلم أحوال الأشياء الغائبة عن الحواس كما يعلم

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٥٧ طبعة دار الشعب .
(٢) سورة القمر الآية ٤٩ .
(٣) سورة الحجر الآية ٢١ .

أحوال المشاهدة منها ، وهو العظيم الشأن ، المستعلى على كل شىء .

وقوله - سبحانه - ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ تأكيد آخر لشمول - علمه - - سبحانه - لأحوال عباده .

وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به هنا اسم الفاعل . أى : مستو .

قال الجمل : «وفيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم ، ومن أسر ومن جهر هو المبتدأ ، وإنما لم يثن الخبر لأنه فى الأصل مصدر ، وهو هنا بمعنى مستو .

والثانى أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله ﴿ منكم ﴾[1] .

﴿ وسارب بالنهار ﴾ أى : ظاهر بالنهار . يقال : سرب فى الأرض يسرب سربا وسروبا . أى : ذهب فى سربه - بسكون الراء وكسر السين وفتحها - أى طريقه .

والمعنى : أنه - تعالى - مستوٍ فى علمه من أسر منكم القول ، ومن جهر به بأن أعلنه لغيره .

ومستو فى علمه - أيضا - من هو مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل ، ومن هو ذاهب فى سربه وطَريقه بالنهار بحيث يبصره غيره .

وذكر - سبحانه - الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء ، وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رعايته لعباده فقال - تعالى - ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. ﴾ .

والضمير فى ﴿ له ﴾ يعود إلى ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل ﴾ باعتبار تأويله بالمذكور .

و « معقبات » صفة لموصوف محذوف أى : ملائكة معقبات .

قال الشوكانى : « والمعقبات المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه . وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض ، وإنما قال « معقبات » مع كون الملائكة ذكورا ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات .

قال الجوهرى : والتعقب العود بعد البدء قال الله - تعالى - ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٦٩ .

يقال : عقب الفرس فى عدوه ، أى : جرى بعد جريه . وعقبه تعقيبا . أى : جاء عقبه .

و « من » فى قوله ﴿ من أمر الله ﴾ بمعنى باء السببية .

والمعنى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين ممن يسرون القول أو يجهرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ ، إنما هو بسبب أمر الله - تعالى - لهم بذلك .

قال ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم - سبحانه - وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ . فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .

وفى الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم » . أى : فاستحيوا منهم وأكرموهم بالتستر وغيره .

وقال عكرمة عن ابن عباس « يحفظونه من أمر الله ، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه » [1] .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أنه - سبحانه - لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية وخير بضده ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية ؛ ومن جميل إلى قبيح ، ومن صلاح إلى فساد .

وإذا أراد - سبحانه - بقوم سوءا من عذاب أو هلاك أو ما يشبههما بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، فلا راد لقضائه ، ولا دافع لعذابه .

وما لهم من دونه - سبحانه - من وال أى من ناصر ينصرهم منه - سبحانه - ويرفع عنهم عقابه ، ويلى أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد .

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله فى شئون عباده ، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصى وجحود النعمة ، فإنه - سبحانه - لا يعصم الناس من عذابه عاصم . ولا يدفعه دافع .

قال الإمام ابن كثير : « قال ابن أبى حاتم : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٥٩ .

قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون .

ثم قال : إن مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وعن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة فقال : كنت إذا سكت عن رسول الله - ﷺ - ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه - عز وجل - قال : « قال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى ، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى »[1] .

ثم لفت - سبحانه - أنظار عباده إلى أنواع متعددة من الظواهر الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته ، وبين أن هذه الظواهر قد تكون نعما ، وقد تكون نقما ، وأنها وغيرها تسبح بحمد الله ، وتخضع لسلطانه فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٤ ص ٣٦٢ طبعة دار الشعب .

والبرق : ما يراه الرائى من نور لامع يظهر من خلال السحاب ، وخوفا وطمعا : حالان من الكاف فى يريكم ، أو هما فى محل المفعول لأجله .

والمعنى : هو الله - تعالى - وحده الذى يريكم بقدرته البرق ، فيترتب على ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق . أو سيل مدمر ، وبعضكم يطمع فى الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر النافع ، والغيث المدرار .

فمن مظاهر حكمة الله - تعالى - فى خلقه ، أنه جعل البرق علامة إنذار وتبشير معا ، لأنه بالإنذار والتبشير تعود النفوس إلى الحق ، وتفىء إلى الرشد .

وجملة « وينشىء السحاب الثقال » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - وإنشاء السحاب : تكوينه من العدم .

والسحاب : الغيم المنسحب فى الهواء ، وهو اسم جنس واحده سحابة ، فلذلك وصف بالجمع وهو « الثقال » جمع ثقيلة .

أى : وهو - سبحانه - الذى ينشىء السحاب المثقل بالماء ، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته .

قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته . والرعد : اسم للصوت الهائل الذى يسمع إثر تفجير شحنة كهربية فى طبقات الجو .

وعطف - سبحانه - الرعد على البرق والسحاب ، لأنه مقارن لهما فى كثير من الأحوال . والتسبيح : مشتق من السبح وهو المرور السريع فى الماء أو فى الهواء وسمى الذاكر لله - تعالى - مسبحا ، لأنه مسرع فى تنزيه سبحانه عن كل نقص .

وتسبيح الرعد - وهو هذا الصوت الهائل - بحمد الله ، يجب أن نؤمن به ، ونفوض كيفيته إلى الله - تعالى - لأنه من الغيب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه - وقد بين لنا - سبحانه - فى كتابه أن كل شىء يسبح بحمده فقال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧ .

ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ [١] .

وقد فصل القول فى معنى هذه الجملة الكريمة الإمام الآلوسى فقال - رحمه الله - ما ملخصه :

وقوله : « ويسبح الرعد » قيل هو اسم للصوت المعلوم ، والكلام على حذف مضاف أى : ويسبح سامعو الرعد بحمده - سبحانه - رجاء للمطر .

ثم قال : والذى اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد حقيقيا بناء على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب ، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وآخرون عن ابن عباس أن اليهود سألوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال : « ملك من ملائكة الله - تعالى - موكّل بالسحاب ، بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله - تعالى - قالوا . فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال صوته - قالوا : صدقت » .

ثم قال : واستشكل بأنه لو كان علما للملك لما ساغ تنكيره ، وقد نكر فى سورة البقرة فى قوله - تعالى - ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ .

وأجيب بأن له إطلاقين : ثانيهما إطلاقه على نفس الصوت ، والتنكير على هذا الإطلاق ... » [٢] .

والذى نراه أن تسبيح الرعد بحمد الله يجب الإيمان به ، سواء أكان الرعد اسما لذلك الصوت المخصوص ؛ أم اسما لملك من الملائكة ، أما كيفية هذا التسبيح فمردها إلى الله .

قال الإمام الشوكانى : « ويسبح الرعد بحمده » أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله . أى : متلبسا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ، ولا ما نع من أن ينطقه الله بذلك .

وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له . وعناية به » [٣] .

وقال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان .. عن سالم عن أبيه قال : كان

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٠٦ - طبعة منير الدمشقى .
(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٧٢ .

رسول الله - ﷺ - إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولاتهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق .. عن أبى هريرة : أن رسول الله - ﷺ - كان إذا سمع صوت الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » (١) .

وقوله - سبحانه - ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ نوع رابع من الأدلة الدالة على وحدانية الله وقدرته . أى ويسبح الرعد بحمد الله ، ويسبح الملائكة - أيضا - بحمد الله ، خوفا منه - تعالى - وإجلالا لمقامه وذاته .

و ﴿ من ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ من خيفته ﴾ للتعليل ، أى : يسبحون لأجل الخوف منه . وقوله ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ نوع خامس من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرته - سبحانه - .

والصواعق جمع صاعقة ، وهى - كما يقول ابن جرير - كل أمر هائل رآه الرائى أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ... » (٢) .

والمراد بها هنا : النار النازلة من السماء .

أى ويرسل - سبحانه - الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء إصابته من خلقه .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى رجل من طواغيت العرب ، بعث النبى - ﷺ - نفرا يدعونه إلى الإسلام ، فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ما هو ، أمن فضة أم من حديد ؟ .

فبينا النفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة فأهلكت الكافر وهم جلوس .

فرجعوا إلى النبى - ﷺ - فاستقبلهم بعض الصحابة فقالوا لهم : احترق صاحبكم ؟ فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى - ﷺ - ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ (٣) .

وضمير الجماعة فى قوله ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ يعود إلى أولئك

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٦٣ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٩٢٦ .

الكافرين الذين سبق أن ساق القرآن بعض أقوالهم الباطلة ، والتى منها قولهم : ﴿ أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ﴾ .

والمجادلة : المخاصمة والمراجعة بالقول .

والمراد بمجادلتهم فى الله : تكذيبهم للنبى - ﷺ - فيما أمرهم به من وجوب إخلاص عبادتهم لله - تعالى - وإيمانهم بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

والمحال : الكيد والمكر ، والتدبير والقوة ، والعقاب .. يقال : محل فلان بفلان - بتثليث الحاء - محلا ومحالا ، إذا كاده وعرضه للهلاك .

قال القرطبى : قال ابن الأعرابى : المحال المكر وهو من الله - تعالى - التدبير بالحق أو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .

وقال الأزهرى : المحال : أى القوة والشدة .

وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه »[1] .

أى : أن هؤلاء الكافرين يجادلونك - أيها الرسول فى ذات الله وفى صفاته ، وفى وحدانيته ، وفى شأن البعث ، وينكرون ما جئتهم به من بينات والحال أن الله - تعالى - شديد المماحلة والمكايدة والمعاقبة لأعدائه .

قال - تعالى - : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - أن دعوته هى الدعوة الحق ، وما عداها فهو باطل ضائع فقال : ﴿ له دعوة الحق ﴾ أى : له وحده - سبحانه - الدعوة الحق المطابقة للواقع ، لأنه هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو الحقيق بالعبادة والالتجاء .

فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ، وفى هذه الإضافة إيذان بملابستها للحق ، واختصاصها به ، وأنها بمعزل عن الباطل .

ومعنى كونها له : أنه - سبحانه - شرعها وأمر بها .

قال الشوكانى : قوله : « له دعوة الحق » إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة . أى : الدعوة الملابسة للحق ، المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٩٩ .
(٢) سورة النمل الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

وقيل : الحق هو الله - تعالى - والمعنى : أنه لله - تعالى - دعوة المدعو الحق وهو الذى يسمع فيجيب .

وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى : لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة .

وقيل : دعوة الحق ، دعاؤه - سبحانه - عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه سواه ، كما قال - تعالى - ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ .

وقيل : الدعوة الحق ، أى العبادة الحق فإن عبادة الله هى الحق والصدق »[1] .

ثم بين - سبحانه - حال - من يعبد غيره فقال : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون هم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ .

والمراد بالموصول « والذين » الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله .

والضمير فى يدعون ، للمشركين ، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف أى : يدعونهم .

والمعنى : لله - تعالى - العبادة الحق ، والتضرع الحق النافع ، أما الأصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون من غير الله . فإنها لا تجيبهم إلى شىء يطلبونه منها ، إلا كإجابة الماء لشخص بسط كفيه إليه من بعيد ، طالبا منه أن يبلغ فمه وما الماء ببالغ فم هذا الشخص الأحمق ، لأن الماء لا يحس ولا يسمع نداء من يناديه .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيا قاطعا ، حيث شبه - سبحانه - حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم فى حاجة إليه ، بحال إنسان عطشان ولكنه غبى أحمق لأنه يمد يده إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه . فلا يصل إليه شىء من الماء لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه .

ففى هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله - تعالى - .

وأجرى - سبحانه - على الأصنام ضمير العقلاء فى قوله ﴿ لا يستجيبون ﴾ مجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين ، لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء .

ونكر شيئا فى قوله ﴿ لايستجيبون لهم بشىء ﴾ للتحقير . والمراد أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٧٣ .

والاستثناء فى قوله ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء .. ﴾ من أعم الأحوال .

أى : لا تستجيب الأصنام لمن طلب منها شيئا ، إلا استجابة كاستجابة الماء للملهوف بسط كفيه إليه يطلب منه أن يدخل فمه ، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب طلبه ولو مكث على ذلك طوال حياته .

والضمير « هو » فى قوله « وما هو ببالغه » للماء ، والهاء فى « ببالغه » للفم : أى : وما الماء ببالغ فم هذا الباسط لكفيه .

وقيل الضمير « هو » للباسط ، والهاء للماء ، أى : وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه .

قال القرطبى : « وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الذى يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه وفساد توهمه . قاله ابن عباس .

الثالث : انه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه ، فلا يجد فى كفه شيئا منه [١] .

وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه ، بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء ، خانته فروج الأصابع [٢]

وقوله - سبحانه - ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى : وما عبادة الكافرين للأصنام ، والتجاؤهم إليها فى طلب الحاجات ، إلا فى ضياع وخسران لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الكون كله خاضع له - عز وجل - فقال : ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

والمراد بالسجود له - سبحانه - : الانقياد والخضوع لعظمته .

وظلالهم : جمع ظل وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

والغدو : جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٠١ .
(٢) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٧٣ .

والآصال : جمع أصيل وهو ما بين العصر وغروب الشمس .

والمعنى : ولله - تعالى - وحده يخضع وينقاد جميع من فى السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وغيرهم .

وقوله « طوعا وكرها » منصوبان على الحال من « من » ، أى : أن جميعهم يسجدون لله ، وينقادون لعظمته ، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد ، وحال كونهم كارهين وغير راضين به ، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا فى الإيجاد ولا فى الإعدام ولا فى الصحة ولا فى المرض ، ولا فى الغنى ولا فى الفقر .. فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا .

ويستوى فى هذا الخضوع المؤمن والكافر ، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية بذاته وبظاهره وبباطنه لله - تعالى - .

أما الكافر فهو خاضع لله - تعالى - بذاته ، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره ، والضمير فى قوله - سبحانه - ﴿ وظلالهم ﴾ يعود على ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ .

أى : لله - تعالى - يخضع من فى السموات والأرض طوعاوكرها ويخضع له - أيضا - بالغدو والآصال ظلال من له ظل منهم ، لأن هذه الظلال لا زمة لأصحابها والكل تحت قهره ومشيئته فى الامتداد والتقلص والحركة والسكون .

قال - تعالى - ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أفغيرَ دين الله يبغون ، وله أسلم مَنْ فى السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجَعون ﴾ (٢) .

ثم وجه - سبحانه - عن طريق نبيه - ﷺ - أسئلة تهكمية إلى هؤلاء المشركين المجادلين فى ذات الله - تعالى - وفى صفاته ، وساق لهم أمثلة للحق وللباطل ، وبين لهم حسن عاقبة المستجيبين لدعوة الحق ، وسوء عاقبة المعرضين عنها فقال - تعالى - :

---

(١) سورة النحل الآية ٤٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ
نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي
ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ
عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ
يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ
لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

قال الفخر الرازى : « اعلم أنه – تعالى – لما بين أن كل من فى السموات والأرض ساجد له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ﴾ .

ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسئول ويعترف به ولا ينكره ، أمر – سبحانه – نبيه – ﷺ – أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على أنهم لا ينكرونه البتة .. » [1] .

أى : قل – أيها الرسول الكريم – لهؤلاء المشركين ، من رب هذه الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٣١ طبعة عبد الرحمن محمد .

فإذا ما أبوا الرد عليك عنادا وصلفا ، فجابههم بالحقيقة التى لايستطيعون إنكارها ، وهى أن الله وحده هو رب هذه الأجرام ، لأنه هو خالقها وموجدها على غير مثال سابق .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ﴾ أمر ثالث منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - لإفحامهم وتبكيتهم .

فالهمزة للاستفهام التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة .

والمعنى : أعلمتم حق العلم أن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، فتركتم عبادته - سبحانه - واتخذتم من دونه « أولياء » أى نصراء عاجزين ، لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن أن يملكوا لغيرهم - نفعا يجلبونه لها ، ولا ضرا يدفعون عنها .

وجملة « لايملكون » صفة لأولياء ، والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر فى تلك الصفة ، فإنهم إن أحسنوا التفكير فى هؤلاء الأولياء ، أيقنوا أنهم أحقر من أن يلتفت إليهم ، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئا .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الرابعة أن يبرهن لهم على بطلان معتقداتهم عن طريق ماهو مشاهد بالحواس فقال : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ﴾ .

أى : قل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم : كما أنه لا يستوى فى عرف كل عاقل الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، فكذلك لا يستوى الكفر والإيمان ، فإن الكفر انطماس فى البصيرة ، وظلمات فى القلب ، أما الإيمان فهو نور فى القلب وإشراق فى النفس .

فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، كما أن المراد بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان .

وعبر القرآن الكريم فى جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفى جانب النور بصيغة الإفراد ، لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور . وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته .

أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة العقول التى كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال ، كما هو الحال فى شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين انحرفوا عن طريق الحق .

ثم انتقل - سبحانه - إلى التهكم بهم عن طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، وإهمالا لشأنهم فقال - تعالى - : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم .. ﴾ .

وأم هنا بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار .

أى : إنهم ما اتخذوا لله - تعالى - شركاء يخلقون مثل خلق الله - تعالى - حتى نقول إن ماخلقوه تشابه مع خلقه - تعالى - فنلتمس لهم شيئا من العذر ، ولكنهم اتخذوا معه - سبحانه آلهة أخرى « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ... » .

فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم . حيث عبدوا من دون الله مخلوقا مثلهم ، وتنفى أى عذر يعتذرون به يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

وقوله : « كخلقه » فى معنى المفعول المطلق . أى : خلقوا خلقا شبيها بما خلقه الله - تعالى - . وجملة « فتشابه » معطوفة على جملة « خلقوا » .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - للمرة الخامسة بأن يقذفهم بالحق الذى يدفع باطلهم فقال - تعالى - ﴿ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد الفرد الصمد ، القهار لكل ما سواه ، والغالب لكل من غالبه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلين للحق هما الماء الصافى والجوهر النقى اللذان ينتفع بهما ، ومثلين للباطل هما زبد الماء وزبد الجوهر اللذان لا نفع فيهما فقال - تعالى - ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ .

والأودية : جمع واد وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض الذى يسيل فيه الماء بكثرة .

والسيل : الماء الجارى فى تلك الأودية .

والزبد : هو الغثاء الذى يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعلو القدر عند الغليان ويسمى بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته ، ورابيا : من الربو بمعنى العلو والارتفاع .

والمعنى : أنزل الله - تعالى - من السماء ماء كثيرا ، ومطرا مدرارا ، فسالت أودية بقدرها ، أى : فسالت المياه فى الأودية بسبب هذا الإنزال ، بمقدارها الذى حدده الله - تعالى - واقتضته حكمته فى نفع الناس .

أو بمقدارها قلة وكثرة ، بحسب صغر الأودية وكبرها ، واتساعها وضيقها « فاحتمل السيل زبدا رابيا » أى فحمل الماء السائل فى الأودية بكثرة وقوة ، غثاء عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا

عليه ، لا نفع فيه ولا فائدة منه .

وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول ، حيث شبه - سبحانه - الحق وأهله فى الثبات والنفع بالماء الصافى الذى ينزل من السماء فتمتلىء به الأودية ويبقى محل انتفاع الناس به إلى الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - .

وشبه الباطل وشيعته فى الاضمحلال وعدم النفع ، بزبد السيل المنتفخ المرتفع فوق سطح الماء ، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويفنى وينسلخ عن المنفعة والفائدة .

ثم ابتدأ - سبحانه - فى ضرب المثل الثانى فقال : ﴿ ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ .

و « من » فى قوله « ومما يوقدون » لا بتداء الغاية ، وما موصولة ، ويوقدون من الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه فى النار ليزيد اشتعالها .

والجملة فى محل رفع خبر مقدم ، وقوله « زبد » مبتدأ مؤخر .

والحلية : ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما .

والمتاع : ما يتمتع به فى حياته من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والرصاص وأشباههما .

والضمير فى قوله «مثله » يعود إلى الزبد فى قوله - تعالى - ﴿ زبدارابيا ﴾ .

وقد قرأ حمزة والكسائى وحفص « يوقدون » وقرأ الباقون توقدون بالتاء .

والضمير للناس ، وأضمر مع عدم سبق ذكره لظهوره .

والمعنى : وشبيه بالمثل السابق فى خروج الزبد والخبث وطرحه بعيدا عن الأشياء النافعة ، ما توقدون عليه النار من المعادن والجواهر ، لكى تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلى والأمتعة المتنوعة ، فإنكم فى مثل هذه الحالة ، تبقون على النقى النافع منها ، وتطرحون الزبد والخبث الذى يلفظه الكير ، والذى هو مثل زبد السيل فى عدم النفع .

فقد شبه - سبحانه - فى هذا المثل الثانى الحق وأهله فى البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية ، وشبه الباطل وحزبه فى الفناء وعدم النفع بخبث الحديد الذى يطرحه كير الحداد ،ويهمله الناس .

ثم بين - سبحانه - المقصود من ضرب هذه الأمثال فقال : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ .

أى : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق وللباطل إذا اجتمعا بأن يبين بأنه

لاثبات للباطل - مهما علا وانتفخ - مع وجود الحق ، كما أنه لاثبات للزبد مع الماء الصافى ، ولا مع المعادن النقية .

والكلام على حذف مضاف والتقدير : يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل .

وسر الحذف : الإنباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به ، حتى لكأن المثل المضروب هو عين الحق وعين الباطل .

ثم شرع - سبحانه - فى تقسيم المثل فقال : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ .

أى : فأما الزبد الذى لفظه السيل والحديد فيذهب « جفاء » مرميا به ، مطروحا بعيدا ، لأنه لا نفع فيه .

يقال : جفأ الماء بالزبد ، إذا قذفه ورمى به ، وجفأت الريح الغيم ، إذا مزقته وفرقته ، والجفاء بمعنى الغثاء .

وأما ما ينفع الناس من الماء الصافى ، والمعدن النقى الخالى من الخبث « فيمكث فى الأرض » أى فيبقى فيها لينتفع الناس به .

وبدأ - سبحانه - بالزبد فى البيان فقال ﴿ فأما الزبد فيذهب ﴾ مع أنه متأخر فى الكلام السابق لأن الزبد هو الظاهر المنظور أولا لأعين الناس ، أما الجوهر فهو مستتر خلفه لأنه هو الباقى النافع .

أو لأنه جرت العادة فى التقسيم أن يبدأ بالمتأخر كما فى قوله - تعالى - ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ [1] .

وقوله ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ تفخيم لشأن هذا التمثيل الذى اشتملت عليه الآية الكريمة .

أى : مثل ذلك البيان البديع الذى اشتملت عليه الآية الكريمة يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، فيحملهم هذا التفكير على الإيمان الحق ، وحسن التمييز بين الخير والشر ، والمعروف والمنكر ، والحق والباطل .

قال الإمام الشوكانى : « هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - فى هذه الآية للحق وللباطل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٦ .

يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله - تعالى - سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله .

كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ، فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث فى الأرض ، وكذلك الصافى من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

وقال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها .

ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك عاقبة أهل الحق ، وعاقبة أهل الباطل فقال - تعالى - : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به .. ﴾ .

أى : للمؤمنين الصادقين ، الذين أطاعوا ربهم فى كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة .

فالحسنى يصح أن تكون صفة لموصوف محذوف ، ويصح أن تكون مبتدأ مؤخراً ، وخبره « للذين استجابوا لربهم » .

« والذين لم يستجيبوا له » -سبحانه- ولم ينقادوا لأمره أو نهيه وهم الكفار «لو أن لهم ما فى الأرض جميعا » من أصناف الأموال ، ولهم أيضا « مثله معه لافتدوا به » أى لهان عليهم - مع نفاسته وكثرته - أن يقدموه فداء لأنفسهم من عذاب يوم القيامة .

فالضمير فى قوله « ومثله معه » يعود إلى ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال وفى ذلك ما فيه من تهويل ما سيلقونه من عذاب أليم جزاء كفرهم وجحودهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك لهم سوء الحساب » أى : أولئك الذين لم يستجيبوا لربهم لهم الحساب السيئ الذى لا رحمة معه ، ولا تساهل فيه .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٨٥ .

« ومأواهم جهنم » ، أى : ومرجعهم الذى يرجعون إليه جهنم . « وبئس المهاد » أى : وبئس المستقر الذى يستقرون فيه .

والمخصوص بالذم محذوف أى : مهادهم أو جهنم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأحكمها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبينت حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا يستوى الأعمى والبصير ، ومدح أولى الألباب بما هم أهله من مدح ، وذم أضدادهم بما يستحقون من ذم ، فقال - تعالى - :

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ
أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ
بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

قال الإمام الرازى : « قوله - تعالى - ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ... ﴾ إشارة إلى المثل المتقدم ذكره - فى قوله - تعالى - ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ ... وهو أن العالم بالشىء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر ، لأن الأعمى إذا أخذ يمشى من غير قائد ، فربما يقع فى المهالك .. أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والإهلاك »[1] .

والمراد بالأعمى هنا : الكافر الذى انطمست بصيرته ، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل .

والاستفهام للانكار والاستبعاد .

المعنى : أفمن يعلم أن ما أنزل إليك - أيها الرسول الكريم - من وحى هو الحق الذى يهدى للتى هى أقوم ، كمن هو أعمى القلب : مطموس البصيرة ؟؟

فالآية الكريمة تنفى بأبلغ أسلوب ، مساواة الذين علموا الحق فاتبعوه ، بمن جهلوه وأعرضوا عنه ، وصموا آذانهم عن سماعه .

وقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ مدح لأصحاب العقول السليمة ، الذين ذكروا بالحق فتذكروه ، وآمنوا به ، وتعليل لإعراض الكافرين عنه ، ببيان أن سبب إعراضهم ، أنهم ليسوا أهلا للتذكر ، لأن التذكر إنما هو من شأن أولى الألباب .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شىء .

أى : إنما يتذكر وينتفع بالتذكير ، أصحاب العقول السليمة وهم المؤمنون الصادقون .

ثم مدح - سبحانه - أصحاب هذه العقول السليمة ، بجملة من الخصال الكريمة فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ .

وعهد الله : فرائضه وأوامره ونواهيه . والوفاء بها : يتأتى باتباع ما أمر به - سبحانه - وباجتناب ما نهى عنه .

وينقضون : من النقض ، بمعنى الفسخ والحل لما كان مركبا أو موصولا .

والميثاق : العهد الموثق باليمين ، للتقوية والتأكيد .

أى : إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين من صفاتهم أنهم يوقنون بعهد الله - تعالى - ، بأن يؤدوا كل ما كلفهم بأدائه ، ويجتنبوا كل ما أمرهم باجتنابه ولا ينقضون شيئا من العهود

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٣٩ .

والمواثيق التى التزموا بها . وصدر - سبحانه - صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله ، وعدم النقض للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصفاء النفس .

وأضاف - سبحانه - العهد إلى ذاته ، للتشريف وللتحريض على الوفاء به .

وجملة « ولا ينقضون الميثاق » تعميم بعد تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله - تعالى - ومع غيره من عباده .

ثم بين - سبحانه - صفات أخرى لهم فقال : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾.

أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضا - أنهم يصلون كل ما أمر الله - تعالى - بوصله كصلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وإعانة المحتاج ، والإحسان إلى الجار .

وقوله « ويخشون ربهم » خشية تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه .

« ويخافون سوء الحساب » أى : ويخافون أهوال يوم القيامة ، وما فيه من حساب دقيق ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام ، والخشية والخوف قيل : بمعنى .

وفرق الراغب بينهما فقال : الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم .

وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف ، لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ، أى : يابسة .

ثم قال الآلوسى : والحق أن مثل هذه الفروق أغلبى لا كلى .. »[1] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى الصفات السابقة لأولى الألباب صفات أخرى حميدة فقال : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أى : أن من صفاتهم أنهم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا على المصائب وآلامها ، صبرا غايته رضا ربهم وخالقهم ، لارضا أحد سواء .

أى : أن صبرهم فى كل مجال يحمد فيه الصبر لم يكن من أجل الرياء أو المباهاة أو المجاملة أو غير ذلك ، وإنما كان صبرهم من أجل رضا الله - تعالى - وطلب ثوابه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٢٩ .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « والذين صبروا » فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والأموال ومشاق التكليف « ابتغاء وجه ربهم » لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل . ولا لئلا يعاب بالجزع ، ولئلا يشمت به الأعداء ، كقوله :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتزعزع

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ، ولا مرد فيه للفائت .

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها مابه كان حسنا عند الله - تعالى - وإلا لم يستحق به ثوابا ؛ وكان فعلا كلا فعل ، »[١] .

« وأقاموا الصلاة » أى : أدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والأذكار ، بخشوع وإخلاص . « وأنفقوا » بسخاء وطيب نفس «مما رزقناهم » أى : مما أعطيناهم من عطائنا الواسع العميم . « سراً وعلانية » أى : ينفقون مما رزقناهم سرا . حيث يحسن السر ، كإعطاء من لم يتعود الأخذ من غيره ، وينفقون « علانية » حيث تحسن العلانية ، كأن ينفقوا بسخاء فى مجال التنافس فى الخير ، ليقتدى بهم غيرهم « ويدرءون بالحسنة السيئة » ، والدرء : الدفع والطرد . يقال : درأه درءاً ، إذا دفعه .

أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضاً - أنهم يدفعون بالعمل الصالح العمل السىء ، كما فى قوله - ﷺ - « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو أنهم يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، أو بالعفو عنه ، متى كان هذا الإحسان أو العفو لا يؤدى إلى مفسدة .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : « وفى الآية إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة ، عندما يكون فى هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ، فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلى .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين المتماثلين فأما فى دين الله فلا .

إن المستعلى الغاشم لا يجدى معه إلا الدفع الصارم ، والمفسدون فى الأرض لا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم ، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب »[٢] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٧ - بتصرف قليل .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٣ ص ٢٠٥٨ للأستاذ سيد قطب .

وجملة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ بيان الجزاء الحسن ، الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأخيار .

والعقبى : مصدر كالعاقبة ، وهى الشىء الذى يقع عقب شىء آخر .

والمراد بالدار : الدنيا . وعقباها الجنة . وقيل المراد بالدار : الدار الآخرة . وعقباها الجنة للطائعين ، والنار للعاصين .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، لهم العاقبة الحسنة وهى الجنة . والجملة الكريمة خبر عن « الذين يوفون بعهد الله .... » وما عطف عليها .

وقوله - سبحانه - ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ تفصيل للمنزلة العالية التى أعدها - سبحانه - لهم .

أى : أولئك الذين قدموا ما قدموا فى دنياهم من العمل الصالح ، لهم جنات دائمة باقية ، يدخلونها هم ﴿ ومن صلح ﴾ أى : ومن كان صالحا لدخولها ﴿ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

أى ؛ من أصولهم وفروعهم وأزواجهم على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسيرتهم .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ومن صلح من آبائهم .... ﴾ دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة ، إلا إذا كانت أعمالهم صالحة ، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتنانا من الله وإحسانا ، كما قال - تعالى - ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرىء بما كسب رهين ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم .. ﴾ زيادة فى تكريمهم ، وحكاية لما تحييهم به الملائكة .

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٩ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٣ ، طبعة دار الشعب - القاهرة .

أى : والملائكة يدخلون على هؤلاء الأوفياء الصابرين .. من كل باب من أبواب منازلهم فى الجنة ، قائلين لهم : « سلام عليكم » أى : أمان دائم عليكم ﴿ بما صبرتم ﴾ أى : بسبب صبركم على كل ما يرضى الله - تعالى - .

﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ أى : فنعم العاقبة عاقية دنياكم ، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة المقام عليه ، أى : الجنة .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ يدخلون عليهم من كل باب ﴾ إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم ، وإلى كثرة أبواب بيوتهم ، تكريما وتشريفا وتأنيسا لهم .

وجملة ﴿ سلام عليكم ﴾ مقول لقول محذوف ، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة . وهى بشارة لهم بدوام السلامة .

وفى قوله ﴿ بما صبرتم ﴾ إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف ، وعلى الأذى ، وعلى كل ما يحمد فيه الصبر ، كان على رأس الأسباب التى أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية .

هذا ومن الاحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، ما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم : قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟

قال : إنهم كانوا عبادا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور . وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، فلا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾[1] .

وبعد أن ذكر - سبحانه - صفات هؤلاء الأوفياء ، وما أعد لهم من ثواب جزيل ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم ، القاطعين لما أمر الله بوصله . المفسدين فى الأرض فقال - تعالى - : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ .

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وقوله : ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ زيادة فى تشنيع النقض . أى : ينقضون عهد الله تعالى ولا يوفون به . من بعد أن أكدوا التزامهم به وقبولهم له .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٣ .

وقوله : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أى : ويقطعون كل ما أوجب الله - تعالى - وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول - ﷺ - بالاتباع والموالاة ، ووصل المؤمنين بالمعاونة ، والمحبة ، ووصل أولى الارحام بالمودة والتعاطف ، فالجملة الكريمة بيان لحال هؤلاء الأشقياء بأنهم كانوا على الضد من أولئك الأوفياء الأخيار الذين كانوا يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

وقوله : ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ بيان لصفة ثالثة من صفاتهم القبيحة .

أى : أنهم كانوا يفسدون فى الأرض عن طريق حربهم لدعوة الحق ، واعتدائهم على المؤمنين ، وغير ذلك من الأمور التى كانوا يقترفونها مع أن الله - تعالى - قد حرمها ونهى عنها .

وقوله - تعالى - : ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ إخبار عن العذاب الشديد الذى سيلقونه فى آخرتهم . أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿ لهم ﴾ من الله - تعالى - « اللعنة » والطرد من رحمته .

﴿ ولهم ﴾ فوق ذلك ، الدار السيئة وهى جهنم التى ليس فيها إلا مايسوء الصائر إليها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الغنى والفقر بيده ، وأن العطاء والمنع بأمره فقال - تعالى - : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. ﴾ . وبسط الرزق كناية عن سعته ووفرته وكثرته . ومعنى : «يقدر » يضيق ويقلل .

قال الإمام الشوكانى : « لما ذكر - سبحانه - عاقبة المشركين بقوله ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له فى الرزق وبسط له فيه . فأجاب - سبحانه - عن ذلك : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا ، ويقتره على من كن مؤمنا ابتلاء وامتحانا ، ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة .. »[1] .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه ، وهو وحده - أيضا - الذى يضيقه على من يشاء منهم لحكم هو يعلمها ، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان ، فقد يوسع على الكافر استدراجا له ، وقد يضيق على المؤمن امتحانا له ، أو زيادة فى أجره .

---

(١) تفسير (فتح القدير) للإمام الشوكانى جـ ٣ ص ٨٠ .

والضمير فى قوله : ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ يعود إلى مشركى مكة ، وإلى كل من كان على شاكلتهم فى الكفر والطغيان . والمراد بالفرح هنا : الأشر والبطر وجحود النعم .

أى : وفرح هؤلاء الكافرون بربهم ، الناقضون لعهودهم ، بما أوتوا من بسطة فى الرزق فى دنياهم ، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لا فرح سرور بنعم الله ، وشكر له - سبحانه - عليها ، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ..

وقوله - سبحانه - ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾ بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة .

والمتاع : ما يتمتع به الانسان فى دنياه من مال وغيره لمدة محددة ثم ينقضى .

أى : إن هؤلاء الفرحين بنعم الله عليهم فى الدنيا ، فرح بطر وأشر وجحود ، لن يتمتعوا بها طويلا ، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئا قليلا بالنسبة لنعيم الآخرة .

وتنكير « متاع » للتقليل ، كقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[1] .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة ﴾ أى : كائنة فى جنب نعيم الآخرة ، فالجار والمجرور فى موضع الحال ، و « فى » هذه معناها المقايسة وهى كثيرة فى الكلام ، كما يقال : ذنوب العبد فى رحمة الله - تعالى - كقطرة فى بحر ، وهى الداخلة بين مفضول سابق ، وفاضل لاحق ..

والمراد بقوله : ﴿ إلا متاع ﴾ أى : إلا شيئا يسيرا يتمتع به كزاد الراعى .

والمعنى : أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة ، والحال أن مافرحوا به فى جنب ماأعرضوا عنه قليل النفع ، سريع النفاد .

أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله - ﷺ - على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا يارسول الله : لو اتخذنا لك ؟ فقال - ﷺ - : « مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها ... »[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم ، وصفات الكافرين وسوء مصيرهم كما وضحت أن الأرزاق بيد الله - تعالى - يعطيها بسعة لمن يشاء من عباده ، ويعطيها بقلة لغيرهم ..

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٣١ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المطالب المتعنتة التى طلبها الكافرون من النبى - ﷺ - ، ورد عليها بما يبطلها ، ومدح المؤمنين لاطمئنان قلوبهم إلى سلامة دينهم من كل نقص ، وأيأسهم من إيمان أعدائهم لاستيلاء العناد والجحود على قلوبهم ، فقال - تعالى - :

وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ
مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ
لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ
قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ
بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ
وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ حكاية لما طلبه مشركو مكة من رسول الله - ﷺ - على سبيل التعنت والطغيان . ومرادهم بالآية : آية كونية كإحياء الموتى ، وإزاحة الجبال من أماكنها ، و « لولا » هنا : حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود ، هلا أنزل على هذا الرسول آية كونية تدل على صدقه ، كأن يحيى لنا موتانا ، أو أن يحول لنا جبل الصفا ذهبا ..

وكأنهم يرون أن القرآن الذى نزل عليه - ﷺ - لا يكفى - فى زعمهم - أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بقوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ﴾ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التعجيب من أحوالهم ومن شدة ضلالهم : إن الله - تعالى - يضل عن طريق الحق من يريد إضلاله ، لاستحباب هذا الضال العمى على الهدى ، ويهدى إلى صراطه المستقيم ، من أناب إليه - سبحانه - ورجع إلى الحق الذى جاء به رسوله - ﷺ - بقلب سليم . وعقل متفتح لمعرفة الصواب والرشاد .

فالجملة الكريمة تعجيب من أقوالهم الباطلة ، ومن غفلتهم عن الآيات الباهرة التى أعطاها الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وعلى رأسها القرآن الكريم الذى هو آية الآيات ، وحض لهم على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد .

والإنابة : الرجوع إلى الشيء بعد تردد ، فقد جرت عادة كثير من النفوس البشرية أن يعرض عليها الحق فتتردد فى قبوله فى أول الأمر ، ثم تعود إلى قبوله واعتناقه بعد قيام الدلائل على صحته وسلامته من الفساد .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ قوله ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ... ﴾ ؟

قلت : هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات اا‌لباهرة والمتكاثرة التى أوتيها رسول الله - ﷺ - لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية . فإذا جحدوها ولم يهتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعًا للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة فى الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ ويهدى إليه من ﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿ أناب ﴾ أقبل إلى الحق وحقيقته دخل فى نوبة الخير »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٩ .

ثم رسم القرآن صورة مشرقة للقلوب المؤمنة ، وللجزاء الحسن الذى أعده الله لها فقال - تعالى - ﴿ الذين آمنوا ﴾ حق الإيمان ، ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أى : تستقر قلوبهم وتسكن ، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات .

وإطلاق الذكر على القرآن الكريم ورد فى آيات منها قوله - تعالى - ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[1] وقوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أى : ألا بذكره وحده دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنسًا به ، ومحبة له .

ويصح أن يراد بذكر الله هنا ما يشمل القرآن الكريم ، ويشمل ذكر الخالق - عز وجل - باللسان ، فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته - سبحانه - كما يصح أن يراد به خشيته - سبحانه - ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه .

إلا أن الأظهر هنا أن يراد به القرآن الكريم ، لأنه الأنسب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة دالة على صدقه - ﷺ - وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه .

واختير الفعل المضارع فى قوله - سبحانه - ﴿ تطمئن ﴾ مرتين فى آية واحدة ، للإشارة إلى تجدد الاطمئنان واستمراره ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

وافتتحت جملة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ بأداة الاستفتاح المفيدة للتنبيه ، للاهتمام بمضمونها ، وللإغراء بالإكثار من ذكره - عز وجل - ، ولإثارة الكافرين إلى الاتسام بسمة المؤمنين لتطمئن قلوبهم .

ولا تنافى بين قوله - تعالى - هنا ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبين قوله فى سورة الأنفال ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... ﴾ أى : خافت .

لأن وجلهم إنما هو عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب . أو وجلت من هيبته وخشيته - سبحانه - وهو لا ينافى اطمئنان الاعتماد والرجاء .

وقوله - تعالى - ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ بيان للثواب الجزيل الذى أعده - سبحانه - للمؤمنين الصادقين .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

وطوبى : مصدر كبشرى وزلفى من الطيب ، وأصله طُيْبَى ، فقلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة ، كما قلبت فى موقن وموسر وهو من اليقين واليسر .

وقيل : طوبى ، اسم شجرة فى الجنة .

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال ابن عباس : أى فرح وقرة عين لهم .

وقال الضحاك : أى غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعى : أى خير لهم .

وقال قتادة : طوبى : كلمة عربية . يقول الرجل لغيره : طوبى لك أى : أصبت خيرًا .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس « طوبى لهم » قال : هى أرض الجنة بالحبشية .

وقال سعيد بن مشجوج « طوبى » اسم الجنة بالهندية .

وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : « طوبى » : شجرة فى الجنة،كل شجر الجنة منها ...

وهكذا روى عن ابن عباس وأبى هريرة وغير واحد من السلف ، أن طوبى شجرة فى الجنة ، فى كل دار فى الجنة غصن منها »[1] .

والمآب : المرجع والمنقلب من الأوب وهو الرجوع . يقال : آب يئوب أوبا وإيابا ومآبا إذا رجع .

والمعنى : الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات لهم فى آخرتهم ، عيش طيب . وخير كامل ، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم .

ثم بين - سبحانه - أن إرسال محمد - ﷺ - إلى الناس ليس بدعا ، فقد سبقه رسل كثيرون إلى أقوامهم فقال - تعالى - : ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ .

فالكاف فى قوله ﴿ كذلك ﴾ للتشبيه حيث شبه - سبحانه - إرساله - ﷺ - إلى الناس ، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم .

واسم الإشارة يعود إلى الإرسال المأخوذ من فعل « أرسلناك » .

والمراد بالأمة هنا : أمة الدعوة التى أرسل إليها الرسول - ﷺ - فآمن من آمن من أفرادها ، وكفر من كفر .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٦ طبعة دار الشعب .

أى : كما أرسلنا رسلا سابقين إلى أقوامهم ، أرسلناك يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون لكى تقرأ على مسامعهم هذا القرآن العظيم الذى أوحيناه إليك من لدنا ، ولتبين لهم ما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات ، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله - تعالى - ببيانه .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ قد خلت من قبلها أمم ﴾ تعريض بمشركى مكة ، وأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، فسيصيبهم ما أصاب الأمم الخالية .

وقوله ﴿ لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ المقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم ، وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول - ﷺ - وأن وظيفة الرسول - ﷺ - قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه .

وأن قول المشركين ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ إنما هو قول يدل على عنادهم وغبائهم وجحودهم للحق بعد أن تبين .

وجملة ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ حالية .

أى : أرسلناك أيها الرسول الكريم إلى هؤلاء الضالين ، لتتلو عليهم ما ينقذهم من الضلال ، ولكنهم عموا وصموا عن سماعه ، والحال أنهم يكفرون بالرحمن أى العظيم الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شىء .

وأوثر اختيار اسم الرحمن من بين أسمائه - تعالى - للإشارة إلى أن إرساله - ﷺ - مبعثه الرحمة كما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين﴾[1] .

وللرد عليهم فى إنكارهم أن يكون الله - تعالى - رحمانا ، فقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾[2] .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنهم لم يرضوا بكتابة هذا الاسم الكريم فى صلح الحديبية ، فعندما قال - ﷺ - لعلىٍّ : اكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قال أحد زعمائهم . ما ندرى ما الرحمن الرحيم ..

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما يبطل كفرهم فقال : ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : الرحمن الذى تتجافون النطق باسمه الكريم هو وحده

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

ربى وخالقى ، لا إلـه مستحق للعبادة سواه ، عليه لا على أحد سواه توكلت فى جميع أمورى ، وإليه لا إلى غيره مرجعى وتوبتى وإنابتى .

فهذه الجملة الكريمة اشتملت على أبلغ رد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون الإله - جل وعلا - رحمانا ، وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة .

ثم أشار - سبحانه - إلى عظمة هذا القرآن الذى أوحاه إلى نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى ...﴾ .

والمراد بالقرآن هنا : معناه اللغوى ، أى الكلام المقروء .

وجواب لو محذوف لدلالة المقام عليه .

والمعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية ، ﴿ سيرت به الجبال ﴾ أى : تحركت من أماكنها ، ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ أى شققت وصارت قطعا ، ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ بأن يعودوا إلى الحياة بعد قراءته عليهم .

ولو أن كتابا مقروءا كان من وظيفته أن يفعل ذلك لكان هذا القرآن ، لكونه الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والنهاية العظمى فى الترغيب والترهيب .

وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة بيان عظم شأن القرآن الكريم ، وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول - ﷺ - آية كونية سواه .

ويصح أن يكون المعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية نزل عليك يا محمد فسيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، لما آمن هؤلاء المعاندون .

قال - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ...﴾[1] .

وعلى هذا المعنى يكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان غلوهم فى العناد والطغيان ، وتماديهم فى الكفر والضلال ، وأن سبب عدم إيمانهم ليس مرده إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صدقه - ﷺ - وإنما سببه الحسد والعناد والمكابرة .

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق التى طلبوها منه - ﷺ - ما ذكره الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبى - ﷺ - : يا محمد ، لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ بل لله الأمر جميعا﴾ إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمور كلها بيد الله ، وأن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه أن يأتى بالمقترحات التى اقترحوها ، ولكن إرادته - سبحانه - لم تتعلق بما اقترحوه ، لعلمه - سبحانه - بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات .

وقوله - سبحانه : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾ تيئيس للمؤمنين من استجابة أولئك الجاحدين للحق ، إلا أن يشاء الله لهم الهداية ، والاستفهام للإنكار . وأصل اليأس : قطع الطمع فى الشىء والقنوط من حصوله .

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :

أحدهما يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقى وهو قطع الطمع فى الشىء ، وعليه يكون المعنى : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش ، ويعلموا أن الله - تعالى - لو يشاء هداية الناس جميعا لاهتدوا ، ولكنه لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب .

وعلى هذا الاتجاه سار الإمام ابن كثير فقد قال -رحمه الله - : وقوله - تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾ فإنه ليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة[2] .

ويؤيد هذا الاتجاه ما ذكره السيوطى فى تفسيره من أن بعض الصحابة قالوا للرسول - ﷺ - يارسول الله ، اطلب لهم - أى للمشركين - ما اقترحوه عسى أن يؤمنوا .

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الفعل ييأس بمعنى يعلم ، وعليه يكون المعنى : أفلم يعلم المؤمنون أنه - سبحانه - لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا .

وهذا الاتجاه صدر به الآلوسى تفسيره فقال ما ملخصه :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٥ .

ومعنى قوله - سبحانه - : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أفلم يعلموا . وهى كما قال القاسم بن معن لغة هوازن . وقال الكلبى هى لغة حى من النخع ، وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى :

أقول لهم بالشعب إذ يـأسروننى ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدى :

ألم ييـأس الأقوام أنى أنـا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

والظاهر أن استعمال اليأس فى ذلك حقيقة .

وقيل مجاز لأنه متضمن للعلم فان الآيس عن الشىء عالم بأنه لا يكون ..

والفاء للعطف على مقدر . أى : أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله - تعالى - فلم يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ...[1] .

ثم حذر - سبحانه - الكافرين من التمادى فى كفرهم ، وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

والقارعة : من القرع ، وهو ضرب الشىء بشىء آخر بقوة وجمعها قوارع .

والمراد بها : الرزية والمصيبة والكارثة .

أى : ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم تصيبهم بسبب ما صنعوه من الكفر والضلال «قارعة » أى مصيبة تفجؤهم وتزعجهم أو تحل تلك المصيبة فى مكان قريب من دارهم ، فيتطاير شرها إليهم ، حتى يأتى وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم ، إن الله - تعالى - لا يخلف الميعاد ، أى : موعوده لرسله ولعباده المؤمنين .

وأبهم - سبحانه - ما يصيب الكافرين من قوارع ، لتهويله وبيان شدته .

والتعبير بقوله ﴿ ولايزال ﴾ يشير إلى أن ما أصابهم من قوارع كان موجودا قبل نزول هذه الآية ، واستمرت إصابته لهم بعد نزولها ، لأن الفعل ﴿ لايزال ﴾ يدل على الإخبار باستمرار شىء واقع .

ولعل هذه الآية الكريمة كان نزولها فى خلال سنى الجدب التى حلت بقريش والتى أشار

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٤١ .

إليها القرآن بقوله : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ...﴾[١] .

وعبر - سبحانه - عما أصابهم من بلاء بالقارعة ، للمبالغة فى شدته وقوته . حتى إنه ليقرع قلوبهم فجأة فيبهتهم ويزعجهم ، ولذلك سميت القيامة بالقارعة ، لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

وقال - سبحانه - : ﴿ أو تحل قريبا من دارهم ﴾ لبيان أنهم بين أمرين أحلاهما مُرّ لأن القارعة إما أن تصيبهم بما يكرهونه ويتألمون له ، وإما أن تنزل قريبا منهم فتفزعهم ، وتقلق أمنهم ، وهم مستمرون على ذلك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

ولقد قضى الله - تعالى - أمره ، بهزيمتهم فى بدر وفى غيرها . وأتم نصره على المؤمنين بفتح مكة . وبدخول الناس فى دين الله أفواجا .

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى بطلان الشرك ، وفى بيان ما أعده للكافرين من عقاب ، وما أعده للمتقين من ثواب فقال تعالى :

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

(١) سورة الدخان الآية ١٠ ، ١١ .

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ... ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب تعنت المشركين معه . ومطالبتهم له بالمطالب السخيفة التى لا صلة لها بدعوته ، كطلبهم منه تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى .

والاستهزاء : المبالغة فى السخرية والتهكم من المستهزأ به . والإملاء : الإمهال والترك لمدة من الزمان .

والتنكير فى قوله ﴿ برسل ﴾ للتكثير ، فقد استهزأ قوم نوح به ، وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه .

واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[1] .

واستهزأ قوم هود به وقالوا له : ﴿ إنا لنراك فى سفاهة ..... ﴾[2] واستهزأ فرعون بموسى فقال : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾[3] .

والمعنى : ولقد استهزأ الطغاة والجاحدون برسل كثيرين من قبلك - أيها الرسول الكريم - ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أى : فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمان فى أمن ودعة .

﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ فانظر كيف كان عقابى إياهم ، لقد كان عقابا رادعا دمرهم تدميرا .

فالاستفهام للتعجيب مما حل بهم ، والتهويل من شدته وفظاعته وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[4] .

قال ابن كثير : وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « وإن الله ليملى للظالم حتى

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٨٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٥٢ .

(٤) سورة الحج الآية ٤٨ .

إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ - ﷺ - ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[١] .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة الساطعة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له - تعالى - فقال : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ... ﴾ .

والمراد بالقيام هنا : الحفظ والهيمنة على جميع شئون الخلق والاستفهام للإنكار ، والخبر محذوف والتقدير : ﴿ أفمن هو قائم ﴾ أى : رقيب ومهيمن ﴿ على كل نفس ﴾ كائنة ما كانت ، عالم بما تعمله من خير أو شر فمجازيها به كمن ليس كذلك ؟

وحذف الخبر هنا وهو قولنا - كمن ليس كذلك - لدلالة السياق عليه ، كما فى قوله - تعالى -: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ أى : كمن قسا قلبه .

وحسن حذف الخبر هنا لأنه مقابل للمبتدأ الذى هو ﴿من﴾ ولأن قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا لله شركاء﴾ يدل عليه .

والمقصود من الآية الكريمة إنكار المماثلة بين الخالق العظيم ، العليم بأحوال النفوس ... وبين تلك الأصنام التى أشركوها مع الله - تعالى - فى العبادة والتى هى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لنفسها - فضلا عن غيرها - نفعا ولا ضرا .

وجملة ﴿ وجعلوا لله شركاء﴾ حالية ، والتقدير :

أفمن هذه صفاته ، وهو الله - تعالى - كمن ليس كذلك ، والحال أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء فى العبادة وغيرها .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، زيادة توبيخهم ، وتسفيه أفكارهم وعقولهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل سموهم ﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - سموهم شركاء إن شئتم ، فإن هذه التسمية لا وجود لها فى الحقيقة والواقع ، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، لأن الله - تعالى - واحد لا شريك له .

وهذه التسمية إنما هى من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان ، كما قال تعالى : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٣ .

فالأمر فى قوله ﴿ سموهم ﴾ مستعمل فى الإباحة المصحوبة بالتهديد ، للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبآلهتهم التى سموها شركاء . وهذا كما يقول العاقل للأحمق الذى لا يحسن الكلام : قل ما شئت فإن كلامك لا وزن له ، ولا خير فيه .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية : « واعلم أنه – تعالى – لما قرر هذه الحجة – وهى أن القائم على كل نفس ليس كمن لا يملك شيئا – زاد فى الحجاج فقال : ﴿ قل سموهم ﴾ وإنما يقال ذلك فى الأمر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم فعند ذلك يقال : سمه إن شئت .

يعنى : إنه أخس من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسما فافعل .

فكأنه – تعالى – قال : سموهم بالآلهة ، والمعنى : سواء أسميتموهم بهذا الاسم أم لم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها »[1] ..

والاستفهام فى قوله – تعالى – : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ، أم بظاهر من القول ﴾ للإنكار والتوبيخ .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم : قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم فى الأرض ، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم ، لأنه – سبحانه – لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

أم أنكم سميتموهم شركاء بظاهر من القول أى : بظن من القول لا حقيقة له فى الواقع ونفس الأمر .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ﴿ أم تنبئونه ﴾ أى : بل أتخبرون الله – تعالى – ﴿ بما لا يعلم فى الأرض ﴾ أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم – سبحانه – والمراد : نفيها بنفى لازمها على طريق الكناية ، لأنه – سبحانه – إذا كان لا يعلمها – وهو الذى لا يعزب عن علمه شىء – فهى لا حقيقة لها أصلا .

وتخصيص الأرض بالذكر ، لأن المشركين زعموا أنه – سبحانه – له شركاء فيها .

وقوله ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أى : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير معنى متحقق فى نفس الأمر ، كتسمية الزنجى كافورا .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٥٦ .

وروى عن الضحاك وقتادة ، أن الظاهر من القول : الباطل منه ، كما فى قول القائل :

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يابن ربطة ظاهر

أى : باطل زائد .... [١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ إضراب عن حجاجهم ، وإهمال لشأنهم ، و« زين » من التزيين وهو تصيير الشىء زينا أى : حسنا .

والمكر : صرف الغير عما يريده بحيلة . والمراد به هنا : كفرهم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .

والمعنى : دع عنك أيها الرسول الكريم - مجادلتهم ، لأنه لا فائدة من ورائها ، فإن هؤلاء الكافرين قد زين لهم الشيطان ورؤساؤهم فى الفكر مكرهم وكيدهم للإسلام وأتباعه ، وصدوهم عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم ، ومن يضلله الله - تعالى - بأن يخلق فيه الضلال لسوء استعداده ، فما له من هاد يهديه ويرشده إلى ما فيه نجاته .

هذا ، وقد اشتملت هذه الآية على ألوان من الحجج الساطعة التى تثبت وجوب إخلاص العبادة لله ، وتبطل الشركة والشركاء أشار إليها بعض المفسرين فقال :

قال الطيبى : فى هذه الآية الكريمة احتجاج بليغ مبنى على فنون من علم البيان :

أولها : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ كمن ليس كذلك ، احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما .

ثانيها : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر ، للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد فى أسمائه .

ثالثها : ﴿ قل سموهم ﴾ أى عينوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان ، فهو إنكار لوجودها على وجه برهانى ..

رابعها : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم ﴾ احتجاج من باب نفى الشىء أعنى العلم بنفى لازمه وهو المعلوم وهو كناية .

خامسها : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ احتجاج من باب الاستدراج لبعثهم على التفكر . أى : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء ، فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٠٤ .

سادسها : التدرج فى كل من الإضرابات على ألطف وجه ، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها ، كان الاحتجاج المذكور مناديا على نفسه بالإعجاز وأنه ليس كلام البشر»[١] .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير هؤلاء الكافرين فقال : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ﴾ أى : لهم عذاب شديد فى الحياة الدنيا ، ينزله الله - تعالى - بهم تارة عن طريق القوارع والمصائب التى يرسلها عليهم ، وتارة عن طريق الهزائم التى يوقعها بهم المؤمنون ، هذا فى الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿ وما لهم من الله ﴾ - تعالى - ومن عذاب الآخرة ﴿ من واق ﴾ أى : من حائل يحول بينهم وبين عذابه - سبحانه - .

ثم أعقب ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها .... ﴾ .

والمراد بالمثل هنا : الصفة العجيبة . أى : صفة الجنة التى وعد الله إياها من اتقاه وصان نفسه عن كل مالا يرضيه ، أنها تجرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ، وأنها أكلها دائم ، أى : ما يؤكل فيها لا انقطاع لأنواعه « وظلها » كذلك دائم .

قال بعضهم : وجملة ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ خبر عن « مثل » باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه ، فهى من أحوال المضاف لشدة الملابسة بين المتضايفين ، كما يقال : صفة زيد أسمر . وجملة « أكلها دائم » خبر ثان[٢] .

واسم الإشارة فى قوله : « تلك عقبى الذين اتقوا » يعود على الجنة التى أعدها الله - تعالى - للمتقين .

أى : تلك الجنة المنعوتة بما ذكر هى مآل المتقين الذين استقاموا على الطريق الحق ، وهى منتهى أمرهم .

أما مآل الكافرين ومنتهى أمرهم فهى النار ، وبئس القرار .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث فى صفة الجنة فقال : وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه : قالوا يارسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت - أى توقفت وأحجمت ؟ فقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٠٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٥٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

« إنى رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

وروى الطبرانى عن ثوبان قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » .(١)

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت من التوجيهات ما فيه التسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وما فيه أوضح الدلائل والبراهين وأبلغها عن وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراده بالعبادة ، وما فيه البشارة للمؤمنين ، والتهديد للكافرين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم ، وبأمر الرسول - ﷺ - أن يعلن منهجه بصراحة وثبات ، دون التفات إلى أهواء معارضيه ، وبالرد على الشبهات التى أثارها أعداؤه حوله وحول دعوته ، وبتهديد هؤلاء الأعداء وبسوء العاقبة إذا ما استمروا فى طغيانهم فقال - تعالى - :

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٦ .

ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ ثناء منه - سبحانه - على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه .

والمراد بالكتاب هنا : التوراة والإنجيل .

والمعنى : والذين أعطيناهم التوراة والانجيل ، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيها الرسول الكريم - ، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين .

هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن ، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك ، يزيدهم إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم .

وقيل : المراد بالكتاب القرآن الكريم ، وبالموصول أتباع النبى - ﷺ - من المسلمين .

فيكون المعنى : والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فآمنوا بك وصدقوك يفرحون بكل ما ينزل عليك منه ، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة سيقت بعد الحديث عن عاقبة الذين اتقوا وهم المؤمنون الصادقون ، وعاقبة الكافرين . ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم به فلا يحتاج إلى الحديث عنه .

ومن المفسرين الذين اقتصروا فى تفسيرهم للآية على الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال : يقول الله - تعالى - : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أى : من القرآن ، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه - ﷺ - والبشارة

به ، كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ بيان لمن بقى على كفره من أهل الكتاب وغيرهم . والأحزاب : جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة أى : ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم .. ولم يذكر القرآن هذا البعض الذى ينكرونه ، إهمالا لشأنهم ، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض .

وقوله – سبحانه – : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾ أمر منه – تعالى – لنبيه – ﷺ – بأن يصدع بما يأمره دون تردد أو وجل .

أى : قل – أيها الرسول الكريم – لكل من خالفك فيما تدعو إليه « إنما أمرت أن أعبد الله » وحده « ولا أشرك به » بوجه من الوجوه إليه وحده « أدعو » الناس لكى يخلصوا له العبادة والطاعة « وإليه مآب » أى وإليه وحده إيابى ومرجعى لا إلى أحد غيره .

فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح بوجوده . والذم لمن أنكره جحوداً وعنادا ، والأمر للنبى – ﷺ – بالسير فى طريقه بدون خشية من أحد .

ثم ساق –سبحانه– بعد ذلك بعض الفضائل التى امتاز بها القرآن الكريم فقال – تعالى – : ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا .... ﴾ .

والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من ﴿ أنزلناه ﴾ وضمير الغائب فى أنزلناه يعود الى ﴿ماأنزل اليك﴾ فى قوله فى الآية السابقة ﴿يفرحون بما أنزل اليك...﴾ وقوله ﴿ حكما عربيا ﴾ حالان من ضمير الغائب .

والمعنى : ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز ، أنزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿ حكما ﴾ أى : حاكما بين الناس ﴿ عربيا ﴾ أى : بلسان عربى مبين هو لسانك ولسان قومك .

ومنهم من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى الكتب السماوية السابقة ، فيكون المعنى : وكما أنزلنا الكتب السماوية على بعض رسلنا بلغاتهم وبلغات أقوامهم أنزلنا عليك القرآن حاكما بين الناس بلغتك وبلغة قومك ، وهى اللغة العربية ليسهل عليهم فهمه وحفظه .

وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٧ .

الكريم : فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته ، وهو المعبر عنها بكونه « حكما » .

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه ، وهى المعبر عنها بكونه « عربيا » .

أى : نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات وأغناها وأجملها .

ثم فى كونه « عربيا » امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء ، حيث إنه نزل بلغتهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه ، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم ، قال - تعالى - : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ أى : فيه بقاء شرفكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾[2] .

وفى ذلك تعريض بغباء مشركى العرب ، حيث لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان .

ثم ساق - سبحانه - تحذيرا للأمة كلها فى شخص نبيها - ﷺ - من اتباع أهواء كل كافر أو فاسق : فقال - تعالى - : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولى ولا واق ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولئن ﴾ موطئة للقسم لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمتبع أهواء الكافرين .

والأهواء : جمع هوى ، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق ، ومطالبهم المتعنتة ، والمراد بما جاءه من العلم : ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحى الصادق .

والولى : الناصر والمعين والقريب والحليف . والواقى : المدافع عن غيره .

والمعنى : « ولئن اتبعت » - يامحمد - على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين فيما يطلبونه منك ، «من بعد ما جاءك من العلم » اليقينى بأن الإسلام هو الدين الحق ، «مالك من الله » أى من عقابه «من ولى » يلى أمرك وينصرك « ولا واق » يقيك من حسابه . وسيق هذا التحذير فى صورة الخطاب للرسول - ﷺ - للتأكيد من مضمونه .

فكأنه - سبحانه يقول : لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندى لعاقبته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة ، وشبيه بهذه الآية قوله

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

- تعالى - : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول - ﷺ - ليس إلا من قبيل التعنت والجحود ، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية... ﴾ .

أى : « ولقد أرسلنا رسلا » كثيرين « من قبلك » يا محمد « وجعلنا لهم » أى لهؤلاء الرسل « أزواجا » يسكنون إليهن « وذرية » أى : وأولادا تقرّ بهم أعينهم .

قال الشوكانى : « وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله - ﷺ - تزوجه بالنساء .

أى : هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه»[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ... ﴾ رد على ما طلبوه منه - ﷺ - من معجزات .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى لمن أرسل إليهم بمعجزة كائنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات .

وقوله - سبحانه - ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون حصول المقترحات التى طلبوها منه - ﷺ - .

أى : لكل وقت من الأوقات « كتاب » أى : حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه مشيئته - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهرا من مظاهر شمول قدرته ، وسعة علمه ، وعظيم حكمته فقال : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

وقوله : ﴿ يمحو ﴾ من المحو وهو إذهاب أثر الشىء بعد وجوده .

وقوله : ﴿ ويثبت ﴾ من الإثبات وهو جعل الشىء ثابتا قارا فى مكان ما .

وأم الكتاب : أصل الكتاب والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه - سبحانه - المحيط بكل شىء .

قال الفخر الرازى: «والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أمًّا له ومنه أمّ

(١) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٢) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٨٨ .

الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهى أُمٌّ لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب »[١] .

والمعنى : يمحو الله - تعالى - ما يشاء محوه ، ويثبت ما يريد إثباته من الخير أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة ، ومن الصحة أو المرض ، ومن الغنى أو الفقر ، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه .

وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون .

قال - تعالى - : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ... ﴾[٢] .

وقال - تعالى - : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾[٣] .

وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل ، لخصه الإمام الشوكانى تلخيصا حسنا فقال :

قوله - سبحانه - : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر .. ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم .

وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل « يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ، ويثبت مالا يشاء فلا ينسخه .. والأول أولى كما تفيده « ما » فى قوله « ما يشاء » من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله « لكل أجل كتاب » ومع قوله « وعنده أم الكتاب » أى أصله وهو اللوح المحفوظ .

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته .

وهذا لاينافى ما ثبت عنه - ﷺ - من قوله « جفَّ القلم » ، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه - سبحانه - .

وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى - : بما خلق وبما هو خالق[٤] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٦٦ .
(٢) سورة الحديد الآية ٢٢ .
(٣) سورة الحج الآية ٧٠ .
(٤) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٨٨ .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ حض له - ﷺ - على المضى فى دعوته بدون تسويف أو تأجيل .

و« ما » فى قوله « وإما نرينك » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، والأصل : وإن نرك ، والإراءة هنا بصرية ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذى نعدهم : مفعول ثان ، وجواب الشرط ، محذوف .

والمعنى : وإما نرينك - يامحمد - بعض الذى توعدنا به أعداءك من العذاب الدنيوى ، فذاك شفاء لصدرك وصدور أتباعك .

وقوله « أونتوفينك » شرط آخر لعطفه على الشرط السابق ، وجوابه - أيضا - محذوف والتقدير : أو نتوفينك قبل ذلك فلا تهتم ، واترك الأمر لنا .

وقوله : ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ تعليل لهذا الجواب المحذوف ، أى : سواء أرأيت عذابهم أم لم تره ، فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس .

﴿ وعلينا ﴾ وحدنا ﴿ الحساب ﴾ أى : محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ للإشارة إلى أن ما يصيبهم من عذاب دنيوى هو بعض العذاب المعد لهم ، أما البعض الآخر وهو عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - فأراه قبل أن يفارق هذه الدنيا ، جانبا من العذاب الذى أنزله بأعدائه ، فسلط على مشركى مكة الجدب والقحط الذى جعلهم يأكلون العظام والميتة والجلود .

كما سلط عليهم المؤمنين فهزموهم فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما . ثم وبخ - سبحانه - المشركين لعدم تفكرهم وتدبرهم واتعاظهم بآثار من قبلهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ... ﴾ .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والخطاب لمشركى مكة ومن كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال .

والمراد بالارض هنا : أرض الكفرة والظالمين .

والأطراف جمع طرف وهو جانب الشىء .

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار ، ولم يروا كيف ان قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية الغنية - حين كفرت بنعمه - سبحانه - ، فصيرت قوتها ضعفا وغناها فقرا ، وعزها ذلا ، وأمنها خوفا .. وحصرتها فى رقعة ضيقة من الأرض ، بعد أن

كانت تملك الأراضى الفسيحة ، والأماكن المترامية الأطراف .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين ، وإنذار للكافرين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾[1] .

قال الآلوسى ما ملخصه : «وروى عن ابن عباس أن المراد بانتقاص الأرض : موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها . وعليه يكون المراد بالأرض جنسها وبالأطراف الأشراف والعلماء ، وشاهده قول الفرزدق :

واسأل بنا وبكم ، إذا وردت منى أطراف كل قبيلة ، من يتبع ؟

يريد أشراف كل قبيلة .

وتقرير الآية عليه : أو لم يروا أنا نحدث فى الدنيا من الاختلافات خرابا بعد عمارة ، وموتا بعد حياة ، وذلا بعد عز .. فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله - تعالى - الأمر عليهم فيجعلهم أذلة بعد أن كانوا أعزة ...

ثم قال : وهو كما ترى :

والأول - وهو أن يكون المراد بالارض : أرض الكفر ، وبالأطراف الجوانب - أوفق بالمقام ، ولا يخفى ما فى التعبير بالاتيان المؤذن بعظيم الاستيلاء من الفخامة ، وجملة « ننقصها » فى موضع الحال من فاعل نأتى .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ بيان لعلو شأن حكمه - تعالى - ونفاذ أمره .

والمعقب : هو الذى يتعقب فعل غيره أو قوله فيبطله أو يصححه .

أى : والله - تعالى - يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه ، لاراد لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم - سبحانه - بعزة الإسلام ، وعلو شأنه وشأن اتباعه على سائر الأمم والأديان ...

وقوله ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ أى : وهو - سبحانه - سريع المحاسبة والمجازاة ، لأنه لايحتاج إلى مايحتاج إليه غيره من الإحصاء والعد ، إذ هو - سبحانه - محيط بكل شىء ، فلا تستبطئ . عقابهم - أيها الرسول الكريم - فإن ما وعدناك به واقع لا محالة .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٥٥ .

ثم زاد - سبحانه - فى تسلية رسوله - ﷺ - وفى تثبيت فؤاده فقال : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا .. ﴾ .

والمكر : صرف الغير عما يريده بحيلة ، أو إيصال المكروه للممكور به خفية ، والمراد بمكر الذين من قبلهم : إضمارهم السوء لرسلهم .

والمراد بمكر الله - تعالى - هنا : علمه - سبحانه - بما بيتوه ، وإحباطه لمكرهم ، وإنجاؤه لرسله - عليهم الصلاة والسلام - .

أى : وقد مكر الكفار الذين سبقوا قومك - يامحمد - برسلهم وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولكن ربك - سبحانه - نصر رسله لأنه - عز وجل - له المكر جميعا ، ولا اعتداد بمكر غيره لأنه معلوم له .

وقال الجمل ما ملخصه : « وقوله ﴿ فلله المكر جميعا ﴾ تعليل لمحذوف تقديره فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله ﴿ فلله المكر جميعا ﴾ أى : لاتأثير لمكرهم أصلا لأنه معلوم لله - تعالى - وتحت قدرته ..

وأثبت لهم المكر باعتبار الكسب ، ونفاه عنهم باعتبار الخلق .»[1]

وجملة « يعلم ما تكسب كل نفس » بمنزلة التعليل لجملة « فلله المكر جميعا » .

أى : هو - سبحانه - له المكر جميعا ، لأنه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس ، وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر .

وقوله : ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ تهديد للكافرين بالحق الذى جاءهم به رسول الله - ﷺ - .

أى : وسيعلم الكافرون عندما ينزل بهم العذاب ، لمن تكون العاقبة الحميدة أهى لهم - كما يزعمون - أم للمؤمنين ؟ لاشك أنها للمؤمنين .

فالجملة الكريمة تحذير للكافرين من التمادى فى كفرهم ، وتبشير للمؤمنين بأن العاقبة لهم .

وفى قراءة سبعية « وسيعلم الكافر » . فيكون المراد به جنس الكافر .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالشهادة للرسول - ﷺ - بأنه صادق فى رسالته فقال : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾ .

أى : لست مرسلا من عند الله - تعالى - ، وقد حكى - سبحانه - قولهم الباطل هذا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥١٢ .

بصيغة الفعل المضارع ، للإشارة إلى تكرار هذا القول منهم ، ولاستحضار أحوالهم العجيبة الدالة على إصرارهم على العناد والجحود .

وقوله ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذى هو فاعل ﴿ كفى ﴾ فى المعنى ، مزيدة للتأكيد ، وقوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ معطوف على اسم الجلالة . والمراد بالموصول وبالكتاب الجنس .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - تكفى شهادة الله بينى وبينكم ، فهو يعلم صدق دعوتى ، ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك - أيضا - كل من كان على علم بالكتب السماوية السابقة فإنها قد بشرت برسالتى ، وجاءت أوصافى فيها ...

وممن شهد لى بالنبوة ورقة بن نوفل ، فأنتم تعلمون أنه قال لى عندما أخبرته بما حدث لى فى غار حراء : « هذا هو الناموس - أى الوحى - الذى أنزله الله على موسى » ..

وقيل المراد بمن عنده علم الكتاب : المسلمون . وبالكتاب : القرآن ، والأول أرجح لشموله لكل من كان عنده علم بالكتب السماوية السابقة ، إذ هذا الشمول أكثر دلالة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

وبعد : فهذه هى سورة الرعد . وهذا تفسير وسيط لآياتها ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ
الموافق ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

تفسير

سُورَةِ إبْرَاهِيمَ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة ابراهيم - عليه السلام - ، توخيت فيه أن يكون تفسيرا تحليليا ، خاليا من الآراء السقيمة ، والأقوال الضعيفة . والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، نافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : ٢٨ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

تعريف بسورة إبراهيم - عليه السلام -

١ - سورة إبراهيم - عليه السلام - هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فقد كان بعد سورة نوح - عليه السلام - .

وقد ذكر السيوطى قبلها سبعين سورة من السور المكية[1] .

٢ - وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية فى المصحف الكوفى ، وإحدى وخمسون فى البصرى ، وأربع وخمسون فى المدنى ، وخمس وخمسون فى الشامى .

٣ - وسميت بهذا الاسم ، لاشتمالها على الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، ولا يعرف لها اسم آخر سوى هذا الاسم .

٤ - وجمهور العلماء على أنها مكية ، وليس فيها آية أو آيات غير مكيه .

وقال الآلوسى : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة . والظاهر أنهما أرادا أنها كلها كذلك ، وهو الذى عليه الجمهور .

وأخرج النحاس فى ناسخه عن الحبر أنها مكية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ فإنهما نزلتا فى قتلى بدر من المشركين ..»[2] .

وسنرى عند تفسيرنا لهاتين الآيتين ، أنه لم يقم دليل يعتمد عليه على أنهما مدنيتان . وأن السورة كلها مكية كما قال جمهور العلماء .

٥ - هذا ، وبمطالعتنا لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل نراها فى مطلعها تحدثنا عن وظيفة القرآن الكريم ، وعن جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن سوء عاقبة الكافرين ، وعن الحكمة فى إرسال كل رسول بلسان قومه قال - تعالى - : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ ..

---

(١) راجع الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦١ طبعة منير الدمشقى .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم نراها بعد ذلك تحدثنا عن طرف من رسالة موسى - عليه السلام - مع قومه ، وعن أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن نماذج من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور .. ﴾ .

ثم تضرب السورة الكريمة بعد ذلك مثلا لأعمال الكافرين ، وتصور أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وتحكى ما يقوله الشيطان لهم فى ذلك اليوم .. فتقول :

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ ..

﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا ﴾ ..

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ .

ثم تسوق السورة مثلا آخر لكلمتى الإيمان والكفر فتقول : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ﴾ ..

ثم يحكى ألوانا متعددة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ونعمه على عباده فتقول : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار... ﴾ .

ثم تسوق بعد ذلك تلك الدعوات الصالحات الجامعات لأنواع الخير ، التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فتقول :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ... ﴾ .

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بآيات فيها ما فيها من أنواع العذاب الذى أعده للظالمين ، وفيها ما فيها من ألوان التحذير من السير فى طريق الكافرين والجاحدين فيقول :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ...﴾ .

﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراهاقد اهتمت بأمور من أبرزها مايلى :

(أ) تذكير الناس بنعم خالقهم عليهم ، وتحريضهم على شكر هذه النعم وتحذيرهم من جحودها وكفرها ..

ومن الآيات التى وردت فى هذه السورة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

(ب) تسلية الرسول - ﷺ - عما لقيه من مشركى قريش ، تارة عن طريق ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم ، وتارة عن طريق بيان أن العاقبة للمتقين .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ... ﴾ .

(جـ) اشتمال السورة الكريمة على أساليب متعددة للترغيب فى الإيمان ، وللتحذير من الكفر ، تارة عن طريق ضرب الأمثال ، وتارة عن طريق بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وتارة عن طريق حكاية ما سيقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، وما سيقوله الضعفاء للذين استكبروا وما سيقوله الظالمون يوم يرون العذاب ..

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ...﴾ .

هذه بعض الموضوعات التى اهتمت السورة بإبرازها وبتركيز الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى عنيت السورة بتفصيل الحديث عنها ، ويراها المتدبر لآياتها ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

سورة إبراهيم - عليه السلام - من السور القرآنية التى افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - : ﴿ الر ﴾ .

وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف عند تفسيرنا لسور : آل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله . هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن عجزتم فهاتوا سورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1] .

وقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم ، وبيان للغرض السامى الذى أنزله الله - تعالى - من أجله .

والظلمات : جمع ظلمة ، والمراد بها : الكفر والضلال ، والمراد بالنور : الإيمان والهداية .

والباء فى ﴿ بإذن ربهم ﴾ للسببية ، والجار والمجرور متعلق بقوله ﴿ لتخرج ﴾ .

والصراط : الجادة والطريق ، من سرط الشىء إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك ، لأنه يبتلع المارين فيه ، وأبدلت سينه صادا على لغة قريش .

والمعنى : هذا كتاب جليل الشأن ، عظيم القدر ، أنزلناه إليك يا محمد ، لكى تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والعلم والهداية ، وهذا الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيئته وإرادته وأمره .

وقوله ﴿ إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله ﴿ إلى النور ﴾ .

أى لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى طريق الله ﴿ العزيز ﴾ أى : الذى يَغلب ولا يُغلب ﴿ الحميد ﴾ أى : المحمود بكل لسان .

وأسند - سبحانه - الإخراج إلى النبى - ﷺ - باعتباره المبلغ لهذا الكتاب المشتمل على الهداية التى تنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى الهداية وشبه الكفر بالظلمات - كما يقول الإمام الرازى - ، لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية ، وشبه الإيمان بالنور ، لأنه نهاية ما ينجلى به طريق هدايته»[2] .

وفى جمع « الظلمات » وإفراد « النور » إشارة إلى أن للكفر طرقا كثيرة ، وأما الإيمان

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٧٢ .

فطريق واحد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بإذن ربهم ﴾ احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة الله - تعالى - ومشيئته ، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ فقط ، أما الهداية فمن الله وحده .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ...﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض مِلكا ومُلكا وخلقا لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع .

ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر على أنه بدل أو عطف بيان من العزيز الحميد .

وقرأه نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض .

وجملة « وويل للكافرين من عذاب شديد » تهديد ووعيد لمن كفر بالحق وأعرض عنه .

ولفظ « ويل » مصدر لا يعرف له فعل من لفظه مثل « ويح » وجاء مرفوعا للدلالة على الثبات والدوام ، ومعناه الهلاك أو الفضيحة أو الحسرة ، أى : الله - تعالى - هو الذى له ما فى السموات ومافى الأرض ، وويل للكافرين بما أنزلناه إليك - أيها الرسول الكريم - من عذاب شديد سينزل بهم ، فيجعلهم يستغيثون دون أن يجدوا من يغيثهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الكافرين بجملة من الصفات الذميمة ، التى أردتهم وأهلكتهم فقال - تعالى - : ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ....﴾ .

ويستحبون : بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد ، أى : يختارون ويؤثرون ولذا عداه بعلى . أى : يختارون شهوات الحياة الدنيا . ويؤثرون لذائذها و متعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات ..

و« ويصدون » من الصد ، وهو صرف الغير عن الشىء ومنعه منه يقال : صد فلان فلانا عن فعل الشىء ، إذا منعه من فعله .

وسبيل الله : طريقه الموصلة إليه وهو ملة الإسلام .

ويبغون من البغاء - بضم الباء - بمعنى الطلب . يقال : بغيت لفلان كذا ، إذا طلبته له ، وبغيت الشىء أبغيه بغاء وبغى وبغية إذا طلبته .

والعوج - بكسر العين وفتحها - مصدر عوج - كتعب . إلا أن بعضهم يرى أن مكسور العين يكون فيما ليس بمرئى كالآراء والأقوال والعقائد ، وأن مفتوحها يكون فى المرئيات كالأجساد والمحسوسات .

أى : أن هؤلاء الكافرين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة ونعيمها ، ولا يكتفون بذلك بل يضعون العراقيل فى طريق دعوة الحق حتى يبتعد الناس عنها ، ويطلبون لها العوج والميل تبعا لزيغ نفوسهم ، مع أنها أقوم طريق ، وأعدل سبيل . والضمير المنصوب فى قوله « يبغونها » يعود إلى سبيل الله . أى يبغون لها العوج ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، كما فى قوله ﴿ وإذا كالوهم ... ﴾ أى : كالوا لهم .

وقوله ﴿ عوجا ﴾ مفعول به ليبغون .

وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى « يبغونها» ، وهو الهاء هو المفعول ، وجعل « عوجا » حال من سبيل الله أى : ويريدونها أن تكون فى حال اعوجاج واضطراب . وقوله : ﴿ أولئك فى ضلال بعيد ﴾ بيان الحكم العادل الذى أصدره - سبحانه - عليهم .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر فى ضلال بعيد عن الحق .

والإشارة بأولئك الدالة على البعد ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما وصفوا به بسبب تلبسهم بأقبح الخصال ، وأبشع الرذائل .

وعبر بفى الظرفية للدلالة على تمكن الضلال منهم ، وأنه محيط بهم كما يحيط الظرف بالمظروف .

قال الآلوسى : وفى الآية من المبالغة فى ضلالهم ما لا يخفى ، حيث أسند فيها الى المصدر ما هو لصاحبه مجازا كجد جده ...

ويجوز أن يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب اتصافه بما وصف به ، بناء على أن البعد فى الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده ، وسبب بعده ضلاله ، لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتل فلانا عصيانه ، والإسناد مجازى وفيه المبالغة المذكورة أيضا »[١] .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من مننه على عباده فقال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى أول السورة ﴿ كتاب

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٥.

أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ....﴾ كان هذا إنعاما على الرسول ، من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر ...

ثم ذكر فى هذه الآية ما يجرى مجرى تكميل النعمة والإحسان فى الوجهين :

أما بالنسبة إلى الرسول ، فلأن بعثته كانت إلى الناس عامة ..

وأما بالنسبة لعامة الخلق ، فلأنه - سبحانه - ما بعث رسولا إلى قوم إلا بلسانهم...»[1]

والباء فى قوله « بلسان » للملابسة ، والمراد باللسان : اللغة التى يتخاطب بها الرسول مع قومه ..

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسولا من الرسل إلى قوم من الأقوام ، إلا وكانت لغته كلغتهم ، لكى يتيسر لهم أن يفهموا عندما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهى ..

قال ابن كثير : « هذا من لطفه - تعالى - بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم كما قال الإمام أحمد .

حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد : عن أبى ذر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لم يبعث الله - عز وجل - نبيا إلا بلغة قومه »[2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت: لم يبعث رسول الله - ﷺ- إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث الى الناس جميعا ، وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة - أيضا - قلت : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أول الألسنة لسان قوم الرسول - ﷺ - لأنهم أقرب إليه .

فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع مافى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٩٧ .

التنازع والاختلاف ...»[1] وقال الشوكانى : ما ملخصه : « وقد قيل فى هذه الآية إشكال ، لأن النبى - ﷺ - أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ...

وأجيب : بأنه - ﷺ - وإن كان مرسلا إلى الثقلين ، لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه ، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم .

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم ، وبينه الرسول لكل قوم بلسانهم ، لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها مالا يعرفه غيرها .

وربما كان ذلك - أيضا - مفضيا إلى التحريف والتصحيف ، بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون »[2] .

وجملة « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » مستأنفة .

أى : فيضل الله من يشاء إضلاله ، أى يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه . ويهدى من يشاء هدايته ، لاراد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه .

« وهو » سبحانه « العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : وتفريع قوله « فيضل الله من يشاء ... الخ » على مجموع جملة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ولذلك جاء فعل « يضل » مرفوعا غير منصوب ، إذ ليس عطفا على فعل «ليبين » لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبين ولكنه مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين .

والمعنى : أن الإرسال بلسان قومه لعلة التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعرفة الاهتداء ، وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبين لهم »[3] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت وظيفة القرآن الكريم ، ووظيفة الرسول - ﷺ - كما توعدت الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وغيهم ، كما وضحت بعض مظاهر قدرة الله - تعالى - ولطفه بعباده ، وفضله عليهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن رسالة موسى - عليه السلام - كانت أيضا لإخراج

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٦ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٤ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور.

قومه من الظلمات إلى النور ، ولتذكيرهم بنعم خالقهم عليهم ، وبغناه عنهم ، فقال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما بين أنه أرسل محمدا - ﷺ - إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الإرسال وفى تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية معاملة أقوامهم معهم . تصبيرا له - ﷺ - على أذى قومه ، وبدأ - سبحانه - بقصة موسى فقال : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ...﴾[1] .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، ابن يصهر ، ابن ماهيث ... وينتهى نسبه إلى لاوى بن يعقوب عليه السلام .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٣ .

وكانت ولادة موسى - عليه السلام - فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

والمراد بالآيات فى قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ الآيات التسع التى أيده الله تعالى بها قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾[١] .

وهى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجدب - أى فى بواديهم ، والنقص من الثمرات - أى فى مزارعهم .

قال - تعالى - : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[٢] .

وقال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾[٣] .

وقال - تعالى - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾[٤] .

ومنهم من يرى أنه يصح أن يراد بالآيات هنا آيات التوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أى : ملتبسا بها . وهى كما أخرج ابن جرير وغيره ، عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير ، الآيات التسع التى أجراها الله على يده - عليه السلام - وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة »[٥] .

ويبدو لنا أنه لا مانع من حمل الآيات هنا على ما يشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة ، فالكل كان لتأييد موسى - عليه السلام - فى دعوته .

و« أن » فى قوله ﴿ أن أخرج قومك ﴾ تفسيرية بمعنى أى : لأن فى الإرسال معنى القول دون حروفه .

والمراد بقومه : من أرسل لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وهم : بنو إسرائيل وفرعون وأتباعه .

وقيل : المراد بقومه : بنو إسرائيل خاصة ، ولا نرى وجها لهذا التخصيص ، لأن رسالة

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠١ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .
(٥) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٦٨ .

موسى - عليه السلام - كانت لهم ولفرعون وقومه .

والمعنى : وكما أرسلناك يامحمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا من قبلك أخاك موسى إلى قومه لكى يخرجهم - أيضا- من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . فالغاية التى من أجلها أرسلت - أيها الرسول الكريم - هى الغاية التى من أجلها أرسل كل نبى قبلك ، وهى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وخص - سبحانه - موسى بالذكر من بين سائر الرسل . لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة الاسلامية .

وأكد - سبحانه - الاخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق قد ، لتنزيل المنكرين لرسالة النبى - ﷺ - منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام - وقوله - تعالى - : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ معطوف على قوله ﴿ أن أخرج قومك ﴾ .

والتذكير : إزالة نسيان الشىء ، وعدى بالباء لتضمينه معنى الإنذار والوعظ : أى ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بأيام الله : نعمه وآلاؤه .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى : بأياديه ونعمه عليهم ، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى »[1] .

ومنهم من يرى أن المراد بها ، نقمه وبأساؤه .

قال صاحب الكشاف : قوله : « وذكرهم بأيام الله » أى : وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، وهو الظاهر »[2] .

ومنهم من يرى أن المراد بها ما يشمل أيام النعمة ، وأيام النقمة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أما قوله « وذكرهم بأيام الله » فاعلم أنه - تعالى - أمر موسى فى هذا المقام بشيئين ، أحدهما : أن يخرجهم من الظلمات إلى النور . والثانى : أن يذكرهم بأيام الله .

ويعبر عن الأيام بالوقائع العظيمة التى وقعت فيها .. ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٨ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٧ .

فالمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد ، أن يذكرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل .. والترهيب والوعيد . أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ، ممن كذب الرسل من الأمم السالفة ...

ثم قال : واعلم أن أيام الله فى حق موسى - عليه السلام - منها ما كان أيام المحنة والبلاء ، وهى الأيام التى كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ، ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى عليهم ..»[1] .

وقال الآلوسى : « قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى : بنعمائه وبلائه ، كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - واختاره الطبرى ، لأنه الأنسب بالمقام والأوفق بما سيأتى من الكلام »[2] .

وما ذهب إليه الإمامان الرازى والألوسى ، هو الذى تسكن إليه النفس ، لأن الأيام كلها وإن كانت لله ، إلا أن المراد بها هنا أيام معينة ، وهى التى برزت فيها السراء أو الضراء بروزا ظاهرا ، كانت له آثاره على الناس الذين عاشوا فى تلك الأيام .

وبنو إسرائيل - على سبيل المثال - مرت عليهم فى تاريخهم الطويل ، أيام غمروا فيها بالنعم ، وأيام أصيبوا فيها بالنقم .

فالمعنى : ذكر ياموسى قومك بنعم الله لمن آمن وشكر ، وبنقمه على من جحد وكفر ، لعل هذا التذكير يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتبعونك فيما تدعوهم إليه .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ يعود على التذكير بأيام الله .

والصبار : الكثير الصبر على البلاء ، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع فعلا أو تركا . يقال : صبره عن كذا يصبره إذا حبسه .

والشكور : الكثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ، والشكر : عرفان الإحسان ونشره والتحدث به ، وأصله من شكرت الناقة - كفرح - إذا امتلأ ضرعها باللبن ، ومنه أشكر الضرع إذا امتلأ باللبن .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونقمه ، لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٨ .

الله - تعالى - وقدرته وعلمه ، وحكمته ، لكل إنسان كثير الصبر على البلاء ، وكثير الشكر على النعماء .

وتخصيص الآيات بالصبار والشكور لأنهما هما المنتفعان بها وبما تدل عليه من دلائل على وحدانية الله وقدرته ، لا لأنها خافية على غيرهما ، فإن الدلائل على ذلك واضحة لجميع الناس .

وجمع - سبحانه - بينهما ، للإشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففى الحديث الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»[1] .

وقدم - سبحانه - صفة الصبر على صفة الشكر ، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، أو لأن الصبر من قبيل الترك ، والتخلية مقدمة على التحلية .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - قد امتثل أمر ربه فقال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم... ﴾

و«إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

والمراد بقوله : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ : تنبهوا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنن التى امتن الله بها عليكم ، وقوموا بحقوقها ، وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم. فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها .

« آل فرعون » حاشيته وخاصته من قومه . وفرعون : لقب لملك مصر فى ذلك الوقت ، كما يقال لملك الروم قيصر ..

ويسومونكم من السوم وهو مطلق الذهاب أو الذهاب فى ابتغاء الشىء ، يقال : سامت الإبل فهى سائمة . أى : ذهبت فى المرعى ، وسام السلعة : إذا طلبها وابتغاها .

وسامه خسفا ، إذا أذله واحتقره وكلفه فوق طاقته .

و﴿ سوء العذاب ﴾ أشده . والسوء - بالضم - كل ما يدخل الحزن والغم على نفس الإنسان . وهو فى الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال السوأى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٨ .

وقوله ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ من الاستحياء بمعنى الاستبقاء ، يقال : استحيا فلان فلانا أى : استبقاه وأصله طلب له الحياة والبقاء .

والمعنى : واذكر – أيها الرسول الكريم – أو أيها المخاطب وقت أن قال موسى – عليه السلام – لقومه على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى الخير : يا قوم ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أى : داوموا على شكر الله ، فقد أسبغ عليكم نعما كثيرة من أبرزها أنه – سبحانه – أنجاكم من آل فرعون الذين كانوا يصبون عليكم أشد العذاب وأفظعه ، وكانوا يذبحون أبناءكم الصغار ، ويستبقون نساءكم ..

وجعل – سبحانه – النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا فى إذاقتهم سوء العذاب .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى اسرائيل ، لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء عليهن ، واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن بعد فقد الذكور بقاء ذليل ، وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أى : ويبقونهن فى الحياة مع الذل . ولذلك عد من جملة البلاء ، أو لأن إبقاءهن دون البنين رزية فى ذاته كما قيل :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا[1]

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا : الأطفال الصغار ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إن فرعون وآله ، كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإلقائه فى البحر وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

وقال – سبحانه – هنا ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾ لأن المقصود هنا تعداد المحن التى حلت ببنى اسرائيل ، فكان المراد بجملة ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ نوعا منه ، وكان المراد بجملة ﴿ ويذبحون أبناءكم ﴾ نوعا آخر منه ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى ، وإنما هى تمثل نوعا آخر من العذاب الذى حل ببنى إسرائيل .

بخلاف قوله – تعالى – فى سورة البقرة ﴿ يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٠ .

بدون واو العطف . لأن الجملة الثانية بيان وتفسير للجملة الأولى . فيكون المراد من سوء العذاب فى سورة البقرة تذبيح الأبناء واستحياء النساء .

واسم الاشارة فى قوله : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ يعود إلى المذكور من النعم والنقم ، والبلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون فى الخير والشر . قال - تعالى - ﴿ ونبلوكم بالخير والشر فتنة ﴾ .

أى : وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان عظيم لكم من ربكم بالسراء لتشكروا وبالضراء لتصبروا ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الشقاء والهوان .

ثم حكى - سبحانه - أن موسى - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى سنة من سنن الله التى لا تتخلف فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتكم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ ..

وقوله : « تأذن » بمعنى آذن أى أعلم ، يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه ، إلا أن صيغة التفعل تفيد المبالغة فى الإعلام ، فيكون معنى «تأذن » : أعلم إعلاما واضحا بليغا لا التباس معه ولا شبهة .

واللام فى قوله : ﴿ لئن شكرتم ﴾ موطئة للقسم . وحقيقة الشكر : الاعتراف بنعم الله - تعالى - واستعمالها فى مواضعها التى أرشدت الشريعة إليها .

وقوله : « لأزيدنكم » ساد مسد جوابى القسم والشرط .

والمراد بالكفر فى قوله : «ولئن كفرتم » كفر النعمة وجحودها ، وعدم نسبتها إلى واهبها الحقيقى وهو الله - تعالى - كما قال قارون ﴿ إنما أوتينه على علم عندى ﴾ وعدم استعمالها فيما خلقت له ، إلى غير ذلك من وجوه الانحراف بها عن الحق .

وجملة : ﴿ إن عذابى لشديد ﴾ دليل على الجواب المحذوف لقوله ﴿ ولئن كفرتم ﴾ إذ التقدير : ولئن كفرتم لأعذبنكم ، إن عذابى لشديد .

قال الجمل : « وإنما حذف هنا وصرح به فى جانب الوعد ، لأن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد »[1] .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب وقت أن قال موسى لقومه : يا قوم إن ربكم قد أعلمكم إعلاما واضحا بليغا مؤكداً بأنكم إن شكرتموه على نعمه ، زادكم من عطائه وخيره ومننه ، وإن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٥ .

جحدتم نعمه وغمطتموها واستعملتموها فى غير ما يرضيه ، محقها من بين أيديكم ، فإنه - سبحانه - عذابه شديد ، وعقابه أليم .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الموجبة للشكر ، والمحذرة من الجحود فقال :

وقد جاء فى الحديث الشريف : «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال : أتى النبى - ﷺ - سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - أو وحش بها أى : رماها - قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال السائل : سبحان الله !! تمرة من رسول الله - ﷺ - فقال للجارية : إذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها[1] .

ثم بين - سبحانه - أن موسى قد أخبر قومه أن ضرر كفرهم إنما يعود عليهم ، لأن الله - تعالى - غنى عن العالمين فقال - تعالى - : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا ، فإن الله لغنى حميد ﴾ .

أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه : إن تجحدوا نعم الله أنتم ومن فى الأرض جميعا من الخلائق ، فلن تضروا الله شيئا ، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعمه ، والمنحرف عن طريقه ، فإن الله - تعالى - لغنى عن شكركم وشكرهم ، مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها .

ويبدو من سياق الآية الكريمة أن موسى - عليه السلام - إنما قال لقومه ذلك ، بعد أن شاهد منهم علامات الإصرار على الكفر والفساد ، وترجح لديه أنهم قوم لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب ، ولمس منهم أنهم يمنون عليه أو على الله - تعالى - بطاعاتهم فأراد بهذا القول أن يزجرهم عن الإدلال بإيمانهم ، والمن بطاعتهم .

فالغرض الذى سيقت له الآية إنما هو بيان أن منفعة الطاعة والشكر والإيمان إنما تعود على الطائعين الشاكرين المؤمنين ، وأن مضرة الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين . أما الله - تعالى - فلن تنفعه طاعة المطيع ، ولن تضره معصية العاصى .

ففى الحديث القدسى الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى ، عن رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : « ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٩ .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » .[١]

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد زخرت بالتوجيهات القرآنية الحكيمة ، التى ساقها الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - وهو يعظ قومه ، ويذكرهم بأيام الله ، وبسننه فى خلقه ، وبغناه عنهم ..

ثم حكى - سبحانه - جانبا من أحوال بعض الرسل مع أقوامهم ، ومن المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم فقال - تعالى - :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم .

عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ... ﴾ .

يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام موسى - عليه السلام - فيكون المعنى : أن موسى - عليه السلام - بعد أن ذكر قومه بأيام الله - تعالى - ، وبنعمه عليهم ، وبسننه - سبحانه - فى خلقه ..

بعد كل ذلك شرع فى تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم ، فقال لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم .. ﴾ .

ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف ، والخطاب فيه لأمة الرسول - ﷺ - فيكون المعنى : أن الله - تعالى - بعد أن بين للناس أنه قد أنزل كتابه على رسوله - ﷺ - لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وبين - سبحانه - أن له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهدد الكافرين بالعذاب الشديد ، وحكى ما قاله موسى لقومه ..

بعد كل ذلك وجه - سبحانه - الخطاب إلى مشركى مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم فقال : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ... ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : « يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، والمقصود منه أنه - عليه السلام - كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم .

ويجوز أن يكون مخاطبة من الله - تعالى - على لسان موسى لقومه ، يذكرهم أمر القرون الأولى . والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا المقصود حاصل على

التقديرين ، إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول - ﷺ -[١] .

ومع أننا نؤيد الإمام الرازى فى أن المقصود إنما حصول العبرة بأحوال المتقدمين إلا أننا نميل مع الأكثرين إلى الرأى الثانى ، لأن قوم الرسول - ﷺ - هم المقصودون قصدا أوليا بالخطاب القرآنى ، ولأن الإمام ابن كثير - رحمه الله - يرى أنه لم يرد ذكر فى التوراة لقوم عاد وثمود ، فقد قال :

قال ابن جرير : « هذا من تمام قول موسى لقومه ... وفيما قال ابن جرير نظر والظاهر أنه خبر مستأنف من الله - تعالى - لهذه الأمة ، فإنه قد قيل إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ، فلاشك حينئذ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة[٢] .

والاستفهام فى قوله ﴿ ألم يأتكم ...﴾ للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ، فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذى كان مشهورا بينهم ، وقوم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب ، ومساكنهم فى بلادهم ، وهم يمرون على ديار قوم صالح فى أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة . والمراد بالذين من بعدهم : أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد وثمود ، كقوم إبراهيم وقم لوط وغيرهم .

وقوله : ﴿ لايعلمهم إلا الله ﴾ أى : لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود ولا يعلم ذواتهم وأحوالهم إلا الله تعالى .

وقوله ﴿ والذين من بعدهم ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ خبره ، والجملة اعتراض بين المفسر - بفتح السين - وهو ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ وتفسيره وهو ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ .

والمعنى : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالمكذبين من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب ، وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله - تعالى - وما دام الأمر كذلك فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكريم الذى جاء لسعادتكم ، لكى تنجوا من العذاب الأليم الذى حل بالظالمين من قبلكم .

وجملة ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ مستأنفة فى جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ما قصة هؤلاء الأقوام وما خبرهم ؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٨ طبعة دار الكتب العلمية - طهران .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٠ .

فكان الجواب : جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات ، وبالمعجزات الظاهرات ، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ... ﴾ .

بيان لموقف الأقوام المكذبين من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم .

والضمائر فى «ردوا» و«أيديهم » و« أفواههم » تعود على الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات . وهذه الجملة الكريمة ذكر المفسرون فى معناها وجوها متعددة أوصلها بعضهم إلى عشرة أقوال :

منها : أن الكفار وضعوا أناملهم فى أفواههم فعضوها غيظا وبغضا مما جاء به الرسل ، وقالوا لهم بغضب وضجر : إنا كفرنا بما أرسلتم به وبما جئتمونا به من معجزات ، فاغربوا عن وجوهنا ، واتركونا وشأننا .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا الوجه الإمام ابن جرير ، فقد قال : « وقوله : ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ... ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ، فعضوا على أصابعهم تغيظا عليهم فى دعائهم إياهم إلى مادعوهم إليه .. روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال الأخرى : وأشبه هذه الأقوال عندى بالصواب فى تأويل هذه الآية ، القول الذى ذكرناه عن عبدالله بن مسعود أنهم ردوا أيديهم فى أفواههم ، فعضوا عليها غيظا على الرسل ، كما وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ فهذا هو الكلام المعروف ، والمعنى المفهوم من رد الأيدى إلى الأفواه[1] .

ومنها : أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواههم إشارة منهم إلى أنفسهم وإلى ما يصدر عنها ، وقالوا للرسل على سبيل التحدى والتكذيب . « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى : لا جواب لكم عندنا سوى ما قلناه لكم بألسنتنا هذه .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا القول الإمام الآلوسى ، فقد صدر الأقوال التى ذكرها به ، فقال ما ملخصه : قوله ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ أى: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به ، وقالوا لهم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى : على زعمكم ، وهى البينات التى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٧ .

أظهروها حجة على صحة رسالتهم ، ومرادهم بالكفر بها : الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم ..

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال : والذى يطابق المقام ، وتشهد له البلاغة : هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوى ، لأنهم حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، حيث جمعوا فى الإنكارين : الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيها على أنهم لم يتمهلوا ، بل عقدوا دعوتهم بالتكذيب ...»[١] .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا .

وقد رجح هذا الوجه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال : « وهذا التركيب لا أعهد مثله فى كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن : ومعنى ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ .

يحتمل عدة وجوه أنهاها فى الكشاف إلى سبعة ، وفى بعضها بعد ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل[٢] .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، لم يردوا عليهم ، بل تركوهم إهمالا لشأنهم .

وقد رجح الشوكانى هذا الاتجاه فقال ما ملخصه : « وقال أبو عبيدة – ونعم ما قال – هو ضرب مثل . أى : لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول الرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد رد يده فى فيه . و هكذا قال الأخفش ، واعترض على ذلك القتيبى فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رد يده فى فيه ، إذا ترك ما أمر به وإنما المعنى عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ..

فإن صح ما ذكره أبو عبيدة والأخفش فتفسير الآية به أقرب ...»[٣] .

وهذه الأقوال جميعها وإن كانت تتفق فى أن الآية الكريمة ، قد أخبرت بأبلغ عبارة عما قابل به الأقوام المكذبون رسلهم من سوء أدب ..

إلا أننا نميل إلى ما ذهب إليه الإمام ابن جرير ، لأنه أظهر الأقوال فى معناها ، وقد استشهد له بعضهم بأشعار العرب ، ومنها قول الشاعر :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٩٦ .

(٣) راجع تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٩٧ ففيه ما يقرب من عشرة أقوال فى معنى الآية .

تـرون فى فيـه غش الحسو د حتى يعض عـلى الأكفـا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ معطوف على قوله ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة ، فمعنى مريب : موقع فى الريبة أى : فى القلق والاضطراب .

أى : قال المكذبون لرسلهم إنا كفرنا بما جئتم به من المعجزات والبينات .

وإنا لفى شك كبير موقع فى الريبة مما تدعوننا إليه من الإيمان بوحدانية الله ، وبإخلاص العبادة له ..

قال الجمل ما ملخصه : «فإن قيل : إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل .

ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون فى صحة قولهم فكيف ذلك ؟

فالجواب : كأنهم قالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل فإن لم نكن كذلك ، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم .

أو يقال : المراد بقولهم « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى بالمعجزات والبينات ، وبقولهم : ﴿ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ وهو الإيمان والتوحيد .

أو يقال : إنهم كانوا فرقتين إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكت ...»[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الرسل على المكذبين من أقوامهم فقال : ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك ، فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. ﴾ .

والاستفهام فى قوله ﴿ أفى الله شك﴾ للتوبيخ والإنكار ، ومحل الانكار هو وقوع الشك فى وجود الله - تعالى - وفى وحدانيته .

وقوله ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ من الفطر بمعنى الخلق والإبداع من غير سبق مثال وأصله : الشق وفصل شيء عن شيء ، ومنه فطر ناب البعير أى : طلع و ظهر ، واستعمل فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٤٦ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٦ .

الإيجاد والإبداع والخلق لاقتضائه التركيب الذى سبيله الشق والتأليف ، أو لما فيه من الإخراج من العدم إلى الوجود .

والمعنى : قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة : أفى وجود الله - تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة له شك ، مع أنه - سبحانه - هو ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومبدعهما ومبدع ما فيهما على أحكم نظام ، وعلى غير مثال سابق .. وهو - سبحانه - فضلا منه وكرما « يدعوكم » إلى الإيمان بما جئناكم به من لدنه « ليغفر لكم » بسبب هذا الإيمان « من ذنوبكم ويؤخركم » فى هذه الدنيا « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معلوم عنده تنتهى بانتهائه أعماركم ، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال « رحمة بكم » وأملا فى هدايتكم .

فأنت ترى أن الرسل الكرام قد أنكروا على أقوامهم أن يصل بهم انطماس البصيرة إلى الدرجة التى تجعلهم ينكرون وجود الله مع أن الفطر شاهدة بوجوده ، وينكرون وحدانيته مع أنه وحده الخالق لكل شىء ، ويشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ، مع أن هذه الآلهة لاتضر ولاتنفع .

وجملة ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ جىء بها كدليل على نفى الشك فى وجوده - سبحانه - وفى وجوب إخلاص العبادة له ، لأن وجودهما على هذا النسق البديع يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكيما ، لاستحالة صدور تلك المخلوقات من غير فاعل مختار .

وجملة « يدعوكم ... » حال من اسم الجلالة ، واللام فى قوله « ليغفر لكم من ذنوبكم » متعلقة بالدعاء .

أى : يدعوكم إلى الإيمان بنا لكى يغفر لكم .

قال الشوكانى ما ملخصه : « ومن » فى قوله « من ذنوبكم » قال أبو عبيدة : إنها زائدة ، ووجه ذلك قوله - تعالى - فى موضع آخر : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وقال سيبويه : هى للتبعيض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع ، وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران الذنوب لأمة محمد - ﷺ - غفران جميعها لغيرهم ..

وقيل هى للبدل ، أى : لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ...[1] .

وقال الجمل : « ويحتمل أن يضمن « ويغفر » معنى يخلص أى : يخلصكم من ذنوبكم ،

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٩٨ .

ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب ، وهو أولى من دعوى زيادتها »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ حكاية لرد آخر من الردود السيئة التى قابل بها المكذبون رسلهم .

أى : قال الظالمون لرسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة والمأكل والمشرب ، تريدون بما جئتمونا به أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التى ورثنا عبادتها عن آبائنا .. فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أى بحجة ظاهرة تدل على صدقكم وتتسلط هذه الحجة بقوتها على نفوسنا وتجذبها إلى اليقين ، من السلاطة وهى التمكن من القهر .

وكأن هؤلاء الظالمين بقولهم هذا ، يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وإنما يكونون من الملائكة .

وكأن ما أتاهم به الرسل من حجج باهرة تدل على صدقهم ، ليس كافيا فى زعم هؤلاء المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن يأتوهم بحجج محسوسة أخرى ، وهكذا الجحود العقلى ، والانطماس النفسى يحمل أصحابه على قلب الحقائق ، وإيثار طريق الضلالة على طريق الهداية .

وهنا يحكى القرآن أن الرسل - عليهم السلام - قد قابلوا هذا السفه من أقوالهم بالمنطق الحكيم ، وبالأسلوب المهذب فيقول : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده .. ﴾ .

أى : قال الرسل لمكذبيهم على سبيل الإرشاد والتنبيه : نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن هذه المماثلة بيننا وبينكم فى البشرية ، لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده ، بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعمه التى لا تحصى .

فأنت ترى أن الرسل - عليهم السلام - قد سلموا للمكذبين دعواهم المماثلة فى البشرية ، فى أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا لهم جهلهم وسوء تفكيرهم ، بأن أفهموهم بطريق الاستدراك ، أن المشاركة فى الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله ، ولكنه - سبحانه - يمن على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم ..

فالمقصود بالاستدراك دفع ما توهمه المكذبون ، من كون المماثلة فى البشرية تمنع اختصاص بعض البشر بالنبوة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ صـ ٥١٧ .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ قالت لهم رسلهم ﴾ مجاراة لأول مقالتهم ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ كما تقولون ، وهذا كالقول بالموجب ، لأن فيه إطماعا فى الموافقة ، ثم كروا على قولهم بالإبطال فقالوا : ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ .

أى : إنما اختصنا الله - تعالى - بالرسالة بفضل منه وامتنان ، والبشرية غير مانعة لمشيئته - جل وعلا - . وفيه دليل على أن الرسالة عطائية ، وأن ترجيح بعض الجائز على بعض بمشيئته - تعالى - ولا يخفى ما فى العدول عن « ولكن الله مَنَّ علينا » ، إلى مافى النظم الجليل منهم - عليهم السلام -[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ حكاية لرد الرسل على قول المكذبين لهم ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ .

أى : وقال الرسل للمكذبين من أقوامهم - أيضا - : وما صح وما استقام لنا نحن الرسل أن نأتيكم - أيها الضالون - بحجة من الحجج ، أو بخارق من الخوارق التى تقترحونها علينا ، إلا بإذن الله وإرادته وأمره لنا بالإتيان بما اقترحتم ، فنحن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه .

ثم أكد الرسل تمسكهم بالمضى فى دعوتهم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

والتوكل على الله معناه : الاعتماد عليه ، وتفويض الأمور إليه ، مع مباشرة الأسباب التى أمر - سبحانه - بمباشرتها .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليتوكل المؤمنون ، الصادقون ، دون أن يعبأوا بعنادكم ولجاجكم ، ونحن الرسل على رأس هؤلاء المؤمنين الصادقين .

فالجملة الكريمة أمر من الرسل لمن آمن من قومهم بالتوكل على الله وحده ، وقد قصدوا بهذا الأمر أنفسهم قصدا أوليا ، بدليل قولهم بعد ذلك - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ .

أى : وما عذرنا إن تركنا التوكل على الله - تعالى - والحال أنه - عز وجل - قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، فقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ، وهى طريق إخلاص العبادة له والاعتماد عليه وحده فى كل شئوننا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٧ .

فالجملة الكريمة تدل على اطمئنانهم إلى سلامة مواقفهم فى تفويض أمورهم إلى الله ، وإلى رعاية الله - تعالى - حيث هداهم إلى طريق النجاة والسعادة .

ثم أضافوا إلى ذلك تيئيس أعدائهم من التأثر بأذاهم ، فقالوا ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ .

أى : والله لنصبرن صبرا جميلا فى حاضرنا ومستقبلنا - كما صبرنا فى ماضينا - على إيذائكم لنا . والذى من مظاهره : عصيانكم لأقوالنا ، ونفوركم من نصحنا ، واستهزاؤكم بنا ، ومحاربتكم لنا ..

ثم ختموا أقوالهم بتأكيد تصميمهم على الثبات فى و جه الباطل فقالوا ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليثبت المتوكلون على توكلهم . وليفوضوا أمورهم إلى خالقهم ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الذى لا يعجزه شيء .

وتقديم الجار والمجرور فى الجملة الكريمة وفيما يشبهها مؤذن بالحصر ، وأن هؤلاء الرسل الكرام لا يرجون نصرا من غير الله - تعالى - .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة ، قد حكت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانبا من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم ، وكيف ردوا على الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة ، التى واجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا فى قوة وعزم وإصرار ثباتهم فى وجوه أعدائهم ، ومقابلتهم الأذى بالصبر الذى لا جزع معه ، مهما صنع الأعداء فى طريقهم من عقبات ، ومهما أثاروا من أباطيل وشبهات ..

ثم حكت السورة بعد ذلك جانبا آخر من تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أعدائهم ، وجانبا مما وعد الله به رسله - عليهم السلام - وجانبا من العذاب الذى أعده للظالمين فقال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن فى ملتنا ... ﴾ حكاية لما هدد به رءوس الكفر رسلهم ، بعد أن أفحمهم الرسل بالحجة البالغة ، وبالمنطق الحكيم .

واللام فى « لنخرجنكم » هى الموطئة للقسم . و«أو » للتخيير بين الأمرين .

أى : وقال الذين عتوا فى الكفر - على سبيل التهديد - لرسلهم ، الذين جاءوا لهدايتهم ، والله لنخرجنكم - أيها الرسل - من أرضنا ، أو لتعودن فى ديننا وملتنا .

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الأنبياء - عليهم السلام - أنهم قد اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه ، والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة وقالوا للأنبياء ولنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » .

والمعنى : ليكونن أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .

والسبب فيه أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة[1] .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ أو لتعودن فى ملتنا ﴾ يفيد بظاهره أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها ، فإن العود معناه : الرجوع إلى الشىء بعد مفارقته . وهذا محال ، فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر ، فضلًا عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بإجابات منها :

أن الخطاب وإن كان فى الظاهر مع الرسل ، إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون ، الذين

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٩٩ .

كانوا قبل الإيمان بالرسل على دين أقوامهم ، فكأنهم يقولون لهؤلاء الأتباع : لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها ، فإما أن تعودوا إليها وإما أن تخرجوا من ديارنا ، إلا أن رءوس الكفر وجهوا الخطاب إلى الرسل من باب التغليب .

ومنها : أن العود هنا بمعنى الصيرورة ، إذ كثيرًا ما يرد « عاد » بمعنى صار ، فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل يستدعى الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة مستأنفة ، فيكون المعنى : لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرن كفارًا مثلنا .

ومنها : أن هذا القول من الكفار جار على توهمهم وظنهم ، أن الرسل كانت قبل دعوى النبوة على ملتهم ، لسكوتهم قبل البعثة عن الإنكار عليهم ، فلهذا التوهم قالوا ما قالوا ، وهم كاذبون فيما قالوه .

وشبيه بهذه الآية قول قوم شعيب - عليه السلام - له ﴿ لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ... ﴾[1] .

وقول قوم لوط له ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم .. ﴾ بشارة عظيمة من الله - تعالى - لرسله ، ووعد لهم بالنصر على أعدائهم ..

أى : فأوحى الله - تعالى - إلى الرسل - بعد أن قال لهم الكافرون - ما قالوا - : أبشروا أيها الرسل ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ الذين هددوكم بالإخراج من الديار ، أو بالعودة إلى ملتهم ، ﴿ ولنسكننكم ﴾ - أيها الرسل - ﴿ الأرض ﴾ أى أرضهم ﴿ من بعدهم ﴾ أى من بعد إهلاكهم واستئصال شأفتهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وأوحى هنا يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء فلا مفعول له » .

وقوله ﴿ لنهلكن ﴾ على إضمار القول ، أى : قائلًا لنهلكن ، ويحتمل أن يكون جاريًا مجرى القول لكونه ضربًا منه ، وقوله ﴿ لنهلكن ﴾ مفعوله ..

وخص - سبحانه - الظالمين من الذين كفروا ، لأنه من الجائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا تلك المقالة أناس معينون ، فالتوعد لإهلاك من خلص للظلم »[3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨٨ .
(٢) سورة النمل الآية ٥٦ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٣ صـ ١٧٩ .

وأكد - سبحانه - إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم ، بلام القسم ونون التوكيد .. زيادة فى إدخال السرور على نفوس الرسل ، وفى تثبيت قلوبهم على الحق ، وردًا على أولئك الظالمين الذين أقسموا بأن يخرجوا الرسل من ديارهم ، أو يعودوا إلى ملتهم .

قال صاحب الكشاف : « والمراد بالأرض فى قوله ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ ..

وعن النبى - ﷺ - : « من آذى جاره ورثه الله داره » .

ثم قال : ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة ، كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا منها ويؤذينى فيه ، فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يومًا إلى أبناء خالى يترددون فيها ، ويدخلون فى دورها ويخرجون ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله - ﷺ - وحدثتهم به ، وسجدنا شكرًا لله »[1] .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ يعود إلى ما قضى الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم من أرضهم .

أى : ذلك الذى قضيت به كائن لمن خاف قيامى عليه ، ومراقبتى له ، ومكان وقوفه بين يدى للحساب ، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصانى .

قال الجمل : « ومقامى فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مقحم - وهو بعيد إذ الأسماء لا تقحم ، أى ذلك لمن خافنى - الثانى : أنه مصدر مضاف للفاعل .

قال الفراء : مقامى مصدر مضاف لفاعله : أى قيامى عليه بالحفظ . الثالث : أنه اسم مكان ، قال الزجاج : مكان وقوفه بين يدى للحساب »[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ واستفتحوا ﴾ من الاستفتاح بمعنى الاستنصار ، أى : طلب النصر من الله - تعالى - على الأعداء . والسين والتاء للطلب .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا .. ﴾ .

أو يكون ﴿ واستفتحوا ﴾ من الفتاحة بمعنى الحكم والقضاء ، أى : واستحكموا الله

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٣٧١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٨ .

- تعالى - وطلبوا منه القضاء والحكم ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على ﴿ فأوحى إليهم ربهم ﴾ ، والضمير يعود إلى الرسل .

والمعنى : والتمس الرسل من خالقهم - عز وجل - أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين .

قالوا : ومما يؤيد ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن محيصن ﴿ واستفتحوا ﴾ - بكسر التاء - أمرًا للرسل .

ومنهم من يرى أن الضمير يعود للفريقين : الرسل ومكذبيهم . أى : أن كل فريق دعا الله أن ينصره على الفريق الآخر .

وقوله ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ بيان لنتيجة الاستفتاح . والجبار : الإنسان المتكبر المغرور المتعالى على غيره ، المدعى لمنزلة أو لشىء ليس من حقه .

والعنيد : مأخوذ من العند - بفتح النون - بمعنى الميل . يقال : عند فلان عن الطريق - كنصر وضرب وكرم - عنودا ، إذا مال عنها . وعند فلان عن الحق ، إذا خالفه .

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : واستفتحوا فنصر الله - تعالى - رسله على أعدائهم ، وخاب وخسر ، كل متكبر متجبر معاند للحق .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أى : متجبر فى نفسه معاند للحق ، كما قال - تعالى - ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[1] .

وفى الحديث : « يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق فتقول : إنى وكلت بكل جبار عنيد .. »[2] .

وقال - سبحانه - ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ ولم يقل وخاب الذين كفروا كما هو مقتضى الظاهر من السياق ، للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق ، وأن كل من كان كذلك فلابد من أن تكون عاقبته الخيبة والخسران .

وقوله ﴿ من ورائه جهنم ﴾ صفة لجبار عنيد .

---

(١) سورة ق الآيات من ٢٤ - ٢٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٣ .

والمراد بقوله : ﴿ من ورائه ﴾ أى : من أمامه ، أو من بعد هلاكه .

أى : من أمام خيبة هذا الجبار العنيد جهنم ، تنتظر ليحل بها ، بسبب كفره وظلمه .

قال صاحب أضواء البيان : قوله ﴿ من ورائه جهنم ... ﴾ الوراء هنا بمعنى الأمام كما هو ظاهر ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ أى : وكان أمامهم ملك .. ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى ... وقومى تميم والفلاة ورائيا

أى : والفلاة أماميا .

وقال بعضهم : قوله ﴿ من ورائه ﴾ أى من بعد هلاكه ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

أى : وليس بعد الله للمرء مذهب ، والأول هو الظاهر وهو الحق[1] .

وعلى أية حال فإن الجملة الكريمة تدل على أن جهنم تنتظر هذا الجبار العنيد ، وتترصد له ، وتتبعه حيث كان ، بحيث لا يستطيع الفرار منها ، أو الهرب عنها .

وجملة « ويسقى من ماء صديد » معطوفة على مقدر ، أى : من ورائه جهنم يلقى فيها مذءومًا مدحورًا ، ويسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة ، هو الصديد ، أى ما يسيل من أجساد أهل النار من دم مختلط بقيح ، واشتقاقه من الصد ، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته . وهو بدل أو عطف بيان من ماء .

وقوله ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه .. ﴾ بيان لحالة هذا الجبار العنيد عند تعاطيه الصديد .

والتجرع : تكلف الجرع وهو بلع الماء ، وفعله - كسمع ومنع - .

ويسيغه : من السوغ وهو انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول . يقال : ساغ الشراب سوغا وسواغا ، إذا كان سهل المدخل .

أى : يتكلف بلع هذا الصديد مرة بعد أخرى لمرارته وقبحه ، ولا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة . بل يغص به فيشربه بعد عناء ومشقة جرعة عقب جرعة » .

وقوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ معطوف على قوله ﴿ يتجرعه ﴾ لبيان حالة أخرى من أحوال شقائه وعذابه .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ١٠٦ للشيخ محمد أمين الشنقيطى .

أى : وتأتيه الأسباب المؤدية للموت والهلاك من كل جهة من الجهات ، ومن كل موضع من مواضع بدنه ، وما هو بميت فيستريح من هذا الشقاء والعذاب ، ومن وراء كل ذلك عذاب غليظ أى : شاق شديد لا يقل فى ألمه عما هو فيه من نكال .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا سوء عاقبة المكذبين للحق تصويرًا مؤثرًا ، تهتز له النفس ، وتوجل منه القلوب .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لأعمال الكافرين فى حبوطها وذهابها يوم القيامة ، وساق الأدلة الدالة على قدرته القاهرة ، وصور أحوال الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وحكى ما يقوله الضعفاء للمستكبرين وما يقوله الشيطان لأتباعه فى هذا اليوم العصيب ، وما أعده الله للمؤمنين الصادقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٦ .
(٢) سورة الأعلى الآيات ١١ - ١٣ .

مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة ، بين فى هذه الآية وهى قوله - تعالى - ﴿ مثل الذين كفروا بربهم .. ﴾ . أن أعمالهم بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشىء منها . وعند هذا يظهر كمال خسرانهم ، لأنهم لا يجدون فى القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعًا باطلًا »[1] .

والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه بمورده ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ، أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .

والمراد بأعمال الذين كفروا فى الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به فى الدنيا من أعمال حسنة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٠٤ .

كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .

والرماد : ما يتبقى من الشيء بعد احتراق أصله ، كالمتبقى من الخشب أو الحطب بعد احتراقهما .

والعاصف : من العصف وهو اشتداد الريح ، وقوة هبوبها .

قال الجمل : « وقوله : ﴿ مثل الذين كفروا ... ﴾ فيه أوجه للإعراب : أحدها وهو مذهب سيبويه : أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله ﴿ أعمالهم كرماد .. ﴾ مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مثلهم ..؟ فقيل : كيت وكيت .

والثانى : أن يكون « مثل » مبتدأ و « أعمالهم » مبتدأ ثان ، و« كرماد » خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول .... »[1] .

والمعنى : حال أعمال الذين كفروا فى حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشىء منها فى الآخرة ، كحال الرماد المكدس الذى أتت عليه الرياح العاصفة ، فمحقته وبددته ، ومزقته تمزيقًا لا يرجى معه اجتماع .

فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون فى الدنيا من أعمال البر والخير .

ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع فى كل ، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك أعمال الكافرين فى الآخرة تصير هباء منثورًا ، لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة لله - تعالى - .

ووصف - سبحانه - اليوم بأنه عاصف - مع أن العصف شدة الريح - للمبالغة فى وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك ، كما يقال : يوم حار ويوم بارد ، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما .

وقوله - سبحانه - ﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شىء ﴾ بيان للمقصود من التشبيه ، وهو أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرون يوم القيامة ، على الانتفاع بشىء مما فعلوه فى الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن يستفيدوا منها ثوابًا ، أو تخفف عنهم عذابا .

قال الآلوسى : « وفى الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : يا رسول

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٠ .

الله . إن ابن جدعان فى الجاهلية كان يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ؛ لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين »[١] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « هذا مثل ضربه الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها ...

كما قال - تعالى - ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[٢] .

وكما قال - تعالى - ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾[٣].

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أى : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشىء منها ، هو الضلال البعيد .

أى : البالغ أقصى نهايته ، والذى ينتهى بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .

ووصف - سبحانه - الضلال بالبعد ، لأنه يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾[٤] .

والخطاب فى قوله ﴿ ألم تر .. ﴾ لكل من يصلح له بدون تعيين . والاستفهام للتقرير .

والرؤية مستعملة فى العلم الناشىء عن النظر والتفكير والتأمل فى ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ألم تر ... ﴾ هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن لا يكون كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٨٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١١٦ .

لا ينبغى أن يخفى عليه ، وأنه ينبغى أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجرى مع من رأى ، قصدًا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب ... »[١] .

والمعنى ؛ ألم تعلم - أيهاالعاقل - أن الله - تعالى - ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ . أى : خلقهما بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ، وهو - سبحانه - ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أى - يهلككم أيها الناس ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ سواكم ، لأن القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام عظيمة ، يكون على خلق غيرهما أقدر ، كما قال - تعالى - ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .. ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم - أيها الناس - ويأت بمخلوقين آخرين غيركم ، وما ذلك الإذهاب بكم ، والإتيان بغيركم بمتعذر على الله ، أو بمتعاص عليه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ، ولا يحول دون نفاذ قدرته حائل .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٤] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾[٥] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين الضعفاء والمستكبرين ، بين الأتباع والمتبوعين ... فقال - تعالى - : ﴿ وبرزوا لله جميعًا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ... ﴾ .

وقوله ﴿ وبرزوا ﴾ من البروز بمعنى الظهور ، مأخوذ من البراز وهو الفضاء الواسع ، الذى يظهر فيه الناس بدون استتار . أى : وخرج الكافرون جميعًا من قبورهم يوم القيامة ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٠ .
(٢) سورة غافر الآية ٥٧ .
(٣) سورة فاطر الآيات من ١٥ - ١٧ .
(٤) سورة محمد الآية ٣٨ .
(٥) سورة النساء الآية ١٣٣ .

وظهروا ظهورًا لا خفاء معه ، لكى يحاسبهم - سبحانه - على أعمالهم فى الدنيا .

وقال - سبحانه - ﴿ وبرزوا ﴾ بلفظ الفعل الماضى مع أن الحديث عن يوم القيامة ، للتنبيه على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .

وعبر - سبحانه - بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم يبرزوا ، لأنهم كانوا فى الدنيا يستترون عن العيون عند اجتراحهم السيئات ويظنون أن ذلك يخفى على الله - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - ما سيقوله الضعفاء للمستكبرين فى هذا الموقف العصيب فقال :

﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمة حرية الإرادة ، فهانوا وذلوا ..

قال هؤلاء الضعفاء ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم السادة المتبوعون الذين كانوا يقودون أتباعهم إلى طريق الغى والضلال .

﴿ إنا كنا لكم ﴾ - أيها السادة - ﴿ تبعا ﴾ جمع تابع كخادم وخدم .

أى : إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لأمركم ، فى تكذيب الرسل ، وفى كل ما تريدونه منا .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ﴾ للتقريع والتفجع .

ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .

قال الشوكانى : « يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع »[1] .

أى : فهل أنتم - أيها المستكبرون - دافعون عنا شيئا من عذاب الله النازل بنا ، حتى ولو كان هذا الشىء المدفوع قليلا ؟ إن كان فى إمكانكم ذلك فاظهروه لنا ، فقد كنتم فى الدنيا سادتنا وكبراءنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب الحظوة يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين « من » فى « من عذاب الله » وبينه فى « من شىء » ؟

قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشىء

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ٣ .

الذى هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكون للتبعيض معا بمعنى : هل انتم مغنون عنا بعض شىء ، هو بعض عذاب الله ؟ أى : بعض بعض عذاب الله »[١] .

ثم حكى – سبحانه – رد المستكبرين على المستضعفين فقال : ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم .. ﴾ .

أى : قال المستكبرون – بضيق وتحسر – فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا الله – تعالى – إلى الإيمان الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم « لهديناكم » إليه ، ولكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعنا أنفسنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ .

والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله .

يقال : جزع فلان يجزع جزعا وجزوعا ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا .

والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشىء يحيص حيصا ومحيصا ، إذا عدل عنه على جهة الهرب والفرار .

أى : مستو عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم .

فالآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها طابع الذلة والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ، وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ، والتسليم بالواقع الأليم الذى لامحيص لهم عنه .

قال الإمام ابن كثير : « قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله – تعالى – ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر ، فصبروا صبرا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك . فعند ذلك قالوا : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾[٢] .

ثم حكى – سبحانه – بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، فقال – تعالى – :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٨ .

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم .. ﴾ والمراد بالشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - .

قال الفخر الرازى : « وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه أولى . ولاسيما وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول الكافر : قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس ، فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول ..»[1] .

والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ لما قضى الأمر ﴾ أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، كل فريق فى المكان الذى أعده الله تعالى له .

والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم . تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجوا من العذاب الذى سيحل بأتباعه يوم القيامة .

والمراد بالحق فى قوله ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ : الصدق والوفاء بما وعدكم به على ألسنة رسله .

والمراد بالإخلاف فى قوله ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به ، من أمانى باطلة .

قال - تعالى - : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾[2] . وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أى إن الله - تعالى - وعدكم الوعد الحق الذى لا نقض له ، وهو أن الجزاء حق، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعدا باطلا بأنه لا بعث ولا حساب .. فأخلفتكم ماوعدتكم به ، وظهر كذبى فيما قلته لكم . ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ ..

والسلطان : اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .

أى : وما كان لى فيما وعدتكم به من تسلط عليكم ، أو إجبار لكم ، لكنى دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه من باطل وغواية ، فانقدتم لدعوتى واستجبتم لوسوستى عن طواعية واختيار .

فالاستثناء فى قوله « إلا أن دعوتكم » استثناء منقطع ، لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله ، وبعضهم يرى أن الاستثناء متصل .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١١٠ .
(٢) سورة النساء الآية ١٢٠ .

قال الجمل : « وفى هذا الاستثناء وجهان : أظهرهما : أنه استثناء منقطع ، لأن دعاءه ليس من جنس السلطان وهو الحجة البينة، والثانى : أنه متصل لأن القدرة على حمل الانسان على الشيء تارة تكون بالقهر ، وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه بإلقاء الوساوس إليه . فهو نوع من التسلط »(١) .

وقوله ﴿ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ زيادة فى تأنيبهم وفى حسراتهم على انقيادهم له .

أي : فلا تلومونى بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من عند ربكم ، ومالك أمركم .

ثم ينفض يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السيء فيقول : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾ . أى : ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من عذاب - أيضا - فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات ..

قال القرطبى ما ملخصه : « والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة ، والمصرخ هو المغيث لغيره .. قال أمية بن أبى الصلت :

ولا تجزعا إنى لكم غير مصرخ وليس لكم عندى غناء ولا نصر

ويقال : صرخ فلان أى استغاث يصرخ صرخا وصراخا وصرخة ..

ومنه : استصرخنى فلان فأصرخته ، أى استغاث بى فأغثته ..(٢) .

وجملة « إنى كفرت بما أشركتمون من قبل.. » مستأنفة ، لإظهار المزيد من التنصل والتبرى من كل علاقة بينه وبينهم .

و « ما » فى قوله « بما أشركتمون » الظاهر أنها مصدرية ..

قال الآلوسى ما ملخصه : « وأراد بقوله ﴿ إنى كفرت ﴾ أى : إنى كفرت اليوم « بما أشركتمون من قبل » .

أى : من قبل هذا اليوم ، يعنى فى الدنيا و« ما » مصدرية و« من قبل » متعلق بأشركتمون .

والمعنى : إنى كفرت بإشراككم إياى لله - تعالى - فى الطاعة ، لأنهم كانوا يطيعون

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص ٥٢٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٥٧ .

الشيطان فيما يزينه لهم من عبادة غير الله - تعالى - ، ومن أفعال الشر ..

ومراد اللعين : أنه إن كان إشراككم لى مع الله - تعالى - ، هو الذى أطمعكم فى نصرتى لكم .. فإنى متبرئ من هذا الشرك ، فلم يبق بينى وبينكم علاقة .. فالكلام محمول على إنشاء التبرى منهم يوم القيامة ..

ثم قال : وجوز غير واحد أن تكون « ما » موصولة بمعنى من ، والعائد محذوف ، و« من قبل » متعلق بكفرت . أى : إنى كفرت من قبل - حين أبيت السجود لآدم - بالذى أشركتمونيه . أى : جعلتمونى شريكا له فى الطاعة وهو الله - عز وجل - ..

والكلام على هذا إقرار من اللعين بقدم كفره ، وبسبق خطيئته فلا يمكنه أن يقدم لهم عونا أو نصرا ...[1] .

وجملة « إن الظالمين لهم عذاب أليم » فى موقع التعليل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء كلام من جهته - تعالى - : لبيان سوء عاقبة الظالمين .

ويجوز أن تكون من تتمة كلام إبليس - الذى حكاه القرآن عنه - ، ويكون الغرض منها قطع أطماعهم فى الإغاثة أو النصر ، وتنبيه المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى عداوة الشيطان لهم وتحذيرهم من اتباع خطواته .

قال الشيخ الشوكانى - رحمه الله - ما ملخصه : « لقد قام الشيطان للكافرين فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ، ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله - تعالى - وأنه أخلفهم ما وعدهم به ..

ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، لعدم الحجة التى لابد للعاقل منها فى قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نعى عليهم رابعا : ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة .. بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٨٩ .

ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، وهو إشراكه مع الله - تعالى - فتضاعفت عليهم الحسرات ، وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة « إن الظالمين لهم عذاب أليم » من تتمة كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فيكون قد أثبت لهم الظلم ، وذكر لهم جزاءه »[١] .

وبعد هذا الحديث عن سوء عاقبة الكافرين .. بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب جزيل ، وأجر عظيم فقال - تعالى - :

﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ﴾ .

أى : وأدخل الله - تعالى - فى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة ، أدخلهم - سبحانه - جنات تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا لاموت معه ولاتعب .

وجاء التعبير بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وتعجيل البشارة ، وقوله ، ﴿ بإذن ربهم ﴾ أى : بإرادته - سبحانه - وتوفيقه وهدايته لهم .

وقوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ أى : تحيتهم فى الجنة سلام لهم من خالقهم - عز وجل - ومن الملائكة ، ومن بعضهم لبعض .

كما قال - تعالى - : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[٢] .

وكما قال - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم .. ﴾[٣] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ويُلقَّون فيها تحية وسلاما ﴾[٤] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت بأبلغ أسلوب بوار أعمال الذين كفروا ، وسوء أحوالهم يوم القيامة ، كما بينت حسن عاقبة المؤمنين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٠٤ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة الفرقان الآية ٧٥ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، أتبع ذلك بضرب مثل لهما زيادة فى التوضيح والتقرير فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

والخطاب فى قوله ﴿ ألم تر ... ﴾ للرسول - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب ، والاستفهام للتقرير ، والرؤية مستعملة فى العلم الناشىء عن التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر .... ﴾ هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن ليس كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى ذلك ، بأن شبه من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب »[1] .

والمثل : يطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه لمورده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٠ .

وقوله ﴿ مثلا ﴾ انتصب على أنه مفعول به لضرب ، وقوله ﴿ كلمة ﴾ بدل منه أو عطف بيان .

والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة الإسلام ، وما يترتب عليها من عمل صالح ، وقول طيب .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والمراد بالشجرة الطيبة - المشبه بها - النخلة عند الأكثرين وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد ..

وأخرج عبدالرزاق والترمذى وغيرهما عن شعيب بن الحجاب قال : كنا عند أنس ، فأتينا بطيق عليه رطب ، فقال أنس لأبى العالية : كل يا أبا العالية ، فإن هذا من الشجرة التى ذكرها الله - تعالى - فى كتابه ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... ﴾ .

وأخرج الترمذى -أيضا - والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس قال : أتى رسول الله - ﷺ - بقناع من بسر - أى بطبق من تمر لم ينضج بعد فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة .. قال : هى النخلة» .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند .

وأخرج ابن حرير وابن ابى حاتم أنها شجرة فى الجنة ، وقيل كل شجرة مثمرة كالنخلة ، وكشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك ثم قال :

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل ما فيه على التمثيل لا ينبغى العدول عنه »[1] .

وكأن الإمام الآلوسى بهذا القول يريد أن يرجح أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة ، لتصريح الآثار بذلك .

وقد رجح ابن جرير - أيضا - أن المراد بها النخلة فقال ما ملخصه : « واختلفوا فى المراد بالشجرة الطيبة ، فقال بعضهم : هى النخلة .. وقال آخرون : هى شجرة فى الجنة ..

وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال هى النخلة ، لصحة الخبر عن رسول الله - ﷺ - فى ذلك ..»[2] .

والمعنى : ألم تر - أيها المخاطب - كيف اختار الله - تعالى - مثلا ، ووضعه فى موضعه اللائق به ، والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتى الإيمان والكفر ، حيث شبه - سبحانه -

---

(١) تفسر الآلوسى جـ ١٣ ص ١٩١ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٣٧ .

الكلمة الطيبة وهى كلمة الإسلام ، بالشجرة الطيبة ، أى النافعة فى جميع أحوالها ، وهى النخلة .

ثم وصف – سبحانه – هذه الشجرة بصفات حسنة فقال : ﴿ أصلها ثابت ﴾ .

أي : ضارب بعروقه فى باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان .

﴿ وفرعها ﴾ أى : أعلاها وما امتد منها من أغصان ، مشتق من الافتراع بمعنى الاعتلاء ﴿ فى السماء ﴾ أى : فى جهة السماء من حيث العلو والارتفاع ، وهذا مما يزيد الشجرة جمالا وحسن منظر .

والمراد بالأكل فى قوله – تعالى – ﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. ﴾ المأكول ، وهو الثمر الناتج عنها .

والمراد بالحين : الوقت الذى حدده الله – تعالى – للانتفاع بثمارها من غير تعيين بزمن معين من صباح أو مساء ..

قال الشوكانى ما ملخصه : « قوله ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ كل وقت ﴿بإذن ربها﴾ بإرادته ومشيئته » .

وقيل : المراد بكونها تؤتى أكلها كل حين : أى كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين .

وقيل : كل غدوة وعشية ، وقيل : كل شهر ..

وهذه الأقوال متقاربة . لأن الحين عند جمهور أهل اللغة بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره[1] .

وبهذا نرى أن الله – تعالى – قد وصف هذه الشجرة بأربع صفات ، أولها : أنها طيبة ، وثانيها : أن أصلها ثابت ، وثالثها : أن فرعها فى السماء ، ورابعها : أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها .

وهذه الأوصاف تدل على فخامة شأنها ، وجمال منظرها ، وطيب ثمرها ، ودوام نفعها كما تدل على أن المشبه وهو الكلمة الطيبة ، مطابق فى هذه الأوصاف للمشبه به وهو الشجرة الطيبة .

وقوله – سبحانه – ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ بيان للحكمة التى

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٠٦ .

من أجلها سيقت الأمثال ، وهى التذكر والتفكير والاعتبار . أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا ما أمرهم - سبحانه - بتذكره إذ ضرب الأمثال تقريب للبعيد ، وتقرير للقريب ، وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسة .

وبعد أن بين - سبحانه - مثال كلمة الإيمان ، أتبعه بمثال كلمة الكفر فقال : ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ وهى كلمة الكفر .

﴿ كشجرة خبيثة ﴾ أى قبيحة لا نفع فيها ، ولا خير يرجى منها .

﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ أى : اقتلعت جثتها وهيئتها من فوق الأرض ، لقرب عروقها وجذورها من سطحها .

يقال : اجتثثت الشىء اجتثاثا ، إذا اقتلعته واستأصلته ، وهو افتعال من لفظ الجثة وهى ذات الشىء .

وقوله : ﴿ ما لها من قرار ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن اجتثاث الشىء بسهولة ، سببه عدم وجود أصل له .

أى : ليس لها استقرار وثبات على الأرض ، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شىء .

والمراد بهذه الشجرة الخبيثة : شجرة الحنظل فعن أنس بن مالك أن النبى - ﷺ - قال : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى الحنظلة... »[1] .

وقيل : شجرة الثوم ، وقيل : شجرة الشوك ... وقيل كل شجر لا يطيب له ثمر ، وفى رواية عن ابن عباس أنها شجرة لم تخلق على الارض ..

وقال : ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .

وقوله سبحانه - : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ بيان لفضل الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين ، ولحسن عاقبتهم ..

والمراد بالحياة الدنيا : مدة حياتهم فى هذه الدنيا .

والمراد بالآخرة : ما يشمل سؤالهم فى القبر وسؤالهم فى مواقف القيامة .

والمعنى : يثبت الله - تعالى - الذين آمنوا بالقول الثابت أى : الصادق الذى لاشك فيه ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٣ .

فى الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب .

ويثبتهم أيضاً بعد مماتهم ، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم فى القبر وعند سؤالهم فى مواقف يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله - تعالى - ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ أى : الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة .. « فى الحياة الدنيا » أى يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم ، فلا يزالون عند الفتنة .. « وفى الآخرة » أى بعد الموت وذلك فى القبر الذى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفى مواقف القيامة ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك ، ولا تدهشهم الأهوال .. » [1] .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث التى وردت فى سؤال القبر ، منها قوله : قال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرنى علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله - ﷺ - قال : « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » [2] .

وقوله : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ بيان لسوء عاقبة أصحاب المثل الثانى وهم الكافرون .

أى : ويخلق فيهم الضلال عن الحق بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان .

﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ فعله ، عن تثبيت من يريد تثبيته ، وإضلال من يريد إضلاله ، حسبما تقتضيه إرادته وحكمته ، لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الجاحدين الذين قابلوا نعم الله بالكنود والجحود ، وأمر المؤمنين بأداء ما كلفهم به - سبحانه - من عبادات وقربات ، وساق لهم ألوانا من الآلاء التى تفضل بها على عباده ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٩٤ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ من ص ٤١٣ إلى ص ٤٢٦ طبعة دار الشعب .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا .. ﴾ الخطاب فيه للنبى - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب .

والاستفهام للتعجيب من أحوالهم الذميمة .

وبدلوا من التبديل بمعنى التغيير والتحويل ، والمراد به : وضع الشىء فى غير وضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر .

ونعمة الله التى بدلوها ، تشمل كفرهم بالرسول - ﷺ - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما تشمل إكرام الله لهم - أى أهل مكة - بأن جعلهم فى

حرم آمن ، وجعلهم سدنة بيته .. ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم ، بل أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « قوله : ﴿ بدلوا نعمة الله ﴾ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا .

وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد - ﷺ - فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وكذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر ، قد ذهبت النعمة عنهم ، وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم .. »[١] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « قال البخارى قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا .. ﴾ حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، سمع ابن عباس قال : هم كفار أهل مكة .

ثم قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح . وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله - تعالى - بعث محمدا - ﷺ - رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ؛ فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار .. »[٢] .

وما ذهب إليه صاحب الكشاف وابن كثير - رحمهما الله - هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأن مشركى مكة ومن سار على شاكلتهم تنطبق عليهم هذه الآية الكريمة .

وقد أورد بعض المفسرين هنا روايات فى أن المراد بهؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، بنو أمية وبنو مخزوم .. ولكن هذه الروايات بعيدة عن الصواب ، ولاسند لها من النقل الصحيح »[٣] .

وقوله ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ معطوف على « بدلوا » لبيان رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة والمراد بقومهم : أتباعهم وشركاؤهم فى الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك .

والبوار : الهلاك والخسران ، ويطلق أيضا على الكساد . يقال : بار المتاع بوارا ، إذا كسد ، إذ الكاسد فى حكم الهالك .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٦ .
(٣) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٤٦ .

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - إلى حال هؤلاء المشركين ، الذين قابلوا نعم الله عليهم بالكفر والجحود ، وكانوا سببا فى إنزال قومهم دار الهلاك والخسران .

وقوله - سبحانه - ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ بيان لدار بوارهم وهلاكهم أى : جهنم يصلون حرها وسعيرها ، وبئس القرار قرارهم فيها .

فقوله « جهنم » عطف بيان لدار البوار ، وقوله « يصلونها » فى محل نصب حال من « جهنم » يقال : صلى فلان النار - من باب تعب - إذا ذاق حرها ، وتقول : صليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته .

والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس القرار هى أى : جهنم .

وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار .

ثم بين - سبحانه - لونا ثالثا من ألوان أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الباطلة فقال ﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله .. ﴾ .

والأنداد : جمع ند وهو مثل الشىء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه .

وأصله من ند البعير يند - بكسر النون - ندا - بالفتح - إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .

وقوله « ليضلوا » قرأ الجمهور - بضم الياء - من أضل غيره إذا جعله ضالا .

أى : أن هؤلاء الخاسرين لم يكتفوا بمقابلة نعمة الله بالجحود ، وإحلال قومهم دار البوار ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم جعلوا لله - تعالى - أمثالا ونظراء ، ليصرفوا غيرهم عن الطريق الحق ، والصراط المستقيم ، الذى هو إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ليضلوا » - بفتح الياء - أى : ليستمروا فى ضلالهم ، فإنهم حين جعلهم الأنداد لله - تعالى - كانوا ضالين ، وجهلوا ذلك فاستمروا فى ضلالهم توهما منهم أنهم على صواب .

قال صاحب الكشاف : قرىء « ليضلوا » بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد فما معنى اللام ؟

قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك ، جئتك لتكرمنى نتيجة المجىء ، دخلته اللام ، وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٨ .

وقوله - سبحانه - ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أمر منه - عز وجل - لنبيه - ﷺ - بأن يهددهم بهذا المصير الأليم .

والتمتع بالشيء : الانتفاع به مع التلذذ والميل إليه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الخاسرين ، تمتعوا بما شئتم التمتع به من شهوات ولذائذ ، فإن مصيركم إلى النار لا محالة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله « قل تمتعوا » بما أنتم فيه من الشهوات ، وبما زينته لكم أنفسكم من كفران للنعم « فإن مصيركم إلى النار » أى : مرجعكم إليها ليس إلا .

ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه لا يقلعون عنه . جعل - سبحانه - الأمر بمباشرته مكان النهى عن قربانه ، إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار .

فجعله « فإن مصيركم إلى النار » تعليل للأمر بالتمتع ،وفيه من التهديد مالا يقادر قدره .

ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه السياق كأنه قيل : قل تمتعوا فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار .

والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل ، وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : اصنع ماشئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[3] .

وقوله - تعالى - ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[4] .

وبعد هذا الأمر من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بتهديد الكافرين ، وجه - سبحانه - أمرا آخر له - ﷺ - طلب منه فيه ، مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار فى التزود من العمل الصالح فقال - تعالى - : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٠٩ .
(٢) سورة الزمر الآية ٨ .
(٣) سورة لقمان الآية ٢٤ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ .

قال الجمل : « قوله « قل لعبادى ... إلخ » مفعول قل محذوف يدل عليه جوابه ، أى : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا - وقوله: يقيموا وينفقوا مجزومان فى جواب الأمر ، أى : إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا .. يقيموا وينفقوا .

ويجوز أن يكون قوله « يقيموا وينفقوا » مجزومين بلام الأمر المقدرة .

أى : ليقيموا الصلاة ولينفقوا ... » [1] .

والمراد بإقامة الصلاة : المواظبة على أدائها فى أوقاتها المحددة لها ، مع استيفائها لأركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ومع إخلاص النية عند أدائها لله - تعالى - .

والمراد بالإنفاق : ما يشمل جميع وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة .

والمراد بقوله « سرا وعلانية » ما يتناول عموم الأحوال فى الحرص على بذل المال فى وجوهه المشروعة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المخلصين ، الذين آمنوا إيمانا حقا ، قل لهم : ليستزيدوا من المواظبة على أداء الصلاة ، وعلى الإنفاق مما رزقناهم فى جميع الأحوال ، بأن يجعلوا نفقتهم فى السر إذا كانت آداب الدين وتعاليمه تقتضى ذلك ، وأن يجعلوها فى العلن إذا كانت المنفعة فى ذلك .

والإضافة فى قوله « لعبادى » للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد المخلصين .

ولم تعطف هذه الآية الكريمة على ما قبلها وهو قوله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ للإيذان بتباين حال الفريقين ، واختلاف شأنهما .

ومفعول « ينفقوا » محذوف والتقدير ينفقوا شيئا مما رزقناهم .

وعبر - سبحانه - بمن المفيدة للتبعيض فى قوله ﴿ مما رزقناهم ﴾ للاشعار بأنهم قوم عقلاء يبتعدون فى إنفاقهم عن الإسراف والتبذير ، عملا بقوله - تعالى - : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ [2] .

وهذا التعبير - أيضا - يشعر بأن هذا المال الذى بين أيدى عباده - سبحانه - ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر ، بأن ينفقوا جزءا منها فى وجوه الخير .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٥ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧ .

وقوله ﴿ سرا وعلانية ﴾ منصوبان على الحال أى : مسرين ومعلنين ، أو على المصدر أى : إنفاق سر وإنفاق علانية .

وقدم - سبحانه - إنفاق السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين فى معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء ، ولأنه استر للمتصدق عليه .

وقوله - سبحانه - ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله من الأمر بإقامة الصلاة وبالإنفاق فى وجوه الخير بدون تردد أو إبطاء .

ولفظ « خلال » مصدر خاللت بمعنى صاحبت وصادقت ، أو جمع خليل بمعنى صديق ، أو جمع خلة بمعنى الصداقة كقلة وقلال .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - بأن من الواجب عليهم أن يكثروا ويداوموا على إقامة الصلاة وعلى الإنفاق مما رزقهم - سبحانه - ، من قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لا تقبل فيه المعاوضات ، ولا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه ، وإنما الذى يقبل وينفع فى هذا اليوم هو العمل الصالح الذى قدمه المسلم فى دنياه .

فالجملة الكريمة تفيد حضا آخر على إقام الصلاة وعلى الإنفاق عن طريق التذكير للناس بهذا اليوم الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات .

كما تفيد أن المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين ، من أعظم القربات التى يتقرب بها المسلم إلى خالقه - سبحانه - والتى تكون سببا فى رفع الدرجات يوم القيامة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه التى تستوجب شكره وطاعته وإخلاص العبادة له والتى تدل على كمال قدرته وعلمه ووحدانيته فقال - تعالى - ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض .. ﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى أوجد السموات والأرض وما فيهما من أجرام علوية وسفلية بدون مثال سابق .

وافتتحت الآية الكريمة بلفظ الجلالة ، لما فى ذلك من تربية المهابة ، ومن لفت أنظار

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٤ .

المشركين إلى ما هم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه .

وجاء الخبر بصيغة الموصول ، لأن الصلة معلومة الثبوت له - سبحانه - والمشركون لا ينازعون فى ذلك ، كما قال - تعالى - ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . ﴾ .

وقوله ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم .. ﴾ بيان للون آخر من ألوان نعمه على خلقه .

والمراد بالسماء هنا : السحاب ، أو جهة العلو .

أى : وأنزل - سبحانه - من المزن أو السحاب « ماء » كثيرا هو المطر ، « فأخرج به » أى بذلك الماء « من الثمرات » المتعددة الأنواع والأصناف « رزقا لكم » تنتفعون به ، وتتمتعون بجمال منظره وطيب مطعمه .

ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من نعمه فقال : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ﴾ .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتطويع والقدرة على التصرف فى الشىء والانتفاع به .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل لفظه فى الواحد والجمع ، والظاهر أن المراد به هنا الجمع لقوله - سبحانه - « لتجرى » بتاء التأنيث .

أى : « وسخر لكم » - سبحانه - السفن الضخمة العظيمة ، بأن ألهمكم صنعها ، وأقدركم على استعمالها « لتجرى فى البحر » إلى حيث تريدون « بأمره » وإذنه ومشيئته ، لا بإذنكم ومشيئتكم ، إذ لو شاء - سبحانه - لقلبها بكم .

« وسخر لكم الأنهار » بأن جعلها معدة لا نتفاعكم ، إذ منها تشربون ، ومنها تسقون دوابكم وزروعكم ، وعليها تسيرون بسفنكم إلى حيث تريدون .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أى : دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرهما أو دائمين فى مدارهما المقدر لهما بدون اضطراب أو اختلال . ولا يفتران عن ذلك ما دامت الدنيا .

وأصل الدأب : الدوام والعادة المستمرة على حالة واحدة . يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأبا ، إذا داوم عليه وجد فيه .

و « وسخر لكم الليل والنهار » بأن جعلهما متعاقبين ، يأتى أحدهما فى أعقاب الآخر ، فتنتفعون بكل منهما بما يصلح أحوالكم .

فالليل تنتفعون به فى راحتكم ومنامكم .. والنهار تنتفعون به فى معاشكم وطلب رزقكم قال - تعالى - ﴿ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه .. ﴾ .

أى : وأعطاكم - فضلا عما تقدم من النعم - بعضا من جميع ما سألتموه إياه من نعم ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته التى لا تعلمونها كما قال - تعالى - ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير ﴾ [1] .

قال الجمل ما ملخصه « قوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أى : كل نوع أو كل صنف سألتموه أى : شأنكم أن تسألوه لاحتياجكم إليه ، وإن لم تسألوه بالفعل .

وفى « من » قولان : أحدهما أنها زائدة فى المفعول الثانى ، أى : آتاكم كل ما سألتموه .

والثانى أن تكون تبعيضية أى : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه وعلى هذا فالمفعول محذوف تقديره : وآتاكم شيئا من كل ما سألتموه ، وهو رأى سيبويه .. » [2] .

وجملة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مؤكدة لمضمون ما قبلها .

أى : وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم ، وتحاولوا تحديد هذا العدد ، لن تستطيعوا ذلك لكثرة هذه النعم ، وخفاء بعضه عليكم .

والإحصاء : ضبط العدد وتحديده ، مأخوذ من الحصا وهو صغار الحجارة لأن العرب كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للخطأ .

قال ابن كثير : « يخبر - سبحانه - عن عجز العباد من تعداد نعمه فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب - رحمه الله - : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من يحصيها العباد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « لك الحمد غير مكفى - أى لم يكفه غيره بل هو - سبحانه - يكفى غيره - ولا مودع - أى متروك حمده - ،

---

(١) سورة الشورى آية ٢٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٦ .

ولا مستغنى عنه ربنا - أى هو الذى يحتاج إليه الخلق .. »[١] .

والمراد بالإنسان فى قوله ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ نوع معين منه وهو الكافر كما فى قوله - تعالى - ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ .

أى : إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله - تعالى - ، ولشديد الجحود والكفران لنعمه - عز وجل .

ويرى بعضهم أن المراد بالإنسان هنا الجنس .

قال الشوكانى : قوله - سبحانه - : ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ أى لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان . وقال الزجاج : إن الإنسان هنا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ﴾ « كفار » أى : شديد كفران نعم الله عليه ، جاحد لها ، غير شاكر لله عليها كما ينبغى ويجب عليه »[٢] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ابتدأت ببيان سوء عاقبة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وثنت بأمر النبى - ﷺ - بأن يحض المؤمنين الصادقين على الاستزادة من إقامة الصلاة ومن الانفاق فى سبيل الله .

ثم ساقت عشر نعم تدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، وهذه النعم هى خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وتسخير الفلك فى البحار ، وتسخير الأنهار ، وتسخير الشمس والقمر دائبين ، وتسخير الليل والنهار .

ثم ختمت ببيان أنه - سبحانه - قد أعطى الناس - فضلا عن كل ذلك - جميع مايحتاجون إليه فى مصالحهم على حسب حكمته ومشيئته ولكن الناس - إلا من عصم الله - لا يقابلون نعمه - سبحانه - بما تستحقه من شكر ، لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وهى دعوات تدل على شكره لخالقه ، وحسن صلته به ، ورجائه فى فضله .. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣٠ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١١٠ .

وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

هذه بعض الدعوات التى ابتهل بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وقد تقبلها الله - تعالى - منه قبولا حسنا .

وفى هذه الدعوات تنبيه لمشركى مكة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، والذين جحدوا نعم الله عليهم ، بأن من الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يستجيبوا لدعوة الحق ، وأن يقتدوا بإبراهيم - عليه السلام - فى إيمانه وشكره لخالقه - سبحانه - .

و « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف .

و « رب » منادى بحرف نداء محذوف أى : يارب .

والمراد بالبلد : مكة المكرمة شرفها الله - تعالى - .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال إبراهيم مناديا ربه : يارب اجعل هذا البلد ذا أمن وسلام واستقرار .

وقدم إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه نعمة الأمن على غيرها - لأنها أعظم أنواع النعم ، ولأنها إذا فقدها الإنسان ، اضطرب فكره ، وصعب عليه أن يتفرغ لأمور الدين أو الدنيا بنفس مطمئنة ، وبقلب خال من المنغصات والمزعجات .

قال الإمام الرازى : « سئل بعض العلماء : الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال الأمن أفضل ، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ولا يمنعها هذا الكسر من الإقبال على الرعى والأكل والشرب .

ولو أنها ربطت - وهى سليمة - فى موضع ، وربط بالقرب منها ذئب ، فإنها تمسك عن الأكل والشرب ، وقد تستمر على ذلك إلى أن تموت .

وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد »[1] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « يذكر الله - تعالى - فى هذا المقام - محتجا على مشركى مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - بأن مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله - تعالى - وحده ، وأن إبراهيم قد تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم .. ﴾ وقال - تعالى - ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .. ﴾[2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ... ﴾[3] .

وبين قوله هنا ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا .. ﴾ ؟ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ١٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣١ .

(٣) الآية ١٢٦ .

قلت : قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون ، وسأل فى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا .. » [1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ حكاية لدعوة أخرى من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه - سبحانه - .

وقوله « واجنبنى » بمعنى وأبعدنى مأخوذ من قولك جنبت فلانا عن كذا ، إذا أبعدته عنه ، وجعلته فى جانب آخر ، وفعله جنب من باب نصر .

والمراد ببنيه : أولاده من صلبه ، أوهم من تناسل معهم .

والأصنام جمع صنم ، وهو التمثال الذى كان مشركو العرب يصنعونه من الحجر ونحوه لكى يعبدوه من دون الله .

والمعنى : أسألك ياربى أن تجعل مكة بلدا آمنا ، كما أسألك أن تعصمنى وتعصم ذريتى من بعدى من عبادة الأصنام ، وأن تجعل عبادتنا خالصة لوجهك الكريم .

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى ، أنه قد أجابه فى بعض ذريته دون بعض .

ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس .. ﴾ تعليل لسؤال إبراهيم ربه أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .

أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وبنىّ عن عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ، وعن الهداية إلى الصراط المستقيم .

وأسند الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس ، فكأنها أضلتهم، فنسبة الإضلال إليها مجازية من باب نسبة الشىء إلى سببه ، كما يقال : فلان فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن وضل بسببها .

وقوله - سبحانه - ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ بيان لموقفه - عليه السلام - من المهتدين والضالين .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٩ .
(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٩ - ١١٣ .

أى : فمن تبعنى من الناس فى دينى وعقيدتى ، فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ، فإنى أفوض أمره إليك ، فأنت - سبحانك - لاتسأل عما تفعل وغيرك يسأل .

فالجملة الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالى ، الذى كان يتحلى به إبراهيم - عليه السلام - فى مخاطبته لربه - عز وجل - حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيها برأى ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم .

وشبيه بهذه الآية ما حكاه - سبحانه - عن عيسى - عليه السلام - فى قوله : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [(١)] .

هذا ، ولا نرى وجها لما ذهب إليه بعض المفسرين ، من أن قول إبراهيم - عليه السلام - « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » كان قبل أن يعلم بأن الله لا يغفر الشرك ، أو أن المراد بالمعصية هنا مادون الشرك ، أو أن المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك .. » [(٢)] .

نقول : لا نرى وجها لكل ذلك ، لأن الجملة الكريمة ليس المقصود بها الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله - تعالى - إن شاء غفر لهم ورحمهم ، وإن شاء عذبهم .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الأدعية التى تضرع بها إبراهيم إليه - تعالى - فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة .. ﴾ .

و « من » فى قوله « من ذريتى » للتبعيض .

والوادى : هو المكان المنخفض بين مرتفعات ، والمقصود به وادى مكة المكرمة .

والمعنى : ياربنا إنى أسكنت بعض ذريتى وهو ابنى إسماعيل ومن سيولد له ، بواد غير ذى زرع قريبا من بيتك المحرم ، أى : الذى حرمت التعرض له بسوء توقيرا وتعظيما ، والذى جعلته مثابة للناس وأمنا ، وفضلته على غيره من الأماكن .

وقوله ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ بيان للباعث الذى دفعه لإسكان بعض ذريته فى هذا المكان الطيب .

---

(١) سورة المائدة اية ١١٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢١١ .

أى : يا ربنا إنى أسكنتهم ، هذا المكان ليتفرغوا لإقامة الصلاة فى جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك .

فاللام فى قوله « ليقيموا » للتعليل وهى متعلقة بأسكنت .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لمزيد فضلها ، ولكمال العناية بشأنها .

قال القرطبى : « تضمنت هذه الآية ان الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ، لأن معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى : أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه .

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى - ﷺ - ؟

فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول - ﷺ - بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - ﷺ - : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » .

وقد روى عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - حديث ابن الزبير » [1] .

وقوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت الحرام للتقرب إلى الله - تعالى - ، وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع السكان المجاورين لهذا البيت المعمور .

والأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب والنفوس .

والمراد بالناس فى قوله « من الناس » المؤمنون منهم ، لأنهم هم الذين يذهبون إلى البيت الحرام ، ليشهدوا منافع لهم ، وليتقربوا إليه - سبحانه - بحج بيته .

وتهوى إليهم : أى تسرع إليهم ، يقال : هوى - بفتح الواو - يهوى - بكسرها - إذا أسرع فى السير ، ومنه قولهم : هوت الناقة تهوى هويا ، إذا عدت عدوا شديدا .

والأصل فيه أن يتعدى باللام ، وعدى هنا بإلى لتضمنه معنى تميل وتسرع .

أى : ياربنا إنى تركت بعض ذريتى فى جوار بيتك ، فأسألك يا إلهى أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم وديعة فى جوار بيتك من

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٧١ .

الثمرات المختلفة ما يغنيهم لعلهم بهذا العطاء الجزيل يزدادون شكرا لك ، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .

وقال - سبحانه - ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ولم يقل فاجعل الناس تهوى إليهم ، للإشارة إلى أن سعى الناس إليهم يكون عن شوق ومحبة حتى لكأن المسرع إلى هذا الجوار الطيب هو القلب والروح وليس الجسد وحده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « وقد أجاب الله - تعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام - فجعل البيت الحرام حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه ، ثم فضله فى وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفى أى بلد من الشرق والغرب ، ترى الأعجوبة التى يريكها الله بواد غير ذى زرع - وهى اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، وليس ذلك من آياته عجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم ، وزرقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم »[1] .

هذا ، وقد ساق الإمام الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته فى هذا المكان فقال ما ملخصه : « وهذا الإسكان إنما كان بعد أن حدث ما حدث بين إبراهيم وبين زوجه سارة ، وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها - لإبراهيم عليه السلام - فتزوجها فولدت له إسماعيل . فدبت الغيرة فى قلب سارة ولم تصبر على بقائها معها فأخرج إبراهيم - عليه السلام - هاجر وابنها إلى أرض مكة ، فوضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر ، فقالت له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس .

قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم - عليه السلام - حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت - وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية - ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع .. ﴾ الآية .

ثم إنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما فى السقاء حتى إذا نفد ما فى السقاء ، عطشت

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٨١ .

وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلبط - أى يتلوى ويتمرغ - من شدة العطش ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا . فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ولذلك سعى الناس بينهما سبعا .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا صوتا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتغرف منه فى سقائها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله - تعالى - يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله - تعالى - لن يضيع أهله .

ثم إنه مرت بها رُفقة من جرهم ، فرأوا طائراً عائفا - أى يتردد على الماء ولا يمضى - فقالوا : لا طير إلا على الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء ، فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده ، فقالوا : أشركينا فى مائك نشركك فى ألباننا ، ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل - عليه السلام - زوجوه امرأة منهم »[1] .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ .

أى : ياربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار ؛ وما تعلنه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شىء من الأشياء ، سواء أكان هذا الشىء فى الأرض أم فى السماء أم فى غيرهما .

وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس ، وإلا فعلمه - سبحانه - محيط بكل مافى هذا الكون .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - فى مقام شكره لله على نعمه فقال - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ٢١٢ وراجع صحيح البخارى تجد فيه حديثا طويلا فى هذا الموضوع .

والحمد هو الثناء باللسان على من صدرت منه النعمة ، وأل فيه للاستغراق أى : جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه - سبحانه - إذ هو الخالق لكل شىء .

وعلى فى قوله « على الكبر » للاستعلاء المجازى وهى بمعنى مع . أى : وهب لى مع الكبر الذى لا تحصل معه فى الغالب ولادة .

وإسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم ، وقد رزقه الله به من زوجه هاجر كما سبق أن أشرنا - ، أما إسحاق فكان أصغر من إسماعيل ، وقد رزقه الله به من زوجه ساره .

قال الفخر الرازى : « اعلم أن القرآن يدل على أنه - تعالى - إنما أعطى إبراهيم - عليه السلام - هذين الولدين على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن . وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة واثنتى عشرة سنة .

وإنما ذكر قوله « على الكبر لأن المنة بهبة الولد فى هذا السن أعظم ، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة فى وقت اليأس من أعظم النعم ، ولأن الولادة فى هذه السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم »[1] .

وجملة « إن ربى لسميع الدعاء » تعليل لجملة « وهب لى على الكبر » أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه - سبحانه - سمع دعائى وتقبله ، وأجاب طلبى دون أن يخيبنى .

فالسميع هنا مستعمل على سبيل المجاز فى إجابة المطلوب ، ومنه قول القائل : سمع الملك كلام فلان ، إذا اعتد به وقبله وعمل بمقتضاه . وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول . أى : إن ربى يسمع دعائى ويجيبه .

ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه ، بما حكاه الله عنه فى قوله : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

أى : يارب اجعلنى من عبادك الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، واجعل من ذريتى من يقتدى بى فى ذلك ، كما أسألك يارب أن تتقبل دعائى ولا تخيبنى فى مطلوب أسألك إياه .

كما أسألك - يا إلهى - أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالدى وللمؤمنين ، يوم يقوم الناس

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٣٨ .

للحساب ، فتجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وإنما طلب إبراهيم لوالديه المغفرة ، قبل أن يتبين له أن والده عدو لله . فلما تبين له ذلك تبرأ منه . قال - تعالى - ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾[1] .

أما أمه فقال بعضهم : إنها كانت مؤمنة ، وقال آخرون : لعلها توفيت قبل نبوته .

وبعد أن حكى - سبحانه - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، والتى تضمنت أمهات الفضائل ، كسلامة القلب ، وطهارة النفس ، ورقة العاطفة ، وحسن المراقبة ، وحب الخير لغيره .

بعد كل ذلك حكى - سبحانه - أحوال الظالمين يوم القيامة ، وأقوالهم فى ذلك اليوم الشديد ، ورده - تعالى - عليهم ، والأسباب التى أدت إلى خسرانهم .. فقال - تعالى - :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ
هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٤ .

مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

قال الإمام القرطبى : « قوله - تعالى - ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ... ﴾ هذا تسلية للنبى - ﷺ - بعد أن عجبه من أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى : اصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم . وتعزية للمظلوم » [1] .

والخطاب فى « ولا تحسبن » ، يجوز أن يكون للنبى - ﷺ - لقصد زيادة تثبيته على الحق ، ودوامه على ذلك ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح للخطاب .

والغفلة : سهو يعترى الإنسان بسبب قلة تيقظه وانتباهه ، ولاشك أن ذلك محال فى حق الله - تعالى - ، لذا وجب حمل المعنى على أن المراد بالغفلة هنا : ترك عقاب المجرمين .

والمراد بالظالمين : كل من انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا طريق الباطل ، ويدخل فيهم دخولا أوليا مشركو مكة ، الذين أبوا الدخول فى الإسلام الذى جاءهم به النبى - ﷺ - .

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢٧٦ .

وقوله ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ استئناف وقع تعليلا للنهى السابق .

وقوله « تشخص » من الشخوص بمعنى رفع البصر بدون تحرك يقال شخص بصر فلان - من باب خضع - فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف من شدة الخوف والفزع .

والمعنى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم - أن الله تعالى - تارك عقاب هؤلاء الظالمين ، الذين كذبوك فى دعوتك ، كلا لن يترك الله - تعالى - عقابهم ، وإنما يؤخره ليوم هائل شديد ، هو يوم القيامة الذى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، فلا تطرف أجفانهم من هول ما يرونه .

ثم بين - سبحانه - بعض أحوال هؤلاء الظالمين فى هذا اليوم العظيم فقال - تعالى - : ﴿ مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء ﴾ .

والإهطاع السير السريع . يقال : أهطع فلان فى مشيه فهو يهطع إهطاعا إذا أسرع فى سيره بذلة واضطراب .

و « مقنعى رؤوسهم » أى رافعيها ، يقال : أهطع فلان رأسه ، إذا نصبه ورفعه دون أن يلتفت يمينا أو شمالا . وقيل ، إقناع الرءوس طأطأتها وانتكاسها .

الأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين يخرجون من قبورهم فى هذا اليوم مسرعين إلى الداعى بذلة واستكانة ، كإسراع الأسير الخائف ، رافعى رءوسهم إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء .

« لا يرتد إليهم طرفهم » أى : لا تتحرك أجفان عيونهم ، بل تبقى مفتوحة بدون حراك لهول ما يشاهدونه فى هذا اليوم العصيب .

« وأفئدتهم هواء » أى : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، بحيث لا تعى شيئا من شدة الفزع والدهشة ، ومنه قولهم فى شأن الأحمق والجبان قلبهما هواء ، أى لا رأى فيه ولا قوه .

وأفرد هواء وإن كان خبرا عن جمع لأنه فى معنى فارغة أو خالية .

قال - تعالى - ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا .. ﴾ أى خاليا من كل شىء إلا من التفكير فى شأن مصير ابنها موسى - عليه السلام - .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الظالمين فى هاتين الآيتين بجملة من الصفات الدالة على فزعهم وحيرتهم .

وصفهم أولا بشخوص الأبصار ، ووصفهم ثانيا بالإسراع إلى الداعى فى ذلة وانكسار ،

ووصفهم ثالثا برفع رءوسهم فى حيرة واضطراب ، ووصفهم رابعا : بانفتاح عيونهم دون أن تطرف من شدة الوجل ، ووصفهم خامسا بخلو قلوبهم من إدراك أى شىء بسبب ما اعتراهم من دهشة ورعب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ من باب التشبيه البليغ الذى حذفت فيه الأداة ، والتقدير : وقلوبهم كالهواء فى الخلو من الإدراك من شدة الهول .

ثم أمر الله تعالى - رسوله - ﷺ - أن يحذر الناس من أهوال هذا اليوم ، وأن يقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم فقال - تعالى - ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .. ﴾ .

والإنذار : التخويف من ارتكاب شىء تسوء عاقبته .

والمراد بالناس : جميعهم ، وقيل المراد بهم الكفار . ويبدو أن الأول أرجح لأن الإنذار يكون للمؤمن كما يكون للكافر ، إلا أن المؤمن يستجيب للنصح فينجو من العقاب ، والكافر لا يستجيب فيحل عليه العذاب .

والمعنى : وخوف - أيها الرسول الكريم - الناس من أهوال يوم القيامة ، ومرهم بأن يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، من قبل أن يحل عذابه بالظالمين منهم فيقولون : ياربنا أعدنا إلى الحياة مرة أخرى ، وأخر أعمارنا وحسابنا إلى وقت قريب ، حتى نستطيع فيه أن نستجيب لدعوتك التى تأمرنا بإخلاص العبادة لك ، وأن نتبع رسلك فى كل ما أمرونا به ونتدارك مافرطنا فيه من أعمال الدنيا .

قال الجمل : « وقوله : « يوم يأتيهم العذاب ... » مفعول ثان لأنذر على حذف المضاف ، أى : أنذرهم أهواله وعظائمه ، فهو مفعول به لا مفعول فيه ، إذ لا إنذار فى ذلك اليوم ، وإنما الإنذار يقع فى الدنيا .. » [1] .

وإنما اقتصر - سبحانه - على ذكر إتيان العذاب فى هذا اليوم . مع كون الثواب يحصل فيه - أيضا - لأن المقام مقام تهديد وزجر ، فكان من المناسب ذكر أهواله وشدائده .

وجمع لفظ الرسل فقال : « نجب دعوتك ونتبع الرسل » للإشارة إلى أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وهى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٣٢ .

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة ومنها قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٢) .

وجملة « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » مقول لقول محذوف .

والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد به هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين عندما يقولون ياربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .

يقال لهم من قبل الله والملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيت : أو لم تكونوا - أيها الظالمون - تقسمون بالأيمان المغلظة فى الدنيا ، بأنكم بعد موتكم ستبقون فى قبوركم إلى أن تبلى أجسادكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

قال - تعالى - ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ (٣) .

فالجملة الكريمة تحكى رفض مطالبهم بأبلغ أسلوب ، حتى يزدادوا حزنا على حزنهم ، وحسرة على حسرتهم .

وجملة « مالكم من زوال » جواب القسم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ... ﴾ معطوف على « أقسمتم .. » .

والمراد بالسكنى : الحلول فى أماكن الظالمين لوقت يكفى للاتعاظ والاعتبار وكفار قريش كانوا يمرون بديار قوم ثمود فى رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحطون رحالهم هناك ، كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد فى رحلتهم إلى اليمن .

والمعنى : لقد أقسمتم - أيها الضالون - بأنكم مالكم من انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وحللتم فى مساكن القوم الظالمين .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ - ١٠٠ .
(٢) سورة السجدة آية ١٢ .
(٣) سورة النحل آية ٣٨ .

« وتبين لكم » عن طريق المشاهدة وتواتر الأخبار .

« كيف فعلنا بهم » من الإهلاك والتدمير بسبب كفرهم وفسوقهم .

« وضربنا لكم الأمثال » بما فعلوه وبما فعلناه بهم ، عن طريق كتابنا ، وعلى لسان رسولنا محمد - ﷺ - .

وكان من الواجب عليكم بعد كل ذلك أن تعتبروا وتتعظوا وتثوبوا إلى رشدكم ، وتدخلوا فى الإسلام ، ولكنكم كنتم قوما فاسقين ، سائرين على نهج هؤلاء المهلكين فى الكفر والفجور ، فاليوم ذوقوا العذاب بسبب جحودكم للحق فى الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « أى : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم . قال - تعالى - ﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من ألوان عراقتهم فى الكفر والجحود فقال : ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ﴾ .

والمكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضماره ، مع إظهار ما يخالف ذلك . وانتصب « مكرهم » الأول على أنه مفعول مطلق لمكروا ، لبيان النوع ، والإضافة فيه من إضافة المصدر لفاعله .

أى : أن هؤلاء الظالمين جاءتهم العبر فلم يعتبروا ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا بالرسول - ﷺ - مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، والذى كان من مظاهره محاولتهم قتل الرسول - ﷺ - .

وقوله ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى : وفى علم الله - تعالى - الذى لا يغيب عنه شىء مكرهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقونه من عذاب مهين .

وقوله - تعالى - ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ قرأ الجمهور « لتزول » - بكسر اللام على أنها لام الجحود والفعل منصوب بعدها . بأن مضمرة وجوبا ، و « إن » فى قوله ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ نافية بمعنى ما .

والمعنى : ولقد مكر هؤلاء الكافرون مكرهم الشديد الذى اشتهروا به ، وفى علم الله - تعالى - مكرهم ، وما كان مكرهم - مهما عظم واشتد - لتنتقل منه الجبال من أماكنها ، لأنه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٣٤ .

لم يتجاوز مكر أمثالهم ممن دمرناهم تدميرا .

وعلى هذه القراءة يكون المقصود بهذه الجملة الكريمة ، الاستخفاف بهم وبمكرهم ، وبيان أن ما يضمرونه من سوء ليس خافيا على الله - تعالى - ولن يزلزل المؤمنين فى عقيدتهم ، لأن إيمانهم كالجبال الرواسى فى ثباته ورسوخه .

وقرأ « الكسائى » « لتزول » - بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها - و « إن » مخففة من الثقيلة .

فيكون المعنى : وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم ، وإن مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها ، لو كان لها أن تزول أو تنقلع .

وعلى هذه القراءة يكون المراد بهذه الجملة الكريمة التعظيم والتهويل من شأن مكرهم ، وأنه أمر شنيع أو شديد فى بابه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض . وتخر الجبال هدًّا .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله .. ﴾ تفريع على ما تقدم من قوله - تعالى - ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون .. ﴾ وتأكيد لتسلية الرسول - ﷺ - ولتثبيت يقينه .

وقوله « مخلف » اسم فاعل من الإخلاف ، بمعنى عدم الوفاء بالوعد وهو مفعول ثان لتحسب والمراد بالوعد هنا : ما وعد الله - تعالى - به أنبياءه ورسله من نصره إياهم ، ومن جعل العاقبة لهم .

قال - تعالى - ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا . ويوم يقوم الأشهاد ﴾[2] .

وقال - تعالى - ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[3] .

والمعنى : لقد وعدناك - أيها الرسول الكريم - بعذاب الظالمين ، وأخبرناك بجانب من العذاب الذى سيحل بهم يوم القيامة ، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك ، وثق بأن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثانى

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٠ .
(٢) سورة غافر الآية ٥١ .
(٣) سورة المجادلة الآية ٢١ .

لمخلف - وهو : وعده - على المفعول الأول - وهو رسله - ؟

قلت : قدم الوعد ليعلم أنه - سبحانه - لا يخلف الوعد أصلا ، كقوله - تعالى - ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

ثم قال « رسله » ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه مع رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه .. »[1] .

ويرى صاحب الانتصاف أن تقدم المفعول الثانى هنا ، إنما هو للإيذان بالعناية به ، لأن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله - تعالى - به على ألسنة رسله ، فكان المهم فى هذه الحال تقديم ذكر الوعيد على غيره[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ تعليل للنهى عن الحسبان المذكور .

والعزيز : الغالب على كل شىء .

أى : إن الله - تعالى - غالب على كل شىء ، وذو انتقام شديد من أعدائه لأنهم تحت قدرته ، ومادام الأمر كذلك فإخلاف الوعد منتف فى حقه - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العلامات التى تدل على قرب قيام الساعة فقال - تعالى - : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

وقوله « تبدل » من التبديل بمعنى التغيير ، وهذا التغيير والتبديل لهما قد يكون فى ذواتها كما فى قوله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .. ﴾[3] .

وقد يكون فى صفاتها كقولك « بدلت الحلقة خاتما » وقد يكون فيهما معا وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال : « وقال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله - ﷺ - عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض .. ﴾ قالت : قلت : اين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط .

وفى رواية أنه - ﷺ - قال لها : « لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد من أمتى ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ .
(٢) حاشية الانتصاف على الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ .
(٣) سورة النساء الآية ٥٦ .

ذاك أن الناس - يومئذ يكونون - على جسر جهنم »[1] .

والمعنى : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر يوم يتغير هذا العالم المعهود بعالم آخر جديد ، يأتى به الله - تعالى - على حسب إرادته ومشيئته ويوم يخرج الخلائق جميعا من قبورهم ليستوفوا جزاءهم ، وليجازوا على أعمالهم . من الله - تعالى - الواحد الأحد ، الذى قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

وختمت الآية الكريمة بهذين الوصفين لله - تعالى - للرد على المشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يشركونها معه فى العبادة ، ويتوهمون أن هذه الآلهة سوف تدافع عنهم يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيحل بالمجرمين يوم القيامة من عذاب عنيف مهين يناسب إجرامهم وكفرهم فقال : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ .

وقوله « مقرنين » جمع مقرن ، وهو من جمع مع غيره فى قرن ووثاق واحد يربطان به .

والأصفاد : جمع صفد - بفتح الفاء - وهو القيد الذى يوضع فى الرجل ، أو الغل - بضم الغين - الذى تضم به اليد والرجل إلى العنق .

والسرابيل : جمع سربال وهو القميص .

والقطران : مادة حارة نتنة شديدة الاشتعال تصلى بها جلود الإبل الجربى ، ليزول الجرب منها . أى : وترى - أيها العاقل - المجرمين فى هذا اليوم العسير عليهم « مقرنين فى الأصفاد » أى : قد قرن بعضهم مع بعض ، وضم كل قرين إلى من يشبهه فى الكفر وفى الفسوق وفى العصيان ، وقد قيدوا جميعا بالأصفاد والقيود والأغلال .

قال - تعالى - ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم .. ﴾[2] .

أى : وأمثالهم من العصاة ، فعابد الصنم يكون مع عابد الصنم ، وشارب الخمر مع شارب الخمر . ويصح أن يكون اقترانهم مع الشياطين كما قال - تعالى - ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾[3] .

هذا عن مشهد المجرمين وهم مقرنون فى الأصفاد ، وهو مشهد مهين مذل ولكنه ليس كافيا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣٧ .
(٢) سورة الصافات الآية ٢٢ .
(٣) سورة مريم الآية ٦٨ .

فى عقابهم ، بل يضاف إليه أن ملابسهم من قطران ، ليجتمع لهم لذعته ، وقبح لونه ، ونتن ريحه ، وسرعة اشتعاله ، وفوق كل ذلك فإن وجوههم تعلوها وتحيط بها النار التى تستعر بأجسادهم المسربلة بالقطران .

وخص - سبحانه الوجوه بغشيان النار لها ، لكونها أعز موضع فى البدن وأشرفه .

وقوله - سبحانه - ﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت .. ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : فعل ما فعل - سبحانه - من إثابة المؤمنين ، ومعاقبة المجرمين ، ليجازى كل نفس بما تستحقه من خير أو شر ، دون أن يظلم ربك أحدا .

وقوله ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أى : إنه - سبحانه - سريع المحاسبة لعباده ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرته كالنفس الواحدة .

قال - تعالى - ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .. ﴾ [1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما أنزله الله - تعالى - من قرآن فى هذه السورة وفى غيرها . و « بلاغ » مصدر بمعنى التبليغ .

والإنذار : التخويف من سوء عاقبة ارتكاب الشرور والآثام .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شىء ، والمراد بها العقول .

أى : هذا القرآن الكريم الذى أنزلناه عليك يا محمد ، فيه التبليغ الكافى لهداية الناس ، وفيه ما يخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان ، وفيه ما يجعلهم يعلمون عن طريق توجيهاته وهداياته ودلائله ، أن الله - تعالى - واحد لا شريك له ، وفيه ما يجعل أصحاب العقول السليمة يتعظون ويعتبرون ، فيترتب على ذلك سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وخص - سبحانه - بالتذكر أولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداية القرآن الكريم ، أما غيرهم فهم كالأنعام بل هم أضل .

وقد رتب - سبحانه - فى هذه الآية الكريمة ، وسائل الدعوة إلى الحق ترتيبا عقليا حكيما ، فبدأ بالصفة العامة وهى التبليغ ، ثم ثنى بما يعقب ذلك من إنذار وتخويف ، ثم ثلث بما ينشأ عنها من العلم بوحدانية الله - تعالى - ، ثم ختم الثناء على أصحاب العقول السليمة

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٨ .

الذين ينتفعون بما يسمعون وبما يبصرون .

قال الإمام الرازى : « هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ، ولا منقبة له ، إلا بسبب عقله ، لأنه - تعالى - بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل ، لتذكير أولى الألباب ... » [1] .

وبعد : فهذه سورة إبراهيم - عليه السلام - وهذا تفسير لها .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وشفيعا لنا يوم نلقاه - تعالى - .

كما أسأله - عز وجل - أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم ، ونافعة لعباده والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة مساء الجمعة ٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٢ هـ ٢٩ من يناير سنة ١٩٨٢ م .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٥٠ .

فهرس إجمالى لتفسير سورة يونس - عليه السلام -

فهرس إجمالى لتفسير سورة هود - عليه السلام -

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٢٣	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	١٨٦
٢٤	مثل الفريقين كالأعمى	١٨٧
٢٥	ولقد أرسلنا نوحا	١٨٩
٢٦	ألا تعبدوا إلا الله	١٩٠
٢٧	فقال الملأ الذين كفروا	١٩٠
٢٨	قال يا قوم أرأيتم	١٩٢
٢٩	ويا قوم لا أسألكم	١٩٤
٣٠	ويا قوم من ينصرنى من الله	١٩٥
٣١	ولا أقول لكم عندى خزائن الله	١٩٦
٣٢	قالوا يا نوح قد جادلتنا	١٩٧
٣٣	قال إنما يأتيكم به الله	١٩٨
٣٤	ولا ينفعكم نصحى إن أردت	١٩٨
٣٥	أم يقولون افتراه	١٩٩
٣٦	وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن	٢٠٠
٣٧	واصنع الفلك بأعيننا	٢٠١
٣٨	ويصنع الفلك	٢٠٢
٣٩	فسوف تعلمون من يأتيه	٢٠٣
٤٠	حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور	٢٠٣
٤١	وقال اركبوا فيها	٢٠٧
٤٢	وهى تجرى بهم فى موج كالجبال	٢٠٨
٤٣	قال سآوى إلى جبل	٢٠٨
٤٤	وقيل يا أرض ابلعى ماءك	٢٠٩
٤٥	ونادى نوح ربه	٢١٢
٤٦	قال يا نوح إنه ليس	٢١٣
٤٧	قال رب إنى أعوذ بك	٢١٥
٤٨	قيل يا نوح اهبط	٢١٥
٤٩	تلك من أنباء الغيب	٢١٦

فهرس إجمالى لتفسير « سورة يوسف »

فهرس إجمالى لتفسير سورة الرعد

فهرس إجمالى لتفسير سورة إبراهيم

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سور

الحجر - النحل
الإسراء - الكهف

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الثامن

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

تفسير

سُورَةُ الحِجْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة الحجر

١ - سورة الحجر ، هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فقد ذكر الزركشى والسيوطى أنها نزلت بعد سورة يوسف[١] ..

وعدد آياتها تسع وتسعون آية .

٢ - وسميت بسورة الحجر ، لورود هذا اللفظ فيها دون أن يرد فى غيرها وأصحاب الحجر هم قوم صالح - عليه السلام - ، إذ كانوا ينزلون الحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان المحجور ، أى الممنوع أن يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به .

ويجوز أن يكون لفظ الحجر ، مأخوذ من الحجارة ، لأن قوم صالح - عليه السلام - كانوا ينحتون بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها ، ويبنون بناء محكما جميلاً .

قال - تعالى - حكاية عما قاله نبيهم صالح لهم - ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾[٢] ومساكنهم ما زالت آثارها باقية ، وتعرف الآن بمدائن صالح ، وهى فى طريق القادم من المدينة المنورة إلى بلاد الشام أو العكس ، وتقع ما بين خيبر وتبوك ...

وقد مر النبى - ﷺ - على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة ...

٣ - وسورة الحجر كلها مكية .

قال الشوكانى : وهى مكية بالاتفاق . وأخرج النحاس فى ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله »[٣] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه السورة أنها مكية ، دون أن يذكر فى ذلك خلافاً .

---

(١) راجع البرهان للإمام الزركشى ج ١ ص ١٩٣ والاتقان للامام السيوطى ج١ ص ٢٧ .
(٢) سورة الشعراء الآية ١٤٩
(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٢٠

وقال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير - رضى الله عنهم - أنها نزلت بمكة . وروى ذلك عن قتادة ومجاهد .

وفى مجمع البيان عن الحسن أنها مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين ﴾[١] .

والحق أن السورة كلها مكية ، وسنبين - عند تفسيرنا للآيات التى قيل بأنها مدنية - أن هذا القول ليس له دليل يعتمد عليه .

٤ - (ا) وعندما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، نراها فى مطلعها تشير إلى سمو مكانة القرآن الكريم ، وإلى سوء عاقبة الكافرين الذين عموا وصموا عن دعوة الحق ..

قال - تعالى - ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ .

(ب) ثم تخبرنا بعد ذلك بأن الله - تعالى - قد تكفل بحفظ كتابه ، وصيانته من أى تحريف أو تبديل ، وبأن المكذبين للرسول - ﷺ - إنما يكذبونه عن عناد وجحود ، لا عن نقص فى الأدلة الدالة على صدقه - ﷺ - .

قال - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ .

(جـ) ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، وعلى سابغ نعمه على عباده ...

قال - تعالى - ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجًا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾.

(د) ثم حكت السورة قصة خلق آدم - عليه السلام - ، وتكليف الملائكة بالسجود له ، وامتثالهم جميعًا لأمر الله - سبحانه - ، وامتناع إبليس وحده عن الطاعة ، وصدور حكمه - سبحانه - بطرده من الجنة ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢ .

قال - تعالى - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾..

(هـ) ثم قصت علينا السورة الكريمة بأسلوب فيه الترغيب والترهيب ، وفيه العظة والعبرة ، جانبًا من قصة إبراهيم ، ثم من قصة لوط ، ثم من قصة شعيب ، ثم من قصة صالح - عليهم الصلاة والسلام - ...

قال تعالى - : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ .

(و) ثم ختمت سورة الحجر بتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وأمرته بالصفح والعفو حتى يأتى الله بأمره ، وبشرته بأنه - سبحانه - سيكفيه شر أعدائه ، وبأنه سينصره عليهم ...

قال - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ .

ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت اهتمامًا واضحًا بتثبيت المؤمنين وتهديد الكافرين ، تارة عن طريق الترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق قصص السابقين ، وتارة عن طريق التأمل فى هذا الكون وما اشتمل عليه من مخلوقات تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته وسابغ رحمته ....

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة - صباح الأربعاء

٩ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٢ هـ - ٣ من فبراير سنة ١٩٨٢ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟
وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ
ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟
إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ
(١٤) لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)

سورة الحجر من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ﴿ الر ﴾ .

وقد بينا - بشىء من التفصيل - عند تفسيرنا لسورة : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ...

آراء العلماء فى هذه الحروف التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم .

وقلنا ما خلاصته : من العلماء من يرى أن المعنى المقصود منها غير معروف لأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ..

ومنهم من يرى أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه ، بل هى أسماء للسور التى افتتحت بها ... أو هى حروف مقطعة بعضها من أسماء الله ، وبعضها من صفاته ...

ثم قلنا : ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ؛ للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مَرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل .

وفضلاً عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكماً وهدايات قد تكون سبباً فى استجابتهم للحق ، كما استجاب صالحو الجن الذين حكى الله - تعالى - عنهم أنهم عندما استمعوا إلى القرآن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا .... ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى الآيات التى تضمنتها هذه السورة ، أو إلى جميع الآيات القرآنية التى نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، ولا يقدح فى هذا ، ذكر لفظ القرآن بعده ، لأنه - سبحانه - جمع له بين الاسمين تفخيماً لشأنه ، وتعظيماً لقدره .

و ﴿ مبين ﴾ اسم فاعل من أبان الذى هو بمعنى بان ، مبالغة فى الوضوح والظهور .

قال صاحب الصحاح : يقال : « بان الشىء يبين بيانا ، أى اتضح ، فهو بين وكذا أبان الشىء فهو مبين ... ».

والمعنى : تلك - أيها الناس - آيات بينات من الكتاب الكامل فى جنسه ، ومن القرآن العظيم الشأن ، الواضح فى حكمه وأحكامه ، المبين فى هدايته وإعجازه فأقبلوا عليها بالحفظ لها ، وبالعمل بتوجيهاتها ، لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

قال الآلوسى : وفى جمع وصفى الكتابية والقرآنيه من تفخيم شأن القرآن ما فيه ، حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها ، وبالثانى إلى كونه ممتازًا عن غيره ، نسيجا وحده ، بديعًا فى بابه ، خارجًا عن دائرة البيان ، قرآنًا غير ذى عوج .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيندمون بسبب كفرهم فى وقت لا ينفع فيه الندم ، فقال - تعالى - : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

قال الشوكانى ما ملخصه : قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ﴿ ربما ﴾ ، وقرأ الباقون بتشديدها .. وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير .

قال الكوفيون : أى يود الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

وقيل : هى هنا للتقليل ، لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها لشغلهم بالعذاب .... »[2] .

وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين القولين فقال : من قال بأن ﴿ ربما ﴾ هنا للتكثير نظر إلى كثرة تمنيهم أن لو كانوا مؤمنين ، ومن قال بأنها للتقليل نظر إلى قلة زمان إفاقتهم من العذاب بالنسبة إلى زمان دهشتهم منه ، وهذا لا ينافى أن التمنى يقع كثيرًا منهم فى زمن إفاقتهم القليل ، فلا تخالف بين القولين[3] .

والمعنى : ود الذين كفروا عندما تنكشف لهم الحقائق . فيعرفون أنهم على الباطل ، وأن المؤمنين على الحق ، أن لو كانوا مسلمين ، حتى ينجوا من الخزى والعقاب .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٣ .
(٢)تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢١ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين بتصرف قليل ج ٢ ص ٥٣٧ .

ودخلت ﴿ رب ﴾ هنا على الفعل المضارع ﴿ يود ﴾ مع اختصاصها بالدخول على الفعل الماضى ، للإشارة إلى أن أخبار الله - تعالى - بمنزلة الواقع المحقق سواء أكانت للمستقبل أم لغيره .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضى ؟ قلت : لأن المترقب فى أخبار الله - تعالى - بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه ، فكأنه قيل : « ربما ود الذين كفروا ... »[١] .

و ﴿ لو ﴾ فى قوله ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ يصح أن تكون امتناعية ، وجوابها محذوف ، والتقدير : لو كانوا مسلمين لسروا بذلك .

ويصح أن تكون مصدرية ، والتقدير : ود الذين كفروا كونهم مسلمين .

وعلى كلا المعنيين فهى مستعملة فى التمنى الذى هو طلب حصول الأمر الممتنع الحصول .

وقال - سبحانه - ﴿ لو كانوا ... ﴾ بفعل الكون الماضى ، للإشعار بأنهم يودون الدخول فى الإسلام ، بعد مضى وقت التمكن من الدخول فيه .

وعبر - سبحانه - عن متمناهم بالغيبة ﴿ كانوا ﴾ ، نظرًا لأن الكلام مسوق بصدد الإخبار عنهم ، وليس بصدد الصدور منهم ، ولو كان كذلك لقيل : لو كنا مسلمين .

هذا ، وللمفسرين أقوال فى الوقت الذى ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين ، فمنهم من يرى أن ودادتهم هذه تكون فى الدنيا ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب ، وعند عفو الله عن عصاة المؤمنين .

والحق أن هذه الودادة تكون فى كل موطن يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم ، وفى كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق .

فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا ، عندما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين ، فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما ، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : « ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين »[٢] .

وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى آيات كثيرة منها قوله

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٨٦ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٥ .

- تعالى - : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحًا فيما تركت ... ﴾[١] .

وهم يتمنون ذلك عندما يعرضون على النار يوم القيامة . قال - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٢] .

وهم يتمنون ذلك عندما يرون عصاة المؤمنين ، وقد أخرجهم الله - تعالى برحمته من النار .

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الدالة على ذلك منها : ما أخرجه الطبرانى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن ناسًا من أهل « لا إله إلا الله » يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم « لا إله إلا الله » وأنتم معنا فى النار ؟ قال فيغضب الله لهم ، فيخرجهم ، فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرأون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة . ويسمون فيها الجهنميين .

فقال رجل : يا أنس ، أنت سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » نعم ، أنا سمعت النبى - ﷺ - يقول هذا[٣] .

قال بعض العلماء : وأقوال العلماء فى هذه الآية راجعة إلى شيء واحد ، لأن من يقول : إن الكافر إذا احتضر تمنى أن لو كان مسلمًا ، ومن يقول : إنه إذا عاين النار تمنى أن لو كان مسلمًا .. كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقية ندموا على الكفر وتمنوا أنهم لو كانوا مسلمين[٤] .

وفى هذه الآية ما فيها من تثبيت المؤمنين ، ومن تبشيرهم بأنهم على الحق ، ومن حض للكافرين على الدخول فى الإسلام قبل فوات الأوان ، ومن تحذير لهم من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

ثم أمر - سبحانه - الرسول - ﷺ - بأن يذرهم فى طغيانهم يعمهون ، بعد أن ثبت أنهم قوم لا ينفع فيهم إنذار فقال - تعالى - : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٧ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير . المجلد الرابع ص ٤٤٣ طبعة دار الشعب

(٤) تفسير أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن ج ٣ ص ١١٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وذر فعل أمر بمعنى اترك ، ومضارعه يذر ، ولا يستعمل له ماض إلا فى النادر ، ومن هذا النادر ما جاء فى الحديث الشريف : « ذروا الحبشة ما وذرتكم » .

و « يتمتعوا » من المتاع بمعنى الانتفاع بالشىء بتلذذ وعدم نظر إلى العواقب .

« ويلههم » : من الانشغال عن الشىء ونسيانه ، يقال : فلان ألهاه كذا عن أداء واجبه ، أى : شغله .

والأمل : الرغبة فى الحصول على الشىء ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله .

والمعنى : اترك - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين ، وخلهم وشأنهم ، ليأكلوا كما تأكل الأنعام ، وليتمتعوا بدنياهم كما يشاءون ، وليشغلهم أملهم الكاذب عن اتباعك ، فسوف يعلمون سوء عاقبة صنيعهم فى العاجل أو الآجل .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ ذرهم ﴾ يعنى اقطع طمعك من ارعوائهم ، ودعهم من النهى عما هم عليه ، والصد عنه بالتذكرة والنصيحة ، واتركهم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ بدنياهم ، وتنفيذ شهواتهم ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال. وألا يلقوا فى العاقبة إلا خيرا فسوف يعلمون سوء صنيعهم[1] .

وإنما أمره - سبحانه - بذلك ، لعدم الرجاء فى صلاحهم ، بعد أن مكث فيهم الرسول - ﷺ - زمنًا طويلاً ، يدعوهم إلى الحق ، بأساليب حكيمة .

وفى تقديم الأكل على غيره ، إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب. قال - تعالى- : ﴿... والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[2] كما أن فيه تعييرا لهم بما تعارفوا عليه من أن الاقتصار فى الحياة على إشباع اللذات الجسدية ، دون التفات إلى غيرها من مكارم الأخلاق ، يدل على سقوط الهمة ، وبلادة الطبع . قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن عمرو :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى : واقعد عن طلب المكارم والمعالى فإنك أنت المطعوم المكسو من جهة غيرك .

والفعل «يأكلوا» وما عطف عليه مجزوم فى جواب الأمر «ذرهم »، وبعضهم يجعله مجزوم بلام الأمر المحذوفة ، الدالة على التوعد والتهديد ، ولا يستحسن جعله مجزوما فى جواب

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٧ .
(٢) سورة محمد الآية ١٢ .

الأمر ، لأنهم يأكلون ويتمتعون سواء أترك الرسول - ﷺ - دعوتهم أم دعاهم .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فسوف يعلمون ﴾ للتفريع الدال على الزجر والإنذار . والاستجابة للحق قبل فوات الأوان .

أى : ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية ، لا تفكر فيها ولا تدبر ، ومن آمال خادعة براقة شغلتهم عن حقائق الأمور ، فسوف يعلمون سوء عاقبة ذلك وسوف يرون ما يحزنهم ويشقيهم ويبكيهم طويلاً بعد أن ضحكوا قليلاً ...

وفى ذلك إشارة إلى أن لإمهالهم أجلا معينا ينقضى عنده ، ثم يأتيهم العذاب الأليم .

قال الآلوسى - رحمه الله - : وفى هذه الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم ، وعدم الاستعداد للآخرة ، والتأهب لها ، ليس من أخلاق من يطلب النجاة .

وجاء عن الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

وأخرج أحمد فى الزهد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - لا أعلمه إلا رفعه - قال : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل وطول الأمل » .

وفى بعض الآثار عن على - كرم الله وجهه - : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق »[١] .

هذا ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾[٤] .

ثم قرر - سبحانه - أن هلاك الأمم الظالمة ، موقوت بوقت محدد فى علمه ، وأن سنته فى ذلك ماضية لا تتخلف ، فقال - تعالى - ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٩ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٨٣ .
(٣) سورة الطور الآية ٤٥ .
(٤) سورة ابراهيم الآية ٣٠ .

و «من» فى قوله ﴿من قرية﴾ و ﴿من أمة﴾ للتأكيد . والمراد بالقرية أهلها .

والمراد بالكتاب المعلوم : الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لهلاكها ، شبه بالكتاب لكونه لا يقبل الزيادة أو النقص . والأجل : مدة الشيء .

أى : وما أهلكنا من قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا ولهلاكها وقت محدد فى علمنا المحيط بكل شيء ، ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : يقول - تعالى - ذكره - ﴿وما أهلكنا﴾ يا محمد ﴿من﴾ أهل ﴿قرية﴾ من القرى التى أهلكنا أهلها فيما مضى : ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ أى : أجل مؤقت ومدة معروفة ، لا نهلكهم حتى يبلغوها ، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك .. دون أن يتقدم هلاكهم عن ذلك أو يتأخر »[1] .

وجملة ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ فى محل نصب على الحال من قرية ، وصح ذلك لأن كلمة قرية وإن كانت نكرة ، إلا أن وقوعها فى سياق النفى سوغ مجيء الحال منها .

أى : ما أهلكناها فى حال من الأحوال ، إلا فى حال بلوغها نهاية المدة المقدرة لبقائها دون تقديم أو تأخير .

قال - تعالى - ﴿ ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2] وجملة « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » بيان لجملة « إلا ولها كتاب معلوم » لتأكيد التحديد ، فى بدئه وفى نهايته .

وحذف متعلق « يستأخرون » للعلم به ، أى : وما يستأخرون عنه .

والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح ، على أن إمهال الظالمين ليس معناه ترك عقابهم ، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويسلكوا الطريق القويم ...

فإذا ما لجوا فى طغيانهم ، حل بهم عقاب الله - تعالى - فى الوقت المحدد فى علمه - سبحانه - .

قال صاحب الظلال : ولقد يقال : إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهى مع ذلك قوية ثرية باقية ،وهذا وهم .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٥ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

فلا بد من بقية من خير فى هذه الأمم ، ولو كان هو خير العمارة للأرض،وخير العدل فى حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها .

فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها ، فلا تبقى فيها من الخير بقية ثم تنتهى حتما إلى المصير المعلوم . إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم[١] .

ثم حكى - سبحانه - سوء أدب هؤلاء الكافرين مع رسولهم - ﷺ - فقال - تعالى - ﴿ وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ والقائلون هم بعض مشركى قريش . قال مقاتل : نزلت الآيتان فى عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم . قال - تعالى - ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[٢] .

و « مجنون » : اسم مفعول من الجنون ، وهو فساد العقل .

و « لوما » : حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمنى ، ومن ما الزائدة فأفاد المجموع الحث على الفعل .

والمعنى : وقال الكافرون لرسولهم - ﷺ - على سبيل الاستهزاء والتهكم : « يأيها » المدعى بأن الوحى ينزل عليك بهذا القرآن الذى تتلوه علينا ، « إنك لمجنون » بسبب هذه الدعوى التى تدعيها . وبسبب طلبك منا اتباعك وتركنا ما وجدنا عليه آباءنا ...

هلا إن كنت صادقًا فى دعواك ، أن تحضر معك الملائكة ، ليخبرونا بأنك على حق فيما تدعيه ، وبأنك من الصادقين فى تبليغك عن الله - تعالى - ما أمرك بتبليغه ؟

وأكدوا الحكم على الجنون بإن واللام ، لقصدهم تحقيق ذلك فى نفوس السامعين ممن هم على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، حتى ينصرفوا عن الاستماع إليه - ﷺ - .
قال الآلوسى : يعنون يا من يدعى مثل هذا الأمر العظيم ، الخارق للعادة إنك بسبب تلك

---

(١) تفسير فى ظلال القران ج ١٤ ص ٢١٦٦ للأستاذ سيد قطب .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .

الدعوى تحقق جنونك على أتم وجه . وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاما يستبعده ، أنت مجنون[١] .

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا ألوانًا من سوء أدبهم، منها: مخاطبتهم له - ﷺ - بهذا الأسلوب الدال على التهكم والاستخفاف ، حيث قالوا : « يأيها الذى نزل عليه الذكر » ، مع أنهم لا يقرون بنزول شىء عليه .

ووصفهم له بالجنون ، وهو - ﷺ - أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم فكرًا ..

وشكهم فى صدقه ، حيث طلبوا منه - على سبيل التعنت - أن يحضر معه الملائكة ليعاضدوه فى دعواه كما قال تعالى فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ... لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرًا ﴾[٣] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذا منظرين ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ ما تنزل ﴾ - بفتح التاء والزاى على أن أصله تتنزل - ورفع الملائكة على الفاعلية .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ ما تنزل ﴾ - بضم التاء وفتح الزاى على البناء للمجهول - ورفع الملائكة على أنه نائب فاعل .

وقرأ الكسائى وحفص عن عاصم ﴿ ما ننزل ﴾ - بنون فى أوله وكسر الزاى - ونصب الملائكة على المفعولية والباء فى قوله ﴿ إلا بالحق ﴾ للملابسة .

أى : ما ننزل الملائكة إلا تنزيلاً ملتبسًا بالحق ، أى : بالوجه الذى تقتضيه حكمتنا وجرت به سنتنا ، كأن ننزلهم لإهلاك الظالمين ، أو لتبليغ وحينا إلى رسلنا ، أو لغير ذلك من التكاليف التى نريدها ونقدرها ، والتى ليس منها ما اقترحه المشركون على رسولنا - ﷺ - من قولهم ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ ، ولذا اقتضت حكمتناورحمتنا عدم إجابة مقترحاتهم .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١١ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٢١ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٧ .

وقوله ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ بيان لما سيحل بهم فيما لو أجاب الله - تعالى - مقترحاتهم .

و « إذا » حرف جواب وجزاء .

و « منظرين » من الإنظار بمعنى التأخير والتأجيل .

وهذه الجملة جواب لجملة شرطية محذوفة، تفهم من سياق الكلام، والتقدير: ولو أنزل - سبحانه - الملائكة مع الرسول - ﷺ - ، وبقى هؤلاء المشركون على شركهم مع ذلك ، لعوجلوا بالعقوبة المدمرة لهم ، وما كانوا إذا ممهلين أو مؤخرين ، بل يأخذهم العذاب بغتة .

قال الإمام الشوكانى : قوله ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ فى الكلام حذف . والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين . فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة »[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - أنه قد تكفل بحفظ هذا القرآن الذى سبق للكافرين أن استهزءوا به ، وبمن نزل عليه فقال - تعالى - : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

أى : إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذى أنكرتموه ؛ على قلب نبينا محمد - ﷺ - ﴿ وإنا ﴾ لهذا القرآن ﴿ لحافظون ﴾ من كل ما يقدح فيه ، كالتحريف والتبديل، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يقدر أحد على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله ، ولحافظون له بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ رد لانكارهم واستهزائهم فى قولهم ﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ ، ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد - ﷺ - ومن بين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظًا من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان ... »[٣] .

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢٢ للشوكانى .
(٢) سورة الأنعام الآية ٨ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .

وقال الآلوسى : ما ملخصه : « ولا يخفى ما فى سبك الجملتين - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة ، وعلى فخامة شأن التنزيل ، وقد اشتملتا على عدة من وجوه التأكيد . و ﴿ نحن ﴾ ليس ضمير فصل لأنه لم يقع بين اسمين ، وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم إن . والضمير فى ﴿ له ﴾ للقرآن كما هو الظاهر ، وقيل هو للنبى - ﷺ - ... »[1] .

هذا ونحن ننظر فى هذه الآية الكريمة ، من وراء القرون الطويلة منذ نزولها فنرى أن الله - تعالى - قد حقق وعده فى حفظ كتابه ، ومن مظاهر ذلك :

١ - أن ما أصاب المسلمين من ضعف ومن فتن ، ومن هزائم ، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .. هذا الذى أصابهم فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، لم يكن له أى أثر على قداسة القرآن الكريم ، وعلى صيانته من أى تحريف .

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله - تعالى - قيض له فى كل زمان ومكان ، من أبناء هذه الأمة ، من حفظه عن ظهر قلب ، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبى - ﷺ - ، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر فى كل مصر وفى كل عصر .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : فلماذا اشتغل الصحابة بجمع القرآن فى المصحف ، وقد وعد الله بحفظه ، وما حفظه الله فلا خوف عليه ؟

فالجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله - تعالى - إياه ، فإنه - سبحانه - لما أن حفظه قيضهم لذلك .... »[2] .

٢ - أن أعداء هذا الدين - سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام أم من غيرهم - امتدت أيديهم الأثيمة إلى أحاديث النبى - ﷺ - فأدخلوا فيها ما ليس منها ... وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء ..

ولكن هؤلاء الأعداء ، لم يقدروا على شىء واحد ، وهو إحداث شىء فى هذا القرآن ، مع أنهم وأشباههم فى الضلال ، قد أحدثوا ما أحدثوا فى الكتب السماوية السابقة ..

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٦٠ .

قال بعض العلماء . سئل القاضى إسماعيل[١] البصرى عن السر فى تَطرُّق التغيير للكتب السالفة ، وسلامة القرآن من ذلك فأجاب بقوله : إن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال : « بما استحفظوا من كتاب الله » وتولى - سبحانه - حفظ القرآن بذاته فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٢] .

وقد ذكر الإمام القرطبى ما يشبه ذلك نقلاً عن سفيان بن عيينه فى قصة طويلة[٣] .

والخلاصة ، أن سلامة القرآن من أى تحريف - رغم حرص الأعداء على تحريفه ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام ، ورغم تطاول القرون والدهور - دليل ساطع على أن هناك قوة خارقة - خارجة عن قوة البشر - قد تولت حفظ هذا القرآن ، وهذه القوة هى قوة الله - عز وجل - ولا يمارى فى ذلك إلا الجاحد الجهول ...

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تعزية وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من سفهاء قومه ، فأخبره بأن ما أصابه منهم يشبه ما فعله المكذبون السابقون مع رسلهم ، فقال - تعالى - ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾.

قال الجمل : « لما أساءوا فى الأدب ، وخاطبوه - ﷺ - خطاب السفاهة ، حيث قالوا له : « إنك لمجنون » ، سلّاه الله فقال له : إن عادة الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا ، وكانوا يصبرون على أذى الجهال . ويستمرون على الدعوة والإنذار ، فاقتد أنت بهم فى ذلك ... »[٤] .

والشيع جمع شيعة وهى الطائفة من الناس المتفقة على طريقة ومذهب واحد ، من شاعه إذا تبعه ، وأصله - كما يقول القرطبى - مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً كثيرين ، فى طوائف الأمم الأولين ، فدعا الرسل أقوامهم إلى ما دعوت إليه أنت قومك من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ، فما كان من أولئك المدعوين السابقين إلا أن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء ، كما قابلك سفهاء قومك .

---

(١) هو القاضى اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدى البصرى ولد سنه ٢٠٠ هـ وتوفى سنة ٢٨٢ . كان من الأئمة الأعلام فى التفسير والحديث والفقه .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٢١ لسماحة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

(٣) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٩ .

وذلك لأن المكذبين فى كل زمان ومكان يتشابهون فى الطباع الذميمة ، وفى الأخلاق القبيحة : كما قال - تعالى - ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾[١] .

والجار والمجرور ﴿ من قبلك ﴾ متعلق بأرسلنا ، أو بمحذوف وقع نعتا لمفعوله المحذوف . أى : ولقد أرسلنا رسلاً كائنة من قبلك .

وإضافة الشيع إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند البعض الآخر ، أى شيع الأمم الأولين .

وعبر بقوله - سبحانه - ﴿ إلا كانوا به يستهزئون ﴾ للإشعار بأن الاستهزاء بالرسل كان طبيعة فيهم - كما يومىء إليه لفظ كان ، وأنه متكرر منهم - كما يفيده التعبير بالفعل المضارع - والكاف فى قوله ﴿كذلك نسلكه..﴾ للتشبيه، واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى السلك المأخوذ من نسلكه .

والسلك مصدر سلك - من باب نصر - وهو إدخال الشىء فى الشىء ، كإدخال الخيط فى المخيط .

والضمير المنصوب فى «نسلكه» يعود إلى القرآن الكريم الذى سبق الحديث عنه.

والمراد بالمجرمين فى قوله ﴿ فى قلوب المجرمين ﴾ مشركو قريش ومن لف لفهم .

والمعنى : كما سلكنا كتب الرسل السابقين فى قلوب أولئك المستهزئين نسلك القرآن فى قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يامحمد ، بأن نجعلهم يسمعونه ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر فى قلوبهم استقرار تصديق وإذعان لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم .

وقوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ بيان للسلك المشبه به ، أو حال من المجرمين .

أى : أدخلنا القرآن فى قلوبهم ففهموه ، ولكنهم لا يؤمنون به عنادًا وجحودًا .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى ﴿ نسلكه ﴾ وفى ﴿ به ﴾ يعودان إلى القرآن الكريم ، الذى سبق الحديث عنه فى قوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

ومن المفسرين الذين ذكروا هذا الوجه ولم يذكروا سواه صاحب الكشاف ، فقد قال : « والضمير فى قوله ﴿ نسلكه ﴾ ، للذكر : أى : مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر ﴿ فى

(١) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

قلوب المجرمين ﴾ على معنى أن يلقيه فى قلوبهم مكذبًا مستهزئًا به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها : فقلت : كذلك أنزلها باللئام : تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية .

ومحل قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ النصب على الحال ، أى : غير مؤمن به . أو هو بيان لقوله ﴿ كذلك نسلكه .. ﴾[١] .

وقد زكى هذا الوجه صاحب الانتصاف فقال : والمراد – والله أعلم – إقامة الحجة على المكذبين ، بأن الله – تعالى – سلك القرآن فى قلوبهم ، وأدخله فى سويدائها ، كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء ، وصدق به هؤلاء ، كل على علم وفهم ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ... ﴾ ، ولئلا يكون للكفار حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن ... »[٢] .

ويرى بعض المفسرين – كالإمام ابن جرير – أن الضمير فى نسلكه يعود إلى الكفر الذى سلكه الله فى قلوب المكذبين السابقين ، أما الضمير فى ﴿ به ﴾ فيعود إلى القرآن الكريم ، فقد قال : قوله – تعالى – ﴿ كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به ... ﴾ يقول – تعالى – ذكره : كما سلكنا الكفر فى قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل ، كذلك نفعل ذلك فى قلوب مشركى قومك الذين أجرموا بسبب الكفر بالله .

﴿ لا يؤمنون به ﴾ يقول : لا يصدقون بالذكر الذى أنزل إليك ...[٣] .

ومع أن هذا التفسير الذى ارتضاه شيخ المفسرين ابن جرير له وجاهته ، إلا أننا نميل إلى التفسير الأول الذى ارتضاه صاحب الكشاف ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية ، ومن المفسرين الذين رجحوا ذلك الفخر الرازى ، فقد قال – رحمه الله – خلال كلام طويل ما ملخصه : « التأويل الصحيح أن الضمير فى قوله – تعالى – ﴿ كذلك نسلكه ﴾ عائد إلى الذكر ، الذى هو القرآن ، فإنه – تعالى – قال قبل هذه الآية ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ وقال بعده ﴿ كذلك نسلكه ﴾ أى : هكذا نسلك القرآن فى قلوب المجرمين .

والمراد من هذا السلك ، هو أنه – تعالى – يسمعهم هذا القرآن ، ويخلق فى قلوبهم حفظه والعلم بمعانيه . إلا أنهم مع هذه الأحوال لا يؤمنون به عنادًا وجهلاً ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .
(٢) حاشية الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .
(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٩ .

ويدل على صحة هذا التأويل ، أن الضمير فى قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ عائد على القرآن بالإجماع ، فوجب أن يكون الضمير فى ﴿ نسلكه ﴾ عائدًا إليه - أيضًا - لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شىء واحد ... »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ تهديد لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ومن سار على شاكلتهم ، وتكملة للتسلية لرسول الله - ﷺ - .

أى : وقد مضت سنة الله التى لا تتخلف وطريقته المألوفة بأن ينزل عذابه بالمجرمين ، كما أنزله بالأمم الماضية ، بسبب تكذيبها لرسلها ، واستهزائها بهم فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابك من سفهاء قومك فسننصرك عليهم .

وأضاف - سبحانه - السنة إلى الأولين ، باعتبار تعلقها بهم ، وإنما هى سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا ، والإضافة لأدنى ملابسة .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة برسم صورة عجيبة لعناد هؤلاء المكذبين ولجحودهم للحق بعدما تبين فقال : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء .. ﴾ معطوف على قوله ﴿ لا يؤمنون به .. ﴾ لإبطال معاذيرهم ، ولبيان أن سبب عدم إيمانهم هو الجحود والعناد ، وليس نقصان الدليل والبرهان على صحة ما جاء به النبى - ﷺ - .

قال الإمام الرازى . وقوله - تعالى - ﴿ فظلوا فيه يعرجون ﴾ يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا ، إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل . والمصدر الظلول[2] .

ويعرجون : من العروج ، وهو الذهاب فى صعود . وفعله من باب دخل ، يقال عرج فلان إلى الجبل يعرج إذا صعد ، ومنه المعراج والمعارج أى المصاعد .

وقوله ﴿ سُكِّرت ﴾ من السَّكْر - بفتح السين المشددة وسكون الكاف - بمعنى السد والحبس والمنع ، يقال سكرت الباب أسْكرُه سَكْرًا ، إذا سددته ، والتشديد فى ﴿ سكرت ﴾ للمبالغة ، وهو قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير ﴿ سكِرت ﴾ ، بكسر الكاف بدون تشديد .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٦٣ طبعة عبد الرحمن محمد .
(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٦٦ .

وقوله ﴿ مسحورون ﴾ اسم مفعول من السحر ، بمعنى الخداع والتخييل والصرف عن الشىء إلى غيره .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الغلو فى الكفر والعناد ، أننا لو فتحنا لهم بابا من أبواب السماء ، ومكناهم من الصعود إليه ، فظلوا فى ذلك الباب يصعدون ، ويطلعون على ملكوت السموات وما فيها من الملائكة والعجائب لقالوا بعد هذا التمكين والاطلاع - لفرط عنادهم وجحودهم - إنما أبصارنا منعت من الإبصار ، وما نراه ما هو إلا لون من الخداع والتخييل والصرف عن إدراك الحقائق بسبب سحر محمد - ﷺ - لنا وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور المفسرين ، يكون الضمير فى قوله ﴿ فظلوا ﴾ يعود إلى هؤلاء المشركين المعاندين .

وقيل الضمير للملائكة ، فيكون المعنى : فظل الملائكة فى هذا الباب يعرجون ، والكفار يشاهدونهم وينظرون إليهم ، فقالوا - أى الكفار - بعد كل ذلك ، « إنما سكرت أبصارنا .. » .

وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تصور أكمل تصوير ، مكابرة الكافرين وعنادهم المزرى .

وعبر - سبحانه - بقوله ﴿ فظلوا .. ﴾ ليدل على أن عروجهم كان فى وضح النهار ، بحيث لا يخفى عليهم شىء مما يشاهدونه .

وجمعوا فى قولهم بين أداة الحصر ﴿ إنما ﴾ وبين أداة الإضراب ﴿ بل ﴾ للدلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل ، وما يرونه ما هو إلا من تخيلات المسحور .

وقالوا « بل نحن قوم مسحورون » ولم يقولوا بل نحن مسحورون ، للإشعار بأن السحر قد تمكن منهم جميعًا ، ولم يخص بعضًا منهم دون بعض .

قال الشوكانى : وفى هذا البيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شىء من الأشياء كائنا ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض الانسداد أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح . ومن بلغ فى التعنت إلى هذا الحد ، فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدى بآية »[1] .

وبذلك نجد السورة الكريمة قد حدثتنا فى خمس عشرة آية من مطلعها إلى هنا ، عن سمو

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢٣ .

منزلة القرآن الكريم ، وعن حسرات الكافرين يوم تتجلى لهم الحقائق ، وعن استهزائهم بالرسول - ﷺ - ، وعن رد القرآن عليهم ؛ وعن تسلية الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - عما أصابه منهم ...

ثم انتقلت السورة بعد ذلك ، فساقت ألوانًا من النعم الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ
فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا
مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ
لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ
بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : لما ذكر - سبحانه - كفر الكافرين ، وعجز أصنامهم ، ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته .

والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس . أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر ، أى : منازلها . وأسماء هذه البروج : الحمل والثور والجوزاء والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب ...

وقال الحسن وقتادة : البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها ...

وقيل البروج : الكواكب العظام ...[١] .

قال بعض العلماء ومرجع الأقوال كلها إلى شىء واحد ، لأن أصل البروج فى اللغة الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، بإظهار زينتها ، فالكواكب ظاهرة ، والقصور ظاهرة ، ومنازل الشمس والقمر كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه ..[٢] .

و ﴿ جعلنا ﴾ أى خلقنا وأبدعنا ، فيكون قوله ﴿ فى السماء ﴾ متعلقًا به ، وجوز أن يكون بمعنى التصيير ، فيكون قوله . فى السماء . متعلقًا بمحذوف على أنه مفعول ثان له و ﴿ بروجًا ﴾ هو المفعول الأول .

أى : ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقا فى السماء ، تسير فيها الكواكب بقدراتنا ، وإرادتنا ، وحكمتنا ، دون خلل أو اضطراب .

وفى ذلك الخلق ما فيه من منافع لكم ، حيث تستعملون هذه البروج فى ضبط المواقيت وفى تحديد الجهات ، وفى غير ذلك من المنافع ، كما قال - تعالى - ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورًا وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[٣] .

وافتتح - سبحانه - الآية الكريمة بلام القسم وقد ، تنزيلًا للمخاطبين الذاهلين عن الالتفات إلى مظاهر قدرة الله - تعالى - منزلة المنكرين ، فأكد لهم الكلام بمؤكدين لينتبهوا ويعتبروا .

والضمير فى قوله ﴿ وزيناها ... ﴾ يعود إلى السماء . أى : وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء ، لتكون جميلة فى عيون الناظرين إليها ، وآية للمتفكرين فى دلائل قدرة الله - تعالى - وبديع صنعه .

وهذه الجملة الكريمة ، تلفت الأنظار إلى أن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون ، كما

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٩ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٣ ص ١٢١ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٣) سورة يونس الآية ٥ .

تشعر المؤمنين بأن من الواجب عليهم أن يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال فى الظاهر وفى الباطن ، تأسيا بسنة الله - تعالى - فى خلق هذا الكون .

ثم وضح - سبحانه - بأن هذا التزيين للسماء ، مقرون بالحفظ والصيانة والطهارة من كل رجس فقال - تعالى - ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ .

والمراد بالشيطان هنا : المتمرد من الجن ، مشتق من شطن بمعنى بعد ، إذ الشيطان بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم ، أى المرجوم المحقر ، مأخوذ من الرجم ، لأن العرب كانوا إذا احتقروا أحدًا رجموه بالقطع من الحجارة ، وقد كان العرب يرجمون قبر أبى رغال الثقفى ، الذى أرشد جيش الحبشة إلى مكة لهدم الكعبة . قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال

والمعنى : ولقد جعلنا فى السماء منازل وطرقا للكواكب ، وزيناها - أى السماء - للناظرين إليها ، وحفظناها من كل شيطان محقر مطرود من رحمتنا بأن منعناه من الاستقرار فيها ، ومن أن ينفث فيها شروره ومفاسده ، لأنها موطن الأخيار الأطهار .

قال - تعالى - : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظًا من كل شيطان مارد ﴾(١) .

وقال - تعالى - : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين .... ﴾(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ فى محل نصب على الاستثناء واستراق السمع : اختلاسه وسرقته ، والمراد به : الاستماع إلى المتحدث خفية ، حتى لكأن المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذى يخفيه عنه ، فالسمع هنا بمعنى المسموع من الكلام .

والشهاب : هو الشعلة الساطعة من النار ، المنفصلة من الكواكب التى ترى فى السماء ليلًا ، كأنها كوكب ينقض بأقصى سرعة . وجمعه شهب ..أصله من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد .

و ﴿ مبين ﴾ أى ظاهر واضح للمبصرين .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الملك الآية ٥ .

والاستثناء منقطع ، فيكون المعنى : وحفظنا السماء من كل شيطان رجيم لكن من اختلس السمع من الشياطين ، بأن حاول الاقتراب منها ، فإنه يتبعه شهاب واضح للناظرين فيحرقه ، أو يحول بينه وبين استراق السمع .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ أى . لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع .

وقيل : هو متصل ، أى : إلا ممن استرق السمع . أى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئًا من الوحى وغيره ، إلا من لسترق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئًا لقوله - تعالى - ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ .

وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحى ، فإنهم يقذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم ..[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظًا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾[2] .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والمقصود منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه .. وربما استدرج الله - تعالى - الشياطين وأولياءهم ، فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهان ؛ فلما أراد - سبحانه - عصمة الوحى منعهم من ذلك بتاتا ..

وفى سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان بعد البعثة النبوية ، وبعد نزول القرآن ، إحكامًا لحفظ الوحى من أن يلتبس على الناس بالكهانة ..

قال - تعالى - : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدا ﴾[3] .

وعلى ذلك يكون ما جاء فى بعض الأحاديث من استراق الجن السمع - وصفا للكهانة السابقة ، ويكون قوله - ﷺ - « ليسوا بشيء ... » وصفا لآخر أمرهم ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١١ .
(٢) سورة الصافات الآيات ٦ - ١٠ .
(٣) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩

ففى صحيح البخارى عن عائشة : أن ناسا سألوا رسول الله - ﷺ - عن الكهانة ، فقال : « ليسوا بشىء » . - أى لا وجود لما يزعمونه - فقيل - يارسول الله ، فإنهم يحدثون أحيانًا بالشىء فيكون حقًا . فقال رسول الله - ﷺ - : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فَيقرُّها فى أذن وليه قَـرَّ الدجاجة - أى فيلقيها بصوت خافت كالدجاجة عندما تخفى صوتها - فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة »[١] .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض الدلائل السماوية الدالة على قدرته ووحدانيته ، أتبع ذلك ببيان بعض الدلائل الأرضية فقال - تعالى - : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾ . وقوله : ﴿ رواسى ﴾ من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة . يقال رسا الشىء يرسو أى ثبت .

أى : ومن الأدلة - أيضًا - على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها ، لتتيسر لكم الحياة عليها قال - تعالى - ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾[٢] .

وأننا - أيضًا وضعنا فيها جبالاً ثوابت راسخات تمسكها عن الاضطراب وعن أن تميد بكم . قال - تعالى - : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ... ﴾[٣] .

وأننا - أيضًا - أنبتنا فى الأرض من كل شىء ﴿ موزون ﴾ أى : مقدر بمقدار معين وموزون بميزان الحكمة ، بحيث تتوفر فيه كل معانى الجمال والتناسق .

قال - تعالى - : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[٤] .

وأننا - كذلك - ﴿ جعلنا لكم فيها معايش ... ﴾ والمعايش : جمع معيشة ، وهى فى الأصل مصدر عاش يعيش عَيْشا وعَيْشةً ومعاشًا ، ومعيشة ، إذا صار ذا حياة . ثم استعمل هذا اللفظ فيما يعاش به ، أو فيما يتوصل به إلى العيش .

أى : وجعلنا لكم فى الأرض ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورات الحياة التى تحيونها .

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١٤ ص ٢٤ .
(٢) سورة الذاريات الآية ٤٨ .
(٣) سورة لقمان الآية ١٠ .
(٤) سورة القمر الآية ٤٩ .

وجملة ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ معطوفة على « معايش » .

والمراد بمن لستم له برازقين : ما يشمل الأطفال والعجزة والأنعام وغير ذلك من مخلوقات الله التى تحتاج إلى العون والمساعدة .

أى : وجعلنا لكم فى الأرض ما تعيشون به أو ما تتوصلون به إلى ذلك من المكاسب والتجارات ، وجعلنا لكم فيها - أيضًا - من لستم له برازقين من العيال والخدم والدواب ... وإنما الرازق لهم هو الله - تعالى - رب العالمين ، إذ ما من دابة فى الأرض إلا على الله وحده رزقها . وما يزعمه الجاهلون من أنهم هم الرازقون لغيرهم ، هو لون من الغرور والافتراء ، لأن الرازق للجميع هو الله رب العالمين .

وعبر بمن فى قوله ﴿ ومن لستم ﴾ تغليبًا للعقلاء على غيرهم .

قال الإمام ابن كثير : والمقصود - من هذه الجملة - أنه - تعالى - يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب ، وصنوف المعاشات وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها ، والعبيد والإماء التى يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله - تعالى - »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن كل شىء فى هذا الكون ، خاضع لإرادته وقدرته ، وتصرفه .. فقال - تعالى - ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

و « إن » نافية بمعنى ما ، و « من » مزيدة للتأكيد . و « خزائنه » جمع خزانة، وهى فى الأصل تطلق على المكان الذى توضع فيه نفائس الأموال للمحافظة عليها .

والمعنى : وما من شىء من الأشياء الموجودة فى هذا الكون ، والتى يتطلع الناس إلى الانتفاع بها . إلا ونحن قادرون على إيجادها وإيجاد أضعافها بلا تكلف أو إبطاء ، كما قال - تعالى - :﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾[2] .

فقد شبه - سبحانه - اقتداره على إيجاد كل شىء ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، والمعدة لإخراج ما يشاء إخراجه منها بدون كلفة أو إبطاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٧ .
(٢) سورة يس الآية ٨٢ .

والمراد بالإنزال فى قوله ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ . الإيجاد والإخراج إلى هذه الدنيا ، مع تمكين الناس من الحصول عليه .

أى : وما نخرج هذا الشىء إلى حيز الوجود بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إلا ملتبسًا بمقدار معين ، وفى وقت محدد ، تقتضيه حكمتنا ، وتستدعيه مشيئتنا ، ويتناسب مع حاجات العباد وأحوالهم ، كما قال - تعالى - ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير ﴾[1] .

ثم انتقل - سبحانه - من الاستدلال على وحدانيته وقدرته بظواهر السماء وبظواهر الأرض ، إلى الاستدلال على ذلك بظواهر الرياح والأمطار فقال - تعالى - : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ والآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق ذكره من النعم .

والمراد بإرسال الرياح هنا : نقلها من مكان إلى آخر بقدرة الله - تعالى - وحكمته .

وقوله ﴿ لواقح ﴾ يصح أن يكون جمع لاقح . وأصل اللاقح : الناقة التى قبلت اللقاح فحملت الجنين فى بطنها ..

ووصف - سبحانه - الرياح بكونها لواقح . لأنها حوامل تحمل ما يكون سببا فى نزول الأمطار كما تحمل النوق الأجنة فى بطونها .

أى : وأرسلنا بقدرتنا ورحمتنا الرياح حاملة للسحاب وللأمطار ولغيرهما ، مما يعود على الناس بالنفع والخير والبركة .

ويصح أن يكون لفظ « لواقح » جمع ملقح - اسم فاعل - وهو الذى يلقح غيره ، فتكون الرياح ملقحة لغيرها كما يلقح الذكر الأنثى .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أى : تلقح السحب فتدر ماء ، وتلقح الأشجار فتتفتح عن أوراقها وأكمامها[2] .

وقال بعض العلماء : ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين ، فينشأ عن ذلك البخار الذى يصير ماء فى الجو ، ثم ينزل مطرًا على

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٨ .

الأرض ، وأنها تلقح الشجر ذا الثمرة ، بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نوْر الشجر الذكر ، فتصلح ثمرته أو تثبت ..

وهذا هو الإبار . وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة . وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر فى خلال شجر الثمر .

ومن بلاغة الآية الكريمة ، إيراد هذا الوصف - لواقح - لإفادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح - وهما الحمل للسحاب والمطر وغيرهما ، أو التلقيح لغيرها - . »[1] .

وقوله ﴿ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه .. ﴾ تفريع على ما تقدم .

أى : وأرسلنا الرياح بقدرتنا من مكان إلى آخر ، حالة كونها حاملة للسحاب وغيره ، فأنزلنا - بسبب هذا الحمل - من جهة السماء ، ماء كثيرًا هو المطر ، لتنتفعوا به فى شرابكم ، وفى معاشكم ، وفى غير ذلك من ضروروات حياتكم .

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... ﴾[2] .

وقوله ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ تتميم لنعمة إنزال الماء .

أى : أنزلنا المطر من السماء ، وليست خزائنه عندكم . وإنما نحن الخازنون له ، ونحن الذين ننزله متى شئنا ، ونحن الذين نمنعه متى شئنا ، كما قال - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

ويصح أن يكون المعنى : أنزلنا المطر من السماء فجعلناه لسقياكم ، وأنتم لستم بقادرين على خزنه وحفظه فى الآبار والعيون وغيرها ، وإنما نحن القادرون على ذلك . قال - تعالى - ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾[3] .

ثم بين - سبحانه - أن الإحياء والإماتة بيده وحده ، فقال - تعالى - : ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

أى : وإنا وحدنا القادرون على إيجاد الحياة فى المخلوقات ، والقادرون على سلبها عنها ، ونحن الوارثون لهذا الكون بعد فنائه ، الباقون بعد زواله .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٣٨ لسماحة الشيخ الامام محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) سورة النحل الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٨ .

قال - تعالى - ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾[١] .

وقال - تعالى - ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٢] .

وشبه - سبحانه - بقاءه بعد زوال كل شىء سواه يالوارث ، لأن الوارث هو الذى يرث غيره بعد موته .

وأكد - سبحانه - الآية الكريمة بإن واللام وضمير الفصل ﴿ نحن ﴾ تحقيقا للخبر الذى اشتملت عليه ، وردًا على المشركين الذين زعموا أنه لا حياة ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت .

ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شىء بعد أن أكد شمول قدرته فقال - تعالى - : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ .

والمراد بالمستقدمين من تقدم على غيره ولادة وموتا ، كما أن المراد بالمستأخرين من تأخر عن غيره فى ذلك ، ولم يمت بعد ، أو لم يوجد بعد فى عالم الأحياء .

والسين والتاء فى اللفظين للتأكيد .

وقيل : المراد بهما الأحياء والأموات ، وقيل المراد بالمستقدمين : من تقدم فى الوجود على الأمة الإسلامية ، وبالمستأخرين : الأمة الإسلامية .

وقيل : المراد بهما : من قتل فى الجهاد ومن لم يقتل ، وقيل المراد بهما من تقدم فى صفوف الصلاة ومن تأخر ...

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال عندى بالصحة ، قول من قال : ولقد علمنا الأموات منكم يا بنى آدم فتقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين الذين تأخر موتهم ممن هو حى ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد ... »[٣] .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الخلق جميعًا إليه فقال : ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ، إنه حكيم عليم ﴾ .

أى : وإن ربك - وحده - أيها المخاطب - هو الذى يتولى حشر الأولين والآخرين ، وجمعهم يوم القيامة للحساب والثواب والعقاب ، إنه - سبحانه - ﴿ حكيم ﴾ فى كل

---

(١) سورة ق الآية ٤٣ .

(٢)سورة مريم الآية ٤٠ .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٦ .

تصرفاته وأفعاله ﴿ عليم ﴾ بأحوال خلقه ما ظهر منها وما بطن .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، مما يوجب الإيمان به - سبحانه - وإخلاص العبادة له ، ومقابلة نعمه بالشكران لا بالكفران ، وبالطاعة لا بالمعصية ...

وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانًا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلقه للسماء وما فيها من بروج وشهب .. وللأرض وما عليها من جبال ونبات .. وللرياح وما تحمله من سحب وأمطار ...

أتبع ذلك بأدلة أخرى على كمال ذاته وصفاته عن طريق خلقه للإنسان وللجن وللملائكة .. فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن
صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن
رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ

مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ﴾ آدم - عليه السلام - لأنه أصل النوع الإنسانى ، وأول فرد من أفراده .

والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل ، أى : يحدث صوتاً إذا حرك أو نقر عليه ، كما يحدث الفخار قال - تعالى - ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾[1] .

وقيل : الصلصال : الطين المنتن ، مأخوذ من قولهم : صَلَّ اللحم وأصلَّ ، إذا أنتن ..

قال الإمام ابن جرير : والذى هو أولى بتأويل الآية ، أن يكون الصلصال فى هذا الموضع ، الطين اليابس الذى لم تصبه النار ، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة - وذلك أن الله - تعالى - وصفه فى موضع آخر فقال : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ فشبهه - تعالى ذكره - بأنه كالفخار فى يُبسه ، ولو كان معناه فى ذلك المنتن لم يشبهه بالفخار ، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبهه به فى النتن غيره »[2] .

والحمأ : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته .

والمسنون : المصور من سن الشىء إذا صوره .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ من حمأ ﴾ أى : من طين تغير واسود من مجاورة الماء ، ويقال للواحدة حمأة - بسكون الميم - ...

---

(١) سورة الرحمن الآية ١٤ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٨ .

وقوله ﴿ مسنون ﴾ أى : مصوَّر من سُنَّة الوجه وهى صورته . وأنشد لذلك ابن عباس قول عمه حمزة يمدح النبى - ﷺ - :

أغرُّ كأن البدرَ سنَّةُ وجهه جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا

وقيل مسنون : أى مصبوب ، من سنَّ الماء بمعنى صبه . ويقال شَنَّ - بالشين أيضًا - ؛ أى : مفرغ على هيئة الإنسان ... وقيل : المسنون : المنتن ... »[١] .

والذى يتدبر القرآن الكريم يرى أن الله - تعالى - قد وضح فى آيات متعددة أطوار خلق آدم - عليه السلام - ، فقد بين فى بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ... ﴾[٢] .

وبين فى آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾[٣] .

وبين هنا أنه - سبحانه - خلقه ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

قال الجمل : وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية ، وأول ابتدائه أنه كان ترابا متفرق الأجزاء ، ثم بُلَّ - أى التراب - فصار طينا ، ثم ترك حتى أنتن وأسود فصار حمأ مسنونا .

أى : متغيرا ، ثم يبس فصار صلصالاً ، وعلى هذه الأحوال والأطوار تتخرج الآيات الواردة فى أطواره الطينية ، كآية خلقه من تراب ، وآية ﴿ بشرا من طين ﴾[٤] وهذه الآية التى نحن فيها »[٥] .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة ، التنبيه على عجيب صنع الله - تعالى - وعظيم قدرته ، حيث أخرج - سبحانه - من هذه المواد بشرا سويا ، فى أحسن تقويم .

وأكد - سبحانه - الجملة الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة التحقيق ، وللإرشاد إلى أهمية هذا الخلق ، وأنه بهذه الصفة .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من صلصال ﴾ لابتداء الغاية أو للتبعيض ، وفى قوله ﴿ من حمأ ﴾ ابتدائية .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٣١ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .
(٣) سورة السجدة الآية ٧ .
(٤) سورة ص الآية ٧١ .
(٥) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٤٣ .

والجار والمجرور صفة لصلصال أى : من صلصال كائن من حمأ ، ومسنون صفة لحمأ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك المادة التى خلق منها الجان فقال - سبحانه - : ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

والمراد بالجان هنا : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقيل هو إبليس . وقيل هو اسم لجنس الجن . وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، واستتاره عن بنى آدم .

أى : والجان خلقناه ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل خلق آدم ﴿ من نار السموم ﴾ أى : من الريح الحارة التى تقتل . وسميت سمومًا ، لأنها لشدة حرارتها ، وقوة تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .

قال ابن كثير : وقد ورد فى الحديث الصحيح : « خُلِقت الملائكة من نور ، وخُلِقت الجان من مارج من نار ، وخُلق بنو آدم مما وصف لكم »[١] .

ثم حكى - سبحانه - ما أمر به ملائكته عندما توجهت إرادته - سبحانه - لخلق آدم ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين ﴾ .

أى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال ربك - سبحانه - للملائكة - الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - ﴿ إنى خالق ﴾ بقدرتى ﴿ بشرا ﴾ أى : إنسانا ، وعبر عنه بذلك اعتبارا بظهور بشرته وهى ظاهر الجلد ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

﴿ فإذا سويته ﴾ أى : سويت خلق هذا البشر ، وكملت أجزاءه ، وجعلته فى أحسن تقويم ...

﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ أى : وضعت فيه ما به حياته وحركته وهو الروح ، الذى لا يعلم حقيقته أحد سواى .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشىء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥١ .

إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه - سبحانه - إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ، كقوله ، أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله ...[١] .

وقوله ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ أمر منه - سبحانه - للملائكة بالسجود لآدم .

أى : فإذا سويت خلقه ، وأفضت عليه ما به حياته ، فاسقطوا وخروا له ساجدين ، سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة ، فإن سجود العبادة لى وحدى .

وقال - سبحانه - ﴿ فقعوا .. ﴾ بفاء التعقيب ، للإشعار بأن سجودهم له واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير إبطاء أو تأخير .

وهذا نوع من تكريم الله - تعالى - لعبده آدم - عليه السلام - ، وله - سبحانه - أن يكرم بعض عباده بما يشاء ، وكيف شاء .. ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[٢].

ثم بين - سبحانه - ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ أى : امتثل الملائكة لأمر الله بعد أن خلق - سبحانه - آدم وسواه ونفخ فيه من روحه ، فسجدوا له كلهم أجمعون دون أن يتخلف منهم أحد .

وجمع - سبحانه - بين لفظى التوكيد ﴿ كلهم أجمعون ﴾ للمبالغة فى ذلك ، ولإزالة أى التباس بأن أحدًا شذ عن طاعة الله - تعالى - .

وقوله ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ بيان لموقف إبليس من أمر الله - تعالى - . وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس ، وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمى ، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة . وهو كائن حى ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس ، لأنه ليس من المعقول أن يكون الأمر كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه .

قال - تعالى - ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ... ﴾[٣] .

وقوله ﴿ أبى ﴾ من الإباء وهو الامتناع عن فعل الشىء مع القدرة على فعله ، بسبب الغرور والتكبر والتعاظم .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢٥ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

أى : فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، امتثالاً وطاعة لله - تعالى - ، إلا إبليس فإنه امتنع عن أن يكون مع الساجدين . تكبرا وغرورا وعصيانًا لأمر الله - تعالى - .

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة، أم لا، قولان :

أحدهما : أنه كان منهم ، لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لما كان عاصيًا ، ولما استحق الطرد واللعنة ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلاً تحت اسم المستثنى منه ، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه . وعلى هذا الرأى الذى اختاره ابن عباس وابن مسعود وغيرهما يكون الاستثناء متصلاً .

والثانى : أنه لم يكن من الملائكة ، لقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه .. ﴾[1] فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم ..

وعلى هذا الرأى الذى اختاره الحسن وقتادة وغيرهما يكون الاستثناء منقطعًا .

قال الشيخ القاسمى : « وقد حاول الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله فإن أصله من نار وأصل الملائكة من نور ، فالنافى كونه من الملائكة والمثبت كونه منهم لم يتواردا على محل واحد »[2] .

والذى نميل إليه فى هذه المسألة أن إبليس لم يكن من الملائكة ، بدليل الحديث الصحيح الذى يقول فيه النبى - ﷺ - : « خلقت الملائكة من نور . وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم »[3] والآية الكريمة - وهى قوله - تعالى - ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ صريحة فى أنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة .

ومع هذا فإن الأمر بالسجود يشمله ، بدليل قوله - تعالى - ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٠ .

(٢) تفسير القاسمى ج ٢ص ١٠٤ .

(٣) صحيح مسلم « كتاب الزهد » باب فى أحاديث متفرقة ج ٨ ص ٢٢٧ .

أمرتك ... ﴾[١] .

فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الله - تعالى - قد أمر إبليس بالسجود لآدم ...

ووجود إبليس مع الملائكة لا يستلزم أن يكون منهم ، ومثل ذلك كمثل أن تقول : حضر بنو فلان إلا محمدا ، ومحمد ليس من بنى فلان هؤلاء ، وإنما هو معهم بالمجاورة أو المصاحبة أو غير ذلك .

هذا ما نختاره ونميل إليه ، إستنادًا إلى ظاهر الآيات وظاهر الأحاديث ، والله - تعالى - أعلم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ بيان لما وبخ الله - تعالى - به إبليس ، ولرد إبليس - لعنه الله - على خالقه - عز وجل - .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والزجر : أى سبب حملك على مخالفة أمرى ، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له ؟

فكان رد إبليس : ما كان ليليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد مع الساجدين لبشر خلقته - أيها الخالق العظيم - من صلصال من حمأ مسنون .

ومقصود إبليس بهذا الرد إثبات أنه خير من آدم ، كما حكى عنه - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[٢] .

وهذا الرد منه يدل على عصيانه لأمر ربه ، وعدم الرضا بحكمه ، وسوء أدبه مع خالقه - سبحانه - .

قال الآلوسى : وقد أخطأ اللعين حيث ظن أن الفضل كله باعتبار المادة ، وما درى أنه يكون باعتبار الفاعل ، وباعتبار الصورة ، وباعتبار الغاية ، بل إن ملاك الفضل والكمال هو التخلى عن الملكات الردية ، والتحلى بالمعارف الربانية .

فشمال والكأس فيها يمين ويمين لا كأس فيها شمال[٣]

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾ بيان للحكم العادل الذى أصدره الله - تعالى - على إبليس .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢ .

(٢) سورة ص الآية ٧٦ .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٣ .

والضمير فى قوله : « منها » يعود إلى السماء لأنها مسكن الطائعين الأخيار ، أو إلى الجنة لأنها لا يسكنها إلا من أطاع الله - تعالى - ، أو إلى المنزلة التى كان فيها قبل طرده من رحمة الله .. أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر والتحقير : فاخرج من جنتى ومن سمائى فإنك ﴿ رجيم ﴾ مطرود من كل خير وكرامة ، وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتى إلى يوم الدين ، وهو يوم الحساب والجزاء .

وليس المراد أن تنقطع عنه اللعنة يوم الدين ، بل المراد أن هذه اللعنة مستمرة عليه إلى يوم الدين ، فإذا ما جاء هذا اليوم استمرت هذه اللعنة ، وأضيف إليها العذاب الدائم المستمر الباقى ، بسبب عصيانه لأمر ربه ، فذكر يوم الدين ، إنما هو للمبالغة فى طول مدة هذه اللعنة ودوامها ما دامت الحياة الدنيا .

وعبر - سبحانه - بعلى فى قوله ﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ للاشعار بتمكنها منه ، واستعلائها عليه ، حتى لكأن اللعنة فوقه يحملها دون أن تفارقه فى لحظة من اللحظات .

ثم حكى - سبحانه - ما طلبه إبليس من ربه ، ومارد الله به عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فأنظرنى ﴾ للتفريع وهى متعلقة بمحذوف يدل عليه سياق الكلام .

والإنظار : التأخير والإمهال ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ ..

أى : قال إبليس لربه . عز وجل : ما دمت قد أخرجتنى من جنتك ومن سمائك ، وجعلتنى مرجومًا ملعونًا إلى يوم الدين ، فأخر موتى إلى يوم يبعث آدم وذريته للحساب وخاطب الله - تعالى - بصفة الربوبية تخضعا وتذللا لكى يجاب طلبه .

وقد أجاب الله - تعالى - له طلبه فقال : ﴿ فإنك ﴾ يا إبليس من جملة ﴿ المنظرين ﴾ أى الذين أخرت موتهم ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهو يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته ، والذى وصفت أحواله للناس . كى يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح .

ويصح أن يكون المراد بالوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق ويموت هو معهم .

قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف . ولا ممانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

وقال بعض العلماء : وهذا الإنظار رمز إلهى على أن ناموس الشر لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر ، وبين الأخيار والأشرار .

قال - تعالى -: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق...﴾[1].

ولذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدل والصلاح ، وإيداعها إلى الكفاة لتنفيذها والذود عنها »[2] .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت إبليس على طلب تأخير موته إلى يوم القيامة ، والتى من أهمها الانتقام من آدم وذريته فقال - تعالى - : ﴿ قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

والباء فى قوله ﴿ بما أغويتنى لأزينن لهم .. ﴾ للسببية أو للقسم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى : بسبب كونى غاويا لأزينن لهم كقول القائل : أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار ، وبطاعته ليدخلن الجنة .

أو للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم . والمعنى أقسم بإغوائك لى لأزينن لهم . ونظيره قوله - تعالى - ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾[3] .

وقوله ﴿ أغويتنى ﴾ من الإغواء ، وهو خلق الغى فى القلوب . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل - كرضى - إذا بشم من اللبن ففسدت معدته . أو منع من الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال . يقال : غوى فلان يغوى غيا وغواية فهو غاو إذا ضل عن الطريق المستقيم . وأغواه غيره وغواه : أضله .

وقوله ﴿ لأزينن لهم ﴾ من التزيين بمعنى التحسين والتجميل ، وهو تصيير الشى زينًا ، أى : حسنًا حتى ترغب النفوس فيه وتقبل عليه .

والضمير فى ﴿ لهم ﴾ يعود على ذرية آدم ، وهو مفهوم من السياق وإن لم يجر لهم ذكر ، وقد جاء ذلك صريحًا فى قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾[4] .

وحذف مفعول ﴿ لأزينن ﴾ لدلالة المقام عليه .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٤٩ .
(٣) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٨٥ .
(٤) سورة الأسراء الآية ٦٣ .

أى : لأزينن لهم المعاصى والسيئات ، بأن أحسن لهم القبيح . وأزين لهم المنكر . وأحبب الشهوات إلى نفوسهم حتى يتبعوها ، وأبذل نهاية جهدى فى صرفهم عن طاعتك ... وقال - سبحانه - ﴿ فى الأرض ﴾ لتحديد مكان إغوائه ، إذ هى المكان الذى صار مستقرًا له ولآدم وذريته ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ - أى الجنة - فأخرجهما - أى آدم وحواء - مما كانا فيه ، ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[١] .

وقوله ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ مؤكدًا لما قبله .

أى : والله لأغوينهم جميعًا مادمت قادرًا على ذلك ، ولأعملن على إضلالهم بدون فتور أو يأس ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[٢] .

قال القرطبى : وروى ابن لهيعة عبد الله عن دراج أبى السمح ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن إبليس قال يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

وقوله - سبحانه - ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ اعتراف من إبليس بأن من عباد الله - تعالى - قومًا لا يستطيع أن يغويهم ، ولا يقدر على إضلالهم .

وكلمة «المخلصين» قرأها نافع وحمزة وعاصم والكسائى- بفتح اللام- ، فيكون المعنى : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك الذين استخلصتهم لطاعتك ، وصنتهم عن اقتراف ما نهيتهم عنه .

وقرأها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو - بكسر اللام - ، فيكون المعنى : لأضلنهم جميعًا ، إلا عبادك الذين أخلصوا لك العمل ، وابتعدوا عن الرياء فى أقوالهم وأفعالهم .

وهذا الاستثناء الذى اعترف به إبليس بعد أن أدرك أنه لا محيص له عنه - هو سنة الله - تعالى - فى خلقه ، فقد جرت سنته التى لا تغيير ولا تبديل لها ، بأن يستخلص لذاته من يخلص له قلبه ، وأن يرعى من يرعى حدوده ، ويحفظ من يحفظ تكاليفه ، ولذا كان جوابه

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية١٧ .

- سبحانه - على إبليس ، هو قوله - تعالى - ﴿ قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

واسم الاشارة ﴿ هذا ﴾ يعود إلى الاستثناء السابق وهو قوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

وقد اختار هذا الرأى الإمام الآلوسى فقال : قال الله - تعالى - ﴿ هذا صراط على ﴾ أى : حق لابد أن أراعيه ﴿ مستقيم ﴾ لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره .

والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخليص المخلصين من إغوائه وكلمة على تستعمل فى الوجوب . والمعتزلة يقولون به حقيقة لقولهم بوجوب الأصلح عليه - تعالى - .

وقال أهل السنة ، إن ذلك وإن كان تفضلاً منه - سبحانه - إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكد ثبوته وتحقق وقوعه ، بمقتضى وعده - عز وجل - ، فجىء بعلىً لذلك » .

ثم قال : وقرأ الضحاك ومجاهد ويعقوب .. ﴿ وهذا صراط عَلِيٌّ ﴾ - بكسر اللام وضم الياء المشددة وتنوينها - أى : عال لارتفاع شأنه »[١] .

وقد اختار صاحب الكشاف عودة اسم الإشارة إلى ما بعده فقال : قال الله - تعالى - ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ أى هذا طريق حق على أن أراعيه ، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادى ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته[٢] .

ويرى ابن جرير أن على هنا بمعنى إلى ، فقد قال - رحمه الله - قوله - تعالى - ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ بمعنى هذا طريق إلى مستقيم .

فكان معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلى ، فأجازى كلا بأعمالهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده : طريقك على وأنا على طريقك ، فكذلك قوله ﴿ هذا صراط ﴾ معناه : هذا طريق علىّ وهذا طريق إلى ... »[٣] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة مسوقة لبيان المنهاج القويم الذى كتبه الله - تعالى - على نفسه فضلاً منه وكرمًا ، والميزان العادل الذى وضعه - سبحانه - لتمييز الخبيث من الطيب .

فكأنه - سبحانه - يقول فى الرد على إبليس الذى اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٦ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩١ .
(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٣٣ .

عباد الله : يا إبليس ، إن عدم قدرتك على إغواء عبادى المخلصين منهج قويم من مناهجى التى اقتضتها حكمتى وعدالتى ورحمتى ، وسنة من سننى التى آليت على نفسى أن ألتزم بها مع خلقى . إن عبادى المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم ، لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك . أسرعوا بالتوبة الصادقة إلى ، فقبلتها منهم . وغفرت لهم زلتهم ... ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم ؛ فانقادوا لك ...

وفى هاتين الآيتين ما فيهما من التنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المديح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المنزلة ، وصدق العزيمة ؛ وضبط النفس ...

قال - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[1] .

قال الآلوسى وقوله : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ... ﴾ أى تصرف وتسلط ، والمراد بالعباد ؛ المشار إليهم بالمخلصين ، فالإضافة للعهد والاستثناء على هذا فى قوله ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ منقطع .

واختار هذا غير واحد ... وجوز أن يكون بالعباد العموم والاستثناء متصل ، والكلام كالتقرير لقوله إلا عبادك منهم المخلصين ، ولذا لم يعطف على ما قبله ، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين ، بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء ... »[2] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المتبعين لإبليس فقال : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ لموعدهم ﴾ يعود إلى الغاوين ، أو إلى ﴿ من اتبعك ﴾ والموعد : مكان الوعد .

والمراد به هنا المكان الذى سينتهون إليه حتمًا بعد أن كانوا غافلين عنها فى الدنيا ، وهو جهنم أى وإن جهنم لمكان محتوم لهؤلاء الذين أغواهم إبليس دون أن يفلت أحد من سعيرها .

وجملة « لها سبعة أبواب » مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها .

وجملة « لكل باب منهم جزء مقسوم » صفة لأبواب ، وضمير « منهم » يعود إلى الغاوين أتباع إبليس .

والمقسوم : من القَسْمِ وهو إفراز النصيب عن غيره تقول : قسمت كذا قسمًا وقسمة إذا ميزت كل قسم عن سواه .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٥ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٧ .

والمعنى : إن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منها ، فريق معين من الغاوين يدخلون منه ، على حسب تفاوتهم فى الغواية وفى متابعة إبليس ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات .

أى لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض ، ينزلها الغاوون ، بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم فى الغى والضلال .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أى : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس ، يدخلونه لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر فى درك بقدر فعله .... ثم قال : وعن عمرة بن جندب - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - فى قوله ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال : « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته[1] ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه ... »[2] .

وبعد : فهذه قصة خلق الإنسان ، وقصة خلق الجان - كما بينتها هذه السورة الكريمة - ومن الدروس والعظات التى نأخذها منها :

١ - دلالتها على كمال قدرة الله - تعالى - ، وبديع خلقه ، وبليغ حكمته ، حيث خلق - سبحانه - الإنسان من مادة تختلف عن المادة التى خلق منها الجان ، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى .. ﴾ .

وهذه الخاصية هى التى تجعل من هذا الإنسان ، إنسانًا ينفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى التى تشاركه فى هذه الحياة ..

٢ - أن خلق الجان سابق على خلق الإنسان ، بدليل قوله - تعالى - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

٣ - أن الملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهم بمجرد أن أمرهم الله - تعالى - بالسجود لآدم ، سجدوا جميعًا دون أن يشذ منهم أحد .

---

(١) الحجزة بضم الحاء وسكون الجيم معقد الازار .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٥ .

٤ - أن الإصرار على معصية الله - تعالى - يؤدى إلى الطرد من رحمته - سبحانه - ومن الخروج من رضوانه ومغفرته .

٥ - أن التكبر والغرور والحسد ، من أبرز الصفات الذميمة التى حملت إبليس على الامتناع عن السجود لآدم ، وعلى مخالفة أمر ربه - عز وجل - .

٦ - أن إجابته - سبحانه - لطلب إبليس فى تأخير موته ، لم يكن لكرامة له عنده - عز وجل - ، وإنما كان استدراجًا له وإمهالاً ، وابتلاء لبنى آدم ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

٧ - أن العدواة بين إبليس وقبيله ، وبين آدم وذريته ، باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن إبليس وجنوده لم ولن يتركوا بابا من أبواب الشر إلا وزينوه وجملوه لبنى آدم ، وحرضوهم على الدخول فيه ، ليكتسبوا السيئات التى نهاهم الله - تعالى - عنها .

قال - تعالى - ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[1].

٨ - أن عدالة الله - تعالى - ورحمته قد اقتضت أن يحمى عباده المخلصين من تسلط الشيطان عليهم ، لأنهم منه فى حمى ، ولأن مداخله إلى نفوسهم مغلقة ، إذ أنهم خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ..

أما الذين يستطيع الشيطان التسلط عليهم ، والتأثير فيهم ، فهم أولئك الذين انقادوا لوساوسه ، واستجابوا لنزعاته ، وصاروا مطية له يسخرها كما يشاء ...

وهؤلاء هم الذين تنتظرهم جهنم بأبوابها السبعة ..

قال - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

هذه هى عاقبة الغاوين أتباع إبليس ، أما عاقبة المخلصين الذين أخلصوا نفوسهم لله - تعالى - وأطاعوه فى السر والعلن ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله :

---

(١) سورة فاطر الآية ٦ .

إِنَّ
ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ إن المتقين ... ﴾ كلام مستأنف لإظهار حسن عاقبة المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة الغاوين .

والمتقون : جمع متق اسم فاعل من اتقى . وأصله اوتقى - بزنة افتعل - من وقى الشيء وقاية ، أى : صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه .

والجنات : جمع جنة ، وهى كل بستان ذى شجر متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته ويستره . من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة ..

والمراد بها هنا الدار التى أعدها الله - تعالى - لتكريم عباده المؤمنين فى الآخرة .

والعيون جمع عين . والمقصود بها هنا المياه المنتشرة فى الجنات .

والمعنى : « إن المتقين » الذين صانوا أنفسهم عن الشرك . وقالوا ربنا الله ثم استقاموا « فى جنات » عالية ، فيها ما تشتهيه الأنفس ، وفيها منابع للماء تلذ لها الأعين .

وجملة « ادخلوها بسلام آمنين » معمولة لقول محذوف . والباء فى قوله « بسلام » للمصاحبة .

أى : وتقول لهم الملائكة - على سبيل التكريم - والتحية - لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنات واستقرارهم فيها : ادخلوها - أيها المتقون - تصاحبكم السلامة من الآفات ، والنجاة من المخافات .

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه فى الجنة من صفاء نفسى ، ونقاء قلبى فقال : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ .

والنزع : القلع يقال : نزع فلان هذا الشيء من مكانه إذا قلعه منه ، وفعله من باب ضرب والغل : الحقد والضغينة ، وأصله من الغلالة ، وهى ما يلبس بين الثوبين : الشعار والدثار .

أو من الغلل وهو الماء المتخلل بين الأشجار . ويقال : غلّ صدر فلان يغل - بالكسر - غلا إذا كان ذا غش ، أو ضغن ، أو حقد .

والسرر : جمع سرير وهو المكان المهيأ لراحة الجالس عليه وإدخال السرور على قلبه .

أى : وقلعنا ما فى صدور هؤلاء المتقين من ضغائن وعداوات كانت موجودة فيها فى الدنيا ، وجعلناهم يدخلون الجنة إخوانًا متحابين متصافين ، ويجلسون متقابلين ، على سرر مهيأة لراحتهم ورفاهيتهم وإدخال السرور على نفوسهم .

وقوله : ﴿ إخوانًا على سرر متقابلين ﴾ حال عن فاعل ﴿ ادخلوها ﴾ .

وعبر بقوله ﴿ متقابلين ﴾ لأن مقابلة الوجه للوجه أدخل فى الإيناس ، وأجمع للقلوب .

والآية الكريمة تشعر بأنهم فى الجنة ينشئهم الله - تعالى - نشأة أخرى جديدة وتكون قلوبهم فيها خالية من كل ما كان يخالطهم فى الدنيا من ضغائن وعداوات وأحقاد وأطماع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، ويصلون بسبب هذه النشأة الجديدة إلى منتهى الرقى البشرى ...

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث والآثار منها ما رواه القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل ، ثم قرأ : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل .. ﴾ .

ومنها : ما رواه أبو مالك الأشجعى عن أبى حبيبة - مولى لطلحة - قال : دخل عمران بن طلحة على الإمام على بن أبى طالب بعد ما فرغ من أصحاب الجمل ، فرحب على - رضى الله عنه - به ، وقال : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ... ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - بيان جزائهم بقوله : ﴿ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ .

والنصب : التعب والإعياء . يقال : نصب الرجل نصبا - من باب طرب - إذا نزل به التعب والهم . ويقال فلان فى عيش ناصب ، أى فيه كد وجهد .

قال ابن كثير قوله - تعالى - : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ يعنى مشقة وأذى كما جاء فى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٩ وابن جرير ج ١٤ ص ٣٦ .

الصحيحين ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وقوله ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ - بل هم باقون فى الجنات بقاء سرمديا دائمًا لا ينقطع - كما جاء فى الحديث : «يقال- لأهل الجنة- يا أهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدًا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدًا »[1] .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على بشارات للمؤمنين الصادقين ، هذه البشارات مقرونة بالتعظيم ، خالية من الشوائب والأضرار ، باقية لا انقطاع لها .

أما البشارات فتراها فى قوله - تعالى - ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ .

وأما اقترانها بالتعظيم والتكريم ، فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ .

وأما خلوها من الشوائب والأضرار ، فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا ... ﴾ .

وأما بقاؤها واستمرارها ، فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ .

هذا ، وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ... ﴾[2] .

وقوله - تعالى - ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٢) سورة الذاريات الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٤) سورة فاطر الآيتان ٣٤ ٣٥ .

(٥) سورة الكهف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

ثم بين - سبحانه - نماذج لمن شملتهم رحمته لإيمانهم وعملهم الصالح ، ولمن شملتهم نقمته لكفرهم وعملهم الطالح ، ومن هذه النماذج تبشيره لإبراهيم - وهو شيخ كبير - بغلام عليم ، وإنجاؤه لوطا ومن آمن معه من العذاب المهين ، وإهلاكه المجرمين من قومه .. قال - تعالى - :

۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ
مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ نبىء عبادى .. ﴾ للرسول - ﷺ - والنبأ : الخبر العظيم . والمراد « بعبادى » : المؤمنون منهم ، والإضافة للتشريف .

أى : أخبر - أيها الرسول الكريم - عبادى المؤمنين أنى أنا الله - تعالى - الكثير المغفرة لذنوبهم ، الواسع الرحمة لمسيئهم ، وأخبرهم - أيضا - أن عذابى هو العذاب الشديد

الإيلام ، فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ، لكى يظفروا بمغفرتى ورحمتى ، وينجو من عذابى ونقمتى .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته - سبحانه - فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه - سبحانه - به .

وقدم - سبحانه - نبأ الغفران والرحمة ، على نبأ العذاب والانتقام ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

والضمير « أنا » و « هو » فى الآيتين الكريمتين ، للفصل ؛ لإفادة تأكيد الخبر.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى الآيتين لطائف :

إحداها : أنه أضاف - سبحانه - العباد إلى نفسه بقوله ﴿ عبادى ﴾ وهذا تشريف عظيم لهم ...

وثانيها . أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله ﴿ أنى ﴾ وثانيها قوله ﴿ أنا ﴾ ، وثالثها . إدخال حرف الألف واللام على قوله ﴿ الغفور الرحيم ﴾ ، ولما ذكر العذاب لم يقل : إنى أنا المعذب ، بل قال ﴿ وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ .

وثالثها : أنه أمر رسوله - ﷺ - أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكأنه أشهده على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة .

ورابعها : أنه لما قال ﴿ نبىء عبادى ﴾ كان معناه نبىء كل من كان معترفًا بعبوديتى ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع . فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله - تعالى - »[1] .

وقال الآلوسى : وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : إن الله - تعالى - خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله - تعالى - من العذاب ، لم يأمن من النار » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤٩ ص ٥٥ .

وأخرج عبد بن حميد وجماعة عن قتادة أنه قال فى الآية : بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله - تعالى - لما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه »[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... ﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿ نبىء عبادى ... ﴾ .

قال الجمل : وأصل الضيف : الميل ، يقال أضفت إلى كذا إذا ملت إليه . والضيف من مال إليك نزولاً بك ، وصارت الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى غالب كلامهم . وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف ...[٢] .

والمراد بضيف إبراهيم هنا : الملائكة الذين نزلوا عنده ضيوفًا فى صورة بشرية ، وبشروه بغلام عليم ، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط لإهلاكهم ...

ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا .. ﴾ .

والظرف « إذ » منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر .

أى : ونبئهم - أيضًا - أيها الرسول الكريم - عن ضيف إبراهيم ، وقت أن دخلوا عليه ، فقالوا له على سبيل الدعاء أو التحية ﴿ سلاما ﴾ أى : سلمت سلاما . أو سلمنا سلاما .

فلفظ « سلاما » منصوب بفعل محذوف .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ بيان لما رد به إبراهيم - عليه السلام - على الملائكة .

و « وجلون » جمع وجل ، والوجل : اضطراب يعترى النفس لتوقع حدوث مكروه .

يقال : وجل الرجل وجلا فهو وجل إذا خاف .

أى : قال لهم إبراهيم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية إنا منكم خائفون .

وقال « إنا منكم ... » بصيغة الجمع ، لأنه قصد أن الخوف منهم قد اعتراه هو ، واعترى أهله معه .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٥٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٤٨ .

وكان من أسباب خوفه منهم ، أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير وقت الزيارة وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه إليهم ..

هذا ، وقد ذكر - سبحانه - فى سورة الذاريات أنه رد عليهم السلام فقال - تعالى - ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ﴾[1] .

كما بين - سبحانه - فى سورة هود أن من أسباب خوفه منهم ، عدم أكلهم من طعامه . قال - تعالى - : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... ﴾[2]. أى خاف إبراهيم لما رأى أيدى الضيف لا تصل إلى طعامه .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - : ﴿ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم على سبيل البشارة وإدخال السرور على قلبه : لا تخف منا يا إبراهيم ، إنا جئنا إليك لنبشرك بغلام ذى علم كثير بشريعة الله - تعالى - وبأوامره ونواهيه ، وهو إسحق - عليه السلام - .

وجملة « إنا نبشرك .. » مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل .

وقد حكى - سبحانه - هنا أن البشارة كانت له ، وفى سورة هود أن البشارة كانت لامرأته ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معًا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين بأن بشروه هو أولاً ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضًا ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ... ﴾[3] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشروه بهذا الغلام العليم ، فقال - تعالى - ﴿ قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ﴾.

والاستفهام للتعجب . كأنه عجب من أن يرزقه الله - تعالى - بغلام عليم بعد أن مسه الكبر ، وبلغ سن الشيخوخة .

و « على » بمعنى مع ، والمس : اتصال شىء بآخر على وجه الإحساس والإصابة .

---

(١) الآيتان ، ٢٤، ٢٥ .

(٢) الآية ٧٠ .

(٣) سورة هود الآية ٧١ .

أى : قال إبراهيم للملائكة ، بعد أن بشروه بالولد ، أبشرتمونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترتنى فبأى شىء عجيب قد بشرتمونى .

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله - تعالى - ونفاذ أمره ، حيث وهبه هذا الغلام فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتى جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد .

وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم فى قوله - تعالى - ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشىء عجيب .. ﴾[١] .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والسبب فى هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة ...

وهناك جواب آخر ، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة فى شىء ، وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه ، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله ازداد فرحه وسروره ، ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له وربما يجعله هذا الفرح يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ، طلبا للالتذاذ بسماعها ... »[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ .

أى : قال الملائكة لإبراهيم لزيادة اطمئنانه ، ولتأكيد بشارته بالغلام العليم :

يا إبراهيم إنا بشرناك بالأمر المحقق الوقوع ، وباليقين الذى لا خلف معه ، وهو أن الله - تعالى - سيهبك الولد مع تقدم سنك وسن زوجك ، فلا تكن من الآيسين من رحمة الله - تعالى - فإن قدرته - عز وجل - لا يعجزها شىء .

وهنا دفع إبراهيم - عليه السلام - عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة الله . فقال على سبيل الإنكار والنفى ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله ، لأنه لا ييأس من رحمة الله - تعالى - إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب ، الذين لا يعرفون سعة رحمته - تعالى - ونفاذ قدرته ، ولكن هذه البشارة العظيمة - مع تقدم سنى وسن زوجى - هى التى جعلتنى - من شدة الفرح والسرور - أعجب من كمال قدرة الله - تعالى - ، ومن جزيل عطائه ، ومن سابغ منه ، حيث رزقنى الولد فى هذه السن التى جرت العادة بأن لا يكون معها إنجاب أو ولادة .

---

(١) سورة هود الآية ٧٢ .
(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٩٧ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله إبراهيم للملائكة ، بعد أن اطمأن إليهم ، فقال : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ .

والخطب : مصدر خطب يخطب ، ومنه قولهم : هذا خطب يسير ، وخطب جلل ، وجمعه خطوب ، وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور . وأصله الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب ويخطب له .

أى : قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة على سبيل الاستيضاح بالتفصيل عن سبب مجيئهم : فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلينا سوى هذه البشارة . وكأنه قد فهم أن مجيئهم إليه ليس لمجرد البشارة ، بل من وراء البشارة أمر آخر جاءوا من أجله .

وهنا بادره الملائكة بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ . أى : قالوا له إنا أرسلنا - بأمر الله - تعالى - إلى قوم شأنهم الإجرام ، ودأبهم الفجور ، والمراد بهم قوم لوط - عليه السلام - وكانوا يسكنون مدينة « سدوم » بمنطقة وادى الأردن وقوله ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ استثناء من القوم المجرمين الذين أرسل الملائكة لإهلاكهم .

والمراد بآل لوط : أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه . ولم يشاركوا قومهم فى كفرهم وشذوذهم .

أى : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم ، إلا من آمن منهم فإنا لمنجوهم أجمعين .

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : فإن قلت : قوله - تعالى - ﴿ إلا آل لوط ﴾ استثناء متصل أم منقطع ؟

قلت : لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعًا ، لأن القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان ، وأن يكون استثناء من الضمير فى ﴿ مجرمين ﴾ فيكون متصلًا ، كأنه قيل : قد أرسلنا إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ .

فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم ، وذلك أن آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلًا ... كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم .

وأما فى المتصل ، فهم داخلون فى حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا هؤلاء ، وينجوا هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصًا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما فى الوجه الأول »[١] ...

وقوله - سبحانه - ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ استثناء من الضمير فى ﴿ لمنجوهم ﴾ ، إخراجا لها من التنجية . أى : إلا امرأة لوط - عليه السلام - فليست ممن سننجيه ، بل هى ممن سنهلكه مع القوم المجرمين .

ومعنى (قدرنا) : قضينا وحكمنا .

والغابر : الباقى . يقال غبر الشىء غبورًا إذا بقى وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع . وقد يستعمل فى الماضى فيكون هذا اللفظ من الأضداد .

ونسب الملائكة التقدير إليهم فقالوا ﴿ إلا امرأته قدرنا ... ﴾ مع أنه فعل الله - تعالى - ، لما لهم من الزلفى عنده - سبحانه - ، ولأنهم ما أرسلوا لإهلاك المجرمين وإنجاء المؤمنين إلا بأمره .

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن قوله - تعالى - ﴿ إلا امرأته قدرنا ... ﴾ من كلام الملائكة ، وأسندوا التقدير إلى أنفسهم - وهو فعل الله - سبحانه - لما لهم من القرب والاختصاص ، وهذا كما يقول أحد حاشية السلطان: أمرنا بكذا.. والآمر فى الحقيقة هو السلطان . وقيل - ولا يخفى بعده - : هو من كلام الله - تعالى - فلا يحتاج إلى تأويل ، وكذا لا يحتاج إلى تأويل إذا أريد بالتقدير العلم .

قال بعض العلماء : وفى هذه الآية الكريمة دليل واضح لما حققه علماء الأصول من جواز الاستثناء من الاستثناء ، لأنه - تعالى - استثنى آل لوط من إهلاك المجرمين بقوله ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ ثم استثنى من هذا الاستثناء امرأة لوط بقوله ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾[٢] .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، ما دار بين إبراهيم وبين

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٣ .
(٢) تفسير (أضواء البيان) ج ٣ ص ١٥٥ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

الملائكة الذين جاءوا لتبشيره بغلام عليم ، وإخباره بإهلاك القوم المجرمين ، وهم قوم لوط - عليه السلام - ..

ثم حكت السورة بعد ذلك ما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - بعد أن جاءوا إليه ، وما دار بين لوط - عليه السلام - وبين قومه المجرمين من مجادلات ومحاورات ، وما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب جعل أعلى مدينتهم أسفلها .. فقال - تعالى - :

فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ
وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)
قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤)

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط . ووضع الظاهر موضع الضمير ، للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق

ما أرسلوا به من ذلك ﴾[١] .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير : وخرج الملائكة من عند إبراهيم - بعد أن بشروه بغلامه، وبعد أن أخبروه بوجهتهم - فاتجهوا إلى المدينة التى يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه . فلما دخلوا عليه قال لهم : « إنكم قوم منكرون » .

أى : إنكم قوم غير معروفين لى ، لأنى لم يسبق لى أن رأيتكم ، ولا أدرى من أى الأقوام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذى من أجله أتيتم ، وإن نفسى ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندى ...

ويبدو أن لوطًا - عليه السلام - قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس ، لأنه يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يعلموا بوجود هؤلاء الضيوف أصحاب الوجوه الجميلة عنده ، فيعتدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم ...

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسى ، الذى اعترى لوطا بسبب وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعًا ، وقال هذا يوم عصيب ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ مع أن المجىء كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه ، تشريفًا وتكريمًا للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ .

حكاية لما رد به الملائكة على لوط ، لكى يزيلوا ضيقه بهم ، وكراهيته لوجودهم عنده .

وقوله ﴿ يمترون ﴾ من الامتراء ، وهو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الإمام الفخر الرازى - مأخوذ من قول العرب : مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها ، فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء ، كاللبن الذى يجتذب عند الحلب . يقال : قد مارى فلان فلانا ، إذا جادله كأنه يستخرج غضبه »[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٦٢ .
(٢) سورة هود الآية ٧٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٨٠ .

أى : قال الملائكة للوط لإدخال الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك ، وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون فى وقوعه ، وهو العذاب الذى كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا فى كفرهم وفجورهم ...

وإنا ما أتيناك إلا بالأمر الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ولا تردد ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومك ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه لك ، وأخبرناك به ، فكن آمنًا مطمئنًا .

فالاضراب فى قوله ﴿ قالوا بل جئناك ... ﴾ إنما هو لإزالة ما وقر فى قلب لوط - عليه السلام - تجاه الملائكة من وساوس وهواجس .

فكأنهم قالوا له : نحن ما جئناك بشىء تكرهه أو تخافه .. وإنما جئناك بما يسرك ويشفى غليلك من هؤلاء القوم المنكوسين .

وعبر عن العذاب بقوله ﴿ بما كانوا فيه يمترون ﴾ زيادة فى إدخال الأنس على نفسه وتحقيقًا لوقوع العذاب بهم .

وقوله ﴿ وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ تأكيد على تأكيد .

وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تشعر بأن لوطا - عليه السلام - كان فى غاية الهم والكرب لمجىء الملائكة إليه بهذه الصورة التى تغرى المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له فى أسمى درجات البلاغة ، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله - تعالى - بإخباره به ، وهو قوله - تعالى - ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون ﴾ .

قال القرطبى : قوله ﴿ فأسر .. ﴾ قرىء فاسر وقرىء فأسر ، بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . قال - تعالى - ﴿ والليل إذا يسر .. ﴾ وقال : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا .. ﴾ . وقيل : فأسر تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٧٩ .

وقوله ﴿ بقطع من الليل .. ﴾ أى : بجزء من الليل . والمراد به الجزء الأخير منه .

أى : قال الملائكة للوط - عليه السلام - بعد أن أزالوا خوفه منه : يا لوط إنا نأمرك - بإذن الله تعالى - أن تخرج من هذه المدينة التى تسكنها مع قومك وأن يخرج معك أتباعك المؤمنون ، وليكن خروجكم فى الجزء الأخير من الليل .

وقوله ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم .

قال الإمام ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط - عليه السلام - يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله - ﷺ - يمشى فى الغزاة يزجى الضعيف ، ويحمل المنقطع[1] .

وقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أى : ولا يلتفت منكم أحد أيها المؤمنون - خلفه ، حتى لا يرى العذاب المروع النازل بالمجرمين .

وإنما أمرهم - سبحانه - بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة التارك لوطنه ، أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيهم عن الالتفات ؟

قلت : قد بعث الله الهلاك على قوم لوط ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم وخرج مهاجرا فلم يكن له بد من الاجتهاد فى شكر الله ، وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعًا عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاما منه ولا غيرها من الهفوات فى تلك الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذى يقدم سربه ويفوت به . ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا له ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ، ويمضوا قدمًا غير ملتفتين إلى ما وراءهم ، كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ...

أو جعل النهى عن الالتفات ، كناية عن مواصلة السير ، وترك التوانى والتوقف ، لأن من يتلفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٥ .

وقوله ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ إرشاد من الملائكة للوط - عليه السلام - إلى الجهة التى أمره الله - تعالى - بالتوجه إليها .

أى : وامضوا فى سيركم إلى الجهة التى أمركم الله - تعالى - بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمايته .

قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل إلى الأردن ، وقيل إلى مصر .

ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التى أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذى نعتقده أنهم ذهبوا بأمر الله - تعالى - إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمله العادون من قوم لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط - عليه السلام - .

وعدى « قضينا » بإلى ، لتضمنه معنى أوحينا .

والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط - عليه السلام - .

وجملة ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ مفسرة ومبينة لذلك الأمر .

وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولاً . ثم بالتفسير والتوضيح ثانيًا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد .

ودابرهم : أى آخرهم الذى يدبرهم . يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبورا إذا كان آخرهم فى المجىء . والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب استئصالا .

وقوله ﴿ مصبحين ﴾ أى : داخلين فى الصباح ، مأخوذ من أصبح التامة ، وصيغة أفعل تأتى للدخول فى الشىء ، نحو أنجد وأتهم ، أى دخل فى بلاد نجد وفى بلاد تهامة ، وهو حال من اسم الإشارة هؤلاء ، والعامل فيه معنى الإضافة .

والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم ، وأوحينا إلى نبينا لوط - عليه السلام - أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل ومهلك مع دخول وقت الصباح .

وفى هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن العذاب سيمحقهم جميعًا ، بحيث لا يبقى منهم أحدًا ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث من القوم المجرمين ، بعد أن تسامعوا بأن فى بيت لوط

- عليه السلام - شبانًا فيهم جمال ووضاءة فقال - تعالى - ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ .

والمراد بأهل المدينة : أهل مدينة سدوم التى كان يسكنها لوط وقومه .

ويستبشرون : أى يبشر بعضهم بعضًا بأن هناك شبانًا فى بيت لوط - عليه السلام - ، من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .

وهذا التعبير الذى صورته الآية الكريمة ، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء ...

إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردًا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعًا - أهل المدينة - وفى فرح وسرور ، وفى الجهر والعلانية ، لا فى السر والخفاء ...

ولأى غرض يأتون ؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل فى مجاهرتها بإتيان الفواحش ، إلى ما لم تصل إليه بعض الحيوانات ...

ويقف لوط - عليه السلام - أمام شذوذ قومه مغيظا مكروبًا ، يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الآدمية فيقول لهم : ﴿ إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ﴾ .

وتفضحون : من الفضح والفضيحة . يقال فضح فلان فلانا فضحا وفضيحة ، إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه .

أى : قال لوط - عليه السلام - لمن جاءوا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : ياقوم إن هؤلاء الموجودين عندى ضيوفى الذين يلزمنى حمايتهم ، فابتعدوا عن دارى وعودوا إلى دياركم ، ولا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فأهون فى نظرهم ، لعجزى عن حمايتهم ، وأنتم تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامة مضيفه ...

وعبر لوط - عليه السلام - عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاؤا إليه فى هيئة الآدميين .

ثم أضاف لوط - عليه السلام - إلى رجاء قومه رجاء آخر ، حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : ﴿ واتقوا الله ولا تخزون ﴾ .

أى : واتقوا الله وصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولا تخزون مع ضيفى ، وتذلونى وتهينونى أمامهم .

يقال : خَزِىَ الرجل يخزَى خزيا وخَزى ، إذا وقع فى مصيبة فذل لذلك .

ولكن هذه النصائح الحكيمة من لوط - عليه السلام - لقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، شأن الطغاة الفجرة ﴿ قالوا أو لم ننهك عن العالمين ﴾ .

والاستفهام للإنكار . والواو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .

أى : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب . أو لم يسبق لنا يالوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهى أن تمنعنا عما نريده من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم ؟

ولكن لوطا - عليه السلام - مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة فقال : ﴿ هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمراد بناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج . وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية .

قال ابن كثير ما ملخصه : يرشد لوطا - عليه السلام - قومه إلى نسائهم فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾[1] .

وقيل المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن .

ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة كما جاء فى بعض الروايات ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرًا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج بهن ؟

قال الإمام الرازى فى ترجيح الرأى الأول ما ملخصه : « وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال هؤلاء بناتى .. وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى هذا الجمع العظيم، أما نساء أمته ففيهم كفاية للكل، ومنها: أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما:

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٨ .

« زنتا وزاعورا » وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة »[١] .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه ، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه ، قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشبع الفطرة السليمة : يا قوم هؤلاء نساؤكم اللائى هن بمنزلة بناتى ، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وآداب .

وعبر بإن فى قوله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ لشكه فى استجابتهم لما يدعوهم إليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم ، وما أظنكم تفعلونه لانتكاس فطرتكم ، وانقلاب أمزجتكم ..

وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم فاعلين ما أرشدكم إليه فهو خير لكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين ، ولتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من سفهاء قومه .

فالخطاب فيه للنبى - ﷺ - واللام فى « لعمرك » لام القسم ، والمقسم به حياته - ﷺ - والعمر - بفتح العين - لغة فى العمر - بضمها ، ومعناهما : مدة حياة الإنسان وبقائه فى هذه الدنيا ، إلا أنهم ألزموا مفتوح العين فى القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك قسمى أو يمينى .

والسكرة : ذهاب العقل ، مأخوذة من السكر - بفتح السين وإسكان الكاف - وهو السد والإغلاق . وأطلقت هنا على الغواية والضلالة لإزالتها الرشد والهداية عن عقل الإنسان و ﴿ يعمهون ﴾ من العمه بمعنى التحير والتردد فى الأمر . وهو للبصيرة بمنزلة العمى للبصر .

يقال : عمه فلان - كفرح - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه ، وهم عمهون وعمه - كركع -

والمعنى : بحق حياتك - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المكذبين لك ، لفى غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون ، شأنهم فى ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح ، وغيرهم من المتكبرين فى الأرض بغير الحق ..

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣٢ .

قال الآلوسى : وقوله ﴿ لعمرك ﴾ قسم من الله - تعالى - بعمر نبينا - ﷺ - على ما عليه جمهور المفسرين . وأخرج البيهقى فى الدلائل ، وأبو نعيم وابن مردويه وغيرهم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ما خلق الله - تعالى - وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد - ﷺ - وما سمعت الله - تعالى - أقسم بحياة أحد غيره ، قال - تعالى - : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ وقيل هو قسم من الملائكة بعمر لوط - عليه السلام - ، وهو مع مخالفته للمأثور محتاج لتقدير القول ، أى . قالت الملائكة للوط - عليه السلام - لعمرك .. وهو خلاف الأصل وإن كان سياق القصة شاهدًا له وقرينة عليه .. »[١] .

ثم ختم - سبحانه - القصة ببيان النهاية الأليمة لهؤلاء المفسدين من قوم لوط فقال - تعالى - ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ .

والصيحة : من الصياح وهو الصوت الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بشدة . وأصل ذلك تشقيق الصوت من قولهم : انصاح الخشب أو الثوب ، إذا انشق فسمع منه صوت . قالوا : وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة .

﴿ مشرقين ﴾ : اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ، أى : أن الله - تعالى - بعد أن أخبر لوطا - عليه السلام - بإهلاك قومه ، وأمره عن طريق الملائكة - بالخروج ومعه المؤمنون من هذه المدينة .. جاءت الصيحة الهائلة من السماء فأهلكتهم جميعًا وهم داخلون فى وقت شروق الشمس .

وقال - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ وقال هنا ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ للإشارة إلى أن ابتداء عذابهم كان عند الصباح وانتهاءه باستئصال شأفتهم كان مع وقت الشروق .

والضمير فى قوله ﴿ عاليها سافلها ﴾ يعود إلى المدينة التى كان يسكنها المجرمون من قوم لوط .

أى : فجعلنا بقدرتنا عالى هذه المدينة سافلها ، بأن قلبناها قلبًا كاملاً ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ أى على هؤلاء المجرمين من قوم لوط ﴿ حجارة ﴾ كائنة ﴿ من سجيل ﴾ أى من طين متحجر . فهلكوا جميعًا .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٦٦ .

وهكذا أخذ الله - تعالى - هؤلاء المجرمين أخذ عزيز مقتدر ، حيث أهلكهم بهذه العقوبة التى تتناسب مع جريمتهم ، فهم قلبوا الأوضاع ، فأتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها ، فانتقم الله - تعالى - منهم بهذه العقوبة التى جعلت أعلى مساكنهم أسفلها .

ثم ساقت السورة الكريمة بعض العبر والعظات التى يهتدى بها العقلاء من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - كما ساقت بعد ذلك جانبًا من قصتى شعيب وصالح - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

فاسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ يعود إلى ما تضمنته القصة السابقة من عبر وعظات .

والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على ما يوصل إلى الحق والهداية .
والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو المتأمل فى الأسباب وعواقبها ، وفى المقدمات ونتائجها ..

قال القرطبى ما ملخصه : التوسم تفعل من الوسم ، وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيره . يقال : توسمت فى فلان الخير ، إذا رأيت ميسم ذلك فيه ، ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبى - ﷺ - .

إنى توسمت فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أنى ثابت البصر

وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره .. وذلك يكون بجودة القريحة ، وحدة الخاطر ، وصفاء الفكر ، وتطهير القلب من أدناس المعاصى .

والمراد بالمتوسمين : المتفرسين ، أو المتفكرين ، أو المعتبرين ، أو المتبصرين .. والمعنى متقارب ..»[١] .

والمعنى : إن فى ذلك الذى سقناه فى قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الغاوين ، لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل فى حقائق الأشياء ، وتتعرف على ما يوصلها إلى الهداية والطريق القويم .

قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذى من حديث أبى سعيد مرفوعًا : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية ...

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانى فى كتابه « الذريعة » حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله ...

وقد نبه - سبحانه - على صدقها بقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وبقوله ﴿ تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا ﴾[٢] . وبقوله ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾[٣] .

ولفظها مأخوذ من قولهم « فرس السبع الشاه » فكأن الفراسة اختلاس المعارف[٤] .

وفى هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات . والأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته ... فلا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطماس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم ، كما قال - تعالى - ﴿ وكأين من آية

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .
(٣) سورة محمد الآية ٣٠ .
(٤) راجع تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٣٧٦٤ .

فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله ، إلا وهم مشركون ﴾[١] .

والضمير فى قوله - سبحانه - ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ يعود إلى المدينة أو القرى التى كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .

أى : وإن هذه المساكن التى كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لبطريق ثابت واضح يسلكه الناس ، ويراه كل مجتاز له وهو فى سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢] .

والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين فى دين الإسلام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ تذييل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ما تقدم من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقوام المهلكين .

أى : إن فيما ذكرناه فيما سبق من أدلة واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين .

وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبيه على أن التفرس فى الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها من صفاتهم وحدهم .

وجمع الآيات قبل ذلك فى قوله ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وأفردها هنا فقال : ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ للأشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفى لهدايتهم ، ولزيادة إيمانهم ، آية واحدة من الآيات . الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وفى ذلك ما فيه من الثناء عليهم ، والمدح لهم ، بصدق الإيمان ، وسلامة اليقين ...

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من قصة أصحاب الأيكة لزيادة العظات والعبر ، فقال - تعالى - : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ و ﴿ إن ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف .

وأصحاب الأيكة ، هم قوم شعيب - عليه السلام - ، والأيك الشجر الكثير الملتف واحدته أيكة - كتمر وتمره - .

---

(١) سورة يوسف الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار التى كانت فيها مساكنهم ، قرب مدين قرية شعيب - عليه السلام - .

وجمهور العلماء على أن أهل مدين وأصحاب الأيكة قبيلة واحدة ، وأرسل الله - تعالى - إليهم جميعًا شعيبًا - عليه السلام - لأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونهيهم عن تطفيف الكيل والميزان ، وعن قطع الطريق ...

وكانوا جميعًا يسكنون فى المنطقة التى تسمى بمَعان ، على حدود الحجاز والشام ، أو أن بعضهم كان يسكن الحاضرة وهم أهل مدين ، والبعض الآخر كان يسكن فى البوادى المجاورة لها والمليئة بالأشجار .

وقيل : إن شعيبًا - عليه السلام - أرسل إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة ، وهذه خصوصية له - عليه السلام - .

وعلى أية حال فالعلماء متفقون على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب - عليه السلام - .

والإمام : الطريق الواضح المعالم . وسمى الطريق إماما لأن المسافر يأتم به ، ويهتدى بمسالكه ، حتى يصل إلى الموضع الذى يريده .

والمعنى : وإن الشأن والحال أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين متجاوزين لكل حد ، فاقتضت عدالتنا أن ننتقم منهم ، بسبب كفرهم وفجورهم .

﴿ وإنهما ﴾ أى مساكن قوم لوط ، ومساكن قوم شعيب ﴿ لبإمام مبين ﴾ أى : لبطريق واضح يأتم به أهل مكة فى سفرهم من بلادهم إلى بلاد الشام .

قال ابن كثير : وقد كانوا - أى أصحاب الأيكة - قريبًا من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ، ومسامتين لهم فى المكان ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى إنذاره لهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[1] .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم بجانب من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه . فقال - تعالى - ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ ...

وأصحاب الحجر : هم ثمود قوم صالح - عليه السلام - .

والحجر : واد بين الشام والمدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه . والحجر فى الأصل :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩٢ .

كل مكان أحاطت به الحجارة ، أو كل مكان محجور أى ممنوع من الناس بسبب اختصاص بعضهم به .

وما زال هذا المكان يعرف إلى الآن باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك ، كما أشرنا إلى ذلك عند التعريف بالسورة الكريمة .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولهم - عليه السلام - ، لأن تكذيب رسول واحد ، تكذيب لجميع الرسل ،حيث إن رسالتهم واحدة ، وهى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والنهى عن الرذائل والمفاسد .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال : ﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ .

أى : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه رسول من عندنا ، والتى من بينها الناقة التى أخرجها الله - تعالى - لهم ببركة دعاء نبيهم ﴿ فكانوا عنها ﴾ أى عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ معرضين ﴾ لا يلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولهذا عقروا الناقة ﴿ وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال فقال - تعالى - ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ .

وينحتون : من النحت وهو برى الحجر من وسطه أو جوانبه ، لإعداده للبناء أو للسكن أى : وكانوا لقوتهم وغناهم يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ليتخذوه بيوتًا لهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين ﴾[1] ، أى : حاذقين فى نحتها . وقوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ﴾[2] .

قال ابن كثير : ذكر - تعالى - أنهم ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين ﴾ أى : من

(١) سورة الشعراء الآية ١٤٩ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٧٤ .

غير خوف ولا احتياج إليها ، بل بطرا وعبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر ، الذى مر به رسول الله - ﷺ - وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه - أى غطاها بثوبه - وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشيةأن يصيبكم ما أصابهم »[1] .

ولكن ماذا كانت نتيجة هذه القوة الغاشمة ، والثراء الذى ليس معه شكر لله - تعالى - والإصرار على الكفر والتكذيب لرسل الله - تعالى - ، والإعراض عن الحق ...؟

لقد بين القرآن عاقبة ذلك فقال : ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

أى : فكانت نتيجة تكذيب أصحاب الحجر لرسولهم صالح - عليه السلام - أن أهلكهم الله - تعالى - وهم داخلون فى وقت الصباح ، عن طريق الصيحة الهائلة ، التى جعلتهم فى ديارهم جاثمين ، دون أن يغنى عنهم شيئًا ما كانوا يكسبونه من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال .

وهكذا نرى أن كل وقاية ضائعة ، وكل أمان ذاهب ، وكل تحصن زائل أمام عذاب الله المسلط على أعدائه المجرمين .

وهكذا تنتهى تلك الحلقات المتصلة من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم والتى تتفق جميعها فى بيان سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وهى أن النجاة والسعادة والنصر للمؤمنين ، والهلاك والشقاء والهزيمة للمكذبين .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان كمال قدرة الله - تعالى - ، وببيان جانب من النعم التى منحها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - ، وبتهديد المشركين الذين جعلوا القرآن عضين ، والذين جعلوا مع الله إلهًا آخر ، وبتسليته - ﷺ - عما لحقه منهم من أذى ، فقال - تعالى - :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٦٣ .

ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ
ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ
أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ توجيه للناس إلى التأمل فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وإلى الحق الأكبر الذى قام عليه هذا الوجود ، بعد أن بين - سبحانه - قبل ذلك ، سنته التى لا تتخلف ، وهى أن حسن العاقبة للمتقين ، وسوء المصير للمكذبين .

والحق : هو الأمر الثابت الذى تقتضيه عدالة الله - تعالى - وحكمته .
والباء فيه للملابسة .

أى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، إلا خلقًا ملتبسًا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالعدل الذى لا يخالطه جور وبالحكمة التى تتنزه عن العبث ، وتأبى استمرار الفساد ، واستبقاء ضعف الحق أمام الباطل .

والمراد بالساعة فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ ساعة البعث والحساب والثواب والعقاب فى الآخرة .

أى : وإن ساعة إعطاء كل ذى حق حقه ، ومعاقبة كل ذى باطل على باطله ، لآتية لا ريب فيها ، فمن فاته أخذ حقه فى الدنيا فسيأخذه وافيا غير منقوص فى الآخرة ، ومن أفلت من عقوبة الدنيا فسينال ما هو أشد وأخزى منها فى يوم الحساب .

فالجملة الكريمة انتقال من تهديد المجرمين بعذاب الدنيا ، إلى تهديدهم بعذاب الآخرة ، والمقصود من ذلك تسليته - ﷺ - عما أصابه من المكذبين من أذى .

وأكد - سبحانه - هذه الجملة بإن وبلام التوكيد ، ليدل على أن الساعة آتية لا محالة ، وليخرس ألسنة الذين ينكرون وقوعها وحدوثها ...

وجملة ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ تفريع على ما قبلها .

والصفح الجميل : ترك المؤاخذة على الذنب ، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاتبة .

أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول الكريم - من أن هذا الكون قد خلقناه بالحق ، ومن أن الساعة آتية لا ريب فيها ... فاصفح عن هؤلاء المكذبين لك صفحًا جميلاً ، لا عتاب معه ولا حزن ولا غضب ... حتى يحكم الله بينك وبينهم .

وهذا التعبير فيه ما فيه من تسليته - ﷺ - وتكريمه ، لأنه - سبحانه - أمره بالصفح الجميل عن أعدائه ، ومن شأن الذى يصفح عن غيره ، أن يكون أقوى وأعز من هذا الغير - فكأنه - سبحانه - يقول له : اصفح عنهم فعما قريب ستكون لك الكلمة العليا عليهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ... فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ تعليل للأمر بالصفح الجميل عنهم .

والخلاق والعليم : صيغتا مبالغة من الخلق والعلم ، للدلالة على كثرة خلقه ، وشمول علمه .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٩ .

أى : ﴿ إن ربك ﴾ أيها الرسول الكريم ، الذى رباك برعايته وعنايته ، واختارك لحمل رسالته ﴿ هو ﴾ - سبحانه - ﴿ الخلاق ﴾ لك ولهم ولكل شىء فى هذا الوجود .

﴿ العليم ﴾ بأحوالك وبأحوالهم ، وبما يصلح لك ولهم ولكل الكائنات .

وقد علم - سبحانه - أن الصفح عنهم فى هذا الوقت فيه المنفعة لك ولهم ، فحقيق بك - أيها الرسول الكريم - أن تطيعه - سبحانه - ، وأن تكل الأمور إليه .

ولقد تحقق الخير من وراء هذا التوجيه السديد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فقد نرتب على هذا الصفح : النصر للنبى - ﷺ - وللمؤمنين ، والهداية لبعض الكافرين وهم الذين دخلوا فى الإسلام بعد نزول هذه الآية ، وصاروا قوة للدعوة الإسلامية بعد أن كانوا حربًا عليها ، وتحقق - أيضًا - قوله - ﷺ - : « لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله - عز وجل - » .

ثم أتبع - سبحانه - هذه التسلية والبشارة للرسول - ﷺ - ، بمنة ونعمة أجل وأعظم من كل ما سواها ، ليزيده اطمئنانًا وثقة بوعد الله - تعالى - فقال : ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ﴾ .

والمراد بالسبع المثانى : صورة الفاتحة . وسميت بذلك ، لأنها سبع آيات ، ولأنها تثنى أى تكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة .

قال صاحب الكشاف : والمثانى من التثنية وهى التكرير للشىء ، لأن الفاتحة تكرر قراءتها فى الصلاة . أو من الثناء ، لاشتمالها على ما هو ثناء على الله - تعالى - ... »[1] .

والمعنى : ولقد أعطيناك - أيها الرسول الكريم - سورة الفاتحة التى هى سبع آيات ، والتى تعاد قراءتها فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، وأعطيناك - أيضًا - القرآن العظيم الذى يهدى للطريق التى هى أقوم .

وأوثر فعل ﴿ آتيناك ﴾ بمعنى أعطيناك على أوحينا إليك ، أو أنزلنا عليك ؛ لأن الإعطاء أظهر فى الإكرام والإنعام .

وقوله ﴿ والقرآن العظيم ﴾ معطوف على ﴿ سبعًا ﴾ من باب عطف الكل على الجزء ، اعتناء بهذا الجزء .

ووصف - سبحانه - القرآن بأنه عظيم ، تنويهًا بشأنه ، وإعلاء لقدره .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٧ .

ومما يدل على أن المراد بالسبع المثانى سورة الفاتحة ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال : مر بى النبى - ﷺ - وأنا أصلى ، فدعانى فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ فقلت : كنت أصلى .

فقال : ألم يقل الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ .

ثم قال : ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ ثم ذهب النبى - ﷺ - ليخرج ، فذكرته فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته .

وروى البخارى - أيضًا - عن أبى هريرة قال : قال النبى - ﷺ - : أم القرآن هى : السبع المثانى والقرآن العظيم » .

هذا ، وهناك أقوال أخرى فى المقصود بالسبع المثانى ، ذكرها بعض المفسرين فقال : اختلف العلماء فى السبع المثانى : فقيل الفاتحة . قاله على بن أبى طالب ، وأبو هريرة ، والربيع بن أنس ، وأبو العالية ، والحسن وغيرهم . وروى عن النبى - ﷺ - من وجوه ثابتة من حديث أبى بن كعب وأبى سعيد بن المعلى ...

وقال ابن عباس : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معًا ...

وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من السبع الطوال شىء إذ ذاك .

وقيل : المثانى القرآن كله ، قال الله - تعالى - ﴿ كتابًا متشابهًا مثانى ﴾ . هذا قول الضحاك وطاووس ، وقاله ابن عباس . وقيل له : مثانى ، لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ..

وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار ..

ثم قال : والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، إلا أنه إذا ورد عن النبى - ﷺ - وثبت عنه نص فى شىء لا يحتمل التأويل ، كان الوقوف عنده[1] .

والذى نراه ، أن المقصود بالسبع المثانى هنا : سورة الفاتحة ، لثبوت النص الصحيح بذلك عن رسول الله - ﷺ - ، ومتى ثبت النص الصحيح عنه - ﷺ - فى شىء فلا كلام لأحد معه أو بعده - ﷺ - .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥٥ .

ثم نهى الله - تعالى - المسلمين فى شخص نبيهم - ﷺ - عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا ، فقال - تعالى - : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم ﴾ ...

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟

قلت : يقول الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة ضئيلة ، وهى القرآن العظيم ، فعليك أن تستغنى به ، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا ...

قال أبو بكر الصديق : من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدًا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيمًا ، وعظم صغيرًا »[١] .

وقال ابن كثير : وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن وكيع بن الجراح ، قال : حدثنا موسى بن عبيدة ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبى رافع صاحب النبى - ﷺ - قال : أضاف النبى - ﷺ - ضيف ، ولم يكن عنده - ﷺ - شىء يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود : يقول لك محمد رسول الله: أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب. قال اليهودي: لا إلا برهن. فأتيت النبى - ﷺ - فأخبرته ، فقال : أما والله إنى لأمين من فى السماء ، وأمين من فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية . « لا تمدن عينيك » كأنه - سبحانه - يعزيه عن الدنيا »[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ تمدن ﴾ من المد ، وأصله الزيادة . واستعير هنا للتطلع إلى ما عند الغير برغبة وتمن وإعجاب . يقال : مد فلان عينه إلى مال فلان ، إذا اشتهاه وتمناه وأراده .

والمراد بالأزواج : الأصناف من الكفار الذين متعهم الله بالكثير من زخارف الدنيا .

والمعنى : لا تحفل - أيها الرسول الكريم - ولا تطمح ببصرك طموح الراغب فى ذلك المتاع الزائل ، الذى متع الله - تعالى - به أصنافًا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه شىء سينتهى عما قريب ، وقد آتاهم الله - تعالى - إياه على سبيل الاستدراج والإملاء ، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى ، وهو القرآن العظيم .

قال صاحب الظلال : والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أى : يتوجه . ولكن التعبير التصويرى يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهى صورة طريفة حين يتخيلها المتخيل ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٦ .

والمعنى وراء ذلك ، ألا يحفل الرسول - ﷺ - بذلك المتاع الذى آتاه الله - تعالى - لبعض الناس ... ولا يلقى إليه نظرة اهتمام ، أو نظرة استجمال ، أو نظرة تمن »[1] .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ لا تمدن ... ﴾ بدون واو العطف ، وقال فى سورة طه ﴿ ولا تمدن ... ﴾ بواو العطف ، لأن الجملة هنا مستأنفة استئنافًا بيانيًا ، جوابًا لما يختلج فى نفوس بعض المؤمنين من تساؤل عن أسباب الإملاء والعطاء الدنيوى لبعض الكافرين . ولأن الجملة السابقة عليها وهى قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى ... ﴾ كانت بمنزلة التمهيد لها ، والإجمال لمضمونها .

أما فى سورة طه ، فجملة ﴿ ولا تمدن ... ﴾ معطوفة على ما سبقها من طلب وهو قوله - تعالى - ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى. ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا ... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ نهى له - ﷺ - عن الاهتمام بالمصير السيئ الذى ينتظر أعداءه .

أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - لكفر من كفر من قومك ، أو لموتهم على ذلك ، أو لأعراضهم عن الحق الذى جئتهم به ، فإن القلوب بأيدينا نصرفها كيف نشاء ، أما أنت فعليك البلاغ .

وقوله - سبحانه - ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ بيان لما يجب عليه نحو أتباعه ، بعد بيان ما يجب عليه نحو أعدائه .

وخفض الجناح كناية عن اللين والمودة والعطف .

أى : وكن متواضعًا مع أتباعك المؤمنين ، رءوفًا بهم ، عطوفًا عليهم .

قال الشوكانى : وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ... وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إليه بسط جناحه ثم قبض على الفرخ ، فجعل ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه ... والجناحان من ابن آدم : جانباه[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ معطوف على ما قبله .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٣١٥٤ .

(٢) سورة طه الآيتان ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٤٢ .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - على مصير الكافرين ، وتواضع لأتباعك المؤمنين ، وقل للناس جميعًا ما قاله كل نبى قبلك لقومه : إنى أنا المنذر لكم من عذاب الله إذا ما بقيتم على كفركم ، الموضح لكم كل ما يخفى عليكم .

فالنذير هنا بمعنى المنذر ، والمبين بمعنى الكاشف والموضح .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى - ﷺ - قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق »[1] .

ثم هدد - سبحانه - الذين يحاربون دعوة الحق ، ويصفون القرآن بأوصاف لا تليق به فقال - تعالى - : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ ..

والكاف فى قوله ﴿ كما ﴾ للتشبيه ، و ﴿ ما ﴾ موصوله أو مصدرية وهى المشبه به أما المشبه فهو الإيتاء المأخوذ من قوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى ﴾ .

ولفظ « المقتسمين » افتعال من القسم بمعنى تجزئة الشىء وجعله أقسامًا ..

والمراد بهم بعض طوائف أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر .

أو المراد بهم - كما قال ابن كثير : « المقتسمين » أى المتحالفين ، أى الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ... »[2] .

ولفظ « عضين » جمع عضة - بزنة عزة - ، وهى الجزء والقطعة من الشىء . تقول : عضيت الشىء تعضية ، أى : فرقته وجعلته أجزاء كل فرقة عضة .

قال القرطبى ما ملخصه : وواحد العضين عضة ، من عضيت الشىء تعضية أى فرقته ، وكل فرقة عضة . قال الشاعر : وليس دين الله بالمعضى . أى : بالمفرق .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم - ج ٩ ص ١١٥ وصحيح مسلم كتاب الفضائل ج ٧ ص ٦٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٦ .

والعضة والعضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر عاضه ، وللساحرة عاضهة ...

وفى الحديث : لعن رسول الله - ﷺ - العاضهة والمستعضهة أى الساحرة والمستسحرة .. وقيل : هو من العضة ، وهى التميمة . والعضيهة:البهتان .. يقال : أعضهت يا فلان أى : جئت بالبهتان »[1] .

والمعنى : ولقد آتيناك - أيها الرسول الكريم - السبع المثانى والقرآن العظيم ، مثل ما أنزلنا على طوائف أهل الكتاب المقتسمين ، أى الذين قسموا كتابهم أقسامًا ، فأظهروا قسمًا وأخفوا آخر ، والذين جعلوا - أيضًا - القرآن أقسامًا ، فآمنوا ببعضه ، وكفروابالبعض الآخر .. فجعله ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ بيان وتوضيح للمقتسمين .

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ... ﴾ متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك ، ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ ، فيكون المشبه الإنذار بالعقاب المفهوم من الآية الكريمة . وأن المراد بالمقتسمين : جماعة من مشركى قريش ، قسموا أنفسهم أقسامًا لصرف الناس عن الإيمان بالنبى - ﷺ - .

والمعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين ...

وقد فصل الإمام الآلوسى القول عند تفسيره لهاتين الآيتين فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ... ﴾ متعلق بقوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعا ... ﴾ على أن يكون فى موضع نصب نعتا لمصدر من آتينا محذوف أى : آتيناك سبعا من المثانى إيتاء كما أنزلنا ، وهو فى معنى : أنزلنا عليك ذلك إنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أى قسموه إلى حق وباطل ..

وقيل : هو متعلق بقوله - تعالى - : ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ .. وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من قريش ... أرسلهم الوليد بن المغيرة ، أيام موسم الحج ، ليقفوا على مداخل طرق مكة ، لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله - ﷺ - فانقسموا على هاتيك المداخل ، يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج فإنه ساحر ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥٩ .

أى : وقل إنى أنا النذير عذابا مثل العذاب الذى أنزلناه على المقتسمين .

وقيل المراد بالمقتسمين ، الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحًا - أى يقتلوه ليلًا - فأهلكهم الله ...

ثم قال - رحمه الله - : والأقرب من الأقوال المذكورة أن قوله ﴿ كما أنزلنا .. ﴾ متعلق بقوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعًا ... ﴾ وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين ، وأن الموصول مع صلته ، صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ...

والمعنى : لقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، إيتاء مماثلًا لإنزال الكتابين على أهلهما ...»[1] .

ويبدو لنا أن من الأفضل أن يكون المراد بالمقتسمين ، ما يشمل أهل الكتابين وغيرهم من المشركين المتحالفين على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم - كما قال ابن كثير - وقد ذهب إلى ذلك الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - بعد سرده للأقوال فى ذلك ما ملخصه : « والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : إن الله - تعالى - أمر نبيه - ﷺ - أن يعلم قومه الذين عضوا القرآن ففرقوه ، أنه نذير لهم من سخط الله وعقوبته ، أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين من قبلهم ومنهم ...

وجائز أن يكون عنى بالمقتسمين : أهل الكتابين .. وجائز أن يكون عنى بذلك : المشركون من قريش ، لأنهم اقتسموا القرآن ، فسماه بعضهم شعرا ، وسماه بعضهم كهانة ...

وجائز أن يكون عنى به الفريقان ... وممكن أن يكون عنى به المقتسمون على صالح من قومه. لأنه ليس فى التنزيل ولا فى سنة رسول الله -ﷺ- ولا فى فطرة العقل، ما يدل على أنه عنى به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين ، وإذا فكل من اقتسم كتابًا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض ، كان داخلًا فى هذا التهديد والوعيد ...»[2] .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والوعيد فقال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٧٤ ومابعدها .
(٢) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٣ .

والفاء هنا متفرعة على ما سبق تأكيده فى قوله ﴿ وإن الساعة لآتية ... ﴾ إذ فى هذا اليوم يكون سؤالهم .

والواو للقسم ، أى : فوحق ربك - أيها الرسول الكريم - الذى خلقك فسواك فعدلك ، لنسألن هؤلاء المكذبين جميعًا ، سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت ، عما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال قبيحة : وعما كانوا يقولونه من أقوال فاسدة ، ثم لننزلن بهم جميعًا العقوبة المناسبة لهم .

فالمقصود من هذه الآية الكريمة زيادة التسلية للرسول - ﷺ - وتأكيد التهديد للمشركين .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن يمضى فى طريقه ، وأن يجهر بدعوته وأن يعرض عن المشركين ، فقد كفاه - سبحانه - شرهم فقال - تعالى - : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون ﴾.

وقوله ﴿ فاصدع .. ﴾ من الصدع بمعنى الإظهار والإعلان . ومنه قولهم : انصدع الصبح ، إذا ظهر بعد ظلام الليل والصديع الفجر لانصداعه أى ظهوره . ويقال : صدع فلان بحجته ، إذا تكلم بها جهارًا .

أى : فاجهر - أيها الرسول الكريم - بدعوتك ، وبلغ ما أمرناك بتبليغه علانية ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .

قال عبد الله بن مسعود : ما زال النبى - ﷺ - مستخفيا بدعوته حتى نزلت هذه الآية . فخرج هو وأصحابه،وقوله ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ تعليل للأمر بالجهر بالدعوة ، بعد أن مكث - ﷺ - يدعو الناس إلى الاسلام سرًا ثلاث سنين أو أكثر .

وقوله ﴿ كفيناك .. ﴾ من الكفاية . تقول : كفيت فلانًا المؤنة إذا توليتها عنه ، ولم تحوجه إليها . وتقول : كفيتك عدوك أى : كفيتك بأسه وشره .

والمراد بالمستهزئين : أكابر المشركين فى الكفر والعداوة والاستهزاء بالرسول - ﷺ -

أى : إنا كفيناك الانتقام من المستهزئين بك وبدعوتك ، وأرحناك منهم ، بإهلاكهم . وذكر بعضهم أن المراد بهم خمسة من كبرائهم ، وهم : الوليد ابن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل ، والعاص بن وائل : وقد أهلكهم الله جميعًا بمكة ، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبى - ﷺ - .

قال الإمام الرازى : واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين ، وفى أسمائهم ، وفى كيفية طريق استهزائهم ، ولا حاجة إلى شىء منها .

والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة ، لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة ، مع مثل رسول الله - ﷺ - فى علو قدره ، وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله - تعالى - أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم »(١) .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المستهزئين قد أضافوا إلى ذلك الشرك والكفر فقال : ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر ﴾ فى عباداتهم وفى عقيدتهم .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ ما يترتب على ذلك فى الآخرة من عذاب شديد لهم ، بعد أن أهلكناهم فى الدنيا وقطعنا دابرهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتسلية أخرى له - ﷺ - ، وبإرشاده إلى ما يزيل همه . ويشرح صدره ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

وضيق الصدر : كناية عن كدر النفس ، وتعرضها للهموم والأحزان .

أى : ولقد نعلم - أيها الرسول الكريم - أن أقوال المشركين الباطلة فيك وفيما جئت به من عندنا ، تحزن نفسك ، وتكدر خاطرك .

وقال - سبحانه - ﴿ ولقد نعلم .. ﴾ بلام القسم وحرف التحقيق ، لتأكيد الخبر ، وإظهار مزيد الاهتمام والعناية بالمخبر عنه - ﷺ - فى الحال والاستقبال .

والفاء فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك ... ﴾ واقعة فى جواب شرط .

والتسبيح لله - تعالى - معناه : تنزيهه - عز وجل - عن كل ما لا يليق به .

والتحميد له - تعالى - معناه : الثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال .

أى : إن ضاق صدرك - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فافزع إلينا بالتسبيح والتحميد ، بأن تكثر من قول سبحان الله ، والحمد لله .

قال بعض العلماء : فهذه الجملة الكريمة قد اشتملت على الثناء على الله بكل كمال ؛ لأن الكمال يكون بأمرين :

أحدهما : التخلى عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، هذا معنى التسبيح .

والثانى : التحلى بالفضائل ، والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٢١٥ .

فتم الثناء بكل كمال . ولأجل هذا المعنى ثبت فى الصحيح عنه - ﷺ - أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ... »[1] .

والمراد بالسجود فى قوله - تعالى - ﴿ وكن من الساجدين ﴾ الصلاة . وعبر عنها بذلك من باب التعبير بالجزء عن الكل ، لأهمية هذا الجزء وفضله ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن ترتيب الأمر بالتسبيح والتحميد والصلاة على ضيق الصدر ؛ دليل على أن هذه العبادات ، بسببها يزول المكروه بإذنه - تعالى - ، وتنقشع الهموم ... ولذا كان - ﷺ - إذاحزبه أمر لجأ إلى الصلاة .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى من حديث نعيم بن عمار - رضى الله عنه - أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : قال الله - تعالى - : « يا بن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره » .

فينبغى للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله - تعالى - بأنواع الطاعات من صلاة وتسبيح وتحميد وغير ذلك من ألوان العبادات .

والمراد بالأمر بالعبادة فى قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ المداومة عليها وعدم التقصير فيها .

والمراد باليقين : الموت ، سمى بذلك لأنه أمر متيقن لحوقه بكل مخلوق .

أى : ودم - أيها الرسول الكريم - على عبادة ربك وطاعته ما دمت حيا ، حتى يأتيك الموت الذى لا مفر من مجيئه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - .

ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت قوله - تعالى - حكاية عن المجرمين : ﴿ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين ﴾ أى : الموت .

ويدل على ذلك أيضًا ما رواه البخارى عن أم العلاء أن رسول الله - ﷺ - لما دخل على

---

(١) تفسير أضواء البيان الشيخ الأمين الشنقيطى ج ٢ ص ٢٠٣ .

عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت : قلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله - ﷺ - : « وما يدريك أن الله قد أكرمه ... أما هو فقد جاءه اليقين - أى الموت - وإنى لأرجو له الخير »[1] .

قال الإمام ابن كثير : ويستدل بهذه الآية الكريمة ، على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلى بحسب حاله ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله - ﷺ - قال « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

ويستدل بها أيضًا على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة ، سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل ... »[2] .

وبعد : فهذه سورة الحجر ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد طنطاوى

المدينة المنورة فى ٦ من جمادى الثانية سنة ١٤٠٢

---

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٩١ : كتاب الجنائز « باب الدخول على الميت .. »
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٧٢ .

تفسير

سُورَةُ النَّحْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

أما بعد : فقد سبق لى - بحمد الله وتوفيقه - أن قمت بتفسير سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

وهأنذا أقدم للقارئ الكريم تفسير سورة « النحل » ، وقد حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وإرشادات حكيمة ، ومجادلات بالتى هى أحسن .

وقد مهدت لتفسيرها بكلمة ، بينت فيها زمان نزولها ، وعدد آياتها . وسبب تسميتها بهذا الاسم ، والمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ونافعا لعباده ، وشفيعا لنا يوم نلقاه - سبحانه - .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة فى : غرة المحرم سنة ١٤٠٤ هـ ٧ / ١٠ / ١٩٨٣ م .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة النحل

١ – سورة النحل هى السورة السادسة عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

أما فى ترتيب النزول ، فكان ترتيبها التاسعة والستين ، وكان نزولها بعد سورة الكهف [١] .

٢ – وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة آية .

٣ – وسميت بسورة النحل ، لقوله – تعالى – فيها ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ... ﴾[٢] .

وتسمى – أيضا – بسورة النعم ، لأن الله – تعالى – عدد فيها أنواعا من النعم التى أنعم بها على عباده .

٤ – وسورة النحل من السور المكية : أى التى كان نزولها قبل الهجرة النبوية الشريفة .

قال القرطبى : « وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هى مكية إلا قوله – تعالى – ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به .. ﴾ الآية . نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد .. » [٣] .

وقال الآلوسى : وأطلق جمع القول بأنها مكية ، وأخرج ذلك ابن مرد ويه عن ابن عباس ، وابن الزبير – رضى الله عنهم – وأخرجه النحاس من طريق مجاهد عن الحبر أنها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها ، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة فى منصرف النبى – صلى الله عليه وسلم – من غزوة أحد[٤] .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة النحل كلها مكية ، وذلك لأن الروايات التى ذكروها

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسينى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
(٢) الآية رقم ٦٨ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٦٥ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٤ – ٨٩ .

فى سبب نزول قوله - تعالى - ، ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به .. ﴾ إلخ السورة ، فيها مقال . فقد ذكر الإمام ابن كثير عند سردها ، أن بعضها مرسل وفيه مبهم ، وبعضها فى إسناده ضعف ..[١] .

٥ - (أ) وإذا ما قرأنا سورة النحل بتدبر وتفكر ، نراها فى مطلعها تؤكد أن يوم القيامة حق ، وأنه آت لا ريب فيه ، وأن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله الخالق لكل شىء .

قال - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾.

(ب) ثم تسوق ألوانا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والحيوان ، وعن طريق إنزال الماء من السماء ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم .. وغير ذلك من النعم التى لا تحصى .

استمع إلى بعض هذه الآيات التى تحكى جانبا من هذه النعم فتقول : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾.

ثم تقول : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم ﴾.

(جـ) وبعد أن توبخ السورة المشركين لتسويتهم بين من يخلق ومن لا يخلق تحكى جانبا من أقاويلهم الباطلة التى وصفوا بها القرآن الكريم ، وتصور استسلامهم لقضاء الله العادل فيهم يوم الحساب ، فتقول : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾.

إلى أن تقول : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٦ .

(د) وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترهيب بالترغيب ، وفى عقده المقارنات بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، جاءت الآيات بعد ذلك لتبشر المتقين بحسن العاقبة .

جاء قوله - تعالى - : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾.

(هـ) ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى حكاية أقوال المشركين حول مسألتين من أخطر المسائل ، وهما مسألة الهداية والإضلال ، ومسألة البعث بعد الموت بعد أن حكت ما قالوه فى شأن القرآن الكريم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى أقوالهم ثم يرد عليها بما يبطلها فيقول : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾.

(و) ثم تهدد السورة الكريمة أولئك الجاحدين لنعم الله ، الماكرين للسيئات ، بأسلوب يستثير النفوس ويبعث الرعب فى القلوب ، وتدعوهم إلى التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر يكون سببا فى هدايتهم ، وتخبرهم بأن الله - تعالى - هو الذى نهاهم عن الشرك ، وهو الذى أمرهم بإخلاص العبادة له .

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البديع فيقول : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم . أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون ﴾.

(ز) ثم انتقلت السورة إلى سرد أنواع من جهالات المشركين ، ومن سوء تفكيرهم ،

حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويشكروا الله - تعالى - على توفيقه إياهم إلى الدخول فى الإسلام .

لقد ذكرت السورة الكريمة ألوانا متعددة من جهالات الكافرين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ، تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾.

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾.

(ح) هكذا تصور سورة النحل ما كان عليه المشركون من غباء وغفلة وسوء تفكير ، ثم تعود - سورة النعم - مرة أخرى إلى الحديث عن نعم الله - تعالى - على عباده ، فتتحدث عن نعمة الكتاب ، وعن نعمة الماء ، وعن نعمة الأنعام ، وعن نعمة الثمار والفواكه ، وعن نعمة العسل المتخذ من بطون النحل وعن نعمة التفاضل فى الأرزاق ، وعن نعمة الأزواج والبنين والحفدة .

قال - تعالى - : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾.

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾.

(ط) ثم تسوق السورة الكريمة مثلين مشتملين على الفرق الشاسع ، بين المؤمن والكافر ، وبين الإله الحق والآلهة الباطلة ، فتقول : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾.

(ى) وبعد إيراد هذين المثلين البليغين ، تعود سورة النعم إلى الحديث عن أنواع أخرى من نعم الله على خلقه ، لكى يشكروه عليها ، ويستعملوها فيما خلقت له فتتحدث عن نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه ، وعن نعمة البيوت التى هى محل سكن الإنسان ، وعن نعمة الظلال ، وعن نعمة الجبال ، وعن نعمة الثياب .

قال - تعالى - : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ، أثاثاً ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾.

(ك) ثم بعد أن تصور السورة الكريمة أحوال المشركين يوم القيامة عندما يرون العذاب ، وتحكى ما يقولون عندما يرون شركاءهم ، وتقرر أن الله يبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سيكون شهيدا على من بعث إليهم .

بعد كل ذلك تسوق السورة الكريمة عددا من الآيات الآمرة بمكارم الأخلاق والناهية عن منكراتها فتقول : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

(ل) وبعد هذه التوجيهات السامية المشتملة على الترغيب والترهيب ، وعلى الأوامر والنواهى . تتحدث آيات السورة عن آداب تلاوة القرآن وعن الشبهات التى أثارها المشركون حوله مع الرد عليها بما يدحضها ، وعن حكم من تلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، فتقول : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾.

ثم تقول : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾.

ثم تقول : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

(م) ثم تعود السورة الكريمة لضرب الأمثال ، فتسوق مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بالنعم فلم يقابلوها بالشكر ، فانتقم الله - تعالى - منهم . كما تسوق جانبا من حياة سيدنا إبراهيم كمثال للشاكرين الذين استعملوا نعم الله فيما خلقت له .

استمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

ثم إلى قوله - تعالى - : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين .

شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

(ن) وأخيرا تختتم السورة الكريمة بتلك الآيات الجامعة لأحكم الأساليب وأكملها وأجملها وأنجعها فى الدعوة إلى الله - تعالى - وفى معاملة الناس فتقول : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

٦ - وبعد ، فهذا عرض إجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنه نرى :

(أ) عنايتها الفائقة بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق رسوله محمد - ﷺ - فى دعوته ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن القرآن من عند الله - عز وجل .

(ب) كما نرى تفصيلها القول فى بيان آلاء الله - تعالى - على خلقه ، وقد سبحت السورة فى هذا الجانب سبحا عظيما ، فذكّرت الإنسان بنعمة خلقه ، وبنعمة تسخير الأنعام والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والماء ، والجبال ، والأشجار .. كل ذلك وغيره لمنفعته ومصلحته .

(جـ) كما نلمس اهتمامها بضرب الأمثال للمؤمن والكافر ، والشاكر والجاحد والإله الحق والآلهة الباطلة .. وذلك لأن فى ضرب الأمثال تقريب للبعيد وتوضيح للخفى ، بأسلوب من شأنه أن يكون أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس وأدعى إلى التدبر والتفكر .

(د) كما ندرك حرصها على إيراد أقوال المشركين وشبههم ! ثم الرد عليها بطريقة تقنع العقول ، وترضى العواطف ، بأن الإسلام هو الدين الحق ، وبذلك يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم .

(هـ) كما نحس - عند قراءتها - بعنايتها بتوجيه المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وأمهات الفضائل ، كالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، والوفاء ، والصبر،والشكر ... وبنهيهم عن الرذائل كالغدر والجحود ، ونقض العهود ، والاستكبار ، والظلم .

وأخيرا فإن المتأمل فى هذه السورة - أيضا - يراها حافلة بأسلوب الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار ، والوعد والوعيد .

الوعيد للكافرين بسوء المصير إذا ما لجوا فى ضلالهم وطغيانهم كما فى قوله - تعالى - : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

والوعد للمؤمنين بالحياة الطيبة فى الدارين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لسورة النعم ، ونسأل الله - تعالى - أن يرزقنا التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(التفسير)

قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

افتتحت السورة الكريمة، بتهديد الكافرين الذين كانوا ينكرون البعث، وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، ويستبعدون نصر الله - تعالى - لأوليائه، فقال - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ والفعل « أتى » هنا، بمعنى قرب ودنا بدليل « فلا تستعجلوه »، لأن المنهى عن الاستعجال يقتضى أن الأمر الذى استعجل حصوله لم يحدث بعد.

والمراد بأمر الله : ما اقتضته سنته وحكمته - سبحانه - من إثابة المؤمنين ونصرهم، وتعذيب الكافرين ودحرهم.

والفاء فى قوله « فلا تستعجلوه » للتفريع. والاستعجال : طلب حصول الشىء قبل وقته. والضمير المنصوب فى « تستعجلوه » يعود على « أمر الله »، لأنه هو المتحدث عنه، أو على « الله » - تعالى -، فلا تستعجلوا الله فيما قضاه وقدره.

والمعنى : قرب ودنا مجىء أمر الله - تعالى - وهو إكرام المؤمنين بالنصر والثواب، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب، فلا تستعجلوا - أيها المشركون - هذا الأمر، فإنه آت لاريب فيه، ولكن فى الوقت الذى يحدده الله تعالى - ويشاؤه.

وعبر عن قرب إتيان أمر الله - تعالى - بالفعل الماضى « أتى » للإشعار بتحقق هذا الإتيان، وللتنويه بصدق المخبر به، حتى لكأن ما هو واقع عن قريب، قد صار فى حكم الواقع فعلا. وفى إبهام أمر الله، إشارة إلى تهويله وتعظيمه، لإضافته إلى من لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

قوله « فلا تستعجلوه » زيادة فى الإنذار والتهديد، أى : فلا جدوى من استعجالكم، فإنه نازل بكم سواء استعجلتم أم لم تستعجلوا.

والظاهر أن الخطاب هنا للمشركين، لأنهم هم الذين كانوا يستعجلون قيام الساعة، ويستعجلون نزول العذاب بهم، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات :

منها قوله - تعالى - : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾[1].

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده. وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى. الآية ١٨.
(٢) سورة الحج. الآية ٤٧.

وقال بعض العلماء : و« يجوز أن يكون الخطاب هنا شاملا للمؤمنين ، لأن عذاب الله - تعالى - وإن كان الكافرون يستعجلونه ، تهكما به ، لظنهم أنه غير آت ، فإن المؤمنين يضمرون فى نفوسهم استبطاءه ، ويحبون تعجيله للكافرين »[١] .

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » جملة مستأنفة ، قصد بها إبطال إشراكهم ، وزيادة توبيخهم وتهديدهم .

أى : تنزه الله - تعالى - وتعاظم بذاته وصفاته ، عن إشراك المشركين ، المؤدى بهم إلى الأقوال الفاسدة ، والأفعال السيئة ، والعاقبة الوخيمة، والعذاب المهين . وقوله : « يشركون » : قراءة الجمهور ، وفيها التفات من الخطاب فى قوله « فلا تستعجلوه » إلى الغيبة ، تحقيرا لشأن المشركين ، وحطا من درجتهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية لشنائعهم التى يتبرأ منها العقلاء .

وقرأ حمزة والكسائى « تشركون » تبعا لقوله - تعالى - ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ وعلى قراءتها لا التفات فى الآية .

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان قدرته ، ورحمته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فقال تعالى - : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ... ﴾

والمراد بالملائكة هنا : جبريل - عليه السلام - ومن معه من حفظة الوحى . أو المراد بهم جبريل خاصة ، ولا مانع من ذلك ، لأن الواحد قد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيسا عظيما .

والمراد بالروح : كلام الله - تعالى - ووحيه الذى ينزل به جبريل ، ليبلغه إلى من أمره الله بتبليغه إياه .

وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحى فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ... ﴾[٢] .

والمعنى : ينزل - سبحانه - الملائكة بكلامه ووحيه ، على من يشاء إنزالهم إليه من عباده المصطفين الأخيار .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٩٧ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

وأطلق - سبحانه - على وحيه اسم الروح ، على سبيل التشبيه ، ووجه الشبه : أن بسببهما تكون الحياة الحقة .

فكما أن بالروح تحيا الأبدان والأجساد ، فكذلك بالوحى تحيا القلوب والنفوس وتؤدى رسالتها فى هذه الحياة .

وفى قوله - سبحانه - : « من أمره » إشارة إلى أن نزول الملائكة بالوحى ، لا يكون إلا بسبب أمر الله لهم بذلك ، كما قال - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا ﴾[1] .

وقوله : « على من يشاء من عباده » رد على مطالب المشركين المتعنتة ، والتى من بينها ما حكاه الله تعالى - عنهم فى قوله : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... ﴾[2] .

فالآية الكريمة تبين أن نزول الملائكة بالوحى ، إنما هو على من يختاره الله - تعالى - لنزول الوحى عليه ، لا على من يختارونه هم ، وأن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يصطفيه من عباده . قال - تعالى - : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[3] .

وقوله : « أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » بيان للمقصود من نزول الملائكة بالوحى على الأنبياء .

أى : أنزل - سبحانه - ملائكته بوحيه على أنبيائه ، لكى ينذر هؤلاء الأنبياء الناس ، ويخوفوهم من سوء عاقبة الإشراك بالله ، ويدعوهم إلى أن يخلصوا العبادة لله - تعالى - وحده ، ويبينوا لهم أن الألوهية لا يصح أن تكون لغيره - سبحانه - .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ أن أنذروا ﴾ بدل من « الروح » على أن « أن » هى التى من شأنها أن تنصب المضارع ، وصلت بالأمر كما وصلت به فى قولهم : كتبت إليه بأن قم .

وجوز بعضهم كون «أن» هنا مفسرة ، فلا موضع لها من الإعراب ، وذلك لما فى « ينزل

---

(١) سورة مريم : الآية ٦٤ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٣١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

الملائكة بالوحى ، من معنى القول ، كأنه قيل : يقول - سبحانه - بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أن أنذروا ... » [١] .

واقتصر هنا على الإنذار الذى هو بمعنى التخويف ، لأن الحديث مع المشركين ، الذين استعجلوا العذاب ، واتخذوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

والفاء فى قوله « فاتقون » فصيحة : أى ، إذا كان الأمر كذلك ، من أن الألوهية لا تكون لغير الله ، فعليكم أن تتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى ، وعبد غيرى .

قال الجمل : « وفى قوله « فاتقون » تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله ، « أنه لا إله إلا أنا » ، فقد جمعت الآية بين الأحكام الأصلية والفرعية » [٢] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه منزه عن أن يكون له شريك ، وأنه قد أنزل الملائكة بوحيه على من يشاء من عباده ، وأنه لا إله يستحق العبادة سواه .

بعد كل ذلك ، بين الأدلة الدالة على قدرته ووحدانيته ، بأسلوب بديع ، جمع فيه بين دلالة المخلوق على الخالق ، ودلالة النعمة على منعمها ، ووبخ المشركين على شركهم ، تارة عن طريق خلقه وحده - سبحانه - للسموات والأرض ، وتارة عن طريق خلقه للإنسان ، وتارة عن طريق خلقه للحيوان وللنبات ، ولغير ذلك من المخلوقات التى لا تحصى .

قال - تعالى - : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون ﴾ .

والباء فى قوله « بالحق » للملابسة . والحق : ضد الباطل ، وهو هنا بمعنى الحكمة والجد الذى لا هزل فيه ولا عبث معه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ... ﴾[٣] .

أى : خلق - سبحانه - بقدرته النافذة السموات وما أظلت ، والأرض وما أقلت ، خلقا ملتبسا بالحكمة الحكيمة ، وبالجدية التى لا يحوم حولها لهو أو عبث .

وقوله : « تعالى عما يشركون » تنزيه وتقدير لذاته وصفاته ، عما قاله المشركون فى شأنه - عز وجل - من أن له ولدا أو شريكا .

قال - تعالى - : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ٩٤ .
(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٥٥٧ .
(٣) سورة الدخان الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾[١] .

وقد صدر - سبحانه - هذه الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، بخلق السموات والأرض ، لأن خلقهما أعظم من خلق غيرهما ، ولأنهما حاويتان لما لا يحصى من مخلوقاته - سبحانه - .

قال - تعالى - : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢] .

ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على انفراده بالألوهية عن طريق خلق الإنسان فقال : ﴿ خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا جنس الإنسان .

وأصل النطفة : الماء الصافى . أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت ، أى سال منها الماء وتقاطر .

والمراد بالنطفة هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .

والخصيم : الكثير الخصام لغيره ، فهو صيغة مبالغة . يقال : خصم الرجل يخصم - من باب تعب - إذا أحكم الخصومة ، فهو خصم وخصيم .

والمبين . المظهر للحجة ، المفصح عما يريده بألوان من طريق البيان .

أى : خلق - سبحانه - الإنسان . من مَنِيٍّ يُمنى ، أو من ماء مهين خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة ، لا يجهلها عاقل ، ثم أخرجه بقدرته من بطن أمه إلى ضياء الدنيا ، ثم رعاه برعايته ولطفه إلى أن استقل وعقل .

حتى إذا ما وصل هذا الإنسان إلى تلك المرحلة التى يجب معها الشكر لله - تعالى - الذى رباه ورعاه ، إذا به ينسى خالقه ، ويجحد نعمه ، وينكر شريعته ، ويكذب رسله ويخاصم ويجادل بلسان فصيح من بعثه الله - تعالى - لهدايته وإرشاده ، ويقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم .. ﴾ .

وإذا فى قوله - سبحانه - ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾. هى التى تسمى بإذا الفجائية التى يؤتى بها لمعنى ترتب الشىء ، على غير ما يظن أن يترتب عليه .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٥٧ .

وجىء بها هنا لزيادة التعجيب من حال الإنسان ، لأنه كان المنتظر منه بعد أن خلقه الله - تعالى - بقدرته ، ورباه برحمته ورعايته ، أن يشكر خالقه على ذلك ، وأن يخلص العبادة له ، لكنه لم يفعل ما كان منتظرا منه ، بل فعل ما يناقض ذلك من الإشراك والمجادلة فى أمر البعث وغيره .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ﴾ [1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ [2] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على وحدانيته وقدرته عن طريق خلقه للسموات وللأرض وللإنسان ، أتبع ذلك ببيان أدلة وحدانيته وقدرته عن طريق خلق الحيوان فقال - تعالى - : ﴿ والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ، ومنافع ، ومنها تأكلون ﴾ .

والأنعام : جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، وقد تطلق على الإبل خاصة ، .

وانتصب الأنعام عطفا على الانسان فى قوله : ﴿ خلق الانسان من نطفة ﴾ ، أو هو منصوب بفعل مقدر يفسره المذكور بعده . أى : وخلق الأنعام خلقها .

والدفء : السخونة . ويقابله شدة البرد ، يقال : دَفِئَ الرجل - من باب طرب - فهو دَفَأً - كتعب - ودفآن ، إذا لبس ما يدفئه ، ويبعد عنه البرد .

والمراد بالدفء هنا : ما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها لهذا الغرض .

وعطف « منافع » على « دفء » من باب عطف العام على الخاص ، إذ المنافع تشمل ما يستدفأ به منها وغيره .

وخص الدفء بالذكر من عموم المنافع ، للعناية به وللتنويه بأهميته فى حياة الناس .

أى : ومن مظاهر نعم الله - تعالى - عليكم - أيها الناس - ، أن الله - تعالى - خلق الأنعام ، وجعل لكم فيها ماتستدفئون به ، من الثياب المأخوذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيكم برودة الجو وجعل لكم فيها منافع متعددة ، حيث تتخذون من ألبانها شرابا سائغا للشاربين ، ومن لحومها أكلا نافعا للآكلين .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٤ .

(٢) سورة غافر الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ بيان لنوع آخر من أنواع منافع الحيوان للانسان .

قال أبو حيان فى البحر : والجمال مصدر جمل - بضم الميم - ، يقال رجل جميل وامرأة جميلة وجملاء ، قال الشاعر :

فهى جملاء كبدر طالع   بذت الخلق جميعا بالجمال

والجمال يكون فى الصورة بحسن التركيب ، بحيث يدركه البصر فتتعلق به النفس .

ويكون فى الأخلاق ، باشتمالها على الصفات المحمودة ، كالعلم والعفة والحلم .

ويكون فى الأفعال ، بوجودها ملائمة لمصالح الخلق . وجلب المنفعة لهم وصرف الشر عنهم .. »[٢] .

وجمال الأنعام من النوع الأول ، ومن جمالها - أيضا - كثرتها ودلالتها على أن صاحبها من أهل السعة واليسار .

وقوله « تريحون » من الإراحة ، يقال : أراح فلان ماشيته إراحة ، إذا ردها إلى المراح ، وهو منزلها الذى تأوى إليه ، وتبيت فيه .

و « تسرحون » من السروح ، وهو الخروج بها غدوة من حظائرها إلى مسارحها ومراعيها .

يقال : سَرَحْت الماشية أسرحها سرحا وسروحا ، إذا أخرجتها إلى المرعى .

ومفعول الفعلين « تريحون وتسرحون » محذوف للعلم به .

والمعنى : ولكم - أيها الناس - فى هذه الأنعام جمال وزينة ، حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى معاطنها التى تأوى إليها ، وحين تخرجونها بالغداة من معاطنها إلى مسارحها ومراعيها .

وخص - سبحانه - هذين الوقتين بالذكر ، لأنهما الوقتان اللذان تتراءى الأنعام فيهما ، وتتجاوب أصواتها ذهابا وجيئة ، ويعظم أصحابها فى أعين الناظرين إليها .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢١ .

(٢) تفسير البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٧٥ - بتصرف وتلخيص .

وقدم - سبحانه - الإراحة على التسريح ، لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج ، حيث تقبل من مسارحها وقد امتلأت بطونها ، وحفلت ضروعها ، وازدانت مشيتها .

وقال - سبحانه - : ﴿ حين تريحون وحين تسرحون ﴾. بالفعل المضارع ، لإفادة التجديد والتكرار ، وفى ذلك ما يزيد السرور بها ، ويحمل على شكر الله - تعالى - على وافر نعمه .

قال صاحب الكشاف : « منَّ الله بالتجمل بها ، كما منّ بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها ؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة فزينت إراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، آنست أهلها ، وفرحت أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح - مع تأخر الإراحة فى الوجود ؟ .

قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها »[1] .

ثم بين - سبحانه - منفعة ثالثة من منافع الأنعام ، التى سخرها الله - تعالى - للإنسان فقال : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾ .

والضمير فى قوله « وتحمل » يعود إلى الإبل خاصة ، لأنها هى التى يحمل عليها .

والأثقال : جمع ثقل . وهو ما يُثقل الإنسانَ حملُهُ من متاع وغيره .

والمراد بالبلد جنسه ولأن الارتحال قد يكون إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما .

والشق - بالكسر - المشقة : ومن كل شىء نصفه ، والباء للملابسة . أى : إلا بمشقة شديدة ، كأن نفوسكم قد ذهب نصفها خلال تلك الرحلة الطويلة الشاقة التى لم تستخدموا فيها الأنعام .

قال القرطبى : وشق الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين .

قال المهدوى : وكسر الشين وفتحها فى « شق » متقاربان . وهما بمعنى المشقة .

وقرأ أبو جعفر « إلا بشق الأنفس » - بفتح الشين - وهما لغتان مثل رق ورق .

والشق - أيضاً - بالكسر - النصف . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى . أى : لم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٧ .

تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها ... »[١] .

والمعنى : ومن فوائد هذه الأنعام - أيضا - انها تحمل أمتعتكم وأثقالكم من بلد إلى بلد آخر بعيد ، هذا البلد الآخر البعيد . لم تكونوا واصلين إليه بدونها ، إلا بعد تعب شديد ، وجهد مضن ، وكلفة يذهب معها نصف قوتكم .

والتنكير فى « بلد » لإفادة معنى البعد ، لأن بلوغ المسافر إليه بمشقة ، هو من شأن البلد البعيد ، الذى يصعب الوصول إليه بدون راحلة .

وجملة « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » التى هى صفة لبلد ، تشير إلى هذا المعنى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾[٣] .

وجملة « إن ربكم لرءوف رحيم » تعليل لخلقه - سبحانه - الأنعام لخدمة الإنسان .

أى : خلق لكم هذه الأنعام ؛ لأنه رءوف رحيم بكم ، حيث لم يترككم تحملون أثقالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل أوجد هذه الأنعام لمنافعكم ومصالحكم . ثم ذكر - سبحانه - أنواعا أخرى من الحيوان المنتفع به ، فقال - تعالى - : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون ﴾ .

قال الجمل : « الخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه ، بل من معناه وهو فرس . وسميت خيلا لاختيالها فى مشيها . والبغال جمع بغل : وهو المتولد بين الخيل والحمير .. »[٤] .

واللام فى قوله « لتركبوها » للتعليل .

ولفظ « وزينة » مفعول لأجله ، معطوف على محل « لتركبوها » .

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان .

قال القرطبى : « هذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى - أذن به

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٧١ .

(٢) سورة غافر الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) سورة يس . الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٥٩ .

لعباده ، ففى الحديث الشريف : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل فى نواصيها الخير » خرجه البرقانى وابن ماجة فى السنن ... » [١] .

والمعنى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه خلق لمنفعتكم - أيضا - الخيل والبغال والحمير ، لتركبوها فى غزوكم وتنقلاتكم ، ولتكون زينة لكم فى أفراحكم ومسراتكم .

وأتى - سبحانه - باللام فى « لتركبوها » دون ما بعدها ، للإشارة إلى أن الركوب هو المقصود الأصلى بالنسبة لهذه الدواب ، أما التزين بها فهو أمر تابع للركوب ومتفرع منه .

قال صاحب الظلال : وفى الخيل والبغال والحمير ، تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة .

وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة ، فالجمال - المتمثل فى الزينة - عنصر له قيمة فى هذه النظرة ، وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الانسانى المرتفع على ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان »[٢] .

وقال بعض العلماء : وقد استدل بهذه الآية ، القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب والزينة يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها .

وأجاب المجوزن لأكلها ، بأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها - وهو الركوب والزينة - لا ينافى غيره .

وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما فى الصحيحين وغيرهما ، من حديث أسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله - ﷺ - فرسا فأكلناه .

وثبت - أيضا - فى الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله - ﷺ - عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى الخيل[٣] .

وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة ، ورجح حل أكل لحوم الخيل ، وساق الأدلة والأحاديث فى ذلك ثم قال : « وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص ، فإنما هو دعوى ، لا يلتفت إليه ، ولا يعرج عليه »[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٧٩ .
(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٦١ للأستاذ سيد قطب .
(٣) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٧٠ .
(٤) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٧٦ ، وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٦ طبعة دار الشعب .

ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام البغوى : ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم ، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته ، والدليل الصحيح المعتمد عليه فى إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب .

ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتا عنه ، ودار الأمر فيه على الإباحة والتحريم ، ووردت السنة النبوية بإباحة لحوم الخيل ، وبتحريم لحوم البغال والحمير فوجب الأخذ بما جاء فى السنة التى هى بيان للكتاب[1] .

هذا وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على عظيم قدرته ، وسعة علمه ، فقال : ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ .

أى : ويخلق - سبحانه - فى الحال والاستقبال ، مالا تعلمونه - أيها الناس - من أنواع المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب ، كالسفن التى تمخر عباب الماء ، والطائرات التى تشق أجواز ا لفضاء ، والسيارات التى تنهب الأرض نهبا لسرعتها ، وغير ذلك من أنواع المخلوقات التى لا يعلمها سواه - سبحانه - والتى أوجدها لمنفعتكم ومصلحتكم .

وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن من عند الله - تعالى - فقد أوجد - سبحانه - العقول البشرية ، التى ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة فى البر وفى البحر وفى الجو ، والتى لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم .

وتشير - أيضا - إلى مزيد فضل الله - تعالى - على الناس ، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم فى مستقبل الأيام من وسائل الركوب وغيرها ، ما فيه منفعة لهم ، سوى هذه الدواب التى ذكرها .

فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل فى طاعة الله - تعالى - لا فى معصيته وعليهم أن يتقبلوا هذه الوسائل ، وأن يفتحوا عقولهم لكل ما هو نافع .

ورحم الله صاحب الظلال ، فقد قال عند تفسيره الآية ما ملخصه : يعقب الله - تعالى - على خلق الأنعام والخيل والبغال والحمير بقوله ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى ، لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والركوب والزينة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٠ .

وحتى لا يقول بعض الناس : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها .

ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان ، وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان : والقرآن يهيئ لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر ، « ويخلق مالا تعلمون » [١] .

وبعد أن بين - سبحانه - دلائل وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض والإنسان والدواب .. أتبع ذلك ببيان أنه - عز وجل - كفيل بالإرشاد إلى الطريق المستقيم لمن يتجه إليه فقال - تعالى - : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

والقصد : الاستقامة . والسبيل : الطريق والقصد منه : هو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه . يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم . قال الشاعر :

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ، ومنه ذو دخل

قال الجمل ما ملخصه : « وعلى الله » أى : تفضلا « قصد السبيل » على تقدير مضاف ، أى : وعلى الله بيان قصد السبيل . وهو بيان طريق الهدى من الضلالة ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والقصد مصدر يوصف به . يقال : سبيل قصد وقاصد أى : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . والمراد بالسبيل : جنسه .. »[٢] .

والضمير فى قوله « ومنها جائر » يعود إلى السبيل . والجائر : المائل عن الاستقامة ، المنحرف عن الجادة وهو صفة لموصوف محذوف . أى : ومنها سبيل جائر .

أى : وعلى الله - تعالى - وحده ، تفضلا منه وكرما ، بيان الطريق المستقيم وهو طريق الحق ، الذى يوصل من سلكه إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الطريق الحق : هو الذى جاء به محمد - ﷺ - .

ومن الطريق ما هو حائد عن الاستقامة ، وهو كل طريق يخالف ما جاء به خاتم الرسل ، - ﷺ - من عقائد وشرائع وآداب .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٦١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦١ .

قال - تعالى - : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. ﴾[١] .

فالمراد بالطريق القصد : الطريق الموصل إلى الإسلام ، والمراد بالطريق الجائر : الطريق الموصل إلى غيره من ملل الكفر والضلال .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ، ببيان أن الهداية والإضلال بقدرته ومشيئته ، فقال - تعالى - : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

أى : ولو شاء - سبحانه - هدايتكم - أيها الناس - إلى الطريق المستقيم ، لهداكم جميعا ، ولكنه - عز وجل - لم يشأ ذلك ، بل اقتضت حكمته أن يخلق الناس ، مستعدين للهدى والضلال ، وأن يترك لهم اختيار أحد الطريقين فكان منهم من استحب العمى على الهدى ، وكان منهم من سلك الطريق المستقيم . وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

قال تعالى - : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا .. ﴾[٣] .

وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده عن طريق خلق الأنعام وغيرها من البهائم ، التى لهم فيها منافع ، أتبع ذلك ببيان نعمه عليهم فى إنزال المطر ، فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .
(٢) سورة الإنسان الآيتان ٢ ، ٣ .
(٣) سورة يونس الآية ٩٩ .

والمراد بالسماء : السحاب المرتفع فى طبقات الجو ، حيث ينزل منه الماء بقدرة الله - تعالى - والشراب : اسم للمشروب الذى يشربه الإنسان والحيوان وغيرهما .

والشجر : يطلق على النبات ذى الساق الصلبة على سبيل الحقيقة ، ويطلق على العشب والكلأ على سبيل المجاز ، وهو المراد هنا ، لأنه هو الذى ترعاه الأنعام .

والضمير فى قوله - سبحانه - ﴿ ومنه شجر ﴾ يعود على الماء ، باعتباره السبب فى وجود الشجر .

قال الآلوسى: قوله - سبحانه - «ومنه شجر» أى: نبات مطلقا سواء أكان له ساق أم لا ، كما نقل عن الزجاج ، وهو حقيقة فى الأول ، ومن استعماله فى الثانى قول الراجز :

نعلفها اللحم إذا عز الشجر والخيل فى إطعامها اللحم ضرر

فإنه قيل : الشجر فيه بمعنى الكلأ ، لأنه الذى يعلف .. »[1] .

وقوله : « تسيمون » من الإسامة ، بمعنى إطلاق الإبل وغيرها للسوم ، أى الرعى . يقال : أسام فلان إبله للرعى إسامة ، إذا أخرجها إلى المرعى . وسامت هى تسوم سوما ، إذا رعت حيث شاءت وأصل السوم : الابعاد فى المرعى .

والمعنى : هو - سبحانه - وحده وليس غيره : الذى غمركم بنعمه ، حيث أنزل لكم من السحاب ماء كثيرا ، هذا الماء الكثير المنزل بقدر معلوم ، منه تأخذون ماتشربونه وما تنتفعون فى حوائجكم الأخرى ، وبسببه تخرج المراعى التى ترعون فيها دوابكم .

فالآية الكريمة دليل آخر من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبديع خلقه ، حيث أنزل - سبحانه - المطر من السماء ، ولو شاء لأمسكه ، أو لأنزله غير صالح للشراب .

قال - تعالى - : ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لونشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾[2] .

وأتى - سبحانه - بلفظ « فى » المفيدة للظرفية ، فى قوله - تعالى - ﴿ فيه تسيمون ﴾ ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى هذا الشجر ، قد يكون عن طريق أكل الدواب منه ، وقد يكون عن طريق أكل ما تحته من الأعشاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات .. ﴾ تفصيل لأهم منافع الماء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٠٥ .

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٨ - ٧٠ .

أى : يخرج لكم من الأرض ، بسبب الماء الذى أنزله عليها من السماء « الزرع » الذى هو أصل أغذيتكم ، وعماد معاشكم ، كالقمح والشعير وغيرهما « والزيتون » الذى تستعملونه إداما فى أغذيتكم « والنخيل والأعناب » اللذين فيهما الكثير من الفوائد ، ومن التلذذ عند أكل ثمارهما .

وأخرج لكم - أيضا - بسبب هذا الماء « من كل الثمرات » التى تشتهونها وتنتفعون بها ، والتى تختلف فى أنواعها ، وفى مذاقها ، وفى روائحها ، وفى ألوانها ، مع أن الماء الذى سقيت به واحد ، والأرض التى نبتت فيها متجاورة .

ولا شك أن فى هذا الانبات بتلك الطريقة ، أكبر دليل على قدرة الله - تعالى - . لأنه لا يقدر على ذلك سواه - سبحانه - .

وأسند - سبحانه - الإنبات إليه فقال : « ينبت لكم به ... » ؛ لأنه الفاعل الحقيقى لهذا الإنبات والإخراج للزروع من الأرض : أما غيره - سبحانه - فيلقى الحب فى الأرض ، ويرجو الثمار والإنبات منه - عز وجل - .

قال - تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون ﴾ [1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[2] .

وقال - عز وجل - : ﴿ أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ﴾ [3] .

وختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ للحض على التفكر والتأمل فى عظيم قدرته - سبحانه - حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له - عز وجل .

أى : إن فى ذلك المذكور ، من إنزال الماء من السماء ، وإنبات الزروع والثمار بسببه ، لآية

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٣ - ٧٠ .
(٢) سورة الرعد الآية ٤ .
(٣) سورة النمل الآية ٦٠ .

باهرة ، ودلالة عظيمة ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، لقوم يحسنون التفكير ، ويجيدون التأمل فى خلقه ، أما الذين لا يحسنون التفكير والتأمل ، فهم كالأنعام بل هم أضل .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقال - سبحانه - : ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ لأن من تفكر فى أن الحبة والنواة ، تقع فى الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها ، فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع ...

من تفكر فى ذلك علم أن من هذه آثاره وأفعاله ، لا يمكن أن يشبهه غيره فى صفة من صفات الكمال ، فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته التى هى الألوهية واستحقاق العبادة .

وحيث كان الاستدلال بما ذكر ، مشتملا على أمر خفى محتاج إلى التفكر والتدبر لمن له نظر سديد ، ختم - سبحانه - الآية بالتفكر [١] .

ثم ساق - سبحانه - دلائل أخرى مما خلق لنفع الإنسان ، تدل على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتكليف ، يقال . سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به أى : ومن آياته سبحانه الدالة على وحدانيته وقدرته ، أنه « سخر لكم الليل والنهار » يتعاقبان فيكم لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا الرزق بالنهار .

وأنه - سبحانه - سخر لكم « الشمس والقمر » يدأبان فى سيرهما بدون كلل أو

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٠٨ .

اضطراب ، بل يسيران من أجل منفعتكم ومصلحتكم بنظام ثابت ، كما قال - تعالى -: ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ [١] .

وأنه - سبحانه - أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه ، لكى تهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

هذا وقد قرأ جمهور القراء هذه الأسماء : الليل والنهار ... إلخ بالنصب على المفعوليه لفعل « سخر » كما قرأ الجمهور . أيضاً . « مسخرات » بالنصب على الحالية .

وقرأ ابن عامر : « والشمس والقمر والنجوم » بالرفع على الابتداء ، وقرأ - أيضا قوله - « مسخرات ، بالرفع على أنه خبر عنها .

وقرأ حفص برفع النجوم ومسخرات ، على أنهما مبتدأ وخبر : أما بقية الأسماء السابقة فقرأها بالنصب .

وقوله « بأمره » متعلق بمسخرات . والمراد بأمره : إرادته ومشيئته وتدبيره ، الجارى على هذا الكون وفق حكمته وإذنه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

أى : إن فى ذلك المذكور من تسخير الليل والنهار وغيرهما لمنفعتكم ومصلحتكم - يا بنى آدم - لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وجوب العبادة لله - تعالى - وحده ، لقوم يعقلون نعم الله - تعالى - ، ويستدلون بها على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ﴾.. معطوف على ما قبله من النعم وأصل الذرأ : الخلق بالتناسل والتوالد عن طريق الحمل والتفريخ .

قال القرطبى : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا ، أى خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ، والجمع الذرارى ، ويقال : أنمى الله ذرأك وذروك أى : ذريتك .

---

(١) سورة يس الآية ٤٠ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

والمعنى : وسخر لكم - أيضاً - ما أوجده فى الأرض من أجل منفعتكم من عجائب الأمور ، ومختلف الأشياء ، من حيوان ونبات ، ومعادن مختلفة الألوان والأجناس والخواص .

و لاشك أن فى اختلاف الألوان والمناظر والهيئات وغير ذلك ، فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه الخالق لكل شىء .

قال - تعالى - ﴿ ومن آيـاته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ... ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ أى : إن فى ذلك الذى بيناه لكم ، لآية واضحة على قدرة الله - تعالى - لقوم يعتبرون ، ويتذكرون آلاء الله ونعمه ، فيشكرونه عليها ، ويخلصون له العبادة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جملة من نعمه التى أوجدها لعباده فى البر ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر ، فقال - تعالى - :

وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

ففى هذه الآية الكريمة بين - سبحانه - أربع نعم على عباده فى تسخير البحر لهم .

أما النعمة الأولى فتتجلى فى قوله - تعالى - ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ﴾ .

والطرى : ضد اليابس ، والمصدر الطراوة ، وفعله طَرُوَ بوزن خشن وقرب .

أى : وهو - سبحانه - وحده الذى ذلل لكم البحر ، بحيث مكنكم من الانتفاع به ، وأقدركم على الركوب عليه ، وعلى الغوص فيه ، وعلى الصيد منه ، لتأكلوا من أسماكه لحما طريا غضا شهيا .

---

(١) سورة الروم الآية ٢٢ .

ووصف - سبحانه - لحم أسماكه بالطراوة ، لأن أكله فى هذه الحالة أكثر فائدة ، وألذ مذاقا ، فالمنة بأكله على هذه الحالة أتم وأكمل .

وقال بعض العلماء : وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقه ، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - فى خلقه الحلو الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - : « ما نضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا » .

فالمراد من ميتة البحر فى الحديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » مالفظه البحر لا ماماتت فيه من غير آفة[1] .

وقوله « وتستخرجوا منه حليه تلبسونها » نعمة ثانية من نعم الله - تعالى - للإنسان فى تسخير البحر له .

والحلية - بالكسر - اسم لما يتحلى به الناس . وجمعها حِلى وحُلى - بضم الحاء وكسرها - يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلى ، أى : ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الغوص فيه ، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما .

قال - تعالى - ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾[2] .

والتعبير بقوله - سبحانه - تستخرجوا .. » يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد ، مثل استجاب بمعنى أجاب . كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما فى البحر من كنوز وألا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور فقال : « تلبسونها » على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى معظم الأحيان .

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٤ ص ٦١ .
(٢) سورة الرحمن الآيات ١٩ ، ٢٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله « تلبسونها » أى : تلبسها نساؤكم ، وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهم ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن ، فإنهن يتزين ليحسن فى أعين الرجال ، فكأن ذلك زينتهم ولباسهم .

قال القرطبى : « امتن ، الله - تعالى - على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شىء منه ، وإنما حرم الله - تعالى - على الرجال الذهب والحرير ، ففى الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول - ﷺ - : « لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » .

وروى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - اتخذ خاتما من ذهب .. ، فاتخذ الناس مثله ، فرمى به وقال : « لا ألبسه أبدا » . ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتم الفضة ... »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ نعمة ثالثة من نعمه - تعالى - فى تسخير البحر للناس وأصل المخر : الشق . يقال : مخر الماء الأرض إذا شقها . ويقال مخرت السفينة تمخَر ، وتمخُر ، مخرا ، ومخورا ، إذا جرت فى الماء وأخذت تشقه بمقدمتها .

أى : وترى - أيها العاقل - بعينيك السفن وهى تشق البحر بسرعة ، متجهة من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى آخر ، لا تحرسها إلا رعاية الله تعالى وقدرته ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون. إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ﴾[٢] .

والتعبير بقوله : « وترى .. » لا ستحضار الحالة العجيبة عن طريق الرؤية البصرية ، وهى حالة تدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده . حيث سخر لهم السفن لتجرى فى البحر بأمره .

ثم بين - سبحانه - النعمة الرابعة من نعم تسخير البحر للناس فقال تعالى : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ والابتغاء : الطلب للشىء عن رغبة ومحبة .

أى : وسخر لكم البحر - أيضا - لتستخرجوا منه الحلية ، ولتطلبوا فضل الله تعالى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٨٧ .
(٢) سورة يس الآيات ٤١ - ٤٤ .

ورزقه ، عن طريق التجارات والأسفار على ظهر البحر من مكان إلى آخر . سعيا وراء الربح .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بحض الناس على شكره على نعمه فقال ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ .

أى : ولعلكم تشكرون الله - تعالى - على آلائه ، حيث سخر لكم البحر ، وجعله وسيلة من وسائل منفعتكم ومعاشكم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فوائد الجبال والأنهار والسبل والنجوم ، فقال - تعالى - :

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

ولفظ : « رواسى » جمع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والتمكن فى المكان ، يقال رسا الشىء يرسو إذا ثبت . وهو صفة لموصوف محذوف . أى : جبالا رواسى .

و « تميد » أى تضطرب وتميل . يقال : ماد الشىء يميد ميدا ، إذا تحرك ، ومادت الأغصان إذا تمايلت أى : وألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت لكى تقر وتثبت ولا تضطرب .

فقوله « أن تميد بكم » تعليل لإلقاء الجبال فى الأرض .

قال القرطبى : وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك عن النبى - ﷺ - قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتضطرب ، فخلق الجبال عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال . قالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار . قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح . قالوا يارب : فهل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٩٠ .

هذا ، ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. ﴾[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - نعما أخرى لما ألقاه فى الأرض فقال : ﴿ وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ . أى : وجعل فى الأرض « أنهارا » تجرى من مكان إلى آخر ، فهى تنبع فى مواضع . وتصب فى مواضع أخرى ، وفيها نفع عظيم للجميع ، إذ منها يشرب الناس والدواب والأنعام والنبات .

وجعل فيها كذلك طرقا ممهدة ، يسير فيها السائرون من مكان إلى آخر . « لعلكم تهتدون » بتلك السبل إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه . بدون تحير أو ضلال .

وقد كرر القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى - : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾[٣] .

والمراد بالعلامات فى قوله - تعالى - : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ الامارات والمعالم التى يضعها الناس على الطرق بإلهام من الله - تعالى - للاهتداء بها عند السفر .

والمراد بالنجم : الجنس ، فيشمل كل نجم يهتدى به المسافر .

أى ومن مظاهر نعمه - أيضا - ، أنه - سبحانه - جعل فى الأرض معالم وأمارات من جبال كبار ، وآكام صغار ، وغير ذلك ، ليهتدى بها المسافرون فى سفرهم ، وتكون عونا لهم على الوصول إلى غايتهم ، وبمواقع النجوم هم يهتدون فى ظلمات البر والبحر ، إلى الأماكن التى يبغون الوصول إليها .

والضمير « هم » فى قوله ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ يشمل كل سالك فى ظلمات البر والبحر ، ويدخل فيه دخولا أوليا أهل مكة ، لأنهم كانوا كثيرى الأسفار للتجارة ، كما كانوا معروفين بالاهتداء فى سيرهم بمواقع النجوم .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٠ .
(٢) سورة النبأ الآيتان ٦ ، ٧ .
(٣) سورة نوح الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

وقدم – سبحانه – المتعلق وهو « وبالنجم » للاهتمام به ، إذ أن الاهتداء بالنجوم ، أمر هام فى حياة المسافرين ولا سيما الذين يسافرون فى البحر .

وعدل – – سبحانه – عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله « هم يهتدون » على سبيل الالتفات ، ليزداد الكلام طلاوة وانتباها إلى ما اشتمل عليه .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1] .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، التى هى سورة النعم ، قد حدثتنا فى بضع عشرة آية . عن ألوان متنوعة من نعم الله – تعالى – على عباده .

حدثتنا عن نعمة الروح الذى يحيى القلوب الميتة وينقذها من الكفر والضلال .

وحدثتنا عن نعمة خلق الإنسان ، وخلق السموات والأرض .

وحدثتنا عن نعمة خلق الأنعام ، والخيل والبغال والحمير .

وحدثتنا عن نعمة إنزال الماء من السماء ، وما يترتب على هذه النعمة من فوائد ومنافع .

وحدثتنا عن نعمة تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لمصلحة الإنسان .

وحدثتنا عن نعمة تسخير البحر وتذليله للانتفاع بخيراته .

وحدثتنا عن كل ذلك وغيره . لكى يخلص الإنسان عبادته لخالقه ، ولكى يطيعه حق الطاعة ، ويشكره عليها ، ويستعملها فيما خلقت له .

وبعد أن حدثتنا السورة عن كل ذلك ، ساقت لنا جملة من صفات الله – تعالى – ووبخت المشركين على شركهم ، وأبطلته بأبلغ أسلوب ، ودعتهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فقال – تعالى – :

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٧ .

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ
أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق .. ﴾ للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا غير الله - تعالى -

أى : أفمن يخلق هذه الأشياء العجيبة ، والمخلوقات البديعة ، التى بينا لكم بعضها ، وهو الله - عز وجل - كمن لا يخلق شيئا على سبيل الإطلاق ، بل هو مخلوق ، كتلك الأصنام والأوثان وغيرها ، التى أشركتموها فى العبادة مع الله - تعالى - ؟

إن فعلكم هذا لدليل واضح على جهلكم - أيها المشركون - وعلى انطماس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ، فلماذا جىء بمن الذى هو لأولى العلم ؟ .

قلت : فيه أوجه : أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم .

الثانى : المشاكلة بينه وبين من يخلق .

الثالث : أن يكون المعنى : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده . كقوله - تعالى - ﴿ ألهم أرجل يمشون بها .. ﴾ يعنى أن الآلهة - التى عبدوها - حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لأن هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ، لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا .

فإن قلت الآية إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله - تعالى - : فكان من حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟

قلت حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له ، وسووا بينه ، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ زيادة فى توبيخهم وفى التهكم بهم .

أى : أبلغ بكم السفه والجهل أنكم سويتم فى العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق ، والحال أن هذه التسوية لا يقول بها عاقل ، لأن من تفكر أدنى تفكر ، وتأمل أقل تأمل ، عرف وتيقن أنه لا يصح التسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق ، فهلا فكرتم قليلا فى أمركم ، لكى تفيئوا إلى رشدكم ، فتخلصوا العبادة لله الخلاق العليم .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمه على سبيل الإجمال ، بعد أن فصل جانباً منها فى الآيات السابقة فقال - تعالى - ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾.

والمراد بالنعمة هنا جنسها ، الذى يشمل كل نعمه ، لأن لفظ العدد والإحصاء قرينة على ذلك ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية .

أى : وإن تعدوا نعمة الله - تعالى - التى أنعمها عليكم ، فى أنفسكم ، وفيما سخره لكم لا تستطيعون حصر هذه النعم لكثرتها ولتنوعها .

وما دام الأمر كذلك فاشكروه عليها ما استطعتم ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ استئناف قصد به فتح باب الأمل أمامهم لكى يتداركوا ما فرط منهم من جحود وتقصير فى حقه - سبحانه - .

أى : إن الله - تعالى - لغفور لعباده على ما فرط منهم متى تابوا إليه توبة نصوحا ، رحيم بهم ، حيث لم يؤاخذهم بذنوبهم . بل منحهم نعمه مع تقصيرهم فى شكره - تعالى .

قال ابن كثير - رحمه الله - قوله : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ أى يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازى على اليسير »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٥ - بتصرف يسير .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٨٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ بيان لكمال علمه - تعالى - وتحذير من الوقوع فيما نهى عنه ، لأنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية .

أى : والله - تعالى - وحده ، يعلم ما تسرونه من أقوال وأفعال ، وما تظهرونه منها ، وهو محص عليكم ذلك ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ثم وصف - سبحانه - الأوثان التى يعبدها المشركون من دونه ، بثلاثة أوصاف . تجعلها بمعزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ، فقال - تعالى - ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون ﴾.

فوصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا .. ﴾ .

أى : وهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله - تعالى - لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت ، بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون الأصنام . كما قال - سبحانه - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - الذى قال لقومه على سبيل التهكم بهم : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون ﴾[1] .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفتقر إلى من يوجده ؟!

وهذه الآية الكريمة أصرح فى إثبات العجز للمعبودات الباطلة من سابقتها التى تقول : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق .. ﴾لأن الآية السابقة نفت عن المعبودات الباطلة أنها تخلق شيئا، أما هذه الآية التى معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون لغيرهم وهو الله - عز وجل - ، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ، وعليه فلا تكرار بين الآيتين .

وأما الصفة الثانية لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - ﴿ أموات غير أحياء ﴾ .

أى : هؤلاء المعبودون من دون الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا ، فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم للحياة فقدانا تاما .

وجملة « غير أحياء » جىء بها لتأكيد موتهم ، وللدلالة على عراقة وصفهم بالموت ، حيث

---

(١) سورة الصافات الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

إنه لا توجد شائبة للحياة فيهم ، ولم يكونوا أحياء - كعابديهم - ثم ماتوا ، بل هم أموات أصلا . أو جيء بها على سبيل التأسيس ، لأن بعض مالا حياة فيه من المخلوقات ، قد تدركه الحياة فيما بعد ، كالنطفة التى يخلق الله - تعالى - منها حياة ، أما هذه الأصنام فلا يعقب موتها حياة ، وهذا أتم فى نقصها ، وفى جهالة عابديها .

وأما الصفة الثالثة لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ .

ولفظ « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى .

وهذه الصفة تدل على جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشىء .

أى : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة ، أنها لا تدرى متى يبعثها الله - تعالى - لتكون وقودا للنار .

وبعضهم يجعل الضمير فى « يشعرون » يعود على الأصنام ، وفى « يبعثون » يعود على العابدين لها ، فيكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام التى تعبد من دون الله - تعالى - متى تبعث عبدتها للحساب يوم القيامة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله : « وما يشعرون أيان يبعثون » الضمير فى « يشعرون » للآلهة وفى « يبعثون » للكفار الذين يعبدون الأصنام .

والمعنى : وما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة . فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا الله - سبحانه - .

ويجوز أن يكون الضمير فى الفعلين للآلهة . أى : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويدل على ذلك قوله تعالى - : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. ﴾ [1] .

وبعد أن أبطل - سبحانه - عبادة غيره بهذا الأسلوب المنطقى الحكيم ، صرح بأنه لا معبود بحق سواه ، فقال : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ .

أى إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته : فأخلصوا له العبادة ، ولا تجعلوا له شركاء .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ١٥٦ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت المشركين يصرون على كفرهم ويستحبون العمى على الهدى ، فقال - تعالى - : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ .

أى : فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب قلوبهم منكرة للحق ، جاحدة لنعم الله ، منصرفة عن وحدانية الله - تعالى - وعن الأدلة الدالة عليها ، وحالهم فوق ذلك أنهم مستكبرون مغرورون ، لا يستمعون إلى موعظة واعظ ، ولا إلى إرشاد مرشد . ومتى استولت على إنسان هاتان الصفتان - الجحود والاستكبار - ، حالفه البوار والخسران ، وآثر سبيل الغى على سبيل الرشد .

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته « فالذين لا يؤمنون بالآخرة .. » دون التصريح بذواتهم ، لاشتهارهم بتلك الصفات القبيحة ، وللإيمان بأن عدم إيمانهم بالآخرة ، هو أساس خيبتهم ، وخسرانهم وجحودهم .. .

وعبر بالجملة الاسمية فى قوله « قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » للدلالة على تأصل صفتى الجحود والاستكبار فى قلوبهم ، وعلى أن الإنكار للحق سمة من سماتهم التى لا يتحولون عنها مهما وضحت لهم الأدلة على بطلانها ، وعلى أن التعالى والغرور لا ينفك عنهم ، وأنهم ممن قال - سبحانه - فيهم : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] . أى : صاغرين أذلاء .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم ، فقال : ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

وكلمة « لاجرم » وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، وفى كل موضع كانت متلوة بأن واسمها ، وليس بعدها فعل .

وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق وثبت ، والجملة بعدها فاعل .

قال الخليل : لا جرم ، كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا ، يقال : فعلوا ذلك ، فيقال : لا جرم سيندمون .

---

(١) سورة غافرة . الآية ٦٠ .

وقال الفراء : « لا جرم » كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزله حقا فلذلك يجاب عنها باللام ، كما يجاب بها عن القسم ألا تراهم يقولون لا جرم لآتينك .

والمعنى : حق وثبت أن الله - تعالى - يعلم ما يسره هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوال وأفعال ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات ، لأنه - سبحانه - لا يحب المستكبرين عن الاستجابة للحق ، المغرورين بأموالهم وأولادهم ، الجاحدين لنعم الله وآلائه .

قال القرطبى : قال العلماء : وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه ، إلا الكبر ، فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله .

وفى الحديث الصحيح : « إن المتكبرين يحشرون أمثال الذَّرِّ يوم القيامة ، يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم » أو كما قال - ﷺ - : « تصغر لهم أجسامهم فى المحشر حتى يضرهم صغرها ، وتعظم لهم فى النار حتى يضرهم عظمها »[1] .

وبعد أن أقامت السورة الكريمة الأدلة الساطعة ، على وحدانية الله ، وقدرته ، وعلى بطلان عبادة غيره .. أتبعت ذلك بحكاية بعض أقاويل المشركين ، وردت عليها بما يدحضها ، وببيان سوء عاقبتهم ، وعاقبة أشباههم من قبلهم ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا
سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٩٥ .

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

وقوله - سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا أساطير الأولين ﴾ حكاية لبعض ما كان يدور بين أولئك المستكبرين ، وبين غيرهم من أسئلة واستفسارات حول القرآن الكريم .

والأساطير : جمع أسطورة ، كأعاجيب وأعجوبة ، وأحاديث وأحدوثة .

والمراد بها : الأكاذيب والترهات التى لا أصل لها ، والتى كانت مبثوثة فى كتب الأولين .

والمعنى : وإذا قال قائل لهؤلاء الكافرين المستكبرين ، أى شىء أنزل ربكم على نبيه محمد - ﷺ - .

قالوا له على سبيل الجحود للحق : لم ينزل عليه شىء ، وإنما هذا القرآن الذين يتلوه محمد - ﷺ - على أتباعه ، هو من أساطير الكهنة الأولين ، نقله من كتبهم ثم قرأه على من يستمع إليه .

روى ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمدا - ﷺ - رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظرو أناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاءه يريده ردوه عنه .

فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد - ﷺ - ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان بن فلان ، فيعرفه نسبه ، ثم يقول للوافد : أنا أخبرك عن محمد - ﷺ - إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد

ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد . فذلك قوله - تعالى - ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا : أساطير الأولين ﴾ .

فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد لقومى أنا ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم - من مكه - رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ما يقول ، وآتى قومى ببيان أمره . فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين فيسألهم : ماذا يقول محمد - ﷺ - ؟ فيقولون : خيرا .. »[1] .

وعبر - سبحانه - بالفعل « قيل » المبنى للمجهول ، للإشارة إلى أن هذا القول الذى تفوه به عتاة الكافرين ، كانوا يقولونه لكل من يسألهم عن القرآن الكريم ، لكى يصدوه عن الدخول فى الإسلام . وجملة « ماذا أنزل ربكم » نائب فاعل لقيل .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « أساطير الأولين » خبر لمبتدأ محذوف .

أى : قالوا هو أساطير الأولين أو المسئول عنه : أساطير الأولين .

ولقد حكى القرآن قولهم الباطل هذا ، ورد عليه بما يدحضه فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كفرهم ، ونطقهم بالباطل ، فقال - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... ﴾ .

واللام فى قوله - « ليحملوا » هى التى تسمى بلام العاقبة ، وذلك لأنهم لما وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم تلك العاقبة السيئة .

والأوزار جمع وزر - بكسر الواو وسكون الزاى - بمعنى الشىء الثقيل .

المراد بها الذنوب والآثام التى يثقل حملها على صاحبها يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ؛ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[3] .

والمعنى : قالوا ذلك فى القرآن الكريم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا أوزارهم كاملة غير منقوصة يوم القيامة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٣١ .

(٢) سورة الفرقان . الآيتان ٥ ، ٦ .

(٣) سورة العنكبوت .الآية ١٣ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله « ليحملوا » متعلق - بقالوا - كما هو الظاهر .. واللام للعاقبة ، لأن الحمل مترتب على قولهم وليس باعثا ولا غرضا لهم .

وعن ابن عطية : أنها تحتمل أن تكون لام التعليل ومتعلقة بفعل مقدر لا بقالوا ، أى : قدر صدور ذلك منهم ليحملوا ...[١] .

وقال -سبحانه- ﴿ كاملة ﴾ لتأكيد أنه لا يرفع عنهم شىء من ذنوبهم ، بل سيعاقبون عليها جميعها دون أن ينقص منها شىء .

قال الفخر الرازى : وهذا يدل على أن الله - تعالى - قد يسقط بعض العقاب على المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى ..[٢] .

وقال بعض العلماء : « ويصور التعبير هذه الذنوب بكونها أحمالا ذات ثقل - وساءت أحمالا وأثقالا - ، فهى توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهى تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهى تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حاملها ، بل هى أدهى وأنكى »[٣] .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه بلغه أنه يتمثل للكافر عمله فى صورة أقبح ما خلق الله وجها ، وأنتنه ريحا ، فيجلس إلى جنبه كلما أفزعه شىء زاده فزعا ، وكلما تخوف من شىء زاده خوفا . فيقول له بئس الصاحب أنت ومن أنت ؟ فيقول له وما تعرفنى ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا عملك كان قبيحا فلذلك ترانى قبيحا ، وكان منتنا فلذلك ترانى منتنا . طأطئ إلى أركبك ، فطالما ركبتنى فى الدنيا ، فيركبه ، وهو قوله - تعالى - ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة .. ﴾[٤] .

وقوله : « ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » بيان لأثقال أخرى يحملونها فوق أثقالهم .

أى : أن أولئك المستكبرين ، قالوا فى القرآن إنه أساطير الأولين ، فكانت عاقبة قولهم الباطل أن حملوا آثامهم الخاصة ، وأن حملوا فوقها جانبا من آثام من كانوا سببا فى ضلالهم .

قال ابن كثير : أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ،

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٢٤ .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٨ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٦٧ للأستاذ سيد قطب .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٦٦ .

واقتداء أولئك بهم ، كما جاء فى الحديث : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

كما قال - تعالى - : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[1] .

فهذه الآية وأمثالها ، لا تعارض بينها وبين قوله - تعالى - ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2] .

لأن هؤلاء المستكبرين لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل تسببوا فى إضلال غيرهم ، فعوقبوا على هذا التسبب السيء ، الذى هو فعل من أفعالهم القبيحة .

وقوله « بغير علم » فى موضع الحال من الضمير المنصوب فى قوله « يضلونهم » .

أى : يضلون ناسا لا علم عندهم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، وفى ذلك ما فيه من مدح أهل العلم والتفكير ، لأن الآية الكريمة قد بينت أن أئمة الكفر ، يستطيعون إضلال من لا علم عنده ، أما أصحاب العقول السليمة فلن يستطيعوا إضلالهم .

قالوا : واستدل بالآية على أن المقلد يجب عليه أن يبحث ، وأن يميز بين الحق والباطل ، ولا يعذر بسبب جهله .

وقيل: إن قوله «بغير علم» فى موضع الحال من الضمير المرفوع فى قوله «يضلونهم».

أى : هم يضلون غيرهم حالة كونهم غير عالمين بما يترتب على ذلك من آثام وعقاب ، إذ لو علموا ذلك لما أقدموا على هذا الإضلال لغيرهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ . قال الجمل : و « ساء » فعل ماض لإنشاء الذم بمعنى بئس ، و « ما » تمييز بمعنى شيئا ، أو فاعل بساء ، و « يزرون » صفة لما والعائد محذوف ، أو « ما » اسم موصول ، وقوله « يزرون » صلة الموصول ، والعائد محذوف أى : يزرونه ، والمخصوص بالذم محذوف »[3] .

والتقدير : بئس شيئا يزرونه ويحملونه نتيجة كفرهم وكذبهم وإضلالهم لغيرهم ؛ وافتتحت

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٨٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٦ .

الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » للاهتمام بما تضمنه التحذير ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويحترسوا عن الوقوع فى الباطل من القول .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه والمؤمنين ، فبين لهم أن هؤلاء المستكبرين الذين قالوا فى القرآن : إنه أساطير الأولين ، سيحيق بهم مكرهم السيئ ، كما حاق بالذين من قبلهم . فقال - تعالى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وقوله - سبحانه - « مكر » من المكر ، وهو التدبير المحكم ، أو صرف الغير عما يريده بحيلته ، وهو مذموم إن تحرى به الماكر الشر والباطل ، ومحمود إن تحرى به الخير والحق .

والمراد به هنا النوع الأول .

والمراد بالذين من قبلهم : الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة ، كقوم نوح وهود وصالح .

وقوله : « فأتى الله بنيانهم .. » أى : أهلكهم ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ ... فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا .. ﴾[1] .

ويقال : أتى فلان من مأمنه أى : نزل به الهلاك من جهة أمنه . وأتى عليه الدهر . أى : أهلكه وأفناه . ومنه الأتوّ . وهو الموت والبلاء .

يقال : أتى على فلان أُتوّ ، أى موت أو بلاء يصيبه .

والقواعد : جمع قاعدة . وهى أساس البناء ، وبها يكون ثباته واستقراره .

والمعنى : لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما يقوله المستكبرون من قومك فى شأن القرآن الكريم لكى يصرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، فقد مكر الذين من قبلهم بأنبيائهم ، فكانت عاقبة مكرهم أن أتى الله بنيانهم من القواعد ، بأن اجتث هذا البنيان من أصله ؛ واقتلعه من أساسه « فخر عليهم السقف من فوقهم » أى : فسقط عليهم سقف بنيانهم فأهلكهم « وأتاهم العذاب » المبير المدمر « من حيث لا يشعرون » ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم من هذه الجهة ، بل كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحميهم من المهالك .

فالآية الكريمة تصور بأسلوب بديع معجز ، كيف أن هؤلاء الماكرين ، قد حصنوا أنفسهم بالبناء المحكم المتين ، ليتقوا ما يؤذيهم ، إلا أن جميع هذه التحصينات قد هوت وتساقطت على

---

(١) سورة الحشر . الآية ٢ .

رءوسهم ، أمام قوة الله - تعالى - التى لا ترد ، فإذا بالبناء الذى بنوه ليحتموا به ، قد صار مقبرة لهم .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ومكروا مكرا ، ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾[١] .

وقال - سبحانه - : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ مع أن السقف لا يكون إلا من فوق ، لتأكيد الكلام وتقويته .

وقال القرطبى: قال ابن الأعرابى: وكد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته، والعرب تقول: خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « من فوقهم » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال : « من فوقهم » أى : عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا .. »[٢] .

هذا ومن المفسرين الذين رجحوا أن الآية مسوقة على سبيل التمثيل ، الفخر الرازى . فقد قال : وفى قوله - سبحانه - ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ قولان :

الأول : أن هذا محض التمثيل .

والمعنى أنهم رتبوا حيلا ليمكروا بها على أنبياء الله ، فجعل الله - تعالى - حالهم فى تلك الحيل ، مثل حال قوم بنوا بنيانا وعموده بالأساطين ، فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين ، فسقط السقف عليهم ، ونظيره قولهم : من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه .

- ووجه الشبه أن ما عدوه سبب بقائهم ، صار سبب استئصالهم وفنائهم .

الثانى : أن المراد منه مادل عليه الظاهر ، وهو أن الله - تعالى - أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته .

والأول أقرب إلى المعنى[٣] .

ومن المفسرين الذين رجحوا أن الكلام على حقيقته ، الإمام ابن جرير فقد قال - بعد أن سرد بعض الأقوال - : وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك ، تساقطت

---

(١) سورة النمل الآيات ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٩٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٢٠ .

عليهم سقوف بيوتهم ، إذ أتى على أصولها وقواعدها أمر الله ، فانكفأت بهم منازلهم ، لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان وخرّ السقف .

وتوجيه معانى كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها ، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وجد إليه سبيل » [١] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - رحمه الله - أولى بالقبول ، لأنه مادام اللفظ صالحا للحمل على الحقيقة ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

وقد حكى لنا القرآن الكريم صنوفا من العذاب الذى أنزله الله - تعالى - بالظالمين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - مصيرهم فى الآخرة ، بعد أن بين عاقبة مكرهم فى الدنيا فقال - تعالى - : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم .. ﴾ .

أى : هذا هو مصير هؤلاء المستكبرين فى الدنيا ، أما مصيرهم فى الآخرة فإن الله - تعالى - يذلهم ويهينهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : أين شركائى فى العبادة والطاعة ، الذين كنتم تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم ، قائلين لهم : إنكم لا بد لكم من إشراكهم معى فى العبادة .

وجىء بثم المفيدة للترتيب النسبى ، للإشارة إلى ما بين الجزاءين من تفاوت فإن خزى الآخرة أشد وأعظم مما نزل بهم من دمار فى الدنيا .

والاستفهام فى قوله « أين شركائى .. » للتهكم بهم وبمعبوداتهم الباطلة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فانهم كانوا يقولون للمؤمنين إن صح ما تقولونه من العذاب فى الآخرة ، فان الأصنام ستشفع لنا .

أى : أين هؤلاء الشركاء ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من خزى وذلة وعذاب مهين ؟! وأضاف - سبحانه - الشركاء إليه ، لزيادة توبيخهم ، لأنهم فى هذا اليوم العظيم ، يعلمون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٦٨ .

(٢) سورة العنكبوت . الآية ٤٠ .

علم اليقين أنه لا شركاء له - سبحانه - وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾[1] .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : « تشاقون » من ا لمشاقة وهى عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه .

وقرأ نافع « تشاقون » بكسر النون خفيفه ، وقرأ الباقون بفتح النون ، ومفعوله محذوف . أى : تشاقون المؤمنين ، أو تشاقون الله ، بدليل القراءة الأولى ... »[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أولو العلم فى هذا الموقف الهائل الشديد فقال - تعالى - : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ، إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين ﴾ .

والمراد بالذين أوتوا العلم ، كل من اهتدى إلى الحق فى الدنيا ؛ وأخلص لله - تعالى - العبادة والطاعة .

أى : قال الذين هداهم الله - تعالى - إلى صراطه المستقيم ، فى هذا اليوم العصيب ، إن الخزى الكامل ، فى هذا اليوم ، والسوء الذى ليس بعده سوء ، على هؤلاء الكافرين ، أصحاب القلوب المنكرة للحق ، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر وما فيه من حساب .

وجىء بجمله « قال الذين أوتوا العلم .. » غير معطوفة على ما قبلها ، لأنها واقعة موقع الجواب لقوله - سبحانه - « أين شركائى ... » وللتنبيه على أن الذين أوتوا العلم سارعوا بالجواب بعد أن وجم المستكبرون ، وعجزوا عن الإجابة .

وقولهم هذا يدل على شماتتهم بأعداء الله - تعالى - ، وتوبيخهم لهم على كفرهم ، واستكبارهم عن الإستماع إلى كلمة الحق .

وقال - سبحانه - : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ... ﴾ بلفظ الماضى ، مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة ، للاشارة إلى تحقق وقوعه ، وأنه كائن لا محالة .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ساعة انتزاع أرواحهم من أجسادهم وساعة وقوفهم للحساب ، فقال - تعالى - : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ...... ﴾ .

قال الآلوسى : وفى الموصول أوجه الإعراب الثلاثة : الجر على أنه صفة للكافرين ،

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٧ .

أو بدل منه ، أو بيان له ، والنصب والرفع على القطع للذم . وجوز بعضهم كونه مرتفعا بالابتداء ، وجملة « فألقوا » خبره .. »[١] .

والمراد بالملائكة : عزرائيل ومن معه من الملائكة .

والمراد بظلمهم لأنفسهم : إشراكهم مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

أى : إن أشد أنواع الخزى والعذاب يوم القيامة على الكافرين ، الذين تنتزع الملائكة أرواحهم من أجسادهم وهم ما زالوا باقين على الكفر والشرك دون أن يتوبوا منها ، أو يقلعوا عنها . وقوله : « ظالمى أنفسهم » حال من مفعول تتوفاهم .

وفى وصف هؤلاء الكافرين بكونهم « ظالمى أنفسهم » إشعار إلى أن الملائكة تنتزع أرواحهم من جنوبهم بغلظة وقسوة ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ... ﴾[٢] .

وقوله « فألقوا السلم » بيان لما صار إليه هؤلاء المستكبرون من ذل وخضوع فى الآخرة ، بعد أن كانوا مغترين متجبرين فى الدنيا .

وأصل الإلقاء يكون فى الأجسام والمحسات فاستعير هنا لإظهار كمال الخضوع والطاعة ، حيث شبهوا بمن ألقى سلاحه أمام الأقوى منه ، بدون أية مقاومة أو حركة .

والمراد بالسلم : الاستسلام والاستكانة . أى : أنهم عندما عاينوا الموت ، وتجلت لهم الحقائق يوم القيامة ، خضعوا واستكانوا واستسلموا وانقادوا ، وقالوا : ما كنا فى الدنيا نعمل عملا سيئا ، توهما منهم أن هذا القول ينفعهم .

وقد حكى الله - تعالى - عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ، والله ربنا ماكنا مشركين ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ تكذيب لهم فى دعواهم أنهم ما كانوا يعملون السوء لأن لفظ « بلى » لإبطال مانفوه .

أى : بلى كنتم تعملون السوء ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٠ .

وسيجازيكم عنها بما تستحقون وهذا التكذيب لهم قد يكون من الملائكة بأمر الله - تعالى - وقد يكون من قبله - سبحانه - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ... ﴾ بيان لما انتهى إليه أمرهم من عذاب مهين .

وأبواب جهنم قد ذكر - سبحانه - عددها فى قوله - تعالى - : ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾[1] .

أى : فادخلوا - أيها الكافرون - من أبواب جهنم ، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً « فلبئس مثوى المتكبرين » أى فلبئس مقام المتعاظمين عن الإيمان بالله جهنم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة . قد بينت بأسلوب مؤثر ، مصير المستكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين جادلوا المؤمنين بالباطل ليدحضوا به الحق .

وبعد أن بين - سبحانه - أقوال المستكبرين ، وأحوالهم ، وسوء عاقبتهم أتبع ذلك ببيان أحوال المتقين ، وببيان ما أعده لهم من خيرات فقال - تعالى -:

۞ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ
(٣٠) جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٤ .

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً .. ﴾ بيان لما رد به المؤمنون الصادقون ، على من سألهم عما أنزله الله - تعالى - على نبيه محمد - ﷺ -

وهو معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين ما قاله المتقون ، وما قاله المستكبرون .

ووصفهم بالتقوى ، للاشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن ارتكاب ما نهى الله - تعالى - عنه ، وخوفهم منه - سبحانه - ومراقبتهم له ، كل ذلك حملهم على أن يقولوا هذا القول السديد . وكلمة « خيرا » مفعول لفعل محذوف أى : أنزل خيرا . أى : رحمة وبركة ونورا وهداية ، إذ لفظ « خيرا » من الألفاظ الجامعة لكل فضيلة .

قال صاحب الكشاف : فان قلت لم نصب هذا ورفع الأول ؟ .

قلت : فَصْلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال ، فقالوا خيرا . أى أنزل خيرا . وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس من الإنزال فى شىء [١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ جملة مستأنفة لبيان ماوعدهم به - تعالى - على أعمالهم الصالحة من أجر وثواب .

أى : هذه سنتنا فى خلقنا أننا نجازى الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن الكريم ، دون أن نضيع من أعمالهم شيئا .

وقوله « حسنة » صفة لموصوف محذوف أى : مجازاة حسنة بسبب أعمالهم الصالحة .

كما قال - تعالى - فى آية اخرى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - جزاءهم فى الآخرة فقال : ﴿ ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين ﴾ . والمراد بدار الآخرة : الجنة ونعيمها .

و « خير » صيغة تفضيل ، حذفت همزتها لكثرة الاستعمال على سبيل التخفيف ، كما قال ابن مالك :

وغالبا أغناهم خير وشر ... عن قولهم أخير منه وأشر

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٧ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٧ .

ونعم : فعل ماض لإنشاء المدح ، وهو ضد بئس .

والمعنى : ولدار الآخرة ومافيها من عطاء غير مقطوع ، خير لهؤلاء المتقين مما أعطيناهم فى الدنيا ، ولنعم دارهم هذه الدار . قال - تعالى - : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾[1] .

ووصفها - سبحانه - بالآخرة ، لأنها آخر المنازل ، فلا انتقال عنها إلى دار أخرى ، كما قال - تعالى - : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾ .

والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليهم ، والتقدير : ولنعم دار المتقين ، دار الآخرة .

ثم وصف - سبحانه - ما أعده لهم من نعيم فقال : ﴿ جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

والعدن : الإقامة الدائمة : يقال : عدن فلان ببلد كذا ، إذا توطن فيه وأقام دون أن يبرحه أى : لهؤلاء المتقين : جنات دائمة باقية ، يدخلونها بسرور وحبور ، تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار .

« لهم فيها ما يشاءون » مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين « كذلك يجزى الله المتقين » أى : مثل هذا الجزاء الحسن ، يجزى الله - تعالى - عباده المتقين ، الذين جنبوا أنفسهم ملا يرضيه .

ثم حكى - سبحانه - ما تحييهم به الملائكة فقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم .. ﴾ .

أى : هذا الجزاء الحسن لهؤلاء المتقين ، الذين تتوفاهم الملائكة ، أى : تقبض أرواحهم ، حال كونهم « طيبين » أى : مطهرين من دنس الشرك والفسوق والعصيان .

« يقولون » أى الملائكة لهؤلاء المتقين عند قبض أرواحهم ، « سلام عليكم » أى : أمان عليكم من كل شر ومكروه .

« ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » أى : بسبب ما قدمتموه من أعمال صالحة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم

---

(١) سورة الأعلى الآيتان ١٦ ، ١٧ .

الملائكة ، أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ [١] .

هذا ، ولا تعارض بين قوله تعالى - ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ وبين قوله فى آية أخرى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ وبين قوله فى آية ثالثة ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ .

لأن إسناد التوفى إلى ذاته - تعالى - ، باعتبار أن أحدا لا يموت إلا بمشيئته - تعالى - ، واسناده إلى ملك الموت باعتباره هو المأمور بقبض الأرواح ، وإسناده إلى الملائكة باعتبارهم أعوانا له، ولا تعارض - أيضا - بين قوله - تعالى - ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ وبين ما جاء فى الحديث الصحيح : « لن يدخل أحدا عمله الجنة .. » .

لأن الأعمال الصالحة إنما هى أسباب عادية لدخول الجنة ، أما السبب الحقيقى فهو فضل الله - تعالى - ورحمته ، حيث قبل هذه الأعمال ، وكافأ أصحابها عليها .

وبعد أن بينت السورة الكريمة جانبا من أقوال المتقين ، وبشرتهم بما يسرهم ويشرح صدورهم ، عادت مرة أخرى لتهديد الكافرين ، لعلهم يزدجرون أو يتذكرون ، فقال - تعالى - :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ هل ينظرون .. ﴾ إنكارى فى معنى النفى .

«ينظرون» هنا بمعنى ينتظرون، من الإنظار بمعنى الإمهال، والضمير المرفوع يعود إلى أولئك المتكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، كما جاء فى الآيات السابقة .

أى : ما ينتظر أولئك المتكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، إلا أن تأتيهم الملائكة لنزع

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٠ .

أرواحهم من أجسادهم ، أو يأتى أمر ربك - أيها الرسول الكريم - بإهلاكهم ، أو بإنزال العذاب بهم من حيث لا يشعرون .

وليس المراد من الجملة الكريمة، أنهم ينتظرون ذلك على سبيل الحقيقة، لأن إصرارهم على الكفر جعلهم يستهينون بهذا التهديد وإنما المراد أنهم حين أصروا على الكفر مع ظهور البراهين على بطلانه ، صار حالهم كحال المترقب لنزول أحد الأمرين : قبض الملائكة لأرواحهم ، أو نزول العذاب بهم .

فالجملة الكريمة تهديد لهم فى تماديهم فى الكفر ، وتحريض لهم على الإيمان قبل فوات الأوان .

قال الجمل : و « أو » فى قوله « أو يأتى أمر ربك » ما نعة خلو ، فإن كلا من الموت والعذاب يأتيهم وإن اختلف الوقت ، وإنما عبر بأو دون الواو ، للاشارة إلى كفاية كل واحد من الأمرين فى تعذيبهم ... » [1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾. تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى .

أى : مثل هذا الفعل الشنيع الذى صدر عن الكافرين من قومك - يا محمد - فعل الذين من قبلهم من أقوام الرسل السابقين ، كقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، فإنهم قد آذوا رسلهم . كما آذاك قومك .

وقد أنزلنا بهم ما يستحقون من عقاب دنيوى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾. بيان لعدالة الله - تعالى - وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئا .

أى : وما ظلمهم الله حين أنزل بهم عقابه : ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بترديهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه ، ومحاربتهم لمن جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ معطوف على قوله ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ وما بينهما اعتراض .

وحاق : بمعنى أحاط ، من الحيق بمعنى الإحاطة ، وبابه باع ، يقال : حاق يحيق ، وخص فى الاستعمال بإحاطة الشر ، ومنه قوله -تعالى- : ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٩ .

أى : هكذا تمادى أسلافهم فى الكفر والجحود ، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، بسبب كفرهم وسخريتهم بالرسل وبما أخبروهم به من حساب وثواب وعقاب فى الآخرة، وسيقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة وهم يردون النار : ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين ، قد هددتا الكافرين ودعتهما إلى الدخول فى الحق ، وحذرتاهم من انتهاج نهج الظالمين من قبلهم .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقاويلهم الباطلة ، ومعاذيرهم الفاسدة ، ورد عليهم بما يدحضها ويدمغها ، فقال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

إن هذه الآيات الكريمة ، تعالج شبهة من الشبهات القديمة الحديثة .

قديمة ، لأن كثيرا من مجادلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - جادلوا بها .

وحديثة ، لأنها كثيرا ما تراود الذين يتمسكون بالأوهام ، إرضاء لنزواتهم وشهواتهم .

إنهم جميعا يقولون عند ارتكابهم للقبائح والمنكرات : هذا أمر الله وهذا قضاؤه ، وتلك

---

(١) سورة الطور الآية ١٤ .

مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها ومادام الله - تعالى - قد قضى علينا بها فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها مادام قد شاءها لنا ؟

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى هذه الشبهة بأسلوبه الخاص فيقول : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ... ﴾ .

أى : وقال الذين أشركوا ، مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، لنبيهم - ﷺ - : لو شاء الله - تعالى - لنا عبادته وحده لعبدناه نحن وآباؤنا الذين هم قدوتنا .

ولو شاء لنا ولآبائنا - أيضاً - ألا نحرم شيئا مما حرمناه من البحائر والسوائب وغيرهما ، لتمت مشيئته ، ولما حرمنا شيئا لم يأذن به - سبحانه - .

ولكنه - عز وجل - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم بعض الأنعام ، وقد رضى لنا ذلك ، فلماذا تطالبنا يا محمد - ﷺ - بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دين الإسلام والذى لم يشأ لنا الله - تعالى - الدخول فيه ؟

هذه حجتهم ، ولاشك أنها حجة داحضة ، لأنهم يحيلون شركهم وفسوقهم على مشيئة الله - تعالى - مع أن مشيئته - تعالى - لم يطلع عليها أحد من خلقه حتى يقولوا ما قالوا .

وإنما الذى أطلعنا عليه - سبحانه - أنه أرسل رسوله - ﷺ - لهدايتنا ، ومنحنا العقول التى نميز بها بين الحق والباطل ، فمن أطاع الرسول - ﷺ - سعد وفاز ، ومن أعرض عن هدايته خسر وخاب،قال - تعالى - : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا ﴾[١] .

وقال-سبحانه: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..﴾[٢].

ولقد حكى - سبحانه - شبهة المشركين هذه فى آيات أخرى ورد عليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم

---

(١) سورة الانسان الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .
(٣) سورة الزخرف الآية ١٩ .

فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإنه أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين .. ﴾[١] .

هذا ، وقد قلنا عند تفسيرنا لهذه الآيات ما ملخصه : ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا ، فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله :

نقول لهم : نحن معكم فى أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه . فالطائع تحت المشيئة ، والعاصى تحت المشيئة ، ولكن هذه المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية ، وقضاء الله هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ولقد شاء - سبحانه - أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به ، وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم ، وسن لهم شريعة لتكون مقياسا ثابتا لما يأخذون وما يدعون ، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها .

وإذاً فمشيئة الله متحققة حسب سنته التى ارتضاها ، سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال ، وهو مؤاخذ إن ضل ، ومأجور إذا اهتدى، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينيه يبصر النور ، ومن يغمضها لا يراه .

كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل . سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

وإذًا فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا ، على معنى أنه أجبرهم عليه ، فهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لاسند له من العلم والتفكير الصحيح .. »[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ تسلية لرسول الله - ﷺ - عما قاله هؤلاء المشركون من كذب ، وما نطقوا به من باطل .

واسم الإشارة « كذلك » يعود إلى إشراكهم وتحريمهم لما أحله الله - تعالى - أى : مثل ذلك الفعل الشنيع الذى فعله قومك معك يا محمد ، فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله - تعالى - لهدايتهم ، فلا تبتئس - أيها الرسول الكريم - مما فعله معك مشركو قومك . فإننا لولا وجودك فيهم ، لأنزلنا بهم ما أنزلنا على سابقيهم من عذاب .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام من ص ٢٠٥ إلى ص ٢١١ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾. إنكارى فى معنى النفى . والبلاغ : اسم مصدر بمعنى الإبلاغ . والمبين : الواضح الصريح .

أى : ما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله - تعالى - لإرشاد أقوامهم إلى الصراط المستقيم إلا الابلاغ الواضح ، المظهر لأحكام الله ، المميز بين الحق والباطل ، أما إجبار الناس على الدخول فى الحق فليس من وظيفتهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء .. ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - أن من رحمته بعباده ، أن أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .. ﴾ .

والطاغوت : اسم لكل معبود من دون الله - تعالى - ، كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة ، مأخوذ من طغا يطغى طغوا .. إذا جاوز الحد فى الضلال .

أى : ولقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نبعث فى كل أمة ، من الأمم السالفة « رسولا » من رسلنا الكرام ، ليرشدوا الناس إلى الحق والخير ، وليقولوا « أن اعبدوا الله » - تعالى - وحده ، « واجتنبوا » عبادة « الطاغوت » الذى يضل ولا يهدى .

وأكد - سبحانه - الجملة باللام وقد ، للرد على ما زعمه المشركون من أن الله - تعالى - لم ينكر عليهم عبادتهم لغيره ، وأنه - سبحانه - راض لتحريمهم لما أحله . حيث بين لهم - عز وجل - أنه قد أرسل الرسل للدعوة إلى عبادته وحده ، ولتجنب عبادة أحد سواه . و « أن » فى قوله « أن اعبدوا .. » تفسيرية ، لأن البعث يتضمن معنى القول ، إذ هو بعث للتبليغ .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم فقال - تعالى - : ﴿ فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة .. ﴾ .

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٠ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٢ .

أى : بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا لهداية أبنائها فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله - تعالى - إلى الحق وإلى الصراط المستقيم . بأن وفقهم إليه ، لانشراح صدورهم له ، ومنهم من ثبتت وحقت عليه الضلالة ، لاستحبابه العمى على الهدى .

وأسند - سبحانه - هداية بعض افراد هذه الأمم اليه ، مع أنه أمر جميعهم - على ألسنة رسله - بالدخول فى طريق الهدى ، للرد على المشركين الذين أحالوا شركهم وفسوقهم على مشيئة الله ، إذ أن الله - تعالى - قد بين للناس جميعا طرق الخير وطرق الشر ، فمنهم من استجاب للأولى ، ومنهم من انحدر إلى الثانية ، وكلاهما لم يقسره الله - تعالى - قسرا على الهدى أو الضلال .

فاهتداء المهتدين إنما هو بسبب اختيارهم لذلك ، واتباعهم الرسل ، وضلال الضالين إنما هو بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

وعبر - سبحانه - فى جانب الضالين بقوله : ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ للإشارة إلى أنهم لم يستجيبوا لما أرشدهم - سبحانه - إليه ، بل ظلوا ثابتين مصممين على البقاء فى طريق الضلالة ، ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾. تحريض لهم على التأمل فى آثار المكذبين ، لعلهم عن طريق هذا التأمل والتدبر يثوبون إلى رشدهم ، ويغودون إلى صوابهم ، ويدركون سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن العاقبة الطيبة للمتقين ، والعاقبة السيئة للكافرين .

والفاء فى قوله « فسيروا ... » للتفريع ، وقد جيء بها للإشعار بوجوب المبادرة إلى التأمل والاعتبار .

أى : إن كنتم فى شك مما أخبرناكم به ، فسارعوا إلى السير فى الأرض ، لتروا بأعينكم آثار المجرمين ، الذين كذبوا الرسل وأسندوا شركهم إلى مشيئةالله . لقد نزل بهؤلاء المكذبين عذاب الله ، فدمرهم تدميرا ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين.وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢] .

ثم أخبر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن حرصه على هداية المصرين على ضلالهم ، لن يغير من واقع أمرهم شيئا ، فقال - تعالى - ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل .. ﴾ .

---

(١) سورة الصف الآية ٥ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

والفعل المضارع « تحرص » بكسر الراء، ماضيه « حرص » بفتحها كضرب يضرب.
والحرص: شدة الرغبة فى الحصول على الشىء، والاستئثار به.
وقوله: ﴿ فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ تعليل لجواب الشرط المحذوف، والتقدير: إن تحرص - أيها الرسول الكريم - على هداية هؤلاء المصرين على كفرهم لن ينفعهم حرصك. فإن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن لا يهدى من يخلق فيه الضلالة بسبب سوء اختياره، وفساد استعداده.

وفى الجملة الكريمة إشارة إلى ما جبل عليه النبى - ﷺ - من مكارم الأخلاق، فإنه مع ما لقيه من مشركى قومه من أذى وعناد وتكذيب ... كان حريصا على ما ينفعهم ويسعدهم.

قال الآلوسى ما ملخصه: وقوله ﴿ فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ جواب الشرط على معنى فاعلم ذلك، أو علة للجواب المحذوف، أى: إن تحرص على هداهم لن ينفع حرصك شيئا، فإن الله لا يهدى من يضل.

والمراد بالموصول: كفار قريش المعبر عنهم قبل ذلك بالذين أشركوا، ووضع الموصول موضع ضميرهم؛ للتنصيص على أنهم ممن حقت عليهم الضلالة وللإشعار بعلة الحكم.

ومعنى الآية: أنه - سبحانه - لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره. و « من » على هذا. مفعول « يهدى » وضمير الفاعل فى « يضل » لله - تعالى - والعائد محذوف، أى من يضله.

وقرأ غير واحد من السبعة « فإن الله لا يهدى .. » بضم الياء وفتح الدال - على البناء للمفعول.

و « من » على هذا نائب فاعل، والعائد وضمير الفاعل كما مر .. »[1].

والمعنى على هذه القراءة: إن تحرص على هداهم - يا محمد - لن ينفعهم حرصك، فإن من أضله الله - تعالى - لا يهديه أحد.

وقوله: ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله.

أى: وليس لهؤلاء الضالين من ناصر يدفع عنهم عذاب الله - تعالى - إن نزل بهم،

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ٣٩.

أو يصرفهم عن سبيل الغى الذى آثروه على سبيل الرشد .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا .. ﴾[١] وقوله - تعالى - : ﴿ من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾[٢] .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولاتهم الباطلة ، التى أكدوها بالأيمان المغلظة ، ورد عليها بما يدمغها ، فقال - تعالى - :

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

قوله - سبحانه - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ﴾.. للإيذان بأنهم قد جمعوا بين إنكار التوحيد وإنكار البعث بعد الموت .

والقسم : الحلف : وسمى الحلف قسما ، لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب والجهد - بفتح الجيم - المشقة . يقال جهد فلان دابته وأجهدها ، إذا حمل عليها فوق طاقتها . وجهد الرجل فى كذا ، إذا جد فيه وبالغ ، وبابه قطع .

والمراد بقوله : ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق ،

---

(١) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٦ .

على أنه لا بعث ولاحساب بعد الموت ، لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما نخرة ، أمر مستحيل .

وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم ، للتدليل على أنهم متثبتين مما يقولونه . ومتيقنين من صحة ما يدعونه ، من أنه لا يبعث الله من يموت .

قال القرطبى . قوله - تعالى - ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم .. ﴾ هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت .

ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .

وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، وكان فى بعض كلامه: والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت، فنزلت الآية .

وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - « قال الله - تعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ تكذيب لهم فيما زعموه من أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، ورد عليهم فيما قالوه بغير علم . و « بلى » حرف يؤتى به لإبطال النفى فى الخبر والاستفهام .

أى : بلى سيبعث الله - تعالى - الأموات يوم القيامة ، وقد وعد بذلك وعدا صدقا لا خلف فيه ولا تبديل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة لجهلهم بكمال قدرة الله - تعالى - وعموم علمه ، ونفاذ إرادته ، وسمو حكمته .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وعدا عليه حقا ﴾ هذان المصدران منصوبان على المصدر المؤكد ، أى : وعد ذلك وعدا ، وحق حقا . وقيل : حقا نعتا لوعدا ، والتقدير ، بلى يبعثهم وعد بذلك وعدا حقا »[2] .

وجىء بقوله « عليه » لتأكيد هذا الوعد ، تفضلا منه - سبحانه - وكرما .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٠٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧١ .

والمراد بالحق هنا : الصدق الذى لا يتخلف ، والثابت الذى لا يتبدل .

أى : وعدا صادقا ثابتا لا يقبل الخلف ، لأن البعث من مقتضيات حكمته - سبحانه - .

والمراد بأكثر الناس : المشركون ومن كان على شاكلتهم فى إنكار البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة .

وفى التنصيص على أكثر الناس ، مدح للأقلية منهم ، الذين آمنوا بالبعث وبالآخرة وما فيها من حساب ، وهم المؤمنون الصادقون .

هذا ، وقد حكى - سبحانه - مزاعم المشركين ورد عليها فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة .. ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من بعث الناس يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ .

واللام فى قوله « ليبين لهم .. » وفى قوله « وليعلم .. » متعلقة بما دل عليه حرف « بلى » وهو يبعثهم . أى : بلى يبعث الله - تعالى - الموتى ، ليظهر لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره ، وليعلم الذين كفروا علم مشاهدة ومعاينة ، أنهم كانوا كاذبين فى قسمهم أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، وفى غير ذلك من أقوالهم الباطلة .

وفى إظهار الحق ، وفى بيان كذبهم يوم البعث ، حسرة وندامة لهم ، حيث ظهر لهم ما أنكروه فى الدنيا ، وما كانوا يستهزئون به ، عندما كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يدعونهم إلى نبذ الشرك ، وإلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة ، الأولى إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره مما جاءتهم به الرسل . والثانية : إظهار كذب الكافرين الذين أنكروا البعث واستهزأوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

---

(١) سورة التغابن الآية ٧ .

(٢) سورة يس الآية ٧٨ ، ٧٩ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ استئناف لتأكيد قدرة الله - تعالى - النافذة ، وشمولها لكل شىء من بعث وغيره ، وذلك لأن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم بأنه - سبحانه - لا يبعث الموتى ، ورد عليهم بما يبطل مزاعمهم ، أتبع ذلك ببيان أن قدرته - تعالى - لا يتعاصى عليها شىء ، ولا يحول دون نفاذها حائل .

قال الإمام ابن كثير : « أخبر - سبحانه - عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له « كن فيكون » . والمراد من ذلك إذا أراد كونه ، فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء ، قال - تعالى - : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾(١) وقال - سبحانه - ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾(٢).

وقال - سبحانه - فى هذه الآية ﴿ إنما أمرنا إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ أى : يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له « كن » قولة فيكون

أى : أنه - تعالى - لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه - سبحانه - لا يمانع ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء .. » (٣) .

وقال بعض العلماء : وعبر - تعالى - عن المراد قبل وقوعه باسم الشىء ، لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل ، فلا تنافى الآية إطلاق الشىء - على خصوص الموجود دون المعدوم ، لأنه لما سبق فى علم الله أنه يوجد ذلك الشىء - وأنه يقول كن فيكون - ، كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه .

أو لأنه أطلق عليه اسم الشىء باعتبار وجوده المتوقع كتسمية العصير خمرا فى قوله ﴿ إنى أرانى أعصر خمرا .. ﴾ نظرا لما يؤول إليه .. » (٤) .

وقوله « فيكون » قرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : فهو يكون . وقرأ ابن عامر والكسائى « فيكون » بالنصب عطفا على قوله « أن نقول له .. » .

---

(١) سورة القمر الآية ٥٠ .
(٢) سورة لقمان الآية ٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩١ .
(٤) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٢٧٢ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانبا من أقوال المشركين ، وردت عليها بما يبطلها ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة لأقاويل المشركين وردت عليها .. أتبعت ذلك بذكر جانب من الثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين ، الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ، من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - :

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قوله - تعالى - : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا .. ﴾ هؤلاء أصحاب محمد - ﷺ - . ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ، ثم بوأهم الله - تعالى - المدينة فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . وعن ابن عباس : هم قوم هاجروا إلى رسول الله - ﷺ - من أهل مكة ، بعد أن ظلمهم المشركون »[1] .

والذى نراه أن الآية الكريمة تشمل هؤلاء ، وتشمل غيرهم ممن هاجر من بلده إلى غيرها ، رجاء ثواب الله ، وخدمة لدينه .

والمهاجرة فى الأصل تطلق على المفارقة والمتاركة للديار وغيرها ، واستعملت شرعا فى المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، أو من دار الكفر إلى غيرها لنشر دعوة الإسلام .

وقوله « لنبوئنهم » من التبوؤ بمعنى الإحلال والإسكان والإنزال يقال بوأ فلان فلانا منزلا ، إذا أسكنه فيه ، وهيأه له .

« وحسنة » صفة لموصوف محذوف أى : لنبوئنهم تبوئة حسنة ، أو دارا حسنة .

والمراد بهذه الحسنة ما يشمل نزولهم فى المدينة ، ونصرهم على أعدائهم ، وإبدال خوفهم أمنا .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٧٣ .

قال القرطبى فى المراد بالحسنة هنا ستة أقوال : نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن .. الثانى : الرزق الحسن . قاله مجاهد . الثالث : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك ، الرابع : لسان صدق ، حكاه ابن جريج . الخامس : ما استولوا عليه من البلاد .. السادس : ما بقى لهم فى الدنيا من ثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف .

ثم قال : وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله - تعالى - »[1] .

والمعنى : والذين هاجروا فى سبيل الله ، وفارقوا قومهم وأوطانهم وأموالهم وأولادهم .. من أجل إعلاء كلمته ، بعد أن تحملوا الكثير من أذى المشركين وظلمهم وطغيانهم .

هؤلاء الذين فعلوا ذلك من أجل نصرة ديننا ، لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، ولنعطينهم عطاء حسنا يسعدهم ، ولننصرنهم على أعدائهم نصرا مؤزرا .

وقوله « فى الله » أى : فى سبيله ، ومن أجل نصرة دينه . فحرف « فى » مستعمل للتعليل ، كما فى قوله - ﷺ - : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ... » .

والمقصود أن هذا الأجر الجزيل إنما هو للمهاجرين من أجل إعلاء كلمة الله ، ومن أجل نصرة الحق ، وليس لمن هاجر لنشر الظلم أو الفساد فى الأرض .

وأسند فعل « ظلموا » إلى المجهول ، لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون .

وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المهاجرين لم يفارقوا ديارهم ، إلا بعد أن أصابهم ظلم أعدائهم لهم ، كتعذيبهم إياهم ، وتضييقهم عليهم ، إلى غير ذلك من صنوف الأذى .

وأكد - سبحانه - الجزاء الحسن الذى وعدهم به باللام وبنون التوكيد « لنبوئنهم .. » ، زيادة فى إدخال السرور والطمأنينة على قلوبهم ، وجبرا لكل ما اشتملت عليه الهجرة من مصاعب وآلام وأضرار .

إذ الحسنة - كما قلنا - تشمل كل حسن أعطاه الله - تعالى - للمهاجرين فى هذه الدنيا .

أما فى الآخرة فأجرهم أعظم ، وثوابهم أجزل ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والضمير فى قوله « لو كانوا يعلمون » يعود على أعدائهم الظالمين .

أى : ولثواب الله - تعالى - لهم فى الآخرة على هجرتهم من أجل إعلاء كلمته ، أكبر

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٠٧ .

وأعظم ، ولو كان أعداؤهم الظالمون يعلمون ذلك لدخلوا فى دين الإسلام ، ولأقلعوا عن ظلمهم لهؤلاء المهاجرين .

وكأن جملة « لو كانوا يعلمون » جوابا عن سؤال تقديره : كيف لم يقتد بهم من بقى على الكفر مع هذا الثواب الذى أعده الله لهؤلاء المهاجرين ؟

فكان الجواب : لو كان هؤلاء الكافرون يعلمون ذلك لأقلعوا عن كفرهم .

ويصح أن يكون الضمير يعود على المهاجرين ، فيكون المعنى : لو كانوا يعلمون علم مشاهدة ومعاينة ما أعده الله لهم ، لما حزنوا على مفارقة الأوطان والأولاد والأموال ، ولا زدادوا حبا وشوقا واجتهادا فى المهاجرة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ، أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له « خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وماذخره لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا هذه الآية [1] .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير يعود للمتخلفين عن الهجرة أى : لو علم هؤلاء المتخلفون عن الهجرة ، ما أعده - سبحانه - من أجر للمهاجرين ، لما تخلفوا عن ذلك .

وعلى أية حال فلا مانع من أن يكون الضمير يعود على كل من يتأتى له العلم ، بهذا الثواب الجزيل لهؤلاء المهاجرين فى سبيل الله - تعالى - .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المهاجرين بوصفين كريمين فقال: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أى: هذا الأجر العظيم لهؤلاء المهاجرين الذين صبروا على ما أصابهم من عدوان وظلم ، وفوضوا أمرهم إلى خالقهم ، فاعتمدوا عليه وحده ، ولم يعتمدوا على أحد سواه .

وصفتا الصبر والتوكل على الله . إذا دخلا فى قلب ، حملاه على اعتناق كل فضيلة ، واجتناب كل رذيلة .

وعبر عن صفة الصبر بصيغة الماضى للدلالة على أن صبرهم قد آذن بالانتهاء لانقضاء أسبابه وهو ظلم أعدائهم لهم ، لأن الله - تعالى - قد جعل لهم مخرجا بالهجرة ، وذلك بشارة لهم .

وعبر عن صفة التوكل بصيغة المضارع للإشارة إلى أن هذه الصفة ديدنهم فى كل وقت ،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٧٤ .

فهم متوكلون عليه - سبحانه - وحده فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر ، وفى المنشط والمكره .

والمتأمل فى هاتين الآيتين الكريمتين ، يراهما قد غرستا فى النفوس محبة هذا الدين ، والاستهانة بكل ألم أو ضر أو مصيبة فى سبيل إعلاء كلمته ، والرغبة فيما عند الله - تعالى - من أجر وثواب .

ثم رد - سبحانه - على المشركين الذين أنكروا أن يكون الرسول - ﷺ - من البشر ، فبين - سبحانه - أن الرسل السابقين الذين لا ينكر المشركون نبوتهم كانوا من البشر ، فقال - تعالى - .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : لما بعث الله - تعالى - محمدا - ﷺ - رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فأنزل الله : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم .. ﴾[1] وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم .. ﴾[2] .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق إلا رجالا مثلك ، وقد أوحينا إليهم بما يبلغونه إلى أقوامهم ، من نصائح وتوجيهات وعبادات وتشريعات ، وقد لقى هؤلاء الرسل من أقوامهم ، مثل مالقيت من قومك من أذى وتكذيب وتعنت فى الأسئلة .

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية النبى - ﷺ - والرد على المشركين فيما أثاروه حوله - ﷺ - من شبهات .

---

(١) سورة يونس الآية ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٢ .

وقد حكى القرآن فى مواطن عدة إنكار المشركين لبشرية الرسل ورد عليهم بما يخرسهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى .. ﴾ (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ، أبعث الله بشرا رسولا ﴾ (٢) .

وقوله - تعالى - ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾ (٣) .

والمراد بأهل الذكر فى قوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » علماء أهل الكتاب أى : لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر فى كل زمان ومكان ، فإن كنتم فى شك من ذلك - أيها المكذبون - فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى ، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة .

وهذه الجملة الكريمة معترضة بين قوله - تعالى - ﴿ وما أرسلنا .. ﴾ وبين قوله بعد ذلك : ﴿ بالبينات والزبر .. ﴾ للمبادرة إلى توبيخ المشركين وإبطال شبهتهم ، لأنه قد احتج عليهم ، بمن كانوا يذهبون إليهم لسؤالهم عن الرسول - ﷺ - .

وفى قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ إيماء إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون إلا من البشر ، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة ، والتمويه لتضليل الجهلاء ، ولذا جىء فى الشرط بحرف « إن » المفيد للشك .

وجواب الشرط لهذه الجملة محذوف ، دل عليه ما قبله . أى : إن كنتم لا تعلمون ، فأسألوا أهل الذكر . وقيل المراد بأهل الذكر هنا : المسلمون مطلقا ، لأن الذكر هو القرآن ، وأهله هم المسلمون .

ونحن لا ننكر أن الذكر يطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ إلا أن المراد بأهل الذكر هنا : علماء أهل الكتاب ، لأن المشركين كانوا يستفسرون منهم عن أحوال النبى - ﷺ - ، أكثر من استفسارهم من المسلمين .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٩ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤ .
(٣) سورة التغابن الآية ٦ .

قال الآلوسى ماملخصه قوله - تعالى - : ﴿ فاسألوا أهل الذكر .. ﴾ أى : أهل الكتاب من اليهود والنصارى . قاله : ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم .

وقال أبو حيان فى البحر : والمراد من لم يسلم من أهل الكتاب ، لأنهم الذين لا يتهمون عند المشركين فى إخبارهم بأن الرسل كانوا رجالا ، فإخبارهم بذلك حجة عليهم . والمراد كسر حجتهم وإلزامهم ، وإلا فالحق واضح فى نفسه لا يحتاج إلى إخبار هؤلاء .. »[1] .

قالوا : وفى الآية دليل على وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيما لا يعلم ، وعلى أن الرسل جميعا كانوا من الرجال ولم يكن من بينهم امرأة قط .

والجار والمجرور فى قوله : « بالبينات والزبر » .... متعلق بقوله « وما أرسلنا .. » وداخل تحت حكم الاستثناء مع « رجالا » .

والمراد بالبينات : الحجج والمعجزات الدالة على صدق الرسل .

والزبر : جمع زبور بمعنى مزبور أى مكتوب . يقال : زبرت الكتاب .. من باب نصر وضرب - أى : كتبته كتابة عظيمة .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - إلا رجالا مؤيدين بالمعجزات الواضحات ، وبالكتب العظيمة المشتملة على التشريعات الحكيمة والآداب الحميدة ، والعقائد السليمة ، التى تسعد الناس فى دينهم وفى دنياهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ . بيان للحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على النبى - ﷺ - .

أى : وأنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - القرآن ، لتعرف الناس بحقائق وأسرار ما أنزل لهدايتهم فى هذا القرآن من تشريعات وآداب وأحكام ومواعظ ولعلهم بهذا التعريف والتبيين يتفكرون فيما أرشدتهم إليه ، ويعملون بهديك ويقتدون بك فى أقوالك وأفعالك ، وبذلك يفوزون ويسعدون .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على حكمتين من الحكم التى أنزل الله - تعالى - من أجلها القرآن على النبى - ﷺ - .

أما الحكمة الأولى : فهى تفسير ما اشتمل عليه هذا القرآن من آيات خفى معناها على

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٤٧ .

أتباعه ، بأن يوضح لهم - ﷺ - ما أجمله القرآن الكريم من أحكام أو يؤكد لهم - ﷺ - هذه الأحكام .

ففى الحديث الشريف عن المقدام بن معد يكرب ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ... » .

وأما الحكمة الثانية : فهى التفكر فى آيات هذا القرآن ، والاتعاظ بها ، والعمل بمقتضاها ، قال - تعالى - : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

والمراد بالناس فى قوله - تعالى - ﴿ لتبين للناس ﴾ العموم ، ويدخل فيهم المعاصرون لنزول القرآن الكريم دخولا أوليا .

وأسند - سبحانه - التبيين إلى النبى - ﷺ - لأنه هو المبلغ عن الله - تعالى - ما أمره بتبليغه .

قال الجمل : قوله - تعالى - ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .. ﴾ . يعنى : أنزلنا إليك - يا محمد - الذكر الذى هو القرآن ، وإنما سماه ذكرا ، لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ، « لتبين للناس ما نزل إليهم » يعنى ما أجمل إليك من أحكام القرآن ، وبيان الكتاب يطلب من السنة ، والمبين لذلك المجمل هو رسول الله - ﷺ - ، ولهذا قال بعضهم : متى وقع تعارض بين القرآن والحديث ، وجب تقديم الحديث ، لأن القرآن مجمل والحديث مبين ، بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل »[1] .

وبعد أن ردت السورة الكريمة على ما أثاره المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، أتبعت ذلك بتهديدهم من سوء عاقبة ما هم فيه من كفر وعصيان وعناد ، فقال - تعالى - :

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧٢ .

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ هم عند أكثر المفسرين ، مشركو مكة ، الذين مكروا برسول الله - ﷺ - ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان .

وقيل : هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ... والمعول عليه ما عليه أكثر المفسرين ،[1] .

والاستفهام فى الآية الكريمة للتعجيب والتوبيخ .

والفاء للعطف على مقدر دل عليه المقام .

قال بعضهم ما ملخصه : كل ما جاء فى القرآن الكريم ، من همزة استفهام بعدها واو العطف أو فاؤه . فالأظهر فيه ، أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة ما بعدها على محذوف دل عليه المقام . والتقدير هنا : أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله لهم بالعقاب ، فأمنوا مكره »[2] .

والمراد بمكرهم هنا : سعيهم بالفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخداع .

والسيئات : صفة لمصدر محذوف ، أى : مكروا المكرات السيئات . والمكرات - بفتح الكاف - جمع مكرة - بسكونها - وهى المرة من المكر .

ويجوز أن تكون كلمة السيئات مفعولا به بتضمين « مكروا » معنى : فعلوا .

والخسف : التغييب فى الأرض ، بحيث يصير المخسوف به فى باطنها .

يقال : خسف الله بفلان الأرض ، إذا أهلكه بتغييبه فيها .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض .... ﴾[3] .

والمعنى : أجهل الذين اجترحوا السيئات وعيدنا ، فأمنوا عقابنا وتوهموا أنهم لن يصيبهم شيء من عذابنا ، الذى من مظاهره خسف الأرض بهم كما خسفناها بقارون من قبلهم ؟!! .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٥٠ .

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى جـ ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) سورة القصص الآية ٨١ .

إن جهلهم هذا لدليل على انطماس بصيرتهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

وقوله « أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » بيان للون آخر من ألوان تهديدهم .

أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وفى قدرتنا أيضا أن نرسل عليهم العذاب فجأة فيأتيهم من جهة لا يتوقعون مجيئه منها ، ولا يترقبون الشر من ناحيتها .

وفى الجملة الكريمة إشارة إى أن هذا العذاب الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون . عذاب لا يمكن دفعه أو الهروب منه ، لأنه أتاهم بغتة ، ومن جهة لا يترقبون الشر منها .

وشبيه بهذا قوله – سبحانه – ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ... ﴾[1] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ﴾ بيان لنوع ثالث من أنواع التهديدات التى هددهم الله – تعالى – بها .

والأخذ فى الأصل : حوز الشيء وتحصيله ، والمراد به هنا : القهر والإهلاك والتدمير ومنه قوله – تعالى – ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ وقوله – تعالى – : ﴿ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ .

والتقلب : الحركة السريعة إقبالا وإدبارا ، من أجل السعى فى شئون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر وغير ذلك .

ومنه قوله – تعالى – : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾ .

أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وأن نرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وفى قدرتنا كذلك أن نهلكهم وهم يتحركون فى مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم ، فإنهم فى جميع الأحوال لا يعجزنا أخذهم ، ولامهرب لهم مما نريده بهم .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[2] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ .

قال بعض العلماء : والتخوف فى اللغة يأتى مصدر تخوف القاصر ، بمعنى خاف ، ويأتى مصدر

---

(١) سورة الحشر آية ٢ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ٩٧ – ٩٩ .

تخوف المتعدى بمعنى تنقص . وهذا الثانى لغة هذيل ، وهى من اللغات الفصيحة التى جاء بها القرآن »[1] .

والمعنى على الأول : أو يأخذهم وهم فى حالة خوف وتوقع لنزول العذاب بهم ، كما نزل بالذين من قبلهم .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله : وقوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾. أى : أو يأخذهم الله - تعالى - فى حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد حالات الأخذ ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ... »[2] .

والمعنى على الثانى : أو يأخذهم وهم فى حالة تنقص فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، حتى يهلكوا ، فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض ، وفى ذلك ما فيه من عذاب لهم ، وحسرة عليهم .

قال القرطبى : وقال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب - رضى الله عنه على المنبر قال : أيها الناس ما تقولون فى قول الله - عز وجل - : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾. فسكت الناس .

فقال شيخ من بنى هذيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين . التخوف : التنقص .

فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشعارهم ؟ قال نعم ؛ قال شاعرنا أبو كبير الهذلى يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد اكتنازه :

تخوَّف الرحْلُ منها تامِكا قِردا ... كما تخوَّف عودُ النبَّعةِ السَّفِنُ

فقال عمر : أيها الناس : عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم »[3] .

وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ لبيان فضله - سبحانه - على عباده ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل أمهلهم لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٤ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١١٠ . وتخوف فى البيت بمعنى تنقص ، والرحل : السفر . والتامك : المرتفع . والقرد المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسى . والسفن : كما يتنقص المنشار أو ما يشبهه أعواد الأشجار .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت الكافرين من التمادى فى كفرهم ، وهددتهم : بخسف الأرض بهم . أو بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، أو بإهلاكهم وهم فى الأرض يكدحون ، أو بأخذهم وهم للأخذ متوقعون .

وبعد أن خوف - سبحانه - الماكرين بما خوف ، أتبع ذلك بما يدل على كمال قدرته وعظمته وجلاله ، حيث خضعت جميع المخلوقات لذاته - سبحانه - فقال - تعالى -:

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

قرأ جمهور القراء « أو لم يروا .. » وقرأ حمزة والكسائى : « أو لم تروا » بالتاء ، على الخطاب ، على طريقة الالتفات .

وقوله « من شىء » بيان للإبهام الذى فى « ما » الموصولة فى قوله « إلى ماخلق الله » .

وقوله « يتفيؤ » من التفيؤ ، بمعنى الرجوع . يقال : فاء فلان يفىء إذا رجع وفاء الظل فيئا ، إذا عاد بعد إزالة ضوء الشمس له . وتفيؤ الظلال : تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس ، وبعد زوالها .

والظلال : جمع ظل ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

و « داخرون » من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع ، يقال : دخر فلان يدخر دخورا ، ودخر - بزنة فرح - يدخر دخرا ، إذا انقاد لغيره وذل له .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات ، ولم يروا ما خلق الله - تعالى - من الأشياء ذوات الظلال - كالجبال والأشجار وغيرها - وهى تتنقل ظلالها . من جانب إلى جانب ، ومن جهة إلى جهة ، باختلاف الأوقات وهى فى كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله - تعالى - جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلص وغير ذلك ، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له .

قال ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن عظمته وجلاله ، الذى خضع له كل شىء ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها ، جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال - أى بكرة وعشيا - ، فإنه ساجد بظله لله - تعالى - [1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ أو لم يروا .. ﴾ للانكار والتوبيخ ، والرؤية بصرية .

أى : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا .

والمراد بقوله : ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ جهتهما ، وليس المراد التقييد بذلك ، إذ أن الظل أحيانا يكون أمام الإنسان وأحيانا يكون خلفه . وإنما ذكر اليمين والشمائل اختصارا للكلام .

وأفرد اليمين ، لأن المراد به جنس الجهة ، كما يقال : المشرق ، أى جهة المشرق ، وجمع « الشمائل » - مفرده شمال - ، لأن المقصود تعدد هذه الجهة باعتبار تعدد أصحابها .

قال الشوكانى : قال الفراء : وحد اليمين ، لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل ، لأنه أراد كلها .

وقال الواحدى : وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازا فى اللفظ ، كقوله : « ويولون الدبر » ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع . وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وجعل الظلمات والنور ... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سجدا لله وهم داخرون ﴾. حال من « ظلاله » أى : حال كون هذه الأشياء وظلالها سجدا لله - تعالى - ، وحال كون الجميع لا يمتنع عن أمر الله - تعالى - ، بل الكل خاضع له - سبحانه - كل الخضوع .

وجاء قوله - تعالى - : ﴿ وهم داخرون ﴾ . بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء ، تغليبا لهم على غيرهم ثم أتبع - سبحانه - هذه الآية الكريمة ، بآيات أخرى مؤكدة لها ، ومبينة أن كل المخلوقات لن تمتنع عن السجود لله - تعالى - ، سواء أكانت لها ظلال أم لا ، فقال - سبحانه - : ﴿ ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون .. ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٤ طبعة دار الشعب .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٦٦ .

والدابة : كل ما يدب على وجه الأرض ، مشتقة من الدب بمعنى الحركة .

قال الجمل : قال العلماء ، السجود على نوعين : سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله - عز وجل - وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله : ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ﴾. يحتمل النوعين ، لأن سجود كل شىء بحسبه ، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة ، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد .. »[1] .

وأوثرت « ما » الموصولة على من ، تغليبا لغير العقلاء ، لكثرتهم ولإرادة العموم .

وقوله : « من دابة » بيان لما فى الأرض ، إذ الدابة ما يدب على الأرض أو - كما يقول الآلوسى - بيان لما فيهما ، بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية ، سواء أكانت فى أرض أو سماء .. »[2] .

وقوله « والملائكة » معطوف على « ما» فى قوله « ما فى السموات وما فى الأرض » من باب عطف الخاص على العام .

وخصهم - سبحانه - بالذكر تشريفا لهم . ورفعا لمنزلتهم ، وتعريضا بالمشركين الذين عبدوا الملائكة . أو قالوا هم بنات الله .

قوله « وهم لا يستكبرون » أى : والملائكة لا يستكبرون عن إخلاص العبادة له ، وعن السجود لذاته - سبحانه - بل هم « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ثم وصفهم - سبحانه - بالخشية منه ، وبالخوف من عقابه فقال : « يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

أى : أن من صفات الملائكة ، أنهم يخافون ربهم الذى هو من فوقهم بجلاله وقهره وعلوه - بلا تشبيه ولا تمثيل - ، ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعات ، ومن كل ما يكلفهم به - سبحانه - دون أن تصدر منهم مخالفة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له - سبحانه - من صفات القدرة والجلال والكبرياء ، حتى يفىء الضالون إلى رشدهم ، ويخلصوا العبادة لخالقهم - عز وجل - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٥٧ .

وبعد أن بين - سبحانه - أن كل شىء فى هذا الكون خاضع لقدرته ، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك ، وبوجوب إخلاص العبادة له ، فقال - تعالى - .

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ
ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ
إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - سبحانه - لما بين فى الآيات الأولى ، أن ما سوى الله - تعالى - سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجسام ، منقاد وخاضع لجلاله - تعالى - وكبريائه - أتبعه فى هذه الآية بالنهى عن الشرك ، وببيان أن كل ما سواه واقع فى ملكه وتحت تصرفه ، وأنه غنى عن الكل ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... ﴾[1] .

أى : وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام - لا تتخذوا شركاء معى فى العبادة والطاعة ، بل اجعلوهما لى وحدى ، فأنا الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء .

قال الآلوسى : وقوله ﴿ وقال الله .. ﴾ معطوف على قوله - سبحانه - ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾.

وإظهار الفاعل ، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر ، للإيذان بأنه - تعالى - متعين الألوهية .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٤٧ .

والمنهى عنه هو الاشراك به ، لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ إلهين .. »[١] .

« اثنين » صفة للفظ إلهين أو مؤكد له . وخص هذا العدد بالذكر ، لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بالطريق الأولى .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ بيان وتوكيد لما قبله ، وهو مقول لقوله - سبحانه - ﴿ وقال الله ﴾ .

أى : وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر ، وقال - أيضا - إنما المستحق للعبادة إله واحد ، والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة ، أى : الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية .

وقد نهى - سبحانه - عن الشرك فى آيات كثيرة ، وأقام الأدلة على بطلانه ومن ذلك قوله -تعالى- ﴿... ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا﴾[٢] وقوله - سبحانه - ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٣] .

والفاء فى قوله « فإياى فارهبون » واقعة فى جواب شرط مقدر و « إياى » مفعول به لفعل محذوف يقدر مؤخرا ، يدل عليه قوله « فارهبون » .

والرهبة : الخوف المصحوب بالتحرز ، وفعله رهب بزنة طرب .

والمعنى : إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا دون غيرى ، لأنى أنا الذى لا يعجزنى شىء .

وفى الجملة الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب ، للمبالغة فى التخويف ، إذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب ، لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء .

وقدم المفعول وهو إياى لإفادة الحصر ، وحذف متعلق الرهبة ، للعموم .

أى : ارهبونى فى جميع ما تأتون وما تذرون .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكدات للنهى عن الشرك ، والأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، تارة عن طريق التقرير « وقال الله .. » وتارة عن طريق النهى الصريح، وتارة عن طريق القصر وتارة عن طريق التخصيص .

وذلك لكى يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٦١ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٩ .

(٣) سورة الانبياء الآية ٢٢ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته ، فقال - تعالى - : ﴿ وله ما فى السموات والأرض ، وله الدين واصبا .. ﴾ .

والمراد بالدين هنا : الطاعة والخضوع بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وقد أتى الدين بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب ، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وأيـامـا لـنـا غـرا كـرامـا   عصينا الملك فيها أن ندينا

أى : عصيناه وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع له .

قوله « واصبا » من الوصوب بمعنى الدوام والثبات ، يقال : وصب الشىء يصب - بكسر الصاد - وصوبا ، إذا دام وثبت . ومنه قوله - تعالى - ﴿ دحورا ولهم عذاب واصب ﴾[1] أى : دائم .

أى : ولله - تعالى - وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وخلقا ، لاشريك له فى ذلك ، ولا منازع له فى أمره أو نهيه .. وله - أيضا - الطاعة الدائمة ، والخضوع الباقى الثابت الذى لا يحول ولا يزول .

والآية الكريمة معطوفة على قوله « إنما هو إله واحد » .

والاستفهام فى قوله « أفغير الله تتقون » للإنكار والتعجيب ، والفاء للتعقيب ، وهى معطوفة على محذوف ، والتقدير ، أفبعد أن علمتم أن الله - تعالى - له ما فى السموات والأرض ، وله الطاعة الدائمة .. تتقون غيره ، أو ترهبون سواه ؟

إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء ، وإنما يكون من الضالين الجاهلين .

ثم بين - سبحانه - أن كل نعمة فى هذا الكون ، هو - سبحانه - مصدرها وموجدها ، فقال : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله .. ﴾ .

أى : وكل نعمة عندكم كعافية فى أبدانكم ، ونماء فى مالكم ، وكثرة فى أولادكم ، وصلاح فى بالكم .. فهى من الله - تعالى - وحده .

فالمراد بالنعمة هنا النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس ، لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية ، و « ما » موصولة مبتدأ ، متضمنة معنى الشرط . وقوله « فمن الله » خبرها .

---

(١) سورة الصافات الآية ٩ .

وقوله « من نعمة » بيان لما اشتملت عليه « ما » من إبهام .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم ، إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ بيان لطبيعة الإنسان ، ولموقفه من خالقه - عز وجل - والضر : يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان .

وقوله « تجأرون » من الجؤار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون ، يقال : جأر فلان يجأر جأرا وجؤارا ، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث وأصله : صياح الوحش . ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

أى : كل ما يصاحبكم من نعمة فهو من الله - تعالى - فكان من الواجب عليكم أن تشكروه على ذلك ، ولكنكم لم تفعلوا ، فإنكم إذا نزل بكم الضر ، صحتم بالدعاء ، ورفعتم أصواتكم بالتضرع ، ليكشف عنكم ما حل بكم ، فإذا ما كشف - سبحانه - عنكم الضر ، سرعان ما يقع فريق منكم فى الشرك الذى نهى الله - تعالى - عنه .

و « ثم » فى هاتين الآيتين للتراخى الرتبى ، لبيان الفرق الشاسع بين حالتهم الأولى وحالتهم الثانية .

والتعبير بالمس فى قوله « ثم إذا مسكم الضر .. » للإيماء بأنهم بمجرد أن ينزل بهم الضر ولو نزولا يسيرا ، جأروا إلى الله - تعالى - بالدعاء لكشفه .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله « فإليه تجأرون » لإفادة القصر ، أى إليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ليرفع عنكم ما نزل بكم من بلاء ، لا إلى غيره ؛ لأنكم تعلمون أنه لا كاشف للضر إلا هو - سبحانه - .

و « إذا » الأولى فى قوله « ثم إذا كشف .. » شرطية والثانية وهى قوله « إذا فريق منكم .. » فجائية ، وهى جواب الأولى .

وهذا التعبير يشير إلى مسارعة فريق من الناس ، إلى جحود نعم الله - تعالى - بمجرد أن يكشف عنهم الضر بدون تريث أو تمهل .

وقال - سبحانه - ﴿ فريق منكم بربهم يشركون ﴾ لتسجيل الشرك على هذا الفريق ولإنصاف غيره من المؤمنين الصادقين ، الذين يشكرون الله - تعالى - فى جميع الأحوال ، ويواظبون على أداء ما كلفهم به فى السراء والضراء .

وهذا المعنى الذى تضمنته هاتان الآيتان ، قد جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة منها

قوله - تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .. ﴾ [٢] .

فهذه الآيات الكريمة تصور الطبائع البشرية أكمل تصوير وأصدقه ، إذ الناس - إلا من عصم الله - يجأرون إلى الله - تعالى - بالدعاء عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والرخاء .

واللام فى قوله « ليكفروا بما آتيناهم .. » يصح أن تكون للتعليل ، وأن تكون هى التى تسمى بلام العاقبة أو الصيرورة .

قال الشوكانى : « واللام فى « ليكفروا بما آتيناهم .. » لام كى . أى : لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى لكأن هذا الكفر منهم الواقع فى موقع الشكر الواجب عليهم ، غرض لهم ومقصد من مقاصدهم . وهذا غاية فى العتو والعناد ليس وراءها غاية .

وقيل : اللام للعاقبة : يعنى ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا الكفر .. » [٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ تهديد ووعيد لهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - والجملة الكريمة معمولة لقول محذوف .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - اعملوا ما شئتم وانتفعوا من متاع الدنيا كما أردتم فسوف تعلمون سوء عاقبتكم يوم القيامة .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من عقائدهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة التى تمجها العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، فقال - تعالى - :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(١) سورة فصلت الآية ٥١ .

(٢) سورة يونس الآية ١٢ .

(٣) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٦٩ .

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ... ﴾. معطوف على ما سبقه بحسب المعنى ، لتسجيل رذائلهم ، وتعداد جناياتهم .

وضمير الجمع فى قوله « لما لا يعلمون » يصح أن يعود إلى الكفار ، كالذى قبله فى « ويجعلون » .

فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله – تعالى – ومن التضرع إليه عند الضر ونسيانه عند الرخاء .. ولا يكتفون بذلك ، بل ويجعلون للأصنام التى لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا ، نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما .

ويصح أن يعود ضمير الجمع فى قوله « لما لا يعلمون » للأصنام ، فيكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا تعلم شيئا لأنها جماد لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر .. يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ لما لا يعلمون ﴾ أى لآلهتهم التى لا يعلمون أحوالها وأنها لا تضر ولا تنفع ، على أن « ما » موصولة ، والعائد محذوف ؛ وضمير الجمع للكفار ، أو لآلهتهم التى لا علم لها بشىء لأنها جماد . على أن « ما » موصوله – أيضا – عبارة عن الآلهة ، وضمير « يعلمون » عائد عليها ومفعول « يعلمون » متروك لقصد العموم ، وصيغة جمع العقلاء لوصفهم الآلهة بصفاتهم .. » [1] .

وقال – سبحانه – « نصيبا » بالتنكير ، للايماء بأنه نصيب كبير وضعوه فى غير موضعه ووصفه بأنه مما رزقهم – سبحانه – لتهويل جهلهم وظلمهم ، حيث تركوا التقرب إلى الرازق

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٦٧ .

الحقيقى - جل وعلا - ، وتقربوا بجانب كبير مما رزقهم به - سبحانه - إلى جمادات لا تغنى عنهم شيئا .

وما أجملته هذه الآية الكريمة عن جهالتهم ، فصلته آيات أخرى منها قوله - تعالى - فى سورة الأنعام : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ تهديد ووعيد لهم على سوء أفعالهم . أى : أقسم بذاتى لتسألن - أيها المشركون - سؤال توبيخ وتأنيب فى الآخرة ، عما كنتم تفترونه من أكاذيب فى الدنيا ، ولأعاقبنكم العقاب الذى تستحقونه بسبب افترائكم وكفركم . وصدرت الجملة الكريمة بالقسم ، لتأكيد الوعيد ، ولبيان أن العقاب أمر محقق بالنسبة لهم وجاءت الجملة الكريمة بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، لأن توبيخ الحاضر أشد من توبيخ الغائب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة ، وهو معطوف على ماقبله .

وسؤالهم يوم القيامة عما اجترحوه - مع أنه سؤال تقريع وتأنيب - إلا أنه يدل على عدل الله - تعالى - مع هؤلاء الظالمين ، لأنه لم يعاقبهم إلا بعد أن سألهم ، وبعد أن ثبت إجرامهم وفى ذلك ما فيه من تعليم العباد أن يكونوا منصفين فى أحكامهم .

وهذه الآية الكريمة تحكى ما كان شائعا فى بعض قبائل العرب ، من أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله . قالوا : وكانت قبيلة خزاعة ، وقبيلة كنانة تقولان بذلك فى الجاهلية .

أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بجعل نصيب مما رزقناهم لآلهتهم ، بل أضافوا إلى ذلك رذيلة أخرى ، وهى أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله - تعالى - ، وأشركوها معه فى العبادة .

قوله « سبحانه » مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو فى محل جملة معترضة ، وقعت جوابا عن مقالتهم السيئة ، التى حكاها الله - تعالى - عنهم ، وهى « ويجعلون لله البنات » .

---

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية فى كتابنا (تفسير سورة الأنعام) من ص ١٨٥ إلى ص ١٨٨ .

أى : تنزه وتقدس الله - عز وجل - عن أن يكون له بنات أو بنين ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

والمراد بما يشتهونه فى قوله - عز وجل - : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ الذكور من الأولاد .

أى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم نصيبا مما رزقناهم ، ويجعلون لله - تعالى - البنات ، أما هم فيجعلون لأنفسهم الذكور ، ويختارونهم ليكونوا خلفاء لهم .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون ﴾[١] .

ثم صور - سبحانه - حالتهم عندما يبشرون بولادة الأنثى ، وحكى عاداتهم الجاهلية المنكرة فقال - تعالى - : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به .. ﴾ .

قال الآلوسى : قوله « وإذا بشر أحدهم بالأنثى .. » أى : أخبر بولادتها . وأصل البشارة الإخبار بما يسر . لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوءهم حملت على مطلق الإخبار . وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة ، بقطع النظر عن كونها أنثى .. »[٢] .

وقوله « كظيم » من الكظم بمعنى الحبس . يقال : كظم فلان غيظه ، إذا حبسه وهو ممتلىء به وفعله من باب ضرب .

والمعنى : وإذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات ، بولادة الأنثى دون الذكر ، صار وجهه مسودا كئيبا كأن عليه غبرة ، ترهقه قترة - أى تعلوه ظلمه وسواد - ، وصار جسده ممتلئا بالحزن المكتوم ، والغيظ المحبوس ، وأصبح يتوارى ويتخفى عن أعين الناس خجلا وحياء ، من أجل أن زوجته ولدت له أنثى ولم تلد له ذكرا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ﴾ تصوير بليغ لموقف ذلك المشرك مما بشر به وهو ولادة الأنثى .

فالضمير المنصوب فى قوله « أيمسكه، ويدسه » يعود على المبشر به وهو الأنثى .

والهون بمعنى الهوان والذل .

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٦٩ .

ويدسه من الدس بمعنى الإخفاء للشيء فى غيره . والمراد به . دفن الأنثى حية فى التراب حتى تموت، وهو المشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا الموءودة سئلت.بأى ذنب قتلت ﴾.

أى : أن هذا المشرك بعد أن يبشر بولادة الأنثى ، يدور بذهنه أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها على هوان وذل ، وإما أن يدسها ويخفيها فى التراب ، بأن يدفنها فيه وهى حية حتى تموت .

والجار والمجرور فى قوله « على هون » يصح أن يكون حالا من الفاعل وهو المشرك : أى أيمسك المبشر به مع رضاه - أى المشرك - بهوان نفسه وذلتها بسبب هذا الإمساك .

ويصح أن يكون حالا من المفعول وهو الضمير المنصوب . أى أيمسك هذه الأنثى ويبقيها بقاء ذلة وهوان لها ، بحيث لا يورثها شيئا من ماله ، ولا يعاملها معاملة حسنة .

ومن بلاغة القرآن أنه عبر بقوله « أيمسكه على هون » ليشمل حالة المشرك وحالة المبشر به وهو الأنثى .

وقوله - تعالى -: ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ . ذم لهم على صنيعهم السيئ ، وعلى جهلهم الفاضح .

أى : بئس الحكم حكمهم ، وبئس الفعل فعلهم ، حيث نسبوا البنات إلى الله - تعالى - ، وظلموهن ظلما شنيعا ، حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلهن بدون ذنب أو ما يشبه الذنب .

وصدر - سبحانه - هذا الحكم العادل عليهم بحرف « ألا » الاستفتاحية : لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه ، إنما هو جور عظيم ، قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيئ .

أسند - سبحانه - الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل ذلك كان بعضا منهم ، لأن ترك هذا البعض يفعل ذلك الفعل القبيح ، هذا الترك هو فى ذاته جريمة يستحق عليها الجميع العقوبة ، لأن سكوتهم على هذا الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الذم لهم بذم آخر على سبيل التأكيد فقال - تعالى - : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾ .

والمثل : الحال والصفة العجيبة فى الحسن والقبح .

والسوء : مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا عمل معه ما يكره ، وإضافة المثل إلى السوء للبيان .

والمراد بمثل السوء : أفعال المشركين القبيحة التى سبق الحديث عنها .

والمعنى للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .. صفة السوء ، التى هى كالمثل فى القبح ، وهى وأدهم البنات ، وجعلهم لآلهتهم . نصيبا مما رزقناهم ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم .

فهذه الصفات تدل على غبائهم وجهلهم وقبح تفكيرهم .

أما الله - عز وجل - فله المثل الأعلى ؛ أى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد : والمبرأ من مشابهة الحوادث ،والمستحق لكل صفات الكمال والجلال فى الوحدانية ، والقدرة والعلم .. وغير ذلك مما يليق به - سبحانه - .

وهو - عز وجل - « العزيز » فى ملكه بحيث لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وأقواله .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على جهالات المشركين ، وانطماس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم ، أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر رحمته بخلقه وعن جانب من جرائم المشركين ، وعن وظيفة القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن
قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

و « لو » فى قوله - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم .. ﴾ حرف امتناع

لامتناع . أى : حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه ، لأجل إمتناع وقوع شرطه ، وقد امتنع هنا إهلاك الناس ، لامتناع إرادة الله - تعالى - ذلك .

وقوله « يؤاخذ » مفاعلة من المؤاخذة بمعنى العقوبة ، فالمفاعلة فيه بمعنى الفعل المجرد . فمعنى آخذ الله - تعالى - الناس يؤاخذهم : أخذهم وعاقبهم بسبب ذنوبهم .

والأخذ بمعنى العقاب قد جاء فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة : ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] .

والباء فى « بظلمهم » للسببية ، والظلم : مجاوزة الحدود التى شرعها الله - تعالى - وأعظمه الإشراك بالله - تعالى - كما قال - تعالى - ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

والمراد من المؤاخذة بسبب ظلمهم : تعجيل العقوبة لهم فى الدنيا .

والضمير فى قوله - سبحانه - « عليها » يعود على الأرض . وصح عود الضمير عليها مع أنه لم يسبق ذكر لها ، لأن قوله « من دابة » يدل على ذلك لأنه من المعلوم ، أن الدواب تدب على الأرض .

ونظيره قوله - تعالى - فى آية أخرى ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ وقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أى : الشمس . فإنه وإن كان لم يجر لها ذكر إلا أن المقام يدل عليها .

ورجوع الضمير إلى غير مذكور فى الكلام إلا أن المقام يدل عليه كثير فى كلام العرب ، ومنه قول حاتم الطائى :

أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقوله : حشرجت وضاق بها ، المقصود به الروح أو النفس ، ولم يجر لها ذكر ، إلا أن قوله : وضاق بها الصدر ، يعين أن المراد بها النفس .

والمراد بالساعة فى « لا يستأخرون عنه ساعة » مطلق الوقت الذى هو غاية فى القلة .

والمعنى : ولو عاجل الله - تعالى - الناس بالعقوبة ، بسبب ما اجترحوه من ظلم وآثام ، لأهلكهم جميعا ، وما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها ، ولكنه - سبحانه - فضلا منه وكرما ، لا يعاجلهم بالعقوبة التى تستأصلهم بل يؤخرهم « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معين محدد تنتهى عنده حياتهم ، وهذا الوقت المحدد لا يعلمه إلا هو - سبحانه - « فإذا

---

(١) سورة هود الآية ١٠٢ .

جاء أجلهم » . أى : فإذا حان الوقت المحدد لهلاكهم ، فارقوا هذه الدنيا بدون أدنى تقديم أو تأخير عن هذا الوقت .

هذا ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالناس هنا : الكفار خاصة ، لأنهم هم الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ويبدو لنا أن المراد بالناس هنا : العموم ، لأن قوله « من دابة » يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة ، ولأن النكرة فى سياق النفى إذا زيدت قبلها لفظة « من » تكون نصا صريحا فى العموم .

وإلى العموم أشار ابن كثير عند تفسيره للآية بقوله : يخبر الله - تعالى - عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أى : لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك بنى آدم . ولكن الرب - جل وعلا - يحلم ويستر ويُنظر .. »[1] .

وقال القرطبى : فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم ؟

فالجواب : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إذا أراد الله - تعالى - بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم - وأعمالهم - »[2] .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا »[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾[5] .

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل المشركين فقال - تعالى - ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ... ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٠ .
(٣) سورة الكهف الآية ٥٨ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٢ .
(٥) سورة نوح الآية ٤ .

أى : أن هؤلاء المشركين لايكتفون بإنكارهم البعث وبجحود نعم الله - تعالى - : بل أضافوا إلى ذلك أنهم يثبتون له - سبحانه وينسبون إليه كذبا وزورا - ما يكرهونه لأنفسهم ، فهم يكرهون أن يشاركهم أحد فى أموالهم أو فى مناصبهم ؛ ومع ذلك يشركون مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى ، ويكرهون أراذل الأموال ، ومع ذلك يجعلون لله - تعالى - أراذل أموالهم . ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، ويكرهون البنات ، ومع ذلك ينسبونهن إليه - سبحانه - . فالجملة الكريمة تنعى عليهم أنانيتهم ، وسوء أدبهم مع خالقهم - عز وجل - وقوله - سبحانه - ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ... ﴾ تصوير بليغ لما جبلوا عليه من كذب صريح ، وبهتان واضح .

ومعنى : « تصف » تقول وتذكر بشرح وبيان وتفصيل ، حتى لكأنها تذكر أوصاف الشىء ، وجملة « أن لهم الحسنى » بدل من « الكذب » .

والحسنى : تأنيث الأحسن ، والمراد بها زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب وأعظمه ، كما كان لهم فى الدنيا ذلك ، فقد روى أنهم قالوا : إن كان محمد ﷺ صادقا فيما يخبر عنه من أمر البعث ، فلنا الجنة ...

والمعنى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لله - تعالى - ما يكرهونه من الأولاد والأموال والشركاء ، وتنطق ألسنتهم بالكذب نطقا واضحا صريحا إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب ..

وهذا الزعم قد حكاه القرآن عنهم فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادًا وما نحن بمعذبين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ... ﴾[2] .

قال صاحب الكشاف: فإن قلت ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبليغه . جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه ، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته . كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر[3] .

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٥ .
(٢) سورة مريم الآية ٧٧ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٢ .

وقال بعض العلماء : والتعبير القرآنى فى قوله ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها ، كما تقول : فلان قوامه يصف الرشاقة .. لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة ، مفصح عنها .

كذلك قال - سبحانه - ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ... ﴾ فهى بذاتها تعبير عن الكذب ، لطول ما قالت الكذب ، ولكثرة ما عبرت عنه ، حتى صارت رمزا عليه ، ودلالة له[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ تكذيب لهم فيما زعموه من أن لهم الحسنى ، ووعيد لهم بإلقائهم فى النار .

وكلمة «لا جرم» وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع، متلوة بأن واسمها وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد التركيب معنى حق وثبت . والجملة بعدها فاعل ، أى : حق وثبت كونهم لهم النار وأنهم مفرطون فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مفرطون ﴾ قرأها الجمهور - بسكون الفاء وفتح الراء - بصيغة إسم المفعول من أفرطه بمعنى قدمه . يقال : أفرطته إلى كذا . أى : قدمته إليه .

قال القرطبى : والفارط الذى يتقدم غيره الى الماء . ومنه قول النبى - ﷺ - : « أنا فرطكم على الحوض » أى : متقدمكم ... "[٢] .

أو من أفرط إذا نسيه وتركه . تقول : أفرطت فلانا خلفى ، إذا تركته ونسيته .

والمعنى : أن هؤلاء الذين يزعمون أن لهم الحسنى فى الآخرة كذبوا فى زعمهم ، وفجروا فى إفكهم ، فإنهم ليس لهم شىء من ذلك ، وإنما الأمر الثابت الذى لاشك فيه ، أن لهم فى الآخرة النار ، وأنهم مفرطون فيها ، مقدمون اليها بدون إمهال ، ومتروكون فيها بدون اكتراث بهم ، كما يترك الشىء الذى لا قيمة له . قال - تعالى - : ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾[٣] .

وقرأ نافع « وأنهم مفرطون » - بسكون الفاء وكسر الراء - بصيغة إسم الفاعل . من أفرط اللازم بمعنى أسرف وتجاوز الحد . يقال : أفرط فلان فى كذا ، إذا تجاوز الحدود المشروعة .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٧٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢١ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٥١ .

فيكون المعنى : لا جرم أن لهم النار ، وأنهم مفرطون ومسرفون في الأقوال والأعمال التى جعلتهم حطبا لها ، ووقودا لنيرانها كما قال - تعالى - : ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾[1] .

ثم وجه - سبحانه - خطابا لنبيه - ﷺ - على سبيل التسلية والتثبيت ، حيث بين له أن ما أصابه من مشركى قومه ، قد فعل ما يشبهه المشركون السابقون مع أنبيائهم ، فقال - تعالى - : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم ﴾ .

وقوله ﴿ فزين ﴾ من التزيين وهو تصيير الشىء زينا ، أى : حسنا والزينة : هى ما فى الشىء من محاسن ترغب الناس فيه .

والمعنى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم - بذاتى ، لقد أرسلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك ، فكانت النتيجة أن استحوذ الشيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسل اليهم ، حيث زين لهم الأفعال القبيحة ، وقبح لهم الأعمال الحسنة ، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذب لأقوالهم ، المعرض عن إرشاداتهم ، المحارب لدعوتهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ﴾ بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : والمراد باليوم فى قوله - تعالى - : ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زمان الدنيا - أى مدة أيام الدنيا - فيكون المعنى : فهو قرينهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده . فيكون للحال الآتيه . ويكون الولى بمعنى الناصر . والمراد نفى الناصر عنهم بأبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الآخرة .

ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذى مضى ، وهو الذى وقع فيه التزيين للأمم الماضية من الشيطان ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية .. الثانى : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش أعمالهم ، فيكون الضمير فى « وليهم » لكفار قريش . فيكون المعنى : فهو ولى هؤلاء المشركين اليوم أى : معينهم على الكفر والمعاصى ولهم ولأمثالهم عذاب أليم فى الآخرة»[2] .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٣ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٧٣ .

ثم بين - سبحانه - أهم الوظائف التى من أجلها أنزل كتابه على نبيه محمد - ﷺ - فقال : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

أى : وما أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - هذا القرآن ، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت اليهم وجه الصواب فيما اختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام ... وبذلك يعرفون الحق من الباطل ، والخير من الشر .

وسيقت هذه المعانى بأسلوب القصر ، لقصد الإحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم ، ولترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا الكتاب بنفس منشرحة ، وقلب متفتح .

وقوله ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ثناء آخر على هذا الكتاب الكريم .

أى : أنزلنا هذا الكتاب يامحمد ، لتبين للناس عن طريقه وجه الحق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين ، وليكون هذا الكتاب هداية إلى الطريق القويم ، ورحمة لقوم يؤمنون به ، ويسيرون فى كل أمورهم على هدى تعاليمه وإرشاداته وتشريعاته .

وقال - سبحانه - : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ للإشارة الى أن الظفر بما اشتمل عليه القرآن من خيرات ، إنما هو لقوم قد توجهت نفوسهم إلى الإيمان به ، وتفتحت قلوبهم لاستقبال هداياته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت لنا جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، وردت على المشركين فيما زعموه من أن لهم فى الآخرة العاقبة الحسنى ، وسلت النبى - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى ، وبينت أهم الوظائف التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه .

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله - تعالى - على خلقه ، ومن ذلك : نعمة إنزال الماء من السماء ، ونعمة خلق الأنعام ، ونعمة إيجاد النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - :

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

والمراد بالسماء فى قوله - تعالى - : ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ : جهة العلو أو السحاب المنتشر فى طبقات الجو العليا والذى تنزل منه الأمطار.

والمراد بإحياء الأرض: تحرك القوى النامية فيها، وإظهار ما أودعه الله - تعالى - فيها من نبات وأزهار، وثمرات، وغير ذلك مما تنبته الأرض.

والمراد بموتها : خلوها من ذلك، بسبب استيلاء القحط والجدب عليها.

، قال - تعالى - : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾.

أى : وكما أنزل الله - تعالى - كتابه ليكون هداية ورحمة لقوم يؤمنون، أنزل - سبحانه - أيضا الماء من السماء على الأرض، فتحولت بسبب نزول هذا الماء المبارك الكثير عليها، من أرض جدباء خامدة، إلى أرض خضراء رابية.

ثم حرض - سبحانه - عباده على التدبر والشكر فقال - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾.

أى : إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا وحدها، من إنزل الماء من السماء، وإحياء الأرض به من بعد موتها، لآية عظيمة، وعبرة جليلة، ودلالة واضحة تدل على وحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا، « لقوم يسمعون » ما يتلى عليهم من كلام الله - تعالى - سماع تدبر واعتبار، فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة وإرشادات سديدة.

فالمراد بالسمع : سمع القلوب والعقول، لا سمع الآذان فقط، إذ سمع الآذان بدون وعى واستجابة للحق، لاقيمة له، ولا فائدة ترجى من ورائه.

ثم أرشد - سبحانه - إلى مظهر آخر من مظاهر وحدانيته، وعظيم قدرته وعجيب صنعه، وسعة رحمته، حيث خلق للناس الأنعام، وسقاهم من ألبانها، فقال - تعالى - : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ... ﴾.

والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم من الحيوان، ويدخل فى الغنم المعز.

والعبرة : مصدر بمعنى العبور ، أى : التجاوز من محل إلى آخر ، والمراد بها هنا : العظة والاعتبار والانتقال من الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى اليقظة .

أى : وإن لكم - أيها الناس - فى خلق الأنعام ، وفيما يخرج منها من ألبان لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، ومنفعة جليلة توجب عليكم إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ومداومة الشكر له على نعمه . فالتنكير فى قوله ﴿ لعبرة ﴾ للتفخيم والتهويل .

وقوله - تعالى - : ﴿ نسقيكم مما فى بطونه ﴾ استئناف بيانى ، كأنه قيل : وما وجه العبرة فى الأنعام ؟ فكان الجواب : نسقيكم مما فى بطونه .

قال الآلوسى : والضمير فى «بطونه» يعود للأنعام، وهو اسم جمع، واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه ، ويجوز تأنيثه وجمعه باعتبار معناه ...»[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ بيان لموطن العبرة ومحل النعمة ، ومظهر الدلالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ورحمته . .

والفرث : الطعام المتبقى فى أمعاء الحيوان بعد هضمه . وأصل الفرث : التفتيت . يقال فرثت كبده . أى : فتتتها .

قال الجمل ما ملخصه : والفرث : الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام فى الكرش - بفتح الكاف وكسر الراء - فإذا خرجت من الكرش لا تسمى فرثا بل تسمى روثا . وقوله ﴿ لبنا ﴾ مفعول ثان لنسقيكم ، والأول هو الكاف»[2] .

والخالص : النقى الصافى الخالى من الشوائب والأكدار . يقال خلص الشىء من التلف خلوصا - من باب قعد - إذا سلم منه .

والسائغ : اللذيذ الطعم ، السهل المدخل الى الحلق . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا ه من باب قال - إذا سهل مدخله فى الحلق .

أى : نسقيكم من بين الفرث والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام ، « لبنا » نافعا لأبدانكم « خالصا » من رائحة الفرث ، ومن لون الدم ، مع أنه موجود بينهما « سائغا للشاربين » بحيث يمر فى الحلوق بسهولة ويسر ، ويشعر شاربه بلذة وارتياح .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٧٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٨٠ .

وقدم - سبحانه - قوله : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ على قوله ﴿ لبنا ﴾ ، لأن خروج اللبن من بينهما هو موطن العبرة ، وموضع الدليل الأسمى على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ أى : يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله - تعالى - ، بحيث لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله ... فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته ، لمن تفكر وتأمل . وسئل « شقيق » عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم .

ثم قال - رحمه الله - : فإن قلت : أى فرق بين « من » الأولى والثانية ؟ .

قلت : الأولى للتبعيض ، لأن اللبن بعض ما فى بطونها ... والثانية لابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذى منه يبتدأ .. .

وإنما قدم قوله : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم»[1] .

وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : « ومن تدبر فى بدائع صنع الله - تعالى - فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها ، والأسباب المولدة لها ، وتسخير القوى المتصرفة فيها ... اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه - سبحانه - وقدرته ، وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته :

حكم حارت البرية فيها وحقيق بأنها تحتار[2]

والحق ، أن هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة على وحدانية الله تعالى ونفاذ قدرته ، وعجيب صنعته ، حيث استخرج - سبحانه - من بين فرث ودم فى بطون الأنعام ، لبنا خالصا سائغا للشاربين .

وهذا الاستخراج قد تكلم العلماء المتخصصون عن كيفيته وعن مراحله .. كلاما يقوى إيمان المؤمنين ، ويدفع باطل الملحدين .

هذا ، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن اللبن نعمة جزيلة من نعم الله - تعالى - على خلقه .

قال القرطبى ما ملخصه : « روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله - ﷺ - بلبن فشرب ، ثم قال : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل ، اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦١٦ .
(٢) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٧٨ .

خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شىء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن » .

ثم قال الإمام القرطبى : قال علماؤنا : فكيف لا يكون كذلك ، وهو أول ما يغتذى به الإنسان ، وتنمو به الأبدان ، فهو قوت به قوام الأجسام ، وقد جعله الله - تعالى - علامة لجبريل على هداية هذه الأمة ، ففى الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال لى جبريل : اخترت الفطرة ...»[١] .

ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله التى لا تحصى ، وهى نعمة ثمرات النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا... ﴾ .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب.. ﴾ خبر مقدم ، ومن تبعيضية ، والمبتدأ محذوف تقديره ثمر ، وقوله ﴿ تتخذون ﴾ نعت لهذا المبتدأ المحذوف ، أى : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا .

ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بمحذوف ، والتقدير : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرهما ، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه ، وقوله ﴿ تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ بيان وكشف عن كيفية الإسقاء .

والضمير فى قوله ﴿ منه ﴾ يعود على المضاف المحذوف الذى هو العصير ، أو على المبتدأ المحذوف وهو الثمر[٢] .

والسكر - بفتح السين والكاف - اسم من أسماء الخمر ، يقال : سكر فلان - بوزن فرح - يسكر سكرا ، إذا غاب عقله وإدراكه فهو سكران وسكر - بفتح السين وكسر الكاف - .

وأما الرزق الحسن ، فالمراد به ما كان حلالا من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب وغير ذلك مما أحله الله - تعالى - من ثمارهما .

وعلى هذا المعنى سار جمهور العلماء من السلف والخلف .

قال الآلوسى ما ملخصه : والسكر : الخمر . قال الأخطل : .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٨٠ .

بئس الصُّحاة وبئس الشَّرب شَربُهم   إذا جرى فيهم المـزّاءُ والسَّكـر

والمزاء : نوع من الأشربة . والسكر ما يسكر وهو الخمر.

وفسروا الرزق الحسن . بالخل والتمر والزبيب وغير ذلك .

ثم قال : وتفسير « السَّكَر » بالخمر ، هو المروى عن ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبى رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبى .. والنخعى .. مع خلق آخرين ..[1] .

وعلى هذا التفسير الذى قاله جمهور العلماء يكون السكر غير الرزق الحسن ، ويكون العطف للتغاير .

ومن العلماء من فسر السكر بأنه اسم للخل ، أو للعصير غير المسكر ، أو لما لا يسكر من الأنبذة ، وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ سكرا ﴾ السكر ما يسكر ، هذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر .

والمراد بالسكر : الخمر . وبالرزق الحسن : جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقد قيل إن السكر : الخل بلغة الحبشة . والرزق الحسن : الطعام . وقيل السكر : العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرا ، لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى ، فإذا بلغ الإسكار حرم .. .

وقال الحنفيون . المراد بقوله « سكرا » مالا يسكر من الأنبذة . والدليل عليه أن الله - سبحانه - امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل لا بمحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز . وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « حرم الله الخمر بعينها والسُّكْر من غيرها »[2] .

وأصحاب هذا الرأى كأنهم يرون أن عطف الرزق الحسن على السكر من باب عطف الشىء على مرادفه ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ وليس من باب العطف المقتضى للمغايرة ، فالسكر عندهم ليس هو الخمر ، وإنما هو الخل أو العصير أو النبيذ غير المسكر .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه الجمهور من أن السكر هو الخمر أولى بالقبول ، لأن هذا التفسير

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٨٠ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٨ .

هو المروى عن جمع من الصحابة ومن التابعين ، ولأن الأصل فى العطف أنه يقتضى المغايرة .

قال ابن العربى : أسد هذه الاقوال قول ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، والمراد بالسكر الخمر ، فتكون هذه الآية منسوخة لأنها مكية باتفاق العلماء ، وتحريم الخمر مدنى[1] .

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام بعد أن ذكر أدلة الاحناف ورد عليها : والحاصل أننا نرى أن الآية ليس فيها ما يشهد بالحل ، إذ الكلام فى الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الانسان ، ولم تنحصر المنافع فى حل التناول ، فقد قال الله - تعالى - : فى شأن الخمر : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس .. ﴾ فهل انحصرت منافع السكر - على فرض أنه النبيذ - فى الشرب؟[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ أى : فى ذلك الذى ذكرناه لكم من إخراج اللبن من بين فرث ودم ، ومن اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، «لآية» باهرة ، ودلالة واضحة ، على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، « لقوم يعقلون » هذه التوجيهات الحكيمة ، فيدركون أن من يفعل كل ذلك وغيره ، هو المستحق للعبادة والطاعة «ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل - أيضا - على وحدانيته وقدرته ، عن طريق إخراج العسل الذى فيه شفاء للناس بواسطة حشرة ضعيفة وهى النحلة ، فقال - تعالى - :

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٨ .

(٢) راجع تفسير ايات الأحكام جـ ٣ ص ٥٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس - رحمه الله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوحى ﴾ من الوحى ، وهو هنا بمعنى الإلهام ، وهو - كما يقول القرطبى - ما يخلقه الله - تعالى - فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها ، وتدبير معاشها..(١) .

وقال صاحب الكشاف : والإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف فى قلوبها على وجه هو أعلم به ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فتأنقها فى صنعتها ولطفها فى تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها دلائل شاهدة على أن الله - تعالى - أودعها علما بذلك وفطنها ، كما أودع أولى العقول عقولهم..(٢) .

والخطاب للرسول - ﷺ - ويشمل كل من يصلح للخطاب من الأمة الإسلامية .

والنحل : اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ويطلق على الذكر والأنثى ، وسمى بذلك لأن الله - تعالى - نحله أى منحه العسل الذى يخرج منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ بيان لما ألهمه الله النحل من أوامر . ولما كلفها به من أعمال .

و« أن » مفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه وما بعدها لا محل له من الإعراب ، ويجوز بأن تكون مصدرية فيكون ما بعدها فى محل نصب على تقدير الجار . أى : بأن اتخذى .

والمعنى : وألهم ربك النحل وأرشدها وهداها إلى أن تتخذ من فجوات الجبال بيوتا تسكن فيها ، وكذلك من تجاويف الأشجار ومما يرفعه الناس ويعرشونه من السقوف وغيرها .

يقال : عرش الشىء يعرشه - بكسر الراء وضمها - إذا رفعه عن الأرض ، ومنه العريش الذى صنع لرسول الله - ﷺ - يوم بدر لمشاهدة سير المعركة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى « من » فى قوله ﴿ أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ ؟ وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر ؟ .

قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لاتبنى بيوتها فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٣٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦١٨ .

وقد علق الشيخ ابن المنير على هذا الكلام بقوله : « ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه الزمخشرى فى تبعيض « من » المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل ، كأنه - تعالى - وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت ، وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه ، وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم فى قوله ﴿ ثم كلى... ﴾ لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها فى تناول الثمرات ، كما تقول : راع الحلال فيما تأكله ثم كل أى شىء شئت . فتوسط ثم لتفاوت . الحجر والإطلاق فسبحان اللطيف الخبير»[1] .

وقوله : ﴿ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا .. ﴾ بيان للون آخر من الإلهامات التى ألهمها الله - تعالى - إياها .

والسبل : جمع سبيل . والمراد بها الطرق التى تسلكها النحلة فى خروجها من بيتها وفى رجوعها إليه وأضاف - سبحانه - السبل إليه ، لأنه هو خالقها وموجدها .

وذللا : جمع ذلول وهو الشىء الممهد المنقاد ، وهو حال من السبل ، أى : فاسلكى سبل ربك حال كونها ممهدة لك ، لا عسر فى سلوكها عليك ، وإن كانت صعبة بالنسبة لغيرك .

قالوا : ربما أجدب عليها ما حولها ، فتنتجع الأماكن البعيدة للمرعى ، ثم تعود إلى بيوتها دون أن تضل عنها .

وقيل إن « ذللا » حال من النحلة أى : ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ، حالة كونك منقادة لما يراد منك ، مطيعة لما سخرك الله له من أمور تدل على قدرته وحكمته - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ كلام مستأنف ، عدل به من خطاب النحلة الى خطاب الناس ، تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع ، وتنبيها على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وعجيب صنعه فى خلقه .

أى : يخرج من بطون النحل - بعد أكلها من كل الثمرات وبعد اتخاذها بيوتها - شراب هو العسل ، مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل ، على حسب اختلاف مراعيها ومآكلها وسنها ، وغير ذلك بما اقتضته حكمته - سبحانه - .

---

(١) الكشاف وحاشيته جـ ٢ ص ٦١٨ .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ يعود على الشراب المستخرج من بطونها وهو العسل .

أى : فى العسل شفاء عظيم للناس من أمراض كثيرة تعرض لهم .

وقيل : الضمير يعود إلى القرآن الكريم ، والتقدير : فيما قصصنا عليكم فى هذا القرآن الشفاء للناس .

وهذا القيل وإن كان صحيحا فى ذاته ، إلا أن السياق لا يدل عليه ، لأن الآية تتحدث عما يخرج من بطون النحل وهو العسل ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ، ومخالفة المرجع الواضح .

قال الإمام ابن كثير : والدليل على أن المراد بقوله ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ هو العسل ، الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - ، أن رجلا جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : « اسقه عسلا » ، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال : يارسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال : « اذهب فاسقه عسلا » . فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله ، سقيته عسلا فمازاده إلا استطلاقا . فقال رسول الله - ﷺ - « صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرىء .

ثم ساق الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه البخارى عن ابن عباس قال : الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم أو شربة عسل أوكية بنار ، وأنهى أمتى عن الكى » .

وروى البخارى - أيضا - عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن كان فى شىء من أدويتكم - أو يكون فى شىء من أدويتكم - خير : ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار ، توافق الداء ، وما أحب أن أكتوى »[1] .

وقال صاحب فتح البيان : وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء ، أو خاص ببعض الأمراض .

فقال طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد .

وقالت طائفة : أخرى : إن ذلك خاص ببعض الأمراض ، ولا يقتضى العموم فى كل علة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٧٥ .

وفى كل إنسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن فالقرآن مملوء منه ، ولغة العربى يأتى فيها العام كثيرا بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .

ومما يدل على هذا ، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان . ومحققى أهل الأصول . وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض ، أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم .

ثم قال : قلت : وحديث البخارى : أن أخى استطلق بطنه .. أوضح دليل على ما ذهبت إليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله - ﷺ - « صدق الله » أى : أنه شفاء فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالسقيا »[1] .

والذى نراه ، أن من الواجب علينا أن نؤمن إيمانا جازما بأن العسل المذكور فيه شفاء للناس ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، وكما أرشد إلى ذلك النبى - ﷺ - .

وعلينا بعد ذلك أن نفوض أمر هذا الشفاء وعموميته وخصوصيته لعلم الله - تعالى - وقدرته وحكمته ويكفينا يقينا فى هذا المجال ، إصرار النبى - ﷺ - على أن يقول للرجل الذى استطلق بطن أخيه أكثر من مرة ، « اذهب فاسقه عسلا » .

وقد تولى كثير من الأطباء شرح هذه الآية الكريمة شرحا علميا وافيا ، وبينوا ما اشتمل عليه عسل النحل من فوائد[2] .

ثم ختم - سبحانه - : الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أمر النحل ؛ من إلهامها اتخاذ البيوت العجيبة ، ومن إدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية ، ومن سلوكها الطرق التى جعلها الله مذللة فى ذهابها وإيابها للحصول على قوام حياتها ، ومن خروج العسل من بطونها ... إن فى ذلك وغيره ، لآية باهرة ، وعبرة ظاهرة ، ودلالة جلية ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وحكمته ، لقوم يحسنون التفكير فيما أخبرهم الله - تعالى - عنه ، ويوقنون بأن لهذا الكون ربا واحدا لا إله الا هو ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا ألوانا من عجائب صنع الله فى خلقه ، كاستخراج اللبن من بين فرث ودم ، وكاتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، وكاستخراج العسل الذى فيه شفاء للناس من بطون النحل .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٢٦٧ للشيخ صديق خان .
(٢) راجع على سبيل المثال كتاب : الإسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز إسماعيل .

فهذه الأشربة قد أخرجها الله - تعالى - من أجساد مخالفة لها فى شكلها ، وقد ساقها - سبحانه - فى آيات جمع بينها التناسق الباهر فى عرض هذه النعم ، مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله، ﴿..ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[١].

وبعد هذا الحديث المتنوع عن عجائب خلق الله - تعالى - فى الأنعام والأشجار والنحل .. ساقت السورة الكريمة ألوانا أخرى من مظاهر قدرته - تعالى - فى خلق الإنسان ، وفى التفاضل فى الأرزاق ، ومن نعمه على عباده فى إيجاد الأزواج والبنين والحفدة .. فقال - تعالى - :

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : لما ذكر - سبحانه - بعض عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس ، ومنها ما هو مذكور فى هذه الآية : ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ - وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان . والعقلاء ضبطوها فى أربع مراتب : أولها : سن النشوء والنماء ، وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب ، من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة - ، وثالثها :سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة - وهو من الأربعين إلى الستين - ورابعها : سن الانحطاط الكبير - وهو سن الشيخوخة - وهو من الستين إلى نهاية العمر -»[٢] .

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٣٢ .

والمعنى : « والله » - تعالى - هو الذى « خلقكم » بقدرته ، ولم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا .

« ثم » هو وحده الذى « يتوفاكم » وينهى حياتكم من هذه الدنيا عند انقضاء آجالكم .

وقوله ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر.. ﴾ معطوف على مقدر . أى : والله - تعالى - هو الذى خلقكم ، فمنكم من يبقى محتفظا بقوة جسده وعقله حتى يموت ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر . .

والمراد بأرذل العمر : أضعفه وأوهاه وهو وقت الهرم والشيخوخة ، الذى تنقص فيه القوى ، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها .

يقال : رَذُلَ الشيء يَرْذُل- بضم الذال فيهما - رذالة.. إذا ذهب جيده وبقى رديئه .

وقوله : ﴿ لكى لا يعلم بعد علم شيئا ﴾ تعليل للرد إلى أرذل العمر .

أى : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس فى هذه الحياة إلى سن الشيخوخة لكى يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته فى عدم إدراك الأمور إدراكا تاما وسليما .

ويجوز أن تكون اللام للصيرورة والعاقبة . أى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لايعلم شيئا منها علما كاملا .

ولقد استعاذ النبى - ﷺ - من أن يصل عمره إلى هذه السن ، لأنها سن تتكاثر فيها الآلام والمتاعب . وقد يصير الإنسان فيها عالة على غيره . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : روى البخارى عند تفسير هذه الآية ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطىء يعمر فيهرم[2]

---

(١) سورة الروم . الآية ٥٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٧ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على كمال علمه ، وتمام قدرته ، فقال - تعالى - : ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ أى : إن الله - تعالى - عليم بأحوال مخلوقاته ، لايخفى عليه شىء من تصرفاتهم « قدير » على تبديل الأمور كما تقتضى حكمته وإرادته .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة إمكان البعث وأنه حق ، لأن الله - تعالى - القادر على خلق الانسان وعلى نقله من حال إلى حال .. قادر - أيضا - على إحيائه بعد موته .

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن خلق الإنسان ، وتقلبه فى أطوار عمره ، إلى الحديث عن التفاوت بين الناس فى أرزاقهم ، فقال - تعالى - : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق... ﴾ فجعل منكم الغنى والفقير ، والمالك والمملوك ، والقوى والضعيف ، وغير ذلك من ألوان التفاوت بين الناس ، لحكمة هو يعلمها - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - موقف المفضلين فى الرزق من غيرهم فقال : ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء .. ﴾ .

أى : فليس الذين فضلهم الله - تعالى - فى الرزق على غيرهم « برادى » أى : بمانحى وباذلى « رزقهم » الذى رزقهم الله إياه على مماليكهم أو خدمهم الذين هم إخوة لهم فى الانسانية « فهم » أى الأغنياء الذين فضلوا فى الرزق ومماليكهم وخدمهم « فيه » أى : فى هذا الرزق « سواء » من حيث إنى أنا الرازق للجميع .

فالجملة الكريمة يجوز أن تكون دعوة من الله - تعالى - للذين فضلوا على غيرهم فى الرزق ، بأن ينفقوا على مماليكهم وخدمهم ، لأن ما ينفقونه عليهم هو رزق أجراه الله للفقراء على أيدى الأغنياء .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآية : أى : جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم ، وإخوانكم ، فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى الملبس والمطعم . كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : « إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون » فما رؤى عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه ، وإزاره إزاره من غير تفاوت[1] .

ويجوز أن تكون الآية الكريمة توبيخ للذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . فيكون المعنى : لقد فضل الله - تعالى - بعضكم على بعض فى الرزق - أيها

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٢٠ .

الناس - ، ومع ذلك فالمشاهد الغالب ببينهم ، أن الاغنياء لا يردون أموالهم على خدمهم وعبيدهم بحيث يتساوون معهم فى الرزق ، وإذا ردوا عليهم شيئا ، فإنما هو شىء قليل يسير يدل على بخلهم وحرصهم .. مع أنى أنا الرازق للجميع .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله عند تفسيره للآية : « يبين - تعالى - للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من شركاء وهم يعترفون بأنهم عبيد له ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فقال - تعالى - منكرا عليهم : أنتم لاترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى - بمساواة عبيد له فى الإلهية والتعظيم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ... ﴾[1].

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معى عبيدى فى سلطانى..[2] » .

وهذا المعنى الثانى هو الأقرب إلى سياق آيات السورة الكريمة ، لأن السورة الكريمة مكية ، ومن أهدافها الأساسية دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل - ، ونبذ الإشراك والمشركين ، وإقامة الأدلة المتنوعة على بطلان كل عبادة لغير الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر أى : أيشركون به - سبحانه - فيجحدون نعمه ، وينكرونها ، ويغمطونها حقها ، مع أنه - تعالى - هو الذى وهبهم هذه النعم ، وهو الذى منحهم ما منحهم من أرزاق؟!! .

ثم ذكرت السورة الكريمة بعد ذلك نعمة أخرى من نعم الله - تعالى - على الناس ، فقال - تعالى - : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ .

أى : والله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم ﴿ من أنفسكم ﴾ أى : من جنسكم ونوعكم ﴿ أزواجا ﴾ لتسكنوا إليها ، وتستأنسوا بها ، فإن الجنس إلى الجنس آنس وأسكن .

قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة... ﴾[3] .

---

(١) سورةالروم الآية ٢٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٧٧ .
(٣) سورة الروم الآية ٢١ .

قال الإمام ابن كثير : يذكر - تعالى - نعمه على عبيده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا ، أى : من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته أنه خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا ، وجعل الإناث أزواجا للذكور.. »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - والحفدة ، جمع حافد يقال ، حفد فلان يحفد حفدا من باب ضرب إذا أسرع فى خدمة غيره وطاعته . ومن دعاء القنوت : « وإليك نسعى ونحفد » أى : نسرع فى طاعتك ياربنا . والمراد بالحفدة : أبناء الأبناء . روى عن ابن عباس إنه قال : الحفيد ولد الابن والبنت ، ذكرا كان أو أنثى . وقيل المراد بهم : الخدم والأعوان ، وقيل المراد بهم: الأختان والأصهار أى : أزواج البنات وأقارب الزوجة . .

قال الجمل بعد أن نقل جملة من أقوال المفسرين فى ذلك : وكل هذه الأقوال متقاربة ، لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك . وبالجملة فالحفدة غير البنين ، لأن الأصل فى العطف المغايرة[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ بيان لنعمة ثالثة من النعم المذكورة فى هذه الآية . أى : ورزقكم - سبحانه - من الطيبات التى تستلذونها وتشتهونها ، وقد أحل لكم التمتع بها فضلا منه وكرما .

ثم ختم - تعالى - الآية الكريمة بتأنيب الذين يؤثرون الغى على الرشد فقال - تعالى - : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

والباطل يشمل كل اعتقاد أو قول أو فعل يخالف الحق والرشاد والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر . والمعنى : أيجحدون نعم الله - تعالى - فيؤمنون بالباطل ، ويكفرون بكل ما سواه من الحق والهدى والرشاد .

وفى تقديم الباطل على الفعل « يؤمنون » إشارة إلى أنهم قد اختلط الباطل بدمائهم فأصبحوا لا يؤمنون إلا به ، ولا ينقادون إلا له .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٨٦ .

والمراد بنعمة الله عموم النعم التى أنعم الله بها عليهم ، والتى لا تعد ولا تحصى .

وفى تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل ، إشعار بأن كفرهم بالنعم مستمر وإنكارهم لها لا ينقطع ، لأنهم « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بعجائب خلقهم وبأطوار حياتهم ، وبتفاوت أرزاقهم ، وببعض نعم الله - تعالى - عليهم لعلهم عن طريق هذا التذكير يفيئون إلى رشدهم ، ويخلصون العبادة لخالقهم - سبحانه - ، ويستعملون نعمه فيما خلقت له .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا من ألوان العقول المنحرفة عن الطريق الحق ، كما ساقت مثلين للرب الخالق العظيم ، وللمملوك العاجز الضعيف ، لعل فى ذلك عبرة لمن يعتبر ، وهداية لمن يريد الصراط المستقيم ، فقال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ويعبدون من دون الله ..... ﴾ كل معبود سوى الله - تعالى - من صنم أو وثن أو غير ذلك من المعبودات الباطلة .

والجملة الكريمة داخلة تحت مضمون الاستفهام الانكارى ، ومعطوفة عليه : وهو قوله

- تعالى - : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

أى أن هؤلاء الجاحدين لنعم الله - تعالى - ، بلغ من جهالتهم وسفاهاتهم أنهم يؤمنون بالباطل ، ويكفرون بالحق ، ويعبدون من دون الله - تعالى - أصناما وأوثانا لا تملك لعابدها أى شيء من الرزق فهى لا تنزل مطرا من السماء ولا تخرج نباتا من الأرض ، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر . .

و « ما » فى قوله - تعالى - ﴿ مالا يملك .. ﴾ كناية عن معبوداتهم الباطلة فهى مفردة لفظا ، مجموعة معنى .

والتنكير فى قوله - سبحانه - ﴿ رزقا ﴾ للاشعار بقلته وتفاهته ، وأن معبوداتهم لا تملك لهم أى شيء من الرزق ، حتى ولو كان تافها حقيرا .

وقوله : ﴿ شيئا ﴾ منصوب على المصدر ، أى : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم ملكا ، أى : شيئا من الملك .

والضمير فى قوله ﴿ ولا يستطيعون ﴾ يعود إلى ﴿ ما ﴾ وجمع بصيغة العقلاء بناء على زعمهم الفاسد ، من أن هذه الأصنام فى إمكانها النفع والضر .

وجاءت جملة ﴿ ولا يستطيعون ﴾ بعد قوله - تعالى - ﴿ ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض ..﴾ لتأكيد عجز هذه المعبودات عن فعل أى شيء فهى لا تملك شيئا ، وليس فى استطاعتها أن تملك لأنها ليست أهلا لذلك .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال .. ﴾ نهى منه - سبحانه - عن أن يشبه فى ذاته أو صفاته بغيره ، وقد جاء هذا النهى فى صورة الالتفات من الغائب إلى المخاطب للاهتمام بشأن هذا النهى ، والفاء لترتيب النهى على ما عدد من النعم التى وردت فى هذه السورة والتى لم ينته الحديث عنها بعد .

والأمثال : جمع مثل،وهو النظير والشبيه لغيره ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - ، لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا .

وتضرب الأمثال : لتوضيح الشيء الغريب ، وتقريب المعنى المعقول من المعنى المحسوس ، وعرض ما هو غائب فى صورة ما هو مشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وقوله - تعالى - ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ تعليل لهذا النهى عن ضرب الأمثال لله - عز وجل - .

أى : فلا تتجاسروا ، وتتطاولوا ، وتضربوا لله - تعالى - الأمثال ، كما يضرب بعضكم لبعض ، فإن الله - تعالى - هو الذى يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك .

قال الزجاج : ورد أن المشركين كانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك ، فنهوا عن ذلك[1] .

ثم وضح لهم - سبحانه - كيف تضرب الأمثال ، فساق مثلين حكيمين يدلان على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . .

أما المثل الأول فيتجلى فى قوله - عز وجل - : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء .. ﴾ . أى : ذكر الله - تعالى - وبين ووضح لكم مثلا تستدلون به على وحدانيته - سبحانه - وهو أن هناك عبدا رقيقا مملوكا لغيره ، وهذا العبد لا يقدر على شىء من التصرفات حتى ولو كانت قليلة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عبدا ﴾ بدل من ﴿ مثلا ﴾ و « مملوكا » صفة للعبد . ووصف - سبحانه - العبد بأنه مملوك ، ليحصل الامتياز بينه وبين الحر ، لأن كليهما يشترك فى كونه عبدا لله - تعالى - .

ووصفه أيضا - بأنه لا يقدر على شىء للتمييز بينه وبين المكاتب والعبد المأذون له فى التصرف ، لأنهما يقدران على بعض التصرفات .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا... ﴾ .

قال الآلوسى : و« من » فى قوله ﴿ ومن رزقناه ﴾ نكرة موصوفه ، ليطابق عبدا فإنه نكرة موصوفة - أيضا- ، وقيل: إنها موصولة ، والأول اختيار الأكثرين أى : حرا رزقناه بطريق الملك ، والالتفات إلى التكلم - فى « رزقناه » - للإشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق ...»[2] .

أى : ذكر الله - تعالى - لكم لتتعظوا وتتفكروا ، حال رجلين : أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء . والثانى حر مالك رزقه الله - تعالى - رزقا واسعا حلالا حسنا ، « فهو » أى هذا

---

(١) تفسير فتح القدير للشيخ صديق حسن خان ج ٥ ص ٢٧٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٩٥ .

الحر ينفق على غيره من هذا الرزق الحسن « سرا وجهرا » واختار - سبحانه - ضمير العظمة فى قوله ﴿ رزقناه ﴾ للإشعار بكثره هذا الرزق وعظمته ، ويزيده كثرة وعظمة قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ مِنّا ﴾ أى ؛ من عندنا وحدنا وليس من عند غيرنا .

ووصف - سبحانه - الرزق بالحسن ، للإشارة إلى أنه مع كثرته فهو حلال طيب مستحسن فى الشرع وفى نظر الناس .

وقال - سبحانه - ﴿ فهو ينفق ﴾ بصيغة الجملة الاسمية ، للدلالة على ثبوت هذا الإنفاق ودوامه .

وقوله ﴿ سرا وجهرا ﴾ منصوبان على المصدر ، أى إنفاق سر وجهر ، أو على الحالية ، أى فهو ينفق منه فى حالتى السر والجهر .

والمراد أنه إنسان كريم ، لا يبخل بشىء مما رزقه الله ، بل ينفق منه فى عموم الأحوال ، وعلى من تحسن معه النفقة سرا ، وعلى من تحسن معه النفقة جهرا .

هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل ، والفرق بينهما واضح وعظيم عند كل ذى قلب سليم ، ولذا جاء بعدهما بالاستفهام الإنكارى التوبيخى فقال :

﴿ هل يستوون ﴾ ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى عرف أى عاقل ، هذا العبد المملوك العاجز الذى لا يقدر على شىء .. مع هذا الانسان الحر . المالك الذى رزقه الله - سبحانه - رزقا واسعا حلالا ، فشكر الله عليه ، واستعمله فى وجوه الخير .

إن مما لا شك فيه أنهما لا يستويان حتى فى نظر من عنده أدنى شىء من عقل .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف سويتم - أيها المشركون الجهلاء - فى العبادة ، بين الخالق الرازق الذى يملك كل شىء ، وبين غيره من المعبودات الباطلة التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعقل ، ولا تملك شيئا .

وقال - سبحانه - ﴿ هل يستوون ﴾ مع أن المتقدم اثنان ، لأن المراد جنس العبيد والأحرار ، المدلول عليهما بقوله ﴿ عبدا ﴾ وبقوله ﴿ ومن رزقناه ﴾ .

فالمقصود بالمثل كل من اتصف بهذه الأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان .

وقوله : ﴿ الحمد لله ﴾ ثناء منه - سبحانه - على ذاته ، حيث ساق - سبحانه - هذه الأمثال الواضحة للتمييز بين الحق والباطل .

أى : قل - أيها الانسان المؤمن العاقل - « الحمد » كله « لله » - تعالى - على إرشاده

لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بحقهم على باطل أعدائهم فإذا هو زاهق .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : بل أكثر هؤلاء الكافرين الضالين ، لا يعلمون كيف يميزون بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الجحود والحسد والعناد على قلوبهم .

وقال - سبحانه - ﴿ بل أكثرهم .. ﴾ للإشعار بأن من هؤلاء الكافرين من يعلم الحق ويعرفه كما يعرف أبناءه ، ولكن الهوى والغرور والتقليد الباطل .. حال بينه وبين اتباع الحق .

هذا هو المثال الأول الذى ذكره الله - تعالى - للاستدلال على بطلان التسوية بين عبادة الله - تعالى - الخالق لكل شىء والمالك لكل شىء .. وبين عبادة غيره من الأصنام والجمادات التى لا تخلق شيئا ، ولا تملك شيئا ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المثال الثانى فهو أشد وضوحا من سابقه على وحدانية الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، ويتجلى هذا المثال فى قوله - عز وجل - : ﴿ وضرب الله مثلا ، رجلين أحدهما أبكم ، لا يقدر على شىء ، وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير .. ﴾ .

أى : وذكر الله - تعالى - مثلا آخر لرجلين ، ﴿ أحدهما أبكم ﴾ أى : لا يستطيع النطق أو الكلام ، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره .

﴿ لايقدر على شىء ﴾ أى : لا يقدر على فعل شىء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره .

﴿ وهو ﴾ أى هذا الرجل ﴿ كل على مولاه ﴾ أى : حمل ثقيل ، وهم كبير على مولاه الذى يتولى شئونه من طعام وشراب وكساء وغير ذلك . وهذا بيان لعدم قدرته على القيام بمصالح نفسه ، بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أى شىء على الإطلاق .

قال القرطبى : قوله ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ أى ثقل على وليه وقرابته ، ووبال على صاحبه وابن عمه ، وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أكول لمال الكَلِّ قبل شبابه   إذا كان عظم الكلِّ غير شديد[1]

فالكل هو الإنسان العاجز الضعيف الذى يكون محتاجا إلى من يرعى شئونه .

وقوله ﴿ أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ أى : أن هذا الرجل حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائبا ، لعجزه ، وضعف حيلته ، وقلة إدراكه . .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٤٩ .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا الرجل بأربع صفات ، تدل على سوء فهمه ، وقلة حيلته ، وثقله على ولى أمره ، وانسداد طرق الخير فى وجهه . .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .. ﴾

أى : « هل يستوى هو » أى هذا الرجل الأبكم العاجز .. مع رجل آخر « يأمر » غيره بالعدل « وهو » أى هذا الرجل الآخر فى نفسه « على صراط مستقيم » أى : على دين قويم ، وخلق كريم فقد جمع بذلك بين فضيلتين جليلتين : نفعه لغيره ، وصلاحه فى ذاته .

لاشك أن هذين الرجلين لا يستويان فى عقل أى عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب .. وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه .

ومادام الامر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون المكذبون - فى العبادة بين الله - تعالى - وهو الخالق لكل شىء ، وبين تلك الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عابديها شيئا .

أو كيف سويتم بين المؤمن الجامع لكل مكرمة ، وبين الكافر الغبى الأبله الذى آثر الغى على الرشد ، فتكون الآية الكريمة مسوقة لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر .

وقد قابل - سبحانه - الأوصاف الأربعة للرجل الأول ، بهذين الوصفين للرجل الثانى ، لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق لشىء ، وحاصل وصفى الثانى أنه مستحق لكل فضل وخير .

وقوله ﴿ ومن يأمر بالعدل ... ﴾ معطوف على الضمير المستتر فى قوله ﴿ هل يستوى ... ﴾ .

وجملة « وهو على صراط مستقيم» فى محل نصب على الحال .

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين ، لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاق العليم ، الرزاق الكريم .. وبين تلك المعبودات الباطلة التى أشركها الضالون فى العبادة مع الله - عز وجل - .

أو بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذى استحب العمى على الهدى .. أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله ، وبين الباطل فى ظلامه وقبحه وخسته .

هذا ، وما ذكره بعضهم من أن المثلين فى الآيتين الكريمتين ، قد وردا فى أشخاص معينين من

المؤمنين أو الكافرين ، لا يعول عليه ، لضعف الروايات التى وردت فى ذلك ، ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الآلوسى ما ملخصه : وما روى من أن الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمار ، أو بالأبكم أبى بن خلف ، والآمر بالعدل عثمان بن مظعون لا يصح إسناده ..»[1] .

وبهذين المثلين تكون السورة الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأسطعها على صحة قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ... ﴾ .

ثم ساقت السورة بعد ذلك ما يدل على إحاطة علمه - سبحانه - بكل شىء ، وعلى شمول قدرته ، وعلى سابغ نعمته ، فقال - تعالى - :

وَلِلَّهِ غَيْبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٩٧ .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

والمراد بالغيب فى قوله - سبحانه - ﴿ ولله غيب السموات والأرض ... ﴾ ما لا تدركه الحواس ، ولا تحيط بكنهه العقول لأنه غائب عن مدارك الخلائق .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : لله - تعالى - وحده ، علم جميع الأمور الغائبة عن مدارك المخلوقين ، والتى لا سبيل لهم إلى معرفتها لا عن طريق الحس ، ولا عن طريق العقل .

ومن كانت هذه صفته ، كان مستحقا للعبادة والطاعة ، لا تلك المعبودات الباطلة التى لا تعلم من أمرها أو من أمر غيرها شيئا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ بيان لسرعة نفاذ أمره بدون مهلة .

والساعة فى الأصل : اسم لمقدار قليل من الزمان غير معين . والمراد بها هنا يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال .

وسمى يوم القيامة بالساعة : لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما يقع فيه من حساب أو لأنه على طوله زمنه يسير عند الله - تعالى - .

واللمح: النظر الذى هو فى غاية السرعة. يقال لمحه لمحا ولمحانا إذا رآه بسرعة فائقة. ولمح البصر : التحرك السريع لطرف العين من جهة الى جهة ، أو من أعلى إلى أسفل .

و« أو » هنا للتخيير بالنسبة لقدرة الله - تعالى - أو للإضراب .

أى : ولله - سبحانه - وحده علم جميع ما غاب فى السموات والأرض من أشياء ، وما أمر قيام الساعة فى سرعته وسهولته ، وما يترتب عليه من إماتة وإحياء ، وحساب ، وثواب وعقاب ... ما أمر ذلك كله إلا كتحرك طرف العين من جهة إلى جهة ، أو هو - أى أمر قيامها - أقرب من ذلك وأسرع ، بحيث يكون فى نصف هذا الزمان أو أقل من ذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شيء ، قال - تعالى - : ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ . والمقصود من هذه الجملة الكريمة : بيان سرعة تأثير قدرة الله - عز وجل - متى توجهت إلى شيء من الأشياء .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يؤكد شمول قدرته فقال - تعالى - : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لا يعجز قدرته شيء سواء أكان هذا الشيء يتعلق بأمر قيام الساعة فى أسرع من لمح البصر .. أو بغير ذلك من الأشياء .

ثم ساق - تعالى - بعد ذلك أنواعا من نعمه على عباده فقال : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ . أى : والله - تعالى - وحده هو الذى أخرجكم - أيها الناس - من بطون أمهاتكم إلى هذه الحياة ، وأنتم لا تعلمون شيئا لا من العلم الدنيوى ولا من العلم الدينى، ولا تعرفون ما يضركم أو ينفعكم، والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا .. ﴾ .

وجملة « لا تعلمون شيئا » حال من الكاف فى « أخرجكم » .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ نعمة ثانية من نعمة الله - سبحانه - التى لا تحصى .

أى :أن من نعمة الله - تعالى - أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم - بعد أن مكثتم فيها شهورا تحت كلاءته ورعايته - وأنتم لا تعرفون شيئا ، وركب فيكم بقدرته النافذة ، وحكمته البالغة ، « السمع » الذى تسمعون به ، والبصر الذى بواسطته تبصرون ، « والأفئدة » التى عن طريقها تعقلون وتفقهون ، لعلكم بسبب كل هذه النعم التى أنعمها عليكم ، تشكرونه حق الشكر ، بأن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتستعملوا نعمه فى مواضعها التى وجدت من أجلها .

قال الجمل : وجملة : « وجعل لكم السمع والأبصار...» ابتدائية ، أو معطوفة على ماقبلها ، والواو لا تقتضى ترتيبا ، فلا ينافى أن هذا الجعل قبل الإخراج من البطون. ونكتة تأخيره - أى الجعل - أن السمع ونحوه من آلات الادراك ، إنما يعتد به إذا أحس الإنسان

وأدرك وذلك لا يكون الا بعد الإخراج . وقدم السمع على البصر ، لأنه طريق تلقى الوحى ، أو لأن إدراكه أقدم ، من إدراك البصر . وإفراده - أى السمع - باعتبار كونه مصدرا فى الأصل ..."[1] .

وقال الإمام ابن كثير : « وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا حتى يبلغ أشده . وإنما جعل - تعالى - هذه الحواس فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله -ﷺ- أنه قال : يقول تعالى - « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشىء أفضل مما افترضت عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن دعانى لأجيبنه ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وماترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » .

فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة ، صارت أفعاله كلها لله ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى : لما شرعه الله له .."[2] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[3] .

ثم حض - سبحانه - عباده على التفكر فى مظاهر قدرته فقال - تعالى - : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله .. ﴾ .

والطير : جمع طائر كركب وراكب . و « مسخرات » من التسخير بمعنى التذليل والانقياد أى : ألم ينظر هؤلاء الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى فى العبادة ، إلى الطيور وهن يسبحن فى الهواء المتباعد بين الأرض والسماء ، ما يمسكهن فى حال قبضهن وبسطهن لأجنحتهن إلا الله - تعالى - ، بقدرته الباهرة ، وبنواميسه التى أودعها فى فطرة الطير .

إنهم لو نظروا نظر تأمل وتعقل ، لعلموا أن المسخر لهن هو الله الذى لا معبود بحق سواه

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٨٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ص ٥٧٩ .
(٣) سورة الملك الآية ٢٤ .

وفى قوله - تعالى - « مسخرات » إشارة إلى أن طيرانها فى الجو ليس بمقتضى طبعها ، وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك ، كالأجنحة وغيرها . وأضاف - سبحانه - الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض ، ولاظهار كمال قدرته - سبحانه - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

أى : إن فى ذلك التسخير والتذليل للطير على هذه الصفة « لآيات » بينات على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، « لقوم يؤمنون » بالحق ، ويفتحون قلوبهم له ويسمون بأنفسهم عن التقليد الباطل .

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من النعم ، منها ما يتعلق بنعمة المسكن فقال - تعالى - : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ جعل لكم ﴾ معناه صير ، وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء ، وكل ما أقلك فهو أرض ، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار ، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت ، وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس فى البيوت وقوله : « سكنا » أى : تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ...[1] .

والحق أن نعمة السكن فى البيوت والاستقرار فيها ، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان ، هذه النعمة لا يقدرها حق قدرها ، إلا أولئك الذين فقدوها ، وصاروا يعيشون بلا مأوى يأويهم ، أو منزل يجمع شتاتهم .

والتعبير بقوله عز وجل ﴿ سكنا ﴾ فيه ما فيه من السمو بمكانة البيوت التى يسكنها الناس . فالبيت مكان السكينة النفسية ، والراحة الجسدية ، هكذا يريده الإسلام ، ولا يريده مكانا للشقاق والخصام ، لأن الشقاق والخصام ينافى كونه « سكنا » .

والبيت له حرمته التى جعل الإسلام من مظاهرها ، عدم اقتحامه بدون استئذان ، وعدم التطلع إلى ما بداخله ، وعدم التجسس على من بداخله .

وصيانة حرمة البيت - كما أمر الاسلام - تجعله « سكنا » آمنا ، يجد فيه أصحابه كل مايريدون من الراحة النفسية والشعورية .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٥٢ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ بيان لنعمة أخرى تتمثل فى البيوت الخفيفة المتنقلة ، بعد الحديث عن البيوت الثابتة المستقرة .

والأنعام : جمع نعم . وتشمل الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فى الغنم المعز .

والظعن بسكون العين وفتحها : التحول والانتقال والرحيل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ ، أو لمساقط الغيث ، أو لغير ذلك من الأغراض .

أى : ومن نعمه أيضا أنه أوجد لكم من جلود الأنعام بيوتا « تستخفونها » أى : تجدونها خفيفة « يوم ظعنكم » أى : يوم سفركم ورحيلكم من موضع إلى آخر « ويوم إقامتكم » فى مكان معين بحيث يمكنكم أن تنصبوها لترتاحوا بداخلها ، بأيسر السبل ، وذلك كالقباب والخيام والأخبية ، وغير ذلك من البيوت التى يخف حملها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بإبراز نعمة ثالثة ، تتمثل فيما يأخذونه من الأنعام فقال - تعالى - : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ .

والأثاث: متاع البيت الكثير ، وأصله من أث الشىء - بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح - إذا كثر وتكاثف ، ومنه قول الشاعر .

وفرع يزين المتن أسودَ فاحمٍ أثيتٍ كقنو النخلة المتعثكل[1]

ويشمل جميع أصناف المال كالفرش وغيرها .

والمتاع : ما يتمتع به من حوائج البيت الخاصة كأدوات الطعام والشراب ، فيكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .

وقيل : هما بمعنى واحد . والعطف لتنزيل تغاير اللفظ بمنزله تغاير المعنى .

أى : ومن أصواف الغنم ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز ، تتخذون لأنفسكم « أثاثا » كثيرا تستعملونه فى مصالحكم المتنوعة ، كما تتخذون من ذلك ما تتمتعون به فى بيوتكم وفى معاشكم « إلى حين » أى : إلى وقت معين قدره الله - تعالى - لكم فى تمتعكم بهذه الأصواف والأوبار والأشعار .

وبعد الحديث عن نعمة البيوت والأنعام جاء الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس ،

(١) الفرع : الشعر التام : والمتن : ما عن يمين الرأس وشماله ، والفاحم : الشديد السواد . والأثيت : الكثير المتكاثف . والمتعثكل : الذى دخل بعضه فى بعض لكثرته (راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٥٤) .

فقال - تعالى - : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ... ﴾ .

والظلال : جمع ظل ، وهو ما يستظل به الإنسان .

أى : والله - تعالى - بفضله وكرمه جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد ، كالأبنية والأشجار ، وغير ذلك من الأشياء التى تستظلون بها .

وقوله - تعالى - ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ... ﴾ نعمة ثانية .

والأكنان جمع كِن - بكسر الكاف - وأصله السُّتْرَةُ ، والجمع : أكنان وأَكِنَّة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ... ﴾[1] أى فى أستار وأغطية فلا يصل إليها قولك ...

والمراد بالأكنان هنا : المغارات والأسراب والكهوف المنحوتة فى بطون الجبال .

أى : وجعل لكم - سبحانه - من الجبال مواضع تستترون فيها من الحر أو البرد أو المطر ، أو غير ذلك من وجوه انتفاعكم بتلك الأكنان .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ نعمة ثالثة . والسرابيل : جمع سربال وهى كل ما يتسربل به : أى يلبسه الناس للتستر والوقاية كالقمصان والثياب والدروع وغيرها . أى : وجعل لكم من فضله وكرمه ملابس تتقون بها ضرر الحر وضرر البرد ، وملابس أخرى هى الدروع وما يشبهها - تتقون بها الضربات والطعنات التى تسدد إليكم فى حالة الحرب .

وقال - سبحانه - : ﴿ تقيكم الحر ﴾ مع أنها تقى من الحر والبرد ، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر ، أو اكتفى بذكر الحر لأنه الأهم عندهم ، إذ من المعروف أن بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد .

قال صاحب الكشاف : لم يذكر البرد ، لأن الوقاية من الحر أهم عندهم ، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرا محتملا ، وقيل : ما يقى من الحريقى من البرد ، فدل ذكر الحر على البرد[2] .

وقال القرطبى : قال العلماء : فى قوله - تعالى - : ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ دليل

---

(١) سورة فصلت الآية ٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٢٦ .

على اتخاذ الناس عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء . وقد لبسها النبى - ﷺ - فى حروبه ..[١] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ أى : كذلك الإتمام السابغ للنعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده يتم نعمته عليكم المتمثلة فى نعم الدين والدنيا ، لعلكم بذلك تسلمون وجوهكم لله - عز وجل - ، وتدخلون فى دين الإسلام عن اختيار واقتناع ، فإن من شاهد كل هذه النعم ، لم يسعه إلا الدخول فى الدين الحق .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه - ﷺ - عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : فإن استمر هؤلاء المشركون فى إعراضهم عن دعوتك بعد هذا البيان والامتنان ، فلا لوم عليك ، فأنت عليك البلاغ الواضح ونحن علينا محاسبتهم ، ومعاقبتهم بما يستحقون من عقاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ استئناف مسوق لبيان الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من نعم الله - تعالى - .

والمراد بالكفر فى قوله - تعالى - : ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ الستر لنعم الله عن معرفة لها ، وغمطها عن تعمد وإصرار .

أى : إن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله التى عددها فى هذه السورة ، كما أنهم يعترفون بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله ، ولكنهم ينكرون هذه النعم بأفعالهم القبيحة ، وأقوالهم الباطلة ، كقولهم هذه النعم من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا الأصنام ، أو كقولهم : هذه النعم ورثناها عن آبائنا .

وجاء التعبير بثم لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة بالنعم ، فإن من شأن العالم بالنعمة أن يؤدى الشكر لمسديها ، وأن يستعملها فيما خلقت له .

وقوله ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ أى : وأكثر هؤلاء الضالين . جاحدون لنعم الله عن علم بها لا عن جهل ، وعن تذكر لا عن نسيان .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .. ﴾[٢] .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٦٠ .
(٢) سورة النمل الآية ١٤ .

قال صاحب فتح البيان : و عبر هنا بالأكثر فى قوله - تعالى - : ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ والمراد الكل ، لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع ، أو أراد بالاكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر أقلهم عن جهل ، وكفر أكثرهم بسبب تكذيبهم للرسول - ﷺ - عنادا أو حسدا ..[1] .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت لنا ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده ، وأدلة متعددة على وحدانيته وقدرته ، وجانبا من موقف الكافرين من هذه النعم .

ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك عن حال الظالمين يوم القيامة وعن الأقوال التى يقولونها عندما يرون أصنامهم فى هذا اليوم العصيب ..

قال تعالى :

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ
فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا
إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ

---

(١) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٢٨٢ .

﴿أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين حال القوم ، أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد ، فذكر حال يوم القيامة فقال : . ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ...﴾ وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار ، وبذلك الكفر ، والمراد بهؤلاء الشهداء : الأنبياء ، كما قال - تعالى - : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[1] .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - ﴿ يوم نبعث فى كل أمة ﴾ أى : جماعة من الناس ، « شهيدا » يشهد للمؤمن بالإيمان ويشهد على الكافر بالكفر .

قال ابن عباس : شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق ، وعليهم بالكفر والتكذيب .

وقوله : ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ بيان للمصير السىء الذى ينتظر هؤلاء الكافرين يوم القيامة .

أى : ثم لا يؤذن للذين كفروا يوم القيامة فى الاعتذار ، عما كانوا عليه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأقوال باطلة ، وأفعال قبيحة ، كما قال - تعالى - فى سورة أخرى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[2] .

أو المعنى : ثم لا يؤذن لهم فى الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من عقائد سليمة وأعمال صالحة ، لأنهم قد تركوها ولا عودة لهم إليها . أى : ثم لا يؤذن لهم فى الكلام ، بعد أن ثبت بطلانه ، وقامت عليهم الحجة والتعبير بثم للاشعار بأن مصيبتهم بسبب عدم قبول أعذارهم ، أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٤٢ .

(٢) سورة المرسلات الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى « ثم » هذه ؟ .

قلت : معناها أنهم يبتلون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام ، فلا يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ تيئيس آخر لهم فى الحصول على شىء من رحمة الله - تعالى - . أى :لا يؤذن لهم فى الاعتذار ، ولا يقبل منهم أن يزيلوا عتب ربهم ، أى : غضبه وسخطه عليهم ، لأن العتاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من العاتب ، وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق ، لأن الله - تعالى - قد سخط عليهم سخطا لا مجال لإزالته ، بعد أن أصروا على كفرهم فى الدنيا وماتوا على ذلك .

قال القرطبى : قوله ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون .

وأصل الكلمة من العَتْب - بفتح العين وسكون التاء - وهى الموجدة . يقال : عَتَب عليه يُعتِب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه ، فإذا رجع الى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب .

قال النابغة :

فـإن كنتُ مـظلومـا فعبـدا ظلمتَـه   وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلك يُعتِبُ[٢]

وبذلك ترى الآية الكريمة قد نفت عن الذين كفروا قبول أعذارهم ، وقبول محاولتهم إرضاء ربهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ فى الدنيا .

ثم نفى - سبحانه - عنهم - أيضا - تخفيف العذاب أو تأخيره فقال : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ .

أى : وإذا أبصر الذين ظلموا العذاب الذى أعد لهم فى الآخرة بسبب ظلمهم وكفرهم فى الدنيا ، فزعوا وخافوا ، ولكن خوفهم وفزعهم لن يغير من الأمر شيئا ، إذ لا يخفف عنهم العذاب بسبب خوفهم أو فزعهم : ولا هم يمهلون أو يؤخرون عنه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٢٦ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٢ .

وعلق - سبحانه - الرؤية بالعذاب ، للاشعار بأن فجيعتهم الكبرى كانت عند إبصاره ومشاهدته .

ثم حكى سبحانه بعض ما يدور بينهم وبين معبوداتهم الباطلة يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ..﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أى : أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : « من كان يعبد شيئا فليتبعه » فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ...»[1] .

وقال الآلوسى : والمراد بشركائهم : كل من اتخذوه شريكا له - عز وجل - من صنم ، ووثن ، وشيطان ، وآدمى ، وملك .. وإضافتهم إلى ضمير المشركين لهذا الاتخاذ - أى لاتخاذهم إياهم شركاء لله فى العبادة - أو لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم وأنعامهم »[2] .

أى : وإذا أبصر المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله - تعالى - فى العبادة ، « قالوا » أى المشركون على سبيل التحسر والتفجع ياربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا فى الدنيا نعبدهم من دونك ، ونتقرب بهم إليك ، فلا تجعل ياربنا العذاب علينا وحدنا بل خففه أو ارفعه عنا فهؤلاء الشركاء هم الذين أضلونا .

قال أبو مسلم : ومقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك واستروا حا ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ حكاية لما رد به الشركاء على المشركين . أى : فرد أولئك الشركاء من الأصنام وغيرها على المشركين بقولهم : إنكم لكاذبون - أيها المشركون - فى إحالتكم الذنب علينا ، فإننا ما دعوناكم لعبادتنا ، ولا أجبرناكم على الإشراك بالله - تعالى - ، ولكنكم أنتم الذين اخترتم هذا الطريق المعوج ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢٠٨ - بتصرف وتلخيص - .
(٣) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٢٨٤ للشيخ صديق حسن خان .

تقليدا لآبائكم واستجابة لأهوائكم وشهواتكم ، وإيثارا للباطل على الحق وما رد به الشركاء على المشركين هنا ، قد جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ..﴾[٢] .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - : ﴿ فألقوا إليهم القول ... ﴾ أى : ألقت إليهم الآلهة القول ، أى : نطقت بتكذيب من عبدها . بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار[٣] .

وقال الجمل : فإن قلت : كيف أثبت للأصنام نطقا هنا ، ونفاه عنها فى قوله - تعالى - فى سورة الكهف : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ..﴾ .

فالجواب : أن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم لها ، والمنفى عنهم فى الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافى[٤] .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فألقوا إليهم القول ...﴾ يشعر بأن الشركاء قد ردوا على المشركين قولهم بسرعة وبدون إبطاء حيث أتى - سبحانه - بالفاء فى قوله ﴿ فألقوا ﴾ واشتملت جملة « إنكم لكاذبون » على جملة من المؤكدات ، لإفحام المشركين ، وتكذيبهم فى قولهم تكذيبا قاطعا لا يحتمل التأويل .

ولذا وجدنا المشركين يعجزون عن الرد على شركائهم ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى :وألقى المشركون يوم القيامة « السلم » أى : الاستسلام والخضوع والانقياد ، لقضاء الله - تعالى - العادل فيهم ، وغاب وذهب عنهم ما كانوا يفترونه ويزعمونه فى الدنيا من أن آلهتهم ستشفع لهم ، أو ستنفعهم يوم القيامة .

---

(١) سورة مريم الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٢٢ .

(٣) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٣ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩٢ .

وقيل : إن الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ وألقوا ﴾ يعود على المشركين وشركائهم . أى . استسلم العابدون والمعبودون وانقادوا لحكم الله الواحد القهار فيهم .

ثم بين - سبحانه - مصير الذين لم يكتفوا بالكفر ، بل ضموا إليه رذائل أخرى فقال - تعالى - : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ أى : الذين لم يكتفوا بكفرهم ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم « صدوا » غيرهم ومنعوه « عن سبيل الله » أى : عن اتباع الصراط المستقيم ، والطريق القويم وهو طريق الإسلام .. هؤلاء الأشقياء الذين فعلوا ذلك : « زدناهم عذابا » شديدا « فوق العذاب » الذى يستحقونه «بما كانوا يفسدون » أى : بسبب فسادهم فى الأرض وكفرهم بالحق ، وصدهم الناس عن اتباعه .

وهذه الزيادة فى عذابهم ، وردت آثار عن بعض الصحابة فى بيانها . و من ذلك ما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : « زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم فى جهنم »[١] .

قال ابن كثير : وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم[٢] .

ثم أكد - سبحانه - أمر البعث ، وأنه آت لا ريب فيه ، فقال - تعالى - : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ﴾ .

والمراد بالشهيد هنا : كل نبى بعثه الله - تعالى - لأمة من الأمم السابقة كنوح ، وإبراهيم ، وموسى، وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء السابقين - عليهم الصلاة والسلام - .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتتعظ وتعتبر - يوم القيامة - يوم نبعث فى كل أمة من الأمم السابقة ، نبيها الذى أرسل إليها فى الدنيا ، ليشهد عليها الشهادة الحق ، بأن يشهد لمؤمنها بالإيمان ، ولكافرها بالكفر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من أنفسهم ﴾ أى : من جنسهم وبيئتهم ، ليكون أتم للحجة ، وأقطع للمعذرة ، وأدعى إلى العدالة والإنصاف .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ١٠٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨١ .

قال الآلوسى : ولا يرد لوط - عليه السلام - فإنه لما تأهل فيهم وسكن معهم عد منهم - أيضا - .

وقال ابن عطية : يجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الأنبياء - عليهم السلام - .

وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحدا على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدا عليه يوم القيامة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ خطاب للنبى - ﷺ - على سبيل التشريف والتكريم . أى : وجئنا بك - أيها الرسول الكريم - يوم القيامة شهيدا على هؤلاء الذين أرسلك الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وإيثار لفظ المجىء على البعث ، لكمال العناية بشأنه - ﷺ - .

قال ابن كثير قوله : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ يعنى أمتك . أى اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع . وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله - ﷺ - صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله - تعالى - ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال له رسول الله - ﷺ - « حسبك » . فقال ابن مسعود : فالتفت فإذا عيناه - ﷺ - تذرفان . أى بالدموع ...[2] .

والمراد بشهادته على أمته - ﷺ - : تصريحه بأنه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح لأمته ، وتزكيته لأعمال الصالحين منها ، ورجاؤه من الله - تعالى - فى هذا اليوم العصيب أن يغفر للعصاة من هذه الأمة .

ويرى بعضهم أن المراد بهؤلاء فى قوله : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ أى : على الأنبياء السابقين وأممهم .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة ، ولأن آية سورة النساء ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ تؤيده .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان ما أنزله عليه من وحى فيه الشفاء للصدور ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٢ .

والموعظة للنفوس فقال - تعالى - : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ .

والتبيان : مصدر يدل على التكثير . قالوا : ولم يجئ من المصادر على هذه الزنة إلا لفظان لفظ التبيان ، ولفظ التلقاء . أى : « ونزلنا عليك » - أيها الرسول الكريم - « الكتاب » الكامل الجامع وهو القرآن الكريم « تبيانا » . أى : بيانا بليغا شاملا « لكل شيء » على سبيل الإجمال تارة ، وعلى سبيل التفصيل تارة أخرى .

وقوله : ﴿ وهدى ورحمة وبشرى للمؤمنين ﴾ صفات أخرى للكتاب .

أى : أنزلنا عليك القرآن ليكون تبيانا لكل شيء وليكون هداية للناس إلى طريق الحق والخير ، ورحمة لهم من العذاب ، وبشارة لمن أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأحسنوا القول والعمل ، لا لغيرهم ممن آثروا الكفر على الإيمان ، والغىّ على الرشد .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ أى بيانا بليغا ، فالتبيان أخص من مطلق البيان على القاعدة : أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

وهذا التبيان إما فى نفس الكتاب ، أو بإحالته على السنة لقوله - تعالى - : ﴿ ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ... ﴾[1] ، أو بإحالته على الاجماع كما قال - تعالى - : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ...﴾[2] أو على القياس كما قال : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ والاعتبار : النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس .

فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان تبيانا لكل شيء فاندفع ما قيل : كيف قال الله - تعالى - ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ ونحن نجد كثيرا من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصا ، كعدد ركعات الصلاة ، ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وغير ذلك ...[3] .

وبعد أن مدح - سبحانه - القرآن الكريم ، بأن فيه تبيان كل شيء ، وأنه هداية ورحمة وبشرى للمسلمين ، أتبع ذلك بآيات كريمة أمرت المسلمين بأمهات الفضائل ، وبجماع مكارم

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .
(٢) سورة النساء الآية ١١٥ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٣ .

الأخلاق ، ونهتهم عن الفواحش والرذائل لتكون كالدليل على ما فى هذا الكتاب من تبيان وهدى ورحمة فقال - تعالى - :

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ
وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(٩٠) وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ، فقال ابن عباس : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل العدل : الفرض . والإحسان : النافلة ، وقال على بن أبى طالب : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل .

وقال ابن العربى : العدل بين العبد وربه : إيثار حقه - تعالى - على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعه

ما فيه هلاكها .. وأما العدل بينه وبين غيره فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قل أو كثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه .

وأما الإحسان فهو مصدر أحسن يحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما : متعد بنفسه ، كقولك : أحسنت كذا ، أى : حسنته وأتقنته وكملته ، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء . وثانيهما : متعد بحرف جر ، كقولك : أحسنت إلى فلان ، أى : أوصلت إليه ما ينتفع به . وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معا ..[1] .

ومن هذا الكلام الذى نقلناه بشيء من التلخيص عن الإمام القرطبى ، يتبين لنا أن العدل هو أن يلتزم الإنسان جانب الحق والقسط فى كل أقواله وأعماله ، وأن الإحسان يشمل إحسان الشيء فى ذاته سواء أكان هذا الشيء يتعلق بالعقائد أم بالعبادات أم بغيرهما ، كما يشمل إحسان المسلم إلى غيره .

فالإحسان أوسع مدلولا من العدل : لأنه إذا كان العدل معناه : أن تعطى كل ذى حق حقه ، بدون إفراط أو تفريط ، فإن الإحسان يندرج تحته أن تضيف إلى ذلك : العفو عمن أساء إليك ، والصلة لمن قطعك ، والعطاء لمن حرمك .

وإيثار صيغة المضارع فى قوله : ﴿ إن الله يأمر ... ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار . ولم يذكر - سبحانه - متعلقات العدل والإحسان ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه ، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال ، وجميع ما ينبغى أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ فضيله ثالثة معطوفة على ما قبلها من عطف الخاص على العام ، إذ هى مندرجة فى العدل والإحسان .

وخصها - سبحانه - بالذكر اهتماما بأمرها ، وتنويها بشأنها ، وتعظيما لقدرها .

والإيتاء : مصدر بمعنى الإعطاء ، وهو هنا مصدر مضاف لمفعوله .

والمعنى : إن الله - تعالى - يأمركم - أيها المسلمون - أمرا دائما وواجبا ، أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - فى كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٦ .

لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم ، نلتم السعادة فى دينكم ودنياكم ، إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون .. .

وبعد أن أمر - سبحانه - بأمهات الفضائل ، نهى عن رءوس الرذائل فقال - تعالى - : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. ﴾ .

والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل . وخصها بعضهم بالزنا .

والمنكر : كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، فيعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها .

والبغى : هو تجاوز الحد فى كل شىء يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه وتطاول عليه .

وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .. .

أى : كما أمركم - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه - تعالى - ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه الله - عز وجل - .

وذلك لأن هذه الرذائل ماشاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ، وأمرها فرطا ، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقول السليمة ، ومع الطباع القويمة .

ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس الطاهرة ، تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التى تصل إليه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ أى : ينبهكم - سبحانه - أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلكم بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم ، وتعملون بمقتضى ما علمكم - سبحانه .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى فضل هذه الآية كثيرا من الآثار والأقوال ، ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة .. قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى - ﷺ - فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه . قال : فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه . فانتدب رجلان فأتيا النبى - ﷺ - فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى - ﷺ - : « أما أنا فمحمد ابن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله » .

ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. ﴾ الآية .

فقالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب .. وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الامر رءوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا[1] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أعظم آية فى كتاب الله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ..» . وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ..﴾ . وأشد آية فى كتاب الله رجاء : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ..﴾[2] .

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بالعهود فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ..﴾ .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وما يشبههما .

وعهد الله : أوامره ونواهيه وتكاليفه الشرعية التى كلف الناس بها ، والوفاء بعهد الله - تعالى - : يتأتى بتنفيذ أوامره وتكاليفه ، واجتناب ما نهى عنه .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وأوفوا بعهد الله ...﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة ، أو مواثقة فى أمر موافق للديانة .

وهذه الآية مضمن قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، وانتهوا عن كذا ، فعطف على ذلك التقدير .

وقد قيل إنها نزلت فى بيعة النبى - ﷺ - على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية ، وجاء الإسلام بالوفاء به - كحلف الفضول - .

والعموم يتناول كل ذلك ...[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٣ .
(٢) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٢٨٩ .
(٣) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٩ .

والمعنى : إن الله يأمركم - أيها المسلمون - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ويأمركم - أيضا - بالوفاء بالعهود التى التزمتم بها مع الله - تعالى - أو مع الناس .

والآيات التى وردت فى وجوب الوفاء بالعهود كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[١] .

وخص - سبحانه - الأمر بالوفاء بالعهد بالذكر - مع أنه داخل فى المأمورات التى اشتملت عليها الآية السابقة كما أشار إلى ذلك القرطبى فى كلامه السابق - لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان .

وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾[٢] .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ...﴾ تأكيد للأمر بالوفاء ، وتحذير من الخيانة والغدر .

والنقض فى اللغة : حقيقة فى فسخ ماركب بفعل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب . واستعمل هنا على سبيل المجاز فى إبطال العهد .

والأيمان : جمع يمين . وتطلق بمعنى الحلف والقسم . وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه ، ووضع كل واحد من المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه .

أى : كونوا أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، أى : بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة ومرتين ، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله - تعالى - وصفاته .

وقوله - تعالى - : ﴿ بعد توكيدها ﴾ للإشعار بأن نقض الأيمان وإن كان قبيحا فى كل حالة ، فهو فى حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحا .

ولذا قال بعض العلماء : وهذا القيد لموافقة الواقع ، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم فى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٤٠ .
(٣) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٣٠٢ .

المعاهدة ، وحينئذ فلا مفهوم له ، فلا يختص النهى عن النقض بحالة التوكيد ، بل نقض اليمين منهى عنه مطلقا . أو يراد بالتوكيد القصد ، ويكون احترازا عن لغو اليمين . وهى الصادرة عن غير قصد للحلف »[١] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - ﷺ - فيما ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها - وفى رواية - وكفرت عن يمينى » لأن هذه الأيمان المراد بها فى الآية : الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة فى حث أو منع ..»[٢] .

والخلاصة ، أن الآية الكريمة تنهى المؤمن عن نقض الأيمان نهيا عاما ، إلا أن السنة النبوية الصحيحة قد خصصت هذا التعميم بإباحة نقض اليمين إذا كانت مانعة من فعل خير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله - تعالى - : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ..﴾[٣] .

وجملة « وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ..» حال من فاعل « تنقضوا » ، وهى مؤكدة لمضمون ما قبلها من وجوب الوفاء بالعهود والنهى عن نقضها .

والكفيل : من يكفل غيره ، أى : يضمنه فى أداء ما عليه .

أى : ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، والحال أنكم قد جعلتم الله - تعالى - ضامنا لكم فيما التزمتم به من عهود ، وشاهدا ورقيبا على أقوالكم وأعمالكم .

فالجملة الكريمة تحذر المتعاهدين من النقض بعد أن جعلوا الله - تعالى - كفيلا عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بهذا التهديد الخفى فقال - تعالى - : ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ . أى : إن الله - تعالى - يعلم ما تفعلون من الوفاء أو النقض ، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر ، فالمراد من العلم لازمه ، وهو المجازاة على الأعمال .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لتقبيح نقض العهد ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٣ .
(٣) راجع تفسير هذه الآية فى تفسيرنا لسورة البقرة ص ٤٩٩ .

وقوله : ﴿ غزلها ﴾ أى : مغزولها ، فهو مصدر بمعنى المفعول . والفعل منه غزل يغزل - بكسر الزاى .. من باب ضرب . يقال غزلت المرأة الصوف أو القطن غزلا .

والجار والمجرور فى قوله ﴿ من بعد قوة ﴾ متعلق بالفعل ﴿ نقضت ﴾ أى : نقضته وأفسدته من بعد إبرامه وإحكامه .

و﴿ أنكاثا ﴾ حال مؤكدة من ﴿ غزلها ﴾ ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، بتضمين الفعل نقضت معنى صيرت أو جعلت .

والأنكاث : جمع نكث - بكسر النون - ، بمعنى منكوث أى منقوض ، وهو ما نقض وحل فتله ليغزل ثانيا ، والجمع أنكاث كحمل وأحمال .

يقال : نكث الرجل العهد نكثا - من باب قتل - إذا نقضه ونبذه ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ .

قال ابن كثير : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه .

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده . وهذا أرجح وأظهر سواء أكان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا[1] .

والمعنى : كونوا - أيها المسلمون - أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوها بعد إبرامها ، فإنكم إن نقضتموها كان مثلكم كمثل تلك المرأة الحمقاء ، التى كانت تفتل غزلها فتلا محكما ، ثم تنقضه بعد ذلك ، وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة محلولة . .

فالجملة الكريمة تحقر فى كل جزئية من جزئياتها ، حال من ينقض العهد ، وتشبهه على سبيل التنفير والتقبيح بحال امرأة ملتاثه فى عقلها ، مضطربة فى تصرفاتها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ .

إبطال للأسباب التى كان يتخذها بعض الناس ذرائع ومبررات لنقض العهود .

والدَّخَل - بفتح الخاء - : المكر والغش والخديعة . وهو فى الأصل اسم للشىء الذى يدخل فى غيره وليس منه .

قال الراغب : والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة ، كالدَّغَل ، وعن الدعوة فى النسب ... ومنه قيل : شجرة مدخولة - أى ليست من جنس الأشجار التى حولها[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٤ .
(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى ص ١٦٦ .

وقوله ﴿ أن تكون أمة ... ﴾ متعلق بقوله ﴿ تتخذون ﴾ .

وقوله ﴿ أربى ﴾ مأخوذ من الربو بمعنى الزيادة والكثرة . يقال : رَبَا الشىء يربو إذا زاد وكثر .

والمعنى : لا تكونوا مشبهين لامرأة هذا شأنها ، حالة كونكم متخذين أيمانكم وأقسامكم وسيلة للغدر والخيانة ، من أجل أن هناك جماعة أوفر عددا وأكثر مالا من جماعة أخرى .

قال القرطبى : قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة أخرى كبيرة قوية فداخلتها غدرت بالأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى ، فنهاهم الله - تعالى - : أن ينقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالا ...

وقال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم وقد عزز تموهم بالأيمان[1] .

وقال ابن كثير : قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنهوا عن ذلك[2] .

والخلاصة : أن الآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود فى جميع الأحوال ، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة ، من أجل نقض العهود ، إذ الإسلام لا يقر هذه الذرائع وتلك المبررات ، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة ، أو دولة أعز من دولة ، وإنما الذى يقره الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود ، وعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغش والخداع .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ يعود على مضمون الجملة المتقدمة وهى قوله - تعالى - : ﴿ أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ .

أى : إنما يبلوكم الله ويختبركم بكون أمة أربى من أمة ، لينظر أتفُون بعهودكم أم لا . وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : قوله - تعالى -: ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ الضمير لقوله : ﴿ أن تكون أمة ... ﴾ لأنه فى معنى المصدر . أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله ، وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله - ﷺ - أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم . وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم[3] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٧١ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٤ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣١ .

ويجوز أن يعود إلى ما أمر الله به من الوفاء بالعهد ، فيكون المعنى : إنما يبلوكم الله ويختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهود ، ومن النهى عن النقض ليظهر لكم المطيع من العاصى ، وقوى الإيمان من ضعيفه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن مرد الفصل بين العباد فيما اختلفوا فيه إليه - تعالى - وحده ، فقال : ﴿ وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجازى أهل الحق بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما هم أهله من عقاب .

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شىء فقال - تعالى - : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ متفقة على الحق ﴿ ولكن ﴾ لحكم يعلمها ولا تعلمونها ، ولسنن وضعها فى خلقه ﴿ يضل من يشاء ﴾ إضلاله لاستحبابه العمى على الهدى ، وإيثاره الغى على الرشد ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ هدايته لحسن استعداده ، وسلامة اختياره ، ونهيه النفس عن الهوى .

﴿ ولتسألن ﴾ أيها الناس يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا ، فيثيب الطائعين بفضله ، ويعاقب العصاة بعدله .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بالعهود ونهى عن نقضها بصفة عامة ، أتبع ذلك بالنهى عن الحنث فى الإيمان بصفة خاصة ، فقال تعالى :

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ
مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ﴾ تصريح بالنهى عن اتخاذ الإيمان من أجل الغش والخديعة ، بعد النهى عن نقض العهود بصفة عامة . أى : ولا تتخذوا - أيها المؤمنون - الحلف بالله - تعالى - ذريعة إلى غش الناس وخداعهم واستلاب حقوقهم ، فقد جرت عادة الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم بالله - تعالى - ، فلا تجعلوا هذا الاطمئنان وسيلة للكذب عليهم ، ولإفساد ما بينكم وبينهم من مودة .

ثم رتب - سبحانه - على هذا النهى ما من شأنه أن يردع النفوس عن اتخاذ الأيمان دخلا فقال : ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ وأصل الزلل الخروج عن الطريق السليم . يقال : زل فلان يزل زللا وزلولا ، إذا دحضت قدمه ولم تصب موضعها الصحيح أى : لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للخديعة والإفساد بين الناس ، فتزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها عليها ، ورسوخها فيها ، قالوا : والجملة الكريمة مثل يُضْرَب لكل من وقع فى بلية ومحنة ، بعد أن كان فى عافية ونعمة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحدت القدم ونكرت ؟ قلت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق . بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة[1] ؟ .

وقوله ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ﴾ بيان لما يصيبهم من عذاب دنيوى بسبب اتخاذ أيمانهم دخلا بينهم . أى : وتذوقوا السوء وهو العذاب الدنيوى من المصائب والخوف والجوع ، بسبب صدودكم وإعراضكم عن أوامر الله ونواهيه ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول فى دين الله ، حيث رأى منكم ما يجعله ينفر منكم ومن دينكم .

والتعبير يتذوقوا فيه إشارة إلى أن العذاب الدنيوى الذى سينزل بهم بسبب اتخاذهم أيمانهم دخلا بينهم ، سيكون عذابا شديدا يحسون آلامه إحساسا واضحا ، كما يحس الشارب للشىء المر مرارته ، ويتذوق آلامه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٧ .

قال ابن كثير : حذر الله - تعالى - عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا ، أى : خديعة ومكرا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ؛ مثل لمن كان على الاستقامة وحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة ، المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام[١] .

وقوله : ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله - عز وجل - فأنت ترى أن الآية الكريمة قد رتبت على اتخاذ الأيمان دخلا ، انقلاب حالة الإنسان من الخير إلى الشر ، ونزول العذاب الدنيوى والأخروى به .

ثم نهاهم - سبحانه - عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم فقال - تعالى - : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ .

والاشتراء هنا : استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو الوفاء بعهد الله .

والمراد بعهد الله - تعالى - : أوامره ونواهيه التى كلفنا بالتزامها والعمل بمقتضاها .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها وزينتها من الأموال وغيرها .

والمعنى : ولا تستبدلوا بأوامر الله - تعالى - ونواهيه ، عرضا قليلا من أعراض الدنيا الزائلة ، بأن تنقضوا عهودكم فى مقابل منفعة دنيوية زائلة .

وليس وصف الثمن بالقلة فى قوله : ﴿ ثمنا قليلا ﴾ من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل عدم الوفاء بالعهد ، إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى - .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ أى : لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له[١] .

ثم رغبهم - سبحانه - فيما عنده فقال : ﴿ إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

أى : إن ما ادخره الله - تعالى - لكم من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، وحياة طيبة ، هو خير لكم من ذلك الثمن القليل الذى تتطلعون إليه ، وتنقضون العهود من أجله ، إن كنتم من أهل العلم والفطنة ، الذين يؤثرون الباقى على الفانى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٥ .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إن كنتم من أهل العلم والتمييز . فالفعل منزل منزلة اللازم . وقيل : متعد ، والمفعول محذوف ، وهو فضل ما بين العوضين ، والأول أبلغ ومستغن عن التقدير[١] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ترغيبهم فى العمل بما يرضيه ترغيبا آخر فقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ .

أى : ما عندكم من متاع الدنيا وزهرتها يفنى وينقضى ويزول ، وما عند الله - تعالى - فى الآخرة من عطاء باق لا يفنى ولا يزول ، فآثروا ما يبقى على ماينفد . يقال : نفد الشىء بكسر الفاء - ينفد - بفتحها - نفادا ونفودا ، إذا ذهب وفنى .

ثم بشر - سبحانه - الصابرين على طاعته بأعظم البشارات فقال : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : ولنجزين الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم مما كانوا يعملونه فى الدنيا من خيرات وطاعات .

وأكد - سبحانه - هذه البشارة بلام القسم ، ونون التوكيد ، لترغيبهم فى الثبات على فضيلة الصبر ، وعلى الوفاء بالعهد .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله ﴿ أجرهم ﴾ مفعول ثان لنجزى . وقوله ﴿ بأحسن ﴾ نعت لمحذوف ، أى : بجزاء أحسن من عملهم الذى كانوا يعملونه فى الدنيا ، والباء بمعنى على[٢] .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الذين يحرصون على العمل الصالح فقال - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : من عمل عملا صالحا ، بأن يكون خالصا لوجه الله - تعالى - وموافقا لما جاء به النبى - ﷺ - سواء أكان هذا العامل المؤمن ذكرا أو أنثى ، فلنحيينه حياة طيبة ، يظفر معها بصلاح البال ، وسعادة الحال .

وقال - سبحانه - : ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ مع أن لفظ « مَنْ » فى قوله : ﴿ من عمل ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٢٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٦ .

يتناول الذكور والإناث ؛ للتنصيص على النوعين ، حتى يكون أغبط لهما ، ولدفع ما قد يتوهم من أن الخطاب للذكور وحدهم .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت « مَن » متناول فى نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما ؟ قل : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين ، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل « من ذكر أو أنثى » على التبيين ليعم الوعد النوعين جميعا[1] .

وقيد - سبحانه - العامل بكونه مؤمنا فقال : ﴿ وهو مؤمن ﴾ لبيان أن العمل لا يكون مقبولا عند الله - تعالى - إلا إذا كان مبنيا على العقيدة الصحيحة ، وكان صاحبه يدين بدين الإسلام ، وقد أوضح القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[2] .

والمراد بالحياة الطيبة فى قوله - تعالى - : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ الحياة الدنيوية التى يحياها المؤمن إلى أن ينقضى أجله .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : هذا وعد من الله - تعالى - لمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا .. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت . وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال ، وعن على بن أبى طالب أنه فسرها بالقناعة .

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه[3] » .

وقيل المراد بالحياة الطيبة هنا : الحياة الأخروية ، وقد صدر الشيخ الآلوسى تفسيره بهذا الرأى فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ والمراد بالحياة الطيبة التى تكون فى الجنة ، إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة .. فعن الحسن : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .

وقال شريك : هى حياة تكون فى البرزخ .. وقال غير واحد هى فى الدنيا[4] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٥ .

(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٢٧ .

ويبدو لنا أن تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح ، لأن الحياة الأخروية جاء التصريح بها بعد ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

فلو فسرنا الحياة الطيبة بالحياة الأخروية لكان فى الآية الكريمة ما يشبه التكرار ، ولكننا لو فسرناها بالحياة الدنيوية لكانت الآية الكريمة مبينة لجزاء المؤمنين فى الدارين .

وأيضا فإن قول النبى - ﷺ - السابق : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا » يشير إلى أن المراد بالحياة الطيبة ، الحياة الدنيوية ، لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة .

وعلى ذلك يكون المعنى الإجمالى للآية الكريمة : من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة فى الدنيا ، يظفر معها بالسعادة وصلاح البال ، والأمان والاطمئنان ، أما فى الآخرة فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمله فى الدنيا من أعمال صالحة .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ حياة طيبة ﴾ يعنى فى الدنيا ، وهو الظاهر لقوله ﴿ ولنجزينهم ﴾ وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ... ﴾[1] .

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا ، يعيش عيشا طيبا ، إن كان موسرا فلا مقال فيه ، وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله .

وأما الفاجر فأمره على العكس . إن كان معسرا فلا إشكال فى أمره ، وإن كان موسرا ، فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه[2] .

* * *

ثم أشار - سبحانه - إلى أن من الأعمال الصالحة ، أن يستعيذ المسلم عند قراءته للقرآن الكريم ، من الشيطان الرجيم ، فقال - تعالى :

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ

فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

والمراد بقوله - تعالى - : ﴿ فإذا قرأت القرآن .. ﴾ أى فإذا أردت قراءته . فالكلام على حذف الإرادة ، وذلك لأن المعنى الذى طلبت من أجله الاستعاذة وهو دفع وسوسة الشيطان يقتضى أن يبدأ القارىء بها - أى بالاستعاذة - قبل القراءة لا بعدها وشبيه بهذه الآية فى حذف الإرادة لدلالة المقام عليها قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق .. ﴾[1] أى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾[2] أى : أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا .

والمعنى : فإذا أردت - أيها المسلم - قراءة القرآن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أى : فاستجر بالله ، والتجىء إلى حماه ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ .

قال ابن كثير : والشيطان فى لغة العرب ، كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء ، وهو مشتق من شطن بمعنى بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير ... »[3] .

والرجيم بزنة فعيل بمعنى مفعول . أى : أنه مرجوم ومطرود من رحمة الله - تعالى - .

قال بعض العلماء : وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر هداية ، والشيطان مصدر ضلال ، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك فيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته . فعلمنا الله - تعالى - أن نتقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب

---

(١) سورة المائدة الآية ٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤ .

المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله . وقوة عزيمته فى طرد الشيطان ووساوسه ، واستقبال هدايته بقلب طاهر ، وعقل واع وإيمان ثابت[١] .

وكيفية الاستعاذة أن يقول القارىء عند إرادة قراءته للقرآن ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقد تضافرت الروايات عن رسول الله - ﷺ - بهذه الصيغة .

قال الآلوسى . وروى الثعلبى والواحدى أن ابن مسعود قرأ عن النبى - ﷺ - فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له النبى - ﷺ - : « يابن أم عبد ، قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرأنى جبريل .. »[٢] .

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام : والأمر بها - أى بالاستعاذة - للندب عند الجمهور .

وعن الثورى أنها واجبة . وظاهر الآية يؤيده ، إذ الأمر للوجوب . والجمهور يقولون : إنه صرفها عن الوجوب ما ورد من أنه - ﷺ - لم يعلمها للأعرابى - أى الذى سأله عن كيفية الصلاة - وأيضا فقد روى أنه كان - ﷺ - يتركها ..[٣] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى : إن الشيطان مهما تمرد وعتا فإنه « ليس له سلطان » أى : ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة ، على نفوس الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان والذين هم عليه - تعالى - وحده يتوكلون ويعتمدون لا على غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ وقوله[٤] - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[٥] .

وبعد أن نفى - سبحانه - أن يكون للشيطان سلطان على نفوس المؤمنين الصادقين ، أثبت - سبحانه - أن تسلط الشيطان إنما هو على نفوس الضالين ، فقال - تعالى - : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ﴾ .

أى : إنما تسلط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين ﴿ يتولونه ﴾ أى : يتقربون منه ، ويجعلونه واليا عليهم ، فيحبونه ويطيعونه ويتبعون خطواته .

(١) تفسير القرآن الكريم جـ ١٦ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٢٨ .
(٣) تفسير آيات الأحكام ص ٥٢ جـ ٣ لفضيلة الشيخ محمد على السايس رحمه الله .
(٤) سورة الحجر الآية ٤٢ .
(٥) سورة الأسراء الآية ٦٥ .

فقوله ﴿ يتولونه ﴾ من الوَلْى - بفتح الواو وسكون اللام - بمعنى القرب والنصرة وقوله : ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ أى : والذين هم بسبب الشيطان وإغوائه لهم ، مشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

فالضمير فى « به » يعود إلى الشيطان ، والباء للسببية .

ويرى بعضهم أن الضمير فى « به » يعود على الله - تعالى ، وأن الباء للتعدية ، فيكون المعنى : إنما سلطان الشيطان على الذين يطيعونه ، والذين هم بالله - تعالى - مشركون .

قالوا ، والأول أرجح لاتحاد الضمائر فيه ، ولأنه هو المتبادر إلى الذهن .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، تأمر المؤمنين بأن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، عند قراءتهم للقرآن الكريم ، كما نراها تبشرهم بأنه لا سلطان للشيطان عليهم ما داموا معتصمين بحبل الله - تعالى - ومنفذين لأوامره ، ومعتمدين عليه .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الأقاويل التى قالها المشركون عن النبى - ﷺ - وعن القرآن الكريم ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم فقال تعالى :

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ... ﴾ التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا : الآية القرآنية . وعلى أن المراد بتبديلها نسخها .

قال صاحب الكشاف : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله - تعالى - ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء ، وينسخ ما يشاء بحكمته ..[١] .

وقال الجمل : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ... ﴾ وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا : إن محمدا - ﷺ - يسخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ... ﴾ والمعنى : وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر[٢] .

وقال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ أى : وإذا نزلنا آية من القرآن مكان آية منه . وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها ..[٣] .

ومنهم من يرى أن المراد بالآية هنا « الآية الكونية » أى المعجزة التى أتى بها كل نبى لقومه وأن المراد بتبديلها : الإتيان بمعجزة أخرى سواها .

قال الشيخ القاسمى عند تفسيره لهذه الآية : وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهى كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل .

فبدلت تلك - وهى الآيات الكونية - بآية هو كتاب العلم والهدى من نبى أمى - ﷺ -[٤] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ... ﴾ يدل دلالة واضحة على أن المراد بالآية ، الآية القرآنية .

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٨ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣١ .
(٤) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٥٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه للمسارعة إلى توبيخ المشركين وتجهيلهم .

أى : والله - تعالى - أعلم من كل مخلوق بما هو أصلح لعباده ، وبما ينزله من آيات ، وبما يغير ويبدل من أحكام ، فكل من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا إنما أنت مفتر ﴾ جواب الشرط ، وهو حكاية لما تفوهوا به من باطل وبهتان : وقوله ﴿ مفتر ﴾ من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب .

أى : قال المشركون للنبى - ﷺ - عند تبديل آية مكان آية : إنما أنت يا محمد تختلق هذا القرآن من عند نفسك ، وتفتريه من إنشائك واختراعك . .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ تسلية للنبى - ﷺ - عما أصابه منهم .

أى : لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما قاله هؤلاء المشركون فى شأنك وفى شأن القرآن الكريم ، فإن أكثرهم جهلاء أغبياء ، لا يعلمون ما فى تبديلنا للآيات من حكمة ، ولا يفقهون من أمر الدين الحق شيئا .

وقال - سبحانه - ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق وتدركه ، ولكنها تنكره عنادا وجحودا وحسدا لرسول الله - ﷺ - على ما آتاه الله من فضله .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الرد الذى يقذفه على باطلهم فيزهقه فقال : .

﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - ، والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة . أى : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته . وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقى فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر ، فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ، إن هذا القرآن الذى تزعمون أننى افتريته ، قد نزل به الروح الأمين على قلبى من عند ربى ، نزولا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، ليزيد المؤمنين ثباتا فى إيمانهم ، وليكون هداية وبشارة لكل من أسلم وجهه لله رب العالمين .

وفى قوله ﴿ من ربك ﴾ تكريم وتشريف للرسول - ﷺ - حيث اختص - سبحانه - هذا النبى الكريم بإنزال القرآن عليه ، بعد أن رباه برعايته ، وتولاه بعنايته .

وقوله ﴿ بالحق ﴾ فى موضع الحال ، أى : نزله إنزالا ملتبسا بالحكمة المقتضية له ، بحيث لا يفارقها ولا تفارقه .

وقوله : ﴿ ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ بيان للوظيفة التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، وهى وظيفة تسعد المؤمنين وحدهم ، أما الكافرون فهم بعيدون عنها .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولات المشركين فقال - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول - تعالى - مخبرا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء : إن محمدا - ﷺ - إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان النبى - ﷺ - يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية .

وعن عكرمة وقتادة كان اسم ذلك الرجل « يعيش » ، وعن ابن عباس كان اسمه « بلعام » ، وكان أعجمى اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله - ﷺ - يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية[1] .

والمعنى : ولقد نعلم - أيها الرسول الكريم - علما مستمرا لايعزب عنه شىء مما يقوله المشركون فى شأنك ، من أنك تتعلم القرآن من واحد من البشر .

قال الآلوسى : وإنما لم يصرح القرآن باسم من زعموا أنه يعلمه - عليه الصلاة والسلام - مع أنه أدخل فى ظهور كذبهم ، للإيذان بأن مدار خطئهم ، ليس بنسبته - ﷺ - إلى التعلم من شخص معين ، بل من البشر كائنا من كان ، مع كونه - ﷺ - معدنا لعلوم الأولين والآخرين[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين ﴾ رد عليهم فيما زعموه وافتروه .

والمراد باللسان هنا : الكلام الذى يتكلم به الشخص ، واللغة التى ينطق بها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٣ .

وقوله : ﴿ يلحدون ﴾ من الإلحاد بمعنى الميل . يقال لحد وألحد ، إذا مال عن القصد ، وسمى الملحد بذلك ، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها .

والأعجمى : نسبة إلى الأعجم : وهو الذى لا يفصح فى كلامه سواء أكان من العرب أم من العجم . وزيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد .

والمعنى : لقد كذبتم - أيها المشركون - كذبا شنيعا صريحا ، حيث زعمتم أن رسول الله - ﷺ - يعلمه القرآن بشر ، مع أن لغة هذا الإنسان الذى زعمتم أنه يعلم الرسول - ﷺ - لغة أعجمية ، ولغة هذا القرآن لغة عربية فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، وتحداكم وأنتم أهل اللسن والبيان أن تأتوا بسورة من مثله .

فخبرونى بربكم ، من أين للأعجمى أن يذوق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من العلوم ، فضلا عن أن ينطق به ، فضلا عن أن يكون معلما له !! .

ثم هدد - سبحانه - المعرضين عن آياته بقوله : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق نبيه - ﷺ - فيما يبلغه عنه .

﴿ لا يهديهم الله ﴾ إلى طريق الحق فى الدنيا ، بسبب زيغهم وعنادهم وإيثارهم الغى على الرشد . ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة عذاب أليم جزاء إصرارهم على الباطل ، وإعراضهم عن الآيات التى لو تأملوها واستجابوا لها لاهتدوا إلى الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - أن افتراء الكذب لا يصدر عن المؤمنين فضلا عن الرسول الأمين ، وإنما يصدر عن الكافرين فقال - تعالى - : ﴿ إنما يفترى الكذب ﴾ أى : يختلقه ويخترعه ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ الدالة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى صدق رسله ، وعلى صحة البعث يوم القيامة ، لأن عدم إيمانهم بذلك يجعلهم لا يخافون عقابا ، ولا يرجون ثوابا . ﴿ وأولئك ﴾ الكافرون بما يجب الإيمان به ﴿ هم الكاذبون ﴾ فى قولهم عن الرسول - ﷺ - إنما يعلمه بشر ، وفى قولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ وفى غير ذلك من أقوالهم الباطلة ، التى حاربوا بها دعوة الحق .

قال بعض العلماء : ولا يخفى ما فى الحصر بعد القصر من العناية بمقامه - صلوات الله عليه - ، وقد كان أصدق الناس وأبرهم .. بحيث كانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان فقال له - من بين ما قال - : هل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله - تعالى - .

وفى هذه الآية دلالة على أن الكذب من أكبر الكبائر ، وأفحش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة « إنما » للحصر .

وروى أن النبى - ﷺ - قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : « لا ، ثم قرأ هذه الآية[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حكم من أكره على النطق بكلمة الكفر ، وحكم من استحب الكفر على الإيمان فقال - تعالى - :

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ... ﴾ روايات منها قول الآلوسى : روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه : ياسرا ، وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ... ثم قتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول شهيدين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يارسول الله : إن عمارا قد كفر .

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٦١ .

فقال - ﷺ - : « كلا ، إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » .

فأتى عمار رسول الله - ﷺ - وهو يبكى ، فجعل رسول الله - ﷺ - يمسح عينيه وقال له : « مالك ، إن عادوا فعد لهم بما قلت » . وفى رواية أنه قال له : « كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئن بالإيمان قال - ﷺ - إن عادوا فعد » . فنزلت هذه الآية ..

ثم قال الآلوسى : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازا للدين ولو تيقن القتل ، كما فعل ياسر وسمية ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة ، بل هو كالقتل فى الغزو كما صرحوا به ."[1] .

و« من » فى قوله ﴿ من كفر بالله ﴾ مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من الله ، أو فله عذاب شديد ، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ﴾ .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله - ﷺ - فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا ، يستحق من أجله العذاب المهين .

وقوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ استثناء متصل من الجملة السابقة أى : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، متمكن منه .. فإنه فى هذه الحالة لا يكون ممن يستحقون عقوبة المرتد .

قال بعض العلماء : وأما قوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء متصل من « مَنْ » لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقادا فقط ، أو قولا فقط ، أو اعتقادا وقولا ... وأصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد به هنا : السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه .."[2] .

وقوله : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره ورضاه .

و« من » فى قوله ﴿ من شرح ﴾ شرطية ، وجوابها ﴿ فعليهم غضب من الله ﴾ . أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتدا ، ولكن حكم من طابت

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٧ .
(٢) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٥٤ .

نفوسهم بالكفر ، وانشرحت له صدورهم ، واعتقدوا صحته ، أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ، ولهم يوم القيامة عذاب عظيم الهول ، يتناسب مع عظيم جرمهم .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التى حكت ما تعرض له المسلمون الأولون من فتن وآلام . فقال ما ملخصه : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ بيان للأسباب التى جعلتهم محل غضب الله ونقمته .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم ، أو إلى ما توعدهم الله - تعالى - به من غضب عليهم ، وعذاب عظيم لهم .

أى : ذلك الذى جعلهم يرتدون عن دينهم ، ويكونون محل غضب الله ونقمته ، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة وما فيها من ثواب .

﴿ وأن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى الصراط المستقيم ، لأنهم حين زاغوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى رذائلهم رذيلة أخرى فقال : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾ .

والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشىء ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه . أى : أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر ، وطابوا به نفسا ، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها ، وعاجزة عن الانتفاع به ، وأولئك هم الكاملون فى الغفلة والبلاهة ، إذ لاغفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره ، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٧ .

ثم ختم – سبحانه – الآيات الكريمة بالحكم العادل عليهم فقال : ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ .

أى : لاشك ولا محالة فى أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان سيكونون يوم القيامة من القوم الخاسرين ؛ لأنهم لم يقدموا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم .

وكلمة « لا جرم » قد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، متلوة فى كل موضع بأن واسمها ، وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر ، ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق ، أو ثبت ، أو ما يشبه ذلك ، أى : حق وثبت كونهم فى الآخرة من الخاسرين .

والذى يتدبر هذه الآيات ، يراها قد توعدت المرتدين عن دينهم بألوان من العقوبات المغلظة ، لقد توعدتهم بغضب الله – تعالى – وبعذابه العظيم ، وبعدم هدايتهم إلى طريق الحق ، وبالطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وبالغفلة التى ليس بعدها غفلة ، وبالخسران الذى لاشك فيه يوم القيامة ، نعوذ بالله – تعالى – من ذلك .

ثم بين – سبحانه – جانبا من مظاهر لطفه ورأفته لقوم هاجروا من بعد ما فتنوا ، فقال – تعالى – :

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ أى : عذبوا وأوذوا من أجل أن يرتدوا إلى الكفر .

وأصل الفتن : إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل فى الاختبار

والامتحان بالمحن والشدائد ، وبالمنح واللطائف ، لما فيه من إظهار الحال والحقيقة ، وأكثر ما تستعمل الفتنة فى الامتحان والمحن وعليه يحمل بعضهم تفسير الفتنة بالمحنة .

والمراد بهؤلاء الذين هاجروا من بعد ما فتنوا - كما يقول ابن كثير - جماعة كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا ..[1] .

والمعنى : « ثم إن ربك » - أيها الرسول الكريم - تكفل بالولاية والمغفرة لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، من بعد أن عذبهم المشركون لكى يرتدوا عن دينهم .

قال الآلوسى : وقرأ ابن عامر ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ بالبناء للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد ، أى : عذبوا المؤمنين ، كالحضرمى ، أكره مولاه « جبرا » حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم جاهدوا وصبروا ﴾ أى جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وصبروا على البلاء والأذى طلبا لرضا الله - تعالى - .

والضمير فى قوله : ﴿ من بعدها ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر . أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه الأفعال لكثير المغفرة والرحمة لهم ، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... ﴾ منصوب على الظرفية بقوله ﴿ رحيم ﴾ أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره اذكر . والمراد باليوم : يوم القيامة .

والمجادلة هنا بمعنى : المحاجة والمدافعة ، والسعى فى الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .

والمعنى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد تلك المذكورات من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر ، لغفور رحيم ، يوم تأتى كل نفس مشغولة بأمرها ، مهتمة بالدفاع عن ذاتها ، بدون التفات إلى غيرها ، ساعية فى الخلاص من عذاب ذلك اليوم .

والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة ، يراها تشير بأسلوب مؤثر بليغ إلى ما يعترى الناس يوم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٩ .

القيامة من خوف وفزع يجعلهم لا يفكرون إلا فى ذواتهم ولا يهمهم شأن آبائهم أو أبنائهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى النفس المضافة إلى النفس ؟ .

قلت : يقال لعين الشىء وذاته نفسُه ، وفى نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هى ، فالنفس الأولى هى الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها ، كقولهم : ﴿ ما كنا مشركين ﴾ وكقولهم : ﴿ هؤلاء أضلونا .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - فى قضائه بين عباده .

أى : وفى هذا اليوم تعطى كل نفس جزاء ما عملته من أعمال فى الدنيا وافيا غير منقوص ، بدون ظلم أو حيف أو ميل عن العدل والقسطاس ، ولن ينفع نفسا مجادلتها عن ذاتها ، واعتذارها بالمعاذير الباطلة ، وإنما الذى ينفعها هو عملها .

وبذلك ترى الآيتين الكريمتين ، قد بينتا بأسلوب بليغ جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، وجانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن القضاء العادل الذى يحكم الله به بين الناس .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسوء عاقبة الذين يجحدون نعم الله ، ويكذبون بآياته ، فقال - تعالى - :

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣١ .

والفعل ضرب فى قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا قرية ... ﴾ متضمن معنى جعل ، ولذا عدى إلى مفعولين .

والمثل - بفتح الثاء - بمعنى المثل - بسكونها - أى : النظير والشبيه . ويطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه لمورده الذى ورد فيه ، ثم استعير للصفة والحال كما فى الآية التى معنا .

والمراد بالقرية : أهلها ، فالكلام على تقدير مضاف .

وللمفسرين اتجاهان فى تفسير هذه الآية . فمنهم من يرى أن هذه القرية غير معينة ، وإنما هى مثل لكل قوم قابلوا نعم الله بالجحود والكفران .

وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف حيث قال : قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا قرية ... ﴾ أى : جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة . فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته ، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضرب بها الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها[1] .

ومنهم من يرى أن المقصود بهذه القرية مكة ، وعلى هذا الاتجاه سار الامام ابن كثير حيث قال ما ملخصه : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها،ومن دخلها كان آمنا ... فجحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد - ﷺ - فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[2] .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لتنكير لفظ قرية ، ولشموله الاتجاه الثانى ، لأنه يتناول كل قرية بدلت نعمة الله كفرا ، ويدخل فى ذلك كفار مكة دخولا أوليا .

فيكون المعنى : وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم ، فلم يشكروا الله - تعالى - عليها ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله : ﴿ كانت آمنة مطمئنة ﴾ أى : كانت تعيش فى أمان لا يشوبه خوف ، وفى سكون واطمئنان لا يخالطها فزع أو انزعاج : .

وقوله : ﴿ يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾ بيان لسعة عيشها ، أى :يأتيها ما يحتاج إليه أهلها واسعا لينا سهلا من كل مكان من الأمكنة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٩ .

يقال : رَغُد - بضم الغين - عيش القوم ، أى : اتسع وطاب فهو رغد ورغيد ... وأرغد القوم ، أى : أخصبوا وصاروا فى رزق واسع .

فالآية الكريمة قد تضمنت أمهات النعم : الأمان والاطمئنان ورغد العيش . قال بعضهم :

ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

وقوله - تعالى - : ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ بيان لموقفها الجحودى من نعم الله - تعالى - أى : فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليلة ، أنهم جحدوا هذه النعم ، ولم يقابلوها بالشكر ، وإنما قابلوها بالإشراك بالله - تعالى - مُسدى هذه النعم .

قال القرطبى : « والأنْعُم : جمع النِّعمة . كالأشُد جمع الشِّدة ، وقيل : جمع نعمى ، مثل بُؤسى وأبؤس » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ بيان للعقوبة الأليمة التى حلت بأهلها بسبب كفرهم وبطرهم .

أى : فأذاق - سبحانه - أهلها لباس الجوع والخوف ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله .

وذلك بأن أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة ، تجعل الناظر اليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع ، وفزع شديد .

ففى الجملة الكريمة تصوير بديع لما أصابهم من جوع وخوف ، حتى لكأن ما هم فيه من هزال وسوء حال ، يبدو كاللباس الذى يلبسه الإنسان ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا يحسون أثره إحساسا عميقا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد فى تصوير هذا المعنى فقال : « فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ .

قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها . فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب . شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من الطعم المر البشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث .

وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف..[١] .

ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل هذه القرية الكافرة بأنعم الله فقال : ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ﴾ .

أى : ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأمرهم بطاعة الله وشكره ، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه .

والتعبير بقوله ﴿ جاءهم ﴾ يدل على أن هذا الرسول وصل إليهم وبلغهم رسالة ربه ، دون أن يكلفهم الذهاب إليه ، أو البحث عنه .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿ فكذبوه ﴾ يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة هذا الرسول ، وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون روية ، مما يدل على غباوتهم وانطماس بصيرتهم .

وقوله - تعالى - ﴿ فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى حاقت بهم .

أى : فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم أن أخذهم العذاب العاجل الذى استأصل شأفتهم ، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأن هذا العذاب ما نزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله ، وكذبوا رسوله .

هذا ، والذى يتأمل هاتين الآيتين الكريمتين يراهما وإن كانتا تشملان حال كل قوم بدلوا نعمة الله كفرا .. إلا أنهما ينطبقان تمام الانطباق على كفار مكة .

وقد بين ذلك الإمام الآلوسى - رحمه الله - فقال ما ملخصه : وحال أهل مكة - سواء أضرب المثل لهم خاصة ، أم لهم ولمن سار سيرتهم كافة - أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء رزقا ، ولقد جاءهم رسول منهم تحار فى سمو مرتبته العقول - ﷺ - فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنعم الله ، وكذبوه - ﷺ - فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، حيث أصابهم بدعائه - ﷺ - : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » - ما أصابهم من جدب شديد ، فاضطروا إلى أكل الجيف .. وكان أحدهم ينظر إلى

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣٩ .

السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله - ﷺ - ، حيث كانوا يغيرون عليهم ..[1] .

ثم أمرهم - سبحانه - بأن يأكلوا مما أحله لهم ، وأن يشكروه على نعمه ، وأن يجتنبوا ما حرمه عليهم ، فقال - تعالى - :

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

والفاء فى قوله : ﴿ فكلوا ... ﴾ للتفريع على ما تقدم من التمثيل بالقرية التى كفرت بأنعم الله ، والتى أصابها ما أصابها بسبب ذلك .

أى : لقد ظهر لكم حال الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، ورأيتم كيف أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم ، وكلوا من الحلال الطيب الذى رزقكم الله - تعالى - إياه .

واشكروا نعمة الله التى أنعم بها عليكم ، بأن تستعملوها فيما خلقت له ، وبأن تقابلوها بأسمى ألوان الطاعة لمسديها - عز وجل - .

﴿ إن كنتم إياه ﴾ سبحانه - تعبدونه حق العبادة ، وتطيعونه حق الطاعة .

ثم بين - سبحانه - ما حرمه على عباده رعاية لمصالحهم فقال : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. ﴾ .

والميتة فى عرف الشرع : ما مات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٤ .

فيها المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما عدا عليها السبع .

وكان الأكل من الميتة محرما ، لفساد جسمها بسبب ذبول أجزائه وتعفنها ، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها .

والدم المحرم : هو ما يسيل من الحيوان الحى كثيرا كان أم قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ماجرى منه بعد ذبحه ، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح . .

والحكمة فى تحريم الدم المسفوح ، أنه تستقذره النفوس الكريمة ، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس. .

وحرمة الخنزير شاملة للحمه ودمه وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر لأنه المقصود بالأكل ، ولأن سائر أجزائه كالتابعة للحمه .. .

ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير : قذارته ، واشتماله على دودة تضر بآكله ، كما أثبت ذلك العلم الحديث .

وقوله : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ معطوف على ما قبله من المحرمات .

والفعل ﴿ أهل ﴾ مأخوذ من الإهلال بمعنى رفع الصوت ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم ، سموا عليها أسماءها فيقولون : باسم اللات أو باسم العزى ، رافعين بذلك أصواتهم .

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لعله ذاتية فى تلك الأشياء ، أما تحريم ما أهل لغير الله به ، بسبب التوجه بالمذبوح إلى غير الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾ بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات .

واضطر : من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء بشدة .

والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ، حالة كونه « غير باغ » ، أى : غير طالب للمحرم وهو يجد غيره ، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر ، « ولا عاد » أى : ولا متجاوز فى أكله ما يسد الجوع ويحفظ الحياة « فإن الله » - تعالى - « غفور » واسع المغفرة لعبادة « رحيم » كثير الرحمة بهم[1] .

---

(١) إذا أردت التفصيل لتفسير هذه الآية فارجع الى تفسير الآية رقم ١٧٣ من سورة البقرة ص ٣٥٠ للمؤلف .

ثم نهى - سبحانه - عن القول على الله - تعالى - بغير علم اتباعا للظن والأوهام ، فقال :

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب .. ﴾ « ما » موصولة ، والعائد محذوف ، أى : ولا تقولوا - فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة - هذا حلال وهذا حرام ، من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر ، فضلا عن استناده إلى وحى أو قياس مبنى عليه ، بل مجرد قول باللسان .

ولفظ « الكذب » منتصب على أنه مفعول به لـ ﴿ تقولوا ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدل منه ..[١] .

والمعنى : ولا تقولوا - أيها الجاهلون - للشىء الكذب الذى تصفه ألسنتكم ، وتحكيه وتنطق به بدون بينة أو برهان . هذا الشىء حلال وهذا الشىء حرام .

وقد حكى الله - تعالى - عن هؤلاء الجاهلين فى آيات كثيرة ، أنهم حللوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا .. ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالا وحراما ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[٣] .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٧ .
(٢) سورة الانعام الآية ١٣٩ .
(٣) سورة يونس الآية ٥٩ .

الكلام وبليغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه . فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر ..»[١] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ويصح أن يكون لفظ الكذب مفعولا لتصف ، وأن يكون قوله : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ مفعولا لتقولوا .

وعلى هذا الوجه يكون فى وصف ألسنتهم الكذب ، مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، حتى لكأن ما هية الكذب كانت مجهولة ، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها ووصفتها ونعتتها بالنعوت التى جلتها .. ومنه قول الشاعر :

أضحت يمينُك من جُودٍ مصوَّرةً   لا ، بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ[٢]

واللام فى قوله : ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ هى لام الصيرورة والعاقبة ، أو هى – كما يقول صاحب الكشاف – من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ، لأن ما صدر عنهم من تحليل وتحريم دون أن يأذن به الله ، ليس الغرض منه افتراء الكذب فحسب ، بل هناك أغراض أخرى ، كظهورهم بمظهر أولى العلم ، وكحبهم للتباهى والتفاخر . .

وقوله : ﴿ تفتروا ﴾ من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب ، لأنه اختلاق للكذب الذى لايستند إلى شىء من الواقع .

أى : ولا تقولوا لما تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها ، هذا حلال وهذا حرام ، لتنسبوا ذلك إلى الله – تعالى – كذبا وزورا .

قال الإمام ابن كثير : ويدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه[٣] .

وقال الآلوسى : وحاصل معنى الآية : لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله – تعالى – ورسوله – – ﷺ – حلالا ولا حراما ، فتكونوا كاذبين على الله ؛ لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه – سبحانه – .

ومن هنا قال : أبو نضرة : لم أزل أخاف الفتيا منذ أن سمعت هذه الآية إلى يومى هذا .

وقال ابن العربى : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٣ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٧٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠ .

الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ونحو ذلك[١] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، وخيبة مسعاهم .

أى : إن الذين يختلقون الكذب وينسبونه إلى الله – تعالى – لا يفوزون بمطلوب ، ولا يفلحون فى الوصول إلى مأمول .

وقوله – تعالى – : ﴿ متاع قليل ﴾ بيان لخسة مايسعون للحصول إليه من منافع الدنيا ، وهو خبر لمبتدأ محذوف أى : متاعهم فى الدنيا متاع قليل ، لأنهم عما قريب سيتركونه لغيرهم بعد رحيلهم عن هذه الدنيا .

ثم بين – سبحانه – سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى : ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[٢] وقوله – تعالى – : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[٣] .

ثم بين – سبحانه – بعد ذلك ، أن ما حرمه على اليهود من طيبات ، كان بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأن رحمته – تعالى – تسع العصاة متى تابوا وأصلحوا ، فقال – تعالى – :

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٨ .
(٢) سورة لقمان الآية ٢٤ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٦ .

قال ابن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر - ، ذكر - سبحانه - بعد ذلك ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج ، فقال : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل.. ﴾ .

أى : فى سورة الأنعام فى قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[1] .

والمعنى : وعلى اليهود بصفة خاصة ، دون غيرهم من الأمم ، حرمنا بعض الطيبات التى سبق أن بيناها لك فى هذا القرآن الكريم ، وما كان تحريمنا إياها عليهم إلا بسبب بغيهم وظلمهم .

وفى الآية الكريمة إبطال لمزاعمهم ، حيث كانوا يقولون : لسنا أول من حرمت عليه هذه الطيبات ، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم وغيرهما ممن جاء بعدهما .

وقوله : ﴿ من قبل ﴾ متعلق بحرمنا ، أو بقصصنا .

وبذلك يتبين أن ما حرمه الله - تعالى - على الأمة الإسلامية ، كالميتة والدم ولحم الخنزير .. كان من باب الرحمة بها ، والحرص على مصلحتها .. أما ما حرمه - سبحانه - على اليهود ، فقد كان بسبب بغيهم وظلمهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - فى معاملته لعباده .

أى : وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، حيث تركوها تسير فى طريق الشيطان ، ولم يوقفوها عند حدود الله - تعالى - ، فاستحقوا بسبب ذلك ما استحقوا من عقوبات .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة .. ﴾ بيان لسعة رحمته - سبحانه - بعباده ، ورأفته بهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠ .

(٢) سورة يونس الآية ٤٤ .

والمراد بالجهالة : الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على ارتكاب ما لا يليق بالعقلاء ، وليس المراد بها عدم العلم .

قال مجاهد : كل من عصى الله - تعالى - عمدا أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

وقال ابن عطيه : الجهالة هنا بمعنى تعدى الطور ، وركوب الرأس : لا ضد العلم . ومنه ما جاء فى الخبر : « اللهم إنى أعوذ بك من أن أجهل ، أو يجهل على » .

ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين[1]

والمعنى : ثم إن ربك - أيها الرسول الكريم - ، لكثير الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمال السيئة ، بدافع الجهل والسفه والطيش وعدم تدبر العواقب ، ثم إنهم بعد ذلك تابوا توبة صادقة عن تلك الأعمال السيئة ، ولم يكتفوا بذلك بل أصلحوا من شأن أنفسهم ، حيث أوقفوها عند حدود الله - تعالى - وأجبروها على تنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه .

قال الآلوسى : والتقييد بالجهالة قيل : لبيان الواقع ، لأن كل من يعمل السوء لا يعمله إلا بجهالة .

وقال العسكرى : ليس المعنى أنه - تعالى - يغفر لمن يعمل السوء بجهالة ، ولا يغفر لمن عمله بدون جهالة ، بل المراد أن جميع من تاب فهذه سبيله . وإنما خص من يعمل السوء بجهالة ، لأن أكثر من يأتى الذنوب يأتيها بقلة فكر فى عاقبة الأمر ، أو عند غلبة الشهوة ، أو فى جهالة الشباب : فذكر الأكثر على عادة العرب فى مثل ذلك[2] .

واسم الاشارة فى قوله : ﴿ ثم تابو من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ يعود إلى الأعمال السيئة التى عملوها قبل التوبة والإصلاح . أى : ثم تابوا توبة صادقة من بعد أن عملوا ما عملوا من سيئات ، وأصلحوا نفوسهم فهيأوها للسير على الطريق المستقيم .

والضمير فى قوله : ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ يعود إلى التوبة وما يصاحبها من فعل للطاعات ومن اجتناب للسيئات .

---

(١) ، (٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٩ .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه التوبة النصوح ، لكثير المغفرة والرحمة للتائبين .

والتعبير - بثم - فى قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين ... ﴾ وقوله : ﴿ ... ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ لبيان الفرق الشاسع بين رحمة الله - تعالى - بعباده ، وبين ما يصدر عن بعضهم من كفران وارتكاب للمعاصى ، وبين المصرين على فعل السوء ، وبين التائبين عنه .

وكرر - سبحانه - ﴿ إن ربك ﴾ مرتين فى الآية الواحدة ، لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ﴾[1] .

ثم مدح - سبحانه - خليله ابراهيم مدحا عظيما ، وأنه بشره بالعطاء الذى يسعده فى دنياه وآخرته ، وأمر نبيه محمدا - ﷺ - باتباع ملة أبيه إبراهيم ، فقال - تعالى - :

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف خليله ابراهيم - عليه السلام - بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة .

وصفه أولا - بأنه ﴿ كان أمة ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية ١٧ .

ولفظ ﴿ أمة ﴾ يطلق فى اللغة بإطلاقات متعددة ، منها : الجماعة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾[1] أى : جماعة من الناس.. .

ومنها : الدين والملة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة .. ﴾[2] أى : على دين وملة .

ومنها : الحين والزمان كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾[3] . أى : إلى زمان معين . .

والمراد بقوله - سبحانه -: ﴿إن إبراهيم كان أمة..﴾ أى: كان عنده من الخير ما كان عند أمة ، أى جماعة كثيرة من الناس ، وهذا التفسير مروى عن ابن عباس .

وقال مجاهد : سمى - عليه السلام - أمة لانفراده بالإيمان فى وقته مدة ما .

وفى صحيح البخارى أنه قال لزوجته سارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك .

ويصح أن يكون المراد بقوله - تعالى - : ﴿ إن إبراهيم كان أمة .. ﴾ أى : كان إماما يقتدى به فى وجوه الطاعات . وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى إرشاد الناس إلى أنواع البر ، قال - تعالى - : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما .. ﴾[4] .

ووصفه ثانيا - بأنه كان « قانتا لله » أى مطيعا لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع .

ووصفه - ثالثا - بأنه كان ، حنيفا ، أى : مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق . من الحنف بمعنى الميل والاعوجاج ، يقال : فلان برجله حنف أى اعوجاج وميل .

ومنه قول أم الأحنف بن قيس وهى تداعبه :

والله لولا حنف برجله ما كان فى فتيانكم من مثله

ووصفه - رابعا - بأنه منزه عن الإشراك بالله - تعالى - فقال : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٣ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٢٢ .
(٣) سورة هود الآية ٨ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

أى : ولم يكن ابراهيم - عليه السلام - من الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة أو الطاعة ، أو فى أى من الأمور ، بل أخلص عبادته لخالقه - عز وجل - .

وقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾[1] .

ووصفه - خامسا - بقوله - سبحانه - : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ أى : معترفا بفضل الله - تعالى - عليه ، ومستعملا نعمه فيما خلقت له ، ومؤديا حقوق خالقه فيها . قال - تعالى - : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى : قام بأداء جميع ما كلفه الله به .

وبعد أن مدح - سبحانه - إبراهيم بتلك الصفات الجامعة لمجامع الخير ، أتبع ذلك ببيان فضله - تعالى - عليه فقال : ﴿ اجتباه ﴾ أى اختاره واصطفاه للنبوة . من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار .

واجتباء الله - تعالى - لعبده معناه : اختصاصه ذلك العبد بخصائص ومزايا يحصل له عن طريقها أنواع من النعم بدون كسب منه .

﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ أى : وأرشده إلى الطريق القويم ، الذى دعا الصالحون ربهم أن يرشدهم إليه ، حيث قالوا فى تضرعهم : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . وهو طريق الإسلام .

﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ أى : وجمعنا له خير الدنيا من كل ما يحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة ، والمال الوفير .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه النعم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾[2] .

وكما فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا .. ﴾[3] .

﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى : وإنه فى الدار الآخرة لمندرج فى عباد الله الصالحين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٨٤ .
(٣) سورة مريم الآية ٤٩ .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم التى منحها لخليله إبراهيم ، بأمر نبيه محمد - ﷺ - أن يتبع ملة أبيه إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

والمراد بملة إبراهيم : شريعته التى أمره الله - تعالى - باتباعها فى عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وهى شريعة الإسلام ، التى عبر عنها آنفا بالصراط المستقيم فى قوله - تعالى - : ﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ .

والمراد باتباع الرسول - ﷺ - له فى ذلك : الإقتداء به فى التوحيد وفى أصول الدين ، الثابتة فى كل الشرائع ، لا الفروع الشرعية التى تختلف من شريعة إلى أخرى ، بحسب المصالح التى يريدها الله - تعالى - لعباده .

أى : ثم أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك ﴿ ملة إبراهيم حنيفا ﴾ أى : شريعته التى هى شريعة الإسلام .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ ثم أوحينا إليك .. ﴾ : فى « ثم » هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله - ﷺ - ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوتى من النعمة ، اتباع رسول الله - ﷺ - لملته ، من جهة أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها[1] .

وقال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدى إلى الصواب ، ولا درك على الفاضل فى هذا ، فإن النبى - ﷺ - أفضل الأنبياء ، وقد أمر بالاقتداء بهم ، قال - تعالى - : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .. ﴾[2] وقال - سبحانه - هنا : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا.. ﴾[3] .

وقوله : ﴿ حنيفا ﴾ حال من إبراهيم ، أى : من المضاف إليه ، وصح ذلك لأن المضاف هنا وهو ﴿ ملة ﴾ كالجزء من المضاف إليه وهو إبراهيم من حيث صحة الاستغناء بالثانى عن الأول ، لأن قولك : أن اتبع إبراهيم حنيفا كلام تام . .

وقد أشار ابن مالك - رحمه الله - إلى هذا المعنى بقوله :

ولا تجز حالا من المضاف له   إلا إذا اقتضى المضاف عمله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٠ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ص ١٩٠ .

أو كـــان جـزء مـــالـه أضيفـــا أو مثـــل جـزئــه فـــلا تحيفـــا

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تنزيه لإبراهيم - عليه السلام - عن أى لون من ألوان الإشراك بالله - تعالى - .

أى : وما كان إبراهيم - عليه السلام - من المشركين مع الله - تعالى - آلهة أخرى لا فى عقيدته ولا فى عبادته ولا فى أى شأن من شئونه .

وفى ذلك رد على المشركين الذين زعموا أنهم على ملة ابراهيم ، ورد - أيضا - على اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم - عليه السلام - كان على ملتهم .

قال - تعالى - : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - حقيقة عقيدة إبراهيم ، ومدحه بجملة من الصفات الجليلة ، وبين جانبا من مظاهر فضله - سبحانه - عليه ، أتبع ذلك ببيان أن تحريم العمل فى يوم السبت أمر خاص باليهود ، ولا علاقة له بشريعة إبراهيم أو بشريعة محمد - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه... ﴾ .

والمراد بالسبت : اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصله - كما يقول ابن جرير - الهدوء والسكوت فى راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته ، كما قال - جل ثناؤه - : ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أى : راحة لأبدانكم ..[2] .

والكلام على حذف مضاف ، والمعنى : إنما جعل تعظيم يوم السبت ، والتخلى فيه للعبادة ، ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ وهم اليهود ، حيث أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بتعظيم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ أى : خالفوا نبيهم ، حيث أمرهم : أن يعظموا يوم الجمعة بالتفرغ للعبادة فيه ، وشدد عليهم بتحريم الاصطياد فيه : فليس المراد بالاختلاف أن بعضهم رضى ، وبعضهم لم يرض ، بل المراد به امتناع الجميع - حيث قالوا لا نريد يوم الجمعة ، واختاروا السبت .

ثم قال : وفى معنى الآية قول آخر . قال قتادة : إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود ، حيث استحله بعضهم وحرمه بعضهم ، فعلى هذا القول يكون معنى قوله ﴿ إنما جعل السبت .. ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ١ ص ٣٢٧ .

أى : وبال يوم السبت ولعنته ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ ، وهم اليهود ، حيث استحله بعضهم فاصطادوا فيه ، فعذبوا ومسخوا .. وثبت بعضهم على تحريمه فلم يصطد فيه ، فلم يعذبوا .. والقول الأول أقرب إلى الصحة[١] .

وقال الإمام ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم - أى أهل الكتاب - أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم - أى يوم الجمعة - فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد»[٢] .

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم فقال : ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - ليحكم بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بأن ينزل بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب مخالفتهم لنبيهم ، وإعراضهم عن طاعته فيما أمرهم به من تعظيم يوم الجمعة .

ويصح أن يكون المعنى : وإن ربك ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء اليهود الذين اختلفوا فى شأن يوم السبت ، حيث استحله بعضهم ، وحرمه البعض الآخر ، فيجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت إبراهيم - عليه السلام - مدحا عظيما ، وذكرت جانبا من المآثر التى أكرمه الله - تعالى - بها ، وبرأته مما ألصقه به المشركون وأهل الكتاب من تهم باطلة ، ودعاوى كاذبة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الآيات الجامعة لآداب الدعوة إلى الله ، والهادية إلى مكارم الأخلاق ، فقال - تعالى - : .

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٠٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩١ .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ للرسول - ﷺ - ويدخل فيه كل مسلم يصلح للدعوة إلى الله - عز وجل - .

أى : ادع - أيها الرسول الكريم - الناس إلى سبيل ربك أى : إلى دين ربك وشريعته التى هى شريعة الإسلام ﴿ بالحكمة ﴾ أى : بالقول المحكم الصحيح الموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع فى النفس أجمل موقع .

وحذف - سبحانه - مفعول الفعل ﴿ ادع ﴾ للدلالة على التعميم ، أى ، ادع كل من هو أهل للدعوة إلى سبيل ربك .

وأضاف - سبحانه - السبيل اليه . للإشارة إلى أنه الطريق الحق ، الذى من سار فيه سعد وفاز ، ومن انحرف عنه شقى وخسر .

وقوله - تعالى - : ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ وسيلة ثانية للدعوة إلى الله - تعالى - أى : وادعهم - أيضا- إلى سبيل ربك بالأقوال المشتملة على العظات والعبر التى ترقق القلوب ، وتهذب النفوس ، وتقنعهم بصحة ما تدعوهم إليه ، وترغبهم فى الطاعة لله - تعالى - وترهبهم من معصيته - عز وجل - وقوله - تعالى - : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ بيان لوسيلة ثالثة من وسائل الدعوة السليمة .

أى : وجادل المعاند منهم بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأجملها ، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على حسن الإقناع ، وعلى الرفق واللين وسعة الصدر فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم ، وفى التقليل من عنادهم ، وفى إصلاح شأن أنفسهم ، وفى إيمانهم بأنك إنما تريد من وراء مجادلتهم ، الوصول إلى الحق دون أى شىء سواه .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت أقوم طرق الدعوة إلى الله - تعالى - وعينت أحكم وسائلها ، وأنجعها فى هداية النفوس .

إنها تأمر الدعاة فى كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم إلى سبيل الله لا إلى سبيل غيره : إلى طريق الحق لا طريق الباطل ، وإنها تأمرهم - أيضا- أن يراعوا فى دعوتهم أحوال الناس ، وطباعهم ، وسعة مداركهم ، وظروف حياتهم ، وتفاوت ثقافاتهم .

وأن يخاطبوا كل طائفة بالقدر الذى تسعه عقولهم ، وبالأسلوب الذى يؤثر فى نفوسهم ، وبالطريقة التى ترضى قلوبهم وعواطفهم .

فمن لم يقنعه القول المحكم ، قد تقنعه الموعظة الحسنة ، ومن لم تقنعه الموعظة الحسنة . قد يقنعه الجدال بالتى هى أحسن .

ولذلك كان من الواجب على الدعاة الى الحق ، أن يتزودوا بجانب ثقافتهم الدينية الأصيلة الواسعة - بالكثير من ألوان العلوم الأخرى كعلوم النفس والاجتماع والتاريخ ، وطبائع الأفراد والأمم .. فإنه ليس شىء أنجع فى الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم ، وتغذية هذه الطبائع والميول بما يشبعها من الزاد النافع ، وبما يجعلها تقبل على فعل الخير ، وتدبر عن فعل الشر .

وكما أن أمراض الأجسام مختلفة ، ووسائل علاجها مختلفة -أيضا - ، فكذلك أمراض النفوس متنوعة ، ووسائل علاجها متباينة .

فمن الناس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة : ومنهم من يكون علاجه بالعبارة الرقيقة الرفيقة التى تهز المشاعر ، وتثير الوجدان ، ومنهم من يكون علاجه بالمحاورة والمناقشة والمناظرة والمجادلة بالتى هى أحسن ، لأن النفس الإنسانية لها كبرياؤها وعنادها ، وقلما تتراجع عن الرأى الذى آمنت به . إلا بالمجادلة بالتى هى أحسن . والحق : أن الدعاة إلى الله - تعالى - إذا فقهوا هذه الحقائق فتسلحوا بسلاح الإيمان والعلم ، وأخلصوا لله - تعالى - القول والعمل ، وفطنوا إلى أنجع الأساليب فى الدعوة إلى الله ، وخاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعدادهم .. نجحوا فى دعوتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الآلوسى : وإنما تفاوتت طرق دعوته - ﷺ - لتفاوت مراتب الناس ، فمنهم خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعانى ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه ، وهؤلاء يدعون بالحكمة .

ومنهم عوام ، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد ، شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية

التعلق بالرسوم والعادات ، قاصرة عن درجة البرهان ، لكن لا عناد عندهم ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .

ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق ، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيه من العقائد الباطلة ، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر ، بل لابد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكته ، وتزول شكيمته ، وهؤلاء الذين أمر - ﷺ - بجدالهم بالتى هى أحسن[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ بيان لكمال علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شىء ، وإرشاد للدعاة فى شخص نبيهم - ﷺ - إلى أن عليهم أن يدعوا الناس بالطريقة التى بينها - سبحانه - لهم ، ثم يتركوا النتائج له - تعالى - يسيرها كيف يشاء .

والظاهر أن صيغة التفضيل ﴿ أعلم ﴾ فى هذه الآية وأمثالها ، المراد بها مطلق الوصف لا المفاضلة ، لأن الله - تعالى - لايشاركه أحد فى علم أحوال خلقه ، من شقاوة وسعادة ، وهداية وضلال .

والمعنى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم ، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السبيل الحق وسيجازى كل فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وما دام الأمر كذلك ، فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تسلك فى دعوتك إلى سبيل ربك ، الطرق التى أرشدك إليها ، من الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، ومن كان فيه خير - كما يقول صاحب الكشاف - كفاه الوعظ القليل ، والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه فى حديد بارد[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنجع أساليب الدعوة إلى سبيله فى حالة المسالمة والمجادلة بالحجة والبرهان ، أتبع ذلك ببيان ما ينبغى على المسلم أن يفعله فى حالة الاعتداء عليه أو على دعوته فقال - تعالى - : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... ﴾ .

أى : وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليك ، فعاقبوه بمثل ما فعله بكم ، ولا تزيدوا على ذلك ، فإن الزيادة حيف يبغضه الله - تعالى - .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٥٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٥ .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى ما هو أسمى من مقابلة الشر بمثله فقال : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ لهو ﴾ يعود إلى المصدر فى قوله ﴿ صبرتم ﴾ ، والمصدر إما أن يراد به الجنس فيكون المعنى : ولئن صبرتم فالصبر خير للصابرين ، وأنتم منهم .

وإما أن يراد به صبرهم الخاص فيكون المعنى : ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، لصبركم خير لكم ، فوضع - سبحانه - الصابرين موضع لكم على سبيل المدح لهم ، والثناء عليهم بصفة الصبر .

هذا ، وقد ذكر جمع من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى أعقاب غزوة أحد ، بعد أن مثل المشركون بحمزة - رضى الله عنه - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : روى الحافظ البزار عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد . فنظر الى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه .

وقد مثل المشركون به . فقال - ﷺ - : رحمة الله عليك ، لقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع . أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله - ﷺ - عن يمينه .

ثم قال ابن كثير بعد روايته لهذا الحديث : وهذا إسناد فيه ضعف لأن أحد رواته وهو « صالح بن بشير المرى » ضعيف عند الأئمة . وقال البخارى هو منكر الحديث .

ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وروى عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أبى بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله - ﷺ - : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم . فنادى مناد أن رسول الله - ﷺ - قد أمن الأبيض والأسود إلا فلانا وفلانا - ناسا سماهم - ، فنزلت الآية .

فقال رسول الله - ﷺ - « نصبر ولا نعاقب »[1] .

والذى نراه أن الآية الكريمة - حتى ولو كان سبب نزولها ما ذكر - إلا أن التوجيهات التى

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٦ .

اشتملت عليها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعلى رأس هذه التوجيهات السامية التى اشتملت عليها : دعوة المسلمين الى التزام العدالة فى أحكامهم ، وحضهم على الصبر والصفح ما دام ذلك لا يضر بمصلحتهم ومصلحة الدعوة الإسلامية .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ... ﴾[1] .

ثم أمر - سبحانه - بالصبر أمرا صريحا ، بعد أن بين حسن عاقبته فقال : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ... ﴾ .

أى : : واصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك ، وما صبرك فى حال من الأحوال بمؤت ثماره المرجوة منه إلا بتوفيق الله - تعالى - لك ، وبتثبيته إياك ، وما دام الأمر كذلك فالجأ إليه وحده ، واستعن به - سبحانه - فى كل أمورك ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

ثم نهاه - سبحانه - عن الحزن بسبب كفر الكافرين ، فإن الهداية والإضلال بقدرة الله وحده فقال - تعالى - : ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ .

أى ولا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم عن دعوتك ، ولا يضق صدرك بمكرهم ، فإن الله - تعالى - ناصرك عليهم ، ومنجيك من شرورهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ تعليل لما سبق من أمره بالصبر ، ومن نهيه عن الحزن وضيق الصدر .

أى : إن الله - تعالى - بمعونته وتأييده مع الذين اتقوه فى كل أحوالهم ، وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضاه . ومع الذين يحسنون القول والعلم ، بأن يؤدوهما بالطريقة التى أمر الإسلام بها ، ومن كان الله - تعالى - معه ، سعد فى دنياه وفى أخراه .

وقد قيل لبعض الصالحين وهو يحتضر : أوص . فقال : إنما الوصية من المال . ولا مال لى ،

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٠ .

ولكنى أوصيكم بالعمل بخواتيم سورة النحل .

وبعد فهذه سورة النحل ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : مساء الثلاثاء ٢٧ من ذى الحجة ١٤٠٣ هـ

الموافق ٤/١٠/١٩٨٣ م

تفسير

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء ، أسأل الله - عز وجل - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة فى ١٤٠٤/١/٥ هـ

الموافق ١٩٨٣/١٠/١٠ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة الإسراء

١ - سورة الإسراء هى السورة السابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء .... الخ .

أما ترتيبها فى النزول ، فقد ذكر السيوطى فى الإتقان أنها السورة التاسعة والأربعون ، وأن نزولها كان بعد سورة القصص[١] .

٢ - وتسمى - أيضا - بسورة بنى إسرائيل ، وبسورة « سبحان » ، وعدد آياتها عند الجمهور إحدى عشرة آية ومائة ، وعند الكوفيين عشر آيات ومائة آية .

٣ - ومن الأحاديث التى وردت فى فضلها ، ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ومريم : إنهن من العِتَاق الأُول ، وهنّ من تلادى[٢] .

والعتاق : جمع عتيق وهو القديم ، وكذلك التالد بمعنى القديم . ومراده - رضى الله عنه - أن هذه السور من أول ما حفظه من القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد بن زيد ، عن مروان عن أبى لبابة ، قال : سمعت عائشة - رضى الله عنها - تقول : كان رسول الله - ﷺ - يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة : « بنى إسرائيل » و« الزمر »[٣] .

٤ - ومن وجوه مناسبة هذه السورة لما قبلها ، ما ذكره أبو حيان بقوله : « ومناسبة هذه لما قبلها ، أنه - تعالى - لما أمره - فى آخر النحل - بالصبر ، ونهاه عن الحزن عليهم ، وعن أن يضيق صدره من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر ، وغير ذلك مما رموه به ، أعقب - تعالى - ذلك بذكر شرفه ، وفضله ، واحتفائه به ، وعلو منزلته عنده »[٤] .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسينى .
(٢ ، ٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣ - طبعة مكتبة الشعب .
(٤) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٣ .

٥ - وسورة الإسراء من السور المكية ، ومن المفسرين الذين صرحوا بذلك دون أن يذكروا خلافا فى كونها مكية . الزمخشرى ، وابن كثير ، والبيضاوى ، وأبو حيان .

وقال الآلوسى : وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور .

وقيل : هى مكية إلا آيتين : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ... وإن كادوا ليستفزونك ﴾ .

وقيل : إلا أربعا ، هاتان الآيتان ، وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق ... ﴾[1] .

والذى تطمئن إليه النفس أن سورة الإسراء بتمامها مكية - كما قال جمهور المفسرين - لأن الروايات التى ذكرت فى كون بعض آياتها مدنية ، لا تنهض دليلا على ذلك لضعفها .. .

والذى يغلب على الظن أن نزول هذه السورة الكريمة : أو نزول معظمها ، كان فى أعقاب حادث الإسراء والمعراج .

وذلك لأن السورة تحدثت عن هذا الحدث ، كما تحدثت عن شخصية الرسول - ﷺ - حديثا مستفيضا ، وحكت إيذاء المشركين له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، كمطالبتهم إياه بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا .. .

وقد ردت السورة الكريمة على كل ذلك ، بما يسلى الرسول - ﷺ - ويثبته ، ويرفع منزلته ، ويعلى قدره ... فى تلك الفترة الحرجة من حياته - ﷺ - وهى الفترة التى أعقبت موت زوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها - وموت عمه أبى طالب .. .

٦ - (أ) وعندما نقرأ سورة الإسراء نراها فى مطلعها تحدثنا عن إسراء الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعن الكتاب الذى آتاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - ليكون هداية لقومه ، وعن قضاء الله فى بنى إسرائيل .. .

قال - تعالى - : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، ألا تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢.

شكورا . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ﴾ ..

(ب) ثم يبين - سبحانه - بعد ذلك أن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - ليهدى الناس إلى الطريق الأقوم ، وليبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، وسيحاسب عليه يوم القيامة ، دون أن تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .. .

قال - تعالى - : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أن لهم أجرا كبيرا... ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا * من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

(جـ) ثم تسوق السورة الكريمة سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن عاقبة الترف والفسق ، الدمار والهلاك ، وأن من يريد العاجلة كانت نهايته إلى جهنم ، ومن يريد الآخرة ويقدم لها العمل الصالح كانت نهايته إلى الجنة .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ فيقول : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح . وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ .

(د) وبعد أن بين - سبحانه - أن سعادة الآخرة منوطة بإرادتها ، وبأن يسعى الانسان لها وهو مؤمن ، عقب ذلك بذكر بضع وعشرين نوعا من أنواع التكاليف ، التى متى نفذها المسلم ظفر برضى الله - تعالى - ومثوبته ، ومن تلك التكاليف قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾.. .

﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا .. ﴾ .

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم... ﴾ .

﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ .

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ .

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم.. ﴾ .

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا .. ﴾ .

(هـ) وبعد أن ساقت السورة الكريمة تلك التكاليف المحكمة التى لا يتطرق إليها النسخ أو النقض ، فى ثمانى عشرة آية ، أتبعت ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبتنزيه الله - تعالى - عن الشريك ، وببيان أن كل شىء يسبح بحمده - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾ .

(و) ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال المشركين ، وترد عليها بما يدحضها ، وتأمر المؤمنين بأن يقولوا الكلمة التى هى أحسن .. فتقول : .

﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا.أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا . وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ .

(ز) وبعد أن تقرر السورة الكريمة شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وقدرته على كل شىء ، بعد أن تقرر ذلك ، تحكى لنا جانبا من قصة آدم وإبليس فتقول : .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ .

(ح) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانا من نعم الله على عباده فى البر والبحر ، وألوانا من

تكريمه لبنى آدم ، كما تصور أحوال الناس يوم القيامة ، وعدالة الله - تعالى - فى حكمه عليهم فتقول :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا .. ﴾ .

ثم يقول - سبحانه - : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا .. ﴾ .

(ط) ثم تحكى السورة جانبا من نعم الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - حيث ثبته - سبحانه - أمام مكر أعدائه ، وأمره بالمداومة على الصلاة وعلى قراءة القرآن ، لأن ذلك يزيده ثباتا على ثباته، وتكريما على تكريمه .

قال - تعالى - : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾ .

(ى) ثم يقول - سبحانه - : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل ربِ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرَج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ..

(ك) وبعد أن تقرر السورة الكريمة طبيعة الإنسان ، وتقرر أن الروح من أمر الله - تعالى - ، تتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان أنه المعجزة الخالدة للرسول - ﷺ - ، وبإيراد المطالب المتعنتة التى طالب المشركون بها النبى - ﷺ - .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر كل ذلك بأسلوبه البليغ فيقول : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ .

(ل) ثم تسوق السورة الكريمة فى أواخرها الدلائل الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وتحكى جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وتؤكد أن هذا القرآن أنزله الله - تعالى - بالحق ، وبالحق نزل ، وأنه نزله مفرقا ليقرأه الناس على تؤدة وتدبر .

وكما افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، فقد اختتمت بحمد الله - تعالى - وتكبيره . قال - تعالى - :

﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾ .

(م) وبعد فهذا عرض إجمالى لأهم الموضوعات والمقاصد التى اشتملت عليها سورة الإسراء . ومن هذا العرض يتبين لنا مايلى :

١ - أن سورة الإسراء - كغيرها من السور المكية - قد اهتمت اهتماما بارزا بتنقية العقيدة من كل ما يشوبها من شرك أو انحراف عن الطريق المستقيم .

وقد ساقت السورة فى هذا المجال أنواعا متعددة من البراهين على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، ووجوب إخلاص العبادة له ، وعلى تنزيهه - سبحانه - عن الشريك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما . ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ .

٢ - كذلك على رأس الموضوعات التى فصلت السورة الحديث عنها ، شخصية الرسول - ﷺ - ، فقد ابتدأت بإسراء الله - تعالى - به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه - سبحانه - من آياته ما أراه ، ثم تحدثت عن طبيعة رسالته ، وعن مزاياها ، وعن موقف المشركين منه ، وعن المطالب المتعنتة التى طلبوها منه ، وعن تثبيت الله - تعالى - له ، وعن تبشيره بحسن العاقبة .. .

قال - تعالى - : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

٣ - من الواضح - أيضا - أن سورة الإسراء اعتنت بالحديث عن القرآن الكريم ، من حيث هدايته ، وإعجازه ، ومنع الذين لا يؤمنون به عن فقهه ، واشتماله على ما يشفى الصدور ، وتكراره للبينات والعبر بأساليب مختلفة ، ونزوله مفرقا ليقرأه الناس على مكث ..

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ... ﴾ .

﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا .. ﴾ .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. ﴾ .

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا .. ﴾ .

٤ - اهتمت السورة الكريمة اهتماما بينا ، بالحديث عن التكاليف الشرعية ، المتضمنة لقواعد السلوك الفردى والجماعى .

وقد ذكرت السورة أكثر من عشرين تكليفا ، فى آيات متتالية ، بدأت بقوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾ الآية ٢٢ وانتهت بقوله - تعالى - : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ الآية ٣٨ .

وبجانب حديثها المستفيض عن التكاليف الشرعية ، تحدثت - أيضا - عن طبيعة الإنسان فى حالتى العسر واليسر ، وعن بخله الشديد بما يملكه .. .

قال - تعالى - : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

٥ - ومن الجوانب التى حرصت السورة الكريمة على تجليتها والكشف عنها : بيان سنن الله التى لا تتخلف فى الهداية والإضلال ، وفى الثواب والعقاب ، وفى النصر والخذلان ، وفى الرحمة والإهلاك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ .

﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ .

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ... ﴾ .

هذه بعض المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها سورة الإسراء ، وهناك مقاصد أخرى يراها المتأمل فيها ، والمتدبر لآياتها ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

افتتحت سورة الإسراء بتنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق بجلاله ، كما يدل على ذلك لفظ « سبحان » الذى من أحسن وجوه إعرابه ، أنه اسم مصدر منصوب - على أنه مفعول مطلق - بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله - تعالى - سبحانا أى تسبيحا ، بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء .

قال القرطبى : وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة - أى المبشرين بالجنة - أنه قال للنبى - ﷺ - : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : « تنزيه الله من كل سوء »[١] .

وقوله ﴿ أسرى ﴾ من الإسراء ، وهو السير بالليل خاصة .

قال الجمل : يقال أسرى وسرى ، بمعنى سار فى الليل ، وهما لازمان ، لكن مصدر الأول الإسراء ومصدر الثانى السرى - بضم السين كالهدى - فالهمزة ليست للتعدية إلى المفعول ، وإنما جاءت التعدية هنا من الباء . ومعنى أسرى به ، صيره ساريا فى الليل[٢] .

والمراد ﴿ بعبده ﴾ خاتم أنبيائه محمد - ﷺ - ، والإضافة للتشريف والتكريم . . وأوثر التعبير بلفظ العبد ، للدلالة على أن مقام العبودية لله - تعالى - هو أشرف صفات

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٠٤ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٦٠٨ .

المخلوقين وأعظمها وأجلها ، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه فى هذا المقام لعبر به ، وللإشارة - أيضا - إلى تقرير هذه العبودية لله - تعالى - وتأكيدها ، حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية ، حيث ألّهوا عيسى - عليه السلام - ، وألّهوا أمه مريم ، مع أنهما بريئان من ذلك . .

قال الشيخ القاسمى نقلا عن الإمام ابن القيم فى كتاب « طريق الهجرتين » : أكمل الخلق أكملهم عبودية لله - تعالى - ، ولهذا كان النبى - ﷺ - أقرب الخلق إلى الله - تعالى - وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لكماله فى مقام العبودية . وكان - ﷺ - يقول : « أيها الناس ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنما أنا عبد » . وكان يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وذكره - سبحانه - بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : فى مقام الإسراء حيث قال : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ .

وفى مقام الدعوة حيث قال : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ . .

وفى مقام التحدى حيث قال : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ليلا ﴾ ظرف زمان لأسرى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟ .

قلت : أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير ، تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية ...»[2] .

وقوله : ﴿ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ بيان لابتداء الإسراء وانتهائه .

أى : جل شأن الله - عز وجل - وتنزه عن كل نقص ، حيث أسرى بعبده محمد - ﷺ - فى جزء من الليل ، من المسجد الحرام الذى بمكة إلى المسجد الأقصى الذى بفلسطين .

ووصف مسجد مكة بالحرام ، لأنه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٦ .

ووصف مسجد فلسطين بالأقصى ، لبعده عن المسجد الحرام ، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الراكب للإبل فى مدة شهر أو أكثر .

قال الآلوسى : ووصفه بالأقصى - أى الأبعد - بالنسبة إلى من بالحجاز . وقال غير واحد : إنه سمى به لأنه أبعد المساجد التى تزار من المسجد الحرام وبينهما زهاء أربعين ليلة . وقيل - وصف بذلك - : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد مواضعها ..[1] .

وظاهر الآية يفيد أن الإسراء كان من المسجد الحرام ، فقد أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « بينا أنا فى الحجر - وفى رواية - فى الحطيم ، بين النائم واليقظان ، إذ أتانى آت فشق ما بين هذه إلى هذه ، فاستخرج قلبى فغسله ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه » ...

وقيل أُسرِى به من بيت أم هانىء بنت أبى طالب ، فيكون المراد بالمسجد الحرام : الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : الحرم كله مسجد .

ويمكن الجمع بين هذه الروايات ، بأن الرسول - ﷺ - بقى فى بيت أم هانىء لفترة من الليل ، ثم ترك فراشه عندها وذهب إلى المسجد ، فلما كان فى الحِجْر أو فى الحطيم بين النائم واليقظان ، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السموات العلا . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد - كما جاء فى بعض الروايات .

وبذلك يترجح لدينا أن وجود الرسول - ﷺ - فى تلك الليلة فى بيت أم هانىء ، لا ينفى أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام ، كما تقرر الآية الكريمة .

وقوله ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ صفة مدح للمسجد الأقصى .

أى : جل شأن الله الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى أحطنا جوانبه بالبركات الدينية والدنيوية .

أما البركات الدينية فمن مظاهرها : أن هذه الأرض التى حوله ، جعلها الله - تعالى - مقرا لكثير من الأنبياء ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وداود وسليمان ، وزكريا ويحيى وعيسى .

قال - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها .. ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

وقال - سبحانه - فى شأن إبراهيم : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾[١] .

والمقصود بهذه الأرض : أرض الشام ، التى منها فلسطين .

وأما البركات الدنيوية فمن مظاهرها : كثرة الأنهار والأشجار والثمار والزروع فى تلك الأماكن .

قال بعض العلماء : وقد قيل فى خصائص المسجد الأقصى : أنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبين ، ومعراجه إلى السموات العلا .. وأولى القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ إشارة الى الحكمة التى من أجلها أسرى الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - فقوله ﴿ لنريه ﴾ متعلق بأسرى .

و« من » للتبعيض لأن ما رآه النبى - ﷺ - وإن كان عظيما إلا أنه مع عظمته بعض آيات الله بالنسبة لما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب .

أى : أسرينا بعبدنا محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، ثم عرجنا به إلى السموات العلا ، لنطلعه على آياتنا ، وعلى عجائب قدرتنا ، والتى من بينها : مشاهدته لأنبيائنا الكرام ، ورؤيته لما نريد أن يراه من عجائب وغرائب هذا الكون .

ولقد وردت أحاديث متعددة فى بيان ما أراه الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فى تلك الليلة المباركة ، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال : ... ووجدت فى السماء الدنيا آدم فقال لى جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه ورد على آدم السلام فقال : مرحبا وأهلا بابنى ، فنعم الابن أنت .. .

وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لما عرج بى ربى - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم ..[٣] » .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على سعة علمه ، ومزيد فضله فقال - تعالى - : ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧١ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٥ .

(٣) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ص ٨ طبعة دار الشعب .

أى : إنه - سبحانه - هو السميع لأقوال عباده : مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم . بصير بما يسرونه ويعلنونه ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب ، بدون ظلم أو محاباة .

هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل منها :

١ - أن هذه الآية دلت على ثبوت الإسراء للنبى - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأما العروج به - ﷺ - إلى السموات العلا فقد استدل عليه بعضهم بآيات سورة النجم ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ﴾ .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة بأسانيدها ومتونها ، وقال فى أعقاب ذكر بعضها :

قال البيهقى : وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية[١] .

وقال القرطبى : ثبت الإسراء فى جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا[٢] .

٢ - قال بعض العلماء ما ملخصه : ذهب الاكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهرى وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووى ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان فى رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وإختار الحافظ المقدسى أنه كان فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب[٣] .

والذى تطمئن إليه النفس أن حادث الإسراء والمعراج ، كان بعد وفاة أبى طالب والسيدة خديجة - رضى الله عنها - .

ووفاتها كانت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاثة . وفى هذه الفترة التى أعقبت وفاتها اشتد أذى

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ص ٧ طبعة دار الشعب .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٠٥
(٣) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٢٨٨٨ .

المشركين بالنبى - ﷺ - فكان هذا الحادث لتسليته - ﷺ - عما أصابه منهم ، ولتشريفه وتكريمه . .

٣ - من المسائل التى ثار الجدل حولها ، مسألة : أكان الإسراء والمعراج فى اليقظة أم فى المنام ؟ وبالروح والجسد أم بالروح فقط ؟ .

وقد لخص بعض المفسرين أقوال العلماء فى هذه المسألة فقال : اعلم أن هذا الإسراء به - ﷺ - المذكور فى هذه الآية الكريمة زعم بعض أهل العلم أنه بروحه دون جسده ، زاعما أنه فى المنام لا فى اليقظة ، لأن رؤيا الأنبياء وحى .

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد ، والمعراج بالروح دون الجسد .

ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده - ﷺ - يقظة لا مناما ، لأنه قال : ﴿ بعبده ﴾ والعبد مجموع الروح والجسد .

ولأنه قال : ﴿ سبحان ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان مناما لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه .

ولأنه لو كان رؤيا منام لما كان فتنة ، ولا سببا لتكذيب قريش له - ﷺ - لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح .

ولأنه - سبحانه - قال ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ والظاهر أن ما أراه الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إنما كان رؤيا عن طريق العين ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ولأنه ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن الرسول - ﷺ - قد استعمل فى رحلته البراق ، واستعماله البراق يدل على أن هذا الحادث كان بالروح والجسد وفى اليقظة لا فى المنام .

وما ثبت فى الصحيحين عن طريق شريك عن أنس - رضى الله عنه - أن الإسراء المذكور وقع مناما ، لاينافى ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة ، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أنه كان يقظة وبالروح والجسد ، لإمكان أنه - ﷺ - رأى الإسراء المذكور مناما ، ثم جاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح ، فأسرى به يقظة تصديقا لتلك الرؤيا المنامية[1] .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٣٤٨ لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

هذا ، ومن العلماء الذين فصلوا القول فى تلك المسألة تفصيلا محققا ، القاضى عياض فى كتابه « الشفا » فقد قال - رحمه الله - بعد أن ساق الآراء فى ذلك :

والحق فى هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالروح والجسد فى القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده وروحه حال يقظته استحالة ..[1] .

وما قاله القاضى عياض - رحمه الله - فى هذه المسألة هو الذى نعتقده ، ونلقى الله - تعالى - عليه .

وبعد أن بين الله - سبحانه - جانبا من مظاهر تكريمه وتشريفه لنبيه محمد - ﷺ - عن طريق إسرائه به . أتبع ذلك بالحديث عما أكرم به نبيه موسى - عليه السلام - فقال :

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

والواو فى قوله - تعالى - : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ ، استئنافية ، أو عاطفة على قوله : ﴿ سبحان الذى أسرى .. ﴾ .

والمراد بالكتاب : التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - والضمير المنصوب فى قوله : ﴿ وجعلناه ﴾ يعود إلى الكتاب .

وقوله ﴿ لبنى إسرائيل ﴾ متعلق بهدى .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ﴾ .

و﴿ أن ﴾ فى قوله ﴿ أن لاتتخذوا من دونى وكيلا ﴾ يصح أن تكون زائدة وتكون الجملة مقولة لقول محذوف ، والمعنى :

---

(١) راجع الشفا للقاضى عياض جـ ١ ص ١٤٥ وما بعدها .

وآتينا موسى الكتاب من أجل أن يكون هداية لبنى إسرائيل إلى الصراط المستقيم .

وقلنا لهم : لا تتخذوا غير الله - تعالى - وكيلا ، أى : معبودا ، تفوضون إليه أموركم ، وتكلون إليه شئونكم ، فهو - سبحانه - : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قرأ أبو عمرو « ألا يتخذوا » بالياء خبرا عن بنى إسرائيل : وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ، أى : قلنا لهم لا تتخذوا . ويصح أن تكون ﴿ أن ﴾ ناصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى لئلا تتخذوا ... وأن تكون ﴿ أن ﴾ بمعنى أى التى للتفسير - أى هى مفسرة لما تضمنه الكتاب من النهى عن اتخاذ وكيل سوى الله - تعالى -[1] .

وقوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ... ﴾ منصوب على الاختصاص ، أو على النداء والمقصود بهذه الجملة الكريمة إثارة عزائمهم نحو الإيمان والعمل الصالح ، وتنبيههم إلى نعمه - سبحانه - عليهم ، حيث جعلهم من ذرية أولئك الصالحين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - وحضهم على السير على منهاجهم فى الإيمان والعمل الصالح ، فإن شأن الأبناء أن يقتدوا بالآباء فى التقوى والصلاح .

والمعنى : لا تتخذوا يا بنى إسرائيل معبودا غير الله - تعالى - ، فأنتم أبناء أولئك القوم الصالحين ، الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فأنجاهم الله - تعالى - مع نبيهم من الغرق .

قال الآلوسى : وفى التعبير بما ذكر إيماء إلى علة النهى من أوجه : أحدها تذكيرهم بالنعمة فى إنجاء آبائهم . والثانى : تذكيرهم بضعفهم وحالهم المحوج إلى الحمل والثالث : أنهم أضعف منهم - أى من آبائهم - لأنهم متولدون عنهم وفى إيثار لفظ الذرية الواقعة على الأطفال والنساء فى العرف الغالب مناسبة تامة لما ذكر[2] .

وقوله : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ تذييل قصد به الثناء على نوح - عليه السلام - أى : إن نوحا - عليه السلام - كان من عبادنا الشاكرين لنعمنا ، المستعملين لها فيما خلقت له ، المتوجهين إلينا بالتضرع والدعاء فى السراء والضراء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٥٣ طبعة دار الكتاب العالمية .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٥ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ ما وجه ملاءمته لما قبله ؟ .

قلت : كأنه قيل لا تتخذوا من دونى وكيلا ، ولا تشركوا بى ، لأن نوحا كان عبدا شكورا ، وأنتم مَنْ آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم ، والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح - عليه السلام - فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص ..[1] .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسلوب يرضى العقول السليمة ، والعواطف الشريفة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك قضاءه العادل فى بنى إسرائيل وساق سنة من سننه التى لا تتخلف فى خلقه فقال - تعالى -:

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ... ﴾ إخبار من الله - تعالى - لهم ، بما سيكون منهم ، حسب ما وقع فى علمه المحيط بكل شىء ، والذى ليس فيه إجبار أو قسر ، وإنما هو صفة انكشافية ، تنبىء عن مآلهم وأحوالهم .

قال أبو حيان : والفعل ﴿ قضى ﴾ يتعدى بنفسه إلى مفعول ، كقوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى موسى الأجل .. ﴾ ولما ضُمِّن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدى بإلى أى : وأوحينا أو أنفذنا إلى بنى إسرائيل فى القضاء المحتوم المثبوت وعن ابن عباس : وأعلمناهم ..[1] .

والمراد بالكتاب : التوراة ، وقيل اللوح المحفوظ .

واللام فى قوله ﴿ لتفسدن ... ﴾ جواب قسم محذوف تقديره : والله لتفسدن .

ويجوز أن تكون جوابا لقوله - تعالى - : ﴿ وقضينا... ﴾ لأنه مضمن معنى القسم ، كما يقول القائل : قضى الله لأفعلن كذا ، فيجرى القضاء والقدر مجرى القسم .. .

والمقصود بالأرض : عمومها أو أرض الشام .

و« مرتين » منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : ﴿ لتفسدن ﴾ من غير لفظه ، والمراد لتفسدن إفسادتين وقوله - عز وجل - : ﴿ ولتعلن .. ﴾ من العلو وهو ضد السفل ، والمراد به هنا : التكبر والتجبر والبغى والعدوان .

والمعنى : وأخبرنا بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة خبراً مؤكدا : وأوحينا إليهم بواسطه رسلنا ، بأن قلنا لهم : لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتستكبرن على الناس بغير حق ، إستكبارا كبيرا ، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار .

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه فى الكتاب ، يدل على ثبوته ، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبى - الإحكام للشىء والفراغ منه .

وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم ، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان .

---

(١) تفسير البحر المحيط لابى حيان جـ ٦ ص ٨ طبعة دار الفكر - بيروت .

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض : تحريفهم للتوراة ، وتركهم العمل بما فيها من أحكام ، وقتلهم الأنبياء والمصلحين .

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ، ويدمرهم تدميرا ، فقال - تعالى - : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد . فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ﴾ .

والمراد بالوعد : الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم فى الأرض ، فالكلام على حذف مضاف ، والضمير فى ﴿ أولاهما ﴾ يعود على المرتين المعبر عنهما بقول : ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ .

وقوله ﴿ فجاسوا ﴾ معطوف على ﴿ بعثنا ﴾ وأصل الجوس : طلب الشىء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب .

والمعنى : فإذا حان وقت عقابكم - يابنى إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم ﴿ عبادا لنا أولى بأس شديد ﴾ أى أصحاب بطش شديد فى الحروب والقتال ، فأذلوكم وقهروكم ، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار ، لقتل من بقى منكم على قيد الحياة ، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم ، وهتك أعراضكم ، وتخريب دياركم ... وعدا نافذا لا مرد له ، ولا مفر لكم منه .

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاقبة بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول - فعن ابن عباس وقتادة : هم جالوت وجنوده ، وقال ابن جبير وابن إسحاق : هم سنحاريب ملك بابل وجنوده . وقيل : هم العمالقة ، وقيل : بختنصر[1] .

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم فى المرتين ، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة .

فإن قال قائل : وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بنى إسرائيل فى التوارة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين . وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان ، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم ؟ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧ .

فالجواب : أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير ، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم .

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى إلى الهلاك ، وأن يحذروا أممهم من ذلك ، ويبصروهم بسوء عاقبة السير فى طريق الغى ، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل - .

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم ، تنبيه اليهود المعاصرين للنبى - ﷺ - ومن على شاكلتهم فى الفسوق والعصيان من المشركين ، إلى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن الإفساد عاقبته الخسران .

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول - ﷺ - الذى ثبتت نبوته ثبوتا لاشك فيه ، لكى يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

ثم أشار - سبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار ، وهى أن الأمم المغلوبة على أمرها . تستطيع أن تسترد مجدها ، متى أصلحت من شأن أنفسها ، ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه - : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ .

ففى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم ، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم .

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ .

والكَرَّة : المرة من الشيء : وأصلها من الكَرِّ وهو الرجوع ، مصدر كريكر - من باب قتل - ، يقال : كرَّ الفارس كَرًّا ، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال .

والمراد بالكرة هنا : الدولة والغلبة على سبيل المجاز .

أى : ثم أعدنا لكم - يابنى إسرائيل - الدولة والغلبة على أعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم ، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله - تعالى - واتبعتم ما جاءكم به رسلكم .

والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان ، وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر .

قال أبو حيان : وجعل - سبحانه - ﴿ رددنا ﴾ موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع

الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع ، عبر عن المستقبل بالماضى[1] .

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين ﴾ .

أى : لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم ، بل فضلا عن ذلك ، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد ، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم ، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم .

وأما النعمة الثالثة فتتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ .

والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته ، وهو منصوب على التمييز . والمفضل عليه محذوف ، والتقدير : وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم . .

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم ، وأن تحسنوا الاستفادة منها ، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة ، فقد نصركم بعد هزيمتكم ، وأغناكم بعد فقركم ، وكثّركم بعد قتلكم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح ، والعصيان عاقبته الخسران ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾ .

أى : إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم ، بأن أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - أفلحتم وسعدتم ، وجنيتم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل ، وإن أسأتم أعمالكم ، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة ، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى - .

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن ﴿ بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ﴾ .

وكيف أن الإحسان كانت عاقبته أن ﴿ رددنا لكم الكرة ﴾ على أعدائكم ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ .

قال صاحب البحر ما ملخصه : وجواب « وإن أسأتم » قوله « فلها » وهو خبر لمبتدأ محذوف أى : فالإساءة لها . قال الكرمانى : قال - سبحانه - : ﴿ فلها ﴾ باللام ازدواجا .

---

(١) تفسير أبى حيان جـ ٦ ص ١٠ .

أى : أنه قابل ﴿ لأنفسكم ﴾ بقوله ﴿ فلها ﴾ . وقال الطبرى اللام بمعنى إلى أى : فإليها ترجع الإساءة .

وقيل : اللام بمعنى على . أى : فعليها ، كما فى قول الشاعر : فخر صريعا لليدين وللفم[1] .

ثم بين - سبحانه - ما يحل بهم من دمار ، بعد إفسادهم للمرة الثانية ، فقال - تعالى - : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ .

والكلام أيضا هنا على حذف مضاف ، وجواب إذا محذوف دل عليه ما تقدم وهو قوله ﴿ بعثنا عليكم عبادا لنا ﴾ فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض ، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أى : ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم ، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله ﴿ ليسوءوا ﴾ الواو للعباد أولى البأس الشديد .

وفى عود الواو على العباد نوع استخدام ، إذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده ، والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده .

وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل ﴿ ليسوء ﴾ والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد ، وإما البعث .

وقرأ الكسائى لنسوء - بنون العظمة . أى : لنسوء نحن وهو موافق لما قبله ، من قوله : بعثنا ، ورددنا ، وأمددنا ، ولما بعده من قوله : عدنا ، وجعلنا ، وقرأ الباقون . ليسوءوا ، مسندا إلى ضمير الجمع العائد على العباد ، وهو موافق لما بعده من قوله : ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ ﴿ وليتبروا ﴾[2] .

وقال الإمام الرازى : ويقال ساءه يسوءه إذا أحزنه ، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه ، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح فى القلب ظهر الإشراق فى الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب ، ظهر الكلوح فى الوجه[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله - سبحانه - ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦١٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٢ ص ١٥٩ .

والمراد بالمسجد : المسجد الأقصى الذى ببيت المقدس ، وقوله «كما دخلوه » صفة لمصدر محذوف .

والمعنى : وليدخلوا المسجد دخولا كائنا كدخولهم إياه أول مرة .

قال أبو حيان : ومعنى ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال[1] .

أى : أن المراد من التشبيه ، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ يشعر بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد ببنى إسرائيل ، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه . ومنه قول الشاعر :

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبنى وآخر رافع

أى : يخرب ويهد ما يبنى .

و« ما » فى قوله ﴿ ما علوا ﴾ اسم موصول مفعول يتبروا : وهو عبارة عن البلاد والأماكن التى هدموها ، والعائد محذوف ، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله .

أى : وليدمرا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها ، وصارت فى حوزتهم ، تدميرا تاما لا مزيد عليه .

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل ، عقب إفسادهم الثانى فى الأرض ، لم يكتفوا بجوس الديار ، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم ، ودخول المسجد الأقصى فاتحين ومخربين ، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا يوصف .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين ، قد يكون طريقا لرحمتهم ، وسببا فى توبتهم وإنابتهم ، إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالأحداث الماضية ، وفهموا عن الله - تعالى - سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر ، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى أبلغ تعبير وأحكمه . فقال - تعالى - : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٥ ص ١١ .

أي: عسى ربكم أن يرحمكم : ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة ، وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم ، فقد علمتم أنه - سبحانه - لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفعه إلا بتوبة .

قال : أبو حيان : وهذه الترجية ليست لرجوع دولة ، وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام - ولكنهم لم يفعلوا[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم ، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم .

أى : وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة أمرى ، وانتهاك حرماتى ، بعد أن تداركتكم رحمتى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار .

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التى جاءهم بها الرسول - ﷺ - ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله - ﷺ - وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين ، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبى - ﷺ - وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل . .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - :« عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين » .

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أى : إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة ، أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم « حصيرا » أى : سجنا حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه ، أو الفكاك عنه ، أو فراشا تفترشونه ، كما قال - تعالى - : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش . وكذلك نجزى الظالمين ﴾ .

قال بعض العلماء : قوله ﴿ حصيرا ﴾ فيه وجهان : الأول : أن الحصير المحبس والسجن . من الحصر وهو الحبس : يقال حصره يحصره حصرا ، إذا ضيق عليه وأحاط به .

والثانى أن الحصير : البساط والفراش ، من الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ..»[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت لنا قضاء الله - تعالى - فى بنى إسرائيل ، وساقت لنا لكى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف ، والتى من أبرزها أن

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١١ .
(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٣ صـ٣٧٢ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

الايمان والصلاح عاقبتهما الفلاح ، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

هذا ، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض ، يرى أقوالا متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف[1] .

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بنى إسرائيل فى التوراة ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ فكان أول الفسادين قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، وكان يدعى « صحابين » فبعث الجنود ، وكانوا من أهل فارس .. فتحصنت بنو إسرائيل .. ودخل فيهم « بختنصر » - أحد جنود صحابين - وسمع أقوالهم .. الخ[2] .

وهذا الأثر من وجوه ضعفه ، أن غزو النبط ومعهم بختنصر لبنى اسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالى ستة قرون .

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات : الأولى فى سنة ٦٠٦ ق .م والثانية فى سنة ٥٩٩ ق . م ، والثالثة فى سنة ٥٨٨ ق . م .

وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم ، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل .

أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره : فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى .

وإذاً فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومع « بختنصر » يتنافى مع الحقائق التاريخية .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الأثر اضطرابه ظاهر ، لأن « صحابين » ملك النبط ، هو الذى يسميه المؤرخون « سنحاريب » وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق . م أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة ، أى : أن بختنصر لم يكن معاصرا له .

والرأى الذى نختاره : هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم

---

(١) ذكرنا معظم هذه الأقوال فى كتابنا « بنو إسرائيل فى القرآن والسنة » جـ ٢ ص ٣٥٩ وناقشناها ، وضعفنا ما يستحق التضعيف منها ، ورجحنا ما يستحق الترجيح .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٧ - بتصرف وتلخيص .

الأول ، هم جالوت وجنوده . ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلى : .

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة ، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل ، وبين « جالوت » قائد أعدائهم ، ما يدل على أن بنى اسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم .

ويتجلى هذا المعنى فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لاتقاتلوا قالوا وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .. ﴾ .

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا.. ﴾ يدل دلالة قوية ، على أنهم كانوا قبل قتالهم لجالوت مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم ، وإلى مفارقة أبنائهم .

٢ - قوله - تعالى - : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ صريح فى أن الله - تعالى - نصر بنى إسرائيل - بعد أن تابوا وأنابوا - على أعدائهم .

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن علينا ، من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده . .

قال - تعالى - : ﴿ ولما برزوا[1] لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه ممايشاء .. ﴾ .

ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل ، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم ، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم . ولاشك أن النصر فى هذه الحالة ، أدعى لطاعة الله - تعالى - وشكره على آلائه .

٣ - قوله - تعالى - : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم طالوت ، وداود ، وسليمان لهم .

ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة ، ازدهرت مملكتهم ، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة ، وبالبنين الكثيرة ، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة .

---

(١) أى بنو إسرائيل .

أما بعد هذا العهد ، بل وقبل هذا العهد ، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات . .

فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق . م تقريبا ، انقسمت مملكتهم إلى قسمين : مملكة يهوذا فى الجنوب ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، واستمرتا فى صراع ونزاع حتى قضى الأشوريون سنة ٧٢١ ق . م على مملكة إسرائيل ، وقضى « بختنصر » على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق . م .

٤ - ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ﴾ قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، فجاس خلال ديارهم ، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا ، فبعث لهم طالوت ، فقاتلوا جالوت ، وانتصروا عليه ، وقتل داود جالوت ، ورجع إلى بنى اسرائيل ملكهم . فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة « بختنصر » فخرب المساجد ، وتبر ما علوا تتبيرا ..[1] .

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، هم جالوت وجنوده .

أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى ، فيرى كثير من المفسرين أنهم « بختنصر » وجنوده .

وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب ، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم ، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق . م .

إلا أننا نؤثر على هذا الرأى ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى ، هم الرومان بقيادة زعيمهم ، تيطس سنة ٧٠ م . لأمور من أهمها : .

١ - أن الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل « تيطس » بهم ، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال « بختنصر » لهم . فهم - على سبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم ، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .

---

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطى جـ ٤ ص ١٦٣ .

٢ - ضربات الرومان - فى ذاتها - كانت أشد وأقسى على بنى اسرائيل . من ضربات « بختنصر » لهم .

فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة « تيطس » بلغ مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير[١] .

بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد « بختنصر » كان أقل من هذا العدد بكثير .

ولقد وصف المؤرخون النكبة التى أوقعها الرومان بهم ، بأوصاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم .

يقول أحد الكتاب واصفا ما حل باليهود على يد « تيطس » الرومانى : كان « تيطس » فى الثلاثين من عمره ، حين وقف سنة ٧٠ م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه ، بعد أن بدأت المدينة تعانى من أهوال الحصار .

وبعد أن اقتحم « تيطس » وجنوده المدينة ، أصدر أمره إليهم : أن احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم ، وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام - حين قال : ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا ، وسيحل الغضب على أهلها ، وسيسقطون صرعى على حد السيف ، ويسيرون عبيدا إلى كل مصر ، وستطأ أورشليم الأقدام[٢] .

٣ - النكبة التى أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشنع بكثير من النكبة التى أنزلها بختنصر بهم . لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وأخذهم أسرى إلى بلاده وبقائهم فى الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى ، بمساعدة « قورش » ملك الفرس ، الذى انتصر على « بختنصر » سنة ٥٣٨ ق . م تقريبا ، وبدأوا يتكاثرون من جديد .

أما بعد تنكيل « تيطس » بهم فلم تقم لهم قائمة ، ومزقوا فى الأرض شر ممزق ، وانقطع دابرهم كأمة .

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه « تيطس » بهم من ضربات : إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة ، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد « تيطس » تفرقوا فى جميع بلاد الله ، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها[٣] ..

---

(١) من كتاب « تاريخ الإسرائيليين » ص ٧٦ لشاهين مكاريوس .
(٢) من مقال للاستاذ عمر طلعت زهران عنوانه « تدمير أورشليم » نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢١ ص ٤٧ .
(٣) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٧ لشاهين مكاريوس .

ولهذه الأسباب نرجح أن يكون العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض ، هم الرومان بقيادة « تيطس » .

هذا ، ومع ترجيحنا بأن المسلط عليهم فى المرة الأولى ، هم جالوت وجنوده وفى المرة الثانية هم الرومان بقيادة « تيطس » .

أقول مع ترجيحنا لذلك ، إلا أننا نحب فى نهاية حديثنا عن هذه الآيات الكريمة ، أن نقرر ما يأتى :

١ - أنه لم يصح عن رسول الله - ﷺ - حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى اسرائيل عقب مرتى إفسادهم ، وإلا لذكره المفسرون .

٢ - أن الإفساد فى الأرض قد حدث كثيرا من بنى اسرائيل ، وأن المقصود من قوله -تعالى- ﴿لتفسدن فى الأرض مرتين﴾ إنما هو أظهر وأبرز مرتين حدث فيهما الإفساد منهم .

ومما يدل على أن هذا الإفساد قد تكرر منهم قوله - تعالى - : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾[1] .

٣ - آن المقصود من سياق الآيات ، إنما هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم حال صلاحها وفسادها .

وقد ساق القرآن الكريم هذا المعنى بأحكم عبارة ، وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ .

ولاشك أن هذه السنة ماضية فى الأمم دون تبديل أو تحويل فى كل زمان ومكان .

وما دام هذا هو المقصود ، ففهمه لا يتوقف على تحديد مرتى إفسادهم ، وتحديد المسلط عليهم عقب كل مرة .

ويعجبنى فى هذا المقام ، قول الإمام ابن كثير : « وقد وردت فى هذا - أى فى المسلط عليهم فى المرتين - آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن فى غنية عنها ، ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله - تعالى - أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم وسلك

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء »[١] .

وقول الإمام الرازى : « واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى . سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم »[٢] .

وقد بسطنا فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، بصورة أكثر تفصيلا فى غير هذا المكان ، فليرجع إليه من شاء الاستزادة[٣] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه قد آتى موسى - عليه السلام - التوراة لتكون هداية لبنى اسرائيل ، وأنه - عز وجل - قد قضى فيهم بقضائه العادل . أتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح ما فعله فى حق عباده المخلصين ، وهو الإسراء برسول الله - ﷺ - ، وإيتاء الكتاب لموسى - عليه السلام - ، وما فعله فى حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة ، لا جرم أثنى - سبحانه - على القرآن فقال : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾[٤] .

والفعل ﴿ يهدى ﴾ مأخوذ من الهداية ، ومعناها : الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى البغية . والمفعول محذوف . أى : يهدى الناس .

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٥ ص ٤٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٢٠ ص ١٥٦ .
(٣) راجع كتابنا « بنو اسرائيل فى القرآن والسنة » جـ ٢ من ص ٣٤٧ إلى ص ٣٩٦ .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٦٠ .

وقوله - سبحانه - ﴿ للتى هى أقوم ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى يهدى الناس إلى الطريقة أو الملة التى هى أقوم .

قال صاحب الكشاف : ﴿ للتى هى أقوم ﴾ أى : للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها ، أو للملة أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف ، لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه[1] .

والمعنى : إن هذا القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - عليك يا محمد - ﷺ - ، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم - فى جميع شئونهم الدينية والدنيوية - إلى الملة التى هى أقوم الملل وأعدلها ، وهى ملة الإسلام . فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة ، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ، ونواميس الفطرة البشرية فى تناسق واتساق .

ويهدى للتى هى أقوم ، فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله .

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة ، بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل ، ولا تسهل حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار ، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدى للتى هى أقوم ، فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا .

ويهدى للتى هى أقوم فى نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ صفة ثانية من صفات القرآن الكريم .

أى : أن هذا القرآن بجانب هدايته للتى هى أقوم ، فهو - أيضا - يبشر المؤمنين الذين

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٩ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٢٢١٥ .

يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا كبيرا من خالقهم - عز وجل - : أجرا كبيرا لا يعلم مقداره إلا مسديه ومانحه ، وهو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ بيان لسوء عاقبة الذين لا يستجيبون لهداية القرآن الكريم ، وهو معطوف على قوله - تعالى -: ﴿ أن لهم أجرا كبيرا ﴾ .

أى : أن هذا القرآن يبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، ويبشر - على سبيل التهكم - الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب بالعذاب الأليم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرة ، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به ، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها ، الذى أنبأ عنه قوله - تعالى - : ﴿ أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ وهو عذاب جهنم . أى : أعددنا وهيأنا لهم ، فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما .

والآية معطوفة على قوله ﴿ أن لهم أجرا كبيرا ﴾ فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به كثبوت الأجر الكبير للمؤمنين ، ومصيبة العدو سرور يبشر به ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين بثوابهم وعقاب أعدائهم ..[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحوال التى قد يقدم الإنسان فيها على طلب ما يضره بسبب عجلته واندفاعه فقال - تعالى - : .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

والمراد بالإنسان هنا : الجنس وليس واحدا معينا .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أى : دعاء كدعائه بالخير ، فحذف الموصوف وحرف التشبيه وانتصب المجرور على المصدرية[2] .

والمعنى : ويدعو الإنسان حال غضبه وضجره ، على نفسه ، أو على غيره ، ﴿ بالشر ﴾ كأن يقول : « اللهم أهلكنى ، أو أهلك فلانا .. » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٢ .
(٢) الألوسى جـ ١٥ ص ٢٣ .

﴿ دعاءه بالخير ﴾ أى : يدعو بالشر على نفسه أو على غيره ، كدعائه بالخير ، كأن يقول : اللهم اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين .

قال ابن كثير : يخبر - تعالى - عن عجلة الإنسان ، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده ، أو ماله ، ﴿ بالشر ﴾ أى : بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، كما قال - تعالى - : .

﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم .. ﴾ .

وفى الحديث : « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها »[1] .

وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو الفاسق الذى يدعو الله - تعالى - بالشر ، كأن يسأله بأن ييسر له أمرا محرما كالقتل والسرقة والزنا وما يشبه ذلك .

وقد أشار القرطبى إلى هذا الوجه بقوله : « وقيل نزلت فى النضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور ، كما يدعو فى طلب المباح . كما فى قول الشاعر :

أطوف بالبيت فيمن يطوف ... وأرفع من مئزرى المُسْبَلِ
واسجد بالليل حتى الصباح ... وأتلو من المحكَم المنزلِ
عسى فارج الهم عن يوسفٍ ... يُسخر لى ربة المَحْمَلِ[2]

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهم أدرى بتفسير كتاب الله من غيرهم .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : عن ابن عباس قال فى قوله - تعالى - : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير .. ﴾ يعنى قول الإنسان اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يعجل له الله ذلك كما يعجل له الخير لهلك.. .

وقال قتادة : يدعو على ماله فيلعن ماله ، ويدعو على ولده ، ولو استجاب الله له لأهلكه .

وقال مجاهد : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته ولا يحب أن يجاب[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٢٥ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٣٧ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ بيان للسبب الذى حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدعو بالخير .

والعجول من العجل - بفتح العين والجيم - وهو الإسراع فى طلب الشىء قبل وقته . يقال : عجل - بزنة تعب - يعجل فهو عجلان ، إذا أسرع .

أى : وكان الإنسان متسرعا فى طلب كل ما يقع فى قلبه ، ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر ، ولا يتأمل تأمل المتدبر .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ﴿ خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتى فلا تستعجلون[1] ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته بعباده ، ومجازاتهم على أعمالهم يوم القيامة فقال - تعالى - : .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٧ .

قال أبو حيان : قوله - تعالى - ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ..﴾ لما ذكر - سبحانه - القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة ، ذكر ماأنعم به مما لم يمكن الانتفاع إلا به ، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوى . وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان ، وانتقاله من حال إلى حال ذكر أن كل هذا العالم كذلك فى الانتقال لايثبت على حال ، فنور عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتقاص آخر[1] .

والمراد بالآيتين هنا : العلامتان الواضحتان ، الدالتان على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

وقوله : ﴿ فمحونا ﴾ من المحو بمعنى إزالة أثر الشىء ، يقال : محا فلان الشىء محوا - من باب قتل - إذا أزال أثره .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهات : أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه ، أن المراد بالآيتين : نفس الليل والنهار ، وأن الكلام ليس فيه حذف .

فيكون المعنى : وجعلنا الليل والنهار - بهيئاتهما الثابتة ، وتعاقبهما الدائم ، واختلافهما طولا وقصرا - آيتين كونيتين كبيرتين ، دالتين على أن لهما صانعا قادرا ، حكيما ، هو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أى : فجعلنا الآية التى هى الليل . ممحوة الضوء ، مظلمة الهيئة ، مختفية فيها الأشياء ، ساكنة فيها الحركات .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء .

وعلى هذا الاتجاه ، تكون إضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشىء إلى نفسه ، مع اختلاف اللفظ ، تنزيلا لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف فى المعنى ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ شهر رمضان ﴾ فرمضان هو نفس الشهر .

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف ، وأن المراد بالآيتين : الشمس والقمر ، فيكون المعنى : وجعلنا نيرى الليل والنهار - وهما الشمس والقمر - آيتين دالتين على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، فمحونا آية الليل - وهى القمر - ، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه ، ولم نجعله كالشمس فى ذلك ، وجعلنا آية النهار - وهى الشمس - مبصرة ، أى : ذات شعاع وضياء يبصر فى ضوئها الشىء على حقيقته .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١٤ .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين دون أن يرجح بينهما فقال : قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين .. ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتكون الإضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل ، وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة .

والثانى : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنار آيتين ، يريد الشمس والقمر .. .

أى : فمحونا آية الليل التى هى القمر ، حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس تبصر به الأشياء ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شىء[1] .

والذى نراه : أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ؛ ولأنه لا يحتاج إلى تقدير ، وما كان كذلك أولى مما يحتاج إلى تقدير ، ولأن الليل والنهار هما بذاتهما من أظهر العلامات والأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

وهناك عشرات الآيات القرآنية فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ... ﴾[3] .

وقال - تعالى - : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أوردها الله - تعالى - فى هذا المعنى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ بيان لمظهر من مظاهر حكمته - تعالى - ورحمته بعباده .

والجملة الكريمة متعلقة بما قبلها ، وهو قوله - سبحانه - : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أى : جعلنا النهار مضيئا ، لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور معاشكم ، ومن الأرزاق التى قسمها الله بينكم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وفى التعبير عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب بالابتغاء : دلالة على أنه ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب ، وإنما الإعطاء من الله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٠ .
(٢) سورة يس الآية ٣٧ .
(٣) سورة فصلت الآية ٣٧ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

بطريق التفضل ..»[1] .

وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ .

فقوله - تعالى - : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ يعود إلى الليل . وقوله - تعالى - : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ يعود على النهار .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه الهيئة فقال : ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ .

أى : وجعلنا الليل والنهار على هذه الصفة من التعاقب والاختلاف فى الطول والقصر لتعرفوا عن طريق ذلك عدد الأيام والشهور والأعوام ، التى لا تستغنون عن معرفتها فى شئون حياتكم ، ولتعرفوا - أيضا - الحساب المتعلق بها فى معاملاتكم ، وبيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم ، وصلاتكم ، وصيامكم ، وزكاتكم ، وحجكم ، وأعيادكم .. وغير ذلك مما تتوقف معرفته على تقلب الليل والنهار . وولوج أحدهما فى الآخر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ .

والتفصيل : من الفصل بمعنى القطع . والمراد به هنا : الإبانة التامة للشىء بحيث يظهر ظهورا لاخفاء معه ولا التباس .

ولفظ ﴿ كل ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل يفسره ما بعده .

أى : وفصلنا كل شىء تحتاجون إليه فى أمور دينكم ودنياكم ، تفصيلا ، واضحا جليا ، لاخفاء معه ولا التباس ، فقد أقمنا هذا الكون على التدبير المحكم ، وعلى الصنع المتقن ، وليس على المصادفات التى لا تخضع لنظام أو ترتيب .

ثم ساق - سبحانه - صورة من صور هذا التفصيل المحكم فى كل شىء فقال - تعالى - : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ .

والمراد بطائره : عمله الصادر عنه باختياره وكسبه ، حسبما قدره الله - تعالى - عليه من خير وشر .

أى : وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج عنه ، إلزاما لا فكاك له منه ، ولا قدرة له على مفارقته .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٠ .

وعبر - سبحانه - عن عمل الإنسان بطائره ، لأن العرب كانوا - كما يقول الآلوسى - يتفاءلون بالطير ، فإذا سافروا ومر بهم الطير زجروه ، فإن مر بهم سانحا - أى من جهة الشمال إلى اليمين - تيمنوا وتفاءلوا ، وإن مر بارحا ، أى : من جهة اليمين الى الشمال تشاءموا ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير استعارة تصريحية ، لما يشبههما من قدر الله - تعالى - وعمل العبد ، لأنه سبب للخير والشر[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فى عنقه ﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط بين الإنسان وعمله .

وخص - سبحانه - العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء ، لأن اللزوم فيه أشد ، ولأنه العضو الذى تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها . وتارة يكون فيه ما يشينه كالغل والقيد وما يشبههما .

قال الامام ابن كثير : و طائره : هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد - من خير أو شر ، يلزم به ويجازى عليه : كما قال - تعالى - : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

وكما قال - تعالى - : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، قليله وكثيره : ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ بيان لحاله فى الآخرة بعد بيان حاله فى الدنيا .

والمراد بالكتاب هنا صحائف أعماله التى سجلت عليه فى الدنيا .

أى : ألزمنا كل إنسان مكلف عمله الصادر عنه فى الدنيا ، وجعلناه مسئولا عنه دون غيره . أما فى الآخرة فسنخرج له ما عمله من خير أو شر « فى كتاب يلقاه منشورا » أى : مفتوحا بحيث يستطيع قراءته ، ومكشوفا بحيث لا يملك إخفاء شىء منه ، أو تجاهله ، أو المغالطة فيه .

كتاب ظهرت فيه الخبايا والأسرار ظهورا يغنى عن الشهود والجدال .

كتاب مشتمل على كل صغيرة وكبيرة من أعمال الإنسان ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونضع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٧ .

الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - ما يخاطب به الإنسان بعد أن فتح كتابه أمامه ، فقال - تعالى - ﴿ اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ .

أى : ويقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه ، اقرأ كتابك هذا ، وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك فى الدنيا ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

أى : محاسبا ، كجليس بمعنى مجالس ، أو حاسبا وعادًّا كصريم بمعنى صارم يقال حسب فلان على فلان قوله ، إذا عده عليه .

ولفظ ﴿ كفى ﴾ هنا لازم ، ويطرد فى هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية و« حسيبا » تمييز ، وعليك متعلق به .

وتارة يأتى لفظ « كفى » متعديا ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - قاعدة كلية ، لتحمل كل إنسان نتيجة عمله ، فقال - تعالى - : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

والفعل ﴿ تزر ﴾ من الوزر بمعنى الإثم والحمل والثقل . يقال : وزر يزر وزرا ، أى : أثم ، أو حمل حملا ثقيلا ، ومنه سمى الوزير ، لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة .

أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم فى حياته العمل الصالح فثمرة هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن الطريق القويم ، وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب .

وقد تكرر هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى .. ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .
(٣) سورة فاطر الآية ١٨ .

ولا يتنافى هذا مع قوله - تعالى - : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ..﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم .. ﴾[2] .

لأن المقصود فى هاتين الآيتين وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، ويحملون فوق ذلك جانبا من ذنوب من كانوا هم سببا فى ضلالهم ، لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها - كما جاء فى الحديث الصحيح - فهم يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التى كانوا سببا فى ارتكاب غيرهم لها .

كذلك لا يتنافى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ مع ما ثبت فى الحديث الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما من « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه .. » .

لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك قبل موته ، أو أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود .. فتعذيبه بسبب تفريطه ، وعدم تنفيذه لقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنو قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ..﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده - ورأفته بهم ، وكرمه معهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان آثار الهداية والضلالة بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته . وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها .

أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة .. أن نعذب أحدا بنوع ما من العذاب دنيويا كان أو أخرويا ، على فعل شىء أو ترك شىء أصليا كان أو فرعيا ، حتى نبعث إليه ﴿ رسولا ﴾ يهدى إلى الحق ، ويردع عن الضلال ، ويقيم الحجج ، ويمهد الشرائع ..[4] .

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، تشبه هذه الآية ، فى بيان أن الله - تعالى -

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٣ .
(٢) سورة النحل الآية ٢٥ .
(٣) سورة التحريم الآية ٦ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٧ .

لا يعذب أحدا من خلقه ، حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره ، فيعصى ذلك الرسول ، ويستمر فى كفره وضلاله بعد التبشير والإنذار .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ..﴾[3] .

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ : هذا إخبار عن عدله - تعالى - وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، بإرسال الرسول إليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ..﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن الله - تعالى - لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ..[4] .

هذا ، وما ذهب إليه الإمام ابن كثير ، والإمام الآلوسى ، من أن الله - تعالى - اقتضت رحمته وعدالته ، أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، عن طريق إرسال الرسل ، هو الذى نعتقده ، وتطمئن إليه نفوسنا ، لأنه هو الظاهر من معانى الآيات الكريمة ، ولأنه هو المناسب لرحمة الله - تعالى - التى وسعت كل شىء .

وهناك من يرى أن من مات على الكفر فهو فى النار ، ولو لم يرسل الله - تعالى - إليه رسولا ، واستدلوا بأدلة لا مجال لذكرها هنا[5] .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه فى إهلاك الأمم ، وفى حال الذين يريدون العاجلة ، وحال الذين يريدون الآجلة ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .
(٢) سورة طه الآية ١٣٤ .
(٣) سورة المائدة الآية ١٩ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٥٠ .
(٥) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٧ وتفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٤٢٩ للشيخ الشنقيطى .

وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ
ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾
مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ
ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ
سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ
رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا
بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا
﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - فى الآية السابقة ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم ، وهى مخالفة أمر الرسول - ﷺ - ، والتمادى على الفساد - فقال ، سبحانه - : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أمرنا ﴾ من الأمر الذى هو ضد النهى ، والمأمور به هو الإيمان والعمل الصالح ، والشكر لله رب العالمين ، وحذف لظهوره والعلم به .

وقوله ﴿ مترفيها ﴾ جمع مترف ، وهو المتنعم الذى لا يمنع من تنعمه ، بل يترك يفعل ما يشاء . يقال : ترف فلان - كفرح - أى : تنعم ، وفلان أترفته النعمة ، أى : أطغته وأبطرته لأنه لم يستعملها فى وجوهها المشروعة .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ١٧ .

والمراد بهم ، أصحاب الجاه والغنى والسلطان ، الذين أحاطت بهم النعم من كل جانب ، ولكنهم استعملوها فى الفسوق والعصيان ، لا فى الخير والإحسان .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا فى الأرض فسادا .

وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث إلى أهل تلك القرية ، وعلى ألسنة المصلحين المتبعين لهذا الرسول والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ... ﴾ مع أن الهلاك لأهلها ، للإشارة إلى أن هذا الهلاك لن يصيب أهلها فقط ، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما احتوته تلك القرية ، بحيث تصير هى وسكانها أثرا بعد عين .

وخص مترفيها بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعا لهم فى معظم الأحيان ، ولأنهم فى أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس فى المتع والشهوات .

والحكمة من هذا الأمر ، هو الإعذار والإنذار ، والتخويف والوعيد .

كما قال - تعالى - : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. ﴾[1] .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

ولصاحب الكشاف رأى يخالف ذلك ، فهو يرى أن الأمر فى الآية الكريمة مجاز عن إمدادهم بالنعم الكثيرة التى أبطرتهم .

قال - رحمه الله - : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا أردنا ﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ، ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ﴿ ففسقوا ﴾ أى : أمرناهم بالفسق ففعلوا .

والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون ، فبقى أن يكون مجازا ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبا ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر ، كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

الخير والشر ، وطلب منهم إيثار الطاعة ، على المعصية ، فآثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم ..[١] .

ومن المفسرين من يرى أن قوله - تعالى - : ﴿ أمرنا ﴾ بمعنى كثّرنا - بتشديد الثاء - وقرىء ﴿ أمّرنا ﴾ بتشديد الميم ، أى : كثرنا مترفيها وجعلناهم أمراء مسلطين . .

ولكن هذه القراءة . وقراءة ﴿ آمرنا ﴾ بمعنى « كثرنا » أيضا ، ليستا من القراءات السبعة أو العشرة ، وإنما هما من القراءات الشاذة .

قال الإمام ابن جرير : وأولى القراءات فى ذلك عندى بالصواب ، قراءة من قرأ « أمرنا » بقصر الألف وتخفيف الميم - لإجماع الحجة من القراء بتصويبها دون غيرها وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة ، فأولى التأويلات به تأويل من تأوله : أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها . فحق عليهم القول ، لأن الأغلب من معنى ﴿ أمرنا ﴾ الأمر الذى هو خلاف النهى دون غيره .

وتوجيه معانى كلام الله - جل ثناؤه - إلى الأشهر الأعرف من معانيه ، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره ..[٢] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول الذى سار عليه جمهور المفسرين ، وعلى رأسهم الإمام ابن جرير ، أولى بالقبول ، لأسباب منها :

ان القرآن الكريم يؤيده فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ..﴾[٣] .

فقوله - تعالى - : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ دليل واضح على أن قوله - سبحانه - : ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ..﴾ معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وليس معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا لأنه - سبحانه - لا يأمر لا بالفسق ولا بالفحشاء .

ومنها : أن الأسلوب العربى السليم يؤيده لأنك إذا قلت : أمرته فعصانى كان المعنى المتبادر والظاهر من هذه الجملة ، أمرته بالطاعة فعصانى ، وليس معناه . أمرته بالعصيان فعصانى .

ومنها : أن حمل الكلام على الحقيقة - كما سار جمهور المفسرين - أولى من حمله على المجاز - كما ذهب صاحب الكشاف - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٢ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٤٣ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ بيان لما نزل بهذه القرية وأهلها من عذاب محاها من الوجود ، إذ التدمير هو الإهلاك مع طمس الأثر ، وهدم البناء .

أى : أمرنا مترفيها بطاعتنا وشكرنا ، فعصوا أمرنا وفسقوا فيها ، فثبت وتحقق عليها عذابنا ، فأهلكناها إهلاكا استأصل شأفتها ، وأزال آثارها .

وأكد - سبحانه - فعل التدمير بمصدره ، للمبالغة فى إبراز شدة الهلاك الواقع على تلك القرية الظالم أهلها .

قال الآلوسى ما ملخصه : والآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم ، لصدور الفسق منهم جميعا ، فإن غير المترف يتبع المترف عادة .. .

وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال - تعالى - : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ...﴾ .

وقد صح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أنها قالت : قلت ، يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هذه القرية لم تكن بدعا فى نزول العذاب بها ، بل هناك قرى كثيرة عتت عن أمر ربها فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، فقال - تعالى - : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ... ﴾ .

و﴿ كم ﴾ هنا خبرية أى : أن معناها الإخبار عن عدد كثير ، وهى فى محل نصب مفعول به لجملة ﴿ أهلكنا ﴾ و« من » فى قوله - تعالى - : ﴿ من القرون ﴾ بيان للفظ ﴿ كم ﴾ وتمييز له كما يميز العدد بالجنس . وأما « من » فى قوله - تعالى - : ﴿ من بعد نوح ﴾ فهى لابتداء الغاية .

والقرون : جمع قرن ، ويطلق على القوم المقترنين فى زمان واحد . والمشهور أن مدته مائة سنة .

أى : أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها ، وعصيانهم لأمرنا ، ليست هى القرية الوحيدة التى نزل بها عذابنا ، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح - عليه السلام - كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الكفر على الإيمان والغى على الرشد .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٤٤ .

وخص نوح - عليه السلام - بالذكر ، لأنه أول رسول كذبه قومه وآذوه وسخروا منه .. فأهلكهم الله - تعالى - بالطوفان .

قال ابن كثير : ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[١] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال - تعالى - : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ .

أى : وكفى بربك - أيها الرسول الكريم - إحاطة واطلاعا وعلما بما يقدمه الناس من خير أو شر ، فإنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى .

والآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول - ﷺ - فهى - أيضا - تهديد للمشركين ، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم ، ومعاداتهم للحق ، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول - ﷺ - فسيكونون محلا لغضب الله - تعالى - وسخطه ، ولنزول عذابه الذى أهلك به أمثالهم فى الشرك والكفر والجحود .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[٣] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة ، فقال - تعالى - : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ .

والمراد بالعاجلة : دار الدنيا ، وهى صفة لموصوف محذوف أى : الدار العاجلة التى ينتهى كل شىء فيها بسرعة وعجلة .

أى : من كان يريد بقوله وعمله وسعيه ، زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب ، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة ، ﴿ عجلنا له فيها ﴾ أى : عجلنا لذلك الإنسان فى هذه الدنيا ، ﴿ ما نشاء ﴾ تعجيله له من زينتها ومتعها . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٥٩ .
(٢) سورة محمد الآية ١٠ .
(٣) سورة ق الآية ١٦ .

وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس لكل الناس ، وإنما هو ﴿ لمن نريد ﴾ عطاءه منهم ، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد قيد العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : « من كانت العاجلة همه ، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد . فقيد الأمر تقييدين : أحدهما : تقييد المعجل بمشيئته ، والثانى : تقييد المعجل له بإرادته .

وهكذا الحال ، ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموا فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده ، وهو غنى الآخرة فما يبالى أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت . فإن أوتى فبها شكر ، وإن لم يؤت صبر ، فربما كان الفقر خيرا له ، وأعون على مراده .

وقوله ﴿ لمن نريد ﴾ بدل من ﴿ له ﴾ وهو بدل البعض من الكل ، لأن الضمير يرجع إلى ﴿ من ﴾ وهو فى معنى الكثرة[1] ومفعول نريد محذوف . أى : لمن نريد عطاءه .

وقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ بيان لسوء مصير هذا المريد للعاجلة فى الآخرة .

و﴿ يصلاها ﴾ أى : يلقى فيها ويذوق حرها وسعيرها : يقال : صليت الشاة : شويتها . وصَلِىَ فلان بالنار - من باب تعب - إذا وجد حرها .

و﴿ مذموما ﴾ من الذم الذى هو ضد المدح .

و﴿ مدحورا ﴾ من الدحور بمعنى الطرد واللعن . يقال : دحره دحرا ودحورا ، إذا طرده وأبعده .

أى: من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها اعطيناه منها مانشاء إعطاءه له، أما فى الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها ، ويصلى حرها ولهيبها ، حالة كونه « مذموما » أى مبغوضا بسبب سوء صنيعه ، « مدحورا » أى : مطرودا ومبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى لفظ هذه الآية فوائد : منها : ان العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم ، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها ﴾ إشارة إلى المضرة العظيمة . وقوله ﴿ مذموما ﴾ إشارة إلى الإهانة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٣ .

والذم . وقوله ﴿ مدحورا ﴾ إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله - تعالى - .

وهى تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة ، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤثرين لمتع الدنيا وشهواتها .

أى : ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة ، وما فيها من عطاء غير مقطوع ، وسعى لهذه الدار سعيها الذى يوصله إلى مرضاة الله - تعالى - حالة كونه مؤمنا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، ﴿ فأولئك ﴾ الذى فعلوا ذلك ، ﴿ كان سعيهم ﴾ للدار الآخرة سعيا ﴿ مشكورا ﴾ : من الله - تعالى - ، حيث يقبله - سبحانه - منهم ، ويكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - وعبر - عز وجل - بالسعى عن أعمالهم الصالحة ، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء ما يرضيه - تعالى - بدون إبطاء أو تأخير ، إذ السعى يطلق على المشى الذى تصاحبه السرعة . وأشار - سبحانه - إليهم بأولئك ، للإشعار بعلو درجاتهم وسمو مراتبهم .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وفى الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله - تعالى - لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة .

ولذا قال - سبحانه - : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن..﴾ .

وقد أوضح - سبحانه - هذا فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة... ﴾ .

ومفهوم هذه الآية وأمثالها ، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا فى الدنيا لا ينفعه فى الآخرة لفقد شرط الإيمان ، قال - تعالى - : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها »[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٧٨ .
(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٤٤٨ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته، وسعة عطائه فقال: ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان ربك محظورا ﴾ ولفظ « كلا » هنا مفعول به للفعل نمد، والتنوين عوض عن المضاف إليه. أى: نمد كل واحد من الفريقين.

وقوله ﴿ نمد ﴾ من الإمداد بمعنى الزيادة. يقال: أمد القائد الجيش بالجند، إذا زاده وقواه.

والمراد باسم الإشارة الأول « هؤلاء »: المؤثرون للعاجلة، والمراد بالثانى الراغبون فى ثواب الآخرة.

والمعنى: كلا من الفريقين نمده من فضلنا وإحساننا فنعطى ما نريد إعطاءه لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة دون أن ينقص مما عندنا شىء، ودون أن يخرج عن مشيئتنا شىء.

﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ محظورا ﴾ أى: ممنوعا لا عن المؤمن ولا عن الكافر، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

من الحظر بمعنى المنع يقال: حظره يحظره - من باب قتل - فهو محظور، أى: ممنوع.

ثم أمر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل فى أحوال خلقه، ليزدادوا عظة وعبرة، فقال: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾.

أى: انظر - أيها العاقل - نظر تأمل وتدبر واعتبار فى أحوال الناس، لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض فى هذه الحياة، فهذا غنى وذاك فقير، وهذا قوى وذاك ضعيف، وهذا ذكى وذاك خامل، وهذا مالك وذاك مملوك..

إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس فى هذه الدنيا، على حسب ما تقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته، ومشيئته.

أما فى الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا فى الدرجات والمنازل، مما كانوا عليه فى الدنيا.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: وقوله: ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون فى الدرجات العلا ونعيمها وسرورها. ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفى الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلا

ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء »[١] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الأمم ، وأنه - تعالى - ما أهلكها إلا بعد أن عتت عن أمره ، وعصت رسله ، كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يؤثرون متع الدنيا على طاعة الله - تعالى - ، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما فيها من ثواب جزيل ، وأن الفريقين لا ينالون مما يطلبونه إلا ما قدره الله - تعالى - لهم ، وأن عطاءه للناس جميعا لا ينقص مما عنده شيئا ، وأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت تفضيل بعض الناس على بعض فى الدنيا والآخرة ، وصدق - عز وجل - حيث يقول : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : بعد أن بين - سبحانه - أن الناس فريقان : فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة ، وثانيها : أن يسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة ، وثالثها : أن يكون مؤمنا .

لا جرم فصل فى هذه الآيات تلك المجملات : فبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان ... ثم ذكر عقبيه سائر الأعمال ...[٢] .

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل ... ﴾ لكل من يصلح له .

والقعود فى قوله « فتقعد » قيل بمعنى المكث : كما يقول القائل : فلان قاعد فى أسوأ حال ، أى : ماكث فى أسوأ حال ، سواء أكان قاعدا أم غير قاعد . وقيل بمعنى العجز ، لأن العرب تقول : فلان ما أقعده عن المكارم ، أى : ما أعجزه عنها ، وقيل هو بمعنى الصيرورة ، من قولهم : فلان شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أى : صارت .

والذى تطمئن إليه النفس أن القعود على حقيقته ، لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائرا نادما على ما فرط منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مخذولا ﴾ من الخذلان ، وهو ترك النصرة عند الحاجة اليها .

يقال : خذل فلان صديقه ، أى : امتنع عن نصره وعونه مع حاجته الشديدة إليهما .

والمعنى : لا تجعل - أيها المخاطب - مع الله - تعالى - إلها آخر فى عبادتك أو خضوعك ، فتقعد جامعا على نفسك مصيبتين :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٦٠ - طبعة دار الشعب بالقاهرة .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٨٢ .

مصيبة الذم من الله - تعالى - ومن أوليائه ، لأنك تركت عبادة من له الخلق والأمر ، وعبدت ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

ومصيبة الخذلان ، بحيث لا تجد من يعينك أو ينصرك ، فى ساعة أنت أحوج ما تكون فيها إلى العون والنصر .

وجاء الخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل ﴾ عاما ، لكى يشعر كل فرد يصلح للخطاب أن هذا النهى موجه إليه ، وصادر إلى شخصه . لأن سلامة الاعتقاد مسألة شخصية ، مسئول عنها كل فرد بذاته وسيحمل وحده تبعة انحرافه عن طريق الحق ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وقوله ﴿ فتقعد ﴾ منصوب لأنه وقع بعد الفاء جوابا للنهى . وقوله ﴿ مذموما مخذولا ﴾ حالان من الفاعل .

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لحال الإنسان المشرك ، وقد حط به الذم والخذلان ، فقعد مهموما مستكينا عاجزا عن تحصيل الخيرات ، ومن السعى فى تحصيلها .

قال الآلوسى : وفى الآية الكريمة إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة[1] .

ثم ساق - سبحانه - بضع عشرة آية ، تناولت مجموعة من التكاليف تزيد على عشرين أمرا ونهيا .

وهذه التكاليف قد افتتحت بالنهى عن الإشراك بالله - تعالى - وبالأمر بالإحسان إلى الوالدين قال - تعالى - :

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٥٣ .

صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

وبعد أن ذكر - سبحانه - الأساس فى قبول الأعمال ، وهو إخلاص العبادة له - عزَّ وجل - وحده ، أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من شرائط الإيمان الحق وشعائره فقال - تعالى - ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا .. ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : ﴿ قضى ﴾ أى : أمر وألزم وأوجب .. .

والقضاء يستعمل فى اللغة على وجوه ، فالقضاء بمعنى الأمر ، كما فى هذه الآية والقضاء بمعنى الخلق كقوله ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ يعنى خلقهن ، والقضاء بمعنى الحكم ، كقوله - تعالى - : ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ يعنى : احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ من الشىء ، كقوله ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ أى فرغ منه .

والقضاء بمعنى الارادة . كقوله - تعالى - : ﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .. ﴾[٢] .

والمعنى : لقد نهى ربك عن الاشراك به نهيا قاطعا ، وأمر أمرا محكما لا يحتمل النسخ ، بأن لا تعبدوا أحدا سواه ، إذ هو الخالق لكل شىء ، والقادر على كل شىء ، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شىء إلا بإذنه - سبحانه - .

فالجملة الكريمة أمر لازم لإخلاص العبادة لله ، بعد النهى عن الإشراك به فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر .. ﴾ .

وقد جاء هذا الأمر بلفظ ﴿ قضى ﴾ زيادة فى التأكيد ، لأن هذا اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعى الذى لا رجعة فيه ، كما أن اشتمال الجملة الكريمة على النفى والاستثناء - وهما أعلا مراتب القصر - يزيد هذا الأمر تأكيدا وتوثيقا .

ثم أتبع - سبحانه - الأمر بوحدانيته ، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ .

أى : وقضى - أيضا - بأن تحسنوا - أيها المخاطبون - إلى الوالدين إحسانا كاملا لايشوبه سوء أو مكروه .

---

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٣٧ .

وقد جاء الأمر بالاحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العبادة لله ، فى آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا .. ﴾[2] .

ولعل السر فى ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين ، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان فى هذه الحياة ، وهما اللذان لقيا مالقيا من متاعب من أجل راحة أولادهما ، فيجب أن يقابل ما فعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل .

قال بعض العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب ، وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الاساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ..[3] .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الإحسان فقال : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما .. ﴾ .

و﴿ إما ﴾ حرف مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة عليها للتأكيد ، وقوله : ﴿ أحدهما ﴾ فاعل يبلغن . وقرأ حمزة والكسائى ﴿ إما يبلغان ﴾ فيكون قوله ﴿ أحدهما ﴾ بدل من ألف الاثنين فى ﴿ يبلغان ﴾ .

وقوله ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ جواب الشرط .

قال الآلوسى : و ﴿ وأف ﴾ اسم صوت ينبىء عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر . .

وفيه نحو من أربعين لغة . والوارد من ذلك فى القراءات سبع ثلاث متواترة ، وأربعة شاذة .

فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين ، وهو للتنكير : فالمعنى : فلا تقل أتضجر تضجرًا ما .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٨٣ .

(٣) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٤ لفضيلة الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين ، والباقون بالكسر بدون تنوين ..[١] .

وقوله ﴿ ولا تنهرهما ﴾ من النهر بمعنى الزجر ، يقال نهر فلان فلانا إذا زجره بغلظة .

والمعنى : كن - أيها المخاطب - محسنا إحسانا تاما بأبويك .

فإذا ما بلغ ﴿ عندك ﴾ أى : فى رعايتك وكفالتك ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ سن الكبر والضعف ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ أى : قولا يدل على التضجر منهما والاستثقال لأى تصرف من تصرفاتهما .

قال البيضاوى : والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياسا بطريق الأولى ، وقيل عرفا كقولك : فلان لا يملك النقير والقطمير - فإن هذا القول يدل على أنه لايملك شيئا قليلا أو كثيرا[٢] .

وقوله ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أى : ولا تزجرهما عما يتعاطيانه من الأفعال التى لا تعجبك .

فالمراد من النهى الأول : المنع من إظهار التضجر منهما مطلقا .

والمراد من النهى الثانى : المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتغليظ فى القول .

والتعبير بقوله : ﴿ عندك ﴾ يشير إلى أن الوالدين قد صارا فى كنف الابن وتحت رعايته ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن أصبح مسئولا عنهما ، بعد أن كانا هما مسئولين عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مامعنى ﴿ عندك ﴾ قلت هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلًّا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه فى حالة الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطاءة الخلق ، ولين الجانب ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه[٣] .

والتقييد بحالة الكبر فى قوله - تعالى - : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ﴾ جرى مجرى الغالب ، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية فى حالة الكبر ، أكثر من احتياجهما إلى ذلك فى حالة قوتهما وشبابهما ، وإلا فالإحسان إليهما ، والعناية بشأنهما . واجب على الأبناء سواء كان الآباء فى سن الكبر أم فى سن الشباب أم فى غيرهما .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٥٥ .

(٢) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٥٨٢ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٤ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾ أمر بالكلام الطيب معهما . بعد النهى عن الكلام الذى يدل على الضجر والقلق من فعلهما .

أى : وقل لهما بدل التأفيف والزجر ، قولا كريما حسنا ، يقتضيه حسن الأدب معهما ، والاحترام لهما والعطف عليهما .

وقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة .. ﴾ زيادة فى تبجيلهما والتلطف معهما فى القول والفعل والمعاملة على اختلاف ألوانها .

أى : وبجانب القول الكريم الذى يجب أن تقوله لهما ، عليك أن تكون متواضعا معهما ، متلطفا فى معاشرتهما ، لا ترفع فيهما عينا ، ولا ترفض لهما قولا ، مع الرحمة التامة بهما ، والشفقة التى لا نهاية لها عليهما .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ المقصود منه المبالغة فى التواضع .

وذكر القفال فى تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية . فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك .

والثانى : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كناية عن التواضع[1] .

وإضافة الجناح إلى الذل إضافة بيانية ، أى : اخفض لهما جناحك الذليل و﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من الرحمة ﴾ ابتدائية . أى تواضع لهما تواضعا ناشئا من فرط رحمتك عليهما .

قال الآلوسى : وإنما احتاجا إلى ذلك ، لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة ، كما قال الشاعر :

يـامـن أتى يسـألـنى عن فـاقـتى ... مـا حـال من يسـأل من سـائله ؟
مـاذلـة الـسـلطان إلا إذا ... أصـبـح محـتـاجـا إلى عـامـلـه

وقوله : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ تذكير للانسان بحال ضعفه وطفولته ، وحاجته إلى الرعاية والحنان .

أى : وقل فى الدعاء لهما : يارب ارحمهما برحمتك الواسعة ، واشملهما بمغفرتك الغامرة ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩١ .

جزاء ما بذلا من رعاية لى فى صغرى ، فأنت القادر على مثوبتهما ومكافأتهما .

قال الجمل : والكاف فى قوله ﴿ كما ربيانى .. ﴾ فيها قولان : أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف .

أى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما لى ، والثانى أنها للتعليل . أى : ارحمهما لأجل تربيتهما لى ، كما فى قوله ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات التى سمت بمنزلة الوالدين ، بما يدل على كمال علمه ، وعلى التحذير من عقابه ، فقال - تعالى - : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ .

والأوابون : جمع أواب . وهو الكثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله - تعالى - يقال : آب فلان يئوب إذا رجع .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : الأواب هو التائب من الذنب ، الراجع عن معصية الله إلى طاعته ، ومما يكرهه إلى ما يرضاه ، لأن الأواب إنما هو فعال من قول القائل : آب فلان من سفره إلى منزله ، كما قال الشاعر :

وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يؤوب[2]

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بما فى نفوسكم ، وضمائركم ، سواء أكان خيرا أو شرا ، وسواء أكنتم تضمرون البر بآبائكم أم تخفون الإساءة إليهما ، ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين - أى : قاصدين الصلاح والبر بهما ، والرجوع عما فرط منكم فى حقهما أو فى حق غيرهما - فالله - تعالى - يقبل توبتكم ، فإنه - سبحانه - بفضله وكرمه كان للأوابين - أى الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم - غفورا لذنوبهم .

فالآية الكريمة وعيد لمن تهاون فى حقوق أبويه ، وفى كل حق أوجبه الله عليه ، ووعد لمن رجع إليه - سبحانه - بالتوبة الصادقة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت بالإحسان إلى الوالدين ، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة فى قلوب الأبناء ، ويبعثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما ، وتحذيرهم من الإساءة إليهما ، ويفتح باب التوبة أمام من قصر فى حقهما أو حق غيرهما .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٥٢ .

وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء ، ولم يفعل ذلك مع الآباء .

وذلك لأن الحياة - كما يقول بعض العلماء - وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام . الى الذرية . الى الناشئة الجديدة ، الى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة ، الى الحياة المولية الى الجيل الذاهب .

ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شىء حتى بالذات ، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هي قشر ، كذلك يمتص الأولاد ، كل رحيق ، وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .

فأما الاولاد فسرعان ماينسون هذا كله ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية ... وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ، ليذكروا واجب الجيل الذى انفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهنا يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله[1] .

هذا ، وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، كثيرا من الأحاديث والآثار التى توجه الأبناء إلى رعاية الآباء ، واحترامهم ، والعطف عليهم ، والرحمة بهم ، والاهتمام بشئونهم .

قال الإمام ابن كثير : وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره : أن رسول الله - ﷺ - لما صعد المنبر قال : آمين . آمين . آمين .

فقالوا : يارسول الله ، علام أمنت ؟ قال : أتانى جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل : آمين فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة . قل : آمين ، فقلت : آمين » .

---

(١) « فى ظلال القرآن » جـ ١٥ ص ٢٢٢١ .

وعن مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينما أنا جالس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء بعد موتهما أبرهمابه ؟ قال : « نعم : خصال أربع . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قِبَلهما ، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما »[1] .

وقال القرطبى : أمر الله - سبحانه - بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك . كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ .

وقال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ .

وفى صحيح البخارى عن عبدالله قال : سألت النبى - ﷺ - : أى الأعمال أحب إلى الله - تعالى - ؟ . قال : « الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت ثم أى : قال : الجهاد فى سبيل الله » .. .

ثم قال القرطبى - رحمه الله - : ومن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كا أن من برهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه . ما لم يكن ذلك الأمر معصية ، ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما .

ففى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أمى وهى مشركة فاستفتيت النبى - ﷺ - فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها ؟ - أى وهى راغبة فى برى وصلتى ، أو وهى راغبة عن الإسلام كارهة له - قال : « نعم صلى أمك » .

ثم قال القرطبى : ومن الإحسان إليهما والبر بهما ، إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما . فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - يستأذنه فى الجهاد فقال : « أحى والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد » .

قال ابن المنذر : فى هذا الحديث النهى عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النفير ، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع .

ثم قال : ومن تمام برهما : صلة أهل ودهما ، ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٢ .

رسول الله - ﷺ - يقول : « إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّأبيه بعد أن يولى » .

وكان - ﷺ - يهدى لصديقات خديجة برًّا بها ووفاء لها وهى زوجته ، فما ظنك بالوالدين[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب على الإنسان نحو خالقه - عز وجل - ونحو والديه ، أتبع ذلك ببيان ما يجب على هذا الانسان نحو أقاربه ، ونحو المسكين وابن السبيل ، ونحو ماله الذى هو نعمة من نعم الله عليه . فقال - تعالى - :

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾
وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

قال أبو حيان فى البحر : « لما أمر الله - تعالى - ببر الوالدين ، أمر بصلة القرابة . قال الحسن : نزلت فى قرابة النبى - ﷺ - . والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ... ﴾ والحق هنا مايتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه . قال نحوه : ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم »[2] .

والمراد بذوى القربى : من تربطك بهم صلة القرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا .

والمسكين : هو من لا يملك شيئا من المال ، أو يملك مالايسد حاجته ، وهذا النوع من

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٣٨ .
(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٢٩ .

الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية ، لأنهم فى الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل ، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قالوا : فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » .

وابن السبيل : هو المسافر المنقطع عن ماله سمى بذلك - كما يقول الآلوسى - لملازمته السبيل - أى : الطريق - فى السفر . أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته »[1] .

وهذا النوع من الناس - أيضا - فى حاجة الى المساعدة والمعاونة ، حتى يستطيع الوصول إلى بلده .

وفى هذا الامر تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة .

والمعنى : وأعط - أيها العاقل - ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر ، وصلة الرحم ، والمعاونة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والوقوف إلى جانبهم فى السراء والضراء ، ونحو ذلك مما توجبه تعاليم دينك الحنيف .

وأعط - كذلك - المسكين وابن السبيل حقوقهما التى شرعها الله - تعالى - لهما ، من الإحسان إليهما ، ومعاونتهما على ما يسد حاجتهما .

وقدم - سبحانه - الأقارب على غيرهم ، لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم ، عن سليمان بن عامر قال: قال رسول الله - ﷺ - : « إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ نهى عن وضع المال فى غير موضعه الذى شرعه الله - تعالى - مأخوذ من تفريق البذر وإلقائه فى الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، ثم استعير لتضييع المال فى غير وجوهه .

قال صاحب الكشاف : التبذير تفريق المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه الإسراف ، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٤٦ .

أشعارها ، فأمر الله - تعالى - بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف ..[١] .

وقال ابن كثير : وقوله ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ : لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطا ، كما قال - تعالى - : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق فى غير حق . وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا . ولو أنفق مُدا فى غير حقه كان تبذيرا[٢] .

وقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ تعليل للنهى عن التبذير ، وتنفير منه بأبلغ أسلوب .

والمراد بأخوة الشياطين : المماثلة لهم فى الصفات السيئة ، والسلوك القبيح .

قال الإمام الرازى : والمراد من هذه الأخوة ، التشبه بهم فى هذا الفعل القبيح ، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشىء أخا له ، فيقولون : فلان أخو الكرم والجود . وأخو السفر ، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال[٣] .

أى : كن - أيها العاقل - متوسطا فى نفقتك ، ولا تبذر تبذيرا. لأن المبذرين يماثلون ويشابهون الشياطين فى صفاتهم القبيحة ، وكان الشيطان فى كل وقت وفى كل حال جحودا لنعم ربه ، لا يشكره عليها ، بل يضعها فى غير ما خلقت له هذه النعم .

وفى تشبيه المبذر بالشيطان فى سلوكه السىء ، وفى عصيانه لربه ، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التى يجب على العاقل أن يبتعد عنها ، حتى لا يكون مماثلا للشيطان الجاحد لنعم ربه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله فى حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين ، فقال - تعالى - : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا ﴾ .

ولفظ ﴿ إما ﴾ مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة . أى : إن تعرض عنهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٦ طبعة دار الشعب .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٣ .

وقوله ﴿ تعرضن ﴾ من الإعراض ، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه وبسبب عدم القدرة على تلبية طلبه .

وقوله : ﴿ ابتغاء ﴾ مفعول لأجله منصوب بتعرضن ، وهو من باب وضع المسبب موضع السبب . لأن الأصل : وإما تعرضن عنهم لإعسارك .

والمراد بالرحمة : انتظار الحصول على الرزق ، وحلول الفرج بعد الضيق .

والميسور : اسم مفعول من يسر الأمر - بالبناء للمفعول - مثل سعد الرجل ، ومعناه : السهل اللين .

والمعنى : وإما تعرضن - أيها المخاطب - عن ذى قرابتك وعن المسكين وابن السبيل ، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله - عز وجل - فقل لهم فى هذه الحالة قولا لينا رفيقا يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثلا - : ليس عندى اليوم ما أقدمه لكم ، وإن يرزقنى الله بشىء فسأجعل لكم نصيبا منه .

قال القرطبى ما ملخصه : وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم ، وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله - تعالى - فتح باب الخير ، لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك الحال ﴿ فقل لهم قولا ميسورا ﴾ أى لينا لطيفا .. ولقد أحسن من قال :

إلَّا تكن وَرِقٌ يوماً أجود بها ... للسائلين فإنى لينُ العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى ... إما نوالى وإما حسنُ مردود[1]

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى أفضل الطرق لإنفاق أموالهم والتصرف فيها ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا ﴾ .

وقوله ﴿ مغلولة ﴾ من الغل - بضم الغين - وأصله الطوق الذى يجعل فى العنق وتربط به اليد ، كما يربط المذنب والأسير : وهو كناية عن البخل والتقتير .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة . حتى أنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٤٩ .

يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان للبخل والجود ..[1] .

وقوله : ﴿ محسورا ﴾ من الحسور بمعنى الانقطاع عن الشيء ، والعجز عن الحصول عليه .

يقال : فلان حسره السير ، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق برفقائه .

ويقال : بعير محسور . أى : ذهبت قوته وأصابه الكلل والإعياء . فصار لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال .

والمقصود من الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق والنهى عن البخل والإسراف .

فقد شبه - سبحانه - مال البخيل ، بحال من يده مربوطة إلى عنقه ربطا محكما بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها .

وشبه حال المسرف والمبذر ، بحال من مد يده وبسطها بسطا كبيرا ، بحيث أصبحت لا تمسك شيئا يوضع فيها سواء أكان قليلا أم كثيرا .

والمعنى : كن - أيها الإنسان - متوسطا فى كل أمورك ، ومعتدلا فى إنفاق أموالك بحيث لاتكون بخيلا ولا مسرفا ، فان الإسراف والبخل يؤديان بك إلى أن تصير ملوما . أى : مذموما من الخلق والخالق ، محسورا ، أى : مغموما منقطعا عن الوصول إلى مبتغاك بسبب ضياع مالك ، واحتياجك إلى غيرك .

قال الآلوسى ما ملخصه : فالآية الكريمة تحض على التوسط ، وذلك هو الجود الممدوح ، فخير الأمور أوساطها . وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما عال من اقتصد » . وأخرجه البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » . وفى رواية عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » وكما يقال : حسن التدبير مع الكفاف ، خير من الغنى مع الإسراف[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٥٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٦٥ .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الأمور كلها اليه ، فهو المعطى وهو المانع ، فقال - تعالى - : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ .

أى : إن ربك - أيها الانسان - العاقل - يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء أن يبسطه له ويمسك الرزق ويضيقه ويقدره على من يشاء من خلقه . إذ كل شىء فى هذا الكون يسير على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وهو - سبحانه - العليم ببواطن الناس وبظواهرهم ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم ، ولا يعطى أو يمنع ، إلا لحكمة هو يعلمها .

قال - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حضت على إيتاء ذوى القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم . وعلى الاعتدال فى إنفاق المال ، ونهت عن الشح والتبذير ، وأسندت العطاء والمنع الى الله - تعالى - الخبير البصير بالظواهر والبواطن .

ثم يسوق - سبحانه - جملة من النواهى التى يؤدى الوقوع فيها إلى فساد أحوال الأفراد والجماعات ، والى شيوع الفاحشة فى الأمم ، مما يؤدى إلى اضمحلالها وذهاب ريحها ، فقال - تعالى - :

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ
أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى
ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾
ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ...﴾ نهى عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده - سبحانه - ، يبسطها لمن يشاء ، ويضيقها على من يشاء .

والإملاق : الفقر . يقال : أملق الرجل إذا افتقر قال الشاعر : .

وإنى على الإملاق يا قوم ماجد أعد لأضيافى الشواء المصهبا

قال الآلوسى : وظاهر اللفظ النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد ، ذكورا كانوا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة .

لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن ، فنهى فى الآية عن ذلك ، فيكون المراد بالأولاد البنات ، وبالقتل الوأد ..[1] .

أى : ولا تقتلوا - أيها الآباء - أولادكم خشية فقر متوقع ، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم ، وأرزاق غيركم من مخلوقاتنا التى لا تحصى .

قال - تعالى - : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .. ﴾ .

ولاشك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر المتوقع فى المستقبل ، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لهم ولكم فى كل زمان ومكان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٦٦ .

وقد ورد النهى عن قتل الاولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الأنعام بصيغة أخرى ، هى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ .

وليست أحدهما تكرارا للأخرى وإنما كل واحدة منها تعالج حالة معينة .

فهنا يقول - سبحانه - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ لأن النهى موجه بالأصالة الى الموسرين الذين يقتلون أولادهم لا من أجل فقر كائن فيهم ، وإنما من أجل فقرٍ هم يتوهمون حصوله فى المستقبل بسبب الأولاد ، لذا قال - سبحانه - ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، فى زعم آبائهم - لكى يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكى يضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

وقال - سبحانه - هناك ﴿ من إملاق ﴾ لأن النهى متوجه أصالة إلى الآباء المعسرين : أى لاتقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم - أيها الآباء - ، فقد يجعل الله بعد عسر يسرا . ولذا قال - سبحانه - : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ فجعل الرزق للآباء ابتداء . لكى يطمئنهم - سبحانه - على أنه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم .

وفى كلتا الحالتين ، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله - تعالى - والاعتماد عليه .

وجمله ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ تعليل للنهى عن قتل الأولاد ، بإبطال موجبه - فى زعمهم - وهو الفقر .

أى : نحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أنتم معهم ، وما دام الأمر كذلك فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء : وهى قتل الأولاد ، لأن الأولاد ، قطعة من أبيهم ، والشأن - حتى فى الحيوان الأعجم - أنه يضحى من أجل أولاده ويحميهم ، ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

وقوله ﴿ إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ تعليل آخر للنهى عن قتل الأولاد جىء به على سبيل التأكيد .

والخِطْء : هو الإثم - وزنا ومعنى - ، مصدر خَطِىءَ خِطْئًا كأثم إثما من باب علم .

أى : أن قتل الأولاد كان عند الله - تعالى - إثما كبيرا فاحشا ، يؤدى إلى التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة :

والحق أن المجتمع الذى يبيح قتل الأولاد ، خوفا من الفقر أو العار ، لايمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية والتشاؤم والأوهام ، لأن أفراده يظنون أن الله

يخلق خلقا لا يدبر لهم رزقهم ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة ، تخوفا من فقر أو عار مترقب ، وذلك هو الضلال المبين .

ورحم الله الإمام الرازى فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر ، فهو سوء ظن بالله . وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم . فالأول : ضد التعظيم لأمر الله - تعالى - والثانى : ضد الشفقة على خلقه ، وكلاهما مذموم[1] .

ولقد أمر النبى - ﷺ - برعاية الأبناء ، وحذر من الاعتداء عليهم فى أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك[2] .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المؤدى إلى إفناء النسل ، أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية إلى اختلاط الأنساب : فقال - تعالى - : ﴿ ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

والزنا : وطء المرأة بدون عقد شرعى يجيز للرجل وطأها .

والفاحشة : ماعظم قبحه من الأقوال والأفعال . يقال فحش الشىء ، فحشا ، كقبح قبحا - وزنا ومعنى - ، ويقال أفحش الرجل ، إذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء - ، وهو القبيح من القول أو الفعل . وأكثر ما تكون الفاحشة إطلاقا على الزنا .

وتعليق النهى بقربانها ، للمبالغة فى الزجر عنها ، لأن قربانها قد يؤدى إلى الوقوع فيها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وهذا لون حكيم من ألوان إصلاح النفوس ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشىء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

فكأنه - سبحانه - يقول : كونوا - أيها المسلمون بعيدين عن كل المقدمات التى تفضى إلى فاحشة الزنا كمخالطة النساء ، والخلوة بهن ، والنظر إليهن ... فإن ذلك يفتح الطريق إلى الوقوع فيها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢٠ ص ٢٩٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٩ .

قال بعض العلماء : وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء ، وضابطه بالاستقراء :

أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس اليه ، وتدفع اليه الأهواء ، جاء النهى فيه عن القربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ... ﴾ ﴿ ولا تقربوا الزنا ... ﴾ ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن .. ﴾ .

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ، ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها ، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ...﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ..﴾ .

فهذه وإن كانت فواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية ، يميل إليها الإنسان بشهوته . بل هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى نفسه مرارة ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها ، أو فى حكم الكاره ..[1] .

وقوله : ﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ تعليل للنهى عن الاقتراب منه ، أى : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلا عن الوقوع فيه ذاته ، لأنه كان - ومازال - فى شرع الله ، وفى نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح وبئس الطريق طريقه ، فإنها طريق تؤدى إلى غضب الله - تعالى - وسخطه .

ومما لاشك فيه أن فاحشة الزنا من أقبح الفواحش التى تؤدى إلى شيوع الفساد والأمراض الخبيثة فى الأفراد والمجتمعات ، وما وجدت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا .

ولقد تحدث الإمام الرازى عن تلك المفاسد التى تترتب على الزنا فقال ما ملخصه :

الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد ، أولها : اختلاط الأنساب واشتباهها ، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذى أتت به الزانية ، أهو منه أو من غيره .. .

وثانيا : أنه إذا لم يوجد سبب شرعى لأجله يكون هذا الرجل لتلك المرأة ، لم يبق فى حصول ذلك الاختصاص الا التواثب والتقاتل .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٤٤١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

وثالثها : أن المرأة إذا باشرت الزنا ، استقذرها كل طبع سليم ، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ، ولا يتم السكن والازدواج . .

ورابعها : أنه إذا فتح باب الزنا ، فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان ، وبين سائر البهائم فرق فى هذا الباب .

وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهماته .. وهذه المهمات لا تتم الا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد ، منقطعة الطمع عن سائر الرجال ، وذلك لا يحصل الا بتحريم الزنا ... فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضى على الزنا بالقبح[1] .

ولقد سد الإسلام جميع المنافذ التى تؤدى إلى ارتكاب هذه الفاحشة ، وسلك لذلك وسائل من أهمها :

١ - تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء الا فى حدود الضرورة الشرعية ، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما رواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذى محرم » .

وروى الشيخان - أيضا - عن عقبة بن عامر أن رسول الله - ﷺ - قال : « إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو - بفتح الحاء وسكون الميم - وهو قريب الزوج كأخيه وابن عمه فقال - ﷺ - : « الحمو الموت »[2] . أى : دخوله قد يؤدى إلى الموت .

٢ - تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية . ووجوب غض البصر .

قال - تعالى - : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم .. ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .. ﴾[3] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ... والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه »[4] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٨ .
(٢) رياض الصالحين ص ٦٢٤ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .
(٣) سورة النور الآيتان ٣٠ ، ٣١ .
(٤) رياض الصالحين ص ٦٢٢ للإمام النووى .

٣ - وجوب التستر و الاحتشام للمرأة ؛ فإن التبرج والسفور يغرى الرجال بالنساء ، ويحرك الغريزة الجنسية بينهما .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ..[١] ﴾ .

٤ - الحض على الزواج ، وتيسير وسائله ، والبعد عن التغالى فى نفقاته ، وتخفيف مؤنه وتكاليفه .. فإن الزواج من شأنه أن يحصن الإنسان ، ويجعله يقضى شهوته فى الحلال . .

فإذا لم يستطع الشاب الزواج ، فعليه بالصوم فإنه له وقاية - كما جاء فى الحديث الشريف - .

٥ - إقامة حدود الله بحزم وشدة على الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، كما قال - تعالى - : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾[٢] .

وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى ، أما بالنسبة للمحصن وهو المتزوج أو الذى سبق له الزواج ، فعقوبته الرجم ذكرا كان أو أنثى ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

ففى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قضى فى زان لم يتزوج وزانية متزوجة ، بقوله لوالد الرجل : « على ابنك مائة جلدة وتغريب عام » ثم قال - ﷺ - لأحد أصحابه واسمه أنيس : اغد ياأنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها .

ومما لاشك أنه لو تم تنفيذ حدود الله - تعالى - على الزناة ، لمحقت هذه الفاحشة محقا ، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه - عز وجل - لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة ، ومن فضيحته على رءوس الأشهاد .

هذه بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة ، ولو اتبعها المسلمون ، لطهرت أمتهم من رجسها ، ولحفظت فى دينها ودنياها .

ثم نهى - سبحانه - عن قتل النفس المعصومة الدم ، بعد نهيه عن قتل الأولاد ، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا فقال - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .
(٢) سورة النور الآية ٢ .

أى : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها ، إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعا ، كردة ، أو قصاص ، أو زنا يوجب الرجم .

قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعى ، كما ثبت فى الصحيحين - عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وفى السنن : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم[1] » .

وقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ متعلق بلا تقتلوا ، والباء للسببية ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى : لا تقتلوها فى حال من الأحوال ، إلا فى حال ارتكابها لما يوجب قتلها .

وذلك : لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله - تعالى - فلا يحل لأحد أن يهدمه إلا بحق .

وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة ، فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا . قال - تعالى - : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ﴾ إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه : من يلى أمر المقتول ، كأبيه وابنه وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق فى المطالبة بدمه . فإن لم يكن للمقتول ولى ، فالحاكم وليه .

والمراد بالسلطان : القوة التى منحتها شريعة الله - تعالى - لولى المقتول على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولى المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينازعه فى هذا الحق ، أو أن يجبره على التنازل عنه .

والمعنى : ومن قتل مظلوما ، أى : بدون سبب يوجب قتله ، فإن دمه لم يذهب هدرا ، فقد شرعنا « لوليه سلطانا » على القاتل ، لأنه - أى الولى - إن شاء طالب بالقصاص منه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . وبذلك يصير الولى هو صاحب الكلمة الأولى فى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٠ .
(٢) سورة المائدة الآية ٣٢ .

التصرف فى القاتل، حتى لكأنه مملوك له.

وما دامت شريعة الله - تعالى - قد أعطت الولى هذا السلطان على القاتل، فعليه أن لا يسرف فى القتل، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله - تعالى -.

ومن مظاهر هذا التجاوز: أن يقتل اثنين - مثلا - فى مقابل قتيل واحد أو أن يقتل غير القاتل، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله.

قال الآلوسى ما ملخصه: كان من عادتهم فى الجاهلية، أنهم إذا قتل منهم واحد، قتلوا قاتله، وقتلوا معه غيره ...

وأخرج البيهقى فى سننه عن زيد بن أسلم أنه قال: إن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفا شريفا، لم يقتلوه به، وقتلوا شريفا من قومه، فنهوا عن ذلك، كما نهوا عن المثلة بالقاتل.

وقرأ حمزة والكسائى: «فلا تسرف» بالخطاب للولى على سبيل الالتفات[1].

وقوله: ﴿ إنه كان منصورا ﴾ تذييل المقصود به تعليل النهى عن الإسراف فى القتل. والضمير يعود إلى الولى - أيضا -.

أى: فلا يسرف هذا الولى فى القتل، لأن الله - تعالى - قد نصره عن طريق ما شرعه له من سلطان عظيم، من مظاهره: المطالبة بالقصاص من القاتل، أو بأخذ الدية، ومن مظاهره - أيضا - وقوف الحاكم وغيره إلى جانبه حتى يستوفى حقه من القاتل، دون أن ينازعه منازع فى هذا الحق.

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ يعود إلى المقتول ظلما، على معنى: أن الله - تعالى - قد نصره فى الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا يضيع دمه، ونصره فى الآخرة بالثواب الذى يستحقه، وما دام الأمر كذلك فعلى وليه أن لا يسرف فى القتل.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب. لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة.

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك: وأشبه ذلك بالصواب عندى، قول من قال: عنى بها - أى بالهاء فى إنه - الولى، وعليه عادت، لأنه هو المظلوم ووليه المقتول، وهى إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول، وهو المنصور - أيضا - لأن الله - جل ثناؤه - قضى فى كتابه المنزل، أن سلطه على قاتل وليه، وحكمه فيه، بأن جعل إليه قتله إن شاء،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٠.

واستبقاءه على الدية إن أحب ، والعفو عنه إن رأى . وكفى بذلك نصرة له من الله - تعالى - ، فلذلك هو المعنى بالهاء التى فى قوله ﴿ إنه كان منصورا ﴾[1] .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة التى هى أول آية نزلت فى شأن القتل كما قال الضحاك[2] : يراها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكيما .

فهى أولا : تنهى عن القتل ، لأنه من أكبر الكبائر التى تؤدى إلى غضب الله - تعالى - وسخطه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾[3] .

وجاء النهى عنه فى بعض الآيات بعد النهى عن الإشراك بالله - عز وجل - . قال - سبحانه - : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق .. ﴾[4] .

كما جاء النهى عنه فى كثير من الأحاديث النبوية ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » .

وفى حديث آخر يقول - ﷺ - : « الآدمى بنيان الرب ، ملعون من هدم بنيان الرب » .

وفى حديث ثالث : « لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم ، لأكبهم الله فى النار » .

وهذا النهى الشديد عن قتل النفس من أسبابه : أنه يؤدى إلى شيوع الغل والبغض والتقاتل ... بين الأفراد والجماعات ؛ إذ النفس البشرية فى كل زمان ومكان ، يؤلمها ، ويثير غضبها وانتقامها ، أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض ..

وهى ثانيا : تسوق لولى المقتول من التوجيهات الحكيمة ، ما يهدئ نفسه ، ويقلل من غضبه ، ويطفئ من نار ثورته المشتعلة .

وقد أجاد صاحب الظلال - رحمه الله - فى توضيح هذا المعنى فقال :

« وفى تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وتجنيد الحاكم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٦٠ - طبعة دار المعرفة - بيروت .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٠ .
(٣) سورة النساء الآية ٩٣ .
(٤) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

لنصرته ، تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذى تستشعره نفس الولى ، الغليان الذى قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا ، فى حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل . وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ، ونفسه تسكن ، ويقف عند حد القصاص العادل الهادئ .

والإنسان إنسان ، فلا يطالب بغير ما ركب فى فطرته من الرغبة العميقة فى القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها فى الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ، ويحبب فيه ، ويأجر عليه ، ولكن بعد أن يعطى الحق . فلولى الدم أن يقتص أو يصفح .

وشعور ولى الدم بأنه قادر على كليهما ، قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ، ويدفع به إلى الغلو والجموح[1] .

هذا ، والذى نعتقده وندين الله - تعالى - عليه ، أنه لا علاج لجريمة القتل - وغيرها - إلا بتطبيق شريعة الله - تعالى - التى جمعت بين الرحمة والعدل .

وبالرحمة والعدل : تتلاقى القلوب بعد التفرق ، وتلتئم بعد التصدع ، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن إتلاف النفوس عن طريق القتل والزنا ، أتبع ذلك بالنهى عن إتلاف الأموال التى هى قوام الحياة ، وبدأ - سبحانه - بالنهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ثم ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان عند التعامل ، فقال - تعالى - :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

واليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمة .

والخطاب فى قوله : ﴿ ولا تقربوا ... ﴾ لأولياء اليتيم ، والأوصياء على ماله .

والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته ، ومن الشدة بمعنى القوة . يقال : شد النهار إذا ارتفع واكتمل ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو هو جمع لا واحد له من لفظه ، أو جمع شدة كأنعم ونعمة .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٢٢٣٥ .

أى : ولا تقربوا - أيها الأولياء على اليتيم - ماله الذى منحه الله إياه عن طريق الميراث أو غيره ، إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرق ، والتى من شأنها أن تنفعه ، كالمحافظة عليه ، واستثماره له ، وإنفاقه فى الوجوه المشروعة .

واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لايقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - فهو تصرف محظور ومنهى عنه ، وسيحاسبكم الله - تعالى - عليه .

وتعليق النهى بالقربان ، للمبالغة فى الزجر عن التصرف فى مال اليتيم ، إلا بالطريقة التى هى أحسن .

وقوله : ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى : فإذا بلغ أشده فاقربوه ، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولى لمال اليتيم بعد بلوغه ، وإنما هو غاية لما يفهم من النهى ، فيكون المعنى : لا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التى هى أحسن ، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده ، أى : حتى يصير بالغا عاقلا رشيدا ، فإذا ما صار كذلك ، فسلموا إليه ماله بأمانة واستعفاف عن التطلع إلى شىء منه .

هذا ، وقد أمرت شريعة الإسلام ، بحسن رعاية اليتيم ، وبالمحافظة على حقوقه ، ونهت عن الإساءة إليه ، بأى لون من ألوان الإساءة .

قال - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم .. ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا﴾[2] .

وقال رسول الله - ﷺ - فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى[3] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى -ﷺ- أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله وماهن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٠ .

(٣) من كتاب رياض الصالحين ص ١٣٧ للإمام النووى .

ومن الحكم التى من أجلها أمر الاسلام بالعطف على اليتيم ونهى عن ظلمه ، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى ، والعائل والنصير منذ صغره ..

فإذا نشأ فى بيئة ترعاه وتكرمه .. شب محبا لمن حوله ، وللمجتمع الذى يعيش فيه .

وإذا نشأ فى بيئة تقهره وتذله وتظلمه .. نظر إلى من حوله ، وإلى المجتمع الذى يعيش فيه ، نظرة العدو إلى عدوه ..

وكأنه يقول لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى فى صغرى وفى حالة ضعفى ، فلماذا أحسن اليهم فى حال كبرى وقوتى !! وإذا كانوا قد حرمونى حقى الذى منحه الله لى فلماذا أعطيهم شيئا من خيرى وبرى !! .

هذه بعض الأسباب التى من أجلها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه ، وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، أمر بالوفاء بالعهود فقال : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كالوصية واليمين . وعهد الله : أوامره ونواهيه وعهد الناس : ما يتعاهدون عليه من معاملات وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم .

أى : وأوفوا بالعهود التى بينكم وبين الله - تعالى - ، والتى بينكم وبين الناس ، بأن تؤدوها كاملة غير منقوصة ، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية . وقوله ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ تعليل لوجوب الوفاء بالعهد .

أى : كونوا أوفياء بعهودكم لأن صاحب العهد كان مسئولا عنه ، أمام الله - تعالى - وأمام الناس ، فالكلام على حذف مضاف كما فى قوله - سبحانه - ﴿ واسأل القرية ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد ... ﴾ بالإظهار دون الإضمار للإشعار بكمال العناية بشأن الوفاء بالعهود .

ويجوز أن يكون المعنى : وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، أى : كان مطلوبا بالوفاء به وقد مدح الله - تعالى - الذين يوفون بعهودهم فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء

---

(١) سورة الرعد الآية ١٩ ، ٢٠ .

وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾[1] .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بصفة عامة ، أتبع ذلك بالوفاء فى شئون البيع والشراء ، فقال - تعالى - : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

والقسطاس : الميزان الذى يوزن به فى حالتى البيع والشراء .

قال صاحب الكشاف : قرئ « بالقسطاس » بكسر القاف وضمها .. قيل : كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها[2] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : و هذا اللفظ رومى معرب .. وقيل : عربى .. وعلى القول بأنه رومى معرب - وهو الصحيح - لايقدح استعماله فى القرآن فى عربيته المذكورة فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا ﴾ لأنه بعد التعريب والسماع فى فصيح الكلام ، يصير عربيا ، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه ..[3] .

وقوله : ﴿ تأويلا ﴾ من الأول - بفتح الهمزة وسكون الواو - بمعنى الرجوع . يقال : آل هذا الأمر إلى كذا ، إذا رجع إليه .

والمعنى : وأتموا أيها المؤمنون الكيل إذا كلتم لغيركم عند بيعكم لهم ما تريدون بيعه ، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ما تريدون وزنه لهم .

وقيد - سبحانه - الأمر بوجوب إتمام الكيل والميزان فى حالة البيع ، لأنها الحالة التى يكون فيها التطفيف فى العادة ، إذ أن البائع هو الذى غالبا ما يطفف للمشترى فى المكيال والميزان ولا يعطيه حقه كاملا .

قال - تعالى - : ﴿ ويل للمطففين . الذى إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

أى : ذلك الذى أمرناكم به . من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل ، خير لكم فى الدنيا ، لأنه يرغب الناس فى التعامل معكم ، أما فى الآخرة فهو أحسن عاقبة ومآلا ، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله - عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات السامية السديدة ، بالنهى عن تتبع مالا علم للإنسان به ، وعن الفخر والتكبر والخيلاء .. فقال - تعالى - :

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٨ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٢ .

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ولاتمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة . ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾ .

قال القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ أى : ولا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك - من قول أو فعل - قال قتادة : لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم . .

ثم قال : وأصل القَفْو البُهْت ، والقذف بالباطل . ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أُمَّنا ، ولا ننتفى من أبينا » أى : لا نسُبُّ أمنا .

وقال : قفوته أقفوه ... إذا اتبعت أثره . وقافية كل شىء آخره ، ومنه اسم النبى - ﷺ - : المُقَفِّى ، لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ، ومنه القائف ، وهو الذى يتبع الأثر ..[1] .

وقال صاحب الكشاف - رحمه الله - : قوله : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ﴾ : يعنى ، ولا تكن فى اتباعك مالا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لايدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل مالا يعلم ، وأن يعمل بما لايعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد الأعمى دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لايعلم صحته من فساده ..[2] .

وقوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به ، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق ، أو أن يحكم حكما بلا بينة أو دليل .

أى : إن السمع الذى تسمع به - أيها المكلف - ، والبصر الذى تبصر به ، والفؤاد - أى القلب - الذى تحيا به ، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة ، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ : لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه ، وسعيت إلى مالا يصح لك أن تسعى إليه !! .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٥٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٩ .

وعلى هذا التفسير يكون السؤال فى قوله - تعالى - : ﴿ كان عنه مسئولا ﴾ للانسان الذى تتبع ما ليس له به علم من قول أو فعل .

ومن الآيات التى تشهد لهذا التفسير قوله - تعالى - : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾[١] .

ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء ، لتنطق بما اجترحه صاحبها ، ولتكون شاهدة عليه ، فيكون المعنى : .

إن السمع والبصر والفؤاد ، كل واحد من أولئك الأعضاء ، كان مسئولا عن فعله ، بأن يقال له : هل استعملك صاحبك فيما خلقت من أجله أوْلا ؟ .

ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها ، كما قال - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[٢] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾[٣] .

واسم الإشارة ﴿ أولئك ﴾ على التفسيرين يعود إلى السمع والبصر والفؤاد ، إما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء ، كما فى قول الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

وإما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء ، لأنها جزء منهم ، وشاهدة عليهم .

وعلى كلا التفسيرين أيضا ، يتمثل التحذير الشديد للإنسان عن أن يتبع ما ليس له به علم .

قال الجمل : وقوله - تعالى - : ﴿ كل أولئك ﴾ مبتدأ ، خبره جملة ﴿ كان عنه مسئولا ﴾ ، والضمير فى « كان » وفى « عنه » وفى « مسئولا » يعود على كل . أى : كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه ، يعنى عما فعل به صاحبه : ويجوز أن يكون الضمير فى : « عنه » لصاحب السمع والبصر والفؤاد ..[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

(٣) سورة فصلت الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٥ .

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن اتباع ما لا علم للانسان به . قوله - تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[2] .

قال الإمام ابن كثير : ومضمون ما ذكروه - فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم .. ﴾ أن الله - تعالى - نهى عن القول بلا علم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم .. ﴾ وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ... » وفى سنن أبى داود : « بئس مطية الرجل زعموا» وفى الحديث الآخر : « إن أفْرَى الفِرَى - أى أكذب الكذب - أن يُرِىَ الرجل عينيه مالم تريا »[3] .

وقال بعض العلماء : وهذه الكلمات القليلة - التى اشتملت عليها الآية - تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثا جدا ، ويضيف إليه استقامة القلب ، ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة ! .

فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ، هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . .

فلا يقول اللسان كلمة ، ولا ينقل رواية ، ولا يروى حادثة ، ولا يحكم العقل حكما ، ولا يبرم الإنسان أمرا . إلا وقد تثبت من كل جزئية ، ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة فى صحتها ..[4] .

ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان مالا علم له به ، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب فى النفس فيقول : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ... ﴾ .

والمرح فى الأصل : شدة الفرح ، والتوسع فيه ، مع الخيلاء والتعالى على الناس ، يقال : مرح - بزنة فرح - يمرح مرحا ، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين . وهو مصدر وقع موقع الحال .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٢ .
(٤) من تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٥ ص ٢٢٢٧ .

أى : ولا تمش - أيها الانسان - فى الأرض مشية الفخور المتكبر المختال بل كن متواضعا متأدبا بأدب الإسلام فى سلوكك .

وتقييد النهى بقوله « فى الأرض » للتذكير بالمبدأ والمعاد ، المانعين من الكبر والخيلاء ، إذ من الأرض خلق وإليها يعود ، ومن كان كذلك كان جديرا به أن يتواضع لا أن يتكبر .

قال - تعالى - : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية والتهكم من المتفاخر المغرور .

أى : إنك - أيها الماشى فى الأرض مرحا - لن تخرق الأرض بوطئك عليها ، أو بمشيك فوقها ، ولن تبلغ - مهما ارتفعت قامتك - الجبال فى الطول والعلو . ومادام شأنك كذلك ، فكن متواضعا ، فمن تواضع لله - تعالى - رفعه .

وقوله « طولا » تمييز محول عن الفاعل . أى : لن يبلغ طولك الجبال .

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن التعالى والتطاول ، قوله - تعالى - : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾[٢] .

وقد أمر النبى - ﷺ - بالتواضع ، ونهى عن التكبر والغرور ، وبين سوء عاقبة ذلك فى أحاديث كثيرة ، منها مارواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله - تعالى - أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد »[٣] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال :« لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا »[٤] .

وروى الترمذى عن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لايزال الرجل يذهب بنفسه - أى يرتفع ويتكبر - حتى يكتب فى الجبارين - فيصيبه ما أصابهم »[٥] .

ورحم الله القائل :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هـو منك أرفع
وإن كنت فى عــز وحِـرْزٍ ومَنْعَـة فكم مات من قوم هـو منك أمنع

---

(١) سورة طه الآية ٥٥ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٣) ، (٤) ، (٥) من كتاب رياض الصالحين ص ٢٨٥ للامام النووى .

ثم ختم - سبحانه - تلك التكاليف التى يغلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ يعود إلى ماتقدم ذكره من التكاليف والأوامر والنواهى . التى لايتطرق إليها النسخ ، والتى تبلغ خمسة وعشرين تكليفا ، تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ ثم يأتى بعد ذلك النهى عن عقوق الوالدين ، والأمر بصلة الأرحام ، وبالعطف على المسكين وابن السبيل ، ثم النهى عن البخل ، والإسراف ، وقتل الأولاد ، والاقتراب من الزنا ، وقتل النفس إلا بالحق ، والاعتداء على مال اليتيم .. الخ .

والضمير فى ﴿ سيئه ﴾ يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال ، كالشرك ، وعقوق الوالدين ، والزنا . أى : كل ذلك الذى بيناه لك فيما سبق ، كان الفعل السيىء منه ، عند ربك مكروها ، أى : مبغوضا عنده - سبحانه - وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد ، وإعطاء ذى القربى حقه ، فهو محمود عند ربك - عز وجل - .

قال الآلوسى : ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر - كالشرك والزنا ... - للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده - تعالى - كافية فى وجوب الكف عن ذلك .

وتوجيه الإشارة إلى الكل ، ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء ، لما قيل : من أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة ، بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته ، وفيه إشعار بكون ماعداه مرضيا عنده - سبحانه - .

وإنما لم يصرح بذلك ، إيذانا بالغنى عنه ، أو اهتماما بشأن التنفير من النواهى ..[1] .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ كل ذلك كان سيئة ﴾ بالتاء والتنوين .

وعلى هذه القراءة يكون اسم الإشارة ، يعود إلى المنهيات السابقة فقط ، ويكون المعنى : كل ذلك الذى نهيناك عنه فى الآيات السابقة ، من الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، واتباع ما ليس لك به علم .. كان اقترافه سيئة من السيئات المبغوضة عند ربك ، المحرمة فى شرعه ، المعاقب مرتكبها .

ثم ختم - سبحانه - تلك الأحكام المحكمة ، والتكاليف السامية ، بقوله : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٦ .

أى : ذلك الذى أمرناك به ، ونهيناك عنه - أيها الرسول الكريم - بعض ما أوحاه الله - تعالى - عليك « من الحكمة » التى هى علم الشرائع ومعرفة الحق ، والعمل به ، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم ، مع الله - تعالى - إلها آخر - أيها المخاطب - فتلقى وتطرح فى جهنم ، ملوما من نفسك ومن غيرك ، مدحورا أى : مبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : ولقد جعل الله - تعالى - فاتحتها - أى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهى - وخاتمتها ، النهى عن الشرك ، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّفيها الحكماء ، وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التى اشتملت على بضع وعشرين تكليفا ، والتى ابتدأت بقوله - تعالى - لا تجعل مع الله إلها آخر ... وانتهت بقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر .. ﴾ قد ربطت قواعد السلوك والآداب : والتكاليف الفردية والاجتماعية ، بإخلاص العبادة لله - تعالى - لأن هذا الإخلاص لله - تعالى - فى العقيدة والعبادة والقول والعمل .. هو رأس كل حكمة وملاكها . كما قال صاحب الكشاف - رحمه الله - .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ذكر من الأوامر والنواهى فى الآيات السابقة ، التى بدأها وختمها بالنهى عن الإشراك بالله - تعالى - أتبع ذلك بإقامة الأدلة على استحالة أن يكون له شريك أو ولد ، بل كل من فى السموات ومن الأرض ، خاضع لسلطانه ، وما من شىء إلا ويسبح بحمده ، فقال - تعالى - :

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم
بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٠ .

ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

والخطاب فى قوله – تعالى – : ﴿ أفأصفاكم .. ﴾ للكافرين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله .

والإصفاء بالشىء : جعله خالصا . يقال : أصفى فلان فلانا بالشىء ، إذا آثره به . ويقال للأشياء التى يختص السلطان بها نفسه : الصوافى . وفعله : صفا يصفو ، وتضمن هنا معنى التخصيص .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم .

والمعنى – كما يقول صاحب الكشاف – أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد ، وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لاترضونهن لأنفسكم ، بل تئدوهن وتقتلونهن !! فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يُؤْثَرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات[1] .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى مازعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه ، أى : لم يخصكم ربكم بالبنين ، ولم يتخذ من الملائكة إناثا ، لأنه – سبحانه – تنزه عن الشريك والولد والوالد والشبيه .

قال – تعالى – : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[2] .

وقال – تعالى – : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾[3] .

وقوله – سبحانه – : ﴿إنكم لتقولون قولا عظيما ﴾ تسفيه لأقوالهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة وعقولهم السقيمة .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٠ .
(٢) سورة الزمر الآية ٤ .
(٣) سورة النجم الآية ٢١ ، ٢٢ .

أى : إنكم بنسبتكم البنات إلى الله - تعالى - ، لتقولون قولا عظيما فى قبحه وشناعته ، وفى استهجان العقول السليمة له ، وفيما يترتب عليه من عقوبات أليمة من الله - تعالى - لكم .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن الذى أنزله على نبيه محمد - ﷺ - قد اشتمل على ألوان متعددة من الهدايات والآداب والأحكام ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ صرفنا ﴾ من التصريف وهو فى الأصل صرف الشىء من حالة إلى أخرى ، ومن جهة إلى أخرى .

والمراد به هنا : بينا ، وكررنا ، ومفعوله محذوف للعلم به .

والمعنى : ولقد بينا وكررنا فى هذا القرآن أنواعا من الوعد والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، والمواعظ والأخبار ، والآداب والتشريعات ، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويعتبروا ، ويوقنوا بأنه من عند الله - تعالى - فيهديهم ذلك إلى اتباع الحق ، والسير فى الطريق القويم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم ، وإيثارهم الغى على الرشد .

والنفور : التباعد والإعراض عن الشىء . يقال : نفرت الدابه تنفر - بكسر الفاء وضمها - نفورا ، إذا جزعت وتباعدت وشردت .

أى : وما يزيدهم هذا البيان والتكرار الذى اشتمل عليه القرآن الكريم ، إلا تباعدا عن الحق ، وإعراضا عنه ، وعكوفا على باطلهم ، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول - ﷺ - على ما آتاه الله من فضله .

---

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥ .

وكان بعض الصالحين إذا قرأ هذه الآية قال : زادنى لك خضوعا ، ما زاد أعداءك نفورا .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - ﷺ - أن يوبخهم على شركهم ، وأن يسوق لهم الدليل الواضح على فساد عقولهم ، فقال - تعالى - : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا﴾ .

وقد قرأ جمهور القراء « كما تقولون » وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « كما يقولون » .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان ، أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه أن المعنى .

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز و جل - طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكى ينازعوه فى ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما هى عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾[1] .

وقال سبحانه - : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون ﴾[2] .

وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه : قوله ﴿ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو . أى : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالية ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ..[3] .

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - ، إذا لابتغوا - أى الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ، ويعترفوا بفضله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محظورا ﴾[1] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥١ .
(١) سورة الإسراء الآية ٥٧ .

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه فى تفسيره للآية فقال : يقول - تعالى - : قل يامحمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة تعبد .. لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه يبتغون إليه الوسيلة والقربة .[٢] .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأى الأول أظهر ، لأن فى الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله - تعالى - ، وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تتقرب إليه - سبحانه - ، بل الذى يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأى يناسبه - أيضا - قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ .

أى : تنزه الله - تعالى - عما يقوله المشركون فى شأنه وتباعد ، وعلا علوا كبيرا ، فإنه - جل شأنه - لا ولد له ، فلا شريك له .. .

قال - تعالى - : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنها دون عرشه - تعالى - وتحته ، وليست معه . .

ثم بين - سبحانه - أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال - تعالى - : ﴿ تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء ، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل مالا يليق به - سبحانه - .

أى تنزه الله - تعالى - وتمجده السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شىء من مخلوقاته التى لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه - تعالى - ، ولكن أنتم يابنى آدم « لا تفقهون تسبيحهم » لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ، وفوق مستوى فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

والمتدبر فى هذه الآية الكريمة ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبة من الخالق - عز وجل - ، لأنها تصرح تصريحا بليغا بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٦ .

بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده - تعالى - .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله ، وإخلاص العبادة له ، ومداومة ذكره ... حتى لا يكون - وهو الذى كرمه ربه وفضله - أقل من غيره طاعة لله - تعالى - .

وقوله : ﴿ إنه كان حليما غفورا ﴾ تذييل قصد به بيان فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده مع تقصيرهم فى تسبيحه وذكره .

أى : ﴿ إنه كان حليما ﴾ لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، ﴿ غفورا ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه المستقيم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال .

قال بعض العلماء تسبيح هذه الكائنات لله - تعالى - هو دلالتها - بإمكانها وحدوثها ، وتغير شئونها ، وبديع صنعها - على وجود مبدعها ، ووحدته وقدرته ، وتنزهه عن لوازم الإمكان والحدوث ، كما يدل الأثر على المؤثر .

فهى دلالة بلسان الحال ، لا يفقهها إلا ذوو البصائر . أما الكافرون فلا يفقهون هذا التسبيح ، لفرط جهلهم وانطماس بصيرتهم ..[1] .

ومنهم من يرى أن تسبيحها بلسان المقال ، أى أن التسبيح بمعناه الحقيقى ، فالكل يسبح بحمد الله ، ولكن بلغته الخاصة التى لا يفهمها الناس .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ أى : وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أى : لاتفقهون تسبيحهم - أيها الناس - لأنها بخلاف لغتكم وهذا عام فى الحيوانات والنبات والجماد .

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره ، عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

وفى حديث أبى ذر : أن النبى - ﷺ - أخذ فى يده حصيات ، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - وهو حديث مشهور فى المسانيد .. .

ثم قال ويشهد لهذا القول آية السجدة فى أول سورة الحج - وهو قوله - تعالى - : ﴿ ألم

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن جـ ١ ص ٤٥٧ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب.. ﴾[١] .

وقال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند اليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله ﴿ ومن فيهن ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عمم بعد ذلك الأشياء كلها فى قوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ .

واختلف فى هذا العموم هل هو مخصص أوْلا . فقالت فرقة : ليس مخصوصا ، والمراد به تسبيح الدلالة ، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله - عز وجل - خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شىء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر : ولا يفقهونه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة والدلالة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَه .

ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير.. ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ .

ثم قال : فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال ، بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء فالقول به أولى[٢] .

والذى تطمئن إليه النفس أن التسبيح حقيقى وبلسان المقال ، لأن هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤيد ذلك .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته ، وأثبت أن كل شىء يسبح بحمده ، أتبع ذلك ببيان أحوال المشركين عند سماعهم للقرآن الكريم ، وببيان ما جعله الله - تعالى - على حواسهم بسبب جحودهم وعنادهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) الآية ١٨ من سورة الحج وراجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٦ طبعة دار الشعب .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٦٦ .

وَإِذَا قَرَأْتَ
ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا
﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ
إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا قرأت القرآن ... ﴾ للرسول - ﷺ - وقوله ﴿ حجابا ﴾ من الحجب بمعنى المنع .

قال صاحب المصباح : حجبه حجبا - من باب قتل - : منعه . ومنه قيل للستر : حجاب ؛ لأنه يمنع المشاهدة . وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من الدخول . والأصل فى الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد استعمل فى المعانى فقيل : العجز حاجب ، أى : بين الإنسان ومراده ..[1] .

وقوله ﴿ مستورا ﴾ ساترا ، فهو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل . كميمون بمعنى يامن . ومشئوم بمعنى شائم .

واختار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر ، من كونه اسم مفعول ، لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورا به القارىء فلا يراه غيره ، ويجوز أن يكون مستورا ، أى : ذا ستر فهو للنسب كمكان مهول : ذو هول ..

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال ، أشهرها قولان :

أولهما يرى أصحابه ، أن المراد بالحجاب المستور : ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين

---

(١) المصباح المنير جـ ١٢١ للشيخ الفيومى .

عن الانتفاع بهدى القرآن الكريم ، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم . فهو حجاب معنوى خفى ، حال بينهم وبين الانتفاع بالقرآن .

فهم يستمعون إليه ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به ، فكان استماعهم له كعدمه ، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فقهه .

والمعنى : وإذا قرأت - أيها الرسول الكريم - القرآن الهادى إلى الطريق التى هى أقوم ، جعلنا - بقدرتنا ، ومشيئتنا - ، بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، حجابا يحجبهم ويمنعهم عن إدراك أسراره وهداياته ، وساترا بينك وبينهم ، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول انتفاع وهداية .

ويشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾[1] .

ومن المفسرين الذين اكتفوا بهذا القول ، فلم يذكروا غيره ، الإمام البيضاوى ، فقد قال - رحمه الله : قوله : وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم ﴿ مستورا ﴾ ذا ستر : كقوله - تعالى - : ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ أى مستورا عن الحس ..[2] .

أما القول الثانى فيرى أصحابه : أن المراد بالحجاب المستور ، أن الله - تعالى - يحجب نبيه - ﷺ - عن أعين المشركين ، بحيث لا يرونه فى أوقات معينة ، لحكم منها : النجاة من شرورهم .

فيكون المعنى : وإذا قرأت القرآن - أيها الرسول الكريم - جعلنا بينك وبين هؤلاء الكافرين ، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا يرونك ، عندما تكون المصلحة فى ذلك .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت سورة ﴿ تبت يد أبى لهب ﴾ جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفى يدها فِهْر - أى حجر - وهى تقول : مُذمَّما أتينا ، وأَمَره عصينا ، ودينه قَلَيْنا : ورسول الله - ﷺ - جالس ، وأبو بكر إلى جنبه .

فقال أبو بكر : يارسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، فقال - ﷺ - : « إنها

---

(١) سورة فصلت الآية ٥ .
(٢) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٥٨٧ .

لن ترانى » وقرأ قرآنا اعتصم به منها ، ومما قرأه - : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾ .

فجاءت حتى قامت على أبى بكر ، فلم تر النبى - ﷺ - ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك هجانى : فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك .

فانصرفت وهى تقول : لقد علمت قريش أنى بنت سيدها[1] .

ومن المفسرين الذين استظهروا هذا القول ، الإمام القرطبى ، فقد قال بعد أن ذكر ماروى عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - : وقال سعيد بن جبير : لما نزلت سورة ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ جاءت امرأة أبى لهب إلى النبى - ﷺ - ومعه أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك فإنها أمرأة بَذِيَّة .

فقال - ﷺ - : « إنه سيحال بينى وبينها » فلم تره . فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر هجانا صاحبك .

فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما رأتك ؟ .

قال : لا . مازال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت .

ثم قال القرطبى : وقيل : الحجاب المستور ، طَبْعُ الله على قلوبهم حتى لايفقهوه : ولايدركوا ما فيه من الحكمة . قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك ، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيتهم لك ، حتى كأن على قلوبهم أغطية.. .

ثم قال : والقول الأول أظهر فى الآية[2] .

ويبدو لنا أن كلا القولين صحيح فى ذاته ، وأن كل واحد منهما يحكى حالات معينة ، ويشهد لذلك ما نقله الجمل فى حاشيته على الجلالين عن شيخه فقد قال - رحمه الله - . قوله : ﴿ حجابا مستورا ﴾ ، أى : ساترا لك عنهم فلا يرونك وهذا بالنسبة لبعضهم ، كان يحجب بصره عن رؤية النبى - ﷺ - إذا أراده بمكروه وهو يقرأ القرآن : وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معانى القرآن .. وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن ..[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٨٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٦٩ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٨ ه بتصرف وتلخيص - .

فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ يؤكد أن المشركين كانوا طوائف متعددة بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم ، ومن النبى - ﷺ - .

أى : وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ أكنة أن يفقهوه ﴾ أى : أغطية تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم ، وفهمه فهما سليما .

وجعلنا - أيضا - : ﴿ فى آذانهم وقرا ﴾ أى : صمما وثقلا عظيما يمنعهم من سماعه سماعا ينفعهم .

وقوله : - سبحانه - : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة .

أى : وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم - ربك فى القرآن وحده ، دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ .

وبذلك ترى أن هاتين الآيتين قد صورتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير ، لتزيد فى فضيحتهم وجهلهم ، ولتجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه . وأنه - تعالى - سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقاب ، فقال - عز وجل - : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به . إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ .

والباء فى قوله - سبحانه - : ﴿ بما يستمعون ﴾ متعلقة بأعلم ، ومفعول ﴿ يستمعون ﴾ محذوف ، تقديره ، القرآن .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أى : متلبسين به من اللغو والاستخفاف ، والاستهزاء بك وبالقرآن . يروى أنه - ﷺ - كان يقوم عن يمينه رجلان من بنى عبد الدار ، وعن يساره رجلان منهم ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار - إذا قرأ القرآن - .

ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام . أى : نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء ، وهم متعلقة بيستمعون .. وأفعل التفضيل فى العلم والجهل يتعدى بالباء ، وفى سوى ذلك يتعدى باللام ، فيقال : هو أكسى للفقراء ، والمراد من كونه - سبحانه - أعلم بذلك : الوعيد لهم ..[1] .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٨٩ .

وإذ فى قوله ﴿ إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ﴾ ظرف لأعلم .

ولفظ ﴿ نجوى ﴾ مصدر بمعنى التناجى والمسارة فى الحديث . وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة ، كما فى قولهم : قوم عدل .

ويجوز أن يكون جمع نَجِيٍّ ، كقتلى جمع قتيل أى : وإذ هم متناجون فى أمرك .

والمعنى : نحن - أيها الرسول الكريم - على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم . حين تتلوه عليهم ، وبالطريقة التى يستمعون بها وبالغرض الذى من أجله يستمعون إليك . وعلى علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى : وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، والتواصى بمعصيتك .

فالجملة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول - ﷺ - ومن القرآن . وتسلية له - ﷺ - عما أصابه منهم ، وبيان لشمول علم الله - تعالى - لكل أحوالهم الظاهرة والخفية .

وقوله - تعالى - : ﴿ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ بدل من قوله - تعالى - : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ .

والمسحور . هو الذى سحر فاختلط عقله ، وزالت عنه الهيئة السوية .

أى : ونحن أعلم بهؤلاء الأشقياء - أيضا - عندما يقول بعضهم لبعض : لاتتبعوا محمدا - ﷺ - فيما يدعو إليه ، فإنكم إن اتبعتموه تكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا ، أصابه السحر فأخرجه عن وعيه وعقله .

وقال - سبحانه - : ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الظلم عليهم فيما تفوهوا به ، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم .

وقوله - تعالى - : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ تسلية عظيمة للرسول - ﷺ - ، وتثبيت له وللمؤمنين على الطريق الحق الذى هداهم الله - تعالى - إليه .

أى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - كيف أن هؤلاء المشركين . قد بلغ بهم الجحود والفجور ، أنهم مثلوا لك الأمثال ، فوصفوك تارة بأنك مسحور ، وتارة بأنك شاعر .

وهم فى وصفهم هذا ، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا ، وصاروا كالحيران الذى التبست عليه الطرق ، فأمسى لا يعرف السبيل الذى يسلكه .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمة الله - عند تفسيره لهذه الآيات ، ما يدل على أن

المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول - ﷺ - عند قراءته للقرآن .

فقال : قال محمد بن إسحاق فى السيرة : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، أنه حُدِّث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق .. خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - ﷺ - وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق ، تلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة التالية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق ، قال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه . فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد - ﷺ - ؟ فقال أبو سفيان : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ولا ما يراد بها .

فقال الأخنس : وأنا والذى حلفت به ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل . فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد - ﷺ - ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسَىْ رهان قالوا : منّانبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه[1] .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم الباطلة ، فى شأن البعث والحساب يوم القيامة ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٨١ طبعة دار الشعب - القاهرة .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾
۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي
صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ
فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ
وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، ذكر فى هذه الآية شبهات القوم فى إنكار المعاد والبعث والقيامة ..[1] .

والرفات : ما تكسر وبَلِىَ من كل شىء كالفتات . يقال : رفت فلان الشىء يرفته - بكسر الفاء وضمها - ، إذا كسره وجعله يشبه التراب .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أئذا كنا ... ﴾ وفى قوله ﴿ أئنا لمبعوثون .. ﴾ للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله - تعالى - ، ولنبوة النبى - ﷺ - ، وللبعث والحساب ، قالوا للنبى - ﷺ - على سبيل الإنكار والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد ، عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذى كنا عليه فى الدنيا ؟ .

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، وكرر - سبحانه - الاستفهام فى الآية الكريمة ، للإشعار بإيغالهم فى الجحود والإنكار .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٢٢٤ .

والعامل فى ﴿ إذا ﴾ محذوف ، والتقدير : أنبعث أو أنحشر إذا كنا عظاما ورفاتا ، وقد دل على هذا المحذوف قوله - تعالى - : ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بالرد عليهم فيما استبعدوه وأنكروه من إعادتهم الى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقير من شأنهم ، والتعجيز لهم : « كونوا » - إن استطعتم - ﴿ حجارة ﴾ كالتى تعبدونها من دون الله ، ﴿ أو حديدا ﴾ كالذى تستعملونه فى شئون حياتكم ، ﴿ أو ﴾ كونوا ﴿ خلقا ﴾ أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد ﴿ مما يكبر ﴾ أى : يعظم ويستبعد - ﴿ فى صدوركم ﴾ المظلمة - قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شىء من ذلك أو غيره إن استطعتم ، فإن الله - تعالى - لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكى يحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .

فالمقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء . .

قال الجمل : أجابهم الله - تعالى - بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى أى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما . فليس المراد الأمر ، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله - تعالى - عن الإعادة[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرهما ؟ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل الذى فطركم أول مرة ﴾ رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله - تعالى - الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم الى الحياة مرة أخرى . كما قال - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون من الرسول - ﷺ - هذه الإجابات السديدة ، فقال : ﴿ فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ... ﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٩ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

أى : فسيحركون إليك رءوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب : متى هو ؟ أى ما ذكرته من الإعادة بعد الموت ، أو متى هو ذلك اليوم الذى سنعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورفاتا .

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب . ومن استبعاد لحصوله كما قال - تعالى - : حكاية عنهم فى آية أخرى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل عسى أن يكون قريبا ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والوعيد : عسى هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله، يكون قريبا جدا وقوعه .

ولاشك فى أنه قريب ، لأن عسى فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب ، ولأن الرسول -ﷺ- قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » - وأشار بالسبابة والوسطى .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يُدْعَوْن فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ... ﴾ .

والظرف ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم .. ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من ﴿ قريبا ﴾ .

والداعى لهم هو « إسرافيل » - عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[1] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[2] .

وقوله ﴿ بحمده ﴾ حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للملابسة .

أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداءه

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .
(٢) سورة القمر . الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

بسرعة وانقياد ، حال كونكم حامدين الله - تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ بحمده ﴾ حال منهم . أى : حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع ، ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتقسر قسرا . حتى أنك تلين لين المسمح - أى الذليل - الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك[1] .

وقوله : ﴿ فتستجيبون ﴾ بمعنى تجيبون ، إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة ، فهى أوكد من الإجابة ، وأسرع فى التلبية .

وجملة « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » حالية ، أى : والحال أنك تظنون عند بعثكم أنكم ما لبثتم فى الدنيا أو فى قبوركم إلا زمنا قليلا .

قال قتادة : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلّت ، حين رأوا يوم القيامة ، لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ .. كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[4] .

ثم ترك القرآن الكريم أولئك الذين كفروا بالبعث والنشور فى طغيانهم يعمهون ، ووجه خطابه إلى المؤمنين ، آمرا إياهم بأن يقولوا الكلمة الطيبة ، ومبينا لهم ولغيرهم ، أن مصائرهم بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٢ .
(٢) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .
(٣) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢ .
(٤) سورة النازعات الآية ٤٦ .

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ
عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ... ﴾ الآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهَمَّ بقتله ، فكادت تثير فتنة ، فأنزل الله فيه : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾ .

وقيل : نزلت لما قال المسلمون : ائذن لنا يارسول الله فى قتال المشركين ، فقد طال إيذاؤهم لنا فقال : « لم أومر بعد بالقتال »[1] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين ، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم ، الكلمة التى هى أحسن ، والعبارة التى هى أرق وألطف .

وذلك لأن الكلمة الطيبة ، تزيد فى المودة التى بين المؤمنين ، وتكسر حدة العداوة التى بينهم وبين أعدائهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2] .

قال الآلوسى : ومقول فعل الأمر محذوف ، أى : قل لهم قولوا التى هى أحسن يقولوا ذلك . فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر . وإلى هذا ذهب الأخفش .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٧٦ .
(٢) سورة فصلت الآية ٣٤ .

وقال الزجاج : إن قوله ﴿ يقولوا ﴾ هو المقول ، وجزمه بلام الأمر محذوفة ، أى : قل لهم ليقولوا ...[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ تعليل للأمر السابق .

أى : إن الشيطان يتربص بكم ، ويتلمس السقطات التى تقع من أفواهكم ، والعثرات التى تنطق بها ألسنتكم ، لكى يشيع الشر بينكم ، ويبذر بذور الشر والبغضاء فى صفوفكم ، ويهيج أعداءكم عليكم .

وينزغ بمعنى يفسد . يقال : نزغه - كنفعه - ينزغه ، إذا طعن فيه واغتابه ، وقوله : ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم .

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس ، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيده فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[٣] .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله - ﷺ - أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته .. وعداوته ظاهرة بينة ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده . أى : فربما أصابه بها .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لايشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزغ فى يده ، فيقع فى حفرة من النار[٤] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٩٤ .
(٢) سورة فاطر . الآية ٦ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٥ .

ثم بين - سبحانه - أن مصير جميع الخلائق إليه ، وأنه محيط بأحوالهم فقال . ﴿ ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم ﴾ ...

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بكم من أنفسكم ، وهو - سبحانه - إن يشأ بفضله يرحمكم ، بأن يوفقكم لطاعته وتقواه ، وإن يشأ بعدله يعذبكم ، بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره ، لا يسأل - عز وجل - عما يفعل ، ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ بيان لوظيفة الرسول - ﷺ - .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون حفيظا ورقيبا . وموكولا إليك أمرهم فى إجبارهم وإكراههم على الدخول فى الإسلام ، وإنما أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

ثم انتقل - سبحانه - من بيان كمال علمه بأحوال الناس ، إلى بيان كمال علمه بجميع من فى السموات والأرض ، فقال - تعالى - : ﴿ وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ﴾ .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - أعلم بأحوال من فى السموات والأرض من إنس وجن وملك ، وغير ذلك ، ولا يخفى عليه شىء من ظواهرهم أو بواطنهم ، ولا يعزب عن علمه - تعالى - شىء من طاعتهم أو معصيتهم ، ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل رسالته ، وتبليغ وحيه كما قال : - تعالى - : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ بيان لمظهر من مظاهر علمه المطلق ، وفضله العميم : وعطائه الواسع .

والزبور : هو الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على داود - عليه السلام .

أى : ولقد فضلنا - على علم وحكمة منا - بعض النبيين على بعض ، بأن جعلنا منهم من كلم الله ، ومنهم من اتخذناه خليلا لنا ، ومنهم من آتيناه البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم من آتيناه الزبور وهو داود - عليه السلام - .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... ﴾ لا ينافى ماثبت من الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تفضلوا بين الأنبياء » فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية ، لا بمقتضى الدليل . فإذا دل الدليل على شىء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون

نصا فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .. ﴾ .

ولا خلاف فى أن محمدا - ﷺ - أفضلهم ..[1] .

وإنما خص كتاب داود بالذكر ، لأن اليهود زعموا أنه لانبى بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة ، فكذبهم الله - تعالى - فى ذلك ، ولأن فى هذا الإيتاء إشارة إلى أن تفضيل داود لم يكن بسبب ما أعطاه الله من ملك ، بل بسبب ما أعطاه من كتاب فيه إشارة إلى تفضيل الرسول - ﷺ - وأمته ، قال - تعالى - : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[2] .

والمراد بالعباد الصالحين : محمد - ﷺ - وأمته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا عرف الزبور ، كما عرف فى قوله: ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ...﴾؟ .

قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور ، كالعباس وعباس ، والفضل وفضل . ويجوز أن يريد : وآتينا داود بعض الزبر - وهى الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله - ﷺ - من الزبور ، فسمى ذلك زبورا ، لأنه بعضها كما سمى بعض القرآن قرآنا[3] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يتحدى المشركين ، بأن يبين لهم : أن آلهتهم المزعومة لا تملك دفع الضر عنهم ، أو جلب الخير لهم ، بل إن هذه الآلهة لتخاف عذاب الله ، وترجو رحمته ، فقال - سبحانه - :

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٦ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٣ .

أورد المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :

قال ابن كثير : قال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ... ﴾ .

قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا .

وروى البخارى وغيره عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء - أى الإنس - بدينهم .. فنزلت هذه الآية[1] .

وقال القرطبى : لما ابتليت قريش بالقَحْط ، وشكَوْا إلى رسول الله - ﷺ - ، أنزل الله هذه الآية : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه... ﴾[2] .

والمراد بالزعم هنا : الظن الكاذب الذى لا أساس له من الحقيقة والواقع .

قال الآلوسى ما ملخصه : والزعم قريب من الظن ، ويقال إنه القول المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب ، حتى قال ابن عباس : كل ما ورد فى القرآن زعم فهو كذب .

وقد يطلق على القول المحقق ، والصدق الذى لا شك فيه ... فقد ورد عن النبى - ﷺ - أنه قال : « زعم جبريل كذا ... » .

وهو مما يتعدى إلى مفعولين ، وقد حذفا هنا ، أى : زعمتموهم آلهة .. والظاهر أن المراد من الموصول - الذين - كل من عبد من دون الله من العقلاء »[3] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . قل لهم على سبيل الإرشاد والتحدى : هذه الآلهة التى تعبدونها ، اطلبوا منها أن تدفع عنكم ما نزل بكم من ضر كمرض أو فقر أو قحط ؛ أو أن تحوله منكم إلى غيركم ...

فإذا لم تستطع ذلك - وهى بكل تأكيد لا تستطيع ولن تستطيع - فاتركوا عبادتها ، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو على كل شىء قدير ، وهو الله - عز وجل - .

واكتفى - سبحانه - بذكر كشف الضر ، لأنه هو الذى تتطلع إليه النفوس عند نزول

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٧٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص ٩٧ .

المصائب ، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع ، إذ عند نزول الضر ، لا تشتغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه .

ثم بين - سبحانه - أن كل معبود - سوى الله - عز وجل - يفتقر إلى عونه - سبحانه - ، وإلى رجاء الثواب منه ، وإلى دفع العذاب عنه ، فقال - تعالى - ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .. ﴾ واسم الإشارة ﴿ أولئك ﴾ يعود على المعبودين من دون الله ، وهو مبتدأ ، وخبره . قوله : ﴿ يبتغون ﴾ وما عطف عليه من قوله : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ .

والضمير فى ﴿ يدعون ﴾ يعود إلى المشركين ، وفى يبتغون يعود إلى المعبودين و ﴿ أيهم ﴾ بدل من واو الفاعل فى يبتغون ، و ﴿ أقرب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : هو ، أى : يبتغيها الذى هو أقرب ، والجملة صلة أى .

والوسيلة : ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من الأعمال الصالحة .

والمعنى : أولئك المعبودون الذين يزعم المشركون أنهم آلهة . ويسمونهم أربابا ، وينادونهم لكشف الضر عنهم ، هؤلاء المعبودون ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ .

أى : يتقربون إلى خالقهم ومالك أمرهم بصالح الأعمال ، ويبتغى أكثرهم صلاحًا وطاعة لله - تعالى - الرضا منه - عز وجل - .

وإذا كان هذا شأن أكثرهم قربًا فكيف يكون حال من هو أقل منه ؟ لا شك أنه يكون أشد طلبًا لرضا الله - تعالى - وعفوه ، وأشد حرصًا على طاعته .

وقوله - تعالى - ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله - تعالى -

أى : وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله - تعالى - وفضله ، بأن يحشرهم مع الأبرار ، ويخشون عذابه ونقمته ، ويتضرعون إليه أن يجنبهم عذاب النار ، وبالرجاء والخشية يحيى الصالحون الأخيار ، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح ، والخشية تمنعه من الوقوع فى المعاصى .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن عذاب ربك كان محذورًا ﴾ تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب .

أى : إن عذاب ربك كان جديرًا وقمينا بأن يحذره ، ويحترز منه كل عاقل .

وقدم - سبحانه - الرجاء على الخوف ، لأن متعلقه أسبق ، ولأنه بجانب الله - تعالى - أظهر ، ففى الحديث القدسى : « إن رحمتى سبقت غضبى » .

هذا ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ﴾[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد قررتا بأسلوب منطقى بليغ ، أن الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء ، وأنه وحده هو المتصرف فى شئون عباده ، وأن كل مخلوق سواه - سبحانه - محتاج إلى عونه وعفوه ورضاه ، وأن الذين زعمهم المشركون آلهة كعيسى وعزير والملائكة ... ما هم إلا من عباد الله الذين يبتغون إليه الوسيلة ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وبين جانبًا من مظاهر فضله على هذه الأمة ونبيها - ﷺ - . فقال - تعالى - :

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٢ .

والمقصود بالقرية فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابًا شديدًا ﴾ : قرى الكفار والظالمين ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، فيكون المعنى :

وما من قرية من قرى الظالمين ، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب ، أو معذبوها عذابًا شديدًا ، يستأصل شأفتها ، ويقطع دابرها ، كما فعلنا مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك ، الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : هذا إخبار من الله - عز وجل - ، بأنه قد حتم وقضى ، بما كتب عنده فى اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها ؛ بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذابًا شديدًا ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[١] .

ويرى آخرون ، أن المقصود بالقرية هنا : القرى كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين .

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الآلوسى - رحمه الله - فقد قال : قوله - تعالى - : ﴿ وإن من قرية ﴾ الظاهر العموم ، لأن ﴿ إن ﴾ نافية ، و ﴿ من ﴾ زائدة لاستغراق الجنس . أى : وما من قرية من القرى . ﴿ إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ بإماتة أهلها حتف أنوفهم ﴿ أو معذبوها عذابًا شديدًا ﴾ بالقتل وأنواع البلاء .. وروى عن مقاتل أنه قال : الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة ... »[٢] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وماكنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٣] . وقوله - سبحانه - : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾[٤] . وقوله - عز وجل - : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٥] ، ولأن الله - تعالى - قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة ، وكونه كذلك يقتضى أنه للقرى الظالمة . إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى ، سواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين ، بسبب انقضاء عمر الدنيا .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٠ .
(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٣١ .
(٥) سورة هود الآية ١١٧ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورًا ﴾ تأكيد لقضاء الله النافذ ، وحكمه الثابت .

أى : ﴿ كان ذلك ﴾ الإهلاك والتعذيب ، فى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ﴿ مسطورًا ﴾ أى : مكتوبًا وثابتًا .

قال القرطبى : ﴿ مسطورًا ﴾ أى : مكتوبًا . والسطر : الخط والكتابة ، وهو فى الأصل مصدر . والسطر - بالتحريك - مثله ، وجمعه أسطار ، مثل سبب وأسباب ، وجمع السطر - بسكون الطاء - أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ »[١] .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية ، ورحمته بها ، فقال - تعالى - : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية آثارًا منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سأل أهل مكة رسول الله - ﷺ - أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم .

فقال - ﷺ - : « لا .. بل استأنى بهم » ، وأنزل الله قوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... ﴾[٢] .

قال الآلوسى : والمنع لغة : كف الغير وقسره عن فعل يريد أن يفعله ، ولاستحالة ذلك فى حقه - تعالى - لاستلزامه العجز المحال المنافى للربوبية قالوا : إنه مستعار هنا للصرف والترك ... »[٣] .

وقوله : ﴿ أن نرسل ﴾ فى محل نصب لأنه مفعول ثان لمنعنا ، أو فى محل جر ، على حذف الجار ، أى : من أن نرسل ، وقوله : ﴿ إلا أن كذب بها ﴾ فى محل رفع لأنه فاعل منعنا ، والتقدير : وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٣ .

والمراد بالآيات : ما اقترحه المشركون على النبى - ﷺ - من قلب الصفا ذهبا ، ومن إزاحة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها ...

والمعنى : وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التى طلبها المشركون منك - أيها الرسول الكريم - إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم ، كما كذب بأمثالها أشباههم الأولون ، وفى هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب الاستئصال كما جرت بذلك سنتنا .

وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا - بأمتك أيها الرسول الكريم - ، ألا نعذبهم عذاب الاستئصال والمحو ، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة .

قالوا : ومن الحكم فى هذا التأخير : الإظهار لمزيد شرف النبى - ﷺ - ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ ، والرعاية لشأن من سيولد من بعضهم من المؤمنين ، ولمن سيؤمن من هؤلاء المقترحين ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة ... والمراد : الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ، ومن إحياء الموتى ، وغير ذلك .

وعادة الله فى الأمم ، أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها . ثم لم يؤمن ، أن يعاجل بعذاب الاستئصال . فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم ، كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك ، وقالوا : هذا سحر مبين ، كما يقولون فى غيرها . واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة »[١] .

ثم ساق - سبحانه - مثالاً للسابقين الذين أجيبوا إلى ما اقترحوه ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأخذهم عذاب الاستئصال ، فقال - تعالى - : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ .

وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، وخصهم بالذكر ، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر من غيرهم ، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد الشام .

والناقة المراد بها : ناقة صالح - عليه السلام - التى طلبها قومه منه ، فأخرجها الله - تعالى - لهم لتكون معجزة له ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم الله - تعالى - بالصيحة التى جعلتهم فى دارهم جاثمين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٤ .

وقوله ﴿ مبصرة ﴾ أى : معجزة واضحة ، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس ..

قال الجمل : ﴿ مبصرة ﴾ بكسر الصاد - باتفاق السبعة ، والإسناد مجازى . أى : يبصرونها خارجة من الصخرة . وقرىء شاذا بفتح الصاد . ثم قال : وفى السمين : مبصرة حال . وهو إسناد مجازى ، إذ المراد إبصار أهلها ، ولكنها لما كانت سببا فى الإبصار نسب إليها ، والظاهر أن المراد الإبصار المعنوى ، وهو الاهتداء بها ، والتوصل بها ، إلى تصديق نبيهم ، وعلى هذا تظهر السببية ، فإن وجودها سبب فى هذا المعنى ... »[1] .

وقال الآلوسى : وقوله : ﴿ مبصرة ﴾ على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة ، والمراد : ذات إبصار ، أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها ، فالصيغة للنسب .... »[2] .

والمعنى : لقد تركنا إجابة المطالب التى اقترحها قومك - يا محمد - ، رحمة بهم ، لأننا لو أعطيناهم إياهم ثم استمروا فى تكذيبهم لك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين . فقد أجبنا قوم صالح - عليه السلام - إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة فى الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها .

قال - تعالى - : ﴿ فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾[3] .

وقال - سبحانه - : ﴿ كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها ﴾[4] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا ﴾ تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتى به الأنبياء من هدايات ومعجزات تدل على صدقهم .

والباء فى قوله ﴿ بالآيات ﴾ للملابسة ، ومفعول ، نرسل ، محذوف ، و ﴿ تخويفًا ﴾ مفعول لأجله .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٤ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .
(٤) سورة الشمس الآيات ١١ - ١٥ .

قال القرطبي قوله : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول : العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل ، من دلائل الإنذار تخويفًا للمكذبين . الثاني : أنها آيات الانتقام تخويفًا من المعاصي . الثالث : أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك . الرابع : القرآن ، الخامس : الموت الذريع »[1] .

والمعنى : وما نرسل رسلنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا تخويفًا لأقوامهم من سوء تكذيبهم لها . فإنهم إن كذبوها يصيبهم من العذاب ما يصيبهم .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد النبي - ﷺ - ثباتًا على ثباته ، ويقينًا على يقينه ، وما يدل على شمول علمه - تعالى - ونفاذ قدرته ، وبليغ حكمته فقال : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... ﴾ .

أي : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلنا لك على لسان وحينا . إن ربك - عز وجل - قد أحاط بالناس علمًا وقدرة . فهم في قبضته ، وتحت تصرفه ، وقد عصمك منهم ، فامض في طريقك . وبلغ رسالة ربك ، دون أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم ، عدوانًا على حياتك ، فقد عصمك - سبحانه - منهم .

وفي هذه الجملة ما فيها من التسلية للنبي - ﷺ - ، ومن التبشير له ولأصحابه ، بأن العاقبة ستكون لهم ، ومن الحض لهم على المضي في طريقهم دون أن يخشوا أحدًا إلا الله .

والمراد بالرؤيا في قوله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ : ما رآه النبي - ﷺ - وعاينه بعينيه من عجائب ، ليلة الإسراء والمعراج .

أي : وما جعلنا ما رأيته وعاينته ليلة إسرائنا بك من غرائب ، إلا فتنة للناس . ليتميز قوي الإيمان من ضعيفه ، وسليم القلب من مريضه .

وأطلق - سبحانه - على ما أراه لنبيه ليلة الإسراء لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة « لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام ، وعلى رؤية اليقظة ليلًا فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، كما في قول الشاعر يصف صائدا : وكبر للرؤيا وهش فؤاده .. أي : وسر لرؤيته للصيد الذي سيصيده . أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية ، نظرًا لما رآه في

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٢٨١ .

تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية ، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن ما رآه قد كان ليلاً . وقد كان فى سرعته كأنه رؤيا منامية .

وكان ما رآه - ﷺ - فى تلك الليلة فتنة للناس ، لأنه لما قص عليهم ما رآه ، ارتد بعضهم عن الإسلام ، وتردد البعض الآخر فى قبوله ، وضاقت عقولهم عن تصديقه ، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يعرج إلى السموات العلا .. ثم يعود إلى مكة ، كل ذلك فى ليلة واحدة .

وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا : ما رآه النبى - ﷺ - من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه ..

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : ما أراه الله - تعالى - لنبيه فى منامه ، من مصارع المشركين قبل غزوة بدر ؛ فقد قال - ﷺ - قبل بدء المعركة : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . ثم أومأ إلى الأرض وقال : هذا مصرع فلان . وهذا مصرع فلان .

والذى نرجحه هو الرأى الأول ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه على الرأيين الثانى والثالث يترجح أن الآية مدنية ، لأن غزوة بدر وفتح مكة كانا بعد الهجرة ، والتحقيق أن هذه الآية مكية .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس .. ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ، ضم إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال : هى رؤيا عين أريها النبى - ﷺ - ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ...

وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى - ﷺ - أنه أسرى به .

وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها .

وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية ، رؤيا رسول الله - ﷺ - أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية - فرده المشركون عن دخولها فى تلك السنة - ، فافتتن بعض المسلمين لذلك ، فنزلت هذه الآية .. وفى هذا التأويل ضعف . لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة ... »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ معطوف على الرؤيا . أى : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس .

والمراد بالشجرة الملعونة هنا : شجرة الزقوم ، المذكورة فى قوله - تعالى - : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾[1] .

والمراد بلعنها : لعن الآكلين منها وهم المشركون ، أو هى ملعونة لأنها تخرج فى أصل الجحيم . أو هى ملعونة لأن طعامها مؤذ وضار ، والعرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون .

قال الآلوسى : وروى فى جعلها فتنة لهم : أنه لما نزل فى شأنها فى سورة الصافات وغيرها ما نزل ، قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . وما نعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد ، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرًا وزبدًا ، وقال لأصحابه : تزقموا .

وافتتن بهذه الآية أيضًا بعض الضعفاء ، ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدًا ...[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا ﴾ تذييل قصد به بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود ، وقسوة قلب ...

أى : ونخوف هؤلاء المشركين بعذاب الدنيا ، وبعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم التى طلعها كأنه رءوس الشياطين ... فما يزيدهم هذا التخويف والتهديد إلا طغيانًا متجاوزًا فى ضخامته وكبره كل حِد ، وكل عقل سليم .

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال ، مع أن تخويفهم وازدياد طغيانهم قد وقعا ، للإشعار بالتجدد والاستمرار .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، ومن فضله على هذه الأمة ، ومن تبشيره وإنذاره ، ووعده ووعيده ، ما يزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم ، وما يصرف الطاغين عن طغيانهم لو كانوا يعقلون .

---

(١) سورة الصافات الآيات ٦١ - ٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٦ .

ثم ساق - سبحانه - جانبًا من قصة آدم وإبليس ، لزيادة التسلية للرسول - ﷺ - وللإشعار بأن الحسد والغرور ، كما منعا إبليس من السجود لآدم ، فقد منعا مشركى مكة من الإيمان بالنبى - ﷺ - فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴾ تذكير لبنى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويستمروا على عداوتهم لإبليس وجنده .

أى : واذكروا - يابنى آدم - وقت أن قلنا للملائكة ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود تحية وتكريم ، فسجدوا امتثالاً لأمر الله - تعالى - ، بدون تردد أو تلعثم ، ﴿ إلا إبليس ﴾ فإنه أبى السجود لآدم - عليه السلام - ﴿ وقال ﴾ بتكبر وعصيان لأمر ربه - عز وجل - : ﴿ أأسجد ﴾ وأنا المخلوق من نار ﴿ لمن خلقت طينًا ﴾ أى : أأسجد لمن خلقته من طين ، مع أننى أفضل منه .

والتعبير بقوله ﴿ فسجدوا ﴾ بفاء التعقيب ، يفيد أن سجودهم - عليهم السلام - كان فى

أعقاب أمر الله - تعالى - لهم مباشرة ، بدون تأخير أو تسويف .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال أأسجد ... ﴾ استئناف بيانى ، فكأنه قيل : فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر ؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ما قال .

والاستفهام فى ﴿ أأسجد ﴾ للإنكار والتعجب ، لأن يرى - لعنه الله - أنه أفضل من آدم .

وقوله : ﴿ طينا ﴾ منصوب بنزع الخافض أى : من طين .

وقد جاء التصريح بإباء إبليس عن السجود لآدم ، بأساليب متنوعة ، وفى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾[2] .

ثم فصل - سبحانه - ما قاله إبليس فى اعتراضه على السجود لآدم فقال : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ .

ورأى هنا علمية فتتعدى إلى مفعولين ، أولهما ﴿ هذا ﴾ والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه ، والكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله ، والاسم الموصول ﴿ الذى ﴾ بدل من ﴿ هذا ﴾ أو صفة له ، والمراد من التكريم فى قوله ﴿ كرمت على ﴾ : التفضيل .

والمعنى : قال إبليس فى الرد على خالقه - عز وجل - : أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، والذى فضلته على ، لماذا فضلته على وأمرتنى بالسجود له مع أننى أفضل منه ، لأنه مخلوق من طين ، وأنا مخلوق من نار !!

وجملة هذا الذى كرمت على ، واقعة موقع المفعول الثانى .

ومقصود إبليس من هذا الاستفهام ، التهوين من شأن آدم - عليه السلام - والتقليل من منزلته . ولم يجبه - سبحانه - على سؤاله ، تحقيراً له . وإهمالاً لشخصه ، بسبب اعتراضه على أمر خالقه - عز وجل - .

ثم أكد إبليس كلامه فقال : ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٤ .
(٢) سورة الحجر الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

إذ أن اللام فى قوله ﴿ لئن ... ﴾ موطئة للقسم ، وجوابه لأحتنكن .

وأصل الاحتناك : الاستيلاء على الشىء ؛ أو الاستئصال له . يقال : حنك فلان الدابة يحتنكها - بكسر النون ورفعها - إذا وضع فى حنكها - أى فى ذقنها - الرسن ليقودها به . ويقال : احتنك الجراد الأرض ، إذا أكل نباتها وأتى عليه .

والمعنى : قال إبليس - متوعدًا ومهددًا - : لئن أخرتن - يا إلهى - إلى يوم القيامة ، لأستولين على ذرية آدم ، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصى والشهوات ، إلا عددًا قليلاً منهم فإنى لا أستطيع ذلك بالنسبة لهم ، لقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وهذا الذى ذكره - سبحانه - عن إبليس فى هذه الآية من قوله : ﴿ لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ شبيه به قوله - تعالى - : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم : ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] .

قال بعض العلماء : وقول إبليس فى هذه الآية : ﴿ لأحتنكن ذريته ... ﴾ قاله ظنا منه أنه سيقع . وقد تحقق له هذا الظن - فى كثير من بنى آدم - كما قال - تعالى - ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين ﴾[3] .

وقوله - تعالى - ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ بيان لما توعد الله - سبحانه - به إبليس وأتباعه .

والأمر فى قوله ﴿ اذهب ﴾ للإهانة والتحقير . أى : قال الله - تعالى - لإبليس ﴿ اذهب ﴾ مطرودًا ملعونًا ، وقد أخرناك إلى يوم القيامة ، فافعل ما بدالك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ، جزاء مكملا متمما لا نقص فيه .

وقال - سبحانه - ﴿ فإن جهنم جزاؤكم ﴾ مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب فى قوله ﴿ فمن تبعك منهم ﴾ ، تغليبًا لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب الغائب وهم أتباعه . لأنه هو السبب فى إغواء هؤلاء الأتباع .

وقوله : ﴿ جزاء ﴾ مفعول مطلق ، منصوب بالمصدر قبله .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧ .
(٢) سورة ص الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) سورة سبأ الآية ٢٠ .

وقوله ﴿ موفورا ﴾ اسم مفعول ، من قولهم وفر الشيء فهو وافر وموفور أى : مكمل متمم . وهو صفة لقوله : ﴿ جزاء ﴾ .

وهذا الوعيد الذى توعد الله - تعالى - به إبليس وأتباعه ، جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - : ﴿ قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ .

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى ، فقال - تعالى - : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - إبليس بأوامر خمسة ، القصد بها : التهديد والاستدراج ، لا التكليف ، لأنها كلها معاص ، والله لا يأمر بها[1] .

وهذه الأوامر الخمسة هى : اذهب ، واستفزز ... وأجلب ... وشاركهم ... وعدهم .

وقوله : واستفزز ، من الاستفزاز ، بمعنى الاستخفاف والإزعاج ، يقال : استفز فلان فلانا إذا استخف به ، وخدعه ، وأوقعه فيما أراده منه . ويقال : فلان استفزه الخوف ، إذا أزعجه .

وقوله : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أصل الإجلاب : الصياح بصوت مسموع . يقال : أجلب فلان على فرسه وجلب عليه ، إذا صاح به ليستحثه على السرعة فى المشى .

قال الآلوسى : قوله ﴿ وأجلب عليهم ﴾ أى : صح عليهم من الجلَبة وهى الصياح . قاله الفراء وأبو عبيدة . وقال الزجاج : أجلب على العدو : جمع عليه الخيل . وقال ابن السكيت : جلب عليه : أعان عليه . وقال ابن الأعرابى : أجلب على الرجل ، إذا توعده الشر ، وجمع عليه الجمع .

والخيل : يطلق على الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه ، وعلى الفرسان مجازا ، وهو المراد هنا .

ومنه قول الرسول - ﷺ - فى بعض غزواته لأصحابه : « يا خيل الله اركبى » . والرجل - بكسر الجيم - بمعنى راجل - كحذر بمعنى حاذر - هو الذى يمشى رجلاً ، أى غير راكب ... »[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١١١ .

والمعنى . قال الله - تعالى - لإبليس : اذهب أيها اللعين مذءوما مدحورًا . فإن جهنم هى الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم ، وافعل ماشئت معهم من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصى ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، وإجلابه بخيله ورجله ؟

قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل شبهت حاله فى تسلطه على من يغويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده ، من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ، وقيل : بصوته ، أى : بدعائه إلى الشر ، وبخيله ، ورجله : أى كل راكب وماش من أهل العبث . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال »[1] .

وعلى أية حال ، فالجملة الكريمة تصوير بديع ، لعداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنه معهم فى معركة دائمة ، يستعمل فيها كل وسائل شروره ، ليشغلهم عن طاعة ربهم ، وليصرفهم عن الصراط المستقيم ، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى شىء من أغراضه الفاسدة ، ماداموا معتصمين بدين ربهم - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ﴾ ، معطوف على ما قبله .

أى : وشاركهم فى الأموال ، بأن تحضهم على جمعها من الطرق الحرام ، وعلى إنفاقها فى غير الوجوه التى شرعها الله ، كأن يستعملوها فى الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة .

وشاركهم فى الأولاد : بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الحنيف وبأن تيسر لهم الوقوع فى الزنا الذى يترتب عليه ضياع الأنساب ، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من وساوسك التى تغرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية يألفون معها الشرور والآثام ، والفسوق والعصيان .

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق عددًا من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال بالصواب أن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٨ .

يقال : كل مولود ولدته أنثى ، عصى الله فيه ، بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه ، من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصى الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ... »[1] .

وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله : وهذا الذى قاله - ابن جرير - متجه ، فقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال : « يقول الله - عز وجل - إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدًا »[2] .

وقوله : ﴿ وعدهم ﴾ أى : وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة . كأن تعدهم بأن الدنيا هى منتهى آمالهم . فعليهم أن يتمتعوا بها كيف شاءوا ، بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق . وكأن تعدهم بأنه ليس بعد الموت حساب أو ثواب أو عقاب ، أو جنة أو نار ...

وقوله سبحانه ﴿ وما يعدهم الشيطان الا غرورا ﴾ تحذير من الله تعالى لعباده من اتباع الشيطان ، ومن السير وراء خطواته .

وأصل الغرور تزين الباطل بما يوهم أنه حق . يقال : غر فلان فلانا فهو يغُره غرورًا إذا خدعه ، وأصله من الغُرّ ، وهو الأثر الظاهر من الشىء ، ومنه غرة الفرس لأنها أبرز ما فيه . ولفظ ﴿ غرورا ﴾ صفة لموصوف محذوف .

والتقدير : وعدهم - أيها الشيطان - بما شئت من الوعود الكاذبة ، وما يعد الشيطان بنى آدم إلا وعدا غرورا .

ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله فيكون المعنى : وما يعدهم الشيطان إلا من أجل الغرور والمخادعة .

وفى الجملة الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إهمالاً لشأن الشيطان ، وبيانًا لحاله مع بنى آدم ؛ حتى يحترسوا منه ويحذروه .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٨٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين ، فقال - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ .

أى : إن عبادى الصالحين الذين أخلصوا دينهم لى ، ليس لك - يا إبليس - تسلط واقتدار على إغوائهم وإضلالهم ، وصرفهم عن السبيل الحق إلى السبيل الباطل .

قال - تعالى - : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[(١)] .

وقال - سبحانه - ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[(٢)] .

والإضافة فى قوله ﴿ إن عبادى ... ﴾ للتشريف والتكريم حيث خصهم - سبحانه - بهذا اللون من الرعاية والحماية .

وقوله ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ أى : وكفى بربك وكيلا يتوكلون عليه ، ويفوضون إليه أمورهم ، ويعتصمون به لكى يقيهم وساوس الشيطان ونزغاته .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ أى : حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول - ﷺ - قال : « إن المؤمن ليُنْضِى شيطانه - أى ليقهره - كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر »[(٣)] .

وقال الجمل فى حاشيته : وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله . وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال ، لأنه لو كان الإقدام على الحق ، والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه ، لوجب أن يقال : وكفى بالإنسان نفسه فى الاحتراز عن الشيطان . فلما لم يقل ذلك ، بل قال : وكفى بربك وكيلًا . علمنا أن الكل من الله . ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعته إلا بقوته ."[(٤)] .

وبعد أن بين - سبحانه - لبنى آدم ما يبيته إبليس من عداوة وبغضاء ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه - تعالى - عليهم فى البر والبحر وفى السراء والضراء فقال - عز وجل - :

---

(١) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .
(٢) سورة الحجر الآية ٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٥ .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ
إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ... ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، وفضله عليهم .

و ﴿ يزجى ﴾ من الإزجاء ، وهو السوق شيئًا فشيئًا . يقال أزجى فلان الإبل ، إذا ساقها برفق ، وأزجت الريح السحاب ، أى : ساقته سوقًا رفيقًا ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ... ﴾ .

و ﴿ الفلك ﴾ ما عظم من السفن . قال الجمل ما ملخصه : ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث . قال - تعالى - : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ فأفرد وذكر . وقال - سبحانه - : ﴿ والفلك التى تجرى فى البحر ﴾ ، فأنث ، ويحتمل الإفراد والجمع . قال - تعالى - : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ... ﴾ فجمع ...[1] .

و ﴿ البحر ﴾ يطلق على الماء الكثير عذبًا كان أو ملحًا . وأكثر ما يكون إطلاقًا على الماء الملح .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٦ .

أى : اذكروا - أيها الناس - لتعتبروا وتشكروا ربكم الذى من مظاهر نعمته عليكم ، أنه يسوق لكم - بلطفه وقدرته - السفن التى تركبونها فى البحر لكى تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذى يصلح معاشكم ، والذى هو لون من ألوان فضل الله عليكم .

وقوله : لتبتغوا من فضله ، تعليل لإزجاء الفلك ، وتصريح بوجوه النفع التى تفضل الله - تعالى - بها عليهم .

وقوله : ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ تعليل ثان لهذا الإزجاء .

أى : يزجى لكم الفلك فى البحر ، لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم ، ولأنه - سبحانه - كان أزلا وأبدا ، بكم دائم الرحمة والرأفة .

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم ، فى حال سوق السفن ودفعها بهم فى البحر برفق وأناة ، إلى بيان رعايته لهم فى حال اضطرابها وتعرضها للغرق ، بسبب هيجان البحر وارتفاع أمواجه ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ... ﴾ .

والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة ، والمراد به هنا : ما يعتريهم من خوف وفزع ، وهم يرون سفينتهم توشك على الغرق .

والمراد بالضر هنا : اضطراب الفلك ، وارتفاع الأمواج ، واشتداد العواصف ، وتعرضهم للموت من كل مكان .

المعنى : وإذا أحاطت بكم الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتم على الغرق .. ذهب وغاب عن خواطركم وأذهانكم ، كل معبود سوى الله - عز وجل - لكى ينقذكم مما أنتم فيه من بلاء ، بل إياه وحده - سبحانه - تدعون ليكشف عنكم ما نزل بكم من سوء .

فالجملة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الإنسان عند الشدائد والمحن لا يتجه بدعائه وضراعته إلا إلى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبى : ﴿ ضل ﴾ معناه : تَلِف وفُقد وهى عبارة عن تحقير لمن يدعى إلهًا من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلاً ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد ،

فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل »[1] .

وقال الإمام ابن كثير : يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ أى : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله - تعالى - كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل ، لما ذهب فارا من رسول الله - ﷺ - حين فتح مكة ، فذهب هاربًا فركب فى البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده .

فقال عكرمة فى نفسه : والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره ، فإنه لا ينفع فى البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه ، لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد - ﷺ - فلأجدنه رءوفًا رحيمًا . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى الرسول - ﷺ - فأسلم وحسن إسلامه - رضى الله عنه »[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورًا ﴾ بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله .

أى : فلما نجاكم الله - تعالى - بلطفه وإحسانه : من الغرق ، وأوصلكم سالمين إلى البر ، أعرضتم عن طاعته ، وتركتم دعاءه والضراعة إليه ، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه ، ﴿ كفورا ﴾ أى : كثير الكفران والجحود لنعم ربه - عز وجل - .

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ كالتعليل للإعراض ، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين ، وفيه لطافة حيث أعرض - سبحانه - عن خطابهم بخصوصهم ، وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران ، فلما أعرضوا أعرض الله - تعالى - عنهم »[3] .

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[4] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٩١ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١١٦ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٥ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، لا فى البحر ولا فى البر ولا فى غيرهما فقال : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ والهمزة فى قوله ﴿ أفأمنتم ﴾ للاستفهام الإنكارى ، والفاء عاطفة على محذوف ، والتقدير : أنجوتم فأمنتم .

وقوله ﴿ يخسف ﴾ من الخسف وهو انهيار الأرض بالشىء ، وتغييبه فى باطنها و ﴿ جانب البر ﴾ ناحية ارض ، وسماه - سبحانه - جانبًا ، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض ، والبر يمثل جانبًا آخر .

والحاصب : الريح الشديدة ، التى ترمى بالحصباء ، وهى الحجارة الصغيرة . يقال . حصب فلان فلانا ، إذا رماه بالحصباء .

والمعنى : أنجوتم من الغرق - أيها الناس - ففرحتم وأمنتم ونسيتم أن الله - تعالى - إذا كان قد أنجاكم من الغرق ، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض ، وقادر كذلك على أت يرسل عليكم ريحًا شديدة ترميكم بالحصباء التى تهلككم ؛ ثم لا تجدوا لكم وكيلًا تكلون إليه أموركم ، ونصيرًا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله - تعالى - .

إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق ، فأنتم جاهلون ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء أكنتم فى البحر أو فى البر أو فى غيرهما ، إذ جميع جوانب هذا الكون فى قبضة الله - تعالى - وتحت سيطرته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت فما معنى ذكر الجانب ؟ قلت : معناه ، أن الجوانب والجهات كلها فى قدرته سواء ، وله فى كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ، بل إن كان الغرق فى جانب البحر ، ففى جانب البر ما هو مثله وهو الخسف ، لأنه تغييب تحت التراب ، كما أن الغرق تغييب تحت الماء فالبر والبحر عنده سيان ، يقدر فى البر على نحو ما يقدر عليه فى البحر ، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان »[2] .

ثم ساق - سبحانه - مثالاً آخر للدلالة على شمول قدرته ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٢ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٩ .

﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح ، فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ .

و ﴿ أم ﴾ هنا يجوز أن تكون متصلة ؛ بمعنى : أى الأمرين حاصل . ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى : بل .

والقاصف من الريح : هو الريح العاتية الشديدة التى تقصف وتحطم كل ما مرت به من أشجار وغيرها . يقال : قصف فلان الشىء ، إذا كسره .

والتبيع : فعيل بمعنى فاعل ، وهو المطالب غيره بحق سواء أكان هذا الحق دينا أو ثأرًا أو غيرهما ، مع مداومته على هذا الطلب .

والمعنى : بل أأمنتم - أيها الناس - ﴿ أن يعيدكم ﴾ الله - تعالى - ﴿ فيه ﴾ أى : فى البحر ، لسبب من الأسباب التى تحملكم على العودة إليه مرة أخرى ﴿ فيرسل عليكم ﴾ - سبحانه - وأنتم فى البحر ﴿ قاصفًا من الريح ﴾ العاتية الشديدة التى تحطم سفنكم ﴿ فيغرقكم ﴾ بسبب كفركم وجحودكم لنعمه ، ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا ﴾ أى : إننا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه ، ثم لا تجدوا لكم أحدًا ينصركم علينا ، أو يطالبنا بحق لكم علينا ، فنحن لا نسأل عما نفعل ، وأنتم المسئولون .

فالاستفهام هنا - أيضًا - للإنكار والتوبيخ .

وقال - سبحانه - ﴿ أن يعيدكم فيه ﴾ ولم يقل أن يعيدكم إليه ، للإشعار باستقرارهم فيه ، وأنه - تعالى - لا يعجزه أن يفعل ذلك .

والتعبير بقوله ﴿ قاصفا من الريح ﴾ فيه من الترهيب والإنذار ما فيه لأن لفظ القصف يدل بمعناه اللغوى على التحطيم والتكسير .

وقال - سبحانه - ﴿ بما كفرتم ﴾ لبيان أن الله - تعالى - ما ظلمهم بإهلاكهم ، وإنما هم الذين عرضوا أنفسهم لذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن طاعته - سبحانه - .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أى : لا تجدون تبيعًا يتبعنا بثأركم بسبب ذلك الإغراق الذى أوقعناه بكم .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد ساقت ألوانًا من نعم الله - تعالى - على الناس ، وحذرتهم من جحود هذه النعم ، حتى لا يتعرضوا لعذاب الله ، الذى قد ينزل بهم وهم فى البحر أو فى البر أو فى غيرهما .

ثم ذكر - سبحانه - تكريمه لبنى آدم ، وتفضيلهم على كثير من مخلوقاته ، وأحوالهم فى الآخرة ، فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ... ﴾ أى : جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ، ذوى كرم ، أى : شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر .. »[١] .

ومن مظاهر تكريم الله - تعالى - لبنى آدم ، أنه خلقهم فى أحسن تقويم ، كما قال - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

وأنه ميزهم بالعقل والنطق والاستعدادات المتعددة ، التى جعلتهم أهلًا لحمل الأمانة ، كما قال - سبحانه - : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... ﴾[٢] .

وأنه سخر الكثير من مخلوقاته لمنفعتهم ومصلحتهم ، قال - تعالى - : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم

---

(١) تفسير الالوسى جـ ١٥ ص ١١٧ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[١] .

وأنه سجل هذا التكريم فى القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكفاهم بذلك شرفا وفخرا .

وقوله - تعالى - ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ بيان لنوع من أنواع هذا التكريم . أى : وحملناهم بقدرتنا ورعايتنا فى البر على الدواب وغير ذلك من وسائل الانتقال كالقطارات والسيارات وغيرها ، وحملناهم فى البحر على السفن وعابرات البحار التى تنقلهم من مكان إلى آخر .

وقوله : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ بيان لنوع آخر من أنواع التكريم . أى : ورزقناهم بفضلنا وإحساننا من طيبات المطاعم والمشارب والملابس ، التى يستلذونها ، ولا يستغنون عنها فى حياتهم .

وقوله : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ بيان لنوع ثالث من أنواع التكريم ، أى : وبسبب هذا التكريم فضلناهم على كثير من مخلوقاتنا التى لا تحصى ، تفضيلاً عظيمًا .

وعلى هذا التفسير يكون التفضيل لونًا من ألوان التكريم الذى منحه الله - تعالى - لبنى آدم .

وبعضهم يرى أن هناك فرقًا بين التكريم والتفضيل ، ومن هذا البعض الإمام الفخر الرازى ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : لقد قال الله - تعالى - فى أول الآية ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ وقال فى آخرها ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ . ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار .

والأقرب أن يقال : إنه - تعالى - فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خِلْقية طبيعية ذاتية ، مثل : العقل ، والنطق ، والصورة الحسنة .. ثم إنه - تعالى - عرضه بواسطة ذلك لاكتساب العقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة فالأول : هو التكريم ، والثانى : هو التفضيل »[٢] .

وكأن الفخر الرازى يرى أن التكريم يرجع إلى الصفات الخلقية التى امتاز بها بنو آدم ، أما التفضيل فيرجع إلى ما اكتسبوه من عقائد سليمة ، وأخلاق قويمة .

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

هذا ، وقد أخذ صاحب الكشاف من هذه الجملة وهى قوله - تعالى - : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ أن الملائكة أفضل من البشر ، لأنهم - أى الملائكة - هم المقصودون بالقليل الذى لم يفضل عليه بنو آدم .

قال - رحمه الله - : قوله : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا ... ﴾ هو ما سوى الملائكة وحسب بنى آدم تفضيلاً ، أن ترفع عليهم الملائكة - وهم هم - ، ومنزلتهم عند الله منزلتهم ... »[1] .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس ، ولا يلزم منه تفضيل كل فرد على كل فرد .

قال الجمل ما ملخصه : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ المراد تفضيل جنس البشر على أجناس غيره كالملائكة ، ولا يلزم من تفضيل جنس البشر على جنس الملك تفضيل الأفراد ، إذ الملائكة فى جملتهم أفضل من البشر غير الأنبياء . وصلحاء البشر - كالصديق - أفضل من عوام الملائكة ، أى : غير الرؤساء منهم ، على المعتمد من طريقة التفضيل »[2] .

والذى تطمئن إليه النفس فى هذه المسألة - والله أعلم - : أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أفضل من الملائكة جميعًا ، لأن الله - تعالى - قد أمر الملائكة بالسجود لآدم الذى جعله خليفة له فى أرضه ، دون غيره من الملائكة ...

وأن الرسل من الملائكة - كجبريل وإسرافيل وعزرائيل وميكائيل - أفضل من عموم البشر - سوى الأنبياء - ، لأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لوظائف معينة ، قال - تعالى - ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ .

وأن صلحاء البشر - كالعشرة المبشرين بالجنة - أفضل من عامة الملائكة ، لأن الملائكة ليست فيهم شهوة تدفعهم إلى مخالفة ما أمر الله به ... أما بنو آدم فقد ركب الله - تعالى - فيهم شهوة داعية إلى ارتكاب المعصية ، ومقاومة هذه الشهوات جهاد يؤدى إلى رفع الدرجات ...

ومن العلماء الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الفخر الرازى ، فليرجع إليه من شاء[3] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٨١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٨ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ شروع فى بيان تفاوت أحوال بنى آدم فى الآخرة ، بعد بيان حالهم فى الدنيا .

ولفظ ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل محذوف ، أى : واذكر يوم ندعو كل أناس بإمامهم . والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .

وقد اختار هذا القول الإمام ابن كثير ورجحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا فى ذلك . فقال مجاهد وقتادة أى : بنبيهم ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ﴾ ...

وقال ابن زيد : بإمامهم أى بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير ...

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ أى : بكتاب أعمالهم ...

وهذا القول هو الأرجح لقوله - تعالى - : ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ ، وقال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ ..

ويحتمل أن المراد بإمامهم : أن كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم فى الكفر ...

وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... » الحديث ...

ثم قال - رحمه الله - ولكن المراد ههنا بالإمام ، هو كتاب الأعمال[1] .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من خلقنا ، بكتاب أعمالهم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله فقال - تعالى - : ﴿ فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا ﴾ .

أى : فمن أوتى من بنى آدم يوم القيامة ، كتابه بيمينه ، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته ، فأولئك السعداء يقرءون كتابهم بسرور وابتهاج ، ولا ينقصون من أجورهم قدر

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٢ .

فتيل ، وهو الخيط المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشىء القليل و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ فمن أوتى ﴾ يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، ودخلت الفاء فى الخبر وهو « فأولئك » لشبهه بالشرط .

وجاء التعبير فى قوله ﴿ أوتى كتابه بيمينه ﴾ بالإفراد ، حملا على لفظ من ، وجاء التعبير بالجمع فى ﴿ أولئك ﴾ حملا على معناها .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ بيمينه ﴾ تشريف وتبشير لصاحب هذا الكتاب الملىء بالإيمان والعمل الصالح وقال - سبحانه - : ﴿ فأولئك يقرءون كتابهم ﴾ بالإظهار ، ولم يقل : يقرءونه ، لمزيد العناية بهؤلاء السعداء ، ولبيان أن هذا الكتاب تبتهج النفوس بتكرار اسمه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من أوتى كتابه بشماله فقال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ .

والمراد بالعمى هنا : عمى القلب لا عمى العين ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

والمعنى : ومن كان من بنى آدم فى هذه الدنيا أعمى القلب ، مطموس البصيرة ، بسبب إيثاره الكفر على الإيمان ، فهو فى الدار الآخرة أشد عمى ، وأضل سبيلاً منه فى الدنيا ، لأنه فى الدنيا كان فى إمكانه أن يتدارك ما فاته أما فى الآخرة فلا تدارك لما فاته .

وعبر - سبحانه - عن الذى أوتى كتابه بشماله بقوله - ﴿ ومن كان فى هذه أعمى ﴾ للإرشاد إلى العلة التى بسببها أصابه الشقاء فى الآخرة ، وهى - فقدانه النظرِ السليم ، وإيثاره الغى على الرشد ، والباطل على الحق ..

ومما يدل على أن المراد به من أوتى كتابه بشماله ، مقابلته لمن أوتى كتابه بيمينه ، كما جاء فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ﴾[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لبنى آدم من التكريم والتفضيل ما من شأنه أن

(١) سورة الحاقة الآيات من ١٩ الى ٢٥ .

يحملهم على إخلاص العبادة لخالقهم ، وعلى امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، لكى يكونوا من السعداء فى دنياهم وآخرتهم .

ثم حكى - سبحانه - جانبًا من المسالك الخبيثة ، التى سلكها المشركون مع النبى - ﷺ - لزحزحته عن التمسك بدعوته ، وكيف أن الله - تعالى - قد عصمه من كيدهم ، فقال - سبحانه - :

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات روايات منها ما جاء عن سعيد بن جبير أنه قال : كان النبى - ﷺ - يستلم الحجر الأسود فى طوافه ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُلم بآلهتنا ... فأبى الله - تعالى - ذلك ، وأنزل عليه هذه الآية .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبى - ﷺ - فسألوه شططا : وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ... فنزلت هذه الآية[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٩٩ .

و ﴿ إن ﴾ فى قوله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ... ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن .

و ﴿ كاد ﴾ من أفعال المقاوبة . و ﴿ يفتنونك ﴾ من الفتنة ، وأصلها الاختبار والامتحان . يقال : فتن الصائغ الذهب ، أى : اختبره ليعرف جيده من خبيثه ، ويقال : فتنت الرجل عن رأيه ، إذا أزلته عما كان عليه ، وهو المراد هنا .

والمعنى ؛ وإن شأن هؤلاء المشركين ، أنهم قاربوا فى ظنهم الباطل ، وزعمهم الكاذب ، أن يخدعوك ويفتنوك - أيها الرسول الكريم - عما أوحينا إليك من هذا القرآن ، لكى تفترى علينا غيره ، وتتقول علينا أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان .

وقوله : ﴿ وإذًا لاتخذوك خليلا ﴾ بيان لحالهم مع الرسول - ﷺ - لو أنه أطاعهم فيما اقترحوه عليه .

قال الجمل ما ملخصه : « وإذًا حرف جواب وجزاء يقدر بلو الشرطية . وقوله : ﴿ لاتخذوك ﴾ جواب قسم محذوف تقديره : والله لاتخذوك ، وهو مستقبل فى المعنى ، لأن إذًا تقتضى الاستقبال . إذ معناها المجازاة ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ ولئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ أى : ليظلوا[1] .

والمعنى : لو أنك - أيها الرسول الكريم - وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة لأحبوا ذلك منك ، ولصاروا أصدقاء لك فى مستقبل أيامك .

وقد بين القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن الرسول - ﷺ - أعرض عن مقترحاتهم ورفضها ، ولم يلتفت إليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

أى : ولولا تثبيتنا إياك - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من الحق والصدق ، بأن عصمناك من كيدهم لقاربت أن تميل ميلاً قليلاً ، بسبب شدة احتيالهم وخداعهم .

قال بعض العلماء : وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح ، براءة نبينا - ﷺ - من مقاربة الركون إلى الكفار ، فضلاً عن نفس الركون ؛ لأن ﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود ، فمقاربة الركون منعتها ﴿ لولا ﴾ الامتناعية لوجود التثبيت من الله - تعالى - لأكرم خلقه - ﷺ - فاتضح يقينًا انتفاء مقاربة الركون - أى الميل - ، فضلاً عن الركون نفسه .

وهذه الآيةتبين ما قبلها ، وأنه - ﷺ - لم يقارب الركون إليهم مطلقًا . لأن قوله : ﴿ لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً ﴾ أى : قاربت تركن إليهم ، هو عين الممنوع بلولا الامتناعية[1] .

ومما يشهد بأن الرسول - ﷺ - لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين ، قول ابن عباس - رضى الله عنهما - كان رسول الله - ﷺ - معصومًا ، ولكن هذا تعريف للأمة ، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله - تعالى - وشرائعه .

وعن قتادة أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، قال النبى - ﷺ - « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

ثم بين - سبحانه - ما كان سيترتب على الركون إليهم - على سبيل الفرض من عقاب فقال - تعالى - : ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرًا ﴾ .

والضعف : عبارة عن أن يضم إلى شىء مثله .

أى : لو قاربت - أيها الرسول الكريم - أن تركن إليهم أقل ركون ، أو تميل إليهم أدنى ميل ، لأنزلنا بك عذابًا مضاعفًا فى الدنياوعذابًا مضاعفًا فى الآخرة ، ثم لا تجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك علينا ، أو ظهيرًا يدفع عنك عذابنا ، أو يحميك منه ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ .

والسبب فى تضعيف العذاب ، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ، ويصغر بمقدار صغره ، ورحم الله القائل :

وكبائر الرجل الصغير صغائر ... وصغائر الرجل الكبير كبائر

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٦٢١ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والرسول - ﷺ - هو أعظم الخلق على الإطلاق ، لذا توعده الله - تعالى - بمضاعفة العذاب ، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون .

وقريب من هذا المعنى قوله - تعالى - ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : وفى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، وفيه دليل على أن أدنى مداهنه للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجثو عندها ويتدبرها فهى جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وإزدياد التصلب فى دين الله[2] .

ثم ذكر - سبحانه - مكيدة أخرى من مكايد المشركين ، وهى محاولتهم إخراج النبى - ﷺ - من بلده ، لكى يعكفوا على عبادة آلهتهم الباطلة دون أن ينهاهم عن ذلك أحد ، فقال - تعالى - : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : قيل نزلت فى اليهود إذ أشاروا على النبى - ﷺ - بسكنى الشام ، بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة كان بعد ذلك ...

ثم قال : وقيل نزلت فى كفار قريش ، حين هموا بإخراج الرسول - ﷺ - من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله - تعالى - بهذه الآية : وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا زمناً يسيرا ...[3] .

وما ذهب إليه ابن كثير - رحمه الله - من أن الآية مكية ، هو الذى تسكن إليه النفس . فيكون المعنى : ﴿ وإن كادوا ﴾ أى : كفار مكة ﴿ ليستفزونك من الأرض ﴾ أى : ليزعجونك ويحملونك على الخروج من الأرض التى على ترابها ولدت وفيها نشأت ، وهى أرض مكة .

وقوله : ﴿ وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ بيان لسوء مصيرهم إذا ما أخرجوه - ﷺ - من مكة .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٨٥ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٣ .

أى : ولو أنهم استفزوك وأجبروك على الخروج إجبارًا ، لما لبثوا ﴿ خلافك ﴾ أى : بعد خروجك إلا زمنًا قليلاً ، ثم يصيبهم ما يصيبهم من الهلاك والنقم .

ومع أن الرسول - ﷺ - قد خرج من مكة مهاجرًا بأمر ربه إلا أنه - سبحانه - قد مكن نبيه - ﷺ - وأصحابه من مشركى مكة فى غزوة بدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا نحو ذلك ، وكانت المدة بين هجرته - ﷺ - وبين غزوة بدر تقل عن سنتين .

وهكذا حقق الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - وأنزل وعيده بأعدائه .

ثم بين - سبحانه - أن نصرة رسله سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ .

ولفظ ﴿ سنة ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد ، أى : سن الله ما قصه عليك سنة ، وهذه السنة هى أننا لا نترك بدون عقاب أمة أخرجت رسولها من أرضه ، وقد فعلنا ذلك مع الأقوام السابقين الذين أخرجوا أنبياءهم من ديارهم ولا تجد - أيها الرسول الكريم - لسنتنا وطريقتنا تحويلا أو تبديلا ، ولولا أننا قد منعنا عن قومك عذاب الاستئصال لوجودك فيهم ، لأهلكناهم بسبب إيذائهم لك ، وتطاولهم عليك .

قال - تعالى - : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبًا من المسالك الخبيثة التى اتبعها المشركون مع النبى - ﷺ - كما حكت لنا ألوانًا من فضل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - حيث عصمه من أى ركون إليهم ووعده بالنصر عليهم .

ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - ﷺ - إلى ما يعينه على التغلب على كيد المشركين ، وإلى ما يزيده رفعة فى الدرجة ، وبشره بأن ما معه من حق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل فقال - تعالى - :

أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ

أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى نظم هذه الآيات مع ما قبلها وجوه ، الأول : أنه - تعالى - لما قرر الإلهيات والمعاد والنبوات ، أردفها بذكر الأمر بالطاعات . وأشرف الطاعات . بعد الإيمان الصلاة ؛ فلهذا أمر بها .

الثانى : أنه - تعالى - لما قال : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ . أمره - تعالى - بالإقبال على عبادته لكى ينصره عليهم .. كما قال - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ... ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة ، من وقت زوالها وميلها عن وسط السماء لجهة الغرب . يقال : دلكت الشمس تدلك - بضم اللام - إذا مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه . ومادة ﴿ دلك ﴾ تدل على التحول والانتقال .

ولذلك سمى الدلاك بهذا الاسم . لأن يده لا تكاد تستقر على مكان معين من الجسم .

وتفسير دلوك الشمس هذا بمعنى ميلها وزوالها عن كبد السماء ، مروى عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وأنس ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

وقيل المراد بدلوك الشمس هنا غروبها . وقد روى ذلك عن على ، وابن مسعود ، وابن زيد .

قال بعض العلماء : والقول الأول عليه الجمهور ، وقالوا : الصلاة التى أمر بها ابتداء من هذا الوقت ، هى صلاة الظهر ، وقد أيدوا هذا القول بوجوه منها : ما روى عن جابر أنه قال : طعم عندى رسول الله - ﷺ - وأصحابه . ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فقال - ﷺ - هذا حين دلكت الشمس .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٢٧ .

ومن الوجوه - أيضًا - النقل عن أهل اللغة ، فقد قالوا : إن الدلوك فى كلام العرب : الزوال ، ولذا قيل للشمس إذا زالت . دالكة[١] .

وقوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ أى : إلى شدة ظلمته .

قال القرطبى : يقال : غسق الليل غُسوقًا . وأصل الكلمة من السيلان . يقال : غَسقت العين إذ سالت تغسق . وغسَق الجرح غسقانا ، أى : سال منه ماء أصفر ... وغسق الليل : اجتماع الليل وظلمته .

وقال : أبو عبيدة : الغسق : سواد الليل ... »[٢] .

والمراد من الصلاة التى تقام من بعد دلوك الشمس إلى غسق الليل : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ معطوف على مفعول ﴿ أقم ﴾ وهو الصلاة .

والمراد بقرآن الفجر : صلاة الفجر . وسميت قرآنًا ، لأن القراءة ركن من أركانها ، من تسمية الشىء باسم جزئه ، كتسمية الصلاة ركوعًا وسجودًا وقنوتًا .

وقوله ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودًا ﴾ تنويه بشأن صلاة الفجر ، وإعلاء من شأنها .

أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وداوم على صلاة الفجر - أيضًا - فإن صلاتها مشهودة من الملائكة ومن الصالحين من عباد الله - عز وجل - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ثبتت السنة عن رسول الله - ﷺ - تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفًا عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد ، خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر » .

يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا .... ﴾[٣] .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٦٠ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٠٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٤ .

وقال الإمام الفخر الرازى : وفى الآية احتمال ، وهو أن يكون المراد من قوله - تعالى - : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة . ويكون المعنى : إن صلاة الفجر مشهودة بالجماعة الكثيرة »[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ومن الليل ، فتهجد به نافلة لك ﴾ إرشاد إلى عبادة أخرى من العبادات التى تطهر القلب ، وتسمو بالنفس إلى مراقى الفلاح ، وتعينها على التغلب على الهموم والآلام .

والجار والمجرور ﴿ ومن الليل ﴾ متعلق بقوله ﴿ فتهجد ﴾ أى . تهجد بالقرآن بعض الليل . أو متعلق بمحذوف تقديره : وقم قومة من الليل فتهجد ، و ﴿ من ﴾ للتبعيض .

قال الجمل : والمعروف فى كلام العرب أن الهجود عبارة عن النوم بالليل . يقال : هجد فلان ، إذا نام بالليل .

ثم لما رأينا فى عرف الشرع أنه يقال لمن انتبه بالليل من نومه وقام إلى الصلاة أنه متهجد ، وجب أن يقال : سمى ذلك متهجدا من حيث أنه ألقى الهجود . فالتهجد ترك الهجود وهو النوم ... »[٢] .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله - تعالى - ﴿ وقرآن الفجر ﴾ ، إلا أنه ذكر فى الآية السابقة بمعنى الصلاة ، وذكر هنا بمعناه المشهور ، ففى الكلام ما يسمى فى البلاغة بالاستخدام .

والنافلة : الزيادة على الفريضة ، والجمع نوافل . يقال : تنفل فلان على أصحابه ، إذا أخذ زيادة عنهم .

أى : واجعل - أيها الرسول الكريم - جانبًا من الليل ، تقوم فيه ، لتصلى صلاة زائدة على الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليك وعلى أمتك .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلاً.نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ .

قالوا : وقيام الليل كان واجبًا فى حقه - ﷺ - بصفة خاصة ، زيادة على الصلاة المفروضة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢٩ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٢ .

أخرج البيهقى فى سننه عن عائشة أن النبى - ﷺ - قال : « ثلاث هن على فرائض ، وهن لكم سنة : الوتر ، والسواك ، وقيام الليل » .

ومن العلماء من يرى أن قيام الليل كان مندوبًا فى حقه - ﷺ - كما هو الشأن فى أمته ، ومعنى ﴿ نافلة لك ﴾ أى : زيادة فى رفع درجاتك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أما غيرك فقد شرعنا له النافلة تكفيرًا لخطاياه .

وقوله - عز وجل - : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا ﴾ بيان لما يترتب على أدائه للصلوات بخشوع وخضوع ، من سمو فى المكانة ، ورفعة فى الدرجة .

وكلمة عسى فى كلام العرب تفيد التوقع ، أما فى كلام الله - تعالى - فتفيد الوجوب والقطع .

قال الجمل : اتفق المفسرون على أن كلمة ﴿ عسى ﴾ من الله - تعالى - تدخل فيما هو قطعى الوقوع ، لأن لفظ عسى يفيد الإطماع ، ومن أطمع إنسانا فى شىء ، ثم حرمه ، كان عارا عليه والله - تعالى - أكرم من أن يطمع أحدًا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه » .

أى : داوم أيها الرسول الكريم على عبادة الله وطاعته لنبعثك يوم القيامة ونقيمك مقامًا محمودًا ، ومكانًا عاليًا ، يحمدك فيه الخلائق كلهم .

والمراد بالمقام المحمود هنا ، هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة . ليريح الناس من الكرب الشديد ، فى موقف الحساب .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فى هذا منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا - جمع جثوة كخطوة وخطا - أى جماعات - كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد - ﷺ - ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودًا » .

وروى الإمام أحمد والترمذى عن أبى بن كعب عن النبى - ﷺ - قال : « إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم . وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة أن الرسول - ﷺ - سئل عن قوله - تعالى - : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا ﴾ فقال : « هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه »[1] .

وقال الآلوسى : والمراد بذلك المقام ، مقام الشفاعة العظمى فى فصل القضاء حيث لا أحد

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٥ .

إلا وهو تحت لوائه - ﷺ - ، فقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول كذلك . ثم محمد فيشفع فيقضى الله - تعالى - بين الخلق ، فيمشى - ﷺ - حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله - تعالى - مقامًا محمودًا ، يحمده أهل الجمع كلهم »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن يكثر من اللجوء إليه عن طريق الدعاء ، بعد أن أمره بذلك عن طريق المداومة على الصلاة ، فقال - تعالى - : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ .

والمدخل والمخرج - بضم الميم فيهما - مصدران بمعنى الإدخال والإخراج ، فهما كالمجرى والمرسى وإضافتهما إلى الصدق من إضافة الموصوف لصفته .

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين المراد من ذلك ، فأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم ، أن المراد : بالإدخال : دخول المدينة ، وبالإخراج : الخروج من مكة ، ويدل عليه ما أخرجه أحمد ، والطبرانى ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، وجماعة ، عن ابن عباس قال : كان النبى - ﷺ - بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله - تعالى - عليه هذه الآية . وبدأ بالإدخال لأنه الأهم ...

ثم قال : والأظهر أن المراد إدخاله - عليه الصلاة والسلام - إدخالاً مرضيًا فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر ، وإخراجه - من كل ما يخرج منه خروجًا مرضيًا - كذلك - ، فتكون الآية عامة فى جميع الموارد والمصادر ... »[2] .

ويبدو لنا أن المعنى الذى أشار إليه الآلوسى - رحمه الله - بأنه الأظهر ، هو الذى تسكن إليه النفس ، ويدخل فيه غيره دخولاً أوليا ، ويكون المعنى :

وقل - أيها الرسول الكريم - متضرعًا إلى ربك : يارب أدخلنى إدخالاً مرضيًا صادقًا فى كل ما أدخل فيه من أمر أو مكان ، وأخرجنى كذلك إخراجًا طيبًا صادقًا من كل أمر أو مكان .

والمراد بالسلطان فى قوله - تعالى - : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ الحجة البينة الواضحة التى تقنع العقول ، والقوة الغالبة التى ترهب المبطلين .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٣ .

أى : واجعل لى - يا إلهى - من عندك حجة تنصرنى بها على من خالفنى ، وقوة تعيننى بها على إقامة دينك ، وإزالة الشرك والكفر .

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى فقال : قوله : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ أى : حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكًا وعزًا قويًا ناصرًا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه ، فأجيبت دعوته بقوله :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ﴿ ليظهره على الدين كله﴾ ﴿ليستخلفنهم فى الأرض﴾. ووعده لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له .

وعنه - ﷺ - أنه استعمل « عتاب بن أسيد » على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، فكان شديدًا على المريب . لينًا على المؤمن ، وقال : لا والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يارسول الله لقد استعملت على أهل الله « عتاب بن أسيد » أعرابيًا جافيًا .

فقال - ﷺ - : « إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديدًا ، حتى فتح له فدخلها ، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير »[1] .

وقال ابن كثير - بعد أن ساق بعض الأقوال فى معنى الآية الكريمة - قوله : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ قال الحسن البصرى فى تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس والروم وليجعلنه له .

وقال قتادة فيها : إن نبى الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله .ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم ...

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول - تعالى - : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٨٨ .

وفى الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ، ما لا يمتنع كثير من الناس عن ارتكابه بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع »[1] .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ واجعل لى من لدنك ﴾ تصوير بديع لشدة القرب والاتصال بالله - تعالى - واستمداد العون منه - سبحانه - مباشرة ، واللجوء إلى حماه بدون وساطة من أحد .

ثم بشره - سبحانه - بأن النصر له آت لا ريب فيه فقال - تعالى - ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ﴾ .

والحق فى لغة العرب : الشىء الثابت الذى ليس بزائل ولا مضمحل . والباطل على النقيض منه .

والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التى جاء بها النبى - ﷺ - من عند ربه - عز وجل - .

والمراد بالباطل : الشرك والمعاصى التى ما أنزل الله بها من سلطان ، والمراد بزهوقه : ذهابه وزواله . يقال : فلان زهقت روحه ، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الشكر لربك ، والاعتراف له بالنعمة ، والاستبشار بنصره ، قل : جاء الحق الذى أرسلنى به الله - تعالى - وظهر على كل ما يخالفه من شرك وكفر ، وزهق الباطل ، واضمحل وجوده وزالت دولته ، إن الباطل كان زهوقًا ، أى : كان غير مستقر وغير ثابت فى كل وقت . كما قال - تعالى - : ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾[2] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ... ﴾[3] .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : دخل النبى - ﷺ - مكة - عند فتحها - وحول البيت ستون وثلثمائة صنم . فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ .
(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٨ .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر قال : دخلنا مع رسول الله - ﷺ - مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فأمر بها رسول الله - ﷺ - فأكبت على وجهها . وقال ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ﴾[١] .

وقال القرطبى : فى هذه الآية دليل على كسر نُصُب المشركين ، وجميع الأوثان إذا غلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التى لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى ..[٢] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المسلمين فى شخص نبيهم - ﷺ - بالمداومة على كل ما يقربهم من الله - تعالى - ، ولا سيما الصلاة التى هى صلة بين العبد وربه ، وبشرت النبى - ﷺ - بمنحه المقام المحمود من ربه - عز وجل ، وبأن ما معه من حق وصدق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل وكذب ، فإن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن تكون العاقبة للمتقين .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على قلب نبيه محمد - ﷺ - وبين أحوال الإنسان فى حالتى اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، وأن كل إنسان يعمل فى هذه الدنيا على حسب طبيعته ونيته وميوله ، فقال - تعالى - :

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣١٤ .

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : اعلم أنه - تعالى - لما أطنب فى شرح الإلهيات والنبوات ، والحشر والمعاد والبعث ، وإثبات القضاء والقدر ، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ، ونبه على ما فيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك فى القرآن ، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة . فقال - تعالى - : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. ﴾ .

ثم قال : ولفظة ﴿ من ﴾ ههنا ليست للتبعيض ، بل هى للجنس كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ .

والمعنى : وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء ، فجميع القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين[1] .

ومما لا شك فيه ، أن قراءة القرآن ، والعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته .. شفاء للنفوس من الوسوسة ، والقلق ، والحيرة ، والنفاق ، والرذائل المختلفة ، ورحمة للمؤمنين من العذاب الذى يحزنهم ويشقيهم .

إنه شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت بنور ربها ، وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من هدايات وإرشادات .

إنه شفاء للنفوس من الأمراض القلبية كالحسد والطمع والانحراف عن طريق الحق ، وشفاء لها من الأمراض الجسمانية .

قال القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : اختلف العلماء فى كونه - أى القرآن - شفاء على قولين :

أحدهما : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل .

الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه ، وقد روى الأئمة - واللفظ للدار قطنى - عن أبى سعيد الخُدرى قال : بعثنا رسول الله - ﷺ - فى سرية ثلاثين راكبًا . قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا . قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : أفيكم أحد يَرْقى من العقرب ؟ قال : قلت : أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ سبع مرات فبرئ . فبعثوا إلينا بالنزل وبعثوا إلينا بالشاء . فأكلنا الطعام أنا وأصحابى ، وأبوا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٣٢ .

أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله - ﷺ - فأخبرته الخبر ، فقال « ما يدريك أنها رقية » ؟ قلت : يارسول الله ، شيء ألقي في روعي . قال : « كلوا وأطعمونا من الغنم »[1] .

والذى تطمئن إليه النفس أن قراءة القرآن الكريم ، والعمل بما فيه من هدايات وإرشادات وتشريعات .. كل ذلك يؤدى - بإذن الله تعالى - إلى الشفاء من أمراض القلوب ومن أمراض الأجسام .

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - فى هذه الآية ﴿ ما هو شفاء ﴾ يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه ، كالشك والنفاق وغير ذلك . وكونه شفاء للأجسام إذا رقى عليه به ، كما تدل له قصة الذى رقى الرجل اللديغ بالفاتحة ، وهى صحيحة مشهورة »[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - أثر القرآن بالنسبة للمؤمنين ، أتبع ذلك ببيان أثره بالنسبة للظالمين ، فقال : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ .

أى : ولا يزيد ما ننزله من قرآن الظالمين إلا خسارا وهلاكًا ، بسبب عنادهم وجحودهم للحق بعد إذ تبين .

قال الآلوسى : وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن . مع أنهم المزدادون فى ذلك لسوء صنيعهم ، باعتباره سببا لذلك ، وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مدارًا للشفاء والشقاء .

كماء صار فى الأصداف درا وفى ثغر الأفاعى صار سما[3]

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾[4] .

وقوله - تعالى - ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[5] .

ثم صور - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر ، وعند الرخاء والشدة فقال

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣١٦ .
(٢) أضواء البيان جـ ٣ ص ٦٢٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٦ .
(٤) سورة التوبة ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) سورة فصلت الآية ٤٤ .

- تعالى - : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذامسه الشر كان يئوسًا ﴾ .

أى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بنعمة الصحة والغنى وما يشبههما مما يسره ويبهجه ﴿ أعرض ﴾ عن طاعتنا وشكرنا ﴿ ونأى بجانبه ﴾ أى : وابتعد عنا ، وولانا ظهره والنأى : البعد ، يقال : مكان ناء ، أى بعيد ، ونأى فلان عن الشىء نأيا : إذا ابتعد عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿ نأى بجانبه ﴾ تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشىء أن يوليه عرض وجهه ، والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ، ويوليه ظهره ، ويظهر الاستكبار والغرور . وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ أى : وإذا مس الشر هذا الإنسان من فقر أو مرض ، كان يئوسا وقنوطًا من رحمه الله - تعالى - .

فهو فى حالة الصحة والغنى يبطر ويتكبر ويطغى . وفى حالة الفقر والمرض ييئس ويقنط ويستولى عليه الحزن والهم .

والمراد بالإنسان هنا جنسه ، إذ ليس جميع الناس على هذه الحالة ، وإنما منهم المؤمنون الصادقون الذين يشكرون الله - تعالى - على نعمه ، ويذكرونه ويطيعونه فى السراء والضراء .

قال - تعالى - : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات ، من رذيلة الجحود عند اليسر ، واليأس عند العسر .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ... ﴾ جنسه ، إذ يكفى فى صحة الحكم وجوده فى بعض الأفراد ، ولا يضر وجود نقيض فى البعض الآخر ، وقيل : المراد به الوليد بن المغيرة » .

وفى إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضميره - تعالى - إيذان بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك لأن ذلك هو الذى يقتضيه الكرم المطلق ، والرحمة الواسعة ، وإلى

---

(١) سورة هود الآيات من ٩ - ١١ .

ذلك الإشارة بقوله - ﷺ - : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك »[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾[٣] .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس وأعمالهم فقال : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ .

والتنوين فى قوله ﴿ كل ﴾ عوض عن المضاف إليه . أى : كل فرد .

وقوله : ﴿ شاكلته ﴾ : أى : طريقته ومذهبه الذى يشاكل ويناسب حاله فى الهداية أو الضلالة . مأخوذ من قولهم : طريق ذو شواكل ، وهى الطرق التى تتشعب منه وتتشابه معه فى الشكل ، فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله .

قال القرطبى قوله ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على طبيعته .

وقال قتادة : على نيته وقال ابن زيد : على دينه . وقال الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جبل عليه ..

وقيل : هو مأخوذ من الشكل . يقال : لست على شكلى ولا شاكلتى . فالشكل : هو المثل والنظير ، كقوله - تعالى - : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ .

والشكل - بكسر الشين - الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . أى الهيئة . وهذه الأقوال كلها متقاربة[٤] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : كل واحد منكم - أيها الناس - يعمل على شاكلته وطريقته التى تشاكل حاله ، وتناسب اتجاهه ، وتتلاءم مع سلوكه وعقيدته ، فربكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٧ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٩ .
(٣) سورة الروم الآية ٣٦ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٢ .

الذى خلقكم وتعهدكم بالرعاية ، أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وأقوم طريقًا ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالآية الكريمة تبشر أصحاب النفوس الطاهرة والأعمال الصالحة ، بالعاقبة الحميدة ، وتهدد المنحرفين عن طريق الحق ، المتبعين لخطوات الشيطان ، بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من الأسئلة التى كانت توجه إلى الرسول - ﷺ - ، كما ذكر الإجابة عليها لكى يجابه النبى - ﷺ - بها السائلين ، فقال - تعالى - :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : بينما أنا أمشى مع النبى - ﷺ - فى حرث وهو متوكىء على عسيب - أى على عصا - إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فأمسك النبى - ﷺ - فلم يرد عليهم شيئًا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل

الروح من أمر ربى ... ﴾ .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى ، أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود . أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت : ويسألونك عن الروح .. الآية »[1] .

وكلمة الروح تطلق فى القرآن الكريم على أمور منها :

الوحى ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ... ﴾[2] .

ومنها : القوة والثبات كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... ﴾[3] .

ومنها : جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ... ﴾[4] .

ومنها : القرآن كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ... ﴾[5] .

ومنها : عيسى ابن مريم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... ﴾[6] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦٠ .
(٢) سورة غافر الآية ١٥ .
(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢ .
(٤) سورة الشعراء الآية ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٥) سورة الشورى الآية ٥٢ .
(٦) سورة النساء الآية ١٧١ .

وجمهور العلماء على أن المراد بالروح فى قوله - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ ما يحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقته للجسد يموت الإنسان ، وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشىء . تسبق معرفة أحواله .

وقيل المراد بالروح هنا : القرآن الكريم ، وقيل : جبريل ، وقيل : عيسى إلى غير ذلك من الأقوال التى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه جمهور المفسرين ، أولى بالاتباع ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ يؤيد هذا الاتجاه .

قال الآلوسى : الظاهر عند المنصف ، أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا يسع أحدًا إنكارها ، ويشرئب الجميع إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وَتَكِلُّ الأذهان عنها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى .. »[1] .

و ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ بيانية . والمراد بالأمر هنا . الشأن .

والمعنى : ويسألك بعض الناس - أيها الرسول - عن حقيقة الروح ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شىء من جنس الأشياء التى استأثر الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجوهرها .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل الروح ﴾ بالإظهار ، لكمال العناية بشأن المسئول عنه .

وإضافة كلمة ﴿ أمر ﴾ إلى لفظ الرب - عز وجل - ، من باب الاختصاص العلمى ، إذ الرب وحده هو العليم بشأنها ، وليس من باب الاختصاص الوجودى ، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله - تعالى - .

وفى هذه الإضافة ما فيها من تشريف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر إلى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ دليل على خلق الروح ، أى : هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله - تعالى - ، مبهمًا له وتاركًا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٥١ .

معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز[١] .

وقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ من جملة الجواب الذى أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد به على السائلين عن حقيقة الروح .

أى : وما أوتيتم - أيها السائلون عن الروح - من العلم إلا علمًا قليلاً ، بالنسبة إلى علمه - تعالى - الذى وسع كل شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

وإن علمكم مهما كثر فإنه لا يمكنه أن يتعلق بحقيقة الروح وأحوالها ، لأن ذلك شىء استأثر الله - تعالى - به وحده ، واقتضت حكمته - عز وجل - أن يجعله فوق مستوى عقولكم .

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية : والمنهج الذى سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله ، وبعضهم عندما سأل النبى - ﷺ - عن الروح ، أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمره - سبحانه - ...

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل ، ولكن فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل فى حدوده ، وفى مجاله الذى يدركه .

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه .. ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف - الروح - لا يدرى ما هو ؟ ولا كيف جاء ؟ ولا كيف يذهب ؟ ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل »[٢] .

وقال بعض العلماء : وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح ، المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته ، أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث ، بما لا يتسع له المقام ، وغالبه ، بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين أو دنيا ..

فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٤ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٣٥٧ . للاستاذ سيد قطب - رحمه الله - .

ولا البحث عن حقيقته ، فضلاً عن أمهم المقتدين بهم ... »[١] .

ثم بين - سبحانه - مظهرًا من مظاهر قدرته ، بعد أن بين أن الروح من أمره ، فقال - تعالى - : ﴿ ولن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولئن شئنا ... ﴾ موطئة لقسم محذوف ، جوابه ﴿ لنذهبن ﴾ .

أى : والله لئن شئنا لنذهبن بهذا القرآن الذى أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ، بحيث نزيله عن صدرك ، ومن صدور أتباعك ، ونمحوه من الصحف حتى لا يبقى له أثر إذ أن قدرتنا لا يعجزها ، ولا يحول دون تنفيذ ما نريده حائل ..

ثم لا تجد لك بعد ذلك من يكون وكيلاً عنا فى رد القرآن إليك بعد ذهابه ومحوه ، ومن يتعهد بإعادته بعد رفعه وإزالته .

قال الآلوسى : وعبر عن القرآن بالموصول فى قوله ﴿ بالذى أوحينا إليك ﴾ ، تفخيمًا لشأنه ، ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء ، إعلامًا بحاله من أول الأمر ، وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق ... »[٢] .

وقوله : ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ استثناء واستدراك على قوله : ﴿ لنذهبن بالذى أوحينا إليك .. ﴾ .

أى : والله إن شئنا إذهاب القرآن من صدرك لأذهبناه ، دون أن تجد أحدًا يرده عليك ، لكننا لم نشأ ذلك بل أبقيناه فى صدرك رحمة من ربك .

قال الجمل : وفى هذا الاستثناء قولان : أحدهما : أنه استثناء متصل : لأن الرحمة تندرج فى قوله ﴿ وكيلا ﴾ .

أى : إلا رحمة منا فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك والثانى : أنه منقطع ، فيتقدر بلكن أو ببل ، و ﴿ من ربك ﴾ يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لرحمة - أى لكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به[٣] .

وقوله ﴿ إن فضله كان عليك كبيرًا ﴾ بيان لما امتن الله به على نبيه - ﷺ - .
أى : إن فضله كان عليك كبيرًا ، حيث أنزل القرآن عليك ، وأبقاه فى صدرك دون أن

---

(١) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان جـ ٥ ص ٤٠١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٦٤ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٦ .

يزيله منه ، وجعلك سيد ولد آدم ، وخاتم رسله ، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما . وهمامتة الله عليه بحفظه العلم ، ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال - تعالى - : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا - كما حكى الله عنهم - ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ ، قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز : والله لئن اجتمعت الإنس والجن ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، الذى أنزله الله - تعالى - من عنده على قلبى .. لا يستطيعون ذلك . ولو كان بعضهم لبعض مظاهرًا ومعينًا ومناصرًا ، فى تحقيق ما يتمنونه من الإتيان بمثله .

وخص - سبحانه - « الإنس والجن » بالذكر ، لأن المنكر كون القرآن من عند الله ، من جنسهما لا من جنس غيرهما كالملائكة - مثلاً - ، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن التحدى إنما هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول - ﷺ - إليهم ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

وقال - سبحانه - : ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ فأظهر فى مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به ، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلاً معينا ، وللإشعار بأن المقصود نفى المثل على أى صفة كانت هذه المثلية ، سواء أكانت فى بلاغته ، أم فى حسن نظمه ، أم فى إخباره عن المغيبات ، أم فى غير ذلك من وجوه إعجازه .

وقوله : ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ معطوف على مقدر ، أى : لا يستطيعون الإتيان بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض ، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضا .

والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال ؛ وبأية صورة من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٩١ .

الصور ، لأنه متى انتفى إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة ، انتفى من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمها . وقوله : ﴿ لبعض ﴾ متعلق بقوله ﴿ ظهيرا ﴾ .

ولقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا الإتيان بعشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2] .

ومع عجز المشركين عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم إلا أنهم استمروا فى طغيانهم يعمهون ، وأبوا التذكر والتدبر ، ولقد صور - سبحانه - أحوالهم أكمل تصوير فقال : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ .

أى : ولقد صرفنا وكررنا ونوعنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، أى : من كل معنى بديع ، هو كالمثل فى بلاغته ، وإقناعه للنفوس ، وشرحه للصدور ، واشتماله على الفوائد الجمة ...

ومفعول : ﴿ صرفنا ﴾ محذوف ، والتقدير : ولقد صرفنا الهدايات والعبر بوجوه متعددة ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ بيان لموقف الفاسقين عن أمر ربهم من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وأوامره ونواهيه .

أى : فأبى أكثر الناس الاستجابة لهديه ، وامتنعوا عن الإيمان بأنه من عند الله - تعالى - وجحدوا آياته وإرشاداته ، وعموا وصموا عن الحق الذى جاءهم به من نُزِّل عليه القرآن ، وهو رسول الله - ﷺ - .

وقال - سبحانه - : ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ بالإظهار فى مقام الإضمار ، للتأكيد والتوضيح .

والمراد بأكثر الناس : أولئك الذين بلغهم القرآن الكريم ، واستمعوا إلى آياته وتوجيهاته وتشريعاته وآدابه ، ولكنهم استحبوا الكفر على الإيمان ، وآثروا الضلالة على الهداية .

---

(١) سورة هود الآية ١٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣ .

وعبر - سبحانه - بالأكثر ، إنصافًا للقلة المؤمنة التى فتحت صدورها للقرآن ، فآمنت به ، وعملت بما فيه من أوامر ونواه ..

قال الجمل : فإن قيل : كيف جاز قوله ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ حيث وقع الاستثناء المفرغ فى الإثبات . مع أنه لا يصح ، إذ لا يصح أن تقول : ضربت إلا زيدا .
فالجواب : أن لفظة ﴿ أبى ﴾ تفيد النفى ، فكأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت ما يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلمه ، وفضله على نبيه - ﷺ - وعلى الناس ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا .

ثم حكى - سبحانه - بعض المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى - ﷺ - ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة ملخصها : أن نفرا من زعماء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، وطلبوا رسول الله - ﷺ - فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٧ .

إليك لنعذر فيك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك !! لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين . وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ...

فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تطلب شرفا فينا ، سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ...

فقال لهم رسول الله - ﷺ - ما بى شىء مما تقولون ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتابًا ، وأمرنى أن أكون بشيرًا ونذيرًا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم .

فقالوا له يا محمد : فإن كنت صادقًا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذى بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذى قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار ، ويبعث من مضى من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ..

وسله أن يبعث معك ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورًا أو كنوزًا من ذهب وفضة . تعينك على معاشك .

فقال - ﷺ - ما بعثت بهذا . فقالوا : فأسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ...

وقال أحدهم : لا أومن بك أبدًا ، حتى تتخذ لك سلمًا إلى السماء ترقى فيه ، ونحن ننظر إليك ..

فانصرف - ﷺ - عنهم حزينًا ، لما رأى من تباعدهم عن الهدى ، فأنزل الله عليه هذه الآيات تسلية له ... »[1] .

والمعنى : وقال المشركون الذين لا يرجون لقاءنا لرسولنا - ﷺ - يا محمد : ﴿ لن نؤمن لك ﴾ ونتبعك فيما تدعونا إليه .

﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا ﴾ أى : حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه ، ﴿ ينبوعًا ﴾ أى : عينا لا ينضب ماؤها ولا يغور .

يقال : نبع الماء من العين ينبع - بتثليث الباء فيهما - إذا خرج وظهر وكثر .

وقرأ بعض السبعة ﴿ تفجر ﴾ بالتخفيف - من باب نصر - وقرأ البعض الآخر ﴿ تفجر ﴾ بتشديد الجيم ، من فجر بالتشديد ، والتضعيف للتكثير .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١١٠ وتفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١١٥ وتفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٨ .

والتعريف فى لفظ ﴿ الأرض ﴾ للعهد ، لأن المراد بها أرض مكة .

وعبر بكلمة ﴿ ينبوعًا ﴾للإشعار بأنهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم فحسب ، وإنما هم يريدون ماء كثيرًا لا ينقص فى وقت من الأوقات ، إذ الياء زائدة للمبالغة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا ﴾ بيان لاقتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة .

والمعنى : أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد ، ﴿ جنة ﴾ أى : حديقة ملتفة الأغصان ، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل والأعناب : تجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيمًا هائلاً ..

وخصوا النخيل والأعناب بالذكر - كما حكى القرآن عنهم - ، لأن هذين الصنفين يعتبران من أهم الثمار عندهم ، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة فى أراضيهم ، والتى لها الكثير من الفوائد .

وقوله : ﴿ خلالها ﴾ منصوب على الظرفية ، لأنه بمعنى وسطها وبين ثناياها .

والتنوين فى قوله ﴿ تفجيرا ﴾ للتكثير ، أى : تفجيرا كثيرا زاخرا ، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك ، غنية بالمياه التى تنفعها وترويها .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ... ﴾ اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة .

ولفظ ﴿ كسفا ﴾ أى : قطعًا جمع كسفة - بكسر الكاف وسكون السين ، يقال : كسفت الثوب أى : قطعته وهو حال من السماء ، والكاف فى قوله :﴿ كما ﴾ صفة لموصوف محذوف .

والمعنى : أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلاً لما هددتنا به ، من أن فى قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذابًا متقطعًا من السماء .

ولعلهم يعنون بذلك قوله - تعالى - : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفا من السماء ... ﴾[1] .

وقيل : يعنون بذلك ، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، فعجل لنا ذلك فى

---

(١) سورة سبأ الآية ٩ .

الدنيا ، وأسقطها علينا ، كما حكى عنهم القرآن ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ... ﴾[1] .

فهم يتعجلون العذاب ، والرسول - ﷺ - ، يرجو لهم من الله - تعالى - الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم ، لعله - سبحانه - أن يخرج من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلًا ﴾ تسجيل لمطلب رابع من مطالبهم القبيحة .

قال الآلوسى : ﴿ قبيلا ﴾ أى : مقابلًا ، كالعشير والمعاشر ، وأرادوا - كما جاء عن ابن عباس - عِيانًا .

وهذا كقولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ ، وفى رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل ، أى : كفيلا بما تدعيه . يعنون شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته .

وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة .. وعن مجاهد : القبيل الجماعة كالقبيلة ، فيكون حالًا من الملائكة - أى : أو تأتى بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة[2] .

ثم حكى - سبحانه - بقية مطالبهم التى لا يقرها عقل سليم فقال : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ .

أى : من ذهب ، والزخرف يطلق فى الأصل على الزينة ، وأطلق هنا على الذهب لأن الذهب أثمن ما يتزين به فى العادة .

﴿ أو ترقى فى السماء ﴾ أى : تصعد إليها . يقال : رقى فلان فى السلم يرقى رقيا ورقيا أى صعد ، ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ وصعودك إليها مع مشاهدتنا لذلك ﴿ حتى تنزل علينا ﴾ منها ﴿ كتابًا نقرؤه ﴾ ونفهم ما فيه ، أى : يكون هذا الكتاب بلغتنا التى نفهمها وبأسلوب مخاطباتنا ، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وما يدعونا إلى الإيمان بك .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بأن أمر نبيه محمدًا - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، فقال : ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولًا ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال من ٣٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٦٩ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين : ياسبحان الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر ، ورسول كسائر الرسل ، وليس من شأن من كان كذلك أن يأتى بتلك المطالب المتعنتة التى طلبتموها ، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات . تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل . إلى نور الإيمان والعلم .

فالاستفهام فى قوله ﴿ هل كنت ... ﴾ للنفى ، أى : ما كنت إلا رسولاً كسائر الرسل ، وبشرًا مثلهم .

وقوله ﴿ سبحان ربى ﴾ يفيد التعجيب من فرط حماقتهم ، ومن بالغ جهلهم ، حيث طلبوا تلك المطالب ، التى تضمنت ما يعتبر من أعظم المستحيلات ، كطلبهم إتيان الله - عز وجل - والملائكة إليهم ، ورؤيتهم لذاته - سبحانه - ، على سبيل المعاينة والمقابلة .

وهذا التعنت والعناد الذى حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الجاحدين ، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى . كما جاء ما يدل على أنهم حتى لو أعطاهم الله - تعالى - مطالبهم . لما آمنوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٢] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٣] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من شبهاتهم الفاسدة والمتعددة ، وهى زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر بل يكون ملكًا . وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يبطل مدعاهم فقال :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .
(٢) سورة يونس الآية ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) سورة الحجر الآية ١٤ ، ١٥ .

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة ، وأجاب عنها ، حكى عنهم شبهة أخرى ، وهى أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر ، بل اعتقدوا أن الله - تعالى - لو أرسل رسولاً إلى الخلق ، لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة ، فأجاب الله - تعالى - عن هذه الشبهة فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ... ﴾[1] .

والمراد بالناس هنا : المشركون منهم ، الذين استبعدوا واعتقدوا أن الرسول لا يكون من البشر ، ويدخل فيهم دخولاً أوليًا كفار مكة .

وجملة ﴿ أن يؤمنوا ﴾ فى محل نصب ، لأنها مفعول ثان لمنع .

وقوله : ﴿ إلا أن قالوا ﴾ هو الفاعل ، و « إذ » ظرف للفعل منع ، أو لقوله : ﴿ أن يؤمنوا ﴾ .

والمعنى : وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم به الرسل ، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله - تعالى - لا يبعث إليهم رجلاً من البشر لكى يبلغهم وحيه ، وإنما يبعث إليهم ملكًا من الملائكة لكى يبلغهم ذلك .

وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال : ﴿ إلا أن قالوا .. ﴾ للإشعار بأنه مجرد قول لاكته ألسنتهم ، دون أن يكون معهم أى مستند يستندون إليه لإثبات قبوله عند العقلاء .

وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الحصر ، لبيان أنه مع بطلانه - هو من أهم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢١ ص ٥٨ .

الموانع والصوارف ، التى منعتهم وصرفتهم عن الدخول فى الدين الحق ، الذى جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وهذا لا يمنع أن هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالحسد والعناد .

قال صاحب الكشاف : والمعنى . وما منعهم من الإيمان بالقرآن ، وبنبوة النبى - ﷺ - إلا شبهة تلجلجت فى صدورهم ، وهى إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة فى ﴿ أبعث الله ﴾ للإنكار ، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله - تعالى - لأن قضية حكمته ، أن لا يرسل ملك الوحى إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء »[1] .

والمتدبر فى القرآن الكريم ، يرى أن هذه الشبهة - وهى إنكار المشركين كون الرسول بشرًا - قد حكاها فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ... ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا، واستغنى الله ، والله غنى حميد ﴾[3] .

ومما لا شك فيه أن هذه الشبهة تدل ، على أن هؤلاء الكافرين ، لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله - تعالى - ، وذلك بسبب انطماس بصائرهم ، وكثرة جهلهم ، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة .

ولذا أمر الله - تعالى - بأن يرد عليهم بما يزهق هذه الشبهة فقال - سبحانه - ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً ﴾ .

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاهلين : لو ثبت ووجد ملائكة فى الأرض ، يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس ، ويعيشون فوقها ﴿ مطمئنين ﴾ أى : مستقرين فيها مقيمين بها .

لو ثبت ذلك ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكًا رسولاً ، يكون من جنسهم ، ويتكلم بلسانهم ، وبذلك يتمكنون من مخاطبته ، ومن الأخذ عنه ، ومن التفاهم معه لأن الجنس إلى الجنس أميل ، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، فلو كان المرسل إليهم ملائكة ، لكان الرسول إليهم ملكًا مثلهم ، ولو كان المرسل إليهم من البشر ، لكان الرسول إليهم بشرًا مثلهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٩٩ .
(٢) سورة يونس الآية ٢ .
(٣) سورة التغابن الآية ٦ .

فكيف تطلبون أيها الجاهلون - أن يكون الرسول إليكم ملكًا ، وتستبعدون أن يكون بشرًا مع أنكم من البشر ؟!!

قال الآلوسى : قوله : ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً ﴾ أى : يعلمهم ما لا تستقل عقولهم بعلمه ، وليسهل عليهم الاجتماع به ، والتلقى منه ، وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك ، لبعد ما بين الملك وبينهم ... »[1] .

وهذا المعنى الذى وضحته الآية الكريمة - وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم - قد جاء ما يشبهه ويؤكده فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[3] .

وقوله - عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... ﴾[4] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - للمرة الثانية ، أن يحسم الجدال معهم ، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله - عز وجل - ، فهو خير الحاكمين فقال : ﴿ قل كفى بالله شهيدًا بينى وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ .

أى : قل لهم فى هذه المرة من جهتك ، بعد أن قلت لهم فى المرة السابقة من جهتنا : قل لهم - أيها الرسول الكريم - يكفينى ويرضينى ويسعدنى ، أن يكون الله - تعالى - هو الشهيد والحاكم بينى وبينكم يوم نلقاه جميعًا فهو - سبحانه - يعلم أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، إنه - تعالى - كان وما زال خبيرًا بصيرًا . أى : محيطًا إحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وفى هذه الآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى ، وتهديد لهم بسوء المصير ، حيث آذوا نبيهم الذى جاء لهدايتهم وسعادتهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت بعض الشبهات الفاسدة التى تذرع بها الكافرون

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧٣ .
(٢) سورة الأنعام الآيتان ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٤ .

فى البقاء على كفرهم ، كما حكت ما اقتضته حكمته - سبحانه - فى إرسال الرسل ، وهددت المصرين على كفرهم بسوء العاقبة .

ثم ساق - سبحانه - شبهة أخرى من شبهات المشركين التى حكاها عنهم كثيرًا ، ورد عليها بما يبطلها ، وبين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، بعد أن بين أن الهداية والإضلال من شأنه وحده فقال - تعالى - :

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ كلام مستأنف منه - تعالى - لبيان نفاذ قدرته ومشيئته .

أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى طريق الحق ، فهو الفائز بالسعادة ، المهدى إلى كل مطلوب حسن ، ﴿ ومن يضلل ﴾ أى : ومن يرد الله - تعالى - إضلاله ﴿ فلن تجد لهم ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ أولياء ﴾ أى : نصراء ينصرونهم ويهدونهم إلى طريق الحق ﴿ من دونه ﴾ عز وجل ، إذ أن الله - تعالى - وحده هو الخالق للهداية والضلالة ، على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته .

وجاء قوله - تعالى - ﴿ فهو المهتد ﴾ بصيغة الإفراد حملا على لفظ ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ ومن يهد الله ﴾ وجاء قوله : ﴿ فلن نجد لهم ﴾ بصيغة الجمع حملا على معناها فى قوله : ﴿ ومن يضلل ﴾ .

قالوا : ووجه المناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنه لما كان الهدى شيئًا واحدًا غير متشعب السبل ، ناسبه الإفراد ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ناسبه الجمع[1] .

ثم بين - سبحانه - الصورة الشنيعة التى يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، عميا وبكما وصما .. ﴾ .

والحشر : الجمع . يقال : حشرت الجند حشرًا . أى جمعتهم . وقوله : ﴿ على وجوههم ﴾ حال من الضمير المنصوب فى نحشرهم . وقوله : ﴿ عميا ، وبكما وصما ﴾ أحوال من الضمير المستكن فى قوله ﴿ على وجوههم ﴾ . أى : نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة ، حين يقومون من قبورهم ، ونجعلهم - بقدرتنا - يمشون على وجوههم ، أو يسحبون عليها ، إهانة لهم وتعذيبًا ، ويكونون فى هذه الحالة عميا لا يبصرون ، وبكما لا ينطقون ، وصما لايسمعون .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ نحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ إما مشيا ، بأن يزحفوا منكبين عليها . ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : قيل لرسول الله - ﷺ - : كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « الذى أمشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم » ..

وإما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها ، كقوله - تعالى - : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ ويشهد له ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم - وصححه - عن أبى ذر ، أنه تلا هذه الآية . ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ فقال : حدثنى الصادق المصدوق - ﷺ - أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم .

وجائز أن يكون الأمران فى حالين : الأول : عند جمعهم وقبل دخولهم النار ، والثانى عند دخولهم فيها ...

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٩ .

ثم قال : وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز ، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمر وهو خائب مهموم : انصرف على وجهه .. وإياك أن تلتفت إلى - هذا الزعم - أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه ، ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك »[1] .

فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الآية التى تثبت لهؤلاء الضالين يوم حشرهم العمى والبكم والصمم ، وبين آيات أخرى تثبت لهم فى هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ورأى المجرمون النار .. ﴾ .

وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ وكما فى قوله - عز وجل - : ﴿ سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا ﴾ ؟

فالجواب : أن المراد فى الآية هنا أنهم يحشرون عميا لا يرون ما يسرهم ، وبكما لا ينطقون بحجة تنفعهم ، وصمًا لا يسمعون ما يرضيهم ..

أو أنهم يحشرون كذلك ، ثم تعاد لهم حواسهم بعد ذلك عند الحساب وعند دخولهم النار .

أو أنهم عندما يحشرون يوم القيامة ، ويرون ما يرون من أهوال ، تكون أحوالهم كأحوال العمى الصم البكم ، لعظم حيرتهم ، وشدةخوفهم ، وفرط ذهولهم .

ثم بين - سبحانه - مآلهم بعد الحشر والحساب فقال : ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ .

ومعنى : ﴿ خبت ﴾ هدأت وسكن لهيبها . يقال : خبت النار تخبو إذا هدأ لهيبها .

أى : أن هؤلاء المجرمين مأواهم ومسكنهم ومقرهم جهنم ، كلما سكن لهيب جهنم وهدأ ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، زدناهم توقدا ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى ، فتعود النار كحالتها الأولى ملتهبة مستعرة .

وخبو النار وسكونها لا ينقص شيئًا من عذابهم ، وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - عز وجل - ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾[2] .

وفى هذه الآية ما فيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان ، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب ، نسأل الله - تعالى - بفضله ورحمته أن يجنبنا هذا المصير المؤلم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧٥ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٦٢ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : أئذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا ﴾ بيان للأسباب التى أفضت بهم إلى تلك العاقبة السيئة .

أى : ذلك الذى نزل بهم من العذاب الشديد ، المتمثل فى حشرهم على وجوههم وفى اشتعال النار بهم ، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة : أئذا كنا عظامًا نخرة ، ورفاتًا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب فى تفتتها وتكسرها ، أئنا بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد .

فالآية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر ، وإنكارهم للبعث والحساب إنكارًا لا مزيد عليه ، لذا كانت عقوبتهم شنيعة ، وعذابهم أليمًا . فقد سلط الله - تعالى - عليهم النار تأكل أجزاءهم ، وكلما سكن لهيبها ، أعادها الله - تعالى - ملتهبة مشتعلة على جلود أخرى لهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارًا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب ... ﴾[1]

ثم رد - سبحانه - على ما استنكروه من شأن البعث ردًا يقنع كل ذى عقل سليم ، فقال - تعالى - ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ... ﴾ .

والهمزة للاستفهام التوبيخى ، وهى داخلة على محذوف ، والمراد بمثلهم إياهم ، فيكون المعنى : أعموا عن الحق ، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء ، أن الله - تعالى - الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، وهما أعظم من خلق الناس ، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، لكى يحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

إن عدم علمهم بذلك ، وإنكارهم له ، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطماس بصيرتهم ، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر - وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه - وهو الناس - أقدر .

قال الشيخ الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ أو لم يروا .. ﴾ هذا رد لإنكارهم البعث ، ولما استبعدوه من شأنه ، يعنى أن من خلق السموات والأرض ، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم .. وأراد - سبحانه - .. بمثلهم : إياهم ، فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين : إن الإعادة مثل الابتداء ، وذلك أن مثل الشىء مساو له فى حاله ، فجاز أن يعبر به عن الشىء نفسه يقال : مثلك لا يفعل كذا ، أى : أنت لا تفعله .

ويجوز أن يكون المعنى أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق عبيدًا غيرهم يوحدونه ويقرون

(١) سورة النساء الآية ٥٦ .

بكمال حكمته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ والأول أشبه بما قبله[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى إنه على كل شىء قدير ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ... ﴾[٣] .

وبعد أن أقام - سبحانه - الدليل الواضح على أن البعث حق ، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن ، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتًا معلومًا يجريه حسب حكمته - تعالى - فقال : ﴿ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ .

أى : وجعل لهم ميقاتًا محددا لا شك فى حصوله ، وعند حلول هذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾[٤] .

والجملة الكريمة وهى قوله : ﴿ وجعل لهم ... ﴾ معطوفة على قوله ﴿ أو لم يروا .. ﴾ لأنه فى قوة قولك قد رأوا وعلموا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ؛ علام عطف قوله : ﴿ وجعل لهم أجلًا ﴾ ؟

قلت : على قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ لأن المعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقًا منهن ، كما قال : ﴿ أأنتم أشد خلقًا أم السماء ﴾[٥] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأبى الظالمون إلا كفورًا ﴾ بيان لإصرارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق .

أى : فأبى هؤلاء الظالمون المنكرون للبعث ، إلا جحودًا له وعنادًا لمن دعاهم إلى الإيمان به ، شأن الجاهلين المغرورين الذين استحبوا العمى على الهدى .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥١ .
(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٣ .
(٣) سورة يس الآية ٨١ .
(٤) سورة هود الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٥) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٦٧ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبى - ﷺ - بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح ، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة ، فقال - تعالى - : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورًا ﴾ .

والمراد بخزائن رحمة ربى : أرزاقه التى وزعها على عباده ، ونعمه التى أنعم بها عليهم .

﴿ وقتورًا ﴾ من التقتير بمعنى البخل . يقال : قتر فلان يقتر - بضم التاء وكسرها - إذا بالغ فى الإمساك والشح .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك ، وطالبوك بما ليس فى وسعك من تفجير الأرض بالأنهار ، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت : لو أنكم تملكون - أيها الناس - التصرف فى خزائن الأرزاق التى وزعها الله على خلقه ، إذًا لبخلتم وأمسكتم فى توزيعها عليهم ، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم فى العطاء ، مع أن خزائن الله لا تنفد أبدًا ، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك .

قال بعضهم : وقوله : ﴿ لو أنتم تملكون ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن المسألة من باب الاشتغال . فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر ، لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهرًا أو مضمرا . فهى كإن فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ .. والأصل : لو تملكون ، فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه - والثانى : أنه مرفوع بكان ، وقد كثر حذفها بعد لو ، والتقدير : لو كنتم تملكون ...[1] .

والمقصود بالإمساك هنا : إمساكهم عن العطاء فى الدنيا ، وهذا لا ينافى قوله - تعالى - : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به ... ﴾ لأن ذلك حكاية عن أحوالهم فى الآخرة عندما يرون العذاب ، ويتمنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأى شىء .

وقوله ﴿ إذًا ﴾ ظرف لتملكون . وقوله ﴿ لأمسكتم ﴾ جواب لو ، وقوله ﴿ خشية الإنفاق ﴾ علة للإمساك والبخل .

وقوله : ﴿ وكان الإنسان قتورًا ﴾ أى : مبالغًا فى البخل والإمساك .

قال الإمام ابن كثير : والله - تعالى - يصف الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥١ .

وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعًا . إذا مسه الشر جزوعًا . وإذا مسه الخير منوعًا . إلا المصلين ﴾ .

ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، وهذا يدل على كرمه - تعالى - وإحسانه . وقد جاء فى الصحيحين : يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه[1] .

وقال الآلوسى : وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التى لا يبلغها الوهم ، حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله - تعالى - التى لا تتناهى ، وانفردوا بملكها من غير مزاحم ، لأمسكوا عن النفقة من غير مقتض إلا خشية الفقر ، وإن شئت فوازن بقول الشاعر :

ولو أن دارك أنبتت لك أرضها إبـرًا يضيق بها فناء المنزل
وأتـاك يـوسف يستعـيرك إبـرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة ، ترى التفاوت الذى لا يحصر ... »[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على أن العبرة فى الإيمان ، ليست بعظم الخوارق ووضوحها ، وإنما العبرة بتفتح القلوب للحق ، واستعدادها لقبوله ، وساق - سبحانه - مثلاً لذلك من قصة موسى - عليه السلام - فقد أعطاه من المعجزات البينة ما يشهد بصدقه ، ولكن فرعون وجنده لم تزدهم تلك المعجزات إلا كفرًا وعنادًا ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨١ .

فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

والمراد بالآيات التسع فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾ : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ؛ والدم . قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾[3] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين ﴾[4] .

والمعنى : لا تظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك . وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعًا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب .. إلخ . لا تظن ذلك :

فإن الخوارق مهما عظمت لا تنشئ . الإيمان فى القلوب الجاحدة الحاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه فى نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرًا على كفرهم ورجسًا على رجسهم . فاصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى أعطاها الله - تعالى -

---

(١) سورة الشعراء الآيتان: ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .
(٣) سورة الشعراء الآية ٦٣ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٢ .

لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول ، أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا القول - المروى عن ابن عباس وغيره - ظاهر جلى حسن قوى .. فهذه الآيات التسع ، التى ذكرها هؤلاء الأئمة ، هى المرادة هنا ...

وقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه .. وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا .

ثم قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة ، قال : سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادى قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى حتى نسأله عن هذه الآية : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾ فسألاه : فقال النبى - ﷺ - : « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسخروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفروا من الزحف » .. فقبَّلا يديه ورجليه .. .

ثم قال : « أما هذا الحديث فهو حديث مشكل . وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء ، وتكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات ، بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا فى التوراة ، لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون ... »[1] .

والحق أن ما رجحه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا : ما آتاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من العصا ، واليد ... هو االذى تسكن إليه النفس ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ... ﴾ يؤيد أن المراد بها ما تقدم من العصا ، واليد ، والسنين .. ولأنها هى التى فيها الحجج ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - . أما تلك الوصايا التى وردت فى الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجة على فرعون - كما قال الإمام ابن كثير - .

هذا ، والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ﴾ يرى بعضهم أنه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٣ .

للنبى - ﷺ - والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وعلى هذا التفسير يكون قوله ﴿ إذ جاءهم ﴾ظرف لقوله ﴿ آتينا ﴾ وجملة ﴿ فاسأل بنى إسرائيل ﴾ معترضة بين العامل والمعمول .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقت أن أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه ، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه فى التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت فى تأييد المدعى .

قال الآلوسى : والمعنى : فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب عن ذلك ، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - فى التثبيت - ، وإما من باب التهييج والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت فى كتابهم . وليس المقصود حقيقة السؤال . بل كونهم - أعنى المسئولين - من أهل علمه ، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم »[1] .

ويرى آخرون أن الخطاب لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون السؤال إما بمعناه المشهور أو بمعنى الطلب ، ويكون قوله ﴿ إذ جاءهم ﴾ ظرفًا لفعل مقدر .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فقلنا له حين مجيئه إلى بنى إسرائيل : اسألهم عن أحوالهم مع فرعون ، أو اطلب منهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك ، ويخرجوا معك حين تطلب من فرعون ذلك .

والفاء فى قوله : ﴿ فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورًا ﴾ هى الفصيحة . إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم ، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - : يا موسى إنى لأظنك مسحورًا .

أى : سُحرت فخولط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفًا يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لا تدل على تفكير قويم .

فقوله ﴿ مسحورا ﴾ اسم مفعول . يقال : سحر فلان فلانًا يسحره سحرًا فهو مسحور ، إذا اختلط عقله .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨٤ .

ويجوز أن يكون قوله ﴿ مسحورًا ﴾ بمعنى ساحر ، فيكون المعنى : إنى لأظنك يا موسى ساحرًا ، عليمًا بفنون السحر فقد أتيت بأشياء عجيبة يشير بذلك إلى انقلاب العصا حية بعد أن ألقاها - عليه السلام - .

وهذا شأن الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ... يرمون أهله - زورا وبهتانًا - بكل نقيصة .

وعندما يحكى القرآن الكريم ما رد به موسى على فرعون فيقول : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ .

أى : قال موسى لفرعون ردًا على كذبه وافترائه : لقد علمت يا فرعون أنه ما أوجد هذه الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها - سبحانه - بصورة واضحة جلية ، حتى لكأنها البصائر فى كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله ﴿ بصائر ﴾ حال من ﴿ هؤلاء ﴾ أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدقى .

وفى هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن موسى - عليه السلام - ليس مسحورًا ولا ساحرًا ، وأن الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - : مخاطبًا موسى : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قومًا فاسقين . فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾ توبيخ آخر لفرعون ، وتهديد له لأنه وصف نبيًا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .

ومثبورًا بمعنى مهلك مدمر . يقال : ثبر الله - تعالى - الظالم يثبره ثبورًا ، إذا أهلكه .

أو بمعنى مصروفًا عن الخير . مطبوعًا على الشر من قولهم : ما ثبرك يا فلان عن هذا الأمر ؟ أى : ما الذى صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى : وإنى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى الهلاك والتدمير ،

---

(١) سورة النمل الآيات ١٢ - ١٤ .

بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتيانى بالمعجزات الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى الذى خلقنى وخلقك وخلق كل شىء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما هم به فرعون ، بعد أن أخرسه موسى - عليه السلام - بقوة حجته ، وثبات جنانه فقال : ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ ..

والاستفزاز : الإزعاج والاستخفاف ، والمراد - به هنا : الطرد والقتل .

والضمير المنصوب فى ﴿ يستفزهم ﴾ يعود إلى موسى وقومه بنى إسرائيل .

أى : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده ، أن يطرده وقومه من أرض مصر التى يسكنون معه فيها . وأن يقطع دابرهم ، كما أشار إلى ذلك - سبحانه - فى قوله : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما ترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى وقومه فقال : ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعًا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ... ﴾ .

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وأن يهلكهم .. فكانت النتيجة أن عكسنا عليه مكره وبغيه ، حيث أهلكناه هو وجنده بالغرق ، دون أن نستثنى منهم أحدًا .

وقلنا من بعد هلاكه لبنى إسرائيل على لسان نبينا موسى - عليه السلام - : اسكنوا الأرض التى أراد أن يستفزكم منها فرعون وهى أرض مصر .

قال الآلوسى : وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ، وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده . وإن لم يثبت فالمراد من بنى إسرائيل ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم ، واختار غير واحد أن المراد من الأرض . الأرض المقدسة ، وهى أرض الشام[2] .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الظالمين ، وفى توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . وفى هذا بشارة لمحمد - ﷺ - بفتح مكة . مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨٦ .

بإخراج الرسول - ﷺ - منها ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... ﴾ ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها . وأورثهم بلاد فرعون ... »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ .

أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذى حدده الله - تعالى - لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعًا أنتم وفرعون وقومه مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .

واللفيف : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومعناه الجماعة التى اجتمعت من قبائل شتى .

يقال : هذا طعام لفيف ، إذا كان مخلوطًا من جنسين فصاعدا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبًا مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف فى نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين .

ثم عادت السورة الكريمة إلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وأثنت على المؤمنين من أهل الكتاب الذين تأثروا تأثرا بليغًا عند سماعه ، فقال - تعالى - :

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٤ .

وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل .. ﴾ عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله .. ﴾ وهكذا طريقة العرب فى كلامها ، تأخذ فى شىء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً ، والحديث شجون ... »[1] .

والمراد بالحق الأول : الحكمة الإلهية التى اقتضت إنزاله ، والمراد بالحق الثانى : ما اشتمل عليه هذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات ...

والباء فى الموضعين للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير القرآن الذى دل الكلام على أن الحديث عنه .

والمعنى : وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسًا بالحق الذى تقتضيه حكمتنا ، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته .

قال بعض العلماء : بين - جل وعلا - فى هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا القرآن بالحق ، أى : ملتبسًا به متضمنًا له ، فكل ما فيه حق ، فأخباره صدق . وأحكامه عدل ، كما قال - تعالى - : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته ... ﴾ وكيف لا ، وقد أنزله - سبحانه - بعلمه ، كما قال - تعالى - ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا ﴾ .

وقوله ﴿ وبالحق نزل ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل فى طريق إنزاله ، لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه ، حتى يغير فيه ، أمين لا يغير ولا يبدل ، كما أشار إلى هذا - سبحانه - بقوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٨٧ .
(٢) أضواء البيان جـ ص ٥٧٥ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله .

وقوله - سبحانه -: ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرًا ﴾ ثناء على الرسول - ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، بعد الثناء على القرآن فى ذاته .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا مبشرًا لمن أطاعنا بالثواب ، وإلا منذرًا لمن عصانا بالعقاب . ولم نرسلك لتخلق الهداية فى القلوب ، فإن ذلك من شأن الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها أنزل القرآن مفصلاً ومنجمًا ، فقال : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ .

ولفظ : ﴿ قرآنا ﴾ منصوب بفعل مضمر أى : وآتيناك قرآنا .

وقوله : ﴿ فرقناه ﴾ أى : فصلناه . أو فرقنا فيه بين الحق والباطل . أو أنزلناه منجمًا مفرقًا .

قال الجمل : وقراءة العامة ﴿ فرقناه ﴾ بالتخفيف . أى : بينا حلاله وحرامه ...

وقرأ على وجماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان : أحدهما : أن التضعيف للتكثير . أى : فرقنا آياته بين أمر ونهى وحكم وأحكام . ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار . والثانى : أنه دال على التفريق والتنجيم »[1] .

وقوله ﴿ على مكث ﴾ أى : على تؤدة وتمهل وحسن ترتيل ، إذ المكث التلبث فى المكان ، والإقامة فيه انتظارًا لأمر من الأمور .

والمعنى : « ولقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن ، مفصلاً فى أوامره ونواهيه ، وفى أحكامه وأمثاله ... ومنجما فى نزوله لكى تقرأه على الناس على تؤدة وتأن وحسن ترتيل ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقًا عمليًا دقيقًا .

وهكذا فعل الصحابة - رضى الله عنهم - : فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم متعة عقلية ونفسية فحسب ، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجًا لحياتهم ، يطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه ... فى جميع أحوالهم الدينية والدنيوية .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبى - ﷺ - ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها « فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا » .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٦٥١ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أى : ونزلناه تنزيلاً مفرقًا منجمًا عليك يا محمد فى مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه فحسب .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم . وعلى عدم المبالاة بهم ، فقال - تعالى - : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين . الذين طلبوا منك ما هو خارج عن رسالتك ، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين : قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به ، لا يزيده كمالاً ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئًا ، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا تلى عليهم هذا القرآن ، - كأمثال عبد الله بن سلام وأصحابه « يخرون للأذقان سجدًا » أى : يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - شكرًا له على إنجاز وعده ، بإرساله - أيها الرسول الكريم - وبإنزال القرآن عليك ، كما وعد بذلك - سبحانه - فى كتبه السابقة .

فالجملة الكريمة : ﴿ إن الذين أوتوا العلم .. ﴾ تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين ، والضمير فى قوله : ﴿ من قبله ﴾ يعود إلى القرآن الكريم .

وقوله : ﴿ يخرون للأذقان سجدًا ﴾ يدل على قوة إيمانهم ، وعلى سرعة تأثرهم بهذا القرآن ، فهم بمجرد تلاوته عليهم ، يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - .

وخصت الأذقان بالذكر ، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود ، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله - تعالى - وتأثرهم بسماع القرآن الكريم :

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه فى سجودهم فقال : ﴿ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ .

أى : ويقولون فى سجودهم ، ننزه ربنا - عز وجل - عن كل ما يقوله الجاهلون بشأنه ، إنه - تعالى - كان وعده منجزًا ومحققا لا شك فى ذلك .

ثم كرر - سبحانه - مدحه لهم فقال : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ، ويزيدهم ﴾ أى سماع القرآن ﴿ خشوعًا ﴾ وخضوعًا لله - عز وجل .

وكرر - سبحانه - خرورهم على وجوههم ساجدين لله - تعالى - لاختلاف السبب ، فهم أولا أسرعوا بالسجود لله تعظيمًا له - سبحانه - وشكرًا له على إنجازه لوعده .

وهم ثانيًا أسرعوا بالسجود ، لفرط تأثرهم بمواعظ القرآن الكريم .

فأنت ترى هاتين الآيتين قد أمرتا النبى - ﷺ - بالإعراض عن المشركين ، وباحتقارهم وبازدراء شأنهم ، فإن الذين هم خير منهم وأفضل وأعلم قد آمنوا .

وفى ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله - ﷺ - فكأن الله - تعالى - يقول له : يا محمد تَسلَّ عن إيمان هؤلاء الجهلاء ، بإيمان العلماء .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين أن البكاء من خشية الله ، يدل على صدق الإيمان ، وعلى نقاء النفس ، ومن الأحاديث التى وردت فى فضل ذلك ، ما أخرجه الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بآيتين دالتين على تفرده - سبحانه - بالتقديس والتعظيم والتمجيد والعبادة ، فقال - تعالى - :

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى .. ﴾ ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : وصلّى رسول الله - ﷺ - بمكة ذات يوم فدعا الله - تعالى - فقال : يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو

إلهين فنزلت[1] .

ومعنى : ادعوا ، سموا ، و ﴿ أو ﴾ للتخيير . و ﴿ أيا ﴾ اسم شرط جازم منصوب على المفعولية بقوله : ﴿ ادعوا ﴾ والمضاف إليه محذوف ، أى : أى الاسمين . ﴿ وتدعو ﴾ مجزوم على أنه فعل الشرط لأيًّا ، وجملة ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ واقعة موقع جواب الشرط ، و ﴿ ما ﴾ مزيدة للتأكيد . والحسنى : مؤنث الأحسن الذى هو أفعل تفضيل .

والمعنى : قل يا محمد للناس : سموا المعبود بحق بلفظ الله أو بلفظ الرحمن بأى واحد منهما سميتموه فقد أصبتم ، فإنه - تعالى - له الأسماء الأحسن من كل ما سواه ، وقال - سبحانه - : ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ للمبالغة فى كمال أسمائه - تعالى - وللدلالة على أنه ما دامت أسماؤه كلها حسنة ، فلفظ الله ولفظ الرحمن كذلك ، كل واحد منهما حسن .

وقد ذكر الجلالان عند تفسيرهما لهذه الآية ، أسماء الله الحسنى ، فارجع إليها إن شئت[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ تعليم من الله - تعالى - لنبيه كيفية أفضل طرق القراءة فى الصلاة .

فالمراد بالصلاة هنا : القراءة فيها . والجهر بها : رفع الصوت أثناءها ، والمخافتة بها : خفضه بحيث لا يسمع . يقال : خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه ، والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : ولا تجهر يا محمد فى قراءتك خلال الصلاة ، حتى لا يسمعها المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها ، حتى لا يسمعها من يكون خلفك ، بل أسلك فى ذلك طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة .

ومما يدل على أن المراد بالصلاة هنا : القراءة فيها ، ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس .

قال : نزلت ورسول الله - ﷺ - مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فأمره الله بالتوسط .

وقيل : المراد بالصلاة هنا : الدعاء . أى : لا ترفع صوتك وأنت تدعو الله ، ولا تخافت به . وقد روى ذلك عن عائشة ، فقد أخرج الشيخان عنها أنها نزلت فى الدعاء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٩١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥٦ .

ويبدو لنا أن التوجيهات التى بالآية الكريمة تتسع للقولين ، أى : أن على المسلم أن يكون متوسطًا فى رفع صوته بالقراءة فى الصلاة ، وفى رفع صوته حال دعائه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ... ﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - : الحمد الكامل ، والثناء الجميل ، لله - تعالى - وحده ، الذى لم يتخذ ولدًا ؛ لأنه هو الغنى ، كما قال - تعالى - : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدًا ، سبحانه هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾[1] .

ولم يكن له ، - سبحانه - ﴿ شريك فى الملك ﴾ بل هو المالك لكل شىء ، ليس له فى هذا الكون من يزاحمه أو يشاركه فى ملكه أو فى عبادته . كما قال - تعالى - : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾[2] .

وكما قال - عز وجل - : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذًا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾[3] .

﴿ ولم يكن له ولى من الذل ﴾ أى : ولم يكن له - سبحانه - ناصر ينصره من ذل أصابه أو نزل به ، لأنه - عز وجل - هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة ، ومذل الطغاة ، ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

﴿ وكبره تكبيرا ﴾ أى : وعظمه تعظيمًا تامًا كاملًا ، يليق بجلاله عز وجل .

قال الإمام ابن كثير : عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن النبى - ﷺ - كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية . ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ... ﴾ .

ثم قال ابن كثير : وقد جاء فى حديث أن رسول الله - ﷺ - سماها آية العز[4] .

---

(١) سورة يونس الآية ٦٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٩ .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده ، وشافعًا لنا يوم نلقاه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٦ من فبراير سنة ١٩٨٤ م

تفسير

سُورَةُ الكَهفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فقد كان من فضل الله - عز وجل - على ، أن أعارتنى جامعة الأزهر إلى قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وقد امتدت هذه الإعارة لمدة أربع سنوات ، من سنة ١٤٠٠ إلى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٠ - ١٩٨٤ م .

وقد وفقني الله - تعالى - خلال هذه المدة ، أن أكتب - وأنا فى الجوار الطيب - تفسيراً محرراً ونافعاً - إن شاء الله - لسور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، والإسراء .

وهأنذا - وأنا فى الأشهر الأخيرة من الإعارة - انتهى من كتابة تفسير سورة الكهف .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وأن يعيننى على خدمة كتابه الكريم ، وعلى السير فى تفسيره حتى النهاية ، وأن يزيل من طريقى كل عقبة تمنعنى من ذلك .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ .
١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

تمهيد

١ - سورة الكهف هى السورة الثامنة عشرة فى ترتيب سور المصحف ، فقد سبقتها فى الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران .. إلخ .

أما ترتيبها فى النزول ، فهى السورة الثامنة والستون ، فقد ذكر قبلها صاحب الاتقان سبعا وستين سورة ، كما ذكر أن نزولها كان بعد سورة الغاشية[١] .

ومما ذكره صاحب الاتقان يترجح لدينا ، أن سورة الكهف من أواخر السور المكية التى نزلت على النبى - ﷺ - قبل الهجرة ، إذ من المعروف عند العلماء أن السور المكية زهاء اثنتين وثمانين سورة .

قال الآلوسى : سورة الكهف ، ويقال لها سورة أصحاب الكهف .. وهى مكية كلها فى المشهور ، واختاره الدانى .. وعدها بعضهم من السور التى نزلت جملة واحدة .

وقيل : مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى .. ﴾ الآية .

وقيل هى مكية إلا أولها إلى قوله - تعالى - ﴿ جرزا ﴾ وقيل : مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا .. ﴾ إلى آخر السورة .

وهى مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشر آيات عند الكوفيين ...[٢] .

والذين تطمئن إليه النفس أن سورة الكهف كلها مكية ، وقد ذكر ذلك دون أن يستثنى منها شيئا الإمام ابن كثير ، والزمخشرى ، وأبو حيان ، وغيرهم ، وفضلا عن ذلك فالذين قالوا بأن فيها آيات مدنية ، لم يأتوا بما يدل على صحة قولهم ، كما سيتبين لنا عند تفسير الآيات التى قيل بأنها مدنية .

٢ - وقد صدر الامام ابن كثير تفسيره لهذه السورة ، بذكر الأحاديث التى وردت فى فضلها فقال ما ملخصه : ذكر ما ورد فى فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ السيوطى .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٩٩ .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن معدان بن أبى طلحة ، عن أبى الدرداء عن النبى - ﷺ - قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عُصِم من الدجال » .

وفى رواية عن أبى الدرداء ، عن النبى - ﷺ - : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » .

وأخرج الحاكم عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ، أضاء له من النور مابينه وبين الجمعتين[1] » .

٣ - عرض إجمالى لسورة الكهف :

(أ) عندما نقرأ سورة الكهف ، نراها فى مطلعها تفتتح بالثناء على الله - تعالى - وبالتنويه بشأن النبى - ﷺ - وبالقرآن الذى نزل عليه ثم تنذر الذين نسبوا إلى الله - عز وجل - مالا يليق به ، وتصمهم بأقبح ألوان الكذب ، ثم تنهى النبى - ﷺ - عن التأسف عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

قال - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديداً من لدنه ،ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا . ماكثين فيه أبدا . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .

(ب) ثم ساقت السورة بعد ذلك فيما يقرب من عشرين آية قصة أصحاب الكهف ، فحكت أقوالهم عندما التجأوا إلى الكهف ، وعندما استقروا فيه واتخذوه مأوى لهم ، كما حكت جانبا من رعاية الله ، تعالى ، لهم ،ورحمته بهم .. ثم صورت أحوالهم وهم رقود ، وذكرت تساؤلهم فيما بينهم بعد أن بعثهم الله - تعالى - من رقادهم الطويل ، وإرسالهم أحدهم إلى المدينة لإحضار بعض الأطعمة ، وإطلاع الناس عليهم . وتنازعهم فى أمرهم ، ونهى الله - تعالى - عن الجدال فى شأنهم ، كما ذكرت المدة التى لبثوها فى كهفهم .

قال - تعالى - ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض . أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحداً ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٠ طبعة دار الشعب .

(جـ) ثم أمرت السورة الكريمة النبى - ﷺ - برعاية الفقراء من أصحابه . ومدحتهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .. كما أمرته بأن يجهر بكلمة الحق ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فإن الله - تعالى - قد أعد لكل فريق ما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال - تعالى - ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

(د) ثم ضربت السورة الكريمة مثلا للشاكرين والجاحدين ، وصورت بأسلوب بليغ مؤثر تلك المحاورة الرائعة التى دارت بين صاحب الجنتين الغنى المغرور ، وبين صديقه الفقير المؤمن الشكور ، وختمت هذه المحاورة ببيان العاقبة السيئة لهذا الجاهل الجاحد .

استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك بأسلوبه فيقول : ﴿ وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ﴾ .

(هـ) ثم أتبعت السورة هذاالمثل للرجلين ، بمثال آخر لزوال الحياة الدنيا وزينتها ، وببيان أحوال الناس يوم القيامة ، وأحوال المجرمين عندما يرون صحائف أعمالهم وقد خلت من كل خير .

قال - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾.

(و) وبعد أن ذكرت السورة الكريمة طرفا من قصة آدم وإبليس ، وبينت أن هذا القرآن قد صرف الله فيه للناس من كل مثل ، وحددت وظيفة المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

بعد كل ذلك ساقت فى أكثر من عشرين آية قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وحكت ما دار بينهما من محاورات . انتهت بأن قال الخضر لموسى : ﴿ وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾.

(ز) ثم جاءت بعد قصة موسى والخضر - عليهما السلام - قصة ذى القرنين فى ست

عشرة آية ، بين الله ، تعالى ، فيها جانبا من النعم التى أنعم بها على ذى القرنين ، ومن الأعمال العظيمة التى مكنه - سبحانه - من القيام بها .

قال - تعالى - ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾.

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ما أعده - سبحانه - للكافرين من سوء العذاب وما أعده للمؤمنين من جزيل الثواب ، وببيان مظاهر قدرته ، - عز وجل - التى توجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة .

قال - تعالى - : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾.

٤ - وبعد : فهذا عرض إجمالى لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة الكهف ، ومن هذا العرض نرى :

(أ) أن القصص قد اشتمل على جانب كبير من آياتها ، ففى أوائلها نرى قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب . ثم بعد ذلك جاء طرف من قصة آدم وإبليس ، ثم جاءت قصة موسى والخضر - عليهما السلام - ثم ختمت بقصة ذى القرنين .

وقد وردت هذه القصص فى أكثر من سبعين آية ، من سورة الكهف المشتملة على عشر آيات بعد المائة .

(ب) اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عنه ، وعلى إثبات أن هذا القرآن من عنده - تعالى .

نرى ذلك فى أمثال قوله - تعالى - ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾.

وفى غير ذلك من الآيات التى حكت لنا تلك القصص المتعددة .

(جـ) برز فى السورة عنصر الموازنة والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، ترى ذلك فى قصة أصحاب الكهف ، وفى قصة الرجلين وفى قصة ذى القرنين .

وفى الآيات التى ذكرت الكافرين وسوء مصيرهم ، ثم أعقبت ذلك بذكر المؤمنين وحسن مصيرهم كما برز فيها عنصر التسلية للرسول - ﷺ - والتهوين من شأن أعدائه ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾.

كما برز فيها التصوير المؤثر لأهوال يوم القيامة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾.

والخلاصة : أن سورة الكهف قد - ساقت - بأسلوبها البليغ الذى يغلب عليه طابع القصة - ألوانا من التوجيهات السامية ، التى من شأنها أنها تهدى إلى العقيدة الصحيحة ، وإلى السلوك القويم . وإلى الخلق الكريم ، وإلى التفكير السليم الذى يهدى إلى الرشد ، وإلى كل ما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾
مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

سورة الكهف هى إحدى السور الخمس ، التى افتتحت بتقرير الحقيقةالأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء التام ، هو الله رب العالمين .

والسور الأربع الأخرى التى افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ الحمد لله ﴾ هى : الفاتحة ، والأنعام ، وسبأ ، وفاطر .

وقد بينا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أن هذه السور وإن كانت قد اشتركت فى هذا

الافتتاح ، إلا أن لكل سورة طريقتها فى بيان الأسباب التى من شأنها أن تقنع الناس ، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله - تعالى - وحده[1] .

وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله - تعالى - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ؛ إذ هو الخالق لكل شىء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو فى الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد بين بعض المفسرين الحكمة فى افتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ما ملخصه : « أعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله ، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله .

وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، على ما يصدر منه من الإنعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام ، سواء أكان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر .

وكان قوله ﴿ الحمد لله ﴾ تصريحا بأن المؤثر فى وجود العالم هو الفاعل المختار ، الذى وصلت نعمه إلى جميع خلقه ، لا إلى بعضهم .. »[2] .

وقوله : ﴿ الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما .. ﴾ بيان للأسباب التى توجب على الناس أن يجعلوا حمدهم وعبادتهم لله - تعالى - وحده ، إذ الوصف بالموصول ، يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله .

والعوج - بكسر العين - أكثر ما يكون استعمالا فى المعانى ، تقول ، هذا كلام لا عوج فيه ، أى : لاميل فيه .

أما العوج - بفتح العين - فأكثر ما يكون استعمالا فى الأعيان تقول : هذا حائط فيه عوج .

وقوله : ﴿ قيما ﴾ أى : مستقيما معتدلا لا ميل فيه ولا زيغ وهما - أى : عوجا وقيما -

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٧ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى لأول سورة الأنعام جـ ٤ ص ٣ . طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٣٤ هـ .

حالان من الكتاب ويصح أن يكون قوله ﴿ قيما ﴾ منصوبا بفعل محذوف أى : جعله قيما .

والمعنى : الحمد الكامل ، والثناء الدائم ، لله - تعالى - وحده ، الذى أنزل على عبده محمد - ﷺ - القرآن الكريم ، ولم يجعل فيه شيئا من العوج أو الاختلاف أو التناقض ، لا فى لفظه ، ولا فى معناه ، وإنما جعله فى أسمى درجات الاستقامة والإحكام .

وإنما أمر الله - تعالى - الناس بأن يحمدوه لإنزال الكتاب على عبده محمد - ﷺ - لأن فى هذا الكتاب من الهدايات ما يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وفى التعبير عن الرسول - ﷺ - بالعبد ، مضافا إلى ضميره - تعالى - ، تعظيم وتشريف له - ﷺ - وإشعار بأنه مهما سمت منزلته ، وعلت مكانته « فهو عبد الله - تعالى - ، وأن الذين عبدوا أو أشركوا مع الله - تعالى - بعض مخلوقاته ، قد ضلوا ضلالا بعيدا .

والتعبير عن القرآن الكريم بالكتاب ، إشارة إلى كماله وشهرته ، أى : أنزل - سبحانه - على عبده محمد - ﷺ - الكتاب الكامل فى بابه ، الغنى عن التعريف ، الحقيق باختصاص هذا الاسم به ، المعروف بهذا الاسم من بين سائر الكتب .

والمراد به إما جميع القرآن الكريم سواء منه ما نزل فعلا وما هو مترقب النزول ، وإما ما نزل منه فقط حتى نزول هذه الآية فيكون من باب التعبير عن البعض بالكل تحقيقا للنزول للجميع .

وجاء لفظ « عوجا » بصيغة التنكير ، ليشمل النهى جميع أنواع الميل والعوج ، إذ النكرة فى سياق النفى تعم ، أى : لم يجعل له - سبحانه - أى شئ من العوج . وقوله : ﴿ قيما ﴾ تأكيد فى المعنى لقوله - سبحانه - : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ لأنه قد يكون الشىء مستقيما فى الظاهر ، إلا أنه لا يخلو عن أعوجاج فى حقيقة الأمر ، ولذا جمع - سبحانه - بين نفى العوج ، وإثبات الاستقامة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر ؟

قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح ، وقيل : قيما على سائر الكتب ، مصدقا لها ، شاهدا بصحتها ، وقيل : قيما بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٢ .

وشبيه بهذه الآية فى مدح القرآن الكريم قوله - تعالى - : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - . ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .. ﴾[٢] .

وقوله - عز وجل : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[٤] .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان وظيفة القرآن الكريم ، بعد أن وصفه بالاستقامة والإحكام ، فقال : ﴿ لينذر بأسا شديدا من لدنه ... ﴾ .

والإنذار : الإعلام المقترن بتخويف وتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

واللام فى قوله ﴿ لينذر ﴾ متعلقة بأنزل ، والبأس : العذاب ، وهو المفعول الثانى للفعل ينذر ، ومفعوله الأول محذوف .

والمعنى : أنزل - سبحانه - على عبده الكتاب حالة كونه لم يجعل له عوجا بل جعله مستقيما ، لينذر الذين كفروا عذابا شديدا ، صادرا من عنده - تعالى - .

والتعبير بقوله ﴿ من لدنه ﴾ يشعر بأنه عذاب ليس له دافع ، لأنه من عند الله تعالى - القاهر فوق عباده .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا ﴾ .

أى : أنزل الله هذا القرآن ، ليخوف به الكافرين من عذابه ، وليبشر به المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات ، أن لهم من خالقهم - عز وجل - أجراً حسنا هو الجنة ونعيمها ، ﴿ ماكثين فيه أبدا ﴾ أى : مقيمين فيه إقامة باقية دائمة لا انتهاء لها ، فالضمير فى قواله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى الأجر الذى يراد به الجنة .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩ .
(٣) سورة الزمر الآية ٢٧ ، ٢٨ .
(٤) سورة النساء الآية ٨٢ .

قال - تعالى - : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾[١] .

ثم خص - سبحانه - بالإنذار فرقة من الكافرين ، نسبوا إلى الله - تعالى - ما هو منزه عنه ، فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .

فقوله - سبحانه - هنا : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا .. ﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿ لينذر بأسا شديدا من لدنه ﴾ من باب عطف الخاص على العام لأن الانذار فى الآية الأولى يشمل جميع الكافرين ومن بينهم الذين نسبوا إلى الله - تعالى - الولد .

والمراد بهم اليهود والنصارى ، وبعض مشركى العرب ، قال - تعالى - ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾[٣] .

قال الألوسى : وترك - سبحانه - إجراء الموصول على الموصوف هنا ، حيث لم يقل وينذر الكافرين الذين قالوا .. كما قال فى شأن المؤمنين : ويبشر المؤمنين الذين .. للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه . وإيثار صيغة الماضى فى الصلة ، للدلالة على تحقيق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق[٤] .

وقوله - تعالى - : ﴿ مالهم به من علم ولا لآبائهم ﴾ توبيخ لهم على تفوههم بكلام يدل على إيغالهم فى الجهل والبهتان .

أى : ما نسبوه إلى الله - تعالى - من الولد ، ليس لهم بهذه النسبة علم ، وكذلك ليس لآبائهم بهذه النسبة علم ، لأن ذلك مستحيل له - تعالى - ، كما قال - عز وجل - : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾[٥] .

و « من» فى قوله : ﴿ ما لهم به من علم ﴾ مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة مستأنفة ،

---

(١) سورة مريم الآية ٩٧ .
(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .
(٣) سورة النحل الآية ٥٧ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٠٣ .
(٥) سورة الأنعام الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ .

و « لهم » خبر مقدم ، و « من علم » مبتدأ مؤخر ، وقوله ﴿ ولا لآبائهم ﴾ معطوف على الخبر .

أى : مالهم بذلك شىء من العلم أصلا ، وكذلك الحال بالنسبة لآبائهم ، فالجملة الكريمة تنفى ما زعموه نفيا يشملهم ويشمل الذين سبقوهم وقالوا قولهم .

قال الكرخى : فإن قيل : اتخاذ الولد محال فى نفسه ، فكيف قال : ﴿ ما لهم به من علم ؟ ﴾ فالجواب أن انتفاء العلم بالشىء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ، ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ﴾(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ ذم شديد لهم على ما نطقوا به من كلام يدل على فرط جهلهم ، وعظم كذبهم .

وكبر : فعل ماض لإنشاء الذم ، فهو من باب نعم وبئس ، وفاعله ضمير محذوف ، مفسّر بالنكرة بعده وهى قوله ﴿ كلمة ﴾ المنصوبة على أنها تمييز ، والمخصوص بالذم محذوف .

والتقدير : كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التى تفوهوا بها ، وهى قولهم : اتخذ الله ولدا فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا محالا على الله - تعالى - ومخالفا للواقع ؛ ومنافيا للحق والصواب .

وفى هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به ، حيث وصفه - سبحانه - بأنه مجرد كلام لاكته ألسنتهم ، ولا دليل عليه سوى كذبهم وافترائهم .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ كبرت كلمة ﴾ قرئ ، كبرت كلمة بالرفع على الفاعلية ، وبالنصب على التمييز ، والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

وقوله ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ صفة للكلمة تفيد استعظاما لا جترائهم على النطق به ، وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدثون أنفسهم به من المنكرات ، لايتمالكون أن يتفوهوا به ، ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تشوّرًا من إظهاره ؛ فكيف بهذا المنكر ؟

فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى « كبرت » ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله ولدا . وسميت

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤ .

كلمة كما يسمون القصيدة بها[١] .

وشبيه بهذه الآية فى استعظام ما نطقوا به من قبح قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾[٢] .

ثم ساق - سبحانه - ما يسلى الرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب إعراض المشركين عن دعوة الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم - أولا - أن لفظة ﴿ لعل ﴾ تكون للترجى فى المحبوب ، وللإشفاق فى المحذور . واستظهر أبو حيان أن ﴿ لعل ﴾ هنا للإشفاق عليه - ﷺ - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم .

وقال بعضهم إن ﴿ لعل ﴾ هنا للنهى . أى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم .. وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك ، قال - تعالى - : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .. ﴾[٣] .

وقوله ﴿ باخع ﴾ من البخع ، وأصله أن تبلغ بالذبح البخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى فى الرقبة . وذلك أقصى حد الذبح . يقال : بخع فلان نفسه بخعا وبخوعا . أى : قتلها من شدة الغيظ والحزن ، و قوله : ﴿ على آثارهم ﴾ أى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك ، وقوله ﴿ أسفا ﴾ أى : هما وغما مع المبالغة فى ذلك ، وهو مفعول لأجله .

والمعنى : لا تهلك نفسك - أيها الرسول الكريم - هما وغما ، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين . وبسبب إعراضهم عن دعوتك ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ ، و ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ .

قال الزمخشرى : شبهه - سبحانه - وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ؛ ويبخع نفسه وجدا عليهم ، وتلهفا على فراقهم[٤] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٢) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٢ .
(٣) أضواء البيان جـ ٤ ص ١٤ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ تعليل للنهى المقصود من الترجى فى قوله : ﴿ فلعلك باخع ... ﴾ وزيادة فى تسليته - ﷺ - عما أصابه من غم وحزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : إنا بمقتضى حكمتنا - أيها الرسول الكريم - قد جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات وأنهار وبنيان .. زينة لها ولأهلها ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ أى: لنختبرهم عن طريق ما جعلنا زينة للأرض ولأهلها : أيهم أتبع لأمرنا ونهينا ، وأسرع فى الاستجابة لطاعتنا ، وأبعد عن الاغترار بشهواتها ومتعها . وإنا - أيضا - بمقتضى حكمتنا ، لجاعلون ما عليهم من هذه الزينة فى الوقت الذى نريده لنهاية هذه الدنيا ، « صعيدا » ، أى : ترابا « جرزا » أى : لا نبات فيه ، يقال أرض جرز ، أى : لاتنبت ، أو كان بها نبات ثم زال .

ويقال : جُرِزَت الأرض : إذا ذهب نباتها بسبب القحط ، أو الجراد الذى أتى على نباتها قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾[1] .

والمقصود من الآيتين : الزيادة فى تثبيت قلب النبى - صلى الله علية وسلم - وفى تسليته عما لحقه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

فكأنه - سبحانه - يقول له : إمض أيها الرسول الكريم فى تبليغ ماأوحيناه إليك ، ولاتبال بإصرار الكافرين على كفرهم ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن حكمتنا قد اقتضت أن نجعل ما على الأرض من كل مايصلح أن يكون زينة لها ولهم ؛ موضع ابتلاء واختبار للناس ، ليتميز المحسن من المسيء ، كما اقتضت حكمتنا - أيضاً أن نصير ما على هذه الأرض عند انقضاء عمر الدنيا ترابا قاحلا لا نبات فيه ، ويعقب ذلك الجزاء على الأعمال ، وسننتقم لك من أعدائك ﴿ فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ .

وفى التعبير عما على الأرض بالزينة ، إشارة إلى أن ما عليها مهما حسن شكله ، وعظم ثمنه .. فهو إلى زوال ، شأنه فى ذلك شأن ما يتزين به الرجال والنساء من ملابس وغيرها ، يتزينون بها لوقت ما ثم يتركونها وتتركهم .

وقوله ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ تعليل لما اقتضته حكمته من جعل ما على الأرض زينة لها .

---

(١) سورة السجدة . الآية ٢٧ .

أى : فعلنا ذلك لنختبر الناس على ألسنة رسلنا ، أيهم أحسن عملا ، بحيث يكون عمله مطابقا لما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، وخالصا لوجهنا ، ومبنيا على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة .

قال تعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، واتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ زيادة فى التزهيد فى زينتها ، حيث إن مصيرها إلى الزوال ، وحض على التزود من العمل الصالح الذى يؤدى بالإنسان إلى السعادة الباقية الدائمة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد قررت أن الثناء الكامل إنما هو لله - عز وجل - ، وأن الكتاب الذى أنزله على عبده ونبيه - ﷺ - لا عوج فيه ولا ميل ، وأن وظيفة هذاالكتاب إنذار الكافرين بالعقاب ، وتبشير المؤمنين بالثواب ، كما أن من وظيفته تثبيت قلبه - ﷺ - وتسليته عما أصابه من أعدائه ، ببيان أن الله - تعالى - قد جعل هذه الدنيا بما فيها من زينة ، دار اختبار وامتحان ليتبين المحسن من المسىء ، وليجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة أصحاب الكهف ، وبين أن قصتهم ليست عجيبة بالنسبة لقدرته - عز وجل - فقد أوجد - سبحانه - ما هو أعجب وأعظم من ذلك ، فقال - تعالى - :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى

﴿ ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول - ﷺ - ، على سبيل الامتحان ، فقال - تعالى - : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ﴾ ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم .. »[1] .

وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئاً عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات ملخصها : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد - ﷺ - ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله - ﷺ - ووصفوا لهم أمره - ﷺ - فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من خبرهم . فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره ؟ وسلوه عن الروح ، ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٨٢ .

ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا يا محمد أخبرنا ، ثم سألوه عما قالته لهم يهود .

فقال لهم رسول الله - ﷺ - سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن - : أى . ولم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة . لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه . وحتى أحْزَن رسول الله - ﷺ - مُكْثُ الوحى عنه ، وشق عليه ماتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

والخطاب فى قوله - تعالى - ﴿ أم حسبت .. ﴾ للرسول - ﷺ - ويدخل فيه غيره من المكلفين .

و « أم » فى هذه الآية هى المنقطعة ، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أحسبت ، وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل ، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر ، أى : بل حسبت . ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التى للاستفهام الإنكارى أى : أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم .

والكهف : هو النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف . والمراد به هنا : ذلك الكهف الذى اتخذه هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقيم فقد ذكروا فى المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلبهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادى الذى كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التى خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذى كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم ، فيكون الرقيم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - ومأخوذ من رقمت الكتاب إذا كتبته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٢ .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم ﴾[1] . أى مكتوب .

قال بعض العلماء : والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين : أحدهما : معطوف على الآخر ، خلافا لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى ، وأن الله قص على نبيه فى هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ، ولم يذكر له شيئا عن أصحاب الرقيم . وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدّت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت ، وهم البار بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر ، وقصتهم مشهورة ثابتة فى الصحيح ، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى »[2] .

والمعنى : أظننت - أيها الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا ؟ لا ، لا تظن ذلك فإن قدرتنا لا يعجزها شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم فى الكهف فقال : إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة . وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ .

و « إذ » هنا ظرف منصوب بفعل تقديره : اذكر .

و « أوى » فعل ماض - من باب ضرب - تقول : أوى فلان إلى مسكنه يأوى ، إذا نزله بنفسه . واستقر فيه .

و « الفتية » : جمع قلة لفتى . وهو وصف للإنسان عندما يكون فى مطلع شبابه .

وقوله : ﴿ وهيئ لنا من أمرنا ﴾ : من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر وتقريبه وتسهيله حتى لا يخالطه عسر أو مشقة .

والمراد بالأمر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهليهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

---

(١) سورة المطففين الآيات ١٨ - ٢٠ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٢٠ .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه . وهو ضد الغى . يقال : رشد فلان يرشد رشدا ورشادا ، إذا أصاب الحق .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ، وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شىء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : يا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدى بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وتردُّ بها الفتن عنا ، كما نسألك ياربنا أن تهيىء لنا من أمرنا الذى نحن عليه - وهو : فرارنا بديننا . وثباتنا على إيماننا - ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك .

وقال - سبحانه - : ﴿ إذ أوى الفتية .. ﴾ بالإظهار - مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة ، وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب فى مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شىء فى سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل ﴿ أوى ﴾ يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف . ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم المريحة ، لأنه واراهم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة .. ﴾ يدل على أنهم بمجرد استقرارهم فى الكهف ابتهلوا إلى الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير .

والتنوين فى قوله : ﴿ رحمة ﴾ : للتهويل والتنويع . أى : آتنا ياربنا من عندك وحدك لا من غيرك . رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا وشئوننا . فهى تشمل الأمان فى المنزل ، والسعة فى الرزق ؛ والمغفرة للذنب .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والأوطان .. خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين ..[1] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ، وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير . فقال : ﴿ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ﴾ .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٦٠ .

يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذى غشاهم الله - تعالى - به فصاروا لا يحسون شيئا مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية فى الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم فى الكهف حجابا ثقيلا مانعا من السماع ، فصاروا لا يسمعون شيئا يوقظهم ، واستمروا فى نومهم العميق هذا ﴿ سنين ﴾ ذات عدد كثير ، بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ .

وخص - سبحانه - الآذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة ، لأن الآذان هى الطريق الأول للتيقظ . ولأنه لا يثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع .

وقد ورد أن النبى - ﷺ - عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال فى شأنه : « ذلك رجل قد بال الشيطان فى أذنه » أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة ، وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أى : التصقتا بهم التصاقا لا فكاك لهم منه ، ولا مهرب لهم عنه .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ .

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشىء من محله وتحريكه بعد سكون . ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله : ﴿ بعثناهم ﴾ أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله ﴿ لنعلم أى الحزبين ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .

وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

وقيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم ، إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر .

وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى مكثها هؤلاء الفتية رقوداً .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك - ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ أى الفتية ﴿ ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم .. ﴾ .

قال الآلوسى : ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أى : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ﴿ لنعلم أى الحزبين ﴾ أى : منهم ، وهم القائلون ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ والقائلون ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ .

وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثانى أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم .. والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت [1] .

والمراد بالعلم فى قوله ﴿ لنعلم .. ﴾ إظهار المعلوم ، أى ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لا حقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لنميز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .

ولفظ « أحصى » يرى صاحب الكشاف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ « أمدا » مفعوله ، و « ما » فى قوله ﴿ لما لبثوا ﴾ مصدرية ، فيكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أضبط أمدا - أى مدة - للبثهم فى الكهف .

قال صاحب الكشاف : و « أحصى » فعل ماض ، أى : أيهم أضبط « أمدا » لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس .. والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به .. [2] .

وبعضهم يرى أن لفظ « أحصى » صيغة تفضيل ، وأن قوله « أمدا » منصوب على أنه تمييز وفى إظهار هذه الحقيقة للناس ، وهى أن الله - تعالى - قد ضرب النوم على آذان هؤلاء الفتية

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢١٢ .
(٢) راجع الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٤ .

ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم ، أقول : فى إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه .

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقت لنا قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ، ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكى لنا قصتهم على سبيل التفصيل والبسط ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - .

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ
قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

أى : « نحن » وحدنا يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحمته وسداه الحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وماشأنهم بالتفصيل ؟

أى : إنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم ، وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بربوبيته -

سبحانه - إيمانا عميقاً ثابتاً ، فزادهم الله ببركة هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على هدايتهم ، وإيمانا على إيمانهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - أنهم كانوا فتية - أى شبابا - ، وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان اكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابا ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره بقوله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ إلى أن الإيمان يزيد وينقص ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ﴾ .

وأصل الربط : الشد ، يقال ، ربطت الدابة ، أى : شددتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله فى قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم ، ومنه قولهم : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا يفزع عند الشدائد والكروب .

والمراد بقيامهم : عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميما لا تزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم فى وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة ، دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبده قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ إذ قاموا ﴾ يحتمل ثلاثة معان . أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا ما دعاهم إليه .

والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٦ .

والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله - تعالى - ومنابذة الناس ، كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه بغاية الجد[١] .

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى اهتدت إليه ، معتزة بالإيمان الذى أشربته ، مستبشرة بالإخاء الذى جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله - ﷺ - إذ يقول : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن استقر الإيمان فى نفوسهم فقال : ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها .. ﴾ .

أى : أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله - عز وجل - حين قاموا فى وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة : ربنا - سبحانه - هو رب السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شىء ، ولن نعبد سواه أى معبود آخر .

ونفوا عبادتهم لغيره - سبحانه - بحرف - « لن » للإشعار بتصميمهم على ذلك فى كل زمان وفى كل مكان ، إذ النفى بلن أبلغ من النفى بغيرها .

قال الآلوسى : وقد يقال ؛ إنهم أشاروا بالجملة الأولى - وهى : ربنا رب السموات والأرض - إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية - لن ندعو من دونه إلها - إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا ، ويقولون بالأول : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولون الله ﴾ وحكى - سبحانه - عنهم أنهم يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وصح أنهم كانوا يقولون : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ تأكيد لبراءتهم من كل عبادة لغير الله - تعالى - .

والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه : أشط فلان فى السَّوْمْ إذا جاوز الحد ، وأشط فى الحكم إذا جاوز حدود العدل : وهو صفة لموصوف محذوف ، وفى الكلام قسم مقدر ، واللام فى « لقد » واقعة فى جوابه ، و « إذا » حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٦٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢١٩ .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها . ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر ، والله لنكونن فى هذه الحالة قد قلنا إذا قولا شططا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

والآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل على أن من أشرك مع الله - تعالى - إلها آخر ، يكون بسبب هذا الإشراك ، قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك استنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين .. ﴾ .

و « هؤلاء » مبتدأ ، و « قومنا » عطف بيان ، وجملة « اتخذوا من دونه آلهة » هى الخبر .

و« لولا » للتحضيض ، وهو الطلب بشدة والمقصود بالتحضيض هنا : الإنكار والتعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك .

والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا ، وتعاهدوا على عبادة الله - تعالى - وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم اتخذوا مع الله - تعالى - أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لابد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج الآية ٣١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٤ .

وشبيه بهذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾[2] :

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ، ووصفهم إياهم بالظلم فقال : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلماً من قوم افتروا على الله - تعالى - الكذب ، حيث زعموا أن له شريكا فى العبادة والطاعة ، مع انه - جل وعلا - منزه عن الشريك والشركاء : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم وضوحا صريحا حاسما ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة .. فقال - تعالى - : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ .

و « إذ » يبدو أنها هنا للتعليل . والاعتزال : تجنب الشيء سواء أكان هذا التجنب بالبدن أم بالقلب . و « ما » فى قوله ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ اسم موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله ﴿ اعتزلتموهم ﴾ وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى العبادة الأصنام . و « من » قالوا إنها بمعنى البدلية .

وقوله : ﴿ مرفقاً ﴾ من الارتفاق : بمعنى الانتفاع ، وقرأ نافع وابن عامر مرفقا - بفتح الميم وكسر الفاء .

والمعنى : أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد ، وعقدوا العزم على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا : ولأجل ما أنتم مقدمون عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار ، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله ؛ لأجل ذلك فالجأوا إلى الكهف ، واتخذوه

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ٤ .

مأوى ومستقراً لكم ، ينشر لكم ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ، ويهيئ لكم بدلا من أمركم الصعب . أمراً آخر فيه اليسر والنفع .

وفى التعبير بقولهم - كما حكى القرآن عنهم .. ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته .. ﴾ دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذى لا حدود له ، بربهم - عز وجل - فهم عندما فارقوا أهليهم وأموالهم وزينة الحياة ، وقرروا اللجوء إلى الكهف الضيق الخشن المظلم .. لم ييأسوا من رحمة الله ، بل أيقنوا أن الله - تعالى - سيرزقهم فيه الخير الوفير ، وييسر لهم ما ينتفعون به ، ببركة إخلاصهم وصدق إيمانهم .

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالى من زينة الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، على المكان الملىء باللين والرخاء الذى يحس فيه بالخوف على عقيدته .

فالآية الكريمة تدل على أن اعتزال الكفر والكافرين من أجل حماية الدين ، يؤدى إلى الظفر برحمة الله وفضله وعطائه العميم وصدق الله إذ يقول فى شأن إبراهيم - عليه السلام - ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[1] .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن استقروا فى الكهف وبعد أن ألقى الله - تعالى - عليهم بالنوم الطويل فتقول :

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم

(١) سورة مريم الآيات ٤٨ - ٥٠ .

﴿ بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وترى الشمس .. ﴾ بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف .. والخطاب لرسول الله - ﷺ - أو لكل أحد ممن يصلح ، وهو للمبالغة فى الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل المراد الإخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ... »[1] .

وقوله ﴿ تزاور ﴾ من الزور بمعنى الميل . ومنه قولهم : زار فلان صديقه ، أى : مال إليه . ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل . ويقال : فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشىء ، إذا انحرف عنه .

وفى هذا اللفظ ثلاث قراءات سبعية . فقد قرأ ابن عامر « تزور » بزنة تحمر . وقرأ الكوفيون - عاصم وحمزة والكسائى - « تزاور » بفتح الزاى - وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « تزَّاور » بتشديد الزاى - . وأصله تتزاور فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .

ومعنى : « تقرضهم » تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم ، من القرض بمعنى القطع والصرم ، يقال : قرض المكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : إنك - أيها المخاطب - لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كهفهم جهة اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك ، فهى فى الحالتين لا تصل إليهم ، حماية من الله - تعالى - لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرها ، بأن تغير ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

وقوله : ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ جملة حالية . أى : والحال أنهم فى مكان متسع من الكهف وهو وسطه ، والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ، ومنه قولهم : رجل أفجى ، وامرأة فَجْوَاء .

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان لخصهما الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولهما : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٢١ - بتصريف يسير .

كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثانى : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف .. »[1] .

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله - تعالى - بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال .

أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من الكهف ، أى : فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم ، خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ، لأن قوله - تعالى - ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ يشير إلى أنهم مع اتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة - لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب ، وهذا أمر خارق للعادة ، ويدل على عجيب حالهم ، كما أن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمراً عاديا مألوفا .

قال الآلوسى : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا ، وإن اختلفوا فى منشأ ذلك وإختار جمع منهم ، أنه لمحض حجب الله - تعالى - الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لا سيما فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة .. »[2] .

وعلى هذا الرأى الثانى يكون اسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ إلى ما فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم فى متسع من الكهف .

أى : ذلك الذى فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة ، وإرادتنا التى لا يعجزها شىء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٩٩ .

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٢٢٣ .

وأما على الرأى الأول فيكون اسم الاشارة مرجعه إلى ما سبق من الحديث عنهم ، كهدايتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ، ولجوئهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية ، إلى غير ذلك مما ذكر - سبحانه - عنهم .

أى : ذلك الذى ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول الكريم - هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، ويوفقه إلى الصواب ، فهو المهتد ، أى فهو الفائز بالحظ الأوفر فى الدارين ، ومن يضلله الله - تعالى - عن الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد - نصيرا ينصره ، ومرشدا يرشده إلى طريق الحق .

كما قال تعالى - : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾(1) .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ... ﴾(2) .

ثم صور - سبحانه - بعد ذلك مشهدا عجيبا من أحوال هؤلاء الفتية فقال : ﴿ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود .. ﴾ .

والحسبان بمعنى الظن ، والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم ، والرقود : جمع راقد والمراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قدر لك أن تراهم - أيقاظا منتبهين ، والحال أنهم رقود أى : نيام .

وقالوا : وسبب هذا الظن والحسبان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ .

أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيمانهم ، وإلى الجهة التى تلى شمائلهم ، رعاية منا لأجسامهم حتى لا تأكل الأرض شيئا منها بسبب طول رقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب لا يعلمه إلا الله - تعالى - وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحا عنه .

ثم بين - سبحانه - حالة - كلبهم فقال : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ .

والمراد بالوصيد - على الصحيح - فناء الكهف قريبا من الباب ، أو هو الباب نفسه ، ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لا يسد وصيدها . أى : لا يسد بابها .

أى : وكلبهم الذى كان معهم فى رحلتهم ماد ذراعيه بباب الكهف حتى لكأنه يحرسهم ويمنع من الوصول إليهم .

وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهتم بذكره لعدم فائدته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ .

أى . لو عاينتهم وشاهدتهم - أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت . ولملئ قلبك خوفا ورعبا من منظرهم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاماً منها : أن صحبة الأخيار لها من الفوائد مالها .

قال ابن كثير - رحمه الله - ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب . لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب - كما ورد فى الصحيح .. وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن[1] .

وقال القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثنى أبى قال : سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت - أى القرطبى - : إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فى كتابه ، فماظنك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين !! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكلمات : المحبين للنبى - ﷺ - وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله - ﷺ - خارجان من المسجد ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤١ .

فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله . متى الساعة ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « ما أعددت لها ؟ قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحببت الله ورسوله : قال - ﷺ - : « فأنت مع من أحببت » . وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبى - ﷺ - « فأنت مع من أحببت » .

قال أنس . فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين .[1] .

ثم حكى - سبحانه - حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وقوله - سبحانه - : وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، بيان للعلة التى من أجلها بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٧٢ .

أى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، بعثناهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكأنهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والاقتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لا ينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها إيقاظهم ، وإنما أفرده - سبحانه - بالذكر لاستتباعه لسائر الآثار الأخرى .

ثم حكى - سبحانه - بعض تساؤلهم فقال : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا الكهف .

فأجابه بعضهم بقوله : ﴿ لبثنا يوماً ﴾ لظنهم أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : ﴿ أو بعض يوم ﴾ أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم .

ويصح أن تكون أو للشك . أى قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم ، لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لا ندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين .

ثم حكى القرآن أن بعضهم رد عِلْمَ مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أى : ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذى قضيتموه نائمين فى هذا الكهف .

قال الآلوسى : وهذا رد منهم على الأولين ، على أحسن ما يكون من مراعاة حسنَ الأدب ، وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق فى قوله - تعالى - ﴿ لنعلم أى الحزبين ﴾[1] .

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال فى الآية : قال قائل منهم ، وهذا واحد ، وقالوا فى جوابه : لبثنا يوما ، أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة[2] .

ثم بين - سبحانه - ما قالوه بعد أن تركوا الحديث فى مسألة الزمن الذى قضوه نائمين فى الكهف فقال - تعالى - : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ .

أى : كفوا عن الحديث فى مسألة المدة التى نمتموها ، فعلمها عند الله ، وابعثوا أحدكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٢٩ .
(٢) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٥٣٤ .

« بورقكم » . أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة ، ﴿ إلى المدينة ﴾ التى يوجد بها الطعام الذى نحن فى حاجة إليه ، والتى هى أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا : والمراد بها مدينتهم التى كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم .

﴿ فلينظر أيها أزكى طعاما ﴾ أى : ومتى وصل إلى المدينة ، فليتفقد أسواقها ، وليتخير أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

﴿ فليأتكم برزق منه وليتلطف ﴾ أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاما ، فيكون الضمير فى « منه » للطعام الأزكى .

ويصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها « بورقكم » ، أى : فليأتكم بدلا منها بطعام تأكلونه ، وليتلطف ، أى : وليتكلف اللطف فى الاستخفاء ، والدقة فى استعمال الحيل حال دخوله وخروجه من المدينة ، حتى لا يعرفه أحد من أهلها .

﴿ ولا يشعرن بكم أحدا ﴾ أى : ولا يفعلن فعلا يؤدى إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا ﴾ تعليل للأمر والنهى السابقين .

أى : قولوا لمن تختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أزكى الطعام ، وعليه كذلك أن لا يخبر أحدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ أى : يطلعوا عليكم . أو يظفروا بكم .

وأصل معنى ظهر . أى : صار على ظهر الأرض . ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل تارة فى الاطلاع ، وتارة فى الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

﴿ يرجموكم ﴾ أى إن يعرفوا مكانكم ، يرجموكم بالحجارة حتى تموتوا ﴿ أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ الباطلة التى نجاكم الله - تعالى - منها .

﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ أى : وإن عدتم إليها بعد إذ نجاكم الله - تعالى - منها وعصمكم من اتباعها ، فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ حال الفتية وهم يتناجون فيما بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقادهم الطويل .

ونراهم فى تناجيهم - بعد أن تركوا الحديث عن المدة التى لبثوها فى نومهم - نراهم حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت . وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها . وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم .

ثم تمضى السورة الكريمة لتحدثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية . مشهد تتجلّى فيه قدرة الله - تعالى - على أبلغ وجه ، كما تتجلى فيه حكمته ووحدانيته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك فيقول :

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية .

قال الآلوسى ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال : عثُر عثورا وعِثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم فى المثل : الجواد لا يكاد يعثر . ثم تجوز به فى الاطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الاطلاع والعرفان ، فهو فى ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية .

ومفعول « أعثرنا » محذوف لقصد العموم ، أى : وكذلك أطلعنا الناس عليهم »[1] .

والمعنى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، وبعثناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٣٢ .

عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، ﴿ أن وعد الله ﴾ بالبعث ﴿ حق ﴾ وصدق وليعلموا كذلك أن الساعة ، أى القيامة ، آتية لا ريب فيها ، ولا شك فى حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادراً على إنامتهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك . فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقد ذكروا فى كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : أن زميلهم الذى أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشترى لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود لكى يأخذ فى مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها - لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد - وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال لهم : بعت بها أمس شيئا من التمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائى إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا ، فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته . فسر الملك به ، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم .. ثم أماتهم الله - تعالى - »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس فى شأنهم ، فقال : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ﴾ .

والظرف « إذ » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، و « يتنازعون » من التنازع بمعنى التخاصم والاختلاف ، والضمير فى « أمرهم » يعود إلى الفتية .

والمعنى : لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية . وبينا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الإعثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون فى شأنهم . فمنهم من يقول إنهم وجدوا فى زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا فى كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبنى حولهم بنيانا صفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير فى « أمرهم » يعود إلى الذين أطلعهم الله على الفتية ، فيكون المعنى : اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم ، حيث إن بعضهم كان مؤمنا . وبعضهم كان كافرا ، وبعضهم كان يؤمن يبعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٢ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ﴾ تفسير للمتنازع فيه ، وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلف الذين عثروا على الفتية فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم بنيانا . حتى لا يصل الناس إليهم ، وحتى نصونهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة من المتنازعين فى شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع فى شأنهم ، وليفوضوا أمرهم إلى الله - تعالى - .

ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - ردا للخائضين فى شأنهم .

أى : اتركوا أيها المتنازعون ما أنتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ .

أى : أن الذين أعثرهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على هؤلاء الفتية بنيانا يسترهم .. وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا تبركا بهم .

قال الآلوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء ، واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى فى حواشيه على البيضاوى . وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد . فقد روى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وزاد مسلم : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .. »[1] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٣٧ .

ثم حكت السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف وأمرت النبى - ﷺ - أن يكل ذلك إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

أى : سيختلف - الناس فى عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثه رابعهم كليهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة سادسهم كلبهم .

فالضمير فى قوله ﴿ سيقولون ﴾ وفى الفعلين بعده . يعود لأولئك الخائضين فى قصة أصحاب الكهف وفى عددهم ، على عهد النبى - ﷺ - .

قال الجمل : قيل إنما أتى بالسين فى هذا لأن فى الكلام طيا وإدماجا تقديره : فإذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف ، فسلهم عن عددهم فإنهم سيقولون ثلاثة .

ولم يأت بها فى بقية الأفعال ، لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال[1] .

وقال صاحب الكشاف ، فإن قلت : لماذا جاء بسين الاستقبال فى الأول دون الآخرين ؟ .

قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين فى حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم . تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعا ، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له[2] .

وقوله ، ثلاثة . خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٨ .

وقوله - تعالى - : ﴿ رجما بالغيب ﴾ رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم .

وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، والمراد به هنا : القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ رجما بالغيب ﴾ ، أى : رميا بالخبر الخفى وإتيانا به . كقوله ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ أى : يأتون به . أو وضع الرجم ، موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب . لأنهم أكثروا أن يقولوا : رجم بالظن ، مكان قولهم : ظن . حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير : وما هو عنها بالحديث المرجم .. أى : المظنون »[1] .

وقوله : ﴿ رجما ﴾ منصوب بفعل مقدر . والباء فى ﴿ بالغيب ﴾ للتعدية .

أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا اطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .

ثم حكى - سبحانه - القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ .

أى : وبعض الناس - وهم المؤمنون - يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلبهم .

قال ابن كثير : - يقول - تعالى - مخبرا عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف . فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع . ولما ضعف القولين الأولين بقوله : « رجما بالغيب » .

أى : قول بلا علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب . وإذا أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ دل على صحته ، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر »[2] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : والجملة الواقعة بعد العدد فى قوله - تعالى - : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ فى موضع الصفة له ، والواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٣ .

كما تدخل فى الواقعة حالا عن المعرفة فى قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ .

وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهى التى أذنت هنا بأن قائلى ما ذكر ، قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم فهو الحق دون القولين الأولين ..."[1] .

ثم أمر الله - تعالى - النبى - ﷺ - أن يخبر الخائضين فى عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذى دار بينهم فقال : ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف : ربى - عز وجل - أقوى علما منكم بعدتهم - أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئا علما ظنيا . فإن علم ربى بهم هو علم تفصيلى يقينى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم أثبت - سبحانه - علم عددهم لقليل من الناس فقال : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أى : ما يعلم عدة أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها ، لأن علم هذا العدد القليل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى .. أما علم الله - تعالى - فهو علم تفصيلى يقينى شامل لجميع الأزمنة .

فضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، نابع من إعلام الله - تعالى - لهم عن طريق الوحى كالرسول - ﷺ - أو من يطلعه الرسول - ﷺ - على عدتهم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أنا من أولئك القليل ، كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله - ﷺ - عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال - تعالى - : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مِراءً ظاهرا . ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ .

والمراء : هو الجدال والمحاجة فيما فيه مرية ، أى : تردد . مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للحلب .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٢٤١ .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير . والفاء فى قوله ﴿ فلا تمار ﴾ للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلا تجادل فى أمرهم أحداً من الخائضين فيه إلا جدالا واضحا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - ولا تطلب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال . وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

ثم نهى الله - تعالى - نبيه - ﷺ - عن الإخبار عن فعل شىء فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله - عز وجل - فقال :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ
إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾

قال القرطبى : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه - ﷺ - على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن فى ذلك .

فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرِّجة . وأُمِر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل : كان كاذبا ، وإذا قال ، لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه[1] .

والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا . وعبر عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .

أى : ولا تقولن - أيها الرسول الكريم - لأجل شىء تعزم على فعله فى المستقبل : إنى فاعل ذلك الشىء غدا ، إلا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه ، بأن تقول :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٨٥ .

سأفعل هذا الشيء غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله - تعالى - وحده .

وليس المقصود من الآية الكريمة نهى الإنسان عن التفكير فى أمر مستقبله ، وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ما سيقع علمه عند الله - تعالى - وحده .

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله - تعالى - وإرادته . فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته ، وتدبيره - سبحانه - فوق كل تدبير .

وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التى تؤدى إلى قضائها .. ثم جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن . إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، وأنه - سبحانه - القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ما تؤدى إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله فى المستقبل ، إن شاء الله .

وقوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ تأكيد لما قبله أى : لا تقولن أفعل غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاء الله ، واذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

قال الآلوسى : قوله ﴿ واذكر ربك ﴾ أى : مشيئة ربك ، فالكلام على حذف مضاف ، إذا نسيت ، أى : إذا فرط منك نسيان ذلك ثم تذكرته . فهو أمر بالتدارك عند التذكر ..[1] .

وقال بعض العلماء ما مخلصه : للمفسرين فى تفسير قوله - تعالى - : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قولان :

الأول - أن هذه الجملة مرتبطة ومتعلقة بما قبلها : والمعنى : إنك إن قلت سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك فقل : إن شاء الله .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٤٩ .

أى : اذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول إنك ستفعله غدا إذا تذكرت بعد النسيان .

وهذا القول هو الظاهر ، لأنه يدل عليه ما قبله ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ وهو قول الجمهور .

الثانى : أن هذه الجملة لا تعلق لها بما قبلها ، وأن المعنى : إذا وقع منك النسيان لشيء فاذكر ربك ، لأن النسيان من الشيطان ، كما قال - تعالى - عن فتى موسى : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .... ﴾[1] .

وعلى هذا القول يكون المراد بالذكر : التسبيح والاستغفار ، وعلى الأول المراد به أن تقول : إن شاء الله أو ما يشبه ذلك .

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله - تعالى - هو الذى يجب أن يفعل ، لأنه - تعالى - لا يقع شيء إلا بمشيئته فإذا نسى المسلم ثم تذكر ، فإنه يقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة ، وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله - تعالى - .

وليس المقصود بها التحلل من يمين قد وقعت ، لأن تداركها قد فات بالانفصال ، ولأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ﴾ أى : قدم - أيها الرسول الكريم - مشيئة ربك عند إرادة فعل شيء ، وأت بها إذا نسيت ذلك عند التذكر ، وقل عسى أن يوفقنى ربى ويهدينى ويدلنى على شيء أقرب فى الهداية والإرشاد من هذا الذى قصصته عليكم من أمر أصحاب الكهف .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ لأقرب من هذا .. ﴾ اسم الإشارة يعود إلى نبأ أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتينى من البينات والحجج على أنى نبى صادق ، ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف .

وقد فعل - سبحانه - ذلك ، حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ما هو أعظم من ذلك وأدل »[2] .

---

(١) أضواء البيان جـ ٤ ص ٧٧ .
(٢) تفسير الكشف جـ ٢ ص ٤٨٠ .

ثم بين - سبحانه - على وجه اليقين ، المدة التى قضاها أصحاب الكهف راقدين فى كهفهم ، فقال - تعالى - :

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

أى : أن أصحاب الكهف مكثوا فى كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .

فالآية الكريمة إخبار منه - سبحانه - عن المدة التى لبثها هؤلاء الفتية مضروبا على آذانهم .

وقوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ تقرير وتأكيد لكون المدة التى لبثوها هى ما سبق بيانه فى الآية السابقة .

فكأنه - سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب فى المدة التى لبثوها راقدين فى كهفهم ، وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك - أيها الرسول الكريم - ، وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لا يحوم حوله شك ، فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين فى أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .

ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ﴾ حكاية لكلام أهل الكتاب فى المدة التى لبثها أهل الكهف نياما فى كهفهم ، وأن قوله ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ للرد عليهم .

وقد حكى الإمام ابن كثير القولين . ورجح الأول منهما فقال : هذا خبر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بمقدار مالبث أصحاب الكهف فى كهفهم ، منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم

وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان . كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلالية وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ ولبثوا فى كهفهم .. ﴾ وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ .

وفى هذا الذى قاله قتادة نظر ، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ ، وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ تأكيد لا ختصاصه - عز وجل - بعلم المدة التى لبثوها ، أى : له - سبحانه - وحده علم ما خفى وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلها ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ صيغتا تعجب : أى : ما أبصره وما أسمعه - تعالى - والمراد أنه - سبحانه - لا يغيب عن بصره وسمعه شىء .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره - تعالى - فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين . إذ لا يحجبه شىء ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلى وخفى .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ .

أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما غير الله - تعالى - نصير ينصرهم ، أو ولى يلى أمرهم . ولا يشرك - سبحانه - فى حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كان من خلقه . كما قال - تعالى - ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .

(أ) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهروا فيه ، أما مكان الكهف فللعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى « أفسوس » وهى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٦ .

من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة « أزمير » بحوالى أربعين ميلا ، وتعرف الآن باسم : « أيازبوك » .

وقيل : إنه كان ببلدة تدعى « أبسس » - بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين - وهذه البلدة من ثغور « طرسوس » بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى « بتراء » بين خليج العقبة وفلسطين .. إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة ، التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها .

وأما الزمن الذى ظهروا فيه ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث الميلادى فى عهد الإمبراطور الرومانى « دقيانوس » الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويعذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة - ومن أهمها :

١ - إثبات صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر - عن طريق ما أوحاه الله إليه من قرآن - عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ... ﴾ .

٢ - الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم فى قصصه ، حيث ساق هذه القصة مجملة فى الآيات الأربع الأولى منها ، ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما . وفى ذلك ما فيه من تمكن أحداثها وهداياتها فى القلوب .

والمرشد العاقل هو الذى ينتفع بهذا الأسلوب القرآنى فى وعظه وإرشاده .

٣ - بيان أن الإيمان متى استقر فى القلوب ، هان كل شىء فى سبيله . فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، على البقاء فى أوطانهم ، لكى تسلم لهم عقيدتهم .. فهم كما قال - سبحانه - فى شأنهم : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ .

٤ - بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء - لاسيما عند الشدائد والكروب ، وأنه متى اتقى الله - تعالى - وأطاعه ، جعل له - سبحانه - من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وصانه من السوء .

فهؤلاء الفتية عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس

لا تصل إليهم مع أنهم فى فجوة من الكهف ، وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلبهم بعتبة باب الكهف حتى لكأنه حارس لهم : وألقى الهيبة عليهم بحيث لو رآهم الرائى لولى منهم فرارا . ولملئ قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم . وللتعبير عن تكريمهم لهم بقولهم : ﴿ لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ .

٥ - بيان أن التفكير السليم - المصحوب بالنية الطيبة والعزيمة الصادقة ، يؤدى إلى الاهتداء إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . وأن فضح الباطل والكشف عن زيفه .. دليل على سلامة اليقين .

فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذ قاموا للوقوف فى وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذبا .

وأن اعتزال الكفر . يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق . ولذا تواصوا فيما بينهم بقولهم : ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ .

٦ - بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافى التوكل على الله .

فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا معهم بعض النقود ، وبعد بعثهم من رقادهم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما طاهرا حلالا ، وأوصوه بالتلطف فى أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لا يعرف الأعداء مكانهم .

وهكذا العقلاء ، لا يمنعهم توكلهم على الله - تعالى - من أخذ الحيطة والحذر فى كل شئونهم التى تستدعى ذلك .

٧ - إقامة أوضح الأدلة وأعظمها على أن البعث حق . فقد أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية ، ليوقنوا بأنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى .. لأن من يقدر على بعث الراقدين من رقادهم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ - بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شىء أن يقرن ذلك بمشيئة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - بيده الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ .

هذه بعض العظات والأحكام التى ترشدنا إليها هذه القصة ، وقد ذكرنا جانبا آخر منها

خلال تفسيرنا للآيات التى اشتملت عليها . ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المفسرون فى ذلك[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بمداومة التلاوة لما أوحاه إليه - سبحانه - ، فإن فيه فصل الخطاب وبالحفاوة بالمؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، وبإعلان كلمة الحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فقال - تعالى - :

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٨١ ، وتفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٥٦ وتفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٠٩ ، وتفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٨ .

مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ واتل ما أوحى إليك .. ﴾ اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى - عليه السلام - والخضر ، كلام واحد فى قصة واحدة وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله - ﷺ - : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء .. فنهاه الله عن طردهم لأنه مطلوب فاسد .. ثم إنه - سبحانه - أمره بالمواظبة على تلاوة كتابه ، وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين ، وتعنت المتعنتين[1] .

قوله - سبحانه - : ﴿ واتل ﴾ ... فعل أمر من التلاوة بمعنى القراءة .

أى : وعليك ه أيها الرسول الكريم - أن تواظب وتداوم على قراءة ما أوحيناه إليك من هذا القرآن الكريم ، وأن تتبع إرشاداته وتوجيهاته ، فإن فى ذلك ما يهديك إلى الطريق الحق ، وما يغنيك عن السؤال والاستفتاء ، قال - تعالى - : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور ﴾[2] .

وصيغة الأمر فى قوله - سبحانه - : ﴿ واتل .. ﴾ لإبقاء الفعل لا لإيجاده ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

و « من » فى قوله ﴿ من كتاب ربك ﴾ بيانية .

وقوله : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أى : ليس فى هذا الكون أحد فى إمكانه أن يغير أو يبدل شيئا من الكلمات التى أوحاها الله - تعالى - إليك - أيها الرسول الكريم - ، لأننا قد تكفلنا بحفظ هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك .

قال - تعالى - : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[3] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١١٤ .
(٢) سورة فاطر الآية ٢٩ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

وقال - سبحانه - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

فالجملة الكريمة وهى قوله - سبحانه - ﴿ لامبدل لكلماته ﴾ نفت قدرة أحد على تبديل كلمات الله ، لأن أخبارها صدق ، وأحكامها عدل ، وإنما الذى يقدر على التغيير والتبديل هو الله - تعالى - وحده .

والضمير فى « كلماته » يعود على الله - تعالى - ، أو على الكتاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ .

وأصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو افتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا .. ﴾ أى : يميلون فى آياتنا .

فالمراد بالملتحد : المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ للنجاة .

والمعنى : وداوم أيها الرسول الكريم على تلاوة ما أوحيناه إليك من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واعلم أنك إن خالفت ذلك لن تجد غير الله - تعالى - ملجأ تلجأ إليه ، أو مأوى تأوى إليه ، لكى تنجو مما يريده بك .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير الشديد - فى شخص الرسول - ﷺ - لكل من يقصر فى تلاوة كتاب الله ، أو يحاول التبديل فى ألفاظه ومعانيه .

ثم ساقت السورة الكريمة لونا من الأدب السامى ، والتوجيه العالى ، حيث بينت أن أولى الناس بالرعاية والمجالسة هم المؤمنون الصادقون ، وأمرت النبى - ﷺ - بأن يصبر نفسه معهم ، فقال - تعالى - : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .. ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى أشراف قريش ، حين طلبوا من النبى - ﷺ - أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وان مسعود . وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله - تعالى - عن ذلك .. وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء الفقراء فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ .[2]

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٨ .

وصبر النفس معناه : حبسها وتثبيتها على الشيء ، يقال : صبرَت فُلانا أَصْبِرُه صَبْرا ، أى : حبسته .

والغداة : أول النهار . والعشى . آخرهْ .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك ﴿ الذين يدعون ربهم ﴾ أى : يعبدونه ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات ، فى الصباح والمساء ، ويداومون على ذلك ، دون أن يريدوا شيئا من وراء هذه العبادة ، سوى رضا الله - تعالى - عنهم ورحمته بهم .

وفى تخصيص الغداة والعشى بالذكر : إشعار بفضل العبادة فيهما : لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية غالبا .

ويصح أن يكون ذكر هذين الوقتين المقصود به مداومة العبادة . وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله : قوله : ﴿ يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ أى : يعبدونه دائما . وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام . وهى نظير قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن . يريدون به ضرب جميع البدن . وأبقى غير واحد اللفظين على ظاهرهما أى : يعبدونه فى طرفى النهار[1] .

وقوله : ﴿ يريدون وجهه ﴾ مدح لهم بالإخلاص والبعد عن الرياء والمباهاة .. فهم لا يتقربون إلى الله - تعالى - بالطاعات من أجل دنيا يصيبونها . أو من أجل إرضاء الناس .

وإنما هم يبتغون بعبادتهم رضا الله - تعالى - وحده ، لا شيئا آخر من حظوظ الدنيا .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .. ﴾ نهى له صلى الله عليه وسلم - عن الغفلة عنهم ، بعد أمره بحبس نفسه عليهم .

والفعل ﴿ تَعْدُ ﴾ بمعنى تصرف . يقال عداه عن الأمر عدوا إذا صرفه عنه وشغله .

أى : احبس نفسك مع هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه - سبحانه - ولا تصرف عيناك النظر عنهم ، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ، طمعا فى إسلامهم .

فالمراد بإرادة الحياة الدنيا الحرص على مجالسة أهل الغنى والجاه حبا فى إيمانهم .

وجملة ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ فى موضع الحال من الضمير المضاف إليه فى قوله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٦٢ .

﴿ عيناك ﴾ ، وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه .

وقوله - تعالى - ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ نهى آخر مؤكد لما قبله من حبس نفسه - ﷺ - على هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وعدم صرف نظره عنهم إلى غيرهم من المتغطرسين الأغنياء .

والفرط - بضم الفاء والراء - : مجاوزة الحد ، ونبذ الحق والصواب ، واتباع الباطل والضلال . أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - فى تنحية المؤمنين الفقراء عن مجلسك أقوال أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا لاستحواذ الشيطان عليها ، والذين اتبعوا أهواءهم فآثروا الغى على الرشد . والذين كان أمرهم . فرطا أى : مخالفا للحق ، ومجاوزاً للصواب ، ومؤديا للضياع والخسران .

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ فرطا ﴾ : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال معناه : ضياعا وهلاكا . من قولهم : أفرط فلان فى هذا الأمر إفراطاً ، إذا أسرف فيه . وتجاوز قدره . وكذلك قوله : ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ . معناه : وكان أمر هذا الذى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فى الرياء والكبر واحتقار أهل الإيمان سرفا قد تجاوز حده ، فضيع بذلك الحق وهلك »[1] .

فالآية الكريمة تسوق للناس توجيهاً حكيما فى بيان القيم الحقيقية للناس ؛ وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى ، لا فى الغنى والجاه .

فالمؤمن الصادق فى إيمانه ، الكريم فى أخلاقه .. هو الذى يحرص على مخالطة أهل الإيمان والتقوى . ولا يمنعه فقرهم من مجالستهم ومصاحبتهم ومؤانستهم والتواضع لهم ، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم .

ولقد ربى النبى - ﷺ - أصحابه على هذا الخلق الكريم ، روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال : مر رجل على النبى - ﷺ - فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حرىٌّ إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع . فسكت رسول الله - ﷺ - ثم مرّ رجل آخر : فقال له - ﷺ - : « ما رأيك فى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٥٦ .

هذا » ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا والله حرى إن خطب أن لا يزوج ، وإن شفع ان لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال : رسول الله - ﷺ - : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يجهر بكلمة الحق فى وجوه المستكبرين ، فقال . ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. ﴾ .

أى : وقل : أيها الرسول - لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا ، واتبعوا أهواءهم ، وكان أمرهم فرطا ، قل لهم : هذا الذى جئتكم به من قرآن هو الحق من ربكم وخالقكم .. فقوله : ﴿ الحق من ربكم ﴾ خبر لمبتدأ محذوف .

أو أن لفظ ﴿ الحق ﴾ مبتدأ ، والجار والمجرور خبره . أى : الحق الذى جئتكم به فى هذا القرآن العظيم ، كائن مبدؤه من ربكم ، وليس من أحد سواه .

وليس المراد من قوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ التخيير بين الايمان والكفر ، بل المراد به التهديد والتخويف ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا ﴾ .. إلخ .

أى : قل لهم جئتكم من ربكم بالحق الذى يجب اتباعه ، فمن شاء أن يؤمن به فليفعل فإن عاقبته الخير والثواب ، ومن شاء أن يكفر به فليكفر فإن عاقبته الخسران والعقاب ، كما بين - سبحانه - ذلك فى قوله : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ﴾ .

والسرادق : كل ما أحاط بغيره ، كالحائط أو السور الذى يحيط بالبناء ، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله .

أى : إنا هيأنا وأعددنا للكافرين بهذا الحق نارا مهولة عظيمة ، أحاط بهم سياجها إحاطة تامة ؛ بحيث لا يستطيعون الخروج منه ، وإنما هم محصورون بداخله . كما ينحصر الشيء بداخل ما يحدق به من كل جانب .

وقوله : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرتفقا ﴾ بيان لما ينزل بهم من عذاب عندما يطلبون الغوث مما هم فيه من كروب .
والمهل فى اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض . كالحديد ، والرصاص ،

---

(١) رياض الصالحين للامام النووى ص ١٣١ باب فضل ضعفة المسلمين .

والنحاس ، ونحو ذلك كما يطلق - أيضا - على الماء الغليظ كدردى الزيت أى : ما تعكر منه . وقيل . هو نوع من القطران أو السم .

والمرتفق : المتكأ ، من الارتفاق وهو الاتكاء على مرفق اليد .

أى : إن هؤلاء الكافرين ، إن يطلبوا الغوث عما هم فيه من كرب وعطش ، يغاثوا بماء كالمهل فى شدة حرارته ونتنه وسواده ، هذا الماء ﴿ يشوى الوجوه ﴾ أى : يحرقها .

﴿ بئس الشراب ﴾ ذلك الماء الذى يغاثون به « وساءت » النار منزلا ينزلون به ، ومتكأ يتكئون عليه .

فالآية الكريمة تصور ما ينزل بهؤلاء الظالمين من عذاب ، تصويرا ترتجف من هوله الأبدان ، ويدخل الرعب والفزع على النفوس .

قال بعضهم : فإن قيل ، أى إغاثة لهم فى ماء كالمهل مع انه من أشد العذاب ، وكيف قال - سبحانه - ، ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ ؟

فالجواب : إن هذا من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ونظيره من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب .

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أى : لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع ، وإذا كان هؤلاء الظالمون لا يغاثون إلا بماء كالمهل ، علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم مطلقا »[1] .

والمخصوص بالذم فى قوله : ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ محذوف ، بئس الشراب ذلك الماء الذى يغاثون به ، وساءت النار مكانا للارتفاق والاتكاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم فقال : ﴿ أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ .

ولفظ « عدن » بمعنى إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول . وأصله من عدن فلان بالمكان . إذ أقام به واستقر فيه .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٩٦ .

أى : أولئك الذين عمروا دنياهم بالإيمان والعمل الصالح لهم جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، تجرى من تحت مساكنهم الأنهار .

﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ والأساور : جمع سوار . وهو نوع من الحلى يلبس بزند اليد .

أى : يلبسون فى تلك الجنات أساور من ذهب على سبيل التزين والتكريم .

ولا مانع من أن يضاف إلى هذه الأساور الذهبية ، أساور أخرى من فضة ، وثالثة من لؤلؤ كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا .. ﴾[2] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول - ﷺ - قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

وقوله ﴿ ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ﴾ معطوف على ما قبله .

والسندس : مارق من الحرير واحده سندسة .

والاستبرق : ما غلظ منه وثخن ، واحده إستبرقة .

أى : يتزينون فى الجنات بأساور من ذهب ، ويلبسون فيها ثيابا خضرا من رقيق الحرير ومن غليظه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ .

والأرائك : جمع أريكة . وهو كل ما يتكأ عليه من سرير أو فراش .

أى : متكئين فى الجنات على الأرائك شأن المتنعمين المترفهين « نعم الثواب » ذلك الذى وعدهم الله - تعالى - به وهو الجنة « وحسنت » تلك الأرائك فى الجنات « مرتفقا » .

أى : متكأ ومقرا ومجلسا ومسكنا .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم والثواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح .

---

(١) سورة الدهر الآية ٢١ .

(٢) سورة الحج الآية ٢٣ .

فقد بشرهم - سبحانه - بجنات عدن ، ثم بشرهم ثانيا بأن الأنهار تجرى من تحتهم ، ثم بشرهم ثالثا بأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ، ثم بشرهم رابعا بأنهم يلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، ثم بشرهم خامساً ، بأنهم يتكئون فى تلك الجنات على الأرائك .

وفى هذه البشارات ما فيها من الحض على المسارعة إلى العمل الصالح ، الذى يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا هذا الفضل ، فهو أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

ثم ساقت السورة الكريمة مثلا للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله ... وللنفس الإنسانية المتواضعة ، المعتزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ... لكى يكون فى هذا المثل عبرة وعظة لمن كان له قلب ، فقال - تعالى - :

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

والمثل فى اللغة : الشبيه والنظير ، وهو فى عرف القرآن الكريم : الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إيراده ، وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه من التأثير فى نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

قال الآلوسى : والمراد بالرجلين : إما رجلان مقدران على ماقيل ، وضرب المثل لا يقتضى وجودهما . وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه . فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما : كافر .. والآخر : مؤمن .

ثم قال : والمراد ضربها مثلا للفريقين المؤمنين والكافرين ، لا من حيث أحوالها المستفادة مما ذكر آنفا ، بل من أن للمؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر »[1] .

أى : واضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين : ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وهو الكافر ﴿ جنتين ﴾ أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه - مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض .

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنتان من خيرات فقال : ﴿ من أعناب ﴾ جمع عِنَب ، والعنبة الحبة منه . والمراد : من كروم متنوعة .

وقوله : ﴿ وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ﴾ بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة .

والحف بالشىء : الإحاطة به . يقال : فلان حفه القوم ، أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ... ﴾ .

أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعا وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه ، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويفيد الناس .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنتين ، ومن غزارة خيرهما فقال : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ وكلتا : اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين ، وهو المذهب المشهور ، ومثنى لفظا ومعنى عند غيرهم .

أى : أن كل واحدة من الجنتين ﴿ آتت أكلها ﴾ أى : أعطت ثمارهما التى يأكلها الناس

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٧٣ .

من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ﴿ ولم تظلم منه شيئا ﴾ أى ولم تنقص من هذا المأكول شيئا فى سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منها وافيا كثيرا فى كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين ، فإنها فى الغالب تكثر ثمارها فى أحد الأعوام وتقل فى عام اخر .

وفى التعبير بكلمة ﴿ تظلم ﴾ بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبها الذى ظلم نفسه بجحوده لنعم الله - تعالى - واستكباره فى الأرض .

وقوله ﴿ وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ أى : وشققنا فى وسطْهما نهرا ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتهما ، واشتمالهما على ما يزيدهما بهجة ومنفعة .

ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال أخرى غيرهما فقال : ﴿ وكان له ثمر ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وكان له ﴾ أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين « ثمر » أى أنواع أخرى من المال .. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى .. « ثُمُرٌ » بضم الثاء والميم ، وهو جمع ثمار - بكسر الثاء - .. أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما .. »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ حكاية لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطره .

والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر . يقال : تحاور القوم ، إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم . ويقال : كلمته فما أحار إلى جواباً ، أى : مارد جوابا .

والنفر : من ينفر - بضم الفاء - مع الرجل من قومه وعشيرته لقتال عدوه .

أى : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر : أنا أكثر منك مالا وأعز منك عشيرة وحشما وأعوانا .

وهذا شأن المطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها .. بطرا وفسادا فى الأرض .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٧٤ .

وما أصدق قول قتادة - رضى الله عنه - : « تلك - والله - أمنية الفاجر : كثرة المال وعزة النفر » ، ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد . حكاه القرآن فى قوله : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ .

أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به نحو جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلتُ : معناه ودخل ما هو جنته ، ماله جنة غيرها : يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعدها الله للمؤمنين ، فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما .

وقوله ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم ..[1] .

وقوله : ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ أى : قال هذا الكافر لصاحبه : ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدا .

يقال : باد الشىء يبِيدُ بَيْدا وبُيُودًا : إذا هلك وفنى .

ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أى : كائنة ومتحققة . فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته ، ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : ﴿ ولئن رددت إلى ربى ﴾ أى : والله لئن رددت إلى ربى على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى يا صاحبى بأن هناك بعثا وحسابا ﴿ لأجدن خيرا منها ﴾ أى : من هذه الجنة ﴿ منقلبا ﴾ أى : مرجعاً وعاقبه . اسم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشىء إلى غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ .

والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه ، - أولا - قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة ، ويراه - ثانيا - قد بنى حياته على الغرور والبطر ، واعتقاد الخلود لزينة الحياة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٤ .

الدنيا ، ويراه - ثالثاً - قد أنكر البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

ويراه - رابعا - قد توهم أن غناه فى الدنيا سيكون معه مثله فى الآخرة :

قال صاحب الكشاف : وأخبر عن نفسه بالشك فى بيدودة جنته ، لطول أمله ، واستيلاء الحرص عليه ، وتمادى غفلته ، واغتراره بالمهلة ، واطراحه النظر فى عواقب أمثاله ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به ، منادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل الفرض والتقدير - ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله .. »[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذى نطق بأفحش ، وأفجر الفجور ، فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة : يا هذا ﴿ أكفرت ﴾ بالله الذى « خلقك » بقدرته

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٤ .

« من تراب » . أى : خلق أباك الأول من تراب ، كما قال : سبحانه ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[1] .

﴿ ثم من نطفة ﴾ أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

﴿ ثم سواك رجلا ﴾ أى : ثم صيرك إنسانا كاملا ، ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة . كما قال - سبحانه - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أكفرت .. ﴾ للإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب ثم نطفة ، ثم تسويته إياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنتين قبل ذلك : ﴿ ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ . أنه كان مؤمنا ، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده فى إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى - لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف « ثم » فى الآية ، للاشارة إلى أطوار خلق الإنسان التى فصلها - سبحانه - فى آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[2] .

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين : ﴿ لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ﴾ .

أى : إن كنت أنت ياهذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولكنى أنا مؤمن ، أعترف له بالعبادة والطاعة وأقول : هو الله -

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٨ .
(٢) سورة المؤمنون الآيات من ١٣ - ١٤ .

تعالى - وحده ربى ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

وقوله - سبحانه - فى هذه الآية ﴿ لكنا ... ﴾ أصله : « لكن أنا » أى : لكن أنا أقول هو الله ربى . فحذفت همزة « أنا » وأدغمت نون « لكن » فى نون أنا بعد حذف الهمزة .

وجمهور القراء يقرءون فى الوصل « لكن » بدون ألف بعد النون المشددة وقرأ أبو عامر فى الوصل « لكنا » بالألف - أما فى حالة الوقف فقد اتفق الجميع على إثبات الألف .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ لكنا هو الله ربى ﴾ أصله : لكن أنا فحذفت الهمزة ، وألقيت حركتها على نون لكن ، فتلاقت النونان فكان الإدغام ، ونحوه قول القائل :

وترمينني بالطَّرف أى أنت مذنب وتقلينَنى ، لـكنَّ إيـاك لا أقْـلِى

أى : لكن أنا لا أقليك .

و « هو » ضمير الشأن : أى : والشأن أن الله ربى : والجملة خبر أنا . والراجع منها إليه ياء الضمير .

فإن قلت : هو استدراك لأى شىء ؟ قلت : لقوله « أكفرت .. » قال لأخيه أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب لكن عمرا حاضر »[1] .

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ... ﴾ .

قال الامام ابن كثير : هذا تحضيض وحث على ذلك . أى : هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك وقلت ﴿ ماشاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شىء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة . وقد روى فيه حديث مرفوع .. فعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١٥ ص ١٥٤ .

وقال الآلوسى : وقوله : « ما شاء الله ، أى : الأمر ماشاء الله ، أو ما شاء الله - تعالى - كائن ، على أن « ما » موصولة مرفوعة المحل . إما على أنها خبر مبتدأ محذوف . أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر .. وأيا كان فالمراد تحضيضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله - تعالى - إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها[١] .

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ .

أى : إن ترن - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شىء ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

﴿ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ أى : عذابا من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - إرساله عليها من المهلكات التى تذرها قاعا صفصفا .

قال صاحب الكشاف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب . أى : ويرسل عليها مقدارا قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها .

« فتصبح » بعد اخضرارها ونضارتها « صعيدا » أى : أرضا « زلقا » أى : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

والمراد أنها تصير عديمة النفع من كل شىء حتى من المشى عليها . يقال : مكان زَلَق ، أى : دَحْضٌ ، وهو فى الأصل مصدر زَلِقَتْ رجله تزِلق زلقا ، ومعناه : الزلل فى المشى لوحل ونحوه .

﴿ أو يصبح ماؤها غورا ﴾ أى : غائراً ذاهبا فى الأرض . فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل . يقال : غار الماء يغور غورا : أى : سفل فى الأرض وذهب فيها .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل ، لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الماء الغائر إلا الله - عز وجل - .

وإلى هنا نجد أن الرجل المؤمن قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بمنشئه ، وبما يوجهه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٢٧٩ .

وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعتز بعقيدته ، ويتجه إلى الله وحده الذى تعنو له الجباه ، ويرجو منه وحده ما هو خير من بساتين الدنيا وزينتها .

ثم يختتم - سبحانه - هذه القصة ببيان العاقبة السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المغرور صاحب الجنتين فيقول .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

أى : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه ، أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها . فصار يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق فى عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ معطوف على مقدر محذوف لدلالة السباق والسياق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه من جميع جوانبه لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسبان على بستان صاحبه الجاحد المغرور « وأحيط بثمره » بأن هلكت أمواله وثماره كلها .

وجاء الفعل « أحيط » مبنيا للمجهول ، للإشعار بأن فاعله متيقن وهو العذاب الذى أرسله الله - تعالى - أى : وأحاط العذاب بجنته .

وقوله : ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ تصوير بديع لما اعتراه من غم وهم وحسرة وندامة . وتقليب اليدين عبارة عن ضرب إحداهما على الأخرى ، أو أن يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا ، وأيًّا كان ففعله هذا كناية عن الحسرة الشديدة ، والندم العظيم .

« وهى » أى الجنة التى أنفق فيها ما أنفق ﴿ خاوية على عروشها ﴾ أى : ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والتهدم . يقال : خوى البيت إذا سقط . كما يطلق على الخلاء من الشىء . يقال : خوى بطن فلان من الطعام أى : خلا منه ، وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت .

والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه ، صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح . وجملة : « ويقول ياليتنى لم أشرك يربى أحدا » معطوفة على جملة « يقلب كفيه .. » .

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ، ويقول زيادة فى الحسرة والندامة : يا ليتنى اتبعت نصيحة صاحبى فلم أشرك مع ربى - سبحانه - أحدا فى العبادة أو الطاعة .

وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والعافية .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجيعة الرجل الجاحد فى جنته تصويرا واقعيا بديعا .

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويؤلمه . ان يعجز عن النطق فى أول وهلة . فإذا ما أفاق من دهشته بدأ فى النطق والكلام .

وهذا ما حدث من ذلك الرجل - كما صوره القرآن الكريم - فإنه عند ما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا .

فياله من تصوير بديع . يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال .

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ .

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المغرور بعد أن خوت جنته على عروشها ، عشيرة أو أعوان ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما القادر على ذلك هو الله - تعالى - وحده ،

وما كان هذا الرجل الذى جحد نعم ربه منتصرا لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فالآية الكريمة تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله - عز وجل - ، وعجز ذلك الرجل فى نفسه عن رد انتقام الله - تعالى - منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هنالك الولاية لله الحق .. ﴾ تقرير وتأكيد للآية السابقة . ولفظ هنالك ظرف مكان .

وكلمة « الولاية » قرأها الجمهور بفتح الواو ، بمعنى الموالاة والصلة والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة « الحق » بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية - أى الموالاة والصلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ الكافر عند ما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ فلما رأو بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾[1] .

ويجوز أن يكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى الموالاة لله - تعالى - وحده . فيوالى المؤمنين برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم . كما قال - سبحانه - ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[2] .

وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو عمرو والكسائى لفظ ﴿ الحق ﴾ بالرفع على أنه نعت للولاية .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام تكون الولاية الحق ، والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما قال - سبحانه - : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾[3] .

قال بعض العلماء : وقوله « هنالك » يرى بعضهم أنه متعلق بما بعده ، والوقف تام على قوله ﴿ وما كان منتصرا ﴾ .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف « هنالك » عامله ما بعده أى : الولاية كائنة لله هنالك .

---

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) سورة محمد الآية ١١ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢٦ .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل الذى هو « منتصرا » . أى : لم يكن انتصاره واقعا هنالك[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى : هو - عز وجل - خير إثابة وإعطاء لأوليائه ، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

وعاقبة الأمر : آخره ومايصير إليه منتهاه . و« ثوابا » و« عقبا » منصوبان على التمييز ، بعد صيغة التفضيل « خير » التى حذفت منها الهمزة تخفيفا لكثرة الاستعمال كما قال ابن مالك - رحمه الله - :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها الله - تعالى - مثلا للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صور عاقبة الجاحدين المغرورين ؛ وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تترتب على الإيمان والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يفضى إليها الكفر وسوء العمل ، كما بينت لنا أنّ المتفرد بالولاية والقدرة هو الله - عز وجل - فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه ولا عاقبة لأوليائه خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ .

ثم تنتقل السورة الكريمة من ضرب المثل الجزئى الشخصى ، إلى ضرب مثال آخر عام كلى ، فبينت أن الحياة الدنيا فى قصرها وذهاب زينتها .. كتلك الجنة التى أصبحت حطاما ، بعد اخضرارها وكثرة ثمرها ، كما بينت أن هناك زينة فانية ، وأن هنالك أعمالا صالحة باقية قال - تعالى - :

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ١٠٨ .

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا ، وقلة بقائها . والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين .. »[١] .

والمعنى . واذكر لهم – أيها الرسول الكريم – ما يشبه هذه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها ، ثم فى سرعة زوال هذا الحسن والنضارة ، لكى لا يركنوا إليها ، ولا يجعلوها أكبر همهم ، ومنتهى آمالهم .

وقوله : ﴿ كماء أنزلناه من السماء .. ﴾ بيان للمثل الذى شبه الله – تعالى – به الحياة الدنيا أى : مثلها فى ازدهارها ثم فى زوال هذا الازدهار ، كهيئة أو كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء ، فى الوقت الذى نريد إنزاله فيه .

﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ والاختلاط والخلط : امتزاج شيئين فأكثر بعضهما ببعض .

أى : كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط وامتزج بهذا الماء نبات الأرض ، فارتوى منه ، وصار قويا بهيجا يعجب الناظرين إليه .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ دون قوله : فاختلط بنبات الأرض إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء ، وإلى أنه السبب الأساسى فى ظهور هذا النبات ، وفى بلوغه قوته ونضارته .

وقوله : ﴿ فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسته وتفتته ، بعد اخضراره وشدته وحسنه .

قال القرطبى ما ملخصه : « هشيما » أى متكسرا متفتتا ، يعنى بانقطاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه ، والهشم ، كسر الشىء اليابس . والهشيم من النبات : اليابس المتكسر .. ورجل هشيم : ضعيف البدن .

و « تذروه الرياح » أى تفرقه وتنسفه .. يقال : ذرت الريح الشىء تذروه ذروا ، إذا طارت به وأذهبته »[٢] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٣٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٤١٣ .

أى : فأصبح النبات بعد اخضراره ، يابسا متفتتا ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به حيث شاءت وكيف شاءت .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد شبهت حال الدنيا فى حسنها وجمال رونقها ، ثم فى سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك ، بحال النبات الذى نزل عليه الماء فاخضر واستوى على سوقه ، ثم صار بعد ذلك يابسا متفتتا تذهب به الرياح حيث شاءت .

والتعبير بالفاء فى قوله - سبحانه - فاختلط . فأصبح .. يزيد الأسلوب القرآنى جمالا وبلاغة ، لأن فاء التعقيب هنا تدل على قصر المدة التى استمر فيها النبات نضرا جميلا ، ثم صار هشيما تذروه الرياح .

وهكذا الحياة تبدو للمتشبثين بها ، جميلة عزيزة ، ولكنها سرعان ما تفارقهم ويفارقونها ، حيث ينزل بهم الموت فيجعل آمالهم تحت التراب .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ، ﴿ وكان الله على كل شىء مقتدرا ﴾ أى : وكان الله - تعالى - وما زال - على كل شىء من الأشياء التى من جملتها الإنشاء والإفناء ؛ كامل القدرة ، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقد ذكر - سبحانه - ما يشبه هذه الآية فى سور كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - القيمة الحقيقية للمال وللبنين فقال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ .

والمال : اسم لكل ما يتموله الإنسان ويتملكه من النقود والعقار والحرث والأنعام .. إلخ والبنون : جمع ابن .

والزينة : مصدر . والمراد بها هنا ، ما فى الشىء من محاسن ترغب الإنسان فى حبه .

أى : المال والبنون زينة يتزين بها الانسان فى هذه الحياة الدنيا ، ويتباهى بها على غيره .

وإنما كانا كذلك ، لأن فى المال - كما يقول القرطبى - جمالا ونفعا ، وفى البنين قوة ودفعا .

---

(١) سورة يونس الآية ٢٤ .

قال الآلوسى : وتقديم المال على البنين - مع كونهم أعز منه عند أكثر الناس لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك .. ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بغير مال فهو فى أضيق حال .. »[1] .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - زينة ، بيان بديع . وتعبير دقيق لحقيقتهما ، فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس ، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح ، كما قال - تعالى - ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ولذا جاء التعقيب منه - سبحانه - بقوله : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ .

أى : المال والبنون زينة يتزين ويتفاخر بها كثير من الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فى عرف كثير منهم . فإن الأقوال الطيبة ، والأعمال الحسنة ، هى الباقيات الصالحات ، التى تبقى ثمارها للإنسان ، وتكون عند الله - تعالى - ﴿ خير ﴾ من الأموال والأولاد ، ثوابا وجزاء وأجرا ﴿ وخير أملا ﴾ حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله ويرجوه فى الدنيا من فوز بنعيم الجنة ، أما المال والبنون فكثيرا ما يكونان فتنة .

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الآثار فى تعيين المراد بالباقيات الصالحات فقال : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : والباقيات الصالحات : الصلوات الخمس .

وقال عطاء بن أبى رياح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ..[2] .

ويبدو لنا أن قوله - تعالى - : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ لفظ عام ، يشمل كل قول ، أو عمل يرضى الله - عز وجل - ويدخل فى ذلك دخولا أوليا : الصلوات الخمس وغيرها مما ذكره المفسرون من أقوال .

وسمى - سبحانه - ما يرضيه . من أقوال ، وأعمال بالباقيات الصالحات لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية ، بخلاف زينة الحياة الدنيا فإنها زائلة فانية .

قال الامام ابن جرير - رحمه الله - وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : هن جميع أعمال الخير .. لأن ذلك كله من الصالحات التى تبقى لصاحبها فى الآخرة ، وعليها يجازى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٨٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٥٧ .

ويثاب . وإن الله - عز وجل - لم يخصص من قوله ﴿ والباقيات الصالحات خير .. ﴾ بعضا دون بعض فى كتاب ، ولا بخبر عن رسوله الله - ﷺ -[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى تنفع فيه الباقيات الصالحات ، وليس الأموال ولا الأولاد ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

والظرف فى قوله : - تعالى - ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره : « اذكر » .

والمراد بتسيير الجبال : اقتلاعها من أماكنها ، وصيرورتها كالعهن المنفوش .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم نقتلع الجبال من أماكنها ، ونذهب بها حيث شئنا ، ونجعلها فى الجو كالسحاب ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ .

وكما قال - عز وجل - : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٦٧ .

وقوله : ﴿ وترى الأرض بارزة .. ﴾ بيان لحالة ثانية من أهوال يوم القيامة .

أى : وترى - أيها المخاطب - الأرض ظاهرة للأعين دون أن يسترها شىء من جبل ، أو شجر ، أو بنيان .

يقال : برز الشىء بروزا ، أى : خرج إلى البراز - بفتح الباء - أى : الفضاء وظهر بعد الخفاء .

قال - تعالى - : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة من أهوال يوم القيامة فقال : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ .

أى : وحشرنا الخلائق جميعا ، بأن جمعناهم فى المكان المحدد لجمعهم ، دون أن نترك منهم أحدا ، بل أخرجناهم جميعا من قبورهم لنحاسبهم على أعمالهم .

والفعل « نغادر » من المغادرة بمعنى الترك ، ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء والأمانة وسمى الغدير من الماء غديرا ، لأن السيل ذهب وتركه .

ثم تذكر السورة الكريمة حالة رابعة من أهوال يوم القيامة ، هى حالة العرض بعد حالة الجمع فتقول : ﴿ وعرضوا على ربك صفا ﴾ .

أى : وأحضروا جميعا إلى ربك مصفوفين فى صف واحد أو فى صفوف متعددة ، ليقضى فيهم - سبحانه - بقضائه العادل .

قال الآلوسى : أخرج ابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل ، أن النبى - ﷺ - قال : « إن الله - تعالى - ينادى يوم القيامة ، يا عبادى : أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين . وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين . أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم . فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وفى الحديث الصحيح : « يجمع الله - تعالى - الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعى وينفذهم البصر .. »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة .. ﴾ مقول لقول محذوف ، وجملة « كما خلقناكم » نعت لمصدر محذوف .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٨٩ .

والمعنى : ونقول لمنكرى البعث والحساب بعد عرضهم علينا على سبيل التوبيخ والتأنيب : لقد جئتمونا - أيها المكذبون - مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا إياكم أول مرة . أى حفاة عراة لا مال معكم ولا ولد .

وعبر - سبحانه - بالماضى فى قوله : ﴿ لقد جئتمونا .. ﴾ لتحقق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع بالفعل .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالانتقال من توبيخهم هذا إلى توبيخ أشد وأقسى فقال : ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ .

أى : بل زعمتم أيها المكذبون بالبعث - أن لن نجعل لكم زمانا أو مكانا نجازيكم فيه على أعمالكم ، وأنكرتم إنكاراً مصحوبا بقسم أننا لا نبعث من يموت .

قال - تعالى - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] .

ثم صور - سبحانه - أحوال المجرمين عندما يرون مصيرهم السىء فقال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ .

والمراد بالكتاب : جنسه ، فيشمل جميع الصحف التى كتبت فيها أعمال المكلفين فى دار الدنيا .

أى : وأحضرت صحائف أعمال العباد ، ووضعت فى ميزانهم « فترى » - أيها المخاطب - ، « المجرمين » كافة ، مشفقين ، خائفين ، مما فيه من جرائم وذنوب « ويقولون » على سبيل التفجع والتحسر عند معاينتهم لثقل ميزان سيئاتهم ، وخفة ميزان حسنائهم .

« يا ويلتنا » . والويلة : الهلاك وحلول الشر والقبح والحسرة ، وهو - أى لفظ الويلة - : مصدر لا فعل له من لفظه .

وهذا النداء على التشبيه بشخص يطلب إقباله .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٤ .
(٢) سورة النحل الآية ٣٨ .

أى : ويقولون بأسف وندامة وحسرة : يا هلاكنا أقبل فهذا أوان إقبالك .

ثم يقولون على سبيل التعجب والدهشة من دقة ما اشتمل عليه هذا الكتاب : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ ؟

أى : أى شىء ثبت لهذا الكتاب ، حيث نراه لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا ، وسجلها فى صحف أعمالنا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه . ونفاذ قدرته وكمال عدله ، فقال : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

أى : ووجدوا ما عملوه فى الدنيا حاضرا ومسطورا فى صحائف أعمالهم ، ولا يظلم ربك أحدا من العباد ، وإنما يجازى كل إنسان على حسب ما يستحقه من ثواب أو عقاب كما قال - سبحانه - : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾[1] .

وكما قال - عز وجل - : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[2] .

قال الإمام ابن كثير وقوله : ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ أى : فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعها ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يغفر ويصفح ويرحم ، ويعذب من يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى ، عن القاسم بن عبد الواحد المكى ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابرٍ بن عبد الله يقول : بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله - ﷺ - فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلى ، فسرت إليه شهرا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقنى واعتنقته ، فقلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله - ﷺ - فى القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : يحشر الله - عز وجل - الناس يوم القيامة ، عراة غُرْلاً بُهْماً ، أى : ليس معهم شىء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من

---

(١) سورة الأنبياء آية ٤٧ .

(٢) سورة النساء آية ٤٠ .

بَعْد ، كما يسمعه من قرُب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصه منه ، أى : حتى أمكنه من أخذ القصاص ، وهو أن يفعل به مثل فعله ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق ، حتى أقصه منه ، حتى اللطمة .

قال : قلنا : كيف وإنما نأتى الله - عز وجل - عراة غرلا بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات[1] .

وبعد أن وضح - سبحانه - من أهوال الحشر ما تخشع له النفوس ، وتهتز له القلوب ، أتبع ذلك بالنهى عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء ، وببيان جانب من المصير الأليم الذى ينتظر المجرمين وشركاءهم فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ﴾ . تذكير لبنى آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم وبين إبليس وذريته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٢ .

والمقصود بهذا التذكير تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخالفته ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[1] .

والملائكة : جمع ملك . وهم - كما وصفهم الله تعالى - : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[2] .

وآدم : اسم لأبى البشر ، قيل : إنه اسم عبرانى مشتق من أدمه بمعنى التراب .

والسجود لغة : التذلل والخضوع . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وإبليس اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمى . ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة .

والمعنى - واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، سجود تحية واحترام وتوقير ، لا سجود عبادة وطاعة لأن ذلك لا يكون إلا لله رب العالمين . فامتثلوا أمرنا وسجدوا جميعاً ، كما قال - تعالى - : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .

وجاء العطف فى قوله ﴿ فسجدوا ﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد ، استجابة لأمر خالقهم - عز وجل .

وقوله - تعالى - ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ بيان لموقف إبليس من أمر الله تعالى ، وهو أنه أبى واستكبر وامتنع عن السجود لآدم . وظاهر الآية يفيد أن سبب فسقه عن أمر ربه : كونه من الجن لا من الملائكة إذ من المقرر فى علم الأصول ؛ أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل ، كما فى قولهم ، سرق فقطعت يده .

والمعنى : امتثل الملائكة جميعاً أمرنا فسجدوا لآدم ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ؛ لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة « ففسق عن أمر ربه » أى . فخرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبنا .

وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة مأخوذ من قولهم : فسق الرطب فسوقا إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، فيقال للعاصى فاسق ، وللكافر فاسق .

---

(١) سورة فاطر الآية ٦ .

(٢) سورة التحريم الآية ٦ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والخلاف فى كون إبليس من الملائكة أولا مشهور عند أهل العلم .

وحجة من قال إنه ليس منهم أمران : أحدهما : عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذى ارتكبه إبليس ، فهم - كما قال الله عنهم : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ .

والثانى : أن الله - تعالى - صرح فى هذه الآية الكريمة بأنه كان من الجن ، والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآنى فى محل النزاع .

واحتج من قال بأنه منهم ، بما تكرر فى الآيات القرآنية من قوله : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ﴾ قالوا : فإخراجه بالاستثناء من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم ، والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص ومن المعلوم أن الأصل فى الاستثناء الاتصال لا الانقطاع .

قالوا : ولا حجة لمن خالفنا فى قوله - تعالى - ﴿ كان من الجن ﴾ ، لأن الجن قبيلة من الملائكة ، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم .

وأظهر الحجج فى المسألة . حجة من قال : إنه ليس من الملائكة ، لأن قوله - تعالى - ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ هو أظهر شىء فى الموضوع من نصوص الوحى ، والعلم عند الله - تعالى -[١] .

ومن المفسرين الذين يدل كلامهم على أن إبليس لم يكن من الملائكة . الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - قوله : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ أى : خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عائشة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة ، وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك فلهذا دخل فى خطابهم ، وعصى بالمخالفة .

ونبه - تعالى - هاهنا على أنه « من الجن » أى : « أنه خلق من نار .. »[٢] .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٣ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالإنكار والتوبيخ والتعجيب ممن يتبع خطوات إبليس وذريته فقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا ﴾ .

أى : أفبعد أن ظهر لكم - يا بنى آدم - ما ظهر من فسوق إبليس عن أمر ربه ، تتخذونه وذريته الذين نهجوا نهجه ، أولياء ، وأصفياء من دونى ، فتطيعونهم بدل أن تطيعونى ، والحال أن إبليس وذريته لكم عدو ؟

لاشك أن من يفعل ذلك منكم يكون قد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وآثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والفسوق على الإيمان !! .

فالجملة الكريمة تستبعد من كل عاقل ، أن يطيع إبليس وذريته ، بعد أن تبين له عداوتهم إياه ، وحرصهم على إيقاعه فى موارد الهلكة والسوء .

وقوله : ﴿ وذريته ﴾ يدل على أن لإبليس ذرية ، إلا أن الطريقة التى بواسطتها كانت له الذرية ، لم يرد بها نص صحيح يعتمد عليه ، لذا وجب تفويض علمها إلى - الله تعالى - .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة .. وعن قتادة أنه قال : إنه ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .

ثم قال الآلوسى : ولا يلزمنا أن نعلم كيفية ولادته ، فكثير من الأشياء مجهول الكيفية عندنا ، ونقول[٢] به .

وقوله - تعالى - : ﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾ حكم منه - سبحانه - بسوء التفكير والمصير على المتخذين إبليس وذريته أولياء من دونه - تعالى - وبئس فعل يفيد الذم ، والبدل : العوض عن الشىء .

أى بئس للظالمين ، الواضعين للشىء فى غير موضعه ، ما فعلوه من تركهم طاعة الله - تعالى - وأخذهم فى مقابل ذلك طاعة إبليس وذريته .

والمخصوص بالذم محذوف دل عليه المقام والتقدير : بئس البدل والعوض عن طاعة الله - تعالى - طاعة إبليس وذريته .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وعلى عجز وجهالة المعبودين من دونه ، فقال - تعالى - : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ .

---

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٢٩٥ .

والضمير فى قوله « ما أشهدتهم » يعود إلى إبليس وذريته ، والإشهاد : بمعنى الإحضار والإعلام .

أى : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، لأنى خلقتها دون أن أستعين فى خلقها بأحد ، أو لأنى خلقتها قبل خلقهم ، ﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ أى : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، لأنى لا أستعين بأحد حين أخلق ما أشاء ، ولا أستشير أحدا حين أقدر ما أشاء .

وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم أولياء وشركاء من دونى وأنا الخالق لكل شىء ، والقاهر فوق كل شىء ؟ .

فالجملة الكريمة استئناف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ، ولبيان عدم استحقاق إبليس وذريته للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان المواقع والصوارف التى تمنع وتصرف عن اتخاذهم أولياء ، من خباثة أصلهم ، وفسوقهم عن أمر ربهم .

وهذا المعنى الذى صرحت به الآية الكريمة من تفرد الله - تعالى - بالخلق والقدرة . قد جاء فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ مؤكد لما قبله من تفرده - سبحانه - بالخلق والقدرة والعلم .

والعضد - بفتح العين وضم الضاد - فى الأصل ، يطلق على العضد المعروف ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعار للمعين والناصر فيقال : فلان عضدى ، أى : نصيرى .

ومنه قوله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا فقدته أصابها العجز .

أى : وما كنت متخذ المضلين عن سبيلى أعوانا وأنصاراً فى شأن من شئونى ، وخص - سبحانه - المضلين بالذكر ، زيادة فى ذمهم وتوبيخهم ، وتقريعا لأمثالهم ، لأنه - عز وجل - ليس له أعوان ولا أنصار فيما يفعله لا من المضلين ولا من المهتدين .

ولم يقل - سبحانه - وماكنت متخذهم .. بالإضمار ، كما قال : ﴿ ما أشهدتهم ﴾ بل

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

أظهر فى مقام الإضمار ، لتسجيل الضلال عليهم ، حتى ينصرف عنهم كل عاقل ، وللتنبيه على أن الضالين المضلين لا تصح الاستعانة بهم .

ولقد حكى الله - تعالى - عن نبيه موسى - عليه السلام - براءته من المجرمين فقال : ﴿ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾[1] .

والظهير : الناصر والمعين لغيره .

ثم ساقت السورة الكريمة مشهدا من مشاهد القيامة - يكشف عن سوء المصير الذى ينتظر الشركاء وينتظر المجرمين . فقال - تعالى - : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ... ﴾ .

أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يقول الله - تعالى - للمجرمين والكافرين على سبيل التوبيخ والتقريع : أيها الكافرون ، نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم فى هذا الموقف العصيب « فدعوهم » أى : فأطاعوا أمر خالقهم ، ودعوا شركاءهم لكى يستغيثوا بهم « فلم يستجيبوا لهم » أى : فلم يجدوا منهم أدنى استجابة فضلا عن النفع أو العون .

وقوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقا ﴾ أى : وجعلنا بين الداعين والمدعوين مهلكا يشتركون فيه جميعا وهو جهنم .

فالموبق : اسم مكان من وبق وبوقا - كوثب وثوبا - أو وبق وبقا كفرح فرحا - إذا هلك . ويقال فلان أو بقته ذنوبه : أى أهلكته . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أى يهلكهن . ومنه الحديث الشريف : « كل يغدو فموبق نفسه » - أى مهلكها - ومنه أيضاً قوله - ﷺ - : « اجتنبوا السبع الموبقات » أى : المهلكات .

وقيل : الموبق اسم واد فى جهنم فرق الله به بينهم ، أى بين الداعين والمدعوين .

وقيل : كل حاجز بين شيئين فهو موبق .

قال ابن جرير - رحمه الله - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، القول الذى ذكرناه من أن الموبق بمعنى المهلك وذلك أن العرب تقول فى كلامها : قد أوبقت فلانا إذا أهلكته .. »[2] .

---

(١) سورة القصص الآية ١٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٧٢ .

ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين عندما يبصرون النار فقال : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ .

ورأى هنا بصرية . والظن بمعنى اليقين والعلم ، لأنهم أبصروا الحقائق ، وشاهدوا واقعهم الأليم مشاهدة لا لبس فيها ولا خفاء .

أى : وشاهد المجرمون بأعينهم النار ، فأيقنوا أنهم مخالطوها وواقعون فيها . بسبب سوء أعمالهم ، وانكشاف الحقائق أمامهم ، ولم يجدوا عنها مصرفا أى مكانا ينصرفون إليه ، ويعتصمون به ليتخذوه ملجأ لهم منها .

فالمصرف : اسم مكان للجهة التى ينصرف إليها الإنسان للنجاة من ضر أحاط به .

وعبر - سبحانه - عن رؤيتهم للنار بالفعل الماضى ، لتحقق الوقوع .

وقال - سبحانه - ﴿ ورأى المجرمون ﴾ فوضع المظهر موضع المضمر ، لتسجيل الإجرام عليهم ، ولزيادة الذم لهم .

وقد ذكر - سبحانه - هنا أن المجرمين يرون النار ، وذكر فى آية أخرى أنها تراهم - أيضا - قال - تعالى - : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا فسوق إبليس عن أمر ربه ، وحذرتنا من اتخاذه وليا ، ومن الانقياد لوسوسته وإغراءاته ، كما حكت لنا جانبا من أحوال المشركين وشركائهم ، وكيف أن الشركاء قد تخلوا عن عابديهم فى هذا اليوم العصيب ، بعد أن أحاطت النار بالجميع ، وأيقن المجرمون أنه لا فكاك لهم منها ، ولا نجاة لهم من لهيبها .

نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه أن ينجينا من هذا الموقف الرهيب .

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن ، فوصفته بأن الله - تعالى - قد أكثر فيه من ضرب الأمثال ، ونوعها لتشمل جميع الأحوال ، وبينت سنة الله - تعالى - فى الأمم السابقة ، كما بينت وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وسوء عاقبة المكذبين لهم ،ومظاهر رحمة الله - تعالى - بالناس .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

---

(١) سورة الفرقان الآية ١٢ .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ صرفنا ﴾ من التصريف بمعنى التنويع والتكرير .

والمثل : هو القول الغريب السائر فى الآفاق الذى يشبه مضربه مورده .

وقد أكثر القرآن من ضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب الأمر المعقول من الأمر المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة الحاضر .

والمعنى : ولقد كررنا ورددنا ونوعنا فى هذا القرآن من أجل هداية الناس ، ورعاية مصلحتهم ومنفعتهم ، من كل مثل من الأمثال التى تهدى النفوس ، وتشفى القلوب ، لعلهم

بذلك يسلكون طريق الحق ، ويتركون طريق الباطل .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، الشهادة من الله - تعالى - بأن هذا القرآن الذى أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - فيه من الأمثال الكثيرة المتنوعة النافعة ، ما يرشد الناس إلى طريق الحق والخير ، متى فتحوا قلوبهم له . وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه .

ومفعول « صرفنا » محذوف ، و « من » لا بتداء الغاية ، أى : ولقد صرفنا البينات والعبر والحكم فى هذا القرآن ، من أنواع ضرب المثل لمنفعة الناس ليهتدوا ويذكروا .

ثم بين - سبحانه - موقف الإنسان من هذه الأمثال فقال : ﴿ وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ﴾ .

والمراد بالانسان : الجنس ، ويدخل فيه الكافر والفاسق دخولا أوليا .

والجدل : الخصومة والمنازعة مع الغير فى مسألة من المسائل .

أى : وكان الانسان أكثر شىء مجادلة ومنازعة لغيره ، أى : أن جدله أكثر من جدل كل مجادل .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها ، كيلا يضلوا عن الحق .. ومع هذا البيان ، فالانسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب . عن الزهرى قال : أخبرنى على بن الحسين ، أن الحسين بن على أخبره ، أن على بن أبى طالب أخبره . أن رسول الله - ﷺ - طرق عليا وفاطمة ليلة فقال : « ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله .. فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلت ذلك ولم يرفع إلى بشىء ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : وكان الانسان أكثر شىء جدلا »[1] .

وفى التعبير عن الانسان فى هذه الجملة بأنه « شىء » وأنه « أكثر شىء جدلا » إشعار لهذا الإنسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه . وأن يشعر بأنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياته .. لا أن يجادل فيها بالباطل .

ومنهم من يرى أن المراد بالانسان هنا : الكافر ، أو شخص معين ، قيل : هو النضر بن الحارث ، وقيل : أبى بن خلف .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٧ .

لكن الظاهر أن المراد به العموم - كما أشرنا - ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا .

ثم حكى - سبحانه - الأسباب التى منعت بعض الناس من الإيمان فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم . إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ .

والمراد بالناس : كفار مكة ومن حذا حذوهم فى الشرك والضلال والمراد بسنة الأولين : ما أنزله - سبحانه - بالأمم السابقة من عذاب بسبب إصرارها على الكفر والجحود .

والمعنى : وما منع الكفار من الإيمان وقت أن جاءهم الهدى عن طريق نبيهم - ﷺ - ، ومن أن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ، إلا ماسبق فى علمنا ، من أنهم لا يؤمنون ، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين ، أى : سنتنانى إهلاكهم بعذاب الاستئصال بسبب إصرارهم على كفرهم .

ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف ، و « أن » وما بعدها فى قوله ﴿ إلا أن تأتيهم ﴾ فى تأويل فاعل الفعل « منع » .

والمعنى : وما منع الناس من الايمان والاستغفار وقت مجىء الهدى إليهم ، إلا طلب إتيان سنة الأولين ، كأن يقولوا - كما حكى الله - تعالى - عن بعضهم : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ .

فسنة الأولين أنهم طلبوا من أنبيائهم تعجيل العذاب ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وقوله : ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ بيان لعذاب آخر ينتظرونه .

وكلمة ﴿ قُبُلا ﴾ قرأها عاصم والكسائى وحمزة - بضم القاف والباء - على أنها جمع قبيل وهو النوع فيكون المعنى : أو يأتيهم العذاب على صنوف وأنواع مختلفة ، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضا .

وقرأها الباقون : ﴿ قِبَلا ﴾ - بكسر القاف وفتح الباء - بمعنى عيانا ومواجهة .

والمعنى : أو يأتيهم العذاب عيانا وجهارا ، وأصله من المقابلة ، لأن المتقابلين يعاين ويشاهد كل منهما الآخر .

وهى على القراءتين منصوبة على الحالية من العذاب .

فحاصل معنى الآية الكريمة أن هؤلاء الجاحدين لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا حين نزول العذاب الدنيوى بهم وهو ما اقتضته سنة الله - تعالى - فى أمثالهم ، أو حين نزول أصناف العذاب بهم فى الآخرة .

ثم بين - تعالى - وظيفة الرسل فقال : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ .

أى : تلك هى وظيفة الرسل الكرام الذين ترسلهم لهداية الناس وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فهم يبشرون المؤمنين بحسن العاقبة وجزيل الثواب ، وينذرون الفاسقين والكافرين بسوء العاقبة ، وشديد العقاب .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ بيان لموقف الكافرين من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .

ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة . ومفعوله محذوف .

والباطل : هو الشىء الزائل المضمحل الذى هو ضد الحق والعدل . والحق هو الشىء الثابت القويم الذى تؤيده شريعة الله - عز وجل - .

والدحض : الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام . فمعنى يدحضوا : يزيلوا ويبطلوا تقول العرب : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت .. ومنه قوله - تعالى - : ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ .

والمعنى : ويجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل ، ليزيلوا به الحق الذى جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه ، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون ، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال .

وقوله - تعالى - ﴿ واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾ معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين .

والمراد بآيات الله : تلك المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولا أم فعلا ، ويدخل فيها القرآن دخولا أوليا .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التى جاء بها الرسل كدليل على صدقهم ، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم . اتخذوا كل ذلك « هزوا » أى : اتخذوها محل سخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾ .

والاستفهام هنا للنفى والإنكار والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم . لقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ أن يفقهوه ﴾ .

والمراد بالنسيان : الترك والإهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب .

أى : ولا أحد أشد ظلما وبغيا . من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله - ﷺ - فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها . بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ .

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء والوقر الثقل والصمم . يقال فلان وقرت أذنه ، أى : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم .

أى : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها ، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمما وثقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

﴿ وإن تدعهم ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ إلى الهدى ﴾ والرشد فلن ، يستجيبوا لك ، ولن ﴿ يهتدوا إذا أبدا ﴾ إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، بسبب زيغ قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها .

والضمير فى قوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى ، إذ المراد منها القرآن الكريم .

وجات الضمائر فى أول الآية بالإفراد ، كما فى قوله ، ﴿ ذُكر ﴾ و ﴿ فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾ باعتبار لفظ « من » فى قوله « ومن أظلم » وجاءت بعد ذلك بالجمع كما فى قوله سبحانه - : ﴿ إنّا جعلنا على قلوبهم أكنة .. ﴾ باعتبار المعنى .

وهذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، قد أحسن الله له رزقا ﴾ .

فالضمير فى قوله : « يؤمن ويعمل ويدخله » جاء بصيغة الإفراد باعتبار لفظ « من » ، وفى قوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى « من » .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة رحمته ، وعظيم فضله فقال : ﴿ وربك

الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾ .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء . لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصى . لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه من كفر وآثام ، ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما .

وجملة « بل لهم موعد .. » معطوفه على مقدر ، فكأنه - سبحانه - قال : لكنه - سبحانه - لم يؤاخذهم ، بل جعل وقتا معينا لعذابهم ، لن يجدوا من دون هذا العذاب موئلا .

أى ملجأ يلتجئون إليه ، أو مكانا يعتصمون به .

فالموئل : اسم مكان . يقال : وَأَلَ فلان إلى مكان كذا يَئِل وَأْلاً .. إذا لجأ إليه ليعتصم به من ضر متوقع .

فالآية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وكرمه لا يعاجل الناس . بالعقاب ، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل يؤخرهم إلى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب ﴾[2] ثم بين - سبحانه - سننه فى الأمم الماضية فقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكم موعدا ﴾ .

واسم الاشارة « تلك » تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها ، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - .

والقرى : جمع قرية والمراد بها أهلها الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود .

أى : وتلك القرى الماضية التى أصر أهلها على الكفر والفسوق والعصيان أهلكناهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا ، بسبب هذا الكفر والظلم ،وجعلنا لوقت هلاكهم موعدا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥ .
(٢) سورة الرعد الآية ٦ .

ولفظ « تلك » مبتدأ ، والقرى صفة له أو عطف بيان ، وجملة ﴿ أهلكناهم ﴾ هى الخبر .

وقوله ﴿ لما ظلموا ﴾ بيان للأسباب التى أدت بهم إلى الهلاك والدمار ، أى : أهلكناهم بسبب وقوع الظلم منهم واستمرارهم عليه .

وجىء باسم الاشارة « تلك » للإشعار بإن أهل مكة يمرون على تلك القرى الظالمة المهلكة ، ويعرفون أماكنهم معرفة واضحة عند أسفارهم من مكة إلى بلاد الشام . قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ قرأ الجمهور ، لمهلكهم ، - بضم الميم وفتح اللام - على صيغة اسم المفعول ، وهو محتمل أن يكون مصدرا ميميا . أى : وجعلنا لإهلاكهم موعدا ويحتمل أن يكون اسم زمان ، أى : وجعلنا لزمان إهلاكهم موعدا .

وقرأ حفص عن عاصم « لمهلكهم » بفتح الميم وكسر اللام - فيكون اسم زمان ، وقرأ شعبة عن عاصم . لمهلكهم » - بفتح الميم واللام - فيكون مصدرا ميميا .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد وضحت أن القرآن الكريم قد نوع الله - تعالى - فيه الأمثال لقوم يعقلون ، كما بينت أن الإنسان مجبول على المجادلة والمخاصمة . وأن المشركين قد أصروا على شركهم بسبب انطماس بصائرهم . وزيغهم عن الحق ، وأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وظيفتهم البلاغ والتبشير والإنذار ، وأن عاقبة الجاحدين الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم هى النار وبئس القرار ، وأن الله - تعالى - يمهل الظالمين ولا يهملهم ، فهو كما قال - سبحانه - ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[2] .

* * *

ثم ساق - سبحانه - قصة فيها ما فيها من الأحكام والعظات ، ألا وهى قصة موسى - عليه السلام - مع عبد من عباد الله الصالحين ، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله - تعالى - فى هذه السورة ، وهى أن موسى - عليه السلام - ذهب إلى الخضر ليتعلم منه ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا فى نفسه إلا أنه يعين على ماهو المقصود فى القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة فى الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، فهو أن موسى مع كثرة علمه وعمله .. ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له .

وأما نفع هذه القصة فى قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : « إن أخبركم محمد - ﷺ - عن هذه القصة فهو نبى وإلا فلا ؛ وهذا ليس بشىء . لأنه لا يلزم من كونه نبيا أن يكون عالما بجميع القصص كما أن كون موسى نبيا لم يمنعه من الذهاب ليتعلم منه »[1] .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو أحد أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى يعقوب - عليه السلام - .

وفتاه : هو يوشع بن نون ، وسمى بذلك لأنه كان ملازما لموسى - عليه السلام - ويأخذ عنه العلم .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٤٣ .

وقوله : ﴿ لا أبرح ﴾ أى : لا أزال سائرا . ومنه قوله - تعالى - ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ . من برح الناقص .

قال الجمل : واسمها مستتر وجوبا ، وخبرها محذوف ، تقديره : لا أبرح سائرا ، وقوله ﴿ حتى أبلغ ﴾.. غاية لهذا المقدر . ويحتمل أنها تامة فلا تستدعى خبرا ، بمعنى : لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه حتى أبلغ .. »[1] .

﴿ ومجمع البحرين ﴾ : المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الآلوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان .. والبحران : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما : مما يلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما .. وقيل البحران : بحر الأردن وبحر القلزم .. »[2] .

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر . ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وعلى أية حال فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة »[3] .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لكى يعتبروا ويتعظوا وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، اصحبنى فى رحلتى هذه فإنى لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين ، فأجد فيه بغيتى ومقصدى ، « أو أمضى » فى سيرى « حقبا » أى : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والحقب - بضم الحاء والقاف - جمعه أحقاب ، وفى معناه : الحقبة - بكسر الحاء - وجمعها حقب - كسدرة وسدر - والحقبة - بضم الحاء - وجمعها : حقب كغرفة وغرف - قيل : مدتها ثمانون عاما . وقيل سبعون . وقيل : زمان من الدهر مبهم غير محدد .

والآية الكريمة تدل بأسلوبها البليغ ، على أن موسى - عليه السلام - كان مصمما على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة فى سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذى يقطعه فى سبيل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٢ .
(٢) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٣١٢ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٢٢٨٧ للأستاذ سيد قطب .

الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : « أو أمضى حقبا » .

وقد أشار الآلوسى - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : وكأن منشأ عزيمة موسى - عليه السلام - على ما ذكره مارواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب ، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعاتبه الله - تعالى - عليه ، إذ لم يرد العلم إليه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك .

وفى رواية أخرى عنه عن أبى - أيضا - عن رسول الله - ﷺ - أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أى رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له : « نعم فى عبادى من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه »[1] .

ثم تقص علينا السورة الكريمة ما حدث بعد ذلك فتقول : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما . فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فلما بلغا ﴾ وفى قوله ﴿ فاتخذ سبيله .. ﴾ هى الفصيحة .

والسرب : النفق الذى يكون تحت الأرض . أو القناة التى يدخل منها الماء إلى البستان لسقى الزرع .

والمعنى : وبعد أن قال موسى لفتاه ما قال ، أخذا فى السير إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا هذا المكان « نسيا حوتهما » أى : نسيا خبر حوتهما ونسيا تفقد أمره ، فحيى الحوت ، وسقط فى البحر ، واتخذ « سبيله » أى طريقه « فى البحر سربا » .

أى : واتخذ الحوت طريقه فى البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق فى الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى الرجل الصالح الذى هو أعلم منك يا موسى فى هذا المكان - فسارا حتى بلغا مجمع البحرين . وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣١٣ .

فاضطرب ، وكان فى مكتل مع يوشع ، وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت فى البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البناء المقوس كالقنطرة - لا يلتئم بعده ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ أى : مثل السرب فى الأرض[1] .

وقال الإمام البيضاوى : قوله « نسيا حوتهما » أى : نسى موسى أن يطلبه ويتعرف حاله ، ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر[2] .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أى : المكان الذى فيه مجمع البحرين .

« قال » موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون « آتنا غداءنا » أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت المشوى الذى معنا : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ أى : تعبا وإعياء .

واسم الإشارة « هذا » مشار به إلى سفرهما المتلبسان به .

قالوا : ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه - ﷺ - قال : « لم يجد موسى شيئا من التعب حتى جاوز المكان الذى أمر به »[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ﴾ حكاية لما رد به يوشع على موسى - عليه السلام - عندما طلب منه الغداء .

والاستفهام فى قوله ﴿ أرأيت ﴾ للتعجب مما حدث أمامه من شأن الحوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع ذلك نسى يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

أى : قال يوشع لموسى - عليه السلام - : تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت ، أرأيت مادهانى فى وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ، فإنى هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز فى البحر .

وقال ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ دون أن يذكر مجمع البحرين ، زيادة فى تحديد المكان

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧١ .
(٢) تفسير البيضاوى جـ ٢ ص ١٨ .
(٣) تفسير الآلوسى ، جـ ١٥ ص ٣١٧ .

وتعيينه . وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى طلبه منه موسى ، للإشعار بأن الغداء الذى طلبه موسى منه ، هو ذلك الحوت الذى فقداه .

وقوله ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ جملة معترضة جيء بها لبيان ما يجرى مجرى السبب فى وقوع النسيان منه .

وقوله ﴿ أن أذكره ﴾ بدل اشتمال من الهاء فى «أنسانيه » .

أى : وما أنسانى تذكيرك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذى يوسوس للانسان ، بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة .

وقوله ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ معطوف على قوله ﴿ فإنى نسيت الحوت ﴾ .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر فى الماء والماء من حوله كالقنطرة التى تنفذ منها الأشياء .

وعلى هذا تكون جملة ، « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » ، من بقية كلام يوشع للتعجب مما حدث من الحوت ، حيث عادت إليه الحياة بقدرة الله - تعالى - ، واتخذ طريقه فى البحر بتلك الصورة العجيبة .

وقيل : إن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - لبيان طرف آخر من أمر هذا الحوت العجيب ، بعد بيان أمره قبل ذلك بأنه اتخذ سبيله فى البحر سربا .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن سياق الآية يدل عليه ، لذا اكتفى به بعض المفسرين دون أن يشير إلى غيره .

قال الامام الرازى : قوله ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ فيه وجوه :

الأول : أن قوله ﴿ عجبا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، كأنه قيل : واتخذ سبيله فى البحر اتخاذا عجبا ، ووجه كونه عجبا ، انقلابه من المكتل وصيرورته حيا وإلقاء نفسه فى البحر .

الثانى : أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه - تعالى - جعل الماء عليه كالطاق وكالسراب .

الثالث : قيل إنه تم الكلام عند قوله ﴿ واتخذ سبيله فى البحر ﴾ ثم قال بعده : ﴿ عجبا ﴾ والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التى رآها ، ثم من نسيانه لها ..[1] .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٤٧ .

وهنا يحكى القرآن ما يدل على أن موسى - عليه السلام - قد أدرك أنه تجاوز المكان الذى حدده له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال : ﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذى ذكرته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى فقدنا فيه الحوت .

﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ أى : فرجعا من طريقهما الذى أتيا منه ، يتتبعان آثارهما لئلا يضلاعنه ، حتى انتهيا عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .

وقصصا : من القص بمعنى اتباع الأثر . يقال : قص فلان أثر فلان قصا وقصصا إذا تتبعه .

ثم حكى القرآن ما تم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ .

أى : وبعد أن عادا إلى مكان الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا « عبدا من عبادنا » الصالحين . والتنكير فى « عبدا » للتفخيم ، والإضافة فى « عبادنا » للتشريف والتكريم .

﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ أى : هذا العبد الصالح منحناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره .

وهذه الرحمة تشمل النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه - كنعمة الهداية والطاعة وغيرهما .

﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ أى : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علماً خاصاً ، لا يتيسر إلا لمن نريد تيسيره ومنحه له .

والمراد بهذا العبد : الخضر - عليه السلام - كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

ومن العلماء من يرى أنه كان نبيا ، ومنهم من يرى أنه كان عبدا صالحاً اختصه الله بلون معين من العلم اللدنى .

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء »[1] .

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس . وإلى ذلك ذهب الإمام

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣١٩ .

البخارى وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم .

ويرى آخرون أنه حى وسيموت فى آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التى يذكر فيها أنه حى كلها كذب ، ولا يصح فى ذلك حديث واحد . وهذه المسألة من المسائل التى فصل العلماء الحديث عنها . فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ، ما دار بين موسى والخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا « هل أتبعك » أى : هل تأذن لى فى مصاحبتك واتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه : شيئا أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ، وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت المراتب ،

---

(١) راجع ابن كثير جـ ٥ ص ١٧١ . والآلوسى جـ ١٥ ص ٣١٩ وأضواء البيان جـ ٤ ص ١٥٧ .

ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا اختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فقال : ﴿ قال إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتى »[2] .

وقوله : ﴿ وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ﴾ تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟

فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر ، وهو العلم بالشىء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك .

ولكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - : ﴿ ستجدنى - إن شاء الله - صابرا ، ولا أعصى لك أمرا ﴾ .

أى : قال موسى للخضر ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التى تكلفنى بها .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٤٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٨ .

وقدم موسى - عليه السلام - المشيئة ، أدبا مع خالقه - عز وجل - واستعانة به - سبحانه - على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال : ﴿ قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : يا موسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لا تعجبك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق . فلا تعترض عليها ، ولا تناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى ، حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بتلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أفسره لك .

قالوا : « وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر - موسى - ودأب لرأى العجب[1] » .

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه - سبحانه - بقوله :

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

وقوله : ﴿ فانطلقا ﴾ بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع بن نون ، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٨ .

ويرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ : أى أجر »[1] .

وقوله : ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ﴾ بيان لما فعله الخضر بالسفينة .

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها .. ﴾ . أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

﴿ لقد جئت شيئاً إِمْرا ﴾ ، والإِمْر : الداهية . وأصله كل شيء شديد كبير ، ومنه قولهم : إن القوم قد أَمِرُوا . أى : كثُروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا أَمْرٌ إِمْرٌ ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة . حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لا تعرف الحكمة من ورائها ؟

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : ﴿ لا تؤاخذنى ﴾ أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان . ﴿ ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ . أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

يقال : أرهق فلان فلانا . إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله مالا يطيقه .

والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق على الأمر ، فإن فى هذا التضييق ما يحول بينى وبين الانتفاع بعلمك .

وكأن موسى - عليه السلام - الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٣٥ .

المصاحبة .. كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الوقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر ... إلا أنه بعد أن شاهد مالا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله :

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾
۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

﴿ حتى إذا لقيا غلاما ﴾ فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه ﴿ فقتله ﴾ .

وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : ﴿ أقتلت نفسا زكية ﴾ أى : طاهرة بريئة من الذنوب ﴿ بغير نفس ﴾ .

أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها . أى : أن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .

﴿ لقد جئت ﴾ أيها الرجل « شيئا نكرا » أى : منكرا عظيما . يقال . نكر الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه ، فيقول له : ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ .

وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله : ﴿ ألم أقل إنك .. ﴾ بل يضيف لفظ لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ﴿ إن سألتك ﴾ أيها الصديق ﴿ عن شىء بعدها ﴾ أى : بعد هذه المرة الثانية ﴿ فلا تصاحبنى ﴾ أى : فلا تجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ، فإنك ﴿ قد بلغت من لدنى عذرا ﴾ أى : فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مراراً .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدلك على اعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

قال القرطبى : كان رسول الله - ﷺ - إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى .. ﴾[1] .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فتقول :

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما . حتى إذا أتيا أهل قرية قيل هى « أنطاكيه » ، وقيل : هى قرية بأرض الروم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٣ .

﴿ استطعما أهلها ﴾ والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ يشهد له .

أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

وقوله - تعالى - ﴿ فوجدا فيها جداراً بريد أن ينقض فأقامه ﴾ معطوف على ﴿ أتيا ﴾

أى : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها ﴿ فوجدا فيها جدارا ﴾ أى : بناء مرتفعا ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أى : ينهدم ويسقط ﴿ فأقامه ﴾ أى الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله ، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون .. ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم .. هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية !

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : ﴿ لو شئت لا تخذت عليه أجراً ﴾ .

أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به . وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ أى : هذا الذى قلته لى . يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك : ﴿ إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ﴾ وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتى لك ﴿ بتأويل ﴾ أى : بتفسير وبيان ما خفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تستطع عليها صبرا ، لأنك لم يكن عندك ما عندى من العلم بأسرارها الباطنة التى أطلعنى الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى عليهما السلام - فى هذا الشأن فقال - تعالى -

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

أى قال الخضر لموسى : ﴿ أما السفينة ﴾ التى خرقتها ولم ترض عنه ، ﴿ فكانت لمساكين يعملون فى البحر ﴾ أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناسّ يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به .

﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك : أنه ﴿ كان وراءهم ملك ﴾ ، ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة . كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين .

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الأمام . ويرى آخرون أن المراد به الخلف . وقال الزجاج : وراء : يكون للخلف والأمام . ومعناه : ما توارى عنك واستتر .

وظاهر قوله - تعالى - : ﴿ يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ ، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة . بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لكى لا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ « سفينة » هنا موصوف لصفة محذوفة . أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و « غصبا » ، منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . والغصب - من باب ضرب - : أخذ الشىء ظلما وقهرا .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال - تعالى - :

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

أى : ﴿ وأما الغلام ﴾ الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت على فى قتله يا موسى ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا .

﴿ فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ ، والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

و « يرهقهما » من الإرهاق وهو أن يُحَمِّل الإنسان ما لايطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه ﴾ والإبدال : رفع شىء . وإحلال آخر محله .

أى : « فأردنا » بقتله « أن يبدلهما ربهما » بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ولدا آخر « خيرا منه » أى من هذا الغلام ، زكاة « أى » طهارة وصلاحا « وأقرب رحما » أى : وأقرب فى الرحمة بهما . والعطف عليهما ، والطاعة لهما .

ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ
عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

أى : ﴿ وأما الجدار ﴾ الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .

﴿ فكان لغلامين يتيمين ﴾ مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ .

قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد مافيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح »[1] .

وكان تحته أى تحت هذا الجدار ﴿ كنز لهما ﴾ أى : مال مدفون من ذهب وفضة .. ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما .

﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

﴿ فأراد ربك ﴾ ومالك أمرك ؛ ومدير شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

﴿ أن يبلغا أشدهما ﴾ أى : كمال رشدهما ، وتمام نموهما وقوتهما .

ويستخرجا كنزهما من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

﴿ رحمة من ربك ﴾ أى : وما أراده ربك - ياموسى - بهذين الغلامين ، هو الرحمة التى ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعدها حكمة .

فقوله « رحمة » مفعول لأجله .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول : ﴿ وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾ .

أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأيى الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها .. كما أطلعنى .

وحذفت التاء من ﴿ تسطع ﴾ تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشىء واسطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢ .

وبذلك انكشف المستور لموسى عليه السلام - وظهر ما كان خافيا عليه .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر حديث واحد .

قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال . قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبى بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى : يارب ، وكيف لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم » .

فأخذ حوتا ، فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون . حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به .

قال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ . قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ .

قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى - أى مغطى - بثوب ، - فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام .

قال : أنا موسى : قال : موسى نبى إسرائيل قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا .

قال : إنك لن تستطيع معى صبرا .

يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمّكه الله لا أعلمه .

قال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال الخضر فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان ، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوه ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا فى السفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح لسفينة بالقدوم .

فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمرا .

قال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

قال : وقال رسول الله - ﷺ - ، كانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة . فنقر فى البحر نقرة . فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله - فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا .

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى .

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لا تخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا ﴾ .

فقال رسول الله - ﷺ - : وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »[1] .

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتى :

١ - أن الإنسان مهما أوتى من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لا يعجب بعلمه ، فالله - تعالى - يقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وطلب من نبيه - ﷺ - أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٢ طبعة دار الشعب .

٢ – أن الرحلة فى طلب العلم من صفات العقلاء . فموسى – عليه السلام – وهو من أولى العزم من الرسل ، تجشم المشاق والمتاعب لكى يلتقى بالرجل الصالح ؛ لينتفع بعلمه ، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله – تعالى – حكاية عنه : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ﴾ .

قال القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم . وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح : وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم أقدام . وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى طلب حديث[1] .

٣ – جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ورد عليه فتاه بقوله : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .. ﴾ .

وفى هذا الرد – أيضا – من الأدب ما فيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان ، وإن كان الكل بقضاء الله – تعالى – وقدره .

٤ – أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله .. بعد عون الله تعالى – له . وعلم لدنى يهبه الله – سبحانه – لمن يشاء من عباده فقد قال – تعالى – فى شأن الخضر ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ أى : علما خاصا أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية .

٥ – أن على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات وألطفها ، حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى فى قوله للخضر : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ﴾ فقد أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، فكأنه يقول له : هل تأذن لى فى ذلك أولا ، مع إقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١١ .

الكبر ، الذى لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه ..[١] .

٦ - أنه لا بأس على العالم ،إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم لا يطيق ذلك ، لجهله بالأسباب التى حملت العالم على فعل تلك الأمور التى ظاهرها يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر .

فقد قال الخضر لموسى : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ﴾ فقد جعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالأمر .

٧ - إن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشىء ليس بمنزلة فعله ، فقد قال موسى للخضر : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾ ومع ذلك فعندما رأى منه أفعالا يخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر .

وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلم أمورا معينة قبل أن يبدأ فى تعليمه .
فقد قال الخضر لموسى : ﴿ إن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ .

٨ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصبا ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر الذى سيترتب على بقائه . وهو إرهاقه لأبويه ، وحملهما على الكفر .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملا فى ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقا فى دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه . ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد خرق الخضر السفينة ، لكى تبقى لأصحابها المساكين .

٩ - أن التأنى فى الأحكام . والتثبت من الأمور ، ومحاولة معرفة العلل والأسباب ... كل ذلك يؤدى إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول والعمل .

وصدق رسول الله - ﷺ - حيث يقول : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب » .

١٠ - أن من دأب العقلاء الصالحين . استعمال الأدب مع الله - تعالى - فى التعبير ، فالخضر قد أضاف خرقه للسفينة إلى نفسه فقال : « فأردت أن أعيبها .. » وأضاف الخير الذى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان جـ ٥ ص ٢٣ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى .

فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ :

وشبيه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحى الجن فى قولهم : ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ .

١١ - قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أى : قرب أن يسقط . وهذا مجاز وتوسع .

وقد فسره فى الحديث بقوله « مائل » فكان فيه دليل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب الجمهور .

وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق إذا أسندت إلى جماد أو بهيمة ، فإنما هى استعارة .

أى : لو كان مكانها إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارهم كثير ، كقول الأعشى :

أتنتهون ولا يَنْهَى ذوى شطَط كالطّعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُل

والشطط : الجور والظلم ، يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن العميق الذى يغيب فيه الفتل - فأضاف النهى إلى الطعن .

وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن فإن كلام الله عز وجل - وكلام رسوله - ﷺ - حمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين ، لأنه يقص الحق كما أخبر الله - تعالى - فى كتابه ..[1] .

وقد صرح صاحب أضواء البيان أنه لا مجاز فى القرآن فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾ .

هذه الآية من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون : بأن المجاز فى القرآن ، زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هى مجاز .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من أن تكون إرادة الجدار حقيقة ، لأن الله - تعالى - يعلم للجمادات إرادات وأفعالا وأقوالا لا يدركها الخلق ، كما صرح - تعالى - بأنه يعلم من ذلك مالا يعلمه خلقه فى قوله - سبحانه - ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. ﴾ .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٥ .

فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم ، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها - سبحانه - ونحن لا نعلمها .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى - ﷺ - قال : « إنى لأعرف حجرا كان يسلم على بمكة » . وما ثبت فى صحيح البخارى من حنين الجذع الذى كان يخطب عليه - ﷺ - حزنا لفراقه .

فتسليم ذلك الحجر ، وحنين ذلك الجزع ، كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه ..[١] .

١٢ - أن صلاح الأباء ينفع الأبناء . بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

١٣ - أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التى حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : « هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا »[٢] أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك عن الأسباب التى حملتنى على فعل ما فعلت مما لم تستطع معه صبرا .

ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - فى غير معصية الله - تعالى - على رأس الأسباب التى تعين على دوام الصحبة وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ، وكثرة المخالفة ، تؤدى إلى المقاطعة .

كما يفهم من ذلك - أيضاً - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها الوصول إلى الحق ، وإلى المزيد من العلم ، وكانت بأسلوب مهذب ، وبنية طيبة ، لا تؤثر فى دوام المحبة والصداقة ، بل تزيدهما قوة وشدة .

نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

ثم ساق - سبحانه - قصة ذى القرنين ، وهى القصة الرابعة والأخيرة فى السورة فقد سبقتها قصة أصحاب الكهف . وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى والخضر .

---

(١) راجع أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن جـ ٤ ص ١٧٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٣ .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا بأسلوبه البليغ المؤثر خبر ذى القرنين فيقول :

وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين .. ﴾ معطوف على قصة موسى والخضر - عليهما السلام - عطف القصة على القصة .

قال البقاعى : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد فى سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين ..[1] .

والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف . أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه - أى الرسول - ﷺ - عن ثلاث نأمركم بهن .. سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من أمرهم .. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها .. وسلوه عن الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع - مع أن الآيات نزلت بعد سؤالهم - لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم استمروا فى لجاجهم إلى أن نزلت الآيات التى ترد عليهم .

أما ذو القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين اختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسى بقوله : وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى « بالآثار الباقية عن القرون الخالية » ، أن ذا القرنين هو أبو كريب الحميرى ، وهو الذى : افتخر به تبع اليمنى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى . كذى نواس ، وذى يزن . إلخ .[2] .

---

(١) نظم الدرر للبقاعى جـ ١٢ ص ١٢٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٧ .

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : ليس هو الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين . تلميذ أرسطو ، فإن الإسكندر هذا كان وثنيا .. بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .

ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام - ، ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن الكريم يهتم فى قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص .

وسمى بذى القرنين - على الراجح - لبلوغه فى فتوحاته قرنى الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

والمعنى : ويسألك قومك - يا محمد - عن خبر ذى القرنين وشأنه .

« قل » لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك . « سأتلو عليكم منه ذكرا » .

والضمير فى « منه » يعود على ذى القرنين و « من » للتبعيض .

أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره - وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : ﴿ إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا . فأتبع سببا ﴾ .

وقوله : « مكنا » من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة . والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شىء أراده فى دنياه لتقوية ملكه « سببا » أى سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران .

وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ، ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لا قيمة لها .

والفاء فى قوله ﴿ فأتبع سببا ﴾ فصيحة . أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أى حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

﴿ وجدها تغرب فى عين حمئة ﴾ أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هى فى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود . يقال : حمأَتِ البئر تَحمأُ حَمأً ، إذا صارت فيها الحمأَة وهى الطينة السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : « وجدها نغرب فى عين حامية » أى : حارة . اسم فاعل من حَمِى يَحْمَى حَمْياً .

﴿ ووجد عندها قوما ﴾ أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما .

الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر . فخيره الله - تعالى - فيهم فقال : ﴿ قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - له عن طريق الالهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : ياذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى الله - تعالى - عنه فى الجواب ما يدل على سلامة تفكيره ، فقال : ﴿ قال أما من ظلم .. ﴾ أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يارب : أما من ظلم نفسه بالإصرار على الكفر والفسوق والعصيان « فسوف نعذبه » فى هذه الدنيا بالقتل وما يشبهه . ثم يرد هذا الظالم نفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه فى الآخرة عذابا « نكرا » أى : عذابا فظيعا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

« وأما من آمن وعمل عملا صالحا » يقتضيه إيمانه « فله » فى الدارين « جزاء الحسنى » أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة .

« وسنقول له » أى لمن آمن وعمل صالحا « من أمرنا » أى مما نأمره به قولا « يسرا » لا صعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع فى حكمه الطريق القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .

إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس المنحرفة ، حتى تعود إلى رشدها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن .

وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون .. يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .

والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب .

وقوله : ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .

أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها .

﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .

﴿ وجدها ﴾ أى الشمس ﴿ تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملك مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله ﴿ وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كان شأن ذى القرنين . وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لايعزب عنه شىء ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات ... وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها .

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ... سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، آخذا فيه ﴿ حتى إذا بلغ ﴾ فى مسيره ذلك ﴿ بين السدين ﴾ أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجا من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلى المشرق :

﴿ وجد من دونهما ﴾ أى : من دون السدين ومن ورائهما ﴿ قوما ﴾ أى : أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - .

﴿ لا يكادون يفقهون قولا ﴾ أى : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولايعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

﴿ قالوا ﴾ أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : ﴿ ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم .

أى : قال هؤلاء القوم - الذين لا يكادون يفقهون قولا - لذى القرنين ، بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح .. ياذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله - ﷺ - من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق - بين أصابعه - قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث» .

وقوله - تعالى - ﴿ فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴾ حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .

والخَرْج : اسم لما يخرجه الإنسان من ماله لغيره . وقرأ حمزة والكسائى خراجا : وهما بمعنى واحد ، وقيل الخرجة : الجزية . والخراج : اسم لما يخرجه عن الأرض .

أى : فهل نجعل لك مقدارا كبيرا من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سدا يمنعهم من الوصول إلينا . ويحول بيننا وبينهم ؟

وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فيقول ﴿ قال ما مكنى فيه ربى خير ... ﴾ .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا : إن ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة .. خير من خرجكم ومالكم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفو إلى جانبى ﴿ فأعينونى ﴾ بسواعدكم وبآلات البناء ﴿ بقوة ﴾ أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى ﴿ أجعل بينكم ﴾ وبين يأجوج ومأجوج « ردما » .

أى : حاجزاً حصينا . وجدارا متينا ، يحول بينكم وبينهم .

والردم : الشيء الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق . يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع . وسحاب مردم ، أى : متكاثف بعضه فوق بعض . ويقال : ردمت الحفرة ، إذا وضعت فيها من الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾ جواب الأمر فى قوله : ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ .

ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : ﴿ آتونى زبر الحديد .. ﴾ .

والزبرَ - كالغُرَف - جمع زُبرة - كغرفة - وهى القطعة الكبيرة من الحديد وأصل الزبر . الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أى بين جانبى الجبلين . وسمى كل واحد من الجانبين صدفا . لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل : أى : قابلته ولا قيته ، ولذا لا يقال للمفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة كالشفع والزوج .

وقوله : ﴿ قال انفخوا ﴾ أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .

وقوله : ﴿ حتى إذا جعله نارا ﴾ أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى احمرارها وشدة توهجها ﴿ قال آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ أى : نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا

حتى إذا ساوى بين جانبى الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد . وبناه لهم بطريقة محكمة سليمة ، اهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا ﴾ .

أى : فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا - أيضاً - أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانته .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله - تعالى - ، والعجز أمام قدرته - عز وجل - شأن الحكام الصادقين فى إيمانهم ، الشاكرين لخالقهم توفيقه إياهم لكل خير .

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه .. : ﴿ هذا رحمة من ربى ﴾ .

أى : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من آثار رحمة ربى التى وسعت كل شيء .

﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾ الذى حدده لفناء هذه الدنيا ونهايتها ، أو الذى حدده لخروجهم منه ﴿ جعله دكاء ﴾ أى : جعل هذا السد أرضا مستوية ، وصيره مدكوكا أى : بمساواة الأرض . ومنه قولهم : ناقة دكاء أى : لاسنام لها .

﴿ وكان وعد ربى حقا ﴾ أى : وكان كل ما وعد الله - تعالى - به عباده من ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الدروس والعبر والعظات ، التى من أبرزها . أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده . وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين الصادقين ، وأن الحاكم العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ، والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة

وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله - تعالى - . وان لا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى الله - تعالى - وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمداً له - تعالى - كلما زادهم من فضله ، وما أجمل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله - تعالى - : ﴿ قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا﴾ .

* * *

ثم تسوق السورة الكريمة بعد قصة ذى القرنين آيات تذكر الناس بأهوال يوم القيامة ، لعلهم يتوبون ويتذكرون .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور ذلك فتقول :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

وقوله : ﴿ وتركنا ﴾ بمعنى جعلنا وصيرنا ، والضمير المضاف فى قوله « بعضهم » يعود إلى يأجوج ومأجوج ، والمراد « بيومئذ » : يوم تمام بناء السد الذى بناه ذو القرنين .

وقوله - سبحانه - ﴿ يموج ﴾ من الموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال : ماج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط . ويقال : ماج القوم إذا اختلط بعضهم ببعض وتزاحموا حائرين فزعين .

والمعنى وجعلنا وصيرنا بمقتضى حكمتنا وإرادتنا وقدرتنا ، قبائل يأجوج ومأجوج يموج

بعضهم فى بعض . أى : يتزاحمون ويضطربون من شدة الحيرة لأنهم بعد بناء السد ، صاروا لا يجدون مكانا ينفذون منه إلى ما يريدون النفاذ إليه ، فهم خلفه فى اضطراب وهرج .

ويجوز أن يكون المراد بيومئذ : يوم مجىء الوعد بخروجهم وانتشارهم فى الأرض ، وهذا الوعد قد صرحت به الآية السابقة فى قوله - تعالى - ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾ .

فيكون المعنى : وتركنا قبائل يأجوج ومأجوج ، يوم جاء وعد الله بجعل السد مدكوكا ومتساويا مع الأرض ، يموج بعضهم فى بعض ، بعد أن خرجوا منتشرين فى الأرض ، وقد تزاحموا وتكاثروا واختلط بعضهم ببعض .

قال الفخر الرازى : اعلم أن الضمير فى قوله « بعضهم » يعود إلى يأجوج ومأجوج . وقوله : (يومئذ) فيه وجوه :

الأول : أن يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج .

الثانى : أنه عند الخروج يموج بعضهم فى بعض . قيل : إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين فى البلاد .

الثالث : أن المراد من قوله (يومئذ) يوم القيامة .

وكل ذلك محتمل ، إلا أن الأقرب أن المراد به : الوقت الذى جعل الله فيه السد دكا فعنده ماج بعضهم ونفخ فى الصور ، وصار ذلك من آيات القيامة »[١] .

وقال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ﴾ الضمير فى ﴿ تركنا ﴾ لله - تعالى - أى : تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أى : يوم كمال السد يموج بعضهم فى بعض ، واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السدِّ يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم . فهذه أقوال ثلاثة : أظهرها أوسطها وأبعدها آخرها . وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة فى تأويل قوله - تعالى - ﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾ بيان لعلامة من علامات قيام الساعة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٦٥ .

والنفخ لغة : إخراج النفس من الفم لإحداث صوت معين . والصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - نفخة الصعق والموت ، ونفخة البعث والنشور ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[١] .

والمعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض . وأمرنا إسرافيل بالنفخ فى الصور ، فجمعناهم وجميع الخلائق جمعا تاما ، دون أن نترك أحدا من الخلائق بدون إعادة إلى الحياة ، بل الكل مجموعون ليوم عظيم هو يوم البعث والحساب .

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التى يقوم الناس بعدها من قبورهم للحساب ، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الزمر السابقة .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فجمعناهم جمعا ﴾ . أى : جمعناهم جمعا تاما كاملا لا يشذ عنه أحد ، ولا يفلت منه مخلوق ، كما قال - سبحانه - : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون . إلى ميقات يوم معلوم ﴾ .

هذا ، وهنا مسألة تكلم عنها العلماء ، وهى وقت خروج يأجوج ومأجوج .

فمنهم من يرى أنه لا مانع من أن يكونوا قد خرجوا ، بدليل ما جاء فى الحديث الصحيح من أن الرسول - ﷺ - قال : ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق أى بين أصابعه .

ولأن الآيات الكريمة تقول : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء .. ﴾ ووعد الله لا مانع من أن يكون قد أتى .

قال الشيخ القاسمى : والغالب أن المراد بخروجهم هذا خروج المغول التتار . وهم من نسل يأجوج ومأجوج - وهو الغزو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرى . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض من فساد .. »[٢] .

وقال الشيخ المراغى عند تفسير قوله - تعالى - : ﴿ وكان وعد ربى حقا ﴾ وقد جاء وعده - تعالى - بخروج جنكيز خان وسلائله فعاثوا فى الأرض فساداً .. وأزالوا معالم الخلافة من بغداد ..[٣] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١١ ص ١٤١٤ .
(٣) تفسير المراغى جـ ١٦ ص ٢٠ .

وقال صاحب الظلال : « وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن ، وفى بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾ .

وهذا النص لا يحدد زمانا ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا فى الأرض . ودمروا الممالك تدميرا .

وفى موضع آخر من سورة الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ﴾ .

وهذا النص - أيضاً - لا يحدد زمانا معينا لخروجهم ، فاقتراب الوعد الحق ، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - ﷺ - فقد جاء فى القرآن : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون .

وإذا فمن الجائز أن يكون السد قد فتح ما بين : « اقتربت الساعة » ، ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق ، هى انسياح يأجوج ومأجوج .. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين[1] .

هذه بعض حجج القائلين بأنه لا مانع من أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا .

وهناك فريق آخر من العلماء ، يرون أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خروجهم إنما يكون قرب قيام الساعة .

ومن العلماء الذين أيدوا ذلك صاحب أضواء البيان ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه :

اعلم أن هذه الآية : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ﴾ وآية الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قد دلتا فى الجملة على أن السد الذى بناه ذو القرنين ، دون يأجوج ومأجوج ، إنما يجعله الله دكا عند مجىء الوقت الموعود بذلك فيه . وقد دلتا على أنه بقرب يوم

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٦ ص ٢٢٩٣ .

القيامة .. لأن المراد بيومئذ فى قوله ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض﴾ أنه يوم مجىء وعد ربى بخروجهم وانتشارهم فى الأرض .

وآية الأنبياء تدل فى الجملة على ما ذكرنا هنا . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم « روسيا » وأن السد فتح منذ زمن طويل .

والاقتراب الذى جاء فى قوله - تعالى - ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وفى الحديث : « ويل للعرب من شر قد اقترب » لا يستلزم اقترانه من دك السد ، بل يصح اقترابه مع مهلة .

وهذه الآيات لا يتم الاستدلال بها على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد - إلا بضميمة الأحاديث النبوية لها .

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى ذلك ، وفيه : خروج الدجال وبعث عيسى ، وقتله للدجال .. ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .

فينحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور .. ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج النغف فى رقابهم فيموتون .

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبى - ﷺ - بأن ا لله يوحى إلى عيسى ابن مريم بخروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال فمن يدعى أنهم « روسيا » وأن السد قد اندك منذ زمان ، فهو مخالف لما أخبر به النبى - ﷺ - مخالفة صريحة لا وجه لها ، ولا شك أن كل خبر يخالف الصادق المصدوق - ﷺ - فهو باطل ، لأن نقيض الخبر الصادق . كاذب ضرورة كما هو معلوم .

ولم يثبت فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه - ﷺ - شىء يعارض هذا الحديث الذى رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالته على المقصود .. »[1] .

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان ، أقرب إلى الحق والصواب للأسباب التى ذكرها ، ولقرينة تذييل الآيات التى تحدثت عن يأجوج ومأجوج عن أهوال يوم القيامة .

ففى سورة الكهف يقول الله - تعالى - فى أعقاب الحديث عنهم ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾ .

وفى سورة الأنبياء يقول الله - تعالى - : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق .. ﴾ .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٨١ وما بعدها للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وفضلا عن كل ذلك فإن الحديث الذى رواه الإمام مسلم عنهم ، صريح فى أن خروجهم سيكون من علامات الساعة ، والله - تعالى - أعلم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للكافرين من عذاب يوم القيامة فقال : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ .

وقوله : ﴿ وعرضنا ﴾ .. أى : أظهرنا وأبرزنا يقال : عرض القائد جنده إذا أظهرهم ليشاهدهم الناس .

أى : جمعنا الخلائق يوم البعث والنشور جمعا تاما كاملا . وأبرزنا وأظهرنا جهنم فى هذا اليوم للكافرين إبرازا هائلا فظيعا ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لبس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

وتخصيص العرض بهم ، مع أن غيرهم - أيضا - يراها ، لأنها ما عرضت إلا من أجلهم ، ومن أجل أمثالهم ممن فسقوا عن أمر ربهم .

ويرى بعضهم أن اللام فى « للكافرين » بمعنى على ، لأن العرض يتعدى بها ، قال - تعالى - : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار .. ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ... ﴾ .

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على استحقاقهم دخول النار فقال : ﴿ الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ﴾ .

أى : أبرز جهنم فى هذا اليوم العصيب للكافرين الذين كانت أعينهم فى الدنيا فى « غطاء » كثيف وغشاوة غليظة ، « عن ذكرى » أى : عن الانتفاع بالآيات التى تذكرهم بالحق ، وتهديهم إلى الرشاد ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

وفى التعبير بقوله : ﴿ غطاء ﴾ إشعار بأن الحائل والساتر الذى حجب أعينهم عن الإبصار ، كان حائلا شديدا ، إذ الغطاء هو ما يغطى الشىء ويستره من جميع جوانبه .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، أو ما يشمله ويشمل كل مافى الكون من آيات يؤدى التفكر فيها إلى الإيمان بالله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ صفة أخرى من صفاتهم الذميمة ، أى : وكانوا فى الدنيا - أيضا - لا يستطيعون سمعا للحق أو الهدى ، بسبب إصرارهم على الباطل ، وإيغالهم فى الضلال والعناد ، بخلاف الأصم فإنه قد يستطيع السماع إذا صيح به .

قال الآلوسى : فالجملة الكريمة نفى لسماعهم على أتم وجه ، ولذا عدل عن : وكانوا صما مع أنه أخصر ، لأن المراد أنهم مع ذلك كفاقدى السمع بالكلية وهو مبالغة فى تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ماينفعهم بعد تصوير تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار ..[١] .

ثم يعقب - سبحانه - على هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالتهكم اللاذع لهم فيقول : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ﴾ .

فالاستفهام : للإنكار والتوبيخ . والحسبان : بمعنى الظن .

والمراد بعبادى هنا : الملائكة وعيسى وعزير ومن يشبههم من عباد الله الصالحين ، إذ مثل هذه الاضافة تكون غالبا للتشريف والتكريم .

وفى الآية الكريمة حذف دل عليه المقام .

والتقدير : أفحسب الذين كفروا بى أن يتخذوا عبادى الصالحين آلهة يستنصرون بهم من دونى ، أو يعبدونهم من دونى ، ثم لا أعذبهم - أى هؤلاء الكافرين بى - على هذا الاتخاذ الشديد الشناعة .

إن كان هؤلاء الكافرون بى يحسبون ذلك ، فقد ضلوا ضلالا بعيدا ، فإنى لابد أن أعذبهم على كفرهم وشركهم .

أو التقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، لكى يشفعوا لهم يوم القيامة ؟ كلا لن يشفعوا لهم بل سيتبرأون منهم ، كما قال - سبحانه - ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ضلال هذا الحسبان الباطل فقال : ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ .

والنزل : ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه ، على سبيل التكريم والترحيب .

أى : إنا أعتدنا جهنم لهؤلاء الكافرين بى ، المتخذين عبادى من دونى أولياء ، لتكون معدة لهم عند قدومهم تكريما لهم .

فالجملة الكريمة مسوقة على سبيل التهكم بهم ، والتقريع لهم ، لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هى عذاب مهين له .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٤٥ .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وقوله : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ .

ويجوز أن يكون النزل بمعنى المنزل ، أى : إنا هيأنا جهنم للكافرين لتكون مكانا وحيدا لنزولهم فيها ، إذ ليس لهم منزل سواها .

ثم يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - فى أواخر السورة الكريمة ، بأن يبين للناس من هم الأخسرون أعمالا ، ومن هم الأسوأ عاقبة فيقول :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ
أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم ه لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتهم أعمالهم وتصرفاتهم الباطلة .

قل لهم : ألا تريدون أن أخبركم خبرا هاما ، كله الصدق والحق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالا فى الدنيا والآخرة ؟

وجاء هذا الإخبار فى صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم ، وللفت أنظارهم إلى ما سيلقى عليهم .

والأخسرون : جمع أخسر ، صيغة تفضيل من الخسران ، وأصله نقص مال التاجر .

والمراد به هنا : خسران أعمالهم وضياعها بسبب إصرارهم على كفرهم .

وجمع الأعمال ، للإشعار بتنوعها ، وشمول الخسران لجميع أنواعها .

وقوله - سبحانه - ﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

جواب عن السؤال الذى اشتملت عليه الآية السابقة وهى : ﴿ قل هل ننبئكم .. ﴾ .
فكأنه قيل : نبئنا عن هؤلاء الأخسرين أعمالا ؟

فكان الجواب : هم ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ أى بطل وضاع بالكلية سعيهم وعملهم فى هذه الحياة الدنيا بسبب إصرارهم على كفرهم وشركهم ، فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف .

وقوله ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ أى : والحال أنهم يظنون أنهم يقدمون الأعمال الحسنة التى تنفعهم .

فالجملة الكريمة حال من فاعل ﴿ ضل ﴾ أى : ضل وبطل سعيهم ، والحال أنهم يظنون العكس . كما قال - تعالى - : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ .

وهذا هو الجهل المركب بعينه ، لأن الذى يعمل السوء ويعلم أنه سوء قد ترجى استقامته . أما الذى يعمل السوء ويظنه عملا حسنا فهذا هو الضلال المبين .

والتحقيق أن المراد بالأخسرين أعمالا هنا : ما يشمل المشركين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾ .
كلام مستأنف لزيادة التعريف بهؤلاء الأخسرين أعمالا ، ولبيان سوء مصيرهم .
أى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته وكفروا بالبعث والحشر والحساب وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب ، فكانت نتيجة هذا الكفر أن ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ أى : فسدت وبطلت .

وأصل الحبوط : انتفاخ بطن الدابة بسبب امتلائها بالغذاء الفاسد الذى يؤدى إلى هلاكها .
والتعبير بالحبوط هنا فى أعلى درجات البلاغة ، لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال القبيحة التى ظنوها حسنة ، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم .
وقوله : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ تصريح بهوانهم والاستخفاف بهم ، واحتقار شأنهم .

أى : فلا نلتفت إليهم يوم القيامة ، ولا نعبأ بهم احتقارا لهم ، بل نزدريهم ولا نقيم لهم ولا لأعمالهم وزنا ، لأنهم لا توجد لهم أعمال صالحة توضع فى ميزانهم ، كما قال تعالى - : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « إنه ليأتى الرجل

العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » . وقال : اقرأوا إن شئتم قوله تعالى - : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان مآل أمرهم فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا . واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ .

فاسم الإشارة « ذلك » مشار به إلى عقابهم السابق المتمثل فى حبوط أعمالهم واحتقار شأنهم . وهو خبر لمبتدأ محذوف . أى : أمرهم وشأنهم ذلك الذى بيناه سابقا .

وقوله : ﴿ جزاؤهم جهنم ﴾ جملة مفسرة لاسم الإشارة لا محل لها من الإعراب أو هو جملة مستقلة برأسها مكونة من مبتدأ وخبر .

وقوله : ﴿ بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ بيان للأسباب التى جعلتهم وقودا لجهنم .

أى : أن مصيرهم إلى جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب اتخاذهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وبسبب اتخاذهم رسله الذين أرسلهم لهدايتهم ، محل استهزاء وسخرية .

فهم لم يكتفوا بالكفر بل أضافوا إلى ذلك السخرية بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بالرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالوعد الحسن للمؤمنين فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

وجنات الفردوس : هى أفضل الجنات وأعلاها . ولفظ الفردوس : لفظ عربى ويجمع على فراديس ، ومنه قولهم صدر مفردس ، أى : واسع .

قال الآلوسى ما ملخصه : عن مجاهد أن الفردوس هو البستان بالرومية ، وعن عكرمة أن الفردوس هو الجنة بالحبشية .

ونص الفراء على أن هذا اللفظ عربى ومعناه البستان الذى فيه كرم .

وقال المبرد : هى - أى كلمة الفردوس - فيما سمعت من العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : إذا سألتم الله - تعالى - فأسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة[1] .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحات بإخلاص واتباع لما جاء به الصادق المصدوق - ﷺ - كانت لهم عند الله - تعالى - جنات الفردوس ، التى هى أفضل الجنات وأرفعها درجة ﴿ نزلا ﴾ أى : هدية تقدم لهم منه يوم القيامة ، ومكانا ينزلون به تكريما وتشريفا لهم .

﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا ، حالة كونهم ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ أى : لا يطلبون تحولا أو انتقالا منها إلى مكان آخر ، لكونها أطيب المنازل وأعلاها .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ لفتة دقيقة عميقة للإجابة على ما يعترى النفس البشرية من حب للانتقال والتحول من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال .

فكأنه - سبحانه - يقول : إن ما جبلت عليه النفوس فى الدنيا من حب للتحول والتنقل . قد زال وانتهى بحلولها فى الآخرة فى الجنة ، فالنفس الإنسانية عندما تستقر فى الجنة - ولا سيما جنة الفردوس - لا تريد تحولا أو انتقالا عنها ، لأنها المكان الذى لا تشتاق النفوس إلى سواه ، لأنها تجد فيه ما تشتهيه وما تبتغيه ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعا جنات الفردوس .

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته ، ختمها - أيضا - بالثناء والحمد ، فقد أثبت - عز وجل - أن علمه شامل لكل شىء . وأن قدرته نافذة على كل شىء ، وأنه - تعالى - هو المستحق للعبادة والطاعة ، فقال :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص ٥٠ .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

والمراد بالبحر : جنسه ، والمداد فى الأصل : اسم لكل ما يُمَد به الشىء ، واختص فى العرف لما تمد به الدواة مَن الحبر .

والمراد بكلمات ربى : علمه وحكمته وكلماته التى يصرف بها هذا الكون .

وقوله : ﴿ لنفد البحر ﴾ : أى لفنى وفرغ وانتهى . يقال : نفد الشىء ينفد نفاداً ، إذا فنى وذهب ، ومنه قولهم : أنفد فلان الشىء واستنفده ، أى : أفناه .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : لو كان ماء البحر مداداً للأقلام التى تكتب بها كلمات ربى ومعلوماته وأحكامه .. لنفد ماء البحر ولم يبق منه شىء - مع سعته وغزارته - قبل أن تنفد كلمات ربى ، وذلك لأن ماء البحر ينقص وينتهى . أما كلمات الله - تعالى - فلا تنقص ولا تنتهى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ زيادة فى المبالغة وفى التأكيد لما قبله من شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وعدم تناهيه .

أى : وبعد نفاد ماء البحر السابق ، لو جئنا بماء بحر آخر مثله فى السعة والغزارة ، وكتبنا به كلمات الله - تعالى - لنفد - أيضاً - ماء البحر الثانى دون أن تنفد كلمات ربى .

فالآية الكريمة تصور شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وعدم تناهى كلماته ، تصويراً بديعاً ، يقرب إلى العقل البشرى بصورة محسوسه كمال علم الله - تعالى - وعدم تناهيه .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ : هذا كلام من جهته - تعالى شأنه - غير داخل فى الكلام الملقن ، جىء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله على أتم وجه . والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة ما ذكر عليها دلالة واضحة :

أى : لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته - تعالى - لو لم نجىء بمثله مدداً ، ولو جئنا بمثله مدداً - لنفد أيضاً -[١] .

وقال بعض العلماء : وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات منقضية منتهية ، وأما كلام الله - تعالى - فهو من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى ، فأى سعة وعظمة تصورتها القلوب ، فالله - تعالى - فوق ذلك ، وهكذا سائر صفات الله - سبحانه - كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته[٢] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولو أن ما فى البحر من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾[٣] ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر آخر منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، مبيناً لهم حقيقة أمرك ، بعد أن بينت لهم عدم تناهى كلمات ربك .

قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم أوجدنى الله - تعالى - بقدرته من أب وأم كما أوجدكم . وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم الذى خلقه الله - تعالى - من تراب .

ولكن الله - عز وجل - اختصنى بوحيه وبرسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ورازقكم ومميتكم ، هو إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته .

فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن تستجيبوا لما آمركم به ، ولما أنهاكم عنه ، فإنى مبلغ عنه ما كلفنى به .

فالآية الكريمة وإن كانت تثبت للرسول - ﷺ - صفة البشرية وتنفى عنه أن يكون ملكا أو غير بشر .. إلا أنها تثبت له - أيضا - أن الله - تعالى - قد فضله على غيره من البشر بالوحى إليه ، وبتكليفه بتبليغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه للعالمين . كما قال - سبحانه - ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وكما قال - عز وجل - : ﴿ قل لا أقول لكم عندى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٥٢ .

(٢) تفسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ، جـ ٥ ص ٤٣ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى طبعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام .

(٣) سورة لقمان الاية ٢٧ .

خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى . ﴾[١] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الجملة الجامعة لكل خير فقال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إنما أنا واحد مثلكم فى البشرية إلا أن الله - تعالى - قد خصنى واصطفانى عليكم برسالته ووحيه ، وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد . فمن كان منكم يرجو لقاء الله - تعالى - ويأمل فى ثوابه ورؤية وجهه الكريم ، والظفر بجنته ورضاه ، فليعمل عملا صالحا ، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله - تعالى - ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - ولا يشرك بعبادة ربه أحدا من خلقه سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكا أم غير ذلك من خلقه - تعالى - .

وقد حمل بعض العلماء الشرك هنا على الرياء فى العمل ، فيكون المعنى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يرائى الناس فى عمله ، لأن العمل الذى يصاحبه الرياء هو نوع من أنواع الشرك بالله تعالى » .

والذى يبدو لنا أن حمل الشرك هنا على ظاهره أولى ، بحيث يشمل الإشراك الجلى كعبادة غير الله - تعالى - والإشراك الخفى كالرياء وما يشبهه .

أى : ولا يعبد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئا من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأنه - سبحانه - يقول : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[٢] .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

ومن هذه الأحاديث ما رواه ابن أبى حاتم ، من حديث معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن طاووس قال : قال رجل يا رسول الله ، إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه رسول الله - ﷺ - شيئا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٠ .
(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٠٠ طبعة دار الشعب .

أما بعد : فهذه سورة الكهف ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بالقرآن الكريم ، وأن يجعله ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وشفيعنا يوم نلقاه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة : مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ
الموافق : ١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الحجر »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة النحل »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الإسراء »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الكهف »

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سور

مريم - طه
الأنبياء - الحج

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد التاسع

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد فهذا تفسير لسورة «مريم» أكتبه بعد أن كتبت قبله تفاسير لسورة: البقرة، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأنفال ، التوبة ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، الإسراء ، الكهف ...

والله - تعالى - أسأل ، أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، ونافعًا لعباده ، وشفيعًا لنا يوم نلقاه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

١٦ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ - ١٥ / ٧ / ١٩٨٤ م

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ مَرْيَمَ

تعريف بسورة مريم

١ - سورة مريم من السور المكية .

قال القرطبى : وهى مكية بالإجماع . وهى تسعون وثمان آيات[١] .

وقال ابن كثير : وقد روى محمد بن إسحاق فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - قرأ صدر هذه السورة على النجاشى[٢] .

وكان نزولها بعد سورة فاطر[٣] .

٢ - ويبدو أن تسميتها بهذا الاسم كان بتوقيف من النبى - ﷺ - ، فقد أخرج الطبرانى والديلمى ، من طريق أبى بكر بن عبد الله ابن أبى مريم الغسانى عن أبيه عن جده ، قال : أتيت النبى - ﷺ - فقلت : ولدت لى الليلة جارية . فقال : والليلة أنزلت على سورة مريم .

وجاء فيما روى عن ابن عباس ، تسميتها بسورة ﴿ كهيعص ﴾[٤] .

وقد تكرر اسم مريم فى القرآن ثلاثين مرة ، ولم تذكر امرأة سواها باسمها الصريح .

٣ - والذى يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها زاخرة بالحديث عن عدد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

فقد افتتحت بالحديث عن تلك الدعوات التى تضرع بها زكريا إلى ربه ، لكى يهب له وليا ، يرثه ويرث من آل يعقوب .

وقد استجاب الله - تعالى - دعاء زكريا ، فوهبه يحيى كما قال - تعالى - : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن قصة مريم ، بصورة فيها شىء من التفصيل ، فذكرت اعتزالها لقومها ومجىء جبريل إليها وما دار بينه وبينها من محاورات ، ومولدها لعيسى وإتيانها

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٧٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٠ .
(٣) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٥٦ .

به قومها ، وما دار بينها وبينهم فى شأنه . ثم ختمت هذه القصة بالقول الحق فى شأن عيسى ، قال - تعالى - : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

٥ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن طرف من قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ، وختمت حديثها عن الرسل الكرام بقوله - تعالى - : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح . ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل . وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيا ﴾ .

٦ - ثم حكت السورة الكريمة أنماطًا من الشبهات التى تفوه بها الضالون ، ومن هذه الشبهات ما يتعلق بالبعث والنشور ، ومنها ما يتعلق بموقفهم من القرآن الكريم ومنها ما يتعلق بزعمهم أن لله ولدًا ... وقد ردت على كل شبهة من هذه الشبهات بما يبطلها ، ويخرس ألسنة قائليها .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدًا . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردًا ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئًا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ .

٧ - ومن هذا العرض الإجمالى لآيات السورة الكريمة ، يتبين لنا أن سورة مريم قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى نفى الشريك والولد عن ذاته - سبحانه - ، كما اهتمت - أيضًا - بإقامة الأدلة على أن البعث حق ، وعلى أن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة .

كما زخرت السورة بالحديث عن قصص بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - تارة بشىء من التفصيل كما فى قصة زكريا وعيسى ابن مريم ، وتارة بشىء من الاختصار والتركيز كما فى قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس .

كما نراها بوضوح تحكى شبهات المشركين . ثم ترد عليها بما يبطلها ...

وقد ساقت السورة ما ساقت من قضايا ، بأسلوب عاطفى بديع ، يهيج المشاعر نحو الخير والحق والفضيلة ، وينفر من الشر والباطل والرذيلة ، ويطلع العقول على نماذج شتى من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده الصالحين ترى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ .

وفى مثل قوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ .

٨ - قال بعض العلماء ما ملخصه : والظل الغالب فى جو السورة هو ظل الرحمة والرضا والاتصال . فهى تبدأ بذكر رحمة ربك لعبده زكريا . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها فى ثنايا السورة كثيرًا . ويكثر فيها اسم ﴿ الرحمن ﴾ .

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية . ودبيبها اللطيف فى الكلمات والعبارات والظلال ، كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التى لا تطيقها فطرته ...

كذلك تحس أن للسورة إيقاعًا موسيقيًا خاصًا ، فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء ، وفيه عمق كألفاظ : رضيا ، سريا ، حفيًا ، نجيًا ...

فأما المواضع التى تقتضى الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة فى الغالب ، كألفاظ : ضدًّا ، هدًّا ، إدًّا ، أزًّا[1] .

٨ - وبعد ؛ فهذا تعريف لسورة مريم ، نرجو أن يكون القارىء له ، قد أخذ صورة مركزة عن أهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) من تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٦ ص ٤٢٢ للمرحوم سيد قطب .

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

سورة ﴿ مريم ﴾ من السور القرآنية التى افتتحت ببعض حروف التهجى .

وقد سبق أن تكلمنا بشىء من التفصيل ، عن آراء العلماء فى المراد بهذه الحروف التى افتتحت بها بعض السور ، وذلك عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ..

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - ، هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون به كلامكم ، ومنظومًا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله . أو عشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ...

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده ذكريا .

ولفظ ﴿ ذكر ﴾ مصدر مضاف لمفعوله . ولفظ ﴿ رحمة ﴾ مصدر مضاف لفاعله وهو ربك ، و ﴿ عبده ﴾ مفعول به للمصدر الذى هو رحمة .

﴿ وزكريا ﴾ هو واحد من أنبياء الله الكرام ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - .

والمعنى : هذا الذى نذكره لك يا محمد ، هو جانب من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التى اختصصناه بها ، ومنحناه إياها .

وقوله : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ ظرف لرحمة ربك . والمراد بالنداء : الدعاء الذى تضرع به زكريا إلى ربه - عز وجل - .

أى : هذا الذى قرأناه عليك يا محمد فى أول هذه السورة . وذكرناه لك ، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا . وقت أن نادانا وتضرع إلينا فى خفاء وستر ، ملتمسا منا الذرية الصالحة .

وإنما أخفى زكريا دعاءه ، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء ، وقرب من الإخلاص ، وقد أمر الله - تعالى - به فى قوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ .

ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه فى أوقات تردده على مريم ، واطلاعه على ما أعطاها الله - تعالى - من رزق وفير .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - ما نادى به زكريا ربه فقال : ﴿ قال رب إنى وهن العظم منى ... ﴾ والوهن : الضعف . يقال : وهن الجسم يهن - من باب وعد - إذا ضعف .

وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن ، وعماد الجسم ، وبه قوامه ، فإذ ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف . وإفراد لفظ العظم لإرادة الجنس .

---

(١) سورة آل عمران من الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .

﴿ واشتعل الرأس شيبًا ﴾ والمراد باشتعال الرأس شيبا : انتشار بياض الشيب فيه . والألف واللام فى لفظ ﴿ الرأس ﴾ قاما مقام المضاف إليه .

والمراد : واشتعل رأسى شيبًا ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما يشهد له قوله - تعالى - ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ وقد بلغنى الكبر ... ﴾ .

قال صاحب الكشاف : « شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته وانتشاره فى الشعر .. باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزا ولم يضف إلى الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة ... »[1] .

وقوله : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ أى : ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى إجابة دعائى ، وما دام الأمر كذلك فأجب دعائى فى الزمان الآتى من عمرى ، كما أجبته فى الزمان الماضى منه .

فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر فى دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه ، حيث توسل إليه - سبحانه - بضعف بدنه ، وبتقدم سنه ، وبما عوده إياه من إجابة دعائه فى الماضى .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا فى الدعاء فقال : ﴿ وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب.. ﴾ .

والموالى : جمع مولى ، والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء عمومته الذين يلون أمره بعد موته ، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم .

والعاقر : العقيم الذى لا يلد ، ويطلق على الرجل والمرأة ، يقال : امرأة عاقر ، ورجل عاقر .

أى : وإنى - يا إلهى - قد خفت ما يفعله أقاربى ﴿ من ورائى ﴾ أى : من بعد موتى ، من تضييع لأمور الدين ، ومن عدم القيام بحقه ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ لا تلد قط فى شبابها ولا فى غير شبابها ، ﴿ فهب لى من لدنك ﴾ أى : من عندك ﴿ وليا ﴾ أى : ولدا من صلبى ، هذا الولد ﴿ يرثنى ﴾ فى العلم والنبوة ﴿ ويرث ﴾ أيضًا ﴿ من آل يعقوب ﴾ ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة ﴿ واجعله ﴾ يارب ﴿ رضيا ﴾ أى :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤ .

مرضيا عندك فى أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته .

ففى هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد فى الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لا من أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه فى علمه ونبوته ، ويكون مرضيًا عنده - عز وجل - .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وقوله ﴿ من ورائى ﴾ المراد به من بعد موتى ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى : خفت فعل الموالى من ورائى أو جور الموالى . وهم عصبة الرجل .. وكانوا على سائر الأقوال شرار بنى إسرائيل ، فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته »[1] .

وفى قوله ﴿ فهب لى من لدنك وليا ﴾ اعتراف عميق بقدرة الله - تعالى - لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه - عز وجل - ، بعد أن تقدمت بزكريا السن ، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة .

وقد أشار - سبحانه - فى آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ... ﴾[2] أى : وجعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عقيمًا من حين شبابها إلى شيبها ..

والمراد بالوراثة فى قوله ﴿ يرثنى ﴾ وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « وقوله : ﴿ وإنى خفت الموالى من ورائى ﴾ قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول ، وعن الكسائى أنه سكن الياء ..

ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده فى الناس تصرفًا سيئًا . فسأل الله ولدًا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته .. لا أنه خشى من وراثتهم له ماله . فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد ، وأن يأنف من وراثة عصبته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم .

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .

وعلى هذا فتعين حمل قوله ﴿ فهب لى من لدنك وليا يرثنى ﴾ على ميراث النبوة ولهذا قال : ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ كقوله : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أى : فى النبوة ، إذ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٦١ .

(٢) سورة الانبياء الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .

لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل ، أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح فى الحديث : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة »[١] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى ﴿ يرثنى ﴾ أى : إرث علم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل لذلك أمران :

أحدهما قوله : ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

والأمر الثانى ما جاء من الأدلة أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر الصديق أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا نورث ما تركنا صدقة »[٢] .

ثم بين القرآن الكريم أن الله - تعالى - قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا . كما بين ما قاله زكريا عندما بشره ربه بغلام اسمه يحيى فقال - تعالى - :

يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١١ .
(٢) راجع تفسير اضواء البيان ج ٤ ص ٢٠٦ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ يا زكريا ﴾ فى الكلام حذف ، أى : فاستجاب الله دعاءه فقال : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ... ﴾ فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء : أحدها : إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى : إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث : أن يفرد بتسميته ... »[1] .

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أن الذى بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى فى المحراب ، قال - تعالى - : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقًا بكلمة من الله ، وسيدًا وحصورًا ونبيا من الصالحين ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اسمه يحيى ﴾ يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله - تعالى - ليحيى ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم .

وقوله - تعالى - : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ أى لم نجعل أحدًا من قبل مشاركًا له فى هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل .

قال بعض العلماء : « وقول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى : نظيرا يساويه فى السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى فالقول الأول هو الصواب ، وممن قال به : ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم ... »[3] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة . فقال - تعالى - : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا . وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ .

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال تقديره : فماذا قال زكريا عندما بشره الله - تعالى - بيحيى ؟

ولفظ ﴿ أنى ﴾ بمعنى : كيف . أو بمعنى : من أين .

أى : قال زكريا مخاطبًا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى : يارب كيف يكون لى غلام ، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا فى شبابها وفى شيخوختها ، وحالى أنا أننى قد بلغت من الكبر عتيا ، أى . قد تقدمت فى السن تقدمًا كبيرًا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٨٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

(٣) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٢١٤ .

يقال : عتى الشيخ يعتو عتيا - بكسر العين وضمها - إذا بلغ النهاية فى الكبر .

قال ابن جرير : « قوله : ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ يقول : وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه للعود اليابس : عات وعاس . وقد عتا يعتو عتوا وعتيا ... وكل متناه فى كبر أو فساد أو كفر فهو عات ... »[1] .

فإن قيل : « ما المراد باستفهام زكريا - عليه السلام - مع علمه بقدرة الله - تعالى - على كل شىء ؟

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه لم يكن يعلم أن الله - تعالى - سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها .

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته .

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته . وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به على استفهامٍ زكريا فقال : ﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا ﴾ .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

قال الآلوسى : وذلك إشارة إلى قول زكريا - عليه السلام - وجملة ﴿ هو على هين ﴾ مفعول ﴿ قال ﴾ الثانى وجملة « الأمر كذلك » مع جملة ﴿ قال ربك ﴾ إلخ مفعول ﴿ قال ﴾ الأول ... »[2] .

والمعنى : قال الله - تعالى - مجيبًا على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا ، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن ذلك لا يحول بينناوبين تنفيذ إرادتنا فى منحك هذا الغلام ، فإن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ولا تخضع لما جرت به العادات .

وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿ هو على هين ﴾ أى : يسير سهل .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ٣٨ طبعة بولاق سنة ١٣٢٨ هـ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٦٧ .

ثم ذكر له - سبحانه - ما هو أعجب مما سأل عنه فقال : ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا ﴾ .

أى : لا تعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة ، فإنى أنا الله الذى أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور .

فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقى برهانى ، ما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - وما يزيد فى اطمئنان قلب زكريا - عليه السلام - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما التمسه زكريا - عليه السلام - من خالقه فقال : ﴿ قال رب اجعل لى آية ... ﴾ .

أى : اجعل لى علامة أستدل بها على وقوع ما بشرتنى به ، لأزداد سرورًا واطمئنانًا . ولأعرف الوقت الذى تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك .

فأجابه الله - تعالى - بقوله : ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لعبده زكريا : يا زكريا . علامة وقوع ما بشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزًا عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الحواس ليس بك من خرس ، أو بكم ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة .

فقوله : ﴿ سويا ﴾ حال من فاعل « تكلم » وهو زكريا أى : حال كونك يا زكريا سوى الخلق ، سليم الجوارح ، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا . ثم بين - سبحانه - ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ .

والمحراب : المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب . لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .

أى : فخرج زكريا - عليه السلام - على قومه من المكان الذى كان يصلى فيه ، ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه ﴿ أن سبحوا ﴾ الله - تعالى - وقدسوه ﴿ بكرة ﴾ أى : فى أوائل النهار ﴿ وعشيا ﴾ أى : فى أواخره .

وقد ذكر - سبحانه - فى آية أخرى ، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذى خرج منه زكريا - عليه السلام - على قومه . هو ذلك المكان الذى بشره الله - تعالى - فيه بيحيى .

قال - تعالى - : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى ،

مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ﴾[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من رحمة الله - تعالى - بعبده زكريا ، ومن الدعوات التى تضرع بها إلى خالقه - عز وجل - ، وأن الله - تعالى - قد أجاب له دعاءه ، وبشره بيحيى ، وعرفه بالعلامة التى بها يعرف وقوع مابشره به ، زيادة فى اطمئنانه وسروره .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يحيى ، فبينت ما أمره الله - تعالى - به ، وما منحه من صفات فاضلة . فقال - تعالى - :

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ مقول لقول محذوف ، والسر فى حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم .

والتقدير : وبعد أن ولد يحيى ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب ﴾ الذى هو التوراة ﴿ بقوة ﴾ أى : بجد واجتهاد ، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، فإن بركة العلم فى العمل به .

والجار والمجرور ﴿ بقوة ﴾ حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أى : خذه حالة كونك ملتبسا بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات .

وقوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا ﴿ الحكم ﴾ أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه ، وهو فى سن الصبا .

قيل : كان سنه ثلاث سنين ، وقيل سبع سنين .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

قال الآلوسى : « أخرج أبو نعيم ، وابن مردويه ، والديلمى ، عن ابن عباس ، عن النبى - ﷺ - أنه قال فى ذلك : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين »[١] .

وقال الجمل فى حاشيته : « فإن قلت : كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا ؟ .

قلت : لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات . إذا ثبت هذا . فلا تمنع صيروة الصبى نبيا . وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير ..[٢] .

والذى تطمئن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

قال ابن كثير : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلهذا أنزل الله : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وحنانًا من لدنا وزكاة وكان تقيا ﴾ معطوف على ﴿ الحكم ﴾. أى : وأعطيناه الحكم صبيًا ، وأعطيناه حنانا ...

قال القرطبى ما ملخصه : « الحنان : الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس ...

وأصله : من حنان الناقة على ولدها ... قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض[٤]

والمعنى : منحنا ﴿ يحيى ﴾ الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه، ورحمة فى قلبه جعلته يعطف على غيره ، وأعطيناه كذلك زكاة أى : طهارة فى النفس ، أبعدته عن ارتكاب ما نهى الله عنه ، وجعلته سباقاً لفعل الخير ﴿ وكان تقيا ﴾ أى مطيعًا لنا فى كل ما نأمره به ، أو ننهاه عنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تلك الصفات الكريمة ليحيى صفات أخرى فقال : ﴿ وبرا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٧٢ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٣ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٨٧ .

بوالديه ﴾ أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما .

﴿ ولم يكن جبارًا ﴾ أى : مستكبرا متعاليا مغرورا ﴿ عصيا ﴾ أى : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التى ادخرها ليحيى - عليه السلام - فقال : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾ أى : وتحية وأمان له منا يوم ولادته ﴿ ويوم يموت ﴾ ويفارق هذه الدنيا ﴿ ويوم يبعث حيا ﴾ للحساب يوم القيامة .

وخص - سبحانه - هذه الأوقات الثلاثة بالذكر ، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها .

قال سفيان بن عيينة : أحوج ما يكون المرء فى ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه . ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم . ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم .

وبعد هذا الحديث عن جانب من قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصة أخرى أعجب من قصة ميلاد يحيى ، ألا وهى قصة مريم وميلادها لابنها عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - :

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

قال ابن كثير : « لما ذكر الله تعالى - قصة زكريا - عليه السلام - وأنه أوجد منه فى حال

كبره وعقم زوجته ولدا زكيًا طاهرًا مباركًا،وعطف بذكر قصة مريم ، فى إيجاده ولدها عيسى - عليه السلام - منها من غير أب .

وهى مريم ابنة عمران - من سلالة داود - عليه السلام - وكانت من بيت طاهر فى بنى إسرائيل ... ونشأت نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات ...

وكانت فى كفالة زوج أختها زكريا - عليه السلام - ورأى لها من الكرامات الهائلة ما بهره ... »[١] .

والمعنى : ﴿ واذكر ﴾- أيها الرسول الكريم - ﴿ فى الكتاب ﴾ أى فى هذه السورة الكريمة ، أو فى القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها ﴿ إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيا ﴾ أى : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم فى مكان يلى الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو من بيتها الذى كانت تسكنه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - ﴿ إذ انتبذت من أهلها ﴾ إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه الطرح والرمى ، فكأنها ألقت بنفسها فى هذا المكان لتتخلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .

قال القرطبى : واختلف الناس لم انتبذت ؟ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله وهذا حسن . وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة ..

فقوله ﴿ مكانًا شرقيا ﴾ أى : مكانًا من جانب الشرق . والشرق - بسكون الراء - المكان الذى تشرق فيه الشمس . والشرق - بفتح الراء - الشمس .

وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار ... »[٢] .

وقوله : ﴿ فاتخذت من دونهم حجابا ﴾ تأكيد لانتباذها من أهلها ، واعتزالها إياهم .

أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها . فى مكان يلى شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجابا وساترًا للتفرغ لعبادة ربها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٩٠ .

ثم بين - سبحانه - ما أكرمها به فى حال خلوتها فقال : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا ﴾ .

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل - عليه السلام - فتشبه لها فى صورة بشر سوى معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن ما يكون الإنسان .

يقال : رجل سوى ، إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق ، لا يعيبه فى شأن من شئونه إفراط أو تفريط .

والإضافة فى قوله ﴿ روحنا ﴾ للتشريف والتكريم ، وسمى جبريل - عليه السلام - روحًا لمشابهة الروح الحقيقية فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر . فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

وإنما تمثل لها جبريل - عليه السلام - فى صورة بشر سوى ، لتستأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولو بدا لها فى صورته التى خلقه الله - تعالى - عليها . لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته .

وقوله : ﴿ بشرًا سويا ﴾ حالان من ضمير الفاعل فى قوله ﴿ فتمثل لها ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من حوار ونقاش فقال : ﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ .

أى : قالت لجبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى : إنى أعوذ وألتجىء إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه .

وخصت الرحمن بالذكر ، لتثير مشاعر التقوى فى نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى إن كنت تقيا ، فابتعد عنى واتركنى فى خلوتى لأتفرغ لعبادة الله - تعالى - .

وبهذا القول الذى حكاه القرآن عن مريم . تكون قد جمعت بين الاعتصام بربها ، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله . إن سولت له نفسه إرادتها بسوء . كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهى تقول له هذا القول ، وهى تراه بشرًا سويًا ، وفى مكان بمعزل عن الناس ...

وهنا يجيبها جبريل - كما حكى القرآن عنه - بقوله : ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيا ﴾ .

أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : إنما أنا يا مريم رسول ربك الذى استعذت به، والتجأت إليه، فلا تخافى ولا تجزعى وقد أرسلنى -سبحانه- إليك، لأهب لك بإذنه وقدرته غلامًا زكيًا ، أى : ولدًا طاهرًا من الذنوب والمعاصى ، كثير الخير والبركات.

ونسب الهبة لنفسه ، لكونه سببًا فيها . وقرأ نافع وأبو عمرو : ﴿ ليهب لك ﴾ بالياء المفتوحة بعد اللام أى : ليهب لك ربك غلامًا زكيا .

وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشتد عجبها فتقول : ﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ﴾ .

أى : قالت على سبيل التعجب مما سمعته : كيف يكون لى غلام ، والحال أنى لم يمسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذى أحله الله - تعالى - ، ولم أك فى يوم من الأيام بغيًا ، أى : فاجرة تبغى الرجال . أو يبغونها للزنا بها . يقال : بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف .

قال صاحب الكشاف : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله - تعالى - ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب . والبَغِى : الفاجرة التى تبغى الرجال ... »[1] .

وعلى هذا الرأى الذى ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها : ﴿ ولم يمسسنى بشر ... ﴾ المقصود به النكاح الحلال .

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام ، أى : ولم يمسسنى بشر كائنًا من كان لا بنكاح ولا بزنى، ويكون قوله: ﴿ولم أك بغيا﴾ من باب التخصيص بعد التعميم، ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر . قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[2] .

ويؤيده أيضًا أن لفظ ﴿ بشر ﴾ نكرة فى سياق النفى فيعم كل بشر سواء أكان زوجًا أم غير زوج .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ولم أك بغيا ﴾ أى : زانية . وذكرت هذا تأكيدًا لأن قولها ﴿ ولم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٠ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

يمسسنى بشر ﴾ يشمل الحلال والحرام ...»[١] .

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل . فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه - تعالى - قادر على خلق الولد ابتداء . كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله - تعالى - من غير أب أو أم ... »[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين ... ﴾ رد من جبريل عليها .

أى : قال الأمر كذلك أى : كما ذكرت من أن بشرًا لم يمسسك ومن أنك لم تكونى فى يوم من الأيام بغيا . أو الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلامًا زكيا من غير أن يكون له أب .

وقوله ﴿ قال ربك هو على هين ﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شيء ، أى : ﴿ قال ربك هو ﴾ أى : خلق ولدك من غير أب ﴿ على هين ﴾ أى : سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها شيء .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ تعليل لمعلل محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر ﴿ آية ﴾ عظيمة ، وأمرا عجيبًا يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعًا ، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك ، كما لا يعجزها أن توجد بشرًا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم . أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر .

وقوله: ﴿ورحمة منا﴾ معطوف على ما قبله، أى: ولنجعل هذا الغلام الذى وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به ، واتبع دعوته . ﴿ وكان ﴾ وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية ﴿ أمرًا مقضيا ﴾ أى : مقدرًا فى الأزل مسطورًا فى اللوح المحفوظ ، ولا بد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكت لنا جانبًا من حالة مريم ومن الحوار الذى جرى بينها وبين جبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكت فيها حالتها عند حملها بعيسى ، وعندما جاءها المخاض . فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٩١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٦ .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

قال ابن كثير رحمه الله : يقول - تعالى - مخبرًا عن مريم ، أنها لما قال لها جبريل عن الله - تعالى - ما قال : أنها استسلمت لقضائه - تعالى - ، فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن الملك وهو جبريل - عليه السلام - عند ذلك نفخ فى جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله - تعالى - ...

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . قال عكرمة : ثمانية أشهر . وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت ، وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله - تعالى - : ﴿ فحملته فانتبذت به مكانًا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ . فالفاء وإن كانت للتعقيب ، لكن تعقيب كل شيء بحسبه .

فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ... »[1] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فحملته .. ﴾ هى الفصيحة ؛ أى : وبعد أن قال جبريل لمريم إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيا ... نفخ فيها فحملته ، أى : عيسى ، فانتبذت به ، أى : فتنحت به وهو فى بطنها ﴿ مكانا قصيا ﴾ أى : إلى مكان بعيد عن المكان الذى يسكنه أهلها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٦ .

يقال : قَصِى فلان عن فلان قَصْوًا وقُصُوًّا ، إذا بعد عنه . ويقال : فلان بمكان قصى ، أى : بعيد .

وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصى ، كان بيت لحم بفلسطين .

قال ابن عباس : أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم ، فرارًا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج »[١] .

ثم حكى - سبحانه - ما اعتراها من حزن عندما أحست بقرب الولادة فقال : ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ .

وقوله : ﴿ فأجاءها ﴾ أى : فألجأها ، يقال : أجأته إلى كذا ، بمعنى : ألجأته واضطرته إليه . ويقال : جاء فلان . وأجاءه غيره ، إذا حمله على المجىء ، ومنه قول الشاعر :

وجارٍ سارَ معتمدًا علينا أجاءته المخافة والرجاء

قال صاحب الكشاف : « أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه ... »[٢] .

والمخاض : وجع الولادة . يقال : مخضت المرأة - بكسر الخاء - تمخض - بفتحها - إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض ، وهو الحركة الشديدة ، وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين فى بطن الأم عند قرب خروجه .

وجذع النخلة : ساقها الذى تقوم عليه .

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به - وهو محمول فى بطنها - عن قومها ، وحان وقت ولادتها . ألجأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكىء عليه عند الولادة ...

فاعتراها فى تلك الساعة ما اعتراها من هم وحزن وقالت : ﴿ ياليتنى مت قبل هذا ﴾ الحمل والمخاض الذى حل بى ﴿ وكنت نسيا منسيا ﴾ أى : وكنت شيئًا منسيًا متروكًا ، لا يهتم به أحد ، وكل شىء نُسى وترك ولم يطلب فهو نَسْىٌ ونِسِىٌّ .

قال القرطبى : « والنِّسْىُ فى كلام العرب : الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد ، والحبل للمسافر . وقرىء : ﴿ نسيا ﴾ بكسر النون وهما لغتان مثل : الوِتر والوَتر ... »[٣] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٩٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم،استحياء من الناس ، وخوفًا من لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس فى المعصية بسبب كلامهم فى شأنها .

وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه - لأنه يتعلق بأمر دينى - نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر .. ففى صحيح مسلم ، قال رسول الله - ﷺ - : « لايتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به ، فإن كان لابد متمنيا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى » .

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن[1] .

ثم ذكر - سبحانه - جانبًا من إكرامه لمريم فى تلك الساعات العصيبة من حياتها فقال : ﴿ فناداها من تحتها أن لا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا ، فكلى واشربى وقرى عينا ... ﴾ .

والذى ناداها يرى بعضهم أنه جبريل - عليه السلام - . وقوله ﴿ من تحتها ﴾ فيه قراءتان سبعيتان : إحداهما : بكسر الميم فى لفظ ﴿ من ﴾ على أنه حرف جر ، وخفض تاء ﴿ تحتها ﴾ على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف أى : فناداها جبريل من مكان تحتها ، أى أسفل منها ...

والثانية : بفتح الميم فى لفظ ﴿ من ﴾ على أنه اسم موصول ، فاعل نادى وبفتح التاء فى ﴿ تحتها ﴾ على الظرفية ، أى : فناداها الذى هو تحتها ، وهو جبريل - عليه السلام - .

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ فناداها من تحتها ﴾ .

قال ابن عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها .. ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة ، التى لله - تعالى - فيها مراد عظيم »[2] .

ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى - عليه السلام - فيكون المعنى : فناداها ابنها عيسى الذى كان عندما وضعته موجودًا تحتها .

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى فقال : « وأولى القولين فى ذلك عندنا قول من قال : الذى ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية - أى ضمير - ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فرده على الذى هو أقرب إليه أولى من رده على الذى هو أبعد منه ، ألا ترى أنه فى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٨٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٩٢ .

سياق قوله - تعالى - ﴿ فحملته فانتبذت به مكانًا قصيا .. ﴾ ثم قيل : فناداها نسقا على ذلك ، ولعلة أخرى وهى قوله : ﴿ فأشارت إليه .. ﴾ ولم تشر إليه - إن شاء الله - إلا وقد علمت أنه ناطق فى حاله تلك .. »[١] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذى نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها .

أى : فناداها ابنها عيسى الذى كان أسفل منها عندما وضعته . مطمئنًا إياها بعد أن قالت : ياليتنى مت قبل هذا الذى حدث لى .. ناداها بقوله : ﴿ أن لا تحزنى ﴾ يا أماه ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ أى جدولاً صغيرًا من الماء ، لتأخذى منه ما أنت فى حاجة إليه ، وسمى النهر الصغير من الماء سريا ، لأن الماء يسرى فيه .

وقيل : المراد بالسرى : عيسى - عليه السلام - مأخوذ من السَّرْو بمعنى الرفعة والشرف .

يقال : سَرُوَ الرجل يسرو - كشرف يشرف - فهو سَرِىّ ، إذا علا قدره وعظم أمره ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

أى : قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر ، وهو ابنك عيسى ، والجملة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله : ﴿ أن لا تحزنى ﴾ قال بعض العلماء ما ملخصه : « وأظهر القولين عندى أن السرى فى الآية النهر الصغير لأمرين :

أحدهما : القرينة من القرآن ، لأن قوله بعد ذلك ﴿ فكلى واشربى ﴾ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به فى قوله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ .

الثانى : ما جاء عن ابن عمر من أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : « إن السرى الذى قال الله لمريم : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه » .

فهذا الحديث - وإن كانت طرقه لا يخلو شىء منها من ضعف - أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه »[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾ . معطوف على ما قاله عيسى لأمه

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ٥٢ .
(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - جـ ٤ ص ٢٤٨ .

مريم . والباء فى قوله ﴿ بجذع ﴾ مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه .

أى : وحركى نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ﴿ تساقط عليك رطبًا ﴾ وهو ما نضج واستوى من الثمر ﴿ جنيا ﴾ أى : صالحًا للأخذ والاجتناء ﴿ فكلى ﴾ من ذلك الرطب ﴿ واشربى ﴾ من ذلك السرى ، ﴿ وقرى عينا ﴾ أى : طيبى نفسا بوجودى تحتك ، واطردى عنك الأحزان .

يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته . مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت ما تحبه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن مباشرة الأسباب فى طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافى التوكل على الله ، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه ويريده .

وهنا قد أمر الله - تعالى - مريم - على لسان مولودها - بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب ، مع قدرته - سبحانه - على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ، ولكن كل شىء له سبب

كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب ، قالوا : لأنه لو كان شىء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله - تعالى - لمريم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإما ترين من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ حكاية منه - تعالى - لبقيةكلام عيسى لأمه .

ولفظ ﴿ إما ﴾ مركب من ﴿ إن ﴾ الشرطية ، و﴿ ما ﴾ المزيدة لتوكيد الشرط ﴿ وترين ﴾ فعل الشرط ، وجوابه ﴿ فقولى ﴾ وبين هذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لأمه : لا تحزنى يا أماه بسبب وجودى بدون أب ، وقرى عينا ، وطيبى نفسا لذلك ، فإما ترين من البشر أحدًا كائنًا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له ﴿ إنى نذرت للرحمن صومًا ﴾ أى : صمتا عن الكلام ﴿ فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابنى ليشرح لكم حقيقة أمره .

قالوا : إنما منعت من الكلام لأمرين : أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها ، وفى هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .

والثانى : « كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها »[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما فعلته مريم عندما شعرت بالحمل وما قالته عندما أحست بقرب الولادة ، وما قاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ؛ مشهد مريم عندما جاءت بوليدها إلى قومها ، وما قالوه لها ، وما قاله وليدها لهم ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأتت به قومها تحمله ... ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٥٣٥ .

والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى - عليه السلام - اطمأنت نفسها ، وقرت عينها ، فأتت به أى بمولودها عيسى إلى قومها . وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها .

قال الآلوسى : أى : جاءتهم مع ولدها حاملة إياه ، على أن الباء للمصاحبة . وجملة ﴿ تحمله ﴾ فى موضع الحال من ضمير مريم ... وكان هذا المجىء على ما أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يومًا حين طهرت من نفاسها ...

وظاهر الآية والأخبار « أنها جاءتهم به من غير طلب منهم .. »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله قومها عندما رأوها ومعها وليدها فقال : ﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريا ﴾ .

أى : قالوا لها على سبيل الإنكار : يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئًا منكرًا عجيبًا فى بابه ، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك .

والفَرِى : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئًا قاطعًا وخارقًا للعادة ، ومرادهم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾ .

ويدل على أن مرادهم هذا ، قولهم بعد ذلك : ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ .

أى : ما كان أبوك رجلًا زانيًا أو معروفًا بالفحش ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ أى : تتعاطى الزنا . يقال : بغت المرأة ، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف .

وليس المراد بهارون : هارون بن عمران أخا موسى ، وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون فى الصلاح والتقوى .

أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وقوله : ﴿ يا أخت هارون ﴾ استئناف لتجديد التعيير ، وتأكيد التوبيخ ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - لما أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، والطبرانى ، وابن حبان ، وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٨٧ .

﴿ يا أخت هارون ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » ..

وعن قتادة قال : « هو رجل صالح فى بنى إسرائيل . والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكمًا ، أو لما رأوا قبل من صلاحها ... »[1] .

وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هى بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم .

وهنا نجد مريم تبدأ فى الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها ﴿ فأشارت إليه ﴾ .

أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم إليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر .

ولكنهم لم يقتنعوا بإشارتها بل قالوا لها : ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾ .

والمهد : اسم للمضطجع الذى يهيأ للصبى فى رضاعه . وهو فى الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه .

أى : كيف نكلم طفلاً صغيرًا ما زال فى مهده وفى حال رضاعه .

والفعل الماضى وهو ﴿ كان ﴾ ههنا بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال ، كما يدل عليه سياق القصة .

ولكن عيسى - عليه السلام - أنطقه الله - تعالى - بما يدل على صدق مريم وطهارتها فقال : ﴿ قال إنى عبد الله .. ﴾ أى : قال عيسى فى رده على المنكرين على أمه إتيانها به : إنى عبد الله ، خلقنى بقدرته ، فأنا عبده وأنتم - أيضًا - عبيده ، وهذا الخالق العظيم ﴿ آتانى الكتاب ﴾ أى : سبق فى قضائه إيتائى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة أو مجموعهما .

وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل ، تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى .

وهذا التعبير له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٨٨ .

شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى . فإذا هم قيام ينظرون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وجعلنى نبيا ﴾ أدعو الناس إلى عبادته وحده ﴿ وجعلنى ﴾ أيضًا بجانب نبوتى ﴿ مباركًا ﴾ أى : كثير الخير والبركة ﴿ أينما كنت ﴾ أى : حينما حللت جعلنى مباركًا ، فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه .

﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة ﴾ أى : بالمحافظة على أدائهما ﴿ ما دمت حيا ﴾ فى هذه الدنيا .

وقوله : ﴿ وبرا بوالدتى ﴾ ، أى : وجعلنى كذلك مطيعًا والدتى ، وبارا بها ، ومحسنا إليها ، ﴿ ولم يجعلنى ﴾ سبحانه - فضلاً منه وكرمًا ﴿ جبارًا شقيا ﴾ أى : ولم يجعلنى مغرورا متكبرًا مرتكبًا للمعاصى والموبقات .

﴿ والسلام ﴾ والأمان منه - تعالى - ﴿ على يوم ولدت ويوم أموت ﴾ مفارقا هذه الدنيا ﴿ ويوم أبعث حيا ﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة .

فأنت ترى أن عيسى - عليه السلام - قد وصف نفسه بمجموعة من الصفات الفاضلة ، افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التى لا حق سواها . ولتحذير أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ، أو هو مشارك له فى العبادة ..

واختتمها برجاء الأمان له من الله - تعالى - فى كل أطوار حياته .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأنذر الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريئان منه بسوء المصير . فقال - تعالى - :

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ
ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

واسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ فى قوله : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾ إشارة إلى ما ذكره الله - تعالى - قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة ، ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ ، وعيسى خبره ، وابن مريم صفته .

ولفظ : ﴿ قول ﴾ فيه قراءتان سبعيتان إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام ، والثانية قراءة ابن عامر وعاصم ، بفتحها .

وعلى القراءة بالرفع يكون ﴿ قول الحق ﴾ خبر مبتدأ محذوف . فيكون المعنى : ذلك الذى أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو قول الحق - عز وجل - وهو قول لا يحوم حوله باطل ، ولا يخالطه ريب أو شك . فلفظ ﴿ الحق ﴾ يصح أن يراد به الله - سبحانه - لأنه من أسمائه ، ويصح أن يراد به ما هو ضد الباطل ، وهو الصدق والثبوت .

وعلى قراءة النصب يكون لفظ ﴿ قول ﴾ مصدرًا مؤكدًا لمضمون الجملة ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من شأن عيسى ابن مريم ، هو القول الثابت الصادق . الذى أقول فيه قول الحق .

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى : القول الحق ، كقوله - تعالى - ﴿ وعد الصدق ﴾ أى : الوعد الصدق .

وقوله : ﴿ الذى فيه يمترون ﴾ بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذى ذكره الله - تعالى - عن عيسى وأمه . و ﴿ الذى ﴾ صفة للقول . أو للحق ، و ﴿ يمترون ﴾ يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل ...

أى : ذلك الذى ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق ، الذى شك فى صدقه الكافرون ، وتنازع فيه الضالون ، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم بل ذرهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون له ولد فقال : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ... ﴾ أى : ما يصح وما يستقيم وما يتصور فى حقه - تعالى - أن يتخذ ولدًا ، لأنه منزه عن ذلك ، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله - تعالى - هو الباقى بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذى لا يعجّزه شىء .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من ولد ﴾ لتأكيد هذا النفى وتعميمه .

وفى معنى هذه الآيات جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - فى هذه السورة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا . لقد جئتم شيئًا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال : ﴿ إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أى : لا يتصور فى حقه - سبحانه - اتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له : كن ، فيكون فى الحال ، بدون تأخير أو تردد .

وقوله - تعالى - ﴿ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه .... ﴾ قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة ﴿ إن ﴾ على الاستئناف ، أى : وإن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه - أيضًا - وإن الله - تعالى - هو ربى وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه .

وقرأ الباقون بفتح همزة ﴿ أن ﴾ بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال عيسى لقومه : ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه ... كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا ﴾ أى : ولأن المساجد لله ..

ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من عيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

والأحزاب جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه - عليه السلام - فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه ، وهم اليهود كما فى قوله : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيمًا ﴾ .

ومنهم من قال هو ابن الله ، أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث ثلاثة ... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى .

ولفظ ﴿ ويل ﴾ مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد .

و ﴿ مشهد ﴾ يصح أن يكون مصدرًا ميميا بمعنى الشهود والحضور .

والمعنى : هكذا قال عيسى - عليه السلام - لقومه : ﴿ اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم فى شأنه اختلافًا كبيرًا ، وضلوا ضلالا

---

(١) سورة مريم الآية ٨٨ - ٩٢ .

بعيدا ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، حيث سيلقون عذابًا شديدًا من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان .

وعبر عنهم بالموصول فى قوله ﴿ للذين كفروا ﴾ إيذانًا بكفرهم جميعًا ، وإشعارًا بعلة الحكم .

قال أبو حيان : « ومعنى : ﴿ من بينهم ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم »[1] .

وجا التعبير فى قوله ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ بالتنكير ، للتهويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ... ﴾ تهكم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله .

و ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ صيغتا تعجب ، لفظهما لفظ الأمر ، ومعناهما التعجيب ، أى حمل المخاطب على التعجيب ، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء ، وهى زائدة فيهما لزوما، والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم ، لما يخلع قلوبهم ، ويسود وجوههم ، مع أنهم كانوا فى الدنيا صمًا وعميانًا عن الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

فالمراد باليوم فى قوله ﴿ لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق .

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر ، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - ﷺ - بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ .

والإنذار : الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير ، وأشد ما يخوف به يوم القيامة .

والحسرة : أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولا يمكن تداركه .

أى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ١٩١ .

يتحسر الظالمون على تفريطهم فى طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم ، لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وقوله : ﴿ وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿ أنذرهم ﴾ .

أى : أنذرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان .

هذا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله - تعالى - ﴿ إذ قضى الأمر ﴾ .

أى : ذبح الموت . فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رآه . ثم ينادى يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رآه . فيذبح . ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . ثم قرأ - ﷺ - ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه فقال : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها .. ﴾ أى : إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها ، وهؤلاء الخلائق جميعًا ﴿ وإلينا ﴾ وحدنا ﴿ يرجعون ﴾ يوم القيامة ، فنحاسبهم على أعمالهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى ، وعن قصة مريم وعيسى ، حديثًا يهدى إلى الرشد ، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق .

ثم أوردت السورة الكريمة القصة الثالثة وهى قصة إبراهيم - عليه السلام - وما دار بينه وبين أبيه من حوار . قال - تعالى - :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٢٢ .

وَٱذۡكُرۡ
فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا
سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ
عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾
وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أن الغرض من هذه السورة ، بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت معبودًا غير الله حيا عاقلًا وهم النصارى ومن على شاكلتهم ، وفريق أثبت معبودا من الجماد ليس بحى ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان . والفريقان وإن اشتركا فى الضلال إلا أن ضلال الفريق الثانى أعظم . ولما بين - سبحانه - ضلال الفريق الأول - وهم النصارى - ، أتبعه بذكر الفريق الثانى ، وهم عبدة الأوثان قوم إبراهيم - عليه السلام -[1] .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٥٤٤ .

وإبراهيم - عليه السلام - هو من أولى العزم من الرسل ، وهو الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، وهو الذى وصفه الله - تعالى - بجملة من الصفات الكريمة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾[1] .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس فى هذا القرآن قصة أبيهم إبرهيم - عليه السلام - ، لكى يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبى الكريم فى قوة إيمانه ، وصفاء يقينه وجميل أخلاقه .

وقوله : ﴿ إنه كان صديقًا نبيا ﴾ استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فى قوله : ﴿ واذكر ﴾ .

والصديق : صيغة مبالغة من الصدق . أى : إنه كان ملازمًا للصدق فى كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبييًا من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

ثم بين - سبحانه - مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال : ﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا ﴾ .

والظرف ﴿ إذ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ إبراهيم ﴾ وجملة ﴿ إنه كان صديقًا نبيا ﴾ معترضة بين البدل والمبدل منه لتعظيم شأنه - عليه السلام - .

والتاء فى قوله ﴿ يا أبت ﴾ عوض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه : زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق .

أى : واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه آزر مستعطفًا إياه : يا أبت لماذا تعبد شيئًا لا يسمع من يناديه . ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئًا من الإغناء ، لأنه لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - نفعًا ولا ضرًا .

ثم دعاه إلى اتباع الحق بألطف أسلوب فقال : ﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ﴾ النافع الذى علمنى الله - تعالى - إياه ﴿ ما لم يأتك ﴾ أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ﴿ فاتبعنى ﴾ فيما أدعوك إليه ﴿ أهدك صراطًا سويا ﴾ أى : أهدك إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا اضطراب .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط فى التفكير فقال : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو للإنسان .

ثم علل له هذا النهى بقوله : ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصيا ﴾ أى : إن الشيطان

---

(١) سورة هود الآية ٧٥ .

الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيا ، أى : كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ .

أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قرينًا للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادىء الرقيق ... خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادته - تعالى - وحده .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلك أنه طلب منه - أولاً - العلة فى خطئه . طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ... حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفًا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك .. ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل .. ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : ﴿ إنى أخاف أن يمسك ... ﴾ .

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿ يا أبت ﴾ توسلا واستعطافًا ...[1] .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه . لم تصادف أذنًا واعية ولم تحظ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاستنكار والتهديد فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾ .

والاستفهام فى قوله ﴿ أراغب ﴾ للإنكار والتهديد والرغبة عن الشىء : تركه عمدًا زهدا فيه لعدم الحاجة إليه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٩ .

ولفظ ﴿ راغب ﴾ مبتدأ ، ﴿ وأنت ﴾ فاعل سد مسد الخبر ، و ﴿ مليا ﴾ أى : زمنا طويلاً مأخوذ من الملاوة ، وهى الفترة الطويلة من الزمان ، ويقال لليل والنهار : الملوان .

والمعنى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتى ، وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها لئن لم تنته عن هذا المسلك ، ﴿ لأرجمنك ﴾ بالحجارة وبالكلام القبيح ﴿ واهجرنى مليا ﴾ بأن تغرب عن وجهى زمنا طويلا لا أحب أن أراك فيه .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة .. شأن القلب الذى أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق ، بل قابل ذلك بسعة الصدر . وجميل المنطق ، حيث قال له : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ .

أى : لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال أو أذى ، والوداع الذى أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك . وفضلاً عن ذلك فإنى ﴿ سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ أى : بارًّا بى ، كثير الإحسان إلى .

يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه .

وقد وفى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله - تعالى - فتبرأ منه كما قال - تعالى - : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم فقال - تعالى - : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ .

أى : وقال إبراهيم - أيضًا - لأبيه : إنى بجانب استغفارى لك ، ودعوتى لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها من دون الله وأرتحل عنكم جميعًا إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربى وخالقى بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد عودنى - سبحانه - أن لا يخيب دعائى وتضرعى إليه .

---

(١) سورة التوبةالآية ١١٤ .

وفى تصدير كلامه بلفظ ﴿ عسى ﴾ دليل على تواضعه ، وعلى أدبه مع خالقه - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على اعتزال إبراهيم للشرك والمشركين فقال : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ .

أى : فحين اعتزل إبراهيم - عليه السلام - أباه وقومه وآلهتهم الباطلة . لم نضيعه ، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا ﴿ وكلا جعلنا نبيا ﴾ أى : وكل واحد منهما جعلناه نبيًا ﴿ ووهبنا لهم ﴾ أى : لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ من رحمتنا ﴾ بأن جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا .

وجعلنا لهم لسان صدق عليا ، بأن صيرنا الناس يثنون عليهم ويمدحونهم ويذكرونهم بالذكر الجميل ، لخصالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية ، وما أصدق قوله - تعالى - : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾ .

وخص - سبحانه - هنا اسحق ويعقوب بالذكر دون إسماعيل لأن إسماعيل سيذكر فضله بعد قليل .

ثم مدح الله - تعالى - موسى - عليه السلام - وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - :

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾

ولفظ ﴿ مخلصًا ﴾ فيه قراءتان سبعيتان ، إحداهما بفتح اللام - بصيغة اسم المفعول - أى : أخلصه الله - تعالى - لذاته ، واصطفاه ، كما قال - تعالى - : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى .. ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

والثانية بكسر اللام - بصيغة اسم الفاعل - أى : كان مخلصًا لنا فى عبادته وطاعته .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس خبر أخيك موسى - عليه السلام - إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان - أيضًا - ﴿ رسولاً ﴾ من جهتنا لتبليغ ما أمرناه بتبليغه ، وكان كذلك ﴿ نبيا ﴾ رفيع القدر ، عالى المكانة والمنزلة ، فقد جمع الله - تعالى - له بين هاتين الصفتين الساميتين صفة االرسالة وصفة النبوة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ﴾ بيان لفضائل أخرى منحها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .

والطور : جبل بين مصر وقرى مدين ، الأيمن : أى الذى يلى يمين موسى .

قال الآلوسى : « والأيمن » صفة لجانب ، لقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ جانب الطور الأيمن ﴾ بالنصب . أى : ناديناه من ناحيته اليمنى ، من اليمين المقابل لليسار . والمراد به يمين موسى ، أى : الناحية التى تلى يمينه « إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة » .

ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن وهو البركة ، وهو صفة لجانب - أيضًا - أى : من جانبه الميمون المبارك ...

والمراد من ندائه من ذلك الجانب : ظهور كلامه - تعالى - من تلك الجهة ، والظاهر أنه - عليه السلام - إنما سمع الكلام اللفظى ... »[1] .

وقوله ﴿ وقربناه نجيا ﴾ أى : وقربناه تقريب تشريف وتكريم حالة مناجاته لنا ، حيث أسمعناه كلامنا ، واصطفيناه لحمل رسالتنا إلى الناس .

فقوله ﴿ نجيا ﴾ من المناجاة وهى المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول وقربناه ، أى : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر فضل الله - تعالى - على عبده موسى .

أى : ووهبنا لموسى من أجل رحمتنا له . وعطفنا عليه . أخاه هارون ليكون عونا له فى أداء رسالته كما قال - تعالى - حكاية عنه ﴿ واجعل لى وزيرًا من أهلى . هارون أخى اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى ... ﴾ .

وقوله : ﴿ نبيا ﴾ حال من هارون ، أى حال كونه نبيا من أنبياء الله - عز وجل - .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٠٣ .

هذا ، وما ذكره الله - تعالى - هنا مجملا عن ندائه لموسى من جانب الطور الأيمن ، قد جاء مفصلًا فى مواطن أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ... ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - جانبًا من فضائل إسماعيل - عليه السلام - وهو الفرع الثانى من ذرية إبراهيم ، فقال - تعالى - :

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

أى : واذكر فى هذا الكتاب لقومك - أيها الرسول الكريم - خبر جدك إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - لكى يتأسوا به فى صفاته الجليل ، ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ ويكفى للدلالة على صدق وعده ، وشدة وفائه ، أنه وعد أباه بصبر على ذبحه فلم يخلف وعده . بل قال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ووصف بصدق الوعد وإن كان غيره من النبيين كذلك تشريفًا وتكريمًا له ، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التى اكتملت شهرتها فيه .

وقد مدح الله - تعالى - الأوفياء بعهودهم فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ .

وروى الإمام الطبرانى عن ابن مسعود قال : لا يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجز له فإن رسول الله - ﷺ - قال : « العدة دين » ...

وقال القرطبى : « والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف والغدر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

---

(١) سورة القصص الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

متى ما يقل حر لصاحب حاجة نعم ، يقضها ، والحر للوعد ضامن

وقوله - تعالى - : ﴿ وكان رسولاً نبيا ﴾ أى : وكان من رسلنا الذين أرسلناهم لتبليغ شريعتنا ، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعلينا قدرهم .

قالوا : وكانت رسالته بشريعة أبيه إلى قبيلة جرهم من عرب اليمن ، الذين نزلوا على أمه هاجر بوادى مكة حين خلفها إبراهيم هى وابنها بذلك الوادى ، فسكنوا هناك حتى كبر إسماعيل وزوجوه منهم ، وأرسله الله - تعالى - إليهم»[1] .

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة كريمة ثالثة فقال : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ... ﴾ .

أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين ، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما حتى يكون هو وأهله قدوة لغيرهم فى العمل الصالح .

وكان النبى - ﷺ - يفعل ذلك الذى أثنى الله به على نبيه إسماعيل استجابة لقوله - تعالى - : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها .. ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : « وقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة قال رسول الله - ﷺ - : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » .

وعن أبى سعيد عن النبى - ﷺ - قال : « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الجميلة التى مدح بها نبيه إسماعيل فقال : ﴿ وكان عند ربه مرضيا ﴾ .

أى : وكان إسماعيل عند ربه مرضى الخصال ، لاستقامته فى أقواله وأفعاله ، وللصدق فى وعده ، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة ، ولا شك أن من جمع هذه المناقب كان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم ختم الله هذا الحديث عن بعض الأنبياء ، بذكر جانب من قصة إدريس - عليه السلام - فقال :

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٧ .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وإدريس هو نبى قبل نوح وبينهما ألف سنة وهو أخنوح ابن يرد .. بن شيث بن آدم . وهو أول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم ... »(1) .

أى : واذكر - أيضًا - فى الكتاب خبر إدريس - عليه السلام - . إنه كان ملازمًا للصدق ، وكان ممن شرفناهم بالنبوة .

وقوله : ﴿ ورفعناه مكانًا عليا ﴾ قالوا : هو شرف النبوة والزلفى عند الله - تعالى - أو المراد برفعه إلى المكان العلى : إسكانه فى الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك ..

وروى أن النابغة الجعدى لما أنشد قوله :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول - ﷺ - : إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال : أجل إن شاء الله - تعالى - .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن طرف من قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس - عليهم الصلاة والسلام - وقد وصفتهم بما هم أهله من صفات كريمة ، ليتأسى الناس بهم فى ذلك .

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك موازنة بين هؤلاء الأخيار ، وبين من جاءوا بعدهم من أقوامهم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتفتح السورة باب التوبة ليدخله بصدق وإخلاص المخطئون ، حتى يكفر الله - تعالى - عنهم ما فرط منهم . قال - تعالى - :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (58) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)

(1) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٠٥ .

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم ... ﴾ يعود إلى الأنبياء المذكورين فى هذه السورة . وهم عشرة أولهم فى الذكر زكريا وآخرهم إدريس .

قال القرطبى : « قوله – تعالى – ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ يريد إدريس وحده ﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ يريد إبراهيم وحده ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إسرائيل ﴾ يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، شرف القرب من إبراهيم »[1] .

وقوله : ﴿ وممن هدينا واجتبينا ﴾ معطوف على قوله ﴿ من ذرية آدم ﴾ ومن للتبعيض .

أى : ومن جملة من أنعم الله عليهم ، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا .

فأنت ترى أن الله – تعالى – قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها : أعمالهم الصالحة ، ومناقبهم الحميدة التى سبق الحديث عنها ، ومنها : كونهم من تسل هؤلاء المصطفين الأخيار ، ومنها أنهم ممن هداهم الله – تعالى – واصطفاهم لحمل رسالته .

وقد بين – سبحانه – فى سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولاً فقال : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٢٠ .
(٢) آية ٦٩ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيا ﴾ بيان لرقة مشاعرهم ، وشدة تأثرهم عند سماع آيات الله - تعالى - .

فالجملة الكريمة استئناف مسوق لبيان عظم خشيتهم من الله - تعالى - أو هى خبر لاسم الإشارة ﴿ أولئك ﴾ و ﴿ سجدًا وبكيا ﴾ جمع ساجد وباك .

أى : أولئك الذين أنعم الله - تعالى - عليهم ، من صفاتهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، المتضمنة لتمجيده وتعظيمه وحججه .. خروا على جباههم ساجدين وباكين . وسقطوا خاضعين خاشعين خوفًا ورجاء ، وتعظيمًا وتمجيدًا لله رب العالمين .

وجمع - سبحانه - بين السجود والبكاء بالنسبة لهم ، للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف من الله - تعالى - .

وفى معنى هذه الجملة الكريمة وردت آيات كثيرة ، منه قوله - تعالى - : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾[٢] .

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم يتأثرون تأثرًا عظيمًا عند سماعهم لكلام الله - تعالى - ، تأثرًا يجعلهم يبكون ويسجدون وتقشعر جلودهم ، وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « قوله - تعالى - : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيا ﴾ أى : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة وشكرًا على ما هم فيه من نعم .. فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم ، واتباعًا لمنوالهم وقرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - هذه الآية فسجد وقال : هذا السجود فأين البكاء »[٣] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث من الذين جاءوا بعد هؤلاء المنعم عليهم فقال : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ .

---

(١) سورة الاسراء الآيات من ١٠٧ - ١٠٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٨٣ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٢٧ .

ولفظ ﴿ الخلف ﴾ بسكون اللام - الأولاد ، والواحد والجمع فيه سواء ، وأكثر ما يطلق على الأشرار والطالحين ، ومنه المثل السائر : « سكت ألفا ونطق خلفا » وقوله الشاعر :

ذهب الـذين نعيش فى أكنـافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجـرب

والمراد بهذا اللفظ فى الآية : اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعد أنبيائهم ، ولكنهم خالفوا شريعتهم ، وأهملوا ما أمروهم به وما نهوهم عنه .

أما لفظ « الخلف » بفتح اللام - فيطلق على البدل ولدا كان أو غير ولد وأكثر استعمالاته فى المدح ، ومنه قوله - ﷺ - : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله .. » .

والمعنى : فخلف من بعد أولئك الأخيار الذين أنعم الله عليهم ، خلف سوء وشر ، ومن الأدلة على سوئهم وفجورهم أنهم ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ بأن تركوها ، أو لم يؤدوها على وجهها المشروع ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ التى جعلتهم ينهمكون فى المعاصى ، ويسارعون فى اقتراف المنكرات .

وقوله ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، أى : فسوف يلقى هؤلاء المضيعون للصلاة ، المتبعون للشهوات ، خسرانًا وشرًا فى دنياهم وآخرتهم ، بسبب ضلالهم وتنكيبهم الصراط المستقيم .

فالمراد بالغىِّ : الخسران والضلال . يقال : غوى فلان يغوى إذ ضل . والاسم الغواية .

وقيل : المراد بالغى هنا : واد فى جهنم تستعيذ من حره أوديتها . وقيل : هو نهر فى أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهلها .

ثم فتح - سبحانه - للتائبين باب الرحمة فقال : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا ... ﴾ .

أى : هذا العقاب الشديد للمضيعين للصلاة ، وللمتبعين للشهوات ، لكن من تاب منهم توبة نصوحًا ، وآمن بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعمل فى دنياه الأعمال الصالحة .

﴿ فأولئك ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿ يدخلون الجنة ﴾ بفضله - تعالى - ورحمته ﴿ ولا يظلمون شيئًا ﴾ أى : ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئًا .

وقوله ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ . بدل من الجنة فى قوله ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ﴾ .

أى : هؤلاء التائبون المؤمنون العاملون للصالحات يدخلهم الله - تعالى - جنات عدن ، أى : الجنات الدائمة التى وعدهم الرحمن بدخولها ، وكان هذا الوعد فى الدنيا قبل أن

يشاهدوها أو يروها .

فقوله : ﴿ بالغيب ﴾ حال من المفعول وهو ﴿ عباده ﴾ أى : وعدهم بها حالة كونهم غائبين عنها ، لا يرونها ، وإنما آمنوا بوجودها بمجرد إخباره - سبحانه - لهم بذلك .

وقد أكد - سبحانه - هذا الوعد لهم فى الدنيا بقوله : ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ أى : إنه - تعالى - كان وما زال ما وعد به عباده وهو الجنة ﴿ مأتيا ﴾ أى : يأتيه ويصل إليه من وعده الله - تعالى - به ، لأنه - سبحانه - لا يخلف وعده .

فقوله : ﴿ مأتيا ﴾ اسم مفعول من أتاه الشىء بمعنى جاءه ، وقيل : هو اسم مفعول بمعنى فاعل ، أى : إن وعده - سبحانه - لعباده كان آتيًا لا ريب فيه .

ثم وصف - سبحانه - الجنات وأهلها بما يحمل العقلاء على العمل الصالح الذى يوصلهم إليها بفضله - تعالى - وكرمه فقال : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلامًا .. ﴾ .

واللغو : هو فضول الكلام ، وما لا قيمة له منه ، ويدخل فيه الكلام الباطل .

وقوله ﴿ إلا سلامًا ﴾ الظاهر فيه أنه استثناء منقطع ، لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

أى : لا يسمعون فيها كلامًا لغوا ، لكنهم يسمعون فيها سلامًا . أى : تسليمًا من الملائكة عليهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم .. ﴾ .

أو يسمعون فيها تسليمًا وتحية من بعضهم على بعض ، كما قال - تعالى - : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ .

قال الآلوسى : قوله إلا سلاما ، استثناء منقطع ، والسلام إما بمعناه المعروف .

أى : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص ، أى : لكن يسمعون كلامًا سالمًا من العيب والنقص .

وجوز أن يكون استثناء متصلاً ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الدم ، كما فى قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهانى الأقوى . والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير ، ولولا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١١١ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ بيان لدوام رزقهم فيها بدون انقطاع ، إذ ليس فى الجنة نهار ولا ليل ، ولا بكرة ولا عشى ...

قال القرطبى ما ملخصه قوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ أى : لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ، أى : فى قدر هذين الوقتين ، إذ لا بكرة ثم - أى هناك - ولا عشيا .. وقيل : رزقهم فيها غير منقطع ...

وخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : قال رجل يارسول الله ، هل فى الجنة من ليل ؟ قال - ﷺ - : « وما هيجك على هذا » ؟ قال : سمعت الله - تعالى - يذكر فى الكتاب : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ فقلت : الليل بين البكرة والعشى . فقال رسول الله - ﷺ - : « ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو ، وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة » .

ثم قال الإمام القرطبى : « وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية ... »[1] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تعظيمه لشأن الجنة تعظيمًا آخر فقال : ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ .

فاسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى ما تقدم من قوله : ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ... ﴾ وقوله ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب .. ﴾ .

أى : تلك هى الجنة العظيمة الشأن ، العالية القدر ، التى نجعلها ميراثًا للمؤمنين الصادقين المتقين من عبادنا ، كما قال - تعالى - : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وكما قال - سبحانه - : ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ نورث ﴾ .. أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث ، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهى الجنة ، فإذا أدخلهم - سبحانه - الجنة ، فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى .. »[2] .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول علمه ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٢٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٨ .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

والتنزل : النزول على مهل . فإنه مطاوع نزل - بالتشديد - ، يقال : نزلته فتنزل ، إذا حدث النزول على مهل وتدرج . وقد يطلق التنزيل بمعنى النزول مطلقًا ، إلا أن المناسب هنا هو المعنى الأول .

والآية الكريمة حكاية لما قاله جبريل للنبى - ﷺ - ، فقد ذكر كثير من المفسرين أن الوحى احتبس عن الرسول - ﷺ - لفترة من الوقت بعد أن سأله المشركون أسئلة تتعلق بأصحاب الكهف . وبذى القرنين وبالروح ، حتى قال المشركون : إن رب محمد - ﷺ - قد قلاه - أى : أبغضه وكرهه - فلما نزل جبريل على النبى - ﷺ - بعد فترة من غياب - قيل خمسة عشر يومًا وقيل أكثر قال له : يا جبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال له جبريل : إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت جئت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله - تعالى - هذه الآية وسورة الضحى »[1] .

وقال الآلوسى : « ولا يأبى ما تقدم فى سبب النزول ما أخرجه أحمد ، والبخارى والترمذى ، والنسائى ، وجماعة ، فى سببه عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك .. ﴾ لجواز أن يكون - ﷺ - قال ذلك فى محاورته السابقة - أيضًا - ، واقتصر فى كل رواية على شىء مما وقع فى المحاورة ... »[2] .

والمعنى : قال جبريل للرسول - ﷺ - عندما سأله عن سبب احتباسه عنه لفترة من الوقت : يا محمد إنى ما أتنزل عليك وقتًا بعد وقت ، إلا بأمر ربك وإرادته ، فأنا عبده الذى لا يعصى له أمرًا ...

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ٨٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١١٤ .

﴿ له ﴾ - سبحانه - ﴿ ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ أى : له وحده جميع الجهات والأماكن ، وجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلة ، وما بين ذلك ، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من وقت إلى وقت إلا بأمر ربك ومشيئته .

فالجملة الكريمة مسوقة لبيان ملكية الله - تعالى - لكل شىء ، وقدرته على كل شىء وعلمه بكل شىء .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ مؤكد لما قبله من إثبات قدرة الله - تعالى - وعلمه .

أى : وما كان ربك - أيها الرسول الكريم - ناسيا أو تاركًا لك أو مهملاً لشأنك ، ولكنه - سبحانه - محيط بأحوالك وبأحوال جميع المخلوقات ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ .

قال ابن كثير : « قال ابن أبى حاتم : حدثنا يزيد بن محمد ... عن أبى الدرداء يرفعه قال : « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾[1] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى : هو رب السموات والأرض ورب ما بينهما ، وهو خالقهما وخالق كل شىء ، ومالكهما ومالك كل شىء .

وما دام الأمر كذلك : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ أى : فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ للإنكار والنفى . والسمى بمعنى المسامى والمضاهى والنظير والشبيه .

أى : هل تعلم له نظيرا أو شبيهًا يستحق معه المشاركة فى العبادة أو الطاعة ؟ كلا ، إنك لا تعلم ذلك ، لأنه - سبحانه - هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، إذ هو الخالق لكل شىء والعليم بكل شىء ، والقادر على كل شىء ، وما سواه إنما هو مخلوق له ، وساجد له طوعًا أو كرهًا ، ولا شبهة فى صفة من صفاته ، فهو - سبحانه - ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٣١ .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من عقيدة البعث . فحكت أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يكبتهم وبينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وأن النجاة فى هذا اليوم للمتقين ، والعذاب والخسران للكافرين قال - تعالى - :

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

ذكر كثير من المفسرين أن قوله - تعالى - : ﴿ ويقول الإنسان ... ﴾ نزل فى أشخاص معينين .

فمنهم من يرى أن هذه الآية نزلت فى « أبى بن خلف » فإنه أخذ عظما باليا ، فجعل يفتته بيده ، ويذريه فى الريح ويقول : زعم محمد - ﷺ - أننا نبعث بعد أن نموت ونصير مثل هذا العظم البالى ومنهم من يرى أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، أو فى العاصى بن وائل ، أو فى أبى جهل .

وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون ﴿ أل ﴾ فى الإنسان للعهد ، والمراد بها أحد هؤلاء الأشخاص ، ويكون لفظ الإنسان من قبيل العام الذى أريد به الخصوص .

ومن الأساليب العربية المعروفة ، إسناد الفعل إلى المجموع ، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم كما يقال : بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم ، ومن هذا القبيل قول الفرزدق :

فسيوف بنو عبس وقد ضربوا به نَبَت بيدَىْ ورقاء من رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس ، مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء الذى كان السيف بيده .

وقيل : المراد بالإنسان هنا : جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث أو المراد : جنس الكافر المنكر للبعث .

و « إذا » فى قوله : ﴿ أئذا ما مت ﴾ منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط .

والمعنى : ويقول هذا الإنسان الجاهل الجحود ، المنكر للبعث والنشور ، أأعود للحياة مرة أخرى بعد موتى ، وبعد أن أكون كالعظام النخرة .

والاستفهام للإنكار والنفى ، وعبر - سبحانه - بالمضارع ﴿ يقول ﴾ لاستحضار تلك الصورة الغريبة ، وتلك الأقوال المنكرة التى صدرت عن هذا الكافر ، أو لإفادة أن هذا القول موجود ومستمر عند كثير من الكافرين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عن هؤلاء الجاحدين : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد ﴾[1] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظامًا نخرة قالوا تلك إذًا كرة خاسرة ﴾[2] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل قولهم ، ويخرس ألسنتهم فقال : ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا ﴾ .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : أيقول هذا الإنسان ذلك القول الباطل ، ولا يتذكر أننا أوجدناه بقدرتنا من العدم ولم يكن شيئًا مذكورًا ، ومن المعروف عند العقلاء ، أن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد وجوده ، أيسر من إيجاده من العدم .

فالآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقى برهانى ، يهدى القلوب إلى الحق ، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق .

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله - تعالى - ﴿ وضرب لنا

(١) سورة ق الآية ٣ .

(٢) سورة النازعات الآيات ١٠ إلى ١٢ .

مثلًا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .. ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾[٢] .

قال الإمام ابن كثير : « وفى الحديث الصحيح - الذى يرويه النبى - ﷺ - عن ربه : « يقول الله - تعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى . أما تكذيبه لى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق أهون على من آخره .

وأما أذاه إياى فقوله : « إن لى ولدًا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد » .

ثم عقب - سبحانه - على هذا التوبيخ والتقريع لهذا الإنسان الجاحد ، بقسم منه - سبحانه - على وقوع البعث والنشور ، فقال : ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ .

والحشر : الجمع . يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم .

والمراد بالشياطين : أولئك الأشرار الذين كانوا فى الدنيا يوسوسون لهم بإنكار البعث .

أى : أقسم لك بذاتى - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء المنكرين للبعث لنجمعنهم جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولنجمعن معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم فى الدنيا .

قالوا : وفائدة القسم أمران : أحدهما : أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين ، والثانى : أن فى إقسام الله - تعالى - باسمه ، مضافا إلى الرسول - ﷺ - رفعا منه لشأنه ، كما رفع من شأن السموات والأرض فى قوله - تعالى - : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ تصوير حسى بليغ لسوء مصيرهم ، ونكد حالهم .

و ﴿ جثيا ﴾ جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه . يقال : جثا فلان يجثو ويجثى جثوا وجثيا فهو جاث إذا جلس على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه . والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا فى موقف شديد ، وأمر ضنك جثوا على ركبهم .

---

(١) سورة يس الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) سورة الواقعة الآية ٦٢ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٧٢ .

أى : فوربك لنحضرنهم يوم القيامة للحساب ومعهم شياطينهم ، ثم لنحضرنهم جميعًا حول جهنم ، حالة كونهم باركين على الركب ، عجزًا منهم عن القيام ، بسبب ما يصيبهم من هول يوم القيامة وشدته .

قال - تعالى - : ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[١] .

ثم يخص - سبحانه - بالذكر المصير المفزع للمتكبرين من هؤلاء الكافرين فيقول : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

والنزع : العزل والإخراج . يقال : نزع السلطان عامله ، إذا عزله وأخرجه من عمله ، والشيعة فى الأصل : الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور ، يقال : تشايع القوم ، إذا تعاونوا فيما بينهم .

و ﴿ عتيا ﴾ أى : خروجا عن الطاعة والاستجابة للأمر ، يقال : عتا فلان يعتو عتوا - من باب قعد - فهو عات إذا استكبر وجاوز حدوده فى العصيان والطغيان .

والمعنى : ثم لنستخرجن من كل طائفة تشايعت وتعاهدت على الكفر بالبعث ، والجحود للحق ، الذين هم أشد خروجًا عن طاعتنا وامتثال أمرنا فنبدأ بتعذيبهم أولاً ، لأنهم أشد من غيرهم فى العتو والعناد والجحود والضلال .

قال الجمل ما ملخصه : « وأظهر الأعاريب فى قوله : ﴿ أيهم أشد ﴾ أن « أى » موصولة بمعنى الذى . وأن حركتها حركة بناء - أى هى مبنية على الضم - ، وأشد خبر مبتدأ مضمر . والجملة صلة لأى . وأيهم وصلتها فى محل نصب مفعولا به لننزعن . وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذى هو أشد ، أى : جراءته على الرحمن أشد من جراءة غيره »[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ بيان لشمول علمه - تعالى - بأحوال هؤلاء الجاحدين ، وبأحوال غيرهم .

و ﴿ صليا ﴾ مصدر صلى النار - كرضى - يصلاها صليا - بكسر الصاد وضمها - إذا ذاق حرها ، واكتوى بها .

أى : ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا ، بالذين هم أحق بجهنم ، وباصطلاء نارها ، وبالاكتواء بحرها وسعيرها ، لأننا لا يخفى علينا شىء من أحوال خلقنا وسنجازى المتقين بما يستحقون من خير وثواب ، وسنجازى الجاحدين بما يستحقون من إهانة وعذاب .

---

(١) سورة الجاثية الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٧٣ .

ثم بين - سبحانه - أن الجميع سيرد جهنم ، فقال : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ .

وللعلماء أقوال متعددة فى المراد بقوله - تعالى - ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ .

فمنهم من يرى أن المراد بورودها : دخولها فجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يدخلونها ، إلا أن النار تكون بردًا وسلامًا على المؤمنين عند دخولهم إياها ، وتكون لهيبًا وسعيرًا على غيرهم .

ومنهم من يرى أن المراد بورودها : رؤيتها والقرب منها والإشراف عليها دون دخولها . كما فى قوله - تعالى - ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أى : أشرف عليه وقاربه .

ومنهم من يرى أن المراد بورودها ، خصوص الكافرين ، أى : أنهم وحدهم هم الذين يردون عليها ويدخلونها . أما المؤمنون فلا يردون عليها ولا يدخلونها .

ويبدو لنا أن المراد بالورود هنا : الدخول ، أى : دخول النار بالنسبة للناس جميعًا إلا أنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمنين ، وهناك أدلة على ذلك منها .

أن هناك آيات قرآنية جاء فيها الورود ، بمعنى الدخول ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾[1] .

ومعنى فأوردهم : فأدخلهم .

يضاف إلى ذلك أن قوله - تعالى - بعد هذه الآية : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ قرينة قوية على أن المراد بقوله ﴿ وإن منكم إلا واردها .. ﴾ أى : داخلها سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا ، إلا أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ينجى الذين اتقوا من حرها ، ويترك الظالمين يصطلون بسعيرها .

كذلك مما يشهد بأن الورود بمعنى الدخول ، ما أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد ؛ والترمذى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم ... عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن ، وقال آخرون يدخلونها جميعًا ، ثم ينجى الله الذين اتقوا .

قال : فلقيت جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - فذكرت له ذلك فقال - وأهوى بإصبعه على أذنيه - صمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « لا يبقى بر

(١) سورة هود الآيات ص ٩٦ ، ٩٨ .

ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا ، كما كانت على إبراهيم ؛ حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا »[1] .

ولا يمنع من كون الورود بمعنى الدخول قوله - تعالى - ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها .. ﴾ لأن دخول المؤمنين فيها لا يجعلهم يشعرون بحرها أو حسيسها ، وإنما هى تكون بردًا وسلامًا عليهم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

قال الإمام القرطبى بعد أن توسع فى ذكر هذه الأقوال : « وظاهر الورود الدخول .. إلا أنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار فيقال لهم : لقد وردتموها فألفيتموها رمادًا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أبعد عنها ونجى منها ، نجانا الله - تعالى - منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالمًا ، وخرج منها غانمًا .

فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعًا يردونها - كما دل عليه حديث جابر - فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم ، فبين الدخولين بون .. »[2] .

والمعنى : وما منكم - أيها الناس - أحد إلا وهو داخل النار ، سواء أكان مسلمًا أم كافرًا ، إلا أنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمنين . وهذا الدخول فيها كان على ربك أمرًا واجبًا ومحتومًا ، بمقتضى حكمته الإلهية ، لا بإيجاب أحد عليه .

﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ أى : ثم بعد دخول الناس جميعًا النار ، ننجى الذين اتقوا ، فنخرجهم منها دون أن يذوقوا حرها ﴿ ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ أى : ونترك الظالمين فى النار مخلدين فيها . جاثين على ركبهم، عاجزين عن الحركة ، من شدة ما يصيبهم من هولها وسعيرها .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا أقوال الجاحدين فى شأن البعث والحساب ، وردت عليهم ردًا يبطل أقوالهم ، كما أثبتت أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الظالمين سيدخلون النار ، وأن المؤمنين سينجيهم الله - تعالى - بفضله منها .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٣٢ . الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢١ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٣٩ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك موقف الكافرين عند سماعهم لآيات الله - تعالى - كما تسوق ما قالوه للمؤمنين على سبيل التفاخر عليهم ، وما رد به القرآن على هؤلاء المترفين المتعالين ، قال - تعالى - :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ... ﴾ حكاية لما قاله الكافرون للمؤمنين على سبيل التباهى والتفاخر .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء المشركين المنكرين للبعث آياتنا البينات الواضحات ، الدالة على صحة وقوع البعث والحساب يوم القيامة ﴿ قال الذين كفروا ﴾ على سبيل العناد والتعالى ﴿ للذين آمنوا ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قالوا لهم انظروا ﴿ أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ .

والمقام - بفتح الميم - : مكان القيام والمراد به مساكنهم ومنازلهم التى يسكنونها وينزلون بها .

والندى والنادى والمنتدى : مجلس القوم ومكان تجمعهم .

يقال : ندوت القوم أندوهم ندوا ، إذا جمعتهم فى مجلس للانتداء . ومنه : دار الندوة للمكان الذى كانت تجتمع فيه قريش للتشاور فى أمورها .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أن البعث

حق . قالوا للمؤمنين على سبيل الاحتقار لهم : نحن وأنتم أينا خير من الآخر مكانا ، وأحسن مجلسا ومجتمعا فهم يتفاخرون على المؤمنين بمساكنهم الفارهة ، ومجالسهم التى يجتمع فيها أغنياؤهم ووجهاؤهم .

قال الجمل فى حاشيته : « أى قالوا للمؤمنين : انظروا إلى منازلنا فتروها أحسن من منازلكم وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم ، فترونا نجلس فى صدر المجلس ، وأنتم جالسون فى طرفه الحقير . فإذا كنا بهذه المثابة وأنتم بتلك فنحن عند الله خير منكم ، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله بهذه الأمور كما أكرمنا بها »[١] .

وما حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الكافرين فى هذه الآية ، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولادًا وما نحن بمعذبين ﴾[٢] .

وقد رد الله - تعالى - على هؤلاء الجاهلين المغرورين بقوله : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا ﴾ .

و ﴿ كم ﴾ هنا خبرية ، ومعناها الاخبار عن العدد الكثير وهى فى محل نصب على المفعول به لجملة ﴿ أهلكنا ﴾ و ﴿ من قرن ﴾ تمييز لها . والقرن : اسم لأهل كل أمة تتقدم فى الوجود على غيرها ، مأخوذ من قرن الدابة لتقدمه فيها .

و ﴿ الأثاث ﴾ المتاع للبيت . وقيل : هو الجديد من الفراش ، وقد يطلق على المال بصفة عامة .

و ﴿ رئيا ﴾ أى : منظرا وهيئة ومرأى فى العين مأخوذ من الرؤية التى تراها العين .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتباهين بمساكنهم ومجالسهم : لا تفتخروا ولايغرنكم ما أنتم فيه من نعيم ، فإنما هو نوع من الاستدراج ، فإن الله - تعالى - قد أهلك كثيرا من الأمم السابقة عليكم ، كانوا أحسن منكم متاعا وزينة ، وكانوا أجمل منكم منظرا وهيئة فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم ومظهرهم الحسن ، عندما أراد الله - تعالى - إهلاكهم بسبب كفرهم وجحودهم .

فالآية الكريمة تهديد للكافرين المعاصرين للنبى - ﷺ - ورد على أقوالهم الباطلة ، وعنجهيتهم الذميمة إذ لو كانت المظاهر والأمتعة والهيئات الحسنة تنفع أصحابها ، لنفعت أولئك المهلكين من الأمم السابقة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٧٤ .
(٢) سورة سبأ الآية ٣٥ .

وشبيه بهذه الآية فى الرد على هؤلاء الكافرين قوله - تعالى - : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ﴾(٢) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يضيف إلى تهديدهم السابق تهديدا آخر فقال : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا .. ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتفاخرين بمساكنهم ومظاهرهم .. قل لهم : من كان منغمسا فى الضلالة والشقاوة والغفلة .. فقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يمد له العطاء كأن يطيل عمره ويوسع رزقه ، على سبيل الاستدراج والإمهال ..

فصيغة الطلب وهى قوله - تعالى - : ﴿ فليمدد ﴾ على هذا التفسير ، المراد بها : الإخبار عن سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وهى أن سننه - تعالى - قد اقتضت أن يمهل الضالين ، وأن يزيدهم من العطاء الدنيوى ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(٣) .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾(٤) .

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا التفسير فقال ما ملخصه : قوله ﴿ قل من كان فى الضلالة ... ﴾ أمر منه - تعالى - لرسوله ﷺ بأن يجيب على هؤلاء المتفاخرين بما لهم من الحظوظ الدنيوية ..

وقوله: ﴿فليمدد له الرحمن مدا﴾ أى: يمد -سبحانه- له ويمهله بطول العمر، وإعطاء المال ، والتمكن من التصرفات ، فالطلب فى معنى الخبر واختير للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير فيكون حاصل المعنى : من كان فى الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مدا وجوز أن يكون ذلك للاستدراج .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣٧ .
(٢) سورة القلم الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

وحاصل المعنى : من كان فى الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه[١] .

ومن المفسرين من يرى أن صيغة الطلب وهى ﴿ فليمدد ﴾ على بابها ، ويكون المقصود بالآية الدعاء على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلال .

وعليه يكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم لهؤلاء المتفاخرين ، من كان منا أو منكم على الضلالة ، فليزده الله من ذلك ، وكأن الآية الكريمة تأمر الرسول - ﷺ - بمباهلة المشركين كما أمره الله - تعالى - فى آية أخرى بمباهلة اليهود فى قوله : ﴿ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين .. ﴾[٢] .

وكما أمر الله بمباهلة النصارى فى قوله - سبحانه - ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾[٣] .

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمامان ابن جرير وابن كثير ، فقد قال ابن كثير : يقول - تعالى - ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿ من كان فى الضلالة ﴾ أى منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مدا ﴾ أى : فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله .. قال مجاهد فى قوله ﴿ فليمدد له الرحمن مدا ﴾ فليدعه الله فى طغيانه هكذا ، قرر ذلك أبو جعفر بن جرير ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر - تعالى - مباهلة اليهود والنصارى ..[٤] .

ومع وجاهة التفسيرين لمعنى ﴿ فليمدد له .. ﴾ إلا أننا نميل إلى الرأى الأول وهو أن صيغة الطلب يراد بها الإخبار عن سنة الله - تعالى - فى الضالين ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى .. ﴾ يؤيد هذا الرأى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون .. ﴾ متعلق بما قبله .

أى : فليمدد له الرحمن مدا على سبيل الاستدراج والإمهال ، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعدهم الله - تعالى - به ، علموا وأيقنوا أن الأمر بخلاف ما كانوا يظنون وما كانوا يقولون لأنهم سينزل الله - تعالى - بهم ﴿ إما العذاب ﴾ الدنيوى على أيدى المؤمنين ﴿ وإما الساعة ﴾ أى : وإما عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢٦ .
(٢) سورة الجمعة الآية ٦ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٦١ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٣٤ .

وحينئذ يعلمون ويوقنون ﴿ من هو ﴾ من الفريقين ﴿ شر مكانا ﴾ أى : أسوأ منزلا ومسكنا ﴿ وأضعف جندا ﴾ وأضعف أعوانا وأنصارا .

وهذه الجملة الكريمة رد على قول المشركين قبل ذلك : ﴿ أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى .. ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سنة الله - تعالى - التى لا تتخلف فى المهتدين ، بعد بيان سنته فى الضالين .

أى : ويزيد الله - تعالى - المهتدين إلى طريق الحق هداية على هدايتهم ، بأن يثبتهم عليه ، كما قال - سبحانه - : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ . وكما قال - عز وجل - : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .. ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ﴾ أى : والأعمال الباقيات الصالحات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من أعمال البر ، خير عند ربك ثوابا وجزاء مما تمتع به الكفار فى دنياهم من شهوات ﴿ وخير مردا ﴾ أى : مرجعا وعاقبة .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : خير عند ربك ثوابا ، كأن لمفاخراتهم ثوابا ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرا منه ؟ .

قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار على طريقة قوله : تحية بينهم ضرب وجيع ، ثم بنى عليه خير ثوابا ، وفيه ضرب من التهكم الذى هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك النار ..[1] .

والخلاصة أنه لا ثواب لهؤلاء الكافرين سوى النار ، أما المؤمنون فثوابهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وقال بعض العلماء : « ويظهر لى فى الآية جواب آخر أقرب من هذا ، وهو أن الكافر يجازى بعمله الصالح فى الدنيا ، فإذا بر والديه ، ونفس عن المكروب .. فإن الله يثيبه فى الدنيا . فثوابه هذا الراجع إليه من عمله فى الدنيا ، هو الذى فضل عليه ثواب المؤمنين ، وهذا واضح لا إشكال فيه »[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت جانبا من تباهى الكافرين بدنياهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٨ .
(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى جـ ٤ ص ٣٦٤ .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا آخر من ألوان تبجحهم ، وأقوالهم الباطلة ، وردت عليها بأسلوب منطقى حكيم فقال - تعالى - :

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه البخارى ومسلم عن خباب بن الأرت قال : جئت العاص بن وائل السهمى أتقاضاه حقا لى عنده ، فقال لى : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ - فقلت له : لا ، والله لا أكفر بمحمد - ﷺ - حيا ولا ميتا ولا إذا بعثت . فقال العاص : فإذا بعثت جئتنى ولى هناك مال وولد فأعطيك حقك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .

وفى رواية أن رجالا من أصحاب النبى - ﷺ - أتوا العاص يتقاضون دينا لهم عليه فقال : ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى . قال : « موعدكم الآخرة والله لأوتين مالا وولدا »[1] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ أفرأيت .. ﴾ للتعجيب من شأن هذا الكافر الجهول والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والتقدير : أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجهول الذى كفر بآياتنا الدالة على وحدانيتنا ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن ما جاء به رسولنا - ﷺ - حق وصدق ...

ولم يكتف بهذا الكفر ، بل قال بكل تبجح ، وإصرار على الباطل ، واستهزاء بالدين الحق : والله ﴿ لأوتين ﴾ فى الآخرة ﴿ مالا وولدا ﴾ كما هو حالى فى الدنيا .

فأنت ترى أن هذا الكافر لم يكتف بكفره ، بل أضاف إليه القول الباطل المصحوب بالقسم الكاذب ، وبالتهكم بالدين الحق .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢٩ .

وقرأ حمزة والكسائى: ﴿ لأوتين مالا وَوُلْدا ﴾- بضم الواو الثانية وسكون اللام-، وقرأ الباقون بفتحهما . قالوا : والقراءتان بمعنى واحد كالعرب والعُرب . ويرى بعضهم الولد بالفتح للمفرد ، والولد - بضم الواو وسكون اللام - للجمع .

وقد رد الله - تعالى - على هذا المتبجح المغرور ردًا حكيما ملزما فقال: ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا ... ﴾

والاستفهام للإنكار والنفى ، والأصل : أأطلع فحذفت همزة الوصل للتخفيف .

والمعنى : إن قول هذا الجاهل إما أن يكون مستندا إلى اطلاعه على الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه فى الآخرة مالا وولدا ، وإما أن يكون مستندا إلى عهد أعطاه الله - تعالى - له بذلك .

ومما لاشك فيه أن كلا الأمرين لم يتحققا بالنسبة له ، فهو لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، فثبت كذبه وافتراؤه ، ولذا كذبه الله - تعالى - بقوله ﴿ كلا ﴾ وهو قول يفيد الزجر والردع والنفى .

أى : كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا . بل قال ذلك افتراء على الله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ﴾ بيان للمصير السيئ الذى سيصير إليه هذا الشقى وأمثاله ، و ﴿ نمد ﴾ من المد وأكثر ما يستعمل فى المكروه .

أى : سنسجل على هذا الكافر ما قاله ، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا ، ونزيده عذابا فوق العذاب المعد له ، بأن نضاعفه له ؛ ونطيله عليه ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أى : ما يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد ، بأن نسلبه منه ، ونجعله يخرج من هذه الدنيا خالىَ الوفاض منها، وليس معه فى قبره سوى كفنه ، ﴿ ويأتينا فردا ﴾ أى: ويأتينا يوم القيامة بعد مبعثه منفردا بدون مال أو ولد أو خدم أو غير ذلك مما كان يتفاخر به فى الدنيا هو وأشباهه من المغرورين الجاحدين .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : سنكتب بسين التسويف وهو كما قاله كتبه من غير تأخير قال - تعالى - : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ؟ .

قلت : فيه وجهان : أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة ... ولم تجدى من أن تقرى بها بدا

أى : تبين وعلم بالانتساب أنى لم تلدنى لئيمة .

والثانى : أن المتوعد يقول للجانى : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن

تطاول به الزمان واستأخر ، فجرد هاهنا لمعنى الوعيد ..[١] .

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا أخرى من رذائل المشركين ، فتحكى اعتزازهم بأوثانهم ، وتثبت عداوة هذه الأوثان لهم يوم القيامة ، وتبشر المؤمنين برضا الله - تعالى - عنهم . وتنذر الكافرين بالسوق إلى جهنم .. قال - تعالى - :

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ
الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

والضمير فى قوله : ﴿ واتخذوا ﴾ يعود إلى أولئك الكافرين الذين ذكر القرآن فيما سبق بعض رذائلهم ودعاواهم الكاذبة ، ولما تنته بعد .

أى : واتخذ هؤلاء الجاهلون آلهة باطلة يعبدونها من دون الله - تعالى - لتكون لهم تلك الآلهة ﴿ عزا ﴾ أى - لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة والنجاة من عذاب يوم القيامة .

فقد حكى القرآن أنهم كانوا إذا سئلوا عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... ﴾ .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يردعهم عن هذا الظن لو كانوا يعقلون فقال : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٠ .

و ﴿ كلا ﴾ لفظ جيء به لزجرهم وردعهم عن هذا الاتخاذ الفاسد الباطل . أى : ليس الأمر كما توهم الجاهلون من أن أصنامهم ستكون لهم عزا ، بل الحق أن هذه المعبودات الباطلة ستكون عدوة لهم . وقرينتهم فى النار .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ﴾[2] .

وأفرد - سبحانه - ﴿ عزا وضدا ﴾ مع أن المراد بهما الجمع . لأنهما مصدران ثم بين - عزوجل - أن هؤلاء الكافرين قد استحوذت عليهم الشياطين فزادتهم كفرا على كفرهم ، فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ .

والاستفهام للتقرير والتأكد و ﴿ تؤزهم ﴾ تحركهم تحريكا قويا . وتهزهم هزا شديدًا ، وتحرضهم على ارتكاب المعاصى والموبقات حتى يقعوا فيها .

يقال : أز فلان الشيء يئزه ويؤزه .. بكسر الهمزة وضمها أزا ، إذا حركه بشدة ، وأز فلان فلانا ، إذا أغراه وهيجه وحثه على فعل شيء معين ،وأصله من أزت القدر تؤز أزيزا ، إذا اشتد غليان الماء فيها .

والمعنى : لقد علمت أنت وأتباعك أيها الرسول الكريم ، أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ، وسلطناهم عليهم ، وقيضناهم لهم ، لكى يحضوهم على ارتكاب السيئات ، ويحركوهم تحريكا شديدًا نحو الموبقات حتى يقترفوها وينغمسوا فيها ..

ومادام الأمر كذلك . فذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ولا تتعجل وقوع العذاب بهم . فإن الله - تعالى - قد حدد - بمقتضى حكمته - وقتا معينا لنزول العذاب بهم .

وقوله : ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ تعليل لموجب النهى ببيان أن وقت هلاكهم قد اقترب ، إذ كل معدود له نهاية ينتهى عندها .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ يعنى الأيام والليالى والشهور

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٥ ، ٦ .

(٢) سورة فاطر الآية ١٤ .

والسنين إلى انتهاء أجل العذاب .. وقال الضحاك : نعد أنفاسهم وقال قطرب : نعد أعمالهم عدا .

روى أن المأمون قرأ هذه السورة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد ، وقيل فى هذا المعنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منك انتقصت به جزءا
يميتك ما يحييك فى كل ليلة ويحدوك حاد ما يريد به الهزءا[1]

وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد : خروج نفسك . آخر العدد : فراق أهلك آخر العدد : دخول قبرك .

ثم بين - سبحانه - عاقبة المتقين ، وعاقبة المجرمين يوم القيامة فقال : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ و ﴿ يوم ﴾ ظرف منصوب بقوله : ﴿ لا يملكون .. ﴾ . أى : لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين .. ويجوز أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره : اذكر أو احذر ..

وقوله : ﴿ وفدا ﴾ جمع وافد . يقال : وفد فلان على فلان يفد وفدا ووفودا ، إذا أقدم عليه ، وفعله من باب وعد .

ويطلق الوفد على الجمع من الرجال الذين يفدون على غيرهم لأمر من الأمور الهامة ، وهم راكبون على دوابهم . وهذا الإطلاق هو المراد باللفظ هنا .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم القيامة ، يوم نحشر المتقين إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته راكبين على مراكب تنشرح لها النفوس وتسر لها القلوب .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يخبر الله -تعالى - عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه . والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة . وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج .. عن ابن مرزوق قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها ، وأطيبها ريحا ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٥٠ .

تعرفنى ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله – تعالى – طيب ريحك وحسن وجهك . فيقول : أنا عملك الصالح .. فهلم فاركبنى فذلك قوله : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾[١] .

وقوله – تعالى – : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ بيان لسوء عاقبة المجرمين بعد بيان ما أعده الله للمتقين من نعيم .

و ﴿ وردا ﴾ أى : عطاشا . وأصل الورد الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد .

أى : ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم فى دنياهم ، نسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم . حالة كونهم عطاشا ، يبحثون عن الماء فلا يجدونه .

والضمير فى قوله – تعالى – : ﴿ لا يملكون الشفاعة .. ﴾ يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين فى قوله ﴿ نسوق المجرمين .. ﴾ .

أى : نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا ، حالة كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم ، ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم ، لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكونها بتمليك الله – تعالى – لهم إياها وإذنه لهم فيها ، كما قال – تعالى – : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه .. ﴾ وكما قال – سبحانه – : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[٢] .

وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعًا .

قال القرطبى : « قوله – تعالى – : ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أى : هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا ﴾ وهم المسلمون فيملكونها ، فهو استثناء الشىء من غير جنسه . أى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا يشفع ، فمن فى موضع نصب على هذا ... ويرى آخرون أن الضمير فى قوله : ﴿ لا يملكون ... ﴾ يعود إلى فريقى المتقين والمجرمين .

أى : لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة الشفاعة لأحد ، ولا يملك غيرهم الشفاعة لهم ، ﴿ إلا من اتخذ ﴾ منهم ﴿ عند الرحمن عهدًا ﴾ وهم المؤمنون فإنهم يملكون بإذن الله لهم .

والمراد بالعهد الأمر والإذن ، يقال : عهد الأمير إلى فلان بكذا ، إذا أمره به . أو أذن له فى فعله .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٣٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٥٣ .

وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً ، ويكون لفظ ﴿ من ﴾ بدل من الواو فى ﴿ يملكون ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ ضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين ، أى : العباد مطلقًا ... وقوله ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا ﴾ استثناء متصل ... والمعنى : لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم ، إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع وهو المراد بالعهد ... »[1] .

ويبدو لنا أن هذا القول أولى ، لشموله وعمومه إذ الكلام السابق فى الفريقين جميعًا ، فريق المتقين وفريق المجرمين .

ثم يستطرد السياق القرآنى ، إلى حكاية أقوال أخرى ، من أقوال الكافرين الباطلة ، وهى زعمهم أن لله - تعالى - ولدًا ، فقال - سبحانه - :

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا
﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ﴾ يشمل كل من تفوه بهذا القول الباطل سواء أكان من اليهود أم من النصارى أم من المشركين .

وقوله : ﴿ لقد جئتم شيئًا إدا ﴾ توبيخ وتقريع من الله - تعالى - لهم على هذا القول المنكر .

أى : لقد جئتم بقولكم هذا أيها الضالون شيئًا فظيعًا عجيبًا منكرًا تقشعر لهوله الأبدان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٣٧ .

والإد والإدة - بكسر الهمزة - الأمر الفظيع والداهية الكبيرة . يقال : فلان أدته الداهية فهى تئده وتؤده ، إذا نزلت به وحطمت كيانه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ... ﴾ فى موضع الصفة لقوله ﴿ إدا ﴾ .

أى : لقد جئتم بقولكم هذا أمرًا منكرًا فظيعًا ، تكاد السموات ﴿ يتفطرن منه ﴾ أى : يتشققن من هوله ، من التفطير بمعنى التشقيق ، يقال : فلان فطر هذا الشىء يفطره - بكسر الطاء وضمها - إذا شقه . وقرأ حمزة وابن عامر ﴿ ينفطرن ﴾ من الانفطار وهو الانشقاق - أيضًا - .

﴿ وتنشق الأرض ﴾ أى : وتتصدع الأرض من عظمه ، وتنخسف بهؤلاء القائلين ذلك القول الفاسد ، ﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ أى : وتسقط الجبال مهدودة - أيضًا - من فظاعة هذا القول . يقال : هذا الجدار يهده - بضم الهاء - هدًّا : إذا هدمه .

وقوله : ﴿ أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ بمنزلة التعليل لما قبله مع تقدير لام التعليل المحذوفة .

أى : تكاد السموات يتفطرن والأرض تتشقق ، والجبال تنهد ، لأن هؤلاء الضالين قد زعموا أن لله - تعالى - ولدا ، والحال أنه ما يصح وما يليق أن يتخذ الرحمن ولدا ، لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « إن قلت : ما معنى هذا التأثر من أجل هذه الكلمة ؟.

قلت : فيه وجهان : أحدهما أن الله - سبحانه - يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها .. لولا أنى لا أعجل بالعقوبة ...

والثانى : أن يكون استعظامًا للكلمة ، وتهويلًا من فظاعتها وتصويرًا لأثرها فى الدين ، وهدمها لأركانه وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التى هى قوام العالم : ما تنفطر منه وتنشق وتخر .. »[1] .

وقال الإمام القرطبى : « نفى عن نفسه - سبحانه وتعالى - الولد ، لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث .. ولا يليق به ذلك ، ولا يوصف به ، ولا يجوز فى حقه ...

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٤ .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : يقول الله - تبارك وتعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى . وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »[١] .

ثم بين - سبحانه - أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته وإرادته وعلمه فقال : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ... ﴾ .

و ﴿ إن ﴾ نافية بمعنى ما ، أى : ما من أحد من أهل السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرًا له - سبحانه - بالعبودية ، خاضعًا لقدرته ، معترفًا بطاعته . مقرًا بأنه عبد من مخلوقاته . ومن كان كذلك فكيف يكون له ولد ؟

وصدق الله إذ يقول : ﴿ بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾[٢] .

ثم أكد - سبحانه - أنه هو المالك لكل شىء ، والعليم بكل شىء فقال : ﴿ لقد أحصاهم ﴾ .

أى : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته ﴿ وعدهم عدا ﴾ أى : وعد أشخاصهم وذواتهم وحركاتهم وسكناتهم .. بحيث لا يهربون من قبضته ، ولا يخفى عليه أحد منهم ..

﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ﴾ أى : وكل واحد يأتيه - سبحانه - يوم القيامة منفردًا ، بدون أهل أو مال أو جاه ... أو غير ذلك مما كانوا يتفاخرون به فى الدنيا .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت أبلغ رد وأحكمه . على أولئك الضالين الذين زعموا أن لله ولدًا .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما أعده لعباده المؤمنين وببيان بعض الخصائص التى جعلها لكتابه الكريم .. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٥٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

أى : إن الذين امنوا بالله – تعالى – حق الإيمان ، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿ سيجعل لهم الرحمن ﴾ فى دنياهم وفى آخرتهم ﴿ ودا ﴾ أى : سيجعل لهم محبة ومودة فى القلوب ، لإيمانهم وعملهم الصالح ، يقال : ود فلان فلانا ، إذا أحبه وأخلص له المودة .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ – : « إن الله – تعالى – إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أحب فلانًا فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانًا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبدًا دعا جبريل فقال : ياجبريل إنى أبغض فلانًا فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه .

قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض »[1] .

ثم بين – سبحانه – الحكمة التى من أجلها جعل القرآن ميسرا فى حفظه وفهمه فقال : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قومًا لدا ﴾ .

أى : إننا أنزلنا هذا القرآن على قلبك – أيها الرسول الكريم – وجعلناه بلسانك العربى المبين ، وسهلنا حفظه وفهمه على الناس ، ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ الذين امتثلوا أمرنا واجتنبوا نهينا ﴿ وتنذر به قومًا لدا ﴾ أى : ذوى لدد وشدة فى الخصومة بالباطل ، وهم مشركو قريش فقوله ﴿ لدا ﴾ جمع ألد ومنه قوله – تعالى – : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾[2] أى أشد الناس خصومة وجدلاً .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله – تعالى – : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[3] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٦١ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤ .
(٣) سورة القمر آية ١٧ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى تخبر عن سنة من سننه فى الظالمين فقال : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا ﴾ .

أى : وكثير من القرى الظالمة التى سبقتك - أيها الرسول الكريم - قد أهلكناها وأبدناها وجعلناها خاوية على عروشها .

والاستفهام فى قوله ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ للنفى : أى : ما تحس منهم أحدًا ولا ترى منها ديارًا . يقال : أحس الرجل الشىء إحساسًا ، إذا علمه وشعر به .

وقوله ﴿ أوتسمع لهم ركزًا ﴾ معطوف على ما قبله ، والركز . الصوت الخفى . ومنه قولهم : ركز فلان رمحه ، إذا غيب طرفه وأخفاه فى الأرض . ومنه الركاز للمال المدفون فى الأرض .

والمعنى : أهلكنا كثيرًا من القرى الظالمة الماضية ، فأصبحت لا ترى منهم أحدًا على الإطلاق ، ولا تسمع لهم صوتًا حتى ولو كان صوتًا خافتًا ضعيفًا وإنما هم فى سكون عميق ، وصمت رهيب ، بعد أن كانوا فوق هذه الأرض يدبون ويتحركون .

وهذه سنتنا التى لا تتخلف فى الظالمين . ﴿ نمتعهم قليلًا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ نعوذ بالله - تعالى - من ذلك .

وبعد : فهذا تفسير لسورة مريم ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر ،

ظهر الاثنين ١٧ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٦ / ٧ / ١٩٨٤ م .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) سورة الدخان آية ٥٨ .

تفسير

سُورَة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، ومن والاه .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة « طه » يأتى فى أعقاب تفاسير أخرى ، لسور أخرى .. .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

٢٢ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ ٢٢/٧/ ١٩٨٤ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة طه

١ - سورة « طه » من السور المكية . وكان ترتيبها فى النزول بعد سورة مريم .

قال الآلوسى : « وتسمى - أيضا - بسورة الكليم .. وآياتها - كما قال الدانى - مائة وأربعون آية عند الشاميين ومائة وخمس وثلاثون عند الكوفيين ، ومائة وأربع وثلاثون عند الحجازيين »[1] .

وقال القرطبى : « سورة طه - عليه السلام - مكية فى قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر - رضى الله عنه - ، فقد قيل له : إن ختنك وأختك قد صَبَوا - أى : دخلا فى الإسلام - فأتاهما وعندهما رجل من المهاجرين .. يقال له : خباب وكانوا يقرءون « طه » .. »[1] .

٢ - وقد افتتحت السورة الكريمة بخطاب النبى - ﷺ - وببيان وظيفته ، وببيان سمو منزلة القرآن الكريم : الذى أنزله عليه ربه الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

قال - تعالى - : ﴿ طه . ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى ... ﴾ .

٣ - ثم فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فبدأت بنداء الله - تعالى - له ، وباختياره لحمل رسالته . ثم تحدثت عن تكليفه - سبحانه - لموسى ، بالذهاب إلى فرعون . .

قال - تعالى - : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى.قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى.يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى ﴾ .

٤ - ثم حكت السورة ما دار بين موسى وبين فرعون من مناقشات ومجادلات ، وكذلك ما دار بين موسى وبين السحرة الذين جمعهم فرعون لمنازلة موسى - عليه السلام - وكيف أن السحرة انتهى أمرهم بالإيمان ، وبقولهم لفرعون : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٤٧ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٦٣ .

والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ﴾ .

٥ - ثم بينت السورة الكريمة ما فعله بنو إسرائيل فى غيبة موسى عنهم ، وكيف أن السامرى قد أضلهم بأن جعلهم يعبدون عجلا له خوار ... وكيف أن موسى رجع إليهم غضبان أسفا .. فحطم العجل وأحرقه وألقاه فى اليم وهو يقول : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله هو وسع كل شىء علما ﴾ .

٦ - وبعد أن فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - عقبت على ذلك ببيان وظيفة القرآن الكريم ، وببيان جانب من أهوال يوم القيامة ، وسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين .

قال - تعالى - : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ .

٧ - ثم ساقت السورة فى أواخرها جانبا من قصة آدم ، فذكرت سجود الملائكة له ، ونسيانه لأمر ربه ، وقبول الله - تعالى - لتوبة آدم بعد أن وسوس له الشيطان بما وسوس .. .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ .

٨ - ثم ختمت السورة الكريمة بأمر النبى - ﷺ - بالصبر وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - وبعدم التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا ، وبأمر أهله بالصلاة . وبالرد على مزاعم المشركين ، وبتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على ضلالهم . .

قال - تعالى - : ﴿ قل كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ .

٩ - هذا عرض إجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها سورة طه . ومن هذا العرض نرى : أن القصة قد أخذت جانبا كبيرا منها . وكذلك الحديث عن القرآن الكريم وعن يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه .. قد تكرر فيها بأسلوب يهدى للتى هى أقوم . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

افتتحت السورة الكريمة بلفظ ﴿ طه ﴾ ، وهذا اللفظ أظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم .

وقد بينا بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ... آراء العلماء فى المقصود بهذه الحروف .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن الكريم ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه والتعجيز لمن عارضوا فى كون القرآن من عند الله - تعالى - ، أو فى كونه معجزة للنبى - ﷺ - دالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقيل : إن هذا اللفظ بمعنى يارجل فى لغة بعض قبائل العرب .. .

وقيل : إنه اسم للرسول - ﷺ - أو للسورة .. إلى غير ذلك من الأقوال التى رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ .

استئناف مسوق لتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من المشركين ، والشقاء يأتى فى اللغة بمعنى التعب والعناء ، ومنه المثل القائل « أشقى من رائض مهر » أى : أتعب . ومنه قول أبى الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

أى : ما أنزلنا عليك القرآن - أيها الرسول الكريم - لكى تتعب وتجهد نفسك هما وغما بسبب إعراض المشركين عن دعوتك ، كما قال - تعالى - :﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ .

وإنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله ، ولتبلغ آياته ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ومنهم من يرى أن المقصود بالآية النهى عن المغالاة فى العبادة ، فقد أثر عنه - ﷺ - أنه قام الليل حتى تورمت قدماه فيكون المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لكى تهلك نفسك بالعبادة ، وتذيقها ألوان المشقة والتعب ، فإن الله - تعالى - يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج .

ومنهم من يرى أن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين قالوا: ما أنزل هذا القران على محمد - ﷺ - إلا ليشقى ، فيكون المراد بالشقاء ما هو ضد السعادة .

قال القرطبى ما ملخصه : « وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب ، بسبب فرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم .. أى : ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر . .

وروى أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا للنبى - ﷺ - إنك لشقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد الرد على ذلك بأن دين الإسلام ، وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها .

وروى أنه - عليه الصلاة والسلام - صلى بالليل حتى اسمندّت قدماه - أى : تورمت - فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا ، أى : ماأنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ..[1] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة وإن كانت تتسع لهذه المعانى الثلاثة ، إلا أن المعنى الأول

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٦٨ .

أظهرها ، وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة ، فإن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن .

أى : ماأنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لتتعب من فرط تأسفك على كفر الكافرين ، وإنما أنزلناه من أجل أن يكون ﴿ تذكرة ﴾ أى موعظة تلين لها قلوب من يخشى عقابنا ، ويخاف عذابنا ، ويرجو ثوابنا .

وما دام الأمر كذلك فامض فى طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، ثم بعد ذلك لا تتعب نفسك بسبب كفر الكافرين ، فإنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .

وخص - سبحانه - التذكرة بمن يخشى دون غيره ، لأن الخائف من عذاب الله - تعالى - هو وحده الذى ينتفع بهدايات القرآن الكريم وآدابه وتوجيهاته وأحكامه ووعده ووعيده .. كما قال - تعالى - : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وكما قال - سبحانه - : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أى : الساعة .

ثم بين - سبحانه - مصدر القرآن الذى أنزله - تعالى - للسعادة لا للشقاء فقال : ﴿ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴾ .

وقوله ﴿ تنزيلا ﴾ منصوب بفعل مضمر دل عليه قوله ﴿ ما أنزلنا ..﴾ . أى : نزل هذا القرآن تنزيلا ممن خلق الأرض التى تعيشون عليها ، وممن خلق السموات العلى ، أى : المرتفعة . جمع العليا ككبرى وكبر ، وصغرى وصغر .

ثم مدح - سبحانه - ذاته بقوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ أى : الرحمن - عز وجل - استوى على عرش ملكه استواء يليق بذاته بلا كيف أو تشبيه ، أو تمثيل .

قال الإمام مالك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية من آيات القرآن الكريم .

قال بعض العلماء : « أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة - ومنهم الأئمة الأربعة - إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ؟ لاستحالة اتصافه - تعالى - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه - تعالى - عما لا يليق به : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - ..»[(١)] .

---

(١) تفسير صفوة البيان جـ ١ ص ٢٩٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

ثم أكد - سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ من كائنات وموجودات ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة ، وله ﴿ ما بينهما ﴾ من مخلوقات لا يعلمها إلا هو وله ﴿ما تحت الثرى﴾ والثرى: هو التراب الندى. يقال: ثريت الأرض - كرضيت - إذا نديت ولانت بعد أن كانت جدباء يابسة .

والمقصود : وله - سبحانه - بجانب ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، ماوراء الثرى وهو تخوم الأرض وطبقاتها إلى نهايتها .

وخص - سبحانه - ما تحت الثرى بالذكر ، مع أنه داخل فى قوله : ﴿ وما فى الأرض ﴾ لزيادة التقرير ، ولتأكيد شمول ملكيته - سبحانه - لكل شىء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ بيان لشمول علمه بكل شىء ، بعد بيان شمول قدرته .

والجهر بالقول : رفع الصوت به . والسر : ما حدث به الإنسان غيره بصورة خفية . وأخفى أفعل تفضيل وتنكيره للمبالغة فى الخفاء .

والمعنى : وإن تجهر - أيها الرسول - بالقول فى دعائك أو فى مخاطبتك لربك ، فربك - عز وجل - غنى عن ذلك ، فإنه يعلم ما يحدث به الإنسان غيره سرا ، ويعلم أيضا ما هو أخفى من ذلك وهو ما يحدث به الإنسان نفسه دون أن يطلع عليه أحد من الخلق .

قال - تعالى - : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[2] .

ومنهم من يرى أن لفظ ﴿أخفى﴾ فعل ماض. فيكون المعنى: وإن تجهر بالقول فى ذكر أو دعاء فلا تجهد نفسك بذلك فإنه - تعالى - يعلم السر الذى يكون بين اثنين ، ويعلم ما أخفاه - سبحانه - عن عباده من غيوب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما سيفعله الإنسان من أعمال فى المستقبل ، قبل أن يعلم هذا الإنسان أنه سيفعلها .

قال الجمل : وقوله : ﴿ أخفى ﴾ جوزوا فيه وجهين : أحدهما : أنه أفعل تفضيل . أى : وأخفى من السر . والثانى : أنه فعل ماض . أى : وأخفى الله من عباده غيبه ، كقوله :

---

(١) سورة الملك الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة ق الآية ١٦ .

﴿ ولا يحيطون به علما ﴾[١] .

ثم أثنى – سبحانه – على ذاته بما هو أهل له فقال : ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ .

أى : هو الله – تعالى – وحده الذى يجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء ﴿ الحسنى ﴾ أى : الفضلى والعظمى ، لدلالتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والنهاية فى السمو والكمال .

وفى الحديث الصحيح عن النبى – ﷺ – : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » .

قال – تعالى – : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾[٢] .

وقال – سبحانه – : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى .. ﴾[٣] .

ثم ساقت السورة الكريمة بشىء من التفصيل جانبا من قصة موسى ، التى تعتبر أكثر قصص الأنبياء ورودا فى القرآن الكريم ، حيث جاء الحديث عنها فى سور : البقرة ، والمائدة . والأعراف . ويونس . والإسراء ، والكهف ، والشعراء ، والقصص .

وقد بدأت السورة حديثها عن قصة موسى ببيان اختيار الله – تعالى – له لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته قال – تعالى – :

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٨٢ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .
(٣) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : « من هاهنا شرع - تبارك وتعالى - فى ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله ، قيل : قاصدا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلال وضباب ، وجعل يقدح بزند معه لِيُورِى نارا ، كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شىء ، فبينما هو كذلك ، إذ آنس من جانب الطور نارا .

أى : ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه ، فقال لأهله يبشرهم : ﴿ ... امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس ﴾ أى : شهاب من نار ..[(١)] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ وهل أتاك .. ﴾ لتقرير الخبر وتثبيته ، وهذا أبلغ عن مجيئه بصورة الخبر المجرد . لأن فى الاستفهام التقريرى تطلع واشتياق لمعرفة الخبر .

والجملة الكريمة مستأنفة لتأكيد ما سبق الحديث عنه من وحدانية الله - تعالى - ولتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه . ببيان جانب من جهاد أخيه موسى - عليه السلام - .

والمعنى : لقد أتاك - أيها الرسول الكريم - خبر أخيك موسى ، وقت أن رأى نارا وهو عائد ليلا من مدين إلى مصر ﴿ فقال لأهله ﴾ أى لامرأته ومن معها ﴿ امكثوا ﴾ أى : أقيموا فى مكانكم ولا تبرحوه حتى أعود إليكم .

وجملة ﴿ إنى آنست نارا ﴾ تعليل للأمر بالمكوث ، وآنست من الإيناس بمعنى الإبصار

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٠ طبعة دار الشعب .

الواضح الجلى . أى : إنى أبصرت إبصارا بينا لا شبهة فيه نارا على مقربة منى ، فامكثوا فى أماكنكم ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس ﴾ .

والقبس : الشعلة التى تؤخذ من النار فى طرف عود أو نحوه . ووزنه فعل - بفتح العين - بمعنى مفعول أى : لعلى آتيكم من هذه النار بشعلة مقتبسة منها ، ومأخوذة عنها .

وقوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : امكثوا فى مكانكم حتى أذهب إلى النار التى شاهدتها ، لعلى آتيكم منها بشعلة ، أو أجد عندها هاديا يهدينى الى الطريق الذى أسلكه لكى أصل إلى المكان الذى أريده .

فقوله ﴿ هدى ﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل أى : هاديا .

وقد دلت آية أخرى على أن موسى قد ذهب إلى النار ليأتى منها بما يدفئ أهله من البرد .

وهذه الآية هى قوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا . قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : ﴿ فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ .

أى : فلما أتى موسى - عليه السلام - إلى النار ، واقترب منها .. ﴿ نودى ﴾ من قبل الله - عز وجل - ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾ الذى خلقك فسواك فعدلك .. ﴿ فاخلع نعليك ﴾ تعظيما لأمرنا . وتأدبا فى حضرتنا .

وقوله ﴿ إنك بالواد المقدس طوى ﴾ تعليل للأمر بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادى ﴿ المقدس ﴾ أى : المطهر المبارك ، المسمى طوى : فهو عطف بيان من الوادى .

﴿ وأنا اخترتك ﴾ أى : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ إليك منى ، ونفذ ما آمرك به .

﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ مستحق للعبادة والطاعة والخضوع ﴿ فاعبدنى ﴾ عبادة خالصة لوجهى .

﴿ وأقم الصلاة ﴾ التى هى من أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات ﴿ لذكرى ﴾ أى :

---

(١) سورة القصص الآية ٢٩ .

وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشتد تذكرك لى . واتصالك بى ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التى فيها الثناء على ذاتى وصفاتى .

أو المعنى : وأدم الصلاة لذكرى خاصة ، بحيث تكون خالصة لوجهى ، ولا رياء فيها لأحد .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ لذكرى ﴾ الظاهر أنه متعلق بأقم ، أى : أقم الصلاة لذكرى فيها لاشتمالها على الأذكار . وقيل : المراد أقم الصلاة لذكرى خاصة لاترائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى .. أو لكى أذكرك بالثناء وأثيبك بها . أو لذكرى إياها فى الكتب السماوية وأمرى بها . أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة . فاللام وقتية بمعنى عند ؛ مثلها فى قوله - تعالى - ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ .

ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها . والمراد : أقم الصلاة عند تذكرها . .

ففى الحديث الصحيح : « من نام عن صلاة أو نسيها . فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك .. »[1] .

وخص - سبحانه - الصلاة بالذكر مع أنها داخلة فى العبادة المأمور بها فى قوله ﴿ فاعبدنى ﴾ على سبيل التشريف والتكريم ، إذ الصلاة أكمل وسيلة توصل الإنسان إلى مداومة ذكر الله - تعالى - وخشيته ، لاشتمالها على ألوان متعددة من صور العبادة والطاعة ، إذ فيها قراءة للقرآن الكريم ، وفيها الصلاة على النبى - ﷺ - وفيها تسبيح الله وتمجيده .

ثم بين - سبحانه - أن الساعة آتية لا ريب فيها فقال : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ .

أى : إن الساعة التى هى وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى : كائنة وحاصلة لاشك فيها .

وقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أى : أقرب أن أخفى وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولولا أن فى إطلاع أصفيائى على بعض علاماتها فائدة ، لما تحدثت عنها .

قالوا : « والحكمة فى إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت ، أن الله - تعالى - وعد بعدم قبول التوبة عند قربها ، فلو عرف وقت الموت لاشتغل الإنسان بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب ، فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وهو لا

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٧١ .

يجوز[١] .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أقرب أن أخفى الساعة ولا أظهرها ، بأن أقول إنها آتية .. أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره .. فكاد بمعنى أراد ، وإلى هذا ذهب الأخفش وغيره .. وروى عن ابن عباس أن المعنى : أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف أظهركم عليها .. وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة فى كتمان الشىء قال : كدت أخفيه عن نفسى .

وقال أبو على : المعنى أكاد أظهرها بأن أوقعها ، وهذا بناء على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها ..[٢] .

ويبدو لنا أن الإخفاء هنا على حقيقته ، وأن المقصود من الآية الكريمة إخفاء وقت مجىء الساعة عن الناس . حتى يكونوا على استعداد لمجيئها عن طريق العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة .

فحكمة الله - تعالى - اقتضت إخفاء وقت الساعة ، وعدم إطلاع أحد عليها إلا بالمقدار الذى يأذن الله - تعالى - به لرسله .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : « والذى هو أولى بتأويل الآية من القول : قول من قال معناه : أكاد أخفيها من نفسى .. لأن المعروف من معنى الإخفاء فى كلام العرب : الستر . يقال : قد أخفيت الشىء إذا سترته .. وإنما اخترنا هذا القول على غيره لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين ..[٣] .

وقوله : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآتية ، وجملة ﴿ أكاد أخفيها ﴾ معترضة بينهما .

أى : إن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكى تجزى كل نفس على حسب سعيها وعملها فى الدنيا .

قال - تعالى - : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[٤] .

وقال - سبحانه - : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

ثم حذر - سبحانه - من عدم الاستعداد للساعة . ومن الشك فى إتيانها فقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٨٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٧٢ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١١٤ .
(٤) سورة الإسراء الآية ١٩ .

﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أى : فلا يصرفنك عن الإيمان بها ، وعن العمل الصالح الذى ينفعك عند مجيئها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ من الكافرين والفاسقين ﴿ واتبع هواه ﴾ فى إنكارها وفى تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب ﴿ فتردى ﴾ أى : فتهلك ، إن أنت أطعت هذا الذى لا يؤمن بها . يقال : ردى فلان - كرضى - إذا هلك،وأرداه غيره إذا أهلكه .

فالآية الكريمة تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة والمعرضين عن الاستعداد لها ، بعد أن أكد - سبحانه - فى آيات كثيرة أن الساعة آتية لا ريب فيها .

قال - تعالى - : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[1] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحدانية الله - تعالى - كما فى قوله : ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ . كما أثبتت أن يوم القيامة لاشك فى إتيانه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - . كما قال - عز وجل - : ﴿ إن الساعة آتية ... ﴾ .

ثم بين - سبحانه - بعض التوجيهات والأوامر التى وجهها - عز وجل - إلى نبيه موسى - عليه السلام - كما حكى ماالتمسه موسى من خالقه - تعالى - فقال :

وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ

(١) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧ .

رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

الاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ للتقرير ، لأن الله - تعالى - عالم بما فى يمين موسى ، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى وإقراره بأن ما فى يده إنما هى عصا فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله - تعالى - عندما يرى العصا التى بيمينه قد انقلبت حية تسعى .

قال صاحب الكشاف : إنما سأله - سبحانه - ليريه عظم ما يخترعه - عز وعلا - فى الخشبة اليابسة من قلبها حية نضاضة - أى تحرك لسانها فى فمها - ، وليقرر فى نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه ، والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة . ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد - أى قطعة من حديد - ويقول لك : ما هى ؟ فتقول : زبرة حديد . ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك : هى تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة ، وأنيق السرد ..[1] .

والآية الكريمة : شروع فى بيان ما كلف الله - تعالى - به عبده موسى - عليه السلام - من الأمور المتعلقة بالخلق ، إثر حكاية ما أمر - سبحانه - به موسى من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : وأى شىء بيدك اليمنى يا موسى ؟ فأجاب موسى بقوله - كما حكى القرآن عنه ﴿ قال هى عصاى ﴾ أى : الشىء الذى بيمينى هو عصاى .. ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به وكائنة بيده اليمنى .

ثم بين وظيفتها فقال : ﴿ أتوكأ عليها ﴾ أى : أعتمد عليها لتساعدنى فى حال السير ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ أى : وأضرب بها الشجر اليابس ليسقط ، ورقه فترعاه أغنامى . يقال هش فلان الشجرة بالعصا - من باب رد - فهو يهشها هشا ، إذا ضربها بعصاه أو بما يشبهها ليتساقط ورقها . ومفعول أهش محذوف . أى : وأهش بها الشجر والورق .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧ .

﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ والمآرب : جمع مأربة - بتثليث الراء - بمعنى حاجة . تقول : لا أَرَب لى فى هذا الشىء ، أى : لا حاجة لى فيه .

أى : ولى فى هذه العصا حاجات أخرى ، ومنافع غير التى ذكرتها .

وقد كان يكفى موسى - عليه السلام - فى الجواب أن يقول : هى عصاى ، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى .. لأن المقام يستدعى البسط والإطالة فى الكلام ، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه ، والحبيب مع حبيبه .

وأجمل فى قوله : ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ إما حياء من الله - تعالى - لطول الكلام فى الجواب ، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب المجملة ، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا فى الخطاب .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ، لأنه لما قال : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ ذكر معانى أربعة وهى : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ، والتوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه معظمها .

وفى الحديث : سئل النبى - ﷺ - عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر »[1] .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ : وقد تكلف بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت ، فقيل : كانت تضىء له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظلله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة .

والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانا ، ولما فر منها هاربا ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال ألقها ياموسى ﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - لموسى بعد ذلك ؟ .

فكان الجواب : قال - سبحانه - لموسى : اطرح ياموسى هذه العصا التى بيمينك لترى مايكون بعد ذلك . ﴿ فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ .

أى : فامتثل موسى أمر ربه ، فألقاها على الأرض ، ونظر إليها فإذا هى قد تحولت بقدرة الله - تعالى - إلى « حية » - أى ثعبان عظيم - « تسعى » ، أى : تمشى على الأرض

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٨٦ وقد تعرض لمنافع العصا فليرجع إليها من شاء .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٣ .

بسرعة وخفة حركة ووصفها - سبحانه - هنا بأنها ﴿ حية تسعى ﴾، ووصفها فى سورة الشعراء بأنها ﴿ ثعبان مبين ﴾[١] ووصفها فى سورة النمل بأنها ﴿ تهتز كأنها جان ﴾[٢] .

ولا تنافى بين هذه الأوصاف ، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم ، السريعة الحركة .

وقد صرحت بعض الآيات أن موسى - عليه السلام - عندما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك ، ولى مدبرا ولم يعقب . قال - تعالى - : ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب .. ﴾ .

ولكن الله - تعالى - ثبت فؤاده ، وطمأن نفسه : ﴿ قال خذها ولا تخف ﴾ أى : خذ هذه الحية التى تحولت عصاك إليها ولا تخف منها ، كما هو الشأن فى الطبائع البشرية ، فإنا ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ أى : سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التى كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى ، وهى أن نعيدها بقدرتنا التى لا يعجزها شىء إلى عصا كما كانت من قبل .

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف ، أى : خذها ولاتخف منها ، فإن هذه الحية سنرجعها عصا كما كانت من قبل .

وقوله - تعالى - ﴿ سيرتها ﴾ فِعلة من السَّير ، وهى الحالة والهيئة التى يكون عليها الإنسان ، وهو منصوب بنزع الخافض . أى : سنعيدها إلى هيئتها وحالتها الأولى .

قالوا : ومن الحكم التى من أجلها حول الله - تعالى - العصا إلى حية تسعى : توطين قلب موسى - عليه السلام - على ذلك ، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عندما يلقيها أمام فرعون وقومه .

فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشىء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة .

ثم وجه - سبحانه - أمرا آخر إلى عبده موسى فقال : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ .

والضم : الجمع . يقال : ضم فلان أصابعه إذا جمعها . والجناح ، يطلق على العضد وعلى الجنب ، وعلى الإبط . وأصله جناح الطائر وسمى بذلك لأنه يجنحه ، أى : يميله عند الطيران ، ثم توسع فيه فأطلق على العضد وغيره .

---

(١) الآية ٣٢ .
(٢) الآية ١٠ .

والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى .

والسوء : الردىء والقبيح من كل شىء ، وكنى به هنا عن البرص لشدة قبحه .

والمعنى : واضمم - ياموسى - يدك اليمنى الى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط . ثم أخرجها فإنها تخرج ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله - تعالى - وإرادته .

قال الحسن البصرى : أخرجها - والله - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه - تعالى - .

وقوله : ﴿ تخرج بيضاء ... ﴾ جواب الأمر وهو قوله : ﴿ واضمم يدك ﴾ .

وقوله : ﴿ من غير سوء ﴾ احتراس لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى ، وهو متعلق بتخرج .

وقوله : ﴿ آية أخرى ﴾ أى : معجزة أخرى غير معجزة العصا التى سبق أن منحناها لك .

كما قال - تعالى ه : ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[١] .

وقوله : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ ، تعليل لمحذوف ، أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد ، لنريك بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرى ، الدالة على عظيم قدرتنا ، وانفرادنا بالربوبية والألوهية .

ثم صرح - سبحانه - بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمتين فقال : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أى : اذهب ياموسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتى وحدى ، ومره فليحسن إلى بنى اسرائيل ولا يعذبهم ، وانهه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى .

وهنا التمس موسى - عليه السلام - العون من خالقه ، لكى يتسنى له أداء ما كلفه به فقال : ﴿ رب اشرح لى صدرى ﴾ أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدرى بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح .

﴿ ويسر لى أمرى ﴾ أى : وسهل لى ما أمرتنى به ، فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير ، فلا

(١) سورة القصص الآية ٣٢ .

طاقة لى بحمل أعباء هذه الرسالة .

قال صاحب الكشاف : « لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى - لعنه الله - عرف أنه كلف أمرا عظيما ، وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش رابط ، وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التى يذهب معها صبر الصابر .. وأن يسهل عليه فى الجملة أمره الذى هو خلافة الله فى أرضه ، وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ، ومقاساة جلائل الخطوب .»[1] .

وقوله : ﴿ واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى ﴾ دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه - تعالى - أى : وأسألك يارب أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم ، وحديثى معهم ، فهما يتأتى منه المقصود، فمن للتبعيض ، أى : واحلل عقده كائنة من عقده .

وقد روى أنه كان بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءًا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ﴾[2] .

قال ابن كثير : « ذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه - فرعون - التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه .. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل حيث يزول العى ، ويحصل لهم فَهْم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة ، ولهذا بقيت بقية .

قال الحسن البصرى : سأل موسى ربه أن يحل عقدة واحدة من لسانه ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى[3] .

وقوله - سبحانه - :﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى ﴾ دعاء آخر تضرع به إلى ربه فى أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه فى أمر يتعلق بصدره ولسانه .

وقوله : ﴿ وزيرا ﴾ من الموازرة وهى المعاونة . يقال : وازرت فلانا موازرة ، إذا أعنته على أمره . أو من الوزر - بفتح الواو والزاى - وهو الملجأ الذى يعتصم به الإنسان لينجو من الهلاك .

أى : وأسألك - يا إلهى - أن تجعل لى « وزيرا » أى : معينا وظهيرا من أهلى فى إبلاغ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠ .

(٢) سورة القصص الآية ٣٤ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٦ .

رسالتك ، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهرى ، وأن تجعله شريكا لى فى تبليغ رسالتك ، حتى نؤديها على الوجه الأكمل.وكأن موسى - عليه السلام - قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لكى يعينه بأخيه هارون ، ليقويه ويتشاور معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه ، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذى طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

قال ابن عباس: نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى .

وقوله : ﴿ كى نسبحك كثيرا * و نذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا ﴾ تعليل للدعوات الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .

أى : أجب - يا إلهى - دعائى بأن تشرح صدرى .. وتشد بأخى هارون أزرى ، كى نسبحك تسبيحا كثيرا ، ونذكرك ذكرا كثيرا ، إنك - سبحانك - كنت ومازلت بنا بصيرا ، لا يخفى عليك شىء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك .

بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه ، وأطال الابتهال فى بسط حاجته ، وكشف ضعفه .. فماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه ، وحقق له مطالبه ، وذكره ببعض مننه عليه فقال - تعالى - : .

قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ
فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

قوله – سبحانه – : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾ حكاية لما رد الله – تعالى – به على نبيه موسى – عليه السلام – بعد أن تضرع إليه بتلك الدعوات النافعات .

والسؤل هنا بمعنى المسئول ، كالأكل بمعنى المأكول .

قال الآلوسى : « والإيتاء : عبارة عن تعلق إرادته – تعالى – بوقوع تلك المطالب وحصولها له – عليه السلام – ألبتة ، وتقديره – تعالى – إياها حتما ، فكلها حاصلة له – عليه السلام – وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتبا بعد ، كتيسير الأمر ، وشد الأزر ..»[1] .

أى : قال الله – تعالى – لموسى بعد أن ابتهل اليه – سبحانه – بما ابتهل : لقد أجبنا دعاءك ياموسى ، وأعطيناك ما سألتنا إياه ، فطب نفسا وقر عينا .

وقوله – تعالى– : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ تذكير منه – سبحانه – لموسى ، بجانب من النعم التى أنعم بها عليه ، حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله – تعالى – ولذا صدرت الجملة بالقسم .

أى : وبعزتى وجلالى لقد مننا عليك ، وأحسنا إليك ﴿ مرة أخرى ﴾ قبل ذلك ، ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك .. .

ثم فصل – سبحانه – هذه المنن التى امتن بها على عبده موسى ، فذكر ثمانية منها : أما أول هذا المنن فتتمثل فى قوله – تعالى – : ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ .

و﴿ إذ ﴾ ظرف لقوله ﴿ مننا ﴾ والإيحاء : الإعلام فى خفاء .. وإيحاء الله – تعالى – إلى أم موسى كان عن طريق الإلهام أو المنام أو غيرهما .

قال صاحب الكشاف : « الوحى إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبى فى وقتها ، كقوله – تعالى – : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم . أو يريها ذلك فى المنام فتتنبه عليه أو يلهمها كقوله – تعالى – : ﴿ وأوحى ربك الى النحل ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٨٦ .

أى : أوحينا إليها أمرا لا سبيل إلى التوصل إليه ، ولا إلى العلم به ، إلا بالوحى[1] .

والمعنى : ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى ، وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن ، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون .

فالتعبير بالموصول فى قوله : ﴿ ما يوحى ﴾ للتعظيم والتهويل ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ فأوحى إلى عبده ماأوحى﴾ .

ثم وضح - سبحانه - ما أوحاه إلى أم موسى فقال: ﴿أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم،فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لى وعدو له .. ﴾ .

و﴿ أن ﴾ فى قوله ﴿ أن اقذفيه ﴾ مفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه .

والمراد بالقذف هنا : الوضع ، والمراد به فى قوله ﴿ فاقذفيه فى اليم ﴾ الإلقاء فى البحر وهو نيل مصر .

والتابوت : الصندوق الذى يوضع فيه الشىء .

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل : أن ضعى ابنك فى التابوت ، ثم بعد ذلك اقذفيه بالتابوت فى البحر ، وبأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطىء البحر وساحله ، وفى هذه الحالة يأخذه عدو لى وعدو له ، وهو فرعون الذى طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

والضمائر كلها تعود إلى موسى - عليه السلام - وقيل إن الضمير فى قوله ﴿ فاقذفيه فى اليم ﴾ .

وفى قوله ﴿ فليلقه ﴾ يعود إلى التابوت ، والأول أرجح ، لأن تفريق الضمائر هنا لا داعى له ، بل الذى يقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، عودة الضمائر إلى موسى - عليه السلام - .

قال بعض العلماء : وصيغة الأمر فى قوله ﴿ فليلقه اليم بالساحل﴾ فيها وجهان معروفان عند العلماء :

أحدهما : أن صيغة الأمر معناها الخبر : قال أبو حيان فى البحر : وقوله ﴿ فليلقه ﴾ أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها .

الثانى : أن صيغة الأمر فى قوله ﴿ فليلقه ﴾ أريد بها الأمر الكونى القدرى كقوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ فالبحر لابد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٢ .

- تعالى - أمره بذلك كونا وقدرا ..»[١] .

وقوله ﴿ يأخذه ﴾ مجزوم فى جواب الطلب وهو قوله ﴿ فليلقه ... ﴾ إذ أنه على الوجه الأول يكون الطلب باعتبار لفظه وصيغته .

وقوله - سبحانه - ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾ بيان للمنة الثانية .

قال الآلوسى : وكلمة « منى » متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف ، مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . أى : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى - لا من غيرى - قد زرعتها فى القلوب ، فكل من رآك أحبك[٢] .

ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا .

وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى فى صغره معززا مكرما فى بيت فرعون مع أنه فى المستقبل سيكون عدوا له .

وهكذا رعاية الله - تعالى - ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا .

قال ابن عباس : أحب الله - تعالى - موسى ، وحببه إلى خلقه .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾ بيان للمنة الثالثة .. .

أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك و ألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عينى . أى : ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتى وعنايتى وعينى ، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره .

وهذا ما حدث لموسى فعلا ، فقد عاش فى طفولته تحت عين فرعون ، وهو عدو لله - تعالى - ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله - تعالى - كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته .

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى - عليه السلام - ومن الرعاية له ، ما يعجز القلم عن وصفه .

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله فى شأنه : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾ .

قال صاحب الكشاف : أى : ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل

---

(١) أضواء البيان جـ ٥ ص ٤٠٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٨٩ .

الشيء بعينه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عينى إنى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتى .

وقوله : ﴿ ولتصنع ﴾ معطوف على علة مضمرة مثل : ليتعطف عليك .. أو حذف معلله أى : ولتصنع على عينى فعلت ذلك[1] .

ثم بين - سبحانه - المنة الرابعة على موسى فقال : ﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن... ﴾ .

وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطىء ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه .

أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتى عليك ، ورعايتى لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك ، سارت فى طرقات مصر فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة . فقالت أختك لفرعون وامرأته ﴿ هل أدلكم على من يكفله ﴾ .

أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه ، والفاء فى قوله : ﴿ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ﴾ هى الفصيحة . أى : التى تفصح عن كلام مقدر .

والمعنى : بعد أن قالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على من يكفله . أجابوها بقولهم : دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعناك إليها كى تسر برجوعك ، ويمتلىء قلبها فرحا بلقائها بك بعد أن ألقتك فى اليم ، ولا تحزن بسبب فراقك عنها .

ثم حكى - سبحانه - المنة الخامسة فقال : ﴿ وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ﴾ وكان ذلك عندما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه .

أى : وقتلت نفسا هى نفس القبطى ، عندما استعان بك عليه الإسرائيلى فنجيناك من الغم الذى نزل بك بسبب هذا القتل .

قال الآلوسى : وقد حل له هذا الغم من وجهين : خوف عقاب الله - تعالى - حيث لم يقع القتل بأمره - سبحانه - وخوف القصاص ، وقد نجاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ﴾ وبالمهاجرة إلى مدين .

والغم فى الأصل : ستر الشيء ، ومنه الغمام لستره ضوء الشمس . ويقال : لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود ..[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٩٣ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وفتناك فتونا ﴾ بيان للمنة السادسة التى امتن الله - تعالى - بها على موسى - عليه السلام - .

والفتون : جمع فَتْن كالظنون جمع ظن . والفتن : الاختبار والابتلاء تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته .

والمعنى : واختبرناك وابتليناك - ياموسى - بألوان من الفتن والمحن .

ونظم - سبحانه - هذا الفتن والاختبار فى سلك المنن ، باعتبار أن الله - تعالى - ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من شرورها .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثا طويلا سماه بحديث الفتون ، ذكر فيه قصة مولد موسى ، وإلقائه فى اليم ، وتربيته فى بيت فرعون ، وقتله للقبطى ، وهروبه إلى مدين ، وعودته منها إلى مصر . وتكليف الله - تعالى - له بالذهاب الى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده .. الخ[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أى : فلبثت عشر سنين فى قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح . ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذى ناديتك فيه ﴿ على قدر ﴾ أى على وفق الوقت الذى قدرناه لمجيئك ، وحددناه لتكليمكَ واستنبائك ، دون أن تتقدم أو تتأخر ، لأن كل شىء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه .

قال - تعالى - : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ وقال - عز وجل - : ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - المنة الثامنة : فقال : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ أى : وجعلتك محل صنيعتى وإحسانى ، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتى وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل .

فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى - عليه السلام - اختاره الله - تعالى - واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل .

هذه ثمانى منن ساقها الله - تعالى - هنا مجملة ، وقد ساقها - سبحانه - فى سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٩ وما بعدها .

المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾[١] .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المنن التى امتن بها على نبيه موسى - عليه السلام - أتبع ذلك بذكر بعض التوجيهات التى أمره بفعلها ، حيث كلفه بتبليغ الدعوة إلى فرعون ، فقال - تعالى - :

اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تنيا ﴾ فعل مضارع مصدره الونى - بفتح الواو وسكون النون - بمعنى الضعف والفتور والتراخى فى الأمر .

يقال : ونى فلان فى الأمر ينى ونيا - كوعد يعد وعدا - إذا ضعف وتراخى فى فعله .

وقوله : ﴿ أخوك ﴾ فاعل لفعل محذوف . أى : وليذهب معك أخوك .

والمراد بالآيات : المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - ، وعلى رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى حية تسعى ، ويده التى ضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء .

(١) سورة القصص الآيات من ٧ - ٩ .

والمعنى : اذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث آمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتى ، ولا تضعفا أو تتراخيا فى ذكرى وتسبيحى وتقديسى بما يليق بذاتى وصفاتى من العبادات والقربات . فإن ذكركما لى هو عدتكما وسلاحكما وسندكما فى كل أمر تقدمان عليه .

فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم فى كل زمان ومكان إلى المداومة على ذكر الله - تعالى - فى كل موطن ، بقوة لا ضعف معها وبعزيمة صادقة لافتور فيها ولا كلال .

وقد مدح - سبحانه - المداومين على تسبيحه وتحميده وتقديسه فى كل أحوالهم فقال : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ ولا تنيا فى ذكرى ﴾ الونى : الفتور والتقصير . أى لاتنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيث تقلبتما ، واتخذا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى . ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر..[2] .

وقال ابن كثير : والمراد بقوله ﴿ ولا تنيا فى ذكرى ﴾ أنهما لا يفتران فى ذكر الله ، بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه ، وقوة لهما . وسلطانا كاسرا له ، كما جاء فى الحديث « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه »[3] .

ثم أرشدهما - سبحانه - إلى الوجهة التى يتوجهان اليها فقال : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

أى : اذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتى ، ولتأمراه بعبادتى ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد فى الأرض ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى . وقال لهم - أيضا - ما علمت لكم من إله غيرى .

قال الجمل : وقوله : ﴿ اذهبا الى فرعون ﴾ جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع أن هارون لم يكن حاضرا محل المناجاة بل كان فى ذلك الوقت بمصر - للتغليب فغلب الحاضر على غيره ، وكذا الحال فى صيغة النهى . أى : قوله ﴿ ولا تنيا ﴾ روى أنه - تعالى - أوحى إلى هارون

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٥ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٧ .

وهو بمصر أن يتلقى موسى - عليه السلام - وقيل : سمع بإقباله فتلقاه ..[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ إرشاد منه - سبحانه - إلى الطريقة التى ينبغى لهما أن يسلكاها فى مخاطبة فرعون .

أى : اذهبا اليه ، وادعواه إلى ترك ما هو فيه من كفر وطغيان ، وخاطباه بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق . فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر ، وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

وهذا القول اللين الذى أمرهما الله - تعالى - به هنا قد جاء ما يفسره فى آيات أخرى ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى .. ﴾ .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على ألطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها .

قال ابن كثير : قوله ﴿ فقولا له قولا لينا... ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهى أن فرعون كان فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الوقاشى عند قراءته لهذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟ .

والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع ، كما قال - تعالى - : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .. ﴾[٢] .

والترجى فى قوله - تعالى - : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ على بابه إلا أنه يعود إلى موسى وهارون .

أى : اذهبا إليه ، وألينا له القول ، وباشرا الأمر معه مباشرة من يرجو ويطمع فى نجاح سعيه ، وحسن نتيجة قوله .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : والترجى لهما أى : اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يثمر عمله فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد - أى - يستعد ويتأهب - بأقصى وسعه،وجدوى إرسالهما إليه مع العلم أنه لن يؤمن ، إلزام الحجة ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٩٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٨ .

وقطع المعذرة ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[١] .

ويرى بعضهم أن الترجى هنا للتعليل . أى : فقولا له قولا لينا لأجل أن يتذكر أو يخشى .

قال الآلوسى : قال الفراء : « لعل » هنا بمعنى كى التعليلية .. وعن الواقدى : أن جميع ما فى القرآن من « لعل » فإنها للتعليل ، إلا قوله - تعالى - ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ فإنها للتشبيه أى : كأنكم تخلدون[٢] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى وهارون عندما أمرهما - جل جلاله - بذلك فقال : ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ .

أى : قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق : ياربنا إننا نخاف ﴿ أن يفرط علينا ﴾ أى يعاجلنا بالعقوبة قبل أن ننتهى من الحديث معه فى الأمر .

يقال : فرط فلان على فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وأذاه بدون تمهل ، ومنه قولهم : فرس فارط ، أى سابق لغيره من الخيل .

﴿ أو أن يطغى ﴾ أى يزداد طغيانه ، فيقول فى حقك ياربنا مالا نريد أن نسمعه ، ويقول فى حقنا ما نحن برءاء منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .

وقد جمع - سبحانه - بين القولين اللذين حكاهما عنهما ، لأن الطغيان أشمل من الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان فى الحال أم فى الاستقبال .

وهنا يجيبهما الخالق - جل وعلا - بما يثبت فؤاداهما ، ويزيل خوفهما فقال : ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لهما لا تخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتى وقدرتى ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله . لا يخفى على شىء من حالكما وحاله ، فاطمئنا أننى معكما بحفظى ونصرى وتأييدى ، وأن هذا الطاغية ناصيته بيدى ، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى...

ثم رسم لهما - سبحانه - طريق الدعوة فقال : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك .. ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٩٥ .

أى : فأتيا فرعون ، وادخلا عليه داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ الذى خلقك فسواك فعدلك .

وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما ، ولإحقاق الحق من أول الأمر ، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين ، لدعوته إلى الدين الحق ، وإلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإلى التخلى عن الكفر والطغيان . وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين .

أما الجملة الثانية التى أمرهما الله - تعالى - أن يقولاها لفرعون فقد حكاها - سبحانه - بقوله : ﴿ فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ أى : فأطلق سراح بنى إسرائيل ، ودعهم يعيشون أحرارا فى دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم ، وقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[1] .

قال الآلوسى : والمراد بالإرسال : إطلاقهم من الأسر ، وإخراجهم من تحت يده العادية ، لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام ، كما ينبىء عنه قوله - سبحانه - ﴿ ولا تعذبهم ﴾ أى : بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت سيطرة القبط ، يستخدمونهم فى الأشغال الشاقة كالحفر والبناء ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ جملة ثالثة تدل على صدقهما فى رسالتهما .

والمراد بالآية هنا : جنسها ، فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التى أعطاها الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - .

أى :قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا ، وتؤيد مدعانا ، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله - تعالى - إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول فى الدين الحق .

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم .

أما الجملة الرابعة التى أمرهما الله - تعالى - بأن يقولاها لفرعون فهى قوله - سبحانه - : ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٩٨ .

أى : وقولا له - أيضا - السلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .. .

فالسلام مصدر بمعنى السلامة ، وعلى بمعنى اللام . ويفهم من الآية الكريمة أن من لم يتبع الهدى ، لا سلامة له ، ولا أمان عليه .

وفى هذه الجملة من الترغيب فى الدخول فى الدين الحق ما فيها ، ولذا استعملها النبى - ﷺ - فى كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله - ﷺ - فى رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ..

ثم حكى - سبحانه - الجملة الخامسة التى أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون فقال : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ .

أى : وقولا له ﴿ إنا قد أوحى إلينا ﴾ من عند ربنا وخالقنا ﴿ أن العذاب ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ على من كذب ﴾ بآياته وحججه - سبحانه - ﴿ وتولى ﴾ عنها . وأعرض عن الاستجابة لها .

وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها ، فهى قد بدأت بالأساس الذى تقوم عليه كل رسالة سماوية ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله ، ﴿ فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ وربعت بالترغيب والاستمالة ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ .

ثم ختمت بالتحذير والترهيب من المخالفة ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ .

وبعد أن غرس - سبحانه - الطمأنينة فى قلب موسى وهارون وزودهما بأحكم الوسائل وأنجعها فى الدعوة إلى الحق ..أتبع ذلك بحكاية جانب من الحوار الذى دار بينهما وبين فرعون بعد أن التقوا جميعا وجها لوجه فقال - تعالى - :

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ
كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ قال فمن ربكما ياموسى ﴾ حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون - عليهما السلام - بعد أن ذهبا إليه ليبلغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما - سبحانه - .

ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه .. لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التى لا تتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .

والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه . وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه : من ربكما يا موسى الذى أرسلكما إلى ؟ .

وكأنه - لطغيانه وفجوره - لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه . كما قالا له قبل ذلك ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ .

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى حمل رسالة الحق اليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه أو أنه لخبثه ومكره ، تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى - عليهما السلام - .

قال صاحب الكشاف : خاطب فرعون الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهوموسى ، لأنه

الأصل فى النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته - أى فسقه - على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هارون والرُّتة فى لسان موسى ، ويدل عليه قوله : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هومهين ولا يكاد يبين ﴾[١] .

ولاشك أن ما حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله ﴿ من ربكما يا موسى ﴾ يدل على نهاية الغرور والفجور والجحود ، وشبيه بذلك قوله : - سبحانه - حكاية عنه : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ... ﴾[٢]

وقوله - تعالى - : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكبته فقال : ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ .

وقوله ﴿ خلقه ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ، وهو المفعول الثانى لقوله ﴿ أعطى ﴾ والمفعول الأول قوله : ﴿ كل شىء ﴾ .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة اتجاهات يؤيد بعضها بعضا ، منها ما يراه بعضهم من أن معنى الآية الكريمة :

١ - قال موسى فى رده على فرعون : يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته ، وكل شىء من الأشياء ، الصورة التى تلائمه ، والهيئة التى تتحقق معها منفعته ومصلحته ، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها ، وأمده بالوسائل والملكات التى تحقق هذه الوظيفة .

وثم فى قوله ﴿ ثم هدى﴾ للتراخى فى الرتبة ، إذ اهتداء المخلوق إلى وظيفته مرتبة تعلو كثيرا عن خلقه دون أن يفقه شيئا .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان ، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه .

﴿ ثم هدى ﴾ أى : عرفه كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه ولله در هذا الجواب ، وما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق[٣] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٧ .
(٢) سورة القصص الآية ٣٨ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٧ .

٢ - ومنهم من يرى أن المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذى أعطى كل شىء نظير خلقه فى الصورة والهيئة ، كالذكور من بنى آدم ، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا ، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها فى صورتها وهيئها من الإناث أزواجا .. ثم هدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب ووسائل التناسل .

وقد صدر الإمام ابن جرير تفسيره للآية بهذا المعنى فقال ما ملخصه : وقوله : ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ﴾ يعنى نظير خلقه فى الصورة والهيئة .. ثم هداهم للمأتى الذى منه النسل والنماء كيف يأتيه ، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك[1] .

٣ - ويرى بعضهم أن : المعنى أعطى كل شىء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه .

٤ - ومنهم من يرى أن قوله ﴿ خلقه ﴾ هو المفعول الأول لأعطى ، وأن قوله ﴿ كل شىء ﴾ هو المفعول الثانى فيكون المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذى أعطى الخلائق كل شىء يحتاجون إليه ، ثم هداهم الى طريق استعماله والانتفاع به .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع لهذه المعانى جميعها لأنه - سبحانه - هو الذى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون إليه فى معاشهم ، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم،كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التى تناسبه ، والشكل الذى يتناسب مع جنسه ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ... ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ .

والبال فى الأصل : الفكر . تقول : خطر ببالى كذا ، أى : بفكرى وعقلى ، ثم أطلق على الحال التى يهتم بشأنها ، وهذا الإطلاق هو المراد هنا .

أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : يا موسى فما حال القرون الأولى ، كقوم نوح وعاد وثمود .. الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله - تعالى - الذى تدعونى لعبادته ؟ .

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله السابق ﴿ من ربكما يا موسى ﴾ أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لاصلة لها برسالة موسى إليه وهى دعوته لعبادة الله - تعالى - وحده ، وإطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٣١ .

ولذا رد عليه موسى - عليه السلام - بما يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ .

أى : علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربى وحده فى كتاب هو اللوح المحفوظ ، وهو - سبحانه - لا يخفى عليه شىء من حالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ مؤكد لما قبله . أى : لا يخطىء ربى فى علمه ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك ، فالضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك .

وجمع - سبحانه - بين نفى الضلال والنسيان ، لإفادة تنزهه عن أن يغيب شىء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شىء ، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه ، ولا زوال له .

ثم بين له آثار علم الله - تعالى - وقدرته فقال : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا .. ﴾ .

أى : هو - سبحانه - الذى جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش ، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها ، وقرأ الأكثرون من السبعة ، ﴿ مهادا ﴾ أى : فراشا . والمهاد فى الأصل ما يمهد للصبى لينام عليه .

﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ والسلك : الإدخال . أى : وجعل لكم فى داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى ، لقضاء مصالحكم .

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ والازواج : الأصناف .

أى : وأنزل - سبحانه - بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى - أى متفرقة - من النبات ، وهذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .

وفى قوله ﴿ فأخرجنا ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم ، للتنبيه على عظم شأن هذا الإخراج ، وأثره الكبير فى حياة الناس .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عباده ، وهى : تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات المتنوع من الأرض .

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة فى جميع فجاج الأرض ، إلا أنها أظهر ما تكون وأوضح ما تكون فى أرض مصر التى كان يعيش فيها فرعون حيث تبدو الأرض فيها منبسطة

ممهدة على جانبى النيل الممتد امتدادا كبيرا .

وكان الأجدر بفرعون - لو كان يعقل - أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن ، ومسدى هذه النعم ، وهو الله رب العالمين .

والأمر فى قوله - سبحانه - : ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ للإباحة .

أى : هذه الأرض وماشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هى لمنفعتكم ومصلحتكم ، فكلوا - أيها الناس - من هذه الثمار المتنوعة التى انشقت عنها الأرض ، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم فى المكان الصالح للرعى من هذه الأرض ، واشكروا الله - تعالى - على هذه النعم لكى يزيدكم منها .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة .

و﴿ النهى ﴾ جمع نهية - بضم النون وإسكان الهاء - وهى العقل . سمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق . تقول العرب : نهو الرجل - ككرم - إذا كملت نهيته ، أى عقله .

والمعنى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها : وإنزال المطر عليها ، وإخراج النبات منها .. إن فى كل ذلك لآيات وعظات وعبر ، لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الأرض منها خلق الإنسان ، واليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

والضمير فى « منها ، وفيها » يعود إلى الأرض المذكورة قبل ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا .. ﴾ والتارة : بمعنى المرة .

أى : من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

وقوله : ﴿ وفيها نعيدكم ﴾ أى : وفى الأرض نعيدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم واستقرار أجسادكم .

وقوله : ﴿ ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ أى : ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

قال - تعالى - : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون * يوم

يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾[١] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[٢] .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ﴾[٣] .

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله - ﷺ - حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال : « منها خلقناكم » ثم أخذ أخرى وقال : « وفيها نعيدكم » ثم أخرى وقال : « ومنها نخرجكم تارة أخرى »[٤] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ بيان للموقف الجحودى الذى وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التى طرحها أمامه موسى - عليه السلام - .

وأريناه : من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد فلما دخلت عليها الهمزة تعدت إلى اثنين أولهما الهاء والثانى آياتنا .

والإضافة فى ﴿ آياتنا ﴾ قائمة مقام التعريف العهدى . أى : آياتنا المعهودة لموسى ، والتى على رأسها اليد والعصا .

والمعنى : ولقد أرينا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن يستجيب للحق ..

كما قال - تعالى - : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[٥] .

وكما قال - سبحانه -: ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾[٦] .

والآية الكريمة تؤكد جحود فرعون وطغيانه بجملة من المؤكدات ، وهى لام القسم ، وقد ، والرؤية البصرية ، ولفظ « كل » الدال على الشمول والإحاطة .

والفاء فى قوله ﴿ فكذب ﴾ للتعقيب ، أى : فكذب بدون تريث أو تمهل .

والمفعول محذوف . أى : فكذب الآيات أو فكذب موسى بدون تردد أو تأخير .

والتعبير بقوله ﴿ فكذب وأبى ﴾ لزيادة ذمه وتحقير شأنه . لأنه لم يكتف بالتكذيب بل أضاف إلى ذلك الامتناع عن قبول الآيات ، والجحود لها ، والتعالى على من جاء بها كما ينبىء

---

(١) سورة المعارج الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة يس الآيتان ٥١ ، ٥٢ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٥ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٩٢ .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٣٢ .
(٦) سورة الزخرف الآية ٤٧ .

عنه قوله : - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ أى : قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد : يا موسى أجئتنا من المكان الذى هربت إليه ، ومعك هذه الآيات التى رأيناها ، لكى تخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها وهى أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد .

وسمى اللعين ما جاء به موسى - عليه السلام - من معجزات سحرا ، ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة .

وقال : ﴿ لتخرجنا من أرضنا ﴾ ليحمل أتباعه على الوقوف فى وجه موسى بإبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم ، ويحوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم .

وقد تكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة منه قوله - تعالى - : ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[2] .

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال : ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ﴾ .

وقوله : ﴿ فلنأتينك ... ﴾ جواب لقسم محذوف . أى : والله لنأتينك بسحر مثله . .

قال الجمل : وقوله : ﴿ موعدا ﴾ يجوز أن يكون زمانا ، ويرجحه قوله :﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ .

والمعنى : عين لنا وقت اجتماع : ولذلك أجابهم بقوله : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ ويجوز أن يكون مكانا ، والمعنى : بين لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فنأتيه ، وهذا يؤيده قوله : ﴿ مكانا سوى ﴾ .

ويجوز أن يكون مصدرا ، ويؤيد هذا قوله ﴿ لا نخلفه نحن ولا أنت﴾ لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه[3] .

وقوله : ﴿ لا نخلفه ﴾ من الإخلاف بمعنى عدم إنجاز الوعد .

وقوله : ﴿ سوى ﴾ قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة بضم السين ، وقرأه الباقون بالكسر ومعنى القراءتين واحد .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) سورة يونس الآية ٧٨ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٩٧ .

وأصله من الاستواء . يقال : مكان سوى وسواء . أى : عدل ووسط ، بحيث يستوى طرفاه بالنسبة للفريقين .

أى : قال فرعون لموسى مهددا ومتوعدا : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، والله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة ، لا نخلف نحن ولا أنت هذا الموعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك فى مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع جميع سكانها أن يحضروا إليه .

والمتأمل فى الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه .

ويشهد لذلك : تصديره كلامه بالقسم ﴿ فلنأتينك .. ﴾ وتركه لموسى اختيار الموعد الذى يناسبه ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعدا ﴾ واشتراطه عدم الخلف فى الوعد ﴿ لا نخلفه نحن ولا أنت ﴾ واقتراحه أن يكون مكان المبارزة فى وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس ﴿ مكانا سوى﴾ .

ولقد حكى القرآن أن موسى - عليه السلام - قد قبل تحدى فرعون ، ورد عليه يقول : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ .

والمراد بيوم الزينة : يوم كانوا يتزينون فيه ، ويجتمعون فيه ، لأنه يوم عيد لهم . قيل إنه كان يوم عاشوراء ، وقيل يوم النيروز .. .

أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بينى وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا فى وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لكى يشهدوا ما سيكون بينى وبين سحرتك يا فرعون .

وبذلك نرى أن موسى - عليه السلام - قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه أن يكون موعد المبارزة يوم العيد ، كما طلب منه - أيضا - أن يجمع الناس فى وقت الضحى لكى يشاهدوا تلك المباراة .

قال صاحب الكشاف : وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم ، ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفى المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب فى اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ، ويكثر الحديث بذلك فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر[١] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧١ .

ثم حكى القرآن ما كان من فرعون بعد أن حدد موسى - عليه السلام - موعد المبارزة فقال : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ .

أى : وبعد أن استمع فرعون إلى موسى ، انصرف من المجلس ، وولى مدبرا ﴿ فجمع كيده ﴾ .

أى : فجمع كبار سحرته من أطراف مملكته ﴿ ثم أتى ﴾ بهم فى الموعد المحدد ، ليتحدى موسى - عليه السلام - .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من المحاورات التى دارت بين موسى وفرعون ، وأرتنا كيف واجه موسى طغيان فرعون وغروره ، برباطة جأش ، وقوة إرادة ، ومضاء عزيمة ..

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عما دار بين موسى والسحرة من محاورات . انتهت بإيمانهم واعترافهم بالحق الذى جاء به موسى من عند ربه ، قال - تعالى - :

قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟

كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ... ﴾ حكاية لما وجهه موسى - عليه السلام - من نصح وإنذار . قيل : كان عددهم اثنين وسبعين ، وقيل : أكثر من ذلك .

قال الجمل : قوله ﴿ فيسحتكم ﴾ قرأ الأخوان وحفص عن عاصم فيسحتكم - بضم الياء وكسر الحاء - . وقرأ الباقون بفتحها . فقراءة الأخوين من أسحت الرباعي ، وهى لغة نجد وتميم ، وقراءة الباقين من سحت الثلاثى - وبابه قطع - وهى لغة الحجازيين .

وأصل هذه المادة . الدلالة على الاستقصاء ، والنفاد ، ومنه سحت الحالق الشعر ، أى : استقصاه فلم يترك منه شيئا ، ويستعمل فى الإهلاك والإذهاب ، ونصبه بإضمار أن فى جواب النهى[1] .

أى : قال موسى - عليه السلام - للسحرة الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون أمامه ، فقال لهم : الويل والهلاك لكم ، لا تفتروا على الله - تعالى - كذبا ، بأن تقفوا فى وجهى ، وتزعموا أن معجزاتى هى نوع من السحر . فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله - تعالى - وأبادكم بعذاب عظيم من عنده .

وجملة ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها .

أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله - تعالى - قولا باطلا لا حقيقة له ، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا فى ركابه ، أو أن تطيعوا له أمرا .

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب فى نفوس بعض السحرة ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾ والنجوى : المسارة فى الحديث .

أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال والهلاك . إذا مااستمروا فى ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أى : وبالغوا فى إخفاء ما يسارون به عن موسى وأخيه - عليهما السلام - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٩٨ .

فمنهم من قال - كما روى عن قتادة - : إن كان ماجاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر .

ومنهم من أخذ فى حض زملائه المترددين على منازلة موسى - عليه السلام - ، لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان ، ولسلب المنافع التى تأتى لهم أى للسحرة عن طريق السحر . .

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذى استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة فى النهاية ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ .

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون ، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم فى تجميع صفوفهم ، وفى تشجيع بعضهم لبعض ، حتى لا يستلب موسى - عليه السلام - منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم .. .

أى : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجى والإسرار ، ما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران ﴿ يريدان ﴾ عن طريق سحرهما أن يخرجا السحرة من أرضهم مصر : ليستوليا هما وأتباعهما عليها .

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى . أى بمذهبكم ودينكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها ، وبملككم الذى أنتم فيه ، وبعيشكم الذى تنعمون به .

فالمثلى : مؤنث أمثل بمعنى أشرف وأفضل . وإنما أنث باعتبار التعبير بالطريقة . هذا ، وهناك قراءات فى قوله تعالى : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ ذكرها الإمام القرطبى .

فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ قرأ أبو عمرو : ﴿ إن هذين لساحران ﴾ وروبت - هذه القراءة - عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ...

وقرأ الزهرى والخليل ابن أحمد وعاصم فى رواية حفص عنه ﴿ إن هذان لساحران ﴾ بتخفيف ﴿ إن ﴾ ... وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها : ما هذان إلا ساحران .

وقرأ المدنيون والكوفيون : ﴿ إن هذان ﴾ بتشديد إن ﴿ لساحران ﴾ فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب .

فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة من الأئمة . .

والعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال : الأول أنها لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم .. ، يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه بالألف .. وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية[1] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿فأجمعوا كيدكم ... ﴾ فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما .. ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أى : فأحكموا سحركم واعزموا عليه ولا تجعلوه متفرقا .

يقال : أجمع فلان رأيه وأزمعه ، إذا عزم عليه وأحكمه واستعد لتنفيذه وقوله ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ أى : ثم ائتوا جميعا مصطفين ، حتى يكون أمركم أكثر هيبة فى النفوس ، وأعظم وقعا على القلوب ، وأدعى إلى الترابط والثبات وقوله ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ تذييل مؤكد لما قبله .

أى : وقد أفلح وفاز بالمطلوب فى يوم النزال من طلب العلو ، وسعى من أجله ، واستطاع أن يتغلب على خصمه ، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى ، وإذا تغلب علينا خسرنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها .

وحانت ساعة المبارزة والمنازلة . فتقدم السحرة نحو موسى - عليه السلام - وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ .. يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ .

والإلقاء فى الأصل : طرح الشىء ، ومفعول « تلقى » محذوف للعلم به ، والمراد به العصا .

أى : قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذى يبدو فيه التحدى والتلويح بالقوة : يا موسى إما أن تلقى أنت عصاك قبلنا ، وإما أن تتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك .

قال الآلوسى : خيروه - عليه السلام - وقدموه على أنفسهم إظهارا للثقة بأمرهم . وقيل . مراعاة للأدب معه - عليه السلام - . و « أن » مع ما فى حيزها منصوب بفعل مضمر . أى ، إما تختار إلقاءك أو تختار كوننا أول من ألقى . أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .

أى : « الأمر إما إلقاؤك أو كوننا أول من ألقى ..»[2] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢١٦ .
(٢) تفسر الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٢٦ .

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - ترك فرصة البدء لهم ، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة ، فقال - تعالى - : ﴿ قال بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ . والتخيل : هو إبداء أمر لا حقيقة له . ومنه الخيال ، وهوالطيف الطارق فى النوم .

أى : قال موسى - عليه السلام - للسحرة فى الرد على تخييرهم له ، ابدأوا أنتم بإلقاء ما معكم من حبال وعصى .

والفاء فى قوله : ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم ... ﴾ فصيحة وهى معطوفة على كلام محذوف ، وإذا هى الفجائية .

أى : قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا ، فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم ، فإذا حبالهم وعصيهم التى طرحوها ، جعلت موسى - لشدة اهتزازها و اضطرابها - يخيل إليه من شدة سحرهم ، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها .

قال ابن كثير : وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جماً غفيرا ، وجمعا كبيرا - أى السحرة - فألقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادى ملآن حيات ، يركب بعضها بعضا ..[1] .

ويبدو أن فعل السحرة هذا، قد أثر فى موسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ .

والإيجاس : الإخفاء والإضمار،والخيفة : الخوف . أى ؛ فأخفى موسى - عليه السلام - فى نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر فى نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله .

وهنا ثبته الله - تعالى - وقواه ، وأوحى إليه - سبحانه - بقوله : ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ .

أى : قلنا له عندما أوجس فى نفسه خيفة من فعل السحرة : لا تخف يا موسى مما فعلوه ، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر . أنت الأعلى لأن معك الحق ومعهم الباطل .

وقد أكد الله - تعالى - هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها : إن المؤكدة ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٩٤ - طبعة دار الشعب - .

وثانيها : تكرير الضمير وثالثها : التعبير بالعلو المفيد للاستعلاء عليهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا .. ﴾ زيادة فى تشجيعه وتثبيته .

وتلقف من اللقف بمعنى الأخذ للشيء بسرعة وخفة . يقال : لقف فلان يلقَفهُ لقْفا ولقَفاناً ، إذا تناوله بسرعة وحذق باليد أو الفم .

وفى هذه الكلمات ثلاث قراءات سبعية ، أحدها : « تَلَقَّفْ » بتاء مفتوحة مخففة ، بعدها لام مفتوحة ، ثم قاف مشددة وفاء ساكنة ، وأصل الفعل تتلقف ، فحذفت إحداهما تخفيفا ، وهو مجزوم فى جواب الأمر وهو ﴿ ألق ﴾ .

وثانيها : ﴿ تَلَقَّفُ ﴾ كالقراءة السابقة مع ضم الفاء ، على أن الفعل خبر لمبتدأ محذوف . أى : وألق ما فى يمينك فهى تلقف ما صنعوا .

وثالثها : ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف المخففة وجزم الفعل كالقراءة الأولى .

والمراد بما فى يمينه عصاه ، كما جاء ذلك صريحا فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ .

وعبر عنها بقوله : ﴿ ما فى يمينك ﴾ على سبيل التهويل من شأنها ، أو لتذكيره بما شاهده منها بعد أن قال الله - تعالى - له قبل ذلك ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى .. قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هى حية تسعى ... ﴾ .

والمعنى : وألق يا موسى ما فى يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير وتخييل ، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى .

قال ابن كثير : وذلك أنها صارت تنينا هائلا - أى حية عظيمة - ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهارا .. فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون[1] .

وقوله : ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ تعليل لقوله ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ و﴿ما ﴾ موصولة وهى اسم إن ، و﴿كيد ﴾ خبرها ، والعائد محذوف .

والتقدير : وألق يا موسى عصاك تلقف ما صنعوه ، فإن الذى صنعوه إنما هو كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويههم .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٩٦ .

﴿ولا يفلح الساحر﴾ أى ولا يفوز هذا الجنس من الناس ﴿حيث أتى﴾ أى : حيث كان فحيث ظرف مكان أريد به التعميم .

أى : أن الساحر لا يفلح ولا يفوز أينما كان ، وحيثما أقبل ، وأنَّى اتجه ، لأنه يصنع للناس التخييل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم وحد ساحر ولم يجمع ؟ قلت : لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد . فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد»[1] .

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا مارأوا بعد أن ألقى موسى ما فى يمينه ، قال - تعالى - : ﴿ فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ .

قال الآلوسى : «والفاء فى قوله ﴿فألقى ...﴾ فصيحة معربة عن جمل غنية عن التصريح » .

أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما فى يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت حبالهم وعصيهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخروا سجدا لله على وجوههم قائلين آمنا برب هارون وموسى ..[2] .

والحق أن التعبير بقوله - تعالى - : ﴿فألقى السحرة سجدا ..﴾ يدل على قوة البرهان الذى عاينوه ، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التى عاينوها ، وأطلق -سبحانة - عليهم اسم السحرة فى حال سجودهم له - تعالى - وإيمانهم به ، نظرا إلى حالهم الماضية .

وهكذا النفوس النقية عندما يتبين لها الحق ، لا تلبث أن تفىء إليه ، وتستجيب لأهله . قال الكرخى : خروا ساجدين لله لأنهم كانوا فى أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر ألبتة[3] .

وقال صاحب الكشاف : « ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود . ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين »[4] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما توعد فرعون به السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٣٠ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٠١ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧٥ .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خروا لله - تعالى - ساجدين :﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ أى : هل آمنتم لموسى وصدقتموه فى دعوته وانقدتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك . فالاستفهام للتقريع والتهديد .

﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ أى : أن موسى الذى انقدتم له لهو كبيركم وشيخكم الذى علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأتم معه . وآمنتم به لأنكم من أتباعه .

وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم ، وعن الإيمان بالحق الذى آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع ، من هول ما رأوه .

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديدا أشد فقال : ﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ .

أى : فوالله لأقطعن أيديكم اليمنى - مثلا - مع أرجلكم اليسرى ، ولأصلبنكم على

جذوع النخل ، لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم .

فالمراد من قوله « من خلاف » أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شيء كامل صحيح ، بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين .

واختار أن يصلبهم فى جذوع النخل ، لأن هذه الجذوع أخشن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها ، وأظهر للرائى لعلوها عن سواها . فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ليصبها على هؤلاء المؤمنين .

قال الجمل : قوله : ﴿ولأصلبنكم فى جذوع النخل﴾ يحتمل أن يكون حقيقة . وفى التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعا وعطشا .

ويحتمل أن يكون مجازا وله وجهان : أحدهما : أنه وضع حرفا مكان آخر ، والأصل على جذوع النخل ، والثانى : أنه شبه تمكنهم بتمكن من حواه الجذع واشتمل عليه .

وقال الكرخى «فى» بمعنى « على » مجازا ، من حيث إنه شبه تمكن المصلوب بالجذع ، بتمكن المظروف فى الظرف وهذا هو المشهور[1] .

وقوله : ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ تهديد فوق تهديد ، ووعيد إثر وعيد .

أى : والله لتعلمن أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ، أنا أم موسى وربه .

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم ، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم .

وهذا التهديد التى حكاه الله - تعالى - هنا ، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[2] .

ثم حكى - سبحانه - أن السحرة بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال : ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٠١ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ .

والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ..﴾ .

أى : قال السحرة فى ردهم على تهديد فرعون لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ، ولن نقدم سلامتنا من عذابك .. على ما ظهر لنا من المعجزات التى جاءنا بها موسى ، والتى على رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى تبتلع حبالنا وعصينا .

وجملة « والذى فطرنا » الواو فيها للعطف على « ما » فى قوله ﴿ ما جاءنا ﴾ .

أى : لن نختارك يا فرعون على الذى جاءنا من البينات على يد موسى ، ولا على الذى فطرنا أى ؛ خلقنا وأوجدنا فى هذه الحياة .

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول مقسم به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : و حق الذى فطرنا لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات .

وقوله : ﴿فاقض ما أنت قاض ﴾ تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم ، ورد منهم على قوله : ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ .

أى : لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق ، فافعل ما أنت فاعله ، ونفذ ما تريد تنفيذه فى جوارحنا ، فهى وحدها التى تملكها ، أما قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها ، ولا تملك شيئا من صرفها عما آمنت به .

قال بعض العلماء : واعلم أن العلماء اختلفوا : هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به ، أو لم يفعله بهم ؟ .

فقال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك ، وأظهرهما عندى : أنه لم يقتلهم ، و أن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله - تعالى - لأن الله قال لموسى وهارون : ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[1] .

وقوله : ﴿إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ تعليل لعدم مبالاتهم بتهديده لهم .

أى : افعل يافرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا إنما يتعلق بحياتنا فى هذه الحياة الدنيا ، وهى سريعة الزوال ، وعذابها أهون من عذاب الآخرة .

﴿ إنا آمنا بربنا ﴾ وخالقنا ومالك أمرنا ﴿ ليغفر لنا خطايانا ﴾ السالفة ، التى اقترفناها بسبب الكفر والإشراك به - سبحانه - .

﴿ و ﴾ ليغفر لنا ﴿ ما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ لكى نعارض به موسى - عليه

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٤٧٤ . للشيخ الشنقيطى .

السلام - معارضة من هو على الباطل لمن هو على الحق ، وقد كنا لا نملك أن نعصيك .

وخصوا السحر بالذكر مع دخوله فى خطاياهم ، للإشعار بشدة نفورهم منه ، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان .

وقوله : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم : ﴿ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ .

أى : والله - تعالى - خير ثوابا منك يا فرعون ، وأبقى جزاء وعطاء ، فإن ثوابه - سبحانه - لا نقص معه ، وعطاءه أبقى من كل عطاء .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إنه من يأت ربه مجرما ... ﴾ يصح أن يكون كلاما مستأنفا ساقه الله - تعالى - لبيان سوء عاقبة المجرمين ، وحسن عاقبة المؤمنين .

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة فى ردهم على فرعون .

والمعنى : ﴿ إنه ﴾ أى الحال والشأن ﴿ من يأت ربه ﴾ يوم القيامة فى حال كونه ﴿ مجرما ﴾ .

أى : مرتكبا لجريمة الكفر والشرك بالله - تعالى - ﴿ فإن له ﴾ أى : لهذا المجرم ﴿ جهنم ﴾ يعذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه ﴿ لا يموت فيها ﴾ فيستريح ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة فيها راحة .

كما قال - تعالى - : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور ﴾(١) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ ومن يأته مؤمنا ﴾ به إيمانا حقا ، و ﴿ قد عمل ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ بجانب إيمانه . ﴿ فأولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لهم ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿الدرجات العلى ﴾ أى : المنازل الرفيعة ، والمكانة السامية .

وقوله : ﴿جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ﴾ يدل على الدرجات العلى .

أى : لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا .

﴿ وذلك ﴾ العطاء الجزيل الباقى جزاء من تزكى،أى من تطهر وتجرد من دنس الكفر والمعاصى .

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٦ .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ، تلك المحاورات الطويلة التى دارت بين موسى وفرعون والسحرة .. والتى انتهت بانتصار الحق واندحار الباطل .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، وحذرهم من جحودها ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - سبحانه - : ﴿ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى ... ﴾ حكاية إجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه ، وقد طوى - سبحانه - ذكر ما جرى عليهم بعد أن تغلب موسى على السحرة .. وبعد أن مكث موسى يبلغهم دعوة الله - تعالى - مدة طويلة ويطلب منهم إرسال بنى اسرائيل معه »[1] .

وصدرت الآية الكريمة باللام الموطئة للقسم وبقد تأكيدا لهذا الإيحاء ، وتقريرا له .. .

أى : والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى - عليه السلام - وقلنا له : سر بعبادى من بنى إسرائيل فى أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه ، ﴿فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ﴾ .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٣٥ .

أى : فاجعل لهم طريقا فى البحر يابسا ، فالضرب هنا بمعنى الجعل كما فى قولهم : ضرب له فى ماله سهما . إذا جعل له سهما .

والمراد بالطريق جنسه فإن الطرق التى حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر . كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى اسرائيل .

وعبر - سبحانه - عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية لله - تعالى - للإشعار بعطفه - عز وجل - عليهم ورحمته بهم ، وللتنبيه على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق - سبحانه - وجعلهم عبيدا له . .

قال الجمل : « وقوله ﴿ يبسا ﴾ صفة لقوله ﴿ طريقا ﴾ وصف به لما يؤول إليه ، لأنه لم يكن يبسا بعد . وإنما مرت عليه الصبا فجففته . وقيل : هو فى الأصل مصدر وصف به للمبالغة ، أو على حذف مضاف ، أو جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى - عليه السلام - وإدخال الطمأنينة على قلبه .

والدرك : اسم مصدر بمعنى الإدراك . والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل « اضرب » .

أى : اضرب لهم طريقا فى البحر يابسا ، حالة كونك غير خائف من أن يدركك فرعون وجنوده من الخلف ، وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم .

فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان فى قلب موسى ومن معه .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال - تعالى - : ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ .

أى : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع فى طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله - تعالى - فرعون وجنوده فى البحر . وأهلكهم عن آخرهم ...

والتعبير بالاسم المبهم الذى هو الموصول فى قوله ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أى : فعلاهم وغمرهم من ماء البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - بحيث صاروا جميعا فى طيات أمواجه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٠٣ .

ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ وقوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ما غشيهم ﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة . أى : غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - .وقرىء فغشاهم من اليم ما غشاهم ، والتغشية : التغطية ...[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله - تعالى - بالغرق .

أى : وأضل فرعون فى حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليها وإنما هداهم الى طريق الغى والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار .

وما اشتملت عليه الآيتان من إجمال بالنسبة لتلك الأحداث ، قد جاء مفصلا فى آيات أخرى ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين ﴾[٢] .

ثم ذكر - سبحانه - بنى إسرائيل بنعمه عليهم فقال : ﴿يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ فرعون وجنده ، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب .

﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ أى : وواعدنا نبيكم موسى فى هذا المكان لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله - تعالى - :

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ .

قال صاحب الكشاف : ذكرهم النعمة فى نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة فى الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا بستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التى قام بها دينهم وشرعهم

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧٨ .

(٢) الآيات ٥٢ - ٦٦ .

وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه..[١] .

وقال القرطبى ما ملخصه : وقوله : ﴿جانب﴾ نصب على المفعول الثانى لقوله واعدنا . .

و ﴿ الأيمن ﴾ نصب لأنه نعت للجانب ، إذ ليس للجبل يمين ولا شمال .

وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطور ثم حذف المضاف . أى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ، ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم ..[٢] .

وقوله : ﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ نعمة ثالثة من نعمه - سبحانه - عليهم .

والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

والسلوى : طائر لذيذ الطعم ، يشبه الطائر الذى يسمى السمانى ، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله .

وقيل : هما كناية عما أنعم الله به عليهم ، وهما شىء واحد ، سمى أحدهما « منا » لامتنان الله - تعالى - عليهم ، وسمى الثانى « سلوى » لتسليتهم به .

أى : ونزلنا عليكم بفضلنا ورحمتنا وأنتم فى التيه تلك المنافع والخيرات التى تأخذونها من غير كد أو تعب .

والأمر فى قوله - سبحانه - ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ للإباحة ، والجملة مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من المن والسلوى ، ومن غيرهما من اللذائذ التى أحلها الله لكم .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ تحذير لهم من تجاوز الحدود التى شرعها الله - تعالى - لهم ، إذ الطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .

والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى الموصول الذى هو ﴿ما ﴾ فى قوله : ﴿ ما رزقناكم ﴾ ويحل - بكسر الحاء - بمعنى يجب . يقال : حل أمر الله على فلان يحل حلالا بمعنى وجب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧٩ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٣٠ .

وقرأ الكسائى ﴿ فيحل ﴾ بضم الحاء بمعنى ينزل يقال : حل فلان بالمكان يحل - بالضم حلولا ، إذا نزل به .

والمعنى : كلوا يابنى اسرائيلى من الطيبات التى رزقكم الله إياها واشكروه عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التى شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبى ، ونزل بكم عقابى ، ومن حق عليه غضبى ونزل به عقابى ﴿ فقد هوى ﴾ أى : إلى النار .

وأصله السقوط من مكان مرتفع كجبل و نحوه . يقال : هوى فلان - بفتح الواو - يهوى - بكسرها - إذا سقط إلى أسفل ، ثم استعمل فى الهلاك للزومه له .

ثم فتح - سبحانه - باب الأمل لعباده فقال : ﴿وإنى لغفار﴾ أى : لكثير المغفرة ﴿لمن تاب ﴾ من الشرك والمعاصى ﴿وآمن ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿ وعمل صالحا ﴾ أى : وعمل عملا مستقيما يرضى الله - تعالى - . ﴿ ثم اهتدى ﴾ أى : ثم واظب على ذلك ، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقى الله - تعالى - .

وثم فى قوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ للتراخى النسبى ، إذ أن هناك فرقا كبيرا بين من يتوب إلى الله - تعالى - ويقدم العمل الصالح ، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى الله - تعالى - وبين من لا يداوم على ذلك .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فتنة قوم موسى - عليه السلام - بعد أن ذهب لمناجاة ربه ، وكيف انقادوا لخديعة السامرى لهم .. فقال - تعالى -:

۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن
قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ
رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ

أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

وهذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها : أن موسى عليه السلام بعد أن أهلك الله - تعالى - فرعون وجنوده ، سار ببنى إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره - سبحانه - بما أحدثه قومه فى غيبته عنهم . وجملة ﴿ وما أعجلك عن قومك ياموسى ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : وقلنا لموسى : أى شىء جعلك تتعجل المجىء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغى لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم ونافذا عليهم ؟ .

فأجاب موسى معتذرا لربه - تعالى - بقوله : ﴿هم أولاء على أثرى ﴾ أى : على مقربة منى ، وسيلحقون بى بعد زمن قليل ﴿وعجلت إليك رب لترضى ﴾ أى : وقد حملنى على أن أحضر قبلهم ، شوقى إلى مكالمتك - يا إلهى - وطمعى فى زيادة رضاك عنى .

فموسى - عليه السلام - قد علل تقدمه على قومه فى الحضور بعلتين : الأولى : أنهم كانوا على مقربة منه . والثانية : حرصه على استدامة رضى ربه عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ﴿ ما أعجلك ﴾ سؤال عن سبب العجلة ، فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق فى كلامك . وقوله : ﴿هم أولاء على أثرى ﴾ كما ترى غير منطبق عليه ؟ .

قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين : أحدهما : إنكار العجلة فى نفسها ، والثانى : السؤال عن سببها الحامل عليها ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر ، وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به فى العادة ، ولا يحتفل به ، وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدم بمثلها الوفْدَ رئيسُهم

ومقدمُهم . ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال : ﴿وعجلت إليك رب لترضى ﴾[١] .

وقوله – تعالى – : ﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ﴾ إخبار منه – سبحانه – بما فعله قومه بعد مفارقته لهم .

وكلمة ﴿ فتنا ﴾ من الفَتْن ومعناه لغة : وضع الذهب فى النار ليتبين أهو خالص أم زائف .

والفتنة تطلق فى القرآن بإطلاقات متعددة منها : الدخول فى النار كما فى قوله – تعالى – : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ . ومنها الحجة كما فى قوله – تعالى – : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾. ومنها : الاختبار والامتحان ، كما فى قوله – سبحانه –: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ . ومنها الاضلال والاشراك ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ وقوله – سبحانه – : ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا.. ﴾ .

ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك ، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل فى غيبة موسى – عليه السلام – .

ويدل على هذا قوله – تعالى – : ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار..﴾ .

والسامرى : اسم للشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل ، قيل : كان من زعماء بنى اسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة .

وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققه .

أى : قال الله – تعالى – لموسى : فإنا قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب فى ضلالهم السامرى ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

وقوله – تعالى – : ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ بيان لما كان منه – عليه السلام – بعد أن علم بضلال قومه .

وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه ، وتلقى منه التوراة .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿فرجع موسى إلى قومه ﴾ عند رجوعه المعهود أى : بعد ما استوفى الأربعين « ذا القعدة وعشر ذى الحجة » وأخذ التوراة لاعقيب الإخبار المذكور ، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله ﴿ غضبان أسفا ﴾ لا باعتبار نفسه ، وإن كانت داخلة عليه حقيقة ، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار المذكور ... »[٢] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٤٤ .

والمعنى فرجع موسى إلى قومه - بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة حالة كونه ﴿ غضبان أسفا ﴾ أى : غضبان شديد الغضب .

فالمراد بالأسف شدة الغضب ، وقيل المراد به الحزن والجزع .

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال : ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا..﴾ .

أى : قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا سبيل لكم إلى إنكاره ، ومن هذا الوعد الحسن : إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم، وإهلاك عدوكم أمام أعينكم . فلماذا أعرضتهم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون فى خيره ورزقه..؟ .

ثم زاد فى تأنيبهم وفى الإنكار عليهم فقال : ﴿ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ﴾ .

فالاستفهام فى قوله ﴿ أفطال ..﴾ للنفى والإنكار و﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى بل .

والمعنى : أفطال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه ؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدى الذى وعدتمونى إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - .

ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم ، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو طاعتهم للسامرى فى عبادتهم للعجل .

قال ابن جرير : كان إخلافهم موعده : عكوفهم على عبادة العجل ، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذى كان الله وعدهم ، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم الى السير معه فى أثر موسى : ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - معاذيرهم الواهية التى تدل على بلادة عقولهم ، وانتكاس أفكارهم ، وتفاهة شخصيتهم فقال - تعالى - : ﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ..﴾ .

وقوله ﴿ بملكنا ﴾ قرأه نافع وعاصم - بفتح الميم وسكون اللام - أى : بأمرنا . وقرأه حمزة والكسائى ﴿ بملكنا ﴾ بكسر الميم وسكون اللام - أى : بطاقتنا : وقرأه الباقون - بضم الميم وسكون اللام - أى : بسلطاننا ، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف ، أى : بملكنا أمرنا .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو أقبح من ذنب :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٤٦ .

ماأخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامرى ماسول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله - تعالى - وحده .

وقوله : ﴿ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى﴾ حكاية لبقية ما قالوه من أعذار قبيحة .

ولفظ : « حملنا » قرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم - بضم الحاء وتشديد الميم - على أنه فعل ونائب فاعل ، وقرأه الباقون - بفتح الحاء والميم - على أنه فعل وفاعل .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالقوم : القبط ، وبالأوزار : الأحمال وتسمى بها الآثام ، وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلى فى عيد لهم قبل الخروج من مصر ، وقيل : استعاروه باسم العرس . وقيل : هى ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا وهم فرعون وجنوده فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم[1] .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق ﴿فقذفناها﴾ فى النار بتوجيه من السامرى ، ﴿فكذلك﴾ أى : فكما ألقينا ما معنا ﴿ألقى السامرى﴾ ما معه من تلك الزينة .

قال ابن كثير : وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم ، فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا الأمر الكبير..[2] .

ثم بين - سبحانه - ما صنعه لهم السامرى من تلك الحلى فقال : ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإلـه موسى فنسى﴾ .

والخوار : الصوت المسموع .

أى : فكانت نتيجة ما قذفوه من الحلى فى النار ، أن أخرج السامرى لهم من ذلك ﴿عجلا جسدا له خوار﴾ أى : صوت كصوت البقر .

قيل : إن الله - تعالى - خلق الحياة فى ذلك العجل على سبيل الاختبار والامتحان لهم .

وقيل : لم تكن به حياة ، ولكن السامرى صنعه لهم بدقة ، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كصوت خوار البقر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٠٤ .

فقال بنو إسرائيل عندما رأوا العجل الذى صنعه لهم السامرى : هذا إلهكم وإلـه موسى فاعبدوه ، لأن موسى نسى إلهه هنا ، وذهب ليبحث عنه فى مكان آخر ، فالضمير فى قوله ﴿ فنسى ﴾ يعود لموسى .

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم ، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل ، بل زعموا أن نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله ، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسى مكانه فذهب يبحث عنه .

وقيل : إن الذى حدث منه النسيان هو السامرى ، وأن النسيان بمعنى الترك ، أى : فترك السامرى ما كان عليه من الإيمان الظاهرى ، ونبذ الدين الذى بعث الله - تعالى - به موسى ، وحض الناس على عبادة العجل الذى صنعه لهم .

والقول الأول أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه هو المأثور عن السلف .

قال ابن جرير : « وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون ﴿فنسى ﴾ خبرا من الله - تعالى - عن السامرى ، وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه ، وأن ربه الذى ذهب يريده هو العجل الذى أخرجه السامرى ، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه ، ولأنه عقيب ذكر موسى ، وهو أن يكون خبرا من السامرى عنه بذلك أشبه من غيره »[(١)] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفلا يرون ألّا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴾ تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أبلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل الذى اتخذوه إلها ، لايستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ، ولا يرد عليهم قولا يقولونه له ، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[(٢)] .

ثم بين - سبحانه - موقف هارون - عليه السلام - من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٤٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٨ .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟
أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

وجملة : ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ... ﴾ قسمية مؤكدة لما قبلها .

أى : والله لقد نصح هارون - عليه السلام - عبدة العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعطفا : ﴿ .. يا قوم إنما فتنتم به .. ﴾ أى : ياقوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل ، فالضمير فى ﴿به﴾ يعود إلى العجل .

﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

وجمع - سبحانه - بين لفظى الرب والرحمن ، لجذبهم نحو الحق ، واستمالتهم نحوه ، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأنه - سبحانه - هو الرحمن الرحيم .

والفاء فى قوله : ﴿ فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى : وما دام الأمر كذلك فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، فى الثبات على الحق ، وفى نبذ عبادة العجل ، وفى المحافظة على ما عاهدكم عليه موسى - عليه السلام - .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية . بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ما هم فيه من ضلال ، إذ قالوا فى الرد عليه : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ أى : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ فنرى ماذا سيكون منه .

فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم ، وسوء أدبهم ، يرون أن هارون - عليه السلام - ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب ، وألطف منطق .

قال الرازى : واعلم أن هارون - عليه السلام - سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل - أولا - بقوله : ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله - ثانيا - بقوله : ﴿وإن ربكم الرحمن ﴾ ثم دعاهم - ثالثا - إلى معرفة النبوة بقوله : ﴿ فاتبعونى ﴾ ثم دعاهم - رابعا - إلى الشرائع بقوله : ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ .

وهذا هو الترتيب الجيد ، لأنه لابد قبل كل شىء من إماطه الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ، ثم معرفة الله - تعالى - هى الأصل ، ثم النبوة ، ثم الشريعة : فثبت أن هذا

الترتيب على أحسن الوجوه ، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال ، بالتقليد والجمود فقالوا : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى ما عليه قومهما من ضلال ، فقال - تعالى - :

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

أى : قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة : يا هارون أى شىء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل و« لا » فى قوله : ﴿ ألا تتبعن ﴾ مزيدة للتأكيد . والاستفهام فى قوله : ﴿ أفعصيت أمرى ﴾ للإنكار .

أى : ما الذى منعك من أن تتبعنى فى الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة العجل ، أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ وفيما أمرتك به من الصلابة فى الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله - تعالى - يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه .

وكأن موسى - عليه السلام - كان يريد من أخيه هارون - عليه السلام - موقفا يتسم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين ، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم .. .

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق والاستعطاف فيقول : ﴿ يابنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ .

أى : قال هارون لموسى محاولا أن يهدئ من غضبه ، بتحريك عاطفة الرحم فى قلبه : يابن أمى لا تمسك بلحيتى ولا برأسى على سبيل التأنيب لى . فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولا معرضا عن اتباعك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٦٧ .

قال الآلوسى ما ملخصه : خص الأم بالاضافة استعطافا وترقيقا لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه ، فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين .

وقوله : ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ ... روى أنه أخذ شعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله ، وكان موسى - عليه السلام - حديدا متصلبا غضوبا لله - تعالى - ، وغلب على ظنه أن هارون قد قصر معهم ..[١] .

وقوله : ﴿ إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ استئناف لتعليل موجب النهى ، بتحقيق أنه غير عاص لأمره ، وغير معرض عن اتباعه .

أى : يابن أمى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، فإنى ما حملنى على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل ، إلا خوفى من أن تقول لى - لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين - إنك بعملك هذا قد جعلت بنى اسرائيل فرقتين متنازعتين ﴿ ولم ترقب قولى ﴾ أى : ولم تتبع وتطع قولى لك : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين ، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم ، بل بقيت معهم ناصحا واعظا ، حتى تعود أنت إليهم ، فتتدارك الأمر بنفسك ، وتعالجه برأيك .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وهذه الآية الكريمة ... تدل على لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها ، لأنه لو كان هارون حالقا لحيته لما أخذ بها موسى - إذ من المشهور أن اللحية تطلق على الشعر النابت فى العضو المخصوص وهو الذقن - وبذلك يتبين لك أن إعفاء اللحية سمت الرسل الكرام الذين أمرنا الله - تعالى - بالاقتداء بهم .

فقد قال - تعالى - : بعد أن ذكر عددا من الأنبياء منهم هارون : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ... ﴾[٢] .

والعجب من الذين مسخت ضمائرهم ... حتى صاروا ينفرون من صفات الذكورية ، وشرف الرجوله إلى خنوثة الأنوثة ..[٣] .

هذا ، وبعد أن انتهى موسى من سماع اعتذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامرى - رأس الفتنة ومدبرها - فأخذ فى زجره وتوبيخه ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٥١ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٩٠ .
(٣) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٥٠٧ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

أى : قال موسى - عليه السلام - للسامرى : ﴿ ما خطبك ﴾ أى : ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل ما فعلت ؟ مصدر خطب يخطب - كقعد يقعد - ومنه قولهم : هذا خطب يسير أو جلل ، وجمعه خطوب . وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور ، وأصله : الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب والتشاور ، ويخطب الخطيب الناس من أجله .

وقد رد السامرى على موسى بقوله : ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أى : علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ورأيت ما لم يروه .

قال الزجاج : يقال : بصر بالشىء يبصر - ككرم وفرح - إذا علمه ، وأبصره إذا نظر إليه .

وقيل : هما بمعنى واحد .

﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴾ روى أن السامرى رأى جبريل - عليه السلام - حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة عن الله - عز وجل - ولم ير جبريل أحد غير السامرى من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شىء اخضرت ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه الفرس حافرها شأنا ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلى المذاب فصار عجلا جسدا له خوار .

والمعنى قال السامرى لموسى : علمت ما لم يعلمه غيرى فأخذت حفنة من تراب أثر حافر

فرس الرسول وهو جبريل - عليه السلام - فألقيت هذه الحفنة فى الحلى المذاب ، فصار عجلا جسدا له خوار .

﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ أى : ومثل هذا الفعل سولته لى نفسى ، أى زينته وحسنته لى نفسى ، لأجعل بنى اسرائيل يتركون عبادة إلهك يا موسى ، ويعبدون العجل الذى صنعته لهم .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول : جبريل - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .

هذا ، وقد نقل الفخر الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى رأيا آخر فى تفسير الآية فقال ما ملخصه : ليس فى القرآن ما يدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - وبأثره : سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامرى بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل ، رد عليه بقوله : بصرت بما لم يبصروا به ، أى : عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أى : طرحته ..."[1] .

وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه .

ويكون المعنى الإجمالى للآية : أن السامرى قال لموسى - عليه السلام - كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك ، ثم تبين لى أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك وسولت لى نفسى أن أصنع للناس عجلا لكى يعبدوه لأن عبادته أراها هى الحق .

وقد رجح الإمام الرازى فى تفسيره ما ذهب إليه أبو مسلم فقال : واعلم أن هذا القول الذى قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة للمفسرين ، ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه .

١ - ان جبريل ليس مشهورا باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه .

٢ - أنه لابد فيه من الإضمار ، وهو قبضته من أثر حافر فرس الرسول ، والإضمار خلاف الأصل .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٧٠ .

٣ - أنه لابد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر ؟ والذى ذكروه أن جبريل هو الذى رباه بعيد ..»[١] .

وقد رد الإمام الآلوسى على الإمام الفخر الرازى - رحمهما الله - فقال ما ملخصه :

١ - عهد فى القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ . وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهودا ، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه كان شائعا فى بنى إسرائيل .

٢ - تقدير المضاف فى الكلام أكثر من أن يحصى ، وقد عهد ذلك فى كتاب الله غير مرة .

٣ - رؤية السامرى دون غيره لجبريل ، كان ابتلاء من الله - تعالى - ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ومعرفته تأثير ذلك الأثر دون غيره كانت بسبب ما ألقى فى روعه من أنه لا يلقيه على شىء فيقول له كن كذا إلا كان - كما فى خبر ابن عباس - أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء - كما فى بعض الآثار -..»[٢] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه أبو مسلم ، أقرب إلى ما يفيده ظاهر القرآن الكريم ، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التى ذكرها المفسرون فى شأن السامرى وفى شأن رؤيته لجبريل .

ولا نرى حرجا فى استبعادها ، لأنها عارية عن السند الصحيح إلى النبى - ﷺ - أو إلى أصحابه ، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التى نرد العلم فيها إلى الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ حكاية لما قاله موسى - عليه السلام - للسامرى .

والمساس : مصدر ماسّ - بالتشديد - كقتال من قاتل ، وهو منفى بلا التى لنفى الجنس .

والمعنى : قال موسى للسامرى : مادمت قد فعلت ذلك فاذهب ، فإن لك فى مدة حياتك ، أن تعاقب بالنبذ من الناس ، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك : ﴿ لا مساس ﴾ أى لا أَمَسُّ أحدا ولا يَمسُّنى أحد ، ولا أخالط أحدًا ولا يخالطنى أحد .

قال صاحب الكشاف : عوقب فى الدنيا بعقوبة لا شىء أطم منها وأوحش وذلك أنه مُنِع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا . وإذا اتفق أن يماس أحدا - رجلا أو امرأة - حم الماس والممسوس -

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٧١ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٥٤ .

أى أصيبا بمرض الحمى - فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس . وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ، ومن الوحش النافر فى البرية ..[١] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : والسر فى عقوبته على جنايته بما ذكر . أنه ضد ماقصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه ، فكان ما فعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره . وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل ، حيث نبذ فنبذ ، فإن ذلك التحامى عنه أشبه شىء بالنبذ..[٢] .

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم .

ثم بين - سبحانه - عقوبة السامرى فى الآخرة ، بعد بيان عقوبته فى الدنيا فقال : ﴿ وإن لك موعدا لن تخلفه ﴾ .

وقوله : ﴿ تُخْلَفه ﴾ قرأها الجمهور بضم التاء وفتح اللام . أى : وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفك الله - تعالى - إياه . بل سينجزه لك ، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذى تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك ، كما عاقبك فى الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس .

وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ لن تُخلِفه ﴾ بضم التاء وكسر اللام أى : وإن لك موعدا فى الآخرة لن تستطيع التخلف عنه ، أو المهرب منه ، بل ستأتيه وأنت صاغر . .

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى - عليه السلام - بالعجل الذى صنعه السامرى لإضلال الناس . فقال : ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ﴾ .

أى : وقال موسى - أيضا - للسامرى : وانظر الى معبودك العجل الذى أقمت على عبادته أنت وأتباعك فى غيبتى عنكم .

﴿ لنحرقنه ﴾ بالنار أمام أعينكم،والجملة جواب لقسم محذوف ، أى : والله لنحرقنه ﴿ ثم لننسفنه فى اليم نسفا ﴾ أى : ثم لنُذرِينّه فى البحر تذرية ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

يقال : نسف الطعام ينسفه نسفا ، إذا فرقه وذراه بحيث لا يبقى منه شىء .

وقد نفذ موسى - عليه السلام - ذلك حتى يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لا يستحق ذلك . وإنما يستحق الذبح والتذرية ، وأن عبادتهم له إنما هى دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وشدة جهلهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٥٦ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ﴾ . استئناف مسوق لإحقاق الحق وإبطال الباطل . أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله - تعالى - وحده ، الذى وسع علمه كل شىء . ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد قصت علينا بأسلوب بليغ حكيم ، جوانب من رعاية الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - ورحمته به ، كما قصت علينا تلك المحاورات التى تمت بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة كما حدثتنا عن جانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على بنى إسرائيل ، وكيف أنهم قابلوها بالجحود والكنود وبإيذاء نبيهم موسى - عليه السلام - .

ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى العبرة من قصص الأولين ، وإلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وإلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، فقال - تعالى- :

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

والكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك ﴾ فى محل نصب نعت لمصدر محذوف ، أى : نقص عليك - أيها الرسول الكريم - من أنباء ما قد سبق من أحوال الأمم الماضية ، قصصا مثل ما قصصناه عليك عن موسى وهارون . وما دار بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من أنباء ما قد سبق ﴾ للتبعيض ، ويشهد لذلك أن القرآن قد صرح فى كثير من آياته ، أن الله - تعالى - لم يقص على الرسول - ﷺ - جميع أحوال الأمم السابقة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم

نقصصهم عليك ﴾(١) .

ومن فوائد ما قصه الله - تعالى - عليه من أنباء السابقين : زيادة علمه - ﷺ - ، وتكثير معجزاته ، وتثبيت فؤاده ، وتسليته عما أصابه من سفهاء قومه ، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعظوا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم .

أى : وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا ﴿ ذكرا ﴾ عظيما . وهو القرآن الكريم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ .

قال الفخر الرازى : وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه :

أحدها : أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .

وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس ، ففيه التذكير والوعظ .

وثالثها : أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾(٢) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال : ﴿ من أعرض عنه فإن يحمل يوم القيامة وزرا .. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ .

والوزر فى الأصل يطلق على الحمل الثقيل ، وعلى الإثم والذنب ، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام .

قال صاحب الكشاف : والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذى يفدح الحامل ، وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم(٣) .

وقد أخبرنا القرآن فى كثير من آياته ، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم ، أى : أثقال ذنوبهم على ظهورهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾(٤) .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٧١ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨٦ .
(٤) سورة النحل الآية ٢٥ .

أى : من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك ، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة : تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ خالدين فيه ﴾ أى : فى العذاب المترتب على هذا الوزر .

﴿ وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ أى : وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ إنشاء للذم ، على أن « ساء » فعل ذم بمعنى بئس .. وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على « حملا » الواقع تمييزا .. والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : ساء حملهم حملا وزرهم[1] .

ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ .

أى : اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول ، أو حالة كونهم « زرقا » أى : عميا ، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها . أو « زرقا » معناه : عطاشا ، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق .

قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ﴾ استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت .

أى : إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم فى هذا اليوم العصيب ، قائلين ما لبثم فى قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام .

ومقصدهم من هذا القول : استقصار المدة ، وسرعة انقضائها ، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب ، بعد أن تبين لهم أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الامر على عكس ما كانوا يتوهمون .

وقوله - تعالى - : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ... ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - .

أى : نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم ، لا يخفى علينا شىء مما يتخافتون به من شأن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٥٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦٨ .

مدة لبثهم فى قبورهم أو فى الدنيا .

﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أى : أعد لهم رأيا ، وأرجحهم عقلا ﴿ إن لبثتم إلا يوما ﴾ واحدا وقيل المراد باليوم : مطلق الوقت ، وتنكيره للتقليل والتحقير . أى : ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا .

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدل على شدة الهول . قال - تعالى - : ﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾ أى الساعة ﴿ لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أحوال الجبال وأحوال الناس يوم القيامة فقال - تعالى - :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ
لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا
﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

والسائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة ، روى أنهم قالوا للرسول - ﷺ - على سبيل الاستهزاء ، يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى ، وأننا نبعث بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فنزل قوله - تعالى - : ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ﴾ .

---

(١) سورة النازعات الآية ٤٦ .

وقيل : السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم .

وقوله : ﴿ينسفها﴾ من النسف بمعنى القلع . يقال : نسفت الريح التراب نسفا - من باب ضرب - إذا اقتلعته وفرقته .

أى : ويسألك - أيها الرسول الكريم - بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامة ، فقل لهم : ينسفها ربى نسفا ، بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتناثر ، أو كالصوف المنفوش الذى تفرقه الرياح .

والفاء فى قوله : ﴿ فقل ﴾ للمسارعة إلى إزالة ما فى ذهن السائل من توهم أن الجبال قد تبقى يوم القيامة .

والضمير فى قوله ﴿ فيذرها قاعا صفصفا ﴾ يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقرينة الحال ، لأنها هى الباقية بعد قلع الجبال . والقاع : هو المنكشف من الأرض دون أن يكون عليه نبات أو بناء .

والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل جهة .

أى : فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء ، لا نبات فيها ولا بناء.. .

﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ أى : لا ترى فى الأرض بعد اقتلاع الجبال منها ، مكانا منخفضا ، كما لا ترى فيها ﴿ أمتا ﴾ أى : مكانا مرتفعا ، بل تراها كلها مستوية ملساء كالصف الواحد .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قد فرقوا بين العِوج والعَوج ، فقالوا : العِوج بالكسر فى المعانى : والعوج بالفتح فى الأعيان ، والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين ؟ .

قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها ، وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأى المهندس فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية ، لعثر فيها على عوج فى غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى ، فنفى الله ذلك العوج الذى دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعانى ، فقيل فيه ، عوج بالكسر والأمت : النتوء اليسير ، يقال : مد حبله حتى ما فيه أمت ..[1]

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨٨ .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس يوم القيامة فقال : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له... ﴾ .

والمراد بالداعى : الملك الذى يدعوهم إلى المثول للحساب .

قيل : يناديهم بقوله : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة .. قومى إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعونه .

والمعنى : فى هذا اليوم الذى تنسف فيه الجبال ، وتصير الأرض قاعا صفصفا يقوم الناس من قبورهم ، ويتبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادى ، أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه ، بل الجميع يسمع دعاءه ويستجيب لأمره .

كما قال - تعالى - : ﴿ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر : مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[1] .

وقوله : ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ أى : وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفا من الرحمن - عز وجل - فلا تسمع - أيها المخاطب - فى هذا اليوم الهائل الشديد ﴿ إلا همسا ﴾ أى : إلا صوتا خفيا خافتا . يقال : همس الكلام يهمسه همسا ، إذا أخفاه ، ويقال للأسد : الهموس ، لخفاء وطئه .

﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ، ورضى له قولا ﴾ أى : فى هذا اليوم الذى تخشع فيه الأصوات لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن فى ذلك ﴿ ورضى له قولا ﴾ أى : ورضى - سبحانه - قول الشافع فيمن يشفع له .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وكقوله : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾، وكقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾.. .

وفى الصحيحين من غير وجه ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « آتى تحت العرش ، وأخر لله ساجدا ، وبفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقول - سبحانه - : « يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع قولك ، واشفع تشفع . قال - ﷺ - : فيحد لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود ، فذكر أربع مرات » -ﷺ - وعلى سائر الأنبياء .. .

وفى الحديث : يقول - تعالى - : « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان

---

(١) سورة القمر الآيات ٦ - ٨ .

فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول - سبحانه - : أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان ، أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة ، من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يعلم جميع أحوال خلقه سواء ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف ، أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا ، أما هم فإنهم لا يحيط علمهم لا بذاته - تعالى - ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته .

فالضمير فى قوله ﴿ ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ يعود على المتبعين للداعى وهم الخلق جميعا .. .

وقيل : يعود للشافعين ، وقيل للملائكة ، والأول أولى لعمومه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ... ﴾ مؤكد ومقرر لما قبله من خشوع الأصوات يوم القيامة للرحمن ، ومن عدم الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - .

والفعل ﴿ عنت ﴾ بمعنى ذلت يقال : عنَا فلان يعنو عُنوا - من باب سما - إذا ذل لغيره وخضع وخشع ، ومنه قيل للأسير عانٍ لذله وخضوعه لمن أسره .

أى : وذلت وجوه الناس وخضعت فى هذا اليوم لله - تعالى - وحده ﴿الحى﴾ أى : الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لافناء معها ﴿ القيوم ﴾ أى : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وإحيائهم وإماتتهم ورزقهم .. وسائر شئونهم .

وهذا اللفظ مبالغة فى القيام . وأصله قيووم بوزن فيعول .. من قام بالأمر . إذا حفظه ودبره .

وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ، وآثار الذل أكثر ما تكون ظهورا عليها .

وظاهر القرآن يفيد أن المراد بالوجوه جميعها ، سواء أكانت للمؤمنين أم لغيرهم ، فالكل يوم القيامة خاضع لله - تعالى - ومستسلم لقضائه ، فالألف واللام للاستغراق .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ قال ابن عباس وغير واحد - من السلف - خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لخالقها وجبارها الحى الذى لا يموت .. »[2] .

---

(١) ، (٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣١١ .

ويرى بعضهم أن المراد بالوجوه التى ذلت وخشعت فى هذا اليوم ، وجوه الكفار والفاسقين ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الخيبة والشقوة وسوء الحساب وصارت وجوههم عانية ، أى : ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى ، ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾[1] .

ويبدو لنا أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن جميع الوجوه يوم القيامة تكون خاضعة لحكم الله - تعالى - ومستسلمة لقضائه .

وقوله : ﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ جملة حالية ، أى : ذلت جميع الوجوه لله - تعالى - يوم القيامة ، والحال أنه قد خاب وخسر من حمل فى دنياه ظلما ، أى : شركا بالله - تعالى - أو فسوقا عن أمره - سبحانه - ولم يقدم العمل الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم العسير .

ثم بشر - سبحانه - المؤمنين بما يشرح صدورهم فقال : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ .

أى : ومن يعمل فى دنياه الأعمال الصالحات ، وهو مع ذلك مؤمن بكل ما يجب الإيمان به . فإنه فى هذه الحالة ﴿ لا يخاف ظلما ﴾ ينزل به . ولا يخاف ﴿ هضما ﴾ لشىء من حقوقه أو ثوابه .

يقال : هضم فلان حق غيره ، إذا انتقصه حقه ولم يوفه إياه .

قالوا : والفرق بين الظلم والهضم : أن الظلم قد يكون بمنع الحق كله ، أما الهضم فهو منع لبعض الحق . فكل هضم ظلم ، وليس كل ظلم هضما .

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين ، بأن الله - تعالى - بفضله وكرمه سيوفيهم أجورهم يوم القيامة ، بدون أدنى ظلم أو نقص من ثوابهم ، فالتنكير فى قوله ﴿ ظلما ولا هضما ﴾ للتقليل .

ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه محمد - ﷺ - وبين بعض الحكم من إنزاله ، وطلب من نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد من العلم فقال - تعالى - :

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨٩ .

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك أنزلناه ... ﴾ معطوف على قوله : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق .. ﴾ والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود على إنزال ما سبق من آيات .

أى : ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام والقصص ، أنزلنا عليك يا محمد القران كله ، فما نزل منه متأخرا يشبه فى هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدما .

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله ﴿قرآنا عربيا ﴾ أى : بلغة العرب ، لكى يفهموه ويقعوا على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر .

وقوله : ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ معطوف على ﴿ أنزلناه ﴾ أى : أنزلناه قرآنا عربيا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد .

﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى : لعل الناس يتقون - بسبب ذلك - الوقوع فى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجتنبون الآثام والسيئات ، ويصونون أنفسهم عن الموبقات فمعمول ﴿ يتقون ﴾ محذوف .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو يحدث لهم ذكرا ﴾ بيان لحكمة أخرى من الحكم التى من أجلها أنزل الله القرآن الكريم .

أى : أنزلناه بهذه الصفة ، وجعلناه مشتملا على ضروب من الوعيد ، لعل قومك -أيها الرسول الكريم ه يتقون الكفر والمعاصى ، أو لعل القرآن يحدث فى نفوسهم ﴿ ذكرا ﴾ .

أى : اتعاظا واعتبارا يصرفهم عن التردى فيما ترديت فيه الأمم السابقة من آثام وموبقات أدت إلى هلاكها .

وقال - سبحانه - : ﴿ أنزلناه ﴾ بالإضمار مع أن القرآن لم يسبق له ذكر فى الآيات السابقة ، للإيذان بنباهة شأنه ، وعلو قدره ، وكونه مركوزا فى العقول ، حاضرا فى الأذهان والقلوب .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما يستحقه من صفات كريمة فقال : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ .

أى : فجل وعظم شأن الله - سبحانه - عن إلحاد الملحدين ، وإشراك المشركين فإنه هو وحده ﴿ الملك ﴾ المتصرف فى شئون خلقه ، وهو وحده الإله ﴿ الحق ﴾ وكل ما سواه فهو باطل .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه - ﷺ - إلى كيفية تلقى القرآن من جبريل - عليه السلام فقال : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ..﴾ .

أى : ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه إليك،قالوا : وكان النبى - ﷺ - كلما قرأ عليه جبريل آية قرأها معه ، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن ، ولشدة شوقه إلى سماعه ، فأرشده الله - تعالى - فى هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل ، ونهاه عن التعجل فى القراءة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾[1] .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - : ان يسأله المزيد من العلم فقال : ﴿وقل رب زدنى علما ﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا ربك ومتوسلا إليه ، يارب زدنى من علمك النافع .

قال الآلوسى : واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أمر - ﷺ - بطلب الزيادة منه ، وذكر بعضهم أنه - ﷺ - ما أمر بطلب الزيادة من شىء سوى العلم . وكان - ﷺ - يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما » وكان يقول : « اللهم زدنى إيمانا وفقها ويقينا وعلما »[2] .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة آدم - عليه السلام - فذكر لنا كيف أنه نسى عهد ربه له ، فأكل من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها ، ومع ذلك فقد قبل - سبحانه - توبته ، وغسل حوبته .. قال - تعالى - :

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا

(١) سورة القيامة الآيات ١٦ -١٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٦٩ .

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ولقد عهدنا ... ﴾ هى الموطئة للقسم ، والمعهود محذوف ، وهو النهى عن الأكل من شجرة معينة ، كما وضحه فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم - عليه السلام - وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة ﴿ من قبل ﴾ أن يخالف أمرنا فيقربها ويأكل منها ، أو من قبل أن نخبرك بذلك - أيها الرسول الكريم - .

والفاء فى قوله ﴿ فنسى ﴾ للتعقيب ، والمفعول محذوف . أى : فنسى العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها .

والنسيان هنا يرى بعضهم أنه بمعنى الترك ، وقد ورد النسيان بمعنى الترك فى كثير من آيات القرآن الكريم . ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾[1] أى : نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة .

---
(١) سورة الجاثية الآية ٣٤ .

وعليه يكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل بعدم الأكل من الشجرة فترك الوفاء بعهدنا وخالف ما أمرناه به .

وعلى هذا التفسير فلا إشكال فى وصف الله - تعالى - له بقوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ لأن آدم بمخالفته لما نهاه الله - تعالى - عنه وهو الأكل من الشجرة - صار عاصيا لأمر ربه .

ومن العلماء من يرى أن النسيان هنا على حقيقته ، أى : أنه ضد التذكر فيكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ما عاهدناه عليه ، وغاب عن ذهنه ما نهيناه عنه ، وهو الأكل من الشجرة .

فإن قيل : إن الناسى معذور . فكيف قال الله - تعالى - فى حقه : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾؟ .

فالجواب : أن آدم - عليه السلام - لم يكن معذورا بالنسيان ، لأن العذر بسبب الخطأ والنسيان والإكراه . من خصائص هذه الأمة الإسلامية ، بدليل قوله - ﷺ - : « إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى .. ﴾ للنسيان معنيان : أحدهما : الترك ، أى ترك الأمر والعهد ، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ، ومنه ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وثانيهما : قال ابن عباس : « نسى » هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد اليه فنسى ... وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم فى ذلك الوقت مؤاخذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا .

والمراد تسلية النبى - ﷺ - أى : أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم أى : إن نَقَض هؤلاء - المشركون - العهد ، فإن آدم - أيضا - عهدنا إليه فنسى ..»[1] .

وقوله : ﴿ولم نجد له عزما ﴾ مقرر لما قبله من غفلة آدم عن الوفاء بالعهد .

قال الجمل : وقوله : ﴿ نجد ﴾ يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم ، فينصب مفعولين ، وهما « له » و « عزما » ويحتمل أنه من الوجود الذى هو ضد العدم فينصب مفعولا وهو ﴿ عزما ﴾ والجار والمجرور متعلق بنجد[2] .

والعزم : توطين النفس على الفعل ، والتصميم عليه ، والمضى فى التنفيذ للشىء ..

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٥١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١١٣ .

أى : فنسى آدم عهدنا ، ولم نجد له ثبات قدم فى الأمور ، يجعله يصبر على عدم الأكل من الشجرة بل لانت عريكته وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك بشىء من التفصيل ، الأسباب التى أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ .

أى : واذكر - أيها المخاطب - وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة ، فامتثلوا لأمرنا ، إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم تكبرا وغرورا وحسدا له على هذا التكريم .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لآدم بعد إباء إبليس عن السجود له فقال : ﴿ يا آدم إن هذا ﴾ أى : إبليس ﴿عدو لك ولزوجك ﴾ بسبب حسده لكما وحقده عليكما ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ أى : فاحذرا أن تطيعاه ، فإن طاعتكما له ستؤدى بكما الى الخروج من الجنة ، فيترتب على ذلك شقاؤك ، أى : تعبك فى الحصول على مطالب حياتك .

وأسند سبحانه إلى إبليس الإخراج لهما من الجنة ، لأنه هو المتسبب فى ذلك ، عن طريق الوسوسة لهما ، وطاعتهما له فيما حرضهما عليه وهو الأكل من الشجرة ، وعبر عن التعب فى طلب المعيشة بالشقاء ، لأنه بعد خروجه من الجنة سيقوم بحراثة الأرض وفلاحتها وزرعها وريها ... ثم حصدها.. ثم إعداد نتاجها للأكل ، وفى كل ذلك ما فيه من شقاء وكد وتعب .

وقال - سبحانه - : ﴿ فتشقى ﴾ ولم يقل فتشقيا كما قال ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده : أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء أهله ، كما أن سعادته سعادتهم ، أو لأنه هو الذى يعود عليه التعب إذ هو المكلف بأن يقدم لها ما تحتاجه من مطالب الحياة . كالمسكن والملبس والمطعم والمشرب .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ﴿ فتشقى ﴾ يعنى أنت وزوجك لأنهما فى استواء العلة واحد ، ولم يقل : فتشقيا لأن المعنى معروف ، وآدم - عليه السلام - هوالمخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان هو الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص .

وفى ذلك تعليم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم ، كانت كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية..[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٥٣ .

ولا تضحى ﴾ تعليل لما يوجبه النهى عن طاعة إبليس التى ستؤدى بهما إلى الإخراج من الجنة وإلى الشقاء فى الدنيا .

والجوع : ضد الشبع . وقوله ﴿ تعرى ﴾ من العرى الذى هو خلاف اللبس . يقال : عرى فلان من ثيابه يعرى عريا ، إذا تجرد منها .

وقوله ﴿ تضحى ﴾ أى : لا يصيبك حر الشمس فى الضحى . يقال : ضحا فلان يضحى ضحوا - كسعى - إذا كان بارزا لحر الشمس فى الضحى .

أى : احذر يا آدم أن تطيع إبليس فيحل بك الشقاء ، وتخرج من الجنة التى لا يصيبك فيها شىء من الجوع ، ولا شىء من العرى أو الظمأ ، ولا شىء من حر الشمس فى الضحى .. وإنما أنت فيها متمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة .

قال صاحب الكشاف : الشبع والرى والكسوة والسكن - هذه الأربعة - هى الأقطاب التى يدور فيها كفاح الإنسان ، فذكّره استجماعها له فى الجنة وانه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج الى ذلك أهل الدنيا .

وذكرها بلفظ النفى لنقائضها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحو ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التى حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها[1] .

ثم بين - سبحانه - أن آدم - عليه السلام - مع هذه النصائح والتحذيرات لم يستطيع أن يستمر على الاستجابة لنهى ربه إياه عن الأكل من الشجرة ، بل تغلب عليه ضعفه فاستمع إلى مكر الشيطان ، قال - تعالى - : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ .

والوسوسة : الخطرة الرديئة ، وأصلها من الوسواس ، وهو صوت الحلى ، والهمس الخفى . والوسواس - بكسر الواو الأولى - مصدر وبفتحها الاسم وهو من أسماء الشيطان ، كما قال - تعالى - : ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلـه الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس﴾ .

ويقال : وسوس فلان إلى فلان ، أى : أوصلها إليه ، ووسوس له ، أى : من أجله . أى فأوصل الشيطان وسوسته إلى آدم ، وأنهاها إليه ، بأن قال له : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التى من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت وصار صاحب ملك لا يفنى ، ولا يصبح باليا أبدا .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٩٢ .

وناداه باسمه ، ليكون أكثر إقبالا عليه ، وأمكن فى الاستماع إليه .

وعرض عليه ما عرض فى صورة الاستفهام الذى بمعنى الحث والحض ، ليشعره بأنه ناصح له وحريص على مصلحته ومنفعته .

ثم أكد كل هذا التحريض بالقسم كما فى قوله – تعالى – : ﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾[1] .

فكانت نتيجة مكره بآدم وخداعه له ، أن أطاعه فى الأكل من الشجرة كما قال – تعالى – : ﴿فأكلا منها﴾ أى : فأكل آدم وزوجه من الشجرة التى نهاه ربه عن الأكل منها .

﴿ فبدت لهما سوءاتهما ﴾ أى : عوراتهما ، وسميت العورة سوءة ، لأن انكشافها يسوء صاحبها ويحزنه ، ويجعل الناس تنفر منه .

﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ..﴾ أى : وشرعا وأخذا يلزقان على أجسادهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما .

وكثير من المفسرين يقولون : إن ورق الجنة الذى أخذ آدم وحواء فى لزقه على أجسادهما هو ورق شجر التين لكبر حجمه .

وقد أخذ العلماء من ذلك وجوب ستر العورة ، لأن قوله – تعالى – : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ يدل على قبح انكشافها ، وأنه يجب بذل أقصى الجهد فى سترها .

وقوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ أى : وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب الأكل من الشجرة ﴿ فغوى ﴾ أى : فأخطأ طريق الصواب ، بسبب عدم طاعته ربه .

قالوا : ولكن آدم فى عصيانه لربه كان متأولا ، لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة لا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه ، وقد قيل:حسنات الأبرار سيئات المقربين .

كما قالوا : إن الأسباب التى حملت آدم على الأكل من الشجرة ، أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح ، فصدقه آدم – عليه السلام – لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم كما جاء فى الحديث الشريف .

وقوله – سبحانه – : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ بيان لفضل الله – تعالى – على آدم ، حيث قبل توبته ، ورزقه المداومة عليها .

---

(١) سورة الأعراف آية ٢١ .

والاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على ما فعل هو وزوجه ، اجتباه ربه أى : اصطفاه وقربه واختاره ﴿فتاب عليه﴾ أى : قبل توبته ﴿وهدى﴾ أى : وهداه الى الثبات عليها ، وإلى المداومة على طاعة الله - تعالى - فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[1] .

وقد أوحى الله - تعالى - إليه بكلمات كانت السبب فى قبول توبته ، كما قال - سبحانه - : ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال - تعالى - ﴿ قال اهبطا منها جميعا ...﴾ .

أى : انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، فألف الاثنين هنا تعود إلى آدم وحواء .

أما الآيات الأخرى التى جاءت بضمير الجمع ، والتى منها قوله - تعالى - : ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو... ﴾[3] .

فالضمير فيها يعود إلى آدم وزوجته وذريتهما .

وقوله : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم والتنازع والتدافع على حطام هذه الدنيا .

﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ يا بنى آدم عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب فعليكم أن تتبعوا رسلى ، وتعملوا بما اشتملت عليه كتبى .

﴿ فمن اتبع هداى ﴾ بأن آمن برسلى وصدق بكتبى .

﴿ فلا يضل ولا يشقى ﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بسبب استمساكه بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[4] .

وبعد أن بين - سبحانه - حسن عاقبة من اتبع هداه،أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة من أعرض عن ذكره وطاعته فقال - تعالى - :

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ٣٨ .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

وقوله : ﴿ضنكا﴾ أى : شديدة الضيق . وكل شىء ضاق فهو ضنك .

وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع يقال : ضنك - ككرم - عيش فلان ضنكا وضناكة إذا ضاق .

والمعنى إن من اتبع هداى الذى جاءت به رسلى فلن يضل ولن يشقى ، أما من أعرض عن ﴿ذكرى﴾ أى : عن هداى الذى جاءت به رسلى ، واشتملت عليه كتبى ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ .

أى : فإن هذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة ، حتى ولو ملك المال الوفير ، والحطام الكثير .. فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه.. .

قال - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ أى : فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ماشاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى . فهو فى قلق وحيرة وشك ، فلا يزال فى ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة .. .

وقال سفيان بن عيينة ، عن أبي حازم ، عن أبي سلمه ، عن أبي سعيد فى قوله ﴿ معيشة ضنكا ﴾ قال : يضيق عليه قبره . حتى تختلف أضلاعه[١] .

والمراد بالعمى فى قوله - سبحانه - : ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ : عمى البصر ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ .

وقوله - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾[٢] .

وقيل : المراد بالعمى : هنا أنه لا حجة له يدافع بها عن نفسه ، وقيل : المراد به : العمى عن كل شىء سوى جهنم .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الحق ، لأنه هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر .

ويجمع بين هذه الآية وما يشبهها وبين الآيات الأخرى التى تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون ويتكلمون يوم القيامة ، والتى منها قوله - تعالى - : ﴿ أسمع بهم و أبصر يوم يأتوننا .. ﴾ .

أقول : يجمع بين هذه الآية وما يشبهها ، وبين الآيات الأخرى بوجوه منها : أن عماهم وصممهم فى أول حشرهم ، ثم يرد الله - تعالى - عليهم بعد ذلك أبصارهم وسمعهم ، فيرون النار ، ويسمعون مايحزنهم .

قال الجمل : قوله : ﴿ أعمى ﴾ حال من الهاء فى نحشره ، والمراد عمى البصر وذلك فى المحشر ، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله وحاله ، فهو أعمى فى حال وبصير فى حال أخرى[٣] .

ومنها : تنزيل سمعهم وبصرهم وكلامهم منزلة العدم لعدم انتفاعهم بذلك فقد قال - تعالى - فى شأن المنافقين : ﴿ صم بكم عمى ﴾ بتنزيل سماعهم وكلامهم وإبصارهم منزلة العدم ، حيث إنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس .

وقوله - سبحانه - : ﴿قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يقوله ذلك المعرض عن طاعة الله يوم القيامة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢١٦ .
(٢) سورة الإسراء آية ٩٧ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١١٦ .

أى : قال ذلك الكافر الذى حشره الله - تعالى - يوم القيامة أعمى : يارب لماذا حشرتنى على هذه الحال مع أنى كنت فى الدنيا بصيرا ؟ .

وهنا يأتيه الجواب الذى يخرسه ، والذى حكاه الله - تعالى - فى قوله : ﴿ قال كذلك ﴾ أى : قال الله - تعالى - فى الرد عليه : الأمر كذلك ، فإنك ﴿ أتتك آياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فنسيتها ﴾ أى : فتركتها وأعرضت عنها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ أى : كما تركت آياتنا فى الدنيا وأعرضت عنها ، نتركك اليوم فى النار وفى العمى جزاء وفاقا .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تختلف فقال : ﴿ وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

أى : ومثل ذلك الجزاء الأليم الذى أنزلناه بهؤلاء المعرضين عن ذكرنا نجازى كل من أسرف فى ارتكاب السيئات والموبقات ، وكل من لم يؤمن بآيات ربه بل كذب بها وأعرض عنها ، ولعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، ﴿ وأبقى ﴾ منه أى : وأكثر بقاء ، وأطول زمانا من عذاب الدنيا .

ثم وبخ - سبحانه - أولئك الذين لم ينتفعوا بآياته فقال : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم.. ﴾ .

والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدر . .

والمعنى : أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المشركين ، أنهم لم يتبين لهم ، أننا أهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية ، الذين كانوا يمشون آمنين لاهين فى مساكنهم .. .

وكان إهلاكنا لهم بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان ، والغى على الرشد ، والعمى على الهدى .. .

فالآية الكريمة تقريع وتوبيخ لكفار مكة الذين لم يعتبروا بما أصاب أمثالهم من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود .. .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿يمشون فى مساكنهم ﴾ حال من ﴿ القرون ﴾ أو من مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ أى : أهلكناهم وهم فى حال آمن وتقلب فى ديارهم . واختار بعضهم كونه حالا من الضمير فى ﴿لهم ﴾ مؤكدا للإنكار والعامل فيه ﴿ يهد ﴾ . أى : أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين فى مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر ، وثمود ، وقوم لوط ، مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى بلاد الشام وغيرها ..[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٨٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿إن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾ تذييل قصد به تعليل الإنكار ، أى : إن فى ذلك الذى أخبرناهم به ، وأطلعناهم عليه من إهلاك المكذبين السابقين ، ﴿لآيات﴾ عظيمة ، وعبر كثيرة ، ودلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة ، التى تنهى أصحابها عن القبائح والآثام .

والنهى : جمع نُهية - بضم النون وإسكان الهاء - سمى العقل بها لنهيه عن القبائح .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على هؤلاء المشركين الذين أرسل الرسول - ﷺ - لإنقاذهم من الكفر والضلالة فقال - تعالى - : ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك ، لكان لزاما وأجل مسمى﴾ .

والمراد بالكلمة السابقة ، ما تفضل الله - تعالى - به من تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة التى بعث فيها الرسول - ﷺ - تكريما له كما قال - تعالى - ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ...﴾ أو لأن من نسلهم من يؤمن بالله حق الإيمان ، أو لحكم أخرى يعلمها - سبحانه - ولزاما : مصدر بمعنى اسم الفاعل ، وفعله لازم كقاتل .

وقوله : ﴿وأجل مسمى﴾ معطوف على ﴿كلمة﴾ .

والمعنى : ولولا الوعد السابق منا بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين إلى يوم القيامة . ولولا الأجل المسمى المحدد فى علمنا لانتهاء أعمارهم ، لما تأخر عذابهم أصلا ، بل لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا ، ونازلا بهم كما نزل بالسابقين من أمثالهم فى الكفر والضلال .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالمداومة على الصبر ، وعلى الإكثار من ذكره - تعالى - ونهاه عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا .

فقال - تعالى - :

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاصبر على ما يقولون ... ﴾ فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن تأخير عذاب أعدائك للإمهال وليس للإهمال .. فاصبر على ما يقولونه فى شأنك من أنك ساحر أو مجنون .. وسر فى طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم أو مكرهم واستهزائهم .

ثم أرشده - سبحانه - إلى مايشرح صدره ، ويجلو همه فقال : ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ .

أى : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تكثر من تسبيح ربك وتحميده وتنزيهه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى ساعات الليل وفى « أطراف النهار » .

أى : فى الوقت الذى يجمع الطرفين ، وهو وقت الزوال ، إذ هو نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الثانى منه ، إذ فى هذا التسبيح والتحميد والتنزيه لله - تعالى - والثناء عليه بما هو أهله ، جلاء للصدور ، وتفريج للكروب وأنس للنفوس ، واطمئنان للقلوب .

ويرى كثير من المفسرين ، أن المراد بالتسبيح هنا : إقامة الصلاة والمداومة عليها .

قال ابن كثير : قوله ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعنى صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعنى صلاة العصر ، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلى قال : كنا جلوسا عند رسول الله - ﷺ - فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته - أى : لا ينالكم ضيم فى رؤيته بأن يراه بعضكم دون بعض - فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية ..

وقوله : ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أى : من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء . ﴿ وأطراف النهار ﴾ فى مقابلة آناء الليل ﴿لعلك ترضى ﴾ كما قال - سبحانه - : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾[1] .

وبعد هذا الأمر بالتسبيح ، جاء النهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها فقال - تعالى - : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه.. ﴾ .

أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من الاتجاه إلى ربك ، ومن تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة ولا تطل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل ﴿ إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢١٩ .

أى : إلى ما متعنا به أصنافا من هؤلاء المشركين ، بأن منحناهم الجاه والمال والولد .

وما جعلناه لهم فى هذه الدنيا بمثابة الزهرة التى سرعان ما تلمع ثم تذبل وتزول .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ أزواجا منهم ﴾ أى : أصنافا من الكفرة ، وهو مفعول ﴿ متعنا ﴾ قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به .. وقيل الخطاب له - ﷺ - والمراد أمته ، لأنه كان أبعد الناس عن إطالة النظر إليها ، وهو القائل : «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ماأريد به وجه الله - تعالى - » وكان - ﷺ - شديد النهى عن الاغترار بها .

ويؤخذ من الآية أن النظر غير الممدود معفو منه ، وكأن المنهى عنه فى الحقيقة هو الإعجاب بذلك ، والرغبة فيه ، والميل إليه .

وقوله : ﴿زهرة الحياة الدنيا ﴾ أى : زينتها وبهجتها . وهو منصوب بمحذوف يدل عليه ﴿ متعنا ﴾ .

أى : جعلنا لهم زهرة ، أو على أنه مفعول ثان ، بتضمين متعنا معنى أعطينا ، فأزواجا مفعول أول ، وزهرة هو المفعول الثانى ..[1] .

وقوله : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ بيان للحكمة من هذا التمتيع والعطاء أى متعنا هؤلاء الكافرين بالأموال والأولاد .. لنعاملهم معاملة من يبتليهم و يختبرهم بهذا المتاع ، فإذا آمنوا وشكروا زدناهم من خيرنا ، وإذا استمروا فى طغيانهم وجحودهم وكفرهم ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

فالجملة الكريمة تنفر العقلاء من التطلع إلى ما بين أيدى الكفار من متاع ، لأن هذا المتاع سىء العاقبة ، إذا لم يستعمل فى طاعة الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ تذييل قصد به الترغيب فيما عند الله - تعالى - من طيبات .

أى : ومارزقك الله إياه - أيها الرسول الكريم - فى هذه الدنيا من طيبات . وما ادخره لك فى الآخرة من حسنات ، خير وأبقى مما متع به هؤلاء الكافرين من متاع زائل سيحاسبهم الله - تعالى - عليه يوم القيامة حسابا عسيرا ، لأنهم لم يقابلوا نعم الله عليهم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها ، لكى يحيا حياة فاضلة طيبة ، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعانى الشريفة الباقية ، ويعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٨٣ .

ثم كلف الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يأمر أهل بيته بالمداومة على إقامة الصلاة فقال : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ .

والمراد بأهل بيته - ﷺ - أزواجه وبناته : وقيل : مايشملهم ويشمل معهم جميع المؤمنين من بنى هاشم . وقيل المراد بهم : جميع أتباعه من أمته .

أى : وأمر - أيها الرسول الكريم - أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص واطمئنان ، واصطبر على تكاليفها ومشاقها ، وعلى إقامتها كاملة غير منقوصة ، وعلى تحقيق آثارها الطيبة فى نفسك .

وقد ساق بعض المفسرين عن تفسيره لهذه الآية أحاديث منها ماأخرجه البيهقى عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى - ﷺ - إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ..﴾ .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ما شاء الله - تعالى - أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة ، الصلاة ويتلو هذه الآية ...[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ تشجيع وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة ، ودفع لما يتوهمه البعض من أن المداومة على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعى فى طلب المعاش .

أى : مر - أيها الرسول الكريم - أهلك بالمداومة على الصلاة ، واصطبر على تكاليفها ، فهذه الصلاة هى من أركان العبادات التى خلقك الله وخلق عباده من أجلها ، ولا يصح أن يشغلكم عنها أى شاغل من سعى فى طلب الرزق أو غيره ، فنحن لا نكلفكم أن ترزقوا أنفسكم أو غيركم ، وإنما نحن الذين نرزقكم ونرزق الخلق جميعا قال - تعالى - : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ..﴾[2] .

وقال - سبحانه - : ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[3] .

وقوله ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أى : والعاقبة الحميدة لأهل التقوى والخشية من الله - تعالى - الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة . .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٨٥ .
(٢) سورة هود الآية ٦ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٠ .

روى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يقول الله - تعالى - : « يا بن آدم . تفرغ لعبادتى ، املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك » .

وروى ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كان الآخرة نيته ، جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة »[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بإيراد بعض الشبهات التى أثارها المشركون حول النبى - ﷺ - ورد عليها بما يبطلها فقال - تعالى - :

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

ومرادهم بالآية فى قوله - سبحانه - : ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه﴾ معجزة حية من المعجزات التى اقترحوها عليه - ﷺ - كتفجير الأنهار حول مكة ، وكرقيه إلى السماء ، وكنزول الملائكة معه . .

أى : وقال الكافرون على سبيل التعنت والعناد للرسول - ﷺ - هلا أتيت لنا يا محمد بآية من الآيات التى طلبناها منك ، أو بآية من الآيات التى أتى بها الأنبياء من قبلك ، كالعصا بالنسبة لموسى ، والناقة بالنسبة لصالح .

فهم - كما يقول الآلوسى - : « بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال ، من قبيل الآيات ، حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٦٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ رد على جهالاتهم وجحودهم .

والمراد بالبينة القرآن الكريم الذى هو أم الآيات ، ورأس المعجزات .

والمراد بالصحف الأولى : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور .

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والاستفهام لتقرير الإتيان وثبوته .

والمعنى : أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن الذى جئت به - أيها الرسول الكريم - على بيان ما فى الصحف الأولى التى أنزلناها على الرسل السابقين ، ولم يكفهم ذلك فى كونه معجزة حتى طلبوا غيرها ؟ .

قال صاحب الكشاف : اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية من أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز ، يعنى القرآن ، من جهة أن القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحته لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهى مفتقره إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة .[1] .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ يعنى : القرآن العظيم ، الذى أنزله الله - تعالى - عليه - ﷺ - وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم فى سالف الدهور ، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها .. وهذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[2] .

وفى الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[3] .

ومنهم من يرى أن المراد بالبينة : الكتب السماوية السابقة .

فيكون المعنى : أو لم يكف هؤلاء الجاهلين أن الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل قد بشرت بك وبينت نعوتك وصفاتك ، وهم معترفون بصدقها ، فكيف لا يقرون بنبوتك .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ يريد التوراة والإنجيل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٩٩ .
(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٥٠ ، ٥١ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٢٣ .

والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة ..»[١] .

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من الله - تعالى - بصدق النبى - ﷺ - فيما بلغه عنه ، ورد مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة ، وإن كان تفسير البينة هنا بالقرآن أظهر وأوضح .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ كلام مستأنف لتقرير ما قبله من أن القرآن الكريم هو معجزة المعجزات ، وآية الآيات وأرفعها وأنفعها .

أى : ولو أنا أهلكنا هؤلاء الكافرين بعذاب الاستئصال ، من قبل مجىء الرسول - ﷺ - إليهم ومعه هذا القرآن الكريم معجزة له ، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة : يا ربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا من عندك ومعه المعجزات التى تدل على صدقه ، فكنا فى هذه الحالة اتبعنا آياتك التى جاءنا بها وصدقناه وآمنا به ، من قبل أن يحصل لنا الذل والهوان والخزى والافتضاح فى الآخرة .

والمقصود من الآية الكريمة قطع أعذارهم ، أى : لو أنا أهلكناهم قبل ذلك ، لقالوا ما قالوا ، ولكنا لم نهلكهم بل أرسلنا إليهم رسولنا ، فبلغهم ما أرسلناه به ، فانقطع عذرهم ، وبطلت حجتهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾[٢] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى أمر فيها رسوله - ﷺ - أن يهددهم بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى طغيانهم يعمهون ، فقال - تعالى - : ﴿ قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : كل واحد منا ومنكم متربص بالآخر ، ومنتظر لما يؤول إليه أمر صاحبه .

وما دام الأمر كذلك ﴿فتربصوا ﴾ وانتظروا ما يؤول إليه حالنا وحالكم ﴿فستعلمون ﴾ بعد زمن قريب . ﴿ من ﴾ هم ﴿ أصحاب الصراط السوى ﴾ أى : الطريق الواضح

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٦٤ .
(٢) سورة القصص الآية ٤٧ .

المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ﴿ ومن ﴾ هم الذين تجنبوا الضلالة ، واهتدوا إلى ما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم .

وقريب من هذه الآية فى المعنى قوله - تعالى - : ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾[٢] .

* * *

وبعد فهذه سورة طه ، وهذا تفسير تحليلى لها ، وكما أنها قد افتتحت بنفى إرادة الشقاء للنبى - ﷺ - فقد اختتمت بهذه البشارة له - ﷺ - ولأتباعه وبهذا التهديد لأعدائهم .. .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا وبهجة صدورنا ، وشفيعنا يوم الدين ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) سورة القمر آية ٢٦ .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٢ .

تفسير
سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة (الأنبياء) وأسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وشفيعا لنا يوم نلقاه . (يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الخميس ١١ من ذى الحجة سنة ١٤٠٤هـ
الموافق ٦ من سبتمبر سنة ١٩٨٤ م

المؤلف
د / محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة الأنبياء ، من السور المكية . وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة عند الكوفيين . وعند غيرهم إحدى عشرة آية ومائة . وكان نزولها بعد سورة إبراهيم .

قال الآلوسى : وهى سورة عظيمة ، فيها موعظة فخيمة ، فقد أخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، وابن عساكر ، عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرمه عامر ، وكلم فيه رسول الله - ﷺ - فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله - ﷺ - واديا ما فى العرب واد أفضل منه . وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك .

فقال عامر : لا حاجة لى فى ذلك ، فقد نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا . ثم قرأ : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون .. ﴾[1] .

٢ - وعندما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، نراها فى مطلعها تسوق لنا ما يهز القلوب ، ويحملها على الاستعداد لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح ، ويزجرها عن الغفلة والإعراض .

قال - تعالى - : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون .. ﴾ .

٣ - ثم تحكى السورة بعد ذلك ألوانا من الشبهات التى أثارها المشركون حول الرسول - ﷺ - وحول دعوته ، وردت عليهم بما يبطل شبهاتهم وأقوالهم ، فقال - تعالى - : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ .

٤ - ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك أدلة متعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى شمول قدرته . منها قوله - عز وجل - : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد بهم * وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ .

٥ - وبعد أن ذكرت السورة ألوانا من نعم الله على خلقه ، وحكت جانبا من تصرفات المشركين السيئة مع النبى - ﷺ - أتبعت ذلك بتسليته - ﷺ - عما قالوه فى شأنه .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

٦ - ثم عرضت السورة الكريمة جانبا من قصص بعض الأنبياء ، تارة على سبيل الإجمال ، وتارة بشىء من التفصيل ، فتحدثت عن موسى وهارون ، وعن إبراهيم ولوط ، وعن إسحاق ويعقوب ، وعن نوح وأيوب ، وعن داود وسليمان ، وعن إسماعيل وإدريس ، وعن يونس وزكريا .

وفى نهاية حديثها عنهم - صلوات الله وسلامه عليهم - عقبت بالمقصود الأساسى من رسالتهم ، وهو دعوة الناس جميعا إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأنهم جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها ، فقال - تعالى - : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ .

٧ - ثم تحدثت فى أواخرها عن أشراط الساعة ، وعن أهوالها ، وعن أحوال الناس فيها .

قال - تعالى - : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ، يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه - سورة الأنبياء بالحديث عن سنة من سننه التى لا تتخلف ، وعن رسالة نبيه - ﷺ - وعن موقفه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون * إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون * فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون * وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين * قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ .

وبعد : فهذا عرض إجمالى لسورة الأنبياء ، ومنه نرى أنها قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ...

كما حكت شبهات المشركين وردت عليها بما يبطلها ، كما ساقت نماذج متعددة من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام .

ونسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ
﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ اقترب ﴾ من القرب الذى هو ضد البعد .

والمعنى : قرب الزمن الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم فى الدنيا ، والحال أن الكافرين منهم فى غفلة تامة عن هذا الحساب ، وفى إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .

قال الإمام ابن كثير : هذا تنبيه من الله - عز وجل - على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس فى غفلة عنها ، أى لا يعملون لها ، ولا يستعدون من أجلها .

قال - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... ﴾ وقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق

القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[١] .

وعبر سبحانه - بالقرب مع أنه قد مضى على نزول هذه الآية وأمثالها أكثر من أربعة عشر قرنا ، لأن كل آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب الوقوع ، ولأن ذلك الوقت وإن كان كبيرا فى عرف الناس ، إلا أنه عند الله - تعالى - قليل ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[٢] .

وقال - تعالى - : ﴿ إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريبا ﴾[٣] .

وقال - تعالى - : ﴿ اقترب للناس .. ﴾ بلفظ العموم ، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون ، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع ، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيرا .

قال صاحب الكشاف : وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء للمحسن والمسىء . وإذا قرعت لهم العصا ، ونبهوا عن سنة الغفلة ، وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا[٤] .

وفى التعبير عن اقتراب يوم القيامة باقتراب الحساب ، زيادة فى الترهيب والتخويف ، وفى الحض على الاستعداد لهذا اليوم ، لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم فى الدنيا حسابا دقيقا ، ولن تملك فيه نفس لنفس شيئا ، وإنما يجازى فيه كل إنسان بحسب عمله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ بيان لمواقف هؤلاء الغافلين اللاهين ممن يذكرهم بأهوال ذلك اليوم .

والمراد بالذكر : ما ينزل من آيات القرآن على النبى - ﷺ - .

والمراد بالمحدث : الحديث العهد بالنزول على النبى - ﷺ - وهو صفة لذكر .

أى : أن هؤلاء الغافلين المعرضين عن الاستعداد ليوم الحساب ، لا يصل إلى أسماعهم شىء من القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - على قلب نبيه - ﷺ - آية فآية ، أو سورة بعد سورة فى أوقات متقاربة ، إلا استمعوا إلى هذا القرآن المحدث تنزيله على الرسول

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٢٤ .
(٢) سورة الحج الآية ٤٧ .
(٣) سورة المعارج الآية ٦ ، ٧ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٠١ .

- ﷺ - وهم يلعبون ، دون أن يحرك منهم عاطفة نحو الإيمان به ، فهم لانطماس بصيرتهم ، وقسوة قلوبهم ، وجحود نفوسهم للحق ، لا يتعظون ولا يعتبرون .

وقوله : ﴿ ما يأتيهم من ذكر .. ﴾ يشعر بأن ما نزل من قرآن قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم فى الحصول عليه ، بل أتاهم وهم فى أماكنهم بدون سعى إليه .

وقوله ﴿ ذكر ﴾ فاعل و ﴿ من ﴾ مزيدة للتأكيد .

وقوله ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف صفة لذكر ، و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية أى : ما يأتيهم من ذكر كائن من ربهم وخالقهم ورازقهم ، فى حال من الأحوال ، إلا استمعوه وهم هازلون مستهترون .

وقوله : ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ حال أخرى من أحوالهم الغريبة التى تدل على نهاية طغيانهم وفجورهم ، لأنهم بجانب استماعهم إلى ما ينزل من القرآن بلعب وغفلة ، تستقبله قلوبهم - التى هى محل التدبر والتفكر - بلهو واستخفاف .

ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان مكرهم وخبثهم فقال : ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ والنجوى : المسارة بالحديث ، وإخفاؤه عن الناس .

أى : بعد أن استمعوا إلى القرآن بإعراض ولهو واستهتار ، اختلى بعضهم ببعض ، وبالغوا فى إخفاء ما يضمرونه من سوء نحو النبى - ﷺ - ونحو ما جاء به من عند الله - تعالى - ، وحاولوا أن يظهروا ذلك فيما بينهم فحسب ، مبالغة منهم فى المكر السيئ الذى حاق بهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم . أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ بيان لما قالوه فى تناجيهم من سوء .

والاستفهام للنفى والإنكار .

أى : أنهم قالوا فى تناجيهم : ماهذا الذى يدعى النبوة ، وهو محمد - ﷺ - إلا بشر مثلكم ، ولا يمكن أن يكون رسولا ، وما جاءنا به إنما هو السحر بعينه ، فكيف تذهبون إليه ، وتقبلون منه ما يدعيه ، والحال أنكم تعاينون بأبصاركم سحره .

وما حملهم على هذا القول الباطل إلا توهمهم أن الرسول لا يكون من البشر ، وأن كل ما يظهر على يد مدعى النبوة من البشر من خوارق ، إنما هو من قبيل السحر .

قال الآلوسى : وأرادوا بقولهم : « ماهذا إلا بشر مثلكم » أى : من جنسكم ، وما أتى به سحر ، تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر . قالوا ذلك بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا ، وأن كل ما يظهر على يد

البشر من الخوارق من قبيل السحر . وعنوا بالسحر . هنا القرآن الكريم ، ففى ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه ، قاتلهم الله - تعالى - : أنَّى يؤفكون . وإنما أسروا ذلك ، لأنه كان على طريق توثيق العهد ، وترتيب مبادىء الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة . وإطفاء نور الدين ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون[1] .

هذا ، ودعوى المشركين أن الرسول لايكون بشرا ، قد حكاها القرآن فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾[2] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم هذه الدعوى الكاذبة فى كثير من آيات كتابه - أيضا ، ومن ذلك قوله عز وجل - : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى .. ﴾[3] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مالقنه لنبيه - ﷺ - من الرد عليهم ، فقال : ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾ .

أى : قال الرسول - ﷺ - فى الرد على ما تناجوا به سرا : ربى الذى أرسلنى لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . يعلم ما تقولونه سواء كان سرا أم جهرا ، وسواء أكان القائل موجودا فى السماء أم فى الأرض ، وهو وحده السميع لجميع ما يسمع ، العليم بكل شىء فى هذا الكون .

وما دام الأمر كذلك فأنا سأمضى فى طريقى مبلغا رسالته - سبحانه - ، أما أنتم فسترون سوء عاقبتكم إذا ما سرتم فى طريق الكفر والعناد .

وفى قراءة سبعية بلفظ ﴿ قل ﴾ على الأمر للنبى - ﷺ - .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ﴾ إضراب من جهته - تعالى - ، وانتقال من حكاية قولهم السابق ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم .. ﴾ إلى حكاية أقوال أخرى باطلة قالوها فى شأنه - ﷺ - وفى شأن ما جاء به .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بما قالوه قبل ذلك فى شأن الرسول - ﷺ - من أنه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٩ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤ .
(٣) سورة يوسف الآية ١٠٩ .

بشر وما جاء به سحر ، بل أضافوا إلى ذلك أن القرآن أضغاث أحلام . أى : أخلاط كأخلاط الأحلام ، وأنه أباطيل لاحقيقة لها .

والأضغاث : جمع ضغث . وأصله ما جمع من أنواع شتى من النبات ثم حزم فى حزمة واحدة .

والأحلام : جمع حلم - بضم الحاء وسكون اللام - وهو ما يراه النائم مما ليس بحسن .

وقد استعير هذا التركيب لما يراه النائم من وساوس وأحلام خلال نومه ﴿ بل افتراه ﴾ أى : اختلق هذا القرآن من عند نفسه .

﴿ بل هو شاعر ﴾ أى : أن الرسول - ﷺ - شاعر - فى زعمهم - وما أتى به هو نوع من الشعر التخييلى الذى لا حقيقة له .

ثم أضافوا إلى هذا التخبط واضطراب قولهم : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾.

ومرادهم بالآية هنا : آية كونية ، والجملة جواب لشرط محذوف يفصح عنه السياق ، والتقدير : إن لم يكن كما قلنا فى شأنه من أنه شاعر بل كان رسولا حقا فليأتنا بخارق يدل على صدقه كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى للأموات .. فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك .

وكأنهم - لا نطماس بصائرهم وشدة جهالاتهم - لا يعتبرون القرآن الذى هو آية الآيات - لا يعتبرونه آية ومعجزة تدل على صدقه - ﷺ - .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويراً حكيما ، شأنهم فى ذلك شأن الحائر المضطرب الذى لا يستطيع الثبات على قرار ، بل هو لتمحله وتعلله ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلانا .

وقد نفى القرآن عن الرسول - ﷺ - كل هذه الدعاوى الباطلة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾[2] .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤١ - ٤٣ .

(٢) سورة يس الآيتان ٦٩ - ٧٠ .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بهؤلاء الذين أرسل إليهم رسوله محمدا - ﷺ - فقال : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ .

أى : أن هؤلاء الجاهلين من قومك - أيها الرسول الكريم - قد طلبوا منك آية كونية كالتى جاء بها موسى وعيسى وصالح .. وهذه الخوارق عندما جاء بها هؤلاء الرسل ولم يؤمن بها أقوامهم أهلكنا هؤلاء الأقوام ، وفقا لسنتنا التى لا تتخلف فى إهلاك من يكذبون بآياتنا ، ولو أنا أعطيناك هذه الخوارق ولم يؤمن بها قومك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين ، لذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نمنع عنهم ماطلبوه ، لأنهم بشر كالسابقين . ومادام السابقون لم يؤمنوا بهذه الخوارق فهؤلاء أيضاً لن يؤمنوا بها .

فالاستفهام فى قوله : ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ للإنكار . أى : أن هؤلاء الكافرين من أمتك - أيها الرسول الكريم - لن يؤمنوا بهذه الخوارق التى طلبوها متى جاءتهم لأنهم لا يقلون عتوا وعنادا عن السابقين الذين لم يؤمنوا بها فأهلكهم الله .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يكون جميع الرسل من البشر وأن يعيشوا الحياة التى تقتضيها الطبيعة البشرية ، وأن يؤيدهم الله - تعالى - بالمعجزات الدالة على صدقهم ، فقال - تعالى - :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

أى : وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول الكريم - إلى الأمم السابقة إلا رسلا من البشر ، ليعيشوا حياة البشر ، ويتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم ، ولو كان الرسل من غير البشر لما كانت هناك وشيجة ورابطة بينهم وبين أقوامهم .

---

(١) سورة يونس الآيتان ٩٦ - ٩٧ .

وهذه الجملة رد مفحم على المشركين الجاهلين الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا وقالوا قبل ذلك : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ نوحى إليهم ﴾ استئناف مبين لكيفية الإرسال .

أى : اقتضت حكمتنا أن يكون الرسل من الرجال ، وأن نبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحى المنزل إليهم من جهتنا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ توبيخ لهم وتجهيل ، لأنهم قالوا ما قالوا بدون تعقل أو تدبر .

والمراد بأهل الذكر : علماء أهل الكتاب الذين كان المشركون يرجعون إليهم فى أمور دينهم .

والفاء فى قوله : ﴿ فاسألوا .. ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها . وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه .

أى : مادامت قد بلغت بكم الجهالة أن تستبعدوا أن يكون الرسول بشرا فاسألوا أهل العلم فى ذلك ، فسيبينون لكم أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالا .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبى - ﷺ - وسماهم أهل الذكر ، لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء ، مما لم تعرفه العرب ، وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر النبى - ﷺ - .

وقال ابن زيد : أراد بالذكر : القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن .. ﴾[١] .

ثم أكد - سبحانه - هذه الحقيقة وهى كون الرسل من البشر فقال : ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ .

والضمير فى ﴿ جعلناهم ﴾ يعود إلى الرسل ، والجسد مصدر جَسِد الدم يَجْسَدُ - من باب فرح - إذا التصق بغيره ، وأطلق على الجسم جسد ، لا لتصاق أجزائه بعضها ببعض ، ويطلق هذا اللفظ على الواحد المذكر وغيره ولذلك أفرد . أو هو أفرد لإرادة الجنس .

أى : وما جعلنا الرسل السابقين عليك يا محمد أجسادا لا تأكل ولا تشرب كالملائكة ، وإنما جعلناهم مثلك يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعتريهم ما يعترى البشر من

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٧٢ .

سرور وحزن ، ويقظة ونوم .. وغير ذلك مما يحسه البشر .

وما جعلناهم - أيضا - خالدين فى هذه الحياة بدون موت ، وإنما جعلنا لأعمارهم أجلا محددا تنتهى حياتهم عنده بدون تأخير أو تقديم .

قال - تعالى - : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم صدقناهم الوعد .. ﴾ بيان لسنة الله - تعالى - الجارية مع رسله - عليهم الصلاة والسلام - .

أى : ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم ﴿ فأنجيناهم ﴾ من العذاب الذى أنزلناه بأعدائهم . وأنجينا معهم ﴿ من نشاء ﴾ إنجاءهم من المؤمنين بهم .

﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ الذين تجاوزوا الحدود فى كفرهم وتطاولهم على الرسل الكرام ، وإعراضهم عن دعوتهم .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، قد أنذرت الناس باقتراب يوم الحساب ، وحذرتهم من الغفلة عنه ، ومن الإعراض عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ، وحكت ما قاله المشركون من تهم باطلة تتعلق بالرسول - ﷺ - وبما جاء به من عند ربه - تعالى - وردت عليها بما يزهقها ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

ثم بين - سبحانه - أن ما أنزله على نبيه - ﷺ - هو خير الآيات وأخلدها وأشرفها ، وأنه يشرف الأمة التى تنتسب إليه ، وأن الأمم السابقة التى كذبت بالخوارق والمعجزات التى جاء بها الرسل - عليهم السلام - أهلكها الله - تعالى - هلاك استئصال - فقال - تعالى - :

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١) سورة الزمر الآية ٣٠ ، ٣١ .

تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

قال الآلوسى : « قوله - تعالى - : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا .. ﴾ كلام مستأنف لتحقيق حقية القرآن العظيم ، الذى ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته ، واستهزاؤهم به ، واضطرابهم فى أمره ، وبيان علو مرتبته ، إثر تحقيق رسالته - ﷺ - ، ببيان أنه كسائر الرسل الكرام ، وقد صدر الكلام بالتوكيد القسمى ، إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا ، بأن المخاطبين فى أقصى مراتب النكير ، والخطاب لقريش ، وجوز أن يكون لجميع العرب . »[1] .

والمعنى : لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب عن طريق رسولنا محمد - ﷺ - كتابا عظيم الشأن ، نير البرهان ، مشتملا على ما يسعدكم ، وهذا الكتاب ﴿ فيه ذكركم ﴾ أى : فيه شرفكم ، وعلو منزلتكم ، وحسن موعظتكم ، وشفاء صدوركم .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ ذلك ، مع أن هذا الأمر واضح ، ولا يحتاج إلى جدال أو مناقشة .

فالاستفهام لإنكار عدم تدبرهم فى شأن هذا الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - ليظفروا بسببه بالذكر الجميل ، وبالموعظة الحسنة ، كما قال - تعالى - ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾[2] .

وإن من مظاهر كون القرآن الكريم فيه ذكر العرب وشرفهم ، أنه نزل بلغتهم ، وأنه المعجزة الباقية الخالدة بخلاف غيره من المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها الرسل السابقين ، وأنه الكتاب الذى قادوا به البشرية قرونا طويلة . عندما حملوه إلى الناس ، فقرأوه عليهم ، وشرحوا لهم أحكامه وآدابه وتشريعاته .. وما أصيب العرب فى دينهم ودنياهم إلا يوم أن تخلوا عن العمل بهدايات هذا الكتاب ، وقصروا فى تبليغه إلى الناس .

ثم بين - سبحانه - ما أنزله بالقوم الظالمين فقال : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ .

و « كم » هنا خبرية مفيدة للتكثير ، وهى فى محل نصب على أنها مفعول مقدم « لقصمنا » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٤ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

وأصل القصم : كسر الشيء حتى ينقطع وينفصل عن غيره ، يقال : قصم فلان ظهر فلان ، إذا كسره حتى النهاية ، بخلاف الفصم فهو صدع الشيء من غير قطع وانفصال .

قال القرطبى : « والقصم : الكسر ، يقال : قصمت ظهر فلان ، وانقصمت سنه ، إذا انكسرت .

والمعنى ها هنا به الإهلاك . وأما الفصم - بالفاء - فهو الصدع فى الشيء من غير بينونة »[1] .

أى : وكثيرا من القرى الظالمة التى تجاوز أهلها حدود الحق ، ومردوا على الكفر والضلال ، أبدناها مع أهلها ، وعذبناها عذابا نكرا ، بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين ليسوا مثلهم .

وأوقع - سبحانه - فعل القصم على القرى ، للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها . فالكل قد دمره - سبحانه - تدميراً .

أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال : ﴿ وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين ، الذين لم يكونوا أمثال السابقين ، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾[2] .

ثم صور - سبحانه - حال هؤلاء الظالمين عندما أحسوا بالعذاب وهو نازل بهم فقال : ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ .

وقوله : ﴿ أحسوا ﴾ من الإحساس . وهو إدراك الشيء بالحاسة . يقال : أحس فلان الشيء ، إذا علمه بالحس ، وأحس بالشيء ، إذا شعر به بحاسته .

وقوله : ﴿ يركضون ﴾ من الركض وهو السير السريع ، وأصله : أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجرى والسرعة فى المشى . والمقصود به هنا : الهرب بسرعة .

أى : فلما أحس هؤلاء الظالمون عذابنا المدمر ، وأيقنوا نزوله بهم ، وعلموا ذلك علما مؤكدا ، إذا هم يخرجون من قريتهم ﴿ يركضون ﴾ أى : يهربون بسرعة وذعر ، حتى لكأنهم من اضطرابهم وخوفهم يظنون أن ذلك سينجيهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٧٤ .
(٢) سورة الإسراء الآية ١٧ .

وإذا هنا فجائية ، والجملة بعدها جواب « لما » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ حكاية لما تقوله لهم الملائكة ، وهم يركضون هربا - على سبيل التهكم والاستهزاء .

أى : يقال لهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين لا تركضوا هاربين ﴿ وارجعوا إلى ﴾ قريتكم وإلى ﴿ ما أترفتم فيه ﴾ أى : وإلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء . والخير الوفير ، الذى أبطركم وجعلكم تجحدون النعم ، ولم تستعملوها فيما خلقت له .

فقوله : ﴿ أترفتم ﴾ من الترفه - بالتاء المشددة مع الضم - وهى النعمة والطعام الطيب . يقال : ترف فلان - كفرح - إذا تنعم . وفلان أترفته النعمة ، إذا أطغته أو نعمته .

وقوله : ﴿ ومساكنكم ﴾ معطوف على ﴿ ما ﴾ .

أى : لا تهربوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء ، وإلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها ، وتتفاخرون بها .

﴿ لعلكم تسألون ﴾ أى يقصدكم غيركم لسؤالكم عما نزل بكم ، فتجيبوا عن علم ومشاهدة .

قال صاحب الكشاف : « قوله ﴿ لعلكم تسألون ﴾ تهكم بهم وتوبيخ ، أى : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم . فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .

أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم ، وترتبوا فى مراتبكم حتى يسألكم حشمكم وعبيدكم ، ومن تملكون أمره . وينفذ فيه أمركم ونهيكم ، ويقول لكم : بم تأمرون ؟ وبماذا ترسمون ؟

وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدَّمين .

أو يسألكم الناس فى أنديتكم .. ويستشيرونكم فى المهمات . ويستضيئون بآرائكم .

أو يسألكم الوافدون عليكم ، ويستمطرون سحائب أكفكم .. قيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى توبيخ »[1] .

وهنا أدرك هؤلاء الظالمون ، أن الأمر جد لاهزل ، وأن العذاب نازل بهم لا محالة ، وأن القائلين لهم لا تركضوا ، إنما يتهكمون بهم . فأخذ أولئك الظالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين : ﴿ يا ولينا إنا كنا ظالمين ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٠٦ .

والويل : الفضيحة والبلية والمصيبة التى يعقبها الهلاك . وهى كلمة جزع وتحسر . وتستعمل عندما تحيط بالإنسان داهية عظيمة ، وكأن المتحسر لنزول مصيبة به ، ينادى ويليته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يُنَادَى .

أى : قالوا عندما تيقنوا أن الهلاك نازل بهم : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين للعذاب . بسبب إعراضنا عن الحق ، وتكذيبنا لمن جاء به .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ يعود إلى الكلمات التى قالوها على سبيل التحسر عندما يئسوا من الخلاص والهرب ، وتأكدوا من الهلاك ، وهى قولهم : ﴿ يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ .

أى : فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتفجع وتحسر واستعطاف .

وسميت هذه الكلمات دعوى ، لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا : أيها الويل هذا أوانك فأقبل نحوى .

وقوله : ﴿ حتى جعلناهم حصيدا خامدين ﴾ بيان لما آل إليه حالهم .

وخامدين : من الخمود بمعنى الهمود والانطفاء والانتهاء . يقال : خمدت النار تخمد خمدا وخمودا ، إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها .

أى : فمازالت تلك كلماتهم حتى جعلناهم فى الهمود والهلاك كالنبات المحصود بالمناجل ، وكالنار الخامدة بعد اشتعالها .

وهكذا تكون عاقبة الظالمين . وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على قدرته ووحدانيته ، وعلى أن من فى السموات والأرض لا يستكبرون عن عبادته - تعالى - ، فقال - عز وجل - :

وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

والمعنى : إننا لم نخلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، لم نخلق ذلك عبثا ، وإنما خلقنا هذه المخلوقات بحكمتنا السامية ، وقدرتنا النافذة ، ومشيئتنا التى لا يقف فى وجهها شىء .

وقوله - تعالى - : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من أن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثا ، وإنما لحكم بالغة ، مستتبعة لغايات جليلة ، ومنافع عظيمة .

و « لو » هنا حرف امتناع لامتناع . أى : امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط .

واللهو : الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، ولا يتناسب مع الجد ، وهو قريب من العبث الباطل تقول : لهوت بهذا الشىء ألهو لهوا ، إذا تشاغلت به عن الجد ، ويطلقه بعضهم على الولد والزوجة والمرأة .

أى : لو أردنا - على سبيل الفرض والتقدير - أن نتخذ ما نتلهى به ، لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا دون أن يمنعنا أحد مما نريده ولكنا لم نرد ذلك لأنه مستحيل علينا استحالة ذاتية ، فيستحيل علينا أن نريده .

فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على المحال ، لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله - تعالى - ومع ذاته الجليلة .

وقوله : ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ تأكيد لامتناع إرادة اللهو ، و ﴿ إن ﴾ نافية ، أى : ما كنا فاعلين ذلك ، لأن اتخاذ اللهو يستحيل علينا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ إضراب عن إرادة اتخاذ اللهو ، وإثبات لما تقتضيه ذاته - تعالى - مما يخالف ذلك .

والقذف : الرمى بسرعة . والاسم القذاف - ككتاب - ، وهو سرعة السير ، ومنه قولهم : ناقة قذاف - بكسر القاف - إذا كانت متقدمة على غيرها فى السير .

ويدمغه : أى : يمحقه ويزيله . قال القرطبى : وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ .

أى : ليس من شأننا أن نتخذ لهوا ، وإنما الذى من شأننا وحكمتنا ، أن نلقى بالحق الذى

أرسلنا به رسلنا ، على الباطل الذى تشبث به الفاسقون ﴿ فيدمغه ﴾ أى : فيقهره ويهلكه ويزيله إزالة تامة .

والتعبير القرآنى البليغ ، يرسم هذه السنة الإلهية فى صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فتهوى على الباطل فتشق أم رأسه ، فإذا هو زاهق زائل .

قال الآلوسى : وفى إذا الفجائية ، والجملة الإسمية ، من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان مالا يخفى ، فكأنه زاهق من الأصل[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وعيد شديد لأولئك الكافرين الذين نسبوا إلى الله - تعالى - مالا يليق به ، ووصفوه بأن له صاحبة وولدا ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ .

أى : ولكم - أيها الضالون المكذبون - الويل والهلاك ، من أجل وصفكم له - تعالى - بما لا يليق بشأنه الجليل .

وقوله - تعالى - : ﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ استئناف مؤكد لما قبله من أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته - تعالى - .

أى : وله وحده - سبحانه - جميع من فى السموات والأرض ، خلقا ، وملكا ، وتدبيرا ، وتصرفا وإحياء ، وإماتة ، لا يخرج منهم أحد عن علمه وقدرته - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - نماذج من عباده الطائعين له ، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين ، فقال : ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

والاستحسار : الكلل والتعب . يقال : حسر البصر يحسُر حسورا - من باب قعد - إذا تعب من طول النظر ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ أى : كليل متعب .

أى : ومن عنده من مخلوقاته وعلى رأسهم الملائكة المقربون ، لا يستكبرون عن عبادته - سبحانه - بل يخضعون له خضوعا تاما ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أى : ولا يكلون ولا يتعبون .

بل هم ﴿ يسبحون ﴾ الله - تعالى - ويحمدونه ويكبرونه . طوال الليل والنهار بدون فتور

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٢٠ .

أو تراخ أو تقصير . يقال : فتَرفلان عن الشىء يفتُر فتورا ، إذا سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، ويقال : فتر الماء - من باب قعد - إذا سكن حره فهو فاتر .

قالوا : وذلك لأن تسبيح الملائكة لله - تعالى - يجرى منهم مجرى التنفس منا ، فهو سجية وطبيعة فيهم وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام ، فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - أن من مخلوقاته من يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور ، أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة على وحدانيته ، واستحالة أن يكون هناك من يشاركه فى ألوهيته فقال - تعالى -:

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن الكلام من أول السورة إلى هنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا ، وأما هذه الآيات فإنها فى بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد .. »[2] .

والاستفهام فى قوله ﴿ أم اتخذوا ﴾ .. للإنكار والتوبيخ . وقوله : ﴿ ينشرون ﴾ من النشر بمعنى الإحياء والبعث . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى : إذا بعثهم بعد موتهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٢٣ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٩١ .

والمعنى : إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، فهل هذه الآلهة التى اتخذوها تستطيع أن تعيد الحياة إلى الأموات ؟

كلا إنها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم ، ومادام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا تستطيع أن تفعل شيئا من ذلك أو من غيره ؟

إن اتخاذهم هذا لمن أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر . وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم ، لأنهم كانوا ينكرون البعث أصلا ويقولون : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قلت : الأمر كما ذكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات . وفيه باب من التهكم بهم ، والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله - تعالى - لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ من الأرض ﴾ متعلق باتخذوا ، و « من » ابتدائية ، أى : اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للآلهة ، أى : اتخذوا آلهة كائنة من الأرض .. وعلى كلا التقديرين فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل ..

ثم ساق - سبحانه - دليلا عقليا مستمدا من واقع هذا الكون فقال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

أى : لو كان فى السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله - تعالى - ، تدبر أمرهما ، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع ، الذى لا خلل فيه ولا اضطراب .

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم .. فيختل النظام لهذا الكون ، ويضطرب الأمر ، ويعم الفساد فى هذا العالم .

ولما كان المشاهد غير ذلك إذ كل شىء فى هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق دل الأمر على أن لهذا الكون كله ، إلها واحداً قادرا حكيما لا شريك له .

قال صاحب الكشاف : « والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٠٩ .

وفيه دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً .
الثانى : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله ﴿ إلا الله ﴾ .

فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف .

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : كان والله أعز على من دم ناظرى . ولكن لا يجتمع فحلان فى شَوْل - أى : فى عدد مع النياق -[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ تنزيه لله - تعالى - عما قاله الجاهلون فى شأنه - عز وجل - .

أى : فتنزيها لله وتقديسا وتبرئة لذاته عن أن يكون له شريك فى ألوهيته ، وجل عما وصفه به الجاهلون .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ تأكيد لوحدانيته وقدرته - سبحانه - أى : لا يسأله سائل - سبحانه - عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال . وهداية وإضلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء .. لأنه هو الرب المالك المتصرف فى شئون خلقه ، وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده ، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز ، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقى وهلك .

وبعد أن ساق - سبحانه - دليلا عقليا على وحدانيته ، أتبعه بدليل آخر نقلى ، فقال - تعالى - : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى .. ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : هذا إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة ، لخلوها من خصائصها التى من جملتها الإنشار ، إلى تبكيتهم ومطالبتهم بالبرهان على دعواهم الباطلة ، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد ، وبطلان الإشراك ..[2] .

أى : إن هؤلاء الكافرين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، بسبب جهلهم وعنادهم وجحودهم للحق .. قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتوبيخ ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ على أن مع الله - تعالى - آلهة أخرى تستحق مشاركته فى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٣١ .

العبادة والطاعة ؟ ولاشك أنهم لا برهان لهم على ذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ﴾ زيادة فى تبكيتهم وفى إظهار عجزهم ، أى : هذا الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله - تعالى - موجود فى القرآن الكريم المشتمل على ذكر المعاصرين لى من أتباعى ، وموجود فى كتب الأنبياء السابقين ، كالتوراة التى أنزلها الله على موسى ، والإنجيل الذى أنزله على عيسى ، فمن أين أتيتم أنتم بهؤلاء الشركاء ، وكيف اتخذتموهم آلهة مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل ؟

فاسم الإشارة ﴿ هذا ﴾ فى قوله : ﴿ هذا ذكر من معى ﴾ مبتدأ ، مشار به إلى الوحى الإلهى ، وقد أخبر عنه - سبحانه - بخبرين - كما يقول الشيخ الجمل - : « فبالنظر للخبر الأول يراد به القرآن ، وبالنظر للخبر الثانى يراد به ما عداه من الكتب السماوية »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ إضراب من جهته - تعالى - عن مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان ، وانتقال من الأمر بتبكيتهم إلى الأمر بإهمالهم استصغارا لشأنهم .

أى : دعهم - أيها الرسول الكريم - فى باطلهم يعمهون فإنهم قوم أكثرهم يجهلون الحق ، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين الباطل . فهم لأجل ذلك منصرفون عن الهدى ، ومتجهون إلى الضلال ، ومن جهل شيئا عاداه .

ثم بين - سبحانه - أن جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قد أمروا أقوامهم بإخلاص العبادة لله ، ونبذ الشرك والشركاء ، فقال - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

أى : وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد إلا وأفهمناه عن طريق وحينا أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتى وعبادتى والخضوع لى وحدى .

هذا ، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار . وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التى تفوه بها المشركون ، ورد عليهم ردا مفحما ، فقال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٢٤ .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ
بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ
جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ ، حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، وبيان تنزهه - سبحانه - عن ذلك ، إثر بيان تنزهه - جل وعلا - عن الشركاء على الإطلاق ، وهم حى من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ، ونقل الواحدى أن قريشا وبعض العرب قالوا ذلك .

والآية مشنعة على كل من نسب إلى الله - تعالى - ذلك كاليهود والنصارى .. »[1] .

أى : وقال المشركون الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق « اتخذ الرحمن ولدًا سبحانه » .

أى : تنزه وتقدس الله - تعالى - عن ذلك جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا .

وقوله : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ إضراب عما قالوه ، وإبطال له ، وثناء على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله .

وعباد : جمع عبد . والعبودية لله - تعالى - معناها : إظهار التذلل له - سبحانه - ، والخضوع لذاته .

ومكرم : اسم مفعول من أكرم ، وإكرام الله - تعالى - لعبده معناه : إحسانه إليه وإنعامه عليه .

أى : لقد كذب هؤلاء المشركون فى زعمهم أن الملائكة بنات الله ، والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له - تعالى - ومقربون إليه ومكرمون عنده .

وقوله : ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ أى : لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يقولون شيئا

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٣٢ .

بدون إذنه ، كما هو شأن العبيد الطائعين لسيدهم .

وأصل الكلام : لا يسبق قولهم قوله - عز وجل - إلا أنه - سبحانه - أسند السبق إليهم ، تنزيلا لسبق قولهم لقوله ، منزلة سبقهم إياه ، للإشعار بمزيد طاعتهم وتنزيههم عن كل قول بغير إذنه - تعالى - .

وقوله : ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ بيان لتبعيتهم له - تعالى - فى الأعمال إثر بيان تبعيتهم له - سبحانه - فى الأقوال .

أى : وهم بأمره وحده يعملون لا بأمر أحد سواه ، ولا بأمر أنفسهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة . عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر علمه الشامل ، وحكمه النافذ ، فقال ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .. ﴾ أى : يعلم - سبحانه - أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها ، ﴿ ولا يشفعون ﴾ لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى الله - تعالى - شفاعتهم له .

﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أى : وهم لخوفهم من الله ومن عقابه حذرون وجلون .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الملائكة فى هذه الآيات بجملة من الصفات الكريمة التى تدل على طاعتهم المطلقة لله - تعالى - وعلى إكرامه - سبحانه - لهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع كرامتهم عند الله - تعالى - لو ادعى أحد منهم - على سبيل الفرض - أنه إله ، لعاقبه الله عقاباً شديدا ، فقال - تعالى - : ﴿ ومن يقل منهم إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ .

أى : ومن يقل من الملائكة - على سبيل الفرض والتقدير - ﴿ إنى إله من دونه ﴾ أى : من دون الله - عز وجل - « فذلك » الذى ادعى هذا الادعاء الكاذب « نجزيه جهنم » أى : نجعل جزاءه الإلقاء فى جهنم كسائر المجرمين الكاذبين ، ولا يغنى عنه ما سبق له من طاعة وتكريم ﴿ كذلك نجزى الظالمين ﴾ أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع نجزى كل ظالم يضع الأمور فى غير موضعها ، إذ أن حقوق الله - تعالى - لا يجوز لأحد - كائنا من كان - أن ينسبها لنفسه ، سواء أكان ملكا مقربا ، أم نبيا مرسلا .

وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانا من الأدلة الكونية الشاهدة بوحدانيته ، ومن الأدلة

(١) سورة التحريم آية ٦ .

النقلية النافية للشركاء ، ومن الأدلة الوجدانية التى تهيج القلوب نحو الحق .. أتبع ذلك بتحريض الكافرين على التدبر فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التدبر يهديهم إلى الإيمان ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

وقوله ﴿ رتقا ﴾ مصدر رتقه رتقا : إذا سده . يقال : رتق فلان الفتق رتقا ، إذا ضمه وسده ، وهو ضد الفتق الذى هو بمعنى الشق والفصل .

وللعلماء فى معنى هذه الآية أقوال أشهرها : أن معنى ﴿ كانتا رتقا ﴾ أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر ، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات ، ففتق الله - تعالى - السماء بأن جعل المطر ينزل منها ، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها .

وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس ، فقد سئل عن ذلك فقال : كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق - سبحانه - للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات[1] .

ومنهم من يرى أن المعنى : كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشىء الواحد ، ففتقهما الله - تعالى - بأن فصل بينهما ، فرفع السماء إلى مكانها ، وأبقى الأرض فى مقرها ، وفصل بينهما بالهواء .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٢ .

قال قتادة قوله ﴿ كانتا رتقا ﴾ يعنى أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله بينهما بالهواء[1] .

ومنهم من يرى أن معنى « كانتارتقا » أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض ففتقها الله - تعالى - بأن جعلها سبع سموات منفصلة ، والأرضون كانت كذلك رتقا ، ففصل الله - تعالى - بينها وجعلها سبعا .

قال مجاهد : كانت السموات طبقة واحدة مؤتلفة ، ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا[2] .

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما ملخصه : كونهما « كانتا رتقا » بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر ، والأرض لا تنبت ، ففتق - سبحانه - السماء بالمطر والأرض بالنبات ، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله - تعالى - منها :

أن قوله - تعالى - : ﴿ أو لم ير الذين كفروا .. ﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك لأن الأظهر فى رأى أنها بصرية ، والذى يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض لا نبات فيها . فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء ، وخروج النبات من الأرض .

ومنها : أنه - سبحانه - أتبع ذلك بقوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله . أى : وجعلنا من الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء ، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض ، كل شىء حى .

ومنها : أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى ، كقوله - تعالى - : ﴿ والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع ﴾ والمراد بالرجع : نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى ، والمراد بالصدع : انشقاق الأرض عن النبات . واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازى .

فإن قيل : هذا الوجه مرجوح ، لأن المطر لا ينزل من السموات ، بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا ؟

قلنا : إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة فيها سماء كما يقال : ثوب أخلاق - أى : قطع -[3] .

والآية الكريمة مسوقة لتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم ، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ويعلمون أن من كان كذلك ،

---

(١) ، (٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٨٣ .
(٣) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٥٦٢ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه ، مما لا يضر ولا ينفع .

والمعنى : أو لم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم ، ويعلموا بعقولهم ، أن السموات والأرض كانتارتقا ، بحيث لا ينزل من السماء مطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ففتق الله - تعالى - السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

إنهم بلا شك يشاهدون ذلك ، ويعقلونه بأفكارهم . ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم ، يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفع من عَبَده ، ولا يضر من عصاه .

وقال - سبحانه - : ﴿ كانتا ﴾ بالتثنية ، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء ، ونوع الأرض ، كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا .. ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى .. ﴾ تأكيد لمضمون ما سبق ، وتقرير لوحدانيته ونفاذ قدرته - سبحانه - والجعل بمعنى الخلق . و ﴿ من ﴾ ابتدائية .

أى : وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة ، كل شىء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان ، أو كل شىء نام فيدخل النبات ، ويراد من الحياة ما يشمل النمو .

وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى ، لأن الملائكة - كما جاء فى بعض الأخبار ه خلقوا من النور ، والجن مخلوقون من النار .

قال - تعالى - ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار ﴾ .

قال القرطبى : وفى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ ثلاث تأويلات : أحدها : أنه خلق كل شىء من الماء . قاله قتادة . الثانى: حفظ حياة كل شىء بالماء : الثالث : وجعلنا من ماء الصلب - أى : النطفة - كل شىء حى ..[1] .

وقوله : ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار .

أى : أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته . ومع ذلك لا يؤمنون ؟ إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب ، وأغرب الغرائب !! .

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم .. ﴾ .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٨٤ .

الرواسى : جمع راسية ، من رسا الشىء إذا ثبت ورسخ ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة فى الأرض .

أى : وجعلنا فى الأرض جبالا ثوابت ، كراهة أن ﴿ تميد بهم ﴾ أى : أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض . يقال : ماد الشىء يميد ميدا - من باب باع ه إذا تحرك واهتز .

﴿ وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾ ، والفجاج . جمع فج وهو الطريق الواسع . والسبل : جمع سبيل وهو الطريق . وهو بدل من ﴿ فجاجا ﴾ .

أى : وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة ، ومنافذ متعددة ، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التى يريدون الوصول إليها . ويعلمون أن الذى وهبهم كل هذه النعم ، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة .

﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ أى : وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت ، وجعلناه محفوظا من السقوط ومن التشقق ، ومن كل شيطان رجيم . وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا . معرضون ذاهلون ، لا يتعظون ولايتذكرون .

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط ، قوله - تعالى - : ﴿ ... ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾[1] .

ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله - سبحانه - : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . ﴾[2] .

وعلى حفظها من الشياطين قوله - تعالى - : ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾[3] .

ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله - سبحانه - : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[4] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله - تعالى - ﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون ﴾ .

أى : وهو حده - سبحانه - الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع ، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب « كل » أى : كل واحد من الشمس والقمر يسير فى فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام ، كالسابح فى الماء .

---

(١) سورة الحج الآية ٦٥ .
(٢) سورة ق الآية ٦ .
(٣) سورة الحجر الآية ١٧ .
(٤) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

وقوله : ﴿ يسبحون ﴾ من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء .

وجاء يسبحون بضمير العقلاء . لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته .

ثم بين - سبحانه - أن مصير البشر جميعا إلى الفناء ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها ، وأن المشركين لو علموا المصير السيئ الذى ينتظرهم يوم القيامة ، لما قالوا ما قالوه من باطل ، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح ، قال - تعالى - :

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ
ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ
ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وماجعلنا البشر من قبلك الخلد ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا .

نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد - ﷺ - ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان ، فقال الله - تعالى - : قد مات الأنبياء قبلك يا محمد ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ..[١] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ للانكار والنفى ..

والمعنى : وما جعلنا - أيها الرسول الكريم - لبشر من قبلك - كائنا من كان - الخلود فى هذه الحياة ، وأنت إن مت فهم - أيضا - سيموتون فى الوقت الذى حدده الله - تعالى - لانقضاء عمرك وأعمارهم ، وما دام الأمر كذلك فذرهم فى جهالتهم يعمهون ، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك ، أو إلى تربصهم بك ، فإنك ميت وإنهم ميتون ، وكل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ، ورحم الله الإمام الشافعى حيث يقول :

تمنى أناس أن أموت . وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها ، وكأن قد

وقال شاعر آخر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكِلهُ أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم أكد - سبحانه - عدم خلود بشر فى هذه الحياة فقال : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ .

أى : كل نفس أوجدها الله - تعالى - فى هذه الحياة ، ستذوق مرارة نزول الموت بها . ومفارقة روحها لجسدها .

قال الآلوسى ما ملخصه : والموت عند الأشعرى ، كيفية وجودية تضاد الحياة ، وعند كثيرين غيره : أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل .

وقال بعضهم : المراد بالنفس هنا : النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفى خلود البشر . واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان[٢] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٨٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٤٥ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ بيان لسنة من سننه - تعالى - فى معاملة عباده .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونبلوكم ﴾ من البَلْوِ بمعنى الاختبار والامتحان . يقال : فلان بلاه الله بخير أو شر يبلوه بَلْواً ، وأبلاه وابتلاه ابتلاء ، بمعنى امتحنه[١] .

وقوله : ﴿ فتنة ﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

أى : كل نفس ذائقة الموت ، ونختبركم فى هذه الحياة بألوان من النعم وبألوان من المحن ، لنرى أتشكرون عند النعمة ، وتصبرون عند المحنة ، أم يكون حالكم ليس كذلك ؟ وفى جميع الأحوال فإن مرجعكم إلينا لا محالة ، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم ، وسنجازى غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال بعض العلماء : « والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال المبتلَى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته فى ربه ، ورجائه فى رحمته .. فأما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان .

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة . فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان ، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل . وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع .

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة ، ولا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال .

إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة .. أما الرخاء فقد يرخى الأعصاب ويفقدها المقاومة .. إلا من عصم الله ، وصدق رسوله الله - ﷺ - حيث يقول : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[٢] .

---

(١) المصباح المنير ص ٨٦ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٧ ص ٥٢٣ للأستاذ سيد قطب رحمه الله .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلكم يتضرعون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾[٢] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من السفاهات التى كان المشركون يقابلون بها النبى - ﷺ - فقال : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ .

أى : وإذا أبصرك المشركون - أيها الرسول الكريم - سخروا منك ، واستخفوا بك وقالوا على سبيل التهوين من شأنك : ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ أى : أهذا هو مدعى النبوة الذى يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها ، وينفى شفاعتها لنا ، وأنها تقربنا إلى الله زلفى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ فى محل نصب حال من ضمير القول المقدر .

أى : أنهم يقولون فيما بينهم أهذا هو الرسول الذى يذكر آلهتكم بسوء ، والحال أن هؤلاء المشركين الجاهلين ، كافرون بالقرآن الذى أنزله الله - تعالى - عليك - أيها الرسول الكريم - لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء المشركين جهالاتهم وسفاهاتهم ، حيث استكثروا على الرسول - ﷺ - أن يذم آلهتهم التى لا تنفع ولا تضر ولم يستكثروا على أنفسهم ، أن يكفروا بخالقهم وبذكره الذى أنزله على نبيه - ﷺ - ليكون رحمة لهم .

قال صاحب الكشاف : الذكر يكون بخير وبخلافه . فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد . كقولك للرجل : سمعت فلانا يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء ، وإن كان عدوا فهو ذم ، ومنه قوله : ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ .

والمعنى : أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم ، وربما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء . ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك . وأما ذكر الله - تعالى - وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق بأن يُتَّخَذُوا هزوا منك ، فإنك محق وهم مبطلون .. فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساءوا الأدب مع الرحمن »[٣] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٢ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٨ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١٦ .

ثم بين - سبحانه - ما جبل عليه الإنسان من تسرع وتعجل فقال : ﴿ خلق الإنسان من عجَل ﴾ .

والعجَل : طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، وهو ضد البطء .

والمراد بالإنسان : جنسه .

والمعنى : خلق جنس الإنسان مجبولا على العجلة والتسرع فتراه يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد لها ، مع أن ذلك قد يؤدى إلى ضرره .

فالمراد من الآية الكريمة وصف الإنسان بالمبالغة فى تعجل الأمور قبل وقتها ، حتى لكأنه مخلوق من نفس التعجل . والعرب تقول : فلان خلق من كذا ، يعنون بذلك المبالغة فى اتصاف هذا الإنسان بما وصف به ، ومنه قولهم خلق فلان من كرم ، وخلقت فلانة من الجمال .

وقوله : ﴿ سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ تهديد وزجر لأولئك الكافرين الذين كانوا يستعجلون العذاب .

أى : سأريكم عقابى وانتقامى منكم - أيها المشركون - فلا تتعجلوا ذلك فإنه آت لا ريب فيه .

قال ابن كثير : والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان هنا : أنه - سبحانه - لما ذكر المستهزئين بالرسول - ﷺ - وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم . فقال - سبحانه - : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ لأنه - تعالى - يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، ويُنْظِر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال : ﴿ سأريكم آياتى ﴾ أى : نقمى واقتدارى على من عصانى ﴿ فلا تستعجلون ﴾[1] .

وقال الآلوسى : « والنهى عن استعجالهم إياه - تعالى - مع أن نفوسهم جبلت على العجلة ، ليمنعوها عما تريده وليس هذا من التكليف بما لا يطاق . لأنه - سبحانه - أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ، ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر »[2] .

ثم أكد - سبحانه - ما يدل على تعجلهم لما فيه هلاكهم فقال : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

أى : أن هؤلاء المشركين بلغ من طغيانهم وجهلهم أنهم كانوا يتعجلون العذاب الذى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٤٩ .

توعدهم الله - تعالى - به إذا ما استمروا على كفرهم . ويقولون للرسول - ﷺ - ولأصحابه - على سبيل التهكم والاستهزاء - متى يقع هذا العذاب الذى توعدتمونا به . إننا مترقبون له ، فإن كنتم صادقين فى وعيدكم ، فأسرعوا فى إنزاله . وأسرعوا فى دعوة ربكم - سبحانه - أن يأتى بالساعة .

وجواب الشرط لقوله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف ، لدلالة ما قبله عليه . أى : إن كنتم صادقين فى وعيدكم بأن هناك عذابا ينتظرنا ، فأتوا به بسرعة .

وهنا يسوق القرآن ما يدل على غفلتهم وسوء تفكيرهم ، وعلى أنهم لو كانوا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، لما تفوهوا بما تفوهوا به - فيقول - سبحانه - ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، ولا هم ينصرون ﴾ .

وجواب « لو » محذوف . و « يعلم » بمعنى يعرف ، و « حين » مفعوله .

أى : لو عرف الكافرون وقت وقوع العذاب بهم . وما فيه من فظائع تجعلهم يعجزون عن دفع النار عن وجوههم وعن ظهورهم .. لو يعرفون ذلك لما استعجلوه . ولما استخفوا بالنبى - ﷺ - وبأصحابه ، لكن عدم معرفتهم هى التى جعلتهم يستعجلون ويستهزئون .

وخص - سبحانه - الوجوه والظهور بالذكر . لكونهما أظهر الجوانب ، ولبيان أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكوا له دفعا .

وقال - سبحانه - ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ لبيان أنهم مع عجزهم عن دفع العذاب بأنفسهم . فإن غيرهم - أيضا - لن يستطيع دفعه عنهم .

قال صاحب الكشاف : « جواب « لو » محذوف . و « حين » مفعول به ليعلم . أى : لو يعلمون الوقت الذى يستعلمون عنه بقولهم : « متى هذا الوعد » وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ؛ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم ، ويجوز أن يكون « يعلم » متروكا بلا تعدية ، بمعنى : لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين ، لما كانوا مستعجلين ، وحين : منصوب بمضمر ، أى حين « لا يكفون عن وجوههم النار » يعلمون أنهم كانوا على الباطل ..»[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ﴾ .. بيان لسرعة قيام الساعة ، ومفاجأتها لهم . أى : بل تأتيهم الساعة الموعود بها ، وبعذابهم فيها ، مفاجأة من غير شعور بمجيئها

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١٨ .

« فتبهتهم » أى : فتدهشهم وتحيرهم ، والبهت : الانقطاع والحيرة .

« فلا يستطيعون ردها » أى : فلا يستطيعون دفع الساعة أوردها عنهم ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أى : ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بتسلية النبى - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء المشركين ، فقال : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم . ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

أى : ولقد استهزىء - أيها الرسول الكريم - برسل كثيرين من قبلك ، فنزل بهؤلاء المشركين المستهزئين برسلهم ، العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ، ويستعجلون رسلهم فى نزوله .

وصدرت الآية الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة تحقيق مضمونها وتأكيده ، وتنوين الرسل : للتفخيم والتكثير ، أى : والله لقد استهزىء برسل كثيرين ذوى شأن خطير كائنين فى زمان قبل زمانك .

وعبر - سبحانه - بالفعل حاق ، لأن هذه المادة تستعمل فى إحاطة المكروه ، فلا يقال : فلان حاق به الخير ، ولأنها تدل على الشمول واللزوم .

أى : فنزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا نزولا شاملا ، أحاط بهم من كل جهة إحاطة تامة .

وبذلك تكون الآيات الكريمة ، قد بينت جانبا من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وحكت بعض الأفعال القبيحة التى كان المشركون يفعلونها مع النبى - ﷺ - وهددتهم عليها تهديدا شديدا ، وسلّت النبى - ﷺ - عما ارتكبوه فى حقه .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يُذَكِّر هؤلاء الجاحدين بنعمه - تعالى - وأن ينذرهم بأسه وعقابه إذا ما استمروا فى كفرهم ، فقال - عز وجل - :

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾
قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ يكلؤكم ﴾ أى : يرعاكم ويحفظكم . يقال : فلان كَلأَ فلانا كَلْأً وكِلاءَة - بالكسر - إذا حرسه ، واكتلأ فلان من غيره ، إذا احترس منه .

والاستفهام للإنكار والتقريع .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المستهزئين بك وبما جئت به من عند ربك : قل هم من الذى يحرسكم ويحفظكم « بالليل » وأنتم نائمون « والنهار » وأنتم متيقظون « من الرحمن » أى : من عذاب الرحمن وبأسه إذا أراد أن يهلككم بسبب عكوفكم على كفركم وشرككم .

وتقديم الليل على النهار ، لما أن الدواهى فيه أكثر ، والأخذ فيه أشد ، واختار - سبحانه - لفظ الرحمن ، للإشعار بأنهم يعيشون فى خيره ورحمته . ومع ذلك لا يشكرونه - تعالى - على نعمه .

ولذا - أخبر - سبحانه - عنهم بقوله : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أى : بل هم بعد كل هذا الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم عن ذكر ربهم وكتابه الذى أنزله لهدايتهم ، معرضون شاردون ، لا يحاولون الانتفاع بتوجيهاته ، ولا يستمعون إلى إرشاداته .

فالجملة الكريمة تنفى عنهم الانتفاع بما يوجهه الرسول - ﷺ - إليهم من هدايات وعظات .

ثم وجه - سبحانه - إليهم سؤالا آخر فقال : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا .. ﴾ ؟ .

و﴿ أم ﴾ هنا هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، فهى مشتملة على معنى الإضراب والإنكار .

والمعنى : وسلهم - أيها الرسول الكريم - مرة أخرى : أهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا نحن ؟ كلا ليس لهم ذلك .

فالجملة الكريمة إضراب عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم على جهالاتهم بسبب اعتمادهم على آلهة لا تنفع ولا تضر .

وقوله : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾ نفى على أبلغ وجه لأن تكون هناك آلهة ترعاهم سوى الله - تعالى - أى : كلا .. ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا إن أردنا إنزاله بهم ، فإن هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم ، ولا هم منا يصحبون ، أى : يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم .

قال ابن جرير : « وقوله ﴿ يصحبون ﴾ بمعنى يجارون ، تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان . بمعنى أجيرك وأمنعك منه . وهؤلاء إذا لم يصحبوا بالجوار ، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخط الله عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولن ينصروا[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله عليهم لم يحسنوا شكرها ، فقال - تعالى - : ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر .. ﴾ .

أى : لا تلتفت - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم ، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع ، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار ، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا ، حتى طالت أعمارهم فى رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر . وسنأخذهم فى الوقت الذى نريده أخذ عزيز مقتدر ، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم .

ثم يلفت - سبحانه - أنظارهم إلى الواقع المشاهد فى هذه الحياة فيقول : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ٢٣ .

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : إهلاك المشركين السابقين الذين كذبوا رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وهم يمرون على قرى بعض هؤلاء المكذبين ، ويرون آثارهم وقد دمرت ديارهم .

والمعنى : أفلا ينظر هؤلاء المشركون الذين كذبوك يا محمد ، فيرون بأعينهم ماحل بأمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلك . وكيف أننا طوينا الأرض بهم . وجعلناهم أثرا بعد عين .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ للإنكار .

أى : لم تكن الغلبة والعاقبة فى يوم من الأيام لمن كذبوا رسل الله - تعالى - وإنما الغلبة والظفر وحسن العاقبة لمن آمن بالرسل وصدقهم واتبع ما جاءوا به من عند ربهم .

وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذا المعنى بقوله : « أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين . ولهذا قال : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ .

يعنى : بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون[1] .

ومنها أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : نقص أرض الكفر ودار الحرب ، وتسليط المسلمين عليها وانتزاعها من أيديهم بدليل الاستفهام الإنكارى فى قوله ﴿ أفهم الغالبون ﴾ أى : لا .. ليسوا هم الذين يغلبون جندنا ، وإنما جندنا هم الغالبون .

وقد صدر الآلوسى تفسيره لهذا القول فقال : « أفلا يرون أنا تأتى الأرض » أى : أرض الكفرة « ننقصها من أطرافها » بتسليط المسلمين عليها ، وحوز ما يحوزونه منها ، ونظمه فى سلك ملكهم .. « أفهم الغالبون » على رسول الله - ﷺ - والمؤمنين .

والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها ، كأنه قيل : أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها[2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فائدة فى قوله ﴿ نأتى الأرض ﴾ ؟.

قلت : فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٥٣ .

تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ، ناقصة من أطرافها[١] .

وهذان الرأيان مع وجاهتها ، إلا أن الرأى الأول الذى ذهب إليه ابن كثير أكثر شمولا ، لأنه يتناول ما أصاب المكذبين للرسل السابقين من عقاب كما يشمل التهديد للمكذبين المعاصرين للعهد النبوى ، بأنهم إذا استمروا فى طغيانهم فسيحل بهم ماحل بمن سبقوهم .

وهناك من يرى أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : موت العلماء ، أو خرابها عند موت أهلها ، أو نقص الأنفس والثمرات .. ولكن هذه الآراء ليس معها ما يرجحها .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يوجه إلى هؤلاء المشركين إنذاراً حاسما ، فقال - تعالى - : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحى .. ﴾ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنى بعد أن بينت لكم ما بينت من هدايات وإرشادات أنذركم عن طريق الوحى الصادق ، بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، فلا تستعجلوا ذلك فكل آت قريب ، وسترون فيها ما ترون من أهوال وعذاب .

وقوله ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ توبيخ لهم وتجهيل .

أى : ولا يسمع الصم دعاء من يدعوهم إلى ما ينفعهم ، ولا يلتفتون إلى إنذار من ينذرهم وذلك لكمال جهلهم ، وشدة عنادهم ، وانطماس بصائرهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم شىء من العذاب فقال : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ .

أى : ولئن أصاب هؤلاء المشركين شىء قليل من عذاب ربك يا محمد . ليقولن على سبيل التفجع والتحسر وإظهار الخضوع : يا ويلنا - أى يا هلا كنا - إنا كنا ظالمين ، ولذلك نزل بنا هذا العذاب ، وفى هذا التعبير ألوان من المبالغات منها : ذكر المس الذى يكفى فى تحققه إيصال ما ، ومنها : ما فى النفح من النزارة والقلة ، يقال : نفح فلان فلانا نفحة ، إذا أعطاه شيئا قليلا ومنها . البناء الدال على المرة والواحدة كما يفيد ذلك التعبير بالنفحة . أى : نفحة واحدة من عذاب ربك ، والمقصود من الآية الكريمة بيان سرعة تأثر هؤلاء المشركين ، بأقل شىء من العذاب الذى كانوا يستعجلونه ، وأنهم إذا ما نزل بهم شىء منه ، أصيبوا بالهلع والجزع ، وتنادوا بالويل والثبور والاعتراف بالظلم وتجاوز الحدود .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال : ﴿ ونضع

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٠ .

الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا .. ﴾ .

أى : ونحضر الموازين العادلة لمحاسبة الناس على أعمالهم يوم القيامة ولإعطاء كل واحد منهم ما يستحقه من ثواب أو عقاب . دون أن يظلم ربك أحداً من خلقه .

﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ أى : وإن كانت الأعمال التى عملها الإنسان فى الدنيا فى نهاية الحقارة والقلة ، أتينا بها فى صحيفة عمله لتوزن ، وكفى بنا عادِّين ومحصين على الناس أعمالهم ، إذ لا يخفى علينا شيء منها سواء أكان قليلا أم كثيراً .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ ونضع الموازين ﴾ الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه[1] .

وقال القرطبى : « الموازين : جمع ميزان ، فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات فى كفة ، والسيئات فى كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله .. وقيل : ذِكْر الميزان مثَل وليس ثَمَّ ميزان وإنما هو العدل ، والذى وردت به الأخبار ، وعليه السواد الأعظم القول الأول . و « القسط » صفة الموازين ووحد لأنه مصدر ..[2] .

واللام فى قوله ﴿ ليوم القيامة ﴾ قيل للتوقيت . أى للدلالة على الوقت ، كقولهم : جاء فلان لخمس ليال بقين من الشهر . وقيل هى لام كى ، أى : لأجل يوم القيامة ، أو بمعنى فى أى : فى يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلا تظلم نفس شيئا ﴾ بيان للعدل الإلهى ، وأنه - سبحانه - لا يظلم أحدا شيئا مما له أو عليه ، أى : فلا تظلم نفس شيئا من الظلم لا قليلا ولا كثيراً .

وقوله ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ تصوير لدقة الحساب ، وعدم مغادرته لشيء من أعمال الناس ، إذ الخردل حب فى غاية الصغر والدقة . ومثقال الشيء : وزنه .

وأنث الضمير فى قوله « بها » وهو راجع إلى المضاف الذى هو « مثقال » وهو مذكر . لا كتسابه التأنيث من المضاف إليه الذى هو « حبة من خردل » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ بيان لإحاطة الله - تعالى - : بعلم كل شيء . كما قال - تعالى - ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴾[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٩٤ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٥ .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[2] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أولئك المشركين بجانب من نعم الله - تعالى - عليهم ، وحضهم على التدبر والاتعاظ ، وأنذرتهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم وشركهم ، وصورت لهم دقة الحساب يوم القيامة ، وأن كل إنسان سيحاسب على عمله سواء أكان صغيراً أم كبيراً ، ولا يظلم ربك أحدا .

وبعد أن فصل - سبحانه - الحديث عن دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، ورد على المشركين ردا يفحمهم ، أتبع ذلك بالحديث عن قصص بعض الأنبياء تسلية للرسول - ﷺ - وتثبيتا لقلبه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

والمراد بالفرقان وبالضياء وبالذكر : التوراة ، فيكون الكلام من عطف الصفات . والمعنى : ولقد أعطينا موسى وهارون - عليهما السلام - كتاب التوراة ليكون فارقا بين الحق والباطل ، وليكون - أيضا - ضياء يستضىء به أتباعه من ظلمات الكفر والضلالة ، وليكون ذكراً حسناً لهم ، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب وأحكام .

قال الآلوسى : « قوله - سبحانه - : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً .. ﴾ .

نوع تفصيلى لما أجمل فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية ٤٠ .
(٢) سورة لقمان الآية ١٦ .

وتصديره بالتوكيد القسمى لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه .

والمراد بالفرقان : التوراة ، وكذا بالضياء والذكر . والعطف كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقيل : الفرقان هنا : النصر على الأعداء .. والضياء التوراة أو الشريعة . وعن الضحاك : أن الفرقان فرق البحر ..[1] .

وخص المتقين بالذكر ، لأنهم هم الذين انتفعوا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات .

وقوله - تعالى - : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب .. ﴾ صفة مدح للمتقين .

أى : آتينا موسى وهارون الكتاب الجامع لصفات الخير ليكون هداية للمتقين ، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم ، ويخشون عذابه فى السر والعلانية ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أى : وهم من الساعة وما يقع فيها من حساب دقيق خائفون وجلون وليسوا كأولئك الكافرين الجاحدين الذين يستعجلون حدوثها .

وخصت الساعة بالذكر مع أنها داخلة فى الإيمان بالغيب ، للعناية بشأنها حيث إنها من أعظم المخلوقات ، وللردّ على من أنكرها واستعجل قيامها .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ للقرآن الكريم ، أى : وهذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد - ﷺ - هو ذكر وشرف لكم ، وهو كذلك كثير الخيرات والبركات لمن اتبع توجيهاته .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ للتوبيخ والإنكار ، والخطاب للمشركين .

أى : كيف تنكرون كونه من عند الله مع أنكم بمقتضى فصاحتكم تدركون من بلاغته ، مالا يدركه غيركم ، ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة على موسى وهارون .

إن إنكاركم لكون القرآن من عند الله ، هو دليل واضح على جحودكم للحق بعد أن تبين لكم .

قال الجمل : وتقديم الجار والمجرور على المتعلق ، دل على التخصيص ، أى : أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود تنكرون ؟ فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عنَّ لهم من المشكلات[2] .

ثم تسوق السورة بعد ذلك بشىء من التفصيل قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٥٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٣٢ .

وما دار بينه وبينهم من محاورات ومحاولات فتقول :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

وقصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت فى سور متعددة منها : سورة البقرة ، والعنكبوت ، والصافات .

وهنا تحدثنا سورة الأنبياء عن جانب من قوة إيمانه - عليه السلام - ومن سلامة حجته ومن تصميمه على تنفيذ ما يرضى الله - تعالى - بالقول والعمل .

والمراد بالرشد : الهداية إلى الحق والبعد عن ارتكاب مانهى الله - تعالى - عنه .

والمراد بقوله - تعالى - ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل أن يكون نبيا .

والمعنى : ولقد آتينا - بفضلنا وإحساننا - إبراهيم - عليه السلام - الرشد إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، « من قبل » أى : من قبل النبوة بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال .

وقد اكتفى الإمام ابن كثير بهذا المعنى فى قوله - تعالى - ﴿ من قبل ﴾ فقال : يخبر - تعالى - عن خليله إبراهيم - عليه السلام - ، أنه آتاه رشده من قبل .

أى : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وتلك حجتنا

آتيناها إبراهيم على قومه .. ﴾[1] .

ومن المفسرين من يرى أن المقصود بقوله - تعالى - ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل موسى وهارون ، فقد كان الحديث عنهما قبل ذلك بقليل فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين .. ﴾ .

فيكون المعنى : ولقد آتينا إبراهيم رشده وهداه ، ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق ، من قبل موسى وهارون ، لأنه يسبقهما فى الزمان .

وقد رجح هذا المعنى الإمام الآلوسى فقال : « ولقد آتينا إبراهيم رشده » .

أى : الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد الكامل ، أعنى : الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا .. « من قبل » أى : من قبل موسى وهارون ، وقيل : من قبل البلوغ ... والأول مروى عن ابن عباس وابن عمر ، وهو الوجه الأوفق لفظا ومعنى ، أما لفظا فللقرب ، وأما معنى فلأن ذكر الأنبياء - عليهم السلام - للتأسى ، وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى ، لكن روعى فى ذلك ترشيح التسلى والتأسى ، فقد ذكر موسى ، لأن حاله وما قاساه من قومه .. أشبه بحال نبينا - ﷺ - ،[2] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للمعنيين . أى : أن الله - تعالى - قد أعطى إبراهيم رشده ، من قبل النبوة ، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما فى الزمان .

وقوله : ﴿ وكنا به عالمين ﴾ بيان لكمال علم الله - تعالى - أى : وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين ، بحيث لا يخفى علينا شىء من أحواله أو من أحوال غيره .

وقوله : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ بيان لما جابَهَ بِهِ إبراهيم أباه وقومه من قول سديد يدل على شجاعته ورشده .

أى : وكنا به عالمين . وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل الإرشاد والتنبيه : ما هذه التماثيل الباطلة التى أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .

وسؤاله - عليه السلام - لهم بما التى هى لبيان الحقيقة ، من باب تجاهل العارف ، لأنه يعلم أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم . حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم .

وعبر عن الأصنام بالتماثيل ، زيادة فى التحقير من أمرها ، والتوهين من شأنها ، فإن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٥٨ .

التمثال هو الشىء المصنوع من الاحجار أو الحديد أو نحو ذلك ، على هيئة مخلوق من مخلوقات الله - تعالى - كالإنسان والحيوان ، يقال : مثلت الشىء بالشىء إذا شبهته به .

فهو - عليه السلام - سماها باسمها الحقيقى الذى تستحقه ، دون أن يجاريهم فى تسميتها آلهة .

وقوله : ﴿ عاكفون ﴾ من العكوف بمعنى المداومة والملازمة . يقال : عكف فلان على الشىء إذا لازمه وواظب عليه ، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية .

وفى التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها ، تفظيع لفعلهم وتنفير لهم منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ حكاية لما قالوه فى ردهم على إبراهيم - عليه السلام - وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر .

أى : قالوا فى جوابهم على إبراهيم - عليه السلام - وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم .

وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ .

أى : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، فى ضلال عجيب لا يقادر قدره ، وفى فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها ، والباطل لا يصير حقا بفعل الآباء له .

وعندما واجههم إبراهيم - عليه السلام - بهذا الحكم البين الصريح ، قالوا له : ﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ .

أى : أجئتنا يا إبراهيم بالحق الذى يجب علينا اتباعه ، أم أنت من اللاعبين اللاهين الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والملاعبة .

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم . وشكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التقليد لآبائهم . جعلهم يعطلون عقولهم « ويستحبون العمى على الهدى » .

ويجوز أن يكون سؤالهم هذا من باب الإنكار عليه . واستبعاد أن يكون آباؤهم على باطل ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله ، إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لا على طريق الجد ، فقالوا له : هذا الذى جئتنا

به ، أهو جد وحق أم لعب وهزل[1] .

وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال : « بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن .. » .

أى : قال لهم إبراهيم بلغة الواثق بأنه على الحق : أنا لست هازلا فيما أقوله لكم ، وإنما أنا جاد كل الجد فى إخباركم أن الله - تعالى - وحده هو ربكم ورب آبائكم ، ورب السموات والأرض ، فهو الذى خلقهن وأنشأهن بما فيهن من مخلوقات بقدرته التى لا يعجزها شىء .

وقوله : ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ تذييل المقصود به تأكيد ما أخبرهم به ، وما دعاهم إليه . أى : وأنا على أن الله - تعالى - هو ربكم ورب كل شىء من الشاهدين ، الذين يثقون فى صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شىء لا يشك فى صحته .

ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى ، تأكيداً آخر فعليا ، فقال لهم : ﴿ وتا لله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ .

أى : وحق الله الذى فطركم وفطر كل شىء ، لأجتهدن فى تحطيم أصنامكم ، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها . وتولوها أدباركم .

وأصل الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه . وقد عبر به إبراهيم عن تكسير الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير .

وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام ، فقد انتهز فرصة ذهاب قومه بعيدا عنها فحطمها ، قال تعالى - ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

والفاء فى قوله : « فجعلهم » فصيحة . والجذاذ القطع الصغيرة جمع جذاذة من الجذ بمعنى القطع والكسر .

أى : فولوا مدبرين عن الأصنام فجعلها بفأسه قطعا صغيرة ، بأن حطمها عن آخرها - سوى الصنم الأكبر لم يحطمه بل تركه من غير تكسير . لعلهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، ولم يستطع الدفاع عن إخوته الصغار ؟!! .

ولعل إبراهيم - عليه السلام - قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، وليحملهم على التفكير فى أن الذى يجب أن يكون معبوداً ، إنما هو الله الخالق لكل شىء ، والقادر على كل شىء .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير ، وضمير « إليه » عائد إلى إبراهيم ، أى : لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ، فيحاجهم ويبكتهم .

وعن الكلبى : أن الضمير للكبير ، أى : لعلهم يرجعون إلى الكبير ، كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ، وما لك صحيحا ، والفأس فى عنقك أو فى يدك ؟ وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر أنهم فى عبادته على جهل عظيم ..[1] .

وعاد القوم إلى أصنامهم بعد تركهم إياها لفترة من الوقت ، فوجدوها قد تحطمت إلا ذلك الكبير ، فأصابهم ما أصابهم من الذهول والعجب ، ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول :

قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ
عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

أى : وحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم « قالوا » على سبيل التفجع والإنكار : « من فعل هذا » الفعل الشنيع « بآلهتنا » التى نعظمها « إنه » أى هذا الفاعل « لمن الظالمين » لهذه الآلهة . لإقدامه على إهانتها وهى الجديرة بالتعظيم - فى زعمهم - ، ولمن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٦٢ .

﴿ قالوا ﴾ أى : بعضهم وهم الذين سمعوا من إبراهيم قوله : « وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » . ﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ والمراد بالذكر هنا : الذكر بالسوء والذم .

أى : سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم والتهديد بالكيد ، وهذا الفتى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم ما فعل .

وهنا تشاوروا فيما بينهم وقالوا . إذا كان الأمر كذلك : ﴿ فأتوا به ﴾ وأحضروه ﴿ على أعين الناس ﴾ أى : أمام أعينهم ليتمكنوا من رؤيته على أتم وجه ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ مساءلتنا له ، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا ، أو يشهدون عليه بأنه هو الذى حطم الأصنام .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ، أن يتبين فى هذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم ، فى عبادة هذه الأصنام ، التى لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نصرا .. »[1] .

وجاءوا بإبراهيم – عليه السلام – وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد : « أأنت فعلت هذا » التكسير والتحطيم « بآلهتنا » التى نعبدها « يا إبراهيم » ؟

وهنا يرد عليهم إبراهيم – عليه السلام – بتهكم ظاهر ، واستهزاء واضح فيقول : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعنى الذى تركه بدون تحطيم ، فإن كنتم لم تصدقوا قولى ﴿ فاسألوهم ﴾ عمن فعل بهم ذلك ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أى : إن كانوا ممن يتمكن من النطق أجابوكم وأخبروكم عمن فعل بهم ما فعل .

فأنت ترى أن إبراهيم – عليه السلام – لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، أو سؤالهم للأصنام عمن حطمها ، وإنما الذى يقصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم ، فكأنه يقول لهم : إن هذه التماثيل التى تعبدونها من دون الله . لا تدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذى حطمها إن كانت لكم عقول تعقل ؟

قال صاحب الكشاف : هذا – أى قول إبراهيم لهم : بل فعله كبيرهم هذا – من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الخاصة من علماء المعانى .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤٣ .

والقول فيه أن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم .

وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق - وأنت شهير بحسن الخط - : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر إلا على خربشة فاسدة - أى كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب ، تقرير أن هذه الكتابة لك . مع الاستهزاء به ..[1] .

وهذا التفسير للآية الكريمة من أن إبراهيم - عليه السلام - قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا ، وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظرا لضعف هذه الأقوال بالنسبة لهذا القول .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ بيان للأثر الذى أحدثه رد إبراهيم - عليه السلام - .

أى : أنهم بعد أن قال لهم إبراهيم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ ، أخذوا فى التفكر والتدبر ، فرجعوا إلى أنفسهم باللوم ، وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم مالا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة .

ولكن هذا الأثر ، وهذا اللوم لأنفسهم ، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال : ﴿ ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

وقوله : ﴿ نكسوا ﴾ فعل مبنى للمجهول من النكس ، وهو قلب الشيء من حال إلى حال ، وأصله : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله .

أى : ثم انقلبوا من لومهم لأنفسهم لعبادتهم لما لا يقدر على دفع الأذى عنه ، إلى التصميم على كفرهم وضلالهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ إن أمرك هذا لنا هو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه .

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم ، شبه ذلك بالانتكاس ، لأنهم بمجرد أى خطرت لهم الفكرة السليمة ، أطفأوها بالتصميم على

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٤ .

الكفر والضلال ، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ما شيا على قدميه ، فياله من تصوير بديع لحالة من يعود إلى الظلام ، بعد أن يتبين له النور .

والجملة الكريمة ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ جواب لقسم محذوف ، معمول لقول محذوف ، والتقدير : ثم نكسوا على رءوسهم قائلين : والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

ولم يملك إبراهيم إزاء انتكاسهم على رءوسهم ، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق ، - وهو الحليم الأواه المنيب - وقد قابلوا تأنيبه لهم بتوعده بالعذاب الشديد ، ولكن الله - تعالى - نجاه من مكرهم ، قال - تعالى - :

قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

أى : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتتركون عبادة الله الذى خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشىء من النفع ، ولا تضركم بشىء من الضر ، ثم يضيف إلى

هذا التبكيت لهم، الضجر منهم، فيقول: ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾.

و « أف » اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر. وأصله صوت المتضجر من استقذار الشىء. واللام فى قوله ﴿ لكم ﴾ لبيان المتضجر لأجله.

أى: سحقا وقبحا لكم، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله - تعالى - عن جهل وسخف وطغيان.

﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما أنتم فيه من ضلال واضح، فترجعون عنه إلى عبادة الواحد القهار.

وعندما وصل إبراهيم فى توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد أخذتهم العزة بالإثم، شأنهم فى ذلك شأن كل طاغية جهول، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته، فقالوا فيما بينهم: ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾.

أى: قال بعضهم لبعض بعد أن عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، وبعد أن رأوا إبراهيم قد أفحمهم بمنطقة الحكيم: ﴿ حرقوه ﴾ أى: بالنار، فإنها أشد العقوبات.

قيل: إن الذى اقترح عليم ذلك هو رئيسهم: نمروذ بن كنعان. وقيل: هو رجل من الفرس اسمه: هينون.

وقوله: ﴿ وانصروا آلهتكم .. ﴾ بيان لسبب تحريقه بالنار.

أى: حرقوه بالنار من أجل الانتصار لآلهتكم التى حطمها فى غيبتكم ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾.

أى: إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرا يرضيها، فاحرقوه بالنار.

قال صاحب الكشاف: أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح. لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ولم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء، كما فعلت قريش برسول الله - ﷺ - حين عجزوا عن المعارضة.

والذى أشار بإحراقه: نمروذ. وعن ابن عمر: رجل من أعراب العجم. واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه، ولذلك جاء: « لا يعذب بالنار إلا خالقها »[1].

وقوله تعالى: ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم .. ﴾ مسبوق بكلام محذوف يفهم من سياق القصة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٦.

والتقدير : وأحضر قوم إبراهيم الحطب ، وأضرموا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فلما فعلوا ذلك ، قلنا : يا نار كونى - بقدرتنا وأمرنا - ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله - تعالى - ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[1] .

وتحولت النار إلى برد وسلام على إبراهيم ، وأراد الكافرون به كيدا ، أى إحراقا بالنار « فجعلناهم » بإرادتنا وقدرتنا « الأخسرين » حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، ولم يحققوا النصر لآلهتهم ، بل رد الله - تعالى - كيدهم فى نحورهم .

وقال - سبحانه - ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ بالإطلاق لتشمل خسارتهم كل خسارة سواء أكانت دنيوية أم أخروية .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم - عليه السلام - حين جيء به إلى النار ، قالت الملائكة : يا ربنا ما فى الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وأنه الآن يحرق فأذن لنا فى نصرته !!

فقال - سبحانه - : إن استغاث بأحد منكم فلينصره . وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه ، فهو خليلى ليس لى خليل غيره .

فأتى جبريل - عليه السلام - إلى إبراهيم ، فقال له : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم !!

فقال له جبريل : فلم لا تسأله ؟ فقال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : حسبى من سؤالى علمه بحالى ..[2] .

ثم بين - سبحانه - نعما أخرى أنعم بها على إبراهيم فقال : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ ونجيناه ﴾ يعود إلى إبراهيم . و « لوطا » هو ابن أخيه ، وقيل : ابن عمه .

والمراد بالأرض التى باركنا فيها : أرض الشام على الصحيح وعدَّى ﴿ نجيناه ﴾ بإلى ، لتضمينه معنى أخرجناه .

أى : وأخرجناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها ، بأن جعلناها مهبطا للوحى ، ومبعثا

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٧ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٦٨ .

للرسل لمدة طويلة ،وبأن جعلناها كذلك عامرة بالخيرات وبالأموال وبالثمرات للأجيال المتعاقبة .

والآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط - عليهما السلام - من أرض العراق التى كانا يقيمان فيها ، إلى أرض الشام ، فرارا بدينهما . بعد أن أراد قوم إبراهيم أن يحرقوه بالنار ، فأبطل الله - تعالى - كيدهم ومكرهم ،ونجاه من شرهم .

وقد أشار - سبحانه - إلى ذلك فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم .. ﴾[١] .

وقوله - تعالى - ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة .. ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم الله - سبحانه - بها على إبراهيم .

والنافلة : الزيادة على الأصل . ولذا سميت صلاة السنن نافلة ، لأنها زيادة على الصلوات المفروضة . وإسحاق هو ابن إبراهيم . ويعقوب هو ابن إسحاق .

فلفظ « نافلة » حال من يعقوب أى : ووهبنا لإبراهيم يعقوب حال كونه زيادة على إسحاق . ﴿ وكلا ﴾ من المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب .

﴿ جعلنا صالحين ﴾ أى : جعلناهم أفراداً صالحين ، بأن وفقناهم لما نحبه ونرضاه ، وشرفناهم بالنبوة والرسالة .

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ أى : وجعلنا هؤلاء المذكورين ، أئمة فى الخير ، يهدون ويرشدون غيرهم إلى الدين الحق بسبب أمرنا لهم بذلك ، وتكليفهم بتبليغ وحينا إلى الناس .

قال صاحب الكشاف : قوله - سبحانه - : ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ، ويتثاقل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل »[٢] .

وقوله : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ أى : وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا الناس بفعلها ، وأوحينا إليهم كذلك ﴿ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أى : أن يقيموا الصلاة وأن يؤدوا الزكاة وأن يأمروا غيرهم بذلك .

وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٧ .

للاهتمام به إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ لا لغيرنا ، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا ، لأنهم من المصطفين الأخيار .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة التى وردت فى قصة إبراهيم مع قومه . يراها قد حكت لنا غيرة إبراهيم - عليه السلام - على دين الله - تعالى - وقوة حجته فى الدفاع عن الحق ، ومجاهدته بما يعتقده بدون خوف من قومه ، وجمعه فى دعوته بين القول والعمل .

كما يراها قد بينت لنا أن من يدافع عن دين الله - تعالى - يدافع الله - سبحانه - عنه ، وينصره على أعدائه ، ويرد كيدهم فى نحورهم .

كما يراها - أيضا - قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة ، والذرية الصالحة التى تهدى غيرها إلى الطريق المستقيم .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ولوطا ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور بعده وهو ﴿ آتيناه ﴾ .

أى : وآتينا لوطا - عليه السلام - ﴿ حكما ﴾ أى : نبوة ، أو حكمة تهديه إلى ما يجب فعله أو تركه و « علما » أى : علما كثيراً لما ينبغى علمه وفهمه .

﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ والمراد بالقرية : قرية سدوم التى أرسل الله - تعالى - لوطا لأهلها .

والأعمال الخبيثة التى كانوا يعملونها على رأسها الإشراك بالله - تعالى - وفاحشة اللواط التى اشتهروا بها دون أن يسبقهم إليها أحد . كما قال - تعالى - : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل[1] وتأتون فى ناديكم[2] المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن

(١) السبيل : الطريق .

(٢) ناديكم : مجالسكم .

كنت من الصادقين .. ﴾[1] .

أى : ونجينا لوطا بفضلنا ورحمتنا من العذاب الذى حل بأهل قريته الذين كانوا يعملون الأعمال الخبائث ، كالشرك بالله - تعالى - واللواط ، وقطعهم الطريق ، وارتكابهم المنكر فى مجالسهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ تعليل لنجاة لوط - عليه السلام - مما حل بهم .

أى : جعلنا هذه القرية عاليها سافلها ، ونجينا لوطا ومن آمن معه من العذاب الذى حل بسكانها ﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ أى : أصحاب عمل سيء ﴿ فاسقين ﴾ أى : خارجين عن طاعتنا .

﴿ وأدخلناه ﴾ أى : لوطا ﴿ فى رحمتنا ﴾ أى : فى أهل رحمتنا فى الدنيا والآخرة ﴿ إنه من الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى .

ثم ذكرت السورة الكريمة جانبا من قصة نوح مع قومه . قال - تعالى - .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

أى : واذكر - أيضا - أيها المخاطب عبدنا « نوحا » - عليه السلام - ﴿ إذ نادى من قبل ﴾ أى : حين نادانا واستجار بنا من قبل زمان إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء .

وهذا النداء الذى نادى به نوح ربه ، قد جاء ذكره فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[3] .

﴿ فاستجبنا له ﴾ أى : أجبنا له دعاءه ، ولم نخيب له رجاء فينا .

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) سورة الصافات الآيتان ٧٥ - ٧٦ .
(٣) سورة نوح الآية ٢٦ .

﴿ فنجيناه وأهله ﴾ الذين آمنوا به وصدقوه ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أى : من الطوفان العظيم الذى أغرق الكافرين ، والذى كانت أمواجه كالجبال .

وأصل الكرب : الغم الشديد . يقال : فلان كربه هذا الأمر ، إذا ضايقه وجعله فى أقصى درجات الهم والخوف .

قال الآلوسى : « وكأنه على ما قيل من كرب الأرض ، وهو قلبها بالحفر . إذ الغم يثير النفس إثارة ذلك ، أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب ، فإن الغم الشديد ، تكاد شمس الروح تغرب منه .. وفى وصفه بالعظيم تأكيد لشدته »[1] .

﴿ ونصرناه ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا . وعلى أن نوحا رسولا من رسلنا .

والمراد بهؤلاء القوم : قومه الذين لبث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله . فلم يؤمن به إلا قليل منهم .

﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ أى : إنهم كانوا قوما يعملون أعمال السوء والقبح ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر والعصيان ، ولم ننج منهم إلا من اتبع نوحا عليه السلام .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نبيين كريمين هما داود وسليمان فقال - تعالى - :

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٧٣ .

إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وداود ﴾ منصوب - أيضا - بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ ونوحا إذ نادى ﴾ .

وسليمان هو ابن داود ، وكلاهما من أنبياء الله - سبحانه - ، وينتهى نسبهما إلى يعقوب - عليه السلام - وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بألف سنة تقريبا ، وقد جمع الله - تعالى - لهما بين الملك والنبوة .

والحرث : الزرع . قيل : كان كرما - أى عنباً - تدلت عناقيده .

وقوله : ﴿ نفشت ﴾ من النفش وهو الرعى بالليل خاصة . يقال : نفشت الغنم والإبل ، إذا رعت ليلا بدون راع .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصها : أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع لداود : يانبى الله ، إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى فلم تبق منه شيئا ، فحكم داود - عليه السلام - لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل إتلافها لزرعه .

وعند خروجهما التقيا بسليمان - عليه السلام - فأخبراه بحكم أبيه . فدخل سليمان على أبيه فقال له : يا نبى الله ، إن القضاء غير ما قضيت ، فقال له : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها ، وادفع الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليها حتى يعود كما كان . ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده ، فيأخذ صاحب الزرع زرعه ، وصاحب الغنم غنمه .. فقال داود - عليه السلام - القضاء ما قضيت يا سليمان[1] .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم - قصة داود وسليمان ، وقت أن كانا يحكمان فى الزرع الذى « نفشت فيه غنم القوم » أى : تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته .

قال القرطبى : « ولم يرد - سبحانه - بقوله ﴿ إذ يحكمان فى الحرث ﴾ : الاجتماع فى

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ٣٨ ، وتفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤٩ .

الحكم وإن جمعهما فى القول ، فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله - تعالى - له[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ جملة معترضة جىء بها لبيان شمول علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شىء .

أى : وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالمين وحاضرين ، بحيث لا يغيب عنا شىء مما قالاه .

وضمير الجمع فى قوله ﴿ لحكمهم ﴾ : لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال إن أقل الجمع اثنان ، وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب الزرع وصاحب الحرث أى : وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين .

والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ يعود إلى القضية أو المسألة التى عرضها الخصمان على داود وسليمان .

أى : ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق فى هذه المسألة أو القضية ، وذلك لأن داود - كما يقول العلماء . قد اتجه فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث . وهذا عدل فحسب . أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحى الإيجابى فى صورته البانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء »[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ ثناء من الله - تعالى - على داود وسليمان - عليهما السلام - والمقصود من هذا الثناء دفع ماقد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا فى حكمه .

أى : وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا ﴿ حكما ﴾ أى : نبوة وإصابة فى القول والعمل ﴿ وعلما ﴾ أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور .

وقد توسع بعض المفسرين فى الحديث عن هذا الحكم الذى أصدره داود وسليمان فى قضية الحرث أكان بوحى من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ، وقد رجح بعض العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان فى الحرث المذكور فى هذه الآية كان بوحى ، إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٠٧ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٧ ص ٥٥١ .

وفى الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى ، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولا ذما لعدم إصابته .

كما أثنى - سبحانه - على سليمان بالإصابة فى قوله ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وأثنى عليهما فى قوله : ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ .

فدل قوله ﴿ إذ يحكمان ﴾ على أنهما حكما فيها معا ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف . ثم قال : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهما إياها كما ترى .

فقوله : ﴿ إذ يحكمان ﴾ مع قوله ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد ، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك .

والقرينة الثانية : هى أن قوله - تعالى - ﴿ ففهمناها ﴾ يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه - تعالى - أنزل عليه فيها وحياً جديدا ناسخاً ، لأن قوله - تعالى - : ﴿ ففهمناها ﴾ أليق بالأول من الثانى كما ترى ..[1] .

ثم بين - سبحانه - نماذج من النعم التى أنعم بها على داود - عليه السلام - فقال : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ .

والتسخير : التذليل أى : وجعلنا الجبال والطير يسبحن الله - تعالى - ويقدسنه مع داود ، امتثالا لأمره - سبحانه - .

قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته ، بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا . ولهذا لما مر النبى - ﷺ - على أبى موسى الأشعرى ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب ، فوقف واستمع إليه وقال : « لقد أوتى هذا من مزامير آل داود »[2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب ، وأدل على القدرة ، وأدخل فى الإعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق ، روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهى تجاوبه ، وقيل : كانت تسير معه حيث سار ..[3] .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٥٩٩ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٥٢ .
(٣) الكشاف جـ ٣ ص ١٢٩ .

وتسبيح الجبال والطير مع داود - عليه السلام - هو تسبيح حقيقى ، ولكن بكيفية يعلمها الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. ﴾[1] .

وشبيه بالآية التى معنا قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير محشورة كل له أواب ﴾[3] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكنا فاعلين ﴾ أى : وكنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير معه يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء ، على سبيل التكريم له . والتأييد لنبوته ، إذ أن قدرتنا لا يعجزها شىء ، سواء أكان هذا الشىء مألوفا للناس أم غير مألوف .

وقوله - تعالى - : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم الله بها على داود .

واللبوس : كل ما يلبس كاللباس والملبس : والمراد به هنا : الدروع .

أى : وبجانب ما منحنا داود من فضائل ، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التى علمناه إياها بمهارة وجودة ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ .

أى : لتجعلكم فى حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب . وتقى بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

يقال : أحصن فلان فلانا ، إذا جعله فى حرز وفى مكان منيع من العدوان عليه .

والاستفهام فى قوله : ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ للحض والأمر أى : فاشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، بأن تستعملوها فى طاعته - سبحانه - .

قال القرطبى - رحمه الله - : « وهذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب . لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه ، فمن طعن فى ذلك فقط طعن فى الكتاب والسنة ، وقد أخبر الله - تعالى - عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع ، وكان - أيضا - يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .
(٢) سورة سبأ الآية ١٠ .
(٣) سورة ص الآيات ١٧ - ١٩ .

يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفى الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف ، ويبغض السائل الملحف »[١] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ .

وقوله : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ معطوف على معمول « سخرنا » فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ﴾ و « عاصفة » حال من الريح .

أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير .

يقال : عصفت الريح تعصف إذا اشتدت ، فهى عاصف وعاصفة وعصوف سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن .

وقوله - تعالى - : ﴿ تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ أى : جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التى باركنا فيها وهى أرض الشام . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض الشام .

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة ، وفى آية أخرى بأنها رخاء قال - تعالى - : ﴿ تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾[٢] . لأنها تارة تكون عاصفة ، وتارة تكون لينة رخاء . على حسب ما تقتضيه حكمته - سبحانه - .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ .

قلت : كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة ، على ما قال : « غدوها شهر ورواحها شهر » فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان على حسب ما يريد »[٣] .

وقال - سبحانه - هنا : ﴿ تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ أى تجرى بأمره إلى تلك الأرض فى حال إيابه ورجوعه إليها ، حيث مقر مملكته ومسكنه . فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها فى حال عودته إلى مملكته .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٢١ .

(٢) سورة ص الآية ٣٦ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٠ .

أما الآية الأخرى التى تقول : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ أى : حيث أراد لها أن تجرى ، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه فى غير حال عودته إلى مملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ الجهة فيهما منفكة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكنا بكل شىء عالمين ﴾ أى : وكنا بكل شىء يجرى فى هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا . فإنه علم محدود بما نشاؤه ونقدره .

فالجملة الكريمة بيان لإحاطة علم الله - تعالى - بكل شىء ، والتنبيه بأن ما أعطاه الله - تعالى - لسليمان ، إنما كان بإرادته - سبحانه - وعلمه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ﴾ بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التى امتن بها - سبحانه - على عبده ونبيه سليمان .

ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغواص الذى ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها .

وقوله : ﴿ من يغوصون له ﴾ فى محل نصب عطفا على معمول ﴿ سخرنا ﴾ ، السابق .

أى : وسخرنا - أيضا - لسليمان من يغوص له ، أى : لأجله ، من الشياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان .

وفى التعبير بقوله : ﴿ له ﴾ إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان - عليه السلام - وبأمره .

وقوله : ﴿ ويعملون عملا دون ذلك ﴾ أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب .. كما قال - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾[1] .

فاسم الإشارة فى قوله ﴿ ويعملون عملا دون ذلك ﴾ يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أى : وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين من أن يخرجوا عن طاعته . أو أن يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون له .

---

(١) سورة سبأ الآيتان ١٢ ، ١٣ .

وتلك نعمة كبرى لسليمان - عليه السلام - حيث جعل - سبحانه - الشياطين لا يستطيعون أن يزيغوا عن أمره .

هذا وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات قصصا متعددة منها قصة بساط الريح الذى قيل إن سليمان كان يجلس عليه هو وجنده ، فيطير بهم إلى الشام فى وقت قصير ، ومنها صفة حمل الريح له وصفة جنوده من الجن والإنس والطير .

وقد رأينا عدم ذكر ذلك هنا ، لأنه لم يرد ما يؤيده من الآثار الصحيحة .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة أيوب - عليه السلام - وهى قصة تمثل الابتلاء بالضر فى أشد صوره . قال - تعالى - :

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قال ابن كثير : « يذكر الله - تعالى - عن أيوب - عليه السلام - ما كان قد أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير ، وأولاد كثيرون ، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده .. ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته .. وقد كان نبى الله أيوب غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك »[1] .

وقال الآلوسى : وهو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق . وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون . وقيل : بعد شعيب ، وقيل : بعد سليمان .. »[2] .

والضر - بالفتح - يطلق على كل ضرر - وبالضم - خاص بما يصيب الإنسان فى نفسه من مرض وأذى وما يشبهها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٥٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٨٠ .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يارب أنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها .

فأنت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد فى تضرعه عن وصف حاله ﴿ أنى مسنى الضر ﴾ ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن يقترح شيئا أو يطلب شيئا ، وهذا من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - .

قال صاحب الكشاف : « ألطف - أيوب - فى السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان - أى فئران - بيتى على العصى !! فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا .. »[1] .

وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة فى قوله - تعالى - : ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه وتضرعه ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ أى : فأزلنا ما نزل به من بلاء فى جسده ، وجعلناه سليما معافى . بأن أمرناه أن يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .. ﴾[2] .

وقال - تعالى - : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاءه ، بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا عنه المرض الذى نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عمن فقده من أولاده ، ورزقناه مثلهم معهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سألت النبى - ﷺ - عن قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ فقال : « رد الله - تعالى - امرأته إليه ، وزاد فى شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا » .

فالمعنى على هذا : آتيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٠ .
(٢) سورة ص الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

وعن قتادة : إن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا فى بلائه ، وأوتى مثلهم فى الدنيا ..(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ أى : أجبنا له دعاءه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكرى لغيره من العابدين حتى يقتدوا به فى صبره على البلاء ، وفى المداومة على شكرنا فى السراء والضراء .

وخص - سبحانه - العابدين بالذكرى ، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا . ففى الحديث الشريف : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » .

وفى حديث آخر : « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »(٢) .

وقد كان أيوب آية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

هذا ، وقصة أيوب - عليه السلام - ستأتى بصورة أكثر تفصيلا فى سورة « ص » ، وقد تركنا هنا أقوالا عن كيفية مرضه ، وعن مدة هذا المرض .. نظرا لضعفها ، ومنافاتها لعصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من الأمراض المنفرة .

ثم أشارت السورة إشارات مجملة إلى قصة كل من إسماعيل وإدريس وذى الكفل ، قال - تعالى - :

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

وإسماعيل : هو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما السلام - وهو الذبيح الذى افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم .

وإدريس : هو واحد من أنبياء الله - تعالى - ، قالوا : وهو جد نوح - عليه السلام - وأنه ولد فى حياة آدم ، وبعث بعد موته .

أما ذو الكفل : فقد قال الآلوسى فى شأنه ما ملخصه : ظاهر نظم ذى الكفل فى سلك

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٨١ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٥٤ .

الأنبياء أنه منهم ، وهذا ما ذهب إليه الأكثر . واختلف فى اسمه : فقيل : بشر وهو ابن أيوب ، بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام .

وقيل : هو إلياس بن يا سين وينتهى نسبه إلى هارون - عليه السلام - .

وقيل : هو زكريا والد يحيى - عليهما السلام - وسمى بذلك لكفالته مريم .

وقيل : لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا .. »[1] .

ثم مدح - سبحانه - هؤلاء الأنبياء فقال : ﴿ كل من الصابرين ﴾ أى : كل واحد منهم من عبادنا الصابرين الذين تحملوا فى سبيلنا الكثير من المصاعب والآلام .

﴿ وأدخلناهم ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿ فى رحمتنا ﴾ التى وسعت كل شىء ﴿ إنهم من ﴾ عبادنا ﴿ الصالحين ﴾ لحمل رسالتنا ، وتبليغها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة يونس - عليه السلام - فقال :

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

والمراد بذى النون : يونس بن متى - عليه السلام - ، والنون : الحوت . وجمعه نينان وأنوان . وسمى بذلك لابتلاع الحوت له .

قال - تعالى - : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم .. ﴾[2] .

وملخص قصة يونس « أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وتركهم وهو غضبان ليذهب إلى غيرهم ، فوصل إلى شاطىء البحر ، فوجد سفينة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٨٢ .
(٢) سورة الصافات الآيات ١٣٩ - ١٤٢ .

فركب فيها ، وفى خلال سيرها فى البحر ضاقت بركابها ، فقال ربانها : إنه لابد من أحد الركاب يلقى بنفسه فى البحر لينجو الجميع من الغرق . فجاءت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه فى اليم فالتقمه الحوت .. ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعلمه الله - تعالى - ، فأرسله - سبحانه - إلى قومه مرة أخرى فآمنوا .

وسيأتى تفصيل هذه القصة فى سورة الصافات - بإذن الله - .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ - عبدنا ذا النون . وقت أن فارق قومه وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له .

قال الجمل : وقوله : ﴿ إذ ذهب مغاضبا ﴾ أى : غضبان على قومه ، فالمفاعلة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة ، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا فى أول الأمر »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ بيان لما ظنه يونس - عليه السلام - حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه - عز وجل - .

أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته فظن أن لن نضيق عليه ، عقابا له على مفارقته لهم من غير أمرنا ، أو فظن أننا لن نقضى عليه بعقوبة معينة فى مقابل تركه لقومه بدون إذننا .

فقوله : ﴿ نقدر عليه ﴾ بمعنى نضيق عليه ونعاقبه . يقال : قدر الله الرزق يقدره - بكسر الدال وضمها - إذا ضيقه . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[2] .

وقوله : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه .. ﴾[3] أى : ضيقه عليه .

ثم بين - سبحانه - ما كان يردده يونس وهو فى بطن الحوت فقال : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فنادى ﴾ فصيحة .

والمراد بالظلمات : ظلمات البحر ، وبطن الحوت ، والليل .

أى : خرج يونس غضبان على قومه . فحدث له ما حدث من التقام الحوت له ، فلما صار

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٤٣ .
(٢) سورة الرعد الآية ٢٦ .
(٣) سورة الفجر الآية ١٦ .

فى جوفه المظلم ، بداخل البحر المظلم ، أخذ يتضرع إلينا بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق للعبادة ، ﴿ سبحانك ﴾ أى : أنزهك تنزيها عظيما ﴿ إنى كنت من الظالمين ﴾ لنفسى حين فارقت قومى بدون إذن منك . وإنى أعترف بخطئ - يا إلهى - فتقبل توبتى ، واغسل حوبتى .

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التى مكثها يونس فى بطن الحوت ، وعن فضل الدعاء الذى تضرع به إلى الله - تعالى - ، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «باسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى » . قال : قلت : يارسول الله ، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله - تعالى - : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به »[1] .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى : دعاءه وتضرعه ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ أى : من الحزن الذى كان فيه حين التقمه الحوت وصار فى بطنه .

وقد بين - سبحانه - فى آية أخرى ، أن يونس - عليه السلام - لو لم يسبح الله للبث فى بطن الحوت إلى يوم البعث . قال - تعالى - : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ بشارة لكل مؤمن يقتدى بيونس فى إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه .

أى : ومثل هذا الإنجاء الذى فعلناه مع عبدنا يونس ، ننجى عبادنا المؤمنين من كل غم ، متى صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى دعائهم .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من قصة زكريا ويحيى فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ٦٥ .

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

وزكريا هو ابن آزن بن بركيا ، ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - ، وكان عيسى قريب العهد به ، حيث كفل زكريا مريم أم عيسى .

أى : واذكر - أيها المخاطب - حال زكريا - عليه السلام - وقت أن نادى ربه وتضرع إليه فقال : يارب لا تتركنى فردا أى : وحيداً بدون ذرية ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ أى : وأنت خير حى باق بعد كل الأموات .

فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه وتضرعه .

﴿ ووهبنا له ﴾ بفضلنا وإحساننا ابنه ﴿ يحيى ﴾ - عليهما السلام - .

﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به .

وقوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ﴾ تعليل لهذا العطاء الذى منحه - سبحانه - لأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - والضمير فى « إنهم » يعود للأنبياء السابقين . وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى .

أى : لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون فى فعل الخيرات التى ترضينا ، ويجتهدون فى أداء كل قول أو عمل أمرناهم به .

﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين فى آلائنا ونعمنا وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا .

فقوله ﴿ رغبا ورهبا ﴾ مصدران بمعنى اسم الفاعل ، منصوبان على الحال ، وفعلهما من باب « طرب » ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أى : مخبتين متضرعين لا متكبرين ولا متجبرين .

وبهذه الصفات الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء الكرام ، بذكر جانب من قصة مريم وابنها عيسى فقال :

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

وقوله : ﴿ أحصنت ﴾ من الإحصان بمعنى المنع ، يقال : هذه درع حصينة أى : ما نعة صاحبها من الجراحة . ويقال : هذه امرأة حصينة ، أى : ما نعة نفسها من كل فاحشة بسبب عفتها أو زواجها .

أى : واذكر - أيضا أيها المخاطب خبر مريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، أى : حفظته ومنعته من النكاح منعا كليا . والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عن السوء .

﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ أى : فنفخنا فيها من جهة روحنا ، وهو جبريل - عليه السلام - حيث أمرناه بذلك فامتثل أمرنا ، فنفخ فى جيب درعها ، فكان بذلك عيسى ابنها ، ويؤيد هذا التفسير قوله - تعالى - فى سورة مريم : ﴿ قال ﴾ - أى جبريل لمريم - ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ .

أى : لأكون سببا فى هبة الغلام لك عن طريق النفخ فى درعك فيصل هذا النفخ إلى الفرج فيكون الحمل بعيسى بإذن الله وإرادته .

والمراد بالآية فى قوله - سبحانه - : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ : الأمر الخارق للعادة ، الذى لم يسبقه ولم يأت بعده ما يشابهه .

أى : وجعلنا مريم وابنها عيسى آية بينة ، ومعجزة واضحة دالة على كمال قدرتنا للناس جميعا ، إذ جاءت مريم بعيسى دون أن يمسها بشر ، ودون أن تكون بغيا .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : هلا قيل آيتين كما قال - سبحانه - : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ ؟[1] قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة . وهى ولادتها إياه من غير فحل »[2] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٣ .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص عدد كبير من الأنبياء فى سورة الأنبياء ، عقب - سبحانه - على ذلك ببيان أنهم - عليهم السلام - قد جاءوا بعقيدة واحدة ، هى إخلاص العبادة لله - تعالى - فقال :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

ولفظ الأمة يطلق بإطلاقات متعددة . يطلق على الجماعة كما فى قوله - تعالى - ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون .. ﴾[١] . ويطلق على الرجل الجامع للخير ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا .. ﴾[٢] . ويطلق على الحين والزمان ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذى نجا منهما واذكر بعد أمة .. ﴾[٣] أى وتذكر بعد حين من الزمان .

والمراد بالأمة هنا : الدين والملّة . كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة .. ﴾[٤] أى : على دين وملة معينة .

والمعنى : إن ملة التوحيد التى جاء بها الأنبياء جميعا . هى ملتكم ودينكم أيها الناس ، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء ، وأن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شىء ، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذى جاء به الرسل ، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال :

﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

---

(١) سورة القصص الآية ٢٣ .
(٢) سورة النحل الآية ١٢٠ .
(٣) سورة يوسف الآية ٤٥ .
(٤) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وتقطموا .. ﴾ يعود للناس الذين تفرقوا فى شأن الدين شيعا وأحزابا . أى : وافترق الناس فى شأن الدين الحق فرقا متعددة ، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا ، يجازى فيه المحسن خيرا ، ويعاقب فيه المسىء على إساءته .

وقال - سبحانه - : ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ بالنفي المفيد للعموم ، لبيان كمال عدالته - تعالى - وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم أحد ، أو أخذ شىء مما يستحقه .

وعبر عن العمل بالسعى ، لإظهار الاعتداد به ، وأن صاحب هذا العمل الصالح ، قد بذل فيه جهدا مشكورا ، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته .

ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب ، فقال : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها :

أن المعنى : وحرام - أى : وممتنع امتناعا تاما - على قرية أهلكنا أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا فى الآخرة للحساب .

فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة ، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، والذين آمنوا وعملوا صالحا فى دنياهم ، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة .

وقد أكدت الآية الكريمة رجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب بديع ، حيث نفت عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب فى الدنيا ، قد ينجيهم من الحساب

والعقاب يوم القيامة ، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد .

قال صاحب فتح القدير : قوله ﴿ وحرام على قرية أهلكناها .. ﴾ قرأ أهل المدينة « وحرام » ، وقرأ أهل الكوفة « وحرم » - بكسر الحاء وإسكان الراء - وهما لغتان مثل : حلال وحل .

ومعنى ﴿ أهلكناها ﴾ : قدرنا إهلاكها . وجملة ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ فى محل رفع مبتدأ ، وقوله : « حرام » خبرها .. والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء ..[١] .

وقال بعض العلماء : « وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها و « لا » فيها على بابها . وهى مع لفظ « حرام » من قبيل نفى النفى . فيدل على الإثبات ، والمعنى : وحرام على القرية المهلكة . عدم رجوعها إلى الآخرة ، بل واجب رجوعها للجزاء ، فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه - سبحانه - سيحييه وبعمله يجزيه »[٢] .

ومنهم من يرى أن « لا » زائدة ، وأن المراد بالرجوع رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى : وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم .

ومنهم من يرى أن المراد بقوله - تعالى - ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ أى : لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان .

قال صاحب الكشاف : استعير الحرام للممتنع وجوده ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إن الله حرمها على الكافرين ﴾[٣] أى . منعها منهم .. ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة ، ومجاز الآية : إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة ..[٤] .

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية ، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات ، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة فى بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون فى الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال - تعالى - : ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾[٥] .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ٤٢٦ للشوكانى .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١٧ ص ٤٣٠٩ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٥٠ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٤ .
(٥) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج .. ﴾ .

فإن حتى هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها ، فكأنه قيل : إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب ، ويقولوا عند مشاهدته : ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل من الأوج وهو سرعة الجرى .

والمراد بفتحها : فتح السد الذى على هاتين القبيلتين ، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس .

﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ والحدب : المرتفع من الأرض كالجبل ونحوه .

و ﴿ ينسلون ﴾ من النسل - بإسكان السين - ، وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى السير ، يقال : نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع ، وفعله من باب قعد وضرب .

أى : وهم - أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر ، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها ، وقيل إن الضمير « هم » يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر .

وقوله : ﴿ واقترب الوعد الحق .. ﴾ معطوف على ﴿ فتحت ﴾ أى : فتح السد الذى كان على يأجوج ومأجوج ، وقرب موعد الحساب والجزاء .

قال الآلوسى : وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى . وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء ، وبعد قتله الدجال .

فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث طويل : إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال : أنى قد أخرجت عبادا من عبادى ، لايدان لك بقتالهم ، فحرز عبادى إلى الطور ، فيبعث الله - تعالى - يأجوج ومأجوج وهم كما قال - سبحانه - ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ ثم يرسل الله عليهم نغفا - فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة »[1] .

وقوله : فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا .. جواب للشرط وهو قوله : تعالى - قبل ذلك ﴿ إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٩٢ .

والضمير « هى » للقصة والشأن . و « إذا » للمفاجأة .

قال الجمل : قوله : ﴿ فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا .. ﴾ فيه وجهان : أحدهما - وهو الأجود - أن يكون هى ضمير القصة . وشاخصة : خبر مقدم . وأبصار : مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر هى لأنها لا تفسر إلا بجملة مصرح بجزأيها .. »[1] .

والمعنى : لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة ، ومن خروج يأجوج ومأجوج ، ومن عودة الخلق إلينا للحساب .. ورأى المشركون كل ذلك،فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع .

يقال : شخص بصر فلان يشخص شخوصا فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما .

وقوله : ﴿ ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصو البصر : يا هلا كنا أقبل فهذا أوانك ، فإننا قد كنا فى الدنيا فى غفلة تامة عن هذا اليوم الذى أحضرنا فيه للحساب .

وقوله : ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة ، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود .

أى : لم نكن فى الحقيقة فى غفلة عن هذا اليوم وأهواله ، فقد أخبرنا رسلنا به ، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعهم ، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم .

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة فى يوم لا ينفعهم فيه ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. ﴾ زيادة فى تقريعهم وتوبيخهم .

والحَصَب - بفتحتين - ما تحصب به النار . أى : يلقى فيها لتزداد به اشتعالا كالحطب والخشب .

أى : إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى - وقود جهنم ، وزادها الذى تزداد به اشتعالا .

وفى إلقاء أصنامهم معهم فى النار مع أنها لا تعقل ، زيادة فى حسرتهم وتبكيتهم ، حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٤٦ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم،والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ، وينتفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شىء أبغض إليهم منهم[1] .

وجملة ﴿ أنتم لها واردون ﴾ بدل من ﴿ حصب جهنم ﴾ ، أو مستأنفة .

أى : أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون فى جهنم دخولا لا مفر لكم منه .

وجاء الخطاب بقوله ﴿ أنتم ﴾ على سبيل التغليب ، وإلا فالجميع داخلون فيها .

ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزيز والملائكة ، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم ، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك ، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال : ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ .

أى : لو كان هؤلاء الأصنام المعبودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها الكافرون - ما ألقى بهم فى النار ، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب ، وحيث تبين لكم دخولهم إياه ، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها ، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها .

وقوله ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ تذييل مقرر لما قبله . أى : وكل من العابدين والمعبودين باقون فى هذه النار على سبيل الخلود الأبدى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين فى جهنم فقال : ﴿ لهم فيها زفير ﴾ .

أى : لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر ، كما هو شأن المغموم المحزون . وأصل الزفير : تردد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع .

﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ أى : وهم فى جهنم لا يسمعون ما يريحهم ، وإنما يسمعون مافيه توبيخهم وعذابهم ، أو : وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ماهم فيه من هول وخوف .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٦ .

وبعد هذا الحديث الذى ترتجف له القلوب .. أتبع القرآن ذلك بحديث آخر تسر له النفوس ، وتنشرح له الصدور ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

والحسنى : تأنيث الأحسن ، وهى صفة لموصوف محذوف .

أى : إن الذين سبقت لهم منا فى دنياهم المنزلة الحسنى بسبب إيمانهم الخالص وعملهم الصالح ، وقولهم الطيب .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ا لحميدة ﴿ عنها مبعدون ﴾ أى : عن النار وحرها وسعيرها .. مبعدون إبعادا تاما بفضل الله - تعالى - ورحمته .

وقوله : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ تأكيد لبعدهم عن النار . وأصل الحسيس الصوت الذى تسمعه من شىء يمر قريبا منك .

أى : هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين سبقت لهم من خالقهم الدرجة الحسنى،لا يسمعون صوت النار ، الذى يحس من حركة لهيبها وهيجانها ، لأنهم قد استقروا فى الجنة ، وصاروا فى أمان واطمئنان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ بيان لفوزهم بأقصى ما تتمناه الأنفس بعد بيان بعدهم عن صوت النار .

أى : وهم فيما تتمناه أنفسهم ، وتشتهيه أفئدتهم ، وتنشرح له صدورهم ، خالدون خلودًا أبديا لا ينغصه حزن أو انقطاع .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ... ﴾ بيان لنجاتهم من كل ما يفزعهم ويدخل القلق على نفوسهم .

أى : إن هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى ، لا يحزنهم ما يحزن غيرهم من أهوال

يشاهدونها ويحسونها فى هذا اليوم العصيب ، وهم يوم القيامة وما يشتمل عليه من مواقف متعددة . فالمراد بالفزع الأكبر : الخوف الأكبر الذى يعترى الناس فى هذا اليوم .

وفضلا عن ذلك فإن الملائكة تستقبلهم بفرح واستبشار ، فتقول لهم على سبيل التهنئة : ﴿ هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ به فى الدنيا من خالقكم - عز وجل - فى مقابل إيمانكم وعملكم الصالح .

قالوا : وهذا الاستقبال من الملائكة للمؤمنين ، يكون على أبواب الجنة ، أو عند الخروج من القبور .

ثم ختم - سبحانه - سورة الأنبياء ببيان جانب من أحوال هذا الكون يوم القيامة ، وببيان سننه فى خلقه ، وببيان نعمه على عباده ، وببيان ما أمر به نبيه - ﷺ - ، فقال - تعالى - :

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا
لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب .. ﴾ الظرف فيه منصوب بقوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ أو بقوله - سبحانه - : ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ .

وقوله : ﴿ نطوى ﴾ من الطى وهو ضد النشر . والسجل : الصحيفة التى يكتب فيها .

والمراد بالكتب : ما كتب فيها من الألفاظ والمعانى ، فالكتب بمعنى المكتوبات . واللام بمعنى على .

والمعنى : إن الملائكة تتلقى هؤلاء الأخيار الذين سبقت لهم من الله - تعالى - الحسنى بالفرح والسرور ، يوم يطوى - سبحانه - السماء طيا مثل طى الصحيفة على ما فيها من كتابات .

وفى هذا التشبيه إشعار بأن هذا الطى بالنسبة لقدرته - تعالى - فى منتهى السهولة واليسر ، حيث شبه طيه السماء بطى الصحيفة على ما فيها .

وقيل : إن لفظ ﴿ السجل ﴾ اسم لملك من الملائكة ، وهو الذى يطوى كتب أعمال الناس بعد موتهم .

والإضافة فى قوله ﴿ كطى السجل ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والجار والمجرور صفة لمصدر مقدر . أى . نطوى السماء طيا كطى الرجل أو الملك الصحيفة على ما كتب فيها .

وقرأ أكثر القراء السبعة : ﴿ للكتاب ﴾ بالإفراد . ومعنى القراءتين واحد لأن المراد به الجنس فيشمل كل الكتب .

وقوله - تعالى - : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ بيان لصحة الإعادة قياسا على البدء ، إذ الكل داخل تحت قدرته - عز وجل - .

أى : نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه ، دون أن ينالنا تعب أو يمسنا لغوب ، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء : قال - تعالى - : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة .. ﴾ .

قال صاحب الكشاف : « وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه ؟ قلت : أوله إيجاده من العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم . يعيده ثانيا عن عدم » .

وقوله - تعالى - : ﴿ وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ تأكيد للإعادة . ولفظ « وعدا » منصوب بفعل محذوف . و « علينا » فى موضع الصفة له .

أى : هذه الإعادة وعدنا بها وعدا كائنا علينا باختيارنا وإرادتنا ، إنا كنا محققين هذا

الوعد ، وقادرين عليه ، والعاقل من يقدم فى دنياه العمل الصالح الذى ينفعه عند بعثه للحساب .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ .

والمراد بالزبور : الكتاب المزبور أى : المكتوب ، مأخوذ من قولهم : زبرت الكتاب إذا كتبته .

ويشمل هنا جميع الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور .

والمراد بالذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب .

وقيل : المراد بالزبور : كتاب داود خاصة . وبالذكر التوراة ، أو العلم ، والمقصود بالأرض هنا : أرض الجنة .

فيكون المعنى : ولقد كتبنا فى الكتب السماوية ، من بعد كتابتنا فى اللوح المحفوظ : أن أرض الجنة نورثها يوم القيامة لعبادنا الصالحين .

وهذا القول يؤيده قوله - تعالى - فى شأن المؤمنين : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين ﴾[1] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالأرض هنا : أرض الدنيا فيكون المعنى :

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن هذه الأرض التى يعيش عليها الناس مؤمنهم وكافرهم ، ستكون فى النهاية لعبادنا الصالحين .

قال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالأرض فى الآية : أرض الجنة ، وإنها الأرض التى يختص بها الصالحون . لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع ، وأن الآية ذكرت عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون . ويمتن الله بها عليهم سوى أرض الجنة .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون . ويستولون عليها .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى عن ثوبان قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله - تعالى - زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها .. »[2] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٧٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٥٣ .

ويبدو لنا أنه لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التى يرثها العباد الصالحون ، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا ، لأنه لم يرد نص يخصص أحد المعنيين .

وقد سار على هذا التعميم الإمام ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية : « يقول الله - تعالى - مخبرا عما قضاه لعباده الصالحين ، من السعادة فى الدنيا والآخرة ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة كقوله - تعالى - ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[1] وقال - سبحانه - ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[2] .

وأخبر - تعالى - أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية ، فهو كائن لا محالة ، ولهذا قال : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون .. ﴾[3] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ يعود على القرآن الكريم الذى منه هذه السورة .

والبلاغ : الشىء الذى يكفى الإنسان للوصول إلى غايته . يقال : فى هذا الشىء بلاغ أى : كفاية أو سبب لبلوغ المقصد .

أى : إن فى هذا القرآن ، وفيما ذكر فى هذه السورة من آداب وهدايات ، وعقائد وتشريعات ، لبلاغا وكفاية فى الوصول إلى الحق ، لقوم عابدين .

وخص العابدين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بتوجيهات القرآن الكريم ، إذ العابد لله - تعالى - بإخلاص ، يكون خاشع القلب ، نقى النفس ، مستعدا للتلقى والتدبر والانتفاع .

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر فضله على الناس أن أرسل إليهم نبيه - ﷺ - ليكون رحمة لهم فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن .

وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه .

وفى الحديث الشريف : « إنما أنا رحمة مهداة » فرسالته - ﷺ - رحمة فى ذاتها ، ولكن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٨ .
(٢) سورة غافر الآية ٥١ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٨٠ .

هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضح هذا المعنى فقال: أرسل - ﷺ - «رحمة للعالمين» لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه . ومن خالف ولم يتبع ، فإنما أتى من عند نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها . ومثاله : أن يفجر الله عينا عذيقة - أى : كبيرة عذبة - ، فيسقى ناس زروعهم ، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا . فالعين المفجرة فى نفسها نعمة من الله - تعالى - ورحمة للفريقين . ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها ما ينفعها »[١] .

ثم أمر الله - تعالى نبيه - ﷺ - أن يخبر الناس بأن رسالته لحمتها وسداها الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده فقال : ﴿ قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .. ﴾

أى : قل - يا محمد - للناس : إن الذى أوحاه الله - تعالى - إلىّ من تكاليف وهدايات وعبادات وتشريعات .. تدور كلها حول إثبات وحدانيته - سبحانه - ووجوب إخلاص العبادة له وحده .

قال الآلوسى - رحمه الله - : « ذهب جماعة إلى أن فى الآية حصرين : الأول : لقصر الصفة على الموصوف . والثانى : لقصر الموصوف على الصفة .

فالأول : قصر فيه الوحى على الوحدانية . والثانى : قصر فيه الله - تعالى - على الوحدانية ، والمعنى : ما يوحى إلىّ إلا اختصاص الله بالوحدانية ، ومعنى هذا القصر أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه ، أو غير منظور إليه فى جانبه .. »[٢] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ للتحضيض أى : مادام الأمر كما ذكر لكم فأسلموا لتسلموا .

ثم أرشد - سبحانه - النبى - ﷺ - إلى ما يقوله للناس فى حال إعراضهم عن دعوته ، فقال : ﴿ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء .. ﴾ .

وآذنتكم : من الإيذان بمعنى الإعلام والإخبار . ومنه الأذان للصلاة بمعنى الإعلام بدخول وقتها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٠٦ .

قال بعضهم : آذن منقول من أذن إذا علم ، ولكنه كثر استعماله فى إجرائه مجرى الإنذار والتحذير »[1] .

أى : فإن أعرضوا عن دعوتك - أيها الرسول الكريم - فقل لهم : لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرنى ربى أن أعلمكم وأخبركم به ، ولم أخص أحدا منكم بهذا الإعلام دون غيره ، وإنما أخبرتكم جميعا « على سواء » أى : حال كونكم جميعا مستوين فى العلم .

فقوله : ﴿ على سواء ﴾ فى موضع الحال من المفعول الأول لآذنتكم . أى : فقد أعلمتكم ما أمرنى ربى به حالة كونهم مستوين فى هذا العلم .

ويجوز أن يكون الجار والمجرور فى موضع الصفة لمصدر مقدر . أى : فقد آذنتكم إيذانا على سواء .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ إرشاد منه - سبحانه - لنبيه - ﷺ - إلى ما يقوله لهم - أيضا - فى حال إعراضهم عن دعوته .

و « إن » نافية . أى : فإن أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، فقل لهم : لقد أعلمتكم جميعا بما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وإنى بعد هذا التبليغ والتحذير ما أدرى وما أعرف ، أقريب أم بعيد ماتوعدون به من العذاب ، أو من غلبة المسلمين عليكم ، أو من قيام الساعة . فإن علم ذلك وغيره إلى الله - تعالى - وحده ، وما أنا إلا مبلغ عنه .

وقوله تعالى : ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون ﴾ .

فهو - سبحانه - الذى يعلم ما تجهرون به وما تسرونه من أقوال وأعمال . ويعلم - أيضا - ما تكتمونه فى نفوسكم من كفر وجحود وكراهية لى ولأتباعى ، وسيعاقبكم - سبحانه - على ذلك العقاب الذى تستحقونه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن أدرى لعله فتنة لعلكم ومتاع إلى حين ﴾ زيادة فى تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله - تعالى - وحده .

أى : وإنى - أيضا - ما أدرى ، لعل تأخير عقابكم - بعد أن أعرضتم عن دعوتى - من باب الامتحان والاختبار لكم ، أو من باب الاستدراج لكم إلى حين مقدر عنده - سبحانه - ، ثم يأخذكم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

وفى إسناد علم ما سينزل بهم إلى الله - تعالى - وحده ، تخويف لهم أى : تخويف ، وأدب

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٤٩ .

ليس بعده أدب من النبى - ﷺ - مع الله - عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون ﴾ أى : قال الرسول - ﷺ - بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه : رب احكم بينى وبين هؤلاء الذين آذنتهم على سواء بالحق ﴿ وربنا الرحمن ﴾ أى : الكثير الرحمة على عباده ﴿ المستعان ﴾ أى : المطلوب منه العون ﴿ على ما تصفون ﴾ أى : على ما تصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب والزور والبهتان .

وقرأ أكثر القراء السبعة ﴿ قل رب احكم بالحق ... ﴾ بصيغة الأمر . وهذه القراءة تدل على أن الرسول - ﷺ - قد أمره الله - تعالى - أن يقول ذلك .

وصيغة « قال .. » تدل على أن الرسول - ﷺ - قد امتثل أمر ربه ، فقال ما أمره بقوله .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام - نسأل الله تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة : مدينة نصر — د . محمد سيد طنطاوى

الجمعة ١٧ من المحرم سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٨٤ م

تفسير

سُورَةُ الحَجِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، ومن والاه .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة « الحج » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده ، إنه - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
٢٠ من المحرم سنة ١٤٠٥ هـ
١٥ أكتوبر سنة ١٩٨٤ م

المؤلف
د / محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة الحج

١ - سورة الحج هى السورة الثانية والعشرون فى ترتيب المصحف ، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية فى المصحف الكوفى ، وسبع وتسعون فى المكى وخمس وتسعون فى البصرى ، وأربع وتسعون فى الشامى .

وسميت بسورة الحج ، لحديثها بشىء من التفصيل عن أحكام الحج .

٢ - ومن العلماء من يرى أنها من السور المكية ، ومنهم من يرى أنها من السور المدنية .

والحق أن سورة الحج من السور التى فيها آيات مكية ، وفيها آيات مدنية فمثلاً : الآيات التى تتحدث عن الإذن بالقتال ، من الواضح أنها آيات مدنية ، لأن القتال شرعه الله - تعالى - بالمدينة ، وكذلك الآيات التى تتحدث عن أحكام الحج ، لأن الحج فرض بعد الهجرة .

قال الآلوسى بعد أن ذكر أقوال العلماء فى ذلك : « والأصح أن سورة الحج مختلطة » فيها آيات مدنية ، وفيها آيات مكية ، وإن اختلف فى التعيين ، وهو قول الجمهور »[1] .

وقال بعض العلماء : « والذى يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية وجو السور المكية . فموضوعات التوحيد ، والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث ، وإنكار الشرك ، ومشاهد القيامة . وآيات الله المبثوثة فى صفحات الكون .. بارزة فى السورة . وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد فى سبيل الله »[2] .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة افتتاحًا ترتجف له النفوس ، حيث تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ...

قال - تعالى - ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ ..

٤ - وبعد أن ساقت السورة الكريمة نماذج متنوعة لأحوال الناس فى هذه الحياة ، وأقامت

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١١٠ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٧ ص ٥٧٥ .

الأدلة على أن البعث حق ... أتبعت ذلك ببشارة المؤمنين بما يشرح صدورهم .

قال - تعالى - ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، إن الله يفعل ما يريد ﴾ .

ثم بينت السورة الكريمة أن كل شيء فى هذا الكون يسجد لله - تعالى - وأن كثيرا من الناس ينال الثواب بسبب إيمانه وعمله الصالح ، وكثيرًا منهم يصيبه العقاب بسبب كفره وفسوقه .

قال - تعالى - ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾ .

٥ - وبعد أن عقدت السورة الكريمة مقارنة بين خصمين اختصموا فى ربهم ، وبينت عاقبة كل منهما ... أتبعت ذلك بحديث مفصل عن فريضة الحج . فذكرت سوء عاقبة الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، كما بينت أن الله - تعالى - قد أمر نبيه إبراهيم بأن يؤذن للناس بالحج ، لكى يشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ، كما بشرت الذين يعظمون حرمات الله بالخير وحسن الثواب ، ووصفت من يشرك بالله ﴿ فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ .

ثم ختمت حديثها عن فريضة الحج ببيان أن الهدى الذى يقدمه الحجاج هو من شعائر الله ، فعليهم أن يقدموه بإخلاص وسخاء ، وأن يشكروا الله - تعالى - على نعمه .

قال - تعالى - : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

٦ - ثم بينت السورة أن الله - تعالى - قد شرع لعباده المؤمنين الجهاد فى سبيله ، وبشرهم بأنه معهم يدافع عنهم ، ويجعل العاقبة لهم . فقال - تعالى - ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ...

قال - تعالى - : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم

وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ، ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله بأن يمضى فى طريقه دون أن يهتم بأذى المشركين . وأن يجابههم بكلمة الحق بدون خوف أو وجل ، فقال - تعالى - ﴿ قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

٧ - وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر حكمته فى هداية من اهتدى ، وفى ضلال من ضل ، أتبع ذلك بحديث مستفيض عن ألوان نعمه على خلقه ، فقال - تعالى - :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير ﴾ ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم * وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بنداءين : أحدهما : وجهه إلى الناس جميعًا ، وبين لهم فيه ، أن الذين يعبدونهم من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له .

والثانى : وجهه - سبحانه - إلى المؤمنين ، وأمرهم فيه بمداومة الركوع والسجود والعبادة له - عز وجل - وبالمواظبة على فعل الخير وعلى الجهاد فى سبيله .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج . ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ، ونعم النصير ﴾ .

٩ - هذا : والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يرى أن من أبرز ما اهتمت بالحديث عنه ما يأتى :

(ا) بيان أنواع الناس فى هذه الحياة ، وعاقبة كل نوع ، ترى ذلك واضحًا فى قوله - تعالى - :

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ﴾ .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة

انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ... ﴾ .

(ب) إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى أن البعث حق بأسلوب منطقى واضح . يقنع العقول ويهدى القلوب .

ترى ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

(جـ) الحديث المفصل عن فريضة الحج ، وما اشتملت عليه هذه الفريضة من منافع وآداب وأحكام .

(د) المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، نرى ذلك فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ﴾ .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ .

(هـ) بيان سنن الله فى خلقه ، والتى من أعظمها : دفاعه عن المؤمنين ، ونصره لهم ، ترى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ ﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ .

والتى من أعظمها - أيضًا - عدم إخلاف وعده ، قال - تعالى - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون * وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ .

(و) يمتاز أسلوب السورة - فى مجموعه - بالقوة والعنف ، والشدة والرهبة ، والإنذار والتحذير ، وغرس التقوى فى القلوب بأسلوب تخشع له النفوس ..

نرى ذلك فى كثير من آياتها ، ومن ذلك ، قوله - تعالى - :

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما

أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ ..

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ... فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد ﴾ ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة . فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ..

وبجانب هذه الشدة فى الأسلوب ، نرى فى السورة - أيضًا - أسلوبًا آخر فيه من اللين والرقة والبشارة للمؤمنين ما فيه ، ويكفيك قوله - تعالى - :

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين ، وأن يحشرنا معهم .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د / محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق - عز وجل - إلى الناس جميعًا ، يأمرهم فيه بامتثال أمره ، وباجتناب نهيه ، حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ تعليل للأمر بالتقوى .

قال القرطبى : الزلزلة شدة الحركة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ... وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ... ﴾[١] وأصل الكلمة من زل فلان عن الموضع ، أى : زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه ، أى : حركها وهذه اللفظة تستعمل فى تهويل الشىء »[٢] .

وقال الآلوسى : « والزلزلة : التحريك الشديد ، والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث يزيل الأشياء من مقارها ، ويخرجها عن مراكزها .

وإضافتها إلى الساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، لكن على سبيل المجاز فى النسبة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾[٣] ؛ لأن المحرك حقيقة هو الله - تعالى - ، والمفعول الأرض أو الناس ، أو من إضافته إلى المفعول ، لكن على إجرائه مجرى المفعول به اتساعًا كما فى قوله : « يا سارق الليلة أهل الدار ... »[٤] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٣ .
(٣) سورة سبأ الآية ٣٣ .
(٤) تفسير الألوسى جـ ١٧ ص ١١٠ .

والمعنى : يأيها الناس اتقوا ربكم إتقاء تامًا ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما لا يرضيه ، وبأن تسارعوا إلى فعل ما يحبه ، لأن ما يحدث فى هذا الكون عند قيام الساعة ، شىء عظيم ، ترتجف لهوله القلوب ، وتخشع له النفوس .

وقال - سبحانه - : ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشىء العظيم ، لزيادة التهويل والتخويف .

ثم فصل - سبحانه - هذا الشىء العظيم تفصيلاً يزيد فى وجل القلوب فقال : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ... ﴾ .

والضمير فى « ترونها » ، يعود إلى الزلزلة لأنها هى المتحدث عنها والظرف « يوم » منصوب بالفعل تذهل ، والرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم .

والذهول : الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف ، ومنه قول عبد الله ابن رواحة - رضى الله عنه - :

ضربا يُزيل الهامَ عن مَقِيله ويُذْهِل الخليلَ عن خليله

أى : أن هذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها ، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذى ألقمته ثديها . وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم قيل ﴿ مرضعة ﴾ دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع : التى من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه ، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿ عما أرضعت ﴾ عن إرضاعها : أو عن الذى أرضعته وهو الطفل ... »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ بيان لحالة ثانية تدل على شدة الزلزلة وعلى عنف آثارها .

أى : وترونها - أيضًا - تجعل كل حامل تضع حملها قبل تمامه من شدة الفزع .

ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة للآثار التى تدل على شدة هذه الزلزلة فقال : ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

أى : وترى - أيها المخاطب - الناس فى هذا الوقت العصيب ، هيئتهم كهيئة السكارى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٤٢ .

من قوة الرعب والفزع . وما هم على الحقيقة بسكارى ، لأنهم لم يشربوا ما يسكرهم ولكن عذاب الله شديد . أى : ولكن شدة عذابه - سبحانه - هى التى جعلتهم بهذه الحالة التى تشبه حالة السكارى فى الذهول والاضطراب .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال : « وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذى أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ... » .

وقد علق صاحب الانتصاف على عبارة صاحب الكشاف هذه فقال : قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك : زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنفى عنه الحقيقة ، فكذلك الآية ، بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء ، والسر فى تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة ليس من المعهود فى شىء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا مثله من قبل . والاستدراك بقوله ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ وما هم بسكارى ﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى ، فكأنه قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : شدة عذاب الله - تعالى - »[1] .

هذا ، وقد اختلف العلماء فى وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا ، فمنهم من يرى أنها تكون فى آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ومنهم من يرى أنها تكون يوم القيامة ، بعد خروج الناس من قبورهم للحساب .

وقد وفى هذه المسألة حقها الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه : « قال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا . وأول أحوال الساعة .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال ، كائن يوم القيامة فى العرصات ، بعد القيام من القبور .

ثم ساق - رحمه الله - سبعة أحاديث استدل بها أصحاب الرأى الثانى .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : يقول الله - تعالى - يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فيُنَادَى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يارب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب

---

(١) تفسير الكشاف وحاشيته جـ ٣ ص ١٤٢ .

الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » . فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . فقال - ﷺ - : « مِن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم أنتم فى الناس كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة - فكبرنا - ثم قال : ثلث أهل الجنة - فكبرنا - ثم قال : شطر أهل الجنة فكبرنا »(١) .

وعلى الرأى الأول تكون الزلزلة بمعناها الحقيقى ، بأن تتزلزل الأرض وتضطرب ، ويعقبها طلوع الشمس من مغربها ، ثم تقوم الساعة .

وعلى الرأى الثانى تكون الزلزلة المقصود بها شدة الخوف والفزع ، كما فى قوله - تعالى - فى شأن المؤمنين بعد أن أحاطت بهم جيوش الأحزاب : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾(٢) فالمقصود : أصيبوا بالفزع والخوف ، وليس المقصود أن الأرض تحركت واضطربت من تحتهم .

وبعد هذا الافتتاح الذى يغرس الخوف فى النفوس ، ويحملها على تقوى الله وخشيته ، ساقت السورة حال نوع من الناس يجادل بالباطل ، ويتبع خطوات الشيطان ، فقال - تعالى - :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ ومن الناس ﴾ للتبعيض . وقوله ﴿ يجادل ﴾ من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمخاصمة والمغالبة ، مأخوذ من جدلت الحبل . أى : أحكمت فتله ، كأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه .

والمراد بالمجادلة فى الله : المجادلة فى ذاته وصفاته وتشريعاته .

وقوله : ﴿ بغير علم ﴾ حال من الفاعل فى يجادل . وهى حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٨٦ طبعة دار الشعب .
(٢) سورة الأحزاب الآية ١١ .

أي : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون فى ذات الله وصفاته ، وفى وحيه وفى أحكامه بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير دليل أو ما يشبه الدليل .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾ معطوف على ما قبله . والمريد والمتمرد : البالغ أقصى الغاية فى الشر والفساد ، يقال : مرد فلان على كذا - من باب نصر وظرف - إذا عتا وتجبر واستمر على ذلك .

وأصل المادة للملاسة والتجرد ، ومنه قولهم : شجرة مرداء ، أى ملساء لا ورق لها . وغلام أمرد . أى : لم ينبت فى ذقنه شعر ..

أى : يجادل فى ذات الله وصفاته بغير علم يعلمه ، ويتبع فى جداله وتطاوله وعناده ، كل شيطان عاد عن الخير ، متجرد للفساد ، لا يعرف الحق أو الصلاح ، ولاهما يعرفانه ، وإنما هو خالص للشر والغى والمنكر من القول والفعل .

وتقييد الجدال بكونه بغير علم ، يفهم منه أن الجدال بعلم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، سائغ محمود ، ولذا قال الإمام الفخر الرازى : « هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل ، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة » ، فالمجادلة الباطلة : هى المرادة من قوله - تعالى - : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا .. ﴾[1] والمجادلة الحقة هى المرادة من قوله : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن .. ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا المجادل بالباطل ، والمتبع لكل شيطان مريد ، فقال : ﴿ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ .

أى : كتب على هذا الشيطان ، وقضى عليه « أنه من تولاه » أى اتخذه وليا وقدوة له « فأنه يضله » أى : فشأن هذا الشيطان أن يضل تابعه عن كل خير « ويهديه إلى عذاب السعير » أى : وأن شأن هذا الشيطان - أيضا - أن يهدى متبعه إلى طريق النار المستعرة ، وفى التعبير بقوله : ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ تهكم بمن يتبع هذا الشيطان ، إذ سمى - سبحانه - قيادة الشيطان لأتباعه هداية ..

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن النضر بن الحارث أو العاص بن وائل ، أو أبى جهل .. وكانوا يجادلون النبى- ﷺ - بالباطل .

ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين فى شأن هؤلاء الأشخاص ، لا يمنع من عمومهما فى

---

(١) سورة الزخرف الآية ٥٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٤٣ .

شأن كل من كان على شاكلة هؤلاء الأشقياء ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولذا قال صاحب الكشاف : « وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لايجوز ، من الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم . ولا يعض فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ، ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل »[1] .

ثم ساق – سبحانه – أهم القضايا التى جادل فيها المشركون بغير علم ، واتبعوا فى جدالهم خطوات الشيطان ، وهى قضية البعث ، وأقام الأدلة على صحتها ، وعلى أن البعث حق وواقع فقال – تعالى – :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٤٣ .

قال أبو حيان فى البحر : لما ذكر - سبحانه - من يجادل فى قدرة الله بغير علم ، وكان جدالهم فى الحشر والمعاد ، ذكر دليلين واضحين على ذلك . أحدهما : فى نفس الإنسان وابتداء خلقه . وتطوره فى أطوار سبعة ، وهى : التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلا ، وبلوغ الأشد ، والتوفى أو الرد إلى أرذل العمر .

والدليل الثانى : فى الأرض التى يشاهد تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا ، فإذا ورد الشرع بوقوعه ، وجب التصديق به ، وأنه واقع لا محالة[1] .

والمراد بالناس هنا : المشركون وكل من كان على شاكلتهم فى إنكار أمر البعث واستبعاده ، لأن المؤمنين يعترفون بأن البعث حق ، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب .

والمعنى: يأيها الناس إن كنتم فى شك من أمر إعادتكم الى الحياة مرة أخرى للحساب يوم القيامة ، فانظروا وتفكروا فى مبدأ خلقكم ، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل هذا الشك ، لأن الذى أوجدكم الإيجاد الأول . وخلقكم من التراب ، قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ، إذ الإعادة - كما يعرف كل عاقل - أيسر من ابتداء الفعل .

وقد قرب - سبحانه - هذا المعنى فى أذهانكم فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

وأتى - سبحانه - بأن المفيدة للشك فقال : ﴿ إن كنتم فى ريب من البعث ﴾ مع أن كونهم فى ريب أمر محقق تنزيلاً للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيهًا لموضوع البعث عن أن يتحقق الشك فيه من أى عاقل ، وتوبيخا لهم لوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ووجه الإتيان بفى الدالة على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

قال الآلوسى : « وقوله ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ دليل جواب الشرط ، أو هو الجواب بتأويل ، أى : إن كنتم فى ريب من البعث ، فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، فإنا خلقناكم من تراب ، وخلقهم من تراب فى ضمن خلق أبيهم آدم منه ... »[3] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : والتحقيق فى معنى قوله - تعالى - ﴿ فإنا خلقناكم من

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٣٥١ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١١٦ .

تراب ﴾ : أنه - سبحانه - خلق أباهم آدم منه ، ثم خلق من آدم زوجه حواء ، ثم خلق الناس منهما عن طريق التناسل .

فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب ؛ لأن الفروع تتبع الأصل . وعلى ذلك يكون خلقهم من تراب هو الطور الأول .. »[١] .

ثم بين - سبحانه - الطور الثانى من أطوار خلق الإنسان فقال : ﴿ ثم من نطفة ﴾ وهذا اللفظ مأخوذ من النطف - بفتح النون مع التشديد وإسكان الطاء - بمعنى السيلان والتقاطر . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر الماء منها بقلة .

والنطفة تطلق فى اللغة : على الماء القليل ، والمراد بها هنا : الماء المختلط من الرجل والمرأة عند الجماع ، والمعبر عنه بالمنى .

وقوله ﴿ ثم من علقة ﴾ هو الطور الثالث . والعلقة جمعها علق ، وهى قطعة من الدم جامدة ، تتحول إليها النطفة .

وقوله : ﴿ ثم من مضغة ﴾ هو الطور الرابع ، والمضغة قطعة صغيرة من اللحم تتحول إليها العلقة .

وقوله - سبحانه - ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ صفة للمضغة .

والمراد بالمخلقة : التامة الخلقة ، السالمة من العيوب ، والمراد بغير المخلقة : ما ليست كذلك كأن تكون ناقصة الخلقة .

وقد اكتفى بهذا المعنى صاحب الكشاف فقال : « والمخلقة » المستواة الملساء من النقصان والعيب : يقال : خلق السواك والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، إذا كانت ملساء . كأن الله - تعالى - يخلق المضغ متفاوتة . منها . ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت ، تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم ... »[٢] .

وقيل : « مخلقة » أى : مستبينة الخلق ، ظاهرة التصوير . « وغير مخلقة » أى : لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها كالسقط الذى هو مضغة ولم تظهر صورته الإنسانية بعد .

وقيل : « مخلقة » أى : نفخ فيها الروح . « وغير مخلقة » أى : لم ينفخ فيها الروح .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب الكشاف واكتفى به أولى بالقبول ، لأنه هو المشهور من

---

(١) أضواء البيان جـ ٥ ص ٢٠ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٤٤ .

كلام العرب . فهم يقولون : حجر أخلق أى : أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء ، وصخرة خلقاء ، أى : ليس بها تشويه أو كسر .

وقوله - تعالى - : ﴿ لنبين لكم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ خلقناكم ﴾ أى : خلقناكم على هذا النحو العجيب ، وفى تلك الأطوار البديعة . لنبين لكم كمال قدرتنا ، وبليغ حكمتنا . وأننا لا يعجزنا إعادة كل حى إلى الحياة بعد موته .

وحذف مفعول « نبين » للإشعار بأن أفعاله - تعالى - الدالة على كمال قدرته ، لا يحيط بها وصف ، ولا تمدها عبارة ..

أى : لنبين لكم عن طريق المشاهدة ، ما يدل على كمال قدرتنا دلالة يعجز الوصف عن الإحاطة بها .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الناس بعد تمام خلقهم ، وتوارد تلك الأطوار عليهم .

أى : ونقر ونثبت فى أرحام الأمهات ما نشاء إقراره وثبوته فيها من الأجنة والأحمال ، إلى أجل معلوم عندنا . وهو الوقت المحدد للولادة والوضع ، وما لم نشأ إقراره من الحمل لفظته الأرحام وأسقطته ، إذ كل شيء بمشيئتنا وإرادتنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ بيان للطور الخامس من أطوار خلق الإنسان .

أى : ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد استقراركم فيها إلى الوقت الذى حددناه ، طفلاً صغيرًا . أى : أطفالاً صغارًا ، وإنما جاء مفردًا باعتبار إرادة الجنس الشامل للواحد والمتعدد ، أو باعتبار كل واحد منهم ، وهو حال من ضمير المخاطبين .

ومن الأساليب العربية المعهودة ، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس . يكثر إطلاقه على الجمع ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ أى : أئمة . وقوله - سبحانه - ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا .. ﴾ أى : أنفسا ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

وكان بنو فزارة شَرَّ عمٍّ فكنت لهم كشر بنى الأخينا

أى : شر أعمام .

وقوله - تعالى - ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ بيان للطور السادس ، والأشد : قوة الإنسان وشدته واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى الارتفاع والقوة ، يقال : شد النهار إذا ارتفع ، وهو

مفرد جاء بصيغة الجمع ، أو جمع لا واحد له ، أو جمع شدة - كأنعم ونعمة - .

قال الآلوسى : « والجملة علة لنخرجكم ، وهى معطوفة على علة أخرى مناسبة لها .

كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئًا فشيئًا ثم لتبلغوا أشدكم ، أى كمالكم فى القوة والعقل والتمييز .. وقيل : علة لمحذوف . والتقدير : ثم نمهلكم لتبلغوا أشدكم ...

وتقديم التبيين « لنبين لكم » على ما بعده ، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل ، للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات .

وإعادة اللام فى « لتبلغوا » مع تجريد « نقر ، ونخرج » عنها ، للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئًا ﴾ بيان للطور السابع والأخير .

أى : منكم - أيها الناس - من يبلغ أشده فى هذه الحياة ، ومنكم من يموت قبل ذلك ، ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر أى : أخسه وأدونه ، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها ، لا علم له ولا فهم ، شأنه فى ذلك شأن الأطفال .

قال - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ فالآية الكريمة تصور أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته أكمل تصوير ، للتنبيه على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى أن البعث حق وصدق .

وبعد إقامة هذا الدليل من نفس الإنسان وتطور خلقه على صحة البعث ، ساق - سبحانه - الدليل الثانى عن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من حال إلى حال ، فقال - تعالى - ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

وقوله : ﴿ هامدة ﴾ أى : يابسة ، يقال : همدت الأرض تهمد - بضم الميم - همودًا ، إذا يبست .

ومعنى : « اهتزت » : تحركت ، يقال : هز فلان الشىء فاهتز ، إذا حركه فتحرك .

ومعنى : « ربت » زادت بسبب تداخل الماء والنبات فيها ، يقال : ربا الشىء يربو ربوا ، إذا زاد ونما ، ومنه الربا والربوة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١١٧ .

أى : وترى - أيها العاقل - ببصرك الأرض يابسة لا نبات فيها ، فإذا ما أنزلنا عليها بقدرتنا الماء ، تحركت بسبب خروج النبات منها ، وانتفخت بسبب ما يتخللها من الماء والنبات ، وأنبتت بعد ذلك من كل صنف بهيج نضر حسن المنظر .

وشبيه بهذه الآية فى أن إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم ، بقدرة الله - تعالى - وإرادته ، قوله - عز وجل - : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ﴾ .

واسم الإشارة يعود إلى المذكور من خلق الإنسان وإحياء الأرض بعد موتها ..

أى : ذلك الذى ذكرناه لكم دليل واضح ، وبرهان قاطع ، على أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذى يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، لأنه هو وحده الخالق لكل شىء ، ولأنه هو وحده الذى يعيد الموتى إلى الحياة ، ولأنه هو وحده الذى لا يعجزه شىء .

وخص - سبحانه - إحياء الموتى بالذكر ، مع أنه من جملة الأشياء المقدور عليها . للتصريح بما هو محل النزاع وهو البعث ، ولدحض شبه المنكرين له .

ثم أكد - سبحانه - ذلك تأكيدًا دامغًا فقال : ﴿ وأن الساعة ﴾ وما تشتمل عليه من حساب وثواب وعقاب ﴿ آتية لا ريب فيها ﴾ أى : لا ريب ولا شك فى إتيانها فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - .

﴿ وأن الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ يبعث من فى القبور ﴾ ليحاسبهم على أعمالهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأوضحها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن البعث حق وصدق وأنه آت لا ريب فيه .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك نموذجين لصنفين من الناس ، أحدهما : متكبر مغرور ، والآخر مذبذب لا ثبات له فى عقيدة فقال - تعالى - :

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٩ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدٗى
وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي
ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ
فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣ ﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : « لما ذكر - تعالى - حال الضلال الجهال المقلدين لغيرهم فى الآية الثالثة من هذه السورة وهى قوله - سبحانه - : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ، ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع ، فقال : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أى : بلا عقل صحيح . ولا نقل صحيح صريح بل بمجرد الرأى والهوى »[1] .

ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير من أن الآية الثالثة من هذه السورة فى شأن المقلدين لغيرهم ، أنه - سبحانه - قال فيها فى شأنهم : ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾ .

أما فى هذه الآية فقد قال فى شأن هذا النوع من الناس : ﴿ ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ... ﴾ أى : ليضل غيره ويصرفه عن طاعة الله - تعالى - واتباع طريقه الحق .

وقد نفت الآية الكريمة عن هذا المجادل ، استناده إلى أى دليل أو ما يشبه الدليل ، فهو يجادل فى ذات الله - تعالى - وفى صفاته « بغير علم » يستند إليه وبغير « هدى » يهديه

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٩٤ .

ويرشده إلى الحق وبغير « كتاب منير » أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد .

فأنت ترى أن الآية قد جردت هذا المجادل من أى مستند إليه فى جداله سواء كان عقليًا أم نقليًا ، بل أثبتت له الجهالة من جميع الجهات .

ثم صورته السورة الكريمة بعد ذلك بتلك الصورة المزرية ، صورة الجاهل المغرور المتعجرف ، فقال - تعالى - : ﴿ ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ﴾ .

وقوله ﴿ ثانِيَ ﴾ من الثَّنْى بمعنى اللَّىِّ والميل عن الاستقامة . يقال : فلان ثنى الشىء إذا رد بعضه على بعض فانثنى أى : مال والتوى .

والعِطْف - بكسر العين - الجانب ، وهذا التعبير كناية عن غروره وصلفه مع جهله . أى : أنه مع جداله بدون علم ، متكبر معجب بنفسه ، معرض عن الحق ، مجتهد فى إضلال غيره عن سبيل الله - تعالى - وعن الطريق الذى يوصل إلى الرشاد .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور المضل لغيره فقال : ﴿ وله فى الدنيا خزى ﴾ أى : هوان وذلة وصغار .

﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أى : ونجعله يوم القيامة يدرك طعم العذاب المحرق . ويصطلى به جزاء غروره وشموخه فى الدنيا بغير حق .

وتقول له ملائكتنا وهى تصب عليه ألوان العذاب ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أى : ذلك الذى تتذوقه من عذاب محرق سببه : جهلك وغرورك وإصرارك على الكفر ، وحرصك على إضلالك لغيرك .

وأسند - سبحانه - سبب ما نزل بهذا الكافر من خزى وعذاب إلى يديه ، لأنهما الجارحتان اللتان يزاول بهما أكثر الأعمال .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ بيان لعدله - تعالى - مع عباده ، أى : وأن الله - تعالى - ليس بذى ظلم لعباده أصلاً ، حتى يعذبهم بدون ذنب ، بل هو عادل رحيم بهم ، ومن مظاهر عدله ورحمته أنه يضاعف الحسنات ، ويعاقب على السيئات ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده .

ثم بين - سبحانه - نوعًا آخر من الناس ، لا يقل جرمًا عن سابقه فقال - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأ به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه .. ﴾ .

قال صاحب الكشاف : « على حرف » أى : على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم : لا على سكون وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن ، وإلا فر وطار على وجهه ... »[١] .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلامًا ، ونتجت خيله . قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ... »[٢] .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد صورت المذبذبين فى عقيدتهم أكمل تصوير ، فهم يقيسون العقيدة بميزان الصفقات التجارية ، إن ربحوا من ورائها فرحوا ، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى شأن المنافقين : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾[٣] .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ على حرف ﴾ يصور هذا النوع من الناس ، وكأنه يتأرجح فى عبادته كما يتأرجح من يكون على طرف الشىء . فهو معرض للسقوط فى أية لحظة .

والمراد من الخير فى قوله - تعالى - ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ الخير الدنيوى من صحة وغنى ومنافع دنيوية .

أى : فإن نزل بهذا المذبذب فى عبادته خير دنيوى ﴿ اطمأن به ﴾ أى : ثبت على ما هو عليه من عبادة ثباتًا ظاهريًا ، وليس ثباتًا قلبيًا حقيقيًا كما هو شأن المؤمنين الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم وعد أو وعيد .

﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أى : مصيبة أو شر ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أى : ارتد ورجع عن عبادته ودينه إلى الكفر والمعاصى .

وقوله - تعالى - : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ بيان لسوء عاقبة صنيعه .

أى : هذا الذى يعبد الله على حرف ، جمع على نفسه خسارتين ، خسارة الدنيا بسبب عدم حصوله على ما يريده منها ، وخسارة الآخرة بسبب ارتداده إلى الكفر وغشيان السيئات ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٤٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٢٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٥٨ .

وذلك الذى جمعه على نفسه هو الخسران الواضح ، الذى لا ينازع فى شأنه عاقلان ، إذ لا خسران أشد وأظهر ، من الخسران الذى ضيع دنياه وآخرته .

ثم بين - سبحانه - مظاهر خسران هذا المذبذب ، وأحواله القبيحة فقال : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه .. ﴾ .

أى : يعبد سوى الله - تعالى - أوثانًا وأصنامًا ، إن ترك عبادتها لا تستطيع أن تضره ، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه .

و ﴿ ذلك ﴾ الذى يفعله هذا الشقى من عبادته لما لا يضر ولا ينفع ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ بعداً شاسعًا عن كل صواب ورشاد .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيت هذا المذبذب وتقريعه تقريعًا آخر فقال : ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

والمولى : هو كل من انعقد بينك وبينه سبب ، يجعلك تواليه ويواليك ، وتناصره ويناصرك . والعشير : هو من يعاشرك ويخالطك فى حياتك .

أى : يعبد هذا الإنسان الجاهل المضطرب ، معبودًا ضرره أقرب من منفعته ، لبئس الناصر ولبئس الصاحب هذا المعبود .

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى جعلت المعبود الباطل ضرره أقرب من نفعه ، وبين الآية السابقة عليها والتى نفت الضر والنفع نفيًا تامًا .

وقد أجاب العلماء عن هذا التساؤل بإجابات منها : أن لفظ « يدعو » فى الآية الثانية بمعنى يقول .

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا الرأى فقال ما ملخصه : « قوله - تعالى - ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ . استئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله - تعالى - ويقرر كون ذلك ضلالاً بعيدًا . فالدعاء هنا بمعنى القول .

أى : يقول الكافر يوم القيامة برفع صوت ، وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ، ولا يرى منه أثرًا مما كان يتوقعه منه من نفع أو دفع ضر : والله لبئس الذى يتخذ ناصرًا - من دون الله - ولبئس الذى يعاشر ويخالط ، فكيف بما هو ضرر محض ، عار عن النفع بالكلية ، وفى هذا من المبالغة فى تقبيح حال الصنم والإمعان فى ذمه ما لا يخفى ... »[1] .

ومنها ما ذكره الإمام القرطبى فقال : قوله - تعالى - ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٢٥ .

نفعه ﴾ أى : هذا الذى انقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من نفعه ، أى : فى الآخرة ، لأنه بعبادته دخل النار . ولم ير منه نفعًا أصلاً ، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ، ترفيعًا للكلام ، كقوله - تعالى - : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾[١] .

ومنها : ما ذكره بعض العلماء من أن الآية الأولى فى شأن الذين يعبدون الأصنام ، إذ الأصنام لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من كفر بها ، ولذا قال فيها : ما لا يضره وما لا ينفعه ، والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام : التعبير بلفظة « ما » فى قوله : ﴿ ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ لأن لفظ « ما » يأتى - غالبًا - لما لا يعقل . والأصنام لا تعقل .

أما الآية الثانية فهى فى شأن من عبد بعض الطغاة من دون الله ، كفرعون القائل لقومه : « ما علمت لكم من إله غيرى » فإن فرعون وأمثاله من الطغاة المعبودين ، قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم . وهذا النفع الدنيوى بالنسبة لما سيلاقونه من عذاب لا شىء . فضر هذا المعبود بخلود عابده فى النار . أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا .

والقرينة على أن المراد بالمعبود الباطل فى الآية الثانية بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء : هى التعبير « بمن » التى تأتى - غالبًا - لمن يعقل ، كما قال - تعالى - : ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه .. ﴾[٢] .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير له وجه من القبول .

وبذلك نرى السورة الكريمة قد ساقت لنا نماذج من أحوال الناس فى هذه الحياة . لكى يحذرهم المؤمنون ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين من حسن الثواب ، بعد أن صرحت بما توعد به - سبحانه - المجادلين فيه بغير علم بسوء العقاب ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٨ .
(٢) أضواء البيان جـ ٥ ص ٤٨ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

أى : إن الله - تعالى - بفضله وكرمه ، يدخل عباده « الذين آمنوا » إيمانًا حقا ، « وعملوا » الأعمال « الصالحات جنات تجرى من » تحت أشجارها ، « الأنهار » إن الله - تعالى - يفعل ما يريد فعله على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته دون أن ينازعه فى ذلك منازع . أو يعارضه معارض ، فهو - سبحانه - لا يسأل عما يفعل .

ثم بين - سبحانه - أن نصره لنبيه - ﷺ - آت لا شك فيه مهما كره ذلك الكارهون ، فقال - تعالى - :

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

وللعلماء فى تفسير الآية الأولى أقوال :

أولها أن الضمير فى قوله ﴿ يظن ﴾ يعود إلى أعداء النبى - ﷺ - وفى قوله ﴿ ينصره ﴾ يعود إليه - ﷺ - .

والمعنى : « من كان يظن » من الكافرين الكارهين للحق الذى جاء به محمد - ﷺ - « أن لن ينصره الله » . أى : أن لن ينصر الله نبيه - ﷺ - « فى الدنيا والآخرة فليمدد » هذا الكافر « بسبب » أى : بحبل إلى السماء ، أى : سقف بيته ، لأن العرب تسمى كل ما علاك فهو سماء .

« ثم ليقطع » ثم ليختنق هذا الكافر بهذا الحبل ، بأن يشده حول عنقه ويتدلى من الحبل المعلق بالسقف حتى يموت .

« فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » أى : فليتفكر هذا الكافر فى أمره ، هل يزيل فعله هذا ما امتلأت به نفسه من غيظ لنصر الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ؟

كلا ، فإن ما يفعله بنفسه من الاختناق والغيظ ، لن يغير شيئًا من نصر الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ، فليمت هذا الكافر بغيظه وكيده .

فالمقصود بالآية الكريمة : بيان أن ما قدره الله - تعالى - من نصر لنبيه - ﷺ - لن

يحول بين تنفيذه حائل ، مهما فعل الكافرون ، وكره الكارهون ، فليموتوا بغيظهم ، فإن الله - تعالى - ناصر نبيه لا محالة .

وصح عود الضمير فى قوله ﴿ أن لن ينصره ﴾ إلى النبى - ﷺ - مع أنه لم يسبق له ذكر ، لأن الكلام دال عليه فى الآيات السابقة ، إذ المراد بالإيمان فى قوله - تعالى - فى الآية السابقة ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾ الإيمان بصدق النبى - ﷺ - فيما جاء به عند ربه - تعالى - .

وعبر - سبحانه - عن اختناق هذا الحاقد بالحبل بقوله : ﴿ ثم ليقطع ﴾ لأن قطع الشىء يؤدى إلى انتهائه وهلاكه ، والمفعول محذوف . والتقدير : ثم ليقطع نفسه أو حياته .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا القول فقال : هذا كلام قد دخله اختصار .

والمعنى : إن الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك .. فليستقص وسعه ، وليستفرغ مجهوده فى إزالة ما يغيظه . بأن يفعل ما يفعله من بلغ به الغيظ كل مبلغ ، حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر - هذا الحاسد - وليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه ؟

وسمى - سبحانه - فعل هذا الكافر كيدًا ، لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أو سماه كذلك على سبيل الاستهزاء ، لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد نفسه .

والمراد : إنه ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ... »[1] .

وثانيها : إن الضمير فى قوله : ﴿ لن ينصره ﴾ يعود إلى « من » فى قوله ﴿ من كان يظن ﴾ وأن النصر هنا بمعنى الرزق ..

فيكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فليختنق ، وليقتل نفسه ، إذ لا خير فى حياة ليس فيها رزق الله وعونه ، أو فليختنق ، فإن اختناقه لن يغير شيئًا مما قضاه الله - تعالى - .

قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان كون الضمير فى « ينصره » عائدًا على « من » لأنه المذكور ، وحق الضمير أن يعود على مذكور ... وفسر النصر بالرزق .

قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بنى بكر فقال : من ينصرنى نصره الله - أى : من يرزقنى رزقه الله .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٤٨ .

والمعنى : أن الأرزاق بيد الله - تعالى - لا تنال إلا بمشيئته ، فمن ظن أن الله - تعالى - غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم فليختنق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقا .

والغرض : الحث على الرضا بما قسمه الله - تعالى - لا كمن يعبده على حرف ...[١] .

وثالثها : أن الآية فى قوم من المسلمين استبطأوا نصر الله - تعالى - لاستعجالهم وشدة غيظهم وحنقهم على المشركين ، فنزلت الآية لبيان أن كل شىء عند الله بمقدار .

ويكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن ينصره الله ، واستبطأ حدوث ذلك ، فليمت غيظًا . لأن للنصر على المشركين وقتًا لا يقع إلا فيه بإذن الله ومشيئته .

ويبدو أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، القول الأول ، وعليه جمهور المفسرين ، ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ... وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾[٣] .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم فقال : ﴿ وكذلك أنزلناه آيات بينات ... ﴾ أى : ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح ، أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة ، وتوجيهاتها السديدة .

وأن الله - تعالى - يهدى من يريد هدايته إلى صراطه المستقيم ، فهو الهادى الذى ليس هناك من هاد سواه .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الفصل بين الفرق المختلفة إليه وحده . إذ هو العليم بكل ما عليه كل فرقة من حق أو باطل ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٢٧ .
(٢) سورة غافر الآية ٥١ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٩ .

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن ست فرق من الناس : أما الفرقة الأولى ، فهى : فرقة الذين آمنوا ، والمراد بهم : الذين آمنوا بالنبى - ﷺ - وصدقوه واتبعوه .

وابتدأ القرآن بهم ، للإشعار بأن دين الإسلام هو الدين الحق ، القائم على أساس أن الفوز برضا الله - تعالى - لا ينال إلا الإيمان والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وأما الفرقة الثانية فهى فرقة الذين هادوا أى : صاروا يهودا . يقال : هاد فلان وتهود أى : دخل فى اليهودية .

وسموا يهودا نسبة إلى « يهوذا » أحد أولاد يعقوب - عليه السلام - ، وقلبت الذال دال عند التعريب . أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل مأخوذ من هاد يهود هودا بمعنى تاب . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أى : تبنا إليك .

والفرقة الثالثة هى فرقة « الصابئين » جمع صابئ ، وهو الخارج من دين إلى آخر . يقال : صبأ الظِّلْف والناب والنجم - كمنع وكرم - إذا طلع .

والمراد بهم : الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل . وهم قوم يعبدون الكواكب والملائكة ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث ابن آدم .

والفرقة الرابعة هى فرقة « النصارى » جمع نصران بمعنى نصرانى كندامى وندمان . والياء فى نصرانى للمبالغة ، وهم قوم عيسى - عليه السلام - ، قيل : سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له : وقيل : إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة ، وهى القرية التى كان عيسى قد نزل بها .

وأما الفرقة الخامسة فهى فرقة « المجوس » وهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنار . وقيل : هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئًا ، ومن دين اليهود شيئًا ، ويقولون : بأن للعالم أصلين : نورًا وظلمة ..

وأما الفرقة السادسة والأخيرة فهى فرقة الذين أشركوا . والمشهور أنهم عبدة الأصنام والأوثان ، وقيل ما يشملهم ويشمل معهم كل من اتخذ مع الله - تعالى - إلها آخر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾ بيان لما سيكون عليه حالهم جميعًا يوم القيامة ، من حكم عادل سيحكم الله - تعالى - به عليهم .

أى : إن الله تعالى يحكم بين هؤلاء جميعًا بحكمه العادل يوم القيامة ، إنه - سبحانه - على

كل شىء شهيد ، بحيث لا يخفى عليه شىء من أحوال خلقه .

قال الجمل ما ملخصه : ولهذه الآية قيل : الأديان ستة . واحد للرحمن وهو الإسلام . وخمسة للشيطان وهى ما عداه . وإنّ الثانية واسمها وخبرها فى محل رفع خبر لإن الأولى .

وقوله : ﴿ إن الله على كل شىء شهيد ﴾ تعليل لقوله : ﴿ إن الله يفصل بينهم .. ﴾ وكأن قائلاً قال : أهذا الفصل عن علم أو لا ؟ فقيل : إن الله على كل شىء شهيد . أى : علم به علم مشاهدة »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن الكون كله يخضع لسلطانه - تعالى - ويسجد لوجهه فقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)

والاستفهام فى قوله ﴿ ألم تر ... ﴾ للتقرير . والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك لأن سجود هذه الكائنات لله - تعالى - آمنا به عن طريق الإخبار دون أن نرى كيفيته .

والسجود فى اللغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

والمراد به هنا: دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله - تعالى - وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده منا انقيادا تامًا ، وخضوعها له - عز وجل - بكيفية هو الذى يعلمها . فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله - تعالى - ونفوض كيفية هذا السجود له - تعالى - .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - يسجد له ، ويخضع لسلطانه جميع من فى السموات وجميع من فى الأرض .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٥٨ .

وقوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ عطف خاص على قوله : ﴿ من فى السموات ﴾ .

ونص - سبحانه - عليها مفردًا إياها بالذكر ، لشهرتها ، ولاستبعاد بعضهم حدوث السجود منها ، ولأن آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب ، فبين - سبحانه - أنها عابدة وساجدة لله ، وليست معبودة .

وقوله - تعالى - : ﴿ والجبال والشجر والدواب ﴾ عطف خاص على ﴿ من فى الأرض ﴾ ونص - سبحانه - عليها - أيضًا - لأن بعضهم كان يعبدها ، أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام .

وقوله - تعالى - ﴿ وكثير من الناس ﴾ بيان الذين اهتدوا إلى طريق الحق .

أى : ويسجد له - كذلك - كثير من الناس ، وهم الذين خلصت عقولهم من شوائب الشرك والكفر ، وطهرت نفوسهم من الأدناس والأوهام .

وقوله : ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ بيان لحال الذين استحبوا العمى على الهدى .

أى : وكثير من الناس حق وثبت عليهم العذاب ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وإيثارهم الغى على الرشد .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على نفاذ قدرته ، وعموم مشيئته فقال : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم . إن الله يفعل ما يشاء ﴾ .

و « من » شرطية ، وجوابها : « فما له من مكرم » ومكرم اسم فاعل من أكرم .

أى : ومن يهنه الله ويخزه ، فما له من مكرم يكرمه ، أو منقذ ينقذه مما هو فيه من شقاء ، إن الله - تعالى - يفعل ما يشاء فعله بدون حسيب يحاسبه ، أو معقب يعقب على حكمه[1] .

قال - تعالى - : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك صورة فيها ما فيها من وجوه المقارنات بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين . لكى ينحاز كل ذى عقل سليم إلى فريق الإيمان لا الكفر ، فقال - تعالى - :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ

---

(١) سورة الرعد الآية ٤١ .

مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ... ﴾ روايات أشار الإمام ابن كثير إلى معظمها فقال : « ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر : أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبيه . وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا فى بدر .

وعن قتادة قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضى على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه - أى فنصر الله الإسلام - ، وأنزل الآية .

وعن مجاهد فى الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث .

وهذا القول يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان[1] .

أى : هذان خصمان اختصموا فى ذات ربهم وفى صفاته ، بأن اعتقد كل فريق منهم أنه على الحق ، وأن خصمه على الباطل .

قال الجمل : والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالبا ، وعليه قوله

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٠١ .

- تعالى - : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾[١] ويجوز أن يثنى ويؤنث ، ولما كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قال : ﴿ اختصموا ﴾ بصيغة الجمع كقوله - تعالى - : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ فالجمع مراعاة للمعنى[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ... ﴾ تفصيل وبيان لحال كل خصم وفريق .

أى : فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله - تعالى - لهم من النار ثيابا ، وألبسهم إياها .

قال الآلوسى : أى أعد الله لهم ذلك ، وكأنه شبه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم . ففى الكلام استعارة تمثيلية تهكمية ، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقة . وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض .. وعبر بالماضى ، لأن الإعداد قد وقع ، فليس من التعبير بالماضى لتحققه ..[٣] .

وقوله : ﴿ يصب من فوق رءوسهم الحميم ﴾ زيادة فى عذابهم ، أى : لم تقطع لهم ثياب من نار فحسب ، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رءوسهم « الحميم » أى : الماء البالغ أقصى درجات الشدة فى الحرارة .

وقوله : ﴿ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ﴾ بيان للآثار التى تترتب على هذا العذاب .

والفعل « يصهر » مأخوذ من الصهر بمعنى الإذابة . يقال : صهر فلان الشحم يصهره إذا أذابه .

أى : فذلك الحميم الذى يصب من فوق رءوسهم من آثاره أنه يذاب به ما فى بطونهم من الشحوم والأحشاء . كما تذاب به جلودهم - أيضا - فقوله : ﴿ والجلود ﴾ عطف على ﴿ ما ﴾ الموصولة فى قوله ﴿ ما فى بطونهم ﴾ أى : يذاب به الذى فى بطونهم وتذاب به أيضا جلودهم .

وقيل : إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على « يصهر » .

والتقدير : يصهر به ما فى بطونهم من أحشاء وشحوم ، وتحرق به الجلود . قالوا : وذلك لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصليت بالنار .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذى تصهر به البطون .

---

(١) سورة ص الآية ٢١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٥٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٣٤ .

والمقامع : جمع مقمعة - بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية - ، وهى آلة تستعمل فى القمع عن الشىء ، والزجر عنه ، يقال : قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله .

أى : وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها الملائكة على رءوسهم زيادة فى إذلالهم وقهرهم .

وقيل : إن الضمير فى « لهم » يعود على خزنة النار . أى : ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء الكافرين .

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تصور هوان هؤلاء الكافرين أكمل تصوير .

وقوله - سبحانه - : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ بيان لما يقابلون به عندما يريدون التزحزح عن النار .

أى : كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن غمها وكربها وسعيرها : أعيدوا فيها مرة أخرى ، كما قال - تعالى - : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ مقول لقول محذوف أى : أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار : ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم .

هذا هو حال فريق الكافرين . وهو حال يزلزل القلوب ويرهب المشاعر ، ويفزع النفوس .

ولكن القرآن كعادته فى قرن الترهيب بالترغيب . لا يترك النفوس فى هذا الفزع ، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق بيان حسن حال المؤمنين فيقول : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ... ﴾ .

وغير - سبحانه - الأسلوب فلم يقل : والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين كفروا .. تعظيم لشأن المؤمنين ، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم الكافرين .

أى : إن الله - تعالى - بفضله وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، جنات عاليات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار .

وقوله ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ بيان لما ينالون فى تلك الجنات من خير وفير ، وعطاء جزيل .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٧ .

أى : يتزينون فى تلك الجنات بأساور كائنة من الذهب الخالص ، ومن اللؤلؤ الثمين ، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير الناعم الفاخر .

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا ، للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان .. ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام فى كل أهل الجنة ، وقيل هو باعتبار الأغلب ، لما أخرجه النسائى وابن حيان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة . وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه »[1] .

قالوا : ومحله فيمن مات مصرا على ذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ بيان لحسن خاتمتهم ، ولعظم النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : وهدى الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذى يرضى الله - تعالى - عنهم ، كأن يقولوا عند دخولهم الجنة : ﴿ ... الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾[2] .

وهداهم - أيضا - خالقهم إلى الصراط المحمود ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام ، فصاروا بسبب هذه النعمة يقولون الأقوال الطيبة ، ويفعلون الأفعال الحميدة .

قال الشوكانى : قوله : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ... ﴾ أى : أرشدوا إليه . قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من الله من بشارات . وقد ورد فى القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله - سبحانه - : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده .. ﴾ ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ... ﴾ ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن .. ﴾ .

ومعنى : ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذى هو دينه القويم وهو الإسلام[3] .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الخصمين وعن عاقبة كل منهما .. جاء الحديث عن المسجد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٣٦ .
(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ٤٤٥ .

الحرام ، وعن مكانته ، وعن الأمر ببنائه ، وعن وجوب الحج إليه ، وعن المنافع التى تعود على الحجاج ، وعن سوء مصير من يصد الناس عن هذا المسجد ، جاء قوله - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩)

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت ، وعظم كفر هؤلاء الكافرين فقال : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ .

قال ابن عباس : الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله - ﷺ - عام الحديبية عن المسجد الحرام ، عن أن يحجوا ويعتمروا ، وينحروا الهدى . فكره رسول الله - ﷺ - قتالهم ، وكان محرما بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود فى العام القادم ..[1] .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٥٤ .

وصح عطف المضارع وهو « يصدون » على الماضى وهو « كفروا » لأن المضارع هنا لم يقصد به زمن معين من حال أو استقبال ، وإنما المراد به مجرد الاستمرار ، كما فى قولهم : فلان يحسن إلى الفقراء ، فإن المراد به استمرار وجود إحسانه .

ويجوز أن يكون قوله ﴿ ويصدون ... ﴾ خبرا لمبتدأ محذوف ، أى : وهم يصدون عن المسجد الحرام . وخبر إن فى قوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين كفروا ...﴾ محذوف لدلالة آخر الآية عليه .

والمعنى : إن الذين أصروا على كفرهم بما أنزله الله - تعالى - على نبيه محمد - ﷺ - ، واستمروا على منع أهل الحق من أداء شعائر دين الله - تعالى - ، ومن زيارة المسجد الحرام .. هؤلاء الكافرون سوف نذيقهم عذابا أليما .

ويصح أن يكون الخبر محذوفا للتهويل والإرهاب . وكأن وصفهم بالكفر والصد كاف فى معرفة مصيرهم المهين .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ والمسجد الحرام ﴾ قيل إنه المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن ، لأنه لم يذكر غيره ، وقيل الحرم كله ، لأن المشركين صدوا رسول الله - ﷺ - وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خارجا عنه ... وهذا صحيح لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد .. ﴾ تشريف لهذا المكان حيث جعل الله - تعالى - الناس تحت سقفه سواء ، وتشنيع على الكافرين الذين صدوا المؤمنين عنه .

ولفظ « سواء » قرأه جمهور القراء بالرفع على أنه خبر مقدم ، والعاكف : مبتدأ ، والباد معطوفة عليه أى : العاكف والباد سواء فيه . أى مستويان فيه .

وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على أنه المفعول الثانى لقوله « جعلناه » بمعنى صيرناه . أى : جعلناه مستويا فيه العاكف والباد . ويصح أن يكون حالا من الهاء فى ﴿ جعلناه ﴾ أى : وضعناه للناس حال كونه سواء العاكف فيه والباد .

والمراد : بالعاكف فيه : المقيم فيه . يقال : عكف فلان على الشىء ، إذا لازمه ولم يفارقه . والباد : الطارىء عليه من مكان آخر . وأصله من يكون من أهل البوادى الذين يسكنون المضارب والخيام ، ويتنقلون من مكان إلى آخر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٢ .

أى : جعلناه للناس على العموم ، يصلون فيه ، ويطوفون به ، ويحترمونه ويستوى تحت سقفه من كان مقيما فى جواره ، وملازما للتردد عليه ، ومن كان زائرا له وطارئا عليه من أهل البوادى أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة .

فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم ، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ تهديد لكل من يحاول ارتكاب شىء نهى الله عنه فى هذا المسجد الحرام .

والإلحاد الميل . يقال : ألحد فلان فى دين الله ، أى : مال وحاد عنه .

و « من » شرطية وجوابها « نذقه » ومفعول « يرد » محذوف لقصد التعميم . أى : ومن يرد فيه مرادا بإلحاد، ويصح أن يكون المفعول قوله ﴿ بإلحاد ﴾ على أن الباء زائدة .

أى : ومن يرد فى هذا المسجد الحرام إلحادا ، أى : ميلا وحيدة عن أحكام الشريعة وآدابها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا ، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره ، ولا يكتنه كنهه .

وقد جاء هذا التهديد فى أقصى درجاته لأن القرآن توعد بالعذاب الأليم كل من بنوى ويريد الميل فيه عن دين الله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ينوى ويفعل يكون عقابه أشد ، ومصيره أقبح .

ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل ، أو عن الخير إلى الشر كالاحتقار ، والغش .

ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال التى ذكرناها فى تأويل ذلك بالصواب : القول الذى ذكرناه من أن المراد بالظلم فى هذا الموضع ، كل معصية لله ، وذلك لأن الله عم بقوله : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ ولم يخصص به ظلما دون ظلم فى خبر ولا عقل،فهو على عمومه،فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام : ومن يرد فى المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه ، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له[1] .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن بناء البيت وتطهيره فقال - تعالى - : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ... ﴾ .

وبوأنا من التبوؤ بمعنى النزول فى المكان . يقال : بوأته منزلا أى : أنزلته فيه ، وهيأته له ، ومكنته منه .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ١٠٥ .

والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام ، وأرشدناه إليه ، لكى يبنيه بأمرنا ، ليكون مثابة للناس وأمنا .

قال بعض العلماء : والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج ، كنست ما فوق الأساس : حتى ظهر الأساس الأول الذى كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه ... وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من جرهم .

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له، وعرفه إياه ليبنيه فى محله ، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله .

وظاهر قوله - تعالى - على لسان إبراهيم : ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ... ﴾ يدل على أنه كان مبنيا واندرس كما يدل عليه - أيضا - قوله هنا ﴿ مكان البيت ﴾ لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان معروفا[1] .

و« أن » فى قوله - تعالى - : ﴿ أن لا تشرك بى شيئا ﴾ مفسرة ، والتفسير - كما يقول الآلوسى - باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا إبراهيم بالعبادة ، وذلك فيه معنى القول دون حروفه ، أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ .

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب - وقت أن هيأنا لإبراهيم - عليه السلام - مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناه بعدم الإشراك بنا ، وبإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناه - أيضا - بأن يطهر هذا البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهيأ للطائفين به ، وللقائمين فيه لأداء فريضة الصلاة .

قال الشوكانى : والمراد بالقائمين فى قوله : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين ﴾ المصلون . .

وذكر ﴿ الركع السجود ﴾ بعده ، لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة، وقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشرعان إلا فى البيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه[2] .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام ، قذر من الأقذار ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب مالا يرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

ثم ذكر - سبحانه - ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : ﴿ وأذن فى الناس بالحج ، يأتوك رجالا . وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٦٢ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٤٤٨ .

والآذان : الإعلام . و« رجالا » أى : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل .

يقال : رَجِل بزنة فرح فلان يَرْجَل فهو راجل إذا لم يكن معه ما يركبه .

والضامر : البعير المهزول من طول السفر ، وهو اسم فاعل من ضمر - بزنة قعد - يضمر ضمورا فهو ضامر ، إذا أصابه الهزال والتعب .

وجملة « يأتين من كل فج عميق » صفة لقوله « كل » ، والجمع باعتبار المعنى . كأنه قيل : وركبانا على ضوامر من كل طريق بعيد . .

والفج فى الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل فى الطريق المتسع . والمراد به هنا : مطلق الطريق وجمعه فجاج .

والعميق : البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قولهم : بئر عميقة ، أى : بعيدة الغور .

والمعنى : وأَعْلِمْ يا إبراهيم الناس بفريضة الحج يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد .

قال ابن كثير : أى : ناد - يا إبراهيم - فى الناس داعيا إياهم إلى الحج الى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب ، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم ؟ فقيل : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل : على الحجر ، وقيل : على الصفا ، وقيل : على أبى قبيس ، وقال : يأيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : « لبيك اللهم لبيك »[1] .

وقيل : إن الخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وأذن ... ﴾ للرسول - ﷺ - وأن الكلام عن إبراهيم - عليه السلام - قد انتهى عند قوله - تعالى - : ﴿ والركع السجود ﴾ .

وجمهور المفسرين على أن الخطاب لإبراهيم - عليه السلام - لأن سياق الآيات يدل عليه ، ولأن التوافد على هذا البيت موجود منذ عهد إبراهيم .

وما يزال وعد الله يتحقق منذ هذا العهد الى اليوم وإلى الغد ، وما تزال أفئدة ملايين الناس تهوى إليه ، وقلوبهم تنشرح لرؤيته ، وتسعد بالطواف من حوله . .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يأتوك ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤١٠ .

أى : يأتيك الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ، ليشهدوا وليحصلوا منافع عظيمة لهم فى دينهم وفى دنياهم .

ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابه دعائهم ، ورضا الله - تعالى - عنهم .

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم فى هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء وغير ذلك من أنواع المعاملات التى أحلها الله - تعالى - .

وجاء لفظ « منافع » بصيغة التنكير ، للتعميم والتعظيم والتكثير . أى : منافع عظيمة وشاملة لأمور الدين والدنيا ، وليس فى الإمكان تحديدها لكثرتها ، وقوله ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ معطوف على قوله ﴿ ليشهدوا ﴾ .

والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذى الحجة ، أو هى أيام النحر ، أو يوم العيد وأيام التشريق .

والمراد ببهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم .

أى : ليشهدوا منافع لهم ، وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته فى تلك الأيام المباركة . وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التى يتقربون إليه - سبحانه - عن طريق ذبحها وإراقة دمائها ، واستجابة لأمره - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - : ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ إرشاد منه - تعالى - إلى كيفية التصرف فيها بعد ذبحها .

أى : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أى : الذى أصابه بؤس ومكروه بجانب فقره واحتياجه .

قال الآلوسى : والأمر فى قوله ﴿ فكلوا منها ... ﴾ للإباحة بناء على أن الأكل كان منهيا عنه شرعا ، وقد قالوا : إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة ويدل على سبق النهى قوله - ﷺ - : « كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا » .

وقيل : لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه ، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم فى الأكل منها[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٤٦ .

ثم بين - سبحانه - ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

والمراد بالقضاء هنا : الإزالة ، وأصله القطع والفصل ، فأريد به الإزالة على سبيل المجاز .

والتفث : الوسخ والقذر ، كطول الشعر والأظفار يقال : تَفِث فلان - كفرح - يتفَث تفثا فهو تفث ، إذا ترك الاغتسال والتطيب والتنظيف فأصابته الأوساخ .

والمراد بالطواف هنا : طواف الإفاضة ، الذى هو أحد أركان الحج ، وبه يتم التحلل .

والعتيق : القديم حيث إنه أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض ، وقيل سمى بالعتيق لأن الله - تعالى - أعتقه من أن يتسلط عليه جبار فيهدمه أو يخربه .

والمعنى : ثم بعد حلهم وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك . فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم ، وليوفوا نذورهم التى نذروها لله - تعالى - فى حجهم ، وليطوفوا طواف الإفاضة ، بهذا البيت القديم الذى جعله الله - تعالى - أول بيت لعبادته ، وصانه من اعتداء كل جبار أثيم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد توعدت كل من يصد الناس عن هذا البيت بأشد ألوان الوعيد ، وبينت أن الناس فيه سواء ، وتحدثت عن جانب من فضله - سبحانه - على نبيه إبراهيم - عليه السلام - حيث أرشده إلى مكان هذا البناء ، وشرفه بتهيئته ليكون أول مكان لعبادته - تعالى - ، وأمره بأن ينادى فى الناس بالحج إليه ، ليشهدوا منافع عظيمة لهم .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك الى الحديث عن الذين يعظمون حرمات الله ، وعما أحله الله لعباده من الأنعام ، وعن سوء عاقبة من يشرك بالله ، فقال - تعالى - :

ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ
﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ
﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

واسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ فى قوله : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ... ﴾ يؤتى به فى مثل هذا التركيب للفصل بين كلامين، والمشهور فى مثل هذا التركيب الإتيان بلفظ « هذا » كما فى قوله - تعالى - : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴾[1] .

وجىء هنا بلفظ ذلك للإشعار بتعظيم شأن المتحدث عنه ، وعلو منزلته، وهو يعود إلى المذكور من تهيئة مكان البيت لإبراهيم ، وأمره بتطهيره ... الخ .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى : الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعانى ، ثم إذا أراد الخوض فى معنى آخر قال : هذا ، وقد كان كذا[2] .

والحرمات : جمع حرمه . والحرمة كل ما أمر الله - تعالى - باحترامه ، ونهى عن قوله أو فعله ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا ما يتعلق بمناسك الحج كتحريم الرفث والفسوق والجدال والصيد ، وتعظيم هذه الحرمات يكون بالعلم بوجوب مراعاتها ، وبالعمل بمقتضى هذا العلم .

والمعنى : ذلك الذى ذكرناه لكم عن البيت الحرام وعن مناسك الحج ، هو جانب من أحكام الله - تعالى - فى هذا الشأن فاتبعوها ، والحال أن من يعظم حرمات الله - تعالى - بأن يترك ملابستها واقترافها ، فهو أى : هذا التعظيم ، خير له عند ربه . إذ بسبب هذا التعظييم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه .

وقد جاء النهى فى هذه الجملة عن فعل هذه الحرمات بأبلغ أسلوب حيث عبر عن اجتنابها بالتعظيم وبأفعل التفضيل وهو لفظ « خير » وبإضافتها إلى ذاته .

فكأنه - سبحانه - يقول : إذا كان ترك هذا التعظيم لحرمات الله يؤدى إلى حصولكم على شىء من المتاع الدنيوى الزائل ، فإن الاستمساك بهذا التعظيم أفضل من ذلك بكثير عند ربكم وخالقكم ، فكونوا عقلاء ولا تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

---

(١) سورة ص الآية ٤٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٥٤ .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحكام التى تتعلق بالأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فقال : ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم ﴾ .

أى : وأحل الله - تعالى - لكم فضلا منه ورحمة ذبح الأنعام وأكلها إلا مايتلى عليكم تحريم ذبحه وأكله فاجتنبوه .

وهذا الإجمال هنا ، قد جاء ما فصله قبل ذلك فى سورة الأنعام فى قوله - تعالى - : ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾ .

قال بعض العلماء : ثم إنه ليس المقصود بما يتلى ، ما ينزل فى المستقبل ، كما يعطيه ظاهر الفعل المضارع ، بل المراد ماسبق نزوله مما يدل على حرمة الميتة وما أهل لغير الله به . أو ما يدل على حرمة الصيد فى الحرم أو حالة الإحرام .

وعلى هذا يكون السر فى التعبير بالمضارع ، التنبيه إلى أن ذلك المتلو ينبغى استحضاره والالتفات إليه .. والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع فى الوهم من أن تعظيم حرمات الله فى الحج قد يقضى باجتناب الأنعام ، كما قضى باجتناب الصيد(١) .

ثم أمرهم - سبحانه - باجتناب مايغضبه ، وحضهم على الثبات على الدين الحق فقال - تعالى - : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ﴾ والفاء فى قوله : ﴿فاجتنبوا ﴾ هى الفصيحة . والرجس : الشىء المستقذر الذى تعافه النفوس . و﴿ من ﴾ فى قوله ﴿من الأوثان ﴾ بيانية ، والأوثان : الأصنام . يدخل فى حكمها ومعناها عبادة كل معبود من دون الله - تعالى - كائنا من كان .

وسماها - سبحانه - رجسا ، زيادة فى تقبيحها وفى التنفير منها .

والزور : الكذب والباطل وكل قول مائل عن الحق فهو زور ، لأن أصل المادة التى هى الزور من الازورار بمعنى الميل والاعوجاج ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ﴾ أى : تميل .

وقوله ﴿ حنفاء ﴾ جمع حنيف وهو المائل عن الأديان الباطلة الى الدين الحق .

والمعنى : مادام الأمر كما ذكرت لكم ، فاجتنبوا - أيها الناس عبادة الأوثان أو تعظيمها ، واجتنبوا - أيضا - القول المائل عن الحق ، وليكن شأنكم وحالكم الثبات على الدين الحق ، وعلى إخلاص العبادة لله - تعالى - الذى خلقكم ، وخلق كل شىء .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٧٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس .

وهذه الجملة الكريمة مؤكدة لما سبق من وجوب تعظيم حرمات الله ، و من وجوب التمسك بما أحله الله والبعد عما حرمه .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من ادعاء الاستحقاق ، كأنه - تعالى - لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما ، والافتراء على الله - تعالى - بأنه حكم بذلك . ولم يعطف قول الزور على الرجس ، بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء . والإضافة بيانية ..[1] .

وجملة ﴿ حنفاء لله ﴾ وجملة ﴿ غير مشركين به ﴾ حالان مؤكدتان لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان ، واجتناب قول الزور .

أى : اجتنبوا ما أمرناكم باجتنابه حال كونكم ثابتين على الدين الحق ، مخلصين لله العبادة .

ثم صور - سبحانه - حال من يشرك بالله تصويرا تنخلع له القلوب ، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس فقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ .

أى : ومن يشرك بالله - تعالى - فى عبادته ، ومات على ذلك ، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض ، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله ، أو تسقطه الريح فى مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر .

والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين ، وبيان أن الوقوع فى الشرك يؤدى إلى الهلاك الذى لا نجاة معه بحال ، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله ، وتتخطفه الطير أو تلقى به الريح فى مكان بعيد لا يطمع له فى نجاة ، بل هو هالك لا محالة .

فالجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة .

قال صاحب الكشاف : يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا - أى قطعا - فى حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح - أى المقاذف - البعيدة .

وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٤٨ .

من السماء ، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة ، بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة[١] .

ثم أمر - سبحانه - بتعظيم شعائره بعد أن أمر بتعظيم حرماته فقال : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ .

قال القرطبى : والشعائر : جمع شعيرة ، وهى كل شىء لله - تعالى - فيه أمر أشعر به وأعلم . ومنه شعار القوم فى الحرب ، أى : علامتهم التى يتعارفون بها . ومنه إشعار البدنة وهو الطعن فى جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة لها .. فشعائر الله : إعلان دينه لاسيما ما يتعلق بالمناسك . وقال قوم : المراد هنا تسمين البدن . والاهتمام بأمرها ..[٢] .

والمعنى : ذلك الذى أمرناكم به أو نهيناكم عنه عليكم امتثاله وطاعته ، والحال أن من يعظم شعائر الله ، التى من بينها الذبائح التى يتقرب بها إليه - تعالى - يكون تعظيمه إياها عن طريق تسمينها ، وحسن اختيارها يكون دليلا على تقوى القلوب ، وحسن صلتها بالله - سبحانه - وخشيتها منه ، وحرصها على رضاه - عز وجل - .

قال الآلوسى : وتعظيمها أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان . روى أنه - ﷺ - أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة - أى حلقة - من ذهب . وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل النبى - ﷺ - أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك ، وقال له : بل أهدها ..[٣] .

وفى إضافة هذه الشعائر إلى الله - تعالى - : حض على الاهتمام بها وفعل ما يرضى الله - تعالى - بالنسبة لها .

والضمير المؤنث فى قوله ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ يعود على الفعلة التى يتضمنها الكلام ، أو إلى الشعائر بحذف المضاف ، أى : فإن تعظيمها أى الشعائر من تقوى القلوب ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ بيان لبعض مظاهر نعم الله - تعالى - عليهم فى هذه الأنعام .

أى : لكم - أيها المؤمنون - فى تلك الأنعام التى تقدمونها قربة لله - تعالى - « منافع » تصل إليكم عن طريق ركوبها ولبنها ونسلها .. وهذه المنافع موقوتة إلى وقت معين ، هو وقت

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٥٥ . .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٥٦ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٥٠ .

ذبحها أو وقت تعيينها وتسميتها هديا ، أما بعد ذلك فاتركوا الانتفاع بها للفقراء والمحتاجين ، فهذا أكثر ثوابا لكم عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ بيان لمكان ذبحها .

والمحل مأخوذ من حل الشىء يحل - بالكسر - حلولا إذا وجب أو انتهى أجله . والمراد به فى الآية مكان الحلول ، أى : المكان الذى ينتهى فيه أجل تلك الأنعام ، أو المكان الذى يجب ذبحها فيه .

والمعنى : لكم فى تلك الانعام منافع إلى أجل مسمى ثم المكان الذى تذبح فيه منته إلى البيت العتيق . ومتصل به .

والمقصود بهذا المحل الحرم كله ، لأن البيت ليس مكانا للذبح .

وبعضهم يرى أن المراد بالمحل فى قوله : ﴿ ثم محلها الى البيت العتيق ﴾ : تحلل الحجاج من إحرامهم بعد أداء شعائر الحج المعبر عنها بقوله - تعالى - : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ... ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ يريد أنها تنتهى إلى البيت ، وهو الطواف فقوله : ﴿ محلها ﴾ مأخوذ من إحلال المحرم .

والمعنى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه ..[1] .

ثم بين - سبحانه - أنه قد شرع لكل أمة الذبائح التى ينتفعون بها ، لكى يذكروه - سبحانه - ويشكروه ويخلصوا له العبادة ، ولكى يطعموا منها السائل والمحتاج ، فقال - تعالى - :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٥٦ .

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

والمنسك - بفتح السين وكسرها - مأخوذ من النسك بمعنى العبادة ، فيجوز أن يراد به النسك نفسه ، ويجوز أن يراد به مكانه أو زمانه .

ويبدو أن المراد به هنا عبادة خاصة وهى الذبح تقربا إلى الله - تعالى - .

قال الآلوسى : والمنسك موضع النسك إذا كان اسم مكان ، أو النسك إذا كان مصدرا . وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه - تعالى - فجعله مصدرا، وحمل النسك على عبادة خاصة ، وهو أحد استعمالاته وإن كان فى الأصل بمعنى العبادة مطلقا ، وشاع فى أعمال الحج ..[1] .

وجملة ﴿ ولكل أمة ... ﴾ معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ .

والمعنى : جعلنا لكم - أيها المؤمنون - منافع كثيرة فى هذه الأنعام الى وقت معين ، ثم تكون نهايتها وذبحها عند البيت الحرام ، كما جعلنا وشرعنا لمن قبلكم من الأمم شعيرة الذبح ليتقربوا بها إلينا ، وأرشدناهم إلى المكان الذى يذبحون فيه ، وإلى أفضل الطرق التى تجعل ، ذبائحهم مقبولة عندنا .

وفى هذه الجملة الكريمة ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ﴾ ، تحريك لنفوسهم نحو الإقدام على إراقة الدم تقربا إلى الله ، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها ، وإنما هى من شعائرها ومن شعائر الأمم التى سبقتها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٥٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ بيان للعلة التى من أجلها شرعت تلك الذبائح .

أى : شرعناها لكم وللأمم السابقة عليكم للإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو - سبحانه - الذى رزقكم إياها بفضله وإحسانه ، فعليكم أن تكثروا من ذكره وشكره ، ليزيدكم من خيره ورزقه .

وفى هذه الجملة الكريمة تقريع وتوبيخ لمن يذكرون غير اسم الله - تعالى - عند الذبح ، وتأكيد لوجوب ذكر اسمه - تعالى - ، حتى لكأن المقصود الأعظم من وراء ذبح هذه الأنعام ، هو المداومة على ذكر اسم الله - عز وجل - و على شكره - سبحانه - على نعمه ، أما ما سوى ذلك كالأكل منها ، والانتفاع بها .. فهى مقاصد فرعية .

ثم عقب - سبحانه - على ذلك بتقرير وحدانيته ، وبوجوب إسلام الوجه إليه ، فقال : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ .

أى : شرعنا لكم ذلك لأن إلهكم إله واحد لاشريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ، فله وحده أسلموا وجوهكم ، وأخلصوها لعبادته وطاعته .

فجملة ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ بمثابة العلة لما قبلها من تخصيص اسمه الكريم بالذكر عند الذبح ، لأن تفرده - سبحانه - بالألوهية يستلزم هذا التخصيص .

وقوله - تعالى - : ﴿فله أسلموا ﴾ مرتب على ما قبله ، لأنه متى ثبت أن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد الأحد ، فعليهم أن يسلموا وجوههم إليه .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يبشر المخبتين برضاه - سبحانه - وبمثوبته فقال : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ أى : المتواضعين لله - تعالى - المطمئنين إلى عدالة قضائه فيهم ، ولفظ ﴿ المخبتين ﴾ من الإخبات . وهو فى الأصل نزول الخَبْت - بفتح الخاء وسكون الباء .

أى : المكان المنخفض ، ثم استعمل فى اللين والتواضع . يقال : فلان مخبت ، أى : متواضع خاشع لله رب العالمين .

وحذف - سبحانه - المبشر به لتهويله وتعظيمه ، أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المتواضعين لله - تعالى - بالثواب العظيم ، والأجر الكبير الذى لا تحيط بوصفه عبارة .

ثم مدحهم - سبحانه - بأربع صفات فقال : ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .. ﴾ .

أى : بشر هؤلاء المخبتين الذين من صفاتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله - تعالى - وصفاته ،

وحسابه لعباده يوم القيامة ، خافت قلوبهم ، وحذرت معصيته - تعالى - .

والذين من صفاتهم كذلك : الصبر على مايصيبهم من مصائب ومحن فى هذه الحياة ، والمداومة على أداء الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع ، والإنفاق مما رزقهم الله - تعالى - على الفقراء والمحتاجين .

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى وصفت المؤمنين الصادقين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

فالجواب : أنه لا تنافى بين الآيتين ، لأن من شأن المؤمن الصادق أنه إذا استحضر وعيد الله وحسابه لعباده يوم القيامة ، امتلأ قلبه بالخشية والخوف والوجل .

فإذا ما استحضر بعد ذلك رحمته - سبحانه - وسعة عفوه ، اطمأن قلبه وسكن روعه ، وثبت يقينه ، وانشرح صدره ، واستسلم لقضاء الله وقدره بدون تردد أو تشكك أو جزع .

فالوجل والاطمئنان أمران يجدهما المؤمن فى قلبه ، فى وقتين مختلفين . وفى حالتين متمايزتين .

ويؤخذ من هاتين الآيتين : أن التواضع لله - تعالى - ، والمراقبة له - سبحانه - والصبر على بلائه ، والمحافظة على فرائضه .. كل ذلك يؤدى إلى رضاه - عز وجل - ، وإلى السعادة الدنيوية والأخروية .

ثم أكد سبحانه - ما سبق الحديث عنه من وجوب ذكر اسمه - تعالى - عند الذبح ، ومن وجوب شكره على نعمه فقال : ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ .

والبدن : جمع بدنة . وهى الإبل خاصة التى تهدى إلى البيت الحرام للتقرب بها إلى الله - تعالى - وقيل : البدن تطلق على الإبل والبقر .

وسميت بهذا الاسم لبدانتها وضخامتها . يقال : بدن الرجل - بوزن كرم - إذا كثر لحمه ، وضخم جسمه .

أى : وشرعنا لكم - أيها المؤمنون - التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلنا ذلك شعيرة من شعائر ديننا ، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص .

وقوله - تعالى - ﴿ لكم فيها خير ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها . أى : لكم فيه خير فى الدنيا عن طريق الانتفاع بألبانها ووبرها .. ولكم فيها خير فى الآخرة عن طريق الثواب الجزيل الذى تنالونه من خالقكم بسبب استجابتكم لما أرشدكم إليه .

وقوله - تعالى - : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ إرشاد لما يقوله الذابح عند ذبحها .

وصواف : جمع صافة . أى : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعدادا للذبح ! .

أى : إذا ما هيأتم هذه الإبل للذبح ، فاذكروا اسم الله عليها ، بأن تقولوا عند نحرها : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك .

وقوله - سبحانه - : ﴿فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ بيان لما ينبغى عليهم فعله بعد ذبحها .

ووجبت بمعنى سقطت : وهو كناية عن موتها . يقال : وجب الجدار إذا سقط ، ووجبت الشمس إذا غابت .

والقانع : هو الراضى بما قدره الله - تعالى - له ، فلا يتعرض لسؤال الناس مأخوذ من قنع يقنع - كرضى يرضى - وزنا ومعنى .

والمعتر : هو الذى يسأل غيره ليعطيه . يقال : فلان يعترى الأغنياء ، أى : يذهب إليهم طالبا عطاءهم .

وقيل : القانع هو الطامع الذى يسأل غيره ، والمعتر : هو الذى يتعرض للعطاء من غير سؤال وطلب .

أى : فإذا ماسقطت جنوب هذه الإبل على الأرض ، وأعددتموها للأكل فكلوا منها ، وأطعموا الفقير القانع الذى لا يسألكم ، والفقير المعتر الذى يتعرض لكم بالسؤال والطلب .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله عليهم ، حيث ذلل هذه الأنعام لهم فقال : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ .

وقوله ﴿ كذلك ﴾ نعت لمصدر محذوف . أى : مثل ذلك التسخير البديع سخرنا لكم هذه الأنعام ، وذللناها لكم ، و جعلناها منقادة لأمركم ، لعلكم بعد أن شاهدتم هذه النعم ، وانتفعتم بها ، تكونون من الشاكرين لنا ، والمستجيبين لتوجيهاتنا وإرشادنا .

قال صاحب الكشاف : منَّ الله على عباده واستحمد إليهم ، بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذى رأوا وعلموا . يأخذونها منقادة للأخذ طيعة ، فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون فى لبانها . ولولا تسخير الله لم تطعن ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أصغر منها جرما ، وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدا على ذلك[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٥٩ .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن شعائر الحج ، بتوجيه عباده إلى وجوب الإخلاص له ، والاستجابة لأمره ، وشكره على نعمه ، فقال - تعالى - : ﴿ لن ينال الله لحومها و لا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ... ﴾ .

أى : لن يصل إلى الله - تعالى - لحم هذه الأنعام ودماؤها ، من حيث هى لحوم ودماء ، ولكن الذى يصل إليه - سبحانه - ويثيبكم عليه ، هو تقواكم ومراقبتكم له - سبحانه - وخوفكم منه ، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له .

قالوا : وفى هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون ، من تقطيعهم للحوم الأنعام ، ونشرها حول الكعبة ، وتلطيخها بالدماء ، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء ، إذ رضا الله - تعالى - لا ينال بذلك ، وإنما ينال بتقوى القلوب .

ثم كرر - سبحانه - تذكيره إياهم بنعمه ، ليكون أدعى إلى شكره وطاعته فقال : ﴿ كذلك سخرها لكم ، لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

أى : كهذا التسخير العجيب الذى ترونه سخرنا لكم هذه الأنعام لكى تكبروا الله وتعظموه وتقدسوه بسبب هدايته لكم إلى الإيمان .

وبشر - أيها الرسول الكريم - المحسنين لأقوالهم وأفعالهم ، بثوابنا الجزيل وبعطائنا الواسع .

وبذلك ترى أن سورة الحج قد سبحت بنا سبحا طويلا فى حديثها عن البيت الحرام ، وعن آداب الحج ومناسكه وأحكامه ، وعن الجزاء الحسن الذى أعده - تعالى - للمستجيبين لأمره .

وبعد هذا الحديث عن الشعائر والمناسك ، أذن - سبحانه - للمؤمنين بالقتال فى سبيله ، للدفاع عن دينه وشعائره ، ووعدهم - عز وجل - بالنصر متى نصروه وحافظوا على فرائضه ... فقال - تعالى - : .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن

يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (٤١)

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين ما يلزم فى الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وما كان من صد الكفار عنه ، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد . ويؤمن معه التمكن من الحج فقال - تعالى - ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا .. ﴾[1] .

ومفعول « يدافع » محذوف . وجاء التعبير بقوله - تعالى - ﴿ يدافع ﴾ بصيغة المفاعلة ، للمبالغة فى الدفاع والدفع ، أو للدلالة على أن ذلك حاصل للمؤمنين كلما حصل من الكافرين عدوان عليهم .

أى : إن الله - تعالى - بفضله وكرمه يدافع عن المؤمنين أعداءهم وخصومهم ، فيرد كيدهم فى نحورهم .

ويصح أن يكون ﴿ يدافع ﴾ بمعنى يدفع ، ويؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو . أى : أن الله - تعالى - يدفع السوء عن عباده المؤمنين الصادقين ، ويجعل العاقبة لهم على أعداءهم .

فالجملة الكريمة بشارة للمؤمنين ، وتقوية لعزائمهم حتى يقبلوا على ما شرعه الله لهم من جهاد أعدائهم ، بثبات لا تردد معه ، وبأمل عظيم فى نصر الله وتأييده .

وقوله - سبحانه - : ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ تعليل لوعده - سبحانه - للمؤمنين بالدفاع عنهم ، وبجعل العاقبة لهم .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٦٢ .

والخوان : هو الشديد الخيانة ، والكفور : هو المبالغ فى كفره وجحوده ، فاللفظان كلاهما صيغة مبالغة .

قال الآلوسى : وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك ، لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن والكافر ...[١] .

أى : إن الله - تعالى - يدافع عن المؤمنين لمحبته لهم ، ويبغض هؤلاء الكافرين الذين بلغوا فى الخيانة والكفر أقصى الدركات .

وأوثر التعبير بقوله - تعالى - ﴿ لا يحب ﴾ على قوله : يبغض أو يكره ، للإشعار بأن المؤمنين هم أحباء الله - تعالى - ، وللتعريض بهؤلاء الكافرين الذين تجاوزوا كل حد فى كراهيتهم لأهل الحق .

ثم رخص - سبحانه - للمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيله فقال : ﴿ أُذِن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا ... ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ أذن ﴾ فعل ماض مبنى للمجهول مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة والرخصة . والمقصود إباحة مشروعية القتال ، وقد قالوا : بأن هذه الآيات أول ما نزل فى شأن مشروعية القتال .

أخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عباس قال : لما خرج النبى - ﷺ - من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فنزلت هذه الآيات .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائى ﴿ أذن ﴾ بالبناء الفاعل . والمأذون لهم فيه هو القتال ، وهو محذوف فى قوة المذكور بدليل قوله ﴿يقاتلون ﴾ والباء فى قوله ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ للسببية .

أى : أذن الله - تعالى - للمؤمنين ، ورخص لهم ، بأن يقاتلوا أعداءهم الذين ظلموهم ، وآذوهم ، واعتدوا عليه ، بعد أن صبر هؤلاء المؤمنون على أذى أعدائهم صبرا طويلا .

قال الآلوسى : والمراد بالموصول أصحاب النبى - ﷺ - الذين فى مكة ، فقد نقل الواحدى وغيره ، أن المشركين كانوا يؤذونهم ، وكانوا يأتون النبى - ﷺ - بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجر - ﷺ - فنزلت

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٦١ .

هذه الآية . وهى أول آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وعد منه - سبحانه - للمؤمنين بالنصر وحض لهم على الإقدام على الجهاد فى سبيله بدون تردد أو وهن .

أى : وإن الله - تعالى - لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين . وعلى أن يمكن لهم فى الأرض ، وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ أى : هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبلوا جهدهم فى طاعته ، كما قال - تعالى - : ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض.. ﴾[٢] .

وإنما شرع - سبحانه - الجهاد فى الوقت الأليق به ، لأنهم لما كانوا بمكة ، كان المشركون أكثر عددا . فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك عليهم .. .

فلما استقروا بالمدينة . وصارت لهم دار إسلام ، ومعقلا يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك ..[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .. ﴾ بيان لبعض الأسباب التى من أجلها شرع الله الجهاد فى سبيله .

أى : إن الله - تعالى - لقدير على نصر المؤمنين الذين أخرجهم الكافرون من ديارهم بغير حق ، وبغير أى سبب من الأسباب ، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله - تعالى - وحده ، ولن نعبد من دونه إلها آخر .

أى : ليس هناك ما يوجب إخراجهم - فى زعم المشركين - سوى قولهم ربنا الله .

ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال فى سبيله ، بأن بين لهم أن هذا القتال يقتضيه نظام هذا العالم وصلاحه ، فقال - تعالى - : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ .

والمراد بالدفع : إذن الله المؤمنين فى قتال المشركين . والمراد بقوله : ﴿بعضهم﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٦٢ .
(٢) سورة محمد الآية ٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٣١ .

الكافرون . وبقوله : ﴿ ببعض ﴾ المؤمنون .

والصوامع : جمع صومعة ، وهى بناء مرتفع يتخذه الرهبان معابد لهم .

والبيع : جمع بيعة - بكسر الباء - وهى كنائس النصارى التى لا تختص بالرهبان .

والصلوات : أماكن العبادة لليهود .

أى : ولولا أن الله - تعالى - أباح للمؤمنين قتال المشركين ، لعاث المشركون فى الأرض فسادا ، ولهدموا فى زمن موسى وعيسى أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما ، ولهدموا فى زمن الرسول - ﷺ - المساجد التى تقام فيها الصلاة .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ... ﴾ أى : ولولا ما شرعه الله - تعالى - للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك . وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم . وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أذن فى القتال فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : ﴿ ولولا دفع الله الناس ... ﴾ الآية أى : لولا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق فى كل أمة...[1] .

فالآية الكريمة تفيد أن الله - تعالى - قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل ، ولولا ذلك لاختل هذا العالم ، وانتشر فيه الفساد .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ لهدمت ﴾ بالتشديد للإشعار بأن عدم مشروعية القتال ، يؤدى إلى فساد ذريع ، وإلى تحطيم شديد لأماكن العبادة و الطاعة لله - عز وجل - .

وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد ، باعتبار أنها أقدم منها فى الوجود ، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف .

ثم ساق - سبحانه - بأسلوب مؤكد سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

أى : والله لينصرن - سبحانه - من ينصر دينه وأولياءه ، لأنه - تعالى - هو القوى على كل فعل يريده ، العزيز الذى لا يغالبه مغالب ، ولا ينازعه منازع .

وقد أنجز - سبحانه - وعده وسنته ، فسلط عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، على

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٧٠ .

أعدائه ، فأذلوا الشرك والمشركين وحطموا دولتى الأكاسرة والقياصرة ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الذين وعدهم بنصره بأكرم الصفات ليميزهم عن غيرهم فقال : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاه ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ .

أى : ولينصرن الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، والذين من صفاتهم أنهم إذا مامكنا لهم فى الأرض ، ونصرناهم على أعدائهم ، شكروا لنا ما أكرمناهم به ، فأقاموا الصلاة فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ، وقدموا زكاة أموالهم للمحتاجين ، وأمروا غيرهم بالمعروف ونهوه عن المنكر. ولله - تعالى - وحده عاقبة الأمور ومردها ومرجعها فى الآخرة ، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

فالآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله ، هم هؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.. .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .. ﴾[2] .

وبعد أن أذن الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - وللمؤمنين فى القتال ، وبشرهم بالنصر .. أتبع ذلك بتسليته - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب تكذيب المشركين له ووبخ - سبحانه - أولئك المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال - تعالى - :

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

(١) سورة غافر الآية ٥١ .
(٢) سورة محمد الآية ٧ .

وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك ، وأعرضوا عنه ، فإن قوم نوح ، وقوم هود . وقوم صالح ، وقوم ابراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم موسى ، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام ، وما يقال لك من هؤلاء المشركين ، قد قيل للرسل من قبلك .

قال - تعالى - : ﴿ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[1] .

واستغنى فى عاد وثمود عن ذكر القوم ، لاشتهارهم بهذا الاسم الذى يدل دلالة واضحة على هؤلاء الظالمين .

وقال - سبحانه - : ﴿ وأصحاب مدين ﴾ ولم يقل وقوم شعيب ، لأنهم هم الأسبق فى التكذيب له - عليه السلام - على أصحاب الأيكة ، ولأنهم هم أهله أما أصحاب الأيكة فكانوا غرباء عنه .

---

(١) سورة الذاريات الآيات من ٥٢ - ٥٥ .

وقال - سبحانه - : ﴿وكُذِّب موسى﴾ لأنه لم يكذَّب من جميع قومه وهم بنو إسرائيل . وإنما كان المكذب له هو فرعون وملأه ، وللإشارة إلى أن موسى - عليه السلام - قد جاء إلى الناس بآيات واضحات تدل على صدقه ، ومع ذلك فقد قوبل بالتكذيب من فرعون وملئه .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهؤلاء من عقوبات فقال : ﴿ فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ .

والإملاء : الإمهال وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

والنكير : اسم مصدر بمعنى الإنكار ، يقال : أنكرت على فلان فعله ، إذا ردعته وزجرته عنه .

أى : هؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، لم أعاجلهم بالعقوبة ، بل أمهلتهم وأمليت لهم ، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

وقال - سبحانه - ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لزيادة التشنيع عليهم والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للتهويل والتعجيب . أى : لقد كان إنكارا فظيعا حول حياتهم إلى موت ، وعمرانهم إلى خراب ، وغرورهم إلى ذلة وهوان .. فعلى مشركى قريش أن يعتبروا بذلك ويتعظوا .. وإلا فالعاقبة معروفة لهم .

وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التى كذبت رسلها .. أتبع ذلك - سبحانه - ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة فقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة ، وقصر مشيد ﴾ .

وكلمة « كأين » مركبة من كاف التشبيه ، ومن أى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير ، ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . ومميزها غالبا ما يجر بمن كما فى الآية وفى غيرها . قال - تعالى - : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ... ﴾[2] ، ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنهم معرضون ﴾[3] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٦ .
(٣) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ فكأين من قرية ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله - تعالى - : ﴿ أهلكناها ﴾ أى : فأهلكنا كثيرا من القرى أهلكناها .. أو مرفوع على الابتداء ، وجملة ﴿ أهلكناها ﴾ خبره .

أى : فكثير من القرى أهلكناها .. وقوله : ﴿ وهى ظالمة ﴾ جملة حالية من مفعول أهلكنا .. [١] .

ولفظ ﴿ خاوية ﴾ بمعنى ساقطة أو خالية . يقال خوى البيت يخوى إذا سقط أو خلا ممن يسكنه .

والعروش : جمع عرش وهو سقف البيت ، ويسمى العريش : وكل ما يُهيأ ليُسْتَظَلَ به فهو عريش .

وبئر معطلة أى : مهجورة لهلاك أهلها ، يقال : بأر فلان الأرض إذا حفرها ليستخرج منها الماء .

والمَشِيد : المجصص بالشِّيد وهو الجِصّ . يقال : شاد فلان بيته يَشِيده ، إذا طلاه بالشِّيد .

والمعنى : وكثير من القوى أهلكناها بسبب ظلمهم وكفرهم ، فإذا ما نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها ، وقد سقطت سقوفها على جدرانها . وكثير من الآبار التى كانت تتفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة ، وكثير - أيضا - من القصور المشيدة الفخمة أخليناها من أهلها . وذلك لأنهم كذبوا رسلنا ، وجحدوا نعمنا ، فدمرناهم تدميرا . وجعلنا مساكنهم من بعدهم أثرا بعد عين .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد والتهديد لكفار قريش الذين كذبوا الرسول - ﷺ - وأعرضوا عن دعوته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا * فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾[٢] .

ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد ، إلى التوبيخ والتقريع لهؤلاء المشركين ، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها .. ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٦٦ .
(٢) سورة الطلاق الآيتان ٨ ، ٩ .

والاستفهام للتوبيخ والإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام .

والمعنى : إن مصارع الغابرين وديارهم ، يمر بها كفار قريش ، ويعرفونها ، فهم يرون فى طريقهم إلى الشام قرى صالح وقرى قوم لوط .. قال - تعالى - : ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾[1] .

والشأن فى هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ ، متى كان عنده قلب يعقل ما يجب فهمه ، أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه ، ولكن هؤلاء الجاهلين يرون مصارع الغابرين فلا يعقلون ، ولا يعتبرون ، ويسمعون الأحاديث عن تلك الآبار المعطلة ، والقصور الخالية من سكانها ، والمنازل المهدمة ، فلا يتعظون .

وقوله - تعالى - : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ بيان لسبب انطماس بصائرهم ، وقسوة قلوبهم .

والضمير فى قوله ﴿ فإنها ﴾ للقصة . أى : فإن الحال أنه لا يعتد بعمى الأبصار ، ولكن الذى يعتد به هو عمى القلوب التى فى الصدور ، وهؤلاء المشركون قد أصيبوا بالعمى الذى هو أشنع عمى وأقبحه . وهو عمى القلوب عن الفهم وقبول الحق .

وذكر - سبحانه - أن مواضع القلوب فى الصدور ، لزيادة التأكيد ، ولزيادة إثبات العمى لتلك القلوب التى حدد - سبحانه - موضعها تحديدا دقيقا .

قال الآلوسى : فالكلام تذييل لتهويل ما نزل بهم من عدم فقه القلب ، وأنه العمى الذى لا عمى بعده ، بل لاعمى إلا هو ، أو المعنى : إن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإن العمى بقلوبهم ، فكأنه قيل : أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر ، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم ، وهى الآفة التى كل آفة دونها . كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها[2] .

ثم أكد - سبحانه - انطماس بصائرهم ، حيث بين أنهم بدل أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه ، استعجلوا العذاب فقال : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ .

أى : أن هؤلاء الطغاة بدل أن يسيروا فى الأرض فيعتبروا ويتعظوا ، أخذوا يطلبون منك - أيها الرسول الكريم - نزول العذاب عاجلا ، على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف بما هددناهم به ، ويقولون لك : متى هو ؟ .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٦٧ .

فالجملة الكريمة ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ خبرية فى اللفظ ، استفهامية فى المعنى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ جملة حالية جيء بها لتهديدهم على استعجالهم العذاب ، أى : والحال أن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدهم به من العذاب ، بل هو منجزه فى الوقت الذى يريده هو وليس الذى يريدونه هم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان أن حساب الأزمان فى تقدير الله - تعالى - يخالف ما يقدره البشر .

أى : دعهم - أيها الرسول الكريم - يستعجلون العذاب ، فذلك دأب الظالمين فى كل حين ، وسبيل الجاهلين فى كل زمان ، وأعلمهم أن الله - تعالى - لن يخلف وعده إياهم به فى الوقت المحدد لذلك، وإن يوما عنده -تعالى- كألف سنة مما يعده هؤلاء فى دنياهم، وسيأتيهم هذا اليوم الذى يطول عليهم طولا شديدا ، لما يرون فيه من عذاب مهين .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التى خلق فيها السموات والأرض . وقال عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة أنه يأتيهم به فى أيام طويلة . وقال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة .

وقيل المعنى : وإن يوما فى الخوف والشدة فى الآخرة كألف سنة من سنىّ الدنيا فيها خوف وشدة ..[1] .

ثم أكد - سبحانه - أن إملاءه للظالمين ، سيعقبه العذاب الأليم ، فقال : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ .

أى : وكثير من القرى الظالمة أمهلت عقوبة أهلها إلى أجل مسمى ، ثم أخذتها بعد ذلك أخذا شديدا ، جعلهم فى قراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، وسيرجعون إلينا فيجدون عذابا أشد وأبقى ، إذ أن مصيرهم إلىَّ لا إلى غيرى .

وبعد هذا العرض لمصارع الغابرين وبيان سنة الله - تعالى - فى المكذبين ، يأمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يرشد الناس إلى مصيرهم فيقول : ﴿ قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، إن وظيفتى أن أنذركم وأخوفكم من عذاب الله ، بدون التباس أو غموض .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٧٨ .

﴿ فالذين آمنوا ﴾ وعملوا الأعمال الصالحات لهم من ربهم مغفرة واسعة ، ورزق كريم ، لا انقطاع معه ولا امتناع .

﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى : والذين بذلوا كل جهودهم فى إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا ، وأسرعوا فى تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليظهروهم بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بهذا السعى الأثيم ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أى : الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك الى الحديث عن فضل الله - تعالى - على أنبيائه ورسله حيث عصمهم من كيد الشيطان ووسوسته وحفظ دعوتهم من تكذيب المكذبين ، وعبث العابثين .. فقال - تعالى - :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ
أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ
ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ
فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق[1] ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى

---

(١) الغرانيق : المراد بها هنا الأصنام . وهى فى الأصل تطلق على الذكور من طير الماء ، واحدها : غُرْنُوق - بضم فسكون فضم - سمى به الطائر لبياضه . وقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله - تعالى - فسموها بالغرانيق تشبيها لها بالطيور التى ترتفع نحو السماء .

قريش قد أسلموا .

ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

ثم قال - رحمه الله - : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله - ﷺ - بمكة سورة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ .

قال : فألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن ترتجى » .

قالوا : - أى المشركون - : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته .. ﴾[1] .

وجمع - سبحانه - بين الرسول والنبى ، لأن المقصود بالرسول من بعث بكتاب ، وبالنبى من بعث بغير كتاب ، أو المقصود بالرسول من بعث بشرع جديد ، وبالنبى من بعث لتقرير شرع من قبله .

ولفظة ﴿ تمنَّى ﴾ هنا : فسره العلماء بتفسيرين :

أولهما : أنه من التَّمَنِّى ، بمعنى محبة الشىء ، وشدة الرغبة فى الحصول عليه ، ومفعول « ألقى » محذوف والمراد بإلقاء الشيطان فى أمنيته : محاولته صرف الناس عن دعوة الحق ، عن طريق إلقاء الأباطيل فى نفوسهم ، وتثبيتهم على ما هم فيه من ضلال .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - من رسول ولانبى ، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق الذى جاءهم به من عند ربه ، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات فى طريق أمنيته لكى لا تتحقق هذه الأمنية ، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبى ساحر أو مجنون ، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التى برأ الله - تعالى - منها رسله وأنبياءه .

قال - تعالى - : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أومجنون * أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾[2] .

والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى ، ويؤيدها الواقع ، إذ أن كل رسول أو نبى بعثه الله - تعالى - كان حريصا على هداية قومه ، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعا ، بل إن الرسول - ﷺ - كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٢٨ طبعة دار الشعب .
(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

قال - تعالى - : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[١] .

إلا أن قوم كل رسول أو نبى منهم من آمن به . ومنهم من أعرض عنه بسبب إغراء الشيطان لهم ، وإيهامهم بأن ماهم عليه من ضلال هو عين الهدى .

وإلى هذا التفسير أشار صاحب الكشاف بقوله : « قوله - تعالى - : ﴿ من رسول ولا نبى ﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبى . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبى غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله .

والسبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله - ﷺ - لما أعرض عنه قومه وشاقوه ، وخالفته عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم[٢] .

أما التفسير الثانى للفظ ﴿ تمنى ﴾ فهو أنه بمعنى قرأ وتلا . ومنه قول حسان بن ثابت ، فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنه :

تمنى كتاب الله أول لَيْلِهِ وآخره لاقى حمام المقادر

أى : قرأ وتلا كتاب الله فى أول الليل . وفى آخر الليل وافاه أجله .

ومفعول ﴿ ألقى ﴾ على هذا المعنى محذوف - أيضا - والمراد بما يلقيه الشيطان فى قراءته : ما يلقيه فى معناها من أكاذيب وأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه الرسول وما يتلوه ، وليس المراد أنه يلقى فيها ماليس منها بالزيادة أو بالنقص ، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله - تعالى - الذى تكفل - سبحانه - بحفظه فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٣] .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - من رسول ولا نبى إلا إذا قرأ شيئا مما أنزلناه عليه ، ألقى الشيطان فى معنى قراءته الشبه والأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبى .

قال الآلوسى - رحمه الله - : والمعنى : وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبيا ، إلا وحاله أنه

---

(١) سورة الكهف الآية٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٦٤ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩ .

إذا قرأ شيئا من الآيات ، ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ، ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ما جاء به ، كما قال - تعالى - ﴿ ... وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... ﴾[١] . وقال - سبحانه - : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .. ﴾[٢] .

وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول - ﷺ - ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ : إن محمدا يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله . وكقولهم عند سماع قراءته لقوله - تعالى - ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله . حصب جهنم .. ﴾[٣] إن عيسى قد عبد من دون الله ، وكذلك الملائكة قد عبدوا من دون الله .[٤] .

والآية الكريمة ﴿ ليجعل مايلقى الشيطان ﴾ على هذا التفسير - أيضا - واضحة المعنى ، إذ المراد بما يلقيه الشيطان فى قراءة الرسول أو النبى ، تلك الشبه والأباطيل التى يلقيها فى عقول الضالين ، فيجعلهم يؤولونها تأويلا سقيما ويفهمونها فهما خاطئا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ بيان لسنته - سبحانه - التى لا تتخلف فى إحقاق الحق . وإبطال الباطل .

وقوله ﴿ فينسخ ﴾ من النسخ بمعنى الإزالة . يقال : نسخت الشمس الظل إذا أزالته .

أى : فيزيل - سبحانه - بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان فى القلوب التى شاء الله - تعالى - لها الإيمان والثبات على الحق ثم يحكم - سبحانه - آياته بأن يجعلها متقنة ، لا تقبل الرد ، ولا تحتمل الشك فى كونها من عنده - عز وجل - والله عليم بجميع شئون خلقه ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الحكمة فى إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هى امتحان الناس فقال : ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ... ﴾ .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه فى القلوب فتنة واختبارا وامتحانا ، للذين فى قلوبهم مرض ، أى : شك وارتياب ، وهم المنافقون ، وللذين قست قلوبهم ، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد .

فقوله - تعالى - : ﴿ ليجعل .. ﴾ متعلق ﴿ بألقى ﴾ أى : ألقى الشيطان فى أمنية الرسل والأنبياء ليجعل الله - تعالى - ذلك الإلقاء فتنة للذين فى قلوبهم مرض .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٢ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٨ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٧٣ .

ومعنى كونه فتنة لهم : أنه سبب لتماديهم فى الضلال ، وفى إصرارهم على الفسوق والعصيان .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الفريقين فقال : ﴿ وإن الظالمين ﴾ ، وهم من فى قلوبهم مرض ، ومن قست قلوبهم ﴿ لفى شقاق بعيد ﴾ أى لفى خلاف للحق شديد . بسبب نفاقهم وكفرهم .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس فى القلوب فقال :

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ﴾ .

والضمير فى ﴿ أنه ﴾ يعود إلى ماجاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم .

أى : وفعل ما فعل - سبحانه - أيضا ، ليعلم العلماء من عباده ، الذين حبب - سبحانه - إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك ، فيزدادوا إيمانا به ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أى : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم .

و ﴿ وإن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لهادى الذين آمنوا ﴾ به وصدقوا أنبياءه ورسله ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا ، وقد أبطل العلماء - قديما وحديثا - قصة الغرانيق ، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازى ، فقد قال ما ملخصه : قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول .

أما القرآن فمن وجوه منها قوله - تعالى - : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[1] وقوله - سبحانه - : ﴿ وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى ﴾[2] ، وقوله - عز رجل - : ﴿ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا مايوحى إلى .. ﴾[3] .

وأما السنة ، فقد قال الإمام البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل وأيضا فقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى - ﷺ - قرأ سورة « والنجم » وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ - ٤٦ .
(٢) سورة النجم الآيتان ٣ ، ٤ .
(٣) سورة يونس الآية ١٥ .

وأما المعقول فمن وجوه منها : أن من جوز على الرسول - ﷺ - تعظيم الأوثان فقد كفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه - ﷺ - كان نفى الأوثان .

ومنها : أننا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه .. فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه .

فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة . أكثر مافى الباب أن جمعا من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة[1] .

وقال بعض العلماء ماملخصه : اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعا ، ودلالة القرآن على بطلانها ، لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج به ، وصرح بعد ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب .

والحاصل : أن القرآن دل على بطلانها ، ولم تثبت من جهة النقل ، مع استحالة الإلقاء على لسانه - ﷺ - شرعا ولو على سبيل السهو .

والذى يظهر لنا أنه الصواب : هو أن مايلقيه الشيطان فى قراءة النبى : الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين ..

والدليل على هذا المعنى : أن الله - تعالى - بين أن الحكمة فى الإلقاء المذكور امتحان الخلق ، لأنه قال : ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ... ﴾ ثم قال : ﴿ وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك ... ﴾ فهذا يدل على أن الشيطان يلقى عليهم ، أن الذى يقرؤه النبى ليس بحق ، فيصدقه الأشقياء ، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب ، كما يزعم لهم الشيطان فى إلقائه ....»[2] .

ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيستمرون على شكهم فى القرآن حتى تأتيهم الساعة ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الناس يوم القيامة ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا . ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . فقال - عز وجل - :

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٦٧ .
(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٧٣١ لفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى وراجع تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٧٥ .

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

قال الجمل : « لما ذكر - سبحانه - حال الكافرين أولا ، ثم حال المؤمنين ثانيا ، عاد إلى شرح حال الكافرين ، فهو رجوع لقوله : ﴿ وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ﴾ والمرية بالكسر والضم . لغتان مشهورتان[1] .

والضمير فى قوله : ﴿ منه ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى ما جاء به الرسول من عند ربه ، وقيل إلى ما ألقاه الشيطان .

وقد رجح ابن جرير كونه للقرآن فقال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : هى كناية من ذكر القرآن الذى أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من ذكر قوله : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم .. ﴾ أقرب منه من ذكر قوله ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان .. ﴾[2] .

والمعنى ولا يزال الذين كفروا فى شك وريب مما أوحاه الله إليك من قرآن ، بسبب قسوة قلوبهم ، واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم .

وسيستمرون على هذه الحال ﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ أى : القيامة ﴿ بغتة ﴾ أى : فجأة ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ أى : لا مثل له فى هوله وشدة عذابه ولا يوم بعده ، إذ كل يوم يلد ما بعده عن الأيام إلا هذا اليوم وهو يوم القيامة فإنه لا يوم بعده .

قال ابن كثير : « وقوله : ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ قال مجاهد : قال أبى بن كعب : هو يوم بدر .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٧٦ . (٢) تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ١٣٥ .

وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير .

وفى رواية عن عكرمة ومجاهد هو يوم القيامة لا ليلة له ، وكذا قال الضحاك والحسن .

وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أو عدوا به ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾ كقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ، وشمول قهره لغيره فقال : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم .. ﴾ والتنوين فى قوله ﴿ يومئذ ﴾ عوض عن جملة .

أى : السلطان القاهر ، والتصرف الكامل ، يوم تأتيهم الساعة بغتة ، أو يوم يأتيهم عذابها يكون لله - تعالى - وحده ، كما أن الحكم بين الناس جميعا يكون له وحده - سبحانه - ﴿ فالذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ يكونون فى هذا اليوم ﴿ فى جنات النعيم ﴾ ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ التى جاءتهم بها رسلنا ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى : لهم عذاب ينالون بسببه ما ينالون من هوان وذل .

﴿ والذين هاجروا ﴾ من ديارهم ﴿ فى سبيل ﴾ إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿ ثم قتلوا ﴾ أى : قتلهم الكفار فى الجهاد ﴿ أو ماتوا ﴾ أى : على فراشهم .

هؤلاء وهؤلاء ﴿ ليرزقنهم الله ﴾ - تعالى - بفضله وكرمه ﴿ رزقا حسنا ﴾ يرضيهم ويسرهم يوم يلقونه . حيث يبوئهم جنته .

قال - تعالى - : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .. ﴾[2] .

وقال - سبحانه - ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾[3] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ تذييل قصد به بيان أن عطاءه - سبحانه - فوق كل عطاء ، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، ويعطى من يشاء دون أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، أو ينقص مما عنده شىء .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه .. ﴾ استئناف مقرر لما قبله .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٤٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .
(٣) سورة النساء آية ١٠٠ .

و « مدخلا » أى : إدخالا ، من أدخل يدخل - بضم الياء - وهو مصدر ميمى للفعل الذى قبله ، والمفعول محذوف .

أى : ليدخلنهم الجنة إدخالا يرضونه .

وقرأ نافع ﴿ مدخلا ﴾ - بفتح الميم - على أنه اسم مكان أريد به الجنة ، أى : ليدخلنهم مكانا يرضونه وهو الجنة .

﴿ وإن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لعليم ﴾ بالذى يرضيهم ، وبالذى يستحقه كل إنسان من خير أو شر ﴿ حليم ﴾ فلا يعاجل بالعقوبة ، بل يستر ويعفو عن كثير .

ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يقع عليهم العدوان بالنصر على من ظلمهم ، فقال - تعالى - :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

واسم الإشارة ذلك ، فى قوله - تعالى - ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ .

يعود إلى ما ذكره - سبحانه - قبل ذلك من أن الملك له يوم القيامة ، ومن الرزق الحسن الذى منحه للمهاجرين فى سبيله ثم قتلوا أو ما توا .

والعقاب : مأخوذ من التعاقب ، وهو مجىء الشىء بعد غيره . والمراد به هنا : مجازاة الظالم بمثل ظلمه .

قال القرطبى : قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى قوم من مشركى مكة . لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم : فقالوا : إن أصحاب محمد - ﷺ - يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم فى الشهر الحرام . فأبى

المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل فى أنفس المسلمين شىء من القتال فى الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية .

فمعنى ﴿ من عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ أى : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ، فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين فى الصورة فهى مثل : ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾[1] .

وقوله ﴿ ثم بغى عليه ﴾ أى : أن الظالم المبتدئ بالظلم عاد مرة أخرى فبغى على المظلوم وآذاه .

وقوله ﴿ لينصرنه الله ﴾ وعد مؤكد منه - سبحانه - بنصرة المظلوم ، والجملة جواب قسم محذوف . أى والله لينصرن - سبحانه - المظلوم على الظالم فى الحال أو المآل .

قوله : ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ تعليل للنصرة ، وبيان بأن المظلوم عندما ترك العفو عن الظالم ، لا يؤاخذه - سبحانه - على ذلك ، مادام لم يتجاوز فى رد العدوان الحدود المشروعة ، وهى الانتصار على القصاص بالمثل .

أى : إن الله - تعالى - لكثير العفو عن عباده ، وكثير المغفرة لذنوبهم وخطاياهم .

ثم بين - سبحانه - أن نصره للمظلوم مرجعه إلى شمول قدرته على كل شىء ، فقال - تعالى - : ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ .

ومعنى : يولج : يدخل . يقال : ولج فلان منزله ، إذا دخله .

أى : ذلك الذين فعلناه من نصرة المبغى عليه على الباغى ، كائن بسبب أن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ومن مظاهر ذلك أننا ندخل جزءا من الليل فى النهار فيقصر الليل ويزيد النهار ، وندخل جزءا من النهار فى الليل فيحصل العكس . وأنتم ترون ذلك بأعينكم ، وتشاهدون كيف يسيران بهذا النظام البديع .

﴿ وأن الله سميع بصير ﴾ أى : وأن الله - تعالى - سميع لكل المسموعات ، بصير بكل المبصرات ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل .. ﴾ بيان لحقيته - عز وجل - للعبادة والطاعة والخضوع التام .

واسم الإشارة يعود إلى ما وصف به نفسه قبل ذلك من صفات القدرة الباهرة والعلم التام .

أى : ذلك الذى تراه - أيها العاقل - فى هذا الكون من مخلوقات ، ومن نصر للمظلوم ، ومن إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ، سببه أن الله - تعالى - هو الإله الحق

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٩٠ .

الذى يجب أن تعنو له الوجوه . وأن ما عداه من معبودات آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان .

﴿ وأن الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ هو العلى ﴾ أى : العالى على جميع الكائنات بقدرته ، وكل شىء دونه ﴿ الكبير ﴾ أى : العظيم الذى لا يدانيه فى عظمته أحد .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة فضله ورحمته بعباده فقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ
مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ
بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

والاستفهام فى قوله : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة .. ﴾ للتقرير .

وقوله : ﴿ مخضرة ﴾ أى : ذات خضرة بسبب النبات الذى ينبته الله فيها بعد نزول المطر عليها .

والمعنى : لقد رأيت ببصرك وعلمت ببصيرتك أيها المخاطب أن الله - تعالى - قد أنزل من السماء ماء ، فتصير الأرض بسببه ذات خضرة ، وفى ذلك أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده .

وقال - سبحانه - ﴿ فتصبح ﴾ بصيغة المضارع ، لاستحضار صورة الاخضرار ، الذى

اتصفت به الأرض بعد نزول المطر عليها ، وصيغة الماضى لا تفيد دوام استحضارها ، لأن الفعل الماضى يفيد انقطاع الشىء .

ولم ينصب هذا الفعل المضارع فى جواب الاستفهام ، لأن الاستفهام تقريرى فهو فى معنى الخبر ، والخبر لا جواب له ، فكأنه قيل : لقد رأيت ، ولأن السببية هنا غير متحققة ، إذ الرؤية لا يتسبب عنها اخضرار الأرض ، وإنما اخضرارها يكون بسبب نزول المطر .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك فقال : فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت ؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ .

قلت : لنكتة فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم علىَّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرا له . ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع . فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام ؟ .

قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار . مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر . إن نصبته فأنت ناف لشكره . شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله »[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : فإن قيل : كيف قال فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر .

فالجواب : أن تصبح هنا بمعنى تصير ، والعرب تقول : فلان أصبح غنيا ، أى : صار غنيا ، أو أن الفاء للتعقيب ، وتعقيب كل شىء بحسبه ، كقوله - تعالى - : ﴿ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ... ﴾[2] مع أن بين كل شيئين أربعين يوما ، كما جاء فى الحديث الصحيح ..»[3] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لطيف بعباده .

ومن مظاهر لطفه بهم ، إنزاله المطر على الأرض للانتفاع بما تنبته من كل زوج بهيج ، وهو - تعالى - خبير بأحوال عباده ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من هذه الاحوال .

فإنه - سبحانه - ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ خلقا وملكا وتصرفا ﴿ وإن الله

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٦٨ .
(٢) سورة المؤمنين الآية ١٤ .
(٣) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٧٤٢ .

هو الغنى ﴾ عن كل ما سواه ﴿ الحميد ﴾ أى : المستوجب للحمد من كل خلقه .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ... ﴾ بيان لألوان أخرى من النعم التى أنعم بها على بنى آدم .

أى : لقد علمت - أيضا - أيها العاقل ، أن الله - تعالى - سخر لكم يابنى آدم - ما فى الأرض من دواب وشجر وأنهار ، وغير ذلك مما تحتاجونه لحياتكم ، وسخر لمنفعتكم السفن التى تجرى فى البحر بتقديره وإرادته وإذنه .

وهو - سبحانه - الذى يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض ، فتهلك من فيها ، ولو شاء لأذن لها فى الوقوع فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها .

قال الجمل : وقوله : ﴿ إلا بإذنه ﴾ : الظاهر أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وهو لا يقع إلا فى الكلام الموجب إلا أن قوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ فى قوة النفى . أى : لا يتركها تقع فى حالة من الأحوال إلا فى حالة كونها ملتبسة بمشيئة الله - تعالى - ، فالباء للملابسة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ أى : لكثير الرأفة والرحمة بهم ، ومن علامات ذلك أنه سخر لهم ما فى الأرض وسخر لهم الفلك ، وأمسك السماء عنهم ، ولم يسقطها عليهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا ﴾[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بما هو أجلها وأعظمها فقال : ﴿ وهو الذى أحياكم ﴾ أى : بعد أن كنتم أمواتا فى بطون أمهاتكم ، وقبل أن ينفخ بقدرته الروح فيكم . ﴿ ثم يميتكم ﴾ أى : بعد انقضاء آجالكم فى هذه الحياة ﴿ ثم يحييكم ﴾ أى : عند البعث والحساب .

﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أى : لكثير الجحود والكفران لنعم ربه التى لا تحصى .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا متعددة من الأدلة على قدرته - سبحانه - ، كما ذكرت ألوانا من نعمه على عباده ، ومن ذلك إنزال الماء من السماء فتصبح

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٢) سورة فاطر الآية ٤١ .

الأرض مخضرة بعد أن كانت يابسة . وتسخير ما فى الأرض للإنسان ، وتسخير الفلك لخدمته ومنفعته ، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته - تعالى - وإيجادنا من العدم بقدرته ورحمته .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة دلائل قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده أتبعت ذلك ببيان أنه - سبحانه - قد جعل لكم أمة شرعة ومنهاجا ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يمضى فى طريقه لتبليغ رسالة الله - تعالى - دون أن يلتفت إلى ممارات المشركين له ، وأن يفوض الحكم فيهم إليه - سبحانه - فهو العليم بكل شىء ، فقال - تعالى - :

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ... ﴾ كلام مستأنف جىء به لزجر معاصريه - ﷺ - من أهل الأديان السماوية عن منازعته ، ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع ، وإظهار خطئهم[1] .

والمراد بالأمة هنا : القوم الذين يدينون بشريعة معينة . والمراد بالمنسك المنهج والشريعة التى يتبعونها فى عقيدتهم وفى معاملاتهم .. .

أى : شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة منهجا يسيرون عليه فى اعتقادهم وفى طريقة حياتهم ، فالأمة التى وجدت من مبعث موسى الى مبعث عيسى - عليهما السلام - شريعتها التوراة ، والأمة التى وجدت من مبعث عيسى حتى مبعث محمد - ﷺ - شريعتها الإنجيل ، والأمة التى وجدت منذ مبعث محمد - ﷺ - إلى يوم القيامة شريعتها القرآن .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٩٥ .

وعلى كل أمة أدركت بعثة محمد - ﷺ - أن تتبعه فيما جاء به من عند ربه ، لأن شريعته هى الشريعة الناسخة لما قبلها ، والمهيمنة عليها .

ويرى بعضهم أن المراد بالمنسك هنا : المكان الذى يذبحون فيه ذبائحهم تقربا إلى الله - تعالى - .

وقد رجح الإمام ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه : وأصل المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر . يقال : إن لفلان منسكا يعتاده ، يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر . وقد اختلف أهل التأويل فى معنى المنسك هنا ، فقيل : عيد ، وقيل : إراقة الدم .. والصواب من القول فى ذلك أن يقال : عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله - ﷺ - كانت إراقة الدم فى هذه الأيام ... ولذلك قلنا : عنى بالمنسك فى هذا الموضع : الذبح ..[١] .

ويبدو لنا أن القول الأول ، وهو تفسير المنسك بالشريعة الخاصة أقرب إلى الصواب لشموله للذبح وغيره .

والضمير فى قوله : ﴿ هم ناسكوه ﴾ يعود لكل أمة .

أى : جعلنا لكل أمة شريعة تسير على تعاليمها ، وتنهج على نهجها . .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ لترتيب النهى على ما قبلها .

والمنازعة : المجادلة والمخاصمة . والمراد بالأمر : ما جاء به النبى - ﷺ - من عند ربه - تعالى - من تشريعات وأحكام .

أى : قد جعلنا لكل أمة من الأمم السابقة شريعة تتبع تعاليمها ، وما دام الأمر كذلك ، فاسلك أنت وأتباعك - أيها الرسول الكريم - الشريعة التى أوحيناها إليك ، وأمرناك باتباعها ، ولا تلتفت إلى مخاصمة من ينازعك فى ذلك من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، فإن منازعتهم لك فيما جئت به من عند ربك ، يدل على جهلهم وسوء تفكيرهم ، لأن ما جئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم ، ومهيمن عليها وناسخ لها .

ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يجب عليه نحو دينه فقال : ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ .

أى : وادع هؤلاء الذين ينازعونك فيما جئتهم به من الحق ، وأدع غيرهم معهم إلى ترك التنازع والتخاصم ، وإلى الدخول فى دين الاسلام : فإنك أنت على الصراط المستقيم ، الذى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ١٣٨ .

لا اعوجاج فيه ولا التباس .

ثم بين له - سبحانه - ما يفعله إذا ما لجُّوا فى منازعتهم له فقال : ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ .

أى : وإن أبوا إلا مجادلتك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم - أيها الرسول الكريم - أمرى وأمركم إلى الله - تعالى - ، فهو الذى يتولى الحكم بينى وبينكم يوم القيامة ، لأنه - سبحانه - هو العليم بحالى وحالكم .

وهذه الجملة الكريمة قد تضمنت تهديدهم على استمرارهم فى جدالهم بعد أن تبين لهم الحق ، كما تضمنت وجوب إعراض الرسول - ﷺ - عنهم .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والإعراض فقال : ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ أيها المسلمون وبين هؤلاء الكافرين ﴿ يوم القيامة فيما كنتم فيه ﴾ في الدنيا ﴿ تختلفون ﴾ من أمر هذا الدين ، وحينئذ يتبين من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وسيجازى - سبحانه - كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتأكيد علمه بكل شيء فقال : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض .. ﴾ .

أى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وتيقنت ، أن الله - تعالى - لا يعزب عن علمه مثقال ذرة مما يحصل فى السموات والأرض من أقوال أو أفعال .

﴿ إن ذلك ﴾ الذى يجرى فى السموات والأرض كائن وثابت ﴿ فى كتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق .

﴿ إن ذلك ﴾ الذى ذكرناه لك من الحكم بين الناس ، ومن العلم بأحوالهم ومن تسجيل أعمالهم ﴿ على الله ﴾ - تعالى - ﴿ يسير ﴾ وهين ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ثم وبخ - سبحانه - الكافرين على جهلهم ، حيث عبدوا من دونه مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وحيث كرهوا الحق وأصحابه ، فقال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى

وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

أى : أن هؤلاء المشركين الذين ينازعونك فيما جئتهم به من عند ربك ، يتركون ما تدعوهم إليه - أيها الرسول الكريم - من إخلاص للعبادة لله - تعالى - ويعبدون من دونه - سبحانه - آلهة أخرى لا دليل لهم على عبادتها من عقل أو نقل .

إذ قوله - سبحانه - : ﴿ مالم ينزل به سلطانا ﴾ نفى لأن يكون لهم دليل سمعى على عبادتها وقوله - تعالى - : ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ نفى لأن يكون لهم دليل عقلى على عبادتها .

والتنكير فى قوله : « سلطانا ، وعلم » للتقليل . أى : لا دليل لهم أصلا لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، ومع ذلك يتمسكون بهذه العبادة الباطلة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ تهديد بسوء المصير لهؤلاء المشركين .

أى : وما للظالمين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها ، من نصير ينصرهم من عقاب الله وعذابه ، لأنهم بسبب عبادتهم لغير الله - تعالى - ، قد قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة .

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب ضلالهم ، تأخذهم العزة بالإثم إذا ما نصحهم الناصحون بالإقلاع عن هذا الضلال فقال : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا .. ﴾ .

وقوله ﴿ يسطون ﴾ من السطو ، بمعنى الوثب والبطش بالغير . يقال : سطا فلان على فلان ، إذا بطش به بضرب أو شتم أو سرقة أو ما يشبه ذلك .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الظالمين ، آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، من قبل عبادنا المؤمنين ﴿ تعرف ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ فى وجوه الذين كفروا ﴾ بهذه الآيات البينات ﴿ المنكر ﴾ أى : ترى فى وجوههم الإنكار لها ، والغضب منها ومن قارئها ، والكراهية والعبوس عند سماعها .

بل ويكادون فوق ذلك ، يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا ، ويعتدون عليهم بالسب تارة ، وبالضرب تارة أخرى .

وذلك لأن هؤلاء الظالمين ، حين عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجأوا إلى السطو والعدوان ، وهذا شأن الطغاة الجاهلين فى كل زمان ومكان .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقول لهؤلاء الطغاة على سبيل التهديد والوعيد ، ما من شأنه أن يردعهم عن سطوهم وبغيهم فقال : ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين ألا أخبركم بما هو أشد ألما من غيظكم على من يتلو عليكم آياته ، ومن همكم بالسطو عليه ؟ .

أشد من كل ذلك ﴿النار ﴾ التى ﴿وعدها الله الذين كفروا ﴾ أى : وعدهم بدخولها ، و بالاصطلاء بسعيرها ﴿وبئس المصير ﴾ مصير هؤلاء الكافرين .

قال الجمل : وقوله : ﴿النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، كأن سائلا سأل فقال : وما الأشر ؟ فقيل : النار ، أى : هو النار . وحينئذ فالوقف على ذلكم ، أو على النار .

ويصح أن يكون لفظ النار مبتدأ ، والخبر : وعدها الله . وعلى هذا فالوقف على : كفروا ..[1] .

ثم وجه - سبحانه - نداء الى الناس . بين فيه أن كل آلهة تعبد من دونه - عز وجل - فهى باطلة وهى أعجز من أن تدافع عن نفسها ، وأن كل عابد لها هو جاهل ظالم . فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٨٠ .

رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾

والمثل : الشبيه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - بمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا لما فيه غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وسمى الله - تعالى - ما ساقه فى هذه الآية الكريمة مثلا ، لأن ما يفعله المشركون من عبادتهم لآلهة عاجزة ، يشبه المثل فى غرابته وفى التعجب من فعله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الذى جاء به - سبحانه - ليس بمثل فكيف سماه مثلا ؟ .

قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستغراب مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم[١] .

والمعنى : يأيها الناس لقد بينا لكم قصة مستغربة وحالا عجيبة . لما يعبد من دون الله - تعالى - فاستمعوا إليها بتدبر وتعقل .

وقوله : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له .. ﴾ بيان للمثل وتفسير له .

والذباب : اسم جنس واحده ذبابة - وهى حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها .

أى : إن المعبودات الباطلة التى تعبدونها أيها المشركون ، لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها فى محاولة خلق هذه الذبابة .

قال صاحب الكشاف : وهذا من أبلغ ما أنزله الله فى تجهيل قريش ، واستركاك عقولهم . والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه - أى قد ربطهم برباطه ، حيث وصفوا بالإلهية - التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها - صورا وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا ..[٢] .

---

(١) ، (٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٧١ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾ بيان لعجز تلك الآلهة الباطلة من أمر آخر سوى الخلق .

أى : وفضلا عن عجز تلك الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإنها إذا اختطف الذباب منها شيئا من الأشياء لا تستطيع استرداده منه لعجزها عن ذلك .

قال القرطبى : وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ، ولاستقذاره وكثرته ، فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوه من دون الله - تعالى - على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

قال الآلوسى : والطالب : عابد غير الله - تعالى - والمطلوب : الآلهة ، وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه ، واعتقاده نفعه ، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه .

وقيل : « الطالب الذباب يطلب ما يسلبه من الآلهة ، والمطلوب : الآلهة على معنى المطلوب منه ما يسلب .. »[2] .

وعلى أية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل ، وأنه قد تساوى فى عجزه مع أضعف مخلوقات الله وأحقرها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، قد وضعوا الأمور فى غير موضعها ، لجهلم وغبائهم فقال : ﴿ ما قدروا الله حق قدره ... ﴾ .

أى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته ، حيث تركوا عبادة الواحد القهار ، وعبدوا ما يعجز عن رد ما سلبه الذباب منه .

﴿ إن الله لقوى ﴾ على خلق كل شىء ﴿ عزيز ﴾ لا يغالبه مغالب ، ولا يدافعه مدافع .

ثم بين - سبحانه - أن له مطلق التصرف فى اختيار رسله فقال : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ... ﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يختار من بين ملائكته رسلا يرسلهم لتبليغ وحيه إلى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٩٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٢٠٢ .

أنبيائه ، كما اختار جبريل - عليه السلام - لهذه الوظيفة ، وهو الذى يختار من بين الناس رسلا ، كما اختار ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم لهذه المهمة ، فهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ سميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ بصير ﴾ بأحوالهم ، لاتخفى عليه خافية من شئونهم .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أى : يعلم ما قدموا من أعمال ، وما يعملون الآن ، وماسيعملونه فى المستقبل إذ أن علمه - سبحانه - ليس مقيدا بزمان أو مكان ﴿ وإلى الله ﴾ تعالى وحده ﴿ ترجع الأمور ﴾ كلها لا إلى غيره .

ثم وجه - سبحانه - فى نهاية السورة نداء إلى عباده المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ، وبالإخلاص فى عبادته ، وبالجهاد فى سبيله ، وبالاعتصام بحبله ، فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)

والمراد بالركوع والسجود هنا : الصلاة ، وعبر عنها بهما ، لأنهما أهم أركانها ، وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لحضهم على الامتثال لما أمروا به .

أى : يا من آمنتم بالله - تعال - وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر حافظوا على أداء الصلاة فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ، لأن هذه الصلاة من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر ، وأن ترفع درجاتكم عند خالقكم .

وقوله - تعالى - : ﴿واعبدوا ربكم﴾ أى : واعبدوا ربكم الذى تولاكم برعايته وتربيته فى كل مراحل حياتكم ، عبادة خالصة لوجهه الكريم .

وقوله : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ تعميم بعد التخصيص ، إذ فعل الخير يشمل كل قول وعمل يرضى الله - تعالى - : كإنفاق المال فى وجوه البر ، وكصلة الرحم وكالإحسان إلى الجار وكغير ذلك من الأفعال التى حضت عليها تعاليم الإسلام .

وقوله - تعالى - : ﴿لعلكم تفلحون ﴾ تذييل قصد به التحريض على امتثال ما أمرهم الله - تعالى - به ، والفلاح : الظفر بالمطلوب .

أى : أدوا الصلاة بخشوع ومواظبة ، واعبدوا ربكم عبادة خالصة ، وافعلوا الخير الذى يقربكم من خالقكم ، لكى تنالوا رضاه وثوابه - عز وجل - .

فكلمة « لعل » للتعليل ، ويصح أن تكون على معناها الحقيقى وهو الرجاء ، ولكن على تقدير صدوره من العباد ، فيكون المعنى : وافعلوا الخير حالة كونكم راجين الفلاح ، ومتوقعين الفوز والنجاح .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها أنها قد جمعت أنواع التكاليف الشرعية ، وأحاطت بها من كل جوانبها .

قال الآلوسى ما ملخصه : وهذه الآية آية سجدة عند الشافعى وأحمد ، لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ، ولحديث عقبة بن عامر قال : قلت يارسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما .

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها ليست آية سجدة ، لأنها مقرونة بالأمر بالركوع ، والمعهود فى مثله من القرآن، كونه أمرا بما هو ركن للصلاة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ وما روى من حديث عقبة إسناده ليس بالقوى[1] .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالصلاة وبالعبادة وبفعل الخير ، أتبع ذلك بالأمر بالجهاد فقال - تعالى - : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ .

والجهاد مأخوذ من الجهد ، وهو بذل أقصى الطاقة فى مدافعة العدو .

وهى أنواع ، أعظمها : جهاد أعداء الله - تعالى - من الكفار والمنافقين والظالمين والمبتدعين فى دين الله - تعالى - ماليس منه .

كذلك من أنواع الجهاد : جهاد النفس الأمارة بالسوء ، وجهاد الشيطان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٢٠٨ .

وإضافة « حق » إلى « جهاد » فى قوله : ﴿ حق جهاده ﴾ من إضافة الصفة الى الموصوف أى : وجاهدوا - أيها المؤمنون - فى سبيل الله - تعالى - ومن أجل إعلاء كلمته ، ونصر شريعته ، جهادا كاملا صادقا لا تردد معه ولا تراجع .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وجاهدوا ... ﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى . وهو الجهاد الأكبر . عن النبى - ﷺ - أنه رجع من بعض غزواته فقال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ﴿ فى الله ﴾ أى : فى ذات الله ومن أجله . يقال : هو حق عالم ، وجد عالم ، ومنه ﴿ حق جهاده ﴾ .

فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه ، أو حق جهادكم فيه ، كما قال : ﴿ وجاهدوا فى الله ﴾ ؟ .

قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص . فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته اليه..[1] .

وجملة « هو اجتباكم » مستأنفة ، لبيان علة الأمر بالجهاد ، والاجتباء : الاختيار والاصطفاء .

أى : جاهدوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنه - سبحانه - هو الذى اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه ، وجدير بمن اختاره الله واصطفاه أن يكون مطيعا له .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه بعباده فقال : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ .

أى : ومن مظاهر رحمته بكم - أيها المؤمنون - أنه سبحانه لم يشرع فى هذا الدين الذى تدينون به ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم : وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التى تدل على ذلك : أن الضرر يزال . وأن المشقة تجلب التيسير : وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، و أن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب .

ومن الآيات التى تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله - تعالى - : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ... ﴾[2] وقوله - سبحانه - : ﴿ ... يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ... ﴾[3] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٧٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

وفى الحديث الشريف : « بعثت بالحنيفية السمحاء ».

قال بعض العلماء : وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا ، بين المشقة فى الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها ، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعى ، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التى تصل الى حد الحرج ، فهى المرفوعة عن المكلفين .

فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها ، وهذا شىء لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطيع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء .. وهكذا جميع التكاليف الشرعية[١] .

والخلاصة : أن هذا الدين الذى جاءنا به محمد - ﷺ - من عند ربه - عز وجل - مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا ، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعاليمه .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : « رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ..»[٢] .

والمراد بالملة فى قوله - تعالى - : ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ الدين والشريعة ، ولفظ « ملة » هنا منصوب بنزع الخافض .

أى : ما جعل عليكم - أيها المؤمنون - فى دينكم من حرج ، كما لم يجعل ذلك - أيضا - فى ملة أبيكم إبراهيم .

ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله من نفى الحرج بعد حذف المصدر المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . أى : وسع عليكم فى دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم .

ووصف - سبحانه - إبراهيم - عليه السلام - بالأبوة لهذه الأمة ، لأن رسول هذه الأمة - ﷺ - ينتهى نسبه إلى إبراهيم ، ورسول هذه الأمة - ﷺ - كالأب لها ، من حيث أنه - ﷺ - جاءها من عند ربه - عز وجل - بما يحييها ويسعدها .

والضمير « هو » فى قوله - تعالى - : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا .. ﴾ يعود

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٩٨ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٠١ .

إلى الله - تعالى - أى : هو - سبحانه - الذى سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن . وسماكم - أيضا - بهذا الإسم فى هذا القرآن .

وقيل : الضمير « هو » يعود إلى إبراهيم أى : إبراهيم هو الذى سماكم المسلمين .

ومن وجوه ضعف هذا القول : أن الله - تعالى - قال : ﴿ وفى هذا ﴾ أى سماكم المسلمين فى هذا القرآن ، وإبراهيم - عليه السلام - لحق بربه قبل نزول هذا القرآن بأزمان طويلة ، وأيضا فإن السياق يؤيد أن الضمير « هو » يعود إلى الله - تعالى - لأن الأفعال السابقة كقوله ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ تعود إليه - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال : ﴿ ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

والمراد بشهادة الرسول على أمته : الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه .

والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس : الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله - تعالى - إلى هؤلاء الناس ، قد بلغوهم رسالة ربهم ، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده .

ويؤيد ذلك ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : يدعى نوح - عليه السلام - يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقال له : هل بلغت ما أرسلت به ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد - ﷺ - وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ » .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[1] .

والمعنى : فعلنا ما فعلنا من اجتبائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول - ﷺ - شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم ، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ أيها المؤمنون بأن تؤدوها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التى كلفكم الله - تعالى - بإيتائها إلى مستحقيها ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى : التجئوا إليه ، واستعينوا به فى كل أموركم فإنه - سبحانه - ﴿ هو مولاكم ﴾

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

أى : ناصركم ومتولى شئونكم ، ومالك أمركم ، وهو - تعالى - ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ أى : هو - عز وجل - نعم المالك لأمركم ، ونعم النصير القوى لشأنكم .

وبعد : فهذه سورة الحج ، وهذا تفسير محرر لها .

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
الثلاثاء ٢٧ من صفر سنة ١٤٠٥ هـ
الموافق ١٩٨٤/١١/٢٠ م

د . محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير سورة مريم

فهرس إجمالى لتفسير « سورة طه »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الأنبياء »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الحج »

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سور

المؤمنون النور
الفرقان الشعراء
النمل القصص

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد العاشر

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المؤمنون » من السور المكية ، وعدد آياتها ثمانى عشرة آية ومائة ، وكان نزولها بعد سورة الأنبياء .

٢ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالحديث عن الصفات الكريمة التى وصف الله - تعالى - بها عباده المؤمنين ، فذكر منها أنهم فى صلاتهم خاشعون وأنهم عن اللغو معرضون . وأنهم للزكاة فاعلون ...

ثم ختمت السورة تلك الصفات الجليلة ، ببيان ما أعده الخالق - عز وجل - لأصحاب هذه الصفات فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

٣ - ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان ، فابتدأت ببيان أصل خلقه ، وانتهت ببيان أنه سيموت ، ثم سيبعث يوم القيامة ليحاسب على ما قدم وما أخر .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحمًا . ثم أنشأناه خلقًا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

٤ - وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على قدرته على البعث عن طريق خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك ببيان مظاهر قدرته - تعالى - عن طريق خلق الكائنات المختلفة التى يراها الإنسان ويشاهدها وينتفع بها ..

فقال - سبحانه - : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر ، فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ .

٥ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك فيما يقرب من ثلاثين آية بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فذكر جانبًا من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة موسى مع فرعون وقومه .

ثم ختم هذه القصص ببيان مظاهر قدرته فى خلق عيسى من غير أب ، فقال - تعالى - : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ ..

٦ - ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء عامًا إلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أمرهم فيه بالمواظبة على أكل الحلال الطيب ، وعلى المداومة على العمل الصالح ، وبين - سبحانه - أن شريعة الأنبياء جميعًا هى شريعة واحدة فى أصولها وعقائدها ، فقال - تعالى - : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ .

ثم تحدثت السورة الكريمة حديثًا طويلاً عن موقف المشركين من الدعوة الإسلامية ، وبينت مصيرهم يوم القيامة ، وردت على شبهاتهم ودعاواهم الفاسدة ، ودافعت عن الرسول - ﷺ - وعن دعوته ، وختمت هذا الدفاع بما يسلى النبى - ﷺ - ويثبت فؤاده .

قال - تعالى - : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، منها ما يتعلق بخلق سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ، ومنها ما يتعلق بنشأتهم من الأرض ، ومنها ما يتعلق بإشهادهم على أنفسهم بأن خالق هذا الكون هو الله - تعالى - .

واستمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ .

٩ - وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، أمر - سبحانه - نبيه أن يلتجىء إليه من شرورهم ومن شرور الشياطين ، وأمره أن يقابل سيئات هؤلاء المشركين بالتى هى أحسن ، حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

قال - تعالى - : ﴿ وقل رب إما ترينى ما يوعدون * رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين * وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون * ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ .

١٠ - ثم صورت السورة الكريمة فى أواخرها أحوال المشركين عندما يدركهم الموت ، وكيف أنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هذا التمنى لا يفيدهم شيئا ، وكيف يوبخهم - سبحانه - على سخريتهم من المؤمنين فى الدنيا .

قال - تعالى - : ﴿ إنه كان فريق من عبادى يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ .

١١ - ثم ختمت السورة الكريمة بهذه الآية التى يأمر الله - تعالى - فيها نبيه - ﷺ - بالمواظبة على طلب المزيد من رحمته ومغفرته - سبحانه - فقال - تعالى - : ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

١٢ - وهكذا نرى سورة « المؤمنون » قد طوفت بنا فى آفاق من شأنها أن تغرس الإيمان فى القلوب ، وأن تهدى النفوس إلى ما يسعدها فى دينها ودنياها .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

صباح الأحد : ٢ من ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ

٢٥ / ١١ / ١٩٨٤ م .

كتبه الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ المؤمنون

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كان إذا نزل على رسول الله - ﷺ - الوحى ، نسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يومًا ، فمكثنا ساعة فسرى عنه ، فاستقبل القبلة ، فرفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » .

ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : ﴿ قد أفلح

المؤمنون ﴾ إلى قوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾[١] .

وأخرج النسائى عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : يا أم المؤمنين ، كيف كان خلق رسول الله - ﷺ - ؟ فقالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى انتهت إلى قوله - تعالى - : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وقالت : هكذا كان خلق رسول الله - ﷺ -[٢] .

والفلاح : الظفر بالمراد ، وإدراك المأمول من الخير والبر مع البقاء فيه .

والخشوع : السكون والطمأنينة ، ومعناه شرعًا : خشية فى القلب من الله - تعالى - تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدى الله - سبحانه - .

والمعنى : قد فاز وظفر بالمطلوب ، أولئك المؤمنون الصادقون ، الذين من صفاتهم أنهم فى صلاتهم خاشعون ، بحيث لا يشغلهم شىء وهم فى الصلاة عن مناجاة ربهم . وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة .

ومن مظاهر الخشوع : أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده ، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة ، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشىء من جسده ، فقد أبصر النبى - ﷺ - رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » .

قال القرطبى : « اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين ، والصحيح الأول ومحله القلب ، وهو أول عمل يرفع من الناس .. »[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ بيان لصفة ثانية من صفات هؤلاء المؤمنين .

واللغو : ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال . فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام .

أى : أن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ينزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل ، ويعرضون عن ذلك فى كل أوقاتهم لأنهم لحسن صلتهم بالله - تعالى - اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها : لا بحقيرها وسفسافها ، وهم كما وصفهم الله - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾[٤] ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كرامًا ﴾[٥] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٥٤ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٣٠٣ .
(٤) سورة القصص الآية ٥٥ .
(٥) سورة الفرقان الآية ٧٢ .

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقد بينها - سبحانه - بقوله : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ .

ويرى أكثر العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة الأموال . قالوا : لأن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة ، وما فرض بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة هو مقاديرها ، ومصارفها ، وتفاصيل أحكامها أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يخرجون زكاة أموالهم عن طيب نفس .

ويرى بعض العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس . أى : تطهيرها من الآثام والمعاصى . فهى كقوله - تعالى - ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[1] .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين ، أنهم يفعلون ما يطهر نفوسهم ويزكيها .

قال ابن كثير رحمه الله : ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا ، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا »[2] .

ثم بين - سبحانه - الصفة الرابعة من صفاتهم فقال : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين ﴾ .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضًا - أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله - تعالى - لهم ، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى ، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيمانًا حقًا ، أن تصان فيها الأعراض ، وأن يحافظ فيها على الأنساب ، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله - تعالى - وأن يغض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح ..

وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة ، كالزنا واللواط وما يشبههما ، إلا وكان أمرها فرطًا ، وعاقبتها خسرا ، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب ، وانتشار الأمراض ، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة .

وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وإلى تحول من يأتى تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة ، تؤثر الرذيلة على الفضيلة .

وجملة : ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ تعليل للاستثناء .

أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٥٧ .

أيمانهم ، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج أو ما ملكت الأيمان ، مما أحله الله تعالى .

وقوله ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ أى : فمن طلب خلاف ذلك الذى أحله الله - تعالى - ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أى : المعتدون المتجاوزون حدوده - سبحانه - ، الوالغون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه . يقال : عدا فلان الشىء يعدوه عدوا ، إذا جاوزه وتركه .

أما الصفة الخامسة من صفات هؤلاء المفلحين ، فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ .

والأمانات : جمع أمانة ، وتشمل كل ما استودعك الله - تعالى - إياه ، وأمرك بحفظه .

فتشمل جميع التكاليف التى كلفنا الله بأدائها كما تشمل الأموال المودعة ، والأيمان والنذور والعقود وما يشبه ذلك .

والعهود : جمع عهد . ويتناول كل ما طلب منك الوفاء به من حقوق الله - تعالى - وحقوق الناس .

قال القرطبى : والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه ، قولاً وفعلاً ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك . وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد »[1] .

وراعون : من الرعى بمعنى الحفظ يقال : رعى الأمير رعيته رعاية ، إذا حفظها واهتم بشئونها .

أى : أن من صفات هؤلاء المفلحين . أنهم يقومون بحفظ ما ائتمنوا عليه من أمانات ، ويوفون بعهودهم مع الله - تعالى - ومع الناس ، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس .

وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم . إلا إذا أديت فيها الأمانات ، وحفظت فيها العهود ، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه .

أما الصفة السادسة والأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، فهى قوله - تعالى - ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ .

أى : أن من صفاتهم أنهم يحافظون على الصلوات التى أمرهم الله بأدائها محافظة تامة ، بأن

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٠٧ .

يؤدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع ، ولقد بدأ - سبحانه - صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع فى الصلاة وختمها بالمحافظة عليها للدلالة على عظم مكانتها ، وسمو منزلتها .

وبعد أن بين - سبحانه - تلك الصفات الكريمة التى تحلى بها أولئك المؤمنون المفلحون ، وهى صفات تمثل الكمال الإنسانى فى أنقى صوره .

بعد ذلك بين - سبحانه - ما أعد لهم من حسن الثواب فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

والفردوس : أعلى الجنات وأفضلها وهو لفظ عربى يجمع على فراديس .

وقيل : هو لفظ معرب معناه : الذى يجمع ما فى البساتين من ثمرات .

وفى صحيح مسلم عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلى الجنات وأفضلها ، وهم فيها خالدون خلودًا أبديًا لا يمسهم فيها نصب ، ولا يمسهم فيها لغوب .

وعبر - سبحانه - عن حلولهم فى الجنة بقوله ﴿ يرثون ﴾ للإشعار بأن هذا النعيم الذى نزلوا به ، قد استحقوه بسبب أعمالهم الصالحة ، كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره . ومن المعروف أن ما يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب الملك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[2] .

وحذف مفعول اسم الفاعل الذى هو ﴿ الوارثون ﴾ لدلالة قوله : ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ عليه .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين مدحًا عظيمًا ووعدتهم بالفوز بأعلى الجنات وأفضلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وبعد الحديث عن صفات المؤمنين المفلحين ، انتقلت السورة إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان ، وأطوار نموه ، ونهاية حياته ، وبعثه للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة الزخرف الآية ٧٢ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن
سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا
ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

والمراد بالإنسان هنا : آدم - عليه السلام - .

والسلالة : اسم لما سُلَّ من الشىء واستُخرج منه . تقول : سللت الشعرة من العجين ، إذا استخرجتها منه . ويقال : الولد سلالة أبيه . أى كأنه انسل من ظهر أبيه .

والمعنى : ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين .

والتعبير بسلالة يشعر بالقلة ، إذ لفظ الفعالة يدل على ذلك ، كقلامة الظفر ، ونحاتة الحجر ، وهى ما يتساقط عند النحت .

و « من » فى الموضعين : ابتدائية إلا أن الأولى متعلقة « بخلقنا » والثانية متعلقة بسلالة بمعنى مسلولة من الطين .

والضمير المنصوب فى قوله ﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ يعود على النوع الإنسانى المتناسل من آدم - عليه السلام - .

وأصل النطفة : الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نُطف ونِطَاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة .

والمعنى : لقد خلقنا أباكم آدم بقدرتنا من سلالة من طين ، ثم خلقنا ذريته بقدرتنا - أيضًا - من منى يخرج من الرجل فيصب فى قرار مكين ، أى : فى مستقر ثابت ثبوتًا مكينًا ، وهو رحم المرأة .

قال القرطبى : « قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾: الإنسان هو آدم - عليه

السلام - لأنه استل من الطين . ويجىء الضمير فى قوله ﴿ ثم جعلناه ﴾ عائدًا على ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر ، فإن المعنى لا يصلح إلا له ... »[١] .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .. ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين ﴾[٣] .

ثم بين - سبحانه - أطوارًا أخرى لخلق الإنسان تدل على كمال قدرته - تعالى - فقال : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أى : ثم صيرنا النطفة البيضاء ، علقة حمراء إذ العلقة عبارة عن الدم الجامد .

﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أى : جعلنا بقدرتنا هذه العلقة قطعة من اللحم ، تشبه فى صغرها قطعة اللحم التى يمضغها الإنسان فى فمه .

﴿ فخلقنا المضغة عظامًا ﴾ أى : حولنا هذه المضغة من اللحم التى لم تظهر معالمها بعد ، إلى عظم صغير دقيق ، على حسب ما اقتضته حكمتنا فى خلقنا .

﴿ فكسونا العظام لحمًا ﴾ أى : فكسونا هذه المضغة التى تحولت بقدرتنا إلى عظام دقيقة باللحم ، بحيث صار هذا اللحم ساترًا للعظام ومحيطًا بها .

قال بعض العلماء : « وهنا يقف الإنسان مدهوشًا ، أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين ، لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرًا ، بعد تقدم علم الأجنة التشريحى » .

ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تكون أولًا من الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا الهيكل العظمى للجنين . وهى التى يسجلها النص القرآنى فى قوله - تعالى - : ﴿ فخلقنا المضغة عظامًا ، فكسونا العظام لحما ﴾ فسبحانه العليم الخبير[٤] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم أنشأناه خلقًا آخر ﴾ بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٠٩ .
(٢) سورة السجدة الآيات من ٦ - ٨ .
(٣) سورة المرسلات الآيات من ٢٠ - ٢٤ .
(٤) تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٨ ص ١٧ .

أى : ثم صيرنا هذا الإنسان بشرًا سويًا ، بعد أن كان نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظامًا ، فلحمًا يكسو هذه العظام ، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله - تعالى - وعلى أنه حق ، إذ قدرته - سبحانه - لا يعجزها شئ .

قال صاحب الكشاف : « قوله - تعالى - : ﴿ ثم أنشأناه خلقًا آخر ﴾ ، أى : خلقًا مباينًا للخلق الأول مباينة ما أبعدها ، حيث جعله حيوانًا بعد أن كان جمادًا ، وناطقًا وكان أبكم ، وسميعًا وكان أصم وبصيرًا وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه بل كل جزء من أجزائه - عجائب فطرته ، وغرائب حكمته ، لا تدرك بوصف الواصف ، ولا تبلغ بشرح الشارح ... »[1] .

﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ أى : فكثر خيره - سبحانه - ودام إحسانه وتقدس شأنه ، فهو - عز وجل أحسن الخالقين على الإطلاق ، فقد أتقن كل شىء خلقه ، وأحكم كل شىء صنعه .

ولفظ « تبارك » فعل ماض لا ينصرف ، والأكثر إسناده إلى غير مؤنث .

وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير ، أو بمعنى الثبات والدوام وكل شىء دام وثبت فقد برك .

ثم بين - سبحانه - حالهم بعد أن يكونوا خلقًا آخر فقال : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

أى : ثم إنكم بعد ذلك الذى ذكره - سبحانه - لكم من أطوار خلقكم تصيرون أطفالاً ، فصبيانًا فغلمانًا ، فشبانًا ، فكهولاً ، فشيوخًا .. ثم مصيركم بعد ذلك كله ، أو خلال ذلك كله ، إلى الموت المحتوم الذى لا مفر لكم منه ، ولا مهرب لكم عنه . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر الإنسان بأطوار نشأته . وبحلقات حياته : وبنهاية عمره . وبحتمية بعثه .

وفى هذا التذكير ما فيه من الاعتبار للمعتبرين ، ومن الاتعاظ للمتعظين ، ومن البراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته عن طريق خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق تلك الكائنات المختلفة ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٧٨ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ
بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ
لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن
طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى
ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

والطرائق : جمع طريقة ، والمراد بها السموات السبع . وسميت طرائق لأن كل سماء فوق الأخرى ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة بمعنى مطروقة .

وهو مأخوذ من قولهم : فلان طرق النعل ، إذا ركب بعضها فوق بعض .

فالآية الكريمة فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ﴾ .

وقيل : سميت طرائق ، لأنها طرق الملائكة فى النزول والعروج .

أى : ولقد خلقنا فوقكم - أيها الناس - سبع سموات بعضها فوق بعض ﴿ وما كنا ﴾ فى وقت من الأوقات ﴿ عن الخلق غافلين ﴾ بل نحن معهم بقدرتنا ورعايتنا وحفظنا، ندبر لهم أمور معاشهم ، ونيسر لهم شئون حياتهم دون أن نغفل عن شىء - مهما صغر - من أحوالهم ، لأننا لا تأخذنا سنة ولا نوم ، ولا يعترينا ما يعترى البشر من سهو أو غفلة .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم التى تأتينا من جهة هذه الطرائق فقال : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض .. ﴾ .

أى : وأنزلنا لكم - أيها الناس - بقدرتنا ورحمتنا ، ماء بقدر . أى : أنزلناه بمقدار معين ، بحيث لا يكون طوفاناً فيغرقكم ، ولا يكون قليلاً فيحصل لكم الجدب والجوع والعطش .

وإنما أنزلناه بتقدير مناسب لجلب المنافع ، ودفع المضار ، كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ ... وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾[١] .

وقوله : ﴿ فأسكناه فى الأرض ﴾ أى : هذا الماء النازل من السماء بتقدير معين منا تقتضيه حكمتنا ، جعلناه ساكنًا مستقرًا فى الأرض ، لتنعموا به عن طريق استخراجه من الآبار والعيون وغيرها .

وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى أن المياه الجوفية الموجودة فى باطن الأرض ، مستمدة من المياه النازلة من السحاب عن طريق المطر .

وهذا ما قررته النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم . وبعد أن بقى العلماء دهورًا طويلة ، يظنون أن المياه التى فى جوف الأرض ، لا علاقة لها بالمياه النازلة على الأرض عن طريق المطر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرته ورأفته ورحمته - تعالى - بعباده .

أى : وإنا على إذهاب هذا الماء الذى أسكناه فى باطن الأرض لقادرون ، بأن نجعله يتسرب إلى أسفل طبقات الأرض فلا تستطيعون الوصول إليه ، أو بأن نزيله من الأرض إزالة تامة ، لأن القادر على إنزاله قادر على إزالته وإذهابه ، ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بكم ، وشفقة عليكم ، فاشكرونا على نعمنا وضعوها فى مواضعها الصحيحة .

قال صاحب الكشاف : « قوله : ﴿ على ذهاب به ﴾ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل .

والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعايى عليه شىء إذا أراده ، وهو أبلغ فى الإبعاد ، من قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين ﴾[٢] .

فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء . ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر[٣] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض . ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ... ﴾[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآية ٢١ .
(٢) سورة الملك الآية ٣٠ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٨٠ .
(٤) سورة الزمر الآية ٢١ .

ثم بين - سبحانه - الآثار الجليلة المترتبة على إنزال الماء من السماء فقال : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب .. ﴾ .

أى : فأوجدنا لكم بسبب نزول الماء على الأرض بساتين متنوعة ، بعضها من نخيل ، وبعضها من أعناب ، وبعضها منهما معًا ، وبعضها من غيرهما .

وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لكثرة منافعها ، وانتشارهما فى الجزيرة العربية ، أكثر من غيرهما .

﴿ لكم فيها ﴾ أى : فى تلك الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ تتلذذون بها فى مأكلكم ﴿ ومنها ﴾ . أى : ومن هذه البساتين والجنات ﴿ تأكلون ﴾ ما تريدون أكله منها فى كل الأوقات .

والمراد بالشجرة فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء .. ﴾ ، شجرة الزيتون . وهى معطوفة على « جنات » من عطف الخاص على العام .

أى : فأنشأنا لكم بسبب هذا الماء النازل من السماء ، جنات ، وأنشأنا لكم بسببه - أيضًا - شجرة مباركة تخرج من هذا الوادى المقدس الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام - وهو المعروف بطور سيناء . أى : بالجبل المسمى بهذا الاسم فى منطقة سيناء ، ومكانها معروف .

قالوا : وكلمة سيناء - بفتح السين والمد على الراجح - معناها : الحسن باللغة النبطية . أو معناها : الجبل الملىء بالأشجار . وقيل : مأخوذة من السنا بمعنى الارتفاع .

وخصت شجرة الزيتون بالذكر : لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، ومن أقل الأشجار - أيضًا - تكلفة لزارعها .

وخص طور سيناء بإنباتها فيه ، مع أنها تنبت منه ومن غيره ، لأنها أكثر ما تكون انتشارًا فى تلك الأماكن ، أو لأن منبتها الأصلى كان فى هذا المكان ، ثم انتقلت منه إلى غيره من الأماكن .

وقوله : ﴿ تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ بيان لمنافع هذه الشجرة على سبيل المدح ، والتعليل لإفرادها بالذكر .

والدهن : عصارة كل شىء ذى دسم . والمراد به هنا : زيت الزيتون .

وقراءة الجمهور : ﴿ تَنْبُتُ ﴾ - بفتح التاء وضم الباء - على أنه مضارع نبت الثلاثى .

فيكون المعنى : هذه الشجرة من مزاياها أنها تنبت مصحوبة وملتبسة بالدهن الذى

يستخرج من زيتونها . فالباء فى قوله ﴿ بالدهن ﴾ للمصاحبة والملابسة ، كما تقول : خرج فلان بسلاحه . أى : مصاحبًا له .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : تُنبِت – بضم التاء وكسر الباء – من أنبت بمعنى نبت . أو : من أنبت المتعدى بالهمزة ، كأنبت الله الزرع . والتقدير : تنبت ثمارها مصحوبة بالدهن .

والصبغ فى الأصل : يطلق على الشىء الذى يصبغ به الثوب . والمراد به هنا : الإدام لأنه يصبغ الخبز ، ويجعله كأنه مصبوغ به .

أى : أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها يتخذ منها الزيت الذى ينتفع به ، والإدام الذى يحلو معه أكل الخبز والطعام .

روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدى ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة » .

وبعد أن بين – سبحانه – جانبًا من مظاهر نعمه فى الماء والنبات أتبع ذلك ببيان جانب آخر من نعمه فى الأنعام والحيوان . فقال : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة .. ﴾ .

والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم . وقد تطلق على الإبل خاصة .

والعبرة : اسم من الاعتبار ، وهو الحالة التى تجعل الإنسان يعتبر ويتعظ بما يراه ويسمعه .

أى : وإن لكم – أيها الناس – فيما خلق الله لكم من الأنعام لعبرة وعظة ، تجعلكم تخلصون العبادة لله – تعالى – وتشكرونه على آلائه .

وقوله – سبحانه – : ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ... ﴾ . بيان لمواطن العبرة ، وتعريف بأوجه النعمة .

أى : نسقيكم مما فى بطونها من ألبان خالصة ، تخرج من بين فرث ودم ، ولكم فى هذه الأنعام منافع كثيرة ، كأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ومنها تأكلون من لحومها ، ومما يستخرج من ألبانها .

و ﴿ عليها ﴾ أى : وعلى هذه الأنعام ، والمراد بها هنا : الإبل خاصة ﴿ وعلى الفلك ﴾ أى : السفن التى تجرى فى البحر ﴿ تحملون ﴾ بقدرتنا ومنتنا ، حيث تحمل هذه الإبل وتلك السفن أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ...

وقريب من هاتين الآيتين فى المعنى قوله – تعالى – : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع

ومشارب أفلا يشكرون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾[٢] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت لنا أنواعًا من نعم الله - تعالى - على عباده ، هذه النعم التى تدل على كمال قدرته ، وعظيم رحمته .

وبعد أن بين - سبحانه - دلائل قدرته عن طريق خلق الإنسان ، وعن طريق خلقه لهذه الكائنات التى يشاهدها الإنسان وينتفع بها ... أتبع ذلك بالحديث عن بعض الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وعن موقف أقوامهم منهم ، وعن سوء عاقبة المكذبين لرسل الله - تعالى - وأنبيائه . وابتدأ - سبحانه - الحديث عن جانب من قصة نوح مع قومه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

---

(١) سورة يس الآيات من ٧١ - ٧٣ .

(٢) سورة الزخرف الآيات من ١٢ - ١٤ .

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

تلك هى قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، كما وردت فى هذه السورة الكريمة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلاً فى سورتى هود ونوح .

وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - . وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعًا .

قال الجمل فى حاشيته : وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين ، لأنه أرسل على رأس الأربعين ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة . وقدمت قصته هنا على غيره ، لتتصل بقصة آدم المذكورة فى قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ للمناسبة بينهما من حيث إن نوحًا يعتبر آدم الثانى ، لانحصار النوع الإنسانى بعده فى نسله[1] .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين قوم ليس منهم فى نسبه ، فيسميهم قومه على سبيل المجاز ، لمجاورته لهم .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام . فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحًا لينهاهم عن ذلك ، وليأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - .

واللام فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه ... ﴾ واقعة فى جواب قسم محذوف .

أى : والله لقد أرسلنا نبينا نوحًا - عليه السلام - إلى قومه ، ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وقوله - سبحانه - ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... ﴾ حكاية لما وجهه إليهم من نصائح وإرشادات .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٨٨ .

أى : أرسلنا نوحًا إلى قومه ، فقال لهم ما قاله كل نبى : ياقوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس لكم إله سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم . وهو الذى يحييكم وهو الذى يميتكم ، وكل معبود غيره - سبحانه - فهو باطل .

وفى ندائهم بقوله : ﴿ ياقوم ﴾ تلطف فى الخطاب ، ليستميلهم إلى دعوته ، فكأنه يقول لهم : أنتم أهلى وعشيرتى يسرنى ما يسركم ، ويؤذينى ما يؤذيكم ، فاقبلوا دعوتى ، لأنى لكم ناصح أمين .

وقوله : ﴿ أفلا تتقون ﴾ تحذير لهم من الإصرار على شركهم ، بعد ترغيبهم فى عبادة الله - تعالى - وحده بألطف أسلوب .

أى : أفلا تتقون الله - تعالى - وتخافون عقوبته ، بسبب عبادتكم لغيره ، مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم فالاستفهام للإنكار والتوبيخ .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم .. ﴾ .

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه - كرهط - وهو مأخوذ من قولهم : فلان ملىء بكذا ، إذا كان قادرًا عليه . أو لأنهم متمالئون أى : متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون مهابة ...

وفى وصفهم بالكفر : تشنيع عليهم وذم لهم ، وإشعار بأنهم عريقون فيه . أى : فقال الأغنياء وأصحاب النفوذ الذين مردوا على الكفر ، فى الرد على نبيهم نوح عليه السلام : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ .

أى : قالوا لأتباعهم على سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم ، ما هذا ، أى : نوح عليه السلام - إلا بشر مثلكم ، ومن جنسكم ، ولا فرق بينكم وبينه فكيف يكون نبيًا .

ولم يقولوا : ما نوح إلا بشر مثلكم ، بل أشاروا إليه بدون ذكر اسمه ، لأنهم لجهلهم وغرورهم يقصدون تهوين شأنه عليه الصلاة والسلام - فى أعين قومه .

وقولهم : ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى : أن نوحًا جاء بما جاء به بقصد الرياسة عليكم .

ومرادهم بهذا القول : تنفير الناس منه ، وحضهم على عداوته .

وقولهم : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ استبعاد منهم لكون الرسول من البشر أى : ولو شاء الله أن يرسل رسولاً ليأمرنا بعبادته وحده . لأرسل ملائكة ليفعلوا ذلك ، فهم -

لانطماس بصائرهم وسوء تفكيرهم - يتوهمون أن الرسول لا يكون من البشر ، وإنما يكون من الملائكة .

ومفعول المشيئة محذوف . أى : ولو شاء الله عبادته وحده لأرسل ملائكة ليأمرونا بذلك ، فلما لم يفعل علمنا أنه ما أرسل رسولاً ، فنوح - فى زعمهم - كاذب فى دعواه .

وقولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ أى ما سمعنا بهذا الكلام الذى جاءنا به نوح فى آباءنا الأولين ، الذين ندين باتباعهم ، ونقتدى بهم فى عبادتهم لهذه الأصنام .

ثم هم لا يكتفون بهذا الجمود والتحجر ، بل يصفون نبيهم بما هو برىء منه فيقولون : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين ﴾ .

والجِنَّة : الجنون ، يقال جُنَّ : فلان إذا أصيب بالجنون ، أو إذا مسه الْجِن فصار فى حالة خبل وجنون .

والتربص : الانتظار والترقب ، أى : ما نوح - عليه السلام - الذى يدعى النبوة ، إلا رجل به حالة من الجنون والخبل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه من هذا الجنون أو إلى وقت موته ، وعندئذ تستريحون منه ، ومن دعوته التى ما سمعنا بها فى آبائنا الأولين .

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحًا - عليه السلام - بأقبح مواجهة حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه ليس نبيًا لأن الأنبياء لا يكونون من البشر - فى زعمهم - وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون وأنه عما قريب سيأخذه الموت ، أو يشفى مما هو فيه .

وهكذا الجهل والغرور والجحود ... عندما يستولى على الناس ، يحول فى نظرهم الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص إلى حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول . إلى أى شىء غير معقول وغير مقبول ، وكمال العقل ورجحانه ، إلى جنونه ونقصانه .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .. ﴾[1] .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك أن نوحًا - عليه السلام - بعد أن استمع إلى ما قاله قومه فى شأنه من ضلالات وسفاهات ، لجأ إلى ربه - عز وجل - يشكو إليه ما أصابه منهم ويلتمس

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

منه النصر عليهم . فقال : كما حكى القرآن عنه : ﴿ رب انصرنى بما كذبون ﴾ .

أى : قال نوح فى مناجاته لربه : يارب انصرنى على هؤلاء القوم الكافرين بسبب تكذيبهم لى وتطاولهم على . وسخريتهم منى ، وإصرارهم على عبادة غيرك .

وقد أجاب الله - تعالى - دعاء عبده نوح فقال : ﴿ فأوحينا إليه ﴾ أى : فأوحينا إليه فى أعقاب دعائه وتضرعه .

﴿ أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ أى : أوحينا إليه أن ابتدئ يا نوح فى صنع السفينة وأنت تحت رعايتنا وحفظنا ، وسنرسل إليك وحينا ليرشدك إلى ما أنت فى حاجة إليه من إتقان صنع السفينة ، ومن غير ذلك من شئون .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ أن اصنع ﴾ إشارة إلى أن نوحًا - عليه السلام - قد باشر بنفسه صنع السفينة التى هى وسيلة النجاة له وللمؤمنين معه .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ بأعيننا ووحينا ﴾ إشارة إلى أن نوحًا بجانب مباشرته للصنع بنفسه ، كان مزودًا من الله - تعالى - بالعناية والرعاية وبحسن التوجيه والإرشاد عن طريق الوحى الأمين .

وذلك لأن سنة الله - تعالى - قد اقتضت ، أن لا يضيع عمل عباده المخلصين ، الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الوصول إلى غاياتهم الشريفة .

والباء فى قوله ﴿ بأعيننا ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير « اصنع » .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع السفينة .

والمراد بالأمر هنا : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الظالمين من قوم نوح - عليه السلام - . ويشهد لذلك قوله - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ أى : من عذابه ﴿ إلا من رحم ﴾ .

والمراد بمجىء هذا الأمر : اقتراب وقته ، ودنو ساعته ، وظهور علاماته وقوله - تعالى - : ﴿ وفار التنور ﴾ بيان وتفسير لمجىء هذا الأمر ، وحلول وقت إهلاكهم .

وقوله : ﴿ فار ﴾ من الفوران . بمعنى شدة الغليان للماء وغيره . يقال للماء فار إذا اشتد غليانه . ويقال للنار فارت إذا عظم هيجانها . ومنه قوله - تعالى - ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهى تفور ﴾ .

وللمفسرين فى المراد بلفظ ﴿ التنور ﴾ أقوال منها : أن المراد به الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الفرن .

ومنها أن المراد به وجه الأرض . أو موضع اجتماع الماء فى السفينة ، أو طلوع الفجر .. وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال : وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : وهو التنور الذى يخبز فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ..[١] .

ويبدو أن فوران التنور كان علامة لنوح على أن موعد إهلاك الكافرين من قومه قد اقترب .

أى : فإذا اقترب موعد إهلاك قومك الظالمين يا نوح ، ومن علامة ذلك أن ينبع الماء من التنور ويفور فورانًا شديدًا ﴿ فاسلك فيها ﴾ فأدخل فى السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ ولفظ ﴿ زوجين ﴾ تثنية زوج . والمراد به هنا : الذكر والأنثى من كل نوع .

وقراءة الجمهور : ﴿ من كلِّ زوجين اثنين ﴾ بدون تنوين للفظ كل ، وبإضافته إلى زوجين ... .

وقرأ حفص ﴿ من كلٍّ زوجين اثنين ﴾ بتنوين كل ، وهو تنوين عوض عن مضاف إليه . والتقدير : فأدخل فى السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرًا وأنثى ، ويكون لفظ ﴿ زوجين ﴾ مفعولاً لقوله ﴿ فاسلك ﴾ ولفظ اثنين : صفة له .

والمراد بأهله فى قوله - تعالى - ﴿ وأهلك ﴾ : أهل بيته كزوجته وأولاده المؤمنين ، ويدخل فيهم كل من آمن به - عليه السلام - سواء أكان من ذوى قرابته أم من غيرهم ، بدليل قوله - تعالى - فى سورة هود : ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

وجملة: ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ استثناء من الأهل. والمراد بمن سبق عليه القول منهم : من بقى على كفره ولم يؤمن برسالة نوح - عليه السلام - كزوجته وابنه كنعان .

أى : أدخل فى السفينة ذكرًا وأنثى من أنواع المخلوقات ، وأدخل فيها - أيضًا - المؤمنين من أهلك ومن غيرهم ، إلا الذين سبق منا القول بهلاكهم بسبب إصرارهم على الكفر . فلا تدخلهم فى السفينة ، بل اتركهم خارجها ليغرقوا مع المغرقين .

قال الآلوسى : وجىء بعلى فى قوله : ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ لكون السابق ضارا ، كما جىء باللام فى قوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ لكون السابق نافعًا ﴾[٢] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ٢٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢٧ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ نهى منه - سبحانه - لنوح - عليه السلام - عن الشفاعة لهؤلاء الكافرين ، أو عن طلب تأخير العذاب المهلك لهم .

أى : اترك يا نوح هؤلاء الظالمين ، ولا تكلمنى فى شأنهم ، كأن تطلب الشفاعة لهم أو تأخير العذاب عنهم ، فإنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة . ولا مبدل لحكمى أو إرادتى .

ويبدو - والله أعلم - أن هذه الجملة الكريمة ، كانت نهيا من الله - تعالى - لنوح عن الشفاعة فى ابنه الذى غرق مع المغرقين ، والذى حكى القرآن فى سورة هود أن نوحًا قد قال فى شأنه : ﴿ رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه نوحًا إلى ما يقوله بعد أن يستقر فى السفينة فقال - سبحانه - : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك ﴾ من أهلك وأتباعك المؤمنين ﴿ على الفلك ﴾ .

أى : السفينة التى علمناك عن طريق وحينا كيفية صنعها بإحكام وإتقان ﴿ فقل ﴾ يانوح على سبيل الشكر لنا ، والتقدير لذاتنا ﴿ الحمد لله الذى نجانا ﴾ بفضله وكرمه ﴿ من القوم الظالمين ﴾ الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الضلالة على الهداية ، وتطاولوا على نبيهم الذى جاء لسعادتهم .

﴿ وقل ﴾ - أيضًا - يا نوح ﴿ رب أنزلنى مُنزَلًا مباركًا ﴾ أى : أنزلنى إنزالًا ، أو مكان إنزال مباركًا - أى مليئًا بالخيرات والبركات ، خاليًا مما حل بالظالمين من إغراق وإهلاك . ﴿ وأنت ﴾ يا إلهى ﴿ خير المنزلين ﴾بفضلك وكرمك فى المكان الطيب المبارك .

ثم عقب - سبحانه - على ما اشتملت عليه قصة نوح من حكم وآداب بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه ﴿ لآيات ﴾ بينات ، ودلالات واضحات ، على أن هذا القرآن من عندنا لا من عند غيرنا ، وعلى أن العاقبة للمؤمنين ، وسوء المنقلب للكافرين .

و « إن » فى قوله ﴿ وإن كنا ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واللام فى قوله ﴿ لمبتلين ﴾ هى الفارقة بينها وبين إن النافية ، والجملة حالية ، والابتلاء : الاختبار والامتحان ...

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن نوح وقومه لآيات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ، والحال والشأن أن من سنتنا أن نبتلى الناس بالنعم وبالنقم ، وبالخير وبالشر . ليتبين من يعتبر ويتعظ ، وليتميز الخبيث من الطيب ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وإن

الله لسميع عليم .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن قصص الأولين ، فتحكى لنا قصة أقوام آخرين مع نبى من أنبيائهم فتقول :

ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

أى : ثم أنشأنا من بعد أولئك القوم المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحًا - عليه السلام - ، ﴿ قرنًا آخرين ﴾ غيرهم ، وهم على الأرجح - قوم هود - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى فى شأنهم : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ... ﴾[1] .

(١) سورة الأعراف آية ٦٩ .

كما أن قصة هود مع قومه ، كثيراً ما تأتى بعد قصة نوح مع قومه .

وقيل : هم قوم صالح - عليه السلام - .

وعلى أية حال فإن سورة « المؤمنون » فى عرضها لقصص الأنبياء تحرص على بيان أن استقبال المكذبين لأنبيائهم كان متشابهاً فى القبح والتكذيب .

وقال - سبحانه - ﴿ قرناً آخرين ﴾ للإشعار بأنهم كانوا يعيشون فى زمان واحد مع نبيهم ، وأنهم كانوا معاصرين له ، ومشاهدين لأحواله قبل البعثة وبعدها .

ثم بين - سبحانه - أنه امتن عليهم بإرسال رسول فيهم فقال : ﴿ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. ﴾ .

أى : كان من مظاهر رحمتنا ومنتنا على هؤلاء القوم الآخرين الذين جاءوا بعد إهلاك قوم نوح ، أن أرسلنا فيهم رسولاً منهم نشأ بين أظهرهم وعرفوا حسبه ونسبه ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس لكم من إله سواه ، لأنه - سبحانه - هو الذى أوجدكم فى هذه الحياة .. ﴿ أفلا تتقون ﴾ بأسه وعقابه إذا ما عبدتم غيره ؟!.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما رد به هؤلاء المشركون الجاحدون على نبيهم فقال : ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم .. ﴾ .

أى : وقال الأغنياء والزعماء من قوم هذا النبى ، الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وكذبوا بالبعث والجزاء الذى يكون فى الآخرة ، والذين أبطرتهم النعمة التى أنعمنا عليهم بها فى دنياهم ...

قالوا لنبيهم بجفاء وسوء أدب لكى يصرفوا غيرهم عن الإيمان به : ما هذا الذى يدعى النبوة ﴿ إلا بشر مثلكم ﴾ وكأنهم يرون - لغبائهم وانطماس عقولهم - أن الرسول لا يكون من البشر ، أو يرون جوازكونه من البشر ، إلا أنهم قالوا ذلك على سبيل المكر ليصدوا أتباعهم وعامة الناس عن دعوته .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ما يؤكده فى نفوس الناس فقالوا : ﴿ يأكل مما تأكلون منه ﴾ من طعام ، وغذاء ، ﴿ ويشرب مما تشربون ﴾ من ماء وما يشبه الماء .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ﴿ ولئن أطعتم ﴾ أيها الناس ﴿ بشراً مثلكم ﴾ فى المأكل والمشرب والملبس والعادات .. ﴿ إنكم إذاً ﴾ بسبب هذه الطاعة ﴿ لخاسرون ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن الله - تعالى - وصف هؤلاء الجاحدين بالغنى والجاه ، وأنهم من قوم هذا النبى فازداد حسدهم له وحقدهم عليه ، وأنهم أصلاء فى الكفر ، وفى التكذيب باليوم الآخر ، وأنهم - فوق كل ذلك - من المترفين الذين عاشوا حياتهم فى اللهو واللعب والتقلب فى ألوان الملذات .. ولا شىء يفسد الفطرة ، ويطمس القلوب ، ويعمى النفوس والمشاعر عن سماع كلمة الحق . كالترف والتمرغ فى شهوات الحياة .

لذا تراهم فى شبهتهم الأولى يحاولون أن يصرفوا الناس عن هذا النبى ، بزعمهم أنه بشر ، يأكل مما يأكل منه الناس ، ويشرب مما يشربون منه ، والعقلاء فى زعمهم - لا يتبعون نبيًا من البشر ، لأن اتباعه يؤدى إلى الخسران المبين .

ولقد نهجوا فى قولهم الباطل هذا ، نهج قوم نوح من قبلهم ، فقد قالوا فى شأنه : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم .. ﴾ .

أما شبهتهم الثانية التى أثاروها لصرف الناس عن الحق . فقد حكاها القرآن فى قوله عنهم : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا أنكم مخرجون .. ﴾ . أى : أيعدكم هذا الذى يدعى النبوة - وهو بشر مثلكم - أنكم إذا فارقتم هذه الحياة وصرتم أمواتًا ، وصارت بعض أجزاء أجسامكم ترابًا وبعضها عظامًا نخرة ، أنكم مخرجون من قبوركم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء ؟ .

والاستفهام فى قوله ﴿ أيعدكم ﴾ للإنكار والتحذير من اتباع هذا النبى ، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من الصد عن الاستماع إلى ما جاءهم به نبيهم ، لأنه - فى زعمهم - يؤدى إلى الخسران .

وكرر - سبحانه - لفظ ﴿ أنكم ﴾ لبيان حرصهم على تأكيد أقوالهم الباطلة فى نفوس الناس ، حتى يفروا من وجه نبيهم .

ثم حكى - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بكل ما أثاروه من شبه لصرف أتباعهم عن الحق بل أضافوا إلى ذلك . أن ما يقوله هذا النبى مستبعد فى العقول ، وأنه رجل افترى على الله كذبا ..

فقال - تعالى - : ﴿ هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾ .

ولفظ « هيهات » اسم فعل ماض ، معناه : بَعُد بعدًا شديدًا ، والغالب فى استعمال هذا اللفظ مكررًا ، ويكون اللفظ الثانى مؤكدًا تأكيدًا لفظيًا للأول .

أى : قال الملأ من قوم هذا النبى لغيرهم ، على سبيل التحذير من اتباعه : بعد بعدًا كبيرًا ما يعدكم به هذا الرجل من أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء بعد الموت ، وأن هناك جنة ونارًا يوم القيامة .

قال الآلوسى : « وقوله - سبحانه - : ﴿ هيهات ﴾ اسم بمعنى بعد .

وهو فى الأصل اسم صوت ، وفاعله مستتر فيه يرجع للتصديق أو للصحة أو للوقوع أو نحو ذلك مما يفهم من السياق . والغالب فى هذه الكلمة مجيئهامكررة .. وقوله : ﴿ لما توعدون ﴾ بيان لمرجع ذلك الضمير ، فاللام متعلقة بمقدر ، كما فى قولهم : سقيا له . أى : التصديق أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون ..»[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا .. ﴾ بيان لتماديهم فى جحودهم وجهلهم وغرورهم .

أى : إنهم لم يكتفوا باستبعاد حصول البعث والجزاء يوم القيامة بل أضافوا إلى ذلك الإنكار الشديد لحصولها فقالوا : ما الحياة الحقيقية التى لا حياة بعدها إلا حياتنا الدنيا التى نحياها ، ولا وجود لحياة أخرى ، كما يقول هذا النبى - فنحن نموت كما مات آباؤنا ، ونحيا كما يولد أبناؤنا . وهكذا الدنيا فيها موت لبعض الناس ، وفيها حياة لغيرهم ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد الموت على الإطلاق .

ثم أضافوا إلى إنكارهم هذا للدار الآخرة ، تطاولاً على نبيهم ، واتهامًا له بما هو برىء منه ، فقالوا : ﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ... ﴾ أى : ما هذا النبى الذى أمركم بترك عبادة آلهتكم ، وأخبركم بأن هناك بعثًا وحسابًا ، إلا رجل اختلق على الله الكذب فيما يقوله ويدعو إليه ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ فى يوم من الأيام ، فكونوا مثلنا - أيها الناس - فى عدم الإيمان به ، وفى الانصراف عنه .

وهكذا يصور لنا القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، موقف الطغاة من دعوة الحق ، وكيف أنهم لا يكتفون بالانصراف عنها وحدهم ، بل يؤلبون غيرهم بكل وسيلة على الانقياد لهم ، وعلى محاربة من جاء بهذه الدعوة بمختلف السبل وشتى الطرق .

ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف النبى الذى أرسله الله - تعالى - لهؤلاء القوم الظالمين فيقول : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾ .

أى : قال ما قاله أخوه نوح من قبله : رب انصرنى على هؤلاء الجاحدين ، فأنت تعلم -

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٣١ .

يا إلهى - أنهم كذبوا ما جئتهم به من عندك .

وجاءت الاستجابة من الله - تعالى - لهذا النبى ، كما جاءت لأخيه نوح من قبله ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ .

أى : قال الله - عز وجل - لنبيه : لقد أجبنا دعاءك أيها النبى الكريم ، وبعد وقت قليل من الزمان . ليصبحن نادمين أشد الندم على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة ، ولكن هذا الندم لن ينفعهم لأنه جاء فى غير أوانه .

والجار والمجرور فى قوله ﴿ عما قليل ﴾ متعلق بقوله : ﴿ ليصبحن نادمين ﴾ أى : ليصبحن عن زمن قليل نادمين ، و « عن » هنا بمعنى بعد ، و« ما » جىء بها لتأكيد معنى القلة .

وأكد - سبحانه - قوله ﴿ ليصبحن ﴾ بلام القسم ونون التوكيد ، لبيان أن هذا الوعيد آت لا ريب فيه ، وفى وقت قريب .

وجاء الوعيد فعلاً . وأخبر - سبحانه - عن ذلك فقال : ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ... ﴾ . أى : فأهلكناهم إهلاكًا تامًا ، الصيحة التى صاحها بهم جبريل - عليه السلام - حيث صاح بهم مع الريح العاتية التى أرسلها الله عليهم فدمروا تدميرا .

وذكر - سبحانه - هنا الصيحة فقط مع أن قوم هود قد أهلكوا بها وبالريح الصرصر العاتية للإشعار بأن إحدى هاتين العقوبتين لو انفردت كافية لإهلاكهم ، فقد قال - سبحانه - فى شأن الريح التى أرسلها عليهم : ﴿ تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾[1] .

وقوله ﴿ بالحق ﴾ حال من الصيحة ، وهو متعلق بمحذوف ، والتقدير ، فأخذتهم الصيحة حالة كونها بالعدل الذى لا ظلم معه ، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم لنبيهم .

وقوله سبحانه - : ﴿ فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾ بيان لمصيرهم الأليم . والغثاء : الرميم الهامد الذى يحمله السيل من ورق الشجر وغيره ، يقال : غثا الوادى يغثو إذا كثر غثاؤه .

أى : فصيرناهم هلكى هامدين كغثاء السيل البالى ، الذى اختلط بزبده ، فهلاكًا وبعدًا لهؤلاء القوم الظالمين ، كما هلك وبعد من قبلهم قوم نوح - عليه السلام - .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٥ .

ثم تمضى السورة فى استعراضها - على سبيل الإجمال - لقصص بعض الأنبياء ، قال - تعالى - :

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

أى : ﴿ ثم أنشأنا ﴾ من بعد قوم نوح وقوم هود ﴿ قرونًا آخرين ﴾ أى : أقوامًا آخرين من الناس ، كل قوم كانوا مجتمعين فى زمان واحد ، كقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم .

وقوله عز وجل - : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - وإحكامه لشئون خلقه ..

أى : ما تسبق أمة من الأمم أجلها الذى قدرناه لها ساعة من الزمان ، ولا تستأخر عنه ساعة ، بل الكل نهلكه ونميته فى الوقت الذى حددناه بقدرتنا وحكمتنا .

و « من » فى قوله ﴿ من أمة ﴾ مزيدة للتأكيد : وفى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - على سبيل الإجمال ، أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسلاً آخرين ، متتابعين فى إرسالهم . كل واحد يأتى فى أعقاب أخيه . ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فقال - تعالى - : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى .. ﴾ .

ولفظ ﴿ تترى ﴾ مصدر كدعوى ، وألفه للتأنيث وأصله : وَتْرى فقلبت الواو تاء ، وهو منصوب على الحال من رسلنا .

أى : ثم أرسلنا بعد ذلك رسلنا متواترين متتابعين واحدًا بعد الآخر ، مع فترة ومهلة من الزمان بينهما .

قال القرطبى : ومعنى « تترى » : تتواتر ، ويتبع بعضهم بعضًا ترغيبًا وترهيبًا ..

قال الأصمعى : واترت كتبى عليه ، أتبعت بعضها بعضًا إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة .. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ تترًى ﴾ بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ، كقولك : حمدًا وشكرًا ..[2] .

ثم بين - سبحانه - موقف كل أمة من رسولها فقال : ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ... ﴾ .

أى : كلما جاء رسول كل أمة إليها ليبلغها رسالة الله - تعالى - وليدعوها إلى عبادته وحده - سبحانه - كذب أهل هذه الأمة هذا الرسول المرسل إليهم . وأعرضوا عنه وآذوه ...

قال ابن كثير : « وقوله : ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ يعنى جمهورهم وأكثرهم ، كقوله - تعالى - ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾[3] .

وأضاف - سبحانه - الرسول إلى الأمة ، للإشارة إلى أن كل رسول قد جاء إلى الأمة

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٢٥ .
(٣) سورة يس الآية ٣٠ .

المرسل إليها . وفى التعبير بقوله : ﴿ كلما جاء ... ﴾ إشعار بأنهم قابلوه بالتكذيب . بمجرد مجيئه إليهم ، أى : إنهم بادروه بذلك بدون تريث أو تفكر .

فماذا كانت عاقبتهم ؟ كانت عاقبتهم كما بينها - سبحانه - فى قوله : ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضًا وجعلناهم أحاديث فبعدًا لقوم لا يؤمنون ﴾ .

أى : فأتبعنا بعضهم بعضًا فى الهلاك والتدمير ، وجعلناهم بسبب تكذيبهم لرسلهم أحاديث يتحدث الناس بها على سبيل التعجب والتلهى ، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم السيئة . وذكرهم القبيح ﴿ فبعدًا ﴾ وهلاكًا لقوم لا يؤمنون بالحق ، ولا يستجيبون للهدى .

قال صاحب الكشاف : « وقوله ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أى : أخبارًا يسمر بها ، ويتعجب منها . والأحاديث تكون اسم جمع للحديث ، ومنه أحاديث رسول الله - ﷺ - وتكون جمعًا للأحدوثة : التى هى مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة . وهى : مما يتحدث به الناس تلهيًا وتعجبًا ، وهو المراد هنا »[1] .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - فقال : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قومًا عالين ﴾ .

أى : ثم أرسلنا من بعد أولئك الأقوام المهلكين الذين جعلناهم أحاديث ﴿ موسى وأخاه هارون بآياتنا ﴾ الدالة على قدرتنا ، وهى الآيات التسع وهى : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وزودناه مع هذه الآيات العظيمة بسلطان مبين ، أى : بحجة قوية واضحة ، تحمل كل عاقل على الإيمان به ، وعلى الاستجابة له .

وكان هذا الإرسال منا لموسى وهارون إلى فرعون وملئه ، أى : وجهاء قومه وزعمائهم الذين يتبعهم غيرهم .

﴿ فاستكبروا ﴾ جميعًا عن الاستماع إلى دعوة موسى وهارون - عليهما السلام ، ﴿ وكانوا قومًا عالين ﴾ أى : مغرورين متكبرين ، مسرفين فى البغى والعدوان .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الغرور والتكبر من فرعون وملئه فقال : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ وهما موسى وهارون ﴿ وقومهما ﴾ أى : بنو إسرائيل الذين منهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٨٠ .

موسى وهارون ﴿ لنا عابدون ﴾ أى : مسخرون خاضعون منقادون لنا كما ينقاد الخادم لمخدومه .

فأنت ترى أن فرعون وملأه ، قد أعرضوا عن دعوة موسى وهارون ، لأنهما - أولاً - بشر مثلهم ، والبشرية - فى زعمهم الفاسد - تتنافى مع الرسالة والنبوة ، ولأنهما - ثانيًا - من قوم بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيته ، ولا يليق - فى طبعهم المغرور - أن يتبع فرعون وحاشيته من كان من هؤلاء القوم المستضعفين .

قال الآلوسى : « وقوله : ﴿ فقالوا ﴾ عطف على ﴿ استكبروا ﴾ وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار ، والمراد : فقالوا فيما بينهم .. وثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله - تعالى - ﴿ بشرًا سويا ﴾ وعلى الجمع ، كما فى قوله : - تعالى - ﴿ فإما ترين من البشر أحدًا .. ﴾ ولم يثن ﴿ مثل ﴾ نظرا إلى كونه فى حكم المصدر ، ولو أفرد البشر لصح ، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره ، وكذا لو ثنى المثل ، فإنه جاء مثنى فى قوله : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾[1] ومجموعًا كما فى قوله : ﴿ ... ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[2]. وهذه القصص - كما ترى - تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة ، قياس حال الأنبياء على أحوالهم ، بناء على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال .. ومن عجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضى أكثرهم للإلهية بحجر .. »[3] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة فرعون وملئه فقال : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ .

أى : فكذب فرعون وأتباعه موسى وهارون - عليهما السلام - فيما جاءا به من عند ربهما - عز وجل - فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعًا .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه لموسى بعد هلاك فرعون وقومه فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ .

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ لعلهم ﴾ يعود إلى قوم موسى من بنى إسرائيل . لأنه من المعروف أن التوراة أنزلت على موسى بعد هلاك فرعون وملئه ..

أى : ولقد آتينا موسى - بفضلنا وكرمنا - الكتاب المشتمل على الهداية والإرشاد ، وهو التوراة ، ﴿ لعلهم ﴾ أى : بنى إسرائيل ﴿ يهتدون ﴾ إلى الصراط المستقيم ، بسبب اتباعهم لتعاليمه ، وتمسكهم بأحكامه . فالترجى فى قوله ﴿ لعلهم ﴾ إنما هو بالنسبة لهم .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(٢) سورة محمد الآية ٣٨ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٣٦ .

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، حيث أوجد عيسى من غير أب وجعل أمه مريم تلده من غير أن يمسها بشر . فقال - تعالى - ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ... ﴾ .

أى : وجعلنا نبينا عيسى - عليه السلام - ، كما جعلنا أمه مريم ، آية واضحة وحجة عظيمة ، فى الدلالة على قدرتنا النافذة التى لا يعجزها شىء .

قال أبو حيان : « قوله : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ أى : جعلنا قصتهما ، وهى آية عظمى بمجموعها ، وهى آيات مع التفصيل ، ويحتمل أن يكون حذف من الأول « آية » لدلالة الثانى ، أى : وجعلنا ابن مريم آية ، وأمه آية »[2] .

وقوله - تعالى - ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ بيان لجانب مما أنعم - به سبحانه - على عيسى وأمه .

والربوة : المكان المرتفع من الأرض . وأصلها من قولهم : ربا الشىء يربو ، إذا ازداد وارتفع ، ومنه الربا لأنه زيادة أخذت على أصل المال .

ومعين : اسم مفعول من عانه إذا أدركه وأبصره بعينه ، فالميم زائدة ، وأصله معيون كمبيوع ثم دخله الإعلال . والكلام على حذف مضاف . أى : وماء بعين .

أى : ومن مظاهر رعايتنا وإحساننا إلى عيسى وأمه أننا آويناهما وأسكناهما ، وأنزلناهما فى جهة مرتفعة من الأرض ، وهذه الجهة ذات قرار ، أى : ذات استقرار لاستوائها وصلاحيتها للسكن لما فيها من الزروع والثمار ، وهى فى الوقت ذاته ينساب الماء الظاهر للعيون فى ربوعها .

قالوا : والمراد بهذه الربوة : بيت المقدس بفلسطين ، أو دمشق ، أو مصر .

والمقصود من الآية الكريمة : الإشارة إلى إيواء الله - تعالى - لهما ، فى مكان طيب ، ينضر فيه الزرع ، وتطيب فيه الثمار ، ويسيل فيه الماء ويجدان خلال عيشهما به الأمان والراحة .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء ، بتوجيه خطاب إلى الرسل جميعًا ، أمرهم فيه بالأكل من الطيبات ، وبالتزود من العمل الصالح ، فقال - تعالى - : ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ، إنى بما تعملون عليم ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية ٤٣ .

(٢) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ٤٠٨ .

ووجه - سبحانه - الخطاب إلى الرسل جميعًا ، مع أن الموجود منهم عند نزول الآية واحد فقط ، وهو الرسول - ﷺ - للدلالة على أن كل رسول أمر فى زمنه بالأكل من الطيبات التى أحلها - تعالى - وبالعمل الصالح .

وفى الآية إشارة إلى أن المداومة على الأكل من الطيبات التى أحلها الله ، والتى لا شبهة فيها ، له أثره فى مواظبة الإنسان على العمل الصالح .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يأمر الله - تعالى - عباده المرسلين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بهذا أتم قيام ، وجمعوا بين كل خير . قولاً وعملاً . ودلالة ونصحًا .

ثم ساق - رحمه الله - عددًا من الأحاديث فى هذا المعنى منها : أن أم عبد الله - بنت شداد بن أوس - بعثت إلى رسول الله - ﷺ - بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك مع طول النهار وشدة الحر . فرد إليها رسولها : أنّى كانت لك الشاة ؟ - أى : على أية حال تملكينها - فقالت : اشتريتها من مالى ، فشرب منه ، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله فقالت له : يارسول الله . بعثتُ إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر ، فرددت إلىّ الرسول فيه ؟ فقال لها : « بذلك أمرت الرسل . أن لا تأكل إلا طيبًا ولا تعمل إلا صالحًا » .

ومنها : ما ثبت فى صحيح مسلم . عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « يأيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ... ﴾ وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه من حرام . ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام ، وغذى بالحرام . يمد يديه إلى السماء : يارب يارب فأنى يستجاب لذلك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنى بما تعملون عليم ﴾ تحذير من مخالفة ما أمر به - تعالى - .

أى : إنى بما تعملون - أيها الرسل وأيها الناس - عليم فأجازيكم على هذا العمل بما تستحقون .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة .. ﴾ جملة مستأنفة .

والمراد بالأمة هنا : الشريعة والدين الذى أنزله الله - تعالى - على أنبيائه ورسله ، أى : وإن شريعتكم - أيها الرسل - جميعًا هى شريعة واحدة لا تختلف فى أصولها التى تتعلق

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٧١ .

بالعقائد والعبادات والمعاملات ، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية .

وقرأ بعض القراء السبعة : ﴿ وأن هذه أمتكم .. ﴾ بفتح الهمزة ، على أن الآية من جملة ما خوطب به الرسل .

والتقدير : واعلموا - أيها الرسل - أن ملتكم وشريعتكم ، ملة واحدة ، وشريعة واحدة فى عقائدها وأصول أحكامها .

﴿ وأنا ربكم ﴾ لا شريك لى فى الربوبية ﴿ فاتقون ﴾ أى : فخافوا عقابى ، واحذروا مخالفة أمرى ، وصونوا أنفسكم من كل ما نهيتكم عنه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال المصرين على كفرهم وضلالهم من دعوة الرسل عليهم - الصلاة والسلام - فقال :

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فتقطعوا ﴾ لترتيب حالهم وما هم عليه من تفرق وتنازع واختلاف ، على ما سبق من أمرهم بالتقوى ، واتباع ما جاءهم به الرسل .

وضمير الجمع يعود إلى الأقوام السابقين الذين خالفوا رسلهم ، وتفرقوا شيعًا وأحزابًا .

وقوله ﴿ زبرًا ﴾ حال من هذا الضمير . ومفرده زُبْرَة - كغرفة - بمعنى : قطعة . والمراد به هنا : طائفة من الناس . والمراد بأمرهم : أمر دينهم الذى هو واحد فى الأصل .

أى : أن هؤلاء الأقوام الذين جاء الرسل لهدايتهم ، لم يتبعوا دين رسلهم بل تفرقوا فى شأنه شيعًا وأحزابًا ، فمنهم أهل الكتاب الذين قال بعضهم : عزير ابن الله ، وقال بعضهم : المسيح ابن الله ، ومنهم المشركون الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصنامًا لا تضر ولا تنفع ، وصار كل حزب من هؤلاء المعرضين عن الحق ، مسرورًا بما هو عليه من باطل ، وفرحًا بما هو فيه من ضلال .

والآية القرآنية بأسلوبها البديع ، تسوق هذا التنازع من هؤلاء الجاهلين فى شأن الدين الواحد ، فى صورة حسية ، يرى المتدبر من خلالها ، أنهم تجاذبوه فيما بينهم ، حتى قطعوه فى أيديهم قطعًا ، ثم مضى كل فريق منهم بقطعته وهو فرح مسرور ، مع أنه - لو كان يعقل - لما

انحدر إلى هذا الفعل القبيح ، ولما فرح بعمل شىء من شأنه أن يحزن له كل عاقل .

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فذرهم فى غمرتهم حتى حين ﴾ للرسول - ﷺ - والضمير المنصوب « هم » للمشركين .

والغمرة فى الأصل : الماء الذى يغمر القامة ويسترها ، إذ المادة تدل على التغطية والستر . يقال : غمر الماء الأرض إذا غطاها وسترها . ويقال : هذا رجل غُمْر - بضم الغين وإسكان الميم - إذا غطاه الجهل وجعله لا تجربة له بالأمور . ويقال : هذا رجل غِمْر - بكسر الغين - إذا غطى الحقد قلبه والمراد بالغمرة هنا : الجهالة والضلالة ، والمعنى : لقد أديت - أيها الرسول - الرسالة ، ونصحت لقومك . وبلغتهم ما أمرك الله - تعالى - بتبليغه ، وعليك الآن أن تترك هؤلاء الجاحدين المعاندين فى جهالاتهم وغفلتهم وحيرتهم ﴿ حتى حين ﴾ أى : حتى يأتى الوقت الذى حددناه للفصل فى أمرهم بما تقتضيه حكمتنا .

وجاء لفظ « حين » بالتنكير ، لتهويل الأمر وتفظيعه .

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك فى السخرية منهم لغفلتهم عن هذا المصير المحتوم ، الذى سيفاجئهم بما لا يتوقعون . فيقول : ﴿ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات ، بل لا يشعرون ﴾ .

والهمزة فى قوله ﴿ أيحسبون ﴾ للاستفهام الإنكارى . و « ما » موصوله ، وهى اسم « أن » وخبرها جملة « نسارع لهم ... » والرابط مقدر أى : به .

أى : أيظن هؤلاء الجاهلون . أن ما نعطيهم إياه من مال وبنين ، هو من باب المسارعة منا فى إمدادهم بالخيرات لرضانا عنهم وإكرامنا لهم ؟ كلا : ما فعلنا معهم ذلك لتكريمهم ، وإنما فعلنا ذلك معهم لاستدراجهم وامتحانهم ، ولكنهم لا يشعرون بذلك . ولا يحسون به لانطماس بصائرهم ولاستيلاء الجهل والغرور على نفوسهم .

فقوله - سبحانه - ﴿ بل لا يشعرون ﴾ إضراب انتقالى عن الحسبان المذكور وهو معطوف على مقدر ينسحب إليه الكلام .

أى : ما فعلنا ذلك معهم لإكرامنا إياهم كما يظنون ، بل فعلنا ما فعلنا استدراجا لهم ، ولكنهم لا شعور لهم ولا إحساس ، وما هم إلا كالأنعام بل هم أضل .

لذا قال بعض الصالحين : من يعص الله - تعالى - ولم ير نقصانًا فيما أعطاه - سبحانه - من الدنيا . فليعلم أنه مستدرج قد مكر به .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[1] .

* * *

وبعد أن صورت السورة الكريمة حالة أصحاب القلوب التى غمرها الجهل والعمى ، أتبعت ذلك بإعطاء صورة وضيئة مشرقة لأصحاب القلوب الوجلة المؤمنة ، المسارعة فى الخيرات فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ بيان للصفة الأولى من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين .

والإشفاق : هو الخوف من الله - تعالى - والخشية منه - سبحانه - مع شدة الرقة فى القلب وكثرة الخوف من عقابه .

أى : أنهم من خشية عقابه - عز وجل - حذرون خائفون ، وهذا شأن المؤمنين الصادقين ، كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ بيان للصفة الثانية أى : أنهم يؤمنون إيمانا راسخا بجميع آيات الله - سبحانه - الدالة على وحدانيته وقدرته ، سواء أكانت تلك الآيات تنزيلية أم كونية .

---

(١) سورة القلم الآية ٤٤ ، ٤٥ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ صفة ثالثة لهم . أى : أنهم يخلصون العبادة لله - تعالى - وحده ، ويقصدون بأقوالهم وأعمالهم وجهه الكريم ، فهم بعيدون عن الرياء والمباهاة بطاعاتهم .

ثم بين - سبحانه - صفتهم الرابعة فقال : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ .

قرأ القراء السبعة ﴿ يؤتون ما آتوا ﴾ بالمد ، على أنه من الإتيان بمعنى الإعطاء ، والوجل : استشعار الخوف . يقال : وَجِل فلان وَجَلاً فهو واجل ، إذا خاف ، أى : يعطون ما يعطون من الصدقات وغيرها من ألوان البر ، ومع ذلك فإن قلوبهم خائفة أن لا يقبل منهم هذا العطاء ، لأى سبب من الأسباب فهم كما قال بعض الصالحين : لقد أدركنا أقوامًا كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم ، أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : أى : يعطون العطاء وهم خائفون أن لا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .

كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : « يارسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله - عز وجل - ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله - تعالى - » .

ثم قال - رحمه الله - وقد قرأ آخرون : ﴿ والذين يأتون ما أتوا .. ﴾ من الإتيان . أى : يفعلون ما فعلوا وهم خائفون .. .

والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور : السبعة وغيرهم - أظهر لأنه قال - بعد ذلك - ﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ فجعلهم من السابقين ، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى ، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين ، بل من المقتصدين أو المقتصرين[1] .

وجملة ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ حال من الفاعل فى قوله - تعالى - ﴿ يؤتون ﴾ .

وجملة ﴿ أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ تعليلية بتقدير اللام ، وهى متعلقة بقوله : ﴿ وجلة ﴾ .

أى : وقلوبهم خائفة من عدم القبول لأنهم إلى ربهم راجعون ، فيحاسبهم على بواعث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٧٤ .

أقوالهم وأعمالهم ، وهم – لقوة إيمانهم – يخشون التقصير فى أى جانب من جوانب طاعتهم له – عز وجل – .

وقد جاءت هذه الصفات الكريمة – كما يقول الإمام الرازى – فى نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى ، والثانية : دلت على قوة إيمانهم بآيات ربهم ، والثالثة دلت على شدة إخلاصهم ، والرابعة : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله – سبحانه – الوصول إليها[1] .

واسم الإشارة فى قوله – تعالى – : ﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات ﴾ يعود إلى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات الجليلة .

وهذه الجملة خبر عن قوله – تعالى – : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ وما عطف عليه ، فاسم « إن » : أربع موصولات ، وخبرها جملة ﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات .. ﴾ .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات ، يبادرون برغبة وسرعة إلى فعل الخيرات ، وإلى الوصول إلى ما يرضى الله – تعالى – ﴿ وهم لها ﴾ أى : لهذه الخيرات وما يترتب عليها من فوز وفلاح ﴿ سابقون ﴾ لغيرهم .

ثم ختم – سبحانه – هذه الآيات الكريمة المشتملة على صفات المؤمنين الصادقين ، ببيان أن هذه الصفات الجليلة لم تكلف أصحابها فوق طاقتهم ، لأن الإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يجعلها لا تحس بالمشقة عند فعل الطاعات ، وإنما يجعلها تحس بالرضا والسعادة والإقدام على فعل الخير بدون تردد ، فقال – تعالى – ﴿ ولا نكلف نفسًا إلا وسعها .. ﴾.

أى : وقد جرت سنتنا فيما شرعناه لعبادنا من تشريعات ، أننا لا نكلف نفسًا من النفوس إلا فى حدود طاقتها وقدرتها. كما قال – تعالى –: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾[2].

والمراد بالكتاب فى قوله – تعالى – : ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق .. ﴾ كتاب الأعمال الذى يحصيها الله – تعالى – فيه ويشهد لذلك قوله – سبحانه – : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[3] وقوله – تعالى – ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه .. ﴾[4] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٠٠ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٣) سورة الجاثية الآية ٢٩ .
(٤) سورة الكهف الآية ٤٩ .

والمراد بنطق الكتاب بالحق : أن كل ما فيه حق وصدق . أى : ولدينا صحائف أعمالكم ، التى سجلها عليكم الكرام الكاتبون ، وفيها جميع أقوالكم وأفعالكم فى الدنيا ، بدون زيادة أو نقصان ، بل هى مشتملة على كل حق وصدق فقد اقتضت حكمتنا وعدالتنا أننا لا نظلم أحدًا وإنما نعطى كل إنسان ما يستحقه من خير ، ونعفو عن كثير من الهفوات .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد مدحت المؤمنين الصادقين ، ووصفتهم بما هم أهله من صفات كريمة .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن أحوال الكافرين ، فتوبخهم على استمرارهم فى غفلتهم ، وتصور جزعهم وجؤارهم عند ما ينزل بهم العذاب فتقول :

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

قال الجمل : قوله - تعالى - : ﴿ بل قلوبهم ... ﴾ هذا رجوع لأحوال الكفار المحكية فيما سبق بقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم ... ﴾ والجمل التى بينهما وهى قوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم ﴾ إلى قوله ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ اعتراض فى خلال الكلام المتعلق بالكفار[1] .

أى : هذه هى أوصاف المؤمنين الصادقين ، أما الكافرون فقلوبهم فى ﴿ غمرة من هذا ﴾ أى : فى جهالة وغفلة مما عليه هؤلاء المؤمنون من صفات حميدة ، ومن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وهؤلاء الكافرون ﴿ لهم أعمال ﴾ سيئة كثيرة ﴿ من دون ذلك ﴾ أى من غير ما ذكرناه عنهم من كون قلوبهم فى غمرة وجهالة عن الحق ﴿ هم لها عاملون ﴾ أى : هم مستمرون عليها ، ومعتادون لفعلها مندفعون فى ارتكابها بدون وعى أو تدبر .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٩٦ .

وقوله - تعالى - ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ مقرر لمضمون ما قبله ، من إعراضهم عن آيات الله . ونكوصهم على أعقابهم عند سماعها .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يرى جمهور المفسرين أنه يعود إلى البيت الحرام ، والباء للسببية .

وقوله : « سامرا » اسم جمع كحاج وحاضر وراكب ، مأخوذ من السمر وأصله ظل القمر وسمى بذلك لسمرته ، ثم أطلق على الحديث بالليل . يقال : سمر فلان يسمر - ككرم يكرم - إذا تحدث ليلاً مع غيره بقصد المسامرة والتسلية .

وقوله : ﴿ تهجرون ﴾ قرأه الجمهور - بفتح التاء وضم الجيم - مأخوذ من الهجر - بإسكان الجيم - بمعنى الصد والقطيعة ، أو من الهجر - بفتح الجيم - بمعنى الهذيان والنطق بالكلام الساقط ، بسبب المرض أو الجنون .

وقرأ نافع ﴿ تهجرون ﴾ بضم التاء وكسر الجيم - مأخوذ من هجر هجارًا إذا نطق بالكلام القبيح .

والمعنى : قد كانت آياتى تتلى عليكم - أيها المستغيثون من العذاب - فكنتم تعرضون عنها ، ولم تكتفوا بهذا الإعراض ، بل كنتم متكبرين على المسلمين بالبيت الحرام ، وكنتم تتسامرون بالليل حوله ، فتستهزئون بالقرآن ، وبالرسول - ﷺ - وبتعاليم الإسلام وتنطقون خلال سمركم بالقول الباطل ، الذى يدل على مرض قلوبكم ، وفساد عقولكم ، وسوء أدبكم .

وقوله : ﴿ مستكبرين ﴾ و ﴿ سامرا ﴾ و ﴿ تهجرون ﴾ أحوال ثلاثة مترادفة على واو الفاعل فى ﴿ تنكصون ﴾ أو متداخلة ، بمعنى أن كل كلمة منها حال مما قبلها .

قال القرطبى: ﴿ مستكبرين ﴾ حال ، والضمير فى ﴿ به ﴾ قال الجمهور: هو عائد على الحرم ، أو المسجد ، أو البلد الذى هو مكة . وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر .

أى : يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل فيستكبرون لذلك .

وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن ، من حيث ذكرت الآيات .

والمعنى : يحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغيانًا فلا تؤمنوا بى .. »[1] .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور حسرة المشركين وجؤارهم يوم ينزل بهم

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٣٦ .

ثم بين - سبحانه - عندما ينزل بهم العذاب فقال : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ .

وحتى هنا : ابتدائية ، أى : حرف تبتدئ بعده الجمل ، وجملة ﴿ إذا أخذنا ﴾ شرطية . وجوابها ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ .

والجؤار : الصراخ مطلقًا ، أو باستغاثة . يقال : جأر الثور يجأر إذا صاح .

وجأر الداعى إلى الله ، إذا ضج ورفع صوته بالتضرع إلى الله عز وجل .

أى : حتى إذا عاقبنا هؤلاء المترفين الذين أبطرتهم النعمة . بالعذاب الذى يردعهم ويخزيهم ويذلهم ، إذا هم يجأرون إلينا بالصراخ وبالاستغاثة .

وعبر عن عقابهم ، بالأخذ ، للإشعار بسرعة هذا العقاب وشدته ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ ... أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾[1] .

وخص المترفين بالذكر ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من التنعم والتمتع والتطاول فى الدنيا ، لن ينفعهم شيئًا عند نزول هذا العذاب بهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ تأنيب وزجر لهم على جؤارهم وصراخهم . والمراد باليوم . الوقت الذى فيه نزل العذاب بهم .

أى : عندما أخذناهم بالعذاب المباغت المفاجىء ، وضجوا بالاستغاثة والجؤار ، قلنا لهم على سبيل التقريع والزجر : لا تجأروا ولا تصرخوا فى هذا الوقت الذى أصابكم ما أصابكم فيه من عذاب . فإنكم لن تجدوا من ينجيكم من عذابنا ، أو من يدفع عنكم هذا العذاب ..

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أفضت بهم إلى هذا العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ... ﴾ .

والأعقاب : جمع عقب، وهو مؤخر القدم و﴿ تنكصون ﴾ من النكوص، وهو الرجوع إلى الخلف . يقال : فلان نكص على عقبيه ، إذا رجع إلى الوراء ، وهو هنا كناية عن الإعراض عن الآيات .

أى : لا تجأروا ولا تصرخوا ، فإن ذلك لن يفيدكم شيئًا ، بسبب إصراركم على كفركم فى حياتكم الدنيا ، فقد كانت آياتى الدالة على وحدانيتى تتلى على مسامعكم من نبينا - ﷺ - ومن المؤمنين به ، فكنتم تعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، وكنتم تستهزئون بها ، وتكادون تسطون بالذين يتلونها عليكم .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٤ .

العذاب تصويرًا بديعًا ، كما تبين ما كانوا عليه من غرور وسوء أدب ، مما جعلهم أهلاً لهذا المصير الأليم .

ثم تنتقل السورة الكريمة من تأنيبهم وتيئيسهم من الاستجابة لجؤراهم ، إلى سؤالهم بأسلوب توبيخى عن الأسباب التى أدت بهم إلى الإعراض عما جاءهم به رسولهم - ﷺ - فتقول :

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

قال الجمل : قوله - تعالى - : ﴿ أفلم يدبروا القول ... ﴾ شروع فى بيان أسباب حاملة لهم على ما سبق من قوله - تعالى - : ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ... ﴾ إلخ[1] .

والهمزة لإنكار ما هم فيه من عدم التدبر واستقباحه ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام : والمراد بالقول : القرآن الكريم وما اشتمل عليه من هدايات .

والمعنى : أفعلوا ما فعلوا من النكوص على الأعقاب ، ومن الغرور ومن الهذيان بالباطل من القول ، فلم يتدبروا هذا القرآن ، ولم يتفكروا فيما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة ..

إنهم لو تدبروه لوجدوا فيه من العظات والآداب والأحكام ، والقصص ، والعقائد ، والتشريعات .. ما يسعدهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٩٧ .

فالجملة الكريمة تحضهم على تدبر هذا القرآن ، لأنهم إن تدبروه تدبرا صادقًا . لعلموا أنه الحق الذى لا يحوم حوله باطل .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾(٢) .

وبعد أن وبخهم - سبحانه - على تركهم الانتفاع بالقرآن . أتبع ذلك بتقريعهم على أن ما جاءهم به الرسول - ﷺ - يتفق فى أصوله مع ما جاء به الرسل السابقون لآبائهم الأولين .

أى : أكذبوا رسولهم لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل لآبائهم ؟ كلا ، فإن ما جاءهم به الرسول - ﷺ - يطابق - فى جوهره - ما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهما ، من آبائهم الأولين .

قال - تعالى - ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا ، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. ﴾(٣) .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل ما كنت بدعًا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ... ﴾(٤) .

ويجوز أن يكون المعنى : أكذب هؤلاء الجاهلون رسولهم - ﷺ - لأنهم فى أمان من العذاب ، وهذا الأمان لم يكن فيه آباؤهم الأولون ؟

كلا ، وإن من شأن العقلاء أنهم لا يأمنون مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قال الآلوسى : وأم فى قوله - تعالى - ﴿أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين﴾ منقطعة ، وما فيها من معنى بل ، للإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر . والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع . أى : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين ، حتى استبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، بمعنى أن مجىء الكتب من جهته - تعالى - إلى الرسل سنة قديمة له - تعالى - وأن مجىء القرآن جار على هذه السنة فلماذا ينكرونه ؟

وقيل المعنى : أفلم يدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته ، ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ،

---

(١) سورة النساء آية ٨٢ .
(٢) سورة محمد آية ٢٤ .
(٣) سورة الشورى آية ١٣ .
(٤) سورة الأحقاف آية ٩ .

أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين ، حين خافوا الله - تعالى - فآمنوا به وبكتبه ورسله ، فالمراد بآبائهم : « المؤمنون » منهم كإسماعيل - عليه السلام ...[٥] .

ثم انتقلت السورة إلى توبيخهم - ثالثًا - على كفرهم مع علمهم بصدق الرسول وأمانته ، فقال - تعالى - ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ .

أى : أيكون سبب كفرهم أنهم لم يعرفوا رسولهم محمدًا - ﷺ - ؟ كلا فإن هذا لا يصلح سببًا ، إذ هم يعرفون حسبه ونسبه ، وأمانته ، وصدقه ، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته ، وأبوسفيان - قبل أن يدخل فى الإسلام - شهد أمام هرقل ملك الروم ، بأن الرسول - ﷺ - كان معروفا بصدقه وأمانته قبل البعثة .

ثم انتقلت السورة - للمرة الرابعة - إلى توبيخهم على أمر آخر ، فقال - تعالى - : ﴿أم يقولون به جنة ...﴾.

أى : أيكون سبب إصرارهم على كفرهم اتهامهم للرسول - ﷺ - بالجنون ؟ كلا ، فإنهم يعلمون حق العلم أن الرسول - ﷺ - هو أكمل الناس عقلا ، وأرجحهم فكرا ، وأثقبهم رأيا ، وأوفرهم رزانة .

وقوله - تعالى - ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ إضراب عما يدل عليه ما سبق من اتهامات باطلة دارت على ألسنة المشركين .

أى : ليس الأمر كما زعموا من أنه - ﷺ - به جنة أوأنه أتاهم بما لم يأت آباءهم الأولين ، بل الأمر الصدق ، أن الرسول - ﷺ - جاءهم بالحق الثابت الذى لايحوم حوله باطل ولكن هؤلاء القوم أكثرهم كارهون للحق ، لأنه يتعارض مع أنانيتهم وشهواتهم ، وأهوائهم ..

وقال - سبحانه - : ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ لأن قلة من هؤلاء المشركين كانت تعرف أن الرسول - ﷺ - قد جاءهم بالحق ، وتحب أن تدخل فى الإسلام ، ولكن حال بينهم وبين ذلك ، الخوف من تعيير أقوامهم لهم بأنهم فارقوا دين آبائهم وأجدادهم ، كأبى طالب - مثلا - فإنه مع دفاعه عن الرسول - ﷺ - بقى على كفره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله ﴿ وأكثرهم ﴾ فيه أن أقلهم كانوا لايكرهون الحق ؟ قلت : كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه ، وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه ، لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب .

(٥) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٥٠ .

فإن قلت : يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه ؟ قلت : يا سبحان الله . كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله - ﷺ - حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس - رضى الله عنهما - ويخفى إسلام أبى طالب »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان سينزل بالعالم من فساد . فيما لو اتبع الحق - على سبيل الفرض - أهواء هؤلاء المشركين ، فقال - تعالى - : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ... ﴾ .

والمراد بالحق هنا - عند كثير من المفسرين - هو الله - عز وجل - إذ أن هذا اللفظ من أسمائه - تعالى - .

والمعنى : ولو أجاب الله - تعالى - هؤلاء المشركين إلى ما يهوونه ويشتهونه من باطل وقبيح . لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ؛ لأن أهواءهم الفاسدة من شرك . وظلم ، وحقد ، وعناد ... ،لا يمكن أن يقوم عليها نظام هذا الكون البديع ، الذى أقمناه على الحق والعدل ..

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالحق هنا ما يقابل الباطل ويدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ .

فيكون المعنى : ولو اتبع الحق الذى جاءهم به الرسول - ﷺ - أهواء المشركين ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وذلك لأن الرسول - ﷺ - جاءهم بالتوحيد وهم يريدون الشرك ، وجاءهم بمكارم الأخلاق ، وهم يريدون ما ألفوه من شهوات ، وجاءهم بالتشريعات العادلة الحكيمة ، وهم يريدون التشريعات التى ترضى غرورهم وأوضاعهم الفاسدة ، والتى منها تفضيل الناس بحسب أحسابهم وغناهم ، لا بحسب إيمانهم وتقواهم ...

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأى الثانى ، لأنه أقرب إلى سياق الآيات ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ انتقال من توبيخهم على كراهيتهم للحق ، إلى توبيخهم على نفورهم مما فيه عزهم وفخرهم .

والمراد بذكرهم : القرآن الذى هو شرف لهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكاشف جـ ٣ ص ١٩٥ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

أى : كيف يكرهون الحق الذى جاءهم به رسولهم - ﷺ - مع أنه قد أتاهم بالقرآن الكريم الذى فيه شرفهم ومجدهم ؟ إن إعراضهم عن هذا القرآن ليدل دلالة قاطعة ، على غبائهم ، وجهلهم ، لأن العاقل لا يعرض عن شىء يرفع منزلته ، ويكرم ذاته .

ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الخامسة - إلى توبيخهم على كفرهم ، مع أن الرسول - ﷺ - لم يسألهم أجرًا على ما ينقذهم من ظلمات هذا الكفر إلى نور الإيمان . فقال - تعالى - : ﴿ أم تسألهم خرجًا .. ﴾ أى : أجرًا وجعلا وجزاء ...

أى : أيكون السبب فى عدم إيمانهم بك - أيها الرسول الكريم - أنك تسألهم أجراً على دعوتك لهم إلى إخلاص العبادة لنا ؟.

لا : ليس الأمر كما يتوهمون ، فإنك لم تسألهم أجرًا على دعوتك إياهم إلى الدخول فى الإسلام .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ أم يقولون به جنة .. ﴾ وما بينهما اعتراض وقوله - سبحانه - : ﴿ فخراج ربك خير ، وهو خير الرازقين ﴾ تعليل لنفى سؤاله إياهم الأجر على دعوتهم إلى الحق .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما طالبتهم بأجر على دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله - تعالى - وحده ، لأن ما أعطاك الله - تعالى - من خير وفضل أكبر وأعظم من عطاء هؤلاء الضعفاء الذين لا يستغنون أبدًا عن عطائنا . والله - تعالى - هو خير الرازقين ، لأن رزقه دائم ورزق غيره مقطوع ، ولأنه هو المالك لجميع الأرزاق ، وغيره لا يملك معه شيئًا .

قال بعض العلماء : المراد بالخرج والخراج هنا . الأجر والجزاء والمعنى : أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لخيرى الدنيا والآخرة أجرا وأصل الخرج والخراج : هو ما تخرجه إلى كل عامل فى مقابلة أجرة أو جعل .

وقرأ ابن عامر : ﴿ أم تسألهم خرجًا فخرج ربك خير ﴾ - بإسكان الراء فيهما معًا وحذف الألف - .

وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ أم تسألهم خراجًا فخراج ربك خير ﴾ - بفتح الراء بعدها ألف فيهما معًا - .

وقرأ الباقون : ﴿ أم تسألهم خرجًا فخراج ربك خير ﴾ بإسكان الراء وحذف الألف فى الأول وفتح الراء وإثبات الألف فى الثانى .

والتحقيق : أن معنى اللفظين واحد ، وأنهما لغتان فصيحتان ، وقراءتان سبعيتان ، خلافًا لمن

زعم أن بين معناهما فرقًا زاعمًا أن الخرج ما تبرعت به ، وأن الخراج مالزمك أداؤه »[١] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان أن الرسول - ﷺ - لا يدعو إلا إلى الحق ، وأن المعرضين عن دعوته عن طريق الحق خارجون ، فقال - تعالى - ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم .. ﴾ ..

أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لتدعو هؤلاء المشركين إلى طريق واضح قويم ، تشهد العقول باستقامته وسلامته من أى عوج .

﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ ككفار قريش ومن لف لفهم ﴿ عن الصراط ﴾ المستقيم ﴿ لناكبون ﴾ أى : لمائلون وخارجون .

يقال : نكب فلان عن الطريق ينكب نكوبًا - من باب دخل - ، إذا عدل عنه . ومال إلى غيره .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة . قد شهدت للرسول - ﷺ - بالبراءة من كل تهمة تفوه بها المشركون ، وقطعت معاذيرهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، حيث حكت شبهاتهم بأمانة ثم كرت عليها بالإبطال ، وأثبتت أن الرسول - ﷺ - إنما جاءهم ليدعوهم إلى الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن هؤلاء المشركين ، قد قست قلوبهم ، وفسدت نفوسهم ، وماتت ضمائرهم ، وصاروا لا يؤثر فيهم الابتلاء بالخير أو الشر ، فقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

أى : ولو رحمنا هؤلاء المشركين الذين تنكبوا الصراط المستقيم وكشفنا ما بهم من ضر . أى : من سوء حال بسبب ما نزل بهم من قحط وجدب وفقر .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٨٠٦ .

﴿ للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ أى : لتمادوا فى طغيانهم ، وتجاوزوا الحدود فى كفرهم وضلالهم ، وفى تحيرهم وترددهم بدون تمييز بين الحق والباطل .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ للجوا ﴾ يشعر بأنهم لقسوة قلوبهم ، صاروا لا تؤثر فيهم المصائب بل يزدادون بسببها طغيانًا وكفرًا ، إذ الفعل « لجوا » مأخوذ من اللجاج . هو التمادى والعناد فى ارتكاب المنهى عن ارتكابه .

يقال : لج فلان فى الأمر يلج لججا ولجاجة . إذا لازمه وواظب عليه . ومنه « اللَّجة » - بفتح اللام - لكثرة الأصوات . ولُجة البحر - بضم اللام - لتردد أمواجه ..

وقوله : ﴿ يعمهون ﴾ من العمه ، بمعنى التردد والتحير ، وهو للقلوب بمنزلة العمى للعيون .

وهو مأخوذ من قولهم : أرض عمهاء ، إذ لم يكن فيها علامات ترشد إلى الخروج منها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ مؤكد لما قبله من وصف هؤلاء المشركين بالجحود والعناد .

والمراد بالعذاب هنا : العذاب الدنيوى كالجوع والقحط والمصائب .

والاستكانة : الانتقال من كون إلى كون ومن حال إلى حال . ثم غلب استعمال هذه الكلمة فى الانتقال من حال التكبر والغرور إلى حال التذلل والخضوع .

أى : ولقد أخذنا هؤلاء الطغاة ، بالعذاب الشديد ، كالفقر ، والمصائب والأمراض فما خضعوا لربهم - عز وجل - وما انقادوا له وأطاعوه ، وما تضرعوا إليه - سبحانه - بالدعاء الخالص لوجهه الكريم ، لكى يكشف عنهم - عز وجل - ما نزل بهم من ضر .

ولفظ « حتى » فى قوله - تعالى - ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ... ﴾ يقصد به ابتداء الكلام ، وإذا الأولى شرطية ، والثانية وهى قوله ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ رابطة للجواب .

أى : هم مستمرون على جحودهم وعنادهم ، حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ، من أبواب عذاب الآخرة المعد لهم إذا هم فيه مبلسون ، أى : ساكتون من شدة الحيرة ، وآيسون من كل نجاء . يقال : أبلس فلان إبلاسًا ، إذا سكت فى حيرة ويأس من الخلاص مما هو فيه من عذاب وبلاء .

وقريب من هذه الآيات فى المعنى قوله - تعالى - : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم

معرضون ﴾[١] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾[٣] .

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، لعلهم يتوبون أو يتذكرون ، فتقول :

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

أى : « وهو » الله - تعالى - وحده ، « الذى أنشأ لكم » أيها الناس بفضله ورحمته « السمع » الذى تسمعون به « والأبصار » التى تبصرون بها « والأفئدة » التى بواسطتها تفهمون وتدركون ...

ولو تدبر الإنسان هذه النعم حق التدبر : لاهتدى إلى الحق . ولآمن بأن الخالق لهذه الحواس وغيرها . هو الله الواحد القهار .

ولكن الإنسان - إلا من عصم الله - قليل الشكر لله - تعالى - ولذا قال - سبحانه - : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أى : شكرًا قليلاً ما تشكرون هذه النعم الجليلة ، بدليل أن أكثر الناس فى هذه الحياة ، كافرون بوحدانية الله - تعالى - .

فلفظ « قليلاً » صفة لموصوف محذوف ، و « ما » لتأكيد هذه القلة وتقريرها .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام آية ٢٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٤٢ ، ٤٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى .

أى : وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من الأرض ، ونشركم فيها عن طريق التناسل ، وإليه وحده تجمعون يوم القيامة للحساب .

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته فقال : ﴿ وهو الذى يحيى ويميت ﴾ بدون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، ﴿ وله ﴾ وحده التأثير فى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وزيادة أحدهما ونقص الآخر ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وتدركون ما فى هذا كله من دلائل واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ؟

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، لم يقابلوا نعم الله - تعالى - عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود وبإنكار البعث والحساب ، وأمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم فقال - تعالى - :

بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

ولفظ « بل » فى قوله - تعالى - : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ للإضراب الانتقالى . وهو معطوف على مضمر يقتضيه المقام .

أى : لقد سقنا لهم ألوانًا من النعم ، وسقنا لهم ما يدل على قدرتنا ومع ذلك فلم يؤمنوا . بل قالوا مثل ما قال من هم على شاكلتهم فى الكفر من الأقوام الأولين .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فقال : ﴿ قالوا ﴾ على سبيل التعجب والإنكار ﴿ أئذا متنا ، وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون ﴾ .

فهم يرون - لجهلهم وغبائهم - أنه من المستحيل أن يعادوا إلى الحياة بعد أن يموتوا ويصيروا ترابًا وعظامًا نخرة .

وهذا الذى قالوه هنا . قد حكى القرآن عنهم مثله فى آيات كثيرة ، من ذلك قوله - تعالى - ﴿ أئذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة * أئذا كنا عظامًا نخرة * قالوا تلك إذًا كرة خاسرة ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بإنكارهم للبعث ، بل أضافوا إلى ذلك سوء الأدب ، والسخرية ممن يؤمن به فقال : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ... ﴾ .

أى : لقد وعدنا على لسان هذا الرسول - ﷺ - بأن البعث حق ، كما وعد آباؤنا قبل ذلك على ألسنة الرسل السابقين ، ونحن لا نصدق هذا الرسول ، ولا أولئك الرسل .

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى : ما هذا البعث الذى وعدنا جميعًا به ، إلا أساطير الأولين . أى : أكاذيبهم التى سطروها من عند أنفسهم فى كتبهم .

والأساطير : جمع أسطورة ، كأحدوثة ، وأعجوبة ، وأكذوبة .

وهكذا الجهلاء المغرورون ، لا يقفون من الحق موقف المنكر له فحسب ، بل يضيفون إلى ذلك سوء الأدب ، وقبح المنطق ، والقول بغير علم .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله أن يرد على أباطيلهم ، وأن يلزمهم بثلاث حجج ، تدل على أن الله - تعالى - قادر على إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .

أما الحجة الأولى فتتجلى فى قوله - سبحانه - : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لمن هذه الأرض ملكًا وتصرفًا ، ولمن هذه المخلوقات التى عليها ، خلقًا وتدبيرًا ، إن كنتم من أهل العلم والفهم ؟ أو كنتم عالمين بذلك فأخبرونى من خالقهم ؟ فجواب الشرط محذوف لدلالة الاستفهام عليه .

---

(١) سورة ق الآية ٣ .

(٢) سورة النازعات الآيات ١٠ - ١٢ .

﴿ سيقولون لله ﴾ ولا يملكون أن يقولوا غير ذلك ، لأن بداهة العقل تضطرهم إلى أن يعترفوا بأن الأرض ومن فيها لله - تعالى - .

﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ أى : قل لهم فى الجواب على اعترافهم هذا ، أتعلمون ذلك ، فلا تتذكرون بأن من خلق الأرض ومن فيها قادر على إحياء الناس بعد موتهم .

وأما الحجة الثانية فهى قوله - سبحانه - : ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ وهو كرسيه الذى وسع السموات والأرض ؟

﴿ سيقولون لله ﴾ فهو رب كل شىء . ﴿ قل أفلا تتقون ﴾ أى : قل لهم على سبيل التبكيت والتقريع ، أتقولون ذلك ، ومع هذا لا تتقون الله ، ولا تخافون عقابه ، بسبب عبادتكم لغيره ، وإنكاركم لما نهاكم عن إنكاره ؟

وأما الحجة الثالثة ، فتتجلى فى قوله عز وجل : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء .. ﴾ أى : قل لهم من بيده ملك كل شىء كائنًا ما كان .

فالملكوت من الملك ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى هذا الملك .

﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ أى : وهو - سبحانه - يغيث من يشاء من خلقه فلا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، أما من يريد الله - تعالى - أن ينزل به عقابه ، فلن يستطيع أحد أن يمنع هذا العقاب عنه .

يقال : أجرت فلانًا على فلان ، إذا أغثته وأنقذته منه . وعدى بعلى لتضمينه معنى النصر .

﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إن كنتم - أيضًا - من أهل العلم والفهم .

﴿ سيقولون لله ﴾ أى : سيقولون ملك كل شىء لله ، والقدرة على كل شىء لله .

﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أى : قل لهم فى الجواب عليهم ، ما دمتم قد اعترفتم بأن كل شىء تحت قدرة الله وسيطرته ، فكيف تخدعون وتصرفون عن الحق وعن الرشد مع علمكم بها ، إلى ما أنتم عليه من باطل وغى !!

يقال : سحر فلان غيره ، بمعنى خدعه ، أو أتى عمل السحر . والمسحور هو الشخص المخدوع أو من تأثر بما عمل له من سحر .

وبهذه الحجج الدامغة ، أخرس الله - تعالى - ألسنة المنكرين للبعث ، وأثبت لهم أنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن البعث حق ، أتبع ذلك بإثبات وحدانيته ، وإبطال ما يزعمون له - تعالى - من الولد والشريك . فقال :

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقوله – سبحانه – ﴿ بل أتيناهم بالحق ... ﴾ إضراب عن قول أولئك الكافرين ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

أى : ما كان ما أخبرناهم به من أن هناك بعثًا وحسابًا ، أساطير الأولين بل أخبرناهم وأتيناهم بالحق الثابت ، والوعد الصادق ، وإنهم لكاذبون فى دعواهم أن البعث غير واقع ، وأن مع الله – تعالى – آلهة أخرى ، وأن الرسول – ﷺ – لم يجئهم بالحق الذى يريدونه .

ثم وبخهم – سبحانه – على قولهم إن لله ولدًا وشريكًا فقال : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ... ﴾ .

أى : لم يتخذ الله – تعالى – ولدًا – كما يزعم هؤلاء الجاهلون ؛ لأنه – سبحانه – منزه عن ذلك . ولم يكن معه من إله يشاركه فى ألوهيته وربوبيته – عز وجل – .

ولو كان الأمر كما يزعمون ﴿إذا لذهب كل إله بما خلق﴾ واستقل به عن غيره. ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أى : ولحدث بينهم التحارب والتغالب ... ولفسد هذا الكون ، كما قال – تعالى – : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ... ﴾ .

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أى : تنزه الله – تعالى – وتقدس عما يصفه به هؤلاء الجاهلون . فهو – سبحانه – الواحد الأحد . الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى : هو العليم بما يغيب عن عقول الناس ومداركهم وهو العليم – أيضًا – بما يشاهدونه بأبصارهم وحواسهم .

﴿ فتعالى ﴾ الله – عز وجل – وتقدس ﴿ عما يشركون ﴾ معه من آلهة أخرى ، لا تضر ولا تنفع : ولا تملك لعابديها موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

ثم تترك السورة الحديث مع هؤلاء المشركين ، وتوجه حديثها إلى النبى – ﷺ – فتأمره أن يلتجىء إلى خالقه ، وأن يستعيذ به من شرور الشياطين .. قال – تعالى – :

قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

قال الجمل : « لما أعلم الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بأنه منزل عذابه بهؤلاء المشركين ، إما فى حياته - ﷺ - أو بعد مماته ، علمه كيفية الدعاء بالتخلص من عذابهم فقال - تعالى - : ﴿ قل رب إما تريني ما يوعدون ﴾ وقوله : ﴿ تريني ﴾ فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، و ﴿ ما ﴾ مفعول به ، ورأى بصرية تعدت لمفعولين بواسطة الهمزة ، لأنه من أرى الرباعى ، فياء المتكلم مفعول أول ، وما الموصولة المفعول الثانى .. »[1] .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - يارب إن تطلعني وترينى العذاب الذى توعدت به هؤلاء المشركين ، فأسألك - يا إلهى - أن لا تجعلنى قريناً لهم فيه ، وأبعدنى عن هؤلاء القوم الظالمين ، حتى لا يصيبنى ما يصيبهم .

ورسول الله - ﷺ - فى عصمة من الله - تعالى - من أن يجعله مع القوم الظالمين ، حين ينزل بهم العذاب ، ولكن جاءت الآية بهذا الدعاء والإرشاد ، للزيادة فى التوقى ، ولتعليم المؤمنين أن لا يأمنوا مكر الله ، وأن يلوذوا دائماً بحماه .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ بيان لكمال قدرة الله تعالى التى لايعجزها شيء .

أى : نحن قادرون - يامحمد - على إطلاعك على العذاب الذى أعددناه لهم ولكن لحكمة نعلمها ، لم نطلعك عليه ، بل سنؤخره عنهم إلى الوقت الذى نريده ، قال تعالى : ﴿ وإمَّا

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٠١ .

نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[1] .

ثم أمر الله تعالى نبيه - ﷺ - بالصبر على أذاهم . وبمقابلة سيئاتهم بالخصال الحسنة ، فقال : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون ﴾ .

أى : قابل - أيها الرسول الكريم - سيئات هؤلاء المشركين الجاهلين ، بالأخلاق والسجايا التى هى أحسن من غيرها ، كأن تعرض عنهم ، وتصبر على سوء أخلاقهم ، فأنت صاحب الخلق العظيم ، ونحن أعلم منك بما يصفوننا به من صفات باطلة . ومايصفوك به من صفات ذميمة ، وسنجازيهم على ذلك بمايستحقون ، فى الوقت الذى نريده .

فالآية الكريمة توجيه حكيم من الله - تعالى - لنبيه - ، وتسلية له عما أصابه من أعدائه ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ﴾[2] .

ثم أمره - تعالى - بأن يستعيذ به من وساوس الشياطين ونزغاتهم فقال : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ .

وقوله : ﴿ همزات ﴾ جمع همزة وهى المرة من الهمز . وهى فى اللغة النخس والدفع باليد أو بغيرها . يقال : همزه يهمزه - بضم الميم وكسرها - إذا نخسه ودفعه وغمزه .

ومنه المهماز ، وهو حديدة تكون مع الراكب للدابة يحثها بها على السير .

والمراد بهمزات الشياطين هنا : وساوسهم لبنى آدم وحضهم إياهم على ارتكاب ما نهاهم الله - تعالى - عنه .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - يارب أعوذ بك ، واعتصم بحماك ، من وساوس الشياطين ، ومن نزغاتهم الأثيمة ، ومن همزاتهم السيئة ، وأعوذ بك يا إلهى وأتحصن بك ، من أن يحضرنى أحد منهم فى أى أمر من أمور دينى أو من دنياى ، فأنت وحدك القادر على حمايتى منهم .

وفى هذه الدعوات من الرسول - ﷺ - وهو المعصوم من همزات الشياطين - تعليم للمؤمنين ، وإرشاد لهم ، إلى اللجوء - دائما - إلى خالقهم ، لكى يدفع عنهم وساوس الشياطين ونزغاتهم .

* * *

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان أقوال هؤلاء المشركين عندما ينزل بهم الموت ، وعندما

---

(١) سورة الرعد آية ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

تلفح وجوههم النار ، وكيف أنهم يلتمسون العودة بذلة ولكن لايجابون إلى طلبهم ، لأنه جاء فى غير وقته ..

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور أحوالهم عند الاحتضار ، وعند الإلقاء بهم فى النار فتقول :

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ
خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت .. ﴾ بيان لحال الكافرين عندما

يدركهم الموت . و « حتى » حرف ابتداء .. والمراد بمجيء الموت : مجيء علاماته .

أى : أن هؤلاء الكافرين يستمرون فى لجاجهم وطغيانهم ، حتى إذا فاجأهم الموت ، ونزلت بهم سكراته ، ورأوا مقاعدهم فى النار ، قال كل واحد منهم يارب ارجعنى إلى الدنيا ، ﴿ لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ أى : لكى أعمل عملا صالحا فيما تركت خلفى من عمرى فى أيام الدنيا ، بأن أخلص لك العبادة والطاعة وأتبع كل ما جاء به نبيك من أقوال وأفعال .

وجاء لفظ ﴿ ارجعون ﴾ بصيغة الجمع . لتعظيم شأن المخاطب ، وهو الله - تعالى - واستدرار عطفه - عز وجل - .

أى أن هذا الكافر استغاث بالله - تعالى - فقال : « رب » ثم وجه خطابه بعد ذلك إلى خزنة النار من الملائكة فقال : « ارجعون » .

و « لعل » فى قوله تعالى : ﴿ لعلى أعمل صالحا ﴾ للتعليل . أى : ارجعون لكى أعمل عملا صالحا .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ... وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - الجواب عليهم فقال : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

و « كلا » حرف زجر وردع . والبرزخ : الحاجز والحاجب بين الشيئين لكى لا يصل أحدهما إلى الآخر . والمراد بالكلمة : ما قاله هذا الكافر . أى : رب أرجعون .

أى : يقال لهذا الكافر النادم : كلا ، لا رجوع إلى الدنيا ﴿ إنها ﴾ أى قوله رب أرجعون ، ﴿ كلمة هو قائلها ﴾ ولن تجديه شيئا ، لأنه قالها بعد فوات الأوان لنفعها ، ﴿ ومن ورائهم ﴾ أى : ومن أمام هذا الكافر وأمثاله ، حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، وهذا الحاجز مستمر إلى يوم البعث والنشور .

فالمراد بالبرزخ : تلك المدة التى يقضيها هؤلاء الكافرون منذ موتهم إلى يوم يبعثون .

وفى هذه الجملة الكريمة . زجر شديد لهم عن طلب العودة إلى الدنيا . وتيئيس وإقناط لهم

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٤ .

(٢) سورة السجدة الآية ١٢ .

من التفكير فى المطالبة بالرجعة ، وتهديد لهم بعذاب القبر إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن ما ينفع الناس يوم القيامة إنما هو إيمانهم وعملهم ، لا أحسابهم ولا أنسابهم . فقال - تعالى - : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ .

والأنساب : جمع نسب . والمراد به القرابة ، والمراد بالنفخ فى الصور : النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور . وقيل : النفخة الأولى التى عندها يحيى الله الموتى .

والمراد بنفى الأنساب : انقطاع آثارها التى كانت مترتبة عليها فى الدنيا ، من التفاخر بها ، والانتفاع بهذه القرابة فى قضاء الحوائج .

أى : فإذا نفخ إسرافيل - عليه السلام - فى الصور - وهو آلة نُفَوض هيئتها إلى الله - تعالى - ، فلا أنساب ولا أحساب بين الناس نافعة لهم فى هذا الوقت ، إذ النافع فى ذلك الوقت هو الإيمان والعمل الصالح .

ولا هم يتساءلون فيما بينهم لشدة الهول ، واستيلاء الفزع على النفوس ولا تنافى بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾[1] فإن كل آية تحكى حالة من الحالات ، ويوم القيامة له مواقف متعددة ، فهم لا يتساءلون من شدة الهول فى موقف . ويتساءلون فى آخر عندما يأذن الله - تعالى - لهم بذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ... ﴾ بيان لما يكون بعد النفخ فى الصور من ثواب أو عقاب .

أى : وجاء وقت الحساب بعد النفخ فى الصور ، ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أى : موازين أعماله الصالحة ، ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ فلاحا ليس بعده فلاح .

﴿ ومن خفت ﴾ موازين أعماله الصالحة ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ بأن ضيعوها وألقوا بها إلى التهلكة ، فهم ، ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ فيها خلودا أبديا . ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ واللفح : الإحراق الشديد يقال : فلان لفحته النار تلفحه لفحا ولفحانا إذا أحرقته .

والكلوح ، هو أن تتقلص الشفتان ، وتتكشف الأسنان ، لأن النار قد أحرقت الشفتين ، كما يشاهد - والعياذ بالله - رأس الشاة بعد شويها .

أى : تحرق النار وجوه هؤلاء الأشقياء ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر

---

(١) سورة الصدغات الآية ٥٠ .

ذلك الإحراق واللفح .

ثم يقال لهم بعد كل هذا العذاب المهين على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ ألم تكن آياتى ﴾ الدالة على وحدانيتى وقدرتى وصدق رسلى ﴿ تتلى عليكم ﴾ فى الدنيا على ألسنة هؤلاء الرسل الكرام ﴿ فكنتم بها ﴾ أى : بهذه الآيات ﴿ تكذبون ﴾ هؤلاء الرسل فيما جاؤوكم به من عندى من هدايات وإرشادات .

وكأنهم قد خيل إليهم - بعد هذا السؤال التوبيخى ، أنهم قد أذن لهم فى الكلام ، وأن اعترافهم بذنوبهم قد ينفعهم فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ... ﴾ أى : يا ربنا تغلبت علينا أنفسنا الأمارة بالسوء ، فصرفتنا عن الحق ، وتغلبت علينا ملذاتنا وشهواتنا وسيئاتنا التى أفضت بنا إلى هذا المصير المؤلم ﴿ وكنا قوما ضالين ﴾ عن الهدى والرشاد ، بسبب شقائنا وتعاستنا .

﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ أى : من هذه النار التى تلفح وجوهنا ﴿ فإن عدنا ﴾ إلى ما نحن عليه من الكفر وارتكاب السيئات ﴿ فإنا ظالمون ﴾ أى : فإنا متجاوزون لكل حد فى الظلم ، ونستحق بسبب ذلك عذابا أشد مما نحن فيه .

وهكذا يصور القرآن بأسلوبه البديع المؤثر ، أحوال الكافرين يوم القيامة ، تصويرا ترتجف له القلوب ، وتهتز منه النفوس ، وتقشعر من هوله الأبدان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ جواب على طلبهم الخروج من النار ، والعودة إلى الدنيا .

أى : قال الله - تعالى - لهم على سبيل الزجر والتيئيس : ﴿ اخسأوا فيها ﴾ اسكتوا وانزجروا انزجار الكلاب ، وامكثوا فى تلك النار ﴿ ولا تكلمون ﴾ فى شأن خروجكم منها ، أو فى شأن عودتكم إلى الدنيا .

وقوله - تعالى - ﴿ إنه كان فريق من عبادى يقولون .. ﴾ تعليل لزجرهم عن طلب الخروج أى : اخسأوا فى النار ولا تكلمون ، لأنه كان فى الدنيا فريق كبير من عبادى المؤمنين يقولون بإخلاص ورجاء : ﴿ ربنا آمنا ﴾ بك واتبعنا رسلك ﴿ فاغفر لنا ﴾ ذنوبنا ﴿ وارحمنا ﴾ برحمتك التى وسعت كل شىء ﴿ وأنت خير الراحمين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاتخذتموهم سخريا .... ﴾ هو محط التعليل ، أى : فكان حالكم معهم أنكم سخرتم واستهزأتم بهم .

﴿ حتى أنسوكم ذكرى ﴾ أى : فاتخذتموهم سخريا ، وداومتم على ذلك ، وشغلكم هذا

الاستهزاء ، حتى أنسوكم - لكثرة انهماككم فى السخرية بهم - تذكر عقابى لكم فى هذا اليوم ، ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ فى الدنيا ، وتتغامزون عندما ترونهم استخفافا بهم .

فلهذه الأسباب ، اخسأوا فى النار ولاتكلمون ، أما هؤلاء المؤمنون الذين كنتم تستهزئون بهم فى الدنيا . فإنى ﴿ جزيتهم اليوم ﴾ الجزاء الحسن ﴿ بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ فوزا ليس هناك ما هو أكبر منه .

وبعد هذا الرد الذى فيه مافيه من الزجر للكافرين ، وبعد بيان أسبابه ، وما اشتمل عليه من تبكيت وتقريع ، يوجه إليهم - سبحانه - سؤالا يزيدهم حسرة على حسرتهم ، فيقول :

قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

أى : قال الله - تعالى - لهم بعد أن زجرهم وأمرهم أن يسكتوا سكوت هوان وذلة : كم عدد السنين التى لبثتموها فى دنياكم التى تريدون الرجوع إليها ؟

ولاشك أن الله - تعالى - يعلم مقدار الزمن الذى لبثوه ، ولكنه سألهم ليبين لهم قصر أيام الدنيا ، بالنسبة لما هم فيه من عذاب مقيم ، وليزيد فى حسرتهم وتوبيخهم .

وهنا يقولون فى يأس وذلة : ﴿ لبثنا يومًا أو بعض يوم ﴾ وهو جواب يدل على استصغارهم للمدة التى لبثوها فى الدنيا . بجانب ماهم فيه من عذاب .

وقوله - تعالى - ﴿ فاسأل العادين ﴾ يشعر بذهولهم عن التحقق من مقدار المدة التى لبثوها فى الدنيا .

أى : فاسأل المتمكنين من معرفة المدة التى مكثناها فى الدنيا .

فيرد الله - تعالى - عليهم بقوله ﴿ قال إن لبثتم ﴾ أى : مالبثتم فى الدنيا ، ﴿ إلا قليلا ﴾ أى : إلا وقتا قليلا ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ شيئا من العلم لأدركتم أن مالبثتموه فى الدنيا ، هو قليل جدا بالنسبة إلى مكثكم فى النار بسبب إصراركم على كفركم فى حياتكم الدنيا . فجواب لو محذوف ، لدلالة الكلام عليه .

ولا يتعارض قولهم هنا ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ مع آيات أخرى ذكرت بأنهم ﴿ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ﴾[1] وبأنهم ﴿ مالبثوا غير ساعة ﴾ كما فى قوله - تعالى - . ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ... ﴾[2].

لأن كل فريق منهم قد أخبر بما تبادر إلى ذهنه ، فبعضهم قال : لبثنا عشرا ، وبعضهم قال : لبثنا يوما أو بعض يوم ، وبعضهم أقسم بأنه مالبث فى الدنيا غير ساعة .

وهذا يدل على أن أهوال العذاب ، قد أنستهم ما كانوا فيه فى الدنيا من متاع ، وما انغمسوا فيه من شهوات ...

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ... ﴾ للانكار والنفى ، والحسبان هنا : بمعنى الظن . والفاء معطوفة على محذوف مقدر . والعبث : اللعب وما لافائدة فيه من قول أو فعل .

أى : أغرتكم الدنيا ، وغفلتم عن مصيركم ، فحسبتم أنما خلقناكم عبثا لا لحكمة تقتضيها إرادتنا من خلقكم ، وحسبتم كذلك ﴿ أنكم إلينا لا ترجعون ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء .

إن جزاء هذا الحسبان الباطل ، هو هذا المصير المهين الذى تصطلون بناره اليوم ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون قد خلقهم عبثا فقال : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ... ﴾ .

أى : فتعاظم وتقدس عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، الله الملك الحق ، فهو - عز وجل - منزه عن أن يخلق الناس بدون حكمة أو غرض صحيح .

﴿ لا إلـه إلا هو ﴾ فإن كل ما عداه مخلوق له ، وهو - سبحانه - ﴿ رب العرش الكريم ﴾ .

(١) سورة طه الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الروم الآية ٥٥ .

ثم هدد - سبحانه - كل من يعبد غيره أشد تهديد فقال : ﴿ ومن يدع مع الله إلهًا آخر ﴾ أى : ومن يدع مع الله - تعالى - إلهًا آخر فى عبادته أو مناجاته أو أقواله ، أو أفعاله ...

﴿ لا برهان له به ﴾ أى : لا دليل له على هذه العبادة ، وليس لهذه الجملة الكريمة مفهوم مخالفة ، بل هى صفة مطابقة للواقع ، لأن كل عابد لغير الله ، لا دليل له على هذه العبادة إطلاقًا ، إذ العبادة لا تكون إلا لله - تعالى - وحده .

فذكر هذه الجملة لإقرار الواقع وتأكيده ، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق .

وقوله ﴿ فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ تهديد شديد لمن يدعو مع الله - تعالى - إلهًا آخر . أى : من يفعل ذلك فسيلقى الحساب الشديد ، والجزاء الرادع ، من عند ربه - عز وجل - ، لأن عدالته قد اقتضت أن الكافرين به لا ينالون الفلاح ، وإنما ينالون الخزى والخسران .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مناجيا ربك : رب اغفر للمؤمنين ذنوبهم ، وارحم العصاة منهم ، وأنت يا مولانا خير من يرحم ، وخير من يغفر .

قال الآلوسى : « وفى تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية مافيه ، وقد علم النبى - ﷺ - أبا بكر أن يقول نحوه فى صلاته . فقد أخرج الشيخان عن أبى بكر - رضى الله عنه - قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . فقال له قل : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »[1] .

وبعـــــد :

فهذه هى سورة «المؤمنون» وهذا تفسير محرر لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة - مدينة نصر

د . محمد سيد طنطاوى

مساء الثلاثاء : ١١ من ربيع الأول ١٤٠٥ هـ

٤ من ديسمبر ١٩٨٤ م

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٧٢ .

تفسير

سُورَةُ النُّور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة النور من السور المدنية ، وعدد آياتها أربع وستون آية ، وكان نزولها بعد سورة النصر .

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة ، على أحكام العفاف والستر . وهما قوام المجتمع الصالح . وبدونها تنحط المجتمعات . ويصير أمرها فرطا ، ويصبح الفرد إلى الحيوان الأعجم ، أقرب منه إلى الإنسان العاقل .

قال الآلوسى : « رُوِى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » .

وعن حارثة بن مضرب قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب ، أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور »[1] .

٢ - وتبدأ هذه السورة الكريمة ببدء فريد ، تقرر فيه وجوب الانقياد لما فيها من أحكام وآداب فتقول : ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ﴾ .

ثم تقبح فاحشة الزنا تقبيحا يحمل النفوس على النفور منها ، وعلى نبذ مرتكبيها ، وعلى تنفيذ حدود الله - تعالى - فيهم بدون شفقة أو رأفة .

قال - تعالى - : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ .

٣ - ثم تبين السورة الكريمة بعد ذلك ، حكم الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، وحكم الذين يرمون أزواجهم بذلك ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم .

قال - تعالى - : ﴿ والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٧٤ .

وأصلحوا فإن الله غفور رحيم * والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾ .

٤ - ثم ذكر - سبحانه - فى ست عشرة آية قصة الإفك ، على الصديقة بنت الصديق ، ومن بين ما اشتملت عليه هذه القصة : تنبيه المؤمنين إلى العذاب العظيم الذى أعده الله - تعالى - لمن أشاع هذا الإفك ، وحض المؤمنين على التثبت من صحة الأخبار ، وعلى وجوب حسن الظن بالمؤمنين ، وعلى تحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان .

ثم ختمت القصة ببراءة السيدة عائشة من كل ما اتهمت به ، قال - تعالى - : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

٥ - وبعد أن أفاضت السورة الكريمة فى بيان قبح فاحشة الزنا ، وفى عقوبة من يقذف المحصنات الغافلات .. أتبعت ذلك بحديث مستفيض ، عن آداب الاستئذان ، وعن وجوب غض البصر بالنسبة للرجال والنساء على السواء ، وعن تعليم الناس الآداب القويمة ، والأخلاق المستقيمة ، حتى يحيا المجتمع المسلم حياة يسودها الطهر والعفاف والنقاء .

قال - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تسأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ... ﴾ .

٦ - ثم حببت السورة الكريمة إلى المؤمنين والمؤمنات الزواج من أهل الدين والصلاح ، دون أن يمنعهم من ذلك الفقر أو قلة ذات اليد ، فإنهم « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم » وعلى الذين لم يتيسر لهم وسائل الزواج ، أن يعتصموا بالعفاف ، حتى يغنيهم الله - تعالى - من فضله .

قال - تعالى - : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ - أى زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر ﴿ والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء ، يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم ، وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله - تعالى - من فضله ﴾

٧ - وبعد أن ساقت السورة الكريمة تلك التوجيهات السامية ، التى من شأنها أن تسلح الأفراد والجماعات ، بسلاح الطهر والعفاف والتستر والآداب الحميدة .. أتبعت ذلك ببيان أن الله - تعالى - هو نور العالم كله علويه وسفليه ، وهو منوره بآياته التكوينية والتنزيلية الدالة

على وحدانيته وقدرته ، وأن أشرف البيوت فى الأرض ، هى بيوته التى يذكر فيها اسمه والتى يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

تلك هى عاقبة المؤمنين الصادقين . الذين « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » أما الكافرون فأعمالهم « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب » .

٨ - ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فى هذا الكون ، وأن المتأمل فى هذا الوجود ، يرى مظاهر قدرته - سبحانه - ظاهرة فى هذا السحاب الذى يتحول إلى مطر لا غنى للناس عنه ، وفى تقلب الليل والنهار . وفى خلق الدواب على أشكال مختلفة .

قال - تعالى - : ﴿ يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار * والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه . ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

٩ - ثم كشفت السورة الكريمة للمؤمنين عن جانب من رذائل المنافقين ، لكى يحذروهم . فقال - تعالى - : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

١٠ - وبعد هذا التوبيخ للمنافقين على سلوكهم الذميم ، وعلى نكوصهم عن حكم الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - جاء وعد الله - تعالى - للمؤمنين ، بالاستخلاف فى الأرض ، وبالتمكين فى الدين ، وبتبديل خوفهم أمنا ، فقال - تعالى - : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

١١ - ثم عادت السورة مرة أخرى إلى الحديث عن آداب الاستئذان ، فأمرت المؤمنين أن يعودوا مماليكهم وصبيانهم الذين لم يبلغوا الحلم ، على الاستئذان فى الدخول عليهم ثلاث مرات

من قبل صلاة الفجر ، وعند وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، فإن هذه الأوقات قد تكون المرأة أو الرجل فيها ، بحالة لا يصح الاطلاع عليها ..

قال - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة . ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

١٢ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان صفات المؤمنين الصادقين ، وبحضهم على تكريم رسولهم - ﷺ - وتعظيمه وتوقيره . وببيان أن هذا الكون كله ملك لله - تعالى - وتحت قبضته وعلمه ، فقال - سبحانه - : ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتم عليه ، ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شيء عليم ﴾ .

١٣ - وبعد : فهذا عرض إجمالى للمقاصد التى اشتملت عليها سورة النور ، ومنها نرى أن السورة الكريمة زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الإسلامية وبالتربية الدينية وبالوسائل الوقائية التى من شأنها أن تغرس الأخلاق الكريمة فى نفوس الأفراد والجماعات . وإن تجعلهم يرغبون فى اعتناق الفضيلة . وينفرون من مقاربة الرذيلة . ويسعدون فى دينهم ودنياهم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

القاهرة - مدينة نصر
١٥ من شهر ربيع الأول ١٤٠٥ هـ
٨ من ديسمبر ١٩٨٤ م

المؤلف
د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ﴾

افتتحت سورة النور بافتتاح لم تشترك معها فيه ، سورة أخرى من سور القرآن الكريم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سورة ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : هذه سورة .

والسورة القرآنية : هى مجموعة من الآيات المسرودة ، لها مبدأ ولها نهاية ، وجمعها : سُوَر .

وكلمة سورة مأخوذة من سور المدينة ، وكأن السورة القرآنية سميت بهذا الاسم لإحاطتها بآياتها إحاطة السور بما يكون بداخله .

أو أنها فى الأصل تطلق على المنزلة السامية ، والسورة القرآنية سميت بذلك لرفعتها وعلو شأنها .

قال القرطبى : والسورة فى اللغة : اسم للمنزلة الشريفة ، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة . قال زهير :

ألم تـر أن الله أعـطاك سُـورَة ... تـرى كـلّ مَلْكٍ دونَها يتـذبـذب[1]

وقوله - تعالى - : ﴿ وفرضناها ﴾ من الفرض بمعنى القطع . وأصله قطع الشىء الصُّلْب والتأثير فيه .

والمراد به هنا : تنفيذ أحكام الله - تعالى - على أتم وجه وأكمله .

والمعنى هذه سورة قرآنية . أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - ، وأوجبنا ما فيها من

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٥٨ .

أحكام ، وآداب وتشريعات ، إيجابا قطعيا ، وأنزلنا فيها آيات بينات واضحات الدلالة على وحدانيتنا ، وقدرتنا ، وعلى صحة الأحكام التى وردت فيها ، لتتذكروها وتعتبروا بها وتعتقدوا صحتها وتنفذوا ما اشتملت عليه من أمر أو نهى .

وجمع - سبحانه - بين الإنزال والفرضية فقال : ﴿ أنزلناها وفرضناها ﴾ لبيان أن الغرض منها ليس مجرد الإنزال وإنما الإنزال المصحوب بوجوب تنفيذ الأحكام والآداب التى اشتملت عليها ، والتى أنزلت من أجلها .

ومعلوم أن إنزال السورة كلها . يستلزم إنزال هذه الآيات منها فيكون التكرار فى قوله - تعالى - : ﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ لكمال العناية بشأنها ، كما هى الحال فى ذكر الخاص بعد العام .

و « لعل » فى قوله - تعالى - ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ للتعليل . أى : لعلكم تتذكرون ما فيها من آيات دالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى سمو تشريعاتنا ، فيؤدى بكم هذا التذكر إلى عبادتنا وطاعتنا .

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حد الزانى والزانية ، وقبح جريمة الزنا تقبيحا يحمل على النفور ، وحرمها على المؤمنين تحريما قاطعا ، فقال - تعالى - :

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ الزانية والزانى .. ﴾ شروع فى تفصيل الأحكام ، التى أشار إليها - سبحانه - فى الآية الأولى من هذه السورة ، وهى قوله : ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها ... ﴾ .

والزنا من الرجل معناه : وطء المرأة من غير ملك ولا شبهة ملك ومعناه من المرأة : أن

تمكن الرجل من أن يزنى بها .

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فاجلدوا ... ﴾ للحكام المكلفين بتنفيذ حدود الله - عز وجل - .

قال الجمل : « وفى رفع « الزانية والزانى » وجهان : أحدهما - وهو مذهب سيبويه - أنه مبتدأ خبره محذوف . أى : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ فاجلدوا .. ﴾ والثانى : - وهو مذهب الأخفش وغيره - أنه مبتدأ . والخبر جملة الأمر ، ودخلت الفاء لشبه المبتدأ بالشرط .. »[1] .

فإن قيل : ما الحكمة فى أن يبدأ الله فى فاحشة الزنا بالمرأة ، وفى جريمة السرقة بالرجل ، حيث قال : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... ﴾[2] ؟ .

فالجواب : أن الزنا من المرأة أقبح ، فإنه يترتب عليه فساد الأنساب، وإلحاق الدنس والعار بزوجها وأهلها ، وافتضاح أمرها عن طريق الحمل ، وفضلا عن ذلك ، فإن تمكينها نفسها للرجل : هو الذى كان السبب فى اقترافه هذه الفاحشة ، فلهذا وغيره قدمت المرأة هنا .

وأما جريمة السرقة ، فالغالب أن الرجال أكثر إقداما عليها ، لأنها تحتاج إلى جسارة وقوة ، واجتياز للمخاطر .. لذا قدم الرجل على المرأة فيها .

وقوله - تعالى - ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله .. ﴾ نهى منه - سبحانه - عن التهاون فى تنفيذ حدوده ، وحض على إقامتها بحزم وقوة ، والرأفة : أعلى درجات الرحمة . يقال : رؤف فلان بفلان - بزنة كرم - إذا اشتد فى رحمته ، وفى العناية بأمره .

أى : أقيموا - أيها الحكام - حدود الله - تعالى - على الزانية والزانى بأن تجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، دون أن تأخذكم شفقة أو رحمة فى تنفيذ هذه الحدود ، ودون أن تقبلوا فى التخفيف عنهما شفاعة شفيع ، أو وساطة وسيط ، فإن الله - تعالى - الذى شرع هذه الحدود . وأمر بتنفيذها بكل شدة وقوة ، أرحم بعباده وبخلقه منكم . والرحمة والرأفة فى تنفيذ أحكامه ، لا فى تعطيلها . ولا فى إجرائها على غير وجهها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .. ﴾ تأكيد لما قبله ، وإلهاب لمشاعرهم ، لتنفيذ حدود الله - تعالى - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٠٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣٨ .

أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا حقا ، فأقيموا حدود الله ، واجلدوا الزانية والزانى مائة جلدة ، لا تأخذكم بهما رأفة أو شفقة فى ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ بيان لما يجب على الحكام أن يفعلوه عند تنفيذ العقوبة والأمر بشهود عذابهما للاستحباب لا للوجوب .

والمراد بعذابهما : إقامة الحد عليهما ، والطائفة فى الأصل : اسم فاعل من الطواف ، وهو الدوران والإحاطة . وتطلق الطائفة عند كثير من اللغويين على الواحد فما فوقه .

قال الآلوسى : « والحق أن المراد بالطائفة هنا ، جماعة يحصل بهم التشهير والزجر ، وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص فرب شخص يحصل تشهيره وزجره بثلاثة . وآخر لايحصل تشهيره وزجره بعشرة وللقائل بالأربعة هنا وجه وجيه »[1] .

ولعل السبب فى وجاهة رأى القائلين بالأربعة وأن هذا العدد هو الذى يثبت به الزنا .

أى : وليشهد إقامة الحد على الزانية والزانى ، عددا من المؤمنين ، ليكون زيادة فى التنكيل بمن يرتكب هذه الفاحشة ، وأدعى إلى الاعتبار والاتعاظ وأزجر لمن تسول له نفسه الإقدام على تلك الجريمة النكراء .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تقبيح أمر الزنا تقبيحا آخر أشد وأخزى فقال : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أومشرك ... ﴾ .

والظاهر أن المراد بالنكاح هنا : العقد الذى تترتب عليه المعاشرة الزوجية ، لأن أكثر ورود لفظ النكاح فى القرآن . أن يكون بمعنى العقد ، بل قال بعضهم إنه لم يرد إلا بهذا المعنى .

أى : أنه جرت العادة أن الشخص الزانى لا يتزوج إلا زانية مثله أو مشركة وكذلك المرأة الزانية لا تميل بطبعها إلا إلى الزواج من رجل زان مثلها أو من رجل مشرك وذلك لأن المؤمن بطبعه ينفر من الزواج بالمرأة الزانية ، وكذلك المرأة المؤمنة تأنف من الزواج بالرجل الزانى .

فالآية الكريمة تحكى بأسلوب بديع ما تقتضيه طبيعة الناس فى التآلف والتزاوج ، وتبين أن المشاكلة فى الطباع علة للتلاقى ، وأن التنافر فى الطباع علة للاختلاف .

وصدق رسول الله - ﷺ - حيث يقول : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وبدىء هنا بالزانى ، لأن الآية مسوقة للحديث عن النكاح ، والرجل هو الذى يتولاه ، وهو الأصل فيه ، لأنه هو الذى يلتمسه عن طريق الخطبة وما يتبعها من خطوات توصله إلى

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٨٤ .

إتمام عقد الزواج ، والمرأة - فى هذا الباب - تكون فى العادة مطلوبة لا طالبة ، ومرغوبة لا راغبة .

وجمع - سبحانه - بين رغبة الزانى ورغبة الزانية لتأكيد ما يليق بكليهما من الميل الدنىء . والطبع الوضيع . والسلوك الخبيث . وأن كل واحد منهما ألعن من صاحبه فى ولوج الطريق القبيح .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ يعود على الزنا . وعلى الزواج من الزوانى ، لما فيه من التشبيه بالفاسقين ، ومن التعرض للعقوبة وسوء السيرة .

أى : وحرم ذلك الذى نهيناكم عنه - وهو الزنا والاقتران بمن يرتكبه - على المؤمنين الأطهار . الذين ينزهون أنفسهم عن الوقوع فى السوء والفحشاء .

هذا . وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه الترمذى وأبو داود والنسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مرثد بن أبى مرثد » كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بَغِىٌّ بمكة يقال لها « عناق » وكانت صديقة له - أى فى الجاهلية - وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله ، قال : فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتنى ، فقالت : مرثد ؟

فقلت : مرثد فقالت : مرحبا وأهلا . هلم فبت عندنا الليلة . فقال : فقلت : يا عناق . حرم الله الزنا . فقالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعنى ثمانية ودخلت الخندمة - أى جبل بمكة - فانتهيت إلى غار ... فأعماهم الله - تعالى - عنى . ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبى فحملته إلى المدينة ، فأتيت رسول الله - ﷺ - فقلت : يا رسول ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ - مرتين - ، فأمسك رسول الله - ﷺ - ولم يرد شيئاً حتى نزلت هذه الآية : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة .. ﴾ فقال : رسول الله - ﷺ - : يا مرثد . ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة .. ﴾ فلا تنكحها »[1] .

هذا . ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - ظاهر قوله - تعالى - : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة .. ﴾ يفيد أن هذا الجلد لكل من ارتكب هذه الفاحشة سواء أكان محصنا أم غير محصن .

ولكن هذا الظاهر قد فصلته السنة الصحيحة . حيث بينت أن هذا الحد ، إنما هو لغير

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٩ .

المحصن . أما المحصن - وهو المتزوج أو من سبق له الزواج - فإن حده الرجم حتى يموت .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد » .

وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرا : وهو الذى لم يتزوج ، أومحصنا : وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل .

فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما فى الآية . ويزاد على ذلك أن يُغرَّب عاما عند جمهور العلماء .

وحجتهم فى ذلك ماثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، أن أعرابيين أتيا رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عسيفا - أى أجيرا - عند هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام . وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد عليك . وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد ياأنيس - وهو رجل من قبيلة أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها ، فاعترفت فرجمها .

ففى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلده مائة . إذا كان بكرا لم يتزوج فأما إذا كان محصنا فإنه يرجم .

وثبت فى الصحيحين من حديث مالك - مطولا - ، أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قام فخطب الناس فقال : « أيها الناس ، إن الله بعث محمدا - ﷺ - بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان فيقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف » .

وقد رجم النبى - ﷺ - ماعزا والغامدية ، إلا أن جمهور الفقهاء يرون أنه يكتفى بالرجم ، ولا يجلد قبل الرجم ، لأنه لم ينقل عن الرسول - ﷺ - أنه جلد أحدا من الزناة المحصنين قبل أن يرجمهم ، ومن الفقهاء من يرى أنهم يجلدون ثم يرجمون بعد ذلك[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أن رجم الزانيين المحصنين ، دلت عليه آيتان من

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣ وما بعدها .

كتاب الله - تعالى - ، إحداهما : نسخت تلاوتها وبقى حكمها ، والثانية : باقية التلاوة والحكم .

أما التى نسخت تلاوتها وبقى حكمها ، فهى قوله - تعالى - : ﴿ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة ﴾ - وقد ورد ذلك فى روايات متعددة - وتدل هذه الروايات على أن الصحابة قرأوها ووعوها . وعقلوها . وأن حكمها باق لأن النبى - ﷺ - فعله ، والصحابة فعلوه من بعده .

وأما الآية التى هى باقية التلاوة والحكم ، فهى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون[1] ، على القول بأنها نزلت فى رجم اليهوديين الزانيين بعد الإحصان ، وقد رجمها النبى - ﷺ - وقصة رجمه لهما مشهورة ، ثابتة فى الصحيح . وعليه فقوله : ﴿ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ أى : عما فى التوراة من حكم الرجم ، وذم المعرض عن الرجم فى هذه الآية . يدل على أنه ثابت فى شرعنا فدلت الآية - على هذا القول - أن الرجم ثابت فى شرعنا . وهى باقية التلاوة ...[2] .

٢ - كذلك أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله .. ﴾ أنه لا تجوز الشفاعة فى الحدود ، كما لا يجوز إسقاط الحد ؛ لأن فى ذلك تعطيلا لتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله - تعالى - : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله .. ﴾ أى فى طاعته وإقامة حده الذى شرعه . والمراد النهى عن التخفيف فى الجلد . بأن يجلدوهما جلدا غير مؤلم ، أو بأن يكون أقل من مائة جلدة . أو بإسقاط الحد بشفاعة أو نحوها .

لما صح أن الرسول - ﷺ - أنكر على حِبِّه أسامة بن زيد حين شفع فى فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية ، التى سرقت قطيفة أو حليا ، وقال له : «يا أسامة ، أتشفع فى حد من حدود الله - تعالى - ، ثم قام - ﷺ - فخطب فقال : « أيها الناس ، إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله - تعالى - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وكما تحرم الشفاعة ، يحرم قبولها ، فعن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : « إذا بلغ الحد إلى الإمام ، فلا عفا الله - تعالى - عنه إن عفا »[3] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٣ .

(٢) راجع : أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ج ٦ ص ٥ وما بعدها للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٨٣ .

٣ - يرى كثير من الفقهاء أن التحريم فى قوله - تعالى - : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ للتنزيه ، وعبر عنه بلفظ « حُرِّمَ » للتغليظ والتنفير من الإقدام على زواج المؤمن من الزانية ، أو على زواج المؤمنة من الزانى .

ويرى آخرون أن التحريم على ظاهره ، وأنه لا يجوز للمؤمن أن يتزوج بالزانية . وكذلك لا يجوز للمؤمنة أن تتزوج بالزانى .

وقد فصل القول فى هذه المسألة بعض العلماء فقال ما ملخصه : اعلم أن العلماء اختلفوا فى جواز نكاح العفيف بالزانية ونكاح العفيفة بالزانى .

فذهب جماعة من أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة - أبو حنيفة ومالك والشافعى - إلى جواز نكاح الزانية مع الكراهة التنزيهية .. لأن الله - تعالى - قال : ﴿ ... وأحل لكم ما وراء ذلكم ... ﴾[1] وهو شامل بعمومه الزانية والعفيفة .

وقالت جماعة أخرى من أهل العلم : لا يجوز تزويج الزانى العفيفة ، ولا عكسه ، وهو مذهب الإمام أحمد . وقد روى عن الحسن وقتادة .

ومن أدلتهم الآية التى نحن بصددها ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ لأنها قد حرمت فى نهايتها أن يتزوج التقى بالزانية ، أو التقية بالزانى ﴾[2] .

وعلى أية حال فالمتدبر فى هاتين الآيتين يراهما ، تشددان العقوبة على من يرتكب جريمة الزنا ، وتنفران من الاقتراب منها وممن يقع فيها أعظم تنفير ، لأن الإسلام حرص على أن ينتشر العفاف والطهر بين أفراد المجتمع الإسلامى ، وشرع من وسائل الوقاية ما يحمى الأفراد والجماعات من الوقوع فى هذه الرذيلة .

* * *

وبعد أن نفر - سبحانه - من جريمة الزنا أعظم تنفير ، وأمر بتنفيذ عقوبته فى مرتكبها بدون رأفة أو تساهل ... أتبع ذلك بتشريعات أخرى من شأنها أن تحمى أعراض الناس وأنفسهم من اعتداء المعتدين ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة النساء الآية ٢٤ .

(٢) راجع تفسير : « أضواء البيان » ج ٦ ص ٧٢ وما بعدها .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

وقوله - تعالى - ، يرمون من الرمى ، وأصله القذف بشىء صلب أو ما يشبهه تقول : رمى فلان فلانا بحجر . إذا قذفه به . والمراد به هنا : الشتم والقذف بفاحشة الزنا ، أو ما يستلزمه كالطعن فى النسب .

قال الإمام الرازى : وقد أجمع العلماء على أن المراد هنا : الرمى بالزنا .

وفى الآية أقوال تدل عليه . أحدها : تقدم ذكر الزنا . وثانيها : أنه - تعالى - ذكر المحصنات ، وهن العفائف ، فدل ذلك على أن المراد بالرامى رميهن بضد العفاف ، وثالثها : قوله ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ يعنى على صحة مارموهن به ، ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا بالزنا ، ورابعها : انعقاد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمى بغير الزنا . فوجب أن يكون المراد هنا هو الرمى بالزنا .. »[1] .

و « المحصنات » جمع محصنة ، والإحصان فى اللغة بمعنى المنع ، يقال : هذه درع حصينة . أى : مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال هذا موضع حصين ، أى : مانع من يريده بسوء .

والمراد بالمحصنات هنا : النساء العفيفات البعيدات عن كل ريبة وفاحشة .

وسميت المرأة العفيفة بذلك . لأنها تمنع نفسها من كل سوء .

قالوا : ويطلق الإحصان على المرأة والرجل ، إذا توفرت فيهما صفات العفاف . والإسلام ، والحرية ، والزواج .

وإنما خص - سبحانه - النساء بالذكر هنا : لأن قذفهن أشنع ، والعار الذى يلحقهن بسبب ذلك أشد ، وإلا فالرجال والنساء فى هذه الأحكام سواء .

وقوله - تعالى - : ﴿ والذين يرمون المحصنات .. ﴾ مبتدأ ، أخبر عنه بعد ذلك بثلاث

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٢٢٧ .

جمل ، وهى قوله : « فاجلدوهم .. ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » .

والمعنى أن الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون لهم على صحة ما قذفوهن به ، فاجلدوا - أيها الحكام - هؤلاء القاذفين ثمانين جلدة ، عقابا لهم على ما تفوهوا به من سوء فى حق هؤلاء المحصنات ، ولا تقبلوا لهؤلاء القاذفين شهادة أبدا بسبب إلصاقهم التهم الكاذبة بمن هو برىء منها . وأولئك هم الفاسقون . أى : الخارجون على أحكام شريعة الله - تعالى - وعلى آدابها السامية .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد عاقب هؤلاء القاذفين للمحصنات بثلاث عقوبات .

أولها : حسية ، وتتمثل فى جلدهم ثمانين جلدة ، وهى عقوبة قريبة من عقوبة الزنا .

وثانيها : معنوية ، وتتمثل فى عدم قبول شهادتهم ، بأن تهدر أقوالهم ، ويصيرون فى المجتمع أشبه ما يكونون بالمنبوذين ، الذين إن قالوا لا يصدق الناس أقوالهم ، وإن شهدوا لا تقبل شهادتهم ، لأنهم انسلخت عنهم صفة الثقة من الناس فيهم .

وثالثها : دينية ، وتتمثل فى وصف الله - تعالى - لهم بالفسق . أى : بالخروج عن طاعته - سبحانه - وعن آداب دينه وشريعته .

وما عاقب الله - تعالى - هؤلاء القاذفين فى أعراض الناس ، بتلك العقوبات الرادعة . إلا لحكم من أهمها : حماية أعراض المسلمين من ألسنة السوء ، وصيانتهم من كل ما يخدش كرامتهم . ويجرح عفافهم .

وأقسى شىء على النفوس الحرة الشريفة الطاهرة . أن تلصق بهم التهم الباطلة . وعلى رأس الرذائل التى تؤدى إلى فساد المجتمع . ترك ألسنة السوء . تنهش أعراض الشرفاء ، دون أن تجد هذه الألسنة من يخرسها أو يردعها .

وقد اتفق الفقهاء على أن الاستثناء فى قوله - تعالى - ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ يعود على الجملة الأخيرة . بمعنى أن صفة الفسق لا تزول عن هؤلاء القاذفين للمحصنات إلا بعد توبتهم وصلاح حالهم .

أى : وأولئك القاذفون للمحصنات دون أن يأتوا بأربعة شهداء على صحة ما قالوه . هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله - تعالى - ، إلا الذين تابوا منهم من بعد ذلك توبة صادقة نصوحا ، وأصلحوا أحوالهم وأعمالهم ، فإن الله - تعالى - كفيل بمغفرة ذنوبهم ، وبشمولهم برحمته .

كما اتفقوا - أيضا - على أن هذا الاستثناء لا يعود إلى العقوبة الأولى وهى الجلد ، لأن

هذه العقوبة يجب أن تنفذ عليهم ، متى ثبت قذفهم للمحصنات ، حتى ولو تابوا وأصلحوا .

والخلاف إنما هو فى العقوبة الوسطى وهى قبول شهادتهم ، فجمهور الفقهاء يرون صحة عودة الاستثناء عليها بعد التوبة ، فيكون المعنى : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فاقبلوا شهادتهم .

ويرى الإمام أبو حنيفة أن الاستثناء لا يرجع إلى قبول شهادتهم ، وإنما يرجع فقط إلى العقوبة الأخيرة وهى الفسق ، فهم لا تقبل شهادتهم أبدا أى : طول مدة حياتهم ، حتى وإن تابوا وأصلحوا .

وقد فصل القول فى هذه المسألة الإمام القرطبى فقال ما ملخصه : « تضمنت الآية ثلاثة أحكام فى القاذف : جلده ، ورد شهادته أبداً ، وفسقه .

فالاستثناء غير عامل فى جلده وإن تاب - أى أنه يجلد حتى ولو تاب .

وعامل فى فسقه بإجماع . أى : أن صفة الفسق تزول عنه بعد ثبوت توبته .

واختلف الناس فى عمله فى رد الشهادة . فقال أبو حنيفة وغيره : « لا يعمل الاستثناء فى رد شهادته . وإنما يزول فسقه عند الله - تعالى - . وأما شهادة القاذف فلا تقبل ألبتة . ولو تاب وأكذب نفسه ، ولا بحال من الأحوال .

وقال الجمهور : الاستثناء عامل فى رد الشهادة ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته ، وإنما كان ردها لعلة الفسق ، فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقا ، قبل الحد وبعده . وهو قول عامة الفقهاء .

ثم اختلفوا فى صورة توبته ، فمذهب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والشعبى وغيره : أن توبته لا تكون - مقبولة - إلا إذا كذب نفسه فى ذلك القذف الذى حد فيه .

وقالت فرقة منها مالك وغيره : توبته أن يصلح ويحسن حاله ، وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ، وحسبه الندم على قذفه ، والاستغفار منه ، وترك العود إلى مثله »[1] .

ويبدو لنا أن ما أفتى به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - هو الأولى بالقبول ، لأن اعتراف القاذف بكذبه ، فيه محو لآثار هذا القذف ، وفيه تبرئة صريحة للمقذوف ، وهذه التبرئة تزيده انشراحا وسرورا ، وترد إليه اعتباره بين أفراد المجتمع .

كما يبدو لنا أن الأَوْلى فى هذه الحالة أن تقبل شهادة القاذف ، بعد هذه التوبة التى صاحبها

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٧٩ وراجع أيضا البيان جـ ٦ ص ٨٩ وما بعدها .

اعتراف منه بكذبه فيما قال . لأن إقدامه على تكذيب نفسه قرينة على صدق توبته وصلاح حاله .

وهكذا يحمى الإسلام أعراض أتباعه ، بهذه التشريعات الحكيمة ، التى يؤدى اتباعها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن حكم القذف بصفة عامة ، إلى الحديث عن حكم القذف إذا ما حدث بين الزوجين ، فقال - تعالى -:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا
عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، ان هلال بن أمية ، قذف امرأته عند النبى - ﷺ - بشريك بن السحماء ، فقال له الرسول - ﷺ - : « البينة أوحدٌّ فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبى - ﷺ - يقول له : « البينة أو حد فى ظهرك » .

فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد . فنزل جبريل بهذه الآيات .

فانصرف النبى - ﷺ - فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبى - ﷺ - يقول : إن الله يعلم أن أحدكم كاذب ، فهل منكما تائب ؟ ثم قامت زوجته فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة - أى للعذاب ولغضب الله - تعالى - .

قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم ، فمضت .

وفى رواية فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرق الرسول - ﷺ - بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد .. »(١) .

والمراد بالرمى فى قوله - تعالى - ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ الرمى بفاحشة الزنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴾ أى : ولم يكن لهؤلاء الأزواج الذين قذفوا زوجاتهم بالزنا من يشهد معهم سوى أنفسهم .

وقوله : ﴿ فشهادة أحدهم ﴾ أى : فشهادة أحدهم التى ترفع عنه حد القذف ، أن يشهد « أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين » فيما رماها به من الزنا .

قال الجمل ما ملخصه : « قوله - تعالى - ﴿ ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴾ فى رفع أنفسهم وجهان : أحدهما أنه يدل من شهداء ، والثانى ، أنه نعت له على أن إلا بمعنى غير ، ولا مفهوم لهذا القيد . بل يلاعن ولو كان واجدا للشهود الذين يشهدون بزناها . وقوله : ﴿ فشهادة ﴾ مبتدأ ، وخبره « أربع شهادات » أى : فشهادتهم المشروعة أربع شهادات .. »(٢) .

وقرأ الجمهور : « أربع شهادات » بالنصب على المصدر ، لأن معنى : فشهادة . أن يشهد .

والتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما قاله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾ بيان لما يجب على القاذف بعد أن شهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين .

أى : والشهادة الخامسة بعد الأربع المتقدمة ، أن يشهد القاذف بأن لعنة الله - تعالى - عليه ، إن كان من الكاذبين ، فى رميه لزوجته بالزنا .

قال الآلوسى : وإفرادها - أى الشهادة الخامسة - بالذكر ، مع كونها شهادة - أيضا - ، لاستقلالها بالفحوى وكادتها فى إفادتها ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر ، وإظهار الصدق . وهى مبتدأ ، خبره قوله - تعالى - ﴿ أن لعنة الله عليه ﴾(٣) .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المرأة لكى تبرىء نفسها مما رماها به زوجها فقال :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٢ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٠٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٠٥ .

﴿ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ ويدرأ ﴾ من الدَّرْء بمعنى الدفع . يقال : درأ فلان التهمة عن نفسه ، إذا دفعها عن نفسه ، وتبرأ منها .

والمراد بالعذاب هنا : العذاب الدنيوى وهو الحد الذى شرعه الله - تعالى - فى هذا الشأن .

أى : أن الزوجة التى رماها زوجها بفاحشة الزنا يدفع عنها الحد ويرفع ، إذا شهدت أربع شهادات بالله ، إن زوجها لمن الكاذبين فيما قذفها به .

وقوله - سبحانه - ﴿ والخامسة ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ أربع شهادات ﴾ .

أى : يدرأ عنها العذاب إذا شهدت أربع شهادات بالله أن زوجها كاذب فيما رماها به ، ثم تشهد بعد ذلك شهادة خامسة مؤداها : أن غضب الله عليها ، إن كان زوجها من الصادقين ، فى اتهامه إياها بفاحشة الزنا .

وجاء من جانب المرأة التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ أن غضب الله عليها ﴾ ليكون أشد فى زجرها عن الكذب ، واعترافها بالحقيقة بدون إنكار ، لأن العقوبة الدنيوية أهون من غضب الله - تعالى - عليها فى حالة كذبها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان جانب من فضله - تعالى - على خلقه فقال : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم ﴾ .

وجواب « لولا » محذوف . وجاءت الآية بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، للعناية بشأن مقام الامتنان والفضل من الله - تعالى - عليهم بتشريع هذه الأحكام .

أى : ولولا أن الله - تعالى - تفضل عليكم ورحمكم - أيها المؤمنون - بسبب ما شرعه لكم فى حكم الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة .. لولا ذلك لحصل لكم من الفضيحة ومن الحرج مالا يحيط به الوصف ، ولكنه - سبحانه - شرع هذه الأحكام سترا للزوجين ، وتخفيفا عليهما . وحضا لهما على التوبة الصادقة النصوح ، وأن الله - تعالى - « تواب » أى : كثير القبول لتوبة التائب متى صدق فيها ، « حكيم » أى : فى كل ما شرعه لعباده .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ، أن قاذف زوجته بفاحشة الزنا ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على صحة ما قاله . فإنه يكون مخيرا بين أن يلاعن ، وبين أن يقام عليه الحد .

بخلاف من قذف أجنبية محصنة بفاحشة الزنا ، فإنه يقام عليه الحد ، إذا لم يأت بأربعة

شهداء على أنه صادق فى قوله .

قال بعض العلماء : ولعلك تقول : لماذا كان حكم قاذف زوجته ، مخالفا لحكم قاذف الأجنبية ؟ وما السر فى أنه جاء مخففا .؟

والجواب : أنه لا ضرر على الزوج بزنا الأجنبية ؟ وأمازنا زوجته فيلحقه به العار . وفساد البيت . فلا يمكنه الصبر عليه ، ومن الصعب عليه جدا أن يجد البينة . فتكليفه إياها فيه من العسر والحرج مالا يخفى . وأيضا فإن الغالب فى الرجل أنه لا يرمى زوجته بتلك الفاحشة . إلا عن حقيقة . لأن فى هذا الرمى إيذاء له . وهتكا لحرمته . وإساءة لسمعته .. فكان رميه إياها بالقذف دليل صدقه . إلا أن الشارع أراد كمال شهادة الحال . بذكر كلمات اللعان المؤكدة بالأيمان ، فجعلها - منضمة إلى قوة جانب الزوج - قائمة مقام الشهود فى قذف الأجنبى »[1] .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآيات أن كيفية اللعان بين الزوجين ، أن يبدأ بالزوج فيقول أمام القاضى : أشهد بالله إنى لمن الصادقين ، وفى المرة الخامسة يقول : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين - أى فيما رمى به زوجته - ، وكذلك المرأة تقول فى لعانها أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين . وفى المرة الخامسة تقول : غضب الله عليها إن كان من الصادقين - أى فيما قاله زوجها فى حقها - .

فإذا ما قالا ذلك . سقط عنهما الحد ، وفرق القاضى بينهما فراقا أبديا .

قال القرطبى : « قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا . ولا يتوارثان . ولا يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده .

وقال أبو حنيفة وغيره : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما .

وقال الشافعى : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان . فقد زال فراش امرأته . التعنت أو لم تلتعن . لأن لعانها إنما هو لدرء الحد عنها لا غير . وليس لا لتعانها فى زوال الفراش معنى .. »[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - حكم القذف بالنسبة للمحصنات . وبالنسبة للزوجات ، أتبع - عز وجل - ذلك بإيراد مثل لما قاله المنافقون فى شأن السيدة عائشة - رضى الله عنها - . ولما كان يجب على المؤمنين أن يفعلوه فى مثل هذه الأحوال ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ١٣٦ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٩٣ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ
خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ
كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا
جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ
وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ
قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « هذه الآيات نزلت فى شأن السيدة عائشة – رضى الله عنها – حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، بما قالوه من الكذب البحت ، والفرية التى غار الله – تعالى – لها ولنبيه – ﷺ – فأنزل براءتها صيانة لعرض الرسول – ﷺ – .

جاء فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة أنها قالت : كان رسول الله – ﷺ – إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى – وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق على الأرجح – ، فخرجت مع النبى – ﷺ – ، وذلك بعدما أُنزل الحجاب ، وأنا أُحمل فى هودج وأُنزل فيه .

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - ﷺ - من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، حتى جاوزت الجيش .

فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الراحلة ، فلمست صدرى ، فإذا عقدلى قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فاحتبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى . وهم يحسبون أنى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافا ، لم يثقلهن اللحم ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما سار الجيش . فجئت منزلهم ، وليس فيه أحد منهم فيممت منزلى الذى كنت فيه . وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى .

فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى ، قد عرَّس - أى تأخر - من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يُضْرَب علينا الحجاب .

فاستيقظت باسترجاعه حتى عرفنى . فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ماكلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حين أناخ راحلته ، فوطىء على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة . حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا فى نحو الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول .. »[1] .

وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ .

والإفك : أشنع الكذب وأفحشه ، يقال أفِكَ فلان - كضرب وعلم - أَفْكاً وإِفْكاً ، أى : كذب كذبا قبيحا .

والعصبة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، من العصب وهو الشد ، لأن كل واحد منها يشد الآخر ويؤازره .

أى : إن الذين قالوا ما قالوا من كذب قبيح ، وبهتان شنيع ، على السيدة عائشة - رضى الله عنها - هم جماعة ينتسبون إليكم - أيها المسلمون - بعضهم قد استزلهم الشيطان . - كمسطح بن أثاثة - وبعضهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والنفاق - كعبد الله بن أبى بن سلول - وأتباعه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - ﴿ عصبة ﴾ : إشعار بأنهم جماعة لها أهدافها الخبيثة ، التى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٨ . وما بعدها ففيه جملة من الأحاديث فى هذا الشأن .

تواطئوا على نشرها ، وتكاتفوا على إشاعتها ، بمكر وسوء نية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم .. ﴾ تسلية للنبى - ﷺ - ولأصحابه المؤمنين الصادقين ، عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث البالغ نهاية دركات الكذب والقبح .

أى : لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن حديث الإفك هذا هو شر لكم ، بل هو خير لكم ، لأنه كشف عن قوى الإيمان من ضعيفه . كما فضح حقيقة المنافقين وأظهر ما يضمرونه من سوء للنبى - ﷺ - ولأهل بيته ، وللمؤمنين ، كما أنكم قد نلتم بصبركم عليه وتكذيبكم له أرفع الدرجات عند الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الخائضين فى حديث الإفك من عقاب فقال : ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ .

أى لكل واحد من هؤلاء الذين اشتركوا فى إشاعة حديث الإفك العقاب الذى يستحقه بسبب ما وقع فيه من آثام ، وما اقترفه من سيئات .

وقوله - تعالى - : ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ بيان لسوء عاقبة من تولى معظم إشاعة هذا الحديث الكاذب .

والكبر - بكسر الكاف وضمها - مصدر لمعظم الشىء وأكثره .

أى : والذى تولى معظم الخوض فى هذا الحديث الكاذب ، وحرض على إشاعته ، له عذاب عظيم لا يقادر قدره من الله - تعالى - .

والمقصود بهذا الذى تولى كبره . عبد الله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين وزعيمهم ، فهو الذى قاد حملته ، واضطلع بالنصيب الأكبر لإشاعته .

روى أنه لما جاء صفوان بن المعطل يقود راحلته وعليها عائشة - رضى الله عنها - قال عبد الله بن أبى لمن حوله : من هذه ؟ قالوا عائشة فقال - لعنه الله - : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها ، والله ما نجت منه وما نجا منها .

وقال ابن جرير : « والأولى بالصواب قول من قال ، الذى تولى كبيره عبد الله بن أبى بن سلول ، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير ، وأن الذى بدأ بذكر الإفك . وكان يجمع أهله ويحدثهم به ، هو عبد الله بن أبى بن سلول »[1] .

وقال الآلوسى : « والذى تولى كبره .. كما فى صحيح البخارى عن الزهرى عن عروة عن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٨ ص ٧١ .

عائشة - : هو عبد الله بن أبى - عليه اللعنة - وقد سار على ذلك أكثر المحدثين .

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر ، أنه بعد نزول هذه الآيات فى براءة السيدة عائشة دعا الرسول - ﷺ - أبا عبيدة بن الجراح فجمع الناس ، ثم تلاها عليهم . ثم بعث إلى عبد الله بن أبى . فجىء به فضربه حدين ، ثم بعث إلى حسان بن ثابت ، ومسطح . وحمنة بنت جحش فضربوا ضربا وجيعا .. وقيل إن ابن أبى لم يحد أصلا ، لأنه لم يقر ، ولم يلتزم إقامة البينة عليه تأخيراً لجزائه إلى يوم القيامة »[1] .

ثم وجه - سبحانه - المؤمنين إلى الطريق الذى كان يجب عليهم أن يسلكوه فى مثل هذه الأحوال فقال :

﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا إفك مبين ﴾ .

و « لولا » حرف تحضيض بمعنى هلا والمراد « بأنفسهم » هنا إخوانهم فى الدين والعقيدة .

أى : هلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - حديث الإفك هذا ظننتم « بأنفسكم » . أى : بإخوانكم وبأخواتكم ظنا حسنا جميلا ، وقلتم : هذا الحديث الذى أذاعه المنافقون كذب شنيع وبهتان واضح لا يصدقه عقل أو نقل .

وفى التعبير عن إخوانهم وأخواتهم فى الدين بأنفسهم ، أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء الصادق بين المؤمنين ، حتى لكأن الذى يظن السوء بغيره إنما ظنه بنفسه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ... ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ... ﴾[2] . وقوله - سبحانه - : ﴿ ... ولا تلمزوا أنفسكم ... ﴾[3] .

قال أبو حيان - رحمه الله - : « وعدل بعد الخطاب - فى الآية الأولى - إلى الغيبة فى هذه الآية - ، وعن الضمير إلى الظاهر، فلم يجئ التركيب ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم هذا إفك مبين . ليبالغ - سبحانه - فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه ، مقتض فى أن لا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن ، وفيه تنبيه على أن المؤمن إذا سمع قالة سوء فى أخيه أن يبنى الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناء على ظنه : هذا إفك مبين . هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه ، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن ، ومعنى بأنفسهم ، أى : كان يقيس فضلاء المؤمنين

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١١٦ .

(٢) سورة البقره الآية ٨٥ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١١ .

والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم . فإذا كان ذلك يبعد عليهم قضوا بأنه فى حق من هو خير منهم أبعد .. »[١] .

ولقد فعل المؤمنون الصادقون ذلك ، فهاهو ذا أبو أيوب - خالد بن زيد الأنصارى ، قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع مايقوله الناس فى عائشة - رضى الله عنها - ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا . والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك[٢] .

وفى رواية أن أبا أيوب قال لزوجته أم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت له : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله - ﷺ - سوءا ؟ قال : لا ، فقالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله عنها - ما خنت رسول الله - ﷺ - فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك[٣] .

وهكذا المؤمنون الأطهار الأخيار ، يبنون أمورهم على حسن الظن بالناس .

ورحم الله صاحب الانتصاف . فقد علق على ما قالته - أم أيوب لزوجها فقال : ولقد ألهمت - أم أيوب - بنور الإيمان إلى هذا السر الذى انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بالطريق الأولى - رضى الله عنها -[٤] .

ثم وصف - سبحانه - الخائضين فى حديث الإفك بالكذب لأنهم قالوا قولا بدون دليل ، فقال : ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ أى : هلا جاء هؤلاء الذين افتروا على السيدة عائشة ما افتروا ، بأربعة شهداء يشهدون لهم على ثبوت ما تفوهوا به .

﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء ﴾ أى : وما داموا لم يأتوا بهم - ولن يأتوا بهم - ﴿ فأولئك عند الله ﴾ أى : فى حكمه - سبحانه - وفى شريعته ﴿ هم الكاذبون ﴾ كذبا قبيحا تشمئز منه النفوس ، ويسجل عليهم الخزى والعار إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين فقال : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٤٣٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦ .
(٣) ، (٤) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢١٨ .

و « لولا » هنا لا متناع الشيء لو جود غيره ، و « أفضتم » من الإفاضة بمعنى التوسع فى الشيء . والاندفاع فيه بدون تريث أو تحقق ، وأصله من قولهم : « أفاض فلان الإناء ، إذا ملأه حتى فاض » .

أى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم - أيها المؤمنون - فى الدنيا بإعطائكم فرصة للتوبة . وفى الآخرة بقبول توبتكم ، لولا ذلك « لمسكم » أى : لنزل بكم بسبب ما أفضتم فيه من حديث الإفك عذاب عظيم ، لا يعلم مقدار ألمه وشدته إلا الله - تعالى - .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية فقال : ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ . و « إذ » ظرف لقوله - تعالى - ﴿ لمسكم ﴾ .

أى : لمسكم عذاب عظيم . وقت تلقيكم هذا الحديث السيىء لسانا عن لسان باستخفاف واستهتار ! ويأخذه بعضكم عن بعض بدون تحرج أو تدبر .

﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أى : وتقولون بأفواهكم قولا تلوكه الأفواه ، دون أن يكون معه بقية من علم أو بينة أو دليل .

ففى هاتين الجملتين زجر شديد لأولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك ، بدون تدبر أو تعقل ، حتى لكأنهم - وقد أفلت منهم الزمام ، واستزلهم الشيطان - ينطقون بما ينطقون به بأفواههم لا بوعيهم ، وبألسنتهم لا بعقولهم ، ولا بقلوبهم ، وإنما هم يتفوهون بكلمات لا علم لهم بحقيقتها . ولا دليل معهم على صدقها .

وهذا كله يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان الصحيح من تثبت ومن حسن ظن بالمؤمنين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما هو أشد فى الزجر والتهديد فقال : ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ .

أى : وتحسبون أن ما خضتم فيه من كذب على الصديقة بنت الصديق شيئاً هيناً ، والحال أن ما فعلتموه ليس كذلك ، بل هو عند الله - تعالى - وفى حكمه شيء عظيم ، تضج لهوله الأرض والسماء لأن ما خضتم فيه يسيء إلى النبى - ﷺ - ويسيء إلى أهل بيته ، ويسيء إلى صحابى جليل هو صفوان ، ويسيء إلى بيت الصديق - رضى الله عنه - بل ويسيء إلى الجماعة الإسلامية كلها .

ثم يوجههم - سبحانه - مرة أخرى إلى ما كان يجب عليهم أن يفعلوه فى مثل هذه الأحوال فيقول : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

وأصل معنى « سبحانك » تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص . ثم شاع استعماله فى كل أمر يتعجب منه . وهذا المعنى هو المراد هنا .

والبهتان : هو الكذب الذى يبهت ويحير سامعه لشناعته وفظاعته ، يقال : بهت فلان فلانا إذا قال عليه مالم يقله وما لم يفعله .

أى : وهلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون - حديث الإفك ممن افتراه واخترعه ، قلتم له على سبيل الزجر والردع والإفحام : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . أى : ما يصح منا إطلاقا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الدركات فى الكذب والافتراء .

وقلتم له أيضا - على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر : « سبحانك » ، أى : نتعجب ياربنا من شناعة ما سمعناه ، فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة كذب يبهت ويدهش من يسمعه ، وهو فى الشناعة لا تحيط بوصفه عبارة .

وهكذا يؤدب الله - تعالى - عباده المؤمنين بالأدب السامى ، حيث يأمرهم فى مثل هذه الأحوال ، أن ينزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع إلى ما يسىء إلى المؤمنين ، وأن يتحرجوا من مجرد النطق بمثل حديث الإفك ، وأن يستنكروا ذلك على من يتلفظ به .

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم فقال : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أي : يعظكم الله تعالى ه أيها المؤمنون - بما يرقق قلوبكم ، ويحذركم من العودة إلى الخوض فى حديث الإفك ، أو فيم يشبهه من أحاديث باطلة ، وعليكم أن تمتثلوا ما آمركم به ، وما أنهاكم عنه امتثالا كاملا ، إن كنتم مؤمنين إيمانا كاملا .

فقوله - تعالى - ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ من باب تهييجهم وإثارة حماستهم للاستجابة لوعظه وتحذيره - سبحانه - .

وقوله - تعالى - ﴿ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ إبراز لما تفضل به - سبحانه - عليهم من تعليم وتوجيه وحسن تربية .

أى : ويبين الله - تعالى - لكم الآيات التى تسعدكم فى دنياكم وآخرتكم متى اتبعتم ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ، والله - تعالى - « عليم » بأحوال خلقه « حكيم » فى جميع ما يأمر به ، أو ينهى عنه .

* * *

ثم يواصل القرآن الكريم توجيهاته الحكيمة للمؤمنين ، فيهدد الذين يحبون أن تشيع

الفاحشة فى الذين آمنوا بالعذاب الأليم ، وينهى المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان ، قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾
۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ
وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

قال الإمام الرازى : « أعلم أنه - سبحانه - بعد أن بين ما على أهل الإفك ، وما على من سمع منهم ، وما ينبغى أن يتمسك به المؤمنون من آداب ، أتبعه بقوله : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .. ﴾ ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذم ، كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره ، وليعلم أهل الإفك كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه ، فكذلك يستحقون العقوبة بما أسروه ، من محبة إشاعة الفاحشة فى المؤمنين[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٤٦ .

ومعنى « تشيع » تنتشر وتكثر ، ومنه قولهم : شاع الحديث . إذا ظهر بين الناس .

والفاحشة : هى الصفة البالغة أقصى دركات القبح ، كالرمى بالزنا وما يشبه ذلك .

وهى صفة لموصوف محذوف . أى : الخصلة الفاحشة ، والمقصود بمحبة شيوعها : محبة شيوع خبرها بين عامة الناس .

والمعنى : إن الذين يحبون أن تنتشر قالة السوء بين صفوف المؤمنين ، وفى شأنهم ، لكى يلحقوا الأذى بهم ، هؤلاء الذين يحبون ذلك « لهم » بسبب نواياهم السيئة « عذاب أليم فى الدنيا » كإقامة الحد عليهم ، وازدراء الأخيار لهم ، ولهم - أيضا - عذاب أليم « فى الآخرة » وهو أشد وأبقى من عذاب الدنيا .

« والله » تعالى وحده « يعلم » ما ظهر وما خفى من الأمور والأحوال « وأنتم » أيها الناس - « لا تعلمون » إلا ما كان ظاهرا منها ، فعاملوا الناس على حسب ظواهرهم ، واتركوا بواطنهم لخالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يتولى محاسبتهم عليها .

فالآية الكريمة يؤخذ منها : أن العزم على ارتكاب القبيح ، منكر يعاقب عليه صاحبه ، وأن محبة الفجور وشيوع الفواحش فى صفوف المؤمنين ، ذنب عظيم يؤدى إلى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأن الله - تعالى - علق الوعيد الشديد فى الدارين على محبة انتشار الفاحشة فى الذين آمنوا .

ثم ذكر - سبحانه - المؤمنين بفضله عليهم مرة أخرى ، لكى يزدادوا اعتبارا واتعاظا فقال ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾ .

وجواب « لولا » محذوف ، كما أن خبر المبتدأ محذوف ، والتقدير : ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته بكم موجودان ، لعاجلكم بالعقوبة . ولكنه - سبحانه - لم يعاجلكم بها ، لأنه شديد الرأفة والرحمة بعباده ، ولو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك عليها من دابة .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن اتباع خطوات الشيطان ، فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ... ﴾ .

والخطوات : جمع خطوة . وهى فى الأصل تطلق على ما بين القدمين . والمراد بها هنا : طرقه ومسالكه ووساوسه ، التى منها الإصغاء إلى حديث الإفك ، والخوض فيه . وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة ، والأفعال القبيحة .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، احذروا أن تسلكوا المسالك التى يغريكم بسلوكها

الشيطان ، فإن الشيطان وظيفته الإغراء بالشر لا بالخير ، والأمر بالفحشاء والمنكر ، وليس بالفضائل والمعروف .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان ﴾ محذوف ، والتقدير : ومن يتبع خطوات الشيطان يقع فى الضلال والعصيان ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

وخاطبهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك قوة الإيمان فى قلوبهم ، ولتهييجهم على الاستجابة لما أرشدهم إليه - سبحانه - .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا .. ﴾ بيان لمظاهر فضله - تعالى - ولطفه بعباده المؤمنين .

والمراد بالتزكية هنا : التطهير من أرجاس الشرك ، ومن الفسوق والعصيان .

أى : ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته بكم - ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصى طول حياته ، ولكن الله - تعالى - بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والأنجاس . بأن يقبل توبته . ويغسل حوبته .

« والله » - تعالى - « سميع » لدعاء عباده ومناجاتهم إياه « عليم » بما يسرونه وما يعلنونه من أقوال وأفعال .

ثم حض - عز وجل - أصحاب النفوس النقية الطاهرة ، على المواظبة على ما تعودوه من سخاء وسماحة ، فقال : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ، أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم . والله غفور رحيم ﴾ .

وقد صح أن هذه الآية الكريمة نزلت فى شأن أبى بكر - رضى الله عنه - عندما أقسم أن لا يعطى مسطح بن أثاثة شيئا من النفقة أو الصدقة .

وكان مسطح قريبا لأبى بكر . وكان من الفقراء الذين تعهد أبو بكر رضى الله عنه - بالانفاق عليهم لحاجتهم وهجرتهم وقرابتهم منه .

وقوله : ﴿ ولا يأتل ﴾ أى : ولا يحلف . يقال : آلى فلان وأتلى . إذا حلف ومنه قوله - تعالى - : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم .. ﴾[1] أى : يحلفون .

أى : ولا يحلف « أولوا الفضل منكم والسعة » أى أصحاب الزيادة منكم فى قوة الدين . وفى سعة المال « أن يؤتوا أولى القربى .. » أى : على أن لا يعطوا أولى القربى والمساكين

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٦ .

والمهاجرين فى سبيل الله ، شيئا من أموالهم .

فالكلام فى قوله : « أن يؤتوا » على تقدير حرف الجر ، أى : لا يحلفوا على أن لا يؤتوا ، وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وأن وصلتهما مطرد ، ومفعول « يؤتوا » الثانى محذوف . أى : أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، النفقة التى تعودوا أن يقدموها لهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ تحريض على العفو والصفح . والعفو معناه: التجاوز عن خطأ المخطىء ونسيانه ، مأخوذ من عفت الريح الأثر ، إذا طمسته وأزالته .

والصفح : مقابلة الإساءة بالإحسان ، فهو أعلى درجة من العفو .

أى : قابلوا - أيها المؤمنون - إساءة المسىء بنسيانها ، وبمقابلتها بالإحسان .

وقوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ أى : ألا تحبون - أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم ذنوبكم ، بسبب عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم ؟

فالجملة الكريمة ترغيب فى العفو والصفح بأبلغ أسلوب ، وقد صح أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما سمع الآية قال : بلى والله يا ربنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا ، وأعاد إلى مسطح نفقته ، وفى رواية : أنه - رضى الله عنه - ضاعف لمسطح نفقته .

قال الآلوسى : « وفى الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها . واستدل بها على فضل الصديق - رضى الله عنه - لأنه داخل فى أولى الفضل قطعا ، لأنه وحده أو مع جماعة سبب النزول ، ولا يضر فى ذلك الحكم لجميع المؤمنين كما هو الظاهر .. »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ .

أى : والله - تعالى - كثير المغفرة ، وواسع الرحمة بعباده ، فكونوا - أيها المؤمنون - أصحاب عفو وصفح عمن أساء إليكم .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالعفو والصفح عمن استزلهم الشيطان ، فخاضوا فى حديث الإفك ثم ندموا وتابوا ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة المصريين على خبثهم وعلى محبة إشاعة الفاحشة فى صفوف الجماعة الإسلامية فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٢٦ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ
ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ
وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

والمعنى : « إن الذين يرمون » بالفاحشة النساء « المحصنات » أى : المانعات أنفسهن عن كل سوء وريبة « الغافلات » أى : الغافلات عن أن تدور الفاحشة بأذهانهن ، لأنهن طبعن على التخلق بالأخلاق الفاضلة الكريمة ، فهن فوق كونهن محصنات ، لا يخطر السوء ببالهن لطهارة معدنهن .

« المؤمنات » أى : الكاملات الإيمان بالله - تعالى - ، وبصدق رسوله - ﷺ - ، وبكل ما يجب الإيمان به .

وقوله - سبحانه : ﴿ لعنوا فى الدنيا والآخرة ﴾ أى : طردوا من رحمة الله - تعالى - فى الدنيا وفى الآخرة ، وفوق كل ذلك « لهم » منه - تعالى - « عذاب عظيم » لا تحيط العبارة بوصفه .

وجملة « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » مقررة لمضمون ما قبلها ، مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم .

أى : لهم عذاب عظيم يوم القيامة ، يوم يقفون أمام الله - تعالى - للحساب فتشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، بما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال سيئة ، وبما كانوا يقولونه من أقوال قبيحة .

فالمراد بشهادة هذه الجوارح ، نطقها وإخبارها عما كانوا يعملونه فى الدنيا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[2] .

والمراد بالدين فى قوله - تعالى - : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق .. ﴾ الجزاء الذى يستحقونه بسبب آثامهم . ويوفيهم : من التوفية بمعنى إعطاء الشىء كاملا ووافيا . وقوله : « يومئذ » ظرف ليوفيهم .

أى : فى هذا اليوم العظيم وهو القيامة . الذى تشهد فيه الجوارح على صاحبها ، يجازى الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين الجزاء الحق العادل الذى يستحقونه بسبب رميهم النساء المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

« ويعلمون » علما لا مجال معه للشك أو الريب عندما يشاهدون العذاب « أن الله » - تعالى - هو الإله « الحق » فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنه - عز وجل - هو « المبين » أى : المظهر لما أبطنته النفوس ، وخبأته الضمائر ، والقادر على مجازاة الذين أساءوا بما عملوا ، وعلى مجازاة الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ختم - سبحانه - الآيات التى نزلت فى حديث الإفك بتقرير سنته الإلهية ، التى نشاهدها فى واقع الناس - وهى : أن شبيه الشىء منجذب إليه ، وأن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها اختلف » . - كما جاء فى الحديث الشريف - فقال - تعالى - : « الخبيثات للخبيثين » أى : الخبيثات من النساء ، مختصات بالخبيثين من الرجال « والخبيثون » من الرجال مختصون « بالخبيثات » من النساء ، « والطيبات » منهن « للطيبين » منهم . « والطيبون » - أيضا - منهم « للطيبات » منهن .

وهكذا يألف الشكل شكله ، والطيور على أشكالها تقع ، وإذا كان النبى - ﷺ - هو أطيب الطيبين ، فلا يمكن أن تكون زوجاته - ﷺ - وعلى رأسهن عائشة ، إلا من أطيب الطيبات من النساء ، وأطهر الطاهرات منهن .

ثم جاءت شهادة الله - تعالى - وهى تغنى عن كل شهادة - بما يثبت براءة عائشة -

(١) سورة فصلت الآية ٢٠ ، ٢١ .
(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

رضى الله عنها - من كل ما افتراه عليها المفترون ، جاء قوله - سبحانه - ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

أى : أولئك ، الطيبون والطيبات ، وعلى رأسهم رسول الله - ﷺ - وأهل بيته . وعلى رأس أهل بيته عائشة - رضى الله عنها - مبرءون مما يقولون أى : مما يقوله الخبيثون والخبيثات فى شأنهم .

وأولئك الطيبون والطيبات « لهم مغفرة » عظيمة من الله - تعالى - ولهم « رزق كريم » هو جنة عرضها السموات والأرض ، جزاء إيمانهم وعملهم الصالح وصبرهم على الأذى .

هذا هو حديث القرآن عن حديث الإفك ، الذى أشاعه الفاسقون عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وكان مقصدهم الأكبر من وراء ذلك هو الطعن فى نبوة الرسول - ﷺ - . ولكن الله - تعالى - رد عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم .

هذا ، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة جملة من الأحكام والآداب من أهمها ما يأتى :

١ - غيرة الله - تعالى - على حرمة نبيه - ﷺ - ودفاعه - سبحانه - عن أوليائه ، ورده لكيد المنافقين فى نحورهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : « هذه الآيات نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين . بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار الله - تعالى - لها ولنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - فأنزل الله - سبحانه - براءتها ، صيانة لعرض الرسول - ﷺ - »[1] .

٢ - تسلية الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث المفترى على الصديقة بنت الصديق - رضى الله عنها - ، وقد ظل هذا الحديث يتردد فى جنبات المدينة ، حتى نزلت هذه الآيات الكريمة ، لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

ومن مظاهر هذه التسلية قوله - تعالى - ﴿ لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم .. ﴾ .

قال صاحب الكشاف : ومعنى كونه خيرا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء .. ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة ، بما هو تعظيم لشأن رسول الله - ﷺ - وتسلية له . وتنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها - وتطهير لأهل البيت . وتهويل لمن تكلم فى ذلك ، أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢١٧ .

٣ - إرشاد المؤمنين إلى أن من أنجع الوسائل لمحاربة الإشاعات الكاذبة ، أن يحسن بعضهم الظن ببعض ، وأن يكتموا هذه الإشاعات حتى تموت فى مهدها ، وأن يزجروا من يتفوه بها . أو من يعمل على ترويجها . وأن يظهروا له احتقارهم ، ونفورهم من مجرد سماعها .

وهذا الإرشاد الحكيم ، نراه فى آيات متعددة من هذه القصة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا إفك مبين ﴾ .

﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

٤ - بيان جانب من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده المؤمنين ، الذين سبقتهم ألسنتهم بالخوض فى حديث الإفك ، أو فى سماعه .. ثم تابوا بعد ذلك مما وقعوا فيه .

ويتجلى هذا الفضل العظيم ، فى قوله - تعالى - : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾ . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم ﴾ .

٥ - تحذير المؤمنين تحذيرا شديداً ، عن مغبة الوقوع مرة أخرى . فيما وقع فيه بعضهم من الخوض فى حديث الإفك ، وفيما يشبهه من أحداث ، وبيان أن ما حدث من بعضهم يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان ، ومع آداب الإسلام .

ومن الآيات التى وردت فى هذا التحذير قوله - تعالى - : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم ﴾ .

٦ - تهديد الذين افتروا حديث الإفك بخبث وبسوء نية ، وبإصرار على نشر قالة السوء فى صفوف المؤمنين .. تهديدهم بأشد ألوان العذاب فى الدنيا والآخرة ، ووصفهم بأقبح الصفات التى تدعو إلى نبذهم والبعد عنهم .

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ . وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : « ولو فليت

القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة ، لم تر الله - تعالى - قد غلظ فى شىء تغليظه فى الإفك على عائشة - رضوان الله عليها . وأنزل - سبحانه - من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد . ما أنزل فى حديث الإفك ، ولو لم ينزل الله إلا هذه الثلاث - يعنى قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات .. ﴾ إلى قوله - سبحانه - ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق ﴾ المبين لكفى بها . حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا ، وبأن جوارحهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا .. فأوجز - سبحانه - فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ... وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله - ﷺ - ونفى التهمة عن حرمته .. »[1] .

٧ - توجيه المؤمنين الصادقين إلى العفو والصفح ، عمن شارك فى حديث الإفك بالقول ، أو بالسماع ، أو بالرضا به ، ما دام هؤلاء المشاركون قد تابوا وندموا على ما وقع منهم ، ندما يدل على حسن توبتهم ، كأن يعترفوا بخطئهم أو يعتذروا عما فرط منهم .

ويشهد لهذا التوجيه قوله - تعالى - فى شأن أبى بكر الصديق ، بعد أن أقسم أن لا ينفق على مسطح - ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ﴾ .

٨ - تكريم السيدة عائشة - رضى الله عنها - تكريما يظل ملازما لها إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها . فقد برأها - سبحانه - مما افتراه عليها المفترون ، وشهد بحصانتها وغفلتها عن السوء ، وقوة إيمانها ، وطيب عنصرها ، وأنزل فى شأنها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، ويكفيها فخرا قوله - تعالى - : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون . لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

وقد ساق بعض العلماء كثيرا من الأحاديث التى تدل على فضلها وعلى حب النبى - ﷺ - لها ، فقال ما ملخصه : « وفى الجملة فإن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة . وعلى محبة النبى - ﷺ - لها ، ففى الصحيح عن عمرو بن العاص قال : قلت يا رسول الله . أى النساء أحب إليك ؟ قال : « عائشة » .

وثبت فى الصحيح - أيضاً - أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة لما يعلمون من محبته - ﷺ - إياها .. وكان فى مرضه الذى مات فيه يقول : أين أنا اليوم ؟ استبطاء ليوم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٢٣ .

عائشة . ثم استأذن نساءه - رضى الله عنهن - أن يُمَرَّض فى بيتها ، وفيه توفى فى حجرها »[1] .

هذه بعض الأحكام والآداب التى تؤخد من هذه الآيات ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى أمهات كتب التفسير ، ففيها ما يشبع وينفع .

* * *

وبعد أن بين - سبحانه - قبح جريمة الزنا ، وشناعة جريمة القذف ، وعقوبة كل من يقع فى هاتين الجريمتين ، أتبع ذلك ببيان الآداب التى تحمل المتمسك بها على التحلى بالفضيلة والنقاء والطهر ... وبدأ - سبحانه - بآداب الاستئذان فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ
وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات ، أن امرأة من الأنصار جاءت إلى النبى - ﷺ - فقالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل على وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزل قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ .

فقال أبو بكر - رضى الله عنه - يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ١٢ ص ٤٤٩٤ .

الشام ، ليس فيها ساكن ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾[1] .

والمراد بالبيوت فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تدخلوا بيوتا .. ﴾ البيوت المسكونة من أصحابها ، بدليل قوله - سبحانه - بعد ذلك ، ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ تستأنسوا ﴾ ، من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف ، فهو من آنس الشىء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا .. ﴾[1] أى : قال لأهله إنى رأيت نارا .

ويصح أن يكون من الاستئناس الذى هو ضد الاستيحاش ، لأن الذى يقرع باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له أهل البيت فى الدخول ، زالت وحشته ، ودخل وهو مرتاح النفس .

وعلى هذا المعنى يكون الكلام من باب المجاز ، حيث أطلق اللازم وهو الاستئناس ، وأريد الملزوم وهو الإذن فى الدخول .

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم التى تسكنونها ، والتى هى مسكونة لسواكم « حتى تستأنسوا » ، أى : حتى تعلموا أن صاحب البيت قد أذن لكم ، ورضيت نفسه بدخولكم « وتسلموا على أهلها » أى : وتسلموا السلام الشرعى على أهل هذه البيوت الساكنين فيها .

وعبر - سبحانه - عن الاستئذان فى الدخول بالاستئناس ، لأنه يوحى بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد أنسوا به ، واستعدوا لاستقباله ، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متهيئون لحسن لقائه . فإذا ما صاحب كل ذلك التسليم عليهم . كان حسن اللقاء أتم وأكمل .

وقوله ﴿ ذلكم ﴾ : أى الاستئناس والتسليم قبل الدخول ﴿ خير لكم ﴾ من الدخول بدون استئناس أو استئذان أو تسليم .

وقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ متعلق بمحذوف ، ولعل هنا للتعليل . أى : أرشدناكم إلى هذا الأدب السامى ، وبيناه لكم ، كى تعملوا به ، وتكونوا دائما متذكرين له ، وتتركوا اقتحام

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢١٣ .
(٢) سورة القصص الآية ٢٩ .

بيوت غيركم بدون استئذان منهم .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى توجب عليهم الاستئذان ، فقال : ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .. ﴾ .

أى : فإن لم تجدوا فى هذه البيوت أحدا ، بأن كانت خالية من سكانها لظرف من الظروف ، فلا يصح لكم - أيضا - أن تدخلوها ، حتى يؤذن لكم فى دخولها ممن يملك الإذن بذلك .

قال صاحب الكشاف : « وذلك أن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر - أى الداخل بغير إذن - على عورة ، ولا تسبق عينه إلى مالا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة عن غيرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأنه تصرف فى ملك غيرك ، فلابد من أن يكون برضاه . وإلا أشبه الغصب والتغلب »[1] .

فالآية الأولى لبيان حكم دخول البيوت المسكونة بأهلها ، وهذه لبيان حكم دخول البيوت الخالية من سكانها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ بيان لما يجب عليهم فى حالة عدم الإذن لهم بالدخول .

أى : وإن قيل لكم من جهة أهل البيت ارجعوا ولا تدخلوا ، فارجعوا ولا تلحوا فى طلب الدخول ، فإن هذا الرجوع هو أطهر لأخلاقكم ، وأبقى لمرءوتكم . من الإلحاح فى الاستئذان ، ومن الوقوف على أبوابٍ أصحابُها قد تكون أحوالهم لاتسمح لكم بالدخول عليهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ تذييل قصد به التحذير من مخالفة ما أمر الله - تعالى - به ، ومانهى - سبحانه - عنه .

أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، فأصلحوها ، والتزموا باتباع ما أمركم به ، وما نهاكم عنه ، فإنه - سبحانه - سيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

فالمقصود من هذا الأخبار : إفادة لازمه وهو المجازاة على هذه الأعمال .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ بمنزلة الاستثناء من الأحكام التى اشتملت عليها الآيتان السابقتان .

فقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت آية الاستئذان ، قال بعض الصحابة يا رسول الله . كيف

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٢٨ .

بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، وهى على ظهر الطريق ، وليس فيها ساكن من أربابها ، فنزلت هذه الآية .

والمراد بالمتاع : التمتع والانتفاع بها .

أى : ليس عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تدخلوا بغير استئذان بيوتا غير معدة لسكنى طائفة معينة من الناس ، بل هى معدة لينتفع بها من يحتاج إليها من دون أن يتخذها مسكنا له ، كالرباطات ، والفنادق ، والحوانيت ، والحمامات ، وغير ذلك من الأماكن المعدة للراحة المؤقتة لا للسكن والإقامة .

وقوله : ﴿ فيها متاع لكم ﴾ أى : فيها حق تمتع وانتفاع لكم ، كالوقاية من الحر والبرد . وكتبادل المنافع فيما بينكم بالبيع أو الشراء ، وغير ذلك مما يتناسب مع وظيفة هذه البيوت غير المسكونة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ وعيد وتحذير آخر لأولئك الذين يدخلون البيوت ولا يرعون حرمتها ، بل يبيحون لعيونهم ولجوارحهم ، مالم تبحه آداب الإسلام ، وتعاليمه ، كالتطلع إلى العورات . وما يشبه ذلك من المقاصد السيئة .

أى : والله - تعالى - وحده يعلم ما تظهرونه وما تخفونه من أقوال وأعمال ، وسيحاسبكم عليها ، فاحذروا أن تسلكوا مسلكا لا يرضى خالقكم عنكم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن على كل إنسان - سواء أكان رجلا أم امرأة - أن يستأذن ويسلم قبل الدخول على غيره فى بيته ، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .... ﴾ فهذا نهى صريح عن الدخول بدون استئذان .

إلا أن جمهور الفقهاء يرون أن الطلب فى الاستئناس على سبيل الوجوب وفى السلام على سبيل الندب ، كما هو حكم السلام فى غير هذا الموطن .

٢ - يرى بعض العلماء أن القادم يبدأ بالاستئذان قبل السلام ، كما جاء فى الآية الكريمة ، ويرى كثير منهم تقديم السلام على الاستئذان ، لأن الواو لا تستلزم الترتيب ، ولأن هناك أحاديث متعددة ، تفيد أن السلام مقدم على الاستئذان ، ومنها ما أخرجه الترمذى عن جابر أن رسول الله - ﷺ - قال : « السلام قبل الكلام »[١] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩ .

وبعض العلماء فصل فى هذه المسألة فقال : إن كان القادم يرى أحدا من أهل البيت ، سلم أولا ثم استأذن فى الدخول ، وإن كان لا يرى أحدا منهم قدم الاستئذان على السلام .

وهذا الرأى وجاهته ظاهرة ، لأن فيه جمعا بين الأدلة .

٣ - لا صحة لما ذكره بعضهم من أن أصل الآية « حتى تستأذنوا » ، وأن الكاتبين أخطأوا فى كتابتهم فكتبوا « حتى تستأنسوا » ، وذلك لأن جميع الصحابة أجمعوا على كتابة « حتى تستأنسوا » فى جميع نسخ المصحف العثمانى ، وعلى تلاوة الآية بلفظ « تستأنسوا » ومضى على ذلك إجماع المسلمين فى كل مكان ، سواء فى كتابتهم للمصحف أم فى قراءتهم له .

قال القرطبى : إن مصاحف الإسلام كلها ، قد ثبت فيها « حتى تستأنسوا » وصح الإجماع فيها من لدن عثمان ، فهى لا تجوز مخالفتها . وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح .. وقد قال الله - تعالى - ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[١] وقال - سبحانه - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٢] . سورة الحجر الآية ٩ .

٤ - ظاهر قوله - تعالى - : ﴿ حتى تستأنسوا .. ﴾ أن الاستئذان غير مقيد بعدد ، إلا أن السنة الصحيحة قد بينت أن الاستئذان يكون ثلاث مرات فإن لم يؤذن له بعدها انصرف .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : كنت فى مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى - كأنه مذعور - فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال : مامنعك - أى من الدخول - ؟ قلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى . وقال رسول الله - ﷺ - : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع . فقال لى : لتأتين بالبينة . فهل منكم أحد سمع النبى - ﷺ - يقول ذلك ؟ فقام معه أبى بن كعب ، فأخبر عمر أن النبى - ﷺ - قال ذلك .

قال بعض العلماء : « والراجح أن الواجب إنما هو الاستئذان مرة . فأما كمال العدد ثلاثا فهو حق المستأذن إن شاء أكمله ، وإن شاء اقتصر على مرة أو مرتين . فقد ثبت أن عمر بن الخطاب استأذن على النبى - ﷺ - مرتين ، فلم يؤذن له فرجع ، فتبعه غلام فقال له : ادخل فقد أذن لك النبى - ﷺ -[٣] .

٥ - ظاهر قوله - تعالى - ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ يفيد أنهم

(١) سورة فصلت الآية ٤٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢١٤ .
(٣) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ١٤٩ لفضيلة الشيخ محمد على السايس - رحمه الله - .

ليس عليهم استئذان فى دخول بيوتهم . إلا أن هذا الظاهر يصح حمله على الزوجة . لأنه يجوز بين الزوج وزوجته من الأحوال مالا يجوز لأحد غيرهما ، ومع ذلك فإنه ينبغى أن يشعر الرجل زوجته بقدومه ، حتى لا يفاجئها بما تكره له أن يطلع عليه .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات : وهذا - أى عدم الاستئذان على الزوجة - محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .. ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله - ﷺ - إنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا[1] .

وأما بالنسبة لغير زوجته ، كأمه ، وأخواته ، وبنيه وبناته البالغين ، فإنه يلزمه أن يستأذن عليهم ، لأنه إن دخل عليهم بدون استئذان ، فقد تقع عينه على مالا يصح الإطلاع عليه .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى . ما أخرجه مالك فى الموطأ عن عطاء بن يسار ، أن رجلا قال للنبى - ﷺ - : أأستأذن على أمى ؟ قال : « نعم ، قال : ليس لها خادم غيرى ، أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال - ﷺ - أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا .. قال : فاستأذن عليها »[2] .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن نافع : كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم ، لم يدخل عليه إلا بإذن .

٦ - وردت أحاديث متعددة فى كيفية الاستئذان ، وفى التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن .

فمن آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن أمام الباب بوجهه . ولكنه يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره ، ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم .

كذلك من آداب الاستئذان أن لا يقول المستأذن « أنا » فى الرد على رب المنزل ، وإنما يذكر اسمه ، ففى صحيح البخارى عن جابر قال : أتيت النبى - ﷺ - فى دين كان على أبى ، فدققت الباب ، فقال : من ذا ؟ قلت : أنا . فقال : أنا ، أنا ، كأنه كرهها »[3] .

ولعل السر فى النهى عن الرد بلفظ « أنا » أن هذا اللفظ يعبر به كل واحد عن نفسه ، فلا تحصل به معرفة شخصية المستأذن ، والمقصود بالاستئذان الإفصاح لا الإبهام .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢١٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨ .

أما التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن ، فيكفى لذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذنك فحذفته - أى : - رميته - بحصاة ، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جناح » .

هذه بعض الأحكام والآداب التى تتعلق بالاستئذان ، ومنها نرى كيف أدب الإسلام أتباعه بهذا الأدب العالى ، الذى يؤدى التمسك به إلى غرس الفضائل ومكارم الأخلاق فى نفوس الأفراد والجماعات .

* * *

وبعد أن نهى - سبحانه - عن دخول البيوت بدون استئذان . أتبع ذلك بالأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم إبداء الزينة إلا فى الحدود المشروعة ، فقال - تعالى - :

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. ﴾ شروع فى

بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة ، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخول البيوت اندراجا أوليا[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يغضوا ﴾ من الغض بمعنى الخفض . يقال : غض الرجل صوته إذا خفضه . وغض بصره إذا خفضه ومنعه من التطلع إلى مالا يحل له النظر إليه . قال الشاعر :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وهو جواب الأمر « قل » أى : قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم عما يحرم أو يكره النظر إليه وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم ، فإن ذلك دليل على كمال الإيمان ! ، وعلى حسن المراقبة وشدة الخوف من الله - تعالى - .

وجمع - سبحانه - بين غض البصر وحفظ الفرج ، باعتبارهما كالسبب والنتيجة . إذ أن عدم غض البصر كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفواحش ، ولذا قدم - سبحانه - الأمر بغض البصر ، على الأمر بحفظ الفرج .

وجاء التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ قل ﴾ للإشعار بأن المؤمنين الصادقين ، من شأنهم إذا ما أمرهم الرسول - ﷺ - بأمر ، فإنهم سرعان ما يمتثلون ويطيعون ، لأنه - ﷺ - مبلغ عن الله - تعالى - الذى يجب الامتثال لأمره ونهيه .

وخص - سبحانه - المؤمنين بهذا الأمر ، لأنهم أولى الناس بالمخاطبة . وبالإرشاد إلى ما يرفع درجاتهم ، ويعلى أقدارهم .

قال صاحب الكشاف : و « من » للتبعيض .. فإن قلت : كيف دخلت فى غض البصر ، دون حفظ الفروج ؟ قلت : للدلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن ... والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها ... وأما أمر الفرج فمضيق[1] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ يعود إلى ما ذكر من الغض والحفظ .

أى : ذلك الذى كلفناك بأمر المؤمنين به - أيها الرسول الكريم - أزكى لقلوبهم ، وأطهر لنفوسهم ، وأنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ تحذير من مخالفة أمره - سبحانه - .

أى : مرهم - أيها الرسول الكريم - بالتزام ما أمرناهم به وما نهيناهم عنه ، لأننا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٣٨ .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٢٩ .

لا يخفى علينا شىء من تصرفاتهم ، ولأننا أعلم بهم من أنفسهم ، وسنحاسبهم على ما يصنعون فى دنياهم ، يوم القيامة .

ثم أرشد - سبحانه - النساء إلى ما أرشد إليه الرجال فقال : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنات - أيضا - بأن الواجب عليهن أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى مالا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه ، ولا يظهرن شيئا مما يتزين به ، إلا ما جرت العادة بإظهاره . كالخاتم فى الإصبع ، والكحل فى العين ... وما يشبه ذلك من الأمور التى لا غنى للمرأة عن إظهارها .

ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب ، إلا أن الله - تعالى - خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال ، لتأكيد الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة - إلا فى حدود ماشرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرجل ، لأن علاقتها به ، ومقصده منها كمقصدها منه ، ونظرة أحدهما للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدى إلى مالا تحمد عقباه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها .

والخُمُر - بضم الخاء والميم - جمع خمار . وهو ما تغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها ، والجيوب جمع جيب ، وهو فتحة فى أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها .

والمراد به هنا : محله وهو أعلى الصدر ، وأصله : من الجَيْب بمعنى القطع .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن ، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شىء من ذلك .

قالوا : وكان النساء فى الجاهلية يسدلن خمرهن من خلف رءوسهن ، فتنكشف نحورهن وأعناقهن وقلائدهن ، فنهى الله - تعالى - المؤمنات عن ذلك .

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها : ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول - لما أنزل الله - تعالى - : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ أخذن أزرهن فشققنها فاختمرن بها .

وفى رواية أنها قالت : إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى - والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت هذه الآية . انقلب إليهن

رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من صوف - فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله - ﷺ - فى صلاة الصبح معتجرات كأن رءوسهن الغربان »[1] .

والمقصود بزينتهن فى قوله - تعالى - : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ الزينة الخفية وهى ما عدا الوجه والكفين ، كشعر الرأس والذراعين والساقين .

فقد نهى الله - تعالى - النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل أحد ، إلا من استثناهم - سبحانه - بعد ذلك ، وهم اثنا عشر نوعا ، بدأهم بالبعول وهم الأزواج لأنهم هم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال لزوجها .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام فى مظهرهن، ولا يبدين مواضع زينتهن الخفية إلا « لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن » فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرهم الله - تعالى - بعد الأزواج ، كلهم من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم ، وقد جرت العادة باحتياج النساء إلى مخالطتهم ، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم ، فمن طبيعة النفوس الكريمة أنها تأنف من التطلع إلى المحارم بالنسبة لها . ويلحق بهؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع . والأصول وإن علوا ، والفروع وإن سفلوا .

وقوله - تعالى - : ﴿ أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ بيان لبقية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدى زينتها الخفية أمامهم .

أى : ويجوز للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن - أيضا - أمام نسائهن المختصات بهن بالصحبة والخدمة ، وأمام ما ملكت أيمانهن من الإماء لا من العبيد البالغين ، وأمام الرجال التابعين لهن طلبا للإحسان والانتفاع ، والذين فى الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن ، ولا حاجة لهم فى النساء ، ولا يعرفون شيئا من أمورهن ، ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ، ولا يصفونهن للأجانب .

فقوله - سبحانه - : ﴿ غير أولى الإربة من الرجال ﴾ أى : غير ذوى الحاجة من الرجال فى النساء يقال : أَرِب الرجل إلى الشىء يأرَبُ أَرَباً - من باب تعب ه إذا احتاج إليه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٩ .

ويجوز لهن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء ، أى : الذين لم يعرفوا ما العورة ، ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها وبين غيرها ، ولم يبلغوا السن التى يشتهون فيها النساء .

يقال : ظهر على الشىء إذا اطلع عليه وعرفه ، ويقال : فلان ظهر على فلان إذا قوى عليه وغلبه .

فهؤلاء اثنا عشر نوعا من الناس ، ليس عليهم ولا على المرأة حرج ، فى أن يروا منها موضع الزينة الخفية ، كالرأس والذراعين ، والساقين ، لا نتفاء الفتنة التى من أجلها كان الستر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها .

ثم نهى - سبحانه - النساء المؤمنات عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، بل عليهن أن يلتزمن من خلال خروجهن من بيوتهن الأدب والاحتشام والمشى الذى يصاحب الوقار والاتزان ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ .

أى : ولا يصح للنساء المؤمنات أن يضربن بأرجلهن فى الأرض ، ليسمعن غيرهن من الرجال أصوات حليهن الداخلية ، بقصد التطلع إليهن ، والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها .

فالمقصود من الجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة ، عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة كالمشية المتكلفة ، والتعطر الملفت للنظر ، وما إلى ذلك من ألوان التصنع الذى من شأنه تهييج الغرائز الجنسية .

ثم ختم - سبحانه - تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى ، بدعوة المؤمنين إلى التوبة الصادقة . فقال - تعالى - : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

أى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والمؤمنات ، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تخشونه - سبحانه - فى السر والعلن ، لكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخراكم .

قال القرطبى : « ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضمائر من هذه الآية . جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات ما بين مرفوع ومجرور .. »[1] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى :

١ - وجوب غض البصر وحفظ الفرج ، لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢٣٨ .

نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى مالا يحل لها التطلع إليه ، فالله - تعالى - يقول : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[١] ويقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[٢] .

وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجأة - أى البغتة من غير قصد - فقال : « اصرف بصرك »[٣] .

٢ - أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : « أمر الله - تعالى - النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس فى قدر ذلك .

فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب .. وقال سعيد بن جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب .. وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب .. ونحو هذا ، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس .

وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجتهد فى الإخفاء لكل ماهو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، « فما ظهر » على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه .

قلت : أى القرطبى - : وهذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما .

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦ .
(٢) سورة غافر الآية ١٩ .
(٣) راجع كتاب « رياض الصالحين » ص ٥٨٦ للأمام النووى .

يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ، أن أسماء بنت أبى بكر ، دخلت على رسول الله - ﷺ - وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » .

وقال بعض علمائنا : « إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك »[1] .

هذا ، وفى هذه المسألة كلام كثير للعلماء فارجع إليه إن شئت[2] .

وإلى هنا ترى السورة الكريمة قد نهت عن الزنا ، ووضعت فى طريقه السدود الوقائية والنفسية . حيث حرمت الاختلاط ، وأمرت بالاستئذان ، وبغض البصر ، وبحفظ الفرج ، وبعدم التبرج ، وبالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى - .

ثم أتت بعد ذلك بالعلاج الإيجابى ، الذى من شأنه أن يصرف الإنسان عن فاحشة الزنا المحرمة ، لأنه سيجد فيما أحله الله - تعالى - ما يغنيه عنها ، وذلك عن طريق الأمر بتيسير الزواج ، والحض عليه . قال - تعالى - :

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢٢٨ .

(٢) راجع - على سبيل المثال - أضواء البيان للشيخ الشنقيطى جـ ٦ ص ١٩٢ وتفسير آيات الأحكام للشيخ السايس جـ ٣ ص ١٥٥ .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم .. ﴾ للأولياء والسادة ، والأيامى : جمع أيم - بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة .. وهو كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكراً أو ثيبا . والمراد بالأيامى هنا الأحرار والحرائر .

وقوله - تعالى - ﴿ من عبادكم ﴾ جمع عبد وهو الرقيق ، و « وإمائكم » جمع أمة .

والمراد من الإنكاح هنا : المعاونة والمساعدة فى الزواج ، والعمل على إتمامه بدون عوائق لا تؤيدها شريعة الله - تعالى - .

أى : زوِّجوا - أيها الأولياء والسادة - من لا زوج له من الرجال المسلمين أو النساء المسلمات ، ويسروا لهم هذا الأمر ولا تعسروه ، لأن الزواج هو الطريق المشروع لقضاء الشهوة ، ولحفظ النوع الإنسانى ، ولصيانة الأنساب من الاختلاط ، ولإيجاد مجتمع تفشو فيه الفضيلة ، وتموت فيه الرذيلة .

وزوجوا - أيضا الصالحين للزواج من عبيدكم وإمائكم فإن هذا الزواج أكرم لهم وأحفظ لعفتهم .

قال صاحب الكشاف « فإن قلت لم خص الصالحين ؟ قلت : ليحصن دينهم ، ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن الصالحين من الأرقاء . هم الذين مواليهم يشفقون عليهم .. فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم .. وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك »[1] .

والأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ وأنكحوا ﴾ يرى جمهور العلماء أنه للندب ، بدليل أنه قد وجد أيامى فى العهد النبوى ولم يجبروا على الزواج ، ولو كان الأمر للوجوب ، لأجبروا عليه .. ويرى بعضهم أنه للوجوب ،

قال الإمام ابن كثير : اشتملت هذه الآيات الكريمات على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله - تعالى - : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ هذا أمر بالتزويج ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٣٥ .

عليه ، واحتجوا بظاهر قوله - ﷺ - : « يا معشر الشباب . من استطاع منكم الباءة » - أى القدرة على الزواج - فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[١] - أى : وقاية - .

ويبدو لنا أن الزواج يختلف حكمه باختلاف الأحوال ، فمن كان - مثلا قادرا على الزواج ، ويخشى إذا ترك الزواج أن يقع فى الفاحشة : فإن الزواج بالنسبة له يكون واجبا عليه . بخلاف من أمن الوقوع فى الفاحشة ، فإن الزواج بالنسبة له يكون مندوبا أو مستحبا .

ولذا قال الإمام القرطبى : « اختلف العلماء فى هذا الأمر - أى فى قوله - تعالى - ﴿ وأنكحوا ﴾ - على ثلاثة أقوال : فقال علماؤنا يختلف الحكم فى ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره .. فإذا خاف الهلاك فى الدين أو الدنيا فالنكاح حتم .

وإن لم يخش شيئا ، وكانت الحال مطلقة ، فالنكاح مباح .

قال الشافعى : إنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب .

وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ حض لمن يملك عقد الزواج على أن لا يجعل الفقر حائلا دون إتمامه . لأن الأرزاق بيد الله - تعالى - وحده .

أى : زوجوا - أيها الأولياء والسادة - من كان أهلا للزواج ، وصالحا له وراغبا فيه ، من رجالكم ونسائكم ، ولا يمنعكم فقرهم من إتمامه ، فإنهم إن يكونوا فقراء اليوم ، فالله - تعالى - قادر على أن يغنيهم فى الحال أو فى المستقبل متى شاء ذلك ، فإن قدرته - عز وجل - لا يعجزها شىء ، وكم من أناس كانوا فقراء قبل الزواج ، ثم صاروا أغنياء بعده ، لأنهم قصدوا بزواجهم حفظ فروجهم ، وتنفيذ ما أمرتهم به شريعة الإسلام .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله »[٣] .

فهذا عهد أخذه الله - تعالى - على ذاته - فضلا منه وكرما - ولن يخلف الله - عز وجل - عهده .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢٣٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٥ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أى : والله - تعالى - واسع الغنى لا تنفد خزائنه ، ولا ينتهى ما عنده من خير ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ثم أرشد - سبحانه - الذين لا يجدون وسائل النكاح ، إلى ما يعينهم على حفظ فروجهم ، فقال : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ .

والاستعفاف : طلب العفة ، واختيار طريق الفضيلة التى من وسائلها ما أشار إليه - سبحانه - فى قوله : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ .

والمعنى : وعلى المؤمنين والمؤمنات « الذين لا يجدون نكاحا » أى : الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التى توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد ، أو ما يشبه ذلك ، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش ، وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله - تعالى - من فضله رزقا ، يستعينون به على إتمام الزواج .

فهذه الجملة الحكيمة وعد كريم من الله - تعالى - للتائقين إلى الزواج ، العاجزين عن تكاليفه بأنه - سبحانه - سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه ، متى اعتصموا بطاعته ، وحافظوا على أداء ما أمرهم به .

قال صاحب الكشاف : « وما أحسن ما رتب هذه الأوامر : حيث أمر - أولا - بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر . ثم بالنكاح الذى يحصن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء ، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه »[1] .

ثم حض - سبحانه - على إعانة الأرقاء لكى يتخلصوا من رقهم ويصيروا أحرارا . فقال : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ .

والمراد بالكتاب هنا : المكاتبة التى تكون بين السيد وعبده ، بأن يقول السيد لعبده : إن أديت إلى كذا من المال فأنت حر لوجه الله ، فإذا قبل العبد ذلك وأدى ما طلبه منه سيده ، صار حرا .

أى : والذين يطلبون المكاتبة من عبيدكم - أيها الأحرار .. فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، أى : أمانة وقدرة على الكسب ، وأعينوهم على التحرر من رقهم بأن تعطوهم شيئا من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٣٨ .

المال الذى آتاكم الله إياه ، بفضله وإحسانه .

وهكذا نرى الإسلام يأمر أتباعه الذين رزقهم الله نعمة الحرية ، أن يعينوا مماليكهم على ما يمكنهم من الحصول على هذه النعمة .

ومن العلماء من يرى أن الأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ فكاتبوهم ﴾ وفى قوله ﴿ وآتوهم ﴾ للوجوب ، لأنه هو الذى يتناسب مع حرص شريعة الإسلام على تحرير الأرقاء .

ثم نهى - سبحانه - عن رذيلة كانت موجودة فى المجتمع ، لكى يطهره منها ، فقال : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إن أردن تحصنا - لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ .

قال الآلوسى : أخرج مسلم وأبو داود عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها « مسيكة » وأخرى يقال لها « أميمة » كان يكرههما على الزنا ، فشكتا ذلك إلى الرسول - ﷺ - فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عن على - رضى الله عنه - أنهم كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهن ، فنهوا عن ذلك فى الإسلام ، ونزلت الآية ..[1] .

والفتيات جمع فتاة والمراد بهن هنا الإماء ، وعبر عنهن بقوله « فتياتكم » على سبيل التكريم لهن ، ففى الحديث الشريف : « لايقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن فتاى وفتاتى » .

والبغاء - بكسر الباء - زنى المرأة خاصة ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت .

والتحصن : التصون والتعفف عن الزنا .

والمعنى : ولا تكرهوا - أيها الأحرار - فتياتكم اللائى تملكوهن على الزنا إن كرهنه وأردن العفاف والطهر ، لكى تنالوا من وراء إكراههن على ذلك ، بعض المال الذى يدفع لهن نظير افتراشهن .

وقوله - تعالى - ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ ليس المقصود منه أنهن إن لم يردن التحصن يكرهن على ذلك ، وإنما المراد منه بيان الواقع الذى نزلت من أجله الآية ، وهو إكراههم لإمائهم على الزنا مع نفورهن منه . ولأن الإكراه لا يتصور عند رضاهن بالزنا واختيارهن له ، وإنما يتصور عند كراهتهن له ، وعدم رضاهن عنه ، ولأن فى هذا التعبير تعيير لهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : كيف يقع منكم إكراههن على البغاء وهن إماء يردن العفة ويأبين الفاحشة ؟ ألم يكن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٥٦ .

الأولى بكم والأليق بكرامتكم أن تعينوهن على العفاف والطهر ، بدل أن تكرهوهن على ارتكاب الفاحشة من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا ؟ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته - بعباده .

أى : ومن يكره إماءه على البغاء فإن الله - تعالى - بفضله وكرمه من بعد إكراهكم لهن ، غفور رحيم لهن ، أما أنتم يا من أكرهتموهن على الزنا فالله وحده هو الذى يتولى حسابكم ، وسيجازيكم بما تستحقون من عقاب .

فمغفرة الله - تعالى - ورحمته إنما هى للمكرهات على الزنا ، لا للمكرهين لهن على ذلك .

قال بعض العلماء : قوله - تعالى - : ﴿ فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ قيل : غفور لهن . وقيل : غفور لهم . وقيل : غفور لهن ولهم .

والأظهر : أن المعنى لهن ، لأن المكره لا يؤاخذ بما يكره عليه ، بل يغفره الله له ، لعذره بالإكراه . فالموعود بالمغفرة والرحمة ، هو المعذور بالإكراه دون المكره - بكسر الراء - لأنه غير معذور بفعله القبيح[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه التشريعات الحكيمة . والتوجيهات السديدة ، وبقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين ﴾ . وقوله ﴿ مبينات ﴾ قرأها بعض القراء السبعة بفتح الياء المشددة ، وقرأها الباقون بكسرها .

فعلى قراءة الفتح يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم - أيها المؤمنون - فى هذه السورة وغيرها آيات بيَّنًا لكم معانيها ، وجعلناها واضحة الدلالة على ماشرعناها لكم من أحكام وآداب وحدود .

وعلى قراءة الكسر يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم آيات ، هى مبينات موضحات لكل ما أنتم فى حاجة إلى بيانه ومعرفته من آداب وتشريعات ، فإسناد التبيين هنا إلى الآيات على سبيل المجاز .

وقوله : ﴿ ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ﴾ معطوف على « آيات » . والمراد بالمثل : الأخبار العجيبة التى ذكرها - سبحانه - عن السابقين .

أى ، أنزلنا إليكم آيات واضحات فى ذاتها وموضحة لغيرها . وأنزلنا إليكم - أيضا -

---

(١) تفسير أضواء للبيان جـ ٦ ص ٢١٩ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

قصصا عجيبة ، من أخبار السابقين الذين خلوا من قبلكم ، لتهتدوا بها فيا يقع بينكم من أحداث .

فمثلا : لا تتعجبوا من كون عائشة - رضى الله عنها - قد اتهمت بما هى منه بريئة . فقد اتُّهمت من قبلها مريم بالفعل الفاضح الذى برأها الله تعالى منه ، واتهم يوسف - عليه السلام - : بما هو منه برىء ، وألقى فى السجن بضع سنين مع براءته .

فيوسف ومريم وعائشة ، قد برأهم الله - تعالى - مما رموا به ، وكفى بشهادة الله شهادة .

وقوله ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أى : وجعلنا هذه الآيات التى أنزلنا إليكم موعظة يتعظ بها المتقون ، الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله ، وراقبوه - سبحانه - فى السر والعلن ، فانتفعوا بها دون غيرهم من المفسدين والفاسقين .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الآيات التى أنزلها على عباده المؤمنين بثلاث صفات . وصفها - أولا - بأنها بينة فى ذاتها أو مبينة لغيرها ، ووصفها - ثانيا - بأنها مشتملة على الأمثال العجيبة لأحوال السابقين ، ووصفها - ثالثا - بأنها موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم دائما الخوف من الله - تعالى - .

وما ذكره الله - تعالى - قبل هذه الآية من آداب وأحكام يتناسق مع التعقيب كل التناسق ، ويتجاوب معه كل التجاوب .

وكيف لا يكون كذلك ، والقرآن هو كلام الله الذى أعجز كل البلغاء والفصحاء ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جلال الله - تعالى - ونوره وعظمته وعن بيوته التى أذن لها أن ترفع ، وعن الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن طاعته وتقديسه ، وعن الجزاء الحسن الذى أعده الله - سبحانه - لهؤلاء الأخيار ، فقال :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ

لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : « قوله - تعالى - : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ . النور فى كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر . واستعمل مجازا فيما صح من المعانى ولاح . فيقال : كلام له نور .. وفلان نور البلد .

فيجوز أن يقال : لله - تعالى - نور ، من جهة المدح ، لأنه أوجد جميع الأشياء ، ونور جميع الأشياء منه إبتداؤها ، وعنه صدورها ، وهو - سبحانه - ليس من الأضواء المدركة ، جل وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية : فقيل : المعنى : به وبقدرته أنارت أضواؤها . واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال : الملك نور أهل البلد ، أى : به قوام أمرها .. فهو - أى النور - فى الملك مجاز . وهو فى صفة الله - تعالى - حقيقة محضة .

قال ابن عرفة : أى منور السموات والأرض . وقال مجاهد : مدبر الأمور فى السموات والأرض .

وقال ابن عباس : المعنى : الله هادى السموات والأرض . والأول أعم للمعانى وأصح مع التأويل[١] .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو الذى رجحه الإمام القرطبى فيكون معنى الجملة الكريمة : الله - تعالى - هو نور العالم كله علويه وسفليه ، بمعنى منوره بالمخلوقات التكوينية ، وبالآيات التنزيلية ، وبالرسالات السماوية ، الدالة دلالة واضحة على وجوده - سبحانه - وعلى وحدانيته ، وقدرته ، وسائر صفاته الكريمة ، والهداية إلى الحق ، وإلى مابه صلاح الناس فى دنياهم وآخرتهم .

قال ابن كثير : « وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » .

وقال - ﷺ - فى دعائه يوم آذاه المشركون من أهل الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى - أى الرجوع عن الذنب - حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[٢] .

وأضاف - سبحانه - نوره إلى السموات والأرض ، للدلالة على سعة إشراق هذا النور ، وعموم سنائه ، وتمام بهائه فى الكون كله .

ثم قرب - عز وجل - نوره إلى الأذهان فقال : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .. ﴾ .

أى : صفة نوره العجيبة الشأن فى الإضاءة والسطوع ، كصفة مشكاة - وهى الفتحة الصغيرة فى الجدار دون أن تكون نافذة فيه - هذه المشكاة فيها مصباح ، أى : سراج ضخم ثاتب تشع منه الأنوار .

وقال - سبحانه - : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ لأن وجود المصباح فى هذه المشكاة يكون أجمع لنوره ، وأحصر لضيائه ، فيبدو قويا متألقا ، بخلاف مالو كان المصباح فى مكان نافذ فإنه لا يكون كذلك .

﴿ المصباح فى زجاجة ﴾ أى : فى قنديل من الزجاج الصافى النقى ، الذى يقيه الريح ، ويزيده توهجا وتألقا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٦١ .

هذه ﴿ الزجاجة ﴾ فى ذاتها ﴿ كأنها كوكب درى ﴾ أى شديد الإنارة ، نسبة إلى الدر فى صفائه وسنائه وإشراقه وحسنه .

﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة ﴾ أى : هذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة مباركة أى : كثيرة المنافع ، زيتونة أى : هى شجرة الزيتون .

فحرف « من » لا بتداء الغاية ، والكلام ، على حذف مضاف ، أى : من زيت شجرة ، مباركة : صفة لشجرة ، وزيتونة : بدل أو عطف بيان من شجرة .

ووصف - سبحانه - شجرة الزيتون بالبركة ، لطول عمرها . وتعدد فوائدها التى من مظاهرها : الانتفاع بزيتها وخصبها وورقها وثمارُها .

قال - تعالى - ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ صفة أخرى لشجرة الزيتون .

أى : أن هذه الشجرة ليست متميزة إلى مكان معين أوجهة معينة بل هى مستقبلة للشمس طول النهار ، تسطع عليها عند شروقها وعند غروبها وما بين ذلك ، فترتب على تعرضها للشمس طول النهار ، تسطع عليها عند شروقها وعند غروبها وما بين ذلك ، فترتب على تعرضها للشمس طول النهار ، امتداد حياتها ، وعظم نمائها وحسن ثمارها .

وقوله - تعالى - : ﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ﴾ صفة ثالثة لتلك الشجرة .

أى ، أنها يكاد زيتها من شدة صفائه ونقائه يضىء دون أن تمسه النار ، فهو زيت من نوع خاص ، بلغ من الشفافية أقصاها ، ومن الجودة أعلاها .

قال بعض العلماء : وقد شُبِّه فى الآية نورُ الله ، بمعنى أدلته ، وآياته - سبحانه - من حيث دلالتها على الهدى والحق ، وعلى ما ينفع الخلق فى الحياتين شبه ذلك بنور المشكاة التى فيها زجاجة صافية ، وفى تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ الغاية فى الصفاء والرقة والإشراق ، حتى يكاد يضىء بنفسه من غير أن تمسه نار »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ نور على نور ﴾ أى : هوُ نور عظيم متضاعف ، كائن على نور عظيم مثله ، إذ أن نور الله - تعالى - لا حد لتضاعفه ، ولا نهاية لعمقه بخلاف الأنوار الأخرى . فإن لتضاعفها حدا محدودا مهما كان إشراقها وضوؤها .

فقوله : ﴿ نور ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هو نور . وقوله ﴿ على نور ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة له ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة . أى : كائن على نور مثله .

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف جـ ٢ ص ٨٤ .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه فقال : ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ أى : يهدى الله - تعالى - لنوره العظيم من يشاء هدايته من عباده ، بأن يوفقهم للإيمان ، والعمل بتعاليم الإسلام ، وللسير على طريق الحق والرشاد .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ .

أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس ، لكى يقرب لهم الأمور وييسر لهم المسائل ، ويبرز لهم المعقول فى صورة المحسوس ، والله - تعالى - بكل شىء عليم ، سواء أكان هذا الشىء ظاهرا أم باطنا ، معقولا أم محسوسا .

قال بعض العلماء ما ملخصه : هذه الآية الكريمة من الآيات التى صنفت فيها مصنفات ، منها « مشكاة الأنوار » للإمام الغزالى ... ومنها ما قاله الإمام ابن القيم عنها فى كتابه « الجيوش الإسلامية » .

فقد قال - رحمه الله - : سمى الله تعالى - نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله - ﷺ - نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نورا يتلألأ . قال - تعالى - ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ وقد فسر بكونه منور السموات والأرض وهادى أهل السموات والأرض فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أكثر الأماكن والأشخاص انتفاعا بنوره ، فقال - تعالى - : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

وقوله ﴿ فى بيوت ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يسبح ﴾ . والمراد بهذه البيوت : المساجد كلها ، وعلى رأسها المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى .

و « أذن » بمعنى أمر وقضى ، وفاعل « يسبح » قوله « رجال » .

والغدو والغداة : من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والآصال جمع أصيل ، وهو ما بين العصر وغروب الشمس .

أى : هذا هو نور الله - تعالى - الذى يهدى إليه من يشاء من عباده ، وعلى رأس أولئك

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ١٢ ص ٤٥٢٦ .

العباد الذين هداهم الله - سبحانه - إلى ما يحبه ويرضاه ، هؤلاء الرجال الذين يعبدونه ويقدسونه فى تلك المساجد التى أمر - سبحانه - بتشييدها وتعظيم قدرها ، وصيانتها من كل سوء أو نجس ، إنهم يسبحونه وينزهونه عن كل نقص ، ويتقربون إليه بالصلوات وبالطاعات . فى تلك المساجد فى أول النهار وفى آخره ، وفى غير ذلك من الأوقات .

وخص - سبحانه - أوقات الغدو والآصال بالذكر ، لشرفها وكونها أشهر ما تقع فيه العبادات .

وقوله - تعالى - : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ مدح وتكريم لهؤلاء الرجال .

أى : يسبح لله - تعالى - فى تلك المساجد بالغدو والآصال ، رجال من شأنهم ومن صفاتهم ، أنهم لا يشغلهم ، « تجارة » مهما عظمت ، « ولا بيع » ، مهما اشتدت حاجتهم إليه « عن ذكر الله » أى : عن تسبيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده وطاعته .

ولا تشغلهم - أيضا - هذه التجارات والبيوع عن « إقام الصلاة » فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ، وعن « إيتاء الزكاة » للمستحقين لها . وذلك لأنهم « يخافون يوما » هائلا شديدا هو يوم القيامة الذى « تتقلب فيه القلوب والأبصار » أى تضطرب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت من شدة الهول والفزع على شىء .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملتهم على الإكثار من هذه الطاعات فقال : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ﴾ .

أى : إنهم يكثرون من تسبيح الله بالغدو والآصال ، دون أن يشغلهم عن ذلك أى شاغل ، لأنهم يرجون منه - سبحانه - أن يجزيهم أحسن الجزاء على أعمالهم ، وأن يزيدهم من فضله وإحسانه ، بما يليق بكرمه وامتنانه .

« والله » - تعالى - « يرزق من يشاء » أن يرزقه « بغير حساب » أى : بدون حدود ، ولا قيود ، وبدون حصر لما يعطيه ، لأن خزائنه لا تنقص ولا تنفد ، حتى يحتاج إلى عد وحساب لما يخرج منها .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التقرير للزيادة التى يتطلع إليها هؤلاء الرجال الصالحون ، ووعد منه - عز وجل - بأنه سيرزقهم رزقا يزيد عما يتوقعونه .

وبذلك نرى الآيات قد طوفت بنا مع نور الله - عز وجل - ومثلت له بما من شأنه أن يجعل النفوس يشتد استمساكها بالحق الذى جاء به رسول الله - ﷺ - من عند ربه ، ومدحت مدحا عظيما أولئك الرجال الأخيار ، الذين يكثرون من طاعة الله - تعالى - فى بيوته

التى أمر برفعها ، دون أن يشغلهم عن ذلك شاغل ، وبشرتهم بالعطاء الواسع الذى سيعطيهم الله إياه بفضله وكرمه .

* * *

وبعد تلك الصورة المشرقة التى بينها - سبحانه - لمن هداهم لنوره ، أتبع ذلك بضرب مثلين لأعمال الكفار ، فقال - تعالى - :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

قال الآلوسى : قوله - تعالى - ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾ عطف على ما قبله ، من باب عطف القصة على القصة ، أو على مقدر ينساق إليه ما قبله ، كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة[1] .

والمراد بأعمالهم هنا : الأعمال الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا كالإحسان إلى الفقراء ، وصلة الأرحام وما يشبه ذلك .

والسراب : هو الشعاع الذى يتراءى للناظر من بعيد كأنه ماء . ويكون ذلك فى وسط النهار عند اشتداد الحر ، فى الأماكن الواسعة ، وسمى سرابا لأنه يرى من بعيد يتسرب فوق الأرض كأنه ماء ، مع أنه ليس بماء ولا غيره .

والباء فى قوله ﴿ بقيعة ﴾ بمعنى فى . والقيعة : جمع قاع وهو ما انبسط واتسع من الأرض . دون أن يكون فيه زرع ، وفوقه يتراءى السراب . والجار والمجرور متعلق بمحذوف ، صفة للسراب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٧٩ .

أى : والذين كفروا بالحق لما جاءهم : أعمالهم الصالحة فى الدنيا التى يتوقعون الخير من ورائها ، تكون بالنسبة لهم يوم القيامة ، كسراب كائن فى صحراء واسعة ، « يحسبه الظمآن ماء » .

أى : يظن الشخص الذى اشتد به العطش أنه ماء .

وخص - سبحانه - هذا الحسبان بالظمآن ، مع أن كل من يراه يظنه ماء لأن هذا الذى اشتد به العطش أشد حرصا على طلبه من غيره ، فالتشبيه به أتم وأكمل .

و « حتى » فى قوله - سبحانه - : ﴿ حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ﴾ غاية لمحذوف ، والتقدير : هذا السراب يظنه الظمآن ماء فيسرع نحوه ، حتى إذا ما وصل إليه ، لم يجد ما حسبه ماء وعلق عليه آماله شيئاً أصلا ، لا ماء ولا غيره .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد شبه ما يعمله الكافرون من أعمال البر فى الدنيا ، التى يظنونها نافعة لهم - شبه هذه الأعمال من حيث خيبة أملهم فيها بسراب يحسبه الظمآن ماء ، فيذهب إليه ليروى عطشه ، فإذا ما وصل إليه لم يجده شيئا ، فيخيب أمله ، وتشتد حسرته .

قال الإمام الرازى : فإن قيل : قوله : « حتى إذا جاءه » يدل على كونه شيئاً ، وقوله : « لم يجده شيئا » مناقض له ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجد شيئاً نافعا ، كما يقال : فلان ما عمل شيئا وإن كان قد اجتهد الثانى : حتى إذا جاءه أى : جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا ، فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه . الثالث : الكناية للسراب ، لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء ، وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه ﴾ معطوف على جملة « لم يجده » فهو داخل التشبيه أى : ووجد الظمآن حكم الله - تعالى - وقضاءه فيه عند السراب ، فوفاه - سبحانه - حسابه الذى يستحقه كاملا غير منقوص .

وفى هذه الجملة الكريمة من التصوير المرعب للكافر مافيها . حيث شبهته بالظمآن الذى ذهب مسرعا ليروى ظمأه مما ظنه ماء فلما وصل إليه لم يجد ماء ، وإنما وجد الله - تعالى - الذى كفر به وجحد وحدانيته - عنده ، فوفاه حسابه الذى يستحقه من العذاب بدلا من وجود الماء الذى أتعب نفسه فى السعى إليه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٩٠ .

« والله » – تعالى – « سريع الحساب » ، لأنه لا يشغله حساب عن حساب ولا عمل عن عمل ، بل حساب الناس جميعا عنده – عز وجل – كحساب النفس الواحدة .

وقوله – تعالى – : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ مثال آخر لأعمال الكافرين التى لا ينتفعون بها مع أنهم يعتقدون أنها ستنفعهم .

فحرف « أو » للتقسيم ، وما بعدها معطوف على قوله – سبحانه – قبل ذلك ، « كسراب بقيعة » .

والمعنى : أو أن الأعمال الحسنة فى الدنيا لهؤلاء الكافرين ، مثلها – من حيث خلوها عن نور الحق وعن النفع – كمثل « ظلمات » كثيفة « فى بحر لجى » أى : عميق الماء كثيره ، من اللج وهو معظم ماء البحر .

« يغشاه موج » أى : هذا البحر اللجى . يغطيه ويستره ويعلوه موج عظيم « من فوقه موج » آخر أشد منه « من فوقه سحاب » أى : من فوق تلك الأمواج الهائلة الشديدة ، سحاب كثيف متراكم قائم .

« ظلمات بعضها فوق بعض » أى : هذه الأمواج المتلاطمة ، وتحتها البحر العميق المظلم ، وفوقها السحب الفاتحة الداكنة ، هى ظلمات بعضها فوق بعض ، « إذا أخرج يده لم يكد يراها » أى : إذا أخرج الواقع فى تلك الظلمات يده التى هى جزء منه ، لم يكد يراها من شدة تراكم الظلمات .

قال الآلوسى : « إذا أخرج » أى : من ابتلى بهذه الظلمات « يده » وجعلها بمرأى منه ، قريبة من عينيه لينظر إليها « لم يكد يراها » أى : لم يقرب من رؤيتها ، وهى أقرب شىء إليه ، فضلا عن أن يراها ..[1] .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور ﴾ .

والمعنى : وأى إنسان لم يشأ الله – تعالى – أن يجعل له نورا يهديه إلى الصراط المستقيم فما لهذا الإنسان من نور يهديه إلى الحق والخير ، من أى مخلوق كائنا من كان ، إذ أن الذى يملك منح النور الهادى إنما هو الله – تعالى – وحده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٨٣ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - لنوعى الكفار ، فأما المثال الأول ، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات وليسوا فى نفس الأمر على شيء « فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب - أى الذين يعتقدون الباطل ويزعمون أنه الحق -

والمثال الثانى لأصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام والمقلدون لأئمة الكفر فمثلهم كما قال - تعالى - : « أو كظلمات فى بحر لجى .. »[1] .

* * *

وبعد أن أورد - سبحانه - هذين المثلين للذين كفروا وأعمالهم ، أتبع ذلك ببيان أن الكون كله يسبح بحمد الله - تعالى - وأن الكون كله فى ملكه وقبضته ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر .. ﴾ للتقرير . والرؤية : بمعنى العلم .

والتسبيح : مشتق من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء . فالمسبح : مسرع فى تنزيه الله - تعالى - وتقديسه وإثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال .

والمعنى : لقد علمت أيها الرسول الكريم علما يشبه المشاهدة فى اليقين ، أن الله - تعالى - يسبحه ويقدسه وينزهه عن كل مالا يليق به - عز وجل - جميع من فى السموات ، وجميع من فى الأرض .

وقوله - تعالى - : ﴿ والطير صافات ﴾ برفع ، « والطير » على أنه معطوف على « من » وبنصب « صافات » على أنه حال .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٧٧ .

أى : والطير - أيضا - تسبح لله - تعالى - حال كونها صافات أجنحتها فى الجو ، دون أن يمسكها أحد إلا هو - سبحانه - .

وخص الطيور بالذكر مع أنها مندرجة تحت من فى السموات والأرض لعدم استقرارها بصفة دائمة على الأرض ، فهى - فى مجموعها - تارة على الأرض ، وتارة فى الجو .

وذكرها فى حال بسطها لأجنحتها لأن هذه الحالة من أعجب أحوالها ، حيث تكون فى الجو باسطة لأجنحتها بدون تحريك ، مما يدل على بديع صنع الله فى خلقه .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ استئناف لبيان مظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - وحكمته ، حيث ألهم - سبحانه - كل مخلوق من مخلوقاته كيفية التسبيح لخالقه - عز وجل .

والتنوين فى « كل » عوض عن المضاف إليه ، والضمير المحذوف الذى هو فاعل « علم » يعود على المصلى والمسبح .

أى : كل واحد ممن يصلى لله - تعالى - ويسبح بحمده - سبحانه - ، قد علم معنى صلاته ومعنى تسبيحه ، فهو لم يعبد الله اتفاقا أو بلا روية ، وإنما عبده - تعالى - عن قصد ونية ، ولكن بكيفية نفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - وحده .

ومنهم من يرى أن الضمير فى « علم » يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل واحد من هؤلاء المصلين والمسبحين ، قد علم - سبحانه - صلاتهم وتسبيحهم له علما تاما شاملا .

قال بعض العلماء ما ملخصه : واعلم أن الأظهر أن يكون ضمير الفاعل المحذوف فى قوله ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ راجعا إلى المصلين والمسبحين أى : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه ، لأنه على هذا القول يكون قوله - تعالى - ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ من باب التأسيس . أما على القول بأن الضمير يعود إلى الله - تعالى - . أى : كل واحد منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه . فيكون قوله - تعالى - : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ من باب التأكيد اللفظى ، والتأسيس للأحكام أولى من التأكيد لها .

والظاهر أن الطير تسبح وتصلى صلاة وتسبيحا يعلمها الله ، ونحن لا نعلمها كما قال -

---

(١) سورة الملك الآية ١٩ .

تعالى - ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. ﴾[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - أن جميع مخلوقاته تسبح بحمده وأنه - تعالى - عليم بأفعالهم لا يخفى عليه شيء منها ، أتبع ذلك ببيان أن هذا الكون ملك له وحده ، فقال : « ولله ملك السموات والأرض » لا لأحد غيره ، لا استقلال ولا إشتراكا ، بل هو وحده - سبحانه - المالك لهما ولمن فيهما « وإلى الله المصير » أى : وإليه وحده مصيرهم ورجوعهم بعد موتهم ، فيجازى كل مخلوق من مخلوقاته بما يستحق من ثواب أو عقاب .

* * *

ثم لفت - سبحانه - بعد ذلك أنظار عباده إلى مظاهر قدرته فى هذا الكون ، حيث يزجى السحاب ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ... وحيث نوع مخلوقاته مع أنها جميعا من أصل واحد فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

قوله - تعالى - ﴿ يزجى ﴾ من الإزجاء بمعنى الدفع بأناة ورفق . يقال : زجى الراعى إبله تزجية ، إذا ساقها برفق . وأزجت الريح السحاب ، أى : دفعته .

---

(١) تفسير أضواء للبيان جـ ٦ ص ٢٤٥ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - ورأيت بعينيك ، أن الله - تعالى - يسوق بقدرته السحاب الذى فى الجو ، سوقا رفيقا إلى حيث يريد .

﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أى : يسوق - سبحانه - السحاب سوقا هادئا سهلا . ثم بعد ذلك يصل بعضه ببعض ، ويجمع بعضه مع بعض ، ثم بعد ذلك ﴿ يجعله ركاما ﴾ أى : متراكما بعضه فوق بعض . يقال ركم فلان الشىء يركمه ركما ، إذا جمعه ، وألقى بعضه على بعض ، ومنه : الرمل المتراكم ، أى : المجتمع .

وهذا الذى حكاه القرآن من سوق الله - تعالى - للسحب ثم تجميعها ، ثم تحويلها إلى قطع ضخمة متراكمة متكاثفة كقطع الجبال ، يراه الراكب للطائرات بوضوح وتسليم بقدرة الله - تعالى - ، الذى أحسن كل شىء خلقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ بيان لما يترتب على هذا السوق الرفيق ، والتجمع الدقيق من آثار .

والودق : المطر . وهو فى الأصل مصدر ودَق السحاب يدِق وَدْقاً ، إذا نزل منه المطر . والخلال : جمع خلل - كجبال وجبل - والمراد بها الفتوق والشقوق .

قال القرطبى : فى « الودق » قولان : أحدهما : أنه البرق .. والثانى : أنه المطر . وهو قول الجمهور يقال : ودقت السحابة فهى وادقة . وودق المطر يدق ودقا . أى : قطر[1] .

أى : يسوق الله - تعالى - السحاب إلى حيث يشاء بقدرته ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله متراكما بعضه فوق بعض ، فترى - أيها العاقل - المطر يخرج من فتوق هذا السحاب المتراكم ومن فروجه ، تارة بشدة وعنف ، وتارة بهدوء ورفق .

وقوله - تعالى - : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء . ويصرفه عمن يشاء .. ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - .

أى : وينزل - سبحانه - من جهة السماء قطعا من السحاب كأنها القطع من الجبال فى عظمها وضخامتها ، « فيها من برد » أى : فى تلك القطع من السحاب الكثير من البرد ، وهو شىء ينزل من السحاب يشبه الحصى ، ويسمى حب الغمام : وحب المزن .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين « من » الأولى والثانية ، والثالثة فى قوله ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ ؟ .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢٨٩ .

قلت الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة للبيان ، أو الأوليان للابتداء . والآخرة للتبعيض .

فإن قلت : ما معنى « من جبال فيها من برد » ؟ قلت : فيه معنيان : أحدهما : أن يخلق الله فى السماء جبال برد . كما فى الأرض جبال حجر ، والثانى : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ أى : فيصيب بالذى ينزله من هذا البرد من يشاء إصابته من عباده ، ويصرفه عمن يشاء صرفه عنهم ، إذ الإصابة والصرف بمقتضى حكمته وإرادته .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ يكادسنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ . والسنا : شدة الضوء . يقال : سنا الشىء يسنو سنا ، إذا أضاء .

أى : يكاد ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف والتراكم .. يخطف الأبصار من شدة إضائته ، وزيادة لمعانه وسرعة توهجه .

وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الدليل العلوى على وحدانيته وقدرته . أتبعه بدليل زمنى يحسه الناس ويشاهدونه فى حياتهم فقال : ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أى : يعاقب بينهما فيأتى بهذا ، ويذهب بذاك ، وينقص أحدهما ويزيد فى الآخر ، ويجعل أولهما وقتا لحلول نعمه والثانى لنزول نقمه ، أو العكس ، فهو - سبحانه - صاحبها والمتصرف فيها « إن فى ذلك » التقليب والإزجاء والتأليف ، وغير ذلك من مظاهر قدرته المبثوثة فى الآفاق « لآيات » عظيمة « لأولى الأبصار » التى تبصر قدرة الله - تعالى - وتعتبر بها ، فتخلص له العبادة والطاعة .

ثم ساق - سبحانه - دليلا ثالثا من واقع خلق كل دابة ، وبديع صنعه فيما خلقه فقال : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾ .

والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح ، سواء أكان من العقلاء أم من غيرهم . وهذا اللفظ مأخوذ من الدبيب ، بمعنى المشى الخفيف .

وتطلق الدابة فى العرف على ذوات الأربع ، والمراد بها هنا ما هو أعم من ذلك .

قال بعض العلماء : « وهذه الحقيقة الضخمة التى يعرضها القرآن بهذه البساطة ، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء ، قد تعنى وحدة العنصر الأساسى فى تركيب الأحياء جميعا ، وهو

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٤٦ .

الماء ، وقد تعنى ما يحاول العلم الحديث أن يتبعه من أن الحياة خرجت من البحر ، ونشأت أصلا فى الماء ، ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس .

ولكنا نحن على طريقتنا فى عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل .. لا نزيد على هذه الإشارة شيئا ، مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية ، وهى أن الله – تعالى – خلق الأحياء كلها من الماء ، فهى ذات أصل واحد ، ثم هى – كما ترى العين – متنوعة الأشكال ..[1] .

وقال الإمام الرازى : فإن قيل لماذا نكر الماء هنا ، وجاء معرفا فى قوله – تعالى – : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾[2] ؟

والجواب : إنما جاء هنا منكراً ، لأن المعنى ، أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة ، وإنما جاء معرفا فى قوله ﴿ وجعلنا من الماء ﴾ لأن المقصود هناك ، كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة[3] .

وقوله – تعالى – : ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه .. ﴾ تفصيل لهذه المخلوقات التى خلقت من الماء .

والضمير فى « منهم » يعود إلى « كل » باعتبار معناه ، وفيه تغليب العاقل على غيره .

أى : فمن هذه الدواب من يمشى على بطنه كالزواحف وما يشبهها ، « ومنهم من يمشى على رجلين » كالإنس والطير « ومنهم من يمشى على أربع » كالأنعام والوحوش « يخلق الله » – تعالى – « ما يشاء » خلقه من دواب وغيرها على وفق إرادته وحكمته « إن الله على كل شىء قدير » فلا يعجزه – سبحانه – خلق ما يريد خلقه ، ولا يمنعه من ذلك ما نع ، بل كل شىء خاضع لقدرته – عز وجل – .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من الأدلة على قدرة الله – تعالى – . منها ما يتعلق بالكائن العلوى ، ومنها ما يتعلق بالزمان ، ومنها ما يتعلق بخلق أنواع الدواب على اختلاف أشكالها .

وبعد أن ساقت السورة ما ساقت من الأحكام والآداب ومن الأدلة على وحدانية الله –

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٨ ص ١١١ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٩٦ .

تعالى - وقدرته ، أتبعت ذلك بالحديث عن طائفة المنافقين ، الذين لم ينتفعوا بآيات الله ، ولم يتأدبوا بأدب المؤمنين .. فقال - تعالى - :

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل
لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ مبينات ﴾ قرأها بعض القراء السبعة ، بفتح الياء المشددة -

بصيغة اسم المفعول - فيكون المعنى : بالله لقد أنزلنا على عبدنا محمد - ﷺ - آيات بيناها ووضحناها ، وجعلناها خالية من اللبس والغموض .

وقرأها الباقون بكسر الياء المشددة - بصيغة اسم الفاعل - فيكون المعنى : لقد أنزلنا آيات مبينات للأحكام والحدود والآداب التى شرعها الله - تعالى - فعلى هذه القراءة يكون المفعول محذوفا .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ أى : والله - تعالى - بفضله وإحسانه يهدى من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، الذى هو طريق الإسلام . وسبيل الحق والرشاد .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ يعود على طائفة من الذين لم يهدهم - سبحانه - إلى الصراط المستقيم ، وهم المنافقون .

أى : أن هؤلاء المنافقين يقولون بألسنتهم فقط : آمنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله والرسول فى كل أمر أو نهى .

ثم بين - سبحانه - أنهم كاذبون فى دعواهم الإيمان والطاعة فقال : ﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ .

أى : يدعون أنهم يؤمنون بالله وبالرسول ، ويطيعون أحكامهما ، وحالهم أن عدداً كبيراً منهم يعرضون عما يقتضيه الإيمان والطاعة ، من أدب مع الله - تعالى - ومع رسوله - ﷺ - ، ومن انقياد لأحكام الإسلام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ نفى لدعواهم الإيمان ، وتوبيخ لهم على أقوالهم التى يكذبها واقعهم ، أى : وما أولئك المنافقون الذى يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، بالمؤمنين على الحقيقة ، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ولأنهم لو كانوا يؤمنون حقا . لما أعرضوا عن أحكام الله - تعالى - ، وعن طاعة رسوله - ﷺ - .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من أحوالهم الذميمة فقال : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافقين من صفاتهم - أيضاً - أنهم إذا ما دعاهم داع إلى أن يجعلوا شريعة الله - تعالى - هى الحكم بينهم وبين خصومهم ، إذا فريق كبير منهم يعرض عن هذا الداعى ، ويسرع إلى التحاكم إلى الطاغوت . كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن

يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً .. ﴾[1] .

والتعبير عنهم بقوله « إذا فريق منهم معرضون » إشعار بأنهم بمجرد دعوتهم إلى الحق ، ينفرون من الداعى نفورا شديدا بدون تدبر أو تمهل ، لأنهم يعلمون علم اليقين أن الحق عليهم لا لهم ، أما إن لاح لهم أن الحق لهم لا عليهم ، فإنهم يهرولون نحو الرسول - ﷺ - يطلبون حكمه ، ولذا قال - تعالى - . ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ .

والإذعان : الانقياد والطاعة ، يقال : أذعن فلان لفلان ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

أى : وإن يكن لهؤلاء المنافقين الحق على غيرهم ، يأتوا إلى الرسول - ﷺ - منقادين طائعين راضين بحكمه ، لأنهم واثقون من أنه - ﷺ - لن يبخسهم شيئا من حقوقهم لا يأتون إليه مذعنين فى كل الأحوال ، وإنما يأتون إليه - ﷺ - مذعنين لحكمه عندما يكونون أصحاب حق فى قضية من القضايا الدنيوية التى تحصل بينهم وبين غيرهم .

ثم يعقب القرآن الكريم على تصرفاتهم القبيحة بإثبات نفاقهم ، وبالتعجيب من ترددهم وريبهم ، وباستنكار ما هم عليه من خلق ذميم فيقول : ﴿ أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله .. ﴾؟!

وقوله : ﴿ يحيف ﴾ من الحيف ، وهو الميل إلى أحد الجانبين ، يقال : حاف فلان فى قضائه ، إذا جار وظلم .

أى : ما بال هؤلاء المنافقين يعرضون عن أحكام الإسلام ولا يقبلون على حكم الرسول - ﷺ - إلا إذا كانت لهم حقوق عند غيرهم أسبب ذلك أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان ؟ أم سبب ذلك أنهم يشكون فى صدق نبوته - ﷺ - ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟

لاشك أن هذه الأسباب كلها قد امتلأت بها قلوبهم الفاسدة ، وفضلا عن ذلك فهناك سبب أشد وأعظم ، وهو حرصهم على الظلم ووضع الأمور فى غير مواضعها ، ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

أى : بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم ، حيث وضعوا الأمور فى غير موضعها ، وآثروا الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

قال الجمل : وقوله : ﴿ أفى قلوبهم مرض .. ﴾ إلخ استنكار واستقباح لإعراضهم المذكور ، وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم ، والاستفهام للإنكار لكن

---

(١) سورة النساء الآية ٦٠ .

النفى المستفاد به لا يتسلط على هذه الأمور الثلاثة ، لأنها واقعة لهم ، وقائمة بهم ، والواقع لا ينفى ، وإنما هو متسلط على منشئتها وسببيتها لإعراضهم ..»[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما هو واجب على المؤمنين إذا ما دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا .

ولفظ « قول » منصوب على أنه خبر « كان » واسمها أن المصدرية مع مافى حيزها ، وهو : أن يقولوا سمعنا وأطعنا .

والمعنى : أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم إذا ما دعوا إلى حكم شريعة الله - تعالى - التى أوحاها إلى رسوله - ﷺ - أن يقولوا عندما يدعون لذلك : سمعنا وأطعنا ، بدون تردد أو تباطؤ ..

« وأولئك » الذين يفعلون ذلك « هم المفلحون » فلاحا تاما فى الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعة الله ورسوله فقال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ﴾ - تعالى - فى السر والعلن ﴿ ويتقه ﴾ فى كل الأحوال ﴿ فأولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ هم الفائزون ﴾ بالنعيم المقيم ، والرضوان العظيم .

ثم عادت السورة الكريمة إلى استكمال الحديث عن المنافقين ، فقال - تعالى - ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن أمرتهم ليخرجن ﴾ .

والجهد : الوسع والطاقة ، من جهد نفسه يجهدها - بفتح الهاء فيهما - إذا اجتهد فى الشىء ، وبذل فيه أقصى وسعه .

أى : وأقسم هؤلاء المنافقون بالأيمان الموثقة بأشد وسائل التوثيق ، بأنهم متى أمرهم الرسول - ﷺ - بالخروج معه للجهاد ليخرجن سراعا تلبية لأمره .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم ردا كله تهكم وسخرية بهم ، بسبب كذبهم فيقول : ﴿ قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل السخرية والزجر ، لا تقسموا على ما تقولون ، فإن طاعتكم معروف أمرها ، ومفروغ منها ، فهى طاعة باللسان فقط . أما الفعل فيكذبها .

وذلك كما تقول لمن اشتهر بالكذب : لا تحلف لى على صدقك ، فأمرك معروف لا يحتاج إلى قسم أو دليل .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٣٣ .

ثم عقب - سبحانه - على هذه السخرية منهم بقوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أى : إن الله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على ظواهركم وبواطنكم فلا يحتاج منكم إلى قسم أو توكيد لأقوالكم ، وقد علم - سبحانه - أنكم كاذبون فى حلفكم .

ثم يأمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يرشدهم إلى الطاعة الصادقة . لا طاعتهم الكاذبة فيقول : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ طاعة ظاهرة وباطنة ، طاعة مصحوبة بصدق الاعتقاد ، وكمال الإخلاص ، فإن هذه الطاعة هى المقبولة منكم .

وقوله - سبحانه - ﴿ فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ﴾ تحذير لهم من التمادى فى نفاقهم وكذبهم .

أى : مرهم - أيها الرسول الكريم - بالطاعة الصادقة ، فإن توليتم - أيها المنافقون - عن دعوة الحق وأعرضتم عن الصراط المستقيم ، فإن الرسول الكريم ليس عليه سوى ما حملناه إياه . وهو التبليغ والإنذار والتبشير ، وأما أنتم فعليكم ما حملتم ، أى : ما أمرتم به من الطاعة له - ﷺ - وهو قد فعل ما كلفناه به ، أما أنتم فحذار أن تستمروا فى نفاقكم .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى طريق الفوز والفلاح فقال : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ . أى : وإن تطيعوا أيها المنافقون - رسولنا - ﷺ - فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه ، تهتدوا إلى الحق ، وتظفروا بالسعادة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ تذييل مقرر لما قبله . من أن مغبة الإعراض عائدة عليهم . كما أن فائدة الطاعة راجعة لهم .

أى : وما على الرسول الذى أرسلناه لإرشادكم إلى ما ينفعكم إلا التبليغ الواضح ، والنصح الخالص ، والتوجيه الحكيم .

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة قد كشفت عن رذائل المنافقين ، وحذرتهم من التمادى فى نفاقهم ، وأرشدتهم إلى ما يفيدهم ويسعدهم ، كما وضحت ما يجب أن يكون عليه المؤمنون الصادقون من طاعة لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - .

ثم تركت السورة الكريمة الحديث عن المنافقين ، لتسوق وعد الله الذى لا يتخلف للمؤمنين الصادقين ، قال - تعالى - :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

قال الإمام ابن كثير : « هذا وعد من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أى : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك .. فإنه لم يمت رسول الله - ﷺ - حتى فتح عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسوله الله - ﷺ - أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها ... »[١] .

وفى تصدير الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ وعد الله .. ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين ، بتحقيق وعده - تعالى - ، إذ وعد الله لا يتخلف . كما قال - تعالى - : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢] .

والخطاب للرسول - ﷺ - وللمؤمنين ، ومن بيانية ، والآية الكريمة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا .. ﴾ .

أى : وعد الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، الذين صدقوا فى إيمانهم من عباده ، والذين

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٨٣ .
(٢) سورة الروم الآية ٦ .

جمعوا مع الإيمان الصادق ، العمل الصالح وعدهم ، ليستخلفهم فى الأرض ، أى : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف أصحاب العزة والسلطان والغلبة ، بدلا من أعدائهم الكفار .

قال الآلوسى : واللام فى قوله « ليستخلفنهم » واقعة فى جواب القسم المحذوف . ومفعول وعد الثانى محذوف دل عليه الجواب . أى : وعد الله الذين آمنوا استخلافهم ، وأقسم ليستخلفنهم .. و « ما » فى قوله « كما استخلف » مصدرية والجار والمجرور متعلق بمحذوف . وقع صفة لمصدر محذوف ، أى : ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه « الذين من قبلهم » من الأمم المؤمنة ، الذين أسكنهم الله - تعالى - فى الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين[1] .

هذا هو الوعد الأول للمؤمنين : أن يجعلهم - سبحانه - خلفاءه فى الأرض . كما جعل عباده الصالحين من قبلهم خلفاءه ، وأورثهم أرض الكفار وديارهم .

وأما الوعد الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ﴾ .

والتمكين : التثبيت والتوطيد والتمليك . يقال : تمكن فلان من الشىء ، إذا حازه وقدر عليه .

أى : وعد الله المؤمنين بأن يجعلهم خلفاءه فى أرضه ، وبأن يجعل دينهم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لهم . ثابتا فى القلوب ، راسخا فى النفوس . باسطا سلطانه على أعدائه ، له الكلمة العليا فى هذه الحياة ، ولمخالفيه الكلمة السفلى .

وأما الوعد الثالث فهو قوله - سبحانه - : « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

أى : وعدهم الله - تعالى - بالاستخلاف فى الأرض ، وبتمكين دينهم . وبأن يجعل لهم بدلا من الخوف الذى كانوا يعيشون فيه ، أمنا واطمئنانا ، وراحة فى البال ، وهدوءا فى الحال .

قال الربيع بن أنس عن أبى العالية فى هذه الآية : كان النبى - ﷺ - وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين . يدعون إلى الله وحده .. وهم خائفون ، فلما قدموا المدينة أمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح . فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلا من الصحابة قال : يا رسول الله : « أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال - ﷺ - لن تَغْبُرُوا - أى : لن تمكثوا - إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢٠٣ .

وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ..»[(١)] .

ولكن هذا الاستخلاف والتمكين والأمان متى يتحقق منه - سبحانه - لعباده ؟

لقد بين الله - تعالى - الطريق إلى تحققه فقال ﴿ يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ فهذه الجملة الكريمة يصح أن تكون مستأنفة ، أى : جوابا لسؤال تقديره متى يتحقق هذا الاستخلاف والتمكين والأمان بعد الخوف للمؤمنين ؟ فكان الجواب : يعبدوننى عبادة خالصة تامة مستكملة لكل شروطها وآدابها وأركانها ، دون أن يشركوا معى فى هذه العبادة أحدا كائنا من كان .

كما يصح أن تكون حالا من الذين آمنوا ، فيكون المعنى : وعد الله - تعالى - عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بالاستخلاف فى الأرض ، وبتمكين دينهم فيها . وبتبديل خوفهم أمنا ، فى حال عبادتهم له - سبحانه - عبادة لا يشوبها شرك أو رياء أو نقص .

وروى الإمام أحمد عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله - ﷺ - : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة نصيب »[(٢)] .

ذلك هو وعد الله - تعالى - لعباده الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ، وأدوا ما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، أما الذين انحرفوا عن طريق الحق . وجحدوا نعمه - سبحانه - عليهم ، فقد بين عاقبتهم فقال : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

أى : ومن كفر بعد كل هذه النعم التى وعدت بها عبادى الصالحين ، واستعمل هذه النعم فى غير ما خلقت له ، فأولئك الكافرون الجاحدون هم الفاسقون عن أمرى ، الخارجون عن وعدى ، الناكبون عن صراطى .

وهكذا نرى الآية الكريمة قد جمعت أطراف الحكمة من كل جوانبها ، فقد رغبت المؤمنين فى إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسمى ألوان الترغيب ، حيث بينت لهم أن هذه العبادة سيترتب عليها الاستخلاف والتمكين والأمان . ثم رهبت من الكفر والجحود ، وبينت أن عاقبتها الفسوق والحرمان من نعم الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أهم أركان هذه العبادة فقال : ﴿ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الرسول ، لعلكم ترحمون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٨٧ .

أى : واظبوا - أيها المؤمنون - على إخلاص العبادة لله - تعالى - وأدوا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإحسان ، وقدموا الزكاة للمستحقين لها ، وأطيعوا الرسول - ﷺ - طاعة تامة ، لعلكم بسبب هذه العبادة والطاعة ، تنالون رحمة الله - تعالى - ورضوانه .

ثم ثبت الله - تعالى - المؤمنين ، وهون من شأن أعدائهم لكى لا يرهبهم قوتهم فقال : ﴿ لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ، ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ .

أى : لا تظنن - أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين - أن الذين كفروا مهما أوتوا من قوة وبسطة فى المال ، فى إمكانهم أن يعجزونا عن إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم ، فإن قوتنا لا يعجزها شىء وهم فى قبضتنا سواء أكانوا فى الأرض التى يعيشون عليها أم فى غيرها ، واعلم أن « مأواهم » فى الآخرة « النار ولبئس المصير » هذه النار التى هى مستقرهم ومسكنهم .

فالآية الكريمة بيان لمآل الكفرة فى الدنيا والآخرة ، بعد بيان ما أعده الله - تعالى - فى الدنيا والآخرة من استخلاف وتمكين وأمان ورحمة .

وقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول الأول ، لتحسبن ، وقوله ﴿ معجزين ﴾ هو المفعول الثانى .

قال القرطبى : « وقرأ ابن عامر وحمزة « يحسبن » بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض ، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين .. »[1] .

أى : أن « الذين كفروا » فى محل رفع فاعل يحسبن ، والمفعول الأول محذوف تقديره : أنفسهم . وقوله ﴿ معجزين ﴾ هو المفعول الثانى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولبئس المصير ﴾ جواب لقسم مقدر . والمخصوص بالذم محذوف ، أى : وبالله « لبئس المصير » هى . أى : النار التى يستقرون فيها .

* * *

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة التى تتعلق ببيان أعمال المؤمنين ، وأعمال الكافرين ، وببيان جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، وببيان أقوال المنافقين التى تخالف أفعالهم ، وببيان ما وعد الله - تعالى - به المؤمنين من خيرات ..

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٣٠١ .

بعد كل ذلك ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عما افتتحت به من الحديث عن الأحكام والآداب التى شرعها الله - تعالى - ، وأمر المؤمنين بالتمسك بها فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ
ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ
وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ
وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾
وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ
نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم ... ﴾ روايات منها : أن امرأة يقال لها أسماء بنت أبى مرثد ، دخل عليها غلام كبير لها ، فى وقت كرهت دخوله فيه ، فأتت النبى - ﷺ - فقالت : يارسول الله ، إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية :

ومنها ما روى من أن الرسول - ﷺ - بعث فى وقت الظهيرة غلاما من الأنصار يقال له

مدلج ، إلى عمر بن الخطاب ، فدق الغلام الباب على عمر - وكان نائما - فاستيقظ ، وجلس فانكشف منه شيء فقال عمر : لوددت أن الله - تعالى - نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن ثم انطلق عمر مع الغلام إلى النبى - ﷺ - فوجد هذه الآية قد نزلت فخر ساجدا لله - تعالى -[1] .

وقد صدرت الآية الكريمة بندائهم بصفة الإيمان . لحضهم على الامتثال لما اشتملت عليه من آداب قويمة . وتوجيهات حكيمة .

واللام فى قوله ﴿ ليستأذنكم ﴾ هى لام الأمر والمراد بما ملكت أيمانهم : الأرقاء سواء أكانوا ذكورا أم إناثا ، ويدخل فيهم الخدم ومن على شاكلتهم .

والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم . الأطفال الذين فى سن الصبا ولم يصلوا إلى سن البلوغ إلا أنهم يعرفون معنى العورة ويميزون بين ما يصح الاطلاع عليه وما لا يصح .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان من الرجال ، والنساء ، عليكم أن تمنعوا مماليككم وخدمكم وصبيانكم الذين لم يبلغوا سن البلوغ ، من الدخول عليكم فى مضاجعكم بغير إذن فى هذه الأوقات الثلاثة ، خشية أن يطلعوا منكم على ما لا يصح الاطلاع عليه .

فقوله - تعالى - : ﴿ ثلاث مرات ﴾ تحديد للأوقات المنهى عن الدخول فيها بدون استئذان ، أى : ثلاث أوقات فى اليوم والليلة .

ثم بين - سبحانه - هذه الأوقات فقال : ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ وذلك لأن هذا الوقت يقوم فيه الإنسان من النوم عادة ، وقد يكون متخففا من ثيابه . ولا يجب أن يراه أحد وهو على تلك الحالة .

﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أى : وحين تخلعون ثيابكم وتطرحونها فى وقت الظهيرة ، عند شدة الحر ، لأجل التخفيف منها وارتداء ثياب أخرى أرق من تلك الثياب ، طلبا للراحة واستعدادا للنوم .

﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأن هذا الوقت يتجرد فيه الإنسان من ثياب اليقظة ، ليتخذ ثيابا أخرى للنوم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والعورات : جمع عورة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢١٠ .

وتطلق على ما يجب ستره من الإنسان ، وهى - كما يقول الراغب - مأخوذة من العار ، وذلك لأن المظهر لها يلحقه العار والذم بسبب ذلك .

أى : هذه الأوقات من ثلاث عورات كائنة لكم - فعليكم أن تعودوا مماليككم وخدمكم وصبيانكم . على الاستئذان عند إرادة الدخول عليكم فيها ، لأنها أوقات يغلب فيها اختلاء الرجل بأهله ، كما يغلب فيها التخفف من الثياب ، وانكشاف ما يجب ستره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ بيان لمظهر من مظاهر التيسير فى شريعة الإسلام .

أى : وليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات ، ولاعليهم ، أى : أرقائكم وصبيانكم « جناح » أى : حرج أو إثم فى الدخول بدون استئذان « بعدهن » أى : بعد كل وقت من تلك الأوقات الثلاثة .

وقوله - تعالى - ﴿ طوافون عليكم بعضكم على بعض ﴾ تعليل لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان فى غير الأوقات التى حددها الله - تعالى - .

أى : لا حرج فى دخول مماليكم وصبيانكم عليكم . غير هذه الأوقات بدون استئذان لأنهم تكثر حاجتهم فى التردد عليكم ، وأنتم كذلك لا غنى لكم عنهم فأنتم وهم يطوف بعضكم على بعض لقضاء المصالح فى كثير من الأوقات .

وبذلك يجمع الإسلام فى تعاليمه بين التستر والاحتشام والتأدب بآدابه القويمة ، وبين السماحة وإزالة الحرج والمشقة .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

أى : مثل هذا البيان الحكيم يبين الله - تعالى - لكم الآيات التى توصلكم متى تمسكتم بها ، إلى طريق الخير والسعادة ، والله - عز وجل - عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى كل ما يأمر به ، أو ينهى عنه .

وهكذا تسوق لنا الآية الكريمة ألوانا من الأدب السامى ، الذى يجعل الكبار والصغار يعيشون عيشة فاضلة ، عامرة بالطهر والعفاف والحياء ، والنقاء من كل ما يجرح الشعور ، ومن كل تصور يتنافى مع الخلق الكريم .

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن حكم البالغين بالنسبة للاستئذان ، بعد حديثها عن حكم غير البالغين بالنسبة لذلك فقال - تعالى - ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم .... ﴾ .

أى : وإذا بلغ الأطفال منكم - أيها المؤمنون والمؤمنات - سن الاحتلام والبلوغ الذى يصلح معه الزواج ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول عليكم فى كل الأوقات ، كما استأذن الذين هم أكبر منهم فى السن عندما بلغوا سن الاحتلام ، فقد أمر - سبحانه - أمرا عاما بذلك فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ... ﴾ . قال صاحب الكشاف : « والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة ، بأن يحتلموا ، أو يبلغوا السن التى يحكم عليهم فيها بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كما هو الحال بالنسبة للرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه فى غفلة ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن مسعود : « عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم .. »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴾ أى : والله - تعالى - عليم بأحوال النفوس وبما يصلحها من آداب ، حكيم فى كل ما يشرعه من أحكام .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء اللاتى بلغن سن اليأس ، فقال : ﴿ والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ... ﴾

والقواعد : جمع قاعد - بغير تاء - لاختصاص هذه الكلمة بالنساء كحائض وطامث .

وقالوا : سميت المرأة العجوز بذلك ، لأنها تكثر القعود لكبر سنها .

أى : والنساء العجائز اللاتى قعدن عن الولد أو عن الحيض ، ولايطمعن فى الزواج لكبرهن ، فليس على هؤلاء النساء حرج أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، والتى لايفضى نزعها إلى كشف عورة ، أو إظهار زينة أمر الله - تعالى - بسترها .

فقوله - سبحانه - : ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ بيان لمظهر من مظاهر التيسير فى شريعة الإسلام ، لأن المرأة العجوز إذا تخففت من بعض ثيابها التى لايفضى التخفف منها إلى فتنة أو إلى كشف عورة .. فلا بأس بذلك ، لأنها - فى العادة - لاتتطلع النفوس إليها ، وذلك بأن تخلع القناع الذى يكون فوق الخمار ، والرداء الذى يكون فوق الثياب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٥٤ .

وقوله - تعالى - ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ حال . وأصل التبرج : التكلف والتصنع فى إظهار ما يخفى ، من قولهم سفينة بارجة أى : لا غطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الذين لايصح لهم الاطلاع عليها .

أى : لاحرج على النساء القواعد من خلع ثيابهن الظاهرة ، حال كونهن غير مظهرات للزينة التى أمرهن الله - تعالى - بإخفائها ، وغير قاصدات بهذا الخلع لثيابهن الظاهرة التبرج وكشف ما أمر الله - تعالى - بستره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ أى : وأن يبقين ثيابهن الظاهرة عليهن بدون خلع ، خير لهن ، وأطهر لقلوبهن ، وأبعد عن التهمة ، وأنفى لسوء الظن بهن .

وسمى الله - تعالى - إبقاء ثيابهن عليهن استعفافا . أى : طلبا للعفة ، للإشعار بأن الاحتشام والتستر .. خير للمرأة حتى ولو كانت من القواعد .

وقوله - تعالى - ﴿ والله سميع عليم ﴾ أى : سميع لكل ما من شأنه أن يُسمع ، عليم بأحوال النفوس وحركاتها وسكناتها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت للناس أقوم المناهج ، وأسمى الآداب ، وأفضل الأحكام التى باتباعها يسعد الأفراد والجماعات .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن أحكام أخرى فيها ما فيها من حسن للتنظيم فى العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، وفيها مافيها من اليسر والسماحة ، فقال - تعالى - :

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟
مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ

أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ
تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما روى عن ابن عباس أنه قال : لما أنزل الله - تعالى - : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... ﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والعمى والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهانا الله عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لايتمكن من الجلوس ، ولايستطيع المزاحمة ، والمريض يضعف عن التناول ولايستوفى من الطعام حقه ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل نزلت ترخيصا لهؤلاء فى الأكل من بيوت من سمى الله فى هذه الآية ، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام ، فإذا لم يكن عنده شىء ذهب بهم إلى بيت أبيه ، أو بيت أمه ، أو بعض من سمى الله فى هذه الآية ، فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك ، ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل نزلت رخصة للأعمى والأعرج والمريض عن التخلف عن الجهاد ..

ويبدو لنا أن االآية الكريمة نزلت لتعليم المؤمنين ألوانا متعددة من الآداب التى شرعها الله - تعالى - لهم ، ويسرها لهم بفضله وإحسانه ، حتى يعلموا أن شريعته - سبحانه - مبنية على اليسر لا على العسر ، وعلى التخفيف ورفع الحرج ، لا على التشديد والتضييق .

والحرج : الضيق ومنه الحرجة للشجر الملتف المتكاثف بعضه ببعض ، حتى ليصعب على الشخص أن يمشى فيه . والمراد به هنا : الإثم .

والمعنى : ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج أو إثم فى الأكل من بيوت هؤلاء الذين سماهم الله - تعالى - .

كذلك ليس عليكم حرج أو إثم - أيها المؤمنون - فى أن تأكلوا أنتم ومن معكم ﴿ من بيوتكم ﴾ التى هى ملك لكم .

وذكر - سبحانه - بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لاحرج فى أن يأكل الإنسان من بيته ، للإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم - سبحانه - بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب ، يتساوى فى نفى الحرج مع أكلهم من بيوتهم أى أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفى حرج كان متوهما ، وإنما ذكر لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم ، وبين أكلهم من بيوتهم .

وبعضهم يرى أن المراد بقوله ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ أى : من بيوت زوجاتهم وأولادهم .

ثم ذكر - سبحانه - بيوتا أخرى لا حرج عليهم فى الأكل منها فقال : ﴿ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخواتكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أى : أو البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها ، كأن تكونوا وكلاء عنهم فى التصرف فى أموالهم . ومفاتح : جمع مفتح - بكسر الميم - وهو آلة الفتح وملك هذه المفاتح : كناية عن كون الشىء تحت يد الشخص وتصرفه .

وقوله ﴿ أو صديقكم ﴾ معطوف على ما قبله والصديق هو من يصدق فى مودتك ، وتصدق أنت فى مودته ، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع ، والمراد هنا : الجمع . أى : ولا حرج عليكم - أيضا - فى الأكل من بيوت أصدقائكم .

فالآية الكريمة قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة ، وهى أحد عشر بيتا - وإن لم يكن فيها أصحابها ، مادام الآكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك ، وأن صاحب البيت ، لايكره هذا ولايتضرر منه ، استنادًا إلى القواعد العامة فى الشريعة ، والتى منها : « لا ضرر ولا ضرار » وأنه « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما معنى ﴿ أو صديقكم ﴾ قلت : معناه : أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون واحدا وجمعا، وكذلك الخليط والقطين والعدو .

ويحكى عن الحسن أنه دخل داره ، وإذا جماعة من أصدقائه قد استلوا سلالا من تحت سريره فيها أطايب الأطعمة . وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم . يريد أكابر الصحابة ومن لقيهم من البدريين .

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه . فيأخذ منه ما شاء ، فإذا حضر مولاها فأخبرته ، أعتقها سرورا بذلك [1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٥٧ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ بيان لنوع آخر من أنواع السماحة فى شريعة الإسلام .

والأشتات : جمع شَتّ - بفتح الشين - يقال : شت الأمر يشت شتا وشتاتا ، إذا تفرق . ويقال : هذا أمر شت ، أى : متفرق .

أى : ليس عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، وقد كان بعضهم من عاداته أن لايأكل منفردا ، فإن لم يجد من يأكل معه عاف الطعام ، فرفع الله - تعالى - هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر إلى ما تقتضيه شريعة الإسلام من بساطة ويسر وعدم تكلف ، فأباح لهم أن يكونوا فرادى ومجتمعين .

فالجملة الكريمة بيان للحالة التى يجوز عليها الأكل ، بعد بيان البيوت التى يجوز الأكل منها والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على أحكم الأداء للترتيب اللفظى والموضوعى ، فقد بدأت ببيت الإنسان نفسه ، ثم بيوت الآباء ، فالأمهات ، فالأخوة ، فالأخوات ، فالأقارب ، فالبيوت التى يملكون التصرف فيها ؛ فبيوت الأصدقاء ...

ثم لم تكتف بذلك ، وإنما بينت الحالة التى يباح الأكل منها ...

ثم بعد ذلك علمتنا آداب دخول البيوت التى ندخلها للأكل أو لغيره ، فقال - تعالى - : ﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ .

والمراد بأنفسكم هنا : أهل تلك البيوت التى يدخلونها ، لأنهم بمنزلة أنفسهم فى شدة المودة والمحبة والألفة ، و« تحية » منصوب بفعل مقدر أى : فحيوا تحية .

أى : فإذا دخلتم أيها المؤمنون والمؤمنات بيوتا فسلموا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم ، وحيوهم تحية ثابتة من عند الله ، مباركة طيبة ، أى مستتبعة لزيادة البركات والخيرات ولزيادة المحبة والمودة .

ووصف - سبحانه - هذه التحية بالبركة والطيب ، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن وكلاهما يرجو بها من الله - تعالى - زيادة الخير وطيب الرزق .

وتحية الإسلام أن يقول المسلم لأخيه المسلم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

أى : مثل هذا البيان القويم ، يبين الله - تعالى - لكم الآيات المحكمة ، والإرشادات

النافعة ، لكي تعقلوا ما اشتملت عليه من هدايات ، توصلكم متى انتفعتم بها إلى السعادة والفلاح .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة ماساقت من أحكام وآداب منها مايتعلق بالحدود ، ومنها مايتعلق بالاستئذان ، ومنها مايتعلق بالتستر والاحتشام ، ومنها مايتعلق بتنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ... بعد كل ذلك اختتمت ببيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من أدب مع رسولهم - ﷺ - فقال - تعالى - :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

روى ابن إسحاق فى سبب نزول هذه الآيات ما ملخصه : أنه لما كان تجمع قريش وغطفان فى غزوة الأحزاب ، ضرب الرسول - ﷺ - خندقا حول المدينة وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله - ﷺ - وعن المسلمين فى عملهم ذلك ، رجال من المنافقين ، وجعلوا يُوَرُّون - أى يستترون - بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله - ﷺ - ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة

التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - ويستأذن فى اللحوق لحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته ، رجع إلى ما كان فيه من العمل رغبة فى الخير واحتسابا له . فأنزل الله هذه الآيات فى المؤمنين وفى المنافقين[1] .

والمراد بالأمر الجامع فى قوله : ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ : الأمر الهام الذى يستلزم اشتراك الجماعة فى شأنه ، كالجهاد فى سبيل الله ، وكالإعداد لعمل من الأعمال العامة التى تهم المسلمين جميعا .

والمعنى : إن من شأن المؤمنين الصادقين ، الذين آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان أنهم إذا كانوا مع رسول الله - ﷺ - على أمر جامع من الأمور التى تقتضى اشتراكهم فيه ، لم يفارقوه ولم يذهبوا عنه ، حتى يستأذنوه فى المفارقة أو فى الذهاب ، لأن هذا الاستئذان دليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن أدبهم مع نبيهم - ﷺ - .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع ... ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ داخل معه فى حيز الصلة ، والحصر باعتبار الكمال . أى : إنما الكاملون فى الإيمان الذين آمنوا بالله - تعالى - ، وبرسوله - ﷺ - من صميم قلوبهم ، وأطاعوا فى جميع الأحكام التى من جملتها ما فصل من قبل . وإذا كانوا معه - ﷺ - على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والأعياد والحروب ، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع ... لم يذهبوا عنه - ﷺ - ﴿ حتى يستأذنوه ﴾ فى الذهاب فيأذن لهم ...[2] .

وخص - سبحانه - الأمر الجامع بالذكر ، للإشعار بأهميته ووجوب البقاء معه - ﷺ - حتى يعطيهم الإذن بالانصراف ، إذ وجودهم معه يؤدى إلى مظاهرته - ﷺ - ومعاونته فى الوصول إلى أفضل الحلول لهذا الأمر الهام .

ثم مدح - سبحانه - الذين لايغادرون مجلس رسول الله - ﷺ - إذا كانوا معه على أمر جامع حتى يستأذنوه فقال : ﴿ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ .

أى : إن الذين يستأذنونك فى تلك الأحوال الهامة ، والتى تستلزم وجودهم معك ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حق الإيمان ، لأن هذا الاستئذان فى تلك الأوقات دليل على طهارة نفوسهم ، وصدق يقينهم ، وصفاء قلوبهم .

ثم بين - سبحانه - وظيفته - - ﷺ - فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ، فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق جـ ٣ ص ٢٣٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢٢٣ .

أى : فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون فى الانصراف ، لقضاء بعض الأمور والشئون التى هم فى حاجة إليها ، فأنت مفوض ومخير فى إعطاء الإذن لبعضهم وفى منعه عن البعض الآخر ، إذ الأمر فى هذه المسألة متروك لتقديرك - أيها الرسول الكريم - .

وقوله - تعالى - ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان الأولى بهؤلاء المؤمنين ، أن يبقوا مع الرسول - ﷺ - حتى ينتهوا من حل هذا الأمر الجامع الذى اجتمعوا مع الرسول - ﷺ - من أجله ، وحتى يأذن لهم - ﷺ - فى الانصراف دون أن يطلبوا منه ذلك ، فإن الاستئذان قبل البت فى الأمر الهام الذى يتعلق بمصالح المسلمين جميعا ، غير مناسب للمؤمنين الصادقين ، ويجب أن يكون فى أضيق الحدود ، وأشد الظروف ، ومع كل ذلك ، فالله - تعالى - واسع المغفرة لعباده عظيم الرحمة بهم .

ثم أكد الله - تعالى - وجوب التوقير والتعظيم لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا... ﴾ .

ولأهل العلم فى تفسير هذه الآية أقوال من أهمها : أن المصدر هنا وهو لفظ « دعاء » مضاف إلى مفعوله ، وهو الرسول - ﷺ - على أنه مدعو ، فيكون المعنى :

لاتجعلوا - أيها المؤمنون - دعاءكم الرسول إذا دعوتموه ، ونداءكم له إذا ما ناديتموه ، كدعاء أو نداء بعضكم لبعض ، وإنما عليكم إذا ما ناديتموه أن تنادوه بقولكم ، يا نبى الله ، أو يا رسول الله ، ولا يليق بكم أن تنادوه باسمه مجردا ، بأن تقولوا يا محمد .

كما أن من الواجب عليكم أن تخفضوا أصواتكم عند ندائه توقيرا واحتراما له - ﷺ - والمتتبع للقرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - لم يناد رسوله محمدا - ﷺ - باسمه مجردا ، وإنما ناداه بقوله : يأيها المدثر ، يأيها الرسول ، يأيها النبى ....

وإذا كان اسمه - ﷺ - قد ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، فإن وروده لم يكن فى معرض النداء ، وإنما كان فى غيره كما فى قوله - تعالى - ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ... ﴾[1] .

فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن أن ينادوا أو يخاطبوا النبى - ﷺ - باسمه مجردا ، كما يخاطب بعضهم بعضا .

ومن العلماء من يرى أن المصدر هنا مضاف إلى فاعله ، فيكون المعنى : لا تقيسوا دعاءه

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ .

إياكم على دعاء بعضكم بعضا ، بل يجب عليكم متى دعاكم لأمر أن تلبوا أمره بدون تقاعس أو تباطؤ .

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة تدل على وجوب توقير الرسول - ﷺ - وتعظيمه . وشبيه بها قوله - تعالى - : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾[1] .

ثم حذر - سبحانه - المنافقين من سوء عاقبة أفعالهم فقال : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِواذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ .

وقد هنا للتحقيق . ويتسللون من التسلل ، وهو الخروج فى خفاء مع تمهل وتلصص .

وقوله ﴿ لواذاً ﴾ مصدر فى موضع الحال أى : ملاوذين . والملاوذة معناها : الاستتار بشىء مخافة من يراك ، أو هى الروغان من شىء إلى شىء على سبيل الخفاء .

أى : إن الله - تعالى - عليم بحال هؤلاء المنافقين الذين يخرجون من مجلس الرسول - ﷺ - فى خفاء واستتار : بحيث يخرجون من الجماعة قليلا قليلا ، يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعا .

قالوا : وكان المنافقون تارة يخرجون إذا ارتقى الرسول - ﷺ - المنبر . ينظرون يمينا وشمالا . ثم يخرجون واحدا واحدا . وتارة يخرجون من مجلس الرسول - ﷺ - وتارة يفرون من الجهاد يعتذرون بالمعاذير الباطلة .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تصور خبث نفوسهم ، والتواء طباعهم ، وجبن قلوبهم ، أبلغ تصوير ، حيث ترسم أحوالهم وهم يخرجون فى خفاء متسللين ، حتى لا يراهم المسلمون .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فليحذر ... ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والضمير فى قوله : ﴿ عن أمره ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ - أو إلى الله - تعالى - والمعنى واحد ، لأن الرسول مبلغ عن الله - تعالى - .

والمخالفة معناها : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله .

والمعنى : فليحذر هؤلاء المنافقون الذين يخالفون أمر النبى - ﷺ - ويصدون الناس عن دعوته . ويتباعدون عن هديه ، فليحذروا من أن تصيبهم فتنة ، أى : بلاء وكرب يترتب عليه

(١) سورة الحجرات الآيتان ٢ ، ٣ .

افتضاح أمرهم ، وانكشاف شرهم ، ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ يستأصلهم عن آخرهم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قال القرطبى : وبهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب ، ووجهها أن الله - تعالى - قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ فتحرم مخالفته ، ويجب امتثال أمره »[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ .

أى : له - سبحانه - ما فى السموات والأرض من موجودات خَلقا ومُلكا وتصرفا وإيجادًا ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أيها المكلفون من طاعة أو معصية ، ومن استجابة لأمره أو عدم استجابة .

﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ﴾ أى : ويعلم - سبحانه - أحوال خلقه جميعا يوم يرجعون إليه يوم القيامة . فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

﴿ والله ﴾ - تعالى - ﴿ بكل شىء عليم ﴾ بحيث لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وبعد : فهذه هى سورة « النور » وهذا تفسير محرر لها .

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه الراجى عفو ربه

د . **محمد سيد طنطاوى**

القاهرة - مدينة نصر

ظهر السبت ٢٠ من ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ

الموافق ١١ / ١ / سنة ١٩٨٥ م

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٣٢٢ .

تفسير

سُورَةُ الفُرْقَان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الفرقان من السور المكية ، وعدد آياتها سبع وسبعون آية ، وكان نزولها بعد سورة « يس » . أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة الخامسة والعشرون .

ومن المفسرين الذين لم يذكروا خلافا فى كونها مكية ، الإمام ابن كثير والإمام الرازى .

وقال القرطبى : هى مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - الذى نزل الفرقان على عبده محمد - ﷺ - والذى له ملك السموات والأرض ... والذى خلق كل شىء فقدره تقديرا .

قال - تعالى - : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض . ولم يتخذ ولدا . ولم يكن له شريك فى الملك . وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى حكاية بعض أقوال المشركين الذين أثاروا الشبهات حول الرسول - ﷺ - وحول دعوته ، وردت عليهم بما يمحق باطلهم ، وقارنت بين مصيرهم السئ ، وبين ما أعده الله - تعالى - للمؤمنين من جنات .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ .

٤ - وبعد أن يصور القرآن حسراتهم يوم الحشر ، وعجزهم عن التناصر ، يعود فيحكى جانبا من تطاولهم وعنادهم ، ويرد عليهم بما يكبتهم ، وبما يزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم .

قال - تعالى - : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ، لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى

ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبير * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا * وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا * أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ .

٥ - ثم تحكى السورة جانبا من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فيقول : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا * فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا * وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ، وأعتدنا للظالمين عذابا أليما .. ﴾ .

٦ - ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن تطاول هؤلاء الجاحدين على رسولهم - ﷺ - وتعقب على ذلك بتسليته - ﷺ - عما أصابه منهم فتقول : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذى بعث الله رسولا * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا * أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ .

٧ - ثم تنتقل السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فتسوق لنا مظاهر قدرته فى مد الظل ، وفى تعاقب الليل والنهار ، وفى الرياح التى يرسلها - سبحانه - لتكون بشارة لنزول المطر ، وفى وجود برزخ بين البحرين ، وفى خلق البشر من الماء ... ثم يعقب على ذلك بالتعجب من حال الكافرين ، الذين يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفعهم ولا يضرهم ..

قال - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا * وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾ .

٨ - ثم تسوق السورة فى أواخرها صورة مشرقة لعباد الرحمن ، الذين من صفاتهم التواضع ، والعفو عن الجاهل . وكثرة العبادة لله - تعالى - والتضرع إليه بأن يصرف عنهم عذاب جهنم ، وسلوكهم المسلك الوسط فى إنفاقهم ، وإخلاصهم الطاعة لله - تعالى - وحده . واجتنابهم للرذائل التى نهى الله - عز وجل - عنها .

قال - تعالى - : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ .

٩ - ومن هذا العرض المختصر لأبرز القضايا التى اهتمت بالحديث عنها السورة الكريمة ، نرى ما يأتى .

(أ) أن السورة الكريمة قد ساقت ألوانا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى الثناء عليه - سبحانه - بما هو أهله .

نرى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ... ﴾ ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ... ﴾ ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ... ﴾ . وفى مثل قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا * وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا * ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ .

(ب) أن السورة الكريمة زاخرة بالآيات التى تدخل الأنس والتسرية والتسلية والتثبيت على قلب النبى - ﷺ - بعد أن اتهمه المشركون بما هو برىء منه ، وسخروا منه ومن دعوته ، ووصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، واستنكروا أن يكون النبى من البشر .

نرى هذه التهم الباطلة فيما حكاه الله عنهم فى قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ . ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ . ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

وترى التسلية والتسرية والتثبيت فى قوله - تعالى - : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ﴾ .

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ، وكان ربك بصيرا ﴾ .

﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ .

وهكذا نرى السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن الشبهات التى أثارها المشركون حول النبى - ﷺ - ودعوته ، وزاخرة - أيضا - بالرد عليها ردا يبطلها . ويزهقها . ويسلى النبى

- ﷺ - عما أصابه منهم ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

(جـ) أن السورة الكريمة مشتملة على آيات كثيرة ، تبين ما سيكون عليه المشركون يوم القيامة من هم وغم وكرب وحسرة وندامة وسوء مصير ، كما تبين ما أعده الله - تعالى - لعباده المؤمنين من عاقبة حسنة ، ومن جنات تجرى من تحتها الأنهار .

فبالنسبة لسوء عاقبة المشركين نرى قوله - تعالى - : ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنا لك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ﴾ .

ونرى قوله - تعالى - : ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

وبالنسبة للمؤمنين نرى قوله - تعالى - : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا * لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

ونرى قوله - سبحانه - : ﴿ وعباد الرحمن الذى يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾ . إلى قوله - تعالى - : ﴿ خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ .

وهكذا نرى السورة تسوق آيات كثيرة فى المقارنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين .. وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ...

هذه بعض الموضوعات التى اهتمت السورة الكريمة بتفصيل الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى سنتحدث عنها - بإذن الله - عند تفسيرنا لآياتها .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

القاهرة - مدينة نصر

٢١ من شهر ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ

١٣ من يناير ١٩٨٥ م .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ثناء يليق بجلاله وكماله .

ولفظ « تبارك » فعل ماض لا يتصرف . أى : لم يجئ منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل : وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خبر . وأصلها النماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه ، وتزايدت بركاته .

أو مأخوذ من البَرْكة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .

والفرقان : القرآن . وسمى بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل .

ونذيرا : من الإنذار ، وهو الاعلام المقترن بتهديد وتخويف .

أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت ودامت خيراته وبركاته ، لأنه - سبحانه - هو الذى نزل القرآن الكريم على عبده محمد - ﷺ - ليكون « للعالمين » أى : للإنس وللجن « نذيرا » أى : منذرا إياهم بسوء المصير إن هم استمروا على كفرهم وشركهم .

وفى التعبير بقوله - تعالى - ﴿ تبارك ﴾ إشعار بكثرة ما يفيضه - سبحانه - من

خيرات وبركات على عباده ، وأن هذا العطاء ثابت مستقر ، وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل ما لايليق بجلاله - عز وجل - .

ولم يذكر - سبحانه - لفظ الجلالة ، واكتفى بالإسم الموصول الذى نزل الفرقان ، لإبراز صلته - سبحانه - وإظهارها فى هذا المقام ، الذى هو مقام إثبات صدق رسالته التى أوحاها إلى نبيه - ﷺ - .

وعبر - سبحانه - بـ « نزَّل » بالتضعيف ، لنزول القرآن الكريم مفرقا فى أوقات متعددة ، لتثبيت فؤاد النبى - ﷺ - .

ووصف الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالعبودية ، وأضافها لذاته ، للتشريف والتكريم والتعظيم . وأن هذه العبودية لله - تعالى - هى ما يتطلع إليه البشر .

واختير الإنذار على التبشير . لأن المقام يقتضى ذلك ، إذ أن المشركين قد لجوا فى طغيانهم وتمادوا فى كفرهم وضلالهم ، فكان من المناسب تخويفهم من سوء عاقبة ما هم عليه من عناد .

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته - ﷺ - للناس جميعا . حيث قال - سبحانه - : ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ أى : لعالم الإنس وعالم الجن ، وشبيه بها قوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[1] . وقوله - سبحانه - : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ... ﴾[2] .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بجملة من الصفات التى توجب له العبادة والطاعة فقال : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ فهو الخالق لهما . وهو المالك لأمرهما ، لا يشاركه فى ذلك مشارك .

والجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف . أو بدل من قوله : ﴿ والذى نزل ﴾ .

﴿ ولم يتخذ ولدا ﴾ فهو - سبحانه - منزه عن ذلك وعن كل ما من شأنه أن يشبه الحوادث .

﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ بل هو المالك وحده لكل شىء فى هذا الوجود .

﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ أى : وهو - سبحانه - الذى خلق كل شىء فى هذا الوجود خلقا متقنا حكيما بديعا فى هيئته ، وفى زمانه ، وفى مكانه ، وفى وظيفته ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته . وصدق الله إذ يقول : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .
(٣) سورة القمر الآية ٤٩ .

فجملة « فقدره تقديرا » بيان لما اشتمل عليه هذا الخلق من إحسان وإتقان فهو - سبحانه - لم يكتف بمجرد إيجاد الشىء من العدم ، وإنما أوجده فى تلك الصورة البديعة التى عبر عنها فى آية أخرى بقوله : ﴿ ... صنع الله الذى أتقن كل شىء ... ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فى الخلق معنى التقدير . فما معنى قوله : ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ .

قلت : معناه أنه أحدث كل شىء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره وهيأه لما يصلح له . مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذى تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى بابى الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد ، جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير ..[2] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن المشركين لم يفطنوا إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من تنظيم دقيق ، ومن صنع حكيم يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، بل إنهم - لانطماس بصائرهم - عبدوا مخلوقا مثلهم فقال - تعالى - : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ... ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ واتخذوا .. ﴾ يعود على المشركين المفهوم من قوله ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ أو من المقام .

أى : واتخذ هؤلاء المشركون معبودات باطلة يعبدونها من دون الله - عز وجل - ، وهذه المعبودات لا تقدر على خلق شىء من الأشياء ، بل هى من مخلوقات الله - تعالى - .

وعبر عن هذه الآية بضمير العقلاء فى قوله ﴿ لا يخلقون ﴾ جريا على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع ، أو لأن من بين من اتخذوهم آلهة بعض العقلاء كالمسيح والعزير والملائكة ..

وأيضا هؤلاء الذين اتخذهم المشركون آلهة : ﴿ لا يملكون لأنفسهم ﴾ فضلا عن غيرهم ﴿ ضرا ولا نفعا ﴾ فهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا جلب النفع لذواتهم ﴿ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ أى : ولا يقدرون على إماتة الأحياء . ولا على إحياء الموتى فى الدنيا ، ولا على بعثهم ونشرهم فى الآخرة .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف تلك الآلهة المزعومة بسبع صفات ، كل صفة منها كفيلة بسلب صفة الألوهية عنها ، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات السبع فيها ؟!! .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٦٣ .

إن كل من يشرك مع الله - تعالى - أحدا فى العبادة . لو تدبر هذه الآية وأمثالها من آيات القرآن الكريم لأيقن واعتقد أن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله رب العالمين .

ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه - ﷺ - فقال :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

والإفك : أسوأ الكذب . يقال : أفك فلان - كضرب وعلم - أفكا ، إذا قال أشنع الكذب وأقبحه .

والزور فى الأصل : تحسين الباطل . مأخوذ من الزوَرِ وهو الميل وأطلق على الباطل زور لما فيه من الميل عن الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى ما يخالفه .

أى : وقال الذين كفروا فى شأن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ، ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان ﴿ افتراه ﴾ واختلقه محمد - ﷺ - من عند نفسه ، ﴿ وأعانه عليه ﴾ أى وأعانه وساعده على هذا الاختلاق ﴿ قوم آخرون ﴾ من اليهود أو غيرهم ، كعداس - مولى حويطب بن عبد العزى - ويسار - مولى العلاء بن الحضرمى - وأبى فكيهة الرومى . وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ رد على أقوال الكافرين الفاسدة وجاءوا بمعنى فعلوا ، وقوله : ﴿ ظلما ﴾ منصوب به . والتنوين للتهويل .

أى : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما وزورا كبيرا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .

ويصح أن يكون قوله : ﴿ ظلما ﴾ منصوبا بنزع الخافض أى : فقد جاءوا بظلم عظيم ، وكذب فظيع ، انحرفوا به عن جادة الحق والصواب .

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة فقال : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ .

والأساطير : جمع أسطورة بمعنى أكذوبة واكتتبها : أى : أمر غيره بكتابتها له . أو جمعها من بطون كتب السابقين .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا ، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، أمر الرسول - ﷺ - غيره بكتابتها له ، وبجمعها من كتب السابقين ﴿ فهى ﴾ أى : هذه الأساطير ﴿ تملى عليه ﴾ أى : تلقى عليه - ﷺ - بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ أى : فى الصباح والمساء أى : تملى عليه خفية فى الأوقات التى يكون الناس فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض .. ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين ، وأنك افتريته من عند نفسك ، وأعانك على هذا الافتراء قوم آخرون ... قل لهم : كذبتم أشنع الكذب وأقبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة ، وله من حسن التأثير ما يجعله باعتراف زعمائكم ليس من كلام البشر وإنما الذى أنزله علىَّ هو الله - تعالى - الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، أى : يعلم ما خفى فيهما ويعلم الأسرار جميعها فضلا عن الظواهر .

قال الآلوسى : « قل » لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق : أنزله الله - تعالى - الذى لا يعزب عن علمه شىء من الأشياء ، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع ، لا تحوم حوله الأفهام ، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته ، وأخبركم بمغيبات مستقبلة ، وأمور مكنونة ، لا يهتدى إليها ولا يوقف - إلا بتوفيق الله - تعالى - العليم الخبير - عليها ..[1]

ثم ختم - سبحانه - الآية بما يفتح باب التوبة للتائبين ، وبما يحرضهم على الإيمان والطاعة لله رب العالمين فقال - تعالى - : ﴿ إنه كان غفورا رحيما ﴾ .

أى : إنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإيمان ، وترك العصيان وعاد إلى الطاعة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢٣٦ .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿ إنه كان غفورا رحيما ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم . وافترائهم . وفجورهم . وبهتهم . وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم - سبحانه - إلى التوبة والإقلاع عما هم عليه من كفر إلى الإسلام والهدى . كما قال - تعالى - : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله هو ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ﴾ .. قال الحسن البصرى : أنظروا إلى هذا الكرم والجود . قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة ..[1]

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة ثالثة ، تتعلق بشخصية النبى - ﷺ - حيث أنكروا أن يكون الرسول من البشر وأن يكون آكلا للطعام وماشيا فى الأسواق ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوا۟
مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ
لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٠٢ .

ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش قالوا للنبى - ﷺ - إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا ، وإن كنت تريد ملكا ، جعلناك ملكا علينا ..

فقال - ﷺ - : « ما أريد شيئا مما تقولون ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم » .

فقالوا : فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك ، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا ..

فقال لهم - ﷺ - : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله - تعالى - بعثنى بشيرا ونذيرا » فأنزل الله تعالى فى قولهم ذلك ..[1] .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ﴾ يعود إلى مشركى قريش و « ما » استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه ، وهى مبتدأ ، والجار والمجرور بعدها الخبر . وجملة « يأكل الطعام » حال من الرسول .

أى : أن مشركى قريش لم يكتفوا بقولهم إن محمدا - ﷺ - قد افترى القرآن ، وأن القرآن أساطير الأولين . بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته : كيف يكون محمدا - ﷺ - رسولا ، وشأنه الذى نشاهده بأعيننا . أنه « يأكل الطعام » كما يأكل سائر الناس « ويمشى فى الأسواق » أى : ويتردد فيها كما نتردد طلبا للرزق . « لولا أنزل إليه ملك » أى : هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة « فيكون » هذا الملك « معه نذيرا » أى : منذرا من يخالفه بسوء المصير .

« أو يلقى إليه » أى : إلى الرسول - ﷺ - « كنز » أى : مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس ، وأصل الكنز ، جعل المال بعضه على بعض وحفظه . من كنز التمر فى الوعاء ، إذا حفظه . « أو تكون له » - ﷺ - « جنة يأكل منها » أى : حديقة مليئة بالأشجار المثمرة ، لكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها .

« وقال الظالمون » فضلا عن كل ذلك « إن تتبعون » أى : ما تتبعون « إلا رجلا مسحورا » أى : مغلوبا على عقله ، ومصابا بمرض قد أثر فى تصرفاته .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢٣٧ .

فأنت ترى أن هؤلاء الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن عنهم - على ست قبائح - قصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات : أى : إن صح أنه رسول الله فما باله حاله كحالنا « يأكل الطعام » كما نأكل ، ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى ، اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا فى الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا - أيضا - فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك ، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق ... وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم . وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا ..[1] .

وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة ، بالتهوين من شأنهم وبالتعجيب من تفاهة تفكيرهم ، وبالتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم فقال : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من تعنتهم ، وضحالة عقولهم . وسوء أقاويلهم . حيث وصفوك تارة بالسحر . وتارة بالشعر . وتارة بالكهانة . وقد ضلوا عن الطريق المستقيم فى كل ما وصفوك به . وبقوا متحيرين فى باطلهم ، دون أن يستطيعوا الوصول إلى السبيل الحق . وإلى الصراط المستقيم .

فالآية الكريمة تعجيب من شأنهم ، واستعظام لما نطقوا به . وحكم عليهم بالخيبة والضلال ، وتسلية للرسول - ﷺ - عما قالوه فى شأنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية . تسلية أخرى لرسوله - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ﴾ .

أى : جل شأن الله تعالى ، وتكاثرت خيراته ، فهو - سبحانه - الذى - إن شاء - جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم - خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين ، بأن يهبك جنات عظيمة تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، ويهبك قصورا فخمة ضخمة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٦٥ .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى .

فقوله - تعالى - : ﴿ إن شاء ﴾ كلام معترض لتقييد عطاء الدنيا ، أى : إن شاء أعطاك فى الدنيا أكثر مما اقترحوه ، أما عطاء الآخرة فهو محقق ولا قيد عليه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ تفسير لقوله : ﴿ خيرا من ذلك ﴾ فهو بدل أو عطف بيان .

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن قبائحهم المتعلقة بوحدانية الله تعالى ، وبشخصية رسول الله -ﷺ- إلى الحديث عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتكاثرة ، ألا وهى إنكارهم للبعث والحساب ، فقال - تعالى - : ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ . أى ؛ إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا باتخاذا آلهة من دون الله - تعالى - ، ولم يكتفوا بالسخرية من رسوله - ﷺ - بل أضافوا إلى ذلك أنهم كذبوا بيوم القيامة وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب . والحال أننا بقدرتنا وإرادتنا قد أعددنا وهيأنا لمن كذب بهذا اليوم سعيرا . أى : نارا عظيمة شديدة الاشتعال .

وقال - سبحانه - : ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة ﴾ ولم يقل : لمن كذب بها . للمبالغة فى التشنيع عليهم ، والزجر لهم ، إذ أن التكذيب بها كفر يستحق صاحبه الخلود فى النار المستعرة .

ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يعرضون على النار ، وهلعهم عندما يلقون فيها ، كما بين - سبحانه - حال المتقين وما أعد لهم من نعيم مقيم ، فقال - تعالى - :

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾

وقوله تعالى : ﴿ إذا رأتهم ... ﴾ الضمير فيه يعود إلى « سعيرا » والتغيظ فى الأصل : إظهار الغيظ ، وهو شدة الغضب الكامن فى القلب .

والزفير : ترديد النفس من شدة الغم والتعب حتى تنتفخ منه الضلوع ، فإذا ما اشتد كان له صوت مسموع .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين كذبوا بالساعة ، قد اعتدنا لهم بسبب هذا التكذيب نارا مستعرة ، إذا رأتهم هذه النار من مكان بعيد عنها . سمعوا لها غليانا كصوت من اشتد غضبه ، وسمعوا لها زفيرا . أى : صوتا مترددا كأنها تناديهم به .

فالآية الكريمة تصور غيظ النار من هؤلاء المكذبين تصويرا مرعبا ، يزلزل النفوس ويخيف القلوب .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ من مكان بعيد ﴾ يزيد هذه الصورة رعبا وخوفا ، لأنها لم تنتظرهم إلى أن يصلوا إليها ، بل هى بمجرد أن تراهم من مكان بعيد - والعياذ بالله - يسمعون تغيظها وزفيرها وغضبها عليهم ، وفرحها بإلقائهم فيها .

قال الآلوسى : وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر ، وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد ، إذ لا امتناع فى أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار ، فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية ، وكقوله - تعالى - : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾[1] . وقوله : - ﷺ - فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى : « شكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضا ، فأذِنَ لها بنفسين : نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف .. »[2] .

ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يستقرون فيها فقال : ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ﴾ .

أى : أن النار إن رأت هؤلاء المجرمين سمعوا لها ما يزعجهم ويفزعهم ، ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا ﴾ أى : وإذا ما طرحوا فيها فى مكان ضيق منها ، حالة كونهم ﴿ مقرنين ﴾ أى : مقيدين بالأغلال بعضهم مع بعض أو مع الشياطين الذين أضلوهم .

﴿ دعوا هنالك ﴾ أى : تنادوا هنالك فى ذلك المكان بقولهم ﴿ ثبورا ﴾ أى : هلاكا وخسرانا يقال فلان ثبره الله - تعالى - أى : أهلكه إهلاكا لا قيام له منه .

---

(١) سورة ق الآية ٣٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٢٤٢ .

أى : يقولون عندما يلقون فيها ، يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإنك أرحم بنا مما نحن فيه .

ووصف - سبحانه - المكان الذى يلقون فيه بالضيق ، للإشارة إلى زيادة كربهم ، فإن ضيق المكان يعجزهم عن التفلت والتململ . وهنا يسمعون من يقول لهم على سبيل الزجر والسخرية المريرة ، ﴿ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ﴾ . أى : اتركوا اليوم طلب الهلاك الواحد . واطلبوا هلاكا كثيرا لا غاية لكثرته ، ولا منتهى لنهايته .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وادعوا ثبورا كثيرا ﴾ أى : أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يبين لهم ما أعده - سبحانه - لعباده المتقين ، فقال : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ، لهم فيها ما يشاءون خالدين . كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

واسم الإشارة . ذلك يعود إلى ما ذكر من العذاب المهين لهم والاستفهام للتقريع والتهكم .

والعائد إلى الموصول محذوف ، أى : وعدها الله - تعالى - للمتقين ، وإضافته الجنة إلى الخلد للمدح وزيادة السرور للذين وعدهم الله - تعالى - بها .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، أذلك العذاب المهين الذى أعد لكم خير ، أم جنة الخلد التى وعدها الله - تعالى - للمتقين ، والتى ﴿ كانت لهم ﴾ بفضل الله وكرمه ﴿ جزاء ﴾ على أعمالهم الصالحة ﴿ ومصيرا ﴾ طيبا يصيرون إليه .

﴿ لهم فيها ﴾ فى تلك الجنة ﴿ ما يشاءون ﴾ أى : ما يشاءونه من خيرات وملذات حالة كونهم ﴿ خالدين ﴾ فيها خلودا أبديا .

﴿ كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ أى : كان ذلك العطاء الكريم الذى تفضلنا به على عبادنا المتقين ووعدناهم به ، من حقهم أن يسألونا تحقيقه لعظمه وسمو منزلته ، كما قال - تعالى - حكاية عنهم فى آية أخرى ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٦٧ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٤ .

وعلى هذا المعنى يكون قوله ﴿ مسئولا ﴾ بمعنى جديرا أن يسأل عنه المؤمنون لعظم شأنه .

ويجوز أن يكون السائلون عنه الملائكة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم .. ﴾[١] .

ويرى بعضهم أن المعنى . كان ذلك العطاء للمؤمنين وعدا منا لهم ، ونحن بفضلنا وكرمنا سننفذ هذا الوعد ، قال - تعالى - : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده .. ﴾[٢] .

هذا ، وقد تكلم العلماء هنا عن المراد بلفظ « خير » فى قوله - تعالى - ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد ﴾ وقالوا : إن هذا اللفظ صيغة تفضيل ، والمفضل عليه هنا وهو العذاب لا خير فيه البته ، فكيف عبر - سبحانه - بلفظ خير ؟

وقد أجابوا عن ذلك بأن المفاضلة هنا غير مقصودة ، وإنما المقصود هو التهكم بهؤلاء الكافرين الذين آثروا الضلالة على الهداية ، واستحبوا الكفر على الإيمان .

قال أبو حيان - رحمه الله - : و « خير » هنا ليست تدل على الأفضلية ، بل هى على ما جرت به عادة العرب فى بيان فضل الشىء ، وخصوصيته بالفضل دون مقابلة . كقول الشاعر : فشر كما لخير كما الفداء .. وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة . وكقوله - تعالى - حكاية عن يوسف - عليه السلام - : ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾[٣] .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن حالهم عندما يعرضون هم وآلهتهم للحشر والحساب يوم القيامة ، وقد وقفوا جميعا أمام ربهم للسؤال والجواب ، قال - تعالى - :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ

(١) سورة غافر الآية ٨ .
(٢) سورة الروم الآية ٦ .
(٣) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٤٨٦ .

وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ويوم ﴾ منصوب على المفعولية بفعل مقدر ، والمقصود من ذكر اليوم : تذكيرهم بما سيحدث فيه من أهوال حتى يعتبروا ويتعظوا ، والضمير فى « يحشرهم » للكافرين الذين عبدوا غير الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ معطوف على مفعولى « يحشرهم » والمراد بهؤلاء الذين عبدوهم من دون الله : الملائكة وعزير وعيسى وغيرهم من كل معبود سوى الله - تعالى - .

والمعنى : واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - حالهم لعلهم أن يعتبروا يوم نحشرهم جميعا للحساب والجزاء يوم القيامة ، ونحشر ونجمع معهم جميع الذين كانوا يعبدونهم غيرى .

ثم نوجه كلامنا لهؤلاء المعبودين من دونى فأقول لهم : أأنتم - أيها المعبودون - كنت السبب فى ضلال عبادى عن إخلاص العبادة لى ، بسبب إغرائكم لهم بذلك أم هم الذين من تلقاء أنفسهم قد ضلوا السبيل ، بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان ؟ .

والسؤال للمعبودين إنما هو من باب التقريع للعابدين ، وإلزامهم الحجة وزيادة حسرتهم ، وتبرئة ساحة المعبودين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ﴾[1] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم .. ﴾[2] .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : إنه - سبحانه - عالم فى الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة السؤال ؟ .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٦ .
(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١ .

والجواب : هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين ، كما قال - سبحانه - لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ ولأن أولئك المعبودين لما برءوا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم ، صار تبرُّؤُ المعبودين عنهم أشد فى حسرتهم وحيرتهم[1] .

وقال - سبحانه - ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ ولم يقل . ضلوا عن السبيل ، للإشعار بأنهم قد بلغوا فى الضلال أقصاه ومنتهاه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أجاب به المعبودون فقال : ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ﴾ .

أى قال المعبودين لخالقهم - عز وجل - : « سبحانك » أى : ننزهك تنزيها تاما عن الشركاء وعن كل ما لا يليق بجلالك وعظمتك ، وليس للخلائق جميعا أن يعبدوا أحدا سواك . ولا يليق بنا نحن أو هم أن نعبد غيرك ، وأنت يا مولانا الذى أسبغت عليهم وعلى آبائهم الكثير من نعمك . « حتى نسوا الذكر » أى : حتى تركوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك « وكانوا » بسبب ذلك « قوما بورا » أى : هلكى ، جمع بائر من البوار وهو الهلاك .

قال القرطبى : وقوله ﴿ بورا ﴾ أى : هلكى قاله ابن عباس .. وقال الحسن » بورا » أى : لا خير فيهم ، مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها عن الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شَهْر بن حَوْشَب : البوار : الفساد والكساد ، من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفساد .. وهو اسم مصدر يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث[2] .

وهكذا ، يتبرأ المعبودون من ضلال عابديهم ، ويوبخونهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - وعلى عبادتهم لغيره . ويعترفون لخالقهم - عز وجل - بأنه لا معبود بحق سواه .

وهنا يوجه - سبحانه - خطابه إلى هؤلاء العابدين الجهلاء الكاذبين فيقول : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا .. ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتبكيت : والآن لقد رأيتم تكذيب من عبدتموهم لكم ، وقد حق عليكم العذاب بسبب كفركم وكذبكم ، وصرتم لا تملكون له « صرفا » أى : دفعا بأية صورة من الصور . وأصل الصرف : رد الشىء من حالة إلى حالة

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٣٢٥ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١١ .

أخرى ، ولا تملكون له – أيضا – « نصرا » أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ، ولا من جهة غيركم ، بل لقد حل بكم العذاب حلولا لافكاك لكم منه بأى وسيلة من الوسائل .

« ومن يظلم منكم » أى : ومن يكفر بالله – تعالى – منكم أيها المكلفون بالإيمان « نذقه عذابا كبيرا » لا يقادر قدره فى الخزى والهوان .

قال صاحب الكشاف : هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام – فى قوله : ﴿ فقد كذبوكم ﴾ حسنة رائعة ، خاصة إذا انضم إليها الالتفات ، وحذف القول ، ونحوها قوله – تعالى – : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ... ﴾[1] وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى ما يُراد بنا ... ثم القُفُول فقد جئنا خراسانا[2]

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت الحجة على الكافرين بطريقة تخرس ألسنتهم ، وتجعلهم أهلا لكل ما يقع عليهم من عذاب أليم .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى تسلية الرسول – ﷺ – وإلى الرد على شبهات أعدائه فتقول :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

أى : وما أرسلنا قبلك – أيها الرسول الكريم – أحدا من رسلنا ، إلا وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذى يأكله غيرهم من البشر . ويمشون فى الأسواق كما يمشى غيرهم من الناس ، طلبا للرزق .

وإذًا فقول المشركين فى شأنك « مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » قول يدل على جهالاتهم وسوء نياتهم فلا تتأثر به ، ولا تلتفت إليه ، فأنت على الحق وهم على الباطل .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٧١ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ بيان لسنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، اقتضتها حكمته ومشيئته .

أى : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه ، إذ أن قوى الإيمان لتصديقه بقضاء الله وقدره يثبت على الحق ويلتزم بما أمره الله - تعالى - به ، أما ضعيف الإيمان فإنه يحسد غيره على ما آتاه الله - تعالى - من فضله . كما حسد المشركون رسول الله - ﷺ - على منصب النبوة الذى أعطاه الله - تعالى - إياه ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ أى : إن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد - سبحانه - أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس ، فالصحيح : فتنة للمريض . والغنى : فتنة للفقير .. ومعنى هذا ، أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغنى ممتحن بالفقير ، فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغنى ، فعليه أن لا يحسده . ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق .. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره ... فالفتنة : أن يحسد المبتلَى المعافَى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر وذاك عن الضجر ..[2] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أتصبرون ﴾ للتقرير . أى : أتصبرون على هذا الابتلاء والاختبار فتناولوا من الله - تعالى - الأجر ، أم لا تصبرون فيزداد همكم وغمكم ؟

ويصح أن يكون الاستفهام بمعنى الأمر . أى : اصبروا على هذا الابتلاء كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ... وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم .. ﴾[3] أى : أسلموا .. وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ أى : انتهوا عن الخمر والميسر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ وكان ربك بصيرا ﴾ أى : وكان ربك أيها الرسول الكريم - بصيرا بأحوال النفوس الظاهرة والخفية ، وبتقلبات القلوب وخلجاتها . فاصبر على أذى قومك ، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين .

فهذا التذييل فيه ما فيه من التسلية والتثبيت لفؤاد النبى - ﷺ - .

ثم حكت السورة للمرة الرابعة تطاول المشركين وجهالاتهم ، وردت عليهم بما يخزيهم ، وبينت ما أعد لهم من عذاب فى يوم لا ينفعهم فيه الندم .

(١) سورة الزخرف الآية ٣١ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٨ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

قال - تعالى - :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ
هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

قال الفخر الرازى : إعلم أن قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد - ﷺ - وحاصلها : لماذا لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه ، أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا ..[1] .

والرجاء : الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع . وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء ، وفسره بعضهم هنا بأن المراد به : الخوف .

والمراد بلقائه - سبحانه - : الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء .

أى : وقال الكافرون الذين لا أمل عندهم فى لقائنا يوم القيامة للحساب والجزاء لأنهم ينكرون ذلك ، ولا يبالون به ، ولا يخافون أهواله . قالوا - على سبيل التعنت والعناد - :

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٣٢٨ .

هلا أنزل علينا الملائكة لكي يخبرونا بصدق محمد - ﷺ - أو هلا نرى ربنا جهرة ومعاينة ليقول لنا إن محمدا - ﷺ - رسول من عندى !

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ... أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾[1] . أى : ليشهدوا بصدقك ، وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ .

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم والعدوان . يقال عتا فلان يعتو عتوا ، إذا تجاوز حده فى الطغيان .

أى : والله لقد أضمر هؤلاء الكافرون الاستكبار عن الحق فى أنفسهم المغرورة ، وتجاوزوا كل حد فى الطغيان تجاوزا كبيرا ، حيث طلبوا مطالب هى أبعد من أن ينالوها بعد الأرض عن السماء . وصدق الله إذ يقول : ﴿ ... إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه .. ﴾[2] .

ووصف - سبحانه - عتوهم بالكبر للدلالة على إفراطهم فيه ، وأنهم قد وصلوا فى عتوهم إلى الغاية القصوى منه .

ثم بين - سبحانه - الحالة التى يرون فيها الملائكة فقال : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ .

أى : لقد طلب هؤلاء الظالمون نزول الملائكة عليهم ، ورؤيتهم لهم . ونحن سنجيبهم إلى ما طلبوه ولكن بصورة أخرى تختلف اختلافا كليا عما يتوقعونه ، إننا سنريهم الملائكة عند قبض أرواحهم وعند الحساب بصورة تجعل هؤلاء الكافرين يفزعون ويهلعون . بصورة لا تبشرهم بخير ولا تسرهم رؤيتهم معها ، بل تسوءهم وتحزنهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ... ﴾[3] وكما قال - سبحانه - : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾[4] .

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف . لبيان حالهم الشنيعة عندما تنزل عليهم الملائكة . بعد بيان تجاوزهم الحد فى الطغيان وفى طلب ما ليس من حقهم .

والمراد بالملائكة هنا : ملائكة العذاب الذين يقبضون أرواحهم ، والذين يقودونهم إلى النار يوم القيامة .

وقال - سبحانه - : ﴿ يوم يرون الملائكة ... ﴾ ولم يقل : يوم تنزل الملائكة ، للإيذان

---

(١) سورة الاسراء الآية ٩٢ .
(٢) سورة غافر الآية ٥٦ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٥٠ .
(٤) سورة محمد الآية ٢٧ .

من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على الطريقة التى طلبوها ، بل على وجه آخر فيه ما فيه من العذاب المهين لهؤلاء الكافرين .

وجاء نفى البشرى لهم بلا النافية للجنس للمبالغة فى نفى أى بارقة تجعلهم يأملون فى أن ما نزل بهم من سوء ، قد يتزحزح عنهم فى الحال أو الاستقبال .

قال الجمل فى حاشيته : وقوله ﴿ لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ هذه الجملة معمولة لقول مضمر . أى : يرون الملائكة يقولون لا بشرى . فالقول حال من الملائكة وهو نظير التقدير فى قوله - تعالى - : ﴿ ... والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم .. ﴾[1] وكل من الظرف والجار والمجرور خبر عن لا النافية للجنس[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويقولون حجرا محجورا ﴾ تأكيد لما قبله من أنه لا خير لهؤلاء الكافرين من وراء رؤيتهم للملائكة .

والحجر - بكسر الحاء وفتحها - الحرام ، وأصله المنع . ومحجورا صفة مؤكدة للمعنى ، كما فى قولهم : موت مائت . وليل أليل ، وحرام محرم .

قال الآلوسى : وهى -أى : حجرا محجورا - كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور ، وهجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، حيث يطلبون من الله - تعالى - أن يمنع المكروه فلا يلحقهم ، فكأن المعنى ، نسأل الله - تعالى - أن يمنع ذلك منعا ، ويحجره حجرا .

وقال الخليل : كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهلية فى الأشهر الحرم فيقول : حجرا محجورا . أى : حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدأ بشر[3] .

والقائلون لهذا القول يرى بعضهم أنهم الملائكة ، فيكون المعنى : تقول الملائكة للكفار حجرا محجورا . أى : حراما محرما أن تكون لكم اليوم بشرى . أو أن يغفر الله لكم ، أو أن يدخلكم جنته .

وقد رجح ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه : وإنما اخترنا أن القائلين هم الملائكة من أجل أن الحجر هو الحرام . فمعلوم أن الملائكة هى التى تخبر أهل الكفر ، أن البشرى عليهم حرام ..[4] .

ويبدو لنا أنه لا مانع من أن يكون هذا القول من الكفار ، فيكون المعنى : أن هؤلاء الكفار

---

(١) سورة الرعد من الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٥٢ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ٦ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٩ ص ٣ .

الذين طلبوا نزول الملائكة عليهم ليشهدوا لهم بصدق الرسول - ﷺ - عندما يرونهم عند الموت أو عند الحساب يقولون لهم بفزع وهلع : « حجرا محجورا » أى : حرام محرما عليكم أن تنزلوا بنا العذاب ، فنحن لم نرتكب ما نستحق بسببه هذا العذاب المهين ، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾[1] .

وعلى كلا الرأيين فالجملة الكريمة تؤكد سوء عاقبة الكافرين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك وعيدا آخر لهؤلاء الكافرين فقال : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ .

والهباء : الشيء الدقيق الذى يخرج من النافذة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار .

والمنثور : المتفرق فى الجو بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره .

أى : وقدمنا وقصدنا وعمدنا - بإرادتنا وحكمتنا إلى ما عمله هؤلاء الكافرون من عمل صالح فى الدنيا - كالإحسان إلى الفقراء ، والإنفاق فى وجوه الخير - فجعلناه باطلا ضائعا ، ممزقا كل ممزق ، لأنهم فقدوا شرط قبوله عندنا ، وهو إخلاص العبادة لنا .

فقد شبه - سبحانه - أعمالهم الصالحة فى الدنيا فى عدم انتفاعهم بها يوم القيامة - بالهباء المنثور ، الذى تفرق وتبدد وصار لا يرجى خير من ورائه لحقارته وتفاهته .

ثم بين - سبحانه - ما سيكون عليه أصحاب الجنة من نعيم مقيم يوم القيامة فقال : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ .

والمستقر : المكان الذى يستقر فيه الإنسان فى أغلب وقته . والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه فى وقت القيلولة للاستراحة من عناء الحر .

أى : « أصحاب الجنة يومئذ » أى : يوم القيامة « خير مستقرا » أى : خير مكانا ومنزلا فى الجنة ، مما كان عليه الكافرون فى الدنيا من متاع زائل ، ونعيم حائل « وأحسن مقيلا » أى : وأحسن راحة وهناء ومأوى ، مما فيه الكافرون من عذاب مقيم .

وقد استنبط بعض العلماء . من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير ، وأنه ينتهى فى وقت قصير ، لا يتجاوز نصف النهار . قالوا : لأن قوله - تعالى - ﴿ وأحسن مقيلا ﴾ يدل على

---

(٢) سورة النحل الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

أنهم فى وقت القيلولة ، يكونون فى راحة ونعيم ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾[1] .

وأما أهل النار - والعياذ بالله - فهم ليسوا كذلك لأن حسابهم غير يسير .

وقد ساق ابن كثير فى هذا المعنى آثارا منها أن سعيد الصواف قال : بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة[2] .

ثم وصف - سبحانه - بعض الأهوال التى تحدث فى هذا اليوم فقال : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ .

وقوله ﴿ تشقق ﴾ أصله تتشقق بمعنى تتفتح . والباء يصح أن تكون بمعنى عن ، وأن تكون للسببية أى : بسبب طلوعه منها ، وأن تكون للحال ، أى : ملتبسة بالغمام .

والغمام : اسم جنس جمعى لغمامه . وهى السحاب الأبيض الرقيق سمى بذلك لأنه يغم ما تحته ، أى : يستره ويخفيه .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - أهوال يوم القيامة . يوم تتفتح السماء وتتشقق بسبب طلوع الغمام منها . ونزول الملائكة منها تنزيلا عجيبا غير معهود .

قال صاحب الكشاف : ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وانشق بها ، ونظيره قوله - تعالى : ﴿ السماء منفطر به ... ﴾[3] .

فإن قلت : أى فرق بين قولك : إنشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عنه ؟ قلت : معنى انشقت به ، إن الله شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى انشقت عنه : أن التربة ارتفعت عند طلوعه .

والمعنى : أن السماء تتفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى أيديهم صحف أعمال العباد[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ .
ولفظ « الملك » مبتدأ ، و« يومئذ » ظرف للمبتدأ و« الحق » نعت له و« للرحمن » خبره .

---

(١) سورة الانشقاق الآيتان ٧ - ٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١١٣ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٤) سورة المزمل الآية ١٨ .

أى : الملك الثابت الذى لا يزول ، ولا يشاركه فيه أحد للرحمن يومئذ ، وكان هذا اليوم عسيرا على الكافرين ، لشدة الهول والعذاب الذى يقع عليهم فيه .

وخص - سبحانه - ثبوت الملك له فى هذا اليوم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو المالك لهذا الكون فى هذا اليوم وفى غيره ، للرد على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، ولبيان أن ملك غيره - سبحانه - فى الدنيا . إنما هو ملك صورى زائل ، أما الملك الثابت الحقيقى فهو لله الواحد القهار .

قال ابن كثير : وفى الصحيح « أن الله يطوى السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك . أنا الديان . أين ملوك الأرض أين الجبارون . أين المتكبرون »[1] .

ثم صور - سبحانه - ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندامة ، تصويرا بليغا ، مؤثرا فقال : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات أن عقبة بن أبى معيط دعا النبى - ﷺ - لحضور طعام عنده ، فقال له النبى - ﷺ - لا آكل من طعامك حتى تنطق بالشهادتين . فنطق بها . فبلغ ذلك صديقه أمية بن خلف أو أخوه أبى بن خلف ، فقال له : يا عقبة بلغنى أنك أسلمت . فقال له : لا . ولكن قلت ما قلت تطيبا لقلب محمد - ﷺ- حتى يأكل من طعامى . فقال له : كلامك على حرام حتى تفعل كذا وكذا بمحمد - ﷺ - ففعل الشقى ما أمره به صديقه الذى لا يقل شقاوة عنه .

أما عقبة فقد أمر النبى - ﷺ - بقتله فى غزوة بدر وأما أبى بن خلف فقد طعنه النبى - ﷺ - فى غزوة أحد طعنة لم يبق بعدها سوى زمن يسير ثم هلك .

وعلى أية حال فإن الآيات وإن كانت قد نزلت فى هذين الشقيين . فإنها تشمل كل من كان على شاكلتهما فى الكفر والعناد ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعض اليدين كناية عن شدة الحسرة والندامة والغيظ ، لأن النادم ندما شديدا ، يعض يديه . وليس أحد أشد ندما يوم القيامة من الكافرين .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١١٥ .

قال – تعالى – : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب . وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا.. ﴾ .

والمعنى : واذكر – أيها العاقل – يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء ، يوم يعض الظالم على يديه من شدة غيظه وندمه وحسرته .

ويقول فى هذا اليوم ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ .

أى : ياليتنى سلكت معه طريق الحق الذى جاء به ، واتبعته فى كل ما جاء به من عند ربه .

﴿ ياويلتا ﴾ أى : ثم يقول هذا الظالم يا هلاكى أقبل فهذا أوان إقبالك ، فهذه الكلمة تستعمل عند وقوع داهية دهياء لانجاة منها ، وكأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يفهم نداءه .

﴿ ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ أى : ليتنى لم أتخذ فلانا الذى أضلنى فى الدنيا صديقا وخليلا لى . والمراد بفلان : كل من أضل غيره وصرفه عن طريق الحق ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا أبى بن خلف .

﴿ لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ﴾ أى : والله لقد أضلنى هذا الصديق المشئوم عن الذكر أى : عن الهدى بعد إذ جاءنى الرسول – ﷺ – فالجملة الكريمة تعليل لتمنيه المذكور ، وتوضيح لتملله . وأكده بلام القسم للمبالغة فى بيان شدة ندمه وحسرته .

والمراد بالذكر هنا : ما يشمل القرآن الكريم ، وما يشمل غيره من توجيهات النبى – ﷺ – وفى التعبير بقوله : ﴿ بعد إذ جاءنى ﴾ إشعار بأن هدى الرسول – ﷺ – قد وصل إلى هذا الشقى ، وكان فى إمكانه أن ينتفع به .

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله : ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ أى : وكان الشيطان دائما وأبدا . خذولا للإنسان . أى : صارفا إياه عن الحق ، محرضا له على الباطل ، فإذا ما احتاج الإنسان إليه خذله وتركه وفر عنه وهو يقول : إنى برىء منك .

يقال : خذل فلان فلانا ، إذا ترك نصرته بعد أن وعده بها .

وهكذا تكون عاقبة الذين يتبعون أصدقاء السوء ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾[1] .

ومن الأحاديث التى وردت فى الأمر باتخاذ الصديق الصالح ، وبالنهى عن الصديق الطالح ،

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

ما رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك . وإمّا أن تبتاع منه . وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثوبك . وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

ثم بين - سبحانه - ما قاله الرسول - ﷺ - فى شأن هؤلاء المشركين ، وما قالوه فى شأن القرآن الكريم ، وما رد به - سبحانه - عليهم ، فقال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الرسول ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وقال الذين لا يرجون ... ﴾ .

وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام قبح ما قالوه ولبيان ما يحل بهم بسببه من عذاب .

أى : وقال الرسول محمد - ﷺ - متضرعا وشاكيا لربه « يارب إن قومى » الذين أرسلتنى إليهم قد « اتخذوا هذا القرآن » المشتمل على ما يهديهم إلى الرشد وعلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ، قد اتخذوه « مهجورا » أى : متروكا فقد تركوا تصديقه ، وتركوا العمل به وتركوا ، التأثر بوعيده .. من الهَجْر - بفتح الهاء بمعنى الترك ، أو المعنى : قد اتخذوا هذا

القرآن مادة لسخريتهم وتهكمهم ، من الهُجْر - بضم الهاء - بمعنى الهذيان والقول الباطل ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾(١) .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على التخويف العظيم لمن يهجر القرآن الكريم . فلم يحفظه أو لم يحفظ شيئا منه ، ولم يعمل بما فيه من حلال وحرام ، وأوامر ونواه ..

قال بعض العلماء هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعه وقراءته . وثانيها : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه .. وثالثها : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه .. ورابعها : هجر تدبره وتفهمه .. وكل هذا دخل فى هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين .. ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وتصريح بأن ما أصابه قد أصاب الرسل من قبله ، و البلية إذا عمت هانت . أى : كما جعلنا قومك - أيها الرسول الكريم - يعادونك ويكذبونك ، جعلنا لكل نبى سابق عليك عدوا من المجرمين ، فاصبر - أيها الرسول - كما صبر إخوانك السابقون .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوّاً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾(٣) .

ثم شفع - سبحانه - هذه التسلية بوعد كريم منه - عز وجل - لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ .

أى : وكفى ربك - أيها الرسول الكريم - هاديا يهدى عباده إلى ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وكفى به - سبحانه - نصيرا لمن يريد أن ينصره على كل من عاداه .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك - وللمرة الخامسة - بعض شبهاتهم وأباطيلهم فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ... ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا بالحق الذى جاءهم به الرسول - ﷺ - : هلا نزل هذا القرآن على محمد - ﷺ - جملة واحدة ، دون أن ينزل مفرقا كما نراه ونسمعه .

وقولهم هذا دليل على سوء أدبهم فقد طلبوا مالا يعنيهم . واقترحوا شيئا لا مدخل لهم فيه ،

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٧ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ١٩ ص ٤٥٧٥ ، نقلا عن بدائع الفوائد للأمام ابن القيم .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٢ .

ولا علم عندهم بحكمته ، ولذا رد سبحانه عليهم بقوله : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ والكاف بمعنى مثل ، والجار والمجرور نعت لمصدر محذوف مع عامله . وقوله : ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ تعليل للعامل المحذوف .

فالجملة الكريمة استئناف مسوق للرد عليهم ، ولبيان بعض الحكم فى نزول القرآن مفرقا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾ معطوف على الفعل المحذوف . والتنكير فى « ترتيلا » للتفخيم والتعظيم . وأصل الترتيل ، عدم التلاصق . يقال ، ثغر مرتل . أى مفلج الأسنان غير متلاصقها .

أى : نزلناه مفرقا ، ورتلناه ترتيلا بديعا ، بأن قرأناه عليك بلسان جبريل شيئا فشيئا ، على تؤدة وتمهل ، وجعلنا بعضه ينزل فى إثر بعض .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله « كذلك » جواب لهم ، أى : كذلك أنزلناه مفرقا ، والحكمة فيه : أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه ..

فإن قلت : ذلك فى كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شىء تقدمه ، والذى تقدمه هو إنزاله جملة واحدة فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرقا ؟ .

قلت : لأن قولهم : لولا أنزل عليه القرآن جملة ، معناه : لماذا أنزل مفرقا ، والدليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه .. فكأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته[1] .

أى : سر أيها الرسول الكريم فى طريقك ، وبلغ ما أنزلناه إليك ، ولا تلتفت إلى مقترحات المشركين وأباطيلهم ، فإنهم لا يأتونك بمثل ، أى : بكلام عجيب هو مثل فى التهافت والفساد للطعن فى نبوتك « إلا جئناك » فى مقابلته بالجواب « الحق » الثابت الصادق الذى يزهق باطلهم ، وبما هو أحسن تفسيرا وبيانا من مثلهم وشبهاتهم .

والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال . أى : ولا يأتونك فى حال من الأحوال بمثل للطعن فى نبوتك ، إلا جئناك وسلحناك بما يزهق أمثالهم وشبههم ، فسر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - فإنك على الحق المبين .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة من أعظم الآيات لتشجيع النبى - ﷺ - على تبليغ دعوته ، بدون اكتراث بما يثيره المشركون حوله من شبهات .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة ، فقال

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٧٦ .

- تعالى - : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾ أى : يحشرون ماشين على وجوههم أو يسحبون عليها إلى جهنم ، بسبب كفرهم وعنادهم .

﴿ أولئك ﴾ الذين نفعل بهم ذلك ﴿ شر مكانا ﴾ أى : منزلا ومكانا ومصيرا لهم هو جهنم وأولئك - أيضا - هم أضل الناس طريقا عن طريق الحق والرشاد ، ولذا كانت طريقهم لا توصلهم إلا إلى النار وبئس القرار .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح عن أنس : أن رجلا سأل النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذى أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الأقوام السابقين الذين كذبوا أنبياءهم ، فكانت عاقبتهم الإهلاك والتدمير فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١١٨ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ... ﴾ كلام مستأنف لزيادة تسلية الرسول - ﷺ - ، ولترهيب المشركين وحضهم على الاتعاظ والاعتبار واتباع الرسول - ﷺ - حتى لا يعرضوا أنفسهم للهلاك والدمار الذى نزل بأمثالهم من السابقين .

أى : وبالله لقد آتينا موسى - عليه السلام - « الكتاب » أى : التوراة لتكون هداية لقومه ﴿ وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ﴾ . أى : وجعلنا معه - بفضلنا وحكمتنا - أخاه هارون لكى يكون عونا له وعضدا فى تبليغ ما أمرناه بتبليغه .

﴿ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ﴾ والتدمير : أشد الإهلاك .

وأصله كسر الشىء على وجه لا يمكن إصلاحه ، وفى الكلام حذف يعرف من السياق .

والمعنى : فقلنا لهما اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وهم فرعون وقومه ، فذهبا إليهم ودعوهم إلى الإيمان ، فأعرضوا عنهما وكذبوهما ، وتمادوا فى طغيانهم ، فكانت عاقبة ذلك أن دمرناهم تدميرا عجيبا ، بأن أغرقهم الله جميعا ، أمام موسى ومن معه .

فقوله - تعالى - ﴿ فدمرناهم ... ﴾ معطوف على مقدر ، أى : فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا .

ثم حكى - سبحانه - ما جرى لقوم نوح فقال : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ... ﴾ .

والمراد بالرسل : نوح ومن قبله ، أو نوحا وحده ، وعبر عنه بالرسل ، لأن تكذيبهم له يعتبر تكذيبا لجميع الرسل ، لأن رسالتهم واحدة فى أصولها .

﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ أى : بعد أن أغرقناهم بسبب كفرهم ، جعلنا إغراقهم أو قصتهم عبرة وعظة للناس الذين يعتبرون ويتعظون .

والتعبير بـ « آية » بصيغة التنكير ، يشير إلى عظم هذه الآية وشهرتها ، ولاشك أن الطوفان الذى أغرق الله - تعالى - به قوم نوح من الآيات التى لا تنسى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾ بيان لسوء مصير كل ظالم يضع الأمور فى غير مواضعها .

أى : وهيأنا وأعددنا للظالمين عذابا أليما . موجعا ، بسبب ظلمهم وكفرهم ، وعلى رأس هؤلاء الظالمين قوم نوح ، الذين كفروا به وسخروا منه ..

ثم ذكر - سبحانه - بعض من جاء بعد قوم نوح فقال : ﴿ وعادا وثمود ﴾ أى : ودمرنا وأهلكنا قوم عاد بسبب تكذيبهم لنبيهم هود - عليه السلام - ، كما أهلكنا قوم ثمود بسبب تكذيبهم لنبيهم صالح - عليه السلام - .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأصحاب الرس ﴾ معطوف على ما قبله . أى : وأهلكنا أصحاب الرس . كما أهلكنا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود .

والرس فى لغة العرب : البئر التى لم تبن بالحجارة ، وقيل : البئر مطلقا ، ومنه قول الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم فياليتهم يحفرون الرساسا

أى : فياليتهم يحفرون الآبار .

وللمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم نبيا فكذبوه ورَسُّوه فى تلك البئر أى : ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله - تعالى - .

وقيل : هم قومه كانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا - عليه السلام - فكذبوه فبينماهم حول الرس - أى البئر - فانهارت بهم ، وخسف الله - تعالى - بهم الأرض .

وقيل : الرس بئر بأنطاكية ، قتل أهلها حبيبا النجار وألقوه فيها ..

واختار ابن جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج .

وقد ذكر بعض المفسرين فى شأنهم روايات ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ونكارتها .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ يعود إلى عاد وثمود وأصحاب الرس ، والقرون : جمع قرن .

والمراد به هنا : الجيل من الناس الذين اقترنوا فى الوجود فى زمان واحد من الأزمنة .

أى : وأهلكنا قرونا كثيرة بين قوم عاد وثمود وأصحاب الرس . لأن تلك القرون سارت على شاكلة أمثالهم من الكافرين والفاسقين .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال ... ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - : حيث إنه - سبحانه - لا يهلك الأمم إلا بعد أن يسوق لها ما يرشدها ، فتأبى إلا السير فى طريق الغى والعصيان . و« كلا » منصوب بفعل مضمر يدل عليه ما بعده . فإن ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير ، والتنوين عوض عن المضاف إليه .

أى : وأنذرنا كل فريق من القرون الماضية المكذبة ، وضربنا له الأمثال الحكيمة الكفيلة بإرشاده إلى طريق الحق ، و لكنه استحب العمى على الهدى ، والضلالة على الهداية ، فكانت عاقبته كما قال - تعالى - بعد ذلك ﴿ وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ .

أى : وكل قرن من هؤلاء المكذبين أهلكناه إهلاكا لا قيام له منه ، وأصل التتبير : التفتيت . وكل شىء فتته وكسرته فقد تبرته . ومنه التبر لفتات الذهب والفضة .

والمراد به هنا التمزيق والإهلاك الشديد الذى يستأصل من نزل به .

ثم وبخ - سبحانه - مشركى مكة على عدم اعتبارهم واتعاظهم بما يرون من آثار فقال - تعالى - : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ، أفلم يكونوا يرونها ، بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ .

والمراد بالقرية هنا : قرية سدوم التى هى أكبر قرى قوم لوط ، والتى جعل الله - تعالى - عاليها سافلها . والمراد بما أمطرت به : الحجارة التى أنزلها الله - تعالى - عليها ، كما قال - تعالى - : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾[1] .

والسوء - بفتح السين وتشديدها - مصدر ساءه . أى : فعل به ما يكره . والسوء - بالضم والتشديد - اسم منه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ للتقريع والتوبيخ على عدم الاعتبار بما يرونه من أمور تدعو كل عاقل إلى التدبر والتفكر والاتعاظ .

أى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا القرآن مهجورا ، كانوا ومازالوا يمرون مصبحين وبالليل على قرية قوم لوط ، التى دمرناها تدميرا ، بسبب فسوق أهلها وفجورهم ، وكانوا يرون ما حل بها من خراب ..

ولكنهم لكفرهم بك والبعث والحساب ، لم يتأثروا بما رأوا ، ولم يعتبروا بما شاهدوا ، وسيندمون يوم القيامة على كفرهم ولكن لن ينفعهم الندم .

وصدر - سبحانه - الآية الكريم بلام القسم وقد ، لتأكيد رؤيتهم لتلك القرية التى أمطرت مطر السوء .

والمراد برؤيتها ، رؤية ما حل بها من خراب ودمار كما قال - تعالى - : ﴿ وإنكم لتمرون

(١) سورة الحجر الآية ٧٤ .

عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ بيان للسبب الذى جعلهم لا يعتبرون ولا يتعظون .

أى : أنهم كانوا يرون عاقبة أهل تلك القرية التى جعلنا عاليها سافلها ، ولكن تكذيبهم بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب يوم القيامة ، حال بينهم وبين الاعتبار والاتعاظ والإيمان بالحق ، وجعلهم يمرون بما يدعو إلى التدبر والتفكر ، ولكنهم لعدم توقعهم للقاء الله ، ولعدم إيمانهم بالجزاء يوم القيامة قست قلوبهم وانطمست بصائرهم ، وصاروا كما قال - تعالى - : ﴿ وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[٢] .

وبعد هذا العرض لأحوال بعض الأمم الماضية ، عادت السورة الكريمة إلى بيان ما كان المشركون يقولونه عند رؤيتهم للنبى - ﷺ - وإلى بيان سوء عاقبتهم ، وفرط جهالاتهم ، قال - تعالى - :

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢) سورة يوسف الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦ .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن استهزاء المشركين بالرسول - ﷺ - إذا رأوه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ... ﴾ يعنونه بالعيب والنقص ..[1] .

ومن عجب أن هؤلاء المشركين الذين كانوا يستهزئون بالرسول - ﷺ - بعد بعثته إليهم ، هم أنفسهم الذين كانوا يلقبونه قبل بعثته بالصادق الأمين ، وما حملهم على هذا الكذب والجحود إلا الحسد والعناد .

وقوله - تعالى - : ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا ﴾ مقول لقول محذوف وعائد الموصول محذوف - أيضا - . أى : كلما وقعت أبصار أعدائك عليك - أيها الرسول الكريم - سخروا منك ، واستنكروا نبوتك ، وقالوا على سبيل الاستبعاد والتهكم : أهذا هو الإنسان الذى بعثه الله - تعالى - ليكون رسولا إلينا . وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على أنهم بلغوا أقصى درجات الجهالة وسوء الأدب .

ثم يشير القرآن إلى كذبهم فيما قالوه ، لأنهم مع إظهارهم للسخرية منه - ﷺ - كانوا فى واقع أمرهم ، وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة ، وهذا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ .

أى : أنهم كانوا يقولون فيما بينهم : إن هذا الرسول كاد أن يصرفنا بقوة حجته عن عبادة آلهتنا . لولا أننا قاومنا هذا الشعور وثبتنا على عبادة أصنامنا .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ﴾ أى : يصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط . لولا أن صبرنا عليها واستمسكنا بعبادتها... وهذا اعتراف منهم بأنه - ﷺ - قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد .. ما شارفوا معه أن يتركوا دينهم لولا فرط جهالاتهم ولجاجهم وغاية عنادهم[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ تهديد لهم على سوء أدبهم ، وعلى جحودهم للحق بعد أن تبين لهم .

أى : وسوف يعلم هؤلاء الكافرون حين يرون العذاب ماثلا أمام أعينهم ، من أبعد طريقا عن الحق ، أهم أم المؤمنون .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٢١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ٢٢ .

فالجملة الكريمة وعيد شديد لهم على استهزائهم بالرسول الكريم الذى جاءهم ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ثم يهملهم القرآن ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ، و يلتفت بالخطاب إلى الرسول - ﷺ - ليسرى عن نفسه ، وليسليه عما لحقه منهم ، وليبين له حقيقة حالهم فيقول : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا .. ﴾ .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ أرأيت ﴾ للتعجب من شناعة أحوالهم ، ومن قبح تفكيرهم .

والمراد بـ ﴿ هواه ﴾ ما يستحسنه من تصرفات حتى ولو كانت فى نهاية القبح والسخف .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .

والمعنى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم ، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم . مهما كان قبح تصرفهم . وانحطاط تفكيرهم ..

فهل مثل هؤلاء يصلحون لأن تهتم بأمرهم ، أو تحزن لاستهزائهم ؟ كلا إنهم لا يصلحون لذلك ، وعليك أن تمضى فى طريقك فأنت لا تقدر على حفظهم أو كفالتهم أو هدايتهم ، وإنما نحن الذين نقدر على ذلك ، وسنتصرف معهم بما تقضيه حكمتنا ومشيئتنا .

فقوله - تعالى - : ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ استئناف مسوق لاستبعاد كونه - ﷺ - وكيلا أو حفيظا لهذا الذى اتخذ إلهه هواه ، والاستفهام للنفى والإنكار . أى : إنك - أيها الرسول الكريم - لا قدرة لك على حفظه من الوقوع فى الكفر والضلال .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم السابق توبيخا أشد وأنكى فقال - تعالى - : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .. ﴾

و« أم » هنا : هى المنقطعة ، وهى تجمع فى معناها بين الإضراب الانتقالى ، والاستفهام الإنكارى .

أى : بل أتحسب أن أكثر هؤلاء الكافرين يسمعون ما ترشدهم إليه سماع تدبر وتعقل ، أو يعقلون ما تأمرهم به أو تنهاهم عنه بانفتاح بصيرة ، وباستعداد لقبول الحق ..

كلا إنهم ليسوا كذلك ، لاستيلاء الجحود والحسد على قلوبهم .

وقال - سبحانه - ﴿ أم تحسب أن أكثرهم ... ﴾ لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية ، ولكن المكابرة والمعاندة ومتابعة الهوى .. حالت بينها وبين الدخول فيه ، واتباع ما جاء به النبى - ﷺ - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ ذم لهم على عدم انتفاعهم بالهداية التى أرسلها الله - تعالى - إليهم .

أى : هؤلاء المشركون ليسوا إلا كالأنعام فى عدم الانتفاع بما يقرع قلوبهم وأسماعهم من توجيهات حكيمة ، بل هم أضل سبيلا من الأنعام : لأن الأنعام تنقاد لصاحبها الذى يحسن إليها ، أما هؤلاء فقد قابلوا نعم الله بالكفر والجحود .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لا يصده عن الإسلام إلا داء واحد ، وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا .

فإن قلت : كيف جُعِلوا أضل من الأنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم ، من إساءة لشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى أشد المضار والمهالك ..[1] .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصف هؤلاء المستهزئين برسولهم - ﷺ - بأوصاف تهبط بهم عن درجة الأنعام ، وتتوعدهم بما يستحقونه من عذاب مهين .

* * *

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن جانب من الآلاء التى أنعم بها على عباده ، فإن من شأن هذه النعم المبثوثة فى هذا الكون ، أن تهدى المتفكر فيها إلى منشئها وواهبها وإلى وجوب إخلاص العبادة له ، قال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٨٢ .

ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ... ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم .

قال الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة أنه قال : « كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل »[1] .

والجملة الكريمة شروع فى بعض دلائل قدرته - سبحانه - وواسع رحمته ، إثر بيان جهالات المشركين ، وغفلتهم عما فى هذا الكون من آثار تدل على وحدانية الله - تعالى - .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٦ .

والخطاب للرسول - ﷺ - والاستفهام للتقرير .

والمعنى لقد رأيت - أيها الرسول الكريم - بعينيك ، وتأملت بعقلك وبصيرتك ، فى صنع ربك الذى أحسن كل شيء خلقه ، وكيف أنه - سبحانه - مد الظل ، أى : بسطه وجعله واسعا متحركا مع حركة الأرض فى مواجهة الشمس ، و جعله مكانا يستظل فيه الناس من وهج الشمس وحرها ، فيجدون عنده الراحة بعد التعب .. وهذا من عظيم رحمة ربك بعباده .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو شاء لجعله ساكنا ﴾ جملة معترضة لبيان مظهر من مظاهر قدرته - تعالى - . أى : « ولو شاء » - سبحانه - لجعل هذا الظل « ساكنا » أى : ثابتا دائما مستقرا على حالة واحدة بحيث لا تزيله الشمس ، ولا يذهب عن وجه الأرض ، و لكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن مصلحة خلقه ومنفعتهم فى وجوده على الطريقة التى أوجده عليها بمقتضى حكمته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ معطوف على قوله ﴿ مد الظل ﴾ داخل فى حكمه . أى : ألم تر إلى عجيب صنع ربك كيف مد الظل ، ثم جعلنا بقدرتنا وحكمتنا الشمس دليلا عليه ، إذ هو يزول بتسلطها عليه ويظهر عند احتجابها عنه ، ويستدل بأحوالها على أحواله ، فهو يتبعها كما يتبع الإنسان من يدله على الشيء ، من حيث إنه يزيد كلما احتجبت عنه ، ويتقلص كلما ظهرت عليه .

قال الجمل : قوله : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ أى : جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة .. ولم يؤنث الدليل - وهو صفة للشمس - لأنه فى معنى الاسم ، كما يقال : الشمس برهان ، والشمس حق[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾ معطوف - أيضا - على « مد » وداخل فى حكمه .

والقبض : ضد المد والبسط . واليسير : السهل الذى لا عسر فيه .

أى : ثم قبضنا ذلك الظل الممدود بقدرتنا وحكمتنا - قبضا يسيرا وهينا علينا . بأن محونا بالتدريج عند إيقاعنا الشمس عليه . حتى انتهى أمره إلى الزوال والاضمحلال .

وقال - سبحانه - : ﴿ إلينا ﴾ للتنصيص على أن مد الظل وقبضه مرجعه إليه

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٦١ .

- تعالى - وحده . فليس فى إمكان أحد سواه - عز وجل - أن يفعل ذلك .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾ أى : على مهل . وفى هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من المنافع مالا يعد ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا .

فإن قلت : « ثم » فى هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثانى أعظم من الأول ، والثالث أعظم منها ، تشبيها لتباعد ما بينها فى الفضل ، بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت ... ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تبقى الظل ، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه[1] .

ثم انتقلت السورة من الحديث عن الظل ومده وقبضه . إلى الحديث عن الليل والنوم والنهار . فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا ، والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾ . ولباسا : أى : ساترا بظلامه كما يستر اللباس ما تحته .

والسبات : الانقطاع عن الحركة مع وجود الروح فى البدن ، مأخوذ من السبت بمعنى القطع أو الراحة والسكون ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أى راحة لأبدانكم .

والنشور : بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش . أى : وهو - سبحانه - الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل « لباسا » أى : ساترا لكم يستركم كما يستر اللباس عوراتكم ، وجعل لكم النوم « سباتا » أى : راحة لأبدانكم من عناء العمل . وما يصاحبه من مشقة وتعب ، وجعل - سبحانه - النهار « نشورا » أى : وقتا مناسبا لانتشاركم فيه ، وللسير فى مناكب الأرض ، طلبا للرزق والكسب ووسائل المعيشة .

وهكذا تتقلب الحياة بالإنسان وهو تارة تحت جنح الليل الساتر ، و تارة مستغرق فى نومه ، وتارة يكدح لطلب معاشه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا ﴾[2] .

ثم ذكر - سبحانه - نعمته فى الرياح ، حيث تكون بشيرا بالأمطار التى تحيى الأرض بعد موتها ، فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٨٣ .
(٢) سورة النبأ الآيات من ٩ - ١١ .

وبشرا : أى : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .

أى : وهو - سبحانه - الذى أرسل - بقدرته - الرياح لتكون بشيرا لعباده بقرب نزول رحمته المتمثلة فى الغيث الذى به حياة الناس والأنعام وغيرهما .

قال الجمل : « الرياح » أى : المبشرات وهى الصبا - وتأتى من جهة مطلع الشمس - والجنوب والشمال ، والدبور - وتأتى من ناحية مغرب الشمس - وفى قراءة سبعية : وهو الذى أرسل الريح .. على إرادة الجنس ، و« بشرا » قرئ بسكون الشين وضمها وقرئ - أيضا - نشرا ، أى : متفرقة قدام المطر[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾[2] .

ثم ذكر - سبحانه - ما ترتب على إرسال الرياح من خير فقال : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا .. ﴾ .

أى : وأنزلنا من السماء ماء طاهرا فى ذاته ، مطهرا لغيره ، سائغا فى شربه ، نافعا للإنسان والحيوان والنبات والطيور وغير ذلك من المخلوقات .

ووصف - سبحانه - الماء بالطهور ، زيادة فى الإشعار بالنعمة وزيادة فى إتمام المنة ، فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما ليس كذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ .

أى : أنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيى بهذا الماء بلدة ، أى : أرضا جدباء لا نبات فيها لعدم نزول المطر عليها ، ولكى نسقى بهذا الماء أيضا « أنعاما » أى : إبلا وبقرا وغنما « وأناسى كثيرا » أى : وعددا كثيرا من الناس . فالأناسى : جمع إنسان وأصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها .

وقدم - سبحانه - إحياء الأرض ، لأن خروج النبات منها بسبب المطر تتوقف عليه حياة الناس والأنعام وغيرهما .

وخص الأنعام بالذكر ، لأن مدار معاشهم عليها ، ولذا قدم سقيها على سقيهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٦٢ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٨ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب ؟ .

قلت : لأن الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ..

فإن قلت : فما معنى تنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة ؟

قلت : معنى ذلك أن عِلّيَةَ الناس وجلهم مُنيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فيهم غنية عن سقى السماء ، وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه .

فإن قلت : لم قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناس ؟

قلت : لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم[1] .

والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ... ﴾ يعود إلى الماء الطهور الذى سبق الحديث عنه .

والتصريف : التكرير والتنويع والانتقال من حال إلى حال .

أى : ولقد صرفنا هذا المطر النازل من السماء فأنزلناه بين الناس فى البلدان المختلفة ، وفى الأوقات المتفاوتة ، وعلى الصفات المتغايرة ، فنزيده فى بعض البلاد وننقصه أخرى ، ونمنعه عن بعض الأماكن .. كل ذلك على حسب حكمتنا ومشيئتنا .

وقد فعلنا ما فعلنا لكى يعتبر الناس ويتعظوا ويخلصوا العبادة لنا .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولقد صرفناه ﴾ الضمير للماء المنزل من السماء ، وتصريفه : تحويل أحواله ، وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة .

وقال بعضهم : هو راجع الى القول المفهوم من السياق ، وهو ما ذكر فيه إنشاء السحاب وإنزال المطر ، وتصريفه : تكريره ، وذكره على وجوه ولغات مختلفة .

والمعنى : ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية بين الناس ليتفكروا ..

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى أنه عائد على القرآن . ألا ترى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ٢٨٥ .

قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وجاهدهم به ﴾ وحكاه فى البحر عن ابن عباس . والمشهور عنه ما تقدم ، ولعل المراد ما ذكر فيه من الأدلة على كمال قدرته - تعالى -[1] .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو القول الأول ، لأن سياق الحديث عن المطر النازل من السماء بقدرة الله - تعالى - ولأن هذا القول هو المأثور عن جمع من الصحابة والتابعين ، كابن عباس ، وابن مسعود وعكرمة ، ومجاهد وقتادة .. وغيرهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله - تعالى - . أى : أنزلنا المطر ، وصرفناه بين الناس ليعتبروا ويتعظوا ، فأبى أكثرهم إلا الجحود لنعمنا ، ومقابلتها بالكفران ، وإسنادها إلى غيرنا ممن لا يخلقون شيئا وإنما هم عباد لنا ، وخلقنا .

وفى صحيح مسلم أن الرسول - ﷺ - قال يوما لأصحابه بعد نزول المطر من السماء : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال - ﷺ - : « قال ربكم ، أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب »[2] .

- والنوء - بتشديد النون وفتحها وسكون الواو : سقوط نجم فى المغرب مع الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ساعته بالمشرق .

وقال - سبحانه - : ﴿ فأبى أكثر الناس ... ﴾ لمدح القلة المؤمنة منهم ، وهم الذين قابلوا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على رفعة منزلة نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ﴾ . أى : ولو شئنا لبعثنا فى زمنك - أيها الرسول الكريم - فى كل قرية من القرى نذيرا ينذر أهلها بسوء عاقبة الكفر والجحود ، ويكون عونا لك على تحمل أعباء الرسالة التى أرسلناك بها ... ولكنا لم نشأ ذلك تكريما لك وتعظيما لقدرك ، حيث خصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس . وما دام الأمر كذلك « فلا تطع الكافرين » فيما يريدونه منك من أمور باطلة فاسدة « وجاهدهم به » أى : بهذا القرآن ، عن طريق قراءته والعمل بما فيه ، وبيان ما اشتمل عليه من دلائل وبراهين على صحة دعوتك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ٣٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٢٥ .

وقوله - تعالى - : ﴿ جهادا كبيرا ﴾ مؤكد لما قبله . أى : جاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا مصحوبا بالإغلاظ عليهم تارة ، وبإبطال شبهاتهم وأراجيفهم تارة أخرى .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - .

و« مرج » من المرج بمعنى الإرسال والتخلية ، ومنه قولهم . مرج فلان دابته إذا أرسلها إلى المرج وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب ، ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فهم فى أمر مريج ﴾ أى : مختلط . ومنه قيل للمرعى : مرج ، لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .

والعذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة ، وهو ماء الأنهار وسمى فراتا لأنه يَفْرُت العطش ، أى يقطعه ويكسره ويزيله .

والملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا من الأجيج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطش .

والبرزخ . الحاجز الذى يحجز بين الشيئين .

أى : وهو - سبحانه - الذى أرسل البحرين . العذب والمالح فى مجاريها متجاورين ، كما ترسل الدواب فى المراعى.أو جعلهما - بقدرته - فى مجرى واحد ومع ذلك لا يختلط أحدهما بالآخر : بل جعل - سبحانه - بينهما « برزخا » أى : حاجزا عظيما ، وحجرا محجورا .

أى : وجعل كل واحد منهما حراما محرما على الآخر أن يفسده .

والمراد : لزوم كل واحد منهما صفته التى أوجده الله عليها ، فلا ينقلب العذب فى مكانه ملحا ، ولا الملح فى مكانه عذبا .

قال - تعالى - : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ أمَّنْ جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

---

(١) سورة الرحمن الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة النمل الآية ٦١ .

وهذا الحاجز الذى جعله – سبحانه – بين البحرين : العذب والملح ، من أكبر الأدلة وأعظمها على قدرة الله – تعالى – ، وعلى أن لهذا الكون إلها صانعا حكيما مدبرا وإن كل شىء فى هذا الكون يسير بنظام معلوم ، وبنسق مرسوم .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله – تعالى – فى الظل وفى الرياح وفى الماء ..

جاء الحديث عن خلق الإنسان . فقال – تعالى – : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ... ﴾ .

والمراد بالماء : ماء النطفة ، وبالبشر الإنسان . أو المراد بالماء : الماء المطلق الذى أشار إليه سبحانه فى قوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ .

أى : وهو – سبحانه – الذى خلق من ماء النطفة إنسانا « فجعله نسبا وصهرا » أى : فجعل من جنس هذا الإنسان ذوى نسب : وهم الذكور الذين ينتسب إليهم بأن يقال فلان بن فلان ، كما جعل من جنسه – أيضا ذوات صِهْرٍ وهن الإناث ، لأنهن موضع المصاهرة .

والصهر يطلق على أهل بيت المرأة وأقاربها ، كالأبوين والإخوة والأعمام والأخوال ، فهؤلاء يعتبرون أصهاراً لزوج المرأة .

قال صاحب الكشاف : قسم – سبحانه – البشر قسمين : ذوى نسب ، أى : ذكورا ينسب إليهم فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر : أى : إناثا يُصَاهَر بهن ونحوه قوله – تعالى – : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾[1] .

﴿ وكان ربك قديرا ﴾ حيث خلق – سبحانه – من النطفة الواحدة بشرا نوعين : ذكرا وأنثى[2] .

وإلى هنا نرى هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ستة أدلة محسوسة على وحدانية الله – تعالى – وقدرته . وهذه الأدلة الستة هى . الظلال قبضا وبسطا ، والليل والنهار راحة ونشورا ، والرياح بشرا بين يدى رحمته ، والأمطار حياة للناس والأنعام وغيرها ، ومرج البحرين أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ، وخلق الإنسان من نطفة منها الذكر ومنها الأنثى .

* * *

ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من هذه النعم العظيمة كما بينت وظيفة

---

(١) سورة القيامة الآية ٣٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٨٧ .

النبى - ﷺ - وأمرته بالمضى فى دعوته متوكلا على الله - تعالى - وحده الذى خلق فسوى . وقدر فهدى .. قال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ ويعبدون ... ﴾ يعود على الكافرين ، الذين عموا وصموا عن الحق .

أى : أن هؤلاء الكافرين يتركون عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، ويعبدون من دونه آلهة لا تنفعهم عبادتها إن عبدوها ، ولا تضرهم شيئا من الضرر إن تركوا عبادتها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ بيان لما وصل إليه هؤلاء الكافرون من حمق وجهالة وجحود . فالمراد بالكافر : جنسه .

والظهير : المعين . يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه وساعده . وظهير بمعنى مظاهر .

أى : وكان هؤلاء الكافرون مظاهرين ومعاونين للشيطان وحزبه ، على الإشراك بالله - تعالى - الذى خلقهم ، وعلى عبادة غيره - سبحانه - .

ويصح أن يكون الكلام على حذف مضاف . أى : وكان الكافر على حرب دين ربه ، ورسول ربه ، مظاهرا للشيطان على ذلك .

وقال - سبحانه - ﴿ على ربه ظهيرا ﴾ لتفظيع جريمة هذا الكافر وتبشيعها ، حيث صوره - سبحانه - بصورة من يعاون على محاربة خالقه ورازقه ومربيه وواهبه الحياة .

ثم بين - سبحانه - الوظيفة التى من أجلها أرسل رسوله فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾ .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس جميعا ، إلا لتبشرهم بثواب الله - تعالى - ورضوانه إذا أخلصوا له العبادة والطاعة ، ولتنذرهم بعقابه وغضبه ، إن هم استمروا على كفرهم وشركهم ، فبلغ رسالتنا - أيها الرسول - ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

و﴿ قل ﴾ لهم على سبيل النصح والإرشاد ودفع التهمة عن نفسك ﴿ ما أسألكم عليه من أجر ﴾ . أى : ما أسألكم على هذا التبليغ والتبشير والإنذار من أجر ، إن أجرى إلا على الله - تعالى - وحده .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ استثناء منقطع .

أى : لا أسألكم على تبليغى لرسالة ربى أجرا منكم ، لكن من شاء منكم أن يتخذ إلى مرضاة ربه سبيلا ، عن طريق الصدقة والإحسان إلى الغير ، فأنا لا أمنعه من ذلك .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه ﴾ أى : إلى رحمته وضوانه ﴿ سبيلا ﴾ أى طريقا . والاستثناء عند الجمهور منقطع ، أى : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه - سبحانه - سبيلا ، أى : بالإنفاق القائم مقام الأجر ، كالصدقة فى سبيل الله ، فليفعل .

وذهب البعض إلى أنه متصل . وفى الكلام مضاف مقدر ، أى : إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما ، أى : فهذا أجرى .

وفى ذلك قلع كلى لشائبة الطمع ، وإظهار لغاية الشفقة عليهم ، حيث جعل ذلك - مع كون

نفعه عائدا عليهم - عائدا إليه - ﷺ - فى صورة الأجر[١] .

وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الرسول - ﷺ - لا يطلب أجرا من الناس على دعوته ، ولا يمنعهم من إنفاق جزء من أموالهم فى وجه الخير ، وأنه - ﷺ - يعتبر إيمانهم بالحق الذى جاء به ، هو بمثابة الأجر له ، حيث إن الدال على الخير كفاعله .

ولقد حكى القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن جميع الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - ماسألوا الناس أجرا على دعوتهم إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وطاعته . ومن هذه الآيات قوله - سبحانه - حكاية عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾[٢] .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - بالاجتهاد فى تبليغ رسالته وبالتوكل عليه وحده ، فقال - تعالى - : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده .. ﴾ .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ دعوتنا ، ولا تلتفت إلى دنيا الناس وأموالهم . وتوكل توكلا تاما على الله - تعالى - فهو الحى الباقى الذى لا يموت ، أما غيره فإنه ميت وزائل .

﴿ وسبح بحمده ﴾ أى : ونزه ربك عن كل نقص ، وأكثر من التقرب إليه بصالح الأعمال . ﴿ وكفى به بذنوب عباده ﴾ ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا منها وما استتر ﴿ خبيرا ﴾ أى عليما بها علما تاما ، لا يعزب عنه - سبحانه - مثقال ذرة منها .

﴿ الذى خلق ﴾ بقدرته التى لايعجزها شىء ﴿ السموات والأرض وما بينهما ﴾ من هواء وأجرام لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

﴿ فى ستة أيام ﴾ من أيامه التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو - عز وجل - ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء واستعلاء يليق بذاته ، بلا كيف أو تشبيه أو تمثيل ، كما قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . ولفظ « ثم » فى قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ لا يدل على الترتيب الزمنى وإنما يدل على بعد الرتبة ، رتبة الاستواء والاستعلاء والتملك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ٣٧ .
(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٠٩ ، ١٢٧ .

وقوله : ﴿ الرحمن ﴾ أى : هو الرحمن . أى : صاحب الرحمة العظيمة الدائمة بعباده . والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ هى الفصيحة . والجار والمجرور صلة « اسأل » وعدى الفعل « اسأل » بالباء لتضمنه معنى الاعتناء ، والضمير يعود إلى ما سبق ذكره من صفات الله - تعالى - ، ومن عظيم قدرته ورحمته .

والمعنى : لقد بينا لك مظاهر قدرتنا ووحدانيتنا ، فإن شئت الزيادة فى هذا الشأن أو غيره ، فاسأل قاصدا بسؤالك ربك الخبير بأحوال كل شىء خبرة مطلقة ، يستوى معها ما ظهر من أمور الناس وما خفى منها .

قال الإمام ابن جرير : وقوله - تعالى - : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ يقول : فاسأل يا محمد بالرحمن خبيرا بخلقه ، فإنه خالق كل شىء ولا يخفى عليه ما خلق ، فعن ابن جريج : قوله : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ . قال : يقول - سبحانه - لنبيه محمد - ﷺ - :إذا أخبرتك شيئا فاعلم أنه كما أخبرتك فأنا الخبير . والخبير فى قوله ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ منصوب على الحال من الهاء التى فى قوله ﴿به ﴾[1] .

ثم أخبر - سبحانه - عن جهالات المشركين وسخافاتهم فقال : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

أى : وإذا قال الرسول - ﷺ - والمؤمنون معه لهؤلاء المشركين : اجعلوا سجودكم وخضوعكم للرحمن وحده ، ﴿ قالوا ﴾ على سبيل التجاهل وسوء الأدب والجحود : ﴿ وما الرحمن ﴾ . أى : وما الرحمن الذى تأمروننا بالسجود له ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أى : أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ، ومن غير أن نؤمن به .

﴿ وزادهم نفورا ﴾ أى : وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وعن السجود لله الوحد القهار .

فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب ، عندما يدعوهم الرسول - ﷺ - إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل ، وإلى السجود للرحمن الذى تعاظمت رحماته ، و تكاثرت آلاؤه .

ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا ذاك الذى باليمامة ، يعنون به مسيلمة الكذاب .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٩ ص ١٩ .

ثم رد - سبحانه - على تطاولهم وجهلهم بما يدل على عظيم قدرته - عز وجل - وعلى جلال شأنه - تعالى - فقال : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾ .

والبروج : جمع برج ، وهى فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك قوله - تعالى - : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(١) .

والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وعددها اثنا عشر منزلا ، هى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

والسراج : الشمس ، كما قال - تعالى - : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ﴾(٢) .

أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت آلاؤه ونعمه ، فهو - سبحانه - الذى جعل فى السماء « بروجا » أى : منازل للكواكب السيارة و« وجعل فيها » أى : فى السماء « سراجا » وهو الشمس « وجعل فيها » -أيضا - « قمرا منيرا » أى : قمرا يسطع نوره على الأرض المظلمة ، فيبعث فيها النور الهادى اللطيف .

ثم تنتقل السورة الكريمة الى الحديث عن نعمة أخرى فتقول : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

والخلفة . كل شىء يجيىء بعد شىء اخر غيره . ومنه خلفة النبات . أى : الورق الذى يخرج منه بعد أن تساقط الورق السابق عليه .

أى :وهو - سبحانه - الذى جعل الليل والنهار متعاقبين . بحيث يخلف كل واحد منهما الآخر بنظام دقيق ، ليكونا مناسبين « لمن أراد أن يذكر » . أى : يتعظ ويعتبر ويتذكر أن الله - تعالى - لم يجعلها على هذه الهيئة عبثا فيتدارك ما فاته من تقصير وتفريط فى حقوق الله - عز و جل - « أو أراد شكورا » .

أى : و جعلها كذلك لمن أراد أن يزداد من شكر الله على نعمه التى لا تحصى ، والتى من

---

(١) سورة النساء الآية ٧٨ .
(٢) سورة نوح الآيتان ١٥ ، ١٦ .

أعظمها وجود الليل والنهار على هذه الهيئة الحكيمة ، التى تدل على وحدانية الله تعالى – وعظيم قدرته ، وسعة رحمته .

* * *

وبعد هذا الحديث المتنوع عن شبهات المشركين والرد عليها ، وعن مظاهر قدرة الله ونعمه على عباده ، وعن الذين إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ...

بعد كل ذلك جاء الحديث عن عباد الرحمن ، أصحاب المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة ، والمزايا التى جعلتهم يتشرفون بالانتساب إلى خالقهم جاء قوله – تعالى – :

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ

مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

هؤلاء هم عباد الرحمن ، وتلك هى صفاتهم التى ميزتهم عن سواهم .

وقد افتتحت هذه الآيات بقوله - تعالى - : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .... ﴾ .

وهذه الجملة الكريمة مبتدأ . والخبر قوله - تعالى - : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ... ﴾ . وما بينهما من الموصولات صفات لهم .

وإضافتهم إلى الرحمن من باب التشريف والتكريم والتفضيل .

و« هونا » مصدر بمعنى اللين والرفق .. وهو صفة لموصوف محذوف .

أى : وعباد الرحمن الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، من صفاتهم أنهم يمشون على الأرض مشيا لينا رقيقا ، لا تكلف فيه ولا خيلاء ولا تصنع فيه ولا ضعف ، وإنما مشيهم تكسوه القوة والجد ، والوقار والسكينة .

قال الإمام ابن كثير : أى : يمشون بسكينة ووقار .. كما قال - تعالى - : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾[1] . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع ، تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم - ﷺ - إذا مشى كأنما ينحط من صبب - أى : من موضع منحدر - وكأنما الأرض تطوى له ، وعندما رأى عمر - رضى الله عنه - شابا يمشى رويدا قال له : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا فعلاه بالدرة ، وأمره أن يسير بقوة ..[2] .

(١) سورة الاسراء الآية ٣٧ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٣١ .

هذا هو شأنهم فى مشيهم ، أما شأنهم مع غيرهم ، فقد وصفهم - سبحانه - بقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ .

أى : إذا خاطبهم الجاهلون بسفاهة وسوء أدب ، لم يقابلوهم بالمثل ، بل يقابلوهم بالقول الطيب ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾[1] .

ثم وصف - سبحانه - حالهم مع خالقهم فقال : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ والبيتوتة أن يدركك الليل سواء أكنت نائما أم غير نائم .

أى : أن من صفاتهم أنهم يقضون جانبا من ليلهم ، تارة ساجدين على جباههم لله - تعالى - وتارة قائمين على أقدامهم بين يديه - سبحانه - .

وخص وقت الليل بالذكر . لأن العبادة فيه أخشع ، وأبعد عن الرياء ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا .. ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. ﴾[3] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من دعائهم إياه . وخوفهم من عقابه ، فقال : ﴿ والذين يقولون ﴾ أى : فى عامة أحوالهم ، يا﴿ ربنا ﴾ بفضلك وإحسانك ﴿ اصرف عنا عذاب جهنم ﴾ بأن تبعده عنا وتبعدنا عنه .

﴿ إن عذابها كان غراما ﴾ أى : إن عذابها كان لازما دائما غير مفارق ، منه سمى الغريم غريما لملازمته لغريمه ، ويقال : فلان مغرم بكذا ، إذا كان ملازما لمحبته والتعلق به .

﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ وساءت بمعنى بئست ، والمخصوص بالذم محذوف .

أى : إن جهنم بئست مستقرا لمن استقر بها ، وبئست مقاما لمن أقام بها .

فالجملة الكريمة تعليل آخر ، لدعائهم بأن يصرفها ربهم عنهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم فى سلوكهم وفى معاشهم فقال - تعالى - : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ... ﴾ .

أى : أن من صفاتهم أنهم ملتزمون فى إنفاقهم التوسط ، فلا هم مسرفون ومتجاوزون

---

(١) سورة القصص الآية ٥٥ .
(٢) سورة السجدة آية ١٦ .
(٣) سورة الزمر الآية ٩ .

للحدود التى شرعها الله - تعالى - ولا هم بخلاء فى نفقتهم إلى درجة التقتير والتضييق ، وإنما هم خيار عدول يعرفون أن خير الأمور أوسطها .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾ يعود إلى المذكور من الإسراف والتقتير . والقوام : الشىء بين الشيئين . وقوام الرجل : قامته وحسن طوله وهيئته ، وهو : خبر لكان ، واسمها : مقدر فيها .

أى : وكان اتفاقهم « قواما » أى وسطا بين الإسراف والتقتير والتبذير والبخل ، فهم فى حياتهم نموذج يقتدى به فى القصد والاعتدال والتوازن . وذلك لأن الإسراف والتقتير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم ، لأن الإسراف تضييع للمال فى غير محله . والتقتير إمساك له عن وجوهه المشروعة ، أما الوسط والاعتدال فى انفاق المال ، فهو سمة عن سمات العقلاء الذين على أكتافهم تنهض الأمم ، وتسعد الأفراد والجماعات .

وبعد أن بين - سبحانه - ما هم عليه من طاعات ، أتبع ذلك ببيان اجتنابهم للمعاصى والسيئات فقال : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ أى : لايشركون مع الله - تعالى - إلها آخر لا فى عبادتهم ولا فى عقائدهم . وإنما يخلصون وجوههم لله - تعالى - وحده .

﴿ ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ أى : ولا يقتلون النفس التى حرم الله - تعالى - قتلها لأى سبب من الأسباب ، إلا بسبب الحق المزيل والمهدر لعصمتها وحرمتها ، ككفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير ذنب يوجب قتلها .

﴿ ولا يزنون ﴾ أى : ولا يرتكبون فاحشة الزنا ، بأن يستحلوا فرجا حرمه الله - تعالى - عليهم .

روى الشيخان وغيرهما عن عبدالله بن مسعود قال : سألت رسول الله - ﷺ - : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أى : قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ... ﴾ بيان لسوء عاقبة من يرتكب شيئا من تلك الفواحش السابقة .

أى : ومن يفعل ذلك الذى نهينا عنه من الإشراك والقتل والزنا ، يلق عقابا شديدا لا يقادر قدره .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٣٤ .

وقوله ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ بدل من « يلق » بدل كل من كل . أى : يضاعف العذاب يوم القيامة لمن يرتكب شيئا من ذلك ﴿ ويخلد فيه مهانا ﴾ أى : ويخلد فى ذلك العذاب خلودا مصحوبا بالذلة والهوان والاحتقار .

ثم استثنى - سبحانه - التائبين من هذا العذاب المهين فقال : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات .. ﴾ .

أى : يضاعف العذاب لمن يرتكب شيئا من تلك الكبائر . ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب عنها توبة صادقة نصوحا ، وآمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وداوم على إتيان الأعمال الصالحة ، فأولئك التائبون المؤمنون المواظبون على العمل الصالح « يبدل الله - تعالى - سيئاتهم حسنات » بأن يمحو - سبحانه - سوابق معاصيهم - بفضله وكرمه - ويثبت بدلها لواحق طاعاتهم ، أو بأن يحبب إليهم الإيمان ، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ويجعلهم من الراشدين .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ فى معناه قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الصالحات . قال ابن عباس : هم المؤمنون . كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ..

والثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ..

روى الطبرانى عن أبى فروة أنه أتى النبى - ﷺ - فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال له - ﷺ - : « أأسلمت ؟ قال : نعم .

قال : فافعل الخيرات ، واترك السيئات . فيجعلها الله لك خيرات كلها .

قال : « وغدراتى وفجراتى ؟ قال : نعم . » فمازال يكبر حتى توارى[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله . أى : وكان الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٣٩ .

ثم أشار – سبحانه – إلى شروط التوبة الصادقة فقال : ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ .

أى : ومن تاب عن المعاصى تركا تاما ، وداوم على العمل الصالح ليستدرك ما فاته منه ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد تاب ورجع إلى الله – تعالى – رجوعا صحيحا ، مقبولا منه – سبحانه – بحيث يترتب عليه محو العقاب وإثبات الثواب .

وهكذا نجد رحمة الله – تعالى – تحيط بالعبد من كل جوانبه ، لكى تحمله على ولوج باب التوبة والطاعة ، وتوصد فى وجهه باب الفسوق والعصيان .

ثم واصلت السورة حديثها عن عباد الرحمن ، فقال – تعالى – : ﴿ والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

وأصل الزور : تحسين الشىء ووصفه بغير صفته ، ووضعه فى غير موضعه ، مأخوذ من الزَّور بمعنى الميل والانحراف عن الطريق المستقيم إلى غيره .

واللغو : هو مالا خير فيه من الأقوال أو الأفعال .

أى : إن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يرتكبون شهادة الزور ، ولا يحضرون المجالس التى توجد فيها هذه الشهادة ، لأنها من أمهات الكبائر التى حاربها الإسلام .

وفضلا عن ذلك فإنهم « إذا مروا باللغو » أى : بالمجالس التى فيها لغو من القول أو الفعل « مروا كراما » أى : أعرضوا عنها إكراما لأنفسهم ، وصونا لكرامتهم ، وحفاظا على دينهم ومروءتهم .

والتعبير بقوله – تعالى – : ﴿ وإذا مروا ... ﴾ فيه إشعار بأن مرورهم على تلك المجالس كان من باب المصادفة والاتفاق ، لأنهم أكبر من أن يقصدوا حضورها قصدا .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾(١) .

ثم بين – سبحانه – سرعة تأثرهم وتذكرهم ، وقوة عاطفتهم نحو دينهم فقال : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ .

والمراد بآيات ربهم ، القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عظات وهدايات ..

أى : أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم ، إذا ذكرهم مذكر بآيات الله – تعالى – المشتملة

---

(١) سورة القصص الآية ٥٥ .

على المواعظ والثواب والعقاب ، أكبوا عليها ، وأقبلوا على المذكِّر بها بآذان واعية ، وبعيون مبصرة ، وليس كأولئك الكفار أو المنافقين الذين ينكبون على عقائدهم الباطلة انكباب الصم العمى الذين لا يعقلون ، وينكرون ما جاءهم به رسول ربهم بدون فهم أو وعى أو تدبر .

فالآية الكريمة مدح للمؤمنين على حسن تذكرهم وتأثرهم ووعيهم ، وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون على باطلهم سقوط الأنعام على ما يقدم لها من طعام وغيره .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ لم يخروا .. ﴾ ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفى للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقانى زيد مُسَلِّما هو نفى للسلام لا للقاء .

والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها ، وهم فى إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية . مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها .. وهم كالصم العميان حيث لا يعونها كالمنافقين وأشباههم[1] .

ثم ذكر - سبحانه - فى نهاية الحديث عنهم أنهم لا يكتفون بهذه المناقب الحميدة التى وهبهم الله إياها ، وإنما هم يتضرعون إليه - سبحانه - أن يجعل منهم الذرية الصالحة ، وأن يرزقهم الزوجات الصالحات . فقال - تعالى - : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما ﴾ .

أى : يقولون فى دعائهم وتضرعهم يا ﴿ ربنا هب لنا ﴾ بفضلك وجودك ﴿ من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ أى : ما يجعل عيوننا تسربهم ، ونفوسنا تنشرح برؤيتهم ، وقلوبنا تسكن وتطمئن وجودهم ، لأنهم أتقياء صالحون مهتدون ..

﴿ واجعلنا ﴾ ياربنا ﴿ للمتقين إماما ﴾ أى : اجعلنا قدوة وأسوة للمتقين . يقتدون بنا فى أقوالنا الطيبة ، وأعمالنا الصالحة ، فأنت تعلم - يامولانا - أننا نعمل على قدر ما نستطيع فى سبيل إرضائك وفى السير على هدى رسولك - ﷺ - هذه هى صفات عباد الرحمن ذكرها القرآن فى هذه الآيات الكريمة ، وهى تدل على قوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم .. فماذا أعد الله - تعالى - لهم ؟

لقد بين - سبحانه - ما أعده لهم فقال : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ .

والغرفة فى الأصل : كل بناء مرتفع ، والجمع غرف وغرفات كما فى قوله - تعالى - : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٢٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهم فى الغرفات آمنون ﴾[١] .

والمراد بها هنا : أعلى منازل الجنة أو الجنة نفسها أو جنسها الصادق بغرف كثيرة .

أى : أولئك المتقون المتصفون . بالصفات السابقة ، يجازيهم الله - تعالى - بأعلى المنازل والدرجات فى الجنة ، بسبب صبرهم على طاعته ، وبعدهم عن معصيته ويلقون فى تلك المنازل الرفيعة ﴿ تحية وسلاما ﴾ عن ربهم - عز وجل - ومن ملائكته الكرام ، ومن بعضهم لبعض .

﴿ خالدين فيها ﴾ أى : فى تلك المنازل الرفيعة ، والجنات العالية ، خلودا أبديا .

﴿ حسنت ﴾ تلك الغرفة والمنزلة ﴿ مستقرا ﴾ يستقرون فيه ﴿ ومقاما ﴾ يقيمون فيه وذلك فى مقابل ما أعد للكافرين من نار ساءت مستقرا ومقاما .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله :

قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى
لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

قال القرطبى : يقال : ما عبأت بفلان ، أى : ما باليت به . أى : ما كان له عندى وزن ولا قدر . وأصل يعبأ : من العبء وهو الثقل .. فالعبء : الحمل الثقيل ، والجمع أعباء . و« ما » استفهامية ، وليس يبعد أن تكون نافية ، لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفى خرج مخرج الاستفهام ، وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب والتقدير أى عبء يعبأ بكم ربى ؟ أى : أى مبالاة يبالى بكم ربى لولا دعاؤكم ..[٢] .

هذا ، وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن قوله - تعالى - : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ خطاب للمؤمنين أو للناس جميعا ، وأن المصدر وهو . دعاؤكم مضاف لفاعله ، وأن بقية الآية وهى قوله : ﴿فقد كذبتم .. ﴾ خطاب للكافرين ، والمعنى على هذا القول :

---

(١) سورة سبأ آية ٣٧ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٨٤ .

قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين أو للناس جميعا ، أى اعتداد لكم عند ربكم لولا دعاؤكم ، أى : لولا عبادتكم له - عز وجل - أى : لولا إخلاصكم العبادة له لما اعتد بكم .

ثم أفرد الكافرين بالخطاب فقال : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿فسوف يكون لزاما ﴾ .

أى : فسوف يكون جزاء التكذيب « لزاما » أى : عذابا دائما ملازما لكم . فلزاما مصدر لازم ، كقاتل قتالا ، والمراد به هنا اسم الفاعل .

وقد وضح صاحب الكشاف هذا القول فقال : لما وصف الله - تعالى - عبادة العباد ، وعدد صالحاتهم وحسناتهم .. أتبع ذلك ببيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ، لأجل عبادتهم فأمر رسوله - ﷺ - أن يصرح للناس ، ويجزم لهم القول ، بأن الاكتراث لهم عند ربهم ، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر ...

وقوله ﴿ فقد كذبتم ﴾ يقول : إذا أعلمتكم أن حكمى ، أنى لا أعتد بعبادى إلا من أجل عبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم فى النار . ونظيره فى الكلام أن يقول الملك لمن عصاه : « إن من عادتى أن أحسن إلى من يطيعنى ، و يتبع أمرى ، فقد عصيتَ فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك ... »[1] .

ومن العلماء من يرى أن الخطاب فى الآية للكافرين ، وأن المصدر مضاف لمفعوله ، فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، ما يعبأ بكم ربى ، ولا يكترث لوجودكم ، لولا دعاؤه إياكم على لسانى ، الى توحيده وإخلاص العبادة له ، وبما أنى قد دعوتكم فكذبتم دعوتى . فسوف يكون عاقبة ذلك ملازمة العذاب لكم .

وهذا قول جيد ولا إشكال فيه وقد تركنا بعض الأقوال لضعفها ، و غناء هذين القولين عنها .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الفرقان » تلك السورة التى حكت شبهات المشركين وأبطلتها . وساقت ماساقت من تسلية الرسول - ﷺ - وتثبيته ، وبشرت عباد الرحمن بأرفع المنازل .

ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا منهم ، وأن يحشرنا فى زمرتهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٧ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
القاهرة - مدينة نصر
مساء الجمعة ٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ .
الموافق ٢٥ من يناير سنة ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الشعراء هى السورة السادسة والعشرون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان نزولها بعد سورة الواقعة . كما يقول صاحب الإتقان ، أى : هى السادسة والأربعون فى ترتيب النزول .

٢ - قال القرطبى : هى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى ؛ الآية التى يذكر فيها الشعراء ، وقوله : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينةمن قوله - تعالى - : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إلى آخر السورة . وهى مائتان وسبع وعشرون اية . وفى رواية : وست وعشرون[1] .

٣ - وسورة الشعراء تسمى - أيضا - بسورة « الجامعة » ، ويغلب على هذه السورة الكريمة ، الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم .

فبعد أن تحدثت فى مطلعها عن سمو منزلة القرآن الكريم ، وعن موقف المشركين من الرسول - ﷺ - أتبعت ذلك بالحديث عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل ، ثم عن قصة إبراهيم مع قومه ثم عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه ..

٤ - ثم تحدثت فى أواخرها عن نزول الروح الأمين بالقرآن الكريم على قلب النبى - ﷺ - ، وساقت ألوانا من التسلية والتعزية للرسول - ﷺ - بسبب تكذيب الكافرين له ، وأرشدته إلى ما يجب عليه نحو عشيرته الأقربين ، ونحو المؤمنين ، وبشرت أتباعهُ بالنصر وأنذرت أعداءه بسوء المصير ، فقد ختمت بقوله - تعالى - : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

٥ - والسورة الكريمة بعد ذلك تمتاز بقصر آياتها ، وبجمعها لموضوعات السور الملكية ، من إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وعلى صدق النبى - ﷺ -

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٨٧ .

فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ،كما نرى أسلوبها يمتاز بالترغيب والترهيب ، الترغيب للمؤمنين فى العمل الصالح ، والترهيب للمشركين بسوء المصير إذا ما استمروا على شركهم .

وقد ختمت كل قصة من قصص هذه السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ وقد تكرر ذلك فيها ثمانى مرات ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،،

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة مدينة نصر ، الأحد ٥ من جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ
٢٧ / ١ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

سورة الشعراء من السور التى افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - : ﴿ طسم ﴾ .

وقد ذكرنا آراء العلماء فى الحروف المقطعة بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : « البقرة ، آل عمران . والأعراف ، ويونس .. » إلخ .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك فى أنه من عند الله -

تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى الآيات القرآنية التى تضمنتها هذه السورة الكريمة أو إلى جميع آيات القرآن التى نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب القرآن الكريم الذى تكفل - سبحانه - بإنزاله على نبيه - ﷺ - .

والمبين : اسم فاعل من أبان الذى هو بمعنى بان ، مبالغة فى الوضوح والظهور .

قال صاحب الصحاح : « يقال : بان الشىء يبين بيانا ، أى : اتضح ، فهو بين ، وكذا أبان الشىء فهو مبين »(١) .

أى : تلك الآيات القرآنية التى أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - والتى سننزلها عليك تباعا حسب حكمتنا وإرادتنا ، هى آيات الكتاب الواضح إعجازه ، والظاهرة هداياته ودلالاته على أنه من عند الله - تعالى - ، ولو كان من عند غيره - سبحانه - لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ثم خاطب - سبحانه - رسوله - ﷺ - بما يسليه عن تكذيب المشركين له ، وبما يهون عليه أمرهم فقال - تعالى - ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أن لفظة ﴿ لعل ﴾ تكون للترجى فى المحبوب ، وللإشفاق فى المحذور .

واستظهر أبو حيان فى تفسيره ، أن ﴿ لعل ﴾ هنا للاشفاق عليه - ﷺ - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم .

وقال بعضهم : إن ﴿ لعل ﴾ هنا للنهى ، أى : لاتبخع نفسك لعدم إيمانهم وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك . قال - تعالى - : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾(٢) .

والمعنى : لعلك - أيها الرسول الكريم - قاتل نفسك هما وغما . بسبب تكذيب الكافرين لك ، وعدم إيمانهم بدعوتك وإعراضهم عن رسالتك التى أرسلناك بها إليهم ..

لا - أيها الرسول الكريم - لاتفعل ذلك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، وإنك لا تستطيع هداية أحد ولكن الله - تعالى - يهدى من يشاء ، وإننا ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ .

ومفعول المشيئة محذوف ، والمراد بالآية هنا المعجزة القاهرة التى تجعلهم لا يملكون انصرافا

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٣ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

معها عن الإيمان ، والأعناق جمع عنق . وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم تقول : جاءنى عنق من الناس : أى جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمين فيهم .

والمعنى : لا تحزن يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك ، فإننا إن نشأ إيمانهم ،ننزل عليهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان . تجعلهم ينقادون له ، ويدخلون فيه دخولا ملزما لهم ، ولكنا لا نفعل ذلك ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس فى الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة ، وليس عن طريق الإلجاء والقسر .

وصور – سبحانه – هذه الآية بتلك الصورة الحسية ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ ، للإشعار بأن هذه الآية لو أراد – سبحانه – إنزالها لجعلتهم يخضعون خضوعا تاما لها ، حتى لكأن أعناقهم على هيئة من الخضوع والذلة لا تملك معها الارتفاع أو الحركة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف صح مجىء خاضعين خبرا عن الأعناق ؟ قلت : أصل الكلام :فظلوا لها خاضعين . فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله . كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأن الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء ، قيل : خاضعين .. وقيل أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم : هم الرءوس والنواصى والصدور ... وقيل : جماعات الناس ..»[1] .

ثم بين – سبحانه – ما عليه هؤلاء الكافرون من صلف وجحود فقال : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ .

أى : ولقد بلغ الجحود والجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم كلما جاءهم قرآن محدث تنزيله على نبيهم – ﷺ – ومتجدد نزوله عليه – ﷺ – أعرضوا عنه إعراضا تاما .

وعبر عن إعراضهم بصيغة النفى والاستثناء التى هى أقوى أدوات القصر ، للإشارة إلى عتوهم فى الكفر والضلال ، وإصرارهم على العناد والتكذيب .

وفى ذكر اسم الرحمن هنا : إشارة إلى عظيم رحمته – سبحانه – بإنزال هذا الذكر ، وتسجيل لأقصى دركات الجهالة عليهم ، لأنهم أعرضوا عن الهداية التى أنزلها الرحمن الرحيم لسعادتهم ، وحرموا أنفسهم منها وهم أحوج الناس إليها .

و ﴿ من ﴾ الأولى لتأكيد عموم إعراضهم ، والثانية لابتداء الغاية ، وجملة ﴿ إلا كانوا عنه معرضين ﴾ حالية .

ثم بين – سبحانه – سوء عاقبتهم فقال : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٩ .

أى : فقد كذب هؤلاء الجاحدون بالذكر الذى أتيتهم به - أيها الرسول الكريم - دون أن يكتفوا بالإعراض عنه ، فاصبر فسيأتيهم أنباء العذاب الذى كانوا يستهزئون به عندما تحدثهم عنه ،وهو واقع بهم لا محالة ولكن فى الوقت الذى يشاؤه - سبحانه - .

وفى التعبير عن وقوع العذاب بهم ، بإتيان أنبائه وأخباره ، تهويل من شأن هذا العذاب ، وتحقيق لنزوله . أى : فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ويصيرون هم أحاديث الناس يتحدثون بها ويتناقلون أنباءها .

ثم وبخهم - سبحانه - على غفلتهم وعلى عدم التفاتهم إلى ما فى هذا الكون من عظات وعبر . فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

أى : أعمى هؤلاء الجاحدون عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بهم ، ولم يروا بأعينهم كيف أخرجنا النبات من الأرض ، وجعلنا فيها أصنافا وأنواعا لا تحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى .

فالآية الكريمة توبيخ لهم على إعراضهم عن الآيات التكوينية ، بعد توبيخهم على إعراضهم عن الآيات التنزيلية ، وتحريض لهم على التأمل فيما فوق الأرض من نبات مختلف لأنواع والأشكال والثمار . لعل هذا التأمل ينبه حسهم الخامد وذهنهم البليد وقلبهم المطموس .

قال صاحب الكشاف : « وصف الزوج - وهو الصنف من النبات - بالكرم ، والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه . يقال : وجه كريم إذا رضى فى حسنه وجماله ، وكتاب كريم . أى : مرضى فى معانيه وفوائده .... والنبات الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع .

فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ؟ قلت : قد دل ﴿ كل ﴾ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل . و ﴿ كم ﴾ على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته .. »[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بآيتين تكررتا فى السورة الكريمة ثمانى مرات . ألا وهما قوله - تعالى - ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن إنباتنا لكل زوج كريم فى الأرض ﴿ لآية ﴾ عظيمة الدلالة على كمال قدرتنا ، وسعة رحمتنا ، وماكان أكثر هؤلاء الكافرين مؤمنين ، لإيثارهم العمى

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٣٠٠ .

على الهدى ، والغى على الرشد ﴿ وإن ربك ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ لهو العزيز ﴾ أى : صاحب العزة والغلبة والقهر ﴿ الرحيم ﴾ أى : الواسع الرحمة بعباده ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم لعلهم يتوبون أو يعقلون .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من قصة موسى - عليه السلام - بأسلوب يتناسب مع ما اشتملت عليه السورة الكريمة من إنذار وتخويف ، وبطريقة أحاطت بجوانب هذه القصة منذ أن ذهب موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه إلى أن انتهت بهلاكهم وإغراقهم .

لقد بدأ - سبحانه - هذه القصة بقوله - تعالى - :

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ
كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - ويرجح المؤرخون أن ولادته كانت فى القرن الثالث عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى.

وقد وردت قصة موسى مع فرعون وقومه ، ومع إسرائيل فى كثير من سور القرآن الكريم تارة بصورة فيها شىء من التفصيل ، وتارة بصورة فيها شىء من الاختصار والتركيز ، تبعا لمقتضى الحال الذى وردت من أجله .

وقد وردت هنا وفى سورة الأعراف وفى سورة طه . وفى سورة القصص بأسلوب فيه بسطة وتفصيل .

لقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾ .

وهذا النداء كان بالوادى المقدس طوى ، كما جاء فى سورة طه[1] وفى سورة النازعات[2] .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن نادى ربك نبيه موسى قائلا له : اذهب إلى القوم الظالمين لتبلغهم رسالتى ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لى .

وقوله : ﴿ قوم فرعون ﴾ بدل أو عطف بيان، ووصفهم - سبحانه - بالظلم لعبادتهم لغيره ، ولعدوانهم على بنى إسرائيل بقتل الذكور ، واستبقاء النساء .

وقوله : - تعالى - ﴿ ألا يتقون ﴾ تعجيب من حالهم . أى : ائتهم ياموسى وقل لهم : ألا يتقون الله - تعالى - ويخشون عقابه . ويكفون عن كفرهم وظلمهم .

ثم حكى - سبحانه - رد موسى فقال : ﴿ قال رب إنى أخاف أن يكذبون ﴾ .

أى : قال موسى فى الإجابة على ربه - عز وجل - : يارب إنى أعرف هؤلاء القوم ، وأعرف ما هم عليه من ظلم وطغيان ، وإنى أخاف تكذيبهم لى عندما أذهب إليهم لتبليغ وحيك ﴿ ويضيق صدرى ﴾ أى : وينتابنى الغم والهم بسبب تكذيبهم لى ..

﴿ ولا ينطلق لسانى ﴾ أى : وليس عندى فصاحة اللسان التى تجعلنى أظهر ما فى نفسى من تفنيد لأباطيلهم ، ومن إزهاق لشبهاتهم ، خصوصا عند اشتداد غضبى عليهم .

﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ أى : فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون ، ليكون معينا لى على تبليغ ما تكلفنى بتبليغه .

﴿ ولهم على ذنب ﴾ حيث إنى قتلت منهم نفسا ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ عندما أذهب إليهم ، على سبيل القصاص منى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد شكا إلى ربه خوفه من تكذيبهم وضيق صدره من طغيانهم ، وعقدة فى لسانه ، وخشيته من قتلهم له عندما يرونه .

وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة ، أو الاعتذار عن تبليغها . وإنما هو من باب طلب العون من الله - تعالى - والاستعانة به - عز وجل - على تحمل هذا الأمر والتماس الإذن منه - فى إرسال هارون معه . ليكون عونا له فى مهمته ، وليخلفه فى تبليغ الرسالة فى حال قتلهم له ..

وشبيه بهذا الجواب ماحكاه عنه - سبحانه - فى سورة طه فى قوله - تعالى - ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى

(١) سورة طه الآية ١٢ .

(٢) سورة النازعات الآية ١٦ .

يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا ﴾ .

وقد رد الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - ردا حاسما لإزالة الخوف ، ومزهقا لكل ما يحتمل أى يساور نفسه من عدوان عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم : كلا ، لاتخف أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك ، أو أن لا ينطلق لسانك ، أو أن يقتلوك . كلا لاتخف من شىء من ذلك ، فأنا معكما برعايتى ومادام الأمر كذلك فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإننا معكم سامعون لما تقولانه لهم ولما سيقولونه لكما .

وعبر - سبحانه - بكلا المفيدة للزجر ، لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى - عليه السلام - .

والمراد بالآيات هنا : المعجزات التى أعطاها - سبحانه - لموسى وعلى رأسها العصا ..

وقال - سبحانه - ﴿ إنا معكم ﴾ مع أنهما اثنان ، تعظيما لشأنهما أو لكون الاثنين أقل الجمع . أو المراد هما ومن أرسلا إليه .

والتعبير بقوله ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ بصيغة التأكيد والمعية والاستماع ، فيه ما فيه من العناية بشأنهما ، والرعاية لهما ، والتأييد لأمرهما .

والفاء فى قوله : ﴿ فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما .

و « أن » فى قوله ﴿ أن أرسل ﴾ مفسرة . لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول .

أى : اذهبا وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا . فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه ﴿ فقولا ﴾ له بكل شجاعة وجراءة ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ أى : رب جميع العوالم التى من بينها عالم الجن . وعالم الملائكة .

وقد أرسلنا - سبحانه - إليك ، لكى تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك ، وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكى يعبدوا الله - تعالى - وحده .

قال الآلوسى : « وإفراد الرسول فى قوله ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ لأنه مصدر بحسب الأصل ، وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة ، كرجل عدل .. أو لوحدة المرسل أو

المرسل به - أى : لأنهما ذهبا برسالة واحدة وفى مهمة واحدة »[1] .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله - تعالى - به نبيه موسى - عليه السلام - ومازوده به - سبحانه - من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه - سبحانه - العون والتأييد .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين موسى وفرعون من محاورات فقال - تعالى -

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾
قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ٦٦ .

أى : قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنو إسرائيل . قال له يا موسى ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ أى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا ، ورعيناك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتى ﴿ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.. ﴾ .

﴿ ولبثت فينا ﴾ أى : فى كنفنا وتحت سقف بيتنا ﴿ من عمرك سنين ﴾ عددا .

﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ وهى قتلك لرجل من شيعتى ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ .

أى : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتى التى أنعمتها عليك ، فى حال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شبابك .

لأنك جئتنى أنت وأخوك بما يخالف ديننا ، وطلبتما منا أن نرسل معكما بنى إسرائيل . فهل هذا جزاء إحسانى إليك ؟ .

وهكذا نرى فرعون يوجه إلى موسى - عليه السلام - تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهما أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

ولكن موسى - عليه السلام - وقد استجاب الله - تعالى - دعاءه ، وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردا حكيما ، فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ .

أى قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها ، ولكنى فعلتها وأنا فى ذلك الوقت من الضالين ، أى : فعلت ذلك قبل أن يشرفنى الله بوحيه ، ويكلفنى بحمل رسالته ، وفضلا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة تؤدى إلى قتل ذلك الرجل من شيعتك ، لأنى ما قصدت قتله ، وإنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره .

فالمراد بالضلال هنا : الجهل بالشىء ، والذهاب عن معرفة حقيقته .

وقوله : ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ بيان لما ترتب على فعلته التى فعلها .

أى : وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا من الضالين ، توقعت الشر منكم ،ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى فكانت النتيجة أن وهبنى ﴿ ربى حكما ﴾ أى : علما نافعا ﴿ وجعلنى من المرسلين ﴾ الذين اصطفاهم الله - تعالى - لحمل رسالته والتشرف بنبوته .

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى هذا الرد الملزم لفرعون . ردا آخر أشد إلزاما وتوبيخا فقال : ﴿ وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾.

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى التربية المفهومة من قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ... الخ ﴾ .

وقوله ﴿ تمنها ﴾ من المن بمعنى الإنعام يقال : منّ فلان على فلان منة إذا أنعم عليه بنعمة .

وعبدت : أى : اتخذتهم عبيدا لك تسخرهم لخدمتك .

قال الجمل : و ﴿ تلك ﴾ مبتدأ ، و ﴿ نعمة ﴾ خبر . و ﴿ تمنها ﴾ صفة للخبر و ﴿ أن عبدت ﴾ عطف بيان للمبتدأ موضح له .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يرى بعضهم أنه قاله على وجهة الاعتراف له بالنعمة ، فكأنه يقول له : تلك التربية التى ربيتها لى نعمة منك على ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أكون رسولا من الله - تعالَى - إليك ، لكى تقلع عن كفرك ، ولكى ترسل معنا بنى إسرائيل .

ويرى آخرون أن هذا الكلام من موسى لفرعون ، إنما قاله على سبيل التهكم به ، والإنكار عليه فيما امتن به عليه ، فكانه يقول له : إن ما تمنّ به على هو فى الحقيقة نقمة ، وإلا فأية منة لك علىّ فى استعبادك لقومى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمى من قتلك لى هو الذى حملها على أن تلقى بى فى البحر ، وتربيتى فى بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك ...

ويبدو لنا أن هذا الرأى أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسياق القصة ، ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسير لهذه الآية : « ثم كرّ موسى على امتنان فرعون عليه بالتربية فأبطله من أصله ، واستأصله من سِنْخِه - أى : من أساسه -، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة . حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل ، لأن تعبيدهم وقصدهم بالذبح لأبنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه ، وتذليلهم واتخاذهم خدما له ... »[1] .

وبهذا الجواب التوبيخى أفحم موسى - عليه السلام - فرعون . وجعله يحول الحديث عن هذه المسألة التى تتعلق بتربيته لموسى إلى الحديث عن شىء آخر حكاه القرآن فى قوله : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ أى قال فرعون لموسى : أى شىء رب العالمين الذى أنت وأخوك جئتما لتبلغا رسالته لى ، وما صفته ؟

وهذا السؤال يدل على طغيان فرعون - قبحه الله - وتجاوزه كل حد فى الفجور ، فإن هذا السؤال يحمل فى طياته استنكار أن يكون هناك إله سواه ، كما حكى عنه القرآن فى آية أخرى

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٦ .

قوله : ﴿ وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى.. ﴾[1] .

فهو ينكر رسالة موسى - عليه السلام - من أساسها ..

وهنا يرد موسى . بقوله : ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ .

أى : قال موسى : ربنا - يافرعون - هو رب السموات ورب الأرض ، ورب ما بينهما من أجرام وهواء . وإن كنتم موقنين بشىء من الأشياء ، فإيمانكم بهذا الخالق العظيم وإخلاصكم العبادة له أولى من كل يقين سواه .

وفى هذا الجواب استصغار لشأن فرعون . وتحقير لمزاعمه ، فكأنه يقول له : إن ربنا هو رب هذا الكون الهائل العظيم ، أما ربوبيتك أنت - فمع بطلانها - هى ربوبية لقوم معينين خدعتهم بدعواك الألوهية ، فأطاعوك لسفاهتهم وفسقهم ..

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله ليشاركوه التعجيب مما قاله موسى وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه ، فيقول لهم : ﴿ ألا تستمعون ﴾ أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى . والذى لا عهد لنا به ، ولا قبول عندنا له ولا صبر لنا عليه ...

ولكن موسى - عليه السلام - لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وهيمنته على هذا الكون ﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ .

أى : ربنا الذى هو رب السموات والأرض وما بينهما ، هو ربكم أنتم - أيضا - وهو رب آبائكم الأولين ، فكيف تتركون عبادته ، وتعبدون عبدا من عباده ومخلوقا من مخلوقاته هو فرعون ؟

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه ، فقال ملتفتا إلى من حوله : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ .

أى : قال فرعون - على سبيل السخرية بموسى - مخاطبا أشراف قومه : إن رسولكم الذى أرسل إليكم بما سمعتم ﴿ لمجنون ﴾ لأنه يتكلم بكلام لاتقبله عقولنا ، ولاتصدقه آذاننا وسماه رسولا على سبيل الاستهزاء ، وجعل رسالته إليهم لا إليه ، لأنه - فى زعم نفسه - أكبر من أن يرسل إليه رسول ، ولكى يهيجهم حتى ينكروا على موسى قوله ..

ولكن موسى - عليه السلام - لم يؤثر ما قاله فرعون فى نفسه ، بل رد عليه وعليهم بكل شجاعة وحزم فقال : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ .

أى : قال موسى : ربنا رب السموات والأرض ومابينهما . وربكم ورب آبائكم الأولين .

---

(١) سورة القصص الآية ٣٨ .

ورب المشرق الذى هو جهة طلوع الشمس وطلوع النهار . ورب المغرب الذى هو غروب الشمس وغروب النهار .

وخصها بالذكر . لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لايجرؤ ولا يملك ادعاء تصريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة . والتى لا اختلال فيها ولا اضطراب ..

كما قال إبراهيم للذى حاجه فى ربه : ﴿ إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر .. ﴾ .

وجملة ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ حض لهم على التعقل والتدبر ، وتحذير لهم من التمادى فى الجحود والعناد .

أى : ربنا وربكم هو رب هذه الكائنات كلها ، فأخلصوا العبادة له ، إن كانت لكم عقول تعقل ما قلته لكم ، وتفهم ما أرشدتكم إليه .

وهكذا انتقل بهم موسى من دليل إلى دليل على وحدانية الله وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب لكى لا يترك مجالا فى عقولهم للتردد فى قبول دعوته ..

ولكن فرعون - وقد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرا انتقل من أسلوب المحاورة فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد - شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة - فقال لموسى عليه السلام - : ﴿ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

أى : قال فرعون لموسى بثورة وغضب : لئن اتخذت إلها غيرى يا موسى ليكون معبودا لك من دونى ، لأجعلنك واحدا من جملة المسجونين فى سجنى فهذا شأنى مع كل من يتمرد على عبادتى ، ويخالف أمرى ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ألم يكن لأسجننك أخصر من ﴿ لأجعلنك من المسجونين ﴾ ومؤديا مؤداه ؟

قلت : أما كونه أخصر فنعم . وأما كونه مؤديا مؤداه فلا ، لأن معناه : « لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض ، بعيدة العمق . لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل »[1] ..

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٨ .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يخفه هذا التهديد والوعيد . بل رد عليه ردا حكيما فقال له : ﴿ أولو جئتك بشىء مبين ﴾ .

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على كلام مقدر يستدعيه المقام ، والمعنى . أتفعل ذلك بى بأن تجعلنى من المسجونين ، ولو جئتك بشىء مبين ، يدل دلالة واضحة على صدقى فى رسالتى وعلى أنى رسول من رب العالمين ؟

وعبر عن المعجزة التى أيده الله بها بأنها ﴿ شىء مبين ﴾ للتهويل من شأنها ، والتفخيم من أمرها، ولعل مقصد موسى -عليه السلام- بهذا الكلام، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الحديث فى شأن الرسالة التى جاءه من أجلها بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد ، وأن يسد منافذ الهروب عليه أمام قومه . ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلا أن يقول له : ﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ .

أى : فأت بهذا الشىء المبين ، إن كنت - يا موسى - من الصادقين فى كلامك السابق ..

وهنا كشف موسى - عليه السلام - عما أيده الله - تعالى - به من معجزات حسية خارقة ﴿ فألقى عصاه ﴾ على الأرض أمام فرعون وقومه ﴿ فإذا هى ثعبان مبين ﴾ .

أى : فإذا هى حية عظيمة فى غاية الجلاء والوضوح على أنها حية حقيقية ، لا شائبة معها للتخييل أو التمويه كما يفعل السحرة ..

ولم يكتف موسى بذلك فى الدلالة على صدقه . ﴿ ونزع يده ﴾ أى : من جيبه ﴿ فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ أى : فإذا هى بيضاء بياضا يخالف لون جسمه - عليه السلام - ، فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس فيها ما يشير إلى أن بها سوءًا أو مرضا .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى فى أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة قد أوشكت على الانكشاف . وبأن معجزة موسى توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ
لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

أى : قال فرعون للملأ المحيطين به - بعد أن زلزلته معجزة موسى - ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ .

أى : لساحر بارع فى فن السحر ، فهو مع اعترافه بضخامة ما أتى به موسى ، يسميه سحرا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله لهم : ﴿ يريد أن يخرجكم ﴾ هذا الساحر ﴿ من أرضكم ﴾ التى نشأتم عليها ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أى : فبأى شىء تشيرون على وأنتم حاشيتى ومحل ثقتى ؟

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لنفس هذا الطاغية وأمثاله ..

إنه منذ قليل كان يرغى ويزيد . وإذا به بعد أن فاجأه موسى بمعجزته ، يصاب بالذعر ويقول لمن زعم أنه ربهم الأعلى ﴿ فماذا تأمرون ﴾ .

وهكذا الطغاة عندما يضيق الخناق حول رقابهم يتذللون ويتباكون .. فإذا ما انفك الخناق من حول رقابهم ، عادوا إلى طغيانهم وفجورهم .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : « ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين ، وبقى لا يدرى أى طرفيه أطول، حتى زل عنه ذكر دعوى الألوهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية . وارتعدت فرائصه ، وانتفخ سَحَره - أى رئته - خوفا وفرقا ، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحس به من جهة موسى - عليه السلام - »[١] .

ورد الملأ من قوم فرعون عليه بقولهم : ﴿ أرجه وأخاه ﴾ أى : أخر أمرهما ، يقال :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣١٠ .

أرجأت هذا الأمر وأرجيته . إذا أخرته . ومنه أخذ لفظ المرجئة لتلك الفرقة التى تؤخر العمل وتقول : لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

﴿ وابعث فى المدائن حاشرين ﴾ أى : وابعث فى مدن مملكتك رجالا من شرطتك يحشرون السحرة ، أى : يجمعونهم عندك لتختار منهم من تشاء .

وقوله : ﴿ يأتوك بكل سحار عليم ﴾ مجزوم فى جواب الأمر . أى : إن تبعثهم يأتوك بكل سحار فائق فى سحره ، عليم بفنونه ومداخله .

ولبى فرعون طلب مستشاريه ، فأرسل فى المدائن من يجمع له السحرة ﴿ فجمع السحرة ﴾ أى المعروفون ببراعتهم فيه ﴿ لميقات يوم معلوم ﴾ أى : جمعوا وطلب منهم الاستعداد لمنازلة موسى - عليه السلام - فى وقت معين هو « يوم الزينة » أى : يوم العيد . كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما فعله أعوان فرعون من حض الناس على حضور تلك المباراة فقال : ﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أى : فى ذلك اليوم المعلوم الذى ينازل فيه السحرة موسى فالمقصود بالاستفهام الحض على الحضور والحث على عدم التخلف .

والترجى فى قولهم ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ المقصود به - أيضا - حض السحرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلبوا على موسى - عليه السلام - ، فكأنهم يقولون لهم : ابذلوا قصارى جهدكم فى حسن إعداد سحركم فنحن نرجو أن تكون الغلبة لكم ، فنكون معكم لا مع موسى - عليه السلام - .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله السحرة لفرعون عند التقائهم به فيقول : ﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ﴾ بعد أن التقى بهم ليشجعهم على الفوز ، ﴿ أئن لنا لأجرا ﴾ مجزيا ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾ لموسى - عليه السلام - .

وهنا يرد عليهم فرعون ، فيعدهم . ويمنيهم ﴿ قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين ﴾ . أى : نعم لكم الأجر العظيم الذى يرضيكم ، وفضلا عن ذلك فستكونون عندى من الرجال المقربين إلى نفسى ، والذين سأخصهم برعايتى ومشورتى .

وهكذا يعد فرعون السحرة ويمنيهم ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله موسى للسحرة ، وما قال فرعون لهم بعد أن أعلنوا إيمانهم ، فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

﴿ قال لهم موسى ﴾ أى للسحرة بعد أن أعدوا عدتهم لمنازلته ، ومن خلفهم فرعون وقومه يشجعونهم على الفوز قال لهم : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ من السحر ، فسوف ترون عاقبة منازلتكم لى .

وأسلوب الآية الكريمة يشعر بعدم مبالاة موسى - عليه السلام - بهم أو تلك الحشود التى من ورائهم ، فهو مطمئن إلى نصر الله - سبحانه - له .

﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا ﴾ أى : عند إلقائهم لتلك الحبال والعصى ﴿ بعزة فرعون ﴾ أى : بقوته وجبروته وسطوته ﴿ إنا لنحن الغالبون ﴾ لا موسى - عليه السلام - ولم تفصل السورة هنا ما فصلته سورة الأعراف من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ أو ما وضحته سورة طه من أنهم حين ألقوا حبالهم : ﴿ أوجس فى نفسه خيفة موسى ... ﴾ .

ولعل السر فى عدم التفصيل هنا ، أن السورة الكريمة تسوق الأحداث متتابعة تتابعا سريعا ، تربط معها قلب القارىء وعقله بما ستسفر عنه هذه الأحداث من ظهور الحق ، ومن دحور الباطل .

ولذا جاء التعقيب السريع بما فعله موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ﴾ أى : تبتلع بسرعة ، و تأخذ بقسوة ﴿ ما يأفكون ﴾ أى : ما فعلوه وما يفعلونه من السحر ، الذى يقلبون به حقائق الأشياء عن طريق التمويه والتخييل . ورأى السحرة بأعينهم ومعهم الحشود من خلفهم ، رأوا ما أجراه الله - تعالى - على يد موسى - عليه السلام - رأوا كل ذلك فذهلوا وبهروا وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس سحرا وإنما هو شىء آخر فوق طاقة البشر ، ولو كان سحرا لعرفوه فهم رجاله ، وأيضا لو كان سحرا لبقيت حبالهم وعصيهم على الأرض ، ولكنها ابتلعتها عصا موسى - عليه السلام - عندئذ لم يتمالكوا أنفسهم ، بل فعلوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله - سبحانه - : ﴿ فألقى السحرة ساجدين ﴾ أى : فخروا ساجدين على وجوههم بدون تردد ، وهم يقولون : ﴿ آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ .

وهكذا بعد أن شاهد السحرة الحق يتلألأ أمام أبصارهم . لم يملكوا إلا أن ينطقوا به على رءوس الأشهاد ، وتحولوا من قوم يلتمسون الأجر من فرعون قائلين : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ إلى قوم آخرين هجروا الدنيا . ومغانمها ، واستهانوا بالتهديد والوعيد ، ونطقوا بكلمة الحق فى وجه من كانوا يقسمون بعزته إنا لنحن الغالبون .

وصدق رسول الله - ﷺ - حيث يقول فى حديثه الذى رواه الشيخان : « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » .

ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك موقف فرعون وقد رأى ما حطمه وزلزله فقال - تعالى - : ﴿ قال ﴾ أى فرعون للسحرة ﴿ آمنتم له ﴾ أى : لموسى ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ بالإيمان به ..

﴿ إنه ﴾ أى : موسى - عليه السلام - ﴿لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ أى : فأنتم متواطئون معه على هذه اللعبة ﴿ فلسوف تعلمون ﴾ ما أنزله بكم من عذاب .

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أى : لأقطعن من كل واحد منكم يده اليمنى مع رجله اليسرى . ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ أى : فى جذوع النخل - كما جاء فى آية أخرى - والمتأمل فى قول فرعون - كما حكاه القرآن عنه يرى فيه الطغيان والكفر ، فهو يستنكر على السحرة إيمانهم بدون إذن .

ويرى فيه الكذب الباطل الذى قصد من ورائه تشكيك قومه فى صدق موسى وفى نبوته فهو يقول لهم : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ .

ويرى فيه بعد هذا التلبيس على قومه ، التهديد الغليظ - شأن الطغاة فى كل زمان

ومكان - فهو يقول للسحرة الذين صاروا مؤمنين : ﴿ فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ أى : بدون استثناء لواحد منهم .

ولم يلتفت السحرة إلى هذا التهديد والوعيد بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، بل قالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ لا ضير ﴾ مصدر ضاره الأمر يضوره ويضيره ضيرا ، أى : ضره وألحق به الأذى .

أى : قالوا - بكل ثبات وعدم مبالاة بوعيده - لا ضرر علينا من عقابك فسنتحمله صابرين فى سبيل الحق الذى آمنا به .

﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أى : راجعون إليه ، فيجازينا على صبرنا .

﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ التى وقعنا فيها قبل الإيمان ، كعبادة فرعون وكتعاطى السحر ﴿ أن كنا ﴾ أى : لأن كنا ﴿ أول المؤمنون ﴾ بالحق بعد أن جاءنا .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما أمر به نبيه موسى - عليه السلام - وما حل بفرعون وقومه من هلاك بسبب كفرهم وبغيهم ، فقال - تعالى - :

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى .. ﴾ معطوف على كلام مقدر يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن انتصر موسى على السحرة نصرا جعلهم يخرون ساجدين لله - تعالى - وبعد أن مكث موسى فى مصر حينا من الدهر ، يدعو فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فلم يستجيبوا له ..

بعد كل ذلك ﴿ أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ﴾ أى : سر ببنى إسرائيل ليلا إلى جهة البحر وعبر - سبحانه - عنهم بعبادى . تلطفا بهم بعد أن ظلوا تحت ظلم فرعون مدة طويلة .

وقوله : ﴿ إنكم متبعون ﴾ تعليل للأمر بالإسراء . أى : سر بهم ليلا إلى جهة البحر ، لأن فرعون سيتبعكم بجنوده ، وسأقضى قضائى فيه وفى جنده .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ﴾ هى الفصيحة ، والحاشرين جمع حاشر : والمراد بهم الذين يحشرون الناس ويجمعونهم فى مكان معين ، لأمر من الأمور الهامة .

قالوا : جمعوا له جيشا كبيرا يتكون من مئات الآلاف من الجنود . أى : وعلم فرعون بخروج موسى ومعه بنو إسرائيل . فأرسل جنوده ليجمعوا له الناس من المدائن المتعددة فى مملكته .

وبعد أن اكتمل عددهم ، أخذ فى التهوين من شأن موسى ومن معه فقال : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ .

والشرذمة : الطائفة القليلة من الناس - وخصها بعضهم بالأخساء والسفلة منهم . ومنه قولهم : هذا ثوب شرذام ، وثياب شراذم ، أى : رديئة متقطعة .

أى : إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذنى وإذنكم ، لطائفة قليلة من الناس الذين هم بمنزلة العبيد والخدم لى ولكم .

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أى : وإنهم بجانب قلتهم ، وخروجهم بدون إذننا ، يأتون بأقوال وأفعال تغيظنا وتغضبنا ، على رأسها اقتراحهم علينا أن نترك ديننا .

﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ أى : متيقظون لمكائدهم ، ومحتاطون لمكرهم ، وممسكون بزمام الأمور حتى لا يؤثر فينا خداعهم .

يقال : حذر فلان حذرا - من باب تعب - بمعنى : استعد للأمر وتأهب له بيقظة ..

وكلام فرعون هذا - الذى حكاه القرآن عنه - يوحى بهلعه وخوفه مما فعله موسى - عليه السلام - إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتهوين من شأنه ومن شأن الذين خرجوا معه وبتحريض قومه على اللحاق بهم وتأديبهم ، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه لمجابهة الأخطار والتمرد بكل قوة وحزم .

قال صاحب الكشاف : والمعنى : أنهم - أى موسى ومن معه - لقلتهم لا يبالى بهم ، ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه ، وقرىء : حذرون .. والحذر : اليقظ . والحاذر : الذى يجدد حذره ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما اقتضته إرادته ومشيئته فى فرعون وقومه فقال : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴾ أى : فأخرجناهم بقدرتنا وإرادتنا من ﴿ جنات ﴾ .

أى : بساتين كانوا يعيشون فيها ﴿ وعيون ﴾ عذبة الماء كانوا يشربون منها .

﴿ وكنوز ﴾ أى : وأموال كانت تحت أيديهم ﴿ ومقام كريم ﴾ أى : ومساكن حسنة جميلة كانوا يقيمون فيها .

أى : أخرجناهم من كل ذلك بقدرتنا ومشيئتنا ، ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الغرق ، بسبب إصرارهم على كفرهم وطغيانهم .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمر كذلك .

وقوله : ﴿ وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ أى : وأورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمنازل الحسنة لبنى إسرائيل .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وأورثناها ﴾ أى : الجنات والعيون والكنوز لبنى إسرائيل ، وذلك أن الله - عز وجل - رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه ، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن الحسنة ..

والظاهر أن هذه الجملة اعتراضية ، وأن قوله - بعد ذلك - ﴿ فأتبعوهم ﴾ معطوف على

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣١٥ .

قوله - تعالى - : ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون﴾ .. لأن إعطاء البساتين و ما بعدها لبنى إسرائيل ، كان بعد هلاك فرعون وقومه[١] .

ومن العلماء من يرى أن بنى إسرائيل لم يعودوا لمصر بعد هلاك فرعون وقومه ، وأن الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وأورثناها ﴾ لا يعود إلى الجنات والعيون التى أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه . فيقول : ولا يعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه ، لذلك يقول المفسرون إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهى وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم »[٢] .

وقيل : المراد بالوراثة هنا : وراثة ما استعاره بنو إسرائيل من حلى آل فرعون عند خروجهم من مصر مع موسى - عليه السلام - .

ويبدو لنا أنه لا مانع من عودة الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وأورثناها ﴾ إلى الجنات والعيون والكنوز التى أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه ، بأن عاد موسى ومن معه إلى مصر - لفترة معينة - بعد هلاك فرعون وملئه ، ثم خرجوا منها بعد ذلك مواصلين سيرهم إلى الأرض المقدسة ، التى أمرهم موسى - عليه السلام - بدخولها .

ولعل مما يؤيد ما نرجحه قوله - تعالى - : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[٤] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حدث من فرعون وقومه ، وما قاله بنو إسرائيل عندما شاهدوهم ، فقال - تعالى - ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ .

أى : أخرجنا فرعون وقومه من أموالهم ومساكنهم .. فساروا مسرعين خلف موسى ومن معه ، ﴿ فأتبعوهم ﴾ أى : فلحقوا بهم ﴿ مشرقين ﴾ أى : فى وقت شروق الشمس يقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٨٠ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٩ ص ٢١٢ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٣٧ .
(٤) سورة القصص الآيتان ٥ ، ٦ .

أشرق فلان إذا دخل فى وقت الشروق ، كأصبح إذا دخل فى وقت الصباح .

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أى : تقاربا بحيث يرى كل فريق خصمه .

﴿ قال ﴾ بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - والخوف يملأ نفوسهم : ﴿ إنا لمدركون ﴾ أى : سيدركنا بعد قليل فرعون وجنوده ، ولا قدرة لنا .. على قتالهم ..

وهنا رد عليهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات بقوله : ﴿ كلا ﴾ أى : كلا لن يدركوكم ، فاثبتوا ولا تجزعوا ﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ .

بهذا الجزم والتأكيد رد موسى على بنى إسرائيل ، وهو رد يدل على قوة إيمانه ، وثبات يقينه ، وثقته التى لا حدود لها فى نصر الله - تعالى - له ، وفى هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح .

ولم يطل انتظار موسى لنصر الله - تعالى - بل جاءه سريعا متمثلا فى قوله - سبحانه - ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ﴾ أى : البحر الأحمر - على أرجح الأقوال - وهو الذى كان يسمى ببحر القلزم ..

فضربه ﴿ فانفلق ﴾ إلى اثنى عشر طريقا ﴿ فكان كل فرق ﴾ أى : قسم منه ﴿ كالطود العظيم ﴾ أى : كالجبل الشامخ الكبير .

وسار موسى ومن معه فى الطريق اليابس بين أمواج البحر - بقدرة الله - تعالى - ، ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أى : وقربنا - بقدرتنا وحكمتنا - هنالك القوم الآخرين وهم فرعون وجنوده . أى : قربناهم من موسى وقومه فدخلوا وراءهم فى الطريق الذى سلكوه بين أمواج البحر ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن خرج موسى ومن معه سالمين ، أما فرعون وجنوده فقد انطبق عليهم البحر فأغرقهم أجمعين .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وأنجينا ﴾ - أى : بقدرتنا ورحمتنا - ﴿ موسى ومن معه أجمعين ﴾ من الغرق ومن لحاق فرعون بهم ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ وهم فرعون وجنوده .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة - كما ختم غيرها - بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من قصة موسى وفرعون ، ﴿ لآية ﴾ عظيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لنا ، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به نبينا موسى ، إلا عدد قليل ، ﴿ وإن ربك ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ لهو

العزيز ﴾ . أى : الغالب المنتقم من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ أى : الواسع الرحمة بأوليائه ، حيث جعل العاقبة لهم .

وهكذا ساق لنا - سبحانه - هنا جانبا من قصة موسى - عليه السلام - بهذا الأسلوب البديع ، لتكون عبرة وعظة لقوم يؤمنون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وقصة إبراهيم - عليه السلام - قد وردت فى القرآن فى سور متعددة ، وبأساليب متنوعة ، وردت فى سورة البقرة ، وكان معظم الحديث فيها ، يدور حول بنائه للبيت الحرام هو وابنه إسماعيل ، وحكاية تلك الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إلى ربه .

ووردت فى سورة الأنعام ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول إقامته الأدلة على وحدانية الله - تعالى - عن طريق التأمل فى مشاهد هذا الكون .

ووردت فى سورة هود ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول تبشيره بإسحاق ..

ووردت فى سورة إبراهيم ، وكان معظم الحديث فيها بدور حول ما توجه به إلى ربه من دعاء بعد أن ترك بعض ذريته فى جوار بيت الله الحرام .

ووردت فى سورة الحجر . وكان معظم الحديث فيها يدور حول ما دار بينه و بين الملائكة من مناقشات ..

ووردت فى سورة مريم ، وفيها حكى القرآن تلك النصائح الحكيمة التى وجهها لأبيه وهو يدعوه لعبادة الله - تعالى - وحده .

ووردت فى سورة الأنبياء . وفيها عرض القرآن لما دار بينه وبين قومه من مجادلات ومن تحطيم للأصنام ، ومن إلقائهم إياه فى النار فصارت بأمر الله - تعالى - بردا وسلاما عليه .

أما هنا فى سورة الشعراء ، فيحكى لنا - سبحانه - ما دار بينه وبين قومه من مناقشات ، وما توجه به إلى خالقه من دعوات .

لقد افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ أى : واقرأ - أيها الرسول الكريم - على قومك - أيضا - نبأ رسولنا إبراهيم - عليه السلام - الذى يزعم قومك أنهم ورثته ، وأنهم يتبعونه فى ديانته ، مع أن إبراهيم برىء منهم ومن شركهم ، لأنه ما أرسل إلا لنهى أمثالهم عن الإشراك بالله - تعالى - .

وقوله : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ منصوب على الظرفية . أى : اقرأ عليهم نبأه وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - عز وجل - ؟ .

فأجابوه بقولهم : ﴿ نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ وكان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا : نعبد أصناما ، ولكنهم لغبائهم وجهلهم قصدوا التباهى والتفاخر بهذه العبادة الباطلة أى : نعبد أصناما منحوتة من الحجر أو مما يشبهه ، ونداوم على عبادتها ليلا ونهارا ، ونعكف على التقرب لها كما يتقرب الحبيب إلى حبيبه .

وهكذا ، عندما تنحط الأفهام ، تتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل ..

وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، فقال لهم : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل التنبيه والتبكيت : هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا دعوتموها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها ، وهل تملك أن تنفعكم بشىء من النفع أو تضركم بشىء من الضر ؟ .

ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب . بعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته ، فلجأوا إلى التمسح بآبائهم فقالوا : ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

أى : قالوا له : إن هذه الأصنام هى كما قلت يا إبراهيم لا تسمع دعاءنا ، ولا تنفعنا ولا تضرنا ، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها ، فسرنا على طريقتهم فى عبادتها ، فهم قالوا ما قاله أمثالهم فى الجهالة فى كل زمان ومكان ﴿..إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

وأمام هذا التقليد الأعمى ، نرى إبراهيم - عليه السلام - يعلن عداوته لهم ولمعبوداتهم الباطلة ، و يجاهرهم بأن عبادته إنما هى لله - تعالى - وحده فيقول :

﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التى عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى - إنها عدو لى لأن عبادتها باطلة لكن الله - تعالى - رب العالمين هو وليى وصاحب الفضل على فى الدنيا والآخرة ، فلذا أعبده وحده .

فقوله ﴿ إلا رب العالمين ﴾ استثناء منقطع من ضمير ﴿ إنهم ﴾ .

قال صاحب الكشاف : وإنما قال : ﴿ عدو لى ﴾ تصويرا للمسألة فى نفسه ، على معنى : أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدوفاجتنبتها وآثرت عبادة الذى الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول . ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن

الشافعي - رحمه الله - : أن رجلا واجهه بشيء ، فقال : لو كنتُ بحيث أنت ، لاحتجتُ إلى الأدب . وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحِجْر فقال : ما هو بيتى ولا بيتكم ..[١] .

ثم حكى القرآن الكريم ، ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات كريمة تليق بجلاله - سبحانه - فقال : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ أى : أخلص عبادتى لرب العالمين ، الذى أوجدنى بقدرته ، والذى يهدينى وحده إلى ما يصلح شأنى فى دنياى وفى آخرتى .

قال الجمل وقوله : ﴿ الذى خلقنى ﴾ يجوز فيه أوجه : النصب على النعت لرب العالمين أو البدل أو عطف البيان .. أو الرفع على الابتداء . وقوله ﴿ فهو يهدين ﴾ جملة اسمية فى محل رفع خبر له[٢] .

وقوله : ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ معطوف على ما قبله . أى : وهو - سبحانه - وحده الذى يطعمنى ويسقينى من فضله ، ولو شاء لأمسك عنى ذلك .

وأضاف المرض إلى نفسه فى قوله ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وإن كان الكل من الله - تعالى - تأدبا مع خالقه - عز وجل - وشكرا له - سبحانه - على نعمة الخلق والهداية . والإطعام والإسقاء والشفاء ..

والمراد بالإحياء فى قوله : ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أى : ومن صفات رب العالمين الذى أخلص له العبادة ، أنه - سبحانه - الذى بقدرته وحده أن يميتنى عند حضور أجلى ، ثم يعيدنى إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .

وجاء العطف بـ ﴿ ثم ﴾ فى قوله ﴿ ثم يحيين ﴾ لاتساع الأمر بين الإماتة فى الدنيا والإحياء فى الآخرة .

ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة بقوله : ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ أى : وهو وحده الذى أطمع أن يغفر لى ذنوبى يوم ألقاه لأنه لا يقدر على ذلك أحد سواه - عز وجل - .

وفى هذه الآية أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه - سبحانه - ، لأنه يوجه طمعه فى المغفرة إليه وحده ، ويستعظم - عليه السلام - ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا ، هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن تجتنب المعاصى ، وأن تكون منها على حذر وأن تفوض رجاءها إلى الله - تعالى - وحده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣١٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٨٢ .

وبعد أن أثنى إبراهيم - عليه السلام - على ربه بهذا الثناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات فقال : ﴿ رب هب لى حكما ﴾ أى : علما واسعا مصحوبا بعمل نافع .

﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ من عبادك الذين رضيت عنهم - ورضوا عنك ، بحيث ترافقنى بهم فى جنتك .

﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ أى : واجعل لى ذكراً حسناً ، وسمعة طيبة ، وأثراً كريما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

وقد أجاب - سبحانه - له هذه الدعوة ، فجعل أثره خالدًا ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد - ﷺ - .

﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ أى : واجعلنى فى الآخرة عندما ألقاك - ياربى - للحساب ، من عبادك الذين أكرمتهم بدخول جنتك وبوراثتها فضلا منك وكرما .

﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾ عن طريق الحق ، فإنى قد وعدته بأن استغفر له عندك - يا إلهى - .

قال ابن كثير : وهذا مما رجع عنه إبراهيم - عليه السلام - كما قال - تعالى - : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[1] .

وقد قطع - تعالى - الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ..[2] ﴾ .

﴿ ولا تخزنى ﴾ أى : ولا تفضحنى ﴿ يوم يبعثون ﴾ أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب ، بل استرنى واجبرنى وتجاوز عن تقصيرى .

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ من أحد لديك .

﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ أى : واسترنى - يا إلهى - ولا تفضحنى يوم القيامة ، يوم لا ينتفع الناس بشىء من أموالهم ولا من أولادهم ، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم

(١) سورة التوبة الآية ١١٤ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ٤ .

لعبادتك . وبسلامتها من كل شرك أو نفاق ، وبصيانتها من الشهوات المرذولة . والأفعال القبيحة .

وهكذا نرى فى قصة إبراهيم : الشجاعة فى النطق بكلمة الحق ، حيث جابه قومه وأباه ببطلان عبادتهم للأصنام .

ونرى الحجة الدامغة التى جعلت قومه لا يجدون عذرا يعتذرون به عن عبادة الأصنام سوى قولهم : ﴿ وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

ونرى الثناء الحسن الجميل منه على ربه - عز وجل - : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ .

ونرى الدعاء الخاشع الخالص الذى يتضرع به إلى خالقه - عز وجل - ، لكى يرزقه العلم والعمل ، وبأن يحشره مع الصالحين ، وأن يجعل له أثرا طيبا بعد وفاته بين الأمم الأخرى ، وبأن يجعله من الوارثين لجنة النعيم ، وبأن يستره بستره الجميل يوم القيامة ، يوم لا ينفع الناس شىء سوى إخلاص قلوبهم وعملهم الصالح ، وهى دعوات يرى المتأمل فيها شدة خوف إبراهيم - وهو الحليم الأواه المنيب - من أهوال يوم الحساب .

نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه ، أن يجنبنا إياها ، وأن يسترنا بستره الجميل .

ثم يبين - سبحانه - بعد ذلك مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، ويحكى أقوال الغاوين وحسراتهم .. فيقول :

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأزلفت الجنة ... ﴾ من الإزلاف بمعنى القرب والدنو .

أى : وقربت الجنة يوم القيامة للمتقين ، الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضاه الله - تعالى - ، وصارت بحيث يشاهدونها ويتلذذون برؤيتها .

﴿وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أى : أما الغاوون الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغواية على الهداية ، فقد برزت الجحيم لهم بأهوالها وسعيرها ثم قيل لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتأنيب : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله ﴾ أى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا من دون الله - تعالى - وتزعمون أنها شفعاؤكم عنده ؟!

﴿ هل ينصرونكم ﴾ الآن من هذا العذاب المعد لكم ﴿ أو ينتصرون ﴾ هم من العذاب الذى سيحل بهم معكم ؟ .

كلا ثم كلا ، إنكم وهم حصب جهنم ، وستدخلونها جميعا خاسئين .

وليس المقصود بالسؤال الاستفهام ، وإنما المقصود به التقريع والتوبيخ ، ولذا لا يحتاج إلى جواب .

ثم ذكر - سبحانه - ما حل بهؤلاء الأشقياء من عذاب فى أعقاب هذا التأنيب فقال : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون ﴾ .

والكبكبة : تكرير الكب ، وهو الإلقاء على الوجه مرة بعد أخرى ، وضمير الجمع للآلهة التى عبدها الكافرون من دون الله - تعالى - : وجيء بضمير العقلاء على سبيل التهكم بهم ، أى : فألقى المعبودون والعابدون فى جهنم ، ومعهم جنود إبليس كلهم سواء أكانوا من الشياطين أم من أتباعه من الجن والإنس .

وفى التعبير بكبكبوا تصوير صادق مؤثر لحالة هؤلاء الضالين ، وهم يتساقطون - والعياذ بالله - فى جهنم ، بلا رحمة ، ولا عناية ، ولا نظام ، بل بعضهم فوق بعض وقد تناثرت أشلاؤهم ..

ثم بين - سبحانه - ما قاله الغاوون لآلهتهم فقال : ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ..

أى : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم : تالله ما كنا إلا فى ضلال مبين ، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون .

﴿ وما أضلنا ﴾ عن اتباع طريق الحق ﴿ إلا المجرمون ﴾ من شياطين الإنس والجن . الذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان ، وصدونا عن الإيمان والطاعة والهداية .

﴿ فما لنا ﴾ اليوم ﴿ من شافعين ﴾ يشفعون لنا عند ربنا . وما لنا - أيضا - من ﴿ صديق حميم ﴾ أى : مخلص فى صداقته ، يدافع عنا عند ربنا ، ويهتم بأمرنا فى هذا الموقف العصيب .

قال الآلوسى ، والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه ، أو صديق شفيق يهمه ذلك . وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم فى التأسف ، حيث نفوا - أولا - أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا - ثانيا - أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ، ويتوجع لهم ، أو يخلصهم ..[1] .

و ﴿ لو ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ فلو أن لنا كرة ... ﴾ للتمنى الدال على كمال التحسر. والكرة : الرجعة إلى الدنيا مرة أخرى لتدارك ما فاتهم من الإيمان .

أى : فياليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى ، فنستدرك ما فاتنا من طاعة الله - تعالى - ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ الذين أزلفت الجنه لهم ، وأبعدت عنهم النار التى نحن مخلدون فيها .

ثم ختم - سبحانه - قصة إبراهيم بما ختم به قصة موسى - عليهما السلام - فقال : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ... ﴾ .

إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن حال إبراهيم مع قومه ومع أبيه ، وعن أهوال يوم القيامة ، إن ذلك كله لحجة وعظة لمن أراد أن يؤمن ويعتبر ، ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نوح مع قومه ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

تلك هى قصة نوح مع قومه ، كما وردت فى هذه السورة ، وقد ذكرت فى سور أخرى منها سور : الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح .. ولكن بأساليب أخرى .

وينتهى نسب نوح – عليه السلام – إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله – تعالى – إليهم نوحا ، ليدلهم على طريق الرشاد .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جذ واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا لمجاورته لهم .

قال الآلوسى : والقوم - كما فى المصباح - يذكر ويؤنث ، وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ، ولذا يصغر على قويمة ، وقيل : هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه ..[1] .

والمراد بالمرسلين فى قوله - تعالى - : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ نبيهم نوحا - عليه السلام - وعبر عنه بذلك ، لأن تكذيبهم له ، بمثابة التكذيب لجميع الرسل ، لأنهم قد جاءوا جميعا برسالة واحدة فى أصولها التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان .

و﴿ إذ ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ﴾ أى : كذبوا نبيهم نوحا وقت أن قال لهم ناصحا ومنذرا ﴿ ألا تتقون ﴾ أى : ألا تتقون الله - تعالى - الذى خلقكم ورزقكم ، فتخلصوا له العبادة وتتركوا عبادة غيره .

ووصفه - سبحانه - بالأخوة لهم ، لأنه كان واحدا منهم يعرفون حسبه ونسبه ونشأته بينهم .

ثم علل نصحه لهم بقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إنى لكم رسول أمين ﴾ آمركم بتقوى الله - تعالى - لأنى رسول معروف بينكم بالأمانة وعدم الخيانة أو الغش أو المخادعة .

وما دام أمرى كذلك : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه ﴾ أى على هذا النصح ﴿ من أجر ﴾ دنيوى ﴿ إن أجرى ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ فهو الذى أرسلنى إليكم ، وهو الذى يتفضل بمنحى أجرى لا أنتم .

ولقد بينت لكم حقيقة أمرى ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .

وهكذا نرى أن نوحا قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى دعوتهم إلى الله ، فهو يحضهم ثلاث مرات على تقوى الله بعد أن يبين لهم أخوته لهم ، وأمانته عندهم ، وتعففه عن أخذ أجر منهم فى مقابل ما يدعوهم إليه من حق وخير ، ومصارحته إياهم بأن أجره إنما هو من الله رب العالمين ، وليس من أحد سواه .

فماذا كان ردهم على هذا القول الحكيم لنبيهم ؟ لقد حكى القرآن ردهم فقال : ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ .

والأرذلون : جمع الأرذل . وهو الأقل من غيره فى المال والجاه والنسب .

أى : قال قوم نوح له عندما دعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - : يا نوح أنؤمن

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٠٦ .

لك ، والحال أن الذين اتبعوك من سفلة الناس وفقرائهم ، وأصحاب الحرف الدنيئة فينا .. ؟ .

وهذا المنطق المرذول قد حكاه القرآن فى كثير من آياته ، على ألسنة المترفين ، وهم يردون على أنبيائهم عندما يدعونهم إلى الدين الحق ..

وهنا يرد عليهم نوح ردا حكيما ﴿ قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى ﴾ ..

أى : قال لهم على سبيل الاستنكار لما واجهوه به : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله - تعالى - أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها .

وهؤلاء الضعفاء - الأرذلون فى زعمكم - ليس حسابهم إلا على الله - تعالى - وحده ، فهو أعلم ببواطنهم وبأحوالهم منى ومنكم ﴿ لو تشعرون ﴾ أى : لو كنتم من أهل الفهم والشعور بحقائق الأمور لا بزيفها ، لعلمتم سلامة ردى عليكم ولكنكم قوم تزنون الناس بميزان غير عادل ، لذا قلتم ما قلتم .

ثم يحسم الأمر معهم فى هذه القضية فيقول : ﴿ وما أنا ﴾ بحال من الأحوال ﴿ بطارد المؤمنين ﴾ الذين اتبعونى وصدقونى وآمنوا بدعوتى سواء أكانوا من الأرذلين - فى زعمكم - أم من غيرهم ، ﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ أى : ليست وظيفتى إلا الإنذار الواضح للناس بسوء المصير ، إذا ما استمروا على كفرهم ، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد جمع فى رده عليهم ، بين المنطق الرصين الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم .

لذا نراهم وقد أخرسهم المنطق المستقيم الذى سلكه نوح معهم ، يلجأون إلى التهديد والوعيد لنبيهم - عليه السلام - : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ .

أى : إذا لم تكف يا نوح عن مجادلتك لنا ، ومن دعوتك إيانا إلى ترك عبادة آلهتنا ، لتكونن من المرجومين منا بالحجارة حتى تموت .

وهكذا الطغاة يلجأون إلى القوة والتهديد والوعيد ، عندما يجدون أنفسهم وقد حاصرهم أصحاب الحق من كل جوانبهم ، بالحجة الواضحة ، وبالرأى السديد ..

ويئس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه ، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبعد أن سمع منهم ما يدل على رسوخهم فى الكفر والضلال ، تضرع إلى ربه ﴿ قال

رب إن قومى كذبون ﴾ واستمروا على هذا التكذيب تلك القرون المتطاولة ﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾ أى فاحكم بقدرتك العادلة بينى وبينهم حكما من عندك ، تنجى به أهل الحق ، وتمحق به أهل الباطل .

وسمى الحكم فتحا ، لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر ، كما أن فتح الشىء المغلق يؤدى إلى إزالة هذا الإغلاق . ولذا قيل للحاكم فاتح لفتحه أغلاق الحق .

ثم حكى - سبحانه - أنه قد استجاب لنوح دعاءه فقال : ﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ .

والفلك - كما يقول الآلوسى - : يستعمل للواحد وللجمع . وحيث أتى فى القرآن الكريم فاصلة استعمل مفردًا . وحيث أتى غير فاصلة استعمل جمعا .

والمشحون : المملوء بهم وبكل ما يحتاجون إليه من وسائل المعيشة .

أى : فاستجبنا لعبدنا نوح دعاءه . فأنجيناه ومن معه من المؤمنين فى السفينة المملوءة بهم . وبما هم فى حاجة إليه ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه على كفرهم وضلالهم ..

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه ﴿ لآية ﴾ كبرى على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانبا من قصة هود - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

وقد وردت قصة هود مع قومه فى سور شتى منها : سورة الأعراف ، وهود ، والأحقاف ..

وينتهى نسب هود - عليه السلام - إلى نوح - عليهما السلام - .

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - .

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - نبيهم هودا لينهاهم عن ذلك ، وليأمرهم بعبادة الله وحده . وبشكره - سبحانه - على ما وهبهم من قوة وغنى .

وقد افتتح هود نصحه لقومه ، بحضهم على تقوى الله وإخلاص العبادة له وبيان أنه أمين فى تبليغ رسالة الله - تعالى - إليهم ، فهولا يكذب عليهم ولا يخدعهم ، وببيان أنه لايسألهم أجراً على نصحه لهم ، وإنما يلتمس الأجر من الله - تعالى - وحده .

وقد سلك فى ذلك المسلك الذى اتبعه جده - عليه السلام - مع قومه ، وسار عليه الأنبياء من بعده .

ثم استنكر هود - عليه السلام - ما كان عليه قومه من ترف وطغيان فقال لهم : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ .

والريع بكسر الراء - جمع ريعة . وهو المكان المرتفع من الأرض أو الجبل المرتفع .. وقيل : المراد به أبراج الحمام كانوا يبنونها للهو واللعب والأكثرون على أن المراد به : المكان المرتفع ومنه : ريع النبات ، وهو ارتفاعه بالزيادة .

أى : أتبنون - على سبيل اللهو واللعب - فى كل مكان مرتفع ، بناء يعتبر آية وعلامة على

عبثكم وترفكم ، وغروركم .

﴿ وتتخذون ﴾ أى : وتعملون ﴿ مصانع ﴾ أى : قصورا ضخمة متينة ، أو حياضا تجمعون فيها مياه الأمطار .. ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ أى : عاملين عمل من يرجو الخلود فى هذه الحياة الفانية ﴿ وإذا بطشتم ﴾ أى : وإذا أردتم السطو والظلم والبغى على غيركم ﴿ بطشتم جبارين ﴾ .

أى : أخذتموه بعنف وقهر وتسلط دون أن تعرف الرحمة إلى قلوبكم سبيلا .

فأنت ترى أن هودا - عليه السلام - قد استنكر على قومه تطاولهم فى البنيان بقصد التباهى والعبث والتفاخر ، لا بقصد النفع العام لهم ولغيرهم . كما استنكر عليهم انصرافهم عن العمل الصالح الذى ينفعهم فى آخرتهم وانهماكهم فى التكاثر من شئون دنياهم حتى لكأنهم مخلدون فيها ، كما استنكر عليهم - كذلك - قسوة قلوبهم ، وتحجر مشاعرهم ، وإنزالهم الضربات القاصمة بغيرهم بدون رأفة أو شفقة .

وبعد نهيه إياهم عن تلك الرذائل ، أمرهم بتقوى الله وطاعته وشكره على نعمه فقال : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

أى : اتركوا هذه الرذائل ، واتقو الله وأطيعون فى كل ما آمركم به . أو أنهاكم عنه ، واتقوا الله - تعالى - الذى أمدكم بألوان لا تحصى من النعم ، فقد أمدكم بالأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم - التى هى أعز أموالكم ، وأمدكم بالأولاد ليكونوا قوة لكم ، وأمدكم بالبساتين العامرة بالثمار ، وبالعيون التى تنتفعون بمائها العذب .

ثم ختم إرشاده لهم ، ببيان أنه حريص على مصلحتهم ، وأنه يخشى عليهم إذا لم يستجيبوا لدعوته أن ينزل بهم عذاب عظيم فى يوم تشتد أهواله ولا تنفعهم فيه أموالهم ولا أولادهم .

وبذلك نرى أن هودا - عليه السلام - قد جمع فى نصحه لقومه بين الترهيب والترغيب ، وبين الإنذار والتبشير ، وبين التعفف عن دنياهم ، والحرص على مصلحتهم .

ولكن هذه النصائح الحكيمة ، لم يستقبلها قومه استقبالا حسنا ، ولم تجد منهم قبولا ، بل كان ردهم عليه - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين .. ﴾ .

أى : قال قوم هود له بعد أن وعظهم ونصحهم : قالوا له بكل استهتار وسوء أدب : يا هود يستوى عندنا وعظك وعدمه ، ولا يعنينا أن تكون ممن يجيدون الوعظ أو من غيرهم ممن لا يحسنون الوعظ والإرشاد .

قال صاحب الكشاف : فإن قيل : « أوعظت أو لم تعظ » كان أخصر . والمعنى واحد .

قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأن المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ .[1] .

ثم أضافوا إلى قولهم هذا قولا آخر لا يقل عن سابقه فى الغرور وانطماس البصيرة فقالوا : ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ أى : ما هذا الذى تنهانا عنه من التطاول فى البنيان ، ومن اتخاذ المصانع .. إلا خلق آبائنا الأولين ، ومنهجهم فى الحياة ، ونحن على آثارهم نسير وعلى منهجهم نمشى .

قال القرطبى ما ملخصه : قرأ اكثر القراء ﴿ إلا خلق الأولين ﴾ - بضم الخاء واللام - أى : عادتهم ودينهم ومذهبهم وما جرى عليه أمرهم ..

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى إلا خلق الأولين - بفتح الخاء و إسكان اللام - أى : ما هذا الذى جئتنا به ياهود إلا اختلاق الأولين وكذبهم ، والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخلق ، أى : بالخرافات والأحاديث المفتعلة ..[2] .

وعلى كلتا القراءاتين فالآية الكريمة تصور ما كانوا عليه من تحجر وجهالة تصويرًا بليغاً .

ثم انتقلوا بعد ذلك إلى غرور أشد وأشنع فقالوا : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ .

أى : هذه : حالنا التى ارتضيناها لحياتنا ، وما نحن بمعذبين على هذه الأعمال التى نعملها .

وهكذا رد قوم هود على نبيهم - عليه السلام - بهذا الرد السيء الذى يدل على استهتارهم وجفائهم وجمودهم على باطلهم .

ولذا جاءت نهايتهم الأليمة بسرعة وحسم ، قال - تعالى - : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ .

أى : أصر قوم هود على باطلهم وغرورهم فأهلكناهم ﴿ بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية[3] ﴾ أهلكهم الله - تعالى - دون أن تنفعهم أموالهم ، أو قوتهم التى كانوا يدلون بها ويقولون : ﴿ من أشد منا قوة[4] ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٢٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٢٥ .
(٣) سورة الحاقة الآية ٦ ، ٧
(٤) سورة فصلت الآية ١٥ .

وختم – سبحانه – قصتهم بما ختم به قصة نوح مع قومه من قبلهم ، فقال – تعالى – : ﴿ إن ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم ساق – سبحانه – بعد ذلك قصة صالح مع قومه ، فقال – تعالى – :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

وقد وردت قصة صالح مع قومه فى سور أخرى منها الأعراف ، وهود ، والنمل ، والقمر ..

وثمود اسم للقبيلة التى أرسل إليها صالح – عليه السلام – والثمد : الماء القليل ... وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله – تعالى – واحدا منهم – هو صالح – لكى يأمرهم بعبادة الله وحده .

ومازالت مساكنهم تعرف إلى الآن بمدائن صالح ، فى المنطقة التى بين المدينة المنورة والشام ، وقد مر النبى - ﷺ - على ديارهم وهو متوجه إلى غزوة تبوك ..

وقد نصح صالح قومه ، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله ، فقد أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم ، وبتعففه عن تعاطى الأجر على نصحه لهم .

ثم وعظهم بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شكر الله - تعالى - على نعمه فقال لهم : ﴿ أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم .. ﴾ .

والاستفهام للإنكار . والطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور ، وأصله ثمر النخل فى أول ما يطلع ، وهو بعد التلقيح يسمى خلالا - بفتح الخاء - ثم يصير بسرا ، فرطبا ، فتمرا .

والهضيم : اليانع والنضيج ، أو الرطب اللين اللذيذ الذى تداخل بعضه فى بعض وهو وصف للطلع الذى قصد به الثمار الناضجة الطيبة لصيرورته إليها .

والمعنى : أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالقكم - عز وجل - وأنتم تتقلبون فى نعمه التى منها ماأنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة .

إن كنتم تظنون ذلك ، فأقلعوا عن هذا الظن ، واعتقدوا بأنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم ، إلى زوال ، وعليكم أن تخلصوا لخالقكم العبادة والشكر لكى يزيدكم من فضله ..

فأنت ترى أن - صالحا - عليه السلام قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ ، لكى يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو طاعة الله - تعالى - وشكره ، وقد استعمل فى وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم تشمل البساتين والعيون ، والزروع المتعددة ، والنخيل الجيدة الطلع ، اللذيذة الطعم ، حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه ، لا يحتاج إلى هضم فى البطون .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى ، وكرر عليهم الأمر بتقوى الله فقال : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .

وقوله : ﴿ وتنحتون ﴾ معطوف على ﴿ تتركون ﴾ فهو داخل فى حيز الإنكار عليهم ، لعدم شكرهم لله - تعالى - والنحت : البرى . يقال : نحت فلان الحجر نحتا إذا براه وأعده للبناء .

و﴿ فارهين ﴾ أى : ماهرين حاذقين فى نحتها . من فره - ككرم - فراهة . إذا برع فى فعل الشىء ، وعرف غوامضه ودقائقه .

قال القرطبى : وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ فرهين ﴾ بغير ألف فى الفاء . وهى بمعنى واحد .. وفرق بينهما قوم فقالوا : ﴿ فارهين ﴾ أى حاذقين فى نحتها ... وفرهين - بغير

ألف - . أى : أشرين بطرين فرهين ..[١] .

أى : وأنهاكم - أيضا - عن انهاككم فى نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة ، لكى تبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد الأشر والبطر ، لا يقصد الإصلاح والشكر لله - فمحل النهى إنما هو قصد الأشر والبطر فى البناء وفى النحت .

ثم نهاهم عن طاعة المفسدين فى الأرض بعد أن أمرهم بتقوى الله فقال : ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ .

أى : اجعلوا طاعتكم لله - تعالى - وحده ، ولى بصفتى رسوله إليكم ، واتركوا طاعة زعمائكم وكبرائكم المسرفين فى إصرارهم على الكفر والجحود والذين من صفاتهم أنهم يفسدون فى الأرض فسادا لا يخالطه إصلاح .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين .. ﴾ كأنه عنى بالخطاب جمهور قومه . وبالمسرفين كبراءهم فى الكفر والإضلال . وكانوا تسعة رهط .. والإسراف : تجاوز الحد فى كل أمر .. والمراد به هنا : زيادة الفساد .. والمراد بالأرض : أرض ثمود . وقيل : الأرض كلها . ولما كان قوله ﴿ يفسدون ﴾ لا ينافى إصلاحهم أحيانا ، أردفه بقوله - تعالى - : ﴿ ولا يصلحون ﴾ لبيان كمال إفسادهم . وأنه لم يخالطه إصلاح أصلا .[٢] .

ولكن هذا النصح الحكيم من صالح لقومه ، لم يقابل منهم بأذن صاغية ، بل قابلوه بالتطاول والاستهتار وإنكار رسالته ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ .

أى : قال قوم صالح له : أنت لست إلا من الذين غلب عليهم السحر ، وأثر فى عقولهم ، فصاروا يتكلمون بكلام المجانين . وما أنت - أيضا - إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل . وتشرب الشراب كما نشرب .. فإن كنت رسولا حقا فأتنا بعلامة ومعجزة تدل على صدقك فى دعواك الرسالة وكأنهم - لجهلهم وانطماس بصائرهم - يرون أن البشرية تتنافى مع النبوة والرسالة ، وتضرع صالح - عليه السلام - إلى ربه - عز وجل - أن يمنحه معجزة لعلها تكون سببا فى هداية قومه ، وأجاب الله - تعالى - تضرعه ، فقال - سبحانه - : ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم ﴾ .

قال ابن كثير : ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، فطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من صخرة عندهم ناقة عُشَرَاء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٢٩ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١١٣ .

أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ، فأنعموا بذلك - أى : قالوا نعم - فقام نبى الله صالح فصلى ، ثم دعا ربه أن يجيبهم على سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها . عن ناقة عشراء . على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم »[1] .

والمعنى : قال لهم صالح - عليه السلام - بعد أن طلبوا منه معجزة تدل على صدقه : هذه ناقة ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ أى : لها نصيب معين من الماء ، ولكم نصيب آخر منه ، وليس لكم أن تشربوا منه فى يوم شربها . وليس لها أن تشرب منه فى يوم شربكم ، واحذروا أن تمسوها بسوء - كضرب أو قتل - فيأخذكم عذاب يوم عظيم .

ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه من عذاب ينزل بهم إذا مسوها بسوء ولكن قومه لم يفوا بعهودهم ﴿ فعقروها ﴾ أى : فعقروا الناقة التى هى معجزة نبيهم . وأسند العقر إليهم جميعا . مع أن الذى عقرها بعضهم ، لأن العقر كان برضاهم جميعا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾[2] .

وقوله ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ بيان لما ترتب على عقرهم لها . وندمهم إنما كان بسبب خوفهم من وقوع العذاب عليهم بسبب ذلك ، ولم يكن بسبب إيمانهم وتوبتهم . أو أن ندمهم جاء فى غير أوانه ، كما يشعر بذلك قوله - تعالى : ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ أى أن العذاب نزل بهم فى أعقاب عقرهم لها ، بدون تراخ أو إمهال ، وكان عذابهم أن أخذتهم الرجفة وتبعتها الصيحة التى صاحها بهم جبريل فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ثم يجىء التعقيب السابق : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم جاءت بعد ذلك قصة لوط . مع قومه ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٦٦ .
(٢) سورة القمر الآية ٢٩ .

مِنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قال ابن كثير – رحمه الله – : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله – تعالى – ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم – وهى قرية بوادى الأردن – عليهم لعائن الله.[1] .

ولقد بدأ لوط – عليه السلام – دعوته لقومه يأمرهم بتقوى الله ، وبإخبارهم بأنه رسول أمين من الله – تعالى – إليهم ، وبأنه لا يسألهم أجرا على دعوته لهم إلى الحق والفضيلة .

ثم نهاهم عن أبرز الرذائل التى ، كانت متفشية فيهم فقال : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم . بل أنتم قوم عادون ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتقريع والذكران : جمع ذكر وهو ضد الأنثى .

والعادون : جمع عاد . يقال : عدا فلان فى الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد فى الظلم .

أى : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأتون الذكور الفاحشة ، وتتركون نساءكم اللائى أحلهن الله – تعالى – لكم ، وجعلهن الطريق الطبيعى للنسل وعمارة الكون .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٣٠ .

إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله - تعالى - وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

وقد ردوا عليه بما يدل على شذوذهم وعلى انتكاس فطرتهم ، فقد قالوا له على سبيل التهديد والوعيد : ﴿ لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ﴾ .

أى : قالوا له متوعدين : لئن لم تسكت يالوط عن نهيك إيانا عما نحن . فيه ، لتكونن من المخرجين من قريتنا إخراجا تاما ، ولنطردنك خارج ديارنا .

وهكذا النفوس عندما تنحدر فى الرذيلة وتنغمس فى المنكر ، تعادى من يدعوها إلى الفضيلة وإلى الطهر والعفاف .

وقد رد لوط - عليه السلام - على سفاهتهم وسوء أدبهم ﴿ قال إنى لعملكم من القالين ﴾ .

والقالين : جمع قال . يقال : قليت فلانا أقليه - كرميته أرميه - إذا كرهته كرها شديداً .

أى : قال لهم لوط موبخا ومؤنبا : إنى لعملكم القبيح الذى ترتكبونه مع الذكور ، من المبغضين له أشد البغض ، المنكرين له أشد الإنكار .

ثم توجه إلى ربه - تعالى - بقوله . ﴿ رب نجنى وأهلى مما يعملون ﴾ أى : نجنى يارب ، ونج أهلى المؤمنين معى ، مما يعمل هؤلاء الأشرار من منكر لم يسبقهم إليه أحد فأجاب الله - تعالى - دعاءه فقال : ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين ﴾ .

والمراد بهذه العجوز ، امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها .

والغابرين : جمع غابر وهو الباقى بعد غيره . يقال غبر الشىء يغبر غبورا . إذا بقى .

وقوله : ﴿ إلا عجوزاً ﴾ استثناء من أهله .

أى : فاستجبنا للوط دعاءه ، فأنجيناه وأهله المؤمنين جميعا ، إلا امرأته العجوز فإننا لم ننجها بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها .

﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أى : ثم أهلكنا قوم لوط المصرين على كفرهم وعلى إتيانهم المنكر ، تدميراً شديداً ، فإنا جعلنا أعلى قريتهم سافلها ، وأبدناهم عن آخرهم .

﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ بعد ذلك الإهلاك ﴿ مطرا ﴾ عجيبا أمره فقد كان نوعا من الحجارة ، كما جاء فى آية أخرى فى قوله : تعالى - : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ .

وقوله – سبحانه – : ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ بيان لسوء مصيرهم .

أى : دمرنا هؤلاء القوم ، وأمطرنا عليهم مطرا من الحجارة زيادة فى إهانتهم ، فساءت عاقبتهم ، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار .

ثم ختم – سبحانه – قصة لوط – عليه السلام – مع قومه ، بمثل ما ختم به القصص السابقة فقال : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم جاءت فى نهاية هذه القصص ، قصة شعيب – عليه السلام – مع قومه . فقال – تعالى :

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

والأيكة : منطقة مليئة بالأشجار ، كانت - فى الغالب - بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمى بمعان .

وشعيب ينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليهما السلام - وكان رسول الله - ﷺ - إذا ذكر شعيبا قال : « ذلك خطيب الأنبياء » لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان ، وقطع الطريق فدعاهم إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

قال ابن كثير : « هؤلاء - أعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل هاهنا : أخوهم شعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة . وقيل شجر ملتف كالغيضة . كانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿ إذ قال لهم شعيب ﴾ فقطع نسبة الأخوة بينهم ، للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبا ، ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبا - عليه السلام - بعثه الله إلى أمتين ... والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء .. »[1] .

وقد افتتح شعيب - عليه السلام - دعوته لقومه . بأمرهم بتقوى الله - تعالى - وببيان أنه أمين فى تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم ، وبمصارحتهم بأنه لا يسألهم أجراً على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم .

ثم نهاهم عن أفحش الرذائل التى كانت منتشرة فيهم فقال لهم : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين .. ﴾ .

والجبلة : الجماعة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب . والمقصود بهم أولئك الذين كانوا ذوى قوة كأنها الجبال فى صلابتها ، كقوم هود وأمثالهم ممن اغتروا بقوتهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ .

الجبلة : هى الخليقة . ويقال : جبل فلان على كذا ، أى : خلق ، فالخُلُق جِبِلة وجُبُلة -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٦٨ .

بكسر الجيم والباء وضمها - والجبلة : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً ... ﴾[1] .

والمعنى : قال شعيب - عليه السلام - لقومه ناصحا ومرشداً : يا قوم . أوفوا الكيل أى : أتموه ﴿ ولا تكونوا من المخسرين ﴾ الذين يأكلون حقوق غيرهم عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان .

ثم أكد نصحه هذا بنصح آخر فقال : ﴿ وزنوا ﴾ للناس الذين تتعاملون معهم ﴿ بالقسطاس المستقيم ﴾ أى : بالعدل الذى لا جور معه ولا ظلم .

ثم أتبع هذا الأمر بالنهى فقال : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أى : ولا تنقصوا للناس شيئا من حقوقهم ، أيا كان مقدار هذا الشىء .

﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ والعُثُو : أشد أنواع الفساد . يقال : عثَا فلان فى الأرض يعثو ، إذا اشتد فساده .

أى : ولا تنتشروا فى الأرض حالة كونكم مفسدين فيها بالقتل وقطع الطريق ، وتهديد الآمنين .

فقوله ﴿ مفسدين ﴾ حال مؤكدة لضمير الجمع فى قوله ﴿ تعثوا ﴾ .

ثم ذكرهم بأحوال السابقين ، وبأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم وخلق أولئك السابقين فقال : ﴿ واتقوا الذى خلقكم ﴾ من ماء مهين . وخلق -أيضا - الأقوام السابقين ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا . والذين أهلكهم - سبحانه - بقدرته بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

واستمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة . ولكن لم يتأثروا بها ، بل اتهموا نبيهم فى عقله وفى صدقه ، وتحدوه فى رسالته فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ .

قالوا له بسفاهة وغرور : إنما أنت يا شعيب من الذين أصيبوا بسحر عظيم جعلهم لايعقلون ما يقولون ، أو إنما أنت من الناس الذين يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ولا مزية لك برسالة أو بنبوة علينا ، فأنت بشر مثلنا ، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه ، فإن كنت صادقا فى دعوى الرسالة فأسقط علينا ﴿ كسفا من السماء ﴾ أى : قطعا من العذاب

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٣٦ .

الكائن من جهة السماء .

وجاء التعبير بالواو هنا فى قوله ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ للإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة ، وهما : كونه من المسحرين وكونه بشرا وقصدوا بذلك المبالغة فى تكذيبه ، فكأنهم يقولون له : إن وصفا واحدا كاف فى تجريدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فيك الوصفان ، ولم يكتفوا بهذا بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا : وما نظنك إلا من الكاذبين .

ثم أضافوا إلى كل تلك السفاهات . الغرور والتحدى حيث تعجلوا العذاب .

ولكن شعيبا - عليه السلام - قابل استهتارهم واستهزاءهم بقوله : ﴿ ربى أعلم بما تعملون ﴾ .

أى : ربى وحده هو العليم بأقوالكم وأعمالكم ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب أليم .

ثم يعجل - سبحانه - ببيان عاقبتهم السيئة فيقول : ﴿ فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ .

قال الآلوسى : وذلك على ما أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم عن ابن عباس : أن الله - تعالى - بعث عليهم حرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم ، فخرجوا منها هرابا إلى البرية . فبعث الله - تعالى - عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، وهى الظلة ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أسقطها الله عليهم نارا . فأهلكتهم جميعا ..[١] .

ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعب والذين آمنوا معك من قريتنا .. ﴾ فلما أرجفوا بنبى الله و من تبعه . - أى : حاولوا زلزلتهم وتخويفهم - أخذتهم الرجفة .

وفى سورة هود قال : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم : ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا .. ﴾ فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .. وها هنا قالوا : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء ... ﴾ على وجه التعنت والعناد فناسب أن ينزل بهم ما استبعدوا وقوعه فقال : ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٠ .

ثم ختم - سبحانه - قصة شعيب مع قومه بمثل ما ختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم فقال - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

وإلى هنا ترى سورة الشعراء قد ساقت لنا سبع قصص من قصص الأنبياء مع أقوامهم .

ساقت لنا قصة موسى ، فإبراهيم ، فنوح . فهود ، فصالح ، فلوط ، فشعيب - عليهم جميعا الصلاة والسلام - .

ويلاحظ فى قصص هذه السورة ، أنها لم تجئ على حسب الترتيب الزمنى - كما هو الشأن فى سورة الأعراف - وذلك لأن المقصود الأعظم هنا هو الاعتبار والاتعاظ ، فأما فى سورة الأعراف ، فكان التسلسل الزمنى مقصودا لعرض أحوال الناس منذ آدم - عليه السلام - .

كما يلاحظ أن معظم القصص هنا ، قد افتتح بافتتاح متشابه ، وهو أمر كل نبى قومه بتقوى الله ، وبيبان أنه رسول أمين . وببيان أنه لا يطلب من قومه أجرا على دعوته ، نرى ذلك واضحا فى قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط مع أقوامهم .

ولعل السر فى ذلك التأكيد على أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى أصولها وأسسها ، ألا وهى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وإلى مكارم الأخلاق .

كما يلاحظ - أيضا - أن كل قصة من تلك القصص قد اختتمت بقوله - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ولعل السر فى ذلك تكرار التسلية للنبى - ﷺ - ، وتثبيت فؤاده . وبيان أن ما أصابه من قومه ، قد أصاب الرسل السابقين ، فعليه أن يصبر كما صبروا ، وقد قالوا : « المصيبة إذا عمت خفت » .

كما يلاحظ - كذلك - على قصص هذه السورة التركيز على أهم الأحداث وبيان الرذائل التى انغمس فيها أولئك الأقوام ، باستثناء قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فقد جاءت بشىء من التفصيل .

وكما بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وعن الرسول - ﷺ - ، عادت مرة أخرى بعد الحديث عن قصص بعض الأنبياء - إلى متابعة الحديث عن القرآن الكريم ، وعن نزوله ، وعن تأثيره ، وعن مصدره . فقال - تعالى - :

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ
عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

والضمير فى قوله ﴿ وإنه ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من قصص وهدايات ..

أى : وإن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين ، لاتنزيل غيره ، والتعبير عن إنزاله بالتنزيل ، للمبالغة فى إنزاله من عند الله - تعالى - وحده .

ووصف - سبحانه - ذاته بالربوبية للعالمين ، للإيذان بأن إنزاله بهذه الطريقة ، من مظاهر رحمته بعباده ، وإحكام تربيته لهم جميعا .

قال - تعالى - : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ ، وقال - سبحانه - : ﴿ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا ﴾ .

ثم وصف - سبحانه - من نزل به بالأمانة فقال : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وهو جبريل - عليه السلام - وعبر عنه بالروح ، لأن الأرواح تحيا بما نزل به كما تحيا الأجسام بالغذاء .

أى : نزل جبريل الأمين - بأمرنا - بهذا القرآن كاملا غير منقوص ، ﴿ على قلبك ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ أى : من أجل أن تنذر به الناس ، وتخوفهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وفسوقهم عن أمر الله - تعالى - .

قال الجمل : قال الكرخى : وقوله ﴿ على قلبك ﴾ خصه بالذكر وهو إنما أنزل عليه ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ ، والرسول متمكن من قلبه لايجوز عليه التغير . ولأن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له ، ويدل على ذلك القرآن والحديث والمعقول .

أما القرآن فقوله - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

وأما الحديث فقوله - ﷺ - : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

وأما المعقول : فإن القلب إذا غشى عليه ، لم يحصل له شعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات .(١) .

وقال الآلوسى ما ملخصه : وخص القلب بالإنزال ، قيل:للإشارة إلى كمال تعقله - ﷺ - وفهمه ذلك المنزل ، حيث لم تعتبر واسطة فى وصوله إلى القلب ..

وقيل للإشارة إلى صلاح قلبه - ﷺ - حيث كان منزلا لكلام الله - تعالى - ..(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ متعلق بقوله - تعالى - ﴿ نزل ﴾ . أى : نزل هذا القرآن باللسان العربى ليكون أوضح فى البلاغ والبيان لقومك لأننا لو نزلناه بلسان أعجمى أو بلغة أعجمية لتعللوا بعدم فهمه وقلة إدراكهم لمعناه .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد بين لنا مصدر القرآن ، والنازل به ، والنازل عليه ، وكيفية النزول ، وحكمة الإنزال ، واللغة التى نزل بها،وكل ذلك أدلة من القرآن ذاته على أنه من عند الله - تعالى - وأنه من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم بين - سبحانه - أن الكتب السماوية السابقة قد ذكرت ما يدل على صدق الرسول - ﷺ - الذى أنزل الله - تعالى - عليه هذا القرآن فقال - تعالى - : ﴿ وإنه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ﴾ .

والزبر : جمع زَبُور ، وهو الكتاب المقصور على الحكم والمواعظ ، كزبور داود . مأخوذ من الزبر بمعنى الزجر . لزجره الناس عن اتباع الباطل .

والمعنى : وإن نعت هذا القرآن الكريم ، ونعت الرسول الذى سينزل عليه هذا القرآن . لموجود فى كتب السابقين .

قال الإمام ابن كثير : أخبر - تعالى - : بأن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص ٢٩٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٢١ .

يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم . مصدقا لما بين يدى من التوراة . ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .. ﴾[١] .

والاستفهام فى قوله ﴿ أو لم يكن لهم آية .. ﴾ للإنكار والتوبيخ . والواو للعطف على مقدر ، والتقدير : أغفلوا عن ذلك وجهلوه ، ولم يكفهم للدلالة على صدقه وحقيته أن يعلم ذلك علماء بنى إسرائيل ، ويتحدث عنه عُدُولهم ، وينتظرون مبعث الرسول - ﷺ - ونزول القرآن عليه - ﷺ - .

قال - تعالى - : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾[٣] .

ثم ذكر - سبحانه - طرفا من جحود الكافرين وعنادهم فقال : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ .

والأعجمين : جمع أعجم ، وهو الذى لا يفصح وفى لسانه عجمة وإن كان عربى النسب ، أو جمع أعجمى ، إلا أنه حذف منه ياء النسب تخفيفا ، كأشعر جمع أشعرى .

أى : ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعجمين ، الذين لا يحسنون النطق بالعربية ، فقرأ هذا القرآن على قومك - أيها الرسول الكريم - قراءة صحيحة لكفروا به عنادا ومكابرة مع أنهم فى قرارة أنفسهم يعرفون صدقه ، وأنه ليس من كلام البشر .

فالآيتان الكريمتان المقصود بهما تسلية الرسول - ﷺ - عما يراه من إنكار المشركين لدعوته ، ومن وصفهم للقرآن تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أساطير الأولين ، تصوير صادق لما وصل إليه أولئك المشركون من جحود وعناد ومكابرة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله .. ﴾[٤] .

ثم بين - سبحانه - أنهم مع علمهم بأن هذا القرآن من عند الله ، وتأثرهم به سيستمرون على كفرهم حتى يروا العذاب الأليم ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٨٩ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١١١ .

كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ
فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ
ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ
هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيۡتَ
إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ سلكناه ﴾ من السَّلك بمعنى إدخال الشىء فى الشىء تقول : سلكت الطريق إذا دخلت فيه . والضمير يعود إلى القرآن الكريم وقوله : ﴿ كذلك سلكناه ﴾ : نعت لمصدر محذوف .

أى : مثل ذلك الإدخال العجيب ، أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، حيث جعلناهم - بسبب جحودهم وعنادهم - مع تأثرهم به واعترافهم بفصاحته ، لا يؤمنون به ، حتى يروا بأعينهم العذاب الأليم .

ومنهم من يرى أن الضمير فى ﴿ سلكناه ﴾ يعود إلى كفر الكافرين وتكذيبهم . والمعنى - كما يقول ابن كثير - : كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد . أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به . أى : بالحق ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .[1] .

والرأيان متقاربان فى المعنى ، لأن المراد بالتكذيب على الرأى الثانى تكذيبهم بالقرآن ، إلا

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٣ .

أن الرأى الأول أنسب بسياق الآيات ، وبانتظام الضمائر ..

ثم بين - سبحانه - أن نزول العذاب بالمجرمين سيكون مباغتا لهم فقال : ﴿ فيأتيهم ﴾ أى : العذاب ﴿بغتة ﴾ فجأة وعلى غير توقع ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى : بإتيانه بعد أن يحيط بهم .

وعندئذ يقولون على سبيل التمنى والتحسر ﴿ هل نحن منظرون ﴾ أى : ليتنا نمهل قليلا لكى نصلح ما أفسدناه من أقوال وأعمال .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى التعقيب فى قوله : ﴿ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا .. ﴾ .

قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته ، وسؤال النظرة فيه فى الوجود ، وإنما المعنى ترتبها فى الشدة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب ، فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة .

ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إذا أسأت مقتك الصالحون ، فمقتك الله ، فإنك ، لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسىء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله ..[1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ للتوبيخ والتهكم بهؤلاء المجرمين . أبلغ الحمق والجهل بهؤلاء المجرمين أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم ، وقالوا لنا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

أى : إن من يستعجل هلاك نفسه ، ويسعى إلى حتفه بظلفه ، لايكون من العقلاء أبدًا .

ثم بين - سبحانه - أن ما فيه هؤلاء المجرمون من متاع ونعمة ، سينسونه نسيانًا تاما عندما يمسهم العذاب المعد لهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

وقوله : ﴿ أفرأيت ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فيقولوا ... ﴾ والاستفهام للتعجب من أحوالهم .

والمعنى : إن شأن هؤلاء المجرمين لموجب للعجب : إنهم قبل نزول العذاب بهم يستعجلونه ،

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٣٧ .

فإذا ما نزل بساحتهم قالوا - على سبيل التحسر والندم - : هل نحن منظرون .

اعلم - أيها الرسول الكريم - أننا حتى لو أمهلناهم وأخرناهم ، ثم جاءهم عذابنا بعد ذلك ، فإن هذا التمتع الذى عاشوا فيه . وذلك التأخير الذى لوشئنا لأجبناهم إليه .. كل ذلك لن ينفعهم بشىء عند حلول عذابنا ، بل عند حلول عذابنا بهم سينسون ما كانوا فيه من متاع ومن نعيم ومن غيره .

قال الإمام ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يارب .

ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمثل بهذا البيت :

كـأنك لم تُوتَـر من الدهـر ليلة إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب[1]

ثم بين - سبحانه - سنته التى لا تتخلف فقال : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ، ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ ذكرى ﴾ مفعول لأجله ، فيكون المعنى : لقد اقتضت سنتنا وعدالتنا . أننا لا نهلك قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا بعد أن نرسل فى أهل تلك القرى رسلا منذرين ، لكى يذكروهم بالدين الحق .. وليس من شأننا أن نكون ظالمين لأحد ، بل من شأننا العدالة والإنصاف ، وتقديم النصيحة والإرشاد والإنذار للفاسقين عن أمرنا ، قبل أن ننزل بهم عذابنا .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا . وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[3] .

ثم عادت السورة الكريمة إلى تأكيد أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وردت شبهات المشركين بأسلوب منطقى رصين ، قال - تعالى - : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ .

أى : إن هذا القرآن الكريم ، ما تنزلت به الشياطين - كما يزعم مشركو قريش ، حيث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٤ .
(٢) سورة الاسراء الآية ١٥ .
(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .

قالوا : إن لمحمد - ﷺ - تابعا من الجن يخبره بهذا القرآن ويلقيه عليه - وإنما هذا القرآن نزل به الروح الأمين ، على قلبه - ﷺ - .

وإن الشياطين ﴿ ما ينبغى لهم ﴾ ذلك إذ هم يدعون إلى الضلالة والقرآن يدعو إلى الهداية ﴿ وما يستطيعون ﴾ أن ينزلوا به ولا يقدرون على ذلك أصلا ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ أى : إن هؤلاء الشياطين عن سماع القرآن الكريم لمعزولون عزلا تاما . فالشهب تحرقهم إذا ما حاولوا الاستماع إليه . كما قال - تعالى - : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد صان كتابه عن الشياطين ، بأن بيَّن بأنهم ما نزلوا به ، ثم بَيَّن - ثانيا أنهم ما يستقيم لهم النزول به لأن ما اشتمل عليه من هدايات يخالف طبيعتهم الشريرة ، ثم بين ثالثا - بأنهم حتى لو حاولوا ما يخالف طبيعتهم لما استطاعوا ، ثم بين - رابعا - بأنه حتى لو انبغى واستطاعوا حمله ، لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن الاستماع إليه ، إذ ما يوحى به - سبحانه - إلى أنبيائه ، فالشياطين محجوبون عن سماعه ، وهكذا صان الله - تعالى - كتابه صيانة تامة . وحفظه حفظا جعله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم نهى - سبحانه - عن الشرك بأبلغ وجه ، وأمر النبى - ﷺ - بأن يجهر بدعوته ، وبأن يتوكل عليه وحده - سبحانه - فقال :

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فلا تدع .. ﴾ فصيحة ، والخطاب للرسول - ﷺ - على سبيل طلب الازدياد من إخلاص العبادة لله - تعالى - .

أى : إذا علمت - أيها الرسول الكريم - ما أخبرناك به ، فأخلص العبادة لنا ، واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - إلها آخر ، فتكون من المعذبين .

وخوطب - ﷺ - بهذه الآية وأمثالها ، مع أنه أخلص الناس فى عبادته لله - تعالى - ، لبيان أن الشرك أقبح الذنوب وأكبرها وأنه لو انحرف إليه - على سبيل الفرض - أشرف الخلق وأكرمهم عند الله - تعالى - لعذبه - سبحانه - على ذلك ، فكيف يكون حال غيره ممن هم ليسوا فى شرفه ومنزلته .

لاشك أن عذابهم سيكون أشد ، وعقابهم سيكون أكبر .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن ينذر أقرب الناس إليه ، ليكونوا قدوة لغيرهم . وليعلموا أن قرابتهم للرسول - ﷺ - لن تنجيهم من عذاب الله ، ما استمروا على شركهم ، فقال - تعالى - : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ .

والعشيرة : أهل الرجل الذين يتكثر بهم ، و﴿ الأقربين ﴾ هم أصحاب القرابة القريبة كالآباء والأبناء والإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات وما يشبه ذلك .

وقد ذكر المفسرون أحاديث متعددة ، فيما فعله رسول الله - ﷺ - بعد نزول هذه الآية ، منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن عباس قال : لما أنزل الله - تعالى - هذه الآية : أتى النبى - ﷺ - الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه ، وهى كلمة يقولها المستغيث أو المنذر لقومه - فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله - ﷺ - : يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾[1] .

قال الآلوسى : ووجه تخصيص عشيرته الأقربين بالذكر مع عموم رسالته - ﷺ - : دفع توهم المحاباة ، وأن الاهتمام بشأنهم أهم ، و أن البداءة تكون بمن يلى ثم من بعده ..[2] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٦ . فقد ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٣٤ .

أى : أن هذه الآية الكريمة ، لا تتعارض مع عموم رسالته - ﷺ - للناس جميعا ، لأن المقصود بها : البدء بإنذار عشيرته الأقربين ، ليكونوا أسوة لغيرهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ إرشاد منه - سبحانه - لنبيه - ﷺ - إلى كيفية معاملته لأتباعه .

وخفض الجناح : كناية عن التواضع . واللين ، والرفق ، فى صورة حسية مجسمة ، إذ من شأن الطائر حين يهبط أو حين يضم صغاره إليه أن يخفض جناحه ، كما أن رفع الجناح يطلق على التكبر والتعالى ، ومنه قول الشاعر :

وأنت الشهير بخفض الجنا ح فلا تك فى رفعه أجدلا[١]

أى : وكن - أيها الرسول الكريم - متواضعا لين الجانب ، لمن اتبعك من المؤمنين ، ولقد كان النبى - ﷺ - سيد المتواضعين مع أصحابه ، إلا أن الآية الكريمة تعلم المسلمين فى كل زمان ومكان - وخصوصا الرؤساء منهم - كيف يعامل بعضهم بعضا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المتبعون للرسول - ﷺ - هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول - ﷺ - فما معنى قوله : ﴿ لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ ؟

قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول فى الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يراد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم ، وهم صنفان : صنف صدق الرسول واتبعه فيما جاء به : وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب . ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح ..[٢] .

ويبدو لنا أنه لا داعى إلى هذه التقسيمات التى ذهب إليها صاحب الكشاف - رحمه الله - ، وأن المقصود بقوله : ﴿لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ تأكيد الأمر بخفض الجناح ، وللإشعار بأن جميع أتباعه من المؤمنين ، ومثل هذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ يقولون بأفواههم .. ﴾ ومن المعلوم أن الأقوال لا تكون إلا بالأفواه ، وقوله - تعالى - ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه .. ﴾ ومن المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه .

ثم بين - سبحانه - لنبيه كيف يعامل العصاة فقال : ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ .

قال الآلوسى : الظاهر أن الضمير المرفوع فى ﴿ عصوك ﴾ عائد على من أمر - ﷺ -

---

(١) والأجدل : هو الصقر . أى . فلا تكن شبيها به فى القسوة والغلظة .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٤١ .

بإنذارهم ، وهم العشيرة . أى : فإن عصوك ولم يتبعوك بعد إنذارهم ، فقل إنى برىء من عملكم ، أو من دعائكم مع الله إلها آخر . وجوز أن يكون عائدا على الكفار المفهوم من السياق .

وقيل : هو عائد على من اتبع من المؤمنين . أى : فإن عصوك يا محمد فى الأحكام وفروع الإسلام ، بعد تصديقك والإيمان بك وتواضعك لهم ، فقل إنى برىء مما تعملون من المعاصى ..[1] .

وكان هذا فى مكة ، قبل أن يؤمر - ﷺ - بقتال المشركين .

ثم أمره - سبحانه - بالتوكل عليه وحده فقال : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أى : اخفض جناحك لأتباعك المؤمنين ، وقل لمن عصاك بعد إنذاره إنى برىء من أعمالكم ، واجعل توكلك واعتمادك على ربك و حده ، فهو - سبحانه - صاحب العزة والغلبة ، والقهر ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء .

وهو - عز وجل - ﴿ الذى يراك حين تقوم ﴾ إلى عبادته وإلى صلاته دون أن يكون معك أحد .

وهو - سبحانه - الذى يرى ﴿ تقلبك فى الساجدين ﴾ أى : يراك وأنت تصلى مع المصلين ، فتؤمهم وتنتقل بهم من ركن إلى ركن ، ومن سنة إلى سنة حال صلاتك ، والتعبير بقوله ﴿ تقلبك ﴾ يشعر بحرصه - ﷺ - على تعهد أصحابه ، وعلى تنظيم صفوفهم فى الصلاة ، وعلى غير ذلك مما هم فى حاجة إليه من إرشاد وتعليم .

وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهذا التعبير من باب التشريف والتكريم لهم .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو السميع ﴾ لكل مايصح تعلق السمع به ﴿ العليم ﴾ بكل الظواهر والبواطن ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا السماء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريم ببيان أن الشياطين من المحال أن تتنزل على الرسول - ﷺ - الصادق الأمين .. وإنما تتنزل على الكاذبين الخائنين ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٣٦ .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل أنبئكم .... ﴾ للتقرير ، والخطاب للمشركين الذين اتهموا النبى - ﷺ - تارة بأنه كاهن ، وتارة بأنه ساحر أو شاعر .

أى : ألا تريدون أن تعرفوا - أيها المشركون - على من تتنزل الشياطين ؟! إنهم لا يتنزلون على الرسول - ﷺ - ، لأن طبعه يتباين مع طبائعهم ، ومنهجه يتعارض مع مسالكهم ، فهو يدعو إلى الحق وهم يدعون إلى الباطل .

إنما تتنزل الشياطين ﴿ على كل أفاك ﴾ أى : كثير الإفك والكذب ﴿ أثيم ﴾ أى : كثير الارتكاب للآثام والسيئات ، كأولئك الكهنة الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

والضمير فى قوله ﴿ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ يجوز أن يعود إلى كل أفاك أثيم ، وهم الكهان وأشباههم ، والجملة صفة لهم ، أو مستأنفة .

والمراد بإلقائهم السمع : شدة الإنصات ، وقوة الإصغاء للتلقى .

والمعنى : تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم . وهؤلاء الأفاكون الآثمون ، منصتون إنصاتا شديدا إلى الشياطين ليسمعوا منهم ، وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيا يقولونه للناس ، وفيما يخبرون به عن الشياطين .

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سأل الناس النبى - ﷺ - عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشىء ، قالوا : يارسول الله ، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى - ﷺ - « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها - أى : فيرددها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة - فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة »[1] .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٨٣ .

ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين . وتكون الجملة حالية أو مستأنفة ، ومعنى إلقائهم السمع : إنصاتهم إلى الملأ الأعلى ليسترقوا شيئا من السماء .

فيكون المعنى : تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم ، حالة كون الشياطين ينصتون إلى الملأ الأعلى . ليسترقوا شيئا من السماء ، وأكثر هؤلاء الشياطين كاذبون فيما ينقلونه إلى الأفاكين والآثمين من الكهان .

ويصح أن يكون السمع بمعنى المسموع . أى : يلقى كل من الشياطين والكهنة ما يسمعونه إلى غيرهم .

قال الجمل : قوله : ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ الأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم ، على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى.أو المعنى : وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقا على الاطلاق .. فالكثرة فى المسموع لا فى ذوات القائلين .

وقال بعضهم . المراد بالأكثر الكل ...[1] .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة إبطال ما زعمه المشركون من أن الرسول - ﷺ - قد تلقى هذا القرآن عن الشياطين أو عن غيرهم ، وإثبات أن هذا القرآن ما نزل إلا من عند الله - تعالى - بواسطة الروح الأمين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إبطال لشبهة أخرى من شبهاتهم وهى زعمهم أنه - ﷺ - شاعر .

والشعراء : جمع شاعر كعالم وعلماء . والغاوون : جمع غاو وهو الضال عن طريق الحق .

أى : ومن شأن الشعراء أن الذين يتبعونهم من البشر ، هم الضالون عن الصراط المستقيم ، وعن جادة الحق والصواب .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ تأكيد لما قبله ، من كون الشعراء يتبعهم الغاوون . والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية والمعرفة .

والوادى : هو المكان المتسع . والمراد به هنا : فنون القول وطرقه .

ويهيمون : من الهيام وهو أن يذهب المرء على وجهه دون أن يعرف له جهة معينة يقصدها .

يقال : هام فلان على وجهه ، إذا لم يكن له مكان معين يقصده . والهيام داء يستولى على

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين .

الإبل فيجعلها تشرد عن صاحبها بدون وقوف فى مكان معين ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ أى : الجمال العطاش الشاردة .

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - أن هؤلاء الشعراء فى كل فن من فنون الكذب فى الأقوال يخوضون ، وفى كل فج من فجاج الباطل والعبث والفحش يتكلمون ، وأنهم فوق ذلك يقولون مالا يفعلون ، فهم يحضون غيرهم على الشيء ولايفعلونه ، وهم يقولون فعلنا كذا وفعلنا كذا - على سبيل التباهى والتفاخر - مع أنهم لم يفعلوا .

قال صاحب الكشاف : ذكر الوادى والهيوم : فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ومجاوزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرىء ، ويفسقوا التقى[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا .. ﴾ استثناء من الشعراء المذمومين الذين يتبعهم الغاوون ، والذين هم فى كل واد يهيمون .

أى : إلا الشعراء الذين آمنوا بالله - تعالى - وعملوا الأعمال الصالحات وذكروا الله كثيرا بحيث لم يشغلهم شعرهم عن طاعة الله ، وانتصروا من بعد ما ظلموا من أعدائهم الكافرين ، بأن ردوا على أباطيلهم ، ودافعوا عن الدين الحق .

إلا هؤلاء ، فإنهم لا يكونون من الشعراء المذمومين ، بل هم من الشعراء الممدوحين .

قال ابن كثير : لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله - ﷺ - وهم يبكون وقالوا . قد علم الله - تعالى - أنا شعراء ، فتلا عليهم النبى - ﷺ - : « ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : أنتم . ﴿ وذكروا الله كثيرا ﴾ قال : أنتم ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : أنتم »[2] .

فالشعراء: منهم المذمومون وهم الذين فى كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون..

ومنهم الممدوحون وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا .

والشعر فى ذاته كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، فخذ الحسن ، واترك القبيح .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٨٦ .

وقد تكلم العلماء هنا كلاما طويلا يتعلق بتفسير هذه الآيات التى تحدثت عن الشعراء فارجع إليه إن شئت[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

والمنقلب : المرجع والمصير ، وهو مفعول مطلق . أى : ينقلبون أى انقلاب والجملة الكريمة مشتملة على أشد ألوان التهديد والوعيد للظالمين .

قال القرطبى : ومعنى : ﴿ أى منقلب ينقلبون ﴾ أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع: أن المنقلب: الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع: العود من حال هو فيها ، إلى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا[2] .

وقال الإمام ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم .. وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كتب أبى وصيته من سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر . و ينتهى الفاجر ، ويصدق الكاذب . إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه ، وإن يظلم ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

وبعد : فهذه سورة الشعراء ، و هذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
ظهر الأحد ١٩ من جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ
الموافق ١٠ / ٢ / ١٩٨٥ م

د . محمد سيد طنطاوى

(١) راجع الآلوسى جـ ١٩ ص ١٤٥ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٥٣ .

تفسير
سُورَةُ النَّمْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة النمل ، من السور المكية : وهى السورة السابعة والعشرون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الشعراء .

قال القرطبى : سورة النمل ، مكية كلها فى قول الجميع[1] .

٢ - وسميت بسورة النمل ، لقوله - تعالى - : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ﴾ .

قال الآلوسى : « وتسمى أيضًا - كما فى الدر المنثور - سورة سليمان ، وعدد آياتها خمس وتسعون آية - عند الحجازيين - ، وأربع وتسعون - عند البصريين - وثلاث وتسعون - عند الكوفيين - »[2] .

٣ - وقد افتتحت سورة النمل بالثناء على القرآن الكريم ، وعلى المؤمنين الذين يحافظون على فرائض الله - تعالى - ، ويوقنون بالآخرة وما فيها من ثواب أو عقاب ...

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فقد أنذرتهم بسوء المصير ﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ .

٤ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - فذكرت لنا ما قاله موسى لأهله عند ما آنس من جانب الطور نارًا ، وما قاله الله - تعالى - له عندما جاءها ، وما أمره - سبحانه - به ، فى قوله - تعالى - : ﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرًا ولم يعقب . يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون ﴾ .

٥ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عما منحه الله - تعالى - لداود وسليمان - عليهما السلام - من علم واسع ، ومن عطاء كبير ، وحكت ما قالته نملة عندما رأت سليمان وجنوده ، كما حكت ما دار بين سليمان - عليه السلام - وبين الهدهد ، وما دار بينه - عليه السلام -

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٥٤ .

وبين ملكة سبأ من كتب ومحاورات انتهت بإسلام ملكة سبأ ، حيث قالت : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

ثم ساقت السورة جانبًا من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فتحدثت عن الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، والذين بيتوا السوء لنبيهم صالح وللمؤمنين معه ، فكانت نتيجة مكر هؤلاء المفسدين الخسار والهلاك . كما قال - تعالى - : ﴿ ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .. ﴾ .

٧ - وبعد أن ساقت السورة جانبًا من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه . أتبعت ذلك بالحديث عن وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، فذكرت ألوانًا من الأدلة على ذلك ، وقد قال - سبحانه - فى أعقاب كل دليل ﴿ أإله مع الله ﴾ ، وكرر ذلك خمس مرات ، فى خمس آيات .

٨ - وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر وحدانية الله وقدرته - سبحانه - ، أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى تثبيت فؤاده ، وفى بيان أن هذا القرآن هداية ورحمة .

قال - تعالى - : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ .

٩ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن علامات الساعة وأهوالها ، وعن عاقبة المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ، وعن المنهج الذى اتبعه الرسول - ﷺ - وأمر غيره باتباعه ، فقال - تعالى - : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

١٠ - وبعد : فهذا عرض مجمل لسورة النمل . ومنه نرى أن السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعن مظاهر فضله - تعالى - على عباده . وعن علمه - سبحانه - المحيط بكل شىء ، وعن آياته الكونية التى يكشف منها للناس ما يشاء كشفه وبيانه .

كما نرى أن السورة الكريمة قد اشتمل القصص على جانب كبير منها ، خصوصًا قصص

بعض أنبياء بنى إسرائيل ، فقد حدثتنا عن جانب من قصة موسى ، وداود ، وسليمان . ثم بينت أن على بنى إسرائيل المعاصرين للنبى - ﷺ - أن يعودوا إلى القرآن ، ليعرفوا منه الأمر الحق فى كل ما اختلفوا فيه ، قال - تعالى - : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ .

كما نراها تجمع فى توجيهاتها وإرشاداتها بين الترغيب والترهيب ، وبين التذكير بنعم الله التى نشاهدها فى هذا الكون ، وبين التحذير من أهوال يوم القيامة ، وتختم بهذه الآية الجامعة : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر   د / محمد سيد طنطاوى

٢٦ من جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ

الموافق : ١٦ / ٢ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

سورة النمل : من السور التى افتتحت ببعض الحروف المقطعة ، وهو قوله - تعالى - ﴿ طس ﴾ .

وقد ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف المقطعة بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ... إلخ .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة . قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين الذين زعموا أن هذا القرآن ليس من عنده - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظومًا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية ، التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى

شك فى أنه من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة من مثله .

فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - عز وجل -

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى الآيات القرانية التى تضمنتها هذه السورة الكريمة . أو إلى جميع آيات القرآن التى نزلت قبل ذلك .

وهو - أى لفظ ﴿ تلك ﴾ - مبتدأ وخبره قوله - سبحانه - ﴿ آيات القرآن ﴾ . أى : تلك الآيات الحكيمة التى أنزلناها إليك - أيها الرسول الكريم - هى آيات القرآن ، الذى أنزلناه إليك لتخرج الناس به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فإضافة الآيات إلى القرآن لتعظيم شأنها ، وسمو منزلتها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكتاب مبين ﴾ معطوف على القرآن من باب عطف إحدى الصفتين على الأخرى ، كقولهم هذا فعل فلان السخى والجواد الكريم .

قال الآلوسى : « والمبين : إما من أبان المتعدى ، أى : مظهر ما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى ... وإما من أبان اللازم ، بمعنى بان . أى : ظاهر الإعجاز .. وهو على الاحتمالين ، صفة مادحة لكتاب ، مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة ... »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ فى حيز النصب على الحالية من قوله ﴿ آيات ﴾ ولفظ ﴿ هدى ﴾ مصدر هداه هدى وهداية ، ومعناه : الدلالة الموصلة إلى البغية .

و ﴿ بشرى ﴾ : الخبر السار . فهى أخص من مجرد الخبر ، وسمى الخبر السار بشرى ، لأن أثره يظهر على البشرة ، وهى ظاهر جلد الإنسان .

أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذه الآيات القرآنية ، حالة كونها هداية للمؤمنين إلى طريق السعادة والفلاح ، وبشارة لهم بما يشرح صدورهم ، ويدخل الفرح والسرور على نفوسهم .

وخص - سبحانه - المؤمنين بذلك ، لأنهم المنتفعون بهذه الهداية والبشارة ، دون سواهم من الكافرين والمنافقين .

قال - تعالى - : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٥٥ .

(٢) سورة فصلت الآية ٤٤ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون ﴾(١) .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين بثلاث صفات جامعة بين خيرى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أى : يؤدونها فى أوقاتها المقدرة لها ، مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها .

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ التى كلفهم الله - تعالى - بإيتائها ، بإخلاص وطيب نفس .

﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ والآخرة تأنيث الآخر . والمراد بها الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الأولى .

وقوله : ﴿ يوقنون ﴾ من الإيقان . وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليه شك ، أو تحوم حوله شبهة . يقال : يقن الماء ، إذا سكن وظهر ما تحته .

ويقال : يَقِنْت من هذا الشىء يقَنًا ، وأيقنت ، وتيقنت ، واستيقنت ، اعتقدت اعتقادًا جازمًا من وجوده أو صحته .

أى : وهم بالدار الآخرة وما فيها من حساب وعقاب ، يوقنون إيقانًا قطعيًا ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

قال الجمل : ولما كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مما يتكرر ويتجدد فى أوقاتها ، أتى بهما فعلين ، ولما كان الإيقان بالآخرة أمرًا ثابتًا مطلوبًا دوامه ، أتى به جملة اسمية .

وجعل خبرها مضارعًا ، للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد »(٢) .

وبعد أن مدح - سبحانه - المؤمنين بتلك الصفات الطيبة ، أتبع ذلك ببيان ما عليه غيرهم من ضلال وحيرة فقال : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ .

وقوله : ﴿ زينا ﴾ من التزيين ، بمعنى التحسين والتجميل .

و ﴿ يعمهون ﴾ من العمه بمعنى التحير والتردد . يقال : عمه فلان - كفرح ومنع - إذا تحير وتردد فى أمره .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، ﴿ زينا لهم أعمالهم ﴾ أى : حسناها لهم ، وحببناها إليهم ، بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، والغى

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٩٨ .

على الرشد ﴿ فهم يعمهون ﴾ أى : فهم يتحيرون ويتخبطون ويرتكبون ما يرتكبون من قبائح ، ظنا منهم أنها محاسن .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ... ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - قبح عاقبتهم فقال : ﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ . أى : أولئك الذين لم يؤمنوا بالآخرة ، لهم أشد أنواع العذاب الذى يذلهم ويؤلمهم فى الدنيا ﴿ وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ أى : وهم فى الآخرة أشد خسارة منهم فى الدنيا إذ عذاب الدنيا له نهاية . أما عذاب الآخرة فلا نهاية له .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ كلام مستأنف سيق بعد بيان بعض صفات القرآن الكريم ، تمهيدًا لما سيأتى بعد ذلك من قصص وآداب وأحكام وهدايات .

وقوله ﴿ لتلقى ﴾ من التلقى بمعنى الأخذ عن الغير ، والمراد به جبريل - عليه السلام - .

أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لتتلقى القرآن الكريم بواسطة جبريل - عليه السلام - من لدن ربك الذى يفعل كل شىء بحكمة ليس بعدها حكمة ، ويدبر كل أمر بعلم شامل لكل شىء .

وصدرت هذه الآية الكريمة بحرفى التأكيد - وهما إن ولام القسم - للدلالة على كمال العناية بمضمونه .

والتعبير بقوله ﴿ لتلقى ﴾ يشعر بمباشرة الأخذ عن جبريل - عليه السلام - بأمر الله - تعالى - الحكيم العليم ، كما يشعر بقوته وشدته ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ .

وجاء الأسلوب بالبناء للمفعول فى قوله : « تلقى » وحذف الفاعل وهو جبريل للتصريح به فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[2] .

وجمع - سبحانه - فى وصفه لذاته بين الحكمة والعلم ، للدلالة على أن هذا القرآن تتجلى فيه كل صفات الإتقان والإحكام ، لأنه كلام الحكيم فى أفعاله ، العليم بكل شىء .

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ . (٢) سورة الشعراء الآية ١٩٣ - ١٩٤ .

وبعد أن بين - سبحانه - أن هذا القرآن ، قد تلقاه الرسول - ﷺ - من لدن حكيم عليم أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام - لتكون بمثابة التسلية للرسول - ﷺ - عن موقف كفار مكة منه - عليه الصلاة والسلام - ، فقال - تعالى - :

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

هذا جانب من قصة موسى - عليه السلام - كما جاءت فى هذه السورة ، وقد جاءت فى سور أخرى بصورة أوسع ، كسور : البقرة ، والأعراف ، ويونس ، والشعراء ، والقصص ...

وقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : ﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارًا ﴾ . والظرف « إذ » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

و « موسى » - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم - عليه السلام - ، وكانت بعثته - على الراجح - فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد .

والمراد بأهله : زوجته . وهى ابنة الشيخ الكبير الذى قال له - بعد أن سقى لابنتيه غنمهما - : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ... ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « وكان ذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره ، فى رعاية الغنم ، وسار بأهله ، قيل : قاصدًا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال ... فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارًا ... »[2] .

وقوله : ﴿ آنست ﴾ من الإيناس ، بمعنى الإبصار الواضح الجلى يقال : آنس فلان الشىء إذا أبصره وعلمه وأحس به .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال موسى لأهله ، وهو فى طريقه من جهة مدين إلى مصر .

إنى أبصرت - إبصارًا لا شبهة فيه - نارًا . فامكثوا فى مكانكم ، فإنى ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ أى : سآتيكم من جهتها بخبر ينفعنا فى رحلتنا هذه ، ونسترشد به فى الوصول إلى أهدى الطرق التى توصلنا إلى المكان الذى نريده .

و ﴿ أو ﴾ فى قوله - سبحانه - : ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ مانعة خلو .

قال القرطبى : ما ملخصه : « قرأ عاصم وحمزة والكسائى : ﴿ بشهاب قبس ﴾ بتنوين ﴿ شهاب ﴾ وقرأ الباقون بدون تنوين على الإضافة ، أى : بشعلة نار ، من إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة . والشهاب : كل ذى نور ، نحو الكواكب ، والعود الموقد . والقبس : اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ، فالمعنى بشهاب من قبس ... ومن قرأ ﴿ بشهاب قبس ﴾ ، بالتنوين جعله بدلاً منه ، أو صفة له . على تأويله بمعنى المقبوس ... »[3] .

وقوله : ﴿ تصطلون ﴾ أى : تستدفئون ، والاصطلاء : الدنو من النار لتدفئة البدن عند الشعور بالبرد . قال الشاعر .

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيا فليصطل

والمعنى : قال موسى - عليه السلام - لأهله عندما شاهد النار : امكثوا فى مكانكم ، فإنى

---

(١) سورة القصص الآية ٣٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٠ .
(٣) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٥٧ .

ذاهب إليها ، لكى آتيكم من جهتها بخبر فى رحلتنا فإن لم يكن ذلك ، فإنى آتيكم بشعلة مقتطعة منها ومقتبسة من أصلها ، لعلكم تستدفئون بها فى تلك الليلة الشديدة البرودة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : - قوله - تعالى - : هنا ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ مع قوله - تعالى - فى سورة القصص[١] ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر ﴾ كالمتدافعين. لأن أحدهما ترج ، والآخر تيقن . قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه الخيبة .

فإن قلت : كيف جاء بسين التسويف - هنا - ؟ قلت : عدة لأهله أنه يأتيهم وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة .

فإن قلت : فلم جاء بأو دون الواو ؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما : إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده ... »[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى عندما اقترب من النار فقال : ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ... ﴾ و ﴿ أن ﴾ هنا مفسرة ، لما فى النداء من معنى القول .

وقوله : ﴿ بورك ﴾ من البركة ، بمعنى ثبوت الخير وكثرته . والخير هنا يتمثل فى تكليم الله - تعالى - لنبيه موسى . وفى ندائه له . وتشريفه برسالته ، وتأييده بالمعجزات .

والمراد بمن فى النار : من هو قريب منها ، وهو موسى - عليه السلام - .

والمراد بمن حولها : الملائكة الحاضرون لهذا النداء ، أو الأماكن المجاورة لها .

أى : فلما وصل موسى - عليه السلام - إلى القرب من مكان النار ، نودى موسى من قبل الله - عز وجل - على سبيل التكريم والتحية : أن قُدس وطهر واختير للرسالة من هو بالقرب منها وهو موسى - عليه السلام - ومن حولها من الملائكة ، أو الأماكن القريبة منها .

قال الآلوسى : « قوله : ﴿ من فى النار ومن حولها ﴾ ذهب جماعة إلى أن فى الكلام مضافا مقدرًا فى موضعين . أى : من فى مكان النار ، ومن حول مكانها قالوا : ومكانها البقعة التى حصلت فيها ، وهى البقعة المباركة ، المذكورة فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما أتاها ﴾ أى النار - ﴿ نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ... ﴾[٣] .

---

(١) الآية ٢٩ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٤٩ .
(٣) سورة القصص الآية ٣٠ .

وقيل : من فى النار : موسى - عليه السلام - ، ومن حولها : الملائكة الحاضرون ... وقيل الأول الملائكة ، والثانى موسى ، واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازًا عن القرب التام ... وأيا ما كان فالمراد بذلك بشارة موسى - عليه السلام - »[1] .

وقال الشوكانى : « ومذهب المفسرين أن المراد بالنار - هنا - النور »[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ من تتمة النداء ، وخبر منه - تعالى - لموسى بالتنزيه . لئلا يتوهم من سماع كلامه - تعالى - التشبيه بما للبشر من كلام .

أى : وتنزه الله - عز وجل - وتقدس رب العالمين عن كل سوء ونقص ومماثلة للحوادث .

وقوله - سبحانه -: ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ إعلام منه - عز وجل - لعبده موسى بأن المخاطب له ، إنما هو الله - تعالى - الذى عز كل شىء وقهره وغلبه . والذى أحكم كل شىء خلقه .

والضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ للشأن . وجملة ﴿ أنا الله ﴾ مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان لذاته - عز وجل - .

أى : ياموسى إن الحال والشأن إنى أنا الله العزيز الحكيم ، الذى أخاطبك وأناجيك . فتنبه لما سآمرك به . ونفذ ما سأكلفك بفعله .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض ما أمر به موسى - عليه السلام - فقال : ﴿ وألق عصاك ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على ما تضمنه النداء .

أى : نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ... ونودى أن ألق عصاك التى بيدك .

وقوله : ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرًا ولم يعقب .. ﴾ معطوف على كلام مقدر .

أى : فاستجاب موسى - عليه السلام - لأمر ربه فألقى عصاه فصارت حية ، فلما رآها تهتز . أى : تضطرب وتتحرك بسرعة شديدة حتى لكأنها ﴿ جان ﴾ فى شدة حركتها وسرعة تقلبها ﴿ ولى مدبرًا ﴾ عنها من الخوف ﴿ ولم يعقب ﴾ أى : ولم يرجع على عقبه . بل استمر فى إدباره عنها دون أن يفكر فى الرجوع إليها . يقال : عقب المقاتل . إذا كر على عدوه بعد الفرار منه .

والجان : الحية الصغيرة السريعة الحركة . أو الحية الكبيرة ، والمراد هنا : التشبيه بها فى

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٦٠ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٢٧ .

شدة الحركة وسرعتها مع عظم حجمها .

وإنما ولى موسى مدبرًا عنها ، لأنه لم يخطر بباله أن عصاه التى بيده ، يحصل منها ما رآه بعينه ، من تحولها إلى حية تسعى وتضطرب وتتحرك بسرعة كأنها جان ، ومن طبيعة الإنسان أنه إذا رأى أمرا غريبًا اعتراه الخوف منه ، فما بالك بعصا تتحول إلى حية تسعى .

ثم بين - سبحانه - ما نادى به موسى على سبيل التثبيت وإدخال الطمأنينة على قلبه ، فقال : ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ .

أى : فلما ولى موسى ولم يعقب عندما ألقى عصاه فانقلبت حية ، ناداه ربه - تعالى - بقوله : ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ مما رأيت ؛ أو من شىء غيرى ما دمت فى حضرتى .

وجملة ﴿ إنى لا يخاف لدى المرسلون ﴾ تعليل للنهى عن الخوف ، أى إنى لا يخاف عندى من اخترته لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ﴾ استثناء منقطع مما قبله .

أى : إنى يا موسى لا يخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلاً سيئًا من عبادى . ثم تاب إلى توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى الخير . والمعصية إلى الطاعة ، فإنى أغفر له ما فرط منه ، لأنى أنا وحدى الواسع المغفرة والرحمة .

قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شىء ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال - تعالى - ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ﴾ وقال - تعالى - ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ، يجد الله غفورًا رحيمًا ﴾[1] .

وقيل : إن الاستثناء متصل ، فيكون المعنى : لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم منهم بأن وقع فى الصغائر التى لا يسلم منها أحد ، ثم تاب منها وأقلع عنها ، فإنى غفور رحيم .

قال الآلوسى : « والظاهر - هنا - انقطاع الاستثناء ، والأوفق بشأن المرسلين ، أن يراد بمن ظلم : من ارتكب ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا من غيرهم . و ﴿ ثم ﴾ يحتمل أن تكون للتراخى الزمانى فتفيد الآية المغفرة لمن بدل على الفور من باب أولى . ويحتمل أن تكون للتراخى الرتبى ، وهو ظاهر بين الظلم والتبديل ... »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٩١ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٦٦ .

وعبر - سبحانه - عن ترك الظلم بالتبديل ، للإشارة إلى الإقلاع التام عن هذا الظلم ، وإلى أن هذا الظلم قد حل محله العدل والطاعة والانقياد لأمره - تعالى - .

ثم أرشد - سبحانه - موسى - عليه السلام - إلى معجزة أخرى . لتكون دليلاً على صدقه فى رسالته إلى من سيرسله إليهم فقال : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ .

والمراد بجيبه : فتحة ثوبه أو قميصه عند مدخل رأسه ، أو عند جانبه الأيمن ، وأصل الجيب : القطع . يقال : جاب الشىء إذا قطعه .

والمعنى : وأدخل ياموسى يدك اليمنى فى فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء . أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يكون بها أى سوء من مرض أو برص أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضًا مشرقًا مصحوبًا بالسلامة بقدرة الله - تعالى - وإرادته .

قال الحسن البصرى : أخرجها - والله - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه .

وقوله : ﴿ تخرج ﴾ جواب الأمر فى قوله : ﴿ وأدخل ﴾ ، و ﴿ بيضاء ﴾ حال من فاعل تخرج ، و ﴿ من غير سوء ﴾ يجوز أن يكون حالاً أخرى . أو صفة لبيضاء .

والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى . والسوء : الردىء والقبيح من كل شىء ، وهو هنا كناية عن البرص لشدة قبحه .

وقوله - تعالى - : ﴿ فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ يصح أن يكون حالاً ثالثة من فاعل ﴿ تخرج ﴾ فيكون المعنى : وأدخل يا موسى يدك فى جيبك تخرج حالة كونها بيضاء . وحالة كونها من غير سوء ، وحالة كونها مندرجة أو معدودة فى ضمن تسع آيات زودناك بها ، لتكون معجزات لك أمام فرعون وقومه ، على أنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

قال الجمل « وقوله : ﴿ فى تسع آيات ﴾ فيه وجوه : أحدها : أنه حال ثالثة يعنى من فاعل تخرج ، أى : آية فى تسع آيات . الثانى : أنه متعلق بمحذوف أى : اذهب فى تسع آيات ... »[1] .

والمراد بالآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٠١ .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم منها قوله - تعالى - : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[٢] . وقوله - عز وجل - : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾[٣] .

وقال - تعالى - : ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .. ﴾[٤] .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى ، أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه .

قال ابن كثير : « ولقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه .. وغير ذلك . مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر . ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التى شاهدها فرعون وقومه ، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا »[٥] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنهم كانوا قومًا فاسقين ﴾ استئناف مسوق لبيان سبب إرسال موسى إلى فرعون وقومه .

أى : هذه الآيات التسع أرسلناك بها ياموسى إلى فرعون وقومه ، لأنهم كانوا قومًا فاسقين عن أمرنا ، وخارجين على شرعنا ، وعابدين لغيرنا من مخلوقاتنا .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وقومه من هذه المعجزات الدالة على صدق موسى فقال :

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وقوله ﴿ مبصرة ﴾ من الإبصار والظهور . وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول ، للإشعار

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٣٢، ٣٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٦٣ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٢١ .

بشدة وضوحها وإنارتها ، حتى لكأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر ، كما يقال : ماء دافق بمعنى مدفوق .

وقوله : ﴿ وجحدوا بها ﴾ من الجحود . وهو إنكار الحق مع العلم بأنه حق ، يقال : جحد فلان حق غيره ، إذا أنكره مع علمه به .

وقوله : ﴿ واستيقنتها ﴾ من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم الذى لا يطرأ عليه شك وجىء بالسين لزيادة التأكيد .

والمعنى : وذهب موسى - عليه السلام - ومعه المعجزات الدالة على صدقه ، إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات المضيئة الواضحة للدلالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والغرور ، هذا الذى نراه منك يا موسى ، سحر بين وظاهر فى كونه سحرا .

وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه - تعالى - ، مع أن أنفسهم قد علمت علمًا لا شك معه أنها معجزات وليست سحرًا ، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم ﴿ ظلمًا ﴾ للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسموها سحرًا ﴿ وعلوا ﴾ أى : ترفعا واستكبارًا عن الإيمان بها .

﴿ فانظر ﴾ أيها العاقل ﴿ كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله جميعًا ، بسبب كفرهم وظلمهم وجحودهم وفسادهم فى الأرض .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا .. ﴾ إشعار بأن هذه الآيات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - قد وصلت إليهم بدون أن يتعبوا أنفسهم فى الذهاب إليها ، فهى جاءتهم إلى بيوتهم لكى تهديهم إلى الصراط المستقيم ، ولكنهم قابلوا ذلك بالكفر والجحود .

وأسند - سبحانه - المجىء إلى الآيات وأضافها إلى ذاته - تعالى - للإشارة إلى أنها خارجة عن أن تكون من صنع موسى ، وإنما هى من صنع الله - تعالى - ومن فعله ، وموسى ما هو إلا منفذ لما أمره ربه ، ومؤيد بما منحه إياه من معجزات دالة على صدقه فيما يبلغه عنه .

وقوله : ﴿ ظلمًا وعلوا ﴾ منصوبان على أنهما مفعولان لأجله ، أو على أنهما حالان من فاعل جحدوا .

أى : جحدوا الآيات مع تيقنهم أنها من عند الله ، من أجل الظلم لها والتعالى على من جاء بها ، أو : جحدوا بها حالة كونهم ظالمين لها ، ومستكبرين عنها .

وفى قوله - سبحانه -: ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ تسلية عظمى للرسول

- ﷺ - عما أصابه من الكافرين .

فهم كانوا كفرعون وقومه فى جحود الحق الذى جاءهم به الرسول - ﷺ - مع يقينهم بأنه حق ، ولكن حال بينهم وبين الدخول أسباب متعددة ، على رأسها العناد ، والحسد ، والعكوف على ما كان عليه الآباء ، والكراهية لتغيير الأوضاع التى تهواها نفوسهم ، وزينتها لهم شهواتهم ...

وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الجانب من قصة موسى - عليه السلام - ، أتبع ذلك بالحديث عن جانب من النعم التى أنعم بها على نبيين كريمين من أنبيائه ، وهما داود وسليمان - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير قوله - تعالى - : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ إذ القرآن الكريم هو الذى قص

الله - تعالى - فيه أخبار السابقين ، بالصدق والحق .

وداود هو ابن يسى ، من سبط يهوذا من بنى إسرائيل ، وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق . م - تقريبًا - ، وهو الذى قتل جالوت ، كما قال - تعالى - : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ... ﴾(١) . وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق م تقريبًا .

وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ ق م وتوفى سنة ٩٧٥ ق م .

وقد جاء ذكرهما فى سورتى الأنبياء وسبأ وغيرهما .

ويعتبر عهدهما أزهى عهود بنى إسرائيل ، فقد أعطاهما الله - تعالى - نعما جليلة .

والمعنى : والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علما واسعا من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا .

أما داود فقد أعطاه - سبحانه - علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما علمه صناعة الدروع .. قال - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ، يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾(٢) .

وأما سليمان فقد آتاه - سبحانه - ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، ورزق الحكم السديد بين الناس . قال - تعالى - : ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكمًا وعلمًا ﴾(٣) .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ بيان لموقفهما من نعم الله - تعالى - عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما .

والواو فى قوله ﴿ وقالا ﴾ للعطف على محذوف ، أى : آتيناهما علما غزيرًا فعملا بمقتضاه وشكرا الله عليه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا بسبب ما آتانا من علم ونعم ، على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم ينالوا ما نلنا من خيره وبره - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : « وفى الآية دليل على شرف العلم ، وإنافة محله . وتقدم حَمَلَتِه

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١ .
(٢) سورة سبأ الآية ١٠ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧٩ .

وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلاً على كثير من عباد الله .. »[١] .

وفى التعبير بقوله - تعالى - ﴿ فضلنا على كثير ... ﴾ دلالة على حسن أدبهما ، وتواضعهما ، حيث لم يقولا فضلنا على جميع عباده .

والمراد بالوراثة فى قوله - تعالى - : ﴿ وورث سليمان داود .. ﴾ وراثة العلم والنبوة والملك . أى : وورث سليمان داود فى نبوته وعلمه وملكه .

قال ابن كثير : « وقوله : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ . أى : فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك ، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود .. ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، أخبر بذلك رسول الله - ﷺ - : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[٢] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان على سبيل التحدث بنعم الله عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء .. ﴾ .

أى : وقال سليمان - عليه السلام - على سبيل الشكر لله - تعالى - : يأيها الناس : علمنا الله - تعالى - بفضله وإحسانه فهم ما يريده كل طائر إذا صوت أو صاح ، وأعطانا - سبحانه - من كل شىء نحتاجه وننتفع به فى ديننا أو دنيانا .

وقدم نعمة تعليمه منطق الطير ، لأنها نعمة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، وتعتبر من معجزاته - عليه السلام - .

وقيل : إنه علم منطق جميع الحيوانات . وإنما ذكر الطير لأنه أظهر فى النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس .

قال الآلوسى : « والجملتان - علمنا منطق الطير، وأوتينا من كل شىء - كالشرح للميراث .

وعن مقاتل : أنه أريد بما أوتيه النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح .

وعن ابن عباس : هو ما يريده من أمر الدنيا والآخرة »[٣] .

وعبر عن نعم الله - تعالى - عليه بنون العظمة فقال ﴿ أوتينا ﴾ ولم يقل أوتيت ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٥٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٩٢ .
(٣) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٦٤ .

للإشعار بأنه عبد من عباد الله المطاعين ، الذين سخر لهم جنودًا من الجن والإنس والطير ، ليكونوا فى خدمته ، وليستعملهم فى وجوه الخير لا فى وجوه الشر ، فهو لم يقل ذلك على سبيل التباهى والتعالى ، وإنما قاله على سبيل التحدث بنعمة الله .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ يعود إلى ما أعطاه الله - تعالى - إياه من العلم والملك وغيرهما .

أى : إن هذا الذى أعطانا إياه من العلم والملك ، وكل شىء تدعو إليه الحاجة ، لهو الفضل الواضح ، والإحسان الظاهر منه - عز وجل -

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر ملك سليمان - عليه السلام - فتقول : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ .

والحشر : الجمع . يقال : حشر القائد جنده إذا جمعهم لأمر من الأمور التى تهمه .

وقوله : ﴿ يوزعون ﴾ من الوزع بمعنى الكف والمنع . يقال : وزعه عن الظلم وزعا ، إذا كفه عنه .

ومنه قول عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ومنه قول الشاعر :

ولا يَزَعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى من الناس ، إلا وافرُ العقل كامِلُهُ

والمعنى : وجمع لسليمان - عليه السلام - عساكره وجنوده من الجن والإنس والطير ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : فهم محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب ، بحيث لايتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المسئول عنها .

فالتعبير بقوله ﴿ يوزعون ﴾ يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثرتهم ، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفراده إلى جادة الصواب .

ولقد ذكر بعض المفسرين هنا أقوالاً فى عدد جيش سليمان ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لضعفها ويكفينا أن نعلم أن الله - تعالى - قد سخر لسليمان جندا من الجن والإنس والطير ، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد علمه إلى الله - تعالى - وحده ، وإن كان التعبير القرآنى يشعر بأن هؤلاء الجند المجموعين ، يمثلون موكبا عظيما ، وحشدا كبيرا .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته نملة عند ما رأت هذا الجيش العظيم المنظم ، فقال

– تعالى – : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ .

و ﴿ حتى ﴾ هنا ابتدائية . أى : يبتدأ بها الكلام ، وقوله ﴿ قالت نملة ﴾ جواب إذا .

وقوله : ﴿ لايحطمنكم ﴾ من الحطم ، وأصله : كسر الشىء .. يقال : حطم فلان الشىء إذا كسره ، والمراد به هنا : الإهلاك والقتل .

والمعنى : وحشر لسليمان جنوده ، فسار هؤلاء الجنود فى قوة ونظام ، ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ أى : على مكان يعيش فيه النمل فى مملكة سليمان ﴿ قالت نملة ﴾ على سبيل النصح والتحذير بعد أن رأت سليمان وجنوده : ﴿ يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ أى : ادخلوا أماكن سكناكم ، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير ، وانجوا بأنفسكم ، كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عدى ﴿ أتوا ﴾ بعلى ؟ قلت : يتوجه على معنين : أحدهما : أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ... والثانى : أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره ، من قولهم أتى على الشىء إذا أنفده وبلغ آخره ..

فإن قلت : ﴿ لا يحطمنكم ﴾ ما هو ؟ قلت : يحتمل أن يكون جوابًا للأمر ، وأن يكون نهيا بدلاً من الأمر . والذى جوز أن يكون بدلاً منه : أنه فى معنى : لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم ، على طريقة : لاأرينك ههنا »[1] .

أى : لا تحضر هاهنا بحيث أراك .

ثم بين – سبحانه – ما فعله سليمان بعد أن أدرك ما قالته النملة لأفراد جنسها ، فقال – تعالى – : ﴿ فتبسم ضاحكًا من قولها ﴾ أى : فسمع قولها السابق فاهتزت نفسه ، وتبسم ضاحكًا من قولها ، لفطنتها إلى تحذير أبناء جنسها ، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه ، حيث وصفتهم بأنهم لا يقدمون على إهلاك النمل ، إلا بسبب عدم شعورهم بهم .

وقوله ﴿ ضاحكًا ﴾ حال مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم . وقيل : هو حال مقدرة ؛ لأن التبسم أول الضحك .

ثم حكى – سبحانه – ما نطق به سليمان بعد ذلك فقال : ﴿ وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى ... ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٥٦ .

أى : وقال سليمان : يارب ألهمنى المداومة على شكرك والامتناع عن جحود نعمك ، والكف عن كل ما يؤدى إلى كفران مننك التى أفضتها على وعلى والدى .

ووفقنى كذلك لأن ﴿ أعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحًا ترضاه ﴾ عنى وتقبله منى ﴿ وأدخلنى ﴾ يا إلهى ﴿ برحمتك ﴾ وإحسانك ﴿ فى عبادك الصالحين ﴾ الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

وهكذا جمع سليمان - عليه السلام - فى هذا الدعاء البليغ المؤثر ، أسمى ألوان الخشية من الله - تعالى - والشكر له - سبحانه - على نعمه ، والرجاء فى رضاه وعطائه الجزيل .

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك ما دار بين سليمان - عليه السلام - وبين جندى من جنود مملكته وهو الهدهد ، فقال - تعالى - :

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

والتفقد : تطلب الشىء ومعرفة أحواله ، ومنه قولهم : تفقد القائد جنوده ، أى : تطلب أحوالهم ليعرف حاضرهم من غائبهم .

والطير : اسم جنس لكل ما يطير ، ومفرده طائر ، والمراد بالهدهد هنا : طائر معين وليس الجنس .

و ﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى بل .

أى : وأشرف سليمان - عليه السلام - على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال بعد أن نظر فى أحوال الطير : ﴿ مالى لا أرى الهدهد ﴾ أى : ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدهد ثم تأكد من غيابه فقال بل هو من الغائبين .

قال الآلوسى : « والظاهر أن قوله - عليه السلام - ذلك ، مبنى على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته ، أى : عدم رؤيتى إياه مع حضوره ، لأى سبب ؟ ألساتر أم لغيره . ثم لاح له أنه غائب ، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له . فأم هى المنقطعة ، كما فى قولهم : إنها لإبل أم شاء ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ بيان للحكم الذى أصدره سليمان - عليه السلام - على الهدهد بسبب غيابه بدون إذن .

أى : لأعذبن الهدهد عذابًا شديدًا يؤلمه ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بحجة قوية توضح سبب غيابه . وتقنعنى بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه ، أو ذبحه .

فأنت ترى أن سليمان - عليه السلام - وهو النبى الملك الحكيم العادل - يقيد تعذيب الهدهد أو ذبحه . بعدم إتيانه بالعذر المقبول عن سبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه .

فكأنه - عليه السلام - يقول : هذا الهدهد الغائب إما أن أعذبه عذابًا شديدًا وإما أن أذبحه بعد حضوره ، وإما أن يأتينى بعذر مقبول عن سبب غيابه ، وفى هذه الحالة فأنا سأعفو عنه .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من الهدهد ، فقال : ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أى فمكث الهدهد زمانًا غير بعيد من تهديد سليمان له ، ثم أتاه فقال له : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أى : علمت أشياء أنت لم تعلمها . وابتدأ كلامه بهذه الجملة التى فيها ما فيها من المفاجآت لترغيبه فى الإصغاء إليه ، ولاستمالة قلبه لقبول عذره بعد ذلك .

قال صاحب الكشاف : « ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام ، على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٨٢ .

وتنبيهًا على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علمًا بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفًا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ... »[1] .

وقوله : ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ تفسير وتوضيح لقوله قبل ذلك : أحطت بما لم تحط به، وسبأ فى الأصل: اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثم صار بعد ذلك اسما لحى من الناس سموا باسم أبيهم ، أو صار اسما للقبيلة ، أو لمدينة تعرف بمأرب باليمن . بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

وقد قرأ بعضهم هذا اللفظ بالتنوين باعتباره اسم رجل ، وقرأه آخرون بغير تنوين لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

أى : قال الهدهد لسليمان بادئًا حديثه بما يشير إلى قبول عذره : علمت شيئًا أنت لم تعلمه ، وجئتك من جهة قبيلة سبأ بنبأ عظيم خطير ، أنا متيقن من صدقه .

ثم قص عليه ما رآه فقال : ﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم ﴾ والمراد بهذه المرأة : بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان ... ورثت الملك عن أبيها .

أى : إنى وجدت قبيلة سبأ تحكمها امرأة ، وتتصرف فى أمورهم دون أن يعترض عليها معترض ، أو ينافسها منافس .

وقوله ﴿ وأوتيت من كل شىء ﴾ معطوف على ما قبله . أى : وبين يديها جميع الأشياء التى تحتاجها لتصريف شئون مملكتها ، والمحافظة على قوتها واستقرارها ...

وفضلًا عن كل ذلك ﴿ لها عرش عظيم ﴾ أى : لها سرير ملك فخم ضخم يدل على غناها وترفها ، ورقى مملكتها فى الصناعة وغيرها .

والمراد أن لها عرشا عظيمًا بالنسبة إلى أمثالها من الدنيا .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ... ﴾ .

أى : والأهم من كل ذلك أنى وجدت هذه المرأة ومعها قومها يتركون عبادة الله - تعالى - ، ويعبدون الشمس التى هى من مخلوقاته - عز وجل - .

﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ التى هى عبادتهم للشمس ، وما يشبهها من ألوان الكفر والفسوق عن أمر الله - تعالى - .

﴿ فصدهم ﴾ أى فمنعهم الشيطان ﴿ عن السبيل ﴾ الحق ﴿ فهم ﴾ بسبب ذلك

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٥٩ .

﴿ لا يهتدون ﴾ إلى عبادة الله - تعالى - الذى لا معبود بحق سواه .

وقوله : ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ﴾ بيان لما ترتب على إغواء الشيطان لهم . وقد قرأ عامة القراء ﴿ ألا ﴾ - بتشديد اللام - و ﴿ يسجدوا ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المدغمة فى لفظه لا ، وهو مع ناصية فى تأويل مصدر ، فى محل نصب على أنه مفعول لأجله .

والمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم من أجل أن يتركوا السجود لله - تعالى - ﴿ الذى يخرج الخبء ﴾ أى : الذى يظهر الشىء المخبوء فى السموات والأرض ، كائنًا ما كان هذا الشىء ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فيهما .

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ ألّا يسجدوا لله ﴾ أى : لئلا يسجدوا لله واللام للتعليل ، وهو متعلق بصدهم أو بزين . والفاء فى ﴿ فصدهم ﴾ لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفريعية أو تفصيلية ، أى : فصدهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله - عز وجل - . أو زين لهم دلك لأجل أن لا يسجدوا له - تعالى - .

ثم قال : وقرأ الكسائى : ﴿ ألا ﴾ - بتخفيف اللام - على أنها حرف استفتاح وتنبيه[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ معطوف على ما قبله .

والمعنى : زين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يعلم المخبوء والمستور فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون من أسرار ، وما تعلنون من أقوال .

قال بعض العلماء : « واعلم أن التحقيق أن آية النمل هذه ، محل سجدة على كلتا القراءتين ، لأن قراءة الكسائى فيها الأمر بالسجود ، وقراءة الجمهور فيها ذم تارك السجود وتوبيخه »[2] .

وقوله - تعالى - ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ فى معنى التعليل لحقيقة السجود لله - تعالى - وحده .

أى : اجعلوا سجودكم لله - تعالى - وحده ، واتركوا السجود لغيره ، لأنه - سبحانه - لا إله بحق سواه ، وهو - سبحانه - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يدانيه ولا يشبهه شىء مما يطلق عليه هذا اللفظ .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ، ص ١٩٠ .

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى ج ٦ ص ٤٠٥ .

ثم تحكى السور بعد ذلك ما كان من سليمان - عليه السلام - وما كان من ملكة سبأ بعد أن وصلها كتابه ، فقال - تعالى - :

۞ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال سننظر ... ﴾ حكاية لما قاله سليمان - عليه السلام - فى رده على الهدهد ، الذى قال له فى تبرير عذره : ﴿ أحطت بما لم تحط به .. ﴾ إلخ .

والفعل « ننظر » من النظر بمعنى التأمل فى الأمور ، والتدبر فى أحوالها ، والسين للتأكيد .

أى : قال سليمان للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر - أيها الهدهد - فى أقوالك ، ونرى أكنت صادقًا فيها ، أم أنت من الكاذبين .

وهكذا نرى نبى الله سليمان - وهو العاقل الحكيم - لا يتسرع فى تصديق الهدهد أو تكذيبه ، ولا يخرجه النبأ العظيم الذى جاءه به الهدهد ، عن اتزانه ووقاره ، وإنما يبنى أحكامه على ما سيسفر عنه تحققه من صدق خبره أو كذبه .

وهذا هو اللائق بشأن النبى الكريم سليمان ، الذى آتاه الله - تعالى - النبوة والملك والحكمة .

قال القرطبى « وقوله : ﴿ سننظر ﴾ من النظر الذى هو التأمل والتصفح . ﴿ أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ أى : فى مقالتك . و ﴿ كنت ﴾ بمعنى أنت وقال : ﴿ سننظر أصدقت ﴾ ولم يقل سننظر فى أمرك ، لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم فى قوله : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك كفاء لما قاله »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ﴾ بيان لما أمر به سليمان - عليه السلام - الهدهد ، بعد أن قال له : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

أى : خذ - أيها الهدهد - كتابى هذا . فاذهب به إلى هؤلاء القوم من أهل سبأ ، ﴿ ثم تول عنهم ﴾ أى : ثم انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ أى : فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يراجع بعضهم بعضًا ، ثم أخبرنى بذلك .

قال ابن كثير : وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ... وذهب به إلى بلادهم ، فجاء فى قصر بلقيس . إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها . ثم تولى ناحية أدبا ، فتحيرت مما رأت . وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته ... »[2] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم . على لفظ الجمع ؟ قلت : لأنه قال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس ﴾ فقال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ، اهتمامًا منه بأمر الدين ، واشتغالاً به عن غيره . وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك »[3] .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته ملكة سبأ ، بعد أن جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - ، فقال - تعالى - : ﴿ قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .

أى : قالت لحاشيتها بعد أن قرأت الكتاب وفهمت ما فيه : ﴿ يأيها الملأ ﴾ - أى : يأيها الأشراف من قومى ﴿ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٨٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٩٨ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ، ص ٣٦٣ .

وصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب البديع ، والتوجيه الحسن ، ولجمال هيئته ، وعجيب أمره .

ثم أفصحت عن مصدره فقالت : ﴿ إنه من سليمان ﴾ وعن مضمونه فقالت : ﴿ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم ، حيث اشتمل على اسم الله - تعالى - وعلى بعض صفاته ، وعلى ترك التكبر ، وعلى الدخول فى الدين الحق ، كما يدل عليه قوله - تعالى - : ﴿ ألا تعلوا على ﴾ أى : ألا تتكبروا على كما يفعل الملوك الجبابرة ﴿ وأتونى مسلمين ﴾ منقادين طائعين لشريعة الله - وحده ، التى توجب عليكم إخلاص العبادة له ، دون أحد سواه ، إذ هو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، وكل معبود سواه فهو باطل .

فالكتاب - مع إيجازه - متضمن لفنون البلاغة . ولمظاهر القوة الحكيمة العادلة ، التى اتبعها سليمان فى رسالته إلى ملكة سبأ وقومها .

وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها فقالت : ﴿ يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ﴾ والفتوى : الجواب على المستفتى فيما سأل عنه ، والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأى .

أى : قالت يأيها الأشراف والقادة من قومى ، أشيروا على ماذا سأفعل فى أمر هذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان ، والذى يطلب منا فيه ما سمعتم ؟

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون ﴾ أى : أنتم تعلمون أنى لا أقطع أمرًا يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم ، وأخذ رأيكم .

وفى قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلها ، حيث جمعت رءوس مملكتها ، واستشارتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها . وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

فقد قالوا لها : ﴿ نحن أولو قوة ﴾ أى : أصحاب قوة فى الأجساد ، ﴿ وأولو بأس شديد ﴾ أى : وأصحاب بلاء شديد فى القتال .

﴿ والأمر إليك ﴾ أى : موكول إلى رأيك ، وإلى ما تطمئن إليه نفسك من قرار .

﴿ فانظرى ماذا تأمرين ﴾ فتأملى وتفكرى فيما تأمريننا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فنحن سنطيعك فى كل ما تطلبينه منا .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقال - تعالى - : ﴿ قالت إن الملوك ﴾ من شأنهم أنهم ﴿ إذا

دخلوا قرية ﴾ من القرى . أو مدينة من المدن ، بعد تغلبهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال .. ﴿ أفسدوها ﴾ أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار .

وفوق كل ذلك : ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أى : أهانوا أشرافها ورؤساءها ، وجعلوهم أذلة بعد أن كانوا أعزة . ليكونوا عبرة لغيرهم .

﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أى : وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى ، عن طريق القهر والقسر والقتال .

والمقصود من قولها هذا : التلويح لقومها بأن السلم أجدى من الحرب ، وأن الملاينة مع سليمان - عليه السلام - أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة .

ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت : ﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ . وقوله : ﴿ فناظرة ﴾ معطوف على ﴿ مرسلة ﴾ وهو من الانتظار بمعنى الترقب .

أى : وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان ، وإنى لمنتظرة ماذا سيقول سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية . وماذا سيفعل معهم .

قال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

وقال قتادة : رحمها الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية ، فقال - تعالى - :

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٠٠ .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم والتقدير : وهيأت ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام - . وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة ، فلما جاء سليمان ، أى : فلما وصل الرسل إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .

فلما رآها قال - على سبيل الانكار والاستخفاف بتلك الهدية - : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ أى : أتقدمون إلى هذا المال الزائل والمتمثل فى تلك الهدية لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله - تعالى - وحده . وتاركون لعبادة غيره ؟

كلا لن ألتفت إلى هديتكم ﴿ فما آتانى الله ﴾ من النبوة والملك الواسع ﴿ خير مما آتاكم ﴾ من أموال من جملتها تلك الهدية .

فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم ، ولاستخفافه بها ، وسخريته منها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ إضراب عما ذكره من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار ، إلى بيان ما هم عليه من ضيق فى التفكير ، حيث أوهموا أن هذه الهدية ، قد تفيد فى صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وقد تحمله على تركهم وشأنهم .

أى : افهموا - أيها الرسل - وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية : إن سليمان ما آتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم ، وإنه يقول لكم جميعا : انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها ، لأنكم لا تفكرون إلا فى متع الحياة الدنيا ، أما أنا ففى غنى عن هداياكم ولا يهمنى إلا إيمانكم .

ثم أتبع سليمان - عليه السلام - هذا الاستنكار بالتهديد فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ارجع إليهم ﴾ .

أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : عد من حيث أتيت ومعك هديتك .

﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ أى : فوالله لنأتينهم بجنود لا قدرة لهم على مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .

﴿ ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ أى : ووالله لنخرجن هذه الملكة وقومها من بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مهزومين مقهورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .

وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة ، دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن لايهتم إلا بالجوهر واللباب فيما يقصه من أحداث .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما طلبه سليمان - عليه السلام - من جنوده فيقول :

قَالَ
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى
عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد - والله - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة .. وبعثت اليه : إنى قادمة إليك بملوك قومى ، لأنظر فى أمرك وما تدعونا إليه من دينك .. ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف رجل من أشراف قومها - بعد أن أقفلت الأبواب على عرشها - فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن ممن تحت يده فقال : ﴿ يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ .

أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه الملكة قبل أن تحضر إلى هى وقومها مسلمين ، أى : منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به .

ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها - من بلاد اليمن إلى بيت المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم قدرة الله - تعالى - ، وعلى ما أعطاه - سبحانه - له من ملك عريض ، ومن نعم جليلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير .

ولعل كل ذلك يقودها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين ..

وبعد أن قال سليمان لجنده أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، رد عليه عفريت من الجن بقوله : ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ .

والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله - تعالى - لخدمة سليمان ،

وللقيام بأداء ما يكلفهم به . ويقال له : عفريت ، وعفريته - بكسر العين وسكون الفاء - .

أى : قال عفريت من الجن لسليمان : أنا آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى تجلس فيه للقضاء بين الناس . أو قبل أن تقف من جلوسك .

﴿ وإنى عليه لقوى أمين ﴾ أى : وإنى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك ، بحيث لا يثقل على حمله ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شىء .

وكأن سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك المملكة فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوى ، فنهض جندى آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ . قالوا : والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو رجل من صلحاء بنى إسرائيل ، آتاه الله - تعالى - من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .

قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به - سبحانه - أجاب الداعى ، وإذا سئل به - تعالى - أجاب السائل .

قيل : المراد به سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا العفريت ، فكأنه استبطأ ما قاله العفريت فقال له : - على سبيل التحقير - أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وقيل : المراد به جبريل . والأول هو المشهور عند المفسرين .

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله - تعالى - يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة فى إحضاره .

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله وشرف حامليه وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله - تعالى - لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه - سبحانه - من علم .

وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ﴿ فلما رآه مستقرا عنده ﴾ أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه ... لم يغتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والعجب . بل قال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ﴾ .

أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة من فضل ربى وعطائه ، لكى يمتحننى أأشكره على نعمه أم أجحد هذه النعم .

﴿ ومن شكر ﴾ الله - تعالى - على نعمه ﴿ فإنما يشكر لنفسه ﴾ حيث يزيده - سبحانه - منها .

﴿ ومن كفر ﴾ نعم الله - تعالى - وجحدها ﴿ فإن ربى غنى ﴾ عن خلقه ﴿ كريم ﴾ فى معاملته لهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعفو ويصفح عن كثير من ذنوبهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة البديعة ، ببيان ما فعله سليمان بالعرش ، وبما قاله للملكة سبأ بعد أن قدمت إليه ، وبما انتهى إليه أمرها ، فقال - تعالى - :

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا

نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ

أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ

﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ

﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن

سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى

ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

وقوله : ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ من التنكير الذى هو ضد التعريف ، وهو جعل الشىء على هيئة تخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .

أى : قال سليمان لجنوده ، بعد أن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذه الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته ، وأعلاه أسفله ..

وافعلوا ذلك لكى ﴿ ننظر ﴾ ونعرف ﴿ أتهتدى ﴾ إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عندما تسأل ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ إلى معرفة الشىء بعد تغيير معالمه المميزة له . أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه .

فالمقصود بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ، عند مفاجأتها

بإطلاعها على عرشها الذى خلفته وراءها فى بلادها . وإيقافها على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى ما وهبه لسليمان - عليه السلام - من معجزات .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلما جاءت ... ﴾ شروع فى بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .

أى : فلما وصلت بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - عرض عليها عرشها بعد تغيير معالمه . ثم قيل لها من جهته - عليه السلام - : ﴿ أهكذا عرشك ﴾ أى : أمثل هذا العرش الذى ترينه الآن ، عرشك الذى خلفتيه وراءك فى بلادك .

فالهمزة للاستفهام والهاء للتنبيه - والكاف حرف جر ، وذا اسم إشارة مجرور بها ، والجار والمجرور خبر مقدم ، وعرشك مبتدأ مؤخر .

ولم يقل لها : أهذا عرشك ، لئلا يكون إرشادا لها إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اختبار ذكائها وحسن تصرفها .

ولاشك أن هذا القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن فى حسبانها ، وإلا فأين هى من عرشها الذى تركته خلفها على مسافة بعيدة ، بينها وبين مملكة سليمان عشرات الآلاف من الأميال .

ولكن الملكة الأريبة العاقلة ، هداها تفكيرها إلى جواب ذكى ، فقالت - كما حكى القرآن عنها - : ﴿ كأنه هو ﴾ أى : هذا العرش - الذى غيرت هيئته - كأنه عرشى الذى تركته فى بلادى ، فهى لم تثبت أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمر مبنيا على الظن والتشبيه ، لكى يناسب الجواب السؤال .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام بلقيس ، وكأنها عندما استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها قالت : وأوتينا العلم من قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان وكنا مسلمين ، طائعين لأمره .

ومنهم من يرى أنه من سليمان ، وتكون الجملة معطوفة على كلام مقدر وجىء بها من قبيل التحدث بنعمة الله - تعالى - .

والمعنى : قال سليمان : لقد أصابت بلقيس فى الجواب ، وعرفت الحق ، ولكننا نحن الذين أوتينا العلم من قبلها - أى من قبل حضور ملكة سبأ - وكنا مسلمين لله - تعالى - وجوهنا .

ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكاها القرآن على أنها من تتمة كلامها أقرب إلى

الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ من تتمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين . كأنها استشعرت مما شاهدته اختبارها ، وإظهار معجزة لها . ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول ، سارعت إلى الجواب بما أنبأ عن كمال عقلها ، ولما كان إظهار المعجزة دون ذلك فى الظهور ، ذكرت ما يتعلق به آخرا وهو قولها : ﴿ وأوتينا العلم ﴾ وفيه دلالة على كمال عقلها - أيضا - .

والمعنى : وأوتينا العلم بكمال قدرة الله ، وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة ، بما شاهدناه من أمر الهدهد . وما سمعناه من رسلنا إليك ، وكنا مؤمنين من ذلك الوقت ، فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ... ﴾ بيان للأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل ذلك . و﴿ ما ﴾ موصولة على أنها فاعل « صد » .

أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبده من دون الله - تعالى - وهو الشمس - عن عبادة الله - تعالى - وحده ، وعن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

ويصح أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية ، والمصدر هو الفاعل . أى . وصدها عبادة الشمس ، عن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

وجملة ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ تعليل لسببية عبادتها لغير الله - تعالى - .

أى : إن هذه المرأة كانت من قوم كافرين بالله - تعالى - ، جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن فى مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم .

فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ، لتزداد يقينا بوحدانية الله - تعالى - ، وبعظم النعم التى أعطاها - سبحانه - له فقال : ﴿ قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ﴾ .

والصرح : القصر ويطلق على كل بناء مرتفع . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى ١٩ ، ص ٢٠٧ .

(٢) سورة غافر الآية ٣٦ .

ويطلق - أيضاً - على صحن الدار وساحته . يقال : هذه صرحة الدار . أى : ساحتها وعرصتها .

وكان سليمان - عليه السلام - قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبلور . بحيث يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء .

أى : قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألها : أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه . قال لها : ادخلى هذا القصر ، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة ، حسبته لجة . أى : ظنته ماء غزيرا كالبحر .

﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ لئلا تبتل بالماء أذيال ثيابها .

وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة : ﴿ إنه ﴾ أى : ما حسبته لجة ﴿ صرح ممرد من قوارير ﴾ أى : قصر مملس من زجاج لا يحجب ما وراءه .

فقوله ﴿ ممرد ﴾ بمعنى مملس ، مأخوذ من قولهم : شجرة مرداء إذا كانت عارية من الورق ، وغلام أمرد ، إذا لم يكن فى وجهه شعر والتمريد فى البناء ، معناه : التمليس والتسوية والنعومة .

والقوارير : جمع قارورة ، وهى إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر فى رحمها ، أو تشبيها لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها ، ومنه الحديث الشريف : « رفقا بالقوارير » . والمراد بالقوارير هنا . المعنى الأول .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانبا من عجائب صنع الله فقال : ﴿ قالت رب إنى ظلمت نفسى ﴾ أى : بسبب عبادتى لغيرك قبل هذا الوقت .. ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾ طائعة مختارة ، وإسلامى إنما هو ﴿ لله رب العالمين ﴾ وليس لأحد سواه .

وبعد ، فهذا تفسير محرر لتلك القصة ، وقد أعرضنا عن كثير من الإسرائيليات التى حشا بها بعض المفسرين تفاسيرهم ، عند حديثهم عن الآيات التى وردت فى هذه القصة ، ومن ذلك ما يتعلق بسليمان - عليه السلام - وبجنوده من الطير . وبمحاورة النملة له ، وبالهدية التى أرسلتها ملكة سبأ إليه ، وبما قالته الشياطين لسليمان عن هذه المرأة .. الخ وقد اشتملت هذه القصة على عبر وعظات وأحكام وآداب ، من أهمها ما يأتى :

١ - أن الله - تعالى - قد أعطى - بفضله وإحسانه - داود وسليمان عليهما السلام - نعما عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .

وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله - تعالى - واستعملاها فيما خلقت له .

ونرى ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

٢ - أن سليمان - عليه السلام - قد أقام دولته على الإيمان بالله - تعالى - وعلى العلم النافع ، وعلى القوة العادلة .

أما الإيمان بالله - تعالى - وإخلاص العبادة له - سبحانه - ، فهو كائن له - عليه السلام - بمقتضى نبوته التى اختاره الله لها ، وبمقتضى دعوته غيره إلى وحدانية الله - عز وجل - فقد حكى القرآن عنه أنه قال فى رسالته إلى ملكة سبأ : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .

وأما العلم النافع ، فيكفى أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما .. ﴾ .

واشتملت على قوله - سبحانه - : ﴿ وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير ... ﴾ .

وعلى قوله - عز وجل - : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ .

وأما القوة ، فنراها فى قوله - تعالى - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

٣ - أن سليمان عليه السلام كانت رسالته الأولى نشر الإيمان بالله - تعالى - فى الأرض ، وتطهيرها من كل معبود سواه .

والدليل على ذلك أن الهدهد عندما أخبره بحال الملكة التى كانت هى وقومها يعبدون الشمس من دون الله ..

ما كان من سليمان - عليه السلام - إلا أن حمله كتابا قويا بليغا يأمرهم فيه بترك التكبر

والغرور ، وبإسلام وجوههم لله وحده : ﴿ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .

٤ - أن سليمان - عليه السلام - كان يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته ، حيث يعرف شئونها الصغيرة والكبيرة ، ويعرف الحاضر من أفرادها والغائب ، حتى ولو كان الغائب طيرا صغيرا ، من بين آلاف الخلائق الذين هم تحت قيادته .

ولقد صور القرآن ما كان عليه سليمان - عليه السلام - من يقظة ودراية بأفراد رعيته أبدع تصوير فقال : ﴿ وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ .

قال الإمام القرطبى - رحمه الله - : فى هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره ، كيف لم يَخْفَ على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك ..

ثم يقول - رحمه الله - على سبيل التفجع والشكوى عن حال الولاة فى عهده : فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان .. ورحم الله القائل :

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها[1]

٥ - أن سليمان - عليه السلام - كان بجانب تعهده لشئون رعيته ، يمثل الحاكم الحازم العادل ، الذى يحاسب المهمل ، ويتوعد المقصر ، ويعاقب من يستحق العقاب ، وفى الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذرا مشروعا ومقنعا .

انظر إليه وهو يقول - كما حكى القرآن عنه - عندما تفقد الهدهد فلم يجده : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ .

إن الجيوش الجرارة التى تحت قيادة سليمان - عليه السلام - لا تؤثر فيها غياب هدهد منها .. ولكن سليمان القائد الحازم ، كأنه يريد أن يعلم جنوده ، أن لكل جندى رسالته التى يجب عليه أن يؤديها على الوجه الأكمل سواء أكان هذا الجندى صغيرا أم كبيرا ، وأن من فرط فى الأمور الصغيرة ، لا يستبعد منه أن يفرط فى الأمور الكبيرة .

٦ - أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلها العدل والحرية والأمان .. لا يمنعه صغره من أن يرد على الحاكم الكبير ، بشجاعة وقوة ..

انظر إلى الهدهد - مع صغره - يحكى عنه القرآن ، أنه رد على نبى الله سليمان الذى آتاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده بقوله : ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين .. ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٧٨ .

ونجد سليمان - عليه السلام - لا يؤاخذه على هذا القول ، بل يضع قوله موضع التحقيق والاختبار فيقول له : ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة ، لا يهان فيها الصغير ، ولا يظلم فيها الكبير .

٧ - أن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن تتألف الأمم من حاكمين ومحكومين ، وأن كل فريق له حقوق وعليه واجبات ، وأن الأمم لا تصلح بدون حاكم يحكمها ويرعى شئونها ، ويحق الحق ويبطل الباطل .

قال القرطبى عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ : فى الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعةً - أى ولاة ، أو قضاة - يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ...

قال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه : والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة [1] .

ومن الأقوال الحكيمة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - « إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » .

٨ - أن الحاكم العاقل هو الذى يستشير من هو أهل للاستشارة فى الأمور التى تهم الأمة .

فها هى ذى ملكة سبأ عندما جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - جمعت وجوه قومها ، وقالت لهم - كما حكى القرآن عنها : ﴿ يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ... ﴾ .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على صحة المشاورة .. وقد قال الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ وقد مدح الله الفضلاء بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس من دون الله قالت : ﴿ يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ... ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم . وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين .. ﴾ [2] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٩٤ .

٩ - أن الهدية إذا لمس المهدى إليه من ورائها ، عدم الإخلاص فى إهدائها . وأن المقصد منها صرفه عن حق يقيمه ، أو عن باطل يزيله .. فإن الواجب عليه أن يرد هذه الهدية لصاحبها . وأن يمتنع عن قبولها ..

ألا ترى إلى سليمان - عليه السلام - قد رد الهدية الثمينة التى أهدتها بلقيس إليه ، حين أحس أن مَن وراء هذه الهدية شيئا . يتنافى مع تبليغ وتنفيذ رسالة الله - تعالى - التى أمره بتبليغها وتنفيذها ، ألا وهى : الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - والنهى عن الإشراك به ، وبلقيس إنما كانت تقصد بهديتها ، اختبار سليمان ، أنبى هو أم ملك ، كما سبق أن أشرنا ..

لذا وجدنا القرآن يحكى عن سليمان - عليه السلام - أنه رد هذه الهدية مع من جاءوا بها ، وقال : ﴿ أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ .

١٠ - أن ملكة سبأ دل تصرفها على أنها كانت ملكة عاقلة رشيدة ، حكيمة ، فقد استشارت خاصتها فى كتاب سليمان - عليه السلام - ، ولوحت لهم بقوته وبما سيترتب على حربه ، وآثرت أن تقدم له هدية على سبيل الامتحان ، واستحبت المسالمة على المحاربة .. وكان عندها الاستعداد لقبول الحق والدخول فيه ، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين ..

وعندما التقت بسليمان ، وانكشفت لها الحقائق سارعت إلى الدخول فى الدين الحق ، وقالت : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

هذه بعض العبر والعظات التى تؤخذ من هذه القصة .. ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟

تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولقد أرسلنا ... ﴾ جواب لقسم محذوف ، و﴿ ثمود ﴾ اسم للقبيلة التى منها صالح - عليه السلام - ، سميت باسم جدها ثمود . وقيل : سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء القليل ..

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكان بين الحجاز والشام ، ومازلت مساكنهم تعرف بمدائن صالح إلى اليوم . وقد مر النبى - ﷺ - بديارهم ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع بعد الهجرة .

وصالح - عليه السلام - هو نبيهم ، وكان واحدا منهم ، وينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - وقبيلة ثمود تسمى عادا الثانية ، أما قبيلة عاد فتسمى عادا الأولى ، ونبيهم هود - عليه السلام - قالوا : وكان بين القبيلتين زهاء مائة عام .

والمعنى : وبالله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود ، أخاهم صالحا - عليه السلام - ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ - تعالى - وحده ، ولا تشركوا معه آلهة أخرى .

و « إذا » فى قوله - تعالى - : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ هى الفجائية و﴿ يختصمون ﴾ من المخاصمة بمعنى المجادلة والمنازعة .

أى : أرسلنا نبينا صالحا إلى قومه ، فكانت المفاجأة أن انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به - وهم الأقلون - ، وقسم كفر به - وهم الأكثرون .

وهذه الخصومة بين الفريقين ، قد أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾[1].

وقوله - تعالى - : ﴿ قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ... ﴾ بيان لما وجهه صالح إلى الكافرين من قومه ، من نصائح حكيمة ..

أى : قال صالح - عليه السلام - للمكذبين لرسالته من قومه بأسلوب رقيق حكيم : يا قوم لماذا كلما دعوتكم إلى الحق أعرضتم عن دعوتى ، وآثرتم الكفر على الإيمان ، واستعجلتم عقوبة الله - تعالى - التى حذرتكم منها ، قبل أن تتضرعوا إليه - سبحانه - بطلب الهداية والرحمة .

وقوله : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ حض منه على الإقلاع عما هم فيه من عناد وضلال .

أى : هلا استغفرتم الله - تعالى - وأخلصتم له العبادة ، واتبعتمونى فيما أدعوكم إليه ، لكى يرحمكم ربكم ويعفو عنكم .

فالمراد بالسيئة : العذاب الذى تعجلوه ، والذى أشار إليه - سبحانه - فى قوله : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به هؤلاء المتكبرون على نبيهم فقال - تعالى - ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك .. ﴾ .

وقوله : ﴿ اطيرنا ﴾ أصله تطيرنا ، فأدغمت التاء فى الطاء ، وزيدت همزة الوصل ، ليتأتى الابتداء بالكلمة . والتطير : التشاؤم .

قال الآلوسى : وعبر عنه بذلك ، لأنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر سانحا - بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره - تيمنوا ، وإن مر بارحا - بأن مر

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٧٧ .

من المياسر إلى الميامن - تشاءموا . فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير لما كان سببا لهما من قدر الله - تعالى - وقسمته - عز وجل - أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنعمة[١] .

أى قال المكذبون من قوم صالح فى الرد عليه : أصابنا الشؤم والنحس بسبب وجودك فينا ، وبسبب المؤمنين الذين استجابوا لدعوتك . حيث أصبنا بالقحط بعد الرخاء والضراء بعد السراء .

ولاشك أن قولهم هذا يدل على جهلهم المطبق ، وعلى سوء تفكيرهم ، لأن السراء والضراء من عند الله - تعالى - وحده . ولا صلة لهما بوجود صالح والذين آمنوا معه بينهم ولذا رد عليهم صالح - عليه السلام - بقوله ﴿ طائركم عند الله .. ﴾ .

أى : قال لهم موبخا وزاجرا : ليس الأمر كما زعمتم أن وجودنا بينكم هو السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما يصيبكم من شر وقحط هو من عند الله ، بسبب أعمالكم السيئة ، وإصراركم على الكفر ، واستحبابكم المعصية على الطاعة . والعقوبة على المغفرة .

ثم زاد صالح - عليه السلام - الأمر توضيحا وتبيانا فقال لهم : ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ .

أى قال لهم : ليس ما أصابكم بسببنا. بل أنتم قوم « تفتنون » أى تختبرون وتمتحنون بما يقع عليكم من شر ، حتى تتوبوا إلى خالقكم ، قبل أن ينزل بكم العذاب الماحق ، إذا ما بقيتم على كفركم .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد رد على جهالتهم بأسلوب قوى رصين ، بين لهم فيه ، أن تشاؤمهم فى غير محله ، وأن حظهم ومستقبلهم ومصيرهم بيد الله - تعالى - وحده ، وأن ما أصابهم من بلاء وقحط ، إنما هو لون من امتحان الله - تعالى - لهم ، لكى يتنبهوا ويستجيبوا لدعوة الحق ، قبل أن يفاجئهم الله - تعالى - بالعذاب الذى يهلكهم .

ولكن هذا النصح الحكيم الذى وجهه صالح إلى المكذبين من قومه ، لم يجد أذنا صاغية منهم ، بل قابله زعماؤهم بالتكبر وبالإصرار على التخلص من صالح - عليه السلام - ومن أهله ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط ، يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله ، لنبيتنه وأهله . ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٤٩ ، ص ٢١١ .

والمراد بالمدينة : مدينة قوم صالح - عليه السلام - وهى الحِجْر - بكسر الحاء وإسكان الجيم - .

قال الجمل : قوله : « تسعة رهط » أى تسعة أشخاص، وبهذا الاعتبار وقع تمييزًا للتسعة ، لا باعتبار لفظه ، وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وباشره منهم قدار بن سالف ، وكانوا من أبناء اشراف قوم صالح ، والإضافة بيانية . أى : تسعة رهط . وفى المصباح : الرهط دون العشرة من الرجال ، ليس فيهم امرأة[1] .

ووصفهم بأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . للإشارة إلى أن نفوسهم قد تمخضت للفساد وللإفساد ، ولا مكان فيها للصلاح وللإصلاح .

وقوله : ﴿ تقاسموا ﴾ فعل أمر محكى بالقول ، بمعنى : احلفوا بالله ، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا ، فكأنه قيل : ما الذى قالوه ؟ فكان الجواب : تقاسموا أى : أقسموا .

وقوله : ﴿ لنبيتنه ﴾ من البيات وهو مباغتة العدو ليلا لقتله . يقال بيت القوم العدو ، إذا أوقعوا به ليلا .

والمراد بوليه : المطالبون بدمه من أقاربه ، وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء الظالمين لم يكونوا ليستطيعوا قتل صالح - عليه السلام - علانية ، خوفا من مناصرة أقاربه له .

و﴿ مَهلِك ﴾ بفتح الميم وكسر اللام بزنة مرجع - مصدر ميمى ، من هلك الثلاثى ، وقرأ بعضهم ﴿ مُهلَك ﴾ بضم الميم وفتح اللام - من أهلك الرباعى ، فهو أيضا مصدر ميمى من أهلك ، ويجوز أن يكونا اسم زمان أو مكان .

والمعنى : وكان فى المدينة التى يسكنها صالح - عليه السلام - وقومه ، تسعة أشخاص ، دأبهم وديدنهم، الإفساد فى الأرض، وعدم الإصلاح فيها، بأى حال من الأحوال .

وقد تعاهد هؤلاء التسعة . وأكدوا ما تعاهدوا عليه بالأيمان المغلظة . على أن يباغتوا نبيهم وأهله ليلا ، فيقتلوهم جميعا ، ثم ليقولن بعد جريمتهم الشنعاء لأقارب صالح - عليه السلام - : ما حضرنا هلاك أهله وهلاك صالح معهم ، ولا علم عندنا بما حل بهم وبه من قتل ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه .

وهكذا المفسدون فى الأرض ، يرتكبون أبشع الجرائم وأشنعها ، ثم يبررونها بالحيل الساذجة الذميمة ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم بريئون من تلك الجرائم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣١٩ .

ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين الغادرين يقولون فيما بينهم : ﴿ تقاسموا بالله ﴾ أى : احلفوا بالله ، على أن تنفذوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا . فهم يؤكدون إصرارهم على الإجرام بالحلف بالله ، مع أن الله - تعالى - برىء منهم ومن غدرهم .

وقولهم : ﴿ ماشهدنا مهلك أهله ﴾ نفى منهم لحضور قتلهم ، فضلا عن مباشرة قتلهم ، كأنهم أرادوا بهذه الجملة الإتيان بحيلة يبررون بها كذبهم ، أى : أننا قتلناهم فى الظلام ، فلم نشاهد أشخاصهم ، وإنا لصادقون فى ذلك .

ولكن هذا المكر السىء ، والتحايل القبيح قد أبطله الله - تعالى - وجعله يحيق بهم وبأشياعهم ، فقد قال - تعالى - ﴿ ومكروا مكرا ﴾ أى بهذا الحلف فيما بينهم على قتل صالح وأهله غدرا ﴿ ومكرنا مكرا ﴾ أى : ودبرنا لصالح - عليه السلام - ولمن آمن به ، تدبيرا محمودا محكما ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى : وهم لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم ، حيث أنجينا صالحا ومن معه من المؤمنين ، وأهلكنا أعداءه أجمعين .

ثم بين - سبحانه - الآثار التى ترتبت على مكرّهم السىء ، وعلى تدبيره المحكم فقال - تعالى - :

﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ أى : فانظر - أيها العاقل - وتأمل واعتبر فيما آل إليه أمر هؤلاء المفسدين ، لقد دمرناهم وأبدناهم ، وأبدنا معهم جميع الذين كفروا بنبينا صالح - عليه السلام - .

قال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ قرأه الجمهور بكسر همزة ﴿ إنَّا ﴾ على الاستئناف ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائى : ﴿ أنا دمرناهم ﴾ بفتح الهمزة وفى إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها أوجه منها : أنه بدل من ﴿ عاقبة مكرهم ﴾ ومنها : أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : هى أى : عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .. ﴾ مقرر ومؤكد لما قبله من تدمير المفسدين وإهلاكهم .

أى : إن كنت - أيها المخاطب - تريد دليلا على تدميرهم جميعا ، فتلك هى بيوتهم خاوية وساقطة ومتهدمة على عروشها ، بسبب ظلمهم وكفرهم ومكرهم .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى فعلناه بهم من تدمير وإهلاك ﴿ لآية ﴾ بينة ، وعبرة واضحة ،

---

(١) أضواء البيان ج ٦ ص ٤١٢ للشيخ محمد أمين الشنقيطى .

﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى : يتصفون بالعلم النافع الذى يتبعه العمل الصالح .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بتأكيد سنته التى لا تتخلف فقال : ﴿ وأنجينا ﴾ أى : بفضلنا وإحساننا ، ﴿ الذين آمنوا ﴾ وهم نبينا صالح وأتباعه ﴿ وكانوا يتقون ﴾ أى : وكانوا يتقون الله - تعالى - ويخافون عذابه .

وبذلك تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا جانبا من قصة صالح مع قومه هذا الجانب فيه ما فيه من عظات وعبر لقوم يعقلون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفا من قصة لوط مع قومه ، فقال - تعالى - :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

وقصة لوط - عليه السلام - قد ذكرت فى سور متعددة منها الأعراف ، وهود ، والحجر ..

وهنا تتعرض السورة الكريمة ، لإبراز ما كان عليه أولئك القوم من فجور ، وما هددوا به نبيهم .

قال ابن كثير - رحمه الله - : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - وكان لوط قد آمن مع ابراهيم ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل « سدوم » ، وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينهاهم عما يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها ، دون أن يسبقهم إليها

أحد من بنى آدم ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولوطا ... ﴾ منصوب بفعل مضمر محذوف ، والتقدير : واذكر - أيها العاقل - وقت أن أرسلنا لوطا إلى قومه . فقال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ :

﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ أى : أتأتون الفاحشة التى لم يسبقكم إليها أحد ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفطرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتى الذكر ، وإنما يأتى الأنثى ، حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون .

فقوله - سبحانه - : ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ جملة حالية المقصود بها زيادة تبكيتهم وتوبيخهم ، لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها ، كما يعلمون سوء عاقبتها ، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ... ﴾ تأكيد للإنكار السابق ، وتوضيح للفاحشة التى كانوا يأتونها .

والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع ، مأخوذ من أتى المرأة إذا جامعها .

أى : أئنكم - أيها الممسوخون فى فطرتكم وطبائعكم - لتصبون شهوتكم التى ركبها الله - تعالى - فيكم فى الرجال دون النساء اللاتى جعلهن الله - تعالى - محل شهوتكم ومتعتكم .

قال الآلوسى : والجملة الكريمة تثنية للإنكار ، وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام وتحلية الجملة بحرفى التأكيد ، للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ، لكمال شناعته ، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية ، لزيادة التقبيح والتوبيخ ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة .

وقد حكى القرآن أن لوطا قد قال لهم فى سورة الأعراف : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

وقال لهم فى سورة الشعراء : ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ وقال لهم هنا : ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحراف الفطرة ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٢٣٠ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٩ ، ص ٢١٦ .

وتجاوز كل الحدود التى ترتضيها النفوس الكريمة .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جوابهم السىء على نبيهم فقال : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم .. ﴾ .

والفاء للتفريع ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء .

أى : هكذا نصح لوط قومه وزجرهم ، فما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوا لوطا والمؤمنين معه من قريتكم التى يساكنونكم فيها .

وفى التعبير بقولهم : ﴿ من قريتكم ﴾ إشارة إلى غرورهم وتكبرهم فكأنهم يعتبرون لوطا وأهله المؤمنين دخلاء عليهم ، ولا مكان لهم بين هؤلاء المجرمين لأن القرية - وهى سدوم - هى قريتهم وحدهم ، دون لوط وأهله .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ تعليل للإخراج ، وبيان لسببه ، أى أخرجوهم من قريتكم لأنهم أناس يتنزهون عن الفعل الذى نفعله ، وينفرون من الشهوة التى نشتهيها وهى إتيان الرجال ..

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والنفوس عندما ترتكس ، إنها تأبى أن يبقى معها الأطهار ، بل تحرض على طردهم ، ليبقى معها الممسوخون والمنحرفون الذين انحطت طباعهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقولهم : ﴿إنهم أناس يتطهرون ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد[1] .

ثم بين - سبحانه - ما آل إليه أمر الفريقين فقال : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾ .

والغابر : الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا . إذا بقى .

أى : فكانت عاقبة تلك المحاورة التى دارت بين لوط وقومه ، أن أنجينا لوطا وأهله الذين آمنوا معه ، ﴿ إلا امرأته ﴾ فإننا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها ، فبقيت مع القوم الكافرين ، حيث قدرنا عليها ذلك بسبب كفرها وممالأتها لقومها .

﴿ وأمطرنا ﴾ على هؤلاء المجرمين ﴿ مطرا ﴾ عظيما هائلا عجيبا أمره وهو حجارة من سجيل دمرتهم تدميرا ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أى : فبئس العذاب عذابهم .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ، ص ١٢٧ .

وهكذا تكون عاقبة كل من آثر الكفر على الإيمان ، والرذيلة على الفضيلة .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص بعض الأنبياء ، ساق - سبحانه - ما يدل على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وسعة فضله على عباده ، فقال - تعالى - :

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ
عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ
رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾
أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

قال صاحب البحر المحيط : لما فرغ - سبحانه - من قصص هذه السورة ، أمر رسوله

- ﷺ - بحمده - تعالى - والسلام على المصطفين ، وأخذ فى مباينة واجب الوجود وهو الله - تعالى - ومباينة الأصنام والأديان التى أشركوها مع الله وعبدوها ، وابتدأ فى هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمد لله ، وكأنها صدر خطبة ، لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة . وقد اقتدى بذلك المسلمون فى تصانيف كتبهم ، وخطبهم ، ووعظهم ، فافتتحوا بتحميد الله ، والصلاة على رسوله - ﷺ - وتبعهم المتراسلون فى أوائل كتب الفتوح والتهانى والحوادث التى لها شأن[1] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : ﴿ الحمد لله ﴾ - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - صاحب النعم والمنن على عباده ، وهو - عز وجل - الذى له الخلق والأمر وليس لأحد سواه .

وقل - أيضا - ﴿ سلام على عباده الذين اصطفى ﴾ أى : أمان وتحية لعباده الذين اصطفاهم واختارهم - سبحانه - لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، والاستجابة لأمره ونهيه ، والطاعة له فى السر والعلن .

والاستفهام فى قوله ﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ للانكار والتقريع ، والألف منقلبة عن همزة الاستفهام .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - آلله الذى له الخلق والأمر ، والذى أنعم عليكم بالنعم التى لا تحصى ، خير ، أم الآلهة الباطلة التى لا تنفع ولا تضر ، والتى يعبدها المشركون من دون الله - تعالى - . إن كل من عنده عقل ، لايشك فى أن المستحق للعبادة والطاعة ، هو الله رب العالمين .

ولفظ ﴿ خير ﴾ ليس للتفضيل ، وإنما هو من باب التهكم بهم ، إذ لاخير فى عبادة الأصنام أصلا . وقد حكى عن العرب أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ، مع أنه لا خير فى الشقاوة إطلاقا .

قال الآلوسى : وقوله ﴿ آلله ﴾ بالمد لقلب همزة الاستفهام ألفا ، والأصل أألله ؟ ﴿ خير أما يشركون ﴾ و الظاهر أن ﴿ ما ﴾ موصولة ، والعائد محذوف أى : آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم الذى يشركونه من الأصنام و﴿ خير ﴾ أفعل تفضيل ، ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته - عز وجل - وتسفيه آرائهم الركيكة ، والتهكم بهم ، إذ

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٧ ص ٨٨.

من البين أنه ليس فيما أشركوه به - سبحانه - شائبة خير ، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من هو خير محض ..»[١] .

ثم ساق - سبحانه - خمس آيات ، وكل آية فيها ما يدل على كمال قدرته وعلمه ، وختم كل آية بقوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ ؟ فقال - تعالى - ﴿ أم من خلق السموات والأرض .. ﴾ و﴿أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل الإضرابية والاستفهام للإنكار والتوبيخ .

أى : بل قولوا لنا - إن كنتم تعقلون أيها الضالون - من الذى خلق السموات والأرض ، وأوجدهما على هذا النحو البديع ، والتركيب المحكم .

﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ وهو المطر ، الذى لا غنى لكم عنه فى شئون حياتكم .

﴿ فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ والحدائق : جمع حديقة ، وهى فى الأصل اسم البستان المحاط بالأسوار ، من أحدق بالشىء إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على كل بستان سواء أكان مسورا بسور أم لا .

أى : وأنزل - سبحانه - بقدرته من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا لكم بسبب هذا الماء حدائق وبساتين وجنات ذات منظر حسن ، يشرح الصدور ، ويدخل السرور على النفوس .

وقال - سبحانه - : ﴿ فأنبتنا .. ﴾ بصيغة الالتفات من الغيبة إلى التكلم . لتأكيد أن القادر على هذا الإنبات هو الله - تعالى - وحده ، وللإيذان بأن إنبات هذه الحدائق مع اختلاف ألوانها ، وأشجارها ، وطعومها . لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه - .

ولذا أتبع - عز وجل - هذه الجملة بقوله : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أى : ما كان فى إمكانكم - أيها الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار هذه الحدائق ، فضلا عن إيجاد ثمارها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود .

قال الإمام الرازى : يقال : ماحكمة الالتفات فى قوله : ﴿ فأنبتنا ... ﴾ والجواب : أنه لا شبهة فى أن خالق السموات والأرض ، ومنزل الماء من السماء ، ليس إلا الله - تعالى - .

ولكن ربما عرضت الشبهة فى أن منبت الشجرة هو الإنسان ، فإن الإنسان قد يقول : أنا الذى ألقى البذر فى الأرض ، وأسقيها الماء .. وفاعل السبب ، فاعل للمسبب ، فأنا المنبت للشجرة ..

فلما كان هذا الاحتمال قائما . لا جرم أزال - سبحانه - هذا الاحتمال . لأن الانسان قد يأتى بالبذر والسقى .. ولا يأتى الزرع على وفق مراده .. فلهذه النكتة جاء الالتفات ..»[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ، ص ٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٤١٤ .

وقوله - تعالى - : ﴿ أإله مع الله ﴾ أى : أإله آخر كائن مع الله - تعالى - هو الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء .. كلا، لاشريك مع الله - تعالى - فى خلقه وقدرته ، وإيجاده لهذه الكائنات ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ .

أى : بل إن هؤلاء المشركين قوم يعدلون عمدا عن الحق الواضح وهو التوحيد ، إلى الباطل البين وهو الشرك .

فقوله : ﴿ يعدلون ﴾ مأخوذ من العدول بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل . أو من العدل والمساواة ، فيكون المعنى : بل هم قوم - لجهلهم - يساوون بالله - تعالى - غيره من آلهتهم .

والجملة الكريمة : انتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب ، إلى توبيخهم ، وتجهيلهم ، وبيان سوء تفكيرهم ، وانطماس بصائرهم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى لفت أنظارهم إلى حقائق كونية أخرى يشاهدونها بأعينهم ، ويحسونها بحواسهم . فقال - تعالى - : ﴿ أمَّن جعل الأرض قرارا ﴾ والقرار : المكان الذى يستقر فيه الإنسان ، ويصلح لبناء حياته عليه .

أى : بل قولوا لنا - أيها المشركون : من الذى جعل هذه الأرض التى تعيشون عليها ، مكانا صالحا لاستقراركم ، ولحرثكم ، ولتبادل المنافع فيما بينكم ، ومن الذى دحاها وسواها وجعلها بهذه الطريقة البديعة .

ومن الذى ﴿ جعل خلالها ﴾ أى : جعل فيما بينها ﴿ أنهارا ﴾ تجرى بين أجزائها ، لتنتفعوا بمياه هذه الأنهار فى شربكم ، وفى غير ذلك من شئون حياتكم . ومن الذى ﴿ جعل لها رواسى ﴾ أى : جعل لصلاح حالها جبالا ثوابت ، تحفظها من أن تضطرب بكم .

ومن الذى : ﴿ جعل بين البحرين ﴾ أى : جعل بين البحر العذب والبحر الملح ﴿ حاجزا ﴾ يجعلهما لا يختلطان ولا يمتزجان .

ثم يأتى الاستفهام الإنكارى ﴿ أإله مع الله ﴾ ؟ أى : أإله مع الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك ؟ كلا ، ليس مع الله - تعالى - آلهة أخرى فعلت ذلك .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : بل أكثر هؤلاء المشركين ، لايعلمون الأمور على وجهها الصحيح ، لجهلهم ، وعكوفهم على ما ورثوه عن آبائهم بدون تفكير أو تدبر .

وعبر بأكثرهم ، لأن هناك قلة منهم تعلم الحق ، لكنها تنكره جحودا وعنادا .

ثم تنتقل السورة - للمرة الثالثة - إلى لفت أنظارهم إلى الحقيقة التى هم يحسونها فى

خاصة أنفسهم ، وفى حنايا قلوبهم فتقول : ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ .

والمضطر : اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة .

والمراد به : الإنسان الذى نزلت به شدة من الشدائد . جعلته يرفع أكف الضراعة إلى الله - تعالى - لكى يكشفها عنه .

أى : وقولوا لنا - أيها المشركون - : من الذين يجيب دعوة الداعى المكروب الذى نزلت به المصائب والرزايا ؟ ومن الذى يكشف عنه وعن غيره السوء والبلاء ؟ إنه الله وحده ، هو الذى يجيب دعاء من التجأ إليه ، وهو وحده - سبحانه - الذى يكشف السوء عن عباده ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته .

وقولوا لنا - أيضا - : من الذى ﴿ يجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أى : من الذى يجعلكم يخلف بعضكم بعضا . قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ﴿ أإله مع الله ﴾ هو الذى فعل ذلك .

كلا ، بل الله وحده - عز وجل - هو الذى يجيب المضطر ، وهو الذى يكشف السوء ، وهو الذى يجعلكم خلفاء الأرض، ولكنكم ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ أى : ولكنكم زمانا قليلا هو الذى تتذكرون فيه نعم الله - تعالى - عليكم ، ورحمته بكم .

وختم - سبحانه - هذه الآية بتلك الجملة الحكيمة ، لأن الإنسان من شأنه - إلا من عصم الله - أنه يذكر الله - تعالى - عند الشدائد ، وينساه عند الرخاء .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر ، فذو دعاء عريض ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الرابعة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمه - سبحانه - عليهم فى أسفارهم فقال - تعالى - : ﴿أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ﴾ .

أى : وقولوا لنا - أيها المشركون - : من الذى يرشدكم فى أسفاركم إلى المكان الذى تريدون الذهاب إليه ، عندما تلتبس عليكم الطرق ، وأنتم بين ظلمات البحر وأمواجه ، أو وأنتم فى متاهات الأرض وفجاجها .

وقولوا لنا : ﴿ من يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ أى : ومن الذى يرسل لكم الرياح لتكون مبشرات بقرب نزول المطر ، الذى هو رحمة من الله - تعالى - لكم ، بعد أن أصابكم اليأس والقنوط ؟

---

(١) سورة فصلت الآية ٥١ .

﴿ أإله مع الله ﴾ هو الذى فعل ذلك ، كلا ، فما فعل ذلك أحد سواه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ تأكيد لوحدانيته وقدرته وتنزيه له - تعالى - عن الشرك والشركاء .

أى : تنزه الله وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين ، فهو الواحد الأحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الخامسة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمة أخروية ، بعد أن ساقت ما ساقت من النعم الدنيوية ، فقال - تعالى - : ﴿ أَمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى : قولوا لنا - أيها المشركون - من الذى فى قدرته أن يوجد الخلق فى الأرحام من نطفة ، ثم يحولها إلى علقة ، ثم إلى مضغة .. ثم يعيد هذه المخلوقات جميعها بعد موتها ، إلى الحياة مرة أخرى ؟ لاشك أنه لا يقدر على ذلك أحد سوى الله - تعالى - .

ثم قولوا لنا ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ بالمطر والنبات والأموال ، وبغير ذلك من ألوان النعم التى لا تحصى ؟ .

﴿ أإله مع الله ﴾ هو الذى فعل ذلك ؟ كلا ، لم يفعل ذلك سوى الله - تعالى - وحده ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الجواب الذى يخرس ألسنتهم عند المعارضة أو المجادلة فقال : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عند معارضتهم لك ، أحضروا حجتكم وهاتوا برهانا عقليا أو نقليا ، على أن لله - تعالى - شريكا فى ملكه ، إن كنتم صادقين فيما انغمستم فيه من جهل وشرك وكفر به - عز وجل - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما عدد نعم الدنيا ، أتبع ذلك بنعم الآخرة فقال : ﴿ أَمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ، لأن نعم الله بالثواب لاتتم إلا بالإعادة بعد الابتداء . فإن قيل : كيف قيل لهم : ﴿ أَمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ وهم منكرون للإعادة ؟ .

فالجواب : أنهم كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة ، صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الإنكار ..[1] .

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة . قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، وانفراده بالخلق والتدبير ..

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٤١٦ .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن علم الله - تعالى - الذى غيبه عن عباده ، وعن أقوال المشركين فى شأن البعث والحساب ، وعن توجيهات الله - تعالى - لنبيه فى الرد عليهم .. فقال - تعالى - :

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا
هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
(٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ
أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)

ذكر بعض المفسرين أن كفار مكة سألوا النبى - ﷺ - عن وقت قيام الساعة ، فنزل قوله - تعالى - : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله .. ﴾ .

والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، ومعناه : مالا تدركه الحواس ، ولا يعلم ببداهة العقل .

و« من » اسم موصول فى محل رفع على أنه فاعل « يعلم » و« الغيب » مفعوله فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من سألك عن موعد قيام الساعة : لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات والأرض ، الغيب إلا الله - تعالى - وحده ، فإنه هو الذى يعلمه .

ويجوز أن يكون لفظ « من » فى محل نصب على المفعولية و « الغيب » بدل منه ، ولفظ الجلالة « الله » فاعل « يعلم » فيكون المعنى : قل لا يعلم الأشياء التى تحدث فى السموات والأرض الغائبة عنا ، إلا الله - تعالى - .

قال القرطبى : وفى صحيح مسلم عن عائشة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « من زعم أن محمدا - ﷺ - يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على الله الفرية »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ تأكيد لانفراد الله - تعالى - بعلم الغيوب ، ولفظ « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى .

أى : وما يشعر هؤلاء الكافرون الذين سألوا عن وقت قيام الساعة ، ولا غيرهم ، متى يكون بعثهم من قبورهم للحساب ، إذ علم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله وحده .

فالجملة الكريمة تنفى عنهم العلم بموعد قيام الساعة فى أدق صورة وأخفاها ، فهم لا يشعرون ولا يحسون بقيام الساعة ، ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ، فلا يستطيعون ردها ، ولا هم ينظرون ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - حقيقة أمرهم فى الآخرة بصورة أكثر تفصيلا . فقال : ﴿ بل ادّارك علمهم فى الآخرة .. ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل ادارك ... ﴾ قرأه الجمهور - بكسر اللام وتشديد الدال وبعدها ألف - وأصله تدارك ، بزنة تفاعل .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال أشهرها : أن التدارك بمعنى الاضمحلال والفناء ، وأصله التتابع والتلاحق . يقال : تدارك بنو فلان ، إذا تتابعوا فى الهلاك ، و«فى» بمعنى الباء .

أى : بل تتابع علم هؤلاء المشركين بشئون البعث حتى اضمحل وفنى ، ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسبابه ومباديه من الدلائل .

والمقصود : أن أسباب علمهم بأحوال الآخرة مع توافرها ، قد تساقطت من اعتبارهم

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٢٦ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٠ .

لكفرهم بها ، فَأُجْرِى ذلك مُجْرَى تتابعها فى الانقطاع .

ومنهم من يرى أن التدارك هنا التكامل ، فيكون المعنى : بل تكامل علمهم بشئون الآخرة ، حين يعاينون ما أعد لهم فيها من عذاب ، بعد أن كانوا ينكرون البعث والحساب فى الدنيا ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة ﴾ إضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيده وتقريره .. والمعنى : بل تتابع علمهم فى شأن الآخرة ، التى ما ذكر من البعث حال من أحوالها ، حتى انقطع وفنى ، ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا ، مع توفر أسبابه ، فهو ترق من وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش .. وجوز أن يكون « ادارك » بمعنى استحكم وتكامل ..[1] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للقولين ، على معنى أن المشركين اضمحل علمهم بالآخرة لكفرهم بها فى الدنيا ، فإذا ما بعثوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب ، أيقنوا بحقيقتها ، وتكامل علمهم واستحكم بأن ما كانوا ينكرونه فى الدنيا . قد صار حقيقة لاشك فيها ، ولا مفر لهم من عذابها ..

ومن الآيات التى توضح هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[2] أى : علمك بما كنت تنكره فى الدنيا قد صار فى نهاية القوة والوضوح .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ بل أدرك علمهم فى الآخرة ﴾ - بسكون اللام من بل . وهمزة قطع مفتوحة مع سكون الدال فى « أَدْرَك » فهو بزنة أفعل .

أى : بل كمل علمهم فى الآخرة ، وذلك بعد أن شاهدوا أهوالها ، ورأوها بأعينهم ، وقد كانوا مكذبين بها فى الدنيا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل هم فى شك منها . بل هم منها عمون ﴾ بيان لأحوالهم فى الدنيا .

أى : أن هؤلاء المشركين كانوا فى الدنيا يشكون فى الآخرة ، بل كانوا فى عمى عنها ، بحيث لا يفتحون بصائرهم أو أبصارهم ، عما قال لهم الرسول - ﷺ - بشأنها .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد انتقلت فى تصوير كفر هؤلاء المشركين بالآخرة ، من حالة شنيعة إلى حالة أخرى أشد منها فى الشناعة والجحود .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٣ .

(٢) سورة ق الآية ٢٢ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم ؛ وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم لا يعلمون بأن القيامة كائنة ، ثم إنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه مع أن الإزالة مستطاعة .. ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حق ولا باطل ، ولا يفكر فى عاقبة[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أقوالهم الباطلة ، التى جعلتهم فى عمى عن الآخرة فقال :

﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ .

أى : وقال الذين كفروا على سبيل الإنكار للبعث والحساب : أئذا متنا وصرنا مثل التراب ، وصار آباؤنا كذلك مثل التراب ، أنبعث ونخرج إلى الحياة مرة أخرى بعد أن صرنا جميعا عظاما نخرة وأجسادا بالية ؟

يقولون هذا ، وينسون لجهلهم وانطماس بصائرهم أن الله - تعالى - أوجدهم بقدرته ولم يكونوا شيئا مذكورا .

والاستفهام للإنكار والنفى ، والعامل فى « إذا » محذوف ، دل عليه « مخرجون » وقوله : ﴿ وآباؤنا ﴾ معطوف على اسم كان ، أى : أنبعث ونخرج نحن وآباؤنا إذا كنا كذلك ؟

ثم يتبعون قولهم هذا ، بقول أشد منه فى الإنكار والتهكم فيقولون : ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

والأساطير : جمع أسطورة ، كأحاديث وأحدوثة ، وأكاذيب وأكذوبة .

ومرادهم بها : الخرافات والتخيلات التى لا حقيقة لها .

أى : لقد وعدنا الإخراج والإعادة إلى الحياة ، نحن وآباؤنا من قبل ، أى : من قبل أن يخبرنا محمد - ﷺ - بذلك ، فنحن وآباؤنا مازلنا نسمع من القصاص أن هناك بعثا وحسابا ، ولكن لا نرى لذلك حقيقة ولا وقوعا ..

وما هذا الذى نسمعه من محمد - ﷺ - فى شأن الآخرة إلا أكاذيب الأولين ، وخرافاتهم التى لا مكان لها فى عقولنا .

وهكذا يؤكدون إنكارهم للآخرة ، بشتى ألوان المؤكدات ، المصحوبة بالتهكم والاستخفاف .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٨٠ .

وهنا يلفت القرآن أنظارهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ، ويأمر النبى - ﷺ - أن يحذرهم من سوء مصير هذا الإنكار والاستهزاء ، فيقول : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : سيروا فى الأرض لتروا بأعينكم مصارع المكذبين بما جاءهم به الرسل من قبلكم . ولتعتبروا بما أصابهم بسبب إجرامهم ، وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة .

فالآية الكريمة توجههم إلى ما من شأنه أن يفتح مغاليق قلوبهم المتحجرة وأن يزيل عن نفوسهم قسوتها وعنادها .

وبعد هذا التوجيه الحكيم تأخذ السورة الكريمة فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب كفرهم فتقول : ﴿ ولا تحزن عليهم ، ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ﴾ والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

والمقصود بالنهى عن الحزن : النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .

والمكر : التدبير المحكم . أو صرف الغير عما يريده بحيلة ، لقصد إيقاع الأذى به .

أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - على هؤلاء المشركين ، بسبب إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضيق صدرك ، ويمتلىء هما وغما بسبب مكرهم فإن الله - تعالى - عاصمك منهم ، وناصرك عليهم .

ثم تعود السورة إلى سرد أباطيلهم فتقول : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أى : ويقول هؤلاء المشركون للرسول - ﷺ - ولأصحابه : متى يحصل هذا الوعد الذى توعدتمونا به ، وهو أن عذابا سيصيبنا إذا لم نؤمن بما أنتم مؤمنون به .

إن كنتم صادقين فى وعدكم لنا بهذا العذاب ، فأنزلوه بنا ، فنحن قد طال انتظارنا له . وهكذا الأشرار يتعجلون مصيرهم الأليم ، ويبحثون عن حتفهم بظلفهم ، وذلك لإيغالهم فى الغرور والعناد .

ولذا جاء الرد عليهم ، يحمل فى طياته العذاب الشديد ، والتهكم المرير ، فيقول - تعالى - آمرا رسوله - ﷺ - بالرد عليهم : ﴿ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ﴾ .

والرديف - كما يقول صاحب المصباح - الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة .. ومنه ردف

المرأة ، وهو عَجُزُها ، والجمع أرادف .. وترادف القوم : إذا تتابعوا ، وكل شىء تبع شيئا فهو ردفه .[1]

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لاتتعجلوا العذاب فعسى ما تستعجلونه من عذاب ، بعضه قد لحقكم ونزل بكم ، وبعضه فى طريقه إليكم ، وأنتم لا تشعرون بذلك ، لشدة غفلتكم ، وتبلد مشاعركم .

والتعبير بقوله : ﴿ ردف لكم ﴾ يشعر بأن العذاب ليس بعيدا عنهم ، وإنما هو قريب منهم ، كقرب الراكب فوق الدابة ممن هو ردفه - أى خلفه - عليها .

ولقد لحقهم شىء من هذا العذاب الذى تعجلوه فى مكة ، عندما أصيبوا بالقحط والجدب ، ولحقهم شىء منه بعد ذلك فى بدر ، عندما قتل المسلمون أكثر زعمائهم ، كأبى جهل ، وغيره .. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الناس ، فقال : ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ .

أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو فضل عظيم ، وإنعام كبير على الناس . ومن مظاهر ذلك : أنه لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم ، ولكن أكثر هؤلا الناس لا يشكرونه - سبحانه - على فضله وإنعامه .

والتعبير « بأكثر » للأشعار بأن هناك قلة مؤمنة من الناس ، ملازمة لشكر الله - تعالى - فى السراء والضراء ، والعسر واليسر .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ﴿ وإن ربك ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ ليعلم ﴾ علما تاما ﴿ ما تكن صدورهم ﴾ أى : ما تخفيه وتستره صدورهم من أسرار ، ويعلم - أيضا - ﴿ ما يعلنون ﴾ أى : ما يظهرونه من أقوال وأفعال .

﴿ وما من غائبة فى السماء والأرض ﴾ أى : وما من شىء غائب عن علم الخلق سواء أكان فى السماء أو فى الأرض .

﴿ إلا ﴾ وهو عندنا ﴿ فى كتاب مبين ﴾ أى : إلا وهو عندنا فى كتاب واضح لمن يطالعه بإذن ربه ، وهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ الذى سجل - سبحانه - فيه أحوال خلقه .

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما عليه هؤلاء المشركون من

---

(١) المصباح المنير ج ١ ص ٣٠٦ .

جحود وعناد ، بل فوض إلينا أمرهم ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن الكريم ، وساقت المزيد من التسلية للنبى - ﷺ - فقال - تعالى - :

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى
الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - سبحانه - لما تم الكلام فى إثبات المبدأ والمعاد . ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ، ولما كانت الدلالة الكبرى فى إثبات نبوة محمد - ﷺ - هو القرآن ، لا جرم بين الله - تعالى - أولا كونه معجزة ..[1] .

أى : إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله - تعالى - ، أنه يقص على بنى إسرائيل ، الذين هم حملة التوراة والإنجيل ، أكثر الأشياء التى اختلفوا فيها ، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه .

ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل : اختلافهم فى شأن عيسى - عليه السلام - ، فاليهود كفروا به ، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان ، والنصارى قالوا فيه إنه الله ، أو هو ابن الله ، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام -

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٤٢٠

فقال : من بين ما قال : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .. ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ للإشارة إلى أن القرآن ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكيها ، لأنه لا يتعلق بذكرها غرض هام يستدعى الحديث عنها ، ولأن فى عدم ذكرها سترا لهم ، عما وقعوا فيه من أخطاء ..

وقوله - تعالى - : ﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ صفة أخرى من صفات القرآن الكريم الدالة على أنه من عند الله - تعالى - :

أى : وإن هذا القرآن لمن صفاته - أيضا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله .

وخص هدايته ورحمته بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين آمنوا به ، وصدقوا بما فيه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وطبقوا على أنفسهم أحكامه ، وآدابه . وتشريعاته ..

ثم بين - سبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده فقال : ﴿ إن ربك يقضى بينهم بحكمه .. ﴾ .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين بنى إسرائيل الذين اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا ، بحكمه العادل ، كما يقضى بين غيرهم ، فيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغالب ﴿ العليم ﴾ بكل شىء فى هذا الوجود ، والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فتوكل على الله ... ﴾ للتفريع . أى : مادمت قد عرفت ذلك - أيها الرسول الكريم - ففوض أمرك إلى العزيز العليم وحده ، وتوكل عليه دون سواه ، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحدا إلا إياه .

وجملة « إنك على الحق المبين » تعليل للتوكل على الله وحده .

أى : توكل على الله - تعالى - وحده ، لأنك - أيها الرسول الكريم - على الحق الواضح البين ، الذى لاتحوم حوله شبهة من باطل .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ... ﴾ تعليل آخر لوجوب التوكل على الله - تعالى - .

وقد شبه - سبحانه - أولئك المشركين ، بالأموات الذين فقدوا الحياة ، وبالصم الذين

---

(١) سورة النساء الآية ١٧١ .

فقدوا السمع ، وبالعمى الذين فقدوا البصر ، وذلك لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس ، فصاروا كالفاقدين لها .

أى : دم - أيها الرسول الكريم - على توكلك على الله - تعالى - وحده ، وإنك لا تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين . ما يردهم عن شركهم ، لأنهم كالموتى الذين لاحس لهم ولا عقل ، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع .

وقوله : ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ لتتميم التشبيه. وتأكيد نفى السماع . أى : إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما ، وأدبروا عن الاستماع إليك .

قال الجمل : فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ مدبرين ﴾ والأصم لايسمع سواء أقبل أو أدبر ؟ .

قلت : هو تأكيد ومبالغة للأصم . وقيل : إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع الصوت ، أو يفهم بالإشارة ، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم .

ومعنى الآية : إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت ، الذى لا سبيل إلى إسماعه ، وكالأصم الذى لا يسمع ولا يفهم ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم .. ﴾ أى : وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تصرف العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه ، لأن الهداية الى طريق الحق ، مردها إلى الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - فى مقابل ذلك ، من هم أهل السماع والبصر فقال : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما تستطيع أن تسمع إسماعا مجديا نافعا ، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا ، المسلمون وجوههم لنا .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت الكثير من وسائل التسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من المشركين ، كما ساقت ما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - : وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده .

ثم أخذت السورة الكريمة تسوق فى أواخرها بعض أشراط الساعة وعلاماتها ، وأهوالها ، لكى تعتبر النفوس ، وتخشع لله - تعالى - ، فقال - عز وجل - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٢٦ .

﴿وَإِذَا
وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو
قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

قال الإمام ابن كثير : هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل : من مكة ، وقيل من غيرها .

ثم ذكر – رحمه الله – جملة من الاحاديث فى هذا المعنى منها : ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله – ﷺ – من غرفته ، ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق – أو تحشر – الناس ، تبيت معهم حيث باتوا – وتقيل معهم حيث قالوا[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٢٠ .

والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، عاقلا أم غير عاقل ، من الدبيب وهو فى الأصل : المشى الخفيف ، واختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب قيام الساعة ، وانتهاء الوقت الذى يقبل فيه الإيمان من الكافر . أو الذى تنفع فيه التوبة .

والمعنى إذا دنا وقت قيام الساعة . وانتهى الوقت الذى ينفع فيه الإيمان أو التوبة .. أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا ، دابة من الأرض تكلمهم ، فيفهمون كلامها ، ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب . و﴿ أن الناس ﴾ أى : الكافرين ﴿ كانوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ لا يوقنون ﴾ بها ، ولا يصدقون أن هناك بعثا وحسابا .

فخروج الدابة علامة من علامات الساعة الكبرى ، يخرجها الله - عز وجل - ليعلم الناس قرب انتهاء الدنيا وأن الحساب العادل للمؤمنين والكافرين، آت لاشك فيه، وأن التوبة لن تقبل فى هذا الوقت ، لأنها جاءت فى غير وقتها المناسب .

وقد ذكر بعض المفسرين أوصافا كثيرة ، منها أن طولها ستون ذراعا وأن رأسها رأس ثور ، وأذنها أذن فيل ، وصدرها صدر أسد .. الخ .

ونحن نؤمن بأن هناك دابة تخرج فى آخر الزمان ، وأنها تكلم الناس بكيفية يعلمها الله - عز وجل - أمَّا مايتعلق بالمكان الذى تخرج منه هذه الدابة ، وبالهيئة التى تكون عليها من حيث الطول والقصر ، فنكل ذلك إلى علمه - سبحانه - حيث لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى بيان ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ بيان إجمالى لحال المكذبين بالساعة عند قيامها ، بعد بيان بعض أشراطها .

والظرف متعلق بمحذوف. والحشر: الجمع، قالوا والمراد بهذا الحشر: حشر الكافرين إلى النار ، بعد حشر الخلائق جميعها ، والفصل بينهم .

والفوج : يطلق فى الأصل على الجماعة التى تسير بسرعة ، ثم توسع فيه فصار يطلق على كل جماعة ، وإن لم يكن معها مرور أو إسراع .

وقوله : ﴿ يوزعون ﴾ من الوزع . بمعنى الكف والمنع ، يقال : وزعه عن الشىء ، إذا كفه عنه ، ومنعه من غشيانه ، والوازع فى الحرب ، هو الموكل بتنظيم الصفوف ، ومنع الاضطراب فيها .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ﴿ نحشر من كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ فوجا ﴾ .

أى : جماعة من الذين كانوا يكذبون فى الدنيا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : فهم يقفون بين أيدينا ، داخرين صاغرين ، بحيث لا يتقدم أحد منهم على أحد ، وإنما يتحركون ويساقون إلى حيث نريد منهم ، ويتجمعون جميعا ليلقوا مصيرهم المحتوم .

وأفرد - سبحانه - هؤلاء المكذبين بالذكر . - مع أن الحشر يشمل الناس جميعا - لإبراز الحال السيئة التى يكونون عليها عندما يجمعون للحساب دون أن يشذ منهم أحد ، ودون أن يتحرك أولهم حتى يجتمع معه آخرهم ..

ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد ذلك فقال : ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ أى : حتى إذا ما وصلوا إلى موقف الحساب قال الله - تعالى - لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ ﴿ أكذبتم بآياتى ﴾ الدالة على و حدانيتى وعلى أن الآخرة حق . وأن الحساب حق وجملة ، « ولم تحيطوا بها علما » حالية ، لزيادة التشنيع عليهم . والتجهيل لهم .

أى : أكذبتم بآياتى الدالة على أن البعث حق ، دون أن تتفكروا فيها ، ودون أن يكون عندكم أى علم أو دليل على صحة هذا التكذيب .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التوبيخ لهم ، توبيخا أشد وأعظم ، فقال : ﴿ أمَّاذا كنتم تعملون ﴾ .

أى : إذا لم تكونوا قد كذبتم بآياتى ، فقولوا لنا ماذا كنتم تعملون ، فإننا لا يخفى علينا شىء منها ، ولا نعاقبكم إلا عليها .

ولاشك أن هذا التساؤل المقصود منه تأنيبهم وتقريعهم ، والاستهزاء بهم ، لأنه من المعروف أنهم كذبوا بآيات الله ، وأنهم قد قضوا حياتهم فى الكفر والضلال ، ولذا وقفوا واجمعين لا يحيرون جوابا ، فكانت النتيجة كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ . أى : وحل العذاب عليهم بسبب ظلمهم وجحودهم ، فاستقبلوه باستسلام وذلة ، دون أن يستطيعوا النطق بكلمة تنفعهم . أو بحجة يدافعون بها عن أنفسهم ..

فالمقصود بوقوع القول عليهم : إقامة الحجة عليهم ، ونزول العذاب بهم واستحقاقهم له بسبب ظلمهم وكفرهم .

وبعد هذا التوبيخ لهم وهم فى ساحة الحشر ، انتقلت السورة إلى توبيخهم على فعلتهم حين كانوا فى الدنيا . فتقول : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ، والنهار مبصرا ﴾ .

أى : أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المكذبين - أنهم يعيشون فى هذا الكون ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا ، دون أن يعتبروا أو يتفكروا .

لقد أوجدنا لهم ليلا يسكنون فيه ، وأوجدنا لهم نهارا يبتغون فيه أرزاقهم،وجعلنا الليل والنهار بهذا المقدار ، لتتيسر لهم أسباب الحياة والراحة ، فكيف لم يهتدوا إلى أن لهذا الكون خالقا حكيما قادرا ؟

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى جعلناه ، لهم ، من وجود الليل والنهار بهذه الطريقة ﴿ لآيات ﴾ بينات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء وهو الإله الحق لا إله سواه .

وذلك ، لأن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار بتلك الصورة البديعة المطردة ، وفى اختلافهما طولا وقصرا ، وظلمة وضياء .. أيقن بأن لهذا الكون إلها واحدا قادرا على إعادة الحياة إلى الأموات ، ليحاسبهم على أعمالهم .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أى : ليبصروا بما فيه من الإضاءة ، وطرق التقلب فى أمور معاشهم ، فبولغ حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ، ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لم ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك . لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ، ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الإبصار[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ والصور ، القرن الذى ينفخ فيه نفخة الصَّعْق والبعث ، وذلك يكون عند النفخة الثانية .. والنافخ : إسرافيل - عليه السلام - .

قال القرطبى ما ملخصه : والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ، ينفخ فيه إسرافيل .

والصحيح - أيضا - فى النفخ فى الصور أنها نفختان . وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما .. والمراد - هنا النفخة الثانية - أى : يحيون فزعين ، يقولون : «من بعثنا من مرقدنا» ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم[2] .

والمعنى واذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور بإذن الله - تعالى - وأمره ﴿ ففزع من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ أى : خافوا وانزعجوا ، وأصابهم الرعب ، لشدة ما يسمعون ، وهول ما يشاهدون ، فى هذا اليوم الشديد .

وقوله : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ استثناء ممن يصيبهم الفزع .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٢٩ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٤٠ .

أى : ونفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله - تعالى - لهم عدم الفزع والخوف .

والمراد بهؤلا الذين لا يفزعون ، قيل : الأنبياء ، وقيل : الشهداء ، وقيل: الملائكة .

ولعل الأنسب أن يكون المراد ما يعم هؤلاء السعداء وغيرهم ، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لأنه لم يرد نص صحيح يحددهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿وكل أتوه داخرين﴾ أى : وكل واحد من هؤلاء الفزعين المبعوثين عند النفخة ، أتوا إلى موقف الحشر ، للوقوف بين يدى الله - تعالى - ﴿ داخرين ﴾ أى : صاغرين أذلاء .

يقال : دخر فلان - كمنع وفرح - دخرا ودخورا . إذا صغر وذل .

وقوله - تعالى - : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب .. ﴾ معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ ينفخ فى الصور ﴾ .

أى : فى هذا اليوم الهائل الشديد ، يفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وترى الجبال الراسيات الشامخات ، ﴿ تحسبها جامدة ﴾ أى ثابتة فى أماكنها ، والحال أنها تمر فى الجو مر السحاب ، الذى تسيره الرياح سيرا حثيثا .

وهكذا تصور الآيات الكريمة أهوال ذلك اليوم هذا التصوير البديع المعجز المؤثر ، فالناس جميعا - إلا من شاء الله - فزعين وجلين ، والجبال كذلك كأنها قد أصابها ما أصاب الناس ، حتى لكأنها - وهى تسرع الخطا - . السحاب فى خفته ومروقه وتناثره ، ثم يعقب - سبحانه - على كل ذلك بقوله ﴿ صنع الله الذين أتقن كل شىء ﴾ .

ولفظ ﴿ صنع ﴾ يجوز أن يكون منصوبا على الإغراء أى : انظروا صنع الله - تعالى - الذى أتقن كل شىء فقد أحسن - سبحانه - ما خلقه وأحكمه ، وجعله فى أدق صورة ، وأكمل هيئة ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ .

قال صاحب فتح القدير : وانتصاب « صنع » على المصدرية ، أى : صنع الله ذلك صنعا . وقيل هو مصدر مؤكد لقوله : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ﴾ وقيل منصوب على الإغراء[1] .

وجملة : ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ تعليل لما قبله . أى : صَنعَ الله ما خلقه على هذا

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٥٥ للشوكانى .

الإحكام العجيب ، والإتقان البديع ، لأنه - سبحانه - خبير بما تفعلونه ومطلع على ما تخفونه وما تعلنونه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جزاء من أحسن ، وبيان جزاء من أساء ، وببيان منهج الرسول - ﷺ - فى دعوته فقال - تعالى - :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ بيان وتفصيل لمظاهر علم الله - تعالى - لكل ما يفعله الناس ، الذى أشير إليه قبل ذلك بقوله : ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

والمراد بالحسنة : كل ما يقوله أو يفعله المسلم من قول طيب ، ومن عمل صالح ، فيشمل النطق بالشهادتين ، وأداء ما كلف الله الإنسان بأدائه من فرائض وواجبات ، واجتناب السيئات والشبهات .

أى : من جاء بالفعلة الحسنة ، فله من الله - تعالى - ما هو خير منها من ثواب وعطاء حسن ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فالمراد بما هو خير منها : الثواب الذى يمنحه الله - تعالى - لمن أتى بها .

وقوله - تعا'' - : ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ تقرير لما قبله ، وبشارة للمؤمنين الذين جاءوا بالحسنات ، بالأمان والاطمئنان .

أى : وهم من الفزع الكائن للناس فى يوم البعث والحساب ، آمنون مطمئنون ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[1] وكما قال - تعالى - ﴿ أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يأتى بالسيئات فقال : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ﴾ .

قال ابن كثير : قال ابن مسعود : وأبو هريرة ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم : ﴿ من جاء بالسيئة ﴾ أى الشرك .

ولعل مما يؤيد أن المراد بالسيئة هنا : الشرك . قوله - تعالى - : ﴿ فكبت وجوههم فى النار ﴾ لأن هذا الجزاء الشديد ، يتناسب مع رذيلة الشرك - والعياذ بالله - .

أى : ومن جاء بالفعلة الشنيعة فى السوء ، وهى الإشراك بالله ﴿ فكبت وجوههم فى النار ﴾ أى : فألقوا بسبب شركهم فى النار على وجوههم منكوسين .

يقال : كب فلان فلانا على وجهه ، وأكبه ، إذا نكسه وقلبه على وجهه .

وفى كبهم على وجوههم فى النار ، زيادة فى إهانتهم وإذلالهم لأن الوجه هو مجمع المحاسن ، ومحل المواجهة للغير .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ لزيادة توبيخهم وتقريعهم والجملة بإضمار قول محذوف .

أى : والذين جاءوا بالأفعال السيئة فى دنياهم ، يكبون على وجوههم فى النار يوم القيامة ، ويقال لهم على سبيل الزجر والتأنيب : ما حل بكم من عذاب هو بسبب أعمالكم وشرككم .

وكون المراد بالسيئة هنا الشرك ، لا يمنع من أن الذى يرتكب السيئات من المسلمين ، يعاقب عليها ما لم يتب منها فالله - تعالى - يقول : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾[3] .

ثم يأمر الله - تعالى - نبيه أن يعلن للناس منهجه فى دعوته فيقول : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها . وله كل شىء .. ﴾ .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٣ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٠ .
(٣) سورة النساء آية ١٢٣ .

والمراد بالبلدة الذى حرمها : مكة المكرمة التى عظم الله - تعالى - حرمتها،فجعلها حرما آمنا ، لايسفك فيها دم ، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعضد فيها شجر . وقوله : ﴿الذى حرمها﴾ صفة للرب .

وخصت مكة بالذكر : تشريفا لها ، ففيها البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع فى الأرض .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إن الله - تعالى - أمرنى أن أخلص لله - سبحانه - عبادتى ، فهو رب البلد الحرام مكة ، ورب كل شىء ، وله جميع ما فى هذا الكون خلقا ، وملكا ، وتصرفا .

﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن ﴾ أى : وأمرنى كذلك أن أكون من الثابتين على دينه ، المنقادين لأمره ، المسلمين له وجوههم،وأمرنى - أيضا - أن أتلو القرآن على مسامعكم ، لأنه هو معجزتى الدالة على صدقى .

﴿ فمن اهتدى ﴾ إلى الحق الذى جئته به ، وبينته له ﴿ فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أى : فإن منافع هدايته تعود إلى نفسه .

﴿ ومن ضل ﴾ عن طريق الحق ، وأعرض عن دعوتى ، ﴿ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ .

أى : ومن ضل عن الهدى بعد أن نصحته وأرشدته ، فقد أمرنى ربى أن أقول له : إنما أنا من المنذرين للضالين بسوء العاقبة ، ولست عليهم بحفيظ ، أو بمُكْرِهٍ إياهم على الإيمان .

ثم ختم السورة الكريمة بهذا التوجيه الكريم ، للرسول - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ وقل الحمد لله ﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للناس : الثناء كله ، والفضل كله ، لله - تعالى - وحده . وهو - سبحانه - ﴿ سيريكم آياته ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ فتعرفونها ﴾ أى : فتعرفون صدقها ..

وصدق الله - عز وجل - ففى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، يرى عباده بعض آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، فى أنفسهم ، وفى آفاق هذا الكون وما أحكم قوله - تعالى - : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الجملة التى تحمل طابع التهديد والوعيد لمن خالف أمره ، فقال - تعالى - : ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

أى : وما ربك - أيها الرسول الكريم - بغافل عما يعمله الناس ، وما يقولونه لك ، وما يتهمونك به ، فسر فى طريقك ، وبلغ ما أمرك - سبحانه - بتبليغه ، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين ، أما الكافرون والمنافقون فنحن الذى سنتولى حسابهم ..

وبعد : فهذا تفسير لسورة « النمل » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الخميس ١٥ من جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٩٨٥/٣/٧ م

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ القَصَصِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة القصص ، هى السورة الثامنة والعشرون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة النمل . فترتيب نزولها موافق لترتيبها فى المصحف . وعدد آياتها ثمانون آية .

٢ - قال القرطبى : وهى مكية كلها فى قول الحسن ، وعكرمة ، وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ... ﴾[1] .

فعن يحيى بن سلام قال : بلغنى أن النبى - ﷺ - حين هاجر ، نزل عليه جبريل بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال له : أتشتاق يا محمد إلى بلدك التى ولدت فيها ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ... ﴾[2] .

٣ - والمتدبر لهذه السورة الكريمة ، يرى أكثر من نصفها ، فى الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - .

فهى تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون .. ﴾ .

٤ - ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك ، عما ألهم الله - تعالى - به أم موسى بعد ولادتها له ، وعن حالتها النفسية بعد أن عرفت أن ابنها قد التقطه من اليم أعداؤها . وعما قالته لأخته ، وعن فضل الله - تعالى - عليها ورحمته بها ، حيث أعاد إليها ابنها موسى ، قال - تعالى - : ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٤٧ .

(٢) تفسير الآلوسى ح ٢٠ ص ٤١ .

٥ - ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن قتل رجلا من أعدائه ، وكيف أنه خرج من المدينة خائفا يترقب ، قال : ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ .

وقد أجاب الله - تعالى - له دعاءه ، فنجاه منهم ، ويسر له الوصول إلى جهة مدين ، فعاش هناك عشر سنين ، أجيرا عند شيخ كبير من أهلها ، وتزوج موسى - عليه السلام - بعد انقضاء تلك المدة ، بإحدى ابنتى هذا الشيخ الكبير .

قال - تعالى - حاكيا بعض ما قاله هذا الشيخ لموسى : ﴿ قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإنى أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على مانقول وكيل ﴾ .

٦ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن موسى بعد أن قضى المدة التى تعاقد عليها مع الرجل الصالح ، وبعد أن تزوج ابنته ، سار بها متجها إلى مصر ، وفى الطريق رأى نارا ، فلما ذهب إليها ، أمره ربه - تعالى - بأن يذهب إلى فرعون وقومه ليأمرهم بإخلاص العبادة له - عز وجل - وذهب موسى - عليه السلام - إليهم ، وبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه، فكانت عاقبتهم كما قال - تعالى - : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .. ﴾ .

٧ - وبعد هذا الحديث المفصل عن قصة موسى - عليه السلام - أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، فذكرت له ما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأمرته أن يتحدى المشركين به ، وبينت له أنه - عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع أن يهدى من يحبه ولكن الله هو الذى يهدى من يشاء هدايته ، وحكت جانبا من أقوال المشركين وردت عليها ، كما حكت جانبا من المصير السيىء الذى سيكونون عليه يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون .. ﴾ .

﴿ ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون . ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم ، فعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

٨ - ثم عادت السورة بعد ذلك للحديث عن قصة تتعلق برجل كان من قوم موسى : وهو قارون ، فأخبرتنا بجانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه ، وكيف أنه قابل هذه النعم بالجحود والكنود ، دون أن يستمع إلى نصح الناصحين ، أو وعظ الواعظين ، وكيف أن

الذين يريدون الحياة الدنيا تمنوا أن يكونوا مثله ، وكيف أن الذين أوتوا العلم قالوا لهم على سبيل الزجر : ﴿ ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ وكيف أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا بعد أن رأوا مصرع قارون : ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا .. ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال - تعالى - : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين ﴾ .

٩ - وبعد أن انتهت السورة الكريمة ، عن الحديث المتنوع من قصص السابقين ، ومن التعقيبات الحكيمة عليها ..

بعد كل ذلك ، جاء الأمر من الله - تعالى - بإخلاص العبادة له ، والنهى عن الإشراك به فقال - سبحانه - ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

١٠ - وبعد ، فهذا عرض مجمل لما اشتملت عليه سورة القصص من مقاصد وأهداف ، ومن هذا العرض ، ترى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أهمها ما يأتى :

(أ) تثبيت المؤمنين ، وتقوية عزائمهم ، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم ، وبأن الله - تعالى - سيجعل من ضعفهم قوة ، ومن قلتهم كثرة ، كما جعل من موسى وقومه أمة منتصرة بعد أن كانت مهزومة ، وغالبة بعد أن كانت مغلوبة .

ترى هذه التقوية والبشارة فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

(ب) أن السورة الكريمة تعطينا صورة زاخرة بالمعانى الكريمة والمؤثرة ، عن حياة موسى - عليه السلام - فهى تحكى لنا حالة أمه . وأحاسيسها ، وخلجات قلبها ، وخوفها ، عند ولادته ، وبعد ولادته ، وبعد إلقائه فى اليم ، وبعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، وبعد رد الله - تعالى - إليها ابنها ، فضلا منه - سبحانه - ورحمة .

كما تحكى لنا ما جبل عليه موسى - عليه السلام - من مروءة عالية جعلته يأبى أن يرى مظلوما فلا ينصره ، ومحتاجا فلا يعينه .

فعندما رأى امرأتين عاجزتين عن سقى غنمهما ، قال لهما : ﴿ ماخطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما .. ﴾ .

وعندما رأى مظلوما يستنصره ، ما كان منه إلا أن نصره ، وقال : ﴿رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين﴾ .

(ج) تأكيد أن هذا القرآن من عند الله ، بدليل أن هذا القرآن قد قص على النبي - ﷺ - وعلى الناس ، قصصا لا علم لهم بحقيقتها قبل أن يقصها عليهم .

قال - تعالى - : ﴿ وما كنت بجانب الغربى ، إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ﴾ .

﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾.

(د) اهتمت السورة اهتماما واضحا ، ببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - فى هذا الكون ، هذه القدرة التى نراها فى إهلاك الظالمين والمغرورين ، حتى ولو ساندتهم جميع قوى الأرض .

كما نراها فى الرد على كفار مكة الذين زعموا ، أن اتباعهم للحق يؤدى إلى تخطفهم والاعتداء عليهم ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾..

والخلاصة ، أن سورة القصص على رأس السور المكية ، التى حضت المؤمنين على الثبات والصبر ، وساقت لهم من أخبار السابقين ، ما يزيدهم إيمانا على إيمانهم . ويقينا على يقينهم ، بأن الله - تعالى - سيجعل العاقبة لهم ..

القاهرة - مدينة نصر

صباح السبت : ٢ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥/٢/٢٣ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

سورة القصص من السور التى افتتحت ببعض الحروف الهجائية ..

وقد رجحنا أن هذه الحروف ، قد افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، للإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن الكريم .

فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية ، ومنظوما من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم .

فإن كنتم فى شك فى كون هذا القرآن من عند الله ، فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله

أو سورة واحدة من مثله وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك .

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

و﴿ تلك ﴾ اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات هذه السورة التى معنا .

﴿ الكتاب ﴾ : مصدر كتب كالكتب . وأصله ضم أديم إلى آخر بالخياطة ، واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط . والمراد به : القرآن الكريم .

و ﴿ المبين ﴾ : أى : الواضح المظهر للحق من الباطل ، من أبان بمعنى أظهر .

أى : تلك الآيات التى أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - هى آيات الكتاب المظهر للحق من الباطل ، والموضح للخير من الشر ، والكاشف عن حقائق الأمور ، وعن قصص الأولين .

ثم بين - سبحانه - : ما سيقصه على رسول الله - ﷺ - فى هذه السورة فقال : ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ نتلو ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة المرتلة التى يقصد منها التذكير والإرشاد .

والنبأ : الخبر العظيم المشتمل على أمور من شأنها أن يهتم الناس بها .

وموسى - عليه السلام - : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب - عليه السلام - وكانت ولادة موسى فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وفرعون : اسم كان يطلق فى القديم على كل ملك لمصر ، كما يقال لملك الروم : قيصر ، ولملك اليمن : تبع .

ويرى كثير من المؤرخين أن فرعون مصر ، الذى ولد وبعث فى عهده موسى - عليه السلام - هو منفتاح ابن الملك رمسيس الثانى .

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون ... ﴾ تبعيضية . والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول ﴿ نتلو ﴾ المحذوف . وقوله ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل ﴿ نتلو ﴾ أى : نتلو ملتبسين بالحق ، أو من مفعوله ، أى : نتلو شيئا من نبئهما ملتبسا بالحق ...[1] .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٤٢ .

والمعنى : نتلو عليك - أيها الرسول الكريم - تلاوة كلها حق وصدق ، شيئا عجيبا ، وخبرا هاما ، يتعلق بقصة موسى - عليه السلام - ، وبقصة فرعون .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أى : نتلو عليك هذه الآيات ، لقوم يؤمنون بها ، وينتفعون بما اشتملت عليه من هدايات وعبر وعظات .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا ... ﴾ كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبأ .

وقوله ﴿ علا فى الأرض ﴾ أى تكبر فيها وطغى ، من العلو بمعنى الارتفاع . والمقصود أنه جاوز كل حد فى غروره وظلمه وعدوانه . والمراد بالأرض : أرض مصر ومايتبعها من بلاد .

و﴿ شيعا ﴾ جمع شيعة ، وهم الأتباع والجماعات ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعته .

أى : إن فرعون طغى وبغى وتجبر فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا وأتباعا له ، وصار يستعمل كل طائفة منهم ، فيما يريده من أمور دولته ، فهذه الطائفة للبناء ، وتلك للسحر ، وثالثة لخدمته ومناصرته على ما يريد ..

وجملة ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ لبيان حال الذين جعلهم شيعا وأحزابا .

والمراد بهذه الطائفة : بنو إسرائيل .

أى : أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعا وأحزابا اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم ، فصار يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . أى : يذبح الذكور من بنى إسرائيل بمجرد ولادتهم ، ويترك الإناث أحياء .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال . وذلك يقتضى انقطاع النسل ..

ثانيها : أن هلاك الذكور يقتضى فساد مصالح النساء فى المعيشة ، فأن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال ..

ثالثها : أن قتل الذكور عقب الحمل الطريل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع به ، من أعظم العذاب ..

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٣٥٨ .

قالوا : وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بنى إسرائيل دون الإناث ، لأن الكهنة أخبروه ، بأن مولودا سيولد من بنى إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ تعليل وتأكيد لما كان عليه فرعون من تجبر وطغيان .

أى : إن فرعون كان من الراسخين فى الفساد والإفساد ، ولذلك فعل ما فعل من ظلم لغيره ، ومن تطاول جعله يقول للناس : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده فى القوم الظالمين ، مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم فقال : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

وقوله ﴿ نمن ﴾ من المن بمعنى التفضل ، ومن قوله - تعالى - : ﴿ لقد من الله على المؤمنين ... ﴾ أى : لقد تفضل عليهم ، وأحسن إليهم .

وقوله : ﴿ ونمكن لهم فى الأرض ﴾ من التمكين ، وأصله : أن نجعل للشىء مكانا يستقر فيه ، ويحل به . ثم استعير للتسليط وللحصول على القوة بعد الضعف ، وللعز بعد الذل .

وقوله : ﴿ يحذرون ﴾ من الحذر ، بمعنى الاحتراس والاحتراز من الوقوع فى الأمر المخيف . يقال : حذر فلان فلانا ، إذا خافه واحترس منه .

قال الشوكانى : والواو ، فى قوله ﴿ ونريد أن نمن ﴾ للعطف على جملة ، ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ لأن بينهما تناسبا من حيث إن كل واحدة منهما ، للتفسير والبيان للنبأ . ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿ يستضعف ﴾ بتقدير مبتدأ . أى : ونحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض .. والأول أولى[1] .

والمعنى : لقد طغا فرعون وبغى ، ونحن بإرادتنا وقدرتنا ﴿ نريد أن نمن ﴾ ونتفضل على بنى إسرائيل ، الذين استضعفوا فى الأرض ، بأن ننجيهم من ظلمه ، وننقذهم من قهره وبغيه .

﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ للأرض المباركة ، التى نعطيهم إياها متى آمنوا وأصلحوا ، كما قال - تعالى - : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٥٩ .

وما كانوا يعرشون ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونمكن لهم فى الأرض ﴾ أى : ونجعلهم أقوياء راسخى الأقدام فى الأرض التى نورثهم إياها ، بعد القوم الظالمين .

﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما ﴾ أى : ونطلع فرعون وهامان - وهو وزير فرعون - وجنودهما التابعين لهما ﴿ منهم ﴾ أى : من بنى إسرائيل المستضعفين فى الأرض ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ أى ما كانوا يحاولون دفعه واتقاءه ، فقد كان فرعون وجنده يقتلون الذكور من بنى إسرائيل ، خوفا من ظهور غلام منهم يكون هلاك فرعون على يده .

قال ابن كثير : أراد فرعون بحوله وقوته ، أن ينجو من موسى . فما نفعه ذلك ، بل نفذ الله - تعالى - حكمه . بأن يكون إهلاك فرعون على يد موسى ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده - يا فرعون - ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك ... وهلاكك وهلاك جندك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا ، هو القاهر الغالب العظيم ، الذى ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن[2] .

وهكذا تعلن السورة الكريمة فى مطلعها ، أن ما أراده الله - تعالى - لابد أن يتم ، أمام أعين فرعون وجنده ، مهما احتاطوا ومهما احترسوا ، ﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

* * *

ثم فصل - سبحانه - الحديث عن موسى - عليه السلام - فذكر ما ألهمه لأمه عند ولادته . وما قالته امرأة فرعون له عند التقاط آل فرعون لموسى ، وما كانت عليه أم موسى من حيرة وقلق ، وما قالته لأخته ، وكيف رد الله - تعالى - بفضله وكرمه موسى إلى أمه ..

لنستمع إلى السورة الكريمة ، وهى تفصل هذه الأحداث ، بأسلوبها البديع المؤثر فتقول :

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣١ .

فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما قال : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا ﴾ ابتدأ بذكر أوائل نعمه فى هذا الباب فقال : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[1] .

والوحى إلى أم موسى ، يجوز أن يكون عن طريق الإلهام ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ... ﴾ أو عن طريق المنام ، أو عن طريق إرسال ملك أخبرها بذلك .

قال الآلوسى : والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ، ولا ينافى ذلك الإجماع على

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٤٢٦ .

عدم نبوتها ، لما أن الملائكة - عليهم السلام - قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم .

والظاهر - أيضا - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة .. وقيل : كان قبلها ...[١] .

و﴿ أن ﴾ فى قوله ﴿ أن أرضعيه ﴾ مفسرة ، لأن الوحى فيه معنى القول دون حروفه .

والخوف : حالة نفسية تعترى الإنسان ، فتجعله مضطرب المشاعر ، لتوقعه حصول أمر يكرهه .

والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه ، كموت عزيز لديه . أو فقده لشىء يحبه ..

وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : وحملت أم موسى به فى الوقت الذى كان فرعون يذبح الأبناء ، ويستحيى النساء ، وأخفت حملها عن غيرها ، فلما وضعته أصابها ما أصابها من خوف وفزع على مصير ابنها ، وهنا ألهمناها بقدرتنا وإرادتنا . وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه فى خفاء وكتمان ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ من فرعون وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بنى إسرائيل .

﴿ فألقيه فى اليم ﴾ أى : فى البحر والمراد به نهر النيل ، وسمى بحرا لاتساعه ، وإن كان الغالب إطلاق البحر على المياه غير العذبة .

﴿ ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ أى : ولا تخافى عليه من حصول مكروه له ، ولا تحزنى لمفارقته لك ، فهو فى رعايتنا وحمايتنا ، ومن رعاه الله - تعالى - وحماه ، فلا خوف عليه ولا حزن .

وجملة ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ تعليل للنهى عن الخوف والحزن ، وتبشير لها بأن ابنها سيعود إليها ، وسيكون من رسل الله - عز وجل - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما المراد بالخوفين - فى الآية - حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟ .

قلت : أما الأول ، فالخوف عليه من القتل ، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته ، فينموا عليه . وأما الثانى : فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ، ومن الوقوع فى يد بعض العيون المبثوتة من قبل فرعون فى تطلب الولدان .

فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف ، غم يلحق الإنسان لشىء متوقع .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٤٥ .

والحزن : غم يلحقه لشىء وقع ، فنهيت عنهما جميعا وأومنت بالوحى إليها ، ووعدت بما يسليها ، ويطمئن قلبها ، ويملؤها غبطة وسرورا ، وهو رده إليها . وجعله من المرسلين ..[1] .

وهكذا نجد الآية الكريمة قد اشتملت على أبلغ الأساليب وأبدعها ، فى بيان قدرة الله - تعالى - ورعايته لمن يريد رعايته .

قالوا : مدح الأصمعى امرأة لإنشادها شعرا حسنا ، فقرأت هذه الآية الكريمة ثم قالت له : أبعد هذه الآية فصاحة ، لقد اشتملت على أمرين وهما ﴿ أرضعيه فألقيه ﴾ ونهيين وهما ﴿ لا تخافى ولا تحزنى ﴾ وخبرين ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ وبشارتين فى ضمن الخبرين وهما : الرد والجعل المذكوران .

والفاء فى قوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا .. ﴾ هى الفصيحة .

والالتقاط : وجود الشىء والحصول عليه من غير طلب ولا قصد .

والمراد بآل فرعون : جنوده وأتباعه الذين عثروا على التابوت الذى به موسى ، وحملوه إلى فرعون . والحزن - بالتحريك، وبضم فسكون - نقيض السرور ، وفعله كفرح .

يقال : حزنه الأمر وأحزنه . أى : جعله حزينا .

واللام فى قوله : ﴿ ليكون ... ﴾ هى لام العاقبة والصيرورة .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدى إلى كونه عدوا لهم وحزنا ، فاللام فى ﴿ ليكون ﴾ لام العاقبة والصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل كما فى قول الشاعر :

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أى : فعاقبة البناء : الخراب ، وإن كان فى الحال مفروحا به[2] .

ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون للتعليل ، بمعنى ، أن الله - تعالى - سخر بمشيئته وإرادته فرعون وآله . لالتقاط موسى ، ليجعله لهم عدوا وحزنا ، فكأنه - سبحانه - يقول : قدرنا عليهم التقاطه بحكمتنا وإرادتنا ، ليكون لهم عدوا وحزنا .

إلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قال محمد بن إسحاق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك - أى : لم يريدوا بالتقاطه العداوة

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٩٣ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٥٢ .

والحزن - ، ولاشك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوا . ولكن إذا نظرنا إلى معنى السياق ، فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه : أن الله - تعالى - قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه[1] .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأى الثانى ، لأنه - كما قال الإمام ابن كثير - أبلغ فى إبطال حذرهم منه ، ولأن قوله - تعالى - : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ يشير إلى أن اللام للتعليل ..

والمعنى : ونفذت أم موسى ما أوحيناه إليها ، فأرضعت ابنها موسى . وألقته فى اليم حين خافت عليه القتل ، فالتقطه آل فرعون من اليم ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، وليعلموا أن ما أردناه لابد أن يتم مهما احترسوا واحتاطوا وحذروا ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ تعليل لما قبله ، و﴿ خاطئين ﴾ أى : مرتكبين للخطيئة التى هى الذنب العظيم ، كقوله - تعالى - فى قوم نوح - عليه السلام - : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا .... ﴾ .

وكقوله - سبحانه - فى شأن الكافرين ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته . فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] .

أى : فعلنا ما فعلنا من جعل موسى عدوا وحزنا لفرعون وآله ، لأن فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما الذين يناصرونهما ، كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة فى كل ما يأتون ويذرون ، ومن مظاهر ذلك قتلهم لذكور بنى إسرائيل ، وإبقاؤهم لإناثهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ بيان لما أنطق الله به امرأة فرعون للدفاع عن موسى - عليه السلام - .

قال الجمل : وامرأة فرعون هى : آسيا بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، ومن بنات الأنبياء ، وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم[3] .

ويكفى فى مدحها قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين ﴾[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ٨١ .
(٣) حاشية الجمل فى الجلالين ج ٣ ص ٣٣٧ .
(٤) سورة التحريم آية ١١ .

أى : وقالت امرأة فرعون بعد أن أخرج موسى من التابوت ، ورأته بين أيدى فرعون وآله : ﴿ قرة عين لى ولك ﴾ أى : هذا الطفل هو قرة عين لى ولك ، أى : هو محل السرور والفرح لعينى ولعينك يا فرعون .

فالجملة الكريمة كناية عن السرور به ، إذ لفظ ﴿قرة ﴾ مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار ، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه ، استقر نظرها عليه ، وانشغلت به عن غيره .

ثم أضافت إلى ذلك قولها ﴿ لا تقتلوه ﴾ والخطاب لفرعون وجنده .

ثم عللت النهى عن قتله بقولها : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فى مستقبل حياتنا ، فنجنى من ورائه خيرا .

﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ لنا ، فإن هيئته وصورته تدل على النجابة والجمال واليمن وهكذا شاءت إرادة الله - تعالى - ، أن تجعل امرأة فرعون ، سببا فى إنقاذ موسى من القتل ، وفى أن يعيش فى بيت فرعون ، ليكون له فى المستقبل عدوا وحزنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ جملة حالية ، أى : فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - ، وليست حكاية لما قالته امرأة فرعون .

ثم صورت السورة الكريمة تصويرا بديعا مؤثرا ، ما كانت عليه أم موسى من لهفة وقلق ، بعد أن فارقها ابنها ، فقال - تعالى - : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ... ﴾ أى : وبعد أن ألقت أم موسى به فى اليم ، والتقطه آل فرعون ، وعلمت بذلك أصبح قلبها وفؤادها خاليا من التفكير في أى شىء فى هذه الحياة ، إلا فى شىء واحد وهو مصير ابنها موسى - عليه السلام - .

وفى هذا التعبير ما فيه من الدقة فى تصوير حالتها النفسية ، حتى لكأنها صارت فاقدة لكل شىء فى قلبها سوى أمر ابنها وفلذة كبدها .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وقتادة ..... وغيرهم [1] .

و ﴿ إن ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ هى المخففة من الثقيلة واسمها

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٣ .

ضمير الشأن ، وتبدى بمعنى تظهر ، من بدا الشيء يبدو بدوا وبداء إذا ظهر ظهورا واضحا .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى موسى - عليه السلام - .

أى : وصار فؤاد أم موسى فارغا من كل شيء سوى التفكير فى مصيره ، وإنها كادت لتصرح للناس بأن الذى التقطه آل فرعون ، هو ابنها ، وذلك لشدة دهشتها وخوفها عليه من فرعون وجنده .

وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ محذوف دل عليه ما قبله .

أى : لولا أن ربطنا على قلبها بقدرتنا وإرادتنا . بأن ثبتناه وقويناه ، لأظهرت للناس ان الذى التقطه آل فرعون هو ابنها .

وأصل الربط : الشد والتقوية للشيء . ومنه قولهم فلان رابط الجأش ، أى : قوى القلب .

وقوله - تعالى - : ﴿لتكون من المؤمنين ﴾ علة لتثبيت قلبها وتقويته ، فهو متعلق بقوله : ﴿ ربطنا ﴾ .

أى : ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله - تعالى - ، وأنه سيرد إليها ابنها ، كى تقر عينها ولا تحزن .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته أم موسى بعد ذلك فقال : ﴿ وقالت لأخته قصيه .. ﴾ أى لم تسكت أم موسى بعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، بل قالت لأخت موسى ﴿ قصيه ﴾ أى تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره . يقال : قص فلان أثر فلان فهو يقصه ، إذا تتبعه ، ومنه القصص للأخبار المتتبعة .

والفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ هى الفصيحة . والجنب : الجانب .

أى : فقصت أخت موسى أثره ، فأبصرته عن جانب منها ، وكأنها لا تريد أن تطلع أحدا على أنها تبحث عن أخيها . و تتبع أثره والجار والمجرور حال من الفاعل ، أى : بصرت به مستخفية كائنة عن جنب .

قال الآلوسى : ﴿ عن جنب ﴾ أى عن بعد ، وقيل عن شوق إليه .. و قال الكرمانى ﴿ جنب ﴾ صفه لموصوف محذوف ، أى عن مكان جنب بعيد وكأنه من الأضداد ، فإنه يكون بمعنى القريب - أيضا - كالجار الجنب . وقيل على جانب .. وقيل : النظر عن جنب ، أن

تنظر الشىء كأنك لا تريده[١] .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ يشعر بأن أخت موسى أبصرت أخاها إبصارا فيه مخادعة لآل فرعون ، حتى لا تجعلهم يشعرون بأنها تبحث عنه .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى : وهم - أى آل فرعون - لا يشعرون أنها أخته تبحث عنه وتتبع أخباره .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حكمته وقدرته وتدبيره لأمر موسى كى يعود إلى أمه ، فقال - تعالى - . ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل .... ﴾ .

والمراد بالتحريم هنا : المنع ، والمراضع : جمع مرضع - بضم الميم وكسر الضاد - وهى المرأة التى ترضع .

أى : ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من المرضعات وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أى : تحريما قدريا ، وذلك لكرامة الله له ، صانه عن أن يرتضع غيرِ ثدى أمه ، لأنه - سبحانه - جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة ..[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ حكاية لما قالته أخت موسى لفرعون وحاشيته ، والاستفهام للتحضيض .

أى : وبعد أن بصرت أخت موسى به عن جنب ، ورأت رفضه للمراضع ، وبحثهم عمن يرضعه ، قالت : ﴿ ألا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ﴾ أى : يقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته ، ﴿ وهم له ناصحون ﴾ أى : وهم لا يمنعونه ما ينفعه فى تربيته وغذائه ، ولا يقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ﴾ معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : فسمعوا منها ما قالت ، ودلتهم على أمه ، فرددناه إليها ، كى يطمئن قلبها وتقر عينها برجوع ولدها إليها ، ولا تحزن لفراقه .

ولتعلم أن وعد الله - تعالى - حق ، أى : أن وعده - سبحانه - لا خلف فيه ، بل هو كائن لا محالة .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٥٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٣ .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة حق العلم ، ولذا يستعجلون الأمور ، دون أن يفطنوا إلى حكمته - سبحانه - فى تدبير أمر خلقه .

وبذلك نرى هذه الآيات قد صاغت لنا بأبلغ أسلوب ، جانبا من حياة موسى - عليه السلام - ، ومن رعاية الله - تعالى - له ، وهو ما زال فى سن الرضاعة .

* * *

ثم قص علينا - سبحانه - جانبا من حياة موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده واستوى ، فقال - تعالى - :

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ بيان لجانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على موسى فى تلك المرحلة من حياته .

و ﴿ لما ﴾ ظرف بمعنى حين . والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته من الشدة بمعنى القوة والارتفاع يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ولا واحد له من لفظه .

وقوله : ﴿ واستوى ﴾ من الاستواء بمعنى الاكتمال وبلوغ الغاية والنهاية .

أى - وحين بلغ موسى - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، واكتمال عقله ، قالوا : وهى السن التى كان فيها بين الثلاثين والأربعين .

﴿ آتيناه ﴾ بفضلنا وقدرتنا ﴿ حكما ﴾ أى : حكمة وهى الإصابة فى القول والفعل ، وقيل : النبوة .

﴿ وعلما ﴾ أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور ، وإدراكا قويما لشئون الحياة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ بيان لسنة من سننه - تعالى - التى لا تتخلف .

أى : ومثل هذا الجزاء الحسن ، والعطاء الكريم ، الذى أكرمنا به موسى وأمه نعطى ونجازى المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به . فكل من أحسن فى أقواله وأعماله ، أحسن الله - تعالى - جزاءه ، وأعطاه الكثير من آلائه .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأحداث التى تعرض لها موسى - عليه السلام - فى تلك الحقبة من عمره فقال : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ .

والمراد بالمدينة : مصر ، وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف .

وجملة ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ حال من الفاعل . أى : دخلها مستخفيا .

قيل : والسبب فى دخوله على هذه الحالة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما

يكرهون ، فخافهم وخافوه . فاختفى وغاب ، فدخلها متنكرا[١] .

أى : وفى يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل المدينة التى يسكنها فرعون وقومه : ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ أى : دخلها مستخفيا فى وقت كان أهلها غافلين عما يجرى فى مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم فى بيوتهم فى وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك .

﴿ فوجد ﴾ موسى ﴿ فيها ﴾ أى فى المدينة ﴿ رجلين يقتتلان ﴾ أى : يتخاصمان ويتنازعان فى أمر من الأمور .

﴿ هذا من شيعته ﴾ أى : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته . أى : من بنى إسرائيل : ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أى : والرجل الثانى كان من أعدائه وهم القبط الذين كانوا يسيمون بنى إسرائيل سوء العذاب .

﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ أى : فطلب الرجل الإسرائيلى من موسى ، أن ينصره على الرجل القبطى .

والاستغاثة : طلب الغوث والنصرة ، ولتضمنه معنى النصرة عدى بعلى .

﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ والفاء هنا فصيحة . والوكز : الضرب بجميع الكف .

قال القرطبى : والوكز واللكز واللهز بمعنى واحد ، وهو الضرب بجميع الكف[٢] .

أى : فاستجاب موسى لمن استنصر به ، فوكز القبطى ، أى : فضربه بيده مضمومة أصابعها فى صدره ، ﴿ فقضى عليه ﴾ أى : فقتله . وهو لا يريد قتله ، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلى .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ يشير إلى أن موسى - عليه السلام - كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير - أيضا - إلى ما كان عليه من مروءة عالية . حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس أو تردد .

ولكن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى القبطى جثة هامدة ، استرجع وندم ، وقال : ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ أى : قال موسى : هذا الذى فعلته وهو قتل القبطى ، من عمل الشيطان ومن وسوسته . ومن تزيينه .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٥٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٦٠ .

﴿ إنه ﴾ أى : الشيطان ﴿ عدو ﴾ للإنسان ﴿ مضل ﴾ له عن طريق الحق ﴿ مبين ﴾ أى : ظاهر العداوة والإضلال .

ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع ، ندما واستغفارا آخر فقال : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له ﴾ .

أى : قال موسى - عليه السلام - بعد قتله القبطى بدون قصد - مكررا الندم والاستغفار : يارب إنى ظلمت نفسى ، بتلك الضربة التى ترتب عليها الموت ، فاغفر لى ذنبى ، ﴿ فغفر ﴾ الله - تعالى - ﴿ له ﴾ ذنبه ، ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو الغفور الرحيم ﴾ ثم أكد موسى عليه السلام - للمرة الثالثة ، توبته إلى ربه ، وشكره إياه على نعمه ، فقال : ﴿ رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ .

والظهير : المعين لغيره والناصر له . يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه . ويطلق على الواحد والجمع . ومنه قوله - تعالى : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ بما أنعمت على ﴾ يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف ، تقديره : أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن ﴿ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ وأن يكون استعطافا ، كأنه قال : رب اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون - إن عصمتنى - ظهيرا للمجرمين .

وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثيره سواده ، حيث كان يركب بركوبه ، كالولد مع الوالد . وكان يسمى ابن فرعون . وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له ..[1] .

وهذه الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - ، تدل على نقاء روحه ، وشدة صلته بربه ، وخوفه منه ، ومراقبته له - سبحانه - ، فإن من شأن الأخيار فى كل زمان ومكان ، أنهم لا يعينون الظالمين ، ولا يقفون إلى جانبهم .

قال القرطبى : ويروى عن النبى - ﷺ - أنه قال : من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة فقال : ﴿ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٩٨ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٦٣ .

أى : واستمر موسى - عليه السلام - بعد قتله للقبطى ، يساوره القلق ، فأصبح يسير فى طرقات المدينة التى حدث فيها القتل ، ﴿ خائفا ﴾ من وقوع مكروه به ﴿ يترقب ﴾ ما سيسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات .

والتعبير بقوله ﴿ خائفا يترقب ﴾ يشعر بشدة القلق النفسى الذى أصاب موسى - عليه السلام - فى أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر - أيضا - بأنه - عليه السلام - لم يكن فى هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أو خففوا المسألة عليه .

و ﴿ وإذا ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ فجائية .

ويستصرخه : أى : يستغيث به ، مأخوذ من الصراخ وهو رفع الصوت ، لأن من عادة المستغيث بغيره أن يرفع صوته طالبا النجدة والعون .

أى : وبينما موسى على هذه الحالة من الخوف والترقب ، فإذا بالشخص الإسرائيلى الذى نصره موسى بالأمس ، يستغيث به مرة أخرى من ، قبطى آخر ويطلب منه أن يعينه عليه .

وهنا قال موسى - عليه السلام - لذلك الإسرائيلى المشاكس : ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ .

والغوى : فعيل من أغوى يغوى ، وهو بمعنى مغو ، كالوجيع والأليم بمعنى : الموجع والمؤلم . والمراد به هنا : الجاهل أو الخائب أو الضال عن الصواب .

أى : قال له موسى بحدة وغضب : إنك لضال بيّن الضلال ولجاهل واضح الجهالة ، لأنك تسببت فى قتلى لرجل بالأمس ، وتريد أن تحملنى اليوم على أن أفعل ما فعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لا قدرة لك على منازعته أو مخاصمته .

ومع أن موسى - عليه السلام - قد قال للإسرائيلى ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ إلا أن همته العالية ، وكراهيته للظلم ، وطبيعته التى تأبى التخلى عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطى ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما .. ﴾ .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسطوة . يقال : بطش فلان بفلان إذا ضربه بعنف وقسوة .

أى : فحين هيأ موسى - عليه السلام - نفسه للبطش بالقبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، حيث لم يكن على دينهما .

﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ .

ويرى بعض المفسرين ، أن القائل لموسى هذا القول ، هو الإسرائيلى ، الذى طلب من موسى النصرة والعون ، وسبب قوله هذا : أنه توهم أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطى ، عندما قال له : ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ .

فيكون المعنى : قال الاسرائيلى لموسى بخوف وفزع : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا - هى نفس القبطى - بالأمس ، وما تريد بفعلك هذا إلا أن تكون ﴿ جبارا فى الأرض ﴾ أى : ظالما قتالا للناس فى الأرض ، ﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ الذين يصلحون ، بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتى هى أحسن .

ويرى بعضهم أن القائل لموسى هذا القول هو القبطى ، لأنه فهم من قول موسى للإسرائيلى ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ أنه - أى : موسى - هو الذى قتل القبطى بالأمس .

وقد رجح الإمام الرازى هذا الوجه الثانى فقال : والظاهر هذا الوجه ، لأنه - تعالى - قال : ﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى ﴾ فهذا القول إذن منه - أى من القبطى - لا من غيره - وأيضا قوله : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولا من كافر - وهو القبطى - .

وما رجحه الإمام الرازى هو الذى نميل إليه ، وإن كان أكثر المفسرين قد رجحوا الرأى الأول ، وسبب ميلنا إلى الرأى الثانى ، أن السورة الكريمة قد حكت ما كان عليه فرعون وملؤه من علو وظلم واضطهاد لبنى إسرائيل ، ومن شأن الظالمين أنهم يستكثرون الدفاع عن المظلومين ، بل ويتهمون من يدافع عنهم بأنه جبار فى الأرض ، لذا نرى أن القائل هذا القول لموسى ، هو القبطى ، وليس الإسرائيلى - والله أعلم بمراده - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والتقدير : وانتشر خبر قتل موسى للقبطى بالمدينة ، فأخذ فرعون وقومه فى البحث عنه لينتقموا منه .. وجاء رجل - قيل هو مؤمن من آل فرعون - من أقصى المدينة ، أى : من أطرافها وأبعد مكان فيها ﴿ يسعى ﴾ أى : يسير سيرا سريعا نحو موسى ، فلما وصل إليه قال له : ﴿ ياموسى إن الملأ ﴾ وهم زعماء قوم فرعون .

﴿ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ أى : يتشاورون فى أمرك ليقتلوك ، أو يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، وسمى التشاور بين الناس ائتمارا ، لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ، ويأتمر بأمره . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ أى : وتشاوروا بينكم بمعروف .

وقوله : ﴿ فاخرج إنى لك من الناصحين ﴾ أى : قال الرجل لموسى : مادام الأمر كذلك يا موسى فاخرج من هذه المدينة ، ولا تعرض نفسك للخطر ، إنى لك من الناصحين بذلك ، قبل أن يظفروا بك ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصح هذا الرجل ﴿ فخرج منها ﴾ أى : من المدينة ، حالة كونه ﴿ خائفا ﴾ من الظالمين ﴿ يترقب ﴾ التعرض له منهم ، ويعد نفسه للتخفى عن أنظارهم .

وجعل يتضرع إلى ربه قائلا : ﴿ رب نجنى ﴾ بقدرتك وفضلك ﴿ من القوم الظالمين ﴾ بأن تخلصنى من كيدهم ، وتحول بينهم وبينى ، فأنا ما قصدت بما فعلت ، إلا دفع ظلمهم وبغيهم .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة ، قد قصت علينا هذا الجانب من حياة موسى ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن دفع بهمته الوثابة ظلم الظالمين ، وخرج من مدينتهم خائفاً يترقب ، ملتمسا من خالقه - عز وجل - النجاة من مكرهم .

* * *

ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما كان منه عند ما توجه إلى جهة مدين ، وما حصل له فى تلك الجهة من أحداث ، فقال - تعالى - :

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا

يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

ولفظ ﴿ تلقاء ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ منصوب على الظرفية المكانية ، وهو فى الأصل اسم مصدر . يقال دارى تلقاء دار فلان ، إذا كانت محاذية لها .

و ﴿ مدين ﴾ اسم لقبيلة شعيب - عليه السلام - أو لقريته التى كان يسكن فيها ، سميت بذلك نسبة إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .

وإنما توجه إليها موسى - عليه السلام - ، لأنها لم تكن داخلة تحت سلطان فرعون وملئه .

أى : وبعد أن خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، صرف وجهه إلى جهة قرية مدين التى على أطراف الشام جنوبا ، والحجاز شمالا .

صرف وجهه إليها مستسلما لأمر ربه ، متوسلا إليه بقوله : ﴿ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾ .

أى : قال على سبيل الرجاء فى فضل الله - تعالى - وكرمه : عسى ربى الذى خلقنى بقدرته ، وتولانى برعايته وتربيته ، أن يهدينى ويرشدنى إلى أحسن الطرق التى تؤدى بى إلى النجاة من القوم الظالمين .

فالمراد بسواء السبيل : الطريق المستقيم السهل المؤدى . إلى النجاة ، من إضافة الصفة إلى الموصوف أى : عسى أن يهدينى ربى إلى الطريق الوسط الواضح .

وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ووصل موسى بعد رحلة شاقة مضنية إلى أرض مدين ،

ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إليها فيقول : ﴿ ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ .

قال القرطبى : ووروده الماء : معناه بلغه ، لا أنه دخل فيه . ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل ، فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ تذودان ﴾ من الذود بمعنى الطرد والدفع والحبس . يقال : ذاد فلان إبله عن الحوض ، ذودا وذيادا إذا حبسها ومنعها من الوصول إليه .

والمعنى وحين وصل موسى - عليه السلام - إلى الماء الذى تستقى منه قبيلة مدين ﴿ وجد أمة ﴾ أى جماعة كثيرة ﴿ من الناس يسقون ﴾ أى : يسقون إبلهم وغنمهم ، ودوابهم المختلفة .

﴿ ووجد من دونهم ﴾ أى : ووجد بالقرب منهم . أو فى جهة غير جهتهم .

﴿ امرأتين تذودان ﴾ أى : امرأتين تطردان وتمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الماء ، حتى ينتهى الناس من السقى ، ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما ، لأنهما لا قدرة لهما على مزاحمة الرجال .

وهنا قال لهما موسى - صاحب الهمة العالية ، والمروءة السامية ، والنفس الوثابة نحو نصرة المحتاج - قال لهما بما يشبه التعجب : ﴿ ما خطبكما ﴾ ؟ أى : ما شأنكما ؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء ، مع أن الناس يسقون منه ؟

وهنا قالتا له على سبيل الاعتذار وبيان سبب منعهما لمواشيهما عن الشرب : ﴿ لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ﴾ .

ويصدر : من أصدر - والصدر عن الشىء : الرجوع عنه ، وهو ضد الورود . يقال : صدر فلان عن الشىء . إذا رجع عنه .

قال الشوكانى : قرأ الجمهور « يصدر » بضم الياء وكسر الدال - مضارع أصدر المتعدى بالهمزة ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو « يصدر » بفتح الياء وضم الدال - من صدر يصدر اللازم ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف . أى : يرجعون مواشيهم ..[2] و ﴿ الرعاء ﴾ جمع الراعى ، مأخوذ من الرعى بمعنى الحفظ .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٦٧ .

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ١٦٦ .

أى : قالتا لموسى - عليه السلام - : إن من عادتنا أن لا نسقى . مواشينا حتى يصرف الرعاء دوابهم عن الماء ، ويصبح الماء خاليا لنا ، لأننا لا قدرة لنا على المزاحمة ، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة ، وأبونا شيخ كبير فى السن لا يقدر - أيضا - على القيام بمهمة الرعى والمزاحمة على السقى .

وبعد أن سمع موسى منهما هذه الإجابة ، سارع إلى معاونتهما - شأن أصحاب النفوس الكبيرة ، والفطرة السليمة ، وقد عبر القرآن عن هذه المسارعة بقوله : ﴿ فسقى لهما ﴾ .

أى : فسقى لهما مواشيهما سريعاً . من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الانتظار وفى هذا التعبير إشارة إلى قوته ، حيث إنه استطاع وهو فرد غريب بين أمة من الناس يسقون - أن يزاحم تلك الكثرة من الناس ، وأن يسقى للمرأتين الضعيفتين غنمهما . دون أن يصرفه شىء عن ذلك .

رحم الله صاحب الكشاف . فقد أجاد عند عرضه لهذه المعانى . فقال ما ملخصه : « قوله : ﴿ فسقى لهما ﴾ أى : فسقى غنمهما لأجلهما . وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال .. فأقله وحده .

وإنما فعل ذلك رغبة فى المعروف وإغاثة للملهوف والمعنى : أنه وصل إلى ذلك الماء ، وقد ازدحمت عليه أمة من الناس ، متكافئة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم ، مع غنمهما مترقبتين لفراغهم . فما أخطأت همته فى دين الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، بقوة قلبه ، وبقوة ساعده .

فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور فى قوله ﴿ يسقون ﴾ و ﴿ تذودان ﴾ قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول . ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقى ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا .

فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله ؟ قلت : سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب فى ذلك أننا أمرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ، فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا ، ومالنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير ، فقد أضعفه الكبر ، فلا يصلح للقيام به ، فهما قد أبدتا إليه عذرهما فى توليهما السقى بأنفسهما .

فإن قلت : كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب - عليه السلام - أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية ؟ قلت ، الأمر فى نفسه ليس بمحظور ، فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك . والعادات متباينة فيه .. وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم . ومذهب أهل البدو

غير مذهب أهل الحضر ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة ..[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ فقال : ﴿ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ بيان لما فعله موسى وقاله بعد أن سقى للمرأتين غنمهما .

أى : فسقى موسى للمرأتين غنمهما ، ثم أعرض عنهما متجها إلى الظل الذى كان قريبا منه فى ذلك المكان ، قيل كان ظل شجرة وقيل ظل جدار .

فقال : على سبيل التضرع إلى ربه : ياربى : إنى فقير ومحتاج إلى أى خير ينزل منك على سواء أكان هذا الخير طعاما أم غيره .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ فقال رب إنى لما أنزلت إلى ﴾ أى : لأى شىء تنزله من خزائن كرمك إلى ﴿ من خير ﴾ جل أو قل ، ﴿ فقير ﴾ أى : محتاج ، وهو خبر إن . وعدى باللام لتضمنه معنى الاحتياج . و ﴿ ما ﴾ نكرة موصوفة ، والجملة بعدها صفتها . والرابط محذوف ، و ﴿ من خير ﴾ بيان لها والتنوين فيه للشيوع ، والكلام تعريض لما يطعمه ، بسبب ما ناله من شدة الجوع .

يدل لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك : قال قال رسول الله - ﷺ - : « لما سقى موسى للجاريتين ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ، وإنه يومئذ فقير إلى كف من تمر »[٢] .

واستجاب الله - تعالى - لموسى دعاءه . وأرسل إليه الفرج سريعا ، يدل لذلك قوله - تعالى - بعد هذا الدعاء من موسى : ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .. ﴾ .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق وقد أشار إليه ابن كثير بقوله : لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى - عليه السلام - . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، كما قال - تعالى - : ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾ أى : مشى الحرائر ، كما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : كانت مستترة بكم درعها . أى قميصها .

ثم قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو ؟ على أقوال : احدها أنه شعيب النبى - عليه السلام - الذى أرسله الله إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثيرين وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ورواه ابن أبى حاتم .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٢ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٦٤ .

وقد روى الطبرانى عن مسلمة بن سعد العنزى أنه وفد على رسول الله - ﷺ - فقال له : مرحبا بقوم شعيب ، وأختان موسى .

وقال آخرون . بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من آل شعيب .

ثم قال - رحمه الله - ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب ، أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده[1] .

والمعنى : ولم يطل انتظار موسى للخير الذى التمسه من خالقه - عز وجل - فقد جاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما ، حالة كونها ﴿ تمشى على استحياء ﴾ أى : على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات .

﴿ قالت ﴾ بعبارة بليغة موجزة : ﴿ إن أبى يدعوك ﴾ للحضور إليه ﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ أى : ليكافئك على سقيك لنا غنمنا .

واستجاب موسى لدعوة أبيها وذهب معها للقائه ﴿ فلما جاءه ﴾ ، أى : فلما وصل موسى إلى بيت الشيخ الكبير ، ﴿ وقص عليه القصص ﴾ ، أى : وقص عليه ما جرى له قبل ذلك ، من قتله القبطى ، ومن هروبه إلى أرض مدين .

فالقصص هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، أى : المقصوص .

﴿ قال ﴾ أى : الشيخ الكبير لموسى ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أى : لا تخف يا موسى من فرعون وقومه ، فقد أنجاك الله - تعالى - منهم ومن كل ظالم .

وهذا القول من الشيخ الكبير لموسى ، صادف مكانه ، وطابق مقتضاه ، فقد كان موسى - عليه السلام - أحوج ما يكون فى ذلك الوقت إلى نعمة الأمان والاطمئنان ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ، ما أشارت به إحدى الفتاتين على أبيها : فقال - تعالى - : ﴿ قالت إحداهما ﴾ ولعلها التى جاءت إلى موسى على استحياء لتقول له : ﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ .

﴿ يا أبت استأجره ﴾ أى : قالت لأبيها بوضوح واستقامة قصد - شأن المرأة السليمة الفطرة النقية العرض القوية الشخصية - يا أبت استأجر هذا الرجل الغريب ليكفينا تعب الرعى ، ومشقة العمل خارج البيت .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٨ .

ثم عللت طلبها بقولها : ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ أى : استأجره ليرعى غنمنا ، فإنه جدير بهذه المهمة ، لقوته وأمانته ، ومن جمع فى سلوكه وخلقه بين القوة والأمانة ، كان أهلا لكل خير ، ومحلا لثقة الناس به على أموالهم وأعراضهم .

قال ابن كثير : قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة .. وغير واحد : لما قالت : ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت الطريق فاحذفى - أى فارمى - بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه[1] .

واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحته عليه ابنته ، وكأنه أحس بصدق عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلا : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ﴾ .

أى : قال الشيخ الكبير لموسى مستجيبا لاقتراح ابنته : يا موسى إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين .

ولعله أراد بإحداهما ، تلك التى قالت له : يا أبت استأجره ، لشعوره - وهو الشيخ الكبير ، والأب العطوف ، الحريص على راحة ابنته - بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوى الأمين ، وهو موسى - عليه السلام - .

وفى هذه الآيات مافيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، فى الرجل الصالح ، وإلى أنه من شأن الآباء العقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .

قال الشوكانى : فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله - ﷺ -[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ على أن تأجرنى ثمانى حجج ﴾ بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على موسى - عليه السلام - .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٩ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ح ٤ ص ١٦٩ .

أى قال له بصيغة التأكيد : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين ، بشرط أن تعمل أجيرا عندى لرعى غنمى ﴿ ثمانى حجج ﴾ أى : ثمانى سنين .

قال الجمل : وقوله : ﴿ على أن تأجرنى ﴾ فى محل نصب على الحال ، إما من الفاعل أو من المفعول .

أى : مشروطا على أو عليك ذلك .. و ﴿ تأجرنى ﴾ مفعوله الثانى محذوف أى : تأجرنى نفسك و ﴿ ثمانى حجج ﴾ ظرف له ..[1] .

وقوله : ﴿ فإن أتممت عشرا فمن عندك ﴾ أى : فإن أتممت عشر سنين كأجير عندى لرعاية غنمى ، أى : فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفضل والتكرم فإنى لا أشترط عليك سوى ثمانى حجج .

وقوله ﴿ وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ بيان لحسن العرض الذى عرضه الشيخ على موسى .

أى : وما أريد أن أشق عليك أو أتعبك فى أمر من الأمور خلال استئجارى لك ، بل ستجدنى - إن شاء الله - تعالى - من الصالحين ، فى حسن المعاملة ، وفى لين الجانب ، وفى الوفاء بالعهد .

وقال : ﴿ ستجدنى إن شاء الله .. ﴾ للدلالة على أنه من المؤمنين . الذين يفوضون أمورهم إلى الله - تعالى - ويرجون توفيقه ومعونته على الخير .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به موسى فقال : ﴿ قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل ﴾ .

أى : ﴿ قال ﴾ موسى فى الرد على الشيخ الكبير ﴿ ذلك بينى وبينك ﴾ أى : ذلك الذى قلته لى واشترطته على ، كائن وحاصل بينى وبينك ، وكلانا مطالب بالوفاء به فاسم الإشارة مبتدأ ، وبينى وبينك خبره ، والإشارة مرجعها إلى ما تعاقدا عليه ، و أى فى قوله : ﴿ أيما الأجلين ﴾ شرطية ، وجوابها ، ﴿ فلا عدوان على ﴾ و ﴿ وما ﴾ مزيدة للتأكيد .

والمعنى : أى الأجلين ، أى الثمانية الأعوام أو العشرة الأعوام ﴿ قضيت ﴾ أى : وفيت به ، وأديته معك أجيرا عندك ﴿ فلا عدوان على ﴾ أى : فلا ظلم على ، وأصل العدوان : تجاوز الحد .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : أى قال موسى : ذلك الذى قلته .. قائم بيننا جميعا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٤٥ .

لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما اشترطت على ولا أنت عما اشترطت على نفسك .. ثم قال : أى أجل من الأجلين قضيت - أطولها أو أقصرهما - ﴿ فلا عدوان على ﴾ أى : فلا يعتدى على فى طلب الزيادة عليه . فإن قلت : تصور العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصر ، وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا ؟

قلت : معناه ، كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لاشك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمانى . أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فهى موكولة إلى رأيى . إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجبر عليها ..[1] .

والمقصود بقوله : ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ توثيق العهد وتأكيده ، وأنه لا سبيل لواحد منهما على الخروج عنه أصلا .

أى : والله - تعالى - شهيد ووكيل ورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا على تنفيذه ، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التى تدل على أن موسى - عليه السلام - قد قضى أطول الأجلين . ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس ان رسول الله - ﷺ - قال : سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أكملهما وأتمهما ، وفى رواية : أبرهما وأوفاهما »[2] .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى فيها بجلاء ووضوح ، ما جبل عليه موسى - عليه السلام - من صبر على بأساء الحياة وضرائها ومن همة عالية تحمله فى كل موطن على إعانة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائما لا يقف أمام مالا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن عاطفة رقيقة تجعله فى كل الأوقات دائم التذكر لخالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء .

كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس ، والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل فى قصة هاتين المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، واللتين جاءته إحداهما تمشى على استحياء ، ثم قالت لأبيها : يا أبت استأجره .

كما يرى فيها ما كان يتحلى به ذلك الشيخ الكبير من عقل راجح ، ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٠ .

للعواطف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذى شرعه الله - تعالى - .

ومضت السنوات العشر ، التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير فى مدين ، ووفى كل واحد منهما بما وعد به صاحبه ، وتزوج موسى بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، وقرر الرجوع بأهله إلى مصر ، فماذا حدث له فى طريق عودته ؟ يحكى لنا القرآن الكريم بأسلوبه البديع ما حدث لموسى - عليه السلام - بعد ذلك فيقول :

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ
مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ
غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ
بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

والمراد بالأجل فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى موسى الأجل .. ﴾ المدة التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير ، بجهة مدين .

والمعنى : ومكث موسى عشر سنين فى مدين ، فلما قضاها وتزوج بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، استأذن منه ﴿ وسار بأهله ﴾ أى وسار بزوجته متجها إلى مصر ليرى أقاربه وذوى رحمه ، أو إلى مكان آخر قيل : هو بيت المقدس .

﴿ آنس من جانب الطور نارا ﴾ ولفظ ﴿ آنس ﴾ من الإيناس ، وهو إبصار الشىء ورؤيته بوضوح لا التباس معه ، حتى لكأنه يحسه بجانب رؤيته له .

أى : وخلال سيره بأهله إلى مصر ، رأى بوضوح وجلاء ﴿ من جانب الطور نارا ﴾ .

أى : رأى من الجهة التى تلى جبل الطور نارا عظيمة .

قال الآلوسى : « استظهر بعضهم أن المبصر كان نورا حقيقة ، إلا أنه عبر عنه بالنار ، اعتبارا لاعتقاد موسى - عليه السلام - ، وقال بعضهم : كان المبصر فى صور النار الحقيقية ، وأما حقيقته ، فوراء طور العقل ، إلا أن موسى - عليه السلام - ظنه النار المعروفة »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا .. ﴾ حكاية لما قاله موسى - عليه السلام - لزوجته ومن معها عندما أبصر النار .

أى : عندما أبصر موسى النار بوضوح وجلاء ﴿ قال لأهله امكثوا ﴾ فى مكانكم ﴿ إنى آنست نارا ﴾ على مقربة منى وسأذهب إليها .

﴿ لعلى آتيكم منها بخبر ﴾ ينفعنا فى مسيرتنا ، ﴿ أو ﴾ أقتطع لكم منها ﴿ جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .

قال الجمل : قرأ حمزة : ﴿ أو جذوة ﴾ بضم الجيم . وقرأ عاصم بالفتح ، وقرأ الباقون بالكسر ، وهى لغات فى العود الذى فى رأسه نار ، هذا هو المشهور . وقيده بعضهم فقال : فى رأسه نار من غير لهب ، وقد ورد ما يقتضى وجود اللهب فيه ، وقيل : الجذوة العود الغليظ سواء أكان فى رأسه نار أم لم يكن . وليس المراد هنا إلا ما فى رأسه نار .[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٧٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٤٦ .

وقوله : ﴿ تصطلون ﴾ من الاصطلاء بمعنى الاقتراب من النار للاستدفاء بها من البرد . والطاء فيه مبدلة من تاء الافتعال .

أى : قال موسى لأهله امكثوا فى مكانكم حتى أرجع إليكم ، فإنى أبصرت نارا سأذهب إليها ، لعلى أتيكم من جهتها بخبر يفيدنا فى رحلتنا ، أو أقتطع لكم منها قطعة من الجمر ، كى تستدفئوا بها من البرد .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان ذلك بعدما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله . قيل : قاصدا بلاد مصر بعد أن طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية . ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليورى ناراً - أى : ليخرج نارا - كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شىء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ..[1] .

ثم بين - سبحانه - : ما حدث لموسى بعد أن وصل إلى الجهة التى فيها النار فقال - تعالى - : ﴿ فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ .

والضمير فى « أتاها » ، يعود إلى النار التى رآها . وشاطىء الوادى : جانبه، والأيمن : صفته .

أى : فحين أتى موسى - عليه السلام - إلى النار التى أبصرها ، ﴿ نودى من شاطىء الواد الأيمن ﴾ أى سمع نداء من الجانب الأيمن بالنسبة له ، أى : لموسى وهو يسير إلى النار التى رآها ، فمن لابتداء الغاية .

ويرى بعضهم أن المراد بالأيمن . أى : المبارك ، مأخوذ من اليمن بمعنى البركة .

وقوله : ﴿ فى البقعة المباركة ﴾ متعلق بقوله ﴿ نودى ﴾ أو بمحذوف حال من الشاطىء .

وقوله : ﴿ من الشجرة ﴾ بدل اشتمال من شاطىء الوادى ، فإنه كان مشتملا عليها .

والبقعة : اسم للقطعة من الأرض التى تكون غير هيئة القطعة المجاورة لها وجمعها بقع - بضم الباء وفتح القاف - وبقاع .

ووصفت بالبركة : لما وقع فيها من التكليم والرسالة لموسى ، وإظهار المعجزات والآيات على يديه .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٠ .

أى : فلما اقترب موسى من النار ، نودى من ذلك المكان الطيب ، الكائن على يمينه وهو يسير إليها . والمشتمل على البقعة المباركة من ناحية الشجرة .

ولعل التنصيص على الشجرة ، للإشارة إلى أنها كانت الوحيدة فى ذلك المكان .

و ﴿ أن ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ تفسيرية ، لأن النداء قول .

أى : نودى أن يا موسى تنبه وتذكر إنى أنا الله رب العالمين .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : ﴿ أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء لا إله غيره . ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته وأقواله - سبحانه - :[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ معطوف على قوله ﴿ أن يا موسى ﴾ فكلاهما مفسر للنداء ، والفاء فى قوله ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ فصيحة .

والمعنى : نودى أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، ونودى أن ألق عصاك ، فألقاها . ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أى تضطرب بسرعة ﴿ كأنها جان ﴾ أى : كأنها فى سرعة حركتها وشدة اضطرابها ﴿ جان ﴾ أى : ثعبان يدب بسرعة ويمرق فى خفة ولى مدبرا ولم يعقب . أى : ولى هاربا خوفا منها ، دون أن يفكر فى العودة إليها . ليتبين ماذا بها ، وليتأمل ما حدث لها .

يقال : عقب المقاتل إذا كر راجعا إلى خصمه ، بعد أن فر من أمامه .

وهنا جاءه النداء مرة أخرى ، فى قوله - تعالى - : ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ .

أى : يا موسى أقبل نحو المكان الذى كنت فيه ، ولا تخف مما رأيته ، إنك من عبادنا الآمنين عندنا ، المختارين لحمل رسالتنا .

ثم أمره - سبحانه - بأمر آخر فقال : ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. ﴾ .

ولفظ ﴿ اسلك ﴾ من السلك - بتشديد السين مع الفتح - بمعنى إدخال الشىء فى الشىء .

أى : أدخل يدك يا موسى فى فتحة ثوبك ، تخرج بيضاء من غير سوء مرض أو عيب ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ والجناح : اليد ، والرهب : الخوف والفزع .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٤ .

والمقصود بالجملة الكريمة ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ إرشاد موسى إلى ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل خوفه .

والمعنى : افعل يا موسى ما أمرناك به ، فإذا أفزعك أمر يدك وما تراه من بياضها وشعاعها ، فأدخلها فى فتحة ثوبك ، تعد إلى حالتها الأولى .

وإذا انتابك خوف عند معاينة الحية ، فاضمم يدك إلى صدرك ، يذهب عنك الخوف .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى قوله : ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أن موسى - عليه السلام - لما قلب الله العصا حية فزع وإضطرب ، فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشىء ، فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة - أى منقصة - عند الأعداء فإذا ألقيتها فعندما تنقلب حية ، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ماهو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى .

والثانى : أن يراد يضم جناحه إليه ، تجلده وضبط نفسه ، وتشدده عند انقلاب العصا حية ، حتى لا يضطرب ولا يرهب ...[1]

واسم الإشارة فى قوله ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه .. يعود إلى العصا واليد . والتذكير لمراعاة الخبر وهو ﴿ برهانان ﴾ والبرهان : الحجة الواضحة النيرة التى تلجم الخصم ، وتجعله لا يستطيع معارضتها . أى : فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى ، وهما العصا واليد ، حجتان واضحتان كائنتان ﴿ من ربك ﴾ فاذهب بهما إلى ﴿ فرعون وملئه ﴾ لكى تبلغهم رسالتنا ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لنا .

﴿ إنهم ﴾ أى : فرعون وملئه ﴿ كانوا قوما فاسقين ﴾ أى : خارجين من الطاعة إلى المعصية . ومن الحق إلى الباطل .

وهنا تذكر موسى ما كان بينه وبين فرعون وقومه من عداوة ، فقال : ﴿ رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴾ إذا ذهبت إليهم بهذه الآيات . وهو عليه السلام - لا يقول ذلك ، هروبا من تبليغ رسالة الله - تعالى - وإنما ليستعين برعايته - عز وجل - وبحفظه . عندما يذهب إلى هؤلاء الأقوام الفاسقين .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ﴾ أى هو أقدر منى على المدافعة عن الدعوة وعلى تبيان الحق وتوضيحه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٨ .

﴿ فأرسله معى ردءا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ﴾ والردء : العون والنصير . يقال : ردأته على عدوه وأردأته ، إذا أعنته عليه . وردأت الجدار إذا قويته بما يمنعه من أن ينقض .

أى : فأرسل أخى هارون معى إلى هؤلاء القوم ، لكى يساعدنى ويعيننى على تبليغ رسالتك . ويصدقنى فيما سأدعوهم إليه ، ويخلفنى إذا ما اعتدى على . ﴿ إنى أخاف أن يكذبون ﴾ إذا لم يكن معى أخى هارون يعيننى ويصدقنى .

والمتأمل فى هذا الكلام الذى ساقه الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - يرى فيه إخلاصه فى تبليغ رسالة ربه ، وحرصه على أن يؤتى هذا التبليغ ثماره الطيبة على أكمل صورة ، وأحسن وجه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت تصديق أخيه ما الفائدة فيه ؟

قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق أخى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار كما يصدق القول بالبرهان . وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإن سحبان وباقلا يستويان فيه[1]

ثم حكى القرآن بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أجاب لموسى رجاءه فقال : ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ﴾ .

شد العضد : كناية عن التقوية له ، لأن اليد تشتد وتقوى ، بشدة العضد وقوته . وهو من المرفق إلى الكتف .

أى قال - سبحانه - لقد استجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك بأخيك ﴿ ونجعل لكما ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا ﴿ سلطانا ﴾ أى : حجة وبرهانا وقوة تمنع الظالمين ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ بأذى ولا يتغلبان عليكما بحجة .

وقوله ﴿ بآياتنا ﴾ متعلق بمحذوف . أى : فوضا أمركما إلى ، واذهبا إلى فرعون وقومه بآياتنا الدالة على صدقكما .

وقوله - تعالى - : ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله . من تقوية قلب موسى ، وتبشيره بالغلبة والنصر على أعدائه .

أى : أجبنا طلبك يا موسى ، وسنقويك بأخيك ، فسيرا إلى فرعون وقومه ، فسنجعل لكما

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤١٠ .

الحجة عليهم . وستكونان أنتما ومن اتبعكما من المؤمنين أصحاب الغلبة والسلطان على فرعون وجنده .

ونفذ موسى وهارون - عليهما السلام - أمر ربهما - عز وجل - فذهبا إلى فرعون ليبلغاه دعوة الحق ، وليأمراه بإخلاص العبادة لله - تعالى - .

وتحكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما دار بين موسى وبين فرعون وقومه من محاورات ومجادلات ، انتهت بانتصار الحق ، وهلاك الباطل .. تحكى الآيات كل ذلك فتقول :

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا

مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ : العصا واليد . وجمعها تعظيم لشأنها ، ولاشتمال كل واحدة منها على دلائل متعددة على صدق موسى - عليه السلام - فيما جاء به من عند ربه - تعالى - .

والمعنى : ووصل موسى إلى فرعون وقومه ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ، فلما جاءهم بالمعجزات التى أيدناه بها ، والتى تدل على صدقه دلالة واضحة .

﴿ قالوا ﴾ له على سبيل التبجح والعناد ﴿ ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ أى : قالوا له : ما هذا الذى جئت به يا موسى إلا سحر أتيت به من عند نفسك .

ثم أكدوا قولهم الباطل هذا بآخر أشد منه بطلانا ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ .

أى : وما سمعنا بهذا الذى جئتنا به يا موسى ، من الدعوة إلى عبادة الله وحده ومن إخبارك لنا بأنك نبى .. ما سمعنا بشىء من هذا كائنا أو واقعا فى عهد آبائنا الأولين وقولهم هذا يدل على إعراضهم عن الحق ، وعكوفهم على ما ألفوه بدون تفكر أو تدبر وقد رد عليهم موسى ردا منطقيا حكيما ، حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده .. ﴾ .

أى : وقال موسى فى رده على ، فرعون وملئه : ربى الذى خلقنى وخلقكم ، أعلم منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده ، وسيحكم بينى وبينكم بحكمه العادل .

ولم يصرح موسى - عليه السلام - بأنه يريد نفسه ، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله - تعالى - ليكفكف من عنادهم وغرورهم ، وليرخى لهم حبل المناقشة ، حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التى أ يده الله - تعالى - بها .

وقوله : ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وربى - أيضا - أعلم منى ومنكم بمن تكون له النهاية الحسنة ، والعاقبة الحميدة .

قال الألوسى : وقوله : ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ وهى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان بها ، بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله - تعالى - وكرمه .[1]

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٧٩ .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تذييل قصديه ببيان سنة من سننه - تعالى - التى لاتتخلف أى إنه - سبحانه - قد اقتضت سنته أن لا يفوز الظالمون بمطلوب بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ولكن هذا الرد المهذب الحكيم من موسى - عليه السلام - ، لم يعجب فرعون المتطاول المغرور فأخذ فى إلقاء الدعاوى الكاذبة ، التى حكاها القرآن عنه فى قوله : ﴿ وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إلـه غيرى ﴾ .

أى : وقال فرعون لقومه - على سبيل الكذب والفجور - يأيها الأشراف من أتباعى . إنى ما علمت لكم من إله سواى .

وقوله هذا يدل على ما بلغه من طغيان وغرور ، فكأنه يقول لهم : إنى لم أعلم بأن هناك إلهـا لكم سواى ، ومالا أعلمه فلا وجود له .

وقد قابل قومه هذا الهراء والهذيان ، بالسكوت والتسليم ، شأن الجهلاء الجبناء وصدق الله إذ يقول : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[1]

ثم تظاهر بعد ذلك بأنه جاد فى دعواه أمام قومه بأنه لا إله لهم سواه ، وأنه حريص على معرفة الحقيقة ، فقال لوزيره هامان : ﴿ فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلـه موسى ﴾ .

والصرح : البناء الشاهق المرتفع . أى : فاصنع لى يا هامان من الطين آجرا قويا ، ثم هيىء لى منه بناء عاليا مكشوفا . أصعد عليه ، لعلى أرى إله موسى من فوقه . والمراد بالظن فى قوله : ﴿ وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ اليقين . أى : وإنى لمتيقن أن موسى من الكاذبين فى دعواه أن هناك إلهًا غيرى .. فى هذا الكون .

وهكذا . استخف فرعون بعقول قومه الجاهلين الجبناء ، فأفهمهم أنه لا إله لهم سواه ، وأن موسى كاذب فيما ادعاه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى . وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل . وماكيد فرعون إلا فى تباب ﴾.[2]

قال ابن كثير : وذلك لأن فرعون ، بنى هذا الصرح ، الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ،

---

(١) سورة الزخرف الآية ٥٤ .

(٢) سورة غافر الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته ، تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلها غير فرعون . ولهذا قال : ﴿ وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ أى : فى قوله إن ثم ربا غيرى .[1]

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت فرعون على هذا القول الساقط الكاذب ، فقال : ﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ .

والاستكبار : التعالى والتطاول على الغير بحمق وجهل . أى : وتعالى فرعون وجنوده فى الأرض التى خلقناها لهم ، دون أن يكون لهم أى حق فى هذا التطاول والتعالى ، وظنوا واعتقدوا أنهم إلينا لا يرجعون ، لمحاسبتهم ومعاقبتهم يوم القيامة .

فماذا كانت نتيجة ذلك التطاول والغرور ، والتكذيب بالبعث والحساب ؟ لقد كانت نتيجته كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ﴾ .

والنبذ : الطرح والإهمال للشىء لحقارته وتفاهته .

أى : فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذا سريعا حاسما فألقينا بهم فى البحر ، كما يلقى بالنواة أو الحصاة التى لا قيمة لها ، ولا اعتداد بها .

﴿ فانظر ﴾ أيها العاقل نظر تدبر واعتبار ﴿ كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ ؟ لقد كانت عاقبتهم الإغراق الذى أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم .

﴿ وجعلناهم ﴾ أى : فرعون وجنوده ، ﴿ أئمة ﴾ فى الكفر والفسوق والعصيان بسبب أنهم ﴿ يدعون ﴾ ، غيرهم إلى ما يوصل ﴿ إلى النار ﴾ وسعيرها والاحتراق بها .

﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أى : ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم ، بأن يدفع العذاب عنهم بأية صورة من الصور .

﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا ﴾ التى قضوا حياتهم فيها فى الكفر والضلال ، أتبعناهم فيها ﴿ لعنة ﴾ أى : طردا وإبعادا عن رحمتنا .

﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ والشىء المقبوح : هو المطرود المبعد عن كل خير . أى : وهم يوم القيامة - أيضا - من المبعدين عن رحمتنا ، بسبب كفرهم وفسوقهم .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ يتناسب كل التناسب مع ما كانوا عليه فى الدنيا من تطاول وغرور واستعلاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٨ .

فهؤلاء الذين كانوا فى الدنيا كذلك ، صاروا فى الآخرة محل الازدراء وقبح الهيئة والاشمئزاز من كل عباد الله المخلصين .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى ببيان جانب مما منحه - عز وجل - له من نعم فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى آتيناه التوراة لتكون هداية ونورا ﴿ من بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ أى : أنزلنا التوراة على موسى ، من بعد إهلاكنا للقرون الأولى من الأقوام المكذبين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

قال الآلوسى : « والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله - ﷺ - فإن إهلاك القرون الأولى . من موجبات اندراس معالم الشرائع ، وانطماس آثارها ، المؤديين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم وكل ذلك يستدعى تشريعا جديدا .»[1]

وقوله - تعالى - ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله أو حال أى : آتيناه التوراة من أجل أن تكون أنوارا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ، كما يبصرون بأعينهم المرئيات ، ومن أجل أن تكون هداية لهم إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم من العذاب .

وقوله - سبحانه - ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ تعليل لهذا الإيتاء ، وحض لهم على الشكر .

أى آتيناهم الكتاب الذى عن طريقه يعرفون الحق من الباطل .. كى يكونوا دائما متذكرين لنعمنا ، وشاكرين لنا على هدايتنا لهم ورحمتنا بهم .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، قد حدثتنا عن جوانب متعددة من حياة موسى - عليه السلام - .

حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له حيث أراد له أن يعيش فى بيت فرعون وأن يحظى برعاية امرأته ، وأن يعود بعد ذلك إلى أمه كى تقر عينها به ، دون أن يصيبه أذى من فرعون الذى كان يذبح الذكور من بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، حيث نجاه من القوم الظالمين ، بعد أن قتل واحدا منهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب متجها إلى

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٨٤ .

قرية مدين ، التى قضى فيها عشر سنين أجيرا عند شيخ كبير من أهلها .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن قضى تلك المدة ، وسار بأهله متجها إلى مصر ، وكيف أن الله - تعالى - أمره بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ، وأنه - عليه السلام؛- قد لبى أمر ربه - سبحانه - وبلغ رسالته على أتم وجه وأكمله ، فكانت العاقبة الطيبة له ولمن آمن به ، وكانت النهاية الأليمة لفرعون وجنوده .

وهكذا طوفت بنا السورة الكريمة مع قصة موسى - عليه السلام - ذلك التطواف الذى نرى فيه رعاية الله - تعالى - لموسى ، وإعداده لحمل رسالته ، كما نرى فيه نماذج متنوعة لأخلاقه الكريمة ، ولهمته العالية ، ولصبره على تكاليف الدعوة ، ولسنن الله - تعالى - فى خلقه ، تلك السنن التى لا تتخلف فى بيان أن العاقبة الحسنة للمتقين ، والعاقبة القبيحة للكافرين والفاسقين .

ثم بدأت السورة بعد ذلك فى تسلية الرسول - ﷺ - ، وفى بيان أن هذا القرآن من عند الله ، وفى بيان جانب من شبهات المشركين ، ثم تلقين الرسول - ﷺ - الرد المزهق لها .. لنستمع إلى الآيات الكريمة التى تحكى لنا بأسلوبها البليغ ، هذه المعانى وغيرها فتقول :

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟

لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾
۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وما كنت بجانب الغربى .. ﴾ للرسول - ﷺ - والمراد بجانب الغربى : الجانب الغربى لجبل الطور الذى وقع فيه الميقات ، وفيه تلقى موسى التوراة من ربه - تعالى - .

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - حاضرا فى هذا المكان ، ﴿ إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ أى ، وقت أن كلفناه بحمل رسالتنا ، وأنزلنا إليه التوراة ، لتكون هداية ونورا له ولقومه .

﴿ وما كنت ﴾ أيضا - أيها الرسول الكريم - ﴿ من الشاهدين ﴾ لذلك ، حتى تعرف حقيقة ما كلفنا به أخاك موسى ، فتبلغه للناس عن طريق المشاهدة .

فالمقصود بالآية بيان أن ما بلغه الرسول - ﷺ - للناس عن أخبار الأولين ، إنما بلغه عن طريق الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه ، وليس عن طريق آخر .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى - منبها على برهان نبوة محمد - ﷺ - حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال - تعالى - : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

ثم قال - تعالى - : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ﴾.[1]

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ﴾ بيان للأسباب التى من أجلها قص الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - أخبار الأمم السابقة .

أى : أنت أيها الرسول الكريم - لم تكن معاصرا لتلك الأحداث ولكن أخبرناك بها عن طريق الوحى ، والسبب فى ذلك أن بينك وبين موسى وغيره من الأنبياء أزمانا طويلة ، تغيرت فيه الشرائع والأحكام ، وعميت على الناس الأنباء ، فكان من الخير والحكمة أن نقص عليك أخبار السابقين بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، حتى يعرف الناس الأمور على وجهها الصحيح .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف يتصل قوله : ﴿ ولكنا أنشأنا قرونا ﴾ بهذا الكلام ؟

قلت : اتصاله به وكونه استدراكا له ، من حيث إن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى عهدك قرونا طويلة ﴿ فتطاول ﴾ على آخرهم : وهو القرن الذى أنت فيهم ﴿ العمر ﴾ .

أى : أمد انقطاع الوحى ، واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وأكسبناك - أى : وأعطيناك - العلم بقصص الأنبياء .. فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب ، على عادة الله - تعالى - فى اختصاراته[2]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ مؤكدة لمضمون ما قبله . من عدم معرفة الرسول - ﷺ - لأخبار السابقين إلا عن طريق الوحى .

وقوله : ﴿ ثاويا ﴾ من الثواء بمعنى الإقامة . يقال : ثوى فلان بالمكان يثوى ثواء فهو ثاو ، إذا أقام فيه . والمثوى : المنزل ، ومنه الأثر القائل : أصلحوا مثاويكم ، أى : منازلكم .

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - مقيما فى أهل مدين ، وقت تلاوتك على أهل مكة المكرمة ، قصة موسى والشيخ الكبير وما جرى بينهما ، حتى تنقلها إليهم بطريق المشاهدة وإنما أنت أخبرتهم بها عن طريق وحينا الصادق المتمثل فيما أنزلناه عليك من آيات القرآن البينات .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٩ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤١٧ .

فالضمير فى قوله ﴿ تتلو عليهم ﴾ يعود على أهل مكة . والجملة حالية .

ويرى أكثر المفسرين أن الضمير لأهل مدين ، أى وما كنت مقيما فى أهل مدين ، تقرأ عليهم آياتنا ، وتتعلم منهم ، والجملة حالية - أيضا - أو خبر ثان .

وعلى كلا التفسيرين فالمقصود بالجملة الكريمة إثبات أن ما أخبر به الرسول - ﷺ - عن الأولين ، إنما هو عن طريق الوحى ليس غير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ أى : ولكنا كنا مرسلين لك ، وموحين إليك بتلك الآيات وفيها ما فيها عن أخبار الأولين . لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

ثم ساق - سبحانه - ما يؤكد هذه المعانى تأكيدا قويا ، حتى يخرس ألسنة الكافرين ، فقال - تعالى - : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ .

أى وما كنت - أيضا أيها الرسول الكريم - بجانب الجبل المسمى بالطور وقت أن نادينا موسى ، وكلفناه بحمل رسالتنا ، وأعطيناه التوراة ، وأوحينا إليه بما أوحينا من أحكام وتشريعات .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أى : ولكن فعلنا ما فعلنا ، بأن أرسلناك إلى الناس ، وقصصنا عليك ما نريده من أخبار الأولين ، من أجل رحمتنا بك وبالناس ، حتى يعتبروا ويتعظوا بأحوال السابقين ، فالعاقل من اتعظ بغيره .

فقوله - تعالى - : ﴿ رحمة ﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله ، أو على المصدرية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ متعلق بالفعل المعلل بالرحمة ، والمراد بالقوم : أهل مكة وغيرهم ممن بعث الرسول - ﷺ - إليهم .

وجملة ﴿ ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ صفة لقوله ﴿ قوما ﴾ و ﴿ ما ﴾ موصولة مفعول ثان لتنذر ، وقوله : ﴿ من نذير ﴾ متعلق .

أى : أرسلناك رحمة ، لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم من نذير من قبلك ، وكما قال - تعالى - : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ .

ويصح أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من نذير ﴾ للتأكيد ، فيكون المعنى : أرسلناك رحمة لتنذر هؤلاء المشركين من أهل مكة الذين لم يأتهم نذير من قبلك منذ أزمان متطاولة . إذ الفترة التى بينك وبين أبيهم إسماعيل تزيد على ألفى سنة .

ورسالة إسماعيل إليهم قد اندرست معالمها ، فكانت الحكمة والرحمة تقتضيان إرسالك إليهم لتنذرهم سوء عاقبة الشرك .

أما معظم الرسل من قبلك - كموسى وعيسى وزكريا ويحيى وداود وسليمان فكانت مع تباعد زمانها عنك - أيضا - إلى غيرهم من بنى إسرائيل ، ومن الأمم الأخرى . المتناثرة فى أطراف الجزيرة العربية .

فالمراد بالقوم على هذا الرأى : العرب المعاصرون له - ﷺ - كما قال - تعالى - : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ .

ولعل هذا الرأى أقرب إلى سياق الآيات ، وإلى إقامة الحجة على مشركى قريش ، الذين وقفوا من الرسول - ﷺ - موقف المكذب لرسالته ، المعادى لدعوته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ تذييل قصد به حضهم على التذكر والاعتبار .

أى : أرسلناك إليهم كى يتذكروا ما ترشدهم إليه ، ويعتبروا بما جئتهم به ، ويخشوا سوء عاقبة مخالفة إنذارك لهم .

ثم أبطل - سبحانه - ما يتعللون به من معاذير فقال : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ .

و ﴿ لولا ﴾ الأولى : امتناعية ، تدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام عليه ، و « أن » وما فى حيزها فى محل رفع بالابتداء .

و ﴿ لولا ﴾ الثانية : تحضيضية ، وجوابها قوله ﴿ فنتبع آياتك .. ﴾ وجملة ﴿ فيقولوا ﴾ عطف على ﴿ أن تصيبهم ﴾ ومن جملة مافى حيز ﴿ لولا ﴾ الأولى .

والمعنى : ولولا أن تصيب هؤلاء المشركين ﴿ مصيبة ﴾ أى عقوبة شديدة . بسبب اقترافهم الكفر والمعاصى ﴿ فيقولوا ﴾ على سبيل التعلل عند نزول العقوبة بهم ﴿ ربنا ﴾ أى : ياربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك ﴿ فنتبع آياتك ﴾ الدالة على صدقه ﴿ ونكون من المؤمنين ﴾ به وبما جاء به من آيات من عندك .

أى : ولولا قولهم هذا ، وتعللهم بأنهم ما حملهم على الكفر ، إلا عدم مجىء رسول إليهم يبشرهم وينذرهم .. لولا ذلك لما أرسلناك إليهم ، ولكنا أرسلناك إليهم لنقطع حجتهم ، ونزيل تعللهم ، ونثبت لهم أن استمرارهم على كفرهم - بعد إرسالك إليهم ، كان بسبب عنادهم وجحودهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾ أى : وأرسلناك إليهم - يا محمد لتقيم عليهم الحجة ، ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بسبب كفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال - تعالى - بعد ذكره إنزال كتابه

المبارك وهو القرآن : ﴿ أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل إلينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾..[1]

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقفهم بعد مجيء الرسول - ﷺ - إليهم فقال : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ﴾ .

أى : ظل مشركو قريش أزمانا متطاولة دون أن يأتيهم رسول ينذرهم ويبشرهم ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ متمثلا فى رسولنا محمد - ﷺ - وفيما أيدناه به من معجزات دالة على صدقه ، وعلى رأسها القرآن الكريم .

لما جاءهم هذا الرسول الكريم ﴿ قالوا ﴾ على سبيل التعنت والجحود : هلا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى موسى ، من توراة أنزلت عليه جملة واحدة ومن معجزات حسية منها العصا واليد والطوفان ، والجراد ... إلخ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل .. ﴾ رد عليهم لبيان أن ما قالوه هو من باب العناد والتعنت ، والاستفهام لتقرير كفرهم وتأكيده .

أى : قالوا ما قالوا على سبيل الجحود ، والحال أن هؤلاء المشركين كفروا كفرا صريحا بما أعطاه الله - تعالى - لموسى من قبلك - يا محمد - من معجزات ، كما كفروا بالمعجزات التى جئت بها من عند ربك ، فهم ديدنهم الكفر بكل حق .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم الباطلة فقال : ﴿ قالوا سحران تظاهرا ، وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ .

وقوله : ﴿ سحران ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : قالوا ما يقوله كل مجادل بغير علم : هما - أى ما جاء به موسى وما جاء به محمد - عليهما الصلاة والسلام ، ﴿ سحران تظاهرا ﴾ أى : تعاونا على إضلالنا ، وإخراجنا عن ديننا ، وقالوا - أيضا - ﴿ إنا بكل ﴾ أى بكل واحد مما جاءوا به ﴿ كافرون ﴾ كفرا لا رجوع معه إلى ما جاء به هذان النبيان - عليهما الصلاة والسلام - .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ قالوا ﴾ استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق ، وبيان كيفيته ، و﴿ سحران ﴾، يعنون بهما ما أوتى نبينا وما أوتى موسى ..

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥١ .

﴿ تظاهرا ﴾ أى : تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر ، وتأييده إياه ، وذلك أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم ، فسألوهم عن شأنه - ﷺ - فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود . قالوا ذلك .

وقرأ الأكثرون ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ وأرادوا بهما محمد وموسى - عليهما الصلاة والسلام -[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يتحداهم ، وأن يفحمهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : لقد أنزل الله - تعالى - على موسى التوراة . وأنزل القرآن على ، وأنا مؤمن بهما كل الإيمان ، فإن كنتم أنتم مصرون على كفركم ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله ، هو أهدى منهما ﴾ أى هو أوضح منهما وأبين فى الإرشاد إلى الطريق المستقيم .

وقوله ﴿ أتبعه ﴾ مجزوم فى جواب الأمر المحذوف ، أى : إن تأتوا به أتبعه .. ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى زعمكم أن القرآن والتوراة نوع من السحر .

فالآية الكريمة تتهكم بهم ، وتسخر منهم ، بأسلوب بديع معجز ، لأنه من المعروف لكل عاقل أنهم ليس فى استطاعتهم - ولا فى استطاعة غيرهم - أن يأتوا بكتاب . أهدى من الكتابين اللذين أنزلهما - سبحانه - على نبيين كريمين من أنبيائه ، هما موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ولذا قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وهذا الشرط يأتى به المدل بالأمر المتحقق لصحته ، لأن امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين . أمر معلوم متحقق . لا مجال فيه للشك ، ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهكم بهم[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ زيادة فى تثبيت قلب النبى - ﷺ - وتسليته عما أصابه منهم من أذى .

أى : فإن لم يفعلوا ما تحديتهم به ، من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين .

﴿ فاعلم ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ أنما يتبعون أهواءهم ﴾ الباطلة ، وشهواتهم الزائفة ، عندما يجادلونك فى شئون دعوتك .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٩١ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٢٠ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله .. ﴾ للنفى والإنكار .

أى : ولا أحد أضل ممن اتبع هواه وشيطانه ، دون أن تكون معه هداية من الله - تعالى - تهديه إلى طريق الحق ، لأن هذا الضال قد استحب العمى على الهدى . وآثر الغواية على الرشد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ تذييل مبين لسنة الله - تعالى - فى خلقه .

أى : إنه - سبحانه - جرت سنته أن لا يهدى القوم الظالمين إلى طريق الحق بسبب إصرارهم على الباطل ، وتجاوزهم لكل حدود الحق والخير .

ثم أكد - سبحانه - قطع أعذارهم وحججهم بقوله : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ، لعلهم يتذكرون ﴾.

وقوله . ﴿ وصلنا ﴾ من الوصل الذى هو ضد القطع ، والتضعيف فيه للتكثير .

أى : ولقد أنزلنا هذا القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - متتابعا ، وأنت أوصلته إليهم كذلك ، ليتصل تذكيرك لهم ، عن طريق ما اشتمل عليه من عقائد وآداب وأحكام وقصص .

﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أى : ليكون ذلك أقرب إلى تذكرهم وتعقلهم وتدبرهم ، لأن استماعهم فى كل يوم . أو بين الحين والحين إلى جديد منه ، أدعى إلى تذكرهم واعتبارهم .

فالمقصود بالآية الكريمة . قطع كل حجة لهم ، وبيان أن القرآن الكريم قد أنزله - سبحانه - متتابعا ولم ينزله جملة واحدة ، لحكم من أعظمها اتصال التذكير بهداياته بين حين وآخر ، على حسب ما يجد فى المجتمع من أحداث .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أقامت ألوانا من الحجج والبراهين ، على صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، كما حكت جانبا من شبهات المشركين ، وردت عليها بما يبطلها .

ثم تمدح السورة الكريمة بعد ذلك ، طائفة من أهل الكتاب ، استقامت قلوبهم ، وخلصت نفوسهم من العناد ، فاستقبلوا آيات الله - تعالى - ومن جاء بها استقبالا يدل على صدق إيمانهم ، فقال - تعالى - :

ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أنها نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى - ﷺ - فلما قدموا عليه ، قرأ عليهم سورة يس ، فجعلوا يبكون وأسلموا .

وقيل : نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود .

وقيل : نزلت فى نصارى نجران .

وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوما من أهل الكتاب أسلموا ، وتعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام ، مع أن فى اتباعها سعادتهم ورشدهم .

والضمير فى قوله ﴿ من قبله ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى النبى - ﷺ - ، والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب ، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل .

أى : الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى من قبل نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون ، لأنهم يرون فيه الحق الذى لا باطل معه ، والهداية التى لا تشوبها ضلالة .

﴿ وإذا يتلى ﴾ عليهم هذا القرآن ﴿ قالوا ﴾ بفرح وسرور ﴿ آمنا به ﴾ بأنه كلام الله - تعالى - ﴿ إنه الحق من ربنا ﴾ أى : إنه الكتاب المشتمل على الحق الكائن من عند ربنا وخالقنا ﴿ إنا كنا من قبله ﴾ أى : من قبل نزوله ﴿ مسلمين ﴾ وجوهنا لله - تعالى - ، ومخلصين له العبادة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين الاستئنافين ﴿ إنه ﴾ و ﴿ إنا ﴾ ؟ قلت : الأول تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به . والثانى : بيان لقوله : ﴿ آمنا به ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم ، لأن آباءهم القدماء قرءوا فى الكتب الأول ذكره ؛ وأبناءهم من بعدهم »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الأخيار من ثواب فقال : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة يؤتون أجرهم مضاعفا بسبب صبرهم على مغالبة شهواتهم ، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف .

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله - ﷺ - قال : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وأدرك النبى - ﷺ - فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله - عز وجل - وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن تغذيتها ، ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » .

قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ، فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه ، ثم إنه خوطب من جهة نبينا ، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين »[2] .

وقوله - تعالى - ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنة .

و ﴿ يدرءون ﴾ من الدرء بمعنى الدفع ومنه الحديث الشريف : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

أى : لا يقابلون السيئة بمثلها ، وإنما يعفون ويصفحون ،ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى : ومما أعطيناهم من مال يتصدقون ، بدون إسراف أو تقتير .

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ أى : وإذا سمعوا الكلام الساقط الذى لا خير فيه . انصرفوا عنه تكرما وتنزها .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٢٠ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٩٧ .

﴿ وقالوا ﴾ لمن تطاول عليهم وآذاهم ، لنا أعمالنا ، التى سيحاسبنا الله - تعالى - عليها ﴿ ولكم ﴾ - أيضا - أعمالكم ، التى سيحاسبكم الله - تعالى - عليها .

﴿ سلام عليكم ﴾ أى : سلام متاركة منا عليكم ، وإعراض عن سفاهتكم ، فليس المراد بالسلام هنا : سلام التحية ، وإنما المقصود به سلام المتاركة والإعراض .

﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ أى : إن ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين ، وعن المجادلة معهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبى - ﷺ - ، وآمنوا به ، وقاموا عنه ، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تكد تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم وفدا أحمق منكم .. فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه »[1] .

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الهداية منه وحده ، ورد على أقوال المشركين ، وبين سنة من سننه فى خلقه ، كما بين أن ما عنده - سبحانه - أفضل وأبقى ، من شهوات الدنيا وزينتها ، فقال - تعالى - :

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن
نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٥ .

ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

والمعنى : ﴿ إنك ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ لا تهدى من أحببت ﴾ أى : لا تستطيع بقدرتك الخاصة أن تهدى إلى الإيمان من تريد هدايته إليه .

﴿ ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ أى : ولكن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يملك هداية من يشاء هدايته إلى الإيمان ، فهو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، وقلوب العباد تحت تصرفه - تعالى - يهدى من يشاء منها ويضل من يشاء ، على حسب مشيئته وحكمته ، التى تخفى على الناس .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ أعلم بالمهتدين ﴾ أى : بالقابلين للهداية المستعدين لها .

فبلغ - أيها الرسول الكريم - ما كلفناك به ، ثم اترك بعد ذلك قلوب الناس إلى خالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يصرفها كيف يشاء .

قال بعض العلماء : وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر ، مأخوذا بصرامة هذا الدين واستقامته ، فهذا عم رسول الله - ﷺ - وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله - ﷺ - وشدة حب الرسول له أن يؤمن .

ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة ، وقد علم الله منه ذلك فلم يقدرله ما كان يحبه له - ﷺ - ويرجوه ، فأخرج هذا الأمر - أى الهداية - من خاصة رسوله - ﷺ - وجعله خاصا بإرادته - سبحانه - وتقديره . وما على الرسول

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٦ .

إلا البلاغ ، وما على الداعين بعده إلا النصيحة ، والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد ، واستعدادهم للهدى والضلال[١] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من الاعتذارات الواهية التى تذرع بها المشركون فى عدم الدخول فى الإسلام .

فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ والتخطف : الانتزاع بسرعة . يقال : فلان اختطفه الموت . إذا أخذه بغتة بدون إمهال .

وقد ذكروا فى سبب نزولها ، أن بعض المشركين أتى النبى - ﷺ - فقال له : يا محمد ، نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخشى إن اتبعناك ، وخالفنا العرب ، أن يتخطفونا من أرضنا ، وإنما نحن أكلة رأس - أى : قليلون لا نستطيع مقاومة العرب .

وقد رد الله - تعالى - على تعللهم هذا بقوله : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وقوله : ﴿ يجبى إليه ﴾ أى : يحمل إليه ، يقال جبى فلان الماء فى الحوض إذا جمعه فيه ، وحمله إليه .

والاستفهام لتقريعهم على قولهم هذا الذى يخالف الحقيقة .

أى : كيف قالوا ذلك ، مع أننا قد جعلنا لهم حرما ذا أمان يعيشون من حوله ، وتأتيهم خيرات الأرض من كل مكان ، وقد فعلنا ذلك معهم وهم مشركون ، فكيف نعرضهم للخطف وهم مؤمنون .

قال صاحب الكشاف : وكانت العرب فى الجاهلية حولهم - أى حول أهل مكة - يتغاورون ويتناحرون وهم آمنون مطمئنون فى حرمهم ، وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل مكان ، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها ، وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخطف والخوف ، ويسلبهم الأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة ، الإسلام ..[٢] .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا ﴾ للإشعار بكثرة الخيرات والثمرات ، التى تأتى إلى أهل مكة من كل جانب من جوانب الأرض ، ومن كل نوع من أنواع ثمارها . والجملة الكريمة صفة من صفات الحرم .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٣٦١ . للأستاذ سيد قطب .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٢ .

وقوله - تعالى - : ﴿ من لدنا ﴾ أى : من جهتنا ومن عندنا وليس من عند غيرنا الذين تخشون غضبهم أو تخطفهم لكم ، إن اتبعتم الرسول - ﷺ - .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان سعة فضل الله - تعالى - ، وأنه هو القادر على كل شىء .

وقوله - تعالى - ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ متعلق بقوله ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا ﴾ .

أى : لقد جعلنا لهم حرما ذا أمن ، وأفضنا عليهم من خيرات الأرض ، ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، ويجهلون أن اتباعهم للدين الحق ، يؤدى إلى سعادتهم فى حياتهم وبعد مماتهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله يكفرون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى زوال النعم ، التى من بينها نعمة الأمان والاطمئنان ، فقال - تعالى - : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ .

وكم هنا خبرية للتكثير ، و ﴿ بطرت ﴾ من البطر ، بمعنى الأشر والغرور واستعمال نعم الله - تعالى - فى غير ما خلقت له .

أى : وكثيرا من أهل قرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة فى الأمن وسعة الرزق ، فلما بطروا معيشتهم ، واستعملوا نعمنا فى الشر لا فى الخير ، وفى الفسوق لا فى الطاعة ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم وقراهم تدميرا .

إذًا فبطر النعمة وعدم الشكر عليها ، هو السبب الحقيقى فى الهلاك ، وليس اتباع الهدى ، كما زعم أولئك المشركون الجاهلون .

قال القرطبى : « بين - سبحانه - لمن توهم ، أنه لو آمن لقاتلته العرب وتخطفته ، أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار . والبطر : الطغيان بالنعمة .

و ﴿ معيشتها ﴾ أى : فى معيشتها ، فلما حذف « فى » تعدى الفعل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا ﴾[2] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٧ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٠١ .

ثم بين - سبحانه - مآل مساكن هؤلاء الطاغين فقال : ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ﴾ .

أى : فتلك مساكن هؤلاء الطغاة ترونها يا أهل مكة فى أسفاركم - إنها لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا ، كالذى يرتاح بها وهو مسافر ثم يتركها إلى غير عودة إليها ، لأنها صارت غير صالحة لذلك لشؤمها .

﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ أى : وكنا نحن وحدنا الوارثين لها منهم ، لأنهم لم يتركوا أحدا يرث منازلهم وأموالهم ، أو لأنها صارت خرابا لا تصلح للسكن .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدالته ، وسنة من سننه التى كتبها على نفسه فقال - تعالى - : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا .. ﴾ .

والمراد بـ ﴿ أمها ﴾ أكبرها وأعظمها كمكة بالنسبة للجزيرة العربية .

أى : إن حكمة الله - تعالى - وعدالته قد اقتصت ، أن لا يهلك قرية من القرى التى كفر أهلها ، حتى يبعث فى كبرى تلك القرى وأصلها رسولا من رسله الكرام ، يتلو على أهلها آياته ، ويبلغهم دعوته ، ويبين لهم الحق من الباطل .

وحكمة إرسال الرسول فى كبرى تلك القرى ، لأنها المركز والعاصمة ، التى تبلغ الرسالة إلى القرى التابعة لها ، ولأنها فى العادة - المكان المختار لسكنى وجهاء القوم ورؤسائهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وفى هذه الآية دلالة على أن النبى - ﷺ - المبعوث من أم القرى - وهى مكة - ، رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام ، كما قال - تعالى - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها .. ﴾ ، وقال - تعالى - : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ . وثبت فى الصحيحين أنه قال : بعثت إلى الأحمر والأسود ، ولذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ، ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ معطوف على ما قبله . وهو قوله : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى ﴾ ومؤكد له .

أى : وما كنا فى حال من الأحوال بمهلكى هذه القرى ، إلا فى حال ظلم أهلها لأنفسهم ، عن طريق تكذيبهم لرسلنا وإعراضهم عن آياتنا ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٨ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الدنيا وما فيها من متاع ، هى شىء زهيد وضئيل بالنسبة لما ادخره - عز وجل - لعباده الصالحين من خيرات ، فقال : ﴿ وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

أى : وما أعطيتموه - أيها الناس - من خير ، وما أصبتموه من مال فهو متاع زائل من أعراض الحياة الدنيا الزائلة وحطامها الذى لا دوام له ، ومهما كثر فهو إلى نفاد ، ومهما طال فله نهاية ، فأنتم تتمتعون بزينة الحياة الدنيا ثم تتركونها لغيركم .

﴿ وما عند الله ﴾ - تعالى - من ثواب وعطاء جزيل فى الآخرة ، هو فى نفسه ﴿ خير وأبقى ﴾ لأن لذته خالصة من الشوائب والأكدار وبهجته لا تنتهى ولا تزول .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ هذه التوجيهات الحكيمة ، وتعملون بمقتضاها ، فإن من شأن العقلاء أن يؤثروا الباقى على الفانى ، والذى هو خير على الذى هو أدنى .

ثم نفى - سبحانه - التسوية بين أهل الجنة وأهل النار بأبلغ أسلوب فقال : ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ .

فالاستفهام للإنكار ونفى المساواة بين الفريقين ، والمراد بالوعد : الموعود به وهو الجنة ونعيمها .

أى : إنه لا يستوى فى عرف أى عاقل ، حال المؤمنين الذين وعدناهم وعدا حسنا بالجنة ونعيمها ، وهم سيظفرون بما وعدناهم به لا محالة ، وحال أولئك الكافرين والفاسقين الذين متعناهم إلى حين بمتاع الدنيا الزائلة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ معطوف على ﴿ متعناه ﴾ وداخل معه فى حيز الصلة ، ومؤكد لإنكار المساواة .

أى : ثم هو هذا الذى متعناه بمتاع الحياة الدنيا الزائل ، من المحضرين لعذابنا فى النار ، والمحضرين : جمع محضر . اسم مفعول من أحضره .

وهذا التعبير يشعر بإحضاره إلى النار وهو مكره خائف ، من العذاب المهين الذى أعدّ له ، فالآية الكريمة قد نفت بأبلغ أسلوب - المساواة بين المؤمنين والكافرين .

* * *

ثم حكى - سبحانه - جانبا من أقوال المشركين يوم القيامة ، ومن أحوالهم السيئة ، ورد أمرهم وأمر غيرهم إليه وحده - عز وجل - فقال :

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

والظرف فى قوله - سبحانه - : ﴿ يوم يناديهم ﴾ منصوب بفعل مقدر ، ونداؤهم نداء إهانة وتحقير . والنداء صادر عن الله - تعالى - .

أى : واذكر - أيها المخاطب - لتتعظ وتعتبر ، حال أولئك الظالمين ، يوم يناديهم الله - تعالى - فيقول لهم : ﴿ أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ أى : أين شركائى الذين كنتم فى الدنيا تزعمونهم شركائى ، لكى ينصروكم أو يدفعوا عنكم العذاب .

فمفعولا ﴿ تزعمون ﴾ محذوفان ، لدلالة الكلام عليهما . والمقصود بهذا الاستفهام ﴿ أين شركائى ﴾ الخزى والفضيحة ، إذ من المعلوم أنه لا شركاء لله - تعالى - لا فى ذاته ولا فى صفاته .

والمراد بالذين حق عليهم القول فى قوله - تعالى - : ﴿ قال الذين حق عليهم القول ... ﴾ رؤساؤهم فى الكفر ، ودعاتهم إليه كالشياطين ، ومن يشبهونهم فى التحريض على الضلال .

أى قال : رؤساؤهم ودعاتهم إلى الكفر ، الذين ثبت عليهم العذاب بسبب إصرارهم على الفسوق والجحود .

﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا ﴾ أى : ياربنا هؤلاء هم أتباعنا الذين أضللناهم .

﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ أى : دعوناهم إلى الضلالة التى كنا عليها فأطاعونا فيما دعوناهم إليه .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، و ﴿ الذين أغوينا ﴾ صفته ، والراجع إلى الموصول محذوف و ﴿ أغويناهم ﴾ الخبر . والكاف صفة لمصدر محذوف تقديره : أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا ، يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا ، لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء . أودعونا إلى الغى وسولوه لنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم ، لأن إغواءنا لهم ، لم يكن إلا وسوسة وتسويلا . لا قسرا أو إلجاء « فلا فرق إذا بين غينا وغيهم .. »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ من كلام الرؤساء والشياطين ، فهو مقرر لما قبله ، ومؤكد له .

أى : تبرأنا إليك منهم ، ومن ادعائهم أننا أجبرناهم على الضلالة والغواية ، والحق أنهم ما كانوا يعبدوننا ، بل كانوا يعبدون ما سولته لهم أهواؤهم وشهواتهم الباطلة .

فالآية الكريمة تحكى تبرؤ رءوس الكفر من أتباعهم يوم القيامة ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم .. ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٢٦ .
(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلاسيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[1] .

ثم وجه - سبحانه - إليهم توبيخا آخر فقال : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ .

أى : وقيل لهؤلاء الكافرين على سبيل الفضيحة والتقريع : اطلبوا من شركائكم الذين توهمتم فيهم النفع والضر أن يشفعوا لكم ، أو أن ينقذوكم مما أنتم فيه من عذاب ، فطلبوا منهم ذلك لشدة حيرتهم وذلتهم ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ ولم يلتفتوا إليهم .

﴿ ورأوا العذاب ﴾ أى : ورأى الشركاء والمشركون العذاب ماثلا أمام أعينهم .

و ﴿ لو ﴾ فى قوله : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف . والتقدير : لو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين إلى طريق الحق . لما أصابهم هذا العذاب المهين .

ويجوز أن تكون للتمنى فلا تحتاج إلى جواب ، ويكون المعنى . ورأوا العذاب . فتمنوا أن لو كانوا ممن هداهم الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم فى الدنيا .

ثم وجه - سبحانه - إليهم نداء آخر لا يقل عن سابقه فى فضيحتهم وتقريعهم فقال - تعالى - : ويوم يناديهم فيقول : ﴿ ماذا أجبتم المرسلين ﴾ .

أى : واذكر - أيها العاقل - حال هؤلاء الكافرين يوم يناديهم المنادى من قبل الله - عز وجل - فيقول لهم : ما الذى أجبتم به رسلكم عندما أمروكم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ونهوكم عن الإشراك والكفر ؟

فالمقصود من السؤال الأول : توبيخهم على إشراكهم ، والمقصود من السؤال الثانى ، توبيخهم على تكذيبهم لرسلهم ، ولذا وقفوا من هذه الأسئلة موقف الحائر المذهول المكروب ، كما قال - تعالى - : ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

أى : فخفيت عليهم الحجج التى يجيبون بها على هذه الأسئلة ، وصاروا لفرط دهشتهم وذهولهم عاجزين عن أن يسأل بعضهم بعضا عن الإجابة .

وعدى ﴿ فعميت ﴾ بعلى، لتضمنه معنى الخفاء قال - سبحانه - ﴿ فعميت عليهم الأنباء ﴾ ولم يقل : فعموا عن الأنباء ، للمبالغة فى بيان ذهولهم وصمتهم المطبق فى ذلك اليوم العسير ، حتى لكأنما الأنباء والأخبار عمياء لا تصل إليهم ، ولا تعرف شيئا عنهم .

---

(١) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢ .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ يشعر بزيادة حيرتهم وفرط دهشتهم فهم جميعا قد صاروا فى حالة من الإبلاس والحيرة ، جعلتهم يتساوون فى العجز والجهل .

وكعادة القرآن الكريم فى الجمع بين حال الكافرين وحال المؤمنين ، أتبع الحديث عن الكافرين ، بالحديث عن المؤمنين فقال : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ﴾ هذا التائب المؤمن المواظب على الأعمال الصالحة ﴿ أن يكون من المفلحين ﴾ أى من الفائزين بالمطلوب .

قال ابن كثير : ﴿ وعسى ﴾ من الله - عز وجل - موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه - أى وعطائه - لا محالة[1] .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الأمور جميعها إليه ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر فقال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - يخلق ما يشاء أن يخلقه ، ويختار من يختار من عباده لحمل رسالته ، ولتبليغ دعوته . ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ نافية والخيرة من التخير وهى بمعنى الاختيار ، والجملة مؤكدة لما قبلها من أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء ويختار .

أى : وربك وحده يخلق ما يشاء خلقه ويختار ما يشاء اختياره لشئون عباده ، وما صح وما استقام لهؤلاء المشركين أن يختاروا شيئا لم يختره الله - تعالى - أو لم يرده ، إذ كل شىء فى هذا الوجود خاضع لإرادته وحده - عز وجل - ولا يملك أحد كائناً من كان أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئا .

وليس لهؤلاء المشركين أن يختاروا للنبوة أو لغيرها أحدا لم يختره الله - تعالى - لذلك ، فالله - عز وجل - أعلم حيث يجعل رسالته .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أى : ليس يرسل من اختاروه هم .

وقيل : يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ فى موضع نصب بيختار ، ويكون المعنى ، ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة .

والصحيح الأول لإطباقهم الوقف على قوله ﴿ ويختار ﴾ ، و ﴿ ما ﴾ نفى عام لجميع الأشياء ، أن يكون للعبد فيها شىء سوى اكتسابه بقدرة الله - عز وجل - .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦١ .

وقال الثعلبى : و ﴿ ما ﴾ نفى ، أى ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب ، كقوله - تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ تنزيه له - عز وجل - عن الشرك والشركاء .

أى تنزه الله - تعالى - وتقدس بذاته وصفاته عن إشراك المشركين ، وضلاك الضالين .

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شىء فقال : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - يعلم علما تاما ما تخفيه صدور هؤلاء المشركين من أسرار ، وما تعلنه من أقوال ، وسيحاسبهم على كل ذلك حسابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

﴿ وهو الله ﴾ - سبحانه - لا إله إلا هو يستحق العبادة والخضوع ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة ﴾ .

أى : فى الدنيا ، وله الحمد - أيضا - فى الآخرة ، وله وحده ﴿ الحكم ﴾ النافذ ﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ للحساب لا إلى غيره .

* * *

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يذكر الناس بمظاهر قدرته - سبحانه - فى هذا الكون ، وأن يوقظ مشاعرهم للتأمل فى ظاهرتين كونيتين ، هما الليل والنهار ، فإن التدبر فيها اشتملتا عليه من تنظيم دقيق ، من شأنه أن يبعث على الإيمان بقدرة موجدهما ، وهو الله عز وجل . قال - تعالى - :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٥٠

يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

السرمد : الدائم الذى لا ينقطع ، والمراد به هنا : دوام الزمان من ليل أو نهار .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ويتعظوا وينتبهوا إلى مظاهر قدرتنا ورحمتنا ، أخبرونى ماذا كان يحصل لكم إن جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ليلا دائما إلى يوم القيامة ، ﴿ من إله غير الله ﴾ - تعالى - ﴿ يأتيكم بضياء ﴾ تبصرون عن طريقه عجائب هذا الكون ، وتقضون فيه حوائجكم ﴿ أفلا تسمعون ﴾ ما أرشدناكم إليه سماع تدبر وتفهم واعتبار يهديكم إلى طاعة الله - تعالى - وشكره على نعمه .

ثم قال لهم : أخبرونى بعد ذلك ، لو جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ضياء دائما إلى يوم القيامة ﴿ من إله غير الله ﴾ - تعالى - ﴿ يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ أى : تستريحون فيه من عناء العمل والكد والتعب بالنهار ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أى : أفلا تبصرون هذه الدلائل الساطعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ورأفته بكم .

إن دوام الزمان على هيئة واحدة من ليل أو نهار ، يؤدى إلى اختلال الحياة ، وعدم توفر أسباب المعيشة السليمة لكم ، بل ربما أدى إلى هلاككم .

إن المشاهد من أحوال الناس ، أنهم مع وجود الليل لساعات محدودة ، يشتاقون لطلوع الفجر ، لقضاء مصالحهم ، ومع وجود النهار لساعات محدودة - أيضا - يتطلعون إلى حلول الليل ، ليستريحوا فيه من عناء العمل .

وختم - سبحانه - الآية الأولى بقوله : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ لأن حاسة السمع - فيما لو

كان الليل سرمدا - هى أكثر الحواس استعمالا فى تلك الحالة المفترضة ، وختم الآية الثانية بقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ، لأن حاسة البصر - فيما لو كان النهار سرمدا - من أكثر الحواس استعمالا فى هذه الحالة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل « بليل تسكنون فيه » ؟

قلت ذكر الضياء - هو ضوء الشمس - لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف فى المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ بيان لمظاهر فضل الله - تعالى - على الناس ، حيث جعل الليل والنهار على تلك الحالة التى يعيشون فيها .

أى : ومن رحمته بكم - أيها الناس - أنه - سبحانه - لم يجعل زمان الليل سرمدا ، ولا زمان النهار ، بل جعلهما متعاقبين ، وجعل لكل واحد منهما زمانا محددا مناسبا لمصالحكم ومنافعكم ، فالليل تسكنون فيه وتريحون فيه أبدانكم ، والنهار تنتشرون فيه لطلب الرزق من الله تعالى .

وقد فعل - سبحانه - ذلك لمصلحتكم ، كى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة .

وبعد هذا الحديث عن مشاهد الكون ، عادت السورة - للمرة الثالثة - إلى الحديث عن أحوال المجرمين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ .

أى : كن متذكرا - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، حال المجرمين يوم القيامة ، يوم يناديهم الله - تعالى - على سبيل التقريع والتأنيب فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم فى دنياكم تزعمون أنهم شركائى فى العبادة والطاعة .

إنهم لا وجود لهم إلا فى عقولكم الجاهلة ، وأفكاركم الباطلة ، وتقاليدكم السقيمة .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكاشف ج ٣ ص ٤٢٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٤ .

أى : أخرجنا بسرعة من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم ، والمراد به الرسول الذى أرسله - سبحانه - إلى تلك الأمة المشهود عليها . ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ أى : فقلنا لهؤلاء المشركين - بعد أن شهد عليهم أنبياؤهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله - قلنا لهم : هاتوا برهانكم وأدلتكم على صحة ما كنتم عليه من شرك وكفر فى الدنيا : والأمر هنا للتعجيز والإفضاح .

ولذا عقب - سبحانه - عليهم بقوله : ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أى : فعجزوا عن الإتيان بالبرهان ، وعلموا أن العبادة الحق إنما هى لله - تعالى - وحده . ﴿ وضل عنهم ماكنوا يفترون ﴾ أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى حياتهم ، من أن معبوداتهم الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة .

وبعد هذا البيان المتنوع عن دعاوى المشركين والرد عليها ، وعن أحوالهم يوم القيامة ، وعن أحوال المؤمنين الصادقين .. بعد كل ذلك ، ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - التى جاء الحديث عنها فى كثير من آيات هذه السورة - ختمها بقصة قارون الذى كان من قوم موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - :

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ
عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ
﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ

فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا
مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا
بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ
مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ
وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ لما قال - تعالى - : ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ بين أن قارون أوتيها واغتر بها . ولم تعصمه من عذاب الله ، كما لم تعصم فرعون ولستم - أيها المشركون - بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه .

قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان قارون ابن عم موسى .. وقيل كان ابن خالته ..[1] .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣١٠ .

وقوله ﴿ فبغى عليهم ﴾ من البغى وهو مجاوزة الحد فى كل شىء . يقال : بغى فلان على غيره بغيا ، إذا ظلمه واعتدى عليه . وأصله من بغى الجرح ، إذا ترامى إليه الفساد .

والمعنى : إن قارون كان من قوم موسى ، أى : من بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى كما أرسل إلى فرعون وقومه .

﴿ فبغى عليهم ﴾ أى : فتطاول عليهم ، وتجاوز الحدود فى ظلمهم وفى الاعتداء عليهم .

ولم يحدد القرآن كيفية بغيه أو الأشياء التى بغى عليهم فيها ، للإشارة إلى أن بغيه قد شمل كل ما من شأنه أن يسمى بغيا من أقوال أو أفعال .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ بيان لما أعطى الله - تعالى - لقارون من نعم .

والكنوز : جمع كنز وهو المال الكثير المدخر ، و ﴿ ما ﴾ موصولة . وهى المفعول الثانى لآتينا .

وصلتها ﴿ إن ﴾ وما فى حيزها . وقوله : ﴿ مفاتحه ﴾ جمع مفتح - بكسر الميم وفتح التاء - وهو الآلة التى يفتح بها - أو جمع مفتح - بفتح الميم والتاء - بمعنى الخزائن التى تجمع فيها الأموال .

وهو - أى لفظ مفاتحه - اسم إن ، والخبر : ﴿ لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ .

وقوله ﴿ لتنوء ﴾ . أى لتعجز أو لتثقل . يقال : ناء فلان بحمل هذا الشىء ، إذا أثقله حمله وأتعبه : والباء فى قوله ﴿ بالعصبة ﴾ للتعدية والعصبة : الجماعة من الناس من غير تعيين بعدد معين ، سموا بذلك لأنهم يتعصب بعضهم لبعض ومنهم من خصها فى العرف ، بالعشرة إلى الأربعين .

والمعنى : وآتينا قارون - بقدرتنا وفضلنا - من الأموال الكثيرة ، ما يثقل حمل مفاتح خزائنها ، العصبة من الرجال الأقوياء ، بحيث تجعلهم شبه عاجزين عن حملها .

قال صاحب الكشاف : وقد بولغ فى ذكر ذلك - أى فى كثرة أمواله - بلفظ الكنوز ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة[1] .

والمراد بالفرح فى قوله - سبحانه - : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ﴾ : البطر والأشر والتفاخر على الناس ، والاستخفاف بهم واستعمال نعم الله - تعالى - فى السيئات والمعاصى .

---

(١) تفسير الكاشف ج ٣ ص ٦٣٠ .

وجملة : ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ تعليل للنهى عن الفرح المذموم .

أى : لقد أعطى الله - تعالى - قارون نعما عظيمة ، فلم يشكر الله عليها ، بل طغى وبغى ، فقال له العقلاء من قومه : لا تفرح بهذا المال الذى بين يديك فرح البطر الفخور ، المستعمل لنعم الله فى الفسوق والمعاصى ، فإن الله - تعالى - لا يحب من كان كذلك .

ثم قالوا له - أيضا - على سبيل النصح والإرشاد : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ أى : واطلب فيما أعطاك الله - تعالى - من أموال عظيمة ، ثواب الدار الآخرة ، عن طريق إنفاق جزء من مالك فى وجوه الخير ، كالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .

﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى : اجعل مالك زادا لآخرتك ، ولا تترك التنعم بنعم الله فى دنياك ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .

﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أى : وأحسن إلى عباد الله بأن تترك البغى عليهم ، وتعطيهم حقوقهم . مثل ما أحسن الله إليك بنعم كثيرة .

﴿ ولا تبغ الفساد فى الأرض ﴾ أى : ولا تطلب الفساد فى الأرض عن طريق البغى والظلم ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ كما أنه - سبحانه - لا يحب الفرحين المختالين .

وهكذا ساق العقلاء من قوم قارون النصائح الحكيمة له ، والتى من شأن من اتبعها أن ينال السعادة فى دنياه وأخراه .

ولكن قارون قابل هذه النصائح ، بالغرور وبالإصرار على الفساد والجحود فقال كما حكى القرآن عنه ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ .

أى : قال قارون فى الرد على ناصحيه : إن هذا المال الكثير الذى تحت يدى ، إنما أوتيته بسبب علمى وجدى واجتهادى .. فكيف تطلبون منى أن أتصرف بمقتضى نصائحكم ؟ لا . لن أتبع تلك النصائح التى وجهتموها إلى ، فإن هذا المال مالى ولا شأن لكم بتصرفى فيه ، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتى الخاصة ، ولا بسلوكى فى حياتى التى أملكها .

وهذا القول يدل على أن قارون ، كان قد بلغ الذروة فى الغرور والطغيان وجحود النعمة .

ولذا جاءه التهديد المصحوب بالسخرية منه ومن كنوزه ، فى قوله - تعالى - : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ﴾ .

والمقصود بهذا الاستفهام التعجيب من حاله ، والتأنيب له على جهله وغروره .

أى : أبلغ الغرور والجهل بقارون أنه يزعم ان هذا المال الذى بين يديه جمعه بمعرفته

واجتهاده ، مع أنه يعلم - حق العلم عن طريق التوراة وغيرها ، أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله . من أهل القرون السابقة عليه من هو أشد منه فى القوة ، وأكثر منه فى جمع المال واكتنازه .

فالمقصود بالجملة الكريمة تهديده وتوبيخه على غروره وبطره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ جملة حالية . أى : والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال استعتاب واستعلام ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء . وإنما يسألون - كما جاء فى قوله - تعالى - ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ - سؤال توبيخ وإفضاح .

فالمراد بالنفى فى قوله - سبحانه - ﴿ ولا يسأل .. ﴾ سؤال الاستعلام والاستعتاب ، والمراد بالإثبات فى قوله : ﴿ فلنسألن ﴾ أو فى قوله : ﴿ فوربك لنسألنهم ﴾ سؤال التقريع والتوبيخ .

أو نقول : إن فى يوم القيامة مواقف ، فالمجرمون قد يسألون فى موقف ، ولا يسألون فى موقف آخر ، وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تنفى السؤال والآيات التى تثبته .

ثم حكى القرآن بعد ذلك مظهراً آخر من مظاهر غرور قارون وبطره فقال : ﴿ فخرج على قومه فى زينته ﴾ والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾ وما بينهما اعتراض . والزينة : اسم ما يتزين به الإنسان من حلى أو ثياب أو ما يشبههما .

أى : قال ما قال قارون على سبيل الفخر والخيلاء ، ولم يكتف بهذا القول بل خرج على قومه فى زينة عظيمة . وأبهة فخمة ، فيها ما فيها من ألوان الرياش والخدم .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات متعددة ، فى زينته التى خرج فيها ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ، ويكفى أن نعلم أنها زينة فخمة ، لأنه لم يرد نص فى تفاصيلها .

وأمام هذه الزينة الفخمة التى خرج فيها قارون ، انقسم الناس إلى فريقين ، فريق استهوته هذه الزينة ، وتمنى أن يكون له مثلها ، وقد عبر القرآن عن هذا الفريق بقوله : ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ .

أى : خرج قارون على قومه فى زينته ، فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، إلا أن قالوا على سبيل التمنى والانبهار .. ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ورياش ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها .

هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا . وهم الفريق الأول من قوم قارون . أما الفريق الثانى المتمثل فى أصحاب الإيمان القوى ، والعلم النافع ، فقد قابلوا أصحاب هذا القول بالزجر والتعنيف ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

وكلمة ﴿ ويلكم ﴾ أصلها الدعاء بالهلاك ، وهى منصوبة بمقدر . أى : ألزمكم الله الويل .

ثم استعملت فى الزجر والتعنيف والحض على ترك ما هو قبيح ، وهذا الاستعمال هو المراد هنا .

أى : وقال الذين أوتوا العلم النافع من قوم قارون . لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة فى أن تكونوا مثله ، فإن ﴿ ثواب الله ﴾ فى الآخرة ﴿ خير ﴾ مما تمنيتموه ، وهذا الثواب إنما هو ﴿ لمن آمن وعمل صالحا ﴾ فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل .

وهذه المثوبة العظمى التى أعدها الله - تعالى - لمن آمن وعمل صالحا ﴿ ولا يلقاها ﴾ أى : لا يظفر بها ، ولا يوفق للعمل لها ﴿ إلا الصابرون ﴾ على طاعة الله - تعالى - وعلى ترك المعاصى والشهوات .

قال صاحب الكشاف : والراجع فى ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التى تكلم بها العلماء ، أو للثواب ، لأنه فى معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة وهى الإيمان والعمل الصالح[١] .

ثم جاءت بعد ذلك العقوبة لقارون ، بعد أن تجاوز الحدود فى البغى والفخر والإفساد فى الأرض . وقد حكى سبحانه - هذه العقوبة فى قوله : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ فخسفنا ﴾ من الخسف وهو النزول فى الأرض ، يقال : خسف المكان خسفا - من باب ضرب - إذا غار فى الأرض . ويقال : خسف القمر ، إذا ذهب ضوؤه ، وخسف الله بفلان الأرض ، إذا غيبه فيها .

قال ابن كثير لما ذكر الله - تعالى - اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح - عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم - أن أباه حدثه : أن رسول الله - ﷺ - قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة »[٢] .

---

(١) تفسير الكاشف ج ٣ ص ٤٣٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٦ .

أى . تمادى قارون فى بغيه ، ولم يستمع لنصح الناصحين ، فغيبناه فى الأرض هو وداره ، وأذهبناهما فيها إذهابا تاما .

﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ﴾ أى : فما كان لقارون من جماعة أو عصبة تنصره من عذاب الله ، بأن تدفعه عنه ، أو ترحمه منه .

﴿ وما كان ﴾ قارون ﴿ من المنتصرين ﴾ بل كان من الأذلين الذين تلقوا عقوبة الله - تعالى - باستسلام وخضوع وخنوع ، دون أن يستطيع هو أو قومه رد عقوبة الله - تعالى - .

ثم - بين - سبحانه - ما قاله الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثل قارون فقال - تعالى - : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾.

ولفظ « وى » اسم فعل بمعنى أعجب ، ويكون - أيضا - للتحسر والتندم ، وكان الرجل من العرب إذا أراد أن يظهر ندمه وحسرته على أمر فائت يقول : وى .

وقد يدخل هذا اللفظ على حرف « كأن » المشددة - كما فى الآية - وعلى المخففة .

قال الجمل ما ملخصه قوله : ﴿ ويكأن الله ﴾ فى هذا اللفظ مذاهب : احدها : أن ﴿ وى ﴾ كلمة برأسها ، وهى اسم فعل معناها أعجب ، أى : أنا ، ﴿ والكاف ﴾ للتعليل ، ﴿ وأن ﴾ وما فى حيزها مجرورة بها ، أى : أعجب لأن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. وقياس هذا القول أن يوقف على « وى » وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائى .

الثانى : أن كأن هنا للتشبيه إلا أنه ذهب معناه وصارت للخبر واليقين ، وهذا - أيضا يناسبه الوقف على ﴿ وى ﴾ .

الثالث : أن « ويك » كلمة برأسها ، والكاف حرف خطاب ، و « أن » معمولة لمحذوف . أى : أعلم أن الله يبسط .. وهذا يناسب الوقف على ﴿ ويك ﴾ وقد فعله أبو عمرو .

الرابع : أن أصل الكلمة ويلك ، فحذفت اللام وهذا يناسب الوقف على الكاف - أيضا - كما فعل أبو عمرو .

الخامس : أن ﴿ ويكأن ﴾ كلها كلمة مستقلة بسيطة ومعناها : ألم تر .. ولم يرسم فى القرآن إلا ﴿ ويكأن ﴾ و ﴿ ويكأنه ﴾ متصلة فى الموضعين .. ووصل هذه الكلمة عند القراءة لا خلاف بينهم فيه .

والمعنى : وبعد أن خسف الله - تعالى - الأرض بقارون ومعه داره ، أصبح الذين تمنوا أن يكونوا مثله ﴿ بالأمس ﴾ أى : منذ زمان قريب ، عندما خرج عليهم فى زينته ، أصبحوا

يقولون بعد أن رأوا هلاكه : ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى : صاروا يقولون ما أعجب قدرة الله - تعالى - فى إعطائه الرزق لمن يشاء من عباده وفى منعه عمن يشاء منهم ، وما أحكمها فى تصريف الأمور ، وما أشد غفلتنا عندما تمنينا أن نكون مثل قارون ، وما أكثر ندمنا على ذلك .

لولا أن الله - تعالى - قدمنّ علينا ، بفضله وكرمه لخسف بنا الأرض كما خسفها بقارون وبداره .

﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ أى : ما أعظم حكمة الله - تعالى - فى إهلاكه للقوم الكافرين ، وفى إمهاله لهم ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

ثم ختم - سبحانه - قصة قارون ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ مبتدأ ، والدار الآخرة صفة له ، ونجعلها .. خبره ، وجاءت الإشارة بهذه الصيغة المفيدة للبعد ، للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها .

أى : تلك الدار الآخرة وما فيها من جنات ونعيم ، نجعلها خالصة لعبادنا الذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأفعالهم ﴿ علوا فى الأرض ﴾ أى : تطاولا وتعاليا فيها ﴿ ولا فسادا ﴾ أى : ظلما أو بغيا أو عدوانا على أحد .

﴿ والعاقبة ﴾ الطيبة الحسنة ، إنما هى ﴿ للمتقين ﴾ الذين صانوا أنفسهم عن كل سوء وقبيح .

﴿ من جاء ﴾ فى دنياه ﴿ بالحسنة ﴾ أى بالأعمال الحسنة ﴿ فله ﴾ فى مقابلها عندنا بفضلنا وإحساننا ﴿ خير منها ﴾ أى : فله عندنا خير مما جاء به من حسنات ، بأن نضاعفها ، وتثيبه عليها ثوابا عظيما لا يعلم مقداره أحد .

﴿ ومن جاء بالسيئة ، فلا يجزى الذين عملوا ﴾ الأعمال ﴿ السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ أى : فلا يجزون إلا الجزاء الذى يناسب أعمالهم فى القبح والسوء .

وهكذا يسوق لنا القرآن فى قصصه العبر والعظات ، لقوم يتذكرون ، فمن قصة قارون نرى أن كفران النعم يؤدى إلى زوالها ، وأن الغرور والبغى والتفاخر كل ذلك يؤدى إلى الهلاك، وأن خير الناس من يبتغى فيما آتاه الله من نعم ثواب الآخرة، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا ، وأن العاقل هو من يستجيب لنصح الناصحين ، وأن الناس فى كل زمان ومكان ، منهم الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ، ومنهم الأخيار الأبرار الذين يفضلون ثواب الآخرة ، على

متع الحياة الدنيا ، وأن العاقبة الحسنة قد جعلها - سبحانه - لعباده المتقين ، وأنه - سبحانه - يجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببشارة النبى - ﷺ - ، وبتثبيت قلبه ، وبأمره بالمضى فى تبليغ رسالة ربه بدون خوف أو وجل .. فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد .. ﴾ ختم - سبحانه - السورة ببشارة نبيه محمد - ﷺ - برده إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهم .

قال القتبى : معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف عنه ثم يعود إليه .. وقيل إلى معاد . أى : إلى الموت .[١] .

قال الآلوسى : وقد يقال : أطلق - سبحانه - المعاد على مكة ، لأن العرب كانت تعود إليها فى كل سنة ، لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه - عز وجل - لنبيه - ﷺ - وهو بمكة أنه - عليه الصلاة والسلام - يهاجر منها ثم يعود إليها . وروى عن غير واحد أن الآية نزلت

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٢١ .

بالجحفة بعد أن خرج - ﷺ - من مكة مهاجرا واشتاق إليها ، ووجه ارتباطها بما تقدمها : تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى فى الدنيا ، كما تضمن ما قبلها الوعد بالعاقبة الحسنى فى الآخرة[1] .

والمعنى : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن ﴾ - أيها الرسول الكريم - ، بأن أنزله إليك ، وكلفك بحفظه وتلاوته على الناس ، والعمل بأوامره ونواهيه .

﴿ لرادك إلى معاد ﴾ أى : لرادك إلى المكان الذى أنت فيه وهو مكة ، بعد أن تهاجر منه .

تعود إليه ظاهرا منتصرا ، بعد أن خرجت منه وأنت مطارد من أعدائك .

تعود إليه ومعك الآلاف من أتباعك بعد أن خرجت منه وليس معك سوى صاحبك أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - .

وقد حقق الله - تعالى - هذا الوعد لنبيه - ﷺ - فقد عاد الرسول إلى مكة ومعه أصحابه المؤمنون ، بعد سنوات قليلة من هجرتهم منها .

قال صاحب الكشاف : « ووجه تنكيره - أى لفظ المعاد - أنها كانت فى ذلك اليوم معادا له شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول الله - ﷺ - عليها ، وقهره لأهلها ، لظهور عز الإسلام وأهله ، وذل الشرك وحزبه[2] .

ثم أرشد - سبحانه - نبيه إلى ما يرد به على دعاوى المشركين فقال : ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو فى ضلال مبين ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خالفك وكذبك ، ربى وحده هو الأعلم بالمهتدى وبالضال منى ومنكم ، وسيجازى كل فريق بما يستحقه ، وستعلمون - أيها المشركون - لمن عقبى الدار .

ثم ذكره - سبحانه - بنعمة اختصاصه بالنبوة وحمل الرسالة ، فقال : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ .

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - قبل وحينا إليك بالرسالة ، تتوقع أو تظن أننا سنكلفك بها ، لكننا كلفناك بها وشرفناك بحملها رحمة منا بالناس فأنت الرحمة المهداة والنعمة المسداة إليهم ، لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وما دام الأمر كذلك ، فأكثر من شكر الله - تعالى - وامض فى طريقك فلا تكونن

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٢٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٢٦ .

ظهيرا ﴾ أى : معينا ونصيرا ﴿ للكافرين ﴾ .

﴿ ولا يصدنك ﴾ الصادّون ﴿ عن ﴾ تبليغ ﴿ آيات الله ﴾ - تعالى - وعن العمل بها ﴿ بعد إذ أنزلت إليك ﴾ من ربك .

﴿ وادع ﴾ الناس جميعا ﴿ إلى ﴾ دين ﴿ ربك ﴾ وإلى طريقه ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة والطاعة .

﴿ ولا تدع مع الله ﴾ - تعالى - ﴿ إلها آخر ﴾ أى : واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - إلها آخر ، فإن الحال والشأن والحق أنه ﴿ لا إله ﴾ مستحق للعبادة ﴿ إلا هو ﴾ وحده عز وجل .

﴿ كل شىء ﴾ فى هذا الوجود ﴿ هالك ﴾ ومعدوم وزائل ﴿ إلا وجهه ﴾ - عز وجل - .

﴿ له ﴾ - سبحانه - ﴿ الحكم ﴾ النافذ الذى لا مرد له .

﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ - أيها الناس - فيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ .

وبعد : فهذه سورة القصص ، وهذا تفسير لها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح السبت ٢ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ
الموافق ٢٣ / ٣ / ١٩٨٥ م

د . محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير سورة « المؤمنون »

فهرس إجمالى لتفسيرة سورة « النـور »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الفرقان »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الشعراء »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة النمل »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة القصص »

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سور

العنكبوت الروم
لقمان السجدة
الأحزاب سبأ
فاطر

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الحادى عشر

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة العنكبوت هى السورة التاسعة والعشرون فى ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة الروم، أى : أنها من أواخر السور المكية فى النزول، إذ أن ترتيبها فى النزول الثالثة والثمانون من بين السور المكية، ولم ينزل بعدها قبل الهجرة سوى سورة المطففين[1] وعدد آياتها تسع وستون آية .

٢ - وجمهور العلماء على أنها مكية، ومنهم من يرى أن فيها آيات مدنية .

قال الآلوسى : عن ابن عباس أنها مكية وذهب إلى ذلك - أيضا - الحسن وجابر وعكرمة . وعن بعضهم أنها آخر مانزل بمكة ... وقال يحيى بن سلام : هى مكية، إلا من أولها إلى قوله - تعالى - : ﴿ وليعلمن الله الذين آمنو وليعلمن المنافقين ... ﴾[2] .

والذى تطمئن إليه النفس أن سورة العنكبوت كلها مكية، وليس هناك روايات يعتمد عليها فى كون بعض آياتها مدنية .

٣ - وقد افتتحت سورة العنكبوت ببعض الحروف المقطعة ﴿ الم ﴾، ثم تحدثت عن تكاليف الإيمان، وأنه يستلزم الامتحان والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وعن الحسنة التى أعدها - سبحانه - لعباده المؤمنين الصادقين . قال - تعالى - : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ .

٤ - ثم حكت جانبا من أقوال المشركين، ومن دعاواهم الكاذبة، وردت عليهم بما يبطل أقوالهم، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ...

قال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون، وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ .

---

(١) راجع كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٣٢ .

٥ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك، إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، فأشارت إلى قصة نوح مع قومه، ثم ذكرت بشىء من التفصيل جانبا من قصة إبراهيم مع قومه، ومن قصة لوط مع قومه، وأتبعت ذلك بإشارات مركزة تتعلق بقصة شعيب وهود وصالح وموسى مع أقوامهم ...

ثم اختتمت هذه القصص ببيان العاقبة السيئة التى صار إليها المكذبون لرسلهم، فقال - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

٦ - ثم ضربت السورة الكريمة مثلا لحال الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة، فشبهت ما هم عليه من كفر وشرك - فى ضعفه وهوانه وهلهلته - ببيت العنكبوت، وأمرت النبى - ﷺ - وأصحابه، أن يزدادوا ثباتا على ثباتهم، وأن يستعينوا على ذلك، بتلاوة القرآن الكريم، وبإقامة الصلاة، وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

٧ - ثم أمرت السورة الكريمة المؤمنين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وأرشدتهم إلى ما يقولونه لهم، ومدحت من يستحق المدح منهم، وذمت من يستحق الذم، وأقامت الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

٨ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين، حضهم فيه على الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإيمان، ورغبهم فى ذلك بوسائل ، منها : إخبارهم بأن الآجال بيد الله - تعالى - وحده، وكذلك الأرزاق بيده وحده، وأن من استجاب لما أمره الله - تعالى - به ، أعطاه - سبحانه - الكثير من خيره وفضله .

قال - تعالى - ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون * كل نفس ذائقة الموت، ثم إلينا ترجعون ﴾.

٩ - ثم ساق - سبحانه - فى أواخر السورة، ألوانا من تناقضات المشركين، حيث إنهم إذا سألهم سائل عمن خلق السموات والأرض ... قالوا : الله - تعالى - هو الذى خلقهما، ومع ذلك فهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى، وإذا أحاط بهم الموج وهم فى السفن ... ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾، وهم يعيشون فى حرم آمن ، والناس يتخطفون من حولهم .. ومع ذلك فهم بالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون .

هذا شأنهم، أما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم الله - تعالى - بما يقر أعينهم فقال فى ختام السورة : ﴿ والذين جاهدوا فينالنهدينّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

١٠ - وهكذا نرى هذه السورة الكريمة، وقد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - عن الإيمان وتكاليفه، وعن سنن الله فى خلقه، وعن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، وعن هوان الشرك والشركاء ، وعما يعين المؤمن على طاعة الله، وعن علاقة المؤمنين بغيرهم، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن من عند الله، وعن أن المؤمن لا يليق به أن يقيم فى مكان لا يستطيع فيه أن يؤدى شعائر دينه، وعن سوء عاقبة الأشرار، وحسن عاقبة الأخيار ... نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،

القاهرة : مدينة نصر — المؤلف،

١٦ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ — د . محمد سيد طنطاوى

٦ / ٣ / ١٩٨٥ م

تفسير

سُورَةُ ٱلْعَنكَبُوتِ

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا
يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ
لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن
جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾

سورة العنكبوت من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ﴿ الم ﴾ ، ويبلغ عدد السور التى افتتحت بحروف التهجى ، تسعًا وعشرين سورة .

وقد سبق أن قلنا : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن الكريم ، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله ، فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ...

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ﴾ للإنكار و﴿ حسب ﴾ من الحسبان بمعنى الظن . وقوله : ﴿ يفتنون ﴾ من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان .

يقال : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم الجيد منه من الخبيث .

وجملة « أن يتركوا » سدت مسد مفعولى حسب ، وجملة « أن يقولوا » فى موضع نصب ، على معنى : لأن يقولوا ، وهى متعلقة بقوله : ﴿ يتركوا ﴾ . وجملة « وهم لا يفتنون » فى موضع الحال من ضمير « يتركوا » .

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان ، واختبار ، وابتلاء ، وبدون نزول المصائب بهم ، لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان ؟ إن ظنهم هذا ظن باطل ، ووهم فاسد ، لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط ، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار ، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

قال القرطبى : والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد .. فكانت صدورهم تضيق بذلك ، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده ، اختبار للمؤمنين وفتنة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال ، فهى باقية فى أمة محمد ﷺ ، موجود حكمها بقية الدهر ... »[1].

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ مؤكد لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء ، لقولهم آمنا ، هذا الظن فى غير محله ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، وأن يجعل الكافرين يتصارعون مع المؤمنين ، إلا أن العاقبة فى النهاية للمؤمنين .

والمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فليعلمن .. ﴾ إظهار علمه - سبحانه - ، أو المجازاة على الأعمال .

أى : ولقد فتنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك - أيها الرسول الكريم - ، ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ... ﴾ أى فليظهرن الله - تعالى - فى عالم الواقع حال الذين صدقوا فى إيمانهم ، من حال الكاذبين منهم ، حتى ينكشف للناس ما هو غائب عن علمهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٠٤ .

أو المعنى : ولقد فتنا الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين ، كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم ، فليجزين الذين صدقوا فى إيمانهم بما يستحقون من ثواب ، وليجزين الكاذبين بما يستحقون من عقاب ، ولترتب المجازاة على العلم ، أقيم السبب مقام المسبب .

قال الإمام ابن جرير : قوله : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ... ﴾ أى : فليعلمن الله الذين صدقوا منهم فى قولهم آمنا ، وليعلمن الكاذبين منهم فى قولهم ذلك ، والله عالم بذلك منهم ، قبل الاختبار ، وفى حال الاختبار ، وبعد الاختبار ، ولكن معنى ذلك : وليظهرن الله صدق الصادق منهم فى قوله آمنا بالله ، من كذب الكاذب منهم ...

وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين ، عذبهم المشركون ، ففتن بعضهم ، وصبر بعضهم على أذاهم ، حتى أتاهم الله بفرج من عنده »[١] .

وفى معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[٢] وقوله - تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولارسوله ولا المؤمنين وليجة .. ﴾[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾[٤] .

وقد ساق الإمام القرطبى عند تفسيره لهاتين الآيتين من سورة العنكبوت عددا من الأحاديث النبوية ، منها قوله : روى البخارى عن خباب بن الأرت قالوا : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[٥] .

والخلاصة ، أن المقصود من الآيتين تنبيه الناس فى كل زمان ومكان ، إلى أن ظن بعض الناس بأن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالبأساء والضراء ، ظن خاطىء ، وإلى أن هذا الابتلاء سُنة ماضية فى السابقين وفى اللاحقين إلى يوم القيامة .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٠ ص ٨٣ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢ .
(٣) سورة التوبة . الآية ١٦ .
(٤) سورة محمد . الآية ٣١ .
(٥) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٢٤ .

ثم بين - سبحانه - أن عقابه للمرتكبين السيئات واقع بهم ، وأنهم إذا ظنوا خلاف ذلك ، فظنهم من باب الظنون السيئة القبيحة ، فقال - تعالى - : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، ساء ما يحكمون ﴾ .

و « أم » هنا منقطعة بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، وقوله : ﴿ أن يسبقونا ﴾ سد مسد مفعولى حسب ، وأصل السبق : الفوت والتقدم على الغير . والمراد به هنا : التعجيز ، والمعنى : بل أحسب الذين يعملون الأعمال السيئات كالكفر والمعاصى ، « أن يسبقونا » أى : أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم ، أو أن فى إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم ؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد : « ساء ما يحكمون » أى : بئس الظن ظنهم هذا ، وبئس الحكم حكمهم على الأمور .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك مايدخل السرور والاطمئنان على قلوب عباده المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿ من كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم ﴾ . أى : من كان من الناس يرجو لقاء الله - تعالى - يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه ، ويطمعه فى ثوابه وعطائه ، فليثبت على إيمانه ، وليواظب على العمل الصالح ، « فإن أجل الله لآت » . أى : فإن الأجل الذى حدده الله - تعالى - لموت كل نفس وللبعث والحساب ، لآت لامحالة فى وقته الذى حدده - سبحانه - « وهو السميع » لأقوال خلقه « العليم » بما يخفونه ومايعلنونه .

فالرجاء فى لقاء الله ، بمعنى الطمع فى ثوابه ، ومنهم من فسره بمعنى الخوف من حسابه - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب ، لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها ... وقيل : « يرجو » يخاف ، كما فى قول الشاعر :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها .. »[1] أى : إذا لسعته النحل لم يخف لسعها .

وعلى كلا التفسيرين للرجاء ، فإن الآية الكريمة تبشر المؤمنين بما يدخل السرور على نفوسهم ، وتعدهم بأنهم متى ثبتوا على إيمانهم ، وأحسنوا أعمالهم ، فإن ثوابهم سيظفرون به كاملا غير منقوص ، بفضل الله وإحسانه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٠٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : ومن جاهد فى طاعة الله ، وفى سبيل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه لنفسه لا لغيره .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لغنى عن العالمين ﴾ جميعا ، لأنه - سبحانه - لاتنفعه طاعة مطيع ، كما لا تضره معصية عاص ، وإنما لنفسه يعود ثواب المطيع وعليها يرجع عقاب المسىء .

ثم وضح - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب جزيل فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ... ﴾ أى : لنسترن عنهم سيئاتهم ، ولنزيلنها - بفضلنا وإحساننا - من صحائف أعمالهم .

ثم بعد ذلك ﴿ ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾ أى : ولنجزينهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، بأن نعطيهم على الحسنة عشر أمثالها .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ، والخبر جملة القسم المحذوفة ، وجوابها أى : والله لنكفرن . ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر على الاشتغال . أى : ونخلص الذين آمنوا من سيئاتهم ...

وقال ﴿ أحسن ﴾ لأنه سبحانه إذا جازاهم بالأحسن ، جازاهم بما هو دونه . فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن طاعة الله - تعالى - يجب أن تقدم على كل طاعة ، فقال :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٦٨ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما أخرجه الترمذى ، من أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه حين أسلم ، قالت له أمه حمنة بنت أبى سفيان : يا سعد بلغنى أنك صبأت ، فوالله لايظلنى سقف بيت ، وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد - ﷺ - .... فجاء سعد إلى النبى ﷺ فشكى إليه ما قالته أمه .

فنزلت هذه الآية .. فجاء سعد إليها فقال لها : يا أماه لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما يئست منه أكلت وشربت ... »[1]

وقوله : ﴿ حسنا ﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف . أى : ووصينا الإنسان بوالديه إيصاء حسنا ، وعبر بالمصدر للمبالغة فى وجوب الإحسان إليهما ، بأن يكون بارًا بهما ، وعطوفًا عليهما ، وسخيًا معهما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن جاهداك ﴾ معطوف على ما قبله بإضمار القول : أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له ﴿ إن جاهداك ﴾ أى : إن حملاك وأمراك ﴿ لتشرك بى ﴾ فى العبادة أو الطاعة ﴿ ماليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ بيان للواقع ، فهذا القيد لا مفهوم له ، لأنه ليس هناك من إله فى هذا الكون ، سوى الله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تذييل المقصود به التحذير من معصيته - سبحانه - .

أى : إلى مرجعكم جميعا - أيها الناس - يوم القيامة ، فأحاسبكم على أعمالكم حسابا دقيقا ، وأجازى الذين أساءوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات لندخلنهم ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿ فى الصالحين ﴾ أى فى زمرة الأقوام ﴿ الصالحين ﴾ الذين رضينا عنهم ، ورضوا عنا .

* * *

ثم يرسم القرآن الكريم بعد ذلك صورة واضحة لأصحاب القلوب المريضة ، والنفوس الضعيفة ، ويحكى جانبا من أقوالهم الفاسدة ، ودعاواهم الكاذبة فيقول :

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٢٨ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن
شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله .. ﴾ بيان لحال قوم ضعف إيمانهم ، واضطرب يقينهم ، بعد بيان حال المؤمنين الصادقين فى قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ ....

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ... ﴾ قال مجاهد : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك . وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر ، فقُتل بعضهم »[1] .

والمعنى : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ بلسانه دون أن يواطىء هذا القول قلبه ﴿ آمنا بالله ﴾ .

وقوله ﴿ فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ بيان لحال هذا البعض من الناس عندما تنزل بهم المصائب والنكبات .

أى : فإذا أوذى هذا البعض - بعد قوله آمنا بالله - من أجل هذا القول ومن أجل تركه

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٣٠ .

الدين الباطل ، ودخوله فى الدين الحق ﴿ جعل فتنة الناس ﴾ له أى جعل عذابهم له ، وإيذاءهم إياه ﴿ كعذاب الله ﴾ أى بمنزلة عذاب الله فى الشدة والألم ، فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه ، ويضعف يقينه ، بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان .

وفى جعل هذا البعض ﴿ فتنة الناس كعذاب الله ﴾ دليل واضح على ضعف إيمانه ، وفساد تفكيره ، لأن عذاب الناس له دافع ، أما عذاب الله فلا دافع له ، ولأن عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله - سبحانه - على من عصاه ، ولأن عذاب الناس معروف أمده ونهايته أما عذاب الله فلا يعرف أحد مداه أو نهايته .

ثم بين - سبحانه - حال هذا الفريق إذا ما مَنَّ الله - تعالى - على المؤمنين الصادقين بنصر ، فقال : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ، ليقولن إنا كنا معكم ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ ليقولن ﴾ بضم اللام يعود إلى ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من يقول ﴾ ، باعتباره معناها ، كما أن إفراد الضمائر العائدة إليها باعتبار لفظها ، أى : هكذا حال ضعاف الإيمان ، عند الشدائد يساوون عذاب الناس بعذاب الله ، ولا يثبتون على إيمانهم أما إذا جاءكم النصر - أيها الرسول الكريم - فإن هؤلاء الضعاف فى إيمانهم ، يقولون بكل ثقة وتأكيد : إنا كنا معكم مشايعين ومؤيدين ، ونحن إنما أكرهنا على ماقلنا ، ومادام الأمر كذلك فأشركونا معكم فيما ترتب على النصر من مغانم وخيرات .

وقوله - سبحانه - : ﴿أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ﴾ رد عليهم فى دعواهم الإيمان ، وفى قولهم للمؤمنين : ﴿ إنا كنا معكم ﴾ والاستفهام لإنكار ما زعموه ، ولتقرير علم الله - تعالى - الشامل للسر والعلانية .

أى : إن الله - تعالى - عالم بما فى صدور العالمين جميعا من خير وشر ، وإيمان وكفر . وإن هؤلاء الذين يقولون آمنا ، ليس الله - تعالى - فى حاجة إلى قولهم ، فهو - سبحانه - يعلم السر وأخفى ﴿ وليعلمن الله ﴾ - تعالى - علما تاما ﴿ الذين آمنوا ﴾ به حق الإيمان ﴿ وليعلمن ﴾ حال المنافقين ، علما لايخفى عليه شىء من حركاتهم وسكناتهم . وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب . وأكد - سبحانه - علمه بلام القسم وبنون التوكيد ، للرد على دعاوى ضعاف الإيمان بأقوى أسلوب ، وأبلغه ، حتى يقلعوا عن نفاقهم ، ويتبعوا المؤمنين الصادقين فى ثباتهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما زعمه أئمة الكفر من دعاوى باطلة ، ورد عليها فقال : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا على سبيل التضليل والإغراء : اتبعوا سبيلنا أى

طريقنا الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، ولنحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة ، إن كان هناك بعث وحساب .

واللام فى قوله : ﴿ ولنحمل ﴾ لام الأمر ، كأنهم آمرين أنفسهم بذلك ، لِيُغْروا المؤمنين باتباعهم .

أى : اطمئنوا إلى أننا لن نتخلى عنكم ، ولن ننقض عهودنا معكم فى حمل خطاياكم لو اتبعتمونا ، أو هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء . أى : إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم .

وقد رد الله - تعالى - زعمهم هذا بقوله : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون ﴾ أى : وما هؤلاء الكافرون بحاملين لشىء من خطايا غيرهم التى زعموا حملها يوم القيامة ، وانهم لكاذبون فى كل أقوالهم .

و﴿من﴾ الأولى بيانية ، والثانية لنفى حمل أى خطايا مهما صغرت . وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد ، حتى يخرس ألسنتهم ، ويمحو كل أثر من أقوالهم من الأذهان .

ثم بين - سبحانه - أن الأمر على عكس ما زعموه فقال : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ . أى : ليس الأمر - كما - زعموا من أنهم يحملون خطايا المؤمنين ، بل الحق أن أئمة الكفر هؤلاء سيحملون خطاياهم كاملة غير منقوصة ، وسيحملون فوقها خطايا أخرى ، هى خطايا تسببهم فى إضلال غيرهم ، وصرفه عن الطريق الحق .

وعبر عن الخطايا بالأثقال ، للإشعار بغاية ثقلها ، وفداحة حملها ، وعظم العذاب الذى سيترتب عليها .

﴿ وليسألُنَّ يوم القيامة ﴾ سؤال تأنيب وتوبيخ ﴿ عما كانوا يفترون ﴾ أى : عما كانوا يختلقونه فى الدنيا من أكاذيب ، وأباطيل ، أدت بهم إلى سوء المصير .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم ، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا »[2] .

* * *

(١) آية ٢٥ من سورة النحل .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٧ .

وبعد هذا الحديث عن أنواع الناس ، وعن أقوال المشركين الفاسدة ، وعن سوء عاقبتهم ، ساق - سبحانه - جانبا من قصة نوح وإبراهيم - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ . شروع فى بيان افتتان الأنبياء - عليهم السلام - بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثا لهم على الصبر ، فإن الأنبياء - عليهم السلام - حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها ، فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى ... »[١] .

و« نوح » - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شىء من التفصيل ، فى سور : هود والأعراف ، والمؤمنون ، ونوح .

وقوم الرجل : اقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٤٢ .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم نوحا ، ليدلهم على طريق الحق والرشاد .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن عبادة غيرنا ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ يدعوهم إلى الدين الحق ، ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قالوا : بعث الله نوحا وهو فى سن الأربعين من عمره ، ولبث يدعو قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام ؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد ، حقيق بالاجتناب فى البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض يبتغيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك»[1] .

والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح - عليه السلام - مع قومه ، تسلية الرسول - ﷺ - وتثبيته ، فكأن الله - تعالى - يقول له : يا محمد لقد لبث أخوك نوح تلك المدة الطويلة ، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، فعليك أن تقتدى به فى صبره ، وفى مطاولته لقومه .

وقوله - سبحانه - ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ بيان لسوء عاقبة المكذبين لنوح - عليه السلام - بعد أن مكث فيهم تلك المدة الطويلة .

والطوفان : قد يطلق على كل ما يطوف بالشىء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام ، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء ، وهو المراد هنا .

أى مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ولكنهم كذبوه ، فأخذهم الطوفان ، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر ، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ومن آمن معه فقال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ : أى : فأنجينا نوحا ومن آمن معه ، وهم الذين ركبوا معه فى السفينة . قيل : كان عدد هؤلاء الذين آمنوا به ثمانين ما بين ذكر وأنثى ، وقيل كانوا أقل من ذلك .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٤٦ .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ للسفينة ، أو للحادثة والقصة .

أى : فأنجينا نوحا ومن ركب معه فى السفينة ، وجعلناها أى هذه الحادثة عبرة وعظة للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على مر الأيام والأعوام .

قالوا : ومن مظاهر وجوه العبرة فى قصة نجاة نوح ومن معه : أن السفينة التى حملتهم وأقلتهم بقيت مدة طويلة ، وهى مستقرة على جبل الجودى ، الذى يرى كثير من المؤرخين ان مكانه بشمال العراق ، بالقرب من مدينة الموصل .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ... ﴾ .

ولفظ ﴿ إبراهيم ﴾ منصوب بفعل مضمر. أى: واذكر - أيها المخاطب - إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لقومه : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ﴿ ذلكم ﴾ الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ﴿ خير لكم ﴾ من الشرك ، ومن كل شىء فى هذه الحياة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إن كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذى يتنافى مع الجهل ..

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ... ﴾ .

والأوثان : جمع وثن . وتطلق الأوثان على التماثيل والأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو مايشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ أى : وتكذبون كذبا واضحا ، حيث سميتم هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنكم ولا عن نفسها شيئا .

أو يكون قوله ﴿ وتخلقون ﴾ بمعنى وتصنعون وتنحتون . أى : وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعا ، من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل .

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ من أوثان وأصنام ﴿ لا يملكون لكم رزقا ﴾ أى : لا يملكون لكم شيئا من الرزق حتى ولو كان غاية فى القلة .

وما دام الأمر كذلك : ﴿ فابتغوا عند الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ الرزق ﴾ الذى يكفيكم

ويغنيكم ﴿ واعبدوه ﴾ وحده - سبحانه - ﴿ واشكروا له ﴾ نعماءه ومننه وعطاياه .

فأنتم وجميع الخلق ﴿ إليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ لا إلى غيره ، فيجازيكم على أعمالكم وهكذا نرى إبراهيم - عليه السلام - قد سلك فى دعوته قومه إلى الحق أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرضهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله - عز وجل - الذى إليه المرجع والمآب .

ثم أخذ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يحذر قومه من الاستمرار فى تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم ، فقال - تعالى - :

وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية - وهى قوله - تعالى - : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ والآيات التى بعدها إلى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه .. ﴾ محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم

- صلوات الله عليه - لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها .

فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم ، فما المراد بالأمم من قبله ؟ قلت : المراد بهم قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة فى معنى أمم جَمة مكذبة ... »[1] .

وقال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات ، من كلام إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن تكذبوا ... ﴾ معطوف على محذوف ، والتقدير : إن تطيعونى - أيها الناس - فقد فزتم ونجوتم ، وإن تكذبونى فيما أخبرتكم به ، فلستم بدعا فى ذلك ، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم ، فكانت عاقبة المكذبين خسرا .

ثم بين لهم إبراهيم - عليه السلام - وظيفته فقال : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، وليس على سواها ، أما الحساب والجزاء فمرده إلى الله تعالى وحده .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على أن البعث حق ، وأنه - تعالى - لايعجزه شىء ، فقال : ﴿ أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ﴾ .

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله - تعالى - الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ، وهى أهون عليه .

إنهم ليرون كيف يبدىء الله الخلق في النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة ، وفى كل ما لم يكن ، ثم بعد ذلك يكون ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء ؟

فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم البعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على إمكانيته .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعود إلى ما ذكر من الأمرين وهما : بدء الخلق ، وإعادته إلى الحياة مرة أخرى .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٤٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨٠ .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله ، لأنه - سبحانه - لايعجزه شىء .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التأمل يهديهم إلى الحق فقال : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله - تعالى - ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متمايزة . وأحوال شتى ... ثم قل لهم بعد كل ذلك ، الله الذى خلق الخلق ابتداء على تلك الصور المتنوعة والمتكاثرة ، هو وحده الذى ﴿ ينشئ النشأة الآخرة ﴾ أى : هو وحده الذى ينشئهم ويخلقهم ويعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن أوجدهم فى المرة الأولى .

فجملة ﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ سيروا ... ﴾ وداخلة معها فى حيز القول ..

والكيفية فى هذه الآية باعتبار بدء الخلق على أطوار شتى ، وصور متعددة ...

وفى الآية السابقة وهى قوله : ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ﴾ باعتبار بدء الخلق من مادة وغيرها .

والمقصود بالأمر بالسير : التدبر والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل فى جنبات الأرض ، أنه يوقظ الحس ، ويبعث على التفكير ، ويفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التى لم تألفها العين ، ولم يتأملها القلب قبل ذلك .

وجاء الأمر بالسير عاما ، لأن كل إنسان - فى كل زمان ومكان - يأخذ من وجوه العبرة والعظة - عن طريق هذا السير ما يتناسب مع عقله ، وثقافته ، وبيئته ، وفكره ، ومستواه المادى ، والاجتماعى ، والحضارى ...

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ تعليل لما قبله . أى : هو - سبحانه - قادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لايعجزها شىء ولايحول دون نفاذها حائل .

وهو - سبحانه - ﴿ يعذب من يشاء ﴾ ويرحم من يشاء برحمته ، ﴿ وإليه ﴾ وحده لا إلى غيره ﴿ تُقلبون ﴾ أى : ترجعون جميعا فيحاسبكم على أعمالكم .

﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ أى : وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله - تعالى - ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض ، أم كنتم فى السماء ، إذ ليست هناك قوة فى هذا الوجود تحول بينكم وبين الانقلاب إليه - سبحانه - والوقوف بين يديه للحساب والجزاء .

قال الشوكانى : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ قال الفراء : ولا من فى السماء بمعجزين الله فيها ... والمعنى : أنه لا يعجزه - سبحانه - أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان هاهنا ولابالبصرة . يعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها ... »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ مؤكد لما قبله . أى : لستم بقادرين على الهرب من لقاء الله - تعالى - . فى الآخرة . وليس سواه من ناصر ينصركم ، أو من قريب يدفع عنكم حكمه وقضاءه - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى ذاته وصفاته .. وكفروا - أيضا - بالأدلة الدالة على ﴿ لقائه ﴾ بأن أنكروا البعث والحساب والجزاء ﴿ أولئك ﴾ الذين كفروا بكل ذلك ﴿ يئسوا من رحمتى ﴾ أى : انقطع أملهم فى رحمتى إياهم انقطاعا تاما وعبر - سبحانه - بالماضى لدلالة علمه التام على تحقق وقوع هذا اليأس ، وفقدان الأمل عند هؤلاء الكافرين وقت أن يقفوا بين يديه للحساب ، بسبب كفرهم وسوء أعمالهم .

وأضاف - عز وجل - الرحمة إليه ، للإشارة إلى سبقها لغضبه ، وأنها تشمل عبادة المؤمنين .

﴿ وأولئك ﴾ أى : الذين كفروا بآيات الله وبلقائه ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ لايعلم مقدار شدته وفظاعته إلا هو - سبحانه - .

ثم قص - سبحانه - بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به عليهم . فقال - تعالى - :

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ١٩٨ .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ
إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ فما كان جواب قومه ... ﴾ بيان لما رد به الظالمون على نبيهم إبراهيم - عليه السلام - بعد أن وعظهم ونصحهم وأقام لهم أوضح الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولفظ « جواب » بالنصب ، خبر كان ، واسمها قوله : ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ ..

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل .

وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، للاشعار بأن من قومه من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا جميعا على الإحراق ، كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو أحرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، وتحطيمه لها ...

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة ...

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ فصيحة . أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وألقوه فيها بعد اشتعالها ، فأنجاه الله - تعالى - منها ، بأن جعلها بردا وسلاما عليه ...

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .. أى : إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم - عليه السلام - حيث أخرجناه سليما من النار ﴿ لآيات ﴾ بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون ، بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ، وأنه له الخلق والأمر .

وجمع - سبحانه - الآيات لأن فى نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله - تعالى - لا دلالة واحدة ، فنجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام آية ، وعجز المشركين جميعا عن أن يلحقوا به ضررا آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه ، آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله - تعالى - .

ولذا خص - سبحانه - هذه الآيات ، لأنهم هم وحدهم المنتفعون بها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - لقومه بعد أن نجاه الله من شرورهم فقال : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا ، مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ﴾ .

ولفظ « مودة » وردت فيه قراءات : فقد قرأه بعض القُراء السبعة بالنصب ، على أنه مفعول به لقوله : ﴿ اتخذتم ﴾ أو على أنه مفعول لأجله ، فيكون المعنى :

وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادتها . وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا فى عبادتها ، على حساب الحق والهدى .

وهذا شأنكم فى الدنيا ، أما فى يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة . ﴿ ومأواكم النار ﴾ أى : ومنزلكم الذى تأوون إليه أنتم وأصنامكم يوم القيامة النار ﴿ ومالكم من ناصرين ﴾ يخلصونكم من هذه النار ، أو يخففوا سعيرها عنكم .

وبعض القراء السبعة قرأ لفظ ﴿ مودة ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أى: أن اتخذتموه من عبادة الأوثان ، هو مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، أما فى الآخرة فسيكفر بعضكم

ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا .

والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوها فى الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم .. أما فى الآخرة فستتحول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات ...

وقوله - تعالى - : ﴿ فآمن له لوط ... ﴾ بيان للثمرة الطيبة التى ترتبت على دعوة إبراهيم لقومه ، إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، بعد أن مكث فيهم مدة لا يعلمها إلا الله ، وبعد أن أقام لهم ألوانا من الأدلة على أن ما جاءهم به هو الحق ، وما هم عليه هو الباطل .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ فآمن له لوط ﴾ يشعر بأن لوطا - عليه السلام - وحده ، هو الذى لبى دعوة إبراهيم ، وصدقه فى كل ما أخبر به .

ولوط - عليه السلام - يرى كثير من العلماء أنه ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - فهو لوط بن هاران بن آزر .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ وقال إنى مهاجر إلى ربى ... ﴾ يرى بعضهم أنه يعود إلى لوط ، لأنه أقرب مذكور . أى : فآمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به ، وقال : إنى مهاجر إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، لأبلغ دعوته ، فهو لم يهاجر من أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه ، وإعلاء كلمته .

ويرى آخرون أن الضمير يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، لأن الحديث عنه .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ أى : وقال إبراهيم : إنى مهاجر ، أى : من قومى ، إلى ربى .. أى إلى الجهة التى أمرنى بأن أهاجر إليها ﴿ إنه ﴾ - عز وجل - ﴿ هو العزيز ﴾ الغالب على أمره ... ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة ..

وقيل : الضمير فى ﴿ وقال ﴾ للوط - عليه السلام - ، وليس بشىء لما يلزم عليه من التفكيك »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس فقال : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ... ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٥٢ .

أى : ووهبنا لإبراهيم - بعد أن هاجر ومعه زوجه « سارة » وابن أخيه « لوط » - وهبنا له ابنه إسحاق ، ووهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا ، فى ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا فى ذريته - أيضا - الكتب التى أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن .

فالمراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية التى أنزلها - سبحانه - على موسى وعيسى وداود ومحمد - صلوات الله عليه - ، وهم جميعا من نسل إبراهيم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما بال إسماعيل لم يذكر ، وذكر إسحاق ويعقوب ؟ قلت : قد دل عليه فى قوله : ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره ، وعلو قدره .

فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة ، التى هى : التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾ بيان لنعمة أخرى أنعم بها - سبحانه - على نبيه إبراهيم - عليه السلام - .

أى : وهبنا له الذرية الصالحة ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب السماوية ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة فى الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة ، والذكر الحسن بعد وفاته .

﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ الذين سنعطيهم أجزل العطاء وأوفاه .

وهكذا جمع الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة ، جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه فى تبليغ رسالة ربه .

وبمناسبة الحديث عن قصة إبراهيم مع قومه ، جاء بعد ذلك الحديث عن جانب من قصة لوط مع قومه . لوط - عليه السلام - الذى آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى بلاد الشام .. قال - تعالى - :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥١ .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾
وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟
أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه .. ﴾ منصوب بالعطف على إبراهيم فى قوله - تعالى - : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه .. ﴾ أو بفعل مضمر .

أى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - نبينا لوطا - عليه السلام - وقت أن قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح :

﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ أى : إنكم لتفعلون الفعلة

البالغة أقصى دركات القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهى إتيان الذكور دون الإناث .

قال عمر بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط .

وقال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله - تعالى - قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

وجاء قوله - عليه السلام - مؤكدا بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر ... ﴾ بيان لتلك الفاحشة التى كانوا يقترفونها ، والاستفهام للتأنيب والتقريع .

والسبيل : الطريق . والنادى : اسم جنس للمكان الذى يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتقطعون الطريق على المارة ، بأن تنتهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات فى مجالسكم الخاصة ، وفى نواديكم التى تتلاقون فيها .

فأنت ترى أن نبيهم - عليه السلام - قد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ شهواتهم .

فماذا كان جوابهم على نبيهم - عليه السلام - ؟ لقد كان جوابهم فى غاية التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن فى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ .

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يالوط بعذاب الله الذى تتوعدنا به ، إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التى ألفناها وأحببناها .

وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نصح نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[1] .

---

(١) سورة النمل . الآية ٥٦ .

ولذا لجأ لوط - عليه السلام - إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ ، أى : انصرنى بأن تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم يسبقهم بها من أحد من العالمين .

وأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه لوط - عليه السلام - ، وأرسل - سبحانه - ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق . قبل أن ينفذوا عذاب الله فى قوم لوط ، قال - تعالى - :

﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق : قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ ، حيث أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، واقترفوا فى مجالسهم المنكرات .

وهنا قال لهم إبراهيم - عليه السلام - بخشيته وشفقته : ﴿ إن فيها لوطا ﴾ أى : إن فى هذه القرية التى جئتم لإهلاكها لوطا ، وهو نبى من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها ؟ وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشيته فقالوا : ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين .

﴿ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله - تعالى - قد أمرنا أن ننجى لوطا وأن ننجى معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط - عليه السلام - حيث كانت تقر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات .

والغابر : الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، أى : بقى ، وقد يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من الأضداد . ومنه قولهم : هذا الشىء حدث فى الزمن الغابر . أى : الماضى .

ثم بين - سبحانه - حال لوط - عليه السلام - بعد أن وصل إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله - تعالى - فى قومه ، فقال - عز وجل - : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم . وضاق بهم ذرعا ﴾ .

و « أن » هنا مزيدة لتأكيد المجىء . و « سىء بهم » أى : اعترته المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه من اعتداء قومه عليهم .

قال القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا ، على قدر سعة خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك ، وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع ... وإنما ضاق ذرعه بهم ، لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه .. »[1] . أى : وحين جاءت الملائكة إلى لوط - عليه السلام - ورآهم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم . وهو لا يستطيع الدفاع عن هؤلاء الضيوف .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ : تعبير بليغ ، وتصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه ، وعجزه عن وجود مخرج للمكروه الذى حل به . و « ذرعا » تمييز محول عن الفاعل ، أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

ولاحظ الملائكة - عليهم السلام - على لوط قلقه وخوفه ، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه ، يالوط : ﴿ لا تخف ولا تحزن ﴾ أى : لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة .

ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : ﴿ إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ .

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذى سننزله بقومك ، إلا امرأتك فسيدركها العذاب مع قومك ، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة .

ثم أخبروه بالكيفية التى سينزل بها العذاب على قومه فقالوا : ﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

والرجز : العذاب الذى يزعج المعذب به ويجعله فى حالة اضطراب وهلع . يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .

أى : إنا منزلون بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى كان يسكنها قوم لوط - ﴿ رجزا من السماء ﴾ أى : عذابا شديدا كائنا من السماء ، بحيث لا يملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت . أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٤ .

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة . تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم فى التدبر والتفكر .

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها . بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ كما قال : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

* * *

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة شعيب وهود وصالح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وكيف أن هؤلاء الأقوام قد كانت عاقبتهم خسرا ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال - تعالى - :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨٧ .

وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا .. ﴾ معطوف على مقدر محذوف ، لدلالة ما قبله عليه . ومدين : اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - . وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى معان بين حدود الحجاز والشام .

وقد أرسل الله - تعالى - إليهم شعيبا - عليه السلام - ليأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، ولينهاهم عن الرذائل التى كانت منتشرة فيهم ، والتى من أبرزها التطفيف فى المكيال والميزان .

والمعنى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وإبراهيم إلى قومه ، أرسلنا إلى أهل مدين ، رسولنا شعيبا - عليه السلام - .

﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى : فقال لهم ناصحا ومرشدا ، الكلمة التى قالها كل نبى لأمته : ياقوم اعبدوا الله - تعالى - وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من شرك .

وقال لهم - أيضا : وارجوا النجاة من أهوال يوم القيامة ، بأن تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فإن الإفساد فى الأرض ليس من شأن العقلاء ، وإنما هو من شأن الجهلاء الجاحدين لنعم الله - تعالى - . يقال : عَثِى فلان فى الأرض يعثو ويعثَى - كقال وتعب - ، إذا ارتكب أشد أنواع الفساد فيها .

فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - كما جاء فى الحديث الشريف ، قد أمر قومه بإخلاص العبادة لله ، وبالعمل الصالح الذى ينفعهم فى أخراهم ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فماذا كان موقفهم منه ؟

كان موقفهم منه : التكذيب والإعراض ، كما قال - سبحانه - : ﴿ فكذبوه ﴾ أى : فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه .

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أى : فأهلكهم الله - تعالى - بسبب تكذيبهم لنبيهم بالرجفة ، وهى الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ، إذا اضطربت اضطرابا شديدا .

ولا تعارض هنا بين قوله - تعالى - : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ وبين قوله - سبحانه - فى سورة هود : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ لأنه يجوز أن الله - تعالى - جعل لإهلاكهم سببين : الأول : أن جبريل - عليه السلام - صاح بهم صيحة شديدة أذهلتهم ، ثم رجفت بهم الأرض فأهلكتهم . وبعضهم قال : إن الرجفة والصيحة بمعنى واحد .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم بعد هلاكهم .

والمراد بدارهم : مساكنهم التى يسكنونها ، أو قريتهم التى يعيشون بها وقوله : ﴿ جاثمين ﴾ من الجثوم ، وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم - من باب ضرب - ، إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

أى : فأصبحوا فى مساكنهم هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .

ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى مصارع عاد وثمود فقال : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ .

وعاد : هم قوم هود - عليه السلام - وكانوا يسكنون بالأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من حضرموت .

وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - وكانت مساكنهم بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت مساكنهم تعرف حتى الآن بقرى صالح .

أى : وأهلكنا عادا وثمود بسبب كفرهم وعنادهم ، كما أهلكنا غيرهم ، والحال أنه قد تبين لكم - يا أهل مكة - وظهر لكم بعض مساكنهم ، وأنتم تمرون عليهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ المقصود منه غرس العبرة والعظة فى نفوس مشركى مكة ، عن طريق المشاهدة لآثار المهلكين ، فإن مما يحمل العقلاء على الاعتبار ، مشاهدة آثار التمزيق والتدمير ، بعد القوة والتمكين .

﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ السيئة . بسبب وسوسته وتسويله ، ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ الحق ، وعن الطريق المستقيم .

﴿ وكانوا ﴾ أى : عادا وثمود ﴿ مستبصرين ﴾ أى : وكانت لهم عقول يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، وإنما استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغى على الرشد ، فأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

وقوله - تعالى - : ﴿ مستبصرين ﴾ من الاستبصار ، بمعنى التمكن من تعقل الأمور ، وإدراك خيرها من شرها ، وحقها من باطلها .

ثم أشار - سبحانه - إلى ماحل بقارون وفرعون وهامان فقال : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ أى : وأهلكنا - أيضا - قارون ، وهو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، كما أهلكنا فرعون الذى قال لقومه : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وهامان الذى كان وزيرا لفرعون وعونا له فى الكفر والظلم والطغيان .

قال الآلوسى : وتقديم قارون ، لأن المقصود تسلية النبى - ﷺ - فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى - عليه السلام - وقد لقى منه مالقى . أو لأن حال قارون أوفق بحال عاد وثمود ، فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ، ولكنه لم يفده الاستبصار شيئا ، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا ..[1] .

ثم بين - سبحانه - ما جاءهم به موسى - عليه السلام - وموقفهم منه فقال : ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات ﴾ أى : جاءهم جميعا بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه .

﴿ فاستكبروا فى الأرض ﴾ أى : فاستكبر قارون وفرعون وهامان فى الأرض . وأبوا أن يؤمنوا بموسى ، بل وصفوه بالسحر وبما هو برىء منه .

﴿ وما كانوا سابقين ﴾ أى : وما كانوا بسبب استكبارهم وغرورهم هذا ، هاربين أو ناجين من قضائنا فيهم ، ومن إهلاكنا لهم .

فقوله : ﴿ سابقين ﴾ من السبق ، بمعنى التقدم على الغير . يقال فلان سبق طالبه ، إذا تقدم عليه دون أن يستطيع هذا الطالب إدراكه .

والمراد أن قارون وفرعون وهامان ، لم يستطيعوا - رغم قوتهم وغنائهم - أن يفلتوا من عقابنا ، بل أدركهم عذابنا إدراكا تاما فأبادهم وقضى عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء المكذبين ، ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، فقال : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ﴾ .

أى : فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح ، وكقارون وفرعون وهامان وأمثالهم : كلا من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التى أصر عليها دون أن يرجع عنها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٥٨ .

﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ أى : فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه ، بأن أرسلنا عليه ريحا شديدة رمته بالحصباء فأهلكته .

قال القرطبى : قوله : ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ يعنى قوم لوط . والحاصب ريح يأتى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار . وتستعمل فى كل عذاب[1] .

﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب - عليهما السلام - .

﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ وهو قارون .

﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه .

﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أى : وما كان الله - تعالى - مريدا لظلمهم ، لأنه - سبحانه - اقتضت رحمته وحكمته ، أن لا يعذب أحدا بدون ذنب ارتكبه .

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أى : ما ظلم الله - تعالى - هؤلاء المهلكين ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وعرضوها للدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واتباعهم للهوى والشيطان .

وبذلك نرى الآيات قد قصت على الناس مصارع الغابرين ، الذين كذبوا الرسل ، وحاربوا دعوة الحق ، ليكون فى هذا القصص عبرة للمعتبرين ، وذكرى للمتذكرين .

ثم ضرب الله مثلا ، لمن يتخذ آلهة من دونه : وتوعد من يفعل ذلك باشد أنواع العذاب ، فقال - تعالى - :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ
لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٤٤ .

والمَثَل والمِثْل : النظير والشبيه ، ثم أطلق المثل على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة - ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة . وعلى هذا المعنى يحمل المثل هنا .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الحاضر ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل ، أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والعنكبوت : دويبة معروفة ، تنسج لنفسها فى الهواء بيتا رقيقا ضعيفا ، لا يغنى عنها شيئا ، وتطلق هذه الكلمة على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى استعمالها التأنيث . والواو والتاء زائدتان ، كما فى لفظ طاغوت .

والمعنى : حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله - تعالى - أصنامًا يعبدونها ، ويرجون نفعها وشفاعتها ... كحال العنكبوت فى اتخاذها بيتًا ضعيفًا مهلهلاً ، لا ينفعها لا فى الحر ولا فى القر ، ولا يدفع عنها شيئًا من الأذى .

فالمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - آلهة ، هى فى ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت ، وأنهم لو كانوا من ذوى العلم لما عبدوا تلك الآلهة .

قال صاحب الكشاف : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمدًا فى دينهم ، وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس فى الوهن وضعف القوة . وهو نسج العنكبوت . ألا ترى إلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ .

فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟

قلت : معناه ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ... »[1] .

وقال الآلوسى : قوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو كانوا يعلمون شيئًا من الأشياء ، لعلموا أن هذا مثلهم ، أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . و « لو » شرطية ، وجوابها محذوف ، وجوز بعضهم كونها للتمنى فلا جواب لها ، وهو غير ظاهر »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٥٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٦٢ .

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شىء ، وأنه سيجازى هؤلاء المشركين بما يستحقونه من عقاب فقال : ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

و « ما » موصولة ، وهى مفعول يعلم ، والعائد محذوف ، و « من شىء » بيان لما .

أى : إن الله - تعالى - يعلم علمًا تامًا الذى يعبده هؤلاء المشركون من دونه ، سواء أكان ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من الجمادات أم من غير ذلك ، ﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب على كل شىء ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله .

﴿ وتلك الأمثال ﴾ التى سقناها فى كتابنا العزيز ، والتى من بينها المثال السابق .

﴿ نضربها للناس ﴾ على سبيل الإرشاد والتنبيه والتوضيح .

﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ أى : وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها ، إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى خلق الله - تعالى - ، الفاقهون لما يتلى عليهم .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على عظيم قدرته ، وأمر نبيه - ﷺ - بالإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، ومن الصلاة ، فقال - تعالى - :

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

أى : خلق الله - تعالى - السموات والأرض بالحق الذى لا باطل معه ، وبالحكمة التى لا يشوبها عبث أو لهو ، حتى يكون هذا الخلق متفقًا مع مصالح عبادنا ومنافعهم ..

ومن مظاهر ذلك ، أنك لا ترى - أيها العاقل - فى خلق الرحمن من تفاوت أو تصادم ، أو اضطراب .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ يعود إلى خلق السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من بدائع وعجائب .

أى : إن فى ذلك الذى خلقناه بقدرتنا ، من سماوات مرتفعة بغير عمد ، ومن أرض مفروشة بنظام بديع ، ومن عجائب لا يحصيها العد فى هذا الكون ، إن فى كل ذلك لآية بينة ، وعلامة واضحة ، على قدرة الله - عز وجل - .

وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم المتدبرون فى هذه الآيات والدلائل ، وهم المنتفعون بها فى التعرف على وحدانية الله وقدرته ، وعلى حسن عبادته وطاعته .

والمقصود بالتلاوة فى قوله - تعالى - : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب ﴾ : القراءة المصحوبة بضبط الألفاظ ، وبتفهم المعانى . والخطاب للرسول - ﷺ - ويشمل كل من آمن به . أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - ما أوحينا إليك من آيات هذا القرآن قراءة تدبر واعتبار واتعاظ ، وداوم على ذلك ، ومر أتباعك أن يقتدوا بك فى المواظبة على هذه القراءة الصحيحة النافعة .

﴿ وأقم الصلاة ﴾ أى : وواظب على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص واطمئنان ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا بك فى ذلك .

وقوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ تعليل للأمر بالمحافظة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص . أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة بالطريقة التى يحبها الله - تعالى - ، فإن من شأن الصلاة التى يؤديها المسلم فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، أن تنهى مؤديها عن ارتكاب الفحشاء - وهى كل ما قبح قوله وفعله - ، وعن المنكر - وهو كل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة - .

قال الجمل : « ومعنى نهيها عنها ، أنها سبب الانتهاء عنها ، لأنها مناجاة لله - تعالى - ، فلابد أن تكون مع إقبال تام على طاعته ، وإعراض كلى عن معاصيه .

قال ابن مسعود : فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد من الله إلا بعدًا ..

وروى عن أنس - رضى الله عنه - أن فتى من الأنصار ، كان يصلى مع النبى - ﷺ - ، ثم يأتى الفواحش ، فذكر للنبى - ﷺ - فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله »[1] .

والخلاصة : أن من شأن الصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع وبإتمام سننها وآدابها ، أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن وجدت إنسانًا يؤدى الصلاة ، ولكنه مع ذلك يرتكب

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٧٧ .

بعض المعاصى ، فأقول لك : إن الذنب ليس ذنب الصلاة ، وإنما الذنب ذنب هذا المرتكب للمعاصى ، لأنه لم يؤد الصلاة أداء مصحوبًا بالخشوع والإخلاص ... وإنما أداها دون أن يتأثر بها قلبه ..ولعلها تنهاه فى يوم من الأيام ببركة مداومته عليها ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الصلاة ستنهاه » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أى : ولذكر الله - تعالى - بجميع أنواعه من تسبيح وتحميد وتكبير وغير ذلك من ألوان العبادة والذكر ، أفضل وأكبر من كل شىء آخر ، لأن هذا الذكر لله - تعالى - فى كل الأحوال ، دليل على صدق الإيمان ، وحسن الصلة بالله - تعالى - .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر .. أى : ولذكر الله - تعالى - إياكم ، أكبر من ذكركم إياه - سبحانه - ..

وروى عن جماعة من السلف أن المعنى : ولذكر العبد لله - تعالى - ، أكبر من سائر الأعمال .

أخرج الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله يوم القيامة ، من ذكر الله - تعالى - ..

وقيل : المراد بذكر الله : الصلاة . كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ ، أى : إلى الصلاة ، فيكون المعنى : وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها به ، للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله - تعالى - هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ، ناهية عن السيئات »[1] .

ويبدو لنا أن المراد بذكر الله - تعالى - هنا : ما يشمل كل قول طيب وكل فعل صالح ، يأتيه المسلم بأخلاص وخشوع ، وعلى رأس هذه الأقوال والأفعال : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، والصلاة وما اشتملت عليه من أقوال وأفعال ..

وأن المسلم متى أكثر من ذكر الله - تعالى - ، كان ثوابه - سبحانه - له ، وثناؤه عليه ، أكبر وأعظم من كل قول ومن كل فعل .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ تذييل قصد به الترغيب فى إخلاص العبادة لله ، والتحذير من الرياء فيها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٦٥ .

أى : داوموا - أيها المؤمنون . على تلاوة القرآن الكريم ، بتدبر واعتبار ، وأقيموا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وخضوع ، وأكثروا من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإن الله - تعالى - يعلم ما تفعلونه وما تصنعونه من خير أو شر ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ..

ثم أمر الله - تعالى - رسوله والمؤمنين . أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، ما داموا لم يرتكبوا ظلماً ، وأقام - سبحانه - الأدلة على أن هذا القرآن من عنده وحده ، فقال :

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ
ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

والمجادلة : المخاصمة . يقال : جادل فلانٌ فلاناً ، إذا خاصمه ، وحرص كل واحد منهما على أن يغلب صاحبه بقوة حجته . أى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، إلا بالطريقة التى هى أحسن ، بأن ترشدوهم إلى طريق

(*) أول الجزء الحادى والعشرين .

الحق بأسلوب لين كريم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .. ﴾[1] .

وقوله : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن .

أى : ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم . بأن أساءوا إليكم ، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم ، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب .

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة ، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عمومًا ، ماعدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم .

وقيل : المراد بأهل الكتاب هنا : المؤمنون منهم ، والمراد بالذين ظلموا : من بقى على الكفر منهم .

فيكون المعنى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم .

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر ، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب ، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب ، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ... ﴾ يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم .

أى : جادلوهم بالطريقة الحسنى مادامو لم يظلموكم ، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد « آمنا بالذى أنزل إلينا » وهو القرآن ، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل .

قال الشوكانى : أى : آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية ، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه "[2] .

﴿ وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ﴿ ونحن ﴾ جميعًا معاشر المؤمنين ﴿ له مسلمون ﴾ أى : مطيعون وعابدون له وحده ، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل - .

---

(١) سورة النحل . الآية ١٢٥ .

(٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٠٥ .

قال القرطبى ما ملخصه : اختلف العلماء فى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب .. ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل - ، والتنبيه على حججه وآياته ... وقوله : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أى ظلموكم ..

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله .. ﴾ .

وقول مجاهد : حسن ، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به .. ﴾ .

والكاف بمعنى مثل : واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا . أى : ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع ، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس ، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق ، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك ، وهو القرآن .

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله . والمراد بالكتاب جنسه . والضمير فى « به » يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد - ﷺ - وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب ، على سبيل المدح لهم . لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه ، أما غيرهم ممن بقى على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلاً .

وقوله : ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ أى : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم - أيها الرسول الكريم - من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك .

و « من » للتبعيض ، لأنهم لم يؤمنوا جميعًا ، وإنما آمن منهم من هداه الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم .

﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، ﴿ إلا الكافرون ﴾ أى : إلا الموغلون فى الكفر ، المصرون عليه إصرارًا تامًا .

والجحود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٥٠ .

وعبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله - تعالى - ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران .

ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى - ، فقال : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون ﴾ .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن - تاليًا لكتاب من الكتب ، ولا عارفًا للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون فى شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من كتاب ﴾ لتأكيد نفى كونه - ﷺ - قارئًا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه .

وقوله : ﴿ ولا تخطه بيمينك ﴾ لتأكيد نفى كونه - ﷺ - يعرف الكتابة أو الخط .

قال الإمام ابن كثير : وهكذا صفته - ﷺ - فى الكتب المتقدمة ، كما قال - تعالى - : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل .. ﴾ وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة ، لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفًا بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم ... »[1] .

والمراد بالمبطلين ، كل من شك فى كون هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، سواء أكان من مشركى مكة أم من غيرهم .

وسماهم - سبحانه - مبطلين ، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق ، لأن الرسول - ﷺ - قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة ، يعرفون حسبه ونسبه ، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة .

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ... ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٥ .

أى : هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول - ﷺ - كما زعم المبطلون - ، بل هو آيات بينات واضحات راسخات ، فى صدور المؤمنين به ، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته ، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب .

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم ، والإعلاء من شأنهم ، حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع ، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله ، ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزوا كل حق وصدق فى أحكامهم وتصرفاتهم .

أى : وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها ، وينكر كونها من عند الله - تعالى - ، إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق ، ولكل ما هو صدق .

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال المشركين الفاسدة وأمرت الرسول - ﷺ - أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم ، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم ، حيث استعجلوا العذاب الذى لا يستعجله عاقل . فقال - تعالى - :

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

ومرادهم بالآيات فى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ﴾ الآيات الكونية ، كعصا موسى ، وناقة صالح . ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : وقال المبطلون للنبى - ﷺ - على سبيل التعنت والعناد ، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك ، لكى نؤمن بك ونتبعك ؟

وقوله : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إلى ما يرد به عليهم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى ردك على هؤلاء الجاهلين ، إنما الآيات التى تريدونها عند الله - تعالى - وحده ، ينزلها حسب إرادته وحكمته ، أما أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى ، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله - تعالى - شيئًا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .. ﴾ كلام مستأنف من جهته - تعالى - لتوبيخهم على جهالاتهم ، والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : أقالوا ما قالوا من باطل وجهل ، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الناطق بالحق ، يتلى على مسامعهم صباح مساء ، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم ، لو تدبروه وآمنوا به ، واتبعوا أوامره ونواهيه ؟

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ يتلى عليهم ﴾ ، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم ، وغير منقطعة عنهم ، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الكتاب الذى أنزلناه عليك - أيها الرسول الكريم - ، والذى تتلوه عليهم صباح مساء ، لرحمة عظيمة ، وذكرى نافعة ، لقوم يؤمنون بالحق ، ويفتحون عقولهم للرشد ، لا للتعنت والجحود والعناد .

ثم أرشده - سبحانه - إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدًا ﴾ . أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين : يكفينى كفاية تامة أن يكون الله - تعالى - وحده ، هو الشهيد بينى وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده .

وهو - سبحانه - ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ علمًا لا يعزب عنه شىء ، وسيجازينى بما أستحقه من ثواب ، وسيجازيكم بما تستحقونه من عقاب .

﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ وأعرضوا عن الحق ﴿ وكفروا بالله ﴾ - تعالى - مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة .

الذين فعلوا ذلك : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة ، حيث آثروا الغي على الرشد ، واستحبوا العمى على الهدى ، وسيكون أمرهم فرطًا فى الدنيا والآخرة .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ... ﴾ بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين ، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم . أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل أضافوا إلى ذلك ، التطاول عليك ، لسوء أدبهم ، وعدم فهمهم لوظيفتك . بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء ، على سبيل التحدى لك . كما قالوا فى موطن آخر : ﴿ ... اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[1] .

ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول : ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ... ﴾ . أى : يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم ، والحق أنه لولا أجل مسمى ، ووقت معين ، حدده الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب بهم ، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه ، بدون إبطاء أو تأخير .

ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لاريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ، وإن هذا العذاب المدمر المهلك : ﴿ ليأتينهم بغتة وهم لايشعرون ﴾ . أى : ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات ، والحال أنهم لايشعرون به ، بل يأتيهم بغتة فيبهتهم ، ويستأصل شأفتهم .

ثم كرر - سبحانه - أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم ، والتسلية للرسول - ﷺ - عما لقيه منهم . فقال : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

أى : يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب ، الذى لايطلبه أحد فى ذهنه مثقال ذرة من عقل ، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة ، وستحيط بهم جهنم من كل جانب .

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال : ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ .

أى : ستحيط بهم جهنم من كل جانب . يوم يحل بهم العذاب ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أى : من جميع جهاتهم .

﴿ ويقول ﴾ - سبحانه - لهم ، على سبيل التقريع والتأنيب ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أى : تذوقوا العذاب المهين الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا والذى أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة ، وأقوالكم الباطلة .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين ، الذين استعجلوا العذاب لجهلهم وعنادهم ، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق ، فقال - تعالى - :

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ
رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ... ﴾ : هذا أمر من الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ...

روى الإمام أحمد عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله - ﷺ - : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرًا فأقم » .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك .. ثم بعد ذلك ، هاجر الرسول - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة المنورة ... »[١] .

وفى ندائهم بقوله : ﴿ ياعبادى ﴾ وفى وصفهم بالإيمان ، تكريم وتشريف لهم ، حيث أضافهم - سبحانه - إلى ذاته ، ونعتهم بالنعت المحبب إلى قلوبهم .

وقوله : ﴿ إن أرضى واسعة ﴾ تحريض لهم على الهجرة من الأرض التى لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : ليس هناك ما يجبركم على الإقامة فى تلك الأرض التى لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم ، بل اخرجوا منها فإن أرضى واسعة ، ومن خرج من أجل كلمة الله ، رزقه الله - تعالى - من حيث لا يحتسب .

ومن المفسرين الذين أجادوا فى شرح هذا المعنى ، صاحب الكشاف - رحمه الله - فقد قال : ومعنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب ، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبًا ، وأصح دينا ، وأكثر عبادة ...

ولعمرى إن البقاع تتفاوت فى ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس ، وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتلفت ، وأضم للهم المنتشر ، وأحث على القناعة ، وأطرد للشيطان ، وأبعد عن الفتن ... من سكنى حرم الله ، وجوار بيت الله ، فلله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ... »[٢] .

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فإياى فاعبدون ﴾ بمعنى الشرط ، وإياى منصوب بفعل مضمر ، قد استغنى عنه بما يشبهه . أى : فاعبدو إياى فاعبدون .

والمعنى : إن ضاق بكم مكان ، فإياى فاعبدوا ، لأن أرضى واسعة ، ولن تضيق بكم .

ثم رغبهم بأسلوب آخر فى الهجرة من الأرض الظالم أهلها ، بأن بين لهم بأن الموت سيدركهم فى كل مكان ، فقال - تعالى - : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون ﴾ .

أى : كل نفس سواء أكانت فى وطنها الذى عاشت فيه أم فى غيره ، ذائقة لمرارة الموت ، ومتجرعة لكأسه ، ثم إلينا بعد ذلك ترجعون جميعًا لنحاسبكم على أعمالكم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من جزاء طيب فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لنبوئنهم من الجنة غرفا ... ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٩ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٦١ .

أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، لننزلنهم من الجنة غرفا عالية فخمة . هذه الغرف من صفاتها أنها ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ زيادة فى إكرام أصحابها ، وفضلاً عن ذلك فقد جعلناهم ﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديًا .

والمخصوص بالمدح فى قوله : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ محذوف . أى : نعم أجر العاملين ، أجر هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ صفة لهؤلاء العاملين .

أى : من مناقبهم الجليلة أنهم يصبرون على طاعة الله ، وعلى كل ما يحسن معه الصبر ، وأنهم يفوضون أمورهم إلى خالقهم لا إلى غيره .

ثم رغبهم - سبحانه - فى الهجرة لإعلاء كلمة الله بأسلوب ثالث ، حيث بين لهم أن هجرتهم لن تضيع شيئًا من رزقهم الذى كتبه الله لهم ، فقال - سبحانه - : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ .

روى أن بعض الذين أسلموا بمكة عندما أمرهم النبى - ﷺ - بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نهاجر إلى بلدة ليس لنا فيها معيشة ، فنزلت هذه الآية .

وكلمة « كأين » : مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير . ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . وهى مبتدأ . و « من دابة » تمييز لها .

وجملة : « لا تحمل رزقها » صفة لها ، وجملة « الله يرزقها » هى الخبر .

والدابة : اسم لكل نفس تدب على وجه الأرض سواء أكانت من العقلاء أم من غير العقلاء . أى : وكثير من الدواب التى خلقها الله - تعالى - بقدرته ، لا تستطيع تحصيل رزقها ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، لضعفها أو عجزها ... ومع هذا فالله - تعالى - برحمته وفضله يرزقها ولا يتركها تموت جوعًا ، ويرزقكم أنتم - أيضًا ، لأنه لا يوجد مخلوق - مهما اجتهد ودأب يستطيع أن يخلق رزقه .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ السميع ﴾ لكل شىء ﴿ العليم ﴾ بما تسرون وما تعلنون .

وقدم - سبحانه - رزق الدابة التى لا تستطيع تحصيله ، على رزقهم فقال : ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ لينفى من قلوب الناس القلق على الرزق ، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هى كل شىء ، فإن واهب الأسباب ، لا يترك أحدًا بدون رزق ، ولإزالة ما قد يخطر فى النفوس من أن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله قد تنقص الرزق ..

وهكذا يسوق - سبحانه - من المرغبات فى الهجرة فى سبيله ، ما يقنع النفوس ، ويهدى القلوب ، ويجعل المؤمنين يقبلون على تلبية ندائه ، وهم آمنون مطمئنون على أرواحهم ، وعلى أرزاقهم ، وعلى حاضرهم ومستقبلهم ، فسبحان من هذا كلامه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما عليه المشركون من تناقض فى أفكارهم وفى تصوراتهم ، وببيان حال هذه الحياة الدنيا . وببيان جانب من النعم التى أنعم بها على أهل مكة ، وببيان ما أعده للمجاهدين فى سبيله من ثواب ، فقال - تعالى - :

وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى
ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ
ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ

لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ... ﴾ بيان لما كان عليه مشركو العرب من اعتراف بأن المستقل بخلق هذا الكون هو الله - تعالى - .

أى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، من الذى أوجد هذه السموات وهذه الأرض ، ومن الذى ذلل وسخر لمنفعتكم الشمس والقمر ، ليقولن بدون تردد : الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك بقدرته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ تعجيب من تناقضهم فى أفعالهم ، ومن انحراف فى تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم .

أى : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسموات والأرض ، والمسخر للشمس والقمر ، فلماذا أشركتم معه فى العبادة آلهة أخرى ؟ ولماذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته - عز وجل - ؟

ثم بين - سبحانه - أن الأرزاق جميعها بيده ، يوسعها لمن يشاء ويضيقها على من يشاء فقال : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له .. ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ له ﴾ يعود على ﴿ من ﴾ على حد قولك : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه عليه من عباده ، وهو وحده الذى يضيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه من عباده . لأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ، وأفعاله كلها خاضعة لمشيئته وحكمته ، وكل شىء عنده بمقدار .

ويجوز أن يكون المعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى بقدرته أن يوسع الرزق لمن يشاء من عباده تارة ، وأن يضيقه عليهم تارة أخرى .

فعلى المعنى الأول : يكون البسط فى الرزق لأشخاص ، والتضييق على آخرين ، وعلى المعنى الثانى يكون البسط والتضييق للأشخاص أنفسهم ولكن فى أوقات مختلفة .

والله - تعالى - قادر على كل هذه الأحوال ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ فيعلم ما فيه صلاح عباده وما فيه فسادهم ، ويعلم من يستحق أن يبسط له فى رزقه ، ومن يستحق التضييق عليه فى رزقه .

ثم أكد - سبحانه - للمرة الثانية اعتراف هؤلاء المشركين بقدرة الله - تعالى - فقال : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ﴾ أى : ماء كثيرًا ﴿ فأحيا به الأرض من بعد موتها ﴾ أى : فجعل الأرض بسبب نزول الماء عليها تصبح خضراء بالنبات بعد أن كانت جدباء قاحلة .

لئن سألتهم من فعل ذلك ﴿ ليقولن الله ﴾ هو الذى فعل ذلك .

﴿ قل الحمد لله ﴾ أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الثناء على الله - تعالى - : الحمد لله الذى أظهر حجته ، وجعلهم ينطقون بأنك على الحق المبين ، ويعترفون بأن إشراكهم إنما هو من باب العناد والجحود .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ إضراب عما هم عليه من انحراف وتناقض ، إلى بيان حقيقة حالهم ، وتسلية للرسول - ﷺ - عما يعتريه بسببهم من حزن .

أى : بل أكثرهم لا يعقلون شيئًا مما يجب أن يكون عليه العقلاء من فهم سليم للأمور ، ومن العمل بمقتضى ما تنطق به الألسنة .

وفى التعبير بأكثرهم ، إنصاف لقلة منهم عقلت الحق فاتبعته ، وآمنت به وصدقته ، ثم بين - سبحانه - هوان هذه الحياة الدنيا ، بالنسبة للدار الآخرة فقال : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ .

واللهو : اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه . أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا .

واللعب : العبث . وهو فعل لا يقصد به مقصد صحيح .

أى : أن هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من حطام ، تشبه فى سرعة انقضائها وزوال متعها ، الأشياء التى يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتًا ، ثم ينفضون عنها .

أما الدار الآخرة ، فهى دار الحياة الدائمة الباقية ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انقضاء .

ولفظ « الحيوان » مصدر حى . سمى به ذو الحياة ، والمراد به هنا : نفس الحياة الحقة .

وقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو كانوا يعلمون حق العلم ، لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يحيط بهم البلاء فقال - تعالى - : ﴿ فإذا ركبوا فى

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين .. ﴾ . أى : أن من صفات هؤلاء الجاحدين ، أنهم إذا ركبوا السفن ، وجرت بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، ثم جاءتهم بعد ذلك ريح عاصف ، وظنوا أن الغرق قد اقترب منهم ، تضرعوا إلى الله - تعالى - مخلصين له العبادة والدعاء .

﴿ فلما نجاهم إلى البر ﴾ بفضله وكرمه ، وأنقذهم من الغرق المحقق ﴿ إذا هم يشركون ﴾ مع الله - تعالى - غيره فى العبادة والطاعة .

وقد فعلوا ذلك : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من نعم ، وبما منحناهم من فضل ورحمة .

﴿ وليتمتعوا ﴾ بمتع هذه الحياة وزينتها إلى حين ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عما قريب عاقبة هذا الكفران لنعم الله ، وهذا التمتع بزينة الحياة الدنيا دون أن يعملوا شيئًا ينفعهم فى أخراهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ : الظاهر أن اللام فى الموضعين لام كى ، أى : يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام . فالشرك سبب لهذا الكفران . وأدخلت لام كى على مسببه ، لجعله كالغرض لهم منه ، فهى لام العاقبة فى الحقيقة .

وقيل : اللام فيهما لام الأمر ، والأمر بالكفران والتمتع ، مجاز فى التخلية والخذلان والتهديد ، كما تقول عند الغضب على من يخالفك : « افعل ما شئت »[1] .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة الحرم الآمن ، الذى يعيشون فى جواره مطمئنين ، فقال : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ .

أى : أجهل هؤلاء قيمة النعمة التى هم فيها ، ولم يدركوا ويشاهدوا أنا جعلنا بلدهم مكة حرمًا آمنًا ، يأمنون فيه على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ، والحال أن الناس من حولهم يقتل بعضهم بعضًا ، ويعتدى بعضهم على بعض بسرعة وشدة . والتخطف : الأخذ بسرعة .

قال صاحب الكشاف : كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضًا ، ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون فيها آمنون لا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله بهذه النعمة الخاصة بهم »[2] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ للتعجب من حالهم ، وللتوبيخ لهم على هذا الجحود والكفر لنعم الله - تعالى - . أى : أفبعد هذه النعمة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٦٤ .

الجليلة يؤمنون بالأصنام وبنعمة الله التى تستدعى استجابتهم للحق يكفرون .

فالآية الكريمة قد اشتملت على ما لا يقادر قدره ، من تعجب وتوبيخ وتقريع .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبا ، بأن زعم بأن لله - تعالى - شريكا ، أو كذب بالحق الذى جاءه به الرسول - ﷺ - بأن أعرض عنه ، وأبى أن يستمع إليه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ للتقرير ، والمثوى : المكان الذى يثوى فيه الشخص ، ويقيم به ، ويستقر فيه .

أى : أليس فى جهنم مأوى ومكانًا يستقر فيه هؤلاء الكافرون لنعم الله - تعالى - ؟ بل إن فيها مكانًا لاستقرارهم ، وبئس المكان ، فإنها ساءت مستقرا ومقاما .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

أى : هذا الذى ذكرناه سابقًا من سوء مصير ، هو للمشركين الذين يؤمنون بالباطل ويتركون الحق ، أما الذين بذلوا جهدهم فى سبيل إعلاء ديننا ، وقدموا أنفسهم وأموالهم فى سبيل رضائنا وطاعتنا ، وأخلصوا لنا العبادة والطاعة ، فإننا لن نتخلى عنهم ، بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ، ونجعل العاقبة الطيبة لهم ، فقد اقتضت رحمتنا وحكمتنا أن نكون مع المحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم ، وتلك سنتنا التى لا تتخلف ولا تتبدل .

وبعد فهذا تفسير لسورة « العنكبوت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة - مدينة نصر - ظهر الأحد ١٩ من جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ

٦ / ١ / ١٩٨٥ م

تفسير

سُورَةُ الرُّومِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الروم هى السورة الثلاثون فى ترتيب المصحف أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثانية والثمانون ، وقد كان نزولها بعد سورة الانشقاق .

٢ - وقد افتتحت بالحديث عن قصة معينة ، وهى قصة الحروب التى دارت بين الفرس والروم ، والتى انتهت فى أول الأمر بانتصار الفرس ، ثم كان النصر بعد ذلك للروم .

قال - تعالى - : ﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

٣ - ثم وبخت السورة الكريمة الكافرين ، لعدم تفكرهم فى أحوال أنفسهم ، وفى أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، وتوعدتهم بسوء المصير بسبب انطماس بصائرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق ، ووعدت المؤمنين بحسن الجزاء .

قال - تعالى - : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ .

٤ - ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك اثنى عشر دليلا على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وقد بدئت هذه الأدلة بقوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

٥ - وبعد أن أقام - سبحانه - هذه الأدلة المتعددة على وحدانيته وقدرته ، أتبع ذلك بأن أمر الناس باتباع الدين الحق ، وبالإنابة إليه - تعالى - فقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا

فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ .

٦ - ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى السراء والضراء ، ودعاهم إلى التعاطف والتراحم ، ونفرهم من تعاطى الربا ، فقال - تعالى - : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ .

٧ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وبين الآثار السيئة التى تترتب على جحود هذه النعم ، ودعا الناس للمرة الثانية إلى اتباع الدين القيم ، الذى لا يقبل الله - تعالى - دينا سواه ، فقال - تعالى - : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصَّدَّعون . من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾ .

٨ - ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة الله فى الرياح وفى إرسال الرسل ، وأمر كل عاقل أن يتأمل فى آثار هذه النعم ، ليزداد إيمانا على إيمانه ، فقال - تعالى - ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ﴾ .

٩ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان أهوال الساعة ، وحكى أقوال أهل العلم والإيمان ، فى ردهم على المجرمين عندما يقسمون أنهم مالبثوا فى هذه الدنيا سوى ساعة واحدة ، وأمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يصبر على أذى أعدائه ، فقال - تعالى - : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ .

١٠ - وهكذا نجد أن سورة «الروم» قد أفاضت فى الحديث عن الأدلة المتعددة ، التى تشهد بوحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كما تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، وبأن يوم القيامة حق وصدق ، كما ساقت آيات متعددة فى المقارنة بين مصير الأخيار ، ومصير الأشرار ، ودعت الناس إلى الثبات على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، كما حضت على التعاطف والتراحم بين المسلمين ، ونهت عن تعاطى الربا ، لأنه لا يربو عند الله - تعالى - ، وإنما الذى يعطى من صدقات هو الذى يربو عند الله - عز وجل - كما ذكرت أنواعا من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على عباده ، وأمرتهم بشكره - سبحانه - عليها ، لكى يزيدهم من فضله .

هذه أهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يراها من يتدبر هذه السورة الكريمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - ١٧ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

٧ / ٣ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾
وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

سورة الروم من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد ذكرنا فى أكثر من سورة آراء العلماء فى هذه الحروف ، ورجحنا أن هذه الحروف قد ذكرها - سبحانه - فى افتتاح بعض السور القرآنية ، للتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله ، لأن الله - تعالى - قد أنزله على رسوله - ﷺ - بمثل الحروف التى ينطق بها المشركون ، ومع ذلك فهم أعجز من أن يأتوا بسورة من مثله .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ غلبت الروم . فى أدنى الأرض .. ﴾ روايات منها ، ما رواه ابن جرير - بإسناده - عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض .. ﴾ قالو : يا أبا بكر .

إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين : قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ - أى : نراهنك وكان ذلك قبل تحريم الرهان - فبايعوه على أربع قلائص - جمع قلوص ، وهى من الإبل : الشابة - إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شىء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر للنبى - ﷺ - فقال : ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا : دون العشر .

قال : اذهب فزايدهم ، وازدد سنتين فى الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك.[1] .

وقال بعض العلماء : اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان قد غزا بلاد الشام مرتين : فى سنة ٦١٣ ، وفى سنة ٦١٤ ، أى : قبل الهجرة بسبع سنين ، فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون ، وشمتوا فى المسلمين .. فنزلت هذه الآيات .

فلم يمض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين ، إلا وقد انتصر الروم على الفرس ، وكان ذلك سنة ٦٢١ م . أى : قبل الهجرة بسنة[2] .

وأدنى بمعنى أقرب . والمراد بالأرض : أرض الروم .

أى : غلبت الروم فى أقرب أرضها من بلاد الفرس .

قال ابن كثير : وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم ، حين غلبت الروم ، بين أذرعات وبصرى ، - على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما - ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس[3] .

وقال الآلوسى : والمراد بالأرض : أرض الروم ، على أن « أل » نائبة مناب الضمير المضاف إليه ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة ، لأن الكلام معهم . أو المراد بها أرض مكة ونواحيها ، لأنها الأرض المعهودة عندهم ، والأقربية بالنظر إلى الروم[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ﴾ بشارة من الله - تعالى - للمؤمنين ، بأن الله - تعالى - سيحقق لهم ما يرجونه من انتصار الروم على الفرس .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٠٥ . وتفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ١٣ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١٢ ص ٤٧٦٥ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٠ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٧ .

أى وهم - أى الروم - من بعد هزيمتهم من الفرس ، سينتصرون عليهم ، خلال بضع سنين .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ سيغلبون . فى بضع سنين ﴾ ، لتأكيد هذا الوعد ، وبيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من عمر الأمم ، وقد تحقق هذا الوعد على أكمل صورة وأتمها ، فقد انتصر الروم على الفرس نصرا عظيما ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - حيث أخبر عن أمور ستقع فى المستقبل ، وقد وقعت كما أخبر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ جملة معترضة لبيان قدرة الله - تعالى - التامة النافذة ، فى كل وقت وآن . أى : لله - تعالى - وحده الأمر النافذ من قبل انتصار الفرس على الروم ، ومن بعد انتصار الروم على الفرس : وكلا الفريقين كان نصره أو هزيمته بإرادة الله ومشيئته ، وليس لأحد من الخلق أن يخرج عما قدره - سبحانه - وأراده .

﴿ ويومئذ ﴾ أى : ويوم أن يتغلب الروم على الفرس ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ حيث نصر أهل الكتاب وهم الروم ، على من لا كتاب لهم وهم الفرس ، الذين كانوا يعبدون النار فأبطل - سبحانه - بهذا النصر شماتة المشركين فى المسلمين ، وازداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم .

قال ابن كثير : وقد كانت نصرة الروم على فارس ، يوم وقعة بدر ، فى قول طائفة كبيرة من العلماء ... فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ مؤكد لما قبله . أى : ينصر - سبحانه - من يريد نصره ، ويهزم من يريد هزيمته ، وهو ، العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء .

ثم زاد - سبحانه - هذا الأمر تأكيدا وتقوية فقال : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ .

ولفظ « وعد » منصوب بفعل محذوف .

أى : وعد الله المؤمنين بالنصر وبالفرح وعدا مؤكدا ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أنه لا يخلف وعده .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك ، لا نطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل على عقولهم ، ولاستحواذ الشيطان عليهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٠ .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ يعود للأكثر من الناس . أى : هؤلاء الأكثرون من الناس ، من أسباب جهلهم بسنن الله - تعالى - فى خلقه ، أنهم لا يهتمون إلا بملاذ الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ، ووسائل المعيشة فيها .

﴿ وهم عن الآخرة ﴾ وما فيها من حساب وثواب وعقاب ﴿ هم غافلون ﴾ لأنهم آثروا الدار العاجلة ، على الدار الباقية ، فهم - كما قال - تعالى - : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿ يعلمون ظاهرا ﴾ بدل من قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسد مسده . ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا .. وفى تنكير قوله : ﴿ ظاهرا ﴾ إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهر الحياة الدنيا[1] .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الكافرين وأشباههم ، انهماكهم فى شئون الدنيا انهماكا تاما ، جعلهم غافلين عما ينتظرهم فى أخراهم من حساب وعقاب . ورحم الله القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

ثم حضهم - سبحانه - على التفكر فى خلق أنفسهم ، وعلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر والتدبر يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٨ .

وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ
أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى .. ﴾ لتوبيخ أولئك الكافرين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ما خلق ﴾ للنفى ، والباء فى قوله ﴿ إلا بالحق ﴾ للملابسة . وقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على الحق .

والمعنى : أبلغ الجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم اكتفوا بالانهماك فى متع الحياة الدنيا ، ولم يتفكروا فى أحوال أنفسهم وفى أطوار خلقها ، لأنهم لو تفكروا لعلموا وأيقنوا ، أن الله - تعالى - : ما خلق السموات والأرض وما بينهما ، إلا ملتبسة بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وبالحكمة التى لا يحوم حولها عبث ، وقد قدر - سبحانه - لهذه المخلوقات جميعها أجلا معينا تنتهى عنده ، وهو وقت قيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الأشقياء ، غفلتهم عن الدار الآخرة وما فيها من حساب ، وتحضهم على التفكر فى تكوين أنفسهم ، وفى ملكوت السموات والأرض ، لأن هذا التفكر من شأنه أن يهدى إلى الحق ، كما تلفت أنظارهم إلى أن لهذا الكون كله نهاية ينتهى عندها ، وقت أن يأذن الله - تعالى - بذلك ، وبقيام الساعة .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الأكثرية من الناس من قضية البعث والجزاء فقال : ﴿ وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

أى : وإن كثيرا من الناس لفى انشغال تام بدنياهم عن آخرتهم ، ولا يؤمنون بما فى الآخرة من حساب وثواب وعقاب ، بل يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وعلى رأس هذا الصنف من الناس مشركو مكة الذين أرسل النبى - ﷺ - فيهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإن كثيرا من الناس .. ﴾ للإشعار بأن هناك عددا قليلا من الناس - بالنسبة لهؤلاء الكثيرين - قد آمنوا بلقاء ربهم ، واستعدوا لهذا اللقاء عن طريق العمل الصالح الذى يرضى خالقهم - عز وجل - .

ثم قرعهم - سبحانه - للمرة الثانية على عدم اتعاظهم بأحوال السابقين من الأمم قبلهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .. ﴾ .

أى : أقعد مشركو مكة فى ديارهم ، ولم يسيروا فى الأرض سير المتأملين المتفكرين المعتبرين فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، من الأمم الماضية ، كقوم عاد وثمود ، وقوم لوط .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ بيان لحال هؤلاء الأقوام السابقين ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ أى : كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة فى كل مجال من مجالات القوة ، وكانوا أقدر منهم على حراثة الأرض ، وتهيئتها للزراعة ، واستخراج خيراتها من باطنها .

﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ أى : حرثوا الأرض وشقوا عن باطنها ، وعمروها عمارة أكثر من عمارة أهل مكة لها ، لأن أولئك الأقوام السابقين كانوا أقوى من كفار مكة ، وكانوا أكثر دراية بعمارة الأرض .

وهؤلاء الأقوام السابقون : ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات ، ولكن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله - تعالى - ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ أى : فما كان الله - تعالى - من شأنه أن يعذبهم بدون ذنب .

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث ارتكبوا من الكفر والمعاصى ما كان سببا فى هلاكهم .

ثم بين - سبحانه - المصير السيئ ، الذى حل بهؤلاء الكافرين فقال : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ﴾ .

ولفظ « عاقبة » قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى - بفتح التاء - على أنه خبر « كان » قدم على اسمها ، وهو لفظ « السوأى » الذى هو تأنيث الأسوأ ، كالحسنى تأنيث الأحسن . وجرد الفعل « كان » من التاء مع أن السوأى مؤنث ، لأن التأنيث غير حقيقى .

فيكون المعنى : ثم كانت العقوبة السيئة وهى العذاب فى جهنم ، عاقبة الذين عملوا فى دنياهم الأعمال السيئات .

وقرأ الباقون برفع لفظ « عاقبة » على أنه اسم كان، وخبرها لفظ « السوأى » أى : ثم كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الذين أساءوا فى دنياهم ، أسوأ العقوبات وأقبحها ، أو كانت عاقبتهم العاقبة السوأى وهى الإلقاء بهم فى النار وبئس القرار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ تعليل لما آل إليه أمرهم من عاقبة سيئة ، أى : لأن كذبوا ، أو بأن كذبوا بحذف حرف الجر .

أى ؛ كانت عاقبتهم فى الآخرة أسوأ العقوبات وأقبحها وهى العذاب فى جهنم ، لأنهم فى الدنيا كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا - ﷺ - وكانوا بها يستهزئون .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته ، وبين أحوال الناس وأقسامهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

ٱللَّهُ
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ
شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾

أى : ﴿ الله ﴾ - تعالى - وحده هو ﴿ يبدأ الخلق ﴾ أى : ينشئه ويوجده على غير مثال سابق ، ﴿ ثم يعيده ﴾ أى : إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ للحساب والجزاء ، فيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وأفرد - سبحانه - : الضمير فى ﴿ يعيده ﴾ باعتبار لفظ الخلق . وجمعه فى قوله : ﴿ ترجعون ﴾ باعتبار معناه .

ثم ذكر - سبحانه - حال المجرمين يوم القيامة فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ و ﴿ يبلس ﴾ من الإبلاس بمعنى السكوت والذهول وانقطاع الحجة ، يقال : أبلس الرجل ، إذا وقف ساكتا حائرا مبهوتا لا يجد كلاما ينقذه مما هو فيه من بلاء .

أى : ويوم تقوم الساعة ، ويشاهد المجرمون أهوالها ، يصابون بالذهول والحيرة والسكوت المطبق ، لانقطاع حجتهم ، وشدة حزنهم وهمهم ، ويأسهم من النجاة يأسا تاما .

﴿ ولم يكن لهم ﴾ فى هذا اليوم ﴿ من شركائهم ﴾ الذين عبدوهم فى الدنيا ﴿ شفعاء ﴾ يشفعون لهم ، ويجيرونهم من عذاب الله .

﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ أى : أنهم فى هذا اليوم العسير لم يكن لهم من شفعاء يشفعون لهم . بل إنهم صاروا فى هذا اليوم الشديد ، كافرين بشركائهم الذين توهموا منهم الشفاعة ، لأنهم يوم القيامة تتجلى لهم الحقائق ، ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ، ولا يخشى منهم ضر .

ثم كرر - سبحانه - هذا المعنى على سبيل التأكيد والتهويل من شأنه فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ يتفرقون ﴾ للناس جميعا . والمراد بتفرقهم أن كل طائفة منهم تتجه إلى الجهة التى أمرهم - سبحانه - بالتوجه إليها ، لينال كلٌّ جزاءه .

ثم بين - سبحانه - كيفية هذا التفرق فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ .

والروضة : تطلق على كل مكان مرتفع زاخر بالنبات الحسن . والمراد بها هنا : الجنة .

ويحبرون : من الحبور بمعنى الفرح والسرور والابتهاج .

أى : ويوم تقوم الساعة ، فى هذا اليوم يتفرق الناس إلى فريقين ، فأما فريق الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، فسيكونون فى الآخرة فى جنة عظيمة ، يسرون بدخولها سرورا عظيما ، وينعمون فيها نعيما لا يحيط به الوصف .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ بالله وبرسله وباليوم الآخر ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا ﴿ فأولئك ﴾ الكافرون ﴿ فى العذاب محضرون ﴾ أى : مقيمون فيه ، ومجموعون إليه ، بحيث لا يستطيعون الهروب منه - والعياذ بالله .

وبعد هذا البيان المؤثر لأهوال يوم القيامة ، ولأحوال الناس فيه .. ساق - سبحانه -

أنواعا متعددة من الأدلة والبراهين على وحدانيته - عز وجل - وقدرته ، ورحمته بخلقه ، فقال - تعالى - :

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ﴾

قالوا الإمام الرازى : لما بين - سبحانه - عظمته فى الابتداء بقوله ﴿ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ ، وعظمته فى الانتهاء ، بقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ وأن الناس يتفرقون فريقين ، ويحكم - عز وجل - على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى ، بعد كل ذلك أمر بتنزيهه عن كل سوء ، وبحمده على كل حال ، فقال : ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾[1] .

والفاء فى قوله : ﴿ فسبحان .. ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولفظ « سبحان » اسم مصدر ، منصوب بفعل محذوف . والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - : عن كل مالا يليق بجلاله . والمعنى : إذا علمتم ما أخبرتكم به قبل ذلك ، فسبحوا الله - تعالى - ونزهوه عن كل نقص ﴿ حين تمسون ﴾ أى : حين تدخلون فى وقت المساء ، ﴿ وحين تصبحون ﴾ أى : تدخلون فى وقت الصباح .

وقوله - تعالى - : ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض ﴾ جملة معترضة لبيان أن جميع الكائنات تحمده على نعمه ، وأن فوائد هذا الثناء تعود عليهم لا عليه - سبحانه - .

وقوله ﴿ وعشيا ﴾ معطوف على ﴿ حين تمسون ﴾ أى : سبحوا الله - تعالى - : حين تمسون ، وحين تصبحون ، وحين يستركم الليل بظلامه . وحين تكونون فى وقت الظهيرة ، فإنه - سبحانه - هو المستحق للحمد والثناء من أهل السموات ومن أهل الأرض ، ومن جميع المخلوقات .

قال ابن كثير : وعن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى ، سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .

وفى حديث آخر : « من قال حين يصبح : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .. أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قالها حين يمسى ، أدرك ما فاته فى ليلته[2] » .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٥١٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٤ .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر قدرته فقال : ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ كإخراجه الإنسان من النطفة ، والنبات من الحب ، والمؤمن من الكافر ﴿ ويخرج الميت من الحى ﴾ كما فى عكس هذه الأمور ، كإخراجه النطفة من الإنسان ، والحب من النبات ، والكافر من المؤمن .

﴿ ويحيى الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ : أى : بعد قحطها وجدبها ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ، وقوله - تعالى - : ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ تذييل قصد به تقريب إمكانية البعث من العقول والأفهام . أى : ومثل هذا الإخراج البديع للنبات من الأرض ، وللحى من الميت ، نخرجكم - أيها الناس - من قبوركم يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

ثم أورد - سبحانه - بعد ذلك أنواعا من الأدلة على قدرته التى لا يعجزها شىء ، فقال - تعالى - ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ .

والآيات : جمع آية ، وتطلق على الآية القرآنية ، وعلى الشىء العجيب ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ .. والمراد بها هنا : الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

والمعنى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على عظمته ، وعلى كمال قدرته ، أنه خلقكم من تراب ، أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فروع عنه .

و « إذا » فى قوله : ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ هى الفجائية .

أى : خلقكم بتلك الصورة البديعة من مادة التراب التى لا يرى فيها رائحة للحياة ، ثم صرتم بعد خَلْقِنا إياكم فى أطوار متعددة ، بشرا تنتشرون فى الأرض ، وتمشون فى مناكبها ، وتتقلبون فيها تارة عن طريق الزراعة ، وتارة عن طريق التجارة ، وتارة عن طريق الأسفار .. كل ذلك طلبا للرزق ، ولجمع الأموال .

وعبر - سبحانه - بثم المفيدة للتراخى، لأن انتشارهم فى الأرض لا يتأتى إلا بعد مرورهم بأطوار متعددة ، منها أطوار خلقهم فى بطون أمهاتهم ، وأطوار طفولتهم وصباهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد .

قال الشوكانى : وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم ، بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان ، كما حكاها الله - تعالى - فى

مواضع ، من كونه نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظما مكسوا لحما ."[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان آية ثانية ، دالة على كمال قدرته ورأفته بعباده ، فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ أى : ومن آياته الدالة على رحمته بكم ، أنه - سبحانه - خلق لكم ﴿ من أنفسكم ﴾ أى : من جنسكم فى البشرية والإنسانية أزواجا .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ من أنفسكم أزواجا ﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدام - عليه السلام - متضمن لخلقهن من أنفسكم « فمن » للتبعيض والأنفس بمعناها الحقيقى ، ويجوز أن تكون « من » ابتدائية ، والأنفس مجاز عن الجنس ، أى : خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر ، قيل : وهو الأوفق لما بعد[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ بيان لعلة خلقهم على هذه الطريقة . أى : خلق لكم من جنسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، ويميل بعضكم إلى بعض ، فإن الجنس إلى الجنس أميل ، والنوع إلى النوع أكثر ائتلافا وانسجاما﴿ وجعل ﴾ - سبحانه - ﴿ بينكم ﴾ يا معشر الأزواج والزوجات ﴿ مودة ورحمة ﴾ أى : محبة ورأفة ، لم تكن بينكم قبل ذلك ، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذى شرعه - سبحانه - بين الرجال والنساء ، والذى وصفه - تعالى - بهذا الوصف الدقيق ، فى قوله - عز وجل - : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم قبل ذلك ﴿ لآيات ﴾ عظيمة تهدى إلى الرشد وإلى الاعتبار ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بخلقه .

ثم ذكر - سبحانه - آية ثالثة فقال : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ أى : ومن آياته الدالة على قدرته التامة على كل شىء ، خلقه للسموات والأرض بتلك الصورة البديعة ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ أى : واختلاف لغاتكم فهذا يتكلم بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بالرومية .. إلى غير ذلك مما لا يعلم عدده من اللغات ، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التى يتكلم بها أفرادها ، ومئات اللهجات ﴿ وألوانكم ﴾ أى : ومن آياته كذلك ، اختلاف ألوانكم ، فهذا أبيض ، وهذا أسود ، وهذا أصفر ، وهذا أشقر .. مع أن الجميع من أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء . بل إنك لا تجد شخصين يتطابقان تطابقا تاما فى خلقتهما وشكلهما .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢١٩ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٣٠ .

قال صاحب الكشاف : الألسنة : اللغات . أو أجناس النطق وأشكاله . خالف - عز وجل - بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة .. ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، ولو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضربا واحدا ، لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ... وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون[1] .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى وضحناه لكم ﴿ لآيات ﴾ بينات ﴿ للعالمين ﴾ - بفتح اللام - وهى قراءة الجمهور ، أى : إن فى ذلك لآيات لجميع أصناف العالم من بار وفاجر ، ومؤمن وكافر .

وقرأ حفص - بكسر اللام - أى : إن فى ذلك لآيات لأولى العلم والفهم من الناس .

ثم ذكر - سبحانه - آية رابعة فقال : ﴿ ومن آياته منامكم ﴾ أى : نومكم ﴿ بالليل والنهار ﴾ لراحة أبدانكم وأذهانكم ، ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ أى : وطلبكم أرزاقكم فيهما من فضل الله وعطائه الواسع .

قال الجمل : قيل فى الآية تقديم وتأخير ، ليكون كل واحد مع ما يلائمه ، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل ، وعطف عليه ، لأن حرف العطف قد يقوم مقام الجار ، والأحسن أن يجعل على حاله ، والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله ولا سيما فى أوقات القيلولة فى البلاد الحارة »[2] .

﴿ إن فى ذلك ﴾ كله ﴿ لآيات لقوم يسمعون ﴾ هذه التوجيهات سماع تدبر وتفكر واعتبار فيعملون بما يسمعون .

ثم ساق - سبحانه - آية خامسة فقال : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا .

أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على قدرته ، أنه يريكم البرق ، فتارة تخافون مما يحدث بعده من صواعق متلفة ، وأمطار مزعجة ، وتارة ترجون من ورائه المطر النافع ، والغيث المدرار .

وانتصاب « خوفا وطمعا » على أنهما مفعول لأجله ، أى : يريكم ذلك من أجل الخوف والطمع ، إذ بهما يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يبطر ولا ييأس من رحمة الله . ﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ كثيرا ﴿ فيحيى به ﴾ أى : بسبب هذا الماء ﴿ الأرض بعد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٣٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٨٩ .

موتها ﴾ أى : بأن يحولها من أرض جدباء هامدة إلى أرض خضراء زاخرة بالنبات ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ هذه الارشادات ، ويستعملون عقولهم فى الخير لا فى الشر ، وفى الحق لا فى الباطل ، وفى استنباط المعانى الدالة على كمال قدرة الله - تعالى - ورحمته .

ثم ذكر - سبحانه - آية سادسة فقال : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ والمراد بقيامهما : ثباتهما وبقاؤهما بتلك الصورة العجيبة البديعة .

أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على كمال قدرته ، خلقه للسموات وللأرض ، وإبقاؤه لهما على هذه الصورة البديعة ، وقيامهما وثباتهما واستمساكهما على تلك الهيئة العجيبة ، وذلك كله بإرادته وأمره ومشيئته .

قال ابن كثير : وشبيه بذلك قوله - تعالى - : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ . وقوله : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ . وكان عمر بن الخطاب . رضى الله عنه - إذا اجتهد فى اليمين قال : لا ، والله الذى تقوم السماء والأرض بأمره ، أى : هى قائمة ثابتة بأمره وتسخيره إياها[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ بيان لامتثالهم لأمره بدون تقاعس ، عندما يدعوهم الداعى للخروج من قبورهم للبعث والحساب . و « ثم » بعدها كلام محذوف ، و « إذا » الأولى شرطيه ، والثانية فجائية ، والداعى هو إسرافيل بأمر الله - تعالى - : وقوله : ﴿ من الأرض ﴾ متعلق بقوله ﴿ دعاكم ﴾ .

أى : ثم بعد موتكم ووضعكم فى قبوركم ، إذا دعاكم الداعى دعوة واحدة من الأرض التى أنتم مستقرون فيها ، إذا أنتم تخرجون من قبوركم مسرعين بدون تلبث أو توقف ، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع .

قال صاحب الكشاف : وإنما عطف هذه الجملة على قيام السموات والأرض بثم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، واقتداره - سبحانه - على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال - تعالى - : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[2] .

وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[3] وكما فى قوله - عز وجل - : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده . وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾[4] .

---

(١) سورة النحل . الآية ١٢٥ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٠٥ .
(٣) سورة النازعات الأيتان ١٣ ، ١٤ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٥٢ .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بآية جامعة لكل معانى القدرة والإيجاد والهيمنة على هذا الكون فقال : ﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ أى من الملائكة والجن والإنس ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ، كل ذلك له وحده - سبحانه - لا لأحد غيره .

وقوله : ﴿ كل له قانتون ﴾ مؤكد لما قبله ومقرر له ، أى : كل الخلائق له لا لغيره طائعون خاضعون ، خاشعون ، طوعا وكرها ، إذ لا يمتنع عليه - سبحانه - شيء يريد فعله بهم ، من حياة أو موت ، ومن صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أكثر من عشرة أدلة ، على وحدانية الله - تعالى - وعلى انفراده بالخلق ، وعلى إمكانية البعث ، ومن هذه الأدلة خلق الإنسان من تراب ، وصيرورته بعد تقلبه فى أطوار التكوين بشراً سويا ، وإيجاده - سبحانه - للذكور والإناث ، حتى يبقى النوع الإنسانى إلى الوقت المقدر فى علمه - تعالى - : وإيجاده للناس على هذه الصورة التى اختلفت معها ألسنتهم وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله - تعالى - الليل مناما لراحة الناس ، والنهار معاشا لابتغاء الرزق ، وإنزاله المطر من السماء لإحياء الأرض بالنبات ، وبقاء السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة بأمره وتدبيره .. إلى غير ذلك من الأدلة المبثوثة فى الأنفس والآفاق .

ثم أكد - سبحانه - ما يدل على إمكانية البعث ، فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده .. ﴾ .

أى : وهو - سبحانه - الذى يبدأ الخلق بدون مثال سابق ، ثم يعيد هذه المخلوقات بعدموتها إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء .

والضمير فى قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ للإعادة المفهومة من قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، أى : والعود أو الرد ، أو الإرجاع أهون عليه .

أى : وهو - سبحانه - وحده الذى يخلق المخلوقات من العدم ، ثم يعيدها إلى الحياة مرة أخرى فى الوقت الذى يريده ، وهذه الإعادة للأموات أهون عليه ، أى : أسهل عليه من البدء .

وهذه الأسهلية على طريقة التمثيل والتقريب ، بما هو معروف عند الناس من أن إعادة الشىء من مادته الأولى أسهل من ابتدائه .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد وضح هذا المعنى فقال : قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ أى : فيما يجب عندكم ، وينقاس على أصولكم ، ويقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة

شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتذرون للصانع اذا خَطِئَ فى بعض ما ينشئه بقولكم : أول الغزو أخرق ، وتسمون الماهر فى صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى ، حتى مرن عليها وهانت عليه .

فإن قلت لم أخرت الصلة فى قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ وقدمت فى قوله ﴿ هو على هين ﴾ ؟ قلت . هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو عليه هين ، وان كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمٍّ - أى : شيخ فان - وعاقر . وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى .. »[1] .

ومنهم من يرى أن أهون هنا بمعنى هين ، أى : إرجاعكم إلى الحياة بعد موتكم هين عليه .

والعرب تجعل أفعل بمعنى فاعل فى كثير من كلامهم ، ومنه قول الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

أى : بنى لنا بيتا دعائمه عزيزة طويلة ومنه قولهم : الله أكبر أى : كبير .

وقوله - تعالى - : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض .. ﴾ أى : وله - سبحانه - الوصف الأعلى الذى ليس لغيره مثله ، لا فى السموات ولا فى الأرض ، إذ لا يشاركه أحد فى ذاته أو صفاته فهو - سبحانه - ليس كمثله شيء .

﴿ وهو العزيز ﴾ الذى يَغلب ولا يُغلب ﴿ الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

وبعد هذا التطواف المتنوع فى آفاق الأنفس ، وفى أعماق هذا الكون ، ضرب - سبحانه - مثلا لا مجال للجدل فيه ، لوضوحه واعتماده على المنطق السليم ، وأمر رسوله - ﷺ - أن يمضى فى طريقه المستقيم ، كما أمر المؤمنين بأن يلتجئوا إليه - سبحانه - وحده ، وأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه ، فقال - تعالى - :

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٥٦ .

أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ
دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

و ﴿ من ﴾ فى قوله - سبحانه - : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾ ابتدائية ، والجار والمجرور فى محل نصب ، صفة لقوله : ﴿ مثلا ﴾ .

أى : ضرب لكم - أيها الناس - مثلا ، يظهر منه بطلان الشرك ظهورا واضحا ، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم ، التى هى أقرب شىء لديكم .

قال القرطبى : والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى التلبية : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ تصوير وتفصيل للمثل ، والاستفهام للإنكار والنفى . و ﴿ من ﴾ الأولى للتبعيض ، والثانية لتأكيد النفى ، وقوله ﴿ شركاء ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ لكم ﴾ وقوله : ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ متعلق بمحذوف حال من شركاء .

وقوله : ﴿ فأنتم فيه سواء ﴾ جواب للاستفهام الذى هو بمعنى النفى . والجملة مبتدأ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣ .

وخبر . وقوله : ﴿ تخافونهم ﴾ خبر ثان لأنتم ، وقوله : ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى : تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم .

والمعنى : ضرب الله - تعالى - لكم - أيها الناس - مثلا منتزعا من أنفسكم التى هى أقرب شيء إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يشارككم فى أموالكم التى رزقناكم إياها ، عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم فى البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم ، أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وفى جواز التصرف فى تلك الأموال . فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم - الذين هم مثلكم فى البشرية ، والذين لم تخلقوهم بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم - فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم ولهم ؟!! .

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم فى أموالكم ، ورضيتم أن تشركوا مع الله - تعالى - : غيره فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شيء .

فالمقصود من الآية الكريمة ، إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل .

ولذا ختمها - سبحانه - بقوله : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ أى : مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح ، نفصل الآيات الدالة على وحدانيتنا ، لقوم يعقلون هذه الأمثال ، وينتفعون بها فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال الإمام القرطبى : قال بعض العلماء : هذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله - سبحانه - وذلك أنه قال - سبحانه - : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾ فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ، فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم عن مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ، فهذا حكم فاسد ، وقلة نظر وعمى قلب !!

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ، والخلق كلهم عبيد الله - تعالى - فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا لله - تعالى - فى شيء من أفعاله .

ثم قال - رحمه الله - : وهذه المسألة أفضل للطالب ، من حفظ ديوان كامل فى الفقه ،

لأن جميع العبادات البدنية ، لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب فافهم ذلك[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين لم ينتفعوا بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعناد عليهم فقال : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم .. ﴾ .

أى : لم ينتفع هؤلاء الظالمون بهذا المثل الجلى فى إبطال الشرك ، بل لجوا فى كفرهم ، واتبعوا أهواءهم الزائفة ، وأفكارهم الفاسدة ، وجهالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع ﴿ فمن يهدى من أضل الله ﴾ أى : إذا كان هذا هو حالهم ، فمن الذى يستطيع أن يهدى إلى الحق ، من أضله الله - تعالى - : عنه بسبب زيغه واستحبابه العمى على الهدى .

إنه لا أحد يستطيع ذلك ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من عقابه - سبحانه - لهم .

ثم أمر سبحانه رسوله - ﷺ - أن يثبت على الحق الذى هداه - عز وجل - إليه فقال :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا .. ﴾ والفاء هى الفصيحة ، وقوله : ﴿ أقم ﴾ من الإقامة على الشيء والثبات عليه ، وعدم التحول عنه .

قوله : ﴿ حنيفا ﴾ من الحنف ، وهو الميل من الباطل إلى الحق ، وضده الجنف ، و ﴿ حنيفا ﴾ حال من فاعل ﴿ أقم ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من بطلان الشرك فاثبت على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وأقبل على هذا الدين الذى أوحاه الله إليك ، بدون التفات عنه ، أو ميل إلى سواه .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ أى : فقوم وجهك له وعدِّله ، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقوم له وجهه ، مقبلا به عليه .

والمراد بالفطرة فى قوله - تعالى - : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس ﴾ الملة . أى : ملة الإسلام والتوحيد .

أو المراد بها : قابلية الدين الحق ، والتهيؤ النفسى لادراكه . والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣ .

أى : اثبت - أيهاالرسول الكريم - على هذا الدين الحق ، والزموا - أيها الناس - فطرة الله ، وهى ملة الحق ، التى فطر الناس عليها ، وخلقهم قابلين لها .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى - : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه - تعالى - : فطر خلقه على معرفته وتوحيده .

وفى الحديث : « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم - أى حولتهم - الشياطين عن دينهم » .

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : فطرة الله التى فطر الناس عليها .. »[1] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحّد الخطاب أولا ، ثم جمع ؟ قلت : خوطب رسول الله - ﷺ - أولا ، وخطاب الرسول خطاب لأمته ، مع مافيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص[2] .

وقوله : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التى فطر - سبحانه - الناس عليها .

أى : الزموا فطرة الله التى هى دين الإسلام ، وقبول تعاليمه والعمل بها ، لأن هذا الدين قد ارتضاه الله - تعالى - لكم ، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم .

و ﴿ ذلك ﴾ الدين الذى اختاره - سبحانه - لكم ، هو ﴿ الدين القيم ﴾ أى : القويم المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه ، فى قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم .

أى : ذلك الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٤٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٩ .

الحقيقة ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، واتباعهم للأهواء الزائفة ، والتقاليد الفاسدة .

ثم حرضهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين القيم فقال : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ .

قال القرطبى : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما : أنه القطع . ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع ، فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله - عز وجل - بالطاعة . والثانى : أن أصله الرجوع ، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة ، ولفظ ﴿ منيبين ﴾ منصوب على الحال[1] .

والمعنى : أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده ، حالة كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة ، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة ، ومتقين له فى كل أحوالكم ، ومداومين على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع واطمئنان .

﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ المبدلين لفطرة الله - تعالى - المتبعين لأهوائهم وشهواتهم .

وقوله ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ بدل مما قبله .

أى : ولا تكونوا من المشركين ، الذين اختلفوا فى شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم ، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة .

﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى : كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل ، وملة فاسدة ، وعقيدة زائفة ، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم ، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى السراء والضراء وعندما يوسع الله - تعالى - فى أرزاقهم ، وعندما يضيق عليهم هذه الأرزاق ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١ .

سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

أى : ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾ من قحط أو مصيبة فى المال أو الولد ، ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ أى : إذا نزل بهم الضر ، أسرعوا بالدعاء إلى الله - تعالى - متضرعين إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء .

هذا حالهم عند الشدائد والكروب ، أما حالهم عند العافية والغنى وتفريج الهموم ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

و ﴿ إذا ﴾ الأولى شرطية ، والثانية فجائية .

أى : هم بمجرد نزول الضر بهم يلجأون إلى الله - تعالى - لإزالته ، ثم إذا ماكشفه عنهم ، وأحاطهم برحمته ، أسرع فريق منهم بعبادة غيره - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : ﴿ إذا فريق منهم ﴾ : إنصاف وتشريف لفريق آخر من الناس ، من صفاتهم أنهم يذكرون الله - تعالى - فى كل الأحوال ، ويصبرون عند البلاء ، ويشكرون عند الرخاء .

والتنكير فى قوله - سبحانه - « ضر ، ورحمة » للإشارة إلى أن هذا النوع من الناس ، يجزعون عند أقل ضر ، ويبطرون ويطغون لأدنى رحمة ونعمة .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ هى العاقبة . أى : فعلوا ما فعلوا من الجزع عند الضر ، ومن البطر عند النعم ، ليكون مآل حالهم إلى الكفر والجحود لنعم الله ، وإلى سوء العاقبة والمصير .

ثم التفت إليهم - سبحانه - بالخطاب مهددا ومتوعدا فقال : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أى : فتمتعوا - أيها الجاحدون لنعم الله - بهذا المتاع الزائل من متع الحياة الدنيا ، فسوف تعلمون ما سيترتب على ذلك من عذاب مهين .

وقوله - تعالى - : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ التفات

من الخطاب إلى الغيبة ، على سبيل التحقير لهم ، والتهوين من شأنهم . والاستفهام للنفى والتوبيخ .

والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : هؤلاء الذين أشركوا معنا غيرنا فى العبادة ، هل نحن أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد لهم بأن شركهم لا يخالف الحق ، وتنطق بأن كفرهم لا غبار عليه ؟

كلا ، إننا ما أنزلنا عليهم شيئا من ذلك ، وإنما هم الذين وقعوا فى الشرك ، بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فالآية الكريمة تتهكم بهم لسفههم وجهلهم ، وتنفى أن يكون شركهم مبنيا على دليل أو ما يشبه الدليل ، أو أن يكون هناك من أمرهم به سوى تقاليدهم الباطلة ، وأهوائهم الفاسدة وأفكارهم الزائفة .

ثم عادت الصورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال بعض النفوس البشرية فى حالتى العسر واليسر ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ من صحة أو غنى أو أمان ﴿ فرحوا بها ﴾ أى : فرحوا بها فرح البطر الأشر ، الذى لا يقابل نعم الله - تعالى - بالشكر ، ولا يستعملها فيما خلقت له .

فالمراد بالفرح هنا : الجحود والكفران للنعم ، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ شدة أو مصيبة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أى : بسبب شؤم معاصيهم ، وإهمالهم لشكر الله - تعالى - على نعمه ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ أى : أسرعوا باليأس من رحمة الله ، وقنطوا من فرجه ، واسودت الدنيا فى وجوههم ، شأن الذين لا يعرفون سنن الله - تعالى - فى خلقه ، والذين يعبدون الله على حرف ، فهم عند السراء جاحدون مغرورون .. وعند الضراء قانطون يائسون .

وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بإذا ، وفى جانب المصيبة بإن ، للإشعار بأن رحمته - تعالى - بعباده متحققة فى كل الأحوال . وأن ما ينزل بالناس من مصائب ، هو بسبب ما اجترحوه من ذنوب .

ونسب - سبحانه - الرحمة إلى ذاته فقال : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ دون السيئة فقد قال : ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ لتعليم العباد الأدب مع خالقهم - عز وجل - ، وإن كان الكل بيده - سبحانه - وبمشيئته ، وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ .

والتعبير بإذا الفجائية فى قوله ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ ، للاشارة إلى سرعة يأسهم من رحمة الله - تعالى - حتى ولو كانت المصيبة هينة يسيرة ، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم . إذ القنوط من رحمة الله ، يتنافى مع الإيمان الحق .

ثم عقب - سبحانه - على أحوالهم هذه ، بالتعجيب من شأنهم ، وبالتقريع لهم على جهلهم ، فقال : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ .

أى : أجهل هؤلاء الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - بمقتضى حكمته ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده . ويضيقه على من يشاء منهم ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل .

إن واقع الناس يشهد ويعلن : أن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فما لهؤلاء القوم ينكرون هذا الواقع بأفعالهم القبيحة ، حيث إنهم يبطرون عند السراء ، ويقنطون عند الضراء ؟ فالمقصود بالآية الكريمة توبيخهم على عدم فهمهم لسنن الله فى خلقه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أحوال الناس ، ومن قدرتنا على كل شىء ﴿ لآيات ﴾ واضحات ، وعبر بينات ، لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه ، ويعملون بما يقتضيه إيمانهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المسلم بالنسبة للمال الذى وهبه الله إياه ، فقال - تعالى - :

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن

شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فآت ذا القربى حقه .. ﴾ للنبى - ﷺ - ولكل من يصلح له من أمته . والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من أن بسط الأرزاق وقبضها بيدى وحدى ، فأعط - أيها الرسول الكريم - ذا القربى حقه من المودة والصلة والإحسان ، وليقتد بك فى ذلك أصحابك وأتباعك .

وأعط - أيضا - ﴿ المسكين ﴾ الذى لا يملك شيئا ذا قيمة ، حقه من الصدقة والبر ، وكذلك ﴿ ابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله فى سفره ، ولو كان غنيا فى بلده .

وقدم - سبحانه - الأقارب ، لأن دفع حاجتهم واجب من الواجبات التى جعلها - سبحانه - للقريب على قريبه .

قال القرطبى : واختلف فى هذه الآية ، فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ، وهو الصحيح ، قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله - عز وجل - ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة ، يدل على أن ذلك فى صدقة التطوع ، وقد احتج أبو حنيفة - رحمه الله - بهذه الآية على وجوب نفقة المحارم ، والشافعى - رحمه الله - قاس سائر الأقارب - ما عدا الفروع والأصول - على ابن العم ، لأنه لا ولادة بينهم .

ثم قال : وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للإنسان مال زائد ، لأن المقصود هنا : الشفقة العامة ، والفقير داخل فى المسكين .. »[2] .

ثم بين - سبحانه - الآثار الطيبة المترتبة على هذا البر والعطاء فقال : ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٩٤ .

أى : ذلك الإيتاء لهؤلاء الثلاثة ، خير وأبقى عند الله - تعالى - للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله ، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، هم الكاملون فى الفلاح ، والظفر بالخير فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن حضهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل ، نفرهم من تعاطى الربا فقال : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ .

والربا : الزيادة مطلقا . يقال : ربا الشىء يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ . أى : زادت .

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن المراد بالربا هنا ، الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرمها الشارع . ويشهد لذلك ماروى عن السدى ، من أن الآية نزلت فى ربا ثقيف ، كانوا يرابون ، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا .

وعن ابن عباس وغيره : أن المراد به هنا العطية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، وعليه فتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب للزيادة[1] .

ويبدو لنا أن المراد بالربا هنا ، الربا الذى حرمه الله - تعالى - بعد ذلك تحريما قاطعا ، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج ، حتى إذا جاء التحريم النهائى له ، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم .

قال صاحب الكشاف : هذه الآية فى معنى قوله - تعالى - ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات . ﴾ سواء بسواء . يريد : وما أعطيتم أكلة الربا ﴿ من ربا ليربو فى ﴾ أموالهم ، أى : ليزيد ويزكو فى أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه[2] .

ثم حض - سبحانه - على التصدق فى سبيله فقال : ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ أى من صدقة تتقربون بها إلى الله ، و ﴿ تريدون ﴾ بأدائها ﴿ وجه الله ﴾ أى : رضاه وثوابه .

﴿ فأولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ هم المضعفون ﴾ أى: ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطاء الكريم ، فالمضعفون جمع مضعف - بكسر العين - على أنه اسم فاعل من أضعف ، إذا صار ذا ضِعْف - بكسر فسكون - كأقوى وأيسر ، إذا صار ذا قوة ويسار .

وقال - سبحانه - : ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ ولم يقل : فأنتم المضعفون ، لأنه رجع

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢١ ص ٤٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٨١ .

من المخاطبة إلى الغيبة ، كأنه قال لملائكته : فأولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم ، هم المضعفون ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على الناس فقال : ﴿ الله الذى خلقكم ﴾ على غير مثال سابق ﴿ ثم رزقكم ﴾ من فضله بأنواع من الرزق الذى لا غنى لكم عنه فى معاشكم ﴿ ثم يميتكم ﴾ بعد انقضاء أعماركم فى هذه الحياة ﴿ ثم يحييكم ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ للانكار والنفى . أى : ليس من شركائكم الذين عبدتموهم من يستطيع أن يفعل شيئًا من ذلك ، فكيف اتخذتموهم آلهة وأشركتموهم معى فى العبادة ؟ إن الله - تعالى - وحده هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو المميت .

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ تنزه وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين وعن جهل أولئك الجاهلين .

وبعد هذا التوجيه الحكيم ، يسوق - سبحانه - الآثار السيئة التى تترتب على الكفر والمعاصى ، ويأمر بالاعتبار بالسابقين ، ويبين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار فيقول :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا ، الفيافى . وبالبحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف . وبالبحر : البحر المعروف .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله - ﷺ - صالح ملك أيلة ، وكتب له ببحره - يعنى ببلده -[1] .

والمعنى : ظهر الفساد فى البر والبحر ، ومن مظاهر ذلك انتشار الشرك والظلم ، والقتل وسفك الدماء ، والأحقاد والعدوان ، ونقص البركة فى الزروع والثمار والمطاعم والمشارب ، وغير ذلك مما هو مفسدة وليس بمنفعة ..

قال ابن كثير - رحمه الله - : وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فيها ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « الحد يقام فى الأرض ، أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا » .

والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ، أو أكثرهم ، أو كثير منهم ، عن تعاطى المحرمات . وإذا ارتكبت المعاصى كان سببًا فى محق البركات .. وكلما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات . وقد ثبت فى الحديث الصحيح : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب »[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ بما كسبت أيدى الناس .. ﴾ بيان لسبب ظهور الفساد . أى : عم الفساد وطم فى البر والبحر ، بسبب اقتراف الناس للمعاصى . وانهماكهم فى الشهوات ، وتفلتهم من كل ما أمرهم الله - تعالى - به ، أو نهاهم عنه . كما قال - تعالى - : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

فظهور الفساد وانتشاره ، لا يتم عبثًا أو اعتباطًا ، وإنما يتم بسبب إعراض الناس عن طاعة الله - تعالى - ، وارتكابهم للمعاصى ...

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على الوقوع فى المعاصى من بلاء واختبار ، فقال : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

واللام فى « ليذيقهم » للتعليل وهى متعلقة بظهر . أى : ظهر الفساد ... ليذيق - سبحانه - الناس نتائج بعض أعمالهم السيئة ، كى يرجعوا عن غيهم وفسقهم ، ويعودوا إلى الطاعة والتوبة .

(١و٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٦ .

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف ، أى : عاقبهم بانتشار الفساد بينهم ، ليجعلهم يحسون بسوء عاقبة الولوغ فى المعاصى ، ولعلهم يرجعون عنها ، إلى الطاعة والعمل الصالح .

ثم يلفت - سبحانه - أنظار الناس إلى سوء عاقبة من ارتكس فى الشرك والظلم ، فيقول : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، كان أكثرهم مشركين ﴾ . أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : سيروا فى الأرض سير المتأملين المعتبرين ، لتروا بأعينكم ، كيف كانت عاقبة الظالمين من قبلكم ...

لقد كانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، بسبب إصرار أكثرهم على الشرك والكفر ، وانغماس فريق منهم فى المعاصى والفواحش .

فالمراد بالسير ، ما يترتب عليه من عظات وعبر ، حتى لا تكون عاقبة اللاحقين ، كعاقبة السابقين ، فى الهلاك والنكال .

ثم أكد - سبحانه - ما سبق أن أمر به رسوله - ﷺ - من ثبات على الحق فقال : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم .. ﴾ أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار . فاثبت على هذا الدين القويم ، الذى أوحيناه إليك ، ولا تتحول عنه إلى جهة ما .

﴿ من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ أى : اثبت على هذا الدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لا يقدر أحد على ردِّه أو دفع عذابه إلا الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ .

أى : يتفرقون . وأصله يتصدعون ، فقلبت تاؤه صادًا وأدغمت . والتصدع التفرق : يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :

وكنا كندْمانَىْ جَذِيمَةَ حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أى : لن يتفرقا .

والمعنى : اثبت على هذا الدين ، من قبل أن يأى يوم القيامة ، الذى يتفرق فيه الناس إلى فريقين ثم بين - سبحانه - الفريق الأول فقال : ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ أى : من كفر من الناس ، فعاقبة كفره واقعة عليه لا على غيره ، وسيتحمل وحده ما سيترتب على ذلك من عذاب مهين .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ فعليه كفره ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار ،

لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة »[١] .

ثم بين - سبحانه - الفريق الثانى فقال : ﴿ ومن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون ﴾ أى : ومن عمل فى دنياه عملاً صالحًا ، فإنه بسبب هذا العمل يكون قد مهد وسوى لنفسه مكانًا مريحًا يستقر فيه فى الآخرة .

والمهاد : الفراش . ومنه مهاد الصبى أى فراشه . ويقال مهدت الفراش مهدا ، أى : بسطته ووطأته . ومهدت الأمور . أى : سويتها وأصلحتها .

فالجملة الكريمة تصوير بديع للثمار الطيبة التى تترتب على العمل الصالح فى الدنيا ، حتى لكأن من يعمل هذا العمل ، يعد لنفسه فى الآخرة مكانًا معبدًا ، ومضجعًا هنيئًا ، ينزل فيه وهو فى أعلى درجات الراحة والنعيم :

قال ابن جرير : قوله - تعالى - ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ أى : فلأنفسهم يستعدون ، ويسوون المضجع ، ليسلموا من عقاب ربهم ، وينجوا من عذابه ، كما قال الشاعر :

أمهد لنفسك ، حان السقْم والتلف ولا تضيعن نفسا ماالهـا خلف[٢]

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته حكمته وعدالته فقال : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، إنه لا يحب الكافرين ﴾ .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من تقسيم الناس إلى فريقين ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، الجزاء الحسن الذى يستحقونه ، وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله ، لأنه يحبهم ، أما الكافرون ، فإنه - سبحانه - لا يحبهم ولا يرضى عنهم .

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن آيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ، وعن مظاهر فضله على الناس ورحمته بهم ، وعن الموقف الجحودى الذى وقفه بعضهم من هذه النعم .. قال - تعالى - :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٨٣ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ٣٣ .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ... ﴾ بيان لأنواع أخرى من الظواهر الكونية الدالة على قدرته - عز وجل - .

أى : ومن الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ونفاذ قدرته ، أنه - سبحانه - يرسل بمشيئته وإرادته الرياح ، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا ، فيها الخير الكثير للناس .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح ﴾ أى : الجنوب ، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا : ومهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش . والشمال : ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر ، فإنها رياح الرحمة . أما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل ، فريح العذاب ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٥١ .

وقوله : ﴿ وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله .. ﴾ بيان للفوائد التى تعود على الناس من إرسال الرياح التى تعقبها الأمطار ، وهو متعلق بقوله ﴿ يرسل ﴾ .

أى : يرسل الرياح مبشرات بالأمطار ويرسلها ليمنحكم من رحمته الخصب والنماء لزرعكم ، ولتجرى الفلك عند هبوبها فى البحر بإذنه - تعالى - ولتبتغوا أرزاقكم من فضله - سبحانه - عن طريق الأسفار ، والانتقال من مكان إلى آخر ، ولكى تشكروا الله - تعالى - على هذه النعم : فإنكم إذا شكرتموه - سبحانه - على نعمه زادكم منها .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ... ﴾ كلام معترض بين الحديث عن نعمة الرياح ، لتسلية الرسول - ﷺ - عما لحقه من قومه من أذى .

أى ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً كثيرين ، إلى قومهم ليهدوهم إلى الرشد ، وجاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات التى تدل على صدقه .

وقوله ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ معطوف على كلام محذوف . أى : أرسلناهم بالحجج الواضحات ، فمن أقوامهم من آمن بهم ، ومنهم من كذبهم ، فانتقمنا من المكذبين لرسلهم .

﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ أى : وكان نصر المؤمنين حقًا أوجبناه على ذاتنا ، فضلاً منا وكرمًا ، وتكريمًا وإنصافًا لمن آمن بوحدانيتنا ، وأخلص العبادة لنا .

« وحقا » خبر كان ، و « نصر المؤمنين » اسمها و « علينا » متعلق بقوله حقا .

قال ابن كثير : قوله ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرمًا وتفضلاً ، كقوله : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ .

وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « ما من أمرىء مسلم يرد عن عرض أخيه ، إلا كان حقًا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة : ثم تلا - ﷺ - هذه الآية »[1] .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن الرياح وما يترتب عليها من منافع فتقول : ﴿ الله الذى يرسل الرياح ﴾ بقدرته ومشيئته .

﴿ فتثير سحابا ﴾ أى : هذه الرياح التى يرسلها الله - تعالى - تتحرك فى الجو وفق

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٨ .

إرادته - سبحانه - وتحرك السحاب وتنشره من مكان إلى آخر .

﴿ فيبسطه فى السماء كيف يشاء ﴾ : أى فيبسط الله - تعالى - هذا السحاب فى طبقات الجو ، بالكيفية التى يختارها - سبحانه - ويريدها ، بأن يجعله تارة متكاثفًا ، وتارة متناثرًا ، وتارة من جهة الشمال ، وتارة من جهات غيرها .

﴿ ويجعله كسفًا ﴾ أى : ويجعله قطعا بعضها فوق بعض تارة أخرى . والكسف : جمع كسفه ، وهى القطعة من السحاب .

﴿ فترى الودق ﴾ أى : المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أى يخرج ويتساقط من خلال هذا السحاب ، ومن بين ذراته . ﴿ فإذا أصاب به ﴾ ، أى : بهذا المطر ﴿ من يشاء ﴾ إصابته به ﴿ من عباده ﴾ بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أى : يفرحون بذلك ، لأنه يكون سببًا فى حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم ..

وأعرف الناس بنعمة المطر ، أولئك الذين يعيشون فى الأماكن البعيدة عن الأنهار . كأهل مكة ومن يشبهونهم ممن تقوم حياتهم على مياه الأمطار .

ثم بين - سبحانه - حالهم قبل نزول تلك الأمطار عليهم فقال : ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ .

وإن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، والضمير فى ﴿ ينزل ﴾ يعود للمطر ، وفى قوله ﴿ من قبله ﴾ يعود لنزول المطر - أيضًا - على سبيل التأكيد . وقوله : ﴿ لمبلسين ﴾ خبر كان . والإبلاس : اليأس من الخير ، والسكوت ، والانكسار غما وحزنا . يقال : أبلس الرجل ، إذا سكت على سبيل اليأس والذل والانكسار .

أى : هم عند نزول الأمطار يستبشرون ويفرحون ، ولو رأيت حالهم قبل نزول الأمطار لرأيتهم فى غاية الحيرة والقنوط والإبلاس ، لشدة حاجتهم إلى الغيث الذى طال انتظارهم له وتطلعهم إليه دون أن ينزل .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ من قبله ﴾ من باب التكرير والتوكيد ، كقوله - تعالى - : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ﴾[1] « ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك »[2] .

---

(١) سورة الحشر الآية ١٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٨٥ .

ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة فقال : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله .. ﴾ والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من حالة اليأس إلى الاستبشار . أى : فانظر - أيهاالعاقل - نظرة تعقل واتعاظ واستبصار ، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر ، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح ، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة .

وقوله - تعالى - : ﴿ كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ فى محل نصب على تقدير الخافض . أى : فانظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر ، وانظر وتأمل كيف يحيى الله - تعالى - بقدرته ، الأرض بعد موتها بأن يجعلها خضراء ويانعة ، بعد أن كانت جدباء قاحلة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ إن ذلك لمحيى الموتى ﴾ يعود على الله - تعالى - . أى : إن ذلك الإله العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها ، لقادر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التى لا يعجزها شىء . ﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ على كل شىء قدير ﴾ ومن جملة الأشياء المقدور عليها ، إحياء الموتى .

وهكذا يسوق القرآن الكريم الأدلة على البعث ، بأسلوب منطقى ، منتزع من واقع الناس ، ومن المشاهد التى يرونها فى حياتهم .

وبعد أن صور - سبحانه - أحوال الناس عند رؤيتهم للرياح التى تثير السحب المحملة بالأمطار ، وأنهم عند رؤيتها يفرحون ويستبشرون . بعد أن صور ذلك بأسلوب بديع ، أتبع ذلك بتصوير حالهم عندما يرون ريحًا تحمل لهم الرمال والأتربة ، وتضر بمزروعاتهم فقال - تعالى - ﴿ ولئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ .

والضمير فى « رأوه » يعود إلى النبات المفهوم من السياق . أى : هذا حال الناس عندما يرون الرياح التى تحمل لهم الأمطار ، أما إذا أرسلنا عليهم ريحًا معها الأتربة والرمال ، فرأوا نباتهم وزروعهم قد اصفرت واضمحلت وأصابها ما يضرها أو يتلفها .. فإنهم يظلون من بعد إرسال تلك الريح عليهم ، يكفرون بنعم الله ، ويجحدون آلاءه السابقة ، ويقابلون ما أرسلناه عليهم بالسخط والضيق ، لا بالاستسلام لقضائنا ، وملازمة طاعتنا .

قال الآلوسى ما ملخصه : واللام فى قوله : ﴿ ولئن ﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، والفاء فى « فرأوه » فصيحة ، واللام فى قوله « لظلوا » لام جواب القسم الساد مسد الجوابين ، والماضى بمعنى المستقبل .. وفيها ذكر - سبحانه - من ذمهم على عدم تثبتهم ما لا يخفى ، حيث كان من الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله - تعالى - فى كل حال ، ويلجأوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس منهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله - تعالى -

ويبادروا إلى الشكر بالطاعة ، إذا أصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ، فعكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم ... »[1] .

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما لحقه منهم من أذى ، بعد أن ذكر له جانبًا من تقلب أحوالهم ، فقال - تعالى - : ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ . أى : فاصبر - أيها الرسول - لحكم ربك ، واثبت على ما أنت عليه من حق ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ إذا ناديتهم ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ إذا ما دعوتهم أو وعظتهم .

وقوله ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق ، بعد بيان كونهم كالأموات وكالصم .

ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ﴾ بسبب فقدهم الانتفاع بأبصارهم ، كما فقدوا الانتفاع ببصائرهم .

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ أى : ما تستطيع أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ فهم مسلمون ﴾ أى : منقادون للحق ومتبعون له .

فالآيتان الكريمتان تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء المشركين ، وعن إخفاق جهوده مع كثير منهم ، لانطماس بصائرهم ، حيث شبههم - سبحانه - بالموتى وبالصم وبالعمى ، فى عدم انتفاعهم بالوعظ والإرشاد ..

وبعد هذا التطواف فى أعماق الأنفس والآفاق . أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، تذكر الناس بمراحل حياتهم ، وبأحوالهم يوم القيامة ، وبفضائل القرآن الكريم ، وبأمر النبى - ﷺ - بالصبر والثبات .. قال - تعالى - :

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٥٤ .

كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف .. ﴾ استدلال آخر على قدرته - تعالى - ومعنى ﴿ من ضعف ﴾ من نطفة ضعيفة ، أو فى حال ضعف ، وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر .. وقرأ الجمهور بضم الضاد ، وقرأ عاصم وحمزة بفتحها ، والضعف - بالضم والفتح - خلاف القوة ، وقيل بالفتح فى الرأى ، وبالضم فى الجسد ... »[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ خلقكم من ضعف ﴾ ولم يقل خلقكم ضعافًا .. للإشعار بأن الضعف هو مادتهم الأولى التى تركب منها كيانهم ، فهو شامل لتكوينهم الجسدى ، والعقلى ، والعاطفى ، والنفسى ... إلخ . أى : الله - تعالى - بقدرته ، هو الذى خلقكم من ضعف ترون جانبًا من مظاهره فى حالة طفولتكم وحداثة سنكم ...

﴿ ثم جعل ﴾ - سبحانه - ﴿ من بعد ضعف قوة ﴾ أى : ثم جعل لكم من بعد مرحلة الضعف مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية والعقلية والنفسية ..

﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة ﴾ أى : ثم جعل من بعد مرحلة القوة ، مرحلة ضعف

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٤٦ .

آخر ، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه فى الضعف ، وهى مرحلة الشيب والهرم والشيخوخة التى هى أرذل العمر ، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير فى كثير من أحواله ..

﴿ يخلق ﴾ - سبحانه - ﴿ ما يشاء ﴾ خلقه ﴿ وهو العليم ﴾ بكل شىء ﴿ القدير ﴾ على كل شىء .

فأنت ترى أن هذه الآية قد جمعت مراحل حياة الإنسان بصورها المختلفة .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المجرمون عندما يبعثون من قبورهم للحساب فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ .

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من عمر الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، والمراد بقيامها : حصولها ووجودها ، وقيام الخلائق فى ذلك الوقت للحساب أى : وحين تقوم الساعة ؛ ويرى المجرمون أنفسهم وقد خرجوا من قبورهم للحساب بسرعة ودهشة ، يقسمون بأنهم ما لبثوا فى قبورهم أو فى دنياهم ، غير وقت قليل من الزمان .

قال ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم - أيضا - فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم[١] .

وقوله : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ تذييل قصد به بيان ما جبلوا عليه من كذب .

ويؤفكون من الافك بمعنى الكذب . يقال : أفك الرجل ، إذا صرف عن الخير والصدق أى : مثل هذا الكذب الذى تفوهوا به فى الآخرة كانوا يفعلون فى الدنيا ، فهم فى الدارين لا ينفكون عن الكذب وعن اختلاق الباطل .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أهل العلم والإيمان فى الرد عليهم ، فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ .

أى : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والمؤمنين الصادقين فى الرد على هؤلاء المجرمين : لقد لبثتم فى علم الله وقضائه بعد مفارقتكم الدنيا إلى يوم البعث ، أى : إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لبعثكم ، والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ هى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٣١ .

الفصيحة . أى : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه تشاهدونه بأعينكم . ولا تستطيعون إنكاره الآن كما كنتم تنكرونه فى الدنيا .

فالجملة الكريمة ، المقصود بها توبيخهم وتأنيبهم على إنكارهم ليوم الحساب .

وقوله ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ زيادة فى تقريعهم . أى : فهذا يوم البعث ماثل أمامكم . ولكنكم كنتم فى الدنيا لا تعلمون أنه حق وصدق . بل كنتم بسبب كفركم وعنادكم تستخفون به وبمن يحدثكم عنه ، فاليوم تذوقون سوء عاقبة إنكاركم له ، واستهزائكم به .

ولذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ فيومئذ ﴾ أى : فيوم أن تقوم الساعة ويقف الناس للحساب . ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أى لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يفيدهم علمهم بأن الساعة حق . ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولاهم يقبل منهم الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والعمل الصالح .

قال الآلوسى : والاستعتاب : طلب العتبى ، وهى الاسم من الإعتاب ، بمعنى إزالة العتب . أى : لا يطلب منهم إزالة عتب الله - تعالى - وغضبه عليهم ، لأنهم قد حق عليهم العذاب .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - موقفهم من القرآن الكريم ، وأنهم لو اتبعوا توجيهاته لنجوا من العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل .. ﴾ .

أى : وبالله لقد ضربنا للناس فى هذا القرآن العظيم ، كل مثل حكيم ، من شأنه أن يهدى القلوب إلى الحق ، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها ...

﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ أى ولئن جئت - أيها الرسول - هؤلاء المشركين بآية بينة تدل على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

﴿ ليقولن ﴾ على سبيل التطاول والتبجح ﴿ إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أى : ما أنتم إلا متبعون للباطل أيها المؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول - ﷺ - .

ثم يعقب - سبحانه - على هذا التطاول والغرور بقوله : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ . والطبع : الختم على الشىء حتى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

أى : مثل هذا الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - على قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦١ .

ولا يعملون على إزالة جهلهم ، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء ، وهذا أسوأ أنواع الجهل ، لأنه جهل مركب ، إذ صاحبه يجهل أنه جاهل . فهو كما قال الشاعر :

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصفونى لكنت أركب
لأننى جاهل بسيط ... وصاحبى جاهل مركب

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر النبى - ﷺ - بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن وعد الله - تعالى - بنصرك عليهم حق لا شك فى ذلك .

﴿ ولا يستخفنك ﴾ أى : ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون بصحة ما تتلو عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير .

وهكذا ختمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر ، كما افتتحت بالوعد به ، للمؤمنين الصادقين ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبعد : فهذه هى سورة الروم ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ونافعًا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
السبت : ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ
١٣ من مارس سنة ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ لُقمَان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - سورة لقمان هى السورة الحادية والثلاثون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة السادسة والخمسون من بين السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة الصافات[١] .

وعدد آياتها : أربع وثلاثون آية . وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره أنها مكية ، دون أن يستثنى شيئا منها .

وقال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة ... وفى رواية عنه : أنها مكية إلا ثلاث آيات تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾[٢] .

٢ - وتبدأ السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وعلى المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون .

ثم تنتقل إلى الحديث عن جانب من صفات المشركين ، الذين يستهزئون بآيات الله - تعالى - ، ويعرضون عنها ، ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم ﴾ .

ثم ساقت أدلة متعددة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، قال - تعالى - : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ .

٣ - ثم قص علينا - سبحانه - تلك الوصايا الحكيمة ، التى أوصى بها لقمان ابنه ، والتى اشتملت على ما يهدى إلى العقيدة السليمة ، وإلى الأخلاق الكريمة ، وإلى مراقبة الخالق - عز وجل - وإلى أداء العبادات التى كلفنا - سبحانه - بها .

ومن هذه الوصايا قوله - سبحانه - : ﴿ يابنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وانه عن

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ مبحث المكى والمدنى .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦٤ .

المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

٤ - ثم بين - سبحانه - ألوانا من نعمه على عباده ، منها ما يتعلق بخلق السموات ، ومنها ما يتعلق بخلق الأرض ، كما بين - عز وجل - أن علمه محيط بكل شىء ، وأنه لا نهاية له .. قال - تعالى - : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير ﴾ .

٥ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بدعوة الناس جميعا إلى تقواه - عز وجل - وإلى بيان الأمور الخمسة التى لا يعلمها إلا هو - سبحانه - فقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ .

٦ - هذا ، والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها قد خاطبت النفس البشرية ، بما من شأنه أن يسعدها ويحييها حياة طيبة .

إنها قد بينت أوصاف المؤمنين الصادقين ، وأوصاف أعدائهم : وبينت عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، ووضحت تلك الوصايا الحكيمة التى أوصى بها لقمان ابنه وأحب الناس إليه ، وساقت أنواعا من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده ، وبينت أن هناك أمورا لا يعلمها إلا الله - تعالى - وحده .

وقد ساقت السورة ما ساقت من هدايات ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يرضى العواطف ، ويقنع العقول ..

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٣٠ من رجب ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥/٤/٢٠ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة لقمان من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى ...

وقد فصلنا القول فى معانيها ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران وغيرهما .

وقلنا فى نهاية سردنا لأقوال العلماء فى ذلك : ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة ..

واسم الاشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ يعود إلى آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم على الصحيح . لأنه هو المتحدث عنه .

قال الآلوسى : وأما حمله على الكتب التى خلت قبل القرآن .. فهو فى غاية البعد[1] ، والحكيم - بزنة فعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع ، تقول : حكمت الفرس ، إذا وضعت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والشرود .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٥٨ .

والمقصود ، أن هذا القرآن ممتنع أن يتطرق إليه الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه ، منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة ، فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر . ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ . ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم .. « أى المبرأ من الكذب والتناقض »[1] .

والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب ، المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت كلها لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

وقوله ﴿ هدى ورحمة ﴾ منصوبان على الحالية من ﴿ آيات ﴾ .

أى : هذا الكتاب أنزلنا عليك يا محمد آياته ، لتكون هداية ورحمة للمحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم ، وفى كل أحوالهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المحسنين ، بصفات كريمة فقال : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أى : يؤدونها فى أوقاتها المحددة لها ، مستوفية لواجباتها ، وسننها ، وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة التامة هى تلك التى يصحبها الإخلاص ، والخشوع ، والأداء الصحيح المطابق لما ورد عن النبى - ﷺ - .

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أى : ويعطون الزكاة التى أوجبها الله - تعالى - فى أموالهم لمستحقيها ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الدنيا .

وقوله ﴿ يوقنون ﴾ من الإيقان ، وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة ..

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٥ .

أى : أن من صفات هؤلاء المحسنين ، أنهم يؤدون الصلاة بخشوع وإخلاص ، ويقدمون زكاة أموالهم لمستحقيها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، يوقنون إيقانا قطعيا ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

وفى إيراد « هم » قبل لفظ الآخرة . وقبل لفظ يوقنون : تعريض بغيرهم ممن كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة ، أو غير بالغ مرتبة اليقين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار الطيبة التى ترتبت على تلك الصفات الكريمة ، فقال - تعالى - : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وألئك هم المفلحون ﴾ .

والمفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية . وأصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث ، واستعمل منه الفلاح فى الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه ، للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت .

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على هداية عظيمة من ربهم توصلهم إلى المطلوب ، وأولئك هم الفائزون بكل مرغوب .

والتنكير فى قوله ﴿ على هدى ﴾ للتعظيم ، وأتى بلفظ « على » للاشارة إلى التمكن والرسوخ ، ووصفه بأنه ﴿ من ربهم ﴾ لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم إليه ، ويسر لهم أسبابه .

ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من الناس ، كانوا على النقيض من سابقيهم ، فقال :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات اشهرها ، أنهما نزلتا فى النضر بن الحارث . أشترى قينة - أى مغنية - ، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى

قينته ، فيقول لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد - ﷺ - من الصلاة والصيام ، و أن تقاتل بين يديه ."[1] .

و﴿ لهو الحديث ﴾ : باطله ، ويطلق على كل كلام يلهى القلب ، ويشغله عن طاعة الله - تعالى - ، كالغناء ، والملاهى ، وما يشبه ذلك مما يصد عن ذكر الله - تعالى - :

وقد فسره كثير من العلماء بالغناء ، والأفضل تفسيره بكل حديث لا يثمر خيرا .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ ومن الناس ﴾ للتبعيض ، أى : ومن الناس من يترك القول الذى ينفعه ، ويشترى الأحاديث الباطلة ، والخرافات الفاسدة .

قال القرطبى ما ملخصه :هذه إحدى الآيات التى استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه . ولا يختلف فى تحريم الغناء الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على الغزل والمجون .. فأما ما سلم من ذلك ، فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق .."[2] .

وقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا .. ﴾ تعليل لاشتراء لهو الحديث . والمراد بسبيل الله - تعالى - : دينه وطريقه الذى اختاره لعباده .

وقد قرأ الجمهور : ﴿ ليضل ﴾ بضم الياء - أى : يشترى لهو الحديث ليضل غيره عن صراط الله المستقيم ، حالة كونه غير عالم بسوء عاقبة ما يفعله ، ولكى يتخذ آيات الله - تعالى - مادة لسخريته واستهزائه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليضل ﴾ - بفتح الياء - فيكون المعنى : يشترى لهو الحديث ليزداد رسوخا فى ضلاله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : القراءة بالضم بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو ، أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ، ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ؟ .

قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ، ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ويمده ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس عنه . والثانى : أن

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٧٢ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٥٤ وراجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦٧ وما بعدها .

يوضع ليَضل موضع ليُضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف ..»[١] .

وقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ بيان لسوء عاقبة من يؤثر الضلالة على الهداية .

أى : أولئك الذين يشترون لهو الحديث ، ليصرفوا الناس عن دين الله - تعالى - ، وليستهزئوا بآياته ، لهم عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل الاحتقار والهوان .

ثم فصل - سبحانه - حال هذا الفريق الشقى فقال : ﴿ وإذا تتلى عليه ﴾ أى : على النضر وأمثاله ﴿ آياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق نبينا - ﷺ - . ﴿ ولى مستكبرا ﴾ أى : أعرض عنها بغرور واستعلاء . ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أى : كأن حاله فى استكباره عن سماع الآيات ، كحال الذى لم يسمعها إطلاقا .

﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : كأن فى أذنيه صمما وثقلا ومرضا يحول بينه وبين السماع .

والجملتان الكريمتان حال من قوله ﴿ مستكبرا ﴾ والمقصود بهما توبيخ هذا الشقى وأمثاله ، وذمهم ذما موجعا لإعراضهم عن الحق .

وقوله - تعالى - : ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ تهكم به ، واستخفاف بتصرفاته .

أى : فبشر هذا الشقى الذى اشترى لهو الحديث ، وأعرض عن آياتنا بالعذاب الأليم ، الذى يناسب غروره واستكباره .

ثم أكدت السورة الجزاء الحسن الذى أعده الله - تعالى - للمؤمنين ، وذكرت جانبا من مظاهر قدرته - سبحانه - ، ورحمته بعباده ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩١ .

مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

أى : إن الذين آمنوا بالله – تعالى – إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿ لهم ﴾ فى مقابلة ذلك ﴿ جنات النعيم ﴾ أى : لهم جنات عالية يتنعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا ﴿ وعد الله حقا ﴾ أى : هم خالدون في تلك الجنات خلودا أبدا ، فقد وعدهم – سبحانه – بذلك ، ووعده حق وصدق ، ولن يخلفه – سبحانه – تفضلا منه وكرما .

قال الجمل . وقوله ﴿ وعد ﴾ مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله : ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ فى معنى وعدهم الله ذلك . وقوله ﴿ حقا ﴾ مصدر مؤكد لغيره . أى : لمضمون تلك الجملة الأولى وعاملها مختلف ، فتقدير الأولى : وعد الله ذلك وعدا . وتقدير الثانية ، وحقه حقا.[1] .

وقوله – تعالى – : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أى : وهو – سبحانه – العزيز الذى لا يغلبه غالب . الحكيم فى كل أفعاله وتصرفاته .

ثم بين – سبحانه – جانبا من مظاهر قدرته وعزته وحكمته فقال : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها .. ﴾ .

والعمد : جمع عماد . وهو ما تقام عليه القبة أو البيت . وجملة « ترونها » فى محل نصب حال من السموات .

أى هو : – سبحانه – وحده ، الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يسندها . وبغير أعمدة تعتمد عليها . وأنتم ترون ذلك بأعينكم بدون لبس أو خفاء . ولاشك أن خلقها على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا مدبرا قادرا حكيما ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله – تعالى – : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ بيان لنعمة ثانية مما أنعم به – سبحانه – على عباده .

والرواسى : جمع راسية . والمراد بها الجبال الشوامخ الثابتة .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٠١ .

أى : ومن رحمته بكم ، وفضله عليكم ، أن ألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت كراهة أن تميد وتضطرب بكم ، وأنتم عليها .

﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أى : وأوجد ونشر فى الأرض التى تعيشون فوقها ، من كل دابة من الدواب التى لا غنى لكم عنها والتى فيها منفعتكم ومصلحتكم .

والبث : معناه : النشر والتفريق . يقال : بث القائد خيله إذا نشرها وفرقها .

ثم بين - سبحانه - نعمة ثالثة فقال : ﴿ وأنزلنا ﴾ أى : بقدرتنا ﴿ من السماء ماء ﴾ أى : ماء كثيرا هو المطر ، ﴿ فأنبتنا فيها ﴾ أى : فأنبتنا فى الأرض بسبب نزول المطر عليها . ﴿ من كل زوج ﴾ أى : صنف ﴿ كريم ﴾ أى حسن جميل كثير المنافع .

والإشارة فى قوله : ﴿ هذا خلق الله ... ﴾ تعود إلى ما ذكره - سبحانه - من مخلوقات قبل ذلك . والخلق بمعنى المخلوق .

هذا الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض والجبال ... هو من مخلوقنا وحدنا ، دون أن يشاركنا فيما خلقناه مشارك .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾ واقعة فى جواب شرط مقدر ، أى : إذا علمتم ذلك فأرونى وأخبرونى ، ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة من دونه - سبحانه - إنهم لم يخلقوا شيئا ما ، بل هم مخلوقون لله - تعالى - .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تحدى المشركين ، وإثبات أنهم فى عبادتهم لغير الله ، قد تجاوزوا كل حد فى الجهالة والضلالة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ إضراب عن تبكيتهم وتوبيخهم ، إلى تسجيل الضلال الواضح عليهم .

أى : بل الظالمون فى ضلال بين واضح ، لأنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، ويتركون عبادة الله - تعالى - الخلاق العليم .

ثم ساق - سبحانه - على لسان عبد صالح من عباده ، جملة من الوصايا الحكيمة ، لتكون عظة وعبرة للناس ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ

لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : اختلف السلف فى لقمان ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ والأكثرون على أنه لم يكن نبيا .

وعن ابن عباس وغيره : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا ..

قال له مولاه : اذبح لنا شاة وجئنى بأخبث ما فيها ؟ فذبحها وجاءه بلسانها وقلبها . ثم قال له مرة ثانية : اذبح لنا شاة وجئنى بأحسن ما فيها ؟ فذبحها وجاءه - أيضا - بقلبها ولسانها ، فقال له مولاه ما هذا ؟ فقال لقمان : إنه ليس من شىء أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شىء أخبث منهما إذا خبثا .

وقال له رجل : ألست عبد فلان ؟ فما الذى بلغ بك ما أرى من الحكمة ؟ فقال لقمان : قدر الله وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى مالا يعنينى[١] .

ومن أقواله لابنه : يابنى اتخذ تقوى الله لك تجارة ، يأتك الربح من غير بضاعة .

يابنى ، لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار ، وأنت نائم على فراشك .

يابنى ، اعتزل الشر كيما يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق .

يابنى ، عليك بمجالس العلماء ، وبسماع كلام الحكماء ، فإن الله - تعالى - يحيى القلب الميت بنور الحكمة .

يابنى ، إنك منذ نزلت الدنيا استدبرتها ، واستقبلت الآخرة ، ودار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترتحل ..[٢] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : ولقمان : اسم أعجمى لاعربى وهو ابن باعوراء . قيل : كان فى زمان داود - عليه السلام - وقيل : كان زمانه بين عيسى وبين محمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم قال الآلوسى : وإنى أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما ، ولم يكن نبيا[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ... ﴾ كلام مستأنف مسوق لإبطال الإشراك بالله - تعالى - عن طريق النقل ، بعد بيان إبطاله عن طريق العقل ، فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ... ﴾ .

والحكمة : اكتساب العلم النافع والعمل به . أو هى : العقل والفهم . أو هى الإصابة فى القول والعمل .

والمعنى : والله لقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - عبدنا لقمان العلم النافع والعمل به .

وقوله - سبحانه - ﴿ أن اشكر لله ﴾ بيان لما يقتضيه إعطاء الحكمة . أى : آتيناه الحكمة وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من نعم لكى يزيدك منها .

قال الشوكانى : قوله : ﴿ أن اشكر لله ﴾ أن هى المفسرة : لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول . وقيل التقدير : قلنا له أن اشكر لى .. وقيل : بأن اشكر لى فشكر ، فكان حكيما بشكره .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٣٦ .
(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٠٣ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٨٢ .

والشكر لله : الثناء عليه فى مقابلة النعمة - واستعمالها فيما خلقت له - ، وطاعته فيما أمر به[1] .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الشكر وسوء عاقبة الجحود فقال : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ .

أى : ومن يشكر الله - تعالى - على نعمه ، فإن نفع شكره إنما يعود إليه ، ومن جحد نعم الله - تعالى - واستحب الكفر على الإيمان ، فالله - تعالى - غنى عنه وعن غيره ، حقيق بالحمد من سائر خلقه لإنعامه عليهم بالنعم التى لا تعد ولا تحصى : فحميد بمعنى محمود .

فالجملة الكريمة المقصود بها ، بيان غنى الله - تعالى - عن خلقه ، وعدم انتفاعه بطاعتهم ، لأن منفعتها راجعة إليهم ، وعدم تضرره بمعصيتهم . وإنما ضرر ذلك يعود عليهم . وعبر - سبحانه - فى جانب الشكر بالفعل المضارع ، للاشارة إلى أن من شأن الشاكرين أنهم دائما على تذكر لنعم الله - تعالى - ، وإذا ما غفلوا عن ذلك لفترة من الوقت ، عادوا إلى طاعته - سبحانه - وشكره .

وعبر فى جانب الكفر بالفعل الماضى ، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغى من أى عاقل ، بل كل عاقل عليه أن يهجر ذلك هجرا تاما ، وأن يجعله فى خبر كان .

وجواب الشرط محذوف ، وقد قام مقامه قوله - تعالى - : ﴿ فإن الله غنى حميد ﴾ والتقدير : ومن كفر فضرر كفره راجع إليه . لأن الله - تعالى - غنى حميد .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لقمان لابنه على سبيل النصيحة والإرشاد فقال - تعالى - : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يابنى لاتشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وقوله ﴿ يعظه ﴾ من الوعظ ، وهو الزجر المقترن بالتخويف . وقيل : هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب .

قالوا : واسم ابنه « ثاران » أو « ماثان » أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتنتفع ، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه ، ويرشده إلى وجوه الخير بألطف عبارة : يابنى ﴿ لا تشرك بالله ﴾ - تعالى - لا فى عبادتك ، ولا فى قولك ، ولا فى عملك ، بل أخلص كل ذلك لخالقك - عز وجل - .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٣٧ .

وفى ندائه بلفظ ﴿ يابنى ﴾ إشفاق عليه . ومحبة له ، فالمراد بالتصغير إظهار الحنو عليه ، والحرص على منفعته .

قيل : وكان ابنه كافرا فمازال يعظه حتى أسلم . وقيل : بل كان مسلما ، والنهى عن الشرك المقصود به ، المداومة على ما هو عليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين .

وجملة ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ تعليل للنهى . أى : يابنى حذار أن تشرك بالله فى قولك أو فعلك ، إن الشرك بالله - تعالى - لظلم عظيم ، لأنه وضع للأمور فى غير موضعها الصحيح ، وتسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق .

وقوله - تعالى - : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه .. ﴾ كلام مستأنف ، جىء به على سبيل الاعتراض فى أثناء وصية لقمان لابنه ، لبيان سمو منزلة الوالدين ، ولأن القرآن كثيرا ما يقرن بين الأمر بوحدانية الله - تعالى - ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا .. ﴾[1] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، أن لاتشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ..[2] . أى : أمرنا كل إنسان أن يكون بارا بأبويه ، وأن يحسن إليهما ، وأن يطيع أمرهما فى المعروف .

ثم بين - سبحانه - ما بذلته الأم من جهد يوجب الإحسان إليها فقال : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾ أى : حملته أمه فى بطنها وهى تزداد فى كل يوم ضعفا على ضعف ، بسبب زيادة وزنه ، وكبر حجمه ، وتعرضها لألوان من التعب خلال حمله ووضعه .

والوهن : الضعف . يقال : وهن فلان يهن وهنا . إذا ضعف . ولفظ « وهنا » حال من أمه بتقدير مضاف . أى : حملته أمه ذات وهن ، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : تهن وهنا . وقوله : ﴿ على وهن ﴾ متعلق بمحذوف صفة للمصدر . أى : وهنا كائنا على وهن .

وقوله : ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ بيان لمدة إرضاعه . والفصال : الفطام عن الرضاع . أى : وفطام المولود عن الرضاعة يتم بانقضاء عامين من ولادته ، كما قال - تعالى - : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ... ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

وهاتان الجملتان ﴿ حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ﴾ جاءتا بعد الوصية بالوالدين عموما ، تأكيدا لحق الأم ، وبيانا لما تبذله من جهد شاق فى سبيل أولادها ، تستحق من أجله كل رعاية وتكريم وإحسان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فقوله : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟

قلت : لما وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثم قال رسول الله - ﷺ - لمن قال له : من أبر ؟ قال : « أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : « ثم أباك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ بيان لما تستلزمه الوصية بالوالدين أى : وصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له : اشكر لخالقك فضله عليك ، بأن تخلص له العبادة والطاعة ، واشكر لوالديك ما تحملاه من أجلك من تعب ، بأن تحسن إليهما ، واعلم أن مصيرك إلى خالقك - عز وجل - وسيحاسبك على أعمالك ، وسيجازيك عليها بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - حدود الطاعة للوالدين فقال : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ ..

والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿ ووصينا ...﴾ بإضمار القول . أى : ووصينا الإنسان بوالديه . وقلنا له : ﴿ وإن جاهداك ﴾ أى : وإن حملاك ﴿ على أن تشرك بى ﴾ فى العبادة أو الطاعة ، ﴿ ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وجملة ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ لبيان الواقع ، فلا مفهوم لها ، إذ ليس هناك من إله يعلم سوى الله - عز وجل - .

ثم أمر - سبحانه - بمصاحبتهما بالمعروف حتى مع كفرهما فقال : ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ .

أى : إن حملاك على الشرك . فلا تطعهما ، ومع ذلك فصاحبهما فى الأمور الدنيوية التى لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة ، يرتضيها الشرع ، وتقتضيها مكارم الأخلاق .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٤ .

وقوله ﴿ معروفا ﴾ صفة لمصدر محذوف . أى : صحابا معروفا . أو منصوب بنزع الخافض . أى : بالمعروف .

ثم أرشد - سبحانه - إلى وجوب اتباع أهل الحق فقال : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى .. ﴾ . أى : واتبع - أيها العاقل طريق الصالحين من عبادى ، الذين رجعوا إلى بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص .

﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ جميعا يوم القيامة - أيها الناس - ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا ، وأجازى كل إنسان على حسب عمله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : وهاتان الآيتان نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، وأن أمه حلفت أن لا تأكل طعاما حتى تموت .. وفيهما دليل على صلة الأبوين الكافرين ، بما أمكن من المال إن كانا فقيرين .. وقد قالت أسماء بنت أبو بكر الصديق ، للنبى - ﷺ - وقد قدمت عليها خالتها وقيل : أمها من الرضاعة : يارسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها ؟ قال : « نعم » وراغبة قيل معناه : عن الإسلام ، أو راغبة فى الصلة[1] .

ثم ذكر - سبحانه - بقية الوصايا أوصى بها لقمان ابنه فقال : ﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، يأت بها الله ﴾ ..

والضمير فى قوله : ﴿ إنها ﴾ يعود إلى الفعلة التى يفعلها من خير أو شر . و﴿ تك ﴾ مجزوم بسكون النون المحذوفة ، وهو فعل الشرط . والجواب : « يأت بها الله » والمثقال : أقل ما يوزن به الشىء . والخردل : فى غاية الصغر والدقة .

والمعنى : يابنى إن ما تفعله من حسنة أو سيئة ، سواء أكان فى نهاية القلة والصغر ، كمثال حبة من خردل ، وسواء أكان هذا الشى القليل مخبوءا فى صخرة من الصخور الملقاة فى فجاج الأرض ، أو كائنا فى السموات أم فى الأرض ، فإن الله - تعالى - يعلمه ويحضره ويجازى عليه ﴿ إن الله ﴾ - تعالى - لطيف خبير أى : محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، عظيمها وصغيرها .

فالمقصود من الآية الكريمة ، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله - تعالى : لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون ، مهما دق وقل وتخفى فى أعماق الأرض أو السماء .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٦٥ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾[1] .

ثم أمره بالمحافظة على الصلاة وبالأمر بالمعروف ، وبالنهى عن المنكر وبالصبر على الأذى ، فقال : ﴿ يابنى أقم الصلاة ﴾ أى : واظب على أدائها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .

﴿ وأمر بالمعروف ﴾ أى بكل ما حض الشرع على قوله أو فعله ﴿ وانه عن المنكر ﴾ أى : عن كل مانهى الشرع عن قوله أو فعله .

﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ من الأذى ، فإن الحياة مليئة بالشدائد والمحن والراحة إنما هى فى الجنة فقط .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ يعود إلى الطاعات المذكورة قبله .

وعزم الأمور : أعاليها ومكارمها . أو المراد بها ما أوجبه الله - تعالى - على الإنسان .

قال صاحب الكشاف : ﴿إن ذلك ﴾ مما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب وإلزام .. ومنه الحديث : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه » ومنه عزمات الملوك ، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده ، عزمت عليك إلا فعلت كذا . فإذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ، ولا مندوحة فى تركه .

وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم ، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها[2] .

ثم نهاه عن التكبر والغرور والتعالى على الناس فقال : ﴿ ولا تصعر خدك للناس.. ﴾ .

والصعر فى الأصل : مرض يصيب البعير فيجعله معوج العنق ، والمراد به هنا ، التكبر واحتقار الناس ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبَّار صعر خده   مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

أى : ولا تمل صفحة وجهك عن الناس ، ولا تتعالى عليهم كما يفعل المتكبرون والمغرورون ، بل كن هينا لينا متواضعا ، كما هو شأن العقلاء ..

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ أى : ولا تمش فى الأرض مشية المختالين المعجبين

---

(١) سورة الأنبياء . الآية ٤٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٦ .

بأنفسهم . و﴿ مرحا ﴾ مصدر وقع موقع الحال على سبيل المبالغة ، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف . أى : تمرح مرحا . والجملة فى موضع الحال . أو مفعول لأجله . أى : من أجل المرح .

وقوله : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهى . والمختال : المتكبر الذى يختال فى مشيته ، ومنه قولهم : فلان يمشى الخيلاء . أى يمشى مشية المغرور المعجب بنفسه .

والفخور : المتباهى على الناس بماله أو جاهه أو منصبه .. يقال فخر فلان - كمنع - فهو فاخر وفخور ، إذا تفاخر بما عنده على الناس ، على سبيل التطاول عليهم ، والتنقيص من شأنهم .

أى : إن الله - تعالى - لا يحب من كان متكبرا على الناس ، متفاخرا بماله أو جاهه .

ثم أمر بالقصد والاعتدال فى كل أموره فقال : ﴿ واقصد فى مشيك ﴾ أى وكن معتدلا فى مشيك ، بحيث لا تبطىء ولا تسرع . من القصد وهو التوسط فى الأمور .

﴿ واغضض من صوتك ﴾ واخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا استدعى الأمر رفعه ، فإن غض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث واستقامته .

وكان أهل الجاهلية يتفاخرون بجهارة الصوت وارتفاعه ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، ومدح - سبحانه - الذين يخفضون أصواتهم فى مجلس رسول الله - ﷺ - فقال : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ تعليل للأمر بخفض الصوت ، وللنهى عن رفعه بدون موجب .

أى : إن أقبح الأصوات وأبشعها لهو صوت الحمير ، فالجملة الكريمة حض على غض الصوت بأبلغ وجه وآكده ، حيث شبه - سبحانه - الرافعين لأصواتهم فى غير حاجة إلى ذلك ، بأصوات الحمير التى هى مثار السخرية مع النفور منها .

وهكذا نجد أن لقمان قد أوصى ابنه بجملة من الوصايا السامية النافعة ، فقد أمره - أولا - بإخلاص العبادة لله - تعالى - ثم غرس فى قلبه الخوف من الله - عز وجل - ، ثم حضه على إقامة الصلاة ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعلى الصبر على الأذى ، ثم نهاه عن الغرور والتكبر والافتخار ، وعن رفع الصوت بدون مقتض لذلك .

وبتفيذ هذه الوصايا ، يسعد الأفراد ، وترقى المجتمعات .

ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على الناس ، ودعا المنحرفين عن الحق إلى ترك المجادلة بالباطل ، وإلى مخالفة الشيطان ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ..﴾ لأولئك المشركين الذين استحبوا العمى على الهدى ، واشتروا لهو الحديث ليضلوا غيرهم عن طريق الحق .

وسخر : من التسخير ، بمعنى التذليل والتكليف ، يقال : سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به .

والاستفهام لتقرير الواقع وتأكيده . أى : لقد رأيتم - أيها الناس - وشاهدتم أن الله - تعالى - سخر لمنفعتكم ومصلحتكم ما فى السموات من شمس وقمر ونجوم .. وما فى الأرض من زرع وأشجار وحيوانات وجبال .. وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله - تعالى - على هذا التسخير ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ معطوف على ما قبله .

وقوله : ﴿ وأسبغ ﴾ بمعنى أتم وأكمل عليكم نعمه : وهى ما ينتفع به الإنسان ويستلذه من الحلال .

والنعمة الظاهرة : هى النعمة المشاهدة المحسوسة كنعمة السمع والبصر وحسن الهيئة والمال ، والجاه ، وما يشبه ذلك مما يراه الإنسان ويشاهده .

والنعمة الباطنة : هى النعمة الخفية التى يجد الإنسان أثرها فى نفسه دون أن يراها . كنعمة الإيمان بالله - تعالى - وإسلام الوجه له - عز وجل - ، والاتجاه إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن رذائلها وسفسافها .

وفى تفسير النعم الظاهرة والباطنة أقوال أخرى ، نرى أن ما ذكرناه أوجهها وأجمعها[١].

ثم بين - سبحانه - ما عليه بعض الناس من جدال بالباطل فقال : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ﴾ .

وقوله : ﴿ يجادل ﴾ من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المخاصمة والمنازعة والمغالبة . مأخوذ من جدلت الحبل ، إذا أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه .

والمراد من المجادلة فى الله : المجادلة فى ذاته وصفاته وتشريعاته ..

وقوله : ﴿ بغير علم ﴾ حال من الفاعل فى ﴿ يجادل ﴾ ، وهى حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد . أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون فى ذات الله ، وفى صفاته ، وفى وحيه ، وفى تشريعاته .. بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير « هدى » يهديه ويرشده إلى الحق ، وبغير ﴿ كتاب منير ﴾ أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جردت هذا المجادل ، من أى مستند يستند إليه فى جداله ، سواء أكان هذا المستند عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من كل الجهات .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المجادلين بالباطل ، لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى رذائلهم السابقة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى ، فقال ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله .. ﴾ . أى : وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزله الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - من قرآن كريم ، ومن وحى حكيم .

﴿ قالوا ﴾ على سبيل العناد والتقليد الأعمى ﴿ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام والأوثان ، والسير على طريقتهم التى كانوا يسيرون عليها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتماد فى العقيدة على مجرد تقليد الآباء .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للحال . أى : أيتبعون ما كان عليه آباؤهم ، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذى يقودهم إلى ما يؤدى إلى عذاب السعير .

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر . وأما اتباع الغير

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٩٣ .

فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق ، فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم فى شىء ، وقد قال - سبحانه - : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[1] .

ثم فصل سبحانه بعد ذلك حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار الذين لايحسنون التدبر فى أنفسهم ، أو فيما حولهم ، فقال تعالى - :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ﴾ أى : ومن يتجه إلى الله - تعالى - ويذعن لأمره ، و يخلص له العبادة ، وهو محسن فى أقواله وأفعاله .

من يفعل ذلك ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ والعروة فى أصل معناها : تطلق على ما يتعلق بالشىء من عراه ، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها . وتجمع على عرا .

والعروة من الدلو مقبضه ، ومن الثوب : مدخل زره .

والوثقى : تأنيث الأوثق ، وهو الشىء المحكم الموثق . يقال : وثق - بالضم - وثاقه ، أى : قوى وثبت فهو وثيق ، أى : ثابت محكم .

والمعنى : ومن يستسلم لأمر الله - تعالى - ويأتى بالأقوال والأفعال على وجه حسن ، فقد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٤١ .

ثبت أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، وأمسك من الدين بأقوى سبب ، وأحكم رباط .

فقد شبه - سبحانه - المتوكل عليه فى جميع أموره ، المحسن فى أفعاله ، بمن ترقى فى حبل شاهق ، وتدلى منه ، فاستمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه .

وخص - سبحانه - الوجه بالذكر ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة ، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم الأعضاء ، فغيره أكثر خضوعا .

وقوله : ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ أى : وإلى الله - تعالى - وحده تصير الأمور ، وترجع إليه ، و تخضع لحكمه وإرادته .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ... ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - ، عما أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : ومن استمر - أيها الرسول - على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا ، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب ، وإنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ... ﴾ بيان لسوء مصيرهم .

أى : إلينا وحدنا مرجع هؤلاء الكافرين ، فنخبرهم بما عملوه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ونجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ عليم ﴾ علما تاما ﴿ بذات الصدور ﴾ أى : بمكنونات الصدور وخفاياها ..

﴿ نمتعهم قليلا ﴾ فى هذه الحياة الدنيا . أى نمتعهم تمتيعا قليلا فى دنياهم ، بأن نعطيهم الأموال والأولاد على سبيل الاستدراج .

﴿ ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ﴾ أى نعطيهم فى حياتهم القصيرة ما يتمتعون به من مال وصحة ... ثم نلجئهم وندفعهم دفعا يوم القيامة الى عذاب مروع فظيع ، لضخامة ثقله ، وشدة وقعه .

والمراد بالاضطرار : الإلجاء والقسر والإلزام ، أى : أنهم لايستطيعون التفلت أو الانفكاك عن هذا العذاب الذى أعد لهم .

ووصف - سبحانه - العذاب بالغلظ ، لزيادة تهويله وشدته . فهو ثقيل عليهم ثقل الأجرام الضخمة التى تهوى على رأس الإنسان ، فتشل حركته وتهلكه .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء الكافرون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال :

﴿ ولئن سألتهم ﴾ أيها الرسول الكريم - ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ وأوجدهما على هذا النظام البديع .. ﴿ ليقولن ﴾ فى الجواب ﴿ الله ﴾ أى : الله - تعالى - هو الذى خلقهما ، وهو الذى أوجدهما .

﴿ قل الحمد لله ﴾ قل - أيها الرسول الكريم - الحمد لله - تعالى - وحده ، حيث اعترفتم بأن خالقهما هو الله ، وما دام الأمر كذلك ، فكيف أشركتم معه فى العبادة غيره ؟ إن قولكم هذا الذى تؤيده الفطرة ، ليتنافى مع ماأنتم عليه من كفر وضلال .

وقوله - سبحانه - ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب عن أقوالهم إلى بيان واقعهم ، أى : بل أكثرهم لا يعلمون الحقائق علما سليما ، وإنما هم يقولون بألسنتهم ، وما يتباين تباينا تاما مع أفعالهم ، وهذا شأن الجاهلين ، الذين انطمست بصائرهم ..

ثم بين - سبحانه - ما يدل على عظيم قدرته ، وشمول ملكه فقال : ﴿ لله ما فى السموات والأرض ﴾ . أى : لله - تعالى - وحده ، ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ..

﴿ إن الله هو الغنى ﴾ عن كل ما سواه ﴿ الحميد ﴾ أى : المحمود من أهل الأ رض والسماء ، لأنه هو الخالق لكل شىء ، والرازق لكل شىء .

ثم ساق - تعالى - بعد ذلك ما يدل على شمول علمه ، ونفاذ قدرته ، فقال - سبحانه - :

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قال ابن كثير : قال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال - تعالى - ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام.. ﴾ .

وعن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا للنبى - ﷺ - أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ؟ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال - ﷺ - : « كلا عنيت » فقالوا : ألست

تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال - ﷺ - : « إنها فى علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾[1].

و« لو » شرطية ، وجوابها « ما نفدت كلمات الله ..» و« من » فى قوله ﴿ من شجرة ﴾ للبيان ، وفى الآية الكريمة كلام محذوف يدل عليه السياق .

والمعنى : ولو أن ما فى الأرض من أشجار تحولت بغصونها وفروعها إلى أقلام ، ولو أن البحر - أيضا - تحول إلى مداد لتلك الأقلام ، وأمد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى . وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات الله التى يحيط بها علمه - تعالى - ..

لنفدت الأقلام ، ولنفد ماء البحر ، لتناهى كل ذلك ، وما نفدت كلمات الله - تعال - ولا معلوماته ، لعدم تناهيها .

﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يعجزه شيء ، ولا يغلبه غالب ﴿ حكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله .

فالآية الكريمة المقصود منها بيان أن علم الله - تعالى - لا نهاية له ، وأن مشيئته لا يقف أمامها شيء ، وكلماته لا أول لها ولا آخر .

وقال - سبحانه - ﴿ من شجرة ﴾ بالإفراد ، لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه شجرة فشجرة ، حتى لا تبقى واحدة من أنواع الأشجار إلا وتحولت إلى أقلام .

وجمع - سبحانه - الأقلام ، للتكثير ، أى : أقلام كثيرة يصعب عدها .

والمراد بالبحر : البحر المحيط بالأرض ، لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو الفرد الكامل .

وإنما ذكرت السبعة بعد ذلك على وجه المبالغة دون إرادة الحصر ، وإلا فلو اجتمعت عشرات البحار ما نفدت كلمات الله .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام ، والبحر مداد ؟ قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله ﴿ يمده ﴾ لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها . جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع .

فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله ؟ .

قلت : معناه أن كلماته لا تفى بكتابتها البحار فكيف بكلمه ؟[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٢ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٠١ .

وقال الآلوسى : والمراد بكلماته - تعالى - كلمات علمه - سبحانه - وحكمته . وقيل : المراد بها : مقدوراته وعجائب فى خلقه ، والتى إذا أراد - سبحانه - شيئا منها قال له : ﴿ كن فيكون ﴾[١] .

ثم أتبع - سبحانه - ذلك بيان نفاذ قدرته فقال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ... ﴾ . أى : ما خلقكم - أيها الناس - جميعا ، ولا بعثكم يوم القيامة ، إلا كخلق نفس واحدة أو بعثها ، لأن قدرته - عز وجل - يتساوى معها القليل والكثير ، والصغير والكبير ، قال - تعالى - ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - : ﴿ سميع ﴾ لكل شىء ﴿ بصير ﴾ بأحوال خلقه لا يخفى عليه شىء منهم .

ثم ذكر - سبحانه - الناس بجانب من مظاهر قدرته ونعمه عليهم ، لكى يخلصوا له العبادة والطاعة ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٠٠ .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار... ﴾ للتقرير . والخطاب لكل من يصلح له ليعتبر ويتعظ ، ويخلص العبادة لله - تعالى - .

وقوله ﴿ يولج ﴾ من الإيلاج بمعنى الإدخال . يقال : ولج فلان منزله ، إذا دخله ... ثم استعير لزيادة زمان النهار فى الليل وعكسه ، بحسب المطالع .

أى : لقد رأيت وشاهدت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - ، يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل ، ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر ، على حسب مشيئته وحكمته ..

وأنه - سبحانه - ﴿ سخر الشمس والقمر .. ﴾ أى : ذللهما وجعلهما لمنفعة الناس ومصلحتهم ، كما جعلهما يسيران هما والليل والنهار ، بنظام بديع لا يتخلف .

وقوله : ﴿ كل يجرى إلى أجل مسمى ﴾ كل من الشمس والقمر يجريان فى مدارهما بنظام ثابت محكم ، إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لنهاية سيرهما ، وهو يوم القيامة. قال ابن كثير : قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة .

وقيل : إلى يوم القيامة ، وكلا المعنيين صحيح . ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر الذى فى الصحيحين ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « يا أباذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها ، فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت »[١] .

وقال الجمل : قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قاله هنا بلفظ ﴿ إلى ﴾ ، وفى سورتى فاطر والزمر ، بلفظ « لأجل » ، لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهى إليه الخلق ، وهما قوله : ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم ... ﴾ الآية . وقوله ﴿ اتقوا ربكم واخشوا يوما ... ﴾ الآية ، فناسب هنا ذكر ﴿ إلى ﴾ الدالة على الانتهاء ، وما فى فاطر والزمر خال عن ذلك . إذ ما فى فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما فى الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى يجرى كل كما ذكر لبلوغ أجل مسمى[٢] .

وجملة ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ أن الله يولج .. ﴾ أى : لقد علمت أن الله - تعالى - قد فعل ذلك ، وأنه - سبحانه - خبير ومطلع على كل عمل تعملونه - أيها الناس - دون أن يخفى عليه شىء منها .

---

(١) تفسر ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٢ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٠٩ .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ... ﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل فى النهار ، وتسخير الشمس والقمر . وهو مبتدأ . وقوله ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ خبره . والباء للسببية . أى : ذلك الذى فعلناه سببه ، أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذى لا إله سواه ، وأن ما يدعون من دونه من آلهة أخرى هو ﴿ الباطل ﴾ الذى لا يصح أن يسمى بهذا الاسم ، لأنه مخلوق زائل متغير ، لايضر ولا ينفع .

ثم ذكر - سبحانه - الناس بنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى فقال : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته .. ﴾ .

أى : ولقد علمت - أيضا - وشاهدت - أيها العاقل - حال السفن ، وهى تجرى فى البحر ، بمشيئة الله وقدرته ، وبلطفه ورحمته وإحسانه . ليطلعكم على بعض آياته الدالة على باهر قدرته ، وسمو حكمته وسابغ نعمته .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى شاهدتموه وانتفعتم به من السفن وغيرها ﴿ لآيات ﴾ واضحات على قدرة الله - تعالى - ورحمته لعباده ﴿ لكل صبار ﴾ أى : لكل إنسان كثير الصبر ﴿ شكور ﴾ . أى : كثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ورحمته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس عندما تحيط بهم المصائب وهم فى وسط البحر فقال : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

وقوله ﴿ غشيهم ﴾ من الغشاء بمعنى : الغطاء . فيقال : غشى الظلام المكان ، إذا حل به وأصل « الموج » الحركة والازدحام . ومنه قولهم : ماج البحر إذا اضطرب وارتفع ماؤه . والظلل : جمع ظلة - كغرفة وغرف - ، وهى ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما .

أى : وإذا ما ركب الناس فى السفن ، وأحاطت بهم الأمواج من كل جانب ، وأوشكت أن تعلوهم وتغطيهم ... فى تلك الحالة لجأوا إلى الله - تعالى - وحده ، يدعونه بإخلاص وطاعة وتضرع ، أن ينجيهم مما هم فيه من بلاء ..

﴿ فلما نجاهم ﴾ - سبحانه - بفضله وإحسانه ، وأوصلهم ﴿إلى البر ﴾ انقسموا إلى قسمين ، أما القسم الأول ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ أى : فمنهم من هو مقتصد ، أى : متوسط فى عبادته وطاعته ، يعيش حياته بين الخوف والرجاء .

قال ابن كثير : قال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل ، ثم قال ابن كثير : وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله - تعالى - : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فالمقتصد هاهنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مرادا هنا - أيضا - ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك

الأهوال ، والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرا ، والحالة هذه[1] .

وأما القسم الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ .

والختار : من الختر ، وهو أبشع وأقبح الغدر والخديعة . يقال : فلان خاتر وختار وختير ، إذا كان شديد الغدر والنقض لعهوده ، ومنه قول الشاعر :

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

والكفور : هو الشديد الكفران والجحود لنعم الله - تعالى - .

أى : وما يجحد بآياتنا الدالة على قدرتنا ورحمتنا ، إلا من كان كثير النقض لعهودنا ، شديد النكران لنعمنا .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بدعوة الناس إلا الاستعداد ليوم الحساب وإلى مراقبة الله - تعالى - فى كل أحوالهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء منها . فقال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

والمعنى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ بأن تطيعوه ولا تعصوه ، وبأن تشكروه ولا تكفروه ، واخشوا يوما ، أى : وخافوا أهوال يوم عظيم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٣ .

﴿ لا يجزى والد عن ولده ﴾ أى : لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشىء من النفع فى هذا اليوم . أو أن يقضى عنه شيئا من الأشياء .

﴿ ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ﴾ أى : ولا يستطيع المولود - أيضا - أن يدفع عن والده شيئا مما يحتاجه منه .

وخص - سبحانه - الوالد والمولود بالذكر ، لأن رابطة المحبة والمودة بينهما هى أقوى الروابط وأوثقها ، فإذا انتفى النفع بينهما فى هذا اليوم ، كان انتفاؤه بالنسبة لغيرهما من باب أولى .

وقوله : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أى : إن ما وعد الله - تعالى - به عباده من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق وثابت ثبوتا لا يقبل الشك أو التخلف .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أى : فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها ومتعها ، ولا تشغلنكم عن طاعة الله - تعالى - وعن حسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد . فإن الكيِّس الفطن هو الذى يتزود لهذا اليوم بالإيمان الحق ، والعمل الصالح النافع .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : ولا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، وعن امتثال أمره . فالمراد بالغرور : الشيطان . أو كل ما يصرفك عن طاعة الله - تعالى .

قال الآلوسى : ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : الشيطان ، كما روى عن ابن عباس وغيره . بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم ... وعن أبى عبيدة : كل شىء غرك حتى تعصى الله - تعالى - فهو غرور سواء أكان شيطانا أم غيره وعلى ذلك ذهب الراغب فقال : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان .. وأصل الغرور : من غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته ، أى : غفلته ، ونال منه ما يريد . والمراد به الخداع ..

والظاهر أن « بالله » صلة « يغرنكم » أى : لا يخدعنكم بذكر شىء من شئونه - تعالى - ، يجركم بها على معاصيه - سبحانه -[١] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأمور التى استأثر - عز وجل - بعلمها فقال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أى : عنده وحده علم وقتها ، وعلم قيامها ، كما قال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٠٨ .

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ...﴾[1] .

﴿ وينزل الغيث ﴾ أى : وينزل بقدرته المطر ، ويعلم وحده وقت نزوله . ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ أى : ويعلم ما فى أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى .

﴿ وما تدرى نفس ﴾ من النفوس كائنة من كانت ﴿ ماذا تكسب غدا ﴾ من خير أو شر ، و من رزق قليل أو كثير ، لأنها لا تملك عمرها إلى الغد .

﴿ وما تدرى نفس ﴾ من النفوس - أيضا - كائنة من كانت ﴿بأى أرض تموت ﴾ أى : بأى مكان ينتهى أجلها .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ عليم ﴾ بكل شىء ﴿ خبير ﴾ بما يجرى فى نفوس عباده . وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار ، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ هذه ا لآية » ..

وعن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال للنبى - ﷺ - : « إن امرأتى حبلى فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله الآية »[2] .

وهذه الأمور الخمسة من الأمور التى استأثر الله - تعالى - بها على سبيل العلم اليقينى الشامل المطابق للواقع ..

ولا مانع من أن يطلع الله - تعالى - بفضله وكرمه ، بعض أصفيائه على شىء منها .

وليست المغيبات محصورة فى هذه الخمسة ، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله - تعالى - داخل فيما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وإنما خصت هذه الخمسة بالذكر لأنها من أهم المغيبات ، أو لأن السؤال كان عنها .

وما يخبر به المنجم والطبيب وعلماء الأرصاد الجوية من الأمور التى لم تتكشف بعد ، فمبناه على الظن لا على اليقين ، وعلى احتمال الخطأ والصواب .

أما علم الله - تعالى - بهذه الأمور وغيرها ، فهو علم يقينى قطعى شامل . لا يحتمل الظن أو الشك أو الخطأ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٧ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « لقمان » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر

الخميس : ٥ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

٢٥ من إبريل سنة ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ السَّجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - سورة « السجدة » هى السورة الثانية والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « المؤمنون » ، أى : أنها من أواخر السور المكية .

قال الآلوسى ما ملخصه : وتسمى - أيضًا - بسورة « المضاجع » . وهى مكية ، كما روى عن ابن عباس .

وروى عنه أنها مكية سوى ثلاث آيات ، تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا ... ﴾ وهى تسع وعشرون آية فى البصرى . وثلاثون آية فى المصاحف الباقية ... »[١] .

ومن فضائل هذه السورة ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال : كان النبى - ﷺ - يقرأ فى الفجر يوم الجمعة ﴿ الم . تنزيل ... ﴾ السجدة . و ﴿ هل أتى على الإنسان ... ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : « كان النبى - ﷺ - لا ينام حتى يقرأ هذه السورة ، وسورة تبارك »[٢] .

٢ - وتبدأ هذه السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان أنه من عند الله - تعالى - ، وبالرد على الذين زعموا أن الرسول - ﷺ - قد افتراه من عند نفسه ...

ثم تسوق ألوانًا من نعم الله - تعالى - على عباده ، ومن مظاهر قدرته ، وبديع خلقه ، وشمول إرادته ، وإحسانه لكل شىء خلقه ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ .

٣ - ثم تذكر السورة الكريمة بعد ذلك جانبًا من شبهات المشركين حول البعث والحساب ، وترد عليها بما يبطلها ، وتصور أحوالهم عندما يقفون أمام خالقهم للحساب تصويرًا مؤثرًا مرعبًا قال - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١١٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٦٢ .

٤ – وبعد أن تذكر السورة الكريمة ما أعده الله – تعالى – للمؤمنين من ثواب لا تعلمه نفس من الأنفس ، وما أعده للكافرين من عقاب .. بعد كل ذلك تبين أن عدالته – تعالى – قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار وإنما يجازى كل إنسان على حسب عمله .

قال – تعالى – : ﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا ، لا يستوون ﴾ .

٥ – ثم تشير السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله – تعالى – لنبيه موسى – عليه السلام – من نعم ، وما منحه للصالحين من قومه من منن ، لكى يتأسى بهم المؤمنون ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ .

٦ – ثم حضت السورة الكريمة المشركين على التدبر والتفكر فى آيات الله – تعالى – ، ونهتهم عن الجحود والعناد ، وحكت جانبًا من سفاهاتهم ، وأمرت النبى – ﷺ – بأن يرد عليهم ، وأن يمضى فى طريقه دون أن يعير سفاهاتهم اهتمامًا .

قال – تعالى – : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ .

٧ – وبعد فهذا عرض إجمالى لسورة « السجدة » ومنه نرى أنها زاخرة بالأدلة على وحدانية الله – تعالى – وقدرته ، وعلى أن القرآن حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٣ من شعبان ١٤٠٥ هـ – ٢٣ / ٤ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ
كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ
نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

سورة السجدة من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسورة : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ...

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظومًا من حروف ، وهى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله ...

ومع كل هذا التساهل فى التحدى . فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت بذلك أن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ بيان لمصدر القرآن الكريم وأنه لا شك فى كونه من عند الله - عز وجل - .

وقوله : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ . وخبره ﴿ من رب العالمين ﴾ وجملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ معترضة بينهما ، أو حال من الكتاب ..[1] .

أى : تنزيل هذا الكتاب عليك - أيها الرسول الكريم - كائن من رب العالمين ، وهذا أمر لا شك فيه ، ولا يخالطه ريب أو تردد عند كل عاقل .

وعجل - سبحانه - بنفى الريب ، حيث جعله بين المبتدأ والخبر ، لبيان أن هذه القضية ليست محلاً للشك أو الريب ، وأن كل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين .

و « أم » فى قوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة . والاستفهام للتعجيب من قولهم وإنكاره .

والافتراء : الاختلاق . يقال : فلان افترى الكذب ، أى : اختلقه . وأصله من الفرى بمعنى قطع الجلد ، وأكثر ما يكون للإفساد .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء المشركون ، إن محمدا - ﷺ - ، قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه ... ؟

---

(١) راجع حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤١٢ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ رد على أقوالهم الباطلة .

أى : لا تستمع - أيها الرسول الكريم - إلى أقاويلهم الفاسدة ، فإن هذا القرآن هو الحق الصادر إليك من ربك - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى إرساله - ﷺ - وفى إنزال القرآن عليه فقال : ﴿ لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ .

والإنذار : هو التخويف من إرتكاب شىء تسوء عاقبته . و « ما » نافية . و « نذير » فاعل « أتاهم » و « من » مزيدة للتأكيد .

أى : هذا القرآن - يامحمد - هو معجزتك الكبرى ، وقد أنزلناه إليك لتنذر قومًا لم يأتهم نذير من قبلك بما جئتهم به من هدايات وإرشادات وآداب .

وقد فعلنا ذلك رجاء أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم ، ويستقبلوا دعوتك بالطاعة والاستجابة لما تدعوهم إليه .

ولا يقال : إن إسماعيل - عليه السلام - قد أرسل إلى آباء هؤلاء العرب الذين أرسل الرسول - ﷺ - إليهم ، لأن رسالة إسماعيل قد اندرست بطول الزمن ، ولم ينقلها الخلف عن السلف ، فكانت رسالة الرسول - ﷺ - إلى قومه ، جديدة فى منهجها وأحكامها وتشريعاتها .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته ، بما يستحقه من إجلال وتعظيم وتقديس فقال : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ... ﴾ .

والأيام جمع يوم ، واليوم فى اللغة : مطلق الوقت ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

وهو - سبحانه - قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة أو لحظة ، ولكنه - عز وجل - خلقهن فى تلك الأوقات ، لكى يعلم عباده التأنى والتثبيت فى الأمور .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ستة أيام ﴾ قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة ، التى خلق الله فيها السموات والأرض ، مقداره ألف سنة من سنى الدنيا ..[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وليست هذه الأيام من أيام هذه الأرض التى نعرفها ، إذ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٨٦ .

أيام هذه الأرض ، مقياس زمنى ناشىء من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلًا ونهارًا على هذه الأرض .. وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة . أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة فى القرآن ، فعلمها عند الله . ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها ، فهى من أيام الله التى يقول عنها : ﴿ وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ إشارة إلى استعلائه وهيمنته على شئون خلقه .

وقال بعض العلماء : وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم .. وقد ذكر فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش ، فذهب سلف الأمة ، إلى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .

قال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعًا على الإيمان بالصفات ، من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ أى : ليس لكم - أيها الناس - إذا تجاوزتم حدوده - عز وجل - ﴿ من ولى ﴾ أى : من ناصر ينصركم إن أراد عقابكم ، ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم عنده لكى يعفو عنكم ، أفلا تعقلون هذه المعانى الواضحة ، وتسمعون هذه المواعظ البليغة ، التى من شأنها أن تحملكم على التذكر والاعتبار والطاعة التامة لله رب العالمين .

فالآية الكريمة جمعت فى توجيهاتها الحكيمة ، بين مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبين الترهيب من معصيته ومخالفة أمره ، وبين الحض على التذكر والاعتبار .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢١ ص ٥١٠ .
(٢) راجع تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق أن وصف به ذاته ، صفات أخرى تليق بجلاله ، فقال : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يدبر ﴾ من التدبير بمعنى الإحكام والإتقان ، والمراد به هنا : إيجاد الأشياء على هذا النحو البديع الحكيم الذى نشاهده ، وأصل التدبير : النظر فى أعقاب الأمور محمودة العاقبة .

وقوله : ﴿ يعرج ﴾ من العروج بمعنى الصعود والارتفاع والصيرورة إليه - تعالى - .

والضمير فى « إليه » يعود إلى الأمر الذى دبره وأحكمه - سبحانه - .

أى : أن الله - تعالى - هو الذى يحكم شئون الدنيا السماوية والأرضية إلى أن تقوم الساعة ، وهو الذى يجعلها على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ثم تصعد إليه - تعالى - تلك الأمور والشئون المدبرة ، فى يوم ، عظيم هو يوم القيامة ﴿ كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ من أيام الدنيا .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ متعلقان بقوله : ﴿ يدبر ﴾ ومن ابتدائية ، وإلى انتهائية . أى : يريده - تعالى - على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، منزلاً له من السماء إلى الأرض . وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه ، فإن أسبابه سماوية من الملائكة وغيرهم .

وقوله ﴿ ثم يعرج إليه ﴾ أى : ذلك الأمر بعد تدبيره . وهذا العروج مجاز عن ثبوته فى علمه .. أو عن كتابته فى صحف الملائكة بأمره - تعالى -[1] .

وقال بعض العلماء : وقد ذكر - سبحانه - هنا أنه ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ . وذكر فى سورة الحج ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . وذكر سورة المعارج ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ والجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف فى سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . ويوم الألف فى سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه - تعالى - ، ويوم الخمسين ألفا - فى سورة المعارج - هو يوم القيامة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٢٠ .

الثانى : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ويدل لهذا الوجه قوله - تعالى - : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ﴾[1] .

أى : أن يوم القيامة يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حالة أخرى خمسين ألف سنة .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ، وهو مبتدأ ، وما بعده أخبار له - عز وجل - .

أى : ذلك الذى اتصف بتلك الصفات الجليلة ، وفعل تلك الأفعال المتقنة الحكيمة ، هو الله - تعالى - ، ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى : عالم كل ما غاب عن الحس ، وكل ما هو مشاهد له ، لا يخفى عليه شىء مما ظهر أو بطن ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿ الرحيم ﴾ بعباده .

﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ أى : الذى أحكم وأتقن كل شىء خلقه وأوجده فى هذا الكون ، لأنه - سبحانه - أوجده على النحو الذى تقتضيه حكمته ، وتستدعيه مصلحة عباده .

قال الشوكانى : وقرأ الجمهور ﴿ خلقه ﴾ - بفتح اللام - على أنه فعل ماض صفة لشىء ، فهو فى محل جر . أو صفة للمضاف فيكون فى محل نصب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ابن عامر : ﴿ خلقه ﴾ - بسكون اللام - وفى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلاً من ﴿ كل شىء ﴾ بدل اشتمال ، والضمير عائد على كل شىء ، وهذا هو المشهور ... ﴾[2] .

والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ آدم - عليه السلام - ، أى وبدأ خلق أبيكم آدم من طين ، فصار على أحسن صورة ، وأبدع شكل ﴿ ثم جعل نسله ﴾ أى : ذريته ، وسميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه .

﴿ من سلالة ﴾ أى : من خلاصة ، وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية .

﴿ من ماء مهين ﴾ أى : ممتهن لا يهتم بشأنه ، ولا يعتنى به ، والمقصود به : المنى الذى يخرج من الرجل .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٠٣ للشيخ الأمين الشنقيطى .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٦ ص ٢٤٩ .

﴿ ثم سواه ﴾ أى : هذا المخلوق الذى أوجده من طين ، أو من ماء مهين . والمراد : ثم عدل خلقه ، وسوى شكله ، وناسب بين أعضائه ، وأتمه فى أحسن صورة ...

﴿ونفخ فيه ﴾ - سبحانه - ﴿ من روحه ﴾ أى : من قدرته ورحمته ، التى صار بها هذا الإنسان إنسانًا كاملاً فى أحسن تقويم .

وإضافة الروح إليه - تعالى - للتشريف والتكريم لهذا المخلوق ، كما فى قولهم بيت الله .

﴿ وجعل لكم ﴾ بعد ذلك ﴿ السمع ﴾ الذى تسمعون به ﴿ والأبصار ﴾ التى تبصرون بها ، ﴿ والأفئدة ﴾ التى تعقلون بها ، وتحسون الأشياء بواسطتها .

وقوله : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ بيان لموقف بنى آدم من هذه النعم المتكاثرة والمتنوعة . ولفظ « قليلاً » منصوب على أنه صفة لمحذوف وقع معمولاً لتشكرون .

أى : شكرًا قليلاً تشكرون ، أو زمانًا قليلاً تشكرون .

وهكذا بنو آدم - إلا من عصم الله - ، أوجدهم الله - تعالى - بقدرته ، وسخر لمنفعتهم ومصلحتهم ما سخر من مخلوقات ، وصانهم فى كل مراحل خلقهم بأنواع من الصيانة والحفظ ... ومع ذلك فقليل منهم هم الذين يشكرونه - عز وجل - على نعمه . وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - شبهات المشركين ورد عليها ، وصور أحوالهم الأليمة عندما تقبض الملائكة أرواحهم ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي
خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾
وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ
رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ

مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾
فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ
وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ هذا قول منكرى البعث أى : هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضل الماء فى اللبن إذا ذهب . والعرب تقول للشىء غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضل .. »[1] .

أى : وقال الكافرون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من حساب أئذا صارت أجسادنا كالتراب واختلطت به ، أنعاد إلى الحياة مرة أخرى ، ونخلق خلقًا جديدًا ...؟

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ إضراب وانتقال من حكاية كفرهم بالبعث والحساب إلى حكاية ما هو أشنع من ذلك وهو كفرهم بلقاء الله - تعالى - الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ... أى : بل هم لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجهل عليهم ، بلقاء ربهم يوم القيامة ، كافرون جاحدون ، لأنهم قد استبعدوا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، مع أن الله - تعالى - قد أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن مردهم إليه لا محالة بعد أن يقبض ملك الموت أرواحهم فقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

وقوله ﴿ يتوفاكم ﴾ من التوفى . وأصله أخذ الشىء وافيا تاما . يقال : توفاه الله ، أى : استوفى روحه وقبضها ، وتوفيت مالى بمعنى استوفيته والمراد بملك الموت : عزرائيل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد على هؤلاء الجاحدين : سيتولى قبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم ملك الموت الذى كلفه الله - تعالى - بذلك ثم إلى ربكم ترجعون ، فيجازيكم بما تستحقونه من عقاب ، بسبب كفركم وجحودكم .

وأسند - سبحانه - هنا التوفى إلى ملك الموت ، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح . وأسنده إلى الملائكة فى قوله - تعالى - ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ لأنهم أعوان ملك الموت الذين كلفهم الله بذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٩١ .

وأسنده - سبحانه - إلى ذاته فى قوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ لأن كل شىء كائنا ما كان ، لا يكون إلا بقضائه وقدره .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ، عندما يقفون للحساب ، تصويرًا مرعبًا مخيفًا فقال : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﴾ .

وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : لرأيت شيئًا تقشعر من هوله الأبدان .

وقوله : ﴿ ناكسو ﴾ من النكس ، وهو قلب الشىء على رأسه كالتنكيس .. وفعله من باب نصر - والخطاب يصح أن يكون للرسول - ﷺ - أو لكل من يصلح له .

أى : ولو ترى - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والجزاء ، وهم يقفون أمام خالقهم بذلة وخزى ، لحسابهم على أعمالهم .. لو ترى ذلك لرأيت شيئًا ترتعد له الفرائص ، وتهتز منه القلوب .

وقوله : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون ﴾ حكاية لما يقولونه فى هذا الموقف العصيب . أى : يقولون بذلة وندم : ياربنا نحن الآن نبصر مصيرنا ، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال ، ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ، لكى ﴿ نعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحًا إنا موقنون ﴾ الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق ، وأن البعث حق . وأن الجزاء حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق .

ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم ، قد جاء فى غير أوانه ، ولذا لا يقبله - سبحانه - منهم ، ولذا عقب - سبحانه - على ما قالوه بقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... ﴾ . أى : ولو شئنا أن نؤتى كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان ، لفعلنا ، لأن إرادتنا نافذة ، وقدرتنا لا يعجزها شىء .

﴿ ولكن حق القول منى ﴾ أى : ولكن ثبت وتحقق قولى .

﴿ لأملأن جهنم من الجنة ﴾ أى من الجن وسموا بذلك لاستتارهم عن الأنظار .

ومن ﴿ الناس أجمعين ﴾ بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء ، إلا أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن الذين سبق فى علمه أنهم يؤثرون الضلالة على الهداية ، لسوء استعدادهم ، يكون مصيرهم إلى النار ، وأما الذين آثروا الهداية على الضلالة لنقاء نفوسهم ، وكمال استعدادهم ، فيكون مصيرهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .

كما أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن يميز الإنسان على غيره ، بأن يجعل له طبيعة

خاصة يملك معها اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . كما قال - تعالى - ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا . إنا هديناه السبيل ، إما شاكرًا وإما كفورا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما يقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم فى جهنم فقال - تعالى - : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ .

والذوق حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه . والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم .

والفاء فى قوله : ﴿ فذوقوا ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله والباء للسببية . والمراد بالنسيان لازمه ، وهو الترك والإهمال .

أى : ويقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم فى النار : ذوقوا لهيبها وسعيرها بسبب نسيانكم وإهمالكم وجحودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب . وإننا من جانبنا قد أهملناكم وتركناكم . بسبب إصراركم على كفركم ، وذوقوا العذاب الذى أنتم مخلدون فيه بسبب أعمالكم القبيحة فى الدنيا « جزاء وفاقا » .

وكرر - سبحانه - لفظ ﴿ ذوقوا ﴾ على سبيل التأكيد ، وزيادة التقريع والتأنيب .

ثم تترك السورة الكريمة هؤلاء المجرمين يذوقون العذاب ، وتنتقل إلى الحديث عن مشهد آخر ، عن مشهد يشرح النفوس ، ويبهج القلوب ، إنه مشهد المؤمنين الصادقين ، وما أعد الله - تعالى - من ثواب قال - تعالى - :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

أى : ﴿ إنما يؤمن ﴾ ويصدق ﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، أصحاب النفوس النقية الصافية ، الذين إذ ذكروا بها ، أى : بهذه الآيات .

﴿ خروا سجدًا ﴾ لله - تعالى - من غير تردد ﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ أى : ونزهوه عن كل ما لا يليق به - عز وجل -

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن طاعته - سبحانه - ، وعن الانقياد لأمره ونهيه .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى عبادتهم وتقربهم إلى الله ، تصويرًا بديعًا فقال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ﴾ .

والتجافى : التحرك إلى جهة أعلى . وأصله من جفا فلان السرج عن فرسه ، إذا رفعه . ويقال تجافى فلان عن مكانه ، إذا انتقل عنه .

والجنوب : جمع جنب . وأصله الجارحة ، والمراد به الشخص .

والمضاجع : جمع مضجع ، وهو مكان الاتكاء للنوم .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الصادقين ، تتنحى وترتفع أجسامهم ، عن أماكن نومهم ، وراحتهم ، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإنابة ﴿ خوفًا ﴾ من سخطه عليهم ، ﴿ وطمعًا ﴾ فى رضاه عنهم .

﴿ ومما رزقناهم ﴾ من فضلنا وخيرنا ﴿ ينفقون ﴾ فى وجوه البر والخير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ... ﴾ بيان للعطاء الجزيل ، والثواب العظيم . أى : فلا تعلم نفس من النفوس سواء أكانت لملك مقرب ، أم لنبى مرسل ، ما أخفاه الله - تعالى - لهؤلاء المؤمنين المتهجدين بالليل والناس نيام ، من ثواب تقر به أعينهم ، وتسعد به قلوبهم ، وتبتهج له نفوسهم ..

وهذا العطاء الجزيل إنما هو بسبب أعمالهم الصالحة فى الدنيا .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة صورة مشرقة لعباد الله الصالحين ، وللثواب الذى لا تحيط به عبارة ، والذى أكرمهم الله - تعالى - به .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، عددًا من الأحاديث الواردة فى فضل قيام الليل ، منها ما رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : كنت مع النبى - ﷺ - فى سفر ، فأصبحت يومًا قريبًا منه . ونحن نسير ، فقلت : يانبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار . فقال : « لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير

على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم قرأ - ﷺ - : تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ... »

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - إن الله - تعالى - قال : « أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن عدالته قد اقتضت عدم التسوية بين الأخيار والأشرار ، وأن كل إنسان إنما يجازى يوم القيامة على حسب عمله فقال - تعالى - .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٦٥ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفمن كان مؤمنًا .. ﴾ للإنكار ، والفسوق : الخروج عن طاعة الله .

أى : أفمن كان فى هذه الدنيا مؤمنًا بالله حق الإيمان ، كمن كان فيها فاسقًا وخارجًا عن طاعة الله - تعالى - وعن دينه الذى ارتضاه لعباده ؟

كلا ، إنهم لا يستوون لا فى سلوكهم وأعمالهم ، ولا فى جزائهم الدنيوى أو الأخروى .

وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى شأن الوليد بن عقبة ، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، حيث قال الوليد لعلى : أنا أبسط منك لسانًا ، وأحد سنانا ، وأملأ فى الكتيبة جسدًا ، فقال له على : اسكت ، فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية[1] .

ثم فصل - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، فقال : ﴿ أما الذين آمنوا ﴾ بالله حق الإيمان ﴿ وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ .

﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أى : فلهم الجنات التى يأوون إليها ، ويسكنون فيها ﴿ نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ والنزل : أصله ما يهيأ للضيف النازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم عمم فى كل عطاء . أى : فلهم جنات المأوى ينزلون فيها نزولاً مصحوبًا بالتكريم والتشريف جزاء أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا .

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أى : خرجوا عن طاعتنا ، وعن دعوة رسولنا - ﷺ - .

﴿ فمأواهم النار ﴾ أى : فمنزلتهم ومسكنهم ومستقرهم النار وبئس القرار .

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ هربًا من لهيبها وسعيرها وعذابها .

﴿ أعيدوا فيها ﴾ مرغمين مكرهين ، وردوا إليها مهانين مستذلين .

﴿ وقيل لهم ﴾ على سبيل الزجر والتأنيب وزيادة الحسرة فى قلوبهم .

﴿ ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ فى الدنيا ، وتستهزئون بمن ينذركم به ، ويخوفكم منه .

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ أى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا ، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة .

﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أى : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٠٤ .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان .

ثم بين - سبحانه - حال من يدعى إلى الهدى فيعرض عنه ، فقال : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلمًا وكفرًا ممن ذكره المذكر بالآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن دين الإسلام هو الحق ، ثم أعرض عنها جحودًا وعنادًا .

﴿ إنَّا من المجرمين منتقمون ﴾ أى : إنَّا من أهل الإجرام والجحود لآياتنا منتقمون انتقامًا يذلهم ويهينهم .

قال صاحب الكشاف : « ثم » فى قوله ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ للاستبعاد .

والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله ، فى وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل . كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ، استبعادًا لتركه الانتهاز . ومنه « ثم » فى بيت الحماسة :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها .

فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون ؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ، ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دل على إصابة الأظلم بالنصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الإفادة[1] .

ثم أشارت السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من نعم . وما منحه للصالحين من قومه من منن ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٥ .

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ التوراة التى أنزلها - سبحانه - لتكون هداية لبنى إسرائيل .

قالوا : وإنما ذكر موسى لقربه من النبى - ﷺ - ووجود من كان على دينه إلزامًا لهم . وإنما لم يختر عيسى - عليه السلام - للذكر وللاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى - عليه السلام -[١] .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿ فلا تكن فى مرية من لقائه ﴾ يعود إلى موسى على أرجح الأقوال - أو إلى الكتاب .

أى : آتينا موسى الكتاب فلا تكن - أيها الرسول الكريم - فى مرية أو شك من لقاء موسى للكتاب الذى أوحيناه إليه ، بقبول ورضا وتحمل لتكاليف الدعوة به ، فكن مثله فى ذلك ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك دون أن تخشى أحدًا سواه .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى : جنس الكتاب ﴿ فلا تكن فى مرية ﴾ أى : شك ﴿ من لقائه ﴾ أى : من لقائك ذلك الجنس .

وحمل بعضهم ﴿ الكتاب ﴾ على العهد ، أى الكتاب المعهود وهو التوراة .

ونهيه - ﷺ - عن أن يكون فى شك ، المقصود به أمته ، والتعريض بمن اتصف بذلك .

وقيل الكتاب ، المراد به التوراة ، وضمير ، لقائه ، عائد إليه من غير تقدير مضاف . ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله ، وفاعله موسى ، أى : فلا تكن فى مرية من لقاء موسى الكتاب ، أو مضاف إلى فاعله ، ومفعوله موسى . أى : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه ..[١] .

وهذا الرأى الأخير الذى عبر عنه الآلوسى - رحمه الله - بقوله « وقيل » وهو فى رأينا أرجح الآراء ، وأقربها إلى الصواب ، لبعده عن التكلف .

قال الجمل فى حاشيته ، بعد أن ساق ستة أقوال فى عودة الضمير فى قوله ﴿ من لقائه ﴾ : « وأظهرها أن الضمير إما لموسى وإما للكتاب . أى : لا ترتب فى أن موسى لقى الكتاب وأنزل عليه »[٣] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤١٩ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٣٧ .
(٣) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤١٩ .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « لقائه » له - أى لموسى - ، ومعناه : إنا آتينا موسى - عليه السلام - مثل ما آتيناك من الكتب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ، ولقيت نظيره كقوله - تعالى - : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ﴾ أى : وجعلنا الكتاب الذى أنزلناه على نبينا موسى - عليه السلام - هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والسداد .

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ والأئمة : جمع إمام ، وهو من يقتدى به فى الأمور المختلفة . والمراد بهم هنا : من يقتدى بهم فى وجوه الخير والبر .

أى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة فى الخير والصلاح ، يهدون غيرهم إلى الطريق الحق ، بأمرنا وإرادتنا وفضلنا ، وقد وفقناهم لذلك حين صبروا على أداء ما كلفناهم به من عبادات ، وحين تحملوا الشدائد والمحن فى سبيل إعلاء كلمتنا .

وأنت ترى أن جعلهم أئمة فى الخير لم يكن اعتباطًا ، وإنما كان بسبب صبرهم على الأذى ، وعلى مشاق الدعوة إلى الحق ، وعلى كل أمر يستلزم الصبر وحبس النفس .

وفى ذلك إرشاد وتعليم للمسلمين ، بأن يسلكوا طريق الأئمة الصالحين ، ممن كانوا قبلهم ، وأن يبلغوا دعوة الله إلى غيرهم بصبر ويقين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ زيادة فى مدحهم ، وفى تقرير أنهم أهل للإمامة فى الخير . أى : وكانوا بسبب إدراكهم السليم لمعانى آياتنا : يوقنون إيقانًا جازمًا بأنهم على الحق الذى لا يحوم حوله باطل وبأنهم متبعون لشريعة الله - تعالى - التى لا يضل من اتبعها وسار على نهجها .

ثم أشار - سبحانه - إلى أن بنى إسرائيل جميعًا لم يكونوا كذلك ، وإنما كان منهم الأخيار والأشرار ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الجميع يوم القيامة بحكمه العادل ، فقال : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده الذى يتولى القضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا من أمور متنوعة . على رأسها ما يتعلق بالأمور الدينية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٦ .

ثم يسوق – سبحانه – فى أواخر السورة ما من شأنه أن يهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ، وما يرشدهم إلى مظاهر نعمه عليهم ، وما يزيد النبى – ﷺ – ثباتاً على ثباته ، ويقيناً على يقينه ، فيقول – عز وجل – :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

والاستفهام فى قوله – تعالى – : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا ... ﴾ لإنكار عدم اهتدائهم إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب هذا الاهتداء . والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . والخطاب للمشركين وعلى رأسهم كفار مكة . و « كم » خبرية بمعنى كثير . فى محل نصب لأهلكنا .

والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون عما أصاب الظالمين من قبلهم ، ولم يتبين لهم – لانطماس بصائرهم – أننا قد أهلكنا كثيراً من أهل الأزمان السابقة من قبلهم ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

وقوله – تعالى – ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ حال من الضمير فى ﴿ لهم ﴾ ، لتسجيل أقصى أنواع الجهالة والعناد عليهم . أى : أبلغ بهم الجهل والعناد أنهم لم يعتبروا بالقرون المهلكة من قبلهم ، مع أنهم يمشون فى مساكن هؤلاء السابقين ، ويرون على ديارهم مصبحين وممسين ، ويرون بأعينهم آثارهم الدارسة ، وبيوتهم الخاوية على عروشها .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يزيد فى تبكيتهم وتقريعهم فقال : ﴿ إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى يرونه من مصارع الغابرين ، وآثار الماضين ، لآيات بينات ، وعظات بليغات ، فهلا تدبروا فى ذلك ، واستمعوا إلى صوت الحق بتعقل وتفهم ؟

فقوله - تعالى - : ﴿ أفلا يسمعون ﴾ حض لهم على الاستماع إلى الآيات الدالة على سوء عاقبة الظالمين ، بتدبر وتعقل واتعاظ ، وتحول من الباطل إلى الحق ، قبل أن يحل بهم ما حل بأهل الأزمنة الغابرة .

ثم نبههم - سبحانه - إلى نعمة من نعمه الكثيرة فقال : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعًا ، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ والأرض الجرز : هى الأرض اليابسة التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها .

قال القرطبى ما ملخصه : والأرض الجرز هى التى جرز نباتها أى : قطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز .

وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئًا إلا أكله ، وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شىء تجده ، وسيف جراز ، أى : قاطع ... »[1] .

أى : أعموا ولم يشاهدوا بأعينهم ﴿ أنا نسوق ﴾ بقدرتنا ورحمتنا ﴿ الماء ﴾ الذى تحمله السحب ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أى : اليابسة الخالية من النبات ، فينزل عليها .

﴿ فنخرج به ﴾ أى : فنخرج بهذا الماء النازل على الأرض القاحلة ﴿ زرعا ﴾ كثيرًا نافعًا ﴿ تأكل منه ﴾ أى : من هذا الزرع ﴿ أنعامهم ﴾ أى : تأكل منه ما يصلح لأكلها كالأوراق والأغصان وما يشبه ذلك .

وقوله ﴿ وأنفسهم ﴾ معطوف على أنعامهم . أى : تأكل أنعامهم من الزرع ما يناسبها ، ويأكل منه الناس ما يناسبهم كالبقول والحبوب .

وقدم - سبحانه - الأنعام على بنى آدم للترقى من الأدنى إلى الأشرف .

وقوله - تعالى - ﴿ أفلا يبصرون ﴾ حض لهم على التأمل فى هذه النعم ، والحرص على شكر المنعم عليها ، وإخلاص العبادة له .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١١٠ .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه المشركون من غرور واستخفاف بالوعيد فقال : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ .

والمراد بالفتح : الحكم والقضاء والفصل فى الخصومة بين المتخاصمين ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . أى : « احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين » .

أى : ويقول المشركون للنبى - ﷺ - ولأصحابه على سبيل الاستهزاء ، واستعجال العقاب : متى هذا الذى تحدثوننا عنه من أن الله - تعالى - سيفصل بيننا وبينكم ، ويجعل لكم النصر ولنا الهزيمة ؟

لقد طال انتظارنا لهذا اليوم الذى يتم فيه الحكم بيننا وبينكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم ، فادعوا ربكم أن يعجل بهذا اليوم .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم بما يخرسهم فيقول : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ . أى : قل - أيها الرسول - فى الرد على هؤلاء الجاهلين المغرورين : إن يوم الفصل بيننا وبينكم قريب ، وهو آت لا محالة فى الوقت الذى يحدده الله - تعالى - ويختاره ، سواء أكان هذا اليوم فى الدنيا ، عندما تموتون على الكفر ، أم فى الآخرة عندما يحل بكم العذاب ، ولا ينفعكم إيمانكم ، ولا أنتم تمهلون أو تنظرون ، بل سينزل بكم العذاب سريعًا وبدون مهلة .

وما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ . أى : فأعرض عن هؤلاء المشركين ، وعن أقوالهم الفاسدة دون أن تلتفت إليها ، وامض فى طريقك أنت وأتباعك ، وانتظر النصرة عليهم بفضلنا وإرادتنا ، إنهم - أيضًا - منتظرون ما سيئول إليه أمرك ، وسيكون أمرك بخلاف ما يمكرون وما ينتظرون .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة السجدة ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء السبت : ٧ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ
٢٧ / ٤ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ الأَحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - سورة الأحزاب هى السورة الثالثة والثلاثون فى ترتيب المصحف وهى من ا لسور المدنية ، وكان نزولها بعد سورة آل عمران ، أى : أنها من أوائل السور المدنية ، إذ لم يسبقها فى النزول بعد الهجرة سوى سور : البقرة والانفال وآل عمران .

ويبدو : أن نزولها كان فى الفترة التى أعقبت غزوة بدر ، إلى ما قبل صلح الحديبية . وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية .

٢ - وقد افتتحت سورة الأحزاب بنداء من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ، نهته فيه عن طاعة المنافقين والكافرين ، وأمرته بالمداومة على طاعة الله - تعالى - وحده ، وباتباع أمره ، وبالتوكل عليه - سبحانه - .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان حكم الله - تعالى - فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع فى ذلك الوقت ، فأبطلت التبنى ، كما أبطلت ما كان سائدا فى المجتمع من عادة الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، فتصير محرمة عليه حرمة مؤبدة .

قال - تعالى - : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ .

٤ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الأحكام التشريعية الأخرى ، كوجوب طاعة الرسول - ﷺ - طاعة تفوق طاعتهم لأنفسهم ، ولوجوب تعظيم المسلمين لزوجاته - ﷺ - كتعظيم أمهاتهم ، وكوجوب التوارث بين الأقارب بالطريقة التى بينها -

سبحانه - فى آيات أخرى ، وإبطال التوارث عن طريق المؤاخاة التى تمت بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار .

قال - تعالى - : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ .

٥ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بجانب من نعمه عليهم ، حيث دفع عنهم جيوش الأحزاب ، وأرسل على تلك الجيوش جنودا من عنده لم يروها ، وكشف عن رذائل المنافقين التى ارتكبوها فى تلك الغزوة ، ومدح المؤمنين الصادقين على وفائهم بعهودهم ، وكافأهم على ذلك بأن أورثهم أرض أعدائهم وديارهم .

قال - تعالى - : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قويا عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم . وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾.

وبعد هذا الحديث المفصل عن غزوة الأحزاب ، والذى استغرق ما يقرب من عشرين آية ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أزواج النبى - ﷺ - فأمرت النبى - ﷺ - أن يخيرهن بين التسريح بإحسان ، وبين الصبر على شظف العيش ، ليظفرن برضا الله - تعالى - كما وجهت نداء إليهن أمرتهن فيه ، بالتزام الآداب الدينية التى تليق بهن . لأنهن فى مكان القدوة لسائر النساء .

كما أمرتهن بالبقاء فى بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة مشروعة . ومثلهن فى ذلك مثل سائر نساء المسلمين . حتى يتفرغن لرعاية شئون بيوتهن التى هى من خصائصهن وليست من خصائص الرجال .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة ببيان الثواب الجزيل الذى أعده للمؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : ﴿ إن المسلمين والمسلمات . والمؤمنين والمؤمنات . والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات . والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات . والذاكرين الله كثيرا والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾.

٧ - ثم أشارت السورة بعد ذلك إلى قصة زواج النبى - ﷺ - بالسيدة زينب بنت جحش . وإلى الحكمة من ذلك . وإلى تطليق زيد بن حارثة لها . وإلى أن ما فعله

رسول - ﷺ - بالنسبة لهذه الحادثة . كان بأمر الله - تعالى - وإذنه .

قال - تعالى - : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما ﴾

ثم وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتنزيهه . كما وجهت نداء إلى النبى - ﷺ - بينت له فيه وظيفته ، قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما ، يأيها النبى إنَّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾.

٩ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك بشىء من التفصيل عن بعض الأحكام التى تتعلق بأزواج النبى - ﷺ - وبعلاقته - ﷺ - بهن من حيث القسم وغيره ، ومن حيث الزواج بغيرهن .

كما تحدثت عن الآداب التى يجب على المؤمنين أن يلتزموها عند دخولهم بيوت النبى - ﷺ - بدعوة منه . لأجل تناول طعام ، أو لأجل أمر من الأمور الأخرى التى تتعلق بدينهم أو دنياهم .

ثم ختمت هذه الآيات بقوله - تعالى - ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما ﴾.

١٠ - وبعد هذا البيان المفصل لكثير من الأحكام والآداب ، أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، فى تهديد المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وفى بيان أن سنن الله فى خلقه لا تتخلف ، وأن علم وقت قيام الساعة إلى الله - تعالى - وحده ، وأن الإصرار على الكفر يؤدى إلى سوء العاقبة ، وأن السير على طريق الحق . يؤدى إلى مغفرة الذنوب . وأن الإنسان قد ارتضى حمل الأمانة . التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال .

قال - تعالى - : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

١١ - ومن هذا العرض المجمل لآيات سورة الأحزاب ، نرى أنها قد اهتمت بموضوعات من أبرزها ما يلى :

(أ) كثرة التوجيهات والإرشادات ، من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إلى أفضل الأحكام ، وأقوم الآداب ، وأهدى السبل .

وهذه التوجيهات والإرشادات . نراها فى كثير من آيات سورة الأحزاب لاسيما التى نادت الرسول - ﷺ - بوصف النبوة .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن .

(ب) أمر المؤمنين بطاعة الله - تعالى - ، وبطاعة رسوله - ﷺ - ، ونهيهم عن كل مامن شأنه أن يتعارض مع تشريعات الإسلام ومع آدابه .

وهذه الأوامر والنواهى ، نراها فى كثير من آيات هذه السورة الكريمة .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ، فبرأه الله مما قالوا﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا﴾ .

(جـ) هذه السورة الكريمة تعتبر على رأس السور القرآنية التى اهتمت ببيان فضل نساء النبى - ﷺ -وحقوقهن ، وواجباتهن وخصائصهن .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ، فلا تخضعن بالقول ... ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ... ﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ... وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ... ﴾

وقوله - عز وجل - : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .. ﴾.

(د) هذه السورة تعتبر من أجمع السور القرآنية التى تعرضت لكثير من الأحكام الشرعية ، والآداب الاجتماعية ، التى لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

ومن ذلك حديثها عن الظهار ، وعن التبنى . وعن التوارث بين الأقارب دون غيرهم ، وعن وجوب تقديم طاعة الرسول - ﷺ - على طاعة الإنسان لنفسه ، وعن وجوب التأسى به ، وعن وجوب الابتعاد عن كل ما يؤذيه أو يجرح شعوره ، وعن وجوب الخضوع لحكم الله - تعالى - ولحكم رسوله - ﷺ - .

قال - تعالى - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

(هـ) السورة الكريمة فصلت الحديث عن غزوة الأحزاب ، التى وقعت فى السنة الخامسة من الهجرة بين المسلمين وأعدائهم .

فبدأت حديثها عن تلك الغزوة بتذكير المؤمنين بفضل الله - تعالى - عليهم فى هذه الغزوة ، ثم صورت أحوالهم عند إحاطة جيوش الأحزاب بالمدينة المنورة .

قال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ﴾.

ثم حكت أقوال المنافقين القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، وردت عليهم بما يفضحهم ، وبما يكشف عن سوء أخلاقهم .

قال - تعالى - : ﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

ثم مدحت المؤمنين الصادقين لوفائهم بعهودهم ، ولشجاعتهم فى مواجهة أعدائهم .

قال - سبحانه - : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا﴾ .

وكما بدأت السورة حديثها عن غزوة الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم - ختمته - أيضا - بهذا التذكير ، لكى يزدادوا شكرا له - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها ، وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ .

(و) والخلاصة أن المتأمل فى سورة الأحزاب ، يراها زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الاجتماعية ، وبالتوجيهات الربانية ، تارة من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وتارة لأزواجه - ﷺ - ، وتارة للمؤمنين .

كما يراها تهتم اهتماما واضحا بتنظيم المجتمع الإسلامى تنظيما حكيما ، من شأنه أن يأخذ بيد المتبعين له إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر — كتبه الراجى عفو ربه

٨ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

٢٨ من إبريل ١٩٨٥ م — د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) ﴾

افتتحت سورة الأحزاب بهذا النداء لسيد الخلق - ﷺ - وبهذا الوصف الكريم ، وهو الوصف بالنبوة ، على سبيل التشريف والتعظيم .

قال صاحب الكشاف : جعل - سبحانه - نداءه بالنبى والرسول فى قوله : ﴿ يأيها النبى ﴾ . ﴿ يأيها الرسول ﴾ وترك نداءه باسمه ، كما قال : يا آدم ، يا موسى ، يا عيسى ، ياداود : كرامة له وتشريفا ، وتنويها بفضله .

فإن قلت : إن لم يوقع اسمه فى النداء . فقد أوقعه فى الإخبار ، فى قوله : ﴿ محمد رسول الله ﴾ ؟

قلت : ذلك لتعليم الناس بأنه رسول ، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به[1] .

والمراد بأمره بتقوى الله : المداومة على ذلك ، والازدياد من هذه التقوى .

أى : واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله ، وعلى مراقبته ، وعلى الخوف منه ، وأكثر من ذلك ، فإن تقوى الله ، على رأس الفضائل التى يحبها - سبحانه - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٨ .

قال ابن كثير : هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه - تعالى - إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى .

وقد قال خلف بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله[١] .

وبعد الأمر بالتقوى ، جاء النهى عن طاعة غير المؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ . أى : واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله ، واجتنب طاعة الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى ، واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .

وفى إيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيحاء إلى ما كان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة ، لزحزحة النبى - ﷺ - عما هو عليه من حق ، ولصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل مكة ، طلبوا من النبى - ﷺ - أن يرجع عن قوله ، وأن يعطوه شطر أموالهم ، وأن المنافقين واليهود بالمدينة هددوه بالقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فنزلت[٢] .

وقوله - تعالى - ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ : تعليل الأمر والنهى ، أى : اتبع ما أمرناك به ، وما نهيناك عنه ، لأن الله - تعالى - عليم بكل شىء ، وحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما يوحيه إليه فقال : ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك .. ﴾ أى : واظب على تقوى الله ، وابتعد عن طاعة أعدائك ، واتبع فى كل ما تأتى وتذر ، كل ما نوحيه إليك من عندنا اتباعا تاما .

فالجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها . من قبيل عطف العام على الخاص .

وفى النص على أن الوحى إليه - ﷺ - وأن هذا الوحى من ربه الذى تولاه بالتربية والرعاية ، إشعار بوجوب الاتباع التام الذى لا يشوبه انحراف أو تردد .

ثم أكد - سبحانه - هذا الأمر تأكيدا قويا فقال : ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ أى : إنه - تعالى - خبير ومحيط بحركات النفوس وبخفايا القلوب ، وكل من يخالف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٤٠ .

ما أمرناه به ، أو نهيناه عنه ، فلا يخفى علينا أمره ، وسنجازيه يوم القيامة بما يستحقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى : وفوض أمرك إليه - عز وجل - وحده .

﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ أى : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بتدبير أمرك .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى الله ، واتباع وحيه ، والتوكل عليه - تعالى - وحده . كما تضمنت نهيه - ﷺ - عن طاعة الكافرين والمنافقين . وباتباع هذه الأوامر والنواهى ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم .

ثم أبطل - سبحانه - بعض العادات التى كان متفشية فى المجتمع ، وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال - تعالى - :

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ نزلت فى رجل من قريش اسمه جميل بن معمر الفهرى ، كان حفاظا لما يسمع ، وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل ، رآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله - من شدة الهلع - ، فقال له أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . فقال له : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى . فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده .

وقيل سبب نزولها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا - ﷺ - له قلبان ، لأنه ربما كان فى شىء فنزع فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾[1] .

ويرى بعضهم : أن هذه الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله - تعالى - للمظاهر من امرأته ، والمتبنى ولد غيره ، تمهيدا لما بعده .

أى : كما أن الله - تعالى - لم يخلق للإنسان قلبين فى جوفه ، كذلك لم يجعل المرأة الواحدة زوجا للرجل وأما له فى وقت واحد ، وكذلك لم يجعل المرء دعيا لرجل وابنا له فى زمن واحد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : أى : ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل .. لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك .

ولأن البنوة أصالة فى النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية لا غير .

فإن قلت : أى فائدة فى ذكر الجوف ؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة فى قوله - تعالى - : ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه ، لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ إبطال لما كان سائدا من أن الرجل كان إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمى حرمت عليه .

يقال . ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريد أنها محرمة عليه كحرمة أمه .

وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، فى سورة المجادلة ، فى قوله - تعالى - : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ إبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهى عادة التبنى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١١٦ .
(٢) تفسير الكشاف - بتصرف وتلخيص - جـ٣ ص ٥٢١ .

والأدعياء : جمع دعى . وهو الولد الذى يدعى ابنا لغير أبيه وكان الرجل يتبنى ولد غيره ، ويجرى عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب بزوجة ابنه بالتبنى بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهما .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة ، مولى النبى - ﷺ - ، فقد كان - ﷺ - قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد . فأراد الله - تعالى - أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ ، كما قال فى أثناء السورة : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من التلفظ بالظهار ، ومن إجراء التبنى على ولد الغير ، وهو مبتدأ ، وما بعده خبر .

أى : ذلكم الذى تزعمونه من تشبيه الزوجة بالأم فى التحريم ، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين ، هو مجرد قول باللسان لا يؤيده الواقع ، ولا يسانده الحق .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يقول - تعالى ذكره - هذا القول ، وهو قول الرجل لأمرأته : أنت على كظهر أمى ، ودعاؤه من ليس بابنه أنه ابنه ، إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت بهذه الدعوى نسب الذى ادعيت بنوته ، ولا تصير الزوجة أما بقول الرجل لها : أنت على كظهر أمى[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ أى : والله - تعالى - يقول الحق الثابت الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو - سبحانه - دون غيره يهدى ويرشد إلى السبيل القويم الذى يوصل إلى الخير والصلاح . وما دام الأمر كذلك فاتركوا عاداتكم وتقاليدكم التى ألفتموها . والتى أبطلها الله - تعالى - بحكمته ، واتبعوا ما يأمركم به - سبحانه - .

ثم أرشدهم إلى الطريقة السليمة فى معاملة الابن المتبنى فقال : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ أيانسبوا هؤلاء الأعياء إلى آبائهم ، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى - .

قال الآلوسى : أخرج الشيخان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد بن حارثة مولى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٧ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ٧٥ .

رسول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه إلا زيد بن محمد . حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ فقال - ﷺ - : « أنت زيد بن حارثة بن شراحيل »[1] .

وكان زيد قد أسر فى بعض الحروب ، ثم بيع فى مكة ، واشتراه حكيم بن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته خديجة - رضى الله عنها - إلى النبى - ﷺ - وصار الناس يقولون : زيد بن محمد حتى نزلت الآية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأدعياء فى حالة عدم معرفة آبائهم .

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، فإن ذلك أعدل عند الله - تعالى - ، وأشرف للآباء والأبناء ، فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين لكى تنسبوهم إليهم ، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم فى الدين والعقيدة ، وهم مواليكم ، فقولوا لهم ، يا أخى أو يامولاى ، واتركوا نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين .

وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تخلخل فى العلاقات الجنسية ، ومن اضطراب فى الأنساب ، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر والعفاف ، ووضع الأمور فى مواضعها السليمة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

أى : انسبوا - أيها المسلمون - الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يا مولاى . ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما ، فيما وقعتم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم ، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم .

و ﴿ كان الله غفورا رحيما ﴾ - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص شريعة الإسلام على إعطاء كل ذى حق حقه ، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذى كان يجعل المرأة محرمة على الرجل ، ثم تبقى بعد ذلك معلقة ، لا هى مطلقة فتتزوج غير زوجها ، ولا هى زوجة فتحل له فشرع الإسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة ، وحرصا على كرامتها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٤٧ .

ومن مظاهر ذلك - أيضا - : إبطال عادة التبنى ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية .

ولقد حذر الإسلام من دعوى الإبن إلى غير أبيه تحذيرا شديدا . ونفر من ذلك .

قال القرطبى : جاء فى الحديث الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكرة ، كلاهما قال : سَمِعته أذناى ووعاه قلبى ، محمدا - ﷺ - يقول : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم - ﷺ - ونحو أزواجه ، وما يجب للأقارب فيما بينهم ، فقال - تعالى - :

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

أى : النبى - ﷺ - أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم وأولى فى المحبة والطاعة ، فإذا ما دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه ، وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه ، على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه - ﷺ - لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إنما مثلى ومثل أمتى ، كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه - أى فى الشىء المستوقد - وأنا آخذ بِحُجزَكم - أى : وأنا آخذ بما يمنعكم من السقوط كملابسكم ومعاقد الإزار - وأنتم تقحمون فيه » أى : وأنتم تحاولون الوقوع فيما يحرقكم - .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٢١ .

قال القرطبى : قال العلماء : الحجزة : السراويل ، والمعقد للإزار ، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه ، وهذا مثل لاجتهاد نبينا - ﷺ - فى نجاتنا ، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التى بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا[١] .

وقال الإمام ابن كثير . قد علم الله - تعالى - شفقة رسوله - ﷺ - على أمته ، ونصحه لهم : فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدما على اختيارهم لأنفسهم .

وفى الصحيح « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » .

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه » .

وروى الإمام أحمد عن جابر عن النبى - ﷺ - أنه كان يقول : ﴿ أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ﴾ فأيما رجل مات وترك دينا فإلى ، ومن ترك مالا فلورثته ﴾[٢] .

وقال الآلوسى : وإذا كان - ﷺ - بهذه المثابة فى حق المؤمنين ، يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه - عليه الصلاة والسلام - عليهم أنفذ من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها .

وسبب نزول الآية - على ما قيل - ما روى من أنه - ﷺ - أراد غزوة تبوك ، فأمر الناس بالخروج : فقال أناس منهم : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت . ووجه دلالتها على السبب أنه - ﷺ - إذا كان أولى من أنفسهم ، فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى[٣] .

ثم بين - سبحانه - منزلة أزواجه - ﷺ - بالنسبة للمؤمنين فقال : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى : وأزواجه - ﷺ - بمنزلة أمهاتكم - أيها المؤمنون - فى الاحترام والإكرام ، وفى حرمة الزواج بهن .

قالوا : وأما ما عدا ذلك كالنظر اليهن ، والخلوة بهن ، وإرثهن . فهن كالأجنبيات .

ثم بين - سبحانه - أن التوارث إنما يكون بين الأقارب فقال - تعالى - ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٢٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨١ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦١ .

والمراد بأولى الأرحام : الأقارب الذين تربط بينهم رابطة الرحم كالآباء والأبناء ، والإخوة ، والأخوات .

وقوله : ﴿ فى كتاب الله ﴾ متعلق بقوله ﴿ أولى ﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الضمير فى ﴿ أولى ﴾ .

والمراد بالمؤمنين والمهاجرين . من لا تربط بينهم وبين غيرهم رابطة قرابة .

قال ابن كثير : وقد أورد ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله - عز وجل - فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك أنا معشر قريش ، لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم .. حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فرجعنا إلى مواريثنا[1] .

وشبيه بهذه الآية فى وجوب أن يكون التوارث بحسب قرابة الدم ، قوله - تعالى - فى آخر آية من سورة الأنفال : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

والاستثناء فى قوله - سبحانه - : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ رجح بعضهم أنه استثناء منقطع . وقوله ﴿ أن تفعلوا ﴾ مبتدأ ، وخبره محذوف .

والمراد بالكتاب فى قوله ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ القرآن الكريم ، أو اللوح المحفوظ .

والمعنى : وأولو الأرحام وهم الأقارب ، بعضهم أولى ببعض فى التوارث فيما بينهم ، وفى تبادل المنافع بعضهم مع بعض ، وهذه الأولوية والأحقية ثابتة فى كتاب الله - تعالى - حيث بين لكم فى آيات المواريث التى بسورة النساء ، كيفية تقسيم التركة بين الأقارب ، وهم بهذا البيان أولى فى ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة .

هذا هو حكم الشرع فيما يتعلق بالتوارث ، لكن إذا أردتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين معروفا ، كأن توصوا له ببعض المال فلا بأس ، ولا حرج عليكم فى ذلك .

وهذا الحكم الذى بيناه لكم فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب ، كان مسطورا ومكتوبا فى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨٣ .

اللوح المحفوظ ، وفى آيات القرآن التى سبق نزولها ، فاعملوا بما شرعناه لكم ، واتركوا ما نهيناكم عنه .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام ، والتقدير : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كل شيء من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، من صدقة أو وصية ، فإن ذلك جائز .

وإما منقطع . والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به .

والإشارة بقوله : ﴿ كان ذلك ﴾ تعود إلى ما تقدم ذكره . أى : كان نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ، ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات ﴿ فى الكتاب مسطورا ﴾ أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن مكتوبا[1] .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد وضحت ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ، وما يجب عليهم نحو أزواجه ، وما يجب عليهم نحو أقاربهم فيما يتعلق بالتوارث .

ثم ذكر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالعهد الذى أخذه عليه وعلى الأنبياء من قبله ، فقال - تعالى - :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

والميثاق : العهد الموثق المؤكد ، مأخوذ من لفظ وثق ، المتضمن معنى الشد والربط على الشيء بقوة وإحكام .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أخذنا من جميع النبيين العهد الوثيق ، على أن يبلغوا ما أوحيناه إليهم من هدايات للناس ، وعلى أن يأمروهم بإخلاص العبادة لنا ، وعلى أن يصدق بعضهم بعضا فى أصول الشرائع ومكارم الأخلاق .. كما أخذنا هذا العهد الوثيق منك ، ومن أنبيائنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .

(١) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٦٢ .

وخص هؤلاء الأنبياء بالذكر ، للتنويه بفضلهم ، فهم أولو العزم من الرسل ، وهم الذين تحملوا فى سبيل إعلاء كلمة الله - تعالى - أكثر مما تحمل غيرهم .

وقدم - ﷺ - عليهم فى قوله ﴿ ومنك ومن نوح ﴾ لمزيد فضله - ﷺ - على جميع الأنبياء .

قال الآلوسى : ولا يضر تقديم نوح - عليه السلام - فى سورة الشورى ، أعنى قوله - تعالى - : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ﴾ إذ لكل مقام مقال . والمقام فى سورة الشورى وصف دين الإسلام بالأصالة . والمناسب فيه تقديم نوح ، فكأنه قيل : شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد - ﷺ - فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ معطوف على ما قبله وهو ﴿ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ ، لإفادة تفخيم شأن هذا الميثاق المأخوذ على الأنبياء ، وبيان أنه عهد فى أقصى درجات الأهمية والشدة .

أى : وأخذنا من هؤلاء الأنبياء عهدا عظيم الشأن ، بالغ الخطورة ، رفيع المقدار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فماذا أراد بالميثاق الغليظ ؟

قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . إذ المعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا .

والغلظ استعارة فى وصف الأجرام . والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه .

وقيل : المراد بالميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أخذنا ﴾ ، أو بمحذوف . والمراد بالصادقين : الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق .

أى : فعل - سبحانه - ذلك ليسأل يوم القيامة أنبياءه عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم ، وعن موقف هؤلاء الأقوام منهم .

والحكمة من هذا السؤال تشريف هؤلاء الرسل وتكريمهم ، وتوبيخ المكذبين لهم فيما جاءوهم به من كلام صادق ومن إرشاد حكيم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ معطوف على مادل عليه قوله ، ليسأل الصادقين .

---

(١) تفسير الالوسى جـ ٢١ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٢٥ .

أى : أثاب - عز وجل - الأنبياء الكرام بسبب صدقهم فى تبليغ رسالته وأعد للكافرين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم عذابا أليما ، بسبب هذا الإعراض .

وهكذا جمعت الآية الكريمة بين ما أعده - سبحانه - من ثواب عظيم للصادقين . ومن عذاب أليم للكافرين .

وبعد هذا البيان الحكيم لبعض الأحكام الشرعية . انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن غزوة الأحزاب ، وعن فضل الله - تعالى - على المؤمنين فيها ، فقال - سبحانه - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ
مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا
اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

وغزوة الأحزاب ، من الغزوات الشهيرة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وكانت - على الراجح - فى شهر شوال من السنة الخامسة بعد الهجرة .

وملخصها - كما ذكر الإمام ابن كثير - أن نفرا من اليهود - على رأسهم حيى بن أخطب - خرجوا إلى مكة ، واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب المسلمين ، فأجابوهم إلى ذلك .

ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم لحرب المسلمين ، فاستجابوا لهم - أيضا - .

وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها ، والجميع فى جيش قريب من عشرة آلاف رجل .

وعندما علم الرسول - ﷺ - بمقدمهم ، أمر بحفر خندق حول المدينة .

ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة ، فوجدوا الخندق قد حفر ، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها . كما أن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد .

وخلال هذه الفترة العصيبة ، نقض يهود بنى قريظة عهودهم مع المسلمين ، وانضموا إلى جيوش الأحزاب ، فزاد الخطب على المسلمين .

ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر . ثم جاء نصر الله - تعالى - ، بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده ، فتصدعت جبهات الأحزاب ، وانكفأت خيامهم ، وملأ الرعب قلوبهم ، ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ﴾[1] .

وقد ابتدأ الله - تعالى - الحديث عن هذه الغزوة ، بنداء وجهه إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بفضله عليهم ، وبرحمته بهم فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، ﴿ اذكروا ﴾ على سبيل الشكر والاعتبار ﴿ نعمة الله عليكم ﴾ ورحمته بكم .

﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ كثيرة ، هى جنود جيوش الأحزاب ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا ﴾ شديدة زلزلتهم ، وجعلتهم يرحلون عنكم بخوف وفزع .

كما أرسلنا عليهم ﴿ جنودا لم تروها ﴾ وهم الملائكة ، الذين ألقوا الرعب فى قلوب أعدائكم .

قالوا : روى أن الله - تعالى - بعث عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة ، فألقت التراب فى

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨٥ . والسيرة النبوية لابن اسحق جـ٢ صـ ٢٢٩ .

وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم ، وأطفأت نيرانهم وقذفت فى قلوبهم الرعب .. فقال كل سيد قوم لقومه : يا بنى فلان : النجاء النجاء[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ تذييل قصد به بيان مظهر آخر من مظاهر فضله - تعالى - عليهم .

أى : جاءتكم تلك الجنود الكثيرة . فأرسلنا عليهم ريحا شديدة ، وأرسلنا عليهم من عندنا جنودا لم تروها ، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر الخندق وغيره وسامعين لدعائكم ، وقد أجبناه لكم ، حيث رددنا أعداءكم عنكم دون أن ينالوا خيرا .

ثم فصل - سبحانه - ما حدث للمؤمنين فى هذه الغزوة ، بعد هذا الإجمال ، فقال : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ﴾ أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق . والجملة بدل من قوله ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ . والمراد بالذين جاءوا من تلك الجهة : قبائل غطفان وهوازن .. وانضم إليهم بنو قريظة بعد أن نقضوا عهودهم .

﴿ ومن أسفل منكم ﴾ أى : ومن أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش ومعهم أحابيشهم وحلفاؤهم .

وقوله : ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ معطوف على ما قبله ، داخل معه فى حيز التذكير .

أى : واذكروا وقت أن زاغت أبصاركم ، ومالت عن كل شىء حولها ، وصارت لا تنظر إلا إلى أولئك الأعداء . يقال : زاغ البصر يزيغ زيغا وزيغانا إذا مال وانحرف . ويقال - أيضا : زاغ البصر ، إذا مل وتعب بسبب استدامة شخوصه من شدة الهول .

وقوله ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ بيان آخر لما أصاب المسلمين من بلاء بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم .

والحناجر : جمع حنجرة ، وهى جوف الحلقوم ، والمراد أن قلوبكم فزعت فزعا شديدا ، حتى لكأنها قد انتقلت من أماكنها إلى أعلى ، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم .

فالآية تصور ما أصاب المسلمين من فزع وكرب فى غزوة الأحزاب ، تصويرا بديعا مؤثرا ، يرسم حركات القلوب ، وملامح الوجوه ، وخلجات النفوس .

وقوله - سبحانه - ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ بيان لما دار فى عقولهم من أفكار ، حين رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٥٦ .

والظنون جمع الظن . وهو مصدر يطلق على القليل والكثير منه . وجاء بصيغة الجمع لتعدد أنواعه ، واختلافه باختلاف قوة الإيمان وضعفه .

أى : وتظنون - أيها المؤمنون - بالله - تعالى - الظنون المختلفة ، فمنكم من ازداد يقينا على يقينه ، وازداد ثقة بوعد الله - تعالى - وبنصره ، ومنكم من كان أقل من ذلك فى ثباته ويقينه ، ومنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان والاسلام ، ويخفى الكفر والعصيان ، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون السيئة ، بأن اعتقدوا بأن الدائرة ستدور عليكم :

قال ابن كثير : قوله ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ قال الحسن : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه - سبحانه - سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ فقال - ﷺ - : نعم . قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

قال : فضرب الله - تعالى - وجوه أعدائه بالريح فهزمهم[1] .

ولفظ ﴿ هنالك ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون ﴾ : ظرف مكان للبعيد ، وهو منصوب بقوله ﴿ ابتلى ﴾ والابتلاء : الاختبار والامتحان بالشدائد والمصائب .

أى : فى ذلك المكان الذى أحاط به الأحزاب من كل جانب ، امتحن الله - تعالى - المؤمنين واختبرهم ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ أى : واضطربوا اضطرابا شديدا ، من شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بنى قريظة نقضوا عهودهم .

ولقد بلغ انشغال المسلمين بعدوهم انشغالا عظيما ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا بعض الصلوات فى أوقاتها ، وقال بعض الصحابة : يا رسول الله ، ما صلينا ، فقال لهم - ﷺ - : « ولا أنا ، والله ما صليت ثم قال : شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا » .

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا ، فالتقتا - دون أن تعرف إحداهما الأخرى - فتقاتلا . وحدث بينهم ما حدث من جراح وقتل ، ولم يشعروا أنهم من المسلمين ، حتى تنادوا بشعار الإسلام : « حم . لا ينصرون » ، فكف بعضهم عن بعض .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣٨٩ .

فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ - قال لهم : « جراحكم فى سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » .

ومما زاد فى بلاء المسلمين وحزنهم . ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين . حكاها - سبحانه - فى قوله : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ أى : واذكروا - أيضا - أيها المؤمنون - وقت أن كشف المنافقون وأشباههم عن نفوسهم الخبيثة وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ، فقالوا لكم وأنتم فى أشد ساعات الحرج والضيق : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ بالنصر والظفر ﴿ إلا غرورا ﴾ أى : إلا وعدا باطلا ، لا يطابق الواقع الذى نعيش فيه .

وقال أحدهم : إن محمدا كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط .

﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا .. ﴾ .

أى : واذكروا - كذلك - أيها المؤمنون - وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : ﴿ يا أهل يثرب ﴾ أى : يا أهل المدينة ، لا مقام لكم فى هذا المكان الذى تقيمون فيه بجوار الخندق لحماية بيوتكم ومدينتكم ، فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم .

قال الشوكانى : وذلك أن المسلمين خرجوا فى غزوة الخندق ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم . فقال هؤلاء المنافقون : ليس ها هنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول الذميم ، بل كانوا يهربون من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ .

أى : أنهم كانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه فى الجهاد ، ولا يكتفون بذلك ، بل كان كل فريق منهم يذهب إلى النبى - صلى الله عليهم - فيستأذنه فى الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يارسول الله : ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ أى : خالية ممن يحرسها . يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها لقلة حصانتها .

وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكذبهم فى دعواهم فيقول ﴿ وما هى بعورة ﴾ أى :

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٦ ص ٢٦٦ .

والحال أن بيوتهم ليست كما يزعمون ، وإنما الحق أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال ، لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم .

روى أن بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله - ﷺ - ليقول له : إن بيوتنا عورة ، وليست دار من دور الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كى نرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم - ﷺ - .

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك .. فردهم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل نقيض ، فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم ، فقال - تعالى - : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ .

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ دخلت ﴾ للبيوت أو للمدينة . وفاعل الدخول من يدخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفساد . وأسند - سبحانه - الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وهم قابعون فيها .

والأقطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة .

والمراد بالفتنة هنا ، الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين .

وقوله ﴿ لآتوها ﴾ قرأه الجمهور بالمد بمعنى لأعطوها . وقرأه نافع وابن كثير ﴿ لأتوها ﴾ بالقصر ، بمعنى لجاءوها وفعلوها والتلبث : الإبطاء والتأخر .

والمعنى إن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون فى زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة ، ونفوس عارية عن كل خير .

والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التى يزعمون أنها عورة ، لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها ، ثم طلب منهم أن ينضم إليهم فى مقاتلة المسلمين ، لسارعوا إلى تلبية طلبه ، ولكانوا مطيعين له كل الطاعة ، وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة ، يعدون العدة خلالها لقتالكم - أيها المسلمون - ، وللانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم . لأن عقيدتهم واهنة ، ونفوسهم مريضة خائرة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ولو دخلت عليهم ﴾ أى : المدينة . وقيل : بيوتهم . من قولك : دخلت على فلان داره ﴿ من أقطارها ﴾ أى . من جوانبها . يريد : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة - التى يفرون منها - مدينتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم

وأولادهم ناهبين سابين ، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ، ﴿ الفتنة ﴾ أى : الردة والرجعة إلى الكفر ، ومقاتلة المسلمين ، لأتوها ، أى : لجاءوها ولفعلوها . وقرئ . لآتوها ، أى لأعطوها ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف . أو مالبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرا ، فإن الله يهلكهم[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن من الصفات اللازمة للمنافقين ، نقضهم لعهودهم فقال - تعالى - : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ﴾ .

أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب ، أنهم سيكونون معكم فى الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التى يساكنونكم فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم .

﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ أى : مسئولا عنه صاحبه الذى عاهد الله - تعالى - على الوفاء ، وسيجازى - سبحانه - كل ناقض لعهده ، بما يستحقه من عقاب .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فوبختهم على سوء فهمهم ، وعلى جبنهم وخورهم ، وعلى سلاطة ألسنتهم .. فقال - تعالى - :

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ
لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً
عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٢٨ .

بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنافقين : ﴿ لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ ، لأن كل إنسان لابد له من نهاية تنتهى عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية عن طريق القتل بالسيف ، أم عن طريق الموت على الفراش .

وما دام الأمر كذلك ، فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر الحياة ، وأن الشجاعة لا تقدمها عن موعدها . وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

وقوله : ﴿ إن فررتم .. ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما سبق عليه . أى : إن فررتم لن ينفعكم فراركم .

وقوله : ﴿ وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ تذييل قصد به زجرهم عن الجبن الذى استولى عليهم .

أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم - على سبيل الفرض - لفترة من الوقت ، فلن ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله - تعالى - الذى لا مرد لكم منه ، فما تفرون منه هو نازل بكم قطعا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقرعهم بحجة أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله ، إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذى يملك أن يدفع ما يريده الله -

تعالى - بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة ، ومن موت أو حياة .

إن أحداً لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم . فالاستفهام للإنكار والنفى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء فى العصمة ، ولا عصمة إلا من السوء ؟

قلت : معناه ، أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قول : « متقلدا سيفا ورمحا » - أى : « متقلدا سيفا وحاملا رمحا »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ معطوف على ما قبله . أى : لا يجدون من يعصمهم مما يريده الله - تعالى - بهم ، ولا يجدون من دونه - سبحانه - وليا ينفعهم ، أو نصيرا ينصرهم ، إذ هو وحده - سبحانه - الناصر والمغيث والمجير .

قال - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن علمه محيط بهؤلاء المنافقين ، وأنهم لن يفلتوا من عقابه ، فقال : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : قال ابن السائب : الآية فى عبد الله بن أبى وأمثاله ممن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة . كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك أجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم فى العسكر ، أن ائتونا فإنا ننتظركم .

وكان بعضهم يقول لبعض : ما محمد وأصحابه إلا أكْلَةُ رأس ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم[2] .

و « قد » للتحقيق ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء . و « المعوقين » من العَوْق وهو المنع والصرف ، يقال : عاق فلان فلانا ، إذا صرفه عن الجهة التى يريدها .

و « من » فى قوله ﴿ منكم ﴾ للبيان . والمراد بالأخوة : التطابق والتشابه فى الصفات الذميمة ، والاتجاهات القبيحة . التى على رأسها كراهيتهم للنبى - ﷺ - ولأصحابه .

و « هلم » اسم فعل أمر بمعنى أقبل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٢٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦٣ .

والمعنى: إن الله – تعالى – لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين. الذين يخذلون ويثبطون ويصرفون إخوانهم فى النفاق والشقاق ، عن الاشتراك مع المؤمنين ، فى حرب جيوش الأحزاب ، ويقولون لهم : ﴿ هلم إلينا ﴾ أى : أقبلوا نحونا ، وتعالوا إلى جوارنا ، ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين .

وقوله – سبحانه – : ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ ذم لهم على جبنهم وخورهم .

أى : أن من صفاتهم الأصيلة أنهم جبناء ، ولا يقبلون على الحرب والقتال ، إلا إقبالا قليلا . فهم تارة يخرجون مع المؤمنين ، لإيهامهم أنهم معهم ، أو يخرجون معهم على سبيل الرياء والطمع فى غنيمة .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تصوير ما جبلوا عليه من سوء تصويرا معجزا ، فقال – تعالى – ﴿ أشحة عليكم ﴾ ، جمع شحيح من الشح وهو البخل فى أقبح صوره . ولفظ ﴿ أشحة ﴾ منصوب على الحال من الضمير فى قوله : ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ .

أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين الجبن والخور ، حالة كونهم بخلاء بكل خير يصل إليكم – أيها المؤمنون – فهم لا يعاونونكم فى حفر الخندق ، ولا فى الدفاع عن الحق والعرض والشرف ولا فى أى شىء فيه منفعة لكم .

﴿ فإذا جاء الخوف ﴾ ، أى فإذا اقترب الوقت الذى يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم . ﴿ رأيتهم ﴾ أيها الرسول الكريم – ﴿ ينظرون إليك ﴾ بجبن وهلع ﴿ تدور أعينهم ﴾ فى مآقيهم يمينا وشمالا .

وحالهم كحال الذى ﴿ يغشى عليه من الموت ﴾ أى : كحال الذى أحاط به الموت من كل جانب ، فصار فى أقصى دركات الوهن والخوف والفزع .

هذه هى حالهم عندما يتوقعون الشدائد والمخاوف ، أما حالهم عند الأمان وذهاب الخوف ، فهى كما قال – تعالى – ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ .

وقوله ﴿ سلقوكم ﴾ من السَّلْق . وأصله بسط العضو ومده للأذى ، سواء أكان هذا العضو يدا أو لسانا . والمراد به الإيذاء بالكلام السيئ القبيح .

أى : أنهم عند الشدائد جبناء بخلاء ، فإذا ما ذهب الخوف وحل الأمان ، سلطوا عليكم ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء ، ورموكم بألسنة ماضية حادة ، تؤثر تأثير الحديد فى الشىء ، وارتفعت أصواتهم بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم ، صار حالهم كحال المغشى عليه من الموت .

ثم هم بعد كل ذلك ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى بخلاء بكل خير ، فهم يحرصون على جمع الغنائم ، وعلى الأموال بكل وسيلة ، ولكنهم لا ينفقون شيئا منها فى وجه من وجوه الخير والبر .

قال ابن كثير قوله ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر :

أفى السلم أعْيَاراً جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك

أى : هم فى حال المسالمة كأنهم الحمير الأعيار . والأعيار جمع عير وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحيض[1] .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

أى : أولئك المنافقون الموصوفون بما سبق من الصفات السيئة ﴿ لم يؤمنوا ﴾ بما يجب الإيمان به إيمانا صادقا ، بل قالوا بألسنتهم قولا تكذبه قلوبهم وأفعالهم ﴿ فأحبط الله أعمالهم ﴾ بأن أبطلها وجعلها هباء منثورا ، وكان ذلك الإحباط على الله - سبحانه - هينا يسيرا .

وخص - سبحانه - يُسْرَ إحباط عملهم بالذكر مع أن كل شىء يسير عليه - تعالى - لبيان أن أعمالهم جديرة بالإحباط والإفساد ، لصدورها عن قلوب مريضة ، ونفوس خبيثة .

قال صاحب الكشاف : وهل يثبت للمنافقين عمل حتى يرد عليه الإحباط ؟

قلت : لا ، لكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يوطئه القلب ، وان ما يعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل ، وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الايمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء من غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحن فقال : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافين بلغ بهم الجبن والخور ، أنهم حتى بعد رحيل الأحزاب عن المدينة ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٠ .

ما زالوا يحسبون ويظنون أنهم لم يذهبوا عنها ، فهم يأبون أن يصدقوا أن الله - تعالى - قد رد الذين كفروا بغيظهم دون أن ينالوا خيرا .

وفى هذه الجملة ما فيها من التهكم بالمنافقين ، حيث وصفتهم بأنهم حتى بعد ذهاب أسباب الخوف ، ما زالوا فى جبنهم يعيشون .

ثم بين - سبحانه - حالهم فيما لو عاد الأحزاب على سبيل الفرض والتقدير فقال : ﴿ وإن يأت الأحزاب ﴾ .

أى : إلى المدينة مرة ثانية .

﴿ يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ﴾ أى : وإن تعد جيوش الأحزاب إلى مهاجمة المدينة مرة ثانية ، يتمنى هؤلاء المنافقون ، أن يكونوا غائبين عنها ، نازلين خارجها مع أهل البوادى من الأعراب ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال .

فقوله : ﴿ بادون ﴾ جمع باد وهو ساكن البادية . يقال : بدا القوم بَدًا ، إذا نزحوا من المدن إلى البوادى .

والأعراب : جمع أعرابى وهو من يسكن البادية .

ثم بين - سبحانه - تلهفهم على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين فقال : ﴿ يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

أى : هؤلاء المنافقون يسألون القادمين من المدينة ، والذاهبين إليها عن أخباركم - أيها المؤمنون - حتى لكأنهم غير ساكنين فيها .

ولو كانوا فيكم عندما يعود الكافرون إلى المدينة - على سبيل الفرض - ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا حتى لا ينكشف أمرهم انكشافا تاما . فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفاضت فى شرح الأحوال القبيحة التى كان عليها المنافقون عندما هاجمت جيوش الأحزاب المدينة ، ووصفتهم بأبشع الصفات وأبغضها إلى كل نفس كريمة ، حتى يحذرهم المؤمنون .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار ، ساقت السورة بعد ذلك صورة مشرقة مضيئة للمؤمنين الصادقين ، الذين عندما رأوا جيوش الأحزاب قالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ والذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه دون أن يبدلوا تبديلا .

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لنا موقف المؤمنين فى غزوة الأحزاب ، كما يحكى جانبا من فضل الله عليهم ، ومن لطفه بهم فيقول - سبحانه - :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾
مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ أى : كان لكم قدوة فى النبى - ﷺ - حيث بذل نفسه لنصرة دين الله ، فى خروجه إلى الخندق .

والأسوة : القدوة . وقرأ عاصم ﴿ أُسوة ﴾ بضم الهمزة . والباقون بكسرها . والجمع أُسىً وإسًى - بضم الهمزة وكسرها[١] .

يقال : فلان ائتسى بفلان ، إذا اقتدى به ، وسار على نهجه وطريقته .

وقال الإمام ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله - ﷺ - فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى - ﷺ - يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - تعالى - ..[٢] .

والذى يقرأ السيرة النبوية الشريفة . يرى أن النبى - ﷺ - كان فى هذه الغزوة بصفة خاصة ، وفى غيرها بصفة عامة القدوة الحسنة الطيبة فى كل أقواله وأفعاله وأحواله - ﷺ - .

لقد شارك أصحابه فى حفر الخندق ، وفى الضرب بالفأس . وفى حمل التراب بل وشاركهم فى أراجيزهم وأناشيدهم ، وهم يقومون بهذا العمل الشاق المتعب .

وشاركهم فى تحمل آلام الجوع ، وآلام السهر .. بل كان - ﷺ - هو القائد الحازم الرحيم ، الذى يلجأ إليه أصحابه عندما يعجزون عن إزالة عقبة صادفتهم خلال حفرهم للخندق .

قال ابن إسحاق ما ملخصه : وعمل المسلمون فيه - أى فى الخندق - حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جُعَيلٌ » سماه رسول الله - ﷺ - عَمْراً ، فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا بعمرو ، قال رسول الله - ﷺ - « عمرا » وإذا مروا بظهر قال : « ظهرا » .

ثم قال ابن إسحاق : وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها تحقيق نبوته - ﷺ - فكان فيما بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث ، أنهم اشتدت عليهم فى بعض الخندق كُدْيَةٌ - أى صخرة عظيمة - ، فشكوا ذلك إلى رسول الله - ﷺ - فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٥٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٢ .

حضرها : فوالذى بعثه بالحق نبيا لانهالت - أى : لتفتت - حتى عادت كالكثيب - أى كالرمل المتجمع - لا ترد فأسا ولامسحاة[1] .

وهذه الآية الكريمة وإن كان نزولها فى غزوة الأحزاب ، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول - ﷺ - فى جميع أقواله وأفعاله ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

والجار والمجرور فى قوله - سبحانه - : ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿ حسنة ﴾ ، أو بهذا اللفظ نفسه وهو ﴿ حسنة ﴾ .

والمراد بمن كان يرجو الله واليوم الآخر : المؤمنون الصادقون الذين وفوا بعهودهم .

أى : لقد كان لكم - أيها الناس - قدوة حسنة فى نبيكم - ﷺ - ، وهذه القدوة الحسنة كائنة وثابتة للمؤمنين حق الإيمان . الذين يرجون ثواب الله - تعالى - ، ويؤملون رحمته يوم القيامة ، إذ هم المنتفعون بالتأسى برسولهم - ﷺ - وقوله : ﴿ وذكر الله كثيرا ﴾ معطوف على ﴿ كان ﴾ ، أى : هذه الأسوة الحسنة بالرسول - ﷺ - ثابتة لمن كان يرجو الله واليوم والآخر ، ولمن ذكر الله - تعالى - ذكرا كثيرا ، لأن الملازمة لذكر الله - تعالى - توصل إلى طاعته والخوف منه - سبحانه - .

وجمع - سبحانه - بين الرجاء والإكثار من ذكره ، لأن التأسى التام بالرسول - ﷺ - لا يتحقق إلا بهما .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - على سبيل التشريف والتكريم - ما قاله المؤمنون الصادقون عندما شاهدوا جيوش الأحزاب ، فقال - تعالى - : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ هذا ﴾ يعود إلى ما رأوه من الجيوش التى جاء بها المشركون ، أو إلى ما حدث لهم من ضيق وكرب بسبب ذلك .

أى : وحين رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أقبلت نحو المدينة ، لم يهنوا ولم يجزعوا ، بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا ﴿ هذا ﴾ الذى نراه من خطر داهم ، هو ما وعدنا به الله ورسوله ، وأن هذا الخطر سيعقبه النصر ، وهذا الضيق سيعقبه الفرج ، وهذا العسر سيأتى بعده اليسر .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٢٢٩ وما بعدها .

قال الآلوسى ما ملخصه : وأرادوا بقولهم ذلك ، ما تضمنه قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

وكان نزول هذه الآية قبل غزوة الخندق بحول - كما جاء عن ابن عباس .

وفى رواية عن ابن عباس - أيضا - أن الرسول - ﷺ - قال لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا ، أى : فى آخر تسع ليال أو عشر ، أى : من وقت الاخبار ، أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد أقبلوا فى الموعد الذى حدده - ﷺ - قالوا ذلك[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ داخل فى حيز ما قالوه .

أى : قالوا عندما شاهدوا جيوش الأحزاب : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وقالوا - أيضا - على سبيل التأكيد وقوة اليقين والتعظيم لذات الله ، ولشخصية رسوله : وصدق الله ورسوله ، أى : وثبت صدق الله - تعالى - فى أخباره ، وصدق رسوله - ﷺ - فى أقواله .

والضمير فى قوله : ﴿ ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ يعود إلى ما رأوه من جيوش الأحزاب ، ومن شدائد نزلت بهم بسبب ذلك .

أى - وما زادهم ما شاهدوه من جيوش الأحزاب ، ومن بلاء أحاط بهم بسبب ذلك ، إلا إيمانا بقدرة الله - تعالى - وتسليما لقضائه وقدره ، وأملا فى نصره وتأييده .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا المديح لهم ، مديحا آخر فقال : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ والنحب : النذر ، وهو أن يلتزم الانسان الوفاء بأمر تعهد به .

وقضاؤه : الفراغ منه ، والوفاء به على أكمل وجه .

وكان رجال من الصحابة قد نذروا ، أنهم إذا صاحبوا رسول الله - ﷺ - فى حرب ، أن يثبتوا معه ، وأن لا يفروا عنه .

والمعنى : من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله - تعالى - عليه ، من التأييد لرسوله - ﷺ - ومن الثبات معه فى كل موطن .

﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أى : فمنهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيدا -

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦٩ .

كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب ابن عمير وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين - .

﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ أى : ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة فى سبيل الله - تعالى - فى الوقت الذى يريده - سبحانه - ويختاره ، كبقية الصحابة الذين نزلت هذه الآية وهم ما زالو على قيد الحياة .

قال الامام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال أنس : غاب عمى أنس بن النضر - سُمِّيتُ به - لم يشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - غبت عنه ، لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله - ﷺ - لَيرينَّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم أحد .

فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو ، أين واهًا[1] لريح الجنة أجده دون أحد .

قال : فقاتلهم حتى قتل : قال : فوُجِدَ فى جسده بضْعُ وثمانون من ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته - عمتى الرُّبَيِّع ابنة النضر - فما عرفت أخى إلا ببنانه .

قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال ﴾ فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه - رضى الله عنهم ، ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان بن المغيرة[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾ معطوف على ﴿ صدقوا ﴾ أى : هؤلاء الرجال صدقوا صدقا تاما فى عهودهم مع الله - تعالى - حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم ، وما غيروا ولا بدلوا شيئا مما عاهدوا الله - تعالى - عليه .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا الابتلاء والاختيار فقال : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ .

أى : فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة الأحزاب من أحداث ، ليجزى الصادقين فى إيمانهم الجزاء الحسن الذى يستحقونه بسبب صدقهم ووفائهم .

﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ أى : إن شاء تعذيبهم بسبب موتهم على نفاقهم .

﴿ أو يتوب عليهم ﴾ من نفاقهم بفضله وكرمه فلا يعذبهم .

---

(١) واها : كلمة تحنن وتلهف قالها أنس لسعد - رضى الله عنهما .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٥ .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ جوابه محذوف ، وكذلك مفعول ﴿ شاء ﴾ محذوف - أيضا - أى : إن شاء تعذيبهم عذبهم .

والمراد بتعذيبهم إماتتهم على النفاق ، بدليل العطف فى قوله ﴿ أو يتوب عليهم ﴾[1] .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ كان ﴾ ومازال ﴿ غفورا رحيما ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

ثم بين - سبحانه - المصير السيىء الذى انتهى إليه الكافرون فقال : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ .

أى : ورد الله - تعالى - بفضله وقدرته الذين كفروا عنكم - أيها المؤمنون - حالة كونهم متلبسين بغيظهم وحقدهم . دون أن ينالوا أى خير من إتيانهم إليكم ، بل رجعوا خائبين خاسرين .

فقوله ﴿ بغيظهم ﴾ حال من الموصول ، والباء للملابسة ، وجملة ﴿ لم ينالوا خيرا ﴾ حال ثانية من الموصول أيضا .

وقوله : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بيان للمنة العظمى التى امتن بها - سبحانه - عليهم .

أى : وأغنى الله - تعالى - بفضله وإحسانه المؤمنين عن متاعب القتال وأهواله بأن أرسل على جنود الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده .

﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ﴿ قويا ﴾ على إحداث كل أمر يريده ﴿ عزيزا ﴾ أى : غالبا على كل شىء .

قال ابن كثير : وفى قوله ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش . وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله - ﷺ - فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين ، وكان - ﷺ هو الذى يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة .

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول يوم

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٣١ .

الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا »[١] .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب ، ببيان ما حل ببنى قريظة من عذاب مهين ، بسبب نقضهم لعهودهم فقال : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ﴾ .

والصياصى : جمع صيصية وهى كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها . ومنه قيل لقرن الثور صيصية لأنه يدفع به عن نفسه .

أى : وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم ، وهم يهود بنى قريظة ، أنزلهم من حصونهم ، ومكنكم من رقابهم .

﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ الشديد منكم ، بحيث صاروا مستسلمين لكم ، ونازلين على حكمكم .

﴿ فريقا ﴾ منهم ﴿ تقتلون ﴾ وهم الرجال . وتأسرون فريقا آخروهم الذرية والنساء .

﴿ وأورثكم أرضهم ﴾ أى : وأورثكم الله - تعالى - أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم ﴿ ديارهم ﴾ أى حصونهم ﴿ وأموالهم ﴾ التى تركوها من خلفهم ، كنقودهم ومواشيهم .

كما أورثكم ﴿ أرضا لم تطؤوها ﴾ بعد يقصد القتال وهى أرض خيبر ، أو أرض فارس والروم .

وفى هذه الجملة الكريمة ﴿ وأرضا لم تطؤوها ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين ، بأن الله - تعالى - سينصرهم على أعدائهم .

﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

أخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « لما رجع النبى - ﷺ - من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : يا محمد قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه فاخرج إليهم فقال النبى - ﷺ - : فإلى أين ؟ قال : هاهنا . وأشار إلى بنى قريظة . فخرج النبى - ﷺ - إليهم » .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحزاب ، لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٦ .

بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، فذكر ذلك للنبى - ﷺ - فلم يعنف أحدا[1] .

وبعد أن حاصر المسلمون بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة ، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ - رضى الله عنه - فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم أموالهم ، وسبى نسائهم وذراريهم .

وقال الرسول - ﷺ - له : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات »[2] .

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثا جامعا حكيما عن غزوة الأحزاب ، فقد ذكرت المؤمنين - أولا - بنعم الله - تعالى - عليهم ، ثم صورت أحوالهم عندما أحاطت بهم جيوش الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم .

ثم حكت ما قاله المنافقون فى تلك الساعات العصيبة ، وما أشاروا به على أشباههم فى النفاق ، وما اعتذروا به من أعذار باطلة ، وما جبلوا عليه من أخلاق قبيحة ، على رأسها الجبن والخور وضعف العزيمة وفساد النية .

ثم انتقلت إلى الحديث عن المواقف المشرقة الكريمة التى وقفها المؤمنون الصادقون عندما رأوا الأحزاب ، وكيف أنهم ازدادوا إيمانا على إيمانهم ، ووفوا بعهودهم مع الله - تعالى - دون أن يبدلوا تبديلا .

وكما بدئت الآيات بتذكير المؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم ، ختمت - أيضا - بهذا التذكير حيث رد الله أعداءهم عنهم دون أن ينالوا خيرا ، ومكنهم من معاقبة الغادرين من اليهود .

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى - بعد هذا الحديث عن غزوة الخندق - إلى بيان التوجيهات الحكيمة التى وجهها الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - وإلى أزواجه ، فقال - سبحانه - :

---

(١) صحيح البخارى : باب مرجع النبى - ﷺ - من الأحزاب جـ ٥ ص ١٤٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٧ والآلوسى جـ ٢١ ص ١٧٦ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾

ففى هاتين الآيتين يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد فى زينة الحياة الدنيا وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى - ﷺ - وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئا من عرض الدنيا . وقيل : سألنه زيادة فى النفقة .

روى البخارى ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله - ﷺ - فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى - ﷺ - جالسا حوله نساؤه .

قال : فقال عمر ، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة - زوجة عمر - سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها : فضحك رسول الله - ﷺ - وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » .

فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله - ﷺ - ماليس عنده .

فقلن : والله لا نسأل رسول الله - ﷺ - شيئا أبدا ليس عنده .

ثم نزلت هاتان الآيتان . فبدأ - ﷺ - بعائشة فقال لها : « يا عائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك » .

قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها هاتين الآيتين . فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى !! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفعل أزواج النبى - ﷺ - مثل ما فعلت عائشة[١] .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة .

وأربع من غير قريش - وهن : صفية بنت حيى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المُصْطَلَقِيَّة - رضى الله عنهن .

وقال الإمام الآلوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، مدحهن الله - تعالى - على ذلك ، إذ قال - سبحانه - : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .. ﴾ فقصره الله - تعالى - عليهن ، وهن التسع اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة »[٢] .

والمعنى : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك ﴾ اللائى فى عصمتك ﴿ إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

أى : إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكل ومشرب وملبس ، فوق ما أنتن فيه عندى من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد فى زينتها .

إن كنتن تردن ذلك : ﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

قال الجمل : وقوله : ﴿ فتعالين ﴾ فعل أمر مبنى على السكون ، ونون النسوة فاعل . وأصل هذا الأمر أن يكون الآمر أعلى مكانا من المأمور ، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه ، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل . وهو هنا كناية عن الاختيار والإرادة . والعلاقة هى أن المخبر يدنو إلى من يخبره[٣] .

وقوله : ﴿ أمتعكن ﴾ مجزوم فى جواب الأمر . والمتعة : ما يعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعا ، وقد جعلها - سبحانه - حقا على المحسنين الذين يبغون رضا الله - تعالى - وحسن ثوابه .

وقوله ﴿ وأسرحكن ﴾ معطوف على ما قبله ، والتسريح : إرسال الشىء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه من بعض . ويقال : سرح فلان الماشية ، إذا أرسلها لترعى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٦٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٨١ .
(٣) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٣٣ .

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تستطعن الصبر على المعيشة معى ، فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه ، لأنى سأعطيكن ما هو فوق حقكن .

﴿ وإن كنتن ﴾ لا تردن ذلك ، وإنما ﴿ تردن الله ورسوله والدار الآخرة ﴾ .

أى : وإنما تردن ثواب الله - تعالى - والبقاء مع رسوله - ﷺ - ، وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .

إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن ﴿ الله ﴾ - تعالى - ﴿ أعد للمحسنات منكن ﴾ ، بسبب إيمانهن وإحسانهن ﴿ أجرا عظيما ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى مافيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار .

ثم وجه - سبحانه - الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل ، لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن فى بيوتهن ينزل الوحى على رسول الله - ﷺ - فقال - تعالى - :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ
لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾
۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ
أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ
لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ
فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ
فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين .. ﴾ نداء من الله تعالى - لهن ، على سبيل الوعظ والارشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن ، والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال .

والمعنى : بانساء النبى - ﷺ - من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله - تعالى - لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما .

قال صاحب الكشاف : وإنما ضوعف عذابهن ، لأن ما قبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل والمرتبة .. وليس لأحد من النساء ، مثل فضل نساء النبى - ﷺ - ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة .. ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم : أشد منه للعاصى الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح[1] .

وقد روى عن زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهما - أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب ، وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه - ﷺ - من أن لمسيئنا ضعفين من العذاب ، ولمحسننا ضعفين من الأجر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من يأت منكن بفاحشة .. ﴾ جملة شرطية . والجملة الشرطية لا تقتضى وقوع الشرط ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك .. ﴾ وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن - رضى الله عنهن - لا تمنع من وقوع العذاب بهن فى حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : ﴿ وكان ذلك على

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٦ .

الله يسيرا ﴾ أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شىء .

هذا هو الجزاء فى حالة ارتكابهن - على سبيل الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه، أما فى حالة طاعتهن ، فقد بين - سبحانه - جزاءهن بقوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾ .

والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - ، والخضوع والخشوع لذاته .

أى : ومن يقنت منكن - يا نساء النبى - لله - تعالى - ، ويلازم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله - ﷺ - ، وتعمل عملا صالحا .

من يفعل ذلك منكن ، نؤتها أجرها الذى تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، ﴿ وأعتدنا لها ﴾ أى : وهيأنا لها زيادة على ذلك ﴿ رزقا كريما ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وهكذا نرى أن الله - تعالى - قد ميز أمهات المؤمنين ، فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرها ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرها - أيضا - وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله - ﷺ - مالا يشاهده غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم .

ثم وجه - سبحانه - إليهن نداء ثانيا فقال : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ﴾ .

أى : يا نساء النبى ، لقد أعطاكن الله - تعالى - من الفضل ومن سمو المنزلة مالم يعط غيركن ، فأنتن فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقيتن الله - تعالى - وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن - سبحانه - عنه .

قال صاحب الكشاف : أحد فى الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه . ومعنى قوله ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ : لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء . أى : إذا استقصيت أمة النساء جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة[1] .

وجواب الشرط فى قوله ﴿ إن اتقيتن ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إن اتقيتن ﴾ شرط لنفى المثلية وفضلهن على النساء ، وجوابه

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٦ .

محذوف دل عليه المذكور .. والمفعول محذوف . أى : إن اتقيتن مخالفة حكم الله - تعالى - ورضا رسوله - ﷺ - والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك . والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن ، بمنزلة الخروج من التقوى[1] .

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ما وصلن إليه من منزلة كريمة ، هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله - تعالى - وليس بفضل شىء آخر .

ثم نهاهن - سبحانه - عن النطق بالكلام الذى يطمع فيهن من فى قلبه نفاق وفجور فقال : ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ .

أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء معكن فإن من محاسن خصال المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك ، لغير زوجها من الرجال .

وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات - عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة - لغير زوجها من الرجال - بطريقة لينة مثيرة للشهوات والغرائز ، تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع من لا خلاق لهم فيها .

ثم أرشدهن - سبحانه - إلى القول الذى يرضيه فقال : ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ .

أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذى فى قلبه مرض فيكن ، وقلن قولا حسنا محمودا ، وانطقن به بطريقة طبيعية ، بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم .

ثم أمرهن - سبحانه - بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ﴿ وقرن ﴾ قرأه الجمهور - بكسر القاف - من القرار تقول : قَرَرْتُ بالمكان - بفتح الراء - أقِر - بكسر القاف - إذا نزلت فيه - والأصل : اقررن - بكسر الراء - فحذفت الراء الأولى تخفيفا .. ونقلوا حركاتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف .. فصارت الكلمة ﴿ قِرن ﴾ - بكسر القاف - .

وقرأ عاصم ونافع ﴿ وقَرْن ﴾ - بفتح القاف - من قررت فى المكان - بكسر الراء - إذا أقمت فيه .. والأصل اقْرَرْن - بفتح الراء - فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ،

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٥ .

وألقيت حركتها على القاف .. فتقول : ﴿ قرن ﴾ - بالفتح للقاف -[1] .

والمعنى : الْزَمْنَ يا نساء النبى - ﷺ - بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة، ومثلهن فى ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن فى مثل هذه الأمور ، هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن .

قال بعض العلماء : والحكمة فى هذا الأمر : أن ينصرفن إلى رعاية شئون بيوتهن ، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التى هى من خصائصهن ، ولا يحسنها الرجال ، وإلى تربية الأولاد فى عهد الطفولة وهى من شأنهن . وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما ، فللرجال أعمال من خصائصهم لا يحسنها النساء ، وللنساء أعمال من خصائصهن لا يحسنها الرجال ، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله ، اختل النظام فى البيت والمعيشة[2] .

وقال صاحب الظلال ما ملخصه : والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله - تعالى - ولكى يهيىء الإسلام للبيت جوه السليم ، ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيىء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها .

فالأم المكدودة بالعمل وبمقتضياته وبمواعيده .. لا يمكن أن تهيىء للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تهيىء للطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها .

إن خروج المرأة للعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال[3] .

وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا وإنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة فى المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والآقارب ، وكقضاء مصالحهن التى لا تقضى إلا بهن .. بشرط أن يكون خروجهن مصحوبا بالتستر والاحتشام وعدم التبذل .

ولذا قال - سبحانه - بعد هذا الأمر ، ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٧٨ .

(٢) صفوة البيان فى تفسير القرآن جـ ٢ ص ١٨٣ . لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

(٣) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٨٣ .

وقوله : ﴿ تبرجن ﴾ مأخوذ من البَرَج - بفتح الباء والراء - وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاء ، أى : متسعة ولا غطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار ما ينبغى ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع فى ذلك .

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة ، إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى .

أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التى كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج .

وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها : قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يدى الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .

ومنها قول قتادة : كانت المرأة فى الجاهلية تمشى مشية فيها تكسر .

ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وعنقها .

ويبدو لنا أن التبرج المنهى عنه فى الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك ، كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته .

والمعنى : الزمن يا نساء النبى بيوتكن ، فلا تخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة والوقار ، ولا تبدى إحداكن شيئا أمرها الله - تعالى - بستره وإخفائه ، واحذرن التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن ما يثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم اليهن .

ثم أتبع - سبحانه - هذا النهى بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن - عز وجل - فقال: ﴿ وأقمن الصلاة ﴾ أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص . ﴿ وآتين الزكاة ﴾ التى فرضها الله - تعالى - عليكن . وخص - سبحانه - هاتين الفريضتين بالذكر من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .

﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى ؛ فى كل ما تأتين وتتركن ، لاسيما فيما أمرتن به ، ونهيتن عنه .

وقوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات .

والرجس فى الأصل : يطلق على كل شىء مستقذر . وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .

وقوله ﴿ أهل البيت ﴾ منصوب على النداء ، أو على المدح . ويدخل فى أهل البيت هنا

دخولا أوليا : نساؤه - ﷺ - بقرينة سباق الآيات .

أى : إنما يريد الله - تعالى - بتلك الأوامر التى أمركن بها ، وبتلك النواهى التى نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت .. ﴾ . هذا نص فى دخول أزواج النبى - ﷺ - فى أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ..

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد بسنده - عن أنس بن مالك قال : « إن رسول الله - ﷺ - كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت : ثم يتلو هذه الآية .. »[1] .

وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهن داخلات فى الآية ، بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت ..

ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت ، قوله - تعالى - فى زوجة إبراهيم : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ .

وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية ، فهو أحاديث جاءت عن النبى - ﷺ - أنه قال فى على وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم - : « إنهم أهل البيت » ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا .

وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى - ﷺ - ولعلى وفاطمة والحسن والحسين .

فإن قيل : الضمير فى قوله : ﴿ ليذهب عنكم الرجس ﴾ وفى قوله : ﴿ ويطهركم تطهيرا ﴾ ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبى - ﷺ - لقيل ليذهب عنكن ويطهركن ؟ .

فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها ..

ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث فى هذا المعنى .

وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله - تعالى - فى موسى ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ وقوله ﴿ سآتيكم ﴾ والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد ..

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة[١] .

ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله - عز وجل - : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة .. ﴾ .

أى : واذكرن فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذَكِّرْن غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى فى بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبى - ﷺ - ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ ..

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبى - ﷺ - وأفعاله وتقريراته ..

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنهن - وقد خصهن الله - تعالى - بجعل بيوتهن موطنا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة - أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن .

﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ أى : لا يخفى عليه شىء من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم ما فيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة .

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة لأمهات المؤمنين ، ساق - سبحانه - توجيها جامعا لأمهات الفضائل ، وبشر المتصفين بهذه الفضائل بالمغفرة والأجر العظيم فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

---

(١) أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٧٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله - .

ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما ، عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قلت للنبى - ﷺ - : مالنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه - ﷺ - ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ... ﴾ .

وأخرج الترمذى وغيره عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى - ﷺ - فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشىء ، فنزلت هذه الآية .

وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبى - ﷺ - فقلن : قد ذكركن الله - تعالى - فى القرآن ، وما يذكرنا بشىء أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[1] .

والمعنى : ﴿إن المسلمين والمسلمات ﴾ والإسلام : الانقياد لأمر الله - تعالى - وإسلام الوجه له - سبحانه - وتفويض الأمر إليه وحده .

﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾ والإيمان : هو التصديق القلبى ، والإذعان الباطنى ، لما جاء به النبى - ﷺ - .

﴿والقانتين والقانتات ﴾ والقنوت : هوالمواظبة على فعل الطاعات عن رضا واختيار .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ والصدق : هو النطق بما يطابق الواقع ، والبعد عن الكذب والقول الباطل ..

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ والصبر : هو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق فى سبيل الحق ، وحبس النفس عن الشهوات .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ والخشوع : صفة تجعل القلب والجوارح فى حالة انقياد تام لله - تعالى - ومراقبة له ، واستشعار لجلاله وهيبته .

﴿والمتصدقين والمتصدقات ﴾ والتصدق : تقديم الخير إلى الغير بإخلاص ، دفعا لحاجته ، وعملا على عونه ومساعدته .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ والصوم : هو تقرب إلى الله - تعالى - ، واستعلاء على مطالب الحياة ولذائذها ، من أجل التقرب إليه - سبحانه - بما يرضيه .

﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ وحفظ الفرج : كناية عن التعفف والتطهر والتصون عن أن يضع الإنسان شهوته فى غير الموضع الذى أحله الله - تعالى - .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢١ .

﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ وذكر الله - تعالى - يتمثل فى النطق بما يرضيه كقراءة القرآن الكريم ، والإكثار من تسبيحه - عز وجل - وتحميده وتكبيره ..

وفى شعور النفس فى كل لحظة بمراقبته - سبحانه - .

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات من الرجال والنساء ﴿ أعد الله ﴾ - تعالى - ﴿ لهم مغفرة ﴾ واسعة لذنوبهم ﴿ وأجرا عظيما ﴾ لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل - .

وهكذا نجد القرآن الكريم يسوق الصفات الكريمة ، التى من شأن الرجل والمرأة إذا ما اتصفا بها ، أن يسعدا فى دنياهما وفى أخراهما ، وأن يسعد بهما المجتمع الذى يعيشان فيه ...

إنها صفات نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبنفسه ، وبغيره ، تنظيما حكيما ، يهدى الى الرشد ، ويوصل إلى الظفر والنجاح .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقوق الواجبة على المسلم نحو خالقه - عز وجل - ونحو رسوله - ﷺ - ، وعن تأكيد إبطال عادة التبنى التى كانت منتشرة قبل نزول هذه السورة ، وعن بيان الحكمة لهذا الإبطال ، وعن علاقة الرسول - ﷺ - بغيره من أتباعه .. فقال - تعالى - :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى

ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ روايات منها : أنها نزلت فى زينب بنت جحش - رضى الله عنها - خطبها رسول الله - ﷺ - لزيد بن حارثة فاستنكفت ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وفى رواية أنها قالت : يارسول الله ، لست بناكحته ، فقال رسول الله - ﷺ - « بل فانكحيه » فقالت : يارسول الله ، أؤامر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحادثان ، أنزل الله - تعالى - هذه الآية . فقالت : يارسول الله ، قد رضيته لى زوجا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا أعصى رسول الله - ﷺ - قد زوجته نفسى .

وذكر بعضهم أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء .. يعنى بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبى - ﷺ - ، فزوجها من مولاه زيد بن حارثة ، بعد فراقه لزينب فسخطت هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله - ﷺ - فزوجنا عبده ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد[1] .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول ، كما قال - تعالى - : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

والمعنى : لا يصح ولا يحل لأى مؤمن ولا لأية مؤمنة ﴿ إذا قضى الله ورسوله ﴾ أى : إذا أراد الله ورسوله أمرا ، من الأمور .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٨٦ . وتفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤١٧ .

وقال - سبحانه - : ﴿ إذا قضى الله ورسوله أمرا ﴾ للاشعار ، بأن ما يفعله الرسول - ﷺ - إنما يفعله بأمر الله - تعالى - لأنه - ﷺ - لا ينطق عن الهوى .

وقوله : ﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ أى : لا يصح لمؤمن أو مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمرا ، أن يختاروا ما يخالف ذلك ، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره - ﷺ - وأن يجعلوا رأيهم تابعا لرأيه فى كل شىء .

وكلمة الخِيَرَة : مصدر من تخيَّر ، كالطِّيَرَة مصدر من تَطَيَّر . وقوله : ﴿ من أمرهم ﴾ متعلق بها ، أو بمحذوف وقع حالا منها .

وجاء الضمير فى قوله ﴿ لهم ﴾ وفى قوله ﴿ من أمرهم ﴾ بصيغة الجمع : رعاية للمعنى إذ أن لفظى مؤمن ومؤمنة وقعا فى سياق النفى ، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ بيان لسوء عاقبة من يخالف أمر الله ورسوله .

أى : ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور ، فقد ضل عن الحق والصواب ضلالا واضحا بينا .

ثم ذكر - سبحانه - قصة زواج النبى - ﷺ - من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة فى الجاهلية فقال - تعالى - : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه .. ﴾ أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلت للذى أنعم الله - تعالى - عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة - رضى الله عنه - .

وأنعمت عليه ، بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والمحبة ، والإكرام ..

﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ أى : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله فى أمرها ، واصبر على ما بدر منها فى حقك ..

وكان زيد - رضى الله عنه - قد اشتكى للنبى - ﷺ - من تطاولها عليه ، وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول ، وقال : يارسول الله ، إنى أريد أن أطلقها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ معطوف على ﴿ تقول ﴾ . أى : تقول له ذلك وتخفى فى نفسك الشىء الذى أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله - عز وجل - .

قال الآلوسى : والمراد بالموصول ﴿ ما ﴾ على ما أخرج الحكيم الترمذى و غيره عن على

ابن الحسين ما أوحى الله - تعالى - به إليه من أن زينب سيطلقها زيد . ويتزوجها هو - ﷺ - .

وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهرى ، وبكر بن العلاء ، والقشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى ، وغيرهم[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ جملة : الله مبديه صلة الموصول الذى هو ﴿ ما ﴾ . وما أبداه - سبحانه - هو زواجه - ﷺ - بزينب ، وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ وهذا هو التحقيق فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه - ﷺ - .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه - ﷺ - وأبداه الله - تعالى - ، هو وقوع زينب فى قلبه - ﷺ - ومحبته لها ، وهى زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحان مقلب القلوب .. إلى آخر ما قالوا ... كله لا صحة له ..[2] .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما - هاهنا آثارا عن بعض السلف ، احببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها . فلا نوردها ..[3] .

هذا ، ولفضيلة شيخنا الجليل الدكتور أحمد السيد الكومى رأى فى معنى هذه الجملة الكريمة ، وهو أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه . وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها .

وما أبداه الله - تعالى - : هو علم الناس بحال زيد معها ، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها ..

فيكون المعنى : تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجه زينب لوجود التنافر بينهما .. مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة ..

ومما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل دلالة صريحة على أن الله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٤ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٨٠ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٠ .

قد أوحى إلى نبيه - ﷺ - أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه - ﷺ - سيتزوجها ، وكل ما ورد فى ذلك هى تلك الرواية التى سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين - رضى الله عنهما - .

قال صاحب الظلال : وهذا الذى أخفاه النبى - ﷺ - فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه . ولكنه - ﷺ - كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد ..[١] .

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدما تاما كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : تقول له ماقلت ، وتخفى فى نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله - تعالى - به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل ما سواه .

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه - ﷺ - بزينب فقال : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

والوطر : الحاجة . وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشىء ، يقال : قضى فلان وطره من هذا الشىء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى فى مفارقتها .

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها زوجة لك ، ﴿ لكى لايكون على المؤمنين حرج ﴾ أو ضيق أو مشقة ﴿ فى أزواج أدعيائهم ﴾ أى : فى الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين تبنوهم ﴿ إذا قضوا منهن وطرا ﴾

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٥٩٥ .

أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على الذين سبق لهم تبنى هؤلاء الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم فى رسول الله - ﷺ - أسوة حسنة .

﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى : وكان ما يريده الله - تعالى - حاصلا لا محالة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها .. ﴾ أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله - عز وجل - . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولىّ ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر ..

روى الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب - رضى الله عنها - قال رسول الله - ﷺ - لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » فانطلق حتى آتاها وهى تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها . وجعلت أقول - وقد وليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى - يازينب . أبشرى . أرسلنى رسول الله - ﷺ - يذكرك قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى - أى : أستشيره فى أمرى - ، فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله - ﷺ - فدخل عليها بغير إذن ...

وروى البخارى عن انس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى - ﷺ - فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات ..[1] .

وقال الإمام الشوكانى : وقوله : ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم .. ﴾ .

أى : فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا ، كما كانت تفعله العرب ، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون .. وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه ، كما تحرم نساء أبنائهم على الحقيقة . والأدعياء : جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة . فأخبرهم الله - تعالى - أن نساء الأدعياء حلال لهم - بعد انقضاء العدة - بخلاف الأبناء من الصلب ، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها ..[2].

وبعد أن بين - سبحانه - الحكمة من زواج النبى - ﷺ - بالسيدة زينب بنت جحش ، التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة - الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى تقرير هذه الحكمة وتأكيدها ، وإزاله كل ما علق بالأذهان بشأنها ، فقال - تعالى - : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ... ﴾

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٠ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٨٥ .

أى : ما كان على النبى - ﷺ - من حرج أو لوم أو مؤاخذة ، فى فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمره به من زواجه بزينب بعد أن طلقها ابنه بالتبنى زيد بن حارثه فقوله : ﴿ فيما فرض الله له ﴾ أى : فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ، أى : قدر له هذا الشىء ، وجعله حلالا له .

وقوله - تعالى - : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ زيادة فى تأكيد هذه الحكمة ، وفى تقرير صحة ما فرضه الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - .

أى : ما فعله الرسول - ﷺ - من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد ، قد جعله الله - تعالى - سنة من سننه فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله - تعالى - قدرا مقدورا . أى : واقعا لا محالة .

والقدر : إيجاد الله - تعالى - للأشياء على قَدْرٍ مخصوص حسبما تقتضى حكمته .

ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه . وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر . والأظهر أن قدر الله - تعالى - هنا بمعنى قضائه .

ولفظ ﴿ مقدورا ﴾ وصف جىء به للتأكيد، كما فى قولهم : ظل ظليل، وليل أليل، ثم مدح - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ للذين يكلفهم - سبحانه - بتبليغها لهم . والموصول فى محل جر صفة للذين خلوا . أو منصوب على المدح .

﴿ ويخشونه ﴾ أى : ويخافونه وحده ﴿ ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ - عز وجل - فى كل مايأتون وما يذرون ، وما يقولون وما يفعلون .

﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أى : وكفى بالله - تعالى - محاسبا لعباده على نيات قلوبهم وأفعال جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم .

ثم حدد - سبحانه - وظيفة رسوله - ﷺ - وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال - تعالى - : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ أى : لم يكن محمد - ﷺ - أبا لأحد من رجالكم أبوة حقيقية ، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة والزواج ... وزيد كذلك ليس ابنا له - ﷺ - فزواجه - ﷺ - بزينب التى طلقها زيد لاحرج فيه ، ولا شبهة فى صحته، وقوله : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ استدراك لبيان وظيفته وفضله .

أى : لم يكن - ﷺ - أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولا من عند الله - تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان - أيضا - خاتم النبيين ، بمعنى

أنهم ختموا به ، فلا نبى بعده ، فهو كالخاتَم والطابَع لهم . ختم الله - تعالى - به الرسل والأنبياء ، فلا رسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبى : قرأ الجمهور ﴿ وخاتم ﴾ - بكسر التاء - بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم .

وقرأ عاصم ﴿ وخاتم ﴾ - بفتح التاء - بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم .

وقيل : الخاتم والخاتم - بالفتح والكسر - لغتان ، مثل طابع وطابع ..

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله - ﷺ - قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال - ﷺ - فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء »[1] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » .

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد - ﷺ - إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، و إكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر - تعالى - فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم ..[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

أى : وكان - عز وجل - ومازال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ماأنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد - ﷺ - لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ، ليزيدكم - سبحانه - من فضله وإحسانه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٩٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٤ .

ثم جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك لتؤكد هذا المعنى وتقرره ، فأمرت المؤمنين بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتحميده وتكبيره ، فقال - سبحانه - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

والمقصود بذكر الله - تعالى - فى قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ ما يشمل التهليل والتحميد والتكبير وغير ذلك من الأقوال والأفعال التى ترضيه - عز وجل - .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، اكثروا من التقرب إلى الله - تعالى - بما يرضيه ، فى كل أوقاتكم وأحوالكم ، فإن ذكر الله - تعالى - هو طب النفوس ودواؤها ، و هو عافية الأبدان وشفاؤها ، به تطمئن القلوب ، وتنشرح الصدور ..

والتعبير بقوله : ﴿ اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ يشعر بأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ، أن يواظب على هذه الطاعة مواظبة تامة .

ومن الأحاديث التى وردت فى الحض على الإكثار من ذكر الله ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى الدرداء .. رضى الله عنه .. قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، و خير لكم من إعطاء الذهب والوَرِقِ - أى : الفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، و يضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يارسول الله ؟ قال : ذكر الله - عز وجل - ».

وعن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما : يارسول الله ، أى الناس خير ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله ».

وقال الآخر : يارسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبث به . قال : « لايزال لسانك رطبا بذكر الله » .

وقال ابن عباس : لم يفرض الله - تعالى - فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله - تعالى - لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوبا على عقله، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال - تعالى - : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم .. ﴾ أى : بالليل وبالنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ..[1] .

وقوله : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ معطوف على ﴿ اذكروا ... ﴾ والتسبيح : التنزيه . مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء . فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء . والبكرة : أول النهار . والأصيل : آخره .

أى : اكثروا - أيها المؤمنون - من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، ونزهوه - سبحانه - عن كل ما لا يليق به ، فى أول النهار وفى آخره .

وتخصيص الأمر بالتسبيح فى هذين الوقتين ، لبيان فضلهما ، ولمزيد الثواب فيهما ، وهذا لا يمنع أن التسبيح فى غير هذين الوقتين له ثوابه العظيم عند الله - تعالى - .

- وأيضا - خص - سبحانه - التسبيح بالذكر مع دخوله فى عموم الذكر ، للتنبيه على مزيد فضله وشرفه ..

قال صاحب الكشاف : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه - تعالى - من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لايجوز عليه من الصفات والأفعال ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته .. ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، من الأمر بالإكثار من الذكر ومن التسبيح .

والصلاة من الله - تعالى - على عباده معناها : الرحمة بهم ، والثناء عليهم ، كما أن الصلاة من الملائكة على الناس معناها : الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ .. قال ابن عباس : لما نزل : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى... ﴾ قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يارسول الله خاصة ، وليس لنا فيه شىء ، فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٥ .

ثم قال القرطبى : قلت : وهذه نعمة من الله - تعالى - على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضلها على سائر الأمم . وقد قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

والصلاة من الله على العبد هى رحمته له ، وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾[١] .

وقوله : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يصلى ﴾ أى : يرحمكم - سبحانه - برحمته الواسعة ، ويسخر ملائكته للدعاء لكم ، لكى يخرجكم بفضله ومنته ، من ظلمات الضلال والكفر إلى النور والهداية والإيمان .

﴿ وكان ﴾ - سبحانه - ومازال ﴿ بالمؤمنين رحيما ﴾ رحمة عظيمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة .

أما رحمته لهم فى الدنيا فمن مظاهرها : هدايته إياهم إلى الصراط المستقيم .

وأما رحمته - سبحانه - لهم فى الآخرة فمن مظاهرها : أنهم يأمنون من الفزع الأكبر .

وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ، أن رسول الله - ﷺ - رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال: «أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا . قال : فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

ثم بين - عز وجل - ما أعده للمؤمنين فى الأخرة فقال : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ .

والتحية : أن يقول قائل للشخص : حياك الله ، أى : جعل لك حياة طيبة .

وهذه التحية للمؤمنين فى الآخرة ، تشمل تحية الله - تعالى - لهم ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[٢] .

وتشمل تحية الملائكة لهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٣] .

كما تشمل تحية بعضهم لبعض كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٩٨ .

(٢) سورة يس . الآية ٨٥ .

(٣) سورة الرعد . الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) سورة يونس . الآية ١٠ .

أى : تحية المؤمنين يوم يلقون الله - تعالى فى الآخرة ، أو عند قبض أرواحهم ، سلام وأمان لهم من كل مايفزعهم أو يخيفهم أو يزعجهم ..

﴿ وأعد لهم ﴾ - سبحانه - يوم القيامة ﴿ أجرا كريما ﴾ هو الجنة التى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى - ﷺ - حدد له فيه وظيفته ، وأمره بتبشير المؤمنين بما يسرهم ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال :

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ
وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

وقوله : ﴿ ومبشرا ﴾ من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .

وقوله : ﴿ ونذيرا ﴾ من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف لكى يجتنب ويحذر .

والمعنى : يأيها النبى الكريم ﴿ إنا أرسلناك ﴾ إلى الناس ﴿ شاهدا ﴾ أى : شاهدا لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .

﴿ ومبشرا ﴾ أى : ومبشرا المؤمنين منهم برضا الله - تعالى - .

﴿ ونذيرا ﴾ أى : ومنذرا للكافرين بسوء العاقبة ، بسبب إعراضهم عن الحق الذى جئتهم به من عند الخالق - عز وجل - .

وقدم - سبحانه - التبشير على الإنذار ، تكريما للمؤمنين المبشرين ، وإشعارا بأن الأصل فى رسالته - ﷺ - التبشير ، فقد أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

وقوله : ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه ﴾ أى : وأرسلناك - أيضا - داعيا للناس إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وهذه الدعوة لهم منك كائنة بإذنه - سبحانه - وبأمره وبتيسيره .

فالتقييد بقوله ﴿ بإذنه ﴾ لبيان أنه - ﷺ - لم يدع الناس إلى ما دعاهم إليه من وجوب إخلاص العبادة له - سبحانه - ، من تلقاء نفسه ، وإنما دعاهم إلى ذلك بأمر الله - تعالى - وإذنه ومشيئته ، وللإشارة إلى أن هذه الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله - تعالى - للنفوس بقبولها .

وقوله : ﴿ وسراجا منيرا ﴾ معطوف على ما قبله . والسراج : المصباح الذى يستضاء به فى الظلمات .

أى : وأرسلناك - أيها الرسول الكريم - بالدين الحق ، لتكون كالسراج المنير الذى يهتدى به الضالون ، و يخرجون بسببه من الظلمات إلى النور .

ووصف السراج بالإنارة ، لأن من المصابيح ما لا يضىء إذا لم يوجد به ما يضيئه من زيت أو ما يشبهه .

قال صاحب الكشاف : جلى الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضىء إذا قل سليطه - أى : زيته - ودقت فتيلته ..[1] .

وبعد أن وصف الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بهذه الصفات الكريمة ، اتبع ذلك بأمره بتبشير المؤمنين برضا الله عنهم ، وبنهيه عن طاعة الكافرين ، فقال - تعالى - : ﴿ وبشر المؤمنين ... ﴾ أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال الناس وإلى موقفهم من دعوتك . وبشر المؤمنين منهم ﴿ بأن لهم من الله ﴾ - تعالى - ﴿ فضلا كبيرا ﴾ أى : عطاء كبيرا ، وأجرا عظيما ، ومنزلة سامية بين الأمم .

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ فيما يشيرون به عليك من ترك الناس وما يعبدون ، أو من عدم بيان ما هم عليه من باطل وجهل ، بل اثبت على ما أنت عليه من حق ، وامض فى تبليغ دعوتك دون أن تخشى أحدا إلا الله - تعالى - .

﴿ ودع أذاهم ﴾ أى : ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى ، بسبب دعوتك إياهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، واصبر على ما يصيبك منهم حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل بينك وبينهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٧ .

﴿ وتوكل على الله ﴾ فى كل أمورك ﴿ وكفى بالله ﴾ - تعالى - ﴿ وكيلا ﴾ توكل إليه الأمور ، وترد إليه الشئون ..

هذا ، ومن الأحاديث النبوية التى اشتملت على بعض المعانى التى اشتملت عليها هذه الآيات ، ما رواه الإمام البخارى والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله - ﷺ - فى التوراة ؟ قال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ وحرزا للمؤمنين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله - تعالى - حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا[1] .

ثم عادت السورة الكريمة - بعد هذا الحديث الجامع عن وظيفة الرسول - ﷺ - وعن فضله - إلى الحديث عن جانب من أحكام الزواج والطلاق ، فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

والمراد بالنكاح هنا فى قوله ﴿ إذا نكحتم ﴾ العقد ، لأن الحديث فى حكم المرأة التى تم طلاقها قبل الدخول بها .

وهذا الحكم شامل للمؤمنات ولغيرهن كالكتابيات ، إلا أن الآية الكريمة خصت المؤمنات بالذكر ، للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة .

والعدة : هى الشىء المعدود . وعدة المرأة معناها : المدة التى با نقضائها يحل لها الزواج من شخص آخر ، غير الذى كان زوجا لها .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ﴾ أى : إذا عقدتم عليهن عقد النكاح ، ولم يبق بينكم وبينهن سوى الدخول بهن .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٤٧ .

﴿ ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ أى : ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن .

قال الآلوسى : وفائدة المجىء بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة ، إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخى الطلاق ، له دخل فى إيجاب العدة ، لاحتمال الملاقاة والجماع سرا ..[1] .

أى : أن الحكم الذى اشتملت عليه الآية الكريمة ، ثابت سواء تم الطلاق بعد عقد الزواج مباشرة ، أم بعده بمدة طويلة .

وفى التعبير عن الجماع بالمس كناية لطيفة . من شأنها أن تربى فى الإنسان حسن الأدب ، وسلامة التعبير ، وتجنب النطق بالألفاظ التى تخدش الحياء .

وقوله : ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ جواب إذا ، وبيان للحكم المترتب على طلاق المرأة قبل الدخول بها .

أى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فلا عدة عليهن ، بل من حقهن أن يتزوجن بغيركم ، بعد طلاقكم لهن بدون التقيد بأية مدة من الزمان .

قال الجمل : وقوله : ﴿ تعتدونها ﴾ صفة لعدة . وتعتدونها تفتعلونها ، إما عن العد ، وإما عن الاعتداد ، أى : تحسبونها أو تستوفون عددها ، من قولك : عد فلان الدراهم فاعتدها ، أى : فاستوفى عددها ..[2] .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن المطلقة قبل الدخول بها لاعدة عليها إطلاقا بنص الكتاب وإجماع الأمة ، أما المطلقة بعد الدخول بها فعليها العدة إجماعا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه ، بالنسبة لمن طلقت قبل الدخول بها .

وأصل المتعة والمتاع ، ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك . ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه ، لتنتفع به ، جبرا لخاطرها ، وتعويضا لها عما نالها بسبب هذا الفراق .

وأصل التسريح : أن ترعى الإبل السرح ، وهو شجر له ثمرة ، ثم أطلق على كل إرسال فى الرعى ، ثم على كل إرسال وإخراج .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٤٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٤٣ .

والتسريح الجميل : هو الذى لا ضرر معه . وإنما معه الكلام الطيب ، والفعل الحسن .

والمعنى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فأعطوهن من المال ما يجبر خاطرهن ، وما يكون عوضا عن فراقهن .. وأطلقوا سراحهن ليستأنفن حياة جديدة مع غيركم ، وساعدوهن على ذلك إن استطعتم ، فإن من شأن العقلاء أن يعاشروا أزواجهن بالمعروف ، وأن يفارقوهن - أيضا - بالمعروف .

ومن العلماء من يرى أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل فى حال مفارقتها قبل الدخول بها ، لأن الآية الكريمة قد أمرت بذلك ، والأمر يقتضى الوجوب .

وقد بينا ذلك بالتفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[1] .

والملاحظ أن الآية الكريمة التى معنا ، قد أضافت حكما جديدا ، وهو أنه لا عدة على المطلقة قبل الدخول بها .

ومن مجموع هذه الآيات ، نرى أحكم التشريعات ، وأسمى التوجيهات .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله عليه . وتكريمه له حيث خصه بأمور تتعلق بالنكاح لم يخص بها أحدا غيره . فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة ص ٥٤٠ وما بعدها .

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

والمراد بالأجور فى قوله - سبحانه - : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ... ﴾ المهور التى دفعها - ﷺ - لأزواجه .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخاطبا نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بأن قد أحل له من النساء أزواجه اللائى أعطاهن مهورهن ، وهى الأجور هاهنا ، كما قاله مجاهد وغير واحد .

وقد كان مهره - ﷺ - لنسائه : اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقيه . فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى - رحمه الله - بأربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها .

وفى قوله : ﴿ آتيت أجورهن ﴾ إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمرأة دون إبقاء شىء منه ، هو الأكمل والأفضل ، و أن تأخير شىء منه إنما هو أمر مستحدث ، لم يكن معروفا عند السلف الصالح .

وأُطْلِق على المهر أجْرٌ لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقابل الأجر بالمنفعة .

وقوله : ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ بيان لنوع آخر مما أحله الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - .

والمعنى : يأيها النبى إنا أحللنا لك - بفضلنا - على سبيل التكريم والتشريف لك ، الاستمتاع بأزواجك الكائنات عندك ، واللاتى أعطيتهن مهورهن - كعائشة وحفصة وغيرهما - ، لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها .

كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللائى دخلن فى ملكك عن طريق الغنيمة فى الحرب ، كصفية بنت حيى بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث .

ثم بين - سبحانه - نوعا ثالثا أحله - سبحانه - له فقال : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ﴾ .

أى : وأحللنا لك - أيضا - الزواج بالنساء اللائى تربطك بهن قرابة من جهة الأب ، أو قرابة من جهة الأم .

وقوله ﴿ اللاتى هاجرن معك ﴾ إشارة إلى ما هو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر .

والمراد بالمعية هنا . الاشتراك فى الهجرة . لا المصاحبة فيها ، لما فى قوله - تعالى - حكاية عن ملكة سبأ : ﴿ قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

قال بعض العلماء : وقد جاء فى الآية الكريمة عدة قيود ، ما أريد بواحد منها إلا التنبيه على الحالة الكريمة الفاضلة .

منها : وصف النبى - ﷺ - باللاتى آتى أجورهن ، فإنه تنبيه على الحالة الكاملة ، فإن الأكمل إيتاء المهر كاملا دون أن يتأخر منه شىء .

ومنها : أن تخصيص المملوكات بأن يكن من الفىء ، فإن المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحل وأطيب مما يشترى من الجلب ، لأن المملوكة عن طريق الغنيمة تكون معروفة الحال والنشأة .

ومنها : قيد الهجرة فى قوله : ﴿ اللاتى هاجرن معك ﴾ ، ولاشك أن من هاجرت مع النبى - ﷺ - أولى بشرف زوجية النبى - ﷺ - ممن عداها[1] .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٢٢ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .

ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من النساء ، أحله لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ، إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على مفعول ﴿ أحللنا ﴾ .

وقد اشتملت هذه الجملة على شرطين ، الثانى منها قيد للأول ، لأن هبتها نفسها له - ﷺ - لا توجب حلها له إلا بقبوله الزواج منها .

وقوله ﴿ يستنكحها ﴾ بمعنى ينحكها . يقال : نكح واستنكح ، بمعنى عجل واستعجل : ويجوز أن يكون بمعنى طلب النكاح .

وقوله : ﴿ خالصة ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿ وهبت ﴾ أى : حال كونها خالصة لك دون غيرك . أو نعت لمصدر مقدر . أى : هبة خالصة ..

والمعنى وأحللنا لنا كذلك امرأة مؤمنة ، إن ملكتك نفسها بدون مهر وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك ، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين ، لأن غيرك من المؤمنين لا تحل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولى ومهر .

وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له - ﷺ - خولة بنت حكيم ، وأم شريك بنت جابر ، وليلى بنت الحطيم ..

وقد اختلف العلماء فى كونه - ﷺ - قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا .

والأرجح أنه - ﷺ - لم يتزوج بواحدة منهن ، وإنما زوجهن لغيره . ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى ، أن رسول الله - ﷺ - جاءته امرأة فقالت : يارسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يارسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله - ﷺ - : هل عندك من شىء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندى إلا إزارى هذا . فقال - ﷺ - : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئا . فقال : لا أجد شيئا . فقال : التمس ولو خاتما من حديد ، فقام الرجل فلم يجد شيئا . فقال له النبى - ﷺ - : هل معك من القرآن شىء ؟ قال نعم . سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله - ﷺ - : زوجتكها بما معك من القرآن[1] .

---

(١) صحيح البخارى « كتاب النكاح » جـ ٧ ص ١٧ .

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال فى الآية الكريمة : الإذن العام والتوسعة عليه - ﷺ - فى الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له فى أن يختار منهن من تقتضى الحكمة الزواج منها ، واختصاصه - ﷺ - بأمور تتعلق بالنكاح ، لا تحل لأحد سواه .

ولهذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم .. ﴾ فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه - ﷺ - بأمور فى النكاح لا تحل لغيره ، كحل زواجه ممن تهبه نفسها بدون مهر ، إن قبل ذلك العرض منها .

أى : هذا الذى أحللناه لك - أيها الرسول الكريم - هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإخلال بهم ، كما لايجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله - تعالى - به ، على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .

وعلمنا - أيضا - ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن لا يجوز سبيه ، أو كان له عهد مع المسلمين .

وقوله : ﴿ لكى لا يكون عليك حرج ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أحللنا ﴾ وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى :

أحللنا من آتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات ، والأقارب ، والواهبة نفسها لك ، لندفع عنك الضيق والحرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه .

وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكى لا يكون عليك حرج فى البحث عنه .

ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بينا من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما تفعله هو بوحى منا وليس من عند نفسك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى : وكان الله - تعالى - ومازال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وقوله - عز وجل - ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ شروع فى بيان جانب آخر من التوسعة التى وسعها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - فى معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء .

وقوله : ﴿ ترجى ﴾ من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية ، وقرئ مهموزا وغير مهموز . تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ، ونحيته جانبا حتى يحين موعده المناسب .

وقوله : ﴿ وتؤوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه .. ﴾ أى : ضمه إليه وقربه منه .

والضمير فى قوله ﴿ منهن ﴾ يعود إلى زوجاته - ﷺ - اللائى كن فى عصمته .

قال القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها : التوسعة على النبى - ﷺ - فى ترك القَسْم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته .

وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله - ﷺ - وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله - تعالى - : ﴿ ترجى من تشاء منهن ... ﴾ .

قالت : قلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك .

قال ابن العربى : هذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعول عليه . والمعنى المراد : هو أن النبى - ﷺ - كان مخيرا فى أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . لكنه كان يقسم من جهة نفسه ، تطييبا لنفوس أزواجه .

وقيل كان القسم واجبا عليه ثم نسخ الوجوب بهذه الآية .

وقيل : الآية فى الطلاق . أى : تطلق من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء .

وقيل : المراد بالآية : الواهبات أنفسهن له - ﷺ - .

ثم قال القرطبى : وعلى كل معنى ، فالآية معناها التوسعة على رسول الله - ﷺ - والإباحة ، وما اخترناه أصح والله أعلم[١] .

أى : لقد وسعنا عليك - أيها الرسول الكريم - فى معاشرة نسائك ، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن ، وأن تضم إليك من شئت منهن ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن ، كما هو الشأن بالنسبة لأتباعك حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيتوتة وما يشبهها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢١٤ .

ومع هذا التكريم من الله - تعالى - لنبيه ، إلا أنه - ﷺ - كان يقسم بينهن إلى أن لحق بربه ؟ عدا السيدة سودة ، فإنها قد وهبت ليلتها لعائشة ..

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها - أن رسول الله - - ﷺ - كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من تشاء منهن ..

فقيل لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يارسول الله أن أوثر عليك أحدا(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ . زيادة فى التوسعة عليه - ﷺ - وفى ترك الأمر لإرادته واختياره .

أى : أبحنا لك - أيها الرسول الكريم - أن تقسم بين نسائك ، وأن تترك القسمة بينهن ، وأبحنا لك - أيضا - أن تعود إلى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذلا حرج عليك فى كل ذلك . بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك .

فالابتغاء بمعنى الطلب، وعزلت بمعنى اجتنبت واعتزلت وابتعدت، و﴿ من ﴾ شرطية ، وجوابها : ﴿ فلا جناح عليك ﴾ أى : فلا حرج ولا إثم عليك فى عدم القسمة بين أزواجك ، وفى طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها .

قال الشوكانى : والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله - ﷺ - كى يصنع مع زوجاته ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء فى أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للحرج عنه(٢) .

وإسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن .. ﴾ يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبى - ﷺ - .

وأدنى بمعنى أقرب . و﴿ تقر أعينهن ﴾ كناية عن تقبل ما يفعله معهن برضا وارتياح نفس . يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ..

وقوله : ﴿ ولا يحزن ﴾ معطوف على ﴿ أن تقر ﴾ وقوله ﴿ ويرضين ﴾ معطوف عليه - أيضا - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣٧ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٩٣ .

والمعنى ، ذلك الذى شرعناه لك من تفويض الأمر اليك فى شأن أزواجك ، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحى من الله - تعالى - وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن فى القسم والبيتوتة والمجامعة ... أم لم تسو .

قال القرطبى : قال قتادة وغيره : أى : ذلك التخيير الذى خيرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا - لا من عندك - ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين ..

وكان - عليه الصلاة والسلام - مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ويقول : « اللهم هذه قدرتى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم ﴾ خطاب للنبى - ﷺ - ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع بجمع الذكور للتغليب .

أى : والله - تعالى - يعلم ما فى قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شىء ، ومن عدم الميل إلى شىء آخر .

قال صاحب الكشاف : وفى هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله - تعالى - من ذلك ، وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافى بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله - ﷺ - وما فيه طيب نفسه[2] .

﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ﴿ عليما ﴾ بكل ما تظهره القلوب وما تسره ﴿ حليما ﴾ حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم .

ثم كرم - سبحانه - أمهات المؤمنين بعد تكريمه لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ... ﴾ .

أى : لا يحل لك ، - أيها الرسول الكريم - أن تتزوج بنساء أخريات من بعد التسع اللائى فى عصمتك اليوم ، لأنهن قد اخترنك و آثرنك على زينة الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعشن معك وتحت رعايتك ، مهما كان فى حياتك معهن من شظف العيش ، والزهد فى متع الدنيا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢١٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٢ .

وقوله : ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك ، كما لا يحل لك - أيضا - أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نسائك اللائى فى عصمتك عند نزول هذه الآية .

فالآية الكريمة قد اشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير التسع اللائى كن فى عصمته عند نزولها . والثانى : حرمة تطليق واحدة منهن ، للزواج بأخرى بدلها .

وقوله : ﴿ بعد ﴾ ظرف مبنى على الضم لحذف المضاف اليه . أى : من بعد اليوم . و﴿ أزواج ﴾ مفعول به ، و﴿ من ﴾ مزيدة لاستغراق الجنس . أى : ولا أن تبدل بهن أزواجا أخريات مهما كان شأن هؤلاء الأخريات .

وجملة : ﴿ ولو أعجبك حسنهن ﴾ فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير فى ﴿ تبدل ﴾ . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا أن تتبدل بهن أزواجا غيرهن فى أية حالة من الأحوال ، حتى ولو فى حال إعجابك بغيرهن ويصح أن تكون هذه الجملة شرطية ، وقد حذف جوابها لفهمه من الكلام ، ويكون المعنى : ولو أعجبك حسنهن لا يحل لك نكاحهن .

وقوله : ﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾ استثناء من هذا الحكم . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا استبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك أن تضيف اليهن ما شئت من النساء اللائى تملكهن عن طريق السبى .

وهذا الذى سرنا عليه من أن الآية الكريمة فى شأن أزواجه - ﷺ - هو الذى سار عليه جمهور المفسرين .

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم - أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى - ﷺ - ورضا الله عنهن على حسن صنيعهن ، فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله - ﷺ - كما تقدم ، فلما اخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسرائر ، فلا حجر عليه فيهن .

ثم إنه - سبحانه - رفع عنه الحجر فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يقع منه بعد ذلك زواج لغيرهن ، لتكون المنة للرسول - ﷺ - عليهن . روى الإمام

أحمد عن عائشة قالت : مامات رسول الله - ﷺ - حتى أحل الله له النساء[1] .

ومن العلماء من يرى أن قوله - تعالى - ﴿ من بعد ﴾ المراد به : من بعد من أحللنا لك الزواج بهن ، وهن الأصناف الأربعة اللائى سبق الحديث عنهن فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك .. ﴾ .

وهذا الرأى الثانى وإن كان أشمل من سابقه ، إلا أننا نرجح أن الآية الكريمة مسوقة لتكريم أمهات المؤمنين اللائى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

هذا ، والنساء التسع اللائى حرم الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - الزيادة عليهن ، و الاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ .

أى : وكان الله - تعالى - ومازال ، مطلعا على كل شىء من أحوالكم - أيها الناس - فاحذروا أنْ تتجاوزوا ما حده الله - تعالى - لكم ، لأن هذا التجاوز يؤدى إلى عدم رضا الله - سبحانه - عنكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت ألوانا متعددة من مظاهر تكريم الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ومن توسعته عليه فى شأن أزواجه ، وفى شأن ما أحله له من عدم التقيد فى القَسْم بينهن ، وفى تقديم أو تأخير من شاء منهن ..

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريما عظيما . لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من التشريعات الحكيمة ، والآداب القويمة . التى تتعلق بدخول بيوت النبى - ﷺ - ، وبحقوق أزواجه - ﷺ - فى حياته وبعد مماته ، وبوجوب احترامه وتوقيره - ﷺ - فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣٨ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا
يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن
وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن
تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٥٤)

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ... ﴾ روايات متعددة منها ، ما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث . فقلت : يارسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى - ﷺ - لما تمالأن عليه فى الغيرة ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ﴾ فنزل كذلك .

وروى البخارى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : لما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام - ﷺ - قام معه من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى - ﷺ - ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقت فجئت فأخبرت النبى - ﷺ - أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ... الآية ﴾ .

قال ابن كثير : وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله - ﷺ - بزينب بنت

جحش : التى تولى الله - تعالى - تزويجها بنفسه، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة ، فى قول قتادة والواقدى وغيرهما[١] .

والمراد ببيوت النبى : المساكن التى أعدها - ﷺ - لسكنى أزواجه .

والاستثناء فى قوله - تعالى - : ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

وقوله : ﴿ غير ناظرين ﴾ حال من ضمير ﴿ تدخلوا ﴾ و﴿ إناه ﴾ أى : نضجه وبلوغه الحد الذى يؤكل معه . يقال : أَنَى الطعامُ يأنَى أَنْياً وإِنًى - كقلى يقلى - إذا نضج وكان معدا للأكل .

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوت النبى - ﷺ - فى حال من الأحوال ، إلا فى حال الإذن لكم بدخولها من أجل حضور طعام تدعون إلى تناوله ، وليكن حضوركم فى الوقت المناسب لتناوله ، لا قبل ذلك بأن تدخلوا قبل إعداده بفترة طويلة ، منتظرين نضجه وتقديمه إليكم للأكل منه .

قالوا : وكان من عادة بعضهم فى الجاهلية أنهم يلجون البيوت بدون استئذان ، فإذا وجدوا طعاما يعد ، انتظروا حتى ينضج ليأكلوا منه .

فالنهى فى الآية الكريمة مخصوص بمن دخل من غير دعوة ، وبمن دخل بدعوة ولكنه مكث منتظرا للطعام حتى ينضج ، دون أن تكون هناك حاجة لهذا الانتظار . أما إذا كان الدخول بدعوة أو لحضور طعام بدون انتظار مقصود لوقت نضجه ، فلا يتناوله النهى .

قال الآلوسى : والآية على ما ذهب إليه جمع من المفسرين ، خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى - ﷺ - فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، فهى مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى المستقبل . فالنهى مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظرا للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا من الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ استدراك على ما فهم من النهى عن الدخول بغير إذن ، وفيه إشعار بأن الإذن متضمن معنى الدعوة .

أى : لا تدخلوا بدون إذن ، فإذا أذن لكم ودعيتم إلى الطعام فادخلوا لتناوله وقوله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٠ - طبعة دار الشعب .
(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٧٠ .

- تعالى - ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ﴾ بيان للون آخر من ألوان الآداب الحكيمة التى شرعها الإسلام فى تناول الطعام عند الغير .

أى : إذا دعيتم لحضور طعام فى بيت النبى - ﷺ - فادخلوا ، فإذا ما انتهيتم من طعامكم عنده ، فتفرقوا ولا تمكثوا فى البيت مستأنسين لحديث بعضكم مع بعض ، أو لحديثكم مع أهل البيت .

فقوله ﴿ مستأنسين ﴾ مأخوذ من الأنس بمعنى السرور والارتياح للشىء . تقول : أنست ، لحديث فلان ، إذا سررت له ، وفرحت به .

وأطلق - سبحانه - نفى الاستئناس للحديث ، من غير بيان صاحب الحديث ، للإشعار بأن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، مادام ليس هناك من حاجة إلى هذا المكث . وهذا أدب عام لجميع المسلمين .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم ﴾ يعود إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، والدخول بغير إذن . والجملة بمثابة التعليل لما قبلها .

أى : إن ذلكم المذكور كان يؤذى النبى - ﷺ - ويدخل الحزن على قلبه ، لأنه يتنافى مع الأدب الإسلامى الحكيم ، ولكنه - ﷺ - كان يستحيى أن يصرح لكم بذلك ، لسمو خلقه ، وكمال أدبه ، كما أنه - ﷺ - كان يستحيى أن يقول لكم كلاما تدركون منه أنه يريد انصرافكم .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله لا يستحيى من الحق ﴾ أى : والله - تعالى - لا يستحيى من إظهار الحق ومن بيانه ، بل من شأنه - سبحانه - أن يقول الحق ، ولا يسكت عن ذلك .

وإذا كان الرسول - ﷺ - قد منعه حياؤه من أن يقول قولا تفهمون منه ضجره من بقائكم فى بيته بعد تناول طعامكم عنده .. فإن الله - تعالى - وهو خالقكم لا يمتنع عن بيان الحق فى هذه الأمور وفى غيرها ، حتى تتأدبوا بأدب دينه القويم . ثم ذكر - سبحانه - بعض الآداب التى يجب عليهم أن يلتزموها مع نساء نبيهم - ﷺ - فقال : ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن .. ﴾

أى : وإذا طلبتم - أيها المؤمنون - من أزواج النبى - ﷺ - شيئا يتمتع به سواء أكان هذا الشىء حسيا كالطعام أو معنويا كمعرفة بعض الأحكام الشرعية .. إذا سألتموهن شيئا من ذلك فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن ..

لأن سؤالكم إياهن بهذه الطريقة ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأبعد عن الوقوع فى

الهواجس الشيطانية التى قد تتولد عن مشاهدتكم لهن ، ومشاهدتهن لكم ..

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ .

أى : وما صح ومااستقام لكم - أيها المؤمنون - أن تؤذوا رسول الله - ﷺ - بأى لون من ألوان الأذى ، سواء أكان بدخول بيوته بغير إذنه ، أم بحضوركم إليها انتظارا لنضج الطعام أم بجلوسكم بعد الأكل بدون مقتض لذلك ، أم بغير ذلك مما يتأذى به - ﷺ - .

كما أنه لا يصح لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أى : من بعد وفاته .

﴿ إن ذلكم ﴾ أى : إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده ﴿ كان عند الله ﴾ - تعالى - ذنبا ﴿ عظيما ﴾ وإثما جسيما ، لا يقادر قدره .

ثم حذرهم - سبحانه - من مخالفة أمره ، بأن بين لهم بأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء ، من أمرهم ، فقال : ﴿ إن تبدوا شيئا ﴾ بأن تظهروه على ألسنتكم ﴿ أو تخفوه ﴾ بأن تضمروه فى قلوبكم ، فإنه فى الحالين لا يعزب عن علمنا ، وسنحاسبكم عليه ، ﴿ فإن الله ﴾ - تعالى - ﴿ كان بكل شىء عليما ﴾ بحيث لا يخفى عليه شىء ، فى الارض ولا فى السماء .

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة التى تسمى بآية الحجاب ، جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - وجوب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول طعام ، ووجوب الخروج بعد تناوله إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو للبقاء ، كما أن من الواجب الحضور إلى الطعام فى الوقت المناسب له ، وليس قبله انتظارا لنضجه وتقديمه .

٢ - حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء سواء أكان ذلك فى الطعام أم فى غيره ، فقد أمر - سبحانه - المؤمنين ، إذا سألوا أزواج النبى - ﷺ - شيئا أن يسألوهن من وراء حجاب ، وعلل ذلك بأن سؤالهن بهذه الطريقة ، يؤدى إلى طهارة القلوب ، وعفة النفوس ، والبعد عن الريبة وخواطر السوء ..

وحكم نساء المؤمنين فى ذلك كحكم أمهات المؤمنين ، لأن قوله - سبحانه - ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ علة عامة تدل على تعميم الحكم ، إذ جميع الرجال والنساء فى كل زمان ومكان فى حاجة إلى ما هو أطهر للقلوب ، وأعف للنفوس ..

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من العقلاء ، إن غير ازواج النبى - ﷺ - لا حاجة

بهن إلى أطهرية قلوبهن ، وقلوب الرجال من الريبة منهن ..

فالجملة الكريمة فيها الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع النساء ، لا خاص بأمهات المؤمنين ، وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن ، لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه ..»[١] .

٣ - كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز للرجل الأجنبى أن يصافح امرأة أجنبية عنه . ولا يجوز له أن يمس شىء من بدنه شيئا من بدنها .

والدليل على ذلك أن النبى - ﷺ - ثبت عنه أن قال : « إنى لا أصافح النساء »

والله - تعالى - يقول : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾.. فيلزمنا أن لا نصافح النساء الأجنبيات اقتداء به - ﷺ -[٢] .

٤ - تكريم الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ودفاعه عنه ، وإلزام المؤمنين بالعمل على كل ما يرضيه ولا يؤذيه ، وبعدم نكاح أزواجه من بعده أبدا ...

ثم استثنت السورة الكريمة بعض الأصناف الذين يجوز للمرأة أن تظهر أمامهم بدون حجاب ، وبينت سمو منزلة رسول الله - ﷺ - ، وأكدت التحذير من إيذائه ، ومن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يرشد أزواجه وبناته ونساء المؤمنين إلى وجوب الاحتشام فى ملابسهن .. فقال - تعالى - :

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ

---

(١) راجع « أضواء البيان » جـ ٦ ص ٥٨٤ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٢) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٦٠٢ .

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

قال القرطبى : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله - ﷺ - : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ لا جناح عليهن فى آبائهن .. ﴾[1] .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان من لا يجب على النساء أن يحتجبن منه .

أى : لا حرج ولا إثم على أمهات المؤمنين ولا على غيرهن من النساء ، فى ترك الحجاب بالنسبة لآبائهن ، أو أبنائهن أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو نسائهن اللاتى تربطهن بهن رابطة قرابة أو صداقة ، أو ما ملكت أيمانهن من الذكور أو الإناث .

فهؤلاء يجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب ، وأن تظهر أمامهم بدون ساتر . وهذا لون من ألوان اليسر والسماحة فى شريعة الإسلام .

ولم يذكر سبحانه - العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أبا . كما فى قوله - تعالى - حكاية عن يعقوب : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ، ونحن له مسلمون ﴾ وإسماعيل كان عما ليعقوب لا أباله .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ولا نسائهن ﴾ أى : ولا جناح على زوجات النبى - ﷺ - فى عدم الاحتجاب عن نسائهن ، أى : عن النساء المسلمات وإضافتهن لهن من حيث المشاركة فى الوصف ، وهو الإسلام ، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبى الاحتجاب عنهن ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣١ .

كما يجب على سائر المسلمات . أى : ماعدا ما يبدو عند المهنة ، أما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : فى سورة النور : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن... ﴾ الآية .

ثم عقب . سبحانه هذا الترخيص والتيسير بقوله : ﴿ واتقين الله إن الله كان على كل شىء شهيدا ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : لقد أبحت لكن يا معشر النساء مخاطبة هؤلاء الأصناف بدون حجاب : فامتثلن أمرى ، واتقين الله - تعالى - فى كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله - تعالى - مطلع على كل ما يصدر عنكن ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم أثنى الله - تعالى - على نبيه ثناء كبيرا وأمر المؤمنين بأن يعظموه ويوقروه فقال : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية شرف الله بها رسوله - ﷺ - فى حياته وموته ، وذكر منزلته منه .. والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره ..

والضمير فى ﴿ يصلون ﴾ لله - تعالى - وللملائكته . وهذا قول من الله شرف به ملائكته .. أو فى الكلام حذف . والتقدير : إن الله يصلى وملائكته يصلون[2] .

وقال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية الكريمة ، أن الله - تعالى - أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى : بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر الله أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه . ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا[3] .

والمعنى : إن الله - تعالى - يثنى على نبيه محمد - ﷺ - ويرضى عنه ، وإن الملائكة تثنى عليه - ﷺ - وتدعو له بالظفر بأعلى الدرجات وأسماها .

﴿ يأيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ أى : عظموه ووقروه وادعوا له بأرفع الدرجات ﴿ وسلموا تسليما ﴾ أى : وقولوا : السلام عليك أيها النبى . والسلام : مصدر بمعنى السلامة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٧ .

أى : السلامة من النقائص والآفات ملازمة لك .

والتعبير بالجملة الاسمية فى صدر الآية ، للإشعار بوجوب المداومة والاستمرار على ذلك .

وخص المؤمنين بالتسليم ، لأن الآية وردت بعد النهى عن إيذاء النبى - ﷺ - ، والإيذاء له - ﷺ - إنما يكون من البشر .

وقد ساق المفسرون - وعلى رأسهم ابن كثير والقرطبى والآلوسى - أحاديث متعددة فى فضل الإكثار من الصلاة على النبى - ﷺ - ، وفى كيفية الصلاة عليه ..

ومنها : ما رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عامر بن ربيعة قال : سمعتٍ النبى - ﷺ - يقول : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على ، فليُقِلّ عبد من ذلك أو ليكثر ».

ومنها ما رواه الشيخان وغيرهما عن كعب بن عُجْرَة قال : لما نزلت هذه الآية قلنا: يارسول الله ، قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد[1] .

والآية الكريمة تدل على وجوب الصلاة والسلام على النبى - ﷺ - والمؤمنون الصادقون هم الذين يكثرون من ذلك . قال صاحب الكشاف مالملخصه : فإن قلت : الصلاة على رسول الله - ﷺ - واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره - ﷺ - ومنهم من قال تجب فى كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره .

ومنهم من أوجبها فى العمر مرة .. والذى يقتضيه الاحتياط : الصلاة عليه عند كل ذكر .. لما ورد من الأخبار فى ذلك .

ومنها : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على »[2] .

ثم توعد - سبحانه - الذين يسيئون إلى رسوله - ﷺ - بأى لون من ألوان الإساءة فقال : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا ﴾ .

والمراد بأذى الله ورسوله : ارتكاب ما يبغضان ويكرهان من الكفر والفسوق والعصيان ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٨ وما بعدها إلى ص ٤٦٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٧ .

ويشمل ذلك ما قاله اليهود : عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وما قاله النصارى : من أن المسيح ابن الله ، كما يشمل ما قاله الكافرون فى الرسول - ﷺ - من أنه كاهن أو ساحر أو شاعر ..

وقيل : إن المقصود بالآية هنا : إيذاء الرسول - ﷺ - خاصة ، وذكر الله - تعالى - معه للتشريف ، وللإشارة إلى أن ما يؤذى الرسول يؤذى الله - تعالى - ، كما جعلت طاعة الرسول ، طاعة لله .

قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذى الرسول - ﷺ - بشىء ، فإن من آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، ففى الحديث الشريف : « الله الله فى أصحابى ، لاتتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه »[1] .

أى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - ، بارتكاب مالا يرضياه من كفر أو شرك أو فسوق أو عصيان ..

﴿ لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ﴾ أى : طرد الله - تعالى - هؤلاء الذين ارتكبوا الأذى من رحمته ، وأبعدهم من رضاه فى الدنيا والآخرة .

﴿ وأعد لهم ﴾ - سبحانه - فى الآخرة ﴿ عذابا مهينا ﴾ أى : عذابا يهينهم ويجعلهم محل الاحتقار والإزدراء من غيرهم .

وبعد هذا الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله ، جاء وعيد آخر لمن آذى المؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ .

أى: والذين يرتكبون فى حق المؤمنين والمؤمنات ما يؤذيهم فى أعراضهم أو فى أنفسهم أو فى غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا مايوجب أذاهم ..

﴿ فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ أى : فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلا قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ ولم يقل ذلك فى الآية السابقة عليها ، لأن الناس بطبيعتهم يدفع بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض ، ويؤذى بعضهم بعضا ، أما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٦٩ .

الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - فلا يتصور منها ذلك .

وجمع - سبحانه - فى ذمهم بين البهتان والاثم المبين ، للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه فى حق المؤمنين والمؤمنات ، إذ البهتان هو الكذب الصريح الذى لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لشدته وبعده عن الحقيقة .

والإثم المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين ، الذى لا يخفى قبحه على أحد .

روى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه : « أى الربا أربى عند الله ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرىء مسلم » ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، بالاحتشام والتستر فى ملابسهن فقال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن ... ﴾ .

قال الآلوسى : روى عن غير واحد أنه كانت الحرة والأمة ، تخرجان ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم قالوا : حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر فلا يطمع فيهن ..[1] .

وقوله : ﴿ يدنين ﴾ من الإدناه بمعنى التقريب ، ولتضمنه معنى السدل والإرخاء عُدِّىَ بعلى . وهو جواب للأمر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ...﴾ .

والجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن ، تلبسه المرأة ، فوق ثيابها .

والمعنى : يأيها النبى قل لأزواجك اللائى فى عصمتك ، وقل لبناتك اللائى هن من نسلك ، وقل لنساء المؤمنين كافة ، قل لهن : إذا ما خرجن لقضاء حاجتهن ، فعليهن أن يسدلن الجلابيب عليهن ، حتى يسترن أجسامهن سترا تاما ، من رءوسهن إلى أقدامهن ، زيادة فى التستر والاحتشام ، وبعدا عن مكان التهمة والريبة .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها - : لما نزلت هذه الآية ، خرج نساء الأمصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧٠ . (٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٨٨ .

وقوله : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ بيان للحكمة من الأمر بالتستر والاحتشام .

أى : ذلك التستر والاحتشام والإدناء عليهن من جلابيبهن يجعلهن أدنى وأقرب إلى أن يعرفن ويميزن عن غيرهن من الإماء ، فلا يؤذين من جهة من فى قلوبهم مرض .

قال بعض العلماء : وقد يقال إن تأويل الآية على هذا الوجه ، وقصرها على الحرائر ، قد يفهم منه أن الشارع قد أهمل أمر الإماء ، ولم يبال بما ينالهن من الإيذاء ممن ضعف إيمانهم ، مع أن فى ذلك من الفتنة مافيه ، فهلا كان التصون والتستر عاما فى جميع النساء ؟

والجواب ، أن الإماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن فى الأسواق ، فإذا كلفن أن يتقنعن ويلبسن الجلباب السابغ كلما خرجن ، كان فى ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر فإنهن مأمورات بعدم الخروج من البيوت إلا لضرورة ومع ذلك فإن القرآن الكريم قد نهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات جميعا ، سواء الحرائر والإماء ، وتوعد المؤذين بالعذاب المهين .. والشارع - أيضا - لم يحظر على الإماء التستر والتقنع ، ولكنه لم يكلفهن بذلك دفعا للحرج والعسر ، فللأمة أن تلبس الجلباب السابغ متى تيسر لها ذلك ..[1] .

هذا ، ويرى الإمام أبو حيان أن الأرجح أن المراد بنساء المؤمنين ، ما يشمل الحرائر والإماء وأن الأمر بالتستر يشمل الجميع ، وأن الحكمة من وراء هذا الأمر بإسدال الجلابيب عليهن ، درء التعرض لهن بسوء من ضعاف الايمان .

فقد قال - رحمه الله - : والظاهر أن قوله : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .. ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن ﴾ لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ، ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها[2] .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الذى اتجه إليه أبو حيان - رحمه الله - أولى بالقبول من غيره ، لتمشيه مع شريعة الإسلام التى تدعو جميع النساء إلى التستر والعفاف .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى : وكان الله - تعالى - ومازال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة صادقة مما وقع فيه من أخطاء وسيئات .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٥٣ للشيخ محمد على السايس - رحمه الله - .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٧ ص ٢٥٠ .

ثم هدد - سبحانه - المنافقين وأشباههم بسوء المصير ، إذا مااستمروا فى إيذائهم لرسول الله - ﷺ - وللمؤمنين والمؤمنات . وبين - عز وجل - أن وقت قيام الساعة مرد علمه إليه وحده . وأن الكافرين عند قيامها سيندمون ولكن لن ينفعهم الندم ، فقال - تعالى - :

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

والمنافقون : جمع منافق ، وهو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر .

والذين فى قلوبهم مرض : هم قوم ضعاف الإيمان ، قليلو الثبات على الحق .

والمرجفون فى المدينة : هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين ويلقون الأكاذيب الضارة بهم ويذيعونها بين الناس . وأصل الإرجاف : التحريك الشديد للشىء ، مأخوذ من الرجفة التى هى الزلزلة . ووصف به الأخبار الكاذبة ، لكونها فى ذاتها متزلزلة غير ثابتة ، أو لإحداثها الاضطراب فى قلوب الناس .

وقد سار بعض المفسرين ، على أن هذه الأوصاف الثلاثة ، كل وصف منها لطائفة معينة ، وسار آخرون على أن هذه الأوصاف لطائفة واحدة هى طائفة المنافقين ، وأن العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات .

قال القرطبى : قوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة ... ﴾ أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد ... والواو مقحمة كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة فى المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة .

وقيل : كان منهم قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين ..[1] .

وقد سار صاحب الكشاف على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة من الفاسقين ، فقال : ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان ، وقلة ثبات عليه ..

﴿ والمرجفون فى المدينة ﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله - ﷺ - فيقولون : هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين .

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عدائكم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوؤهم وتنوؤهم[2] .

وقوله : ﴿ لنغرينك بهم ﴾ جواب القسم . أى : لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد ، يقال : أغرى فلان فلانا بكذا ، إذا حرضه على فعله .

وقوله : ﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ معطوف على جواب القسم . أى : لنغرينك بهم ثم لا يبقون بعد ذلك مجاورين لك فيها إلا زمانا قليلا ، يرتحلون بعده بعيدا عنكم ، لكى تبتعدوا عن شرورهم .

وجاء العطف بثم فى قوله : ﴿ ثم لا يجاورونك ﴾ للإشارة إلى أن إجلاءهم عن المدينة نعمة عظيمة بالنسبة للمؤمنين ، ونقمة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المنافقين وأشباههم . وقوله : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ أى : مطرودين من رحمة الله - تعالى - ومن فضله ، أينما وجدوا وظفر بهم المؤمنون .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٦١ .

و﴿ ملعونين ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿ يجاورونك ﴾ و﴿ ثقفوا ﴾ بمعنى وجدوا . تقول ثقفت الرجل فى الحرب أثقفه ، إذا أدركته وظفرت به .

وقوله : ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ بيان لما يحيق بهم من عقوبات عند الظفر بهم .

أى : هم ملعونون ومطرودون من رحمة الله بسبب سوء أفعالهم ، فإذا ما أدركوا وظفر بهم ، أخذوا أسارى أذلاء ، وقتلوا تقتيلا شديدا ، وهذا حكم الله - تعالى - فيهم حتى يقلعوا عن نفاقهم وإشاعتهم قالة السوء فى المؤمنين ، وإيذائهم للمسلمين والمسلمات .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد اقتضت تأديب الفجار والفسقة حتى يقلعوا عن فجورهم وفسقهم فقال : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل .... ﴾ وقوله : ﴿سنة ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد . أى : سن الله - تعالى - ذلك سنة ، فى الأمم الماضية من قبلكم - أيها المؤمنون - بأن جعل تأديب الذين يسعون فى الأرض بالفساد ، ويؤذون أهل الحق ، سنة من سننه التى لا تتخلف .

﴿ ولن تجد ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ لسنة الله ﴾ الماضية فى خلقه ﴿ تبديلا ﴾ أو تحويلا ، لقيامها على الإرادة الحكيمة ، والعدالة القويمة .

ثم بين - سبحانه - أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو فقال : ﴿ يسألك الناس عن الساعة ، قل إنما علمها عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ .

والسائلون هنا قيل:هم اليهود ، وسؤالهم عنها كان بقصد التعنت والإساءة إلى النبى - ﷺ - .

أى : يسألك اليهود وأشباههم فى الكفر والنفاق عن وقت قيام الساعة ، على سبيل التعنت والامتحان لك .

﴿ قل ﴾ لهم - أيها الرسول الكريم - ﴿ إنما ﴾ علم وقت قيامها عند الله - تعالى - وحده ، دون أى أحد سواه .

﴿ وما يدريك ﴾ أى : وما يعلمك ﴿ لعل الساعة تكون قريبا ﴾ أى . لعل قيامها وحصولها يتحقق فى وقت قريب ، ولكن هذا الوقت مهما قرب لا يعلمه إلا علام الغيوب - سبحانه - .

ولقد كان النبى - ﷺ - يقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويشير إلى إصبعيه السبابة والوسطى .

ثم بين - تعالى - ما أعده للكافرين من عقاب فقال : ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ بأن طردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته .

﴿ وأعد لهم ﴾ فوق ذلك فى الآخرة ﴿ سعيرا ﴾ أى : نارا شديدة الاشتعال والاتقاد .

﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا خروج لهم منها معه .

﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ أى لا يجدون من يحول بينهم وبين الدخول فى هذه النار المسعرة ، كما لا يجدون من يخلصهم من عذابها وسعيرها .

ثم بين - سبحانه - حسراتهم عندما يحل بهم العذاب فى الآخرة فقال : يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا .

و﴿ يوم ﴾ ظرف لعدم الوجدان لمن يدافع عنهم أو ينصرهم أى : لا يجدون من يدفع عنهم العذاب : يوم تقلب وجوههم فى النار تارة إلى جهة ، وتارة إلى جهة أخرى ، كما يقلب اللحم عند شوائه .

وحينئذ يقولون على سبيل التحسر والتفجع : يا ليتنا أطعنا الله - تعالى - فيما أمرنا به ، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من عند ربه .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ تقلب ﴾ بمعنى تتقلب ، ومعنى تقليبها : تصريفها فى الجهات ، كما ترى البيضة تدور فى القدر إذا غلت ، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها ، أو طرحها فى النار مقلوبة منكوسة .

وخصت الوجوه بالذكر ، لأنه الوجه أكرم موضع على الانسان من جسده ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة[1] .

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ ، أى : وقال هؤلاء الكافرون - بعد هذا التحسر والتفجع - ياربنا إنا أطعنا فى الدنيا ﴿ سادتنا وكبراءنا ﴾ أى : ملوكنا ورؤساءنا وزعماءنا ، فجعلونا فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعن السبيل الحق .

﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أى : ياربنا أنزل بهؤلاء السادات والكبراء عذابا مضاعفا ، بسبب ضلالهم فى أنفسهم ، وبسبب إضلالهم لغيرهم .

﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ أى واطردهم من رحمتك ، وأبعدهم عن مغفرتك ، إبعادا شديدا عظيما ، فهم الذين كانوا سببا لنا فى هذا العذاب المهين الذى نزل بنا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٦٢ .

وهكذا نرى الآيات الكريمة ، تصور لنا أحوال الكافرين فى الآخرة هذا التصوير المؤثر ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

وبعد أن فصلت السورة الكريمة ما فصلت من أحكام ، وأرشدت إلى ما أرشدت من آداب ، وقصت ماقصت من أحداث .. بعد كل ذلك وجهت فى أواخرها نداءين إلى المؤمنين ، أمرتهم فيهما بتقوى الله - تعالى - وبالاقتداء بالأخيار من عباده ، وباجتناب سلوك الأشرار ، كما ذكرتهم بثقل الأمانة التى رضوا بحملها ، وبحسن عاقبة الصالحين وسوء عاقبة المكذبين ، قال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

والمراد بالذين آذوا موسى - عليه السلام - فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... ﴾ قومه الذين أرسله الله إليهم .

فقد حكى القرآن الكريم ألوانا من إيذائهم له ، ومن ذلك قولهم له : ﴿ يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ... ﴾ وقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

ومن إيذائهم له – عليه السلام – ما رواه الإمام البخارى والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ – : إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، وقالوا : مايستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة . وإن الله – تعالى – أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ بنى اسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله – تعالى – ، وأبرأه الله – تعالى – مما يقولون .. فذلك قوله – تعالى – ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... ﴾[1] .

والمعنى : يامن آمنتم بالله – تعالى – حق الإيمان ، التزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم – ﷺ – واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذى سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى – عليه السلام – حيث آذوه بشتى أنواع الأذى .

وقولهم : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ... ﴾ واتخاذهم العجل إلها من دون الله فى غيبة نبيهم موسى – عليه السلام – ..

﴿ فبرأه الله مما قالوا ﴾ أى : فأظهر الله – تعالى – براءته من كل ما نسبوه إليه من سوء .

﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أى : وكان عند الله – تعالى – ذا جاه عظيم ، ومكانة سامية ، ومنزلة عالية ، حيث نصره – سبحانه – عليهم ، واصطفاه لحمل رسالته ..

يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا كان ذا جاه وقدر ..

ثم أمرهم – سبحانه – بمراقبته وبالخوف منه ، بعد أن نهاهم عن التشبه ببنى اسرائيل فى إيذائهم لنبيهم فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا .. ﴾ .

والقول السديد : هو القول الصادق الصحيح الخالى من كل انحراف عن الحق والصواب ، مأخوذ من قولك : سدد فلان سهمه يسدده ، إذا وجهه بإحكام الى المرمى الذى يقصده فأصابه . ومنه قولهم : سهم قاصد . إذا أصاب الهدف .

أى : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وراقبوه وخافوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، وفى كل ما تقولون وما تفعلون ، وقولوا قولا كله الصدق والصواب .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧٤ .

فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿ يصلح ﴾ الله - تعالى - ﴿ لكم أعمالكم ﴾ بأن يجعلها مقبولة عنده ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ التى فرطت منكم ، بأن يمحوها عنكم ببركة استقامتكم فى أقوالكم وأفعالكم .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فى كل الأقوال والأعمال ﴿ فقد فاز ﴾ فى الدارين ﴿ فوزا عظيما ﴾ لا يقادر قدره ، ولا يعلم أحد كنهه وعلو منزلته .

ثم بين - سبحانه - ضخامة التبعة التى حملها الإنسان فقال : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .. ﴾ .

وأرجح الأقوال وأجمعها فى المراد بالأمانة هنا : أنها التكاليف والفرائض الشرعية التى كلف الله - تعالى - بها عباده ، من إخلاص فى العبادة ، ومن أداء للطاعات ، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه .

وسمى - سبحانه - ما كلفنا به أمانة ، لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا - سبحانه - بها ، وائتمننا عليها ، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها بدون إخلال بشىء منها .

والمراد بالإنسان : آدم - عليه السلام - أو جنس الإنسان .

والمراد بحمله إياها : تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهى مع ثقلها وضخامتها .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهات ، فمنهم من يرى أن الكلام على حقيقته ، وأن الله - تعالى - قد عرض هذه التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة ، على السموات والأرض والجبال ﴿ فأبين أن يحملنها ﴾ لثقلها وضخامتها ﴿ وأشفقن منها ﴾ أى : وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدى بهن إلى عذاب الله وسخطه بسبب التقصير فى أداء ما كلفن بأدائه .

﴿وحملها الإنسان ﴾ أى : وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه ، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها ، وأشفقن منها .

﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ أى : إنه كان مفرطا فى ظلمه لنفسه ، ومبالغا فى الجهل ، لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعا بأداء ما كلفهم الله - تعالى - بأدائه . وإنما منهم من أداها على وجهها - وهم الأقلون - ، ومنهم من لم يؤدها وإنما عصى ما أمره به ربه ، وخان الأمانة التى التزم بأدائها .

فالضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ يعود على بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الذين لم يؤدوا

حقوق هذه الامانة التى التزموا بحملها .

قال الآلوسى : ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ أى : بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله ويكفى فى صدق الحكم على الجنس بشىء ، وجوده فى بعض أفراده ، فضلا عن وجوده فى غالبها ..[١] .

وقال بعض العلماء : ورجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلى معروف فى اللغة التى نزل بها القرآن .

وقد جاء فعلا فى آية من كتاب الله ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب .... ﴾ لأن الضمير فى قوله : ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلى ، كما هو ظاهر .

وهذه المسألة هى المعروفة عند علماء العربية بمسألة : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر[٢] .

وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : لا مانع إطلاقا من أن يخلق الله - تعالى - إدراكا ونطقا للسموات والأرض والجبال ، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

ومما يشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[٣] .

قال الجمل : وكان هذا العرض عليهن - أى على السموات والأرض والجبال تخييرا لا إلزاما ، ولو ألزمهن لم يمتنعن عن حملها . والجمادات كلها خاضعة لله - تعالى - مطيعة لأمره ، ساجدة له .

قال بعض أهل العلم : ركب الله - تعالى - فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة ، حتى عقلن الخطاب ، وأجبن بما أجبن[٤] .

ويرى بعضهم أن العرض فى الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل ، أو من قبيل المجاز .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : لما بين - تعالى - فى هذه السورة من الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٩٦ .
(٢) تفسير « أضواء البيان » جـ ٦ ص ٦٠٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٨ .

ويصح أن يكون عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة ..

وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى : أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها ، لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب .

أى : أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حمله الانسان وهو ظلوم جهول لو عقل . وهذا كقوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ... ﴾ .

وقال قوم : إن الآية من المجاز : أى : أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فَعُبِّر عن هذا بعرض الأمانة . كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه ..

وقيل : ﴿ عرضنا ﴾ يعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة . ورجحت الأمانة بثقلها عليها ..[1] .

ويبدو لنا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول ، لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

ومما لاشك أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تخلق فى السموات والأرض والجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعلمه إلا هو - سبحانه .

واللام فى قوله - سبحانه - : ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات ... ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ وحملها الإنسان ...﴾ .

أى : وحملها الإنسان ليعذب الله - تعالى - بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يؤدوا ما التزموا بحمله وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى : ويقبل الله - تعالى - توبة المؤمنين والمؤمنات ، بأن يكفر عنهم سيئاتهم وخطاياهم .

﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ومازال ﴿ غفورا رحيما ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٥٤ .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة (الأحزاب) نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ..

والحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الخميس : ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
١٩٨٥/٦/٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ سَبَأٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة ﴿ سبأ ﴾ هى السورة الرابعة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة السابعة والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة ﴿ لقمان ﴾ .

٢ - وسورة ﴿ سبأ ﴾ من السور المكية الخالصة ، وقيل هى مكية إلا الآية السادسة منها وهى قوله - تعالى - : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ .

٣ - وعدد آياتها خمس وخمسون آية فى المصحف الشامى ، وأربع وخمسون آية فى غيره . وسميت بهذا الاسم ، لاشتمالها على قصة أهل سبأ ، وما أصابهم من نقم بسبب عدم شكرهم لنعم الله - تعالى - عليهم .

٤ - وتبدأ سورة ﴿ سبأ ﴾ بالثناء على الله - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ .

ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال الكافرين فى تكذيبهم ليوم القيامة ، كما تحكى - أيضا - بعض أقوالهم الباطلة التى قالوها فى شأن النبى - ﷺ - ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

٥ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة داود وسليمان - عليهما السلام - ، فتحكى ما آتاهم الله - تعالى - إياه من خير وقوة وكيف أنهما قابلا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة ، فزادهما - سبحانه - من فضله وعطائه : ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وكعادة القرآن الكريم فى جمعه بين الترغيب والترهيب ، وبين حسن عاقبة الشاكرين ، وسوء عاقبة الجاحدين .. جاءت فى أعقاب قصة داود وسليمان - عليهما السلام - ، قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله الوفيرة بالجحود والإعراض ، فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾ .

٦ – ثم ساقت السورة بعد ذلك بأسلوب تلقينى ألوانا من الأدلة على وحدانية الله – تعالى – وقدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له .

نرى ذلك فى قوله – تعالى – : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .. ﴾

وفى قوله – تعالى – : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ .

وفى قوله – عز وجل – : ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء ، كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ .

٧ – ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن وظيفة الرسول – ﷺ – ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ .

وعن أحوال الكافرين السيئة عندما يقفون أمام ربهم للحساب ، وكيف أن كل فريق منهم يلقى التبعة على غيره ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ﴾.

٨ – ثم ترد السورة الكريمة على أولئك المترفين ، الذين زعموا أن أموالهم وأولادهم ستنفعهم يوم القيامة ، فتقرر أن ما ينفع يوم القيامة إنما هو الإيمان والعمل الصالح ، وأن الله – تعالى – هو صاحب الإعطاء والمنع والإغناء والإفقار .

قال – تعالى – : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ، قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون ﴾.

٩ – وبعد أن ساقت السورة ما ساقت من شبهات المشركين حول دعوة الرسول – ﷺ – وردت عليهم بما يزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم ، أتبعت ذلك بدعوة هؤلاء الكافرين إلى التفكير والتدبر على انفراد ، فى شأن دعوة هذا الرسول الكريم الذى يدعوهم إلى الحق ، لعل هذا التفكر يهديهم إلى الرشد .

قال – تعالى – : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة بتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأنهم سيندمون - إذا ما استمروا على كفرهم - ولن ينفعهم الندم .

قال - تعالى - : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ .

١٠ - وهكذا نرى سورة سبأ قد ساقت أنواعا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه .. كما أنها حكت شبهات المشركين ، وردت عليهم بما يبطلها ، والحمد لله حمدا كثيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
مساء الخميس ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
٦ / ٦ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ
ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ
قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

افتتحت سورة ﴿ سبأ ﴾ بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .

و ﴿ أل ﴾ فى الحمد للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء ، هو الله - تعالى - .

وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة عليه وحده - سبحانه - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء ، فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شىء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، هو فى الحقيقة حمد له - تعالى - ، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد اختار - سبحانه - افتتاح هذه السورة بصفة الحمد ، دون المدح أو الشكر ، لأنه وسط بينهما ، إذ المدح أعم من الحمد ، لأن المدح يكون للعاقل وغيره ، فقد يمدح الإنسان لعقله ، وتمدح اللؤلؤة لجمالها ، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر عنه من إحسان .

والحمد أخص من الشكر ، لأن الشكر يكون من أجل نعمة وصلت إليك أما الحمد فيكون من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك[1] .

وفى القرآن الكريم خمس سور اشتركت فى الافتتاح بقوله - تعالى - : ﴿ الحمد لله .. ﴾ وهى سورة الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ﴾ .

ولكن لكل سورة من هذه السور ، منهج خاص فى بيان أسباب أن الحمد لله - تعالى - وحده .

وقد أحسن القرطبى - رحمه الله - عندما قال : فإن قيل : قد افتتح غيرها أى : سورة الأنعام - بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائره ؟ فالجواب أن لكل واحدة منه معنى فى موضعه ، لا يؤدى عن غيره ، من أجل عقده بالنعم المختلفة ، و - أيضا - فلما فيه من الحجة فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون[2] .

والمعنى : الحمد الكامل الشامل لله - تعالى - وحده ، لأنه هو ، الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، بحيث لا يخرج شىء فيهما عن إرادته ومشيئته .

قوله : وله الحمد فى الآخرة ، تنبيه إلى أن حمده - عز وجل - ليس مقصورا على الدنيا ، بل يشمل الدنيا والآخرة .

فالمؤمنون يحمدونه فى الدنيا على ما وهبهم من نعم الإيمان والإحسان ، ويحمدونه فى الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض ، ويقولون : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[3] .

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٧ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٨٤ .

(٣) سورة الزمر . الآية ٧٤ .

قال صاحب الكشاف : ولما قال - سبحانه - : الحمد لله ، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا ، تقول : احمد أخاك الذى كساك وحملك ، تريد : احمده على كسوته وحملانه .

ولما قال : ﴿ وله الحمد فى الآخرة ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب[1] .

وقال الآلوسى : والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل ، أن الأول على نهج العبادة ، والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس[2] .

وقال الجمل : فإن قلت : الحمد مدح للنفس ، ومدحها مستقبح فيما بين الخلق ، فما وجه ذلك ؟

فالجواب : ان هذا المدح دليل على أن حاله - تعالى - بخلاف حال الخلق ، وأنه يحسن منه ما يقبح من الخلق ، وذلك يدل على أنه - تعالى - مقدس أن تقاس أفعاله ، على أفعال العباد[3] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ أى : وهو - تعالى - الذى أحكم أمور الدارين ، ودبرها بحكمته ، وهو العليم بظواهر عباده وبواطنهم ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم .

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر علمه فقال : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾، والولوج الدخول ، يقال : ولج فلان منزله ، فهو يلجه ولجا وولوجا ، إذا دخله .

أى : أنه - سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر دفنت فى طياتها ، ومن بذور ومعادن فى جوفها .

ويعلم - أيضا - ﴿ ما يخرج منها ﴾ من نبات وحبوب وكنوز ، وغير ذلك من أنواع الخيرات .

ويعلم كذلك ﴿ ما ينزل من السماء ﴾ من أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٦٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٠٣ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٩ .

﴿ وما يعرج فيها ﴾ أى : ويعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة ، كما قال - تعالى - : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

وعدى العروج بفى لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى بإلى قال - تعالى - : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وقوله : ﴿ يعرج ﴾ من العروج ، وهو الذهاب فى صعود . والسماء جهة العلو مطلقا .

﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ أى : وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة ، والمغفرة العظيمة ، لمن يشاء من عباده .

وهذه الآية الكريمة - مع وجازة ألفاظها - تصور تصويرا بديعا معجزا ، مظاهر علم الله - تعالى - ، ولو أن أهل الأرض جميعا حاولوا إحصاء ﴿ ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ لما استطاعوا أن يصلوا إلى إحصاء بعض تلك الحشود الهائلة من خلق الله - تعالى - فى أرضه أو سمائه .

ولكن هذه الحشود العجيبة فى حركاتها ، وأحجامها ، وأنواعها ، وأجناسها ، وصورها ، وأحوالها .. قد أحصاها علم الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الكافرون فى شأن يوم القيامة ، فقال - تعالى - ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لا تأتينا الساعة بحال من الأحوال ، وإنما نحن نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا ، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى .

وعبروا عن إنكارهم لها بقولهم : ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ مبالغة فى نفيها نفيا كليا ، فكأنهم يقولون : لا تأتينا الساعة فى حال من الأحوال ، لأننا ننكر وجودها أصلا ، فضلا عن إتيانها .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما يؤكد وجودها وإتيانها تأكيدا قاطعا فقال : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ .

و « بلى » حرف جواب لرد النفى ، فتفيد إثبات المنفى قبلها ، ثم أكد - سبحانه - ذلك بجملة القسم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : ليس الأمر كما زعمتم ، بل هى ستأتيكم بغتة ، وحق ربى الذى أوجدنى وأوجدكم .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على جملة من المؤكدات التى تثبت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومن ذلك التعبير بـ ﴿ بلى ﴾ وبالجملة القسمية .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله - ﷺ - أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد : فإحداهن فى سورة يونس ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ .

والثانية : هذه الآية التى معنا . والثالثة : فى سورة التغابن وهى قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ تقوية لتأكيد إتيان الساعة .

قالوا : لأن تأكيد القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه ، وقوة إثباته ، وصحته ، لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر[2] .

وقوله ﴿ يعزب ﴾ بمعنى يغيب ويخفى ، وفعله من باب « قتل وضرب » . يقال : عزب الشىء يعزب - بضم الزاى وكسرها - إذا غاب وبعد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : كذبتم فى إنكاركم وحق الله - تعالى - لتأتينكم ، والذى أخبرنى بذلك هو الله - تعالى - ﴿ عالم الغيب ﴾ أى : عالم ما غاب وخفى عن حسكم ، وهو - سبحانه - لا يغيب عن علمه مقدار أو وزن مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك المثقال ، ولا أكبر منه ، إلا وهو مثبت وكائن فى علمه - تعالى - الذى لا يغيب عنه شىء ، أو فى اللوح المحفوظ الذى فيه تسجل أحوال الخلائق وأقوالهم وأفعالهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عالم الغيب ﴾ قرأه بعضهم بكسر الميم على أنه نعت لقوله ﴿ ربى ﴾ .

أى : قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم الساعة .

وقرأه آخرون بضم الميم على أنه مبتدأ ، وخبره جملة : ﴿ لا يعزب عنه ﴾ ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو عالم الغيب .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٢ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٩ .

وقوله : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ تمثيل لقلة الشيء ، ودقته ، والمراد انه لا يغيب عن علمه شيء ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال : مفعال من الثقل ، ويطلق على الشيء البالغ النهاية فى الصغر ، والذرة تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذى يتطاير من التراب عند النفخ .

وفى قوله – سبحانه – : ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ إعجاز علمى بليغ للقرآن الكريم ، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب ، أن الذرة أصغر الأجسام ، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة ، وتقسيمها إلى جزئيات .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ العامة على رفع أصغر وأكبر ، وفيه وجهان :

أحدهما : الابتداء ، والخبر إلا فى كتاب ، والثانى : العطف على ﴿ مثقال ﴾ ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ إلا فى كتاب ﴾ تأكيد للنفى فى ﴿ لا يعزب ﴾ كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين .

فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله – تعالى – أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال : الإثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضا[1] .

واللام فى قوله – تعالى – ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ متعلقة بقوله ﴿ لتأتينكم ﴾ وهى للتعليل ولبيان الحكمة فى إتيانها .

أى : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، والحكمة فى ذلك ليجزى – سبحانه – الذى آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذى يستحقونه .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة من ربهم لذنوبهم ﴿ و ﴾ لهم كذلك ﴿ رزق كريم ﴾ تنشرح له صدورهم ، وتقرّ به عيونهم .

﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى : والذين سعوا فى إبطال آياتنا ، وفى تكذيب رسلنا ﴿ معاجزين ﴾ أى مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا . يقال : عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه .

﴿ أولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى : لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٦٠ .

وهكذا نرى الآيات الكريمة بعد ثنائها على الله - تعالى - بما هو أهله ، وبعد إثباتها لعلمه الذى لا يعزب عنه شىء ، وبعد حكايتها لأقوال المشركين وردها عليهم .

بعد كل ذلك تصرح بأن الحكمة من إتيان الساعة ، مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يستحقون من ثواب ، ومجازاة الذين كفروا وسعوا فى آيات الله بالقدح فيها وصد الناس عنها . بما يستحقون من عقاب .

ثم بين - سبحانه - موقف أهل العلم النافع مما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه ، وموقف الكافرين من ذلك ، ورد - سبحانه - على هؤلاء الكافرين بما يثبت ضلالهم وجهلهم ، فقال - تعالى - :

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

والمراد بالرؤية فى قوله - تعالى - : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم ﴾ المعرفة والعلم واليقين . والمراد بالذين أوتوا العلم : المؤمنون الصادقون الذين اتبعوا النبى - ﷺ - فى كل ما جاءهم به من عند ربه ، سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم ، كمؤمنى أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

والجملة الكريمة مستأنفة لمدح هؤلاء العلماء العقلاء على إيمانهم بالحق ، أو معطوفة على يجزى فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

والمراد بـ ﴿ الذى أنزل إليك من ربك ﴾ القرآن الكريم .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما يقوله الكافرون بشأنك ولما يفعلونه لإبطال دعوتك ، فإن الذين أوتوا العلم وهم أتباعك الصادقون ، يعلمون ويعتقدون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذى لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذى يهدى من اتبعه وأطاع توجيهاته إلى دين الله - تعالى - ، العزيز ، الذى يقهر ولا يقهر ﴿ الحميد ﴾ أى المحمود فى جميع شئونه .

والمفعول الأول ليرى قوله : ﴿ الذى أنزل ﴾ .. والمفعول الثانى « الحق » و « هو » ضمير فصل متوسط بين المفعولين و « يهدى » معطوف على المفعول الثانى من باب عطف الفعل على الاسم لتأويله به ، أى : يرونه حقا وهاديا .

وعبر - سبحانه - عن إيمان أهل العلم بما جاءهم به الرسول - ﷺ - بقوله : ﴿ ويرى ﴾ ، للإشعار بأنهم قد آمنوا هذا الإيمان الجازم عن إدراك ومشاهدة ويقين ، وأنهم قد صاروا لا يشكون فى كون هذا المُنَزَّل عليه من ربه ، هو الحق الهادى إلى الصراط المستقيم .

وفى وصفهم بقوله : ﴿ أوتوا العلم ﴾ ثناء عظيم عليهم ، لأنهم انتفعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق ، وللشهادة له بأنه حق ، ويهدى إلى السعادة الدينية والدنيوية والأخروية .

وهكذا العلماء العاملون بمقتضى علمهم النافع . يكونون أنصارا للحق والهدى فى كل زمان ومكان .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك الكافرون فيما بينهم ، على سبيل الاستهزاء بالنبى - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ...﴾ .

وتمزيق الشىء : تخريقه وجعله قطعا قطعا . يقال : ثوب ممزق ومزيق . إذا كان مقطعا مخرقا . والمراد بالرجل : الرسول - ﷺ - .

أى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض ، ألا تريدون أن ندلكم ونرشدكم إلى رجل ، هذا الرجل يخبركم ويحدثكم ، بأنكم إذا متم ، وفرقت أجسامكم فى الأرض كل تفريق ، وصرتم رفاتا وعظاما ، وأصبحتم طعاما فى بطون الطيور والوحوش .

﴿ إنكم لفى خلق جديد ﴾ أى : إنكم بعد هذا التمزيق والتفريق ، تخلقون خلقا جديدا ، وتعودون إلى الحياة مرة أخرى ، للحساب على أعمالكم التى عملتموها فى حياتكم .

وقالوا : ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ وهو - ﷺ - أشهر من نار على علم بينهم ، لقصد تجاهل أمره ، والاستخفاف بشأنه ، والاستهزاء بدعوته .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : فإن قلت : كان رسول الله - ﷺ - مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا بينهم ، فما معنى قولهم : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم ﴾ فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول فى أمر مجهول ؟

قلت : كانوا يقصدون بذلك الطَّنز - أى : الاستخفاف والسخرية - فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهى ، متجاهلين به وبأمره[1] .

وقال الآلوسى - رحمه الله - : وقوله : ﴿ ينبئكم ﴾ أى يحدثكم بأمر مستغرب عجيب ... وإذا فى قوله : ﴿ إذا مزقتم ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة ما بعده عليه . أى : تبعثون أو تحشرون ، وهو العامل فى « إذا » على قول الجمهور . والجملة الشرطية بتمامها معمولة لقوله : ﴿ ينبئكم ﴾ لأنه فى معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون ، ثم أكد ذلك بقوله - تعالى - : ﴿ إنكم لفى خلق جديد ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة ، التى قالوها بشأن ما جاءهم به النبى - ﷺ - .

والاستفهام لتعجبهم مما قاله - ﷺ - لأن قوله لهم : إنكم ستبعثون وتحاسبون يوم القيامة ، جعلهم لجهلهم وانطماس عقولهم - يستنكرون ذلك ، ويرجعون قوله - ﷺ - إلى أمرين : إما افتراء الكذب واختلاقه على الله - تعالى - وإما إصابته بالجنون الذى جعله يقول قولا لايدرى معناه .

وقد رد الله - تعالى - بما ينفى عن رسوله - ﷺ - ما اتهموه به ، وبما يثبت جهلهم وغباءهم فقال . ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ .

أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون ، من أن الرسول - ﷺ - الذى أخبرهم بأن هناك بعثا وحسابا ، به جنة أو افترى على الله كذبا ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين الذين

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٠٩ .

لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، غارقون فى العذاب الذى لا نهاية له . وفى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد .

ثم هددهم - سبحانه - بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى ضلالهم وجهالاتهم وذكرهم بما يشاهدونه من عجائب قدرته فقال : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ .

والاستفهام للتعجب من حالهم ، ومن ذهولهم عن التفكر والتدبر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون فلم يعتبروا ولم يتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرته - عز وجل - المحيطة بهم من كل جانب والمنتشرة فى آفاق السموات وفى جوانب الأرض ؟

إن تأملهم فى مظاهر قدرتنا الواضحة أمام أعينهم ، من شأنه أن يهديهم إلى الحق الذى جاءهم به رسولنا - ﷺ - ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض ﴾ كما فعلنا بقارون .

﴿ أو ﴾ إن نشأ ﴿ نسقط عليهم كِسَفاً من السماء ﴾ والكِسَفُ جمع كِسْفَة بمعنى قطعة أى: لا يعجزنا أن نخسف بهم الأرض . كما لا يعجزنا - أيضا - أن ننزل عليهم قطعا من العذاب الكائن من السماء فنهلكهم ، كما أنزلناها على أصحاب الأيكة فأهلكناهم بسبب تكذيبهم وجحودهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه من مظاهر قدرتنا الواضحة بين أيديهم ، لآية بينة ، وعبرة ظاهرة ، لكل عبد ﴿ منيب ﴾ أى : راجع إلى الله - تعالى - بالتوبة الصادقة ، وبالطاعة الخالصة لما جاءه به نبينا - ﷺ - .

ثم ساق - سبحانه - نموذجين من الناس ، أولهما : أعطاه الله - تعالى - الكثير من نعمه وفضله وإحسانه ، فوقف من كل ذلك موقف المعترف بنعم الله الشاكر لفضله .

وثانيهما : أعطاه الله - تعالى - النعم فوقف منها موقف الجاحد البطر الكنود .

أما النموذج الأول فنراه فى شخص النبيين الكريمين داود وسليمان - عليهما السلام - فقد قال - سبحانه - فى شأنهما :

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ بيان لما مَنَّ الله - تعالى - به على عبده داود - عليه السلام - من خير وبركة .

أى : ولقد آتينا عبدنا داود فضلا عظيما ، وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا ، بسبب إنابته إلينا ، وطاعته لنا .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿ يا جبال أوبى معه ﴾ والتأويب الترديد والترجيع . يقال : أوَّب فلان تأويبا إذا رَجَّع مع غيره ما يقوله .

والجملة مقول لقول محذوف : أى : وقلنا يا جبال رددى ورجعى مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال - تعالى - : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ .

وقوله : ﴿ والطير ﴾ بالنصب عطفا على قوله ﴿ فضلا ﴾ أى : وسخرنا له الطير لتسبح معه بحمدنا . أو معطوف على محل ﴿ يا جبال ﴾ أى : ودعونا الجبال والطير إلى التسبيح معه .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله : يخبر - تعالى - عما أنعم به على عبده ورسوله داود - عليه السلام - مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به ، تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات . والغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : « لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود »[(١)] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : « وآتينا داود منا فضلا » تأويب الجبال معه والطير ؟

قلت : كم بينهما من الفرق ؟ ألا ترى إلى مافيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال مُنْزَلَةً مَنْزِلَةَ العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته[(٢)] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وألنا له الحديد ﴾ ، بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليه .

أى : وصيرنا الحديد لينا فى يده ، بحيث يصبح - مع صلابته وقوته - كالعجين فى يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله فى نار ، أو أن يطرقه بمطرقة .

فالجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿ آتينا ﴾ ، وهى من جملة الفضل الذى منحه - سبحانه - لنبيه دواد - عليه السلام - .

و ﴿ أن ﴾ فى قوله : ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ مصدرية على حذف حرف الجر . وسابغات صفة لموصوف محذوف .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧١ .

أى : ألنا له الحديد ، لكى يعمل منه دروعا سابغات . والدرع السابغ ، هى الدرع الواسعة التامة . يقال : سبغ الشىء سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كاملا . ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .

قال - تعالى - : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وقدر فى السرد ﴾ والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير فى عمل الشىء . والسرد : نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها .

أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذى من جملته إلانة الحديد فى يده ، وقلنا له يا داود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة ، وأقوى هيئة .

روى أن الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها فى الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله - تعالى - داود - عليه السلام - أن يعملها بطريقة لا تثقل الجسم ولا تتعبه ، وفى الوقت نفسه تكون محكمة إحكاما تاما بحيث لا تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف ، وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله - تعالى - لعبده داود - عليه السلام - .

ثم أمر - سبحانه - داود وأهله بالعمل الصالح فقال : ﴿ واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير ﴾ .

أى : واعملوا عملا صالحا يرضينى ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم . بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالى عن الامتنان . وفى الصحيح أن النبى - ﷺ - قال : « إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده »[2] .

هذا ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه داود من فضل ، أما نبيه سليمان بن داود ، فقد

---

(١) سورة لقمان . الآية ٢٠ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٦٧ .

أعطاه - سبحانه - أفضالا أخرى ، عبر عنها فى قوله - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال . والرواح : من الزوال إلى الغروب .

والمعنى : وسخرنا لنبينا سليمان بن داود - عليهما السلام - الريح ، تجرى بأمره فى الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره فى الروحة الواحدة مسيرة شهر . أى : أنها لسرعتها تقطع فى مقدار الغدوة الواحدة ما يقطعه الناس فى شهر من الزمان ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة ، وهى فى كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق إرادته التى منحه الله - تعالى - إياها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾[2] .

ثم بين - تعالى - نعمة ثانية من النعم التى أنعم بها على سليمان فقال : ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ .

والقطر : هو النحاس المذاب . مأخوذ من قطَر الشىء يَقْطُر قَطْراً وقطَرانا ، إذا سال .

أى : كما ألنا لداود الحديد ، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا ، فكان يستعمله فى قضاء مصالحه ، كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا .

ثم بين - سبحانه - نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان - عليه السلام - فقال : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ .

أى : وسخرنا له من الجن من يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه مايريده منهم ، وهذا كله بأمرنا ومشيئتنا وقدرتنا .

﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أى : من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به من طاعة سليمان ، ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ أى : ننزل به عذابنا الأليم ، الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١ .
(٢) سورة « ص » الآية ٣٦ .

ثم بين - سبحانه - بعض الأشياء التى كان الجن يعملونها لسليمان - عليه السلام - فقال : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ﴾.

والمحاريب : جمع محراب . وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذى يقف فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ، وعلى أشرف أماكن البيوت .

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة .

والتماثيل : جمع تمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك .

قال القرطبى ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال . وهو كل ماصور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست بحيوان .

وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس . فيزدادوا عبادة واجتهادا .

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا فى زمانهم ، ونسخ ذلك بشرع محمد - ﷺ -[1] .

والجِفان : جمع جَفْنَة . وهى الآنية الكبيرة . والجَوَاب : جمع جابية ، وهى الحوض الكبير الذى يجبى فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .

والقدور : جمع قدر . وهو الآنية التى يطبخ فيها الطعام من نحاس أو فخار أو غيرهما .

وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لا تتحرك .

أى : أن الجن يعملون لسليمان - عليه السلام - ما يشاء من مساجد وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ، ومن قدور ثابتات على قواعدها ، بحيث لا تحرك لضخامتها وعظمها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل دواد عملا صالحا ، شكرا لله - تعالى - على فضله وعطائه ، وقليل من عبادى هو الذى يشكرنى شكرا خالصا على نعمى وفضلى وإحسانى .

وقوله ﴿ شكرا ﴾ يجوز أن يكون مفعولا لأجله . أى : اعملوا من أجل الشكر ، أو مصدرا واقعا موقع الحال . أى : اعملوا شاكرين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٧٢ .

و ﴿ قليل ﴾ خبر مقدم . و ﴿ من عبادى ﴾ صفة له . و ، ﴿الشكور﴾ مبتدأ مؤخر. وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله - تعالى - وشكره .

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه - سبحانه - فيما خلقت له .

والانسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه .

ثم ختم - سبحانه - النعم التى أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد وفاة سليمان ، فقال : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ﴾ .

والمراد بدابة الأرض : قيل هى الأَرَضَة التى تأكل الخشب وتتغذى به ، يقال : أرضت الدابة الخشب أرضا - من باب ضرب - ، إذا أكلته . فإضافة الدابة إلى الأرض - بمعنى الأكل والقطع - من إضافة الشىء إلى فعله .

و ﴿ منسأته ﴾ أى : عصاه التى كان مستندا عليها . وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا جاوزت مرعاها . من نسأ البعير - كمنع - إذا زجره وساقه ، أو إذا أخره ودفعه .

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان - عليه السلام - بالموت ، وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ، ﴿ مادلهم ﴾ أى : الجن الذين كانوا فى خدمته ﴿ على موته ﴾ بعد أن مات وظل واقفا متكئا على عصاه ﴿ إلا دابة الأرض تأكل منسأته ﴾ .

أى : انهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التى تفعل الأرْضَ - أى الأكل والقطع - فأكلت شيئا من عصاه التى كان متكئا عليها ، فسقط واقعا بعد أن كان واقفا .

﴿ فلما خر ﴾ أى : فلما سقط سليمان على الأرض ﴿ تبينت الجن ﴾ أى : ظهر هم ظهورا جليا ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ﴾ كما يزعم بعضهم .

﴿ مالبثوا فى العذاب المهين ﴾ أى : ما بقوا فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .

وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ،

حتى جاءت الأرضة فأكلت شيئا من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات .

قال ابن كثير : يذكر - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان - عليه السلام - وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه ، - وهى منسأته - مدة طويلة نحوًا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، - وهى الأرضة - ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضًا - أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويواهمون الناس ذلك »[1] .

هذا هو النموذج الأول الذى ساقه الله - تعالى - للشاكرين ، متمثلا فى موقف داود وسليمان - عليهما السلام - مما أعطاهما - سبحانه - من نعم جزيله ..

أما النموذج الثانى - الذى جاء فى أعقاب سابقه - فقد ساقه - سبحانه - لسوء عاقبة الجاحدين ، متمثلا فى قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله بالبطر ، فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم وفى شأنهم يقول - عز وجل - :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٩ .

أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

و ﴿ سبأ ﴾ فى الأصل اسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن ..

والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة باسمه ، فيصرف على الأول ويترك صرفه على الثانى .

وكانوا يسكنون بمأْرِب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلبها - سبحانه - منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ماشاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال ﷺ : بل هو رجل . كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مَذْحِجْ ، وكِنْدَه ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحِمْيَر . وسكن الشام منهم أربعة وهم : لَخْم ، وجُذَام ، وعامِلَةُ ، وغسَّان ..

وإنما سمى « سبأ » لأنه أول من سبأ فى العرب - أى : جمع السبايا - ، وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال - ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ ، فى زمانه المتقدم »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٩١ .

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم التى يعيشون فيها ﴿ آية ﴾ بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم .

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته .

ثم وضح - سبحانه - هذه الآية فقال : ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة من يمين بلدهم ، وطائفة أخرى عن شماله .

وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار .

قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل ، فيمتلىء من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها .

ولفظ ﴿ جنتان ﴾ مرفوع على البدل من ﴿ آية ﴾ أو على أنه مبتدأ ، وخبره قوله :﴿ عن يمين وشمال ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ... ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : وقلنا لهم على ألسنة رسلنا ، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التى أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له - سبحانه - هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .

وقوله : ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ كلام مستأنف لبيان موجبات الشكر .

أى : هذه البلدة التى تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات ، وربكم الذى أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه .

ثم بين - سبحانه - ما أصابهم بسبب جحودهم وبطرهم فقال : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ، وأثل وشىء من سدر قليل ﴾ .

والعرم : اسم للوادى الذى كان يأتى منه السيل . وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة . أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر .

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه

السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم ، فتفرقوا عنها ، ومزقوا شر ممزق ، وضربت بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أيدى سبأ . وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه .

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ ، فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان .

وقوله : ﴿ ذواتى أكل خمط ﴾ الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فآتت أكلها ضعفين ﴾ أى : ثمرها . والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذى لا يمكن أكله .

و (الأثل) هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء . أو هو نوع من الشجر كثير الشوك و(السدر) هو ما يعرف بالنبق . أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا ... فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف ، الذى اجتاح أراضيهم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق .. وبدلناهم بالجنان اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت فى أماكنهم الأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم مالذ وطاب ، وعظم نفعه .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم .

ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ﴾ .

أى : ذلك الذى فعلناه بهم من تبديل جنتيهم ، بجنتين ذواتى أكل خمط .. هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا .

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لا نعاقب ولا نجازى هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وآثر الغى على الرشد ، والعصيان على الطاعة .

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذى تحدثت عنه الآية السابقة . وهو المفعول الثانى لجزيناهم مقدم عليه . أى : جزيناهم ذلك التبديل لا غيره . والمراد بالجزاء هنا : العقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وهل نجازى إلا الكفور ﴾ بمعنى : وهل يعاقب .

وهو الوجه الصحيح . وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر ، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد

الخاص وهو العقاب[١] .

ثم بين - سبحانه - نقمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم ، وكيف أن هذه النقمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال - تعالى - : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ .

أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا بين أهل سبأ ﴿ وبين القرى التى باركنا فيها ﴾ كمكة فى الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس فى بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أى : قرى متقاربة متواصلة ، بحيث يرى من فى إحداها غيرها .

﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا محددا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .

وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .

وقوله : ﴿ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات ، والتى توصلكم إلى القرى المباركة .. سيروا فيها ليالى وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم بالليل أم بالنهار ، فإن الأمن فيها مستتب فى كل الأوقات : وفى كل الأحوال .

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله - تعالى - بها على أهل سبأ ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهى نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر .

ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحمق والبطر ، أنهم دعوا الله - تعالى - بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ .

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها ، وهى نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله .. إلا أنهم - لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم - تضرعوا إلينا وقالوا : ياربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة، فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : بطروا النعمة ، وبشموا . أى : سئموا - من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا النكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى[٢] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٧ .

وفى هذه الجملة الكريمة قراءات متعددة ذكرها القرطبى فقال ما ملخصه : فقراءة العامة ﴿ ربنا ﴾ - بالنصب - على أنه نداء مضاف .. ﴿ باعد ﴾ - بزنة فاعل - سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ربنا ﴾ كذلك على الدعاء ﴿ بعِّد ﴾ - بتشديد العين - من التبعيد .

وقرأ يعقوب وغيره ﴿ ربُّنا ﴾ - بالرفع - ﴿ باعَدَ ﴾ - بفتح العين والدال - على الخبر . أى : لقد باعد ربنا ﴿ بين أسفارنا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ أى : قالوا ذلك القول السىء ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .

وقوله: ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم .

والأحاديث: جمع أحدوثة، وهى ما يتحدث به الناس على سبيل التلهى والتعجب أى: قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا ما فعلوا من منكر، فكانت نتيجة ذلك. أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم، ويضربون بهم المثل، فيقولون: تفرقوا أيدى سبأ، ومزقناهم كل ممزق فى البلاد المتعددة، فمنهم من ذهب إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى العراق ... بعد أن كانوا أمة متحدة، يظلها الأمان والاطمئنان، والغنى والجاه ...

﴿إن فى ذلك ﴾ الذى فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطرهم ﴿لآيات﴾ واضحات بينات ﴿لكل صبار﴾ على طاعة الله - تعالى- ﴿شكور﴾ له - سبحانه- على نعمه .

وخص - سبحانه - الصبار والشكور بالذكر . لأنهما هما المنتفعان بآياته وعبره ومواعظه .

ثم بين - عز وجل - الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾.

ولفظ ﴿ صدق ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد. وقوله: ﴿ عليهم ﴾ متعلق بصدق.

وقوله ﴿ ظنه ﴾ مفعول به على قراءة التشديد، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع فى ﴿ عليهم﴾ وفى ﴿ فاتبعوه ﴾ يعود إلى قوم سبأ .

والمعنى على القراءة بالتشديد: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فى قدرته على إغوائهم، وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله - تعالى - وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان،

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٠ .

بسبب انغماسهم فى الفسوق والعصيان، إلا فريقا من المؤمنين، لم يستطع إبليس إغواءهم لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم - عز وجل -، واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها.

والمعنى على القراءة بالتخفيف: ولقد صدق إبليس فى ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصى أطاعوه، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه.

قال القرطبى ما ملخصه: وقوله: ﴿إلا فريقا من المؤمنين﴾ نصب على الاستثناء وفيه قولان: أحدهما: أنه يراد به بعض المؤمنين - فتكون من للتبعيض -، لأن كثيرا من المؤمنين يذنبون وينقادون لإبليس فى بعض المعاصى. أى: ما سلم من المؤمنين أيضا إلا فريق، وهو المقصود بقوله - تعالى - : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان...﴾.

والثانى: أن المراد بهم جميع المؤمنين، فعن ابن عباس أنه قال: هم المؤمنون كلهم. وعلى هذا تكون ﴿من﴾ للبيان لا للتبعيض..[1].

ثم بين - سبحانه - أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم، لم يكن عن قسر وإكراه، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : ﴿وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك..﴾.

والمراد بالسلطان هنا: التسلط بالقهر والغلبة والإكراه. والمراد بالعلم فى قوله - تعالى - ﴿إلا لنعلم﴾ إظهار هذا العلم للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره.

أى: وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه، وإنما كان له عليهم الوسوسة التى يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم، إلا لنظهر فى عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب، ولنميزه عمن هو منها فى شك وريب وإنكار...

قال الشوكانى - رحمه الله - : والاستثناء فى قوله ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك﴾ منقطع أى: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم.

وقيل: هو متصل مفرغ من أعم العلل. أى: ما كان له عليهم من تسلط بحال من الأحوال، ولا لعلة من العلل، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن، لأنه - سبحانه - قد علم ذلك علما أزليا. وقال الفراء: إلا لنعلم ذلك عندكم. والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار[2].

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٣.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٢٢.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿ وربك على كل شىء حفيظ ﴾ أى: وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شىء رقيب وحفيظ، بحيث لا يخرج شىء عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته.

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى - وشكره، وإخلاص العبادة له، وحسن الصلة به - سبحانه -، كل ذلك يؤدى إلى المزيد من نعمه - تعالى -، كما حدث لداود وسليمان - عليهما السلام -.

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانغماس فى المعاصى والشهوات. كل ذلك يؤدى إلى زوال النعم، كما حدث لقبيلة سبأ.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه، وتفصيل كل شىء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[1].

ثم نجد السورة الكريمة بعد ذلك، تلقن النبى - ﷺ - الحجج التى تؤيد ما هو عليه من حق وصدق، وتزهق ما عليه أعداؤه من باطل وكذب.. فتقول:

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ
﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ
وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل

(١) سورة يوسف. الآية ١١١.

لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

والأمر بالدعاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله .. ﴾ للتوبيخ والتعجيز . ومفعولا ﴿ زعمتم ﴾ محذوفان .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل التقريع والتعجيز: هؤلاء آلهتكم الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ، اطلبوا منهم أن ينفعوكم أو أن يرفعوا عنكم ضرا نزل بكم، إنهم بالقطع لن يستطيعوا شيئا من ذلك .

ولذا جاء التأكيد على عجز هذه الآلهة المزعومة بعد ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .. ﴾ .

أى : هؤلاء الشركاء لايملكون شيئا ما قل أو كثر لا فى السموات ولا فى الأرض ، بل الذى يملك كل شىء، هو الله - تعالى - وحده .

فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان حال هذه الآلهة، وللكشف عن حقيقتها.

والتعبير بعدم ملكيتهم لمثقال ذرة ، المقصود به أنهم لا يملكون شيئا على الإطلاق ، لأن مثقال الذرة أقل ما يتصور فى الحقارة والقلة .

وذكر - سبحانه - السموات والأرض لقصد التعميم، إذ هما محل الموجودات الخارجية .

أى: لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون العلوى والسفلى .

وبعد أن نفى عن الشركاء الملكية الخالصة لأى شىء فى هذا الكون، أتبع ذلك بنفى ملكيتهم لشىء ولو على سبيل المشاركة ، فقال - تعالى - : ﴿ وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ .

أى : أن هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لله - تعالى - فى العبادة ، لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون ملكية خاصة، ولا يملكون شيئا ما - أيضا - على سبيل المشاركة لغيرهم. وليس لله -

تعالى - أحد يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجاد أو إعدام، بل الأمر كله إليه وحده .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نفت عن تلك الآلهة المزعومة، ملكية أى شىء فى هذا الكون، سواء أكانت ملكية خالصة، أم ملكية على سبيل المشاركة، وأثبتت أن المالك والمتصرف فى هذا الكون إنما هو الله - تعالى - وحده، دون أن يكون فى حاجة إلى عون من تلك الآلهة أو من غيرها .

ثم نفى - سبحانه - أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه - تعالى - فقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

والشفاعة : من الشفع الذى هو ضد الوتر - أى : الفرد - ، ومعناها : انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ما يمكن دفعه من ضر .

أى : ولاتنفع الشفاعة عند الله - تعالى - من أحد لأحد، إلا لمن أذن الله - تعالى - له فى ذلك .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد نفى شفاعة الأصنام لعابديها، لكنه - سبحانه - ذكر ذلك على وجه عام، ليكون طريقا برهانيا . أى : لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال، أوكائنة لمن كانت، إلا كائنة لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة . ومن البين أنه لا يؤذن فى الشفاعة للكفار، فقد قال - تعالى - : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب، وعدم الإذن للأصنام أبين وأبين، فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها بالكلية ...[1] .

وقوله : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق .. ﴾ بيان لما يكون عليه المنتظرون للشفاعة، من لهفة وقلق .

والتضعيف فى قوله ﴿ فُزِّع ﴾ للسلب . كما فى قولهم : مَرَّضت المريض إذا عملت على إزالة مرضه .

فمعنى : ﴿ فزع عن قلوبهم ﴾ : كشف الفزع عنها، وهدأت أحوالها بعد أن أصابها ما أصابها من هول وخوف فى هذا اليوم الشديد، وهو يوم القيامة .

و ﴿ حتى ﴾ غاية لما فهم من الكلام قبلها، من أن هناك تلهفا وترقبا من الراجين للشفاعة ومن الشفعاء، إذ الكل منتظر بقلق لما يؤول إليه أمره من قبول الشفاعة أو عدم قبولها .

والمعنى : ولا تقبل الشفاعة يوم القيامة من أحد إلا لمن أذن الله - تعالى - له فى ذلك، وفى

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٣٦ .

هذا اليوم الهائل الشديد، يقف الناس فى قلق ولهفة منتظرين قبول الشفاعة فيهم . حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم، بسبب إذن الله - تعالى - فى قبولها ممن يشاء ولمن يشاء، واستبشر الناس وقال بعضهم لبعض، أو قالوا للملائكة : ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ أى : ماذا قال ربكم فى شأننا ومصيرنا .

وهنا تقول لهم الملائكة، أو يقول بعضهم لبعض : ﴿ قالوا الحق ﴾ أى : يقولون قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعة لمن ارتضى .

فلفظ ﴿ الحق ﴾ منصوب بفعل مضمر . أى : قالوا قال ربنا الحق أو صفة لموصوف محذوف . أى : قالوا : قال ربنا القول الحق .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ العلى ﴾ أى : المتفرد بالعلو فوق خلقه ﴿ الكبير ﴾أى : المتفرد بالكبرياء والعظمة .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله -: فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾، ولأى شىء وقعت حتى غاية ؟ .

قلت : اتصل بما فهم من هذا الكلام، من أن ثم انتظارا للإذن، وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أولا ؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملىٍّ من الزمان، وطول التربص ...

كأنه قيل : ينتظرون ويتوقفون كليا فزعين وهلين، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم، بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن : تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ﴿ماذا قال ربكم، قالوا﴾ قال ﴿ الحق ﴾ أى : القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ..[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يسألهم للمرة الثانية على سبيل التنبيه والتوبيخ، من الذى يملك أن يرزقهم، فقال - سبحانه -: ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض .. ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره، ويرزقكم من الأرض بالنباتات والمعادن وغير ذلك من المنافع .

وقوله - تعالى -: ﴿ قل الله ﴾ جواب على هذا السؤال، وهو جواب لا يملكون إلا الاعتراف به .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٠ .

أى : قل لهم منبها ولافتا أنظارهم إلى ما هم فيه من جهل : الله وحده هو الذى يرزقكم بما لا يحصى من الأرزاق التى بعضها من السموات، وبعضها من الأرض .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ داخل فى حيز الأمر السابق، ولكن بأسلوب فيه ما فيه من الحكمة والتلطف، ومن حمل المخاطب على التفكر والتدبر حتى يعود إلى الرشد والصواب .

أى : وقل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - لقد علمتم - يا معشر المشركين أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده، لأنه هو الذى خلقكم ورزقكم من السموات والأرض ...

وإن أحدنا لابد أن يكون على الهدى والآخر على الضلال . وسنترك تحديد من هو المهتدى ومن هو الضال لعقولكم وضمائركم .

وستعلمون - علم اليقين - بعد التفكر والتدبر أننا نحن المسلمين على الحق، وأنتم يا معشر المشركين على الباطل ..

فالجملة الكريمة لون من ألوان الدعوة إلى الله - تعالى - بأسلوب مهذب حكيم، من شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق، إلى الاستسلام له، والدخول فيه ..

قال القرطبى : وقوله : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة، كما يقول القائل لغيره : أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب ، والمعنى : مانحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن، والآخر ضال وهو أنتم، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب .

والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالله الذى يرزقكم من السموات والأرض ...[1] .

وقوله : ﴿ أو إياكم ﴾معطوف على اسم إن، وخبرها هو المذكور .وحذف خبر الثانى للدلالة عليه .

أى : وإنا لعلى هدى أو فى ضلال مبين، وإنكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الكرم الحكيم فى الدعوة إلى الحق، بكلام لا يقل عنه حكمة وبلاغة فقال : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أى : وقل لهم للمرة الثالثة - أيها الرسول الكريم - أنتم - أيها المشركون - لا تسألون يوم القيامة عن إجرامنا فى حق أنفسنا - إن كنا قد أجرمنا وأخطأنا فى حقها - ، ونحن - أيضا - لا يسألنا الله - تعالى -

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٨ .

عن سبب بقائكم فى الكفر وفى الأعمال السيئة، لأننا قد بلغناكم رسالة ربكم - عزوجل -، ونصحناكم بالإقلاع عن الشرك والمعاصى.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -، ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل، وأنا برىء مما تعملون ﴾[1].

ثم أمره - سبحانه - أن يذكرهم بيوم القيامة وما فيه من حساب دقيق، فقال: ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾.

أى: وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الله - تعالى - بقدرته سيجمعنا وإياكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا جميعا بحكمه العادل، وهو - سبحانه - ﴿ الفتاح العليم ﴾ أى: الحاكم فى كل أمر بالحكم الحق، المطلع على جميع أحوال عباده.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتوجيه رسوله - ﷺ - إلى أن يقول لهم قولا يخرس به ألسنتهم، ويبطل حججهم فقال: ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء ﴾ والرؤية هنا بصرية. ومفعولها الأول الياء، ومفعولها الثانى الاسم الموصول، ولفظ شركاء: حال.

أى: وقل لهم - أيضا - للمرة الخامسة على سبيل إلزامهم الحجة: أرونى وأطلعونى على أصنامكم التى ألحقتموها بالله - تعالى - فى العبادة، واتخذتموها شركاء له فى الطاعة ... إنها ما هى إلا أشياء لا تضر ولا تنفع، وأنتم تعرفون ذلك عنها، وها هى أمامكم واقعها وحالها ينبئ بعجزها التام، فكيف أشركتموها مع الله - تعالى - فى العبادة والطاعة ؟

فالمقصود من الرؤية إشهادهم على عجزها، وتبكيتهم على جهالاتهم، وحضهم على نبذ الشركاء، وإخلاص العبادة لله الواحد القهار.

ويحتمل أن تكون الرؤية هنا علمية، فيكون لفظ ﴿ شركاء ﴾ هو المفعول الثالث.

أى: عرفونى الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله - تعالى - فى العبادة.

ثم زجرهم - سبحانه - عن هذا الضلال فقال: ﴿ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى: كلا ليس الأمر كما زعمتم من أن لله - تعالى - شركاء، بل هو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله.

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد لقنت النبى - ﷺ - الحجج التى يرد بها على المشركين، والتى من شأنها أن تحملهم على اعتناق الحق، واجتناب الباطل، لو كانوا يعقلون.

---

(١) سورة يونس الآية ٤١.

ثم بين - سبحانه - وظيفة الرسول - ﷺ - ورد على شبهات المشركين فقال:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قال الآلوسى: المتبادر أن ﴿ كافة ﴾ حال من الناس، قدم « إلا » عليه للاهتمام؛ وأصله من الكف بمعنى المنع، وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج، واشتهر فى ذلك حتى قطع فيه النظر عن معنى المنع بالكلية. فمعنى جاء الناس كافة: جاءوا جميعا ..

قال ابن عباس: أرسل الله - تعالى - محمدا - ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله - تعالى - أطوعهم له .. ..[1].

أى: وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا إلى الناس جميعا، لتبشر المؤمن منهم بحسن الثواب، وتنذر من أعرض عن الحق الذى جئت به بسوء العقاب. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ هذه الحقيقة، وهى عموم رسالتك وكونك بشيرا ونذيرا.

﴿ ويقولون ﴾ أى: المشركون على سبيل الاستهزاء بما جئتهم به ﴿ متى هذا الوعد ﴾ الذى تعدنا به وهو قيام الساعة، وما فيها من حساب وثواب وعقاب.

أخبرونا عنه - أيها المؤمنون - ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تحدثوننا عنه، وفيما تدعوننا إليه من إيمان.

وهنا أمر الله تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم ردا فيه كل معانى التهديد والوعيد فقال: ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ و ﴿ ميعاد ﴾ يجوز أن يكون مصدرا مرادا به الوعد، وأن يكون اسم زمان، والإضافة للبيان.

والمراد بالساعة الوقت الذى هو فى غاية القلة. وليس ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة.

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤١.

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تتعجلوا - أيها الكافرون - ما أخبرتكم عنه من أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، ومن أن العاقبة الطيبة ستكون لنا لا لكم ؛ فإن لكم ميقاتا محددا ، وموعدا معلوما ، عندما يأذن الله - تعالى - بحلوله وبانتهاء حياتكم وببعثكم ...

﴿ لا تستأخرون عنه ساعة ﴾ من الزمان ﴿ ولا تستقدمون ﴾ عنه ساعة كما قال - تعالى - : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لوكنتم تعلمون ﴾[1] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾[2] .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى شأن القرآن الكريم ، وصور أحوالهم السيئة يوم العرض والحساب ، وكيف أن كل فريق منهم صار يلقى التبعة على غيره ، قال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

(١) سورة نوح الآية ٤ .

(٢) سورة هود الآيتان ١٠٤ - ١٠٥ .

والمراد بالذى بين يديه فى قوله – تعالى – : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه .. ﴾ : الكتب السماوية السابقة كالتوراةوالإنجيل .

قالوا : وذلك لأن المشركين سألوا بعض أهل الكتاب ، عن الرسول – ﷺ – فأخبروهم بأن صفاته فى التوراة والإنجيل ، فغضبوا وقالوا ما قالوا ..[1] .

أى : وقال الذين كفروا بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذى جئت به يا محمد – ﷺ – من عند ربك ، ولا نؤمن – أيضا – بالكتب السماوية الأخرى التى تؤيد أنك رسول من عند الله – تعالى – فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل ، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره .

قال الإمام الرازى : لما بين – سبحانه – الأمور الثلاثة ، من التوحيد والرسالة والحشر ، وكانوا بالكل كافرين، بيّن كفرهم العام بقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه ﴾ وقوله : ﴿ ولا بالذى بين يديه ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ، المشركون المنكرون للنبوات والحشر .

ويحتمل أن يكون المعنى : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بما فيه من الأخبار والآيات والدلائل فيكون المراد بالذى بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار وأحكام – ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بما فيهم أهل الكتاب لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه[2] .

وقوله – تعالى – : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ بيان لأحوالهم السيئة يوم القيامة ، ولإصرارهم على الكفر .

و ﴿ لو ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول ﴿ ترى ﴾ محذوف أيضا و ﴿ موقوفون ﴾ أى محبوسون للحساب يوم القيامة .

يقال : وقفت الرجل عن فعل هذا الشىء ، إذا منعته وحجزته عن فعله .

أى: ولو ترى – أيها المخاطب – حال الظالمين وقت احتباسهم عند ربهم يوم القيامة، وهم يتحاورون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره .

لو ترى ذلك لرأيت أمرا عجيبا ، وحالا فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى – بتصرف وتلخيص جـ ٧ ص ١٨ .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ موقوفون ﴾ يشعر بذلتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحساب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم فى سجنه انتظارا لمصيره السئ .

وقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ تبكيت وتوبيخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من إنكار لليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ تفصيل لجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يراجعون فيه القول بعضهم مع بعض .

والمراد بالذين استضعفوا : الأتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء .

أى : يقول الأتباع من الكافرين لقادتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة : لولا أنتم منعتمونا عن اتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول - ﷺ - .

إنهم يقولون لهم فى موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا عاجزين عن قوله فى الدنيا . عندما كانوا مستذلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم .

وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق ، ويحكى ذلك القرآن فيقول : ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ كلا ، إننا ما فعلنا ذلك ، ولسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين اتباع الحق .

﴿بل ﴾ أنتم الذين ﴿ كنتم مجرمين ﴾ فى حق أنفسكم ، حيث اتبعتمونا باختياركم ، ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكر أو تدبر للأمور .

ولم يقتنع الأتباع بما رد به عليهم السادة والكبراء ، بل حكى القرآن للمرة الثانية ردهم عليهم فقال : ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ﴾ فى الرد عليهم بحسرة وألم : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ أى قالوا لهم أنتم لستم صادقين فى قولكم لنا : إنكم لم تصدونا عن اتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار وإغراءكم لنا بالبقاء على الكفر . وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم ، وأمركم لنا بأن نكفر بالله - تعالى - ونجعل له أندادا ، أى شركاء فى العبادة والطاعة . كل ذلك هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق الذى جاءنا به الرسول - ﷺ - .

والمكر : هو الاحتيال والخديعة . يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه وأراد به شرا .

وهو هنا فاعل لفعل محذوف والتقدير : بل الذى صدنا عن الإيمان مكركم بنا فى الليل

والنهار ، فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا .

وقوله : ﴿ إذ تأمروننا .. ﴾ ظرف للمكر . أى : بل مكركم الدائم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه - تعالى - هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق والهدى .

قال الجمل : وقوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ يجوز رفع ﴿ مكر ﴾ من ثلاثة أوجه : أحدها : على الفاعلية بتقدير : بل صدنا مكركم فى هذين الوقتين ، الثانى ان يكون مبتدأ خبره محذوف . أى : مكر الليل صدنا عن اتباع الحق . الثالث : العكس ، أى : سبب كفرنا مكركم . وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازى كقولهم : ليل ماكر ، فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه وإما على الاتساع فى الظرف ، فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه[1] .

والضمير المرفوع فى قوله - سبحانه - : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ يعود إلى الأتباع والزعماء . وأسروا من الإسرار بمعنى الكتمان والإخفاء .

أى : وأضمر الذين استضعفوا والمستكبرون الندامة والحسرة حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشدهوا حين عاينوه ، ودفنت الكلمات فى صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من الكمد الذى يجعل الشفاه لا تتحرك ، والألسنة لا تنطق .

فالمقصود من إسرار الندامة : بيان عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظاعة ما شهدوه من عذاب غليظ قد أعد لهم .

وقيل إن ﴿ أسروا الندامة ﴾ بمعنى أظهروها : لأن لفظ أسر من الأضداد .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وأسروا ﴾ أى : أضمر الظالمون من الفريقين ﴿ الندامة ﴾ على ما كان منهم فى الدنيا .. ﴿ لما رأو العذاب ﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق .

وقيل : أسروا الندامة . بمعنى أظهروها ، فإن لفظ « أسر » من الأضداد ، إذ الهمزة تصلح للإثبات وللسلب ، فمعنى أسره : جعله سره ، أو أزال سره ..[2] .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : ﴿ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٧٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤٦ .

والأغلال . جمع غل وهى القيود التى يقيد بها المجرمون .

أى : وجعلنا القيود فى أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان تابعا أم متبوعا . وما جزيناهم بهذا الجزاء المهين الأليم ، إلا بسبب أعمالهم السيئة . وأقوالهم القبيحة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصويرا مؤثرا بديعا ، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون احترام من المستضعفين لزعمائهم الذين كانوا يذلونهم فى الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التى كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم فى الحياة الدنيا ، وأصبح الجميع يوم الحساب فى الذلة سواء ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من الأقوال الزائفة ، التى كان المترفون يتذرعون بها للبقاء على كفرهم ، ومن الإجابات التى لقنها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - لكى يخرس بها ألسنتهم ، ويزيل بها شبهاتهم قال - تعالى - :

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ
ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ... ﴾ : هذه تسلية لرسول الله - ﷺ - مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به ، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد ، والتكبر بذلك على المؤمنين .. وأنه - سبحانه - لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير ، إلا قالوا له مثل ما قال أهل مكة لرسول الله - ﷺ - .[1] .

والمعنى : وما أرسلنا فى قرية ، من القرى ﴿ من نذير ﴾ ينذر أهلها بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم . ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أى : إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها المتسعون فى النعم فيها ، لمن جاءوا لإنذارهم وهدايتهم إلى الحق .

﴿ إنا بما أرسلتم به ﴾ من الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - ﴿ كافرون ﴾ وبما نحن عليه من شرك وتقليد للآباء مؤمنون .

فالآية الكريمة تحكى موقف المترفين فى كل أمة ، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، وأن هؤلاء المترفين فى كل زمان ومكان ، كانوا أعداء للأنبياء وللمصلحين ، لأن الترف من شأنه أن يفسد الفطرة ، ويبعث على الغرور والتطاول ، ويحول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا ، ويهدى إلى الانغماس فى الرذائل والشهوات الدنيا .

ثم يحكى القرآن الكريم أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم ، وتكذيبهم للأنبياء والمصلحين ، بل أضافوا إلى ذلك التبجح والتعالى على المؤمنين . فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا ﴾ أى المترفون الذين أبطرتهم النعمة للمؤمنين الفقراء ﴿ نحن أكثر أموالا وأولادا ﴾ منكم - أيها المؤمنون - ، إذ أموالنا أكثر من أموالكم ، وأولادنا أكثر من أولادكم ، ولولا أننا أفضل عند الله منكم ، لما أعطانا . مالا يعطيكم ...

فنحن نعيش حياتنا فى أمان واطمئنان ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ بشىء من العذاب الذى تعدوننا به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : افتخر المترفون - بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال - تعالى - : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠٩ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يصحح لهؤلاء المترفين خطأهم ، وأن يكشف لهم عن جهلهم ، وأن يبين لهم أن مسألة الغنى والفقر بيد الله - تعالى - وحده ، وأن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى أو للفقر ، وإنما يتبعان الإيمان أو الكفر ، فقال - تعالى - ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبسط الرزق : سعته وكثرته . وتقديره : تقليله وتضييقه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ﴿ إن ربى ﴾ وحده هو الذى ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ ويقدر ﴾ أى : ويقتر الرزق ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه . والأمر فى كلتا الحالتين مرده إلى الله - تعالى - وحده ، على حسب ما تقتضيه حكمته فى خلقه .

وربما يوسع رزق العاصى ويضيق رزق المطيع . أو العكس ، وربما يوسع على شخص فى وقت ويضيق عليه فى وقت آخر ، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب ، لأن مناطهما الطاعة وعدمها .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ هذه الحقيقة التى اقتضتها حكمة الله - تعالى - وإرادته ، فزعموا أن بسط الرزق دليل الشرف والكرامة ، وأن ضيق الرزق دليل الهوان والذل ، ولم يدركوا - لجهلهم وانطماس بصائرهم - أن بسط الرزق قد يكون للاستدراج ، وأن تضييقه قد يكون للابتلاء والاختبار ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

ثم زاد - سبحانه - هذه القضية توضيحا وتبيينا فقال : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾ .

الزلفى : مصدر كالقربى ، وانتصابه على المصدرية من معنى العامل . أى ليست كثرة أموالكم ، ولا كثرة أولادكم بالتى من شأنها أن تقربكم إلينا قربى ، لأن هذه الكثرة ليست دليل محبة منا لكم ، ولا تكريم منا لكم ، وإنما الذى يقربكم منا هو الإيمان والعمل الصالح .

كما وضح - سبحانه - هذه الحقيقة فى قوله بعد ذلك : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ .

أى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المترفون - من أن كثرة الأموال والأولاد ستنجيكم من العذاب ، ولكن الحق والصدق أن الذى ينجيكم من ذلك ويقربكم منا ، هو الإيمان والعمل الصالح . فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله - تعالى - الجزاء الحسن المضاعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون مطمئنون .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ هو استثناء منقطع فيكون محله النصب . أى : لكن من آمن وعمل صالحا .. والإشارة بقوله : ﴿ فأولئك ﴾ إلى ﴿ مَنْ ﴾ والجمع باعتبار المعنى . وهو مبتدأ . وخبره ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أى : فأولئك يجازيهم الله الضعف ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول . أو فألئك لهم الجزاء المضاعف فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة ..[١] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المصرين على كفرهم فقال : ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ، أولئك فى العذاب محضرون ﴾ .

أى : والذين يسعون فى إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، ﴿ معاجزين ﴾ .

أى : زاعمين سبقهم لنا ، وعدم قدرتنا عليهم ﴿ أولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ فى العذاب محضرون ﴾ أى : فى عذاب جهنم مخلدون ، حيث تحضرهم ملائكة العذاب بدون شفقة أو رحمة ، وتلقى بهم فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ تأكيد وتقرير لتلك الحقيقة التى سبق الحديث عنها ، وهى أن التوسع والتضييق فى الرزق بيد الله - تعالى - وحده .

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ له ﴾ يعود إلى الشخص الموسع عليه أو المضيق عليه فى رزقه . أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المترفين على سبيل التأكيد وإزالة ما هم عليه من جهل : إن ربى - عز وجل - يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيق هذا الرزق على من يشاء أن يضيقه منهم ، وليس فى ذلك ما يدل على السعادة أو الشقاوة ، لأن هذه الأمور خاضعة لحكمته فى خلقه - سبحانه - .

﴿ وما أنفقتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ من شىء ﴾ فى سبيل الله - تعالى - وفى أوجه طاعته ﴿ فهو ﴾ - سبحانه - ﴿ يخلفه ﴾ أى : يعوضه لكم بما هو خير منه . يقال : فلان أخلف لفلان وأخلف عليه ، إذا أعطاه العوض والبدل .

﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أى : وهو - سبحانه - خير رازق لعباده لأن كل رزق يصل إلى الناس إنما هو بتقديره وإرادته ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يزيد الأسخياء من فضله وكرمه .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «مامن يوم يصبح العباد فيه،

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٣٠ .

إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانبا من شبهات المشركين ، ومن أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يزهق باطلهم ، ويمحو شبهاتهم ، لكى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم .

ثم بين - سبحانه - حال أولئك المشركين يوم القيامة ، وكيف أن الملائكة يكذبونهم فى مزاعمهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ﴿ يوم يحشرهم جميعا ﴾ أى : يجمع الله - سبحانه - الكافرين جميعا . الذين استضعفوا فى الدنيا والذين استكبروا .

﴿ ثم يقول ﴾ - عز وجل - ﴿ للملائكة ﴾ على سبيل التبكيت والتقريع للمشركين ﴿ أهؤلاء ﴾ الكافرون ﴿ كانوا إياكم يعبدون ﴾ أى : أهؤلاء كانوا يعبدونكم فى الدنيا . وأنتم رضيتم بذلك .

و ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، وخبره « كانوا يعبدون » و ﴿ إياكم ﴾ مفعول يعبدون .

وتخصيص الملائكة بالخطاب مع أن من الكفار من كان يعبد الأصنام ، ومن كان يعبد غيرها ، لأن المقصود من الخطاب حكاية ما يقوله الملائكة فى الرد عليهم .

قال صاحب الكشاف : هذا الكلام خطاب للملائكة . وتقريع للكفار وارد على المثل السائر : إياك أعنى واسمعى يا جارة ، ونحوه قوله - تعالى - لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى ، منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون التقريع

للمشركين أشد ، والتعبير أبلغ ، وهوانهم ألزم .[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ حكاية لأقوال الملائكة .

أى : قال الملائكة فى الإجابة على سؤال خالقهم . ﴿ سبحانك ﴾ أى : ننزهك ونقدسك عن أن يكون لك شريك فى عبادتك وطاعتك ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أى : أنت الذى نواليك ونتقرب إليك وحدك بالعبادة ، وليس بيننا وبين هؤلاء المشركين أى موالاة أو قرب ، ولا دخل لنا فى عبادتهم لغيرك .

ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فى الدنيا فقالوا : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾.

أى : إن هؤلاء المشركين لا علم لنا بأنهم كانوا يعبدوننا ، ونبرأ من ذلك إن كانوا قد عبدونا ، وهم إنما كانوا يعبدون فى الدنيا ﴿ الجن ﴾ أى الشياطين ، وكان أكثر هؤلاء المشركين يؤمنون بعبادة الشياطين ، ويطيعونهم فيما يأمرونهم به ، أو ينهونهم عنه .

فقوله - تعالى - ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ إضراب انتقالى ، لبيان السبب فى شرك هؤلاء المشركين ، وتصريح بمن كانوا يعبدونهم فى الدنيا .

قال الجمل : فإن قيل جميعهم كانوا متابعين للشياطين ، فما وجه قوله - تعالى - ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ فإنه يدل على أن بعضهم لم يؤمن بالجن ولم يطعهم ؟

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم ، فقالوا أكثرهم ، لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ، ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة على حاله من الكفار .

الثانى : هو أن العبادة عمل ظاهر ، والإيمان عمل باطن ، فقالوا : بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم ، وقالوا : أكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب ، لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على مافى القلوب ، فإن القلب لا يطلع على مافيه إلا الله[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الملك فى يوم الحساب له وحده فقال : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ .

أى : فاليوم لايملك أحد من المعبودين أن ينفع أحدا من العابدين ، أو أن يضره ، بل الذى يملك كل ذلك هو الله - تعالى - وحده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٧ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٧٨ .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن مرد النفع والضر فى هذا اليوم إلى الله - تعالى - وحده ، فالعابدون لا يملكون شيئا ، والمعبودون كذلك لا يملكون شيئا .

﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أى : ونقول فى هذا اليوم الهائل الشديد للذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق بعبادتهم لغيرنا ، نقول لهم ﴿ ذوقوا ﴾ فظاعة وشدة عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، وتنكرون أن يكون هناك بعث أو حساب أو ثواب أو عقاب .

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من أقوال هؤلاء المشركين فى شأن النبى - ﷺ - وفى شأن القرآن الكريم ، وتهددهم بسوء المصير إذا استمروا فى طغيانهم وجهلهم فتقول :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

وقوله : ﴿ تتلى ﴾ من التلاوة ، وهى قراءة الشىء بتدبر وتفهم .

أى : وإذا ما تليت آياتنا الدالة دلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق رسولنا - ﷺ - فيما يبلغه عنا .

﴿ قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ أى : قالوا على سبيل الإنكار والاستهزاء ، ما هذا التالى لتلك الآيات إلا رجل يريد أن يمنعكم عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤكم الأقدمون .

ويعنون بقولهم « ما هذا إلارجل »: الرسول - ﷺ - ويقصدون بالإشارة إليه ، الاستخفاف به ، والتحقير من شأنه - ﷺ - .

وقالوا : ﴿ يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ لإثارة حمية الجاهلية فيهم فكأنهم يقولون لهم : احذروا اتباع هذا الرجل ، لأنه يريد أن يجعلكم من أتباعه ، وأن يقطع الروابط التى تربط بينكم وبين آبائكم الذين أنتم قطعة منهم .

ولم يكتفوا بالتشكيك فى صدق الرسول - ﷺ - بل أضافوا إلى ذلك التكذيب للقرآن الكريم ، ويحكى - سبحانه - ذلك فيقول : ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ .

أى : وقالوا فى شأن القرآن الكريم : ما هذا الذى يتلوه محمد - ﷺ - علينا ، إلا ﴿ إفك ﴾ أى : كلام مصروف عن وجهه ، وكذب فى ذاته ﴿ مفترى ﴾ أى : مختلق على الله - تعالى - من حيث نسبته إليه .

فقوله ﴿ مفترى ﴾ صفة أخرى وصفوا بها القرآن الكريم ، فكأنهم يقولون - قبحهم الله - ماهذا القرآن إلا كذب فى نفسه ، ونسبته إلى الله - تعالى - ليست صحيحة .

ثم أضافوا إلى تكذيبهم للرسول - ﷺ - وللقرآن ، تكذيبا عاما لكل ما جاءهم به الرسول من حق ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ، إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

أى : وقال الكافرون فى شأن كل حق جاءهم به الرسول - ﷺ - : ما هذا الذى جئتنا به إلا سحر واضح .

وهكذا نراهم - لعنادهم وجهلهم - قد كذبوا الرسول - ﷺ - وكذبوا القرآن . وكذبوا كل توجيه قويم ، وإرشاد حكيم ، أرشدهم إليه - ﷺ - إذ اسم الإشارة الأول يعود إلى الرسول - ﷺ - والثانى يعود إلى القرآن ، والثالث يعود إلى تعاليم الإسلام كلها .

ثم بين - سبحانه - أن أقوالهم هذه لا تستند إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون ، فقال - تعالى - : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ .

أى : أن هؤلاء الذين قالوا ما قالوا من باطل وزور ، لم نأتهم بكتب يدرسونها ويقرءونها ليعرفوا منها أن الشرك حق ، فيكون لهم عذرهم فى التمسك به ، وكذلك لم نرسل إليهم قبلك - أيها الرسول الكريم - نذيرا يدعوهم إلى عبادة الأصنام ، ويخوفهم من ترك عبادتها .

وما دام الأمر كذلك ، فمن أين أتوا بهذا التصميم على شركهم ، وبهذا الإنكار للحق الذى

جاءهم ؟ إن أمرهم هذا لهو فى غاية الغرابة والعجب .

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيلهم والتهكم بهم ، ونفى أن يكون عندهم حتى ما يشبه الدليل على صحة ما هم فيه من شرك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ﴾ .

ثم بين لهم - سبحانه - بعد ذلك هوان أمرهم . وتفاهة شأنهم بالنسبة لمن سبقوهم ، فقال : ﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير ﴾ .

والمعشار بمعنى العشر وهو لغة فيه . تقول : عندى عشر دينار ومعشار دينار ، قال أبو حيان : والمعشار مفعال من العشر ، ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع . ومعناهما : العشر والربع ..[1] .

والضمير فى قوله ﴿ وما بلغوا ﴾ يعود لكفار مكة ، وقوله : ﴿ ما آتيناهم ﴾ وفى قوله : ﴿ فكذبوا رسلى ﴾ يعود إلى الأمم السابقة .

والنكير : مصدر كالإنكار ، وهو من المصادر التى جاءت على وزن فعيل .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لتكذيب قومك لك ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم ، وإن قومك لم يبلغوا من القوة والغنى والكثرة .. عشر ما كان عليه سابقوهم ، ولكن لما كذب أولئك السابقون أنبياءهم ، أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم جميعا .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للتهويل . والجملة الكريمة معطوفة على مقدر والمعنى : فحين تمادوا فى تكذيب رسلى ، جاءهم انكارى بالتدمير ، فكيف كان إنكارى عليهم بالتدمير والاهلاك ؟ لقد كان شيئا هائلا فظيعا تركهم فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، فعلى قومك أن يحذروا من أن يصيبهم مثله .

وجعل - سبحانه - التدمير إنكارا ، تنزيلا للفعل منزلة القول ، كما فى قول بعضهم : ونشتم بالأفعال لابالتكلم .

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ﴿ وما بلغوا ﴾ يعود على الذين من قبلهم ، وفى قوله ﴿ آتيناهم ﴾ يعود إلى كفار مكة .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٧ ص ٢٩٠ .

وقد رجح الامام الرازى هذا الرأى فقال ما ملخصه : قال المفسرون : معنى الآية : مابلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين .. ثم إن الله أخذ هؤلاء المتقدمين ،دون أن تنفعهم قوتهم ، لما كذبوا رسلهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء - وهم قومك .

ثم قال - رحمه الله - : وعندى وجه آخر فى معنى الآية ، وهو أن يقال : وكذب الذين من قبلهم ، ومابلغوا معشار ماآتيناهم ، أى : الذين من قبلهم مابلغوا معشار ماآتينا قومك من البيان والبرهان . وذلك لأن كتابك يامحمد أكمل من سائر الكتب .

فإذا كنت قد أنكرت على المتقدمين لما كذبوا رسلهم - مع أنهم لم يؤتوا معشار ماأوتى قومك من البيان - ، فكيف لاأنكر على قومك بعد تكذيبهم لأوضح الكتب ، وأفصح الرسل ..[١]

ويبدو لنا أن المعنى الأول الذى عبر عنه الإمام الرازى بقوله : قال المفسرون ، هو الأرجح لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ، لأنه يفيد التقليل من شأن مشركى مكة ، بالنسبة لمن سبقهم من الأمم ، من ناحية القوة والغنى .

وفى القرآن الكريم آيات متعدده تؤيد هذا المعنى ، منها قوله - تعالى - : ﴿ أولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢] .

وبعد هذا الحديث عن أقوال المشركين فى شأن الرسول - ﷺ - وفى شأن القرآن .. وبعد هذا الرد الملزم لهم ، والمزهق لباطلهم . بعد كل ذلك لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الحجج القاطعة ، والأقوال الحكيمة ، التى تهدى إلى الرشد بأبلغ أسلوب ، وأصدق بيان ، فقال - تعالى - :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٤ .

(٢) سورة الروم . الآية ٩ .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾
قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

وقوله - تعالى - ﴿ أعظكم ﴾ من الوعظ ، وهو تذكير الغير بالخير والبر بكلام مؤثر رقيق يقال : وعظه يعظه وعظا وعظة ، إذا أمره بالطاعة ووصاه بها .

وقوله ﴿ بواحدة ﴾ صفة لموصوف محذوف .

والتقدير : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا الكذب فى شأنك وفى شأن ماجئت به ، قل لهم : إنما أعظكم وآمركم وأوصيكم بكلمة واحدة ، أو بخصلة واحدة .

ثم فسر - سبحانه - هذه الكلمة بقوله : ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ . والمراد بالقيام هنا : التشمير عن ساعد الجد ، وتلقى ماجاءهم به الرسول - ﷺ - بقلب مفتوح . وعقل واع ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد .

و ﴿ مثنى وفرادى ﴾ أى : متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، وهما منصوبان على الحال .

﴿ ثم تتفكروا ﴾ بعد ذلك فى أمر هذا الرسول - ﷺ - وفى أمر رسالته ، وفى أمر ماجاء به من عند ربه ، فعند ذلك ترون أنه على الحق ،وأنه قد جاءكم بما يسعدكم .

فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل اثنين بموضوعية وإنصاف فى أمر الرسول - ﷺ - ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة تفكيره على صاحبه ، وأن يفكر كل واحد منهم على انفراد - أيضا فى شأن هذا الرسول ، من غير تعصب وهوى .

وقدم الاثنين فى القيام على المنفرد ، لأن تفكير الاثنين فى الأمور بإخلاص واجتهاد وتقدير ، أجدى فى الوصول إلى الحق من تفكير الشخص الواحد ولم يأمرهم بأن يتفكروا فى جماعة ، لأن العقلية الجماعية كثيرا ماتتبع الانفعال الطارىء ، وقلما تتريث فى الحكم على الأمور .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها ، أصبتم الحق ، وتخلصتم من الباطل - ، وهى : أن تقوموا لوجه الله خالصا ، متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، ﴿ ثم تتفكروا ﴾ فى أمر محمد - ﷺ - وما جاء به .

أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لايميل بهما اتباع هوى ، ولاينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح على جادة الحق .

وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم . والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى ، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول . ومع ذلك يقل الانصاف ويكثر الاعتساف : ويثور عجاج التعصب[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مابصاحبكم من جنة ﴾ كلام مستأنف جىء به لتنزيه ساحته - ﷺ - عما افتراه عليه المفترون من كونه قد أصيب بالجنون .

أى : اجتمعوا اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا ، ثم تفكروا بإخلاص وروية فترون بكل تأكيد أن محمدا - ﷺ - ليس به شىءمن الجنون ، إنما هو أرجح الناس عقلا ، وأصدقهم قولا ، وأفضلهم علما ، وأحسنهم عملا ، وأزكاهم نفسا ، وأنقاهم قلبا ، وأجمعهم لكل كمال بشرى .

وقوله - تعالى - ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ بيان لوظيفته - ﷺ - أى : ليس به - ﷺ - من جنون ، وإنما هو نذير لكم ، يحذركم ويخوفكم من العذاب الشديد الذى سينزل بكم يوم القيامة ، إذا مابقيتم على شرككم وكفركم ، وهذا العذاب ليس بعيدا عنكم .

قال الإمام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس أتدرون مامثلى ومثلكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : « إنما مثلى ومثلكم كمثل قوم خافوا عدوا يأتيهم . فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه وقال : أيها الناس أوتيتم . أيها الناس أوتيتم ... »

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٠ .

وبهذا الاسناد قال رسول الله - ﷺ - : بعثت أنا والساعة جميعا ، إن كادت لتسبقنى »[١].

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يصارحهم بأنه لايريد منهم أجرا على دعوته إياهم إلى مايسعدهم فقال : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ،وهو على كل شىء شهيد ﴾ .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم . بعد أن دعوتهم إلى التفكير الهادئ ، المتأنى فى أمرك : إنى ماطلبت منكم أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق والخير ، وإذا فرض وطلبت فهو مردود عليكم . لأنى لاألتمس أجرى إلا من الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - على كل شىء شهيد ورقيب ، ولايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قال الآلوسى قوله : قل ماسألتكم من أجر ، أى : مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ﴿ فهو لكم ﴾ والمراد نفى السؤال رأسا ، كقولك لصاحبك إن أعطيتنى شيئا فخذه ، وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئا : فما شرطية . مفعول ﴿ سألتكم ﴾ وقوله ﴿ فهو لكم ﴾ الجواب -

وقيل هى موصولة ، والعائد محذوف ، ومن للبيان ودخلت الفاء فى الخبر لتضمنها معنى الشرط . أى : الذى سألتكموه من الأجر فهو لكم ، وثمرته تعود إليكم[٢] .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثالثة ، أن يبين لهم أنهم لاقدرة لهم على مجادلته أو محاربته ، لأن الله - تعالى - قد سلحه بما ينصره عليهم فقال : ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ﴾

وأصل القذف : الرمى بقوة وشدة والمراد به هنا : مايوحيه الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - من قرآن وتوجيهات وإلهامات ، والباء فى قوله ﴿ بالحق ﴾ للسببية .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن ربى يلقى الوحى إلى وإلى أنبيائه ، بسبب الحق الذى كلفهم بتبليغه إلى الناس ، وهو - سبحانه - وحده علام الغيوب .

قال الجمل : ماملخصه قوله : ﴿ يقذف بالحق ﴾ يجوز أن يكون مفعوله محذوفا ، لأن القذف فى الأصل الرمى ، وعبر به هنا عن الإلقاء . أى : يلقى الوحى إلى أنبيائه بالحق ، أى : بسبب الحق ، أو متلبسا الحق .

ويجوز أن يكون التقدير : يقذف الباطل بالحق ، كما قال - تعالى - ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٥٥ .

ويجوز أن يكون المعنى : قل إن ربى يقضى ويحكم بالحق ، بتضمين « يقذف » معنى يقضى ويحكم[١] .

ثم أمره - عز وجل - للمرة الرابعة أن يبين لهم أن باطلهم سيزول لامحالة وسينتهى أمره انتهاء لن تقوم له بعد قائمة فقال - تعالى - ﴿ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل ومايعيد ﴾

والإبداء : هو فعل الأمر ابتداء . والإعادة : فعله مرة أخرى ، ولايخلو الحى منهما ، فعدمهما كناية عن هلاكه . كما يقول : فلان لا يأكل ولا يشرب ، كناية عن هلاكه .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين ، لقد جاء الحق المتمثل فى دين الإسلام الذى أرسلنى به إليكم ربى ، ومادام الإسلام قد جاء ، فإن الباطل المتمثل فى الكفر الذى أنتم عليه ، قد آن له أن يذهب وأن يزول ، وأن لايبقى له إبداء أو إعادة ، فقد اندثر وأهيل عليه بالتراب إلى غير رجعة .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الخامسة أن يصارحهم بأنه مسئول أمام الله عما يرشدهم إليه ، وأنهم ليسوا مسئولين عن هدايته أو ضلاله ، فقال - تعالى - : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى .﴾

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الإرشاد والتنبيه ، إنى إن ضللت عن الصراط المستقيم ، وعن اتباع الحق ، فإنما إثم ضلالى على نفسى وحدها لا عليكم ، وإن اهتديت إلى طريق الحق والصواب ، فاهتدائى بسبب مايوحيه الله - تعالى - إلى من توجيهات حكيمة ، وإرشادات قويمة ، ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ سميع ﴾ لكل شىء ﴿ قريب ﴾ منى ومنكم .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة قد أمرت الرسول - ﷺ - خمس مرات ، أن يخاطب المشركين بما يقطع عليهم كل طريق للتشكيك فى شأن دعوته ، وبما يوصلهم إلى طريق الهداية والسعادة لو كانوا يعقلون :

وأخيرا نرى سورة « سبأ » تختتم بهذه الآيات ، التى تصور تصويرا مؤثرا ، حالة الكافرين عندما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب ، يعلوهم الهلع والفزع ، ويحال بينهم وبين مايشتهون ، لأن توبتهم جاءت فى غير أوانها ... قال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل جـ٣ ص ٤٨٠ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن
مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف . وكذلك مفعول ﴿ ترى ﴾ . والفزع : حالة من الخوف والرعب تعترى الإنسان عندما يشعر بما يزعجه ويخيفه . والفوت : النجاة والمهرب .

وهذا الفزع للكافرين يكون عند خروجهم من قبورهم للبعث والحساب ، أو عند قبض أرواحهم .

أى : ولو ترى - أيها العاقل - حال الكافرين ، وقت خروجهم من قبورهم للحساب ، وقد اعتراهم الفزع والهلع .. لرأيت شيئا هائلا ، وأمرا عظيما ...

وقوله « ﴿ فلا فوت ﴾ أى : فلا مهرب لهم ولا نجاة يومئذ من الوقوف بين يدى الله - تعالى - للحساب ، ولمعاقبتهم على كفرهم وجحودهم ...

وقوله : ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ معطوف على ﴿ فزعوا ﴾ أى : فزعوا دون أن ينفعهم هذا الفزع ، وأخذوا ليلقوا مصيرهم السيئ من مكان قريب من موقف الحساب .

قال الآلوسى : والمراد بذكر قرب المكان ، سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم ، وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله - عز وجل - ...»[1] .

﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أى : وقال هؤلاء الكافرون عندما رأوا العذاب المعد لهم فى الآخرة : آمنا بالله - تعالى - وبأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لا معبود بحق سواه ، وآمنا بهذا الدين الذى جاءنا به رسوله محمد - ﷺ - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ بيان لعدم انتفاعهم بما قالوه من إظهار الإيمان فى هذا الوقت .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٥٧ .

والتناوش : التناول . يقال : فلان ناش الشىء ينوشه نوشا إذا تناوله . ومنه قولهم : تناوشوا بالرماح ، أى : تناول بعضهم بعضًا بها .

أى : لقد قالوا بعد البعث آمنا بهذا الدين ، ومن أين لهم فى الآخرة تناول الإيمان والتوبة من الكفر ، وكان ذلك قريبًا منهم فى الدنيا فضيعوه ، وكيف يظفرون به فى الآخرة وهى بعيدة عن دار الدنيا التى هى محل قبول الإيمان .

فالجملة الكريمة تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد أن فات أوانه ، وأن هذا الطلب فى نهاية الاستبعاد كما يدل عليه لفظ ﴿ أنَّى ﴾ .

قال صاحب الكشاف : والتناوش والتناول أخوان . إلا أن التناوش تناول سهل لشىء قريب ...

وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى هذا الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة - أى : من مكان بعيد - ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه ... »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أى : قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق ، والحال أنهم قد كفروا به من قبل فى الدنيا ، عندما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله - ﷺ - .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ بيان لما كانوا عليه فى الدنيا من سفاهة فى القول ، وجرأة فى النطق بالباطل ، وفيما لا علم لهم به .

والعرب تقول لكل من تكلم فيما لا يعلمه : هو يقذف ويرجم بالغيب ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ .

أى : لقد كفروا بهذا الدين فى الدنيا ، وكانوا ينطقون بأقوال لا علم لهم بها ، وبينها وبين الحق والصدق مسافات بعيدة . فقد نسبوا إلى الله - تعالى - الولد والشريك ، ويقولون فى الرسول - ﷺ - إنه ساحر ... ، وفى شأن البعث : إنه لا حقيقة له ، وفى شأن القرآن : إنه أساطير الأولين .

فالمقصود بالآية تقريعهم وتجهيلهم ، على ما كانوا يتفوهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان حرمانهم التام مما يشتهونه فقال : ﴿ وحيل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٣ .

بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ .

وقوله ﴿ حيل ﴾ فعل مبنى للمجهول مأخوذ من الحول بمعنى المنع والحجز . تقول حال الموج بينى وبين فلان . أى : منعنى من الوصول إليه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

أى : وحجز وفصل بين هؤلاء المشركين يوم القيامة ﴿ وبين ما يشتهون ﴾ ويتمنون من قبول إيمانهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم ورجوعهم إلى الدنيا .. حيل بينهم وبين كل ذلك ، ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أى : كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم ونظرائهم الذين سبقوهم فى الكفر .

﴿ إنهم كانوا ﴾ جميعًا على نمط واحد ﴿ فى شك ﴾ من أمر هذا الدين ﴿ مريب ﴾ أى : موقع فى الريبة .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « سبأ » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأحد ٢٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
١٦ / ٦ / ١٩٨٥ م

كتبه الفقير إلى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةِ فَاطِرٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة فاطر هى السورة الخامسة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الفرقان - كما ذكر صاحب الإتقان[1] .

وهى من السور المكية الخالصة ، وتسمى أيضا - بسورة « الملائكة » .

قال القرطبى : هى مكية فى قول الجميع . وهى خمس وأربعون آية[2] .

٢ - سورة فاطر هى آخر السور التى افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ الحمد لله ﴾ وقد سبقها فى هذا الافتتاح سور : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ .

قال - سبحانه - فى افتتاح سورة فاطر : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

٣ - ثم تحدث - سبحانه - بعد ذلك عن مظاهر نعمه على عباده ورحمته بهم ، فقال : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ... ﴾ .

٤ - ثم توجه السورة الكريمة نداءين إلى الناس ، تأمرهم فى أولها بشكر الله - تعالى - على نعمه ، وتنهاهم فى ثانيهما عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا وعن اتباع خطوات الشيطان ..

قال - سبحانه - : ﴿ يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ..﴾ . وقال - جل شأنه - : ﴿ يأيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ للسيوطى .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١٨ .

٥ - وبعد أن تسلى السورة الكريمة الرسول - ﷺ - عما أصابه من أعدائه ، تأخذ فى بيان مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، فتذكر قدرته - سبحانه - فى إرسال الرياح والسحب ، وفى خلقه للإنسان من تراب ، وفى إيجاده للبحرين : أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والثانى : ملح أجاج ، وفى إدخاله الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، و فى تسخيره الشمس والقمر ..

قال - تعالى - : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ .

٦ - ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثا إلى الناس ، بين لهم فيه : افتقارهم اليه - تعالى - وحاجتهم إلى عونه وعطائه ، وتحمل كل إنسان لمسئولياته ولنتائج أعماله ..

كما بين لهم - سبحانه - أن الفرق بين الهدى والضلال ، كالفرق بين الإبصار والعمى ، وبين النور والظلمات ، وبين الحياة والموت ، وبين الظل والحرور .

قال -تعالى - : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ .

٧ - ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وعن الثواب العظيم الذى أعده - سبحانه - لمن يتلون كتابه ولمن يحافظون على فرائضه - وعن عقابه الأليم للكافرين الجاحدين لنعمه ..

قال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور . إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور ﴾ .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾ .

٨ - ثم انتقلت السورة الكريمة فى أواخرها إلى الحديث عن جهالات المشركين ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - مالا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وعن مكرهم السيئ الذى لا يحيق

إلا بأهله ، وعن نقضهم لعهودهم حيث ﴿ أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا .. ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان سعة رحمته بالناس فقال : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

٩ -وهكذا نرى سورة فاطر قد طوفت بالنفس الإنسانية فى أرجاء هذا الكون ، وأقامت الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . عن طريق نعم الله - تعالى - المبثوثة فى الأرض وفى السماء ، وفى الليل وفى النهار ، وفى الشمس وفى القمر : وفى الرياح وفى السحب ، وفى البر وفى البحر .. وفى غير ذلك من النعم التى سخرها - سبحانه - لعباده .

كما نراها قد حددت وظيفة الرسول - ﷺ - وساقت له مايسليه ويزيده ثباتا على ثباته ، وما يرشد كل عاقل إلى حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر - الثلاثاء ٨ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ .

١٩٨٥/٦/٢٥ م

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

افتتحت سورة « فاطر » كما سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لسورة « سبأ » بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة وغيرها .

و« أل » فى الحمد للاستغراق . بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء هو الله - تعالى -[1] .

وقوله : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقهما وموجدهما على غير مثال يحتذى ، إذ المراد بالفطر هنا : الابتداء والاختراع للشىء الذى لم يوجد مايشبهه من قبل .

(١) راجع تفسيرنا لأوائل سور : الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ .

قال القرطبى : والفاطر : الخالق ، والفَطْر - بفتح الفاء - : الشق عن الشىء . يقال : فطرته فانفطر . ومنه : فطر ناب البعير ، أى : طلع . وتفطر الشىء ، أى : تشقق ...

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : أنا ابتدأتها ..

والمراد بذكر السموات والأرض : العالم كله . ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء ، قادر على الإعادة[١] .

والمعنى : الحمد المطلق والثناء التام الكامل لله - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - الخالق للسموات والأرض ، ولهذا الكون بأسره ، دون أن يسبقه إلى ذلك سابق ، أو يشاركه فيما خلق وأوجد مشارك .

وقوله - تعالى - : ﴿ جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - تعالى - التى لا يعجزها شىء .

والملائكة : جمع ملك . والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملاك . وهم جند من خلق الله - تعال - وقد وصفهم - سبحانه - بصفات متعددة ، منها : أنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وأنهم ﴿ عباد مكرمون ﴾. ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

قال الجمل : وقوله : جاعل الملائكة ، أى : بعضهم . إذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم . وقوله : ﴿ أولى أجنحة ﴾ نعت لقوله ﴿ رسلا ﴾ ، وهو جيد لفظا لتوافقهما تنكيرا . أو هو نعت للملائكة ، وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهى صفة كاشفة ..[٢] .

وقوله : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أسماء معدول بها عن اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهى ممنوعة من الصرف ، للوصفية والعدل عن المكرر وهى صفة لأجنحة .

أى : الحمد لله الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، والذى جعل الملائكة رسلا إلى أنبيائه . وإلى من يشاء من عباده ، ليبلغوهم ما يأمرهم - سبحانه - بتبليغه إليهم ..

وهؤلاء الملائكة المكرمون ، ذوو أجنحة عديدة . منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، لأنه المراد بهذا الوصف ، بيان كثرة الأجنحة لاحصرها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٨٣ .

قال الألوسى ما ملخصه قوله : ﴿ جاعل الملائكة رسلا .... ﴾ معناه : جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالته بالوحى والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه ، كالأمطار والرياح وغيرهما .

وقوله : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ معناه : أن من الملائكة من له جناحان و منهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا دلالة فى الآية على نفى الزائد ، وماذكر من عد للدلالة على التكثير والتفاوت ، لا للتعيين ولا لنفى النقصان عن اثنين ..

فقد أخرج الشيخان عن ابن مسعود فى قوله - تعالى - ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أن الرسول - ﷺ - رأى جبريل وله ستمائة جناح ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من كمال قدرته ، ونفاذ إرادته .

أى يزيد - سبحانه - فى خلق كل ما يزيد خلقه ما يشاء أن يزيده من الأمور التى لا يحيط بها الوصف ، ومن ذلك أجنحة الملائكة فيزيد فيها ما يشاء ، وكذلك ينقص فى الخلق ما يشاء ، والكل جاء على مقتضى الحكمة والتدبير .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ أى : يزيد فى خلق الأجنحة ، وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته .

والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة فى العقل ، وجزالة فى الرأى ، وجرأة فى القلب ، وسماحة فى النفس ، وذلاقة فى اللسان ، ولباقة فى التكلم ، وحسن تأن فى مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف ..[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه شىء يريده ، لأنه قدير على فعل كل شىء ، فالجملة الكريمة تعليل لما قبلها من كونه - سبحانه - يزيد فى الخلق ما يشاء ، وينقص منه ما يشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ... ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته وفضله على عباده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٥ .

والمراد بالفتح هنا : الإطلاق والإرسال على سبيل المجاز . بعلاقة السببية لأن فتح الشىء المغلق ، سبب لإطلاق ما فيه وإرساله .

أى : مايرسل الله - تعالى - بفضله وإحسانه للناس من رحمة متمثلة فى الأمطار ، وفى الأرزاق ، وفى الصحة .. وفى غير ذلك ، فلا أحد يقدر على منعها عنهم .

﴿ وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ أى : وما يمسك من شىء لا يريد إعطاءه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم . بعد أن منعه الله - تعالى - عنهم .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله .

وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بالفتح ، للإشعار بأن رحمته - سبحانه - من أعظم النعم وأعلاها ، حتى لكأنها بمنزلة الخزائن المليئة بالخيرات ، والتى متى فتحت أصاب الناس منها ما أصابوا من نفع وبر .

و﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من رحمة ﴾ للبيان . وجاء الضمير فى قوله : ﴿ فلا ممسك لها ﴾ مؤنثا ، لأنه يعود إليها وحدها .

وجاء مذكرا فى قوله ﴿ فلا مرسل له ﴾ لأنه يشملها ويشمل غيرها . أى : وما يمسك من رحمة أو غيرها عن عباده فلا يستطيع أحد أن يرسل ما أمسكه - سبحانه - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله ..﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . و إن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير ﴾[2] .

قال ابن كثير : وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى . أن رسول الله - ﷺ - كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد . ملء السموات والأرض . وملء ماشئت من شىء بعد .. اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد[3] - أى : ولا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما الذى ينفعه عمله الصالح ..

---

(١) سورة يونس الآية ١٠٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٧ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٢٠ .

ثم وجه - سبحانه - نداء الى الناس . أمرهم فيه بذكره وشكره فقال : ﴿ يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض .. ﴾ .

والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله تعالى عليها ، واستعمالها فيما خلقت له .

والمراد بالنعمة هنا : النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس . كنعمة خلقهم ، ورزقهم ، وتسخير كثير من الكائنات لهم .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم ﴾ للنفى والإنكار ، أى : يأيها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم ، نعم الله - تعالى - عليكم ، واشكروه عليها . واستعملوها فى الوجوه التى أمركم باستعمالها فيها ، واعلموا أنه لا خالق غير الله - تعالى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنبات والزروع والثمار وما يشبه ذلك من الأرزاق التى فيها حياتكم وبقاؤكم .

وقوله - تعالى - ﴿ لا إله إلا هو ﴾ جملة مستأنفة لتقرير النفى المستفاد مما قبله أى : لاإلـه مستحق للعبادة والطاعة إلا الله - تعالى - ، إذ هو الخالق لكم ، وهو الذى أعطاكم النعم التى لا تعد ولا تحصى .

﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى : ومادام الأمر كذلك : فكيف تصرفون عن إخلاص العبادة لخالقكم ورازقكم ، إلى الشرك فى عبادته .

فقوله ﴿ تؤفكون ﴾ من الأفك - بالفتح - بمعنى الصرف والقلب يقال : أفكه عن الشىء ، إذا صرفه عنه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عما وجدنا عليه آباءنا .. ﴾ أى : لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا .

وبعد هذا البيان المعجز لمظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وهيمنته على شئون خلقه .. أخذت السورة الكريمة فى تسلية النبى - ﷺ - وفى دعوة الناس إلى اتباع ما جاءهم به هذا النبى الكريم ، وفى بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، فقال - تعالى - :

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ تسلية له - ﷺ - بعموم البلية ، والوعد له - ﷺ - والوعيد لأعدائه .

والمعنى : وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين .. فتأس بأولئك الرسل فى الصبر ، فقد كذبهم قومهم فصبروا على تكذيبهم . فجملة ﴿ فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ قائمة مقام جواب الشرط ، والجواب فى الحقيقة تأس . وأقيمت تلك الجملة مقامه ، اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب ..[1] .

وجاء لفظ الرسل بصيغة التنكير ، للإشعار بكثرة عددهم ، وسمو منزلتهم .

أى : وإن يكذبك - أيها الرسول الكريم - قومك ، فلا تحزن ، ولا تبتئس ، فإن إخوانك من الأنبياء الذين سبقوك ، قد كذبهم أقوامهم ، فأنت لست بدعا فى ذلك .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾..[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ..﴾[3] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦٧ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٣٤ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يزيد فى تسليته - ﷺ - فقال : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

أى : وإلى الله - تعالى - وحده ترجع أمور الناس وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم . وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى الناس . بين لهم فيه أن البعث حق ، وأن من الواجب عليهم أن يستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح فقال - تعالى - ﴿ يأيها الناس إن وعد الله حق ... ﴾ .

أى : إن ما وعدكم الله - تعالى - به من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق لا ريب فيه ، ومادام الأمر كذلك ، ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أى : فلا تخدعنكم بمتعها ، وشهواتها ، ولذائذها ، فإنها إلى زوال وفناء ، ولا تشغلنكم هذه الحياة الدنيا من أداء ما كلفكم - سبحانه - بأدائه من فرائض وتكاليف .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : ولا يخدعنكم عن طاعة ربكم ، ومالك أمركم ﴿ الغرور ﴾ .

أى : الشيطان المبالغ فى خداعكم ، وفى صرفكم عن كل ما هو خير وبر .

فالمراد بالغرور هنا : الشيطان الذى أقسم بالأيمان المغلظة ، بأنه لن يكف عن إغواء بنى آدم ، وعن تزيين الشرور والآثام لهم .

فالمقصود بالآية الكريمة تذكير الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال . وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

ثم أكد - سبحانه - هذا التحذير بقوله : ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ يابنى آدم ، عداوة قديمة وباقية إلى يوم القيامة .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فاتخذوه عدوا ﴾ أى : فاتخذوه أنتم عدوا لكم فى عقائدكم . وفى عباداتكم . وفى كل أحوالكم ، بأن تخالفوا وسوسته وهمزاته وخطواته ..

وقوله : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ تقرير وتأكيد لهذه العداوة .

أى : اتخذوا - يابنى آدم - الشيطان عدوا لكم ، لأنه لا يدعو أتباعه ومن هم من حزبه إلى خير أبدا ، وإنما يدعوهم الى العقائد الباطلة . والأقوال الفاسدة ، والأفعال القبيحة التى تجعلهم يوم القيامة من أهل النار الشديدة الاشتعال ..

ثم بين - سبحانه - أقسام الناس يوم القيامة فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ بكل ما يجب

الإيمان به ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم - عز وجل - واتباعهم للشيطان ..

﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات لهم ﴾ من ربهم ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة ﴿وأجر كبير ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر، والمطيع، والعاصى، فقال: ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ... ﴾ .

والاستفهام للإنكار . و « من » موصولة فى موضع رفع على الابتداء . والجملة بعدها صلتها ، والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه ، و﴿زين ﴾ من التزيين بمعنى التحسين . وقوله ﴿ سوء عمله ﴾ أى : عمله السىء ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

والمعنى : أفمن زين له الشيطان عمله السيئ ، فرآه حسنا ، كمن ليس كذلك ؟ كلا إنهما لا يستويان فى عرف أى عاقل ، فإن الشخص الذى ارتكب الأفعال القبيحة التى زينها له الشيطان ، أو نفسه الأمارة بالسوء ، أو هواه .. مصيره إلى الشقاء والتعاسة .

أما الشخص الذى خالف الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المردى .. فمصيره إلى السعادة والفلاح .

وقد صرح - سبحانه - بالأمرين فى آيات منها قوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾؟

وجملة ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ تعليل لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا ..

أى : هؤلاء الذين يعملون الأعمال السيئة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا قدرة لك على هدايتهم - أيها الرسول الكريم - فإن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدى من يشاء هدايته .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ للتفريع . والحسرات جمعه حسرة ، وهى أشد ما يعترى الإنسان من ندم على أمر قد مضى وانتهى والجار والمجرور « عليهم » متعلق بقوله « حسرات » .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فامض فى طريقك وبلغ رسالة ربك ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا تهلك نفسك هما وغما وحزنا من أجل هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق ، واعتنقوا الباطل ، وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا ..

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بمايزيد فى تسلية الرسول - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء مما يفعله هؤلاء الجاهلون من أفعال قبيحة ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[2] .

وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وبعد هذا التحذير من وسوسة الشيطان ومن خداعه ، وبعد هذا البيان لسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، بعد كل ذلك .. ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده ، ومن رحمته بهم ، نرى ذلك فى الرياح وفى السحب ، وفى البحار والأنهار ، وفى الليل والنهار ، وفى الشمس والقمر .. وفى غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة فى هذا الكون .

قال - تعالى - :

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ

(١) سورة الشعراء الآية ٣ .
(٢) سورة الكهف الآية ٦ .

وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قال أبو حيان – رحمه الله – لما ذكر – سبحانه – أشياء من الأمور السماوية ، وإرسال الملائكة ، أتبع ذلك بذكر أشياء من الأمور الأرضية كالرياح وإرسالها ، وفى هذا احتجاج على منكرى البعث ، دلهم على المثال الذى يعاينونه ، وهو وإحياء الموتى سيان . وفى الحديث أنه قيل لرسول الله – ﷺ – : كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال : « هل مررت بوادى أهلا محلا – أى مجدبا لانبات فيه – ثم مررت به يهتز خضرا ؟ فقالوا : نعم ، فقال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه »[1] .

فقوله – تعالى – : ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته – عز وجل – ومن سعة رحمته بعباده .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٢ لأبى حيان .

وقوله : ﴿ فتثير ﴾ من الإثارة بمعنى التهييج والتحريك من حال إلى حال .

أى : والله - تعالى - وحده ، هو الذى أرسل الرياح ، فجعلها بقدرته النافذة تحرك السحب من مكان إلى مكان ،فتذهب بها تارة إلى جهة الشمال ، وتارة إلى جهة الجنوب ، وتارة إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿ فسقناه إلى بلد ميت ﴾ بيان للحكمة من هذه الإثارة . والمراد بالبلد الميت : الأرض الجدباء التى لانبات فيها . والضمير فى ﴿ فسقناه ﴾ يعود إلى السحاب .

وقوله : ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ أى : فأحيينا بالمطر النازل من السحاب الأرض الجدباء ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

فالضمير فى قوله ﴿ به ﴾ يعود إلى المطر ، لأن السحاب يدل عليه لما بينهما من تلازم ، ويصح أن يعود إلى السحاب لأنه سبب نزول الأمطار .

وقال - سبحانه - ﴿فتثير ﴾ بصيغة المضارع . استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ، والتى من شأنها أن تغرس العظات والعبر فى النفوس .

وقال - سبحانه - : ﴿ فسقناه ﴾ ﴿ فأحيينا ﴾ بنون العظمة ، وبالفعل الماضى ، للدلالة على تحقق قدرته ورحمته بعباده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : لم جاء ﴿ فتثير ﴾ على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ .

قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح للسحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية ..

ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه ..[1] .

والكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك النشور ﴾ بمعنى مثل ، وهى فى محل رفع على الخبرية . أى : مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه للأرض بعد نزول المطر عليها ، يكون إحياء الأموات منكم .

قال الإمام الرازى : فإن قيل ما وجه التشبيه بقوله : ﴿ كذلك النشور ﴾ ؟ فالجواب من وجوه :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠١ .

أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة .

ثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية ، كذلك يجمع - سبحانه - بين أجزاء الأعضاء ..

ثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت ، كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت[1] .

والنشور : الإحياء والبعث بعد الموت . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى ونشرهم ، إذا أحياهم بعد موتهم . ونشر الراعى غنمه ، إذا بثها بعد أن آواها .

ثم بين - سبحانه - أن العزة الكاملة إنما هى لله - تعالى - وحده فقال : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ...﴾ .

والمراد بالعزة : الشرف والمنعة والاستعلاء ، من قولهم : أرض عَزاز ، أى : صلبة قوية . و﴿ من ﴾ شرطية ، وجواب الشرط محذوف . وقوله : ﴿فلله العزة جميعا ﴾ تعليل للجواب المحذوف .

والمعنى من كان من الناس يريد العزة التى لاذلة معها . فليطع الله وليعتمد عليه وحده فلله - تعالى - العزة كلها فى الدنيا والآخرة ، وليس لغيره منها شىء .

وفى هذا رد على المشركين وغيرهم ممن يطلبون العزة من الأصنام أو من غيرها من المخلوقات قال - تعالى - : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[2] .

وقال - سبحانه - : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴾[3] .

قال القرطبى ما ملخصه : يريد - سبحانه - فى هذه الآية ، أن ينبه ذوى الأقدار والهمم ، من أين تنال العزة ومن أين تستحق ، فمن طلب العزة من الله - تعالى - وجدها عنده ، - إن شاء الله - ، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه .. ومن طلبها من غيره وكلَه إلى من طلبها عنده . وقال - ﷺ - مفسرا لهذه الآية : « من أراد عز الدارين فليطع العزيز » ، ولقد أحسن القائل .

وإذا تذللت الرقاب تواضعا ... منا إليك فعزها فى ذلها

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٢ .

(٢) سورة مريم الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة النساء الآية ١٣٩ .

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، فليعتز بالله - تعالى - ، فإن من اعتز بغير الله ، أذله الله ، ومن اعتز به - سبحانه أعزه[1] .

ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ لأن العزة الكاملة لله - تعالى - وحده ، أما عزة الرسول - ﷺ - فمستمدة من قربه من الله - تعالى - ، كما أن عزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وبرسوله - ﷺ - .

والخلاصة أن هذه الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى الطريق الذى يوصلهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية . ألا وهو طاعة الله - تعالى - ، والاعتماد عليه والاعتزاز به .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ حض للمؤمنين على النطق بالكلام الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصالح .

و﴿ يصعد ﴾ من الصعود بمعنى الارتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع . يقال صعد فى السلم ويصعد صعودا إذا ارتقاه وارتفع فيه .

و﴿ الكلم ﴾ اسم جنس جمعى. واحده كلمة .

والمراد بالكلم الطيب : كل كلام يرضى الله - تعالى - من تسبيح وتحميد وتكبير . وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال الحسنة .

والمراد بصعوده : قبوله عند الله - تعالى - ورضاه عن صاحبه ، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيبة .

والمعنى : إليه - تعالى - وحده ، لا إلى غيره يصعد الكلم الطيب ، أى : يقبل عنده ، ويكون مرضيا لديه ، أو إليه - وحده - ترفع صحائف أعمال عباده ، الصادقين فيجازيهم بما يستحقون من ثواب ، والعمل الصالح الصادر عن عباده المؤمنين يرفعه الله - تعالى - إليه ، ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه .

فالفاعل لقوله ﴿ يرفعه ﴾ ضمير يعود على الله - تعالى - ، والضمير المنصوب يعود إلى العمل الصالح أى : يرفع الله - تعالى - العمل الصالح إليه ، ويقبله من أصحابه .

ومنهم من يرى أن الفاعل لقوله ﴿ يرفعه ﴾ هو العمل الصالح . والضمير المنصوب يعود إلى الكلم الطيب . أى : أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب . بأنه يجعله مقبولا عند الله - تعالى - .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣٢٨ .

ومنهم من يرى العكس . أى : أن الكلم الطيب هو الذى يرفع العمل الصالح .

قال الشوكانى ما ملخصه : ومعنى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . كما قال الحسن وغيره . ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا من العمل الصالح وقيل : إن فاعل ﴿ يرفعه ﴾ هو الكلم الطيب ، ومفعوله العمل الصالح . ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل : إن فاعل ﴿ يرفعه ﴾ ضمير يعود إلى الله - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ، لأن العمل يحقق الكلام . وقيل : والعمل الصالح هو الذى يرفع صاحبه.[1] .

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال ، أن يكون الفاعل لقوله ﴿ يرفعه ﴾ هو الله - تعالى - ، وأن الضمير المنصوب عائد إلى العمل الصالح لأن الله - تعالى - هو الذى يقبل الأقوال الطيبة ، وهو - سبحانه - الذى يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين .

ثم بين - تعالى - بعد ذلك سوء عاقبة الذين يمكرون السوء فقال : ﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور ﴾ .

والمكر : التدبير المحكم . أو صرف غيرك عما يريده بحيلة . وهو مذموم إن تحرى به صاحبه الشر والسوء - كما فى الآية الكريمة ، ومحمود إن تحرى به صاحبه الخير والنفع و﴿ السيئات ﴾ جمع سيئة وهى صفة لموصوف محذوف .

وقوله ﴿ يبور ﴾ أى : يبطل ويفسد ، من البوار : يقال : بار المتاع بوارا إذا كسد وصار فى حكم الهالك .

أى : والذين يمكرون المكرات السيئات من المشركين والمنافقين وأشباههم ، لهم عذاب شديد من الله - تعالى - ، ومكر أولئك الماكرين المفسدين ، مصيره إلى الفساد والخسران ، لأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله .

ويدخل فى هذا المكر السيئ ما فعله المشركون مع الرسول - ﷺ - فى دار الندوة ، حيث بيتوا قتله ، ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم ، كما دخل فيه غير ذلك من أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، ونياتهم الخبيثة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك دليلا آخر على صحة البعث والنشور ، وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : ﴿ والله خلقكم من تراب ﴾ أى : خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٤٠ .

من تراب ﴿ ثم من نطفة ﴾ وأصلها الماء الصافى أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت .

والمراد بها هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .

﴿ ثم جعلكم أزواجا ﴾ أى : أصنافا ذكرانا وإناثا ، كما قال - تعالى - : ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ . أو المراد : ثم جعلكم تتزاوجون ، فالرجل يتزوج المرأة ، والمرأة تتزوج الرجل . ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أى : لا يحصل من الأنثى حمل ، كما لا يحصل منها وضع لما فى بطنها ، إلا والله - تعالى - عالم به علما تاما لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء .

﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾ والمراد بالمعمر الشخص الذى يطيل الله - تعالى - عمره .

والضمير فى قوله ﴿ من عمره ﴾ يعود إلى شخص آخر ، فيكون المعنى : ما يمد - سبحانه - فى عمر أحد من الناس ، ولا ينقص من عمر أحد آخر ، إلا وكل ذلك كائن وثابت فى كتاب عنده - تعالى - وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ ، أو صحائف أعمال العباد أو علم الله الأزلى .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ من عمره ﴾ يعود إلى الشخص ذاته وهو المعمر فيكون المعنى : وما يمد الله - تعالى - فى عمر إنسان ، ولا ينقص من عمره بمضى أيام حياته ، إلا وكل ذلك ثابت فى علمه - سبحانه - .

قال بعض العلماء : وقد أطال بعضهم الكلام فى ذلك ومحصله : أنه اختلف فى معنى ﴿ مُعَمَّر ﴾ فقيل : هو المزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله ولا ينقص ، وقيل : المراد بقوله ﴿ معمر ﴾ من يجعل له عمر . وهل هو شخص واحد أو شخصان ؟

فعلى رأى من قال بأن المعمر ، هو من يجعل له عمر يكون شخصا واحدا بمعنى انه يكتب عمره مائة سنة - مثلا - ، ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا فكتابة الأصل هى التعمير .. والكتابة بعد ذلك هو النقص كما قيل :

حيـاتـك أنفـاس تُعـدّ فكلما ... مضى نفس منها انتقصتَ به جزءا

والضمير حينئذ راجع إلى المذكور . والمعمر على هذا هو الذى جعل الله - تعالى - له عمرا طال هذا العمر أو قصر .

وعلى رأى من قال بأن المعمر هو من يزاد فى عمره ، يكون من ينقص فى عمره غير الذى

يزاد فى عمره فهما شخصان . والضمير فى « عمره » على هذا الرأى يعود إلى شخص آخر ، إذ لا يكون المزيد فى عمره منقوصا من عمره ..»[١] .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - الرأى الأول وهو أن الضمير فى قوله ﴿ من عمره ﴾ يعود إلى شخص آخر - فقال : وأولى التأويلين فى ذلك عندى بالصواب ، التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه ، وأشبههما بظاهر التنزيل[٢] .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعود إلى الخلق من تراب وما بعده .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم من تراب ، ثم من نطفة .. يسير وهين على الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء على الإطلاق .

ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من أنواع بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال : ﴿ ومايستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ..﴾ .

والماء العذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة وهو ماء الأنهار . وسمى فراتا لأنه يفرت العطش ، أى : يقطعه ويزيله ويكسره .

والماء الملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا من الأجيج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطشان عطشا وتعبا .

قالوا : والآية الكريمة مثل للمؤمن والكافر . فالبحر العذب : مثل للمؤمن ، والبحر الملح : مثل للكافر .

فكما أن البحرين اللذين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه . والآخر ملح أجاج . لايتساويان فى طعمهما ومذاقهما . وإن اشتركا فى بعض الفوائد - فكذلك المؤمن والكافر ، لايتساويان فى الخاصية العظمى التى خلقا من أجلها ، وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإن اشتركا فى بعض الصفات الأخرى كالسخاء والشجاعة - لأن المؤمن استجاب لفطرته فآمن بالحق ، أما الكافر فقد عاند فطرته ، فأصر على الكفر .

وقوله : ﴿ ومن كل تأكلون لحمًا طريا ﴾ بيان لبعض النعم التى وهبها - سبحانه - لعباده من وجود البحرين .

أى : ومن كل واحد منهما تأكلون لحمًا طريا ، أى : غضا شهيا مفيدًا لأجسادكم ، عن طريق ما تصطادونه منهما من أسماك وما يشبهها .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٤٩٧٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٢ ص ٨١ .

قال بعض العلماء . وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغيير . وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر المأكولات فسبحان الخبير بشئون خلقه ..

وفيه - أيضًا - إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - حيث أوجد هذا اللحم الطرى النافع فى الماء الملح الأجاج الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر بن عبد الله ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « ما نضب عنه الماء فكلوه . وما لفظه الماء فكلوه ، وما طفا - على وجه الماء - فلا تأكلوه » .

فالمراد من ميتة البحر فى حديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ما لفظه البحر لا ماما ت فيه من غير آفة »[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ بيان لنعمة ثانية من النعم التى تصل إلى الناس عن طريق البحرين .

والحلية - بكسر الحاء - : اسم لما يتحلى به الناس ، ويتزينون بلبسه ، وجمع حلية : حِلًى وحُلًى - بكسر الحاء وضمها - يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلى .

أى : ومن النعم التى تصل إليكم عن طريق البحرين ، استخراجكم منها ما ينفعكم ، وما تتحلى به نساؤكم ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما .

والتعبير بقوله : ﴿ وتستخرجون ﴾ يشير إلى كثرة الإخراج . فالسين والتاء للتأكيد . كما يشير بأن من الواجب على المسلمين ، أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما فى البحرين من كنوز نافعة ، وأن لا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور ، فقال ﴿ تلبسونها ﴾ على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى الأعم الأغلب من الأحوال .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ تلبسونها ﴾ أى : تلبسها نساؤكم وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهن ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن فإن النساء يتزين - فى الغالب - ليحسن فى أعين الرجال .. »[٢] .

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٤ ص ٦١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١١٣ .

وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل قرآنى واضح على بطلان دعوى بعض العلماء من أن اللؤلؤ والمرجان ، لا يستخرجان إلا من البحر الملح خاصة »[١] .

وقوله - تعالى - ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - عن طريق وجود البحار فى الأرض .

وأصل المخر : الشق . يقال مخرت السفينة البحر إذا شقته وسارت بين أمواجه ، ومخر الماء الأرض إذا شقها .

أى : وترى - أيها العاقل - ببصرك السفن فى كل من البحرين ﴿ مواخر ﴾ أى تشق الماء بمقدماتها ، وتسرع السير فيه من جهة إلى جهة ..

والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى البحر الملح ، لأن أمر الفلك فيه أعظم من أمرها فى البحر العذب ، وإن كانت السفن تجرى فى البحرين .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى جنس البحر . أى : وترى السفن تشق كل بحر ، لتسير فيه من مكان إلى مكان ..

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق .

أى : أوجدنا البحرين ، وسخرناهما لمنفعتكم ، لتطلبوا أرزاقكم فيهما ، وهذه الأرزاق هى من فضل الله - تعالى - عليكم ، ومن رحمته بكم ، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا ، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا .

ثم بين - سبحانه - نعما أخرى تتجلى فى الليل وفى النهار ، وفى الشمس والقمر ، فقال : ﴿ يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ ..

أى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه أوجد لكم الليل والنهار بهذا النظام البديع ، بأن أدخل أحدهما فى الآخر ، وجعلهما متعاقبين ، مع زيادة أحدهما عن الآخر فى الزمان ، على حسب اختلاف المطالع ، والمغارب ، وأوجد - أيضًا - بفضله ورحمته الشمس والقمر لمنفعتكم ، وكل واحد منهما يسير بنظام بديع محكم ، إلى الأجل والوقت الذى حدده الله - تعالى - لانتهاء عمر هذه الدنيا ..

---

(١) اضواء البيان جـ ٦ ص ٦٤٠ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .

والإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ... ﴾ تعود إلى الخالق والموجد لتلك الكائنات العجيبة البديعة ، وهوالله - عز وجل - .

أى : ذلكم الذى أوجد كل هذه المخلوقات لمنفعتكم ، هو الله - تعالى - ربكم وهو وحده الذى له ملك هذا الكون ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه فى ملكيته منازع ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - ، وتصفونهم بأنهم آلهة .

﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ والقطمير : القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة . أو هو النقطة فى ظهر النواة ، ويضرب مثلاً لأقل شىء وأحقره .

أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - لا يملكون معه - سبحانه - شيئًا ، ولو كان هذا الشىء فى نهاية القلة والحقارة والصغر ، كالنكتة التى تكون فى ظهر النواة .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وقرره فقال : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ... ﴾ .

أى : إن هذه المعبودات الباطلة لا تملك من شىء مع الله - تعالى - ، بدليل أنكم إن تدعوهم لنفعكم ، لن يسمعوا دعاءكم ، وإن تستغيثوا بهم عند المصائب والنوائب ، لن يلبوا استغاثتكم ..

﴿ ولو سمعوا ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لأنهم لا قدرة لهم على هذه الاستجابة لعجزهم عن ذلك .

﴿ ويوم القيامة ﴾ الذى تتجلى فيه الحقائق ، وتنكشف الأمور ﴿ يكفرون بشرككم ﴾ .

أى : يتبرأون من عبادتكم لهم ، ومن إشراككم إياهم العبادة مع الله - تعالى - ، فضلاً عن عدم استجابتهم لكم إذا دعوتموهم لنصرتكم .

﴿ ولا ينبئك ﴾ أى : ولا يخبرك بهذه الحقائق التى لا تقبل الشك أو الريب .

﴿ مثل خبير ﴾ أى : مثل من هو خبير بأحوال النفوس وبظواهرها وببواطنها . وهو الله - عز وجل - ، فإنه - سبحانه - هو الذى يعلم السر وأخفى .

وبهذا نرى الآيات الكريمة ، قد طوفت بنا فى أرجاء هذا الكون ، وساقت لنا ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، كالرياح ، والسحاب ، والأمطار والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ... وهى نعم تدل على وحدانية المنعم بها ، وعلى قدرته - عز وجل - وفى كل ذلك هداية إلى الحق لكل عبد منيب .

ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثًا إلى الناس ، نبههم فيه إلى فقرهم إليه - سبحانه - ، وإلى غناه عنهم ، وإلى مسئولية كل إنسان عن نفسه ، وإلى وظيفة الرسول - ﷺ - الذى

أرسله إليهم ، وإلى الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر ، وإلى سوء مصير المكذبين ، فقال - تعالى - :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى
الحميد (١٥) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦)
وما ذلك على الله بعزيز (١٧) ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن
تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى
إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة
ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير (١٨)
وما يستوى الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمت ولا النور
(٢٠) ولا الظل ولا الحرور (٢١) وما يستوى الأحياء ولا الأموت
إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور (٢٢) إن
أنت إلا نذير (٢٣) إنا أرسلنك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من
أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤) وإن يكذبوك فقد كذب الذين
من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينت وبالزبر وبالكتب
المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير (٢٦) ﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ... ﴾ نداء منه - سبحانه - للناس ، يعرفهم فيه حقيقة أمرهم ، ولأنهم لا غنى لهم عن خالقهم - عز وجل - .

أى : يأيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله - تعالى - فى كل شئونكم الدنيوية والأخروية ﴿ والله ﴾ - تعالى - وحده هو الغنى ، عن كل مخلوق سواه ، وهو ﴿ الحميد ﴾ أى :

المحمود من جميع الموجودات ، لأنه هو الخالق لكل شىء ، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالنعم التى لا تحصى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنه لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ، وقد شهد الله - سبحانه - على الإنسان بالضعف فى قوله : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفًا ﴾ ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء »[1] .

وجمع - سبحانه - فى وصف ذاته بين الغنى والحميد ، للإشعار بأنه - تعالى - بجانب غناه عن خلقه ، هو الذى يفيض عليهم من نعمه ، وهو الذى يعطيهم من خيره وفضله ، ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم .

قال الآلوسى : قوله ﴿ الحميد ﴾ أى : المنعم على جميع الموجودات ، المستحق بإنعامه للحمد ، وأصله المحمود ، وأريد به ذلك عن طريق الكناية ، ليناسب ذكره بعد فقرهم ، إذ الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادًا منعمًا ، ومثله مستحق للحمد ، وهذا كالتكميل لما قبله .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بيان لمظهر من مظاهر غناه عن الناس .

أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم ويزلكم من هذا الوجود ، ويأت بأقوام آخرين سواكم ، فوجودكم فى هذه الحياة متوقف على مشيئته وإرادته .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ يعود على الإذهاب بهم ، والإتيان بغيرهم .

وما ذلك الذى ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم ، بعزيز ، أى : بصعب أو عسير أو ممتنع على الله - تعالى - ، لأن قدرته - تعالى - لا يعجزها شىء .

ثم بين - سبحانه - أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها فقال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وقوله : ﴿ تزر ﴾ من الوزر بمعنى الحمل . يقال : فلان وزر هذا الشىء إذا حمله . وفعله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٨٣ .

من باب « وعد » ، وأكثر ما يكون استعمالاً فى حمل الآثام .

وقوله ﴿ وازرة ﴾ : صفة لموصوف محذوف . أى : ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما كل نفس مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التى باشرتها ، أو تسببت فيها .

وقوله : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله ، من مسئولية كل نفس عن أفعالها .

وقوله : ﴿ مثقلة ﴾ صفة لموصوف محذوف ، والمفعول محذوف - أيضًا - للعلم به .

وقوله ﴿ حملها ﴾ أى : ما تحمله من الذنوب والآثام ، إذ الحمل - بكسر الحاء - ما يحمله الإنسان من أمتعة على ظهره أو رأسه أو كتفه .

والمعنى : لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، وإن تطلب نفس مثقلة بالذنوب من نفس أخرى ، أن تحمل عنها شيئًا من ذنوبها التى أثقلتها ، لا تجد استجابة منها ، ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوى رحمها .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا .. ﴾ .

وقال - سبحانه - :﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى ؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها .

فإن قلت : كيف توفق بين هذا ، وبين قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ ؟

قلت : تلك الآية فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلالهم لغيرهم ، مع أثقالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شىء من وزر غيرهم .

فإن قلت : فما الفرق بين معنى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وبين معنى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء .. ﴾ ؟

قلت : الأول فى الدلالة على عدل الله - تعالى - فى حكمه ، وأنه - تعالى - لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها .

والثانى : فى أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث ...وإن كان المستغاث به بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ ...

فإن قلت : إلام أسند كان فى قوله ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ ؟ قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله : ﴿ وإن تدع مثقلة ﴾ .

فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو ؟ قلت : « ليعم ويشمل كل مدعو .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ .

كلام مستأنف مسوق لبيان من هم أهل للاتعاظ والاستجابة للحق .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - إنما ينفع وعظك وإنذارك . أولئك العقلاء الذين يخشون ربهم - عز وجل - دون أن يروه ، أو يروا عذابه ، والذين يؤدون الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع واطمئنان .

ثم حض - سبحانه - على تزكية النفوس وتطهيرها فقال : ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ أى : ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق والعصيان . وحصن نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتوبة النصوح ، فإن ثمرة تطهره إنما تعود إلى نفسه وحدها ، وإليها يرجع الأجر والثواب ، والله - تعالى - إليه وحده مصير العباد لا إلى غيره .

فالجملة الكريمة دعوة من الله - تعالى - للناس ، إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسئولة وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحدًا لن يلبى طلب غيره فى أن يحمل شيئًا عنه من أوزاره .

ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل .. فقال - تعالى - : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات .. ﴾ .

والحرور : هو الريح الحارة التى تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .

أى : وكما أنه لا يستوى فى عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ، وكما لا تصلح المساواة بين الظلمات والنور ، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان ، وكما لا يتساوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوى أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر فى عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التى تشبه السموم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠٧ .

وكرر - سبحانه - لفظ ﴿ لا ﴾ أكثر من مرة ، لتأكيد نفى الاستواء ، بأية صورة من الصور .

وقوله : ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق ، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم . أو هو تمثيل للعلماء والجهلاء قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله - تعالى - : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ... ﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ﴾ فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى .. والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، ولا خروج له منها ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ بيان لنفاذ قدرة الله - تعالى - ، ومشيئته .

أى : إن الله - تعالى - يسمع من يشاء أن يسمعه ، ويجعله مدركًا للحق ، ومستجيبًا له أما أنت - أيها الرسول الكريم - فليس فى استطاعتك أن تسمع هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم وباطلهم ، والذين هم أشبه ما يكونون بالموتى فى فقدان الحس ، وفى عدم السماع لما تدعوهم إليه .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء الجاحدين .

ثم حدد الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - وظيفته فقال : ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ .

أى : ما أنت - أيها الرسول الكريم - إلا منذر للناس من حلول عذاب الله - تعالى - بهم ، إذا ما استمروا على كفرهم ، أما الهداية والضلال فهما بيد الله - تعالى - وحده .

﴿ إنا أرسلناك ﴾ - أيها الرسول الكريم - إرسالاً ملتبسًا ﴿ بالحق ﴾ الذى لا يحوم حوله الباطل ﴿ بشيرًا ونذيرًا ﴾ أى : أرسلناك بالحق مبشرًا المؤمنين بحسن الثواب ، ومنذرًا الكافرين بأشد ألوان العقاب .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أى : وما من أمة من الأمم الماضية ، إلا وجاءها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٢٩ .

نذير ينذرها من سوء عاقبة الكفر، ويدعوها إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .

فمن أفراد هذه الأمة من أطاعوا هذا النذير فسعدوا وفازوا، ومنهم من استحب العمى على الهدى، والكفر على الإيمان فشقوا وخابوا .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تسليته لرسوله - ﷺ - تسلية أخرى فقال: ﴿ وإن يكذبوك، فقد كذب الذين من قبلهم ... ﴾ .

أى: وإن يكذبك قومك يا محمد فلا تحزن، فإن الأقوام السابقين قد كذبوا إخوانك الذين أرسلناهم إليهم، كما كذبك قومك .

وإن هؤلاء السابقين قد ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى: بالمعجزات الواضحات ﴿ وبالزبر ﴾ أى: وبالكتب المنزلة من عند الله - تعالى - جمع زبور وهو المكتوب، كصحف إبراهيم وموسى .

﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أى: وبالكتاب الساطع فى براهينه وحججه، كالتوراة التى أنزلناها على موسى، والإنجيل الذى أنزلناه على عيسى .

قال الشوكانى: قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبر، وتحت البينات، والعطف لتغير المفهومات، وإن كانت متحدة فى الصدق . والأولى تخصيص البينات بالمعجزات . والزبر بالكتب التى فيها مواعظ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام »[1] .

﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ بالعذاب الشديد، بسبب إصرارهم على كفرهم، وتكذيبهم لرسلهم .

ووضع الظاهر موضع ضميرهم، لذمهم وللأشعار بعلة الأخذ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للتهويل . أى: فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارى عليهم، لقد كان إنكارًا مصحوبًا بالعذاب الأليم الذى دمرهم تدميرًا، واستأصلهم عن آخرهم .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على عظيم قدرته . وبين من هم أولى الناس بخشيته، ومدح الذين يكثرون من تلاوة كتابه، ويحافظون على أداء فرائضه، ووعدهم على ذلك بالأجر الجزيل فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٤٦ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ .. لتقرير ما قبله ، من أن اختلاف الناس فى عقائدهم وأحوالهم أمر مطرد ، وأن هذا الاختلاف موجود حتى فى الحيوان والحجارة والنبات ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر ... ﴾ هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك ، فتكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشىء ، بحال من رآه . فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه . كما يجرى مع من رأى ، قصدًا إلى المبالغة فى شهرته ... »[1] .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦٠ .

والخطاب للرسول - ﷺ - ، أو لكل من يتأتى له الخطاب ، بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - علمًا لا يخالطه شك ، أن الله - تعالى - أنزل من السماء ماء كثيرًا ، فأخرج بسببه من الأرض ، ثمرات مختلفًا ألوانها . فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر .. وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعًا تسقى بماء واحد ، كما قال - تعالى - : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

وجاء قوله ﴿ فأخرجنا ... ﴾ على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة ، ولأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء .

وقوله ﴿ مختلفًا ﴾ صفة لثمرات ، وقوله ﴿ ألوانه ﴾ فاعل به .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ معطوف على ما قبله ، لبيان مظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - .

قال القرطبى ما ملخصه : « الجدد جمع جُدَّة - بضم الجيم - وهى الطرائق المختلفة الألوان » .. والجُدَّة : الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجدة : الطريقة والجمع جدد .. أى : طرائق تخالف لون الجبل ، ومنه قولهم : ركب فلان جُدَّة من الأمر ، إذا رأى فيه رأيا »[2] .

وغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشىء الشديد السواد ، والعرب تقول للشىء الشديد السواد ، أسود غربيب .

وقوله : ﴿ سود ﴾ بدل من ﴿ غرابيب ﴾ .

أى : أنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها ، وجعلنا بقدرتنا من الجبال قطعًا ذات ألوان مختلفة ، فمنها الأبيض ، ومنها الأحمر ، ومنها ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا . وبديع صنعنا ...

---

(١) سورة الرعد الآية ٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣٤٢ .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الاختلاف ليس مقصورًا على الجبال فقال : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ... ﴾ .

وقوله : ﴿ مختلف ﴾ صفة لموصوف محذوف . وقوله ﴿ كذلك ﴾ صفة - أيضًا - لمصدر محذوف ، معمول لمختلف .

أي : ليس اختلاف الألوان مقصورًا على قطع الجبال وطرقها وأجزائها ، بل - أيضًا - من الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافًا ، كذلك الاختلاف الكائن فى قطع الجبال ، وفى أنواع الثمار .

وإنما ذكر - سبحانه - هنا اختلاف الألوان فى هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى بديع صنعه .

ثم بين - سبحانه - أولى الناس بخشيته فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أى : إنما يخاف الله - تعالى - ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص فى العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته - تعالى - ، فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحًا للعلماء ، حيث قصر - سبحانه - خشيته عليهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول فى هذا الكلام أو أخر ؟ قلت : لابد من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم الله ، وأخرت العلماء ، كان المعنى . إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله - تعالى - : ﴿ ولا يخشون أحدًا إلا الله ﴾ وهما معنيان مختلفان .

فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ؟

قلت : لما قال ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته ... أتبع ذلك بقوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته ، وعلمه كنه علمه . وعن النبى - ﷺ - أنه قال : « أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به »[1] .

وقوله : ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على أنه يعاقب على المعصية ، ويغفر الذنوب لمن تاب من عباده توبة نصوحًا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١١ .

ثم مدح - سبحانه - المكثرين من تلاوة كتابه ، المحافظين على أداء فرائضه فقال : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ... ﴾ .

أى : إن الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه ، وعمل بتوجيهاته ، ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بأن أدوها فى مواقيتها بخشوع وإخلاص .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ أى : وبذلوا مما رزقناهم من خيرات ، تارة فى السر وتارة فى العلانية .

وجملة ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ فى محل رفع خبر إن . والمراد بالتجارة : ثواب الله - تعالى - ومغفرته .

وقوله : ﴿ تبور ﴾ بمعنى تكسد وتهلك . يقال : بار الشىء يبور بورا وبوارا ، إذا هلك وكسد .

أى : هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم ، ويؤدون ما أوجبه الله - تعالى - عليهم ، يرجون من الله - تعالى - الثواب الجزيل ، والربح الدائم ، لأنهم جمعوا فى طاعتهم له - تعالى - بين الإكثار من ذكره ، وبين العبادات البدنية والمالية .

واللام فى قوله : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله .. ﴾ متعلقة بقوله ﴿ لن تبور ﴾ على معنى ، يرجون تجارة لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجورهم التى وعدهم بها ، ويزيدهم فى الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه .

أو متعلقة بمحذوف ، والتقدير : فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ غفور ﴾ أى : واسع المغفرة ﴿ شكور ﴾ أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتثبيت فؤاد النبى - ﷺ - ، وتسليته عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ هو الحق ﴾ الثابت الذى لا يحوم حوله باطل .

﴿ مصدقًا لما بين يديه ﴾ أى : أن من صفات هذا القرآن أنه مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية . كالتوراة والإنجيل .

﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لمحيط إحاطة تامة بأحوال عباده ، مطلع على ما يسرونه وما يعلنونه من أقوال أو أفعال .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى -

وقدرته ، وأثنت على العلماء ، وعلى التالين للقرآن الكريم ، والمحافظين على أداء ما كلفهم الله - تعالى - ثناء عظيماً .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان أقسام الناس فى هذه الحياة . ووعدت المؤمنين الصادقين بجنات النعيم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ
ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

و « ثم » فى قوله - تعالى - : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ للتراخى الرتبى . و ﴿ أورثنا ﴾ أى أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة .. وهو المفعول الثانى لأورثنا ، وقدم على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف .

و ﴿ اصطفينا ﴾ بمعنى اخترنا واستخلصنا ، واشتقاقه من الصفو ، بمعنى الخلوص من الكدر والشوائب .

والمراد بقوله : ﴿ من عبادنا ﴾ الأمة الإسلامية التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذى أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ميراثاً منك

لأمتك ، التى اصطفيناها على سائر الأمم ، وجعلناها أمة وسطا . وقد ورثناها هذا الكتاب لتنتفع بهداياته .. وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيه .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ هم - كما قال ابن عباس وغيره - أمة محمد - ﷺ - ، فإن الله - تعالى - اصطفاهم على سائر الأمم ... »[1] .

وفى التعبير بالاصطفاء ، تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضى يدل على تحقق هذا الاصطفاء .

ثم قسم - سبحانه - هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد . ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله .. ﴾ .

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعود إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية .

وأن المراد بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته .

وأن المراد بالمقتصد : من تساوت حسناته مع سيئاته .

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم .

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ جنات عدن يدخلونها ... ﴾ يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعًا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير فى قوله : ﴿ يدخلونها ﴾ يعود إلى المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله - تعالى - فى سورةالواقعة : ﴿ وكنتم أزواجًا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون .. ﴾ .

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما ملخصه : يقول - تعالى - ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ... وهم هذه الأمة على ثلاثة أقسام : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط فى بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات . ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات .

﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهوالفاعل للواجبات والمستحبات .

قال ابن عباس : هم أمة محمد - ﷺ - ورثهم الله - تعالى - كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٩٤ .

وفى رواية عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله - تعالى - ، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول - ﷺ - .

وفى الحديث الشريف : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ..

وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - من طرق يشد بعضها بعضا .

ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن النبى - ﷺ - أنه قال فى هذه الآية : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة » .

ومعنى قوله « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة »[1] .

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قائل : إن قوله ﴿ يدخلونها ﴾ إنما عنى به المقتصد والسابق بالخيرات ؟

قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل ؟ فإن قال : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولو لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد .

قيل : إنه ليس فى الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله - تعالى - أنهم يدخلون جنات عدن : وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة الله إياه على ذنوبه التى أصابها فى الدنيا ... ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون ممن عمه خبر الله - تعالى - بقوله : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾[2] .

وقال الشوكانى : والظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر . وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعائشة . وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور ...ووجه كونه ظالما لنفسه ، أنها نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيما ...[3] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٣٢ .
(٢) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٢ ص ٩٠ .
(٣) تفسير الشوكانى جـ ٤ ص ٣٤٩ .

قالوا : وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريفًا ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة .. ﴾ .

ولعل السر فى مجىء هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم أكثر الأقسام عددا ، ويليهم المقتصدون ، ويليهم السابقون بالخيرات ، كما قال - تعالى - ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وقوله : ﴿ بإذن الله ﴾ أى : بتوفيقه وإرادته وفضله .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء .

أى : ذلك الذى أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ والضمير للأنواع الثلاثة .

أى : هؤلاء الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات ، ندخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة التى يخلدون فيها خلودًا أبديًا .

يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به إقامة دائمة .

﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ أى أنهم يدخلون الجنات دخولا دائمًا ، وهم فى تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات ، وبأفخر الملابس ، حيث يلبسون فى أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤا ، أما ثيابهم فهى من الحرير الخالص .

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾.

والحزن : غم يعترى الإنسان لخوفه من زوال نعمة هو فيها . والمراد به هنا : جنس الحزن الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة .

أى : وقالوا عند دخولهم الجنات الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعادة والاطمئنان : الحمد لله الذى أذهب عنا جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة .

﴿ إن ربنا ﴾ بفضله وكرمه ﴿ لغفور شكور ﴾ أى : لواسع المغفرة لعباده ولكثير العطاء للمطيعين ، حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة فى مقابل الأعمال القليلة . ﴿ الذى أحلنا دار

المقامة من فضله ﴾ أى : الحمد لله الذى أذهب عنا الأحزان بفضله ورحمته ، والذى ﴿ أحلنا ﴾ أى : أنزلنا ﴿ دار المقامة ﴾ أى : الدار التى لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن سنقيم فيها إقامة دائمة وهى الجنة التى منحنا إياها بفضله وكرمه .

وهذه الدار ﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ أى : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا عناء . يقال : نصب فلان - كفرح - إذا نزل به التعب والإعياء .

﴿ ولا يمسنا فيه لغوب ﴾ أى : ولا يصيبنا فيها كَلال وإعياء بسبب التعب والهموم ، يقال : لَغَب فلان لَغْباً ولُغُوباً . إذا اشتد به الإعياء والهزال .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين النَصَب واللُّغوب ؟

قلت : النصب ، التعب والمشقة ، التى تصيب المنتصب للأمر ، المزاول له .

وأما اللغوب ، فما يلحقه من الفتور بسبب النَصَب . فالنصب : نفس المشقة والكلفة . واللغوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور »[1] .

وبعد هذا البيان البليغ الذى يشرح الصدور لحسن عاقبة المفلحين ، ساقت السورة الكريمة حال الكافرين ، وما هم فيه من عذاب مهين ، فقال - تعالى - :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١٤ .

أى : ﴿ والذين كفروا ﴾ فى الدنيا بكل ما يجب الإيمان به ﴿ لهم ﴾ فى الآخرة ﴿ نار جهنم ﴾ يعذبون فيهاتعذيبًا أليمًا .

ثم بين - سبحانه - حالهم فى جهنم فقال : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ أى : لا يحكم عليهم فيها بالموت مرة أخرى كما ماتوا بعد انقضاء آجالهم فى الدنيا ، وبذلك يستريحون من العذاب . ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم ، بل هى كلما خبت أو هدأ لهيبها ، عادت مرة أخرى إلى شدتها ، وازدادت سعيرا .

والمراد أنهم باقون فى العذاب الأليم بدون موت ، أو حياة يستريحون فيها .

﴿ كذلك نجزى كل كفور ﴾ أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع ، نجزى فى الآخرة ، كل شخص كان فى الدنيا شديد الجحود والكفران لآيات ربه ، الدالة على وحدانيته وقدرته ...

وقوله - تعالى - : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل ﴾ بيان لما يجأرون به إلى ربهم وهم ملقون فى نار جهنم .

ويصطرخون ، بمعنى يستغيثون ويضجون بالدعاء رافعين أصواتهم ، افتعال من الصراخ ، وهو الصياح الشديد المصحوب بالتعب والمشقة ، ويستعمل كثيرًا فى العويل والاستغاثة . وأصله يصترخون ، فأبدلت التاء طاء .

وجملة ﴿ ربنا أخرجنا .... ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : وهم بعد أن ألقى بهم فى نار جهنم ، أخذوا يستغيثون ويضجون بالدعاء والعويل ويقولون : ياربنا أخرجنا من هذه النار ، وأعدنا إلى الحياة الدنيا ، لكى نؤمن بك وبرسولك ، ونعمل أعمالاً صالحة أخرى ترضيك ، غير التى كنا نعملها فى الدنيا .

وقولهم هذا يدل على شدة حسرتهم ، وعلى اعترافهم بجرمهم ، وبسوء أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

وهنا يأتيهم من ربهم الرد الذى يخزيهم فيقول - سبحانه - ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ... ﴾ .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والكلام على إضمار القول ، وقوله ﴿ نعمركم ﴾ من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال فى الحياة الدنيا إلى الوقت الذى كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ما يتذكر فيه ﴾ نكرة موصوفة بمعنى مدة . والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى عمرهم الذى قضوه فى الدنيا .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين عندما يقولون بحسرة وضراعة : ياربنا أخرجنا من النار وأعدنا إلى الدنيا لنعمل عملا صالحًا غير الذى كنا نعمله فيها ، يرد عليهم ربهم بقوله لهم على سبيل الزجر والتأنيب : أو لم نمهلكم فى الحياة الدنيا ، ونعطيكم العمر والوقت الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار واتباع طريق الحق ، وفضلًا عن كل ذلك فقد جاءكم النذير الذى ينذركم بسوء عاقبة إصراركم على كفركم ، ولكنكم كذبتموه وأعرضتم عن دعوته .

والمراد بالنذير : جنسه فيتناول كل رسول أرسله الله - تعالى - إلى قومه ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، وعلى رأس هؤلاء المنذرين سيدنا رسول الله - ﷺ - .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاخسأوا فى جهنم ، واتركوا الصراخ والعويل ، وذوقوا عذابها الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، فليس للمصرين على كفرهم من نصير ينصرهم ، أو يدفع عنهم شيئًا من العذاب الذى يستحقونه .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سعة علمه . فقال : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء سواء أكان هذا الشىء فى السموات أم فى الأرض ، إنه - سبحانه - عليم بما تضمره القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما توسوس به النفوس .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من مظاهر فضله على عباده ، وأقام الأدلة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض .. ﴾ بيان لجانب من فضله - تعالى - على بنى آدم .

و ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة ، وهو من يخلف غيره .

أى : هو - سبحانه - الذى جعلكم خلفاء فى أرضه ، وملككم كنوزها وخيراتها ومنافعها ، لكى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة .

أو جعلكم خلفاء لمن سبقكم من الأمم البائدة ، فاعتبروا بما أصابهم من النقم بسبب إعراضهم عن الهدى ، واتبعوا ما جاءكم به رسولكم - ﷺ - .

وقوله ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ أى : فمن كفر بالحق الذى جاءه به الرسول - ﷺ - واستمر على ذلك ، فعلى نفسه يكون وبال كفره لا على غيره .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ﴾ أى : لا يزيدهم إلا بغضًا شديدًا من ربهم لهم ، واحتقارا لحالهم وغضبًا عليهم ...

فالمقت : مصدر بمعنى البغض والكراهية ، وكانوا يقولون لمن يتزوج امرأة أبيه وللولد الذى يأتى عن طريق هذا الزواج ، المقتى ، أى : المبغوض .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارًا ﴾ أى : ولا يزيدهم إصرارهم على كفرهم إلا خسارا وبوارا وهلاكا فى الدنيا والآخرة .

فالآية الكريمة تنفر أشد التنفير من الكفر ، وتؤكد سوء عاقبته ، تارة عن طريق بيان أنه مبغوض من الله - تعالى - ، وتارة عن طريق بيان أن المتلبس به ، لن يزداد إلا خسرانًا وبوارا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يتحدى هؤلاء المشركين ، وأن يوبخهم على

عنادهم وجحودهم فقال : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتأنيب لهؤلاء المشركين . أخبرونى وأنبئونى عن حال شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، ماذا فعلوا لكم من خير أو شر ، وأرونى أى جزء خلقوه من الأرض حتى استحقوا منكم الألوهية والشركة مع الله - تعالى - فى العبادة ؟

إنهم لم يفعلوا - ولن يفعلوا - شيئًا من ذلك ، فكيف أبحتم لأنفسكم عبادتهم ؟

وقوله ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ تبكيت آخر لهم . أى : وقل لهم : إذا كانوا لم يخلقوا شيئًا من الأرض ، فهل لهم معنا شركة فى خلق السموات أو فى التصرف فيها ، حتى يستحقوا لذلك مشاركتنا فى العبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ﴾ تبكيت ثالث لهم . أى : وقل لهم إذا كانوا لم يخلقوا شيئًا من الأرض ، ولم يشاركونا فى خلق السموات ، فهل نحن أنزلنا عليهم كتابًا أقررنا لهم فيه بمشاركتنا ، فتكون لهم الحجة الظاهرة البينة على صدق ما يدعون ؟

والاستفهام فى جميع أجزاء الآية الكريمة للإنكار والتوبيخ .

والمقصود بها قطع كل حجة يتذرعون بها فى شركهم ، وإزهاق باطلهم بألوان من الأدلة الواضحة التى تثبت جهالاتهم ، حيث أشركوا مع الله - تعالى - ما لا يضر ولا ينفع ، وما لا يوجد دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما ذهبوا إليه من كفر وشرك .

ولذا ختمت الآية الكريمة بالإضراب عن أوهامهم وبيان الأسباب التى حملتهم على الشرك ، فقال - تعالى - : ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضًا إلا غرورا ﴾ .

أى : أن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئًا لا من الأرض ولا من السماء ، ولم نؤتهم كتابًا بأنهم شركاء لنا فى شىء ، بل الحق أن الظالمين يخدع بعضهم بعضًا ، ويعد بعضهم بعضا بالوعود الباطلة ، بأن يقول الزعماء لأتباعهم : إن هؤلاء الآلهة هم شفعاؤنا عند الله ، وأننا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فيترتب على قولهم هذا ، أن ينساق الأتباع وراءهم كما تنساق الأنعام وراء راعيها .

وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه المعبودات الباطلة من عجز وضعف ، أتبع ذلك ببيان جانب من عظيم قدرته ، وعميم فضله فقال : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده .. ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - بقدرته وحدها ، يمسك السموات والأرض كراهة أن تزولاً ، أو يمنعها ويحفظها من الزوال أو الاضمحلال أو الاضطراب ، ولئن زالتا - على سبيل الفرض والتقدير - فلن يستطيع أحد أن يمسكها ويمنعها عن هذا الزوال سوى الله - تعالى - ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ كان ﴾ وما زال ﴿ حليما ﴾ بعباده ﴿ غفورا ﴾ لمن تاب إليه وأناب ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ﴾ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولئن زالتا ﴾ أى : إن أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير ، ﴿ إن أمسكها ﴾ أى : ما أمسكها ﴿ من أحد من بعده ﴾ أى : من بعد إمساكه - تعالى - أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة فى ﴿ لئن ﴾ ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ... و ﴿ من ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد العموم . والثانية للابتداء[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما كان عليه المشركون من نقض العهود ، ومن مكر سىء حاق بهم ، ودعاهم - سبحانه - إلى الاعتبار بمن سبقهم ، وبين لهم جانبًا من مظاهر فضله عليهم . ورأفته بهم فقال - تعالى - :

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن
جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ
وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٠٤ .

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم .. ﴾ : هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدًا - ﷺ - حين بلغهم أن أهل الكتاب ، كذبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيه منهم .. »[1] .

و ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أىْ : أقوى أيمانهم وأغلظها والجهد : الطاقة والوسع والمشقة . يقال : جهد نفسه يجهدها فى الأمر ، إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه .

والمراد : أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها ، بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق .

أى : أن كفار مكة ، أقسموا بالله - تعالى - قسمًا مؤكدًا موثقًا مغلظًا ، ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾ أى : نبى ينذرهم بأن الكفر باطل وأن الإيمان بالله هو الحق .

﴿ ليكونن أهدى ﴾ سبيلا ﴿ من إحدى الأمم ﴾ أى : ليكونن أهدى من اليهود ومن النصارى ومن غيرهم فى اتباعهم وطاعتهم ، لهذا الرسول الذى يأتيهم من عند ربهم لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد - ﷺ - . الذى هو أشرف الرسل .

﴿ ما زادهم إلا نفورا ﴾ أى : ما زادهم مجيئه لهم إلا نفورا عن الحق ، وتباعدا عن الهدى . أى : أنهم قبل مجىء الرسول - ﷺ - كانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم ، لا من غيرهم،وأقسموا بالله بأنهم سيطيعونه فلما جاءهم الرسول - ﷺ - نفروا عنه ولم يؤمنوا به .

وإنما كان القسم بالله - تعالى - غاية أيمانهم ، لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وبأصنامهم ، فإذا اشتد عليهم الحال ، وأرادوا تحقيق الحق ، حلفوا بالله - تعالى - .

وقوله ﴿ ليكونن ﴾ جواب للقسم المقدر . وقوله : ﴿ ما زادهم إلا نفورا ﴾ جواب لمَّا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣٥٨ .

وقوله - تعالى - : ﴿ استكبارا فى الأرض ﴾ بدل من ﴿ نفورا ﴾ أو مفعول لأجله ﴿ ومكر السيئ ﴾ معطوف على استكبارا .

والمراد بمكرهم السيئ : تصميمهم على الشرك ، وتكذيبهم للرسول - ﷺ - ، من أجل المعاندة للحق ، والاستكبار عنه ، ومن أجل المكر السيئ الذى استولى على نفوسهم ، والحقد الدفين الذى فى قلوبهم .

وقوله ﴿ السيئ ﴾ صفة لموصوف محذوف . وأصل التركيب : وأن مكروا المكر السيئ ، فأقيم المصدر مقام أن والفعل ، وأضيف إلى ما كان صفة له .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ بيان لسوء عاقبة مكرهم ، وأن شره ما نزل إلا بهم .

وقوله : ﴿ يحيق ﴾ بمعنى يحيط وينزل . يقول : حاق بفلان الشىء ، إذا أحاط ونزل به . أى : ولا ينزل ولا يحيط شر ذلك المكر السيئ إلا بأهله الماكرين .

قال صاحب الكشاف : لقد حاق بهم يوم بدر . وعن النبى - ﷺ - : لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ ولا تبغوا ولا تعينوا باغيًا ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[1] .

وقال الآلوسى - رحمه الله - : والآية عامة على الصحيح ، والأمور بعواقبها، والله - تعالى - يمهل ولا يهمل ، ووراء الدنيا الآخرة ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وبالجملة : من مكر به غيره ، ونفذ فيه المكر عاجلاً فى الظاهر ، ففى الحقيقة هو الفائز ، والماكر هو الهالك[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ حض لهم على الاستجابة للحق ، وترك المكر والمخادعة والعناد . والسنة : الطريقة ..

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فهل ينتظر هؤلاء الماكرون ، إلا طريقتنا فى الماكرين من قبلهم . وهى إهلاكهم ونزول العذاب والخسران بهم ؟ إنهم ما ينتظرون إلا ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ تأكيد لثبات سنته - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٠٦ .

أى : هذه سنتنا وطريقتنا فى الماكرين والمكذبين لرسلهم ، أننا نمهلهم ولا نهملهم ، ونجعل العاقبة السيئة لهم . ولن تجد لسنة الله - تعالى - فى خلقه تبديلا بأن يضع غيرها مكانها ، ولن تجد لها تحويلا عما سارت عليه وجرت به .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ مصدر مضاف لمفعوله تارة كما هنا ، ولفاعله أخرى كقوله ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ لأنه - تعالى - سنها بهم ، فصحت إضافتها للفاعل وللمفعول . والفاء فى قوله ﴿ فلن تجد ﴾ لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب . ونفى وجدان التبديل والتحويل ، عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى ، وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما .

والمراد : بعدم التبديل . أن العذاب لا يبدل بغيره . وبعدم التحويل : أنه لا يحول عن مستحقه إلى غيره . وجمع بينهما هنا : تعميما لتهديد المسىء لقبح مكره[1] .

ثم ساق لهم - سبحانه - ما يؤكد عدم تغيير سنته فى خلقه ، بأن حضهم على الاعتبار بأحوال المهلكين من قبلهم ، والذين يرون بأعينهم آثارهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

أى أعمى هؤلاء الماكرون عن التدبر ، ولم يسيروا فى الأرض ، فيروا بأعينهم فى رحلاتهم إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما ، كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم ، لقد دمرناهم تدميرا ، مع أنهم كانوا أشد من مشركى مكة قوة ، وأكثر جمعا ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ﴾ أى وما كان من شأن الله - تعالى - أن يعجزه شىء من الأشياء ، سواء أكان فى السموات أو فى الأرض . بل كل شىء تحت أمره وتصرفه .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ كان عليما ﴾ بكل شىء ﴿ قديرا ﴾ على كل شىء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جانب من رحمته بعباده فقال ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ من الذنوب أو الخطايا .

﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أى : على ظهر الأرض ﴿ من دابة ﴾ من الدواب التى تدب عليها . ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة .

﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ الذى حدده - سبحانه - لحسابهم ، جازاهم بما يستحقون ﴿ فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ أى : لايخفى عليه شىء من أحوالهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٠٠ .

وبعد : فهذا تفسير لسورة فاطر . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

صباح الأحد : ٢٠ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ - ٧ / ٧ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لسورة « العنكبوت »

فهرس إجمالى لسورة « الروم »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « لقمان »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « السجدة »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « الأحزاب »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « سبأ »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « فاطر »

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سور

يس	الصّافات
ص	الزمر
غافر	فصّلت

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الثانى عشر

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

تفسير

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

١ – سورة « يس » من السور التى يحفظها كثير من الناس ، لاشتهارها فيما بينهم ، وهى السورة السادسة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « الجن » .

قال القرطبى : وهى مكية بإجماع ، وهى ثلاث وثمانون آية . إلا أن فرقة قالت : إن قوله – تعالى – : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ... ﴾ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار ، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول – ﷺ – [1] .

٢ – وقد ذكروا فى فضلها كثيرا من الآثار ، إلا أن معظم هذه الآثار ضعفها المحققون من العلماء ، لذا نكتفى بذكر ما هو مقبول منها .

قال ابن كثير ما ملخصه : أخرج الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « من قرأ « يس » فى ليلة أصبح مغفورا له »...

وأخرج ابن حيان فى صحيحه ، عن جندب بن عبدالله قال : قال رسول الله – ﷺ – : « من قرأ « يس » فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ، عن معقل بن يسار ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « البقرة سنام القرآن ، ويس قلب القرآن . لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرءوها على موتاكم » أى : فى ساعات الاحتضار وعند خروج الروح .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان . قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت – يعنى يس – عند الميت ، خفف عنه بها [2] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : صح من حديث الإمام أحمد ، وأبى داود ، وابن ماجه ، والطبرانى ، وغيرهم عن معقل بن يسار ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « يس قلب القرآن » .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٤٨ .

وذُكِرَ أنها تسمى المُعِمَّةَ ، والمدافعة ، والقاضية ، ومعنى المعمة : التى تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة . ومعنى المدافعة التى تدفع عن صاحبها كل سوء ، ومعنى القاضية : التى تقضى له كل حاجة - بإذن الله وفضله[1] .

٣ - وقد افتتحت سورة « يس » بتأكيد صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وبتكذيب أعدائه الذين أعرضوا عن دعوته ، وبتسليته عما أصابه منهم من أذى .

قال - تعالى - : ﴿ يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

٤ - ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا إليهم لهدايتهم ، وكيف أهلك الله - تعالى - المكذبين لرسله ...

قال - سبحانه - : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ .

٥ - ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ، ألوانا من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن نعمه على عباده ، تلك النعم التى نراها فى الأرض التى نعيش عليها ، وفى الخيرات التى تخرج منها ، كما نراها فى الليل والنهار . وفى الشمس وفى القمر ، وفى غير ذلك من مظاهر نعمه التى لا تحصى .

قال - تعالى - ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبتُ الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

٦ - وبعد هذا البيان الحكيم لمظاهر قدرة الله - تعالى - ، وفضله على عباده ، حكت السورة الكريمة جانبا من دعاوى المشركين الباطلة ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وصورت أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم مسرعين ، ليقفوا بين يدى الله - تعالى - للحساب والجزاء ...

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٠٩ .

قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لاتظلم نفس شيئا ، ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

٧ - وبعد أن تحكى السورة الكريمة ما أعده الله تعالى بفضله وكرمه لعباده المؤمنين ، من جنات النعيم ، ومن خير عميم ، تعود فتحكى ما سيكون عليه الكافرون من هم وغم ، وكرب وبلاء ، بسبب كفرهم ، وتكذيبهم للحق الذي جاءهم به نبيهم - ﷺ - .

قال - تعالى - : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

٨ - ثم تنزه السورة الكريمة النبى - ﷺ - عما اتهمه به أعداؤه ، من أنه شاعر ، وتسليه عما أصابه منهم ، وتبين للناس أن وظيفته - ﷺ - إنما هى الإنذار والبلاغ .

قال - تعالى - ﴿ وماعلمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

٩ - ثم تختتم السورة الكريمة بحكاية ما قاله أحد الأشقياء منكرا للبعث والحساب ، وردت عليه وعلى أمثاله برد جامع حكيم ، برشد كل عاقل إلى إمكانية البعث ، وأنه حق لاشك فيه ..

قال - تعالى - : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ .

١٠ - وبعد. فهذا عرض مجمل لسورة « يس » ومنه نرى، أن هذه السورة الكريمة، قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته كما اهتمت بإبراز الأدلة المتعددة على أن البعث حق ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ...

كما اهتمت بضرب الأمثال لبيان حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، يغلب عليه قصر الآيات ، وإيراد الشواهد المتنوعة على قدرة

الله - تعالى - ، عن طريق مخلوقاته المبثوثة فى هذا الكون ، والتى من شأن المتأمل فيها بعقل سليم ، أن يهتدى إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

وصدق الله - تعالى - فى قوله : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ».

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

صباح الخميس : ٢٣ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ

١١ / ٧ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا
أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ
مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

قوله - تعالى - يس من الألفاظ التى اختلف المفسرون فى معناها ، فمنهم من يرى أن هذه الكلمة اسم للسورة ، أو للقرآن ، أو للرسول - ﷺ - .

ومنهم من يرى أن معناها : يا رجل ، أو يا إنسان .

ولعل أرجح الأقوال أن هذه الكلمة من الألفاظ المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبيه إلى أن هذا القرآن المؤلف من جنس الألفاظ التى ينطقون بها ، هو من عند الله - تعالى - ، وأنهم ليس فى إمكانهم أو إمكان غيرهم

أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ...

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ يس ﴾ : الكلام فيه كالكلام فى « ألم » ونحوه من الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور ، إعرابا ومعنى عند الكثيرين .

وظاهر كلام بعضهم أن « يس » بمجموعه ، اسم من أسمائه - ﷺ - .

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة فى الواو ، وقرأ آخرون بسكونها مظهرة ، والقراءتان سبعيتان ...[1] .

قوله - تعالى - : ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ قسم منه - تعالى - بكتابه ذى الحكمة العالية . والهدايات السامية ، والتوجيهات السديدة ، والتشريعات القويمة ، والآداب الحميدة ...

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ جواب لهذا القسم .

أى : وحق هذا القرآن الحكيم ، إنك أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وتبليغ دعوتنا إلى الناس ، لكى يخلصوا العبادة لنا ، ولا يشركوا معنا فى ذلك غيرنا .

وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد ، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبى - ﷺ - وقالوا فى شأنه : « لست مرسلا » .

قال بعض العلماء : واعلم أن الأقسام الواقعة فى القرآن . وإن وردت فى صورة تأكيد المحلوف عليه ، إلا أن المقصود الأصلى بها تعظيم المقسم به ؛ لما فيه من الدلالة على اتصافه - تعالى - بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من الحلف : الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة . كأنه قال : إن من أنزل القرآن - وهو ما هو فى عظم شأنه - هو الذى أرسل رسوله محمدا - ﷺ - ومثل ذلك يقال له فى الأقسام التى فى السور الآتية ...[2] .

وقوله - تعالى - ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر ثان لحرف « إن » فى قوله - تعالى - قبل ذلك :﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

أى : إنك - يا محمد - لمن أنبيائنا المرسلين ، على طريق واضح قويم ، لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ، ولا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، بل هو فى نهاية الاعتدال والاستقامة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر بعد خبر ، أوصلة للمرسلين .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير « صفوة البيان » جـ ٢ ص ٢١٥ لفضيلةالأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف .

فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟

قلت : ليس الغرض بذكره ماذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته . وإنما الغرض وصفه ، ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين فى نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة ، على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه -أى : فى التضخيم والتعظيم- [1] .

ثم مدح -سبحانه- كتابه بمدائح أخرى فقال : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ وقد قرأ بعض القراء السبعة : ﴿ تنزيل ﴾ بالنصب على المدح ، أو على المصدرية لفعل محذوف . أى : نزل الله -تعالى- القرآن تنزيل العزيز الرحيم .

وقرأ البعض الآخر : ﴿ تنزيل ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هذا القرآن هو تنزيل العزيز -الذى لايغلبه غالب- ، الرحيم أى الواسع الرحمة بعباده .

ثم بين -سبحانه- الحكمة من إرساله لنبيه -ﷺ- فقال : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ .

واللام فى قوله : ﴿ لتنذر ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه قوله : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

والإنذار : إخبار معه تخويف فى مدة تتسع للتحفظ من الخوف . فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار . وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله -تعالى- .

والمراد بالقوم : كفار مكة الذين بعث النبى -ﷺ- لإنذارهم ، وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعا ، كما قال -تعالى- : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ... ﴾ و﴿ ما ﴾ نافية . والمراد بآبائهم : آباؤهم الأقربون ، لأن آباءهم الأبعدون قد أرسل الله -تعالى- إليهم إسماعيل -عليه السلام- .

أى : أرسلناك -يا محمد- بهذه الرسالة من لدنا ، لتنذر قوما ، وهم قريش المعاصرون لك ، لم يسبق لهم أو لآبائهم أن جاءهم نذير منا يحذرهم من سوء عاقبة الإشراك بالله -تعالى- فهم لذلك غافلون عما يجب عليهم نحو خالقهم من إخلاص العبادة له ، وطاعته فى السر والعلن .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤ .

قال ابن كثير : قوله ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعنى بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لاينفى من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لاينفى العموم ، الذى وردت به الآيات والأحاديث المتواترة ...»[١] .

وقال الجمل ما ملخصه : قوله ﴿ لتنذر قوما ... ﴾ أى العرب وغيرهم وقوله ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ أى الأقربون ، وإلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا فآباء العرب الأقدمون أنذروا بإسماعيل ، وآباء غيرهم أنذروا بعيسى.. و « ما » نافية ، لأن قريشا لم يبعث إليهم نبى قبل نبينا - ﷺ - فالجملة صفة لقوله « قوما » أى : قوما لم ينذروا . وقوله ﴿ فهم غافلون ﴾ مرتب على الإنذار ...»[٢] .

ثم بين - سبحانه - مصير هؤلاء الغافلين ، الذين استمروا فى غفلتهم وكفرهم بعد أن جاءهم النذير ، فقال : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ، فهم لا يؤمنون ﴾ .

والجملة جواب لقسم محذوف . ومعنى ﴿ حق ﴾ ثبت ووجب .

والمراد بالقول : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهم بسبب إصرارهم على كفرهم .

أى : والله لقد ثبت وتحقق الحكم أزلا بالعذاب على أكثر هؤلاء المنذرين بسبب عدم إيمانهم برسالتك ، وجحودهم الحق الذى جئتهم به ، وإيثارهم باختيارهم الغى على الرشد ، والضلال على الهدى ...

وقال - سبحانه - ﴿ على أكثرهم ﴾ لأن قلة منهم اتبعت الحق ، وآمنت به ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٣] .

ثم صور - سبحانه - انكبابهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، تصويرا بليغا فقال : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين ، وهو القيد الذى تشد به اليد إلى العنق بقصد التعذيب والأذقان : جمع ذقن - بفتح الذال - وهو أسفل الفم .

ومقمحون . من الإقماح ، وهو رفع الرأس مع غض البصر . يقال : قمح البعير قموحا إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . والفاء فى قوله ﴿ فهى ﴾ وفى قوله ﴿ فهم ﴾ : للتفريع .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٤٩ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٠٣ .
(٣) سورة يونس الآيتان ٩٦ ، ٩٧

أى : إنا جعلنا فى أعناق هؤلاء الجاحدين قيودا عظيمة ، فهى -أى هذه القيود- واصلة إلى أذقانهم ، فهم بسبب ذلك مرفوعة رءوسهم ، مع غض أبصارهم ، بحيث لايستطيعون أن يخفضوها ، لأن القيود التى وصلت إلى أذقانهم منعتهم من خفض رءوسهم .

فقد شبه -سبحانه- فى هذه الآية ، حال أولئك الكافرين ، المصرين على جحودهم وعنادهم ، بحال من وضعت الأغلال فى عنقه ووصلت إلى ذقنه ، ووجه الشبه أن كليهما لا يستطيع الانفكاك عما هو فيه .

ثم أكد -سبحانه- هذا الإصرار من الكافرين على كفرهم فقال : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . أى : أننا لم نكتف بجعل الأغلال فى أعناقهم ، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم حاجزا عظيما ، ومن خلفهم كذلك حاجزا عظيما . ﴿ فأغشيناهم ﴾ أى : فجعلنا على أبصارهم غشاوة وأغطية تمنعهم من الرؤية ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ شيئابسبب احتجاب الرؤية عنهم .

فالآية الكريمة تمثيل آخر لتصميمهم على كفرهم ، حيث شبههم -سبحانه- بحال من أحاطت بهم الحواجز من كل جانب ، فمنعتهم من الرؤية والإبصار .

ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهاتين الآيتين : ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لاسبيل الى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولايعطفون أعناقهم بنحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لايبصرون ما قدامهم ولا ماخلفهم فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله »[1] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة ، أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن ، فأنزل الله -تعالى- قوله : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ... ﴾ فكانوا يقولون لأبى جهل : هذا محمد -ﷺ- فيقول : أين هو ؟ ولايبصره[2] .

وقوله -تعالى- : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ بيان لما وصل إليه هؤلاء الجاحدون من عناد وانصراف عن الحق .

وقوله ﴿ سواء ﴾ اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به اسم الفاعل . أى : مستو . أى : أن هؤلاء الذين جعلنا فى أعناقهم أغلالا .. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول جـ ١٨٧ للسيوطى .

سدا ، مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه ، فهم - لسوء استعدادهم وفساد فطرهم - لا يؤمنون بالحق الذى جئتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه ، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به ، لأنهم ماتت قلوبهم ، وصارت لاتتأثر بشىء مما تدعوهم إليه ..

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للتذكير فقال : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ .

أى : إنما تنذر - أيها الرسول الكريم - إنذارا نافعا ، أولئك الذين اتبعوا إرشادات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه ...

وينفع إنذارك - أيضا - مع من ﴿ خشى الرحمن بالغيب ﴾ أى : مع من خاف عقاب الرحمن دون أن يرى هذا العقاب ، ودون أن يرى الله - تعالى - الذى له الخلق والأمر .

هؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد ، لأنهم فتحوا قلوبهم للحق ، واستجابوا له .

والفاء فى قوله : ﴿ فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ لترتيب البشارة أو الأمر بها ، على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية .

أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - هذا النوع من الناس ، بمغفرة عظيمة منا لذنوبهم ، وبأجر كريم لا يعلم مقداره أحد سوانا .

ثم أكد - سبحانه - أن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، لكى لايغفل عنهما الناس ، ولكى يستعدوا لهما بالإيمان والعمل الصالح فقال : ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ... ﴾ .

أى : إنا نحن بقدرتنا وحدها نحيى الموتى بعد موتهم ، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى لكى نحاسبهم على أعمالهم .

﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ أى : وإنا نحن الذين نسجل عليهم أعمالهم التى عملوها فى الدنيا سواء أكانت هذه الأعمال صالحة أم غير صالحة .

ونسجل لهم - أيضا - آثارهم التى تركوها بعد موتهم سواء أكانت صالحة كعلم نافع ، أو صدقة جارية ... أم غير صالحة كدار للهو واللعب ، وكرأى من الآراء الباطلة التى اتبعها من جاء بعدهم ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون من ثواب أو عقاب ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ أى : وكل شىء أثبتناه وبيناه فى أصل عظيم ، وفى كتاب واضح عندنا . ألا وهو اللوح المحفوظ ، أو علمنا الذى لا يعزب عنه شىء .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وفى قوله : ﴿ آثارهم ﴾ قولان :

أحدهما : ونكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها - أى تركوها - من

بعدهم ، فنجزيهم على ذلك - أيضا - ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . كقوله - ﷺ - من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء ..

والثانى : أن المراد بقوله ﴿ وآثارهم ﴾ أى : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . فقد روى مسلم والإمام أحمد عن جابر بن عبدالله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى المسجد ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : يابنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم ».

ثم قال ابن كثير : ولا تنافى بين هذا القول والذى قبله ، بل فى القول الثانى تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب ، فلأن تكتب التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى [1] .

هذا ، وتلك الرواية الصحيحة تشير إلى أن هذه الآية ليست مدنية - كما قيل - ، لأن هذه الرواية تصرح بأن الرسول - ﷺ - قد قال لبنى سلمة ، « دياركم تكتب آثاركم » أى : ألزموا دياركم تكتب آثاركم .. دون إشارة إلى سبب النزول .

قال الآلوسى ما ملخصه : والأحاديث التى فيها أن الله - تعالى - أنزل هذه الآية ، حين أراد بنو سلمة أن ينتقلوا من ديارهم. معارضة بما فى الصحيحين من أن النبى - ﷺ - قرأ لهم هذه الآية ، ولم يذكر أنها نزلت فيهم ، وقراءته - ﷺ - لاتنافى تقدم النزول . أى : أن الآية مكية كبقية السورة[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أثبتت صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وبينت الحكمة من رسالته ، كما بينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقرأ على الناس - ليعتبروا ويتعظوا - قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٥١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢١٨ .

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ
الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ﴾ وهذه القرية هى « أنطاكية » فى قول جميع المفسرين ... والمرسلون : قيل : هم رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله - تعالى -[1] .

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبى والمفسرون من أن المراد بالقرية « أنطاكية » كما أنه لم يرتض الرأى القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى - عليه السلام - فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عيسى - عليه السلام - وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال - تعالى - : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ... ﴾

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه السلام ، ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التى فيها بتاركة - أى ، علماء بالدين المسيحى ..

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٤ .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغيره ، أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ...

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة . قرية أخرى غير أنطاكية .. فإن هذه القرية المشهورة بهذا الاسم لم يعرف أنها أهلكت ، لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك[1] .

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه فى هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التى تؤخذ منها .

وضرب المثل فى القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل فى تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا . وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ .

فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية ، مثلا لمشركى مكة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أصحاب القرية ﴾ .

والمراد بالمرسلين : الذين أرسلهم الله إلى أهل تلك القرية ، لهدايتهم إلى الحق .

وقوله : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما .. ﴾ بيان لكيفية الإرسال ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .

أى : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - ، يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا ، فكذبوهما . وأعرضوا عن دعوتهما .

والفاء فى قوله ﴿ فكذبوهما ﴾ للإفصاح ، أى : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليهم فكذبوهما .

وقوله : فعززنا بثالث أى : فقوينا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية ، ومنه

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٥٩ .

قولهم : تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى . وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها . وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .

ومفعول ﴿ فعززنا ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعززناهما برسول ثالث ﴿ فقالوا ﴾ أى الرسل الثلاثة لأصحاب القرية : ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونبذ عبادة الأصنام .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون ﴾ .

أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشراً مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شىء مما تدعوننا إليه .

ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا .

وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيم يقولونه .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ .

أى : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علما ، وبحكمه حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا ، لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم . بالمنطق الرصين ، وبتأكيد أنهم رسل الله ، وأنهم صادقون فى رسالتهم ، لأن قولهم ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ جار مجرى القسم فى التوكيد .

وقولهم : ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تحديد للوظيفة التى أرسلهم الله - تعالى - من أجلها .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردا قبيحا ، فقالوا لهم : ﴿ إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ والتطير : التشاؤم . أى قالوا فى الرد عليهم : إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى

وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى مالا نريده ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ تطيرنا بكم ﴾ أى : تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه ، واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا مما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء ، قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا ..[1] .

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد - أيضا - بالثبات ، والمنطق الحكيم فقالوا لهم : ﴿ طائركم معكم ، أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم ، بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم .

وجواب الشرط لقوله : ﴿ أئن ذكرتم ﴾ محذوف ، والتقدير : أئن وعظتم وذكرتم بالحق ، وخوفتم من عقاب الله .. تطيرتم وتشاءمتم .

وقوله : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ إضراب عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم .

أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى ، وفى إيثار الباطل على الحق ، والغى على الرشد ، والتشاؤم على التيامن .

ثم بين - سبحانه - بعد تلك المحاورة التى دارت بين أهل القرية وبين الرسل ، والتى تدل على أن أهل القرية كانوا مثلا فى السفاهة والكراهة للخير والحق .

بين - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسل الله - تعالى - وتطاولهم عليهم ، وتهديدهم لهم بالرجم : فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٩ .

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ
يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن
لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن
يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾
۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ
أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة ، والتقدير :

وانتشر خبر الرسل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم ﴿ وجاء من أقصا المدينة ﴾ أى من أبعد مواضعها ﴿ رجل يسعى ﴾ أى : رجل ذو فطرة سليمة ، يسرع

(*) أول الجزء الثالث والعشرون .

الخطا لينصح قومه ، وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم .

قالوا : وهذا الرجل كان إسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالنجارة .

وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه .

ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله - تعالى - عليه بصرف النظر عن إسمه أو صنعته أو حاله ، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها فى القرآن الكريم هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير .

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها فى أول القصة بالقرية للإشارة إلى سعتها ،وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .

والتعبير بقوله : ﴿ يسعى ﴾ : يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو همته ، ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يرتض أن يقبع فى بيته - كما يفعل الكثيرون - بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم .

أى : ﴿ قال ﴾ لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ﴿ ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذى انغمستم فيه .

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم الى الطريق الحق ، والحال أنهم فى أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون فى التمسك بالعقيدة السليمة .

ثم أخذ بعد ذلك فى حض قومه على اتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذا لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ .

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعنى من أن أعبد الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقنى ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أأتخذ من دونه آلهة .. ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا يصح ولا يجوز أن اتخذ معه فى العبادة آلهة أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ﴾ من النفع ، حتى ولو كان هذا النفع فى نهاية القلة والحقارة .

﴿ ولا ينقذون ﴾ : ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى مما يصيبنى من ضر أراد الرحمن أن ينزله بى .

﴿ إنى إذا ﴾ لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله فى العبادة ﴿ لفى ضلال مبين ﴾ أى : لأكونن فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : ﴿ إنى آمنت بربكم ﴾ ، الذى خلقكم ورزقكم ﴿ فاسمعون ﴾ أى : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لى بأنى آمنت بربكم الذى خلقكم وخلقنى ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه - سبحانه - فى العبادة أحدا . مهما كانت النتائج .

وهكذا نرى الرجل الصالح الذى استقر الإيمان فى قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذى آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحدا إلا الله ، ويدعو قومه بشتى الأساليب إلى اتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة ما يدعو إليه .

ثم يصارحهم فى النهاية ، ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو وعيد أو إيذاء أو قتل .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد أجاد فى تصوير هذه المعانى فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ كلمة جامعة فى الاستجابة لدعوة الرسل ، أى : لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ثم أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وليتلطف بهم ويداريهم .. فقال : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾ .

ثم قال : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ يريد فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه ، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ..[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١١ .

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه ، فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه ، ﴿ قيل ادخل الجنة ... ﴾ .

أى : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ قيل ادخل الجنة .. ﴾ استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك .

والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة ، فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه ..

وقيل : الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة ، أى : قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ استئناف بيانى لبيان ما قاله عند البشارة .

أى : قيل له ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح ، فرد وقال : ياليت قومى الذين قتلونى ولم يسمعوا نصحى ، يعلمون بما نلته من ثواب من ربى ، فقد غفر لى - سبحانه - ، وجعلنى من المكرمين عنده ، بفضله وإحسانه ..

قال ابن كثير : ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ماحصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

روى ابن أبى حاتم أن عروة بن مسعود الثقفى ، قال للنبى - ﷺ - : ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام ، فقال له - ﷺ - « إنى أخاف أن يقتلوك » ، فقال : يارسول الله ، لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فقال له رسول الله - ﷺ - « انطلق إليهم » فانطلق إليهم ، فمر على اللات والعزى فقال : لأُصْبِحَنْك غدا بما يسوؤك ، فغضبت ثقيف فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا تسلموا - ثلاث مرات - . فرماه رجل منهم فأصاب أكْحَلَه فقتله - والأكحل : عرق فى وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس ﴿ قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٢٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٥٨ .

وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿ ياليت قومى يعلمون .. ﴾ إنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر ، والدخول فى الإيمان .. وفى حديث مرفوع : « نصح قومه حيا وميتا » .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى ، والتشمر فى تخليصه ، والتلطف فى افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبدة أصنام ..[1] .

ثم بين – سبحانه – ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلكهم فقال : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾: أى : من بعد موته .

﴿ من جند من السماء ﴾ لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن نفعل معهم ذلك .

﴿ وما كنا منزلين ﴾ أى : وما صح وما استقام فى حكمتنا أن ننزل عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم ، وهوان قدرهم .

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحها بهم جبريل بأمرنا .

﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أى : هامدون ميتون ، شأنهم فى ذلك كشأن النار التى أصابها الخمود والانطفاء ، بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة ، يقال . خمدت النار تخمد خمودا . إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها ، وخمد الرجل – كقعد – إذا مات وانقطعت أنفاسه .

وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين ، فقد نزلت بهم عقوبة الله – تعالى – فجعلتهم فى ديارهم جاثمين .

وبعد أن بين – سبحانه – سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدعوة الناس إلى الاتعاظ بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال – تعالى – : ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ .

والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والندم عليه ندما لا نفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار فى غير استطاعته إرجاعها .

و « يا » حرف نداء . و « حسرة » منادى وندائها على المجاز بتنزيلها منزلة العقلاء .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١١ .

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل ، وآثروا العمى على الهدى ، ويدخل فيهم دخولا أوليا أصحاب تلك القرية المهلكة .

والمقصود من الآية الكريمة ، التعجب من حال هؤلاء المهلكين ، وبيان أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم .

والمعنى : ياحسرة على العباد الذين أهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضرى فهذا أوان حضورك ، فإن هؤلاء المهلكين كانوا فى دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل، إلا كانوا به يستهزئون ، ويتغامزون ، و يستخفون به وبدعوته ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون . لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ياحسرة على العباد ... ﴾ نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف عليهم المتلهفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .

وقرىء : ياحسرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث إنها موجهة إليهم[1] .

أى : ياحسرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم .

ثم وبخ - سبحانه - كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ .

والقرون : جمع قرن . وهم القوم المقترنون فى زمن واحد . و « كم » خبرية بمعنى كثير .

أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسلهم ، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إليهم ليخبروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك فى الدنيا ، لحكمة أرادها الله - تعالى - .

ولكن الجميع سيعودون إليه - سبحانه - وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ .

و « إن » حرف نفى ، و « كل » مبتدأ ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣ .

و « لما » بمعنى إلا . و « جميع » خبر المبتدأ . و « محضرون » خبر ثان .

أى : لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكنا كثيرا من القرى الظالم أهلها . وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة فى الدنيا ، ولكن الحقيقة التى لاشك فيها أنه ما من أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات المتقدمة أو المتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة ، لنحاسبها على أعمالها ، ولنجازيها بالجزاء الذى تستحقه .

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، وهذه الأدلة منها ما هو أرضى ، ومنها ما هو سماوى ، ومنها ما هو بحرى ، وكلها تدل - أيضا - على فضله ورحمته ، قال - تعالى - :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

---

(١) سورة هود آية ١١١ .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه قوله : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ وجه تعلقه بما قبله ، أنه - سبحانه - لما قال : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم واستبعادهم ، و عنادهم فقال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها .. ﴾ أى : وكذلك نحيى الموتى..."[1] .

والمراد بالآية هنا : العلامة والبرهان والدليل .

والمراد بالأرض الميتة : الأرض الجدباء التى لا نبات فيها .

والمراد بالحب : جنسه من حنطة وشعير وغيرهما .

أى : ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى ، أننا ننزل الماء على الأرض الجدباء . فتهتز وتربو ، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التى يعيشون عليها . ويأكلون منها .

ونكر - سبحانه - لفظ ﴿ آية ﴾ للإشعار بأنها آية عظيمة ، كان ينبغى لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها ، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء ، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها .

والله - تعالى - الذى قدر على ذلك ، قادر - أيضا - على إحياء الموتى وإعادتهم إلى الحياة .

وقوله : ﴿ أحييناها ﴾ كلام مستأنف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله ﴿ فمنه يأكلون ﴾ للدلالة على أن الحَبَّ هو الشىء الذى تكون منه معظم المأكولات التى يعيشون عليها ، وأن قِلَّته تؤدى الى القحط والجوع .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٧٧ .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم الأخرى التى تحملها الأرض لهم فقال : ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على قوله ﴿ أحييناها ﴾ ، ونخيل : جمع نخل ، كعبيد جمع عبد ، وأعناب : جمع عنب : والعيون ، جمع عين . والمراد بها الآبار التى تسقى بها الزروع .

أى : أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء .. وجعلنا فيها - بقدرتنا ورحمتنا - بساتين كثيرة من نخيل وأعناب ، وفجرنا وشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التى تسقى بها تلك الزروع والثمار .

وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنها أشهر الفواكه المعروفة لديهم ، وأنفعها عندهم .

واللام فى قوله : ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وجعلنا .... ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ من ثمره ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل والأعناب . أو إلى الله - تعالى - .

أى : وجعلنا فى الأرض ما جعلنا من جنات ومن نخيل ومن أعناب ، ليأكلوا ثمار هذه الأشياء التى جعلناها لهم ، وليشكرونا على هذه النعم .

و « ما » فى قوله : ﴿ وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ الظاهر أنها نافية والجملة حالية ، والاستفهام للحض على الشكر .

أى : جعلنا لهم فى الأرض جنات من نخيل وأعناب ، ليأكلوا من ثمار ما جعلناه لهم ، وإن هذه الثمار لم تصنعها أيديهم ، وإنما الذى أوجدها وصنعها هو الله - تعالى - بقدرته ومشيئته .

وما دام الأمر كذلك ، فهلا شكرونا على نعمنا ، وأخلصوا العبادة لنا .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أى : وماذاك كله إلا من رحمتنا بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة . ولهذا قال : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى[1] .

ويصح أن تكون « ما » هنا موصولة فيكون المعنى : ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم من هذه الثمار كالعصير الناتج منها ، وكغرسهم لتلك الأشجار وتعهدها بالسقى وغيره ، إلى أن آتت أكلها .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦١ .

قال الشوكانى : وقوله : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ معطوف على ثمره ، أى : ليأكلوا من ثمره ، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن « ما » موصولة ، وقيل : هى نافية ، والمعنى : لم يعملوه بأيديهم ، بل العامل له هو الله ..[1] .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له من ثناء فقال : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ﴾ .

ولفظ : ﴿ سبحان ﴾ اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله سبحانا : أى : تسبيحا . بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما .

و « من » فى الآية الكريمة للبيان .

أى : ننزه الله - تعالى - تنزيها عن كل سوء . ونعظمه تعظيما لا نهاية له ، فهو - عز وجل - ﴿ الذى خلق الأزواج كلها ﴾ أى : الأنواع ، والأصناف كلها ذكورا وإناثا .

﴿ مما تنبت الأرض ﴾ أى خلق الأصناف كلها التى تنبت فى الأرض من حبوب وغيرها .

﴿ ومن أنفسهم ﴾ أى : وخلقها من أنفسهم إذ الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر .

﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أى : و خلق هذه الأصناف كلها من أشياء لا علم لهم بها ، وإنما مرد علمها إليه وحده - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر قدرته - تعالى - وبديع خلقه ، حيث خلق الأصناف كلها ، نرى بعضها نابتا فى الأرض ، ونرى بعضها متمثلا فى الإنسان المكون من ذكر وأنثى ، وهناك مخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى الأرض التى نعيش عليها ، عقب ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى تقلب الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، فقال - تعالى - : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار . فإذا هم مظلمون ﴾ .

وقوله : ﴿ نسلخ ﴾ من السلخ بمعنى الكشط والإزالة ، يقال : سلخ فلان جلد الشاة ، إذا أزاله عنها .

والمراد هنا : إزالة ضوء النهار عن الليل ، ليبقى لليل ظلمته .

قال صاحب الكشاف : سَلْخ جلد الشاة ، إذا كشطه عنها وأزاله . ومنه : سَلْخُ الحيةِ

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٣٦٨ .

لِخرْشَائها - أى : لجلدها - فاستعير ذلك لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل ، وملقى ظله[١] .

أى : ومن البراهين والعلامات الواضحة ، الدالة على وحدانية الله ، وقدرته على إحياء الموتى ، وجود الليل والنهار بهذه الطريقة التى نشاهدها ، حيث ينزع - سبحانه - عن الليل النهار ، فيبقى لليل ظلامه ، ويصير الناس فى ليل مظلم ، بعد أن كانوا فى نهار مضىء .

فمعنى : ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ : فإذا هم داخلون فى الظلام ، بعد أن كانوا بعيدين عنه . يقال : أظلم القوم . إذا دخلوا فى الظلام . وأصبحوا ، إذا دخلوا فى وقت الصباح .

وقوله - تعالى - : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ﴾ بيان لدليل آخر على قدرته - تعالى - وهو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وآية لهم الليل .. ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ لمستقر لها ﴾ أى لحد معين تنتهى إليه .. شبه بمستقر المسافر إذا انتهى من سيره ، والمستقر عليه اسم مكان ، واللام بمعنى إلى ..

ويصح أن يكون اسم زمان ، على أنها تجرى إلى وقت لها لا تتعداه ، وعلى هذا فمستقرها : انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ..[٢] .

والمعنى : وآية أخرى لهم على قدرتنا ، وهى أن الشمس تجرى إلى مكان معين لا تتعداه ، وإلى زمن محدد لا تتجاوزه ، وهذا المكان وذلك الزمان ، كلاهما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

قال بعض العلماء : قوله - تعالى - : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ﴾ أى : والشمس تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة فى مكانها ، وإنما هى تجرى فعلا .. تجرى فى اتجاه واحد ، فى هذا الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلا فى الثانية .

والله ربها الخبير بجريانها وبمصيرها يقول : إنها تجرى لمستقر لها ، هذا المستقر الذى ستنتهى إليه لا يعلمه إلا هو - سبحانه - ولا يعلم موعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك أو تجرى فى الفضاء لا يسندها شىء ، حين نتصور ذلك ، ندرك طرفا من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم[٣] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٢ .
(٣) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ٢٥ .

وقد ساق القرطبى عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فقال : وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قال سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله - تعالى - : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ﴾ قال مستقرها تحت العرش .

ولفظ البخارى عن أبى ذر قال : قال النبى - ﷺ - لى حين غربت الشمس . « تدرى أين تذهب » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها . فيقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها . فذلك قوله - تعالى - : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ﴾[1] .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يعود الى الجرى المفهوم من « تجرى » .

أى : ذلك الجريان البديع العجيب المقدر الشمس ، تقدير الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، العليم بكل شىء فى هذا الكون علما لا يخفى معه قليل أو كثير من أحوال هذا الكون .

ثم ذكر - سبحانه - آية أخرى تتعلق بكمال قدرته فقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل .. ﴾ .

ولفظ القمر قرأه جمهور القراء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده .

والمنازل جمع منزل . والمراد بها أماكن سيره فى كل ليلة ، وهى ثمان وعشرون منزلا ، تبدأ من أول ليلة فى الشهر ، إلى الليلة الثامنة والعشرين منه . ثم يستتر القمر ليلتين إن كان الشهر تاما . ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ليلة .

أى : وقدرنا سير القمر فى منازل ، بأن ينزل فى كل ليلة فى منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، إذ كل شىء عندنا بمقدار ..

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « والقمر » بالرفع على الابتداء ، وخبره جملة « قدرناه » .

قال الآلوسى ما ملخصه . قوله : ﴿ والقمر قدرناه ﴾ - بالنصب - أى : وصيرنا سيره ، أى : محله الذى يسير فيه « منازل » فقدَّر بمعنى صيَّر الناصب لمفعولين . والكلام على

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٧ وابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٢ .

حذف مضاف ، والمضاف المحذوف مفعوله الأول ﴿ ومنازل ﴾ مفعوله الثانى .

وقرأ الحرميان وأبو عمرو : ﴿ والقمرُ ﴾ بالرفع ، على الابتداء ، وجملة ﴿ قدرناه ﴾ خبره .

والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ تصوير بديع لحالة القمر وهو فى آخر منازله .

والعرجون : هو قنو النخلة ما بين الشماريخ إلى منبته منها ، وهو الذى يحمل ثمار النخلة سواء أكانت تلك الثمار مستوية أم غير مستوية . وسمى عرجونا من الانعراج ، وهو الانعطاف والتقوس ، شبه به القمر فى دقته وتقوسه واصفراره .

أى : وصيرنا سير القمر فى منازل لايتعداها ولايتقاصر عنها ، فإذا صار فى آخر منازله ، أصبح فى دقته وتقوسه كالعرجون القديم ، أى : العتيق اليابس .

قال بعض العلماء : والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة . يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . ولكنه فى لياليه الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وقوة . وفى لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكون فيه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم . فليست مصادفة أن يعبر القرآن عنه هذا التعبير الموحى العجيب[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾ بيان لدقة نظامه - سبحانه - فى كونه ، وأن هذا الكون الهائل يسير بترتيب فى أسمى درجات الدقة ، وحسن التنظيم .

أى : لا يصح ولا يتأتى للشمس أن تدرك القمر فى مسيره فتجتمع معه بالليل .

وكذلك لا يصح ولا يتأتى لليل أن يسبق النهار ، بأنه يزاحمه فى محله أو وقته ، وإنما كل واحد من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، يسير ، فى هذا الكون بنظام بديع قدره الله - تعالى - له ، بحيث لا يسبق غيره ، أو يزاحمه فى سيره .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿لا الشمس ينبغى لَها أن تدرك القمر ﴾ قال

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٦ .

(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ٢٥ .

مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ، ولا يَقصُر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ..

وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل ،

وقوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يقول : لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر ، حتى يكون النهار ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ التنوين فى « كل » عوض عن المضاف إليه ..

قال الآلوسى : والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارته ، كفلكة المغزل ، وهى الخشبة المستديرة فى وسطه ، وفلكة الخيمة ، وهى الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة[2] .

أى : وكل من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، فى أجزاء هذا الكون يسيرون بانبساط وسهولة ، لأن قدرة الله - تعالى - تمنعهم من التصادم أو التزاحم أو الاضطراب .

ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من النعم التى امتن بها على عباده فقال : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن الضمير فى « لهم » يعود إلى أهل مكة ، والمراد بذريتهم : أولادهم صغارا أو كبارا ، والمراد بالفلك المشحون : جنس السفن .

فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - أولادهم صغارا وكبارا فى السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى ، وسخرنا لهم هذه السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر .

ويرى بعضهم أن الضمير فى « لهم » يعود إلى الناس عامة ، والمراد بذريتهم آباؤهم الأقدمون ، والمراد بالفلك المشحون : سفينة نوح - عليه السلام - التى أنجاه الله - تعالى - فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم .

فيكون المعنى : وعلامة ودليل واضح للناس جميعا على قدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - آباءهم الأقدمين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فى السفينة التى أمرناه بصنعها ، والتى كانت مليئة ومشحونة ، بما ينتفعون به فى حياتهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٣ .

قال الجمل : وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين ، الأصول والفروع ؛ لأن الذرية من الذرء بمعنى الخلق . والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منها الفروع . فاسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد[١] .

وهذا الرأى الثانى قد اختاره الإمام ابن كثير ولم يذكر سواه ، فقد قال رحمه الله : يقول – تعالى– : ودلالة لهم – أيضا – على قدرته – تعالى – تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك – بل أوله – سفينة نوح التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ أى : آباءهم .

﴿ فى الفلك المشحون ﴾ أى : فى السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين[٢] .

وقوله – تعالى – : ﴿ وخلقنا لهم من مثله مايركبون ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه – تعالى – على عباده .

والضمير فى قوله – تعالى – : ﴿ من مثله ﴾ يعود على السفن المشبهة لسفينة نوح – عليه السلام – .

قال القرطبى : ما ملخصه قوله – تعالى – : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ والأصل مايركبونه ... والضمير فى « من مثله » للإبل . خلقها لهم للركوب فى البر ، مثل السفن المركوبة فى البحر ، والعرب تشبه الإبل بالسفن . وقيل إنه للإبل والدواب وكل ما يركب .

والأصح أنه للسفن . أى : خلقنا لهم سفنا أمثالها ، أى : أمثال سفينة نوح يركبون فيها .

قال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح – عليه السلام –[٣] .

ثم بين – سبحانه – مظهرا آخر من مظاهر فضله على الناس فقال : ﴿ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ﴾ .

الصريخ : المغيث . أى : فلا مغيث لهم . أو فلا إغاثة لهم ، على أنه مصدر كالصراخ ، لأن المستغيث الخائف ينادى من ينقذه ، فيصرخ المغيث له قائلا : جاءك الغوث والعون .

والاستثناء هنا مفرغ من أعم العلل .

أى : وإن نشأ أن نغرق هؤلاء المحمولين فى السفن أغرقناهم ، دون أن يجدوا من يغيثهم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٥ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٤ .

منا ، أو من ينقذهم من الغرق ، سوى رحمتنا بهم ، وفضلنا عليهم ، وتمتيعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضى عنده حياتهم .

فالآيتان الكريمتان تصوران مظاهر قدرة الله ورحمته بعباده أكمل تصوير ؛ وذلك لأن السفن التى تجرى فى البحر - مهما عظمت - تصير عندما تشتد أمواجه فى حالة شديدة من الاضطراب ، ويغشى الراكبين فيها من الهول والفزع ما يغشاهم ، وفى تلك الظروف العصيبة لا نجاة لهم مما هم فيه إلا عن طريق رعاية الله - تعالى - ورحمته بهم .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من رد المشركين السيئ على من يدعوهم إلى الخير ، ومن جهالاتهم حيث تعجلوا العذاب الذى لا محيص لهم عنه ، ومن أحوالهم عند قيام الساعة ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً

وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

وقوله – تعالى – : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم .. ﴾ حكاية لموقف المشركين من الناصحين لهم ، وكيف أنهم صموا آذانهم عن سماع الآيات التنزيلية ، بعد صممهم عن التفكر فى الآيات التكوينية .

أى : وإذا قال قائل لهؤلاء المشركين على سبيل النصح والإرشاد : ﴿ اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ أى : احذروا ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ، وصونوا أنفسكم عن ارتكاب المعاصى التى ارتكبها الظالمون من قبلكم ، فأهلكوا بسببها وأبيدوا ، وآمنوا بالله ورسوله واعملوا العمل الصالح ، لعلكم بسبب ذلك تنالون الرحمة من الله – تعالى – .

وجواب « إذا » محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا عن الناصح ، و استخفوا به ، وتطاولوا عليه .

ويشهد لهذا الجواب المحذوف قوله – تعالى – بعد ذلك : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾.

و « من » الأولى مزيدة لتأكيد إعراضهم وصممهم عن سماع الحق ، والثانية للتبعيض .

أى : ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين ، أنهم ما تأتيهم آية من الآيات التى تدل على وحدانية الله – تعالى – وقدرته ، وعلى أن الرسول – ﷺ – صادق فى دعوته ، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضا تاما ، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من قبلهم .

وأضاف – سبحانه – إليه الآيات التى أتتهم ، لتفخيم شأنها ، وبيان أنها آيات عظيمة ، كان من شأنهم – لو كانوا يعقلون – أن يتدبروها ، ويتبعوا من جاء بها .

ثم حكى – سبحانه – موقفا آخر ، من مواقفهم القبيحة ممن نصحهم وأرشدهم إلى الصواب ، فقال – تعالى – : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ... ﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقيه أبو جهل فقال له : يا أبا بكر : أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ .

قال نعم . قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال أبو بكر : ابتلى - سبحانه - قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء .

فقال أبو جهل : والله يا أبا بكر : إن أنت إلا فى ضلال ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت .. فنزلت هذه الآية .

وقيل : كان العاصى بن وائل السهمى ، إذا سأله المسكين قال له : اذهب إلى ربك فهو أولى منى بك . ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا ..[1] .

والمعنى . وإذا قال قائل من المؤمنين لهؤلاء الكافرين : أنفقوا على المحتاجين شيئا من الخير الكثير الذى رزقكم الله - تعالى - إياه .

قال الكافرون - على سبيل الاستهزاء والسخرية - للمؤمنين : هؤلاء الفقراء الذين طلبتم منا أن ننفق عليهم ، لوشاء الله لأطعمهم ولأغناهم كما أغنانا .

﴿ إن أنتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿إلا فى ضلال مبين ﴾ فى أمركم لنا بالإنفاق عليهم أو على غيرهم .

قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله : ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ حكاية لتهكم الكافرين ، وقد كانوا سمعوا المؤمنين يقولون : إن الرزاق هو الله ، وإنه يغنى من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمؤمنين ، وقالوا : نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله . وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل ، فإن الله - سبحانه - أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا ، وأمر الغنى أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة ، وقولهم : ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ هو وإن كان كلاما صحيحا فى نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، وإنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله ، كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا .

وقوله : ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ من تتمه كلام الكفار . وقيل : هو رد من الله عليهم ..[2] .

ثم يحكى القرآن إنكارهم للبعث ، واستهزاءهم بمن يؤمن به فيقول : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

أى : ويقول الكافرون للمؤمنين - على سبيل الاسهتزاء والتكذيب بالبعث - ﴿ متى هذا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥١٧ .

(٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٣٧٣ .

الوعد ﴾ الذى تعدوننا به من أن هناك بعثا ، وحسابا وجزاء ... أحضروه لنا ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تعدوننا به .

وهنا يجىء الرد الذى يزلزلهم ، عن طريق بيان بعض مشاهد يوم القيامة ، فيقول - سبحانه - : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

المراد بالصيحة هنا : النفخة الأولى التى ينفخها إسرافيل بأمر الله - تعالى - فيموت جميع الخلائق .

وقوله ﴿ يخصمون ﴾ أى : يختصمون فى أمور دنياهم . وفى هذا اللفظ عدة قراءات سبعية .

منها قراءة أبو عمرو وابن كثير : ﴿ وهم يَخَصُّمُونَ ﴾ - بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد مع الفتح - ومنها قراءة عاصم والكسائى : ﴿ وهم يَخِصِّمُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد مع الكسر .

ومنها قراءة حمزة ﴿ يَخْصِمُونَ ﴾ بإسكان الخاء وكسر الصاد مع التخفيف .

أى : أن هؤلاء الكافرين الذين يستنكرون قيام الساعة ، ويستبعدون حصولها ، جاهلون غافلون ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، و ستحل بهم بغتة فإنهم ما ينتظرون ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ يصيحها إسرافيل بأمرنا ، فتأخذهم هذه الصيحة وتصعقهم وتهلكهم ﴿ وهم يخصمون ﴾ أى : وهم يتخاصمون ويتنازعون فى أمور دنياهم .

وعندما تنزل بهم هذه الصيحة ، لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا بما يريد أن يقول له ولا يستطيعون جميعا الرجوع إلى أهليهم ، لأنهم يصعقون فى أماكنهم التى يكونون فيها عند حدوث هذه الصيحة .

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أبلغ تصوير لأهوال علامات يوم القيامة ، ولسرعة مجىء هذه الأهوال .

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه - أى يسده بالطين - فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٣١ .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند النفخة الثانية فقال : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ ..

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التى يكون معها البعث والحساب .

والصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل، ولا يعلم كيفيته سوى الله -تعالى-:
والأجداث : جمع جَدَث -بفتحتين- كفرس وأفراس -وهى القبور .

وينسلون : أى : يسرعون بطريق الجبر والقهر لا بطريق الاختيار ، والنَّسَلَان : الإسراع فى السير .

أى : ونفخ فى الصور النفخة الثانية، فإذا بهؤلاء الكافرين الذين كانوا يستبعدون البعث وينكرونه، يخرجون من قبورهم سراعا - وبدون اختيار منهم - متجهين إلى ربهم ومالك أمرهم ليقضى فيهم بقضائه العادل .

﴿ قالوا ﴾ بعد خروجهم من قبورهم بسرعة وفزع ﴿ ياويلنا ﴾ أى : ياهلاكنا احضر فهذا أوان حضورك .

ثم يقولون بفزع أشد : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ أى من أثارَنا من رقادنا، وكأنهم لهول ما شاهدوا قد اختلطت عقولهم، وأصيبت بالهول، فتوهموا أنهم كانوا نياما .

قال ابن كثير -رحمه الله- ﴿ قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ يعنون قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لايبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم قالوا : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا، وهذا لاينفى عذابهم فى قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقوله : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ رد من الملائكة أو من المؤمنين عليهم . أو هو حكاية لكلام الكفرة فى رد بعضهم على بعض على سبيل الحسرة واليأس .

و « ما » موصولة والعائد محذوف، أى : هذا الذى وعده الرحمن والذى صدّقه المرسلون .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : إذا جعلت « ما » مصدرية ، كان المعنى : هذا وعد الرحمن، وصدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله : ﴿ وصدق المرسلون ﴾؟ إذا جعلتها موصولة ؟ .

قلت : تقديره : هذا الذى وعده الرحمن، والذى صدقه المرسلون ، بمعنى : والذى صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال ...

ثم بين - سبحانه - سرعة امتثالهم وحضورهم للحساب فقال : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ .

أى : ما كانت النفخة التى حكيت عنهم آنفا ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ صاحها إسرافيل بإذننا وأمرهم فيها بالقيام من قبورهم ﴿ فإذا هم جميع ﴾ دون أن يتخلف أحد منهم لدينا محضرون ومجموعون للحساب والجزاء .

﴿ فاليوم ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لا تظلم نفس شيئا ﴾ من الظلم ، وإنما كل نفس توفى حقها .

وقوله - تعالى - ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى : ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا، فالجملة الكريمة تأكيد وتقرير لما قبلها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1] .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة، جاء الحديث عما أعده الله - تعالى - بفضله وكرمه للمؤمنين، وعما يقال للكافرين فى هذا اليوم من تبكيت وتأنيب فقال - تعالى - :

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ
فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ
أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ
أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧

فقوله - تعالى - : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ﴾ بيان لأحوالهم الطيبة، بعد بيان أحوال الكافرين السيئة .

والشغل : الشأن الذى يشغل الانسان عما سواه من الشئون، لكونه أهم عنده من غيره، وما فيه من التنكير للتفخيم، كأنه قيل : فى شغل أى شغل .

وفاكهون . أى : متنعمون متلذذون فى النعمة التى تحيط بهم، مأخوذ من الفَكاهة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع النشاط . يقال : فكه الرجل فكها وفكاهة فهو فكه وفاكه، إذا طاب عيشه، وزاد سروره، وعظم نشاطه وسميت الفاكهة بذلك لتلذذ الانسان بها .

أى : يقال للكافرين فى يوم الحساب والجزاء زيادة فى حسرتهم - إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل عظيم، يتلذذون فيه بما يشرح صدورهم، ويرضى نفوسهم، ويقر عيونهم ، ويجعلهم فى أعلى درجات التنعم والغبطة .

وعبر عن حالهم هذه بالجملة الاسمية المؤكدة، للإشعار بأن هذه الحال ثابتة لهم ثبوتا تاما، بفضل الله - تعالى - وكرمه .

ثم بين - سبحانه - جانبا من كيفية هذا التمتع بالجنة ونعيمها فقال : ﴿ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ﴾ .

و « هم » مبتدأ، و « أزواجهم » معطوف عليه . و « متكئون » خبر المبتدأ .

قال الامام الرازى . ولفظ الأزواج هنا يحتمل وجهين :

أحدهما : أشكالهم فى الاحسان . وأمثالهم فى الإيمان، كما قال - تعالى - : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ .

وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ... ﴾[1] .

ويبدو أن المراد بالأزواج هنا : حلائلهم اللاتى أحلهن الله لهم ، زيادة فى مسرتهم وبهجتهم ، وعلى هذا سار عامة المفسرين .

والظلال : جمع ظل أو ظلة، وهى ما يظل الإنسان ويقيه من الحر .

والأرائك : جمع أريكة وهى ما يجلس عليه الإنسان من سرير ونحوه للراحة والمتعة .

أى : أن أصحاب الجنة هم وحلائلهم يجلسون على الأرائك متكئين فى متعة ولذة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٠٠ .

﴿ لهم فيها ﴾ أى فى الجنة ﴿ فاكهة ﴾ كثيرة متنوعة ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أى : ولهم فوق ذلك جميع ما يطلبونه من مطالب وما يتمنونه من أمنيات .

فقوله : ﴿ يدعون ﴾ يصح أن يكون من الدعاء بمعنى الطلب، كما يصح أن يكون من الادعاء بمعنى التمنى .

يقال : ادعُ علىَّ ماشئتَ أى : تمن علىَّ ما شئت . ويقال : فلان فى خير ما يدَّعِى، أى : فى خير ما يتمنى .

ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الجزيل للمؤمنين بقوله : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ .

وللمفسرين فى إعراب قوله : ﴿ سلام ﴾ أقوال منها : أنه مبتدأ خبره الناصب للفظ ﴿ قولا ﴾ أى : سلام يقال لهم قولا ...[1] .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى بعض هذه الأقوال فقال : وقوله : ﴿ سلام ﴾ بدل من قوله ﴿ ما يدعون ﴾ كأنه قال لهم : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم .

والمعنى : أن الله - تعالى - يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة فى تكريمهم، وذلك غاية متمناهم ..[2] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث، منها ما رواه ابن أبى حاتم - بسنده - عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله - ﷺ - : « بينما أهل الجنة فى نعيمهم، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذ الرب - تعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه . حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم »[3] .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة - كما يقول الإمام الفخر الرازى - يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا فى تعب، كما تشير إلى وحدتهم، وإلى حسن المكان، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه، وإلى تلذذهم بالنعيم وإلى تلقيهم لأجل تحية .. »[4] .

هذا هو حال المؤمنين ، وهذا بعض مايقال لهم من ألفاظ التكريم، فماذا يقال للمجرمين .

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٢١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٧٠ .
(٤) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٠١ .

لقد بين -سبحانه- بعد ذلك ما يقال للمجرمين فقال : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ أى : ويقال للمجرمين فى هذا اليوم -على سبيل الزجر والتأنيب انفردوا- أيها المجرمون- عن المؤمنين، واتجهوا إلى ما أعد لكم من عذاب فى جهنم، بسبب كفركم وجحودكم للحق .

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض، إذا انفصل كل فريق عن غيره .

قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾[1] .

وقوله -تعالى- بعد ذلك :﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان ﴾ من جملة مايقال لهم -أيضا- على سبيل التقريع والتوبيخ .

والعهد بالشيء : الوصية به، والمراد به هنا : وصية الله -تعالى- للناس على ألسنة رسله، أن يخلصوا له العبادة والطاعة، وأن يخالفوا : مايوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية

قال الآلوسى : والمراد بالعهد هنا . ما كان منه -تعالى- على ألسنة الرسل -عليهم السلام- من الأوامر والنواهى التى من جملتها قوله -تعالى- ﴿ يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ... ﴾ .

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم فى عالم الذر، إذ قال -سبحانه- ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ .

وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله -تعالى- الزاجرة عن عبادة غيره ...

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويزينه لهم ، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها[2] .

والمعنى : لقد عهدت إليكم -يابنى آدم- عهدا مؤكدا على ألسنة رسلى، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لاتستمعوا لوسوسته، وأن لاتتبعوا خطواته، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، بحيث لاتخفى عداوته على أحد من العقلاء .

فجملة ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل لوجوب الانتهاء عن طاعة الشيطان .

---

(١) سورة الروم الآيات من ١٤ - ١٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٤٠ .

وقوله : ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ بيان لما يجب عليهم أن يفعلوه بعد النهى عما يجب عليهم أن يجتنبوه .

و « أن » فى قوله ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ وفى قوله ﴿ وأن اعبدونى ﴾ مفسرة، والجملة الثانية معطوفة على الأولى .

أى : لقد عهدت إليكم بأن تتركوا عبادة الشيطان، وعهدت إليكم أن تعبدونى وحدى دون غيرى .

والإشارة فى قوله : ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ تعود إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .

أى : هذا الذى أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لى هو الطريق الواضح المستقيم، الذى يوصلكم إلى عز الدنيا، وسعادة الآخرة .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ استئناف مسوق لتأكيد النهى عن طاعة الشيطان . ولتشديد التوبيخ لمن اتبع خطواته .

« وجبلا كثيرا » بمعنى : خلقا كثيرا حتى إنهم لكثرتهم كالجبل العظيم .

ولفظ « جِبِلًّا » قرأه نافع وعاصم - بكسر الجيم والباء، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائى ﴿ جبلا ﴾ بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام وجميع القراءات بمعنى واحد .

أى : ولقد أغوى الشيطان منكم يابنى آدم خلقا كثيرا، فهل عقلتم ذلك، واتعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم، وأخلصتم لنا العبادة والطاعة، واتخذتم الشيطان عدوا لكم كما صرح بعداوتكم . وبالعمل على إغوائكم .

قال - تعالى - : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[1] .

وقال - سبحانه - حكاية عنه . ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] .

وبعد هذا التوبيخ لمن أطاعوا الشيطان، يقال لهم فى النهاية : ﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ .

أى : هذه جهنم ماثلة أمام أعينكم أيها الكافرون، وهى التى كنتم توعدون بها فى الدنيا . وكنتم تقابلون ذلك بالسخرية والتكذيب .

---

(١) سورة فاطر آية ٦ .

(٢) سورة ص الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .

﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ أى : ذوقوا حرها ولهيبها وسعيرها، بسبب كفركم فى الدنيا، وموتكم على هذا الكفر .

والأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ اصلوها ﴾ للتحقير والإهانة، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ والذين يأمرونهم بذلك هم خزنة النار، بأمر من الله - تعالى -

ثم تنتقل السورة الكريمة فتحكى لنا جانبا آخر من أحوال الكافرين فى هذا اليوم العصيب، كما تحكى لنا جانبا من مظاهر قدرة الله - تعالى - فتقول :

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

والمراد باليوم فى قوله - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم ... ﴾ يوم القيامة .

وقوله : ﴿ نختم ﴾ من الختم ، والختم الوسم على الشىء بطابع ونحوه . مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولأ يدخله ما هو خارج عنه .

أى : فى يوم القيامة نختم على أفواه الكافرين فنجعلها لا تنطق ، وإنما تكلمنا أيديهم ، وتشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبونه فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة .

قالوا : وسبب الختم على أفواههم ، أنهم أنكروا أنهم كانوا مشركين فى الدنيا ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٣ .

أو ليكونوا معروفين لأهل الموقف فى ذلك اليوم العصيب ، أو لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق ، أو ليعلموا أن أعضاءهم التى ارتكبت المعاصى فى الدنيا ، قد صارت شهودا عليهم فى الآخرة .

وجعل - سبحانه - ما تنطق به الأيدى كلاما ، وما تنطق به الأرجل شهادة ، لأن مباشرة المعاصى - غالبًا - تكون بالأيدى ، أما الأرجل فهى حاضرة لما ارتكب بالأيدى من سيئات ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله .

قال الجمل : وقال الكرخى : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا ، أو قهرًا . والإقرار مع الإجبار غير مقبول . فقال : تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ، أى باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ، ليكون أدل على صدور الذنب منهم[1] .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث . التى صرحت بأن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما ارتكبه فى الدنيا من سيئات . ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه قال : كنا عند النبى - ﷺ - فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مجادلة العبد ربه يوم القيامة .

يقول : رب ألم تُجِرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز علىَّ إلا شاهدا من نفسى ، فيقول الله - تعالى - له : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا .

قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه - أى لأعضائه - : انطقى . فتنطق بما عمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدًا وسحقًا فعنكن كنت أناضل »[2].

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾[3] .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين هم فى قبضته فى كل وقت فقال : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٢٢ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٧٢ ، وتفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٤٨ .
(٣) سورة فصلت الآية ١٩ ، ٢٠ .

وقوله : ﴿ لطمسنا ﴾ الطمس إزالة أثر الشىء عن طريق محوه . يقال : طمست الشىء طمسا - من باب ضرب - بمعنى محوته وأزلت أثره ، والمطموس والطميس الأعمى . ومفعول المشيئة محذوف . والصراط : الطريق وهو منصوب بنزع الخافض .

أى : ولو نشاء طمس أعينهم بأن نمحو عنها الرؤية والإبصار لفعلنا ، ولكنا لم نفعل بهم ذلك فضلا منا عليهم ، ورحمة بهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوا نعمنا بالشكر لا بالكفر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على ﴿ لطمسنا ﴾ على سبيل الفرض .

أى : لو نشاء محو أبصارهم لمحوناها ، فلو أرادوا فى تلك الحالة المبادرة إلى الطريق ليسيروا فيه ، أو ليعبروه لما استطاعوا ذلك . لأنهم كيف يستطيعون ذلك وهم لا يبصرون شيئًا .

فالاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فأنى يبصرون ﴾ لاستبعاد اجتيازهم الطريق ، ونفى قدرتهم على التصرف .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ والمسخ : تبديل الخلقة وتحويلها من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة .

أى : وفى قدرتنا إذا شئنا ، أن نغير صورهم الإنسانية إلى صور أخرى قبيحة ، كأن نحولهم إلى قردة أو حيوانات وهم ﴿ على مكانتهم ﴾ أى : وهم فى مكانهم الذى يقيمون فيه ﴿ فما استطاعوا ﴾ بسبب هذا المسخ ﴿ مضيا ﴾ أى : ذهابا إلى مقاصدهم ﴿ ولا يرجعون ﴾ أي : ولما استطاعوا - أيضًا - إذا ذهبوا أن يرجعوا .

أى : فى إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون فى أماكنهم ، فلا يقدرون أن يمضوا إلى الأمام ، أو أن يعودوا إلى الخلف .

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديدهم على استمرارهم فى كفرهم ، وبيان أنهم تحت قدرة الله - تعالى - وفى قبضته ، وأنه - سبحانه - قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار ، ومن مسخ للصور ، ومن غير ذلك مما يريده - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - أحوال الإنسان عندما يتقدم به العمر فقال : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ﴾ .

وقوله : ﴿ نعمره ﴾ من التعمير ، بمعنى إطالة العمر .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ قرأه عاصم وحمزة - بضم النون الأولى وتشديد

الكاف - من التنكيس . وقرأه الباقون : ﴿ نَنْكُسْه ﴾ - بفتح النون الأولى وضم الكاف - من نكست الشىء أنكُسُه نَكْساً إذا قلبته على رأسه فانتكس .

قال قتادة : المعنى : أنه يصير إلى حال الهرم الذى يشبه حال الصبا ... قال الشاعر :

من عـاش أَخْلَقَت الأيام جِـدَّتَه وخـانـه ثقتـاه السمـع والبصـر

فطول العمر يصير الشباب هَرِمَاً ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا .. وقد استعاذ النبى - ﷺ - من أن يرد إلى أرذل العمر .. »[١] .

والمعنى : « ومن نطل عمره ننكسه فى الخلق » أى : نرده إلى أرذل العمر ، فنجعله - بقدرتنا - ضعيفا بعد أن كان قويا ، وشيخا بعد أن كان شابا فتيا ، وناقص العقل بعد أن كان مكتمله ... ﴿ أفلا يعقلون ﴾ ذلك - أيها الناس - مع أنه من الأمور المشاهدة أمام أبصاركم ، وتعرفون أن من قدر على تحويل الإنسان من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف .. قادر -أيضًا - على إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد موته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا ﴾[٣] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد هددت الكافرين بسوء المصير إذا استمروا فى كفرهم، وبينت جانبًا من فضل الله - تعالى - عليهم ، لعلهم يفيئون إلى رشدهم ، ويشكرونه على نعمه .

ثم رد - سبحانه - على الكافرين الذين وصفوا النبى - ﷺ - بأنه شاعر ، كما قالوا عن القرآن أنه شعر ، فقال - تعالى - :

وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٥١ .
(٢) سورة الروم آية ٥٤ .
(٣) سورة النحل الآية ٧٠ .

أى : وما عَلَّمْنا الرسول - ﷺ - الشعر وإنما الذى علمناه إياه هو القرآن الكريم ، المشتمل على ما يسعد الناس فى دنياهم وفى آخرتهم .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، نفى أن يكون القرآن شعرا بأبلغ وجه لأن الذى علمه الله - تعالى - لنبيه هو القرآن وليس الشعر ، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعرًا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما ينبغى له ﴾. أى : ما علمناه الشعر ، وإنما علمناه القرآن ، فقد اقتضت حكمتنا أن لا نجعل الشعر فى طبعه - ﷺ - ولا فى سليقته ، فحتى لو حاوله - على سبيل الفرض - فإنه لا يتأتى له ، ولا يسهل عليه ولا يستقيم مع فطرته - ﷺ - .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ يعود إلى القرآن الكريم :

أى : ما هذا القرآن الكريم إلا ذكر من الأذكار النافعة ، والمواعظ الناجحة ، والتوجيهات الحكيمة ، وهو فى الوقت نفسه ﴿ قرآن مبين ﴾ أى : كتاب مقروء من الكتب السماوية الواضحة ، التى لا تختلط ولا تلتبس بكلام البشر .

وقد أنزلناه على الرسول الكريم ﴿ لينذر ﴾ به ﴿ من كان حيا ﴾ .

أى : من كان مؤمنًا عاملًا ذا قلب حى ، ونفس نقية ، وأذن واعية ، لأن من كانت هذه صفاته انتفع بالإنذار والتذكير .

﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أى : أن من كان ذا قلب فإنه ينتفع بالإنذار ، أما من كان مصرًا على كفره وضلاله ، فإن كلمة العذاب قد حقت عليه ، وصارت نهايته الإلقاء به فى جهنم وبئس القرار .

وقد تكلم المفسرون هنا كلاما مفصلًا . عن كون القرآن ليس شعرًا ، وكون الرسول - ﷺ - ليس شاعرًا ، وعلى رأسهم صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : كانوا يقولون لرسول الله - ﷺ - إنه شاعر . فرد عليهم بقوله : ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ أى : أن القرآن ليس بشعر ، وأين هو من الشعر . والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن ؟ وأينَ التقفية ؟

وأين المعانى التى ينتحيها الشعراء من معانيه ؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه ...

﴿ وما ينبغى له ﴾ أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ، ولم يتسهل كما جعلناه أميا .. لتكون الحجة أثبت ، والشبهة أدحض ...

فإن قلت : فقوله :

أنـا النـبـى لا كـذب أنـا ابـن عـبـد المـطلب

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه - ﷺ - الذى كان يرمى به على السليقة . من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه إذا جاء موزونا ، كما يتفق فى كثير من إنشاءات الناس فى خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر ... »[1] .

ثم ذكر - سبحانه - المشركين ببعض النعم التى أسبغها عليهم ، والتى يرونها بأعينهم ، ويعلمونها بعقولهم ، وسلّى النبى - ﷺ - عما لقيه منهم ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ... ﴾ للإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والأنعام : جمع نعم : وهى الإبل والبقر والغنم .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا ، ولم يروا بأعينهم ، ولم يعلموا بعقولهم . أنا خلقنا لهم مما عملته أيدينا . وصنعته قدرتنا . أنعامًا كثيرة هم لها مالكون يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه .

وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدى ، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩ . وراجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٤٧ .

- تعالى - وحده دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، أو يعاونه معاون . كما يقول القائل : هذا الشيء فعلته بيدى وحدى ، للدلالة على تفرده بفعله .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ لهم ﴾ للإشعار بأن خلق هذه الأنعام إنما حدث لمنفعتهم ومصلحتهم .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ مما عملت ﴾ موصولة . والعائد محذوف . أى : مما عملته أيدينا .

وقوله : ﴿ فهم لها مالكون ﴾ بيان لإحدى المنافع المترتبة على خلق هذه الأنعام لهم .

أما المنافع الأخرى فقد جاءت بعد ذلك فى قوله : ﴿ وذللناها لهم ... ﴾ أى : وجعلنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم ، بحيث أصبحت فى أيديهم سهلة القيادة ، مطواعة لما يريدونه منها ، يقودونها فتنقاد للصغير والكبير . كما قال القائل :

لقد عظُم البعير بغير لُبٍّ ... فلم يستغن بالعِظَم البعيرُ
يصرِّفُه الصبى بكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجَرِيرُ[1]
وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غِيَرٌ لديه ولا نكيرُ[2]

ففى هذه الجملة الكريمة تذكير لهم بنعمة تسخير الأنعام لهم ، ولو شاء - سبحانه - لجعلها وحشية بحيث ينفرون منها .

والفاء فى قوله : ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ تفريع على ما تقدم وركوب بمعنى مركوب .

أى : وصيرنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم ، فمنها ما يستعملونه فى ركوبهم والانتقال عليها من مكان إلى آخر ، ومنها ما يستعملونه فى مآكلهم عن طريق ذبحه .

وفضلاً عن كل ذلك ، فإنهم « لهم » فى تلك الأنعام « منافع » أخرى غير الركوب وغير الأكل كالانتفاع بها فى الحراثة وفى نقل الأثقال ... ولهم فيها - أيضًا - « مشارب » حيث يشربون من ألبانها .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ للتخصيص على الشكر ، أى : فهلا يشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، ويخلصون له العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى من هذه النعم فقال : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ .

---

(١) الجرير . الحبل الذى يربط به البعير .
(٢) فلا غير لديه ولا نكير : أى فلا غيرة لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خسف .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يقابلوا نعمنا عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر . فقد تركوا عبادتنا ، واتخذوا من دوننا آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، متوهمين أنها تنصرهم عند ما يطلبون نصرها . وراجين أن تدفع عنهم ضرا عند التماس ذلك منها .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا يستطيعون نصرهم .. ﴾ دفع لما توهموه من نصرهم ونفى لما توقعوه من نفعهم .

أى : هذه الآلهة المزعومة ، لا يستطيعون نصر هؤلاء الكافرين . لأنهم أعجز من أن ينصروا أنفسهم ، فضلاً عن نصرهم لغيرهم .

وقال - سبحانه - : ﴿ لا يستطيعون ﴾ بالواو والنون على طريقة جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تعقل .

والضمير « هم » فى قوله - تعالى - : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعود إلى المشركين ، والضمير فى قوله ﴿ لهم ﴾ يعود إلى الآلهة المزعومة .

أى : وهؤلاء الكفار - لجهالتهم وانطماس بصائرهم - قد صاروا فى الدنيا بمنزلة الجند الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة والدفاع عنها . والحضور عندها لخدمتها ، ورعايتها وحفظها .

ويرى بعضهم أن الضمير « هم » للآلهة ، والضمير فى « لهم » للمشركين ، عكس القول الأول ، فيكون المعنى : وهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر المشركين وهم أى الآلهة - « لهم » أى : للمشركين ، « جند محضرون » أى : جند محضرون معهم إلى النار ، ليلقوا فيها كما يلقى الذين عبدوهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ للإفصاح . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم من الجهالة والغفلة ، فأعرض عنهم ، ولا تحزن عليهم ، ولا تبال بأقوالهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تعليل للنهى عن الحزن بسبب أقوالهم . أى لا تحزن - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوالهم الباطلة ، فإنا نعلم علمًا تامًا ما يسرونه من حقد عليك ، وما يعلنونه من أعمال قبيحة ، وسنعاقبهم على كل ذلك العقاب الذى يستحقونه .

فالآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما كان يلقاه من هؤلاء المشركين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شىء ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن أبىَّ بن خلف جاء إلى رسول الله - ﷺ - وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه فى الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال - ﷺ - : نعم . يميتك الله - تعالى - ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة ...

والمراد بالإنسان : جنسه . ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا .

وأصل النطفة : الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة . وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .

والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره ، والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل .

والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين

الذى يخرج من الرجل فيصب فى رحم المرأة ، وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لغفلته وعناده ، بادر بالمبالغة فى الخصومة والجدل الباطل . وجاهر بذلك مجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث ، بعد ما شاهدوا فى أنفسهم ما يوجب التصديق به ... والهمزة للإنكار والتعجب من أحوالهم ، وإيراد الإنسان مورد الضمير ، لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان . والمراد بالإنسان الجنس . والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقا .

وقوله : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ عطف على الجملة المنفية ، داخل فى حيز الإنكار والتعجب كأنه قيل : أو لم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ، فأظهر الخصومة فى أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة ... »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ معطوف على الكلام المتقدم ، وداخل فى حيز الإنكار .

أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلاً هو فى غاية الغرابة ، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : - دون أن يفطن إلى أصل خلقته - من يحيى العظام وهى رميم ، أى : وهى بالية أشد البلى . فرميم بزنة فعيل بمعنى فاعل . من رَمَّ اللازم بمعنى بَلِيَ ، أو بمعنى مفعول ، من رم المتعدى بمعنى أَبْلَى . يقال : رمه إذا أبلاه . فيستوى فيه المذكر والمؤنث .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم سمى قوله : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ مثلاً ؟

قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهى إنكار قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى .. مع أن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله - تعالى - بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى ..[2] .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الجواب الذى يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ ...

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٥٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٠ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية ، الله - تعالى - الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئًا مذكورًا ، ومن قدر على إيجاد الشىء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه . وهو - سبحانه - بكل شىء فى هذا الوجود عليم علمًا تامًا ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، سواء أكان هذا الشىء صغيرًا أم كبيرًا ، مجموعًا أم مفرقا .

قال الشوكانى : وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة - أى أنها بعد الموت تكون نجسة .

وقال الشافعى : لا تحله الحياة ، وأن المراد بقوله : ﴿ من يحيى العظام ﴾ من يحيى أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف . ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ دليل آخر على إمكانية البعث وهو بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ الذى أنشأها أول مرة ... ﴾ .

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر النَّدِى الرطب ، كشجر المَرْخِ والعَفَار وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة نار بقدرة الله - تعالى - .

قال ابن كثير ؛ المراد بذلك سَرْح - أى : شجر المرخ والعفار . ينبت بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء سواء .

روى هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى المثل : « لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار »[2] .

أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفار . فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث ، يحيى الأجساد البالية الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل لكم - بفضله ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب نارًا ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار . وتنتفعون بها فى كثير

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٨١ .

من أحوال حياتكم .

وإذًا فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر - مع ما فيه من المائية المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخًا آخر . فقال : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ .

والاستفهام - كسابقه - للإنكار والتعجيب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام والضمير فى « مثلهم » يعود إلى المنكرين للبعث .

والمعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض - وهما فى غاية العظم - قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذى هو صغير الشكل ، ضعيف القوة .

وجملة : ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ جواب من جهته - تعالى - وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير ما بعد النفى ، وتأكيد قدرته - سبحانه - على الخلق والإعادة . لأن « بلى » حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منفيًا .

أى : بلى إنه لقادر - سبحانه - على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو - سبحانه - « الخلاق » أى : الكثير المخلوقات « العليم » أى : الكثير العلم بحيث لا يخفى عليه شىء .

ثم أكد - سبحانه - شمول قدرته لكل شىء فقال : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

أى : إنما شأنه - سبحانه - فى إيجاد الشىء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجودًا فيكون ، أى : فهذا الشىء يكون ويوجد فى الحال ... قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له « كن » قولة فيكون

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتنزيهه - تعالى - عن كل نقص ، فقال ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ .

أى : فتنزه الله - تعالى - الذى له ملك كل شىء ملكا تاما ، والذى إليه المرجع والمآب ، عن كل ما يقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى .

فهو - سبحانه - لا يعجزه شىء ، ولا يخفى على علمه شىء ، ولا يحول دون قدرته شىء ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « يس » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة -مدينة نصر : صباح الثلاثاء ٥ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ - الموافق ٢٣ / ٧ / ١٩٨٥ م

تفسير

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الصافات هى السورة السابعة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها كما ذكر صاحب الإتقان - بعد سورة « الأنعام »[١] .

ومعنى ذلك أن نزولها كان فى السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ، لأننا قد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أنه يغلب على الظن أن نزولها كان فى السنة الرابعة من البعثة[٢] .

٢ - قال الآلوسى : هى مكية ولم يحكوا فى ذلك خلافا . وهى مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين ، ومائة واثنتان وثمانون آية عند غيرهم[٣] .

وتعتبر هذه السورة - من حيث عدد الآيات - السورة الثالثة من بين السور المكية ، ولا يفوقها فى ذلك سوى سورتى الأعراف والشعراء .

٣ - وسميت بهذا الاسم لا فتتاحها بقوله - تعالى - : ﴿ والصافات صفا ﴾ . وقد سماها بعض العلماء بسورة « الذبيح » ، وذلك لأن قصة الذبيح لم تأت فى سور أخرى سواها .

٤ - وقد افتتحت سورة « الصافات » بقسم من الله - تعالى - بجماعات من خلقه على أن الألوهية والربوبية الحقة إنما هى لله - تعالى - وحده ، ثم أقام - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة على صدق هذه القضية ، منها خلقه للسموات والأرض وما بينهما ، ومنها تزيينه لسماء الدنيا بالكواكب .

قال - تعالى - : ﴿ والصافات صفا فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم لواحد . رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق . إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ .

٥ - ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التى تذرع بها المشركون فى إنكارهم للبعث

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ .
(٢) راجع مقدمة تفسير سورة الانعام للمؤلف .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٦٤ .

والحساب ، ورد عليها بما يمحقها ، فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . أئذامتنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون . قل نعم وأنتم داخرون . فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ .

٦ - وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء المشركين ، وتوبيخ الملائكة لهم ، وإقبال بعضهم على بعض للتساؤل والتخاصم .. بعد كل ذلك بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، فقال - تعالى - . ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون : إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لافيها غول ولاهم عنها ينزفون ﴾ .

٧ - ثم حكى - سبحانه - جانبا من المحاورات التى تدور بين أهل الجنة وأهل النار ، وكيف أن أهل الجنة يتوجهون بالحمد والشكر لخالقهم ، حيث أنعم عليهم بنعمة الإيمان ، ولم يجعلهم من أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم .

قال - تعالى - : ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ .

٨ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة إبراهيم مع قومه . ومع ابنه إسماعيل - عليهما السلام .

ومن قصة موسى وهارون وإلياس ولوط ويونس - عليهم الصلاة والسلام - .

٩ - ثم أخذت السورة الكريمة - فى أواخرها - فى توبيخ المشركين الذين جعلوا بين الله - سبحانه - وبين الملائكة نسبا ، ونزه - سبحانه - ذاته عن ذلك . وهدد أولئك الكافرين بأشد ألوان العذاب بسبب كفرهم وأقوالهم الباطلة .

وبين بأن عباده المؤمنين هم المنصورون ، وختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾.

١٠ - والمتأمل فى هذه السورة الكريمة - بعد هذا العرض المجمل لآياتها - يراها بأنها قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وذلك لكى تغرس العقيدة السليمة فى النفوس .. كما يراها تهتم بحكاية أقوال المشركين وشبهاتهم .. ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهقها ويبطلها .

كما يراها - كذلك - تسوق ألوانا من المحاورات التى تدور بين المشركين فيها بينهم عندما يحيط بهم العذاب يوم القيامة ، وألوانا من المحاورات التى تدور بينهم وبين أهل الجنة الذين نجاهم الله - تعالى - من النار وسعيرها .

كما يراها - أيضا - تسوق لنا نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، تارة بشىء من التفصيل كما فى قصة إبراهيم مع قومه ، وتارة بشىء من التركيز والإجمال كما فى بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها .

وتمتاز بعرضها للمعانى والأحداث بأسلوب مؤثر . ترى فيه قصر الفواصل وكثرة المشاهد ، والمواقف . مما يجعل القارىء لآياتها فى شوق إلى ما تسوقه من نتائج .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
مساء الجمعة ٨ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ
٢٦ / ٧ / ١٩٨٥

« التفسير »

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾
إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

والواو فى قوله - تعالى - : ﴿ والصافات ﴾ للقسم . وجوابه قوله : ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ .

و « الصافات » من الصف ، وهو أن تجعل الشىء على خط مستقيم . تقول : صففت القوم فاصطفوا ، إذا أقمتهم على خط مستقيم . سواء أكانوا فى الصلاة ، أم فى الحرب ، أم فى غير ذلك .

و «الزاجرات » : من الزجر ، وهو الدفع بقوة . تقول : زجرت الإبل زجرا - من باب قتل - إذا منعتها من الدخول فى شىء ودفعتها إلى غيره .

و « التاليات » : من التلاوة ، بمعنى القراءة فى تدبر وتأمل .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات : جماعة من الملائكة . موصوفة بهذه الصفات .

فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله - تعالى - وطاعته ، أو الذين يصفون أجنحتهم فى السماء انتظاراً لأمر الله ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصى ، أو يزجرون السحاب إلى الجهات التى كلفهم الله - تعالى - بدفعه إليها ، والذين يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه تقربا إليه - تعالى - وطاعة له .

وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون فى قوله - تعالى - فى السورة نفسها : ﴿ وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله - ﷺ - « فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدا. وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء »[1].

وفى حديث آخر رواه مسلم وغيره عن جابر بن سَمُرَه قال: قال رسول الله - ﷺ - : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم »؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: « يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون فى الصف »[2].

وجاء وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء، لأجل الإعذار والإنذار به. كما فى قوله - تعالى - فى أوائل المرسلات: ﴿ فالملقيات ذكراً. عذرا أو نذرا ﴾.

قال الإمام ابن كثير: قوله: ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، وهذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ فالملقيات ذكراً. عذرا أو نذرا ﴾[3] ومنهم من يرى أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات هنا: العلماء الذين يصفون أقدامهم عند الصلاة وغيرها من الطاعات، ويزجرون غيرهم عن المعاصى، ويتلون كلام الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن المراد بالصافات: الطيور التى تصف أجنحتها فى الهواء وبالزاجرات وبالتاليات: جماعات الغزاة فى سبيل الله، الذين يزجرون أعداء الله - تعالى - : ويكثرون من ذكره.

ويبدو لنا أن القول الأول هو الأظهر والأرجح، لأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى سقناها قبل ذلك تؤيده، ويؤيده - أيضاً - ما يجىء بعد ذلك من أوصاف للملائكة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾ والمراد بالملأ الأعلى هنا. الملائكة.

ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين، كابن مسعود وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وعكرمة ومجاهد.

وإنما أقسم الله - تعالى - هنا بالملائكة، لشرفهم، وسمو منزلتهم وامتثالهم لأوامره -

---

(١) صحيح مسلم: فى كتاب المساجد جـ ٢ ص ٦٣.
(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة جـ ٢ ص ٢٩.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣.

سبحانه - امتثالا تاما وله - تعالى - أن يقسم بما شاء من خلقه ، تنويها بشأن المقسم ، ولفتا لأنظار الناس إلى ما فيه من منافع .

ولفظ « الصافات » مفعوله محذوف . والتقدير ، وحق الملائكة الصافات نفوسها أو أجنحتها طاعة وامتثالا لأمر الله - تعالى - .

والترتيب بالفاء فى هذه الصفات ، على سبيل الترقى ، إذ الأولى كمال ، والثانية أكمل ، لتعدى منفعتها إلى الغير ، والثالثة أكمل وأكمل ، لتضمنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتخلى عن الرذائل ، والتحلى بالفضائل .

وقوله « صفا ، وزجرا ، وذكرا » مصادر مؤكدة لما قبلها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ جواب للقسم ، وهو المقسم عليه . أى : وحق الملائكة الذين تلك صفاتهم ، إن ربكم - أيها الناس - لواحد لا شريك له فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ولا فى خلقه .

وقوله : ﴿ رب السموات الأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ بدل من قوله ﴿ لواحد ﴾ أو خبر بعد خبر لمبتدأ محذوف .

أى : إن إلهكم - أيها الناس - لواحد : هو - سبحانه - رب السموات والأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات كالهواء وغيره ، ورب المشارق التى تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العام ، إذ لها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه . ولها فى كل يوم - أيضاً - مغرب تغرب فيه .

واكتفى هنا بذكر المشارق عن المغارب ، لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر ، ولأن الشروق أدل على القدرة ، وأبلغ فى النعمة ، ولأن الشروق سابق على الغروب ، وقد قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾[1] .

والمراد بهما هنا جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .

وقال فى سورة الرحمن : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ أى : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما ، أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما .

وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجىء هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة على سبيل التثنية ،

---

(١) سورة المزمل الآية ٩ .

وتارة على سبيل الجمع .

قال بعض العلماء : قوله ﴿ ورب المشارق ﴾ أى : ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السموات الفسيحة .

وللتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش عليها كذلك . فالأرض فى دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس ، كان هناك مشرق على هذا القطاع . وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية .. وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ، أخبرهم الله - تعالى - بها فى ذلك الزمان القديم ..[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر قدرته فى خلقه لهذه السموات وكيف أنه - تعالى - قد زين السماء الدنيا بالكواكب . وحفظها من تسلل أى شيطان إليها فقال تعالى :

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

وقوله - تعالى - ﴿ زينا ﴾ من التزيين بمعنى التحسين والتجميل . والمراد بالسماء الدنيا : السماء التى هى أقرب سماء إلى الأرض . فالدنيا مؤنث أدنى بمعنى أقرب .

والكواكب : جمع كوكب وهو النجم الذى يرى فى السماء .

وقوله : ﴿ بزينة الكواكب ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعية ، فقد قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب . أى : بلا تنوين فى لفظ « بزينة » . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ « زينة » وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ ﴿ بزينة ﴾ ونصب لفظ الكواكب ، على أنه مفعول لفعل محذوف أى : أعنى الكواكب .

والمعنى : إنا بقدرتنا وفضلنا زينا السماء الدنيا التى ترونها بأعينكم - أيها الناس - بالكواكب ، فجعلناها مضيئة بحيث تهتدون بها فى سيركم من مكان إلى مكان .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ٤٦ .

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[١] .

ومما لاشك أن منظر السماء وهى مليئة بالنجوم ، يشرح الصدور ، ويؤنس النفوس ، وخصوصا للسائرين فى فجاج الأرض ، أو ظلمات البحر .

قوله - سبحانه - : ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ بيان لما أحاط به - سبحانه - السماء الدنيا من حفظ ورعاية .

ولفظ « حفظا » منصوب على المصدرية بإضمار فعل قبله . أى وحفظناها حفظا ، أو معطوف على محل « بزينة » .

والشيطان : كل متمرد من الجن والإنس والدواب . والمراد به هنا : المتمرد من الجن .

والمارد : الشديد العتو والخروج عن طاعة الله - تعالى - المتعرى من كل خير .

أى : إنا جعلنا السماء الدنيا مزينة بالكواكب وضيائها ، وجعلناها كذلك محفوظة من كل شيطان متجرد من الخير ، خارج عن طاعتنا ورحمتنا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم عند حفظ السماء ، وبيان كيفية الحفظ ، وما يصيبهم من عذاب وهلاك إذا ما حاولوا استراق السمع منها .

ولفظ « يسَّمَّعُون » بتشديد السين - وأصله يتسمعون . فأدغمت التاء فى السين والضمير للشياطين ، وقرأ الجمهور ﴿ لا يَسْمعون ﴾ بإسكان السين .

قال صاحب الكشاف : الضمير فى « لا يسمعون » لكل شيطان ، لأنه فى معنى الشياطين ، وقرئ بالتخفيف والتشديد . وأصله « يتسمعون » . والتسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع . أو فلم يسمع .

فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث . وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟

قلت : المعدى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعد بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك[٢] .

والملأ فى الأصل : الجماعة يجتمعون على أمر فيملئون النفوس هيبة ، والمراد بالملأ الأعلى هنا : الملائكة الذين يسكنون السماء .

---

(١) سورة الملك آية ٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٥ .

وسموا بذلك لشرفهم ، ولأنهم فى جهة العلو ، بخلاف غيرهم فإنهم يسكنون الأرض .

وقوله : ﴿ ويقذفون ﴾ من القذف بمعنى الرجم والرمى ، و ﴿ دحورا ﴾ مفعولا لأجله ، أى : يقذفون لأجل الدُّحور ، وهو الطرد والإبعاد ، مصدر دَحَرَه يَدْحَرُهُ دَحْراً ودُحُورًا : إذا طرده وأبعده .

والواصب : الدائم ، من الوصوب بمعنى الدوام ، يقال : وَصَب الشىء يَصِبُ وصُوباً ، إذا دام وثبت ، ومنه قوله : ﴿ وله الدين واصبا ﴾ أى : دائما ثابتا .

والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بنور الكواكب ، وحفظناها - بقدرتنا ورعايتنا - من كل شيطان متجرد من الخير ، فإن هذا الشيطان وأمثاله كلما حاولوا الاستماع إلى الملائكة فى السماء ، لم نمكنهم من ذلك ، بل قذفناهم ورجمناهم بالشهب والنيران من كل جانب من جوانب السماء ، من أجل أن ندمرهم ونطردهم ونبعدهم عنها ، ولهم منا - فوق كل ذلك - عذاب دائم ثابت لا نهاية له .

وقوله : ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ استثناء من الواو فى « يسمعون » و « مَنْ » فى محل بدل من الواو .

والخطف : الأخذ للشىء بسرعة وخفية واختلاس وغفلة من المأخوذ منه .

أى : لا يسمع الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلا الشيطان الذى خطف الخطفة من كلام الملائكة بسرعة وخفة ، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر - دون ما يتعلق بالوحى - فإنه فى هذه الحالة يتبع هذا الشيطان ويلحقه ﴿ شهاب ثاقب ﴾ أى : شعلة من النار تثقب الجو بضوئها فتهلكه وتحرقه وتثقبه وتمزقه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع . فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا ﴾[1] .

ومما يدل على أن استراقهم للسمع ، واختطافهم للخطفة ، إنما يكون فى غير الوحى ، قوله - تعالى - ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾[2] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا يستمعون الوحى قال : وكانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى . قال : فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض ، فزادوا فى الكلمة تسعا . قال : فلما بعث رسول

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٢ .

الله - ﷺ - جعل الشيطان إذا قعد مقعده ، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه[1] .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يوبخ المنكرين للبعث والحساب ، وحكى جانبا من أقوالهم الباطلة حول هذه القضية ، ورد عليهم ردا يزهق باطلهم .. فقال - تعالى - :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ
﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاستفتهم .. ﴾ هى الفصيحة ، والاستفتاء : الاستخبار عن الشيء ومعرفة وجه الصواب فيه .

والمراد من الاستفهام فى الآية : توبيخ المشركين على إصرارهم على شركهم وجهلهم . وتعجيب العقلاء من أحوالهم .

واللازب : أى : الملتصق بعضه ببعض . يقال : لزب الشيء يلزب لزبا ولزوبا ، إذا تداخل بعضه فى بعض ، والتصق بعضه ببعض . والطين اللازب : هو الذى يلزق باليد - مثلا - إذا ما التقت به قال النابغة الذبيانى :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

أى : ضربة ملازمة لا مفارقة لها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك ه أيها الرسول الكريم - من أن كل شيء فى هذا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥ .

الكون يشهد بوحدانيتنا وقدرتنا ، فاسأل هؤلاء المشركين « أهم أشد خلقا » أى : أهم أقوى خلقة وأمتن بنية ، وأضخم أجسادا .. « أم من خلقنا » من ملائكة غلاظ شداد ، ومن سماوات طباقا ، ومن أرض ذات فجاج .

لاشك أنهم لن يجدوا جوابا يردون به عليك ، سوى قولهم : إن خلق الملائكة والسموات والأرض . أشد من خلقنا .

وقوله - تعالى - ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ إشارة إلى المادة الأولى التى خلقوا منها فى ضمن خلق أبيهم آدم - عليه السلام - .

أى : إنا خلقناهم من طين ملتصق بعضه ببعض ، ومتداخل بعضه فى بعض .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ساقت دليلين واضحين على صحة البعث الذى أنكره المشركون .

أما الدليل الأول فهو ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة .. أعظم وأكبر منهم ... ومن كان قادراً على خلق الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادرا على خلق الأقل والأصغر .

وقد ذكر - سبحانه - هذه الحقيقة فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

وأما الدليل الثانى فهو قوله - تعالى - : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ وذلك لأن من خلقهم أولا من طين لازب ، قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما .

إذ من المعروف لدى كل عاقل أن الإعادة أيسر من الابتداء . وقد قرر - سبحانه - هذه الحقيقة فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - أن حال هؤلاء المشركين تدعو إلى العجب فقال : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ .

قال الجمل : وقوله : ﴿ بل عجبت ﴾ إضراب إما عن مقدر دل عليه قوله : ﴿ فاستفتهم ﴾ أى : هم لا يقرون بل عجبت ، وإما عن الأمر بالاستفتاء ، أى :

---

(١) سورة غافر الآية ٥٧ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

لا تستفتهم فإنهم معاندون ، بل انظر إلى تفاوت حالك وحالهم[١] .

أى : بل عجبت - أيها الرسول الكريم - ومن حقك أن تعجب ، من إنكار هؤلاء الجاحدين لإمكانية البعث ، مع هذه الأدلة الساطعة التى سقناها لهم على أن البعث حق .

وجملة « يسخرون » حالية . أى : والحال أنهم يسخرون من تعجبك ومن إنكارك عليهم ذلك ، ومن إيمانك العميق بهذه الحقيقة ، حتى إنك لترددها على مسامعهم صباح مساء .

قال الآلوسى : وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ بل عجبتُ ﴾ - بضم التاء - .. وأولت هذه القراءة بأن ذلك من باب الفرض ، أى : لو كان العجب مما يجوز علىَّ لعجبت من هذه الحال .

ثم قال : والذى يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل للسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وهو فى الله - تعالى - بمعنى يليق لذاته - تعالى - وهو - سبحانه - أعلم به ، فلا يعينون معناه[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ بيان لشدة تماديهم فى الباطل ، وإصرارهم عليه .

أى : أن هؤلاء القوم من دأبهم ومن صفاتهم الملازمة لهم ، أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم لا يتعظون ، وإذا رأوا آية واضحة فى دلالتها على الحق ﴿ يستسخرون ﴾ أى : يبالغون فى السخرية وفى الاستهزاء بها ، يقال : استسخر القوم من الشىء ، إذا استدعى بعضهم بعضا للاستهزاء به .

ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بالسخرية ، بل قالوا أقوالا تدل على جحودهم وجهلهم ، فقال - تعالى - ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

أى : وقالوا - على سبيل الجحود والعناد - ما هذا الذى أتانا به محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا سحر واضح بين ، ولا يشك أحد منا فى كونه كذلك .

﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أوآباؤنا الأولون ﴾ .

أى : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ما جاء به الرسول - ﷺ - سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة فى الإنكار لما جاءهم به قولهم : أئذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا فى قبورنا ، وصرنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون أيضاً ؟.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٣٢ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٧٧ .

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء . والتى من آثارها إيجادهم من العدم .

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الجواب الذى يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ستبعثون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، وأنتم جميعاً ﴿ داخرون ﴾ أى : صاغرون مستسلمون ، لا تستطيعون التأخر أو التردد .. يقال : دخر الشخص يدخر - بفتح الخاء - دخورا ، إذا ذل وصغر وهان .

ثم بين - سبحانه - أن بعثهم من قبورهم إنما يقع بصيحة واحدة فقال : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ .

والزجرة واحدة من الزجر ، يقال : زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها ، ومنعها من شىء معين . والضمير راجع إلى البعثة المدلول عليها بسياق الكلام ، والفاء : هى الفصيحة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا . فإنما بعثهم من مرقدهم يكون بصيحة واحدة يصيحها إسرافيل فيهم بأمرنا ، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون إلى ما حولهم فى ذهول ، وينتظرون فى استسلام وذلة حكم الله - تعالى - فيهم .

والمراد بهذه الزجرة : النفخة الثانية التى يقوم بهاإسرافيل بأمر الله - تعالى - كما قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[1] .

والتعبير عن الصيحة بالزجرة للدلالة على شدتها وعنفها على هؤلاء المشركين ، وأنها قد أتتهم ممن لا يستطيعون معصية أمره .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد هذه الزجرة فقال : ﴿ وقالوا يا ويلنا ﴾ أى : وقالوا بعد أن خرجوا من قبورهم فى ذهول : ﴿ ياويلنا ﴾ أى : يا هلا كنا احضر فهذا أوان حضورك .

وقوله : ﴿ هذا يوم الدين ﴾ يصح أن يكون من كلام بعضهم مع بعض بعد أن رأوا أن ما كانوا ينكرونه ، قد أصبح حقيقة واقعة أمام أعينهم .

أى : قال بعضهم لبعضهم فى ذعر وفزع : يا ويلنا هذا يوم الجزاء على الأعمال . الذى كنا ننكره فى الدنيا ، قد أصبح حقيقة ماثلة أمام أعيننا .

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .

ويصح أن يكون هو وما بعده . وهو قوله - تعالى - : ﴿ هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ من كلام الملائكة على سبيل التأنيب لهم .

أى : تقول لهم الملائكة : اطلبوا ما شئتم من الويل والهلاك ، فهذا اليوم هو يوم الجزاء على الأعمال ، وهو يوم الفصل والقضاء الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، وتستهزئون ممن يأمركم بحسن الاستعداد له ، وينذركم بسوء المصير إذا ما سرتم فى طريق الكفر به ، والإنكار له .

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم ، وصور أحوالهم البائسة تصويرا تقشعر من هوله الجلود ، وحكى جانبا من حسراتهم خلال تساؤلهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾
مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ احشروا ﴾ من الحشر بمعنى الجمع مع السوق يقال : حشر القائد جنده حشرا - من باب قتل - إذا جمعهم . والمحشر : المكان الذى يجتمع فيه الخلائق .

والمراد بالذين ظلموا : المشركون الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، ومن الآيات التى وردت وأطلق فيها الظلم على الشرك والكفر ، قوله - تعالى - : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى - ﷺ - فسر الظلم بالشرك فى قوله - تعالى - : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[1] .

والمراد بأزواجهم : أشباههم ، ونظراؤهم وأمثالهم فى الشرك والكفر ، وهذا التفسير مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ، منهم عمر بن الخطاب ، والنعمان بن بشير ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ،وعكرمة ومجاهد ، وأبو العالية .

وقيل المراد بأزواجهم . قرناؤهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه .

وقيل المراد بهم : نساؤهم اللائى كن على دينهم ، بأن كن مشركات فى الدنيا كأزواجهن ، ويبدو لنا أن جميع من ذكروا محشور . والعياذ بالله . إلى جهنم ، إلا أن تفسير الأزواج هنا : بالأشباه والنظائر والأصناف أولى ، خصوصا وأن إطلاق الأزواج على الأصناف والأشباه جاء كثيرا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ﴾ .

والمراد بما كانوا يعبدونه : الآلهة الباطلة التى كانوا فى الدنيا يعبدونها من دون الله ، كالأصنام والأوثان .

والأمر من الله - تعالى - للملائكة فى هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة .

أى : احشروا واجمعوا الذين كانوا مشركين فى الدنيا ، واجمعوا معهم كل من كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، ثم اجمعوا معهم - أيضا - آلهتهم الباطلة التى عبدوها من دون الله - تعالى - ثم ألقوا بها جميعا فى جهنم ، ليذوقوا سعيرها وحرها .

وفى حشر الآلهة الباطلة مع عابديها ، زيادة تحسير وتخجيل لهؤلاء العابدين لأنهم رأوا بأعينهم بطلان وخسران ما كانوا يفعلونه فى الدنيا .

والضمير فى قوله : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ يعود إلى المشركين وأشباههم وآلهتهم . وقوله : ﴿ فاهدوهم ﴾ من الهداية بمعنى الدلالة على الشىء والإرشاد إليه .

أى : احشروهم جميعا إلى جهنم ، وعرفوهم طريقها إن كانوا لا يعرفونه ، وأروهم إياه إن كانوا لا يرونه .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٢ .

والتعبير بالهداية والصراط فيه ما فيه من التهكم بهم ، والتأنيب لهم فكأنه - سبحانه - يقول : بما أنهم لم يهتدوا فى الدنيا إلى الخير وإلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا فى الآخرة إلى صراط الجحيم .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ زيادة فى توبيخهم وإذلالهم ، والوقف هنا : بمعنى الحبس .

قال القرطبى : يقال : وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا .. أى : احبسوهم ، وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم ، وفيه تقديم وتأخير أى : قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار ..[1] أى : واحبسوهم فى موقف الحساب ،لأنهم مسئولون عما كانوا يقترفونه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأفعال منكرة ، وأقوال باطلة .

ولا تعارض بين هذه الآية وأمثالها من الآيات التى صرحت بأن المجرمين يسألون يوم القيامة ، وبين آيات أخرى صرحت بأنهم لا يسألون كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ .

أقول لا تعارض بين هذه الآيات ، لأن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون فى موقف ولا يسألون فى آخر .. أو أن السؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والسؤال المنفى هو سؤال الاستعلام والاستخبار .

قوله - تعالى - : ﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ تقريع آخر لهم ، أى : ما الذى جعلكم فى هذا اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم - أيها الكافرون - مع أنكم فى الدنيا كنتم تزعمون أنكم جميع منتصر ؟

ثم أضرب - سبحانه - عما تقدم إلى بيان حالهم يوم القيامة فقال : ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

والاستسلام : أصله طلب السلامة ، والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق . يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

أى : ليسوا فى هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

ثم يحكى - سبحانه - ما يدور بينهم من مجادلات يوم القيامة فيقول : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٧٤ .

ويبدو أن التساؤل والتجادل هنا ، يكون بين الأتباع والمتبوعين ، أو بين العامة والزعماء .

كما تدل عليه آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾[١] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الضعفاء للزعماء فقال : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ وللمفسرين فى تأويل معنى اليمين عنا اتجاهات منها :

أن المراد باليمين هنا : الجهة التى هى جهة الخير واليمن : أى : قال الضعفاء للرؤساء : إنكم كنتم فى الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على ما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة . فأين مصداق ما قلتموه لنا وقد نزل بنا ما نزل من أهوال وآلام ؟

فالمقصود بالآية الكريمة بيان ما يقوله الأتباع للمتبوعين على سبيل الحسرة والندامة ، لأنهم خدعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب اتباعهم لهم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنها ،وكانوا يتيمنون بها ، فبها يصافحون ، ويماسحون ، ويناولون ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور :

لما كانت كذلك استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى من الخير وناحيته ..[٢] .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : اليمين الشرعية التى هى القسم ، وعن بمعنى الباء .

أى : قالوا لهم : إنكم كنتم فى الدنيا تأتوننا بالأيمان المغلظة على أننا وأنتم على الحق فصدقناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الأيمان المغلظة ؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : القوة والغلبة . أى : أنكم كنتم فى الدنيا تجبروننا وتقسروننا على اتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء .

والذى نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أوهموا الضعفاء بأنهم على

(١) سورة سبأ الآية ٣١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٩ .

الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن هم اتبعوا ما جاءهم به الرسول - ﷺ - .

ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسئولية كاملة على الرؤساء ، توهما منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئاً من العذاب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بخمسة أجوبة .

أولها : ﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أى : قال الرؤساء للأتباع : نحن لم نتسبب فى كفركم فى الدنيا ، بل أنتم الذين أبيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم - أيضا - فكفركم نابع من ذواتكم ، وليس من شىء خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم فى وقت من الأوقات .

فالجملة الكريمة إضراب إبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون .

وثانيها : يتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء فى الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به .

وثالثها قوله - تعالى - : ﴿ بل كنتم قوما طاغين ﴾ أى : نحن لم يكن لنا سلطان عليكم ، بل أنتم الذين كنتم فى الدنيا قوما طاغين وضالين مثلنا . والطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .

ورابعها : نراه فى قوله - سبحانه - : ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ والفاء للتفريع على ما تقدم ، من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء فى الكفر .

أى : نحن وأنتم لم تكونوا مؤمنين أصلا . فكانت نتيجتنا جميعا ، أن استحققنا العذاب ، وأن لزمنا ما توعدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به - تعالى - .

وخامس هذه الأجوبة : بينه - سبحانه - فى قوله - حكاية عنهم - : ﴿ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ .

أى : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغى على الرشد ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ مثلكم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم فنحن ما أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم .

وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهموهم به من أنهم السبب فيما حل بهم من عذاب أليم يوم القيامة .

وهنا يبين - سبحانه - حكمه العادل فى الجميع ، فى الرؤساء والأتباع فيقول ﴿ فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون ﴾ .

أى : كما كانوا متشاركين فى الدنيا فى الغواية والضلالة ، فإنهم فى الآخرة مشتركون جميعا فى حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيره .

فالضمير فى قوله ﴿ فإنهم ﴾ يعود للتابعين والمتبوعين ، لأنهم جميعا مستحقون للعذاب .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير السيئ فقال : ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أى : مثل هذا العذاب الأليم نفعل بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا فى العبادة ، وآذوا رسلنا الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم .

﴿ إنهم كانوا ﴾ فى الدنيا ﴿ إذا قيل لهم ﴾ على سبيل النصيحة والدعوة إلى الحق ﴿ لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ عن قبول هذه النصيحة ، ويعرضون عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة الإيمان .

﴿ ويقولون ﴾ لمن نصحهم : ﴿ أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ .

أى : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لا إله إلا الله ، يقولون له أتدعونا إلى أن نترك ما عليه آباؤنا وأجدادنا من عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون .

ويعنون بالشاعر المجنون - قبحهم الله - رسول الله - ﷺ - الذى أرسله الله - تعالى - لهدايتهم .

ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ .

أى : ليس الرسول - ﷺ - شاعرا أو مجنونا ، كما زعمتم - أيها الجاهلون - ، بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذى دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصدقا لهم فى الدعوة إليه . فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون ؟

﴿ إنكم ﴾ .. أيها المشركون بسبب هذه المزاعم ﴿ لذائقو ﴾ فى هذا اليوم ﴿ العذاب الأليم ﴾ الذى يذلكم ويخزيكم ويجعلكم فى حزن دائم .

﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى : وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجع المؤلم . إلا بسبب أعمالكم القبيحة فى الدنيا .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر بديع ، سوء عاقبة الكافرين ، بسبب

إعراضهم عن الحق . واستكبارهم عن الدخول فيه ، ووصفهم للرسول - ﷺ - بما هو برىء منه .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين مصير الأشرار ومصير الأخيار - ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة - أتبع - سبحانه - الحديث عن سوء عاقبة الكافرين - بالحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال - تعالى - :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من ضمير « ذائقوا » وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى تحقيق الحق . ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا . فإلا مؤولة بلكن .

فالمعنى : إنكم - أيها المشركون - لذائقو العذاب الأليم ، لكن عباد الله المخلصين - ليسوا كذلك - أولئك لهم رزق معلوم ..[1] .

ولفظ ﴿ المخلصين ﴾ قرأه بعض القراء السبعة - بفتح اللام - ، أى : لكن عباد الله - تعالى - الذين أخلصهم الله - تعالى - لطاعته وتوحيده ليسوا كذلك .

وقرأه البعض الآخر بكسر اللام . أى : لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ، لا يذوقون حر النار كالمشركين .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعود إلى هؤلاء العباد المخلصين .

أى : أولئك العباد المتصفون بتلك الصفة الكريمة وهى الإخلاص ، لهم رزق عظيم معلوم فى وقته ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ . ومعلوم فى خصائصه الكريمة

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٨٥ .

وصفاته الحسنة ككونه لذيذ الطعم ، حسن المنظر ، غير مقطوع ولا ممنوع إلى غير ذلك من الصفات التى تجعله محل الرغبة والاشتهاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ فواكه وهم مكرمون ﴾ بدل مما قبله ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا الرزق المعلوم ، هو فواكه .

والمراد بهذه الفواكه : ما يأكله الآكل على سبيل التلذذ والتفكه ، وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم والخبز ، لأنهم فى الجنة فى غنى عن القوت الذى يحفظون به حياتهم . وخصت الفاكهة بالذكر لأنها أطيب ما يأكله الآكلون .

وفضلا عن كل ذلك فهم فيها منعمون مكرمون ، لا يحتاجون إلى شىء إلا ويجدونه بين أيديهم ، بفضل الله - تعالى - ورحمته .

ثم بين - سبحانه - مكانهم وهيئتهم فقال : ﴿ فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ﴾ .

أى : هم فى جنات ليس فيها إلا النعيم الدائم ، وهم فى الوقت نفسه يجلسون على سرر متقابلين ، بأن تكون وجوههم متقابلة لا متدابرة ، فإن من شأن المتصافين أن يجلسوا متقابلين .

﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ والكأس . هو الإناء الذى فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فهو قدح ، وقد يسمى الشراب ذاته كأسا ، فيقال : شربت كأسا ، وذلك من باب تسمية الشىء باسم محله .

و « معين » اسم فاعل من معن وهو صفة لكأس مأخوذ من عان الماء إذا نبع وظهر على الأرض . أى : يطاف على هؤلاء العباد المخلصين وهم فى الجنة ، بكأس ملىء بخمر لذة للشاربين ، نابعة من العيون ، وظاهرة للأبصار ، تجرى فى أنهار الجنة كما تجرى المياه فى الأنهار .

فالتعبير بقوله - تعالى - ﴿ بكأس من معين ﴾ يشعر بكثرتها ، وقربها ممن يريدها .

وقوله - تعالى - : ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ صفتان للكأس باعتبار مافيه .

أى هذه الخمر التى يطاف بها عليهم ، بيضاء اللون ، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين .

﴿ لافيها غول ﴾ أى : أذى أو مضرة ، والغَوْل . إهلاك الشىء - على غرة وغفلة .

يقال : غاله يغوله غولا ، واغتاله اغتيالا ، إذا قضى عليه بغتة ، وأخذه من حيث لا يشعر .

أى : أن خمر الآخرة ليس فيها ما يضر أو يؤذى ، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا .

﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ و ﴿ عن ﴾ هنا للسببية ، فهى بمعنى الباء ، أى : ولا هم بسبب شربها تذهب عقولهم ، وتختل أفكارهم ، كما هو الحال فى خمر الدنيا .

وأصل النَّزْف : نَزْعُ الشيء من مكانه وإذهابه بالتدريج ، يقال : نزف فلان ماء البئر ينزفه - من باب ضرب - إذا نزحه شيئا فشيئا إلى نهايته ، ويقال : نُزِف الرجل - كَعُنِىَ - إذا سكر حتى اختل عقله ، وخصت هذه المفسدة بالذكر مع عموم ما قبلها ، لكونها من أعظم مفاسد الخمر .

وقوله - تعالى - : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ بيان لمتعة أخرى من المتع التى أحلها الله - تعالى - لهم .

وقاصرات : من القصر بمعنى الحبس ، وعين ، جمع عيناء ، وهى المرأة الواسعة العين فى جمال . أى وفضلا عن ذلك ، فقد متعنا هؤلاء العباد بمتع أخرى . وهى أننا جعلنا عندهم للمؤانسة نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمدونها إلى غيرهم ، لشدة محبتهن لهم ، ومن صفات هؤلاء النساء - أيضا ه أنهن جميلات العيون .

﴿ كأنهن ﴾ أى : هؤلاء النسوة ﴿ بيض مكنون ﴾ ، أى : كأنهن كبيض النعام . الذى أخفاه الريش فى العش ، فلم تمسه الأيدى ، ولم يصبه الغبار ، فى صفاء البشرة ، ونقاء الجسد .

وشبههن ببيض النعام ، لأن لونه مع بياضه وصفائه يخالطه شىء من الصفرة وهو لون محبوب فى النساء عند العرب ولذا قالوا فى النساء الجميلات : بيضات الخدور .

وإلى هنا تجد الآيات الكريمة قد بشرت عباد الله المخلصين . بالعطاء المتنوع الجزيل ، الذى تنشرح له الصدور ، وتقر به العيون ، وتبتهج له النفوس .

ثم حكى - سبحانه - بعض المحاورات التى تدور بين عباده المخلصين ، بعد أن رأوا ما أعده - سبحانه - لهم من نعيم مقيم .. فقال - تعالى - :

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾
يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي

لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض ﴾ ؟ قلت ؛ هو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشاربين .

قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض ﴿ يتساءلون ﴾ عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا . إلا أنه جىء به ماضيا على عادة الله فى أخباره[1] .

أى : أن هؤلاء العباد المخلصين ، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم ، أقبل بعضهم على بعض ﴿ يتساءلون ﴾ فيما بينهم عن ذكرياتهم ، وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه - من باب التحدث بنعمة الله :

﴿ إنى كان لى قرين ﴾ أى : إنى فى الدنيا كان لى صديق ملازم لى ، ينهانى عن الإيمان - بالبعث والحساب ، ويقول لى - بأسلوب التهكم والاستهزاء :

﴿ أئنك لمن المصدقين ﴾ أى : أئنك - أيها الرجل - لمن المصدقين بأن هناك بعثا وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وجنة ونارا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : ﴿ أئذا متنا ﴾ وانتهت حياتنا فى هذه الدنيا ، ووضعنا فى قبورنا ﴿ وكنا ترابا وعظاما ﴾ أى : وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية .

﴿ أئنا لمدينون ﴾ أى : أئنا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ، ومجزيون بأعمالنا . فقوله - تعالى - : ﴿ لمدينون ﴾ من الدين بمعنى الجزاء ،ومنه قوله - تعالى - : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ والاستفهام : للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٤ .

وهنا يعرض هذا المؤمن على إخوانه ، أن يشاركوه فى الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم : ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ أى : هل أنتم مطلعون معى على أهل النار لنرى جميعا حال ذلك القرين الذى حكيت لكم حاله ؟ والاستفهام للتخصيص ، أى : هيا صاحبونى فى الاطلاع على هذا القرين الكافر .

﴿ فاطلع ﴾ ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار . فرآه فى سواء الجحيم ، أى : فرأى ذلك الرجل الذى كان قرينه وصاحبه الملازم له فى الدنيا ، ملقى به فى « سواء الجحيم » أى : فى وسط النار ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب .

قال الآلوسى : واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله - تعالى - فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه .

ولعلهم - إن أرادوا ذلك - وقفوا على الأعراف . فاطلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار . وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار ، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكرا للبعث[1] .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول . ﴿ قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ﴾ .

وقوله : ﴿ تالله ﴾ قسم فيه معنى التعجب ، و ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة . واللام فى قوله : ﴿ لتردين ﴾ وهى الفارقة بين إن المخففة والنافية ، والجملة جواب القسم ، وتردين : أى تهلكنى يقال : أردى فلان فلانا إذا أهلكه . ورَدِىَ فلان - من باب رَضِىَ - إذا هلك .

و ﴿ المحضرين ﴾ من الإحضار ، يقال : أُحْضِر المجرم ليلقى جزاءه ، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق فى الشر ، إذ يدل على السوق مع الإكراه والقسر .

أى : قال الرجل المؤمن لقرينه الملقى فى وسط جهنم . وحق الله - تعالى - لقد كدت أيها القرين أن تهلكنى بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربى علىّ ، حيث عصمنى من طاعتك ، ووفقنى للإيمان .. لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولساقنى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذى أنت فيه اليوم ، فحمدا لله - تعالى - على الإيمان والهداية .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ بيان لما

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٩٢ .

يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه فى الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه .

وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم .

والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف .

والمعنى : أنحن مخلدرن فى هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد موتتنا الأولى التى لحقتنا فى الدنيا ، ولن يصيبنا شىء من العذاب كما أصاب غيرنا ؟

إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى فى هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته .

وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت .

قال القرطبى : قوله : ﴿ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى ﴾ : هو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، ويقال : « يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت »[1] .

والإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ لما سبق الإخبار به من نفى الموت والعذاب عن أهل الجنة . وهذا القول - أيضا - حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه فى الجنة ، أى : إن هذا النعيم الدائم الذى نحن فيه - يا أهل الجنة - لهو الفوز العظيم ، الذى لا يدانيه فوز ، ولا يقاربه فلاح .

ثم يقول لهم - أيضا - : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ أى : لمثل هذا العطاء الجزيل ، والنعيم المقيم ، فليعمل العاملون ، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية .

ثم ساق - سبحانه - مايدل على البون الشاسع . بين النعيم المقيم الذى يعيش فيه عباد الله المخلصون . وبين الشقاء الدائم الذى يعيش فيه الكافرون ، فقال - تعالى - :

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٨٤ .

عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

واسم الاشارة « ذلك » فى قوله – تعالى – : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ﴾ يعود إلى نعيم الجنة الذى سبق الحديث عنه ، والذى يشمل الرزق المعلوم وما عطف عليه .

والاستفهام للتوبيخ والتأنيب . والنزل : ما يقدم للضيف وغيره من طعام ومكان ينزل به .

و « ذلك » مبتدأ ، و « خير » خبره ، و « نزلا » : تمييز لخير ، والخيرية بالنسبة لما اختاره الكفار على غيره . والجملة مقول لقول محذوف .

وشجرة الزقوم هى شجرة لا وجود لها فى الدنيا ، وإنما يخلقها الله – تعالى – فى النار ، كما يخلق غيرها من أصناف العذاب كالحيات والعقارب .

وقيل : هى شجرة سامة متى مست جسد أحد تورم ومات ، وتوجد فى الأراضى المجدبة المجاورة للصحراء .

والزقوم : من التزقم ، وهو ابتلاع الشىء الكريه ، بمشقة شديدة .

والمعنى : قل – أيها الرسول الكريم – لهؤلاء الكافرين أذلك النعيم الدائم الذى ينزل به المؤمنون فى الجنة خير ، أم شجرة الزقوم التى يتبلغ بها الكافرون وهم فى النار ، فلا يجدون من ورائها إلا الغم والكرب لمرارة طعمها ، وقبح رائحتها وهيئتها .

ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى بهم إلى نعيم الجنة وهو الإيمان والعمل الصالح ، واختار الكافرون ما أدى بهم إلى النار وبئس القرار ،قيل لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع ، لسوء اختيارهم .

ثم بين – سبحانه – شيئا عن هذه الشجرة فقال : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ أى : إنا جعلنا هذه الشجرة محنة وابتلاء وامتحانا لهؤلاء الكافرين الظالمين ، لأنهم لما أخبرهم

رسولنا - ﷺ - بوجود هذه الشجرة فى النار . كذبوه واستهزأوا به ، فحق عليهم عذابنا بسبب هذا التكذيب والاستهزاء .

قال القرطبى ما ملخصه قوله - تعالى - ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ أى ،المشركين . وذلك أنهم قالوا . كيف تكون فى النار شجرة ،مع أن النار تحرق الشجر .. ؟

وكان هذا القول جهلا منهم ، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب ..[1] .

ثم بين - سبحانه - أصل هذه الشجرة ومنبتها فقال : ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾ أى : منبتها وأصلها يخرج من أسفل الجحيم ، أما أغصانها وفروعها فترتفع إلى دركاتها .

ثم بين - سبحانه - ثمرها فقال : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ أى : ثمرها الذى يخرج منها ، وحملها الذى يتولد عنها ، يشبه فى تناهى قبحه وكراهيته ، رؤوس الشياطين التى هى أقبح ما يتصوره العقل ، وأبغض شىء يرد على الخاطر .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : شبه حمل شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ، للدلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لا عتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير ، فيقولون فى القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، أو كأنه رأس شيطان ،وإذا صوره المصورون صوروه على أقبح صورة .

كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة ، قال الله - تعالى - : ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ . وهذا تشبيه تخييلى .

وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر .. فجاء التشبيه بها ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ تفريع على ما تقدم من كونها فتنة لهم .

أى : هذا هو حال تلك الشجرة ، وهذا هو أصلها وثمرها ، وإن هؤلاء الكفار الذين يستهزئون بمن يحدثهم عنها لآكلون من ثمارها حتى تمتلىء بطونهم ، رغما عنهم ، وإذلالا لهم .

﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ أى : على ما يأكلونه منها ﴿ لشوبا من حميم ﴾ أى : لشرابا مخلوطا بماء شديد الحرارة يقطع الأحشاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٨٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٦ .

فالشوب : الخلط يقال : شاب فلان طعامه ، إذا خلطه بغيره .

والحميم : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة . فطعامهم - والعياذ بالله - قد اجتمع فيه مرارة الزقوم وحرارة الماء وهذا أشنع ما يكون عليه الطعام .

ثم بين - سبحانه - مصيرهم الدائم فقال . ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أى : ثم إن مرجعهم ومصيرهم ومقرهم الدائم بعد كل ذلك لإلى دركات الجحيم لا إلى غيرها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال - تعالى - : ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين : فهم آثارهم يهرعون ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلْفَوا ﴾ من الإِلْفِ للشىء بمعنى التعود عليه بعد وجوده وحصوله .

وقوله : ﴿ يهرعون ﴾ من الإهراع بمعنى الإسراع الشديد ، أو الإسراع الذى تصحبه رعدة وفزع ، يقال : هُرِع وأُهْرِع - بالبناء للمجهول فيهما - إذا استحث وأزعج ، ويقال : فلان يُهرع - بضم الياء - إذا جاء مسرعا فى غضب أو ضعف أو خوف .

أى : إن ما أصاب هؤلاء الكافرين من عذاب أليم ، سببه أنهم وجدوا آباءهم مقيمين على الضلال ، فاقتدوا بهم اقتداء أعمى ، وساروا خلفهم وعلى آثارهم بسرعة وبغير تدبر أو تعقل ، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى طريق هلاكه .

فالآيتان الكريمتان توبيخ شديد لهؤلاء الكافرين ، لأنهم لم يكتفوا بتقليد آبائهم فى الضلال ، بل أسرعوا إلى ذلك إسراعا لا تمهل معه ولا تدبر .

ثم بين - سبحانه - أحوال السابقين عليهم فقال : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ .

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين من قومك - أيها الرسول الكريم - أكثر الأقوام السابقين الذين أرسلنا إليهم رسلنا لهدايتهم .

وفى التعبير بقوله : ﴿ أكثر ﴾ إنصاف ومدح للقلة المؤمنة التى اتبعت الحق .

﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أى : ولقد أرسلنا فى هؤلاء الأقوام السابقين أنبياء كثيرين ينذرونهم ويخوفونهم من عاقبة الكفر والشرك ، ولكن أكثر هؤلاء الأقوام لم يستجيبوا للحق .

﴿ فانظر ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أى : فانظر وتأمل كيف كانت عاقبة هؤلاء الذين أنذروا فلم يستجيبوا للحق ، لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أى : دمرنا هؤلاء الأقوام إلا عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة والطاعة فقد أنجيناهم بفضلنا ورحمتنا .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم لتثبيت فؤاد

النبى - ﷺ - وتسليته عما أصابه من قومه ، وابتدأ تلك القصص ببيان جانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

وقصة نوح - عليه السلام - قد وردت فى القرآن الكريم فى سور متعددة منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون .

وهنا يحدثنا القرآن عن جانب من النعم التى أنعم بها الله - تعالى - على نبيه نوح - عليه السلام - حيث أجاب له دعاءه ، ونجاه وأهله من الكرب العظيم وأهلك أعداءه المكذبين .

واللام فى قوله : ﴿ ولقد نادانا نوح ... ﴾ واقعة فى جواب قسم محذوف والمراد بالنداء الدعاء الذى تضرع به نوح - عليه السلام - وطلب منا أن ننصره على قومه الكافرين فاستجبنا له أحسن إجابة ، ونعم المجيبون نحن ، فقد أهلكنا أعداءه بالطوفان .

أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان النبى - ﷺ - إذا صلى فى بيتى فمر بهذه الآية ، قال : « صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعى ، وأقرب من بُغِى - أى طُلِب لإجابة الدعاء - فنعم المدعو أنت ، ونعم المعطى أنت . ونعم المسئول أنت ربنا ونعم النصير »[1] .

والمراد بأهله فى قوله - تعالى - : ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ الذين آمنوا معه .

أى : ونجيناه وأهله الذين آمنوا معه - بفضلنا وإحساننا - من الكرب العظيم ، الذى حل بأعدائه الكافرين ، حيث أغرقناهم أجمعين .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٩٨ .

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ أى : وجعلنا ذريته من بعده هم الذين بقوا وبقى نسلهم من بعدهم ، وذلك لأن الله - تعالى - أهلك جميع الكافرين من قومه ، أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته ، فقد قيل إنهم ماتوا ، ولم يبق سوى أولاده .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ : قال ابن عباس : لم تبق إلا ذرية نوح .

وقال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح .

وروى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عن سمرة عن النبى - ﷺ - فى قوله : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : « هم سام ، وحام ، ويافث » .

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن سمرة عن النبى - ﷺ - أنه قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم »[1] .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ﴾ أى : وأبقينا عليه فى الأمم التى ستأتى من بعده إلى يوم القيامة ، الذكر الحسن ، والكلمة الطيبة ألا وهى قولهم : سلام على نوح فى العالمين ، أى : تحية وأمان وثناء جميل على نوح فى العالمين .

وقوله : ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لما منحه - سبحانه - لعبده نوح من نعم وفضل وإجابة دعاء .

أى : مثل ذلك الجزاء الكريم الذى جازينا به نوحا - عليه السلام - نجازى كل من كان محسناً فى أقواله وأفعاله . وإن عبدنا نوحا قد كان من عبادنا الذين بلغوا درجة الكمال فى إيمانهم وإحسانهم .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ أى من الأمم هذه الكلمة ، وهى : « سلام على نوح » يعنى : يسلمون عليه تسليما ويدعون له . فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿ فى العالمين ﴾ .

قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين ، يسلمون عليه عن آخرهم .

علل - سبحانه - مجازاة نوح بتلك التكرمة السنية ، من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، بأنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً ، بأنه كان عبداً مؤمناً ، ليريك جلالة

---

(١) تفسير ان كثير جـ ٧ ص ١٩ .

محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك فى تحصيله وفى الازدياد منه[١] .

ثم ختم - سبحانه - القصة بقوله : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أى : لقد أضفنا إلى تلك النعم التى أعطيناها لنبينا نوح - عليه السلام - أننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه ، وأعرضوا عن دعوته .

وتلك سنتنا لا تتخلف ، أننا ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين .

وجاءت بعد قصة نوح - عليه السلام - قصة إبراهيم - عليه السلام - وقد حكى الله - تعالى - ما دار بين إبراهيم وبين قومه ، كما حكى بعض النعم التى أنعمها - سبحانه - عليه ، بسبب إيمانه وإحسانه ، فقال - تعالى - :

۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٩ .

﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ
يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)
فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ (١٠٧) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
(١١٠) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ (١١٣)﴾

والضمير فى قوله : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ يعود على نوح - عليه السلام - وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شِيَع مثل سِدْرَة وسِدَر .

قال القرطبى : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد.[1] .

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق ، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة شريعته .. وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ، فهى متحدة فى الأصول والأركان .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩١ .

وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما : هود ، وصالح - عليهما السلام - والظرف فى قوله - تعالى - : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والخديعة والرياء .

والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص قلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شىء يملكه فى سبيل رضا ربه - عز وجل -.

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث فى كل ما يرضيه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجىء بقلبه ربه ؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب المجىء مثلا لذلك[1] .

وقوله : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ شروع فى حكاية ما دار بينه وبين أبيه وقومه . والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هى ظرف لقوله ﴿ سليم ﴾ أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - تعالى - ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾؟ . والإفك أسوأ الكذب . يقال أَفِكَ فلان يأْفِكُ إفكا فهو أفوك .. إذا اشتد كذبه . وهو مفعول به لقوله ﴿ تريدون ﴾ وقوله ﴿ آلهة ﴾ بدل منه . وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة .

أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله ؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم .

ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره - تعالى - . أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره ؟ إنه لاشك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذاباً أليما ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة . وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ أى : أى شىء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة ، لكونه ربا للعالمين ؟ أشككتم فيه حتى تركتم عبادته - سبحانه - بالكلية ، أو أعلمتم أى شىء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه أو أى شىء ظنكم بعقابه - عز وجل - حتى اجترأتم على الإفك عليه ، ولم تخافوا عذابه .[2] .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٨ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١١٠ .

وعلى أية حال فالآية تدل دلالة واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عبادة لغير الله - تعالى - وعلى نفور فطرته لما هم عليه من باطل .

ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته . وتنتقل السورة للإشارة إلى ما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فتقول : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين ﴾ .

قالوا : كان قوم إبراهيم يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها فى العالم .. وتصادف أن حل أوان عيد لهم . فدعوه إلى الخروج معهم كما هى عادتهم فى ذلك العيد .

فتطلع إلى السماء ، وقلب نظره فى نجومها ، ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم - ليخلوا بالأصنام فيحطمها - : ﴿ إنى سقيم ﴾ أى مريض مرضا يمنعنى من مصاحبتكم . ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ . أى : فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين .

قال قعادة : والعرب تقول لمن تفكر فى أمر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة : أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به فقال ﴿ إنى سقيم ﴾ أى : ضعيف .

وقول النبى - ﷺ - لم يكذب إبراهيم غير ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله ، قوله : « إنى سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله فى سارة « هى أختى » .

ليس المراد بالكذب هنا الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء فى الحديث : إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب .

وقيل قوله « إنى سقيم » أى : بالنسبة لما يستقبل ، يعنى مرض الموت .

وقيل : أراد بقوله : « إنى سقيم » أى ، مريض القلب من عبادتكم للأوثان من دون الله - تعالى - ...[1] .

ويبدو لنا أن نظر إبراهيم - عليه السلام - فى النجوم ، إنما هو نظر المؤمن المتأمل فى ملكوت الله - تعالى - المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وأنه إنما فعل ذلك أمامهم -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٠ .

وهم قوم يعظمون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج معهم ، ويتم له ما يريده من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : « إنى سقيم » المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام .

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام .

فكلام إبراهيم حق فى نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه على حسب ما يعتقدون .

ثم حكى - سبحانه - ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : ﴿ فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ .

وأصل الروغ : الميل إلى الشىء بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راغ فلان نحو فلان . إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال .

أى : فذهب إبراهيم مسرعاً إلى الأصنام بعد أن تركها القوم وانصرفوا إلى عيدهم ، فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء : أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التى قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك ؟

وخاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : « ألا تأكلون » ، لأن قومه أنزلوها تلك المنزلة .

وقوله : « مالكم لا تنطقون » زيادة فى السخرية بتلك الأصنام ، وفى إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها .

هذا الغضب الذى كان من آثاره ما بينه القرآن فى قوله : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ أى : فمال عليهم ضاربا إياهم بيده اليمنى ، حتى حطمهم كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيرا لهم لعلهم إليهم يرجعون ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ ضربا باليمين ﴾ الدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - لشدة حنقه وغضبه على الأصنام - قد استعمل فى تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهى يده اليمنى . وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التى حلفها حين قال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها ...

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن هنا ما قالوه

لإبراهيم عندما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ، مكتفياً بإبراز حالهم فيقول : « فأقبلوا إليه يزفون » .

أى : فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة . أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ولهم جلبة وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم .

يقال : زَفَّ النعام يَزِفُّ زَفًّا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكأنه يطير .

ولم يأبه إبراهيم - عليه السلام - لهياج قومه ، وإقبالهم نحوه بسرعة وغضب ، بل رد عليهم رداً منطقيا سليما ، فقال لهم : ﴿ أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

أى : قال لهم موبخا ومؤنبا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتقطعونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، وتتركون عبادة الله - تعالى - الذى خلقكم وخلق الذى تعملونه من الأصنام وغيرها .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ « ما » فى موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها .

وقيل إن « ما » استفهام ، ومعناه : التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى أى : أنتم لا تعملون ذلك لكن الله خالقه والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا . والتقدير : والله خلقكم وعملكم ، وهذا مذهب أهل السنة ، أن الأفعال خلق لله - عز وجل - واكتساب للعباد .

وروى أبو هريرة عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن الله خالق كل صانع وصنعته »[1] .

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم ، لم يجد أذنا واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه - سبحانه - فى قوله : ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ أى قالوا فيما بينهم : ابنوا لإبراهيم بنيانا ، ثم املئوه بالنار المشتعلة ، ثم ألقوا به فيها فتحرقه وتهلكه .

فالمراد بالجحيم : النار الشديدة التأجج . وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، وهذا اللفظ مأخوذ من الجَحْمة وهى شدة التأجج والاتقاد - يقال : جحم فلان النار - كمنع - إذا أوقدها وأشعلها ، واللام فيه عوض عن المضاف إليه - أى - ألقوه فى جحيم ذلك البنيان الملىء بالنار .

وبنوا البنيان ، وأضرموه بالنار ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فماذا كانت النتيجة ؟

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩٦ .

كانت كما قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ فأرادوا به كيدا ﴾ أى : شرا وهلاكا عن طريق إحراقه بالنار ﴿ فجعلناهم ﴾ - بقدرتنا التى لا يعجزها شىء - الأسفلين أى : الأذلين المقهورين ، حيث أبطلنا كيدهم . وحولنا النار إلى برد وسلام على عبدنا إبراهيم - عليه السلام - .

وهكذا رعاية الله - تعالى - تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العاقبة لهم على القوم الكافرين .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك جانبا آخر من قصة إبراهيم - عليه السلام - هذا الجانب يتمثل فى هجرته من أجل نشر دعوة الحق وفى تضرعه إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فتقول : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين .. ﴾ .

أى : قال إبراهيم بعد أن نجاه الله - تعالى - من كيد أعدائه ﴿ إنى ذاهب إلى ربى ﴾ أى : إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل - سبحانه - بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى .

قال القرطبى : « هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار ﴿ قال إنى ذاهب إلى ربى ﴾ أى : مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، فإنه ﴿ سيهدين ﴾ فيما نويت إلى الصواب[1] .

قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة . إلى الأرض المقدسة وهى أرض الشام .. »[2] .

والسين فى قوله ﴿ سيهدين ﴾ لتأكيد وقوع الهداية فى المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله فى تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه إلا من أجل نشر دينه وشريعته - سبحانه - .

ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له ، أملا آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ .

أى : وأسألك ياربى بجانب هذه الهداية إلى الخير والحق ، أن تهب لى ولدا هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩٧ .

وأجاب الله - تعالى - دعاء عبده إبراهيم، كما حكى ذلك فى قوله: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾.

أى: فاستجبنا لإبراهيم دعاءه فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق.

قال صاحب الكشاف: - وقد انطوت البشارة على ثلاثة: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليما[1].

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به. المقصود به هنا إسماعيل - عليه السلام - .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ فصيحة، أى: بشرناه بهذا الغلام الحليم، ثم عاش هذا الغلام حتى بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها، ليساعده فى قضاء مصالحه.

قيل: كانت سن إسماعيل فى ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة.

﴿ قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾.

أى: فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن، قال الأب لابنه: يا بنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك.

قال الآلوسى ما ملخصه: يحتمل أنه - عليه السلام - رأى فى منامه أنه فعل ذلك.. ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك، ولكنه لم يذكره وذكر التأويل، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة: رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة.

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة، وفى رواية أنه رأى ذلك فى ليلة التروية فأخذ يفكر فى أمره، فسميت بذلك، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله، فسمى بيوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهمَّ بنحره فسمى بيوم النحر.

ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة، أن تكون المبادرة إلى الامتثال، أدل على كمال الانقياد والإخلاص..[2].

وإنما شاوره بقوله: ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه سواء رضى إسماعيل أم لم يرض، لأن فى هذه المشاورة إعلاما له بما رآه، لكى يتقبله بثبات وصبر، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون، وليختبر عزمه وجلده.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣.
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٢٩.

وقوله : ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ حكاية لما رد به إسماعيل على أبيه إبراهيم - عليهما السلام - وهو رد يدل على علو كعبه فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت أفعل ما تؤمر به من قبل الله - تعالى - ولا تتردد فى ذلك وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه .

وفى هذا الرد ما فيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به - سبحانه - فى أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليهم السلام - يلهمهم الله - تعالى - فى جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى . والكمال الخلقى .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان من الابن وأبيه فقال : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ وأسلما : بمعنى استسلما وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلَّم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف .

وقوله ﴿ وتلَّه ﴾ أى : صرعه وأسقطه ، وأصل التل : الرمى على التَّل وهو الرمل الكثيف المرتفع ، ثم عمم فى كل رمى ودفع ، يقال : تل فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض .

والجبين : أحد جانبى الجبهة ، وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والابن لأمر الله - تعالى - وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه .. كان ما كان منا من رحمة بهما . ومن إكرام لهما ، ومن إعلاء لقدرهما .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين « وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا » كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا فى تضاعيفه من الثواب ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب ..[1] .

وقد ذكروا هنا آثارا منها أن إسماعيل - عليه السلام - لما هم أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مرَّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمى فاقرأ

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٥ .

عليها السلام منى .. وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى ..»[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ﴾ أى : وعندما صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا .. نادينا إبراهيم بقولنا ﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك .

قال الجمل : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كان تصديقها إلا لو حصل منه الذبح ؟

قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادهما لأمر الله[٢] .

وجملة « إنا كذلك نجزى المحسنين » تعليل لما قبلها . أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المحسنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ يعود إلى ما ابتلى الله - تعالى - نبيه إبراهيم وإسماعيل .

أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، لهو البلاء الواضح ، والاختبار الظاهر ، الذى به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ والذبح بمعنى المذبوح فهو مصدر بمعنى اسم المفعول كالطحن بمعنى المطحون .

أى : وفدينا إسماعيل - عليه السلام - بمذبوح عظيم فى هيئته ، وفى قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا .

قيل : افتداه الله - تعالى - بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم - أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى من بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٣٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٤٨ .

الجزاء نجزى المحسنين ، إنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين فى إيمانهم .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

أى : ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم ، أننا بشرناه بولد آخر هو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا ، وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن جعلنا عدداً كبيراً من الأنبياء من نسلهما .

ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن فى قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن الرسل جميعا قد جاءوا من عند الله - تعالى - بدين واحد فى أصوله ، وأن كل واحد منهم قد سار على نهج سابقه فى الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقد بين - سبحانه - فى مطلع هذه القصة ، أن إبراهيم كان من شيعة نوح - عليه السلام - أى : من أتباعه الذين ساروا على سنته فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده .

وقد أمر - عز وجل - نبيه - ﷺ - أن يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

٢ - أن تعاطى الحيل الشرعية من أجل إزالة المنكر ، أمر مشروع ، فإن إبراهيم - عليه السلام - لكى يقضى على الأصنام ، اعتذر لقومه عن الخروج معهم فى يوم عيدهم ، وقال لهم : إنى سقيم - بعد أن نظر فى النجوم .

وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يختلى بالأصنام ليحطمها ، ويثبت لقومه أنها لا تصلح للألوهية .

٣ - أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يراعى - بفضله وكرمه - عباده المخلصين ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم الشرور والسوء .

ونرى ذلك جليا فى هذه القصة ، فقد أضمر الكافرون لإبراهيم الكيد والإهلاك . فأنجاه الله - تعالى - من مكرهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ .

٤ - أن على المؤمن إذا لم يتمكن من نشر دعوة الحق فى مكان معين أن ينتقل منه إلى مكان

آخر متى كان قادرا على ذلك .

وهذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - فقدقال لقومه بعد أن يئس من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ .

٥ - أن الدعاء متى صدر من نفس عامرة بالإيمان والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى .. كان جديراً بالإجابة .

فلقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاءه .

كما حكى - سبحانه - ذلك فى قوله : ﴿ رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ .

ثم قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

٦ - أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد ضربا أروع الأمثال فى صدق الإيمان ، وفى الاستسلام لأمر الله - تعالى - وفى الرضاء بقضائه .

فكافأهما - عز وجل - على ذلك مكافأة جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة ، وبأن افتدى الذبيح بذبح عظيم .

قال - تعالى - : ﴿ وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

٧ - أن الذبيح الذى ورد ذكره فى هذه القصة ، والذى افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم ، هو إسماعيل - عليه السلام - وعلى ذلك سار جمهور العلماء ، ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتى :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ فبشره - سبحانه - ﴿ بغلام حليم ﴾ ، وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى أعماله . قال له أبوه : ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ ثم افتدى الله - تعالى - هذا الغلام بذبح عظيم .

ثم قال - تعالى - بعد كل ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

وهذا يدل على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثانى وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - قد جاء الحديث عنها مفصلا فى سورة

هود . وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابسات التى وردت هنا فى سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى فقال :

وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة فى قوله - تعالى - ﴿ رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ... ﴾ .

فهذه الآية قاطعة فى أن المبشر به هو الذبيح .

ومرة فى قوله - فى سورة هود - : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ﴾ .

فقد صرح فيها بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ ، وكان ذلك فى بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم فى آخر عمره .

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله ، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان فى وقتين بغلامين ، أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح[1] .

جـ - أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد - كما قال الإمام ابن القيم - عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها .

ثم قال الإمام ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه « بكره » وفى لفظ « وحيده » ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم[2] .

ومن العلماء الذين فصلوا القول فى هذه المسألة ، الإمام ابن كثير ، فقد قال رحمه الله : « وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة - أيضًا - وليس ذلك فى كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقًّى إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٥٠٥٧ .
(٢) راجع تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٥٠٥٣ .

ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ وقال - تعالى - : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أى : يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل .

وقد قدمنا أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فيكف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرًا ، وإسماعيل وصف هنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام »[1] .

قال الآلوسى - رحمه الله - بعد أن ساق أقوال العلماء فى ذلك بالتفصيل : « والذى أميل إليه أنه - أى الذبيح - إسماعيل - عليه السلام - ، بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه ، وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ، ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب »[2] .

هذه بعض الأحكام والآداب التى يمكن أن نأخذها من هذه القصة ، التى حكاها - سبحانه - عن نبيه إبراهيم - عليه السلام - فى هذه السورة الكريمة ، وهناك أحكام وآداب أخرى يستطيع أن يستخلصها المتدبر فى هذه الآيات الكريمة .

ثم ذكر - سبحانه - جانبًا من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - وهما من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٣٦ .

﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

وموسى : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق ، وكانت ولادته فى حوالى القرن الثالث عشر ق م .

وهارون : أخو موسى ، قيل كان شقيقًا له ، وقيل كان أخا له لأمه ..

والمعنى : لقد أنعمنا على موسى - وهارون - عليهما السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم الأخرى .

والتى من بينها أننا نجيناهما وقومهما المؤمنين ، من استعباد فرعون إياهم ، ومن ظلمه لهم .

﴿ ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴾ أى : ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما . فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناهم إياه ، هم الغالبين لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم .

﴿ وآتيناهما ﴾ بعد كل ذلك ﴿ الكتاب المستبين ﴾ أى : الكتاب المبين الواضح وهو التوراة .

يقال : استبان الشىء ، إذا ظهر ووضح وضوحا تاما .

﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾، أى : وهديناهما وأرشدناهما - بفضلنا وإحساننا - إلى الطريق الواضح الذى لا عوج فيه .

﴿ وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون ﴾ أى : وأبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن .

﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى : مثل هذا التكريم نجازى عبادنا المحسنين ﴿ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ أى الذين صدقوا فى إيمانهم ، وفى طاعتهم لنا .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة إلياس - عليه السلام - وهو أيضاً من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وإلياس – عليه السلام – هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون – عليه السلام – فهو ينتهى نسبه – أيضا – إلى إبراهيم وإسحاق .

ويعرف إلياس فى كتب الإسرائيليين باسم ﴿ إيليا ﴾ وقد أرسله الله – تعالى – إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا .

ويقال : إن رسالته كانت فى عهد « آخاب » أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر ق م .

والمعنى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وقوله : ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ شروع فى بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف ، والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه ألا تتقون الله . وتخشون عذابه ونقمته . والاستفهام للحض على تقوى الله – تعالى – واجتناب ما يغضبهُ .

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره – سبحانه – فقال : ﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ﴾ .

والبعل : اسم للصنم الذى كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل : سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله – عز وجل – الذى خلقكم ورزقكم .

ولفظ الجلالة فى قوله : ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ بدل من ﴿ أحسن الخالقين ﴾ .

أى : أتعبدون صنما صنعتموه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقرأ غير واحد من القراء السبعة ﴿ الله ﴾ - بالرفع - على أنه مبتدأ ، و ﴿ ربكم ﴾ خبره .

والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لآبائهم الأولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم : إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم بل - أيضاً - رب آبائكم الأولين ، الذين من طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة .

وقوله - تعالى - ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم عن دعوته .

أى : دعا إلياس قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضارا فيه ذلهم وهوانهم .

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ فإنهم ناجون من الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريمنا وإحساننا .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ أى : وأبقينا على إلياس فى الأمم الآخرين ﴿ سلام على إلياسين ﴾ أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه .

﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة لوط مع قومه . فقال - تعالى - :

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

ولوط - عليه السلام - هو ابن أخ لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وكان قد آمن به وهاجر معه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ .

وقد أرسل الله - تعالى - لوطا إلى قرية سدوم - من قرى الشام - وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

أى : ﴿ وإن لوطا ﴾ - عليه السلام - ﴿ لمن المرسلين ﴾ الذين أرسلناهم لهداية الناس ، ﴿ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴾ أى : اذكر - أيها العاقل - وقت أن نجيناه وجميع المؤمنين معه ، بفضلنا ورحمتنا .

﴿ إلا عجوزا فى الغابرين ﴾ والمراد بالعجوز : امرأته التى بقيت على كفرها وكانت تفشى أسرار زوجها . أى : نجينا لوطا والمؤمنين معه من أهله ، إلا عجوزا بقيت فى العذاب مع القوم الغابرين أى : مع الباقين فى العذاب .

﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أى : ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم ، كما دمرنا من بقى على كفره من أهل لوط ، كامرأته التى أعرضت عن دعوة الحق ، وانحازت إلى قومها المفسدين .

ثم وجه - سبحانه - الخطاب لمشركى قريش فقال : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ؟ .

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على مساكن قوم لوط المهلكين ، وأنتم سائرون إلى بلاد الشام ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلون فى وقت الصباح ، وتارة تمرون عليهم وأنتم داخلون فى وقت الليل ، وترون بأعينكم ما حل بهم من دمار .

وقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ معطوف على مقدر ، أى : اتشاهدون ذلك فلا تعقلون ، فالاستفهام للتوبيخ والحض على الاعتبار بأحوال الماضين .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصص ، يذكر جانب من قصة يونس - عليه السلام - فقال :

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

ويونس - عليه السلام - : هو ابن متى ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

وملخص قصته أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، وفى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب .

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا ، ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك .

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشئوما ، فاقترعوا ليلقوا فى البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت ..[1] .

والمعنى : وإن يونس - عليه السلام - لمن المرسلين الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

﴿ إذ أبق ﴾ أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه - يقال : أبق العبد - كضرب ومنع - إذا هرب من سيده فهو آبق .

﴿ إلى الفلك المشحون ﴾ أى : هرب من قومه إلى الفلك المملوء بالناس والأمتعة ﴿ فساهم ﴾ أى : فقارع من فى السفينة بالسهام ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا ﴿ فكان من المدحضين ﴾ .

أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواء . يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٤٣ .

﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ أى بعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه فى البحر ، « فالتقمه الحوت » أى : ابتلعه بسرعة : يقال : لَقِمَ فلان الطعام - كسمع - والتقمه ، إذا ابتلعه بسرعة ، وتَلَقَّمه إذا ابتلعه على مهل .

وجملة « وهو مليم » حالية فى محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال ما يلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه .

يقال : رجل مليم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال ما يلام عليه ، وهو اسم فاعل من ألَامَ الرجل ، إذا أتى ما يلام عليه .

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أى : فلولا أن يونس - عليه السلام - كان من المسبحين لله - تعالى - المداومين على ذكره . لولا هذا التسبيح للبث يونس فى بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله - تعالى - وتسبيحه .. سبب فى تفريج الكروب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته . وفى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : « أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثَر .

وفى الحديث الشريف : « من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل » فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلق الله ، لكى يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه[1] .

فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، والنبذ : الطرح ، والعراء : الخلاء .

أى : أن يونس - عليه السلام - بعد أن التقمه الحوت أخذ فى الإكثار من تسبيحنا ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض .

وجملة « وهو سقيم » حالية . أى : ألقيناه بالأرض الفضاء حالة كونه عليلا سقيما ، لشدة ما لحقه من تعب وهو فى بطن الحوت .

﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ أى : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من يقطين لكى تظلل عليه وتمنع عنه الحر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٢٧ .

واليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .

وقد قالوا إن المراد بهذه الشجرة ، هى شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أى : وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعيناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك فى نظر الناظر إليهم ، فآمنوا جميعا ﴿ فمتعناهم ﴾ بالحياة ﴿ إلى حين ﴾ انتهاء آجالهم .

قال الإمام ابن كثير : ولا مانع من أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به . وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون[1] .

هذا ومن العبر التى نأخذها من هذه القصة ، أن رحمة الله - تعالى - قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل فيه التوبة ، قبل الله - تعالى - توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا فى رفع البلاء .

وبعد هذه الجولة مع قصص بعض الأنبياء ، أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يسأل هؤلاء المشركين ، سؤال توبيخ وتأنيب ، عما قالوه فى شأن الملائكة من باطل وزور ، وأن يرد على أكاذيبهم ردا يخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ
وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ
﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥ .

نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا
لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ
﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

وقوله – تعالى – ﴿ فاستفتهم .. ﴾ معطوف على قوله – تعالى – فى أوائل السورة : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا .. ﴾ عطف جملة على جملة . والخطاب للرسول – ﷺ – والاستفتاء : الاستخبار والاستفهام وطلب الفتيا من المفتى .

أى : أسأل – أيها الرسول – هؤلاء المشركين سؤال تقريع وتأنيب : ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ أى : أسألهم بأى وجه من وجوه القسمة جعلوا لربك البنات وجعلوا لأنفسهم البنين ؟ إن قسمتهم هذه لهى قسمة جائرة وفاسدة عند كل عاقل ، لأنه لا يليق فى أى عقل أن يجعلوا لله – تعالى – الجنس الأدنى وهو جنس الإناث ، بينما يجعلون لأنفسهم الجنس الأعلى .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : ﴿ فاستفتهم ﴾ معطوف على مثله فى أول السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة ، أمر رسوله – ﷺ – باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولا . ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها ، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم الملائكة بنات الله ، مع كراهتهم الشديدة لهن . ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام .

---

(١) سورة النجم الآيتان ٢١ ، ٢٢

والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم ، حيث جعلوا أوضع الجنسين له ، وأرفعهما لهم .

والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق الله ، وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم . ولو قيل لأقلهم وأدناهم : فيك أنوثة ، أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمور ، ولا نقلبت حماليقه - أى : أجفان عينيه .[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ﴾، تقريع آخر لهم على جهالاتهم وسفههم ، حيث أضرب - سبحانه - عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه فى التبكيت والتأنيب .

أى : إنهم زعموا أن لربك البنات ولهم البنون ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث ؟ كلا إنهم لم يكونوا حاضرين وإنما هم يهرفون بمالا يعرفون .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[2] .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ﴿ وهم شاهدون ﴾ فخص علم المشاهدة ؟

قلت : ما هو إلا الاستهزاء بهم وتجهيل .. وذلك لأنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق علمه فى قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر[3] .

ثم أخبر - سبحانه - عن كذبهم فقال : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ والإفك : أشنع الكذب وأقبحه . يقال : أفِك فلان كضرب وعلم - إِفْكاً وأَفْكاً ، إذا كذب كذبا فاحشا .

أى : ألا إن هؤلاء الكافرين . من شدة كذبهم ، وشناعة جهلهم ليقولون زوراً وبهتانا : ﴿ ولد الله ﴾ أى : اتخذ الله ولدا ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فى ذلك كذبا ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ .

وافتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » لتأكيد قولهم ، وانهم كانوا مصرين على هذا القول الذى لا نهاية لبطلانه .

ثم كرر - سبحانه - توبيخهم وتقريعهم فقال : ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ والاصطفاء : الاختيار والانتقاء . والاستفهام للإنكار والنفى ، أى : هل اختار الله البنات على

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٣ .
(٢) سورة الزخرف الآية ١٩ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٣ .

البنين فى زعمهم ؟ كلا إن الله - تعالى - لم : يفعل شيئا من ذلك لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ أى : أى شيء حدث لكم ، وكيف أصدرتم هذه الأحكام الظاهرة البطلان عند كل من كان عنده أثر من عقل .

وقوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ . معطوف على كلام محذوف والتقدير : أتجهلون هذه الأمور الواضحة ، فلا تعقلون ولا تتذكرون ولا تعتبرون .

وقوله - تعالى - : ﴿ أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم ، إلى تحديهم وإثبات كذبهم .

أى : بل ألكم حجة واضحة على صحة هذا القول الذى قلتموه من أن الملائكة بنات الله ؟ إن كانت عندكم هذه الحجة فأتوا بها إن كنتم صادقين فيما زعمتم .

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تعجيزهم وإثبات المزيد من جهالاتهم وأكاذيبهم .

ثم حكى - سبحانه - زعما آخر من زعمهم فى شأن الملائكة فقال : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ .

والمراد بالجنة هنا : الملائكة . سمو بذلك لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين .

أى : أن المشركين لم يكتفوا بما قالوا فى الآيات السابقة ، بل أضافوا إلى ذلك جريمة أخرى ، وهى أنهم جعلوا بين الله - تعالى - وبين الملائكة نسبا ، ولقد علمت الجنة ، - أى الملائكة - ، « إنهم » أى القائلون لهذه المقالة الباطلة « لمحضرون » أى : إلى العذاب يوم القيامة . ليذوقوا سوء عاقبة كذبهم .

قال القرطبى : أكثر أهل التفسير أن الجنة هاهنا الملائكة . عن مجاهد قال : قالوا - يعنى كفار قريش - الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : مخدرات الجن ... ومعنى « نسبا » : مصاهرة . وقال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهن .

وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهو النسب الذى جعلوه[1] .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عما افتروه فقال : ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أى : تنزه الله - تعالى - وتقدس عما يقوله هؤلاء الجاهلون .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٣٤ .

وقوله : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من قوله ﴿ لمحضرون ﴾ وما بينهما جملة معترضة لتنزيه الله - تعالى - وتقديسه .

أى : والله لقد علمت الملائكة أن المشركين القائلين بهذا القول الفاسد لمحضرون إلى النار ، ويُدَعُّون إليها دعا ، لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ليسوا كذلك ، بل هم ناجون من عذاب جهنم ، لتنزيههم الخالق - عز وجل - عما لا يليق به .

ثم حقر - سبحانه - من شأن المشركين ، ومن شأن آلهتهم المزعومة فقال : ﴿ فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم ﴾ .

وهذا الكلام يجوز أن يكون حكاية لما رد به الملائكة على المشركين الذين قالوا الإفك والزور قبل ذلك ، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من الله - تعالى - على سبيل الاستخفاف والتهكم بالمشركين وبآلهتهم .

والفاء فى قوله ﴿ فإنكم ﴾ واقعة فى جواب شرط مقدر . و « الواو » فى قوله ﴿ وما تعبدون ﴾ للعطف على اسم إن ، أو بمعنى مع . و « ما » موصولة أومصدرية . و « ما » فى قوله : ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ نافية والضمير فى « عليه » يعود على الله - عز وجل - والجار والمجرور متعلق « بفاتنين » . والمراد بالفتن : هنا الإفساد ، من قولهم : فلان فتن على فلان خادمه . إذا أفسده . وجملة « ما أنتم عليه بفاتنين » خبر إن .

و « صال » - بكسر اللام - اسم فاعل منقوص - كقاض - مضاف إلى ما بعده . وحذفت ياؤه لالتقاء الساكنين .

والمعنى : إذا أدركتم - أيها المشركون - ما قلناه لكم . فثقوا أنكم أنتم وآلهتكم لن تستطيعوا أن تضلوا أحدا هداه الله - تعالى - لكنكم تستطيعون أن تضلوا من كان من أهل الجحيم مثلكم .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، الاستخفاف بالمشركين وبآلهتهم ، وبيان أن من هداه الله ، تعالى - لا سلطان لهم عليه فى إغوائه أو إضلاله .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « عليه » لله - تعالى - ومعناه : فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله ، إلا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها .

فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله ؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم .

من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها وخببها عليه ..[١] .

ثم بين - سبحانه - أن الملائكة معترفون اعترافا تاما بطاعتهم لله - تعالى - وبمداومتهم على عبادته وتسبيحه فقال : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

أى : لقد اعترف الملائكة بطاعتهم الكاملة لله - تعالى - وقالوا : وما منا أحد إلا له مقام معلوم فى عبادة الله - تعالى - وطاعته ، وإنا لنحن الصافون أنفسنا فى مواقف العبودية والطاعة لله - عز وجل - وإنا لنحن المسبحون والمنزهون له - تعالى - عن كل مالا يليق به .

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث منها أن رسول الله - ﷺ - قال يوما لجلسائه : « أطَّت السماء وحق لها أن تَئِط - أى سمع لها صوت شديد - ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد ، ثم قرأ : ﴿ وإنا لنحن الصافون : وإنا لنحن المسبحون ﴾.[٢] .

ثم أخبر - سبحانه - عن حال المشركين قبل أن يأتيهم رسول الله - ﷺ - فقال : ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ .

و « إن » فى قوله ﴿ وإن كانوا .. ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف .

والقائلون هم كفار مكة ، والفاء فى قوله ﴿ فكفروا به ﴾ وهى الفصيحة الدالة على محذوف مقدر .

والمعنى إن حال هؤلاء الكافرين وشأنهم ، أنهم كانوا يقولون قبل مجىء الرسول - ﷺ - إليهم « لو أن عندنا ذكرا من الأولين » أى : لو أن عندنا كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل . لكنا عباد الله المخلصين أى : لكنا بسبب وجود هذا الكتاب من عباد الله الذين يخلصون له العبادة والطاعة .

فجاءهم محمد - ﷺ - بالكتاب المبين كما تمنوا وطلبوا ، فكانت النتيجة أن كفروا به ، فسوف يعلمون سوء عاقبة هذا الكفر ، ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[٣] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٥٥ .

ثم ختم – سبحانه – السورة الكريمة ببشارة المؤمنين بنصره ، وبتسلية النبى – ﷺ – عما أصابه من أعدائه ، فقال – تعالى – :

وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ
جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ
صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

والمراد بكلمتنا فى قوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا .. ﴾ ما وعد الله – تعالى – به رسله وعباده الصالحين من جعل العاقبة الطيبة لهم .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله – تعالى – : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[1] وقوله – سبحانه – ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[2] .

أى : والله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ . على أعدائهم ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ لمن عاداهم وناواهم .

وهذا الوعد بالنصر لا يتعارض مع هزيمتهم فى بعض المواطن – كيوم أحد مثلا – لأن هذه الهزيمة إنما هى لون من الابتلاء الذى اقتضته حكمة الله – تعالى – ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، أما النصر فى النهاية فهو للمؤمنين وهذا ما حكاه لنا التاريخ الصحيح ، فقد تم فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، بعد أن جاهد النبى – ﷺ – وأصحابه وهزموا

---

(١) سورة غافر آية ٥١ .
(٢) سورة المجادلة آية ٢١ .

الكافرين ، ولم يفارق الرسول - ﷺ - هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالإعراض عن المشركين ، وبالصبر على أذاهم ، فقال : ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أى : فأعرض عنهم إلى الوقت الذى يأذن الله لك فيه بقتالهم ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ أى : وانظر إليهم وراقبهم عندما ينزل بهم عذابنا ، فسوف يبصرون هم ذلك فى دنياهم وفى آخرتهم .

والأمر بمشاهدة ذلك : إشعار بأن نصره - ﷺ - عليهم ، آت لا ريب فيه حتى لكأنه واقع بين يديه ، مشاهد أمامه .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ للتوبيخ والتأنيب .

أى أبلغ الجهل وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين ، أنهم يستعجلون عذابنا .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المشركين قالوا للنبى - ﷺ - : يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به ، فنزلت هذه الآية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم هذا العذاب الذى استعجلوا نزوله فقال ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ .

والساحة فى الأصل تطلق على الفناء الواسع للدار والمراد بها هنا القوم الذين يكونون فيها والمخصوص بالذم محذوف .

أى : فإذا نزل العذاب بهؤلاء المشركين . فبئس الصباح صباحهم . ولن ينفعهم حينئذ ندم أو توبة ، وخص الصباح بالذكر ، لأن العذاب كان يأتيهم فيه فى الغالب .

أخرج الشيخان عن أنس ، رضى الله عنه . قال : صبح رسول الله - ﷺ - خيبر ، فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا يقولون : محمد والله ، محمد والخميس - أى : والجيش فقال - ﷺ - : « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ».

ثم كرر - سبحانه - تهديده ووعيده لهم على سبيل التأكيد لعلهم يعتبرون فقال : ﴿ وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون ﴾ أى : وأعرض عنهم حتى حين ، وأبصر ما توعدناهم به من عذاب أليم ، فسوف يبصرون هم ذلك .

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ أى . تنزه وتقدس ربك - أيها الرسول الكريم - عما وصفه به الواصفون الجاهلون من صفات لا تليق بذاته .

وقوله ﴿ رب العزة ﴾ بدل من ربك : أى هو صاحب العزة والغلبة والقوة التى لا يقف أمام قوتها شيء والتى لا يملكها أحد سواه .

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أى : وسلام وأمان وتحية منا على المرسلين ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أى : والثناء الكامل لله - تعالى - رب العالمين جميعا وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم .

وبعد فهذا تفسير لسورة الصافات ، نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر
الأربعاء : ٢٠ من ذى القعدة ١٤٠٥ هـ
٧ / ٨ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفور ربه
د. محمد سيد طنطاوى

تفسير
سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

١ - سورة « ص » هى السورة الثامنة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « القمر » وهى من السور المكية الخالصة . ويقال لها سورة « داود » .

قال الآلوسى : هى مكية - كما روى عن ابن عباس وغيره - وهى ثمان وثمانون آية فى المصحف الكوفى . وست وثمانون فى الحجازى والبصرى والشامى ... وهى كالمتممة لسورة الصافات التى قبلها ، من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر فى تلك من الأنبياء ، كداود وسليمان ... »[1] .

٢ - وقد افتتحت سورة « ص » بقسم من الله - تعالى - بالقرآن الكريم ، على صدق الرسول - ﷺ - ، فيما يبلغه عن ربه .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المشركون فيما بينهم ، لإنكار نبوة النبى - ﷺ - ، ولإنكار يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، ورد عليهم بما يثبت جهلهم وغفلتهم واستكبارهم عن قبول الحق ..

قال - تعالى - : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى تسلية الرسول - ﷺ - عما لحقه منهم من أذى وكيد ، فحكت له أن أقوام الرسل السابقين قد قابلوا رسلهم بالتكذيب ، وأمرته بالصبر على جهالاتهم ، وساقت جانبًا من قصة داود - عليه السلام فذكرت بعض النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه ، كما ذكرت ما دار بينه وبين الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب .

قال - تعالى - : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٦٠ .

وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق . و قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب . اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) ...

٤ - وبعد هذا الحديث الذى فيه شيء من التفصيل عن وجوه النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عبده داود ، وعن لون من ألوان الامتحانات التى امتحنه - تعالى - بها ، وعن الإرشادات الحكيمة التى أرشده الله - عز وجل - إليها ...

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - أنواعًا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، وبين أن حكمته قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والفجار .

قال - تعالى - : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

٥ - ثم أثنى - سبحانه - بعد ذلك على نبيه سليمان - عليه السلام - وبين بعض النعم التى منحها له ، كما بين موقفه مما اختبره - تعالى - به ...

قال - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص ﴾ .

٦ - ثم مدح - سبحانه - نبيه أيوب - عليه السلام - على صبره ، وعلى كثرة تضرعه إلى ربه ، وكيف أنه - تعالى - قد كافأه على ذلك بما يستحقه .

قال - تعالى - : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب ﴾ .

٧ - ثم أثنى - سبحانه - على أنبيائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وإسماعيل واليسع وذا الكفل ، وبين ما أعده لهم ولأمثالهم من عباده الأخيار ، كما بين ما توعد به الفجار من عذاب أليم ..

قال - تعالى - : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاد . هذا ، وإن للطاغين لشر مآب ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن قصة آدم وإبليس وكيف أن الملائكة جميعًا سجدوا لآدم إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله - تعالى - .

٩ - ومن هذا العرض المجمل لسورة « ص » نرى أنها قد اهتمت اهتمامًا واضحًا ، بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وعلى صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ، كما اهتمت بحكاية شبهات المشركين ثم الرد عليها ، كما ذكرت جانبًا من قصص بعض الأنبياء ليعتبر بقصصهم كل ذى عقل سليم ، كما أنها قد اهتمت ببيان حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر — د . محمد سيد طنطاوى

الخميس ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٨ / ٨ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوٓا۟
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (٤)
أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ (٦)
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ
(٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم
مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ (١٠)
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ (١١)

سورة « ص » من السور القرآنية التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن بينا بشىء من التفصيل آراء العلماء فى هذه المسألة ، عند تفسيرنا لسور البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . ويونس ..

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو فى الإتيان بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله .

فعجزوا وانقلبوا خاسرين . وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

والواو فى قوله - تعالى - : ﴿ والقرآن ذى الذِّكْر ﴾ للقسم . والمقسم به القرآن الكريم . وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه .

والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أى : صاحب شرف ونباهة . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ .

ويطلق ويراد به التذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على المواعظ والأحكام وقصص الأنبياء . وغير ذلك مما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم .

وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن الكريم ، فيكون المعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف العظيم ، وذى التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس فى دنياهم وآخرتهم ..

إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فى كل ماتبلغه عن ربك ولم يصدر منك إطلاقا مايخالف الحق الذى أمرناك بتبليغه للناس .

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أنهم اختلفوا فى تعيين الشىء الذى أقسم الله - تعالى - عليه فى قوله : ﴿ والقرآن ذى الذكر ﴾ .

فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ أو قوله - تعالى - : ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ أو قوله - تعالى - : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ ..

والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط .

وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا فى تقديره ، فقال صاحب الكشاف : التقدير : « والقرآن ذى الذكر » إنه لمعجز . وقدره ابن عطيه فقال : والتقدير : والقرآن ذى الذكر ليس الأمر كما يقول الكفار..[1] .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ٨ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ﴾ انتقال من القسم والمقسم به، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد .

والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن اتباع الحق ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[1] .

وليس المراد بها القهر والغلبة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[2] .

وأصل الشقاق : المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكأن كل واحد منهما فى شق غير الذى فيه الآخر . والمراد به هنا : مخالفة المشركين لما جاءهم به النبى - ﷺ - .

والمعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف وسمو القدر . إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبلغه عن ربك ، ولست كما يقول أعداؤك فى شأنك . بل الحق أن هؤلاء الكافرين فى حمية واستكبار عن قبول الهداية التى جئتهم بها من عند ربك ، وفى مخالفةٍ ومعارضةٍ لكل مالا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة للأصنام ، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة .

والتعبير بفى فى قوله ﴿ فى عزة وشقاق ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق ، قد أحاط بهم من كل جوانبهم ، كما يحيط الظرف بالمظروف .

ثم خوفهم - سبحانه - بما أصاب الأمم من قبلهم ، وحذرهم من أن يكون مصيرهم كمصير المكذبين السابقين فقال : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ .

« وكم » هنا خبرية . ومعناها : الإخبار عن عدد كثير . وهى فى محل نصب على أنها مفعول به لأهلكنا .

وصيغة الجمع فى أهلكنا للتعظيم . و« من » فى قوله ﴿ من قبلهم ﴾ لابتداء الغاية ، وفى قوله : ﴿ من قرن ﴾ مميزة لِكَمْ . والقرن : يطلق على الزمان الذى يعيش فيه جيل من الناس ، ومدته - على الراجح - مائة سنة والمراد به هنا أهل الزمان .

والمراد بالنداء فى قوله - تعالى - : ﴿فنادوا ﴾ الاستغاثة والضراعة إلى الله أن يكشف عنهم العذاب .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٦ .
(٢) سورة المنافقون الآية ٨ .

و﴿ لات ﴾ هى لا المشبهة بليس - وهذا رأى سيبويه - فهى حرف نفى زيدت فيه التاء لتأكيد هذا النفى .

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس ، وأنها لا تعمل إلا فى الحين خاصة ، أو فى لفظ الحين ونحوه من الأزمنة ، كالساعة والأوان ، وأنها لابد أن يحذف اسمها أو خبرها ، والأكثر حذف المرفوع منها وإثبات المنصوب .

والحين : ظرف مبهم يتخصص بالإضافة .

وقوله : ﴿ مناص ﴾ مصدر ميمى بمعنى الفرار والخلاص . يقال : ناص فلان من عدوه - من باب قال - فهو ينوص نوصا ومناصا ، إذا فر منه ، وهرب من لقائه .

أو بمعنى النجاة والفوت . يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ونجا منه .

والمراد بقوله - تعالى - : ﴿ أهلكنا ﴾ الشروع فى الإهلاك بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ فنادوا ﴾ إذ من المعروف أن من هلك بالفعل لا يستغيث ولا ينادى .

والمعنى : إن هؤلاء الكافرين المستكبرين عن طاعتنا وعبادتنا ، قد علموا أننا أهلكنا كثيرا من السابقين أمثالهم ، وأن هؤلاء السابقين عندما رأوا أمارات العذاب ومقدماته ، جأروا إلينا بالدعاء أن نكشفه عنهم ، واستغاثوا استغاثة جاءت فى غير وقتها ، ولقد قلنا لهم عندما استغاثوا بنا عند فوات الأوان : ﴿ ولات حين مناص ﴾ .

أى : ليس الوقت الذى استغثتم بنا فيه وقت نجاة وفرار من العقاب ، بل هو وقت تنفيذ العقوبة فيكم ، بعد أن تماديتم فى كفركم ، وأعرضتم عن دعوة الحق بدون إنابة أو ندم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾[2] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أكاذيب المشركين الناتجة عن استكبارهم وشقاقهم فقال : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ﴾ ..

---

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ - ٨٥ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٦٤ - ٦٥ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن جماعة من قريش اجتمعوا فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب ، لنكلمه فى شأن ابن أخيه ... فلما دخلوا على أبى طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، و ندعه وإلهه .

فقال أبو طالب للنبى - ﷺ - يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك .

فقال - ﷺ - : « ياعم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ قال : وإلام تدعوهم ؟ قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم ».

فقال أبو جهل من بين القوم : ما هى وأبيك ؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها ، فقال - ﷺ - : « تقولون : لا إله إلا الله ».

فنفر أبو جهل وقال : سلنا غير هذا .

فقال - ﷺ - : « لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ، ما سألتكم غيرها ».

فقاموا غضابا . وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا .[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وعجبوا ... ﴾ مأخوذ من العجَب ، وهو تغير فى النفس من أمر لا ترتاح إليه ، وتخفى لديها أسبابه .

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من مجىء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك . ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

﴿ وقال ﴾ هؤلاء ﴿ الكافرون ﴾ عندما دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الدين الحق .

﴿ هذا ساحر كذاب ﴾ أى : قالوا : هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - سبحانه - أرسله إلينا .

وقال - سبحانه - : ﴿ وقال الكافرون ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم . وللإيذان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول - ﷺ - بما هو منزه عنه من السحر والكذب .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالا أخرى لا تقل عن غيرها فى البطلان والفساد . فقالوا - كما حكى القرآن - : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٦ .

والاستفهام للإنكار . أى : أجعل محمد - ﷺ - الآلهة المتعددة ، إلها واحدا . وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة ؟ .

﴿ إن هذا لشىء عجاب ﴾ أى : إن هذا الذى طلبه منا ، ودعانا إليه ، لشىء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل .

و﴿ عجاب ﴾ أبلغ من عجيب . لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول : هذا رجل طويل ، بينما تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد المعقول فى الطول : هذا رجل طوال .

فلفظ ﴿ عجاب ﴾ صيغة مبالغة سماعية ، وقد حكاها - سبحانه - عنهم للإشعار بأنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول - ؛ - هو شىء قد تجاوز الحد فى العجب والغرابة .

واسم الإشارة يعود إلى جعله - ﷺ - الآلهة إلها واحدا ، لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام .

وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو - فى زعمهم - متجاوز الحد فى العجب .

ثم صور - سبحانه - حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق . تصويرا بديعا ، فقال : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ .

أى : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد أن سمعوا من الرسول - ﷺ - ما أغضبهم وخيب آمالهم .

انطلقوا يقولون : أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها آباؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما هوَّن محمد - ﷺ - من شأنها ، ومهما نهى عن عبادتها .

﴿ إن هذا لشىء يراد ﴾ أى : إن هذا الذى يدعونا إليه محمد - ﷺ - من عبادة الله - تعالى - وحده وترك عبادة آلهتنا لشىء يراد من جهته هو ، وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على دعوته ، بتصميم منا على عبادة آلهتنا .

وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى ما يدعوهم إليه النبى - ﷺ - من عبادة الله وحده .

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم ، فيكون المعنى : إن هذا الدين الذى نحن عليه لشىء يراد لنا ، وقد وجدنا عليه آباءنا ، ومادام الأمر كذلك فلن نتركه مهما كرَّهنَا فيه محمد - ﷺ - .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ إن هذا لشىء يراد ﴾ تعليل للأمر بالصبر ، والإشارة إلى

ما وقع وشاهدوه من أمر النبى - ﷺ - وتصلبه فى أمر التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم ..

أى : إن هذا لشىء عظيم يراد من جهته - ﷺ - إمضاؤه وتنفيذه . فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم . وقيل : إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر .

وقيل : إن هذا - أى : دينكم - يُطلب لينتزع منكم ويطرح ويراد إبطاله ..(١) .

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ... ﴾ أى : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعونا إليه محمد - ﷺ - فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا ، أو ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمد - ﷺ - فى المِلَّة الآخرة ، وهى ملة عيسى - عليه السلام - فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء به عيسى .

وعلى هذين القولين يكون قوله ﴿ فى الملة الآخرة ﴾ متعلق بسمعنا .

ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد - ﷺ - كائنا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان وأهل الكتاب .

وعلى هذا الرأى يكون قوله ﴿ فى الملة الآخرة ﴾ حالا من اسم الإشارة وليس متعلقا بسمعنا .

ثم أكدوا نفيهم لعدم سماعهم لما جاءهم به الرسول - ﷺ - بقولهم : ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ . أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وتخرص اختلقه من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .

يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، دون أن يكون له أصل من الواقع .

ثم صرحوا فى نهاية المطاف بالسبب الحقيقى الذى حال بينهم وبين الإيمان ، ألا وهو الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟... ﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفى . أى : كيف يدعى محمد - ﷺ - أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظماء ، وهو دوننا فى ذلك ؟ إننا ننكر وننفى دعواه النبوة من بيننا .

قال صاحب الكشاف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٦٧ .

الكتاب من بينهم ، كما قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم .[١] .

ولقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبى - ﷺ - فى آيات كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ... ﴾[٢] .

ولقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبى - ﷺ - فعندما سأله سائل ، أتظن محمدا على حق أم على باطل ؟ كان جوابه : إن محمدا لعلى حق ولكن متى كنا لبنى هاشم تبعا . أى : متى كانت أسرتنا تابعة لبنى هاشم !!.

وفى رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل هم فى شك من ذكرى ﴾ إضراب عن كلام يفهم من السياق . وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى .

أى : هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى فى شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ما جئتهم به ، ولم يستندوا فى أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر ، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك .

وقوله - سبحانه - : ﴿بل لما يذوقوا عذاب ﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من مسالكهم الخبيثة ، وأقوالهم الفاسدة . فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم ، وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لا يحوم حوله حق .

وفى التعبير بقوله ﴿ لما ﴾ إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول .

ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه - ﷺ - للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تهكمى فقال - تعالى - : ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤

العزيز الوهاب ﴾ . أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك - أيها الرسول الكريم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عمن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة صناديدهم ويترفعوا بها عنك .. وإنما المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب - الوهاب ، أى : الكثير العطاء لعباده .

والمراد بالعندية فى قوله ﴿ عندهم ﴾ : الملك والتصرف . وتقديم الظرف « عند » لأنه محل الإنكار . وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمير العائد إلى النبى - ﷺ - تشريف وتكريم له - ﷺ -

وجىء بصفة « العزيز » للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وآلهتهم من ترفع وتكبر .

كما جىء بصفة « الوهاب » للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يختاره من عباده ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ... ﴾ تأكيد لما أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشىء من خزائن الله - تعالى - . أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك - أيها الرسول الكريم - وليسوا بمالكين شيئا - أى شىء - من هذه العوالم العلوية أو السفلية ، وإنما هم خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فليرتقوا فى الأسباب ﴾ تعجيز لهم ، وتهكم بهم ، واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو نحوه .

والفاء جواب لشرط محذوف . والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا ، ولهم شىء من ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، ويدبروا أمره ، وينزلوا الوحى على من يختارونه للنبوة من أشرافهم وصناديدهم .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على نهاية التعجيز لهم ، والتهكم بهم وبأقوالهم ، حيث بين - سبحانه - أنهم أدعياء فيما يزعمون ، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون ..

ثم بشر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالنصر عليهم فقال : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ .

ولفظ « جند » خبر لمبتدأ محذوف . و « ما » مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو قولك : أكلت شيئا ما . أى : شيئا قليلا ، وقيل : هى للتكثير والتهويل كقولهم : لأمر ما جدع قصير أنفه .

أى : لأمر عظيم .. وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لا وزن لهم بجانب قدرة الله - تعالى - .

و« هنالك » صفة لجند ، أو ظرف لمهزوم . وهو إشارة إلى المكان البعيد .

و« مهزوم » خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل الهَزْم : غَمْزُ الشىء اليابس حتى يتحطّم ويُكسر .

يقال : تَهزَّمت القربة ، بمعنى يبست . وتكسرت . وهُزِم الجيش بمعنى غُلِب وكُسِر .

والمعنى : هؤلاء المشركون - أيها الرسول الكريم - لا تهتم بأمرهم ، ولا تكترث بجموعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا التى لا يقف أمامها شىء ، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين فى مواطن متعددة .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال - تعالى - : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث لما به يهذون ، و« ما » مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام ... إلا أنه على سبيل الاستهزاء بهم . و﴿ هنالك ﴾ إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لستَ هنالك[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوال المشركين ، وردت عليها ردا يكبتهم ويزهق باطلهم ، و ختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .

ثم ساق - سبحانه - جانبا مما أصاب السابقين من دمار حين كذبوا رسلهم لكى يعتبر المشركون المعاصرون للنبى - ﷺ - ولكى يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٥ .

﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ... ﴾ استئناف مقرر لوعيد قريش بالهزيمة . ولوعد المؤمنين بالنصر . وتأنيث قوم باعتبار المعنى ، وهو أنهم أمة وطائفة .

أى : ليس قومك - يا محمد - هم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقهم إلى هذا التكذيب قوم نوح ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان .

وسبقهم - أيضا - إلى هذا التكذيب قوم عاد ، فقد كذبوا نبيهم هودا ، فكانت عاقبتهم الإهلاك بالريح العقيم . التى ما أتت على شىء إلا جعلته كالرميم .

وقوله : ﴿ وفرعون ذو الأوتاد ﴾ معطوف على ما قبله أى : وكذب - أيضا - فرعون رسولنا موسى - عليه السلام - .

وقوله : ﴿ ذو الأوتاد ﴾ صفة لفرعون . والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يدق فى الأرض لتثبيت الشىء وتقويته .

والمراد بها هنا : المبانى الضخمة العظيمة ، أو الجنود الذين يثبتون ملكه كما تثبت الأوتاد البيت ، أو الملك الثابت ثبوت الأوتاد .

قال الآلوسى ما ملخصه : والأصل إطلاق ذى الأوتاد على البيت المشدود والمثبت بها ، فشبه هنا فرعون فى ثبات ملكه .. ببيت ثابت ذى عماد وأوتاد ..

أو المراد بالأوتاد الجنود : لأنهم يقوون ملكه كما يقوى الوتد الشىء . أو المراد بها المبانى العظيمة الثابتة .

ويصح أن تكون الأوتاد على حقيقتها فقد قيل إنه كان يربط من يريد قتله بين أوتاد متعددة ، ويتركه مشدودا فيها حتى يموت ..[1] .

أى : وفرعون صاحب المبانى العظيمة ، والجنود الأقوياء ، والملك الوطيد ... كذب رسولنا موسى - عليه السلام - ، فكانت عاقبة هذا التكذيب أن أغرقناه ومن معه جميعا من جنوده الكافرين .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٧٠ .

وكذب - أيضا - قوم ثمود نبيهم صالحا ، وقوم لوط نبيهم لوطا ، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب . كذبوه كذلك - فكانت نتيجة هذا التكذيب الإهلاك لهؤلاء المكذبين - كما قال - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، و لكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

والإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ تعود إلى هؤلاء الأقوام المكذبين لرسلهم وسموا بالأحزاب ، لأنهم تحزبوا ضد رسلهم ، وانضم بعضهم إلى بعض فى تكذيبهم ، ووقفوا جميعا موقف المحارب لهؤلاء الرسل الكرام .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تكذيب هؤلاء الأقوام لرسلهم ، وبيان للأسباب التى أدت إلى عقاب المكذبين .

و « إن » هنا نافية ، ولا عمل لها لانتقاض النفى بإلا . و « إلا » أداة استثناء مفرغ من أعم الصفات أو الأحكام : وجملة « كذب الرسل » فى محل رفع خبر « كل » .

أى : ليس لهؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن حل بهم عقابى وثبت عليهم عذابى . الذى دمرهم تدميرا .

والإخبار عن كل حزب من هذه الأحزاب بأنه كذب الرسل ، إما لأن تكذيب كل حزب لرسوله يعتبر من باب التكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وإما من قبيل مقابلة الجمع بالجمع ، والمقصود تكذيب كل حزب لرسوله .

وقد جاء تكذيبهم فى الآية السابقة بالجملة الفعلية « كذبت قبلهم ... » وجاء فى هذه الآية بالجملة الاسمية : لبيان إصرارهم على هذا التكذيب ، ومداومتهم عليه ، وإعراضهم عن دعوة الرسل لهم إعراضا تاما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق ﴾ . بيان للعذاب المعد للمشركين المعاصرين للنبى - ﷺ - بعد بيان العقاب الذى حل بالسابقين .

والمراد بالصيحة هنا : النفخة الثانية التى ينفخها إسرافيل فى الصور ، فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء .

وقيل المراد بها النفخة الأولى ، وضعف هذا القول بأنهم لن يكونوا موجودين وقتها حتى يصعقوا بها ..

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

وينظرون هنا بمعنى ينتظرون . وجعلهم - سبحانه - منتظرين للعقاب مع أنهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة للإشعار بتحقق وقوعه ، وأنهم بصدد لقائه ، فهم لذلك فى حكم المنتظرين له .

أى : وما ينتظر هؤلاء المشركون الذين هم أمثال المهلكين من قبلهم ، ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ أى : نفخة واحدة ينفخها إسرافيل ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ ، وهذه النفخة ﴿ مالها من فواق ﴾ أى : ليس لها من توقف وانتظار حتى ولو بمقدار فواق ناقة وهو الزمن الذى يكون بين الحلبتين ، أو الزمن الذى يكون فيه رجوع اللبن فى الضرع بعد الحلب .

والمقصود بيان أن هذه الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها لن تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط يتم بعدها كل شىء يتعلق بالبعث والجزاء .

قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله : ﴿ مالها من فواق ﴾ يجوز أن يكون قوله ﴿ لها ﴾ رافعا لقوله : ﴿ من فواق ﴾ على الفاعلية لاعتماده على النفى .

وأن يكون جملة من مبتدأ وخبر ، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لصيحة ، ومن مزيدة ..

والفواق - بفتح الفاء وضمها - الزمان الذى بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع - والمعنى : مالها من توقف قدر فواق ناقة . وفى الحديث : « العيادة قدر فواق ناقة »..[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جهالات وسفاهات ، حيث تعجلوا العقاب قبل وقوعه بهم ، فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ .

والقِطُّ : النصيب والقطعة من الشىء . مأخوذ من قط الشىء إذا قطعه وفصله عن غيره . فهم قد أطلقوا القطعة من العذاب على عذابهم ، باعتبار أنها مقتطعة من العذاب الكلى المعد لهم ولغيرهم .

أى : وقال هؤلاء المشركون الجاهلون ياربنا ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أى عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب .

وتصدير دعائهم بنداء الله - تعالى - بصفة الربوبية ، يشعر بشدة استهزائهم بهذا العذاب الذى توعدهم الله - تعالى - به على لسان رسوله - ﷺ - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٦٤ .

ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا مع أن القائل هو النضر بن الحارث ، أو أبو جهل .. لأنهم قد رضوا بهذا القول ، ولم يعترضوا على قائله .

وقيل المراد بقوله - تعالى - : ﴿ عجل لنا قطنا .. ﴾ أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب .

وقيل المراد به : نصيبهم من الجنة أى : عجل لنا نصيبنا من الجنة التى وعد رسولك بها أتباعه ، وأعطنا هذا النصيب فى الدنيا قبل يوم الحساب لأننا لا نؤمن بوقوعه .

وعلى جميع الأقوال ، فالمراد بيان أنهم قوم قد بلغ بهم التطاول والغرور منتهاه ، حيث استهزءوا بيوم الحساب ، وطلبوا تعجيل نزول العذاب بهم فى الدنيا ، بعد أن سمعوا من الرسول - ﷺ - أن عقوبتهم مؤجلة إلى الآخرة ..

قال - تعالى - : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[2] .

ثم واصلت السورة الكريمة تسليتها للرسول - ﷺ - حيث أمرته بالصبر ، وذكرت له - بشىء من التفصيل - قصص بعض الأنبياء - عليهم السلام - وبدأت بقصة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الملك والنبوة قال - تعالى - :

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟
ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣ .
(٢) سورة الحج الآية ٤٧ .

خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ
﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ اصبر على ما يقولون ... ﴾ للنبى - ﷺ - .
أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما قاله أعداؤك فيك وفى دعوتك لقد قالوا عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر .. وقالوا عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين .. وقالوا فى شأن دعوتك إياهم إلى وحدانية الله - تعالى - ﴿ ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ ..

وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذى سلكه كل نبى من قبلك ..

وقال - سبحانه - : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ بصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة الماضية . وللإشعار بأن ما قالوه فى الماضى سيجددونه فى الحاضر وفى المستقبل فعليه أن يعد

نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل ، بينه وبينهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ معطوف على جملة « أصبر » ..

وداود - عليه السلام - : هو ابن يسى من سبط « يهوذا » بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وكانت ولادة داود فى حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد . وقد منحه الله - تعالى - النبوة والملك .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذا الأيد ﴾ صفة لداود ، والأَيْد : القوة . يقال : آدَ الرجل يئيد أَيْدًا وإيادا ، إذا قوى واشتد عوده ، فهو أيِّد . ومنه قولهم فى الدعاء : أيدك الله . أى : قواك و﴿ أواب ﴾ صيغة مبالغة من آب إذا رجع .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك حتى يحكم الله بينك وبينهم واذكر - لتزداد ثباتا وثقة - قصة وحال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة فى عبادتنا وطاعتنا وفى دحر أعدائنا .. ﴿ إنه أواب ﴾ أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود - عليه السلام - فقال : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والإشراق ... ﴾ .

والعشى : الوقت الذى يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح . والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أى : سطوعها وصفاء ضوئها ، قالوا : وهو وقت الضحى ..

فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس . وهو يسبق الإشراق أى : إن من مظاهر فضلنا على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به فتسبح بتسبيحه فى أوقات العشى والاشراق .

وقال - سبحانه - ﴿ معه ﴾ للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به فى ذلك .

أى : أنها إذا سمعته يسبح الله - تعالى - ويقدسه وينزهه ، رددت معه ما يقوله .

وهذا التسبيح من الجبال لله - تعالى - إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - عز وجل - بدليل قوله - سبحانه - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾[1] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمور منها : المخالفة لظاهر ما تدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن تقييد التسبيح بكونه بالعشى والإشراق . وبكونه مع داود ، يدل على أنه تسبيح بلسان المقال ، إذ التسبيح بلسان الحال موجود منها فى كل وقت ، ولا يختص بكونه فى هذين الوقتين أو مع داود .

وخص - سبحانه - وقتى العشى والإشراق بالذكر . للإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ والطير محشورة... ﴾ معطوف على الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة . وهى حال من الطير . والعامل قوله ﴿ سخرنا ﴾ .

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبح مع داود عند تسبيحه لنا ، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .

والتعبير بقوله ﴿ محشورة ﴾ يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى لكأنها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى - وتقديسه .

وجملة « كل له أواب » مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير .

واللام فى « له » للتعليل ، والضمير يعود إلى داود - عليه السلام - .

أى : كل من الجبال والطير . من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح . ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله - تعالى - بما يرضيه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة ..

﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل ، وبالحزم الذى لا يشوبه تردد أو تراجع .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد لعبده داود بذلك فقال : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾ .

والاستفهام للتعجيب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمرا غريبا تتطلع إلى معرفته النفس .

والنبأ : الخبر الذى له أهمية فى النفوس ..

والخصم : أى المتخاصمين أو الخصماء . وهو فى الأصل مصدر خصمه أى : غلبه فى المخاصمة والمجادلة والمنازعة ، ولكونه فى الأصل مصدرا صح إطلاقه على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث .. قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخُصْم الآخر .

أى : بجانبه ..

والظرف فى قوله : ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ متعلق بمحذوف . والتسور : اعتلاء السور ، والصعود فوقه ، إذ صيغة التفعل تفيد العلو والتصعد . كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذ علا فوق سنامه .

والمحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود - عليه السلام - للتعبد وذكر الله - تعالى - .

والمعنى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم ، الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدومهم ..

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فها نحن نقصه عليك .

وقوله : ﴿ إذ دخلوا على داود ففزع منهم ... ﴾ بدل مما قبله . والفزع : انقباض فى النفس يحدث للإنسان عند توقع مكروه .

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته .

ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة .

قال القرطبى : فإن قيل : لم فزع داود وهو نبى ، وقد قويت نفسه بالنبوة واطمأنت بالوحى ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ، ومنها كان يخاف .

ألا ترى إلى موسى وهارون - عليهما السلام - كيف قالا : ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ - أى : فرعون - ، فقال الله لهما : ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى .. ﴾[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٧٠ .

ثم بين – سبحانه – ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفزع ، فقال : ﴿ قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ ..

والبغى : الجور والظلم ... وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .

والشطط : مجاوزة الحد فى كل شىء . يقال : شط فلان على فلان فى الحكم واشتط .. إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

وقوله : ﴿ خصمان ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان . والجملة استئناف معلل للنهى فى قولهم : « لا تخف » . أى : قالوا لداود : لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوزه إلى غيره ، ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .

وإضافة سواء الصراط ، من إضافة الصفة الى الموصوف .

ثم أخذا فى شرح قضيتهما فقال أحدهما : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب » .

والمراد بالأخوة هنا : الأخوة فى الدين أو فى النسب ، أو فيهما وفى غيرهما كالصحبة والشركة .

والنعجة : الأنثى من الضأن . وتطلق على أنثى البقر .

وقوله : ﴿ أكفلنيها ﴾ أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون تحت كفالتى وملكيتى كبقية النعاج التى عندى ، ليتم عددها مائة .

وقوله : ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ أى : غلبنى فى المحاجة والمخاطبة لأنه أفصح وأقوى منى .. يقال : فلان عز فلانا فى الخطاب ، إذا غلبه . ومنه قولهم فى المثل : من عزَّ بزَّ . أى : من غلب غيره سلبه حقه . أى: قال أحدهما لداود – عليه السلام –: إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى . وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى وقال لى : « أكفلنيها » أى : ملكنيها وتنازل عنها « وعزنى فى الخطاب » .

أى : وغلبنى فى مخاطبته لى ، لأنه أقوى وأفصح منى .

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، و أمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ،

وعدم اعتراضه على قوله .. أمام كل ذلك . لم يلبث أن قال داود فى حكمه : ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه .. ﴾ .

واللام فى قوله : ﴿ لقد ... ﴾ جواب لقسم محذوف .

وإضافة « سؤال » إلى « نعجتك » من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والفاعل محذوف .

أى : بسؤاله ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ لايسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ أى : من دعائه .

وقوله ﴿ نعاجه ﴾ متعلق بسؤال على تضمينه معنى الضم .

أى : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما أدعاه - والله إن كان ما تقوله حقا - أيها المدعى - فإن أخاك فى هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

وإنما قلنا إن داود - عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضى لا يحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصمين حتى يتمكن من الحكم بالعدل .

ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه بعد سماع كلام المدعى عليه ، لأنه مقرر ومعروف فى كل الشرائع ، وحذف ما هو مقرر ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .

ثم أراد داود - عليه السلام - وهو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب - أراد أن يهون المسألة عن نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه الغنى له ، وما فعله معه ، فقال : ﴿ وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ... ﴾.

أى : قال داود للمشتكى - على سبيل التسليه له - : وإن كثيرا من الخلطاء ، أى الشركاء - جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره .

﴿ليبغى بعضهم على بعض ﴾ أى : ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم فى مال الآخر ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم لا يفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل مالا يرضى خالقهم . فالجملة الكريمة منصوبة المحل على الاستثناء ، لأن الكلام قبلها تام موجب .

وقوله : ﴿ وقليل ما هم ﴾ بيان لقلة عدد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون فى أحكامهم .

ولفظ « قليل » خبر مقدم و « ما » مزيدة للإبهام وللتعجب من قلتهم . و « هم » مبتدأ مؤخر .

فكأنه - سبحانه - يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على إعطاء كل ذى حق حقه ، والجملة الكريمة اعتراض تذييلى .

وبهذا نرى أن داود - عليه السلام - قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل .

ثم بين - سبحانه - ما حاك بنفس داود - عليه السلام - بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : ﴿ وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ﴾ .

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

وفتناه : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه ، مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .

أى : وظن داود - عليه السلام - أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه . وأن ذلك لون من ابتلاء الله - تعالى - له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ، « وخر راكعا » أى : ساجدا لله - تعالى - وعبر عنه بالركوع لأنه فى كل منهما انحناء وخضوع لله - عز وجل - « وأناب » أى : ورجع داود إلى الله - تعالى - بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ فغفرنا له ذلك .. ﴾ يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنهما حضرا إليه فى خصومة بينهما ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ، فغفر الله - تعالى - له .

فقوله : - تعالى - : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه .. ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أى : لقربة منا ومكانة سامية ﴿ وحسن مآب ﴾ أى : وحسن مرجع فى الآخرة وهو الجنة .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة ، والآداب القويمة ، التى وجهها - سبحانه - إلى كل حاكم فى شخص داود - عليه السلام - فقال : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض .. ﴾ . والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه . فهو فعيل بمعنى

فاعل . والتاء فيه للمبالغة . أى : يا داود إنا جعلناك - بفضلنا ومنتنا - خليفة ونائبا عنا فى الأرض ، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدهم إلى الصراط المستقيم .

والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقتها . أى : فغفرنا له ذلك وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . ويصح أن تكون مستأنفة لبيان مظاهر الزلفى والمكانة الحسنة التى وهبها - سبحانه - لداود ؟ حيث جعله خليفة فى الأرض .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ... ﴾ للتفريع ، أو هى جواب لشرط مقدر . والهوى : ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك فاحكم - يا داود - بين الناس بالحكم الحق الذى أرشدك الله - تعالى - إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان والأحوال : ولا تتبع هوى النفس وشهواتها ، فإن النفس أمارة بالسوء .

وقوله - سبحانه - ﴿ فيضلك عن سبيل الله .... ﴾ بيان للمصير السيئ الذى يؤدى إليه اتباع الهوى فى الأقوال والأحكام .

وقوله ﴿ فيضلك ﴾ منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، على أنه جواب للنهى السابق . أى : ولا تتبع الهوى ، فإن اتباعك له ، يؤدى بك إلى الضلال عن طريق الحق ، وعن مخالفة شرع الله - تعالى - ودينه .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ .

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم للهوى ، لهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - لأنهم تركوا الاستعداد ليوم الحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - سمو منزلة داود - عليه السلام - عند ربه ، فقد افتتحت هذه الآيات ، بأن أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يتذكر ما حدث لأخيه داود . ليكون هذا التذكير تسلية له عما أصابه من المشركين وعونا له على الثبات والصبر .

ثم وصف - سبحانه - عبده داود بأنه كان قويا فى دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه ، وأنه - سبحانه - قد وهبه نعما عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ثم ختمت هذه الآيات - أيضا - بالثناء على داود - عليه السلام - حيث قال

- سبحانه - : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . وببيان أنه - تعالى - قد جعله خليفة فى الأرض .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضله - عليه السلام - ما أخرجه البخارى فى تاريخه أن رسول الله - ﷺ - كان إذا ذكر داود ، وحدث عنه قال : « كان أعبد البشر » .

وأخرجه الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - « لا ينبغى لأحد أن يقول إنى أعبد من داود » .

٢ - أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس فى شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التى حكاها القرآن الكريم ، فزع منهما داود - عليه السلام - وظن أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله - تعالى - يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث .

فلما تبين لداود بعد ذلك أن الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه فى مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق - أى ظن الاعتداء عليه فغفر الله - تعالى - له ..

والذى يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا فى تأييد هذا المعنى .

قال أبو حيان ما ملخصه - بعد أن ذكر جملة من الآراء - : والذى أذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس ، دخلوا عليه من غير المدخل ، وفى غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه ، إذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا فى حكومته ، وبرز منهم اثنان للتحاكم ... وأن ما ظنه غير واقع ، استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونه، وخر ساجدا منيبا إلى الله - تعالى - فغفر الله له ذلك الظن ، ولذلك أشار بقوله : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ ولم يتقدم سوى قوله - تعالى - : ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ ويعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولا يمكن وقوعهم فى شىء منها ، ضرورة أننا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله - تعالى - فى كتابه . يمر على ما أراده - تعالى - ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة ، طرحناه ..[1] .

٢ - ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبى حيان ، هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه يتناسب مع مكانة داود - عليه السلام - ، ومع ثناء الله - تعالى - عليه وتكريمه له .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٧ ص ٣٩٣ .

أقول مع كل ذلك ، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا فى نهاية النكارة ، وأقوالا فى غاية البطلان والفساد .

فمثلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : « أن داود - عليه السلام - كان يصلى فى محرابه .. ثم تطلع من نافذة المكان الذى كان يصلى فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته ، فسألها عن زوجها فأخبرته بأن زوجها ، اسمه « أوريا » وأنه خرج مع الجيش الذى يحارب الأعداء .. فأمر داود - عليه السلام - قائد الجيش أن يجعله فى المقدمة لكى يكون عرضة للقتل .. وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة ..[1]

ونرى صاحب الكشاف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله : « فهذا ونحوه مما يقبح أن يُحَدَّثَ به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء .. » نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصها : أن داود - عليه السلام - لم يعمل على قتل « أوريا » وإنما سأله أن يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها .. أو أنه خطبها بعد أن خطبها « أوريا » . فآثر أهلها داود على « أوريا » .

قال صاحب الكشاف : كان أهل زمان داود - عليه السلام - يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها .. فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له « أوريا » . فأحبها ، فسأله النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان - عليه السلام - .. وقيل : خطبها « أوريا » ثم خطبها داود فآثر أهلها داود على أوريا..[2] .

والذى نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها ..

ينكرها النقل : لأنها لم تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكذوبة .

قال ابن كثير : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ..[3] .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٣ ص ٩٣ ، وتفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٦١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٠ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥١ .

وقال السيوطى : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة وأنها أعجبته ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفى إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف - عن ابن صخر ، عن زيد الرقاشى ، وهو ضعيف ..

وقال البقاعى : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود - وقد أخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه[1] .

إذا فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن رواتها معروفون بالضعف . وبالنقل عن الإسرائيليات .

ويروى أن الإمام عليا - رضى الله عنه - قال : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء »[2] .

وهى غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح فى أول الآيات وفى آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق . أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته .

إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء ، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء . هو داود - عليه السلام - . الذى مدحه الله - تعالى - بالقوة فى دينه . وبكثرة الرجوع إلى ما يرضى الله - تعالى - ، وبأنه - سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب . وبأن له عند ربه « زلفى وحسن مآب » .

والخلاصة : أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة . لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل . بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا . لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء . الذين صانهم الله - تعالى - من ارتكاب ما يخدش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها .

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه : « ما حكاه الله - تعالى - عن داود قول صادق صحيح . لا يدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود .

وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلاشك . مختصمين فى نعاج من الغنم .

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٥٠٨٨ .
(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١ .

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء . فقد كذب على الله - تعالى - ما لم يقل ، وزاد فى القرآن ما ليس فيه .. لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ فقال هو : لم يكونوا خصمين . ولا بغى بعضهم على بعض . ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعجة . ولا كان للآخر نعجة واحدة ولا قال له : ﴿ أكفلنيها ...﴾[1] .

٤ - هذا : وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات . منها : أن استغفار داود - عليه السلام - إنما كان سببه أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة التى جعلت داود يستغفر ربه - إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه .. » فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الخصم مخالفا للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل[2] .

والذى نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ، ولا يتناسب مع منزلة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأولياته ، أن لا يحكم القاضى بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعا ، فكيف يقال بعد ذلك أن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام الآخر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف سارع داود إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه ؟ .

قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك فى القرآن لأنه معلوم . ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعاجى مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا . وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ..[3] .

ومنهم من يرى ، أن استغفار داود - عليه السلام - كان سببه : أن قوما من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عليه القصد قتله وجدوا عنده أقواما . فلم يستطيعوا تنفيذ ماقصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٥٠٨٩ .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٨٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٧ .

منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه مما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الانتقام[١] .

وهذا القول - وإن كان لا بأس به من حيث المعنى - إلا أن الرأى الذى سقناه سابقا ، والذى ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر من معنى الآيات .

وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين اثنين من البشر ، واستغفار داود - عليه السلام - سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتياله ولإيذائه ، وأن هذا ابتلاء من الله - تعالى - ابتلاه به ، ثم تبين له بعد ذلك أنهم ما جاءوا للاعتداء عليه وإنما جاءوا ليقضى بينهم فى خصومة ، فاستغفر ربه من ذلك الظن . فغفر الله - تعالى - له .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، التى ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين اختارهم الله - تعالى - لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته . وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال .

ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق السموات والأرض عبثا ، وأن حكمته اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار ، وأن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - لتدبير آياته ، والعمل بتوجيهاته فقال - تعالى - :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٨٦ .

والمراد بالباطل فى قوله - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ...﴾ العبث واللهو واللعب وما يخالف الحق ، والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير أن يوم القيامة حق ، وأن كفر الكافرين به ضلال وجهل . وقوله ﴿ باطلا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لأجله . أى : وما خلقنا - بقدرتنا التى لا يعجزها شىء - السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - ... ما خلقنا ذلك خلقا باطلا لا حكمة فيه ، أو ما خلقناه من أجل متابعة الهوى وترك العدل والصواب .

وإنما خلقنا هذا الكون خلقا مشتملا على الحكم الباهرة ، وعلى المصالح الجمة والأسرار البليغة ، والمنافع التى لا يحصيها العد ، والهيئات والكيفيات التى تهدى من يتفكر فيها إلى اتباع الحق والرشاد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ... ﴾ يعود إلى ما نفاه - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض ومابينهما على سبيل اللهو والعبث .

أى : نحن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة .. ولكن الذين كفرواهم الذين يظنون ويعتقدون أننا خلقنا هذه الكائنات من أجل الباطل واللهو واللعب .. وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم ، كفرُهم بالحق ، وجحودُهم ليوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول - ﷺ - من هدايات وإرشادات .

وقوله - تعالى - : ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى حلت بهم بسبب هذا الظن الفاسد .. فالفاء : للتفريع على ظنهم الباطل والويل : الهلاك والدمار .

و﴿ من ﴾ ابتدائية أو بيانية أو تعليلية .

أى : القول بأن خلق هذا الكون خال من الحكمة ، هو ظن واعتقاد الذين كفروا وحدهم ، ومادام هذا مظنونهم ومعتقدهم فهلاك لهم كائن من النار التى نسلطها عليهم فتحرق أجسادهم ، وتجعلهم يذوقون العذاب المهين .

وقال - سبحانه - ﴿ فويل للذين كفروا ... ﴾ بالإظهار فى مقام الإضمار ، للإشعار بعلية صلة الموصول للحكم أى : أن هذا الويل والهلاك كائن لهم بسبب كفرهم .

وقال - سبحانه - : ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ ولم يقل للذين ظنوا للإشارة إلى أن ظنهم القبيح هذا ، ما هو إلا نتيجة كفرهم وجحودهم للحق .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت استحالة المساواة بين الأخيار والفجار ، فقال

- تعالى - : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .

و « أم » فى الآية الكريمة منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .

والإضراب هنا انتقالى من تقرير أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبثا إلى تقرير استحالة المساواة بين المؤمنين والكافرين .

والمعنى : وكما أننا لم نخلق هذا الكون عبثا ، كذلك اقتضت حكمتنا وعدالتنا .. استحالة المساواة - أيضا - بين المتقين والفجار .

وذلك لأن المؤمنين المتقين ، قد قدموا لنا فى دنياهم مايرضينا ، فكافأناهم على ذلك بما يرضيهم ، ويسعدهم ويشرح صدورهم ، ويجعلهم يوم القيامة خالدين فى جنات النعيم .

أما المفسدون الفجار ، فقد قدموا فى دنياهم ما يغضبنا ويسخطنا عليهم ، فجازيناهم على ذلك بما يستحقون من عذاب السعير .

وربك - أيها العاقل - « لا يضيع أجر من أحسن عملا » « ولا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ».

فالمقصود بالآية الكريمة إعلان استحالة التسوية فى الآخرة بين المؤمنين والكافرين ، لأن التسوية بينهما ظلم ، وهو محال عليه - تعالى - ، وما كان البعث والجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة إلا ليجزى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

ومن الآيات التى تشبه فى معناها هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون ﴾[1] .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله - ﷺ - وبين حكمة إنزاله ، فقال : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

وقوله : ﴿ كتاب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . والمقصود به القرآن الكريم .

أى : هذا كتاب ﴿ أنزلناه إليك ﴾ بقدرتنا ورحمتنا - أيها الرسول الكريم ، ومن صفاته أنه ﴿ مبارك ﴾ أى : كثير الخيرات والبركات ..

وجعلناه كذلك ﴿ ليدبروا آياته ﴾ أى ليتفكروا فيما اشتملت عليه آياته من أحكام

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢١ .

حكيمة ، وآداب قوية ، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ..

﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ أى : وليتعظ أصحاب العقول السليمة بما جاء فيه من قصص وعبر عن السابقين ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[1] .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من قصة سليمان - عليه السلام - فمدحه لكثرة رجوعه إلى الله ، وذكر بعض النعم التى منحها إياه ، كما ذكر اختباره له . وكيف أن سليمان - عليه السلام - طلب من ربه المغفرة والملك ، فأعطاه - سبحانه - ما طلبه . قال - تعالى - :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

فى هذه الايات الكريمة مسألتان ذكر بعض المفسرين فيهما كلاما غير مقبول .

أما المسألة الأولى فهى مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان والمقصود به .

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ .

وأما المسألة الثانية فهى مسألة المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا سليمان ..﴾ .

وسنسير فى تفسير هذه الآيات على الرأى الذى تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض الأقوال التى قيلت فى هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منه ، فنقول - وبالله التوفيق - :

المخصوص بالمدح فى قوله - تعالى - : ﴿ نعم العبد ﴾ محذوف ، والمقصود به سليمان - عليه السلام - . أى : ووهبنا - بفضلنا وإحساننا - لعبدنا داود ابنه سليمان - عليهما السلام - ونعم العبد سليمان فى دينه وفى خلقه وفى شكره لخالقه - تعالى - .

وجملة « إنه أواب » تعليل لهذا المدح من الله - تعالى - لسليمان - عليه السلام - أى : إنه رجاع إلى ما يرضى الله - تعالى - مأخوذ من آب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها .

و « إذ » فى قوله : ﴿ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ﴾ منصوب بفعل تقديره : اذكر ، و« عليه » متعلق بعُرِض و « العشى » يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار . وقيل إلى مطلع الفجر .

والصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل : الذى يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها .

والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس السريع العدو ، الجيد الركض ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، يقال : جاد الفرس يجود جُودَة فهو جواد ، إذا كان سريع الجرى ، فاره المظهر ..

أى : اذكر - أيها العاقل - ما كان من سليمان - عليه السلام - وقت أن عرض عليه بالعشى الخيول الجميلة الشكل . السريعة العدو ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . ما معنى وصفها بالصفون ؟ قلت : الصفون لا يكاد يوجد فى الهجن ، وإنما هو فى - الخيل - العراب الخلص وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال استعراضه للخيول الصافنات الجياد على سبيل الشكر لربه ، فقال - تعالى - : ﴿ فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٩١ .

والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ . والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيرا ، لتعلق الخير بها ، روى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ».

و﴿ عن ﴾ هنا تعليلية . والمراد بـ ﴿ ذكر ربى ﴾ طاعته وعبادته والضمير فى قوله ﴿ حتى توارت ﴾ يعود إلى الخيل الصافنات الجياد ، والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذى يحجب الرؤية .

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إنى أحببت استعراض الصافنات الجياد ، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربى وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال فى سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام الذى يحجب الرؤية ﴿ ردوها على ﴾ أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافنات الجياد علىَّ مرة أخرى ، لأزداد معرفةً بها ، وفهما لأحوالها ..

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق . و « طفق » فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان . و « مسحا » مفعول مطلق لفعل محذوف . والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات الجياد علىّ ، فردوها عليه ، فأخذ فى مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها ، وسرورا بما هى عليه من قوة هو فى حاجة إليها للجهاد فى سبيل الله - تعالى - .

هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه من كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ولكن كثيرا من المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان - عليه السلام - جلس يوما يستعرض خيلا له ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قربة لله - تعالى - .

فهم يرون أن الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعود إلى الشمس . أى : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

وأن المراد بقوله - تعالى - ﴿ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ الشروع فى ضرب

سوق الخيل وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر .

قال الجمل : ﴿ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ أى : جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين[١] .

ولم يرتض الإمام الرازى - رحمه الله - هذا التفسير الذى عليه أكثر المفسرين ، وإنما ارتضى أن الضمير فى ﴿ توارت ﴾ يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ الإعجاب بها والمسح عليها بيده حبًّا لها ..

فقد قال ما ملخصه : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين الإسلام ، ثم إن سليمان - عليه السلام - احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله : ﴿ عن ذكر ربى ﴾ . ثم إنه - عليه السلام - أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره .

ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها .

والغرض من ذلك : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو ... وإظهار أنه خبير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ..[٢] .

وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة .. قد جمعت أفانين من القول ؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل . ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها ..

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها .

ثم أمر بردها . فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده ، برا بها ، وإكراما لها ، هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة ..[٣] .

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٧٣ وغيرها من كتب التفسير .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩٢ فقد أفاض وأجاد فى تفسيره للآيات .
(٣) راجع تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٥١٠١ .

والحق أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر ، وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها .. لا دليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم ..

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازى والإمام ابن حزم ، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ إنما هو تكريمها ..

وأن الضمير فى قوله : ﴿ حتى توارت ﴾ يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور .

ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب .. ﴾ .

وقوله : ﴿ فتنا ﴾ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعلم جودته ..

قال الآلوسى : وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله - تعالى - ولم يقل إن شاء الله . فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا ، وفيه : « فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا » .

ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين . وأن الملك قال له : قل إن شاء الله ، فلم يقل - أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان ..

والمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولدته له . ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة له عليه ليراه[1] .

وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال : « تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله » على سبيل التمنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة فى سبيل الله .

ومعنى « فلم يقل » أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه ، إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمو منزلته اعتبر ذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك « رب اغفر لى ... » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٩٨ .

وقوله : « لأطوفن الليلة ... » كناية عن الجماع . قالوا : ولعل المقصود . طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولا مانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال .

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه .

وهذا الرأى فى تقديرنا هو الرأى الصواب فى تفسير الآية الكريمة لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت فى الصحيحين وفى غيرهما ، ولأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان الذى لا يترتب عليه ترك شىء من التكاليف التى كلفهم الله - تعالى - بها جائز عليهم .

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ أن الوحى مكث فترة لم ينزل على رسول الله - ﷺ - لأنه نسى أن يقول - عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء إن شاء الله ، وقال سأجيبكم على ما سألتمونى عنه غدا .[1] .

ومن العلماء من آثر عدم تعيين الفتنة التى اختبر الله - تعالى - بها سيدنا سليمان - عليه السلام - ، بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : وجائز أن تكون هذه الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال .

ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان - عليه السلام - فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان ، كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم . ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع . وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء ..[2] .

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأى السابق لاستناده فى استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح .

هذا . وهناك أقوال أخرى ذكروها فى المقصود بفتنة سليمان وبالجسد الذى ألقاه الله على كرسى سليمان ، وهى أقوال ساقطة ، تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم السلام - .

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان ، عبارة عن شيطان تمثل له فى صورة إنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذى كان يصرف به ملكه . وقعد

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص ٤٩٨ .
(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ١٠٠ .

ذلك الشيطان على كرسى سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذى قتله سليمان فى إحدى الحروب ، وقد بقيت على هذه الحال هى وجواريها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه وُلِدَ له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته . ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسى سليمان ، فاستغفر سليمان ربه لأنه لم يعتمد عليه فى حفظ ابنه . إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التى تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . وتتنافى - أيضا - مع كل عقل سليم ، ولا مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصاص الذين يأتون بقصص ماأنزل الله بها من سلطان[1] .

قال أبو حيان - رحمه الله - : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وفى إلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إما من أوضاع اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ما هى ، ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان .

وأقرب ما قيل فيه ، أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال فيه : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة .. والجسد الملقى هو المولود شق رجل ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ...﴾ بيان لما قاله سليمان - عليه السلام - بعد الابتلاء والاختبار من الله - تعالى - له .

أى : قال سليمان - عليه السلام - يارب اغفر لى ما فرط منى من ذنوب وزلات ..

﴿ وهب لى ملكا ﴾ عظيما ﴿ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ أى : لا يحصل مثله لأحد من الناس من بعدى ﴿ إنك أنت ﴾ يا إلهى ﴿ الوهاب ﴾ أى : الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .

وقدم سليمان - عليه السلام - طلب المغفرة على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هى الأهم عنده .

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة، وأيضا الآية تدل على أن

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٣ ص ١٠١ . والآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٠٠ وغيرهما .
(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٧ ص ٣٩٧ .

طلب المغفرة من الله - تعالى - سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة[1] .

ولا يقال كيف طلب سليمان - عليه السلام - الدنيا والملك مع حقارتهما إلى جانب الآخرة وما فيها من نعيم دائم ؛ لأن سليمان - عليه السلام - ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج . وتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

فهو - عليه السلام - لم يطلب الملك للظلم أو البغى .. وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ شريعة الله - تعالى - فى الأرض .

ولقد وضح الإمام القرطبى هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله - تعالى -... ؟

فالجواب : أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده . والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ... وحوشى سليمان - عليه السلام - أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا . لأنه هو والأنبياء ، أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله . كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .

ومعنى قوله ﴿ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ أى : أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابه ..[2] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . والتسخير : التذليل والانقياد . أى : دعانا - سليمان - عليه السلام والتمس منا أن نعطيه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه . وذللنا له الريح ، وجعلناها منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينة ، إلى حيث يريدها أن تجرى .

وقوله : ﴿ تجرى ﴾ حال من الريح . وقوله ﴿ بأمره ﴾ من إضافة المصدر لفاعله . أى : بأمره إياها . ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ... ﴾[3] لأن المقصود من الآيتين بيان أن

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٠٤ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٨١

الريح تجرى بأمر سليمان ، فهى تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفة ، وفى كلتا الحالتين هى تسير بأمره ورغبته .

وقوله : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ معطوف على الريح أى : سخرنا له الريح تجرى بأمره .. وسخرنا له الشياطين . بأن جعلناهم منقادين لطاعته ، فمنهم من يقوم ببناء المبانى العظيمة التى يطلبها سليمان منهم . ومنهم الغواصون الذين يغوصون فى البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التى اشتملت عليها البحار .

وقوله - سبحانه - : ﴿وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ معطوف على كل بناء ، داخل معه فى حكم البدل من الشياطين .

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البناءون ، وكان منهم الغواصون ، وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .

فمعنى « مقرنين » : مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود . والأصفاد : جمع صَفَد وهو ما يوثق به الأسير من قيد وغُلّ .

ثم بين - سبحانه - أنه أباح لسليمان - عليه السلام - أن يتصرف فى هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان - عليه السلام - وقلنا له : هذا عطاؤنا لك ﴿ فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أى : فأعط من شئت منه . وأمسك عمن شئت . فأنت غير محاسب منا لا على العطاء ولا على المنع .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لسليمان - عليه السلام - فى الآخرة ، فقال : ﴿ وإن له عندنا ﴾ أى فى الآخرة ﴿ لزلفى ﴾ لقربى وكرامة ﴿ وحسن مآب ﴾ أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أيوب - عليه السلام - فذكرت نداءه لربه ، واستجابة الله - تعالى - له وما وهبه من نعم جزاء صبره ، فقال - تعالى - :

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن قصة أيوب هى القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة ،واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار .

فكأن الله - تعالى - يقول لنبيه - ﷺ - : اصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره ..[١] .

وأيوب - عليه السلام - هو ابن أموص بن برزاح ، وينتهى نسبه إلى إسحاق بن ابراهيم - عليهما السلام - وكانت بعثته على الراجح بين موسى ويوسف - عليهما السلام - .

وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد .. فابتلى فى ماله وولده وجسده ، وصبر على كل ذلك صبرا جميلا ، فكافأه الله - تعالى - على صبره ، بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ واذكر عبدنا أيوب ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ واذكر عبدنا داود ... ﴾ .

و « النُّصْب » - بضم فسكون - وقرأ حفص ونافع - بضم النون والصاد : - التعب والمشقة مأخوذ من قولهم أنصبنى الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه . والعذاب : الآلام الشديدة التى يحس بها الإنسان فى بدنه . أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال أخيك أيوب - عليه السلام - حين دعا ربه - تعالى - فقال : يارب أنت تعلم أنى مسنى الشيطان بالهموم الشديدة ، وبالآلام المبرحة التى حلت بجسدى فجعلتنى فى نهاية التعب والمرض .

وجمع - سبحانه - فى بيان ما أصابه بين لفظى النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التى كانت بين يديه ، وهو

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩٨ .

ما يشير إليه لفظ « النصب » والألم الكثير الذى حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام، والعلل، وهو ما يشير إليه لفظ « العذاب »..

ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان تأدبا منه مع ربه - عز وجل - حيث أبى أن ينسب الشر إليه - سبحانه -، وإن كان الكل من خلق الله - تعالى -.

وفى هذا النداء من أيوب لربه، أسمى ألوان الأدب والإجلال، إذ اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئا معينا، أو يطلب شيئا معينا.

قال صاحب الكشاف: ألطف أيوب - عليه السلام - فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة.. ولم يصرح بالمطلوب.

ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له: يا أمير المؤمنين، مشت جرذان - أى فئران - بيتى على العصا !! فقال لها: ألطفت فى السؤال، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود، وملأ بيتها حبا[1]..

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء: ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا فى غاية السقوط والفساد، حيث ذكروا أن أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا، وأن الديدان تناثرت من جسده، وأن لحمه قد تمزق[2].

وهذه كلها أقوال باطلة، لأن الله - تعالى - عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة، التى تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم، سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية..

والذى يجب اعتقاده أن الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لا تتنافى مع منصب النبوة، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل فى الصبر، فكانت عاقبة صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه.

وقوله - سبحانه -: ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه، أو مقول لقول محذوف معطوف على قوله ﴿ نادى ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٠.
(٢) راجع على سبيل المثال تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٣٠٦، والقرطبى جـ ١٥ ص ٢٠٨.

وقوله : ﴿ اركض ﴾ بمعنى الدفع والتحريك للشيء . يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها .

والمغتسل : اسم للمكان الذى يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذى يغتسل به .

وقوله : ﴿ هذا مغتسل ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه الى الدواء ، بأن قلنا له : « اركض برجلك » أى : اضرب بها الأرض ، فضربها فنبعت من تحت رجله عين الماء ، فقلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ بإذننا من كل داء .

ثم بين - سبحانه - أنه بفضله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال - تعالى - : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق أى : استجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله . ووهبنا له ﴿ مثلهم معهم ﴾ أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .

وذلك كله ﴿ رحمة منا ﴾ أى من أجل رحمتنا به ﴿ وذكرى لأولى الألباب ﴾ أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجأوا إلى الله - تعالى - كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ووهبنا له أهله ﴾ الجمهور على أنه - تعالى - أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشتت منهم ، وقيل - وإليه أميل - وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا[1] .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من المنن التى من بها على عبده أيوب فقال : ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٠٧ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : ﴿ اركض ﴾ أو على ﴿ وهبنا ﴾ بتقدير : وقلنا له .

والضغث فى اللغة : القبضة من الحشيش اختلط فيها الرطب باليابس . وقيل : هى قبضة من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد .

والحنث : يطلق على الإثم وعلى الخُلْفِ فى اليمين .

والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد حلف أن يضرب شيئا وأن عدم الضرب يؤدى إلى حنثه فى يمينه ، أى : إلى عدم وفائه فيما حلفه عليه ، فنهاه الله - تعالى - عن الحنث فى يمينه ، وأوجد له المخرج الذى يترتب عليه البر فى يمينه دون أن يتأذى المضروب بأى أذى يؤلمه .

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب وسبب هذا الضرب ، روايات لعل أقربها إلى الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته فى حاجة له فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برىء من مرضه ليضربنها مائة ضربة ، وبعد شفائه رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة - وهى المعبر عنها بالضغث - وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه ، وبين الرحمة بزوجته التى كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه خير قيام .

والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه خذ بيدك حزمة صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة ، وبذلك تكون غير حانث فى يمينك .

هذا وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة . أهى خاصة بأيوب ،أم هى عامة للناس ؟ .

فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذى جاء فى الآية ؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا .

وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب - عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن الخطاب إليه وحده . ولأن الله - تعالى - لم يبين لنا فى الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع عليه الضرب[1] .

ثم بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذاالمخرج لصبره وكثرة رجوعه إلى ما يرضيه - تعالى - فقال : ﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢١٢ . وتفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٠٨ .

أى : إنا وجدنا عبدنا أيوب صابرا على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو . إنه كثير الرجوع إلينا فى كل أحواله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه .

وبعد أن عرض - سبحانه - قصص داود وسليمان وأيوب بشىء من التفصيل . أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فقال - تعالى - :

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال عبادنا إبراهيم وإسحاق ، ويعقوب . أصحاب القوة فى الطاعة ، وأصحاب البصيرة المشرقة الواعية فى أمور الدين .

فالأيدى مجاز مرسل عن القوة ، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة على سبيل المجاز - أيضا - ويصح أن يكون المراد بقوله : ﴿ أولى الأيدى والأبصار ﴾ أى : أصحاب الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة ، فيكون ذكر الأيدى من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر ، لأن عن طريقها تكون العلوم النافعة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ أولى الأيدى والأبصار ﴾ يريد : أولى الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون فى الله ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ، ولا يستبصرون ، كأن هؤلاء فى حكم الزمنى - أى المرضى - الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم . والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين فى دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل ، مع كونهم متمكنين منها[1] ..

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٩٩ .

ثم بين - سبحانه - أسباب وصفهم بتلك الأوصاف الكريمة ، فقال - تعالى - : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ... ﴾ .

ومعنى : ﴿ أخلصناهم ﴾ خالصين لطاعتنا وعبادتنا . والباء فى قوله ﴿ بخالصة ﴾ للسببية . وخالصة اسم فاعل . والتنوين فيها للتفخيم ، وهى صفة لمحذوف .

و﴿ ذكرى الدار ﴾ بيان لها بعد إبهامها للتفخيم . أو محلها النصب بإضمار أعنى .. أو الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : هى .

و﴿ ذكرى ﴾ مصدر مضاف لمفعوله ، وتعريف الدار للعهد . أى : الدار الآخرة .

والمعنى : إنا جعلنا هؤلاء العباد - وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب - خالصين لطاعتنا وعبادتنا ، متبعين لأوامرنا ونواهينا ، لا تصافهم بخصلة خالصة من كل مالا يرضينا ، وهى تذكرهم للدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

وقرأ نافع ﴿ بخالصةِ ﴾ بدون تنوين على الإضافة لذكرى . من إضافة الصفة إلى الموصوف . أو المصدر لفاعله إن جعلت خالصة مصدرا كالعاقبة .

أى : أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

ثم أثنى عليهم - سبحانه - بثناء آخر فقال : ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ .

أى : وإن هؤلاء العباد ، لهم عندنا ممن اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، واخترناهم لتبليغ دعوتنا . ومن العباد الأخيار . أى : الذين يفضلون على غيرهم فى المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة . جمع خيْر - بإسكان الياء - أفعل تفضيل .

ثم أثنى - سبحانه - على عدد آخر من عباده الصالحين فقال : ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .

وإسماعيل هو ابن ابراهيم - عليهما السلام - ، ولم يذكر فيما سبق مع أبيه ومع أخيه اسحاق ، ومع ابن أخيه يعقوب ، اعتناء بشأنه ، وللإشارة إلى عراقته فى الصبر وفى تحمل الشدائد .

واليسع : هو ابن شافاط أو أخطوب : قيل استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه الله - تعالى - النبوة . وكانت وفاته فى حوالى سنة ٨٤٠ ق . م ودفن بالسامرة .

وذا الكفل : هو ابن أيوب . بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام . والأكثرون على أنه نبى لذكره معهم .

وقيل : هو رجل صالح من بنى اسرائيل . ولم يكن نبيا ، وسمى بذلك لأنه تكفل لأحد أنبيائهم بالقيام بالطاعات فوفى بذلك .

والتنوين فى قوله - تعالى - : ﴿ وكل من الأخيار ﴾ عوض عن المضاف إليه . أى : وكل هؤلاء العباد الذين ذكرناهم ، من أهل الخير والفضل والصلاح والصبر على الأذى .

ثم عقبت السورة الكريمة على ذلك ، بعقد مقارنة بين عاقبة المؤمنين الصادقين ، وعاقبة الكافرين الجاحدين ، وذكرت جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات .. فقال - تعالى - :

هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ
﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ
لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾
وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ ﴿٦٤﴾

قال الآلوسى : « هذا » إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم « ذكر » أى : شرف لهم ... والمراد أن فى ذكر قصصهم ... شرف عظيم لهم .

أو المعنى : هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذى هو القرآن ، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر ، كما يقول الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع فى باب آخر .

ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر : هذا ، وكان كيت وكيت ، ويحذف على ما قيل الخبر فى مثل ذلك كثيرا ، وعليه ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ بيان لما أعده لهم - سبحانه - فى الآخرة من عطاء جزيل ، وثواب عظيم .

والمآب : اسم مكان من آب فلان يؤوب إذا رجع ، والمراد بالمتقين : كل من تحققت فيه صفة التقوى والخوف من الله - تعالى - وعلى رأسهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لتبليغ رسالته . أى : وإن للمتقين فى الآخرة لمنزل كريم يرجعون إليه فى الآخرة . فيجدون فيه مالا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ هذا ذكر ﴾ يعود إلى ما ذكره - سبحانه - فى الآيات السابقة ، عن هؤلاء الأنبياء من ثناء وتكريم . والذكر : الشرف والفضل .

أى : هذا الذى ذكرناه عن هؤلاء الأنبياء شرف لهم ، وذكر جميل يذكرون به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم فصل - سبحانه - ما أعده لهم فى الآخرة من تكريم فقال : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ .

والعدن فى اللغة : الإقامة الدائمة فى المكان . يقال : عدن فلان بمكان كذا ، إذا أقام به إقامة دائمة . وجنات : بدل اشتمال من قوله : ﴿ حسن مآب ﴾ .

أى : هؤلاء المتقون أكرمناهم فى الدنيا بالذكر الحسن . ونكرمهم فى الآخرة بأن ندخلهم جنات عظيمة دخولا دائما مؤبدا ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم . والحفاوة بمقدمهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢١٢ .

﴿ متكئين فيها ... ﴾ أى : فى تلك الجنات . وانتصب لفظ « متكئين » على الحال من ضمير « لهم » والعامل فيه قوله ﴿ مفتحة ﴾ .

وقوله : ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ استئناف لبيان حالهم فى الجنات ، أو حال - أيضا - من ضمير « لهم » .

أى : أن المتقين لهم جنات عظيمة . فاتحة لهم أبوابها على سبيل التكريم ويجلسون فيها جلسة الآمن المطمئن المتنعم ، حيث يتكئون ويستندون على الأرائك ، ويطلبون أنواعا كثيرة من الفاكهة اللذيذة ، ومن الشراب الطيب ، فيلبى طلبهم فى الحال .

ثم يضاف إلى هذه الفاكهة والشراب ، ما بينه - سبحانه - فى قوله : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾ . أى : وعندهم فضلا عن كل ما تقدم نساء ذوات حياء ، قد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم . لشدة محبتهن لهم . وهن متساويات فى السن والجمال والأخلاق الكريمة .

فمعنى أتراب : أنهن متساويات فى السن والجمال والشباب . مأخوذ من التراب . لأن التراب يمسهن فى وقت واحد لاتحاد مولدهن : أو من الترائب وهى عظام الصدر المتماثلة .

ثم بين - سبحانه - أن هذا العطاء العظيم مقابل عملهم الصالح فى الدنيا فقال : ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ليوم ﴾ للتعليل . أى : هذا الذى ذكرناه لكم من نعيم الجنات . هو جزاء إيمانكم وعملكم الصالح من أجل يوم الحساب .

ثم ختم - سبحانه - جزاءهم ببيان أنه جزاء خالد لا ينقطع ولا ينقص فقال : ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ .

أى : إن هذا الذى ذكرناه لكم - أيها المتقون - من الجنات وما اشتملت عليه من نعيم ، هو رزقنا الدائم لكم . وليس له من نفاد أو انقطاع أو انتقاص . يقال نفد الشىء نفادا ونفدا ، إذا فنى وهلك وذهب .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾[1] . أى غير مقطوع .

وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور عن المؤمنين وحسن عاقبتهم . جاء الحديث عن

---

(١) سورة فصلت الآية ٨

الكافرين وسوء مصيرهم - كما هى عادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب فقال - تعالى - : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ .

واسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف . أى الأمر هذا ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى : هذا للمؤمنين .

وجملة « وإن للطاغين لشر مآب » معطوفة على جملة « هذا » على التقديرين .

أى : الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - بالنسبة للمتقين ، أما الطاغون الذين تجاوزوا الحدود فى الكفر والجحود والإعراض عن الحق ، فإن مرجعهم إلينا سيكون شر مرجع ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

﴿ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴾ أى : إذا كان المتقون يدخلون الجنات التى فتحت لهم أبوابها ، فإن الطاغين تستقبلهم جهنم بسعيرها ولهيبها فيلقون فيها ويفترشون نارها ، وبئست هى فراشا ومهادا .

﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ واسم الإشارة هنا مرفوع على الابتداء ، وخبره قوله ﴿ حميم وغساق ﴾ ، وما بينهما اعتراض .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة . والغساق : صديد يسيل من أجساد أهل النار . مأخوذ من قولهم غسق الجرح - كضرب وسمع - غسقانا إذا سال منه الصديد و ما يشبهه .

أى : هذا هو عذابنا الذى أعددناه لهم ، يتمثل فى ماء بلغ الغاية فى الحرارة ، وفى قيح وصديد يسيلان من أجسادهم ، فليذوقوا كل ذلك جزاء كفرهم وجحودهم .

﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أى : ليس عذابهم مقصورًا على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب ، تشبه فى شكلها وفى فظاعتها وفى شدتها ، الحميم والغساق .

فقوله ﴿ وآخر ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ من شكله ﴾ صفته ، وقوله : ﴿ أزواج ﴾ خبره .

والآية الكريمة معطوفة على الآية التى قبلها .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل الندم والتحسر والتقريع . فقال : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ، لا مرحبًا بهم إنهم صالو النار ﴾ .

والفوج : الجمع الكثير من الناس ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . يقال : قحم فلان نفسه فى الأمر ، إذا رمى نفسه فيه من غير روية .

أى : قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلقى فى النار معهم ، أو قالت الملائكة لهم على سبيل التقريع والتأنيب : ﴿ هذا فوج ﴾ أى جمع كثير من أتباعكم وإخوانكم فى

الضلال . ﴿ مقتحم معكم ﴾ أى داخل معكم النار وعلى غير اختيار منه . وإنما يساق إليها سوقا فى ذلة ومهانة .

وهنا يقول زعماء الكفر : ﴿ لا مرحبًا بهم إنهم صالو النار ﴾ أى : لا مرحبًا ولا أهلاً بهؤلاء الداخلين فى النار معنا ، لأنهم سيصلون سعيرها مثلنا ، ولن يستطيعوا أن يدفعوا شيئًا من حرها عنا ...

فقوله ﴿ مرحبًا ﴾ مفعول به لفعل محذوف وجوبا ، والتقدير : أتوا معنا لا مرحبًا بهم . والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى : لا أتوا مكانا رحبًا بل ضيقًا ، وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول : ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحبًا بكم .. ﴾ .

أى : قال الداخلون فى النار وهم الأتباع لرؤسائهم : بل أنتم الذين لا مرحبًا بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم .

﴿ أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ أى : لا مرحبًا بكم لأنكم أنتم أيها الزعماء الذين تسببتم لنا دخول النار معكم ، إذ دعوتمونا فى الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم ، فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم .

فالجملة الكريمة تعليل لأحقية الرؤساء بدخول النار ، ويقولها الأتباع على سبيل التشفى منهم . ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا فى النار ﴾ .

أى : ياربنا من كان سببا فى نزول هذا العذاب بنا ، فزده عذابا مضاعفًا فى النار ، لأننا لولا هؤلاء الرؤساء وإضلالهم لنا ، لما صرنا إلى هذا المصير الأليم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرًا ﴾[١] .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أئمة الكفر ، عندما يدورون بأعينهم فى النار ، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا فقال : ﴿ وقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار .. ﴾ . أى : وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتعجب وهم ملقون فى النار مالنا لا نرى معنا فى جهنم رجالاً من فقراء المؤمنين ، كنا نعدهم فى الدنيا من الأراذل الأخساء ، لسوء حالهم ، وقلة ذات يدهم .

قال القرطبى : قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد - ﷺ - يقول أبو جهل : أين

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٦٧ ، ٦٨

بلال ؟ أين صهيب ؟ أين عمار ؟ أولئك فى الفردوس ، واعجبا لأبى جهل ! مسكين أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه . وكفر هو . قال :

ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا ومـوضع رجلى منه أسود مظلم[1]

ثم حكى القرآن ما سأله هؤلاء المشركون لأنفسهم عندما تلفتوا فى النار ، فلم يجدوا أحدًا من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم من الأشرار فقال : ﴿ أتخذناهم سخريا ، أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ .

أى : إنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يدورون بأعينهم فيها فلم يروا المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا ، فقالوا فيما بينهم : ما بالنا لا ترى الرجال الذين كنا نسخر منهم فى الدنيا ، ألم يدخلوا معنا النار ؟ أم دخلوها ولكن أبصارنا لا نراهم وزاغت عنهم ؟.

فهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم فى النار ، وليس معهم من كانوا يسخرون منهم فى الدنيا وهم فقراء المؤمنين .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ أتخذناهم سخريا ﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لقوله ﴿ رجالا ﴾ مثل قوله ﴿ كنا نعدهم من الأشرار ﴾ . وقرىء بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم .

وقوله : ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ له وجهان من الاتصال : أحدهما : أن يتصل بقوله : ﴿ مالنا ﴾ . أى : مالنا لا نراهم فى النار ؟ كأنهم ليسوا فيها ، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها ؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنهم خفى عليهم مكانهم .

الوجه الثانى : أن يتصل بقوله : ﴿ أتخذناهم سخريا .. ﴾ على معنى أى الفعلين فعلنا بهم : الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعًا على أنفسهم ... »[2] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ يعود إلى التخاصم الذى حكى عنهم .

وقوله : ﴿ لحق ﴾ خبر إن . وقوله : ﴿ تخاصم ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة بيان لاسم الإشارة ، وفى الإبهام أولًا والتبيين ثانيًا مزيد تقرير له .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٢٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٠٢ .

أى : إن ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من تخاصم أهل النار فيما بينهم وتلاعنهم .. حق لا شك فيه ، وثابت ثبوتا لا يختلف عليه عاقلان .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت بأبلغ بيان ما أعده الله - تعالى - للمتقين من ثواب ، وما أعده للطاغين من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلقين رسوله - ﷺ - الرد الذى يرد به على المشركين المعترضين على دعوته ، وببيان موقف إبليس من أمر الله - تعالى - له بالسجود لآدم ، وببيان ما أعده - سبحانه - لإبليس وجنده من عذاب . فقال - تعالى - :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ
الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين : إنما وظيفتى الإنذار والتخويف لكم من عذاب شديد ، إذا بقيتم على كفركم ، وأعرضتم عن دعوتى .

واقتصر على الإنذار مع أنه مبشر - أيضا - لأنه المناسب لردهم عن شركهم ، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه كاهن .. إلخ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾ نفى لكل شريك مع الله - تعالى - فى ذاته ، أو صفاته ، أو فى خلقه لهذا الكون . أى : ليس هناك من إله سوى الله - تعالى - فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد ، القاهر فوق عباده ، الموجد للسموات والأرض وما بينهما ، الغالب لكل شىء ، الكثير المغفرة لمن يشاء من عباده .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف ذاته فى هاتين الآيتين بخمس صفات ؛ تليق بذاته وببيان أن الشرك به - سبحانه - فى العبادة أو الطاعة ظلم عظيم وجهل فاضح .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يبين لهم أن ما جاءهم به من عند ربه أمر عظيم ، لا يليق بعاقل أن يعرض عنه فقال : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون ﴾ .

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين : إن ما جئتكم به من عند ربى من قرآن كريم ، ومن هدايات بها تسعدون فى دنياكم وآخرتكم ، هو خبر عظيم ، يجب أن تلقوا إليه أسماعكم ، وأن تهيئوا نفوسكم لقبوله .. ولكنكم قابلتموه بالإعراض والصدود ، لفرط غفلتكم ، وشدة جهالتكم ، وتماديكم فى كفركم .

فالآية الأولى دعوة هامة لهم لكى يقلعوا عن شركهم ، والآية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث تركوا ما ينفعهم ، وعكفوا على ما يضرهم .

ثم نفى - ﷺ - عن نفسه أن يكون عنده علم بشىء من أخبار الملأ الأعلى ، إلا عن طريق الوحى فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ

يختصمون ﴾ . والمراد بالملأ الأعلى : عالم السموات وما فيه من ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

قال القرطبى : الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدى . اختصموا فى أمر آدم حين خلق ، فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. ﴾ وقال إبليس : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

وفى هذا بيان أن محمدًا - ﷺ - أخبر عن قصة آدم وغيره وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى ... »[1].

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ أى : لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى . يعنى فى شأن آدم ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه ..؟ »[2] . فالآية تنفى عن الرسول - ﷺ - علم شىء من أخبار الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى .

وجملة « إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين » معترضة بين إيراد اختصامهم على سبيل الإجمال ، ثم إيراده فى الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل .

و « إن » نافية . ونائب فاعل « يوحى » ضمير تقديره هو يعود على المفهوم مما سبق . وهو شأن الملأ الأعلى ، و « أنما » بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل .

أى : ليس لى من علم بما يدور فى الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى ، وهذا الوحى لا ينزل على إلا من أجل أنى رسول من عند الله - تعالى - أنذركم بما يكلفنى به إنذارا واضحا بينا .

ثم فصل - سبحانه - هذا التخاصم الذى أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك فى قوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ ، فقال : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ .

و « إذ » فى قوله ﴿ إذ قال ربك ... ﴾ بدل من قوله ﴿ إذ يختصمون ﴾ ، لاشتمال ما فى حيزها على تفصيل تلك الخصومة . وقيل : هى منصوبة بتقدير اذكر .

قالوا : والمراد بالملائكة هنا ، ما يشمل إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع ، وأنهم جميعًا امتثلوا لأمر الله - تعالى - ماعدا إبليس .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٢٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٧٠ .

والمراد بالبشر : آدم - عليه السلام - مأخوذ من مباشرته للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرة ، أى الجلد والهيئة . أى : لم يكن لى من علم بالملأ الأعلى وقت اختصامهم ، حين قال الله - تعالى - للملائكة ومعهم إبليس : ﴿ إنى خالق بشرًا من طين ﴾ هو آدم - عليه السلام - . فإذا صورته على صورة البشر ، وأفضت عليه ما به الحياة من الروح التى هى من أمرى - ولا علم لأحد بها سواى ، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم .

ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين ، وبين وصفه فى آيات أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، فإن المادة التى خلق منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة ، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة .

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته ، للإشعار بأن هذه الروح لا يملكها إلا هو - تعالى - ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ ، مما استأثر - سبحانه - به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

والفاء فى قوله : ﴿ فقعوا له ... ﴾ جواب إذا . والمراد بالوقوع : السقوط أى : فاسقطوا وخروا له حالة كونكم ساجدين له بأمرى وإذنى ، على سبيل التحية له ، لأن السجود بمعنى العبادة لايكون لغير الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - ما كان بعد ذلك فقال : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ .

أى :امتثل الملائكة لأمر الله - تعالى - فسجدوا جميعا لآدم فى وقت واحد ، إلا إبليس فإنه أبى الامتثال لأمر ربه ، واستكبر عن طاعته ، وصار بسبب ذلك من الكافرين الجاحدين لأمر الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : ولفظ « كل » للاحاطة و « أجمعون » : للاجتماع ، فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ، مابقى منهم ملَك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا فى وقت واحد ، غير متفرقين فى أوقات .

فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ؟ قلت : الذى لا يسوغ هو السجود لغير الله على

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥

وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل ، فلا يأباه العقل ، إلا أن يعلم الله تعالى فيه مفسدة فينهى عنه[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لإبليس حين عصى أمره فقال : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ... ﴾ .

ومذهب السلف فى مثل هذا التعبير ، أن اليد - مفردة أو غير مفردة - إذا وصف الله تعالى بها ذاته ، فهى ثابتة له ، على الوجه الذى يليق بكماله ، مع تنزهه - سبحانه - عن مشابهته للحوادث .

ومذهب الخلف : تأويل اليد بالقدرة أو النعمة . والتثنية فى يدى ، للتأكيد الدال على مزيد القدرة فى خلقه . أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع : يا إبليس ما الذى منعك من السجود لآدم الذى خلقته بيدى ؟

﴿ أستكبرت أم كنت من العالين ﴾. أى : أمنعك من السجود لآدم تكبرك من غير موجب لهذا التكبر ، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق ؟ والاستفهام للتوبيخ والإنكار .

﴿ قال أنا خير منه ﴾ أى : قال إبليس فى الجواب على ربه - تعالى - : أنا خير من آدم .

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فهو - لعنه الله - يرى أن النار أفضل من الطين ، ولا يصح سجود الفاضل للمفضول .

ولاشك أن هذا التعليل من إبليس فى نهاية سوء الأدب ، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضى صحة المدعى ، لأن النار ليست خيرا من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل ، إذ النار يطفئها الطين ..

وقد رد - سبحانه - على هذا التطاول من إبليس بقوله : ﴿ فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فاخرج ﴾ لترتيب الأمر بالطرد على ما حدث منه . والضمير فى « منها » يعود إلى السماء ، أو إلى الجنة ، لأنه كان فيهما .

أى : قال - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر : مادمت يا إبليس قد عصيت أمرى ، فاخرج من الجنة ومن كل مكان فيه تكريم لك ، فإنك رجيم ، أى : مطرود من رحمتى . وإن عليك لعنتى وغضبى إلى يوم القيامة ، فإذا ما جاء هذا اليوم ازدادت لعنتى عليك .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٠٥ .

﴿ قال رب فأنظرنى ﴾ أى : فأمهلنى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى :فأخرنى ولا تمتنى إلى يوم البعث ، لأتمكن من إغواء ذرية آدم .

﴿ قال فإنك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم ﴾ أى : قال - سبحانه - قد أجبت لك ما تقتضيه حكمتى ، وهو أنى سأؤخر إهلاكك إلى الوقت الذى حددته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذى طلبه إبليس .

﴿ قال ﴾ أى : إبليس ﴿ فبعزتك ﴾ أى : فبحق سلطانك وقهرك ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ أى : لأغوين بنى آدم جميعا بالمعاصى ، ولأضلنهم ولأمنينهم ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فلا يتأثرون بإغوائى ، لأنى لا قدرة لى عليهم .

﴿ قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ .

وقوله ﴿ فالحق ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى : فالحق قسمى لأملأن .. وقوله : ﴿ والحق أقول ﴾ لفظ الحق منصوب هنا على أنه مفعول لأقول ، قدم عليه لإفادة الحصر .

والجملة من الفاعل والمفعول معترضة بين القسم والمقسم عليه لتقرير مضمون الجملة القسمية . أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى ويمينى - ولا أقول إلا الحق - لأملأن جهنم من جنسك يا إبليس ، وممن تبعك من الناس جميعا ، لأن هذا جزاء من عصانى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر رسوله - ﷺ - أن يبين للناس ، أنه لا يريد من وراء دعوته عرضا زائلا من أعراض الدنيا فقال ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين وغيرهم : إنى لا أسألكم أجرا على تبليغكم ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذى لا يحسنونه ، بل أنا رسول من عند الله وصادق فيما أبلغه عنه .

وما هذا القرآن الذى جئتكم به من عند ربى ، إلا وعظ بليغ للثقلين ، وشرف عظيم لهما فى اتباع أوامره ونواهيه .

لتعلمن - أيها الناس - صدق ما أخبركم به من وعد ومن وعيد بعد وقت محدد فى علم الله - تعالى - .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « ص » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟ .

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر -
صباح الثلاثاء ٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ الموافق ١٩٨٥/٨/٢٠ م

تفسير

سُورَةُ الزُّمَرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - سورة «الزمر» هى السورة التاسعة والثلاثون فى ترتيب المصحف أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثامنة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة سبأ .

وقد ذكر صاحب الإتقان أنها تسمى - أيضا - سورة « الغرف » ، لقوله - تعالى - : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴾ .

٢ - ويرى المحققون أن السورة بكاملها مكية .

قال الآلوسى : عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ولم يستثن ، وأخرج النحاس عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

٣ - وآياتها خمس وسبعون آية فى المصحف الكوفى ، وثلاث وسبعون فى المصحف الشامى ، واثنتان وسبعون فى غيرها[1] .

٤ - وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - الذى أنزل القرآن بالحق على نبيه محمد - ﷺ - والذى خلق السموات والأرض بالحق والذى خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، قال - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص .. ﴾ .

٥ - ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن حالة الإنسان عندما ينزل به الضر ، وعن الجزاء الحسن الذى أعده - سبحانه - للصابرين ، وعن العقاب الأليم الذى أعده للخاسرين .

﴿ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٣٢ .

أعبد مخلصا له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

٦ - ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى هذا الكون عن طريق إنزاله الماء من السماء ، وعن طريق إنزاله أحسن الحديث . كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم .

قال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ .

٧ - ثم دعا - سبحانه - الناس بعد ذلك إلى تدبر آيات القرآن ، المشتمل على الهدايات والإرشادات والأمثال ، وإلى اتباع الرسول - ﷺ - الذى جاءهم بالصدق ، لأن هذا الاتباع يؤدى إلى تكفير سيئاتهم ، ورفع درجاتهم عند ربهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ .

٨ - وبعد أن عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فى قبضه للأرواح ، وفى كشفه الضر عن خلقه .. أتبعت ذلك بمحاجة المشركين ، وببيان ما هم عليه من ضلال ، وبيان أحوالهم عندما يذكر الله - تعالى - وحده ، وببيان سوء عاقبتهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون . قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

٩ - ثم ساق - سبحانه - لعباده ما يدل على سعة رحمته بهم ، ودعاهم إلى الإنابة إليه ، من قبل أن يأتى اليوم الذى لا ينفع فيه الندم .

قال - تعالى - : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

١٠ - ثم تحدثت السورة فى أواخرها عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، وعن أهوال هذا اليوم .

قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

وختمت ببيان ما أعده - سبحانه - للكافرين من شديد العقاب ، وما أعده للمتقين من كريم الثواب .

قال - تعالى - : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

١١ - هذا ، والمتأمل فى سورة « الزمر » بعد هذا العرض المجمل لها . يراها قد اشتملت على مقاصد متنوعة من أهمها ما يأتى :

(أ) إقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، تارة عن طريق خلق السموات والأرض ، وتكوين الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ... وتارة عن طريق لجوء المشركين إليه وحده عند الشدائد ، وتارة عن طريق توفى الأنفس حين موتها ، وتارة عن طريق ضرب الأمثال ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا . الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(ب) تذكير الناس بأهوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب . وبعث ونشور ، وفرح يعلو وجوه المتقين ، وكآبة تجلل وجوه الكافرين .

نرى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

وفى مثل قوله - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾.

(جـ) تلقين الرسول - ﷺ - الحجج والإجابات التى يرد بها على شبهات المشركين ، وعلى دعاواهم الباطلة ، فقد تكرر لفظ « قل » فى هذه السورة كثيراً ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ .. ﴿ ... قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ... ﴾ .

﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ . ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

﴿ قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ .

(د) الإكثار من المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، بأسلوب يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكارى ، الذى حذف فيه الخبر للعلم به من سياق الكلام .

ومن ذلك قوله – تعالى – : ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

وقوله – تعالى – : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ﴾ .

وقوله – سبحانه – ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ .

وقوله – عز وجل – : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ .

هذه بعض المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يدركها القارئ لهذه السورة الكريمة بتدبر وتفكر .

نسأل الله – تعالى – أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة – مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله – تعالى – :

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

افتتحت سورة « الزمر » بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان مصدره ، قال – تعالى – : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

أى : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم . قد نزل عليك – يا محمد – من لدن الله – تعالى – ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب على كل شىء ﴿ الحكيم ﴾ فى كل تصرفاته وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولا مفترى كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى .

والذى يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى أن الله – تعالى – إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة لصفاته الجليلة .

ففى أول سورة غافر نجد قوله – تعالى – : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ .

وفى أول سورة الجاثية نجد قوله - تعالى - : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

وفى أول سورة الأحقاف نجد مثل هذا الافتتاح .

وفى أول سورة فصلت نجد قوله - تعالى - : ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ .

وفى صدر سورة « يس » نجد قوله - سبحانه - : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم .. ﴾ .

ولايخفى أن ذكره - سبحانه - لبعض أسمائه الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل هذا القرآن على قلب رسوله - ﷺ - فيه ما فيه من الثناء على القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله - تعالى - وحده ، الذى له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدعو الناس إلى قبول هذا الكتاب ، وإلى العمل بهداياته ، فقال - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...﴾ .

أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله - تعالى - الغالب على كل شىء . والحكيم فى أقواله وأفعاله . وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، أو ما يشبه الباطل ، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل مافيه .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ بيان لكونه نازلا بالحق ، وتوطئة لما يذكر بعد ... أو شروع فى بيان المنزل إليه ، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل .. والباء متعلقة بالإنزال ، وهى للسببية ، أى : أنزلناه بسبب الحق . أى : إثباته وإظهاره . أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وهى للملابسة . أى : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب .

والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتما[1] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود - عز وجل - والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم بعبادته وقوله وعمله وجه الله - تعالى - .

أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذا الكتاب بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وما دام الأمر كذلك فعليك أن تخلص لربك عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصا تاما ، لا يحوم حوله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٣٣ .

رياء أو تفاخر ، أو غير ذلك مما يتنافى مع إخلاص الخضوع لله - تعالى - وحده .

قال الشوكانى : وفى الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها من الشوائب لأن الإخلاص من الأمور القلبية التى لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال والأفعال النية ، كما فى حديث : « إنما الأعمال بالنيات » وحديث : « لا قول ولا عمل إلا بنية »[1] .

وجملة ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ مؤكدة ومقررة لمضمون ما قبلها من وجوب إفراد العبادة والطاعة لله - تعالى - : وزادها تأكيداً وتقريراً لما قبلها تصديرها بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ واشتمالها على أسلوب القصر .

أى : ألا إن لله - تعالى - وحده - وليس لأحد سواه - الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء . والعبادة لوجهه وحده ، والخضوع لقدرته التى لا يعجزها شىء .

ثم بين - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم ... ﴾ .

فالمراد بالموصول المشركون ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ وجملة ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل . والزلفى : اسم أقيم مقام المصدر الذى يتلاقى معه فى المعنى ، والمأخوذ من قوله ﴿ ليقربونا ﴾ .

أى : لله - تعالى - وحده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد على من ينهاهم عن ذلك : إننا ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل بها ، لكى تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن .

﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أى : بين هؤلاء المشركين وبين غيرهم من المؤمنين الذين أخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ من أمر التوحيد والشرك ، بأن يجازى المؤمنين بحسن الثواب ، ويجازى الكافرين بسوء العقاب .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لا يهدى ﴾ أى : لا يوفق للاهتداء للحق ﴿ من هو كاذب كفار ﴾ .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٤٨ .

أى : من كان دائم الكذب على دين الله ، شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته ، وعلى أنه لا رب لهذا الكون سواه .

ثم أبطل - سبحانه - كل تصور للشرك والشركاء ، بأن نزه - تعالى - ذاته عن اتخاذ الولد فقال : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

أى : لو أراد الله - تعالى - على سبيل الفرض والتقدير - أن يتخذ ولدا ، لاختار من خلقه مايريده هو ، لا ما يريده الضالون ، لكنه - سبحانه - لم يختر أحدا ليكون ولدا له ، فدل ذلك على بطلان زعم الزاعمين بأن الملائكة بنات الله ، أو بأن عزيراً ابن الله ، أو بأن المسيح ابن الله .

﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ أى : تنزه - عز وجل - عن شىء من ذلك ، فإنه هو الله الواحد فى ذاته وفى صفاته ، القهار لكل مخلوقاته .

قال الإمام ابن كثير : بيّن - تعالى - فى هذه الآية أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى فقال : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لا صطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ أى . لكان الأمر على خلاف ما يزعمون .

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ وكما قال : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ .

كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم [1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : إرادة اتخاذ الولد هنا ممتنعة ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات، واتخاذ الولد محال ، كما ثبت بالبرهان القطعى فتستحيل إرادته . وجعلها فى الآية شرطا وتعليق الجواب عليها ، لا يقتضى إمكانها فضلا عن وقوعها ، وقد عرف فى فصيح الكلام : تعليق المحال على المحال جوازا ووقوعا .

على أن الوالدية تقتضى التجانس بين الوالد والولد . إذ هو قطعة منه . وقد ثبت أن كل ماعداه - سبحانه - مخلوق له . فيلزم بموجب التجانس أن يكون المخلوق من جنس الخالق ، وهو يستلزم حدوث الخالق ، أو قدم المخلوق ، وكلاهما محال [2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٧٥ .
(٢) صفوة البيان جـ ٢ ص ٢٤٩ لفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف .

ثم أقام - سبحانه - المزيد من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وفى ظاهرة الليل والنهار ، وفى تسخير الشمس والقمر ، وفى خلق بنى آدم من نفس واحدة ... فقال - تعالى - :

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾
خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ
خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ تفصيل لبعض أفعاله الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .

أى : الله وحده هو الذى أوجد هذه السموات وتلك الأرض ، إيجادا ملتبساً بالحق والحكمة والمصلحة التى تعود عليكم - أيها الناس - بالخير والمنفعة ومن كان شأنه كذلك ، استحال أن يكون له شريك أو ولد .

ثم ساق - سبحانه - دليلا ثانيا على وحدانيته فقال : ﴿ يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ﴾ .

والتكوير فى اللغة : طرح الشىء بعضه على بعض . يقال : كور فلان المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة . أى : انضمام بعض أجزائها على بعض .

والمقصود أن الليل والنهار كلاهما يَكُر على الآخر فيذهبه ويحل محله ، بطريقة متناسقة محكمة لا اختلال معها ولا اضطراب .

قال صاحب الكشاف : « والتكوير : اللف واللى . يقال : كارَ العمامة على رأسه وكوَّرها .

وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويأتى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه ، فكأنما ألبسه ولف عليه ، كما يلف اللباس على اللابس .

ومنها : أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه فى تغييبه إياه بشىء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار .

ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض »[1] .

قال بعض العلماء ما ملخصه : « والتعبير بقوله « يكور .. » تعبير عجيب ، يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية الأرض فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور حول نفسها فى مواجهة الشمس ، فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذى كان عليه النهار . وهذا السطح مكور ، فالنهار كان عليه مكورا ، والليل يتبعه مكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا فى حركة دائبة « يكور - سبحانه - الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها ، يفسران هذا التعبير تفسيرا أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية »[2] .

ثم ذكر - سبحانه - دليلا ثالثا على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١١٣ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ١٢٢ .

والتسخير : التذليل والانقياد والطاعة التامة . أى : وجعل - سبحانه - الشمس والقمر منقادين لأمره انقيادا تاما وكلاهما يجرى فى مداره إلى الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لنهاية دورانه ، وانقطاع حركته .

وهما فى جريانهما يسيران بنظام محكم دقيق غاية الدقة ، كما قال - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ ألا هوالعزيز الغفار ﴾ .

وفى تصدير الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ إشارة إلى كمال الاعتناء بمضمونها ، وإلى وجوب التدبر فيما اشتملت عليه .

أى : ألا إن الله - تعالى - : وحده هو الخالق لكل تلك المخلوقات ، وهو وحده المتصرف فيها ، والمهيمن عليها ، وهو وحده ﴿ العزيز ﴾ الغالب على كل ما سواه ، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين إليه توبة نصوحا .

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته فقال : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾ .

أى خلقكم - سبحانه - من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ثم خلق من هذه النفس الواحدة ، زوجها وهى أمكم حواء .

قال الشوكانى : والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم . للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم ، أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة ؛ لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة فى خلقه ، وخلق حواء على الصفة المذكورة لم تَجرِبه عادة لكونه - تعالى - لم يخلق أنثى من ضلع رجل غيرها[1] .

وقال الجمل : فإن قلت كيف عطف بثم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه ؟ أجيب بأن ثم هنا للترتيب فى الإخبار لا فى الإيجاد . أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة ، فثم عاطفة عليه لا على خلقكم ، فمعناه : خلقكم من نفس واحدة أفردت بالإيجاد ، ثم شفعت بزوجة . أو هو معطوف على خلقكم ، لكن المراد بخلقهم ، خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعة لا على هذا الخلق ، الذى هم فيه الآن بالتوالد والتناسل[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ بيان لبعض آخر من

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٥٠ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٩٠ .

أفعاله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته . والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها وهى قوله : ﴿ خلقكم ﴾ .

أى : وأنزل لكم من كل من الإبل والبقر والغنم والمعز زوجين : ذكرا وأنثى يتم بهما التناسل وبقاء النوع .

قالوا : وعبر - سبحانه - عن الخلق بالإنزال ، لما يروى أنه - تعالى - خلق هذه الأنواع فى الجنة ثم أنزلها . فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة .

أو أن الكلام على سبيل المجاز ، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله من نبات ، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكأن الأنعام نازلة من السماء ، لأن سبب سببها منزل منها .. أو أن « أنزل » هنا بمعنى أنشأ وأوجد . أو لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء .

وقوله - تعالى - ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ بيان لكيفية خلق ما خلقه الله من الأناسى والأنعام بتلك الطريقة العجيبة .

أى أنه - تعالى - يخلقكم - أيها الناس - بقدرته فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، بأن يحولكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظام مكسوة باللحم ، ثم يحولكم بعد ذلك إلى خلق آخر ، وهذه المراحل كلها تتم وأنتم فى ظلمات بطون أمهاتكم ، وظلمات الأرحام التى بداخل البطون وظلمات الغشاء الذى بداخل الأرحام والبطون ، وذلك كله من أقوى الأدلة على قدرة الله - تعالى - ورعايته لخلقه .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾[1] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ يعود إليه - سبحانه - باعتبار أفعاله السابقة . وتصرفون : من الصرف بمعنى الابتعاد عن الشىء إلى غيره .

أى : ذلكم العظيم الشأن الذى ذكرنا لكم بعض مظاهر قدرته ، هو الله ربكم الذى له ملك كل شىء ، والذى لا معبود بحق سواه ، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ وكيف تزعمون أن له شريكا أو ولدا ... مع توفر الأدلة على بطلان ذلك .

والمتأمل فى هاتين الآيتين يراهما قد ذكرنا ألوانا من البراهين على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كخلق السموات والأرض بالحق ، وتكوير الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الناس ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ،ورعايتهم بلطفه

---

(١) سورة المرسلات الآيات من ٢٠ ـ ٢٣ .

وإحسانه فى مراحل حياتهم ، وإيجاد الأنعام التى تنفعهم فى شئونهم المختلفة .

ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن خلقه ، وأنهم هم الفقراء إليه فقال : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ .

أى : إن تكفروا - أيها الناس - بعد أن سقنا لكم من الأدلة ما سقنا على صحة الإيمان وفساد الكفر ، فإن الله - تعالى - غنى عنكم وعن إيمانكم وعبادتكم وعن الخلق أجمعين .

ومع ذلك فإنه - سبحانه - لرحمته بكم ، لا يرضى لعباده الكفر ، أى : لا يحبه منهم ولا يحمده لهم ، ولا يجازى الكافر المجازاة التى يجازى بها المؤمن فإن المؤمن له جنات النعيم ، أما الكافر فله نار الجحيم .

وإن تشكروا الله على نعمه - أيها الناس - بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا نعمه فيما خلقت له ، يرض لكم هذا الشكر ، ويكافئكم عليه مكافأة جزيلة . بأن يزيدكم من نعمه وإحسانه وخيره .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى : ولا تحمل نفس يوم القيامة حمل أخرى ، وإنما كل نفس تجازى على حسب أعمالها فى الدنيا .

﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يوم القيامة ﴿ فينبئكم ﴾ أى : فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ فى دنياكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ أى : عليم بما تخفيه الصدور من أسرار ، وبما تضمره القلوب من أقوال وأفعال ... لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قال الجمل فى حاشيته : قوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ معنى عدم الرضا به ، لا يفعل فعل الراضى ، بأن يأذن فيه ويقر عليه ، ويثيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ، ويذم عليه ، ويعاقب مرتكبه وإن كان بإرادته ، إذ لا يخرج شىء عنها .

أو المعنى : ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله - تعالى - فى شأنهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ فيكون الكلام عاما فى اللفظ خاصا فى المعنى ، كقوله - تعالى - : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾ أى بعض العباد[1] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٩١ .

وبذلك ترى هذه الآية الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته ، وعلى أن من شكر الله - تعالى - على نعمه ، فإن عاقبة هذا الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل ، أما من جحد نعم الله - تعالى - وأشرك معه فى العبادة غيره ، فإن عاقبة هذا الجحود ، تعود على الجاحد بالشر الوبيل ، وبالشقاء فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة المتعددة على وحدانيته وكمال قدرته ، أتبع ذلك بالحديث عن طبيعة الإنسان فى حالتى السراء والضراء ، ونفى - سبحانه - المساواة بين المؤمنين والكافرين ، والعلماء والجهلاء فقال - تعالى - :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

والمراد بالإنسان هنا : الكافر ، بدليل قوله - تعالى - ﴿ وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴾ .

والمراد بالضر : ما يصيب الإنسان من مصائب فى نفسه أو ماله أو أهله .

أى : وإذا نزل بالإنسان ضر من مرض أو غيره من المكاره ﴿ دعا ربه منيبا إليه ﴾ أى : أسرع إلى الله - تعالى - بالدعاء والإنابة والتضرع ، وترك الآلهة التى كان يدعوها فى حالة الرخاء .

كما قال - تعالى - : ﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل .. ﴾ بيان لحالة هذا الإنسان بعد أن كشف الله - تعالى - عنه الضر .

وخوله من التخويل بمعنى الإعطاء مرة بعد أخرى ،ومنه الحديث الشريف : كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا أى : يتعهدنا بها وقتا بعد وقت .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ نسى ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ موصولة مرادًا بها الضر ، أو مرادًا بها البارى - عز وجل - .

أى : هذا هو حال ذلك الإنسان عند نزول الضُّرِّ به، فإذا ما كشفنا عنه ضره، وأعطيناه نعما عظيمة على سبيل التفضل منا .. نسى الضر الذى كان يتضرع إلينا من قبل لنزيله عنه ، أو نسى الخالق - عز وجل - الذى كشف عنه بقدرته ذلك الضر .

ولم يكتف بهذا النسيان ، بل جعل لله - تعالى - أندادا أى : أمثالا وأشباها ونظائر يعبدها من دونه .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ للتعليل . أى فعل ما فعل من جعله شركاء لله - تعالى - فى العبادة ، ليضل الناس بذلك الفعل عن سبيل الله وعن دينه الذى ارتضاه لعباده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليضل ﴾ بفتح الياء . أى : ليزداد ضلالا على ضلاله .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ ، بيان لسوء عاقبة هذا الإنسان المشرك .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهذا الإنسان الذى جعل لله شركاء فى العبادة ... قل له تمتع بكفرك تمتعا قليلا ، أو زماناً قليلا إنك من أصحاب النار الملازمين لها ، والخالدين فيها .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هذا الإنسان المشرك وبين الإنسان الملازم لطاعة ربه فقال : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. ﴾ .

وكلمة « أمَّن » أصلها « أم » التى بمعنى بل وهمزة الاستفهام . و « من » التى هى اسم موصول وهى هنا مبتدأ وخبره محذوف . والقانت : من القنوت بمعنى ملازمة الطاعة والمواظبة عليها بخشوع وإخلاص .

وآناء الليل : ساعاته : والاستفهام للإنكار والنفى .

أى : بل أمَن هو قائم ساعات الليل لعبادة الله - ساجدا وقائماً يحذر عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ،كمن هو جاعل لله - تعالى - شركاء فى العبادة ؟

مما لا شك أنهما لا يستويان فى عرف أى عاقل ، وفى نظر أى ناظر .

ويصح أن تكون « أم » متصلة . وقد حذف معادلها ثقة بدلالة الكلام عليه ، فيكون المعنى :

أهذا الكافر الذى جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله أحسن حالا ، أم الذى هو ملازم للطاعات آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟

ووصف القنوت بأنه فى آناء الليل ، لأن العبادة فى تلك الأوقات أقرب إلى القبول وقدم السجود على القيام ، لأن السجود أدخل فى معنى العبادة .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، وقيل فى عمار بن ياسر .. والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ،ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت ، وفيها دليل على فضل الخوف والرجاء .

وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أنس قال : دخل رسول الله - ﷺ - على رجل وهو فى الموت ، فقال له : كيف تجدك ؟

قال : أرجو وأخاف . فقال - ﷺ - : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذى يرجو ، وآمنه الذى يخاف »[1] .

ثم نفى - سبحانه - أيضاً المساواة بين العالم والجاهل فقال : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أندادا : إنه لا يستوى عندالله - تعالى - المشرك والمؤمن ، ولا يستوى عنده - أيضا - الذين يعلمون الحق ،ويعملون بمقتضى علمهم ، والذين لا يعلمونه ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم ، ويعرضون عن كل من يدعوهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أى : إنما يعتبر ويتعظ بهذه التوجيهات والإرشادات ، أصحاب العقول السليمة والمدارك القويمة .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يذكر المؤمنين بأن يواظبوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - وأن يهاجروا إلى الأرض التى يتمكنون فيها من نشر دينه وإعلاء كلمته ، وأن ينذر المشركين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وضلالهم .. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٤٧ .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾
قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ
وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين الصادقين : داوموا على الخوف من ربكم ، وعلى صيانة أنفسكم من كل ما يغضبه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا ﴾ دون قوله : قل لعبادى الذين آمنوا .. تكريم وتشريف لهم ، لأنه - سبحانه - أمر رسوله - ﷺ - أن يناديهم بهذا النداء الذى فيه ما فيه من التكريم لهم ، حيث أضافهم إلى ذاته - تعالى - وجعل وظيفة الرسول - ﷺ - إنما هى التبليغ عنه - عز وجل - .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ : أمر رسول الله - ﷺ - أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة ، إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب ، وفيه إيذان بأنهم هم .

أى : قل لهم قولى هذا بعينه ، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به ، فإن نقل عين أمر الله - تعالى - أدخل فى إيجاب الامتثال به[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٤٨ .

وجملة ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ تعليل لوجوب الامتثال لما أمروا به من تقوى الله - تعالى - والاستجابة لإرشاداته .

وقوله ﴿ للذين أحسنوا ﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وقوله ﴿ فى هذه الدنيا ﴾ متعلق بقوله : أحسنوا ، وقوله ﴿ حسنة ﴾ مبتدأ مؤخر .

أى : للذين أحسنوا فى هذه الدنيا أقوالهم وأعمالهم .. حسنة عظيمة فى الآخرة ، ألا وهى جنة عرضها السموات والأرض .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ جملة معترضة لإزاحة ما عسى أن يتعللوا به من أعذار ، إذا ما حملهم البقاء فى أوطانهم على التفريط فى أداء حقوق الله .

قال صاحب الكشاف : ومعنى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ أن لا عذر للمفرطين فى الإحسان ألبتة ، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان ،وصرف الهمم إليه قيل لهم : فإن أرض الله واسعة ، وبلاده كثيرة ، فلا تجتمعوا مع العجز ، وتحولوا إلى بلاد أخر ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم ،وطاعة إلى طاعتهم[1] .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الصابرين فقال : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ أى : إنما يوفى الصابرون على مفارقة الأوطان ، وعلى تحمل الشدائد والمصائب فى سبيل إعلاء كلمة الله ... يوفون أجرهم العظيم على كل ذلك بغير حساب من الحاسبين . لأنهم لا يستطيعون معرفة ما أعده - سبحانه - لهؤلاء الصابرين من عطاء جزيل ،ومن ثواب عظيم ، وإنما الذى يعرف ذلك هو الله - تعالى - وحده .

قال الإمام الشوكانى : أى : يوفيهم الله أجرهم فى مقابلة صبرهم بما لا يقدر على حصره حاصر ، ولا يستطيع حسبانه حاسب .

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له ، لأن كل شىء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه . وهى فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة ، تقتضى أن على كل راغب فى ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير ، أن يتوفر

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١١٧ .

على الصبر ، ويزم نفسه بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيرا قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع ..[١] .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يبين للناس ما أمره به خالقه فقال : ﴿ إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد إنى أمرت من قبل الله - عز وجل - أن أعبده عبادة خالصة لا مجال معها للشرك أو الرياء ، أو غير ذلك مما يتنافى مع الطاعة التامة لخالقى - سبحانه - .

﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ أى : أمرنى ربى بأن أخلص له العبادة إخلاصا تاما وكاملا ، لكى أكون على رأس المسلمين وجوههم له ، حتى يقتدى بى الناس فى إخلاصى وطاعتى له - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ بيان لسوء عاقبة الشرك والمشركين .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إنى أخاف إن عصيت ربى ، فلم أخلص له العبادة والطاعة ، عذاب يوم عظيم الأهوال : شديد الحساب ، وهو يوم القيامة ، ولذلك فأنا لشدة خوفى من عذاب خالقى ، أكثرهم إخلاصا له - عز وجل - وامتثالا لأمره ، ومحافظة على طاعته .

﴿ قل الله أعبد مخلصا له دينى ﴾ أى . وقل لهم - أيضا - : الله - تعالى - وحده هو الذى أعبده عبادة لا يحوم حولها شرك ، ولا يخالطها شىء من الرياء أو التكلف .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أمر نبيه - ﷺ - أن يعلن للناس بأساليب متنوعة ، أنه لن يتراجع عن طاعته التامة لربه ، وأن عليهم أن يتأسوا به فى ذلك .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أولا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها . وثانيا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم . وثالثا : بأن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان . ورابعا : بأن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله - تعالى - وأخلص له الدين على أبلغ وجه وآكده ، إظهارا لتصلبه فى

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٥٤ .

الدين ، وحسما لأطماعهم الفارغة ، وتمهيدا لتهديدهم بقوله : ﴿ فاعبدوا ماشئتم من دونه ... ﴾ [1] .

فالأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ فاعبدوا ماشئتم من دونه ... ﴾ للتهديد والتقريع والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها .

والمعنى . إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها المشركون - من أنى أول المسلمين وجوههم لله - تعالى - وحده ، فاعبدوا ماشئتم أن تعبدوه من دونه - عز وجل - فسترون عما قريب سوء عاقبة شرككم وجحودكم لنعم الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ بيان لسوء عاقبة من أعرض عن دعوة الحق ، وقوله : ﴿ الذين خسروا .. ﴾ خبر إن .

أى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين : ليس الخاسرون هم الذين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - وحده - كما زعمتم - وإنما الخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بسبب إلقائهم فى النار ، وحرمانهم من النعيم الذين أعده الله - تعالى - لعباده المؤمنين .

وقال - سبحانه - خسروا أنفسهم وأهليهم للإشعار بأن هؤلاء المشركين لم يخسروا أنفسهم فقط بسبب دخلوهم النار ، وإنما خسروا فوق ذلك أهليهم لأنهم حيل بينهم وبين أهليهم ، لأن أهلهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده .

وجملة : ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه ، للإشعار بأن هذا الخسران الذى حل بهم قد بلغ الغاية والنهاية فى بابه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ... ﴾ تفصيل لهذا الخسران بعد تهويله عن طريق الإبهام والإجمال .

والظلل : جمع ظلة ، وأصلها السحابة التى تظلّ ماتحتها ، والمراد بها هنا طبقات النار التى تكون من فوقهم ومن تحتهم . وأطلق عليها هذا الاسم من باب التهكم بهم ، إذ الأصل فى الظلل أنها تقى من الحر ، بينما الظلل التى فوق المشركين وتحتهم محرقة .

أى : لهؤلاء المشركين طبقات من النار من فوقهم ، وطبقات أخرى من النار من تحتهم ، فهم محاطون بها من كل جانب ، ولا يستطيعون التفلت منها .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٥٩٤ .

قال الجمل فى حاشيته : « فإن قلت : الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمى ماتحته بالظلة ؟ .

قلت : فيه وجوه : الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر . الثانى : أن الذى تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته فى النار لأنها دركات . الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة الفوقانية فى الإيذاء والحرارة ، سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة »[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك الذى يخوف الله به عباده ... ﴾ يعود إلى العذاب الشديد الذى أعده – سبحانه – لأولئك المشركين .

أى : ذلك العذاب الشديد يخوف الله – تعالى – به عباده ، حتى يحذروا ما يوصل إليه ، ويجتنبوا كل قول أو فعل من شأنه أن يفضى إلى النار .

وقوله – تعالى – : ﴿ ياعباد فاتقون ﴾ نداء منه – تعالى – للناس يدل على رحمته بهم ، وفضله عليهم ، أى : عليكم ياعبادى أن تلتزموا طاعتى ، وتجتنبوا معصيتى ، لكى تنالوا رضائى وجنتى ، وتبتعدوا عن سخطى ونارى .

وإلى هنا نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت الصابرين بالعطاء الذى لا يعلم مقدار فضله إلا الله – تعالى –، وأمرت بإخلاص العبادة لله – سبحانه – بأساليب متنوعة ، وحذرت المشركين من سوء المصير إذا ماستمروا فى شركهم وكفرهم .

وبعد أن بين – سبحانه – ماأعده للخاسرين من عذاب أليم ، أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من نعيم مقيم ، فقال – تعالى – :

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٩٤ .

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

الطاغوت : يطلق على كل معبود سوى الله - تعالى - كالشيطان والأصنام وما يشبهها ، مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد فى كل شىء . ويستعمل فى الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

والاسم الموصول مبتدأ . وجملة « أن يعبدوها » بدل اشتمال من الطاغوت ، وجملة « لهم البشرى » هى الخبر .

والمعنى : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وكرهوا عبادة غير الله - تعالى - أيا كان هذا المعبود ، وأقبلوا على الخضوع والخشوع له وحده - عز وجل - .

أولئك الذين يفعلون ذلك « لهم البشرى » العظيمة فى حياتهم ، وعند مماتهم ، وحين يقفون بين يدى الله - تعالى - : ﴿ فبشر عباد ﴾ أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - عبادى الذين هذه مناقبهم ، وتلك صفاتهم ... .

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على صفاء عقولهم ، وطهارة قلوبهم ، فقال : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ...﴾ .

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بالقول الذى يتبعون أحسنه . ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة .

والمراد بالأحسن الواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن .

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز ، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل ، كما قال - تعالى - ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ... ﴾ .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

فيكون المعنى : الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا ... .

ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أ كانت طيبة أم غير طيبة . فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة ، فيتبعون الطيب منها ، وينبذون غيره .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : قوله : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .﴾ هم الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة ... وأراد أن يكونوا نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب ومندوب ، اختاروا الواجب ... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثواباً عند الله . .

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها . نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء . .

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء ، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه .[1] .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ ثناء آخر من الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة .

أى : أولئك الذين هداهم الله - تعالى - إلى دينه الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والمدارك القوية ، والقلوب الطاهرة النقية ..

قال الآلوسى : وفى الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ، ولذا قيل :

شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله - تعالى - وقبول النفس لها ...[2] .

ثم بين - سبحانه - أن من أحاطت به خطيئته ، لن يستطيع أحد إنقاذه من العذاب . فقال - تعالى - ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ، أفأنت تنقذ من فى النار ﴾ .

والاستفهام للنفى ، والتقدير : أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على كفره حتى النهاية ، أفتستطيع أنت - أيها الرسول الكريم - أن تنقذه من هذا المصير الأليم ؟ لا - أيها الرسول الكريم - إنك لا تستطيع ذلك . لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار ، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٥٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ... ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة من حقت عليهم كلمة العذاب . .

والغرف جمع غرفة ، وتطلق على الحجرة التى تكون مرتفعة عن الأرض .

أى : هذا حال الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أما حال الذين اتقوا ربهم فيختلف اختلافا تاما عن غيرهم ، فإن الله - تعالى - قد أعد لهم - على سبيل التكريم والتشريف - غرفا من فوقها غرف أخرى مبنية . .

ووصفت بذلك للإشارة إلى أنها معدة ومهيأة لنزولهم فيها ، قبل أن يقدموا عليها ، زيادة فى تكريمهم وحسن لقائهم .

وهذه الغرف جميعها « تجرى من تحتها الأنهار » ليكون ذلك أدعى إلى زيادة سرورهم .

وقوله - تعالى - ﴿ وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ تذييل مؤكد لمضمون ماقبله من كون المتقين لهم تلك الغرف المبنية . ولفظ « وعد » مصدر منصوب بفعل مقدر .

أى : وعدهم - تعالى - بذلك وعدا لا يخلفه ، لأنه - سبحانه - ليس من شأنه أن يخلف الموعد الذى يعده لعباده .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها مارواه الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام »[1] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت المتقين بأحسن البشارات وأكرمها ، وتوعدت المصرين على كفرهم وفجورهم باستحالة إنقاذهم من عذاب النار .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسرعة زوال الحياة الدنيا ، وقرب اضمحلال بهجتها . كما بين حال من شرح الله صدره للإسلام فقال - تعالى - : .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٨١ .

يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾
أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ... ﴾ للتقرير .

والينابيع : جمع ينبوع ، وهو المنبع أو المجرى الذى يكون فى باطن الأرض ، والذى يحمل الكثير من المياه الجارية أو المخزونة فى جوف الأرض .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - أنزل من السحب المرتفعة فى جو السماء ، ماء كثيرا ، فأدخله بقدرته فى عيون ومسارب فى الأرض ، هذه العيون والمسارب تارة تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون فى باطنها ، وكل ذلك من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر قدرته فقال : ﴿ ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ... ﴾ .

أى : هذا الماء الذى أنزله - سبحانه - بقدرته من السماء ، قد سلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج بسبب هذا الماء زرعا مختلفا فى ألوانه وفى أشكاله ، فمنه ماهو أخضر ومنه ما هو أصفر ، ومنه ما ليس كذلك مما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ﴾ بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته - عز وجل - .

والفعل « يهيج » مأخوذ من الهَيْج بمعنى اليُبْس والجفَاف . يقال : هاج النبات هَيْجاً وهِيَاجا ، إذا يبس وأصفر . أو مأخوذ من الهيج بمعنى شدة الحركة . يقال : هاج الشىء يهيج ، إذا ثار لمشقة أو ضرر ، ثم يعقب ذلك الهيجان الجفاف واليبس .

أى : ثم يصاب هذا الزرع المختلف الألوان بالجفاف والضمور ، فتراه مصفرا من بعد اخضراره ونضارته ، ثم يجعله - سبحانه - « حطاما » أى : فتاتا متكسرا . يقال : حَطِمَ الشىء حطَما - من باب تعب - إذا تكسر وتفتت وتحطم .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه من إنزال الماء من السماء ، ومن سلكه ينابيع فى الأرض ، ومن إخراج النبات المختلف الألوان بسببه ﴿ لذكرى ﴾ عظيمة ﴿ لأولى الألباب ﴾ .

أى : لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

والمقصود من هذه الآية الكريمة ، التحذير من الانهماك فى الحياة الدنيا ومتعها ، حيث شبهها - سبحانه - فى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبدو مخضراً وناضراً .... ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال .

وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدراً ﴾ (١) .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدى والضال فقال : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .. ﴾ .

أى : أفمن شرح الله - تعالى - صدره للإسلام ، وجعله مستعدا لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه ، كمن قسا قلبه وغلظ ، وأصبح أسيرا للظلمات والأوهام . .

لاشك أنهما لا يستويان فى عقل أى عاقل .

فالاستفهام للإنكار والنفى ، و « من » اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف لدلالة قوله - تعالى - ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ عليه .

أى : فهلاك وخزى لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله - تعالى - ، الذى من شأنه أن تلين له القلوب ، ولكن هؤلاء الكافرين إذا ماذكر الله - تعالى - ، اشمأزت قلوبهم ، وقست نفوسهم ، لانطماس بصائرهم . واستحواذ الشيطان عليهم .

ومنهم من جعل « من » فى قوله ﴿ من ذكر الله ﴾ بمعنى عن . أى : فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ من ذكر الله ﴾ أى : من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا ، وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله - تعالى - : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وقرئ : عن ذكر الله .

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن فى هذا ؟ قلت : إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله ، فالمعنى ماذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه . وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ

(١) سورة الكهف آية ٤٥ .

عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاه من العَيْمة . أى : من أجل عطشه . وسقاه عن العيمة ، إذا أرواه حتى أبعده عن العطش »[١] .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة ببيان مآل هؤلاء الذين قست قلوبهم فقال : ﴿ أولئك فى ضلال مبين ﴾ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة فى ضلال واضح عن الصراط المستقيم .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾[٢] .

ثم مدح – سبحانه – كتابه مدحا يليق به ، وبين حال المؤمنين الصادقين عند سماعه ، وسلى نبيه – ﷺ – عما أصابه من أعدائه . فقال – تعالى – :

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ
جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ
إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن
يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ
لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ
ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢٢ « والعيمة – بفتح فسكون – شدة العطش » .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

وقوله - تعالى - : « مثانى » جمع مثنى من التثنية بمعنى التكرار والإعادة ولذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثانى ، لأنها تكرر وتعاد مع كل صلاة .

أى : الله - تعالى - نزل بفضله ورحمته عليك - يامحمد - أحسن الحديث « كتابا متشابها » أى : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته ، وفى نظمه وإعجازه ، وفى صحة معانيه وأحكامه ، وفى صدقه وهداياته وإرشاداته إلى مايسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ...

« مثانى » أى : تثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد ، وإنما يزداد المؤمنون حبا وتعلقا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة .

وسمى - سبحانه - كتابه حديثا ، لأن النبى - ﷺ - كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه . فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم .

ولفظ « كتابا » بدل من قوله ﴿ أحسن الحديث ﴾ . وقوله : ﴿ متشابها مثانى ﴾ صفتان للكتاب .

ووصف بهما وهو مفرد وكلمة « مثانى » جمع ، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام . .

أى : الله - تعالى - أنزل أحسن الحديث كتابا مشتملا على السور والآيات والمواعظ .. التى يشبه بعضها فى الإعجاز ... والتى تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار . .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ما ملخصه : « وإيقاع اسم الله مبتدأ ، وبناء « نزل » عليه ، فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث .

فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشىء هى جملته لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن سور وآيات ... كما تقول الإنسان عظام وعروق ، فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفر شىء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله - ﷺ - أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات ، ليركزه فى قلوبهم ، كى يغرسه فى صدورهم ...[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ... ﴾ .

استئناف مسوق لبيان آثار هذا القرآن الكريم فى نفوس قارئيه وسامعيه بعد بيان أوصافه فى ذاته .

وقوله « تقشعر » من الاقشعرار ، وهو الانقباض الشديد للبدن . يقال : اقشعر جسد فلان ، إذا انقبض جلده واهتز ... وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله - تعالى - .

أى : أن هذا الكتاب العظيم عندما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر . ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ماقرأوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة .

قال الجمل : « فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت القلوب بها ثانيا ؟ .

قلت : ذكر الخشية التى تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم وتَخشى قلوبهم فى أول الأمر ، فإذا ذكروا الله - تعالى - وذكروا رحمته وسعتها ، استبدلوا بالخشية رجاء فى قلوبهم ، وبالقشعريرة لينا فى جلودهم ..»[1] .

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء ، الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء فى رحمته ومغفرته ، إذ أن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد ، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح ، وعدى الفعل « تلين » بإلى لتضمينه معنى تسكن وتطمئن .

ومفعول « ذكر الله » محذوف للعلم به ، أى : ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته .

قال ابن كثير ما ملخصه : هؤلاء المؤمنون يخالفون غيرهم من وجوه :

أحدها : أن سماع هؤلاء تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات .

الثانى : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ، ولم يكونوا - كغيرهم - متشاغلين لاهين عنها .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها .... ولم يكونوا يتصارخون ويتكلفون ما ليس فيهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٩٨ .

قال قتادة عند قراءته لهذه الآية : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأنهم تقشعر جلودهم وتبكى أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا فى أهل البدع . وهذا من الشيطان ...[1] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ يعود إلى الكتاب الذى مرت أوصافه ، وأوصاف القارئين له والمستمعين إليه .

أى: ذلك الكتاب العظيم المشتمل على أحسن الإرشادات وأحكمها، هدى الله الذى يهدى بسببه من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم ، ومن يضلله - سبحانه - عن طريق الحق ، فماله من هاد يهديه إلى هذا الطريق القويم .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هؤلاء الذين يخشون ربهم ، وبين غيرهم ممن قست قلوبهم ، وانحرفت نفوسهم عن الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون ﴾ .

والاستفهام : للنفى والإنكار ، و « من » اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف

أى : أفمن كان يوم القيامة مصيره إلى النار المحرقة التى يتقيها ويحاول درأها عن نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ، كمن يأتى يوم القيامه آمنا مطمئنا بعيدا عن النار وسعيرها ؟ .

وفى الآية الكريمة ما فيها من تهويل عذاب يوم القيامة ، إذ جرت عادة الإنسان أن يتقى الآلام بيديه وجوارحه ، فإذا ما اتقاها بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ، كان ذلك دليلا على أن ما نزل به فى نهاية الفظاعة والشدة .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ سوء العذاب ﴾ مبالغة أخرى ، إذ نفس العذاب سوء ، فإذا ما وصف بعد ذلك بالسوء ، كان أشد فى الفظاعة والإهانة والألم .

وجملة : « وقيل للظالمين ... » عطف على « يتقى ... » أى : هذا هو مصير الظالمين ، إنهم يتقون النار بوجوههم التى هى أشرف أعضائهم ، وهذا الاتقاء لن يفيدهم شيئا ، بل ستغشاهم النار بلهبها ، ويقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب ما كنتم تكسبون فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة .

﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ من أمم الكفر والضلال ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ المقدر لكل أمة من أمم الكفر .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٨٥ .

﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ أى : من الجهة التى لا تخطر لهم على بال ، أن العذاب يأتيهم منها ، فيكون وقعه عليهم أشد وأفظع .

﴿ فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ﴾ أى : العذاب الذى يذلهم ويخزيهم فى الحياة الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ . المعد لهم ﴿ أكبر ﴾ كيفا وكمًّا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو كانوا من أهل العلم والفهم لما ارتكبوا ما ارتكبوا من كفر وفسوق وعصيان ، أدى بهم إلى العذاب المهين .

ثم كرر - سبحانه - مدحه للقرآن الكريم ، بأن بين أنه مشتمل على كل مثل نافع للناس ، وأنه لا لبس فيه ولا اختلاف ، وساق مثلا للمشرك الذى يعبد آلهة كثيرة ، وللمؤمن الذى يعبد إلها واحدا ، وبين أن جميع الناس سيعمهم الموت . وأنهم جميعا سيرجعون إلى الله للحساب ، فقال - تعالى - : .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد ضربنا للناس ... ﴾ موطئة للقسم .

أى : والله لقد ضربنا وكررنا بأساليب متنوعة فى هذا القرآن العظيم ، من كل مثل يحتاج إليه الناس فى أمورهم وشئونهم ، وينتفعون به فى دنياهم ودينهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ تعليل لضرب المثل . أى فعلنا ذلك فى كتابنا الذى هو أحسن الحديث ، كى يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرناهم به ، أو نهيناهم عنه .

فلعل هنا بمعنى كى التعليلية ، وهذا التعليل إنما هو بالنسبة إلى غيره - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج ... ﴾ ثناء آخر منه - تعالى - على كتابه الكريم .

والجملة الكريمة حال مؤكدة من قوله قبل ذلك : ﴿ هذا القرآن ... ﴾ .

أى : هذا القرآن قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ قرآنا عربيا ﴾ حال مؤكدة كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا ، وإنسانا عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿ غير ذى عوج ﴾ أى : مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف .

فإن قلت : فهلا قيل مستقيما ، أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان :

إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ .

والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الأعيان ... وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب (١)

وقوله : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى لا شتمال القرآن على الأمثال المتكررة المتنوعة .

أى : كررنا الأمثال النافعة فى هذا القرآن للناس ، كى يتقوا الله - تعالى - ويخشوا عقابه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا للعبد المشرك وللعبد المؤمن ، فقال : ﴿ ضرب الله مثلا ، رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ... ﴾ .

وقوله ﴿ مثلا ﴾ مفعول ثان لضرب ، و ﴿ رجلا ﴾ مفعوله الأول . وأخر عن المفعول الثانى للتشويق إليه ، وليتصل به ماهو من تتمته ، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن .

وقوله ﴿ متشاكسون ﴾ من التشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق ، يقال : رجل شَكْس وشكِس - بفتح الشين مع إسكان الكاف أو كسرها وفعله من باب كرم - إذا كان صعب الطباع ، عسر الخلق .

وقوله سلما » بفتح السين واللام - مصدر وصف به على سبيل المبالغة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « سالما » : أى خالصا لسيده دون أن ينازعه فيه منازع .

والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد مملوك لجماعة متشاكسين

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢٥ .

متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم ، وهذا العبد موزع وممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معينا ، والثانى يطلب منه شيئا يباين ما طلبه الأول ، والثالث يطلب منه مايتناقض مع ما طلبه الأول والثانى ... وهو حائر بينهم جميعا ، لا يدرى أ يطيع ما أمره به الأول أم الثانى أم الثالث ... ؟ لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التى تمزق أفكاره وقواه .

هذا هو مثل المشرك فى حيرته وضلاله وانتكاس حاله .

أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد ، وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، لأنه يعرف ماله وما عليه ، وفى راحة تامة من الحيرة والمتاعب التى انغمس فيها ذلك العبد الذى يملكه الشركاء المتشاكسون .

فالمقصود بهذين المثلين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق ، وما عليه العبد المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان .

واختار - سبحانه - الرجل لضرب المثلين ، لأنه أتم معرفة من غيره لما يتعبه ولما يريحه ولما يسعده ولما يشقيه .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : واضرب - يامحمد - لقومك مثلا وقل لهم : ماتقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع . كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ، ويتعاورونه فى مهن شتى ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير فى أمره ، قد تشعبت الهموم قلبه ، وتوزعت أفكاره ، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته .

وفى آخر : قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته،معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن وأجمل شأنا ؟ .

والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى .. ويبقى متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد ، وممن يطلب رزقه ؟ فَهَمُّهُ شَعَاع - بفتح الشين أى : متفرق - ، وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه فى عاجله ، مؤمل للثواب فى آجله ، [1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ للإنكار والاستبعاد .

أى : لا يستوى الرجل الذى فيه شركاء متشاكسون ، والرجل الذى سلم لرجل آخر ،

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢٦ .

فى رأى أى ناظر ، وفى عقل أى عاقل ، فالأول فى حيرة من أمره ، والثانى على بينة من شأنه .

وساق - سبحانه - هذا المعنى فى صورة الاستفهام ، للإشعار بأن ذلك من الجلاء والوضوح بحيث لا يخفى على كل ذى عقل سليم .

وانتصب لفظ « مثلا » على التمييز المحول عن الفاعل ، لأن الأصل هل يستوى مثلهما وحالهما ؟ .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ تقرير وتأكيد لما قبلها من نفى الاستواء واستبعاده ، وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص فى العبودية لله - تعالى - يستحق منهم كل شكر وثناء على الله - عز وجل - حيث وفقهم لذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون هذه الحقيقة مع ظهورها ووضوحها لكل ذى عينين يبصرهما ، وعقل يعقل به .

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن الموت سينزل به كما سينزل بأعدائه الذين يتربصون به ريب المنون ، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فقال - : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ .

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - سيلحقك الموت ، كما أنه سيلحق هؤلاء المشركين لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فأى موجب لتعجل الموت الذى سيعم الخلق جميعا .

وجاء الحديث عن حلول الموت به - ﷺ - وبأعدائه ، بأسلوب التأكيد ، للإيذان بأنه لا معنى لاستبطائهم لموته - ﷺ - ولا للشماتة به - ﷺ - إذا ما نزل به الموت ، إذ لا يشمت الفانى فى الفانى مثله .

ثم بين - سبحانه - مايكون بينه وبينهم يوم القيامة فقال : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

أى : ثم إنكم جميعا يوم القيامة عند ربكم وخالقكم تختصمون وتحتكمون ، فتقيم عليهم - أيها الرسول الكريم - الحجة ، بأنك قد بلغت الرسالة ، وهم يعتذرون بالأباطيل والتعليلات الكاذبة ، والأقوال الفاسدة ، وسينتقم ربك من الظالم للمظلوم ، ومن المبطل للمحق .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار فقال

ما ملخصه : ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة .

روى ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يارسول الله أتكرر علينا الخصومة ؟ قال : نعم . قلت : إن الأمر إذا لشديد .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا » .

وقال ابن عباس : يخاصم الصادقُ الكاذبَ ، والمظلومُ الظالمَ ، والمهدىُّ الضالَّ ، والضعيفُ المُسْتَكْبِرَ (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه لا أحد أشد ظلما ممن كذب على الله - تعالى - وكذب بالصدق إذ جاءه ، وأن من صفات المتقين أنهم يؤمنون بالحق ، ويدافعون عنه ، وأنه - سبحانه - سيكفر عنهم سيئاتهم ... فقال - تعالى - : .

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ
إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى
جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٨٧ .
(۞) أول الجزء الرابع والعشرون .

﴿ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله ... ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للإنكار والنفى .

أى مادام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أنك ستموت وهم سيموتون ، وأنكم جميعا ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء .. فلا أحد أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين كذبوا على الله ، بأن عبدوا من دونه آلهة أخرى ، ونسبوا إليه الشريك أو الولد ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل كذبوا بالأمر الصدق وقت أن جئتهم به من عند ربك .

والتعبير بقوله : ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ يدل على أنهم بادروا بتكذيب ماجاءهم به الرسول - ﷺ - من عند ربه ، بمجرد أن سمعوه ، ودون أن يتدبروه أو يفكروا فيه .

وتكذيبهم بالصدق ، يشمل تكذيبهم للقرآن الكريم ، ولكل ماجاءهم به الرسول - ﷺ - .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ للتقرير .

والمثوى : المكان مأخوذ من قولهم ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به . يقال : ثَوَى يثوِى ثَواء ، كمضَى يمضِى مَضَاء .. .

أى : أليس فى جهنم مكانا يكفى لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم ؟ بل إن فيها لمكانا يذلهم ويذوقون فيه سوء العذاب .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة أهل الصدق والإيمان فقال : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ .

والمراد بالذى جاء بالصدق : رسول الله - ﷺ - والمراد بالذى صدق به : ما يشمل الرسول - ﷺ - ويشمل كل من آمن به واتبعه فيما جاء به ، كأبى بكر الصديق وغيره من الصحابة .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله - ﷺ - كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ... والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية ، دخول الجند فى قولك : نزل الأمير موضع كذا .. .

والجمع فى قوله - تعالى - : ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ باعتبار دخول الأتباع تباعا : ومراتب التقوى متفاوتة ، ولرسول الله - ﷺ - أعلاها ... "[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم فقال ﴿ لهم مايشاءون عند ربهم ... ﴾ .

أى : لهؤلاء المتقين كل مايشاءونه عند ربهم ومالك أمرهم ، بسبب تصديقهم للحق ، واتباعهم لما جاءهم به رسولهم - ﷺ - .

وفى قوله : « عند ربهم » تكريم وتشريف لهم .

وقوله : ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ أى : ذلك الذى ذكرناه من حصولهم على مايشتهونه ، جزاء من أحسنوا فى أقوالهم وأفعالهم .

ثم بين - سبحانه - جانبا مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته بهم فقال : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾.

واللام فى قوله : « ليكفر .. » متعلقة بمحذوف ، أى :أعطاهم - سبحانه - ما أعطاهم من فضله ورحمته ليكفر عنهم أسوأ الذنوب التى عملوها ، كالكفر قبل الإسلام ، بأن يغفر لهم ذلك ولا يؤاخذهم عليه .

وإذا غفر الله - تعالى - لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم - بفضله ورحمته ماهو دونه بالطريق الأولى .

« ويجزيهم أجرهم » أى : ويعطيهم ثواب أعمالهم « بأحسن الذى كانوا يعملون » أى : يعطيهم فى مقابل عملهم الصالح فى الدنيا جنات فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وعلى هذا التفسير يكون قوله - تعالى - : أسوأ وأحسن ، أفعل تفضيل حيث كفر - سبحانه - عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم بما هو أحسن منها وهو الجنة .

وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله - تعالى - لعباده المتقين ، حيث عاملهم بالفضل ولم يعاملهم بالعدل .

ومنهم من يرى أن قوله : أسوأ وأحسن ، بمعنى السيئ والحسن ، فيكون أفعل التفضيل ليس على بابه ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : مامعنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذى عملوا ؟ وما معنى التفضيل فيهما ؟ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٢ .

قلت : أما الإضافة فما هى من إضافة أفعل إلى الجملة التى يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل . كقولك : الأشج أعدل بنى مروان .

وأما التفضيل فإيذان بأن السيئ الذى يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذى يعملونه هو عند الله الأحسن ؛ لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ ، وحسنهم بالأحسن »[1] .

ثم بين - سبحانه - عصمته لنبيه - ﷺ - بأبلغ وجه وأتمه فقال ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

وقراءة الجمهور : ﴿ عبده ﴾ بالإفراد وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ عباده ﴾ ، والاستفهام للتقرير .

قال القرطبى : وذلك أنهم خوفوا النبى - ﷺ - مضرة الأوثان فقالوا له : أتسب آلهتنا لئن لم تنته عن ذكرها لتصيبنك بالسوء .

وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : احذرك منها ياخالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء . فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها ، وتخويفهم لخالد تخويف للنبى - ﷺ - لأنه هو الذى أرسله . ويدخل فى الآية تخويفهم النبى - ﷺ - بكثرة جمعهم وقوتهم .. »[2] .

والمعنى : أليس الله - تعالى - بكاف عبده محمدا - ﷺ - من كل سوء ؟ وكاف عباده المؤمنين الصادقين من أعدائهم ؟ بلى إنه - سبحانه - لعاصم نبيه - ﷺ - من أعدائه ، ولناصر عباده المتقين على من ناوأهم .

والحال أن هؤلاء المشركين يخوفونك - أيها الرسول الكريم - من أصنامهم التى يعبدونها من دونه - تعالى - ، مع أن هذه الآلهة الباطلة أتفه من أن تدافع عن نفسها فضلا عن غيرها .

﴿ ومن يضلل الله ﴾ أى : من يضلله الله - تعالى - ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى الصراط المستقيم .

﴿ ومن يهد الله ﴾ أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى طريق الحق والصواب .

﴿ فما له من مضل ﴾ أى : فما له من أحد كائنا من كان يستطيع إضلاله .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢٨ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٥٨ .

﴿ أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ بلى إنه - سبحانه - لعزيز إذ لا يغلبه غالب ، ولا يمانعه مانع ، ولا ينازعه منازع . ولذو انتقام شديد من أعدائه ، ولا يستطيع أحد أن يمنع انتقامه منهم .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم . وأمر النبى - ﷺ - أن يهددهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم ... فقال - تعالى -

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ
أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ
ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى
لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾

والمعنى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين : من الذى خلق هذه السموات التى ترونها بأعينكم ، وخلق هذه الأرض التى فوقها تعيشون .. .

لئن سألتهم هذا السؤال ، لا يملكون فى الإجابة عليه إلا أن يقولوا : خلقهم الله ، فلفظ الله فاعل لفعل محذوف .

وقولهم هذا دليل واضح على تناقضهم مع أنفسهم . لأنهم يعترفون بأن الخالق هو الله ، ولكنهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر . .

ولذا أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يقول لهم مبكتا وموبخا : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره . أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ ؟ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أن الخالق لهذا الكون هو الله ، فأخبرونى عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه - سبحانه - : أتستطيع أن تدفع ضرا أراده الله - تعالى - بى ؟ أم تستطيع أن تمنع رحمة أو خيرا أعطاه الله لى ؟ كلا إنها لا تستطيع شيئاً من ذلك ، وعبادتكم لها إنما هى نوع من السفه والحماقة .

وقال - سبحانه - : ﴿ هل هن .. ﴾ بالتأنيث على سبيل التحقير لتلك الآلهة المزعومة ، ولأنهم كانوا يسمونها بأسماء الإناث ، كاللات ، والعزى ، ومناة . الخ .

وقدم الضر لأن دفعه أهم ، وعلق - سبحانه - إرادة الضر والرحمة بذاته - ﷺ - فقال : ﴿ إن إرادنى الله بضر ...﴾ ليرد عليهم ردا يخرس ألسنتهم ، حيث خوفوه - ﷺ - منها وزعموا أنه لو استمر فى تحقيرها فإنها ستؤذيه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم فرض المسألة فى نفسه دونهم ؟ قلت : لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم - أولا - بأن خالق العالم هو الله وحده ، ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذى أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل ، أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما . هل هؤلاء اللائى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره ، أو ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم ، حتى لا يحيروا ببنت شفة قال : ﴿ حسبى الله ﴾ كافياً لمعرة أوثانكم ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ وفيه تهكم .

ويروى أنه - ﷺ - سألهم فسكتوا ، فنزل : ﴿ قل حسبى الله ... ﴾[1] .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد عليهم وفى السخرية من آلهتم : الله - تعالى - الخالق لكل شيء ، كافينى فى جميع أمورى ، وعاصمنى من كيدكم وكيد من تتوهمون كيده ، وعليه وحده لا على غيره يتوكل المتوكلون ، لعلمهم أن كل ماسواه تحت ملكوته وقدرته .

ثم أمره - سبحانه - مرة أخرى أن يتحداهم وأن يتهددهم فقال : ﴿ قل ياقوم اعملوا على مكانتكم ﴾. أى : وقل لهم للمرة الثالثة : اعملوا ماشئتم عمله من العداوة لى ، والتهديد بآلهتكم .

والمكانة مصدر مكن - ككرم - ، يقال : مكن فلان من الشئ مكانة ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن .

أى : اعملوا مافى إمكانكم عمله معى . والأمر للتهديد والوعيد .

﴿ إنى عامل ﴾ أى : إنى سأقابل عملكم السيئ بعمل أحسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق .

﴿ فسوف تعلمون ﴾ من منا الذى سينجح فى عمله ، ومن منا سيأتيه عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة . فالمراد بالعذاب المخزى عذاب الدنيا ، والمراد بالعذاب المقيم عذاب الآخرة .

ولقد تحقق ماتوعدهم - سبحانه - به ، حيث أنزل عليهم عقابه فى بدر وفى غيرها فأخزاهم وهزمهم ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه منهم ، فقال - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ... ﴾ .

أى : إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - القرآن لأجل منفعة الناس ومصلحتهم ، وقد أنزلناه متلبسا بالحق الذى لايحوم حوله باطل .

﴿ فمن اهتدى ﴾ إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحق المبين فهدايته تعود إلى نفسه ﴿ ومن ضل ﴾ عن الطريق المستقيم ، فإثم ضلاله . إنما يعود على نفسه وحدها .

﴿ وما أنت عليهم ﴾ يا محمد ﴿ بوكيل ﴾ أى : بمكلف بهدايتهم ، وبإجبارهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١٢٩ .

ثم ساق – سبحانه – ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ مشيئته فقال – تعالى – : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ...﴾

أى : الله – بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين انتهاء آجالهابأن يقطع تعلقها بالأجسام قطعا كليا ، ويسلب هذه الأجسام والأبدان ما به قوام حياتها ، بأن تصير أجساما هامدة لا إدراك لها . ولا حركة فيها .

وقوله – تعالى – : ﴿ والتى لم تمت فى منامها ﴾ معطوف على الأنفس ، أى : يسلب الحياة عن الأنفس التى انتهى أجلها سلبا ظاهرا وباطنا ، ويسلب الحياة عنها سلبا ظاهرا فقط فى حال نومها . إذ أنها فى حالة النوم تشبه الموتى من حيث عدم التمييز والتصرف .

فالآية الكريمة تشير إلى أن التوفى للأنفس أعم من الموت ، إذ أن هناك وفاتين . وفاة كبرى وتكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن طريق النوم . كما قال – تعالى – ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل .. ﴾ أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت فى انقطاع الإدراك والإحساس ..

وقوله – تعالى – : ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ بيان لحالة الأنفس التى انتهى أجلها ، والتى لم ينته أجلها بعد .

أى : الله – تعالى – وحده هو الذى يتوفى الأنفس حين الموت ، وحين النوم ، أما الأنفس التى انتهى أجلها فيمسك – سبحانه – أرواحها إمساكا تاما بحيث لاتعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التى لم يحن وقت موتها ، فإن الله – تعالى – يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها ، وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى فى علمه – تعالى – فإذا ما انتهى أجلها الذى حدده – سبحانه – لها ، خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجا تاما ، كما هو الشأن فى الحالة الأولى .

ولاشك أن الله – تعالى – الذى قدر على ذلك ، قادر أيضا – على إعادة الأرواح إلى أجسادها عند البعث والنشور يوم القيامة .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان كمال قدرة الله – تعالى – ولبيان أن البعث حق ، وأنه يسير على قدرة الله التى لا يعجزها شىء .

ولا منافاة بين هذه الآية التى صرحت بأن الله – تعالى – هو الذى يتوفى الأنفس عند موتها ، وبين قوله – تعالى – : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت .. ﴾ وقوله – تعالى – ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ...﴾ لأن المتوفى فى الحقيقة هو الله – تعالى – وملك الموت

إنما يقبض الأرواح بإذنه - سبحانه - ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الأرواح بأمره المستمد من أمر الله - عز وجل - .

قال القرطبى : « فإذًا يقبض الله الروح فى حالين : فى حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه فى حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شىء مقبوض . وما يقبضه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة .

وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيى ويميت ، ولا يقدر على ذلك سواه »[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يعود إلى المذكور من التوفى والإمساك والإرسال .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من قدرتنا على توفى الأنفس وإمساكها وإرسالها ، لآيات بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يحسنون التأمل والتفكير والتدبر ، فيما أرشدناهم إليه وأخبرناهم به .

ثم نعى - سبحانه - على الكفار غفلتهم وعدم تفكرهم فقال : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ﴾ .

و « أم » هنا بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار ، والمراد بالشفعاء تلك الأصنام التى زعموا أنها ستشفع لهم يوم القيامة .

والمعنى : لقد ترك هؤلاء المشركون التفكر والتدبر فى دلائل وحدانيته وقدرته - سبحانه - ولم يلتفتوا إلى ما ينفعهم ، بل اتخذوا الأصنام آلهة لينالوا بواسطتها الشفاعة عند الله .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - مرشدا ومنبها : أتفعلون ذلك ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا من أمرها ، ولا تعقل شيئا مما يتوجهون به إليها ؟

ثم أمر - سبحانه - رسوله ﷺ - أن يبين لهم أن الله - تعالى - هو مالك الشفاعة كلها ، وأنه لن يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ، فقال : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا .. ﴾ .

أى : قل لهم : الله -تعالى - هو المالك للشفاعة كلها ، وآلهتكم هذه لا تملك شيئا من ذلك ، بل أنتم وآلهتكم - أيها المشركون - ستكونون وقودا لنار جهنم .

وهو سبحانه - : ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ملكا تاما لا تصرف لأحد فى شىء منها معه ، ولا شفاعة لأحد إلا بإذنه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٦١ .

﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ يوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المشركين ، عندما يذكر - سبحانه - وحده دون أن تذكر معه آلهتهم ، كما بين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، وكيف أنهم يندمون ولا ينفعهم الندم ، وكيف أنهم لو ملكوا فى هذا اليوم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ، لقدموه فداء لأنفسهم من أهوال عذاب يوم القيامة .. فقال - تعالى - :

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ
قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ
فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ
نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ
وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ

وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ اشمأزت .. ﴾ أى : نفرت وانقبضت وذعرت ، مأخوذ من الشَّمْزِ ، وهو نفور النفس مما تكرهه .

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين وهو أنك إذا ذكرت الله وحده .. ظهرت آثار النفرة فى وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح .. وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادة ، وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات .. »[1] .

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - إذا ذكرت الله - تعالى - وحده ، ونسبت إليه ما يليق به - سبحانه - من وحدانيته وقدرته .. دون أن تذكر معه الأصنام اشمأزت وانقبضت وذعرت نفوس هؤلاء المشركين الجهلاء ، أما إذا ذكرت آلهتهم سواء أذكرت الله - تعالى - معها أم لم تذكره ، إذا هم يستبشرون ويبتهجون ..

والتعبير بالاشمئزاز والاستبشار ، يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية فى الأمرين ، فهم عند ذكر الله - تعالى - تمتلىء قلوبهم إلى نهايتها غما وهما وانقباضا وذعرا . وعند ذكر أصنامهم تمتلىء قلوبهم إلى نهايتها - أيضا - بهجة وسرورا حتى لتظهر آثار ذلك على بشرتهم ...

وحالهم هذا يدل على أنهم قد بلغوا الغاية - أيضا - فى الجهالة والسفاهة والغفلة ..

وهذا الذى ذكرته الآية الكريمة من اشمئزاز الكافرين عند ذكر الله - تعالى - واستبشارهم عند ذكر غيره ، نرى ما يشبهه عند كثير من الناس ..

فكم من أناس إذا حدثتهم عن ذات الله - تعالى - وصفاته ، وعن سلامة دينه وتشريعاته ، وعن آداب قرآنه وهداياته ، وعن كل ما يتعلق بوجوب تنفيذ أوامره ونواهيه .. انقبضت نفوسهم ، واكفهرت وجوههم ، وتمنوا لو أنك تركت الحديث عن ذلك .

أما إذا سمعوا ما يتعلق بالتشريعات والنظم التى هى من صنع البشر - استبشرت نفوسهم ، وابتهجت أساريرهم ..

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفورا ﴾[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٥٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٦ .

قال الآلوسى : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التى وصف الله - تعالى - بها المشركين ، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم .. وينقبضون من ذكر الله - تعالى - وحده - ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه - عز وجل - وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله . وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه إلى ما يكره .. »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يلتجئ إلى خالقه وحده من شرور هؤلاء المشركين ، وأن يفوض أمره إليه ، فقال - تعالى - ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

ولفظ : ﴿ اللهم ﴾ أصله يا الله . فلما استعمل دون حرف النداء . عوض عنه بالميم المشددة التى فى آخره .

ولفظ « فاطر ، وعالم » منصوبان على النداء .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الاستعاذة والاعتزال لما عليه هؤلاء المشركون من جهل وسفه ، يا الله ، يا خالق السموات والأرض ويا عالم الغائب والمشاهد . والخفى والظاهر من أمور خلقك ، أنت وحدك الذى تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا ، فتجازى كل نفس بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

وما دام الأمر كذلك ، فاهدنى إلى صراطك المستقيم ، وجنبنى الشرك والمشركين .

فالمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول - ﷺ - عما فعله المشركون معه ، وإرشاده إلى ما يعصمه من كيدهم . وتعليم العباد وجوب الالتجاء إلى الله - تعالى - وحده - لدفع كيد أعدائه عنهم .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها مارواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبدالرحمن قال : سألت عائشة : بأى شىء كان رسول الله - ﷺ - يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض . عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلِفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .. »[2] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١١ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٩٦ .

وقال صاحب الكشاف : « بعل - بكسر العين - أى : دهش وفزع رسول الله - ﷺ - من شدة شكيمتهم فى الكفر ، فقيل له : « ادع الله بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم ». وفيه وصف لحالهم ، وإعذار لرسول الله - ﷺ - وتسلية له ، ووعيد لهم ..[1] .

وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بين - سبحانه - لهؤلاء الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم .. بين لهم ما لهم من سوء المصير فقال : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه ، لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة .. ﴾ .

أى : أن العذاب المعد لهؤلاء المشركين شىء رهيب ، ولو أن لهم جميع ما أعد فى الأرض من خيرات ، ولهم - أيضا - مثل ذلك منضما إليه ، لقدموه فداء لأنفسهم ، أملا فى النجاة من سوء العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة .

فالآية الكريمة وعيد لهم ليس بعده وعيد ، وتيئيس لهم من النجاة ليس بعده تيئيس .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم ﴾[2] .

ثم هددهم - سبحانه - بتهديد آخر فقال : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ .

أى : وظهر لهم يوم القيامة من ألوان العقوبات ، ومن فنون الآلام ، ما لم يكونوا فى الدنيا يظنون أنه سيقع بهم ، وما لم يكن واردا فى حسبانهم .

قال صاحب الكشاف : وقوله - تعالى - ﴿ وبدا لهم من الله .. ﴾ وعيد لهم بعذاب مادروا كنهه لفظاعته وشدته ، وهو نظير قوله - تعالى - فى الوعد : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .. ﴾ .

والمعنى : وظهر من سخط الله وعذابه ، ما لم يكن قط فى حسابهم ، وما لم يحدثوا به أنفسهم .

وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هى سيئات .

وعن سفيان الثورى أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء . ويل لأهل الرياء .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٢ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

وجزع بعض الصالحين عند موته ، فسئل عن سبب ذلك فقال : أخشى أن يبدو لى من الله مالم أحتسبه ، ثم قرأ هذه الآية »[1] .

ثم تهديد ثالث يتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

والمراد بسيئات ما كسبوا : الأعمال السيئة التى اكتسبوها فى دنياهم ، وهذا البدو والظهور يكون عند عرض صحائف أعمالهم عليهم . و « ما » موصولة أو مصدرية .

أى : وظهر لهم عند عرض صحائف أعمالهم عليهم يوم القيامة ، الذى عملوه واكتسبوه فى الدنيا من رذائل ﴿ وحاق بهم ﴾ أى : وأحاط ونزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى حياتهم ويتهكمون بمن كان يحذرهم منه فى الدنيا .

وبعد هذا التصوير الرهيب لمصير هؤلاء المشركين يوم القيامة ، عادت السورة إلى بيان تناقضهم مع أنفسهم ، فهم إن سئلوا عمن خلق السموات والأرض ، قالوا : إن خالقهما هو الله ، ومع ذلك يعبدون غيره وتشمئز قلوبهم عند ذكره وحده .

وهم يتقربون إلى آلهتهم بالطاعات ، ومع ذلك فهم عند نزول الشدائد بهم ، ينسون تلك الآلهة ويتجهون إلى الله - تعالى - وحده بالدعاء .

لنستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى أحوالهم فى السراء والضراء فتقول : ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ... ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا هو جنس الكفار ، بدليل سياق ، الآيات وسباقها ويصح أن يراد به جنس الإنسان عموما ، ويدخل فيه الكفار دخولا أولياً .

أى : فإذا أصاب الإنسان ضر ، من مرض أو فقر أو نحوهما ، دعانا قاعدا أو قائما . لكى نكشف عنه ما نزل به من بلاء .

﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا .. ﴾ أى : ثم إذا أجبنا لهذا الإنسان دعوته وكشفنا عنه الضر وأعطيناه على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا ، بأن حولنا مرضه إلى صحة ، وفقره إلى غنى .

﴿ قال ﴾ هذا الإنسان الظلوم الكفار ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ منى بوجوه المكاسب ، أو على علم منى بأن سأعطى هذه النعمة ، بسبب استعدادى واجتهادى وتفوقى فى مباشرة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٣ .

الأسباب التى توصل إلى الغنى والجاه .

وقال - سبحانه - : ﴿ خولناه ﴾ لأن التخويل معناه العطاء بدون مقابل ، مع تكراره مرة بعد مرة .

وجاء الضمير فى قوله ﴿ أوتيته ﴾ مذكرا مع أنه يعود إلى النعمة . لأنها بمعنى الإنعام . أى : إذا خولناه شيئاً من الإنعام الذى تفضلنا به عليه ، قال إنما أوتيته على علم وتبوغ عندى .

وقوله - تعالى - ﴿ بل هى فتنة ﴾ رد لقوله ذلك ، وزجر لهذا الجاحد عما تفوه به .

أى : ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد ، فإننا ما أعطيناه هذه النعم بسبب علمه - كما زعم - وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان منا عليه ، وعلى سبيل الابتلاء والاختبار له ، ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه ، وليتميز الشاكر من الجاحد .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، ولا يفطن إليها إلا من استنارت بصيرته ، وطهرت سريرته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة من قوله . ﴿ إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ . على معنى أنهم يشمئزون من ذكر الله ، ويستبشرون بذكر الآلهة . فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الآى اعتراض ..[1] .

ثم بين - سبحانه - المصير السيئ للجاحدين السابقين ليعتبر بهم اللاحقون فقال : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ قالها ﴾ يعود إلى ما حكاه - سبحانه - عن هذا الإنسان الجاحد من قوله : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ .

فهذه الكلمة قد قالها قارون عندما نصحه الناصحون ، فقد رد عليهم بقوله ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ فكانت نهايته أن خسف الله به وبداره الأرض .

أى : قد قال هذه الكلمة الدالة على الجحود والغرور ، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك . والذين يشبهونهم فى البطر والكنود ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، ولم ينفعهم شيئا ما جمعوه من حطام الدنيا ، وما اكتسبوه من متاعها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٤ .

﴿ فأصابهم سيئات ماكسبوا .. ﴾ أى : فأصاب هؤلاء السابقين ، العقاب الذى يستحقونه بسبب سيئاتهم التى اكتسبوها واقترفوها فى دنياهم .

فالكلام على حذف مضاف . أى : فأصابهم جزاء سيئات كسبهم بأن أنزل الله - تعالى - بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى .

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ أى : من هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - .

﴿ سيصيبهم ﴾ - أيضا - سيئات ما كسبوا ، كما أصاب الذين من قبلهم .

﴿ وما هم بمعجزين ﴾ أى : وماهم بفائتين أو هاربين من عذابنا .

﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى : أعموا عن التفكر والإبصار ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه منهم ، إذ أن ذلك مرجعه إلى مشيئته وحكمته - سبحانه - إذ سعة الرزق ليست دليلا على رضاه ، كما أن ضيقه ليس دليلا على غضبه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه ﴿ لآيات ﴾ واضحات ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالحق ويستجيبون له ، وينتفعون بالهدايات التى نسوقها لهم .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد صورت حال المشركين أكمل تصوير ، كما بينت ما أُعِدَّ لهم من عذاب مقيم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق .

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته ، ونهاهم عن اليأس من مغفرته ، وأمرهم أن يتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، قبل أن يفاجئهم الموت والحساب ، فقال - تعالى - :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ

عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾
أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ
مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا
وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله – تعالى – ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ . روايات منها : ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة . تواعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السَّهْمى وعيَّاش بن أبى ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أَضاةُ بنى غفار – أى : غدير بنى غفار – وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فافتَتنَ ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله – عز وجل – وآمنوا برسوله – ﷺ – ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم – أيضاً – يقولون هذا فى أنفسهم . فأنزل الله – عز وجل – فى كتابه : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم .. ﴾ إلى قوله – تعالى – ﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ .

قال ابن عمر : فكتبتها بيدى ، ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله – ﷺ –[1] .

والأمر فى قوله – تعالى – : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ موجه إلى الرسول – ﷺ – وإضافة العباد إلى الله – تعالى – للتشريف والتكريم .

والإسراف : تجاوز الحد فى كل شىء ، وأشهر ما يكون استعمالا فى الإنفاق ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٦٨ ، تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١٥ .

والمراد بالإسراف هنا : الإسراف فى اقتراف المعاصى والسيئات ، والخطاب للمؤمنين المذنبين . وعدى الفعل « أسرفوا » بعلى ، لتضمنه معنى الجناية ، أى جنوا على أنفسهم .

والقُنُوط : اليأس ، وفعله من بابى ضرب وتعب . يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشىء ، أى يائس من ذلك ولا أمل له فى تحقيق ما يريده .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم بارتكابهم للمعاصى ، قل لهم : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ومن مغفرته لكم .

وجملة « إن الله يغفر الذنوب جميعا » تعليلية . أى : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - لأنه هو الذى تفضل بمحو الذنوب جميعها . لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو الغفور الرحيم ﴾ أى : هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين ، فهم إن تابوا من ذنوبهم قبل - سبحانه - توبتهم كما وعد تفضلا منه وكرما ، وإن ماتوا دون أن يتوبوا ، فهم تحت رحمته ومشيئته ، إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ثم أدخلهم الجنة بفضله وكرمه .

أما غير المؤمنين ، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا فى الإسلام ، غفر - سبحانه - ما كان منهم قبل الإسلام لأن الإسلام يَجُبّ ما قبله .

وإن ماتوا على كفرهم فلن يغفر الله - تعالى - لهم ، لقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

قال الإمام الشوكانى : واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله ، لا شتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم. ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى .. ثم عقب على ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة .. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال : ﴿ إن الله يغفر الذنوب .. ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده ، فهو فى قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآنى وهو الشرك .

ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ﴿ جميعا ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها النفوس .. وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم .. ﴾[١] .

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وفى هذه الآية من أنواع المعانى والبيان أشياء حسنة ،

---

(١) راجع تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٤٧٠ .

منها إقباله عليهم ، ونداؤهم ، ومنها : إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، فى قوله : ﴿ من رحمة الله ﴾ ، ومنها : إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها : إعادة الظاهر بلفظه فى قوله : ﴿ إن الله يغفر ﴾ ومنها : إبراز الجملة من قوله : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ مؤكدة بإن ، والفصل ، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة .

وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى[1] .

وبعد أن فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته فتحا واسعا كريما .. أتبع ذلك بحضهم على التوبة والإنابة إليه ، حتى يزيدهم من فضله وإحسانه فقال : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

أى قل لهم - أيها الرسول الكريم - لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، وارجعوا إليه بالتوبة والإنابة ، وأخلصوا له العبادة ، من قبل أن ينزل بكم العذاب الذى لا تستطيعون دفعه ثم لا تجدون من ينجيكم منه .

فأنت ترى أن الآية الأولى بعد أن فتحت للعصاة باب رحمة الله على مصراعيه ، جاءت الآية الثانية فحثتهم على التوبة الصادقة النصوح ، حتى تكون رحمة الله - تعالى - بهم أكمل وأتم وأوسع ، فإن التوبة النصوح سبب فى تحويل السيئات إلى حسنات .

كما قال - تعالى - : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[2] .

ثم أمرهم باتباع أوامر القرآن الكريم ونواهيه فقال : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ .

أى : واتبعوا هذا القرآن الكريم ، الذى هو أحسن ما أنزله - سبحانه - إليكم ، بسبب ما اشتمل عليه من هدايات سامية ، ومن تشريعات حكيمة . ومن آداب قويمة .

فإن اتباع ما اشتمل عليه هذا القرآن من توجيهات . يؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ متعلق بالأمر بالاتباع ، وإرشاد إلى وجوب الامتثال بدون تأخير أو تسويف .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٦٠٥ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

أى : سارعوا إلى اتباع إرشادات وتشريعات وآداب هذا القرآن ، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وبدون مقدمات ، بحيث لا تشعرون بإتيانه إلا عند نزوله .

فالآية الكريمة تقرير وتأكيد لما قبلها : من الدعوة إلى المسارعة بالتوبة وبالعمل الصالح .

وقوله : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ فى موضع المفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف .

أى : اتبعوا ما أمرناكم به ، واحذروا ما نهيناكم عنه ، كراهة أن تقول نفس يوم القيامة ﴿ يا حسرتا ﴾ أى : يا ندامتى ﴿ على ما فرطت فى جنب الله ... ﴾ أى : بسبب تفريطى وتقصيرى فى طاعة الله ، وفى حقه - تعالى - .

وأصل الجنب والجانب : الجهة المحسوسة للشىء ، وأطلق على الطاعة على سبيل المجاز ، حيث شبهت بالجهة . بجامع تعلق كل منهما - أى الجانب والطاعة - بصاحبه . إذ الطاعة لها تعلق بالله - تعالى - . كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت « نفس » .؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يكون نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج فى الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

دعا قومه حولى فجاءوا لنصره ونـاديت قـومـا بـالمسناة غيبـا
ورب بقيـع لـو هتفت بجـوه أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا ..[1] .

وجملة : ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ فى محل نصب على الحال . أى : فرطت فى جنب الله وطاعته ، والحال أنى لم أكن إلا من الساخرين بدينه ، المستهزئين بأتباع هذا الدين الحق .

قال قتادة : لم يكفه أنه ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

ثم ذكر - سبحانه - مقالة أخرى مما تقوله تلك النفس فقال : ﴿ أو تقول لو أن الله هدانى ﴾ إلى طاعته واتباع دينه ﴿ لكنت من المتقين ﴾ للشرك والمعاصى ، ومن الذين صانوا أنفسهم عما يغضبه - سبحانه - ولا يرضيه .

ثم ذكر - سبحانه - مقالة ثالثة لها فقال : ﴿ أو تقول ﴾ هذه النفس ﴿ حين ترى العذاب ﴾ . فى الآخرة ﴿ لو أن لى كرة ﴾ أى رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون ﴾ فيها ﴿ من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٦ .

المحسنين ﴾ لأقوالهم وأفعالهم ، وعقائدهم ، بحيث أخلص العبادة لله - تعالى - وأطيعه فى السر والعلن .

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس فى الآخرة ، تصويرا مؤثرا بليغاً ، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم الهائل الشديد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ رد منه - عز وجل - على هذا القائل : ﴿ لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ﴾ وتكذيب له فى هذه الدعوى .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام ، وعلى رأسها آيات القرآن الكريم .

أى ليس الأمر كما ذكرت أيها النادم على ما فرط منه ، من أن الله لم يهدك الى الطريق القويم ، بل الحق أن الله - تعالى - قد أرشدك إليه عن طريق إرسال رسوله ، وإنزال كتابه ، ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت فى دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب فى الآخرة بسبب أعمالك القبيحة فى الدنيا .

قال الشوكانى : وجاء - سبحانه - بخطاب المذكر فى قوله : « جاءتك ، وكذبت واستكبرت ، وكنت » لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب . نفس واحد . أى ، إنسان واحد ..[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن تلقين الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - الجواب الذى يرد به على المشركين . وعن أحوال الناس عند النفخ فى الصور .. قال - تعالى - .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٧٢ .

خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا
ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ
أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ
فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ
وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ
بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة .. ﴾ بيان لحالة الكافرين يوم القيامة ، ولما تكون عليه هيئتهم من خزى وهوان .

أى : وفى يوم القيامة إذا نظرت - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - إلى وجوه الذين كذبوا على الله ، بأن أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى ، أو جعلوا له صاحبة أو ولدا .. إذا نظرت إليها رأيتها مسودة مكفهرة بسبب ما أحاط بهم من عذاب ، وما شاهدوه من أهوال .

وقوله : ﴿ وجوههم مسودة ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهى فى محل نصب على الحال من

الذين كذبوا .. والاستفهام فى قوله : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ للتقرير . والمثوى : المكان والمقام .

يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وماكنت ثاويا فى أهل مدين ﴾ .

أى : أليس فى جهنم مكانا ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم ، بسبب تطاولهم على غيرهم ، وتكذيبهم لآيات الله ؟ بلى إن بها ما يجعلهم يذوقون العذاب الأليم .

ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد بيانه لحال الذين كذبوا على الله ، فقال : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

ومفازتهم : اسم مصدر . أو مصدر ميمى . من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر به ، ونال مراده منه .

أى : وينجى الله - تعالى - بفضله ورحمته ، ﴿ الذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصى من عذاب جهنم ، ﴿ بمفازتهم ﴾ أى : بسبب فوزهم برضا الله - تعالى - ورحمته ، جزاء إيمانهم وتقواهم ، وقرأ حمزة والكسائى ﴿ بمفازاتهم ﴾ بالجمع .

ويصح أن تكون الباء فى قوله : ﴿ بمفازتهم ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الذين اتقوا . أى ينجيهم حالة كونهم متلبسين .

وقوله : ﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لذلك الفوز ، كأنه قيل : وما مظاهر فوزهم فكان الجواب : لا يمسهم السوء الذى يصيب غيرهم من الكافرين والعصاة ، ولا هم يحزنون على شىء تركوه خلفهم فى الدنيا .

ويجوز أن يكون حالا من الذين اتقوا . أى : ينجيهم بسبب مفازتهم ، حال كونهم لا يمسهم السوء ، أى : لا يمسهم شىء مما يكره لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، ولا هم يحزنون على ما كان منهم فى الماضى .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كرم المتقين تكريما عظيما ، حيث نجاهم من عذاب جهنم ، وجعلهم آمنين من كل ما يغمهم فى كل زمان أو مكان .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا علم أنه لا يمسه السوء ، كان فارغ البال بحسب الحال ، وإذا علم أنه لايحزن كان هادئ النفس عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات .

وقد دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب فى القيامة ، وتأكد هذا بقوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر .. ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾ .

أى : الله - تعالى - هو وحده الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - المتصرف فى كل شىء فى هذا الوجود ، بحيث لا يخرج مخلوق عن إذنه ومشيئته .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أى : له وحده مفاتيح خزائنها ، والمقاليد جمع مقلاد ، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من التقليد بمعنى الإلزام . أى : أنه لا يملك أمر السموات والأرض ، ولا يتمكن من التصرف فيهما غيره - تعالى -.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ : أى : هو مالك أمرهما وحافظهما ؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها ، هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، وهى المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها وقيل : جمع مقليد .. والكلمة أصلها فارسية .

فإن قلت : ما للكتاب العربى المبين وللفارسية ؟

قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل عن كونه مهملا »[2] .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ أى : والذين كفروا بآيات الله التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيته ، أولئك هم البالغون أقصى الدرجات فى الخسران .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا ﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على هيمنة الله - تعالى - على شئون خلقه .. أى : وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم .. والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الكاملون فى الخسران .

وهذه المقابلة فيها مافيها من تأكيد الثواب العظيم للمتقين ، والعقاب الأليم للكافرين .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - ﷺ - أن يوبخ الكافرين على جهالاتهم . فقال : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٦٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤٠ .

وقد ذكروا فى سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبى - ﷺ - استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، و « غير » منصوب بقوله : ﴿ أعبد ﴾ ، وأعبد معمول لتأمرونى على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ والتأنيب : أبعد أن شاهدتم ما شاهدتم من الآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدقى فيما أبلغه عنه ، أبعد كل ذلك تأمرونى أن أعبد غير الله - تعالى - أيها الجاهلون بكل ما يجب لله - تعالى - من تنزيه وتقديس .

ووصفهم هنا بالجهل ، لأن هذا الوصف هو الوصف المناسب للرد على ما طلبوه منه - ﷺ - من إشراك آلهتهم فى العبادة .

ثم حذر - سبحانه - من الشرك أبلغ تحذير فقال : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ، لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ .

قال الجمل: قوله: ﴿ولقد أوحى إليك...﴾ هذه اللام دالة على قسم مقدر وقوله ﴿ لئن أشركت ﴾ . هذه اللام - أيضا - دالة على قسم مقدر ، وقوله : ﴿ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ كل من هذين اللامين واقعة فى جواب القسم الثانى . والثانى وجوابه جواب الأول . وأما جواب الشرط فى قوله : ﴿ لئن أشركت ﴾ فمحذوف ، لدخول جواب القسم عليه ، فهو من قبيل قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم[1]

وقوله ﴿ أوحى ﴾ مسلط على ﴿ إليك ﴾ وعلى ﴿ الذين من قبلك ﴾ فيكون المعنى : ولقد أوحى إليك - أيها الرسول الكريم - وأوحى إلى الرسل الذين من قبلك أيضا لئن أشركت ، بالله - تعالى - على سبيل الفرض ﴿ ليحبطن عملك ﴾ ، أى ليفسدن عملك فسادا تاما ﴿ ولتكونن من الخاسرين ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة فى الدنيا والآخرة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الموحى إليهم ، جماعة ، فكيف قال : ﴿ لئن أشركت ﴾ على التوحيد ؟

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٦٠٨ .

قلت : معناه . أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت ليحبطن عملك . كما تقول : فلان كسانا حلة . أى : كل واحد منا .

فإن قلت : كيف صح الكلام مع علم الله - تعالى - أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم .

قلت : هو على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها ..(١) .

والآية الكريمة تحذر من الشرك بأسلوب فيه ما فيه من التنفير منه ومن التقبيح له ، لأنه إذا كان الرسول - ﷺ - لو وقع فى شىء منه - على سبيل الفرض - حبط عمله ، وكان من الخاسرين . فكيف بغيره من أفراد أمته ؟

وقوله - تعالى - : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أمر منه - تعالى - بالثبات على عبادة الله - تعالى - وحده ، وبالمداومة على شكره ، ونهى عن طاعة المشركين ، ولفظ الجلالة منصوب بقوله ﴿ فاعبد ﴾ والفاء جزائية فى جواب شرط مقدر .

أى : لا تطع - أيها الرسول الكريم - المشركين فيما طلبوه منك ، بل اجعل عبادتك لله - تعالى - وحده ، وكن من الشاكرين له على نعمه التى لا تحصى .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغير الله - تعالى - قد تجاوزوا حدودهم معه - عز وجل - ، ولم يعطوه ما يستحقه من تنزيه وتقديس فقال : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

أى : أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغيره - تعالى - ، ما عظموه حق تعظيمه ، وما أعطوه ما يستحقه - سبحانه - من تقديس وتكريم وتنزيه وطاعة .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على وحدانيته . وكمال قدرته . فقال : ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ﴾ .

والقَبْضة: المرة من القَبْض، وتطلق على المقدار المقبوض بالكف. ومطويات أى: مجموعات تحت قدرته وملكه، كما يجمع الكتاب المطوى، والجملة الكريمة حال من لفظ الجلالة، فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه ، حيث أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى هى من مخلوقاته ، والحال أنه - سبحانه - هو المتولى لإبقاء السموات والأرض على حالها فى الدنيا ، وهو المتولى لتبديلها أو إزالتها فى الآخرة ، فالأرض كلها مع عظمتها

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤١ .

وكثافتها تكون يوم القيامة فى قبْضته وتحت قدرته ، كالشىء الذى يقبض عليه القابض ، والسموات كذلك مع ضخامتها واتساعها ، تكون مطويات بيمينه وتحت قدرته وتصرفه ، كما يطوى الواحد منا الشىء الهين القليل بيمينه ، وما دام الأمر كذلك فكيف يشركون معه غيره فى العبادة ؟

فالمقصود من الآية الكريمة بيان وحدانيته وعظمته وقدرته - سبحانه - وبيان ما عليه المشركون من جهالة وانطماس بصيرة حين أشركوا معه فى العبادة غيره .

قال صاحب الكشاف : والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعته ، تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ...[1] .

وقال الآلوسى : والكلام فى هذه الآية عند كثير من الخلف ، تمثيل لحال عظمته - تعالى - ونفاذ قدرته .. بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعا ، ويمين بها يطوى السموات ، أو بحال من يكون له قبضة فيها الأرض والسموات ، ويمين بها يطوى السموات .

والسلف يقولون : إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى - . إلا أنهم لا يقولون إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ، ولا اليمين مجاز عن القدرة ، بل ينزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح ، ويؤمنون بما نسبه - تعالى - : إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون فى الأخبار الواردة فى هذا المقام .

فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار الى النبى - ﷺ - فقال : يا محمد . إنا نجد الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ هذه الآية ..[2] .

وقدم - سبحانه - الأرض على السموات لمباشرتهم لها ، ومعرفتهم بحقيقتها .

وخص يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا - أيضا - لأن الدعاوى تنقطع فى ذلك اليوم . كما قال - تعالى - ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ .

روى الشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « يطوى الله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٢٦ .

السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض » .

وقوله - تعالى - : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ تنزيه له - تعالى - : عما افتراه المفترون .

أى : تنزه وتقدس الله - تعالى - عن شرك المشركين ، وعن ضلال الضالين .

ثم بين - سبحانه - حال الناس عند النفخة الأولى والثانية فقال : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ﴾ .

والصور : اسم للقرن الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - وحقيقته لا يعلمها إلا هو - سبحانه - وقوله ﴿ فصعق ﴾ من الصعق بمعنى الموت أو بمعنى الصوت الشديد الذى يجعل الإنسان فى حالة ذهول شديد حتى لكأنه قد فارق الحياة .

أى : ونفخ فى الصور بأمر الله - تعالى - النفخة الأولى ، فخر ميتا كل من كان حيا فى السموات أو فى الأرض .

﴿إلا من شاء الله﴾ له الحياة من أهلها، قالوا: والمستثنى من الصعق جبريل وإسرافيل وميكائيل . ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى تعيين من استثناه الله - تعالى - : من ذلك ، فالأولى تفويض من استثناه الله من الصعق إلى علمه - عز وجل - .

﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ أى : ثم نفخ فى الصور نفخة أخرى - وهى النفخة الثانية التى يكون بعدها البعث والنشور .

﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أى : فإذا بهؤلاء الذين صعقوا بعد النفخة الأولى قيام من قبورهم ، ينظرون حولهم بدهشة وحيرة ماذا سيفعل بهم ، أو ينظرون على أى حال سيكون مصيرهم .

فالآية الكريمة تفيد أن النفخ فى الصور يكون مرتين : المرة الأولى يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء ، والنفخة الثانية يكون بعدها البعث والنشور وإعادة الحياة مرة أخرى .

والمراد بالأرض فى قوله - تعالى - : بعد ذلك : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها .. ﴾ أرض المحشر .

وأصل الإشراق : الإضاءة . يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت : إذا طلعت .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أى : أضاءت - الأرض - يوم

القيامة ، إذا تجلى الحق - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء[١] .

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ صحائف الأعمال التى تكون فى أيدى أصحابها .

فالمراد بالكتاب جنسه ، أى : أعطى كل واحد كتابه إما بيمينه . وإما بشماله . وقيل المراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ الذى فيه أعمال الخلق .

﴿ وجىء بالنبيين والشهداء ﴾ أى : وبعد أن أعطى كل إنسان صحائف أعماله جىء بالنبيين لكى يشهدوا على أممهم أنهم بلغوهم ما كلفهم الله بتبليغه إليهم ، وجىء بالشهداء وهم الملائكة الذين يسجلون على الناس أعمالهم من خير وشر ، كما قال - تعالى - : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ . وقيل المراد بهم : من استشهدوا فى سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدالته فى جمل حكيمة فقال : ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أى : وقضى - سبحانه - بين الجميع بقضائه العادل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى : نوع من الظلم .

﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ من خير أو شر ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ أى : وهو - سبحانه - عليم بما يفعلونه من طاعة أو معصية ، لا يخفى عليه شىء من أحوال خلقه ، بل هو - تعالى - يعلم السر وأخفى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان مصير الكافرين ، وببيان مصير المتقين . وببيان ما يقوله المتقون عندما يرون النعيم المقيم الذى أعده - سبحانه - لهم ، فقال - تعالى - :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ
يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ
هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٠٨ .

ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾
وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

وقوله - تعالى - ﴿ وسيق ﴾ من السوق بمعنى الدفع ، والمراد به هنا الدفع بعنف مع الإهانة و ﴿ زمرا ﴾ أى : جماعات متفرقة بعضها فى إثر بعض . جمع زمرة وهى الجماعة القليلة ، أى : وسيق الذين كفروا إلى نار جهنم جماعات جماعات ، وأفواجا أفواجا .

﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ لتستقبلهم بحرها وسعيرها ، وكأنها قبل مجيئهم إليها كانت مغلقة كما تغلق أبواب السجون ، فلا تفتح إلا لمن هم أهل لها بسبب جرائمهم .

﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ على سبيل الزجر والتأنيب ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أى : من جنسكم تفهمون عنهم ما يقولونه لكم .

وهؤلاء الرسل ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ المنزلة لمنفعتكم ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : ويخوفونكم من أهوال يومكم هذا وهو يوم القيامة .

﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أى : قالوا فى جوابهم على سائليهم : بلى قد أتانا الرسل وبلغونا رسالة الله ، ولكننا لم نطعمهم ، فحقت كلمة العذاب علينا ، ووجبت علينا كلمة الله التى قال فيها : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

وهنا رد عليهم السائلون بقولهم : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، خلودا أبديا ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أى : فبئس المكان المعد للمتكبرين جهنم .

وبعد هذا البيان المرعب لمصير الكافرين ، جاء البيان الذى يشرح الصدور بالنسبة لحال المتقين فقال - تعالى - : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ أى : جماعات .

قال الآلوسى : أى : جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الفضل .

وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتى على صورة القمر ليلة البدر » .

والمراد بالسوق هنا : الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة ، وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، واختير للمشاكلة ..[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم مقيم فقال : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

والواو فى قوله ﴿ وفتحت ﴾ للحال ، والجملة حالية بتقدير قد ، وجواب ﴿ إذا ﴾ مقدر بعد قوله ﴿ خالدين ﴾ .

أى : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم ، وقال لهم خزنتها بفرح وحبور : سلام عليكم من جميع المكاره ، طبتم من دنس المعاصى ، فادخلوها خالدين أى : حتى إذا جاءوها وقالوا لهم ذلك سعدوا وابتهجوا .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وحتى هنا هى التى تحكى بعدها الجمل . والجملة المحكية بعدها هى الشرطية ، إلا أن جزاءها محذوف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شىء لا يحيط به الوصف . وحق موقعه ما بعد « خالدين » .

وقيل : حتى إذا جاءوها ، جاءوها وفتحت أبوابها . أى : مع فتح أبوابها ..[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المتقون عند دخولهم الجنة على سبيل الشكر لله - تعالى - : فقال : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ بأن بعثنا من مرقدنا ، ومنحنا المزيد من عطائه ونعمه ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أى : أرض الجنة التى استقروا فيها .

﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أى : ينزل كل واحد منا من جنته الواسعة حيث يريد ، دون أن يزاحمه فيها مزاحم ، أو ينازعه منازع .

﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ الجنة التى منحها - سبحانه - لعباده المتقين .

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أى : محدقين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه . جمع حَافٍّ وهو المحدق بالشىء . يقال : حففت بالشىء إذا أحطت به ، مأخوذ من الحِفَاف وهو الجانب للشىء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٣٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤٧ .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أى : يمجدون ربهم بكل خير ، وينزهونه عن كل سوء .

﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أى : وقضى - سبحانه - بين العباد بالحق الذى لا يحوم حوله باطل . ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ على قضائه بالحق ، وعلى مجازاته الذين أساءوا بما عملوا ، ومجازاته الذين أحسنوا بالحسنى .

وبعد . فهذا تفسير محرر لسورة « الزمر » نسأل الله - تعالى - : أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر -
مساء الخميس ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ
الموافق ١٢ / ٩ / ١٩٨٥ م .

تفسير

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « غافر » هى السورة الأربعون فى ترتيب المصحف أما ترتيبها فى النزول فهى السورة التاسعة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الزمر » .

ويبدو - والله أعلم - أن الحواميم ، كان نزولها على حسب ترتيبها فى المصحف ، فقد ذكر صاحب الإتقان عند حديثه عن المكى والمدنى من القرآن ، وعن ترتيب السور على حسب النزول ..

ذكر سورة الزمر ، ثم غافر ، ثم فصلت ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف[1] .

٢ - والمحققون من العلماء على أن سورة « غافر » من السور المكية الخالصة ، وقد حكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، كما أن الإمام ابن كثير قال عنها بأنها مكية دون أن يستثنى منها شيئا .

وقيل : كلها مكية إلا قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ... الآية ﴾ .

ولكن هذا القيل وغيره لم تنهض له حجة يعتمد عليها ، فالرأى الصحيح أنها جميعها مكية .

٣ - وهذه السورة تسمى - أيضا - بسورة « المؤمن » لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون . كما تسمى بسورة « الطول » لقوله - تعالى - فى أوائلها : ﴿ غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ... ﴾ .

وعدد آياتها خمس وثمانون آية فى المصحف الكوفى والشامى ، وأربع وثمانون فى الحجازى ، واثنتان وثمانون فى البصرى ..

٤ - وسورة « غافر » هى أول السور السبعة التى تبدأ بقوله - تعالى - ﴿ حم ﴾ والتى يطلق عليها لفظ « الحواميم » .

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ .

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار فى فضل هذه السور ، منها : ما روى عن ابن مسعود أنه قال : « آل حم » ديباج القرآن .. ومنها ما روى عن ابن عباس أنه قال : « إن لكل شىء لبابا ، ولباب القرآن آل حم » أو قال « الحواميم »[1] .

٥ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، وبتسلية الرسول - ﷺ - عما لقيه من أذى المشركين ومن جدالهم ، وببيان وظيفة الملائكة الذين يحملون عرشه - تعالى - ، وأن منها الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ ... ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

٦ - ثم دعا - سبحانه - عباده إلى إخلاص الطاعة له ، وذكرهم بأهوال يوم القيامة ، وأن الملك فى هذا اليوم إنما هو لله - تعالى - وحده .

قال - تعالى - : ﴿فادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

٧ - وبعد أن وبخ - سبحانه - الغافلين على عدم اعتبارهم بسوء عاقبة من سبقهم من الكافرين ، أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون ، وحكى ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة من محاورات .

كما حكى ما وجهه الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه من نصائح حكيمة ، منها قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

٨ - وبعد أن ساق - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة التى وجهها ذلك الرجل المؤمن - الذى يكتم إيمانه - إلى قومه .. أتبع ذلك بحكاية جانب من المحاورات التى تدور بين الضعفاء والمتكبرين بعد أن ألقى بهم جميعا فى النار .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١١٦ .

كما حكى - سبحانه - ما يقولونه لخزنة جهنم على سبيل الاستعطاف والتذلل فقال : ﴿ وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ .

٩ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، لكى يشكروه عليها ، ومن تلك النعم : إيجاده الليل والنهار ، وجعله الأرض قرارا والسماء بناء ، وتصويره الناس فى أحسن تقويم ، وتحليله لهم الطيبات ، وخلقه لهم فى أطوار متعددة .

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ .

١٠ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الذين يجادلون فى آيات الله بغير علم ، فوبختهم على جهالاتهم وعنادهم ، وهددتهم بسوء المصير ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يصبر على أذاهم ، وذكرته بأحوال الرسل السابقين مع أقوامهم ، وأنذرت مشركى مكة بأن مصيرهم سيكون كمصير المشركين من قبلهم ، إذ ما استمروا فى طغيانهم وكفرهم ، وأنهم لن ينفعهم الإيمان عند حلول العذاب بهم .

قال - تعالى - : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

١١ - هذا ، والمتدبر فى سورة « غافر » بعد هذا العرض المجمل لآياتها يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كما يراها قد ساقت ألوانا من التسلية للرسول - ﷺ - عما لحقه من قومه ، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

كما يراها قد فصلت الحديث عن تكريم الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، تارة عن طريق استغفار الملائكة لهم ، وتضرعهم إلى خالقهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم .

قال - تعالى - : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ .

وتارة عن طريق وعدهم بإجابة دعائهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

كما يرها قد اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين ، بأسلوب يغرس الخوف فى القلوب ، ويبعث على التأمل والتدبر .

كما فى قوله – تعالى – : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ﴾ .

وكما فى قوله – تعالى – : ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ﴾ .

كما يراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وفى تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر ، وفى تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم ، نراه متمثلا فى تلك النصائح الغالية التى وجهها مؤمن آل فرعون إلى قومه ، والتى حكاها القرآن فى قوله ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب ﴾ .

نسأل الله – تعالى – أن ينفعنا بتوجيهات القرآن الكريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة – مدينة نصر

مساء الجمعة : ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥/٩/١٣ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ
الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾

سورة « غافر » من السور التى افتتحت ببعض الحروف المقطعة ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ حم ﴾ .

وقد ذكرنا آراء العلماء فى تلك الحروف المقطعة بشىء من التفصيل ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ..

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد جىء بها فى افتتاح بعض السور : على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأنه - سبحانه - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى

من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك فى أنه من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وقوله - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، أى: هذا الكتاب منزل عليك - أيها الرسول الكريم - من الله - تعالى - وحده ، وليس من عند أحد غيره .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بثمانى صفات تليق بذاته فقال : ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب لكل من سواه ، من العز بمعنى القوة والغلبة . يقال : عزَّ فلان يعَز - من باب تعب - فهو عزيز ، إذا كان معروفا بالقوة والمنعة ، ومنه قولهم : أرض عزاز إذا كانت صلبة قوية .

﴿ العليم ﴾ أى : المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شىء منها .

﴿ غافر الذنب ﴾ أى : ساتر لذنوب عباده ، ومزيل لأثرها عنهم بفضله ورحمته .

فلفظ ﴿ غافر ﴾ من الغفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال : غفر الله - تعالى - ذنب فلان غَفْراً ومغفرة وغفرانا ، إذا غطاه وستره وعفا عنه .

ولفظ الذنب : يطلق على كل قول أو فعل تسوء عاقبته ، مأخوذ من ذنب الشىء ، أى : نهايته ﴿ وقابل التوب ﴾ والتوب مصدر بمعنى الرجوع عن الذنب والتوبة منه . يقال : تاب فلان عن الذنب توبة وتوبا إذا رجع عنه .

أى : أنه - سبحانه - يغفر ذنوب عباده ، ويقبل توبتهم فضلا منه وكرما .

قال صاحب الكشاف : ما بال الواو فى قوله ﴿ وقابل التوب ﴾ ؟

قلت : فيها نكتة جليلة ، وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأنه لم يذنب . كأنه قال : جامع المغفرة والقبول ..[1] .

﴿ شديد العقاب ﴾ أى : لمن أشرك به ، وأعرض عن الحق الذى جاء به الرسول - ﷺ - ﴿ ذى الطول ﴾ أى : ذى الفضل والثواب والإنعام على من يشاء من عباده .

والطَّول : السعة والغنى والزيادة ، يقال : لفلان على فلان طول ، أى زيادة وفضل ، ومنه الطُّول فى الجسم لأنه زيادة فيه . قال - تعالى - : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا .. ﴾ أى : غنى وسعة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤٩ .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى : لا إله بحق وصدق إلا هو - سبحانه - .

﴿ إليه المصير ﴾ أى : إليه المرجع والمآب يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا .

قال القرطبى : روى عن عمر بن الخطاب - رضى عنه - أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له : تتابع فى هذا الشراب .

فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ إليه المصير ﴾ .

ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا . ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرؤه ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته .

فلما بلغ عمر ذلك قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلته فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه [1] .

ثم هون - سبحانه - على نبيه - ﷺ - من شأن الكافرين ، وأخبره بأنهم أتفه من أن يغتر بهم فقال : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ﴾ .

والمراد بالجدال هنا : الجدال بالباطل ، وأما الجدال من أجل الوصول إلى الحق فمحمود .

وقوله : ﴿ فلا يغررك ﴾ جواب لشرط محذوف . والتقلب : التنقل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب .

أى : ما يجادل فى آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التكذيب بها والطعن فيها .. إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا يغررك - أيها الرسول الكريم - تقلبهم فى البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق التجارات الرابحة، وجمع الأموال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال إنما هو لون من الاستدراج ، وعما قريب ستزول هذه الأموال من بين أيديهم ، وستكون عليهم حسرة ..

﴿ كذبت قبلهم ﴾ أى : قبل هؤلاء الكافرين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ قوم نوح ﴾ الذين أغرقناهم بسبب هذا التكذيب لنبيهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٩١ .

﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ أى : وكذلك الأقوام الآخرون الذين جاءوا من بعد قوم نوح ، قد تحزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا على تكذيبهم ، كما فعل قوم عاد مع نبيهم هود ، وكما فعل قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وكما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب ..

فالضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ من بعدهم ﴾ يعود إلى قوم نوح . وأفردهم - سبحانه - بالذكر لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا عتوا ونفورا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ بيان لما فعله هؤلاء الأقوام الظالمون مع أنبيائهم الذين جاءوا لهدايتهم ..

أى : أن هؤلاء الأقوام المجرمين ، لم يكتفوا بالتكذيب لأنبيائهم ، بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه بالأسر أو بالقتل ، وجادلته بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذى جاء به من عند ربه وتبطله .

والتعبير بقوله : ﴿ ليأخذوه ﴾ يشعر بأن هؤلاء المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إيذاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ بيان لما آل إليه مكرهم وجدالهم بالباطل .

أى : هموا بما هموا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحاولوا أن يجعلوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم . فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميرا فكيف كان عقابى لهم ؟ لقد كان عقابا مدمرا ، جعلهم أثرا بعد عين ، وترك آثار مساكنهم تشهد بهلاكهم واستئصالهم .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لاتتخلف فقال : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ .

أى : وكما حقت كلمة ربك - أيها الرسول الكريم - ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التى كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقودا للنار ، فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك ، إذا ما استمروا فى تكذيبهم لك ، ولم يعودوا إلى طريق الحق .

فالآيات الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - وتحذير لمشركى قريش من الاستمرار فى غيهم .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر رحمته بالمؤمنين ، وتكريمهم ، فذكر أن حملة عرشه

من وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالخير فقال - تعالى - :

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ
وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا
فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ
مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

والمراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله - تعالى - ولا يعلم عددهم أحد سوى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح فى تحديد عددهم .

والمراد بمن حوله : عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مهللين مسبحين مكبرين لله - تعالى - كما قال - تعالى - : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ... ﴾ .

وعرش الله - تعالى - كما قال الراغب مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فعلينا أن نؤمن بان لله - تعالى - عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - .

وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية .

والاسم الموصول فى قوله - تعالى - : ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ مبتدأ . وخبره قوله : ﴿ يسبحون .. ﴾ .

والجملة الكريمة مستأنفة ومسوقة لتسلية النبى - ﷺ - ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم

أقرب الملائكة إلى الله - تعالى - يضمون إلى تسبيحهم لذاته - سبحانه - ، الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين كلاما طويلا فى صفة هؤلاء الملائكة وفى صفة العرش . رأينا أن نضرب عنه صفحا لضعفه وقلة فائدته .

أى : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لعرشنا ، والحافون به ، من صفاتهم أنهم ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أى : ينزهون الله - تعالى - عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به .

﴿ ويؤمنون به ﴾ - تعالى - إيمانا تاما لا يشوبه ما يتنافى مع هذا الإيمان والإذعان لله الواحد القهار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة قوله - تعالى - : ﴿ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون ؟ .

قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء فى غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، كما عقب أعمال الخير بقوله - تعالى - : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان [1] .

ويستغفرون للذين آمنوا ، أى : أنهم بجانب تسبيحهم وحمدهم لربهم ، وإيمانهم به ، يتضرعون إليه - سبحانه - أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم .

وفى هذا الاستغفار منهم للمؤمنين ، إشعار بمحبتهم لهم ، وعنايتهم بشأنهم ، لأنهم مثلهم فى الإيمان بوحدانية - الله تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة والطاعة له .

ثم حكى - سبحانه - كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال : ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾ .

والجملة الكريمة على تقدير قول محذوف ، وهذا القول فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يستغفرون ﴾ وقوله ﴿ رحمة وعلما ﴾ منصوبان على التمييز .

أى : أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : ياربنا يا من وسعت رحمتك ووسع علمك كل شىء ، تقبل دعاءنا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٥٢ .

﴿ فاغفر ﴾ بمقتضى سعة رحمتك وعلمك ﴿ للذين تابوا ﴾ إليك توبة صادقة نصوحا ﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ الحق ، وصراطك المستقيم .

﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أى : وصنهم ياربنا واحفظهم من الوقوع فى جهنم لأن عذابها كرب عظيم .

يا ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ أى : وأدخلهم جناتك دخولا دائما لا انقطاع معه . يقال : عدَن فلان بالمكان يعدِنُ عَدْناً ، إذ لزمه وأقام فيه دون أن يبرحه ، ومنه سمى الشىء المخزون فى باطن الأرض بالمعدن ، لأنه مستقر بداخلها .

﴿ التى وعدتهم ﴾ فضلا منك وكرما .

وأدخل معهم ﴿ من صلح ﴾ لدخولها بسبب إيمانهم وعملهم الطيب ﴿ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت ﴾ يامولانا ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب لكل شىء ﴿ الحكيم ﴾ فى كل تصرفاتك وأفعالك .

فالمراد بالصلاح فى قوله - تعالى - : ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ : من كان منهم مؤمنا بالله ، وعمل عملا صالحا ، ودعوا لهم بذلك . ليتم سرورهم وفرحهم إذ وجود الآباء والأزواج والذرية مع الإنسان فى الجنة ، يزيد سروره وانشراحه .

﴿ وقهم ﴾ ياربنا ﴿ السيئات ﴾ أى : احفظهم ياربنا من ارتكاب الأعمال السيئات ، ومن العقوبات التى تترتب على ذلك ، بأن تتجاوز عن خطاياهم .

﴿ ومن تق السيئات يومئذ ﴾ أى : فى يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت ﴿ فقد رحمته ﴾ أى : فقد رحمته برحمتك الواسعة من كل سوء .

﴿ وذلك ﴾ الذى تقدم من رحمتهم ومن إدخالهم الجنة ، ومن وقايتهم السوء .

﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذى لايضارعه فوز ، والظفر الكبير الذى لا يقاربه ظفر ، والأمل الذى لا مطمع وراءه لطامع .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد أخبرتنا أن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب أو العكس : جاء الحديث بعد ذلك عن الكافرين . مبينا انقطاعهم عن كل من يشفع لهم ، أو يدعو لهم بخير - كما دعا الملائكة للمؤمنين - فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

والمقت أشد أنواع البغض والغضب . يقال : مقته مقتا ، إذا غضب عليه غضبا شديدا ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾[1] .

والمنادى لهؤلاء الكافرين : هم الملائكة خزنة النار ، أو المؤمنون . وهذا النداء إنما يكون يوم القيامة ، يوم توفى كل نفس ما كسبت .

أى : إن الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار ، وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشد ألوان الندامة والحسرة والمقت . لإيثارها الكفر على الإيمان .

بعد كل ذلك ﴿ ينادون ﴾ بأن يقال لهم : إن مقت الله - تعالى - لكم بسبب إصراركم على الكفر حتى هلكتم .. أشد وأعظم من مقتكم لأنفسكم مهما بلغ مقتكم لها وكراهيتكم لها .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ ينادون ﴾ المنادى لهم الخزنة أو المؤمنون يقولون إعظاما لحسرتهم : ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول ، كأنه قيل : ينادون مقولا لهم : لمقت .. ومقت مصدر مضاف إلى الاسم الجليل : إضافة المصدر لفاعله ، وكذا إضافة المقت الثانى إلى ضمير الخطاب ..[2] .

---

(١) سورة النساء الآية ٢٢ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٥٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ تعليل لمقت الله أى : لغضب الله - تعالى - عليكم ، أشد من غضبكم على أنفسكم الأمارة بالسوء وذلك لأنكم جاءتكم دعوة الحق على ألسنة رسلكم ، فأعرضتم عنها ، وصممتم على الكفر والفسوق والعصيان ، حتى أدرككم الموت ، وها أنتم اليوم تجزون ما كنتم تعملونه فى الدنيا .

ثم يحكى - سبحانه - ما يقوله الكافرون بعد أن أنزل بهم - سبحانه - عقابه العادل فيقول : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ... ﴾ .

وأرادوا بالموتة الأولى : خلقهم من مادة لا روح فيها وهم فى بطون أمهاتهم .. وأرادوا بالثانية : قبض أرواحهم عند انقضاء آجالهم .

وأرادوا بالحياة الأولى : نفخ أرواحهم فى أجسادهم وهى فى الأرحام ، وأرادوا بالثانية إعادتهم إلى الحياة يوم البعث ، للحساب والجزاء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم .. ﴾[1] .

﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ أى : أنت ياربنا الذى - بقدرتك وحدها - أمتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وها نحن قد اعترفنا بذنوبنا التى وقعت منا فى الدنيا ، وندمنا على ما كان منا أشد الندم ..

﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ أى : فهل بعد هذا الاعتراف ، فى الإمكان أن تخرجنا من النار ، وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا ، لنؤمن بك حق الإيمان . ونعمل غير الذى كنا نعمل .

فأنت ترى أن الآية تصور ذلهم وحسرتهم أكمل تصوير ، وأنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ولكن هذا التمنى والتلهف جاء بعد فوات الأوان .

قال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ...﴾ وهذا هو الصواب الذى لاشك فيه ولا مرية .

وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة .

وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم فى الأرحام . ثم أماتهم يوم القيامة .

وهذا القولان ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨ .

والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله ، كما قال - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق فى الدنيا ، فقال : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير ﴾ .

أى : ذلكم الذى نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم فى الدنيا إذا عبد الله - تعالى - وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به - عز وجل -، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، ومادام هذا حالكم فى الدنيا ، فأخسأوا فى النار ولا تؤملوا فى الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو سبحانه الذى حكم عليكم بما حكم ..

وهو - سبحانه - ﴿ العلى ﴾ أى : المتعالى عن أن يكون له مماثل فى ذاته أو صفاته ﴿ الكبير ﴾ أى : العظيم الذى هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد .

وجمع - سبحانه - لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك مايدل على فضله ورحمته بعباده ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى فى هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار . فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٢٢ .

عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ
لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ
بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

والمقصود بآياته - عز وجل - فى قوله : ﴿ هو الذى يريكم آياته ... ﴾ الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، كخلقه للشمس والقمر والليل والنهار ، والبحار والأنهار ، والسماء والأرض ، والمطر والرعد ، والنجوم والرياح ، والأشجار الكبيرة والصغيرة .. إلى غير ذلك من آياته التى لا تحصى فى هذا الوجود ..

أى : هو - سبحانه - الذى يريكم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، لتزدادوا - أيها المؤمنون - إيمانا على إيمانكم ، وثباتا على ثباتكم ، ويقينا على يقينكم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد القهار .

وقد ساق - سبحانه - فى كتابه عشرات الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾[1] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله .. ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله فى السموات والأرض ، لآيات لقوم يتقون ﴾[3] .

والمراد بالرزق فى قوله : ﴿ وينزل من السماء رزقا ﴾ .. الأمطار التى تنزل من السماء على الأرض ، فتحييها بعد موتها ، بأن تحولها من أرض جدباء يابسة ، إلى أرض خضراء بشتى الزروع والثمار .

وأطلق - سبحانه - على المطر رزقا . لأنه سبب فيه ، وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات التى يريها - تعالى - لعباده لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمه ، الموجبة لشكره - عز وجل - ، ولوجوب إخلاص العبادة له .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومايتذكر إلا من ينيب ﴾ بيان لمن هو أهل للانتفاع بهذه الايات .

أى : وما يتذكر وينتفع بهذه الآيات إلا من يرجع عن المعصية إلى الطاعة وعن الكفر إلى الإيمان ، وعن العناد والجحود ، إلى التفكر والتدبر بقلب سليم .

فقوله ﴿ ينيب ﴾ من الإنابة ، ومعناها الرجوع عن الكفر والمعاصى : إلى الإيمان والطاعة .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين .. ﴾ للإفصاح عن شرط مقدر . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن كل شىء فى هذا الوجود يدل على وحدانية الله - تعالى - فأخلصوا له العبادة والطاعة ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ منكم ذلك - أيها المؤمنون - فلا تلتفتوا إلى كراهيتهم ، وامضوا فى طريق الحق ، ودعوهم يموتوا بغيظهم ..

وقد أخذ العلماء من هذ الآية الكريمة ، وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٣ .
(٣) سورة يونس الآية ٦ .

ومن الأحاديث التى أوردها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، ما رواه الإمام مسلم وأبو داود ، والنسائى ، وأحمد ، عن أبى الزبير محمد بن مسلم المكى قال : كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله الا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال : وكان رسول الله - ﷺ - يهلل بهن دبر كل صلاة[1] .

ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك من صفاته العظمى ، ما يزيد المؤمنين فى إخلاص العبادة له ، فيقول : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش .. ﴾ أى : هو - تعالى - وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو وحده صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا هو ..

قال الآلوسى قوله : ﴿ رفيع الدرجات ﴾رفيع صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها من رُفِعَ الشىء إذا علا .. والدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش ، أى : رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه .. ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه - عز شأنه - كما أن قوله - تعالى - : ﴿ ذو العرش ﴾ كناية عن ملكه - جل جلاله - ..[2] .

والمراد بالروح فى قوله - تعالى - : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ : الوحى الذى يوحى به على أنبيائه ، وأمين هذا الوحى جبريل - عليه السلام - .

أى : هو وحده - سبحانه - الذى يلقى الوحى . حالة كون هذا الوحى ناشئا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من عباده الصالحين . فقوله ﴿من أمره ﴾ متعلق بمحذوف حال من الروح .

وسمى الوحى روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ بيان للوظيفة الخاصة بمن يختاره - سبحانه - من عباده لإلقاء الوحى عليه .

والإنذار : الإعلام المقترن بالتخويف والتحذير ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

والمراد بيوم التلاق : يوم القيامة ، وسمى بيوم التلاق لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون ، والظالمون والمظلومون .. الكل يتلاقى فى ساحة المحشر ليقضى الله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٢٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٥٥ .

- تعالى - فيهم بقضائه العادل .

أى : يلقى - سبحانه - بوحيه على أنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة ، إذا ما استمروا فى كفرهم وعصيانهم لخالقهم .

ثم صور - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم العصيب ، فقال : ﴿ يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء ... ﴾ .

وهذه الجملة الكريمة بدل من قوله ﴿ يوم التلاق ﴾ ، أى : يلقى - سبحانه - على من يشاء من عباده ، لكى ينذر الناس من أهوال ذلك اليوم الذى تلتقى فيه الخلائق ، والذى يظهرون فيه ظهورا تاما ، دون أن يخفى منهم شىء على الله - تعالى - .

والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أمرهم لا فى هذا اليوم ولا فى غيره ، ولكنه - سبحانه - ذكر بروزهم وعدم خفائهم عليه فى هذا اليوم ، لأنهم - لجهلهم - كانوا يتوهمون فى الدنيا أنهم يستطيعون التستر عنه ، كما أشار - سبحانه - إلى ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال : قوله : ﴿ يوم هم بارزون ﴾ أى : ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء فى الحديث : « يحشرون عراة حفاة غرلا » ﴿ لا يخفى على الله منهم شىء ﴾ أى : من أعمالهم وأحوالهم ...

فإن قلت : قوله : ﴿ لا يخفى على الله منهم شىء ﴾ بيان وتقرير لبروزهم ، والله - تعالى - لا يخفى عليه منهم شىء برزوا أم لم يبرزوا ، فما معناه ؟

قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب ، أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال - تعالى - : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ السائل والمجيب هو الله - تعالى - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٥٦ .

أى : ينادى الله - تعالى - فى المخلوقات فى ذلك اليوم ، لمن الملك فى هذا اليوم الهائل الشديد ؟ ثم يجيب - سبحانه - على هذا السؤال بقوله : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : قال الحسن : هو السائل - تعالى - وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه سبحانه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

وعن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله - جل وعلا - عليها ، فيأمر مناديا ينادى : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا .

ثم قال : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار انفراده - تعالى - بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكة[1] .

وبعد أن قرر - سبحانه - أن الملك فى هذا اليوم له وحده . أتبع ذلك ببيان ما يحدث فى هذا اليوم فقال : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت .. ﴾ .

أى : فى هذا اليوم الهائل الشديد تجازى كل نفس من النفوس المؤمنة والكافرة ، والبارة والفاجرة . بما كسبت فى دنياها من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

﴿ لا ظلم اليوم ﴾ ولا جور ولا محاباة ولا وساطات .. وإنما تعطى كل نفس ما تستحقه من ثواب أو عقاب .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لأنه - سبحانه - لا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه ، بل هو - سبحانه - قد أحاط بكل شىء علما ، كما قال - تعالى - : ﴿ عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ .

ثم يوجه الله - تعالى - أمره إلى النبى - ﷺ - بأن يحذر كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين .. ﴾ .

والآزفة : القيامة . وأصل معنى الآزفة : القريبة ، وسميت القيامة بذلك لقربها ، يقال : أزف - بزنة فرح - يوم الرحيل . إذا دنا وقرب .

والحناجر : جمع حنجرة وهى الحلقوم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٠١ .

وكاظمين : حال من أصحاب القلوب على المعنى . فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها .

وأصل الكظم : الحبس والإمساك للشىء . يقال : كظم القربة إذا ملأها بالماء ، وسد فاها ، حتى لا يخرج منها شىء من الماء .

والمعنى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - الناس ، وحذرهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع ، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها من صدورهم . ومتشبثة بحناجرهم ، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها حتى لا تخرج مع أنفساهم . كما يمسك صاحب القربة فمها لكى لا يتسرب منها الماء .

فالآية الكريمة تصوير يديع لما يكون عليه الناس فى هذا اليوم من فزع شديد ، وكرب عظيم . وخوف ليس بعده خوف .

والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر .. ﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾

والظاهر أن قوله هنا ﴿ يوم الآزفة ﴾ هو المفعول الثانى للإنذار ليس ظرفا له . لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع فى دار الدنيا .

وقوله : ﴿ إذ القلوب ﴾ بدل من يوم الآزفة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت « كاظمين » بم انتصب ؟ قلت : هو حال من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب ، كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

وإنما جُمِع جَمْع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ... ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ نفى لكون هؤلاء الظالمين يوجد فى هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم .

والحميم : هو الإنسان الذى يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حَامَّتهُ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٥٧ .

والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه .

أى : ليس للظالمين فى هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم فى الشفاعة لهم ، لأنهم فى هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم .

فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذى يهتم بأمرهم ، والشفيع الذى يشفع لهم ، والإنسان الذى تكون له أية كلمة تسمع فى شأنهم .

ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ .

والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التى يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه .

والجملة خبر لمبتدأ محذوف . والإضافة فى قوله ﴿ خائنة الأعين ﴾ على معنى من ، وخائنة : نعت لمصدر محذوف .

أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهى التى يوجهها صاحبها فى تسلل وخفية إلى محارم الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التى يخفيها الناس فى صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك فى هذا اليوم بما يستحقون .

قال القرطبى : ولما جىء بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله - ﷺ - بعدما اطمأن أهل مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله - ﷺ - طويلا ، ثم قال : « نعم » .

فلما انصرف قال - ﷺ - لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » .

فقال رجل من الأنصار : فهلا أو مأت إلى يارسول الله ؟ فقال : « إن النبى لا تكون له خائنة أعين »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن القضاء الحق فى هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : ﴿ والله يقضى بالحق ... ﴾ .

أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذى لايحوم حوله باطل .

﴿ والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ..﴾ أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٠٣ .

دون الله - تعالى - لا يقضون بشىء أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شىء ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ هو السميع ﴾ لكل شىء ﴿ البصير ﴾ بكل شىء ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم واتعاظهم بمن كان قبلهم فقال : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ .

أى : أبلغت الجهالة والغفلة وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين من قومك - يامحمد - أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا .

إنهم يمرون عليهم مصبحين وبالليل ، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلة أمام أعينهم ، يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم .

ولقد كان هؤلاء السابقون الظالمون ، أشد من مشركى قريش فى القوة والبأس ، وأشد منهم فى إقامة المبانى الفارهة ، والحصون الحصينة ..

فلما استمروا فى جحودهم وكفرهم ، أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم . وما كان لهم من دون الله - تعالى - من يدفع عنهم عذابه ، أو يقيهم من بأسه .

﴿ ذلك ﴾ الأخذ من أسبابه ﴿ بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أى : بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما يبلغونهم عن ربهم .

﴿ فكفروا ﴾ أى : بالرسل وبما جاءوهم به ﴿ فأخذهم الله ﴾ أى : فأهلكهم - سبحانه - ﴿ إنه قوى شديد العقاب ﴾ أى : إنه - سبحانه - قوى لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل ، شديد العقاب لمن كفر به ، وأعرض عن دعوة رسله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله ، ومن أهوال يوم القيامة ، ومن علمه الشامل لكل شىء ، ومن قضائه العادل ومن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون . فذكرت جانبا من التهديدات التى وجهها فرعون إلى موسى وقومه ، وكيف أن موسى - عليه السلام - رد عليه ردا قويا حكيما ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ
فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

والمراد بآياتنا فى قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ تلك الآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى ، لتكون معجزات له دالة على صدقه ، وهى : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم .

قال - تعالى - ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .. ﴾ .

والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة الظاهرة التى تغلب بها فى الحجاج والجدال على فرعون .

أى : والله لقد منحنا موسى - عليه السلام - بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه - أيضا - حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلى فرعون وهامان وقارون ... ﴾ بيان لمن أرسله الله - تعالى - إليهم .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر فى تلك العهود السابقة ، والمراد به هنا : ذلك

الملك الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى - عليه السلام - ، ويقال إنه « منفتاح » بن رمسيس الثانى .

و﴿ هامان ﴾ هو وزير فرعون و﴿ قارون ﴾ هو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم . وأعطاه الله - تعالى - الكثير من الأموال .. ثم خسف به وبداره الأرض .

وخص - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى كانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكايد ضد موسى - عليه السلام - فيتبعهم العامة من أقوامهم .

وقوله : ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم الى عبادة الله - تعالى - وحده . أن قالوا فى شأنه ، إنه ساحر يموه على الناس بسحره ، وأنه كذاب فى دعواه أنه رسول من رب العالمين .

وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة الظالمين . أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وهو المؤيد بآيات الله ، وبحججه الظاهرة . وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكهم .

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ... ﴾ .

أى : فحين وصل إليهم موسى - عليه السلام - بدعوته . وخاطبهم بما أمره الله - تعالى - أن يخاطبهم به ، وجابههم بالحق الذى زوده الله - تعالى - به .

ما كان منهم إلا أن قالوا - على سبيل التهديد والوعيد - : اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ، واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ فى إذلالهم . إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة . وذل عظيم .

والتعبير بقوله . ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم ، وأنهم لم يخرجوا لطلبه ، وإنما هو الذى جاءهم عن طريق موسى ، المؤيد بآيات الله - تعالى - .

والقائلون : ﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ هم الملأ من قوم فرعون الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان . إرضاء له . وإرهابا لموسى - عليه السلام - ولمن آمن معه .

قال الإمام الرازى : والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى ، لأن القتل فى ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه، فأمر بقتل الأبناء فى ذلك الوقت. وأما فى هذا الوقت. فموسى - عليه السلام - كان قد جاءه وأظهر المعجزات . فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ، لئلا ينشأوا على دين موسى ، فيقوى بهم . وهذه العلةمختصة بالبنين دون البنات . فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ توهين لشأن الكافرين فى كل زمان ومكان ، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا فى طريق الحق دون أن يرهبهم وعد أو وعيد . فإن النصر سيكون فى النهاية لهم .

أى : وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم ، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان . يقال : ضل فلان الطريق إذا ضاع منه الرشد . والتبست عليه السبل . وصار تائها لا يعرف له طريقايوصله إلى ما يريد .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان فجور فرعون وبغيه فقال : ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى ..﴾

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾وجملة ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ اعتراضية ، جىء بها مسارعة لبيان خسرانهم وضلالهم .

أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصته : اتركونى لأقتل موسى - عليه السلام - وأتخلص منه ومن أقواله التى فيها ما فيها من الضرر بى وبكم .

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة مستشاريه . لأنهم يرون أن قتله لاينهى المتاعب ، بل قد يزيدها اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثائرتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدى إلى نزول العذاب بهم ، غضبا من رب موسى ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدى إلى تفرغ فرعون لهم ، وهم لا يريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ كانوا إذا هم بقتله كفُّوه بقولهم : ليس موسى بالذى تخافه . وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة .. وأنك إذا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٠٢ .

قتلته أدخلت الشبهة على الناس . واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة .

والظاهر أن فرعون – لعنه الله – كان قد استيقن أن موسى نبيا . وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان قتالا سفاكا للدماء فى أهون شىء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذى يثل عرشه . ويهدم ملكه . ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله . أن يعاجل بالهلاك ..(١) .

وقوله : ﴿ وليدع ربه ﴾ تظاهر من فرعون بأنه لا يبالى بما يكون من وراء قتله لموسى . وأنه غير مكترث لا بموسى ولا برب موسى .

فالجملة الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر واستهزاء بالحق فكأنه يقول : إنى قاتل لموسى وليدع ربه لكى يخلصه منى .. ! !

ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ما حمله على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم . فيقول : ﴿ إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ .

أى : اتركونى لأقتل موسى . وليدع ربه لكى يخلصه منى . إن كان فى إمكانه ذلك. فإنى أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر أو بأن يظهر فى الأرض التى تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن بينكم وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم . والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة . ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم .. أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية !!

قال الإمام الرازى: والمقصود من هذا الكلام، بيان السبب لقتل موسى، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هوالذى كانوا عليه . فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق .

وأما فساد الدنيا فهو أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦٠ .

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لا جرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال :

﴿ إنى أخاف أن يبدل دينكم ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ﴿ أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى عليه السلام - بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

وقوله ﴿ عذت ﴾ بمعنى استجرت ولجأت . يقال : عاذ فلان بفلان واستعاذ به ، إذا لجأ إليه . واستجار به .

أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق ياقوم . إنى استجرت وتحصنت بربى وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب .

وفى هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله - تعالى - له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله - تعالى - الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبانجائه وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ وربكم ﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال : ﴿ من كل متكبر ﴾ لتشمل استعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ . وأراد بالتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ، ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه .

وقال : ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لأنه إذا اجتمع فى الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده . ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها ..[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٠٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦١ .

وخلال هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى - عليه السلام - ، قيض الله - تعالى - لموسى رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يخفى إيمانه . هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعا حكيما مؤثرا ، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى .. ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ
ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ
لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ
بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ
مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ

مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن موسى - عليه السلام - أنه ما زاد فى دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه - تعالى - قيض إنسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، واجتهد فى إزالة ذلك الشر .

ثم قال - رحمه الله - : يقول مصنف هذا الكتاب : ولقد جربت فى أحوال نفسى أنه كلما قصدنى شرير بشر ولم أتعرض له ، وأكتفى بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه - سبحانه - يقيض أقواما لا أعرفهم ألبتة . يبالغون فى دفع ذلك الشر ..[1] .

وظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا الرجل المؤمن كان من حاشية فرعون بدليل قوله - تعالى - : ﴿ من آل فرعون ﴾ ولم يكن من بنى إسرائيل .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - ذلك فقال : وأولى القولين فى ذلك بالصواب عندى : القول الذى قاله السدى من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون ، ولذا فقد أصغى لكلامه واستمع منه ما قاله ، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله .. ولو كان إسرائيليا لكان حريا أن يعاجل هذا القائل له ولملئه بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن يستنصح بنى اسرائيل لاعتداده إياهم أعداء له .. ولكنه لما كان من ملأ قومه ، استمع إليه ، وكف فرعون عما كان قد هم به من قتل موسى ..[2] .

قالوا : وهذا الرجل المؤمن هو الذى نصح موسى - عليه السلام - بقوله : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٠٤ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٤ ص ٣٨ .

وكان اسمه «حزقيل» أو «حبيب» .

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى لا يصيبه أذى منهم ، فعندما سمع فرعون يقول : ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ . قال لهم : ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ .

أى : أتقتلون رجلا لأنه يقول ربى الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .

فقوله : ﴿ أن يقول ربى الله ﴾ فى موضع المفعول لأجله . أى : أتقتلونه من أجل قوله هذا . وجملة ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ حالية من فاعل يقول وهو موسى - عليه السلام - .

والمقصود بهذا الاستفهام : الإنكار عليهم والتبكيت لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل ذنبه أنه عبد الله - تعالى - وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة فعله وقوله .

قال الإمام ابن كثير : وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله - تعالى - و« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عروة بن الزبير قال : قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله - ﷺ - فقال : بينا رسول الله - ﷺ - بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله - ﷺ - ولوى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبه ودفع عن النبى - ﷺ - ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم[1] .

وقال القرطبى : وعن على - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث : فأرادوا قتل رسول الله - ﷺ - فأقبل هذا يجؤه - أى يضربه - ، وهذا يُتَلْتِلهُ - أى : يحركه تحريكا شديدا - فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم .. أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، والله إنه لرسول

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٣١ .

الله ، فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ[١] .

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدهم موسى بالقتل بل أخذ فى محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال : ﴿ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم .. ﴾ .

أى : أنه قال لهم : إن كان موسى - على سبيل الفرض - كاذبا فيما يقوله ويفعله فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شىء ، وإن كان صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عند ربه ..

فأنت ترى أن الرجل كان فى نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، فى مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج عن فرضين ، وكلاهما لا يوجب قصد موسى - عليه السلام - بالقتل .

ورحم الله صاحب الكشاف . فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ما ملخصه : وقوله : ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ... ﴾ هذا إنكار عظيم منه ، وتبكيت شديد لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط فى ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله ﴿ ربى الله ﴾ ..

ثم أخذ فى الاحتجاج عليهم على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن يك كاذبا فعليه يعود كذبه ولا يتخطاه ضرره ، وإن يك صادقا يصبكم بعض ما يعدكم به إن تعرضتم له .

فإن قلت : لم قال : ﴿ بعض الذى يعدكم ﴾ وهو - أى موسى - نبى صادق ، لابد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟

قلت : لأنه احتاج فى مقاولة خصوم موسى ومنا كريه ، إلى أن يلاوصهم - أى يحايلهم - ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف فى القول ويأتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال ﴿ وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ وهو كلام المنصف فى مقاله ، غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد ، ولكنه أردفه بقوله : ﴿ يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٠٨ .

بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا عن أن يتعصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل ..»(١) .

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التى لا تتغير فقال : ﴿ إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ .

أى : إن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أنه - سبحانه - لا يهدى الى الحق والصواب ، من كان مسرفا فى أموره ، متجاوزا الحدود التى شرعها الله - تعالى - ومن كان كذابا فى إخباره عن الله - تعالى - ، ولو كان موسى مسرفا أو كذابا ، لما أيده الله - تعالى - بالمعجزات الباهرة . وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه .

فالجملة الكريمة إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما يبلغه عن ربه ، وتعريض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .

قال الجمل فى حاشيته : فالجملة الكريمة كلام ذو وجهين نظرا لموسى وفرعون .

الوجه الأول : أن هذا إشارة الى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى ، والمعنى : إن الله هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفا ولا كذابا .

الوجه الثانى : أن يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى . وكاذب فى ادعائه الألوهية ، والله لايهدى من كان كذلك ..»(٢) .

ثم أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفى تحذيرهم من نقمه فقال : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ .

أى: وقال الرجل المؤمن لقومه - أيضا -: يا قوم، أى: يا أهلى وياعشيرتى ، أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين فى أرض مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى .

وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .

وإنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم فى موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيذانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٣ .

يهمه سوى منفعتهم ومصلحتهم ..

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ، أخذته العزة بالإثم ، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

أى : قال فرعون لقومه ، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن : يا قوم لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيرا ، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهديكم برأيى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد .

وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتمويه على قومه . وأنه ما يريد إلا منفعتهم ، مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا ، هو التخلص من موسى حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جهلة قومه ، فإنهم كانوا كما قال - تعالى - فى شأنهم : ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذى نطق به فرعون ، بل استرسل فى نصحه لقومه . وحكى القرآن عنه ذلك فقال : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب .. ﴾ .

أى قال لهم : يا قوم إنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام - بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها ، وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسرا ..

فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء . وكأن تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر ..

والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه .فالكلام على حذف مضاف .

أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب .

وقوله : ﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ... ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله ﴿ مثل يوم الأحزاب ﴾ .

والدأب : العادة الدائمة المستمرة يقال : دأب فلان على كذا ، إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة .

أى : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم

كقوم لوط . فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله - تعالى - تدميرا ، فاحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى - عليه السلام - بالقتل أو الإيذاء ، فينزل بكم العذاب مثل ما نزل بهم .

﴿ وما الله ﴾ - تعالى - ﴿ يريد ظلما للعباد ﴾ أى : فما أنزله - سبحانه - بهم من عذاب ، إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم . وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول : ﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ .

أخاف عليكم يوم القيامة الذى يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار . ونداء أهل النار لأهل الجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاوة .

فلفظ « التناد » - بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء، يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضا ..

وقوله : ﴿ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ... ﴾ بدل من يوم التناد . أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء فتتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون . لأنه لا عاصم لكم ولا مانع فى هذا اليوم من عذاب الله - تعالى - وعقابه .

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق بسبب سوء استعداده ، واستحبابه العمى على الهدى . فما له من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم .

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد أن خوف قومه من العذاب الدنيوى ، أتبع ذلك بتخويفهم من العذاب الأخروى .

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ .

والذى عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - والمراد بمجيئه إليهم : مجيؤه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى - عليهما السلام - أكثر من أربعة قرون ، فالتعبير فى الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم فى الإعراض عن الحق .

أى : ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل مجىء موسى إليكم ، وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات والبينات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه .

﴿ فمازلتم فى شك مما جاءكم به ﴾ أى : فما زال آباؤكم فى شك مما جاءهم به من البينات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى - عليه السلام - .

﴿ حتى إذا هلك ﴾ أى : مات يوسف - عليه السلام - .

﴿ قلتم ﴾ أى : قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ فهم قد كذبوا رسالته فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده .

فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، فى تكذيب رسل الله ، وفى الإعراض عن دعوتهم .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف - عليه السلام - ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة . والجاه الدنيوى . ولهذا قال : ﴿ فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أى : يئستم فقلتم طامعين : ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم[1] .

وقوله : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أى : مثل ذلك الإضلال الفظيع ، يضل الله - تعالى - من هو مسرف فى ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب فى دينه . شاك فى صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون فى آياته الدالة على وحدانيته وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا...﴾ .

وقوله: ﴿ الذين يجادلون ... ﴾ مبتدأ، وخبره قوله - تعالى - : ﴿ كبر مقتا ..﴾ والفاعل ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من قوله ﴿ يجادلون ﴾ أى : كبر جدالهم و﴿ مقتا ﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أى : عظم بغضا جدالهم عند الله وعند المؤمنين .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٣٣ .

أى : الذين يجادلون فى آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل أو برهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا .

قال الجمل : وهذه الصفة - وهى الجدال بالباطل بدون برهان - موجودة فى فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم . وأبرز ذلك فى صورة تذكرهم فلم يخصهم بالخطاب .

وفى قوله : ﴿ كبر ﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم[1] .

وقوله : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ أى : مثل ذلك الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متطاول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء .

ومع هذا النصح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات السليمة، والإرشادات القوية من الرجل المؤمن لقومه .. ظل فرعون سادرا فى غيه ، مصرا على كفره وضلاله .. إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر .. ويحكى القرآن الكريم كل ذلك فيقول :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٥ .

دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ
لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ
مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟
ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

والمراد بالصرح فى قوله - تعالى - : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا ... ﴾ البناء العالى المكشوف للناس ، الذى يرى الناظر من فوقه ما يريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح بمعنى الكشف والإيضاح .

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشىء ، والمراد بها هنا : أبواب السماء وطرقها ، التى يصل منها إلى ما بداخلها .

أى : وقال فرعون لوزيره هامان : ياهامان ابن لى بناء ظاهرا عاليا مكشوفا لا يخفى على

الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعلى عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر الى إله موسى .

والمراد بالظن فى قوله ﴿ وإنى لأظنه كاذبا ﴾ اليقين لقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وقال فرعون يأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾[1] .

فقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ قرينة قوية على أن المراد بالظن فى الآيتين : اليقين والجزم ، بسبب غروره وطغيانه .

أى : وإنى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا فى دعواه أن هناك إلها غيرى لكم ، وفى دعواه أنه رسول إلينا .

وكرر لفظ الأسباب لأن اللفظ الثانى يدل على الأول ، والشىء إذا أبهم ثم أوضح ، كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها .

وقوله : ﴿ فأطلع ﴾ قرأه الجمهور بالرفع عطفا على ﴿ أبلغ ﴾ فيكون فى حيز الترجى .

وقرأه بعض القراء السبعة بالنصب فيكون جوابا للأمر فى قوله : ﴿ ابن لى صرحا .. ﴾ .

ولاشك أن قول فرعون هذا بجانب دلالته على أنه بلغ الغاية فى الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول ، يدل - أيضا - على شدة خداعه ، إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس .

قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله ، من أن هناك إلها غير فرعون ..[2] .

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وقول فرعون هذا المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا لبقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله ، وأنه ليس فى جهة ، ولكنه أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فيبقى أن يكون فى السماء ، والسماء لا يتوصل

(١) سورة القصص آية ٣٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٤٨ .

إليها إلا بسلم ..[١] .

ثم بين - سبحانه - أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال : ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ .

والتباب : الهلاك والخسران ، يقال : تب الله - تعالى - فلانا ، أى : أهلكه ، وتبت يدا فلان ، أى : خسرتا ومنه قوله - سبحانه - : ﴿تبت يدا أبى لهب وتب ... ﴾ .

أى : ومثل ذلك التزيين القبيح، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره وطغيانه ، وصد عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب العمى على الهدى . وما كيد فرعون ومكره وتلبيسه واحتياله فى إبطال الحق ، إلا فى هلاك وخسران وانقطاع .

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه ، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور فقال : ﴿ وقال الذى آمن ياقوم اتبعون ..﴾ أى : فيما أنصحكم به ، وأرشدكم إليه .

﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أى : اتبعونى فيما نصحتكم به ، فإن فى اتباعكم لى هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعادة وسداد . أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الغى والضلال .

﴿ يا قوم إنما هذه الدنيا متاع ...﴾ أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه ..

﴿ وإن الآخرة ﴾ وحدها ﴿ هى دار القرار ﴾ أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام والخلود .

﴿ من عمل سيئة ﴾ فى هذه الدنيا ﴿ فلا يجزى ﴾ فى الآخرة ﴿ إلا مثلها ﴾ كرما من الله - تعالى - وعدلا .

﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ بالله - تعالى - إيمانا حقا .

﴿ فأولئك ﴾ المؤمنون الصادقون ﴿ يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى : يرزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم قدره إلا الله - تعالى - ، ولا يحاسبهم عليه محاسب . فقد تفضل - سبحانه - على عباده . أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات .

ثم استنكر موقف قومه منه فقال : ﴿ ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة ﴾ من العذاب

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص ١٦ .

الدنيوى والأخروى ، بأن آمركم بالايمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وهو موسى - عليه السلام - .

وأنتم ﴿ تدعوننى إلى النار ﴾ أى : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله - تعالى - ، والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم كرر نداء قومه ؟ ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى ؟ .

قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه : أنهم قومه وعشيرته .. ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك أن لا يتهموه - فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه - وأن ينزلوا على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم - عليه السلام - فى نصيحة أبيه قوله : ﴿ يا أبت ﴾ فى سورة مريم .

وأما المجىء بالواو العاطفة فى النداء الثالث دون الثانى ، فلأن الثانى داخل على كلام هو بيان للمجمل ، وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه فى امتناع دخول الواو . وأما الثالث : فداخل على كلام ليس بتلك المثابة[1] .

وقوله : ﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ... ﴾ بدل من قوله : ﴿ وتدعوننى إلى النار ﴾ وتفسير وبيان له .

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوننى إلى الإشراك بالله - تعالى - وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته .

وقوله : ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له .

فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، الغالب لكل ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه ..

ثم يؤكد لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أن ما يطلبونه منه هو الباطل وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول : ﴿ لا جرم أن ما تدعوننى إليه ، ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ...﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦٨ .

وجرم : فعل ماض بمعنى حق وثبت ووجب . وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى خمسة مواضع ، وفى كل موضع جاءت متلوة بأنّ واسمها .

وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق وثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل ..

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس ، و« جرم » اسمها ، وما بعدها خبرها .

أى : حق وثبت لدى بما لا يقبل الشك ، أن آلهتكم التى تدعوننى لعبادتها آلهة باطلة ، لاوزن لها ولا قيمة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ..

﴿ وأن مردنا ﴾ جميعا ﴿ إلى الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ وأن المسرفين ﴾ أى : المستكثرين من المعاصى فى الدنيا ﴿ هم أصحاب النار ﴾ فى الآخرة .

ثم نصح نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : فستذكرون ياقوم ما أقول لكم من حق وصدق .

﴿ وأفوض أمرى الى الله ﴾ - تعالى - وحده لكى يعصمنى من كل سوء .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ بصير بالعباد ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

وقوله - تعالى - : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ بيان للعاقبة الطيبة التى أكرمه الله - سبحانه - بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده ..

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصحه لقومه ، أن وقاه الله - تعالى - ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ ..

﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه ﴿ سوء العذاب ﴾ بأن أغرقهم الله - تعالى - فى اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ..

والغدو : أول النهار . والعشى : آخره ، وجملة : ﴿ النار يعرضون عليها .. ﴾ بدل من قوله - تعالى - ﴿ سوء العذاب ﴾ . بعرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم وهم فى قبورهم فى الصباح والمساء ، ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يقال للملائكة العذاب : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم .

قال القرطبى : والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت عذاب القبر بقوله - تعالى - : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ مادامت الدنيا ..

قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ألا تراه يقول - سبحانه - عن عذاب الآخرة : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

وفى الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار ، تعرض على النار بالغداة والعشى ، فيقال : هذه داركم ..[1] .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل فرعون ، أسمى الأساليب وأحكمها فى الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهى قومه عن قتل موسى - عليه السلام - ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وبسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن ما يدعوهم إليه هو الحق ، وبأن ما يدعونه إليه هو الباطل .

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ فكانت نتيجة هذا التفويض ، أن وقاه الله - تعالى - من سوء مكر أعدائه ، ونجاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيئ يحيق بهم .

ثم حكى - سبحانه - جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات ، وكيف أن كل فريق منهم يطلب من الملائكة تخفيف العذاب عنه ، ولكن لا يجابون إلى طلبهم ، ولا تقبل معذرتهم ، وأن سنة الله قد اقتضت أن ينصر عباده الصالحين فى الدنيا والآخرة قال - تعالى - :

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي
ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ
﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ
قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣١٨ .

جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ
بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ
﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾

و ﴿ إذ ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ يتحاجون فى النار ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم .

﴿ فيقول الضعفاء ﴾ منهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ فى الدنيا وكانوا رؤساء وقادة :

﴿ إنا كنا لكم تبعا ﴾ أى إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لهواكم ومسخرين لخدمتكم .. والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ﴾ للطلب المصحوب بالرجاء والاستجداء ..

أى : هذا هو حالنا أمامكم ، وقد كنا فى الدنيا منقادين لكم انقياد العبد لسيده ، فادفعوا عنا شيئا من هذا العذاب المهين الذى نزل بنا ، فطالما دافعنا عنكم فى الدنيا وسرنا وراءكم بدون تفكير أو معارضة ..

وقوله ﴿ نصيبا ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله ﴿ مغنون ﴾ أى : فهل أنتم تدفعون عنا جزءا من العذاب الذى نحن فيه ، وتحملون عنا نصيبا منه .

وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل . ويحكى القرآن ذلك فيقول ﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أى للضعفاء .

﴿ إنا كل فيها ﴾ أى : إنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب ، وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شىء من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا .

ولفظ ﴿ كل ﴾ مبتدأ ، وفيها متعلق بمحذوف خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر ، خبر إن .

وجملة : ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ من جملة الرد ، أى : إن الله – تعالى – قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، فجعل للمؤمنين الجنة ، وجعل للكافرين النار وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .

وبعد أن يئس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن : ذلك فيقول : ﴿ وقال الذين فى النار ، لخزنة جهنم ﴾ وهم الملائكة المكلفون بتعذيب الكافرين .

قالوا لهم : ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ﴾ أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الأيام الكثيرة التى ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع ، لعلنا فى هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التى مزقها العذاب الدائم .

وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب : أو لم تك رسلكم فى الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين ، وتأتيكم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم .

﴿ قالوا بلى ﴾ أى : الكافرون لخزنة جهنم : بل أتونا بكل ذلك فكذبناهم .

وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم : مادام الأمر كما ذكرتم من أن الرسل قد نصحوكم ولكنكم أعرضتم عنهم ﴿ فادعوا ﴾ ماشئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء لن ينفعكم شيئا .

﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم إلا فى ضياع وخسران .

ثم بين – سبحانه – سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا ، والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

والأشهاد : جمع شاهد ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة بأنهم

قد بلغوهم دعوة الله ، والملائكة الذين يشهدون للرسل بالتبليغ ، وللمؤمنين بالإيمان وللكافرين بالكفر ، وكل من يقوم يوم القيامة للشهادة على غيره يكون من الأشهاد .

أى : لقد اقتضت سنتنا التى لا تتخلف أن ننصر رسلنا والمؤمنين فى الدنيا بالحجة الدامغة التى تزهق باطل أعدائهم ، و بالتغلب عليهم ، وبالانتقام منهم .

وأن ننصرهم فى الآخرة كذلك بأن نجعل لهم الجنة ، والنار لأعدائهم .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، يعنى أنه ينصرهم فى الدارين جميعا بالحجة والظفر على أعدائهم ، وإن غلبوا فى الدنيا فى بعض الأحايين امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين[1] .

وما ذكره صاحب الكشاف فإننا نراه واقعا فى سيرة الرسول - ﷺ - وفى سيرة أتباعه فلقد هاجر النبى - ﷺ - من مكة وليس معه سوى أبى بكر الصديق ، وعاد إليها بعد ثمانى سنوات فاتحا غازيا ظافرا ، ومن حوله الآلاف من أصحابه .

والمؤمنون قد يُغْلَبون - أحيانا - ويُعْتَدى عليهم .. ولكن العاقبة لابد أن تكون لهم . متى داوموا على التمسك بما يقتضيه إيمانهم من الثبات على الحق ، ومن العمل الصالح ..

وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة ، بيوم يقوم الأشهاد ، للإشعار بأن نصر الرسل والمؤمنين فى هذا اليوم سيكون نصرا مشهودا معلوما من الأولين والآخرين ، لا ينكره منكر . ولا ينازع فيه منازع .

وقوله : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ . أى : وننصرهم يوم القيامة يوم يقدم الظالمون أعذارهم لكى نعفو عنهم . فلا يقبل منهم عذر واحد ، لأنها أعذار ساقطة . وجاءت فى غير وقتها .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ لأن المقصود منهما واحد . وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول حتى يلتفت إليهم ، وإنما عذرهم مرفوض رفضا تاما .

﴿ ولهم اللعنة ﴾ من الله - تعالى - ومن عباده المؤمنين ﴿ ولهم ﴾ - أيضا - ﴿ سوء الدار ﴾ وهى جهنم وسوؤها ما يسوء فيها من العذاب ، فالإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : ولهم الدار السوءى .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٧٢ .

وفى هاتين الآيتين مافيهما من البشارة السارة العظيمة للمؤمنين ومن الإهانة التى ليس بعدها إهانة للكافرين .

ثم ساق - سبحانه - مثالا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين . فقال - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، هدى وذكرى لأولى الألباب ﴾ .

أى : والله لقد آتينا عبدنا ونبينا موسى ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع . وأورثنا من بعده قومه بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة . لكى ينتفعوا بإرشاداته وأحكامه وتوجيهاته .

وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب العقول السليمة فقوله - تعالى - ﴿ هدى وذكرى ﴾ مفعول لأجله . أو هما مصدران فى موضع الحال . أى : وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، حالة كونه هاديا ومذكرا لأولى الألباب . لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدايات . وهم الذين يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم .

ثم ختم - سبحانه الآيات الكريمة بأمر النبى - ﷺ - بالصبر على أذى أعدائه . فقال : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق .. ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أننا سننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴿ ويوم يقوم الأشهاد .. ﴾ فاصبر على ما أصابك من أعدائك ، فإن ما وعدك الله - تعالى - به من النصر ثابت لاشك فيه ، و حق لا باطل معه .

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ فإن استغفارك هذا وأنت المعصوم من كل ما يغضبنا - يجعل أمتك تقتدى بك فى ذلك ، وتسير على نهجك فى الإكثار من فعل الطاعات .

﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ أى : وبجانب استغفارك من الذنوب ، أكثر من تسبيح ربك ومن تنزيهه عن كل مالا يليق به عند حلول الليل ، وعند تباكير الصباح ، فإن هذا الاستغفار ، وذلك التسبيح ، خير زاد للوصول إلى السعادة والفوز فى الدنيا والآخرة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى قسمين : التوبة عما لا ينبغى ، والاشتغال بما ينبغى ، والأول مقدم على الثانى بحسب الرتبة الذاتية . فوجب أن يكون مقدما عليه فى الذكر ..

أما التوبة عما لا ينبغى ، فنراها فى قوله - تعالى - : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ .

وأما الاشتغال بما ينبغى ، فنراه فى قوله - تعالى - ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ .

والتسبيح عبارة عن تنزيه الله - تعالى - عن كل ما لايليق به،والعشى والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر . وقيل : الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف . والعشى عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وبالجملة فالمراد منه المواظبة على ذكر الله . وأن لا يفتر اللسان عنه ..[1] .

ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة أو برهان ، وتبين الأسباب التى حملتهم على ذلك ، وترشد إلى العلاج من شرورهم ، وتنفى المساواة بين الكافر والمؤمن ، وتدعو المؤمنين إلى الإكثار من التضرع إلى الله - تعالى - فتقول :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ
خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٢١ .

والمراد بالمجادلة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم .. ﴾ المجادلة بالباطل بدون حجة أو دليل ، أما المجادلة لإحقاق الحق والكشف عنه .. فهى محمودة ، لأنها تهدى إلى الخير والصلاح ..

قال صاحب الكشاف : فأما الجدال فى آيات الله ، لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم فى استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله ..[1] .

وجملة ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ خبر إن ، والكبر بمعنى التكبر والتعالى والتعاظم على الغير .

والمعنى : إن الذين يجادلون فى آيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وصدق رسله ، وليس عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم ..

هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم على ذلك إلا التكبر والتعاظم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تكون النبوة فيهم أو فيمن يميلون إليهم .. وهم جميعا لن يصلوا إلى شىء من ذلك ، ولن يبلغوا ما تتوق إليه نفوسهم المريضة ، لأن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

فالآية الكريمة تبين أن على رأس الأسباب التى حملت هؤلاء المجادلين بالباطل على جدالهم . هو حبهم للتكبر والتعالى ...

قال الآلوسى : قوله : ﴿ بغير سلطان أتاهم ... ﴾ أى : بغير حجة فى ذلك أتتهم من جهته - تعالى - وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة ، للإيذان بأن المتكلم فى أمر الدين ، لابد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين ، وهذا عام فى كل مجادل مبطل ..

وقوله : ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ صفة لقوله ﴿ كبر ﴾ أى ما هم ببالغى موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة ..[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾. إرشاد منه - تعالى - إلى ما يقى من شرور هؤلاء المجادلين بالباطل .

أى : هذا هو حال المجادلين بالباطل وهذا هو الدافع إلى جدالهم ، وما دام هذا هو حالهم ،

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٥٠ .
(٢) سورة فاطر آية ٢ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٧٨ .

فالتجىء إلى الله - تعالى - أيها الرسول الكريم - لكى يحفظك من شرورهم وكيدهم ، إنه - تعالى - هو السميع لكل شىء ، البصير بما ظهر وخفى من شئون عباده .

ثم بين - سبحانه - للناس من طريق المشاهدة صغر حجمهم بالنسبة إلى بعض خلقه - تعالى - فيقول : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أى : لخلق السموات والأرض ابتداء وبدون مثال سابق ، أكبر وأعظم من خلق الناس . ومما لاشك فيه أن من قدر على خلق الأعظم ، فهو على خلق ما هو أقل منه أقدر وأقدر ، ولكن أكثر الناس لاستيلاء الغفلة والهوى عليهم ، لا يعلمون هذه الحقيقة الجلية .

وقوله - تعالى - ﴿ أكبر من خلق الناس ﴾ إنما هو من باب تقريب الأشياء إلى الفهم . فمن المعروف بين الناس أن معالجة الشىء الكبير أشد من معالجة الشىء الصغير . وإن كان الامر بالنسبة إلى الله - تعالى - لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير ، إذ كل شىء خاضع لإرادته كما قال - سبحانه - : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف اتصل قوله ﴿ لخلق السموات والأرض .. ﴾ بما قبله ؟ .

قلت : إن مجادلتهم فى آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث . وهو أصل المجادلة ومدارها ، فَحُجُّوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ، وبأنهما خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إلى خلقهما شىء قليل ، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما . كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر ..[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ... ﴾ نفى لعدم المساواة بين الأخيار والأشرار . والمتقين والفجار ..

أى : كما أنه لا يصح فى عرف أى عاقل المساواة بين الأعمى والبصير . كذلك لا تصح المساواة بين المؤمنين الذين قدموا فى دنياهم العمل الصالح ، وبين الكافرين والفاسقين الذين لطخوا حياتهم بالعمل السيئ ، والفعل القبيح ..

ولفظ « قليلا » فى قوله - تعالى - ﴿ قليلا ما تتذكرون ﴾ مفعول مطلق ، وهو صفة لموصوف محذوف ، و « ما » مزيدة للتأكيد . أى · تذكرا قليلا تتذكرون .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٧٤ .

ثم أكد - سبحانه - مجيء الساعة فى الوقت الذى يختاره - تعالى - فقال : ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾ أى : لا ريب ولاشك فى مجيئها فى الوقت الذى يشاؤه - عز وجل - ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ..

ثم أمر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع اليه بالدعاء فقال : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ... ﴾ .

أى : وقال ربكم - أيها المؤمنون - تضرعوا إلى بالدعاء ، وتقربوا إلى بالطاعات ، أستجب لكم ، ولا أخيب لكم رجاء .

ولا تنافى بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله - تعالى - ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من العبادة ، بل هو مخها كما جاء فى الحديث الشريف .

والإنسان الذى التزم فى دعائه الآداب والشروط المطلوبة ، كان دعاؤه جديرا بالإجابة ، فقد حكى لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، أن الأنبياء والصالحين ، عندما دعوا الله - تعالى - أجاب لهم دعاءهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يتكبرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أى : إن الذين يستكبرون عن طاعتى ، وعن التقرب إلى بما يرضينى ، سيدخلون يوم القيامة نار جهنم حالة كونهم أذلاء صاغرين .

فقوله : ﴿ داخرين ﴾ من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع يقال : دخر فلان يدخر دخور إذا ذل وهان .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تتصل بموضوع الدعاء فارجع إليه إن شئت[٢] .

وبعد أن بين - سبحانه - مصير الذين يستكبرون عن عبادته ، أتبع ذلك ببيان ألوان من النعم التى أنعم بها على عباده ، كنعمة السماء والأرض ، ونعمة خلق الإنسان ورزقه من

---

(١) لمعرفة آداب الدعاء وشروطه وفضله .. راجع كتابنا « الدعاء » طبع مجمع البحوث الإسلامية .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٤٢ .

الطيبات ، ونعمة الليل والنهار .. فقال - تعالى - :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ
﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ
بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ
إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ
ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ بيان لنعمتى الليل والنهار اللتين أنعم بهما - سبحانه - على الناس .

أى : الله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل لتسكنوا فيه ، وتستريحوا من عناء العمل بالنهار وهيأه لهذه الاستراحة بأن جعله مظلما ساكنا ...

وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مبصرا ، أى : جعله مضيئا مسفرا ، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصاره من الأشياء المتنوعة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ مبصرا ﴾ هو من الإسناد المجازى لأن الإبصار فى الحقيقة لأهل النهار .

فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال ؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما . فيراعى حق المقابلة ؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قال : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، الا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز[1] .

وقوله : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله - تعالى - عليهم .

أى : إن الله - تعالى - لصاحب فضل عظيم على الناس جميعا ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على آلائه ونعمه ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشهوات عليهم .

وقال - سبحانه - ﴿ لذو فضل ﴾ بالتنكير للإشعار بأنه فضل لا تحيط به عبارة أو وصف .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء .. ﴾ يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه وهو الله - عز وجل - .

و﴿ ذلكم ﴾ مبتدأ ، وما بعده أخبار متعددة .

أى : ذلكم الذى أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله - تعالى - ربكم خالق كل شىء فى هذا الوجود . لا إله إلا هو فى هذا الكون ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٧٦ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ تعجيب من انصرافهم - بعد هذه النعم - عن الحق إلى الباطل ، وعن الشكران إلى الكفران .

أى ؛ فكيف تنقلبون عن عبادته - سبحانه - إلى عبادة غيره ، مع أنه - عز وجل - هو الخالق لكل شىء ، وهو صاحب تلك النعم التى تتمتعون بها .

وقوله - تعالى - : ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ بيان لحال الذين وقفوا من نعم الله - تعالى - موقف الجحود والكفران .

ويؤفك هنا : بمعنى القلب والصرف عن الشىء ، من الأفك - بالفتح - مصدر أفكه عن الشىء بمعنى صرفه عنه - وبابه ضرب - ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ... ﴾ أى : لتصرفنا عن عبادتها .

والمعنى : مثل ذلك الصرف العجيب من الحق إلى الباطل ، ينصرف وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم ، والذين كانوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يجحدون ويكفرون .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر نعمه عن طريق الزمان - الليل والنهار - أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان - الأرض والسماء - فقال : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ﴾ أى : جعل الأرض مكانا لاستقراركم عليها ، والسعى فيها .

﴿ والسماء بناء ﴾ أى : وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنية المضروبة فوق رءوسكم ، فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد .

قال الآلوسى قوله : ﴿ والسماء بناء ﴾ أى : قبة ، ومنه أبنية العرب لقبابهم التى تضرب . وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه ، وهو تشبيه بليغ . وفيه إشارة لكرويتها . وهذا بيان لفضله - تعالى - المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان[1] .

وقوله : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ بيان لفضله - تعالى - المتعلق بذواتهم .

أى : جعل لكم الأرض مستقرا ، والسماء بناء ، وصور أشكالكم فى أحسن تقويم . وأجمل هيئة . كما قال - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى : ورزقكم من الرزق الطيب الحلال المستلذ .

﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أى : ذلكم الذى أعطاكم تلك النعم المتعلقة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٨٣ .

بزمانكم . ومكانكم . وذواتكم .ومطعمكم ومشربكم . هو الله ربكم الذى تولاكم بتربيته ورعايته فى جميع أطوار حياتكم . فتبارك الله - تعالى - وتعاظم فى ذاته وفى صفاته . فهو رب العالمين ومالك أمرهم .

﴿ هو الحى ﴾ أى : هو - سبحانه - المنفرد بالحياة الدائمة الباقية ..

﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا موجود يدانيه لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : فاعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، وأطيعوه طاعة لا مكان معها للتردد أو التكاسل ، حالة كونكم قائلين : الحمد لله رب العالمين .

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال لا إله إلا الله ، أن يتبعها بقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ عملا بهذه الآية[1] .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الرد الذى يوبخ به المشركين فقال : ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يطلبون منك مشاركتهم فى عبادة آلهتهم : قل لهم إنى نهيت من ربى وخالقى ومالك أمرى عن عبادة غيره - تعالى - ، والسبب فى ذلك أن كل الدلائل والبراهين التى أكرمنى - سبحانه - بها ، تشهد وتصرح بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده .

فقوله : ﴿ لما جاءنى البينات من ربى ﴾ بيان السبب الذى من أجله نهاه ربه عن عبادة غيره ، وهذه البينات تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية .

وقوله ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أى : إنى بعد أن نهانى ربى عن عبادة غيره ، أمرنى بأن أسلم وجهى إليه بالعبادة والطاعة ، إذ هو وحده رب العالمين ومالك أمرهم .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى خلق الإنسان فى أطوار مختلفة ، فقال - تعالى - : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾ أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فرع عنه .

﴿ ثم من نطفة ﴾ وأصل النطفة : الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا تقاطر ماؤها بقلة .

---

(٢) تفسير ابن جرير جـ٢٤ ص٥٣ .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة ، ﴿ ثم من علقة ﴾ والعلقة قطعة من الدم المتجمد .

﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ أى : ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا ، بعد أن تكامل خلقكم فيها . فقوله : ﴿ طفلا ﴾ اسم جنس يصدق على القليل والكثير .

ثم ﴿ لتبلغوا أشدكم ﴾ بعد ذلك ، بعد أن تنتقلوا من مرحلة الطفولة إلى المرحلة التى تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم .

﴿ ثم لتكونوا شيوخا ﴾ بعد ذلك ، بأن تصلوا إلى السن التى تتناقص فيها قوتكم والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿ لتبلغوا ﴾ ، أو معمولة لمحذوف كالجمل التى تقدمتها ، أى : ثم يبقيكم لتكونوا شيوخا .

﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أى : ومنكم من يدركه الموت من قبل أن يدرك سن الشيخوخة ، أو سن الشباب ، أو سن الطفولة .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولتبلغوا أجلا مسمى ﴾ معطوف على مقدر . أى : فعل ذلك بكم لكى تعيشوا ، ولتبلغوا أجلا مسمى تنتهى عنده حياتكم ، ثم تبعثون يوم القيامة للحساب . والجزاء .

وقوله : ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أى : ولعلكم تعقلون عن ربكم أنه هو الذى يحييكم يوم القيامة كما أماتكم ، وكما أنشأكم من تلك الأطوار المتعددة وأنتم لم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الزاخرة بكثير من النعم بقوله - تعالى - ﴿ هو الذى يحيى ﴾ من يريد إحياءه ﴿ ويميت ﴾ من يشاء إماتته .

﴿ فإذا قضى أمرا ﴾ أى : فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى هذا الوجود ﴿ فإنما يقول له ﴾ أى لهذا الأمر ﴿ كن فيكون ﴾ فى الحال بدون توقف على سبب من الأسباب ، أو علة من العلل .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يسلى النبى - ﷺ - عما أصابه من المشركين ، بأن بين له سوء عاقبتهم يوم القيامة ، وبأن أمره بالصبر على كيدهم ، وبشره بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه .. فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ
نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله ... ﴾ للتعجب من أحوال هؤلاء المشركين . حيث أنكروا الحق الواضح وانساقوا وراء الأوهام والأباطيل .

والمعنى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال المشركين ، وتعجب من سلوكهم

الذميم ، حيث جادلوا فى الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته بدون علم أو حجة .

وقوله : ﴿ أنى يصرفون ﴾ أى : انظر كيف يصرفون عن آيات الله الموجبة للإيمان بها . إلى الجحود والتكذيب والجدال بالباطل فيها ؟

لقد كان من المنتظر منهم أن يهتدوا إلى الحق بعد أن وصل إليهم .. ولكنهم عموا وصموا عنه . لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

وقوله : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب .. ﴾ بدل من قوله ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله ﴾ .

أى : تعجب من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الكريم . الذى أنزلناه إليك - يامحمد - لتخرجهم به من الظلمات إلى النور .

وكذبوا - أيضا - ﴿ بما أرسلنا به رسلنا ﴾ من سائر الكتب والمعجزات . فهم لم يكتفوا بالتكذيب بك بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم بكل كتاب ورسول .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ وعيد شديد لهم على تكذيبهم بالرسل وبكتبهم ، أى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله - تعالى - ولكتبه التى أنزلها عليهم .

ثم فصل - سبحانه - هذا الوعيد ، وبين ما أعده لهم من عذاب فقال : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ .

و « إذ » هنا ظرف بمعنى « إذا » وهو متعلق بيعلمون ، وعبر - سبحانه - بالظرف الدال على المضى ، للدلالة على تحقق الخبر ، حتى لكأن العذاب قد نزل بهم فعلا .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد يوضع فى اليد والعنق فيجمعهما .

والسلاسل : جمع سلسلة ، وهى ما يربط بها الجانى على سبيل الإذلال له .

والحميم : الماء البالغ أقصى درجات الحرارة .

ويسجرون : مأخوذ من سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود .

والمعنى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة ، وقت أن توضع الأغلال والقيود فى أعناقهم ، ثم يسحبون ويجرون إلى الحميم بعنف وإهانة ، ثم يلقى بهم فى النار التى تمتلئ بهم ، ويكونون وقودا لها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : وهل قوله : ﴿ فسوف يعلمون . إذ الأغلال .. ﴾ إلا مثل قولك : سوف أصوم أمس ؟ .

قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله - تعالى - متيقنة مقطوعا بها ، عبر عنها بلفظ ما كان ووجد . والمعنى على الاستقبال ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ﴾ تبكيت وتأنيب لهم .

أى : ثم قيل بعد هذا العذاب المهين لهم : أين تلك الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ، لكى تدفع عنكم شيئا من العذاب الأليم الذى نزل بكم ؟ .

وقوله ﴿ قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ...﴾ حكاية لجوابهم الذى يدل على حسرتهم وبؤسهم .

أى : قالوا : ذهبوا وضاعوا وغابوا عنا ولم نعد نعرف لهم طريقا ، ولاهم يعرفون عنا طريقا . ثم أضربوا عن هذا القول توهما منهم أن هذا الإضراب ينفعهم فقالوا : بل لم نكن نعبد من قبل فى الدنيا شيئا يعتد به ، وإنما كانت عبادتنا لتلك الآلهة أوهاما وضلالا ..

وقوله - تعالى - : ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ أى مثل هذا الضلال البين والتخبط الواضح ، يضل الله - تعالى - الكافرين ، ويجعلهم يتخبطون فى إجابتهم على السائلين لهم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم الى هذا العذاب المهين فقال : ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾

وقوله : ﴿ تمرحون ﴾ من المرح وهو التوسع فى الفرح مع الأشر والبطر .

أى : ذلكم الذى نزل بكم من العذاب ، بسبب فرحكم وبطركم فى الأرض بالباطل ، وبسبب مرحكم وأشركم وغروركم فيها .

وحق عليكم أن يقال لكم بسبب ذلك : ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، فبئس ﴿ مثوى ﴾ أى : مكان ﴿ المتكبرين ﴾ عن قبول الحق جهنم .

وقال - سبحانه - ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين ، للإشارة إلى خلودهم فى جهنم ، إذ الثواء معناه الإقامة الدائمة ، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة .

ثم ذكر الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - الوصية بالصبر فقال : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٧٨ .

فإما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ .

وقوله : ﴿ فإما نرينك ﴾ أصله : فإن نُرِك ، فزيدت « ما » لتوكيد « إن » الشرطية ، وجوابها محذوف ، وقوله ﴿ أو نتوفينك ﴾ جوابه ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ .

والمعنى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك يا محمد ، فاصبر على جدالهم بالباطل ، إن وعد الله - تعالى - بتعذيبهم وبنصرك عليهم حق .

فإن نرك بعض الذى نعدهم به من القتل والأسر والهزيمة فبها ونعمت ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا مرجعهم يوم القيامة ، فنجازيهم بما يستحقون من عقاب .

فالآية الكريمة تأمر النبى - ﷺ - بمداومة الصبر ، وتحض على تبليغ ما أنزل إليه من ربه بدون كلل أو ملل ، ثم بعد ذلك يترك النتائج لله - تعالى - يسيرها كيف يشاء ، فإما أن يطلعه على ما توعد به أعداءه ، وإما أن يتوفاه قبل ذلك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - تسلية أخرى للرسول - ﷺ - فقال : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا ... ﴾ أى : رسلا كثيرين ﴿ من قبلك ﴾ أى من قبل إرسالك إلى الناس .

﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ كنوح وهود وصالح وابراهيم . وغيرهم .

﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ أخبارهم وأحوالهم لأن حكمتنا قد اقتضت ذلك .

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ﴾[2] .

والمراد بالآية فى قوله - تعالى - ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾ المعجزة الخارقة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى بمعجزة من عند نفسه ، وإنما يأتى بها بإذن الله - تعالى - ومشيئته ، إذ المعجزات جميعا عطايا من الله - تعالى - لرسله لتأييدهم فى دعوتهم .

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٤ .

﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أى: فإذا جاء الوقت الذى حدده - سبحانه - لعذاب أعدائه ﴿ قضى بالحق ﴾ أى: قضى بين الناس جميعا بالحق، فينجى - سبحانه - بقضائه العادل عباده المؤمنين.

﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ أى: وخسر - عند مجىء أمر الله، عند القضاء بين خلقه - المبطلون، وهم الذين ماتوا مصرين على كفرهم أو فسوقهم عن أمره.

وكما قال - تعالى - فى آيات أخرى منها قوله - تعالى -: ﴿ ولله ملك السموات والأرض، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾.

ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة، جانبا آخر من نعمه على عباده، ووبخ الفاسقين على عدم اعتبارهم بأحوال من سبقهم من الأمم، وهددهم بأنهم عند مجىء العذاب إليهم لن ينفعهم إيمانهم .. فقال - تعالى -:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ
لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم
مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ

مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

وقوله - تعالى - ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام .. ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه التى تتعلق بما سخره - سبحانه - لخدمة الإنسان من دواب، بعد بيانه قبل لكثير من النعم التى تتعلق بالليل والنهار، والسماء والأرض ... الخ .

والأنعام : جمع نعم ، وأطلق على الإبل والبقر والغنم، قالوا والمراد بها هنا : الإبل خاصة ؛ لأن معظم المنافع التى ذكرت هنا توجد فيها .

أى : الله - تعالى - هو الذى خلق لكم بقدرته الإبل ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ أى لتركبوا بعضا منها، ولتأكلوا بعضا آخر منها . فمن فى الموضعين للتبعيض .

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ أخرى غير الأكل وغير الركوب، كالانتفاع بألبانها وأوبارها وجلودها ...

﴿ ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ﴾ أى : ومن منافعها - أيضا - أنكم تستعملونها فى الأمور الهامة كحمل الأثقال، والانتقال عليها من مكان إلى مكان ..

كما قال - تعالى - ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾[1] .

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أى : وعلى هذه الإبل فى البر وعلى السفن فى البحر تحملون .

كما قال - تعالى - : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾[2] .

هذا، ولا مانع من أن يكون المراد بالأنعام هنا مايشمل الإبل والبقر والغنم ، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير، فقد قال : يقول - تعالى - ممتنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام ! وهى : الإبل والبقر والغنم، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى

---

(١) سورة النحل الآية ٧ .
(٢) سورة الزخرف الآية ١٢ .

الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تجز أوبارها وأصوافها وأشعارها . فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ تعجب من غفلتهم عن هذه الآيات المبثوثة فى الكون . والتى تدل جميعها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

ولفظ « أى » منصوب بقوله « تنكرون » وقدم وجوبا لأن له صدر الكلام .

أى : أنه - سبحانه - فى كل وقت وحين يريكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته، فقولوا لى . أية تلك الآيات تنكرون دلالتها على ذلك .

إنها جميعا تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل - فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها ؟

فالآية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى مع أن كل شىء فى هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار .

ثم وبخهم - سبحانه - مرة أخرى لعدم اتعاظهم بمصارع الغابرين فقال : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .. ﴾ .

أى : أقبعوا فى بيوتهم . فلم يسيروا فى أقطار الأرض . فينظروا كيف كانت عاقبة الأمم المكذبة من قبلهم، كقوم صالح وقوم لوط، وقوم شعيب وغيرهم .

فالاستفهام للتوبيخ والتأنيب، والفاء فى قوله : ﴿ أفلم .. ﴾ للعطف على مقدر .

ثم فصل - سبحانه - حال الذين كانوا من قبل كفار مكة فقال : ﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ أى : فى العدد ﴿ وأشد قوة ﴾ أى فى الأبدان والأجسام ﴿ وآثارا فى الأرض ﴾ أى : وكانوا أظهر منهم فى العمران والحضارة والغنى .

﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى أن هؤلاء الغابرين عندما حل بهم عذابنا لم تغن عنهم شيئا كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم ... بل أخذناهم أخذ عزيز مقتدر فى زمن يسير .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم فقال : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم .. ﴾ .

أى : فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاهلين، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٤٧ .

والزراعة .. واغتروا بتلك القشور التى كانوا يسمعونها ممن كانوا يزعمون أنهم على شىء من العلم الدينى، واستهزأوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدى إلى الرشد، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله . واعتقدوا - لغبائهم - وانطماس بصائرهم - أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها ..

ورحم الله صاحب الكشاف فقد فصل القول عند تفسيره لهذه الآية فقال: قوله: ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ فيه وجوه :

منها : أنه أراد العلم الوارد على سبيل التهكم فى قوله - تعالى - : ﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة ﴾ وعلمهم فى الآخرة أنهم كانوا يقولون لانبعث ولا نعذب .

ومنه : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بنى يونان، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم .

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال - تعالى - ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات .. لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به »[1] .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الأخير الذى ذكره صاحب الكشاف، هو أقرب الآراء إلى الصواب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم، واستهزائهم بهم . أى: ونزل بهؤلاء الكافرين العذاب الأليم بسبب استهزائهم برسلهم، وإعراضهم عن دعوتهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما أحاط بهم العذاب فقال: ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أى عاينوا عذابنا النازل بهم .

﴿ قالوا ﴾ بفزع وخوف﴿ آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أى: وكفرنا بما كنا به مشركين فى الدنيا من عبادة لغير الله - تعالى - واعتماد على سواه .

وقد بين - سبحانه - أن إيمانهم هذا لن ينفعهم لأنه جاء فى غير وقته فقال ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ شيئا من النفع لأنه إيمان جاء عند معاينة العذاب، والإيمان الذى يدعى فى هذا

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٨١ .

الوقت لا قيمة له، لأنه جاء فى وقت الاضطرار لافى وقت الاختيار.

ولفظ « سنة » فى قوله - تعالى - : ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده .. ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف.

أى: سن الله - تعالى - ذلك، وهو عدم نفع الإيمان عند حلول العذاب سنة ماضية فى الناس، بحيث لا تتخلف فى أى زمان أو مكان.

﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ أى: فى هذا الوقت الذى ينزل الله - تعالى - فيه العذاب على الكافرين يخسرون كل شىء، بحيث لا تنفعهم لا أموالهم ولا أولادهم ولا آلهتهم التى كانوا يتوهمون شفاعتها.

وبعد: فهذا تفسير وسيط لسورة « غافر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده:

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم -

القاهرة - مدينة نصر - مساء الثلاثاء
٩ من المحرم سنة ١٤٠٦
٢٤ / ٩ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ فُصِّلَتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « فصلت » هى السورة الحادية والأربعون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة « غافر » .

وهى من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية فى المصحف البصرى والشامى ، وثلاث وخمسون فى المصحف المكى والمدنى ، وأربع وخمسون فى المصحف الكوفى . وسورة « فصلت » تسمى - أيضا بسورة السجدة ، وحم السجدة ، وبسورة المصابيح ، وبسورة الأقوات[1] .

٢ - والذى يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها فى مطلعها تمدح القران الكريم : وتذكر موقف المشركين منه ومن الرسول - ﷺ - وتلقن الرسول - ﷺ - الجواب الذى يكبتهم ، وتهددهم بالعذاب الأليم .

قال - تعالى - : ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، عن طريق بيان خلقه للأرض وما اشتملت عليه من جبال وأقوات ، وعن طريق خلق السماء بطبقاتها المتعددة ، وعن طريق تزيين السماء الدنيا بمصابيح وحفظها .

قال - تعالى - : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين ﴾ .

٤ - وبعد أن هدد الله - تعالى - مشركى مكة بالعذاب الذى أصاب من قبلهم قوم عاد

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٩٤ .

وثمود ، وفصل لهم موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم وكيف أنهم عندما كذبوا رسلهم واستحبوا العمى على الهدى ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون ..

بعد كل ذلك تحدثت عن أحوالهم السيئة يوم يحشرون للحساب يوم القيامة ، وكيف أن حواسهم تشهد عليهم فى هذا اليوم العصيب .

ولنتدبر قوله - تعالى - : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ .

٥ - وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس ، وفى بيان عاقبة الأخيار والأشرار ، أتبعت السورة الحديث عن المشركين وسوء عاقبتهم ، بالحديث عن المؤمنين وحسن مصيرهم ، فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾ .

٦ - ثم ساقت سورة « فصلت » أنواعا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير ﴾ .

٧ - ثم أخذت السورة فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى إقامة الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله .

قال - تعالى - : ﴿ ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه السورة الكريمة ، ببيان أن مرد علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده ، وببيان طبيعة الإنسان فى حالتى اليسر والعسر ، وببيان أن حكمته - سبحانه - اقتضت أن يطلع الناس فى كل وقت على بعض من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته . قال

- تعالى - ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ .

٩ - وبعد: فهذا عرض إجمالى لسورة فصلت، ومنه نرى: أنها اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وبأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبأن يوم القيامة حق لا ريب فيه .

كما اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين الذين استحبوا العمى على الهدى وببيان أحوالهم يوم القيامة ... وببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأحسنوا القول والدعوة إلى الله ... بأحسن البشارات وأفضلها ..

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات : وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الاربعاء : ١٠ من المحرم ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥/٩/٢٥ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ
ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ
هُمْ كَٰفِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

سورة « فصلت » من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى .

والرأى الراجح فى هذه الحروف أنها جىء بها للإيقاظ والتنبيه على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، بدليل أنه مؤلف من جنس الحروف التى يتخاطب بها المشركون ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وقوله ﴿ تنزيل ﴾ خبر لمبتدأ محذوف .

أى : هذا القرآن ليس أساطير الأولين - كما زعم الجاحدون الجاهلون - وإما هو منزل من عند الله - تعالى - صاحب الرحمة العظيمة الدائمة .

إذ لفظ « الرحمن » بمعنى عظيم الرحمة ، لأن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشىء وعظمته ، أما صيغة فعيل فتستعمل فى الصفات الدائمة ككريم ، فكأنه - تعالى - يقول : هذا الكتاب منزل من الله - تعالى - العظيم الرحمة الدائمة .

قال بعض العلماء : وإنما خص هذان الوصفان بالذكر ، لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية . فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشىء عن رحمته ولطفه بخلقه[1] .

ثم أثنى - سبحانه - على هذا القرآن الذى أنزله بمقتضى رحمته وحكمته فقال : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ﴾ .

ومعنى : ﴿ فصلت آياته ﴾ : ميزت فى ألفاظها بفواصل ومقاطع ، وميزت فى معانيها لاشتمالها على أنواع متعددة من المعانى الحكيمة .

وقوله ﴿ قرآنا ﴾ منصوب على المدح ، أو على الحال من كتاب ، و﴿ عربيا ﴾ صفة للقرآن .

وقوله ﴿ لقوم يعلمون ﴾ متعلق بفصلت .

أى : هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - الذى وسعت رحمته كل شىء ، وهو كتاب فصلت آياته ووضحت وميزت من حيث ألفاظها تفصيلا بليغا ، إذ اشتملت على فواصل ومقاطع فيما بينها ليسهل فهمه وحفظه .

وفصلت آياته من حيث معانيها تفصيلا حكيما . إذ بعضها جاء لبيان ذاته وصفاته وأفعاله - تعالى - ، وبعضها اشتمل على ألوان من نعمه التى لا تحصى ، وبعضها جاء بأسمى أنواع الهدايات والآداب والأحكام والقصص والمواعظ ، وبعضها جاء لتبشير المؤمنين بحسن الثواب ، ولإنذار الكافرين بسوء العقاب .

وخص - سبحانه - الذين يعلمون بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما اشتمل عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته شامل لألفاظها ومعانيها .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٨ .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى ، لا يلتبس عليهم شيء منه .

فإن قلت : بم يتعلق قوله : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ ؟

قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل ، أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم . أو فصلت آياته لهم . وأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى : قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب ؛ لئلا يفرق بين الصلات والصفات ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ بيان لموقف الناس من هذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم .

والمراد بالأكثر هنا : الكافرون الذين لاينتفعون بهدايات القرآن الكريم .

أى : هذا القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور ، فأعرض أكثرهم عن هداياته لاستحواذ الشيطان عليهم ، فهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ ، وإنما يسمعون بقلوب قاسية ، وعقول خالية من إدراك معانيه ، ومن الاستجابة له .

ونفى - سبحانه - سماعهم له ، مع أنهم كانوا يسمعون من الرسول - ﷺ - ومن أصحابه ، لأنهم لما سمعوه ولم يؤمنوا به .. صار سماعهم بمنزلة عدمه .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على توغلهم فى الكفر والعناد فقال : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾ ، والأكنة : جمع كنان وهو الغطاء للشيء . و﴿ وقر ﴾ الصمم الذى يحول بين الإنسان وبين سماع ما يقال له .

والحجاب : من الحجب بمعنى الستر لأنه يمنع المشاهدة ، ومنه قيل للبواب حاجب ، لأنه يمنع من الدخول .

أى : وقال الكافرون للنبى - ﷺ - على سبيل تيئيسه من إيمانهم : إن قلوبنا قد كستها أغطية متكاثفة جعلتها لا تفقه ما تقوله لنا ، وما تدعونا إليه ، وإن آذاننا فيها صمم يحول بيننا وبين سماع حديثك ، وإن من بيننا ومن بينك حاجزا غليظا يحجب التواصل والتلاقى بيننا وبينك ، وما دام حالنا وحالك كذلك فاعمل ما شئت فيما يتعلق بدينك ، ونحن من جانبنا سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٨٤ .

وهذه الأقوال التى حكاها القرآن عنهم ، تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد : فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق ، وأسماعهم قد صمت عن سماعه ، وأشخاصهم قد أبت الاقتراب من شخص الرسول - ﷺ - الذى يحمل لهم الخير والنور ، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الجواب الذى يرد به عليهم فقال : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : إنما أنا بشر مثلكم فى الصفات البشرية أوجدنى الله - تعالى - بقدرته كما أوجدكم ، وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم - عليه السلام - إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بوحيه ورسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم .. هو إله واحد لاشريك له ، فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ أى : فالزموا الاستقامة فى طريقكم إليه - تعالى - بالإيمان به وطاعته والإخلاص فى عبادته .

وقوله - تعالى - : ﴿ .. وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ تهديد لهم بسوء المصير إذا استمروا على عنادهم وشركهم .

والويل : لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لافعل له من لفظه ، والمراد به هنا : الدعاء عليهم بالخزى والهلاك .

أى : فهلاك وخزى وعقاب شديد لهؤلاء المشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، أى : لا يؤمنون بها ، ولا يخرجونها إلى مستحقيها ، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها .. وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

قال ابن كثير : والمراد بالزكاة ها هنا : طهارة النفس من الأخلاق المرذولة ..

وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير ..

وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكية . اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة - وهو الصدقة - كان مأمورا به فى ابتداء البعثة ، كقوله - تعالى - : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين

أمرها فى المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين ..[١] .

وقال بعض العلماء : قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه – تعالى – صرح فى هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم – سبحانه – بالويل على كفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء أقلنا إن الزكاة فى الآية هى زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات ، واجتناب المعاصى .

ورجع بعضهم – أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأبدان – لأن السورة مكية وزكاة المال المعروفة إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة .

وعلى أية حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام .

أعنى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومادلت عليه هذه الآية من أنهم مخاطبون بذلك ، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصى ، جاء موضحا فى آيات أخر كقوله – تعالى – : ﴿ ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين .. ﴾[٢] .

وخص – سبحانه – من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة . لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله للمحتاجين ، فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته .

وقوله – تعالى – : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين .

أى : إن الذين آمنوا إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات ، لهم أجر عظيم غير ﴿ ممنون ﴾ أى غير مقطوع عنهم ، من مننت الحبل إذا قطعته ، أو غير منقوص عما وعدهم الله به ، أو غير ممنون به عليهم ، بل يعطون ما يعطون من خيرات جزاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا ، فضلا من الله – تعالى – وكرما .

ثم أمر الله – تعالى – رسوله – ﷺ – أن يوبخ هؤلاء المشركين على إصرارهم على

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٥٣ .
(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ١١٤ للشيخ محمد أمين الشنقيطى .

كفرهم ، مع أن مظاهر قدرة الله - تعالى - الماثلة أمام أعينهم تدعوهم إلى الإيمان ، فقال - تعالى - :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما أمر نبيه - ﷺ - أن يقول للناس : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ... ﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه - تعالى - وبين هذه الأصنام فى الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض فى مدة قليلة .. والاستفهام فى قوله ﴿ أئنكم لتكفرون ... ﴾ بمعنى الإنكار ، وهو لإنكار شيئين : الكفر بالله .. وجعل الأنداد له[1] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل الإنكار لأفعالهم :أئنكم لتكفرون بالله - تعالى - الذى خلق الأرض فى يومين .

قال الآلوسى : وإن واللام فى قوله ﴿ أئنكم لتكفرون ﴾ لتأكيد الإنكار .. وعلق - سبحانه - كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه - تعالى - واستعظام كفرهم به .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٤٠ .

واليوم فى المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه ها هنا الوقت مطلقا ، لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ، ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ، والأقل أنسب بالمقام ..[١] .

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - إن الله - تعالى - قادر على أن يخلق هذا الكون كله فى لحظة ، ولكنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ليعلم خلقه التثبت والتأنى فى الأمور .

وقوله : ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ معطوف على قوله ﴿ تكفرون ﴾ وداخل معه فى حكم الإنكار .

والأنداد : جمع ند وهو مثل الشىء يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .

أى : وتجعلون له أمثالا ونظراء تعبدونها من دونه ، وتسمونها - زورا وكذبا - آلهة ، وجمع - سبحانه - الأنداد باعتبار واقعهم ، لأنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الكواكب .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ يعود إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة .

أى : ذلك الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب العالمين جميعا ، وخالق جميع المخلوقات ، والمتولى لتربيتها دون سواه .

وقوله : ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها .. ﴾ معطوف على ﴿ خلق الأرض فى يومين ﴾ .

والرواسى : جميع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والاستقرار فى المكان ، يقال : رسا الشىء إذا ثبت واستقر . وهو صفة لموصوف محذوف .

أى : وجعل فيها جبالا رواسى من فوقها ، لكى تستقر وتثبت ، ولا تميد أو تضطرب بكم .

وقال - تعالى - : ﴿ من فوقها ﴾ لبيان الواقع ، إذ وجود الجبال من فوق الأرض ، ومشاهدة الإنسان لذلك بعينيه ، يزيده إقناعا بقدرة الله - تعالى - الباهرة وحكمته البليغة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٩٩ .

﴿ وبارك فيها ﴾ أى : وجعلها مباركة زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع ، عن طريق الزروع والثمار المبثوثة فوقها ، والمياه التى تخرج من جوفها . والكنوز التى تحصل من باطنها .

﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ والأقوات : جمع قوت . والمراد بها أرزاق أهل الأرض وما يصلحهم .

أى : وجعل أقوات أهلها التى يحتاجون إليها فى معايشهم ومنافعهم ، على مقادير محددة معينة ، بحيث نشر فى كل قطر من أقطارها أقواتا تناسب أهله ، وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم ، فيعمر الكون ، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم .

قال ابن جرير : بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى هذه الآية : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - أخبر أنه قدر فى الأرض أقوات أهلها ، وذلك ما يقوتهم من الغذاء ، ويصلحهم من المعاش . ولم يخصص - جل ثناؤه - بقوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ أنه قدر فيها قوتا دون قوت ، بل عم الخبر عن تقديره جميع الأقوات ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فى أربعة أيام ﴾ متعلق بمحذوف يدل ، عليه ما قبله .

أى : خلق الأرض ، وجعل فيه رواسى من فوقها ، وبارك فيها . وقدر فيها أقواتها فى تمام أربعة أيام ، فتكون المدة التى خلق فيها الأرض وما عليها أربعة أيام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سواء للسائلين ﴾ تأكيد لما دلت عليه الآية الكريمة من أن خلق كل من الأرض وما فيها وما عليها قد حدث فى أربعة أيام .

قال الآلوسى : وقيدت الأيام الأربعة بقوله : ﴿ سواء ﴾ فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة الأيام . أى : - فى أربعة أيام - استوت سواء ، أى : استواء .

وقوله - تعالى - : ﴿ للسائلين ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبرا لمبتدأ محذوف ، أى : هذا الحصر فى أربعة ، كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض ، وما فيها ..[2] .

وقال الجمل فى حاشيته : فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما فيها ، ضعف مدة خلق السموات، مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات وعجائب ؟

قلت : للتنبيه على أن الأرض هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ومن كثرة المنافع ، فزادت مدتها ليكون ذلك أدخل فى المنة على ساكنيها ، وللاعتناء بشأنهم وشأنها - أيضا -

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٤ ص ٦٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١٠١ .

زادت مدتها لما فيها من الابتلاء بالمعاصى والمجاهدات والمعالجات ..[١] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته فى خلق السماء ، فقال : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان .. ﴾ .

ومعنى استوائه - سبحانه - إلى السماء ، ارتفاعه إليها بلا كيف أو تشبيه أو تحديد ، لأنه - سبحانه - منزه عن ذلك .

والدخان : ما ارتفع من لهب النار . والمراد به هنا : ما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء ويصح أن يكون معنى : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ : تعلقت إرادته - تعالى - بخلقها .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أى : قصد إليها وتوجه ، دون إرادة تأثير فى غيرها ، من قولهم : استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه لا يلوى على غيره .. وقوله : ﴿ وهى دخان ﴾ أى أمر ظلمانى، ولعله أريد بها مادتها التى منها تركبت .[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ... ﴾ بيان لما وجهه - سبحانه - إليهما من أوامر .

والمراد بإتيانهما : انقيادهما التام لأمره - تعالى - .

أى : فقال - سبحانه - للسماء وللأرض أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد ، فأنت ياسماء ، أبرزى ما خلقت فيك من شمس وقمر ونجوم .. وأنت يا أرض أخرجى ما خلقت فيك من نبات وأشجار وكنوز .

قال الفخر الرازى : والمقصود من هذا القول : إظهار كمال القدرة ، أى : ائتيا شئتما أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصابهما على الحال ، بمعنى طائعين أو مكرهين ..[٣] .

وقوله : ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ بيان لامتثالهما التام لأمره - تعالى - .

أى : قالتا : فعلنا ما أمرتنا به منقادين خاضعين متسجيبين لأمرك ، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١٠٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٥٣ .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ فيه وجهان : أنه تمثيل لظهور الطاعة منهما ، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما . ومنه قول الراجز :

امتلأ الحوض وقال قطنى ... مهلا رويدا ملأت بطنى

يعنى : ظهر ذلك فيه .

وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله - تعالى - فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد - سبحانه -[1] .

وجمعهما - سبحانه - جمع من يعقل ، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء .

ثم فصل - سبحانه - بديع صنعه فى خلق السموات فقال : ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ...﴾ . أى : ففرغ من خلقهن وتسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع فى مقدار يومين .

والضمير فى قوله ﴿ فقضاهن ﴾ إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات .

وقوله : ﴿ وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ أى : وأوحى فى كل منها ما أراده وما أمر به ، وخلق فيها ما اقتضته حكمته من الملائكة ومن خلق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

وقوله : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾ أى : وزينا السماء الدنيا أى القريبة منكم - بكواكب مضيئة ، وحفظناها حفظا عظيما من الاختلال والاضطراب والسقوط ﴿ ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض ، وخلق ما فيهما .

﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ أى : تقدير الله - القاهر - لكل شىء . والعليم بما ظهر وبما بطن فى هذا الكون .

وقد أخذ العلماء من هذه الآيات الكريمة أن خلق الأرض وما عليها من جبال ومن أقوات للعباد قد تم فى أربعة أيام ، وأن خلق السموات كان فى يومين فيكون مجموع الأيام التى خلق الله - تعالى - فيها السموات والأرض وما بينهما ستة أيام .

وقد جاء ذلك فى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ ..[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٤٤ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب .. ﴾[١] .

كما أخذ العلماء منها - أيضا - : أن خلق الأرض متقدم على خلق السموات بدليل قوله - تعالى - بعد حديثه عن خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان .

وبدليل قوله - تعالى - فى آيه أخرى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾[٢] .

وعلى هذا الرأى سار جمهور العلماء ، وردوا على من قال بأن خلق السموات متقدم على خلق الأرض ، لأن الله - تعالى - يقول فى سورة النازعات : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أى : بسطها .

ردوا عليهم بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين الآيات التى معنا ، وبين آيات سورة النازعات فقال : إنه - تعالى - خلق الأرض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغيرهما .

أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها كان بعد خلق السماء ، وردوا عليهم - أيضا - بأن لفظ « بعد » فى قوله - تعالى - ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ بمعنى مع أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها فيها .

وردوا عليهم - أيضا - بأنه - تعالى - لما خلق الأرض غير مدحوة ، وهى أهل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه قد خلق بالفعل لوجود أصله فيها .

قال بعض العلماء : والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع ، - وإن لم يكن موجودا بالفعل - قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴾ .

فقوله : ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ﴾ أى : بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذى هو أصلكم[٣] .

كما أخذ منها العلماء أن وجود هذا الكون ، بتلك الصورة البديعة ، المتمثلة فى هذه الأرض

---

(١) سورة ق الآية ٣٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٩ .
(٣) أضواء البيان جـ ٧ ص ١٠٢ للشيخ الشنقيطى .

وما أقلت . وفى هذه السموات وما أظلت .. من أكبر الأدلة التى تحمل العقلاء على إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ، انتقلت السورة إلى تهديد المشركين ، وإنذارهم بأن عاقبتهم ستكون كعاقبة الظالمين الذين سبقوهم ، فقال - تعالى - :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً
فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى
ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات والتى قبلها روايات تتعلق بما بين النبى - ﷺ - وبين بعض المشركين ، منها ما ذكره محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوما لقريش - ورسول الله ﷺ - جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة فقال : « يامحمد ، يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السلطة - أى من الشرف - فى العشيرة وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .

ثم قال : إن كنت - يابن أخى - تريد مالا أعطيناك من المال حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد ملكا جعلناك ملكا علينا .. وإن كان الذى يأتيك رئيا تراه - أى ترى بعض الجن - طلبنا لك الطب حتى تبرأ .

فلما فرغ عتبة قال - ﷺ -: « أفرغت ياأبا الوليد ؟» قال : نعم . قال : « فاسمع منى » قال : أفعل . فتلا عليه النبى - ﷺ - من أول سورة « فصلت » .

- وفى رواية أنه لما بلغ قوله - تعالى - : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ... ﴾ قال له عتبة : حسبك ما عندك غير هذا .

ثم عاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم عتبة بوجه غير الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا له : ماوراءك ياأبا الوليد ؟

فقال : لقد سمعت من محمد - ﷺ - قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خَلّوا بين الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ .

فقالوا : لقد سحرك محمد - ﷺ - فقال : « هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم »[1] .

فقوله - تعالى - : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ تهديد لهؤلاء المشركين ، بعد أن وضح الحق لهم فى أكمل صورة ..

والصاعقة - كما يقول ابن جرير - : كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه . حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ، يكون مصعوقا..[2] .

والمراد بها هنا : العذاب الشديد الذى أنزله الله - تعالى - على قوم عاد وثمود فصعقهم وأهلكهم .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٥٢ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٠ .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين لقد أقمت لكم الأدلة الناصعة على وحدانية الله - تعالى - وعلى عظيم قدرته ، وعلى أنى رسول من عنده ، وصادق فيما أبلغه عنه .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ عن دعوتك ، ولجوا فى طغيانهم ، واستمروا فى كفرهم وعنادهم .

﴿ فقل ﴾ لهم على سبيل التحذير : لقد ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

وخص - سبحانه - عادًا وثمود بالذكر ، لأن مشركى قريش يعرفون ما جرى لهؤلاء الظالمين . إذ قوم عاد كانوا بالأحقاف - أى بالمكان المرتفع الكثير الرمال - فى جنوب الجزيرة العربية ورسولهم هو هود - عليه السلام - .

وأما ثمود فهم قوم صالح - عليه السلام - ، ومساكنهم كانت بشمال الجزيرة العربية ، ومازالت آثارهم باقية، وأهل مكة كانوا يمرون عليها فى طريقهم إلى بلاد الشام للتجارة.

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ، ألا تعبدوا إلا الله ... ﴾ يعود إلى قوم عاد وثمود .

والمراد بالرسل : هود وصالح - عليهما السلام - من باب إطلاق الجمع على الاثنين ، أو من باب إدخال من آمن بهما معهما فى المجىء إلى هؤلاء الأقوام لدعوتهم إلى عبادة الله وحده .

وقوله : ﴿ إذ جاءتهم الرسل ... ﴾ حال من قوله ﴿ صاعقة عاد وثمود ﴾ وقوله ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ متعلق بجاءتهم .

والمراد بالجملة الكريمة : أن الرسل بذلوا كل جهدهم فى إرشاد قوم عاد وثمود إلى الحق ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم وبينوا لهم بأساليب متعددة حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين .

وقوله : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ بيان لما نصح به الرسل أقوامهم و« أن » يصح أن تكون مصدرية ، أى : بأن لا تعبدوا إلا الله ، ويصح أن تكون مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف . أو تفسيرية لأن مجىء الرسل يتضمن قولا .

أى جاء الرسل إلى قوم عاد وثمود بكل دليل واضح على وجوب إخلاص العبادة لله ، ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم ، وقالوا لهم : اجعلوا عبادتكم لله - تعالى - وحده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ... ﴾ .

أى : أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، واعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله - تعالى - عن الشيطان أنه قال : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ... ﴾ يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة .

وعن الحسن : أنذروهم بعذاب الله الدنيوى والأخروى .

وقيل معناه : إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم ، بمعنى أن هودا وصالحا قد أمروهم بالإيمان بهما وبجميع الرسل الذين من قبلهم والذين من بعدهم ، فكأن الرسل جميعا قد جاءوهم[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ حكاية للرد السيئ الذى رد به قوم عاد وثمود على رسلهم .

ومفعول المشيئة محذوف أى : قال هؤلاء الكافرين لرسلهم على سبيل التكذيب لهم ، والتهكم بهم . أنتم لستم رسلا ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل إلينا رسلا لأرسل ملائكة ، ومادام الأمر كذلك فإنا بما أرسلتم به - أيها الرسل - كافرون ، وإلى ما تدعونا إليه مكذبون .

والسبب الذى حمل هؤلاء الجاهلين على هذا القول : زعمهم أن الرسل لا يكونون من البشر ، مع أن كل عقل سليم يؤيد أن الرسول لا يكون إلا من البشر كما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .. ﴾ .

ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك حال كل فريق منهم ، وبين ما نزل به من عذاب مهين فقال : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ... ﴾

أى . هذا هو قولهم على سبيل الإجمال لرسلهم ، وإليك جانبا من حال قوم عاد ، ومن أقوالهم الباطلة .

إنهم قد استكبروا فى الأرض بغير الحق . واغتروا بما بين أيديهم من نعم ، وقالوا على سبيل التباهى والتفاخر والتكبر : من أشد منا قوة .

وقيد استكبارهم فى الأرض بأنه بغير الحق . لبيان واقعهم ، حيث كانوا كما وصفهم الله - تعالى - فى آيات أخرى متجبرين متعالين على غيرهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٩١ .

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ .

الاستفهام فى قوله - تعالى - الذى حكاه عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا أحد أقوى منا ، فنحن فى استطاعتنا أن ندفع كل عذاب ينزل بنا ، وهذا هو الشعور الكاذب الذى يشعر به الطغاة الجاهلون فى كل زمان ومكان .

وقد رد الله - تعالى - عليهم وعلى أمثالهم ردا منطقيا حكيما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

أى : أعموا وصموا عن الحق، ولم يعلموا أن الله - تعالى - الذى أوجدهم من العدم، هو - سبحانه - أشد منهم قوة وبأسا .

إنهم لغرورهم وجهالاتهم نسوا كل ذلك ، وكانوا بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا يجحدون ، ويعاندون وينكرون الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

ثم حكى - سبحانه - ما نزل بهم من عذاب بسبب إصرارهم على كفرهم ، وبسبب غرورهم وبطرهم فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا...﴾ .

ولفظ « صرصرا » من الصر - بفتح الصاد - وهو شدة الحر ، أو من الصر - بكسر الصاد - وهو شدة البرد الذى يقبض البدن ، أو من الصرة التى هى الصيحة المزعجة ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة... ﴾ أى : فى صيحة .

ولا مانع من أن تكون هذه الريح التى أرسلها الله - تعالى - عليهم ، قد اجتمع فيها الصوت الشديد المزعج ، والبرد الشديد القاتل .

وقوله : ﴿ نحسات ﴾ جمع نحسة - بفتح النون وكسر الحاء - صفة مشبهة من نحس - كفرح وكرم - ضد سعد .

أى : فأرسلنا على قوم عاد ريحا شديدة الهبوب والصوت ، وشديدة البرودة أو الحرارة فى أيام نحسات أو مشئومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزى لهم فى الحياة الدنيا .

﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أى : أشد خزيا وإهانة لهم من عذاب الدنيا .

﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أى : وهم لا يجدون أحدا يدفع عنهم هذا العذاب بحال من الأحوال .

ثم بين – سبحانه – بعد ذلك ، حال ثمود وما نزل بهم من عذاب فقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ... ﴾ .

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا ، فبينا لهم عن طريقه سبيل الرشاد وسبيل الغى . فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير .

﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أى : فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الغى على الرشد .

فالمراد بالعمى هنا الكفر والضلال ، والمراد بالهداية الإيمان والطاعة .

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ أى : فكانت نتيجة إيثارهم الكفر على الإيمان ، وتصميمهم على ذلك.. أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم ، والعذاب المبين الذى أبادهم ، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب وقبائح .

وقد حكى – سبحانه – ما أنزله بعاد وثمود من عذاب فى آيات كثيرة ، منها قوله – تعالى – : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾[1] .

وقد ذكر بعضهم أن الأيام النحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد ، كانت فى أواخر شهر شوال ، وأن أولها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها – أيضا – كان فى يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشاءم من هذا اليوم .

والحق أن ما ذكروه فى هذا الشأن لا دليل عليه ، ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم .

قال بعض العلماء بعد أن ذكر بعض الآثار التى ذكروها فى أن يوم الأربعاء يوم نحس :

« فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم »[2] .

ثم بين – سبحانه – فضله على المؤمنين ، ورحمته بهم فقال : ﴿ ونجينا الذين آمنوا .. ﴾ أى ونجينا الذين آمنوا من عذاب الدنيا ومن العذاب الآخرة .

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ٤ – ٧ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ١٢٤ للشيخ الشنقيطى .

﴿ وكانوا يتقون ﴾ أى : يتقون الله - تعالى - ، ويصونون أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، يوم يعلمون أن ما جاءهم به رسلهم حق لاريب فيه ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

والظرف فى قوله : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

وقوله ، ﴿ يوزعون ﴾ من الوزع وأصله الكف ، تقول : وزع فلان فلانا عن الشىء ، أى : كفه ومنعه عنه . ومنه قول الشاعر :

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس ، إلا وافر العقل كامله

والمراد هنا : أن يكف أولهم ويمنع عن التحرك حتى يرد آخرهم فيلحق بأولهم ، بحيث

يجتمعون جميعا للحساب ثم يدعون إلى نار جهنم .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم يحشر أعداء الله جميعا إلى النار، بعد أن حوسبوا على أعمالهم السيئة ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : فهم يحبسون فى هذا اليوم العصيب حتى يلحق آخرهم بأولهم، ويكفون جميعا عن الحركة حتى يقضى الله - تعالى - بقضائه العادل فيهم .

والتعبير بقوله : ﴿ أعداء الله ﴾ يدل على ذمهم، وعلى أن ما أبهم من عذاب مهين . إنما هو بسبب عداوتهم لله - تعالى - ولرسله - صلوات الله عليهم -، حيث أعرضوا عن الحق الذى جاءهم به الرسل من عند ربهم .

والتعبير بقوله ﴿ يوزعون ﴾ يشعر بأنهم يحبسون ويمنعون عن الحركة بغلظة وزجر .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يعرضون على النار فقال : ﴿ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ .

والمراد بشهادة هذه الأعضاء عليهم : أنها تنطق - بإذن الله - تعالى - وتخبر بما اجترحوه من سيئات، وبما فعلوه من قبائح .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « فإن قلت « ما » فى قوله : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ ما هى ؟ .

قلت : مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها ...

فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟ .

قلت : الله - عز وجل - ينطقها ... بأن يخلق فيها كلاما ..

وشهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرمات . وقيل : المراد بالجلود الجوارح - وقيل : هو كناية عن الفروج .. »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله هؤلاء الكافرون لجوارحهم على سبيل التوبيخ والتعجيب فقال : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا .. ﴾ .

أى : وقال هؤلاء الكافرون لجلودهم التى تشمل جميع جوارحهم بتعجب وذهول : لماذا شهدتم علينا مع أننا ما دافعنا إلا عنكم . لكى ننقذكم من النار ؟ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٩٥ .

وهنا ترد عليهم جوارحهم بقولها - كما حكى سبحانه عنها - ﴿ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء .. ﴾ .

أى : قالوا فى الرد عليهم : أنطقنا الله - تعالى - الذى أنطق كل شىء بقدرته التى لا يعجزها شىء ﴿ وهو ﴾ - سبحانه - الذى ﴿ خلقكم أول مرة ﴾ ولم تكونوا شيئا مذكورا .

﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم ، ويحكم فيكم بحكمه العادل .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث ، منها ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : ضحك رسول الله - ﷺ - ذات يوم وتبسم فقال : « ألا تسألون عن أى شىء ضحكت » ؟ قالوا : يارسول الله ، من أى شىء ضحكت ؟ قال : « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أى ربى ، أليس قد وعدتنى أن لا تظلمنى ؟ قال : بلى . فيقول : فإنى لا أقبل على شاهدا إلا من نفسى . فيقول الله - تعالى - : أو ليس كفى بى شهيدا . وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل . فيقول : بعدا لكن وسحقا ، فعنكن كنت أجادل »[1] .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم ، بما كانوا يكسبون ﴾[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما سيقال لهؤلاء الكافرين يوم القيامة من جهته - تعالى - أو من جهة جوارحهم التى شهدت عليهم فقال - تعالى - : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ .

وقوله : ﴿ تستترون ﴾ من الاستتار بمعنى الاستخفاء ، « وما » نافيه . وقوله : ﴿ أن يشهد عليكم .. ﴾ فى موضع نصب على نزع الخافض أى : من أن يشهد عليكم .. أو مفعول لأجله .

أى : مخافة أو خشية أن يشهد عليكم سمعكم .

والمعنى : أن جوارحهم تقول لهم يوم القيامة على سبيل التبكيت : أنتم - أيها الكافرون - لم تكونوا فى الدنيا تخفون أعمالكم السيئة ، خوفا من أن نشهد عليكم ولكنكم كنتم تخفونها

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٥٩ .
(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

لاعتقادكم أن الله - تعالى - لا يعلم ما تخفونه من أعمالكم ، ولكنه يعلم ما تظهرونه منها .

وما حملكم على هذا الاعتقاد الباطل إلا جهلكم بصفات الله - تعالى - وكفركم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، واستبعادكم أننا سنشهد عليكم .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ... ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ، ويجوز أن يكون من قول الله - تعالى - لهم ، أو الملائكة .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ، قرشيان وثقفى ، - أى شخص من قبيلة ثقيف - أو ثقفيان وقرشى ، قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم . فقال أحدهم : أترون الله - تعالى - يسمع ما نقول : فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولايسمع إن أخفينا .

فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ﴾ .

فالآية الكريمة تنعى على المشركين جهالاتهم الفاضحة ، حيث ظنوا أن الله - تعالى - لايعلم الكثير من أعمالهم ، وتنبه المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يعلموا أن الله - تعالى - معهم ، ولا يخفى عليه شىء من أقوالهم أو أفعالهم ، وأنه - سبحانه - يعلم السر ، وأخفى ورحم الله من قال :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت . ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه ، يغيب

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة ظن هؤلاء الكافرين الجاهلين فقال : ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾ .

و﴿ ذلكم ﴾ اسم إشارة يعود إلى ظنهم السابق ، وهو مبتدأ ، وقوله ﴿ أرداكم ﴾ خبره .

أى : وذلكم الظن الذى ظننتموه بربكم ، وهو أنه - سبحانه - لا يعلم كثيرا مما تعملونه سرا ، هذا الظن ﴿ أرداكم ﴾ أى : أهلككم ، يقال ردى فلان - كصدى - إذا هلك ﴿ فأصبحتم ﴾ أيها الكافرون من الخاسرين لكل شىء فى دنياكم .

﴿ فإن يصبروا ﴾ عن العذاب ﴿ فالنار مثوى لهم ﴾ أى : فالنار هى المكان المعد لثوائهم فيه ، ولبقائهم به بقاء أبديا . يقال : ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة .

﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ أى : وإن يطلبوا الرضا عنهم ، فما هم من المرضى عنهم ، وإنما هم من المغضوب عليهم ، أو وإن يطلبوا منا الرجوع إلى ما يرضينا بأن نعيدهم

إلى الدنيا ، فما هم من المجابين إلى ذلك .

قال القرطبى: وأصل الكلمة من العَتْب -بفتح العين وسكون التاء- وهى المَوْجِدَة، يقال: عتب عليه يعتب -كضرب يضرب - إذا وَجَدَ عليه . فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه، قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب . والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرى العاتب قال الشاعر :

فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[1]

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت الأحوال السيئة التى يكون عليها الكافرون يوم القيامة ، والمجادلات التى تدور بينهم وبين جوارحهم فى هذا اليوم العسير عليهم .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى أوقعتهم فى هذا المصير الأليم ، ومن الأقوال السيئة التى كانوا يتواصون بها فيما بينهم ، وعن عاقبة هذا التواصى الأثيم فقال - تعالى - :

۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ
قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ
كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ
وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ
أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٥٤ .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ وقيضنا ... ﴾ أى : سببنا وهيأنا وبعثنا لهم قرناء يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض . والقيض قشر البيض ..

والتقييض - أيضا - التيسير والتهيئة ، تقول قيضت لفلان الشىء ، أى : هيأته ويسرته له ..[1] .

والقرناء : جمع قرين ، وهو الصديق الملازم للشخص الذى لا يكاد يفارقه ، وله تأثير عليه والمراد بما بين أيديهم : شهوات الدنيا وسيئاتها . والمراد بما خلفهم : ما يتعلق بالآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب .

والمعنى: إن حكمتنا قد اقتضت أن نهيئ ونسبب لهؤلاء المشركين قرناء سوء، هؤلاء القرناء يزينون لهم القبيح من أعمال الدنيا التى يعيشون فيها ، كما يزينون لهم إنكار ما يتعلق بما خلفهم من أمور الآخرة ، كتكذيبهم بالبعث والحساب والجزاء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ...﴾ بيان لما ترتب على استجابتهم لقرناء السوء ، وانقيادهم لهم انقياد التابع للمتبوع .

أى : وثبت عليهم القول الذى قاله - سبحانه - لإبليس ، وتحقق مقتضاه وهو قوله - تعالى - : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[3] .

وقوله : ﴿ فى أمم ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ عليهم ﴾ أى : وثبت عليهم العذاب . حالة كونهم داخلين فى جملة أمم كافرة جاحدة ، قد مضت من قبلهم ، وهذه الأمم منها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الإنس .

وجملة ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لكفار قريش ولغيرهم من الأمم السابقة التى هلكت على الكفر .

ثم حكى - سبحانه - ما تواصى به المشركون فيما بينهم فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٩ .
(٢) سورة الزخرف الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) سورة « ص » آية ٨٥ .

وقوله : ﴿ والغوا فيه ﴾ من اللغو ، وهو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه يقال : لغا فلان فى كلامه يلغو ، إذا نطق بكلام ساقط لا خير فيه .

ويبدو أن هذا الكلام قد قاله الزعماء من كفار مكة لأتباعهم ، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : قال أبو جهل - لأتباعه - : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه ، حتى لا يدرى ما يقول .

أى : وقال زعماء الكفر لأتباعهم : لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يقرأه محمد - ﷺ - وأصحابه ، ولا تنصتوا إليه ، بل ابتعدوا عن قارئيه ، والغوا فيه أى : وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو من القول ، كالتشويش على القارىء ، والتخليط عليه فى قراءته بالتصفيق وبرفع الصوت بالخرافات والهذيان ..

﴿ لعلكم تغلبون ﴾ أى : لعلكم بعملكم هذا تتغلبون على المسلمين ، وتجعلونهم ينصرفون عن قراءة القرآن .

ولاشك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب ، هذا التأثير الذى حمل كثيرا منهم عند سماعه على الدخول فى الإسلام ونبذ الكفر والكافرين .

كما يدل على أنهم لعجزهم عن معارضته ، وعن الإتيان بسورة من مثله ، لجأوا إلى تلك الأساليب السخيفة ، لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم .

وقد رد - سبحانه - على فعلهم هذا بما يناسبه من تهديد فقال : ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ﴾ .

أى : فو الله لنجعلن الذين كفروا بهذا القرآن والذين شوشوا على قارئيه بالصياح والاستهزاء ، لنجعلنهم يذوقون العذاب الذى يهينهم ، ويحسون به إحساسا أليما . ولنجزينهم فى الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ﴾ أى : جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ ، فأفعل للزيادة المطلقة وقيل : إنه - سبحانه - لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوف ، وصلة الأرحام .وإكرام الضيف ... لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب كفرهم ..[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : وفى هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه لكلام الله خاضعا خاشعا متفكرا متدبرا . وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١١٩ .

ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد ، وتأمل فى هذا التغليظ والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد ، بالفوز العظيم ..»[1] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك جزاء أعداء الله ...﴾ يعود إلى ما تقدم من العذاب الشديد المعد لهؤلاء الكافرين ، وهو مبتدأ ، و جملة ﴿ جزاء أعداء الله ﴾ خبره .

وقوله ﴿ النار ﴾ بدل أو عطف بيان .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى نذيقه للكافرين جزاء عادل لأعداء الله ، وهذا العذاب الشديد يتمثل فى النار التى أعدها - سبحانه - لهم .

وجملة : ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ مؤكدة لما قبلها . أى : لهم فى تلك النار الإقامة الدائمة الباقية المستمرة ، فهى بمثابة الدار المهيأة لسكنهم الدائم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ بيان لحكم الله العادل فيهم .

أى : نجازيهم جزاء أليما بسبب جحودهم لآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق رسلنا .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم وهم يتقلبون فى النار وحكى بعض أقوالهم التى يقولونها وهم فى ذلك العذاب الأليم فقال : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ على من أضلوهم .

﴿ ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ...﴾ أى : قالوا يا ربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان من أفراد الجن والانس ﴿نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ أى : أرنا إياهم لننتقم منهم ، بأن ندوسهما بأقدامنا احتقارا لهم ، وغضبا عليهم ، ليكونا بذلك فى أسفل مكان من النار ، وفى أحقره وأكثرهم سعيرا .

وهكذا تتحول الصداقة التى كانت بين الزعماء والأتباع فى الدنيا ، إلى عداوة تجعل كل فريق يحتقر صاحبه ، ويتمنى له أسوأ العذاب .

وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء مصير الكافرين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ

(١) حاشية الجمل جـ ٤ ص ٤١ .

ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ
وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾
وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ
إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ
ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ
وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

والمعنى : إن الذين قالوا بكل صدق وإخلاص ربنا الله - تعالى - وحده ، لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته .

﴿ ثم استقاموا ﴾ أى : ثم ثبتوا على هذا القول ، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة الله - تعالى - فى المنشط والمكره ، وفى العسر واليسر ، ومن اقتداء برسوله - ﷺ - فى كل أحواله .

قال صاحب الكشاف : و﴿ ثم ﴾ لتراخى الاستقامة عن الاقرار فى المرتبة وفضلها عليه . لأن الاستقامة لها الشأن كله . ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته[1] .

ولقد بين لنا النبى - ﷺ - أن الاستقامة على أمر الله جماع الخيرات ، ففى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله « قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٩٨ .

عنه أحدا بعدك » . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم ...»[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ بيان للآثار الطيبة التى تترتب على هذا القول المؤيد بالثبات على طاعة الله - تعالى - :

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون فى حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم ، ويطمئن نفوسهم ، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد : عند موتهم . وعن زيد بن أسلم : عند الموت ، وعند القبر ، وعند البعث ، وقيل : معنى ﴿ تتنزل عليهم ﴾ يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغريهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح .[2]

والخوف : غم يلحق النفس لتوقع مكروه فى المستقبل .

والحزن : غم يلحقها لفوات نفع فى الماضى .

أى : إن الذين قالوا ربنا الله باعتقاد جازم ، ثم استقاموا على طاعته فى جميع الأحوال ، تتنزل عليهم من ربهم الملائكة ، لتقول لهم فى ساعة احتضارهم وعند مفارقتهم الدنيا ، وفى كل حال من أحوالهم : لا تخافوا - أيها المؤمنون الصادقون - مما أنتم قادمون عليه فى المستقبل ، ولا تحزنوا على ما فارقتموه من أموال أو أولاد .

﴿ وأبشروا ﴾ عما قريب ، بالجنة التى كنتم توعدون بها فى الدنيا .

ثم يقولون لهم - أيضا - على سبيل الزيادة فى المسرة : ﴿ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ .

أى : نحن نصراؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة فى الحياة الدنيا التى توشكون على مفارقتها ، وفى الآخرة التى هى الدار الباقية ، سنتلقاكم فيها بالتكريم والترحاب .

﴿ ولكم فيها ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، ما تشتهى أنفسكم ، من أنواع الطيبات التى أعدها لكم خالقكم فى جناته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٦٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١٢١ .

﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أى : ما تتمنوه وتطلبونه ، فقوله ﴿ تدعون ﴾ افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

قوله - تعالى - : ﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾ حال من قوله : ﴿ ما تدعون ﴾ ، وأصل النزل : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من مأكل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته .

أى : لكم فى الدار الآخرة جميع ما تطلبونه وما تدعونه ، حال كون هذا المعطى لكم رزقا وضيافة مهيأة لكم من ربكم الواسع المغفرة والرحمة .

ثم سمت السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق بحكمة وإخلاص فقال - تعالى - : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾ .

أى . لا أحد أحسن قولا ، وأعظم منزلة ، ممن دعا غيره إلى طاعة الله - تعالى - وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به .

ولم يكتف بهذه الدعوة لغيره ، بل أتبع ذلك بالعمل الصالح الذى يجعل المدعوين يزدادون استجابة له .

﴿ وقال ﴾ : بعد كل ذلك على سبيل السرور والابتهاج والتحدث بنعمة الله ﴿ إننى من المسلمين ﴾ .

أى : من الذين أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأخلصوا له القول والعمل .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية ، أى : وهو فى نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه .. وهذه الآية عامة فى كل من دعا إلى خير ، وهو فى نفسه مهتد .

وقيل المراد بها المؤذنون الصلحاء ... والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم »[1] .

ثم أرشد - سبحانه - إلى ما ينمى روح المحبة والمودة .. بين الداعى والمدعوين بصفة خاصة ، وبين المسلم وغيره بصفة عامة ، فقال : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ .

أى : ولا تستوى الخصلة الحسنة ولا الخصلة السيئة ، لا فى ذواتها ولا فى الآثار التى تترتب

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٦٨ .

عليها ، إذ الخصلة الحسنة جميلة فى ذاتها ، وعظيمة فى الآثار الطيبة التى تنتج عنها ، أما الخصلة السيئة فهى قبيحة فى ذاتها وفى نتائجها .

وقوله - تعالى - : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ إرشاد منه - تعالى - إلى ما يجب أن يتحلى به عباده المؤمنون .

أى : ما دامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة ، فعليك - أيها المسلم - أن تدفع السيئة إذا جاءتك من المسىء ، بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، بأن تقابل ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، وقطعه بالصلة وفظاظته بالسماحة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ بيان للآثار الجميلة التى تترتب على دفع السيئة بالحسنة .

والولى : هو الصديق المحب الشفيق عليك ، من الولى بمعنى القرب .

والحميم : يطلق فى الأصل على الماء الحار ... والمراد به هنا : الصديق الصدوق معك .

أى : أنت إذا دفعت السيئة بالحسنة ، صار عدوك الذى أساء إليك ، كأنه قريب منك ، لأن من شأن النفوس الكريمة أنها تحب من أحسن إليها ، ومن عفا عنها ، ومن قابل شرها بالخير ، ومنعها بالعطاء .

ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس .. عقب - سبحانه - على هذه التوجيهات السامية بقوله : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

والضمير فى ﴿ يلقاها ﴾ يعود إلى تلك الخصال الكريمة السابقة ، التى على رأسها الدفع بالتى هى أحسن .

أى : وما يستطيع القيام بتلك الأخلاق العظيمة التى على رأسها الدعوة إلى الله ومقابلة السيئة بالحسنة .. إلا الذين صبروا على المكاره وعلى الأذى .

وما يستطيعها - أيضا - إلا صاحب الحظ الوافر ، والنصيب الكبير ، من توفيق الله - تعالى - له إلى مكارم الأخلاق .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد رسمت للمسلم أحكم الطرق ، وأفضل الوسائل ، التى ترفع درجته عند - خالقه - تعالى - .

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى ما يبعدهم عن كيد الشيطان ، فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

والنزغ والنخس والغرز بمعنى واحد . وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا فى الجلد . المراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيده للإنسان .

والمعنى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرك الله - تعالى - به .. فاستعذ بالله ، أى : فالتجئ إلى حماه واستجر به من كيد الشيطان ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - هو السميع لدعائك ، العليم بكل أحوالك ، القادر على دفع كيد الشيطان عنك .

فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذى يحميه من وسوسة الشيطان وكيده ، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع لكل شىء ، العليم بكل شىء القادر على كل شىء

وبعد هذه البشارات الكريمة ، والتوجيهات الحكيمة للمؤمنين .. ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ
ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾
وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته .. ﴾ العلامات الدالة دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

أى : ومن آياته على وحدانيته وقدرته - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وجود

الليل والنهار والشمس والقمر بتلك الطريقة البديعة، حيث إن الجميع يسير بنظام محكم، ويؤدى وظيفته أداء دقيقا. كما قال - تعالى -: ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾.

وقوله - تعالى - ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذى خلقهن .. ﴾ نهى عن السجود لغيره - تعالى - وأمر بالسجود له وحده.

أى: لا تسجدوا - أيها الناس - للشمس ولا للقمر، لأنهما - كغيرهما - من جملة مخلوقات الله - تعالى -، واجعلوا طاعتكم وعبادتكم لله الذى خلق كل شىء فى هذا الكون، إن كنتم حقا تريدون أن تكون عبادتكم مقبولة عنده - عز وجل -.

فالآية الكريمة تقيم الأدلة على وجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل - وتنهى عن عبادة غيره - تعالى -.

قال الجمل: هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار، للإيذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما، بنظمهما فى المخلوقية فى سلك الأعراض التى لا قيام لها بذاتها، وهذا هو السر فى نظم الكل فى سلك آياته.

وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث - مع أن فيها ثلاثة مذكرة، والعادة تغليب المذكر على المؤنث - لأنه لما قال: ومن آياته، فنظم الأربعة فى سلك الآيات، صار كل واحد منها آية فعبر عنها بضمير الإناث فى قوله ﴿ خلقهن ﴾[1].

ثم بين - سبحانه - أن استكبار الجاهلين عن عبادة الله - تعالى - وحده، لن ينقص من ملكه شيئا فقال: ﴿ فإن استكبروا، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون ﴾.

أى: فإن تكبر هؤلاء الكافرون عن إخلاص العبادة لله - تعالى - فلا تحزن أيها الرسول الكريم - فإن الذين عند ربك من الملائكة. ينزهونه - تعالى - ويعبدونه عبادة دائمة بالليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يملون، لاستلذاذهم لتلك العبادة والطاعة، وخوفهم من مخالفة أمره - عز وجل -.

فالآية الكريمة تهون من شأن هؤلاء الكافرين، وتبين أنه - تعالى - فى غنى عنهم وعن عبادتهم؛ لأن عنده من مخلوقاته الكرام من يعبده بالليل والنهار بدون سأم أو كلل.

---

(١) حاشية الجمل جـ٤ ص ٤٤.

والمراد بالعندية فى قوله - تعالى - ﴿ عند ربك ﴾ عندية المكانة والتشريف لا عندية المكان .

وقوله ﴿ فالذين عند ربك ﴾ تعليل لجواب الشرط المقدر، أى: فإن استكبروا فدعهم وشأنهم فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وله من فى السموات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - آية أخرى من آياته الدالة على وجوب إخلاص العبادة له فقال: ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت .. ﴾ .

و ﴿ خاشعة ﴾ أى، يابسة جدبة، خشعت الأرض، إذا أجدبت لعدم نزول المطر عليها وقوله: ﴿ اهتزت ﴾ أى: تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها و ﴿ ربت ﴾ أى: انتفخت وعلت، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض، ارتفعت له، ثم تشققت عنه . يقال: ربا الشيء إذا زاد وعلا وارتفع، ومنه الربوة للمكان المرتفع من الأرض .

أى: ومن آياته - تعالى - الدالة على وجوب العبادة له وحده، أنك - أيها العاقل - ترى الأرض يابسة جامدة، فإذا أنزلنا عليها بقدرتنا المطر، تحركت بالنبات، وارتفعت بسببه، ثم تصدعت عنه .

وعنى - سبحانه - هنا بقوله ﴿ خاشعة ﴾ لأن الحديث عن وجوب السجود لله - تعالى - وحده، والحديث عن السجود والطاعة يناسبه الخشوع .

وفى سورة الحج قال - سبحانه - : ﴿ وترى الأرض هامدة .. ﴾ لأن الحديث هناك كان عن البعث، وعن إمكانيته، فناسب أن يعبر بالهمود الذى يدل على فقدان الحياة .

قال - تعالى - ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب .. ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الذى أحياها لمحيى الموتى، إنه على كل شيء قدير ﴾ بيان لمظاهر قدرته - عز وجل - .

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الحج الآية ٥ .

أى : إن الذى أحياها بنزول المطر عليها، ويخرج النبات منها، لقادر عن أن يحيى الموتى عن طريق البعث والنشور، إنه - سبحانه - على كل شىء قدير .

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون، جاءت الآيات بعد ذلك لتهديد الذين يلحدون فى آياته - تعالى - ولتمدح القرآن الكريم، ولتسلى النبى - ﷺ - عما لقيه من أعدائه، ولتبين أن من عمل صالحا فثمار عمله لنفسه، ومن عمل سيئا فعلى نفسه وحده يجنى .. قال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ
وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

وقوله - تعالى - ﴿ يلحدون ﴾ من الإلحاد وهو الميل عن الاستقامة، والعدول عن الحق.

يقال ألحد فلان فى كلامه إذا مال عن الصواب، ومنه اللحد فى القبر، لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى.

والمعنى: إن الذين يميلون عن الحق فى شأن آياتنا بأن يؤولوها تأويلا فاسدا، أويقابلوها باللغو فيها وعدم التدبر لما اشتملت عليه من توجيهات حكيمة..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك: ﴿ لا يخفون علينا ﴾ أى ليسوا بغائبين عن علمنا، بل هم تحت بصرنا وقدرتنا، وسنجازيهم بما يستحقون من عقاب مهما ألحدوا ومالوا عن الحق والصواب.

فالجملة تهديد لهم على تحريفهم الباطل لآيات الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - البون الشاسع بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، فقال: ﴿ أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾ ؟ .

والغرض من هذا الاستفهام بيان أن الذين يلحدون فى آيات الله سيكون مصيرهم الإلقاء فى النار، وأن الذين استجابوا للحق وساروا على طريقه وهم المؤمنون، سيأتون آمنين من الفزع يوم القيامة.

قال الآلوسى: « وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء فى النار بدخول الجنة، لكنه عدل عنه إلى ما فى النظم الجليل، اعتناء بشأن المؤمنين، لأن الأمن من العذاب أعم وأهم، ولذا عبر عن الأول بالإلقاء الدال على القهر والقسر، وعبر عن الثانى بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا، مع الأمن ودخول الجنة .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ تهديد آخر لهم على إلحادهم.

أى: اعملوا أيها الملحدون ما شئتم من أعمال قبيحة، فإنها لا تخفى على خالقكم - عز وجل - ، لأنه بصير بكم، ومطلع على أفعالكم، وسيجازيكم عليها الجزاء العادل الذى تستحقونه.

فالمقصود من الأمر فى قوله - تعالى - ﴿ اعملوا ﴾ التهديد والوعيد.

ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق تهديدا ثالثا فقال: ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ .

وخبر « إن » هنا محذوف للعلم به مما سبق، أى: إن الذين كفروا بالقرآن الكريم حين

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٢٧ .

جاءهم على لسان رسول الله - ﷺ -، خاسرون أو هالكون أو معذبون عذابا شديدا .
﴿ وإنه ﴾ أى: هذا القرآن الكريم هو الحق الذى جاءهم به - ﷺ -، لعل هذا التدبر يوصلهم إلى الهداية والرشاد ﴿ لكتاب عزيز ﴾ . أى : لكتاب منيع معصوم بعصمة الله - تعالى - له من كل تحريف أو تبديل .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ أى : لا يستطيع الباطل أن يتطرق إليه من أى جهة من الجهات ، لا من جهة لفظه ولا من جهة معناه لأن الله - تعالى - تكفل بحفظه وصيانته ، كما قال - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون ؟

قلت : بلى ، ولكن الله قد تكفل بحمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم . فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا .[1] .

وقوله : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ أى : هذا الكتاب منزل من لدن الله الحكيم فى أقواله وأفعاله ، المحمود على ما أسدى لعباده من نعم لا تحصى .

ثم سلى - سبحانه - نبيه - ﷺ - عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى حقك ، فإن ما قالوه فى شأنك قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم .

فالآية الكريمة من أبلغ الآيات فى تسلية الرسول - ﷺ - لأنها كأنها تقول له ، إن ما أصابك من أذى قد أصاب إخوانك ، فاصبر كما صبروا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾[1] .

ثم علل - سبحانه - هذه التسلية وهذا التوجيه بقوله : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٠٢ .
(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣

أى : ما يقال لك إلا مثل ما قيل لإخوانك من قبلك ، ومادام الأمر كذلك .فاصبر كما صبروا ، إن ربك الذى تولاك بتربيته ورعايته ، لذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين وذو عقاب أليم للكفار المكذبين .

ثم رد - سبحانه - على بعض الشبهات التى أثاروها حول القرآن الكريم ردا يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى .. ﴾ .

والأعجمى : يطلق على الكلام الذى لا يفهمه العربى ، كما يطلق على من لا يحسن النطق بالعربية . وقوله : ﴿ أأعجمى وعربى ﴾ خبر لمبتدأ محذوف .

أى : ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم كما قالوا : هلا أنزل هذا القرآن بلغة العجم .

لو فعلنا ذلك - كما أرادوا - لقالوا مرة أخرى على سبيل التعجب : هلا فصلت ووضحت آيات هذا الكتاب بلغة نفهمها ؟ ثم لأضافوا إلى التعجب والإنكار ، تعجبا آخر فقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى ؟ .

ومقصدهم من هذه الشبهة الداحضة ، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة العجم .

فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، ولو نزل بلسان أعجمى ، لا عترضوا وقالوا : هلا نزل بلسان عربى نفهمه .

ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى .

وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعنت والسفاهة .

ثم أمر الله - تعالى - رسول - ﷺ - أن يرد عليهم بالرد الذى يكبتهم فقال : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء .. ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : هذا القرآن هو للذين آمنوا إيمانا حقا هداية إلى الصراط المستقيم ، وشفاء لما فى الصدور من أسقام .

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. ﴾ .

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذا الكتاب فقال : ﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ أى : بهذا الكتاب ، وبمن نزل عليه الكتاب .

﴿ فى آذانهم وقر ﴾ أى : فى آذانهم صمم عن سماع ما ينفعهم .

﴿ وهو عليهم عمى ﴾ أى : وهذا القرآن عميت قلوبهم عن تدبره وعن الاهتداء به .

وقوله - تعالى - ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ ذم شنيع لهم على إعراضهم عن هذا القرآن الذى ما أنزله الله - تعالى - إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

أى : أولئك الكافرون الذين لم ينتفعوا بالقرآن مثلهم فى صممهم وانطماس بصائرهم ، كمثل من يناديه مناد من مكان بعيد ، فهو لايسمع منه شيئا ، ولا يعقل عنه شيئا ، لوجود المسافة الشاسعة بين المنادى ، وبين من وقع عليه النداء .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادى من بعيد أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك : ﴿ ينادون ﴾ يوم القيامة بأقبح أسمائهم ﴿ من مكان بعيد ﴾ فيكون ذلك لتوبيخهم وفضيحتهم ..[1] .

ومن يتدبر هذه الآية الكريمة يرى مصداقها فى كل زمان ومكان ، فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وسماعا وتطبيقا .. وهناك من يستمعون إلى هذا القرآن ، فلا يزيدهم إلا صمما ، ورجسا إلى رجسهم وعمى على عماهم .

ثم بين - سبحانه - زيادة فى التسلية لرسوله - ﷺ - ، أن اختلاف الأمم فى شأن ما جاء به الرسل شىء قديم فقال - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه .. ﴾ .

أى : ولقد آتينا نبينا موسى - عليه السلام - كتابه التوراة ليكون هداية ونورا لقومه ، فاختلفوا فى شأن هذا الكتاب ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ - أيها الرسول الكريم - وهى ألا يعذب المكذبين من أمتك فى الدنيا عذابا يستأصلهم ويهلكهم .

لولا ذلك ﴿ لقضى بينهم ﴾ أى : لأهلكهم كما أهلك السابقين من قبلهم .

﴿ وإنهم ﴾ أى : كفار قومك ﴿ لفى شك منه مريب ﴾ أى : لفى شك من هذا القرآن وريبة من أمره ، جعلهم يعيشون فى قلق واضطراب .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٧١ .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال: ﴿ من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعلها .. ﴾ .

أى: من عمل عملا صالحا بأن آمن بالله، وصدق بما جاء به رسله، فثمرة عمله الصالح لنفسه .

﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أى: ومن عمل عملا سيئا، فضرر هذا العمل واقع عليها وحدها ﴿ وماربك بظلام للعبيد ﴾ أى: وليس ربك - أيها الرسول الكريم - بذى ظلم لعباده الذين خلقهم بقدرته، ورباهم بنعمته .

فقوله ﴿ ظلام ﴾ صيغة نسب - كتمار وخباز - وليس صيغة مبالغة .

قال بعض العلماء ما ملخصه: « وفى هذه الآية وأمثالها سؤال معروف، وهو أن لفظة « ظلام » فيها صيغة مبالغة . ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم نفى أصل الفعل . فقولك - مثلا -: زيد ليس بقتال للرجال لا ينفى إلا مبالغته فى قتلهم، فلا ينافى أنه ربما قتل بعض الرجال .

ومعلوم أن المراد بنفى المبالغة - وهى لفظ ظلام - فى هذه الآية وأمثالها المراد به نفى الظلم من أصله .

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها: أن نفى صيغة المبالغة هنا، قد جاء فى آيات كثيرة مادل على أن المراد به نفى الظلم من أصله، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ وقوله - تعالى -: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا .. ﴾ .

ومنها: أن المراد بالنفى فى الآية، نفى نسبة الظلم إليه . لأن صيغة فعال تستعمل مرادا بها النسبة، فتغنى عن ياء النسب .. كقولهم « لبان » أى: ذو لبن، ونبال أى صاحب نبل .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة، أن علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده، وأن الإنسان لا يسأم من طلب المزيد من الخير فإذا مسه الشر يئس وقنط . وأن حكمته - تعالى - قد اقتضت أن يقيم للناس الأدلة على قدرته ووحدانيته من أنفسهم وعن طريق هذا الكون الذى يعيشون فيه فقال - تعالى -:

---

(١) راجع تفسير أضواء للبيان جـ ٧ ص ١٤٠ للشيخ الشنقيطى .

(*) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾
لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ
قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ
رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ
﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم
بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ
ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه .. ﴾ بيان لانفراد الخالق - عز وجل - بوقت قيام الساعة، وبإحاطة

(*) أول الجزء الخامس والعشرون .

علمه - تعالى - بكل شيء، وإرشاد للمؤمنين إلى مايقولونه إذا ماسئلوا عن ذلك .

والأكمام: جمع كم - بكسر الكاف - وهو الوعاء الذى تكون الثمرة بداخله .

أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجع علم قيام الساعة، وما تخرج ثمرات من أوعيتها الكائنة بداخلها، وما تحمل من أنثى حملا ولا تضعه إلا بعلمه وإرادته - عز وجل - و « من » فى قوله ﴿ من ثمرات ﴾ وفى قوله ﴿ من أنثى ﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق . وفى قوله ﴿ من أكمامها ﴾ ابتدائية .

قال الجمل: « فإن قلت: قد يقول الرجل الصالح قولا فيصيب فيه، وكذلك الكهان والمنجمون .

قلت : أما قول الرجل الصالح فهو من إلهام الله ، فكان من علمه - تعالى - الذى يرد إليه ، وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شيء ما يقولونه ألبتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف قد لا يصيب . وعلم الله - تعالى - هو العلم اليقين المقطوع به الذى لا يشركه فيه أحد[1] .

ثم بين - سبحانه - تبرُّؤَ المشركين من آلهتهم يوم القيامة فقال : ﴿ ويوم يناديهم آين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد . وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص ﴾ .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مقدر ، ومعنى « آذناك » أعلمناك وأخبرناك ، آذن فلان غيره يؤذنه ، إذا أعلمه بما يريد إعلامه به .

والنداء والسؤال إنما لتوبيخهم والتهكم بهم فى هذا الموقف العظيم .

والظن هنا بمعنى اليقين .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم ينادى الله - تعالى - المشركين فيقول لهم يوم القيامة : أين شركائى الذين كنتم تعبدونهم من دونى ليقربوكم إلى أو ليشفعوا لكم عندى ؟

﴿ قالوا ﴾ على سبيل التحسر والتذلل : ياربنا لقد ﴿ آذناك ﴾ أى : لقد أعلمناك بأنه مامنا أحد يشهد بأن لك شريكا ، فقد انكشفت عنا الحجب ، واعترفنا بأنك أنت الواحد القهار .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٨ .

﴿ وضل عنهم ﴾ أى : وغاب عن هؤلاء المشركين ، ما كانوا يدعون من قبل أى : ما كانوا يعبدونه فى الدنيا من أصنام وغيرها .

﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أى : وأيقنوا بأنه لا مهرب ولا منجى لهم من العذاب . يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾ بيان لما جبل عليه الإنسان من حب للمال وغيره من ألوان النعم . ومن ضيقه بما يخالف ذلك .

ويبدو أن المراد بالإنسان فى هذه الآية وأمثالها جنسه الغالب ، وإلا فهناك مؤمنون صادقون ، إذا رزقهم الله النعم شكروا ، وإذا ابتلاهم بالمحن صبروا .

والمراد بالخير ما يشمل المال والصحة والجاه والسلطان وما إلى ذلك مما يشتهى .

والسأم : الملل ، يقال سئم فلان هذا الشىء ، إذا مله وضاق به وانصرف عنه .

واليأس : أن ينقطع قلب الإنسان عن رجاء الحصول على الشىء ، يقال : يئس فلان من كذا - من باب فهم - ، إذا فقد الرجاء فى الظفر به .

والقنوط : أن يظهر أثر ذلك اليأس على وجهه وهيئته ، بأن يبدو منكسرا متضائلا مهموما .

فكأن اليأس شىء داخل من أعمال القلب بينما القنوط من الآثار الخارجية التى تظهر علاماتها على الإنسان .

أى : لا يسأم الإنسان ولا يمل ولا يهدأ من طلب الخير والسعة فى النعم .

﴿ وإن مسه الشر ﴾ من عسر أو مرض ﴿فيئوس قنوط ﴾ أى : فهو كثير اليأس والقنوط من رحمة الله - تعالى - وفضله ، بحيث تنكسر نفسه ، ويظهر ذلك على هيئته .

وعبر - سبحانه - بيئوس وقنوط وهما من صيغ المبالغة ، للاشارة إلى شدة حزنه وجزعه عندما يعتريه الشر .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من حالات هذا الإنسان فقال ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ...﴾ .

أى : ولئن أعطينا هذا الانسان الجحود نعمة منا تتعلق بالمال أو بالصحة أو بغيرهما ، من بعد أن كان فقيرا أو مريضا ... ليقولن على سبيل الغرور والبطر : هذا الذى أعطيته شىء استحقه ، لأنه جاءنى بسبب جهدى وعلمى .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أى : وما أعتقد أن هناك بعثا أو حسابا أو جزاء .

﴿ ولئن رجعت إلى ربى ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ إن لى عنده للحسنى ﴾ أى : إن لى عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعم فى الدنيا .

وقوله - تعالى - ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى يكون عليها هذا الإنسان الجاحد .

أى : فلنعلمن هؤلاء الكافرين بأعمالهم السيئة ، ولنرينهم عكس ما اعتقدوه بأن ننزل بهم الذل والهوان بدل الكرامة والحسنى التى أيقنوا أنهم سيحصلون عليها ، ولنذيقنهم عذابا غليظا ، لايمكنهم الفكاك منه أو التقصى عنه لشدته وإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

ثم أكد - سبحانه - ما ذكره من حالات الإنسان فقال : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بنعمة من نعمنا التى توجب عليه شكرنا وطاعتنا .

﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ أى : أعرض عن شكرنا وطاعتنا ، وتكبر وتفاخر على غيره وادعى أن هذه النعمة من كسبه واجتهاده .

وقوله ﴿ ونأى بجانبه ﴾ كناية عن الانحراف والتكبر والصلف والبطر .

والنأى البعد . يقال : نأى فلان عن مكان كذا ، إذا تباعد عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ بيان لحالة هذا الإنسان فى حالة الشدة والضر .

أى : هكذا حالة هذا الإنسان الجاحد ، فى حالة إعطائنا النعمة له يتكبر ويغتر ويجحد .

وفى حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع .

وفى معنى هذه الآيات الكريمة ، جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جحودهم وجهالاتهم فقال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ...﴾ .

أى قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : أخبرونى إن كان هذا القران من عند الله - تعالى - وحده ، ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان به .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ للنفى والإنكار أى : لا أحد أكثر ضلالا منكم - أيها الكافرون - بسبب معاداتكم للحق ، وابتعادكم عنه ، ونفوركم منه نفورا شديدا .

والشقاق والمشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة . من الشق - أى : الجانب - فكأن كل واحد من المتعادين أو المتخالفين : صار فى شق غير شق صاحبه .

ووصف - سبحانه - شقاقهم بالبعد ، للإشارة بأنهم قد بلغوا فى هذا الضلال مبلغا كبيرا ، وشوطا بعيدا .

فالآية الكريمة تجهيل لهؤلاء الكافرين ، وحث لهم على التأمل والتدبر .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يطلع الناس فى كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق رسوله - ﷺ - فيما بلغه عنه ، فقال : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. ﴾ .

والمراد بالآيات فى قوله ﴿ آياتنا ﴾ : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق رسوله - ﷺ - .

والآفاق : جمع أفق - كأعناق جمع عنق - وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق - كضرب يضرب - إذا سار فى آفاق الأرض وجهاتها المتعددة .

والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا فى أقطار السموات والأرض ، من شمس وقمر ونجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع وثمار ، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار .

سنطلعهم على مظاهر قدرتنا فى هذه الأشياء الخارجية التى يرونها بأعينهم ، كما سنطلعهم على آثار قدرتنا فى أنفسهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى ، وعقل ، وروح ، وعن طريق مايصيبهم من خير وشر ، ونعمة ونقمة .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده ، ففى كل يوم بل فى كل ساعة ، يطلع الناس على أسرار جديدة فى هذا الكون الهائل ، وفى أنفسهم .. وكلها تدل على وحدانيته ، - تعالى - وقدرته ، وعلى صحة دين الإسلام الذى جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقوله - تعالى - : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ استئناف مسوق لتوبيخ

الكافرين على عنادهم مع ظهور الأدلة على أن ما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه هو الحق المبين .

والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والباء مزيدة للتأكيد ، وقوله ﴿ بربك ﴾ فاعل كفى .

والمعنى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحةهذا الدين ، أن ربك - أيها الرسول الكريم - شهيد على كل شىء ، وعلى أنك صادق فيما تبلغه عنه .. بلى . إن فى شهادة ربك وعلمه بكل شىء ما يغنيك عن كل شىء سواه .

ثم بين - سبحانه - فى ختام السورة حقيقة أمر أولئك الكافرين فقال : ﴿ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ .

أى : ألا إن هؤلاء المشركين فى مرية وشك وريبة من لقاء ربهم يوم القيامة ، لإنكارهم البعث والحساب والجزاء ...

ألا إنه - سبحانه - بكل شىء محيط إحاطة تامة لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وسيجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولن يستطيعوا النجاة من ذلك .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « فصلت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الخميس ٢٥ من المحرم ١٤٠٦ هـ

١٠/١٠/١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير « سورة يس »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الصافات »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة ص »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الزمر »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة غافر »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة فصلت »

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سور

الشورى الزخرف
الدخان الجاثية
الأحقاف محمد
الفتح الحجرات
ق

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الثالث عشر

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

تفسير

سُورَةُ الشُّورَىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - سورة « الشورى » هى السورة الثانية والأربعون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد نزول سورة « فصلت » . وعدد آياتها ثلاث وخمسون آية .

وتسمى - أيضا - سورة ﴿ حم عسق ﴾ ، لافتتاحها بذلك .

والرأى الصحيح أن سورة ﴿ الشورى ﴾ من السور المكية الخالصة . وقيل هى مكية إلا أربع آيات منها تبدأ من قوله - تعالى - : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾ .

ولكن هذا القيل لا يعتمد على دليل صحيح ، بل الصحيح أن السورة كلها مكية .

٢ - وتبدأ سورة الشورى ببيان أن الله - تعالى - قد أوحى إلى نبيه - ﷺ - كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، وببيان مظاهر قدرته - عز وجل - ، وأنه - تعالى - قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة .

قال - تعالى - : ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون مالهم من ولى ولا نصير ﴾ .

٣ - وبعد أن أنكر - سبحانه - على المشركين إشراكهم ، وساق الأدلة على بطلان هذا الشرك ، وأمر بالرجوع إلى حكم الله - تعالى - فيما اختلفوا فيه .

بعد كل ذلك بين - سبحانه - أن الشريعة التى جاء بها الأنبياء واحدة فى جوهرها ، وأن تفرق الناس فى عقائدهم ، مرجعه إلى بغيهم وأهوائهم .

قال - تعالى - : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ .

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر نعم الله - تعالى - على عباده ،

عن طريق ما أودع فيهم من عقول : وما أنزله لهم من شرائع ، وما حباهم به من أرزاق ... ووبخت الكافرين على كفرهم مع كل هذه النعم التى أنعم بها عليهم ، وبينت ما سيكونون عليه يوم القيامة من حسرة وندامة ، وما سيكون عليه المؤمنون الصادقون من فرح وحبور .

قال - تعالى - : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور ﴾ .

٥ - ثم واصلت السورة حديثها عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن ألوان نعمه على خلقه ، فتحدثت عن فضله - تعالى - فى قبوله لتوبة التائبين ، وعفوه عن سيئاتهم ، وإجابته لدعائهم وإنزاله الغيث عليهم من بعد قنوطهم ويأسهم ، وخلقه السموات والأرض وما فيهما من أجل مصلحة الناس ومنفعتهم ،ورعايته لهم وهم فى سفنهم داخل البحر .

قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بماكسبوا ويعف عن كثير ﴾ .

٦ - ثم بين - سبحانه - صفات المؤمنين الصادقين ، وأثنى عليهم ثناء عاطرا ، يحمل العقلاء على الاقتداء بهم ، وعلى التحلى بصفاتهم .

قال - سبحانه - : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ .

٧ - وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، أتبع القرآن هذه الصفات الكريمة للمؤمنين ، ببيان الأحوال السيئة التى سيكون عليها الظالمون يوم القيامة ، ودعتهم إلى الدخول فى الدين الحق من قبل فوات الأوان .

قال - تعالى - : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جانب من مظاهر فضله على رسوله - ﷺ - فقال :

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ .

٩ - ومن هذا العرض الإجمالى لآيات سورة الشورى . نراها زاخرة بالحديث عن الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

كما نراها زاخرة - أيضا - بالحديث عن نعم الله على عباده ، وعن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين وعن مشاهد يوم القيامة وما فيه من أهوال . وعن شبهات المشركين والرد عليها بما يدحضها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف
د . محمد سيد طنطاوى
١١ / ١٠ / ١٩٨٥

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

سورة « الشورى » من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن ذكرنا أن أقرب الأقوال الى الصواب فى المقصود بهذه الحروف ، أنها وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من أنه منزل من عند الله ، فهاتوا مثله أو عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله .. فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - :

وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيره لهذه السورة آثارا واهية ، رأينا أن نذكر بعضها للتنبيه على سقوطها .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد روى الإمام ابن جرير ها هنا أثرا غريبا عجيبا منكرا ، فقال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة ابن اليمان - أخبرنى عن تفسير قول الله - تعالى - : ﴿ حم عسق ﴾ . فأطرق ابن عباس ثم أعرض عنه .

فقال حذيفة للرجل : أنا أنبئك بها ، قد عرفتُ لم كرهها ؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له : « عبد الإله » أو عبد الله ، ينزل على نهر من أنهار الشرق ، تبنى عليه مدينتان ، يشق النهر بينهما شقا . فإذا أذن الله فى زوال ملكهم .. بعث الله على إحداهما نارا ليلا .. ثم بخسف الله - تعالى - بالأخرى فذلك قوله ﴿ حم . عسق ﴾ .

يعنى : عزيمة من الله وفتنة وقضاء حُمَّ ﴿ حم ﴾ ، وعين ، يعنى عدلا منه ، وسين : يعنى سيكون . وق ، يعنى : واقع بهاتين المدينتين ..[١] .

والكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك ﴾ بمعنى مثل ، واسم الإشارة يعود إلى ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من عقائد وأحكام وآداب .

أى : مثل ما فى هذه السورة الكريمة من دعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، أوحى الله به إليك وإلى الرسل من قبلك ، لتبلغوه للناس كى يعتبروا ويتعظوا .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة ، موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة ، على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق .

والكاف مفعول ﴿ يوحى ﴾ أى : يوحى مثل ما فى هذه السورة من المعانى .

وجىء بقوله : ﴿ يوحى ﴾ بدل ﴿ أوحى ﴾ للدلالة على استمراره فى الماضى ، وأن إيحاء مثله ، عادته - تعالى - :

و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان له - عز وجل -[٢] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ﴾[٣] .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى لذاته فقال : ﴿ له مافى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ﴾ .

أى : لقد أوحى الله - تعالى - إليك - أيها الرسول الكريم - بهذا القرآن كما أوحى إلى الرسل من قبلك بما شاء من وحى ، وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٧٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١١ .
(٣) سورة النساء آية ١٦٣ .

كل أقواله وأفعاله ، والذى له جميع ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا وتصرفا .. وهو - سبحانه - ﴿ العلى ﴾ أى : المتعالى عن الأشباه والانداد والأمثال والأضداد .

﴿ العظيم ﴾ أى : فى ذاته وفى صفاته ، وفى أفعاله .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر علو شأنه وكمال عظمته وجلاله فقال : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ .

والفعل ﴿ تكاد ﴾ مضارع « كاد » الذى هو من أفعال المقاربة . وقوله ﴿ يتفطرن ﴾ أى : يتشققن . والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ من فوقهن ﴾ يعود إلى السموات ، باعتبار أن كل سماء تنفطر فوق التى تليها .

وهذا التفطر سببه الخشية من الله - تعالى - ، والخوف من جلاله وعظمته فيكون المعنى : تكاد السموات يتشققن فيسقطن مع عظمهن ﴿ من فوقهن ﴾ أى : من أعلاهن ، خشية ورهبة من عظمته - عز وجل - ، كما قال - تعالى - ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ويصح أن يكون هذا التفطر سببه ، شدة الفرية التى افتراها المشركون على الله - تعالى - حيث زعموا أن لله ولدا ، كما قال سبحانه - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ﴿ من فوقهن ﴾ ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السموات ، وهى : العرش ، والكرسى ، وصفوف الملائكة ، المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - من آثار ملكوته العظمى ، فلذا قال : ﴿ يتفطرن من فوقهن ﴾ أى : يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية . أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات . فكان القياس أن يقال : من تحتهن ، من الجهة التى جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق . كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن ، دع الجهة التى تحتهن[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ مؤكد لما قبله من بيان علو شأنه - عز وجل - ، وسمو عظمته وجلاله .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٠٩ .

أى : والملائكة ينزهون ربهم - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله وكماله ، خوفا منه - سبحانه - ، ورهبة لذاته .

وقوله : ﴿ ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ معطوف على ﴿ يسبحون ﴾ . والمراد بمن فى الأرض : المؤمنون بصفة خاصة ، لأنهم هم الذين يستحقون ذلك ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ .

أى : أن الملائكة ينزهون الله - تعالى - عما لايليق به . ويطلبون للمؤمنين من أهل الأرض عفو الله - تعالى - ورحمته وغفرانه .

وقوله : ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : ألا إن الله - تعالى - وحده ، هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحاسبه على ما يفعل محاسب .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المشركين فقال : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ .

أى : والذين اتخذوا من دون الله - تعالى - شفعاء وشركاء ليقربوهم إليه زلفى ، الله - تعالى - وحده رقيب عليهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب يوم القيامة ، وما أنت - أيها الرسول الكريم - عليهم بحفيظ أو رقيب على أعمالهم ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزال هذا القرآن على الرسول - ﷺ - كما بين أنواعا من الأدلة عن كمال قدرته ، ووجوب إفراده بالعبادة والخضوع ، ووجوب التحاكم إلى شريعته عند الاختلاف والتنازع . فقال - تعالى - :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى
ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ
مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾
فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

والكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا .. ﴾ فى محل نصب على المصدرية ، واسم الإشارة يعود إلى مصدر ﴿ أوحينا ﴾ .

أى : ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح ، أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - قرآنا عربيا ، لا لبس فيه ولا غموض .

وقوله - سبحانه - ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ تعليل لهذا الإيحاء . والمراد بأم القرى : أهلها .

وسميت مكة بأم القرى ، لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل ، أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل أم القرى ، ولتنذر به - أيضا - من حولها من أهل القرى الأخرى .

وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر فى الإنذار ، لأنهم أقرب الناس إليه - ﷺ - كما قال - تعالى - فى آية أخرى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ .

وليس معنى هذا التخصيص أن رسالته - ﷺ - كانت إليهم وحدهم، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته - ﷺ - كانت إلى الناس كافة ، ومن هذه الآيات : وقوله - تعالى - : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن

لأنذركم به ومن بلغ ﴾ .

فهذه الآيات وغيرها تنطق وتشهد بأن رسالته - ﷺ - كانت للناس جميعا ، بل للإنس وللجن ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قُضِىَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين ﴾ .

وجملة ﴿ وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ﴾ معطوفة على ما قبلها . والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة ، لأنه اليوم الذى يجتمع فيه الأولون والآخرون بين يدى الله - تعالى - للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب .

أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل مكة ومن حولها ، وتنذر الناس جميعا وتخوفهم من أهوال يوم القيامة ، الذى يجتمع فيه الخلائق للحساب .

وقوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ كلام معترض لتقرير ما قبله وتأكيده ، أو صلة ليوم الجمع .

وقوله : ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ بيان للنتيجة التى ترتبت على هذا الإنذار .

أى : بعد هذا الإنذار الذى أنذرته للناس - أيها الرسول الكريم - هناك فريق آمن بك وصدقك فكان مصيره إلى الجنة ، وهناك فريق أعرض عنك وكذبك ، فكان مصيره إلى النار .

وقوله - تعالى - ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ﴾ بيان لكمال قدرته - عز وجل - .

أى : ولو شاء الله - تعالى - أن يجعل الناس أمة واحدة على الدين الحق لجعلهم كذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شيء ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب ، والمهتدى من الضال .

أما المهتدون فهم أهل رحمته ورضوانه ، وأما الضالون فهم أهل عذابه وغضبه فقوله - تعالى - ﴿ ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ﴾ بيان لمن عرفوا الدين الحق واتبعوه وقوله - سبحانه - : ﴿ والظالمون مالهم من ولى ولا نصير ﴾ بيان لمن استحبوا العمى على الهدى .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ﴾ أى : أنه - تعالى - يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ، ولا ريب فى أن مشيئته - تعالى - لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل فريق لعمله .

وقال : ﴿ والظالمون مالهم من ولى ولا نصير ﴾ ولم يقل ويدخل من يشاء فى عذابه ، للإيذان بأن الإدخال فى العذاب ، بسبب سوء اختيار الداخلين فيه[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٤ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾[٢] .

ثم أنكر - سبحانه - على أولئك الجاهلين اتخاذهم آلهة من دونه فقال : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ﴾ .

فأم بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، لإنكار وقوع الشرك منهم ونفيه بأبلغ وجه .

أى : أن ما فعله هؤلاء المشركون من اتخاذهم آلهة من دونه - تعالى - شىء منكر بلغ النهاية فى قبحه وفساده .

قال صاحب الكشاف : « معنى الهمزة فى ﴿ أم ﴾ الإنكار وقوله : ﴿ فالله هو الولى ﴾ أى : هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء فى قوله ﴿ فالله هو الولى ﴾ جواب شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه . أى : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولى بالحق ، لا ولى سواه[٣] .

﴿ وهو يحيى ﴾ الموتى أى : وهو - سبحانه - الذى فى قدرته إعادة الحياة إلى الموتى بعد موتهم .

﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ أى : وهو - تعالى - وحده الذى لا يعجز قدرته شىء ، وما دام الأمر كذلك ، فكيف اتخذ أولئك الجاهلون أولياء من دونه .

ثم وجه - سبحانه - أمره إلى نبيه - ﷺ - ، بأن يرشد المؤمنين إلى وجوب تحاكمهم إلى شريعته - تعالى - إذا ما دب خلاف بينهم ، أو بينهم وبين أعدائهم ، فقال : ﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ﴾ .

أى : عليكم أيها المؤمنون - إذا ما اختلفتم فى أمر من الأمور ، أن تحتكموا فيه الى شريعة الله - عز وجل - ، وأن تقبلوا عن إذعان وطاعة حكمه - تعالى - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا .. ﴾[٤] .

---

(١) سورة السجدة الآية ١٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٣٥ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢١١ .
(٤) سورة النساء الآية ٥٩ .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ يعود إلى الله - تعالى - الذى يجب أن يكون التحاكم إليه وحده عند الاختلاف .

أى : ذلك الحاكم العادل الذى لا حاكم بحق سواه ﴿ ربى ﴾ وخالقى ورازقى .. ﴿ عليه ﴾ وحده ﴿ توكلت ﴾ واعتمدت فى جميع شئونى ﴿ وإليه أنيب ﴾ أى : وإليه وحده أرجع فى كل أمورى .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى هو خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق ، من فطر الشىء إذا ابتدعه واخترعه دون أن يُسبَق إلى ذلك .

﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ﴾ أى : جعل لكم - سبحانه - بقدرته من جنس أنفسكم أزواجا ، أى : نساء تجمع بينكم وبينهن المودة والرحمة ، كما قال - تعالى - : ﴿ ومن اياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن الأنعام أزواجا ﴾ معطوف على ما قبله . أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، خلق - أيضا - للأنعام من جنسها إناثا ، ليحصل التوالد والتناسل والتعمير لهذا الكون .

وقوله - تعالى - ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ بيان للحكمة من هذا الجعل والخلق للأزواج .

والذرء : التكاثر والبث . يقال : ذرأ فلان الشىء ، إذا بثه وكثره .

والضمير المنصوب فى قوله ﴿ يذرؤكم ﴾ يعود إلى المخاطبين وإلى الأنعام ، على سبيل التغليب للعقلاء على غيرهم .

والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى التزاوج بين الذكور والإناث المفهوم من قوله - تعالى - : ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ﴾ .

أى : يكثركم وينميكم بسبب هذا التزاوج الذى يحصل بين ذكوركم وإناثكم حيث يتناسل - أحيانا - بين الذكر الواحد والأنثى الواحدة ، عدد كبير من الأولاد .

وقال - سبحانه - ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ ولم يقل يذرؤكم به أى : بسببه ، للأشعار بأن هذا التزاوج قد صار مثل المنبع والأصل للبث والتكثير .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ .

قال بعض العلماء : فإن قيل : ما وجه إفراد الضمير المجزور فى قوله ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ مع

أنه على ما ذكرتم ، يعود إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام ؟ .

فالجواب : أن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، رجوع الضمير بصيغة الإفراد إلى المثنى أو الجمع باعتبار ما ذكر .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ﴾ أى : يأتيكم بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم[1] .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن الشبيه أو النظير .. فقال ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ .

أى : ليس مثله شىء - تعالى - : لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فالكاف مزيدة فى خبر ﴿ ليس ﴾ و ﴿ شىء ﴾ اسمها . أى : ليس شىء مثله .

أو أن الكاف أصلية . فيكون المعنى : ليس مثله - تعالى - أحد لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال .

وذلك كقول العرب : مثلك لا يبخل ، يعنون : أنت لا تبخل على سبيل الكناية ، قصدا إلى المبالغة فى نفى البخل عن المخاطب بنفيه عن مثله ، فيثبت انتفاؤه عنه بدليله .

والمقصود من الجملة الكريمة على كل تفسير : تنزيهه - تعالى - عن مشابهة خلقه فى الذات أو الصفات أو الأفعال .

قال صاحب الكشاف : قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه .

ونظيره قولك للعربى : العرب لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك : أنت لا تخفر ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ أى : وهو - سبحانه - السميع لكل أقوال خلقه ، البصير بما يسرونه وما يعلنونه من أفعال .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أى : له وحده مفاتيح خزائنها ، وله وحده - أيضا - ملك هذه الخزائن ، لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها .

والمقاليد : جمع مقلاد أو أقليد وهو المفتاح .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ١٧٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢١٢ .

﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي : هو - سبحانه - الذى يوسع الرزق لمن شاء أن يوسعه له ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه .

﴿ إنه ﴾ - تعالى - : ﴿ بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله - تعالى - وكمال قدرته .

ثم أكد - سبحانه - الحقيقة التى افتتحت بها السورة الكريمة ، وهى وحدة الأديان فى جوهرها وأصولها ، وبين الأسباب التى أدت إلى اختلاف الناس فى عقائدهم ، وأرشد النبى - ﷺ - إلى أفضل الأساليب فى الدعوة إلى الحق ، فقال - تعالى - :

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ
وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قال الفخر الرازى : أعلم أنه - تعالى - لما عظم وحيه إلى نبيه محمد - ﷺ - بقوله : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك فقال : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا .. ﴾ .

أى : شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحا ومحمدا وإبراهيم وموسى وعيسى .. وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة ، والأتباع الكثيرة[1] .

والمراد بما شرعه - سبحانه - على ألسنة هؤلاء الرسل : أصول الأديان التى لا يختلف فيها دين عن دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة لله - تعالى - والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والتحلى بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف .

أما ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم ، وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل فى الأصول الثابتة فى جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال .

ويؤيد ذلك قوله - تعالى - : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - حكاية عن عيسى - عليه السلام - ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾[3] .

والمعنى : سن الله - تعالى - لكم - يا أمة محمد - ﷺ - من العقائد ومكارم الأخلاق ، ما سنه لنوح - عليه السلام - الذى هو أول أولى العزم من الرسل ، وأول أصحاب الشرائع الجامعة .

وشرع الله - تعالى - لكم - أيضا ما أوحاه إلى نبيه محمد - ﷺ - من آداب وأحكام وأوامر ونواه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٨٢ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٨ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٥٠ .

وشرع لكم كذلك ما وصى به - سبحانه - أنبياءه : إبراهيم وموسى وعيسى ، من وصايا تتعلق بوجوب طاعة الله - تعالى - ، وإخلاص العبادة له ، والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ تفصيل وتوضيح لما شرعه - سبحانه - لهؤلاء الكرام ، ولما أوصاهم به .

والمراد بإقامة الدين : التزام أوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل فى كل ما جاءوا به من عند ربهم طاعة تامة .

قال صاحب الكشاف : والمراد : إقامة دين الإسلام الذى هو توحيد الله - تعالى - وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه ، وبيوم الجزاء ، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما ، ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة . قال الله تعالى - ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

ومحل ﴿ أن أقيموا ﴾ إما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه ، وإما الرفع على الاستئناف ، كأنه قيل : وما ذلك المشروع ؟ فقيل : هو إقامة الدين .[1] .

أى : أوصاكم كما أوصى من قبلكم بالمحافظة على ما اشتمل عليه دين الإسلام من عقائد وأحكام وآداب .. وأصول أجمعت عليها جميع الشرائع الإلهية ، كما أوصاكم بعدم الاختلاف فى أحكامه التى لا تقبل الاختلاف أو التفرق .

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من الدين الحق فقال : ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ .

أى : شق وعظم على المشركين دعوتكم إياهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وإلى ترك ما ألفوه من شرك ، ومن تقاليد فاسدة ورثوها عن آبائهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ بيان لكمال قدرته - تعالى - ونفاذ مشيئته . والاجتباء : الاصطفاء والاختيار . أى : الله - تعالى - بإرادته وحكمته يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويهدى إلى الحق من ينيب إليه ، ويرجع إلى طاعته - عز وجل - ويقبل على عبادته .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت إلى اختلاف المختلفين فى أمر الدين ، وإلى تفرقهم شيعا وأحزابا فقال . ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢١٥ .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال والضمير فى قوله ﴿ تفرقوا ﴾ يعود على كل الذين اختلفوا على أنبيائهم ، وأعرضوا عن دعوتهم .

وقوله ﴿ بغيا ﴾ مفعول لأجله ، مبين السبب الحقيقى للتفرق والاختلاف .

أى : وما تفرق المتفرقون فى أمر الدين . وأعرضوا عما جاءتهم به رسلهم ، فى كل زمان ومكان ، إلا من بعد أن علموا الحق ، ووصل إليهم عن طريق أنبيائهم ، ولم يحملهم على هذا التفرق والاختلاف إلا البغى الذى استولى على نفوسهم ، والحسد لرسل الله - تعالى - على ما آتاهم الله من فضله .

فقوله - تعالى - : ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ زيادة فى ذمهم ، فإن الاختلاف بعد العلم ، أدعى إلى الذم والتحقير ، لأنه يدل على أن هذا الاختلاف لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم وإصرار على الباطل .

وقوله - تعالى - ﴿ بغيا بينهم ﴾ زيادة أخرى تحمل كل عاقل على احتقارهم ونبذهم ، لأن هذه الجملة الكريمة تدل على أن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان الدافع إليه ، البغى والحسد والعناد .

أى : أن اختلافهم على أنبيائهم كان الدافع إليه الظلم وتجاوز الحد ، والحرص على شهوات الدنيا ولذائذها ، والخوف على ضياع شىء منها من بين أيديهم .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ورحمته بهذه الأمة فقال : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ﴾ .

والمراد بهذه الكلمة : ما وعد الله - تعالى - : نبيه - ﷺ - من أنه لن يهلك أمته بعذاب يستأصل شأفتهم ، كما أهلك قوم نوح وغيرهم ، ومن أنه - تعالى - سيؤخر عذابهم إلى الوقت الذى يختاره ويشاؤه - سبحانه - .

أى : ولولا كلمة سبقت من ربك - أيها الرسول الكريم - ، بعدم إهلاكهم بعقوبة تستأصل شأفتهم ، وبتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى فى علمه - تعالى - لقضى بينهم بقطع دابرهم بسبب هذا الاختلاف الذى أدى بهم إلى الإعراض عن دعوتك ، وإلى عكوفهم على كفرهم .

﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ﴾ وهم أهل الكتاب المعاصرين لك من اليهود والنصارى ﴿ من بعدهم ﴾ أى : من بعد الذين سبقوهم فى الاختلاف على أنبيائهم .

﴿ لفى شك منه مريب ﴾ أى : لفى شك من هذا القرآن . ومن كل ما جئتهم به من عند

ربك ، هذا الشك أوقعهم فى الريبة وقلق النفس واضطرابها وتذبذبها ، ولذلك لم يؤمنوا بما جئتهم به من عند ربك .

ثم حض - سبحانه - نبيه - ﷺ - على المضى فى دعوته فقال : ﴿ فلذلك فادع ﴾ .

واسم الإشارة يعود إلى ما سبق الحديث عنه من ذم التفرق ، ومن الأمر بإقامة الدين ، أى : فلأجل ما أمرناك به من دعوة الناس إلى إقامة الدين وإلى النهى عن الاختلاف والتفرق ، من أجل ذلك فادع الناس إلى الحق الذى بعثناك به ، وإلى جمعهم على كلمة التوحيد ، التى تجعلهم يعيشون حياتهم آمنين مطمئنين .

﴿ واستقم كما أمرت ﴾ أى : واستقم على الصراط الذى كلفناك بالسير على نهجه ، والزم المنهج القويم الذى أمرناك بالتزامه .

﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ أى : ولا تتبع شيئا من أهواء هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا .

﴿ وقل ﴾ لهم بكل ثبات وقوة ﴿ آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أى : آمنت بكل ما أنزله - تعالى - من كتب سماوية . فالمراد بالكتاب : جنسه .

﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أى : وأمرنى ربى أن أعدل بينكم فى الحكم عند رفع قضاياكم إلىّ ، فإن العدل شريعة الله تعالى .

﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أى : الله - تعالى - وحده هو الخالق لنا ولكم ، وهو المنعم علينا وعليكم بالنعم التى لا تحصى .

﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أى : لنا أعمالنا التى سيحاسبنا الله عليها يوم القيامة ، ولكم أنتم أعمالكم التى ستحاسبون عليها ، فنحن لا نسأل عن أعمالكم وأنتم لا تسألون عن أعمالنا .

﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أى : لا احتجاج ولا خصومة بيننا وبينكم ، لأن الحق قد ظهر ، فلم يبق للجدال أو الخصام حاجة بيننا وبينكم .

﴿ الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ أى . الله - تعالى - يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة ، وإليه وحده ، مصيرنا ومصيركم ، وسيجازى كل فريق منا ومنكم بما يستحقه من جزاء .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر جمل ، هذه الجمل الكريمة قد جاءت بأسمى ألوان الدعوة إلى الله - تعالى - بالحكمة والموعظة الحسنة .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يجادلون بالباطل فقال : ﴿ والذين يحاجون فى الله

من بعدما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ .

وقوله : ﴿ داحضة ﴾ من الدحض بمعنى الزلل والزوال . وأصله : الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام . يقال : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت .

أى : والذين يخاصمون فى الله . أى : فى دينه وشريعته ، ﴿ من بعدما استجيب له ﴾ أى : من بعد أن استجاب العقلاء من الناس لهذا الدين الحق ، واتبعوا رسوله .

﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أى : حجة هؤلاء المجادلين بالباطل ، زائلة وزاهقة ﴿ وعليهم غضب ﴾ لا يقادر قدره من ربهم ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - حال الكافرين والمؤمنين بالنسبة ليوم القيامة ، كما بين جانبا من فضله على عباده ، ومن رحمته بهم ، فقال - تعالى - :

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ
﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن
نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ جنسه أى : جميع الكتب السماوية التى أنزلها على أنبيائه .

والمراد بالميزان : العدل والقسط الذى تضمنته شريعته - عز وجل - ، وأمر الناس بإقامته بينهم فى أمور معاشهم .

وتسمية العدل بالميزان من باب تسمية الشىء باسم آلته ، لأن الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس فى معاملاتهم .

قال - تعالى - : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . أن لا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ .

أى : الله - تعالى - هو وحده الذى أنزل جميع الكتب السماوية لهداية الناس ومنفعتهم ، وقد أنزلها - سبحانه - ملتبسة بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وأنزل كذلك شريعته العادلة ليتحاكم إليها الناس فى قضاياهم ومعاملاتهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ إرشاد إلى أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - : .

أى : إن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده ، وأى شىء يجعلك عالما بوقتها إذا كان مرد علمها إلى الله وحده ، ومع ذلك لعل وقت قيامها قريب .

وقال : ﴿ قريب ﴾ ولم يقل قريبة ، لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، أو لأن لفظ فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا ، مشفقون منها .. ﴾ بيان لموقف الكافرين والمؤمنين من الساعة .

أى : يستعجل الكافرون قيام الساعة ، استعجال استهزاء وإستخفاف لجهلهم وإنطماس بصائرهم ، أما الذين آمنوا بالله واليوم الآخر . فهم خائفون مشفقون من قيامها ، لما فيها من أهوال وحساب وثواب وعقاب ، ولأنهم لا يدرون ما الذى سيفعله الله - تعالى - بهم .

فقوله - تعالى - ﴿ مشفقون ﴾ من الإشفاق ، وهو عناية مشوبة بخوف ، لأن المشفق

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٥ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦٣ .

يحب المشفق عليه ، ويخاف ما يلحقه . فإذا عدى بحرف « من » فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدى بحرف « فى » فمعنى العناية فيه أظهر .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ تأكيد لإيمان المؤمنين بها ، ومدح لهم على هذا الإيمان .

أى : أن المؤمنين وجلون من الساعة لما فيها من حساب .. ومع ذلك فهم لصدق يقينهم يعتقدون أنها آتية لا ريب فيها ، ويستعدون لاستقبالها بالإيمان العميق ، وبالعمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .

ثم وبخ - سبحانه - الذين يشكون فى البعث والنشور فقال : ﴿ ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ .

وقوله : ﴿ يمارون ﴾ من المماراة بمعنى المجادلة والمخاصمة . يقال : مارى فلان فى الشىء يمارى مراء ومماراة ، إذا خاصم وجادل .

أى : ألا إن الذين يخاصمون فى قيام الساعة خصام شك وريبة ، لفى ضلال بعيد عن الحق ، وفى ذهول شديد عن الصواب ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء ، ولأن حكمته قد اقتضت أن يجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - أنه رءوف رحيم بعباده فقال : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أى : حفى بهم ، عطوف عليهم ، يفيض عليهم جميعا من صنوف بره مالا تحصيه العقول ، ومن مظاهر ذلك أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ، مع مجاهرتهم بمعصيته ، وأنه يرزقهم جميعا مع أن أكثرهم لا يشكرونه على نعمه .

وقوله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أى : يبسط رزقه ويوسعه لمن يشاء من خلقه ﴿ وهو ﴾ سبحانه ﴿ القوى العزيز ﴾ أى : وهو العظيم القوة الغالب على كل من سواه .

ثم حكى - تعالى - سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ﴾ .

والحرث فى الأصل : مصدر بمعنى إلقاء البذور فى الأرض ، لتنبت ما ينفع الناس من زرع . والمراد به ثمرات الأعمال ونتائجها ، تشبيها لها بثمرات البذور .

والمعنى : من كان يريد من الناس بأعماله ثواب الآخرة ، ورضا الله - تعالى - ضاعف الله - عز وجل - له الأجر والثواب والعطاء .

﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ أى : ومن كان يريد بعمله شهوات الدنيا نؤته منها ،

ما قدرناه له من حطامها وزخارفها .

﴿ وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ أى : وليس له فى الآخرة نصيب من خيراتها الباقية ، ونعيمها الدائم .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم ، وقارنت بين مصيرهم السىء ، وبين المصير الطيب الذى وعد الله به المؤمنين .. فقال - تعالى - :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾
ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(١) سورة الإسراء الآيات من ٢٨ ، ٣١ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أى : ألهم ، والميم صلة الهمزة للتقريع .

وهذا متصل بقوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ . كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله ؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به[1] .

فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب ، وتؤنبهم على جهالتهم حيث أشركوا بالله - تعالى - : دون أن يكون عندهم دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل .

والمراد بكلمة الفصل فى قوله - تعالى - : ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ﴾ ما تفضل به - سبحانه - من تأخير العذاب الماحق عنهم .

أى : ولولا حكمنا بتأخير العذاب عنهم - فضلا منا وكرما - لقضى الأمر بين هؤلاء الكافرين وبين المؤمنين ، بأن أهلكنا الكافرين واستأصلنا شأفتهم فى الدنيا ، ولكن شاء ربك أن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة .

﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ فى الآخرة ، بسبب إصرارهم على ظلمهم وموتهم على الكفر والشرك .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم السيئة يوم القيامة تصويرا مؤثرا فقال : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ﴾ .

أى : ترى - أيها العاقل - هؤلاء الظالمين يوم القيامة ﴿ مشفقين مما كسبوا ﴾ أى خائفين خوفا شديدا ، بسبب ما اكتسبوه فى الدنيا من سيئات على رأسها الكفر ، وهذا الذعر الشديد لن ينفعهم ، فإن العذاب واقع بهم لامحالة ، سواء أخافوا أم لم يخافوا .

وقوله - تعالى - : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم .. ﴾ بيان للثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - لعباده المؤمنين .

والروضات : جمع روضة ، وهو أشرف بقاع الجنة وأطيبها وأعلاها .

أى : هذا هو مصير الظالمين يوم القيامة ، أما الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ١٩ .

الصالحات ، فهم يوم القيامة يكونون فى أشرف بقاع الجنات وأطيبها وأسماها منزلة ، حالة كونهم لهم ما يشاءون من خيرات عند ربهم .

﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أى : الذى أعطيناه للمؤمنين من خيرات ، هو الفضل الكبير الذى لا يعادله فضل ، ولا يماثله كرم .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

أى : ذلك الفضل الكبير ، هو البشارة العظمى ؛ والعطاء الجزيل ، الذى يمنحه الله - تعالى - يوم القيامة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

قال الآلوسى قوله : ﴿ ذلك ﴾ أى : الفضل الكبير ، أو الثواب المفهوم من السياق ، هو ﴿ الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى : يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول ، كما هو عادتهم فى التدريج فى الحذف ولا مانع من حذفهما دفعة . وجوز كون ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التبشير المفهوم من « يبشر » .. أى : ذلك التبشير يبشره الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يؤكد لأولئك المشركين من قومه ، أنه لا يسألهم أجرا على دعوته ، وإنما يسألهم المودة والمعاملة الحسنة لقرابته منهم فقال : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾ .

والضمير المجرور فى ﴿ عليه ﴾ يعود إلى التبليغ والتبشير والإنذار الذى يفعله الرسول - ﷺ - معهم ﴿ والقربى ﴾ مصدر كالقرابة والخطاب لكفار قريش .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال : أولها : أن المراد بالقربى : الصلة والقرابة التى تربط بين الرسول وبين كفار قريش .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين إنى لا أسألكم على التبليغ أجرا ، لكن أسألكم أن تودونى لقرابتى فيكم ، فتكفوا عنى أذاكم ، وتمنعوا عنى أذى غيركم ، وتستجيبوا لدعوتى ، فإن صلةالقرابة والرحم التى بينى وبينكم توجب عليكم ذلك .

فالقربى هنا : بمعنى القرابة وصلة الرحم . و ﴿ فى ﴾ للسببية بمعنى لام التعليل كما جاء فى الحديث الشريف : « دخلت امرأة النار فى هرة » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٣٠ .

ولاشك أن منع أذاهم عنه - ﷺ - بسبب قرابته فيهم ليس أجرا .

وثانيها : أن المراد بالقربى هنا : أقاربه وعشيرته وعترته فيكون المعنى لا أسألكم أجرا على دعوتى لكم إلى الخير والحق ، ولكن أسألكم أن تحفظونى فى قرابتى وأهل بيتى ، بأن تحسنوا إليهم ولا تؤذوهم بأى نوع من الأذى .

ولا شك - أيضا - أن إحسانهم إلى أقاربه ، ليس أجرا منهم له على ذلك لأن الإحسان إلى الناس ، شىء قررته جميع الشرائع وتقتضيه مكارم الأخلاق .

وثالثها : أن المراد بالقربى هنا : التقرب إلى الله - تعالى - بالإيمان والعمل الصالح .

أى : لا أسألكم على التبليغ أجرا ، ولكن أسألكم أن تتقربوا إلى الله - تعالى - بما يرضيه بأن تتركوا الكفر والفسوق والعصيان ، وتدخلوا فى الإيمان والطاعة لله - تعالى - .

وهذا الذى طلبه منهم ، ليس أجرا على التبليغ ، لأن التقرب إلى الله بالطاعات فرض عليهم . وقد رجح العلماء القول الأول ، واستدلوا على هذا الترجيح بأحاديث منها : ما رواه البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن معنى قوله - تعالى - ﴿ إلا المودة فى القربى ﴾ ، فقال سعيد بن جبير : « قربى آل محمد » فقال ابن عباس : عَجِلت . إن النبى - ﷺ - لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

وقال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث وغيره ، وبهذا الرأى قال مجاهد وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغيرهم[1] .

وقال الإمام ابن جرير - بعد أن ساق هذه الأقوال - وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، وأشبهها بظاهر التنزيل ، قول من قال معناه : لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش ، إلا أن تودونى فى قرابتى منكم ، وتصلوا الرحم التى بينى وبينكم .

وإنما قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية ، لدخول ﴿ فى ﴾ فى قوله : ﴿ إلا المودة فى القربى ﴾ .

ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال إلا أن تودوا قرابتى ، أو تتقربوا إلى الله ، لم يكن لدخول ﴿ فى ﴾ فى الكلام فى هذا الموضع وجه معروف ولكان التنزيل إلا مودة القربى ، إن عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله - ﷺ - أو إلا المودة بالقربى إن عنى به الأمر بالتودد والتقرب إلى الله - تعالى - .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٨٧ .

وفى دخول ﴿ فى ﴾ فى الكلام أوضح الدليل على أن معناه إلا مودتى فى قرابتى منكم[١] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده فقال : ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور ﴾ .

وقوله ﴿ يقترف ﴾ من القرف بفتح القاف وإسكان الراء . بمعنى الكسب ، يقال : فلان يقرف لعياله ، أى : يكسب لهم ما يكفيهم لأمور معاشهم .

ومن يكتسب حسنة يبغى بها التقرب إلى الله تعالى ، نضاعف له - بفضلنا وإحساننا - ثوابها ، إن الله تعالى واسع المغفرة لعباده . كثيرالشكر للطائعين بأن يعطيهم من فضله أكثر مما يستحقون ويرجون .

ثم عادت السورة إلى توبيخ الكافرين على كذبهم وعنادهم ، فقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ .

أى : بل أيقولون إن محمدا - ﷺ - قد افترى على الله - تعالى - كذبا فيما يدعونا إليه ، وفيما يتلوه علينا من قرآن ؟

ثم أجاب - سبحانه - عن افترائهم هذا بقوله : ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ أى : فإن يشأ الله - تعالى - يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب ، لأن افتراء الكذب على الله لا يكون إلا ممن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وأنت أيها الرسول الكريم مبرأ ومنزه عن ذلك .

فالمقصود من الجملة الكريمة تنزيه ساحة الرسول - ﷺ - عما قاله المشركون فى شأنه ، وإثبات أن افتراء الكذب . إنما هو من شأنهم لا من شأنه - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ أى : فإن يشأ الله - تعالى - يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب ، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حالهم .

وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه فى البعد مثل الشرك بالله ، والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا : أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى ، لعل الله أعمى قلبى ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب ، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم .[٢] .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٥ ص ١٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٢٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ : كلام مستأنف غير داخل فى جواب الشرط ، لأنه - تعالى - يمحو الباطل مطلقا ، وسقطت الواو من الفعل ﴿ يمح ﴾ لفظا لالتقاء الساكنين ، وخطا حملا له على اللفظ ، كما كتبوا ﴿ سندع الزبانية ﴾ فهو مرفوع لا مجزوم ، ويؤيده عطف ﴿ ويحق ﴾ المرفوع عليه .

أى : من شأن الله - تعالى - أن يمحو الباطل ، وأن يثبت الحق بكلماته الفاصلة ، وقضائه العادل ، كما قال - تعالى - : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ .

﴿ إنه ﴾ سبحانه - ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ أى : مطلع على ما تخفيه الصدور من أسرار ونوايا ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ثم تحدثت السورة الكريمة عن دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق بحياتهم ومعاشهم ، وفيما يتعلق بمظاهر لطفه بهم ،وفضله عليهم ، فقال - تعالى - :

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ
وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ
لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟
وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِى الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ
الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

قال الجمل فى حاشيته : قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ قال ابن عباس : يريد أولياءه وأهل طاعته . والتوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كان معصية بين العبد وربه فلها ثلاثة شروط : الإقلاع عن المعصية ، والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها .

وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمى ، أضيف إلى ذلك : أن يبرأ من حق صاحبها ..[1]

والمعنى : وهو - سبحانه - وحده الذى يقبل التوبة من عباده التائبين إليه ، شفقة عليهم ، ورحمة بهم ، بأن يكفر سيئاتهم ، ولا يعاقبهم عليها .

والقبول يعدى بعن ، لتضمنه معنى الإبانة والقطع ، ويعدى بمن لتضمنه معنى الأخذ كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾.

وعدى بعن هنا للإشارة إلى تجاوزه سبحانه عن خطايا عباده .

وقوله - تعالى - ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ تأكيد لما قبله وتقرير له أى : أنه عز وجل يقبل التوبة من عباده التائبين ، وفضلا عن ذلك ، يعفو عن سيئاتهم ، ويسترها عليهم ، بل

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٦٣ .

ويحوها - بفضله إلى حسنات ، كما قال - تعالى - ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾.

وقوله - سبحانه - ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ تحذير من التمادى فى تأخير التوبة ، وفى اقتراف ما نهى عنه ، فكأنه - تعالى - يقول : لقد فتحت لكم باب التوبة والعفو ، فأقبلوا على طاعتى ، واتركوا معصيتى ، فإنى عليم بما تفعلونه من خير أو شر ، وسأجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ موصولة ، والعائد محذوف . أى : ويعلم الذى تفعلونه دون أن يخفى عليه - تعالى - شىء منه .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .. ﴾ معطوف على قوله : ﴿ يقبل التوبة عن عباده ﴾ .

أى : ويستجيب سبحانه من الذين آمنوا دعاءهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه ، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما سألوا .

قال الآلوسى ما ملخصه : والموصول مفعول بدون تقدير شىء ، بناء على أن ﴿ يستجيب ﴾ يتعدى بنفسه ، كما يتعدى باللام ، نحو شكرته وشكرت له ، أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال ، والأصل : ويستجيب للذين آمنوا ..[١] .

﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ أى : هذا هو حال المؤمنين يجيب لهم - سبحانه - دعاءهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه .. أما الكافرون الذين ستروا نعمه ، وجحدوا فضله ، فلهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - جانبا مما اقتضته حكمته فى تدبير أمور عباده فقال : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ .

والبغى : تجاوز الحد فى كل شىء يقال : بغى الجرح ، إذا أظهر ما بداخله من دم أو غيره .

وبغى القوم ، إذا تجاوزوا حدودهم فى العدوان على غيرهم .

أى : ولو بسط الله - تعالى - الرزق لعباده ، بأن وسعه عليهم جميعا توسعة فوق حاجتهم ، ﴿ لبغوا فى الأرض ﴾ أى : لتجاوزوا حدودهم ، ولتكبروا فيها ، ولطغوا وعتوا وتركوا الشكر لنا ، وقالوا ما قاله قارون : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٣٧ .

وقوله : ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ بيان لما اقتضته حكمته - تعالى - أى : أن حكمته - تعالى - قد اقتضت عدم التوسعة فى الرزق لجميع عباده ، لأن هذه التوسعة تحملهم على التكبر والغرور والبطر ، لذا أنزل الله - تعالى - لهم الرزق بتقدير محدد اقتضته حكمته ومشيئته ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ تعليل لتنزيله الرزق على عباده بتقدير وتحديد دقيق .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من إنزال الرزق على عباده بقدر ، لأنه - تعالى - خبير بخفايا أحوال عباده ، وبطوايا نفوسهم ، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه .

قال صاحب الكشاف : أى أنه - تعالى - يعلم ما يؤول إليه حالهم ، فيقدر لهم ما هو أصلح لهم ، وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية ، ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

ولا شبهة فى أن البغى مع الفقر أقل ، ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغى والإحجام عنه ، فلو عم البسط ، لغلب البغى حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن[1] .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وكلها تدل على وحدانيته وكمال قدرته فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ .

أى : وهو - سبحانه - الذى ينزل المطر على عباده ، من بعد أن انتظروه فترة طويلة حتى ظهرت على ملامحهم علامات اليأس ، وبدأت على وجوههم أمارات القنوط .

وقوله - تعالى - : ﴿ وينشر رحمته ﴾ معطوف على ﴿ ينزل ﴾ . أى : ينزل الأمطار بعد يأس الناس من نزولها ، وينشر رحمته عليهم عن طريق ما ينتج عن هذه الأمطار من خيرات وبركات وأرزاق .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ الولى ﴾ أى : الذى يتولى عباده برحمته وإحسانه ﴿ الحميد ﴾ أى : المحمود على فعله ، حيث أنزل على عباده الغيث بعد أن يئسوا منه ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تصور جانبا من فضل الله على عباده بطريقة محسوسة ، فالتعبير بالغيث يشعر بالغوث والنجدة بعد أن فقد الناس الأمل فى ذلك ، والتعبير بالقنوط

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٢٤ .

يشعر بأن آثار الضيق قد ظهرت على وجوههم ، والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ وينشر رحمته ﴾ ، يشعر بانتشار الرجاء والفرح والانشراح على الوجوه بعد أن حل بها القنوط .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ وهو الولى الحميد ﴾ يشعر بقرب الله - تعالى - من عباده ، وبوجوب شكره على ما أعطى بعد المنع ، وعلى ما فرج بعد الضيق .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان كمال قدرته فقال : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ .

والمراد بالآيات هنا : الدلائل والعلامات الواضحة الدالة على كمال قدرته - عز وجل - .

وقوله : ﴿ وما بث ﴾ معطوف على ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ .

أى : ومن العلامات الناصعة الدالة على كمال قدرته - تعالى - خلقه للسموات وللأرض بتلك الصورة الباهرة البديعة التى نشاهدها بأعيننا ، وخلقه - أيضا - لما بث فيهما من دابة ، ولما نشر وفرق فيهما من دواب لا يعلم عددها إلا الله - تعالى - .

والدابة : اسم لكل ما يدب على وجه الأرض أو غيرها . وظاهر الآية الكريمة يفيد وجود دواب فى السموات .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ﴿ فيهما من دابة ﴾ والدواب فى الأرض وحدها ؟ .

قلت : يجوز أن ينسب الشىء إلى جميع المذكور وإن كان متلبسا ببعضه كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد ، أو شجاع بطل ، وإنما هو فى فخذ من أفخاذهم .

ويجوز أن يكون للملائكة - عليهم السلام - مشى مع الطيران ، فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسى ، ولا يبعد أن يخلق - سبحانه - فى السموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسى على الأرض ، سبحان الذى خلق ما نعلم وما لانعلم من أصناف الخلق .[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ بيان لكمال قدرته - عز وجل - .

أى : وهو - سبحانه - قادر قدرة تامة على جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء .

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٥٥ .

ثم بين - سبحانه - أن ما يصيب الناس من بلاء إنما هو بسبب أعمالهم فقال : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

أى: وما أصابكم - أيها الناس - من بلاء، كمرض وخوف وفقر فإنما هو بسبب ما اكتسبتموه من ذنوب، وما اقترفتموه من خطايا، ويعفو - سبحانه - عن كثير من السيئات التى ارتكبتموها، فلا يحاسبكم عليها رحمة منه بكم .

قال - تعالى - ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة .. ﴾[1] .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث والآثار منها ما رواه ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله، وحدثنا بها رسول - ﷺ - قال:

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وسأفسرها لك ياعلى: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله - تعالى - أحلم من أن يثنى عليه العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه »[2] .

ثم حذر - سبحانه - الناس من عقابه فقال: ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ .

أى: وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على الهرب منا فى أى مكان من الأرض أو فى غيرها، لأن قدرتنا لا يعجزها أن تأتى بكم من أى مكان كنتم فيه، وليس لكم غير الله - تعالى - من ولى يتولى أموركم، أو نصير يدفع عنكم عذابه .

قال - تعالى -: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من دلائل قدرته عن طريق ما يشاهده الناس فى البحر، فقال - تعالى -: ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾ .

والجوار: جمع جارية والمراد بها السفينة لأنها تجرى فى البحر، وهى صفة لموصوف محذوف .

والأعلام: جمع علم وهو الجبل الكبير، وأصله الأثر الذى يعلم به الشىء كعلم الطريق، وعلم الجيش، وسمى علما لأن الناس يسترشدون به فى سيرهم .

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٩٥ .

أى: ومن آياته – سبحانه – الدالة على كمال قدرته، هذه السفن الجارية فى البحر، حتى لكأنها من ضخامتها وعظمها الجبال الشاهقة.

﴿ إن يشأ ﴾ – سبحانه – ﴿ يسكن الريح ﴾ التى بسببها تجرى السفن فى البحار ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ أى: فيصرن ثوابت على ظهر البحر لا يجرين. يقال: ركد الماء ركودا – من باب قعد – إذا سكن، فهو راكد. وكل شىء ثابت فى مكانه فهو راكد.

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم من السفن المسخرة فى البحر بأمره – تعالى – ﴿ لآيات ﴾ عظيمات ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أى: لكل إنسان قد تحلى بصفتى الصبر والشكر لله – تعالى –، حتى صارتا هاتان الصفتان سجية من سجاياه .. ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أى أو يهلكهن ويغرقهن بسبب ما اكتسبه الراكبون فى هذه السفن من ذنوب وخطايا.

يقال: أوبق فلان فلانا إذا حبسه أو أهلكه. ووبق فلان – كوعد ووجل، وبوقا إذا هلك.

وهو معطوف على قوله « يسكن » وكذلك قوله « ويعفو ».

أى: إن يشأ – سبحانه – يسكن الريح فتظل السفن ساكنة على ظهر البحر، أو إن يشأ يرسل الريح عاصفة بتلك السفن بمن فيها، أو إن يشأ ينج ناسا بالعفو عنهم.

قال صاحب الكشاف: « يوبقهن » يهلكهن. والمعنى: أنه إن يشأ يبتلى المسافرين فى البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجوارى على ظهر البحر، ويمنعهن من الجرى، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿ ويعف عن كثير ﴾ منها.

فإن قلت: علام عطف « يوبقهن » قلت: على « يسكن » لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها.

فإن قلت: فما معنى إدخال العفو فى حكم الإيباق حيث جزم جزمه ؟ قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم.

فإن قلت: فمن قرأ « ويعفو » ؟ قلت: قد استأنف الكلام »[1].

ثم بين – سبحانه – أن علمه شامل لكل شىء فقال: ﴿ ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص ﴾ والمحيص: المهرب والمنجى من العذاب. يقال: حاص فلان عن الشىء، إذا حاول الفرار منه.

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٢٧.

وقراءة الجمهور بنصب « يعلم » على أنه منصوب على فعل مقدر . أى: فعل ما فعل - سبحانه - لينتقم من الظالمين، وليعلم الذين يجادلون فى آياتنا الدالة على وحدنيتنا وقدرتنا .. أنهم لا محيص لهم ولا مهرب من عذابنا، بسبب جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق .

ثم بين - سبحانه - أن متاع الدنيا مهما كثر فهو إلى زوال، فقال: ﴿ فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ... ﴾ أى: فما أعطيتم من شىء من متع الحياة الدنيا كالغنى والصحة والجاه . فإنما هو متاع زائل من متع الحياة الدنيا .

﴿ وما عند الله ﴾ من عطاء وثواب فى الآخرة . خير وأبقى، أى: هو خير فى ذاته من متاع الحياة الدنيا، وأبقى منه زمانا حيث لا يزول ولا يفنى .

وقوله ﴿ للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ متعلق بقوله ﴿ خير وأبقى ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه لكم من نعم الآخرة خير وأبقى، للذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ؛ وللذين هم يتوكلون ولا يعتمدون إلا على ربهم وحده، لا على غيره أصلا .

* * *

وبعد هذا البيان المفصل للبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، وللنعم التى أسبغها - سبحانه - على عباده ... بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان الصفات الطيبة والمناقب الحميدة، التى وفق الله - تعالى - عباده المؤمنين للتحلى بها، فقال:

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ
الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش .. ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أو بدل منه .

وكبائر الإثم: هى الذنوب الكبيرة التى يترتب عليها إقامة الحد على فاعلها أو الوعيد الشديد من الله - تعالى - لمرتكبها، كقتل النفس، وتعاطى الربا، وما يشبه ذلك من الكبائر .

والفواحش: جمع فاحشة، وهى من جملة كبائر الإثم، إلا أن الله - تعالى - خصها بالذكر من باب عطف الخاص على العام، اهتماما وأكثر ماتطلق الفواحش على جريمة الزنا .

كما قال - تعالى -: ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

والمعنى: وما عند الله - تعالى - من ثواب فى الآخرة خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وللذين يجتنبون ارتكاب كبائر الآثام، كقتل النفس، وأكل أموال الناس بالباطل، ويجتنبون كذلك مافحش وعظم قبحه من الذنوب، كالزنا والبخل بما آتاهم الله من فضله ..

وليس المراد من هذه الآية الكريمة فتح الباب لارتكاب صغائر الآثام والذنوب، بل المراد بيان فضل الله - تعالى - على عباده، ورحمته بهم، وبيان أن اجتناب كبائر الإثم والفواحش، يؤدى - بفضل الله وكرمه - إلى غفران صغائر الذنوب، كما قال - تعالى -: ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾[1] .

وقوله - سبحانه -: ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ صفة أخرى من صفاتهم الكريمة .

أى: ما عند الله خير وأبقى، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وللذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وللذين من صفاتهم - أيضا - أنهم يتجاوزون عن الشخص الذى أغضبهم، ويصفحون عنه، ويحلمون عليه .

وخص حالة غضبهم بالغفران، لأن هذه الحالة لا يقدر عليها إلا أصحاب العزائم القوية، إذ من المعروف أن الإنسان فى حالة غضبه، كثيرا ما يفقد صوابه، ويغلب عليه عدم السيطرة على مشاعره، فإذا ما استطاع أن يكظم غيظه فى حالة غضبه، كان ذلك دليلا على قوة إيمانه وعلى ملكه لنوازع نفسه .

قال صاحب الكشاف: « هم يغفرون » أى: هم الأخصاء بالغفران فى حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس. والمجىء بلفظ « هم » وإيقاعه مبتدأ وإسناد

---

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية فى سورة النساء ص ١٢٨ .

« يغفرون » إليه ، لهذه الفائدة ، ومثله « هم ينتصرون »[١] .

ثم ذكر - سبحانه - صفات كريمة لهم فقال : ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ أى : أطاعوه فى كل ما أمرهم به ، أو نهاهم عنه ..

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أى : حافظوا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أى : شأنهم أنهم إذا حدث بينهم أمر هام يحتاج إلى المراجعة والمناقشة ، تجمعوا وتشاوروا فيما هو أنفع وأصلح .

قال القرطبى ما ملخصه : « قوله - تعالى - : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أى : يتشاورون فى الأمور .

والشورى مصدر شاورته - والتشاور : استخراج الرأى من الغير ..

قال الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم .

وقال ابن العربى : الشورى : ألفة للجماعة ، ومسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب .

وقد قال الشاعر الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى لبيب أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم[٢]

وقد كان الرسول - ﷺ - يستشير أصحابه فى الأمور التى تتعلق بالحروب وما يشبهها من الأمور الدنيوية ، ولم يكن يشاورهم فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله - تعالى - .

فأما الصحابة فكانوا يتشاورون فى الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة ، فقد تشاوروا فى الخلافة بعد موت الرسول - ﷺ - وفى ميراث الجد ، وفى حروب المرتدين[٣] .

وقوله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى ومن صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين - أيضا - أنهم مما أعطيناهم من الرزق ، يتصدقون على غيرهم من المحتاجين .

﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ أى : أن من صفاتهم كذلك أنهم إذا بغى عليهم باغ ، أو ظلمهم ظالم ، أو اعتدى على كرامتهم أو على دينهم معتد ، فإنهم لا يخضعون له ، ولا يذلون أمامه ، وإنما هم ينتصرون لدينهم ولكرامتهم ، بأن يقابلوا بغيه وعدوانه ، بما يردعه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٢٧ .
(٢) الخوافى الريش الذى يختفى عندما يضم الطائر جناحيه . و القوادم : الريش الظاهر الكثير .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٦ .

ويجعله يخشى إصابتهم بأذى .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها .. ﴾ بيان لوجوب عدم تجاوز الحد عند دفع الظلم .

أى : أن الله - تعالى - يأمركم أنكم إذا أردتم الانتصار من الباغى فعليكم أن تقابلوا بغيه وظلمه وعدوانه بمثله بدون زيادة منكم على ذلك ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

قال الشوكانى : « ذكر - سبحانه - المغفرة عند الغضب فى معرض المدح فقال : « وإذا ما غضبوا هم يغفرن » كما ذكر الانتصار على الباغى فى معرض المدح - أيضا - لأن التذلل لمن بغى ، ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال - سبحانه - ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ . فالانتصار عند البغى فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

قال النخعى : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء .

ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله - تعالى - له ، وعدم مجاوزته ، كما بينه - سبحانه - عقب ذلك بقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فبين - سبحانه - أن العدل فى الانتصار ، هو الاقتصار على المساواة .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - ماهو أسمى من مقابلة السيئة بمثلها فقال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لايحب الظالمين ﴾ .

أى : فمن عفا عمن أساء إليه ، وأصلح فيما بينه وبين غيره فأجره كائن على الله - تعالى - وحده ، وسيعطيه - سبحانه - من الثواب مالا يعلمه إلا هو - عز وجل - .

إنه - تعالى - لا يحب الظالمين بأى لون من ألوان الظلم .

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » .

ثم أكد - سبحانه - ماسبق أن بينه من أن دفع بغى الباغى أمر محمود ، فقال تعالى ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولمن انتصر ﴾ هى لام الابتداء ، وقوله ﴿ بعد ظلمه ﴾ مصدر مضاف لمفعوله و « من » شرطية ، وجوابها ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ والمراد بالسبيل : المؤاخذة والحرج ..

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٥٤١ .

أى : أن من انتصر لدينه وعرضه، بعد ظلم الظالم له، فأولئك الذين يفعلون ذلك، لا يؤاخذون من أحد، ولا يلامون من غيرهم، لأنهم باشروا حقهم الذى شرعه الله - تعالى - لهم، وهو مقابلة السيئة بمثلها .

ثم بين - سبحانه - على من تقع المؤاخذة والمعاقبة فقال : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ .

أى : إنما المؤاخذة والمعاقبة كائنة على الذين يظلمون غيرهم من الناس، ويتكبرون ويتجاوزون حدودهم فى الأرض بغير الحق .

وقيد - سبحانه - البغى فى الأرض بكونه بغير الحق، لبيان أنه لا يكون إلا كذلك، إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح، إذ تجاوز الحد فى فساده، فهذا القيد إنما هو لبيان الواقع، وللتنفير منه .

﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أى : أولئك الذين من صفاتهم الظلم والبغى لهم عذاب أليم، بسبب ما اجترحوه من ظلم وبغى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الكريمة للمؤمنين فقال : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ .

أى : وللإنسان الصابر على الأذى الذى يصفح عمن أساء إليه، الثواب الجزيل، والعاقبة الحسنة، لأن ذلك الصبر والمغفرة منه، لمن الأمور التى تدل على علو الهمة، وقوة العزيمة ..

هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة، يراها قد مدحت المؤمنين الصادقين بجملة من الصفات الحميدة، التى تعتبر على رأس الصفات الأساسية، لكل أمة تريد أن تنال الظفر والسعادة فى دنياها وآخرتها .

وبعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة وعما أعده سبحانه لهم من ثواب، جاء الحديث عن الظالمين وما أعد لهم من عقاب، وأمرهم - سبحانه - بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتى يوم الحساب، الذى لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير، فقال - تعالى - :

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ

مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟
لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم
مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟
فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ
أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده .. ﴾ أى: ومن يخذله الله تعالى ويبعده عن طريق الهداية بسبب زيغه وإيثاره الغى على الرشد، فليس لهذا الضال من ناصر ينصره بعد الله - تعالى -

فالمراد بالضلال هنا: ماهو ضد الهداية والتوفيق للخير. والضمير فى قوله « من بعده » يعود إلى الله - عز وجل - وقيل: يعود للخذلان المفهوم من قوله « يضلل ».

ثم بين - سبحانه - حال الظالمين عندما يعرضون على النار فقال: ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾.

أى: وترى - أيها العاقل - الظالمين حين رأوا العذاب المعد لهم يوم القيامة، تراهم فى نهاية الحسرة والذلة، ويقولون فى ندامة وانكسار: هل إلى ﴿ مرد ﴾ أى: مرجع إلى الدنيا من سبيل أو طريق، فنعمل غير الذى كنا نعمل.

وقوله - سبحانه - ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾ بيان لحالهم عندما يعرضون على النار بعد بيان ما يقولونه عند رؤيتهم لها.

أى: أنهم عند رؤيتهم لجهنم يقولون هل من طريق للهرب من هذا العذاب لكى نرجع إلى الدنيا فنؤمن بالله - تعالى - ونعمل صالحا، فلما وجدوا أنه لا طريق إلى ذلك زاد انكسارهم وذلهم وتراهم - أيها العاقل - يعرضون على النار عرضا مؤلما، فهم خاضعون متضائلون من شدة ما أصابهم من ذل، يسترقون النظر إلى النار من طرف خفى، أى: من عين لاتكاد تتحرك من شدة ضعفها وهوانها ...

قال صاحب الكشاف: ﴿ خاشعين ﴾ متضائلين متقاصرين بما يلحقهم، وقوله ﴿ من الذل ﴾ متعلق بخاشعين - ﴿ ينظرون من طرف خفى ﴾ أى: يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقته كما ترى المصبور - أى المحبوس للقتل - ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملأ عينيه منها، كما يفعل الناظر إلى الشيء المحبوب ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المؤمنون الفائزون برضا الله - تعالى - بعد رؤيتهم لأحوال هؤلاء الظالمين فقال: ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ﴾ .

أى: وقال المؤمنون - على سبيل التحدث بنعمة الله عليهم - بعد أن رأوا انكسار الظالمين وذلتهم ... قالوا هؤلاءهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة بتعريضها للعذاب المهين، وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا معهم فى النار فلن ينفعوهم بشيء، وإن كانوا فى الجنة فلن يستطيعوا الوصول إليهم ...

ألا إن ذلك العذاب المقيم الذى حل بهؤلاء الظالمين هو الخسران التام الكامل الذى لا خسران أفظع منه .

﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله .. ﴾ أى: لم يكن لهؤلاء الظالمين من نصراء أو شفعاء يحولون بينهم وبين العذاب الذى أعده - سبحانه - لهم بسبب ظلمهم وكفرهم .

﴿ ومن يضلل الله ﴾ أى: ومن يضله الله - تعالى - عن طريق الهداية والرشاد ﴿ فما له من سبيل ﴾ أى فما له من طريق إلى الهدى أو النجاة .

ثم يوجه - سبحانه - أمره إلى هؤلاء المعاندين، يدعوهم إلى الاستجابة للحق من قبل أن

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٣١ .

يأتى يوم القيامة الذى لاشك فى مجيئه .. فيقول: ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله .. ﴾ .

أى استجيبوا - أيها الناس - لدعوة الحق التى دعاكم إليها ربكم وخالقكم، عن طريق الرسول الذى أرسله - سبحانه - إليكم، ولتكن استجابتكم عاجلة فى هذه الدنيا، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لن يستطيع أحد أن يرده أو يدفعه، بعد أن حكم - سبحانه - بمجيئه، وجعل له أجلا محددا لا يتخلف عنه .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند مجىء هذا اليوم فقال: ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾ .

والملجأ: هو المكان الذى يلجأ إليه الإنسان عند الشدائد والكروب لاتقائها، والنكير بمعنى الإنكار .

أى: ليس لكم فى هذا اليوم ملجأ تلتجئون إليه من العذاب، وليس لكم القدرة على إنكار شىء مما اجترحتموه فى الدنيا من الكفر والعصيان، لأنه مسجل عليكم، فما نزل بكم من عذاب بسبب كفركم وإعراضكم عن الحق، شىء أنتم تستحقونه، ولن تجدوا يوم القيامة من ينكر استحقاقكم لهذا العذاب .

قال الآلوسى: قوله - تعالى - ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أى: إنكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس . ونفى ذلك مع قوله - تعالى - حكاية عنهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ تنزيلا لما يقع من إنكارهم منزلة العدم، لعدم نفعه وقيام الحجة، وشهادة الجوارح عليهم، أو يقال: إن الأمرين باعتبار تعدد الأحوال والمواقف .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - وظيفة رسوله - ﷺ - فقال: ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا، إن عليك إلا البلاغ .. ﴾ .

أى: فإن أعرض هؤلاء الظالمون عن دعوتك - أيها الرسول الكريم -، فلاتحزن لذلك، فإننا ما أرسلناك لتكون رقيبا على أعمالهم، ومكرها لهم على الإيمان، وإنما أرسلناك لتبلغ دعوة ربك إليهم، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه -: ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ﴾ جنسه الشامل للجميع والمراد بالرحمة: ما يشمل الغنى والصحة وغيرهما من النعم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٢٥ .

أى : وإنا إذا أعطينا ومنحنا الإنسان بفضلنا وكرمنا نعمة كالمال والولد والجاه . فرح بها وانشرح لها .

﴿ وإن تصبهم ﴾ أى : الناس ﴿ سيئة ﴾ من بلاء أو مرض أو خوف أو فقر ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أى : بسبب ما اكتسبته أيديهم من المعاصى والسيئات حزنوا وامتعضوا .

وقوله : ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ تعليل لجواب الشرط المحذوف ، أى : وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم نسوا نعمنا وقنطوا ، فإن الإنسان الكافر كثير الكفر والجحود لنعم خالقه - عز وجل - أما من آمن وعمل صالحا فإنه يشكر ربه عند النعم ، ويصبر عند البلاء والنقم .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء ، وعن نفاذ مشيئته وحكمته ، وعن فضله على نبيه - ﷺ - حيث أوحى إليه بما أوحى ، من هدايات للناس . فقال - تعالى - :

لِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا
وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء .. ﴾ بيان لكمال قدرته - سبحانه - ، ولنفاذ مشيئته . والملك - بضم الميم - الاستيلاء على الشىء والتمكن من التصرف فيه .

أى : لله - تعالى - وحده ملك جميع ما فى السموات والأرض ، وليس لأحد معه شىء لا اشتراكا ولا استقلالا ، وهو - سبحانه - « يخلق ما يشاء » أن يخلقه ، من غير أن يكون لأحد وصاية عليه ، أو اختيار لشىء معين ..

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر هذه القدرة التامة ، والإرادة النافذة فقال : ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ﴾ فهذه الجملة الكريمة بدل مفصل من مجمل ، أو بدل بعض من كل . وأحوال الناس بالنسبة للذرية لا تخلو عن هذه الأقسام الأربعة فهو - سبحانه - إما أن يهب لمن يشاء من عباده إناثا لا ذكور معهن ، وإما أن يهب لهم ذكورا لا إناث معهن ، وإما أن يهب لبعضهم الإناث والذكور معا وهذا معنى قوله - تعالى - ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ إذ التزويج معناه الجمع بين البنين والبنات .

وإما أن يجعل بعضهم عقيما ، أى : لا ذرية له ، ذكرا كان أو أنثى . يقال رجل عقيم وامرأة عقيم ، إذا كانا لا ذرية لهما .

وهذه الأحوال الأربعة كلها مشاهدة فى حياة الناس ، فمنهم من معه الإناث فقط ، ومنهم من معه الذكور فقط ومنهم من معه الذكور والإناث ومنهم من ليس معه منهما شىء وهذا كله يدل على كمال قدرته - سبحانه - ، وعلى نفاذ إرادته وحكمته ، إذ أعطى من يشاء إعطاءه بفضله ، ومنع من يشاء منعه لحكمة يعلمها ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان أن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده ، وأن أحوال البشر بالنسبة للذرية خاضعة لمشيئته وحده ، وهو - سبحانه - يقدرها وفق علمه وإرادته وحكمته ؛ ليس لأحد مدخل فى اختيار نوع معين من الذرية ، وليس عند أحد القدرة على إنجاب شىء منها ، إذا أراد الله منعه منَ ذلك .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ؟ ولم عرف الذكور بعدما نكر الإناث ؟

قلت : قدم الإناث لبيان أنه - سبحانه - يفعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة ما لايشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ...

وأخر - سبحانه - الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم

بتعريفهم، لأن التعريف تنويه وتشهير، فكأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لايخفون عليكم، ثم أعطى بذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتض آخر، فقال: ﴿ ذكرانا وإناثا ﴾، كما قال: ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .. ﴾[1].

وقوله - تعالى - ﴿ إنه عليم قدير ﴾ تذييل قصد به تأكيد قدرته وحكمته. أى: إنه - سبحانه - واسع العلم بأحوال عباده وبما يصلحهم، قدير على كل شىء، فهو يفعل ما يفعله عن قدرة واختيار، لا مكره له ولا معقب لحكمه.

ثم بين - سبحانه - الطرق التى بها يقع التكليم منه - تعالى - للمختارين من عباده فقال: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء .. ﴾.

فهذه الآية الكريمة قد دلت على أن تكليم الله - تعالى - للبشر وقع على ثلاثة أوجه:

الأول: عن طريق الوحى، وهو الإعلام فى خفاء وسرعة عن طريق الإلقاء فى القلب يقظة أو مناما، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية.

والوحى مصدر أوحى، وقد غلب استعماله فيما يلقى للمصطفين الأخيار من الكلمات الإلهية.

والثانى: عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أى حاجز، بأن يسمع النبى كلاما دون أن يرى من يكلمه، كما حدث لموسى. عليه السلام - عندما كلمه ربه - عز وجل -، وهذا الطريق هو المقصود بقوله - تعالى -: ﴿ أو من وراء حجاب ﴾.

والثالث: عن طريق إرسال ملك، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله بتبليغه له، وهو المقصود بقوله - تعالى - ﴿ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾.

وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله - ﷺ - فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال - ﷺ - أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على - أى: أحيانا يأتينى مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض - فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول.

قالت عائشة: ولقد رأيته - ﷺ - ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه،

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٣٢.

وإن جبينه ليتفصد عرقا .

والمعنى : وما صح وما استقام لبشر أن يكلمه الله - تعالى - فى من حال الأحوال إلا موحيا إليه ، أو مسمعا أياه مايريد إسماعه له من وراء حجاب أو يرسل إليه ملكا ليبلغه ما يريده - سبحانه - منه .

وقوله - تعالى - ﴿ إنه على حكيم ﴾ تعليل لما قبله ، أى : إنه - سبحانه - متعال عن صفات النقص ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان .. ﴾ .

والكاف فى قوله « كذلك » بمعنى مثل واسم الإشارة يعود إلى ما أوحاه إلى الرسل السابقين .

والمراد بالروح : القرآن - وسماه - سبحانه - روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما تحيا الأبدان بالغذاء المادى .

أى : ومثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل ، أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم ، هذا القرآن ، الذى هو بمنزلة الأرواح للأجساد ، وقد أوحيناه إليك بأمرنا وإرادتنا ومشيئتنا ، وأنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت تعرف أو تدرك حقيقة هذا الكتاب حتى عرفناك إياه ، وما كنت تعرف أو تدرك تفاصيل ، وشرائع وأحكام هذا الذين الدى أوحيناه إليك بعد النبوة .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة نفى علم الرسول - ﷺ - بهذا القرآن قبل النبوة ، ونفى أن يكون - أيضا - عالما بتفاصيل وأحكام هذا الدين لا نفي أصل الإيمان .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾[2] .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، الذى عبر عنه بالروح .

أى : ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نورا ساطعا ، نهدى به من نشاء هدايته من عبادنا .

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣ .

(٢) سورة يوسف الآية ٣ .

﴿ وإنك ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ لتهدى ﴾ من أرسلناك إليهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أى طريق واضح قويم لا اعوجاج فيه ولا التواء .

وقوله : ﴿ صراط الله ﴾ بدل مما قبله ، وإضافته إلى الله - تعالى - للتفخيم والتشريف .

أى : وإنك لترشد الناس إلى صراط الله ﴿ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ ملكا وخلقا وتصرفا ..

﴿ ألا إلى الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ تصير الأمور ﴾ أى : تنتهى إليه الأمور وتصعد إليه وحده ، فيقضى فيها بقضائه العادل ، وبحكمه النهائى الذى لا معقب له .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « الشورى » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأحد ٦ من المحرم سنة ١٤٠٦ هـ
٢٠ / ١٠ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الزخرف » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها تسع وثمانون آية ، وكان نزولها بعد سورة « الشورى » .

٢ - وقد افتتحت سورة « الزخرف » بالثناء على القرآن الكريم ، وبتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وببيان جانب من مظاهر قدرته - تعالى - ، ومن أنواع نعمه .

قال - تعالى - : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون .. ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن جهالات المشركين ، وعن دعاواهم الكاذبة ، وعن أقوالهم الفاسدة عندما يدعون إلى الدخول فى الدين الحق .

قال - تعالى - : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون .. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

٤ - وبعد أن ساقت السورة الكريمة جانبا من دعوة إبراهيم - عليه السلام - لقومه ، واصلت حديثها عن موقف المشركين من دعوة الحق ، وعن اعتراضهم على نبوة النبى - ﷺ - ثم أخذت فى تفنيد هذه الاعتراضات ، وفى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه منهم ، وبينت سوء عاقبتهم فى الدنيا والآخرة .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ .

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين .. ﴾

٥ - ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من قصة موسى - عليه السلام - وكيف أن الله - تعالى - دمر فرعون وقومه ، بسبب بغيهم وإصرارهم على كفرهم .

قال - تعالى - : ﴿ ونادى فرعون فى قومه ، قال ياقوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ .

٦ - ثم أتبعت السورة حديثها عن جانب من قصة موسى مع فرعون وقومه ، بالحديث عن موقف المشركين من عيسى - عليه السلام - الذى جاء قومه بالحق والحكمة ، فقال - تعالى - : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ .

٧ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى عباده المؤمنين ، بشرهم فيه برضوانه وجنته ، فقال - تعالى - : ﴿ ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ .

٨ - وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار ، أتبع القرآن حديثه عن ثواب المتقين ، بالحديث عن عقاب الكافرين ، فقال - تعالى - : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ .

٩ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلقين النبى - ﷺ - الجواب الذى يخرس به ألسنة المشركين ، ويسليه عن كيدهم ولجاجهم ويسلحه بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

قال - تعالى - : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله فأنى يؤفكون . وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ .

١٠ - وبعد فهذا عرض إجمالى لبعض المقاصد التى اشتملت عليها سورة « الزخرف » ،

ومنه نرى أن السورة الكريمة تهتم اهتماما واضحا بالحديث عن العقبات التى وضعها المشركون فى طريق الدعوة الإسلامية ، وكيف أن الله - تعالى - قد أعطى نبيه - ﷺ - السلاح الذى يهدم به هذه العقبات كما اهتمت ببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - ونعمه على خلقه ، وببيان جانب من قصص بعض الأنبياء . كإبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - لتسليته - ﷺ - عما لحقه من أذى المشركين ، كما اهتمت بالمقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار ، وبإقامة البراهين الساطعة على وحدانية الله - عز وجل - إلى غير ذلك من المقاصد التى لا مجال لتفصيل الحديث عنها فى تلك المقدمة ، وإنما سنتحدث عنها بشىء من التوضيح خلال تفسيرنا لآيات السورة الكريمة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة : مدينة نصر

مساء الثلاثاء ٨ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ ١٢/١٠/١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

سورة « الزخرف » من السور التى افتتحت بالحروف المقطعة ، وقد سبق أن قلنا فى المراد بهذه الحروف ما خلاصته : هذه الحروف التى افتتحت بها بعض السور ، يغلب على الظن أنه جىء بها للتنبيه إلى إعجاز القرآن ، لأنه مؤلف من كلام هو من جنس كلامهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ..[1] .

و ﴿ الواو ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ والكتاب المبين ﴾ للقسم ، والمقسم به الكتاب ، وجواب القسم قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ... ﴾ .

أى : وحق هذا الكتاب الواضح المرشد إلى طريق الحق والسعادة ، لقد جعلنا بقدرتنا وحكمتنا هذا الكتاب قرآنا عربيا ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ .

أى : جعلناه كذلك لكى تفهموه وتتعقلوا معانيه ، وتهتدوا إلى ما فيه من الأحكام السامية ، والآداب العالية .

---

(١) راجع تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف .

قال صاحب الكشاف : أقسم - سبحانه - بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ جوابا للقسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد .. و﴿ المبين ﴾ أى : البين الذى أنزل بلغتهم وأساليبهم ..[1] .

فقوله - تعالى - : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن بلسان عربى مبين . أى : جعلناه كذلك رجاء أن تعقلوا وتفهموا أوامره ونواهيه ، وتوجيهاته وإرشاداته .

ثم بين - سبحانه - المنزلة السامية التى جعلها لهذا القرآن ، والصيانة التامة التى أحاطه بها فقال : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ .

والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، وسمى بذلك لأن جميع الكتب السماوية منقولة عنه . كما قال - تعالى - : ﴿بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ .

وقيل : المراد بأم الكتاب : علمه الأزلى - عز وجل - .

أى : وإن هذا القرآن المبين لثابت ، وكائن فى اللوح المحفوظ ، وهو ﴿ لدينا ﴾ أى : عندنا ﴿ لعلىٌّ ﴾ أى : لرفيع الشأن ، عظيم القدر ﴿ حكيم ﴾ أى : محكم النظم فى أعلى طبقات البلاغة . فلا يضيره تكذيب المكذبين ، ولا طعن الطاعنين .

فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على القيمة العظيمة التى جعلها - سبحانه - لهذا القرآن ، فى علمه - تعالى - وتقديره ، كما أن وصف هذا الكتاب بقوله ﴿ على حكيم ﴾ يؤكد هذه المنزلة السامية ويقررها .

وبعد هذا البيان المشرف للقرآن الكريم ، أتبع - سبحانه - ذلك بالكشف عن مدى الإسراف القبيح الذى ارتكبه المشركون حين أعرضوا عنه فقال - تعالى - : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ، أن كنتم قوما مسرفين ﴾ .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والضرب هنا : بمعنى التنحى والابتعاد والإهمال ، تقول : ضربت عن فلان صفحا ، إذا أعرضت عنه وتركته ، والصفح : مصدر صفحت عنه ، إذا أعرضت عنه ، وذلك بأن تعطيه صفحة وجهك أى : جانبه . وهو منصوب لنضرب من غير لفظه ، كما فى قولهم : قعدت جلوسا . أو على الحال من الفاعل : على المصدرية أى : صافحين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٦ .

والمراد بالذكر هنا : القرآن الكريم .

والمعنى : أنعرض عنكم ونهملكم فلا نذكركم بالقرآن الكريم ، ولا نرشدكم إلى هداياته . بسبب إسرافكم على أنفسكم ، ومحاربتكم للحق ، وإيثاركم الغى على الرشد ؟!! لا لن نفعل ذلك ، بل سننزل هذا القرآن على نبينا محمد - ﷺ - ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

قال الشوكانى : قوله : ﴿ أن كنتم قوما مسرفين ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائى بكسر ﴿ إن ﴾ على أنها شرطية ، والجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه . وقرأ الباقون بفتحها على التعليل ، أى : لأن كنتم قوما منهمكين فى الإسراف مصرين عليه .[1] .

ثم سلى - سبحانه - نبيه - ﷺ - عن مكرهم فقال : ﴿ وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ﴾ و﴿ كم ﴾ هنا خبرية لإفادة كثرة الأنبياء والمرسلين وهى مفعول مقدم لأرسلنا . وقوله ﴿ من نبى ﴾ تمييز لها .

أى : ما أكثر الرسل الذين أرسلناهم فى الأمم الأولين لهدايتهم ، فكان موقف أكثر هؤلاء الأمم من رسلهم . يدل على إعراضهم عنهم ، وتكذيبهم لهم ، فاصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك ، كما صبر الذين من قبلك .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : ﴿ وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أى : أن هؤلاء السابقين لم يأتهم نبى من الأنبياء لهدايتهم ، إلا استهزأوا به ، وسخروا منه ، وأعرضوا عنه .

فماذا كانت نتيجتهم ؟ كانت نتيجة استهزائهم برسلهم كما قال - تعالى - : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ منهم ﴾ يعود إلى القوم المسرفين ، المخاطبين بقوله - تعالى - : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ... ﴾ وفى الآية التفات من الخطاب الى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : فأهلكنا أشد منكم بطشا - أيها المشركون - .

وقوله : ﴿ أشد منهم ﴾ مفعول به لأهلكنا . وأصله نعت لمحذوف ، أى : فأهلكنا قوما أشد منهم بطشا . والبطش : السطوة والقوة . يقال : فلان بطش بفلان إذا أخذه بقوة وعنف ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ .

والمراد « بمثل الأولين » صفتهم المتمثلة فى استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٥٤٧ .

أي : هكذا كان موقف السابقين من رسلهم ، لقد استهزءوا برسلهم فأهلكناهم ، وكانوا أشد قوة وبطشا من قومك المسرفين - أيها الرسول الكريم - وقد اقتضت حكمتنا أن نسوق لقومك قصص هؤلاء السابقين وصفاتهم وما حل بهم من نكبات ، لكى يعتبروا بهم ، ولا ينهجوا نهجهم ، حتى لا يصيب قومك ما أصاب أولئك السابقين المكذبين .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾[1] .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك نماذج من تناقض هؤلاء المشركين مع أنفسهم ومن مواقفهم الجحودية من نعم الله - تعالى - عليهم .. فقال - تعالى - :

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ﴾ للقسم . وجوابه قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ليقولن خلقهن ... ﴾ .

---

(١) سورة غافر الآية ٢١ .

والمعنى : وحق الله الذى لا إله إلا هو ، لئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين عمن خلق هذا الكون ، ليقولن بدون تردد : الله - تعالى - المتصف فى نفس الأمر بالعزة والعلم .

فالآية الكريمة تدل دلالة صريحة على أن هؤلاء المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا العالم ، وأن معبوداتهم بعض خلقه - تعالى - ولكنهم لجهلهم وانطماس بصائرهم أشركوها معه فى العبادة ، وقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. ﴾ .

ويبدو أن هاتين الصفتين : ﴿ العزيز العليم ﴾ ليستا من أقوالهم . فهم كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا الكون ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها القرآن الكريم .

ولذا قال بعض العلماء : الذى يظهر أن هذا الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله - تعالى - ، فالذى هو من قولهم ﴿ خلقهن ﴾ ، وما بعده من قول الله - عز وجل - ، وأصل الكلام أنهم قالوا : خلقهن الله ، ويدل عليه قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ .

ثم لما قالوا : خلقهن الله وصف الله - تعالى - ذاته بهاتين الصفتين[1] .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفات أخرى فقال : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا... ﴾ .

المهد والمهاد : الفراش الممهد المذلل الذى يستقر عليه من جلس فوقه .

أى : الخالق لهذا العالم هو الله العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض كالفراش الممهد ، حيث بسطها لكم ، وجعلها صالحة لسيركم عليها ، ولإنبات الزروع فيها .

﴿ وجعل لكم فيها سبلا ﴾ أى : وجعل لكم فيها طرقا متعددة ، لكى تسلكوها ، فتصلوا من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بيان للحكمة من جعل الأرض كذلك ، أى : جعلها ممهدة كثيرة الطرق ، لعلكم تهتدون إلى ما تريدون الوصول إليه من البلاد ، ومن المنافع المتعددة .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفة ثانية فقال : ﴿ والذى نزل من السماء ماء بقدر .. ﴾ .

أى : وهو - تعالى - الذى أنزل من السماء ماء بمقدار معين على قدر حاجتكم ومصلحتكم ،

---

(١) راجع حاشية الكشاف جـ ٤ ص ٢٣٨ .

فلا هو بالكثير الذى يغرقكم ، ولا هو بالقليل الذى لا يكفى حاجتكم ، بل نزله بقدر كفايتكم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر ، فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ .

وكقوله - تعالى - فى آية ثانية : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأنشرنا به بلدة ميتا ﴾ بيان للآثار المترتبة على هذا الإنزال للماء .

أى : نحن الذين بقدرتنا أنزلنا من السماء ماء على قدر حاجتكم ، وحسبما تقتضيه مصلحتكم ، فأحيينا بهذا الماء بلدة مجدبة ، لانبات فيها ولا زرع .

فالمراد بالنشور : الإحياء للأرض عن طريق إنبات الزرع بها ، بعد أن كانت مجدبة .

وقوله : ﴿ كذلك تخرجون ﴾ بيان لإمكانية إحياء الناس بعد موتهم .

أى : مثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها ، تخرجون أنتم من قبوركم أحياء يوم القيامة .

قال الآلوسى : وفى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج ، تفخيم الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وفى ذلك من الرد على منكريه ما فيه ..[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرابين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[٢] .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفة ثالثة فقال : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها ﴾ أى : خلق أصناف وأنواع المخلوقات كلها . فالمراد بالأزواج هنا : الأصناف المختلفة من الذكر والأنثى . ومن غير ذلك من أنواع مخلوقاته التى لا تحصى .

قال - سبحانه - ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ أى : وسخر لكم بقدرته ورحمته من السفن التى تستعملونها فى البحر ، ومن الإبل التى تستعملونها فى البر ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٦٧ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧ .

ما تركبونه وتحملون عليه أثقالكم ، وتنتقلون بواسطته من مكان إلى آخر .

فما فى قوله ﴿ ما تركبون ﴾ موصولة ، والعائد محذوف والجملة مفعول ﴿ جعل ﴾ وقوله : ﴿ من الفلك والأنعام ﴾ بيان له مقدم عليه . أى : وجعل لكم ما تركبونه من الفلك والأنعام .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا التذليل والتسخير للفلك والأنعام فقال : ﴿ لتستووا على ظهوره .. ﴾ والضمير فى ﴿ ظهوره ﴾ يعود إلى ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ما تركبون ﴾ وجاء مفردا رعاية للفظ ﴿ ما ﴾ وجمع الظهور لأن المراد بالمركوب جنسه .

والاستواء : الاستعلاء على الشىء ، والتمكن منه ، أى : سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه ، ولتستعلوا على ظهوره استعلاء المالك على مملوكه .

﴿ ثم تذكروا ﴾ بعد كل هذا التمكن والاستعلاء ﴿ نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ أى : على تلك السفن والأنعام التى تركبونها .

والضمير فى ﴿ عليه ﴾ يعود - أيضا - الى ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ما تركبون ﴾ باعتبار لفظه ﴿ وتقولوا ﴾ على سبيل الشكر لله - تعالى - والاعتراف بفضله ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا ﴾ .

أى : وتقولوا : جل شأن الله ، وتنزه عن الشريك والمثيل ، فهو الذى سخر لنا هذا المركوب من الفلك والأنعام ، وجعله منقادا لنا ، طائعا لأمرنا .

﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ أى : والحال أننا ما كنا لهذا المركوب الصعب بقادرين على التمكن منه ، لولا أن الله - تعالى - سخره لنا ، وجعله منقادا لأمرنا .

فقوله : ﴿ مقرنين ﴾ أى : مطيقين وقادرين وضابطين ، من أقرن الشىء ، إذا أطاقه وقدر عليه ، حتى لكأنه صار له قرنا ، أى : مثله فى الشدة والقوة .

والمقصود : ما كنا بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذه السفن والأنعام ، لولا أن الله - تعالى - قد جعلها منقادة لنا ، ومسخرة لخدمتنا .

ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسان ، وأن البحر لو لم يذلله - سبحانه - لنا ، لما قدرت السفن على الجرى فيه .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ أى : مطيقين .. أو ضابطين وفى أصله قولان : أحدهما : أنه مأخوذ من الإقران ، يقال : أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق . وأقرنت كذا : أطقته وحكمته ، كأنه جعله فى قَرَن - أى : حبل - فأوثقه به وشده .

والثانى : أنه مأخوذ من المقارنة ، وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به ، وجعلته قرينه[١] .

وقوله : ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ من جملة ما يقولونه - أيضا - عند استوائهم على ظهور السفن والإبل .

أى : تقولون إذا استويتم عليه : سبحان الذى سخر لنا هذا المركب الصعب ، وما كنا بقادرين على تذليله لولا أن الله - تعالى - وفقنا لذلك ، وإنا إلى ربنا وخالقنا لراجعون يوم القيامة ، لكى يحاسبنا على أعمالنا ، ويجازينا عليها بجزائه العادل .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، جملة من الاحاديث ، منها ما رواه مسلم وأبو داود والنسائى .. عن عبد الله بن عمر أن النبى - ﷺ - كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ . ثم يقول : اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى . ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا السفر . واطولنا البعيد . اللهم أنت الصاحب فى السفر . والخليفة فى الأهل . اللهم اصحبنا فى سفرنا . واخلفنا فى أهلنا .[٢] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن رحمته بعباده ، لكى يخلصوا له العبادة والطاعة .

ثم حكى - سبحانه - ما افتراه المشركون على خالقهم ورازقهم من أكاذيب ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - :

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ
لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم
بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى
ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٦٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠٨ .

ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ
شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ
مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ
كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

والمراد بالجعل فى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءا ... ﴾ الاعتقاد الباطل ، والحكم الفاسد . والمراد بالجزء الولد . والمقصود به خصوص البنات ، كما يدل عليه سياق الآيات .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءا .. ﴾ متصل بقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ...﴾ والمراد بيان تناقضهم مع أنفسهم ... حيث اعترفوا بأنه - تعالى - خالق السموات والأرض ، ثم وصفوه بصفات المخلوقين ..

وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة - وفرع - من والده ، كما قيل : أولادنا أكبادنا .. وقيل الجزء : اسم للإناث ، يقال : أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى..[1] .

أى : أن هؤلاء المشركين بلغ من تناقضهم فى أقوالهم وأفعالهم ، أنهم إذا سألهم سائل عن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٩٦ .

خالق هذا الكون قالوا : الله . ومع ذلك فهم لجهالتهم اعتقدوا اعتقادا باطلا بأن الملائكة بناته ، مع أن الملائكة من مخلوقاته التى يشملها هذا الكون .

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيل هؤلاء المشركين ، وتعجيب كل عاقل من سفاهتهم .

والظاهر أن المراد بالإنسان فى قوله - تعالى -: ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ الكافر والفاسق من بنى آدم ، لأن الإنسان المؤمن لا يجحد نعم الله ، وإنما يشكره - تعالى - عليها .

أى : إن الإنسان الكافر والفاسق عن أمر ربه ، لشديد الجحود لنعم ربه ، مظهرا ذلك فى أقواله وفى أفعاله .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على السخرية منهم ومن أحوالهم الشاذة فقال : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ فالاستفهام للتوبيخ والإنكار .

و ﴿ أصفاكم ﴾ أى : آثركم واختصكم . يقال : أصفى فلان فلانا بالشىء ، إذا اختصه به . ومنه قولهم لما يختص السلطان به نفسه من الأشياء النفيسة : الصوافى .

أى : لقد زعمتم أن الملائكة بنات الله ، فخبرونى بربكم هلى يعقل أن يتخذ الله - تعالى - أولاده من البنات اللائى هن أقل منزلة من البنين فى تقديركم ، ويترك لكم الذكور ؟ إن من شأن الذى يختار جنس الأولاد أن يختار أعلاهم منزلة فبأى منطق زعمتم أن الملائكة بنات الله .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ أم اتخذ مما يخلق ...﴾ أى : بَلْ آتخذ والهمزة للإنكار ، تجهيلا لهم ، وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزءين . وهو الاناث دون الذكور ..

فكأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه - تعالى - جائزة فرضا وتمثيلا أما تستحون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزءين ..؟[1] .

ثم أكد - سبحانه - جهلهم وغفلتهم عن المنطق السليم فقال : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم .. ﴾ .

أى : أنهم قالوا الملائكة بنات الله ، والحال أن الواحد منهم إذا بشره مبشر بأن امرأته قد ولدت له أنثى ، صار وجهه مسودا من شدة الحزن ، وظل ممتلئا بالهم والكرب .

فالمراد بقوله : ﴿ بما ضرب للرحمن مثلا ﴾ جنس البنات حيث قالوا : الملائكة بنات الله .

قال الجمل : قوله : ﴿ وإذا بشر أحدهم ... ﴾ استئناف مقرر لما قبله . وقيل حال ، على

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٤٣ .

معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر ، ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت الإعراض عنهم ، وتحكى لغيرهم ليتعجب منها . و﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ بما ضرب للرحمن مثلا ﴾ موصولة ومعناها البنات وضرب بمعنى جعل ، والمفعول الأول الذى هو عائد الموصول محذوف . أى : ضربه ، ومثلا هو المفعول الثانى ، والمثل بمعنى الشبه أى المشابه[١] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيتهم السابق تبكيتا آخر فقال : ﴿ أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ﴾ .

والاستفهام للإنكار . وكلمة ﴿ من ﴾ عبارة عن جنس الإناث ، وهى فى محل نصب بمضمر معطوف على ﴿ جعلوا ﴾ و﴿ ينشأ ﴾ يربى وينشأ . يقال : نشأ فلان فى بنى فلان ، إذا شب وترعرع فيهم و﴿ الحلية ﴾ : اسم لما يتحلى ويتزين به .

أى : أيجترئون ويجعلون لله - تعالى - الإناث ، اللائى من شأنهن أن ينشأن فى الزينة ، لأن هذه الحياة هى المناسبة لهن ولتكوينهن الجسدى ، واللائى من شأن معظمهن أنهن لا يقدرن على الدفاع عن أنفسهن لضعفهن وقصورهن فى الجدال وفى بيان الحجة التى ترد الخصم ، وتزيل الشبهة ..

فالمقصود من الآية الكريمة تأنيب هؤلاء المشركين على جهلهم وسوء أدبهم ، حيث إنهم نسبوا إلى الله - تعالى - الإناث اللائى من شأنهن النشأة فى الحلية والدعة والنعومة ، فصرن بمقتضى هذه النشأة ، وبمقتضى تكوينهن البدنى والعقلى ، لا يقدرن على جدال أو قتال .. بينما نسبوا إلى أنفسهم الذكور الذين هم قوامون على النساء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى ﴾ . ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب افترائهم الكذب فقال : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم .. ﴾ والجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشىء ، كما تقول جعلت زيدا أفضل الناس ، أى حكمت عليه بذلك .

أى : أن هؤلاء المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن ، وصفوة خلقه ، وأهل طاعته ، زعموا أنهم إناث ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل ؟

كلا إنهم لم يكونوا حاضرين ، ولذا ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ فى صحائف أعمالهم المليئة بالسيئات ﴿ ويسألون ﴾ عنها سؤال تأنيب وتوبيخ يوم القيامة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٨٠ .

فالمراد بالكتابة والسؤال : معاقبتهم على افترائهم الكذب . و تجهيلهم فيما قالوه ، ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان معاذيرهم الكاذبة فقال : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ .

أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة : لو شاء الرحمن عدم عبادتنا للملائكة أو للأصنام ما عبدناهم .

ثم يرد الله - تعالى - عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويهدم معاذيرهم فقال : ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ .

أى ٠ قالوا ما قالوه من غير علم أو برهان .. لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه ، ولأنه - سبحانه - قد اقتضت حكمته ومشيئته . أن يجعل للانسان القدرة على اختيار طريق الحق أو طريق الباطل ، وهم قد اختاروا طريق الباطل ، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم على ذلك مكره ، فما قالوه ما هو إلا نوع من أنواع خرصهم وكذبهم وظنونهم الفاسدة .

وقد فصلنا القول فى مسألة المشيئة عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة الأنعام : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ... ﴾ .

وعند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة النحل : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ﴾ إضراب عن نفى أن يكون لهم فيما ادعوه علم عن طريق العقل ، إلى إبطال أن يكون لهم علم من جهة النقل . و﴿ أم ﴾ بمعنى بل والهمزة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى : بل أأعطيناهم كتابا من قبل القرآن ، فيه ما يشهد بصحة أقوالهم فهم بهذا الكتاب مستمسكون ؟ كلا إننا لم نعطهم شيئا من ذلك .

ثم بين - سبحانه - مستندهم الحقيقى فقال : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ .

أى : أنهم ليس لهم فى الحيقة مستند لا من العقل ولا من النقل ، وإنما مستندهم الوحيد تقليدهم لآبائهم فى جهالاتهم وسفاهاتهم وكفرهم . فقد قالوا عندما دعاهم الرسول - ﷺ - الى الدين الحق : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أى على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وهى عبادة هذه الآلهة ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ وطريقتهم ﴿ مهتدون ﴾ أى : سائرون بدون تفكر أو تدبر ، أو

---

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية ص ١٤٣ من تفسير سورة النحل .

حجة أو دليل ، فهم أشبه ما يكونون بقطيع الأنعام الذى يسير خلف قائده دون أن يعرف إلى أى طريق يسير ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها ، إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى ، ومن قول باطل .

و﴿ الكاف ﴾ بمعنى مثل . واسم الإشارة ذلك يعود إلى حال الكافرين من قبلهم .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما تراه من إعراض المشركين عن دعوتك . فإن شأنهم كشأن سابقيهم فى الكفر والضلال ، فإننا ما أرسلنا من قبلك من رسول فى قرية من القرى ، أو فى قوم من الأقوام ، إلا قال المنعمون منهم ، والذين أبطرهم الترف لمن جاءهم بالحق : إنا وجدنا آباءنا على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وإنا على آثارهم ، وعلى نهجهم ، مقتدون . أى : مقتدون بهم فى عبادتهم وأفعالهم .

وخص المترفين بالذكر ، لأنهم القادة الذين صرفهم التنعم وحب الجاه والسلطان ، عن النظر والتدبر والاستماع للحق ، وجعلهم يستحبون العمى على الهدى .

وهنا يحكى القرآن رد الرسول - ﷺ - فيقول : ﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم .. ﴾

أى : قال الرسول - ﷺ - لقومه الذين أصروا على تقليد آبائهم فى الكفر والضلال : أتتبعون آباءكم وتقتدون بهم فى الكفر ، حتى ولو جئتكم بدين أهدى وأصوب مما كان عليه آباؤكم ؟

وقوله : - تعالى - : ﴿ قال أولو جئتكم ... ﴾ قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم . وقرأ الجمهور ﴿ قل أولو جئتكم ... ﴾ على أن الأمر للرسول - ﷺ - .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أى : قال المترفون فى الرد على رسلهم : إنا بما أرسلتم به من الهدى والدعوة إلى الدين الحق كافرون ، وباقون على الدين الذى كان عليه آباؤنا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ بيان للعاقبة السيئةالتى حاقت بهم بسبب إصرارهم على كفرهم وتقليدهم لآبائهم .

أى : قالوا للرسل هذا القول الذى يدل على إيثارهم الغى على الرشد ، فانتقمنا منهم . بأن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم

من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا .

﴿ فانظر ﴾ - أيها العاقل - وتأمل ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها من أجمع الآيات القرآنية التى حكت الأقوال الباطلة التى تفوه بها المشركون ، وردت عليهم ردا منطقيا حكيما يهدمها من قواعدها .

لقد ذكرت - أولا - أنهم جعلوا لله - تعالى - من عباده جزءا ... ثم ردت عليهم بأنهم جاحدون لنعم الله ، وأنهم لو كانوا يعقلون لما حكموا هذا الحكم الذى يدل على جهلهم وغفلتهم ، لأنه لو كان الأمر كما ذكروا - على سبيل الفرض والتقدير - لما اختار - سبحانه - لذاته جنس البنات ، وأعطاهم البنين ..

ثم ذكرت - ثانيا - حالهم عندما يبشرون بالأنثى ، وتهكمت بهم حين نسبوا إلى الله ﴿ من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ﴾ والمقصود بذلك جنس البنات ، ثم ذكرت - ثالثا - أنهم حكموا على الملائكة بأنهم إناث ، وردت عليهم بأن حكمهم هذا ساقط ، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الفاسد ، وأنهم سيجازون على أحكامهم التى لا دليل عليها ، بما يستحقون من عقاب .

ثم ذكرت - رابعا - معاذيرهم التى اعتذروا بها عندما حاصرتهم الحجج الدامغة ، فقد قالوا : ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ فرد - سبحانه - عليهم بقوله : ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ ، لأن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالأقوال الساقطة .

ثم ذكرت - خامسا - أنهم فى إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلى أو نقلى ، وإنما استندوا على شىء واحد هو التقليد لآبائهم فى جهلهم وضلالهم ..

وهكذا ذكر القرآن أقوالهم وشبهاتهم .. ثم رد عليها بما يدحضها ..

وبعد هذا البيان الماحق لشبهات المشركين ولأقوالهم الباطلة .. أتبع - سبحانه - ذلك بذكر جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، وبذكر جانب من اعتراضاتهم على الرسول - ﷺ - وعلى دعوته ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ
إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ
مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ
لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ
يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم
بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

أى : واذكر – أيها الرسول الكريم – لقومك حال جدك إبراهيم – عليه السلام – وقت أن قال لأبيه آزر ، ولقومه الذين كانوا عاكفين على عبادة الأصنام ، مقلدين فى ذلك آباءهم ..

قال لهم : إننى برىء مما تعبدونه من هذه الأوثان .

وذكرهم – سبحانه – هنا بحال إبراهيم ، لأنه كان أعظم آبائهم ، ومحط فخرهم ، والمجمع على محبته منهم .

فكأنه – تعالى – يقول لهم : هذا هو حال جدكم إبراهيم الذى تعتزون به فلماذا لم تقلدوه فى إنكاره لعبادة الأصنام ، وفى هجره لما كان عليه أبوه وقومه ، وإخلاصه العبادة لله – تعالى – وحده .

وقوله : ﴿براء﴾ مصدر وقع موقع الصفة وهى برىء ، على سبيل المبالغة فى التبرى من عبادتهم لغير الله - تعالى - يقال : تبرأت من فلان ، فأنا منه براء .

أى : كرهت قوله وفعله والقرب منه .

والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ منقطع ، أى : أنا برىء من عبادة أصنامكم ، لكنى أعبد الذى خلقنى وفطرنى بقدرته ، فإنه هو الذى سيهدين إلى الصراط المستقيم .

ويصح أن يكون متصلا بناء على أنهم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى هذه العبادة أصنامهم .

أى : إننى برىء من عبادة أصنامكم ، إلا أنى لا أعبد إلا الله - تعالى - الذى فطرنى .

أى : خلقنى بقدرته على غير مثال سابق .

وقال هنا ﴿ سيهدين ﴾ وقال فى آية أخرى : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ ، للدلالة على ثقة ابراهيم - عليه السلام - بفضل ربه - تعالى - عليه ، وأنه يهديه فى الحال وفى الاستقبال ، وأن هذه الهداية مصاحبة له فى كل وقت من أوقات حياته .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين قوله - تعالى - حكاية عن نبيه إبراهيم : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ... ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين ..﴾[2] .

والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ... ﴾ يعود إلى كلمة التوحيد ، المشتملة على البراءة من كل عبادة لغير الله - تعالى - ، والمعبر عنها قبل ذلك بقوله - تعالى - : ﴿ إننى براء مما تعبدون ﴾ .

وضمير الفاعل المستتر فى قوله - سبحانه - : ﴿ وجعلها ...﴾ يعود إلى الله - تعالى - .

أى : وجعل الله - تعالى - بفضله وكرمه ، كلمة التوحيد ، باقية فى عقب ابراهيم ، وفى

(١) سورة الأنعام الآية ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٧٥ - ٧٨ .

ذريته من بعده ، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - فى سورة الصافات : ﴿ سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين .. ﴾ .

ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، على معنى أنه أوصى ذريته من بعده بعبادة الله - تعالى - وحده ، وأنه دعا ربه أن يجعل فى ذريته من يعبده وحده .

فيكون المعنى : وجعل ابراهيم هذه الكلمة وهى كلمة التوحيد باقية فى ذريته حيث أوصاهم بعبادة الله وحده .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ ووصى بها - أى بكلمة التوحيد - إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ... ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى ذلك الجعل فقال : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أى : جعلها كذلك رجاء أن يرجع إلى كلمة التوحيد من أشرك من ذرية ابراهيم ، ببركة دعائه لهم بالإيمان ودعاء من آمن منهم .

فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله - تعالى - بقوله : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ... ﴾ وبقوله : ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ إضراب عن كلام محذوف ينساق إليه الكلام ، والمراد « بهؤلاء » أهل مكة المعاصرين للنبى - ﷺ - وقوله : ﴿ متعت ﴾ من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة ، واشتغالهم بذلك عن طاعة الله - تعالى - وشكره .

والمعنى : اقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية فى بعض ذرية إبراهيم لعل من بقى من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها ، ولكنهم لم يرجعوا بل أصروا على كفرهم ، فلم أعاجلهم بالعقوبة ، بل متعت هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - بأن أمددتهم بالنعم المتعددة هم وآباؤهم ، وبقيت تلك النعم فيهم : ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ وهو دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، وجاءهم ﴿ رسول مبين ﴾ هو أنت - أيها الرسول الكريم - فإن رسالتك واضحة المعالم ، بينة المقاصد ، ليس فيها شىء من الغموض الذى يحملهم على الإعراض عنها .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٢ .

فالمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الكلمة الباقية فى عقب إبراهيم وهى كلمة التوحيد ، لم يتبعها جميع أفراد ذريته ، بل اتبعها قوم وكفر بها آخرون وأن هؤلاء الكافرين - وعلى رأسهم كفار قريش -لم يعاجلهم الله - تعالى - بالعقوبة ، بل أعطاهم نعما متعددة ، فلم يشكروه - تعالى - عليها ، واستمروا على ذلك ، حتى جاءهم الحق ، فلم يؤمنوا به ، ولا بمن حمله إليهم وهو الرسول المبين - ﷺ - .

ومن الآيات التى تدل على أن ذرية إبراهيم كان منها المؤمن ، وكان منها الكافر . قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - موقفهم من الحق الذى جاءهم به الرسول - ﷺ - فقال : ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ .

أى : وحين جاءهم الرسول - ﷺ - بالحق من عند ربهم ، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر ، إلى نور الإيمان .. قالوا - على سبيل الجحود والعناد - : هذا الذى جئتنا به نوع من السحر ، وإنا به كافرون مكذبون .

والتعبير بقوله : ﴿ جاءهم ﴾ يشعر بأن الحق قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم فى البحث عنه ، ومع ذلك فقد استقبلوه بالجحود والإنكار .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان حسدهم وعنادهم فقال : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

والمراد بالقريتين مكة أو الطائف . ومقصودهما إحداهما ، كالوليد بن المغيرة من مكة ، وكعروة بن مسعود من الطائف ..

ويعنون بالعظم : كثرة المال ، والرئاسة فى قومه .

أى : وقال هؤلاء المشركون - على سبل العناد والحسد - : هلا أنزل هذا القرآن ، الذى يقرؤه علينا محمد - ﷺ - على رجل عظيم فى ماله وسلطانه ، ويكون من إحدى هاتين القريتين ، وهما مكة أو الطائف .

فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم ، استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد - ﷺ - الذى وإن كان فى القمة من الشرف والسمو بين قومه إلا أنه لم يكن أكثرهم مالا وسلطانا ، وهم يريدون أن تكون النبوة فى زعيم من زعمائهم ، أو رئيس من رؤسائهم .

---

(١) سورة الحديد . الآية ٢٦ .

وهذا منهم - كما يقول الآلوسى - لجهلهم بأن رتبة الرسالة ، إنما تستدعى عظيم النفس ، بالتخلى عن الرذائل الدنية ، والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية[1] .

وقد وبخهم الله - تعالى - على جهلهم هذا بقوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك .. ﴾ فالاستفهام للإنكار والتهكم بهم ، والتعجب من تفكيرهم .

والمراد بالرحمة : ما يشمل النبوة ، وماأنزله على نبيه - ﷺ - من وحى ، وما منحه إياه من خلق كريم ، وخير عميم .

أى : كيف بلغ الجهل والغباء بهؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة ؟ إنهم ليس بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك ، وليس عندهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاؤا ، وليختاروا لها من أرادوا . ومادام الأمر كذلك فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - ؟ .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى خلقه فقال : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ... ﴾ أى : نحن قسمنا بينهم أرزاقهم فى هذه الدنيا ، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم ، ونحن الذين - بحكمتنا - تولينا تدبير أسبابها ولم نكلها إليهم لعلمنا بعجزهم وقصورهم . ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات فى الدنيا ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا مخدوم ، وذاك خادم ، وهذا قوى ، وذاك ضعيف .

ثم ذكر - سبحانه - الحكمة من هذا التفاوت فى الأرزاق فقال : ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ .

أى : فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويعاون بعضهم بعضا فى مصالحهم ، وبذلك تنتظم الحياة ، وينهض العمران . ويعم الخير بين الناس ، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله - تعالى - له من رزق واستعداد ..

ولو أنا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا وتقاتلوا ، وعم الخراب فى الأرض ، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، لأن الحرص والطمع من طبيعته .

وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمور دنياهم فكيف أباحوا لأنفسهم التحكم فى منصب النبوة ، وهو بلا شك أعلى شأنا ، وأبعد شأوا من أمور الدنيا .

وقوله ﴿ سخريا ﴾ بضم السين - من التسخير ، بمعنى تسخير بعضهم لبعض وخدمة

---

(١) تفسر الآلوسى جـ ٢٥ ص ٧٨ .

بعضهم لبعض ، وعمل بعضهم لبعض ، فالغنى - مثلا - يقدم المال لغيره ، نظير ما يقدمه له ذلك الغير من عمل معين ..

وبذلك تنتظم أمور الحياة ، وتسير فى طريقها الذى رسمه - سبحانه - لها .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ أى : ليستخدم بعضهم بعضا ، فيسخر الأغنياء بأموالهم ، الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض ، هذا بماله ، وهذا بأعماله ، فيلتئم قوام العالم ، لأن الأرزاق لو تساوت لتعطلت المعايش ، فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الامر الدنىء ، فكيف يطمعون فى الاعتراض فى أمر النبوة ، أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص ، ونكل العالى إلى غيرنا ..؟[1] .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تقرر سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تغيير لها ولا تبديل ، والتى تؤيدها المشاهدة فى كل زمان ومكان ، فحتى الدول التى تدعى المساواة فى كل شىء ..ترى سمة التفاوت فى الأرزاق وفى غيرها واضحة جلية ، وصدق الله فى قوله : ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ .

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ انظر كيف فضلنابعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلا ﴾[3] .

ثم ختم - سبحانه - هذا التهوين لحطام الدنيا فقال : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ﴾ .

و﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لامتناع . والكلام على حذف مضاف . والمراد بالأمة الواحدة : أمة الكفر . والمعارج جمع معرج وهى المصاعد التى يصعد عليها إلى أعلى .

أى : ولولا كراهة أن يكون الناس جميعا أمة واحدة مجتمعة على الكفر حين يشاهدون سعة الرزق ، ورفاهية العيش ، ظاهرة بين الكافرين ..

لولا كراهية ذلك . لجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا ، لمن يكفر بالرحمن ، الشىء الكثير من حطام الدنيا ، بأن نجعل لبيوتهم سقفا من فضة ، ولجعلنا لهم مصاعد فخمة عليها يرقون إلى أعلى مساكنهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٨٤ .

(٢) سورة النحل آية ٧١ .

(٣) سورة الإسراء آية ٢١ .

ولجعلنا - أيضا - لبيوتهم أبوابا جميلة ، وسررا ثمينة ﴿ عليها يتكئون ﴾ أى : على السرر يتكئون وهم جالسون فوقها .

﴿وزخرفا ﴾ أى : ولجعلنا لهم زخرفا ، ليستعملوه فى أسقف منازلهم ، وفى أبواب بيوتهم ، وفى غير ذلك من شئون حياتهم .

والزخرف : يطلق على الشىء الذى يتزين به . فيشمل الذهب والفضة ، وغيرهما مما يستعمله الناس فى تزيين بيوتهم .

وقوله : ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ أى : وما كل ما ذكرناه من البيوت الموصوفة بما ذكرناه من الصفات السابقة ، إلا شىء يتمتع به المتمتعون فى الحياة ، التى أمرها إلى زوال واضمحلال ..

أما الآخرة التى زينتها باقية لا تنتهى ولا تنقطع ، فهى عند ربك خاصة بالمؤمنين الصادقين ، الذين آثروا النعيم الباقى على النعيم الفانى ، فقدموا فى دنياهم العمل الصالح ، الذى ينفعهم فى أخراهم .

* * *

وبعد هذا الحديث الجامع عن هوان شأن الدنيا عند الله - تعالى - ، أتبع - سبحانه - ذلك ببيان حال الذين يعرضون عن ذكر الله - تعالى - ، وأنهم يوم القيامة لن ينفعهم ندمهم أو تحسرهم ، وسلى النبى - ﷺ - عما أصابه منهم . فقال - تعالى - :

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى

وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ يعش ﴾ أى : يعرض . يقال عشا فلان يعشو ، كدعا يدعو ، وعشى يعشى ، كرضى يرضى ، إذا ضعف بصره ، ومنه قولهم : ناقة عشواء ، إذا كانت لا تبصر إلا شيئا قليلا ، والمراد هنا : عمى البصيرة وضعف إدراكها للخير . ومنه قولهم : ركب فلان العشواء ، إذا خبط أمره على غير هدى أو بصيرة .

والمعنى : ومن يتعام عن ذكر الرحمن ، ويعرض عن قرآنه ، ويتجاهل هدى الرسول - ﷺ - ﴿ نقيض له شيطانا ﴾ أى ، نهيىء ونسبب له شيطانا رجيما يستولى عليه ، ويستحوذ على قلبه وعقله .

﴿ فهو له قرين ﴾ أى : فذلك الشيطان يكون ملازما ومصاحبا لهذا الإنسان الذى أعرض عن القرآن ، ملازمة القرين لقرينه ، والشىء لظله .

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - الآثار التى تترتب على مقارنة الشيطان للإنسان فقال : ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

والضمير فى ﴿ وإنهم ﴾ يعود إلى الشيطان باعتبار جنسه ، وفى قوله - تعالى - ﴿ ليصدونهم ﴾ يعود إلى ﴿ ومن ﴾ فى قوله ﴿ ومن يعش ... ﴾ باعتبار معناها .

أى : ومن يعرض عن طاعة الله ، نهيىء له شيطانا ، فيكون ملازما له ملازمة تامة ، وإن هؤلاء الشياطين وظيفتهم أنهم يصدون هؤلاء الفاسقين عن ذكر الله - تعالى - ، وعن سبيله الحق وصراطه المستقيم .

(١) سورة فصلت الآية ٢٥ .

﴿ ويحسبون ﴾ أى : هؤلاء الكافرون ﴿ أنهم مهتدون ﴾ إلى السبيل الحق . فالضمائر فى قوله ﴿ ويحسبون ﴾ وما بعده يعود إلى الكافرين .

ويصح أن يكون الضمير فى قوله ﴿ ويحسبون ﴾ يعود إلى الكفار ، وفى قوله ﴿ أنهم مهتدون ﴾ يعود إلى الشيطان ، فيكون المعنى :

ويظن هؤلاء الكافرون أن الشياطين مهتدون إلى الحق ، ولذلك اتبعوهم وأطاعوهم .

ثم بين - سبحانه - ما يكون بين هذا الإنسان الكافر وبين قرينه من الشياطين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ .

أى : لقد استمر هذا المعرض عن ذكر الله فى غيه . ومات على ذلك حتى إذا جاءنا يوم القيامة للحساب والجزاء ، ﴿ قال ﴾ لقرينه الذى صده عن طريق الحق ..

﴿ ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ﴾ أى : أتمنى أن تكون المسافة التى بينى وبينك من البعد والمفارقة ، كالمسافة التى بين المشرق والمغرب .

فالمراد بالمشرقين المشرق والمغرب فعبر - سبحانه - بالمشرقين على سبيل التغليب لأحدهما على الآخر .

﴿ فبئس القرين ﴾ أى : فبئس القرين أنت - أيها الشيطان - فالمخصوص بالذم محذوف .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيقال لهذا العاشى عن ذكر الله ولقرينه على سبيل التأنيب والتوبيخ فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ... ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ ينفعكم ﴾ يعود إلى التمنى المذكور فى قوله : ﴿ ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ...﴾ و﴿ إذ ﴾ ظرف لما مضى من الزمان ، بدل من ﴿ اليوم ﴾ .

أى : ولن ينفعكم ندمكم وتمنيكم اليوم شيئا ، بعد أن تبين لكم أنكم كنتم ظالمين فى الدنيا ، ومصرين على الكفر والضلال .

وقوله : ﴿ أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ تعليل لما قبله . أى : ولن ينفعكم اليوم تمنيكم وندمكم لأنكم فى هذا اليوم أنتم وقرناؤكم مشتركون فى العذاب ، كما كنتم فى الدنيا مشتركون فى سببه ، وهو الكفر والضلال .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿ أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ فى محل الرفع على الفاعليه . يعنى : ولن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر

الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم فى تحمل أعبائه . لأن كل واحد منكم ، به من العذاب ما هو فوق طاقته ..

ولك أن تجعل الفاعل التمنى فى قوله : ﴿ ياليت بينى وبينك ... ﴾ على معنى : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين ، وقوله : ﴿ أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ تعليل ، أى : ولن ينفعكم تمنيكم ، لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب ... وتقويه قراءة من قرأ ﴿ إنكم ﴾ بالكسر[1] .

وبعد هذا التوبيخ الشديد للمعرض عن ذكرالله ولشيطانه ، يوجه الله - تعالى - خطابه لنبيه - ﷺ - ليزيده تسلية وتثبيتا فيقول : ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ﴾ .

والاستفهام للنفى أى : أفأنت - أيها الرسول الكريم - تستطيع أن تسمع الصم صوتك ، أو أن تهدى الذين انطمست بصائرهم إلى الطريق الحق . أو أن تخرج من كان فى الضلال الواضح إلى الهدى والرشاد ؟

كلا إنك لن تستطيع ذلك ، لأن الهداية والإضلال ، من الله - تعالى - وحده . وأنت - أيها الرسول الكريم - عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية الرسول - ﷺ - ونهيه من أن يضيق صدره بسبب إعراضهم المستمر عن دعوة الحق ، وبيان أن الهداية والإضلال بيد الله - تعالى - وحده .

وسماهم - سبحانه - صما وعميا ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ، لأنهم بمنزلة الصم والعمى فى عدم انتفاعهم بالهدى والرشاد الذى جاءهم به - ﷺ - .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن كان فى ضلال مبين ﴾ معطوف على العمى والصم باعتبار تغاير الصفات .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - لن تستطيع هداية من كان أصم وأعمى ، ومن كان مصرا على الضلال المبين وما دام الأمر كذلك فسر فى طريقك ، دون أن تذهب نفسك عليهم حسرات ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ زيادة فى تسليته وتثبيته - ﷺ - .

أى : أن أمرك - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء الظالمين لا يخلو عن حالين : إما أن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٥٢ .

نتوفينك قبل أن ترى نقمتنا منهم .. وفى هذه الحالة فسنتولى نحن عذابهم والانتقام منهم ، حسب إرادتنا ومشيئتنا ، وإما أن نبقى حياتك حتى ترى بعينيك العذاب الذى توعدناهم به ، فإنا عليهم وعلى غيرهم مقتدرون على تنفيذ ما نتوعد به من دون أن يستطيع أحد الإفلات من قبضتنا وقدرتنا .

قال ابن كثير : أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله - تعالى - رسوله ، حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[2] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاستمسك بالذى أوحى إليك ... ﴾ واقعة جوابا لشرط مقدر .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن أمرك مع هؤلاء المشركين لا يخلو عن حالين : فاستمسك - أيها الرسول الكريم - بما أوحينا إليك من هدايات وإرشادات ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ وطريق قويم لا عوج فيه ولا اضطراب .

﴿ وإنه ﴾ أى : هذا القرآن ﴿ لذكر لك ولقومك ﴾ أى : لشرف عظيم لك ولشرف عظيم لأهل مكة الذين بعثت فيهم بصفة خاصة ، ولغيرهم ممن آمن بك بصفة عامة كما قال - تعالى - : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ...﴾ أى : عزكم وشرفكم .

وقوله : ﴿ وسوف تسألون ﴾ تحذير من مخالفة ما اشتمل عليه هذا القرآن من أحكام وآداب وتشريعات .

أى : وسوف تسألون يوم القيامة عنه ، وعن القيام بحقه ، وعن مقدار تمسككم بأوامره ونواهيه وعن شكركم لله - تعالى - على منحكم لهذه النعمة .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التثبيت لنبيه - ﷺ - تثبيتا آخر فقال : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ .

والمقصود من الآية الكريمة بيان أن الرسل جميعا ، قد دعوا أقوامهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢١٥ .
(٢) سورة الرعد الآية ٤٠ .
(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .

وكما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[١] .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لاستحالته ، ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم ، وأنهم ما جاءوا قط بعبادة الأوثان ، وإنما جاءوا بالأمر بعبادة الله - تعالى - وحده ..

وقيل : إن النبى - ﷺ - جمع الله له الأنبياء ، فى ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، فصلى بهم إماما ، وقيل له سلهم : فلم يتشكك ولم يسأل .

وقيل معناه ، سل أمم من أرسلنا من قبلك ، وهم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل فإذا سألهم فكأنما سأل - رسلهم - فالكلام على حذف مضاف[٢] .

فالآية الكريمة تقرر على كل الوجوه بأبلغ أسلوب ، أن جميع الرسل قد جاءوا بعقيدة واحدة ، وبدين واحد ، هو عبادة الله - تعالى - ونبذ كل معبود سواه .

* * *

ثم تمضى السورة الكريمة فى تسليتها للرسول - ﷺ - وفى تثبيتها للمؤمنين ، فتذكر جانبا من قصة موسى - عليه السلام ه مع فرعون ، وكيف أن فرعون سخر من دعوة موسى - عليه السلام - وتباهى على قومه بذلك ، وكيف أنه استخف بهم فأطاعوه ، فكانت عاقبته وعاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا . قال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٥٤ .

رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

وقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ومع بنى إسرائيل ، على رأس القصص التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم ، فى سور متعددة ، وذلك لما فيها من مساجلات ومحاورات بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولما فيها من عبر وعظات لقوم يعقلون .

لقد وردت هذه القصة فى سور : البقرة ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، والإسراء ، وطه ، والقصص ، والصافات ، وغافر .. ولكن بأساليب متنوعة يكمل بعضها بعضا .

وهنا تبدأ هذه القصة بقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال إنى رسول رب العالمين ﴾ .

أى : والله لقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - ﴿بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، والتى على رأسها اليد والعصا .. وأرسلناه بهذه الآيات ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى : أشراف قومه ﴿ فقال لهم ﴾ ناصحا ومرشدا : إنى رسول رب العالمين إليكم ، لآمركم بعبادة الله - تعالى - : وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره .

﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ أى : فحين جاء موسى - عليه السلام -

إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا ، سارعوا إلى الضحك منها ، والسخرية بها ، بدون تأمل أو تدبر ، شأن المغرورين الجهلاء .

فقوله - تعالى - : ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ جواب ﴿ لما ﴾ والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية والاستخفاف بالآيات التى جاء بها موسى - عليه السلام - ، مع أن هذه الآيات كانت تقتضى منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ... ﴾ بيان لقسوة قلوبهم ، وعدم تأثرها بالآيات والمعجزات .

أى : وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها ، فى الدلالة على ذلك ، مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة فى ذاتها .

والمقصود بالجملة الكريمة ، بيان أن هؤلاء القوم لم يأتهم موسى - عليه السلام - بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها .

ويصح أن يكون المراد وصف الجميع بالكبر ، على معنى أن كل واحدة لكمالها فى ذاتها ، إذا نظر إليها الناظر ، ظنها أكبر من البواقى لاستقلالها بإفادة الغرض الذى جاءت من أجله .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : والغرض بهذا الكلام ، أنهن موصوفات بالكبر ، لايكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة فى الأشياء التى تتلاقى فى الفضل . و تتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير ، أن تختلف آراء الناس فى تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا ، وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ، ومنه بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى[1]

وقوله - تعالى - : ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ بيان للمصير السيئ الذى آلوا إليه .

أى : وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى ، بالعذاب الدنيوى الشديد لكى يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق ، ولكنهم لم يرجعوا .

فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوى ، الذى أشار إليه - سبحانه - بقوله : ﴿ فأرسلنا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٥٥ .

عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ..﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب ، فقال : ﴿ وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ .

وجمهور المفسرين على أن قولهم هذا ، كان على سبيل التعظيم لموسى - عليه السلام - لأنهم كانوا يوقرون السحرة ، ويعتبرونهم العلماء .

قال ابن كثير : قوله ﴿ يأيها الساحر ﴾ أى : العالم ... وكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه ، فهى تقتضى تعظيمهم لموسى - عليه السلام - ...[2] .

و﴿ ما ﴾ فى قوله : ﴿ بما عهد عندك ﴾ مصدرية : أى : بعهده عندك ، والمراد بهذا العهد : النبوة . وسميت عهدا ، لأن الله - تعالى - عاهد نبيه أن يكرمه بها ، أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد .

وقوله : ﴿ إننا لمهتدون ﴾ مرتب على كلام محذوف .

أى : وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب ، قالوا لموسى - على سبيل التذلل والتعظيم من شأنه - يأيها الساحر الذى غلبنا بسحره وعلمه ، أدع لنا ربك بحق عهده إليك بالنبوة ، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذى نزل بنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أى إننا لمؤمنون ثابتون على ذلك ، متبعون لك فى كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه .

فدعا موسى - عليه السلام - ربه أن يكشف عنهم العذاب ، فأجاب الله دعوته بأن كشف عنهم ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أنهم نقضوا عهودهم ، واستمروا على كفرهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ أى : فحين كشفنا عنهم العذاب الذى حل بهم ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ أى : إذا هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلا يؤمنون . يقال : نكث فلان عهده ونقضه ، إذا لم يف به .

ومن سوء أدبهم أنهم قالوا : ادع لنا ربك ، فكأن الله - تعالى - رب موسى وحده ، وليس ربا لهم .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٠٧ .

ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل - فلما كشفنا عنهم العذاب إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من طغيان فرعون وفجوره ، واستخفافه بعقول قومه فقال : ﴿ ونادى فرعون فى قومه ... ﴾ أى : أن فرعون جمع زعماء قومه ، وأخبرهم بما يريد أن يقول لهم .

أو أنه أمر مناديا ينادى فى قومه جميعا ، ليعلمهم بما يريد إعلامهم به ، وأسند - سبحانه - النداء إلى فرعون ، لأنه هو الآمر به .

والتعبير بقوله : ﴿ فى قومه ﴾ يشعر بأن النداء قد وصل اليهم جميعا ودخل فى قلوبهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ... ﴾ حكاية لما قاله فرعون لقومه .

أى : أن فرعون جمع عظماء قومه ، وقال لهم - بعد أن خشى إيمانهم بموسى : ﴿ يا قوم أليس لى ملك مصر ﴾ بحيث لا ينازعنى فى ذلك منازع ، ولا يخالفنى فى ذلك مخالف ، فالاستفهام للتقرير .

وفضلا عن ذلك فإن هذه الأنهار التى ترونها متفرعة من النيل تجرى تحت قدمى ، أو من تحت قصرى .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ ذلك ، وتستدلون به على قوة أمرى ، وسعة ملكى ، وعظم شأنى فمفعول ﴿ تبصرون ﴾ محذوف ، أى : أفلا تبصرون عظمتى .

و﴿ أم ﴾ فى قوله : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ هى المنقطعة المقدرة بمعنى بل التى هى للاضراب ، والإشارة بهذا تعود لموسى - عليه السلام - .

أى : بل أنا خير من هذا الذى هو فقير وليس صاحب ملك أو سطوة أو مال .. وفى الوقت نفسه ﴿ لايكاد يبين ﴾ أى : لا يكاد يظهر كلامه لعقدة فى لسانه .

ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ .

والأسورة : جمع سوار ، وهو كناية عن تمليكه ، وكانوا إذا ملكوا رجلا عليهم ، جعلوا فى يديه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة على أنه ملكهم .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٣٤ ، ١٣٥ .

أى : فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا ، أن يحلى نفسه بأساور من ذهب ، أو جاء إلينا ومعه الملائكة محيطين به ، ومتقارنين معه ، لكى يعينوه ويشهدوا له بالنبوة .

ولاشك أن هذه الأقوال التى تفوه بها فرعون ، تدل على شدة طغيانه ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه وسفاهتهم وضعفهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقدقال ما ملخصه : وهذا الذى قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر أبصار ذوى الألباب .

وقوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ افتراء - أيضا - فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه ، فاستجاب الله - تعالى - له وفرعون إنما أراد بهذا الكلام ، أن يروج على رعيته ، لأنهم كانوا جهلة أغبياء ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع ، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج على طاعة الله - تعالى - .

أى : وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى - عليه السلام - طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم ، فأجابوه إلى طلبه منهم ، لأنهم كانوا قوما خارجين على طاعتنا ، مؤثرين الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ..

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ .

وقوله : ﴿ آسفونا ﴾ أى : أغضبونا أشد الغضب ، من أسف فلان أسفا ، إذا اشتد غضبه و﴿ سلفا ﴾ أى : قدوة لمن بعدهم من الكفار فى استحقاق مثل عقوبتهم . وهو مصدر وصف به على سبيل المبالغة ، ولذا يطلق على القليل والكثير . يقال : سلفه الشىء سلفا ، إذا تقدم ومضى . وفلان سلف له عمل صالح ، أى : تقدم له عمل صالح ومنه : الأسلاف ، أى : المتقدمون على غيرهم .

أى : فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان ، انتقمنا منهم انتقاما شديدا ، حيث أغرقناهم أجمعين فى اليم .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢١٨ .

﴿ فجلعناهم سلفا ﴾ أى قدوة لمن بعدهم فى الكفر فى استحقاق مثل عقوبتهم كما جعلناهم ﴿ مثلا ﴾ أى : عبرة وموعظة ﴿ للآخرين ﴾ الذين يعملون مثل أعمالهم ..

وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة ، جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه .

ويتجلى فى هذا الجانب من القصة طغيان فرعون ، واستخفافه بعقول قومه ، ومجاهرته بالكذب والفجور .. فكانت عاقبتهم جميعا الدمار والبوار .

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن جانب من قصة موسى ، إلى الحديث عن جانب من قصة عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ
﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا ... ﴾ روايات منها : أنه لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ... ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد - ﷺ - إلا أن نتخذه إلها ، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله - تعالى - ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا ... ﴾ .

وقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن هذه الآية ، نزلت فى مجادلة ابن الزبعرى - قبل أن يسلم - مع النبى - ﷺ - فإنه لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... ﴾ .

قال ابن الزبعرى خصمتك - يا محمد - ورب الكعبة . أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيرا ، وبنو مليح يعبدون الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء فى النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار ؟ .

فقال له النبى - ﷺ - : « ما أجهلك بلغة قومك ؟ أما فهمت أن ﴿ ما ﴾ لما لا يعقل » ؟ . وفى رواية أنه - ﷺ - قال له : « إنهم يعبدون الشيطان » وأنزل الله - تعالى - : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون .. ﴾[1] .

وكلمة ﴿ يصدون ﴾ قرأها الجمهور بكسر الصاد . وقرأها ابن عامر والكسائى بضم الصاد . وهما بمعنى واحد . ومعناهما : يضجون ويصيحون فرحا . يقال : صد يصد - بكسر الصاد وضمها - بمعنى ضج - كعكف - بضم الكاف وكسرها .

ويرى بعضهم أن ﴿ يصدون ﴾ - بكسر الصاد - بمعنى : يضجون ويصيحون ويضحكون ... وأن ﴿ يصدون ﴾ - بضم الصاد - بمعنى يعرضون . من الصد بمعنى الإعراض عن الحق .

والمعنى : وحين ضرب ابن الزبعرى ، عيسى ابن مريم مثلا ، وحاجك بعبادة النصارى له ، فاجأك قومك - كفار قريش - بسبب هذه المحاجة ، بالصياح والضجيج والضحك ، فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى ، وظنا منهم أنه قد انتصر عليك فى الخصومة والمجادلة .

فمن فى قوله ﴿ منه ﴾ الظاهر أنها للسببية ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ... ﴾ .

والمراد بالمثل هنا : الحجة والبرهان .

قال الآلوسى : والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة ، قيل لها مثل . أو المثل بمعنى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٢٠ . والشوكانى جـ ٤ ص ٥٦١ . والآلوسى جـ ٢٥ ص ٩٤ .

المثال . أى : جعله مقياسا وشاهدا على إبطال قوله - ﷺ - : إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى - عليه السلام - نفسه مثلا من باب : الحج عرفة[١] .

ثم بين - سبحانه - أقوالهم التى بنوا عليها باطلهم فقال : ﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ... ﴾ ؟ والضمير ﴿ هو ﴾ يعود إلى عيسى - عليه السلام - .

ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى - عليه السلام - على آلهتهم ، مجاراة للنبى - ﷺ - .

فكأنهم يقولون : لقد أخبرتنا بأن عيسى ابن مريم رسول من رسل الله - تعالى - وأنه خير من آلهتنا .. فإن كان فى النار يوم القيامة لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار .

وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله : ﴿ ماضربوه لك إلا جدلا ﴾ .

أى : لاتهتم - أيها الرسول الكريم - بما قالوه ، فإنهم ماضربوا لك هذا المثل بعيسى إلا من أجل مجادلتك بالباطل ، وليس من أجل الوصول إلى الحق .

وقوله : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ مؤكد لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل ، لا لطلب الحق ، وإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم فى خصومتهم .

أى : ذرهم - أيها الرسول الكريم - فى باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم مجبولون على الخصومة ، وعلى اللجاج فى الباطل .

فقوله : ﴿ خصمون ﴾ جمع خصم - بفتح فكسر - وهو الإنسان المبالغ فى الجدل والخصومة ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق .

وجاء التعبير فى قوله : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا ﴾ بصيغة الجمع ، مع أن ضارب المثل واحد ، وهو ابن الزبعرى ، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ، من الأساليب المعروفة فى اللغة العربية ، ومنه قول الشاعر :

فَسَيف بنى عبس وقد ضربوا به نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

فإنه قد نسب الضرب إلى جميع بنى عبس ، مع تصريحه بأن الضارب واحد ، وهو ورقاء .. ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى فى قوله ، فكأنهم جميعا قد قالوه ..

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٩٢ .

أى : ليس هو أى : عيسى - عليه السلام - إلا عبد من عبادنا الذين أنعمناعليهم بنعمة النبوة ﴿ وجعلناه مثلا ﴾ أى : أمرا عجيبا ، جديرا بأن يسير ذكره كالأمثال ﴿ لبنى إسرائيل ﴾ الذين أرسلناه إليهم ، حيث خلقناه من غير أب ، وأعطيناه المعجزات الباهرات التى منها : إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ... وهذا كله دليل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ونفاذ إرادتنا .

فالآية الكريمة ترفع من شأن عيسى - عليه السلام - ، وتحدد منزلته ، وتنفى عنه غلو المغالين فى شأنه ، وإنقاص المنقصين من قدره .

ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ .

و « من » فى قوله - تعالى - ﴿ منكم ﴾ يصح أن تكون للبدلية ، فيكون المعنى : ولو نشاء إهلاككم أيها الكافرون لفعلنا ولجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم ، ولكنا لم نشأ ذلك لحكم نحن نعلمها .

ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى : ولو نشاء لجعلنا منكم يارجال قريش ملائكة ، بطريق التوليد منكم ، من غير واسطة نساء ، فهذا أمر سهل علينا ، مع أنه أعجب من حال عيسى الذى تستغربونه ، لأنه جاء من غير أب ، مع أن الأم من طبيعتها الولادة .

فالمقصود بالآية الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء ، وأن ماتعجبوا منه ، الله - تعالى - قادر على أن يأتى بما هو أعجب منه .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ ولو نشاء ﴾ لقدرتنا على خلق عجائب الأمور ، وبدائع الفطر ، ﴿ لجعلنا منكم ﴾ أى : لولدنا منكم يارجال ﴿ ملائكة ﴾ يخلفونكم فى الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام .. وذات الله - تعالى - متعالية عن ذلك[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض ما يتعلق بعيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ .

فالضمير فى ﴿ إنه ﴾ يعود إلى عيسى لأن السياق فى شأنه ، وقيل يعود إلى القرآن أو إلى الرسول - ﷺ - وضعف ذلك لأن الكلام فى شأن عيسى .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٦١ .

والمراد بالعلم : العلامة ، واللام فى قوله ﴿ للساعة ﴾ بمعنى على . والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : وإن عيسى - عليه السلام - عند نزوله من السماء فى آخر الزمان حيا ، ليكونن علامة على قرب قيام الساعة ، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك أن تقع ..

قال الآلوسى : ﴿ وإنه ﴾ أى : عيسى عليه السلام - ﴿ لعلم للساعة ﴾ أى : أنه بنزوله شرط من أشراطها .

وقد نطقت الأخبار بنزوله - عليه السلام - فى آخر الزمان ، فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : لينزلن ابن مريم ، حكما عدلا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد[1] .

وقال ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إنه لعلم للساعة ﴾ الصحيح أن الضمير يعود على عيسى ، فإن السياق فى ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال - تعالى - ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ...﴾ أى : قبل موت عيسى .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - « أنه أخبر بنزول عيسى قبل يوم القيامة ، إماما عادلا ، وحكما مقسطا »[2] .

وقوله : ﴿ فلا تمترن بها ﴾ أى : فلا تشكن فى وقوعها فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ، فقوله ﴿ تمترن ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب .

وقوله : ﴿ واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ أى : واتبعوا - أيها الناس - ما جئتكم به من عند ربى ، فإن هذا الذى جئتكم به ، هو الطريق المستقيم الذى يوصلكم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أى : ولا يمنعنكم الشيطان بسبب وسوسته لكم ، عن طاعتى واتباعى ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أى : إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة ، وكيده لكم واضح ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى - عليه السلام - لقومه ، عندما بعثه الله إليهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٩٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٢٣ .

فقال : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ، قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ .

والبينات : جمع بينة . وهى صفة لموصوف محذوف ، والمراد بها : المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها عيسى - عليه السلام - .

والمراد بالحكمة : التشريعات والتكاليف والمواعظ التى أرشدهم إليها ، عن طريق الكتاب الذى أنزله الله تعالى إليه ، وهو الإنجيل .

أى : وحين جاء عيسى - عليه السلام - إلى قومه ، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : ياقوم لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحة التى تشهد بصدقى وجئتكم بالإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ .

وقوله : ﴿ ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ﴾ متعلق بمحذوف والتقدير :

قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، وجئتكم - أيضا - لأبين لكم ولأصحح لكم بعض الأمور التى تختلفون فيها .

وقال - سبحانه - ﴿ ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ﴾ ولم يقل كل الذى تختلفون فيه ، للإشعار بالرحمة بهم ، وبالستر عليهم ، حيث بين البعض وترك البعض الآخر ، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا بين لهم كل الذى يختلفون فيه ؟ قلت : كانوا يختلفون فى الديانات ، وما يتعلق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، فاتقوا الله - تعالى - بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وبأن تطيعونى فى كل ما آمركم به أو أنهاكم عنه .

وإن الله - تعالى - هو ربى وربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى آمركم به أو أنهاكم عنه ، هو الطريق القويم ، الذى يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ... ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦٢ .

والأحزاب : جمع حزب . والمراد بهم الفرق التى تحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى .

وضمير الجمع فى قوله ﴿ من بينهم ﴾ يعود إلى من بعث إليهم عيسى - عليه السلام - من اليهود والنصارى .

وقيل : يعود إلى النصارى خاصة ، لأنهم هم الذين اختلفوا فى شأنه ، فمنهم من قال : هو الله ومنهم من قال : هو ابن الله . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أى : الفرق المتحزبة ﴿ من بينهم ﴾ أى : من بين من بعث إليهم ، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته - عليه السلام - .

وقيل : المراد النصارى ، وهم أمة إجابته ، وقد اختلفوا فرقا : ملكانية ، ونسطورية ، ويعقوبية[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ بيان للعقاب الشديد الذى أعده الله - تعالى - لهم ، بسبب اختلافهم وبغيهم ، ونسبتهم إلى عيسى ما هو برىء منه .

أى : فهلاك وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبافترائهم على عيسى - عليه السلام - ، وما أشد حسرتهم فى هذا اليوم العصيب .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ للنفى .

وينظرون بمعنى : ينتظرون . والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق .

أى : ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة ، وهذا القيام سيأتيهم فجأة ، وبدون شعور منهم بها ، وحينئذ يندمون ولن ينفعهم الندم ، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذى جاءهم به رسولنا- ﷺ - ، قبل فوات الأوان .

فالآية الكريمة دعوة لهؤلاء المشركين إلى الاستجابة للرسول - ﷺ - إذا دعاهم لما يصلحهم ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٩٧ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على جدالهم بالباطل وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وبينت الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - وتوعدت المختلفين فى أمره - اختلافا يتنافى مع ما جاءهم به - بالعذاب الشديد .

* * *

وبعد هذا الحديث عن جانب عن قصة موسى، وعن جانب من قصة عيسى - عليهما السلام - ، وعن موقف أقوامهما منهما .. بعد كل ذلك رسمت السورة الكريمة صورة واضحة لحسن عاقبة المؤمنين ، ولسوء عاقبة المكذبين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، فقال - تعالى - :

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾
إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا

فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

وقوله - تعالى -: ﴿ الأخلاء ﴾ جمع خليل بمعنى صديق . وسمى الأصدقاء أخلاء ، لأن المودة التى بينهم تخللت قلوبهم واختلَطت بنفوسهم .

أى : الأصدقاء فى الدنيا ، يصير بعضهم لبعض يوم القيامة أعداء ، لأنهم كانوا يجتمعون على الشرور والآثام فى الدنيا ، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان فلما جاء يوم القيامة ، وانكشفت الحقائق .. انقلبت صداقتهم إلى عداوة .

﴿ إلا المتقين ﴾ فإن صداقتهم فى الدنيا تنفعهم فى الآخرة ، لأنهم أقاموها على الإيمان والعمل الصالح والطاعة لله رب العالمين .

فالآية الكريمة إنذار للكافرين الذين كانت صداقاتهم فى الدنيا تقوم على محاربة الحق ، ومناصرة الباطل ... وبشارة عظيمة للمتقين الذين بنوا صداقتهم فى الدنيا على طاعة الله - تعالى - ونصرة دينه ، والعمل بشريعته .

ثم بشر الله - تعالى - عباده بجملة من البشارات الكريمة ، فقال - تعالى - : ﴿ ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ .

والخوف معناه : توقع ما يخشاه ويغتم له الإنسان فى المستقبل . والحزن معناه : غم يلحق الإنسان من أجل شىء مضى .

وقوله : ﴿ تحبرون ﴾ أى : تفرحون وتسرون سرورا عظيما يظهر حباره - بفتح الحاء وكسرها - أى : أثره الحسن على وجوهكم وأفئدتكم ، فهو من الحبَر - بفتح الحاء والباء - بمعنى الأثر . ويصح أن يكون من الحَبْرْ - بسكون الباء - بمعنى الزينة وحسن الهيئة .

وبهذا ترى الآيات الكريمة قد نفت عنهم الخوف والحزن ، وفتحت لهم أبواب الجنة ، وأعلمتهم بأنهم سيكونون هم وأزواجهم فى سرور دائم .

أى : يقول الله - تعالى - لعباده المؤمنين يوم القيامة : ياعباد الذين شرفتكم بالإضافة إلى ذاتى ، لا خوف عليكم اليوم من أمر المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على أمر مضى .

وقوله : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ فى محل نصب ، صفة لقوله « يا عباد » أى : يا عباد الذين آمنوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا - ﷺ - . وكانوا فى

الدنيا مخلصين وجوههم لنا ، وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا ..

﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ﴾ أى : ونساؤكم المؤمنات ﴿ تحبرون ﴾ أى : تسرون وتتلذذون بتلك النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليكم .

فالمراد بأزواجهم هنا : نساؤهم ، لأن فى هذه الصحبة تلذذا أكثر ، ونعيما أكبر .

والإضافة فى قوله ﴿ أزواجكم ﴾ للاختصاص التام ، فتخرج الأزواج غير المؤمنات .

ومنهم من يرى أن المراد بقوله ﴿ وأزواجكم ﴾ : نظراؤكم وأشباهكم فى الطاعة لله - تعالى - .

أى : ادخلوا الجنة أنتم وأشباهكم فى الإيمان والطاعة ، دخولا لا تنالون معه إلا الفرح الدائم ، والسرور الذى لا انقطاع له .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد فقال : ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ...﴾ .

والصحاف : جمع صحفة ، وهى الآنية الواسعة الكبيرة التى توضع فيها الأطعمة .

والأكواب : جمع كوب وهو مايوضع فيه الشراب .

وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، فإذا ما دخلوها واستقروا فيها ، يطاف عليهم بأطعمة وأشربة فى أوان من ذهب .

ولم تذكر الأطعمة والأشربة للعلم بها ، إذ لا معنى للطواف بالصحاف والأكواب وهى فارغة ..

﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ أى : وفى الجنة التى دخلوها كل ما تشتهيه الأنفس من أنواع المشتهيات ، وكل ما تتلذذ بين الأعين وتسر برؤيته .

﴿ وأنتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ فيها خالدون ﴾ خلودا أبديا لا نهاية له .

ثم ختم - سبحانه - هذا التكريم لعباده بقوله : ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ الجنة ﴾ وما بعدهما صفة الجنة .. وفى الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف .

وقال - سبحانه - ﴿ وتلك ﴾ بالإفراد ، للإشعار بأن الخطاب لكل واحد من أهل الجنة ، على سبيل العناية به ، والإعلاء من شأنه .

أى : ويقال لهم يوم القيامة على سبيل التشريف : وهذه الجنة التى أورثتموها بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا ، لكم فيها فاكهة كثيرة ، وثمار شهية لذيذة ، منها تأكلون أكلا هنيئا مريئا .

وعبر بقوله - تعالى - ﴿ أورثتموها ﴾ للإشعار بأنها قد صارت إليهم بفضل الله وكرمه ، كما يصير الميراث إلى الوارث .

وقوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ بيان للأسباب التى أوصلتهم إلى هذه المنازل العالية ، فإن أعمالهم الطيبة التى تقبلها الله - تعالى - منهم ، جعلتهم - بفضله وإحسانه - فى أعلى الدرجات وأسماها .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار جاء الحديث عن سوء عاقبة الكافرين بعد الحديث عن حسن عاقبةالمؤمنين ، فقال - تعالى - ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ﴾ .

أى : إن الكافرين بالحق ، الراسخين فى الإجرام ، الكاملين فيه ، سيكونون يوم القيامة ، فى عذاب جهنم خالدين فيه خلودا أبديا .

﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أى : لا يخفف عنهم العذاب ، فقوله ﴿ يفتر ﴾ مأخوذ من الفتور بمعنى الهدوء والسكون ، يقال : فترت الحمى ، إذا خفت حدتها ، وفتر المرض إذا سكن قليلا .

﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أى : وهم فى هذا العذاب فى أقصى درجات الحزن والذلة واليأس يقال : أبلس فلان إبلاسا ، إذا سكت عن الكلام سكوتا مصحوبا بالحزن وانقطاع الحجة .

ثم بين - سبحانه - أن ما نزل بهؤلاء المجرمين من عذاب كان بسبب كفرهم فقال - تعالى - : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ .

أى : نحن ماظلمنا هؤلاء الكافرين بإنزال هذا العذاب المهين الدائم بهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، باستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الغى على الرشد .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم بعد نزول العذاب بهم فقال : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ .

والمراد بذلك سؤال مالك خازن النار ،واللام فى قوله ﴿ ليقض ﴾ لام الدعاء .

أى : وبعد أن طال العذاب على هؤلاء الكافرين ، نادوا فى ذلة واستجداء قائلين لخازن

النار : يا مالك ادع لنا ربك كى يقضى علينا ، بأن يميتنا حتى نستريح من هذا العذاب .

فالمراد بالقضاء هنا : الإهلاك والإماتة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ..﴾ أى : فأهلكه .

وفى هذا النداء ما فيه من الكرب والضيق ، حتى إنهم ليتمنون الموت لكى يستريحوا مما هم فيه من عذاب .

وهنا يجيئهم الرد بما يزيدهم غما على غمهم ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أى : قال مالك فى الرد عليهم : إنكم ماكثون فيها بدون موت يريحكم من عذابها ، وبدون حياة تجدون معها الراحة والأمان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ تأكيد منه - تعالى - وتقرير لرد مالك عليهم ، ومبين لسبب مكثهم فيها ..

أى : لقد جئناكم - أيها الكافرون - بالحق على ألسنة رسلنا الذين لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا وسلكوها معكم فى الإرشاد إلى طريق الهدى ، ولكن أكثركم كان كارها للحق والهدى ، معرضا عنهما إعراضا كليا ، مصرا على كفره وشركه .

وعبر - سبحانه - بالأكثر لأن قلة منهم لم تكن كارهة للحق ، ولكنها كانت منقادة لأمر سادتها وكبرائها .. أما الذين كانوا يعرفون الحق ولكن يكرهونه ، فهم الزعماء والكبراء ، لأنهم يرون فى اتباعه انتقاصا من شهواتهم وتصادما مع أهوائهم .

ثم وبخهم - سبحانه - على مكرهم ، وبين أنه مكر بائر خائب فقال : ﴿ أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون ﴾ .

و﴿ أم ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لتأنيب المشركين على ما دبروه من كيد للرسول - ﷺ - وللمؤمنين . والإبرام : الإتقان للشىء والإحكام له ، وأصله الفتل المحكم . يقال : أبرم فلان الحبل ، إذا أتقن فتله .

أى : بل أحكموا كيدهم للنبى - ﷺ - ولأصحابه ؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد خاب ظنهم ، لأن مكرنا أعظم من مكرهم ، وكيدنا يزهق كيدهم ..

فالمقصود بالآية الكريمة الانتقال من عدم إجابة ندائهم ، إلى تأنيبهم على ما كان منهم فى الدنيا من مكر بالحق وأهله ، وكيف أن هذا المكر السىء كانت نتيجته الخسران لهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ... ﴾ توبيخ آخر لهم على جهلهم وانطماس بصائرهم .

والمراد بالسر هنا : حديثهم مع أنفسهم ، والمراد بنجواهم : ما تكلم به بعضهم مع بعض دون أن يطلعوا عليه أحدا غيرهم .

أى : بل أيظن هؤلاء الجاهلون أننا لا نعلم ما يتحدثون به مع أنفسهم ، وما يتحدثون به مع غيرهم فى خفية واستتار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أى : إذا كانوا يظنون ذلك فقد خابوا وخسروا ، فإننا نعلم سرهم ونجواهم . ورسلنا الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ملازمون لهم ، ويسجلون عليهم كل صغيرة وكبيرة .

وبعد هذا التهديد والوعيد لأولئك الكافرين .. تأخذ السورة الكريمة فى تلقين الرسول - ﷺ - الحجة التى يجابههم بها ، وفى تسليته عما أصابه منهم ، وفى الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله من تمجيد وتعظيم ، ثم تختتم بهذا النداء الخاشع من الرسول - ﷺ - لخالقه - عز وجل - فتقول :

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ
ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ
إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

و﴿ إن ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ...﴾ يرى بعضهم أنها شرطية ، وأن الكلام مسوق على سبيل الفرض والتقدير .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - ردا على هؤلاء الكافرين الذين نسبوا الولد إلى الله - تعالى - ، قل لهم : إن كان للرحمن ولد - على سبيل الفرض والتقدير - فأنا أول العابدين لهذا الولد ، ولكن هذا الفرض قد ثبتت استحالته يقينا لاشك معه ، فما أدى إليه ، وما ترتب عليه من نسبتكم الولد إلى الله - تعالى - محال - أيضا - وإذًا فأنا لا أعبد إلا الله - تعالى - وحده ، وأنزهه - سبحانه - عن الولد أو الشريك .

ومن الآيات الكريمة التى نفت عن الله - عز وجل - الولد قوله - تعالى - : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾[(١)] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾[(٢)] .

ومن المفسرين الذين رجحوا أن تكون ﴿ إن ﴾ هنا شرطية ، الإمام ابن جرير ، فقد قال بعد أن ذكر بعض الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال عندنا بالصواب فى ذلك ، قول من قال : معنى ﴿ إن ﴾ الشرط الذى يقتضى الجزاء .ومعنى الكلام : قل يا محمد لمشركى قومك ، الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، إن كان للرحمن ولد - على سبيل الفرض - فأنا أول العابدين . ولكنه لا ولد له فأنا أعبده لأنه لا ينبغى أن يكون له ولد .

وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه ، لم يكن على وجه الشك ،ولكن على الإلطاف فى الكلام ، وحسن الخطاب ، كما قال - جل ثناؤه - ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾[(٣)] .

وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - : ﴿ قل ﴾ يامحمد ﴿ إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ .

أى : لو فرض هذا لعبدته على ذلك ، لأنى عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما أمرنى به ، ليس عندى استكبارولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا كان هذا ، ولكن هذا ممتنع فى حقه

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٧ .

(٢) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٢ .

(٣) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٥ ص ٦١ .

- تعالى - ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز - أيضا - كما قال - تعالى - : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾(١) .

وقال صاحب الكشاف - رحمه الله - : قوله - تعالى - : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد .. ﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح .. ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أى : فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ..

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة فى نفى الولد ، والإطناب فيه .. وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهى محال فى نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ..(٢) .

ويرى بعض العلماء أن ﴿ إن ﴾ فى الآية نافية بمعنى ما ، فيكون المعنى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكافرين : ما كان للرحمن من ولد ، وما صح وما أمكن ذلك ، فهو مستحيل عقلا وشرعا ... وما دام الأمر كذلك ، فأنا أول العابدين لله- تعالى - المنزهين له عن الولد والشريك وغيرهما .

قال الإمام القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ... ﴾ اختلف فى معناه . فقال ابن عباس والحسن والسدى : المعنى : ما كان للرحمن ولد . ﴿ إن ﴾ بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدى بقوله - تعالى - ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ .

وقيل المعنى : قل يا محمد ، إن ثبت له ولد ، فأنا أول من يعبد ولده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل ، فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغة فى الاستبعاد ، أى : لا سبيل إلى اعتقاده ..

و﴿ إن ﴾ على هذا للشرط ، وهو الأجود .

وقيل إن معنى ﴿ العابدين ﴾ الآنفين . وقال بعض العلماء لو كان كذلك لكان العبدين .. بغير ألف ، يقال : عبد - بكسر الباء - يعبد عبدا - بفتحها - إذا أنف وغضب فهو عبد ، والاسم العبدة ، مثل الأنفة ..(٣) .

ويبدو لنا أن الرأيين يؤديان إلى نفى أن يكون لله - تعالى - ولد وإن كان الرأى الأول - وهو أنّ حرف ﴿ إن ﴾ للشرط - هو المتبادر من معنى الآية وعليه جمهور المفسرين .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٨ .
(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٦٥ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص١٢٠ .

ثم نزه - عز وجل - ذاته عن أقوال المفترين فقال : ﴿ سبحان رب السموات والأرض ، رب العرش عما يصفون ﴾ .

وسبحان : اسم مصدر بمعنى التنزيه والتقديس ، منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف ، أى : سبحت الله - تعالى - تسبيحا ، ونزهته تنزيها ، عن أن يكون له ولد أو شريك ، فهو - عز وجل - رب السموات ، ورب الأرض رب العرش العظيم ، وهو المتعالى عن كل ما وصفه الكافرون والفاسقون من صفات لا تليق بجلاله .

وجاء هذا التنزيه والتقديس بلفظ ﴿ سبحان ﴾ ، لا بلفظ الفعل سبح أو يسبح ، لأن النقص الذى أرادوا إلصاقه به شنيع ، فكان من المناسب أن يؤتى بأقوى لفظ فى التنزيه والتقديس .

و﴿ ما ﴾ فى قوله : ﴿ عما يصفون ﴾ مصدرية ، أى : عن وصفهم لله الولد ، ويصح أن تكون موصولة والعائد محذوف . أى : عن الذى يصفونه به .

وفى إضافة رب إلى العرش ، مع أنه أعظم الأجرام ، تنبيه على أن جميع المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته ، فكيف يتخذ من خلقه ولدا ؟ .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا .. ﴾ للافصاح عن شرط مقدر ..

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاترك هؤلاء الكافرين يخوضون فى باطلهم ، وينهمكون فى لعبهم ..

﴿ حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، الذى سنحاسبهم فيه حسابا عسيرا ، ونعاقبهم بالعقوبة التى يستحقونها .

فالآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما لحقه منهم من أذى ، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الشنيعة .

ثم أكد - سبحانه - أنه هو الإله الحق ، وأن كل ما عداه باطل ، فقال : ﴿ وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله ، وهو الحكيم العليم ﴾ .

والجار والمجرور فى قوله ﴿ فى السماء وفى الأرض ﴾ متعلق بلفظ ﴿ إله ﴾ ، لأنه بمعنى معبود أو بمعنى مستحق للعبادة ، وهذا اللفظ الكريم خبر مبتدأ محذوف ، أى : هو إله ..

أى : وهو - سبحانه - وحده المعبود بحق فى السماء ، والمعبود بحق فى الأرض ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، وهو - عز وجل - ﴿ الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله ﴿ العليم ﴾ بكل شىء فى هذا الوجود .

فالآية الكريمة تدل على أن المستحق للعبادة من أهل السماء ومن أهل الأرض ، هو الله - تعالى - ، وكل معبود سواه فهو باطل .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ﴿وهو الذى فى السماء إله .. ﴾ الجار والمجرور متعلق بلفظ إله ، لأنه بمعنى معبود فى السماء ومعبود فى الأرض ..

وبما تقرر من أن المراد بإله : معبود ، اندفع ما قيل من أن هذا يقتضى تعدد الآلهة ، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ، كقولك : أنت طالق وطالق .

وإيضاح هذا الإندفاع ، أن الإله بمعنى المعبود ، وهو - تعالى - معبود فيهما . والمغايرة إنما هى بين معبوديته فى السماء ، ومعبوديته فى الأرض ، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفى التغاير فيها من أحد الطرفين ، فإذا كان العابد فى السماء غير العابد فى الأرض ، صدق أن معبوديته فى السماء غير معبوديته فى الأرض مع أن المعبود واحد ، وفيه دلالة على اختصاصه - تعالى - باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الاختصاص ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ ثناء منه - سبحانه - على ذاته بما هو أهله .

ولفظ ﴿ تبارك ﴾ فعل ماض ، أى تعالى الله وتعظم ، وزاد خيره وكثر إنعامه ، وهو مأخوذ من البركة - بفتح الراء - بمعنى الكثرة من كل خير .. أو من البرك - بسكون الراء - بمعنى الثبوت والدوام .. وكل شىء ثبت ودام فقد برك .

أى : وتعالى الله وتقدس ، وثبت خيره ، وزاد إنعامه ، فهو - سبحانه - الذى له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما بينهما من مخلوقات أخرى لا يعلمها أحد سواه .

﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أى : وعنده وحده لا عند غيره العلم التام بوقت قيام الساعة .

فالمصدر وهو ﴿ علم ﴾ مضاف لمفعوله وهو ﴿ الساعة ﴾ والعالم بذلك هو الله - تعالى - .

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لسرعة قيامها ، كما قال - تعالى - ﴿ ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ...﴾ .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى : وإليه وحده مرجعكم للحساب أو الجزاء ، وليس إلى أحد سواه - عز وجل - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٩٨ .

ثم بين - سبحانه - أنه لا شفاعة لأحد إلا بإذنه ، فقال : ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون .

والمراد بالموصول فى قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون ... ﴾ الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله - تعالى - ، وهو فاعل ، وجملة ﴿ يدعون ﴾ صلة لا محل لها من الإعراب ، والعائد محذوف .

والشفاعة من الشفع بمعنى الضم ، لأن الشفيع ينضم إلى المشفوع له ، فيصير شفعا بعد أن كان فردا .

والاستثناء فى قوله ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ متصل ، لأن المستثنى منه عام ، ثم استثنى منه الموحدون ، كعيسى ابن مريم .

والمعنى : ولا يملك المعبودون من دون الله - تعالى - الشفاعة لأحد من الناس ، إلا من شهد بالحق منهم ، وأخلص العبادة لله - تعالى - وحده ، كعيسى ابن مريم ، وعزير ، والملائكة ، فهؤلاء يملكونها إذا أذن الله - سبحانه - لهم بها .

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، إذا كان المستثنى منه خاصا بالأصنام فيكون المعنى : ولا تملك الأصنام الشفاعة لأحد ، لكن من شهد بالحق وبوحدانية الله كعيسى ابن مريم وغيره ، فإنه يملكها بإذن الله - تعالى - .

ويصح أن يكون المراد بقوله : ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ المؤمن المشفوع فيه فيكون المعنى : ولا يملك أحد الشفاعة لأحد . إلا لمن آمن بالله - تعالى - وشهد الشهادة الحق وهو المؤمن ، فإنه تجوز الشفاعة له ، أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له . كما قال - تعالى- : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى .. ﴾

وجملة ﴿ وهم يعلمون ﴾ حالية . أى : والحال أنهم يعلمون علما يقينا ، أن المستحق للعباد هو الله - تعالى - .

وقيد - سبحانه - الشهادة بقوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ للإشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هى المعتدة ، أما الشهادة بدون علم بالمشهود به فإنها لا تكون كذلك .

وجمع - سبحانه - الضمير ﴿ هم ﴾ باعتبار معنى ﴿ من ﴾ ، وأفرده فى ضمير ﴿ شهد ﴾ باعتبار لفظها .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، فأنى يؤفكون ﴾ .

أى : والله لئن سألت - يا محمد - هؤلاء الكافرين عمن خلقهم وخلق من يعبدونهم من دون الله ، ليقولن : الله هو الخالق لكل المخلوقات .

وقوله : ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أى : ما دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله ، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره . وكيف أشركتم معه غيره فى ذلك مع اعترافكم بأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء .

يقال : أفك فلان فلانا يأفك إفكا - من باب طرب وعلم - إذا صرفه وقلبه عن الشىء . وسميت قرى قوم لوط بالمؤتفكات لأن جبريل جعل عاليها سافلها بأمر الله - تعالى - .

ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به الرسول - ﷺ - إلى ربه فقال : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .. ﴾ .

والقيل ، والقال ، والقول ... كلها مصادر بمعنى واحد . والضمير يعود إلى الرسول - ﷺ - وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء ، على أنه معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ سرهم ونجواهم ﴾ ويكون مقول القول : ﴿ يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ .

والمعنى : أيحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون ، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم ، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله : ﴿ يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ ؟

إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان ، فقد كذبوا وخسروا ، لأننا نعلم ذلك وغيره علما تاما . ويصح أن يكون قوله - تعالى - ﴿ وقيله ﴾ منصوبا بفعل محذوف والتقدير : ويعلم قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ..

وقرأ عاصم وحمزة ﴿ وقيله ﴾ بكسر اللام والهاء ، عطفا على الساعة أى : وعنده - سبحانه - علم الساعة ، وعلم قول الرسول - ﷺ - يارب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون .

والتعبير بالنداء بلفظ الرب ، يشعر بالقرب ، ويوحى بالإجابة ويفيد كمال التضرع ..

كما أن التعبير بقوله ﴿ قوم ﴾ يشير إلى أن كفرهم كان كفرا جماعيا ، لا كفرا فرديا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ إرشاد وتسلية من الله - تعالى - لنبيه . أى : فأعرض عنهم ، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم ، ﴿ وقل سلام ﴾ أى : وقل لهم : أمرى وشأنى الآن مسالمتكم ومتاركتكم .. ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الزخرف » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٥/١١/٨ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ الدُّخَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الدخان » من السور المكية، وعدد آياتها: تسع وخمسون آية فى المصحف الكوفى، وسبع وخمسون فى البصرى، وست وخمسون فى غيرهما . وكان نزولها بعد سورة « الزخرف » .

٢ - وقد افتتحت بالثناء على القرآن الكريم، وأنه قد أنزله - سبحانه- فى ليلة مباركة، قال - تعالى-: ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم .. ﴾ .

٣ - ثم تحدثت عن جانب من العقوبات الدنيوية التى عاقب الله -تعالى- بها كفار قريش، وذكرت ما تضرعوا به إلى الله لكى يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء، فلما كشفه -تعالى- عنهم عادوا إلى كفرهم وعنادهم ...

قال -تعالى-: ﴿ بل هم فى شك يلعبون . فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم - ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .. ﴾ .

٤ - ثم ساقت جانبا من قصة فرعون مع موسى - عليه السلام-، فبينت أن موسى دعا فرعون وقومه إلى وحدانية الله -تعالى-، ولكنهم أصروا على كفرهم، فكانت عاقبتهم الإغراق فى البحر، دون أن يحزن لهلاكهم أحد، وأنهم قد تركوا من خلفهم ما تركوا من جنات ونعيم ..

قال -تعالى-: ﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .. ﴾

٥ - وبعد أن هددت السورة الكريمة مشركى مكة على أقوالهم الباطلة فى شأن البعث، وردت عليهم بما يدحض حجتهم، أتبعت ذلك ببيان سوء عاقبة الكافرين، وحسن عاقبة المؤمنين، وختمت بتسلية الرسول -ﷺ- عما أصابه من أذى، ووعدته بالنصر على أعدائه، قال -تعالى-: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ .

٦ - هذا والمتدبر فى هذه السورة الكريمة يراها تمتاز بقصر الآيات، وبأسلوبها الذى تبرز فيه

ألوانا متعددة من تهديد المشركين، تارة عن طريق تذكيرهم بالقحط الذى نزل بهم، وتارة عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم، وتارة عن طريق ما ينتظرهم من عذاب مهين، إذا ما استمروا على كفرهم ...

كما يراها تثنى على القرآن بألوان متعددة من الثناء، وتبشر المتقين ببشارات متنوعة، وتطوف بالنفس الإنسانية فى عوالم شتى، لتهديها إلى الصراط المستقيم، ولترشدها إلى طريق الحق واليقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر

مساء الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ

٨ / ١١ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى -:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ
مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

سورة « الدخان » من السور المبدوءة بالحروف المقطعة، وقد سبق أن قلنا إن أقرب الآراء إلى الصواب فى معناها: أن الله - تعالى - جاء بها فى أوائل بعض السور للتحدى والتعجيز والتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله - عز وجل - فكأنه - تعالى - يقول للمكذبين: هذا هو القرآن، مؤلف من كلمات وحروف هى من جنس ما تتخاطبون به، فإن كنتم فى شك فى كونه من عنده - تعالى - فأتوا بسورة من مثله .. فعجزوا وانقلبوا خاسرين، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

والواو فى قوله - تعالى -: ﴿ والكتاب المبين ﴾ للقسم، وجوابه ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة .. ﴾ .

والمراد بالليلة المباركة: ليلة القدر ...

أى: وحق هذا القرآن الواضح الكلمات، البين الأسلوب، لقد ابتدأنا إنزاله فى ليلة كثيرة البركات والخيرات .

فأنت ترى أن الله -تعالى- قد وصف هذه الليلة بأنها مباركة، لزيادة خيرها وفضلها، ولما تتابع فيها من نعم دينية ودنيوية ..

ولله -تعالى- أن يفضل بعض الأزمنة على بعض وبعض الأمكنة على بعض وبعض الرسل على بعض .. لاراد لفضله، ولا معقب لحكمه ...

قال الإمام ابن كثير: « يقول الله -تعالى- « مخبرا عن هذا القرآن الكريم: أنه أنزله فى ليلة مباركة، وهى ليلة القدر، كما قال -تعالى-: ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر .. ﴾ وكان ذلك فى شهر رمضان، كما قال -تعالى-: ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ ..

ومن قال بأنها -أى: الليلة المباركة- ليلة النصف من شعبان -كما روى عن عكرمة- فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها فى رمضان »[1] .

هذا وقد فصل بعضهم أدلة من قال بأن المراد بها ليلة القدر، وأدلة من قال بأن المراد بها ليلة النصف من شعبان[2] .

والحق أن المراد بها ليلة القدر، التى أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، كما نصت على ذلك آية سورة البقرة التى تقول: ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ... ﴾ .

والأحاديث التى أوردها بعضهم فى أن المراد بها ليلة النصف من شعبان، أحاديث مرسلة أو ضعيفة، أو لا أساس لها .. فثبت أن المراد بها ليلة القدر .

وقوله -سبحانه-: ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ استئناف مبين لمقتضى الإنزال ..

والإنذار: إخبار فيه تخويف وترهيب، كما أن التبشير إخبار فيه تأمين وترغيب .

أى: أنزلنا هذا القرآن فى تلك الليلة المباركة، أو ابتدأنا إنزاله فيها، لأن من شأننا أن نخوف بكتبنا ووحينا، حتى لايقع الناس فى أمر نهيناهم عن الوقوع فيه .

وقوله -تعالى-: ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ جملة مستأنفة -أيضا- لبيان وجه تخصيص هذه الليلة بإنزال القرآن فيها .

وقوله ﴿ يفرق ﴾ أى: يفصل ويبين ويكتب . و ﴿ حكيم ﴾ أى: ذو حكمة، أو محكم لا تغيير فيه .

أى: فى هذه الليلة المباركة يفصل ويبين ويكتب، كل أمر ذى حكمة باهرة، وهذا الأمر صادر عن الله -تعالى-، الذى لا راد لقضائه، ولا مبدل لحكمه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٢ .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٩٩ . وتفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١١١ .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: فإن قلت: ﴿ إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ما موقع هاتين الجملتين ؟

قلت: هما جملتان مستأنفتان، فسر بهما جواب القسم الذى هو قوله -تعالى-: ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه فى هذه الليلة خصوصا، لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم .

ومعنى ﴿ يفرق ﴾ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم .. »[1] .

ثم بين -سبحانه- أن مرد هذه الكتابة والتقدير للأشياء إليه وحده فقال: ﴿ أمرا من عندنا .. ﴾ .

ولفظ ﴿ أمرا .. ﴾ يرى بعضهم أنه حال من ﴿ كل أمر .. ﴾ أى: يفرق فى هذه الليلة المباركة كل أمر ذى حكمة، حالة كون هذا الأمر من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا .

ويصح أن يكون منصوبا على الاختصاص، وتنكيره للتفخيم، أى: أعنى بهذا الأمر الحكيم، أمرا عظيما كائنا من عندنا وحدنا . وقد اقتضاه علمنا وتدبيرنا .

وقوله: ﴿ إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك .. ﴾ بدل من قوله: ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ .

أى أنزلنا هذا القرآن، فى تلك الليلة المباركة لأن من شأننا إرسال المرسلين إلى الناس، لأجل الرحمة بهم، والهداية لهم، والرعاية لمصالحهم .

وقوله: ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لما قبله . أى: فعل ما فعل من إنزال القرآن، ومن إرسال الرسل، لأنه -سبحانه- هو السميع لمن تضرع إليه، العليم بجميع أحوال خلقه .

ثم وصف -سبحانه- ذاته بما يدل على كمال قدرته، ونفاذ إرادته فقال: ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما .. ﴾ من هواء، ومن مخلوقات لايعلمها إلا الله -تعالى- .

﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أى: إن كنتم على يقين فى إقراركم حين تسألون عمن خلق السموات والأرض وما بينهما .

وجواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم من أهل الإيقان علمتم بأن الله -تعالى- وحده، هو رب السموات والأرض وما بينهما .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٧٠ .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ - سبحانه - ﴿ يحيى ﴾ من يريد إحياءه، ﴿ ويميت ﴾ من يريد إماتته، هو - تعالى - ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ .

أى: هو - سبحانه - الذى تعهدكم بالرعاية والتربية والخلق، كما فعل ذلك مع آبائكم الأولين، الذين أنتم من نسلهم ..

ثم بين - سبحانه - أحوال الكافرين، وكيف أنهم عندما ينزل بهم العذاب، يجأرون إلى الله - تعالى - أن يكشفه عنهم . فقال - تعالى - :

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ
﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

و ﴿ بل ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ بل هم فى شك يلعبون ﴾ للاضراب الإبطالى، لأن المقصود من الآية الكريمة، نفى إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك، لأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة .

فيكون المعنى : إن هؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض ومابينهما هو الله، بل قالوا ما قالوا فى ذلك على سبيل الشك واللعب .

قال الآلوسى : « قوله : ﴿ بل هم فى شك ... ﴾ إضراب إبطالى، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه، وتنوين ﴿ شك ﴾ للتعظيم، أى : فى شك عظيم . ﴿ يلعبون ﴾ أى : لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان، بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب . وهذه الجملة خبر بعد خبر هم .. والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم، وإهمال أمرهم .. »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١١٦ .

والفا فى قوله - تعالى - : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ولتسلية الرسول - ﷺ - وأمره بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم .

والارتقاب : الانتظار، وأكثر مايستعمل الارتقاب فى الأمر المكروه والمراد باليوم مطلق الوقت، وهو مفعول به لارتقب .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والمراد بالسماء جهة العلو، وإسناد الإتيان بذلك إليها من قبيل الإسناد إلى السبب، لأنه يحصل بعدم إمطارها ... » .

أى : فارتقب يوم تأتى السماء بجدب ومجاعة، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، وهى ظلمة تعرض للبصر لضعفه .. وإرادة الجدب والمجاعة منه مجاز، من باب ذكر المسبب وإرادة السبب .. وبعض العرب يسمى الشر الغالب دخانا، ووجه ذلك أن الدخان مما يتأذى به فأطلق على كل مؤذ يشبهه، وأريد به هنا الجدب، ومعناه الحقيقى معروف »[1] .

وللمفسرين فى معنى هذه الآية إتجاهات أولها : ماورد فى الحديث الصحيح من أن مشركى مكة، لما أصروا على كفرهم وعلى إعراضهم عن الحق، دعا عليهم الرسول - ﷺ - بقوله : « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف .. » فأصابهم القحط والبلاء والجوع ..

وكنى عن ذلك بالدخان، لأن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان، فيقولون : كان بيننا أمر ارتفع له دخان ..

والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد ضعفه، أظلمت عيناه، فيرى الدنيا كالمملوءة بالدخان .

روى البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله - ﷺ - دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ...

فقيل : يارسول الله، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل الله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ .

قال ابن كثير : « وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين، ورواه الإمام أحمد فى مسنده، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة »[2] .

وعلى هذا الرأى يكون الدخان قد وقع فعلا، بمعنى أن المشركين قد أصابهم بلاء شديد فى عهد النبى - ﷺ - . ثم كشف الله عنهم منه ما كشف ببركة دعاء النبى - ﷺ - .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١١٧ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٣ .

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه، أن المراد بالدخان، مايكون قبل يوم القيامة من دخان يسبق ذلك، كعلامة من علامات البعث والنشور ..

واستدل أصحاب هذا الاتجاه، بأحاديث ذكرها المفسرون .

قال ابن كثير : « وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى . قال : أشرف علينا رسول الله - ﷺ - من غرفته ونحن نتذاكر الساعة، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال وثلاثة خسوف : خسوف بالمشرق وخسوف بالمغرب، وخسوف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل حيث قالوا » .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك أحاديث أخرى، وقال فى نهايتها : والظاهر أن ذلك يوم القيامة »[١] .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى سياق الآيات التى ذكرها الله - تعالى - فى هذه السورة، ولايتعارض ذلك مع كون ظهور الدخان علامة من علامات قرب يوم القيامة، كما جاء فى حديث حذيفة بن أسيد الغفارى، الذى ذكره ابن كثير - رحمه الله - وقال فى شأنه : تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه .

ومن المفسرين الذين رجحوا الاتجاه الأول الإمام الطبرى، فقد قال بعد أن ساق هذين القولين : وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول ابن مسعود، من أن الدخان الذى أمر الله - تعالى - نبيه أن يرتقبه، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم .

وإنما قلت القول الذى قاله ابن مسعود - رضى الله عنه - هو أولى بتأويل الآية، لأن الله - تعالى - توعد بالدخان مشركى قريش ...ولأن الأخبار قد تظاهرت بأن ذلك كائن

والمعنى : فانتظر يامحمد لمشركى قومك، يوم تأتيهم السماء من البلاء الذى يحل بهم، بمثل الدخان المبين »[٢] .

ومنهم - أيضا - الإمام الآلوسى، فقد قال - رحمه الله - : هذا، والأظهر حمل الدخان على ما روى عن ابن مسعود، لأنه أنسب بالسياق، لما أنه فى كفار قريش، وبيان سوء حالهم »[٣] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٣ .
(٢) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٥ ص ٦٨ .
(٣) راجع تفسر الآلوسى جـ ٢٥ ص ١١٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يغشى الناس ﴾ صفة ثانية للدخان، والمراد بهم كفار مكة وأمثالهم ممن أصابه الجوع والبلاء .

أى : ارتقب - أيها الرسول الكريم - يوم تأتى السماء لهؤلاء المشركين بعذاب من صفاته أنه عذاب واضح، يحسونه بحواسهم، ويشعرون به شعورا جليا، ومن صفاته كذلك أنه يحيط بهم من كل جوانبهم، ويجعلهم يتضرعون إلينا ويقولون : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أى : شديد ألمه، وعظيم هوله .

ثم يقولون - أيضا - : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أى : ياربنا أزل عنا هذا العذاب المتمثل فى الجوع والمرض وغيرهما، فإنك إن رفعت عنا ذلك آمنا برسولك - ﷺ -، واتبعنا دعوته، ولكنهم بعد أن كشف الله - تعالى - عنهم هذا العذاب، نقضوا عهودهم، وأصروا على كفرهم .

ولذا عقب الله - تعالى - على تضرعهم هذا بقوله : ﴿ أنى لهم الذكرى .. ﴾ أى : كيف يتأتى لهم التذكر والاعتبار والاتعاظ ...

والحال أنهم ﴿ قد جاءهم رسول مبين ﴾ هو محمد - ﷺ -، الذى لم يترك بابا من أبواب الخير إلا وأرشدهم إليه، ولم يترك وسيلة من وسائل الهداية إلا وسلكها معهم ..

ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، ولذا أكد القرآن ذلك فقال : ﴿ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ .

أى : كيف يتعظون والحال أنه قد جاءهم رسول عظيم الشأن، وضح الحق أكمل توضيح . فما كان منهم بعد أن استمعوا إليه، إلا الإعراض عن دعوته، ولم يكتفوا بهذا الإعراض والصدود، بل قالوا فى شأنه بجهالة وسوء أدب : ﴿ معلم ﴾ أى : إنسان يعلمه غيره من البشر، وقالوا فى شأنه - أيضا - ﴿ مجنون ﴾ أى : مختلط فى عقله .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله عليهم، ورحمته بهم، فقال : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ .

أى : إنا بفضلنا ورحمتنا كاشفوا العذاب عنكم كشفا قليلا - أيها المشركون -، ولكنكم لم تقابلوا فضلنا عليكم، ورحمتنا بكم، بالشكر والطاعة بل قابلتم ذلك بالإصرار على الكفر، والثبات على الجحود .

فالمراد بقوله - تعالى - ﴿ إنكم عائدون ﴾ : عزمهم وإصرارهم على الاستمرار على الكفر، لأنهم لم يوجد منهم إيمان، حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر، وإنما الذى وجد منهم هو

الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب، فلما انكشف عنهم، نقضوا عهودهم، واستمروا على كفرهم.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾[1].

ثم هددهم - سبحانه - تهديدا ترتعد له القلوب فقال: ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾.

وقوله ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل مقدر. وقوله ﴿ نبطش ﴾ من البطش بمعنى الأخذ بقوة وعنف. يقال: بطش فلان بفلان يبطش به، إذا نكل به تنكيلا شديدا.

أى: اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم أن نأخذ هؤلاء الكافرين أخذ عزيز مقتدر، حيث ننتقم انتقاما يذلهم ويخزيهم.

وهذا البطش الشديد منا لهم سيكون جزءا منه فى الدنيا، كانتقامنا منهم يوم بدر وسيكون أشده وأعظمه وأدومه عليهم ... يوم القيامة.

وبذلك نرى السورة الكريمة بعد أن مدحت القرآن الكريم مدحا عظيما، وبينت جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده، أخذت فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من أعدائه، وهددت هؤلاء الأعداء بسوء المصير فى الدنيا، وفى الآخرة.

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه، وكيف أن الله - تعالى - أجاب دعاء نبيه موسى، فأهلك فرعون وقومه، ونجى موسى وبنى إسرائيل من شرورهم فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ
كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾
وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا

(١) سورة الزخرف الآية ٤٩، ٥٠.

رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ
تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ
كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾
فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ
نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ
كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون .. ﴾ موطئة للقسم . وقوله ﴿ فتنا ﴾ من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان . يقال : فتنت الذهب بالنار ، إذا أدخلته فيها لتعرف جودته من رداءته .

والمراد به هنا : إخبارهم وامتحانهم ، بإرسال موسى - عليه السلام - وبالتوسعة عليهم تارة ، وبالتضييق عليهم تارة أخرى .

والمعنى : والله لقد اختبرنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين ، وكان اختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال نبينا موسى إليهم ، وعن طريق ابتلائهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون إلى طاعتنا ، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم .

فالآية الكريمة المقصود بها تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، ببيان أن تكذيب الأقوام لرسلهم ، حاصل من قبله ، فعليه أن يتأسى بالرسل السابقين فى صبرهم .

والمراد بالرسول الكريم فى قوله : - تعالى - : ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ : موسى - عليه السلام - ، فقد أرسله - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، فبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه وعصوه ..

ووصف - سبحانه - نبيه موسى بالكرم ، على سبيل التشريف له ، والإعلاء من قدره ، فقد كان - عليه السلام - كليما لربه ، ومطيعا لأمره ، ومتحليا بأسمى الأخلاق وأفضلها .

و ﴿ أن ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ أن أدوا إلى عباد الله .. ﴾ مفسرة لأن مجىء الرسول إليهم يتضمن معنى القول . وقوله : ﴿ أدوا إلى ﴾ بمعنى سلموا إلى ، أو ضموا إلى ...

قوله : ﴿ عباد الله ﴾ مفعول به . والمراد بهم بنو إسرائيل .

والمعنى : جاء إلى فرعون وقومه رسول كريم ، هو موسى - عليه السلام - ، فقال لهم : سلموا إلى بنى إسرائيل ، وأطلقوهم من الذل والهوان ، واتركوهم يعيشون أحرارا فى هذه الدنيا .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - فى موضع آخر : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم .. ﴾[1] .

ويصح أن يكون المراد بقوله ﴿ أن أدوا إلى .. ﴾ بمعنى : أن استجيبوا لدعوتى ، والمراد بالعباد : ما يشمل بنى إسرائيل وغيرهم ، ويكون لفظ ﴿ عباد الله ﴾ منصوب بحرف نداء محذوف .

وعليه يكون المعنى : أرسلنا إلى فرعون وقومه رسولا كريما ، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصح والإرشاد : ياعباد الله ، إنى رسول الله إليكم ، فاستمعوا إلى قولى ، واتبعوا ما أدعوكم إليه من عبادةالله - تعالى - وحده ، وترك عبادة غيره .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ أن أدوا إلى عباد الله .. ﴾ أى : أطلقوهم وسلموهم إلى ، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون يستعبدهم ، والتعبير عنهم بعباد الله ، للإشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه لهم ..

أو أدوا إلى حق الله - تعالى - من الإيمان وقبول الدعوة ياعباد الله ، على أن مفعول ﴿ أدوا ﴾ محذوف ، وعباد منادى ، وهو عام لبنى إسرائيل والقبط والأداء بمعنى الفعل للطاعة - وقبول الدعوة .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنى لكم رسول أمين ﴾ تعليل لما تقدم . أى : استجيبوا لدعوتى ، وأطيعوا أمرى ، فإنى مرسل من الله - تعالى - إليكم ، وأمين على الرسالة ، لأنى لم أبدل شيئا مما كلفنى به ربى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأن لا تعلوا على الله .. ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أن أدوا .. ﴾ وداخل فى حيز القول .

---

(١) سورة طه الآية ٤٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٢١ .

أى : قال لهم : أرسلوا معى بنى إسرائيل ، واستجيبوا لدعوتى ، واحذروا أن تتجبروا أو تتكبروا على الله - تعالى - ، بأن تستخفوا بوحيه أو تعرضوا عن رسوله ...

﴿ إنى آتيكم بسلطان مبين ﴾ أى : إنى آتيكم من عنده - تعالى - بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ، وببرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى ..

﴿ وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ﴾ أى : وإنى اعتصمت واستجرت بربى وربكم من أن ترجمونى بالحجارة ، أو من أن تلحقوا بى ما يؤذينى ، وهذا الاعتصام بالله - تعالى - يجعلنى لا أبالى بكم ، ولا أتراجع عن تبليغ دعوته - سبحانه - بحال من الأحوال .

﴿ وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ﴾ أى : وقال لهم - أيضا - فى ختام نصحه لهم : إنى لن أتراجع عن دعوتكم إلى الحق مهما وضعتم فى طريقى من عقبات وعليكم أن تؤمنوا بى ، فإن لم تؤمنوا بى . فكونوا بمعزل عنى بحيث تتركونى وشأنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإنه لا موالاة ولا صلة بينى وبينكم ، مادمتم مصرين على كفركم .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة لدعوته ، ونهاهم عن التكبر والغرور ، وبين لهم أنه رسول أمين على وحى الله - تعالى - ، وأنه معتصم بربه من كيدهم ، وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن يتركوه وشأنه ، لكى يبلغ رسالة ربه ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، فإن الطغيان فى كل زمان ومكان ، لا يعجبه منطق الحق والعدل والمسالمة ، ولكن الذى يعجبه هو التكبر فى الأرض بغير الحق ، وإيثار الغى على الرشد ..

ولذا نجد موسى - عليه السلام - يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العبادة لله - تعالى - ونهاهم عن الإشراك به .. بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه ، وأعرضوا عن دعوته ، وآذوه بشتى ألوان الأذى فدعا ربه دعاء حارا قال فيه : يارب إن هؤلاء القوم - وهم فرعون وشيعته - قوم راسخون فى الكفر والإجرام ، فأنزل بهم عقابك الذى يستحقونه .

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما يدل على أن الله - تعالى - قد أجاب دعاء موسى - عليه السلام - ، وأنه - سبحانه - قد أرشده إلى ما يفعله فقال : ﴿ فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون ﴾ .

قال الجمل : « قوله : ﴿ فأسر ﴾ قرأ الجمهور بقطع الهمزة وقرأ نافع وابن كثير بوصلها ، وهما لغتان جيدتان : الأولى من أسريت والثانية من سريت . قال - تعالى - ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ وقال : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ والإسراء السير ليلا ، فذكر الليل - هنا - تأكيد له بغير اللفظ - إذ الإسراء والسرى : السير ليلا »[1] .

والكلام على تقدير القول ، أى : فقال الله - تعالى - على سبيل التعليم والإرشاد : سر ياموسى ببنى إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر ، بقطع من الليل ﴿ إنكم متبعون ﴾ من جهة فرعون وملئه ، متى علموا بخروجكم .

﴿ واترك البحر رهوا ... ﴾ أى : ومتى وصلت إلى البحر - أى : البحر الأحمر - فاضربه بعصاك ، ينفلق - بإذن الله - فسر فيه أنت ومن معك ، واتركه ساكنا مفتوحا على حاله ، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه .

يقال : رها البحر يرهو ، إذا سكن . وجاءت الخيل رهوا ، أى : ساكنة ، ويقال - أيضا - : رها الرجل رهوا ، إذا فتح بين رجليه وفرق بينهما ، وهو حال من البحر .

قال الإمام الرازى : « وفى لفظ ﴿ رهوا ﴾ قولان :

أحدهما : أنه الساكن ، يقال : عيش راه ، إذا كان خافضا وادعا ساكنا ...

والثانى : أن الرهو هو الفرجة الواسعة ، أى : ذا رهو ، أى : ذا فرجة حتى يدخل فيها فرعون وقومه فيغرقوا .. وإنما أخبره - سبحانه - بذلك حتى يبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم »[2] .

وقوله : ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ تعليل للأمر بتركه رهوا ، أى : اترك البحر على حاله ، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقا يدمرهم ويهلكهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مآلهم فقال : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾ و ﴿ كم ﴾ هنا خبرية للتكثير والتهويل ، أى : ما أكثر ما ترك هؤلاء المغرقون خلفهم من بساتين ناضرة ، وعيون يخرج منها الماء النمير ..

﴿ وزروع ﴾ كثيرة متنوعة ﴿ ومقام كريم ﴾ أى : ومحافل ومنازل كانت مزينة بألوان من الزينة والزخرفة ..

﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ أى : وتنعم وترفه كانوا فيه يتلذذون ، بما بين أيديهم من رغد العيش . وكثرة الفاكهة ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٠٤ .
(٢) تفسر الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٥٣ .

والنعمة - بفتح النون - بمعنى التنعم والتلذذ، والنعمة - بالكسر - المنة والإنعام بالشىء وتطلق على الجنس الصادق بالقليل والكثير .

وقوله: ﴿ كذلك ﴾ فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أى: الأمر كذلك .

قال الجمل ما ملخصه: «قوله: ﴿ كذلك .. ﴾ خبر مبتدأ محذوف . أى: الأمر كذلك . فالوقف يكون على هذا اللفظ، وتكون الجملة اعتراضية لتقرير وتوكيد ما قبلها ... ويبتدأ بقوله: ﴿ وأورثناها قوما آخرين ﴾ وهو معطوف على ﴿ كم تركوا .. ﴾ أى: تركوا أمورا كثيرة وأورثناها قوما آخرين، وهم بنو إسرائيل».

وقال الزمخشرى : الكاف فى محل نصب ، على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿ وأورثناها قوما آخرين ﴾ ليسوا منهم .

فعلى هذا يكون قوله ﴿ وأورثناها ﴾ معطوفا على تلك الجملة الناصبة للكاف ، فلا يجوز الوقف على ﴿ كذلك ﴾ حينئذ[1] .

وقال الآلوسى : والمراد بالقوم الآخرين : بنو إسرائيل ، وهم مغايرون للقبط جنسا ودينا . ويفسر ذلك قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ وهو ظاهر فى أن بنى اسرائيل رجعوا إلى مصر ، بعد هلاك فرعون وملكوها .

وقيل : المراد بالقوم الآخرين غير بنى اسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون ، لأنه لم يرد فى مشهور التواريخ أن بنى اسرائيل رجعوا إلى مصر ، ولا أنهم ملكوها قط .

وما فى سورة الشعراء من باب قوله - تعالى - : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾ أو من باب : عندى درهم ونصفه . فليس المراد خصوص ما تركوه ، بل نوعه ومايشبهه .

وقيل : المراد من إيراثها إياهم : تمكينهم من التصرف فيها ، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر ، كما كانوا فيها أولا[2] ..

والذى نراه - كما سبق أن قلنا عند تفسير سورة الشعراء[3] - أن الآية صريحة فى توريث بنى اسرائيل للجنات والعيون .. التى خلفها فرعون وقومه بعد غرقهم ، بمعنى أنهم عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون ومن معه ، ولكن عودتهم كانت لفترة معينة ، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدسة التى دعاهم موسى - عليه السلام - لدخولها كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ يا قوم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٠٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٢٣ .
(٣) راجع تفسيرنا لسورة الشعراء ، ص ٢٥١ - المجلد العاشر .

ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم . ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .. ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن فرعون وقومه بعد أن غرقوا ، لم يحزن لهلاكهم أحد ، فقال : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ .

أى : أن هؤلاء المغرقين ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، وكانوا يذلون غيرهم ، وكانوا يملكون الجنات والعيون ... هؤلاء الطغاة ، لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السموات أو أهل الأرض ، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر فى الدنيا أو فى الآخرة ، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويف ..

فالمقصود من الآية الكريمة بيان هوان منزلة هؤلاء المغرقين ، وتفاهة شأنهم ، وعدم أسف أحد على غرقهم ، لأنهم كانوا ممقوتين من كل عاقل ..

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : كان العرب إذا مات فيهم رجل خطير قالوا فى تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس ..

قال جرير فى رثاء عمر بن العزيز :

نعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... ياخير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرا عظيما فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله ياعمرا
الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

وقالت ليلى بنت طريف الخارجية ، ترثى أخاها الوليد :

أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه ..

وفى الآية تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . يعنى فما بكى عليهم أهل السماء والأرض ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين ..[1] .

وقال الإمام أبن كثير : قوله : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض .. ﴾ أى : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم ، ولا لهم بقاع فى أرض عبدوا الله فيها ففقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا ..

ثم ساق - رحمه الله - جملة من الأحاديث منها ما أخرجه ابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمى قال : قال رسول الله - ﷺ - : إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا ، ألا

(١) تفسير الكشاف وحاشيته جـ ٤ ص ٢٧٦ .

لا غربة على مؤمن . ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه . إلا بكت عليه السماء والأرض . ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية . ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر[١] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من نعمه على بنى اسرائيل فقال : ﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين ﴾ .

أى : والله لقد نجينا - بفضلنا ورحمتنا - بنى إسرائيل من العذاب المهين ، الذى كان ينزله بهم أعداؤهم ، كقتلهم للذكور ، واستبقائهم للإناث ..

وقوله : ﴿ من فرعون ﴾ بدل من العذاب على حذف المضاف ، والتقدير : من عذاب فرعون .. أو على المبالغة كأن فرعون نفس العذاب ، لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم .

ثم بين - سبحانه - حال فرعون فقال : ﴿ إنه كان عاليا من المسرفين ﴾ أى : نجيناهم من فرعون الذى كان متكبرا متجبرا ، ومن المسرفين فى فعل الشرور ، وفى ارتكاب القبائح ..

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من إكرامه لبنى اسرائيل فقال : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ .

والاختيار : الاصطفاء على سبيل التشريف والتكريم ، أى : ولقد اصطفينا بنى إسرائيل على عالمى زمانهم ، ونحن عالمون بذلك علما اقتضته حكمتنا ورحمتنا .

فقوله ﴿ على علم ﴾ فى موضع الحال من الفاعل ، والمراد بالعالمين : أهل زمانهم المعاصرين لهم ، بدليل قوله - تعالى - فى الأمة الإسلامية : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .. ﴾ .

وهذا الاصطفاء والاختيار ، إنما مرده إلى من يعمل منهم عملا صالحا ، أما الذين لم يعملوا ذلك فلا مزية لهم ولا فضل ، ولذا نجد كثيرا من الآيات تذم من يستحق الذم منهم .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ لُعِن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعض المعجزات التى جاءتهم على أيدى رسلهم فقال : ﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ .

أى : وأعطيناهم من المعجزات الدالة على صدق رسلهم كموسى وعيسى وغيرهما ، ما فيه بلاء مبين .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٨ ، ٧٩ .

أى : ما فيه اختبار وامتحان ظاهر ، ليتميز الخبيث من الطيب ، والكافر من المؤمن .

ومن هذه الآيات : فلق البحر بالنسبة لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، بالنسبة لعيسى .

ومن هذه الآيات الكريمة نرى جانبا من قصة موسى - عليه السلام - ، وكيف أنه بلغ رسالة ربه على أكمل وجه ، وسلك مع فرعون وقومه أحكم السبل فى الدعوة إلى الحق ..

كما نرى فيها فضل الله - تعالى - على نبيه ، وعلى بنى إسرائيل ، حيث نجاهم من ظلم فرعون وطغيانه ، وأهلكه ومن معه أمام أعينهم ، وأورثهم كنوز أعدائهم ..

وبعد هذا الحديث عن موسى - عليه السلام - وعن قومه ، وعن فرعون وشيعته .. بعد كل ذلك انتقلت السورة ، للحديث عن موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وردت عليهم بما يدل على إمكانية البعث وصحته . وأنه واقع لا محالة ، وبينت سوء عاقبة من ينكر ذلك ، ومن يصر على كفره وجحوده فقال الله - تعالى - :

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ

﴿ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن هؤلاء ليقولون ﴾ يعود إلى مشركى مكة ، الذين سبق الحديث عنهم فى قوله - تعالى - : ﴿ بل هم فى شك يلعبون ﴾ الخ .

وذكر - سبحانه - قصة فرعون وقومه فى الوسط ، للاشارة الى التشابه بين الفريقين فى التكذيب للحق ، وفى الإصرار على الضلال .

وكانت الإشارة للقريب ، لتحقيرهم والتهوين من شأنهم .

و﴿ إن ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ إن هى إلا موتتنا الأولى ... ﴾ نافية . أى : إن هؤلاء الكافرين ليقولون على سبيل الجزم والتكذيب للبعث : ما الموتة التى نموتها فى نهاية حياتنا الدنيوية ، إلا الموتة النهائية لا حياة بعدها ولا بعث ولا نشور .

ومرادهم من الأولى : السابقة المتقدمة على الموعد الذى يوعدونه للبعث والنشور .

قال بعض العلماء : وذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين .

الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث ، أثبتوا الحالة الأولى وهى الموت ، ونفوا ما بعدها .

وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أنه لا شىء بعدها ، لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم ..[1] .

وقوله : ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ تأكيد لما سبقه . أى : قالوا ليس هنا من موت سوى الموت المزيل لحياتنا ، ثم لا بعث ولا حساب ولا نشور بعد ذلك .

يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى نشورا ، إذا أحياهم بعد موتهم ، فهم منشرون .

ثم بين - سبحانه - مطالبهم المتعنتة ، وأدلتهم الباطلة فقال : ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ .

والفاء للإفصاح ، والخطاب للرسول - ﷺ - وللمؤمنين الذين كانوا يؤمنون بالبعث .

أى : إن هؤلاء الكافرين قالوا - أيضا - للرسول - ﷺ - وللمؤمنين : إن كان الأمر

---

(١) راجع تفسير الكشاف وحاشيته جـ ٤ ص ٣٧٩ .

كما تقولون من أن هناك بعثا وحسابا .. فأعيدوا الحياة إلى آبائنا الأولين ، واجعلوهم يخرجون إلينا مرة لنراهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ... ﴾ تهديد لهم على جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم .

والمراد بتبع : أبو كريب أسعد بن مليك ، ويسمى بتبع الحميرى . وهو أحد ملوك حمير .

وكان مؤمنا ، وقومه كانوا كافرين فأهلكهم الله . وإليه ينسب الأنصار، ولفظ ﴿ تبع ﴾ يعد لقبا لكل ملك من ملوك اليمن ، كما أن لقب فرعون يعد لقبا لمن ملك مصر كافرا ..[1] .

أى : إن هؤلاء الكافرين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - ليسوا خيرا من قوم تبع ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، فلما لجوا فى طغيانهم أهلكهم الله - تعالى - وإن مصير هؤلاء المشركين - إذا ما استمروا فى عنادهم - سيكون كمصير قوم تبع ..

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين من التمادى فى الضلال ، لأن هذا التمادى سيؤدى بهم الى الخسران ، كما هو حال قوم تبع الذين لا يخفى أمرهم عليهم .

والمراد بمن قبلهم فى قوله - تعالى - : ﴿ والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ : الأقوام السابقون على قوم تبع ، كقوم عاد وثمود وغيرهم . أو على هؤلاء الكافرين المعاصرين للنبى - ﷺ - .

أى : والذين من قبل قوم تبع أو من قبل قومك من الظالمين ، أهلكناهم لأنهم كانوا قوما مجرمين .

ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى التفكر فى خلق السموات والأرض فقال : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما .. ﴾ من مخلوقات لايعلمها إلا الله - تعالى - ما خلقنا ذلك ﴿لاعبين ﴾ أى : عابثين أو لغير غرض صحيح .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

أى : ما خلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالحق مؤيدا بالحكمة ..

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ذلك ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وسيحكم - سبحانه - فى هذا اليوم بين الناس بحكمه العادل فقال : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ وهو يوم القيامة الذى يفصل فيه الله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ص ٢٤٢ .

- عز وجل - بين المحق والمبطل ، وبين المهتدى والضال ..

هذا اليوم ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ أى : وقت اجتماعهم للحساب جميعا دون أن يتخلف منهم أحد .

ثم وصف - سبحانه - هذا اليوم بقوله : ﴿ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ﴾ .

وقوله : ﴿ يوم لا يغنى ... ﴾ بدل من يوم الفصل . والمولى : يطلق على القريب والصديق والناصر ..

أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الفصل ، لن يستطيع قريب أن ينفع قريبه ، أو صديق أن ينفع صديقه شيئا من النفع ، ولا هم ينصرون من عذاب الله - تعالى - إذا ما أراد - سبحانه - إنزال عذابه بهم .

وقوله : ﴿ إلا من رحم الله ... ﴾ فى محل رفع على أنه بدل من ضمير ﴿ ينصرون ﴾ . أو فى محل نصب على الاستثناء منه أى : لا يستطيع صديق أن يدفع العذاب عن صديقه ، ولا قريب أن ينفع قريبه أو ينصره ، إلا من رحمه الله - تعالى - ، وذلك بأن يعفو - سبحانه - عنه ، أو يقبل شفاعة غيره فيه .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - هو ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلب ﴿ الرحيم ﴾ الذى وسعت رحمته كل شيء .

ثم بين - سبحانه - طعام أهل النار وحالهم يوم القيامة فقال : ﴿ إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم .. ﴾ .

والمراد بشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله - تعالى - فى جهنم ، وسماها الشجرة الملعونة ، ليكون طعام أهل النار منها .

ولفظ الزقوم : اسم لتلك الشجرة ، أو من الزقم بمعنى الالتقام والابتلاع للشيء .

والأثيم : الكثير الآثام والسيئات . والمراد به الكافر لدلالة ما قبله عليه .

والمهل : هو النحاس المذاب ، أو رديء الزيت الحار .

أى : إن الشجرة الملعونة التى هى شجرة الزقوم ، خلقها الله - تعالى - لتكون طعاما للإنسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم ..

فتنزل فى بطنه كما ينزل النحاس الحار المذاب ، فيغلى فيها كغلى الماء البالغ نهاية الحرارة .

فقوله : ﴿ كغلى الحميم ﴾ نعت لمصدر محذوف . أى : غليا كغلى الحميم .

وقوله - سبحانه - ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ... ﴾ مقول لقول محذوف ، هذا القول موجه من الله - تعالى - لملائكة العذاب .

وقوله - سبحانه ه ﴿ فاعتلوه ﴾ من العتل وهو الأخذ بمجامع الشيء ، وجره بغلظة وقهر .

يقال : عتل فلان فلانا يعتله عتلا ، إذا جذبه جذبا شديدا ، وسار به إلى ما يكره السير إليه .

أى : يقول الله - تعالى - لملائكة العذاب فى هذا اليوم العسير : خذوا هذا الكافر الأثيم ، فجروه بغلظة ، وسوقوه بشدة ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أى : إلى وسطها .

﴿ ثم صبوا فوق رأسه ﴾ على سبيل التنكيل به ﴿ من عذاب الحميم ﴾ صبا يذله ويوجعه ويجعل رأسه تغلى من شدة حرارة هذا الماء .

ثم قولوا له بعد ذلك على سبيل التهكم به ، والتقريع له : ﴿ ذق ﴾ أى : تذوق شدة هذا العذاب فالأمر للإهانة .

﴿ إنك ﴾ كنت تزعم فى الدنيا ، بأنك ﴿ أنت العزيز الكريم ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بقوله : ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ أى : إن هذا العذاب الذى نزل بكم أيها الكافرون ، هو ما كنتم بشأنه تجادلون وتخاصمون فى الدنيا ، فمنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك فى صحته . فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رءوسكم .

وهكذا نجد الآيات الكريمة ، قد وضحت أن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، وأن الكافرين به سيصيبهم عذاب شديد يذلهم ويخزيهم .

* * *

وبعد هذا الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم ، ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

أى : إن الذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لايرضيه سيكونون يوم القيامة ﴿ فى مقام أمين ﴾ أى : فى مكان يأمن معه صاحبه من كل خوف .

فالمراد بالمقام - بالفتح - موضع القيام ، أى : الثبات والملازمة . وقرأ ابن عامر ونافع ، ﴿ مقام ﴾ - بضم الميم - أى : موضع الإقامة . والمراد أنهم فى مكان أو مجلس لا خوف فيه ولا مكروه .

وقوله : ﴿ فى جنات وعيون ﴾ بدل من ﴿ مقام أمين ﴾ بإعادة حرف الجر أى : هم فى مكان آمن ، تتوسطه وتحيط به البساتين الناضرة ، وعيون الماء المتفجرة .

﴿ يلبسون من سندس ﴾ والسندس هو أجود أنواع الحرير وأرقه ، واحدة سندسة .

﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما كان سميكا من الديباج والحرير .

﴿ متقابلين ﴾ أى : يجلسون فى مجالس متقابلة ، بحيث ينظر بعضهم إلى بعض .

﴿ كذلك ﴾ أى : الأمر كذلك . من أن المتقين لهم كل هذا النعيم .

﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أى : وزوجناهم بنساء يحار الطرف فيهم لجمالهن وحسنهن ، والحور : جمع حوراء .. وهى التى يحار الطرف فيها لفرط جمالها . والعين : جمع عيناء . وهى التى اتسعت عينها فى حسن وجمال .

﴿ يدعون فيها ﴾ أى : فى الجنات ﴿ بكل فاكهة آمنين ﴾ .

أى : يطلبون ويأمرون غيرهم بأن يحضر لهم كل ما يشتهونه من فاكهة أو غيرها ، فيلبى طلبهم وهم آمنون فى أماكنهم من كل خوف أو ضرر .

ثم بين - سبحانه - أن بقاءهم فى تلك الجنات بقاء دائم فقال : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ .

أى : هم باقون بقاء دائما فى تلك الجنات ، بحيث لا يموتون فيها أبدا ، إلا الموتة الأولى التى ذاقوها عند نهاية آجالهم فى الدنيا ، ووقاهم - سبحانه - بعدها عذاب الجحيم ، الذى حل بالكافرين .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ جملة مستأنفة أو حالية ، وكأنه أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع الموتة الأولى موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فإنهم يذوقونها . ونظيره قول القائل لمن يستسقيه : لا أسقيك إلا الجمر ، وقد علم أن الجمر لا يسقى[1] .

وقوله ﴿ فضلا من ربك ﴾ أى : أعطوا كل ذلك فضلا من ربك ، فقوله ﴿ فضلا ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف . أو على أنه مفعول لأجله . أى : لأجل الفضل منه - سبحانه - .

﴿ ذلك ﴾ الذى أعطيناهم إياه ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذى لا يدانيه ولا يساميه فضل .

﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ أى : فإنما أنزلنا عليك - يا محمد - هذا القرآن ، وجعلناه بلغتك ولغة قومك ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ ما فيه من هدايات ويعتبرون بما اشتمل عليه من عبر وعظات .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ .

أى : فعلنا ذلك لعلهم يتذكرون ، فإن لم يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بما جئتهم به . فارتقب وانتظر ما يحل بهم من عذاب ، وما وعدناك به من النصر عليهم ، إنهم - أيضا - منتظرون ومرتقبون ما يحل بك من موت أو غيره .

ونحن بفضلنا ورحمتنا سنحقق لك ما وعدناك به ، وسنخيب ظنونهم وآمالهم .

وبعد فهذا تفسير وسيط لسورة « الدخان » . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة : ٢ من ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

١٥ / ١١ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٣٦ .

تفسير

سُورَةُ الجَاثِيَة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الجاثية » هى السورة الخامسة والأربعون فى ترتيب المصحف . وكان نزولها بعد سورة « الدخان » . وعدد آياتها سبع وثلاثون آية فى المصحف الكوفى ، وست وثلاثون فى غيره ، لاختلافهم فى قوله - تعالى - ﴿ حم ﴾ ، هل هو آية مستقلة أولا .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بالثناء على القرآن الكريم ، وبدعوة الناس إلى التدبر والتأمل فى هذا الكون العجيب ، وما اشتمل عليه من سموات وأرض ، ومن ليل ونهار ، ومن أمطار ورياح .. فإن هذا التأمل من شأنه أن يهدى إلى الحق ، وإلى أن لهذا الكون إلها واحداً قادرا حكيما ، هو الله رب العالمين .

قال - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ .

٣ - ثم توعد - سبحانه - بعد ذلك الأفاكين بأشد أنواع العذاب ، لإصرارهم على كفرهم ، واتخاذهم آيات الله هزوا .

قال - تعالى - : ﴿ ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان جانب من نعم الله - تعالى - على خلقه ، تلك النعم التى تتمثل فى البحر وما اشتمل عليه من خيرات ، وفى السموات والأرض وما فيهما من منافع .

قال - سبحانه - : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

٥ - ثم بين - سبحانه - موقف بنى إسرائيل من نعم الله - تعالى - ، وكيف أنهم قابلوا

ذلك بالاختلاف والبغى ، ونهى - سبحانه - نبيه - ﷺ - عن الاستماع إليهم ، وبين أنه لا يستوى عنده - عز وجل - الذين اجترحوا السيئات ، والذين عملوا الصالحات .

فقال - تعالى - : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

ثم حكى بعض الأقوال الباطلة التى تفوه بها الكافرون ، ورد عليها بما يزهقها ويثبت كذبها ، قال - تعالى - : ﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

٦ - ثم أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، فى بيان أهوال يوم القيامة ، وفى بيان عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار .

قال - تعالى - : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا ، أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ، فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ﴾ .

٧ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته بما هو أهله ، فقال - تعالى - : ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ، رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

هذا ، والمتدبر فى هذه السورة الكريمة ، يراها تدعو الناس إلى التفكر فيما اشتمل عليه هذا الكون من آيات دالة على وحدانية الله - تعالى - وكمال قدرته ، كما أنه يراها تحكى بشىء من التفصيل أقوال المشركين وترد عليها ، وتبين سوء عاقبتهم كما يراها تسوق ألوانا من نعم الله على خلقه ، وتدعو المؤمنين إلى التمسك بكتاب ربهم ، وتبشرهم بأنهم متى فعلوا ذلك ظفروا برضوان الله تعالى وثوابه .

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ، ذلك هو الفوز المبين ، كما يراها تهتم بتفصيل الحديث عن أهوال يوم القيامة ، لكى يفىء الناس إلى رشدهم ، ويستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

قال - تعالى - : ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون

ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾.

نسأل الله - تعالى - أن ينجينا من أهوال هذا اليوم ، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر **د . محمد سيد طنطاوى**

صباح الأحد ٤ من ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ

١٧ / ١١ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

سورة « الجاثية » من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن قلنا ، إن هذه الحروف الرأى الراجح فى معناها ، أنها سيقت للتنبيه على إعجاز القرآن ، وعلى أنه من عند الله - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

أى : هذا القرآن من الله - تعالى - صاحب العزة التى لا عزة سواها ، وصاحب الحكمة التى لا تقاربها حكمة ، فهو - سبحانه - القاهر فوق عباده وهو الحكيم فى كل تصرفاته .

ثم ساق - سبحانه - ستة أدلة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وجلال عظمته ويتمثل الدليل الأول فى قوله - تعالى - : ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ أى : إن فى خلق هذه السموات المزينة بالمصابيح ، والتى لا ترى فيه من تفاوت ، والمرفوعة بغير عمد ... وفى خلق الأرض الممهدة المفروشة المثبتة بالجبال .. فى كل ذلك لبراهين ساطعة للمؤمنين ، على أن الخالق لهما هو الله - تعالى - وحده ، المستحق للعبادة والطاعة .

فالمراد بقوله - تعالى - : ﴿ إن فى السموات والأرض .. ﴾ أى : إن فى خلقهما ، كما صرح - سبحانه - بذلك فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ﴾[١] .

والمراد بالآيات : الدلائل والبراهين الدالة على قدرته - سبحانه - ووحدانيته .

والدليل الثانى والثالث قوله - تعالى - : ﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ .

قوله : ﴿ وفى خلقكم ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ، وقوله : ﴿ آيات ﴾ مبتدأ مؤخر .

أى : وفى خلقكم - أيها الناس - من نطفة ، فعلقة ، فمضغة .. إلى أن نخرجكم من بطون أمهاتكم.. وفيما نبثه وننشره ونوجده من دواب لا تعد ولا تحصى على ظهر الأرض.

فى كل ذلك ﴿ آيات ﴾ بينات ، وعلامات واضحات ، على كمال قدرتنا ، لقوم يوقنون بأن القادر على هذا الخلق ، إنما هو الله - تعالى - وحده .

والدليل الرابع قوله - تعالى - : ﴿ واختلاف الليل والنهار .. ﴾ والمراد باختلافهما : تفاوتهما طولا وقصرا ، وتعاقبهما دون أن يسبق أحدهما الآخر كما قال - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾[٢] .

وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذى لا ينخرم ، دليل على أن هذا الاختلاف ، تدبير من إله قادر حكيم ، لا يدخل أفعاله تفاوت أو اختلال .

والدليل الخامس قوله - تعالى - : ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ .

وقوله : ﴿ وما أنزل الله .. ﴾ معطوف على ﴿ اختلاف ﴾ ، والمراد من السماء : جهة العلو .

والمراد بالرزق : المطر الذى ينزل من السحاب ، وسمى رزقا لأن المطر سبب لأرزاق العباد .

أى : ومن الآيات الدالة على قدرته - سبحانه - : إنزاله المطر من السماء فينزل على الأرض ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، بعد أن كانت جدباء هامدة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .
(٢) سورة يس الآية ٤٠ .

وأما الدليل السادس فهو قوله - تعالى - : ﴿ وتصريف الرياح ﴾ : والمراد بتصريفها : تقليبها فى الجهات المختلفة ، ونقلها من حال إلى حال ، وتوجيهها على حسب مشيئته - سبحانه - ، فتارة تراها حارة ، وتارة تراها باردة .

أى : ومن الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، تقليبه - سبحانه - للرياح كما يشاء ويختار .

وفى ذلك الذى بيناه لكم ﴿ آيات ﴾ واضحات على قدرتنا ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ذلك .

قال الجمل فى حاشيته : وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة ، على ثلاث فواصل : الأولى ﴿ للمؤمنين ﴾ ، والثانية ﴿ يوقنون ﴾ ، والثالثة ، ﴿ يعقلون ﴾ .

ووجه التغاير بينها ، أن المنصف من نفسه إذا نظر فى السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمن ، وإذا نظر فى خلق نفسه ونحوها ، ازداد إيمانا فأيقن . وإذا نظر فى سائر الحوادث عقل واستحكم علمه ، فاختلاف الفواصل الثلاث ، لاختلاف الآيات فى الدقة والظهور ﴾[1] .

وما ذكر فى هذه الآيات الكريمة من أدلة ساطعة على قدرة الله ووحدانيته جاء فى آيات كثيرة ، من أجمعها قوله - تعالى - : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون ﴾[2] .

وبعد أن ذكر - سبحانه - هذه الأدلة الكونية الساطعة التى تحمل الناس على إخلاص العبادة له وحده ، أتبع ذلك بتهديد الذين عموا عنها ، والذين اتخذوا آيات الله هزوا .. فقال - تعالى - :

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١١٢ .
(٢) راجع تفسيرنا لهذه الآية فى سورة البقرة ص ٣٢٩ وما بعدها .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا
هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

والمراد بالآيات فى قوله - سبحانه - : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق .. ﴾ آيات القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنك لمن المرسلين ﴾[1] .

و ﴿ تلك ﴾ مبتدأ ، و ﴿ آيات الله ﴾ خبر و ﴿ نتلوها عليك ﴾ حال عاملها مادل عليه ﴿ تلك ﴾ من معنى الإشارة .

وقوله ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل ﴿ نتلوها ﴾ أو من مفعوله ، أى : نتلوها محقين ، أو ملتبسة بالحق .

أى : تلك - أيها الرسول الكريم - آيات الله - تعالى - المنزلة إليك ، نتلوها عليك تلاوة ملتبسة بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

وكانت الإشارة للبعيد ، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات ، ولعلو شأنها ، وكمال معانيها ، والوفاء فى مقاصدها .

وأضاف - سبحانه - الآيات إليه ، لأنه هو الذى أنزلها على نبيه - ﷺ - ، وفى هذه الإضافة ما فيها من التشريف لها ، والسمو لمنزلتها .

وجعل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له ، للإشعار بشرف جبريل ، وأنه ما خرج فى تلاوته عما أمره الله - تعالى - به ، فهو رسوله الأمين ، إلى رسله المكرمين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ تعجيب من حالهم ، حيث أصر هؤلاء الكافرون على كفرهم ، مع وضوح البراهين والأدلة على بطلان ذلك .

أى : فبأى حديث بعد آيات الله المتلوة عليك يؤمن هؤلاء الجاهلون ؟ إن عدم إيمانهم بعد

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٢ .

ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، دليل على انطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجحود على قلوبهم .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ هو من باب قولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، يريدون أعجبنى كرم زيد ، إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة فى الإعجاب .

أى : فبأى حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون ، وفيه دلالة على أنه لابيان أزيد من هذا البيان ، ولا آية أدل من هذه الآية .

وقال الواحدى : فبأى حديث بعد حديث الله ، أى : القرآن ، وقد جاء إطلاقه عليه فى قوله - تعالى - : ﴿ الله نزل أحسن الحديث .. ﴾ وحسن الإضمار لقرينة تقدم الحديث .

وقوله ﴿ وآياته ﴾ عطف عليه لتغايرهما إجمالا وتفصيلا .. والفاء فى جواب شرط مقدر ، والظرف صفة ﴿ حديث ﴾[1] .

ثم هدد - تعالى - هؤلاء المشركين بقوله : ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ .

والويل : لفظ يدل على الشر أو الهلاك . وهو مصدر لافعل له من لفظه ، وقد يستعمل بدون حرف النداء كما هنا ، وقد يستعمل معه كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

والأفاك : هو الإنسان الكثير الإفك وهو أشنع الكذب وأقبحه .

والأثيم : هو الإنسان المرتكب للذنوب والآثام بقلبه وجوارحه ، فهو سيئ الظاهر وسيئ الباطـــن .

أى : هلاك وعذاب وحسرة يوم القيامة لكل إنسان ينطق بأقبح الأكاذيب ويفعل أسوأ السيئات .

هذا الإنسان - أيضا - من صفاته أنه ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ صباح مساء .

﴿ ثم ﴾ بعد ذلك ﴿ يصر ﴾ على كفره ﴿ مستكبرا ﴾ أى : متكبرا عن الإيمان .

﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أى : كأنه لم يسمع هذه الآيات ، لأنها لم توافق هواه أو شهواته .
والتعبير بقوله : ﴿ ثم يصر مستكبرا ﴾ للتعجيب من حاله ، حيث يصر على كفره ، بعد سماع ما يدعو إلى التخلى عن الكفر ، ويحمل على الدخول فى الإيمان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٤٢ .

والإصرار على الشىء : ملازمته ، وعدم الانفكاك عنه ، مأخوذ من الصر - بفتح الصاد - وهو الشد ، ومنه صرة الدراهم ، لأنها مشدودة على ما بداخلها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مامعنى ﴿ ثم ﴾ فى قوله : ﴿ ثم يصر مستكبرا ﴾ ؟

قلت : كمعناه فى قول القائل ، يرى غمرات الموت ثم يزورها .

وذلك أن غمرات الموت خليقة بأن ينجو رائيها بنفسه ، ويطلب الفرار عنها .

وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها ، فأمر مستبعد ، فمعنى ﴿ ثم ﴾ : الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعاينها ، شىء يستبعد فى الغايات والطباع .

وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق ، من تليت عليه وسمعها : كان مستبعدا فى العقول إصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان بها[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ تهكم بهذا الأفاك الأثيم .. واستهزاء به ، لأن البشارة فى الأصل إنما تكون من أجل الخبر السار ، الذى تتهلل له البشرة .

أى : فبشره بعذاب أليم ، بسبب إصراره على كفره ، واستحبابه العمى على الهدى .

ثم بين - سبحانه - صفة أخرى من صفات هذا الأفاك الأثيم فقال : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ﴾ .

أى : وإذا بلغ هذا الإنسان شىء من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، بادر إلى الاستهزاء بها والسخرية منها ، ولم يكتف بالاستهزاء بما سمعه ، بل استهزأ بالآيات كلها لرسوخه فى الكفر والجحود .

والتعبير بقوله : ﴿ وإذا علم ﴾ زيادة فى تحقيره وتجهيله ، لأن اتخاذه الآيات هزوا بعد علمه بمصدرها ، يدل على إيغاله فى العناد والضلال .

وقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ بيان لسوء عاقبته . أى : أولئك الذين يفعلون ذلك لهم فى الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل سخرية العقلاء واحتقارهم . ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أى : من قدامهم جهنم لأنهم يوجهون إليها بعد موتهم ، أو هى من خلفهم لأنهم معرضون عنها ، ومهملون لما يبعدهم عن دخولها .

والوراء : اسم يستعمل بمعنى الأمام والخلف ، لأنه يطلق على الجهة التى يواريها الشخص ، فتعم الخلف والأمام .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٨٦ .

﴿ ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ﴾ أى : ولا يدفع عنهم ماكسبوه فى الدنيا من أموال شيئا من العذاب ، ولو كان هذا الشىء يسيرا ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار ﴾ .

فقوله ﴿ ولا يغنى ﴾ من الغناء - بفتح الغين - بمعنى الدفع والنفع ، ومنه قول الشاعر :

وقـل غنـاء عنـك مـال جمعتـه إذا صـار ميراثـا وواراك لاحـد

﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أى : ولا يغنى عنهم - أيضا - ما اتخذوه من دون الله - تعالى - من معبودات باطلة .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ماكسبوا ﴾ و ﴿ ما اتخذوا ﴾ موصولة والعائد محذوف . ويصح أن تكون فى الموضعين مصدرية .

﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله - تعالى - وحده .

والإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ هذا هدى ﴾ تعود إلى القرآن الكريم . والهدى مصدر هداه إلى الشىء إذا دله وأرشده إليه .

أى . هذا القرآن الذى أوحيناه إليك يا محمد ، فى أعلى درجات الهداية وأكملها .

﴿ والذين كفروا بآيات ربهم ﴾ الدالة على وجوب إخلاص العبادة له .

﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ والرجز : يطلق على أشد أنواع العذاب ..

أى : لهم أشد أنواع العذاب ، وأكثره إيلاما وإهانة .

وجمهور القراء قرأ ﴿ أليم ﴾ بالخفض على أنه نعت لقوله ﴿ رجز ﴾ وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿ أليم ﴾ بالرفع ، على أنه صفة لعذاب .

وهذه الآيات تهديد لكل من كانت فيه هذه الصفات التى منها : كثرة الكذب ، وكثرة اقتراف السيئات ، والإصرار على الباطل .. ويدخل فى هذا التهديد دخولا أوليا ، النضر بن الحارث ، الذى كان يشترى أحاديث الأعاجم ليشغل بها الناس عن سماع القرآن ، والذى قيل إن هذه الآيات قد نزلت فيه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد هذا التهديد الشديد للأفاكين .. إلى بيان جانب من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده ، ودعت المؤمنين إلى الصبر والصفح ، فقال - تعالى - :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾
قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ
قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

وقوله - تعالى - ﴿ سخر ﴾ من التسخير بمعنى التذليل والتيسير . يقال : سخر الله - تعالى - الإبل للإنسان ، إذا ذللها له ، وجعلها منقادة لأمره .

أى : الله - تعالى - وحده ، هو الذى بقدرته ورحمته ﴿ سخر لكم البحر ﴾ بأن جعلكم متمكنين من الانتفاع بخيراته ، وبأن جعله على هذه الصفة التى تستطيعون منها استخراج ما فيه من خيرات .

وقوله : ﴿ لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله .. ﴾ بيان لبعض الأسباب التى من أجلها سخر الله - تعالى - البحر على هذه الصفة .

أى : جعل لكم البحر على هذه الصفة ، لكى تتمكن السفن من الجرى فيه بأمره - تعالى - وقدرته ، ولتطلبوا ما فيه من خيرات ، تارة عن طريق استخراج ما فيه من كنوز ، وتارة عن طريق التجارة فيها .. وكل ذلك بتيسير الله - تعالى - وفضله ورحمته بكم .

وقوله : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ متعلق بمحذوف . أى : أعطاكم ما أعطاكم من النعم ، وجعل البحر على صفة تتمكنون معها من الجرى فيه وأنتم فى سفنكم ، ومن استخراج ما فيه من خيرات .. لعلكم بعد ذلك تشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، وتستعملونها فيما خلقت من أجله .

وقوله - تعالى - : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه .. ﴾ تعميم بعد تخصيص .

أى : يسر لكم الانتفاع بما فى البحر من خيرات ، ويسر لكم - أيضاً - الانتفاع بكل

ما فى السموات والأرض من نعم لا تعد ولا تحصى ، وكلها منه - تعالى - وحده ، لا من أحد سواه .

فقوله : ﴿ جميعا ﴾ حال من ﴿ وما فى الأرض ﴾ ، أو تأكيد له . والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ منه ﴾ يعود إلى الله - عز وجل - ، والجار والمجرور حال من ﴿ ما ﴾ أيضا ، أى : جميعا كائنا منه - تعالى - لا من غيره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ﴿ منه ﴾ فى قوله : ﴿ جميعا منه ﴾ ؟ وما موقعها من الإعراب ؟ .

قلت : هى واقعة موقع الحال . والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده . يعنى أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقه . ويجوز أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هى جميعا منه[1] .

﴿ إن فى ذلك ﴾ المذكور من تسخير البحر وما فى السموات والأرض لكم ﴿ لآيات ﴾ ساطعات ، وعلامات واضحات ، ودلائل بينات ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وفضله ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى هذه النعم ، ويحسنون شكرها .

وخص المتفكرين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما بين أيديهم من نعم ، إذ بالتفكر السليم ينتقل العاقل من مرحلة الظن ، إلى مرحلة اليقين ، التى يجزم معها بأن المستحق للعبادة والحمد ، إنما هو الله رب العالمين .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يحض المؤمنين على التجاوز والصفح ، عما يصدر من المشركين من كلمات بذيئة ، ومن أفعال قبيحة ، حتى يأتى الله بأمره .. فقال - تعالى - : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنها نزلت فى عمر بن الخطاب ، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهمَّ أن يبطش به ، فنزلت[2] .

ومقول القول محذوف لأن ا لجواب دال عليه . والرجاء هنا : بمعنى الخوف . والمراد بأيام الله : وقائعه بأعدائه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لأتباعك المؤمنين ، على سبيل النصح والإرشاد ، قل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٨٨ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٤٦ .

لهم : اغفروا يغفروا للمشركين الذين لا يخافون من وقائع الله ونقمته بأعدائه ، ولا يتوقعون أن هناك عذابا شديدا سينتظرهم ،وأن هناك ثوابا عظيما سينتظر المؤمنين .

فالآية الكريمة توجيه حكيم للمؤمنين إلى التسامح والصبر على كيد أعدائهم ، حتى يأتى الله - تعالى - بأمره ، الذى فيه النصر للمؤمنين ، والخسران للكافرين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ﴾ علة للأمر بالصفح والمغفرة ، وهو متعلق بما قبله ، والمراد بالقوم : المؤمنون الذين أمروا بالتسامح والعفو .. والتنكير فى لفظ ﴿ قوما ﴾ للتعظيم .

أى : أمر الله المؤمنين بذلك ، ليجزيهم يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الصالحة ، التى منها الصبر على أذى أعدائهم ، والإغضاء عنهم ، واحتمال المكروه منهم .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ليجزى قوما ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة أى إنما أمروا بأن يغفروا ، لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة .

فإن قلت : قوله : ﴿ قوما ﴾ ما وجه تنكيره ، وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف ؟

قلت : هو مدح لهم وثناء عليهم ، كأنه قيل : ليجزى أيما قوم . أو قوما مخصوصين ، لصبرهم وإغضائهم على أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص[1] .

ثم عقب - سبحانه - على ذلك بما يؤكد عدالة الجزاء ، واحتمال كل نفس لما تعمله فقال : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ .

أى : من عمل عملا صالحا ، فثواب هذا العمل يعود إلى نفسه ، ومن عمل عملا سيئا فعقاب هذا العمل يعود عليها - أيضا - .

﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ يوم القيامة فترون ذلك رأى العين ، وتشاهدون أن كل إنسان سوف يجازى على حسب عمله ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعم الله - سبحانه - على بنى إسرائيل ، وعن موقفهم منها ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يتمسك بالشريعة التى أنزلها الله - سبحانه - عليه .. فقال :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٨٨ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ
فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

والمراد بإسرائيل : يعقوب - عليه السلام - وببنيه : ذريته من بعده . والمراد بالكتاب : التوراة - أو جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل والزبور .

أى : والله لقد أعطينا بنى إسرائيل ﴿ الكتاب ﴾ ليكون هداية لهم ، وآتيناهم - أيضا - ﴿ الحكم ﴾ أى : الفقه والفهم للأحكام حتى يتمكنوا من القضاء بين الناس ، وأعطيناهم كذلك ﴿ النبوة ﴾ بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء فيهم ومنهم .

وهكذا منحهم - سبحانه - نعما عظمى تتعلق بدينهم ، أما النعم التى تتعلق بدنياهم فقد بينها - سبحانه - فى قوله : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أى : ورزقناهم من المطاعم والمشارب الطيبات التى جعلناها حلالا لهم .

وقوله : ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ بيان لنعمة أخرى . وللمفسرين فى معنى هذه الجملة اتجاهان : أحدهما : أن المقصود بها فضلناهم على العالمين بأمور معينة حيث جعلنا عددا من الأنبياء منهم ، وأنزلنا المن والسلوى عليهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق البحر ، وإظلال الغمام ، ونظائرهما ، فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا من بعض

الوجوه ، لا من كلها ، ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافى ذلك تفضيل أمة محمد - ﷺ - عليهم من وجه آخر ، ومن جهة المرتبة والثواب[1] .

والثانى : أن المقصود بها : فضلناهم على عالمى زمانهم .

قال الإمام الرازى ، ما ملخصه : فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين ، يقتضى تفضيلهم على أمة محمد - ﷺ - وهذا باطل ، فكيف الجواب ؟

قلنا : الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلتكم على عالمى زمانكم ، وذلك لأن الشخص الذى سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود ، لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد - ﷺ - لم تكن موجودة فى ذلك الوقت ، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين فى ذلك الوقت ، أنهم أفضل من الأمة الإسلامية .[2] .

وقال الشيخ الشنقيطى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ .

ذكر - سبحانه - فى هذه الآية أنه فضل بنى إسرائيل على العالمين ، كما ذكر ذلك فى آيات أخرى .. ولكن الله - تعالى - بين أن أمة محمد - ﷺ - خير من بنى إسرائيل ، وأكرم على الله ، كما صرح بذلك فى قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

فخير صيغة تفضيل ، والآية نص صريح فى أنهم خير من جميع الأمم ، بنى إسرائيل وغيرهم .

ويؤيد ذلك من حديث معاوية بن حيدة القشيرى ، أن النبى - ﷺ - قال فى أمته : أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله ، وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور .

واعلم أن ما ذكرنا من كون الأمة الإسلامية أفضل من بنى إسرائيل وغيرهم ، لا يعارض ما ورد من آيات فى تفضيل بنى إسرائيل .

لأن ذلك التفضيل الوارد فى بنى إسرائيل ، ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد - ﷺ - والمعدوم فى حال عدمه ليس بشىء حتى يفضل على غيره ، أو يفضل غيره عليه .

ولكنه - تعالى - بعد وجود الأمة الإسلامية صرح بأنها خير الأمم ، فثبت أن كل ما جاء فى القرآن من تفضيل بنى إسرائيل ، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة[3] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٣) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ٢٥١ .

وهذا الاتجاه الثانى هو الذى نرجحه ، لأن المقصود بالآية الكريمة وأمثالها تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للنبى - ﷺ - بنعم الله عليهم وعلى آبائهم ، حتى يشكروه عليها .

ومن مظاهر هذا الشكر - بل على رأسه - إيمانهم بما جاءهم به النبى - ﷺ - .

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا تلك النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والحسد للنبى - ﷺ - على ما آتاه الله - تعالى - من فضله ، فكانت نتيجة ذلك أن لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

ولقد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ .

والعبرة التى نستخلصها من هذه الآية وأمثالها : أن الله - تعالى - فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية ، ومنحهم الكثير من النعم ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر .. فسلب الله عنهم ما حباهم به من نعم . ووصفهم فى كتابه بنقض العهد ، وقسوة القلب .

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفرا ، لأن الميزان عند الله للتقوى والفعل الصالح ، وليس للجنس أو اللون أو النسب[1] .

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل فقال : ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ والبينات جمع بينه ، وهى الدليل الواضح الصريح . و ﴿ من ﴾ بمعنى فى .

أى : وأعطيناهم - فضلا عن كل ما سبق - دلائل واضحة ، وشرائع بينة تتعلق بأمر دينهم ، بأن فصلنا لهم الحلال والحرام ، والحسن والقبيح ، والحق والباطل ، فصاروا بذلك على علم تام بشريعتهم ، بحيث لا يخفى عليهم شىء مما اشتملت عليه من أوامر أو نواهى ، أو حلال أو حرام .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة أن الله - تعالى - قد أعطاهم شريعة واضحة لا غموض فيها ولا التباس ، ولا عوج فيها ولا انحراف .

بل إن شريعتهم قد أخبرتهم عن طريق رسلهم ببعث النبى - ﷺ - وبوجوب إيمانهم به عند ظهوره ، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة ص ١١٥ .

أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - الموقف القبيح الذى وقفه بنو إسرائيل من نعم الله عليهم فقال : ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ .

والبغى : تجاوز الحق إلى الباطل فى كل شىء . يقال بغت المرأة إذا أتت مالا يحل لها . وبغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ .

والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات ، وقوله : ﴿ بغيا ﴾ مفعول لأجله .

أى : أن بنى إسرائيل أنعمنا عليهم بتلك النعم الدينية والدنيوية ، فما اختلفوا فى أمور دينهم التى وضحناها لهم ، إلا عن علم لا عن جهل ، ولم يكن خلافهم فى حال من الأحوال إلا من أجل البغى والحسد فيما بينهم ، لا من أجل الوصول إلى الحق .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة توبخ بنى إسرائيل توبيخا شديدا ، لأنها بينت أن خلافهم لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم ، والاختلاف بعد العلم بالحق أقبح وأشنع ، وأن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان سببه البغى والحسد .

فهم قد اختلفوا فى الحق مع علمهم به ، لأن العلم كالمطر ، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية .. والنفوس عندما يستولى عليها الهوى ، تحول المقتضى إلى مانع .

ورحم الله الإمام الرازى فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والمقصود من هذه الجملة ، التعجب من أحوالهم ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف . وها هنا صار مجىء العلم سببا لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغى[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة ﴾ بيان لحكم الله العادل فيهم .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بقضائه العادل ، بأن ينزل بهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين ، الذى جعل الله أحكامه واضحة لهم ، ولا تحتمل الاختلاف أو التنازع .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يتمسك بالدين الذى أوحاه إليه ، فقال :

---

(١) سورة الصف الآية ٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٦٧ .

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ .

والشريعة فى الأصل تطلق على المياه والأنهار التى يقصدها الناس للشرب منها ، والمراد بها هنا : الدين والملة ، لأن الناس يأخذون منها ما تحيا به أرواحهم ، كما يأخذون من المياه والأنهار ما تحيا به أبدانهم .

قال القرطبى : الشريعة فى اللغة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة الماء - وهى مورد الشاربة - شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، والجمع الشرائع والشرائع فى الدين المذاهب التى شرعها الله - تعالى - لخلقه[1] .

أى : ثم جعلناك - أيها الرسول الكريم - على شريعة ثابتة ، وسنة قويمة ، وطريقة حميدة ، من أمر الدين الذى أوحيناه إليك ، ﴿ فاتبعها ﴾ اتباعا تاما لا انحراف عنه ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ من أهل الكفر والضلال والجهل .

وقد ذكروا أن كفار قريش قالوا للنبى - ﷺ - ارجع إلى دين آبائك ، فإنهم كانوا أفضل منك ، فنزلت هذه الآية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ﴾ تعليل للنهى عن اتباع أهوائهم .

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين ، صرت مستحقا لمؤاخذتنا ، ولن يستطيع هؤلاء أو غيرهم ، أن يدفع عنك شيئا مما أراده الله - تعالى - بك .

﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أى : بعضهم نصراء بعض فى الدنيا ، أما فى الآخرة فولايتهم تنقلب إلى عداوة .

﴿ والله ﴾ - تعالى - هو ﴿ ولى المتقين ﴾ الذين أنت إمامهم وقدوتهم ، فاثبت على شريعتنا التى أوحيناها إليك ، لتنال ما أنت أهله من رضانا وعطائنا .

ثم أثنى - سبحانه - على القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ .

والبصائر : جمع بصيرة - وهى للقلب بمنزلة البصر للعين . فهى النور الذى يبصر به القلب هدايته ، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين طريقها .

وقوله : ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ، وبصائر خبره ، وجمع الخبر باعتبار ما فى القرآن من تعدد الآيات والبراهين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ١٦٣ .

أى هذا القرآن الذى أنزلناه إليك - أيها الرسول الكريم - ﴿ بصائر للناس ﴾ لأن ما فيه من حجج وبراهين ، تكشف للقلب طريق الحق ، كما تكشف العين للإنسان مساره وهو - أيضا - ﴿ هدى ﴾ أى : هداية عظيمة إلى الرشاد والسعادة ﴿ ورحمة ﴾ واسعة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أى : لقوم من شأنهم الإيقان بأنه من عند الله - تعالى - ، وبأنك - أيها الرسول الكريم - صادق فيما تبلغه عن ربك .

وخص الموقنين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بحجج القرآن الكريم ، وبهداياته ، أما الذين فى قلوبهم مرض أوشك ، فإنهم لا ينتفعون بذلك .

قال - تعالى - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون .. وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[2] .

ثم فرقت السورة الكريمة بين حال الذين يجترحون السيئات ، وحال الذين يعملون الصالحات ، وحكت جانبا من أقوال المشركين ، وردت عليهم بما يبطلها ، فقال - تعالى - :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٤ - ١٢٥ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٤ .

إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

و ﴿ أم ﴾ فى قوله – تعالى – : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ منقطعة ، وتقدر ببل والهمزة ، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى ، والهمزة لإنكار الحسبان .

والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التى يكتسب بها كالأيدى . ويقال : فلان جارحة أهله ، أى : هو الذى يكتسب لهم أرزاقهم .

وحسب : فعل ماض ، والذين فاعله ، وجملة ﴿ أن نجعلهم ﴾ ساد مسد المفعولين .

والمعنى : بل أحسب الذين اكتسبوا ما يسوء من الكفر والمعاصى ، أن نجعلهم متساوين مع الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات فى دار الدنيا أو فى الدار الآخرة ؟

كلا !! لا يستوون فيهما ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يحيون فى الدنيا حياة طيبة لا مكان فيها للهموم والأحقاد والإحن ببركة إيمانهم ، وفى الآخرة ينالون رضا الله – تعالى – وحسن ثوابه .

أما الذين اجترحوا السيئات فهم فى شقاء فى الدنيا وفى الآخرة .

قال الشوكانى قرأ الجمهور ﴿ سواء ﴾ بالرفع على أنه خبر مقدم . والمبتدأ محياهم ومماتهم . والمعنى إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء .

وقرأ حمزة والكسائى وحفص ﴿ سواء ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور فى قوله : ﴿ كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أو على أنه مفعول ثان لحسب ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أى بئس حكما حكمهم هذا الذى زعموا فيه تسويتنا بين

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٨ .

الذين اجترحوا السيئات ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، توبيخهم على أحكامهم الباطلة ، وأفكارهم الفاسدة .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أى : ساء حكمهم هذا ، وهو الحكم بالتساوى ، فما مصدرية ، والكلام إخبار عن قبح حكمهم المعهود .

ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على أن ﴿ ساء ﴾ بمعنى بئس ، فتكون كلمة ﴿ ما ﴾ نكرة موصوفة ، وقعت تمييزا مفسرا لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أى : بئس شيئا حكموا به ذلك ﴾[1] .

ثم أكد - سبحانه - عدم المساواة بين الفريقين فقال : ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أى خلقهما خلقا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

وقوله ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ معطوف على مقدر يفهم من سياق الكلام .

أى : خلقهما بالحق ليبرهن بذلك على وحدانيته وقدرته . ولتجزى كل نفس يوم القيامة بسبب ما اكتسبته من أعمال .

ويصح أن يكون معطوفا على قوله ﴿ بالحق ﴾ . أى : خلقهما بالحق المقتضى للعدل بين العباد ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، فهو من عطف المسبب على السبب .

﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى : الخلائق المدلول عليهم بقوله ﴿ كل نفس ﴾ لا يلحقهم شىء من الظلم يوم القيامة ، لأن الله - تعالى - قد كتب على نفسه أنه لا يظلم أحدا .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ للتعجب من حال هؤلاء المشركين ، ولتسلية النبى - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى .

والمراد بهواه : ما يستحسنه من تصرفات ، حتى ولو كانت تلك التصرفات فى نهاية القبح والشناعة والجهالة .

والمعنى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم ، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم ، مهما كان قبح تصرفهم ، وانحطاط تفكيرهم ، وخضعوا له كما يخضع العابد لمعبوده .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا . فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ١٥١ .

وقوله : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، بأن خلق فيه الضلالة ، على علم منه - سبحانه - بأن هذا الشقى أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى .

فيكون قوله ﴿ على علم ﴾ حال من الفاعل ، أى أضله - سبحانه - حالة كونه عالما بأنه من أهل الضلال .

ويصح أن يكون حالا من المفعول ، أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، والحال أن هذا الشقى عالم بطريق الإيمان ، ولكنه استحب الغى على الرشد .

وقوله ﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء ، وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا يخرج منه ما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه .

أى : وطبع على سمعه وقلبه ، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع ، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده .

﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ أى : وجعل على بصره غطاء ، يحجب عنه الرؤية السليمة للأشياء وأصل الغشاوة ما يغطى به الشىء ، من غشاه إذا غطاه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا أحد يستطيع أن يهدى هذا الإنسان الذى اتخذ إلهه هواه من بعد أن أضله الله - عز وجل - .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى : أفلا تتفكرون وتتأملون فيما سقت لكم من مواعظ وعبر ، تفكرا يهديكم إلى الرشد ، ويبعثكم على الإيمان .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من المشركين ، وتعجيب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الجهالة والضلالة . ودعوة لهم إلى التذكر والاعتبار ، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أقوالهم الباطلة فقال : ﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الجهل والعناد والجحود للحق ، ما الحياة إلا هذه الحياة الدنيوية التى نحياها فيها ، وليس هناك حياة سواها ، فنحن نموت ثم يحيا أولادنا من

بعدنا أو يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر إلى زمن معين ، أو نكون أمواتا فى أصلاب آبائنا ، ثم نحيا بعد ذلك عند الولادة .

﴿ وما يهلكنا ﴾ عند انتهاء آجالنا ﴿ إلا الدهر ﴾ أى : إلا مرور الزمان ، وكر الأعوام وتقلب الشهور والأيام .

قال ابن كثير ما ملخصه « يخبر - تعالى - عن قول الدهرية من الكفار ، ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد : ﴿ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ... ﴾ أى : ماثَمَّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة .. .

ولهذا قالوا : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ - أى : إلا مرور الأيام والليالى - فكابروا المعقول وكذبوا المنقول .. .

وفى الحديث الصحيح - الذى رواه الشيخان وغيرهما - عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : يقول الله - تعالى - : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب ليله ونهاره .

والمقصود من هذا الحديث النهى عن سب الدهر ، لأن الله - تعالى - هو الخالق له ، فمن يسب الدهر ، فكأنما سب الله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الذى يقلب الليالى والأيام .

وقد كان العرب فى الجاهلية إذا ما أصابتهم شدة أو نكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال والمصائب إلى الدهر ويسبونه[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ رد عليهم فيما قالوه من أقوال باطلة تتعلق بإنكارهم للبعث والحساب .

أى : وليس لهم فيما زعموه من إنكارهم للبعث من علم مستند إلى نقل أو عقل ، إن هم إلا يظنون ظنا مبنيا على الوهم والضلال .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أى : وإذا تليت عليهم آيات القرآن ، الواضحة فى دلالتها على أن يوم القيامة حق ، وأن الحساب حق .

﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ أى : ما كان ردهم على من يذكرهم بالبعث إلا أن قالوا لهم : أعيدوا إلينا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين فى قولكم : إن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٥٣ .

وقوله ﴿ حجتهم ﴾ - بالنصب - خبر كان ، واسمها قوله : ﴿ إلا أن قالوا ﴾ . وسمى - سبحانه - أقوالهم مع بطلانها حجة ، على سبيل التهكم بهم ، والاستهزاء بهذه الأقوال .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟

قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة ، أو لأنه فى أسلوب قول القائل :

تحية بينهم ضرب وجيع .. كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة .

والمراد : نفى أن تكون لهم حجة ألبتة[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بأمر النبى - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قل الله يحييكم ﴾ أى : وأنتم فى الدنيا ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم فى الدنيا ، ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ بأن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء ، وهذا اليوم وهو يوم القيامة آت ﴿ لا ريب فيه ﴾ ولا شك فى حدوثه .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك ، لاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم ، ولو عقلوا لعلموا أن من أنشأ الإنسان من العدم ، قادر على إعادته بعد موته من باب أولى .

ثم أخذت السورة الكريمة فى أواخرها فى تذكير الناس بأهوال يوم القيامة لكى يستعدوا للقاء هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح ، فذكرتهم بأحوال الأخيار والأشرار فى هذا اليوم العصيب ، وبينت لهم أن الندم لن ينفع فى هذا اليوم .. فقال - تعالى - :

وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) تفسير الكشاف جـ ٧ ص ٢٩١ .

فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم
مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا
لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قال الإمام الرازى : قوله : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ : أنه - تعالى - لما احتج بكونه قادرا على الإحياء فى المرة الأولى ، وعلى كونه قادراً على الإحياء فى المرة الثانية فى الآيات المتقدمة ، عمم بعد ذلك الدليل فقال : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ أى : لله - تعالى - القدرة على جميع الممكنات سواء أكانت من السموات أم من الأرض[1] .

أى : ﴿ لله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ خلقا وتصرفا وإحياء وإماتة لا راد لقضائه . ولا معقب لحكمه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين يوم القيامة فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ .

أى : ولله - تعالى - ملك السموات والأرض ، وله - أيضا - ملك وقت قيام الساعة ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٧٣ .

لأنه لا يستطيع أحد أن يعلم وقت قيامها ، أو يتصرف فيه ، إلا هو - عز وجل - وفى اليوم الذى تقوم فيه الساعة يخسر المبطلون ، أنفسهم وأهليهم ، ويصيرون فى حال شديدة من الهم والغم والكرب ، لأنهم كذبوا بهذا اليوم ، وكفروا به وقالوا : ﴿ ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

قال الشوكانى وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ أى : المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل فى ﴿ يوم ﴾ هو الفعل ﴿ يخسر ﴾ ويومئذ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه ، فيكون التقدير : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يوم تقوم الساعة ، فيكون بدلا توكيديا .

والأحسن أن يكون العامل فى ﴿ يوم ﴾ هو ﴿ مُلك ﴾ - أى : ما يدل عليه هذا اللفظ .

أى : ولله - تعالى - ملك السموات والأرض - وملك يوم تقوم الساعة ، ويكون قوله ﴿ يومئذ ﴾ معمولا ليخسر ..[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾[2] .

ثم يعرض - سبحانه - مشهدا من مشاهد هذا اليوم الهائل الشديد فيقول : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ .

وقوله : - سبحانه - : ﴿ جاثية ﴾ من الجثُو وهو الجلوس على الركب بتحفز وترقب وخوف .

يقال : جثا فلان على ركبتيه يجثو جثوا وجثيا ، إذا برك على ركبتيه وأنامله فى حالة تحفز ، كأنه منتظر لما يكرهه .

أى : وترى - أيها العاقل - فى هذا اليوم الذى تشيب من هوله الولدان ، كل أمة من الأمم متميزة عن غيرها ، وجاثية على ركبها ، مترقبة لمصيرها فى تلهف وخوف فالجملة الكريمة تصور أهوال هذا اليوم ، وأحوال الناس فيه ، تصويرا بليغاً مؤثرا ، يبعث على الخوف الشديد من هذا اليوم ، وعلى تقديم العمل الصالح الذى ينفع صاحبه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴾ .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ١٠ .
(٢) سورة غافر الآية ٨٧ .

وقوله ﴿ كل أمة ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ خبره . أى : كل أمة تدعى إلى سجل أعمالها الذى أمر الله - تعالى - ملائكته بكتابته لتحاسب عليه .

وقوله : ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ مقول لقول مقدر . أى : ويقال لهم جميعا فى هذا الوقت : اليوم تجدون جزاء أعمالكم التى كنتم تعملونها فى الدنيا من خير أو شر . ويقال لهم - أيضا - : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ .

أى : هذا كتابنا الذى سجلته عليكم الملائكة ، يشهد عليكم بالحق ، لأنه لا زيادة فيما كتب عليكم ولا نقصان ، وإنما هى أعمالكم أحصيناها عليكم .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ هذا كتابنا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة .

﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾ أى : يشهد . وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا ، أى : بين . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم .

دليله قوله - تعالى - : ﴿ ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ﴾ .

وقوله : ﴿ ينطق ﴾ فى موضع الحال من الكتاب »[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : فإن قيل : كيف أضيف الكتاب إليهم فى قوله : ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ .

وأضيف هنا إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ هذا كتابنا ﴾ ؟

فالجواب أنه لا منافاة بين الأمرين ، لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على أعمالهم ، وكتاب الله ، بمعنى أنه - سبحانه - هو الذى أمر الملائكة بكتابته[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للنطق بالحق ، أى : إنا كنا نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالكم ، أى : بكتابتها وتثبيتها عليكم فى الصحف ، حسنة كانت أو سيئة ، فالمراد بالنسخ هنا : الإثبات لا الإزالة .

ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على ما سبق من أحكام فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ﴾ أى : فيدخلهم - سبحانه - فى جنته ورضوانه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ١٧٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٢٠ .

﴿ ذلك ﴾ العطاء الجزيل ﴿ هو الفوز المبين ﴾ الذى لا يدانيه فوز .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع والزجر :

﴿ أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ﴾ أى : أفلم تأتكم رسلى بآياتى الدالة على وحدانيتى وعلى صدقهم فيما يبلغونه عنى ؟ بلى لقد جاءكم رسلى بآياتى .

﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الاستماع إليهم ، وعن الاستجابة لهم ، واتباع دعوتهم .

﴿ وكنتم قوما مجرمين ﴾ أى : وكنتم فى الدنيا قوما عادتكم الإجرام ، واجتراح السيئات ، واقتراف المنكرات .

﴿ وإذا قيل ﴾ لكم فى الدنيا ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أى : إن ماوعد الله - تعالى - به من البعث والحساب حق وصدق ﴿ والساعة لاريب فيها ﴾ أى : لاشك فيها .

﴿ قلتم ﴾ على سبيل العناد والجحود ﴿ ما ندرى ما الساعة ﴾ أى : قلتم على سبيل الإنكار لها ، والاستبعاد لحصولها : لا نعرف أن هناك شيئا اسمه الساعة ، ولا نعترف بها اعترافا يدل على إيماننا بها .

﴿ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ أى : كنتم فى الدنيا تقولون : لا نوقن ولا نؤمن بحدوث الساعة ، ولكنا نظن ونتوهم أن هناك شيئا اسمه الساعة ، وما نحن بمستيقنين بإتيانها .

ولعل هذا الكلام الذى حكاه القرآن الكريم عنهم ، هو كلام الشاكين المتحيرين من الكافرين أما الجاحدون منهم فهم الذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿ ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .. ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ماترتب على هذه الأقوال الباطلة من نتائج فقال : ﴿ وبدا لهم سيئات ما عملوا ﴾ أى : وظهر لهؤلاء الكافرين سيئات أعمالهم على حقيقتها التى كانوا لا يتوقعونها .

﴿ وحاق بهم ﴾ أى : وأحاط ونزل بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : فى الدنيا ، فقد كانوا فى الدنيا ينكرون البعث والحساب والجزاء ويستهزئون بمن يحدثهم عن ذلك . فنزل بهم العذاب المهين ، جزاء استهزائهم وإنكارهم .

﴿ وقيل ﴾ لهم على سبيل التأنيب والزجر ﴿ اليوم ننساكم ﴾ أى : نهملكم ونترككم فى النار ﴿ كما نسيتم ﴾ أنتم فى الدنيا وأنكرتم ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ ومأواكم النار ﴾ أى : ومسكنكم الذى تؤون إليه النار وبئس القرار .

﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ أى : وليس لكم من ناصرين ينصرونكم ، ويخففون عنكم هذا العذاب الذى حل بكم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء فقال : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا ﴾.

أى : ذلكم العذاب المبين الذى نزل بكم سببه أنكم استهزأتم بآيات القرآن الكريم ، وسخرتم منها ، وكذبتم من جاء بها .

﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أى : وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها وشهواتها .

﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أى : من النار .

﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم ، بأن يتوبوا إليه مما كان منهم من كفر وفسوق فى الدنيا ، لأن التوبة قد فات أوانها .

فقوله : ﴿ يستعتبون ﴾ من العتب - بفتح العين وسكون التاء - وهى الموجدة . يقال : عتب عليه يعتب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه .

والمقصود من الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين لا يقبل منهم فى هذا اليوم عذر أو توبة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ فلله الحمد ﴾ أى : فلله - تعالى - وحده الحمد والثناء ﴿ رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ لا رب سواه ولا خالق غيره .

﴿ وله الكبرياء ﴾ أى : العظمة والسلطان والجلال ﴿ فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

قال ابن كثير : أى : هو العظيم الممجد الذى كل شىء خاضع لديه . فقير إليه وفى الحديث الصحيح يقول الله - تعالى - : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى » .

﴿ وهو العزيز ﴾ أى : الذى لا يغالب ولا يمانع ، ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٥٧ .

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة « الجاثية » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
الجمعة مساء : ٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ
٢٢ / ١١ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الأحقاف » هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فقد كان بعد سورة « الجاثية » .

والذى يراجع ما كتبه العلماء فى ترتيب سور القرآن الكريم ، يجد أن الحواميم قد نزلت مرتبة كترتيبها فى المصحف .

٢ - وسورة « الأحقاف » عدد آياتها خمس وثلاثون آية فى المصحف الكوفى ، وأربع وثلاثون آية فى غيره ، وهى من السور المكية .

قال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، فأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء ..

واستثنى بعضهم قوله - تعالى - : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ، وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ﴾ .

واستثنى بعضهم قوله - تعالى - : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ...﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبتلقين النبى - ﷺ - الجواب السديد الذى يرد به على المشركين ، فقال - تعالى - : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله . أرونى ماذا خلقوا من الأرض ،أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ .

ثم تحكى السورة الكريمة بعض الأعذار الزائفة التى اعتذر بها الكافرون وردت عليهم بما يبطلها ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ... ﴾ .

٤ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وعن الوصايا الحكيمة التى أوصى الله - تعالى - بها الأبناء نحو آبائهم ، وعن حسن عاقبة

الذين يعملون بتلك الوصايا ، فقال - تعالى - : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ .

كما بينت السورة الكريمة سوء عاقبة الكافرين ، الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، قال - تعالى - : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون ﴾ .

٥ - ثم حذرت السورة المشركين من الإصرار على شركهم ، وذكرتهم بما حل بالمشركين من قبلهم كقوم عاد وثمود ... وبينت لهم أن هؤلاء الكافرين لم تغن عنهم أموالهم ولا قوتهم شيئا ، عندما حاق بهم عذاب الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ .

٦ - ثم أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى إدخال السرور على قلبه بأن ذكرته بحضور نفر من الجن إليه ، للاستماع إلى القرآن الكريم ، وكيف أنهم عندما استمعوا إليه أوصى بعضهم بعضا بالإنصات وحسن الاستماع ، وكيف أنهم عندما عادوا إلى قومهم دعوهم إلى الإيمان بالحق الذى استمعوا إليه ، وبالنبى الذى جاء به ، فقال - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة بأمره - ﷺ - بالصبر على أذى قومه ،فقال - تعالى - :

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

٧ - والمتأمل فى سورة « الأحقاف » يراها ، قد أقامت الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى كمال قدرته . وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن يوم القيامة حق .

أقامت الأدلة على كل ذلك ، بأبلغ الأساليب وأحكمها ، ومن ذلك أنها ساقت ألوانا من مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، كما ذكرت شهادة شاهد من بنى إسرائيل على أن الإسلام هو الدين الحق ، كما طوفت بالناس فى أعماق التاريخ لتطلعهم على مصارع الغابرين ، الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، كما عقدت عدة مقارنات بين مصير الأخيار ومصير الأشرار ..

وبذلك تكون السورة قد ساقت من الأدلة ما فيه الكفاية والإقناع لأولى الألباب ، على أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر
صباح السبت ١٠ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٥/١١/٢٣ م

كتبة الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ
ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن
لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾
وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

سورة « الأحقاف » من السور التى افتتحت ببعض الحروف الهجائية ، وأقرب الأقوال إلى الصواب فى معناها أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى به الله - تعالى - المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبةً فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلا عن كل ذلك فإن تصدير بعض السور ، بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار

المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم ،إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة بألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم .

وذلك مما يلفت أنظارهم ، ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكما وحججا ومواعظ من شأنها أنها تهديهم إلى الحق ، لو كانوا يعقلون .

وقد سبق أن بينا - بشىء من التفصيل - آراء العلماء فى هذه الحروف المقطعة[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله - تعالى - ، لا من عند غيره .

أى : أن هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - ﴿ العزيز ﴾ أى : صاحب العزة الغالبة ، والسلطان القاهر ﴿ الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله وتصريفه لشئون خلقه .

ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق هذا الكون عبثا ، فقال : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ... ﴾ .

وقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أهم الأحوال ، وهو صفة لمصدر محذوف ، وقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على « الحق » والكلام على تقدير مضاف محذوف .

أى : ما خلقنا هذا الكون بسمائه وأرضه وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، ما خلقنا كل ذلك إلا خلقا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل وبالحكمة التى اقتضتها إرادتنا ومشيئتنا ..

وما خلقنا كل ذلك - أيضا - إلا بتقدير أجل معين ، هو يوم القيامة الذى تفنى عنده جميع المخلوقات .

فالمراد بالأجل المسمى : يوم القيامة الذى ينتهى عنده آجال الناس ، ويقفون بين يدى الله - تعال - للحساب والجزاء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهماباطلا . ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ... ﴾[٣] .

---

(١) راجع تفسيرنا لسور البقرة والأعراف ويونس .
(٢) سورة ص الآية ٢٧ .
(٣) سورة الدخان الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من خالقهم فقال : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ والإنذار : الإعلام المقترن بتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار .

و « ما » فى قوله : ﴿ عما أنذروا ﴾ يصح أن تكون موصولة والعائد محذوف ، ويصح أن تكون مصدرية .

والإعراض عن الشىء : الصدود عنه ، وعدم الإقبال عليه ، وأصله من العُرْض - بضم العين - وهو الجانب ، لأن المعرض عن الشىء يعطيه جانب عنقه ، مبتعدا عنه .

أى : نحن الذين خلقنا بقدرتنا وحكمتنا ، السموات والأرض ومابينهما ، بالحق الذى اقتضته مشيئتنا ، وبتقدير أمد معين ، عند انتهائه « تبدل الأرض غير الأرض والسموات .. »

ومع كل هذه الدلائل الساطعة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فالذين كفروا بالحق ، عن الذى أنذروه من الحساب والجزاء معرضون ، وفى طغيانهم يعمهون ..

فالآية الكريمة قد وضحت أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبثا ، وأن لهذا الكون نهاية ينتهى عندها ، وأن الكافرين - لجهلهم وعنادهم - لم يستجيبوا لمن دعاهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولم يستعدوا لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جهالاتهم وعنادهم ، فقال : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك فى السموات ... ﴾ .

وقوله : ﴿ أرأيتم ﴾ بمعنى أخبرونى ، ومفعوله الأول قوله ﴿ ما تدعون ﴾ وجمله « ماذا خلقوا » سدت مسد مفعوله الثانى .

وجملة : « أرونى » مؤكدة لقوله : ﴿ أرأيتم ﴾ لأنها - أيضا - بمعنى أخبرونى .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين - على سبيل التوبيخ والتأنيب - : أخبرونى عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دول الله - تعالى - ، أى شىء فى الأرض أوجدته هذه الآلهة ؟ إنها قطعا لم تخلق شيئا من الأرض . فالأمر فى قوله ﴿ أرونى ﴾ للتعجيز والتبكيت .

و « أم » فى قوله ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ للإضراب عن أن يكونوا قد خلقوا شيئا ، إلى بيان أنهم لا مشاركة لهم مع الله فى خلق السموات أو الأرض أو غيرهما . فقوله : ﴿ شرك ﴾ بمعنى مشاركة ..

أى : بل ألهم مشاركة من الله - تعالى - فى خلق شىء من السموات ؟ كلا ، لا مشاركة

لهم فى خلق أى شىء ، وإنما الخالق لكل شىء هو الله رب العالمين .

فالاستفهام للتوبيخ والتقريع .

فالمراد من الآية الكريمة نفى استحقاق معبوداتهم لأى لون من ألوان العبادة بأبلغ وجه ، لأن هذه المعبودات لا مدخل لها فى خلق أى شىء لا من العوالم السفلية ولا من العوالم العلوية ، وإنما الكل مخلوق لله - تعالى - وحده .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾[1] .

وبعد أن أفحمهم - سبحانه - من الناحية العقلية ، أتبع ذلك بإفحامهم بالأدلة النقلية ، فقال - تعالى - : ﴿ ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين ﴾ .

والأمر فى قوله - تعالى - ﴿ ائتونى ﴾ للتعجيز والتهكم - أيضا - كما فى قوله : ﴿ أرونى ﴾ .

وقوله : ﴿ أثارة من علم ﴾ أى : بقية من علم يؤثر عن الأولين ، وينسب إليهم .

قال القرطبى : وفى الصحاح : « أو أثارة من علم » أى : بقية منه . وكذلك الأَثَرة - بالتحريك - ويقال : سمنت الإبل على أثارة ، أى : على بقية من شحم كان فيها قبل ذلك ..

والأثارة : مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأَثْر ، وهى الرواية ، يقال : أثرتُ الحديث آثَرُه أَثْرًا وأَثارةً وأُثْرةً فأنا آثِر ، إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قيل : حديث مأثور ، أى نقله الخلف عن السلف[2] .

أى : هاتوا لى - أيها المشركون - كتابا من قبل هذا القرآن يدل على صحة ما أنتم عليه من شرك ، فإن لم تستطيعوا ذلك - ولن تستطيعوا - ، فأتونى ببقية من علم يؤثر عن السابقين ، ويسند إليهم ، ويشهد لكم بصحة ما أنتم فيه من كفر .

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تزعمونه من أنكم على الحق .

وهكذا أخذ عليهم القرآن الحجة ، وألزمهم ببطلان ما هم عليه من ضلال ، بالأدلة العقلية المتمثلة فى شهادة هذا الكون المفتوح ، وبالأدلة النقلية المتمثلة فى أنه لا يوجد عندهم كتاب أو ما يشبه الكتاب . يستندون إليه فى استحقاق تلك المعبودات للعبادة .

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ١٨٢ .

والحق أن هذا الآية الكريمة على رأس الآيات التى تخرس أصحاب الأقوال التى لا دليل على صحتها ، وتعلم الناس مناهج البحث الصحيح الذى يوصلهم إلى الحق والعدل ..

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين قد بلغوا الذروة فى ضلالهم وجهلهم فقال : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ .

أى : لا أحد أشد ضلالا وجهلا من هؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله - تعالى - آلهة ، هذه الآلهة لا تسمع كلامهم ، ولا تعقل نداءهم ، ولا تشعر بعبادتهم لها منذ أن عبدوها ، إلى أن تقوم الساعة .

فإذا ما قامت الساعة ، تحولت هذه الآلهة - بجانب عدم شعورها بشىء إلى عدوة لهؤلاء العابدين لها .

قال بعض العلماء : وفى قوله : ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها . لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى يوم القيامة لا يستجيبون لهم .

فالوجه - والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة ، بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا ، لتفاوت ما بينهما كالشىء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التى جعات غايتها القيامة لاتزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التى فى القيامة زادت على عدم الاستجابة ، بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم [1] .

ثم أكد - سبحانه - عدم إحساس الأصنام بعابديها فقال : ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ .

أى : وهذه الاصنام عن عبادة عابديها غافلة ، لا تدرك شيئا ، ولا تحس بمن حولها .

قال صاحب الكشاف : وإنما قيل « من » و « هم » لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة .

ويجوز أن يريد : كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان [2] .

ثم بين ما يكون بين العابدين والمعبودين من عداوة يوم القيامة فقال : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩٦ .

أى : وإذا جمع الله - تعالى - الناس للحساب والجزاء يوم القيامة ، صار الكفار مع من عبدوهم من دون الله أعداء ، يلعن بعضهم بعضا ، ﴿ وكانوا ﴾ أى : المعبودن ﴿ بعبادتهم ﴾ أى بعبادة الكفرة إياهم ﴿ كافرين ﴾ أى : جاحدين مكذبين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾[٢] .

ثم لقن الله - سبحانه - نبيه - ﷺ - أجوبه أخرى ، ليرد بها على الأقوال الزائفة التى تفوه بها المشركون فقال - تعالى - :

وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

---

(١) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢ .
(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٥ .

وقوله ﴿ تتلى ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة بتمهل وترتيل . أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين ، آياتنا الواضحة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ قال الذين كفروا للحق لما جاءهم ﴾ أى : قالوا للآيات المتلوة عليهم . والتى اشتملت على الحق الذى يهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ هذا سحر مبين ﴾ أى : قالوا : هذا الذى جئتنا به يا محمد سحر واضح ، وتمويه ظاهر .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ قال الذين كفروا للحق لما جاءهم ﴾ : يشعر بأن هؤلاء الجاحدين الجاهلين ، قد بادروا إلى وصف ما جاءهم به الرسول - ﷺ - بأنه سحر ، بدون تفكر أو تأمل أو انتظار .

وفى وصفهم لما جاءهم به الرسول - ﷺ - بأنه سحر ، دليل على عجزهم عن الإتيان بمثله ، أو بسورة من مثله .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من أكاذيبهم فقال : ﴿ أم يقولون افتراه ... ﴾ و « أم » هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، وتفيد الإضراب والانتقال من حكاية أقوالهم الباطلة السابقة . إلى أقوال أخرى أشد منها بطلانا وكذبا . والاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم .

والافتراء : أشنع الكذب . أى : بل أيقول هؤلاء الكافرون لك - أيها الرسول الكريم - إنك إفتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك ؟ .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الرد الذى يخرسهم فقال ﴿ قل إن إفتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - فى الرد على زعمهم أنك افتريت هذا القرآن : إن كنت على سبيل الفرض والتقدير قد افتريته من عند نفسى ، عاقبنى ربى ، ولا تستطيعون أنتم أو غيركم أن تمنعوا عنى شيئا من عذابه وعقابه ، وما دام الأمر كذلك فكيف أفتريه ، وأنا أعلم علم اليقين أن افتراء شىء منه يؤدى إلى عقابى ؟

فجواب « إن » فى قوله : ﴿ إن افتريته ﴾ محذوف ، وتقديره : عاجلنى بالعقوبة ، وقوله : ﴿ فلا تملكون لى من الله شيئا ﴾ قام مقامه .

قال - تعالى - : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[1] .

---

(١) سورة الحاقة الآيتان من ٤٤ ، ٤٧ .

وقوله : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أى : الله - تعالى - الذى زعمتم أنى أفترى عليه الكذب ، هو أعلم منى ومنكم ومن كل المخلوقات ، بما تندفعون فيه من القدح فى آياته ، والإعراض عن دعوته ، وسيجازيكم على ذلك بما تستحقونه من عقاب .

فقوله : ﴿ تفيضون ﴾ من الإفاضة ، وهى الأخذ فى الشىء باندفاع وعنف ، وأصله من فاض الإناء ، إذا سال بشدة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾ ترهيب لهم من الإنسياق فى كفرهم ، وترغيب لهم فى الدخول فى الإيمان لينالوا مغفرة الله - تعالى - ورحمته .

أى : كفى بشهادة الله - تعالى - بينى وبينكم شهادة ، فهو الذى يعلم أنى صادق فيماأبلغه عنه ، ويعلم أنكم الكاذبون فيما تزعمونه ، وهو - سبحانه - الواسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب .

ثم أمره الله - تعالى - أن يبين لهم أن ما جاءهم به من هداية ، قد جاء بها الرسل من قبله لأقوامهم ، وأنه رسول كسائر الرسل السابقين فقال - تعالى - : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل .. ﴾ .

والبدع من كل شىء : أوله ومبدؤه . يقال : فلان بدع فى هذا الأمر ، أى : هو أول فيه دون أن يسبقه فيه سابق ، من الابتداع بمعنى الاختراع .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إنى لست أول رسول أرسله الله - تعالى - إلى الناس ، وإنما سبقنى كثيرون أنتم تعرفون شيئا من أخبارهم ومن أخبار أقوامهم ، ومادام الأمر كذلك فكيف تنكرون نبوتى ، وتشككون فى دعوتى ؟ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين ﴾ بيان لوظيفته - ﷺ - . أى : وإننى وأنا رسول الله لا أعلم ما سيفعله الله - تعالى - بى أو بكم فى المستقبل من أمور الدنيا ، هل سأبقى معكم فى مكة أو سأهاجر منها . وهل سيصيبكم العذاب عاجلا أو آجلا ؟ فإنى ما أفعل معكم ، ولا أقول لكم إلا ما أوحاه الله - تعالى - إلىَّ ، وما أنا إلا نذير مبين ، أوضح لكم الحق من الباطل ، وأُخوِّفكم من سوء المصير ، إذا ما بقيتم على كفركم وشرككم .

فالمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ أى : فى دار الدنيا ، أما بالنسبة للآخرة ، فالله - تعالى - قد بشره وبشر أتباعه بالثواب العظيم فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ . وقوله - سبحانه - : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ أى : فى الدنيا ، أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ؟ أم أقتل كما قتلوا ، ولا أدرى أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ أما فى الآخرة فمعاذ الله ، قد علم أنه فى الجنة .

وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولاشك أن هذا هو اللائق به - ﷺ - ، فإنه بالنسبة للآخرة ، جازم أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر المشركين . أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ؟[1] .

والمتدبر فى هذه الآية الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسمى ألوان الأدب من النبى - ﷺ - مع خالقه - عز وجل - فقد فوّض - ﷺ - أمره إلى خالقه ، وصرح بأنه لا يتبع إلا ما يوحيه إليه سبحانه - وأنه لا علم له بالغيب ، وإنما علم ذلك إلى الله - تعالى - وحده .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - مرة أخرى ، أن يذكرهم بإيمان العقلاء من أهل الكتاب بهذا الدين ، لعلهم عن طريق هذا التذكير يقلعون عن كفرهم وعنادهم فقال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : أخبرونى إن كان هذا الذى أوحاه الله - تعالى - إلىّ من قرآن ، هو من عنده - تعالى - وحده ، والحال أنكم كفرتم به ألستم فى هذه الحالة تكونون ظالمين لأنفسكم وللحق الذى جئتكم به من عند خالقكم ؟ لاشك أنكم فى هذه الحالة تكونون ظالمين جاحدين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ... ﴾ معطوف على ما قبله على سبيل التأكيد لظلمهم .

أى : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، مع أن شاهدا من بنى إسرائيل الذين تثقون بشهادتهم ، قد شهد على مثل القرآن بالصدق . لاتفاق التوراة والقرآن على وحدانية الله - تعالى - وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق .. فآمن هذا الشاهد بالقرآن وبمن جاء به وهو الرسول - ﷺ - واستكبرتم أنتم عن الإيمان ..

ألستم فى هذه الحالة تكونون على رأس الظالمين الجاحدين لكل ما هو حق وصدق ؟!

فجواب الشرط فى الآية محذوف . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ومع ذلك لم تؤمنوا فقد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٦٠ .

كفرتم وظلمتم ، والله - تعالى - لا يهدى القوم الذين من شأنهم استحباب الظلم على العدل ، والعمى على الهدى .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - : جواب الشرط محذوف تقديره . إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ، ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله - تعالى - : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

والشاهد من بنى اسرائيل : عبد الله بن سلام .. وفيه نزل : ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ...﴾ .

والضمير للقرآن .أى : على مثله فى المعنى ، وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك[2] .

وعلى رأى صاحب الكشاف تكون الآية مدنية فى سورة مكية ، لأن إيمان عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - كان بالمدينة ولم يكن بمكة .

ومن المفسرين من يرى أن الآية الكريمة نزلت فى شأن كل من آمن من أهل الكتاب ، وأنها لم تنزل فى عبد الله بن سلام بصفة خاصة ..

قال الإمام ابن كثير : وهذا الشاهد اسم جنس ، يعم عبدالله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام ، وهذه كقوله - تعالى - : ﴿ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ .

قال مسروق والشعبى : ليس بعبد الله بن سلام . هذه الآية مكية ، وإسلامه كان بالمدينة ..

وقال مالك عن أبى النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله - ﷺ - يقول لأحد يمشى على الأرض : « إنه من أهل الجنة » إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ﴾ .. وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ..[3] .

وعلى أية حال فالمقصود من الآية الكريمة إثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ،

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٦٢ .

وأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأن العقلاء من أهل الكتاب قد شهدوا بذلك ، وآمنوا بالنبى - ﷺ - ، فكان من الواجب على المشركين - لو كانوا يعقلون - أن يقلعوا عن عنادهم ، وأن يتبعوا الحق الذى جاءهم به النبى - ﷺ - .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأعذار الفاسدة ، التى اعتذر بها الكافرون عن عدم دخولهم فى الإسلام ، ورد عليهم بما يكبتهم ، وبشر المؤمنين الصادقين بما يشرح صدورهم فقال :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا .. ﴾ روايات منها : أن مشركى مكة حين رأوا أن أكثر المؤمنين من الفقراء ، كعمار ، وبلال ، وعبدالله بن مسعود .. قالوا ذلك .

وسبب قولهم هذا ، اعتقادهم الباطل ، أنهم هم الذين لهم عند الله العظمة والجاه والسبق إلى كل مكرمة ، لأنهم هم أصحاب المال والسلطان ، أما أولئك الفقراء فلا خير فيهم ، ولا سبق لهم إلى خير ..

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا - على سبيل السخرية والاستخفاف بهم - ، لو كان هذا الذى أنتم عليه من الإيمان بما جاء به محمد - ﷺ - حقا وخيرا ، لما سبقتمونا إليه ، ولما سبقنا إليه غيركم من المؤمنين لأننا نحن العظماء الأغنياء .. وأنتم الضعفاء الفقراء ..

فهم - لانطماس بصائرهم وغرورهم - توهموا أنهم لغناهم وجاههم هم المستحقون للسبق

إلى كل خير ، وأن غيرهم من الفقراء لا يعقل ما يعقلونه ، ولا يفهم ما يفهمونه ..

ومن الآيات الكريمة التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا .. ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ تعجيب من غرورهم وعنادهم ، ورميهم الحق بما هو برىء منه .

و « إذ » ظرف لكلام محذوف دل عليه الكلام ، أى : وإذ لم يهتدوا بما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه ، ظهر عنادهم واستكبارهم وقالوا هذا القرآن كذب قديم من أخبار السابقين ، نسبه محمد - ﷺ - إلى ربه .

وشبيه بهذا الآية . قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .. ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن هو المهيمن على الكتب السماوية التى سبقته فقال - تعالى - : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة .. ﴾ .

أى : ومن قبل هذا القرآن الذى أنزلناه على نبينا محمد - ﷺ - كان كتاب موسى وهو التوراة ﴿ إماما ﴾ يهتدى به فى الدين ﴿ ورحمة ﴾ من الله - تعالى - لمن آمن به .

وقوله : ﴿ ومن قبله ﴾ خبر مقدم ، و﴿ كتاب موسى ﴾ مبتدأ مؤخر ، وقوله : ﴿ إماما ورحمة ﴾ حالان من ﴿ كتاب موسى ﴾ ..

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، الرد على قولهم فى القرآن ﴿ هذا إفك قديم ﴾ فكأنه - تعالى - يقول لهم : كيف تصفون القرآن بذلك ، مع أنه قد سبقه كتاب موسى الذى تعرفونه ، والذى وافق القرآن فى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وفى غير ذلك من أصول الشرائع ..

ثم مدح - سبحانه - هذا القرآن بقوله : ﴿ وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

أى : وهذا القرآن الذى أنزلناه على نبيا محمد - ﷺ - مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ، ومصدق لغيره من الكتب السماوية السابقة وأمين عليها ،وقد أنزلناه بلسان عربى مبين ، امتنانا منا على من بعث الرسول - ﷺ - فيهم وهم العرب .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٥ .

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من وظيفة هذا الكتاب : الإنذار للظالمين بسوء المصير إذا ما أصروا على ظلمهم ، والبشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم وإحسانهم .

فاسم الاشارة فى قوله : ﴿ وهذا ﴾ يعود للقرآن الكريم ، وقوله مصدق صفة لكتاب .

وقوله ﴿ لسانا عربيا ﴾ حال من الضمير فى « مصدق » الذى هو صفة للكتاب والضمير فى « لينذر » يعود إلى الكتاب ، و « الذين ظلموا » مفعوله . أى : لينذر الكتاب الذين ظلموا ، وقوله : ﴿ وبشرى للمحسنين ﴾ فى محل نصب عطفا على محل « لينذر » .

وقال - سبحانه - فى صفة هذا الكتاب ﴿ مصدق لسانا عربيا ﴾ ولم يقل : مصدق لكتاب موسى ، للتنبية على أنه مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب السماوية السابقة .

والتعبير بقوله ﴿ لسانا عربيا ﴾ فيه تكريم للعرب ، وتذكير لهم بنعمة الله عليهم ، حيث جعل القرآن الذى هو أجمع الكتب السماوية للهدايات والخيرات بلسانهم ، وهذا يقتضى إيمانهم به ، وحرصهم على اتباع إرشاداته .

وقوله - تعالى - : ﴿ لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ بيان لوظيفة هذا الكتاب ، وتحديد لمصير كل فريق ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من من حى عن بينه .

ثم فصل - سبحانه - ما أعده للمحسنين من جزيل الثواب فقال : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ...﴾ أى : قالوا ذلك بألسنتهم ، وصدقت هذا القول قلوبهم ﴿ ثم استقاموا ﴾ بعد ذلك على صراط الله المستقيم ، بأن فعلوا بإخلاص وطاعة كل ما أمرهم - سبحانه - بفعله ، واجتنبوا بقوة كل ما أمرهم بإجتنابه ، وقوله : ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ خبر « إن » ، وجىء بالفاء فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط .

أى : إن الذين قالوا ذلك ، ثم استقاموا وثبتوا على طاعتنا فلا خوف عليهم من لحوق مكروه بهم ، ولا هم يحزنون بسبب فوات محبوب لديهم ، وإنما هم فى سعادة مستمرة ، وفى سرور دائم ، لا يعكره خوف من مستقبل مجهول ، ولا حزن على أمر قد مضى .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الإيمان والاستقامة ، هم ﴿ أصحاب الجنة خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا . ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى : يجزون هذا الجزاء الطيب بسبب أعمالهم الصالحة ، التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

وبعد هذا الحديث عن حقيقة هذا الدين ، وعن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم

استقاموا ، جاء الحديث عن وجوب الإحسان إلى الوالدين وعما يترتب عليه هذا الإحسان من ثواب عظيم ، قال - تعالى - :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى
ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

قال الإمام ابن كثير : لما ذكر - تعالى - فى الآية الأولى التوحيد له ، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف ، بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن ، كقوله : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ وقال : : ﴿أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ... ﴾ من الإيصاء بالشىء بمعنى الأمر به . قال - تعالى - : ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾ أى : أمرنى بالمحافظة على أدائها ..

وقوله : ﴿ إحسانا ﴾ قراءة عاصم وحمزة والكسائى . وقرأ غيرهم من بقية السبعة ﴿ حسنا ﴾ وعلى القراءتين فانتصابها على المصدرية . أى : ووصينا الإنسان وأمرناه بأن يحسن إلى والديه إحسانا أو حسنا ، بأن يقدم إليهما كل ما يؤدى إلى برهما وإكرامهما .

ويصح أن يكون وصينا بمعنى ألزمنا ، فيتعدى لاثنين ، فيكون المفعول الثانى منها ، قوله : ﴿ إحسانا ﴾ أو ﴿ حسنا ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٦٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ تعليل للإيصاء المذكور ولفظ ﴿ كرها ﴾ قرئ بضم الكاف وفتحها ، وهما قراءتان سبعيتان ، قالوا : ومعناهما واحد كالضعف - بتشديد الضاد وفتحها أو ضمها - فهما لغتان بمعنى واحد .

وهذا اللفظ منصوب على الحال من الفاعل . أى : حملته أمه ذات كره . ووضعته ذات كره ، أو هو صفة لمصدر مقدر ، أى : حملته حملا ذا كره ، ووضعته كذلك .

ولاشك فى أن الأم تعانى فى أثناء حملها ووضعها لوليدها ، الكثير من المشاق والآلام والمتاعب .. فكان من الوفاء أن يقابل ذلك منها بالإحسان والإكرام .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن .. ﴾[١] .

أى : حملته أمه ضعفا على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم فى بطنها ، ازداد ضعفها ..

وقوله - تعالى - : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ بيان لمدة الحمل والفطام ، والكلام على حذف مضاف . والفصال : مصدر فاصل ، وهو بمعنى الفطام ، وسمى الفطام فصالا ، لأن الطفل ينفصل عن ثدى أمه فى نهاية الرضاع .

أى : ومدة حمل الطفل مع مدة فصاله عن ثدى أمه ، ثلاثون شهرا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المراد بيان مدة الرضاع لا الفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال .. قلت : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهى به ويتم ، سمى فصالا .. وفيه فائدة ، وهى الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته ..[٢] .

وقال الشوكانى : وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن مدة الرضاع سنتان ، أى : مدة الرضاع الكامل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ فذكر - سبحانه - فى هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع .

وفى هذه الآية إشارة الى أن حق الأم ، آكد من حق الأب ، لأنها هى التى حملت وليدها بمشقة ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ..[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى .. ﴾ غاية لمحذوف يفهم من سياق الكلام .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٠٢ .
(٣) راجع تفسير الشوكانى جـ ٥ ص ١٨ .

والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار ، إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ، ولا واحد له من لفظه .

والمراد ببلوغ أشده : أن يصل سنه على الراجح - إلى ثلاث وثلاثين سنة .

وقوله : ﴿ أوزعنى ﴾ أى : رغبنى ووفقنى ، من قولك : أوزعت فلانا بكذا ، إذا أغريته وحببته فى فعله . أى : أن هذا الإنسان بعد أن بقى فى بطن أمه ما بقى ، وبعد أن وضعته وأرضعته وفطمته وتولته برعايتها ، واستمرت حياته « حتى إذا بلغ أشده » أى : حتى إذا بلغ زمن استكمال قوته ، وبلغ أربعين سنة وهى تمام اكتمال العقل والقوة والفتوة .

﴿ قال ﴾ على سبيل الشكر لخالقه ﴿ رب أوزعنى ... ﴾ أى : يارب وفقنى وألهمنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ بأن وفقتنى ووفقتهما إلى صراطك المستقيم ، وبأن رزقتهما العطف علىَّ ، ورزقتنى الشكر لهما ، ووفقنى - أيضا - ﴿ أن أعمل عملا صالحا ترضاه ﴾ منى ، وتقبله عندك ﴿ وأصلح لى فى ذريتى ﴾ أى : واجعل - يا إلهى - الصلاح راسخا فى ذريتى ، وساريا فيها ، لأن صلاح الذرية فيه السعادة الغامرة للآباء .

﴿ إنى تبت إليك ﴾ توبة صادقة نصوحا وإنى من المسلمين الذين أخلصوا نفوسهم لطاعتك ، وقلوبهم لمرضاتك .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد اشتملت على أسمى ألوان الدعوات ، التى عن طريق إجابتها تتحقق السعادة الدنيوية والأخروية .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى « فى » فى قوله : ﴿ وأصلح لى فى ذريتى ﴾ ؟ قلت : معناه أن يجعل ذريته موقعا للصلاح ومظنته ، كأنه قال : هب لى الصلاح فى ذريتى ، وأوقعه فيهم .[1] .

وفى الآية الكريمة : تنبيه للعقلاء ، إلى أن شأنهم - خصوصا عند بلوغ سن الأربعين . أن يكثروا من التضرع إلى الله بالدعاء ، وأن يتزودوا بالعمل الصالح ، فإنها السن التى بعث الله - تعالى - فيها معظم الأنبياء ، والتى فيها يكتمل العقل ، وتستجمع القوة ، ويرسخ فيها خلق الإنسان الذى تعوده وألفه ورحم الله القائل :

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر
فدعه ، ولا تنفس عليه الذى مضى وإن جر أسباب الحياة له العمر

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٠٢ .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة من يسلك هذا الطريق القويم فقال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا .. ﴾ .

واسم الإشارة يعود إلى الإنسان باعتبار الجنس . أى : أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الجميلة ، هم ﴿ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ من الأعمال الطيبة المتقبلة عندنا .. ﴿ ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ فلا نعاقبهم عليها ، لكثرة توبتهم إلينا .. بل نجعلهم ﴿ فى ﴾ عداد ﴿ أصحاب الجنة ﴾ الخالدين فيها ، والمتنعمين بخيراتها .

فالجار والمجرور فى قوله ﴿ أصحاب الجنة ﴾ فى محل نصب على الحال ، على سبيل التشريف والتكريم ، كما تقول : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى : حالة كونى معدودا من أصحابه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ تذييل مؤكد لما قبله . ولفظ ﴿ وعد ﴾ مصدر لفعل مقدر . أى : وعدهم الله - تعالى - وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسنة الرسل فى الدنيا .

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأسلم أبواه وأولاده جميعا ..[1] .

وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الصورة الوضيئة لأصحاب الجنة ، أتبع ذلك ببيان صورة سيئة لنوع آخر من الناس ، فقال - تعالى - :

وَٱلَّذِى قَالَ
لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ١٩٤ .

خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ
بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

والاسم الموصول فى قوله - تعالى - : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما .. ﴾ بمعنى الذين ، وهو مبتدأ وخبره قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول .. ﴾ وهذا صريح فى أن المراد بقوله : ﴿ والذى ﴾ العموم وليس الإفراد ، وهذا يدل - أيضا - على فساد قول من قال إن الآية نزلت فى شأن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - ، والصحيح أنها فى حق كل كافر عاق لوالديه ، منكر للبعث .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا عام فى كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقوله ضعيف ، لأن عبد الرحمن أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه .

أخرج البخارى عن يوسف بن مَاهَك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه .

فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا .. فقال مروان : إن هذا الذى أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما .. ﴾ .

فقالت عائشة من وراء حجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . وفى رواية للنسائى أنها قالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته ..[1] .

ولفظ « أف » : اسم صوت ينبىء عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر .
والمقصود به هنا : إظهار الملل والتأفف والكراهية لما يقوله أبواه من نصح له .
وقوله : ﴿ أتعداننى ﴾ فعل مضارع من وعد الماضى ، وحذف واوه فى المضارع مطرد .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٦٦ والآلوسى جـ ٢٦ص ٢٠ .

والنون الأولى نوع الرفع ، والثانية نون الوقاية .

وقوله : ﴿ أن أخرج ﴾ : أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر هو المفعول الثانى لقوله : ﴿ أتعداننى ﴾ . أى : والذى قال لوالديه - على سبيل الإنكار والإعراض عن نصحهما - ﴿ أف لكما ﴾ أى : أقول بعدا وكرها لقولكما ، أو إنى متضجر من قولكما .

﴿ أتعداننى أن أخرج ﴾ أى : أتعداننى الخروج من قبرى بعد أن أموت ، لكى أبعث وأحاسب على عملى ، والحال أنه ﴿ قد خلت ﴾ أى : مضت ﴿ القرون ﴾ الكثيرة ﴿ من قبلى ﴾ دون أن يخرج أحد منهم من قبره ، ودون أن يرجع بعد أن مات .

فالآية الكريمة تصور بوضوح ما كان عليه هذا الإنسان ، من سوء أدب مع أبويه ، ومن إنكار صريح للبعث والحساب والجزاء .

ثم حكى - سبحانه - مارد به الأبوان فقال : ﴿ وهما يستغيثان الله ويلك آمن ، إن وعد الله حق ... ﴾ .

وقوله : ﴿ يستغيثان الله ﴾ أى : يلتمسان غوثه وعونه فى هداية هذا الإنسان إلى الصراط المستقيم ، والجملة فى محل نصب على الحال .

ولفظ « ويلك » فى الأصل ، يقال فى الدعاء على شخص بالهلاك والتهديد . والمراد به هنا : حض المخاطب على الإيمان والطاعة لله رب العالمين .

أى : هذا هو حال الإنسان العاق الجاحد ، أما حال أبواه ، فإنهما يفزعان لما قاله وترتعش أفئدتهما لهذا التطاول والصدود عن الحق ، فيلجآن إلى الله ، ويلتمسان منه - سبحانه - الهداية لابنهما ، ويحضان هذا الابن على الإيمان بوحدانية الله - تعالى - ، وبالبعث والحساب والجزاء ، فيقولان له : ﴿ ويلك آمن إن وعد الله حق ﴾ ولا خلف فيه ، ولا راد له ..

والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة يراها تصور لهفة الوالدين على إيمان ولدهما أكمل تصوير ، فهما يلتمسان من الله له الهداية ، ثم يهتفان بهذا الابن العاق بفزع أن يترك هذا الجحود ، وأن يبادر إلى الإيمان بالحق ..

ولكن الابن العاق يصر على كفره ، ويلج فى جحوده : ﴿ فيقول ﴾ فى الرد على أبويه ﴿ ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . أى : ما هذا الذى تعداننى إياه من البعث والحساب والجزاء .. إلا أباطيل الأولين وخرافاتهم التى سطروها فى كتبهم .

فالأساطير : جمع أسطورة ، وهى ما سجله الأقدمون فى كتبهم من خرافات وأكاذيب .

وقوله : ﴿ أولئك .. ﴾ اسم الإشارة هذا يعود إلى العاقين المكذبين بالبعث والجزاء المذكورين فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما .. ﴾ .

أى : أولئك القائلون ذلك ، هم ﴿ الذين حق عليهم القول ﴾ أى : وجب عليهم العذاب الذى حكم به - سبحانه - على أمثالهم فى قوله - تعالى - لإبليس ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ كما يفيده قوله - سبحانه - بعد ذلك . ﴿ فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ . أى : أولئك الذين وجب عليهم العذاب ، حالة كونهم مندرجين فى أمم قد مضت من قبلهم من طائفة الجن ومن طائفة الإنس ﴿ إنهم ﴾ جميعا ﴿ كانوا خاسرين ﴾ لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدالته فى حكمه بين عباده فقال : ﴿ ولكل درجات مما عملوا . وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

والتنوين فى قوله ﴿ ولكل ﴾ عوض عن المضاف إليه المحذوف ، والجار والمجرور فى قوله ﴿ مما عملوا ﴾ صفة لقوله ﴿ درجات ﴾ ، و﴿ من ﴾ بيانية ، و﴿ ما ﴾ موصولة .

وقوله : ﴿ وليوفيهم أعمالهم ﴾ علة لمحذوف .. والمعنى : ولكل فريق من الفريقين : فريق المؤمنين المعبر عنهم بقوله : - تعالى - : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ... ﴾ وفريق الكافرين المعبر عنهم بقوله - تعالى - : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول .. ﴾ . لكل فريق من هؤلاء وهؤلاء ﴿ درجات ﴾ حاصلة من الذى عملوه من الخير والشر ، وقد فعل - سبحانه - ذلك معهم ، ليوفيهم جزاء أعمالهم .

﴿ وهم ﴾ جميعا ﴿ لا يظلمون ﴾ شيئا ، بل كل فريق منهم يجازى على حسب عمله . كما قال - تعالى - : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حال سيئة فقال : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا .. ﴾ .

والظرف متعلق بمحذوف تقديره : اذكر . وقوله ﴿ يعرض ﴾ من العرض بمعنى الوقوف على الشيء ، وتلقى ما يترتب على هذا الوقوف على هذا الشيء من خير أو شر .

والمراد بالعرض على النار هنا : مباشرة عذابها ، وإلقائهم فيها ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هذا بالحق ، قالوا : بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ . أى : يعذبون بها ، من قولهم : عُرِض بنو فلان على السيف ، إذا قتلوا به ، وهو مجاز شائع ..[1] .

وقوله : ﴿ أذهبتم .. الخ ﴾ مقول لقول محذوف . وهذا اللفظ قرأه ابن كثير وابن عامر ﴿ أأذهبتم ﴾ بهمزتين على الاستفهام الذى هو للتقريع والتوبيخ ، وقرأه الجمهور ﴿ أذهبتم ﴾ بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، يوم يقف الذين كفروا على النار ، فيرون سعيرها ثم يلقون فيها ، ويقال لهم - على سبيل الزجر والتأنيب - ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ أى : ضيعتم وأتلفتم الطيبات التى أنعم الله بها عليكم فى حياتكم الدنيا ، حيث ﴿ استمتعتم بها ﴾ استمتاعا دنيويا دون أن تدخروا للآخرة منها شيئا ..

﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى : تجزون عذاب الهون والخزى والذل .

﴿ بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ أى : بسبب استكباركم فى الأرض بغير الحق ..

﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ أى : وبسبب خروجكم فى الدنيا عن طاعة الله - تعالى - ، وعن هدى أنبيائه .

وقيد - سبحانه - استكبارهم فى الأرض بكونه بغير الحق ، ليسجل عليهم هذه الرذيلة ، وليبين أنهم قوم دينهم التكبر والغرور وإيثار اتباع الباطل على الحق .

قال الجمل : والحاصل أنه - تعالى - علل ذلك العذاب بأمرين :

أحدهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب .

والثانى : الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثانى ، لأن أحوال القلب أعظم وقعا من أعمال الجوارح[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مصارع الغابرين الذين كانوا أشد قوة وأكثر جمعا من مشركى قريش ، لكى يعتبروا بهم ، ويقلعوا عن كفرهم ، حتى لا يكون مصيرهم كمصير من سبقوهم فى الكفر والطغيان ، فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٢٢ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٣٢ .

۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ
مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ
شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

والمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ أخا عاد ﴾ : هود - عليه السلام - فقد أرسله الله - تعالى - إلى قبيلة عاد ، ليأمرهم بعبادة الله - تعالى - ، وكانوا قوما جبارين ، فلم يستمعوا إلى نصحه ، فكانت عاقبتهم الهلاك والتدمير .

وقد وردت قصته معهم فى سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة الحاقة ..

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين ، إذ أنذر قومه بالأحقاف ، والأحقاف : ديار عاد .. وهى جمع حقف - بكسر الحاء - ، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ، ولم يبلغ أن يكون جبلا ..[1] .

ويغلب على الظن أن مساكنهم كانت على مرتفعات من الأرض فى شمال حضر موت ، وعلى مقربة من المكان الذى يسمى الآن بالرُّبْع الخالى غربى عُمَان ..

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليعتبروا ويتعظوا قصة هود - عليه السلام - وقت أن أنذر قومه ، وهم يعيشون بتلك الأماكن المرتفعة المسماة بالأحقاف .

وقوله : ﴿ وقد خلت الرسل من بين يديه ومن خلفه ﴾ جملة حالية فى محل نصب .

أى : جاء هود إلى قومه فأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وخوفهم من سوء عاقبة مخالفته ، والحال أنه قد أخبرهم بأن الرسل الذين سبقوه ، والذين يأتون من بعده ، كليهم قد بعثهم الله - تعالى - لهداية أقوامهم ، ولعبادته - سبحانه - وحده .

فالنذر : جمع نذير ، والمراد بهم الرسل الذين يخوفون أقوامهم من سوء عاقبة الإشراك مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

والمراد بقوله : ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ الرسل السابقون عليه ، والمتأخرون عنه .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من نصائح هود لقومه فقال : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

أى : أنذرهم قائلا لهم : إنى أحذركم من عبادة أحد سوى الله - تعالى - وآمركم بإخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، لأنى أخاف عليكم عذاب يوم هائل عظيم ، وهو يوم القيامة ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

فأنت ترى أن هودا - عليه السلام - بجانب أنه قد أمر قومه بما يسعدهم ، فإنه قد بين لهم - أيضا - أنه ما حمله على هذا الأمر إلا خوفه عليهم ، وحرصه على نجاتهم من عذاب يوم القيامة .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٠٣ .

ولكن قومه لم يقابلوا ذلك بالطاعة والإذعان ، بل قابلوا دعوة نبيهم لهم بالإعراض والاستخفاف ، وقد حكى القرآن ذلك بقوله : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ . أى : قال قوم هود له - على سبيل الإنكار والسفاهة - أجئتنا بهذه الدعوة ﴿ لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أى : لتصرفنا وتبعدنا عن عبادة آلهتنا التى ألفنا عبادتها يقال : أَفَك فلان فلانا عن الشىء ، إذا صرفه عنه .

ثم أضافوا إلى هذا الإنكار ، إنكارا آخر مصحوبا بالتحدى والاستهزاء فقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ . أى : إن كان الأمر كما تقول فأتنا بما تعدنا به من العذاب العظيم ، ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فيما أخبرتنا به .

وهكذا نلمس فى ردهم سوء الظن ، وعدم الفهم ، واستعجال العذاب ، والإصرار على الباطل الذى ألفوه ..

ولكن هودا - عليه السلام - قابل كل هذه الجهالات بالحلم والأناة ، فرد عليهم بقوله : ﴿ قال إنما العلم عند الله ... ﴾ . أى : قال لهم : إنما علم وقت نزول العذاب بكم عند الله - تعالى - وحده ، ولا مدخل لى فى ذلك .

وإنما أنا ﴿ أبلغكم ما أرسلت به ﴾ إليكم من ربى وربكم ، وتلك هى وظيفتى .

ثم عقب على هذا الرد بما يدل على حمقهم وغبائهم فقال : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ .

أى : أنا لا علم لى بوقت نزول العذاب عليكم ، لأن رسالتى محصورة فى التبليغ والإنذار ..

وهذا كان يجب أن يكون مفهوما لديكم لوضوحه .. ولكنى أراكم قوما تجهلون ما هو واضح ، وتنكرون ما هو حق ، وتصرون على ما هو باطل ، وتطالبوننى بما لا أملكه .

ثم يجمل السياق بعد ذلك ما كان بين هود وقومه من جدال طويل ، ليصل إلى العذاب الذى استعجلوه فيقول : ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ...﴾ والفاء فى قوله ﴿ فلما رأوه ... ﴾ فصيحة .

والضمير فى قوله ﴿ رأوه ﴾ يعود إلى ﴿ ما ﴾ فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ والمراد به العذاب .

قال الشوكانى : الضمير فى « رأوه » يرجع إلى « ما » فى قوله ﴿ بما تعدنا ﴾ . وقال المبرد والزجاج : الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير مذكور ، وبينه قوله ﴿ عارضا ﴾ ، فالضمير يعود إلى السحاب . أى : فلما رأوا السحاب عارضا ، فعارضا نصب على التكرير ، أى :

التفسير . وسمى السحاب عارضا لأنه يبدو فى عرض السماء . قال الجوهرى : العارض : السحاب يعترض فى الأفق ..[١] .

والمعنى : وأتى العذاب الذى استعجله قوم هود إليهم ، فلما رأوه بأعينهم ، متمثلا فى سحاب يظهر فى أفق السماء ، ومتجها نحو أوديتهم ومساكنهم .

﴿ قالوا ﴾ وهم يجهلون أنه العذاب الذى استعجلوه ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ أى : هذا سحاب ننتظر من ورائه المطر الذى ينفعنا ..

قيل : إنما حبس عنهم المطر لفترة طويلة ، فلما رأوا السحاب فى أفق السماء ، استبشروا وفرحوا وقالوا : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ .

وهنا جاءهم الرد على لسان هود بأمر ربه ، فقال لهم : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ...﴾ .

أى : قال لهم هود - عليه السلام - ليس الأمر كما توقعتم من أن هذا العارض سحاب تنزل منه الأمطار عليكم ، بل الحق أن هذا العارض هو العذاب الذى استعجلتم نزوله ، وهو يتمثل فى ريح عظيمة تحمل العذاب المهلك الأليم لكم .

فقوله : ﴿ ريح ﴾ يصح أن يكون بدلا من « ما » أو من « هو » فى قوله ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ كما يصح أن يكون خبر المبتدأ محذوف ، وجملة ﴿ فيها عذاب أليم ﴾ صفة لقوله : ﴿ ريح ﴾ .

ثم وصف - سبحانه - هذا الريح بصفة أخرى فقال : ﴿ تدمر كل شىء بأمر ربها .. ﴾ . أى : هذه الريح التى أرسلها الله - تعالى - عليهم ، من صفاتها أنها تدمر وتهلك كل شىء مرت به يتعلق بهؤلاء الظالمين من نفس أو مال أو غيرهما ..

والتعبير بقوله : ﴿ بأمر ربها ﴾ لبيان أنها لم تأتهم من ذاتها ، وإنما أتتهم بأمر الله - تعالى - وبقضائه وبمشيئته .

والفاء فى قوله : ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ فصيحة - أيضا - . أى : هذه الريح أرسلناها عليهم فدمرتهم ، فصار الناظر إليهم لا يرى شيئا من آثارهم سوى مساكنهم ، لتكون هذه المساكن عبرة لغيرهم .

قال الجمل : وقوله : ﴿ لا يرى إلا مساكنهم ﴾ قرأ حمزة وعاصم ﴿ لا يُرى ﴾ بضم الياء

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢٣ .

على البناء للمفعول ، ومساكنهم بالرفع لقيامه مقام الفاعل . والباقون من السبعة بفتح تاء الخطاب ، - على البناء للفاعل - و ﴿ مساكنهم ﴾ بالنصب على أنه مفعول به ..»[1] .

وقوله : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ أى : مثل ذلك الجزاء المهلك المدمر ، نجازى القوم الذين من دأبهم الإجرام والطغيان .

وهكذا طوى - سبحانه - صفحة أولئك الظالمين من قوم هود - عليه السلام - وما ظلمهم - سبحانه - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ولم تكتف السورة الكريمة بعرض مصارع هؤلاء المجرمين ، الذين لا يخفى أمرهم على المشركين المعاصرين للنبى - ﷺ - بل أخذت فى تذكير هؤلاء المشركين ، بما يحملهم على الزيادة من العظة والعبرة لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ .

و « ما » فى قوله : ﴿ فيما إن مكناكم فيه ﴾ موصولة . و « إن » نافية . أى : والله لقد مكنا قوم هود وغيرهم من الأقوام السابقين عليكم - يا أهل مكة - فى الذى لم نمكنكم فيه ، بأن جعلناهم أشد منكم قوة ، وأكثر جمعا ، وأعطيناهم من فضلنا أسماعا وأبصارا وأفئدة .

فالمقصود من الآية بيان أن المشركين السابقين ، أعطاهم الله - تعالى - من الأموال والأولاد والقوة .. أكثر مما أعطى الكافرين المعاصرين للنبى - ﷺ - .

ولكن هؤلاء الطغاة السابقين لما لم يشكروا الله - تعالى - على نعمه كانت عاقبتهم الهلاك ، كما يدل عليه قوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء .. ﴾ . أى : أعطيناهم من النعم ما لم نعطكم يا أهل مكة ، ولكنهم لما لم يشكرونا على نعمنا ، ولم يستعملوها فى طاعتنا ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، دون أن تنفعهم شيئا أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، حين نزل بهم عذابنا ، بل كل ما بين أيديهم من قوة ومن نعم ذهب أدراج الرياح وصار معهم هباء منثورا .

و « من » فى قوله : ﴿ من شىء ﴾ لتأكيد عدم الإغناء . أى : ماأغنت عنهم شيئا حتى ولو كان هذا الشىء فى غاية القلة والحقارة .

ثم بين - سبحانه - أن ما أصابهم من دمار كان بسبب جحودهم للحق واستهزائهم به ، فقال : ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٣٤ .

أى : هذا الهلاك والدمار الذى حاق بهم ، كان بسبب جحودهم لآيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ، واستهزائهم بما جاءهم به رسلهم من الحق .

ومن الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المعنى ، قوله - تعالى - : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[2] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التذكير والتخويف للمشركين ، تذكيرا وتخويفا آخر ، فقال : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ أى : والله لقد أهلكنا ما حولكم ياأهل مكة من القرى الظالمة ، كقوم هود وصالح وغيرهم .

﴿ وصرفنا الآيات ﴾ أى : كررناها ونوعناها بأساليب مختلفة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما كانوا عليه من الشرك والفجور ، ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا فيه من ضلال وبغى ، فدمرناهم تدميرا ..

﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾ أى : فهلا نصرهم ومنعهم من الهلاك . هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من دون الله قربانا يتقربون بهم إليه - سبحانه - كما قالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

« فلولا » هنا حرف تحضيض بمعنى « هلا » والمفعول الأول لاتخذوا محذوف أى : الذين اتخذوهم ، و ﴿ آلهة ﴾ هو المفعول الثانى ، و « قربانا » حال . وهو كل ما يتقرب به إلى الله - تعالى - من طاعة أو نسك . والجمع قرابين .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ إضراب انتقالى عن نفى النصرة إلى ما هو أشد من ذلك .

أى : أن هؤلاء الآلهة لم يكتفوا بعدم نصر أولئك الكافرين ، بل غابوا عنهم وتركوهم وحدهم ، ولم يحضروا إليهم .. وذلك الغياب الذى حدث من آلهتهم عنهم . مظهر من مظاهر كذب هؤلاء الكافرين وافترائهم على الحق فى الدنيا ، حيث زعموا أن هذه الآلهة الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... ﴾ وها هم اليوم لا يرون آلهتهم ، ولا يجدون لهم شيئا من النفع .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٨ .
(٢) سورة غافر الآية ٨٢ .

وبعد هذا التذكير والوعيد للكافرين ، بيَّن - سبحانه - جانبا من مظاهر تكريمه لنبيه - ﷺ - حيث أرسل له نفرا من الجن ، يستمعون القرآن ، ويؤمنون به، فقال - تعالى - :

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن ... ﴾ هذا توبيخ لمشركى قريش . أى : أن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرون على الكفر ..

قال المفسرون : لما مات أبو طالب ، خرج النبى - ﷺ - إلى الطائف ، يلتمس من أهلها النصرة ، ويدعوهم إلى الإيمان ... أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به ..

فانصرف - ﷺ - عنهم ، حتى إذا كان ببطن نخلة - وهو موضع بين مكة والطائف - قام يصلى من الليل ، فمر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب الشام - فاستمعوا إليه وقالوا : أنصتوا ..[1] .

وهناك روايات أخرى كثيرة فى عددهؤلاء الجن ، وفى الأماكن التى التقوا فيها مع النبى

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢١٠ .

- ﷺ - وفيما قرأ الرسول - ﷺ - عليهم ، وفيمن كان مع النبى - ﷺ - خلال التقائه بهم ..."[1] .

ويبدو لنا من مجموع هذه الروايات أن لقاء النبى - ﷺ - بالجن قد تعدد ، وأن هذه الآيات تحكى لقاء معينا ، وسورة الجن تحكى لقاء آخر .

قال الآلوسى : وقد أخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن الحبر ، أى : عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله - ﷺ - مرتين .

وذكر الخفاجى أنه قد دلت الأحاديث ، على أن وفادة الجن كانت ست مرات ، ويجمع بذلك اختلاف الروايات فى عددهم ، وفى غير ذلك[2] .

و « النفر » على المشهور - ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال وهو مأخوذ من النفير ، لأن الرجل إذا حزبه أمر نفر بعض الناس الذين يهتمون بأمره لإغاثته .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ، وقت أن صرفنا إليك ، ووجهنا نحوك ، نفراً من الجن ، يستمعون القرآن منك .

﴿فلما حضروه﴾ أى : فحين حضروا القرآن عند تلاوته منك ، أو فحين حضروا مجلسك ﴿ قالوا ﴾ على سبيل التناصح - ﴿ أنصتوا ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : اسكتوا لأجل أن نستمع إلى هذا القرآن ، وهذا يدل على سمو أدبهم وحرصهم على تلقى العلم .

﴿ فلما قضى ﴾ أى : فحين انتهى الرسول - ﷺ - من قراءته .

﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ أى : انصرفوا إلى قومهم ليخوفوهم من عذاب الله - تعالى - إذا ما عصوه أو خالفوا أمره - سبحانه - .

﴿ قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ... ﴾ أى : وبعد أن انصرفوا إلى قومهم منذرين ، ووصلوا إليهم . قالوا لهم : ياقومنا إنا سمعنا كتابا عظيم الشأن ، جليل القدر ، أنزل من بعد نبى الله - تعالى - موسى - عليه السلام - .

وهذا الكتاب ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى : مصدقا لما قبله من الكتب وهو - أيضا - ﴿ يهدى إلى الحق ﴾ الذى لا يحوم حوله الباطل ، ويهدى - أيضا - ﴿ إلى طريق مستقيم ﴾ أى : إلى طريق قويم واضح يصل بأتباعه إلى السعادة .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ ذكروه دون عيسى - عليهما السلام -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة دار الشعب .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٣٠ .

لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين ، ولأن الكتاب المنزل عليه أجل الكتب قبل القرآن ، وكان عيسى مأمورا بالعمل بمعظم ما فيه أو بكله .

وقال عطاء : لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا القول يحتاج إلى نقل صحيح .

وعن ابن عباس : أن الجن لم تكن سمعت بعيسى ، فلذا قالوا ذلك . وفى هذا القول بُعْدٌ ، فإن اشتهار أمر عيسى، وانتشار أمر دينه ، أظهر من أن يخفى ، لاسيما على الجن ، ومن هنا قال أبو حيان : إن هذا لا يصح عن ابن عباس[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على إيمانهم بما سمعوه فقال : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله ... ﴾ .

أى : وقالوا لقومهم - أيضا - : ياقومنا أجيبوا داعى الله الذى دعاكم الى الحق وإلى طريق مستقيم . ﴿ وآمنوا به ﴾ أى : وآمنوا بهذا الرسول الكريم وبما جاء من عند ربه .

﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى : أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم ربكم من ذنوبكم التى وقعتم فيها ، ويبعدكم بفضله ورحمته من عذاب أليم .

والتعبير بقوله : ﴿ من ذنوبكم ﴾ يدل على حسن أدبهم ، وعلى أنهم يفوضون المغفرة إلى ربهم ، فهو - سبحانه - إن شاء غفرها جميعا ، وإن شاء غفر بعضها .

ثم ختموا الترغيب فى الإيمان بالترهيب من الإصرار على الكفر والمعاصى فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ .

أى : قالوا لقومهم إنكم إذا أجبتم داعى الله ، غفر لكم - سبحانه - ذنوبكم أما الذى يعرض عن هذا الداعى الصادق الأمين ، فإنه لن يستطيع أن يفلت من عذاب الله ، ولن يقدر على الهرب من عقابه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾ أى : وليس لهذا المُعْرِض من أنصار يستطيعون دفع عذاب الله عنه .

﴿ أولئك ﴾ أى : الذين لم يجيبوا داعى الله ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى : فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٣٢ .

١ - أن رسالة النبى - ﷺ - كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به - ﷺ - ودعوتهم غيرهم إلى الإيمان به .

٢ - أن هذه الايات تدل على أن حكم الجن كحكم الإنس فى الثواب والعقاب وفى وجوب العمل بما أمرهم الله - تعالى - به وفى وجوب الانتهاء عما نهاهم عنه ، لأن قوله - تعالى - : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين ﴾ .

أقول : هاتان الآيتان اللتان حكاهما الله - تعالى - على ألسنة بعض الجن تدلان على ثواب المطيع ، وعذاب العاصى .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة وهى : قوله - تعالى - فى سورة الرحمن : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ويستأنس لهذا - أيضا - بقوله - تعالى - : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ فإنه يشير إلى أن فى الجنة جنا يطمثون النساء كالإنس ..

وبهذا يعلم أن ما ذهب إليه بعض العلماء ، أنه يفهم من قوله - تعالى - : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم ، وإجابتهم داعى الله ، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط .. هذا الفهم إنما هو خلاف التحقيق ، وأن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة ..[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتوبيخ المشركين على جهلهم وعدم تفكيرهم ، وبيّن ما سيكونون عليه من خزى يوم القيامة ، وأمر نبيه - ﷺ - بالصبر على أذاهم . فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ
إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ٤٠١ .

أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

والهمزة فى قوله : ﴿ أو لم يروا أن الله ... ﴾ للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام ...

أى : أبلغ العمى والجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم لم يروا ولم يعقلوا أن الله - تعالى - الذى خلق السموات والأرض بقدرته ﴿ولم يعى بخلقهن ﴾ أى : ولم يتعب ولم ينصب بسبب خلقهن ، من قولهم عيى فلان بالأمر - كفرح - إذا تعب ، أو المعنى : ولم يعجز عن خلقهن ولم يتحير فيه ، مأخوذ من قولهم : عيى فلان بأمره ، إذا تحير ولم يعرف ماذا يفعل .

وقوله : ﴿ بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ فى محل رفع خبر ﴿ أن ﴾ ، والباء فى قوله - تعالى - ﴿ بقادر ﴾ مزيدة للتأكيد .

فالمقصود بالآية الكريمة توبيخ المشركين على جهلهم وانطماس بصائرهم ، حيث لم يعرفوا أن الله - تعالى - الذى أوجد الكون ، قادر على أن يعيدهم الى الحياة بعد موتهم .

وأورد القرآن ذلك فى أسلوب الاستفهام الإنكارى ، ليكون تأنيبهم على جهلهم أشد .

وقوله : ﴿ بلى إنه على كل شىء قدير ﴾ تقرير وتأكيد لقدرته - تعالى - على إحياء الموتى ، لأن لفظ ﴿ بلى ﴾ يؤتى به فى الجواب لإبطال النفى السابق ، وتقرير نقيضه ، بخلاف لفظ ﴿ نعم ﴾ فإنه يقرر النفى نفسه .

أى : بلى إنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى ، لأنه - تعالى - على كل شىء قدير .

ثم كرر - سبحانه - التذكير للناس بأحوال الكافرين يوم الحساب ليعتبروا ويتعظوا فقال : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ... ﴾ أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يلقى الذين كفروا فى النار ، بعد مشاهدتها ورؤيتها ..

ثم يقال لهم على سبيل الزجر والتهكم ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ أى : أليس هذا العذاب كنتم تنكرونه فى الدنيا ، قد ثبت عليكم ثبوتا لا مفر لكم منه ، ولا محيد لكم عنه ..

﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أى : قالوا فى الجواب : بلى ياربنا إن هذا العذاب حق ، وإنكارنا له فى الدنيا إنما كان عن جهل وغفلة وغرور منا ..

فهم قد اعترفوا بأن الحساب حق ، والجزاء حق .. فى وقت لا ينفع فيه الاعتراف .

ولذا جاء الرد عليهم بقوله - تعالى - : ﴿ قال ﴾ - سبحانه - ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أى : فتذوقوا طعمه الأليم ، ووقعه المهين ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أى : بسبب كفركم وجحودكم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر نبيه - ﷺ - بالصبر على مكرهم فقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاصبر على أذى قومك ، كما صبر إخوانك أولو العزم من الرسل ، أى : أصحاب الجد والثبات والصبر على الشدائد والبلاء .. وهم - على أشهر الأقوال - : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم جميعا - .

وقوله : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ نهى منه - تعالى - لنبيه عن استعجال العذاب لهم . أى : ولا تستعجل لهم العذاب . فالمفعول محذوف للعلم به .. ثم بين - سبحانه ه ما يدعو إلى عدم الاستعجال فقال : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار .. ﴾ . أى : اصبر - أيها الرسول - على أذى قومك كما صبر إخوانك أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل العذاب لهؤلاء الكافرين فإنه آتيهم لا ريب فيه ، وكأنهم عندما يرون هذا العذاب ويحل بهم ، لم يلبثوا فى الدنيا إلا وقتا قليلا وزمنا يسيرا ، لأن شدة هذا العذاب تنسيهم كل متع الدنيا وشهواتها .

وقوله - تعالى - : ﴿بلاغ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : هذا الذى أنذرتكم به ، أو هذا القرآن ، بلاغ كاف فى وعظكم وإنذاركم إذا تدبرتم فيه ، وتبليغ من الرسول - ﷺ - إليكم .

﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ كلا ، إنه لا يهلك بعذاب الله - تعالى - إلا القوم الخارجون عن طاعته ، الواقعون فى معصيته فالاستفهام للنفى ..

وبعد فهذا تفسير لسورة « الأحقاف » نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الجمعة : ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ
الموافي ١٩٨٥/١٢/٦ م

كتبة الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - هذه السورة تسمى بسورة محمد - ﷺ - لما فيها من الحديث عما أنزل عليه - ﷺ - وتسمى - أيضا - بسورة القتال، لحديثها المستفيض عنه.

وهى من السور المدنية التى يغلب على الظن أن نزولها كان بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب، وقد ذكروا أن نزولها كان بعد سورة « الحديد »[١].

وعدد آياتها أربعون آية فى البصرى، وثمان وثلاثون فى الكوفى، وتسع وثلاثون فى غيرهما.

٢ - وتفتتح السورة الكريمة ببيان سوء عاقبة الكافرين، وحسن عاقبة المؤمنين، ثم تحض المؤمنين على الإغلاظ فى قتال الكافرين، وفى أخذهم أسارى، وفى الإعلاء من منزلة المجاهدين فى سبيل الله.

قال - تعالى - : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم، سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرفها لهم .. ﴾.

٣ - ثم وجه - سبحانه - ندا إلى المؤمنين وعدهم فيه بالنصر متى نصروه وتوعد الكافرين بالتعاسة والخيبة، ووبخهم على عدم اعتبارهم واتعاظهم، كما بشر المؤمنين - أيضا - بجنة فيها ما فيها من نعيم.

قال - تعالى - : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، ومغفرة من ربهم، كمن هو خالد فى النار، وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾.

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن المنافقين، فذكرت جانبا من مواقفهم السيئة من النبى - ﷺ - ومن دعوته، ووبختهم على خداعهم وسوء أدبهم.

قال - تعالى - : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ للسيوطى.

العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ .

٥ – ثم صورت السورة الكريمة ما جبل عليه هؤلاء المنافقون من جبن وهلع ، وكيف أنهم عندما يدعون إلى القتال يصابون بالفزع الخالع .

قال – سبحانه – ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ﴾ .

٦ – وبعد أن بينت السورة الكريمة أن نفاق المنافقين كان بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، وتوعدتهم بسوء المصير فى حياتهم وبعد مماتهم .

بعد كل ذلك أخبرت النبى – ﷺ – بأوصافهم الذميمة ، فقال – تعالى – : ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالكم ﴾ .

٧ – ثم عادت السورة إلى الحديث عن الكافرين وعن المؤمنين ، فتوعدت الكافرين بحبوط أعمالهم . وأمرت المؤمنين بطاعة الله ورسوله . ونهتهم عن اليأس والقنوط ، وبشرتهم بالنصر والظفر ، وحذرتهم من البخل ، ودعتهم إلى الإنفاق فى سبيل الله .

قال – تعالى – : ﴿ هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم . ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

٨ – هذا والمتدبر فى هذه السورة الكريمة – بعد هذا العرض الإجمالى لها – يراها تهتم بقضايا من أهمها ما يأتى :

(أ) تشجيع المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله – تعالى – : وعلى ضرب رقاب الكافرين ، وأخذهم أسرى ، وكسر شوكتهم ، وإذلال نفوسهم .. كل ذلك بأسلوب قد اشتمل على اسمى ألوان التحضيض على القتال .

نرى ذلك فى قوله – تعالى – : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

وفى قوله – تعالى – : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ .

(ب) بيان سوء عاقبة الكافرين فى الدنيا والآخرة ، ودعوتهم إلى الدخول فى الدين الحق ، وإبراز الأسباب التى حملتهم على الجحود والعناد .

نرى ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم . أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ .

(جـ) كشفها عن أحوال المنافقين وأوصافهم بصورة تميزهم عن المؤمنين وتدعو كل عاقل إلى احتقارهم ونبذهم . بسبب خداعهم وكذبهم ، وجبنهم واستهزائهم بتعاليم الإسلام .

ولقد توعدهم الله - تعالى - بأشد ألوان العذاب ، فقال : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

الأحد ٢٥ من شهر ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

٨ / ١٢ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

افتتحت سورة القتال بهذا الذم الشديد للكافرين ، وبهذا الثناء العظيم على المؤمنين .

افتتحت بقوله - سبحانه - : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم . كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ .

وقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ .. مبتدأ ، خبره قوله - سبحانه - ﴿ أضل أعمالهم ﴾ . والمراد بهم كفار قريش ، الذين أعرضوا عن الحق وحرضوا غيرهم على الإعراض عنه .

فقوله : ﴿ صدوا ﴾ من الصد بمعنى المنع ، والمفعول محذوف .

وقوله : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى : أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة ذاهبة لا أثر لها ولا وجود ، والمراد بهذه الأعمال : ما كانوا يعملونه فى الدنيا من عمل حسن ، كإكرام الضيف ، وبر الوالدين ، ومساعدة المحتاج . أى : الذين كفروا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، ومنعوا غيرهم من اتباع الدين الحق الذى أمر الله - تعالى - باتباعه ﴿ أضل ﴾ -

سبحانه - أعمالهم ، بأن جعلها ذاهبة ضائعة غير مقبولة عنده . كما قال - تعالى - : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى : أبطلها وأحبطها : وحقيقته ، جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كالضالة من الإبل ، التى هى مضيعة لارب لها يحفظها ويعتنى بأمرها ، أو جعلها ضالة فى كفرهم ومعاصيهم ، ومغلوبة بها ، كما يضل الماء اللبن . وأعمالهم ما كانوا يعملونه فى كفرهم بما يسمونه مكارم : من صلة الأرحام ، وفك الأسرى .

وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله - ﷺ - والصد عن سبيل الله ، بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله[2] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعده للمؤمنين من ثواب فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ التى توافر فيها الإخلاص والاتباع لهدى الرسول - ﷺ - وقوله : ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، فقد أفرده بالذكر مع أنه داخل فى الإيمان والعمل الصالح ، للإشارة إلى أنه شرط فى صحة الإيمان ، وللإشعار بسمو مكانة هذا المنزل عليه - ﷺ - وبعلو قدره .

وقوله : ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ جملة معترضة ، لتأكيد حقية هذا المنزل على النبى - ﷺ - وتقرير كماله وصدقه . أى : وهذا المنزل على الرسول - ﷺ - وهو الحق الكائن من عند الله - تعالى - رب العالمين ، لا من عند أحد سواه .

وقوله : ﴿ كفر عنهم سيئاتهم ﴾ خبر الموصول ، أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة ، محا عنهم - سبحانه - ما عملوه من أعمال سيئة ، ولم يعاقبهم عليها ، فضلا منه وكرما .

فقوله : ﴿ كَفَّر ﴾ من الكَفْرِ بمعنى الستر والتغطية . يقال : كفر الزارع زرعه إذا غطاه ، وستره حماية له مما يضره . والمراد به هنا : المحو والإزالة على سبيل المجاز .

وقوله : ﴿ وأصلح بالهم ﴾ معطوف على ما قبله . أى : محا عنهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، ما اقترفوه من سيئات ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ولم يكتف - سبحانه - بذلك ، بل وأصلح أحوالهم وأمورهم وشئونهم . بأن وفقهم للتوبة الصادقة فى الدنيا ، وبأن منحهم الثواب الجزيل فى الآخرة .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢١٥ .

فالمراد بالبال هنا : الحال والأمر والشأن .

قال القرطبى : والبال كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر ، فيقولون فيه بالات ..[1] .

وهذه الجملة الكريمة وهى قوله : ﴿ وأصلح بالهم ﴾ نعمة عظمى لا يحس بها إلا من وهبه الله - تعالى - إياها ، فإن خزائن الأرض لا تنفع صاحبها إذا كان مشتت القلب ، ممزق النفس ، مضطرب المشاعر والأحوال . أما الذى ينفعه فهو راحة البان . وطمأنينة النفس ، ورضا القلب ، والشعور بالأمان والسلام .

والإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل .. ﴾ تعود إلى ما مر من ذم الكافرين ، ومدح المؤمنين .

أى : ذلك الذين حكمنا به من ضلال أعمال الكافرين ، ومن إصلاح بال المؤمنين ، سببه أن الذين كفروا اتبعوا فى دنياهم الطريق الباطل الذى لا خير فيه ولا فلاح . وأن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة فى دنياهم ، اتبعوا طريق الحق الكائن من ربهم .

فالمراد بالباطل هنا . الكفر وما يتبعه من أعمال قبيحة ، والمراد بالحق : الإيمان والعمل الصالح .

وقوله ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ ، وخبره ما بعده .

وقوله : ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أى : مثل ذلك البيان الرائع الحكيم ، يبين الله - تعالى - : للناس أحوال الفريقين ، وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهى اتباعُ المؤمنين الحقَّ وفوزُهم ، واتباعُ الكافرين الباطلَ وخسرانُهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو فى أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين »[2] .

ثم أرشد الله - تعالى - : المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند لقائهم لأعدائهم ، وبعد انتصارهم عليهم ، كما بين لهم الحكمة من مشروعية القتال . والجزاء الحسن الذى أعده للمجاهدين ، فقال - تعالى - :

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٢٤ .

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣١٦ .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فإذا لقيتم ﴾ لترتيب ما بعدها من إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند قتل أعدائهم ، على ما قبلها وهو بيان حال الكفار .

فالمراد باللقاء هنا : القتال لا مجرد اللقاء والرؤية . كما أن المراد بالذين كفروا هنا المشركون وكل من كان على شاكلتهم ممن ليس بيننا وبينهم عهد بل بيننا وبينهم حرب وقتال .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أمر للمؤمنين بما يجب فعله عند لقائهم لأعدائهم . وقوله : ﴿ فضرب ﴾ منصوب على أنه مصدر لفعل محذوف . أى : فإذا كان حال الذين كفروا كما ذكرت لكم من إحباط أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق ، فإذا لقيتموهم للقتال ، فلا تأخذكم بهم رأفة ، بل اضربوا رقابهم ضربا شديدا .

والتعبير عن القتل بقوله : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ ، لتصويره فى أفظع صوره . ولتهويل أمر هذا القتال ، ولإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ لقيتم ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدم المصدر ، فأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنك تذكر المصدر ، وتدل على الفعل بالنصبة التى فيه .

وضرب الرقاب : عبارة عن القتل .. وذلك أن قتل الإنسان أكثر مايكون بضرب رقبته ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل .

على أن فى هذه العبارة من الغلظة والشدة ، ماليس فى لفظ القتل ، لما فيها من تصوير

القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق ، وإطارة العضو الذى هو رأس البدن[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ بيان لما يكون من المؤمنين بعد مثل حركة أعدائهم ، وإنزال الهزيمة بهم .

وقوله : ﴿ أثخنتموهم ﴾ من الإثخان بمعنى كثرة الجراح ، مأخوذ من الشىء الثخين ، أى : الغليظ . يقال : أثخن الجيش فى عدوه ، إذا بالغ فى إنزال الجراحة الشديدة به ، حتى أضعفه وأزال قوته .

والوثاق - بفتح الواو وكسرها - اسم للشىء الذى يوثق به الأسير كالرباط أى : عند لقائكم - أيها المؤمنون - لأعدائكم ، فاضربوا أعناقهم ، فإذا ما تغلبتم عليهم وقهرتموهم ، وأنزلتم بهم الجراح التى تجعلهم عاجزين عن مقاومتكم ، فأحكموا قيد من أسرتموه منهم ، حتى لا يستطيع التفلت أو الهرب منكم .

وقوله - سبحانه - ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ إرشاد لما يفعلونه بعد ذلك .

والمن : الإطلاق بغير عوض ، يقال : منَّ فلان على فلان إذا أنعم عليه بدون مقابل .

والفداء : ما يقدمه الأسير من أموال أو غيرها لكى يفتدى بها نفسه من الأسر .

وقوله : ﴿ منا ﴾ و ﴿ فداء ﴾ منصوبان على المصدرية بفعل محذوف : أى : فإما تمنون عليهم بعد الأسر منا بأن تطلقوا سراحهم بدون مقابل ، وإما أن تفدوا فداء بأن تأخذوا منهم فدية فى مقابل إطلاق سراحهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ غاية لهذه الأوامر والإرشادات .

وأوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها ، كالسلاح وما يشبه .

قال الشاعر :

وأعددتَ للحرب أوزارها رماحا طوالاً وخيلا ذكورا

أى : افعلوا بهم ما أمرناكم بفعله ، واستمروا على ذلك حتى تنتهى الحرب التى بينكم وبين أعدائكم بهزيمتهم وانتصاركم عليهم .

وسميت آلات الحرب وأحمالها بالأوزار ، لأن الحرب لما كانت لا تقوم إلا بها ، فكأنها تحملها وتستقل بها ، فإذا انقضت الحرب فكأنها وضعت أحمالها وانفصلت عنها .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من مشروعية قتال الأعداء ، مع أنه - سبحانه - قادر على

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣١٦ .

إهلاك هؤلاء الأعداء ، فقال : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ .

واسم الإشارة : خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر ذلك ، أو فى محل نصب على المفعولية بفعل محذوف ، أى : افعلوا ذلك الذى أمرناكم به وأرشدناكم إليه واعلموا أنه - سبحانه - لو يشاء الانتصار من هؤلاء الكافرين والانتقام منهم لفعل ، أى : لو يشاء إهلاكهم لأهلكم ، ولكنه - سبحانه - لم يفعل ذلك بل أمركم بمحاربتهم ليختبر بعضكم ببعض ، فيتميز عن طريق هذا الاختبار والامتحان ، قوى الإيمان من ضعيفه . كما قال - تعالى - : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعده للمجاهدين من ثواب عظيم فقال : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله ﴾ أى : والذين استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله .

﴿ فلن يضل أعمالهم ﴾ أى : فلن يضيع أعمالهم ولن يبطلها .

بل ﴿ سيهديهم ﴾ أى : بل سيوصلهم إلى طريق السعادة والفلاح .

﴿ ويصلح بالهم ﴾ أى : ويصلح أحوالهم وشئونهم وقلوبهم .

﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ أى : ويدخلهم بعد كل ذلك الجنة يوم القيامة ويهديهم إلى بيوتهم ومساكنهم فيها ، بحيث لا يخطئونها ، حتى لكأنهم يقيمون فيها منذ خلقوا ، وذلك كله بإلهام من الله - تعالى - : لهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ عرفها لهم ﴾ هذا التعريف فى الآخرة . قال مجاهد : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله - تعالى - لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا .. وذلك بإلهام منه - عز وجل - .

وورد فى بعض الآثار أن حسناته تكون دليلا له على منزله فيها ، وقيل : إنه - تعالى - : رسم على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع من التعريف .

وقيل : معنى عرفها لهم . طيبها لهم من العرف وهو الرائحة الطيبة ، ومنه طعام معرف ، أى مطيب .

وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا ، وهو يذكر أوصافها ، والمراد أنه - سبحانه - لم يزل يمدحها لهم ، حتى عشقوها ، فاجتهدوا فى فعل ما يوصلهم إليها ..[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٥ ص ٤٣ .

هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - وجوب قتال الكافرين بكل شدة وقوة ، حتى تضعف شوكتهم ، وتدول دولتهم ، ويخضعوا لحكم شريعة الإسلام فيهم .

وفى هذه المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

٢ - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى -: ﴿ فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أن الأسير من الأعداء يدور أمره بين هاتين الحالتين إما أن نطلق سراحه بدون مقابل ، وإما أن نطلق سراحه فى مقابل فدية معينة نأخذها منه ، وقد تكون هذه الفدية مالا ، أو عملا ، أو غير ذلك مما فيه منفعة للمسلمين .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾[1] .

ويرى المحققون من العلماء أن هذه الآية ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ . تحكى حالات معينة يكون أمر الأسرى فيها دائرا بين المن والفداء ، لأنهما من مصلحة المسلمين ، وهناك حالات أخرى يكون الأصلح فيها قتل الأعداء ، أو استرقاقهم .

فمسألة الأسرى من الأعداء ، يكون الحكم فيها على حسب ما تقتضيه مصلحة المسلمين ، ومرجع الحكم فيها إلى البصراء بالحرب وبوضع خططها ، لأنهم أعرف الناس بكيفية معاملة الأسرى .

وهذا الرأى الأخير هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه الثابت من فعل رسول الله - ﷺ - ومن أفعال أصحابه ، ولأن ذكر المن والفداء لا ينافى جواز غيره كالقتل - مثلا - لأن هذا الغير مفهوم من آيات أخرى ذكرت هذا الحكم فى أوقات وحالات معينة .

وقد رجح هذا الرأى كثير من العلماء ، منهم الإمام ابن جرير ، فقد قال ما ملخصه - بعد أن ساق جملة من الأقوال - : والصواب من القول عندنا فى ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة لأنه غير مستنكر أن يكون جعل الخيار فى المن والقتل والفداء إلى الرسول - ﷺ - وإلى القائمين بعده بأمر الأمة . وإن لم يكن القتل مذكورا فى هذه الآية ، لأنه قد أذن - سبحانه - بقتلهم فى آيات أخرى منها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

---

(١) سورة التوبة الآية ٥ .

وقد فعل الرسول - ﷺ - كل ذلك ، مع الأسرى ففى بدر قتل عقبة بن أبى معيط . وأخذ الفداء من غيره .. ومَنَّ على ثمامة بن أثال الحنفى وهو أسير فى يده[1] .

وقال القرطبى - بعد أن ذكر أربعة أقوال - : الخامس : أن الآية محكمة ، والإمام مخير فى كل حال .

وبهذا قال كثير من العلماء منهم : ابن عمر ، والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى .. وغيرهم ، وهو الاختيار ؛ لأن النبى - ﷺ - والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك . فقد قتل النبى - ﷺ - فى بدر النضر بن الحارث . وأخذ الفداء من أسارى بدر .. وقد مَنَّ على سبى هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح[2] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وما نحسبنا مخطئين إذ قلنا إن الذى كان من النبى - ﷺ - من الأعمال المختلفة ، كان نزولا على مقتضى المصلحة ، ولذلك نراه كان يجتهد فى تعرف وجوه المصلحة ، فيستشير أصحابه .

ولو كان الأمر أمر خطة مرسومة ، واحدا لا يتخطى . ما كان هناك معنى للاستشارة ، ولا للنزول على رأى بعض أصحابه ، ولما خالف فى الحرب الواحدة بين أسير وأسير ، فقتل هذا ، وأخذ الفداء من هذا . ومنَّ على هذا .

وإذا فالمصلحة العامة وحدها هى المحكْمة ، وهى الخطة التى تتبع فى الحروب ، خصوصا والحرب مكر وخديعة ، وما دامت مكر أو خديعة فليترك للماكرين وضع خطط المكر والخديعة ولا يرسم لهم كيف يمكرون ، وإلا ما كانوا ما كرين[3] .

٣ - بشارة الشهداء بالثواب الجزيل ، وبالأجر العظيم ، ويكفى لذلك قوله - تعالى - : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن قيس الجذامى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه يكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٩ ص ٢٧ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٢٨ .
(٣) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٧٦ لفضيلة الشيخ محمد على السايس .

الحور العين ، ويؤمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان[1] .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين بشرهم بنصره متى نصروا دينه ، وتوعد الكافرين بالخيبة والخسران ، ووبخهم على عدم تدبرهم فى مصير الذين من قبلهم ، وسلى النبى - ﷺ - عما أصابه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾

والمراد بنصر المؤمنين لله - تعالى - نصرهم لدينه ، بأن يستقيموا على أمره ويتبعوا الرسول - ﷺ - فى كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إن تنصروا دين الله - عز وجل - وتتبعوا رسوله ، ﴿ ينصركم ﴾ - سبحانه - على أعدائكم ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ عند قتالكم إياهم ويوفقكم بعد ذلك للثبات على دينه ، والشكر على نعمه .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٩٢ .

وفى معنى هذه الآية ، وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[٢] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٣] .

وبعد هذا النداء الذى يحمل أكرم البشارات للمؤمنين ، ذم - سبحانه - الكافرين ذما شديداً ، فقال : ﴿ والذين كفروا ، فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ .

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره محذوف ، و ﴿ تعسا ﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر من لفظه ، واللام فى قوله ﴿ لهم ﴾ لتبيين المخاطب ، كما فى قولهم : سقيا له ، أى : أعنى له يقال : تعس فلان - من باب منع وسمع - بمعنى هلك .

قال القرطبى ما ملخصه وقوله : ﴿ تعسا لهم ﴾ نصب على المصدر بسبيل الدعاء ، مثل سقيا له .. وفيه عشرة أقوال : الأول : بعداً لهم . الثانى : حزنا لهم .. الخامس) هلاكا لهم .. يقال : تعسا لفلان ، أى ألزمه الله هلاكا .

ومنه الحديث الشريف : « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة . إن أعطى رضى ، وإن لم يعط لم يرض » .

وفى رواية : « تعس وانتكس ، وإذا شيك - أى أصابته شوكة - فلا انتقش » أى : فلا شفى من مرضه[٤] .

والمعنى : والذين كفروا فتعسوا تعسا شديدا ، وهلكوا هلاكا مبيراً ، وأضل الله - تعالى - أعمالهم ، بأن أحبطها ولم يقبلها منهم ، لأنها صدرت عن نفوس أشركت مع خالقها ورازقها آلهة أخرى فى العبادة .

فقوله : ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ معطوف على الفعل المقدر الذى نصب به لفظ « تعسا » ودخلت الفاء على هذا اللفظ ، تشبيها للاسم الموصول بالشرط .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى الخسران والضلال فقال : ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾.

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠ .
(٢) سورة الروم الآية ٤٧ .
(٣) سور غافر ٥١ .
(٤) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٣٢ .

أى : ذلك الذى حل بهم من التعاسة والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزله الله - تعالى - على رسوله - ﷺ - من قرآن يهدى إلى الرشد ، فكانت نتيجة هذه الكراهية ، أن أحبط الله أعمالهم الحسنة التى عملوها فى الدنيا كإطعام الطعام وصلة الأرحام .. لأن هذه الأعمال لم تصدر عن قلب سليم ، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ثم وبخهم - سبحانه - على عدم اعتبارهم بما فى هذا الكون من عبر وعظات فقال : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ .

والهمزة للاستفهام التقريعى ، والفاء معطوفة على مقدر ، أى : أقبعوا فى مساكنهم فلم يسيروا فى جنبات الأرض ، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط .. وغيرهم .

وقوله : ﴿ دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ جملة مستأنفة ، كأنه قيل : كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ؟ فكان الجواب : دمر الله - تعالى - عليهم مساكنهم وأموالهم ، فالمفعول محذوف للتهويل والمبالغة فى الإهلاك . يقال : دمر الله - تعالى - الأعداء تدميرا ، إذا أهلكهم إهلاكا شديدا . ودمر عليهم ، أى : أهلك ما يختص بهم ، وجاء هنا بكلمة « عليهم » لتضمين التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم .

وقوله : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين للنبى - ﷺ - . أى : هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين ، وللكافرين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - السائرين على درب سابقيهم فى الكفر والضلال والطغيان ، أمثال تلك العاقبة السيئة .

فالضمير فى قوله - تعالى - ﴿ أمثالها ﴾ يعود إلى العاقبة المتقدمة . وجمع - سبحانه - لفظ الأمثال باعتبار تعدد العذاب الذى نزل بالأمم المكذبة السابقة .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ . أى : ذلك التدمير والإهلاك الذى حل بالمكذبين ، بسبب أن الله - تعالى - هو ولى المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم .. أما الكافرون فلا مولى لهم ينصرهم أو يدفع عنهم ما حل بهم من دمار وخسران .

فالمراد بالمولى هنا : الناصر والمعين ، وأن نصرته - تعالى - هى للمؤمنين خاصة . ولا يناقض هذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق .. ﴾ لأن المراد بقوله : ﴿ مولاهم الحق ﴾ : إلههم الحق ، ومالكهم الحق ، وخالقهم وخالق كل شىء .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب عظيم ، وما أعده للكافرين من عذاب أليم ، فقال : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون .. ﴾ أى يتمتعون وينتفعون بملاذ الدنيا أياما قليلة .

﴿ ويأكلون ﴾ مآكلهم بدون تفكر أو تحر للحلال أو شكر لله ﴿ كما تأكل الأنعام ﴾ طعامها الذى يلقيه إليها صاحبها .

فالمقصود بالجملة الكريمة ذم هؤلاء الكافرين ، لشبههم بالأنعام التى لا تعقل ، فى كونهم يأكلون طعامهم دون أن يشكروا الله - تعالى - عليه ، ودون أن يفرقوا بين الحلال والحرام ، ودون أن يرتفعوا بإنسانيتهم عن مرتبة الحيوان الأعجم .

قال الآلوسى : والمعنى أن أكلهم مجرد عن الفكر والنظر ، كما تقول للجاهل : تعيش كما تعيش البهيمة ، فأنت لا تريد التشبيه فى مطلق العيش ، ولكن فى خواصه ولوازمه . وحاصلة أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم[1] .

وقوله : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ، بعد بيان صورتهم القبيحة فى الدنيا . والمثوى : اسم مكان لمحل إقامة الإنسان .

بأى : والنار هى المكان المعد لنزولهم فيه يوم القيامة .

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما أصابه منهم من أذى فقال : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

وكلمة ﴿ كأين ﴾ مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير ، ويكنى بها عن عدد مبهم فتحتاج إلى تميز بعدها . وهى مبتدأ .. وقوله : ﴿ أهلكناهم ﴾ خبرها . و ﴿ من قرية ﴾ تمييز لها . والمراد بالقرية أهلها ، وهم مشركو قريش .

أى : وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها - أيها الرسول الكريم - فترتب على فعلهم هذا أن أهلكناهم دون أن ينصرهم من عقابنا ناصر ، أو أن يجيرهم من عذابنا مجير .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٤٦ .

مكة ، فى تكذيبهم لرسول الله - ﷺ - وهو سيد المرسلين ، وخاتم النبيين .

روى ابن أبى حاتم ، بسنده - عن ابن عباس أن النبى - ﷺ - لما خرج من مكة إلى الغار ، التفت إليها وقال : يا مكة : أنت أحب بلاد الله إلى الله وأنت أحب بلاد الله إلىَّ ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك .. فأنزل الله هذه الآية[1] .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها فى الموازنة والمقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين . فقال - تعالى - :

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ للإنكار والنفى ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه السياق ، و « من » مبتدأ ، والخبر قوله ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ . والبينة : ما يتبين به الحق من كل شىء ، كالنصوص الصحيحة فى النقليات والبراهين السليمة فى العقليات .

والمراد بمن كان على بينة من ربه : الرسول - ﷺ - وأتباعه ، والمراد بمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم : المشركون الذين استحبوا العمى على الهدى .

والمعنى : أفمن كان على بينة من أمر ربه ، وعلى طريقة سليمة من هديه ، يستوى مع من كان على ضلالة من أمره ، بأن ارتكب الموبقات مع توهمه بأنها حسنات ، واتبع هواه دون أن يفرق بين القبيح والحسن ؟ لا شك أنهما لا يستويان فى عقل أى عاقل . فإن الفريق الأول

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٩٤ .

مهتد فى منهجه وسلوكه ، والفريق الثانى فى النقيض منه .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بأن بين مصير الفريقين فقال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ .

والمراد بالمثل هنا : الصفة . وهو مبتدأ ، والكلام على تقدير الاستفهام الإنكارى ، وتقدير مضاف محذوف ، والخبر قوله - تعالى - : ﴿ كمن هو خالد فى النار ﴾ . أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار ، أو : أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار ، وقدر الاستفهام فى المبتدأ لأنه مرتب على الإنكار الساق فى قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ .

ورحم الله - تعالى - صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت ما معنى قوله - تعالى - : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار ﴾ كمن هو خالد فى النار ؟

قلت : هو كلام فى صورة الإثبات ، ومعناه النفى والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحروف الإنكار ، ودخوله فى حيزه ، وانخراطه فى سلكه ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله .. ﴾ ؟ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار ، أى كمثل جزاء من هو خالد فى النار ؟

فإن قلت : فلم عرًّى فى حرف الإنكار ؟ وما فائدة التعرية ؟

قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التى تجرى فيها الأنهار ، وبين النار التى يسقى أهلها الجحيم ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ تفسير مسوق لشرح محاسن الجنة أى : صفة الجنة التى وعد الله - تعالى - بها عباده المتقين ، أنها فيها أنهار من ماء ليس متغيرا فى طعمه أو رائحته ، وإنما هو ماء طيب لذيذ تشتهيه النفوس .

والماء الآسن : هو الماء الذى تغير طعمه وريحه ، لطول مكثه فى مكان معين . يقال : أَسَنَ الماء يأسِن - كضرب - يضرب ، إذا تغير .

﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى : وفيها - أيضا - أنهار من لبن لم يتغير طعمه لا بالحموضة ولا بغيرها مما يجرى على الألبان التى تشرب فى الدنيا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٢١ .

﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أى : وفيها كذلك أنهار من خمر هى فى غاية اللذة لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع .

وقال - سبحانه - ﴿ لذة للشاربين ﴾ للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا فإن من الناس من ينفر منها ويعافها حتى ولو كان على غير دين الإسلام .

﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أى : وفيها - أيضا - أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره .

﴿ ولهم ﴾ أى : للمؤمنين ﴿ فيها ﴾ أى : فى الجنة فضلا عن كل ذلك ﴿ من كل الثمرات ﴾ التى يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها : ﴿ مغفرة من ربهم ﴾ أى : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم ذنوبهم ، وأزالها عنهم ، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ﴾ أى : أمثل جزاء المؤمنين الذى هو الجنة التى فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل .. كمثل عقاب الكافرين والمتمثل فى نارهم خالدين فيها أبدا ، وفى ماء فى أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم ؟

لاشك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار فى المنهج والسلوك ، وفى المصير الذى يصير إليه كل فريق .

وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين وعن مصير كل فريق . انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين ، وعن موقفهم من النبى - ﷺ - ومن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - عليه ، فقال - سبحانه - :

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا

ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

وضمير الجمع فى قوله - تعالى - : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ يعود إلى هؤلاء الكافرين الذين يأكلون كما تأكل الأنعام ، وذلك باعتبار أن المنافقين فرقة من الكافرين ، إلا أنها تخفى هذا الكفر وتبطنه .

كما يحتمل أن يعود إلى كل من أظهر الإسلام ، باعتبار أن من بينهم قوما قالوا كلمة الإسلام بأفواههم دون أن تصدقها قلوبهم .

وعلى كل حال فإن النفاق قد ظهر بالمدينة ، بعد أن قويت شوكة المسلمين بها . وصاروا قوة يخشاها أعداؤهم ، هذه القوة جعلت بعض الناس يتظاهرون بالإسلام على كره وهم يضمرون له ولأتباعه العداوة والبغضاء .. ويؤيدهم فى ذلك اليهود وغيرهم من الضالين .

أى : ومن هؤلاء الذين يناصبونك العداوة والبغضاء - أيها الرسول الكريم قوم يستمعون إليك بآذانهم لا بقلوبهم .

﴿ حتى إذا خرجوا من عندك ﴾ أى : من مجلسك الذى كانوا يستمعون إليك فيه ، ﴿ قالوا ﴾ على سبيل الاستهزاء والتهكم ﴿ للذين أوتوا العلم ﴾ من أصحابك ، الذين فقهوا كلامك وحفظوه .

﴿ ماذا قال آنفا ﴾ أى : ماذا كان يقول محمد - ﷺ - قبل أن نفارق مجلسه .

فقوله : ﴿ آنفا ﴾ اسم فاعل ، ولم يسمع له فعل ثلاثى ، بل سمع ائتنف يأتنف واستأنف يستأنف بمعنى ابتدأ .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ماذا قال آنفا ﴾ أى : ماذا قال الآن .. فآنفا يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ، من قولك استأنفت الشىء إذا ابتدأت به ومنه قولهم : أمر أُنُف ، وروضة أُنُف ، أى : لم يرعها أحد[1] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٣٨ .

وقال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ومنهم من يستمع إليك .... ﴾ هم المنافقون ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، كما أن جمعه باعتبار المعنى .

قال ابن جريج ، كانوا يحضرون مجلس رسول الله - ﷺ - فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم .

ومقصودهم بقولهم : ﴿ ماذا قال آنفا ﴾ الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام .

و ﴿ آنفا ﴾ اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له ثلاثى ، بل المسموع : استأنف وأتنف[1] .

ثم بين - سبحانه - حالهم فقال : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ . أى : أولئك المنافقون الذين قالوا هذا القول القبيح ، هم الذين طبع الله - تعالى - على قلوبهم بأن جعلها بسبب استحبابهم الضلالة على الهداية لا ينتفعون بنصح ، ولا يستجيبون لخير ، وهم الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم فصاروا لا يعقلون حقا ، ولا يفقهون حديثا .

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه هؤلاء المنافقون من مكر وخداع ، ومن خبث وسوء طوية . وترد عليهم بهذا الذم الشديد الذى يناسب جرمهم .

ثم يعقب - سبحانه - على ذلك ببيان حال المؤمنين الصادقين فيقول : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

أى : هذا هو حال المنافقين ، وهذا هو الحكم الذى يناسبهم ، أما الذين اهتدوا إلى الحق ، واستجابوا له ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، فهم الذين زادهم الله - تعالى - هداية على هدايتهم . وزادهم علما وبصيرة وفقها فى الدين ، ومنحهم بفضله وإحسانه خلق التقوى والخشية منه ، والطاعة لأمره ، وكافأهم على ذلك بما يستحقون من ثواب جزيل .

ثم تعود السورة الكريمة إلى توبيخ هؤلاء المنافقين على غفلتهم وانطماس بصائرهم ، فتقول : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ، فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ ؟ .

فالاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم ، وقوله ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل اشتمال من الساعة ، والأشراط جمع شَرَط - بالتحريك مع الفتح - وهو العلامة ، وأصله الإعلام عن الشىء . يقال : أشرط فلان نفسه لكذا ، إذا أعلمها له وأعدها ، ومنه الشرطى - كتركى -

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٥٠ .

والجمع شُرَط - بضم ففتح - سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها ، وتميزهم عن غيرهم .

وقوله : ﴿ فأنَّى لهم ﴾ خبر مقدم و ﴿ ذكراهم ﴾ مبتدأ مؤخر ، والضمير فى قوله ﴿ جاءتهم ﴾ يعود إلى الساعة ، والكلام على حذف مضاف قبل قوله ﴿ ذكراهم ﴾ أى : فأنى لهم نفع ذكراهم ؟

والمعنى : ما ينتظر هؤلاء الجاهلون إلا الساعة ، التى سيفاجئهم مجيؤها مفاجأة بدون مقدمات ، والحقُ أن علاماتها قد ظهرت دون أن يرفعوا لها رأسا ، ودون أن يعتبروا بها أو يتعظوا لاستيلاء الأهواء عليهم .

ولكنهم عندما تداهمهم الساعة بأهوالها ، ويقفون للحساب . يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله .. ولكن إيمانهم فى ذلك الوقت لن ينفعهم ، لأنه جاء فى غير محله الذى يقبل فيه ، وتذكرهم واتعاظهم - أيضا - لن يفيدهم لأنه جاء بعد فوات الأوان .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾[3] .

قال الآلوسى : الظاهر أن المراد بأشراط الساعة هنا : علاماتها التى كانت واقعة إذ ذاك ، وأخبروا أنها علامات لها ، كبعثة نبينا - ﷺ - فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « بعثت أنا والساعة كهاتين - وأشار بالسبابة والوسطى » .

وأراد - ﷺ - مزيد القرب بين مبعثه والساعة ، فإن السبابة تقرب من الوسطى .

وأخرج أحمد عن بريدة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « بعثت أنا والساعة جميعا . وإن كادت لتسبقنى » وهذا أبلغ فى إفادة القرب .

وعدوا منها انشقاق القمر الذى وقع له - ﷺ - والدخان الذى وقع لأهل مكة ، أما أشراطها مطلقا فكثيرة ، ومنها ككون الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان[4] .

---

(١) سورة غافر الآية ٨٥ .

(٢) سورة سبأ الآية ٥٢ .

(٣) سورة الفجر الآية ٢٣ .

(٤) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ص ٥٢ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يداوم على استغفاره وطاعته لله - تعالى - وأن يأمر اتباعه بالاقتداء به فى ذلك فقال : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فاعلم ﴾ للإفصاح عن جواب شرط معلوم مما مر من آيات .

والتقدير : إذا تبين لك ما سقناه عن حال السعداء والأشقياء ، فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واثبت على هذا العلم ، واعمل بمقتضاه ، واستمر على هذا العمل ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ أى : واستغفر الله - تعالى - من أن يقع منك ذنب ، واعتصم بحبله لكى يعصمك من كل مالا يرضيه . واستغفر - أيضا ﴿ للمؤمنين والمؤمنات ﴾ بأن تدعو لهم بالرحمة والمغفرة ﴿ والله ﴾ - تعالى - بعد كل ذلك ﴿ يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ أى يعلم كل متقلب وكل إقامة لكم سواء أكانت فى بر أم فى بحر أم فى غيرهما .

والمقصود : أنه - تعالى - يعلم جميع أحوالكم ولا يخفى عليه شىء منها ، والمتقلب : المتصرف ، من التقلب وهو التصرف والانتقال من مكان إلى آخر . والمثوى : المسكن الذى يأوى إليه الإنسان ، ويقيم به .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ، ولا يتأتى كونه آمرا بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه بقوله : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى » .

وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت . وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت ».

وفى الصحيح أنه قال : « يأيها الناس . توبوا إلى ربكم فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[1] .

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المداومة على استغفار الله - تعالى - والتوبة إليه توبة صادقة نصوحا .

لأنه إذا كان الرسول - ﷺ - وهو الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - قد أمره - سبحانه - بالاستغفار ، فأولى بغيره أن يواظب على ذلك ، لأن الاستغفار بجانب أنه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٩٨ .

ذكر لله - تعالى - فهو - أيضا شكر له - سبحانه - على نعمه .

وقد توسع الإمام الآلوسى فى الحديث عن معنى قوله - تعالى - : ﴿ واستغفر لذنبك .. ﴾ فارجع إليه إن شئت[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال المنافقين عندما يدعون إلى القتال فى سبيل الله ،وكيف أنهم يستولى عليهم الذعر والهلع عند مواجهة هذا التكليف ، وكيف سيكون مصيرهم إذا ما استمروا على هذا النفاق . فقال - تعالى - :

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : لما بين الله حال المنافق والكافر ، والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلمية ، من التوحيد والحشر وغيرهما .. أتبع ذلك ببيان حالهم فى الآيات العملية ، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ، ويطلب تنزيلها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول : هلا أمرت بشىء من العبادة .

والمنافق كان إذا نزلت الآية أو السورة وفيها تكليف كره ذلك .. فذكر - سبحانه - تباين حال الفريقين فى العلم والعمل . فالمنافق لا يفهم العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل ..[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ من ص ٥٥ إلى ٦٦ . (٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٥٢١ .

فقوله - تعالى - : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ﴾ حكاية لتطلع المؤمنين الصادقين إلى نزول القرآن ، وتشوقهم إلى الاستماع إليه ، والعمل بأحكامه .

أى : ويقول الذين آمنوا إيمانا حقا ، لرسوله - ﷺ - : يا رسول الله هلا نزلت سورة جديدة من هذا القرآن الكريم ، الذى نحبه ونحب العمل بما فيه من هدايات وآداب وأحكام وجهاد فى سبيل الله - عز وجل - .

قوله : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت .. ﴾ بيان لموقف المنافقين من الجهاد فى سبيل الله ، وتصوير بديع لما انطوت عليه نفوسهم من جبن خالع .

والمراد بقوله ﴿ محكمة ﴾ : أى : واضحة المعانى فيما سيقت له من الأمر بالجهاد فى سبيل الله ، بحيث لا يوجد مجال لتأويل معناها على الوجه الذى سيقت له .

أى : هذا هو حال المؤمنين بالنسبة لحبهم للقرآن الكريم ، أما حال المنافقين فإنك تراهم إذا ما أنزلت سورة فاصلة بينة تأمر أمرا صريحا بالقتال لإعلاء كلمة الله تراهم ينظرون إليك كنظر من حضره الموت فصار بصره شاخصا لا يتحرك من شدة الخوف والفزع .

والمقصود أنهم يوجهون أبصارهم نحو النبى - ﷺ - بحدة وهلع ، لشدة كراهتهم للقتال معه ، إذ فى هذا القتال عز للإسلام ، ونصر للمؤمنين ، والمنافقون يبغضون ذلك .

فالآية الكريمة ترسم صورة خالدة بليغة لكل نفس لئيمة خوارة ، مبتوتة عن الإيمان ، وعن الفطرة السليمة ، متجردة عن الحياء الذى يستر مخازيها .

وقوله - تعالى - ﴿ فأولى لهم ﴾ تهديد ووعيد لهم على جبنهم وخبث طويتهم .

وقوله ﴿ أولى ﴾ يرى بعضهم أنه فعل ماض بمعنى قارب ، وفاعله ضمير يعود إلى الموت ، أى : قاربهم ما يهلكهم وهو الموت الذى يرتعدون منه ..

ويرى آخرون أن قوله ﴿ أولى ﴾ اسم تفضيل بمعنى أحق وأجدر ، وأنه خبر لمبتدأ محذوف ، واللام بمعنى الباء . أى : فالعقاب والهلاك أولى بهم وأحق وأجدر . ويكون قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلام مستأنف والخبر محذوف .

أى : طاعة وقول معروف منكم لرسول الله - ﷺ - خير لكم من هذا السلوك الذميم .

ويصح أن يكون قوله - سبحانه - ﴿ أولى ﴾ مبتدأ . وقوله ﴿ لهم ﴾ متعلق به . والخبر قوله ﴿ طاعة ﴾ . واللام فى ﴿ لهم ﴾ أيضا . بمعنى الباء .

ويكون المعنى : أولى بهؤلاء المنافقين من أن ينظروا إليك نظر المغشى عليه من الموت ،

الطاعة التامة لك ، والقول المعروف أمامك .. لأن ذلك يحملهم متى أخلصوا قلوبهم لله - تعالى - على الإقلاع عن النفاق .

ولعل هذا القول الأخير هو أقرب الأقوال إلى سياق الآيات ، لأن فيه إرشاداً لهم إلى ما يحميهم من تلك الأخلاق المرذولة التى على رأسها الخداع والجبن والخور .

وقوله : ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم ﴾ متعلق بما قبله .

أى : أولى لهم الطاعة والقول المعروف ، وأولى لهم وأجدر بهم إذا جد الجد ، ووجب القتال ، أن يخلصوا لله - تعالى - نياتهم ، فإنهم لو صدقوا الله فى إيمانهم ، لكان صدقهم خيرا لهم ، من تلك المسالك الخبيثة التى سلكوها مع نبيهم - ﷺ - .

قال الشوكانى : قوله ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ عزم الأمر أى جد الأمر والقتال ووجب وفرض .

وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه على سبيل المجاز . وجواب ﴿ إذا ﴾ قيل هو ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ وقيل محذوف والتقدير : كرهوه أى : إذا جد الأمر ولزم القتال خالفوا وتخلفوا[1] .

ثم بين - سبحانه - ماهو متوقع منهم ، ووجه الخطاب إليهم على سبيل الالتفات ليكون أزجر لهم ، فقال : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون : كيف نقاتل العرب وهم من ذوى أرحامنا وقبائلنا .

والاستفهام للتقرير المؤكد ، وعسى للتوقع ، وفى قوله ﴿ إن توليتم ﴾ وجهان : أحدهما : أنه من الولاية ، يعنى : فهل يتوقع منكم - أيها المنافقون - إن أخذتم الولاية وسار الناس بأمركم ، إلا الإفساد فى الأرض وقطع الأرحام ؟

وثانيهما : أنه من التولى بمعنى الإعراض وهذا أنسب - أى : إن كنتم تتركون القتال ، وتقولون فيه الإفساد وقطع الأرحام ، لكون الكفار أقاربنا ، فإن فى هذه الحالة لا يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام كما كان حالكم فى الجاهلية[2] .

وعلى كلا القولين فالمقصود من الآية توبيخهم على جبنهم وكراهتهم لما يأمرهم به النبى - ﷺ - من الجهاد فى سبيل الله - تعالى - ، وتقريعهم على أعذارهم الباطلة ، ببيان

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٥ ص ٣٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٥٢٢ .

أنهم لو أعرضوا عن القتال وخالفوا تعاليم الإسلام فلن يكون منهم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، وكذلك سيكون حالهم لو تولوا أمور الناس ، وكانوا حكاما لهم .

وقوله : ﴿ أن تفسدوا .. ﴾ خبر عسى ، وقوله : ﴿ إن توليتم .. ﴾ جملة معترضة ، وجواب ﴿ إن ﴾ محذوف لدلالة قوله : ﴿ فهل عسيتم .. ﴾ عليه .

أى : ما يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، إن أعرضتم عن تعاليم الإسلام ، أو إن توليتم أمور الناس ، فأحذروا أن يكون منكم هذا التولى الذى سيفضى بكم إلى سوء المصير ، الذى بينه - سبحانه - فى قوله : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ أى : طردهم من رحمته ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ بأن جعلهم بسبب إعراضهم عن الحق - كالصم الذين لا يسمعون ، وكالعمى الذين لا يبصرون ، لأنهم حين عطلوا أسماعهم وأبصارهم عن التدبر والتفكر صاروا بمنزلة الفاقدين لتلك الحواس .

ثم ساق - سبحانه - ما يدعو إلى التعجيب من حالهم فقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن .. ﴾ والفاء للعطف على جملة محذوفة ، والاستفهام للإنكار والزجر . أى : أيعرضون عن كتاب الله - تعالى - فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهى .

﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾، أى ، بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التى حالت بينهم وبين التدبر والتفكر . والأقفال : جمع قفل - بضم فسكون - وهو الآلة التى تقفل بها الأبواب وما يشبهها ، والمراد : التسجيل عليهم بأن قلوبهم مغلقة ، لا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والنفاق .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟

قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك . أو يراد على بعض القلوب وهى قلوب المنافقين . وأما إضافة الأقفال ، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح ﴾[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾[2] .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، وجوب التدبر والتفكر فى آيات القرآن الكريم ، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات ، وأوامر ونواه ، وآداب وأحكام ، لأن عدم الامتثال

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٢٦ .
(٢) سورة النساء الآية ٨٢ .

لذلك يؤدى إلى قسوة القلوب وضلال النفوس ، كما هو الحال فى المنافقين والكافرين .

ثم تواصل السورة حديثها عن المنافقين ، فتفصح عن الأسباب التى حملتهم على هذا النفاق ، وتصور أحوالهم السيئة عندما تتوفاهم الملائكة ، وتهددهم بفضح رذائلهم ، وهتك أسرارهم .. قال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ
ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى
لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

والمراد بارتدادهم على أدبارهم : رجوعهم إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال .

أى : إن الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، وهم المنافقون ، الذين يتظاهرون بالإسلام ويخفون الكفر .

وقوله : ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ ذم لهم على هذا الارتداد ، لأنهم لم يعودوا إلى الكفر عن جهالة ، وإنما عادوا إليه من بعد أن شاهدوا الدلائل الظاهرة ، والبراهين الساطعة

على أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن الإسلام هو الدين الحق .

وقوله : ﴿ الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهى خبر إن فى قوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين ارتدوا ﴾ .

وقوله : ﴿ سول ﴾ من التسويل بمعنى التزيين والتسهيل . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل ، أى : زينته وحسنته له ، وصورته له فى صورة الشىء الحسن مع أنه قبيح .

وقوله : ﴿ وأملى ﴾ من الإملاء وهو الإبقاء ملاوة من الدهر ، أى : زمنا منه أى : الشيطان زين لهؤلاء المنافقين سوء أعمالهم ، ومد لهم فى الأمانى الباطلة ، والآمال الفاسدة ، وأسباب الغواية والضلال .

وأسند - سبحانه - هذا التسويل والإملاء إلى الشيطان ، مع أن الخالق لذلك هو الله - تعالى - لأن الشيطان هو السبب فى هذا الضلال والخسران .

ثم بين - سبحانه - أسباب هذا الارتداء فقال : ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر ﴾ .

أى : ذلك الارتداء عن الحق والتردى فى الباطل . بسبب أن هؤلاء المنافقين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى على نبيه - ﷺ - وهم اليهود ومن على شاكلتهم ، قالوا لهم : ﴿ سنطيعكم فى بعض الأمر ﴾ أى : سنطيعكم فى بعض أموركم وأحوالكم التى على رأسها : العداوة لهذا الرسول - ﷺ - ولما جاء به من عند ربه .

كما قال - تعالى - حكاية عنهم فى آية أخرى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب . لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ تهديد لهم على هذا الدس والكيد والتآمر على الإسلام وأتباعه . أى : والله - تعالى - يعلم ما يسرونه من أقوال سيئة ، ومن أفعال قبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك عقابا شديدا .

وكلمة ﴿ إسرارهم ﴾ - بكسر الهمزة - مصدر أسررت إسرارا ، بمعنى كتمت الشىء وأخفيته وقرأ بعض القراء السبعة ﴿ أسرارهم ﴾ - بفتح الهمزة - جمع سر . أى : يعلم الأشياء التى يسرونها ويخفونها .

---

(١) سورة الحشر الآية ١١ .

ثم بين - سبحانه - حالهم - عندما تقبض الملائكة أرواحهم فقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للاستعظام والتهويل ، و « كيف » منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف « إذا » .

والمراد بوجوههم : كل ما أقبل منهم ، وبأدبارهم : كل ما أدبر من أجسامهم .

أى : هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم ، وقالوا ما قالوا من كفر وضلال ، كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة وقبضت أرواحهم ؟ لاشك أن حالهم سيكون أسوأ حال وأقبحه ، لأن ملائكة الموت يضربون عند قبض أرواحهم وجوه هؤلاء المنافقين وأدبارهم ، ضربا أليما موجعا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ﴾[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ يعود إلى توفى الملائكة لهم ، وقبضهم لأرواح هؤلاء المنافقين . أى : ذلك الضرب الأليم لهم من الملائكة عند قبضهم لأرواحهم بسبب أن هؤلاء المنافقين قد اتبعوا ما يغضب الله - تعالى - من الكفر والمعاصى ، وبسبب أنهم كرهوا ما يرضيه من الإيمان والطاعة .

﴿ فأحبط ﴾ - سبحانه - : ﴿ أعمالهم ﴾ بأن أبطلها ولم يقبلها منهم ، لأنها لم تصدر عن قلب سليم .

ثم هددهم - سبحانه - بكشف أستارهم ، وفضح أسرارهم فقال : ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض ، أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ .

و « أم » منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، و « أن » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعدها خبرها ، وأن وصلتها سادة مسد مفعولى حسب .

والأضغان : جمع ضغن ، وهو الحقد الشديد . يقال : ضَغِن صدر فلان ضَغَنا - بزنة تعب - ، إذا اشتد حقده وغيظه ، والاسم الضِّغْن ، بمعنى الالتواء والاعوجاج الذى يكون فى كل شىء ، ويقال : تضاغن القوم ، إذا انطوت قلوبهم على البغض والحقد .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥٠ .

أى : بل أحسب هؤلاء المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بمرض الكفر والضلال ، أن الله – تعالى – غير قادر على إظهار أحقادهم الشديدة لرسوله – ﷺ – والمؤمنين ؟

إن حسبانهم هذا هو لون من جهالاتهم ومن غباوتهم وانطماس بصائرهم .

لأن الله – تعالى – لا يخفى عليه شىء ، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم بين – سبحانه – بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ .

والمراد بالإراءة هنا : التعريف والعلم الذى يقوم مقام الرؤية بالبصر ، كما فى قولهم : سأريك يا فلان ما أصنع بك . أى : سأعلمك بذلك .

والفاء فى قوله : ﴿ فلعرفتهم بسيماهم ﴾ لترتيب المعرفة على الإراءة ، والمراد بسيماهم : علاماتهم . يقال : سوم فلان فرسه تسويما ، إذا جعل له علامة يتميز بها .

وكررت اللام فى قوله : ﴿ فلعرفتهم ﴾ للتأكيد .

ولحن القول : أسلوب من أساليبه المائلة عن الطريق المعروفة ، كأن يقول للقائل قولا يترك فيه التصريح إلى التعريض والإبهام ، يقال : لَحَنْتُ لفلان أَلْحَن لَحْنا ، إذا قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره .

قال الجمل : واللحن يقال على معنيين ، أحدهما : الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك – ومنه قول الرسول – ﷺ – لبعض أصحابه فى غزوة الأحزاب : « وإن وجدتموهم – أى : بنى قريظة – على الغدر فالحنوا لى لحنا أعرفه ».

والثانى : صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ – أى : من النطق السليم إلى النطق الخطأ – .

ويقال من الأول : لحَنْتُ – بفتح الحاء – ألحن فأنا لاحن ، ويقال من الثانى : لَحِن – بكسر الحاء إذا لم ينطق نطقا سليما – فهو لحن[1] .

والمعنى : ولو نشاء إعلامك وتعريفك – أيها الرسول الكريم – بهؤلاء المنافقين وبذواتهم وأشخاصهم لفعلنا ، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء ﴿ فلعرفتهم بسيماهم ﴾ أى : بعلاماتهم الخاصة بهم ، والتى يتميزون بها عن غيرهم .

﴿ ولتعرفنهم ﴾ – أيضا – ﴿ فى لحن القول ﴾ أى : ولتعرفنهم بسبب أقوالهم المائلة عن

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٥٣ .

الأساليب المعروفة فى الكلام ، حيث يتخاطبون فيما بينهم بمخاطبات لا يقصدون ظاهرها ، وإنما يقصدون أشياء أخرى فيها الإساءة إليك وإلى أتباعك .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ يقول - تعالى - : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا ، ولكن لم يفعل - سبحانه - ذلك فى جميع المنافقين ، سترا منه على خلقه .

﴿ ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ أى : فيما يبدون من كلامهم الدال على مقاصدهم . كما قال عثمان - رضى الله عنه - : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه . وفى الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها » .

وعن أبى مسعود عقبة بن عمرو قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان - حتى سمى ستة وثلاثين رجلا - ثم قال : إن فيكم - أو منكم - فاتقوا الله »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ بيان لعلمه الشامل - سبحانه - وتهديد لمن يجترح السيئات ، أى : والله - تعالى - يعلم أعمالكم علما تاما كاملا ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه فى خلقه فقال : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

أى : ولنعاملنكم - أيها الناس - معاملة المختبر لكم بالتكاليف الشرعية المتنوعة ، حتى نبين ونظهر لكم المجاهدين منكم من غيرهم ، والصابرين منكم وغير الصابرين ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ أى : ونظهر أخباركم حتى يتميز الحسن منها من القبيح .

فالمراد بقوله : ﴿ حتى نعلم المجاهدين .. ﴾ إظهار هذا العلم للناس ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وصحيح العقيدة من سقيمها .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد هددت المنافقين تهديدا شديدا ، ووبختهم على مسالكهم الذميمة ، وفضحتهم على رءوس الأشهاد ، وحذرت المؤمنين من شرورهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالدعوة إلى صلاح الأعمال ، وبتهديد الكافرين

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠٤ .

بالعذاب الشديد ، وبتبشير المؤمنين بالثواب الجزيل ، وبدعوتهم إلى الإكثار من الإنفاق فى سبيله .. فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ
وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ
تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

والمراد بالذين كفروا فى قوله : - تعالى - : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ جميع الكافرين ، كمشركى قريش ، والمنافقين ، وأهل الكتاب .

أى : إن الذين كفروا بكل ما يجب الإيمان به ، ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم عن الإيمان بالحق . و « سبيل الله » الواضح المستقيم .

﴿ وشاقوا الرسول ﴾ أى : عادوه وخالفوه وآذوه ، وأصل المشاقة : أن تصير فى شق وجانب ، وعدوك فى شق وجانب آخر ، والمراد بها هنا : العداوة والبغضاء .

وقوله : ﴿ من بعدما تبين لهم ﴾ ذم وتجهيل لهم ، حيث حاربوا رسول الله - ﷺ - من بعد أن ظهر لهم أنه على الحق ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

وقوله : ﴿ لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ﴾ بيان للآثار السيئة التى ترتبت على هذا الصدود والعداوة .

أى : هؤلاء الذين كفروا ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله ، وحاربوا رسول الله - ﷺ - هؤلاء لن يضروا الله - تعالى - شيئا بسبب كفرهم وضلالهم ، وسيبطل - سبحانه - أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، وظنوها نافعة لهم ، كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام .

لأن هذه الأعمال قد صدرت من نفس كافرة ولن يقبل - سبحانه - عملا من تلك النفوس ، كما قال - تعالى - : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ومراقبته فقال . ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، أطيعوا الله - تعالى - فى كل ما أمركم به . وأطيعوا رسوله - ﷺ - ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بسبب ارتكابكم للمعاصى ، التى على رأسها النفاق والشقاق ، والمن والرياء ، وما يشبه ذلك من ألوان السيئات .

عن أبى العالية قال : كان أصحاب النبى - ﷺ - يظنون أنه لا يضر مع « لا إله إلا الله » ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت هذه الآية ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وروى نافع عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى - ﷺ - نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت هذه الآية ، فقلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله - تعالى - : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فلما نزلت كففنا من القول فى ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ، ونرجو لمن لم يصبها[1] .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠٥ .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين استمروا على كفرهم حتى ماتوا عليه فقال : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ بالله - تعالى - ، وبكل ما يجب الإيمان به .

﴿ وصدوا عن سبيل الله ﴾ أى : ومنعوا غيرهم عن الطريق التى توصلهم إلى طاعة الله ورضاه . ﴿ ثم ما توا ﴾ جميعا ، ﴿ وهم كفار ﴾ دون أن يقلعوا عن كفرهم .

﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ شيئا من ذنوبهم ، لأن استمرارهم على الكفر حال بينهم وبين المغفرة .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾[1] .

والفاء فى قوله : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ فصيحة ، والخطاب للمؤمنين على سبيل التبشير والتثبيت والحض على مجاهدة المشركين .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن الله - تعالى - لن يغفر للكافرين .. ﴿ فلاتهنوا ﴾ أى : فلا تضعفوا - أيها المؤمنون - أمامهم . ولا تخافوا من قتالهم .. من الوهن بمعنى الضعف ، وفعله وهن بمعنى ضعف ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ﴾ .

وقوله : ﴿ وتدعوا إلي السلم ﴾ معطوف على ﴿ تهنوا ﴾ داخل فى حيز النهى .

أى : فلا تضعفوا عن قتال الكافرين ، ولا تدعوهم إلى الصلح والمسالمة على سبيل الخوف منهم ، وإظهار العجز أمامهم ، فإن ذلك نوع من إعطاء الدنية التى تأباها تعاليم دينكم .

وقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ﴾ جمل حالية .

أى : لا تضعفوا ولا تستكينوا لأعدائكم والحال أنكم أنتم الأعلون ، أى : الأكثر قهراً وغلبة لأعدائكم ، والله - تعالى - معكم بعونه ونصره وتأييده .

﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أى : ولن ينقصكم شيئا من أجور أعمالكم ، يقال : وَتَرْتُ فلانا حقه - من باب وعد - إذ انقصته حقه ولم تعطه له كاملا ، وترت الرجل ، إذا قتلت له قتيلا ، أو سلبت منه ماله .

قالوا : ومحل النهى عن الدعوة إلى صلح الكفار ومسالمتهم ، إذا كان هذا الصلح أو تلك

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩١ .

المسالمة تؤدى إلى إذلال المسلمين أو إظهارهم بمظهر الضعيف القابل لشروط أعدائه .. أما إذا كانت الدعوة إلى السلم لا تضر بمصلحة المسلمين فلا بأس من قبولها ، عملا بقوله - تعالى - : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على هوان هذه الدنيا فقال : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ .

قال الجمل : يعنى كيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة ، وقد علمتم أن الدنيا كلها لعب ولهو ، إلا ما كان منها فى عبادة الله - تعالى - وطاعته .

واللعب : ما يشغل الإنسان وليس فيه منفعة فى الحال أو المآل ، ثم إذا استعمله الإنسان ولم ينتبه لأشغاله المهمة فهو اللعب ، وإن أشغله عن مهمات نفسه فهو اللهو[1] .

﴿ وإن تؤمنوا ﴾ إيمانا حقا ﴿ وتتقوا ﴾ الله - تعالى - ﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ كاملة غير منقوصة ، ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ أى : ولا يأمركم - سبحانه - أن تخرجوا جميع أموالكم على سبيل دفعها فى الزكاة المفروضة ، أو فى صدقة التطوع ، فالسؤال بمعنى الأمر والتكليف ويصح أن يكون المعنى : ولا يسألكم رسولكم - ﷺ - شيئا من أموالكم ، على سبيل الأجر له على تبليغ دعوة ربه ، كما قال - تعالى - : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ .

فالضمير على المعنى الأول يعود إلى الله تعالى ، وعلى الثانى يعود إلى الرسول - ﷺ - ثم أشار - سبحانه - إلى جانب من حكمته فى تشريعاته فقال : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ .

وقوله ﴿ يحفكم ﴾ من الإحفاء بمعنى الإلحاف : وهو المبالغة فى الطلب . يقال : أحفاه فى المسألة ، إذا ألح عليه فى طلبها إلحاحا شديدا ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ لا يسألون الناس إلحافا ﴾ وأصله من أحفيت البعير ، إذا أرهقته فى المشى حتى انبرى ورق خفه .

أى : إن يكلفكم بأخراج جميع أموالكم ، ويبالغ فى طلب ذلك منكم ، تبخلوا بها فلا تعطوها ، وبذلك ﴿ يخرج أضغانكم ﴾ أى : يظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف ، لأن حبكم الجم للمال يجعلكم تكرهون كل تشريع يأمركم بإخراج جميع أموالكم .

فقوله ﴿ فيحفكم ﴾ عطف على فعل الشرط ، وقوله ﴿ تبخلوا ﴾ جواب الشرط ، وقوله : ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ معطوف على هذا الجواب .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٥٥ .

ثم تختتم السورة الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿ هٰأنتم هؤلاء ﴾ - أيها المؤمنون - ﴿ تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ﴾ أى : فى وجوه الخير التى على رأسها الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .

﴿ فمنكم من يبخل ﴾ أى : فمنكم - أيها المخاطبون - من يبخل بماله عن الإنفاق فى وجوه الخير ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أى : ومن يبخل فإنما يبخل عن داعى نفسه لا عن داعى ربه ، أو فإنما يبخل على نفسه . يقال : بخل عليه وعنه - كفرح وكرم - بمعنى ، لأن البخل فيه معنى المنع والإمساك ومعنى التضييق على من مُنِع عنه المعروف ، فعدى بلفظ ﴿ عن ﴾ نظرا للمعنى الأول ، ولفظ ﴿ على ﴾ نظرا للمعنى الثانى .

﴿ والله ﴾ - تعالى - هو ﴿ الغنى وأنتم الفقراء ﴾ إليه ، لاحتياجكم إلى عونه احتياجا تاما ، ﴿ وإن تتولوا ﴾ أى : وإن تعرضوا عن هذا الإرشاد الحكيم .

﴿ يستبدل قوما غيركم ﴾ أى : يخلق بدلكم قوما آخرين .

﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أى : ثم لا يكونوا أمثالكم فى الإعراض عن الخير ، وفى البخل بما آتاهم الله من فضله .

والمتأمل فى هذه الآية يراها قد اشتملت على أسمى ألوان الدعوة إلى الإيمان والسخاء ، والنهى عن الجحود والبخل .

وبعد فهذا تفسير وسيط لسورة محمد - ﷺ - نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر مساء الأربعاء ٦ من شهر ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

كتبه الراجى عفو ربه

الموافق ١٨ / ١٢ / ١٩٨٥ م

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ الفَتْح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الفتح من السور المدنية ، وعدد آياتها تسع وعشرون آية ، وكان نزولها فى أعقاب صلح الحديبية .

قال ابن كثير - رحمه الله - : نزلت سورة « الفتح » لما رجع رسول الله - ﷺ - من الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ..[1] .

٢ - والمتدبر للقرآن الكريم ، يرى كثيرا من آياته وسوره ، فى أعقاب بعض الغزوات ، ليتعلم المسلمون من تلك الآيات والسور ما ينفعهم وما يصلح من شأنهم .

فمثلا فى أعقاب غزوة « بدر » نزلت سورة الأنفال التى سماها ابن عباس سورة بدر .

وفى أعقاب غزوة « أحد » نزلت عشرات الآيات فى سورة آل عمران .

وفى أعقاب غزوة « بنى النضير » نزلت آيات من سورة الحشر .

وفى أعقاب غزوة « الأحزاب » نزلت آيات من سورة الأحزاب .

وفى أعقاب صلح الحديبية نزلت هذه السورة الكريمة ، التى تحكى الكثير من الأحداث التى تتعلق بهذا الصلح .

٣ - وقبل أن نبدأ فى تفسير هذه السورة الكريمة ، نرى من الخير أن نعطى للقارىء فكرة واضحة عن صلح الحديبية ، التى نزلت فى أعقابه هذه السورة .. فنقول - وبالله التوفيق - :

رأى النبى - ﷺ - فى منامه أنه قد دخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، وقد صرحت السورة الكريمة بذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ... ﴾ فقص - ﷺ - هذه الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا بها . وكان المشركون قد منعوهم من دخول مكة ، ومن الطواف بالمسجد الحرام .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠٧ .

٤ – وخرج – ﷺ – ومعه حوالى أربعمائة وألف من أصحابه ، ليس معهم من السلاح سوى السيوف فى أغمادها ، وساقوا معهم الهدى الذى يتقربون بذبحه إلى الله – تعالى – ليكون دليلا على أنهم لا يريدون حرب قريش ، وإنما يريدون الطواف بالبيت الحرام .

وسار – ﷺ – من المدينة إلى مكة ، فلما وصل إلى « عُسْفَان » وهو مكان بين مكة والمدينة – جاءه بشر بن سفيان الكعبى وكان مكلفا من قِبَل النبى – ﷺ – لمعرفة أخبار قريش فقال : يارسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العُوذُ المطَافِيلُ – أى : ومعهم الإبل التى لم تلد ، والإبل التى ولدت ، قد لبسوا جلود النمور – أى : قد استعدوا لقتالك وقد نزلوا بِذِى طَوىً – وهو مكان بالقرب من مكة – ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ..

فقال – ﷺ – : « ياويح قريش !! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم ، دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » أى أو أن أقتل فى سبيل الله .

ثم قال – ﷺ – : « مَن رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها » ؟ .

فقال رجل من قبيلة أسلم : أنا يارسول الله ، فسلك بهم طريقا وعرا ، انتهى بهم إلى « الحديبية » وهى قرية على بعد مرحلة من مكة ، أو هى بئر سمى المكان بها .

٥ – وفى هذا المكان بركت القصواء – وهى الناقة التى كان يركبها النبى – ﷺ – فقال الناس : خلأت الناقة أى : حرنت وأبت المشى – ، فقال – ﷺ – : « ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

ثم أمر – ﷺ – الناس بالنزول فى هذا المكان ..

٦ – وعلمت قريش بنزول الرسول – ﷺ – وأصحابه فى الحديبية ، فبدأوا يرسلون رسلهم لمعرفة الأسباب التى حملت المسلمين إلى المجىء إليهم .

وكان من بين الرسل بُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعى .. فلما سأل الرسول – ﷺ – عن سبب مجيئه إلى مكة ، أخبره أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت الحرام ، ومعظما لحرمته ..

وعاد بديل إلى مكة ، وأخبر المشركين بما قاله الرسول – ﷺ – ولكنهم لم يقتنعوا ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالا . والله لا يدخلها علينا عَنوة أبدا ...

٧ - ثم أرسلت قريش رسلا آخرين إلى النبى - ﷺ - كان من بينهم ، عروة بن مسعود الثقفى .. فكان مما قاله للرسول - ﷺ - : يامحمد ، أجمعت أوشاب الناس - أى : أخلاطهم - ثم جئت بهم إلى أهلك .. إن قريشا قد تعاهدت أنك لن تدخل عليهم مكة عنوة ..

وكان عروة خلال حديثه مع رسول الله - ﷺ - يمد يده إلى لحيته - ﷺ - فكان المغيرة بن شعبة يقرع يد عروة ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل أليك .

وشاهد عروة ما شاهد من احترام المسلمين لرسولهم - ﷺ - فعاد إلى المشركين وقال لهم : يا معشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا ، فروا رأيكم ..

٨ - ثم أرسل النبى - ﷺ - إلى قريش عثمان بن عفان - رضى الله عنه - لكى يخبرهم بأن المسلمين ما جاءوا لحرب ، وإنما جاءوا للطواف بالبيت .

وذهب إليهم عثمان وأخبرهم بذلك ، ولكنهم صمموا على منع المسلمين من دخول مكة ، قالوا لعثمان : إن شئت أنت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال لهم : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله - ﷺ - .

وطال مكث عثمان عند قريش ، حتى أشيع بين المسلمين أنه قد قتله المشركون .

فقال - ﷺ - حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا المسلمين إلى مبايعته على الموت ، فبايعه المسلمون على ذلك تحت شجرة الرضوان ...

ثم جاء عثمان بعد ذلك دون أن يصيبه أذى ...

٩ - وأخيرا أوفدت قريش إلى النبى - ﷺ - رجلا منهم اسمه سهيل بن عمرو ، ليعقد صلحا مع المسلمين ، وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ..

وعندما رأى النبى - ﷺ - سهيلا مقبلا نحوه ، قال لأصحابه : لقد سهل الله لكم من أمركم ، إن قريشا أرادت الصلح حين بعثت هذا الرجل .

وتم الصلح بين الفريقين على ما يأتى :

أولا : أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت هذا العام ، فإذا كان العام التالى : أخلت قريش لهم مكة ثلاثة أيام ، ليطوفوا بالبيت ، وليس معهم إلا السيوف فى غمدها ..

ثانيا : أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنوات .

ثالثا : من أتى الرسول - ﷺ - من قريش مسلما بغير إذن وليه رده إليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه .

رابعا : من أحب أن يدخل فى عقد مع الرسول - ﷺ - فله ما أراد . ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش فله ذلك .

ولقد عز على بعض المسلمين قبول الرسول - ﷺ - لهذه الشروط ، التى ظاهرها الظلم للمسلمين ، حتى قال عمر - رضى الله عنه - للرسول - ﷺ - : يارسول الله ، ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فقال - ﷺ - : « إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى » .

ثم أشار - ﷺ - إلى المسلمين أن يتحللوا من عمرتهم ، بأن ينحروا هديهم ، وأن يحلقوا رءوسهم أو يقصروا . ولكنهم لم يسارعوا بالامتثال ، فدخل - ﷺ - على زوجه أم سلمة - رضى الله عنها - ، وقد ظهر الغضب على وجهه .

فقالت له : يارسول الله ، اعذرهم ، وابدأ بما تأمرهم به دون أن تكلم منهم أحدا .

فقام - ﷺ - فنحر هديه ، ودعا حالقه فحلق له ، فلما رأى المسلمون ذلك من نبيهم ، قاموا فنحروا هديهم ، وجعل بعضهم يحلق بعضا .

ثم أقام المسلمون بعد ذلك عدة أيام بالحديبية ، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة ، وعندما سمع - ﷺ - بعضهم يقول : لقد رجعنا ولم نصنع شيئا ..

قال - ﷺ - « بل فتحتم أعظم الفتح » .

وصدق رسول الله - ﷺ - فى قوله هذا . فقد كان صلح الحديبية فتحا عظيما ، كما نبين ذلك عند تفسيرنا للسورة الكريمة .

وبهذا العرض المجمل لأحداث صلح الحديبية ، نكون قد أعطينا القارىء فكرة مركزة عن هذا الصلح ، وعن الجو العام الذى نزلت فى أعقابه سورة الفتح ، ومن أراد المزيد لمعرفة أحداث صلح الحديبية فليرجع إلى كتب السيرة[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

د . محمد سيد طنطاوى

٩ من شهر ربيع الآخر سنة ١٤٠٦هـ
الموافق ٢١ / ١٢ / ١٩٨٥ م

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٣ من ص ٣٥٥ إلى ص ٣٧٨ وتفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٧ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ
بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

افتتحت سورة « الفتح » بهذه البشارات السامية ، والمدائح العالية للنبى - ﷺ - افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ .

والفتح فى الأصل : إزالة الأغلاق عن الشىء .. وفتح البلد : المقصود به الظفر به ، ووقوعه تحت سيطرة الفاتح .

والذى عليه المحققون من العلماء أن المراد بالفتح هنا : صلح الحديبية وما ترتب عليه من خيرات كثيرة ، ومنافع جمة للمسلمين .

ويشهد لذلك أحاديث متعددة منها : ما أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله - ﷺ - ، وكان قد خرج إليها - ﷺ - يوم الاثنين هلال ذى القعدة ، فأقام بها بضعة عشر يوما ، ثم قفل راجعا إلى المدينة ، فبينما نحن نسير إلى المدينة إذ أتاه الوحى - وكان إذا أتاه اشتد عليه - فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ .

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن مجمع بن جارية الأوسى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله - ﷺ - واقفا عند كراع الغميم - موضع بين مكة والمدينة - وقد جمع الناس وقرأ عليهم : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ الآيات .

فقال رجل : يارسول الله ، أو فتح هو ؟ فقال - ﷺ - : أى والذى نفسى بيده إنه لفتح[1] .

ويرى بعضهم : أن المراد بالفتح هنا : فتح مكة ، والتعبير عنه بالماضى فى قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ لتحقق الوقوع ، فهو من قبيل قوله - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... ﴾ ويبدو لنا أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية لوجود الآثار الصحيحة التى تشهد لذلك ، ولأن هذا الصلح قد ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله من أعظم الفتوح ، إن لم يكن أعظمها .

لقد ترتب عليه أن انتشر الأمان بين المسلمين والمشركين ، فاستطاع المسلمون أن ينشروا دعوة الحق فى مكة وفى غيرها ، كما استطاعوا أن ينتقلوا من مكان إلى آخر للتبشير بدينهم ، فترتب على ذلك أن دخل فى الإسلام عدد كبير من الناس .

قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، و أسلم خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٠٧ وتفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٨٣ .

قال ابن هشام : والدليل على صحة قول الزهرى ، أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج إلى مكة فى عام الفتح - بعد ذلك بسنتين - فى عشرة آلاف من أصحابه .

وقد أكد - سبحانه - هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات ، و هى « إن » والمصدر « فتحا » والوصف « مبينا » وذلك للمسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقق هذا الفتح ، ولإدخال السرور على قلوبهم ، بعد تلك الشروط التى اشتمل عليها الصلح ، والتى ظنها بعضهم أن فيها إجحافا بالمسلمين .

وأسند - سبحانه - الفعل إلى نون العظمة ﴿ فتحنا ﴾ لتفخيم شأن المخبر - عز وجل - وعلو شأن المخبَر عنه وهو الفتح .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ﴿ لك ﴾ على المفعول المطلق ﴿ فتحا ﴾ للاهتمام وللإشعار بأن ذلك الفتح كان من أجله - ﷺ - وفى ذلك ما فيه من تعظيم أمره - ﷺ - ومن وجوب طاعته ، والامتثال لأمره .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على رسوله - ﷺ - فقال : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ليغفر ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ فتحنا ﴾ وهى للتعليل . والمراد بما تقدم من ذنبه - ﷺ - ما كان قبل النبوة ، وبما تأخر منه ما كان بعدها .

والمراد بالذنب هنا بالنسبة له - ﷺ - ما كان خلاف الأولى ، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه - ﷺ - ذنب ، لأن غفران الذنوب معناه : سترها وتغطيتها وإزالتها .

قال الشوكانى : وقوله - تعالى - : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ اللام : متعلقة بفتحنا وهى لام العلة ، قال المبرد : هى لام كى ومعناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا - أى : ظاهرا واضحا مكشوفا - لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح ، فلما انضم إلى المغفرة شىء حادث واقع حسن معنى كى .

وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة ..[١] .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٤ للشوكانى .

وقال بعض العلماء : وقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ هو كناية عن عدم المؤاخذة . أو المراد بالذنب ما فرط منه - ﷺ - من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه - ﷺ - أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه ذنب . لأن الغفر هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب ، وهو اللائق بمقام النبوة ، أو بين الذنب وعقوبته ، وهو اللائق بغيره .

واللام فى ﴿ ليغفر ﴾ للعلة الغائية . أى : أن مجموع المتعاطفات الأربعة غاية للفتح المبين ، وسبب عنه لا كل واحد منها .

والمعنى : يسرنا لك هذا الفتح لإتمام النعمة عليك ، وهدايتك إلى الصراط المستقيم ، ولنصرك نصرا عزيزا .

ولما امتن الله عليه بهذه النعم ، صدرها بما هو أعظم ، وهو المغفرة الشاملة ليجمع له بين عزى الدنيا والآخرة . فليست المغفرة مسببة عن الفتح[1] .

ولقد كان - ﷺ - مع هذه المغفرة من الله - تعالى - له ، أعبد الناس لربه ، وأشدهم خوفا منه ، وأكثرهم صلة به .

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبى - ﷺ - يصلى حتى تَرِمَ قدماه أى : تتورم - فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » ..

وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كان رسول الله - ﷺ - إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه - أى : تتشقق - فقالت له عائشة : يارسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ .

فقال : « ياعائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا .. »[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ معطوف على ما قبله . أى : ويتم - سبحانه - نعمه عليك - أيها الرسول الكريم - بأن يظهر دعوتك ، ويكتب لها النصر ، والخلود ، ويعطيك من الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء ، فضلا عن غيرهم .

﴿ ويهديك صراطا مستقيما ﴾ أى : ويهديك ويرشدك - سبحانه - بفضله وكرمه ، إلى

---

(١) تفسير صفوة البيان جـ ٢ ص ٣٣٣ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠٩ .

الطريق القويم ، والدين الحق ، والأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة ..

﴿ وينصرك الله ﴾ - تعالى - ﴿ نصرا عزيزا ﴾ أى : نصرا قويا منيعا لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، لأنه من خالفك الذى لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ..

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله - تعالى - قد أكرم نبيه - ﷺ - إكراما لا يدانيه إكرام ، ومنحه من الخير والفضل ما لم يمنحه لأحد سواه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين فقال : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .. ﴾ ..

والسكينة : من السكون ، والمراد بها الثبات والطمأنينة التى أودعها - سبحانه - فى قلوب المؤمنين ، فترتب على ذلك أن أطاعوا الله ورسوله ، بعد أن ظنوا أن فى شروط صلح الحديبية ظلما لهم . وأن بايعوا النبى - ﷺ - على الموت بعد أن بلغهم أن عثمان - رضى الله عنه - قد قتله المشركون ، وفى التعبير عن ذلك بالإنزال ، إشعار بعلو شأنها ، حتى لكأنها كانت مودعة فى خزائن رحمة الله - تعالى - ، ثم أنزلها بفضله فى قلوبهم بعد ذلك ..

أى : هو - سبحانه - بفضله ورحمته ، الذى أنزل السكينة والطمأنينة والثبات فى قلوب المؤمنين ، فانشرحت صدورهم لهذا الصلح بعد أن ضاقت فى أول الأمر .

وقوله : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ تعليل لهذا الانزال للسكينة .

أى : أوجد السكينة وخلقها فى قلوبهم ، ليزدادوا يقينا على يقينهم ، وتصديقا إلى تصديقهم وثباتا على ثباتهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾[1] .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، أن الإيمان يزيد وينقص .

قال الآلوسى ما ملخصه : قال البخارى : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدًا منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص .

واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل . أما العقل ، فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين فى الفسوق والمعاصى ، مساويا لإيمان الأنبياء ، واللازم باطل ، فكذا الملزوم ..

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٤ .

وأما الثانى : فلكثرة النصوص فى هذا المعنى ، ومنها الآية التى معنا وأمثالها ، ومنها وما روى عن ابن عمر قال : قلنا : يارسول الله ، إن الايمان يزيد وينقص ، قال : « نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخله النار ».

وقال الإمام النووى وغيره : إن الايمان بمعنى التصديق القلبى ، يزيد وينقص - أيضا بكثرة النظر ، ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم ..[1] .

ثم بين - سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾ . أى : ولله - تعالى - وحده جنود السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس ، إذ الكل تحت قهره وسلطانه ، فهو - سبحانه - الذى يدبر أمرهم كيف شاء ، ويدفع بعضهم ببعض كما تقتضى حكمته وإرادته ، وهو - تعالى - العليم بكل شىء . الحكيم فى جميع أفعاله ...

واللام فى قوله - سبحانه - : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ... ﴾ متعلقة بمحذوف أو بقوله : ﴿ فتحنا ﴾ ..

أى : فعل - سبحانه - ما فعل من جعل جنود السموات والأرض تحت سيطرته وملكه ، ومن دفع الناس بعضهم ببعض ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . ﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ التى فعلوها فى دنياهم ، بأن يغفرها لهم ، ويزيلها عنهم ، بل ويحولها لمن شاء منهم بفضله وكرمه إلى حسنات .

﴿ وكان ذلك ﴾ الإدخال للمؤمنين الجنة ، وتكفير سيئاتهم ..

﴿ عند الله ﴾ - تعالى - ﴿ فوزا عظيما ﴾ لا يقادر قدره ، لأنه نهاية آمال المؤمنين ، وأقصى ما يتمناه العقلا المخلصون .

﴿ ويعذب ﴾ - سبحانه - بعدله ﴿ المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ...﴾ .

أى : الظانين بالله - تعالى - وبرسوله وبالمؤمنين الظن السيئ بأن توهموا أن الدائرة ستدور على المؤمنين وأنهم هم الذين سينتصرون . أو أنهم هم على الحق . وأن الرسول - ﷺ - وأتباعه على الباطل .

فقوله : ﴿ السوء ﴾ صفة لموصوف محذوف . أى : الظانين بالله ظن الأمر السوء .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٩٢ .

وقوله - تعالى - ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم بأن ينزل بهم ما توقعوه للمؤمنين من سوء . أى : عليهم وحدهم ينزل ما يتمنونه للمؤمنين من شر وسوء .

والدائرة فى الأصل : تطلق على الخط المحيط بالشىء . ثم استعملت فى النازلة المحيطة بمن نزلت به . وتستعمل أكثر ما تستعمل فى المصائب والمكاره .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أى : ما يظنونه ويتوقعونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم . والسوء : الهلاك والدمار .

فإن قلت : هل من فرق بين السَّوْء والسُّوء ؟ قلت : هما كالكَره والكُره ، والضَّعف والضُّعف : من ساء ، إلا أن المفتوح غالب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شىء ، وأما السوء بالضم ، فجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير[1] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

أى : ليس عليهم دائرة السوء فقط ، بل وفضلا عن ذلك فقد غضب الله - تعالى - عليهم ، وطردهم من رحمته ، وأعد لهم فى الآخرة نار جهنم ، وساءت هذه النار مصيرا لهم .

ثم أكد - سبحانه - ملكيته لكل شىء فقال : ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما ﴾، أى : ولله - تعالى - وحده جنود السموات والأرض ، وكان - سبحانه - ومازال غالبا على كل شىء ، حكيما فى كل أوامره ونواهيه . وفى كل تصرفاته وأفعاله .

ولما كان المقصود من ذكر الجنود هنا : تهديد المنافقين والمشركين ، وأنهم فى قبضته - تعالى - ، ناسب أن تذيل الآية هنا بقوله : ﴿ وكان الله عزيزا حكيما ﴾ لأن العزة تقتضى الغلبة للغير .

ولما كان المقصود من ذكر الجنود فى الآية الرابعة ، بيان أن المدبر لهذا الكون هو الله - تعالى - ناسب أن تذيل الآية هناك بقوله - سبحانه - : ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ .

ثم حدد الله - تعالى - الوظيفة التى كلف بها رسوله - ﷺ - وبشر المؤمنين الذين وفوا بعهودهم بالأجر العظيم فقال :

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٣٤ .

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

وقوله : ﴿ مبشرا ﴾ من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .

وقوله : ﴿ ونذيرا ﴾ من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف ، لكى يجتنب ويحذر .

أى : ﴿ إنا أرسلناك ﴾ - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون ﴿ شاهدا ﴾ لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .

ولتكون ﴿ مبشرا ﴾ للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ﴿ ونذيرا ﴾ للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم .

والحكمة فى جعله - ﷺ - شاهدا مع أن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء : إظهار العدل الإلهى للناس فى صورة جلية واضحة ، وتكريم النبى - ﷺ - بهذه الشهادة .

وجمع - سبحانه - بين كونه - ﷺ - ﴿ مبشرا ونذيرا ﴾ لأن من الناس من ينفعه الترغيب فى الثواب ، ومنهم من لا يزجره إلى التخويف من العقاب . وانتصاب ﴿ شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ على الحال المقدرة .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ... ﴾[(١)] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء .. ﴾[(٢)] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٨٩ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٥ .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله - ﷺ - فقال : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

وقوله : ﴿ وتعزروه ﴾ من التعزير بمعنى النصرة مع التعظيم والتفخيم .

وقوله : ﴿ وتوقروه ﴾ أى : تعظموه وتقدروه .

وقوله : ﴿ وتسبحوه ﴾ من التسبيح بمعنى التنزيه . تقول : سبحت الله - تعالى - ، أى : نزهته عما لا يليق به ، و﴿ بكرة ﴾ أول النهار ، و﴿ أصيلا ﴾ آخره ، والمراد ظاهرهما ، أو جميع أوقات النهار ، كما يقال : شرقا وغربا لجميع الجهات .

والخطاب للرسول - ﷺ - ولأمته ، كقوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء ...﴾ والقراءة بتاء الخطاب ، هى قراءة الجمهور من القراء .

قال الآلوسى : وهو من باب التغليب ، غلب فيه المخاطب على الغائب فيفيد أن النبى - ﷺ - مخاطب بالإيمان برسالته كأمته ..[١] .

أى : أرسلناك - أيها الرسول الكريم - شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به ، وليتبعك فى ذلك أصحابك ومن سيأتى بعدهم ، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا ، ولينصروك ويعظموك ، وليسبحوا الله - تعالى - فى الصباح والمساء . وعلى هذا يكون الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿وتعزروه وتوقروه ﴾ يعود إلى الرسول - ﷺ - وفى قوله ﴿ وتسبحوه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - .

قال القرطبى ما ملخصه : قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليؤمنوا ﴾ وكذلك ﴿ يعزروه ويوقروه ويسبحوه ﴾ كله بالياء على الخبر ..

وقرأ الباقون بالتاء فى الخطاب ... والهاء فى قوله : ﴿ وتعزروه وتوقروه ﴾ للنبى - ﷺ - وهنا وقف تام . ثم تبتدىء بقوله : ﴿ وتسبحوه ﴾ أى : تسبحوا الله بكرة وأصيلا .

وقيل : الضمائر كلها لله - تعالى - فعلى هذا يكون تأويل : ﴿ تعزروه وتوقروه ﴾ أى : تثبتوا له صحة الربوبية ، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك ..[٢] .

ثم مدح - سبحانه - الذين عاهدوا الرسول - ﷺ - ووفوا بعهودهم أكمل وفاء ، فقال : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله .. ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٩٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٦٦ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يبايعونك ﴾ من المبايعة أو من البيعة ، بمعنى المعاهدة أو العهد ، وسميت المعاهدة مبايعة ، لاشتمال كل واحدة منهما على معنى المبادلة ، وعلى وجوب الصدق والوفاء .

والمراد بهذه المبايعة ، ما كان من المؤمنين فى صلح الحديبية ، عندما عاهدوا الرسول - ﷺ - على الثبات وعلى مناجزة المشركين بعد أن أشيع أنهم قتلوا عثمان - رضى الله عنه - . أى : إن الذين يبايعونك على الموت أو على عدم الفرار عند لقاء المشركين ، إنما يبايعون ويعاهدون الله - تعالى - على ذلك قبل أن يبايعوك أنت ، لأن المقصود من هذه البيعة إنما هو طاعته - سبحانه - وامتثال أمره ، كما قال - تعالى - : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ . فالمقصود بقوله : ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ تأكيد وجوب الوفاء بما عاهدوا الرسول - ﷺ - عليه من الثبات وعدم الفرار ، والطاعة له فى كل ما يأمرهم به .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ زيادة فى تأكيد وجوب الوفاء .

ومذهب السلف فى هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات : أنه يجب الإيمان بها ، وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله - تعالى - وترك تأويلها مع تنزيهه - تعالى - عن حقيقتها ، لاستحالة مشابهته - تعالى - بالحوادث ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

أما الخلف فمذهبهم تأويل هذه الصفات على معنى يليق بجلاله ، فيؤولون اليد هنا بالقوة أو القدرة . أى : قوة الله - تعالى - وقدرته ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ، كما يقال : اليد فى هذه المسألة لفلان ، أى : الغلبة والنصرة له .

أو المعنى : يد الله - تعالى - بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق أيديهم ..

والمقصود بهذه الجملة - كما أشرنا - زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والثبات .

قال صاحب الكشاف : لما قال - سبحانه - : ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أكده تأكيداً على سبيل التمثيل ، فقال : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ يريد أن يد رسول الله - ﷺ - التى تعلو أيدى المبايعين : هى يد الله ، والله - تعالى - منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ..

وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق من الرسول - ﷺ - كعقده مع الله - تعالى -[1] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الناكثين فقال : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٣٥ .

أى : فمن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه ، فإنما عاقبة نقضه يعود وبالها وشؤمها عليه .

فقوله ﴿ نكث ﴾ مأخوذ من النَّكث - بكسر النون - وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها ، وقوله : ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾ أى : ومن ثبت على الوفاء بما عاهد الله - تعالى - عليه فسيعطيه - سبحانه - من فضله أجرا عظيما على ذلك .

والهاء فى قوله : ﴿ عليه ﴾ قرأها حفص بالضم ، توصلا إلى تفخيم لفظ الجلالة ، الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام ، وقرأها الجمهور بالكسر .

هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة ، تصرح بأن الذين كانوا مع النبى - ﷺ - فى صلح الحديبية قد بايعوا جميعا النبى - ﷺ- على الموت أو على عدم الفرار ، سوى جماعة من المنافقين ، امتنعوا عن هذه البيعة ، لمرض قلوبهم ، وسوء طويتهم ..

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء ؟ قال : على الموت .

وروى مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أنه سئل : كم كان عددكم يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ، فبايعنا الرسول - ﷺ - على أن لا نفر - سوى الجد بن قيس فإنه اختفى تحت بطن بعيره ، ولم يسرع مع القوم ..

وهكذا فاز المؤمنون الصادقون بشرف هذه البيعة وحرم منها المنافقون لمرض قلوبهم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن المتخلفين ، الذين لم يخرجوا مع النبى - ﷺ - إلى صلح الحديبية ، فتحكى أعذارهم الزائفة ، وتفضحهم على رءوس الأشهاد ، وترد على أقوالهم الباطلة ، وتأمر النبى - ﷺ - بالإعراض عنهم ، وإهمال أمرهم ، فهم قوم استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ..

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ

أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟
كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾
قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : لما بين - سبحانه - حال المنافقين ، ذكر المتخلفين - بعد ذلك - فإن قوما من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله - ﷺ - إلى مكة ، لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا : أهل مكة قاتلوه على باب المدينة .. فكيف يذهب إليهم .. واعتذروا عن الخروج معه - ﷺ -[1] .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٥٤١ .

والمخلفون : جمع مُخلَّف ، وهو المتروك فى مكان خلف الخارجين من البلد كالنساء والصبيان ، فإنهم فى العادة لا يخرجون مع الرجال للجهاد ، وعبر عنهم بالمخلفين على سبيل الذم لهم .

والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابى ، والأنثى أعرابية ، والمقصود بهم هنا سكان البادية من قبائل غِفَار ، ومُزَينة ، وجُهَينة ، وأشجع ، وأسلم ، والدِّيل ، وكان الرسول - ﷺ - قد دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة ، ليساعدوه على إقناع قريش فى الإذن بدخول مكة للطواف بالبيت الحرام .. ولكنهم اعتذروا .

وقوله - سبحانه - سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا .. إعلام من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بما سيقوله هؤلاء المتخلفون له ، بعد عودته إليهم من صلح الحديبية .

أى : سيقول المخلفون لك - أيها الرسول الكريم - : إننا ما تخلفنا عنك باختيارنا ، ولكن انشغالنا بحفظ ورعاية أموالنا ونسائنا وأولادنا الصغار ، حال بيننا وبين الخروج معك إلى الحديبية ، وما دام الأمر كذلك ﴿ فاستغفر لنا ﴾ الله - تعالى - لكى يغفر لنا ذنوبنا التى وقعنا فيها بسبب هذا التخلف الذى لم يكن عن تكاسل أو معصية لك .

ولما كان قولهم هذا لم يكن صحيحا ، فقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾ . أى : هم ليسوا صادقين فيما يقولون ، والحق أنهم يقولون قولا من أطراف ألسنتهم ، دون أن تؤيده قلوبهم ، فإن السبب الحقيقى لعدم خروجهم معك ، هو ضعف إيمانهم ، ومرض قلوبهم ، وتذبذب نفوسهم .

فالجملة الكريمة تكذيب لهم فيما قالوه ، وفضيحة لهم على رءوس الأشهاد .

ثم أمر الله - تعالى - أن يجابهم بقوله : ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ﴾ .. والاستفهام للإنكار والنفى .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المتخلفين من الأعراب لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم قضاء الله - تعالى - ، إن أراد بكم مايضركم من قتل أو هزيمة ، أو إن أراد بكم ما ينفعكم ، من نصر أو غنيمة ؛ لأن قضاء الله - تعالى - لا دافع له ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾[1] ..

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

ثم أضرب - سبحانه - عن ذلك وقال : ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ أى : إن تخلفكم ليس سببه مازعمتم ، بل الحق أن تخلفكم كان بسبب ضعف إيمانكم ، والله - تعالى - مطلع على أحوالكم اطلاعا تاما ، وسيجازيكم بما تستحقون .

ثم أكد - سبحانه - كذبهم بإضراب آخر عن أقوالهم فقال : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ والبور فى الأصل : مصدر كالهُلْك ، يوصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .

وهو هنا مستعمل بمعنى اسم الفاعل . وقيل : هو جمع بائر ، كحائل وحول .

قال صاحب الكشاف والبور من بار ، كالهُلْك من هَلَك بناء ومعنى ، ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ ..[٢] .

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المخلفون - من أن أموالكم وأولادكم هى التى شغلتكم عن الخروج مع رسولكم - ﷺ - ولكن الحق أنكم ظننتم أن العدو سيستأصل شأفة المؤمنين بالقتل والإهلاك . وأنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى أهليهم أبدا ..

وزين الشيطان هذا الظن الفاسد فى قلوبكم ، ومكنه من نفوسكم فقبعتم فى دياركم ، وظننتم ، فى كل ما يتعلق بالرسول - ﷺ - وبأتباعه الصادقين ﴿ ظن السوء ﴾ أى : الظن الذى كله سوء وشر ومنكر ..

﴿ وكنتم ﴾ فى علم الله - تعالى - وحكمه ﴿ قوما بورا ﴾ أى : قوما هالكين فاسدين ، لا تصلحون لشىء من الخير ، ولا تستحقون إلا الخزى والعقاب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذم هؤلاء المتخلفين وفضحهم وتوعدهم بسوء المصير ، لأسباب متعددة ، منها : سوء ظنهم بالله - تعالى - وبرسوله ، - ﷺ - فقد توهموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون على يد أعدائهم ، وأنهم لن يعودوا إلى أهليهم أبدا .

ومنها : اعتذارهم الكاذب ، بانشغالهم بأموالهم وأهليهم ..

ومنها : تعمدهم الكذب . وتفوههم بالكلام الذى لا تؤيده قلوبهم .

ثم ختم - سبحانه - هذا الذم والتهديد للمتخلفين بقوله : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا ﴾ .

أى : ومن لم يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وبصدق الرسول - ﷺ - فى كل ما جاء

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٢٧ .

به من عند ربه ، ويطيعه فى كل ما أمر به أو نهى عنه ، عاقبناه عقابا شديدا ، فإنا قد هيأنا للكافرين نارا مسعرة ، تحرق الأبدان ، وتشوى الوجوه ..

ثم بين - سبحانه - أنه هو المالك لكل شىء فقال : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ خَلْقا وتصرفا ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه .

﴿ وكان ﴾ - سبحانه - ومازال ﴿ غفورا ﴾ أى : واسع المغفرة ﴿ رحيما ﴾ أى : واسع الرحمة .

ثم عادت السورة الكريمة إلى حكاية أقوال هؤلاء المنافقين ، وإلى الرد عليها ، فقال - تعالى - : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم .. ﴾ .

والمراد بالمخلفين هنا : السابقون الذين وصفوا بأنهم من الأعراب ، فاللام للعهد .

أى : سيقول المخلفون عن الخروج معك يا محمد إلى مكة بعد أن خاب ظنهم فرجعتم سالمين إليهم بعد صلح الحديبية ، سيقولون لك ولأصحابك : ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ أى : اتركونا لنسير معكم ، لنشارككم فى جمع الغنائم التى تنالونها من أعدائكم .

فقوله ﴿ ذرونا ﴾ بمعنى اتركونا ودعونا .

قال الآلوسى : والمراد بالمغانم هنا : مغانم خيبر - كما عليه عامة المفسرين - ولم نقف على خلاف فى ذلك ، وأيد بأن السين تدل على القرب ، وخيبر أقرب المغانم التى انطلقوا إليها من الحديبية - كما علمت - ، فإرادتها كالمتعينة ، وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن الله - تعالى - وعد أهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر ، إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئا »[1] .

وقد كان رجوع النبى - ﷺ - وأصحابه من صلح الحديبية فى ذى الحجة من السنة السادسة ، وخروجهم إلى خيبر كان فى المحرم من السنة السابعة ، وقد أصاب المسلمون من خيبر غنائم كثيرة ، وقد جعلها - ﷺ - لمن شهد معه صلح الحديبية دون غيرهم .

وقوله : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ أى : يريد هؤلاء المخلفون بقولهم ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ أن يغيروا حكم الله - تعالى - الذى حكم به ، وهو أن غنائم خيبر خاصة لمن شهد صلح الحديبية ، أما هؤلاء المخلفون فلا نصيب لهم فيها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٠١ .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الرد الذى يخرسهم فقال : ﴿ قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ...﴾ أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المخلفين - على سبيل الإقناط والتيئيس والزجر - لا تتبعونا ونحن متجهون إلى خيبر لفتحها . فالنفى فى قوله ﴿ لن تتبعونا ﴾ بمعنى النهى للمبالغة فى منعهم من الخروج مع المؤمنين إلى خيبر .

وقوله : ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ أى : مثل هذا النهى الصادر منى قد قاله الله - تعالى - من قبل رجوعنا من الحديبية ، فقد أمرنى بمنعكم من الخروج معى إلى خيبر ، وبحرمانكم من غنائمها ، عقابا لكم على معصيتكم لى ، وعلى سوء ظنكم بى وبأصحابى ..

ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد مجابهتهم بتلك الحقيقة فقال : ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا﴾ .

أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - بعد منعك إياهم من الخروج معكم إلى خيبر ، وبعد أن ذكرت لهم حكم الله فيهم .. سيقولون لك على سبيل السفاهة وسوء الأدب : أنتم أيها المؤمنون تريدون بسبب هذا المنع من الخروج معكم إلى خيبر ، أن تحسدوننا وتمنعوننا حقنا فى الغنيمة ، والله - تعالى - لم يأمركم بمنعنا ، وإنما أنتم الذين فعلتموه حسدا لنا .

وقوله : ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ إضراب عن قولهم هذا على سبيل التسلية للرسول - ﷺ - أى : ليس الحق كما زعموا ، بل الحق أنهم قوم دأبهم الحمق والجهالة ، ولا يفقهون من أمور الدين إلا فقها قليلا ، لا يسمن ولا يغنى من جوع .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين حرفى الإضراب ؟ قلت : الأول إضراب معناه : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثانى : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه..[1] .

ثم فتح - سبحانه - أمام هؤلاء المخلفين من الأعراب باب التوبة ، فأمر النبى - ﷺ - أن يدعوهم إلى الجهاد معه ، فإن صدقوا أفلحوا ، وإن أعرضوا خسروا فقال : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المخلفين من الأعراب عن الخروج معك ، ستدعون فى المستقبل إلى القتال معى لقوم أصحاب قوة وشدة فى الحرب ، فيكون بينكم وبينهم أمران لا ثالث لهما : إما قتالكم لهم ، وإما الإسلام منهم .

« فأو » فى قوله ﴿ أو يسلمون ﴾ للتنويع والحصر . وجملة « تقاتلونهم أو يسلمون »

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٢٨ .

مستأنفة للتعليل ، كما فى قوله : سيدعوك الأمير للقائه يكرمك أو يخزى عدوك .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بهؤلاء القوم أولى البأس الشديد ، فمنهم من قال : فارس والروم ، ومنهم من قال : بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب .

والذى عليه المحققون من العلماء أن المقصود بهم : هوزان وثقيف الذين التقى بهم المسلمون فى غزوة حنين بعد فتح مكة .

وذلك لأن عددا كبيرا من تلك القبائل المتخلفة قد اشتركت فى تلك الغزوة ، حتى لقد بلغ عدد المسلمين فيها ما يقرب من اثنى عشر ألفا ، ولأن أهل هوازن وثقيف قد كانوا يجيدون الرماية والكر والفر ، فاستطاعوا فى أول المعركة - بعد أن اغتر المسلمون بقوتهم - أن يفرقوا بعض صفوف المسلمين ، ثم تجمع المسلمون بعد ذلك وانتصروا عليهم ، ثم كانت النتيجة أن انتهت تلك الغزوة بإسلام هوازن وثقيف . كما هو معروف فى كتب السيرة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان بين المسلمين وبين هوازن وثقيف من قتال فى قوله - تعالى - : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم ﴾[١] .

وقد رجح فضيلة شيخنا الدكتور أحمد السيد الكومى أن يكون المقصود بالقوم أولى البأس الشديد هوازن وثقيف ، فقال ما ملخصه : وتكاد تتفق كتب السيرة على أن الجيش الذى ذهب لفتح مكة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى غزو هوازن وثقيف يوم حنين ، كان يضم بين جوانحه العدد الكثير من قبائل أسلم وأشجع وجهينة وغفار ومزينة .

وإذن فالأمر المحقق أن القبائل المتخلفة يوم الحديبية ، ساهمت فى الجهاد بقسط وافر يوم فتح مكة ، ويوم حنين ..

وقد أقام المسلمون بمكة بعد أن فتحوها - بدون قتال يذكر - خمسة عشر يوما .. ثم ذهبوا لقتال هوازن وثقيف .. وكانوا رماة مهرة ذوى مهارة حربية ، ودراية بفنون القتال فهزموا المسلمين فى أول الأمر ، ثم هزمهم المسلمون .

ومن كل ذلك يترجح الحكم بأن هؤلاء القوم هم هوازن ، وأن كثيرا من المخلفين أسلم

(١) سورة التوبة الآيات ٢٥ - ٢٧ .

إسلاما خالصا ، وحسنت توبته ..[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ﴾ بيان للثواب العظيم الذى أعده - سبحانه - للطائفين ، وللعذاب الأليم الذى توعد به الفاسقين .

أى : فإن تطيعوا - أيها المخالفون - رسولكم - ﷺ - يؤتكم الله من فضله أجرا حسنا ، وإن تتولوا وتعرضوا عن الطاعة ، كما أعرضتم من قبل فى صلح الحديبية عن طاعته ، يعذبكم - سبحانه - عذابا أليما .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات برفع الحرج عن الذين تخلفوا لأعذار حقيقية فقال : ﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ..﴾ .

أى : ليس على هؤلاء إثم فى التخلف عن الجهاد ، لما بهم من الأعذار والعاهات المرخصة لهم فى التخلف عنه .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما أَمراً به أو نَهيَا عنه ، ﴿ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول ﴾ عن طاعتهما ﴿ يعذبه ﴾ الله - تعالى - ﴿ عذابا أليما ﴾ لا يقادر قدره .

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين الصادقين ببشارات متنوعة ، ومدحهم مدحا عظيما ، وبين - سبحانه - أن سنته فى خلقه لن تتخلف ، فقال - تعالى - :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا

(١) راجع تفسير سورة الفتح ص ٨٩ وما بعدها لفضيلة أستاذنا الدكتور أحمد الكومى .

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...﴾ هى الموطئة للقسم ، وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان .

والشجرة : كانت بالحديبية ، وقد جلس - ﷺ - تحتها ليبايع أصحابه على الموت أو على عدم الفرار ، فبايعوه على ذلك - ما عدا بعض المنافقين - ، وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحتها ، ويدعون الله - تعالى - .. فأمر عمر - رضى الله عنه - قطعها خشية الافتتان بها . أى : والله لقد رضى الله - تعالى - عن المؤمنين الذين بايعوك - أيها الرسول الكريم - تحت الشجرة ، على الموت من أجل إعلاء كلمة ربهم .

وفى هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان ، وهو رضا الله - تعالى - عنه ودخوله فى زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته - سبحانه - ورحمته .

قال الآلوسى - رحمه الله - : والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة . وقوله - سبحانه - : ﴿ تحت الشجرة ﴾ متعلق بيبايعونك ... وفى التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة فى النفوس . ولذا استوجبت رضا الله - تعالى - الذى لا يعادله شىء ، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال .

ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر ، ومسلم عن أم بشر ، عنه ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » ..

وصح برواية الشيخين وغيرهما فى أولئك المؤمنين من حديث جابر ، أنه - ﷺ - قال لهم

« أنتم خير أهل الأرض .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ﴾ بشارة أخرى لهؤلاء المؤمنين الصادقين .

أى : لقد رضى - سبحانه - عن الذين بايعوك تحت الشجرة - أيها الرسول الكريم - حيث علم ما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص وإيثار الآخرة على الأولى ، فأنزل السكينة والطمأنينة والأمان عليهم ، ﴿ وأثابهم ﴾ أى : وأعطاهم ومنحهم فتحا قريبا ، وهو فتح خيبر ، الذى كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين .

وقيل المراد به : فتح مكة ، والأول أرجح ، لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه ، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة .

وقد أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى تلك الغنائم فقال : ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ... ﴾ .

أى : وأثابكم مغانم كثيرة تأخذونها من خيبر . ﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ومازال ﴿ عزيزا ﴾ أى : غالبا ﴿ حكيما ﴾ فى كل أفعاله وأحكامه .

﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ... ﴾ أيها المؤمنون من أعدائكم فى مستقبل أيامكم .

وقد صدق الله - تعالى - وعده معهم ، فلقد غنموا بعد ذلك من بلاد فارس والروم وغيرهما .

والإشارة فى قوله ﴿ فعجَّل لكم هذه ﴾ تعود إلى مغانم خيبر ، كما روى عن مجاهد - وعليه يكون المراد بالناس فى قوله : ﴿ وكف أيدى الناس عنكم ﴾ أهل خيبر وحلفاءهم من بنى أسد وغطفان حين جاءوا لنصرة يهود خيبر ، فألقى الله الخوف فى قلوبهم جميعا .

ويرى بعض المفسرين أن الإشارة فى قوله : ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ إلى صلح الحديبية وقد روى ذلك عن ابن عباس .

وعليه يكون المراد بالناس فى قوله : ﴿ وكف أيدى الناس عنكم ﴾ مشركى قريش ، أى : منعهم من حربكم ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب منكم .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الذى قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - هو الأقرب إلى الصواب ، لأنه يتسق مع سياق الآيات ، ولأنه يؤكد أن صلح الحديبية كان فتحا ومغنما ، كان فتحا بدليل قول الرسول - ﷺ - لمن شك فى ذلك : « أى والذى نفسى بيده إنه لفتح »

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٠٨ .

وكان مغنما لأن المسلمين غنموا من ورائه انتشار الدعوة الإسلامية فى آفاق الأرض .

واللام فى قوله : ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ متعلقة بمحذوف ، أى فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون تلك النعم والبشارات علامات للمؤمنين على رعاية الله - تعالى - لهم ، ورضاه عنهم .

﴿ ويهديكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ صراطا مستقيما ﴾ أى : طريقا واضحا قويما ، به تصلون إلى ما تبغونه من عزة وأمان .

وقوله : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ... ﴾ معطوف على ﴿ هذه ﴾ .

أى : فعجل لكم هذه المغانم ، وعجل لكم مغانم أخرى ، لم تقدروا على الحصول عليها قبل ذلك لبعدها عن أن تنالها أيديكم . وقد أحاط الله بها لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا﴾ .

وتختلف الأقوال فى هذه المغانم الأخرى فمنهم من يرى أنها فتح مكة ، ومنهم من يرى أنها فتح خيبر . ومنهم من يرى أنها مغانم هوازن وثقيف ، ومنهم من يرى أنها مغانم المسلمين من الفرس والروم .

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال أولها ، لأنه ترتب على هذا الصلح فى الحديبية أن فتحت مكة بعد سنتين منه ، بسبب نقض المشركين له ، وقد تم فتحها بدون قتال يذكر ، بعد أن حدث ما حدث بين المسلمين وبين مشركى مكة من قتال انتصر فيه المسلمون تارة كغزوة بدر ، وانتصر فيه المشركون أخرى كغزوة أحد ...

فالمسلمون لم يقدروا على دخول مكة إلا فى عام الفتح ، وبعد أن أحاط الله - تعالى - بها بقدرته التى لا يغلبها شىء ، وبعد أن استعصت على المسلمين زمنا طويلا ، وقد سلمها - سبحانه - لهم بأقل أنواع القتال ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ .

والذى يتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى الله - تعالى - ، قد بشر المسلمين الذين شهدوا صلح الحديبية ببشارات متعددة .

بشرهم - أولا - برضاه عنهم - وهذه أسمى بشارة وأعلاها ..

وبشرهم - ثانيا - بتفضله عليهم بمنحهم السكينة والطمأنينة التى تجعلهم فى ثبات وأمان ..

وبشرهم - ثالثا - بفتوحات وغنائم منها القريب العاجل ، ومنها الآجل المتحقق ، الذى يكاد لتحققه أن يشاهدوه بأعينهم لأن الله - تعالى - وعد به ووعده لا يتخلف .

ثم بشرهم - رابعا - بأنهم هم المنصورون لأن سنته قد اقتضت ذلك، فقال: ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ... ﴾ وتولية الأدبار كناية عن الهزيمة، لأن المنهزم يعطى ظهره لمن انتصر عليه. أى: ولو قاتلكم الذين كفروا وأنتم على تلك الحالة من قوة الإيمان، وصدق العهد، وإخلاص النية، وحسن الاستعداد، ومباشرة الأسباب .. لولوا الأدبار أمامكم ﴿ ثم لايجدون وليا ﴾ يعينهم ﴿ ولا نصيرا ﴾ لنصرهم.

وقوله ﴿ سنة الله التى قدخلت من قبل .. ﴾ زيادة فى تثبيتهم وفى إدخال السرور على قلوبهم .. ولفظ ﴿ سنة ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف. أى: سن الله انتصار أهل الحق على أهل الباطل سنة قديمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ ولن تجد ﴾ أيها العاقل - ﴿ لسنة الله ﴾ - تعالى - ﴿ تبديلا ﴾ أو تغييرا أو تحويلا.

وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى -: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[1].

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة من نعمه التى أنعمها عليهم فى رحلتهم هذه التى انتهت بصلح الحديبية فقال: ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم، ببطن مكة، من بعد أن أظفركم عليهم .. ﴾.

والمراد ببطن مكة: الحديبية، وسميت بذلك لأنها قريبة من مكة. أى: وهو - سبحانه - الذى منع المشركين - بقدرته وحكمته من مهاجمتكم والاعتداء عليكم، ومنعكم من مهاجمتهم وقتالهم، فى هذا المكان القريب من مكة، وكان ذلك بعد أن نصركم عليهم، وجعلكم أعلى منهم فى القوة والحجة والثبات، وكان - سبحانه - ومازال ﴿ بما تعملون بصيرا ﴾.

وقد ذكروا فى هذا الظفر روايات منها ما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول الله - ﷺ - وأصحابه. ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله - ﷺ - فدعا عليهم، فأخذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية »[2].

فالآية الكريمة تذكير من الله - تعالى - لعباده المؤمنين، بجانب من نعمه عليهم، ورحمته بهم. وهو تذكير يتعلق بأمور شاهدوها بأعينهم، وعاشوا أحداثها، وعند ما يأتى التذكير بالأمور المشاهدة المحسوسة، يكون أدعى إلى الشكر لله - عز وجل -.

---

(١) سورة الصافات، الآيات ١٧١ - ١٧٣.

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٢٣ وتفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١١١.

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة أخرى من نعمه عليهم، وكشف لهم عن جانب من حكمته فى منع القتال بينهم وبين مشركى مكة، وفى هدايتهم إلى هذا الصلح فقال:

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

والمراد بالذين كفروا فى قوله - تعالى - : ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم ﴾ مشركو قريش، الذين منعوا النبى - ﷺ - من دخول مكة، ومن الطواف بالبيت الحرام.

والهدى: مصدر بمعنى المفعول، أى: المهدى، والمقصود به ما يهدى إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقر والغنم، ليذبح تقربا إلى الله - تعالى - وكان مع المسلمين فى رحلتهم هذه التى تم فيها صلح الحديبية سبعين بدنة - على المشهور - . ولفظ الهدى قرأه الجمهور بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى قوله: ﴿ صدوكم ﴾ وقرأه أبو عمرو بالجر عطفا على المسجد ..

وقوله: ﴿ معكوفا ﴾ أى: محبوسا. يقال: عكفه يعكفه عكفا، إذا حبسه ومنه الاعتكاف فى المسجد، بمعنى الاحتباس فيه، وهو حال من الهدى.

وقوله: ﴿ أن يبلغ محله ﴾ منصوب بنزع الخافض، أى: عن أن يبلغ محله، أى: مكانه الذى يذبح فيه وهو منى.

والتعبير بقوله: ﴿ هم الذين كفروا .. ﴾ تصريح بذمهم وتوبيخهم على موقفهم المشين من المؤمنين، الذين لم يأتوا إلى مكة لحرب، وإنما أتوا لأداء شعيرة من شعائر الله .

أى : هم فى ميزان الله واعتباره الكافرون حقا . لأنهم صدوكم ومنعوكم - أيها المؤمنون - عن دخول المسجد الحرام، وعن الطواف به، ولم يكتفوا بذلك، بل منعوا الهدى المحبوس من أجل ذبحه على سبيل التقرب به إلى الله - تعالى - من الوصول إلى محله الذى يذبح فيه فى العادة وهو منى .

قال القرطبى ما ملخصه: « قوله: ﴿ والهدى معكوفا ﴾ أى: محبوسا ..... ﴿ أن يبلغ محله ﴾ .أى: منحره .. والمحل - بالكسر - غاية الشىء، وبالفتح: هو الموضع الذى يحله الناس، وكان الهدى سبعين بدنة، ولكن الله - تعالى - بفضله جعل ذلك الموضع - وهوالحديبية - له محلا .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: نحرنا مع رسول الله - ﷺ - عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة ...

وفى البخارى عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله - ﷺ - معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله - ﷺ - بدنة وحلق رأسه .. »[1].

وقوله - تعالى - : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ... ﴾ بيان لحكمة الله - تعالى - فى منع الحرب بين الفريقين .

وجواب « لولا » محذوف لدلالة الكلام عليه . والمراد بالرجال المؤمنين وبالنساء المؤمنات: سبع رجال وامرأتان كانوا بمكة .

قال الآلوسى: « وكانوا على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد وغيره عن أبى جمعة جنبذ بن سبع - تسعة نفر: سبعة رجال - وهو منهم - وامرأتين .

وجملة ﴿ لم تعلموهم ﴾ صفة رجال ونساء على تغليب المذكر على المؤنث .

وقوله ﴿ أن تطأوهم ﴾ بدل اشتمال من رجال ونساء، والوطء الدَّوْس، والمراد به هنا الإهلاك . وقوله: ﴿ معرة ﴾ أى: مكروه وأذى . يقال: عَرَّه يعُره عَرًّا، إذا أصابه بمكروه، وأصله من العُرِّ وهو الجرب .

والمراد به هنا: تعيير الكفار للمؤمنين بقولهم: لقد قتلتم من هم على دينكم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٨٣ .

والمعنى : ولولا كراهة أن تهلكوا - أيها المؤمنين - أناسا مؤمنين موجودين فى مكة بين كفارها، وأنتم لا تعرفونهم، فيصيبكم بسبب إهلاكهم مكروه، لولا كل ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة، بل لسلطكم عليهم لكى تقتلوهم .

واللام فى قوله - سبحانه - : ﴿ ليدخل الله فى رحمته من يشاء ﴾ متعلقة بما يدل عليه جواب لولا المقدر .

أى : لولا ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة، ولكنه - سبحانه - كف أيديكم عنهم، ليدخل فى رحمته بسبب هذا الكف من يشاء من عباده، وعلى رأس هؤلاء العباد، المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا فى مكة، والذين اقتضت رحمته أن يتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار، ويفك أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب ...

كذلك قد شملت رحمته - تعالى - بعض كفار مكة، الذين تركوا بعد ذلك الكفر ودخلوا فى الإسلام، كأبى سفيان وغيره من الذين أسلموا بعد فتح مكة أو بعد صلح الحديبية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾ تأكيد لما دل عليه الكلام السابق، من أن حكمته - تعالى - قد اقتضت كف أيدى المؤمنين عن الكافرين، رحمة بالمؤمنين الذين يعيشون فى مكة مع هؤلاء الكافرين .

وقوله ﴿ تَزَيلوا ﴾ أى : تميَّزوا . يقال : زِلْتُه زَيْلًا، أى : مِزْتُه، وزيله فتزيل أى : فرقه فتفرق أى : لو تميز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات الذين يعيشون فى مكة عن كفارها وفارقوهم وخرجوا منها، وانعزلوا عنهم، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما، تارة عن طريق إهلاكهم، وتارة عن طريق إذلالهم وأخذهم أسرى، و « من » فى قوله ﴿ منهم ﴾ للبيان لا للتبعيض .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المشركون من جهالات وحماقات استولت على نفوسهم فقال : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ .

والظرف ﴿ إذ ﴾ منصوب بفعل مقدر . والحمية : الأنفة والتكبر والغرور والتعالى بغير حق . يقال : حَمِىَ أنفه من الشىء - كرضى - إذا غضب منه، وأعرض عنه .

أى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن تمسك الكافرون وقيدوا أنفسهم بالحمية الباطلة، التى هى حمية المِلّة الجاهلية، حيث منعوا المسلمين من دخول مكة، ومن الطواف بالمسجد الحرام، وحيث منعوا الهدى من أن يبلغ محله، وحيث أبوا أن يكتب فى الصحيفة التى عقدت بينهم وبين المسلمين، بسم الله الرحمن الرحيم، أو محمد رسول الله - ﷺ - ... فهذا كله من حميتهم الجاهلية التى لا أساس لها من علم أو خلق أو دِين ....

وقوله : ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى .. ﴾ معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين حال الفريقين ، مقابلة تتجلى فيها رعايته - سبحانه - للمؤمنين ، وغضبه على الكافرين . أى : هذا هو حال الكافرين ، رسخت الجهالات فى قلوبهم حتى صرفتهم عن سبيل الرشد ، أما حال المؤمنين فأنهم قابلوا تصرفات هؤلاء الكافرين بالاحتقار والازدراء ومبايعة رسولهم - ﷺ - على الموت إذا لزم الأمر ذلك .

فأنزل الله - تعالى - طمأنينته وسكينته على قلب رسول الله - ﷺ - وعلى قلوب أصحابه ، حيث لم يجعلهم يقابلون سفاهات المشركين بسفاهات مثلها ...

﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ أى : وجعلهم ملتزمين بما تقتضيه كلمة التقوى ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوا الله ، من أناة وسكون وثبات ووقار وخلق كريم وإخلاص فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله .

﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ أى : وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار ، وكانوا أهلا لها دون الكفار ، لأن المؤمنين استجابوا للحق . أما الكافرون فقد أنفوا منه ، وتطاولوا عليه ، بمقتضى حميتهم الجاهلية ... ﴿ وكان ﴾ - سبحانه - ومازال ﴿ بكل شىء عليما ﴾ لايخفى عليه أمر ، ولايغيب عن علمه شىء ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى ألوانا من المقابلات التى تدل على مدح الله - تعالى - للمؤمنين ، وعلى احتقاره للكافرين .

فقد عبر - سبحانه - فى جانب الكافرين بكلمة جعل التى تشعر بأن الكافرين كأنهم قد ألقوا هذه الحمية الجاهلية فى قلوبهم إلقاء بدون تعقل أو تدبر ، بينما عبر فى جانب المؤمنين بكلمة أنزل التى تشعر كأن السكينة كانت فى خزائنه - تعالى - ثم أنزلها بعد ذلك على قلب رسوله - ﷺ - وعلى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا على إيمانهم ..

ونرى الفاعل لجعل هو الذين كفروا ، بينما الفاعل لأنزل هو الله - عز وجل - .

ونرى المفعول لجعل هو الحمية ، وهى كلمة مشتعلة منفرة ، وقد كررها - سبحانه - ليزداد العقلاء نفورا منها .. ونرى المفعول لأنزل هو السكينة وهى كلمة فيها مافيها من الوقار والسكون والثبات والطمأنينة .

ونرى الحمية قد أضيفت إلى الجاهلية ، بينما السكينة أضيفت إلى الله - تعالى - .

ونرى أن الله - تعالى - قد أضاف كل ذلك مدحا عظيما لعباده المؤمنين حيث ألزمهم كلمة التقوى ، وجعلهم أحق بها وأهلا لها دون أعدائهم الذين آثروا الغى على الرشد ، والباطل على الحق ... وفى ذلك ما فيه من الثناء على المؤمنين والتحقير للكافرين .

ثم أكد الله - تعالى - صدق ما شاهده النبى - ﷺ - فى رؤياه، وبين الحكمة التى من أجلها أرسله إلى الناس كافة فقال - تعالى -:

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

قال الآلوسى ما ملخصه: «رأى رسول الله - ﷺ - فى المنام قبل خروجه إلى الحديبية، أنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وظنوا أنهم سيدخلونها فى عامهم هذا، وقالوا: إن رؤيا رسول الله - ﷺ - حق، فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين - على سبيل التشكيك والاعتراض - والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت هذه الآية.

وقد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال نحو ذلك - على سبيل الفهم والاستكشاف - ليزداد يقينه ...

والصدق يكون بالقول ويكون بالفعل، وما فى الآية صدق بالفعل، وهو التحقيق، أى حقق - سبحانه - للرسول رؤيته ..»[1].

وقوله ﴿ بالحق ﴾ صفة لمصدر محذوف، أى: صدقا ملتبسا بالحق، أو بمحذوف على أنه حال من الرؤيا، أى: رؤيا ملتبسة بالحق.

والمعنى: والله لقد أرينا رسولنا محمدا - ﷺ - الرؤيا الصادقة التى لاتتخلف، ولا يحوم حولها ريب أو شك، وحققنا له ما اشتملت عليه هذه الرؤيا من بشارات سارة، وعطايا كريمة، على حسب ما اقتضته حكمتنا وإرادتنا.

وقوله: ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٢٠.

لاتخافون .. ﴾ جواب لقسم محذوف، وقوله: ﴿ آمنين ﴾ وما بعده، حال من فاعل ﴿ لتدخلن ﴾ .. أى: والله لتدخلن - أيها المؤمنون - المسجد الحرام فى عامكم المقبل إن شاء الله، حالة كونكم آمنين من كل فزع، وحالة كونكم بعضكم يحلق شعر رأسه كله، وبعضكم يكتفى بقص جزء منه، وحالة كونكم لا تخافون أذى المشركين بعد ذلك.

وقوله: ﴿ إن شاء الله ﴾ فيه ما فيه من الإشعار بأن الرؤيا مع صدقها، تحقيقها موكول إلى مشيئة الله - تعالى - وإلى قدرته، لا إلى أحد سواه، وفيه ما فيه من تعليم الناس وإرشادهم إلى أنهم يجب عليهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه عند إرادتهم لفعل من الأفعال، كما قال - تعالى - ﴿ ولاتقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله .. ﴾.

قال بعض العلماء: « إن الله - تعالى - استثنى فيما يعلم، ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون.

ويرى بعضهم: أن الاستثناء هنا لتحقيق الخبر وتأكيده.

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الحلق غير متعين فى النسك، بل يجزىء عنه التقصير، إلا أن الحلق أفضل، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا: يارسول الله، والمقصرين، قال اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يارسول الله، والمقصرين، قال اللهم اغفر للمحلقين .. ثم قال بعد الثالثة: والمقصرين ».

واستدل بها - أيضا - على أن التقصير للرأس دون اللحية، ودون سائر شعر البدن، إذ الظاهر أن المراد: ومقصرين شعر رءوسكم »[1].

وقوله: ﴿ لا تخافون ﴾ تأكيد وتقرير لقوله ﴿ آمنين ﴾ أى: آمنين عند دخولكم مكة للعمرة ولا تخافون بعد إتمامها، لأن عناية الله - تعالى - ورعايته معكم ...

وقوله: ﴿ فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ بيان للحكمة فى تأخير دخولهم مكة عام الحديبية، وتمكينهم من دخولها فى العام الذى يليه.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله: ﴿ لقد صدق الله رسوله ... ﴾ أى: والله لقد حقق الله - تعالى - لرسوله رؤياه فى دخول مكة، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه ويختاره وتقتضيه حكمته، لأنه - تعالى - علم ما لم تعلموه أنتم من أن المصلحة فى عدم دخولكم مكة فى عام صلح الحديبية، وأن هذا الصلح هو خير لكم من دخولها، لما يترتب عليه من منافع كثيرة لكم، وقد جعل - سبحانه - بفضله وإحسانه ﴿ من دون ذلك ﴾ أى: من قبل دخولكم مكة، وطوافكم بالمسجد الحرام ﴿ فتحا قريبا ﴾ هو فتح خيبر الذى خرجتم منه بالغنائم الوفيرة، أو فتح

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٢٢.

خيبر ومعه صلح الحديبية، الذى قال فيه الزهرى لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ...

هذا، وقد بسط الإمام ابن كثير ما أصابه المسلمون بعد صلح الحديبية من خيرات فقال ما ملخصه: « ورجع الرسول - ﷺ - من الحديبية فى ذى القعدة من السنة السادسة .. ثم خرج فى المحرم من السنة السابعة إلى خيبر، ففتحها الله - تعالى - عليه ...

فلما كان فى ذى القعدة من السنة السابعة، خرج إلى مكة معتمرا، هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى ... وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها. فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون، وعبد الله بن رواحه آخذ بزمام ناقة الرسول - ﷺ - وينشد ويقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله إنى شهيد أنه رسوله

وخرج المشركون من مكة لكى لا يروا الرسول - ﷺ - وأصحابه، أما النساء والأطفال فقد جلسوا على الطرق ينظرون إلى الرسول - ﷺ - وإلى المؤمنين ..

ومكث الرسول وأصحابه بمكة ثلاثة أيام اعتمر خلالها هو وأصحابه، ثم عادوا إلى المدينة »[1].

وهكذا تحققت رؤيا رسول الله - ﷺ - فى الوقت الذى أراده - سبحانه - ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه محمد - ﷺ - فقال: ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ﴾ ..

أى: هو - عز وجل - وحده، الذى أرسل رسوله محمدًا - ﷺ - إرسالا ملتبسا بالهدى، أى: بالدليل الواضح والبرهان الساطع الذى يهدى للطريق التى هى أقوم ..

وأرسله - أيضا - بالدين الحق وهو دين الإسلام، الذى هو خاتم الأديان وأكملها، ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أى: من أجل أن يظهره ويعليه على جميع الأديان، لما فيه من هدايات، وعبادات، وآداب، وأحكام، وتشريعات، قد جمعت محاسن الأديان السابقة التى جاء بها الأنبياء، وأضافت إليها جديدا اقتضته حكمة الله - تعالى - ورحمته بهذه الأمة التى أرسل رسوله محمدا إليها.

وقد بين - سبحانه - أن هذا الدين هو المقبول عنده دون سواه، فقال ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٣٧.

ولقد ظهر هذا الدين فعم المشارق والمغارب، وسيبقى - بإذن الله - ظاهرا على الأديان كلها بقوة حجته، ونصاعة براهينه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والباء فى قوله: ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ مزيدة لتأكيد هذا الإظهار.

أى: وكفى بشهادة الله - تعالى - شهادة على حقية هذا الدين، وعلى هذا الإظهار الذى تكفل الله - تعالى - به لدين الإسلام.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى فيها ما فيها من الثناء على الرسول - ﷺ - وعلى أصحابه، الذين رضى عنهم وأرضاهم فقال:

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

وقوله - تعالى -: ﴿ محمد رسول الله ﴾ مبتدأ وخبر، أو ﴿ محمد ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، و ﴿ رسول الله ﴾ بدل أو عطف بيان من الاسم الشريف. أى: هذا الرسول الذى أرسله الله - تعالى - بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله - ﷺ -. ﴿ والذين معه ﴾ وهم أصحابه - وعلى رأسهم من شهد معه صلح الحديبية، وبايعه تحت الشجرة - من صفاتهم أنهم ﴿ أشداء على الكفار ﴾ أى: غلاظ عليهم، وأنهم ﴿ رحماء بينهم ﴾.

أى: أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادون ويتعاطفون ويتعاونون على البر والتقوى ...

وقوله - تعالى - ﴿ محمد رسول الله ﴾ فيه أسمى التكريم للرسول - ﷺ - حيث شهد له - سبحانه - بهذه الصفة، وكفى بشهادته - عز وجل - شهادة، وحيث قدم الحديث عنه بأنه أرسله بالهدى ودين الحق، ثم أخر اسمه الشريف على سبيل التنويه بفضله، والتشويق إلى اسمه.

وفى وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، مدح عظيم لهم، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراس، فهم ليسوا أشداء مطلقا، ولا رحماء مطلقا، وإنما شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم لإخوانهم فى العقيدة، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ... ﴾(١).

قال صاحب الكشاف: « وعن الحسن أنه قال: « بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم، أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه .. »(٢).

وأسمى من هذا كله فى بيان تراحمهم قوله - تعالى -: ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. ﴾.

ثم وصفهم بوصف آخر فقال: ﴿ تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾.

أى: تراهم وتشاهدهم - أيها العاقل - راكعين ساجدين محافظين على الصلاة ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرب إلى الله - تعالى - والظفر برضاه وثوابه ..

ثم وصفهم بوصف ثالث فقال: ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .. ﴾ أى: علامتهم وهو نور يجعله الله - تعالى - فى وجوههم يوم القيامة، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباههم فى الدنيا، من أثر كثرة سجودهم وطاعتهم لله رب العالمين.

فالمقصود بهذه الجملة بيان أن الوضاءة والإشراق والصفاء .. يعلو وجوههم من كثرة الصلاة والعبادة لله، وليس المقصود أن هناك علامة معينة - كالنكتة التى تكون فى الوجه - كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

واختار - سبحانه - لفظ السجود، لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله - تعالى - .

قال الآلوسى: « أخرج بن مردويه بسند حسن عن أُبَيِّ بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ -: « فى قوله - تعالى -: ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ النور يوم القيامة ».

ثم قال الآلوسى: ولا يبعد أن يكون النور علامة على وجوههم فى الدنيا والآخرة - للآثار

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٤.

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٤٦.

السابقة - لكنه لما كان فى الآخرة أظهر وأتم خصه النبى - ﷺ - بالذكر ... »[1] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك مثلهم فى التوراة ﴾ يعود إلى جميع أوصافهم الجليلة السابقة . والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن . أى : ذلك الذى ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجرى مجرى الأمثال ، صفتهم فى التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - صفتهم فى الإنجيل فقال : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل : كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع .. ﴾ .

وقوله : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل ﴾ معطوف على ما قبله وهو مثلهم فى التوراة ، والإنجيل : هو الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى - عليه السلام - .

والشط : فروع الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع على شاطئيه . أى : جانبيه . وجمعه : أشطاء ، وشطوء ، يقال : شطأ الزرع وأشطأ ، إذا أخرج فروعه التى تتولد عن الأصل .

وقوله ﴿ فآزره ﴾ أى : فقوت تلك الفروع أصولها ، وآزرتها ، وجعلتها مكينة ثابتة فى الأرض . وأصله من شد الإزار . تقول : أزَّرْت فلانا ، إذا شددت إزاره عليه . وتقول آزرت البناء - بالمد والقصر - إذا قويت أساسه وقواعده .

ومنه قوله - تعالى - حكاية عن موسى - عليه السلام - : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى ﴾ .

وقوله : ﴿ فاستغلظ ﴾ أى : فصار الزرع غليظا بعد أن كان رقيقا .

وقوله : ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ أى : فاستقام وتكامل على سيقانه التى يعلو عليها .

وقوله : ﴿ يعجب الزراع ﴾ أى : يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته .

والمعنى : أن صفة المؤمنين فى الإنجيل ، أنهم كالزرع ، يظهر فى أول أمره رقيقا ضعيفا متفرقا ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد ، وتعجب جودته أصحاب الزراعة ، العارفين بها .

فكذلك النبى - ﷺ - وأصحابه ، كانوا فى أول الأمر فى قلة وضعف ، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة ، حتى بلغوا مابلغوا فى ذلك .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٢٥ .

وصدق الله إذا يقول: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات . لعلكم تشكرون ﴾[١] .

قال صاحب الكشاف: « وهذا مثل ضربه الله - تعالى - لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم . لأن النبى - ﷺ - قام وحده، ثم قواه الله - تعالى - بمن معه . كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها، حتى يعجب الزراع »[٢] .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون وصفهم فى التوراة، هو المعبر عنه بقوله - تعالى -: ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم .. ﴾ ويكون وصفهم فى الإنجيل هو المعبر عنه بقوله - سبحانه -: ﴿ كزرع أخرجه شطأه ... ﴾ .

ولا شك أن هذه الأوصاف كانت موجودة فى الكتابين قبل أن يحرفا ويبدلا، بل بعض هذه الأوصاف موجودة فى الكتابين، حتى بعد تحريفهما .

فقد أخرج بن جرير وعبد بن حميد عن قتادة قال: « مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. »[٣] .

ويرى بعض المفسرين أن المذكور فى التوراة والإنجيل شىء واحد، وهو الوصف المذكور إلى نهاية قوله: ﴿ ومثلهم فى الإنجيل ﴾ وعلى هذا الرأى يكون الوقف تاما على هذه الجملة، وما بعدها وهو قوله: ﴿ كزرع أخرج شطأه .. ﴾ كلام مستأنف .

قال القرطبى: « قوله - تعالى -: ﴿ ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل .. ﴾ قال الفراء: فيه وجهان: إن شئت قلت: المعنى: ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضا، كمثلهم فى القرآن، فيكون الوقف على « الإنجيل » .

وإن شئت قلت: تمام الكلام: ذلك مثلهم فى التوراة . ثم ابتدأ فقال: ومثلهم فى الإنجيل .

وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مثلان، أحدهما فى التوراة، والآخر فى الإنجيل ... »[٤] .

والذى نراه أن ما ذهب إليه ابن عباس من كونهما مثلين، أحدهما مذكور فى التوراة والآخر فى الإنجيل، هو الرأى الراجح، لأن ظاهر الآية يشهد له .

وفى هذه الصفات ما فيها من رسم صورة مشرقة مضيئة لهؤلاء المؤمنين الصادقين .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٤٨ .

(٣) راجع تفسير سورة الفتح ص ١٦٠ لفضيلة استاذنا الشيخ أحمد الكومى .

(٤) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٩٤ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ تعليل لما يعرب عنه الكلام، من إيجاده - تعالى - لهم على هذه الصفات الكريمة .

أى : جعلهم - سبحانه - كذلك بأن وفقهم لأن يكونوا أشداء على الكفار، ولأن يكونوا رحماء فيما بينهم، ولأن يكونوا مواظبين على أداء الطاعات .. لكى يغيظ بهم الكفار، فيعيشوا وفى قلوبهم حسرة مما يرونه من صفات سامية للمؤمنين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الوعد الجميل، فقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

و « من » فى قوله ﴿ منهم ﴾ الراجح أنها للبيان والتفسير، كما فى قوله - تعالى - ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان .. ﴾ .

أى : وعد الله - تعالى - بفضله وإحسانه، الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم أهل بيعة الرضوان، ومن كان على شاكلتهم فى قوة الإيمان .. وعدهم جميعا مغفرة لذنوبهم، وأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - .

ويجوز أن تكون من هنا للتبعيض، لكى يخرج من هؤلاء الموعودين بالمغفرة والأجر العظيم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر، وهم المنافقون الذين أبوا مبايعة الرسول - ﷺ - وأبوا الخروج معه للجهاد، والذين من صفاتهم أنهم كانوا إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا، ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون .. ﴾ .

هذا، وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها : وجوب احترام الصحابة وتوقيرهم، والثناء عليهم، لأن الله - تعالى - قد مدحهم ووعدهم بالمغفرة وبالأجر العظيم .

قال القرطبى : « روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير أنه قال : كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله - ﷺ - فقرأ مالك هذه الآية : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم .. ﴾ . فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله - ﷺ - فقد أصابته هذه الآية . ثم قال الإمام القرطبى - رحمه الله - : قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله، فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته، فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين » ..[1] .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الفتح » تلك السورة التى بشرت الرسول - ﷺ - وأصحابه

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٩٦ .

بألوان من البشارات العالية، وأدبتهم بأنواع من الآداب السامية، وعرفتهم بأعدائهم من المنافقين والكافرين، وحكت الكثير من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده المؤمنين ..

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،،

كتبه الراجى عفو ربه

القاهرة - مدينة نصر **د . محمد سيد طنطاوى**

مساء السبت: ١٦ من شهر ربيع الآخر ١٤٠٦هـ

٢٨ / ١٢ / ١٩٨٥م

تفسير

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الحجرات » من السور المدنية الخالصة ، وعدد آياتها ثماني عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « المجادلة » .

٢ - والذى يتدبر هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسمى الآداب ، وأبلغ العظات ، وأحكم الهدايات ، فهى تبدأ بنداء للمؤمنين ،تعلمهم فيه ما يجب عليهم نحو خالقهم - سبحانه - ، ونحو نبيهم - ﷺ - من أدب .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم . يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ﴾ .

٣ - ثم وجهت إليهم نداء ثالثا أمرتهم من خلاله بالتثبت من صحة الأخبار التى تصل إلى مسامعهم ، وبينت لهم جانبا من مظاهر فضل الله عليهم .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه فى قلوبكم ،وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ .

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما يجب على المؤمنين نحو إخوانهم فى العقيدة ، إذا مادب بينهم نزاع أو قتال ، فأمرت بالإصلاح بينهم ،وبمقاتلة الفئة الباغية إذا ما أبت الصلح ، وأصرت على بغيها ..

قال - سبحانه - : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ .

٥ - ثم وجهت بعد ذلك إلى المؤمنين نداء رابعا نهتهم فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ،

أو أن يلمز بعضهم بعضا . ونداء خامسا أمرتهم فيه باجتناب الظن السيىء بالغير ، دون أن يكون هناك مبرر لذلك ، ونهتهم عن التجسس وعن الغيبة .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

٦ - وبعد هذه النداءات المتكررة للمؤمنين ، وجهت نداء إلى الناس جميعا ، بينت لهم فيه أنهم جميعا قد خلقوا من ذكر وأنثى ، وأن أكرمهم عند الله هو أتقاهم وأخشاهم لله - تعالى - .

ثم ردت على الأعراب الذين قالوا آمنا دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم ووضحت صفات المؤمنين الصادقين ، وأمرت كل مؤمن أن يشكر الله - تعالى - على نعمة الإيمان .

قال - سبحانه - : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾.

٧ - وهكذا نجد السورة الكريمة قد رسمت للمؤمنين طريق الحياة السعيدة ، حيث عرفتهم بما يجب عليهم نحو خالقهم - سبحانه - وبما يجب عليهم نحو نبيهم - ﷺ - وبما يجب عليهم نحو أنفسهم ، وربما يجب عليهم نحو إخوانهم فى العقيدة ، وبما يجب عليهم نحو أفراد المجتمع الإسلامى بصفة عامة .

وقد وضحت لهم كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، من شأنه أن يغرس فى النفوس الخشوع والطاعة لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

القاهرة - مدينة نصر　　　　　　　　**د . محمد سيد طنطاوى**

١٩ من شهر ربيع الآخر ١٤٠٦ هـ

٣١ / ١٢ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٥)

افتتحت سورة « الحجرات » بهذا النداء المحبب إلى القلوب ، ألا وهو الوصف بالإيمان ، الذى من شأن المتصفين به ، أن يمتثلوا لما يأمرهم الله - تعالى - به ، ويجتنبوا ما ينهاهم عنه .

افتتحت بقوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ .

وقوله ﴿ تقدموا ﴾ مضارع قَدِم اللازم بمعنى تقدم ، ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب - بكسر الدال فيهما - وهو اسم فاعل فيهما بمعنى تقدم .

ويصح أن يكون مضارع قدَّم المتعدى ، تقول : قدمت فلانا على فلان ، إذا جعلته متقدما عليه ، وحذف المفعول لقصد التعميم .

وقوله : ﴿ بين يدى الله ورسوله ﴾ تشبيه لمن يتعجل فى إصدار حكم من أحكام الدين بغير استناد إلى حكم الله ورسوله ، بحالة من يتقدم بين يدى سيده أو رئيسه ، بأن يسير أمامه فى الطريق ، أو على يمينه أو شماله . وحقيقة الجلوس بين يدى الشخص : أن يجلس بين الجهتين المقابلتين ليمينه أو شماله قريبا منه أو أمامه .

قال الجمل قوله : ﴿ بين يدى الله ورسوله ﴾ جرت هذه العبارة هنا على سنن من المجاز ، وهو الذى يسميه أهل البيان تمثيلا ، أى : استعارة تمثيلية ، شُبِّه تعجل الصحابة فى إقدامهم على قطع الحكم فى أمر من أمور الدين ، بغير إذن الله ورسوله ، بحالة من تقدم بين يدى متبوعه إذا سار فى طريق ، فإنه فى العادة مستهجن .. والغرض تصوير كمال الهجنة ، وتقبيح قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله .

أو المراد : بين يدى رسول الله ، وذكر لفظ الجلالة على سبيل التعظيم للرسول - ﷺ - وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله[1] .

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان : احذروا أن تتسرعوا فى الأحكام ،فتقولوا قولا ، أو تفعلوا فعلا يتعلق بأمر دينى ، دون أن تستندوا فى ذلك إلى الله - تعالى - وحكم رسوله - ﷺ - ﴿ واتقوا الله ﴾ - تعالى - فى كل ما تأتون وتذرون ، إن الله سميع لأقوالكم ، عليم بجميع أحوالكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه آداب أدب الله - تعالى - بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول - ﷺ - من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام . فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ .

أى : لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه . أى : قبله ، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى ، حديث معاذ ، إذ قال له النبى - ﷺ - حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى » .

فالغرض منه أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده ، إلى مابعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٧٤ .

البحث عنها لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله[١].

وقال الإمام القرطبى ما ملخصه : قوله : ﴿ لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ أى : لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله ، وقول رسوله وفعله ، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا ..

واختلف فى سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال منها :

ما ذكره الواحدى من حديث ابن جريج قال : حدثنى ابن أبى مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أمِّر عليهم القعقاع بن معبد . وقال عمر : يا رسول الله ، أمِّر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافى . وقال عمر ما أردتُ خلافك ، فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت هذه الآية .

وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فىَّ كذا ، فنزلت هذه الآية .

وقال الحسن : نزلت فى قوم ذبحوا أضحيتهم قبل أن يصلى النبى - ﷺ - فأمرهم أن يعيدوا الذبح[٢] . وعلى أية حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين فى كل زمان ومكان عن أن يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا يتعلق بأمر شرعى ، دون أن يعودوا فيه إلى حكم الله ورسوله .

ثم وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى المؤمنين ، أكد فيه وجوب احترامهم للرسول - ﷺ - فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ .

قال الآلوسى : هذه الآية شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى - ﷺ - بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل . وإعادة النداء مع قرب العهد به ، للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه ، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه[٣] .

أى : يامن آمنتم بالله واليوم الآخر .. واظبوا على توقيركم واحترامكم لرسولكم - ﷺ - ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته عند مخاطبتكم له . ولا تجعلوا أصواتكم مساوية

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٥ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٠٠ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٣٤ .

لصوته - ﷺ - حين الكلام معه ، ولا تنادوه باسمه مجردا بأن تقولوا له يا محمد ، ولكن قولوا له : يا رسول الله ، أو يا نبى الله .

والكاف فى قوله : ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : ولا تجهروا له بالقول جهرا مثل جهر بعضكم لبعض .

قال القرطبى : وفى هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفته ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة ، وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها [1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ بيان لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته - ﷺ - من خسران .

والجملة تعليل لما قبلها ، وهى فى محل نصب على أنها مفعول لأجله . أى : نهاكم الله - تعالى - عن رفع أصواتكم فوق صوت النبى ، وعن أن تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، كراهة أو خشية أن يبطل ثواب أعمالكم بسبب ذلك ، وأنتم لا تشعرون بهذا البطلان .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده - ﷺ - خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره فى حياته ، لأنه محترم حيا وفى قبره [2] .

ولقد امتثل الصحابة لهذه الإرشادات امتثالا تاما ، فهذا أبو بكر يروى عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار - أى : كالذى يتكلم همسا . وهذا ثابت بن قيس ، كان رفيع الصوت ، فلما نزلت هذه الآية قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله - ﷺ - أنا من أهل النار ، حبط عملى ،وجلس فى أهل بيته حزينا ... فلما بلغ النبى - ﷺ - ما قاله ثابت ، قال لأصحابه : « لا . بل هو من أهل الجنة » [3] .

قال بعض العلماء : وما تضمنته هذه الآية من لزوم توقير النبى - ﷺ - جاء مبينا فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٠٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٨ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٧ والقرطبى جـ ١٦ ص ٣٠٤ .

آيات أخرى ، منها قوله تعالى - : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾ .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله - تعالى - لم يخاطبه فى كتابه باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها النبى . يأيها الرسول . يأيها المدثر ﴾ .

مع أنه - سبحانه - قد نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم ، كقوله - تعالى - : ﴿ وقلنا يا آدم ﴾ . وقوله - عز وجل - : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ .

أما النبى - ﷺ - فلم يذكر اسمه فى القرآن فى خطاب ، وإنما ذكر فى غير ذلك ، كقوله - تعالى - ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾[1] .

ثم مدح - سبحانه - الذين يغضون أصواتهم فى حضرة الرسول - ﷺ - فقال : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ .

وقوله : ﴿ يغضون ﴾ بمعنى يخفضون . يقال : غض فلان من صوته ومن طرفه إذا خفضه . وكل شىء كففته عن غيره فقد غضضته .

وقوله : ﴿ امتحن ﴾ أى : اختبر وأخلص ، وأصله من امتحان الذهب وإذابته ليخلص جيده من خبيثه ، والمراد به هنا : إخلاص القلوب لمراقبة الله وتقواه .

أى : إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرة رسول الله - ﷺ - وعند مخاطبتهم له . أولئك الذين يفعلون ذلك ، هم الذين أخلص الله - تعالى - قلوبهم لتقواه وطاعته ، وجعلها خالصة من أى شىء سوى هذه الخشية والطاعة .

قال صاحب الكشاف : « امتحن الله قلوبهم للتقوى » من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ، ودرب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير وان عنه ، والمعنى : أنهم صبروا على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها . أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأن تحقق الشىء باختباره ، كما يوضع الخبر موضعها ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى[2] .

وقوله : ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ بشارة عظيمة من الله - تعالى - لهم . أى : لهؤلاء الغاضين أصواتهم عند رسول الله - ﷺ - مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير لا يعرف مقداره أحد سوى الله - تعالى - .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ٦١٦ للشيخ الشنقيطى .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٥٥ .

ولقد التزم المسلمون بهذا الأدب فى حياة النبى - ﷺ - وبعد مماته ، فقد سمع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رجلا يرفع صوته فى المسجد النبوى : فقال له : من أين أنت - أيها الرجل - ؟ فقال : من الطائف ، فقال له : لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا .

ثم أشار - سبحانه - إلى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم عند ندائهم للنبى - ﷺ - فقال : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ، أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم ﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة من بنى تميم أتوا إلى المدينة فى عام الوفود فى السنة التاسعة ، فوقفوا بالقرب من منزل النبى - ﷺ - فى ساعة القيلولة وأخذوا يقولون : يا محمد اخرج إلينا .. فكره النبى - ﷺ - منهم ذلك .

والمراد بالحجرات : حجرات نسائه - ﷺ - جمع حجرة وهى القطعة من الأرض المحجورة ، أى : المحددة بحدود لا يجوز تخطيها ،ويمنع الدخول فيها إلا بإذن .

أى : إن الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - ﴿ من وراء الحجرات ﴾ .

أى : خلف حجرات أزواجك وخارجها ، أكثرهم لا يجرون على ما تقتضيه العقول السليمة ، والآداب القويمة من مراعاة الاحترام والتوقير لمن يخاطبونه من الناس ، فضلا عن أفضلهم ، وأشرفهم ، وذلك لأنهم من الأعراب الذين لم يحسنوا مخاطبة الناس ، لجفائهم وغلظ طباعهم .

وقال - سبحانه - ﴿ أكثرهم ﴾ للإشعار بأن قلة منهم لم تشارك هذه الكثرة فى هذا النداء الخارج عن حدود الأدب واللياقة .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه مالا يخفى على الناظر من إكبار للنبى - ﷺ - وإجلال لمقامه .

ومن ذلك : مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به السفهَ والجهلَ بسبب ما أقدموا عليه . ومن ذلك : التعبير بلفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، والمرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى يظهر به موضع الاستنكار عليهم .

ومن ذلك : شفعُ ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المحاطبات ، تهوينا للخطب ، وتسلية له - ﷺ -[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٥٨ .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى السلوك الأفضل فقال - تعالى - : ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ﴾ .

أى : ولو أن هؤلاء الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - من وراء الحجرات ، صبروا عليك حتى تخرج إليهم ولم يتعجلوا بندائك بتلك الصورة الخالية من الأدب ، لكان صبرهم خيرا لهم ﴿ والله ﴾ - تعالى - ﴿ غفور رحيم ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة .

قال صاحب الكشاف : يحكى عن أبى عبيد - العالم الزاهد الثقة - أنه قال : ما دققت باب عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خروجه .

وقوله : ﴿ أنهم صبروا ﴾ فى موضع رفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم .

فإن قلت : هل من فرق بين قوله ﴿ حتى تخرج ﴾ وإلى أن تخرج ؟

قلت : إن « حتى » مختصة بالغاية المضروبة . تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها ، لم يجز ، و « إلى » عامة فى كل غاية ، فقد أفادت « حتى » بوضعها : أن خروج رسول الله - ﷺ - إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الانتهاء إليه .

فإن قلت : فأى فائدة فى قوله ﴿ إليهم ﴾ ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم [١] .

هذا والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد رسمت للمؤمنين أسمى ألوان الأدب فى مخاطبتهم لرسول الله - ﷺ - ، وفى إلزامهم بألا يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا ، يتعلق بشأن من شئون دينهم إلا بعد معرفتهم بأن هذا القول أو الفعل يستند إلى حكم شرعى ، شرعه الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - .

كما أنه يراها قد مدحت الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله - ﷺ - ، وذمت الذين لا يلتزمون هذا الأدب عند مخاطبته أو ندائه .

ثم وجهت السورة نداء ثالثا إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالتثبت من صحة الأخبار التى تصل إليهم ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضل الله - تعالى - عليهم ؛ لكى يواظبوا على شكره ، فقال - تعالى - :

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٥٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ
أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ
ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧
فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ان عباس قال : كان رسول الله - ﷺ - قد بعث الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات ، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسولِ الله - ﷺ - .

فرجع الوليد - ظنا منه أنهم يريدون قتله - فقال يا رسول الله : إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة ، فغضب رسول الله - ﷺ - من ذلك غضبا شديدا ، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا : يا رسول الله ، إنا بلغنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله . فأنزل الله - تعالى - الآية[1] .

والفاسق : هو الخارج عن الحدود الشرعية التى يجب التزامها ، مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة ، إذا خرجت عن قشرتها ، وسمى بذلك لانسلاخه عن الخير والرشد .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتبينوا ﴾ وقرأ حمزة والكسائى ﴿ فتثبتوا ﴾ ومعناهما واحد ، إذ هما بمعنى التأنى وعدم التعجل فى الأمور حتى تظهر الحقيقة فيما أخبر به الفاسق .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن جاءكم فاسق بخبر من الأخبار ، ولا سيما الأخبار الهامة ، فلا تقبلوه بدون تبين أو تثبت ، بل تأكدوا وتيقنوا من صحته قبل قبوله منه .

والتعبير « بإن » المفيدة للشك ، للإشعار بأن الغالب فى المؤمن أن يكون يقظا ، يعرف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥٠ .

مداخل الأمور ، وما يترتب عليها من نتائج ، ويحكم عقله فيما يسمع من أنباء ، فلا يصدق خبر الفاسق إلا بعد التثبت من صحته .

قال صاحب الكشاف : وفى تنكير الفاسق والنبأ : شياع فى الفساق والأنباء ، كأنه قال : أى فاسق جاءكم بأى نبأ فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر ، وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه [١] .

وقال القرطبى : وفى الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها[٢] .

وقوله : ﴿ أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾.. تعليل للأمر بالتبين ، بتقدير لام التعليل ، أو بتقدير ماهو بمعنى المفعول لأجله . والجهالة بمعنى الجهل بحقيقة الشىء .

أى : تثبتوا - أيها المؤمنون - من صحة خبر الفاسق ، لئلا تصيبوا قوما بما يؤذيهم ، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم ، أو خشية أن تصيبوا قوما بجهالة ، لظنكم أن النبأ الذى جاء به الفاسق حقا .

وقوله : ﴿ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ بيان للنتائج السيئة التى تترتب على تصديق خبر الفاسق ، و ﴿ تصبحوا ﴾ بمعنى تصيروا ، والندم : غم يلحق الإنسان لأمور وقعت منه ، ثم صار يتمنى بعد فوات الأوان عدم وقوعها . أى : فتصيروا على ما فعلتم مع هؤلاء القوم نادمين ندما شديداً ، بسبب تصديقكم لخبر الفاسق بدون تبين أو تثبت .

فالآية الكريمة ترشد المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالا سليما ، وإلى كيفية التصرف معها تصرفا حكيما ، فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها ، حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفاسق فى خبره ، بدون تأكد أو تحقق من صحة ما قاله .. وبهذا التحقق من صحة الأخبار ، يعيش المجتمع الإسلامى فى أمان واطمئنان ، وفى بعد عن الندم والتحسر على ما صدر منه من أحكام .

ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى جانب من نعمه عليهم ، ورحمته بهم فقال : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٦٠ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣١٢ .

والعنت : الوقوع فى الأمر الشاق المؤلم ، يقال : عنت فلان - بزنة فرح - إذا وقع فى أمر يؤدى إلى هلاكه أو تعبه أو إيذائه .

ويفهم من الآية الكريمة أن بعض المسلمين ، صدقوا الوليد بن عقبة ، وأشاروا على الرسول - ﷺ - أن يعجل بعقاب بنى المصطلق .

والمراد بطاعة الرسول - ﷺ - لهم : أخذه برأيهم ، وتنفيذه لما يريدونه منه .

والمراد بالكثير من الأمر : الكثير من الأخبار والأحكام التى يريدون تنفيذها حتى ولو كانت على غير ما تقتضيه المصلحة والحكمة .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون - أن فيكم رسول الله - ﷺ - الذى أرسله - سبحانه - لكى يهديكم إلى الحق وإلى الطريق القويم .. وهو - عليه الصلاة والسلام - لو يطيعكم فى كثير من الأخبار التى يسمعها منكم ، وفى الأحكام التى تحبون تطبيقها عليكم أو على غيركم .. لو يطيعكم فى كل ذلك لأصابكم العنت والمشقة ، ولنزل بكم ما قد يؤدى إلى هلاككم وإتلاف أموركم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ عطف على ما قبله ، و « أن » بما فى حيزها ساد مسد مفعولى « اعلموا » باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : ﴿ لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ .

وتقديم خبر « أَنَّ » للحصر المستتبع زيادة التوبيخ ، وصيغة المضارع للاستمرار .

و ﴿ لو ﴾ لا متناع استمرار طاعته - عليه الصلاة والسلام - لهم فى كثير مما يعن لهم من الأمور .

وفى الكلام إشعار بأنهم زينوا للرسول - ﷺ - الإيقاع ببنى المصطلق .

وفى هذا التعبير مبالغات منها : إيثار « لو » ليدل على الفرض والتقدير . ومنها : ما فى العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه ، وتهجينه . ومنها : ما فى التعبير بالعنت من الدلالة على أشد المحذور ، فإنه الكسر بعد الجبر ، والرمز الخفى على أنه ليس بأول بادرة منهم[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ استدراك على ما يقتضيه الكلام السابق ، وبيان لمظاهر فضله عليهم ورحمته - سبحانه - بهم . أى : ولكنه - ﷺ - لا يطيعكم فى كل ما يعن لكم ، وإنما يتبين

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٤٨ .

الأمور والأخبار ويتثبت من صحتها ثم يحكم ، وقد حبب الله - تعالى - إلى كثير منكم الإيمان المصحوب بالعمل الصالح والقول الطيب وزينه وحببه فى قلوبكم ، وكره وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان لكل ما أمر به أو نهى عنه .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسير هذه الآية ، فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ أى : لوقعتم فى العنت والهلاك .. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا للرسول - ﷺ - الإيقاع ببنى المصطلق ... وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم - سبحانه - بقوله : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ أى إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ، ولمحاته اللطيفة ، التى لا يفطن لها إلا الخواص .

فإن قلت : كيف موقع ﴿ لكِنَّ ﴾ وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا ؟

قلت : هى مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم المتقدم ذكرهم ، فوقعت لكن فى موقعها من الاستدراك[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ يعود إلى المؤمنين الصادقين ، الذين حبب الله - تعالى - إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الثابتون على دينهم ، المهتدون إلى طريق الرشد والصواب ، إذ الرشد هو الاستقامة على طريق الحق ، مع الثبات عليه ، والتصلب فيه ، والتمسك به فى كل الأحوال .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فضلا من الله ونعمة .. ﴾ تعليل لما مَنَّ به - سبحانه - عليهم من تزيين الإيمان فى قلوبهم . أى : فعل ما فعل من تحبيب الإيمان إليكم ، ومن تبغيض الكفر إلى قلوبكم ، لأجل فضله عليكم ، ورحمته بكم ، وإنعامه عليكم بالنعم التى لا تحصى .

﴿ والله ﴾ - تعالى - ﴿ عليم ﴾ بكل شىء ﴿ حكيم ﴾ فى كل أفعاله وأقواله وتصرفاته .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد رسمت للمؤمنين أحكم الطرق فى تلقى الأخبار ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضله عليهم ، لكى يستمروا على شكرهم له وطاعتهم لرسله .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٦٢ .

ثم انتقلت السورة إلى دائرة أوسع وأرحب ، فدعت المؤمنين إلى التدخل بين الطوائف المتنازعة لعقد المصالحة بينها ، وإلى قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله - تعالى - فقال - سبحانه - :

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : قيل للنبى - ﷺ - : لو أتيت عبد الله بن أبى ؟ فانطلق إليه النبى - ﷺ - وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ، فلما انطلق إليه - عليه الصلاة والسلام - قال : إليكم عنى ، فو الله لقد آذانى ريح حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك .

قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، وغضب للأنصارى أصحابه . قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى .. فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين ...﴾[1] .

والخطاب فى الآية لأولى الأمر من المسلمين ، والأمر فى قوله ﴿ فأصلحوا ﴾ للوجوب ، والطائفة : الجماعة من الناس .

أى : وإن حدث قتال بين طائفتين من المؤمنين ، فعليكم يا أولى الأمر من المؤمنين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح ، عن طريق بذل النصح ، وإزالة أسباب الخلاف .

والتعبير « بإن » للإشعار بأنه لا يصح أن يقع قتال بين المؤمنين ، فإن وقع على سبيل الندرة ، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥٤ .

وجاء « إقتتلوا » بلفظ الجمع ، لأن لفظ الطائفة وإن كان مفردا فى اللفظ إلا أنه جمع فى المعنى ، فروعى فيه المعنى هنا . وروعى فيه اللفظ فى قوله ﴿ بينهما ﴾ .

قالوا : والنكتة فى ذلك أنهم فى حال القتال يكونون مختلطين فلذا جاء الأسلوب بصيغة الجمع ، وفى حال الصلح يكونون متميزين متفرقين فلذا جاء الأسلوب بصيغة التثنية .

ثم بين - سبحانه - حكمه فى حال اعتداء إحداهما على الأخرى فقال : ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ .

والبغى : التعدى وتجاوز الحد والامتناع عن قبول الصلح المؤدى إلى الصواب .

أى : فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ، وتجاوزت حدود العدل والحق ، فقاتلوا - أيها المؤمنون - الفئة الباغية ، حتى تفىء وترجع إلى حكم الله - تعالى - وأمره ، وحتى تقبل الصلح الذى أمرناكم بأن تقيموه بينهم .

وقوله : ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه مع الفئة الباغية ، إذا ما قبلت الصلح ورجعت إلى حكم الله - تعالى - .

أى : فإن رجعت الفئة الباغية عن بغيها ، وقبلت الصلح ، وأقلعت عن القتال ، فأصلحوا بين الطائفتين إصلاحا متسما بالعدل التام وبالقسط الكامل .

وقيد - سبحانه - الإصلاح بالعدل . ثم أكد ذلك بالأمر بالقسط حتى يلتزم الذين يقومون بالصلح بينهما العدالة التى لا يشوبها أى حيف أو جور على إحدى الطائفتين .

وقوله : ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ تذييل المقصود به حض المؤمنين على التقيد بالعدل فى أحكامهم ، لأن الله - تعالى - يحب من يفعل ذلك .

وقوله : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم .. ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله من الأمر بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين .

أى : إنما المؤمنون إخوة فى الدين والعقيدة ، فهم يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان ، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب ، وكما ان أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر فى جلب الخير ، ودفع الشر ، فكذلك الأخوة فى الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح ، وإلى تقوى الله وخشيته ، ومتى تصالحتم واتقيتم الله - تعالى - كنتم أهلا لرحمته ومثوبته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم خص الإثنان بالذكر دون الجمع فى قوله : فأصلحوا بين أخويكم - ؟

قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد فى شقاق الجمع أكثر منه فى شقاق الاثنين[١] .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين جملة من الأحكام منها :

أن الأصل فى العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم ، لا على التنازع والتخاصم ، وأنه إذا حدث نزاع بين طائفتين من المؤمنين ، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الإصلاح بينهما حتى يرجعا إلى حكم الله - تعالى - .

قال الشوكانى : إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها نحو الأخرى[٢] .

ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين نداء رابعا ، نهاهم فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ، أو أن يعيب بعضهم بعضا فقال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى قوم من بنى تميم ، سخروا من بلال ، وسلمان ، وعمار ، وخباب .. لما رأوا من رثاثة حالهم ، وقلة ذات يدهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٦٦ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٦٣ للشوكانى .

ومن المعروف بين العلماء ، أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقوله : ﴿ يسخر ﴾ من السخرية ، وهى احتقار الشخص لغيره بالقول أو بالفعل ، يقال : سخر فلان من فلان ، إذا استهزأ به ، وجعله مثار الضحك ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن نوح مع قومه : ﴿ .. قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القوام بأمور النساء .. واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية ، وفى قول الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء .

وأما قولهم فى قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاطف للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور ، وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن[2] .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، لا يحتقر بعضكم بعضا ولا يستهزىء بعضكم من بعض .

وقوله : ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ تعليل للنهى عن السخرية . أى : عسى أن يكون المسخور منه خيرا عند الله - تعالى - من الساخر ، إذ أقدار الناس عنده - تعالى - ليست على حسب المظاهر والأحساب .. وإنما هى على حسب قوة الإيمان ، وحسن العمل .

وقوله : ﴿ ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾. معطوف على النهى السابق ، وفى ذكر النساء بعد القوم قرينة على أن المراد بالقوم الرجال خاصة .

أى : عليكم يا معشر الرجال أن تبتعدوا عن احتقار غيركم من الرجال ، وعليكن يا جماعة النساء أن تقلعن إقلاعا تاما عن السخرية من غيركن .

ونكر - سبحانه - لفظ ﴿ قوم ﴾ و ﴿ نساء ﴾ ، للإشعار بأن هذا النهى موجه إلى جميع الرجال والنساء ، لأن هذه السخرية منهى عنها بالنسبة للجميع .

وقد جاء النهى عن السخرية موجها إلى جماعة الرجال والنساء ، جريا على ما كان جاريا فى الغالب ، من أن السخرية كانت تقع فى المجامع والمحافل ، وكان الكثيرون يشتركون فيها على سبيل التلهى والتلذذ .

ثم قال - تعالى - ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة سواء أكان على وجه يضحك أم لا ، وسواء كان بحضرة الملموز أم لا ، فهو أعم من السخرية

---

(١) سورة هود الآية ٣٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٦٧ .

التى هى احتقار الغير بحضرته ، فالجملة الكريمة من باب عطف العام على الخاص .

يقال : لمز فلان فلانا ، إذا عابه وانتقصه ، وفعله من باب ضرب ونصر .

ومنهم من يرى أن اللمز ما كان سخرية ولكن على وجه الخفية ، وعليه يكون العطف من باب عطف الخاص على العام ، مبالغة فى النهى عنه حتى لكأنه جنس آخر .

أى : ولا يعب بعضكم بعضا بأى وجه من وجوه العيب . سواء أكان ذلك فى حضور الشخص أم فى غير حضوره .

وقال - سبحانه - ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ مع أن اللامز يلمز غيره ، للإشارة إلى أن من عاب أخاه المسلم ، فكأنما عاب نفسه ، كما قال - تعالى : ﴿ ... فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ، تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أى : ولا يخاطب أحدكم غيره بالألفاظ التى يكرهها ، بأن يقول له يا أحمق ، أو يا أعرج ، أو يا منافق .. أو ما يشبه ذلك من الألقاب السيئة التى يكرهها الشخص .

فالتنابز : التعاير والتداعى بالألقاب المكروهة ، يقال : نبزه ينبزه - كضربه يضربه - إذا ناداه بلقب يكرهه ، سواء أكان هذا اللقب للشخص أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ تعليل للنهى عن هذه الرذائل والمراد بالاسم : ما سبق ذكره من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ، والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس الفعل فعلكم أن تذكروا إخوانكم فى العقيدة بما يكرهونه وبما يخرجهم عن صفات المؤمنين الصادقين ، بعد أن هداهم الله - تعالى - وهداكم إلى الإيمان .

وعلى هذا فالمراد من الآية نهى المؤمنين أن ينسبوا إخوانهم فى الدين إلى الفسوق بعد اتصافهم بالإيمان .

قال صاحب الكشاف : الاسم ههنا بمعنى الذِّكْر ، من قولهم : فلان طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وَصِيته .. كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين .. أن يذكروا بالفسق[2] .

ويصح أن يكون المراد من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن ارتكابهم لهذه الرذائل ، لأن

---

(١) سورة النور الآية ٦١ .

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧٠ .

ارتكابهم لهذه الرذائل ، يؤدى بهم إلى الفسوق والخروج عن طاعة الله - تعالى - بعد أن اتصفوا بصفة الإيمان .

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه : وقوله ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ . يقول - تعالى - : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه . أن تسموا فساقا - بعد أن وصفتهم بصفة الإيمان[1] .

وقال الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : هذا أى قوله - تعالى - ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ من تمام الزجر كأنه - تعالى - يقول : يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا فإن من يفعل ذلك يفسق بعد إيمانه ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق .. ويصير التقدير : بئس الفسوق بعد الإيمان[2] .

ويبدو لنا أن هذا الرأى أنسب للسياق ، إذ المقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن السخرية أو اللمز أو التنابز بالألقاب ، لأن تعودهم على ذلك يؤدى بهم إلى الفسوق عن طاعة الله - تعالى - والخروج عن آدابه ، وبئس الوصف وصفهم بذلك أى : بالفسق بعد الإيمان .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ أى : ومن لم يتب عن ارتكاب هذه الرذائل ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة ، والفسوق فى موضع الإيمان .

هذا ، ومن الإحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب الابتعاد عن أن يعيب المسلم أخاه المسلم ، أو يحتقره ، أو يناديه بلقب سيئ .

قال الآلوسى : انفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره ، سواء كان صفة له أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما .

ويستثنى من ذلك نداء الرجل بلقب قبيح فى نفسه ، لا على قصد الاستخفاف به ، كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته ، كقول المحدثين : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب[3] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٦ ص ٨٥ .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٥٧٧ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٥٤ .

ثم وجه - سبحانه - إلى عباده المؤمنين نداء خامسا ، نهاهم فيه عن أن يظن بعضهم ببعض ظنا سيئا بدون مبرر ، كما نهاهم عن التجسس وعن الغيبة ، حتى تبقى للمسلم حرمته وكرامته .. فقال - تعالى - .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

وقوله - تعالى - ﴿ اجتنبوا ﴾ من الاجتناب يقال : اجتنب فلان فلانا إذا ابتعد عنه ، حتى لكأنه فى جانب والآخر فى جانب مقابل .

والمراد بالظن المنهى عنه هنا : الظن السيئ بأهل الخير والصلاح بدون دليل أو برهان .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والظن أنواع : منه ما هو واجب ، ومنه ما هو محرم ، ومنه ما هو مباح .

فالمحرم : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال ، الظاهر العدالة ، ففى الحديث الشريف : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث .. » وفى حديث آخر : « إن الله حرم من المسلم ودمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء » .

وقلنا : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال ... لأن من يجاهر بارتكاب الخبائث .. لا يحرم سوء الظن به ، لأن من عرض نفسه للتهم كان أهلا لسوء الظن به .

والظن الواجب يكون فيما تعبدنا الله - تعالى - بعلمه ، ولم ينصب عليه دليلا قاطعا ، فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة الصحيحة ، كقبول شهادة العدل ، وتحرى القبلة ..

والظن المباح مثلوا له بالشك فى الصلاة حين استواء الطرفين ...

وحرمة سوء الظن بالناس ، إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير ، وأما أن تظن شرا لتتقيه ، ولا يتعدى أثر ذلك إلى الغير فذلك محمود غير مذموم ، وهو محمل ما ورد

من أن « من الحزم سوء الظن.. »[1] .

أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ابتعدوا ابتعادا تاما عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين ، لأن هذه الظنون السيئة التى لا تستند إلى دليل أو أمارة صحيحة إنما هى مجرد تهم ، تؤدى إلى تولد الشكوك والمفاسد .. فيما بينكم ..

وجاء - سبحانه - بلفظ « كثيرا » منكرا لكى يحتاط المسلم فى ظنونه ، فيبتعد عما هو محرم منها ، ولا يقدم إلا على ما هو واجب أو مباح منها - كما سبق أن أشرنا - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ تعليل للأمر باجتناب الظن . والإثم : الذنب الذى يستحق فاعله العقوبة عليه . يقال : أثم فلان - كعلم - بأثم إثما فهو آثم إذا ارتكب ذنبا . والمراد بهذا البعض المذموم من الظن ما عبر عنه - سبحانه - قبل ذلك بقوله : ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن ﴾ .

أى : إن الكثير من الظنون يؤدى بكم إلى الوقوع فى الذنوب والآثام فابتعدوا عنه .

قال ابن كثير : ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا ، فليجتنب كثيرا منه احتياطا .. عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله - ﷺ - : ثلاث لازمات لأمتى : « الطيرة والحسد وسوء الظن » : فقال رجل : ما الذى يذهبن يارسول الله من هن فيه ؟ قال : « إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض »[2] .

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن ضع أمر أخيك على أحسنه ، ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ...[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أى : خذوا ماظهر من أحوال الناس ولا تبحثوا عن بواطنهم أو أسرارهم . أو عوراتهم ومعايبهم ، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله - تعالى - .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٩٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥٧ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٥٦ .

فالتجسس مأخوذ من الجس ، وهو البحث عما خفى من أمور الناس ، وقرأ الحسن وأبو رجاء : ﴿ ولا تحسسوا ﴾ من الحس ، وهما بمعنى واحد . وقيل هما متغايران التجسس - بالجيم - معرفة الظاهر ، وأن التحسس - بالحاء - تتبع البواطن وقيل بالعكس ..

وعلى أية حال فالمراد هنا من التجسس والتحسس : النهى عن تتبع عوارت المسلمين ، أخرج أبو داود وغيره عن أبى برزة الأسلمى قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه . لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين ، فضحه الله - تعالى - فى قعر بيته » .

وعن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم »[1] .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الغيبة فقال : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ والغيبة - بكسر الغين - أن تذكر غيرك فى غيابه بما يسوءه يقال : اغتاب فلان فلانا ، إذا ذكره بسوء فى غيبته ، سواء أكان هذا الذكر بصريح اللفظ أم بالكناية ، أم بالإشارة ، أم بغير ذلك .

روى أبو داود وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه[2] .

ثم ساق - سبحانه - تشبيها ينفر من الغيبة أكمل تنفير فقال : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ . والاستفهام للتقرير لأنه من الأمور المسلمة أن كل إنسان يكره أكل لحم أخيه حيا ، فضلا عن أكله ميتا .

والضمير فى قوله : ﴿ فكرهتموه ﴾ يعود على الأكل المفهوم من قوله ﴿ يأكل ﴾ و﴿ ميتا ﴾ حال من اللحم أو من الأخ .

أى : اجتنبوا أن تذكروا غيركم بسوء فى غيبته ، فإن مثل من يغتاب أخاه المسلم كمثل من يأكل لحمه وهو ميت ، ولاشك أن كل عاقل يكره ذلك وينفر منه أشد النفور .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : قوله - تعالى - : ﴿ أيحب

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥٧ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥٩ .

أحدكم أن يأكل .. ﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض غيره على أفظع وجه وأفحشه .

وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو الغاية فى الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه - سبحانه - لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وإنما جعله أخا ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ وإنما جعله ميتا ..

وانتصب «ميتا» على الحال من اللحم أو من الأخ... وقوله : ﴿فكرهتموه﴾ فيه معنى الشرط. أى: إن صح هذا فقد كرهتموه -فلا تفعلوه- وهى الفاء الفصيحة[1].

والحق أن المتأمل فى هذه الآية الكريمةيراها قد نفرت من الغيبة بأبلغ أسلوب وأحكمه ، لأنها من الكبائر والقبائح التى تؤدى إلى تمزق شمل المسلمين ، وإيقاد نار الكراهية فى الصدور .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة ، وتنحصر فى ستة أسباب :

الأول : التظلم ، إذ من حق المظلوم أن يشكو ظالمه إلى من تتوسم فيه إزالة هذا الظلم .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .

الثالث : الاستفتاء ، إذ يجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا ..

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ، كتجريح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء بغير علم .

الخامس : المجاهرون بالمعاصى وبارتكاب المنكرات ، فإنه يجوز ذكرهم بما تجاهروا به ..

السادس : التعريف باللقب الذى لا يقصد به الإساءة كالأعمش والأعرج[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بدعوة المؤمنين إلى التوبة والإنابة فقال : ﴿ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ . أى : واتقوا الله - أيها المؤمنون - بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما أمركم - سبحانه - باجتنابه ، إن الله - تعالى - كثير القبول لتوبة عباده ، الذين يتوبون من قريب ، ويرجعون إلى طاعته رجوعا مصحوبا بالندم على ما فرط منهم من ذنوب ، ومقرونا بالعزم على عدم العودة إلى تلك الذنوب لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، ومستوفيا لكل ما تستلزمه التوبة الصادقة من شروط .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧٣ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٦١ .

وهو - أيضا - واسع الرحمة لعباده المؤمنين ، المستقيمين على أمره .

وبذلك نرى هذه الآية الكريمة قد نهت المسلمين عن رذائل ، يؤدى تركها إلى سعادتهم ونجاحهم ، وفتحت لهم باب التوبة لكى يقلع عنها من وقع فيها ..

وبعد هذه النداءات الخمسة للمؤمنين ، التى اشتملت على الآداب النفسية والاجتماعية .. وجه - سبحانه - نداء إلى الناس جميعا ، ذكرهم فيه بأصلهم وبميزان قبولهم عنده ، فقال - سبحانه - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن الرسول - ﷺ - أمر بنى بياضة أن يزوجوا امرأة منهم لأبى هند - وكان حجاما للنبى - ﷺ - فقالوا : يارسول الله ، نزوج بناتنا - موالينا - أى : عبيدنا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[1] .

والمراد بالذكر والأنثى : آدم وحواء . أى : خلقناكم جميعا من أب واحد ومن أم واحدة ، فأنتم جميعا تنتسبون إلى أصل واحد ، ويجمعكم وعاء واحد ، وما دام الأمر كذلك فلا وجه للتفاخر بالأحساب والأنساب .

قال الآلوسى : أى خلقناكم من آدم وحواء ، فالكل سواء فى ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب ، كما قال الشاعر :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

وجوز أن يكون المراد هنا : إنا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه ، والكلام مساق له ..[2] .

وقوله : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .... ﴾ بيان لما ترتب على خلقهم على تلك الصورة ، وللحكمة من ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٤٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٦١ .

والشعوب : جمع شعب ، وهو العدد الكثير من الناس يجمعهم - فى الغالب أصل واحد .
والقبائل : جمع قبيلة وتمثل جزءا من الشعب ، إذ أن الشعب مجموعة من القبائل .

قال صاحب الكشاف : والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب . وهى : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة .. وسميت الشعوب بذلك ، لأن قبائل تشعبت منها ..[1] .

والمعنى : خلقناكم - أيها الناس - من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ﴿ لتعارفوا ﴾ أى : ليعرف بضعكم نسب بعض ، فينتسب كل فرد إلى آبائه ، ولتتواصلوا فيما بينكم وتتعاونوا على البر والتقوى ، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه أو نسبه أو جاهه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ تعليل لما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر بالأنساب .

أى : إن أرفعكم منزلة عند الله ، وأعلاكم عنده - سبحانه - درجة .. هو أكثركم تقوى وخشية منه - تعالى - فإن أردتم الفخر ففاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح .

﴿ إن الله عليم ﴾ بكل أحوالكم ﴿ خبير ﴾ بما ترونه وتعلنونه من أقوال وأفعال .

وقد ساق الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية . جملة من الأحاديث التى تنهى عن التفاخر ، وتحض على التقوى ، فقال : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهى طاعة الله ورسوله ..

روى البخارى - بسنده - عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله - ﷺ - أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - خطب الناس يوم فتح مكة فقال : « يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية - أى تكبرها ، وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل يرتقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله . إن الله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧٤ .

يقول : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .. ﴾ ثم قال : « أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالرد على الأعراب الذين قالوا آمنا ، دون أن يدركوا حقيقة الإيمان ، وبين من هم المؤمنون الصادقون .

فقال - تعالى - :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن
قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟
وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

والإعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابى ، وهم الذين يسكنون البادية . والمراد بهم هنا جماعة منهم لاكلهم ، لأن منهم ، ﴿ من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ﴾..[2]

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٦٦ .
(٢) سورة التوبة الآية ٩٩ .

قال الآلوسى : قال مجاهد : نزلت هذه الآيات فى بنى أسد ، وهم قبيلة كانت تسكن بجوار المدينة ، أظهروا الإسلام ، وقلوبهم دغلة ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .. ويروى أنهم قدموا المدينة فى سنة مجدبة ، فأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله - ﷺ - : جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان .. يمنون بذلك على النبى - ﷺ -[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ من الإيمان ، وهو التصديق القلبى ، والإذعان النفسى والعمل بما يقتضيه هذا الإيمان من طاعة لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - .

وقوله : ﴿ أسلمنا ﴾ من الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد الظاهرى بالجوارح ، دون أن يخالط الإيمان شغاف قلوبهم . أى : قالت الأعراب لك - أيها الرسول الكريم - آمنا وصدقنا بقلوبنا لكل ما جئت به ، وامتثلنا لما تأمرنا به وتنهانا عنه .

قل لهم ﴿ لم تؤمنوا ﴾ أى : لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نية .. ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أى : ولكن قولوا نطقنا بكلمة الإسلام ، واستسلمنا لما تدعونا إليه إستسلاما ظاهريا طمعا فى الغنائم ، أو خوفا من القتل .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه قوله - تعالى - : ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ والذى يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا...

قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولا ، ودفع ما انتحلوه ، فقيل : قل لم تؤمنوا ، وروعى فى هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه ، حيث لم يقل : كذبتم ، ووضع ، « لم تؤمنوا » الذى هو نفى ما ادعوا إثباته موضعه ..

واستغنى بالجملة التى هى « لم تؤمنوا » عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهى عن القول بالإيمان ..[٢] .

وقوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ جملة حالية من ضمير ، « قولوا » و « لما » لفظ يفيد توقع حصول الشىء الذى لم يتم حصوله .

أى : قولوا أسلمنا والحال أنه لم يستقر الإيمان فى قلوبكم بعد ، فإنه لو استقر فى قلوبكم لما سلكتم هذا المسلك ، ولما مننتم على الرسول - ﷺ - بإسلامكم .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٧٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧٦ .

الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل ، حين سأل عن الإسلام . ثم عن الإيمان .. فترقى من الأعم إلى الأخص .

كما يدل على ذلك حديث الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص ، أن الرسول - ﷺ - أعطى رجلا ولم يعط آخر . فقال سعد : يارسول الله ، مالك عن فلان إنى لأراه مؤمنا ، فقال : « أو مسلما » ..

فقد فرق - ﷺ - بين المؤمن والمسلم . فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام .

كما دل هنا عن أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ، إنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم . فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا بذلك ..[1] .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى ما يكمل إيمانهم فقال : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم ﴾ .

ومعنى : « لايلتكم » لا ينقصكم . يقال : لات فلان فلانا حقه - كباع - إذا نقصه .

أى : وإن تطيعوا الله - تعالى - ورسوله ، بأن تخلصوا العبادة ، وتتركوا المن والطمع ، لا ينقصكم - سبحانه - من أجور أعمالكم شيئا ، إن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لعباده التائبين توبة صادقة نصوحا .

ثم بين - سبحانه - صفات عباده المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾.

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان وأكمله ، هم الذين آمنوا بالله - تعالى - ورسوله - ﷺ - ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ أى : لم يدخل قلوبهم شىء من الريبة أو الشك فيما أخبرهم به نبيهم - ﷺ - .

وأتى - سبحانه - بثم التى للتراخى ، للتنبيه على أن نفى الريب عنهم ليس مقصورا على وقت إيمانهم فقط ، بل هو مستمر بعد ذلك إلى نهاية آجالهم ، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم آمنوا عن يقين ، واستمر معهم هذا اليقين إلى النهاية .

ثم أتبع ذلك ببيان الثمار الطيبة التى ترتبت على هذا الإيمان الصادق فقال :﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ .

أى : وبذلوا من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، ومن أجل دينه أموالهم وأنفسهم .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٦٨ .

قال الآلوسى : وتقديم الأموال على الأنفس من باب الترقى من الأدنى إلى الأعلى . ويجوز بأن يقال : قدم الأموال لحرص الكثيرين عليها ، حتى إنهم يهلكون أنفسهم بسببها ..[(١)] .

﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أى : أولئك الذين فعلوا ذلك هم الصادقون فى إيمانهم .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يخبرهم بأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أحوالهم فقال : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ .

وقوله : ﴿ أتُعلِّمون ﴾ من الإعلام بمعنى الإخبار ، فلذا تعدى بالتضعيف لِواحِد بنفسه ، وإلى الثانى بحرف الجر . أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الأعراب على سبيل التوبيخ : أتخبرون الله - تعالى - بما أنتم عليه من دين وتصديق حيث قلتم آمنا ، على سبيل التفاخر والتباهى .. وأحال أن الله - تعالى - ﴿ يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ دون أن يخفى عليه شىء من أحوال المخلوقات الكائنة فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ مقرر لما قبله ومؤكد له .

ثم أشار - تعالى - إلى نوع آخر من جفائهم وقلة إدراكهم فقال : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ... ﴾ .

والمن : تعداد النعم على الغير ، وهو مذموم من الخلق ، محمود من الله - تعالى - .

أى : هؤلاء الأعراب يعدون إيمانهم بك منة عليك ، ونعمة أسدوها إليك حيث قالوا لك : جئناك بالأموال والعيال . وقاتلك الناس ولم نقاتلك ..

وقوله : ﴿ أن أسلموا ﴾ فى موضع المفعول لقوله : ﴿ يمنون ﴾ لتضمينه معنى الاعتداد ، أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوبا بنزع الخافض أو مجرورا بالحرف المقدر . أى : يمنون عليك بإسلامهم ..

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم بما يدل على غفلتهم فقال : ﴿ قل لاتمنوا على إسلامكم ...﴾ .

أى : قل لهم لا تتفاخروا علىّ بسبب إسلامكم ، لأن ثمرة هذا الإسلام يعود نفعها عليكم لا علىّ .

ثم بيّن - سبحانه - أن المنة له وحده فقال : ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ... ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٦٩ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما زعمتم من أن إسلامكم يعتبر منّةً علىَّ ، بل الحق أن الله - تعالى - هو الذى يمن عليكم أن أرشدكم إلى الإيمان ، وهداكم إليه ، وبين لكم طريقه ، فادعيتم أنكم آمنتم مع أنكم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط .

قال صاحب الكشاف : وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون - كما زعموا - إيمانا فلما منّوا على الرسول - ﷺ - بما كان منهم ، قال الله - تعالى - لرسوله : إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به ..

ثم قال : بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه ، حيث هداكم للإيمان - على ما زعمتم - وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ، ووفقتم له إن صح زعمكم ، وصدقت دعواكم .. وفى إضافة الإسلام عليهم ، وإيراد الإيمان غير مضاف ، مالا يخفى على المتأمل ...[1] .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف ، يدل عليه ما قبله . أى : إن كنتم صادقين فى إيمانكم فاعتقدوا ، أن المنة إنما هى لله - تعالى - عليكم ، حيث أرشدكم إلى الطريق الموصل إلى الإيمان الحق .

وشبيه فى المعنى بهذه الآية قول الرسول - ﷺ - للأنصار فى إحدى خطبه : « يامعشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وكنتم عالة فأغناكم الله بى ؟» وكان - ﷺ - كلما قال شيئا ، قالوا : الله ورسوله أمَنُّ .

والحق أن هداية الله - تعالى - لعبده إلى الإيمان تعتبر منة منه - سبحانه - لا تدانيها منة ، ونعمة لا تقاربها نعمة ، وعطاء ساميا جليلا منه - تعالى - لا يساميه عطاء فله - عز وجل - الشكر الذى لا تحصيه عبارة على هذه النعمة ، ونسأله - تعالى - أن يديمها علينا حتى نلقاه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ... ﴾ أى : إنه - تعالى - يعلم ما خفى وغاب عن عقول الناس من أحوال السموات والأرض ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ - أيها الناس - لا يعزب عنه شىء من أقوالكم أو أفعالكم .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « الحجرات » تلك السورة التى رسمت للناس معالم عالم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧٨ .

كريم ، تشع فيه الآداب السامية ، والأخلاق العالية ، والقيم الجليلة ، وتختفى فيه ما يتعارض مع هذه المعانى كالحقد والغيبة والتقاتل والتفاخر بالأحساب والأنساب .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع نفوسنا ، وأنس قلوبنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
٣ من جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/١/١٤ م

تفسير

سُورَةِ قٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « ق » هى السورة الخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة « المرسلات » .

ويبدو أن نزولها كان فى أوائل العهد المكى ، إذ من يراجع ترتيب السور على حسب النزول يرى أنها لم يسبقها سوى اثنتين وثلاثين سورة ، ومعظم السور التى سبقتها كانت من الجزء الأخير من القرآن الكريم[1] .

وهى من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها خمس وأربعون آية ، وتسمى - أيضا - بسورة « الباسقات » .

٢ - وقد ذكر الإمام ابن كثير فى مقدمة تفسيره لها جملة من الأحاديث فى فضلها ، منها ما رواه مسلم وأهل السنن ، عن أبى واقد الليثى ، أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ فى العيد بسورة « ق » وبسورة ﴿ اقتربت الساعة ... ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت : ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا على لسان رسول الله - ﷺ - ، كان يقرؤها كل يوم جمعة إذا خطب الناس .

ثم قال ابن كثير : والقصد أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور ، والمعاد والقيام ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب ..[2] .

٣ - والحق ، أن المتأمل فى هذه السورة الكريمة يراها قد اشتملت على ماذكره الإمام ابن كثير ، بأسلوب بليغ بديع .

فهى تبدأ بالثناء على القرآن الكريم ، ثم تذكر دعاوى المشركين وترد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ثم توبخهم على عدم تفكرهم فى أحوال هذا الكون الزاخر بالآيات والكائنات الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ للأمام السيوطى .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٠ .

قال - تعالى - : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ .

٤ - ثم تذكرهم - أيضا - بسوء عاقبة المكذبين من قبلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم فرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة ..

ثم تتبع ذلك بتذكيرهم بعلم الله - تعالى - الشامل لكل شىء ، وبسكرات الموت وما يتبعها من بعث وحساب ، وثواب وعقاب ..

قال - تعالى - : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد ﴾ .

٥ - ثم تختتم السورة الكريمة ، بتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وترشده إلى العلاج الذى يعينه على مداومة الصبر ، كما تحكى له أحوالهم يوم القيامة ليزداد يقينا على يقينه ، وتأمره بالمواظبة على تبليغهم ، بما أمره الله - تعالى - بتبليغه .

لنستمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

وهكذا تطوف بنا السورة الكريمة فى أعماق هذا الكون ، وفى أعماق النفس الإنسانية ، منذ ولادتها ، إلى بعثها ، إلى حسابها ، إلى جزائها .. وذلك كله بأسلوب مؤثر بديع ، يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر

٦ من جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦/١/١٧ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ
فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ
رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ
﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ
وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ
مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ
وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾
رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾

سورة « ق » من السور القرآنية ، التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وأقرب الأقوال إلى الصواب فى معنى هذه الحروف ، أنها جىء بها على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن . فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى

من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك فى كونه منزلا من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله .

فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - سبحانه - .

وهذا الرأى وهو كون « ق » من الحروف الهجائية ، هو الذى نطمئن إليه ، وهناك أقوال أخرى فى معنى هذا الحرف ، تركناها لضعفها كقول بعضهم إن « ق » اسم جبل محيط بجميع الأرض .. وهى أقوال لم يقم دليل نقلى أو عقلى على صحتها .

قال ابن كثير : وقد روى عن بعض السلف ، أنهم قالوا « ق » جبل محيط بالأرض ، يقال له جبل « ق » وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ..[١] .

والواو فى قوله - تعالى - : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ للقسم ، والمقسم به القرآن الكريم ، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه ، وهو استبعادهم لبعثة الرسول - ﷺ - وتكذيبهم للبعث والحساب ..

وقوله : ﴿ المجيد ﴾ صفة للقرآن . أى : ذى المجد والشرف وكثرة الخير .

ولفظ المجيد مأخوذ من المجد ، بمعنى السعة والكرم ، وأصله من مجدت الإبل وأمجدت ، إذا وقعت فى مرعى مخصب ، واسع ، الجنبات ، كثير الأعشاب .

والمعنى : أقسم بالقرآن ذى المجد والشرف ، وذى الخير الوفير الذى يجد فيه كل طالب مقصوده ، إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبلغه عن ربك من أن البعث حق والحساب حق ، والجزاء حق ... ولكن الجاحدين لم يؤمنوا بذلك .

﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ وهو أنت يا محمد ، فلم يؤمنوا بك ، بل قابلوا دعوتك بالإنكار والتعجب .

﴿ فقال الكافرون هذا شىء عجيب ﴾ أى : هذا البعث الذى تخبرنا عنه يا محمد شىء يتعجب منه ، وتقف دونه أفهامنا حائرة .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ... ﴾ بل للإضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف ، فكأنه قيل إنا أنزلنا هذا القرآن لتنذر به

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٢ .

الناس ، فلم يؤمنوا به ، بل جعلوا كلا من المنذِر والمنذَر به عرضة للتكبر والتعجب ، مع كونهما أوفق شيء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول ..

وقوله : ﴿ أن جاءهم ﴾ بتقدير لأن جاءهم ، ومعنى « منهم » أى : من جنسهم ، وضمير الجمع يعود إلى الكفار ..

وقوله : ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ تفسير لتعجبهم .. وإضمارهم أولا ، للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم ، وإظهارهم ثانيا ، لتسجيل الكفر عليهم ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾ تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار الصادر عنهم ، والعامل فى « إذا » مضمر لدلالة ما بعده عليه ..

أى : أحين نموت ونصير ترابا وعظاما نرجع إلى الحياة مرة أخرى ، كما يقول محمد - ﷺ - ، وكما يقول القرآن الذى نزل عليه .

لا ، إننا لن نبعث ولن نعود إلى الحياة مرة أخرى ، وما يخبرنا به محمد - ﷺ - من أن الرجوع إلى الحياة مرة أخرى حق ، كلام بعيد عن عقولنا وأفهامنا .

فاسم الإشارة « ذلك » يعود إلى محل النزاع وهو الرجوع إلى الحياة مرة أخرى ، والبعث بعد الموت . والرجع بمعنى الرجوع . يقال : رجعته أرجِعُه رَجْعا ورُجوعا ، بمعنى أعدته .. ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ .

أى : ذلك الرجوع إلى الحياة مرة أخرى بعيد عن الأفهام ، وعن العادة ، وعن الإمكان .

وبعد هذا التصوير الأمين لحججهم وأقوالهم ، ساق - سبحانه - الرد الذى يدفع تلك الحجج والأقوال فقال : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ .

أى : قد علمنا علما تاما دقيقا ما تأكله الأرض من أجسادهم بعد موتهم ، ومن علم ذلك لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ تأكيد وتقرير لما قبله .

أى : وعندنا بجانب علمنا الشامل الدقيق . كتاب حافظ لجميع أحوال العباد ، ومسجلة فيه أقوالهم وأفعالهم ، والمراد بهذا الكتاب : اللوح المحفوظ .

ثم كشف - سبحانه - عن حقيقة أحوالهم ، وعن الأسباب التى دفعتهم إلى إيثار الباطل على الحق فقال : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج ﴾ . أى : إن هؤلاء

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٧٢ .

الكافرين لم يكتفوا بإنكارهم للبعث .. بل جاءوا بما هو أشنع وأفظع منه ، وهو تكذيبهم لنبوتك - أيها الرسول الكريم - تلك النبوة الثابتة بالمعجزات الناصعة ، ومن مظاهر هذا التكذيب أنهم تارة يقولون عنك ساحر ، وتارة يقولون عنك كاهن وتارة يصفوك بالجنون .

فهم فى أمر مريج ، أى : مضطرب مختلط . بحيث لا يستقرون على حال . يقال : مرج الأمر - بزنة طرب - إذا اختلط وتزعزع ، وفقد الثبات والاستقرار والصلاح .. ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، إذا فسدت وعمتهم الخيانة ، ومرج الخاتم فى إصبع فلان ، إذا تخلخل واضطرب لشدة هزال صاحبه .

وفى هذا الرد عليهم تصوير بديع معجز ، حيث بين - سبحانه - بأنه عليم بما تأكله الأرض من أجسادهم المغيبة فيها ، وبتناقص هذه الاجساد رويدا رويدا ، وأن كل أحوالهم مسجلة فى كتاب حفيظ ، وأنهم عندما فارقوا الحق الثابت وكذبوه ، مادت الأرض من تحتهم واضطربت ، واختلطت عليهم الأمور والتبست ، فصاروا يلقون التهم جزافا دون أن يستقروا على رأى ، أو يجتمعوا على كلمة ..

ثم شرعت السورة الكريمة فى بيان الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى أن البعث حق ، وعلى أن استبعادهم له إنما هو لون من جهالاتهم وانطماس بصائرهم ، فقال - تعالى - :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ . والاستفهام للإنكار والتعجيب من جهلهم ، والهمزة متعلقة بمحذوف ، والفاء عاطفة عليه أى : أأعرضوا عن آيات الله فى هذا الكون ، فلم ينظروا إلى السماء فوقهم . كيف بنيناها هذا البناء العجيب ، بأن رفعناها بدون عمد ، وزيناها بالكواكب ، وحفظناها من أى تصدع أو تشقق أو تفتق . فقوله : ﴿ فروج ﴾ جمع فرج ، وهو الشق بين الشيئين . والمراد سلامتها من كل عيب وخلل .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى بسط الأرض ، بعد بيان مظاهر قدرته فى رفع السماء فقال : ﴿ والأرض مددناها ﴾ أى : والأرض بسطناها ومددناها بقدرتنا ، وجعلناها مترامية الأطراف والمناكب ، كما تشاهدون ذلك بأعينكم .

---

(١) سورة تبارك الآيتان ٣ ، ٤ .

قالوا : وامتدادها واتساعها لاينافى كرويتها ، لأن عظم سطحها يجعل الناظر إليها يراها كأنها مسطحة ممدودة .

﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ أى : وألقينا فيها جبالا ثوابت تمنعها من الاضطراب .. فقوله ﴿ رواسى ﴾ جمع راسية بمعنى ثابتة وهو صفة لموصوف محذوف .

﴿ وأنبتنا فيها ﴾ أى : فى الأرض ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ أى : وأنبتنا فيها من كل صنف حسن يبهج ويسر الناظرين إليه ، مأخوذ من البهجة بمعنى الحسن يقال : بَهُج الشىء - كظرف - فهو بهيج أى : حسن جميل .

وقوله : ﴿ تبصرة وذكرى .. ﴾ علتان لما تقدم من الكلام ، وهما منصوبتان بفعل مقدر .

أى : فعلنا ما فعلنا من مد الأرض ، ومن تثبيتها بالجبال ، ومن إنبات كل صنف حسن من النبات فيها ، لأجل أن نبصر عبادنا بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا ، ونذكرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم من شكر وطاعة .

وقوله : ﴿ لكل عبد منيب ﴾ متعلق بكل من المصدرين السابقين وهما : التبصرة والذكرى . أى : هذه التبصرة والذكرى كائنة لكل عبد منيب ، أى : كثير الرجوع إلى ربه بالتدبر فى بدائع صنعته ، ودلائل قدرته .

ثم انتقلت الآيات إلى بيان مظاهر قدرته فى إنزال المطر ، بعد بيان مظاهر قدرته فى خلق السموات والأرض وما اشتملتا عليه من كائنات ، فقال - تعالى - : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا ﴾ أى : ماء كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والزروع .

﴿ فأنبتنا به ﴾ أى : بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ أى : بساتين كثيرة زاخرة بالثمار ..

﴿ وحب الحصيد ﴾ أى : وحب النبات الذى من شأنه أن يحصد عند استوائه كالقمح والشعير وما يشبههما من الزروع .

فالحصيد بمعنى المحصود ، وهو صفة لموصوف محذوف أى : وحب الزرع الحصيد . فهذا التركيب من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه للعلم به .

وخص الحب بالذكر ، لاحتياج الناس إليه أكثر من غيره ، فصار كأنه المقصود بالبيان .

وقوله : ﴿ والنخل ... ﴾ معطوف على ﴿ جنات ﴾ ، و﴿ باسقات ﴾ حال من النخل . ومعنى « باسقات » مرتفعات ، من البسوق بمعنى الارتفاع والعلو . يقال : بسق فلان على أصحابه - من باب دخل - إذا فاقهم وزاد عليهم فى الفضل .

والنخل : اسم جنس يذكر ويؤنث ويجمع . وخص بالذكر مع أنه من جملة ما اشتملت عليه الجنات ، لمزيد فضله وكثرة منافعه .

وجملة ﴿ لها طلع نضيد ﴾ فى محل نصب على الحال من النخل .

والطلع : أول ما يخرج من ثمر النخل . ويسمى الكُفُرَّى . يقال : طلع الطلع طلوعا . إذا كان فى أول ظهوره .

والنضيد : بمعنى المنضود ، أى : المتراكب بعضه فوق بعض مأخوذ من نضد فلان المتاع ينضده ، إذا رتبه ترتيبا حسنا .

أى : وأنبتنا - أيضا - فى الأرض بعد إنزالنا الماء عليها من السحاب ، النخل الطوال ، الزاخر بالثمار الكثيرة التى ترتب بعضها على بعض بطريقة جميلة ..

وقوله : ﴿ رزقا للعباد ﴾ بيان للحكمة من إنزال المطر وإنبات الزرع ..

أى : أنبتنا ما أنبتنا من الجنات ومن النخل الباسقات .. ليكون ذلك رزقا نافعا للعباد ..

﴿ وأحيينا به بلدة ميتا ﴾ أى : وأحيينا بذلك الماء الذى أنزلناه بلدة كانت مجدبة ، وأرضا كانت خالية من النبات والزروع ، وتذكير ﴿ ميتا ﴾ لكون البلدة بمعنى المكان .

وقوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ جملة مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث ، مثله كمثل هذا الإحياء للأرض التى كانت جدباء ميتة ، بأن أنبتت من كل زوج بهيج بعد أن كانت خالية من ذلك .

فوجه الشبه بين إحياء الأرض بالنبات بعد جدبها ، وبين إحياء الإنسان بالبعث بعد موته ، استواء الجميع فى أنه جاء بعد عدم .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتا ... ﴾ وهى الأرض التى كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وذلك بعد أن كانت لانبات فيها ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيى الله الموتى ، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس ، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث ..

كقوله - تعالى - : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ .

وقوله : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾[1] وقوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته أنك ترى

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٣ .

الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير ﴾[١] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن البعث حق ، وأنه آت لا ريب فيه .

وبعد هذا العرض البديع لمظاهر قدرة الله - تعالى - فى هذا الكون ، ولمظاهر نعمه على خلقه ، ساقت السورة الكريمة جانبا من أحوال المكذبين للرسل السابقين . تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابك من أذى من هؤلاء المشركين الجاحدين المكذبين فقد سبقهم إلى هذا التكذيب والكفر والجحود « قوم نوح » - عليه السلام - ، فإنهم قد قالوا فى حقه إنه مجنون ، كما حكى عنهم ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ . وقوله : ﴿ وأصحاب الرس ﴾ معطوف على ما قبله ، والرس فى لغة العرب : البئر التى لم تبن بعد بالحجارة ، وقيل : هى البئر مطلقا .

وللمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم واحدا من أنبيائه ، فكذبوه ورسوه فى تلك البئر ، أى : ألقوا به فيها فأهلكهم - سبحانه - بسبب ذلك .

وقيل : هم الذين قتلوا حبيبا النجار عندما جاء يدعوهم إلى الدين الحق ، وكانت تلك البئر بأنطاكية ، وبعد قتلهم له ألقوه فيها . وقيل : هم قوم شعيب - عليه السلام - ..

واختار ابن جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين جاء الحديث عنهم فى سورة البروج .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٥ .

والمراد بثمود : قوم صالح - عليه السلام - الذين كذبوه فأهلكهم الله - تعالى - .

والمراد بعاد : قوم هود - عليه السلام - الذين اغتروا بقوتهم ، وكذبوا نبيهم ، فأخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر .

﴿ وفرعون ﴾ هو الذى أرسل الله إليه موسى - عليه السلام - فكذبه وقال لقومه ﴿ أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

﴿ وإخوان لوط ﴾ هم قومه الذين أتوابفاحشتلم يسبقوا إليها . قالوا : ووصفهم الله - تعالى - بأنهم إخوانه ، لأنه كانت تربطه بهم رابطة المصاهرة حيث إن امرأته - عليه السلام - كانت منهم .

﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ هم قوم شعيب - عليه السلام - كما قال - تعالى - : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴾[1] .

والأيكة : اسم لمنطقة كانت مليئة بالأشجار ، ومكانها - فى الغالب - بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمى بمعان .

وكان قوم شعيب يعبدون الأوثان ، ويطففون فى المكيال فنهاهم شعيب عن ذلك ، ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله - تعالى - .

﴿ وقوم تبع ﴾ وهو تبع الحميرى اليمانى ، وكان مؤمنا وقومه كفار ، قالوا : وكان اسمه سعد أبو كرب ، وقد أشار القرآن إلى قصتهم فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ..﴾[2] .

والتنوين فى قوله - تعالى - : ﴿ كل كذب الرسل ... ﴾ عوض عن المضاف إليه . أى : كل قوم من هؤلاء الأقوام السابقين كذبوا رسولهم الذى جاء لهدايتهم .

وقوله : ﴿ فحق وعيد ﴾ بيان لما حل بهم بسبب تكذيبهم لرسلهم . أى : كل واحد من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم ، فكانت نتيجة ذلك أن وجب ونزل بهم وعيدى ، وهو العذاب الذى توعدتهم به ، كما قال - سبحانه - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٧٦ وما بعدها .
(٢) سورة الدخان الآية ٣٧ .
(٣) سورة العنكبوت الآيه ٤٠ .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ كل كذب الرسل ... ﴾ أى : كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون كذب رسوله ، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل .

﴿ فحق وعيد ﴾ أى : فحق عليهم ما أوعدهم الله - تعالى - على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم ، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك[١] .

وبعد هذا العرض لمصارع المكذبين ، عادت السورة إلى تقرير الحقيقة التى كفر بها الجاهلون والجاحدون ، وهى أن البعث حق ، فقال - تعالى - : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ والاستفهام للإنكار والنفى ، وقوله ﴿ عيينا ﴾ من العى بمعنى العجز . يقال : عَيِىَ فلان بهذا الشىء ، إذا عجز عنه ، وانقطعت حيلته فيه ، ولم يهتد إلى طريقة توصله إلى مقصوده منه .

واللبس : الخلط . يقال : لبس على فلان الأمر - من باب ضرب - إذا اشتبه واختلط عليه ، ولم يستطع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ .

أى : أفعجزت قدرتنا عن خلق هؤلاء الكافرين وإيجادهم من العدم ، حتى يتوهموا أننا عاجزون عن إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ؟ .

كلا إننا لم نعجز عن شىء من ذلك لأن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ولكن هؤلاء الكافرين لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الشيطان عليهم ، قد صاروا فى لبس وخلط من أمرهم ، بدليل أنهم يقرون بأننا نحن الذين خلقناهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، ومع ذلك فهم ينكرون قدرتنا على « الخلق الجديد » أى : على إعادتهم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد موتهم .

فقوله - تعالى - : ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ أى : بل إن هؤلاء الكافرين فى خلط وشك وحيرة من أن يكون هناك خلق جديد أى خلق مستأنف لهم بعد موتهم ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لعلموا أن القادر على الخلق من العدم ، قادر على إعادة هذا المخلوق من باب أولى ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه .. ﴾[٢] .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ عطف على مقدر يدل عليه

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٥ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

ما قبله ، كأن قيل : إنهم معترفون بالأول غير منكرين قدرتنا عليه ، فلا وجه لإنكارهم الثانى ، بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف ..[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : فى الآية أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول ؟ ولم نكر اللبس ؟ ولم نكر الخلق الجديد ؟ .

وللإجابة على ذلك نقول : عرف الخلق الأول للتعميم والتهويل والتفخيم ومنه تعريف الذكور فى قوله ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ .

وأما التنكير فأمره منقسم ، فأحيانا يقصد به التفخيم ، من حيث ما فيه من الإبهام .. وهو المقصود هنا من تنكير لفظ ﴿ لبس ﴾ . كأنه قيل : بل هم فى لبس أى لبس .

وأحيانا يقصد به التقليل والتهوين لأمره ، وهو المقصود هنا بقوله من ﴿ خلق جديد ﴾ أى : أن هذا الخلق الجديد شىء هين بالنسبة إلى الخلق الأول ، وإن كان كل شىء هين بالنسبة إلى قدرة الله - تعالى -[2] .

ثم صورت السورة الكريمة بعد ذلك علم الله - تعالى - الشامل لكل شىء تصويرا يأخذ بالألباب ، وبينت سكرات الموت وغمراته ، وأحوال الإنسان عند البعث .. بيانا رهيبا مؤثرا ، قال - تعالى - :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ
﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٧٨ .
(٢) راجع حاشية تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٨٢ .

والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ..﴾ جنسه . وقوله : ﴿ توسوس ﴾ من الوسوسة وهو الصوت الخفى ، والمراد به حديث الإنسان مع نفسه . قال الشاعر :

وأكـذب النفس إذا حـدثـتهـا ... إن صـدق النفس يزرى بـالأمل

﴿ وما ﴾ موصولة ، والضمير عائد عليها والباء صلة ، أى : ونعلم الأمر الذى تحدثه نفسه به . ويصح أن تكون مصدرية ، والضمير للإنسان ، والباء للتعدية ، أى ونعلم وسوسة نفسه إياه .

والمتدبر فى هذه الآية يرى أن افتتاحها يشير إلى مضمونها ، لأن التعبير بخلقنا ، يشعر بالعلم التام بأحوال المخلوق ، إذ خالق الشىء وصانعه أدرى بتركيب جزئياته . أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا هذا الإنسان . ونعلم علما تاما شاملا ما تحدثه به نفسه من أفكار وخواطر ..

وقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ تقرير وتوكيد لما قبله .

وحبل الوريد : عرق فى باطن العنق يسرى فيه الدم ، والإضافة بيانية . أى : حبل هو الوريد . أى : ونحن بسبب علمنا التام بأحواله كلها ، أقرب إليه من أقرب شىء لديه ، وهو عرق الوريد الذى فى باطن عنقه ، أو أقرب إليه من دمائه التى تسرى فى عروقه .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن علم الله - تعالى - بأحوال الإنسان ، أقرب إلى هذا الإنسان ، من أعضائه ومن دمائه التى تسرى فى تلك الأعضاء .

والمقصود من القرب : القرب عن طريق العلم ، لا القرب فى المكان لاستحالة ذلك عليه - تعالى - .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ يعنى الناس . ﴿ ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ أى : ما يختلج فى سره وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى استخفى بها .. ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ هو حبل العاتق ، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال .. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين .. وهذا تمثيل لشدة القرب . أى : ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو من نفسه .. وهذا القرب ، هو قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ، ولا يحجب علم الله - تعالى - شىء[1] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٩ .

وقال القشيرى : فى هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم[١] .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه . وسار عليه من قبلنا جمهور المفسرين يكون الضمير ﴿ نحن ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ، وجىء بهذا الضمير بلفظ ﴿ نحن ﴾ على سبيل التعظيم .

ويرى الإمام ابن كثير أن الضمير هنا يعود إلى الملائكة ، فقد قال - رحمه الله - وقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ يعنى ملائكته - تعالى - أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع - تعالى الله وتقدس - ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ كما قال فى المحتضر ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ يعنى ملائكته .

وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، بإقدار الله هم على ذلك[٢] .

وهذا الذى ذهب إليه ابن كثير وإن كان مقبولا - لأن قرب الملائكة من العبد بإقدار الله لهم على ذلك - إلا أن ما ذهب إليه الجمهور من أن الضمير ﴿ نحن ﴾ لله - تعالى - أدل على قرب الله - سبحانه - لأحوال عباده ، وأظهر فى معنى الآية ، وأزجر للإنسان عن ارتكاب المعاصى .

و﴿ إذ ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ... ﴾ ظرف منصوب بقوله ﴿ أقرب ﴾ . أى : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، فى الوقت الذى يتلقى فيه ﴿ المتلقيان ﴾ وهما الملكان جميع ما يصدر عن هذا الإنسان .

وهو - سبحانه - وإن كان فى غير حاجة إلى كتابة هذين الملكين لما يصدر عن الإنسان ، إلا أنه - تعالى - قضى بذلك لحكم متعددة ، منها إقامة الحجة على العبد يوم القيامة ، كما أشار - سبحانه - إلى ذلك فى قوله : ﴿ ... ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[٣] .

ومفعول التلقى فى الفعل الذى هو يتلقى ، وفى الوصف الذى هو المتلقيان ، محذوف ، والتقدير إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٤ ص ١٩٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٦ .
(٣) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

وقوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ بيان ليقظة الملكين وحرصهما على تسجيل كل ما يصدر عن الإنسان .

و﴿ قعيد ﴾ بمعنى المقاعد ، أى الملازم للإنسان ، كالجليس بمعنى المجالس .

والمعنى : عن يمين الإنسان ملك ملازم له لكتابة الحسنات ، وعن الشمال كذلك ملك آخر ملازم له لكتابة السيئات وحذف لفظ قعيد من الأول لدلالة الثانى عليه ، كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أى : نحن راضون بما عندنا وأنت راض بما عندك ..

ثم أكد - سبحانه - كل هذه المعانى بقوله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أى : ما يتكلم هذا الإنسان من كلام ، وما يفعل من فعل ، إلا ولديه ملك « رقيب » أى : حفيظ يكتب أقواله « عتيد » أى : مهيأ لذلك ، حاضر عنده لا يفارقه .

يقال : عَتُدَ الشىء - ككَرُمَ - عتادة وعتادا ، أى : حضر ، فهو عتَد وعَتِيدٌ ، ويتعدى بالهمزة وبالتضعيف ، فيقال : أعْتَدَه صاحبه وعتّده ، إذا هيأه وأعده .

والمراد أن الملكين اللذين أحدهما عن يمينه والثانى عن شماله ، كلاهما مراقب لأعمال الإنسان ، حاضر لكتابتها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وبعض العلماء يرى أن الملكين يكتبان كل شىء حتى الأنين فى المرض .. لأن قوله - تعالى - ﴿ من قول ﴾ نكرة فى سياق النفى فتعم كل قول ..

وبعضهم يرى أن الملكين لا يكتبان من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، وقالوا : إن فى الآية نعتا محذوفا ، سوغ حذفه العلم به ، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب ، وتقدير النعت المحذوف : ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء إلا ولديه رقيب عتيد ..[1] .

ثم بين - سبحانه - حالة الإنسان عند الاحتضار فقال : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق

---

(١) راجع أضواء البيان للشيخ الشنقيطى جـ ٧ ص ٦٥١ .

ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ . أى : وجاءت لكل إنسان سكرة الموت وشدته وغمرته وكربته ، ملتبسة بالحق الذى لاشك فيه ولا باطل معه ﴿ ذلك ﴾ أى : الموت الذى هو نهاية كل حى ﴿ ما كنت منه تحيد ﴾ أى : تميل وتهرب وتفر منه فى حياتك . يقال : حاد فلان عن الشىء يَحِيدُ حَيْدَةً .. إذا تنحى عنه وابتعد .

أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال : لما حضر أبو بكر الموت ، بكت ابنته عائشة ، وتمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغنى الحذار عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لها أبو بكر - رضى الله عنه - : لا تقولى ذلك يابنتى ، ولكن قولى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ .

ثم بين - سبحانه - نهاية هذه الدنيا فقال : ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ أى : النفخة الأخيرة .. ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ أى : ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ الأخير فى الصور ، هو الوقت الذى توعد الله - تعالى - فيه كل كافر بسوء المصير ، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء .

وخص الوعيد بالذكر ، لتهويل هذا اليوم ، وتحذير العصاة مما سيكون فيه .

﴿ وجاءت كل نفس ﴾ من النفوس المؤمنة والكافرة والمطيعة والعاصية ﴿ معها سائق وشهيد ﴾ أى : معها ملك يسوقها إلى المحشر ، ومعها ملك آخر يشهد عليها .. ثم يقال للكافر فى هذا اليوم العصيب : ﴿ لقد كنت فى غفلة ﴾ تامة ﴿ من هذا ﴾ الذى تعانيه اليوم وتشاهده ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ أى : فأزلنا عنك فى هذا اليوم تلك الغفلة التى كانت تحجبك عن الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ أى : فبصرك ونظرك فى هذا اليوم نافذ قوى ، تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره فى الدنيا ، من البعث والحساب والثواب والعقاب .

يقال : فلان حديد البصر ، إذا كان شديد الإبصار بحيث يرى أكثر مما يراه غيره .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت بأسلوب بليغ مؤثر ، شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، كما بينت حالة الإنسان يوم القيامة ، يوم تأتى كل نفس ومعها سائق وشهيد ..

ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله قرين الإنسان يوم القيامة فيقول :

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

والمراد بقرينه فى قوله - تعالى - : ﴿ وقال قرينه ... ﴾ الملك الموكل بكتابة ما يصدر عن الإنسان فى حياته ، وجاء به مفردا مع أن لكل إنسان قرينين لأن المراد به الجنس .

ويصح أن يكون المراد بقرينه هنا ، شيطانه الذى أضله وأغواه ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ وقال قرينه ... ﴾ أى : شيطانه المقيض له فى الدنيا ، ففى الحديث : « ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن الله - تعالى - أعاننى عليه ، فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير » .

وقوله : ﴿هذا مالدى عتيد ﴾ إشارة إلى الشخص الكافر نفسه ، أى : هذا ما عندى قد هيأته لجهنم ..

وقال قتادة : قرينه : الملك الموكل بسوقه وبكتابة سيئاته ، يقول مشيرا إلى ما فى صحيفته وما فيها من سيئات : هذا الذى فى صحيفته من سيئات مكتوب عندى ، وحاضر للعرض . و « ما » نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد ، أو موصولة والظرف صلتها ، و « عتيد » خبر بعد

خبر لإسم الاشارة ، أو خبر لمبتدأ محذوف ..[1] .

ثم يقال بعد ذلك للملكين الموكلين به ، أو للسائق والشهيد : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ﴾ أى : اقذفا فى جنهم باحتقار وغضب كل « كفار » أى : كل مبالغ فى الجحود والكفر « عنيد » أى : معاند للحق مع علمه بأنه حق ..

يقال : عنَد فلان عن الحق - من باب - قعد فهو عانِد وعنيد وعُنُود ، إذا ركب الخلاف والعصيان وأبى أن ينقاد للحق مع علمه بأنه حق ، مأخوذ من العَنْدِ وهو عظم يعرض فى الحلق فيحول بين الطعام وبين دخوله إلى الجسم .

وقوله ﴿ مناع للخير معتد مريب ﴾ صفات أخرى لذلك الكافر الملقى فى جهنم .

أى : مبالغ فى المنع لكل خير يجب فعله . وهو بعد ذلك كثير الاعتداء ، وكثير الشك فيما هو حق وبر .

﴿ الذى جعل مع الله إلها آخر ﴾ فى العبادة والطاعة ﴿ فألقياه ﴾ أيها الملكان ﴿ فى العذاب الشديد ﴾ الذى يذله ويهينه .

والاسم الموصول مبتدأ يشبه الشرط فى العموم ، ولذا دخلت الفاء فى خبره وهو قوله : ﴿ فألقياه ...﴾ .

﴿ قال قرينه ﴾ أى : شيطانه الذى كان يزين له السوء فى الدنيا . والجملة مستأنفة لأنها جواب عما يزعمه الكافر يوم القيامة من أن قرينه هو الذى أغواه وحمله على الكفر ..

أى : قال الشيطان فى رده على الكافر : ياربنا إننى ما أطغيته ، ولا أجبرته على الكفر والعصيان ﴿ ولكن ﴾ هو الذى ﴿ كان فى ضلال بعيد ﴾ دون أن أكرهه أنا على هذا الضلال أو الكفر .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾[2] .

﴿ قال ﴾ أى : - الخالق - عز وجل ﴿ لا تختصموا لدى ﴾ أى : لا تتنازعوا عندى فى هذا الموقف ، فإن التنازع لا فائدة فيه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ٢٨٥ .
(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ أي : والحال أنى قد حذرتكم على ألسنة رسلى من سوء عاقبة الكفر ، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم .

﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ أي : لا خلف لوعدى ، ولا معقب لحكمى ، بل هو كائن لا محالة ، وهو أنى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي : وما أنا من شأنى أن أعذب أحدا بدون ذنب جناه . وإنما أنا من شأنى أن أجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأعفو عن كثير من ذنوب عبادى سوى الشرك بى .

﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ أي : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر - يوم نقول لجهنم هل امتلأت من كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، واكتفيت من كل من جعل معى إلها آخر .. ؟

فترد جهنم وتقول : يا إلهى ﴿ هل من مزيد ﴾ أي : يا إلهى هل بقى شىء منى لم يمتلىء من هؤلاء الكافرين ؟ أنت تعلم يا خالقى أنى قد امتلأت ، ولم يبق منى موضع لقدم .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك أنه وعدها أنه سيملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين ، فهو - سبحانه - يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى فيها وهى تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ أي : هل بقى شىء تزيدونى ؟ ..

هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث ، فقد أخرج البخارى عن أنس بن مالك . عن النبى - ﷺ - قال : « يُلْقَى فى النار - الكفرة - وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع - سبحانه - فيها قدمه فتقول : قَطْ قَطْ - أي : حسبى حسبى - .. »

وعن ابن عباس قوله : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ أي : وهل فِىَّ من مكان يزاد فِىَّ .

وعن عكرمة قوله : وتقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ وهل فىَّ مدخل واحد ؟ قد امتلأت[1] .

وقال الشوكانى : وهذا الكلام على طريقة التخييل والتمثيل ولا سؤال ولا جواب . كذا قيل . والأَوْلَى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع .

قال الواحدى : أراها الله تصديق قوله : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ، فلما امتلأت قال لها : ﴿ هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ أي : قد امتلأت ولم يبق فى موضع

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨١ .

لم يمتلىء . وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة . أى : إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها .. والمزيد : إما مصدر كالمحيد . أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى : هل من زيادة . والثانى بمعنى هل من شىء تزيدونيه ..[1] .

وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار والأخيار ، جاء بعد ذلك الحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال - تعالى - : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ .

وقوله : ﴿ وأزلفت ﴾ من الإزلاف بمعنى القرب ، يقال : أزلفه إذا قربه ، ومنه الزلفة والزلفى بمعنى القُرْبَة والمنزلة .. وهو معطوف على قوله - سبحانه - ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ .

وقوله : ﴿ غير بعيد ﴾ صفة لموصوف مذكر محذوف ، ولذا قال غير بعيد ولم يقل غير بعيدة . أى : وأدنيت وقربت الجنة للمتقين فى مكان غير بعيد منهم ، فصاروا يرونها ويشاهدون ما فيها من خيرات لا يحيط بها الوصف .

وفائدة قوله : ﴿ غير بعيد ﴾ بعد قوله ﴿ وأزلفت ﴾ للتأكيد والتقرير ، كقولك : فلان قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل ..

قال الجمل ما ملخصه : فإن قيل : ما وجه التقريب مع أن الجنة مكان ، والأمكنة يقرب منها وهى لا تقرب ؟ .

فالجواب : أن الجنة لا تنقل .. لكن الله - تعالى - يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة - حتى لكأنها حاضرة أمامه - وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن[2] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ﴾ يعود إلى الجنة التى قربت لهم .. والجملة على تقدير القول ، أى : قربت الجنة ممن هم أهلها ، ويقال لهم عند دخولها : هذا الذى ترونه من نعيم ، هو ما سبق أن وعد الله - تعالى - به كل ﴿ أواب ﴾ أى رجاع إليه بالتوبة ﴿ حفيظ ﴾ أى : حافظ لحدوده وأوامره ونواهيه بحيث لا يتجاوزها ، وإنما ينفذها ، ويقف عندها .

﴿ من خشى الرحمن بالغيب .. ﴾ أى : من خاف مقام ربه دون أن يراه أو يطلع عليه ، والجملة بدل أو عطف بيان من قوله : ﴿ لكل أواب حفيظ ﴾ وقوله : ﴿ بالغيب ﴾ متعلق بمحذوف حال من الرحمن ، أى : خَشِيَه وهو غائب عنه لا يراه ولا يشاهده .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٧٧ للشوكانى .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ١٩٧ .

﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أى : وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه ، مخلص فى طاعته ، مقبل على عبادته ..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك فى دنياهم ، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم : ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أى ادخلوا الجنة التى وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان .

﴿ ذلك ﴾ اليوم وهو يوم الثواب والعطاء الجزيل من الله - تعالى - ﴿ يوم الخلود ﴾ الذى لا انتهاء له ، ولا موت بعده ..

﴿ لهم ما يشاءون فيها ﴾ أى : لهؤلاء المتقين ما يشاءون ويشتهون .. فى الجنة .

﴿ ولدينا مزيد ﴾ أى : وعندنا - فضلا عن كل هذا النعيم الذى يرفلون فيه - المزيد منه ، مما لم يخطر لهم على بال ، ولم تره أعينهم قبل ذلك .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ كقوله - تعالى - : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان ، أنها النظر إلى وجه الله الكريم[٢] .

ثم تحدثت السورة الكريمة فى أواخرها من مصارع المكذبين السابقين ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن الدواء الذى يزيل عن القلوب همومها ، وعن أهوال يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨٤ .

وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

و﴿ كم ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن .... ﴾ خبرية بمعنى كثير ، وهى منصوبة بما بعدها ، والقرن يطلق على جماعة من الناس تعيش فى زمن واحد ، ومقداره مائة سنة - على الراجح - .

وقوله : ﴿ من قرن ﴾ تمييز لكم ، وجملة ﴿ هم أشد منهم بطشا ﴾ صفة ، والبطش : السطوة والأخذ بشدة . أى : واعلم - أيها الرسول الكريم - أننا أهلكنا كثيرا من القرون الماضية التى كذبت رسلها ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد كانوا أشد من قومك قوة وأكثر جمعا ، ومادام الأمر كما ذكرنا لك ، فلا تحزن ولا تبتئس لما يصيبك من الكافرين المعاصرين لك ، فنحن فى قدرتنا أن ندمرهم تدميرا .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فنقبوا فى البلاد ﴾ يعود إلى أهل تلك القرون المهلكة الماضية . والتنقيب : السير فى الأرض ، والطواف فيها . والبحث بين أرجائها ، يقال : نقب فلان فى الأرض ، إذا ذهب فيها وأصل النَّقْب : الخرق والدخول فى الشىء ، ومنه قولهم : نقب فلان الجدار ، إذا أحدث فيه خرقا .

والمراد به هنا : السير فى الأرض ، والتفتيش فيها ..

قال الآلوسى : ﴿ فنقبوا فى البلاد ﴾ أى : ساروا فى الأرض وطوفوا فيها حذر الموت .. قال الشاعر :

نقبوا فى البلاد حذر الموت وجالوا فى الأرض كل مجال

وشاع التنقيب فى العرف بمعنى التنقير عن الشىء والبحث عن أحواله ..

والفاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه ، لمجرد التعقيب ، وعلى تفسيره بالتصرف

للسببيه ، لأن تصرفهم فى البلاد مسبب عن اشتداد بطشهم ، وهى على الوجهين عاطفة على معنى ما قبلها ، كأنه قيل : اشتد بطشهم فنقبوا فى البلاد..[١] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ هل من محيص ﴾ للإنكار والنفى ، والمحيص : المعدل والمهرَب ، يقال : حاص فلان عن الشىء يحيص حَيْصًا ، ومَحِيصا ، إذا عدل وحاد عنه ، وحاول الهروب منه . أى : أن هؤلاء المكذبين السابقين ، كانوا أشد من مشركى قريش قوة وأكثر جميعا ، وكانوا أكثر ضربا فى الأرض وسيرا فيها فلما نزل بهم بأسنا حاولوا الهرب والفرار ، فلم يجدوا مكانا يهربون فيه ، بل نزل بهم عذابنا فدمرناهم تدميرا .

فعليكم - أيها المشركون - أن تعتبروا بهم ، حتى لا يصيبكم ما أصابهم .

فالمقصود بالآية الكريمة ، تسلية الرسول - ﷺ - وتحذير أعدائه من سوء عاقبة الكفر والعناد .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الإهلاك للأمم المكذبة السابقة ﴿ لذكرى ﴾ أى : لتذكرة وعبرة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أى : لمن كان له قلب يعى ما يسمع ، ويعقل ما يوجه إليه ، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم . ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أى : فيما سقناه عبرة وعظة لمن كان له قلب يعى الحقائق ، ولمن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات ، وهو حاضر الذهن صادق العزم لتنفيذ ما جاءه من الحق ..

قال صاحب الكشاف : ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أى : قلب واع ، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع : الإصغاء . ﴿ وهو شهيد ﴾ أى : حاضر بفطنته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .. أو هو مؤمن شاهد على صحته ، وأنه وحى الله ..[٢] .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ووحدانيته فقال : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾ . واللغوب : التعب والنصب والإعياء ، مصدر لغب - كدخل - يقال : لغب فلان لغوبا ، إذا اشتد تعبه وضعفه .

أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، فى ستة أوقات وما مسنا بسبب هذا الخلق العظيم نصب أو تعب أو إعياء .

فالمراد بالأيام مطلق الأوقات التى لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - وقيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل : من أيام الآخرة ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٦ ص ١٩١ .

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٩٢ .

وقال سعيد بن جبير : الله - تعالى - قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة ، ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ليعلم عباده التثبت فى الأمور والتأنى فيها .

والمقصود بالآية الكريمة بيان كمال قدرة الله - تعالى - . والرد على من أنكر البعث والنشور . وعلى اليهود الذين زعموا أن الله - تعالى - خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت .

والفاء فى قوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ فصيحة . أى : إذا كان الحال كما بينا لك يا محمد ، فاصبر على ما يقوله هؤلاء الضالون المكذبون من أقوال لا يؤيدها عقل أو نقل .

وقوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ إرشاد له - ﷺ - إلى ما يعينه على الصبر .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على أقوال هؤلاء الكافرين ، ونزه ربك - تعالى - عن كل مالا يليق به ، وتقرب إليه بالعبادات والطاعات ﴿ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وهما وقتا الفجر والعصر .

وخصهما - سبحانه - بالذكر لفضلهما وشرفهما .

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ - أيضا - ونزهه عن كل مالا يليق به ، ﴿ وأدبار السجود ﴾ أى : وفى أدبار وأعقاب الصلوات فأكثر من تسبيحه - عز وجل - وتقديسه .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضل التسبيح بعد الصلوات المكتوبة ، ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال : « جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . فقال : « وماذاك »؟ قالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق . فقال - ﷺ - : « أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ».

قال : فقالوا : يارسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلناه ففعلوا مثله .

فقال - ﷺ - : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾[2] .

---

(١) صحيح البخارى : « كتاب الأذان » باب « الذكر بعد الصلاة » جـ ١ ص ٢١٣ .
(٢) سورة طه الآية ١٣٠ .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يلقى سمعه لما يخبره به - تعالى - من أهوال يوم القيامة فقال : ﴿ واستمع .... ﴾ والمستمع إليه محذوف للتهويل والتعظيم .. أى : واستمع - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - لما سأخبرك به من أهوال يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - ذلك فقال : ﴿ يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ .

أى : استمع استماع تنبه وتيقظ يوم يناد المناد وهو إسرافيل - عليه السلام - من مكان قريب بحيث يسمع نداءه الناس جميعا ..

قال ابن كثير : قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر الله ملكا أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء[1] .

وفى ورود الأمر بالاستماع مطلقا ، ثم توضيحه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما فى الإبهام ، ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

وقوله : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ بدل من قوله : ﴿ يوم يناد ﴾ .

أى : يوم يسمعون صيحة البعث من القبور . والحشر للجزاء ، سماعا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، والمراد بهذه الصيحة : النفخة الثانية ﴿ ذلك ﴾ اليوم هو ﴿ يوم الخروج ﴾ من الأجداث كأنهم جراد منتشر .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ .

﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾ . أى : إنا بقدرتنا وإرادتنا نحيى ونميت من نشاء إحياءه أو إماتته ، وإلينا وحدنا مرجع العباد ومصيرهم ، لا يشاركنا فى ذلك مشارك .

اذكر - أيضا - أيها العاقل ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعا .. ﴾ أى يوم تتشقق الأرض عن من فى باطنها من مخلوقات ، فيخرجون إلينا سراعا . كما قال - تعالى - : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٥٢ .

وقوله : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أى : ذلك التشقق للأرض وما يترتب عليه من بعث وجمع وحشر ، يسير وهين علينا ، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى فيها من التسلية للرسول - ﷺ - ومن التحديد الدقيق لوظيفته ، فقال - تعالى - : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ . أى : نحن - أيها الرسول الكريم - أعلم بما يقوله هؤلاء المشركون فى شأنك وفى شأن دعوتك ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقاب ، فاصبر على أقوالهم ، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحدا سواه .

وأنت لست بمسلط عليهم لتجبرهم على اتباعك ، وتقهرهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما وظيفتك التذكير بهذا القرآن لمن يخشى عذابى ، ويخاف وعيدى .

كما قال - سبحانه - : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ﴾ .

وكما قال - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة « ق » التى حفظها بعض الصحابة من فم النبى - ﷺ - خلال تكراره لها فى خطب الجمعة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
١٦من جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/٢/٢٧ م

فهرس المجلد الثالث عشر

الجزء الخامس والعشرون - والسادس والعشرون
من سورة « الشورى » الى سورة « ق »

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سور

الذاريات	الطور	النجم
القمر	الرحمن	الواقعة
الحديد	المجادلة	الحشر
الممتحنة	الصف	الجمعة
المنافقون	التغابن	الطلاق
	التحريم	

الدكتور محمد سيد طنطاوي

مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الرابع عشر

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

تفسير

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة ﴿ الذاريات ﴾ من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ستون آية . وكان نزولها بعد سورة « الأحقاف » .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بقسم من الله - تعالى - ، ببعض مخلوقاته ، على أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق .

قال - تعالى - : ﴿ والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾ .

٣ - ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك ، ما أعده - سبحانه - لعباده المتقين ، فقال - تعالى - : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

٤ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفا من قصة إبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى ونوح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، ليكون فى هذا البيان ما يدعو كل عاقل إلى الاتعاظ والاعتبار ، بحسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

٥ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما يدل على كمال قدرته ، وعلى سعة رحمته ، ودعا الناس جميعا إلى إخلاص العبادة والطاعة له ، لأنه - سبحانه - ما خلقهم إلا لعبادته .

قال - تعالى - : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ﴾ .

٦ - هذا ، والمتدبر فى هذه السورة الكريمة ، يراها - كغيرها من السور المكية - قد ركزت حديثها على إقامة الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله الواحد القهار ، وعلى أن

البعث حق ، والجزاء حق ، وعلى أن سنة الله – تعالى – قد اقتضت أن يجعل العاقبة الطيبة لأنبيائه وأتباعهم ، والعاقبة السيئة للمكذبين لرسلهم ، وعلى أن الوظيفة التى من أجلها خلق الله – تعالى – الجن والإنس ، إنما هى عبادته وطاعته .

نسأل الله – تعالى – أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

١٨ من جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ

٢٩ / ١ / ١٩٨٦ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا
فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

والمراد بالذاريات : الرياح التى تذرو الشىء ، أى تسوقه وتحركه وتنقله من مكانه .

فهذا اللفظ اسم فاعل من ذرا المعتل ، بمعنى فرّق وبدّد . يقال : ذَرَت الرياح التراب تذروه ذَرْوًا ، وتَذْرِيه ذَرْيًا - من بابى عدا ورمى - إذا طيرته وفرقته .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح .. ﴾[1] . أى : تنقله وتحركه من مكان إلى آخر .

والمفعول محذوف ، و « ذروا » مصدر مؤكد ، وناصبه لفظ الذاريات ، أى : وحق الرياح التى تذروا التراب وغيره ذروا ، وتحركه تحريكا شديدا .

والمراد بالحاملات : السحب التى تحمل الأمطار الثقيلة ، فتسير بها من مكان إلى آخر .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٥ .

والوقر - بكسر الواو - كالحمل وزنا ومعنى ، وهو مفعول به .

أى : فالسحب الحاملات للأمطار الثقيلة ، وللمياه الغزيرة ، التى تنزل على الأرض اليابسة ، فتحولها - بقدرة الله - تعالى - إلى أرض خضراء .

وهذا الوصف للسحاب بأنه يحمل الأمطار الثقيلة ، قد جاء ما يؤيده من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال .. ﴾[2] .

والمراد بالجاريات : السفن التى تجرى فى البحر ، فتنقل الناس وأمتعتهم من بلد إلى بلد .

وقوله : ﴿ يسرا ﴾ صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف ، أى : فالجاريات بقدرة الله - تعالى - فى البحر جريا ذا يسر وسهولة ، إلى حيث يسيرها ربانها .

ويصح أن يكون قوله ﴿ يسرا ﴾ حال . أى . فالجاريات فى حال كونها ميسرة مسخرا لها البحر .

ومن الآيات التى تشبه فى معناها هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾[3] .

والمراد بالمقسمات فى قوله - سبحانه - ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ الملائكة ، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشئونهم .. على حسب ما يكلفهم الله - تعالى - به من شئون مختلفة .

و ﴿ أمرا ﴾ مفعول به ، للوصف الذى هو المقسمات ، وهو مفرد أريد به الجمع ، أى : المقسمات لأمور العباد بأمر الله - تعالى - وإرادته .

وهذا التفسير لتلك الألفاظ ، قد ورد عن بعض الصحابة ، فعن أبى الطفيل أنه سمع عليا - رضى الله عنه - يقول - وهو على منبر الكوفة - : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة رسول الله ، إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين . ما معنى قوله - تعالى - : ﴿ والذاريات ذروا ﴾ قال : الريح . ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ قال : السحاب . ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ قال : السفن ، ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ قال : الملائكة .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧ .
(٢) سورة الرعد الآية ١٢ .
(٣) سورة الشورى الآية ٣٢ .

وروى مثل هذا التفسير عن عمر بن الخطاب ، وعن ابن عباس .[1] .

ومن العلماء من يرى أن هذه الألفاظ جميعها صفات للرياح .

قال الإمام الرازى . هذه صفات أربع للرياح ، فالذاريات : هى الرياح التى تنشىء السحاب أولا . والحاملات : هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار الماء .. والجاريات : هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها . والمقسمات : هى الرياح التى تفرق الأمطار على الأقطار[2] .

ومع وجاهة رأى الإمام الرازى فى هذه المسألة ، إلا أننا نؤثر عليه الرأى السابق ، لأنه ثابت عن بعض الصحابة ، ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معان مختلفة ، أدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على عباده .

وقد تركنا أقوالا ظاهرة الضعف والسقوط . كقول بعضهم : الذاريات هن النساء ، فإنهن يذرين الأولاد ، بمعنى أنهن يأتين بالأولاد بعضهم فى إثر بعض ، كما تنقل الرياح الشىء من مكان إلى مكان .

قال الآلوسى : ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات - كما هو الرأى المعول عليه - فالفاء للترتيب فى الأقسام ذكرا ورتبة ، باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على كمال قدرته - عز وجل - وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنزل ، لما فى كل منها من الصفات التى تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر .

وإن حملت على واحد وهو الرياح ، فهى لترتيب الأفعال والصفات ، إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولا ، حتى تنعقد سحابا ، فتحمله ثانيا ، وتجرى به ثالثا ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله - تعالى - ثم تقسم أمطاره[3] .

وقوله : ﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ جواب القسم . و « ما » موصولة والعائد محذوف ، والوصف بمعنى المصدر . أى : وحق هذه الأشياء التى ذكرتها لكم إن الذى توعدونه من الجزاء والحساب والبعث .. لصدق لا يحوم حوله كذب أوشك .

ويجوز أن تكون « ما » مصدرية . أى : إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق ..

وقوله : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ تأكيد وتقرير لما قبله . أى : وإن الجزاء على الأعمال لواقع

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩١ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٦٢٨ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٣ .

وقوعا لا ريب فيه . فالمراد بالدين هنا : الجزاء ، كما فى قوله - سبحانه - ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق .. ﴾ .

ومنه قولهم : « كما تدين تدان » أى : كما تعمل تجازى ، ومعنى وقوعه : حصوله .

ثم أقسم - سبحانه - قسما آخر بالسماء ذات الحبك فقال : ﴿ والسماء ذات الحبك . إنكم لفى قول مختلف . يؤفك عنه من أفك ﴾ .

والحبك : جمع حَبِيكة ، كطريقة - وزنا ومعنى - ، أو جمع حِبَاك - كمُثُل ومِثَال - ، والحبيكة والحباك . الطريقة فى الرمل وما يشبهه . أى : وحق السماء ذات الطرق المتعددة ، والتى لا ترونها بأعينكم لبعدها عنكم .

ويرى بعضهم أن معنى ذات الحبك : ذات الخَلْق الحسن المحكم .. أو ذات الزينة والجمال .

قال القرطبى : وفى الحبك أقوال : الأول : قال : ابن عباس : ذات الخَلْق الحسن المستوى يقال ، حبَك فلان الثوب يحبِكُه - بكسر الباء - إذا أجاد نسجه .

الثانى : ذات الزينة . الثالث : ذات النجوم ، الرابع : ذات الطرائق . ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس : ذات الشدة ...[1] .

وقوله : ﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾ جواب القسم . وقوله : ﴿ يؤفك عنه .. ﴾ من الأفْك - بفتح الهمزة وسكون الفاء - بمعنى الصرف للشئ عن وجهه الذى يجب أن يكون عليه .

والضمير فى « عنه » يعود إلى النبى - ﷺ - أو إلى القرآن الكريم .

فيكون المعنى : وحق السماء ذات الطرق المتعددة ، وذات الهيئة البديعة المحكمة الجميلة .. إنكم - أيها المشركون - « لفى قول مختلف » أى : متناقض متخالف ، فمنكم من يقول عن القرآن الكريم إنه : أساطير الأولين ، ومنكم من يقول عن الرسول - ﷺ - : إنه ساحر أو مجنون .

والحق أنه يصرف عن الإيمان بهذا القرآن الكريم الذى جاء به الرسول - ﷺ - من صرفه الله - تعالى - عنه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والكفر على الإيمان .

والتعبير بقوله : ﴿ من أفك ﴾ للإشعار بأن هذا الشقى الذى آثر الكفر على الإيمان ، قد

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٣١ .

صرف عن الرشاد وعن الخير صرفا ، ليس هناك ما هو أشد منه فى سوء العاقبة .

فهذا التعبير شبيه فى التهويل بقوله - تعالى - : ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ .

قال الجمل : ﴿ يؤفك ﴾ يصرف ﴿ عنه ﴾ عن النبى - ﷺ - والقرآن الكريم . أى : عن الإيمان به ﴿ من أفك ﴾ أى : من صرف عن الهداية فى علم الله - تعالى - .

وقيل : الضمير للقول المذكور . أى : يرتد ، أى : يصرف عن هذا القول من صرف عنه فى علم الله - تعالى - وهم المؤمنون[١] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين فقال : ﴿ قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون . يسألون أيان يوم الدين . يوم هم على النار يفتنون ﴾ .

والخراصون : جمع خرَّاص ، وأصل الخَرْص : الظن والتخمين ، ومنه الخارص الذى يخرص النخلة ليقدر ما عليها من ثمر ، والمراد به هنا : الكذب ، لأنه ينشأ غالبا عن هذا الخرص ، والمراد بالآية الدعاء عليهم باللعن والطرد من رحمة الله - تعالى - .

أى : لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - هؤلاء الكذابون ، الذين قالوا فى الرسول - ﷺ - ما هو منزه عنه .. والذين هم ﴿ فى غمرة ساهون ﴾ أى : فى جهالة تغمرهم كما يغمر الماء الأرض . فهم ساهون وغافلون عن كل خير .

فالغمرة : ما يغمر الشىء ويستره ويغطيه ، ومنه قولهم : نهر غَمْر ، أى : يغمر من دخله .

والمراد : أنهم فى جهالة غامرة لقلوبهم . وفى غفلة تامة عما ينفعهم .

وهذا التعبير فيه ما فيه من تصوير ما هم عليه من جهالة وغفلة ، حيث يصورهم - سبحانه - وكأن ذلك قد أحاط بهم وغمرهم حتى لكأنهم لا يحسون بشىء مما حولهم .

ثم بين - سبحانه - ما كانوا عليه من سوء أدب فقال : ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ .

و « أيان » بمعنى متى . أى : يسألون سؤال استهزاء واستخفاف فيقولون : متى يكون هذا البعث الذى تحدثنا عنه يا محمد ، ومتى يوم الجزاء والحساب الذى تهددنا به ؟

وهنا يأتيهم الجواب الذى يردعهم ويبين لهم سوء مصيرهم . فيقول - سبحانه - : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أى يقع هذا اليوم الذى تسألون عنه وهو يوم البعث والحساب والجزاء .. يوم تحرقون بالنار - أيها الكافرون - ، وتعذبون فيها عذاب أليما .

و « يفتنون » مأخوذ من الفَتْنِ بمعنى الاختبار والامتحان ، يقال : فَتَنْتُ الذهب بالنار ، إذا

---

(١) تفسير الجلالين وحاشيته جـ ٤ ص ٢٠٢ .

أذبته لتظهر جودته من غيرها . والمراد به هنا : الإحراق بالنار .

وعدى « يفتنون » بعلى ، لتضمنه معنى يعرضون ، أوعلى بمعنى فى .

وقوله : ﴿ ذوقوا فتنتكم .. ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : هذا اليوم الذى يسألون عنه واقع يوم الجزاء .. يوم يقال لهم وهم يعرضون على النار : ذوقوا العذاب المعد لكم ، أو ذوقوا سوء عاقبة كفركم .

﴿ هذا ﴾ العذاب المهين ، هو ﴿ الذى كنتم به تستعجلون ﴾ فى الدنيا ، وتقولون - على سبيل الاستهزاء والإنكار - للنبى - ﷺ - ولأصحابه : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أكدت بأقوى الأساليب وأحكمها ، أن يوم البعث والجزاء والحساب حق ، وان المكذبين بذلك سيذوقون أشد العذاب .

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب أو العكس ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين بعد الحديث عن سوء مصير المكذبين فقال - سبحانه - :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ
﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

والمعنى : ﴿ إن المتقين ﴾ وهم الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - .

﴿ فى جنات وعيون ﴾ أى : مستقرين فى جنات وبساتين فيها عيون عظيمة ، لا يبلغ وصفها الواصفون .

﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى : هم منعمون فى الجنات وما اشتملت عليه من عيون جارية ، حالة كونهم آخذين وقابلين لما أعطاهم ربهم من فضله وإحسانه .

وقوله : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ بمثابة التعليل لما قبله . أى : هم فى هذا الخير العميم من ربهم لأنهم ، كانوا قبل ذلك - أى : فى الدنيا - محسنين لأعمالهم ، ومؤدين لكل ما أمرهم به - سبحانه - بإتقان وإخلاص .

ثم بين - سبحانه - مظاهر إحسانهم فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ أى كانوا ينامون من الليل وقتا قليلا ، أما أكثره فكانوا يقضونه فى العبادة والطاعة .

والهجوع : النوم ليلا ، وقيده بعضهم بالنوم القليل ، إذ الهجعة هى النومة الخفيفة ، تقول : أتيت فلانا بعد هجعة ، أى بعد نومة قليلة .

عن الحسن قال : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

ثم مدحهم - سبحانه - بصفة أخرى فقال : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ والأسحار جمع سحر ، وهو الجزء الأخير من الليل .

أى ، وكانوا فى أوقات الأسحار يرفعون أكف الضراعة إلى الله - تعالى - يستغفرونه مما فرط منهم من ذنوب ، ويلتمسون منه - تعالى - قبول توبتهم وغسل حوبتهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، ويستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره .

وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه - تعالى - لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوع مقتضى الطبع . قال ﴿ يستغفرون ﴾ أى : من ذلك القدر من النوم القليل .

ومدحهم بالهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر .. للإشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار .. فى وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم ومن الاستكبار ..[1] .

ثم مدحهم - سبحانه - للمرة الثالثة فقال : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

والسائل : هو من يسأل غيره العون والمساعدة . والمحروم : هو المتعفف عن السؤال مع أنه لا مال له لحرمان أصابه ، بسبب مصيبة نزلت به ، أو فقر كان فيه .. أو ما يشبه ذلك .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٦٣٥ .

قال ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى المراد من المحروم هنا : والصواب من القول فى ذلك عندى : أنه الذى قد حرم الرزق واحتاج ، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره فصار ممن حرمه الله . وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة . وقد يكون بأنه لا سهم له فى الغنمية لغيبته عن الواقعة[1] .

أى : أنهم بجانب قيامهم الليل طاعة لله - تعالى - واستغفارا لذنوبهم .. يوجبون على أنفسهم فى أموالهم حقا للسائل والمحروم ، تقربا إلى الله - سبحانه - بمقتضى ما جبلوا عليه من كرم وسخاء .

فالمراد بالحق هنا : ما يقدمونه من أموال للمحتاجين على سبيل التطوع وليس المراد به الزكاة المفروضة ، لأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة .

قال الآلوسى : ﴿ وفى أموالهم حق ﴾ هو غير الزكاة كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقال منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية . وفرض الزكاة بالمدينة . وقيل : أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذى كان بالمدينة القدر المعروف اليوم .. والجمهور على الأول[2] .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن هؤلاء المتقين ، قد مدحهم الله - تعالى - هذا المدح العظيم ، لأنهم عرفوا حق الله عليهم فأدوه بإحسان وإخلاص ، وعرفوا حق الناس عليهم فقدموه بكرم وسخاء .

ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى ما فى الأرض من دلائل على قدرته ووحدانيته فقال : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ . أى : وفى الأرض آيات عظيمة وعبر وعظات بليغة ، تدل على وحدانية الله وقدرته ، كصنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال، والقفار ، والأنهار ، والبحار . وهذه الآيات والعبر لا ينتفع بها إلا الموقنون بأن المستحق للعبادة إنما هو الله - عز وجل - .

ثم لفتة أخرى إلى النفس البشرية ، قال - تعالى - : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

أى : وفى أنفسكم وذواتكم وخلقكم ... أفلا تبصرون إبصار تذكر واعتبار ، فإن فى خلقكم من سلالة من طين ، ثم جعلكم نطفة فعلقة فمضغة فخلقا آخر ، ثم فى رعايتكم فى بطون أمهاتكم . ثم فى تدرجكم من حال إلى حال ، ثم فى اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ثم فى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٦ ص ١٢٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٩ .

التركيب العجيب الدقيق لأجسادكم وأعضائكم . ثم فى تفاوت عقولكم وأفهامكم واتجاهاتكم .
فى كل ذلك وغيره ، عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين ﴿ وفى الأرض آيات ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره ، حيث هى مدحوّة كالبساط .. وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها ، والماشين فى مناكبها .

وهى مجزأة : فمن سهل وجبل ، وبر وبحر ، وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وطيبة وسبخة ، وهى كالطروقة تلقح بألوان النبات .. وتسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، وكلها موافقة لحوائج ساكنيها .

فى كل ذلك آيات ﴿ للموقنين ﴾ أى : للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى .. فازدادوا إيمانا على إيمانهم .

﴿ وفى أنفسكم ﴾ فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفى بواطنها وظواهرها ، من عجائب الفطر . وبدائع الخلق ، ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب ، وماركز فيها من العقول ، وخصت به من أصناف المعانى ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الدالة على حكمة المدبر .. فتبارك الله أحسن الخالقين[١] .

ثم لفتة ثالثة للأنظار إلى الأسباب الظاهرة للرزق ، تراها فى قوله - تعالى - : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ .

أى : أن أرزاقكم مقدرة مكتوبة عنده - سبحانه - وهى تنزل إليكم من جهة السماء ، عن طريق الأمطار التى تنزل على الأرض الجدباء . فتنبت بإذن الله من كل زوج بهيج .

كما قال - تعالى - : ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾[٣] .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وفى السماء رزقكم ﴾ الرزق هنا : ما ينزل من السماء من مطر

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٩٩ .
(٢) سورة غافر آية ١٣ .
(٣) سورة السجدة الآية ٥ .

ينبت به الزرع ، ويحيى به الإنسان .. أى : وفى السماء سبب رزقكم ، سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل .

وقال سفيان الثورى : ﴿ وفى السماء رزقكم ﴾ أى : عند الله فى السماء رزقكم[1] .

وقوله : ﴿ وما توعدون ﴾ أى : وفى السماء محددة ومقدرة أرزاقكم . وما توعدون به من ثواب أو عقاب ، ومن خير أو شر ، ومن بعث وجزاء .

و ﴿ ما ﴾ فى محل رفع عطف على قوله ﴿ رزقكم ﴾ أى : وفى السماء رزقكم والذى توعدونه من ثواب على الطاعة ، ومن عقاب على المعصية .

فالآية الكريمة وإن كانت تلفت الأنظار إلى أسباب الرزق وإلى مباشرة هذه الأسباب ، إلا أنها تذكر المؤمن بأن يكون اعتماده على خالق الأسباب ، وأن يراقبه ويطيعه فى السر والعلن لأنه - سبحانه - هو صاحب الخلق والأمر .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بهذا القَسَم فقال : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ يعود إلى ما سبق الإخبار عنه من أمر البعث والحساب والجزاء والرزق .. وغير ذلك مما يدل على صدق الرسول - ﷺ - فيما أخبر به عن ربه .

ولفظ « مثل » منصوب بنزع الخافض ، و « ما » مزيدة للتأكيد أى : فوحق رب السماء والأرض ، إن جميع ما ذكرناه لكم فى هذه السورة ، أو فى هذا القرآن ، حق ثابت لامرية فيه ، كمثل نطقكم الذى تنطقونه بألسنتكم دون أن تشكوا فى كونه قد صدر عنكم لا عن غيركم .

فالمقصود بالآية الكريمة ، تأكيد صدق ما أخبر به الله - تعالى - عباده فى هذه السورة وغيرها ، لأن نطقهم بألسنتهم حقيقة لا يجادل فيها مجادل ، وكذلك ما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه ، وما تلاه عليهم فى هذه السورة وغيرها ، حق ثابت لا ريب فيه .

وهكذا نرى هذه الآيات قد بشرت المتقين بألوان من البشارات ، ثم لفتت عقول الناس إلى ما فى الأرض وإلى ما فى أنفسهم وإلى ما فى السماء من عظات وعبر .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء السابقين فبدأت بجانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، فقال - تعالى :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٤١ .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾
إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ
﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

وهذه القصة التى تحكى لنا هنا ما دار بين إبراهيم - عليه السلام - وبين الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، ولإخباره بإهلاك قوم لوط ، قد وردت قبل ذلك فى سورتى هود والحجر .

وقد افتتحت هنا بأسلوب الاستفهام ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ للإشعار بأهمية هذه القصة ، وتفخيم شأنها ، وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحى ... وقيل إن هل هنا بمعنى قد .

والمعنى : هل أتاك - أيها الرسول الكريم - حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إننا فيما أنزلناه عليك من قرآن كريم ، نقص عليك قصتهم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، على سبيل التثبيت لك ، والتسلية لقلبك .

(*) أول الجزء السابع والعشرين .

والضيف فى الأصل مصدر بمعنى الميل ، يقال ضاف فلان فلانا إذا مال كل واحد منهما نحو الآخر ، ويطلق على الواحد والجماعة . والمراد هنا : جماعة الملائكة الذين قدموا على إبراهيم - عليه السلام - وعلى رأسهم جبريل ، ووصفهم بأنهم كانوا مكرمين ، لإكرام الله - تعالى - لهم بطاعته وامتثال أمره . ولإكرام إبراهيم لهم ، حيث قدم لهم أشهى الأطعمة وأجودها .

قال الآلوسى : قيل : كانوا اثنى عشر ملكا وقيل : كانوا ثلاثة : جبريل وإسرافيل وميكائيل . وسموا ضيفا لأنهم كانوا فى صورة الضيف ، ولأن إبراهيم - عليه السلام - حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان .

وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد ، لأنها أقوى فى غرض التسلية[1] .

والظرف فى قوله : ﴿ إذ دخلوا عليه .. ﴾ متعلق بلفظ ﴿ حديث ﴾ السابق .

أى : هل بلغك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه .. أو بمحذوف تقديره : اذكر ، أى : اذكر وقت أن دخلوا عليه ﴿ فقالوا سلاما ﴾ ، أى : فقالوا نسلم عليك سلاما .

﴿ قال سلام قوم منكرون ﴾ أى : قال إبراهيم فى جوابه عليهم : عليكم سلام ، أنتم قوم منكرون أى : غير معروفين لى قبل ذلك .

قال صاحب الكشاف : أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام ، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه ، أو من جنس الناس الذين عهدهم .. أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم ، أو كان هذا سؤالا لهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون فعرفونى من أنتم ..[2] .

وقيل : إن إبراهيم قد قال ذلك فى نفسه ، والتقدير : هؤلاء قوم منكرون ، لأنه لم يرهم قبل ذلك .

وقال إبراهيم فى جوابه عليهم ﴿ سلام ﴾ بالرفع ، لإفادة الدوام والثبات عن طريق الجملة الاسمية ، التى تدل على ذلك ، وللإشارة إلى أدبه معهم ، حيث رد على تحيتهم بأفضل منها .

ثم بين - سبحانه - ما فعله إبراهيم بعد ذلك فقال : ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ أى : فذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه . فجاء إليهم بعجل ممتلئ لحما وشحما . يقال : راغ فلان إلى كذا ، إذا مال إليه فى استخفاء وسرعة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٠١ .

﴿ فقربه إليهم ﴾ أى : فذهب إلى أهله فذبح عجلا وشواه ، فقر به إلى ضيوفه وقال لهم : ﴿ ألا تأكلون ﴾ أى : حضهم على الأكل شأن المضيف الكريم . فقال لهم على سبيل التلطف وحسن العرض : ألا تأكلون من طعامى .

قال ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة . ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام ؟ بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل سمين مشوى فقربه إليهم ، لم يضعه وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال : ﴿ ألا تأكلون ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق . فافعل[١] .

ولكن إبراهيم مع هذا العرض الحسن ، والكرم الواضح ، لم يجد من ضيوفه استجابة لدعوته . ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ أى : فأضمر فى نفسه خوفا منهم حين رأى إعراضا عن طعامه ، مع حضهم على الأكل منه ، ومع جودة هذا الطعام .

وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم فقالوا ﴿ لا تخف ﴾ أى : لا تخف فإنا رسل الله ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أى : وبشروه بغلام سيولد له ، وسيكون كثير العلم عندما يبلغ سن الرشد ، وهذا الغلام إسحاق - عليه السلام - .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من امرأته بعد أن سمعت بهذه البشرى فقال : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ .

أى : فأقبلت امرأة ابراهيم - عليه السلام - وهى تصيح فى تعجب واستغراب من هذه البشرى . فضربت بيدها على وجهها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ .

والصرة : من الصرير وهو الصوت ، ومنه صرير الباب ، أى : صوته ، والصك الضرب الشديد على الوجه ، وعادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شىء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة هود : ﴿ قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشىء عجيب ﴾ .

وهنا رد عليها الملائكة بما يزيل تعجبها واستغرابها واستبعادها لأن يكون لها ولد مع كبر سنها ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ .

أى : قال الملائكة لامرأة إبراهيم : لا تتعجبى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ، فإن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩٧ .

هذا الحكم هو حكم ربك . وهذا القول الذى بشرناك به هو قوله - سبحانه - وقوله لا مرد له : إنه - تعالى - هو الحكيم فى كل أقواله وأفعاله . العليم بأحوال خلقه .

وهنا عرف إبراهيم - عليه السلام - حقيقة ضيوفه : فأخذ يسألهم : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ والخطب : الأمر الهام ، والشأن الخطير ، وجمعه خطوب .

أى : قال لهم إبراهيم بعد أن اطمأن إليهم ، وعلم أنهم ملائكة . فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلى أيها المرسلون بعد هذه البشارة ؟ .

﴿ قالوا ﴾ فى الإجابة عليه ، ﴿ إنا أرسلنا ﴾ ، بأمر ربنا ﴿ إلى قوم مجرمين ﴾ قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ أى : لنرسل عليهم - بعد قلب قراهم - حجارة من طين متحجر ، حالة كون هذه الحجارة ﴿ مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ أى : معلمة عند الله - تعالى - وفى علمه ، وقد أعدها - سبحانه - لرجم هؤلاء الذين أسرفوا فى عصيانهم له - تعالى - وأتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

فقوله : ﴿ مسومة ﴾ حال من الحجارة ، والسُّومة : العلامة . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ والخيل المسومة ﴾ .

والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ هي الفصيحة ، لأنها قد أفصحت عن كلام محذوف .

والمعنى : ففارق الملائكة إبراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم وجرى بينهم وبين لوط - عليه السلام - ما جرى ثم أخذوا فى تنفيذ ما كلفناهم به ، فأخرجنا - بفضلنا ورحمتنا - من كان فى قرية لوط من المؤمنين دون أن يمسهم عذابنا ، فما وجدنا فى تلك القرية غير أهل بيت واحد من المسلمين ، أما بقية سكان هذه القرية فقد دمرناهم تدميرا .

ووصف - سبحانه - الناجين من العذاب - وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته - بصفتى الإيمان والإسلام ، على سبيل المدح لهم ، أى : أنهم كانوا مصدقين بقلوبهم ، ومنقادين لأحكام الله - تعالى - بجوارحهم .

قال ابن كثير : احتج بهاتين الآيتين من ذهب إلى رأى المعتزلة ، ممن لا يفرقون بين معنى الإيمان ، والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان هنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك فى كل حال[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩٩ .

ثم بين - سبحانه - أنه قد ترك من وراء هلاكهم ما يدعو غيرهم إلى الاعتبار بهم فقال : ﴿ وتركنا فيها ﴾ أى : فى قرية قوم لوط التى جعل الملائكة عاليها سافلها ﴿ آية ﴾ أى : علامة تدل على ما أصابهم من هلاك ، قيل : هى تلك الأحجار التى أهلكوا بها .

وهذه الآية إنما هى ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ لأنهم هم الذين يعتبرون وينتفعون بها ، أما غيرهم من الذين استحوذ عليهم الشيطان ، فإن هذه الآيات لا تزيدهم إلا رجسا على رجسهم .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصص موسى وهود وصالح ونوح . عليهم السلام - مع أقوامهم ، فقال - سبحانه - :

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ
مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ
ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ
وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا
فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وفى موسى ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ وتركنا فيها ﴾ والكلام على حذف مضاف .

والظرف فى قوله : ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ . متعلق بمحذوف هو نعت لقوله ﴿ آية ﴾ قبل ذلك .

أى : وتركنا فى قصة موسى - أيضا - آية ، هذه الآية كائنة وقت أن أرسلناه إلى فرعون ﴿ بسلطان مبين ﴾ أى : بمعجزة واضحة بينة هى اليد والعصا وغيرهما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾ بيان لموقف فرعون من موسى - عليه السلام - أى : أرسلنا موسى بآياتنا الدالة على صدقه إلى فرعون وملئه ، فما كان من فرعون إلا أن أعرض عن دعوة الحق ، وتعاظم على موسى بملكه وجنوده وقوته .. وقال فى شأن موسى - عليه السلام - هو ساحر أو مجنون .

والركن جانب البدن . والمراد به هنا : جنوده الذين يركن إليهم ، وقوته التى اغتر بها .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فتولى بركنه ﴾ أى : فأعرض عن الإيمان بموسى ، على أن ركنه جانب بدنه وعطفه ، والتولى به كناية عن الإعراض ، والباء للتعدية ، لأن معناه : ثنى عطفه .

وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم ، لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملابسة .. وقيل : تولى بقوته وسلطانه . فالركن يستعار للقوة ..[1] .

ثم بين - سبحانه - نتيجة إعراض فرعون عن الحق فقال : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾ .

والنبذ : الطرح للشىء بدون اكتراث أو اهتمام به ، وقوله ﴿ مليم ﴾ من ألام، إذا أتى ما يلام عليه ، كأغرب إذا أتى أمرا غريبا ، وجملة ، وهو مليم ، حال من المفعول فى قوله ﴿ فأخذناه ﴾ .

أى : فأخذنا فرعون هو وجنوده الذين ارتكن إليهم أخذ عزيز مقتدر ، فألقينا بهم جميعا فى البحر بدون اعتداد بهم ، بعد أن أتى فرعون بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصف نبى الله يونس - عليه السلام - بما وصف به فرعون فى قوله - تعالى - : ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ ؟

قلت : موجبات اللوم تختلف ، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم ، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة . ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿ وعصوا رسله ﴾ ، وقوله ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان ، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة[2] .

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان ما حل بقوم هود - عليه السلام - فتقول : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ .

أى : وتركنا فى قصة عاد - أيضا - وهم قوم هود - عليه السلام - آية وعبرة ، وقت أن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٠٣ .

أرسلنا عليهم الريح العقيم . أى : الريح الشديدة التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو تلقيح شجر ، وهى ريح الهلاك وأصل العقم : اليبس المانع من قبول الأثر .

شبه - سبحانه - الريح التى أهلكتهم وقطعت دابرهم ، بالمرأة التى انقطع نسلها ، بجامع انعدام الأثر فى كل .

ثم وصف - سبحانه - هذه الريح التى توهموا أنها تحمل لهم الخير ، بينما هى تحمل لهم الهلاك ، وصفها بقوله : ﴿ ما تذر من شىء أتت عليه ﴾ أى : ما تترك من شىء مرت عليه .

﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : إلا جعلته كالشىء الميت الذى رم وتحول إلى فتات مأخوذ من رم الشىء إذا تفتت وتهشم . ويقال للنبات إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم .

كما يقال للعظم إذا تكسر وبَلِيَ : رميم . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى بيان ما حل بقوم صالح - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ .

أى : وتركنا - كذلك - فى قصة صالح - عليه السلام - مع قومه آية وعظة ، وقت أن قال لهم - على سبيل الإنذار والتحذير من المداومة على الكفر .. تمتعوا بحياتكم التى تعيشونها فى هذه الدنيا ، حتى وقت معين فى علم الله - تعالى - تنتهى عنده أعماركم .

وهذا التمتع بالحياة حتى حين ، يحتمل أن المقصود به ، ما أشار إليه - سبحانه - فى سورة هود بقوله : ﴿ فعقروها ﴾ - أى الناقة - ﴿ فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ﴾ ويحتمل أن يكون المقصود به : ما قدره الله - تعالى - من عمر منذ أن بلغهم صالح رسالة ربه إلى أن عقروا الناقة ، وحق عليهم العذاب .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وفى ثمود ﴾ أى : وفيهم - أيضا - عبرة وعظة ، حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حتى حين ﴾ أى : إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام ، كما فى سورة هود .. وقيل : معنى ﴿ تمتعوا ﴾ أى : أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم[1] .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم من كفر وفجور فقال : ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ أى : فتكبروا واستهانوا بما أمرهم الله - تعالى - به على لسان نبيهم صالح - عليه السلام - .

﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ وهى كل عذاب مهلك ، من الصعق بمعنى الإهلاك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٥١ .

﴿ وهم ينظرون ﴾ أى : وهم يرونها عيانا ، لأن العذاب - كما تشير الآية - نزل بهم نهارا .

﴿ فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ أى : أنه حين نزل بهم عذابنا ، أعجزهم عن الحركة ، وشل حواسهم ، فما استطاعوا أن يهربوا منه . وما قدروا على القيام بعد أن كانوا قاعدين ، وما نصرهم من بأسنا ناصر .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بلمحة عن قصة نوح - عليه السلام - فقال ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء جميعا بالطوفان .

﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ أى : خارجين عن طاعتنا ، منغمسين فى الكفر والعصيان .

وهكذا ساقت السورة الكريمة جانبا من قصص هؤلاء الأنبياء ، ليكون فى ذلك تسلية للنبى - ﷺ - وتذكرة للمتذكرين .

وبعد هذا الحديث عن هؤلاء الأقوام .. جاء الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته ، ووافر نعمه ، وحض الناس على شكره - تعالى - وطاعته . فقال - عز وجل - :

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ
فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ
لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾

ولفظ ﴿ السماء ... ﴾ منصوب على الاشتغال . أى : وبنينا السماء بنيناها ﴿ بأيد ﴾ أى : بقوة وقدرة . يقال : آد الرجل يئيد - كباع - إذا اشتد وقوى .

﴿ وإنا لموسعون ﴾ أى : وإنا لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة من الوسع بمعنى القدرة والطاقة ، يقال : أوسع الرجل ، أى : صار ذا سعة ، والمفعول محذوف ، أى : وإنا لموسعون السماء ، أو الأرزاق .

فالجملة تصوير بديع لمظاهر قدرة الله ، وكمال قوته ، وواسع فضله .

﴿ والأرض فرشناها ﴾ أى : وفرشنا الأرض بقدرتنا - أيضا - ، بأن مهدناها وبسطناها وجعلناها صالحة لمنفعتكم وراحتكم .

﴿ فنعم الماهدون ﴾ نحن ، يقال : مهدت الفراش ، إذا بسطته ووطأته وحسنته .

وفى هاتين الآيتين ما فيهما من الدلالة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، حيث أوجد هذه السماء الواسعة التى تعتبر الأرض بما فيها كحلقة فى فلاة بالنسبة لها ، فهى تحوى مئات الملايين من النجوم المتناثرة فى أرجائها .. وأوجد - سبحانه - الأرض لتكون موطنا للإنسان ، ومنزلا لراحته .

ثم قال - تعالى - : ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾ أى : نوعين متقابلين كالذكر والأنثى . والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والغنى والفقر ، والهدى والضلال .

﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى فعلنا ذلك لعلكم تعتبرون وتتعظون وتتذكرون ما يجب عليكم نحونا من الشكر والطاعة وإخلاص العبادة لنا وحدنا .

والفاء فى قوله : ﴿ ففروا إلى الله .. ﴾ للتفريع على قوله - تعالى - ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، أى : ما دام الأمر كما ذكرت لكم من وجود التذكر والاعتبار ، ففروا إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن كفره إلى شكره ، ومن السيئات إلى الحسنات .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى هذا التعبير لطائف ؛ لأنه ينبىء عن سرعة الإهلاك ، كأنه يقول : الاهلاك والعذاب أسرع وأقرب ، من أن يحتمل الحال الإبطاء فى الرجوع . فافزعوا سريعًا إلى الله - تعالى - وفروا إلى طاعته ، فإنه لا مهرب منه[1] .

وقوله : ﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للأمر بالفرار ، أى : أسرعوا إلى طاعة الله - تعالى - إنى لكم من عقابه المعد لمن يصر على معصيته نذير بيّن الإنذار .

ثم أكد - سبحانه - هذا الإنذار ، ونهى عن التقاعس فقال : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ أى : واحذروا أن تجعلوا مع الله - تعالى - إلها آخر ، فى العبادة أوالطاعة ﴿ إنى لكم منه ﴾ - سبحانه - ﴿ نذير مبين ﴾ .

فالآية الأولى كان التعليل فيها للأمر بالفرار إلى الله - تعالى - والثانية كان التعليل فيها للنهى عن الإشراك به - سبحانه - .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت جانبا من الدلائل على قدرة الله - تعالى - وأمرت الناس بإخلاص العبادة لله ، ونهت عن الإشراك به .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان مواقف الأقوام من رسلهم ، وببيان الوظيفة التى أوجد الله - تعالى - الناس من أجلها فقال :

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٦٥٥ .

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ
﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ
بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا
خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ
وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ
﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ
﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمر كذلك ، واسم الإشارة مشار به إلى الكلام الذى سيتلوه ، إذ أن ما بعده وهو قوله : ﴿ ما أتى الذين من قبلهم من رسول ﴾ تفسير له . أى : الأمر - أيها الرسول الكريم - كما نخبرك ، من أنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا ، إلا وقالوا له - كما قال قومك فى شأنك - هو - ساحر أو مجنون .

والمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من مشركى قريش ، حيث بين له - سبحانه - أن الرسل السابقين قد كذبتهم أممهم ، فصبروا حتى أتاهم نصره - سبحانه - .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال : ﴿ أتواصوا به ﴾ ؟ والضمير المجرور يعود إلى القول المذكور ، والاستفهام للتعجيب من أحوالهم . أى : أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم . أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون ؟

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال ، لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا ، وإنما الذى جمعهم تشابه القلوب ، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : أوصى بعضهم بعضا بهذا القول القبيح ؟ كلا لم يوص بعضهم بعضا لأنهم لم يتلاقوا ، وإنما تشابهت قلوبهم ، فاتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر .

ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله - تعالى - : ﴿ فتول عنهم ﴾ أى : فأعرض عنهم وعن جدالهم ، وسر فى طريقك الذى رسمه الحكيم الخبير لك .

﴿ فما أنت ﴾ أيها الرسول الكريم - ﴿ بملوم ﴾ على الإعراض عنهم ، وما أنت بمعاتب منا على ترك مجادلتهم .

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وداوم على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقول المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وآداب حكيمة .. ينفع المؤمنين ، ولا ينفع غيرهم من الجاحدين .

ثم بين - سبحانه - الوظيفة التى من أجلها أوجد الله - تعالى - الجن والإنس فقال : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن معناها : إنى ما أوجدت الجن والإنس إلا وهم مهيئون لعبادتى وطاعتى . بسبب ما ركبت فيهم من عقول تعقل ، وبسبب ما أرسلت إليهم من رسل يهدونهم إلى الخير ، فمنهم من أطاع الرسل ، وجرى على مقتضى ما تقتضيه الفطرة ، فآمن بالرسل ، واتبع الحق والرشد ، ففاز وسعد ، ومنهم من أعرض عن دعوة الرسل ، وعاند فطرته وموجب استعداده فخسر وخاب .

ومنهم من يرى أن معناها : إنى ما خلقت الجن والإنس إلا ليقروا لى بالعبودية طوعا أو كرها ، لأن المؤمن يطيع باختياره ، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ﴾[1] .

ومنهم من يرى معناها : إنى ما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفونى .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قيل : إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده . فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص .. فالآية فى المؤمنين منهم .

وقال على - رضى الله عنه - : أى : وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتى قال - تعالى - ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ .

---

(١) سورة الرعد آية ١٥ .

وقيل : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أى : إلا ليقروا لى بالعبادة طوعا أو كرها[١] .

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال هو ما أشرنا إليه أولا ، من أن معنى الآية الكريمة ، أن الله - تعالى - قد خلق الثقلين لعبادته وطاعته ، ولكن منهم من أطاعه - سبحانه - ، ومنهم من عصاه . لا ستحواذ الشيطان عليه .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الأقوال : ومعنى الآية أنه - تعالى - خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب .

وفى الحديث القدسى : قال الله - عز وجل - « يابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك ... » .

وفى بعض الكتب الإلهية . يقول الله - تعالى - « يابن آدم ، خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى . فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء »[٢] .

ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن العالمين فقال : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ أى : ما أريد منهم منفعة أو رزقا كما يريد الناس بعضهم من بعض .. وما أريد منهم طعاما ولا شرابا ، فأنا الذى أطعِم ولا أطعَم كما قال - سبحانه - : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض وهو يطعِم ولا يطعَم ﴾[٣] .

قال الآلوسى : والآية لبيان أن شأنه - تعالى - مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، ومالك العبيد نفى أن يكون ملكه إياهم لذلك ، فكأنه - سبحانه - يقول : ما أريد أن أستعين بهم ، كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى[٤] .

ثم بين - سبحانه - أنه هو صاحب القوة والرزق فقال : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ أى : إن الله - تعالى - هو الرزاق لغيره دون أحد سواه ، وهو - سبحانه - صاحب القوة التى لا تشبهها قوة ، وهو المتين أى : الشديد القوة - أيضا - فهو صفة للرزاق ، أو لقوله : ﴿ ذو ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف . وهو مأخوذ من المتانة بمعنى القوة الفائقة .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٥٦ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٤ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٢٢ .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الظالمين فقال : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ .

والذَّنُوب فى الأصل : الدلو العظيمة المملوءة ماء ، ولا يقال لها ذنوب إذا كانت فارغة . وجمعها ذَنَائِب ، كقلوص وقلائص ، وكانوا يستسقون الماء فيقسمونه بينهم على الأنصباء . فيكون لهذا ذنوب ، ولهذا ذنوب . فالمراد بالذنوب هنا : النصيب ، والمعنى : فإن للذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله ، وبظلمهم لغيرهم ، نصيبا من العذاب ، مثل نصيب نظرائهم فى الظلم والكفر ، فلا يستعجلون عذابى ، فإنه نازل بهم فى الوقت الذى أريد .

﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ﴾ أى : فهلاك للذين كفروا ، هذا الهلاك سيكون فى اليوم الذى توعدتهم بالهلاك فيه ، والذى هو نازل بهم بلا ريب أو شك .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الذاريات » ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر   د . محمد سيد طنطاوى

مساء السبت ٢١ جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ   ١ / ٢ / ١٩٨٦ م

تفسير

سُورَةُ الطُّورِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الطور » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها تسع وأربعون آية فى الكوفى والشامى ، وثمان وأربعون فى البصرى ، وسبع وأربعون فى المصحف الحجازى .

وهذه السورة من السور التى كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بها كثيرا فى صلاته .

روى الشيخان عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبى - ﷺ - يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتا أو قراءة منه .

وروى البخارى عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله - ﷺ - إنى اشتكى . فقال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة ، فطفت ورسول الله - ﷺ - يصلى إلى جنب البيت ، يقرأ بالطور وكتاب مسطور[1] .

٢ - وتفتتح سورة « الطور » بقسم من الله - تعالى - ببعض مخلوقاته على أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق ، وعلى أن كل ذلك كائن يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

تفتتح بهذا الافتتاح الذى يبعث الوجل والخوف فى النفوس فتقول : ﴿ والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور ، والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ﴾ .

٣ - وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار ، يأتى الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء عاقبة المكذبين ، فيقول - سبحانه - : ﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ﴾ .

٤ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مفتريات المشركين وأكاذيبهم ، فتحكيها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٤ .

بأمانة . وتقذف بالحق الذى أوحاه - سبحانه - إلى نبيه - ﷺ - فإذا بتلك المفتريات والأكاذيب زاهقة وباطلة ، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلاب فتقول : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا ، فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ .

٥ - ثم تختتم السورة الكريمة بما يسلى النبى - ﷺ - وبما يرسم له العلاج الشافى فتقول : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

٣ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٦ هـ

١٢ من فبراير سنة ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ
مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا
أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

افتتح الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بالقسم بخمسة أشياء هى من أعظم مخلوقاته ، للدلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، وتفرد ألوهيته .. فقال - سبحانه - : ﴿ والطور ﴾ والمراد به جبل الطور ، والمشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين ﴾ .

قال القرطبى : والطور : اسم الجبل الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى . أقسم الله به تشريفا وتكريما له ، وتذكيرا لما فيه من الآيات .. وقيل : إن الطور اسم لكل جبل أنبت ، ومالا ينبت فليس بطور[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٥٨ .

﴿ وكتاب مسطور ﴾ أى مكتوب متسق الكتابة ، منتظم الحروف ، مرتب المعانى ، فالمراد بالكتاب : المكتوب . وبالمسطور : الذى سطرت حروفه وكلماته تسطيرا جميلا حسنا .

والأظهر أن المقصود به القرآن الكريم ، لأن الله - تعالى - قد أقسم به كثيراً ، ومن ذلك قوله - سبحانه - ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ .

وقيل : المقصود به : جنس الكتب السماوية المنزلة . وقيل : صحائف الأعمال .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وكتاب مسطور ﴾ أى : مكتوب على وجه الانتظام ، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة . والمراد به على ما قال الفراء : الكتاب الذى تكتب فيه الأعمال ، ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله ، وقال الكلبى : هو التوراة . وقيل : القرآن الكريم وقيل : اللوح المحفوظ[1] .

وقوله : فى ﴿ رَق منشور ﴾ متعلق بمسطور . أى : مسطور فى رق . والرق - بالفتح - كل ما يكتب فيه من ألواح وغيرها . وأصله : الجلد الرقيق الذى يكتب عليه .

والمنشور : المبسوط ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ .

أى : أن هذا الكتاب المسطور ، كائن فى صحائف مبسوطة ظاهرة لكل من ينظر إليها .

وقوله . ﴿ والبيت المعمور ﴾ هو بيت فى السماء السابعة تطوف به الملائكة بأمر الله - تعالى - .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال فى حديث الإسراء والمعراج ، بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة »[2] .

وقيل المراد بالبيت المعمور هنا : البيت الحرام ، وسمى بذلك لأنه معمور بالحجاج والعمار ، ﴿ والسقف المرفوع ﴾ ، أى : والسماء المرفوعة ، وسميت سقفا لكونها بمثابة السقف للأرض كما قال - تعالى - ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ .

﴿ والبحر المسجور ﴾ أى : المملوء بالماء ، يقال ، سجر فلان الحوض إذا ملأه بالماء .

أو المسجور : بمعنى : المملوء بالنار من السَّجْر ، وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ... ثم فى النار يسجرون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٣ .

والمراد بالبحر هنا : جنسه . قال ابن عباس : تملأ البحار كلها يوم القيامة بالنار ، فيزاد بها في نار جهنم .

وبهذا نرى أن الله - تعالى - قد أقسم بخمسة أشياء من مخلوقاته ، للدلالة على وحدانيته ، وعلى شمول قدرته ، وعلى بديع صنعته .

وجواب هذا القسم قوله - سبحانه - : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ أى : وحق هذه المخلوقات الضخمة البديعة ، إن عذاب ربك لواقع وقوعا لا شك فيه على الكافرين يوم القيامة .

وقوله : ﴿ ماله من دافع ﴾ خبر ثان لإن فى قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ أى : هو واقع دون أن يستطيع أحد أن يدفعه أو يرده .

عن جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال : قدمت المدينة على رسول الله - ﷺ - لأكلمه فى أسارى بدر ، فجئت إليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعته يقرأ ﴿ والطور ﴾ إلى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ﴾ فكأنما صدع قلبى ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم مقامى ..»[١] .

والظرف فى قوله : ﴿ يوم تمور السماء مورا ﴾ متعلق بقوله ﴿ لواقع ﴾ ومنصوب به ، أى : إن هذا العذاب لواقع يوم تضطرب السماء اضطرابا شديدا ، وتتحرك بمن فيها تحركا تتداخل معه أجزاؤها .

فالمور . هو الحركة والاضطراب والدوران ، والمجىء والذهاب ، والتموج والتكفُّؤ ، يقال : مار الشىء مورا ، إذا تحرك واضطرب .

﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ أى عذاب ربك واقع يوم تضطرب السماء بأهلها وتزول الجبال عن أماكنها ، وتتطاير كالسحب ، ثم تتفتت كالرمال ، ثم تصير كالصوف المنفوش .

قال - تعالى - : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مَرَّ السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما ﴾[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٢٩ .
(٢) سورة النمل الآية ٨٨ .
(٣) سورة المعارج الآيات من ٨ - ١٠ .

وقوله : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : فهلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين به .

﴿ الذين هم فى خوض يلعبون ﴾ أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها العاقل - فهلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين بالحق ، الذين هم عاشوا حياتهم الدنيا يلهون ويلعبون دون أن يذكروا حسابا ولا ثوابا ولا عقابا .

وأصل الخوض : المشى فى الماء ، ثم غلب استعماله فى الاندفاع فى كل باطل .

ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة فقال : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ .

والدع : الدفع بعنف وشدة . يقال : دَعَّ فلان فلانا دَعًّا ، إذا دفعه بجفوة وغلظة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ .

أى : اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، يوم يدفع هؤلاء المكذبون إلى النار دفعا قويا . لا رحمة معه ، ولا شفقه فيه ، ثم يقال لهم بعد هذا الطرد الشديد : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، ادخلوها فبئس مثوى المتكبرين .

ثم يقال لهم - أيضا - على سبيل التوبيخ والزجر : ﴿ أفسحر هذا ﴾ أى أفسحر هذا الذى ترونه من العذاب كما كنتم تزعمونه فى الدنيا ؟

﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ أى : أم أنتم عمى عن مشاهدة العذاب المعد لكم فلا تبصرونه ؟ لا ، إن هذا العذاب ليس سحرا ، ولستم أنتم بمحجوبين عن رؤيته ، بل هو أمام أعينكم ، ومهيأ لاستقبالكم ، وهذه النار تناديكم ، وملائكتنا تقول لكم :

﴿ اصلوها ﴾ أى : ادخلوها ، وقاسوا حرها ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ أى : ادخلوها داخرين فاصبروا على سعيرها أو لا تصبروا ، فهى مأواكم لا محالة .

﴿ سواء عليكم ﴾ الأمران ، الصبر وعدمه ، لأن كليهما لا فائدة لكم من ورائه .

فقوله : ﴿ سواء عليكم ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمران سواء بالنسبة لكم .

﴿ إنما تجزون ﴾ فى هذا اليوم عاقبة ، ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ أى : فى الدنيا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ؟

قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر

جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع[1] .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين سوء عاقبة المكذبين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، جاء الحديث عن المتقين ، بعد الحديث عن الكافرين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ
لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

المعنى : ﴿ إن المتقين ﴾ الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .

﴿ فى جنات ﴾ عظيمة وفى ﴿ نعيم ﴾ دائم لا ينقطع . ﴿ فاكهين ﴾ أى : متلذذين متنعمين بما يحيط بهم من خيرات ، مأخوذ من الفَكاهة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٠٩ .

النشاط ، يقال : فكه الرجل فكَها ، وفكاهة فهو فكِه وفاكه . إذا طاب عيشه ، وزاد سروره ، وعظم نشاطه ، وسميت الفاكهة بهذا الاسم لتلذذ الإنسان بها .

﴿ بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ أى متلذذين بسبب ما آتاهم ربهم من جنات عظيمة ، ووقاهم - سبحانه - بفضله ورحمته العذاب الذى يؤلمهم .

ويقال لهم فضلا عن ذلك على سبيل التكريم : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا ﴾ أى : كلوا أكلا مريئا ، واشربوا شربا هنيئا . والهنىء من المأكول والمشروب : مالا يلحقه تعب أو سوء عاقبة .

وقوله : ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿ كلوا ﴾ أو من الضمير المستكن فى قوله ﴿ جنات ﴾ .

أى : هم فى جنات عظيمة ، حالة كونهم متكئين فيها على سرر موضوعة على صفوف منتظمة ، وعلى خطوط مستوية ، والسُّرُرُ : جمع سرير وهو ما يجلس عليه الإنسان للراحة .

وقوله : ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى يتلذذون بها .

أى : وفضلا عن كل ذلك ، فقد زوجناهم بنساء جميلات .

وبذلك نرى أن هؤلاء المتقين ، قد أكرمهم الله - تعالى - بكل أنواع النعيم ، من مسكن طيب ، ومأكل كريم ، ومشرب هنىء ، وأزواج مطهرات من كل سوء .

ثم بين - سبحانه - أنواعا أخرى من تكريمه - تعالَى - لهم ، فقال : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ .

والآية الكريمة بيان لحال طائفة من أهل الجنة - وهم الذين شاركتهم ذريتهم الأقل عملا منهم فى الإيمان - إثر بيان حال المتقين بصفة عامة .

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره جملة ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ . والمراد بالذرية هنا : ما يشمل الآباء والأبناء وقوله : ﴿ واتبعتهم ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ . وقوله ﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع ، والباء للسببية أو بمعنى فى .

ومعنى : ﴿ ألتناهم ﴾ أنقصناهم . يقال : فلان أَلَتَ فلانا حقه يألِتُه - من باب ضرب - إذا بخسه حقه .

والمعنى : والذين آمنوا بنا حق الإيمان واتبعتهم ذريتهم فى هذا الإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، بأن جمعناهم معهم فى الجنة ، وما نقصنا هؤلاء المتبوعين شيئا من ثواب أعمالهم ، بسبب إلحاق ذريتهم بهم فى الدرجة ، بل جمعنا بينهم فى الجنة . وساوينا بينهم فى العطاء - حتى ولو كان

بعضهم أقل من بعض فى الأعمال - فضلا منا وكرما .

قال الإمام ابن كثير : يخبر - تعالى - عن فضله وكرمه ، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه : أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان ، يلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم ، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته . للتساوى بينه وبين ذاك . ولهذا قال : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ .

عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته ، وإن كانوا دونه فى العمل ، لتقر بهم عينه ، ثم قرأ هذه الآية .

وفى رواية أخرى عنه قال - عندما سئل عن هذه الآية - : هم ذرية المؤمنين يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوها شيئا[1] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى تنكير الإيمان ؟ قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ، ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الدانى المحل ، كأنه قال : بشىء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم[2] .

قال الجمل : والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء ، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به من هو دونه فى العمل أبا كان أو ابنا ، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره .

وعن ابن عباس - أيضا - يرفعه إلى النبى - ﷺ - قال : « إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يدركوا ماأدركت ، فيقول : يارب إنى عملت لى ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به »[3] .

وقوله : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أى : كل إنسان مرهون بعمله عند الله - تعالى - فإن كان عمله صالحا سعد وفاز ، وأطلق نفسه من كل ما يسوؤها ويحزنها ، وإن كان غير ذلك جوزى على حسب عمله وسعيه .

والتعبير بقوله ﴿ رهين ﴾ للإشعار بأن كل إنسان مرتهن بعمله ، حتى لكأن العمل بمنزلة الدَّيْن ، وأن الإنسان لا يستطيع الفكاك منه إلا بعد أدائه .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٨ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤١١ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢١٦ .

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من مظاهر فضله على عباده المؤمنين فقال : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ . أى : وأمددنا هؤلاء المؤمنين - على سبيل الزيادة عما عندهم بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وبلحم لذيذ تشتهيه نفوسهم .

﴿ يتنازعون فيها كأسا ﴾ أى : يتجاذبون على سبيل المداعبة ، ويتعاطون على سبيل التكريم ، الأوانى المملوءة بالخمر التى هى لذة للشاربين .

﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أى : لا يصدر منهم فى أعقاب شربهم لتلك الخمر ، ما جرت به العادة فى أعقاب شرب خمر الدنيا ، من أن الشارب لها يصدر منه كلام ساقط لا خير فيه ، ويأتى من الأقوال والأفعال ما يعاقب عليه . ويرتكب الإثم بسببه .

قال صاحب الكشاف : ﴿ لا لغو فيها ﴾ أى : فى شربها ﴿ ولا تأثيم ﴾ أى : لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث ، ومالا طائل تحته ، كفعل المتنادمين فى الدنيا على الشراب فى سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم وبالكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء[1] .

﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم ﴾ أى : ويطوف عليهم بتلك الكئوس المليئة بالخمر ، غلمان لهم ، لكى يكونوا فى خدمتهم .

﴿ كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ أى : كأن هؤلاء الغلمان فى صفائهم ونقائهم ، لؤلؤ مصون ومحفوظ فى صدفه لم تنله الأيدى .

يقال : كَنَنْتُ الشىء كَنًّا وكُنُونًا ، إذا جعلته فى كِنٍّ ، وسترته عن الأعين .

ثم حكى - سبحانه - تساؤلهم وهم فى الجنة ، فقال : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أى : وأقبل بعضهم على بعض وهم فى الجنة ، يسأل أحدهم الآخر عن أحواله وعن أعماله ، وعن حسن عاقبته .

﴿ قالوا ﴾ أى : قال كل مسئول لسائله : ﴿ إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ﴾ أى : إنا كنا فى الدنيا ونحن نعيش بين أهلنا خائفين من أهوال يوم القيامة ، وكنا نقدم العمل الصالح الذى نرجو أن ننال بسببه رضا ربنا : فقبل - تعالى - بفضله منا هذا العمل ﴿ فَمَنَّ الله علينا ﴾ أى فتكرم علينا بمغفرته ورضوانه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤١٢ .

﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ أى : وأنقذنا من عذاب النار التى تنفذ بحرها وسعيرها ، إلى العظام والمسام ، نفاذ الريح الحارة إلى الأجساد ، فتؤثر فيها تأثير السم فى البدن .

قال صاحب الكشاف : والسموم : الريح الحارة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لأنها بهذه الصفة .

﴿ إنا كنا من قبل ندعوه .. ﴾ أى : إنا كنا من قبل فى الدنيا ندعوه أن يجنبنا هذا العذاب كما كنا - أيضا - نخلص له العبادة والطاعة .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو البر الرحيم ﴾ أى : هو المحسن على عباده ، الرحيم بهم .

فالبر - بفتح الباء - مشتق من البِرِّ - بكسرها - ، بمعنى المحسن ، يقال : بر فلان فى يمينه ، إذا صدق فيها ، وأحسن أداءها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بشرت المتقين ببشارات متعددة ، وذكرت نعما متعددة أنعم بها - سبحانه - عليهم .

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن الكافرين ، فأمرت النبى - ﷺ - أن يمضى فى طريقه دون أن يهتم بأكاذيبهم ، وحكت جانبا من هذه الأكاذيب التى قالوها فى حقه - ﷺ - ولقنته الجواب المزهق لها .. فقال - تعالى - :

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ

رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾

والفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ للإفصاح . والكاهن : هو الإنسان الذى يزعم أنه يخبر عن الأشياء المغيبة ، والمجنون : هو الإنسان الذى سلب عقله ، فصار لا يعى ما يقول .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك قبل ذلك - أيها الرسول الكريم - فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أوحينا إليك .. فما أنت بسبب إنعام الله عليك بكاهن ولا مجنون كما يزعم أولئك الكافرون .

قال الجمل : والباء فى قوله ﴿ بنعمة ربك ﴾ للسببية ، وهى متعلقة بالنفى الذى أفادته « ما » أى : انتفى كونك كاهنا أو مجنونا ، بسبب إنعام الله عليك بالعقل الراجح ، وعلو الهمة ، وكرم الفعال ، وطهارة الأخلاق ، وهم معترفون بذلك لك قبل النبوة[1] .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تقريع هؤلاء الجاهلين بأسلوب استنكارى فيه ما فيه من التعجب من جهالاتهم . وفيه مافيه من الرد الحكيم على أكاذيبهم ، فساقت أقاويلهم بهذا الأسلوب الذى تكرر فيه لفظ « أم » خمس عشرة مرة ، وكلها إلزامات ليس لهم عنها جواب . وبدأت بقوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾ ، و « أم » فى هذه الآيات بمعنى بل والهمزة .

وقوله : ﴿ نتربص ﴾ من التربص بمعنى الانتظار والترقب .

وقوله : ﴿ ريب المنون ﴾ يعنون به : حوادث الدهر التى تحدث له - ﷺ - منها

(١) حاشية الجمل على الجلالية جـ ٤ ص ٢١٧ .

الموت . فالمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه التى يصيبه بسببها الهلاك .

أى : بل أيقولون عنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر ، وأنهم يترقبون موتك لكى يستريحوا منك . كما استراحوا من الشعراء الذين من قبلك ، كزهير والنابغة .. قل لهم على سبيل التبكيت والتهديد : تربصوا وترقبوا موتى فإنى معكم من المنتظرين ، وستعلمون أينا خير مقاما وأحسن عاقبة .

قال الآلوسى : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ أى : الدهر ، وهو فعول من المَنِّ بمعنى القطع ؛ لأنه يقطع الأعمال وغيرها ، ومنه حبل مَنِين أى : مقطوع ، والريب : مصدر رابه إذا أقلقه ، أريد به حوادث الدهر وصروفه ، لأنها تقلق النفوس ، وعبر عنها بالمصدر مبالغة ... وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، تفسيره المنون بالموت .

روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة ، وكثرت آراؤهم فيه - ﷺ - حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة[1] .

ثم وبخهم - سبحانه - على غفلتهم وعنادهم فقال : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون ﴾ .

والأحلام : جمع حِلْم - بكسر الحاء - والمراد بها هنا : العقول . وكان شيوخ قريش يدعون بذى الأحلام والنهى .

ويطلق الحلم فى الأصل على ضبط النفس عن هيجان الغضب . وأطلق هنا على العقل لكونه منشأ له .

أى : بل أتأمرهم عقولهم التى زعموا سلامتها ، بأن يقولوا فى شأنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر أم مجنون ؟

لا ، إن أى عقل سليم لم يأمرهم بذلك ، وإنما هم قوم دأبهم الطغيان والعناد وتجاوز الحدود التى لا يجوز تجاوزها .

والعقول إذا استعملت فى الشرور والآثام ، ضاع رشدها ، وفقدت سلامتها .

ولقد قيل لعمرو بن العاص . رضى الله عنه - : ما بال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام ؟ فقال : تلك عقول كادها الله - تعالى - أى : لم يصحبها التوفيق والرشاد .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢٧ ص ٣٦ .

﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ والتقول : تكلف القول واختلاقه. وأكثر ما يكون استعمالا فى الكذب، يقال: فلان تقول على فلان، إذا افترى عليه الكذب . أى : بل أيقولون عنك - أيها الرسول - إنك افتريت هذا القرآن ، واختلقته من عند نفسك ، لا إنك معصوم عن ذلك ، وأنت ما نطقت إلا بما أوحيناه إليك ، ولكنهم هم المفترون للكذب عليك ، وما حملهم على ذلك إلا عدم إيمانهم بالحق ، وانغماسهم فى الباطل ، وإصرارهم على الجحود .

وإذا كان الأمر - كما زعموا - فها هو ذا القرآن أمامهم يسمعون آياته .. فليأتوا بحديث يشابه القرآن فى بلاغته . وهدايته ، وسمو تشريعاته وآدابه .

وقد تحداهم - سبحانه - فى آيات أخرى أن يأتوا بعشر سور من مثله فقال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[١] .

ثم تحداهم سبحانه - أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٢] .

ولكنهم فى جميع مراحل التحدى ، وقفوا عاجزين مبهوتين ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ثم وبخهم - سبحانه - على عدم تفكرهم فى خلق أنفسهم فقال : ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ .

أى : بل أَخُلِقُوا على هذه الكيفية البديعة ، والهيئة القويمة ، من غير أن يكون هناك خالق لهم ؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم بدون احتياج لخالق ؟ أم هم الذين قاموا بخلق السموات والأرض ؟

لا ، إن شيئا من ذلك لم يحدث ، فإنهم لم يُخْلَقُوا من غير شىء ، وإنما الذى خلقهم بقدرته - تعالى - هو الله وحده ، كما خلق - سبحانه - السموات والأرض بقدرته - أيضا - وهم يعترفون بذلك ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .. ﴾ ، ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ...﴾ .

---

(١) سورة هود الآية ١٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣ .

وقوله : ﴿ بل لا يوقنون ﴾ أى : هم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم يخبطون خبط عشواء ، فهم مع اعترافهم بأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم ، إلا أن هذا الاعتراف صار كالعدم ، لأنهم لم يعملوا بموجبه ، من إخلاص العبادة له - تعالى - والإيمان بالحق الذى جاءهم به رسول الله - ﷺ - من عند خالقهم .

ثم قال - تعالى - : ﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴾ أى : بل أعند هؤلاء الغافلين ﴿ خزائن ربك ﴾ أى : مفاتيح أرزاقه - تعالى - لعباده ، ومقدراته لهم ، حتى يقسموها عليهم كما شاءوا ، أم هم المصيطرون على أحوال هذا الكون ، المتسلطون على مقدراته ، حتى لكأنهم أربابه المتغلبون عليه ؟ .

كلا لا شىء لهم من ذلك إطلاقا ، وإنما هم وغيرهم فقراء إلى رزق الله - تعالى - لهم ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه... ﴾ والسلم : هو ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية .

أى : بل ألهم سلم يصعدون بواسطته إلى السماء ، ليستمعوا إلى وحينا وأمرنا ونهينا ..

إن كان أمرهم كذلك : ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أى : فليأت من استمع منهم إلى شىء من كلامنا أو وحينا بحجة واضحة تدل على صدقه فيما ادعاه .

ومما لاشك فيه أنهم لا حجة لهم ، بل هم كاذبون إذا ما ادعوا ذلك ، لأن وحى الله - تعالى - خاص بأناس معينين ، ليسوا منهم قطعا .

﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ أى : بل أيقولون إن لله - تعالى - البنات ولهم الذكور ، إن قولهم هذا من أكبر الأدلة على جهلهم وسوء أدبهم . لأن الله - تعالى - هو الخالق للنوعين ، وهو - سبحانه - ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ .

﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾ أى : بل أتسألهم أجرا على دعوتك إياهم إلى الحق ، فهم بسبب ذلك قد أثقلتهم الديون والمغارم ، فصاروا ينفرون من دعوتك ؟ كلا إنك لم تطلب منهم شيئا من ذلك .

والمغرم : الدين الذى يكون على الإنسان ، فيثقل كاهله ، ويحزن نفسه .

﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أى : بل أيزعمون أن عندهم علم الغيب فهم يكتبونه للناس ، ويطلعونهم عليه ..؟ .

كلا إنهم لا علم لهم بشىء من الغيب ، لأن علم الغيب مرده إلى الله - تعالى - وحده ، كما

قال - سبحانه - : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ...﴾[1] .

﴿ أم يريدون كيدا ، فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ أى : بل أيريدون بك - أيها الرسول الكريم - الكيد والأذى والهلاك ، إن كانوا يريدون بك ذلك فاعلم أن الذين كفروا بك وبدعوتك وأرادوا بك وبها الكيد والأذى ، هم المغلوبون الخاسرون الذين يحيق بهم كيدهم ويعود عليهم وباله .

فقوله : ﴿ المكيدون ﴾ اسم مفعول من الكيد ، وهو المكر والخبث ..

وقد عاد عليهم وبال مكرهم فعلا ، فقد خرج - ﷺ - من بين جموعهم ليلة الهجرة ، دون أن يروه ، وكانوا محيطين بداره ليقتلوه ، وأحبط الله - تعالى - مكرهم .

﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾ أى : بل ألهم إله غير الله - تعالى - يرزقهم من فضله ، ويرعاهم بلطفه فى جميع أطوار حياتهم .

كلا إنهم لا إله لهم سواه - تعالى - وتنزه - سبحانه - عن شركهم وكفرهم .

﴿ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ﴾ والكِسْف جمع كِسْفة وهى القطعة من الشىء ، والمركوم : المتراكم الذى تجمع بعضه فوق بعض .

أى : وإذا رأى هؤلاء الجاهلون قطعة عظيمة من العذاب نازلة عليهم لتهديدهم وزجرهم . قالوا : هذا النازل علينا سحاب متراكم ، قد اجتمع بعضه فوق بعض ليسقينا ، ولم يصدقوا أنه نذير عذاب شديد لهم . وهذا شأن الطغاة المعاندين ، وقد سبقهم إلى ذلك قوم عاد ، فإنهم حين رأوا العذاب مقبلا نحوهم قالوا ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ فرد الله - تعالى - عليهم بقوله ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ .

هذا : والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة : يراها قد حملت على المشركين حملة شديدة ، حيث وبختهم على جهالاتهم ، وتحدتهم بأسلوب تعجيزى أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ، وتهكمت بهم وبعقولهم الفارغة التى انقادوا لها بدون تفكر أو تدبر ، وبينت أنهم قوم متناقضون مع أنفسهم ، لأنهم يقرون أن الله - تعالى - هو الخالق لهم ولغيرهم ، ومع ذلك فهم يعبدون غيره . وينسبون البنات إليه دون البنين ..

وقد ذكر بعض المفسرين أن ما أصابهم من هزيمة يوم بدر ، كان فى السنة الخامسة عشرة من

---

(١) سورة الجن الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

بعثته - ﷺ - وأن هذه الأيات قد تكرر فيها لفظ « أم » خمس عشرة مرة ، بعدد هذه السنين ، ولذا قالوا : إن ذلك فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة . بتوجيه الخطاب إلى النبى - ﷺ - ، على سبيل التسلية والتكريم ، حيث أمره - سبحانه - بالإعراض عنهم ، لأنه - سبحانه - هو الذى سيتولى حسابهم وعقابهم .. فقال - تعالى - :

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

والفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فذرهم ... ﴾ واقعة فى جواب شرط مقدر . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاتركهم فى طغيانهم يعمهون ..

﴿ حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ أى : فدعهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتيهم اليوم الذى فيه يموتون ويهلكون .

قال القرطبى : قوله ﴿ يصعقون ﴾ بفتح الياء قراءة العامة . وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها . قال الفراء : هما لغتان : صَعِق وصُعِقَ مثل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : هو يوم بدر ، وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ...[1] .

وقوله : ﴿ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ... ﴾ بدل من قوله : ﴿ يومهم ﴾ . أى : اتركهم - أيها الرسول الكريم - ولا تكترث بهم . وامض فى دعوتك إلى الحق ، فعما قريب سيأتيهم اليوم الذى لن ينفعهم فيه مكرهم السيِّئ ، وكيدهم القبيح ..

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ فيه من عقابنا من أى جهة من الجهات ، أو من أى شخص من الأشخاص .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٧٧ .

﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ وهم هؤلاء الكافرون ﴿ عذابا دون ذلك ﴾ أى : عذابا آخر دون ذلك العذاب الذى سينزل بهم عند موتهم وفى حياتهم ..

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لا يعلمون ذلك ، لجهلهم بما سينتظرهم من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك التسلية الرقيقة لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ..﴾ .

أى : واصبر - أيها الرسول الكريم - ﴿ لحكم ربك ﴾ إلى أن ننزل بهم عقابنا فى الوقت الذى نشاؤه ونختاره ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ أى : فإنك بمرأى منا وتحت رعايتنا وحمايتنا وحفظنا ..

﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى : وأكثر من تسبيح ربك وتنزيهه عن كل مالا يليق به حين تقوم من منامك ، أو من مجلسك ، أو حين تقوم للصلاة ..

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أى : ومن الليل فأكثر من تسبيح ربك ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أى : وأكثر من تسبيحه - تعالى - وقت إدبار النجوم وغروبها ، وذلك فى أواخر الليل .

وبذلك ترى أن الله - تعالى - قد أمر نبيه - ﷺ - بالإكثار من التسبيح له - عز وجل - فى كل الأوقات ، لأن هذا التسبيح يجلو عن النفس همومها وأحزانها ..

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الطور » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الثلاثاء ١٦ جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٢/٢٥ م

كتبة الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « النجم » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ثنتان وستون آية فى المصحف الكوفى ، وإحدى وستون فى غيره ، وكان نزولها بعد سورة « الاخلاص » ، فهى تعتبر من أوائل ما نزل على النبى - ﷺ - من قرآن ، إذ لم يسبقها فى النزول سوى اثنتين وعشرين سورة ، أما ترتيبها فى المصحف ، فهى السورة الثالثة والخمسون .

٢ - ويبدو أنها سميت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ..

قال الآلوسى : سورة « والنجم » . وتسمى - أيضا - سورة النجم - بدون واو - . وهى مكية على الإطلاق . وفى الإتقان : استثنى منها : الذين يجتنبون كبائر الإثم .. إلى آخر الآية ... وهى - كما أخرج ابن مردويه - عن ابن مسعود قال : أول سورة أعلن النبى - ﷺ - بقراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون .

وأخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة سورة « والنجم » ، فسجد رسول الله - ﷺ - وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته يأخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا ، وهو أمية بن خلف ..

وذكر أبو حيان أن سبب نزولها ، قول المشركين : إن محمدا - ﷺ - يختلق القرآن ..[1] .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة بقسم منه - سبحانه - بالنجم ، على صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، ثم وصف - سبحانه - جبريل - عليه السلام - وهو أمين الوحى ، بصفات تدل على قوته وشدته ، وعلى أن النبى - ﷺ - قد رآه على هيئته التى خلقه الله عليها .

قال - تعالى - : ﴿ والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ .

(١) راجع تفسير الألوسى جـ ٢٧ ص ٤٤ .

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الآلهة المزعومة فبينت أن هذه الآلهة إنما هى أسماء أطلقها الجاهلون عليها ، دون أن يكون لها أدنى نصيب من الصحة ، وأن العبادة إنما تكون لله وحده .

قال - سبحانه - : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ .

٥ - ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - ﷺ - إلى الطريق الحكيم الذى يجب عليه أن يسلكه فى دعوته ، وسلاه عما لحقه من المشركين من أذى ، فقال - سبحانه - : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ .

٦ - وبعد أن ساق - سبحانه - جانبا من مظاهر رحمته بعباده ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ أتبع ذلك ببيان مظاهر عدله فى خلقه ، وقدرته على كل شىء ، وساق ما يشهد لذلك من أخبار الغابرين المكذبين الذين لا يخفى حالهم على المشركين المعاصرين للنبى - ﷺ - ، وأنذر هؤلاء المشركين بسوء المصير ، إذا لم يعودوا إلى الحق ، ويكفوا عن جحودهم وعنادهم ..

قال - تعالى - : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا﴾ .

٧ - هذا ، والمتأمل فى هذه السورة الكريمة يراها بجانب إقامتها الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه يراها بجانب ذلك قد ساقت ما ساقت من براهين واضحة ، ومن توجيهات حكيمة .. بأسلوب بليغ أخاذ ، له لفظه المنتقى ، ومعناه السديد ، وتراكيبه الموزونة وزنا بديعا .. مما يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع حياتنا ، وأنس نفوسنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

دولة قطر - الدوحة

مساء السبت ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٣/١ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

افتتح الله - تعالى - هذه السورة بهذا القسم العظيم ، للدلالة على صدق رسوله - ﷺ - وللرد على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين زعموا أن النبى - ﷺ - قد اختلق القرآن الكريم .

والنجم : هو الكوكب الذى يبدو للناظرين ، لامعا فى جو السماء ليلا .

والمراد به هنا : جنسه ، أى : ما يشمل كل نجم بازغ فى السماء ، فأل فيه للجنس .

وقيل : أل فيه للعهد والمراد به نجم مخصوص هو : الشعرى ، وهو نجم كان معروفا عند العرب . وقد جاء الحديث عنه فى آخر السورة ، فى قوله - تعالى - : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ . قالوا : وكانت قبيلة خزاعة تعبده .

وقيل المراد به : الثريا ، فإنه من النجوم المشهورة عند العرب ..

وقيل : المراد به هنا : المقدار النازل من القرآن على النبى - ﷺ - وجمعه نجوم ، وقد فسره بعضهم بذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

ومعنى « هوى » : سقط وغرب . يقال هوى الشيء يهوى - بكسر الواو - - هويا - بضم الهاء وفتحها - إذا سقط من أعلى إلى أسفل ..

قال الآلوسى : وأظهر الأقوال ، القول بأن المراد بالنجم ، جنس النجم المعروف ، فإن أصله اسم جنس لكل كوكب . وعلى القول بالتعيين ، فالأظهر القول بأنه الثريا ووراء هذين القولين ، القول بأن المراد به : المقدار النازل من القرآن ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ﴾ . جواب القسم . و« ما » نافية . و« ضل » من الضلال ، والمراد به هنا : عدم الاهتداء إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

و« غوى » من الغى ، وهو الجهل الناشىء من اعتقاد فاسد ، وهو ضد الرشد .. و« الهوى » الميل مع شهوات النفس ، دون التقيد بما يقتضيه الحق ، أو العقل السليم .

والمعنى : وحق النجم الذى ترونه بأعينكم - أيها المشركون - عند غروبه وأفوله ، وعند رجمنا به للشياطين .. إن محمدا - ﷺ - الذى أرسلناه إليكم ﴿ شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ ، ما ضل عن طريق الحق فى أقواله وأفعاله ، وما كان رأيه مجانبا للصواب فى أمر من الأمور ، وما ينطق بنطق صادر عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما ينطق بما نوحيه إليه من قرآن كريم ، ومن قول حكيم ، ومن توجيه سديد .

وقد أقسم - سبحانه - بالنجم عند غروبه ، للإشعار بأن هذا المخلوق العظيم مسخر لإرادة الله - تعالى - وقدرته فهو مع لمعانه وظهوره فى السماء لا يتأبى عن الغروب والأفول ، إذا ما أراد الله - تعالى - له ذلك ، ولا يصلح أن يكون إلها ، لأنه خاضع لإرادة خالقه .

ولقد حكى - سبحانه - عن نبيه إبراهيم أنه حين ﴿ جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ .

قال بعض العلماء : والوجه أن يكون قوله : ﴿ إذا هوى ﴾ بدل اشتمال من النجم ، لأن المراد من النجم أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ، ومن أعظم أحواله حال هويّه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٤٥ .

وسقوطه ، ويكون « إذا » اسم زمان مجردا عن معنى الظرفية ، فى محل جر بحرف القسم ..[١] .

وقال - سبحانه - : ﴿ صاحبكم ﴾ للإشارة إلى ملازمته - ﷺ - لهم ، طوال أربعين سنة قبل البعثة ، وأنهم فى تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق ، والأمانة ، والعقل الراجح ، والقول السديد .. وأنهم لم يخف عليهم حاله بل كانوا مصاحبين له ، ومطلعين على سلوكه بينهم ، فقولهم بعد بعثته - ﷺ - إنه ساحر أو مجنون .. هو نوع من كذبهم البين ، وجهلهم المطبق ..

وقوله : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ استئناف بيانى مؤكد لما قبله .

والضمير « هو » يعود إلى المنطوق به ، المفهوم من قوله - تعالى - : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ . أى : إن الرسول - ﷺ - لا يصدر نطقه فيما يأتيكم به عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما الذى ينطق به ، هو وحى من الله - تعالى - أوحاه إليه على سبيل الحقيقة التى لا يحوم حولها شك أو ريب .

ومتعلق « يوحى » محذوف للعلم به . أى : ما هذا الذى ينطق به إلا وحى أوحاه - سبحانه - إلى نبيكم - ﷺ - .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ أى : إنما يقول ما أمر بتبليغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان .. فعن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله - ﷺ - أريد حفظه . فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله - ﷺ - ورسول الله - ﷺ - بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك له ، فقال : « **اكتب فوالذى نفسى بيده ، ما خرج منى إلا الحق** » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا أقول إلا حقا » فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يارسول الله ؟ قال : « إنى لا أقول إلا حقا »[٢] .

وقال صاحب الكشاف : ويحتج بهذه الآية من لايرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجاب بأن الله - تعالى - إذا سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد ومايستند إليه كله وحيا لانطقا عن الهوى[٣] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٧ ص ٩٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٧ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٨ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من صفات جبريل - عليه السلام - الذى ينزل بالقرآن على النبى - ﷺ - فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ .

أى : علَّم النبىَّ - ﷺ - القرآن ، ملك من ملائكتنا الكرام ، وهو جبريل - عليه السلام - الذى أعطيناه قوة شديدة ، استطاع بها أن ينفذ ما كلفناه بتنفيذه .

والضمير المنصوب فى « علمه » هو المفعول الأول ، والثانى محذوف . أى : القرآن ، لأن علَّم تتعدى إلى مفعولين .

وقوله : ﴿ شديد القوى ﴾ صفة لموصوف محذوف . أى : ملك شديد القوى .

قالوا : وقد بلغ من شدة قوته ، أنه اقتلع قرى قوم لوط - عليه السلام - ثم رفعها إلى السماء ، ثم قلبها . بأن جعل أعلاها أسفلها ..

وقوله - تعالى - : ﴿ ذو مرة فاستوى ﴾ صفة أخرى من صفات جبريل - عليه السلام - . والمرة - بكسر الميم - تطلق على قوة الذات ، وحصافة العقل ورجاحته ، مأخوذ من أمررت الحبل ، إذا أحكمت فتله ..

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ...﴾ .

وقوله : ﴿ فاستوى ﴾ أى : فاستقام على صورة ذاته الحقيقية ، دون الصورة الآدمية التى كان ينزل بها على الرسول - ﷺ - .

﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ أى : وهو - أى جبريل - بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر إليها ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أى : ثم قرب جبريل - عليه السلام - من النبى - ﷺ - ﴿ فتدلى ﴾ أى : فانخفض من أعلى إلى أسفل ..

وأصل التدلى : أن ينزل الشىء من طبقته إلى ما تحتها ، حتى لكأنه معلق فى الهواء ، ومنه قولهم : تدلت الثمرة إذا صارت معلقة فى الهواء من أعلى إلى أسفل ..

ثم صور - سبحانه - شدة قرب جبريل من النبى - ﷺ - فقال : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ والقاب : المقدار المعين : وقيل : هو ما بين وتر القوس ومقبضها ..

والقوس : آلة معروفة عند العرب ، يشد بها وتر من جلد ، وتستعمل فى الرمى بالسهام .

وكان من عادة العرب فى الجاهلية ، أنهم إذا تحالفوا ، يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى ، فيكون قاب إحداهما ملاصقا للآخر ، حتى لكأنهما قاب واحد ، ثم ينزعونهما معا ويرمون بهما سهما واحدا ، فيكون ذلك دليلا على التحالف التام والرضا الكامل ...

والمعنى : أن جبريل - عليه السلام - بعد أن كان بالجهة العليا من السماء ، ثم قرب من النبى - ﷺ - ، ثم زاد فى القرب ، حتى كان على مقدار مسافة قوسين منه - ﷺ - أو أقرب من ذلك .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ قاب قوسين ﴾ مقدار قوسين عربيتين ، والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، المقدار .. وقد جاء التقدير بالقوس ، والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة والشبر ... ومنه الحديث الشريف : « لقاب قوس أحدكم من الجنة ، وموضع قده ، خير من الدنيا وما فيها » والقد السوط .. .

فإن قلت : كيف تقدير قوله : ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ ، قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات ..[1] .

و « أو » فى قوله : ﴿ أو أدنى ﴾ للشك ، ولكن هذا الشك من جهة العباد ، أى : أن الرائى إذا رأى هذا الوضع قال : هو قاب قوسين أو أقرب من ذلك ، ويصح أن تكون بمعنى « بل » .

قال الجمل : قوله : ﴿ أو أدنى ﴾ هذه الآية كقوله : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ لأن المعنى : فكان - جبريل - بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى : لتقارب ما بينهما يشك الرائى فى ذلك .

وأدنى : أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

ويصح أن تكون بمعنى بل ، أى : بل هو أدنى ..[2] .

وقوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ أى : فأوحى جبريل - عليه السلام - ، إلى عبد الله ورسوله محمد - ﷺ - ما أوحى من قرآن كريم ، ومن هدى حكيم .

فالضمير فى قوله : ﴿ فأوحى ﴾ أى : جبريل ، لأن الحديث فى شأنه ، وإيحاؤه إنما هو بأمر الله - تعالى - ومشيئته ، ويرى بعضهم أنه يعود إلى الله - تعالى - .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فأوحى ﴾ أى : جبريل ﴿ إلى عبده ﴾ أى : عبد الله ، وهو النبى - ﷺ - ، والإضمار - ولم يجر له - تعالى - ذكر ، لكونه فى غاية الظهور ، ومثله كثير فى الكلام ، ومنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة .. ﴾ .

﴿ ما أوحى ﴾ أى : الذى أوحاه ، والضمير المستتر لجبريل - أيضا - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩ .
(٢) حاشية ا لجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٢٥ .

وقيل : الضمير المستتر لله - تعالى - . أى : أوحى جبريل إلى عبد الله ، ما أوحاه الله إلى جبريل .

والأول مروى عن الحسن ، وهو الأحسن .

وقيل : ضمير أوحى الأول والثانى لله - تعالى - والمراد بالعبد جبريل - عليه السلام - وهو كما ترى ..[1] .

وأبهم - سبحانه - ما أوحاه ، لتفخيم شأنه ، وإعلاء قدره ، حتى لكأنه لا تحيط به عبارة ، ولا يحده الوصف ، وشبيه بهذا التعبير قوله - تعالى - : ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده ، فغشيهم من اليم ما غشيهم ..﴾[2] .

وعبر - سبحانه - عن رسوله - ﷺ - بعبده ، وأضافه إليه ، للتشريف والتكريم ، ولبيان أنه عبد من عباده - تعالى - الذين اصطفاهم لحمل رسالته ، وتبليغ ما أوحاه إليه .

وقوله : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ رد على المشركين ، وتكذيب لهم ، فيما زعموه من أن الرسول - ﷺ - لم يتلق الوحى عن جبريل ، ولم يشاهده .

واللام فى قوله ﴿ الفؤاد ﴾ عوض عن المضاف إليه ، والفؤاد : العقل أو القلب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به ..﴾[3] .

وقراءة الجمهور ﴿ كذب ﴾ بفتح الذال مع التخفيف ، وقرأ ابن عامر بفتحها مع التشديد ، و« ما » موصولة ، والعائد محذوف .

أى : ما كذب فؤاد النبى - ﷺ - وما أنكر ، الذى رآه ببصره من صورة جبريل - عليه السلام - لأنه لم يكن يجهله ، بل كان معروفا لديه ، وصاحب الوحى إليه ، فهو - ﷺ - عرفه بقلبه ، وتأكدت هذه المعرفة برؤيته له بعينيه .

فالكذب هنا : بمعنى الإنكار والتردد والشك فى صحة ما يراه .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ أى : ما كذب فؤاد النبى - ﷺ - ما رآه ببصره من صورة جبريل - عليه السلام - .

أى : ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ، ولو قال ذلك - على سبيل الفرض - لكان كاذبا لأنه عرفه ، يعنى أنه رآه بعينه ، وعرفه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٤٩ .
(٢) سورة طه الآية ٧٨ .
(٣) سورة القصص الآية ١٠ .

وقرئ . ﴿ ما كذب ﴾ - بالتشديد - ، أى : صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته[١] .

ثم وبخ - سبحانه - المشركين على تكذيبهم للنبى - ﷺ - فيما يخبرهم عنه من شئون الوحى ، فقال : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ .

والمماراة : المجادلة والملاحاة بالباطل . يقال : مارَى فلان فلانا مماراة ومِرَاء ، إذا جادله ، مأخوذ من مَرَى الناقة يَمْرِيها . إذا مسح ضرعها ليستدر لبنها ، ويأخذه كاملا ، فشبه الجدال بذلك ، لأن كل واحد من المتجادلين يَمْرِى ما عند صاحبه ، أى : يسعى لاستخراج كل ما عنده ، حتى يقيم الحجة عليه .

وعدى الفعل بعلى لتضمنه معنى المغالبة .

أى : أفتجادلون نبينا محمدا - ﷺ - فيما رآه بعينيه ، وتجادلونه فى شىء هو تحقق منه بعقله وبصره ، وهو ملاقاته ورؤيته لأمين وحينا جبريل - عليه السلام - ؟ إن مجادلتكم له فى ذلك ، هو من قبيل التعنت الواضح ، والجهل الفاضح ، لأنكم كذبتموه وجادلتموه فى شىء هو قد رآه وتحقق منه ، وأنتم تعلمون أنه صادق أمين .

فالمقصود بالاستفهام تبكيتهم وتجهيلهم على جدالهم بالباطل .

هذا وقد ذكر العلماء ، أن هذه الآيات ، تشير إلى رؤية النبى - ﷺ - لجبريل ، على الهيئة التى خلقه الله - تعالى - عليها ، فقد كان جبريل يأتى النبى - ﷺ - فى صورة آدمى ، فسأله أن يريه نفسه على صورته التى خلق عليها ، فأراه نفسه مرتين : مرة فى الأرض وهى التى تشير إليها هذا الآيات ، ومرة فى السماء ، وهى التى تشير إليها الآيات التالية .

وقد توسع الإمام ابن كثير فى ذكر الأحاديث التى وردت فى ذلك فقال ما ملخصه :

عن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله - ﷺ - لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته ، فسد الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ..[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى .. ﴾ إشارة إلى المرة الثانية التى رأى فيها الرسول - ﷺ - جبريل على هيئته التى خلقه الله - تعالى - عليها ، وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج . أى : والله لقد رأى محمد - ﷺ - جبريل فى صورته التى خلق عليها ، حالة كونه نازلا من السماء نزلة أخرى .

وقد جاء الإخبار عن هذه الرؤية بصيغة مؤكدة بلام القسم وبقد .. للرد على المشركين

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩ .

(٢) راجع ابن كثير تفسير جـ ٤ ص ٢٤٧ .

الذين أنكروا ذلك ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لئن كنتم قد أنكرتم هذه الرؤية فى الأرض ، فإنه - ﷺ - لم يره فى الأرض فقط ، بل رآه رؤية أعظم من ذلك ، وهى رؤيته له فى السماء ، حين كان مصاحبا له فى رحلته ليلة الإسراء والمعراج .

قال الآلوسى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ أى : رأى النبى - ﷺ - جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها ﴿ نزلة أخرى ﴾ أى : مرة أخرى ، وهى فعلة من النزول ، أقيمت مقام المرة ، ونصبت نصبها على الظرفية ، لأن أصل المرة مصدر مر يمر ، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه . ولم يقل مرة بدل نزلة ؛ ليفيد أن الرؤية فى هذه المرة ، كانت بنزول ودنو ، كالرؤية فى المرة الأولى ، الدال عليها ما مر ...

والمراد من الجملة القسمية ، نفى الريبة والشك عن المرة الأخيرة ، وكانت ليلة الإسراء[1] .

وقوله : ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ بيان للمكان الذى تمت عنده الرؤية الثانية .

والسدرة فى الأصل : تطلق على شجرة النَّبِق ، وهو ثمر معروف فى بلاد العرب .

والمنتهى : اسم مكان ، أو مصدر ميمى بمعنى الانتهاء . وإضافة السدرة إليه ، من باب إضافة الشىء إلى مكانه ، كما فى قولهم : أشجار البستان . أو من إضافة المحل إلى الحال ، كما فى قولك : كتاب الفقه أو النحو ..

وسمى هذا المكان بسدرة المنتهى ، لانتهاء علوم الخلائق عنده ، وما وراءه لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى برسول الله - ﷺ - انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة واليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها . وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على شرف هذا المكان فقال : ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ .

أى : عند سدرة المنتهى ، جنة المأوى . أى : الجنة التى تأوى وتسكن إليها أرواح المؤمنين الصادقين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم نوه - سبحانه - بما يحيط بذلك المكان من جلال وجمال لا تحيط العبارة بوصفه فقال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٥٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٢ .

والظرف « إذ » . فى موضع الحال من « سدرة المنتهى » ، لقصد الإشادة بما أحاط بذلك المكان من شرف وبهاء .. أو هو متعلق بقوله : ﴿ رآه ﴾ .

أى : ولقد رأى محمد - ﷺ - جبريل - عليه السلام - على هيئته التى خلقه الله عليها مرة أخرى ، عند ذلك المكان الجليل المسمى بسدرة المنتهى ، حالة كون هذا المكان ينزل به ما ينزل ، ويغشاه ما يغشاه من الفيوضات الربانية ، والأنوار القدسية ، والخيرات التى لا يحيط بها الوصف ..

فهذا الإبهام فى قوله ﴿ ما يغشى ﴾ المقصود به التهويل والتعظيم والتكثير ، لما يغشى هذا المكان من خيرات وبركات ..

وقوله - تعالى - ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ بيان لما كان عليه النبى - ﷺ - من ثبات واطمئنان عند رؤيته لما أذن الله - تعالى - له فى رؤيته .

والزيغ : هو الميل عن حدود الاستقامة . والطغيان : تجاوز الحدود المشروعة .

أى : ما مال بصر النبى - ﷺ - عما أذن الله - تعالى - له فى رؤيته . وما تجاوزه إلى ما لم يؤذن له فى رؤيته ، بل كان بصره - ﷺ - منصبا على ما أبيح له النظر اليه .

فالمقصود من الآية الكريمة ، الثناء على النبى - ﷺ - ، ووصفه بما هو أهله من أدب وطاعة لخالقه - عز وجل - .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ مازاغ البصر وما طغى ﴾ قال ابن عباس : ماذهب يمينا ولا شمالا ، و ما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة . فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطى ، وما أحسن قول القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها[1]

ثم عظم - سبحانه - من شأن ما أراه لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

والكلام جواب لقسم محذوف ، والآيات جمع آية ، والمراد بها العجائب التى أطلع الله - تعالى - عليها نبيه - ﷺ - فى تلك الليلة ، وهى ليلة الإسراء والمعراج .

والكبرى : صفة لهذه الآيات ، وحذف المرئى : لتفخيم أمره وتعظيمه .

أى : والله لقد رأى محمد - ﷺ - فى تلك الليلة أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف ، وقد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٢ .

أكرمناه برؤيتها ليزداد يقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته ، وقوة على قوته فى تبليغ رسالتنا ، وحمل أمانتنا .

هذا ، وقد جرينا فى تفسيرنا لهذه الآيات على الرأى الذى سار عليه المحققون من العلماء وهو أن هذه الآيات تحكى رؤية النبى - ﷺ - لجبريل مرتين ، كما سبق أن بينا ، وأن الضمائر فى تلك الآيات منها ما يرجع إلى جبريل ، ومنها ما يرجع إلى الله - عز وجل - .

وقد أعدنا كل ضمير إلى مرجعه الذى نراه مناسبا للمقام ..

فمثلا : الضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قلنا : إنه يعود إلى جبريل . أى : أن الرسول - ﷺ - رأى جبريل على هيئته التى خلقه الله عليها مرة أخرى ، غير المرة الأولى التى كانت فى أوائل بعثته - ﷺ - .

ولكن بعض المفسرين يرون أن مرجع الضمير فى هذه الآية وغيرها ، يعود إلى الله - تعالى - ، ويستدلون بذلك على أن الرسول - ﷺ - رأى ربه .

وقد فصل القول فى هذه المسألة الإمام الآلوسى فقال ما ملخصه : فالضمائر فى « دنا » « وتدلى » « وأوحى .. » وكذلك الضمير المنصوب فى « رآه » لله - عز وجل - ..

واستدل بذلك مثبتو رؤية النبى - ﷺ - لله - عز وجل - كابن عباس وغيره ..

وخالفت فى ذلك عائشة - رضى الله عنها - فقد أخرج مسلم عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله - تعالى - الفرية .

قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد كذب ، ومن زعم أن محمدا كتم شيئا فقد كذب ، ومن زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، فقلت : يا أم المؤمنين : ألم يقل الله - تعالى - : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ؟ . فقالت : أنا أول من سأل رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقال : « لا ، إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خلق عليها سوى هاتين المرتين . رأيته منهبطا من السماء سادا ما بين السماء إلى الأرض » .

ثم قال الآلوسى : ولا يخفى أن جواب الرسول - ﷺ - على عائشة ، ظاهر فى أن الضمير المنصوب فى ﴿ رآه ﴾ ليس راجعا إليه - تعالى - ، بل إلى جبريل - عليه السلام - ..[1] .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترد على المشركين مزاعمهم ، بأبلغ أسلوب ، وأقوى

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٥٢ وابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

بيان ، وتثبت أن هذا القرآن ، قد بلغه الرسول - ﷺ - عن جبريل - عليه السلام - دون أن يزيد فيه شيئا ، أو ينقص منه شيئا ، وأنه - سبحانه - قد أعطى نبيه - ﷺ - من المعجزات ، ومن الخيرات والبركات .. ما لم يعط غيره .

وبعد هذا التصوير البديع لما كان عليه النبى - ﷺ - من حق واضح ، ومن تكريم عظيم ومن طاعة تامة لخالقه - عز وجل - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة ، فى تصوير ما عليه المشركون من باطل وجهل وفى تبكيتهم على عبادتهم لأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها .. فقال - تعالى - :

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ
ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ
وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ
ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى
شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦)
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ (٢٧)
وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ
ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨)

والهمزة فى قوله : ﴿ أفرأيتم ﴾ للإنكار والتهكم ، والفاء لترتيب الرؤية على ما سبق ذكره من صفات جليلة لله - تعالى - تدل على وحدانيته ، وكمال قدرته ، ومن ثناء على النبى - ﷺ - وعلى جبريل - عليه السلام - والرؤية هنا ، علمية ومفعولها الثانى محذوف ، لدلالة قوله - سبحانه - ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ عليه .

و« اللات » اسم لصنم كان لثقيف بالطائف . قال الشاعر :

وفــرت ثقيف إلى « لاتهــا » بمنـقـلب الخـائـب الخـاسـر

وكان هذا الصنم على هيئة صخرة مربعة ، قد بنوا عليه بناء ونقشوا عليه نقوشا ، وكانت قريش وجمهور العرب ، يعظمونه ويعبدونه ..

وكأنهم قد سموه بهذا الاسم ، على سبيل الاشتقاق من اسم الله - تعالى - فقالوا « اللات » قصداً للتأنيث ..

و﴿ العزى ﴾ : فُعْلَى من العز . وهى اسم لصنم ، وقيل لشجرة حولها بناء وأستار ، وكانت بمكان يقال له نخلة ، بين مكة والطائف ، وكانت قريش تعظمها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد « لنا العزى ولا عزى لكم » .

فقال - ﷺ - قولوا له : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

ولعلهم قد سموها بذلك . أخذا من لفظ العزيز ، أو من لفظ العز ، فهى تأنيث الأعز ، كالفضلى والأفضل .

وأما « مناة » فكانت صخرة ضخمة ، بمكان يقال له المشلل ، بين مكة والمدينة ، وكانت قبيلة خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

قالوا : وسميت بهذا الاسم ، لأن دماء الذبائح كانت تمنى عندها ، أى : تراق وتسكب .

والمعنى : لقد ذكرنا لكم - أيها المشركون - ما يدل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا . وسمو منزلة نبينا - ﷺ - .. فأخبرونى بعد ذلك ما شأن هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . إنها أشياء فى غاية الحقارة والعجز ، فكيف سويتم بينها وبين الخالق - عز وجل - فى العبادة ، وكيف أبحتم لأنفسكم تعظيمها ، وزعمتم أنها بنات الله ..؟.

فالمقصود بالاستفهام التعجيب من أحوالهم ، والتجهيل لعقولهم .

ويصح أن تكون الرؤية فى قوله - سبحانه - ﴿ أفرأيتم ﴾ بصرية ، فلا تحتاج إلا لمفعول واحد . أى : انظروا بأعينكم إلى تلك الأصنام ، التى من أشهرها : اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، أترونها تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها ؟ إنها لا تملك شيئا ، فكيف عظمتموها مع حقارتها وعجزها ؟ .

والاستفهام - أيضا - للتهكم بهم ، والتعجيب من تفكيرهم السقيم .

قال الآلوسى : والظاهر أن « الثالثة الأخرى » صفتان لمناة . وهما على ما قيل للتأكيد ..

وقال بعض الأجلة : الثالثة للتأكيد . و﴿ الأخرى ﴾ للذم بأنها متأخرة فى الرتبة ، وضيعة المقدار ..

والكلام خطاب لعبدة هذه المذكورات ، وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون : إن الملائكة - عليهم السلام - وتلك المعبودات الباطلة ، بنات الله . - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى..... ﴾ الخ[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ توبيخ آخر لهم على جهلهم ، وبيان لسبب التوبيخ والتهكم ..

ولفظ « ضيزى » بمعنى جائرة وظالمة . يقال : ضاز فلان فى حكمه ، إذا جار وظلم ولم يراع القسط فى أقواله وأفعاله ، ويقال : ضاز فلان فلانا حقه ، إذا بخسه ونقصه ..

قال الجمل ما ملخصه : قرأ الجمهور ﴿ ضيزى ﴾ من ضازه يضيزه . إذا جار عليه ، فمعنى « ضيزى » جائرة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما أن تكون صفة على ﴿ فعلى ﴾ ، - بضم الفاء - وإنما كسرت الفاء لتصح الياء كبيض - جمع أبيض -..

وثانيهما : أن تكون من ضأزه بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أن الهمزة قد خففت .. ومعنى ضأزه يضأزه : نقصه ..[٢] .

أى : أجعلتم لله - تعالى - البنات ، وجعلتم لأنفسكم البنين ، مع تفضيلكم للبنين على البنات ، ومع اعترافكم بأن الله - تعالى - هو الخالق لكم ولكل شىء .

إن فعلكم هذا لهو فى غاية الجور والظلم ، لأنكم نسبتم إلى الله - تعالى - وهو خالقكم ما استنكفتم من نسبته لأنفسكم ..

فأنت ترى أنه - سبحانه - لم يكتف بوصفهم بالكفر ، بل أضاف إلى ذلك وصفهم بالجور والحمق وانطماس البصيرة .

وجملة : ﴿ تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ تعليل للإنكار والتوبيخ المستفاد من الاستفهام فى قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : ﴿ ألكم ... ﴾ لإفادة التخصيص .

والإشارة بتلك تعود إلى القسمة المفهومة من قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٥ .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٣٠ .

و﴿ إذًا ﴾ فى قوله : ﴿ تلك إذا ... ﴾ حرف جواب . أى : إن كان الأمر كما زعمتم ، فقسمتكم إذا قسمة جائرة ظالمة .

ثم بين لهم - سبحانه - وجه الحق فى هذه الأصنام فقال : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ...﴾ . أى : ما هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله ، أوتوهمتم أنها تشفع لكم عنده - تعالى - . ما هى إلا أسماء محضة ، ليس فيها شىء أصلا من صفات الألوهية ، وأنتم وآباؤكم سميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ، دون أن يكون معكم على هذه التسمية شىء من الحجة أو الدليل أو البرهان ..

فالضمير « هى » يعود إلى اللات والعزى ومناة وغيرها من الآلهة الباطلة .

والمراد بقوله : ﴿ أسماء ﴾ : أنها ليس لها من الألوهية التى أثبتوها لها سوى اسمها ، وأما معناها وحقيقتها فهى أبعد ما تكون عن ذلك ..

وجملة « سميتموها » صفة للأسماء ، والهاء هى المفعول الثانى ، والمفعول الأول محذوف ، والتقدير : إن هى إلا أسماء سميتموها الأصنام ، أى : سميتم بها الأصنام .

والمراد بالسلطان : الحجة والدليل ، والمراد بالإنزال : الإخبار بأنها آلهة و« من » مزيدة لتوكيد عدم الإنزال على سبيل القطع والبت ..

أى : ما أخبر الله - تعالى - عنها بأنها آلهة ، بأى لون من ألوان الإخبار ، ولا توجد حجة من الحجج حتى ولو كانت واهية تشير إلى ألوهيتها ..

ثم يهمل - سبحانه - خطابهم بعد ذلك ، ويذرهم فى أوهامهم يعمهون ، ويلتفت بالحديث عنهم حتى كأنهم لا وجود لهم ، فيقول : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ... ﴾ .

أى : ما يتبع هؤلاء الجاهلون فى عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة ، إلا الظنون الكاذبة ، وإلا ما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء ، وتقليد للآباء بدون تفكر أو تدبر ..

فالمراد بالظن هنا : الظن الباطل الذى يقوم على الاعتقاد الفاسد ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ .

والتعريف فى قوله - سبحانه - : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ عوض عن المضاف إليه . و﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف . أى : والذى تهواهُ أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان ..

وجملة : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ حالية من فاعل « يتبعون » ، وجىء بها لزيادة التعجب من حالهم .

أى : هم ما يتبعون إلا الظنون وما تهواه أنفسهم المحجوبة عن الحق ، والحال أنه قد جاء

إليهم ، ووصل إلى مسامعهم من ربهم ، ما يهديهم إلى الصواب لو كانوا يعقلون .

وأكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم وقد ، لتأكد الخبر ، ولزيادة التعجب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الغرابة ..

والتعبير بقوله : ﴿ جاءهم ﴾ يشعر بأن الحق قد وصل إليهم بدون عناء منهم ، ولكنهم مع ذلك رفضوه وأعرضوا عنه .

والتعريف فى لفظ « الهدى » يدل على كماله وسموه . أى . ولقد جاءهم من ربهم الهدى الكامل الذى ينتهى بمن يتبعه إلى الفوز والسعادة .

والمراد به : ما جاء به النبى - ﷺ - من قرآن كريم ومن سنة مطهرة ..

ثم بين - سبحانه - أن شهوات النفس ومطالبها وأمنياتها لا تتحقق إلا فى الإطار الذى يريده الله - تعالى - لها ، فقال : ﴿ أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى ﴾ .

والاستفهام هنا - أيضا - للإنكار ، ولإبطال اتباعهم للظنون ولما تهواه أنفسهم ..

أى : إن هؤلاء قد اتبعوا فى ضلالهم وكفرهم الظنون والأوهام ، وما تشتهيه قلوبهم من حب للرياسة ، ومن تقليد للآباء ، ومن تطلع إلى أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله - تعالى - .. مع أن وقائع الحياة وشواهدها التى يرونها بأعينهم ، تدل دلالة واضحة ، على أنه ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، وليس كل ما يريده يتحقق له .. لأن كل شىء فى هذه الحياة مرهون بإرادته ومشيئته - سبحانه - وهو - عز وجل - صاحب الدار الآخرة ، وصاحب الدار الأولى وهى دار الدنيا ، ولا يقع فيها إلا ما يريده ..

فالمقصود من الآيتين الكريمتين ، نفى ما كان يتمناه أولئك المشركون من شفاعة أصنامهم لهم يوم القيامة ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... ﴾ . ونفى ما كانت تتطلع إليه نفوس بعضهم ، من نزول القرآن عليه ، أو من اختصاصه بالنبوة . فقد حكى - سبحانه - عنهم قولهم : ﴿ .. لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] .

كما أن المقصود بها كذلك ، ترويض النفس البشرية على عدم الجرى وراء ظنونها وأهوائها ، بل عليها أن تتمسك بالحق ، وأن تعتصم بطاعة الله - تعالى - وأن تباشر الأسباب التى شرعها - سبحانه - ، ثم بعد ذلك تترك النتائج له يسيرها كيف يشاء ، فإن له الآخرة والأولى .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣١ .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ لإفادة أن هذا التمنى هو محط الإنكار ، وأن الإنسان العاقل هو الذى لا يجرى وراء أمنياته ، وإنما هو الذى يسعى إلى تحقيق ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف .

وقدم - سبحانه - الآخرة على الأولى ، لأنها الأهم ، إذ نعيمها هو الخالد الباقى ، أما شهوات الدنيا وملذاتها ، فهى مهما كثرت ، زائلة فانية .

ثم بين - سبحانه - أن الملائكة مع سمو منزلتهم ، وشدة حرصهم على طاعة الله - تعالى - ، لا يملكون الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - فقال : ﴿ وكم من ملك فى السموات ، لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾.

و « كم » هنا خبرية بمعنى كثير ، وهى فى موضع رفع على الابتداء ، وخبرها جملة ، « لا تغنى شفاعتهم ... » وهى وإن كانت مفردة لفظا ، إلا أنها فى معنى الجمع ..

أى : وكثير من الملائكة المقربين لدينا فى السموات العلا ، لا تغنى شفاعتهم عندنا شيئا من الأشياء . إلا من بعد أن يأذن الله - تعالى - لهم فيها ، لمن يشاء أن يشفعوا له ، ويرضى - سبحانه - عن هذا المشفوع له .

فالآية الكريمة من قبيل ضرب المثل للمشركين، الذين توهموا أن أصنامهم ستشفع لهم، وكأنه - سبحانه - يقول لهم : إذا كان الملائكة مع سمو منزلتهم عندنا لا يشفعون إلا بإذننا ، ولمن نرضى عنه ... فكيف وصل بكم الجهل والحمق - أيها المشركون - إلى توهم أن أصنامكم - مع خستها وحقارتها - ستشفع لكم عندنا ؟ .

وقوله : ﴿ فى السموات ﴾ صفة « لملك » والمقصود بهذه الصفة التشريف والتكريم .

وقوله : ﴿ شيئا ﴾ التنكير فيه للتقليل والتعميم ، وهو فى موقع المفعول المطلق .

أى : لا تغنى شفاعتهم شيئا من الإغناء حتى ولو كان فى غاية القلة ..

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ..﴾[1] .

وقوله -سبحانه-:﴿ ..ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ﴾[2] .

وهذه الآيات الكريمة بجانب تيئيسها للكافرين من الحصول على أية شفاعة ، لأنهم ليسوا ممن رضى الله عنهم ، تدعو المؤمنين إلى مواصلة المحافظة على أداء حقوقه - سبحانه - ،

(١) سورة سبأ الآية ٢٣ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٨ .

لينالوا رضاه عنهم يوم القيامة ، وليكونوا أهلا للحصول على الشفاعة التى يبغونها .

ثم عادت السورة إلى ذم الكافرين الذين وصفوا الملائكة بصفات لا تليق بهم . فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وما فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب .. ﴿ ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾. أى : ليصفون الملائكة بوصف الإناث فيقولون : الملائكة بنات الله كما قال - تعالى - : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[1] .

ولفظ : « الملائكة » هنا فى معنى استغراق كل فرد ، أى : ليسمون كل واحد منهم ويصفونه بصفة الأنوثة .

وقوله - سبحانه : ﴿ وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ...﴾ رد عليهم فيما قالوه ، وتجهيل لهم فيما زعموه ، والجملة حال من ضمير « ليسمون » .

أى : إنهم ليصفون الملائكة بالأنوثة ، والحال أنهم لاعلم لهم بتكوين هؤلاء الملائكة ، أو بصفتهم .. وإنما يتبعون الظن الباطل فى أقوالهم وأحكامهم ..

﴿ .. وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ أى : وإن الظن الباطل ، والاعتقاد الخاطىء لايغنى فى معرفة الحق شيئا ، حتى ولو كان هذا الشيء قليلا ، لأن العقائد السليمة ، لا تبنى على الظنون والأوهام ، وإنما تبنى على الحقائق الراسخة والعلوم الثابتة .

وأظهر - سبحانه - لفظ الظن هنا ، مع تقدم ذكره لتكون الجملة مستقلة بنفسها ، ولتكون - أيضا - بمثابة المثل الذى يقال فى الموضع الذى يناسبه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على شركهم بأسلوب منطقى سليم ، حيث ساقت لهم الحقائق فى أسلوب يغلب عليه طابع الموازنة والمقارنة ، والاستشهاد بالواقع ، ووضع أيديهم على أماكن الدواء ، لو كانوا ممن يريدونه ، ويبحثون عنه .

وبعد هذا البيان الحكيم الذى يحق الحق ، ويبطل الباطل ، أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أي يمضى فى طريقه الذى رسمه - سبحانه - له ، وأن يترك حساب هؤلاء الضالين لله - تعالى - الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، والذى يعلم السر وأخفى ، والذى رحمته وسعت كل شيء .. فقال - تعالى - :

---

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟
بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ
إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

والفاء فى قوله : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ للإفصاح .. وأصل الإعراض : لفت الوجه عن الشىء ، لأن الكاره لشىء يعرض بصفحة خده عنه .

والمراد به هنا : ترك هؤلاء المشركين ، وعدم الحرص على إيمانهم ، بعد أن وصلتهم دعوة الحق .. أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن هؤلاء المشركين ، ما يتبعون فى عقائدهم إلا الظن الباطل ، وإلا ما تشتهيه أنفسهم ..

فاترك مجادلتهم ولا تهتم بهم ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك .. فإنهم قوم قد أصروا على عنادهم . وعلى الإدبار عن وحينا وقرآننا الذى أنزلناه إليك ، ولم يريدوا من حياتهم إلا التشبع من زينة الحياة الدنيا ، ومن شهواتها ومتعها ..

ومن كان كذلك فلن تستطيع أن تهديه ، لأنه آثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية . وجىء بالاسم الظاهر فى مقام الإضمار ، فقيل : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ ولم يقل : فأعرض عنهم .. لبيان ما تؤذن به صلة الموصول من علة الأمر بالإعراض عنهم ، وهى أنهم قوم أعرضوا عن الوحى ، ولم يريدوا سوى متع دنياهم ، وأما ما يتعلق بالآخرة فهم فى غفلة عنه .

وقوله : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ تسلية له - ﷺ - عما أصابه منهم ، وتحقير لهم

ولأفكارهم ، وتهوين من شأنهم .. أى : ذلك الذى تراه منهم من التولى عن قرآننا ، ومن الحرص على عرض الحياة الدنيا ، منتهى علمهم ، ولا علم سواه ..

فاسم الإشارة « ذلك » يعود إلى المفهوم من الكلام السابق وهو توليهم عن القرآن الكريم ، وتكالبهم على الحياة الدنيا ..

وفى هذه الجملة المعترضة ما فيها من تحقير أمرهم ، ومن الازدراء بعلمهم الذى أدى بهم إلى إيثار الشر على الخير ، والعاجلة على الآجلة ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ... ﴾ تعليل للأمر بالإعراض عنهم ، والإهمال لشأنهم ، وتسلية أخرى له - ﷺ - .

أى : امض - أيها الرسول الكريم - فى طريقك ، وأعرض عن هؤلاء الجاحدين المعاندين ، الذين أصروا على عدم الاستجابة لك ، بعد أن سلكت معهم كل وسيلة تهديهم إلى الحق .. إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو أعلم بمن أصر من الناس على الضلال ، وهو - سبحانه - أعلم بمن شأنه الاهتداء ، والاستجابة للحق ..

والمراد بالعلم هنا لازمه ، أى : ما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، ثواب للمؤمنين ، وعقاب للكافرين .

وكرر - سبحانه - قوله ﴿ هو أعلم ﴾ لزيادة التقرير ، والمراد بمن ضل : من أصر على الضلال ، وبمن اهتدى : من عنده الاستعداد لقبول الحق والهداية .

وقدم - سبحانه - من ضل على من اهتدى هنا ، لأن الحديث السابق واللاحق معظمة عن المشركين ، الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصناما لا تضر ولا تنفع ..

وضمير الفصل فى قوله - سبحانه - ﴿ هو أعلم ﴾ لتأكيد هذا العلم ، وقصره عليه - سبحانه - قصرا حقيقيا ، إذ هو - تعالى - الذى يعلم دخائل النفوس ، وغيره لا يعلم .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على شمول ملكه لكل شىء فقال : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾ . أى : ولله - تعالى - وحده جميع ما فى السموات وما فى الأرض خلقا ، وملكا ، وتصرفا ..

واللام فى قوله : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام السابق.

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما فيها ، ليجزى يوم

القيامة ، الذين أساءوا فى أعمالهم بما يستحقونه من عقاب ، وليجزى الذين أحسنوا فى أعمالهم بما يستحقونه من ثواب .

وقوله : ﴿ بالحسنى ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى : بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة .

وقوله : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ..﴾ صفة لقوله : ﴿ الذين أحسنوا ﴾ أو بدل منه .

والمراد بكبائر الإثم : الآثام الكبيرة ، والجرائم الشديدة ، التى يعظم العقاب عليها . كقتل النفس بغير حق ، وأكل أموال الناس بالباطل ..

والفواحش : جمع فاحشة ، وهى ما قبح من الأقوال والأفعال كالزنا ، وشرب الخمر ..

وعطفها على كبائر الإثم من باب عطف الخاص على العام ، لأنها أخص من الكبائر ، وأشد إثما .

واللمم : ما صغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره من كل شىء : يقال : ألم فلان بالمكان ، إذا قل مكثه فيه . وألم بالطعام : إذا قل أكله منه .. وقيل : اللمم ، مقاربة الذنب دون الوقوع فيه ، من قولهم : ألم فلان بالشىء ، إذا قاربه ولم يخالطه ..

وجمهور العلماء على أن الاستثناء هنا منقطع ، وأن اللمم هو الذنوب الصغيرة ، كالنظرة الخائنة ولكن بدون مداومة ، والإكثار من الممازحة ..

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « واللمم » : صغائر الذنوب ، ومحقرات الأعمال ، وهذا استثناء منقطع ..

قال الإمام أحمد : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم ، مما قال أبو هريرة ، عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .

وعن مجاهد أنه قال فى هذه الآية ﴿ إلا اللمم ﴾ الذى يلم بالذنب ثم يدعه ، كما قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما[1]

ومن العلماء من يرى أن الاستثناء هنا متصل ، وأن المراد باللمم ارتكاب شىء من الفواحش ، ثم التوبة منها توبة صادقة نصوحا ..

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٥ .

فعن الحسن أنه قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ، ثم لا يعود ...[١] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن العلماء قسموا الذنوب إلى كبائر وصغائر ، وأن اللمم من النوع الثانى الذى لا يدخل تحت كبائر الإثم والفواحش .

قال صاحب الكشاف : واللمم : ماقل وصغر ... والمراد به الصغائر من الذنوب ، ولا يخلو قوله - تعالى - ﴿ إلا اللمم ﴾ من أن يكون استثناء منقطعا .. كأنه قيل : كبائر الإثم غير اللمم[٢] .

وليس المقصود من قوله - تعالى - : ﴿ إلا اللمم ﴾ فتح الباب لارتكاب صغائر الذنوب ، وإنما المقصود فتح باب التوبة ، والحض على المبادرة بها ، حتى لا ييأس مرتكب الصغائر من رحمة الله - تعالى - وحتى لا يمضى قدما فى ارتكاب هذه الصغائر ، إذ من المعروف أن ارتكاب الصغائر ، قد يجر إلى ارتكاب الكبائر .

كذلك من المقصود بهذا الاستثناء أن لا يعامل مرتكب الصغائر ، معاملة مرتكب الكبائر .

هذا ، وقد أفاض الإمام الألوسى فى الحديث عن الكبائر والصغائر ، فقال : والآية عند الأكثرين دليل على أن المعاصى منها الكبائر ، ومنها الصغائر ..

وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام ، وقالوا : سائر المعاصى كبائر .

ثم قال : واختلف القائلون بالفرق بين الكبائر والصغائر فى حد الكبيرة فقيل : هى كل ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد ، بنصّ كتاب أو سنة ..

وقيل : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة .

واعتمد الواحدى أنه لا حد لها يحصرها ويعرفها العباد به ، وقد أخفى الله - تعالى - أمرها ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه ، رجاء أن تجتنب الكبائر ..[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ... ﴾ تعليل لاستثناء اللمم ، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ، ليس لخلوه عن الذنب فى ذاته ، بل لسعة رحمة الله ومغفرته .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - واسع المغفرة والرحمة ، لعباده الذين وقعوا فيما نهاهم عنه - سبحانه - ثم تابوا إليه توبة صادقة نصوحا .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الرحمة الواسعة ، صادرة عن علم شامل للظواهر والبواطن ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٢ .
(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦١ .

فقال : ﴿ هو أعلم بكم ، إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ...﴾ .

والظرف « إذ » متعلق بقوله ﴿ أعلم ﴾ والأجنة : جمع جنين ، ويطلق على ما يكون بداخل الأرحام قبل خروجه منها .

وسمى بذلك ، لأنه يكون مستترا فى داخل الرحم ، كما قال - تعالى - : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .. ﴾[1] .

أى : هو - سبحانه -أعلم بكم من وقت إنشائه إياكم من الأرض ، ضمن خلقه لأبيكم آدم ، ومن وقت أن كنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، يعلم أطواركم فيها ، ويرعاكم برحمته ، إلى أن تنفصلوا عنها .

وقال - سبحانه - ﴿ فى بطون أمهاتكم ﴾ مع أن الجنين لا يكون إلا فى بطن أمه ، للتذكير برعايته - تعالى - لهم ، وهم فى تلك الأطوار المختلفة من وقت العلوق إلى حين الولادة ، وللحض على مداومة شكره وطاعته .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ تحذير من التفاخر بالأعمال والأحساب والأنساب ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء من أحوال الناس ، والفاء للتفريع على ما تقدم . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من عدم مؤاخذتى إياكم على اللمم ، فإن ذلك بسبب سعة رحمتى ، فلا تمدحوا أنفسكم بأنكم فعلتم كذا وكذا من الأفعال الحسنة ، بل اشكرونى على سعة رحمتى ومغفرتى ، فإنى أنا العليم بسائر أحوالكم ، الخبير بالظواهر والبواطن للأتقياء والأشقياء .

قالوا : والآية نزلت فى قوم من المؤمنين ، كانوا يعملون أعمالا حسنة ، ثم يتفاخرون بها .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ... ﴾ أى فلا تنسبوها إلى زكاء العمل ، وزيادة الخير . وعمل الطاعات ، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصى ، ولا تثنوا عليها واهضموها- فقد علم الله الزكى منكم والتقى أولا وآخرا ، قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء ، فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح ، من الله وبتوفيقه وتأييده . ولم يقصد به التمدح ، لم يكن من المزكين لأنفسهم ، لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر لله - تعالى -[2] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٣ .

وقال الآلوسى : والمراد النهى عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو التزكية على سبيل القطع ، وأما التزكية لإثبات الحقوق ونحوه - كالإخبار عن أحوال الناس بما يعلم منهم وجربوا فيه من ثقة وعدالة فهى جائزة[1] .

وبعد هذا التوجيه الحكيم للنفوس البشرية ، والبيان البديع لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده بعد ذلك أخذت السورة فى الحديث مرة أخرى عن الكافرين . وفى الرد على شبهاتهم ، وفى بيان مظاهر قدرته - تعالى - فقال - سبحانه - :

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ
﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ
مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ
﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾
وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ
عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ
ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ
أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾
هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٤ .

﴿ دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

ذكر المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى ﴾ منها : أنها نزلت فى الوليدبن المغيرة ، كان قد سمع قراءة النبى - ﷺ - ، وجلس إليه ووعظه ، فهَمَّ أن يدخل فى الإسلام . فعاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة ، لكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال .

فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما هم به من الدخول فى الإسلام ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عن الباقى ، وبخل به ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات ..[1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت ....﴾ للتعجيب من حال هذا الإنسان ، الذى أعرض عن الحق ، بعد أن عرف الطريق إليه .

أى : أفرأيت - أيها الرسول الكريم - حالا أعجب من حال هذا الإنسان الذى تولى عن الهدى ، ونبذه وراء ظهره ، بعد أن قارب الدخول فيه .

﴿ وأعطى قليلا ﴾ من العطاء ﴿ وأكدى ﴾ أى ثم قطع هذا العطاء .

قال صاحب الكشاف : ﴿ وأكدى ﴾ أى : وقطع عطيته وأمسك ، وأصله إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كديه ، وهى صلابة كالصخر فيمسك عن الحفر ..[2] .

والمراد به هنا : ذمه بالبخل والشح ، بعد ذمه بالتولى عن الحق .

﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أى : أعند هذا الإنسان الذى أعرض عن الرشد ، علم الغيوب المستترة عن الأعين والنفوس ، فهو وحده يراها ، ويطلع عليها ويعلم أن فى إمكان الغير أن يحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة ؟ .

كلا ، إنه لا علم عنده بشىء من ذلك ، وإنما هو قد ارتد على أعقابه ، لانطماس بصيرته . بعد أن قارب الرشد والصواب .

فالاستفهام فى قوله : ﴿ أعنده علم الغيب ... ﴾ للنفى والإنكار .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٣ .

وقدم - سبحانه - الظرف « عنده » وهو مسند ، على « علم الغيب » وهو مسند إليه ، لإفادة الاهتمام بهذه العندية التى من أعجب العجب ادعاؤها ، وللإشعار بأنه بعيد عنها بعد الأرض عن السماء .

والفاء فى قوله : ﴿ فهو يرى ﴾ للسببية ، ومفعول ﴿ يرى ﴾ محذوف .

أى : فهو بسبب معرفته للعوالم الغيبية ، يبصر رفع العذاب عنه ، ويعلم أن غيره سيتكفل بافتدائه من هذا العذاب .

ثم وبخه - سبحانه - على جهالته وعدم فهمه فقال : ﴿ أم لم ينبأ بمافى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، أن لا تزر وازرة وزر أخرى ...﴾ .

و« أم » هنا للإضراب الانتقالى من ذمه على إعراضه وبخله ، إلى ذمه على جهله وحمقه ، وصحف موسى : هى التوراة التى أنزلها - سبحانه - عليه .

وصحف إبراهيم : هى الصحف التى أوحى الله - تعالى - إليه بما فيها ، وقد ذكر سبحانه ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ .

وخصت صحف هذين النبيين الكريمين بالذكر ، لأنها كانت أشهر من غيرها عند العرب ، وكانوا يسألون أهل الكتاب من اليهود عما خفى عليهم من صحف موسى .

وقدم - سبحانه - هنا صحف موسى ، لاشتهارها بسعة الأحكام التى اشتملت عليها ، بالنسبة لما وصل إليهم من صحف إبراهيم .

وأما فى سورة الأعلى فقدمت صحف إبراهيم على صحف موسى لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى ، وصحف إبراهيم أقدم من صحف موسى ، فكان الإتيان بهما على الترتيب الزمنى أنسب بالمقام .

وحذف - سبحانه - متعلق « وفَّى » ليتناول كل ما يجب الوفاء به ، كمحافظته على أداء حقوق الله - تعالى - ، واجتهاده فى تبليغ الرسالة التى كلفه - سبحانه - بتبليغها ، ووقوفه عند الأوامر التى أمره - تعالى - بها ، وعند النواهى التى نهاه عنها ..

و﴿ أن ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ مخففة من الثقيلة . واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بدل من صحف موسى وإبراهيم .

وقوله ﴿ تزر ﴾ من الوزر بمعنى الحمل .. وقوله ﴿ وازرة ﴾ صفة لموصوف محذوف . أى : نفس وازرة .

والمعنى : إذا كان هذا الإنسان المتولى عن الحق .. جاهلا بكل ما يجب العلم به من شئون

الدين ، فهلا سأل العلماء عن صحف موسى وإبراهيم - عليهما السلام - ففيها أنه لا تحمل نفس آثمة حمل أخرى يوم القيامة .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى : أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل ، حمل نفس أخرى .. ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره . ليتخلص الثانى من عقابه . ولا يقدح فى ذلك قوله - ﷺ - : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فإن ذلك وزر الإضلال الذى هو وزره لا وزر غيره[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ... ﴾ معطوف على ما قبله ، لبيان عدم إثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب سواه .

أى : كما أنه لا تحمل نفس آثمة حمل نفس أخرى ، فكذلك لا يحصل الإنسان إلا على نتيجة عمله الصالح ، لا على نتيجة عمل غيره .

فالمراد بالسعى فى الآية . السعى الصالح ، والعمل الطيب ، لأنه قد جاء فى مقابلة الحديث عن الأوزار والذنوب .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ بيان لثمرة هذا السعى الصالح يوم القيامة .

أى : ليس للإنسان إلا ثمرة عمله الصالح بدون زيادة أو نقص ، وهذا العمل الصالح سوف يراه مسجلا أمامه فى صحف مكرمة ، وفى ميزان حسناته ، ثم يجازيه الله - تعالى - عليه الجزاء التام الكامل . الذى لا نقص فيه ولا بخس .

وفى رؤية الإنسان لعمله الصالح يوم القيامة ، تشريف وتكريم له ، كما قال - تعالى - ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾[2] .

هذا ، وقد توسع العلماء فى الجمع بين قوله - تعالى - : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبين النصوص التى تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره ، وهذه خلاصة لأقوالهم :

قال الإمام ابن كثير : ومن هذه الآية استنبط الشافعى ومن اتبعه ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى . لأنه ليس من عملهم ولاكسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٦ .
(٢) سورة الحديد آية ١٢ .

- ﷺ - أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء .

فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليها .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » . فهذه الثلاثة فى الحقيقة . هى من سعيه وكده وعمله[1] .

وقال الجمل فى حاشيته على الجلالين : واستشكل الحصر فى هذه الآية ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ بقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ... ﴾ وبالأحاديث الواردة فى ذلك كحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... » .

وأجيب : بأنها مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى ، لأنها حكاية لما فى صحفهم ، وأما هذه الأمة فلها ما سعت هى ، وما سعى لها غيرها ، لما صح من أن لكل نبى وصالح شفاعة . وهو انتفاع بعمل الغير ، ومن تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فلا يجوز أن تؤول الآية على خلاف الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وحينئذ فالظاهر أن الآية عامة ، قد خصصت بأمور كثيرة ..

ثم قال الشيخ الجمل - رحمه الله - : وقال الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله . فقد خرق الإجماع . وذلك باطل من وجوه كثيرة :

أحدها : أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره . وهو انتفاع بعمل الغير .

ثانيها : أن النبى - ﷺ - يشفع لأهل الموقف فى الحساب ثم لأهل الجنة فى دخولها .

ثالثها : أنه - ﷺ - يشفع لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا انتفاع بسعى الغير .

رابعها : أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن فى الأرض ، وذلك منفعة بعمل الغير .

خامسها : أن الله - تعالى - يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته ، وهذا انتفاع بغير عملهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٥٨ .

سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك انتفاع بمحض عمل الغير .

سابعها : قال الله - تعالى - فى قصة الغلامين اليتيمين : ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس من سعيهما .

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق ، بنص السنة والإجماع ، وهو من عمل الغير .

تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت ، بحج وليه بنص السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .

عاشرها : أن الحج المنذور أو الصوم المنذور ، يسقط عن الميت بعمل غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

حادى عشر : المدين قد امتنع - ﷺ - من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبى - ﷺ - وهو من عمل الغير .

ثانى عشر : أن النبى - ﷺ - قال لمن صلى وحده : « ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه » فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .

ثالث عشر : أن الإنسان تبرأ ذمته من ديون الغير ، إذا قضاها عنه قاض ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

رابع عشر : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

خامس عشر : أن الجار الصالح ينفع فى المحيا وفى الممات - كما جاء فى الأثر - وهذا انتفاع بعمل الغير .

سادس عشر : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره .

سابع عشر : الصلاة على الميت ، والدعاء له فى الصلاة ، انتفاع للميت بصلاة الحى عليه وهو عمل غيره .

ثامن عشر : أن الجمعة تحصل باجتماع العدد ، وكذا الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض .

تاسع عشر : أن الله - تعالى - قال لنبيه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ وقال

- تعالى - : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات .. ﴾ فقد رفع الله - تعالى - العذاب عن بعض الناس بسبب بعض ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

تمام العشرين : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن يمونه الرجل ، فإنه ينتفع بذلك من يُخرِج عنه ، ولا سعى له فيها .

ثم قال - رحمه الله - : ومن تأمل العلم وجد انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن تتأول الآية الكريمة ، على خلاف صريح الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ..[1] .

والخلاصة أن الآية الكريمة فقد تكون من قبيل العام الذى قدخص بأمور كثيرة . كما سبق أن أشرنا ، وقد تكون مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ، لأنها حكاية عما فى صحفهما ، أما الأمة الإسلامية فلها سعيها ، ولها ما سعى لها به غيرها ، وهذا من فضل الله ورحمته بهذه الأمة .

وقد قال بعض الصالحين فى معنى هذه الآية : ليس للإنسان إلا ما سعى عدلا ، ولله - تعالى - أن يجزيه بالحسنة ألفا فضلا .

ولهذه المسألة تفاصيل أخرى فى كتب الفقه ، فليرجع إليها من شاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر قدرته ورحمته ، فقال - تعالى - : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ . أى : وأن إلى ربك وحده - لا إلى غيره - انتهاء الخلق ومرجعهم ومصيرهم فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فقوله : ﴿ المنتهى ﴾ : مصدر بمعنى الانتهاء ، والمراد بذلك مرجعهم إليه - تعالى - وحده ، ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أى : وأنه - سبحانه - هو الذى أوجد فى هذا الكون ما يؤدى إلى ضحك الإنسان وسروره تارة ، وما يؤدى إلى حزنه وبكائه تارة أخرى . فبسبب ما يحيط بالإنسان من مؤثرات ومن مشاعر مختلفة : تارة يضحك وتارة يبكى .

وما أكثر هذه المؤثرات والأحوال والاعتبارات والدوافع .. فى حياة الإنسان .

فالآية الكريمة انتقال من وجوب الاعتبار بأحوال الآخرة إلى وجوب الاعتبار بأحوال الإنسان ، وبما يحيط به من مؤثرات تارة تضحكه وتارة تبكيه .

وأسند - سبحانه - الفعلين إليه ؛ لأنه هو خالقهما ، وهو الموجد لأسبابهما .

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٣٦ .

وحذف - سبحانه - المفعول به لهما ، لأنهما هما المقصودان بالذات ، لدلالتهما على كمال قدرته - تعالى - أى : وأنه وحده - عز وجل - هو الذى أوجد فى الإنسان الضحك والبكاء ، فالفعلان منزلان منزلة الفعل اللازم .

وقدم - سبحانه - الضحك على البكاء ، للإشعار بمزيد فضله ومنته على عباده .

وقوله : ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ أى : وأنه - تعالى - بقدرته وحدها ، هو الذى أحيا من يريد إحياءه من مخلوقاته ، وأمات من يريد إماتته منهم .

وهذا رد على أولئك الجاهلين الذين أنكروا ذلك ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ .. ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نُطفة إذا تمنى ﴾ .

وأصل النطفة : الماء الصافى ، أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف ، يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

وقوله : ﴿ تمنى ﴾ أى : تتدفق فى رحم المرأة ، يقال : أمْنَى الرجل وَمنَى إذا خرج منه المَنِىّ .

أى : وأنه - تعالى - وحده ، هو الذى خلق الزوجين الكائنين من الذكر والأنثى ، من نطفة تتدفق من الرجل إلى رحم الأنثى ، فتلتقى ببويضة الأنثى ، فيكون منهما الإنسان - بإذن الله - .

كما قال - تعالى - : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أى : وأن عليه وحده - سبحانه - الإحياء بعد الإماتة ، والإعادة إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والنشور .

والنشأة هى المرة من الإنشاء ، أى : الإيجاد والتكوين والخلق ، والأخرى : مؤنث الأخير ، والمراد أنه - سبحانه - يوجد النشأة التى لا نشأة بعدها .

وقوله : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أى : وأنه - سبحانه - هو الذى أغنى الناس بالأموال الكثيرة المؤثلة ، التى يقتنيها الناس ويحتفظون بها لأنفسهم ولمن بعدهم .

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

(٢) سورة القيامة الآيات من ٣٦ إلى ٤٠ .

فقوله : ﴿ أقنى ﴾ من القنية بمعنى الادخار للشىء ، والمحافظة عليه .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أى : وأعطى القُنْية وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ، ببقاء نفسه ، كالرياض والحيوان والبناء .

وأفرد - سبحانه - ذلك بالذكر مع دخوله فى ﴿ أغنى ﴾ لأن القنية أنفس الأموال وأشرفها ..

وإنما لم يذكر المفعول ، لأن القصد إلى الفعل نفسه ..[١] .

وقوله : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ أى : وأنه - سبحانه - هو رب ذلك الكوكب المضىء ، الذى يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، ويسمى الشعرى اليمانية .

وخص هذا النجم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو رب كل شىء لأن بعض العرب كانوا يعبدون هذا الكوكب ، فأخبرهم - سبحانه - بأن هذا الكوكب مربوب له - تعالى - وليس ربا كما يزعمون .

قال القرطبى : واختلف فيمن كان يعبده : فقال السدى : كانت تعبده حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبده رجل يقال له أبو كبشة ، أحد أجداد النبى - ﷺ - من جهة أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبى - ﷺ - ابن أبى كبشة . حين دعاهم إلى ما يخالف دينهم ..[٢] .

وبعد هذه الجولة فى الأنفس والآفاق ، ساقت السورة جانبا من مصارع الغابرين ، فقال - تعالى - : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى ﴾ . أى : وأنه - تعالى - هو الذى أهلك بقدرته قبيلة عاد الأولى ، وهم قوم هود - عليه السلام - .

وسميت قبيلة عاد بالأولى ، لتقدمها فى الزمان على قبيلة عاد الثانية ، التى هى قوم صالح - عليه السلام - ، وتسمى - أيضا - بثمود .

وقوله : ﴿ وثمود ﴾ معطوف على عاد . أى : وأنه أهلك - أيضا - قبيلة ثمود ، دون أن يبقى منهم أحدا .

وهلاك هاتين القبيلتين قد جاء فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٩ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١١٩ .

وقوله : ﴿ وقوم نوح من قبل ... ﴾ أى : وأهلك - أيضا - قوم نوح من قبل إهلاكه لعاد وثمود ..

﴿ إنهم كانوا ﴾ أى : قوم نوح ﴿ هم أظلم وأطغى ﴾ أى : هم كانوا أشد فى الظلم والطغيان من عاد وثمود ، فقد آذوا نوحا - عليه السلام - أذى شديدا ، استمر صابرا عليه زمنا طويلا . وكان هلاكهم بالطوفان ، كما قال - تعالى - : ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ .

وقدم قبيلتى عاد وثمود فى الذكر على قوم نوح - مع أن قوم نوح أسبق - لأن هاتين القبيلتين كانتا مشهورتين عند العرب أكثر ، وديارهم معروفة لهم .

والمراد بالمؤتفكات قوم لوط - عليه السلام - ، وسموا بذلك لأن قريتهم ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت رأسا على عقب . يقال : أفَكَه عن كذا يَأْفِكُه إذا قلبه وصرفه . ومنه الإفك ، لأنه قلب للحق عن وجهه الصحيح .

أى : وأهلك - سبحانه - القرى المؤتفكة بأهلها ، بأن أهوى بها جبريل - عليه السلام - إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السماء ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أى : فأصابها ما أصابها من العذاب المهين ، والدمار الشامل ، كما قال - تعالى - : ﴿ جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[1] .

ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ فغشاها ﴾ يعود إلى جميع الأمم المذكورة ، وأبهم - سبحانه - ما غشيهم من عذاب ، للتهويل والتعميم .

وقوله - سبحانه - ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ تذكير بنعم الله - تعالى - بعد التحذير من نقمة . أى : فبأى نعمة من نعم الله - تعالى - تتشكك أيها الإنسان .

والآلاء : جمع إلًى ، وأى : اسم استفهام المقصود به التذكير بهذه النعم .

وسمى - سبحانه - ما مر فى آيات السورة نعما ، مع أن فيها النعم والنقم ، لأن فى النقم عظات للمتعظين ، وعبرا للمعتبرين ، فهى نعم بهذا الاعتبار .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الانذار الشديد ، فقال - تعالى - : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ والنذير بمعنى المنذر ، وهو من يخبر غيره بخبر فيه مضرة به ، لكى يحذره . أى : هذا الرسول الكريم ، وما جاء به من قرآن حكيم ، نذير لكم - أيها الناس - من جنس الإنذارات الأولى . التى أتى بها الأنبياء السابقون لأممهم فاحذروا مخالفة رسولنا

(١) سورة هود الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .

- ﷺ - لأن مخالفته تؤدى إلى هلاككم وخسرانكم .

فقوله - تعالى - : ﴿ من النذر ﴾ على حذف مضاف . أى : من جنس النذر التى سبقت ..

﴿ أزفت الآزفة ﴾ أى : قربت الساعة ، ودنت القيامة ، يقال : أزِف السفر - كفرح - أزَفًا ، إذا دنا وقرب ، وأل فى الآزفة للعهد ، وهى عَلَم بالغلبة على الساعة .

﴿ ليس لها ﴾ أى : الساعة ﴿ من دون الله كاشفة ﴾ أى : ليس لها أحد سوى الله - تعالى - يستطيع الإخبار عنها ، والكشف عن علاماتها ، والعلم بوقتها وبوقوعها .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ للإنكار والتوبيخ .

أى : أفمن هذا القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات .. تتعجبون ، وتنكرون كونه من عند الله - تعالى - .

﴿ وتضحكون ولا تبكون ﴾ أى : وتضحكون ضحك استهزاء وتهكم منه وممن جاء به - ﷺ - ولا تبكون خشية من الله - تعالى - ، ومن سماع ما اشتمل عليه هذا القرآن من وعد ووعيد .

﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى : وأنتم لاهون معرضون ، يقال : سمَد يسمُد : كدخل - إذ اشتغل باللهو والإعراض عن الرشد .

أو المعنى : وأنتم رافعون رءوسكم تكبرا يقال : سمَد سمودا ، إذا رفع رأسه تكبرا وغرورا ، وكل متكبر فهو سامد ، ومنه قولهم : بعير سامد فى سيره إذا رفع رأسه متبختراً فى مشيته .

وقيل السمود : الغناء بلغة حمير ، ومنه قول بعضهم لجاريته : اسمدى لنا ، أى : غنى لنا .

أى : وأنتم سادرون فى غنائكم ولهوكم ، دون أن تكترثوا بزواجر القرآن الكريم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم ، ونهى لهم عن الكفر والضلال .

فالفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسجدوا ﴾ لترتيب الأمر بالسجود ، على الإنذار بالعذاب الشديد إذا ما استمروا فى كفرهم ولهوهم .

والمراد بالسجود : الخضوع لله - تعالى - وإخلاص العبادة له ، ويندرج فيه سجود الصلاة ، وسجود التلاوة .

أى : اتركوا ما أنتم عليه من كفر وضلال ، وخصوا الله - تعالى - بالخضوع الكامل ،

وبالعبادة التامة ، التى لا شرك فيها لأحد معه - سبحانه - .

قال الآلوسى : وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبى - ﷺ - عندها .

أخرج الشيخان ، وأبو داود ، والنسائى عن ابن مسعود قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة : سورة « النجم » فسجد الرسول - ﷺ - وسجد الناس كلهم إلا رجلا » .

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين قصة الغرانيق . وملخصها أن الرسول - ﷺ - قرأ سورة النجم ، فلما بلغ قوله - تعالى - ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى .

وقد قال الإمام ابن كثير عند حديثه عن هذه القصة : إنها من روايات وطرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ﴾ . ذكرنا ما يدل على بطلان هذه القصة من جهة النقل ومن جهة العقل ..[1] .

وبعد . فهذا تفسير لسورة « النجم » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ..

قطر - الدوحة

صباح السبت ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ

١٩٨٦/٣/٨

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الحج ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

تفسير

سُورَةُ القَمَر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

١ - سورة القمر : هى السورة الرابعة والخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة الطارق ، وقبل سورة « ص » .

ويبلغ عدد السور التى نزلت قبلها ، سبعا وثلاثين سورة .

ويغلب على الظن أن نزولها كان فى السنوات الأولى من بعثته - ﷺ - .

قال بعض العلماء : وكان نزولها فى حدود سنة خمس قبل الهجرة . ففى الصحيح أن عائشة - رضى الله عنها - قالت : أنزل على رسول الله - ﷺ - بمكة ، وإنى لجارية ألعب ، قوله - تعالى - : ﴿ بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ﴾[1] .

٢ - وتسمى هذه السورة بسورة القمر ، وبسورة اقتربت الساعة ، وتسمى بسورة اقتربت ، حكاية لأول كلمة افتتحت بها .

روى الإمام مسلم وأهل السنن عن أبى واقد الليثى أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ فى العيد بسورتى « ق » و« اقتربت الساعة » .

وعدد آياتها : خمس وخمسون آية وهى من السور المكية الخالصة - على الرأى الصحيح - ، وقيل : هى مكية إلا ثلاث آيات منها ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ فإنها نزلت يوم بدر ، وهذا القيل لا دليل له يعتمد عليه .

ويرده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : أنزل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - بمكة قبل يوم بدر : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، وقال عمر بن الخطاب : قلت : يارسول الله أى جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر ، وانهزمت قريش ، نظرت إلى رسول الله - ﷺ - فى آثارهم مصلتا بالسيف ، وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فكانت ليوم بدر .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٧ ص ١٦٦ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

وبذلك نرى أن هذا الحديث ، وحديث عائشة السابق ، يدلان على أن هذه الآيات مكية - أيضا - ، وأن الرسول - ﷺ - إنما قرأها فى غزوة بدر على سبيل الاستشهاد بها .

٣ - والسورة الكريمة قد تحدثت فى مطلعها عن اقتراب يوم القيامة ، وعن جحود المشركين للحق بعد إذ جاءهم ، وعما سيكونون عليه يوم القيامة من ندم وحسرة . قال - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ .

٤ - ثم تحدثت السورة الكريمة عن مصارع الغابرين ، فذكرت ما حل من هلاك ودمار ، بقوم نوح ، وهود ، ولوط - عليهم السلام - وما حل أيضا بفرعون وملئه من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان مظاهر قدرته ، وبليغ حكمته ، ودقة نظامه فى كونه ، وبشر المتقين بما يشرح صدورهم فقال - تعالى - : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر . وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر . إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

٥ - والمتدبر فى السورة الكريمة يراها قد اهتمت بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن تعنت المشركين وعنادهم ، وعن سنن الله - تعالى - فى خلقه ، التى من أبرز مظاهرها ، نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

دولة قطر - الدوحة

صباح السبت ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٣/٨ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

افتتحت السورة الكريمة بهذا الافتتاح الذى يبعث فى النفوس الرهبة والخشية ، فهو يخبر عن قرب انقضاء الدنيا وزوالها .

إذ قوله - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ أى : قرب وقت حلول الساعة ، ودنا زمان قيامها .

والساعة فى الأصل : اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتحديدها بزمن معين اصطلاح عرفى ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة .

وأطلق على يوم القيامة يوم الساعة ، لوقوعة بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - .

وقد وردت أحاديث كثيرة ، تصرح بأن ما مضى من الدنيا كثير بالنسبة لما بقى منها ، ومن

هذه الاحاديث مارواه البزار عن أنس أن رسول الله - ﷺ - خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب .. فقال : « والذى نفسى بيده ما بقى من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى الشيخان عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ..[1] .

وشبيه بهذا الافتتاح قوله - تعالى - : فى مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ .

وقوله - سبحانه - فى افتتاح سورة النحل : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

والمقصود من هذا الافتتاح المتحدث عن قرب يوم القيامة ، تذكير الناس بأهوال هذا اليوم ، وحضهم على حسن الاستعداد لاستقباله عن طريق الإيمان والعمل الصالح .

وقوله - تعالى - : ﴿ وانشق القمر ﴾ معطوف على ما قبله عطف جملة على جملة .

وقوله : ﴿ وانشق ﴾ من الانشقاق بمعنى الافتراق والانفصال .

أى : اقترب وقت قيام الساعة ، وانفصل وانفلق القمر بعضه عن بعض فلقتين ، معجزة للنبى - ﷺ - ، وكان ذلك بمكة قبل هجرته - ﷺ - بنحو خمس سنين ، وقد رأى هذا الانشقاق كثير من الناس ..

وقد ذكر المفسرون كثيرا من الأحاديث فى هذا الشأن ، وقد بلغت الأحاديث مبلغ التواتر المعنوى ..

قال الإمام ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء - أى : انشقاق القمر - ، فقد وقع فى زمان النبى - ﷺ - وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

ثم ذكر - رحمه الله - جملة من الأحاديث التى وردت فى ذلك ، ومنها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبى - ﷺ - آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

وأخرج الإمام أحمد عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - ﷺ - فصار فلقتين : فلقة على هذا الجبل وفلقة على هذا الجبل . فقالوا : سحرنا محمد ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦١ .

فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وروى الشيخان عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - ﷺ - شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله - ﷺ - « اشهدوا »[١] .

وقال الآلوسى : بعد أن ذكر عددا من الأحاديث فى هذا الشأن : والأحاديث الصحيحة فى الانشقاق كثيرة ، واختلف فى تواتره ، فقيل : هو غير متواتر : وفى شرح المواقف أنه متواتر . وهو الذى اختاره العلامة السبكى ، فقد قال : الصحيح عندى أن انشاق القمر متواتر ، منصوص عليه فى القرآن ، مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ، لا يمترى فى تواتره .

وقد جاءت أحاديثه فى روايات صحيحة ، عن جماعة من الصحابة ، منهم على بن أبى طالب ، وأنس ، وابن مسعود ..

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر شبهات المنكرين لحادث الانشقاق : والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ، ولا يستطيع أن يأتى بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق ، والاستبعاد فى مثل هذه المقامات قريب من الجنون . عند من له عقل سليم[٢] .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء المشركين من معجزاته - ﷺ - فقال : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ .

أى : وإن يرى هؤلاء المشركون آية ومعجزة تدل على صدقك - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها جحودا وعنادا . ويقولوا - على سبيل التكذيب لك - ما هذا الذى أتيتنا به يا محمد إلا سحر مستمر ، أى : سحر دائم نعرفه عنك ، وليس جديدا علينا منك .

قال صاحب الكشاف : ﴿ مستمر ﴾ أى دائم مطرد ، وكل شىء قد انقادت طريقته ، ودامت حاله ، قيل فيه قد استمر ، لأنهم لما رأوا تتابع المعجزات ، وترادف الآيات . قالوا : « هذا سحر مستمر » .

وقيل : مستمر ، أى : قوى محكم - من المِرَّة بمعنى القوة - ، وقيل : هو من استمر الشىء إذا اشتدت مرارته ، أى : مستبشع عندنا مُـرٌّ على لَهَوَاتِنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ الشىء المر . وقيل : مستمر ، أى : مار ذاهب زائل عما قريب - من قولهم : مَرَّ الشىء واستمر إذا ذهب[٣] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦١ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٧٦ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٦ .

ثم أخبر - سبحانه - عن حالهم فى الماضى ، بعد بيان حالهم فى المستقبل ، فقال - تعالى - : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ .

أى : أن هؤلاء الجاحدين جمعوا كل الرذائل ، فهم إن يروا معجزة تشهد لك بالصدق - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها ، ويصفوها بأنها سحر ، وهم فى ماضيهم كذبوا دعوتك ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونفوسهم الأمارة بالسوء .

وجملة : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ معترضة ، وهى جارية مجرى المثل ، أى : وكل أمر لابد وأن يستقر إلى غاية ، وينتهى إلى نهاية ، وكذلك أمر هؤلاء الظالمين ، سينتهى إلى الخسران ، وأمر المؤمنين سينتهى إلى الفلاح .

وفى هذا الاعتراض تسلية وتبشير للنبى - ﷺ - ولأصحابه بحسن العاقبة ، وتيئيس وإقناط لأولئك المشركين من زوال أمر النبى - ﷺ - كما كانوا يتمنون ويتوهمون .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أنهم قوم لا تتأثر قلوبهم بالمواعظ والنذر ، فقال : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر المشتمل على أمور هامة ، من شأنها أن يتأثر بها السامع .

ومزدجر : مصدر ميمى ، وأصله مُزْتَجر . فأبدلت تاء الافتعال دالا ، وأصله من الزجر . بمعنى المنع والانتهار . أى : ولقد جاء لهؤلاء المشركين فى القرآن الكريم ، من الأنباء الهامة ، ومن أخبار الأمم البائدة ، ما فيه ازدجار وانتهار لهم عن الارتكاس فى القبائح وعن الإصرار على الفسوق والكفر والعصيان .

و« ما » فى قوله - سبحانه - : ﴿ مافيه مزدجر ﴾ موصولة ، وهى فاعل لقوله ﴿ جاءهم ﴾ ، وقوله ﴿ من الأنباء ﴾ فى موضع الحال منها ..

وقوله - تعالى - : ﴿ حكمة بالغة ﴾ بدل من « ما » أو خبر لمبتدأ محذوف .

والحكمة : العلم النافع الذى يترتب عليه تحرى الصواب فى القول والفعل .

أى : هذا الذى جاءهم من أنباء الماضين ، ومن أخبار السابقين فيه ما فيه عن الحكم البليغة ، والعظات الواضحة التى لا خلل فيها ولا اضطراب .

و« ما » فى قوله : ﴿فما تغن النذر ﴾ نافية ، والنُذُر : جمع نذير بمعنى مُنذِر .

أى : لقد جاء إلى هؤلاء المشركين من الأخبار ومن الحكم البليغة ما يزجرهم عن ارتكاب

الشرور ، وما فيه إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى غيهم ، ولكن كل ذلك لا غناء فيه ، ولا نفع من ورائه لهؤلاء الجاحدين المعاندين الذين عموا وصموا ..

ويصح أن تكون « ما » هنا ، للاستفهام الإنكارى . أى : ما الذى تغنيه النذر بالنسبة لهؤلاء المصرين على الكفر ؟ إنها لا تغنى شيئا ما داموا لم يفتحوا قلوبهم للحق :

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر ﴾ للتفريع على ما تقدم ، وهى تفيد السببية .

وقوله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ ظرف لقوله : ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ والداع : هو إسرافيل - عليه السلام - الذى ينفخ فى الصور بأمر الله - تعالى - .

والمراد بالنكر : الأمر الفظيع الهائل ، الذى لم تألفه النفوس ، ولم تر له مثيلا فى الشدة .

أى : إذا كان هذا حالهم من عدم إغناء النذر فيهم ، فتول عنهم - أيها الرسول الكريم - ، ولا تبال بهم ، واتركهم فى طغيانهم يعمهون ، وانتظر عليهم إلى اليوم الذى يدعوهم فيه الداعى ، إلى أمر فظيع عظيم ، تنكره النفوس ، لعدم عهدهم بمثله ، وهو يوم البعث والنشور .

قال الجمل : وقوله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ منصوب إما باذكر مضمرا .. وإما بيخرجون .. وحذفت الواو من « يدع » لفظا لالتقاء الساكنين ، ورسما تبعا للفظ ، وحذفت الياء من ﴿ الداع ﴾ للتخفيف .. والداع هو إسرافيل ..[1] .

وقوله : ﴿ خشعا أبصارهم ﴾ حال من الفاعل فى قوله : ﴿ يخرجون ... ﴾ : أى : ذليلة أبصارهم بحيث تنظر إلى ما أمامها من أهوال نظرة البائس الذليل ، الذى لا يستطيع أن يحقق نظره فيما ينظر إليه .

قال القرطبى : الخشوع فى البصر : الخضوع والذلة . وأضاف - سبحانه - الخشوع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان .

قال - تعالى - : ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ وقال - تعالى - : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ... ﴾ .

ويقال : خشع واختشع إذا ذل . وخشع ببصره إذا غضه ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٤٢ .

وقرأ حمزة والكسائي : خاشعا أبصارهم ..[١] .

وقوله : ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ أى : يخرجون من القبور ، وعيونهم ذليلة من شدة الهول ، وأجسادهم تملأ الآفاق ، حتى لكأنهم جراد منتشر ، قد سد الجهات . واستتر بعضه ببعض .

فالمقصود بالجملة الكريمة تشبيهم بالجراد فى الكثرة والتموج ، والاكتظاظ والانتشار فى الأقطار وهم يسرعون الخطا نحو أرض المحشر .

وقوله : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى : مسرعين نحوه ، وقد مدوا أعناقهم إلى الإمام ، مأخوذ من الإهطاع ، وهو الإسراع فى المشى مع مد العنق إلى الإمام . يقال : أهطع فلان فى جريه ، إذا أسرع فيه من الخوف ، فهو مهطع .

﴿ يقول الكافرون ﴾ وقد رأوا من أهوال يوم القيامة ما يدهشهم : ﴿ هذا يوم عسر ﴾ أى : يقولون هذا يوم صعب شديد ، بسبب ما يعاينون من أهواله ويتوقعون فيه من سوء العاقبة .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد وصفت أحوال الكافرين فى هذا اليوم ، وصفا تقشعر من هوله الأبدان .. فهم أذلاء ضعفاء ينظرون إلى ما يحيط بهم نظرة الخائف المفتضح ، وهم فى حالة خروجهم من قبورهم كأنهم الجراد المنتشر ، فى الكثرة والتموج والاضطراب ، وهم يسرعون نحو الداعى بذعر دون أن يلووا على شيء ، ودون أن يكون فى إمكانهم المخالفة أو التأخر عن دعوته .

ثم هم بعد ذلك يقولون على سبيل التحسر والتفجع : هذا يوم شديد الصعوبة والعسر .

ثم عرضت السورة بعد ذلك جانبا من مصارع الغابرين ، لعل فى هذا العرض مايروعهم عن الكفر والجحود ، ومايحملهم على انتهاج طريق الحق والهدى ، فقال - تعالى - :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٢٩ .

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)

وقصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سور أخرى . كسورة هود ، والمؤمنون ، ونوح ، والأعراف .

ولكنها جاءت هنا - كغيرها من القصص - بصورة حاسمة قاصمة ، تزلزل النفوس ، وتفتح العيون على مصارع الغابرين ، لكى يعتبر الكافرون ، وينتهوا عن كفرهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ... ﴾ شروع فى تعداد بعض ما ذكر من الأنباء الموجبة للانزجار ، ونوع تفصيل لها ، وبيان لعدم تأثرهم بها ، تقريرا لفحوى قوله : ﴿ فما تغن النذر ﴾ .

والفعل « كذبت » منزل منزلة اللازم . أى : فَعل التكذيب قبل قومك قوم نوح ..[1] .

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية الرسول - ﷺ - لأن المصيبة إذا عمت خفت ، وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ...﴾ .

وأسند - سبحانه - التكذيب إلى جميع قوم نوح - عليه السلام - . لأن الذين آمنوا به منهم عدد قليل ، كما قال - تعالى - : فى سورة هود : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ تأكيد لتكذيبهم له - عليه السلام - ، فكأنه - سبحانه - يقول : إن قول نوح - عليه السلام - قد أصروا على تكذيبهم لعبدنا ونبينا ، وتواصوا بهذا التكذيب فيما بينهم ، حتى لكأن الكبار قد أوصوا به الصغار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ بعد قوله : ﴿ كذبت ﴾ ؟ قلت معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا . أى : كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب ، تبعهم قرن مكذب .

أو معناه : كذبت قوم نوح الرسل ، فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٨١ .

جاحدين للنبوة رأسا ، كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ بيان لما كانوا عليه من انطماس بصيرة ، ومن سوء خلق .. أى : أنهم لم يكتفوا بتكذيب نبيهم ومرشدهم وهاديهم إلى الخير . بل أضافوا إلى ذلك وصفه بالجنون ، والاعتداء عليه بأنواع الأذى والترهيب .

فقوله : ﴿ وازدجر ﴾ معطوف على قوله ﴿ قالوا ﴾ وهو مأخوذ من الزجر بمعنى المنع والتخويف ، وصيغة الافتعال للمبالغة فى زجره وإيذائه .

وقد حكى القرآن فى آيات أخرى ألوانا من هذا الزجر والإيذاء ومن ذلك قوله - تعالى - كما حكى عنهم : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما فعله نوح - عليه السلام - بعد أن صبر على إيذاء قومه فقال : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ .

أى : وبعد أن يئس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه .. تضرع إلى ربه قائلا : يارب إن قومى قد غلبونى بقوتهم وتمردهم .. فانتصر لى منهم ، فأنت أقوى الأقوياء ، وأعظم نصير للمظلومين والمغلوبين على أمرهم من أمثالى .

وحذف متعلق « فانتصر » للإيجاز . أى : فانتقم لى منهم .

ولقد كانت نتيجة هذا الدعاء ، الإجابة السريعة ، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ .

أى : فأجبنا لنوح دعاءه ، ففتحنا أبواب السماء بماء كثير منهمر ، أى : منصب على الأرض بقوة وبكثرة وتتابع . يقال : همر فلان الماء يهمر - بكسر الميم وضمها - إذا صبه بكثرة . وقراءة الجمهور ﴿ ففتحنا ﴾ بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عامر بتشديدها على المبالغة .

قال الجمل : والمراد من الفتح والأبواب والسماء : حقائقها فإن للسماء أبوابا تفتح وتغلق . والباء فى قوله : ﴿ بماء ﴾ للتعدية على المبالغة ، حيث جعل الماء كالآلة التى يفتح بها ، كما تقول : فتحت بالمفتاح ..[2] .

وقوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ... ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ففتحنا ﴾ وتفجير الماء : إسالته بقوة وشدة وكثرة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٤٣ .

وقوله : ﴿ عيونا ﴾ تمييز محول عن المفعول به ، والأصل : وفجرنا عيون الأرض ، ولكن جيء به على هذا الأسلوب المشتمل على التمييز للمبالغة ، حتى لكأن الأرض جميعها قد تحولت إلى عيون متفجرة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ بيان لكمال حكمته - تعالى - بعد بيان مظاهر قدرته . أى : فاجتمع الماء النازل من السماء ، مع الماء المتفجر من الأرض ، على أمر قد قدره الله - تعالى - وقضاه أزلا ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان .

فالمراد بالماء : ماء السماء وماء الأرض .

وقال - سبحانه - ﴿ فالتقى الماء ﴾ بالإفراد ، لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريقة المجاورة ، بل كان بطريق الاتحاد والاختلاط ، حتى لكأن الماء النازل من السماء . والمتفجر من الأرض ، قد التقيا فى مكان واحد كما يلتقى الجيشان المعدان لإهلاك غيرهما .

و ﴿ على ﴾ فى قوله - تعالى -: ﴿ على أمر قد قدر ﴾ للاستعلاء المفيد لشدة التمكن والمطابقة . أى : التقى الماء بعضه ببعض على الحال والشأن الذى قدرناه وقضيناه له ، دون أن يحيد على ذلك قيد شعرة ، إذ كل شىء عندنا بمقدار .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عبده نوح - عليه السلام - فقال : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا ... ﴾ .

والدُّسُر : جمع دسار - ككتاب وكتب - أى : مسامير تربط بعض الخشب ببعض ، وأصل الدَّسْر : الدفع الشديد بقوة ، سمى به المسمار ، لأنه يدق فى الخشب فيدفع بقوة .

وقيل : الدسر : الخيوط التى تشد بها ألواح السفينة ، وقيل الدسر : صدرها ومقدمتها ، وقوله : ﴿ ذات ألواح ودسر ﴾ صفة لموصوف محذوف .

أى : وحملنا نوحا ومن معه من المؤمنين ، على سفينة ذات ألواح من الخشب ومسامير يشد بها هذا الخشب ويربط ..

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أراد السفينة ، وهو من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات ، فتنوب منابها ، وتؤدى مؤداها ، بحيث لا يفصل بينها وبينها . وهذا من فصيح الكلام وبديعه ..[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٨ .

وعدى فعل ﴿ وحملناه ﴾ إلى نوح وحده ، مع أن السفينة حملت معه المؤمنين ، لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته ، وقد جاءت آيات أخرى أخبرت بأن المؤمنين كانوا معه فى السفينة ، ومن هذه الآيات ، قوله - تعالى - : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ...﴾ .

وقوله ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى تجرى هذه السفينة بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وقدرتنا .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت قوم نوح محل غضب الله - تعالى - ونقمته فقال : ﴿ جزاء لمن كان كُفِر ﴾ .

وقوله : ﴿ جزاء ﴾ مفعول لأجله ، لقوله : ﴿ فتحنا ﴾ وما عطف عليه ، أى : فعلنا ما فعلنا من فتح السماء بماء منهمر ، جزاء لكفرهم بالله - تعالى - وبنبيه نوح - عليه السلام - الذى كان نعمة لهم ، ولكنهم كفروها ولم يشكروا الله عليها ، فاستحقوا الغرق والدمار .

وحذف - سبحانه - متعلق ﴿ كفر ﴾ لدلالة الكلام عليه ، أى : كفر به .

قال الآلوسى . وقوله : ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أى : فعلنا ذلك جزاء لنوح - عليه السلام - ، فإنه كان نعمة أنعمها الله - تعالى - على قومه فكفروها ، وكذا كل نبى نعمة من الله - تعالى - على أمته .

وجوز أن يكون على حذف الجار ، وإيصال الفعل إلى الضمير ، واستتاره فى الفعل ، بعد انقلابه مرفوعا . أى : لمن كفر به ، وهو نوح - عليه السلام - أى : جحدت نبوته .

فالكفر عليه ضد الإيمان ، وعلى الأول كفران النعمة ..[1] .

والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد تركناها آية ... ﴾ يعود إلى الفعلة المهلكة التى فعلها الله - تعالى - بقوم نوح - عليه السلام - .

أى : ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح ، وإهلاكنا لهم ، آية وعلامة لمن بعدهم . وعظة وعبرة لمن يعتبر ويتعظ بها .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ... ﴾[2] ويصح أن يكون الضمير بعود إلى السفينة . أى : ولقد أبقينا هذه السفينة من بعد إهلاك قوم نوح ، علامة وعبرة لمن يشاهدها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٨٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٣٧ .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالمين ﴾[١] .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ولقد تركناها آية ... ﴾ يريد هذه الفعلة عبرة .

وقيل : أراد السفينة ، تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذبون الرسل ..

قال قتادة : أبقاها الله - تعالى - بِبَاقِرْدَى ، من أرض الجزيرة - قرب الموصل بالعراق - لتكون عبرة وآية ، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة صارت بعدها رمادا..[٢] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للرأيين فهذه العقوبة التى أنزلها - سبحانه - بقوم نوح - عليه السلام - بقيت عبرة لمن بعدهم لينزجروا ، ويكفوا عن تكذيب الرسل ، كما أن السفينة قد أبقاها - سبحانه - بعد إغراقهم إلى الزمن الذى قدره وأراده ، لتكون - أيضا - عبرة وعظة لغيرهم .

والاستفهام فى قوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ للحض على التذكر والاعتبار ، ولفظ ﴿ مدكر ﴾ أصله مذتكر من الذُّكْر الذى هو ضد النسيان ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، وكذا الذال المعجمة ثم أدغمت فيها ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة ... ﴾ أى : وتذكر بعد نسيان .

أى : ولقد تركنا ما فعلناه بقوم نوح عبرة ، فاعتبروا بذلك - أيها الناس - ، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، لتنجوا من غضبه وعقابه .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ للتهويل والتعجيب من شدة هذا العذاب الذى حاق بقوم نوح - عليه السلام - .

أى : فكيف كان عذابى لهم ، وإنذارى إياهم ؟ لقد كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، ولا تحدها العبارة .

والنذر : مفرده نذير ، وجمع لتكرار الإنذار من نوح - عليه السلام - لقومه .

قال الجمل : وقرئ فى السبع بإثبات الياء وحذفها . وأما فى الرسم فلا تثبت لأنها من ياءات الزوائد ، وكذا يقال فى المواضع الآتية كلها ..[٣] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٥ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٣٣ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٨٤ .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله ورحمته على هذه الآمة ، حيث جعل كتابه ميسرا فى حفظه وفهمه ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ﴾ .

أى : والله لقد سهلنا القرآن ﴿ للذكر ﴾ أى : للتذكر والحفظ ، بأن أنزلناه فصيحا فى ألفاظه ، بليغا فى تراكيبه ، واضحا فى معانيه ، سهل الحفظ لمن أراد أن يحفظه .. فهل من معتبر ومتعظ ، بقصصه ، ووعده ، ووعيده ، وأمره ، ونهيه ؟ .

وقد وردت هذه الآية فى أعقاب قصة نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام - ، لتأكيد مضمون ما سبق فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ .

وللتنبيه والإشعار بأن كل قصة من تلك القصص جديرة بإيجاب الاتعاظ ، وكافية فى الاعتبار والازدجار ﴿ لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

والمقصود بالآية الكريمة التحضيض على حفظ القرآن الكريم والاعتبار بمواعظه ، والعمل بما فيه من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايات سامية ..

ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قبيلة عاد مع نبيهم هود - عليه السلام - فذكرت ما حل بهم من عقاب بسبب كفرهم وطغيانهم ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

والمراد بعاد ، تلك القبيلة التى ينتهى نسبها إلى جدهم عاد ، وكانت مساكنهم بالأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية . وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم هودا - عليه السلام - لكى يأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وينهاهم عن عبادة غيره ..

وقد جاء الحديث عنهم بصورة أكثر تفصيلا ، فى سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والأحقاف ... ولم تعطف قصتهم هنا على قصة نوح التى قبلها ، للإشعار بأنها قصة مستقلة جديرة بأن يعتبر بها المعتبرون ، ويتعظ بها المتعظون ..

وحذف المفعول فى قوله : ﴿ كذبت عاد ﴾ للعلم به وهو نبيهم هود - عليه السلام - أى : كذبت قبيلة عاد نبيها هودا - عليه السلام - .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ للتهويل ، ولتشويق السامعين إلى معرفة العذاب الشديد الذى حل بهم . أى : كذبت قبيلة عاد نبيها ، فهل علمتم ما حل بها من دمار وهلاك ؟ إن كنتم لم تعلموا ذلك فهاكم خبره ..

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا ...﴾ أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة البرودة والقوة ، ذات صوت هائل .

﴿ فى يوم نحس مستمر ﴾ أى : فى يوم مشئوم عليهم ، وشؤمه دائم ومستمر لم ينقطع عنهم حتى دمرهم .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ مستمر ﴾ أى : مستمر عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى ..[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[2] .

وإضافة « يوم » إلى « نحس » من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه ، كقولهم : يوم فتح خيبر ..

والمراد أنه يوم منحوس ومشئوم بالنسبة لهؤلاء المهلكين ، وليس المراد أنه يوم منحوس بذاته ، لأن الأيام يداولها الله - تعالى - بين الناس ، بمقتضى إرادته وحكمته .

وقوله : ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ بيان لقوة هذه الريح وشدتها ..

والنزع : الإزالة للشىء بعنف ، حتى يزول عن آخره ، وينفصل عما كان متصلا به .

والمراد بالناس : هؤلاء المهلكين من قوم هود - عليه السلام - .

والأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخر الشىء وأسفله . وأعجاز النخل : أصولها التى تقوم عليها . والمراد بها هنا : النخل بتمامه ما عدا الفروع .

وقوله : ﴿ منقعر ﴾ اسم فاعل انقعر ، مطاوع قَعَره أى : بلغ قعره بالحفر ، يقال : قعر فلان البئر إذا بلغ قعرها فى الحفر ، وهو صفة للنخل . أى : أن الريح لشدتها وقوتها ، كانت

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٢) سورة فصلت الآية ١٦ .

تقتلعهم من أماكنهم ، وتلقى بهم بعيدا وهم صرعى ، فكأنهم وهم ممددون على الأرض هلكى ، أعجاز نخل قد انقلع عن أصوله ، وسقط على الأرض ..

قال ابن كثير : وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم ، فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار . ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط على الأرض ، فتنخلع رأسه فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال : ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾[1] .

فالآية الكريمة فيها ما فيها من التفظيع لما أصابهم من هلاك واستئصال .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾[2] ..

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء الطغاة ، بمثل ما ختم به قصة قوم نوح ، من تذكير للناس بما أصاب هؤلاء الظالمين من عذاب أليم ، ومن دعوتهم إلى الاعتبار بقصص القرآن ، وزواجره ووعده ووعيده .. فقال - تعالى - : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ﴾ .

ثم جاءت بعد قصة قوم هود ، قصة قوم صالح - عليهما السلام - فقال - سبحانه - :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٢) سورة الحاقة الآيتان ٦ ، ٧ .

﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

وقصة قبيلة ثمود مع نبيهم صالح - عليه السلام - قد وردت فى سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة النمل .

وينتهى نسبهم إلى جدهم ثمود ، وقيل سموا بذلك لقلة ماء المكان الذى كانوا يعيشون فيه ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكان يقع بين الحجاز والشام ، ومازال معروفا إلى الآن .

ونبيهم صالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - .

وقوله : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ أى : كذبت قبيلة ثمود بالنذر التى جاءتهم عن طريق رسولهم صالح - عليه السلام - فالنذر بمعنى الإنذارات التى أنذرهم بها صالح - عليه السلام - ثم حكى - سبحانه - مظاهر تكذيبهم فقال : ﴿ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ... ﴾ .

و« بشرا » منصوب على المفعولية بالفعل « نتبعه » على طريقة الاشتغال ، وقدم لاتصاله بهمزة الاستفهام ، لأن حقها التصدير ، والاستفهام للإنكار ، وواحدا صفة لقوله ﴿ بشرا ﴾ . أى : أن قوم صالح - عليه السلام - حين جاءهم برسالته التى تدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، أنكروا ذلك ، وقالوا : أنتبع واحدا من البشر جاءنا بهذا الكلام الذى يخالف ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ؟ .

﴿ إنا إذا لفى ضلال وسعر ﴾ أى : إنا إذا لو اتبعناه لصرنا فى ضلال عظيم ، وفى ﴿ سعر ﴾ أى وفى جنون واضح ، ومنه قولهم : ناقة مسعورة ، إذا كانت لا تستقر على حال ، وتفرط فى سيرها كالمجنونة .

أو المعنى : إنا لو اتبعناه لكنا فى ضلال ، وفى نيران عظيمة . فالسعر بمعنى النار المسعرة ، ثم أخذوا فى تفنيد دعوته ، فقالوا : ﴿ أألقى الذكر عليه من بيننا ..﴾ والاستفهام للإنكار والنفى . والمراد بالإلقاء : الإنزال . وبالذكر : الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه ، وبلغه لهم . أى : أأنزل الوحى على صالح وحده دوننا ؟ لا لم ينزل عليه الوحى دوننا ، فهو واحد من أفنائنا ، وليس من أشرافنا ..

﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أى : بل صالح فيما يدعونا إليه كذاب ﴿ أشر ﴾ أى : بطر متكبر ، معجب بنفسه ، يقال : أشر فلان ، إذا أبطرته النعمة ، وصار مغرورا متكبرا على غيره ، ولا يستعمل نعم الله فيما خلقت له .

وهكذا الجاهلون الجاحدون ، يقلبون الحقائق ، وتصير الحسنات فى عقولهم سيئات ، فصالح - عليه السلام - الذى جاءهم بما يسعدهم ، أصبح فى نظرهم كذابا مغرورا ، لا يليق بهم أن يتبعوه ..

وقد رد - سبحانه - عليهم ردا يحمل لهم التهديد والوعيد ، فقال - تعالى - : ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ .

أى : سيعلم هؤلاء الكافرون ، فى الغد القريب يوم ينزل بهم العذاب المبين ، من هو الكذاب فى أقواله ، ومن هو المغرور المتكبر على غيره ، أصالح - عليه السلام - أم هم ؟!

والتعبير بالسين فى قوله ﴿ سيعلمون ﴾ لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .

والمراد بقوله : ﴿ غدا ﴾ الزمن المستقبل القريب الذى سينزل فيه العذاب عليهم ..

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، ما أمر به نبيه صالحا - عليه السلام - فقال : ﴿ إنا مرسلو الناقة فتنة لهم ، فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ .

وقوله : ﴿ مرسلو الناقة ﴾ أى : مخرجوها وباعثوها ، لأنهم اقترحوا على نبيهم صالح أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه ، لكى يتبعوه ، فأخرج الله - تعالى - لهم تلك الناقة ، من مكان مرتفع قريب منهم .

وإلى هذا المعنى أشار - سبحانه - فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا . فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾(١) .

وقوله ﴿ فتنة ﴾ أى : اختبارا وامتحانا لهم ، فهو مفعول لأجله .

وقوله : ﴿ فارتقبهم ﴾ من الارتقاب بمعنى الانتظار ، ومثله ﴿ واصطبر ﴾ فهو من الاصطبار ، وأل فى قوله : ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم .. ﴾ للعهد . أى : الماء المعهود لهم ، وهو ماء قريتهم الذى يستعملونه فى حوائجهم المتنوعة .

وقوله : ﴿ قسمة ﴾ بمعنى المقسوم ، وعبر عنه بالمصدر للمبالغة .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٥٣ - ١٥٥ .

والضمير فى « بينهم » يعود عليهم وعلى الناقة ، وجىء بضمير العقلاء على سبيل التغليب .
وقوله : ﴿ محتضر ﴾ اسم مفعول من الحضور الذى هو ضد الغيبة ، وحذف المتعلق لظهوره . أى : محتضر عنده صاحبه .

والشِّرْب : النصيب والمرة من الشُّرب .

أى : وقلنا لنبينا صالح على سبيل الإرشاد والتعليم ، بعد أن طلب منه قومه معجزة تدل على صدقه . قلنا له . أخبرهم أننا سنرسل الناقة ، وسنخرجها لهم أمام أعينهم ، لتكون دليلا على صدقك ، ولتكون امتحانا واختبارا لهم ، حتى يظهر لك وللناس أيؤمنون أم يصرون على كفرهم .

﴿ فارتقبهم ﴾ - أيها الرسول الكريم - ، وانتظر ماذا سيصنعون بعد ذلك ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم صبرا جميلا ، حتى يحكم الله بينك وبينهم .

﴿ ونبئهم ﴾ أى . وأخبرهم خبرا هاما ، هذا الخبر هو ﴿ أن الماء ﴾ الذى يستقون منه ﴿ قسمة بينهم ﴾ وبين الناقة ، أى : مقسوم بينهم وبينها ، فهم لا يشاركونها فى يوم شربها ، وهى لا تشاركهم فى يوم شربهم .

﴿ كل شرب محتضر ﴾ أى : كل نصيب من الماء يحضره من هوله ، فالناقة تحضر إلى الماء فى يومها ، وهم يحضرون إليه فى يوم آخر .

ففى هاتين الآيتين تعليم حكيم من الله - تعالى - لنبيه صالح ، وإرشاد له إلى ما يجب أن يسلكه معهم ، بيقظة واعية يدل عليها قوله - تعالى - : ﴿ فارتقبهم ﴾ وبصبر جميل لا يأس معه ولا ضجر ، كما يشير إليه قوله - تعالى - : ﴿ واصطبر ﴾ .

وسياق القصة ينبئ عن كلام محذوف ، يعلم من سياقها ، والتقدير : أرسلنا الناقة ، وقلنا له أخبرهم ، أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة واستمروا على ذلك فترة من الزمان ، ولكنهم ملوا هذه القسمة ، ولم يرتضوها ، وأجمعوا على قتل الناقة ..

﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ وهو « قدار بن سالف » وهو المعبر عنه بقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ .

وعبر عنه - سبحانه - بصاحبهم ، لأنه كان معروفا ، وزعيما من زعمائهم ..

والمقصود بندائهم إياه : إغراؤه بعقر الناقة وقتلها ، مخالفين بذلك وصية نبيهم لهم بقوله ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ مفرع على ما قبله ، وقوله : ﴿ تعاطى ﴾ مطاوع

للفعل عاطاه ، وهو مشتق من عطا يعطو ، إذا تناول الشيء .

وهذه الصيغة « تعاطى » تشير إلى تعدد الفاعل ، فكأن هذا النداء بقتل الناقة ، تدافعوه فيما بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى غيره ، حتى استقر عند ذلك الشقى الذى ارتضى القيام به وتولى كبره ، حيث عقر الناقة ، فمفعول « عقر » محذوف للعلم به .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فتعاطى ﴾ العقر ، أى : فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به .

﴿ فعقر ﴾ أى : فأحدث العقر بالناقة ، وجوز أن يكون فتعاطى الناقة فعقرها . أو : فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف ..[1] .

ولا تعارض بين هذه الآية التى تثبت أن الذى عقر الناقة هو هذا الشقى ، وبين الآيات الأخرى التى تصرح بأنهم هم الذين عقروها ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ...﴾ .

لأن المقصود أن القوم قد اتفقوا على هذا القتل للناقة ، فنادوا واحدا منهم لتنفيذه ، فنفذه وهم له مؤيدون ، فصاروا كأنهم جميعا عقروها ، لرضاهم بفعله ، والعقر . يطلق على القتل والذبح والجرح ، والمراد هنا : قتلها ونحرها .

والتعبير بقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ يشير إلى هول العقوبة التى نزلت بهم ، بسبب مافعلوه من عقر الناقة ، ومن تكذيبهم لنبيهم .

أى : انظر وتدبر - أيها العاقل - كيف كان عذابى وإنذارى لهؤلاء القوم ؟ لقد كان شيئا هائلا لا تحيط به العبارة .

ثم فصل - سبحانه - هذا العقاب فقال : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ .

والهشيم : ما تهشم وتفتت وتكسر من الشجر اليابس ، مأخوذ من الهشم بمعنى الكسر للشيء اليابس ، أو الأجوف .

والمحتظر : هو الذى يعمل الحظيرة التى تكون مسكنا للحيوانات .

أى : إنا أرسلنا عليهم - بقدرتنا ومشيئتنا - صيحة واحدة صاحها بهم جبريل - عليه

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٧٩ .

السلام - فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسة المكسرة ، يجمعها إنسان ليعمل منها حظيرة لسكنى حيواناته .

والمقصود بهذا التشبيه ، بيان عظم ما أصابهم من عقاب مبين ، جعلهم ، كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر ويجمعها الجامع ليصنع منها حظيرته ، أو لتكون تحت أرجل مواشيه .

وهذا العذاب عبر عنه هنا وفى سورة هود بالصيحة فقال : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ... ﴾ .

وعبر عنه فى سورة الأعراف بالرجفة فقال : ﴿ فأخذتهم الرجفة ... ﴾ وعبر عنه فى سورة فصلت بالصاعقة فقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى . فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ .

وعبر عنه فى سورة الحاقة بالطاغية ، فقال : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ...﴾ .

ولا تعارض بين هذه التعبيرات لأنها متقاربة فى معناها ، ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب .

فكأنه - سبحانه - يقول : لقد نزل بهؤلاء المكذبين الصيحة التى زلزلت كيانهم ، فصعقتهم وأبادتهم ، وجعلتهم كعيدان الشجر اليابس ..

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بما ختم به سابقتها فقال : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

وجاءت بعد قصة قوم صالح ، قصة قوم لوط - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

وقصة لوط - عليه السلام - قد وردت فى سور متعددة ، منها : سور الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ..

ولوط - عليه السلام - هو - على الراجح - ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - ، وكان قد آمن به وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل سدوم . وهى قرية بوادى الأردن وكالوا يأتون الفواحش التى لم يسبقهم إليها أحد ..

وقوله - تعالى - ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ أى : كذبوا بالإنذارات والتهديدات التى هددهم بها نبيهم لوط ، إذا لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره ونهيه ... .

فكانت نتيجة هذا التكذيب والفجور الذى انغمسوا فيه الهلاك والدمار كما قال - تعالى - : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبا ...﴾ .

والحاصب : الريح التى تحصب ، أى : ترمى بالحصباء ، وهى الحجارة الصغيرة التى تهلك من تصيبه بأمر الله - تعالى - .

فقوله : ﴿ حاصبا ﴾ صفة لموصوف محذوف وهو الريح ، وجىء به مذكرا لكون موصوفه وهو الريح فى تأويل العذاب ، أى : إنا أرسلنا عليهم عذابا حاصبا أهلكهم ..

والاستثناء فى قوله - سبحانه - : ﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ استثناء متصل ، لأنهم من قومه . والسحر : هو الوقت الذى يختلط فيه سواد آخر الليل ، ببياض أول النهار وهو قبيل مطلع الفجر بقليل .

أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة ترميهم بالحصباء فتهلكهم ، إلا آل لوط ، وهم من آمن به من قومه ، فقد نجيناهم من هذا العذاب المهلك فى وقت السحر ، فالباء فى قوله ﴿ بسحر ﴾ بمعنى « فى » الظرفية . أو هى للملابسة ، أى : حال كونهم متلبسين بسحر .

وقوله - تعالى - ﴿ نعمة من عندنا ... ﴾ علة الإيجاء ، والنعمة بمعنى الإنعام ، أى : انجينا آل لوط من العذاب الذى نزل بقومه على سبيل الإنعام الصادر من عندنا عليهم لا من عند غيرنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ كذلك نجزى من شكر ﴾ بيان لسبب هذا الإنعام والإيجاء ..

أى : مثل هذا الجزاء العظيم ، المتمثل فى إيجائنا للمؤمنين من آل لوط وفى إنعامنا عليهم .. نجازى كل شاكر لنا ، ومستجيب لأمرنا ونهينا .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين الشاكرين حتى يزدادوا من الطاعة لربهم ، وتعريض بسوء مصير الكافرين الذين لم يشكروا الله - تعالى - على نعمه .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ من عندنا ﴾ تنويه عظيم بهذا الإنعام ، لأنه صادر من عنده - تعالى - الذى لا تعد ولا تحصى نعمه .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بقوم لوط إلى الدمار والهلاك فقال : ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ...﴾ .

والبطشة : المرة من البطش ، بمعنى الأخذ بعنف وقوة ، والمراد بها هنا : الإهلاك الشديد .

والتمارى : تفاعل من المراء بمعنى الجدال ، والمراد به هنا : التكذيب والاستهزاء ، ولذا عدى بالباء دون فى . أى : والله لقد أنذرهم لوط - عليه السلام - وخوفهم من عذابنا الشديد الذى لا يبقى ولا يذر ، ولكنهم كذبوه واستهزءوا به ، وبتهديده وبتخويفه إياهم .

ثم يحكى - سبحانه - صورة أخرى من فجورهم فقال : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ، فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر ﴾ .

والمراودة : مقابلة ، من راد فلان يرود ، إذا جاء وذهب ، لكى يصل إلى ما يريده من غيره عن طريق المحايلة والمخادعة .

والمراد بضيفه ضيوفه من الملائكة الذين جاءوا إلى لوط - عليه السلام - لإخباره بإهلاك قومه ، وبأن موعدهم الصبح .. أى : ووالله لقد حاول هؤلاء الكفرة الفجرة المرة بعد المرة ، مع لوط - عليه السلام - أن يمكنهم من فعل الفاحشة مع ضيوفه ..

فكانت نتيجة محاولاتهم القبيحة أن ﴿ طمسنا أعينهم ﴾ أى حجبناها عن النظر ، فصاروا لا يرون شيئا أمامهم .

قال القرطبى : يروى أن جبريل - عليه السلام - ضربهم بجناحه فعموا ، وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق . كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل[١] .

وعدى - سبحانه - فعل المراودة بعن . لتضمينه معنى الإبعاد والدفع . أى : حاولوا دفعه عن ضيوفه ، ليتمكنوا منهم .

وأسند المراودة إليهم جميعا : لرضاهم عنها ، بقطع النظر عمن قام بها .

وقوله : ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ﴾ مقول لقول محذوف ، أى طمسنا أعينهم وقلنا لهم : ذوقوا عذابى الشديد الذى سينزل بكم ، بسبب تكذيبكم لرسولى ، واستخفافكم بما وجه إليكم من تخويف وإنذار .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٤٤ .

والمراد من هذا الأمر : الخبر . أى : فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب فقال : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ... ﴾ . والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وجىء بلفظ بكرة للإشعار بتعجيل العذاب لهم ، أى : والله لقد نزل بهم عذابنا فى الوقت المبكر من الصباح نزولا دائما ثابتا مستقرا لا ينفك عنهم ، ولا ينفكون عنه .. وقلنا لهم : ذوقوا عذابى ، وسوء عاقبة تكذيبكم لرسولى لوط - عليه السلام - .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله : ﴿ فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ؟ .

قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ عند كل نعمة عدها فى سورة الرحمن .

وكقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان ..[١] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان ما حل بفرعون وقومه ، وبتحذير مشركى قريش من سوء عاقبة كفرهم ، وببيان ما أعد لهم من عذاب يوم القيامة ، وبتبشير المتقين بحسن العاقبة فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤١ .

وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾
وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ
فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

وقصة فرعون وملئه مع موسى – عليه السلام – قد تكررت فى سور متعددة ، منها سور : الأعراف ، ويونس ، وهود ، وطه ، والشعراء ، والقصص .

وهنا جاء الحديث عن فرعون وملئه فى آيتين ، بين – سبحانه – ما حل بهم من عذاب ، بسبب تكذيبهم لآيات الله – تعالى – ، فقال – سبحانه – : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ .

والمراد بآل فرعون : أقرباؤه وحاشيته وأتباعه الذين كانوا يؤيدونه ويناصرونه .

والنذر : جمع نذير ، اسم مصدر بمعنى الإنذار ، وجىء به بصيغة الجمع ، لكثرة الإنذارات التى وجهها موسى – عليه السلام – إليهم .

أى : والله لقد جاء إلى فرعون وآله ، الكثير من الانذارات والتهديدات على لسان نبينا موسى – عليه السلام – ولكنهم لم يستجيبوا له ..

بل ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ أى : بل كذبوا بجميع المعجزات التى أيدنا موسى – عليه السلام – بها ، والتى كانت تدل أعظم دلالة على صدقه فيما يدعوهم إليه .

وأكد – سبحانه – هذه المعجزات بقوله ، كلها للإشعار بكثرتها ، وبأنهم قد أنكروها جميعا دون أن يستثنوا منها شيئا .

وقوله : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ بيان لشدة العذاب الذى نزل بهم إذ الأخذ

مستعار ، للانتقام الشديد ، وانتصاب ﴿ أخذ ...﴾ على المفعولية المطلقة ، وإضافته إلى « عزيز مقتدر » من إضافة المصدر إلى فاعله .

والعزيز : الذى لا يغلبه غالب ، والمقتدر : الذى لا يعجزه شىء يريده .

أى : فأخذناهم أخذا لم يبق منهم أحدا ، بل أهلكناهم جميعا ، لأن هذا الأخذ صادر عن الله - عز وجل - الذى لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه شىء .

ووصف - سبحانه - ذاته هنا بصفة العزة والاقتدار ، للرد على دعاوى فرعون وطغيانه وتبجحه ، فقد وصل به الحال أن زعم أنه الرب الأعلى .. فأخذه - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، يحق الحق ويبطل الباطل .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أخبار الطغاة الغابرين ، التفتت السورة الكريمة بالخطاب إلى كفار مكة ، لتحذرهم من سوء عاقبة الاقتداء بالكافرين ، ولتدعوهم إلى التفكر والاعتبار ، فقال - تعالى - : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾ .

والاستفهام للنفى والإنكار ، والمراد بالخيرية ، الخيرية الدنيوية ، كالقوة والغنى والجاه ، والسلطان ، والخطاب لأهل مكة .

والبراءة من الشىء : التخلص من تبعاته وشروره ، والمراد بها التخلص من العذاب الذى أعده الله - تعالى - للكافرين ، والسلامة منه .

والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب الذى يكتب فيه .

والمعنى : أكفاركم - ياأهل مكة - خير من أولئكم السابقين فى القوة والغنى والتمكين فى الأرض .. ؟ أم أن لكم عندنا عهدا فى كتبنا ، بأن لا نؤاخذكم على كفركم وشرككم ..؟

كلا ، ليس لكم شىء من ذلك فأنتم لستم بأقوى من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، أو من فرعون وملئه ، وأنتم - أيضا - لم تأخذوا منا عهدا بأن نبرئكم من العقوبة عن كفركم ..

وما دام الأمر كذلك فكيف أبحتم لأنفسكم الإصرار على الكفر والجحود ؟ إن ما أنتم عليه من شرك لا يليق بمن عنده شىء من العقل السليم .

ثم انتقل - سبحانه - إلى توبيخهم على شىء آخر من أقوالهم الباطلة فقال : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ . أى . بل أيقولون نحن جميع يد واحدة ، وسننتصر على من خالفنا وعادانا ؟ ولقد توهموا ذلك فعلا ، وجاهروا به .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل دعاواهم فقال : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ والتعريف فى ﴿ الجمع ﴾ للعهد ، والدبر : الظهر وما أدبر من المتجه إلى الأمام .

أى : سيهزم جمع هؤلاء الكافرين ويولون أدبارهم نحوكم - أيها المؤمنون - ويفرون من أمامكم ..

والتعبير بالسين لتأكيد أمر هزيمتهم فى المستقبل القريب ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ .

والآية الكريمة من باب الإخبار بالغيب ، الدال على إعجاز القرآن الكريم .

قال الآلوسى : والآية من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ، ولا كان قتال ، ولذا قال عمر يوم نزلت : أى جمع يهزم ، أى : من جموع الكفار . فلما كان يوم بدر ، رأيت رسول الله - ﷺ - يثب فى الدرع وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ ..[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هزيمة المشركين ستعقبها هزيمة أشد منها ، وأنكى فقال : ﴿ بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ﴾ .

والمراد بالساعة ، يوم القيامة « وأدهى » : اسم تفضيل من الداهية ، وهى الأمر المنكر الفظيع الذى لا يعرف طريق للخلاص منه .

وقوله ﴿ وأمر ﴾ أى : وأشد مرارة وقبحا . أى : ليس هذا الذى يحصل لهم فى الدنيا من هزائم نهاية عقوباتهم ، بل يوم القيامة هو يوم نهاية وعيدهم السيئ ، ويوم القيامة هو أعظم داهية ، وأشد مرارة مما سيصيبهم من عذاب دنيوى .

ثم فصل - سبحانه - ما سينزل بهم من عذاب يوم القيامة فقال : ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر ﴾ . أى : فى بعد عن الاهتداء إلى الحق بسبب انطماس بصائرهم ، وإيثارهم الغى على الرشد ، وفى نار مسعرة تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم .

ويقال لهم ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾ أى : يوم يُجَرُّون فى النار على وجوههم ، على سبيل الإهانة والإذلال .

﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أى : ويقال لهم : ذوقوا مس جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وقاسوا آلامها وعذابها .

فقوله - تعالى - : ﴿ سقر ﴾ علم على جهنم ، مأخوذ من سقرت الشمس الشىء وصقرته ، إذا غيرت معالمه وأذابته ، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٩٢ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر كمال قدرته وحكمته فقال : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

وقوله : ﴿ كل ﴾ منصوب بفعل يفسره ما بعده ، والقدر : ما قدره الله - تعالى - على عباده ، حسب ماتقتضيه حكمته ومشيئته .

أى : إنا خلقنا كل شيء فى هذا الكون ، بتقدير حكيم ، وبعلم شامل ، وبإرادة تامة وبتصريف دقيق لا مجال معه للعبث أو الاضطراب ، كما قال - تعالى - : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ ، وكما قال - سبحانه - : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ ، وكما قال - عز وجل - : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة ، على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه بالأشياء قبل كونها . وردوا بهذه الآية وبما شاكلها ، وبما ورد فى معناها من أحاديث على الفرقة القدرية ، الذين ظهروا فى أواخر عصر الصحابة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله - ﷺ - فى القدر ، فنزلت : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1] .

والباء فى قوله ﴿ بقدر ﴾ للملابسة . أى : خلقناه ملتبسا بتقدير حكيم ، اقتضته سنتنا ومشيئتنا فى وقت لا يعلمه أحد سوانا ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ بيان لكمال قدرته - تعالى - .

واللمح : النظر السريع العاجل الذى لا تريث معه ولا انتظار ، يقال : لمح فلان الشيء إذا أبصره بنظر سريع .. وقوله : ﴿ واحدة ﴾ صفة لموصوف محذوف .

أى : وما أمرنا وشأننا فى خلق الأشياء وإيجادها ، إلا كلمة واحدة وهى قول : « كن » فتوجد هذه الأشياء كلمح البصر فى السرعة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

والمراد بهذه الآية وأمثالها : بيان كمال قدرة الله - تعالى - وسرعة إيجاده لكل ما يريد

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٧ .

إيجاده ، وتحذير الظالمين من العذاب الذى متى أراده الله - تعالى - فلن يدفعه عنهم دافع ، بل سيأتيهم كلمح البصر فى السرعة .

والتعبير بقوله : ﴿ واحدة ﴾ لإفادة أن كل ما يريد الله - تعالى - إيجاده فسيوجد فى أسرع وقت ، وبكلمة واحدة لا بأكثر منها ، سواء أكان ذلك الموجود جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا ..

ثم بين - سبحانه - ما يدل على نفاذ هذه القدرة وسرعتها فقال : ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ﴾ .

والأشياع : جمع شيعة ، وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره ، وكل جماعة من الناس اتفقت فى رأيها فهم شيعة . قالوا : وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار ، حتى تشتعل النار . والمراد به هنا : الأشباه والنظائر .

أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظائركم فى الكفر من الأمم السابقة ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، واتعظوا بما نزل بهم من عقاب .

فالمقصود بالآية الكريمة التهديد والتحذير . والاستفهام فيها للحض على الاتعاظ والاعتبار .

ثم بين - سبحانه - أن كل ما يعمله الإنسان . هو مسجل عليه ، فقال : ﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾ . أى : وكل شىء فعله هؤلاء المشركون وغيرهم ، مكتوب ومحفوظ فى كتب الحفظة ، ومسجل عليهم لدى الكرام الكاتبين ، بدون زيادة أو نقصان ..

كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ أى : وكل صغير من الأقوال أو الأفعال ، وكل كبير منها ، فهو مكتوب عندنا ، ومسجل على صاحبه .

فقوله : ﴿ مستطر ﴾ بمعنى مسطور ومكتتب . يقال : سطر يسطر سطرا ، إذا كتب ، واستطر مثله ، والآية الكريمة مؤكدة لما قبلها .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك البشارة العظيمة للمتقين فقال : ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

---

(١) سورة يونس الآية ٦١ .

أى : إن المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل محارم الله - تعالى - كائنين فى جنات عاليات المقدار ، وفى ﴿ نهر ﴾ أى : وفى سعة من العيش ، ومن مظاهر ذلك أن الأنهار الواسعة تجرى من تحت مساكنهم ، فالمراد بالنهر جنسه .

وقوله : ﴿ فى مقعد صدق ﴾ أى : فى مكان مرضى ، وفى مجلس كريم ، لالغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ، فالمراد بالمقعد مكان القعود الذى يقيم فيه الإنسان بأمان واطمئنان .

﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أى : مقربين عند ملك عظيم ، قادر على كل شىء .

فالمراد بالعندية هنا ، عندية الرتبة والمكانة والتشريف .

وقال - سبحانه - عند مليك ، للمبالغة فى وصفه - سبحانه - بسعة الملك وعظمه ، إذ وصفه - سبحانه - بمليك ، أبلغ من وصفه بمالك أو ملك ، لأن ﴿ مليك ﴾ صيغة مبالغة بزنة فعيل .

وتنكير « مقتدر » للتعظيم والتهويل ، وهو أبلغ من قادر ، إذ زيادة المبنى تشعر بزيادة المعنى . أى : عظيم القدرة بحيث لا يحيط بها الوصف .

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة « القمر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الدوحة - قطر

مساء الاربعاء

٢ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ — كتبه الراجى عفو ربه

١٩٨٦/٣/١٢ م — د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةِ الرَّحْمٰنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الرحمن » سميت بهذا الاسم ، لافتتاحها بهذا الاسم الجليل من أسماء الله - تعالى - .

وقد وردت تسميتها بهذا الاسم فى الحديث الذى أخرجه الإمام الترمذى عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال - ﷺ - : « لقد قرأتها على الجن ، فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله - تعالى - : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : ولا بشىء من نعمك ياربنا نكذب فلك الحمد »[1] .

وسميت فى حديث مرفوع أخرجه البيهقى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : « عروس القرآن » .

وقد ذكروا فى سبب نزولها ، أن المشركين عندما قالوا : ﴿ وما الرحمن ﴾ نزلت هذه السورة لترد عليهم ، ولتثنى على الله - تعالى - بما هو أهله .

٢ - وهى مكية فى قول جمهور الصحابة والتابعين ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنها مدنية ، وقيل هى مكية إلا قوله - تعالى - : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض ...﴾ .

قال القرطبى : والقول الأول أصح ، لما روى عن عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى - ﷺ - عبدالله بن مسعود .

وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهم إياه ؟

فقال ابن مسعود : أنا ، فقالوا : نخشى عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ، ثم قام عند المقام فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ الرحمن ، علم القرآن ... ﴾ ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش فى أنديتها ، فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٩ .

قالوا : هو يقول الذى يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه .. وفى هذا دليل على أنها مكية ..[١] .

والحق أن ما ذهب إليه الإمام القرطبى من كون سورة الرحمن مكية ، هو ما تطمئن إليه النفس ، لأن السورة من أولها إلى آخرها فيها سمات القرآن المكى ، الذى يغلب عليه الحديث المفصل عن الأدلة على وحدانية الله وقدرته وعظم نعمه على خلقه ، والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار ..

٣ - وعدد آياتها ثمان وسبعون آية فى المصحف الحجازى ، وست وسبعون فى المصحف البصرى .

٤ - وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، ثم بالثناء على القرآن الكريم ، ثم ببيان جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن جميل صنعه ، وبديع فعله .. قال - تعالى - : ﴿ الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . أن لا تطغوا فى الميزان ﴾ .

٥ - وبعد أن ساق - سبحانه - ما ساق من ألوان النعم ، أتبع ذلك ببيان أن كل من على ظهر هذه الأرض مصيره إلى الفناء ، وأن الباقى هو وجه الله - تعالى - وحده ... وببيان أهوال القيامة ، وسوء عاقبة المكذبين وحسن عاقبة المؤمنين ..

قال - تعالى - : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ .

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان ﴾ .

٦ - ثم وصفت ما أعده الله - تعالى - للمتقين وصفا يشرح الصدور ، ويقر العيون ، فقد أعد - سبحانه - لهم بفضله وكرمه الحور العين ، والفرش التى بطائنها من إستبرق .

قال - تعالى - : ﴿ حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ .

وهكذا نرى السورة الكريمة تطوف بنا فى آفاق هذا الكون ، فتحكى لنا من بين ما تحكى - جانبا من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونعمه على خلقه - وتقول فى أعقاب كل نعمة

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٥١ .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، وتتكرر هذه الآية فيها إحدى وثلاثين مرة ، لتذكير الجن والإنس بهذه النعم كى يشكروا الله - تعالى - عليها شكرا جزيلا .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الشاكرين عند الرخاء ، الصابرين عند البلاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

قطر - الدوحة

مساء الأربعاء ٢ من رجب ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٣/١٢ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣)
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ
(٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)

افتتحت السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل لله - عز وجل - وهو لفظ مشتق من الرحمة ، وصيغته الدالة على المبالغة ، تنبه إلى عظم هذه الرحمة وسعتها .

وهذا اللفظ مبتدأ ، وما بعده أخبار له .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ومنته على عباده بأجل النعم وأعظمها شأنا ، فقال : ﴿ علم القرآن ﴾ والقرآن هو أعظم وحى أنزله - سبحانه - على أنبيائه ورسله .

أى : علم نبيه - ﷺ - القرآن الذى هو أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا ، إذ باتباع توجيهاته وإرشاداته ، يظفر الإنسان بالسعادة الدنيوية والأخروية .

ولفظ ﴿ القرآن ﴾ هو المفعول الثانى لعلم ، والمفعول الأول محذوف .

وهذه الآية الكريمة تتضمن الرد على المشركين الذين زعموا أن هذا القرآن قد تعلمه

الرسول - ﷺ - من البشر ، كما حكى - سبحانه - عنهم فى قوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر .... ﴾[١] .

وفى قوله : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ... ﴾[٢] .

كما تتضمن الرد عليهم لزعمهم أنهم لا يعرفون الرحمن ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ... ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ خلق الإنسان . علمه البيان ﴾ بيان لنعمتين أخريين من نعمه - سبحانه - . والمراد بالإنسان : جنسه ، والمراد بالبيان : الفهم والنطق والإفصاح عما يريد الإفصاح عنه بالكلام الذى أداته اللسان .

أى خلق - سبحانه - بقدرته الإنسان على أجمل صورة ، وأحسن تقويم ، ومكنه من الإفصاح عما فى نفسه عن طريق المنطق السليم ، والقول الواضح ، كما مكنه من فهم كلام غيره له ، فتميز بذلك عن الأجناس الأخرى ، وصار أهلا لحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، وأصبح مستعدا لتلقى العلوم والخلافة فى الأرض ..

ورحم الله - تعالى - صاحب الكشاف ، فقد صور هذه المعانى بأسلوبه الرصين فقال : عدد الله - عز وجل - آلاءه فقدم ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه ، وأصناف نعمائه ، وهى نعمة الدين ، وقدم من نعمة الدين ما هو فى أعلى مراتبها ، وأقصى مراقبها ، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة . وأحسنه فى أبواب الدين أثرا ، وهو سنام الكتب السماوية ، ومصداقها ، والعيار عليها .

وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه ، ليعلم أنه إنما خلقه للدين ، وليحيط علما بوحيه ، وكتبه ، وما خلق الإنسان من أجله .. ثم ذكر ما تميز به الإنسان عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير ..

ولفظ ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف ، لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة .. فما تنكر من إحسانه..[٤] .

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٤ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٦٠ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ بيان لنعمة رابعة من نعمه - تعالى - التى لا تحصى .

والحسبان : مصدر زيدت فيه الألف والنون ، والمراد بحساب دقيق ، وتقدير حكيم ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف .. أى : الشمس والقمر يجريان فى هذا الكون ، بحساب دقيق فى بروجهما ومنازلهما ، بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب ، وبذلك يعرف الناس السنين والشهور والأيام ، ويعرفون أشهر الحج والصوم ، وغير ذلك من شئون الحياة ..

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾[١] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ والمراد بالنجم هنا - عند بعضهم - النبات الذى لا ساق له ، وسمى بذلك . لأنه ينجم - أى يظهر من الأرض - بدون ساق .

ويرى آخرون : أن المراد به نجوم السماء ، فهو اسم جنس لكل ما يظهر فى السماء من نجوم . ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ... ﴾[٢] .

والشجر : هو النبات الذى له ساق وارتفاع عن وجه الأرض .

والمراد بسجودهما : انقيادهما وخضوعهما لله - تعالى - كانقياد الساجد لخالقه ..

قال ابن كثير : قال ابن جرير : اختلف المفسرون فى معنى قوله : ﴿ والنجم ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، فعن ابن عباس قال : النجم : ما انبسط على وجه الأرض من النبات . وكذا قال هذا القول سعيد بن جبير ، والسدى ، وسفيان الثورى ، وقد اختاره ابن جرير ..

وقال مجاهد : النجم - المراد به هنا - الذى يكون فى السماء ، وكذا قال الحسن وقتادة ، وهذا القول هو الأظهر ..[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ... ﴾ أى : والسماء أوجدها بقدرته مرفوعة بدون أعمدة ، وأنتم ترون ذلك بأعينكم .

---

(١) سورة يس الآية ٤٠ .
(٢) سورة الحج الآية ١٨ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٠ .

فالمقصود بقوله ﴿ رفعها ﴾ لفت الأنظار إلى مظاهر قدرته - تعالى - ، وإلى وجوب شكره وإخلاص العبادة له ، والتزام طاعته ..

والميزان : يطلق على الآلة التى يزن الناس بها ما يريدون وزنه من الأشياء المختلفة .

والمراد به هنا : وجوب التزام العدل فى الأحكام ، وشاع إطلاق الميزان على العدل فى الأحكام ، لأن كليهما تضبط به الأحكام ، وتنال الحقوق . أى : والسماء خلقها مرفوعة ابتداء ، وشرع وأثبت العدل وأمر باتباعه فى الأقوال والأحكام ، ليستقيم أمر الناس .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ووضع الميزان ﴾ أى : شرع العدل وأمر به ، لينتظم أمر العالم ويستقيم ، كما قال - ﷺ - : « بالعدل قامت السموات والأرض » أى : بقيتا على أتقن نظام .. وتفسير الميزان بالعدل ، هو المروى عن مجاهد ، والطبرى ، والأكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية .

وعن ابن عباس والحسن وقتادة ، أن المراد بالميزان ما تعرف به مقادير الأشياء ، وهو الآلة المسماة بهذا الاسم .. أى : أوجده فى الأرض ليضبط الناس معاملاتهم فى أخذهم وعطائهم ..[١] .

وجملة : ﴿ أن لا تطغوا فى الميزان ﴾ بمنزلة التعليل لما قبلها . أى : شرع العدل بين الناس ، وأوجب عليهم التمسك به فى كل شئونهم ، لئلا يتجاوزوه إلى غيره من الجور والظلم . والطغيان : هو تجاوز الحدود المشروعة فى كل شىء .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وهو التزام العدل تأكيدا صريحا فقال : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان ﴾ .

وقوله : ﴿ وأقيموا ﴾ من الإقامة ، والمراد به الإتيان بالشىء على أكمل صورة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وأقيموا الصلاة ... ﴾ أى : أدوها كاملة الأركان والسنن والخشوع .

والقسط : العدل ، يقال : أقسط فلان فى حكمه ، إذا عدل ، والباء للمصاحبة .

وقوله : ﴿ ولا تخسروا ﴾ من الإخسار بمعنى النقص والبخس والجور .

والمعنى : شرع الله العدل ، ونهاكم عن تجاوزه ، وأمركم أن تقيموا حياتكم عليه فى أوزانكم التى تتعاملون بها فيما بينكم ، وفى كل أحوالكم ، فاحذروا أن تخالفوا أمره ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٠١ .

وكرر - سبحانه - لفظ « الميزان » للتنبيه على شدة عناية الله - تعالى - بإقامة العدل بين الناس فى معاملاتهم ، وفى سائر شئونهم ، إذ بدونه لا يستقيم لهم حال ، ولا يصلح لهم بال ، ولا يستقر لهم قرار ..

ثم انتقلت السورة الكريمة ، إلى بيان جانب من مظاهر نعمه الأرضية ، فقال - تعالى - : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ .

والمراد بالأنام : الخلائق المختلفون فى ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ، والذين يعيشون فى شتى أقطارها وفجاجها ... وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه .

أى : والأرض « وضعها » أى : أوجدها موضوعة على هذا النظام البديع ، من أجل منفعة الناس جميعا ، لأن إيجادها على تلك الصورة الممهدة المفروشة .. جعلهم ينتفعون بما فيها من كنوز وخيرات ، ويتقلبون عليها من مكان إلى آخر .. وصدق الله إذ يقول : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا .. ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان ﴾ ، بيان لبعض ما اشتملت عليه هذه الأرض من خيرات .

والفاكهة : اسم لما يأكله الإنسان من ثمار على سبيل التفكه والتلذذ ، لا على سبيل القوت الدائم ، مأخوذة من قولهم فكه فلان - كفرح - إذا تلذذت نفسه بالشىء .. والأكمام : جمع كِمّ - بكسر الكاف - ، وهو الطلع قبل أن تخرج منه الثمار .

وقوله : ﴿ ذو العصف ﴾ أى : ذو القشر الذى يكون على الحب ، وسمى بذلك لأن الرياح تعصف به . أى : تطيره لخفته ، أو المراد به الورق بعد أن ييبس ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

والريحان : هو النبات ذو الرائحة الطيبة ، وقيل هو الرزق .

أى : فى هذه الأرض التى تعيشون عليها أوجد الله - تعالى - الفاكهة التى تتلذذون بأكلها ، وأوجد لكم النخيل ذات الأوعية التى يكون فيها الثمر ..

وأوجد لكم الحب ، الذى تحيط به قشوره ، كما ترون ذلك بأعينكم ، فى سنابل القمح والشعير وغيرهما .

وأوجد لكم النبات الذى يمتاز بالرائحة الطيبة التى تبهج النفوس وتشرح الصدور ، فأنت ترى أنه - تعالى - قد ذكر فى هذه الآيات ألوانا من النعم ، فقد أوجد فى الأرض الفاكهة للتلذذ ، وأوجد الحب للغذاء ، وأوجد النباتات ذات الرائحة الطيبة .

قال القرطبى ما ملخصه : وقراءة العامة ﴿ والحبُّ ذو العصف والريحانُ ﴾ بالرفع فيها كلها ، عطفا على « فاكهة » أى : فيها فاكهة وفيها الحب ذو العصف ، وفيها الريحان ..

وقرأ ابن عامر بالنصب فيها كلها عطفا على الأرض ، أو بإضمار فعل ، أى : وخلق الحبَّ ذَا العصف والريحانَ . أى : وخلق الريحان .

وقرأ حمزة والكسائى بجر ﴿ الريحان ﴾ عطفا على العصف . أى : فيها الحب ذو العصف والريحانِ ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان بمعنى الرزق ، فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق ، لأن العصف رزق للبهائم ، والريحان رزق للناس ..[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

والفاء للتفريع على النعم المتعددة التى سبق ذكرها ، والاستفهام للتعجيب ممن يكذب بهذه النعم ، والآلاء : جمع إِلْى - بكسر الهمزة وفتحها وسكون اللام - وهى النعمة ، والخطاب للمكلفين من الجن والإنس ، وقيل لأفراد الإنس مؤمنهم وكافرهم ، أى : فبأى واحدة من هذه النعم تكذبان ربكما ، أى : تجحدان فضله ومننه - يامعشر الجن والإنس - مع أن كل نعمة من هذه النعم تستحق منكم الطاعة لى ، والخضوع لعزتى والإخلاص فى عبادتى .

قال الجمل ما ملخصه : كررت هذه الآية هنا إحدى وثلاثين مرة تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وهو ينكر هذا الإحسان : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفتنكر هذا ...؟

ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب ، وذلك أن الله - تعالى - عدد على عباده نعمه ، ثم خاطبهم بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقد كرر - سبحانه - هذه الآية ثمانى مرات ، عقب آيات فيها تعداد عجائب خلقه ، ومبدأ هذا الخلق ونهايته ، ثم كررها سبع مرات عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم .. ثم كررها - أيضا - ثمانى مرات فى وصف الجنتين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ، وكررها كذلك ثمانى مرات فى الجنتين اللتين هما دون الجنتين السابقتين ، فمن اعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق هاتين الثمانيتين من الله - تعالى - ، ووقاه السبعة السابقة بفضله وكرمه ..[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٥٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٥٤ .

ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عن نعمة خلق الإنسان ، وعن مظاهر قدرته فى هذا الكون ، فقال - تعالى - :

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

والصلصال - الطين اليابس الذى تسمع له صوتا وصلصلة إذا قرع بشىء .

والفخار : الخزف المجوف الذى صار كذلك بعد أن أدخل فى النار .

ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين غيرها من الآيات التى تحكى أن الإنسان خلق من تراب أو من طين أو من صلصال من حمأ مسنون .

لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلق الإنسان ، لأن هذا التراب صار طينا ، ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنونا ، أى : طينا أسود متغير الرائحة ، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالا كالفخار .

فالآيات الكريمة التى تحدثت عن خلق الإنسان لا يصادم بعضها بعضا ، وإنما يؤيد بعضها بعضا .

قال بعض العلماء : وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض ، فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والحديد ...

وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها من إنسان إلى آخر ، وفى الإنسان عن التراب ، إلا أن أصنافها واحدة .

إلا أن هذا الذى أثبته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى .

فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم ، أو تعنى شيئا آخر سواه ، وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال ..

والذى ننبه إليه بشدة ، هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان ، وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة[1] .

والمعنى : خلق - سبحانه - بقدرته أباكم آدم الذى هو أصلكم ، وعنه تفرع جنسكم من طين يابس يشبه الفخار فى يبوسته وصلابته .

﴿ وخلق ﴾ - سبحانه - ﴿ الجان ﴾ أى : جنس الجن ﴿ من مارج من نار ﴾ أى : من لهب خالص لا دخان فيه ، أو مما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر وغير الأحمر ، إذ المارج ، هو المختلط ، وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق ، أى : خلق جنس الجان من خليط من لهب النار . ومن فى قوله ﴿ من نار ﴾ للبيان .

قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى - خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها قاله الضحاك ، وعن ابن عباس : من مارج من نار ، أى : من لهب النار ..

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار . وخلق آدم مما وصف لكم »[2] .

والمقصود بالآيتين تذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم ، حيث بين - سبحانه - لهم مبدأ خلقهم ، وأنهم قد خلقوا من عنصر غير الذى خلق منه الجن ، وأن الله - تعالى - قد أمر إبليس المخلوق من النار ، بالسجود لأبيهم آدم المخلوق من الطين ، فعليهم أن يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، وأن يحذروا وسوسة إبليس وجنوده .

وبعد أن أمر بشكر هذه النعم ، أتبع ذلك ببيان مظهر آخر من مظاهر قدرته ، فقال :

---

(١) راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٧ ص ٣٥٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧١ .

﴿ رب المشرقين ، ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى : هو - سبحانه - رب مشرق الشمس فى الشتاء والصيف ، ورب مغربها فيهما ، وفى هذا التدبير المحكم منافع عظمى للإنسان والحيوان والنبات .

ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ رب المشرق والمغرب ... ﴾[1] . لأن المراد بهما جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا ، وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .

أو بين قوله - تعالى - فى آية ثالثة : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾[2] . أى : ورب جميع المشارق التى تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العام إذ لها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها فى كل يوم أيضا - مغرب تغرب فيه .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ .

وقوله : ﴿ مرج ﴾ من المرْج بمعنى الإرسال والتخلية ، ومنه قولهم : مرج فلان دابته . إذا أرسلها إلى المرج ، وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب .

ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فهم فى أمر مريج ﴾ أى : مختلط ، وقيل للمرعى : مرج لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .

والمراد بالبحرين : البحر العذب ، والبحر الملح . والبرزخ : الحاجز الذى يحجز بينهما ، بقدرة الله - تعالى - .

والمعنى : خلق الله - تعالى - البحرين ، وأرسلهما بقدرته فى مجاريهما ، بحيث يلتقيان ويتصل أحدهما بالآخر ، ومع ذلك لم يختلطا ، بل يبقى المالح على ملوحته . والعذب على عذوبته ، لأن حكمة الله قد اقتضت أن يفصل بينهما ، بحواجز من أجرام الأرض ، أو بخواص فى كل منهما ، تمنعهما هذه الخواص وتلك الحواجز ، من أن يختلطا ، ولولا ذلك لاختلطا وامتزجا ، وهذا من أكبر الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، ورحمته بعباده ، إذ أبقى الله - تعالى - المالح على ملوحته ، والعذب على عذوبته ، لينتفع الناس بكل منهما فى مجال الانتفاع به ..

---

(١) سورة الزمر الآية ٩ .
(٢) سورة الصافات الآية ٥ .

فالماء العذب ينتفع به فى الشراب للناس والدواب والنبات .. والماء الملح ينتفع به فى أشياء أخرى ، كاستخراج الملح منه ، وفى غير ذلك من المنافع ..

ومن بديع صنع الله فى هذا الكون ، أنك تشاهد البحار الهائلة على سطح الأرض ، والأنهار الكثيرة ، ومع ذلك فكل نوع منها باق على خصائصه ، مع أن كلا منها قد يلتقى بالآخر .

قال بعض العلماء : والمقصود يالبحرين ما يعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات . وبحر العجم ، المسمى اليوم بالخليج الفارسى . والتقاؤهما : انصباب ماء الفرات فى الخليج الفارسى ، فى شاطىء البصرة ، والبلاد التى على الشاطىء العربى من الخليج الفارسى تعرف عند العرب ببلاد البحرين لذلك .

والمراد بالبرزخ بينهما : الفاصل بين الماءين : الحلو والملح بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره وذلك بسبب ما فى كل منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به وهذا من مسائل الثقل النوعى .

وذكر البرزخ تشبيه بليغ ، أى : بينهما مثل البرزخ ، ومعنى لا يبغيان : أى لا يبغى أحدهما على الآخر ، أى : لا يغلب عليه فيفسد طعمه ، فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغى ..[١] .

وقال صاحب الظلال - رحمه الله - : والبحران المشار إليهما هما البحر المالح ، والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثانى الأنهار . ومرج البحرين : أرسلهما وتركهما يلتقيان . ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله - تعالى - .

وتصب جميع الأنهار - تقريبا - فى البحار ، وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها ، ومستوى سطوح الأنهار أعلى - فى العادة - من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه . ولا يغمر مجاريها بمائه الملح .. وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله ، فلا يبغيان .

فلا عجب أن يذكر - سبحانه - البحرين ، وما بينهما من برزخ ، فى مجال الآلاء والنعم ..[٢] .

ثم يذكر - سبحانه - بعض نعمه المختبئة فى البحرين فيقول : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٧ ص ٢٤٦ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .
(٢) راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٧ ص ٣٤٥٢ .

و﴿ اللؤلؤ ﴾ – فى أصله – حيوان ، وهو أعجب ما فى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة جيرية تقيه من الأخطار .. ويفرز مادة لزجة تتجمد مكونة « اللؤلؤ » .

والمرجان – أيضا – حيوان يعيش فى البحار .. ويكون جزرا مرجانية ذات ألوان مختلفة : صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية[١] .

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ الحلى الغالية الثمن ، العالية القيمة ، التى تتحلى بها النساء ..

والآية الكريمة صريحة فى أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحرين – الملح والعذب – إلا أن كثيرا من المفسرين ساروا على أنه – أى : اللؤلؤ والمرجان – يخرج من أحدهما فحسب ، وهو البحر الملح ..

قال الآلوسى ما ملخصه: واللؤلؤ صغار الدر، والمرجان كباره.. وقيل: العكس..

والمشاهد أن خروج « اللؤلؤ والمرجان » من أحدهما وهو الملح .. لكن لما التقيا وصارا كالشىء الواحد جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال : يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميعه ، ولكن من بعضه ، كما تقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقد يسند إلى الإثنين ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم ..[٢] .

والحق أن ما سار عليه الإمام الآلوسى وغيره : من أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح لا من البحر العذب ، مخالف لما جاء صريحا فى قوله – تعالى – : ﴿ وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ...﴾[٣] .

فإن هذه الآية صريحة فى أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من كلا البحرين الملح والعذب ، وقد أثبتت البحوث العلمية صحة ذلك ، فقد عثر عليهما فى بعض الأنهار العذبة ، التى فى ضواحى ويلز واسكتلاندا فى بريطانيا ..[٤] .

ثم بين – سبحانه – نعمة أخرى من نعمة التى مقرها البحار فقال : ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

---

(١) راجع « كتاب الله والعلم الحديث » ص ١٠٥ للأستاذ عبد الرازق نوفل .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٠٦ .
(٣) سورة فاطر الآية ١٢ .
(٤) راجع دائرة معارف الشعب المصرية العدد ٧٣ ص ٥٣٧ .

والجوار : أى السفن الجارية ، فهى صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه ، وهو قوله - تعالى - ﴿ فى البحر ﴾ .

والمنشآت : جمع منشأة - اسم مفعول - أى : مرفوعة الشراع ، وهو ما يسمى بالقلع ، من أنشأ فلان الشيء ، إذا رفعه عن الأرض ، وأنشأ فى سيره إذا أسرع ..

أى : وله - سبحانه - وحده لا لغيره ، التصرف المطلق فى السفن المرفوعة القلاع والتى تجرى فى البحر ، وهى تشبه : الجبال فى ضخامتها وعظمتها .

والتعبير : بقوله - تعالى - ﴿ وله ﴾ للاشعار بأن كونهم هم الذين صنعوها لا يخرجها عن ملكه - تعالى - وتصرفه ، إذ هو الخالق الحقيقى لهم ولها ، وهو الذى سخر تلك السفن لتشق ماء البحر بأمره .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى دلالتها على قدرة الله - تعالى - وعلى منته على عباده بهذه السفن التى تجرى فى البحر بأمره . قوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾[1] .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ونعمه على عباده .. جاء الحديث عن تفرده - تعالى - بالبقاء ، بعد فناء جميع المخلوقات التى على ظهر الأرض ، وعن افتقار الناس إليه وحده - سبحانه - وغناه عنهم فقال - تعالى - :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ

(١) سورة الشورى الآيات ٣٢ - ٣٤ .

أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

والضمير فى ﴿ عليها ﴾ يعود إلى الأرض بقرينة المقام ، والمراد بمن عليها : كل من يعيش فوقها ، ويدخل فيهم دخولا أوليا بنو آدم ، لأنهم هم المقصودون بالخطاب ، ولذا جىء بمن الموصولة الخاصة بالعقلاء .

أى : كل من على الأرض من إنسان وحيوان وغيرهما سائر إلى الزوال والفناء ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ وذاته بقاء لا تغير معه ولا زوال ، فهو - سبحانه - ﴿ ذو الجلال ﴾ أى : ذو العظمة والاستغناء المطلق ﴿ والإكرام ﴾ أى : والفضل التام ، والإحسان الكامل ..

وقال - سبحانه - : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ولم يقل ويبقى وجه ربكما . كما فى قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما ... ﴾ .

لأن الخطاب للنبى - ﷺ - على سبيل التكريم والتشريف ، ويدخل تحته كل من يتأتى له الخطاب على سبيل التبع .

قال القرطبى : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض . فنزلت ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ فأيقنت الملائكة بالهلاك .

وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ أى : ويبقى الله ، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته ، قال الشاعر :

قضى على خلقه المنايا فكل شىء سواه زائل

وهذا الذى ارتضاه المحققون من علمائنا ..[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ بيان لغناه المطلق عن غيره ، واحتياج غيره إليه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٦٥ .

والمراد باليوم هنا : مطلق الوقت مهما قل زمنه ، والشأن : الأمر العظيم ، والحدث الهام ..

أى : أنه - سبحانه - يسأله من فى السموات والأرض ، سؤال المحتاج إلى رزقه ، وفضله ، وستره ، وعافيته .. وهو - عز وجل - فى كل وقت من الأوقات ، وفى كل لحظة من اللحظات ، فى شأن عظيم . وأمر جليل ، حيث يحدث ما يحدث من أحوال فى هذا الكون ، فيحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويغنى ويفقر ، ويشفى ويمرض .. دون أن يشغله شأن عن شأن ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ أى : كل وقت من الأوقات ، هو فى شأن من الشئون ، التى من جملتها إعطاء ما سألوا . فإنه - تعالى - لايزال ينشىء أشخاصا ، ويفنى آخرين ، ويأتى بأحوال ، ويذهب بأحوال ، حسبما تقتضيه إرادته المبنية على الحكم البالغة ..

أخرج البخارى فى تاريخه ، وابن ماجه ، وجماعة عن أبى الدرداء ، عن النبى - ﷺ - أنه قال فى هذه الآية : « من شأنه : أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويخفض آخرين » .

وسأل بعضهم أحد الحكماء ، عن كيفية الجمع بين هذه الآية ، وبين ما صح من أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال : « شئون يبديها لا شئون يبتديها » ..

وانتصب « كل يوم » على الظرفية ، والعامل فيه هو العامل فى قوله - تعالى - : ﴿ فى شأن ﴾ وهو ثابت المحذوف ، فكأنه قيل : هو ثابت فى شأن كل يوم ..[1] .

ثم هدد - سبحانه - الذين يخالفون عن أمره تحذيرا شديدا ، فقال : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وجيء بحرف التنفيس الدال على القرب وهو السين للإشعار بتحقق ما أخبر به - سبحانه - .

وقوله : ﴿ نفرغ ﴾ من الفراغ ، وهو الخلو عما يشغل ..

والمراد به هنا : القصد إلى الشيء والإقبال عليه ، يقال : فلان فرغ لفلان وإليه ، إذا قصد إليه لأمر ما ..

والثقلان : تثنية ثقل - بفتحتين - ، وأصله كل شيء له وزن وثقل ، والمراد بهما هنا : الإنس والجن .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١١٠ .

والمعنى : سنقصد يوم القيامة إلى محاسبتكم على أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بما تستحقون ، وسيكون هذا شأننا - أيها الثقلان - فى هذا اليوم العظيم .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ سنفرغ لكم ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده ، سأفرغ لك ، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنك ، حتى لا يكون لى شغل سواه ، والمراد : التوفر على النكاية فيه ، والانتقام منه .

ويجوز أن يراد ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التى أرادها بقوله - تعالى - : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ ، فلا يبقى إلا شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ...﴾ مقول لقول محذوف ، دل عليه ما قبله .

والمعشر - برنة مفعل - اسم للجمع الكثير الذى يعد عشرة فعشرة .

وقوله : ﴿ تنفذوا ﴾ من النفاذ بمعنى الخروج من الشىء ، والأمر منه وهو قوله : ﴿ فانفذوا ﴾ مستعمل فى التعجيز . والأقطار : جمع قطر - بضم القاف وسكون الطاء - وهو الناحية الواسعة ..

والمعنى : سنقصد إلى محاسبتكم ومجازاتكم على أعمالكم يوم القيامة ، وسنقول لكم على سبيل التعجيز والتحدى . يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا وتخرجوا من جوانب السموات والأرض ومن نواحيها المتعددة .. فانفذوا واخرجوا ، وخلصوا أنفسكم من المحاسبة والمجازاة ..

وجملة : ﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ بيان للتعجيز المتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ فانفذوا ﴾ ، والسلطان المراد به هنا : القدرة والقوة .

أى : لا تنفذون من هذا الموقف العصيب الذى أنتم فيه إلا بقدرة عظيمة ، وقوة خارقة ، تزيد على قوة خالقكم الذى جعلكم فى هذا الموقف ، وأنى لكم هذه القوة التى أنتم أبعد ما تكونون عنها ؟ .

فالمقصود بالآية الكريمة ، تحذير الفاسقين والكافرين ، من التمادى فى فسقهم وكفرهم ، وبيان أنهم سيكونون فى قبضة الله - تعالى - وتحت سلطانه ، وأنهم لن يستطيعوا الهروب من قبضته وقضائه فيهم بحكمه العادل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٧ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ استئناف فى جواب سؤال مقدر عما سيصيبهم إذا ما حاولوا الفرار .

والشواظ : اللهب الذى لا يخالطه دخان ، لأنه قد تم اشتعاله فصار أشد إحراقا .

والنحاس : المراد به هنا الدخان الذى لا لهب فيه ، ويصح أن يراد به : الحديد المذاب . أى : أنتم لا تستطيعون الهرب من قبضتنا بأى حال من الأحوال ، وإذا حاولتم ذلك ، أرسلنا عليكم وصببنا على رءوسكم لهبا خالصا فأحرقكم ، ودخانا لا لهب معه فكتم أنفاسكم ، وفى هذه الحالة لا تنتصران . ولا تبلغان ماتبغيانه ، ولا تجدان من يدفع عنكم عذابنا وبأسنا .

هذا والمتأمل فى تلك الآيات الكريمة . يراها قد صورت بأسلوب بديع تفرد الله - تعالى - بالملك والبقاء ، وافتقار الخلائق جميعا إلى عطائه ، وأنهم جميعا فى قبضته ، ولن يستطيعوا الهروب من حكمه فيهم ..

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن العذاب الذى يحيط بالمجرمين ، وينزل بهم ، فقال - تعالى - :

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

---

(١) سورة القيامة الآيات ٧ ، ١٢ .

وجواب « إذا » فى قوله - سبحانه - : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ محذوف لتهويل أمره ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فكانت وردة ﴾ تشبيه بليغ ، أى : فكانت كالوردة فى الحمرة .

والوردة جمعها ورود ، وهى زهرة حمراء معروفة ذات أغصان شائكة . والدهان : ما يدهن به الشيء .. أى : فإذا انشقت السماء ، فصارت حين انشقاقها وتصدعها ، كالوردة الحمراء فى لونها ، وكالدهان الذى يدهن به الشيء فى ذوبانها وسيلانها ، رأيت مايفزع القلوب ، ويزلزل النفوس من شدة الهول .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية .. ﴾[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما ﴾[3] .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على هذا الانشقاق والذوبان للسماء من أهوال فقال : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ . أى : ففى هذا اليوم العصيب ، وهو يوم الحشر ، لا يسأل عن ذنبه أحد ، لا من الإنس ولا من الجن .

أى : أنهم لا يسألون عن ذنوبهم عند خروجهم من قبورهم ، وإنما يسألون عن ذلك فى موقف آخر ، وهو موقف الحساب والجزاء ، إذ فى يوم القيامة مواقف متعددة .

وبذلك يجاب عن الآيات التى تنفى السؤال يوم القيامة ، والآيات التى تثبته ، كقوله - تعالى - : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

وبعضهم يرى أن السؤال المنفى فى بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام ، والسؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع .. عن الأسباب التى جعلتهم ينحرفون عن الطريق المستقيم ، ويسيرون فى طريق الفسوق والعصيان ..

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) سورة الحاقة الآيات ١٣ - ١٦ .
(٣) سورة المعارج الآيات ٨ - ١٠ .

ثم بين - سبحانه - ما يحل بالمجرمين فى هذا اليوم من عذاب فقال : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله : ﴿ بسيماهم ﴾ أى : بعلاماتهم التى تدل عليهم ، وهى زرقة العيون . وسواد الوجوه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ... ﴾[1] .

وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ... ﴾[2] .

والنواصى : جمع ناصية ، وهى مقدم الرأس . والأقدام : جمع قدم ، وهو ظاهر الساق ، و« أل » فى هذين اللفظين عوض عن المضاف إليه .

والمراد بالطواف فى قوله : ﴿ يطوفون بينها .. ﴾ كثرة التردد والرجوع إليها بين وقت وآخر .

والحميم : الماء الشديد الغليان والحرارة .

و﴿ آن ﴾ : أى : قد بلغ النهاية فى شدة الحرارة ، يقال : أَنَى الحميم ، أى انتهى حره إلى أقصى مداه، فهو آن وبلغ الشىء أناه - بفتح الهمزة وكسرها - إذا وصل إلى غاية نضجه وإدراكه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ أى : نضجه ..

أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الحساب والجزاء ﴿ يعرف المجرمون ﴾ بسواد وجوههم ، وزرقة عيونهم ، وبما تعلو أفئدتهم من غبرة ترهقها قترة . فتأخذ الملائكة بالشعر الذى فى مقدمة رءوسهم ، وبالأمكنة الظاهرة من سيقانهم ، وتقذف بهم فى النار ، وتقول لهم على سبيل الإهانة والإذلال : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا أيها المجرمون ، فترددوا بين مائها الحار ، وبين سعيرها البالغ النهاية فى الشدة .

وفى قوله : ﴿ فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ إشارة إلى التمكن منهم تمكنا شديدا ، بحيث لا يستطيعون التفلت أو الهرب .

وقد ختمت كل آية من هذه الآيات السابقة بقوله - تعالى - : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ لأن عقاب العصاة المجرمين ، وإثابة الطائعين المتقين ، يدل على كمال عدله

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٠ .
(٢) سورة طه الآية ١٠٢ .

- سبحانه - ، وعلى فضله ونعمته على من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

قال الإمام ابن كثير : ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ورحمته ، وعدله ، ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه ، مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك قال ممتنا بذلك على بريته ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[1] .

وكعادة القرآن الكريم فى قرن أحوال الأخيار ، بأحوال الأشرار ، أو العكس : جاء الحديث عما أعده - سبحانه - للمتقين من جزيل الثواب ، بعد الحديث عما سينزل بالمجرمين من عقاب فقال - تعالى - :

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ... ﴾ شروع فى تعديد الآلاء التى تفاض فى الآخرة على المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة المكذبين .

و ﴿ مقام ﴾ مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل . أى : ولمن خاف قيام ربه عليه وكونه مراقبا له ، ومهيمنا عليه فالقيام هنا مثله فى قوله - تعالى - ﴿ أفمن هو قائم على كل

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٧ .

نفس بما كسبت ...﴾ أو هو اسم مكان . والمراد به مكان وقوف الخلق فى يوم القيامة للحساب .. إذ الخلق جميعا قائمون له – تعالى – كما فى قوله – سبحانه – : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾(١) .

والمعنى : ولكل من خاف القيام بين يدى ربه للحساب ، وخشى هيمنته – سبحانه – عليه ، ومجازاته له ... لكل من خاف ذلك وقدم فى دنياه العمل الصالح ، ﴿ جنتان ﴾ يتنقل بينهما ، ليزداد سروره ، وحبوره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ﴿ جنتان ﴾ ؟ قلت الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان . جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى .

ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصى ، لأن التكليف دائر عليهما ، وأن يقال : جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله – تعالى – : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ صفة للجنتين . والأفنان جمع فنن – بفتحتين – وهو الغصن . أى : جنتان صاحبتا أغصان عظيمة . تمتاز بالجمال واللين والنضرة .

ثم وصفهما – سبحانه – بصفات أخرى كريمة فقال : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أى : فى كل جنة منهما عين تجرى بالماء العذب الفرات ..

﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أى : وفيهما كذلك من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان ، ليتفكه المتقون ويتلذذوا بتلك الفواكه الكثيرة ، التى لا هى مقطوعة ، ولا هى ممنوعة .

ثم بين – سبحانه – حسن مجلسهم فقال : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان ﴾ .

والجملة الكريمة حال من قوله – تعالى – : ﴿ ولمن خاف مقام ربه .. ﴾ .

وعبر – سبحانه – بالاتكاء لأنه من صفات المتنعمين الذين يعيشون عيشة راضية ، لاهم معها ولا حزن .

والفرش : جمع فراش – ككتب وكتاب – وهو ما يبسط على الأرض للنوم أو الاضطجاع .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١١٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٩ .

والبطائن : جمع بطانة ، وهى ما قابل الظهارة من الثياب ، ومشتقة من البطن المقابلة للظهر ، ومن أقوالهم : أفرشنى فلان ظهره وبطنه ، أى : أطلعنى على سره وعلانيته .

والاستبرق : الديباج المصنوع من الحرير السميك ، وهو من أجود أنواع الثياب .

والمعنى : أن هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، يعيشون فى الجنات حالة كونهم ، متكئين فى جلستهم على فرش بطائنها الداخلية من الديباج السميك . ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ أى : وما يجنى ويؤخذ من الجنتين قريب التناول ، دانى القطاف .

فالمراد بقوله - تعالى - : ﴿ وجنى الجنتين ﴾ ما يجتنى من ثمارهما و﴿ دان ﴾ من الدنو بمعنى القرب .

أى : أنهم لا يتعبون أنفسهم فى الحصول على تلك الفواكه ، وإنما يقطفون ما يشاءون منها ، وهم متكئون على فراشهم الوثير .

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من نعيمهم فقال : ﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ صفة لموصوف محذوف . والطمث : كناية عن افتضاض البكارة . يقال : طمث الرجل امرأته - من باب ضرب وقتل - ، إذا أزال بكارتها . وأصل الطمث : الجماع المؤدى إلى خروج دم الفتاة البكر ، ثم أطلق على كل جماع وإن لم يكن معه دم .

أى : فى هاتين الجنتين اللتين أعدهما - سبحانه - لمن خاف مقامه .. نساء قاصرات عيونهن على أزواجهن ، ولا يلتفتن إلى غيرهم . وهؤلاء النساء من صفاتهن - أيضا- أنهن أبكار ، لم يلمسهن ولم يزل بكارتهن أحد قبل هؤلاء الأزواج .. وكأن هؤلاء النساء فى صفائهن وجمالهن وحمرة خدودهن .. الياقوت والمرجان .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ والاستفهام لنفى أن يكون هناك مقابل لعمل الخير ، سوى الجزاء الحسن ، فالمراد بالإحسان الأول ، القول الطيب ، والفعل الحسن ، والمراد بالإحسان الثانى : الجزاء الجميل الكريم على فعل الخير .

أى : ما جزاء من آمن وعمل صالحا ، وخاف مقام ربه ، ونهى نفسه عن الهوى .. إلا أن يجازى الجزاء الحسن ، ويقدم له العطاء الذى يشرح صدره وتقر به عينه .

وقد عقب - سبحانه - بعد كل آية من تلك الآيات السابقة بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما

تكذبان ﴾ لأن كل آية قد اشتملت على نعمة أو نعم عظيمة من شأن العاقل أن يشكر الله - تعالى - عليها شكرا جزيلا .

ثم واصلت السورة حتى نهايتها ، حديثها عن النعم التى منحها - سبحانه - لمن خاف مقام ربه ، فقال - تعالى - :

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ .

ولفظ دون هنا يحتمل أنه بمعنى غير . أى : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وله - أيضا - جنتان أخريان غيرهما ، فهو من باب قوله - سبحانه - ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

قالوا : ويشهد لهذا الاحتمال . أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يقارب وصفه للجنتين السابقتين ، وأن تكرير هذه الاوصاف من باب الحض على العمل الصالح الذى يوصل الى الظفر بتلك الجنات ، وما اشتملت عليه من خيرات .

ويحتمل أن لفظ ﴿ دون ﴾ هنا : بمعنى أقل ، أى : وأقل من تلك الجنتين فى المنزلة والقدر ، جنتان أخريان ..

وعلى هذا المعنى سار جمهور المفسرين ، ومن المفسرين الذين ساروا على هذا الرأى الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة ، بنص القرآن ، فقد قال - تعالى - : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ..

فالأوليان للمقربين ، والأخريان : لأصحاب اليمين ..

والدليل على شرف الأولين على الأخريين وجوه :

أحدها : أنه نعت الأوليين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وهذا ظاهر فى شرف المتقدم ، وعلوه على الثانى .

وقال هناك ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وهى الأغصان ، أو الفنون فى الملاذ : وقال ههنا ﴿ مدهامتان ﴾ أى : سوداوان من شدة الرى من الماء ..[1] .

وقال الإمام القرطبى : فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين ، كما ذكر أهل الجنتين الأوليين ؟ .

قيل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه . إلا أن الخائفين مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد منزلة فى الخوف من الله - تعالى - ، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله - تعالى -[2] .

وقال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ مبتدأ وخبر أى : ومن دون تينك الجنتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان والأكثرون على أن الأوليين للسابقين ، وهاتين لأصحاب اليمين ..

وقوله : ﴿ مدهامتان ﴾ صفة للجنتين .. أى : هما شديدتا الخضرة ، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الرى ..[3] .

ثم فصل - سبحانه - أوصاف هاتين الجنتين فقال : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ أى : فوارتان بالماء الذى لا ينقطع منهما من النضخ وهو فوران الماء من العيون مع حسنه وجماله .

﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وعطف - سبحانه - النخل والرمان على الفاكهة مع أنهما منها ، لفضلهما ، فكأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٩ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٨٤ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٢١ .

أو - كما يقول صاحب الكشاف - : لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه ، ولذا قال أبو حنيفة - رحمه الله - إذا حلف لا يأكل فاكهة ، فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث ...[(١)].

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ يعود إلى الجنات الأربع : الجنتين المذكورتين فى قوله - تعالى - : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ والجنتين المذكورتين هنا فى قوله - سبحانه - : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ .

ولفظ ﴿ خيرات ﴾ صفة لموصوف محذوف . أى : نساء خيرات حسان .

أى : فى هذه الجنات نساء فاضلات الأخلاق ، حسان الخلق والخلق .

قال الجمل : قوله : ﴿ خيرات ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه جمع خَيرة بزنة فعلة بسكون العين - يقال : امرأة خيرة ، وأخرى شرة ، والثانى . أنه جمع خيرة المخفف من خيرة بالتشديد ، ويدل على ذلك قراءة خيرات - بتشديد الياء ..[(٢)] .

وقوله ﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾ بدل من خيرات . والحور : جمع حوراء ، وهى المرأة ذات الحور ، أى : ذات العين التى اشتد بياضها واشتد سوادها فى جمال وحسن ..

ومقصورات : جمع مقصورة أى : محتجبة فى بيتها . قد قصرت نفسها على زوجها .. فهى لا تجرى فى الطرقات .. بل هى ملازمة لبيتها ، وتلك صفة النساء الفضليات اللاتى يزورهن من يريدهن ، أما هن فكما قال الشاعر :

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتَعُذر

أى : فى تلك الجنات نساء خيرات فضليات جميلات مخدرات . ملازمات لبيوتهن ، لا يتطلعن إلى غير رجالهن ..

هؤلاء النساء ﴿ لم يطمثهن ﴾ أى : لم يلمسهن ويباشرهن ﴿ إنس قبلهم ولا جان ﴾ .

أى : لم يجامعهن أحد لا من الإنس ولا من الجن قبل الرجال الذين خصصهن الله - تعالى - لهم ..

وقوله : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ...﴾ حال من قوله - تعالى - : ﴿ ولمن خاف مقام ربه ...﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٦٦ .

والرفرف : مأخوذ من الرَّف بمعنى الارتفاع ، وهو اسم جمع واحده رفرفة ، أو اسم جنس جمعى و﴿ خضر ﴾ صفة له ..

والعبقرى : وصف لكل ما كان ممتازا فى جنسه . نادر الوجود فى صفاته والمراد به هنا الثوب الموشى بالذهب ، والبالغ النهاية فى الجودة والجمال ..

قال القرطبى : العبقرى : ثياب منقوشة تبسط .. قال القتيبى : كل ثوب وشى عند العرب فهو عبقرى . وقال أبو عبيد : هو منسوب الى أرض يعمل فيها الوشى ..

ويقال : عبقر قرية باليمن تنسج فيها بسط منقوشة . وقال ابن الأنبارى : إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل ، ومنه قول النبى - ﷺ - : فى عمر ابن الخطاب : فلم أر عبقريا يفرى فريه ..[1] .

أى : هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ، قد أسكناهم بفضلنا الجنات العاليات حالة كونهم فيها على الفرش الجميلة المرتفعة . وعلى الأبسطة التى بلغت الغاية فى حسنها وجودتها ودقة وشيها ..

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ .

أى : جل شأن الله - تعالى - ، وارتفع اسمه الجليل عما لا يليق بشأنه العظيم ، فهو - عز وجل - صاحب الجلال . أى : العظمة والاستغناء المطلق ، والإكرام . أى : الفضل التام ، والإحسان الذى لا يقاربه إحسان .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الرحمن » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الدوحة - قطر

صباح الأحد ٦ من رجب ١٤٠٦ هـ

١٦ من مارس ١٩٨٦ م .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٩٢ .

تفسير

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الواقعة » هى السورة السادسة والخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فقد كان نزولها بعد سورة « طه » وقبل سورة « الشعراء » .

وقد عرفت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ، فعن ابن عباس قال : قال أبو بكر - رضى الله عنه - للنبى - ﷺ - : يارسول الله قد شبت . قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا .. »[1] .

٢ - وعدد آياتها ست وتسعون آية عند الكوفيين . وسبع وتسعون عند البصريين ، وتسع وتسعون عند الحجازيين والمدنيين .

٣ - وسورة « الواقعة » من السور المكية الخالصة ، واستثنى بعضهم بعض آياتها ، وعدها من الآيات المدنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ... ﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

والذى تطمئن إليه النفس أن السورة كلها مكية ، وأن ما استثنى منها لم يقم دليل يعتد به على صحته .

٤ - وقد افتتحت سورة « الواقعة » بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن أقسام الناس فى هذا اليوم ..

قال - تعالى - : ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ... ﴾ .

٥ - وبعد أن فصل - سبحانه - الحديث عن كل قسم من هذه الأقسام ، وبين ما أعد له

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨١ .

من جزاء عادل ... أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر قدرته ، وسعة رحمته ، وعظيم فضله ، فقال - تعالى - : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ماتمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ...﴾ .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ...﴾ .

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ .

﴿ أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ .

٦ - وكما افتتحت السورة الكريمة ببيان أهوال يوم القيامة ، وبيان أنواع الناس فى هذا اليوم .. اختتمت - أيضا - بالحديث عن أقسام الناس يوم الحساب ، وعاقبة كل قسم ، قال - تعالى - : ﴿ فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة ونعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ، إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

٧ - هذا والمتدبر فى هذه السورة الكريمة ، يراها قد ساقت بأسلوب بليغ مؤثر ، ما يحمل الناس على حسن الاستعداد ليوم القيامة ، عن طريق الإيمان العميق ، والعمل الصالح ، ومايبين لهم عن طريق المشاهدة مظاهر قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، وما يكشف لهم النقاب عن أقسام الناس فى يوم الحساب ، وعن عاقبة كل قسم ، وعن الأسباب التى وصلت بكل قسم منهم إلى ما وصل إليه من جنة أو نار ..

وما يريهم عجزهم المطلق أمام قدرة الله - تعالى - وأمام قضائه وقدره .. فهم يرون بأعينهم أعز إنسان عندهم ، تنتزع روحه من جسده .. ومع ذلك فهم عاجزن عن أن يفعلوا شيئا ..

وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ ..

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المقربين .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

د . محمد سيد طنطاوى

الدوحة قطر

مساء الاثنين ٧ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ

١٧ من مارس سنة ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ
(٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥)
فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١)
فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ
(١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦)
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ
ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦)

افتتحت سورة « الواقعة » بتقرير الحقيقة التى لاشك فيها ، وهى أن يوم القيامة حق وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق ..

وقد اختير الافتتاح بالظرف المتضمن معنى الشرط ، لأنه ينبه الأذهان ويحرك النفوس لترقب الجواب .

والواقعة من أسماء القيامة كالقارعة ، والحاقة ، والآزفة ..

قال الجمل : وفى ﴿ إذا ﴾ هنا أوجه : أحدها : أنها ظرف محض ، ليس فيها معنى الشرط ، والعامل فيها ليس ، من حيث ما فيها من معنى النفى ، كأنه قيل : ينتفى التكذيب بوقوعها إذا وقعت .

والثانى : أن العامل فيها اذكر مقدرا . الثالث : أنها شرطية وجوابها مقدر ، أى : إذا وقعت الواقعة كان ، كيت وكيت ، وهو العامل فيها ..[١] .

وقال بعض العلماء : والذى يظهر لى صوابه ، أن إذا هنا : هى الظرفية المتضمنة معنى الشرط ، وأن قوله الآتى : ﴿إذا رجت الأرض رجا ﴾ بدل من قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ وأن الجواب إذا هو قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ..﴾ .

وعليه فالمعنى : إذا قامت القيامة ، وحصلت هذه الأحوال العظيمة ، ظهرت منزلة أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ..[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ مؤكد لما قبله ، من أن وقوع يوم القيامة حق لا ريب فيه .

وكاذبة : صفة لموصوف محذوف ، وهى اسم فاعل بمعنى المصدر ..

أى : عندما تقع القيامة ، لا تكذبها نفس من النفوس التى كانت تجحدها فى الدنيا ، بل كل نفس حينئذ تكون مصدقة لها .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ . الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ، كقوله - تعالى - : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أى : لغو ..

أى : ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف ، بل هى واقعة يقينا ..

أو الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أى : ليس لوقعتها حال كاذبة أو نفس كاذبة ..[٣] .

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٧٠ .

(٢) راجع أضواء البيان جـ ٧ ص ٧٦١ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٩٤ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ... ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على قيام الساعة من أحوال فقال : ﴿ خافضة رافعة ﴾ أى : هى خافضة للأشقياء إلى أسفل الدركات : وهى رافعة للسعداء إلى أعلى الدرجات .

والخفض والرفع يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة . وفى العز والإهانة .. ونسب - سبحانه - الخفض والرفع إلى القيامة على سبيل المجاز .

والمقصود بالآية الكريمة ترغيب الصالحين فى الازدياد من العمل الصالح ، لترفع منزلتهم يوم القيامة ، وترهيب الفاسقين من سوء المصير الذى ينتظرهم ، إذا ما استمروا فى فسقهم وعصيانهم .

ويرى بعضهم أن المراد بالخفض والرفع فى هذا اليوم ، ما يترتب عليه من تناثر النجوم ، ومن تبدل الأرض غير الأرض ، ومن صيرورة الجبال كالعهن المنفوش ..

وعلى هذا يكون المقصود بالآية : التهويل من شأن يوم القيامة ، حتى يستعد الخلق لاستقباله ، بالإيمان والعمل الصالح ، حتى لا يصيبهم فيه ما يصيب العصاة المفسدين ، من خزى وهوان ..

والآية الكريمة تسع المعنيين ، لأن فى هذا اليوم يرتفع الأخيار وينخفض الأشرار ، ولأن فيه - أيضا - ﴿ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... ﴾ .

والمراد بالرج فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا ... ﴾ التحريك الشديد ، والاضطراب الواضح . يقال : رج فلان الشىء رجا ، إذا حركه بعنف وزلزله بقوة ..

وقوله ﴿ وبست ﴾ من البس بمعنى التفتيت والتكسير الدقيق ، ومنه قولهم : بس فلان السويق ، إذا فتته ولته وهيأه للأكل ..

أى : إذا رجت الأرض وزلزلت زلزالا شديدا ، وفتتت الجبال تفتيتا حتى صارت كالسويق

---

(١) سورة النساء الآية ٨٧ .

(٢) سورة غافر الآية ٨٤ .

الملتوت .. فكانت تلك الجبال كالهباء المنبث أى : المتفرق الذى يلوح من خلال شعاع الشمس إذا ما دخل من نافذة ..

إذا ما حدث كل ذلك ، وجد كل إنسان جزاءه من خير أو شر ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

فجواب الشرط ماذكرته الآيات بعد ذلك من حسن عاقبة أصحاب الميمنة وسوء عاقبة أصحاب المشأمة .

ومن الآيات الكثيرة ، التى وردت فى معنى هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾[1] .

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴾ للناس جميعا ، وكان بمعنى صار ، والأزواج بمعنى الأصناف والأنواع ..

أى : وصرتم - أيها الناس - فى هذا اليوم الهائل الشديد ، أصنافا ثلاثة ، على حسب أحوالكم فى الدنيا ..

ثم فصل - سبحانه - الحديث عن الأزواج الثلاثة فقال : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون ﴾ .

والمراد بأصحاب الميمنة ، أولئك السعداء الذين يؤتون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم ، أو لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة ..

أو سموا بذلك ، لأنهم ميامين ، أى : أصحاب بركة على أنفسهم ، لأنهم أطاعوا ربهم وخالفوا أهواءهم .. فكانت عاقبتهم الجنة .

وسمى الآخرون بأصحاب المشأمة ، لأنهم مشائيم ، أى : أصحاب شؤم على أنفسهم ، لأنهم طغوا وآثروا الحياة الدنيا ، فكانت عاقبتهم النار .

أو سموا بذلك ، لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم . أو لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار .. والعرب تسمى الشمال شؤما ، كما تسمى اليمين يمنا .

والتعبير بقوله : ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ للتفخيم والإعلاء من شأنهم ، كما أن التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ ما أصحاب المشأمة ﴾ للتحقير والتعجيب من حالهم .

وجملة : ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ مكونة من مبتدأ - وهو ما الاستفهامية - ، وخبر وهو

---

(١) سورة المزمل الآية ١٤ .

ما بعدها ، وهذه الجملة خبر لقوله ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ . ووضع فيها الاسم الظاهر موضع الضمير للتفخيم ، بخلاف وضعه فى أصحاب المشأمة ، فهو للتشنيع عليهم .

وشبيه بهذا الأسلوب قوله - تعالى - : ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ و﴿ القارعة ما القارعة ﴾ ولا يؤتى بمثل هذا التركيب إلا فى مواضع التفخيم ، أو التعجيب ..

والمعنى : فأصحاب الميمنة ، أى شىء هم فى أحوالهم وصفاتهم الكريمة ، وأصحاب المشأمة ، أى شىء هم فى أحوالهم وصفاتهم القبيحة ؟ .

وقد ترك هذا الاستفهام التعجيبى على إبهامه ، لتذهب النفس فيه كل مذهب من الثواب أو العقاب ..

وقوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هؤلاء هم الصنف الثالث ، وهم الذين سبقوا غيرهم إلى كل قول أو فعل فيه طاعة لله - تعالى - وتقرب إلى جلاله .

والأظهر فى إعراب مثل هذا التركيب ، أنه مبتدأ وخبر ، على عادة العرب فى تكريرهم اللفظ ، وجعلهم الثانى خبرا عن الأول ، ويعنون بذلك أن اللفظ المخبر عنه ، معروف خبره ، ولا يحتاج إلى تعريفه ، كما فى قول الشاعر :

* أنا أبو النجم ، وشعرى شعرى *

يعنى : أن شعرى هوالذى أتاك خبره ، وانتهى إليك وصفه ..

والمعنى : والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم . وعرفت منزلتهم ، وبلغت من الرفعة مبلغا لا يفى به إلا الإخبار عنهم بهذا الوصف .

وحذف - سبحانه - المتعلق فى الآية لإفادة العموم ، أى : هم السابقون إلى كل فضل ومكرمة وطاعة ..

وأخرهم - سبحانه - عن أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، لتشويق السامع إلى معرفة أحوالهم ، وبيان ما أعد لهم من ثواب عظيم ، فصله بعد ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ أولئك المقربون . فى جنات النعيم ...﴾ أى : والسابقون غيرهم إلى كل فضيلة وطاعة ، أولئك هم المقربون عند الله - تعالى - وأولئك هم الذين مقرهم جنات النعيم .

فالجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا ، لأنها جواب يثيره فى النفوس قوله - تعالى - ﴿ والسابقون السابقون ﴾ و﴿ أولئك ﴾ مبتدأ ، وخبره ما بعده . وما فيه من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإشعار بسمو منزلتهم عند الله - تعالى - ولفظ ﴿ المقربون ﴾

مأخوذ من القربة بمعنى الحظوة ، وهو أبلغ من القريب ، لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء ..

أى : أولئك هم المقربون من ربهم - عز وجل - قربا لا يعرف أحد مقداره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فى جنات النعيم ﴾ بيان لمظهر من مظاهر آثار هذا التقرب .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ فى جنات النعيم ﴾ متعلق بقوله ﴿ المقربون ﴾ أو بمضمر هو حال من ضميره ، أى كائنين فى جنات النعيم .

وعلى الوجهين . فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة ، لا كقرب خواص الملك القائمين بأشغاله عنده ، بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شغل لهم ، ولا يرد عليهم أمر أو نهى ، ولذا قيل ﴿ جنات النعيم ﴾ دون جنات الخلود ونحوه ..[(١)] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين ﴾ والثلة : الجماعة الكثيرة من الناس ، وأصلها : القطعة من الشيء .. وهى خبر لمبتدأ محذوف ، وللمفسرين فى المراد بالثلة من الأولين ، وبالقليل من الآخرين ، اتجاهان :

أولهما : يرى أصحابه أن المراد بقوله : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ : أولئك السابقون من الأمم الكثيرة السابقة على الأمة الإسلامية ، وهم الذين صدقوا أنبياءهم وعزروهم ونصروهم .

والمراد بقوله : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ المؤمنون من هذه الأمة الإسلامية .

وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشاف . فقد قال : الثلة ، الأمة الكثيرة من الناس ، قال الشاعر :

وجـاءت إليهم ثلة خنـدقيـة بجيش كتيار من السيل مزبد

وقوله - عز وجل - : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ كفى به دليلا على الكثرة - أى فى لفظ ﴿ ثلة ﴾ - وهو من الثل وهو الكسر - .. كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم .

والمعنى : أن السابقين من الأولين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد - ﷺ - .. ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ ، وهم أمة محمد - ﷺ -[(٢)] .

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه ، أن الخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴾ للأمة الإسلامية خاصة ، وأن المراد بقوله ﴿ ثلة من الأولين ﴾ صدر هذه الأمة الاسلامية .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٣٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣ .

وأن المراد بقوله - تعالى - : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ من أتى بعد صدر هذه الأمة إلى يوم القيامة .

وقد أفاض الإمام ابن كثير فى ترجيح هذا القول ، فقال ما ملخصه : وقد اختلفوا فى المراد بقوله : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين من هذه الأمة .. وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذى اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ..

فالقول الراجح أن يكون المراد بقوله - تعالى - ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أى : من صدر هذه الأمة .

والمراد بقوله : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أى : من هذه الأمة ..

وروى عن الحسن أنه قال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين .

وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال ما ملخصه : وقد اختلف أهل العلم فى المراد بهذه الثلة من الأولين ، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا .

كما اختلفوا فى الثلتين المذكورتين فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ﴾ .

وظاهر القرآن يفيد فى هذا المقام : أن الأولين فى الموضعين من الأمم الماضية .

والآخرين فيهما من هذه الأمة .

وأن قوله - تعالى - : ﴿ ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ﴾ فى السابقين خاصة .

وأن قوله - تعالى - : ﴿ ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ﴾ فى أصحاب اليمين خاصة .

وذلك لشمول الآيات لجميع الأمم ، إذ قوله - تعالى - : ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴾ خطاب لجميع أهل المحشر ، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين . منهم من هو من الأمم السابقة ، ومنهم من هو من هذه الأمة ..

ولا غرابة فى أن يكون السابقون من الأمم السابقة أكثر .. لأن الأمم الماضية أمم كثيرة .. وفيهم أنبياء كثيرون .

وأما أصحاب اليمين من هذه الأمة ، فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جمع الأمم ، لأن الثلة تتناول العدد الكثير وقد يكون أحد العددين .. الكثيرين ، أكثر من الآخر ، مع أنهما كلاهما كثير .

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير . لا ينافى ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة ..[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء السابقين بالخيرات من عطاء كريم ، فقال : ﴿ على سرر موضونة ﴾ .

والسرر : جمع سرير ، وهو ما يستعمله الإنسان لنومه أو الاتكاء عليه فى جلسته .

والموضونة : أى المنسوجة بالذهب نسجا محكما ، لراحة الجالس عليها ولتكريمه . يقال : وضن فلان الغزل يضنه ، إذا نسجه نسجا متقنا جميلا .

أى : مستقرين على سرر قد نسجت أطرافها بالذهب وبما يشبهه ، نسجا بديعا يشرح الصدر . فقوله : ﴿ على سرر موضونة ﴾ حال من المقربين ..

ومثله قوله : ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أى : مضطجعين عليها اضطجاع الذى امتلأ قلبه بالراحة ، وفراغ البال من كل ما يشغله ، وقد قابل وجه كل واحد منهم وجه الآخر ، ليتم سرورهم ونعيمهم ، إذ تقابل وجوه الأحباب يزيد الأنس والبهجة .

﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أى : يدور عليهم من أجل خدمتهم غلمان ، شبابهم باق لا يتغير ، وهيئتهم الجميلة على حالها لا تتبدل ، فهم دائما على تلك الهيئة المنعوتة بالشباب والمنظر الحسن .

﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ أى : يطوفون عليهم ، بأكواب أى : بأقداح لاعُرًا لها ، وأباريق ، أى : وبأوان ذات عرا ﴿ وكأس من معين ﴾ أى : وبإناء مملوء بالخمر الكثير الجارى فقوله ﴿ معين ﴾ من المعن بمعنى الكثرة .

﴿ لا يصدعون عنها .. ﴾ أى لا يصيبهم صداع أو تعب بسبب شرب هذه الخمر . فعن هنا بمعنى باء السببية .

قوله : ﴿ ولا ينزفون ﴾ أى : ولا تذهب الخمر عقولهم ، كما تفعل خمر الدنيا بشاربيها ، مأخوذ من النزف ، بمعنى اختلاط العقل .

---

(١) راجع أضواء البيان جـ ٧ ص ٧١٩ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وقوله : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ أى : ويطاف عليهم بفاكهة يتلذذون بأكلها ، وهذه الفاكهة تأتيهم من كل نوع ، على حسب ما يريدون ويشتهون .

﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ مما يحبونه ويختارونه من هذه اللحوم الطيبة المحببة إلى النفوس ، يطاف عليهم به - أيضا -

وقوله : ﴿ وحور عين ﴾ معطوف على قوله ﴿ ولدان مخلدون ﴾ أى : ويطوف عليهم - أيضا - نساء عيونهن شديدة البياض والسواد فى سعة وجمال .

وهؤلاء الحور العين ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أى : يشبهن اللؤلؤ المكنون الذى لم تلمسه الأيدى ، فى صفاء بياضهن ، وفى شدة جمالهن .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ بيان للأسباب التى أوصلتهم إلى هذا النعيم الكبير ..

ولفظ ﴿ جزاء ﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف ، أى : أعطيناهم هذا العطاء الجزيل ، جزاء مناسبا بسبب ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال صالحة .

قوله - تعالى - : ﴿ لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ تتميم للنعم التى أنعم - سبحانه - عليهم بها فى الجنة .

واللغو : الكلام الساقط الذى لا فائدة منه ، ولا وزن له . يقال : لغا فلان يلغو . إذا قال كلاما يلام عليه .

والتأثيم : مصدر إثم ، إذا نسب غيره إلى الإثم وفعل ما لا يليق .

أى : أن هؤلاء المقربين لا يسمعون فى الجنة كلاما لا يعتد به ، ولا يسمعون - أيضا - كلاما سيئا أو قبيحا ، بأن ينسب بعضهم إلى بعض ما لا يليق به ، وإنما الذى يسمعونه هو الكلام الطيب المشتمل على الأمان المتكرر ، والتحية الدائمة .

ولفظ ﴿ سلاما ﴾ الأول ، بدل من قوله ﴿ قيلا ﴾ أو نعت له .. أى: سالما من العيوب. والتكرير لهذا اللفظ القصد منه التأكيد ، والإشعار بكثرة تحيتهم بهذا اللفظ الدال على المحبة والوئام .

أى : لا يسمعون فى الجنة إلا سلاما إثر سلام ، وتحية فى أعقاب تحية ، ومودة تتلوها مودة .

والاستثناء منقطع ، لأن السلام لا يندرج تحت اللغو ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، و﴿ قيلا ﴾ بمعنى : قولا ، وهو منصوب على الاستثناء ..

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة ، قد بينت أقسام الناس يوم القيامة . وفصلت ما أعده - سبحانه - للسابقين ، من عطاء جزيل ، وفضل عميم .

وبعد هذا الحديث الزاخر بالخيرات والبركات عن السابقين .. جاء الحديث عن أصحاب اليمين وعما أعده الله - تعالى - لهم من ثواب فقال - سبحانه - :

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ وأصحاب اليمين ... ﴾ شروع فى بيان تفاصيل شئونهم ، بعد بيان شئون السابقين .

وأصحاب : مبتدأ وقوله : ﴿ ما أصحاب اليمين ﴾ جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم ، والتعجب من حالهم ، وهى خبر المبتدأ .. أو معترضة ، والخبر قوله : ﴿ فى سدر مخضود ... ﴾[1] .

والسدر : شجر النبق ، واحده سدرة ، ومخضود . أى : منزوع الشوك ، يقال : خضد فلان الشجر ، إذا قطع الشوك الذى به فهو خضيد ومخضود ، أو مخضود بمعنى ملىء بالثمر حتى تثنت أغصانه ، من خضدت الغصن ،إذا ثنيته وأملته إلى جهة أخرى .

أى : وأصحاب اليمين ، المقول فيهم ما أصحاب اليمين على سبل التفخيم ، مستقرون يوم القيامة فى حدائق مليئة بالشجر الذى خلا من الشوك وامتلأ بالثمار الطيبة ، التى تثنت أغصانها لكثرتها ..

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٣٩ .

قال القرطبى : وذكر ابن المبارك قال : حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبى - ﷺ - يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم . قال : أقبل أعرابى يوما فقال : يارسول الله ، لقد ذكر الله فى القرآن : شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟

فقال - ﷺ - : وما هى ؟ قال : السدر ، فإن له شوكا مؤذيا ، فقال : - ﷺ - : ألم يقل الله - تعالى - ﴿ فى سدر مخضود ﴾ ؟ خضد الله - تعالى - شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وطلح منضود ﴾ بيان لنعمة ثانية . والطلح : قالوا هو شجر الموز . واحدة طلحة ، والمنضود : المتراكب بعضه فوق بعض ، بحيث صار ثمره متراصا على هيئة جميلة تسر الناظرين .

فقوله ﴿ منضود ﴾ اسم مفعول من النضد وهو الرص . يقال : نضد فلان متاعه ، - من باب ضرب - إذا وضع بعضه فوق بعض بطريقة منسقة جميلة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وظل ممدود ﴾ أى : متسع منبسط ، بحيث لا يزول كما يزول الظل فى الدنيا ، ويحل محله ضوء الشمس .

أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها عاما - وفى رواية مائة عام - اقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وماء مسكوب ﴾ أى : وفيها ماء كثير مصبوب يجرى على الأرض ، ويأخذون منه ماشاءوا ، بدون جهد أو تعب .

يقال : سكب فلان الماء سكبا ، إذا صبه بقوة وكثرة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى : وهم بجانب كل ذلك يتلذذون فى الجنة بفاكهة كثيرة ، هذه الفاكهة ليست مقطوعة عنهم فى وقت من الأوقات ، ولا تمتنع عن طالبها متى طلبها .

وجمع - سبحانه - بين انتفاء قطعها ومنعها ، للإشعار بأن فاكهة الجنة ليست كفاكهة الدنيا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٠٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٩ .

فهى تارة تكون مقطوعة ، لأنها لها أوقاتا معينة تظهر فيها ، وتارة تكون موجودة ولكن يصعب الحصول عليها ، لامتناع أصحابها عن إعطائها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أى : وفيها - أيضا - فرش منضدة ، قد ارتفعت عن الأرض ، ليتكىء عليها أهل الجنة وأزواجهم .

والضمير فى قوله - تعالى -: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ...﴾ عائد إلى غير مذكور ، إلا أنه يفهم من سياق الكلام . لأن الحديث عن الفرش المرفوعة يشير إلى من يجلس عليها ، وهم الرجال ونساؤهم ، أى : نساؤهم من أهل الدنيا أو الحور العين ، ويرى بعضهم أنه يعود إلى مذكور ، لأن المراد بالفرش النساء ، والعرب تسمى المرأة لباسا ، وإزارا ، وفراشا .

والإنشاء : الخلق والإيجاد . فيشمل إعادة ما كان موجودا ثم عدم ، كما يشمل الإيجاد على سبيل الابتداء .

أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء المطهرات من كل رجس حسى أو معنوى ، إنشاء جميلا ، يشرح الصدور .

﴿ فجعلناهن ﴾ بقدرتنا ﴿ أبكارا ﴾ أى : فصيرناهن أبكارا ليكون ذلك أكثر تلذذا بهن .

قال الآلوسى : وفى الحديث الذى أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد مرفوعا إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم ،عدن أبكارا[1] .

وقوله : ﴿ عربا أترابا ﴾ صفة أخرى من صفات هؤلاء النساء الفضليات الجميلات .

وقوله : ﴿ عربا ﴾ جمع عروب - كرسل ورسول - من أعرب فلان فى قوله إذا نطق بفصاحة وحسن بيان .

وأترابا : جمع ترب - بكسر التاء وسكون الراء - وترب الإنسان هو ما كان مساويا له فى السن .

أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء على تلك الصورة الجميلة ، فجعلناهن أبكارا كما جعلناهن - أيضا - محببات إلى أزواجهن ، ومستويات فى سن واحدة .

روى الترمذى عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت يارسول الله ادع الله - تعالى - أن يدخلنى الجنة ، فقال - ﷺ - : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكى » .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٤٢ .

فقال - ﷺ - : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، إن الله - تعالى - يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا ... ﴾[1] .

واللام فى قوله : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلقة بأنشأناهن ، أو جعلناهن .

أى : أنشأناهن كذلك ، ليكن فى صحبة أصحاب اليمين ، على سبيل التكريم لهم ..

وقوله : ﴿ ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . أى : أصحاب اليمين جماعة كبيرة منهم من الأمم الماضية ، وجماعة كبيرة أخرى من هذه الأمة الإسلامية .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ذكر لنا ألوانا من النعم التى أنعم بها على أصحاب اليمين . كما ذكر قبل ذلك ألوانا أخرى مما أنعم به على السابقين .

قال الآلوسى : ولم يقل - سبحانه - فى حق أصحاب اليمين : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

كما قال - سبحانه - ذلك فى حق السابقين ، رمزا إلى أن الفضل فى حقهم متمحض ، كأن عملهم لقصوره عن عمل السابقين ، لم يعتبر اعتباره .

ثم الظاهر أن ما ذكر من أصحاب اليمين ، هو حالهم الذى ينتهون إليه فلا ينافى أن يكون منهم من يعذب لمعاص فعلها ، ومات غير تائب عنها ، ثم يدخل الجنة ..[2] .

وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور ، ويقر العيون ، وترتاح له الأفئدة . عن السابقين وعن أصحاب اليمين .. جاء الحديث عن أصحاب الشمال ، وهم الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد ، فقال - تعالى - :

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ
عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٤٣ .

ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ . أى : ما قصة هؤلاء القوم ؟ وما حالهم ؟ وما جزاؤهم ؟ ..

ثم بين - سبحانه - ذلك فقال : ﴿ فى سموم وحميم ﴾ والسموم : الريح الشديدة الحرارة . التى تدخل فى مسام الجسد ، فكأنها السم القاتل .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الغليان . أى : هم فى الآخرة مستقرون فيما يهلكهم من الريح الحارة ، والماء الشديد الغليان .

وهم كذلك فى ﴿ ظل من يحموم ﴾ أى : فى دخان أسود شديد يخنق أنفاسهم ، والعرب يقولون لكل شىء شديد السواد : أسود يحموم ، مأخوذ من الشىء الأحم ، وهو الأسود من كل شىء ، ومثله الحمم .

و﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من يحموم ﴾ للبيان . إذ الظل هنا هو نفس اليحموم وتسميته ظلا من باب التهكم بهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ صفتان للظل . أى : هذا الظل لا شىء فيه من البرودة التى يستروح بها من الحر . ولا شىء فيه من النفع لمن يأوى إليه .

فهاتان الصفتان لبيان انتفاء البرودة والنفع عنه ، ومتى كان كذلك انتفت عنه صفات الظلال التى يحتاج إليها .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ نفى لصفتى الظل عنه ، يريد أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال سماه ظلا ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر ، ليمحق ما فى مدلول الظل من الاسترواح إليه . والمعنى : أنه ظل حار ضار ، إلا أن للنفى فى نحو هذاشأنا ليس للإثبات ، وفيه تهكم بأصحاب المشأمة ، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم ، الذى هو لأضدادهم فى الجنة ..[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى ادت بهؤلاء الاشقياء إلى هذا المصير الأليم ، فقال - تعالى - : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ أى : إنهم كانوا قبل ذلك العذاب الذى حل بهم ، أى : كانوا فى الدنيا ﴿ مترفين ﴾ أى : متنعمين بطرين ، متبعين لهوى أنفسهم ، وسالكين خطوات الشيطان . دون أن يصدهم عن ذلك صاد ، أو يردعهم رادع .

فالمراد بالترف هنا : بطر النعمة ، وعدم شكر الله - تعالى - عليها ، والمترف : هو الذى يتقلب فى نعم الله - تعالى - ، ولكنه يستعملها فى المعاصى لا فى الطاعات ، وفى الشرور لا فى الخيرات .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ بيان لسبب آخر من الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء .

والحنث : الذنب الكبير ، والمعصية الشديدة ، ويندرج تحته الإشراك بالله - تعالى - ، وإنكار البعث والجزاء ، والحلف الكاذب مع تعمد ذلك .

أى : وكانوا فى الدنيا يصرون على ارتكاب الذنوب العظيمة ، ويتعمدون إتيانها بدون تحرج أو تردد ، ومن مظاهر ذلك أنهم أقسموا بالأيمان المغلظة أنه لا بعث ولا حساب ، ولا جزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... ﴾[١] .

ثم حكى - سبحانه - لونا من أقوالهم الباطلة ، وحججهم الداحضة فقال : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ .

أى : أنهم فوق ترفهم وإصرارهم على ارتكاب الآثام كانوا يقولون - على سبيل الإنكار - لمن نصحهم باتباع الحق : أئذا متنا ، وانتهت حياتنا ووضعنا فى القبور ، وصرنا ترابا وعظاما ، أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون - أيضا - ؟ .

ولاشك أن قولهم هذا دليل على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، والتى من آثارها إيجادهم من العدم .

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الجواب الذى يخرس ألسنتهم فقال - سبحانه - : ﴿ قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الأمم السابقة التى من جملتها آباؤكم . والأمم

---

(١) سورة النحل آية ٣٨ .

اللاحقة التى من جملتها أنتم . الكل مجموعون ومسوقون إلى المحشر فى وقت واحد محدد فى علم الله - تعالى - . وعند ما يأتى هذا الوقت ماله من دافع .

فالميقات هنا : بمعنى الوقت والأجل ، والمراد به هنا : يوم القيامة .

ووصفه - سبحانه - بأنه معلوم ، للإشعار بكونه معينا وواقعا وقوعا لا ريب فيه ، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ويختاره .

ثم بين - سبحانه - ما سيحل بهم من عذاب فى هذا اليوم فقال : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ... ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : ﴿ إن الأولين والآخرين لمجموعون ... ﴾ وداخلة فى حيز القول . و﴿ ثم ﴾ للتراخى الزمانى أو الرتبى والخطاب للمشركين الذين أعرضوا عن دعوة النبى - ﷺ - .

و﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من شجر ﴾ ابتدائية ، وفى قوله : ﴿ من زقوم ﴾ بيانية .

وشجر الزقوم : لا وجود له فى الدنيا ، وإنما يخلقه الله - تعالى - فى النار كما يخلق غيره من أصناف العذاب ، كالحيات والعقارب ..

وقيل : هو شجر سام ، متى مسه جسد إنسان ، تورم هذا الإنسان ومات ويوجد هذا الشجر فى الأراضى المجدبة المجاورة للصحراء .

والزقوم من التزقم ، وهو ابتلاع الشىء الكريه ، بمشقة شديدة ..

والمعنى : ثم قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التقريع والتبكيت : إنكم أيها الضالون عن الحق . المكذبون بالبعث والجزاء ، لآكلون يوم القيامة من شجر ، هو شجر الزقوم ، الذى هو أخبث الشجر وأبشعه ..

﴿ فمالئون منها البطون ﴾ أى : فمالئون من هذه الشجرة الخبيثة بطونكم ، لشدة الجوع الذى حل بكم ..

وجاء الضميرمؤنثا فى قوله : ﴿ منها ﴾ لأن الشجر هنا بمعنى الشجرة ، أو لأن ضمائر الجمع لغير العاقل تأتى مؤنثة فى الغالب .

ثم قال - تعالى - : ﴿ فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم ﴾ والضمير فى قوله : ﴿ عليه ﴾ يعود على الأكل المستفاد من قوله : ﴿ لآكلون ﴾ ..

أى : ثم إنكم أيها الضالون المكذبون بعد هذا الأكل الخبيث من شجرة الزقوم .. تشربون عليه فى بطونكم - ماء - قد بلغ أقصى درجات الحرارة ، فصرتم فى شرابكم كالإبل العطاش

التى لا يرويها الماء مهما كثر لأنها مصابة بداء ، هذا الداء يمنعها من الشبع منه ، فما تزال تشرب منه حتى تهلك .

فقوله : ﴿ الهيم ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى : الإبل الهيم ، جمع أهيم للمذكر . وهيماء للمؤنث .

والهيام – بضم الهاء – داء يصيب الإبل ، يجعلها تشرب فلا تشبع ، وما تزال تشرب حتى تهلك ، أو تسقم سقما شديدا يؤدى إلى موتها ، والفاء فى قوله – تعالى – : ﴿ فشاربون عليه ﴾ عطف على ﴿ لآكلون ... ﴾ لإفادة أن شربهم مع عطشهم الشديد ، يأتى بعد أكلهم من الزقوم ، بدون مهلة أو استراحة .

وقوله : ﴿ فشاربون شرب ...﴾ تأكيد لما قبله ، للتنبيه على أن هذا الشراب – مع فظاعته وقبحه – لا مفر لهم منه ، ولا انفكاك لهم عنه .

ثم ختم – سبحانه – هذه الآيات بقوله : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ والنزل : ما يعد للضيف من منزل حسن ، ومأكل حسن لإكرامه .

أى : هذا المذكور من أنواع العذاب المهين .. نزلهم ومسكنهم ومقرهم أول قدومهم يوم الجزاء ..

فالإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى ما ذكر قبل ذلك من عذاب مهين ، من مظاهره أكلهم من الزقوم ، وشربهم من الحميم ..

والتعبير عما أعد لهم من عذاب بالنزل ، على سبل التهكم ، كما فى قول الشاعر :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا   جعلنا القنا والمرهَفات له نزلا

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، وقد بينت ما أعد لأصحاب الشمال ، من عذاب مهين ، بأسلوب تقشعر من هوله الأبدان ..

* * *

وبعد هذا الحديث الجامع عن أقسام الناس يوم القيامة ، وعن جزاء كل قسم ... أخذت السورة الكريمة فى إقامة الأدلة على وحدانية الله – تعالى – وعلى كمال قدرته ...

وجاءت هذه الأدلة لا عن طريق أمور تخييلية ، أو فلسفية ، أو غيبية .. وإنما عن طريق أمور يحسونها بأنفسهم ، ويشاهدونها بأعينهم .. عن طريق خلقهم ، وزروعهم التى يزاولونها بأيديهم ، والماء الذى يشربونه ، والنار التى يوقدونها ..

لنستمع إلى السورة الكريمة ، وهى تحكى كل ذلك فتقول :

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ
نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ رد على إنكار المشركين للبعث والجزاء ، ولولا هنا للتحضيض ، والفاء لترتيب التحضيض على ما قبله .

أى : نحن الذين خلقناكم - أيها الجاحدون - هذا الخلق الأول بقدرتنا وحدها ، فهلا صدقتم بذلك ، وأطعتم رسولنا - ﷺ - فيما جاءكم به من عندنا ، وأيقنتم بأن الأولين والآخرين سيقفون أمامنا يوم القيامة للحساب ؟ .

فالمراد بقوله - تعالى - : ﴿ خلقناكم ﴾ : خلقهم من سلالة من طين ، ثم جعلهم نطفة فى قرار مكين كما قال - تعالى -: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا

العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ..﴾[١] .

فإن قيل : إنهم كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - قد خلقهم ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ... ﴾ فما فائدة قوله - سبحانه - ﴿ نحن خلقناكم ... ﴾ ؟

فالجواب أنهم لما كان اعترافهم بمنزلة العدم ، حيث أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة قيل لهم على سبيل الإلزام والتبكيت : ﴿ نحن خلقناكم ...﴾ .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أربعة أدلة على صحة هذا البعث وإمكانه ، أما الدليل الأول فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ... ﴾ .

وقوله : ﴿ تمنون ﴾ مأخوذ من أمنى بمعنى قذف المنى ، يقال : أمنى الرجل النطفة ، إذا قذفها . والاستفهام للتقرير ، والرؤية علمية . و﴿ ما ﴾ موصولة وهى المفعول الأول لقوله ﴿ أرأيتم ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ، والعائد إلى الموصول محذوف . وجملة : أأنتم تخلقونه ... هو المفعول الثانى .

والضمير المنصوب فى قوله : ﴿ تخلقونه ﴾ يعود إلى الاسم الموصول فى قوله : ﴿ ما تمنون ﴾ . أى : أخبرونى - أيها المشركون عما تصبونه وتقذفونه من المنى فى أرحام النساء ؟ أأنتم تخلقون ما تمنونه من النطف علقا فمضغا .. أم نحن الذين خلقنا ذلك ؟ لاشك أنكم تعرفون بأننا نحن الذين خلقنا كل ذلك ،وما دام الأمر كما تعرفون ، فلماذا عبدتم مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

فالاستفهام للتقرير حيث إنهم لا يملكون إلا الاعتراف بأن الله - تعالى - وحده خلق الإنسان فى جميع أطواره .

قال الجمل : و﴿ أم ﴾ فى هذه المواضع الأربعة منقطعة ، لوقوع جملة بعدها ، والمنقطعة تقدر ببل والهمزة الاستفهامية ، فيكون الكلام مشتملا على استفهامين ، الأول : أأنتم تخلقونه ؟ وجوابه : لا . والثانى : مأخوذ من ﴿ أم ﴾ أى : بل أنحن الخالقون ؟ وجوابه نعم[٢] .

ثم أكد سبحانه - خلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء . فقال - تعالى - ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فى مالا تعلمون ﴾ .

أى نحن وحدنا الذين قدرنا لموتكم آجالا مختلفة ، وأعمارا متفاوتة ، فمنكم من يموت

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢ - ١٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٧٨ .

صغيرا ، ومنكم من يموت كبيرا ، وما نحن بمسبوقين ، أى : وما نحن بمغلوبين على ذلك ، بل نحن قادرون قدرة تامة على تحديد آجالكم ، فمن حضره أجله فلن يستطيع أن يتأخر عنه ساعة ، أو يتقدم عنه ساعة . كما قال - تعالى - : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ... ﴾.

والمراد بتبديل أمثالهم : إيجاد قوم آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا .

والمعنى : نحن وحدنا الذين قدرنا بينكم الموت وحددناه على حسب مشيئتنا ونحن الذين فى قدرتنا أن نبدل من الذين ماتوا منكم أشباها لهم ، نوجدهم بقدرتنا - أيضا - كما قال - سبحانه - : ﴿ وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾[١] .

ويصح أن يكون قوله - تعالى - : ﴿ قدرنا ﴾ بمعنى قضينا وكتبنا ، ويكون قوله : ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ متعلق بقوله ﴿ بمسبوقين ﴾ ، ويكون المراد بتبديل أمثالهم . إيجاد قوم آخرين سواهم .

والمعنى : نحن الذين وحدنا كتبنا عليكم الموت ، وقضيناه على جميع الخلق فكل نفس ذائقة الموت ، وما نحن بمغلوبين على إهلاككم ، وعلى خلق أمثالكم بدلا منكم كما قال - تعالى - : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله . والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وننشئكم فى مالا تعلمون ﴾ بيان للون آخر من ألوان قدرته - تعالى - .

أى : نحن لسنا بعاجزين ولا بمغلوبين ..على أن نهلككم ونأتى بدلا منكم بغيركم . ولسنا - أيضا - بعاجزين على أن ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور ، والهيئات ، والصفات .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أى : قدرناه تقديرا ، وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط ..

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٣ .
(٢) سورة فاطر الآية ١٥ - ١٧ .

وقوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ يقال : سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه ، وغلبته عليه ، ولم تمكنه منه ، فمعنى قوله ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ﴾ أنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه . وأمثالكم جمع مثل - بسكون الثاء - أى : على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿ و﴾ على أن ﴿ ننشئكم ﴾ فى خلق لا تعلمونها وما عهدتم مثلها . يعنى أنا نقدر على الأمرين جميعا : على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم .

ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل ، بفتحتين أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التى أنتم عليها فى خلقكم وأخلاقكم ، وننشئكم فى صفات لا تعلمونها ..[١] .

ثم لفت - سبحانه - أنظارهم إلى مايعلمونه من حالهم فقال : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ .

أى : والله لقد علمتم النشأة الأولى من خلقكم ، حيث أوجدناكم من نطفة فعلقة فمضغة .. فهلا تذكرتم ذلك وعقلتموه ، وعرفتم أن من قدر على خلقكم ولم تكونوا شيئا مذكورا .. قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ؟ .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة إقامة الأدلة الساطعة ، على إمكانية البعث وعلى أن من قدر على خلق الإنسان مع العدم قادر على إعادته .

قال القرطبى : وفى الخبر : عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى . وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة ، وهو لا يسعى لدار القرار[٢] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان الدليل الثانى على صحة البعث وإمكانيته . فقال - تعالى - : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون ﴾ .

والحرث : شق الأرض من أجل زراعتها ، والمراد به هنا : وضع البذر فيها بعد حرثها .

أى : أخبرونى عن البذور التى تلقون بها فى الأرض بعد حرثها ، أأنتم الذين تنبتونها وتصيرونها زرعا بهيجا نضرا أم نحن الذين نفعل ذلك ؟ لاشك أنا نحن الذين نصير هذه البذور زروعا ونباتا يانعا ، ولو نشاء لجعلنا هذا النبات ﴿ حطاما ﴾ أى مكسرا مهشما يابسا لانفع فيه ، فظللتم بسبب ذلك ﴿ تفكهون ﴾ أى : فصرتم بسبب ما أصاب زرعكم من هلاك ، تتعجبون مما أصابه ، وتتحسرون على ضياع أموالكم ، وتندمون على الجهد الذى بذلتموه من غير فائدة ..

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٦ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٤٧ ص ٢١٦ .

وأصل التفكه : التنقل فى الأكل من فاكهة إلى أخرى ، ثم استعير للتنقل من حديث إلى آخر ، وهو هنا ما يكون من أحاديثهم المتنوعة بعد هلاك الزرع .

والمراد بالتفكه هنا : التعجب والندم والتحسر على ما أصابهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنا لمغرمون ﴾ مقول لقول محذوف . أى : فصرتم بسبب تحطيم زروعكم تتعجبون ، وتقولون على سبيل التحسر : إنا لمهلكون بسبب هلاك أقواتنا ، من الغرام بمعنى الهلاك . أو إنا لمصابون بالغرم والاحتياج والفقر ، بسبب ما أصاب زرعنا . من الغرم وهو ذهاب المال بلا مقابل .

وتقولون - أيضا - : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ من منافع هذا الزرع الذى كنا نعلق الآمال على الانتفاع به ، والاستفادة بثماره ..

قال الإمام القرطبى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات : والمستحب لكل من يلقى البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ...﴾ الآيات . ثم يقول : بل الله الزارع ، والمنبت والمبلغ . اللهم صل على محمد ، وارزقنا ثمر هذا الزرع ، وجنبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك فيه يارب العالمين ..[1] .

ثم ذكر - سبحانه - الدليل الثالث على إمكانية البعث ، وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾ .

أى : وأخبرونى - أيضا - عن الماء الذى تشربونه ، أأنتم الذين أنزلتموه من ﴿ المزن ﴾ أى . من السحاب أم نحن الذين أنزلناه ؟ .

لاشك أننا نحن الذين أنزلناه ، ولا تستطيعون إنكار ذلك ، لأن إنكاركم لذلك يعتبر نوعا من المكابرة المكشوفة ، والمغالطة المفضوحة .

وتخصيص هذا الوصف ، وهو ﴿ الذى تشربون ﴾ بالذكر ، مع كثرة منافع الماء ، لأن الشرب أهم المقاصد التى من أجلها أنزل - سبحانه - الماء من السحاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ...﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمته - سبحانه - .

ومفعولى المشيئة هنا وفى ما قبله إلى قوله ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ... ﴾ محذوف ، للاكتفاء عنه بجواب الشرط .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢١٨ .

والماء الأجاج : هو الماء الشديد الملوحة والمرارة فى وقت واحد .

أى : لو نشاء أن نجعل هذا الماء النازل من المزن لشربكم ، ماء جامعا بين الملوحة والمرارة لفعلنا ، ولكنا لم نشأ ذلك رحمة بكم ، وفضلا منا عليكم .

وقوله : ﴿ فلولا تشكرون ﴾ حض على الشكر لله - تعالى - أى : فهلا شكرتم الله - تعالى - على هذه النعم ، وأخلصتم له العبادة والطاعة ووضعتم نعمه فى مواضعها .

فالمراد بالشكر هنا : أن يواظب العبد على شكر ربه ، وعلى المداومة على ما يرضيه وعلى استعمال النعم فيما خلقت له .

أما شكر الرب - عز وجل - لعبده فمعناه : منحه الثواب الجزيل ، على عمله الصالح : ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ .

قال بعض العلماء : واعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة ، وإلى المنعم أخرى .

فإن عديت إلى النعمة ، تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر ، كقوله - تعالى - : ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ... ﴾ .

وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذى هو اللام ، كقوله - تعالى - : ﴿ واشكروا لى ولا تكفرون .. ﴾[1] .

وقال - سبحانه - هنا : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ﴾ وقال فى الآيات السابقة : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ... ﴾ بلام التأكيد ، لأن إنزال الماء من السماء وتحويله من ماء عذب إلى ماء ملح ، مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه سوى الله - تعالى - لذا لم يحتج الأمر إلى تأكيد ..

أما جفاف الزرع بعد نضارته ، حتى يعود حطاما ، فمما يحتمل أنه من فعل الزارع ، أو لأى سبب آخر ، كآفة زراعية ، لذا أكد - سبحانه - أنه هو الفاعل لذلك على الحقيقة ، وأنه - تعالى - قادر على تحطيمه بعد نموه وريعانه .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الدليل الرابع على قدرته - تعالى - على البعث والنشور ، فقال - تعالى - : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

وقوله : ﴿ تورون ﴾ أى : توقدون ، من أورى النار إذا قدحها وأوقدها . ويقال : وَرَى الزندُ يَرِى وَرْيًا ، إذا خرجت ناره - وفعله من باب وعى - وأوراه غيره إذا استخرج النار منه .

---

(١) أضواء البيان جـ ٧ ص ٧٩٤ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وقوله : ﴿ للمقوين ﴾ مأخوذ من أقوى الرجل إذا دخل فى القواء ، وهو الفضاء الخالى من العمران ، والمراد بهم هنا المسافرون ، لأنهم فى معظم الأحيان يسلكون فى سفرهم الصحارى والفضاء من الأرض .

وخصهم - سبحانه - بالذكر ، لأنهم أكثر من غيرهم انتفاعا بالنار ، وأحوج من غيرهم إليها .

والمراد بشجرة النار : المرخ والعفار ، وهما شجرتان ، يقدح غصن إحداهما بغصن الأخرى فتتولد النار منهما بقدرة الله - تعالى - ..

ومن أمثال العرب : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . أى : وعلا على غيرهما المرخ والعفار لأنهما أكثر الشجر نصيبا فى استخراج النار . فهو مثل يضرب فى تفضيل الشىء على غيره .

والمعنى : وأخبرونى - أيضا - عن النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب الأخضر ، أأنتم خلقتم شجرتها ، واخترعتم أصلها ، أم نحن الخالقون لها وحدنا ؟ .

لاشك أن الجواب الذى لا جواب غيره ، أننا نحن الذين أنشأنا شجرتها لا أنتم .

ونحن الذين جعلناها تذكرة ، تذكر الناس بها فى دار الدنيا إذا أحسوا بشدة حرارتها ، بنار الآخرة التى هى أشد وأبقى ، حتى يقلعوا عن الأقوال والأفعال التى تؤدى بهم إلى نار الآخرة .

ونحن - أيضا - الذين جعلنا هذه النار ﴿ متاعا ﴾ أى منفعة ﴿ للمقوين ﴾ أى للمسافرين ، والذين هم فى حاجة إليها فى شئونهم المختلفة .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى : وما دام الأمر كذلك ، فسبح - أيها العاقل - باسم ربك العظيم ، بأن تنزهه عن الشريك والولد ، وبأن تخلص له العبادة والطاعة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت أربعة أدلة على إمكانية البعث : الأول عن طريق خلق الإنسان . والثانى عن طريق إنبات النبات ، والثالث عن طريق إنزال الماء من السحاب : والرابع عن طريق إنشاء الشجر الذى تستخرج منه النار .

وإنها لأدلة واضحة على كمال قدرة الله - تعالى - ووحدانيته لكل عبد منيب .

وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الأدلة المتنوعة على كمال قدرته وعلى صحة البعث ..

التفت - سبحانه - بالحديث إلى أولئك الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين .. فرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ونعت القرآن بنعوت جليلة فقال - تعالى - :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

قال بعض العلماء : ورد القسم على هذا النحو فى القرآن الكريم كثيرا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ﴾ وقوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ... ﴾ .

وقد جاء على غير هذه الصورة ، أى : من غير لا النافية ، ومن غير الفعل « أقسم » كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق .. ﴾ ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم .. ﴾ .

وتارة يكون القسم بأشياء مختلفة من خلقه - تعالى - كالصافات، والطور، والتين، والقرآن[1] . والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ للتفريع على ما تقدم من أدلة البعث .

و ﴿ لا ﴾ عند أكثر المفسرين فى هذا التركيب وأمثاله : مزيدة للتأكيد ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ... ﴾ أى ليعلم أهل الكتاب . والمعنى هنا : فأقسم بمواقع النجوم ..

قالوا : وزيادتها هنا جاءت جريا على سنن العرب من زيادتها قبل القسم ، كما فى قولهم : لاوأبيك ، كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه ، فيفيد الكلام التأكيد .

ويرى بعضهم أن ﴿ لا ﴾ هنا : للنفى فيكون المعنى : فلا أقسم بمواقع النجوم ، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أصلا فضلا عن هذا القسم العظيم .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ فلا أقسم ... ﴾ لا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله - تعالى - :

---

(١) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٩٦ ، للشيخ محمد على السايس .

﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أو هى لام القسم - بعينها - أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف أى : فلأقسم ..

وقيل إن لا هنا للنفى والرد على ما يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر . كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه ، ثم استؤنف فقيل أقسم ..

وقال بعضهم إن « لا » كثيرا ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح ، كما فى قولهم لا وأبيك ..

وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه . والمعنى : لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم . أى : لا يحتاج إلى قسم أصلا ، فضلا عن هذا القسم العظيم ..[١] .

والمواقع : جمع موقع ، وموقع الشىء ما يوجد فيه ، وما يسقط من مكان مرتفع .

فالمراد بمواقع النجوم : مساقطها التى تسقط فيها عند غروبها .. وقيل : مواضعها من بروجها فى السماء ، ومنازلها منها .. وقيل : المراد مواقعها يوم القيامة عدما تنتشر وتتفرق .. وأقسم - سبحانه - بذلك ، للتنوية بشأنها ، ولما فيها من الدلالة على أن لهذا الكون خالقا قادرا حكيما ، يسير كواكبه بدقة ونظام بديع ، لا اختلال معه ولا اضطراب .. إذ كل نجم من هذه النجوم المتناثرة فى الفضاء ، له مجاله الذى يغيب فيه ، وله مكانه الذى لا يصطدم فيه بغيره .

قال بعض العلماء : إن هذه النجوم والكواكب ، التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة ، دون أن تراه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم ، من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ..[٢] .

ومن العلماء من يرى أن المراد بمواقع النجوم أوقات نزول القرآن نجما نجما ، وطائفة من الآيات تلى طائفة أخرى ..

قال ابن كثير : واختلفوا فى معنى قوله « بمواقع النجوم » فعن ابن عباس أنه يعنى نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر ، من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا بعد ذلك ..

وعن قتادة : « مواقع النجوم » منازلها .. وقال مجاهد : مطالعها ومشارقها .. وعن الحسن : انتشارها يوم القيامة ..[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٥٢ .
(٢) من كتاب « الله والعلم الحديث » ص ٣٣ للأستاذ عبد الرازق نوفل .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٩ .

ويبدو لنا أن تفسير النجوم هنا ، بنجوم السماء هو الأرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ كلام معترض بين القسم وجوابه والضمير فى « وإنه » يعود إلى القسم المذكور فى قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ أو يعود إلى ﴿ مواقع النجوم ﴾ بتأويله بمعنى المذكور ..

قال صاحب الكشاف : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ أى : بمساقطها ، ومغاربها .. واستعظم ذلك بقوله : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ .. وهو اعتراض فى اعتراض ، لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ واعترض بقوله - لو تعلمون - بين الموصوف وصفته ..[1] .

وجواب « لو » إما محذوف بالكلية لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، إذ المقصود هو نفى علمهم ، أى : أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم عظيم ، ولكنكم لا تعلمون قيمته ومنزلته .

وإما أن يكون جوابها مقدرا ، فيكون المعنى : أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم عظيم لو كان عندكم علم نافع ، لعظمتموه ، ولآمنتم بما أقسمنا عليه ، ولكنكم لم تعظموه ولم تؤمنوا لجهلكم ، ولا نطماس بصائركم ..

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ راجع إلى غير مذكور فى الكلام إلا أن علم المخاطبين به واستحضارهم له ، نزل منزلة ذكره ..

أى : أقسم بمواقع النجوم ، إن هذا الذى يتلوه عليكم نبينا محمد - ﷺ - لقرآن كريم . أى : رفيع القدر طاهر الأصل ، كثير المنافع ، ظاهر الفضل ، لأن الناس يجدون فيه كل ما يريدونه من سعادة وخير ..

وليس أمره - كما زعمتم - من أن الشياطين تنزلت به ، أو أنه من أساطير الأولين ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ وصف آخر للقرآن الكريم ، والمكنون : المستور والمحجوب عن أنظار الناس ، بحيث لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - ، والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . أى : أن هذا القرآن الكريم قد جعله الله - تعالى - فى كتاب مصون من غير الملائكة المقربين ، بحيث لا يطلع عليه أحد سواهم ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ : صفة للكتاب الذى هو اللوح المحفوظ . أى : أن هذا القرآن قد اقتضت حكمتنا أن نجعله فى كتاب مصون بحيث لايطلع

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٩ .

عليه قبل نزوله . من اللوح المحفوظ ولا يمسه أحد ، إلا الملائكة المطهرون من كل ما يوجب الطهارة .

وعلى هذا التفسير يكون الغرض من الآيات الكريمة ، نفى ما زعمه المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين ، وإثبات أن هذا القرآن مصون فى كتاب مستور عن الأعين ، هو اللوح المحفوظ . وأن الملائكة المطهرين وحدهم هم الذين يطلعون على هذا القرآن من اللوح المحفوظ ، وهم وحدهم الذين ينزلون به على الرسول - ﷺ - .

كما قال - تعالى - : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين .. ﴾[1] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ وماتنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون .. ﴾[2] .

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ صفة أخرى للقرآن الكريم ، فيكون المعنى : إن هذا القرآن الكريم . لا يصح أن يمسه إلا المطهرون من الناس ، عن الحدث الأصغر ، والحدث الأكبر ، فيكون المراد بالطهارة : الطهارة الشرعية ..

وقد رجح العلماء الرأى الأول الذى يرى أصحابه أن قوله - تعالى - : ﴿ لايمسه إلا المطهرون ﴾ صفة للوح المحفوظ المعبر عنه بأنه كتاب مكنون ، وأن المراد بالمطهرين : الملائكة المقربون ..

وقالوا فى تأييد ما ذهبوا إليه : إن الآيات مسوقة لتنزيه القرآن عن أن تنزل به الشياطين ، وأنه فى مكان مأمون لا يصل إليه إلا الملائكة المقربون .

والآيات - أيضا - مكية ، والقرآن المكى أكثر اهتمامه كان موجها إلى إبطال شبهات المشركين ، وليس إلى الأحكام الفرعية ، التى تحدث عنها القرآن المدنى كثيرا .

كذلك قالوا : إن وصف الكتاب بأنه ﴿ مكنون ﴾ يدل على شدة الصون والستر عن الأعين ، بحيث لا تناله أيدى البشر ، وهذا لا ينطبق إلا على اللوح المحفوظ ، أما القرآن فيمسه المؤمن وغير المؤمن ..[3] .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ اختلف فى معنى

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٥ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٠ - ٢١٢ .

(٣) راجع تفسيرنا آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٠٣ .

﴿ لا يمسه ﴾ هل هو حقيقة فى المس بالجارحة أو معنى ؟ وكذلك اختلف فى ﴿ المطهرون ﴾ من هم ؟ ..

فقال أنس وسعيد بن جبير : لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة ..

وقيل المراد بالكتاب : المصحف الذى بأيدينا ، وهو الأظهر ، وقد روى مالك وغيره أن رسول الله - ﷺ - كان فى كتابه الذى كتبه إلى شرحبيل بن كلال ... « ألا يمس القرآن إلا طاهر » .

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فقام واغتسل . ثم أخذ الصحيفة التى بيدها ، وفيها القرآن .

ثم قال : واختلف العلماء فى مس المصحف على غير وضوء : فالجمهور على المنع ..

وفى مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ والثانى الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن . لأن تعلمه حال الصغر ، ولأن الصبى وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ، لأن النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على طهارة ، جاز أن يحمله محدثا[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بقوله : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أى : هذا الكتاب الكريم منزل من رب العالمين ، لا رب سواه ، ولا خالق غيره ، وبذلك يرى : أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصف الله - تعالى - فيها القرآن الكريم ، بجملة من الصفات الجليلة ، فقد وصفه - سبحانه - بأنه كريم ، ووصفه بأنه مصون ومحفوظ من أن يمسه أحد سوى ملائكته المقربين ، وسوى عباده المطهرين من الأحداث ، ووصفه بأنه منزل من عنده لا من عند أحد سواه كما زعم أولئك الجاهلون .

ثم تتحدث السورة فى أواخرها . بأسلوب مؤثر ، عن لحظات الموت . وعن اللحظات التى يفارق الإنسان فيها هذه الحياة ، وأحباؤه من حوله لا يملكون له نفعا .. وعن بيان الحالة التى يكون عليها هذا المفارق لهم ، فتقول :

أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ
أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا
إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٣٢٦ .

إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ للإنكار والتوبيخ . وهو داخل على مقدر .

والمراد بالحديث : القرآن الكريم ، وما تضمنه من هدايات وإرشادات وتشريعات ..

وقوله : ﴿ مدهنون ﴾ من الإدهان وأصله جعل الجلد ونحوه مدهونا بشىء من الدهن ليلين ، ثم صار حقيقة عرفية فى الملاينة والمسايرة والمداراة ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ .

والمراد به هنا : تظاهر المشركين بمهادنة الرسول - ﷺ - وبما جاء به من قرآن كريم ، وإبداؤهم من اللين خلاف ما يبطنون من المكر والبغضاء .

ويصح أن يكون الإدهان هنا : بمعنى التكذيب والنفاق ، إذ أن هذه المعانى - أيضا - تتولد عن المداهنة والمسايرة .

أى : أتعرضون - أيها المشركون - عن الحق الذى جاءكم به رسولنا - ﷺ - فتظهرون أمامه بمظهر المداهن والمهادن ، الذى يلين أمام خصمه ، ولا يقابله بالشدة والحزم : مع أنه فى الوقت نفسه يضمر له أشد أنواع السوء والكراهية ؟ ..

إذا كان هذا شأنكم ، فاعلموا أن تصرفكم هذا لا يخفى علينا ؟! ..

وقوله - سبحانه - وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون معطوف على ما قبله من باب عطف الجملة على الجملة . والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : أتعرضون عن هذا القرآن على سبل المداهنة والملاينة ، وتجعلون شكر نعمة رزقنا

لكم به . وبالمطر الذى لا حياة لكم بدونه ، أنكم تكذبون بكونها من عند الله - تعالى - فتقولون فى شأن القرآن ، أساطير الأولين ، وتقولون إذا ما أنزلنا المطر عليكم : مطرنا بسبب نوء كذا . أى : بسبب سقوط النجم فى جهة المغرب من الفجر .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أى : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ، تقولون أمطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا وأكثر الروايات أن قوله - تعالى - : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ نزل فى القائلين : مطرنا بنوء كذا .. أخرج مسلم - فى صحيحه - عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد رسول الله - ﷺ - فقال - ﷺ - : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

ثم قال الإمام الآلوسى : والآية على القول بنزولهافى قائلى ذلك : ظاهرة فى كفرهم المقابل للإيمان ، فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة موجدة للمطر ، وهو كفر بلا ريب بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله - تعالى - ، وأن النوء ميقات وعلامة فإنه ليس بكفر ..[1] .

وقد ذكر المفسرون هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت ..[2] .

ثم انتقلت الآيات إلى توبيخهم على أمر آخر ، وهو غفلتهم عن قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وهم يشاهدون آثار قدرته أمام أعينهم فقال - تعالى - : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

ولو فى الموضعين للتحضيض على التذكر والاعتبار ، ولإبراز عجزهم فى أوضح صورة ، إذ إظهار عجزهم هو المقصود هنا بالحض ..

وقوله ﴿ إذا بلغت ﴾ ظرف متعلق بقوله ﴿ ترجعونها ﴾ أى : تردونها ، وقد قدم عليه لتهويله ، والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه ، وهو إرجاع الروح إلى صاحبها .

والضمير فى ﴿ بلغت ﴾ يعود إلى الروح ، وهى وإن كانت لم تذكر إلا أنها مفهومه من الكلام .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٥٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٩ . وتفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٢٨ .

والحلقوم : مجرى الطعام وأل فيه للعهد الجنسى .

وجملة : ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ حال من ضمير ﴿ بلغت ﴾ ، ومفعول ﴿ تنظرون ﴾ محذوف والتقدير : تنظرون وتبصرون صاحب الروح وهو فى تلك الحالة العصيبة .

وجملة ﴿ ترجعونها .... ﴾ جواب الشرطين فى قوله : ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ وفى قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ .

وجملة ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ مستأنفة لتأكيد توبيخهم على جهالاتهم وعدم اعتبارهم حتى فى أوضح المواقف التى تدل على قدرة خالقهم - عز وجل - .

والمعنى : إذا كنتم - أيها الجاحدون المكذبون - لم تعتبروا ولم تتعظوا بكل ما سقناه لكم من ترغيب وترهيب على لسان رسولنا محمد - ﷺ - فهلا اعتبرتم واتعظتم وآمنتم بوحدانيتنا وقدرتنا .. حين ترون أعز وأحب إنسان إليكم ، وقد بلغت روحه حلقومه ، وأوشكت على أن تفارق جسده ..

﴿ وأنتم ﴾ أيها المحيطون بهذا المحتضر العزيز عليكم ﴿ حينئذ ﴾ أى : حين وصل الأمر به إلى تلك الحالة التى تنذر بقرب نهايته ، أنتم ﴿ تنظرون ﴾ إلى ما يقاسيه من غمرات الموت ، وتبصرون ما فيه من شدة وكرب ، وتحرصون كل الحرص على انجائه مما حل به ولكن حرصكم يذهب أدراج الرياح .

﴿ ونحن ﴾ فى هذه الحالة وغيرها ، ﴿ أقرب إليه منكم ﴾ أى : ونحن أقرب إليه منكم بعلمنا وبقدرتنا ، حيث إنكم لا تعرفون حقيقة ما هو فيه من أهوال ولا تدركون عظيم ما فيه من كرب ، ولا تقدرون على رفع شىء من قضائنا فيه وفى غيره .

وقوله : ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ استدراك للكلام السابق . أى : ونحن أقرب إلى هذا المحتضر منكم ، ولكنكم لا تدركون ذلك لجهلكم بقدرتنا النافذة ، وحكمتنا البالغة ..

﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ أى : فهلا إن كنتم غير عاجزين عن رد قضائنا فى هذا المحتضر الحبيب إليكم ، وغير مربوبين لنا ، وخاضعين لسلطاننا .. يقال : دان السلطان الرعية ، إذا ساسهم وأخضعهم لنفوذه .

هلا إن كنتم غير خاضعين لنا ﴿ ترجعونها ﴾ أى : ترجعون الروح إلى صاحبها ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى اعتقادكم بأن آلهتكم تستطيع الدفاع عنكم وفى اعتقادكم أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، وفى توهمكم أن هناك قوة سوى قوة الله - عز وجل - يمكنها أن تساعدكم عند الشدائد والمحن .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة ، تقيم أوضح الأدلة وأكثرها تأثيرا فى النفوس ، على كمال قدرة الله - تعالى - وعلى نفاذ مشيئته وإرادته ..

فهى تتحدى البشر جميعا أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم واقفون من حوله وقفة الحائر المستسلم . العاجز عن فعل أى شىء من شأنه أن يدفع عن هذا المحتضر ما فيه من كرب ، أو أن يؤخر انتزاع روحه من جسده ، ولو لزمن قليل ..

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك ، فى بيان مصير هذه الروح ، التى توشك أن تستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية فتقول : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ .

والروح : بمعنى الراحة والأمان والاطمئنان والريحان شجر طيب الرائحة .

أى : فأما إن كان صاحب هذه النفس التى فارقت الدنيا ، من المقربين إلينا السابقين بالخيرات .. فله عندنا راحة لا تقاربها راحة ، وله رحمة واسعة ، وله طيب رائحة عند قبض روحه ، وعند نزوله فى قبره ، وعند وقوفه بين أيدينا للحساب يوم الدين ، وله جنات ينعم فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ وأما ﴾ إن كان هذا الانسان ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ وهم الذين ثقلت موازين حسناتهم ..

﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أى : فتقول له الملائكة عند قبض روحه وفى قبره ، وفى الجنة ، سلام لك ياصاحب اليمين ، من أمثالك أصحاب اليمين .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ قيل هو على تقدير القول . أى : فيقال لذلك المتوفى منهم : سلام لك ياصحاب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين .

وجوز أن يكون المعنى : فسلامة لك عما يشغل القلب من جهتهم فإنهم فى خير . أى : كن فارغ البال من جهتهم فإنهم بخير .

وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة ، كلام يفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل ..[1] .

﴿ وأما إن كان ﴾ هذا المتوفى ﴿ من المكذبين الضالين ﴾ وهم أصحاب الشمال ﴿ فنزل من حميم ﴾ أى : فله نزل - أى : مكان - ﴿ من حميم ﴾ أى : من ماء قد بلغ أقصى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٦٠ .

درجات الحرارة وعبر عن المكان الذى ينزل فيه بالنزل ، على سبل التهكم ، إذا النزل فى الأصل يطلق على ما يقدم للضيف على سبل التكريم ..

وقوله : ﴿وتصلية جحيم﴾ أى : وله - أيضا - إدخال فى نار جهنم التى تشوى جسده وتحرقه .

﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ أى : إن هذا الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة وغيرها ، لهو الحق الثابت الذى لا يحوم حوله شك أو ريب ..

فقوله : ﴿ حق اليقين ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى : لهو اليقين الحق ..

أو هو من إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ حبل الوريد ﴾ إذ الحبل هو الوريد ، والقصد من مثل هذا التركيب التأكيد .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فنزه ربك العظيم فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، عن كل ما لا يليق به ..

وبعد فهذا تفسير لسورة « الواقعة » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الدوحة - قطر

صباح الاربعاء ١٦ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦/٣/٢٦ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةِ الْحَدِيدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الحديد » هى السورة السابعة والخمسون فى ترتيب المصحف ، وسميت بذلك لقوله - تعالى - فيها : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ .

وعدد آياتها تسع وعشرون آية فى المصحف الكوفى ، وثمان وعشرون فى غيره .

٢ - وقد اختلف المفسرون فى كونها مدنية أو مكية ، فابن كثير والقرطبى يقولان بأنها مدنية ، ولا يذكران خلافا فى ذلك .

بينما نرى صاحب الكشاف يقول إنها مكية ، ولا يذكر - أيضا - خلافا فى ذلك .

ومن المفسرين من يرى بأن سورة الحديد منها ماهو مكى ومنها ما هو مدنى .

قال الآلوسى : أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة وقال النقاش وغيره : هى مدنية بإجماع المفسرين ، ولم يسلم له ذلك ، فقد قال قوم إنها مكية .

وقال ابن عطية : لا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا . لكن يشبه أن يكون صدرها مكيا .. ويشهد لهذا ما أخرجه البزار فى مسنده ، والطبرانى وابن مردويه .. عن عمر - رضى الله عنه - أنه دخل على أخته قبل أن يسلم ، فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد ، فقرأه حتى بلغ قوله - تعالى - : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فأسلم[1] .

والذى يبدو لنا - بعد تدبرنا لهذه السورة الكريمة - أنها يغلب عليها طابع القرآن المدنى ، الذى يتحدث عن الجهاد فى سبيل الله ، وعن الإنفاق من أجل إعلاء كلمته ، وعن سوء مصير المنافقين ، وعن إرشاد المؤمنين إلى كيفية إقامة الدولة القوية العادلة .. وهذا لا يمنع من أن يكون من بين آياتها ما هو مكى ، متى ثبت ذلك عن طريق النقل الصحيح .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن الله - تعالى - قد نزهه عن كل مالا يليق به ، جميع مافى السموات وما فى الأرض ، وأنه - عز وجل - هو مالكها ، وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن والمحيى والمميت والخالق لكل شىء ، والعليم بكل شىء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٦٤ .

قال - تعالى - : ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ .

٤ - ثم حضت السورة الكريمة المؤمنين على الثبات على إيمانهم ، وعلى الإنفاق فى سبيل الله ، ووعدتهم على ذلك بأجزل الثواب .

قال - تعالى - : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم ﴾ .

٥ - ثم تتحدث السورة الكريمة بعد ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر ، عن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المنافقين ، فتحكى جانبا مما يدور بين الفريقين من محاورات فتقول : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ﴾ .

٦ - وبعد أن تنتقل السورة الكريمة إلى حث المؤمنين على الخشوع لله ، وعلى تذكر الموت ، وعلى البذل فى سبيل الله .. بعد كل ذلك تبين لهم مصير الحياة الدنيا ، وتدعوهم إلى إيثار الآجلة على العاجلة ، والباقية على الفانية فتقول : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

٧ - ثم تقرر السورة بعد ذلك أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، وأنه - سبحانه - قد أرسل رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وأمرهم بنشر العدل بين الناس ، كما أمرهم بإعداد القوة لإرهاب أعداء الحق ، لأن الناس فى كل زمان ومكان فيهم المهتدون ، وفيهم الضالون ، كما قال - تعالى - : ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة بهذا النداء الحكيم للمؤمنين فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

٩ - وبعد ، فهذا عرض مجمل لسورة « الحديد » ومنه نرى أنها زاخرة بالحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن صفاته الجليلة .. وعن دعوة المؤمنين إلى التمسك بتعاليم دينهم ، تمسكا يكون مقدما على كل شيء من زينة هذه الحياة الدنيا ، لأن هذا التمسك يجعلهم يعيشون سعداء فى دنياهم ، وينالون بسببه الفوز والفلاح فى أخراهم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدوحة - قطر د . محمد سيد طنطاوى

مساء الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ ٢٦ / ٣ / ١٩٨٦

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٦﴾

افتتحت سورة « الحديد » بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق به ، وبالثناء عليه - تعالى - بما هو أهله ، وببيان جانب من صفاته الجليلة ، الدالة على وحدانيته ، وقدرته ، وعزته ، وحكمته ، وعلمه المحيط بكل شىء .

افتتحت بقوله - عز وجل - : ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقوله : ﴿ سبح ﴾ من التسبيح ، وأصله الإبعاد عن السوء ، من قولهم سبح فلان فى الماء ، إذا توغل فيه ، وسبح الفرس ، إذا جرى بعيدا وبسرعة .

قالوا : وهذا الفعل ﴿ سبح ﴾ قد يتعدى بنفسه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ وقد يتعدى باللام كما هنا . وهى للتأكيد والتبيين أى : سبح لله لا لغيره .

والمراد بالتسبيح هنا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله وكماله .

والمعنى : نزه الله - تعالى - وعظمه وخضع له ، وانقاد لمشيئته .. جميع ما فى السموات والأرض من كائنات ومخلوقات .. لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

وقد جاء التسبيح تارة بصيغة الفعل الماضى كما فى هذه السورة ، وكما فى سورتى الحشر والصف ، وتارة بصيغة المضارع ، كما فى سورتى الجمعة والتغابن ، وتارة بصيغة الأمر كما فى سورة الأعلى ، وتارة بصيغة المصدر كما فى سورة الإسراء .

جاء التسبيح بهذه الصيغ المتنوعة ، للإشعار بأن تسبيح هذه المخلوقات لله - تعالى - شامل لجميع الأوقات والأحوال .

قال - تعالى - ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾[1] .

وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ ، والعزيز : هو الغالب على كل شىء ، إذ العزة معناها : الغلبة على الغير ، ومنه قوله تعالى - : ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ أى : غلبنى فى الخصام .

وفى أمثال - العرب : من عزَّ بزَّ ، أى : من غلب غيره تفوق عليه .

والحكيم مأخوذ من الحكمة ، وهى وضع الأمور فى مواضعها اللائقة بها .

أى : وهو - سبحانه - الغالب الذى لا يغلبه شىء - الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها السليمة .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : ﴿ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير ﴾ .

أى . له - سبحانه - وحده دون أن يشاركه مشارك ، ملك السموات والأرض ، إذ هو - تعالى - المتصرف فيهما ، والخالق لهما ، إن شاء أبقاهما وإن شاء أزالهما .

وملكه - سبحانه - للسموات والأرض ، ملك حقيقى ، لأنه لا ينازعه فيه منازع ، ولا يشاركه مشارك .. بخلاف ملك غيره لبعض متاع الدنيا ، فإنه ملك زائل مهما طال ، ومفتقر إلى من يحميه ويدافع عنه .

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

وقوله : ﴿ يحيى ويميت ﴾ صفة أخرى من صفاته - عز وجل - أى : هو الخالق للحياة لمن شاء أن يحييه ، وهو الخالق للموت لمن أراد أن يميته .

وهذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف ، وهى فى الوقت نفسه بدل اشتمال مما قبلها إذ الإحياء والإماتة ، مما يشتمل عليه ملك السموات والأرض .

وخص - سبحانه - هاتين الصفتين بالذكر ، لأنه هو المتفرد بهما ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن له عملا فيهما ، ومن ادعى ذلك كانت دعواه من قبيل المغالطة والمجادلة بالباطل ، إذ الموجد الحقيقى لهما هو الله - عز وجل - وما سواه فهو سبب لهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ تذييل مؤكد لما قبله . أى : وهو - سبحانه - على كل شىء من الأشياء التى من جملتها ما ذكر - قدير على إيجادها أو إعدامها .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : ﴿ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ﴾ .

أى : هو - سبحانه - الأول والسابق على جميع الموجودات ، إذ هو موجدها ومحدثها إبتداء . فهو موجود قبل كل شىء وجودا لا حد ولا وقت لبدايته .

﴿ والآخر ﴾ أى : الباقى بعد هلاك وفناء جميع الموجودات ، كما قال - تعالى - : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ .

وأوثر لفظ ﴿ الآخر ﴾ على لفظ الباقى ليتم الطباق بين الوصفين المتقابلين ...

وهو ﴿ الظاهر ﴾ أى : الظاهر وجوده عن طريق مخلوقاته التى أوجدها بقدرته إذ من المعروف عند كل عاقل أن كل مخلوق لابد له من خالق ، وكل موجود لابد له من موجد .

فلفظ ﴿ الظاهر ﴾ مشتق من الظهور الذى هو ضد الخفاء ، والمراد به هنا ظهور الأدلة العقلية والنقلية على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه .

ويجوز أن يكون مشتقا من الظهور ، بمعنى الغلبة والعلو على الغير ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم .. ﴾ .

وعليه يكون المعنى : وهو الغالب العالى على كل شىء .

وهو ﴿ الباطن ﴾ من البطون بمعنى الخفاء والاستتار ، أى : وهو - سبحانه - المحتجب بكنه ذاته عن أن تدركه الأبصار ، أو أن تحيط بحقيقة ذاته العقول ، كما قال - تعالى -

﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾[١] .

ويصح أن يكون ﴿ الباطن ﴾ بمعنى العالم بما بطن وخفى من الأمور يقال : فلان أبطن بهذا الأمر من غيره ، أى : أعلم بهذا الشىء من غيره .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ أى : وهو - سبحانه - عليم بكل مافى هذا الكون ، لا تخفى عليه خافية من شئونه ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾[٢] .

قال ابن كثير : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث عرباض بن معاوية أنها أفضل من ألف آية .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية على نحو بضعة عشر قولا وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شىء علما والباطن على كل شىء علما .

وروى الإمام مسلم - فى صحيحه - ، والإمام أحمد - فى مسنده - عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو عند النوم فيقول : « اللهم رب السموات ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر .. »[٣] .

ثم ساق - سبحانه - ألوانا أخرى من الأدلة التى تدل على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ .

والأيام : جمع يوم ، واليوم فى اللغة مطلق الوقت ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - . وقيل : هذه الأيام من أيام الدنيا .

والاستواء فى اللغة : يطلق على الاستقرار ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ واستوت على الجودى ﴾ أى استقرت سفينة نوح - عليه السلام - عند ذلك الجبل المسمى بذلك الاسم .. كما يطلق بمعنى القصد ، ومنه قولهم : استوى إلىَّ يخاصمنى ، أى : قصد لى . كما يطلق بمعنى الاستيلاء والقهر ، ومنه قول الشاعر : قد استوى بشر على العراق .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٣ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٢ .

وعرش الله ، مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم أما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلا الله - تعالى - .

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية من القرآن الكريم ، كما ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أى : هو - سبحانه - الذى خلق السموات والأرض فى ستة أوقات ، ثم استوى على العرش ، استواء يليق به - تعالى - . بلا كيف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ، لاستحالة اتصافه - تعالى : بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

قال الإمام مالك - رحمه الله - الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه فقال : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ .

وقوله : ﴿ يلج ﴾ من الولوج بمعنى الدخول ، يقال : ولج فلان بيته ، إذا دخله .

وقوله : ﴿ يعرج ﴾ من العروج وهو الذهاب فى صعود ، والسماء ، جهة العلو مطلقا .

أى أنه - سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر وكنوز قد طويت فى باطنها ، ومن بذور ومعادن فى طياتها .

ويعلم - أيضاً - ﴿ ما يخرج منها ﴾ من نبات وحبوب وكنوز ، وغير ذلك من أنواع الخيرات ، ويعلم - كذلك - ﴿ ما ينزل من السماء ﴾ من أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض .

ويعلم - أيضا - ما يصعد فيها من الملائكة ، ومن الأعمال الصالحة ، كما قال - تعالى - ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

وعدى العروج بحرف فى ، لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى بحرف إلى ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ أى : وهو معكم بعلمه ولطفه ورحمته .. أينما كنتم وحيثما وجدتم .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : وهو معكم أينما كنتم تمثيل لإحاطة علمه - تعالى -

بهم ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا ، وقيل المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السياق واللحاق مع استحالة الحقيقة .

وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم .

وأخرج - أيضا - عن سفيان الثورى انه سئل عنها فقال : علمه معكم .

وفى البحر : أنه اجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أى : والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أقوالكم أو أفعالكم .. بل هو مطلع عليكم اطلاعا تاما .

ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أى : له - سبحانه - التصرف الكلى فى السموات والأرض . وفيما فيهما من موجودات ، من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات .

﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى : وإلى الله - تعالى - وحده لا إلى غيره ، مرد الأمور كلها ، والحكم عليها ، والتصرف فيها .. وليس إلى أحد غيره لا على سبيل الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى : يدخل - سبحانه - طائفة من الليل فى النهار ، فيقصر الليل ويزيد النهار ويدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيقصر النهار ، ويزيد الليل ، ثم يسيران على هذا النظام البديع ، دون أن يسبق أحدهما الآخر .

﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ و « ذات » هنا مؤنث ذو بمعنى صاحب .

أى : وهو - سبحانه - عليم علما تاما بمكنونات الصدور ، وما تضمره من خير أو شر وما يتردد فيها من خواطر وأفكار .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، يراها قد اشتملت على بضع عشرة صفة ، من صفات الله عز وجل - الدالة على وجوب إخلاص العبادة له ، والانقياد لأمره ونهيه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٦٨ .

ثم - دعا - سبحانه - عباده المؤمنين إلى التمسك بهذا الإيمان ، وإلى تنفيذ تكاليفه ، ووعدهم على ذلك بأجزل الثواب ، فقال - تعالى - :

ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم
مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ
ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ
وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ
وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا
ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ إلى الناس جميعا ويدخل فيه المؤمنون دخولا أوليا ، ويكون المقصود بدعوتهم إلى الإيمان المداومة عليه والتمسك بتعاليمه ، وتنفيذ توجيهاته .. كما قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ بيان لما يقتضيه هذا الإيمان .

وقوله : ﴿ مستخلفين ﴾ اسم مفعول من الاستخلاف ، بمعنى أن يخلف الإنسان غيره ، أو أن يخلفه غيره من بعده .

(١) سورة النساء الآية ١٣٦ .

أى : آمنوا - أيها الناس - بالله - تعالى - وبرسوله - ﷺ - إيمانا حقا ، وإن من مقتضيات هذا الإيمان ، أن تنفقوا من أموالكم فى وجوه الخير ، فإن هذه الأموال هى عارية فى أيديكم ، فقد ورثتموها من غيركم ، وغيركم سيرثها عنكم ، وهى فى جميع الأحوال ملك لله - تعالى - وحده على الحقيقة .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ دليل على أن أصل الملك لله - سبحانه - وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة ، فمن انفق منها فى حقوق الله ، وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الأجر الجزيل .

وقال الحسن : مستخلفين فيه : ورثتكم إياه عمن كان قبلكم .

وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق ، قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المنفقين فقال : ﴿ فالذين آمنوا منكم ﴾ إيمانا حقا .. ﴿ وأنفقوا ﴾ أموالهم فيما يرضى الله - تعالى - ﴿ لهم ﴾ منه - عز وجل - ﴿ أجر كبير ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

ثم رغبهم - سبحانه - فى الثبات على الإيمان بالله ورسوله فقال : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أى : وأى مانع يمنعكم من الثبات على الإيمان . ومن القيام بتكاليفه ، ومن إخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، والحال أن الرسول - ﷺ - بينكم صباح مساء ، يدعوكم إلى الإيمان بربكم ، وقد أخذ - سبحانه - عليكم العهود والمواثيق على هذا الإيمان ، عن طريق ما ركب فيكم من عقول تعقل ، وعن طريق ما نصب لكم من أدلة متنوعة كلها تدل على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال : الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان ، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . وقد روينا فى الحديث من طرق ، فى أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى ، أن رسول الله - ﷺ - قال يوما لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ » قالوا : الملائكة .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٣٨ .

قال : « ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا : فالأنبياء قال : « ومالهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم » قالوا : فنحن ، قال : « فما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم ، يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ كما قال - تعالى - : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا .. ﴾ ويعنى بذلك بيعة الرسول - ﷺ - .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك : الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم[1] .

وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

أى : إن كنتم مؤمنين لسبب من الأسباب ، فعلى رأس هذه الأسباب وجود الرسول - ﷺ - بينكم يدعوكم إلى هذا الإيمان ويقنعكم بوجوب الاعتصام به .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه - ﷺ - وعليهم فقال : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ .

والرءوف : مبالغة فى الاتصاف بالرأفة ، ومعناها : كراهية إصابة الغير بما يضره أو يؤذيه .

والرحيم : مبالغة فى الاتصاف بصفة الرحمة . ومعناه : محبة إيصال الخير والنفع إلى الغير .

أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينزل على عبده ورسوله محمد - ﷺ - ﴿ آيات بينات ﴾ أى : حججا واضحات ، ودلائل باهرات ، لكى يخرجكم من ظلمات الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم .

وإن الله - تعالى - بكم - أيها الناس - لكثير الرأفة والرحمة ، حيث أنزل إليكم كتابه ، وأرسل إليكم رسوله - ﷺ - .

وكما حضهم - سبحانه - على الثبات على الإيمان .. حضهم أيضاً مرة أخرى على الإنفاق فى سبيله بأبلغ أسلوب ، فقال : ﴿ ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض ﴾ .

والاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ ومالكم ألا تنفقوا .. ﴾ للتعجيب من حال من يمسك عن الإنفاق فى سبيل الله ، مع أن كل المقتضيات تدعوه إلى هذا الإنفاق . والكلام فى قوله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٥ .

- تعالى - : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ على حذف مضاف ، والجملة حال من فاعل ﴿ ألا تنفقوا ﴾ ، أو من مفعوله المعلوم مما تقدم .

وإضافة ميراث إلى السموات والأرض ، من إضافة المصدر إلى المفعول أى : وأى سبب يحملكم على البخل وعدم الإنفاق فى سببيل إعلاء كلمة الله ، والحال أن لله - تعالى - ميراث أهل السموات وأهل الأرض .

إنه لا عذر لكم فى الشح والإمساك بعد أن بينت لكم ما بينت من وجوب الإنفاق فى سبيل الله .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أى : يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال ، على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث ما فيهما ، لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف . وجوز أن يراد : يرثهما وما فيهما ، واختير الأول ، لأنه يكفى لتوبيخهم ، إذ لا علاقة لأخذ السموات والأرض هنا .. والجملة مؤكدة للتوبيخ ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر ، ومع تحقيق ما يوجب الإنفاق أشد فى القبح ، وأدخل فى الإنكار[1] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ .

والمراد بمن أنفق من قبل الفتح وقاتل : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين انفقوا الكثير من أموالهم ، قبل فتح مكة ... وقيل : المراد بالفتح : صلح الحديبية .

وإنما كان الذين أنفقوا وقاتلوا قبل هذا الوقت ، أعظم درجة ممن فعل ذلك بعد هذا الوقت ، لأن الأيام التى سبقت الفتح تعرض المسلمون خلالها لكثير من المصائب والخوف والجوع ونقص الثمرات .. فكان الإنفاق والجهاد فيها أشق على النفس ، والثواب على قدر المشقة .

أى : لا يستوى منكم - أيها المؤمنون - فى الفضيلة والدرجة من أنفق الكثير من ماله ، من قبل أن تفتح مكة ، وجاهد فى سبيل الله - تعالى - جهادا كبيرا ، أولئك الذين فعلوا ذلك ، أعظم درجة ومنزلة من الذين انفقوا وقاتلوا بعد أن فتحت مكة .

فالجملة الكريمة بيان لتفاوت الدرجات ، على حسب تفاوت الأحوال والأعمال ، وعطف - سبحانه - القتال فى قوله ﴿ وقاتلوا ﴾ على الإنفاق فى قوله : ﴿ أنفقوا ﴾ للإشعار بشدة ارتباطهما ، وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٧١ .

قال القرطبى : أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح : فتح مكة . وقال الشعبى والزهرى : فتح الحديبية ... وفى الكلام حذف . أى : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لدلالة الكلام عليه .

وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق ، والأجر على قدر النصب[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ من أنفق .. ﴾ عام يشمل جميع من بذل ماله قبل الفتح فى سبيل الله .

وقيل : المراد به أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ مدح للفريقين ، ودفع للتوهم من أن يظن ظان أن الفريق الثانى وهو الذى أنفق من بعد الفتح وقاتل ، محروم من الأجر .

أى : وكلا الفريقين وعده الله - تعالى - المثوبة الحسنى وهى الجنة ، إلا أن الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد ذلك .

فهذه الآية أصل فى تفاضل أهل الفضل فيما بينهم ، وأن الفضل ثابت لهم جميعا إلا أنهم تفاوتوا على حسب أعمالهم وجهادهم وسبقهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى : أنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة أو الباطنة فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لله - تعالى - لتنالوا أجره وثوابه .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تدل على فضل الصحابة - رضوان الله عليهم - ومنها ما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تسبوا أصحابى ، فو الذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتحريض أشد وأقوى على الإنفاق فى وجوه الخير ، فقال - تعالى - : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم ﴾ .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٤٠ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٦ .

قال القرطبى : القرض : اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء ، وأقرض فلان فلانا ، أى : أعطاه ما يتجازاه واستقرضت من فلان أى : طلبت منه القرض فأقرضنى ، واقترضت منه أى : أخذت منه القرض . وأصل الكلمة : القطع . ومنه المقراض ، وأقرضته ، أى : قطعت له من مالى قطعة يجازى عليها .

ثم قال : والتعبير بالقرض فى هذه الآية ، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنى الحميد ، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء »[1] .

والقرض الحسن : هو الإنفاق من المال الحلال ، مع صدق النية ، دون رياء أو سمعة . أو منٍّ أو أذى مع تحرى أوسط الأموال .

والاستفهام : للحض على البذل والعطاء ، والتحريض على التحلى بمكارم الأخلاق .

و ﴿ من ﴾ اسم استفهام مبتدأ ، و ﴿ ذا ﴾ اسم إشارة خبره ، و ﴿ الذى ﴾ وصلته صفة لاسم الإشارة ، أو بدل منه .

والمعنى : من هذا المؤمن القوى الإيمان ، الذى يقدم ماله فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفى غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين ، وسد حاجة البائسين .. ﴿ فيضاعفه له ﴾ أى : فيعطيه - سبحانه - أجره على إنفاقه أضعافا مضاعفة .

﴿ وله أجر كريم ﴾ ، أى : ولهذا المنفق - فضلا عن كل ذلك - أجر كريم عند خالقه ، لا يعلم مقداره إلا هو - تعالى - .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير .

ومن ذلك التعبير بالاستفهام فى ذاته ، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة .

ومن ذلك - أيضا - التعبير بقوله : ﴿ من ذا الذى ﴾ .. إذ لا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر ، وكأن المخاطب لعظم شأنه ، من شأنه أن يشار إليه ، وأن يجمع له بين اسم الإشارة وبين الاسم الموصول .

ومن ذلك تسميته ما يبذله الباذل قرضا ، ولمن هذا القرض ؟ إنه لله الذى له خزائن السموات والأرض .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٣٩ .

فكأنه - تعالى - يقول : أقرضونى مما أعطيتكم ، وسأضاعف لكم هذا القرض أضعافا مضاعفة ، يوم القيامة ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ .

ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ، وضم الأجر الكريم إليها .

ومن ذلك التعبير عن الإنفاق بالقرض ، إذ القرض معناه : إخراج المال . وانتظار ما يقابله من بدل .

والخلاصة أن هذه الآية وما قبلها ، فيها ما فيها من الدعوة إلى الإنفاق فى وجوه الخير ، وإلى الجهاد فى سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب ، وساق جانبا مما يدور بينهم وبين المنافقين من محاورات .. فقال - تعالى - :

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم
بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ
ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ
ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

وقوله - تعالى - ﴿ يوم ترى المؤمنين ﴾ منصوب بفعل مقدر ، والرؤية بصرية ، والخطاب لكل من يصلح له .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتتعظ ولتعتبر ، يوم تبصر المؤمنين والمؤمنات ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ . والأيمان : جمع يمين . والمراد جهة اليمين .

أى : يتحرك نورهم معهم من أمامهم ، ومن جهة يمينهم ، على سبيل التشريف والتكريم لهم .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبرا عن المؤمنين المتصدقين ، أنهم يوم القيامة ، يسعى نورهم بين أيديهم فى عرصات القيامة بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، ويمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم[١] .

وعطف - سبحانه - ﴿ المؤمنات ﴾ على ﴿ المؤمنين ﴾ للتنبيه على أن كلا من الذكر والأنثى . له أجره على عمله الصالح ، بدون إجحاف أو محاباة لجنس على جنس ، كما قال - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٢] .

والباء فى قوله : ﴿ وبأيمانهم ﴾ بمعنى عن . واقتصر على ذكر الإيمان على سبيل التشريف لتلك الجهة ، والمراد أن نورهم يحيط بهم من جميع جوانبهم .

وقوله : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ مقول لقول محذوف .

وقوله : ﴿ بشراكم ﴾ اسم مصدر من بشر . أى : أخبر بما يسر .

والمعنى : تقول لهم الملائكة على سبيل التكريم والتحية : نبشركم اليوم بجنات عظيمة . تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار العذبة ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، وذلك الذى أنتم فيه من نور يسعى بين أيديكم ، ومن جنات أنتم خالدون فيها .. هو الفوزالعظيم ، الذى لا يعادله فوز أو فلاح .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ بدل من قوله - تعالى - ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ .

أى : واذكر - أيها العاقل - أيضا - يوم يقول المنافقون والمنافقات ، الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، يقولون للذين آمنوا ، على سبيل التذلل والتحسر .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٨ .
(٢) سورة النحل الآية ٩٧ .

﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ أى انتظرونا وتريثوا فى سيركم لكى نلحق بكم ، فنستنير بنوركم الذى حرمنا منه ، وننتفع بالاقتباس من نوركم الذى أكرمكم الله - تعالى - به .

قال الآلوسى : ﴿ انظرونا ﴾ أى : انتظرونا ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ نصِب منه ، وذلك بأن يلحقوا بهم ، فيستنيروا به .. وأصل الاقتباس طلب القبس ، أى الجذوة من النار .

وقولهم للمؤمنين ذلك ، لأنهم فى ظلمة لا يدرون كيف يمشون فيها . وروى أن ذلك يكون على الصراط[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ حكاية لما يرد به عليهم المؤمنون ، أو الملائكة .

أى : قال المؤمنون فى ردهم على هؤلاء المنافقين : ارجعوا وراءكم حيث الموقف الذى كنا واقفين فيه فالتمسوا منه النور ، أوارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً ، عن طريق تحصيل سببه وهو الإيمان ، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا .

وهذا القول من المؤمنين لهم ، على سبيل التهكم بهم ، إذ لا نور وراء المنافقين .

وقوله : ﴿ وراءكم ﴾ تأكيد لمعنى ﴿ ارجعوا ﴾ إذ الرجوع يستلزم الوراء .

ثم بين - سبحانه - ما حدث للمنافقين بعد ذلك فقال : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ﴾ .

أى : فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم ، هذا الحاجز العظيم ، والسور الكبير ﴿ له باب ﴾ باطن هذا الباب مما يلى المؤمنين ﴿ فيه الرحمة ﴾ أى : فيه الجنة ، وظاهر هذا الباب مما يلى المنافقين ﴿ من قبله العذاب ﴾ .

أى : بأنى من جهته العذاب . قالوا : وهذا السور ، هو الحجاب المذكور فى سورة الأعراف فى قوله - تعالى - : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان أن المؤمنين فى مكان آمن تحيط به الجنة ، أما المنافقون ففى مكان مظلم يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار .

ثم حكى - سبحانه - أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين ، بل أخذوا ينادونهم فى تحسر وتذلل فيقولون لهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ ينادونهم ألم تكن معكم ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٧٦ .

أى : ينادى المنافقون المؤمنين نداء كله حسرة وندامة ، فيقولون لهم : ألم نكن معكم فى الدنيا ، نصلى كما تصلون ، وننطق بالشهادتين كما تنطقون ؟

﴿ قالوا بلى ﴾ أى : قال المؤمنون للمنافقين : بل كنتم معنا فى الدنيا تنطقون بالشهادتين .

﴿ ولكنكم ﴾ فى الدنيا ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ أى : أضللتم أنفسكم بالنفاق الذى هو كفر باطن ، وإسلام ظاهر .

﴿ وتربصتم ﴾ والتربص : الانتظار والترقب ، أى : وانتظرتم وقوع المصائب بالمؤمنين .

﴿ وارتبتم ﴾ أى : وشككتم فى الحق الذى جاءكم به الرسول - ﷺ - وأعرضتم عنه .

﴿ وغرتكم الأمانى ﴾ والأمانى : جمع أمنية ، وهى ما يمنون به أنفسهم من الباطل . كزعمهم أنهم مصلحون ، وأنهم على الحق ، وأن المسلمين على الباطل .

﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أى : بقيتم على الفتنة ، والارتياب ، والتربص ، والاغترار بالباطل ، حتى جاءكم أمر الله ، وهو قضاؤه فيكم بالموت .

﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أى : وخدعكم فى سعة رحمة الله الشيطان . فأطمعكم بأنكم ستنجون من عقابه - تعالى - مهما فتنتم أنفسكم وتربصتم بالمؤمنين وارتبتم فى كون الإسلام حق .

وها أنتم الآن ترون سوء عاقبة نفاقكم ، وإصراركم على كفركم .

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم ﴾ أيها المنافقون ﴿ فدية ﴾ وهى ما يبذل من أجل افتداء النفس من العذاب .

﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ أى : ولا يؤخذ - أيضا - من الذين كفروا ظاهرا وباطنا فداء .

﴿ مأواكم ﴾ جميعا ﴿ النار ﴾ . أى : المكان الذى تستقرون فيه ، هو النار .

﴿ هى مولاكم ﴾ أى : هذه النار هى أولى بكم من غيرها . والأصل هى مكانكم الذى يقال فيه أولى بكم .

ويجوز أن يكون المعنى : هذه النار : هى ناصركم ، من باب التهكم بهم ، على حد قول الشاعر : تحية بينهم ضرب وجيع ... أى : لا ناصر لكم إلا النار .

والمراد نفى الناصر لهم على سبيل القطع ، بعد نفى اخذ الفدية منهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٦ .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ هي مولاكم ﴾ قيل : هى أولى بكم ... وحقيقة مولاكم ، أى : مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم ، أى مكان لقول القائل إنه لكريم .

ويجوز أن يراد : هى ناصركم . أى ، لا ناصر لكم غيرها . والمراد : نفى الناصر على البتات ، ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر بالجزع . ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ﴾ .

وقيل : هى مولاكم ، أى تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار .

وعطف - سبحانه - الذين كفروا على المنافقين فى عدم قبول الفدية ، لا تحادهم فى التكذيب بيوم الدين ، وفى الاستهزاء بالحق الذى جاءهم من عند الله - تعالى - .

والمخصوص بالذم فى قوله - تعالى - : ﴿ وبئس المصير ﴾ محذوف والتقدير : وبئس المصير جهنم التى هى المكان الذى تصيرون إليه .

فأنت ترى أن المؤمنين قد بينوا للمنافقين ، أنهم يوافقونهم على أنهم كانوا معهم فى الدنيا .

ولكن الذى أدى بهؤلاء المنافقين إلى هذا المصير الأليم هو : فتنة أنفسهم ، والتربص بالمؤمنين ، والارتياب فى صدق الرسول - ﷺ - والاغترار بخداع الشيطان .. فما نزل بهم من عذاب إنما هو بسبب أفعالهم القبيحة .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن المؤمنين ونورهم ، وعن المنافقين وظلماتهم وعن تلك المحاورات التى تدور بينهم .. بعد كل ذلك حرض - سبحانه - المؤمنين ، على أن يروضوا أنفسهم على خشية الله - تعالى - وحذرهم من أن ينهجوا نهج أهل الكتاب فى قسوة القلب ، ووعد - سبحانه - المؤمنين الصادقين بالأجر الجزيل ، وبالنور العظيم ، فقال - تعالى - :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم يأن ﴾ للتقرير ، و « يأن » فعل مضارع ، يقال : أنى الشىء - كرمى - أنيا وأناء - بالفتح - وإنى - بالكسر - إذا حان أناه ، أى : وقته ، فهو فعل معتل حذفت منه الياء لسبقه بلم الجازمة ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ أى غير ناظرين حلول وقته .

والخطاب فى الآية يحتمل أن يكون من باب العتاب لطائفة من المؤمنين ، أصابهم بعض الفتور أو التكاسل ، فيما أمروا به من الاجتهاد فى طاعة الله - تعالى - بعد أن فتح الله - تعالى - لهم أقطار الأرض ورزقهم بالكثير من لين العيش ، وخيرات الدنيا .

ويؤيد هذا ما أخرجه ابن المبارك ، وعبد الرازق ، وابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله - ﷺ - المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا . بعد أن كان لهم من الجهد - وشظف العيش فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه ، فعوتبوا على ذلك فنزلت هذه الآية .

ويحتمل أن يكون الخطاب فى الآية لجميع المؤمنين ، على سبيل الحض على المداومة على طاعة الله - تعالى - ، والتحذير من التقصير .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ .

استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا إليه ، والمعاتب - على ما قاله الزجاج - طائفة منهم ، وإلا فإن من المؤمنين من لم يزل خاشعا منذ أن أسلم إلى أن لقى ربه[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٧٩ .

والخشوع : التذلل والخضوع ، واللام فى قوله ﴿ لذكر الله ﴾ للتعليل ، والمراد بذكر الله - تعالى - : ما يشمل كل قول أو فعل يؤدى إلى الخوف من الله - تعالى - بحيث يظهر أثر ذلك على الجوارح .

وقيل : المراد به : القرآن الكريم ، فيكون قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وما نزل من الحق ﴾ من باب عطف الشىء على نفسه ، لاختلاف اللفظين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾ .

والمعنى : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله - تعالى - وأن تلين قلوبهم لما أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - من قرآن ، تقشعر منه جلود الذين يخافون ربهم ، وترق له مشاعرهم ونفوسهم .

وبعد هذا التحريض للمؤمنين على المسارعة فى طاعة الله - تعالى - وخشيته والإكثار من ذكره : نهاهم - سبحانه - عن التشبه بأهل الكتاب ، الذين طال عليهم الأمد فى الانغماس فى شهوات الدنيا فقست قلوبهم فقال - تعالى - ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ .

والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى ، وبالكتاب : التوراة والإنجيل .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : ﴿ تخشع ﴾ والأمد : الغاية من زمان أو مكان . والمراد به هنا : الزمان الطويل .

أى : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب الذين آمنوا لذكر الله وما نزل من الحق ، وآن الأوان - أيضا - أن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، حيث طال عليهم الوقت وهم منغمسون فى الشهوات والملذات ، فقست قلوبهم ، وصارت لا تتأثر لا بالترغيب ولا بالترهيب ، ولا تفرق بين الحرام والحلال . وأصبح كثير منهم خارجين عن الصراط المستقيم .

فأنت ترى الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على الركون إلى ذكر الله - تعالى - بشدة ومداومة .. ونهتهم عن التشبه بأهل الكتاب فى عدم الخشوع وفى قسوة القلوب ، بسبب استيلاء المطامع والشهوات على قلوبهم .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم يأن ﴾ من أنى الأمر إذا جاء أناه أى : وقته .. والآية نهى للمؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب ، وذلك ان بنى إسرائيل ، كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا ورقت

قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان ، غلبهم الجفاء والقسوة ، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره .

فإن قلت : ما معنى لذكر الله وما نزل من الحق ؟ قلت : يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق القرآن ، لأنه جامع للأمرين : الذكر والموعظة وأنه حق نازل من السماء .

وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله . وإذا تلى القرآن ، كقوله - تعالى - : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾[1] .

والآية الكريمة تشير إلى أن الإهمال لذكر الله ، والاسترسال فى الشهوات كل ذلك يؤدى إلى قسوة القلوب ، وإلى الفسوق عن أمر الله - تعالى - .

ولذا وجدنا كثيرا من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تحض على الإكثار من ذكر الله - تعالى - قال - سبحانه - : ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

وفى الحديث الشريف : يقول - ﷺ - : « لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم فيمن عنده » .

ولقد كان سماع الآية الكريمة ، بتدبر وتفكر وخشوع ، على رأس الأسباب التى أدت إلى توبة بعض العصاة توبة صادقة نصوحا .

فهذا هو الفضل بن عياض يذهب ليلا لارتكاب ما نهى الله عنه ، فيسمع قارئا يقرأ هذه الآية ، فيرتجف ويعود أدراجه وهو يقول : بلى والله قد آن أوان الخشوع لذكر الله .. اللهم إنى تبت إليك ، وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام[2] .

ثم وجه - سبحانه - خطابه إلى المؤمنين فقال : ﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

وافتتاح الآية بقوله - تعالى - : ﴿ اعلموا . ﴾ يؤذن بأن ما سيلقى على مسامعهم من توجيهات ، جدير بالانتباه إلى مضمونه ، وإلى الامتثال لما اشتمل عليه من أمر أو نهى .

وليس المقصود من الآية إخبار المؤمنين بأن الله - تعالى - قادر على إحياء الأرض بعد موتها ، فذلك أمر يعتقدونه ، ولا يتم إيمانهم إلا به .

وإنما المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن المواظبة على ذكر الله - تعالى - وعلى تلاوة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٥١ .

كتابه ، كل ذلك يكون له أثره فى خشوع النفوس ، وفى طهارة القلوب .. كأثر المطر عندما ينزل على الأرض الجدباء المقفرة .. فما تلبث إلا أن تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

قال الإمام الرازى : قوله - تعالى - : ﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ﴾ . فيه وجهان :

الأول : أنه تمثيل . والمعنى : أن القلوب التى ماتت بسبب القساوة ، المواظبة على الذكر سبب لعودة حياة الخشوع إليها ، كما يحيى الله - تعالى - الأرض بالغيث .

والثانى : أن المراد من قوله : ﴿ يحيى الأرض بعد موتها ﴾ ، بعث الأموات فذكر ذلك ترغيبا فى الخشوع والخضوع ، وزجرا عن القساوة[1] .

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - : ﴿ قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلمه - سبحانه - .

أى : قد بينا لكم الدلائل والبراهين الناطقة بقدرتنا وحكمتنا .. لعلكم بهذا البيان تعقلون ما أرشدناكم إليه ، وتعملون بموجب ما عقلتموه ، وبذلك تنالون الفلاح والسعادة ، وتخشع قلوبكم لذكرنا ولآياتنا .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الذين يبذلون أموالهم فى سبيله . والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فقال : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم ﴾ .

وقراءة : ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ بتشديد الصاد - من التصدق ، فأدغمت التاء فى الصاد بعد قلبها صادا لقرب مخرجيهما .. وأصل الكلام : المتصدقين والمتصدقات .

وقرأ ابن كثير وغيره ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ - بتخفيف الصاد - على أنه من التصديق لما جاء به الرسول - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿ وأقرضوا ﴾ ؟

قلت : على معنى الفعل فى المصدقين ، لأن « أل » بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى : اصّدقوا ، فكأنه قيل : « إن الذين أصدقوا وأقرضوا » [2] .

والمعنى : إن المؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا بأموالهم فى وجوه الخير والدين ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ بأن أنفقوا أموالهم الحلال فى سبيل الله بدون من أو أذى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٩ ص ٢٣١ . طبعة دار الفكر - بيروت .
(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥ .

هؤلاء الذين فعلوا ذلك ﴿ يضاعف لهم ﴾ أجرهم عند الله - تعالى - أضعافا كثيرة .

﴿ ولهم ﴾ فضلا عن كل ذلك ، أجر كريم ، لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - .

وقوله : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ مبتدأ .

وقوله : ﴿ أولئك هم الصديقون ﴾ خبره ، والذين آمنوا بالله ورسله إيمانا حقا - لهم منزلة الصديقين : منزلة المبالغين فى الصدق واليقين .

فالصديق - بتشديد الدال - هو المبالغ فى الصدق بما جاءه به الرسول - ﷺ - وفى تنفيذ ما كلف به تنفيذا تاما .

﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ وهم الذين استشهدوا فى سبيل الله - تعالى - : ﴿ لهم أجرهم ﴾ العظيم عند الله - تعالى - ﴿ ونورهم ﴾ الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم القيامة لهم كذلك .

فعلى هذا التفسير يكون قوله : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ ، خبره ، ويكون الوقف على ﴿ الصديقون ﴾ وقفا تاما .. والضمائر فى ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ للشهداء .

ويصح أن يكون قوله ﴿ والشهداء ﴾ معطوف على ﴿ الصديقون ﴾ عطف المفرد على المفرد ، فهو عطف على الخبر . أى : وهم الشهداء عند ربهم .. ويكون الوقف على الشهداء تاما ، وأخبر - سبحانه - عن الذين آمنوا بالله ورسله ، أنهم صديقون وشهداء .

والمعنى على هذا الوجه : والذين آمنوا بالله ورسله ، أولئك هم الذين فى حكمه - تعالى - بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ، ورفعة الدرجة .

وقوله - تعالى - ﴿ عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ أى : للذين آمنوا بالله ورسله عند ربهم ، مثل أجر الصديقين والشهداء ولهم مثل نورهم يوم القيامة ، وناهيك به من أجر عظيم ، ونور عميم .

وحذف ما يفيد التشبيه فى الجملتين ، للتنبيه على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : يريد أن المؤمنين بالله ورسله ، هم عند الله - تعالى - بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق ، واستشهدوا فى سبيل الله .

وقوله : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ أى : لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم . فإن قلت : كيف يسوى بينهم فى الأجر ولابد من التفاوت ؟ قلت : المعنى أن الله

- تعالى - يعطى الذين آمنوا بالله ورسله أجرهم . ويضاعفه لهم بفضله . حتى يساوى أجرهم مع أضعافه ، أجر أولئك ، أى : أجر الصديقين والشهداء .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ والشهداء ﴾ مبتدأ ، وقوله ، ﴿ لهم أجرهم ﴾ خبره .... ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ بيان لسوء عاقبة الكافرين ، بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .

أى : والذين كفروا بالله ورسله ، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا أولئك أصحاب الجحيم ، الملازمون لها ملازمة الشىء لصاحبه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حضت المؤمنين على المواظبة على ذكر الله - تعالى - وطاعته ونهتهم عن التشبه بالذين قست قلوبهم ، وبشرت المصدقين والمصدقات ، والذين آمنوا بالله - تعالى - وبرسله إيمانا حقا .. بالأجر العظيم ، وبالعطاء الجزيل .

ثم بين - سبحانه - حال الحياة ، التى ركن إليها الكافرون ، واطمأنوا بها .. ودعا المؤمنين إلى أن تكون هممهم متجهة نحو الآخرة ، عن طريق التسلح بالأعمال الصالحة . فقال - تعالى - :

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥ .

وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

أى : ﴿ اعلموا ﴾ - أيها المؤمنون علم استجابة وامتثال لما آمركم به - ﴿ أنما الحياة الدنيا ﴾ التى تعيشون فيها ما شاء الله لكم أن تعيشوا .. ﴿ لعب ﴾ واللعب : هو قضاء الوقت فى قول أو فعل لا فائدة من ورائه .

﴿ ولهو ﴾ واللهو : اسم لفعل أو قول يقصد من ورائه التلذذ والتمتع ، وصرف الآلام والهموم عن النفس .

﴿ وزينة ﴾ الزينة اسم لما يتزين به الإنسان من ملبس أو مسكن أو ما يشبههما مما يفعله من أجل أن يكون فى أعين الناس مهيبا جميلا .

﴿ وتفاخر بينكم ﴾ أى : وتفاخر فيما بينكم بالأموال والمناصب والأحساب والأعمال .. وتكاثر فى الأموال والأولاد ، والتكاثر تفاعل من الكثرة - كما أن التفاخر تفاعل من الفخر - وصيغة التفاعل جىء بها هنا ، للمبالغة فى إظهار ما يتفاخرون به ، وما يتكاثرون فيه ، حتى لكأنه ينافس غيره فى ذلك ويريد الظهور عليه .

والحرص على التفاخر والتكاثر فى الأموال والأولاد ، من طبيعة كثير من الناس ، كما قال - تعالى - : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، التى يلعب الناس فيها ، ويلهون ويتفاخرون . ويتكاثرون .

فقال : ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ .

أى : هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كمثل مطر أعجب الكفار وراقهم وسرهم ، ما ترتب على هذا المطر ، من نبات جميل نبت من الأرض بعد هطول الغيث عليها .

فقوله - تعالى - : ﴿ كمثل ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : مثلها كمثل مطر .

والمراد بالكفار هنا : الجاحدون لنعم الله - تعالى - الساترون لها ، وخصوا بالذكر ، لأنهم أشد إعجابا وسروراً وانغماسا فى زينة الحياة الدنيا من غيرهم .

وروى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن المراد بالكفار هنا : الزراع الذين يزرعون الأرض بعد نزول المطر عليها ، ويبذرون فيها البذور سموا كفارا من الكفر بمعنى

الستر والإخفاء ، يقال : كفر الزارع بذره أو زرعه إذا أخفاه فى الأرض ، حتى لا يتعرض للتلف أو الضياع .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ﴾ .

والهيجان : الاضطراب والثوران ، ومنه سميت الحرب بالهيجاء ، لأن فيها يضطرب المقاتلون ، ويثور بعضهم على بعض .

ويرى بعضهم أن معنى ﴿ يهيج ﴾ هنا : ييبس ويجف .

وعطف - سبحانه - جملة ﴿ يهيج ﴾ بحرف ﴿ ثم ﴾ لإفادة التراخى الرتبى ، إذ أن وصول النبات إلى درجة من الهيجان وبلوغ منتهاه ، لا يتأتى إلا بعد زمن طويل من بدء زراعته .

ولم يرتض بعض المحققين هذا المعنى فقال : تفسير ﴿ يهيج ﴾ بييبس فيه تسامح ، فإن حقيقته أن يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له . أى : من الطول والغلظ[1] .

أى : ثم يتحرك هذا النبات الذى أعجب الكفار إلى أقصى ما يتأتى له من طول وقوة ، ثم يبدأ فى الضعف ، فتراه - أيها الناظر إليه - نباتا مصفراً متغيرا عما كان عليه من النضرة ، آخذا فى الذبول وفى التهيؤ للحصاد ، ثم يكون بعد ذلك حطاما ، أى : نباتا محطما مكسرا .

والمقصود بقوله - تعالى - ﴿ كمثل غيث .. ﴾ إلخ التقرير والتأكيد لما وصفت به الدنيا من كونها لعبا ولهوا وزينة .

وتشبيهها فى سرعة زوالها ، وانقضاء نعيمها ، وقلة فائدتها .. بحال نبات ظهر على الأرض بعد هطول المطر عليها ، واستمر فى ظهوره وجماله ونضرته وهيجانه ، لفترة مًا من الحياة ، أعجب خلالها الكفار به ، ثم حل بهذا النبات اليانع الاصفرار والاضمحلال حتى صار حطاما مفتتا تذروه الرياح .

والمقصود بهذا التشبيه ، زجر الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ركونا ينسون معه فرائض الله - تعالى - وتكاليفه التى كلفهم بها - سبحانه - .

وعطف - سبحانه - : ﴿ فتراه مصفرا ﴾ بالفاء للإشعار بقصر المسافة ، مهما طالت فى عرف الناس - بين نضرة الزرع واستوائه ، وبين اصفراره ونهايته .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - : أراد - سبحانه - أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور ، وهى اللعب واللهو .... وأما الآخرة فما هى إلا أمور عظام .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٩٢ .

وشبه حال الدنيا بسرعة تقضّيها ، مع قلة جدواها ، بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتمل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله ، فيما رزقهم من الغيث ، والنبات .. فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان عظم الآخرة ، وهوان الدنيا فقال : ﴿ وفى الآخرة عذاب شديد ﴾ أى : لمن كفر بالله - تعالى - وفسق عن أمره .

﴿ ومغفرة من الله ورضوان ﴾ أى : لمن آمن بالله - تعالى - واتبع ما جاء به الرسول - ﷺ - وحافظ على أداء ما كلف به بإخلاص وحسن اقتداء .

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أى : وما أحوال الحياة الدنيا وما اشتملت عليه من شهوات ، إلا متاع زائل ، لا يقدم عليه ، ولا يتشبع به إلا من خدع بزخرفه ، واغتر بمظهره .

فالمراد بالغرور : الخديعة ، مصدر غره . أى : خدعه وأطمعه بالباطل .

ثم أمرهم - سبحانه - بالمسارعة الى ما يسعدهم ، بعد أن بين لهم حال الحياة الدنيا فقال : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ سابقوا ﴾ من المسابقة وهى محاولة أن يسبق الإنسان غيره .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية ، والجار والمجرور صفة المغفرة .

أى : سارعوا - أيها المؤمنون - مسارعة السابقين لغيرهم ، إلى مغفرة عظيمة كائنة من ربكم .

فالتعبير بقوله : ﴿ سابقوا ﴾ لإلهاب الحماس وحض النفوس إلى الاستجابة لما أمروا به ، حتى لكأنهم فى حالة مسابقة يحرص كل قرين فيها إلى أن يسبق قرينه .

وقوله : ﴿ وجنة عرضها كعرض السماء والأرض .. ﴾ معطوف على المغفرة . أى : سابقوا غيركم - أيها المؤمنون - إلى مغفرة عظيمة من ربكم ، وإلى جنة كريمة ؛ هذه الجنة عرضها وسعتها ورحابتها .. كسعة السماء والأرض .

وهذه الجنة قد ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ إيمانا حقا ، جعلهم لا يقصرون فى أداء واجب من الواجبات التى كلفهم - سبحانه - بها .

قال الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : فى كون الجنة عرضها كعرض السماء والأرض وجوه : .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥ .

منها : أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا .. لكان ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

ومنها : أن المقصود المبالغة فى الوصف بالسعة للجنة ، وذلك لأنه لاشىء عندنا أعرض منهما[1] .

وخص - سبحانه - العرض بالذكر ، ليكون أبلغ فى الدلالة على عظمها ، واتساع طولها ، لأنه إذا كان عرضها كهذا ، فإن العقل يذهب كل مذهب فى تصور طولها ، فقد جرت العادة أن يكون الطول أكبر من العرض .

قال الإمام ابن كثير : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن هرقل - ملك الروم - كتب إلى النبى - ﷺ - فقال : إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار ؟ فقال - ﷺ - : « سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار »[2] .

وإسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ يعود إلى الذى وعد الله - تعالى - به عباده المؤمنين من المغفرة والجنة .

أى : ذلك العطاء الجزيل فضل الله - تعالى - وحده وهو صاحب الفضل العظيم لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل - .

فأنت ترى أن الله - تعالى - بعد أن بين حال الحياة الدنيا . دعا المؤمنين إلى المسابقة إلى العمل الصالح ، الذى يوصلهم الى ماهو أكرم وأبقى ... وهو الجنة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ... ﴾[3] .

ثم بين - سبحانه - أن كل شىء فى هذه الحياة ، خاضع لقضاء الله - تعالى - وقدره ، وأن على المؤمن الصادق أن يكون شاكرا عند الرخاء ، صابرا عند البلاء ... فقال - تعالى - :

مَآ أَصَابَ

مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٤ .
(٣) سورة آل عمران الآيات ١٤ - ١٧ .

مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا
تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

و ﴿ ما ﴾ فى قوله - تعالى - ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ نافية ، و ﴿ من ﴾ مزيدة لتأكيد هذا النفى وإفادة عمومه . ومفعول « أصاب » محذوف . وقوله ﴿ فى الأرض ﴾ ، إشارة إلى المصائب التى تقع فيها من فقر وقحط ، وزلازل .

وقوله : ﴿ ولا فى أنفسكم ﴾ للإشارة إلى ما يصيب الإنسان فى ذاته ، كالأمراض ، والهموم .

والاستثناء فى قوله - تعالى - ﴿ إلا فى كتاب ﴾ من أعم الأحوال ، والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه - عز وجل - الشامل لكل شىء .

وقوله : ﴿ نبرأها ﴾ من البرء - بفتح الباء - بمعنى الخلق والإيجاد ، والضمير فيه يعود إلى النفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع ما ذكره الله - تعالى - من خلق المصائب فى الأرض والأنفس .

والمعنى : واعلموا - أيها المؤمنون علما يترتب عليه آثاره من العمل الصالح - أنه ما أصابكم أو ما أصاب أحدا مصيبة ، هذه المصيبة كائنة فى الأرض - كالقحط والزلازل - أو فى أنفسكم - كالأسقام والأوجاع - إلا وهذه المصائب مسجلة فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. وهذا التسجيل كائن من قبل أن نخلق هذه الأنفس ، وهذه المصائب .

وكرر - سبحانه - حرف النفى فى قوله ﴿ ولا فى أنفسكم ﴾ للإيماء إلى أن المصائب التى تتعلق بذات الإنسان ، يكون أشد تأثرا واهتماما بها ، أكثر من غيرها .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعود إلى الكتابة فى الكتاب .

أى : إن ذلك الذى أثبتناه فى لوحنا المحفوظ وفى علمنا الشامل لكل شىء .. قبل أن نخلقكم ، وقبل أن نخلق الأرض .. يسير وسهل علينا ، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء ، وعلمنا لا يعزب عنه شىء .

فالآية الكريمة صريحة فى بيان أن ما يقع فى الأرض وفى الأنفس من مصائب - ومن غيرها من مسرات - مكتوب ومسجل عند الله - تعالى - قبل خلق الأرض والأنفس .

وخص - سبحانه - المصائب بالذكر ، لأن الإنسان يضطرب لوقوعها اضطرابا شديدا ، وكثيرا ما يكون إحساسه بها ، وإدراكه لأثرها ، أشد من إحساسه وإدراكه للمسرات .

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(١) .

ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها فعل ذلك فقال : ﴿ لكى لا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ .

فاللام فى قوله : ﴿ لكى لا تأسوا .. ﴾ متعلقة بمحذوف . وقوله : ﴿ تأسوا ﴾ من الأسى ، وهو الحزن والضيق الشديد . يقال : أسى فلان على كذا - كفرح - فهو يأسى أسى ، إذا حزن واغتم لما حدث ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ﴾(٢) .

أى : فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم فى كتاب من قبل خلقكم ، وأخبرناكم بذلك ، لكى لا تحزنوا على ما أصابكم من مصائب حزنا يؤدى بكم إلى الجزع ، وإلى عدم الرضا بقضاء الله وقدره ولكى لا تفرحوا بما أعطاكم الله - تعالى - من نعم عظمى وكثيرة .. فرحا يؤدى بكم إلى الطغيان وإلى عدم استعمال نعم الله - تعالى - فيما خلقت له .. فإن من علم ذلك علما مصحوبا بالتدبر والاتعاظ ... هانت عليه المصائب ، واطمأنت نفسه لما قضاه الله - تعالى - وكان عند الشدائد صبورا ، وعند المسرات شكورا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى : أنكم إذا علمتم أن كل شىء مقدر مكتوب عند الله ، قلّ أساكم على الفائت ، وفرحكم على الآتى ، لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة ، لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال ، لم يعظم فرحه عند نيله .

فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها ، أن لا يحزن ولا يفرح ؟

---

(١) سورة التوبة الآية ٥١ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٩٣ .

قلت : المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله - تعالى - ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر .

فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة الله ، والاعتداد بها مع الشكر ، فلا بأس بهما[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

أى : والله - تعالى - لا يحب أحداً من شأنه الاختيال بما آتاه - سبحانه - من نعم دون أن يشكره - تعالى - عليها ، ومن شأنه - أيضاً - التفاخر والتباهى على الناس بما عنده من أموال وأولاد .. وإنما يحب الله - تعالى - من كان من عباده متواضعا حليما شاكرا لخالقه - عز وجل - .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد سكبتا فى قلب المؤمن ، كل معانى الثقة والرضا بقضاء الله فى كل الأحوال .

وليس معنى ذلك عدم مباشرة الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لأن ما سجله الله فى كتابه علينا قبل أن يخلقنا ، لا علم لنا به . وإنما علمه مرده إليه وحده - تعالى - .

وهو - سبحانه - لا يحاسبنا على مانجهله ، وإنما يحاسبنا على ما أمرنا به ، أو نهانا عنه ، عن طريق رسوله - ﷺ - .

وكما سجل - سبحانه - أحوالنا قبل أن يخلقنا ، فقد شرع الأسباب وأمرنا بمباشرتها ، وبين لنا فى كثير من آياته ، أن جزاءنا من خير أو شر على حسب أعمالنا .

وعندما قال بعض الصحابة للنبى - ﷺ - : أفلا نتكل على ما قدره الله علينا ؟ أجابهم بقوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ بدل من قوله - تعالى - : ﴿ كل مختال فخور ﴾ والمراد بالذين يبخلون : كل من يبخل بما له أو بعلمه .. فكأنه - تعالى - يقول : والله لا يحب الذين يبخلون بما أعطاهم من فضله ، بخلا يجعلهم لا ينفقون شيئا منه فى وجوه الخير ، لأن حبهم لأموالهم جعلهم يمسكونها ويشحون بها شحا شديدا .. ولا يكتفون بذلك ، بل يأمرون غيرهم بالبخل والشح .

وعلى رأس هؤلاء الذين لا يحبهم الله - تعالى - المنافقون ، فقد كانوا يبخلون بأموالهم عن إنفاق شىء منها فى سبيل الله ، وكانوا يتواصون بذلك فيما بينهم ، فقد قال - سبحانه -

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦ .

فى شأنهم : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ تذييل المقصود به ذم هؤلاء البخلاء على بخلهم .

وجواب الشرط محذوف ، أغنت عنه جملة ﴿ فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ والغنى : هو الموصوف بالغنى - وهى صفة من صفات الله - عزوجل - إذ هو الغنى غنى مطلقا ، والخلق جميعا فى حاجة إلى عطائه - سبحانه - والحميد : وصف مبالغة من الحمد . والمراد به أنه - تعالى - كثير الحمد والعطاء للمنفقين فى وجوه الخير .

أى : ومن يعرض عن هدايات الله - تعالى - وعن إرشاداته ... فلن يضر الله شيئا ، فإن الله - تعالى - هو صاحب الغنى المطلق الذى لا يستغنى عن عطائه أحد ، وهو - سبحانه - كثير الحمد والعطاء لمن استجاب لأمره فأنفق مما رزقه الله بدون اختيال أو تفاخر أو أذى .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسله إلى الناس ، ليهدوهم إلى طريق الحق ، وأن الناس منهم من اتبع الرسل ، ومنهم من أعرض عنهم ، ومنهم من ابتدع أموراً من عند نفسه لم يرعها حق رعايتها .. فقال - تعالى - :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ

(١) سورة المنافقون الآية ٧ .

وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

والمراد بالبينات فى قوله - تعالى - : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ الحجج والدلائل التى تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - وتدخل فيها المعجزات دخولا أوليا .

والمراد بالكتاب : جنس الكتب . وتشمل التوراة والإنجيل وغيرهما .

والميزان : الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها فى المكاييل وغيرها .. والمراد بها العدل بين الناس فى أحكامهم ومعاملاتهم .

وشاع إطلاق الميزان على العدل ، باستعارة لفظ الميزان على العدل ، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمراد بإنزاله : تبليغه ونشره بين الناس .

أى : بالله لقد أرسلنا رسلنا ، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم ، وأنزلنا معهم كتبنا السماوية ، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحينا ، وأنزلنا معهم العدل بأن أرشدناهم إلى طرقه ، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه .

قال ابن كثير : يقول الله - تعالى - : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل أو وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة(١) .

وأكد - سبحانه - هذا الإرسال ، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبى - ﷺ - ولبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام ، وأن رسالته إنما هى امتداد لرسالتهم .. وقوله - تعالى - : ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ علة لما قبله . أى : أرسلنا الرسل . وأنزلنا الكتاب وشرعنا العدل ، ليقوم الناس بنشر ما يؤدى إلى صلاح بالهم ، واستقامة أحوالهم ، عن طريق التزامهم بالحق والقسط فى كل أمورهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٤ .

قال الآلوسى : « والقيام بالقسط » أى : بالعدل ، يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب ، وهو - أى : القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به ، معاشا ومعادا[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ معطوف على ما قبله .

والمراد بإنزال الحديد : خلقه وإيجاده . وتهيئته للناس ، والإنعام به عليهم ، كما فى قوله - سبحانه - ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ﴾[2] .

والمراد بالبأس الشديد : القوة الشديدة التى تؤدى إلى القتل وإلحاق الضرر بمن توجه إليه ، أى : لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم ، وأنزلنا معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم .

وأوجدنا الحديد ، وأنعمنا به عليكم ، ليكون قوة شديدة لكم فى الدفاع عن أنفسكم ، وفى تأديب أعدائكم ، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم فى مصالحكم وفى شئون حياتكم .

فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب .. ومنه - ومعه غيره - تتكون القصور الفارهة ، والمبانى العالية الواسعة ، والمصانع النافعة .. وآلات الزراعة والتجارة .

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم بالهدايات السماوية التى تهدى الناس إلى ما يسعدهم .. وزودهم - أيضا - بالقوة المادية التى تحمى الحق الذى جاءوا به ونرد كيد الكائدين له فى نحورهم ، وترهب كل من يحاول الاعتداء عليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[3] .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : ما ملخصه : أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق ، وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام الرسول - ﷺ - بمكة ثلاث عشرة سنة ، تنزل عليه السور المكية ، لبيان أن دين الله حق .

فلما قامت الحجة على من خالفه ، شرع الله القتال بعد الهجرة ، حماية للحق ، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٨٨ .
(٢) سورة الزمر الآية ٦ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له . وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم .

ولهذا قال - تعالى - : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ يعنى السلاح كالسيف والحراب .

﴿ ومنافع للناس ﴾ أى : فى معايشهم كالفأس والقدوم .. وغير ذلك[1] .

هذا ، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد ، وفى بيان لماذا خصه الله - تعالى - بالذكر : الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : ثم إن الحديد لما كانت ا لحاجة إليه شديدة ، جعله الله سهل الوجدان ، كثير الوجود . والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة ، جعله الله - تعالى - عزيز الوجود .

وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده ، فإن كل شىء كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر .

فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج الإنسان إليه - جعل الله تعالى - الحصول عليه سهلا ميسورا .. فعلمنا من ذلك أن كل شىء كانت الحاجة إليه أكثر ، كان وجدانه أسهل .

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شىء ، فنرجوه من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا ، كما قال الشاعر :

سبحان من خص العزيز بعزة والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذى نفس ، فمحتاج إلى أنفاسه[2]

وقوله : - سبحانه - : ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب .. ﴾ معطوف على محذوف يدل عليه السياق .

والمراد بقوله : ﴿ وليعلم ﴾ أى : وليظهر علمه - تعالى - للناس ، حتى يشاهدوا آثاره .

أى : وأنزل - سبحانه - الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله وليظهر - سبحانه - أثر علمه حتى يشاهد الناس ، من الذى سيتبع الحق منهم ، فينصر دين الله - تعالى - وينصر رسله ، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة كونه لا يرى الله - تعالى -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٥ .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٢٩ ص ٢٤٣ .

بعينيه ، وإنما يتبع أمره ، ويؤمن بوحدانيته ووجوده وعلمه وقدرته .. عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسوله - ﷺ - .

فقوله : ﴿ بالغيب ﴾ حال من فاعل ﴿ ينصره ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن الله قوى عزيز ﴾ أى : أن الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التى ليس بعدها قوة وبالعزة التى لا تقاربها عزة .

وختمت الآية بهذا الختام ، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل ، ولإنزال الكتب والحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس .

فكان هذا الختام تعليل لما قبله . أى : لأن الله - تعالى - قوى فى أخذه عزيز فى انتقامه فعل ما فعل من إرسال الرسل ، ومن إنزال الحديد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب .. ﴾ معطوف على جملة : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ عطف الخاص على العام .

أى : لقد أرسلنا رسلا كثيرين .. وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء ، وأوحينا إليهم كتبنا ، التى تهدى أقوامهم إلى طريق الحق ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، وكالزبور الذى أنزلناه على داود .

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر ، لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فمن ذريتهم من اهتدى إلى الدين الحق ، وآمن به ، وقام بأداء تكاليفه . وكثير من أفراد هذه الذرية فاسقون . أى : خارجون عن الاهتداء إلى الحق ، منغمسون فى الكفر والضلال .

﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم ﴾ والتقفيه إتباع الرسول برسول آخر يقال : قفا فلان أثر فلان .. إذا اتبعه ، وقفى على أثره بفلان ، إذا اتبعه إياه .. وأصله من القفا وهو مؤخر العنق .. فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه :

وضمير الجمع فى قوله ﴿ على آثارهم ﴾ يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب .

أى : ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول . حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - ﴿ وآتيناه الإنجيل ﴾ أى : أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه .

قالوا : والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو الأصل ، يقال : رحم الله ناجليه ، أى : والديه ، وقيل : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته . ويقال للماء الذى يخرج من البئر : نجل . وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين ، ومنه قولهم : طعنة نجلاء ، أى : واسعة .

وسمى الإنجيل بهذا الاسم ، لأنه سعة ونور وضياء ، أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى ، ليكون بشارة وهداية لقومه[1] .

وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة ﴿ وقفينا ﴾ للإشعار بأن المسافة التى كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من بنى إسرائيل كانت مسافة طويلة .

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التى كانت واضحة فى أتباع عيسى فقال : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ .

والرأفة : اللين وخفض الجناح ، والرحمة . العطف والشفقة .

قالوا : وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص ، لأن الرأفة ، رحمة خاصة ، تتعلق بدفع الأذى والضر . أما الرحمة فهى أشمل وأعم ، لأنها عطف وشفقة على كل من كان فى حاجة إليها .

و « الرهبانية » معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان . وهم النصارى المبالغون فى الرهبة والخوف من الله - تعالى - والزهد فى متاع الحياة الدنيا .

قال بعض العلماء : والرهبانية : اسم للحالة التى يكون عليها الراهب متصفا بها فى غالب شئون دينه ، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس ، لأن قياس النسب إلى الراهب : الراهبية ، والنون فيها مزيدة للمبالغة فى النسبة ، كما زيدت فى قولهم : شعرانى ، لكثير الشعر ، ولحيانى لعظيم اللحية[2] .

وقوله - تعالى - : ورهبانية ابتدعوها .. منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر .

أى : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، فهو من باب الاشتغال .

ويصح أن يكون معطوفا على قوله : ﴿ رأفة ورحمة ﴾ وقوله : ﴿ ابتدعوها ﴾ فى موضع

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٧١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٧ ص ٤٢١ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . - رحمه الله - .

الصفة ، والكلام على حذف مضاف ، أى : وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة لهم .

وجملة : ما كتبناها عليهم ، مستأنفة مبينة لجملة ﴿ ابتدعوها ﴾ .

والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ منقطع .

والضمير فى قوله : ﴿ فما رعوها ﴾ يعود لهؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية .

والمعنى : ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر ، حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه وآمنوا به ﴿ رأفة ﴾ أى لينا وخفض جناح ﴿ ورحمة ﴾ أى : شفقة وعطفا ، وحب رهبانية مبتدعة منهم ، أى : هم الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم ، زهداً فى متاع الحياة الدنيا .

ونحن ما كتبنا عليهم هذه الرهبانية ، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أى : ولكنهم بمرور الأيام ، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف .. بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ .

أى : أما الذين استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام - وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا مما يفسده .. فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة .

وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - حيث كفروا به وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، أو قالوا : المسيح ابن الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب .

وقوله : ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم .. أكثر من الذين آمنوا به إيمانا صحيحا .

قال الإمام ابن جرير : واختلف أهل التأويل فى الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها . فقال بعضهم : هم الذين ابتدعوها ، ولم يقوموا بها ، ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى ، فتنصروا وتهودوا .

وقال آخرون : بل هم قوم جاءوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوها حتى رعايتها ، لأنهم كانوا كفارا .. فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة أن يقال : إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق

رعايتها ، بعض الطوائف التى ابتدعتها ، وذلك لأن الله - تعالى - قد أخبر أنه آتى الذين آمنوا منهم أجرهم ، فدل ذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها .

وكثير منهم - أى : من الذين ابتدعوا الرهبانية - أهل معاص ، وخروج عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به[1] .

وقال الإمام الآلوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ جملة مستأنفة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناء منقطع ، أى : ما فرضناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله - تعالى - : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أى : ما حافظوا عليها حق المحافظة ، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر ، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته ، لا سيما إذا قصد به رضاه - عز وجل .

وجائز أن يكون الاستثناء متصلا من أعم العلل . أى : ما قضيناها عليهم لشىء من الأشياء ، إلا ليبتغوا بها رضوان الله ، ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها .. إلا أنهم لم يحافظوا عليها ، ولم يرعوها حق رعايتها .

والفرق بين الوجهين : أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا ، وأن الثانى يقتضى أنهم أمروا بها ، لا بتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها .

والظاهر أن الضمير فى قوله ﴿ فما رعوها ﴾ يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية ، والمراد نفى وقوع الرعاية من جميعهم ، أى : فما رعاها كلهم بل بعضهم[2] .

فالآية الكريمة تثنى على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - فطهروا أرواحهم من كل دنس ، وزهدوا فى متع الحياة الدنيا .. وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه ، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله - تعالى - :

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا النداء للمؤمنين فقال - تعالى :

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٧ ص ٢٣٨ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٩١ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون ، وداوموا على الإيمان برسوله - ﷺ - واثبتوا على ذلك .

﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أى : يعطكم بسبب ذلك نصيبين وضعفين من رحمته - سبحانه - وفضله .

وأصل الكفل - كما يقول القرطبى - كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط .. أى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى ، كما يحفظ الكفل الراكب من السقوط[1] .

﴿ ويجعل لكم نورا تمشون به ﴾ أى : ويجعل لكم بفضله نورا تمشون به يوم القيامة . كما قال - تعالى - : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ .

﴿ ويغفر لكم ﴾ أى : ما فرط منكم من ذنوب ، بأن يزيلها عنكم .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد المؤمنين على تقواهم وعلى إيمانهم برسوله ، أن يؤتيهم نصيبين من رحمته .. وأن يجعل لهم نورا يمشون به ، فيهديهم إلى ما يسعدهم فى كل شئونهم ، وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم .. فضلا منه وكرما .

قالوا : وأعطى الله - تعالى - للمؤمنين نصيبين من الأجر ، لأن أولها بسبب إيمانهم بالرسول - ﷺ - .

وثانيها : بسبب إيمانهم بالرسل السابقين ، كما أعطى مؤمنى أهل الكتاب نصيبين من

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٦٦ .

الأجر : احدهما للإيمان بالرسول - ﷺ - والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى نسخت شريعته بالشريعة المحمدية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله .. ﴾ رد على مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أفضل من الأمة الاسلامية .

قال الجمل ما ملخصه : لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله - تعالى - ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا .. ﴾ قالوا للمسلمين : أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابنا وكتابكم . ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم ، فبأى شىء فضلتم علينا ؟ فأنزل الله هذه الآية .

و ﴿ لا ﴾ زائدة ، واللام متعلقة بمحذوف ، هو معنى الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط ، إذ التقدير : إن تتقوا وتؤمنوا برسوله ، يؤتكم الله من فضله كذا وكذا - وقد أعلمناكم بذلك - لكى يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شىء من فضل الله .

أى : أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله .. كالكفلين من رحمته وكمغفرة الذنوب - لأنهم لم يؤمنوا برسوله - ﷺ - ولم يخلصوا العبادة له - عز وجل - ..[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ مؤكد لما قبله ، ومقرر له .

أى : ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشىء من فضل الله إلا إذا آمنوا بالله ورسله .. وليعلموا - أيضا - أن الفضل والعطاء بيد الله - تعالى - وحده ، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده ، وهو - سبحانه - صاحب الفضل الواسع العظيم .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى الله - تعالى - واتباع رسوله - ﷺ - فى كل ما جاء به ، وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا ما فعلوا ذلك .

والرد على المتفاخرين من أهل الكتاب ، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم ليس أحد أفضل منهم ، وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول - ﷺ - أم استمروا على كفرهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٩٨ .

مرتين ، أنزل الله هذه الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقو الله وآمنوا برسوله .. ﴾ فى حق هذه الأمة .

وهى كقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

ومما يؤيد هذاالقول - أى : أن هذه الآية فى حق هذه الأمة - ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود .

ثم قال : من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى .

ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ، قالوا لا : قال فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء[1] .

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب ، فيكون المعنى : يا من آمنتم بموسى وبعيسى وبمحمد - عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله - ﷺ - واثبتوا على ذلك ، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته .

وليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب ، أنهم لن ينالوا شيئا مما ناله المؤمنون منهم .

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى ذكره - : يأيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ، خافوا الله ، وآمنوا برسوله محمد - ﷺ - يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ..

أى : يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى وبمحمد - عليهما الصلاة والسلام -[2] .

ويبدو لنا أن الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين من هذه الأمة ، على سبيل الحض والتبشير ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ... ﴾ واضح فى ذلك ، وان جعل الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب لا دليل عليه .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٧ ص ٢٤٢ .

ولذا قال بعض المحققين : هذه الآية الكريمة من سورة الحديد ، فى المؤمنين من هذه الأمة ، وأن سياقها واضح فى ذلك ، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل الكتاب فقد غلط ، وان ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة ، أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب[1] .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الحديد » نسأل الله - تعالى - ان يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فندق الشيراتون بالدوحة - قطر
صباح الخميس ٢٤ من رجب ١٤٠٦ هـ
٣ من أبريل ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

(١) راجع أضواء البيان جـ ٧ ص ٨١٦ الشيخ محمد أمين الشنقيطى .

تفسير

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المجادلة » - بفتح الدال وكسرها والثانى أظهر ، لأن افتتاح السورة فى المرأة التى جادلت النبى - ﷺ - فى شأن زوجها - .

وهذه السورة : هى السورة الثامنة والخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة « المنافقون » ، وقبل سورة « التحريم » .

وعدد آياتها ثنتان وعشرون آية فى المصحف الكوفى والبصرى والشامى ، وإحدى وعشرون آية فى المصحف المكى والمدنى .

٢ - وهى من السور المدنية الخالصة . ومن قال بأن فيها آيات مكية ، لم يأت بدليل يعتمد عليه فى ذلك .

قال القرطبى : « هذه السورة مدنية فى قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدنى ، وباقيها مكى . وقال الكلبى : نزل جميعها بالمدينة . غير قوله - تعالى - : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ نزلت بمكة »[1] .

٣ - وقد افتتحت سورة « المجادلة » بالحديث عن المرأة التى جادلت النبى - ﷺ - فى شأن زوجها ، وقد أصدر - سبحانه - حكمه العادل فى مسألتها ، مبينا حكم الظهار فقال - تعالى - : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

٤ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الذين يحادون الله ورسوله فبينت سوء عاقبتهم ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أحوالهم ، فهو - سبحانه - ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٦٩ .

معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

٥ - ثم وجه - سبحانه - ثلاثة نداءات إلى المؤمنين ، أمرهم فى أول نداء بأن يتناجوا بالبر والتقوى .. وأمرهم فى النداء الثانى أن يفسح بعضهم لبعض فى المجالس .. وأمرهم فى النداء الثالث إذا ما ناجوا الرسول - ﷺ - أن يقدموا بين يدى نجواهم صدقة .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ، فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

٦ - وبعد أن عجبت السورة الكريمة من أحوال المنافقين ، وبينت سوء عاقبتهم ، وكيف أن الشيطان قد استحوذ عليهم ، فأنساهم ذكر الله .

بعد كل ذلك ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين وببيان صفاتهم الكريمة ، فقال - عز وجل - ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

٧ - هذا ، والمتأمل فى سورة المجادلة ، يراها قد بينت حكم الظهار ، وأبطلت ما كان شائعا من أن الرجل إذا ظاهر من زوجته لا تحل له .. وساقت جانبا من فضل الله - تعالى - على عباده ، حيث أجاب دعاء امرأة قد اشتكت إليه ، وقضى فى مساءلتها قبل أن تقوم من مكانها ، وهى بجانب النبى - ﷺ - تجادله فى شأن زوجها .

كما يراها قد كشفت القناع عن المنافقين ، وفضحتهم على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، وموالاتهم لأعداء الله ورسوله .

كما يراها قد ساقت ألوانا متعددة من الآداب التى يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها ، وبشرتهم برضا الله - تعالى - عنهم ، متى أخلصوا له - سبحانه - العبادة والطاعة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدوحة - قطر　　　　د . محمد سيد طنطاوى

صباح الأحد : ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ

٦ / ٤ / ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ
مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى
وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خولة بنت ثعلبة قالت : فىَّ والله وفى - زوجى - أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة .

قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت على كظهر أمى .

قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم رجع ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، فقالت له : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلىَّ ، وقلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ..

قالت : فواثبنى ، فامتنعت عنه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى .

ثم خرجت إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله - ﷺ - فجلست بين يديه ، فذكرت له - ﷺ - ما لقيت من زوجى ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه .

قالت : فجعل رسول الله - ﷺ - يقول : « يا خويلة ، ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » .

قالت : فو الله ما برحت حتى نزل فىَّ قرآن ، فتغشى رسول الله - ﷺ - ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى : « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا » . ثم قرأ على هذه الآيات .

وفى رواية : أنها أتت النبى - ﷺ - فقالت له : يا رسول الله ، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ، ونثرت بطنى ، جعلنى عليه كأمه ، وتركنى إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة يا رسول الله فحدثنى بها .

فقال - ﷺ - : « ما أمرت بشىء فى شأنك حتى الآن » وفى رواية أنه قال لها : « ما أراك إلا قد حرمت عليه » .

فقالت : يا رسول الله ، إنه ما ذكر طلاقا ، وأخذت تجادل النبى - ﷺ - ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك فاقتى ، وشدة حالى ، وإن لى من زوجى أولاداً صغاراً ، إن ضمَّهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا .

قالت : وما برحت حتى نزل القرآن ، فقال - ﷺ - : « يا خولة أبشرى » ثم قرأ على هذه الآيات[1] .

و « قد » فى قوله - تعالى - : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾ للتحقيق ولتوقع الإجابة من الله - تعالى - على ما جادلت فيه تلك المرأة النبى - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت ما معنى « قد » فى قوله : ﴿ قد سمع .. ﴾ ؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٨ ، وتفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٢ .

قلت : « معناه التوقع ، لأن رسول الله - ﷺ - والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله - تعالى - مجادلتها وشكواها ، وينزل فى ذلك ما يفرج كربها »[١] .

والسماع فى قوله - تعالى - : ﴿ سمع ﴾ بمعنى علم الله - تعالى - التام بما دار بين تلك المرأة ، وبين الرسول - ﷺ - واستجابته - سبحانه - لشكواها ، وحكمه فى تلك المسألة ، بما يبطل ما كان شائعاً بشأنها قبل نزول هذه الآية .

وقوله : ﴿ تجادلك ﴾ من المجادلة ، وهى المفاوضة على سبيل المغالبة والمنازعة ، وأصلها من جدلت الحبل : إذا أحكمت فتله .

وقوله : ﴿ تشتكى ﴾ من الشكو ، وأصله فتح الشَّكوة - وهى سقاء صغير يجعل فيه الماء - وإظهار ما فيها ، ثم شاع هذا الاستعمال فى إظهار الإنسان لما يؤلمه ويؤذيه ، وطلب إزالته .

والمعنى : قد سمع الله - تعالى - سماعا تاما ، قول هذه المرأة التى تجادلك - أيها الرسول الكريم - فى شأن ما دار بينها وبين زوجها ، وفيما صدر عنه فى حقها من الظهار ، وسمع - سبحانه - شكواها إليه ، والتماسها منه - عز وجل - حل قضيتها ، وتفريج كربتها ، وإزالة ما نزل بها من مكروه .

وقال - سبحانه - ﴿ التى تجادلك ﴾ بأسلوب الاسم الموصول للإشعار بأنها كانت فى نهاية الجدال والشكوى ، وفى أقصى درجات التوكل على ربها ، والأمل فى تفريج كربتها ، رحمة بها وبزوجها وبأبنائها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ جملة حالية ، والتحاور : مراجعة الكلام من الجانبين . يقال : حاور فلان فلانا فى الكلام إذا راجعه فيما يقوله .

أى : والحال أن الله - تعالى - يسمع ما يدور بينك - أيها الرسول الكريم - وبين تلك المرأة ، من مراجعة فى الكلام ، ومن أخذ ورد فى شأن قضيتها .

والمقصود بذلك ، بيان الاعتناء بشأن هذا التحاور ، والتنويه بأهميته ، وأنه - تعالى - قد تكرم وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية .

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع ، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور ، واستحضار صورته فى ذهن السامع ، ليزداد عظة واعتبارا .

وجملة : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ تذييل قصد به التعليل لما قبله بطريق التحقيق .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠ .

أى : أنه - سبحانه - يسمع كل المسموعات ، ويبصر كل المبصرات ، على أتم وجه وأكمله ، ومن مقتضيات ذلك ، أن يسمع تحاوركما ، ويبصر ما دار بينكما .

قال القرطبى : « أخرج ابن ماجه أن عائشة - رضى الله عنها - قالت : » تبارك الذى وسع سمعه كل شىء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله - ﷺ - وهى تقول : يا رسول الله !! أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى .. ظاهر منى !! اللهم إنى أشكو إليك .

وفى البخارى عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله - ﷺ - وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾[1] .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان شأن الظهار فى ذاته ، وفى بيان حكمه المترتب عليه شرعا فقال : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ﴾ .

وقوله : ﴿ يظاهرون ﴾ من الظهار ، وهو لغة مصدر ظاهر ، وهو مفاعلة من الظهر .

قال الآلوسى : والظهار يراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى ولفظا باختلاف الأغراض ، فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أى : قابل ظهره بظهره حقيقة ، وكذا إذا غايظه .. وظاهره إذا ناصره باعتبار أنه يقال : قوى ظهره إذا نصره »[2] .

والمراد به هنا : أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، قاصدا بذلك تحريم زوجته على نفسه كتحريم أمه عليه .

وكان هذا القول من الرجل لامرأته يؤدى إلى طلاقها منه ، بحيث لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، وقيل : إلى طلاقها منه طلاقاً مؤبدا لا تحل له بعده .

وقيل : إن هذا القول لم يكن طلاقا من كل وجه ، بل كانت الزوجة تبقى بعده معلقة ، فلا هى مطلقة ، ولا هى غير مطلقة .

و « من » فى قوله ﴿ من نسائهم ﴾ بيانية ، لإفادة أن هذا تشريع عام ، وليس خاصا بخولة بنت ثعلبة ، التى نزلت فى شأنها هذه الآيات .

وجملة : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ قائمة مقام الخبر ، ودالة عليه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٧٠ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤ .

والمعنى : الذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نسائهم بأن يقولوا لهن : أنتن علينا كظهر أمهاتنا ، مخطئون فيما يقولون ، فإن زوجاتهم لسن بأمهاتهم .

﴿ إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ﴾ أى : ليس أمهاتهم على سبيل الحقيقة والواقع إلا النساء اللائى ولدنهم وأرضعنهم ، وقمن برعايتهم فى مراحل الطفولة والصبا والشباب .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ﴿ وإنهم ليقولون منكرا من القول وزوراً ﴾ .

أى : وإن هؤلاء الرجال الذين يقولون لأزواجهم : أنتن علينا كظهور أمهاتنا فى الحرمة ، ليتفوهون بما هو منكر من القول ، فى حكم الشرع وفى حكم العقل ، وفى حكم الطبع . وفضلا عن كل ذلك فهو قول كاذب وباطل إذ لم يحرم الله - تعالى - الزوجة على زوجها ، كما حرم عليه أمه . فعلاقة الأزواج بأمهاتهم ، تختلف اختلافا تاما عن علاقتهم بزوجاتهم .

وإذاً فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التوبيخ على هذا القول ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، وذم من ينطق به ، لأنه يعرض مقام الأمهات - وهو مقام فى أسمى درجات الاحترام والتبجيل - إلى تخيلات قبيحة تصاحب النطق بهذا الكلام .

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترهيب بالترغيب ، حتى لا تيأس النفوس من رحمة الله ، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله - تعالى - .

فقال : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أى : وإن الله - تعالى - لكثير العفو والمغفرة ، لمن تاب إليه - سبحانه - وأناب وأقلع عن تلك الأقوال والأفعال التى يبغضها - سبحانه - .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تفصيل حكم الظهار ، بعد بيان كونه منكرا من القول وزورا ، فقال - تعالى - : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ .

وقد اختلف العلماء فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ .

فمنهم من يرى أن المراد منه ، ثم يرجعون عما قالوا ، قاصدين معاشرة زوجاتهم .. أو قاصدين تحليل ما حرموه على أنفسهم بالنسبة لزوجاتهم بسبب الظهار .

ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة : العودة إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية ، بعد أن هداهم الله - تعالى - إلى الإسلام ، فيكون المعنى : ثم يعودون إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية من ألفاظ الظهار ، التى يبغضها الله - تعالى - .

وهذا القول يبدو عليه الضعف من جهة : جعله الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال وهو ﴿ يظاهرون ﴾ ، بمعنى الماضى المنقطع ، ومن جهة جعلهم أن المظاهر بعد الإسلام ، كان

قد ظاهر فى الجاهلية ، مع أن هذا ليس بلازم . إذ لم يثبت أن « أوس بن الصامت » كان قد ظاهر من زوجته فى الجاهلية ، وهذا الحكم إنما هو حق المظاهر فى الإسلام .

ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة : تكرار لفظ الظهار ، فمعنى ثم يعودون لما قالوا : ثم يعودون إلى تكرار لفظ الظهار مرة أخرى .

وكان أصحاب هذا القول يرون ، أن الكفارة لا تكون إلا بتكرار ألفاظ الظهار ، وهو قول لا يؤيده دليل ، لأنه لم يثبت أن خولة - أو غيرها - كرر عليها زوجها لفظ الظهار أكثر من مرة ، بل الثابت أنه عندما قال لها : أنت على كظهر أمى ، ذهبت إلى الرسول - ﷺ - وقصت عليه ما جرى بينها وبين زوجها .

وقد رجح الإمام ابن جرير الرأى الأول فقال : والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : معنى اللام فى قوله : ﴿ لما قالوا ﴾ بمعنى إلى أو فى ، لأن معنى الكلام : ثم يعودون لنقض ما قالوا من التحريم فيحللونه ، وإن قيل : ثم يعودون إلى تحليل ما حرموا ، أو فى تحليل ما حرموا فصواب ، لأن كل ذلك عود له ، فتأويل الكلام : ثم يعودون لتحليل ما حرموا على أنفسهم مما أحله الله لهم[1] .

والمعنى : والذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نسائهم ، ثم يندمون على ما فعلوا ، ويريدون أن يعودوا عما قالوه ، وأن يرجعوا إلى معاشرة زوجاتهم .

فعليهم فى هذه الحالة إعتاق رقبة ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ أى : من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر ، أى يحرم عليهما الجماع ودواعيه قبل التكفير .

والمراد بالرقبة : المملوك ، من تسمية الكل باسم الجزء .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ﴾ يعود إلى الحكم بالكفارة .

أى : ذلكم الذى شرعنا لكم - أيها المؤمنون - وهو الحكم بالكفارة إنما شرعناه من أجل أن تتعظوا به ، وتنزجروا عن النطق بالألفاظ التى تؤدى إلى الظهار ، والله - تعالى - خبير ومطلع على كل ما تقولونه من أقوال ، وما تفعلونه من أفعال - وسيحاسبكم على ذلك حسابا دقيقا .

وما دام الأمر كذلك ، فافعلوا ما أمركم به ، واجتنبوا ما نهاكم عنه .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٨ .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر يسره فى أحكامه فقال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾ .

أى ، فمن لم يجد منكم - أيها المؤمنون - رقبة يعتقها ، أو يجد المال الذى يشترى به الرقبة فيعتقها .. فعليه فى هذه الحالة ، أن يصوم شهرين متتابعين من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر .

﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ﴾ أى : فمن لم يستطع أن يصوم شهرين متتابعين ، لسبب من الأسباب كمرض أو غيره فعليه فى هذه الحالة أن يطعم ستين مسكينا ، بأن يقدم لهم طعاما يكفى لغدائهم وعشائهم بصورة مشبعة .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ إشارة إلى ما سبق الحديث عنه ، من تشريع يتعلق بالظهار . ومحله إما الرفع على الابتداء ، أو النصب بمضمر معلل بما بعده .

أى : ذلك واقع ، أو فعلنا ذلك ليزداد إيمانكم بالله ورسوله ، وعملكم بشريعة الإسلام ، وتنفيذكم للتكاليف التى كلفكم الله - تعالى - بها .

﴿ وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ أى : وتلك الأحكام التى ذكرناها لكم هى حدود الله - تعالى - التى لا يجوز تعديها ، فالزموها وقفوا عندها ، وللكافرين الذين يتعدونها ولا يقفون عندها ، عذاب شديد الألم على من ينزل به .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن الدعاء متى صدر عن لسان صادق ، وعن قلب عامر باليقين .. أجابه الله - تعالى - لصاحبه فى الحال أو فى الوقت الذى يريده - سبحانه - .

والدليل على ذلك أن السيدة خولة بنت ثعلبة ، عندما تضرعت إلى الله - تعالى - بالدعاء ، أن يكشف كربها ، وأن يحل قضيتها .. أجاب - سبحانه - دعاءها ، وأنزل قرآنا يتلى ، وأحكاما يعمل بها فى شأن الظهار .

ورضى الله عن السيدة عائشة فقد قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسوله الله - ﷺ - وأنا فى ناحية البيت . ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ... ﴾ الآيات .

وقال القرطبى : « المرأة التى اشتكت هى خولة بنت ثعلبة .. وقد مر بها عمر بن الخطاب فى خلافته ، والناس معه فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عميرا ، ثم قيل لك يا عمر ، ثم قيل لك يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر ، فإن من أيقن بالموت خاف

الفوت ، ومن أيقن الحساب خاف العذاب .

فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أتقف هذا الوقوف لتلك المرأة العجوز ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة . أتدرون من هذه ؟ إنها خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر »[١] .

٢ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم .. ﴾ أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها لم يلزمها شىء .. لأن الحل والعقد ، والتحليل والتحريم فى النكاح ، إنما هو بيد الرجل لا بيد المرأة .

ويرى بعضهم أن عليها كفارة يمين ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها من مجامعتها . كما أخذ الحنفية والحنابلة والمالكية من هذه الآية ، أن الظهار خاص بالمسلمين ، لأنهم هم المخاطبون ، ولأن غيرهم من الذميين ليسوا من أهل الكفارة .

وقال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى وتترتب عليه أحكامه ، يصح ظهار الذمى وتترتب عليه أحكامه .. كذلك أخذ العلماء من هذه الآية : صحة ظهار العبد من زوجته ، لأن أحكام النكاح فى حقه ثابتة ، وإذا تعذر عليه العتق والإطعام . فإنه قادر على الصوم .

٣ - يؤخذ من قوله - تعالى - : ﴿ وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ أن الظهار حرام ، لأن الله - تعالى - قد وصفه بأنه منكر من القول ، وبأنه زور .

والفعل الذى يوصف بهذا الوصف ، يجب على المؤمن أن يتنزه عنه .

٤ - يرى الحنفية والظاهرية أنه يكفى فى الكفارة بالنسبة للظهار تحرير رقبة حتى ولو كانت كافرة ، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ ولو كان الإيمان شرطا لبينه كما بينه فى كفارة القتل . فوجب أن يطلق ما أطلقه ، وأن يقيد ما قيده ، ويعمل بكل منها فى موضعه .

ويرى جمهور الفقهاء اشتراط الإيمان فى الرقبة ، لأنه من المعروف حمل المطلق على المقيد إذا كان من جنسه ، وما دام قد ورد النص على كون الرقبة مؤمنة فى بعض الآيات ، فيجب حمل بقية الآيات على ذلك .

٥ - دل قوله - تعالى - ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ على حرمة الجماع قبل التكفير .

وألحق بعضهم بالجماع دواعيه من التقبيل ونحوه ، لأن الأصل فى الأحكام أنه إذا حرم شىء منها ، أن يلحق بذلك الشىء المحرم ما يوصل إليه إذ طريق المحرم محرم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٦٩ .

ويرى بعضهم أن المحرم إنما هو الجماع فقط ، لأن حرمة الجماع ليست لمعنى يخل بالنكاح ، وعليه فلا يلزم من تحريم الجماع تحريم دواعيه ، فإن الحائض يحرم جماعها دون دواعيه .

قال القرطبى : ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ بشىء حتى يُكَفِّر ، خلافا للشافعى فى أحد قوليه .. فإن وطئها قبل أن يكفر ، استغفر الله - تعالى - وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة .

وقال مجاهد وغيره : عليه كفارتان[1] .

٦ - قوله - تعالى - : ﴿ فصيام شهرين متتابعين .. ﴾ صريح فى وجوب تتابع الصوم من غير انقطاع بين الأيام ، فلو أفطر يوما من الشهرين من غير عذر انقطع التتابع ، ولزمه استئناف الصوم من جديد .

أما الإفطار بعذر - كمرض ونحوه - فيرى بعضهم وجوب الاستئناف ، لزوال التتابع الذى صرحت به الآية .

ويرى فريق آخر من العلماء ، أن الإفطار بعذر لا يمنع التتابع .

٧ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ﴾ أن المطلوب من المظاهر أن يطعم هؤلاء المساكين إطعاما يشبعهم فى الغداء والعشاء ، سواء أكان ذلك بالتمليك أم بالإباحة ، فأيهما وقع من المكفر أجزأه ، وسواء أطعمهم جملة أم متفرقين .

وأوجب الشافعية تمليك المساكين .. بأن يملك لكل مسكين مُدًّا أو صاعا من غالب قوت البلد الذى يسكنه من عليه الكفارة .

أما حكم من عجز عن الكفارة ، فيرى جمهور العلماء أنها لا تسقط عنه ، بل تستقر فى ذمته حتى يتمكن من أدائها ، كسائر الديون والحقوق ، فإنها لا تسقط ، وإنما تبقى فى ذمة من عليه ، حتى يتمكن من أدائها .

قال القرطبى : « وقد ذكر الله - تعالى - الكفارة هنا مرتبة ، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة ، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام »[2] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٧٨ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٨٥ .

هذا، ومن أراد التوسع فى هذه الأحكام الفقهية، فعليه بكتب الفروع وببعض كتب التفسير[١].

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يحاربون الله ورسوله، ولايدركون أنه - سبحانه - معهم أينما كانوا، ويعلم ما يتناجون به من إثم وعدوان ومعصية للرسول - ﷺ - فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا
كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ يحادون ﴾ من المحادة بمعنى المعاداة والمباغضة، وأصلها أن تكون أنت فى حد - أى : فى جانب - وعدوك فى حد آخر، فكنى بها عن المعاداة لأنها لا زمة لها.

(١) راجع تفسير الآلوسي جـ ٢٨ ص ٣ وما بعدها.

وقوله : ﴿ كبتوا ﴾ من الكبت بمعنى الخزى والذل ، يقال : كبت الله العدو كبتاً - من باب ضرب - إذا أهانه وأذله وأخزاه .

قال الجمل : والذين يحادون الله هم الكافرون ، وهذه الآية وردت فى غزوة الأحزاب .

والمقصود منها البشارة لرسول الله - ﷺ - والمؤمنين ، بأن أعداءهم المتحزبين القادمين عليهم ، سيصيبهم الكبت والذل ، وسيتفرق جمعهم ..[1] .

والمعنى : إن الذين يحاربون دين الإسلام الذى شرعه الله - تعالى - . وجاء به رسوله - ﷺ - ﴿ كبتوا ﴾ وأصابهم الخزى والذل ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ من أعداء الحق .

وأوثر هنا الفعل ﴿ يحادون ﴾ لوقوعه عقب الكلام عن حدود الله - تعالى - فى قوله - عز وجل - وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم .

وقوله - تعالى - : ﴿ كبتوا ﴾ بمعنى سيكبتون ، وعبر عن ذلك بالماضى ، للإشعار بتحقق الذل والخسران ، لأولئك المتحزبين الذين جمعوا جموعهم لمحاربة الله ورسوله .

وقد حقق الله - تعالى - وعده ، إذ ردهم بغيظهم دون أن ينالوا خيرا .

وجملة : ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ... ﴾ حال من الضمير فى ﴿ كبتوا .. ﴾ أى : كبتوا لمجادلتهم للحق ، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات ، تدل على صدق الرسول - ﷺ - فيما جاء به من عند ربه ، وتشهد بأن أعداءه على الباطل والضلال .

﴿ وللكافرين ﴾ الذين أعرضوا عن دعوة الرسول - ﷺ - وحاربوها ﴿ عذاب مهين ﴾ أى عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ يصح أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿ مهين ﴾ كما يصح أن يكون منصوباً بفعل مقدر .

أى : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر ، يوم يبعث الله - تعالى - هؤلاء الكافرين جميعا من قبورهم ، فينبئهم ويخبرهم بما عملوا من أعمال سيئة .

والمراد بالإنباء فى قوله : ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ المجازاة والمحاسبة وإنزال حكمه بهم .

وجملة : ﴿ أحصاه الله ﴾ مستأنفة ، لأنها بمنزلة الجواب عما قبلها ، فكأن سائلا سأل وقال : كيف ينبئهم الله بأعمالهم ؟ فكان الجواب : أحصى الله - تعالى - عليهم عملهم ، وسجله عليهم تسجيلا تاما .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٠١ .

وجملة ﴿ ونسوه ﴾ حال من مفعول ﴿ أحصى ﴾ أى : والحال أنهم قد نسوا ما عملوه ، لتهاونهم به حين اقترفوه ، ولاعتقادهم بأنهم لن يسألوا عنه يوم القيامة ، فهم قد أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾ أى : والله - تعالى - مشاهد لكل شىء فى هذا الكون ، ولا تخفى عليه خافية من أحوال خلقه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا ﴾[1] .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة على شمول علمه فقال : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ ألم تر .. ﴾ للتقرير ، والرؤية بمعنى العلم والإدراك القلبى .. والخطاب لكل من هو أهل له .

والنجوى : اسم مصدر بمعنى المسارة ، يقال : نجوته نجوا ونجوى وناجيته مناجاة ، أى : ساررته بكلام على انفراد . وأصله : ان تخلو بمن تناجيه بسر معين فى نجوة من الأرض ، أى : فى مكان مرتفع منفصل عما حوله .

وقيل : أصله من النجاة ، لأن الإسرار بالشىء فيه معاونة على النجاة .

وتطلق النجوى على القوم المتناجين ، كما فى الآية التى معنا .

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه - تعالى - ، و « يكون » من كان التامة . و « من » مزيدة و « نجوى » فاعل ، وإضافتها إلى ثلاثة من إضافة المصدر إلى فاعله .. والاستثناء فى قوله ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ مفرَغ من أهم الأحوال ...[2] .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - علما لا يخالطه شك أو تردد ، أن الله - تعالى - يعلم علما تاما ، ما فى السموات وما فى الأرض من كائنات مختلفة الأجناس والأنواع .. وأنه - سبحانه - ما يقع من تناجى ثلاثة فيما بينهم إلا وهو تعالى - يعلمه ، كأنه حاضر معهم ، ومشاهد لهم ، كما يعلمه الرابع حين يكون معهم فى التناجى .

﴿ ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ أى : ولا يكون التناجى بين خمسة إلا وهو - سبحانه - معهم ، يعلم ما يتناجون به كما يعلم ذلك سادسهم فيما لو كان التناجى بين ستة .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٢٣ .

وقوله - تعالى - ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ بيان لشمول علمه لجميع الأحداث .

أى : ولا يقع التناجى بين ما هو أقل من ذلك العدد أو أكثر - كالاثنين والستة - إلا وهو - سبحانه - يعلم علما تاما ما يجرى بينهم فى أى مكان كانوا ، وعلى أية حالة وجدوا .

﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ﴾ أى : ثم يخبرهم - سبحانه - يوم القيامة بما عملوه فى الدنيا من أعمال كبيرة أو صغيرة ، ويجازيهم عليها بما يستحقونه من ثواب أو عقاب .

﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ فهو - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وأنه - سبحانه - يحصى على الناس أعمالهم إحصاء الحاضر معهم ، المشاهد لهم ، الذى لا يعزب عنه شىء من حركاتهم أو سكناتهم ، ولذا افتتح - سبحانه - الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم - أيضا - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - الثلاثة والخمسة لوجوه : أحدها : أن هذه إشارة إلى كمال رحمته ، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا ، فإذا أخذ اثنان فى التناجى والمشاورة بقى الواحد ضائعا وحيداً ، فيضيق قلبه فيقول الله - تعالى - له : أنا جليسك وأنيسك .

وثانيها : أن العدد الفرد أشرف من الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فخص الأعداد الفردية بالذكر للتنبيه على شرفها .

وثالثها : أن الآية نزلت فى قوم من المنافقين ، اجتمعوا على التناجى مغايظة للمؤمنين ، وكانوا على هذين العددين : أى كانوا فى مرة ثلاثة وفى مرة أخرى خمسة - فنزلت الآية الكريمة بيانا للواقع[١] .

ويبدو لنا أن ذكر العدد إنما هو من باب التمثيل ، وأن المقصود الأصلى من الآية الكريمة ، بيان أن علم الله - تعالى - يشمل كل كبير وصغير ، وكثير وقليل ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ .

قال القرطبى : قال الفراء : المعنى غير مقصود ، والعدد غير مقصود ، لأنه - تعالى - إنما قصد - وهو أعلم - أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سراً وجهراً ، ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد ، دون بعض ..[٢] .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٢٨ ص ٢٢٦ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٩٠ .

ثم عجَّب الله - تعالى - نبيه - ﷺ - من حال قوم يؤثرون الغى على الرشد ، ويُنصحون فلا يستجيبون للنصيحة ، ويُنهون عن الشرور فيأبون إلا الانغماس فيها ، فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ .

قال الآلوسى : قال ابن عباس: نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عند أقاربهم أنهم أصابهم شر ، فلما كثر ذلك منهم . شكا المؤمنون إلى الرسول - ﷺ - فنهاهم عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لمثل فعلهم .

والخطاب للرسول - ﷺ - والهمزة للتعجب من حالهم، وصيغة المضارع للدلالة على تكرار فعلهم ، وتجدده ، واستحضار صورته الغريبة[1] .

والمعنى : إن شئت أن تعجب - أيها الرسول الكريم - فاعجب من حال هؤلاء اليهود والمنافقين الذين نهيتهم أنت عن التناجى فيما بينهم ، بما يقلق المؤمنين ويغيظهم .. ولكنهم لم يستجيبوا لنصحك ونهيك ، بل استمروا على تناجيهم بما هو إثم وعدوان ومعصية لك ، ولما جئتهم به من عند الله - تعالى - .

وعبر بقوله - تعالى - : ﴿ ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ للإشعار بأنهم قوم لا تؤثر فيهم النصائح وإنما هم يستمعون إليها ، ثم يهجرون العمل بها . ويعودون إلى فجورهم وفسقهم .

ووصف تناجيهم بأنه كان مشتملا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول، لا على الإثم فقط أو على العدوان فقط .. لبيان أن تناجيهم مشتمل على كل أنواع السوء والفحشاء ، فهم يتناجون بكلام هو إثم وشر فى ذاته ، وبأقوال مشتملة على ظلم المؤمنين والاعتداء على دينهم وعلى أعراضهم ، وبأفعال هى معصية للرسول - ﷺ - ، لأنهم لم يستجيبوا لنهيه إياهم عن المناجاة بما يؤذى المؤمنين ويحزنهم .. بل استمروا فى طغيانهم يعمهون .

والباء فى قوله : ﴿ بالإثم ﴾ للملابسة ، أى يتناجون متلبسين بالإثم وبالعدوان وبمعصية الرسول - ﷺ - .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم من اليهود ، لم يكتفوا بتلك المناجاة القبيحة التى كانوا يديرونها فيما بينهم ، لإغاظة المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك النطق أمام الرسول - ﷺ - بالكلام السيئ وبالعبارات التى تدل على سوء طويتهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٢٥ .

﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ .

أى : وإذا جاء هؤلاء المنافقون واليهود إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - ألقوا إليك بتحية ، هذه التحية لم يأذن بها الله - تعالى - ولم يخاطبك بها .

وقد كان المنافقون عندما يدخلون على الرسول - ﷺ - لا يقولون له كلمة : « السلام عليكم » - وهى تحية الإسلام ، إنما يقولون له : أنعم صباحا أو مساء .. متجنبين النطق بتحية الإسلام ، ومستعملين تحية الجاهلية .

روى الشيخان عن عائشة : أن ناسا من اليهود ، دخلوا على رسول الله - ﷺ - فقالوا : السام - أى : الموت - عليك يا أبا القاسم . فقال - ﷺ - « وعليكم » .

قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم .

فقال - ﷺ - يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش .

فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ؟ فقال - ﷺ - « أو سمعت قولى : عليكم » فأنزل الله - تعالى - ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال : ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ .

والمراد بأنفسهم هنا : أى فيما بينهم وفى مجامعهم ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم .

أى : إذا جاءك هؤلاء المنافقون ومن على شاكلتهم فى الضلال ، نطقوا أمامك بتحية لم يحيك بها الله - تعالى - ولا يكتفون بذلك ، بل يقولون فيما بينهم على سبيل التباهى والجحود للحق ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أى : هلا يعذبنا الله بسبب ما قلناه لو كان محمدا - ﷺ - رسولا من عنده - تعالى - أى : أنهم ينكرون نبوته - ﷺ - لأنها - فى زعمهم لو كانت حقا ، لعذبهم الله - تعالى - بسبب إساءتهم إليه ، وإعراضهم عن نهيه لهم .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكبتهم ، وبما يسلى نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لمسالك هؤلاء المنافقين معك ومع أصحابك ، فإن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم ، كافيهم من العذاب جهنم يصلونها ويقاسون حرها ، فبئس المصير جهنم لو كانوا يعلمون .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٢٦ .

وبعد أن فضح الله - تعالى - المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، وبين سوء عاقبتهم بسبب مسالكهم الخبيثة .. بعد كل ذلك وجه الله - تعالى - ثلاث نداءات إلى المؤمنين ، أدبهم فيها بأدبه السامى .. فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا
تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ
بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ
مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ
صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ
وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ﴾ تعليم وإرشاد منه - سبحانه - للمؤمنين ، لكى يكون حديثهم فيما بينهم ، يقوم على الخير لا على الشر ، وعلى الطاعة لا على المعصية ، وعلى البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، حتى لا يتشبهوا بالمنافقين ، الذين كانوا على النقيض من ذلك .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ﴿ إذا تناجيتم ﴾ بأن أسر بعضكم إلى بعض حديثا ﴿ فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ كما هو شأن المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال .

﴿ وتناجوا ﴾ فيما بينكم ﴿ بالبر والتقوى ﴾ والبر ضد الإثم والعدوان ، وهو يعم جميع أفعال الخير التى أمر الله - تعالى - بها .

والتقوى : الامتثال لأمر الله - تعالى - وصيانة النفس عن كل مالا يرضاه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ أى : وراقبوا الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإنه وحده يكون مرجعكم يوم القيامة ، وسيبعثكم ويجمعكم للحساب والجزاء .

والمراد بالنجوى فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا .. ﴾ : نجوى المنافقين فيما بينهم ، وهى التى عبر عنها - سبحانه - قبل ذلك بقوله : ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ .

فأل فى قوله - تعالى - : ﴿ النجوى ﴾ للعهد ، أى : إنما النجوى المعهودة التى كان يتناجى المنافقون بها فيما بينهم ، كائنة من الشيطان لا من غيره ، لأنه هو الذى حرضهم وأغراهم ، بأن يتساروا بالإثم والعدوان .

وقوله : ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لِيَحْزُنَ ﴾ - بفتح الياء وضم الزاى - مضارع حزن ، فيكون ﴿ الذين آمنوا ﴾ فاعل ، والحزن : الهم والغم .

أى : زين الشيطان للمنافقين هذه النجوى السيئة ، لكى يحزن المؤمنون ويغتموا ، بسبب ظنهم أن من وراء هذه النجوى أخبارا سيئة تتعلق بهم أو بذويهم .

وقرأ نافع ﴿ لِيُحزِن ﴾ - بضم الياء وكسر الزاى - فيكون ﴿ الذين آمنوا ﴾ مفعولا . أى : فعل الشيطان ما فعل مع المنافقين ، لكى يدخل الحزن والغم على المؤمنين .

وأسند - سبحانه - النجوى إلى الشيطان ، باعتبار أنه هو الذى يوسوس بها ، ويزينها فى قلوب هؤلاء المنافقين وأشباههم .

وجملة : ﴿ وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ﴾ معترضة لتثبيت المؤمنين ، وتسليتهم عما أصابهم من المنافقين .

واسم ليس : الشيطان أو التناجى ، والاستثناء مفرغ من أهم الأحوال ، و « شيئا » منصوب على المفعول المطلق .

أى : لا تحزنوا - أيها المؤمنون - لمسالك المنافقين معكم ، ولا تخافوا من تناجيهم فيما بينهم ، فإنها نجوى زينها لهم الشيطان ، واعلموا أن كيد الشيطان لن يضركم شيئا من الضرر فى حال من الأحوال إلا فى حال إرادة الله - تعالى - ومشيئته .

وما دام الأمر كما بينت لكم ، فاجعلوا توكلكم - أيها المؤمنون - على الله - تعالى - وحده ، ولا تبالوا بالمنافقين ، ولا بتناجيهم ، ولا بما يسوله الشيطان لهم من قبائح ، فإن كل شىء بقضاء الله وقدره .

قال الآلوسى ما ملخصه : وحاصل هذا الكلام أن ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين . إن وقع فهو إرادة الله - تعالى - ومشيئته ، ولا دخل للمنافقين فيه ، وما دام الأمر كذلك ، فلا يكترث المؤمنون بتناجيهم ، وليتوكلوا على الله - عز وجل - ولا يخافوا من تناجيهم .

ثم إن التناجى بين المؤمنين قد يكون منهيا عنه ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه » .

ومثل التناجى فى ذلك ، أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث ، إن كان يحزنه ذلك[1] .

وروى الإمام مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه »[2] .

والخلاصة أن تعاليم الإسلام ، تنهى عن التناجى فى الحالات التى توقع الريبة فى القلوب ، وتزعزع الثقة بين الأفراد والجماعات .

وهذا النهى لون من الأدب الحكيم الذى يحفظ للمؤمنين مودتهم ومحبتهم ويبعد عن نفوسهم الشكوك والريب ، ويطرد عن قلوبهم نزغات الشيطان الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم .

ثم لفت - سبحانه - أنظار المؤمنين إلى أدب رفيع فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما روى عن قتادة أنه قال : نزلت

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٤ .

هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ، ضنوا بمجالسهم عند رسول الله - ﷺ - فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول الله - ﷺ - يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبِقوا فى المجالس فقاموا حيال رسول الله - ﷺ - فقالوا السلام عليكم أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى - ﷺ - عليهم ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم السلام ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم .

فعرف النبى - ﷺ - ما يحملهم على القيام فلم يُفْسَح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان ، قم يا فلان .

فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف - ﷺ - الكراهة فى وجوههم .

فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء .. فبلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال . « رحم الله رجلا يفسح لأخيه » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، ونزلت هذه الآية[1] .

وقوله ﴿ تفسحوا ﴾ من التفسح ، وهو تفعل بمعنى التوسع ، يقال : فسح فلان لفلان فى المجلس - من باب نفع - إذا أوجد له فسحة فى المكان ليجلس فيه .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إذا قيل لكم توسعوا فى مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا واستجيبوا . لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله - تعالى - لكم فى رحمته ، وفى منازلكم فى الجنة ، وفى كل شىء تحبونه .

وحذف - سبحانه - متعلق ﴿ يفسح الله لكم ﴾ ليشمل كل ما يرجو الناس أن يفسح الله لهم فيه من رزق ، ورحمة ، وخير دنيوى وأخروى .

والمراد بالمجالس : مجالس الخير ، كمجالس الذكر ، والجهاد ، والصلاة ، وطلب العلم ، وغير ذلك من المجالس التى يحبها الله - تعالى - .

وقراءة الجمهور : « إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس » ، بالإفراد على إرادة الجنس .. أى : قيل لكم تفسحوا فى أى مجلس خير فافسحوا .. لأن هذا التوسع يؤدى إلى ازدياد المحبة والمودة بينكم . وقرأ عاصم بصيغة الجمع .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٤ .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى نوع آخر من الأدب السامى فقال : ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ .

والنشوز الارتفاع عن الأرض . يقال : نشَز ينشُز وينشِز - من بابى نصر وضرب - إذا ارتفع من مكانه .

أى : وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - انهضوا من أماكنكم ، للتوسعة على المقبلين عليكم ، فانهضوا ولا تتكاسلوا .

وقوله : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ جواب الأمر فى قوله : ﴿ فانشزوا ﴾ .

وعطف « الذين أوتوا العلم » على « الذين آمنوا » من باب عطف الخاص على العام ، على سبيل التعظيم والتنويه بقدر العلماء .

أى : وإذا قيل لكم ارتفعوا عن مواضعكم فى المجالس فارتفعوا ، فإنكم إن تفعلوا ذلك ، يرفع الله - تعالى - المؤمنين الصادقين منكم درجات عظيمة فى الآخرة ، ويرفع العلماء منكم درجات أعظم وأكبر .

ويرى بعضهم أن المراد بالموصولين واحد ، والعطف فى الآية لتنزيل التغاير فى الصفات ، منزلة التغاير فى الذات .

والمعنى : يرفع الله الذين آمنوا العالمين درجات عظيمة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه فقال : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ .

أى : والله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على نواياكم ، وعلى ظواهركم وبواطنكم ، فاحذروا مخالفة أمره ، واتبعوا ما أرشدكم إليه من أدب وسلوك .

هذا : ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أن إفساح المؤمن لأخيه المؤمن فى المجلس ، من الآداب الإسلامية التى ينبغى التحلى بها ، لأن هذا الفعل بجانب رفعه للدرجات فإنه سبب للتواد والتعاطف والتراحم .

قال القرطبى ما ملخصه : والصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء أكان مجلس حرب ، أم ذكر ، أم مجلس يوم الجمعة .. ولكن بدون أذى ،

فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه » .

وعن ابن عمر - أن رسول الله - ﷺ - نهى ان يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه آخر ، « ولكن تفسحوا وتوسعوا »[١] .

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة ترشد المؤمنين فى كل زمان ومكان ، إلى لون من مكارم الأخلاق ، ألا وهو التوسعة فى المجالس ، وتقديم أهل العلم والفضل ، وإنزالهم منازلهم التى تليق بهم فى المجالس .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أنه يجوز القيام للقادم .

قال الإمام ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء - على أقوال : فمنهم من رخص فى ذلك محتجا بحديث : « قوموا إلى سيدكم » .

ومنهم من منع من ذلك ، محتجا بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياما . فليتبوأ مقعده من النار » .

ومنهم من فصل فقال : يجوز القيام للقادم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لمااستقبله النبى - ﷺ - حاكما فى بنى قريظة ، فرآه مقبلا قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » ، وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه - والله أعلم - .

فأما اتخاذه - أى القيام - دينا ، فإنه من شعار الأعاجم .. وفى الحديث المروى فى السنن أن رسول الله - ﷺ - كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبا عثمان وعلى لأنهما كانا ممن يكتب الوحى ، وكان يأمرهما بذلك ..[٢] .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، فضل العلماء وسمو منزلتهم .

قال صاحب الكشاف : عن عبد الله بن مسعود أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : يأيها الناس افهموا هذه الآية ، ولترغبكم فى العلم . وفى الحديث الشريف : « بين العالم والعابد مائة درجة » وفى حديث آخر : « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » .

وعن بعض الحكماء أنه قال : ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم ، وأى شىء فات من أدرك العلم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٥ .

وعن الأحنف : كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير[1] .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى لون ثالث من الأدب السامى ، فناداهم للمرة الثالثة بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا ، فإن الله غفور رحيم ﴾ .

والمراد بقوله - تعالى - ﴿ إذا ناجيتم ﴾ : إذا أردتم المناجاة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ .

والمراد بقوله : ﴿ بين يدى نجواكم ﴾ أى : قبل مناجاتكم للرسول - ﷺ - بقليل ، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية . حيث شبهت هيئة قرب الشىء من آخر . بهيئة وصول الشخص إلى من يريد الوصول إليه ، على سبيل تشبيه المعقول بالمحسوس .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ يعود إلى تقديم الصدقة ، والجملة بمنزلة التعليل للأمر بتقديمها .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إذا أردتم مناجاة الرسول - ﷺ - والحديث معه فى أمر ما على سبيل السر ، فقدموا صدقة للفقراء قبل مناجاته - ﷺ - فذلك التقديم خير لكم لما فيه من الثواب ، وأكثر طهرا لنفوسكم ، فإن لم تجدوا شيئا تتصدقون به قبل مناجاتكم له - ﷺ - فلا تحزنوا فإن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات ، منها : ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله - ﷺ - حتى شقوا عليه ، فأراد الله - تعالى - أن يخفف عن نبيه - ﷺ - فلما نزلت هذه الآية ، كف كثير من الناس ، ثم وسع الله عليهم بالآية التى بعدها[2] .

وقال بعض العلماء : إن هذا الأمر قد اشتمل على فوائد كثيرة :

منها : تعظيم أمر الرسول - ﷺ - وإكبار شأن مناجاته ، كأنها شىء لا ينال بسهولة .

ومنها : التخفيف عن النبى - ﷺ - بالتقليل من المناجاة ، حتى يتفرغ - ﷺ - للمهام العظمى التى كلفه - سبحانه - بها .

ومنها : تهوين الأمر على الفقراء الذين قد يغلبهم الأغنياء على مجلس الرسول - ﷺ -

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٦ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٣٠١ .

فإنهم إذا علموا أن قرب الأغنياء من الرسول - ﷺ - ومناجاتهم له ، تسبقها الصدقة ، لم يضجروا .

ومنها : عدم شغل الرسول - ﷺ - بما لايكون مهما من الأمور ، فيتفرغ للرسالة . فإن الناس وقد جبلوا على الشح بالمال ، يقتصدون فى المناجاة التى تسبقها الصدقة .

ومنها : تمييز محب الدنيا من محب الآخرة ، فإن المال محك الدواعى(١) .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر لطفه بعباده فقال : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴾ .

الإشفاق معناه : أن يتوقع الإنسان عدم حصوله على ما يريده والمراد به هنا : الخوف .

والاستفهام مستعمل فيما يشبه اللوم والعتاب ، لتخلف بعضهم عن مناجاة الرسول - ﷺ - بسبب تقديم الصدقة .

و « إذ » فى قوله : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ ظرفية مفيدة للتعليل .

والمعنى : أخفتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا قبل مناجاتكم للرسول - ﷺ - صدقة فيصيبكم بسبب ذلك الفقر ، إذا ما واظبتم على ذلك .

﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ أى : فحين لم تفعلوا ماكلفناكم به من تقديم الصدقة قبل مناجاتكم للرسول - ﷺ - ، وتاب الله - تعالى - عليكم ، بأن رخص لكم فى هذه المناجاة بدون تقديم صدقة ، وخفف عنكم ما كان قد كلفكم به - سبحانه - والفاء فى قوله : ﴿ فأقيموا الصلاة . وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ﴾ معطوفة على كلام محذوف .

أى : فحين خففنا عنكم الصدقة - بفضلنا ورحمتنا - فداوموا على إقامة الصلاة ، وعلى إعطاء الزكاة لمستحقيها ، وأطيعوا الله ورسوله ، فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه .

واعلموا أن الله - تعالى - خبير بما تعملون ، ولا يخفى عليه شىء من أقوالكم أو أفعالكم ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ناسخة للتى قبلها ، لأنها أسقطت وجوب تقديم الصدقة الذى أمرت به الآية السابقة .

وقد لخص الإمام الآلوسى كلام العلماء فى هذه المسألة تلخيصا حسنا فقال : « واختلف فى أن الأمر للندب أو للوجوب ، لكنه نسخ بقوله - تعالى - : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا ... ﴾

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٣١ للشيخ محمد على السايس .

وهو وإن كان متصلا به تلاوة ، لكنه غير متصل به نزولا . وقيل نسخ بآية الزكاة . والمعول عليه الأول .

ولم يعين مقدار الصدقة ، ليجزئ القليل والكثير . أخرج الترمذى عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة .... ﴾ .

قال لى النبى : - ﷺ - : « ماترى فى دينار » قلت : لايطيقونه قال : « نصف دينار » قلت : لايطيقونه ، قال : « فكم » ؟ قلت : شعيرة . قال : « فإنك لزهيد » .

فلما نزلت : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا ... ﴾ قال - ﷺ - : « خفف الله عن هذه الأمة » ولم يعمل بها - على المشهور - غير على - كرم الله وجهه .

واختلف فى مدة بقاء هذا الأمر . أى : الأمر بتقديم الصدقة : فعن مقاتل : عشرة أيام . وقال قتادة : ساعة من نهار ...[1] .

قال بعض العلماء : « والآية الناسخة متأخرة فى النزول ، وإن كانت تالية للآية المنسوخة فى التلاوة .

والظاهر - والله أعلم - أن الحادثة من باب الابتلاء والامتحان ، ليظهر للناس محب الدنيا من محب الآخرة ، والله بكل شىء عليم »[2] .

وقال أحد العلماء : « ولا يشتم من قوله - تعالى - : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ... ﴾ . أن الصحابة قد وقع منهم تقصير . فإن التقصير إنما يكون إذا ثبت أنه كانت هناك مناجاة لم تصحبها صدقة ، والآية قالت : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ أى : ما أمرتم به من الصدقة ، وقد يكون عدم الفعل ، لأنهم لم يناجوا ، فلا يكون عدم الفعل تقصيرا .

وأما التعبير بالإشفاق من جانبهم ، فلا يدل على تقصيرهم ، فقد يكون الله - تعالى - علم - أن كثيرا منهم استكثر التصدق عند كل مناجاة فى المستقبل لو دام الوجوب ، فقال الله - تعالى - لهم ﴿ أأشفقتم ﴾ .

وكذلك ليس فى قوله﴿ وتاب الله عليكم ﴾ مايدل على أنهم قصروا ، فإنه يحمل على أن المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفا ، ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة ... »[3] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٣١ .
(٢) صفوت البيان جـ ٢ ص ٤١٢ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .
(٣) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٣٣ .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين وأشباههم ، فتصور أحوالهم ، وتبين سوء مصيرهم ، وتكشف القناع عن الأسباب التى أدت بهم إلى الخسران والهلاك فقال - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ
اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا ... ﴾ للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين ، حيث اتخذوا اليهود حلفاء لهم ، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين ...

أى : ألم ينته إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين ، الذين اتخذوا اليهود أولياء ، يناصحونهم ويطلعونهم على أخباركم .

فالمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : اليهود ، ووصفهم بذلك للتنفير منهم ، ولبيان أن المنافقين قد بلغوا النهاية فى القبح والسوء ، حيث وَالَوْا وناصروا من غضب الله عليهم ، لا من رضى الله عنهم .

ثم دمغ - سبحانه - هؤلاء المنافقين برذيلة أخرى فقال : ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أى : أن هؤلاء المنافقين بمسلكهم هذا ، صاروا بمنزلة الذين ليسوا منكم - أيها المؤمنون - وليسوا - أيضا - منهم ، أى : من اليهود .

وإنما هم دائما لا مبدأ لهم ولا عقيدة ، فهم كما قال - سبحانه - ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ... ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين - أى المترددة بين قطيعين - لاتدرى أيهما تتبع » .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ فيه أوجه . أحدها : أن هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، فقد أخبر عنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخلص ، ولا من الكافرين الخلص ، بل هم كقوله - تعالى - : ﴿ مذبذبين بين ذلك ... ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ ما هم ﴾ يعود على المنافقين ، وفى قوله ﴿ منهم ﴾ يعود على اليهود .

الثانى : أنها حال من فاعل « تولوا » والمعنى على ما تقدم .

الثالث : أنها صفة ثانية لقوله « قوما » ، وعليه يكون الضمير فى قوله :

« ما هم » يعود على اليهود ، والضمير فى قوله : « منهم » يعود على المنافقين .

يعنى : أن اليهود ليسوا منكم - أيها المؤمنون - ولا من المنافقين . ومع ذلك تولاهم « المنافقون » ... إلا أن فى هذا الوجه تنافرا بين الضمائر ، فإن الضمير فى « ويحلفون » عائد على المنافقين ، وعلى الوجهين الأولين تتحد الضمائر »[1] .

ثم دمغهم - سبحانه - برذيلة ثالثة أشد نكرا من سابقتيها فقال : ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ .

أى : أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين ، مع أنهم لا تربطهم باليهود أية رابطة ، لا من دين ولا من نسب ... وفضلا عن كل ذلك ، فإن هؤلاء المنافقين يواظبون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع ، والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون علما لايخالطه شك أو ريب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذم هؤلاء المنافقين . بجملة من الصفات القبيحة ، التى على رأسها تعمدهم الكذب ، وإصرارهم عليه .

قال صاحب الكشاف : « قوله : ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ أى : يقولون : والله إنا لمسلمون ، فيحلفون على الكذب الذى هو ادعاء الإسلام ، ﴿ وهم يعلمون ﴾ أن المحلوف عليه كذب بحت .

فإن قلت : فما فائدة قوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ ؟ قلت : الكذب أن يكون لا على وفاق

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٠٧ .

المخبر عنه ، سواء علم المخبر أم لم يعلم .. فالمعنى أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك متعمدون له ، كمن يحلف بالغموس ... »[١] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى رجل يقال له : عبدالله بن نَبْتَل - وكان من المنافقين الذين يجالسون رسول الله - ﷺ - ثم يرفعون حديثه إلى اليهود ، وفى يوم من الأيام كان - ﷺ - جالسا فى إحدى حجراته ، فقال لمن حوله : « يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار ، وينظر بعينى شيطان » فدخل ابن نبتل ، - وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف اللحية - فقال له - ﷺ - : « علام تشتمنى أنت وأصحابك » ؟ .

فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبى - ﷺ - : « فعلت » فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ماسبوه ، فنزلت هذه الآية[٢] .

ومن الآيات الكثيرة التى صرحت بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة على سبيل التعمد قوله - تعالى - : ﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم . يهلكون أنفسهم . والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾[٣] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم من عذاب فقال : ﴿ أعد الله لهم عذابا شديدا .. ﴾ أى : هيأ الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين عذابا قد بلغ النهاية فى الشدة والألم .

وجملة ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ تعليل لنزول العذاب الشديد بهم ، أى : إن هذا العذاب الشديد المهيأ لهم ؛ سببه سوء أعمالهم فى الدنيا ، واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله - سبحانه - ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ... ﴾ بيان لرذيلة رابعة أو خامسة ، لا تقل فى قبحها عما سبقها من رذائل ، وقوله : ﴿ أيمانهم ﴾ جمع يمين بمعنى الحلف .

وقوله : ﴿ جُنَّة ﴾ من الجنّ بمعنى الستر عن الخاصة ، وهذه المادة وما اشتق منها تدور حول الستر والخفاء . وتطلق الجنة على الترس الذى يضعه المقاتل على صدره أو على ذراعيه ليتقى به الضربات من عدوه .

ومفعول ﴿ فصدوا ﴾ : محذوف للعلم به .

أى : أن هؤلاء المنافقين قد اتخذوا أيمانهم الكاذبة . وهى حلفهم للمسلمين بأنهم معهم ، وبأنهم لايضمرون شرا لهم .. اتخذوا من كل ذلك وقاية وسترة عن المؤاخذة ، كما يتخذ المقاتل الترس وقاية له من الأذى ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٣٠٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٤٢ .

﴿ فصدوا ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ أى : عن دينه الحق ، وطريقه المستقيم .

﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أى : فترتب على تسترهم خلف الأيمان الفاجرة ، وعلى صدهم غيرهم عن الحق ، أن أعد الله - تعالى - لهم عذابا يهينهم ويذلهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا .. ﴾ رد على ما كانوا يزعمونه من أنهم لن يعذبوا ، لأنهم أكثر أموالا وأولادا من المؤمنين .

قال القرطبى : « قال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذاً فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة ، فنزلت »[1] .

ومن المعروف أن عبدالله بن أبى بن سلول - زعيم المنافقين - ، كان من أغنياء المدينة ، وكان يوطن نفسه على أن يكون رئيسا للمدينة قبيل - الإسلام ، وهو القائل - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾.. .

أى : أن هؤلاء المنافقين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم ، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الغناء .

﴿ أولئك ﴾ المنافقون هم ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خلودا أبديا ، ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة ، وأنهم سيكونون على مثل حالهم فى الدنيا من الكذب والفجور .. فقال - تعالى - ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ .

أى : اذكر - أيها الرسول الكريم - يوم يبعث الله - تعالى - هؤلاء المنافقين جميعا للحساب والجزاء « فيحلفون » لله - تعالى - فى الآخرة بأنهم مسلمون « كما » كانوا « يحلفون لكم » فى الدنيا بأنهم مسلمون .

« ويحسبون » فى الآخرة - لغبائهم وانطماس بصائرهم « أنهم » بسبب تلك الأيمان الفاجرة « على شىء » من جلب المنفعة أو دفع المضرة .

أى يتوهمون فى الآخرة أن هذه الأيمان قد تنفعهم فى تخفيف شىء من العذاب عنهم .

﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ أى الذين بلغوا فى الكذب حدا لاغاية وراءه .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن هؤلاء المنافقين فى الدنيا ، قد بعثوا والنفاق مازال فى قلوبهم ، وسلوكهم القبيح لايزال متلبسا بهم . فهم لم يكتفوا بكذبهم على المؤمنين فى الدنيا ، بل وفى الآخرة - أيضا - يحلفون لله - تعالى - بأنهم كانوا مسلمين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٣٠٥ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[2] .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى ليس العجب من حلفهم لكم - فى الدنيا بأنهم مسلمون - فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر . ولكن العجب من حَلفهم لله عالم الغيب والشهادة - بأنهم كانوا مسلمين فى الدنيا .

والمراد وصفهم بالتوغل فى نفاقهم ، ومرونهم عليه ، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل »[3] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : ﴿ ويحسبون أنهم على شىء ﴾ حذفت صفة شىء ، لظهور معناها من المقام ، أى : ويحسبون أنهم على شئ نافع .

وهذا يقتضى توغلهم فى النفاق ، ومرونتهم عليه ، وأنه باق فى أرواحهم بعد بعثهم ، لأن نفوسهم خرجت من الدنيا متخلقة به ، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثا فى عالم التكليف .

وفى الحديث : أن النبى - ﷺ - قال : إن رجلا من أهل الجنة يستأذن ربه أن يزرع ، فيقول الله له : أولست فيما شئت ؟ قال : بلى ياربى ولكن أحب أن أزرع ، فأسرع وبذر ، فيبادر الطرفَ نباتُه واستواؤُه واستحصادهُ وتكويرُه أمثالَ الجبال .

وكان رجل من أهل البادية عند النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله لا نجد هذا الرجل إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن - أى أهل البوادى - فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك النبى - ﷺ - إقرارا لما فهمه الأعرابى .

وفى حديث جابر بن عبدالله الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، أن النبى - ﷺ - قال : يبعث كل عبد على ما مات عليه .

قال عياض : هو عام فى كل حالة مات عليها المرء ، وقال السيوطى : يبعث الزمار بزماره ، وشارب الخمر بقدحه .

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٢٨ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٨ .

قلت : « ثم تتجلى لهم الحقائق على ماهى عليه ، إذ تصير العلوم على الحقيقة »[١] .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت المنافقين ينغمسون فى نفاقهم فقال : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله .. ﴾ .

وقوله : ﴿ استحوذ ﴾ من الحوذ : وهو أن يتبع السائق حاذيى البعير ، أى : أدبار فخذه ثم يسوقه سوقا عنيفا ، لا يستطيع البعير الفكاك منه ... والمراد به هنا : شدة الاستيلاء والغلبة ... ومنه قول السيدة عائشة فى عمر - رضى الله عنها - : « كان أحوذيا » أى : كان ضابطا للأمور ، ومستوليا عليها استيلاء تاما ...

والمعنى : إن هؤلاء المنافقين قد استولى عليهم الشيطان استيلاء تاما ، بحيث صيرهم تابعين لوساوسه وتزيينه ، فهم طوع أمره ، ورهن إشارته ، فترتب على طاعتهم له أن أنساهم طاعة الله - تعالى - ، وحسابه ، وجزاءه ، فعاشوا حياتهم يتركون ما هو خير ، ويسرعون نحو ما هو شر .. .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ حزب الشيطان ﴾ أى : جنوده وأتباعه ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ خسارة لاتقاربها خسارة ، لأنهم آثروا العاجل على الآجل ، والفانى على الباقى ، والضلال على الهدى .. .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان سنة من سننه فى خلقه ، وهى أن الذلة والصغار لأهل الباطل ، والعزة والغلبة لأهل الحق ..... الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾
لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير ، جـ ٢٨ ص ٥٣ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

أى : إن الذين يحادون دين الله - تعالى - ، ويحاربون ما جاء به رسوله - ﷺ - ، أولئك الذين يفعلون ذلك ... .

« فى الأذلين » أى : فى عداد أذل خلق الله - تعالى - وهم المنافقون ومن لف لفهم ، من الكافرين وأهل الكتاب .

وقال - سبحانه - : ﴿ أولئك فى الأذلين ﴾ للإشعار بأنهم مظروفون وكائنون ، فى ذروة أشد خلق الله ذلا وصغارا .

ثم بشر - سبحانه - من هم على الحق بأعظم البشارات فقال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ .

أى : أثبت الله - تعالى - ذلك فى اللوح المحفوظ وقضاه ، وأراد وقوعه فى الوقت الذى يشاؤه .

فالمراد بالكتابة : القضاء والحكم . وعبر بالكتابة للمبالغة فى تحقق الوقوع .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أنه لما فتح الله - تعالى - للمؤمنين ما فتح من الأرض ، قال المؤمنون : إنا لنرجو أن يفتح الله لنا فارس والروم .

فقال بعض المنافقين : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى تغلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا ، من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت .

قال الآلوسى : ﴿ كتب الله ﴾ أى : أثبت فى اللوح المحفوظ ، أو قضى وحكم .. وهذا التعبير جار مجرى القسم ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ أى : بالحجة والسيف ومايجرى مجراه ، أو بأحدهما ..[1] .

﴿ إن الله قوى ﴾ على نصر رسله وأوليائه ﴿ عزيز ﴾ لا يغلبه غالب بل هو القاهر فوق عباده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٣٤ .

والمقصود بالآية الكريمة : تقرير سنة من سننه - تعالى - التى لا تتخلف ، وأن النصر سيكون حليفا لأوليائه ، فى الوقت الذى علمه وأراده .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾(١) .

وقوله - تعالى - ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾(٢) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة لصفات المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ .

وقوله : ﴿ يوادون ﴾ من الموادة بمعنى حصول المودة والمحبة .

أى : لا تجد - أيها الرسول الكريم - قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان ، يوالون ويحبون من حارب دين الله - تعالى - وأعرض عن هدى رسوله .

والمقصود من هذه الآية الكريمة النهى عن موالاة المنافقين وأشباههم ، وإنما جاءت بصيغة الخبر ، لأنه أقوى وآكد فى التنفير عن موالاة أعداء الله ، إذ الإتيان بصيغة الخبر تشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى ، وأن الله - سبحانه - قد أخبر عنهم بذلك .

وافتتحت الآية بقوله : ﴿ لا تجد قوما ﴾ لأن هذا الافتتاح يثير شوق السامع لمعرفة هؤلاء القوم .

وقوله : ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ تصريح بوجوب ترك هذه الموادة لمن حارب الله ورسوله ، مهما كانت درجة قرابة هذا المحارب .

أى : من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله ، ولو كان هؤلاء الأعداء . ﴿ آباءهم ﴾ الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم ﴿ أو أبناءهم ﴾ الذين هم قطعة منهم . ﴿ أو إخوانهم ﴾ الذين تربطهم بهم رابطة الدم ﴿ أو عشيرتهم ﴾ التى ينتسبون إليها ، وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم على كل شىء .

وقدم الآباء لأنهم أول من تجب طاعتهم ، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم ، وثلث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم ، وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتى فى نهاية المطاف .

---

(١) سورة غافر الآية ٥١ .
(٢) سورة الصافات الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

ثم أثنى - سبحانه - على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ .

أى : أولئك الذين لا يوادون أعداء الله مهما كانوا ، هم الذين كتب الله - تعالى - الإيمان فى قلوبهم ، فاختلط بها واختلطت به ، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله ، ولا تبغض إلا من أبغضه .

﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أى : وثبتهم وقواهم بنور من عنده - سبحانه - فصاروا بسبب ذلك أشداء على الكفار ، رحماء بينهم .

﴿ ويدخلهم ﴾ - سبحانه - يوم القيامة ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ خلوداً أبديا ، ﴿ رضى الله عنهم ﴾ بسبب طاعتهم له ، ﴿ ورضوا عنه ﴾ بسبب ثوابه لهم .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بذلك ﴿ حزب الله ﴾ الذى يشرف من ينتسب إليه .

﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ فلاحا ونجاحا ليس بعدهما فلاح أو نجاح .

وقد ذكروا روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، منها : أنها نزلت فى أبى عبيدة عامر بن الجراح ، فقد قتل أباه - وكان كافرا - فى غزوة بدر .

والآية الكريمة تصدق على أبى عبيدة وغيره ممن حاربوا أباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم ، عندما استحب هؤلاء الآباء والأبناء الكفر على الإيمان .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب عدم موالاة الكفار والفساق والمنافقين والمجاهرين بارتكاب المعاصى .. مهما بلغت درجة قرابتهم ، ومهما كانت منزلتهم .

ومن دعاء رسول الله - ﷺ - « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يدا ولا نعمة »[1] .

وبعد فهذا تفسير لسورة « المجادلة » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدوحة - قطر
مساء الجمعة غرة شعبان سنة ١٤٠٦ هـ
١١ / ٤ / ١٩٨٦م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٠ .

تفسير

سُورَةُ الحَشْر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الحشر » من السور المدنية الخالصة ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ العهد النبوى ، وسماها ابن عباس بسورة « بنى النضير » فقد أخرج البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر . قال : « سورة بنى النضير » ولعل ابن عباس - رضى الله عنهما - سماها بهذا الاسم لحديثها المفصل عن غزوة بنى النضير .

٢ - وعدد آياتها أربع وعشرون آية ، وكان نزولها بعد سورة « البينة » وقبل سورة « النصر » أى : أنها تعتبر من أواخر ما نزل على النبى - ﷺ - من سور قرآنية فهى السورة الثامنة والتسعون فى ترتيب النزول .

أما ترتيبها فى المصحف ، فهى السورة التاسعة والخمسون .

٣ - وقد افتتحت سورة « الحشر » بتنزيه الله - تعالى - عما لا يليق به ، ثم تحدثت عن غزوة « بنى النضير » ، فذكرت جانبا من نصره لعباده المؤمنين ومن خذلانه لأولئك الضالين ..

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ..﴾ .

٤ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن تقسيم أموال بنى النضير ، وعن حكمة الله - تعالى - فى إرشاده النبى - ﷺ - إلى هذا التقسيم ، فقال - سبحانه - : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾

٥ - وبعد أن أثنت السورة الكريمة على المهاجرين لبلائهم وإخلاصهم وعفة نفوسهم ، كما أثنت على الأنصار لسخائهم ، وطهارة قلوبهم .. بعد كل ذلك أخذت السورة فى التعجيب من حال المنافقين ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد المؤمنين ، وذكرت جانبا من أقوالهم الكاذبة ، ووعودهم الخادعة ..

فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾

٦ - ثم وجهت السورة فى أواخرها نداء إلى المؤمنين ، أمرتهم فيه بتقوى الله ، ونهتهم عن التشبه بالفاسقين عن أمر الله ، الذين تركوا ما أمرهم به - سبحانه - ، فكانت عاقبة أمرهم خسرا ..

وختمت بذكر جانب من أسماء الله - تعالى - وصفاته ، فقال - تعالى - : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

٧ - وبذلك نرى السورة الكريمة قد طوفت بنا مع بعض مغازى رسول الله - ﷺ - ومع التشريعات الحكيمة التى شرعها الله - تعالى - فى تقسيم الغنائم ، ومع صور زاهية كريمة من أخلاق المهاجرين والأنصار ، ومع صور قاتمة كريهة من أخلاق المنافقين وإخوانهم من اليهود ..

ومع جانب من أسماء الله - تعالى - وصفاته ، التى تليق به - عز وجل - .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الدوحة - قطر

صباح الأحد : ٢ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ

١٢/٤/١٩٨٦ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم
(١) هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم
لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم
حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف
في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين
فاعتبروا يا أولي الأبصار (٢) ولولا أن كتب الله عليهم
الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار (٣)
ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد
العقاب (٤) ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة
على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين (٥)

افتتحت سورة « الحشر » بالثناء على الله - تعالى - وبتنزيهه عن كل مالا يليق بذاته الجليلة ، فقال - عز وجل - : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وأصل التسبيح لغة : الإبعاد عن السوء . وشرعا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله وكماله .

والذى يتدبر القران الكريم ، يجد أن الله - تعالى - قد ذكر فيه أن كل شىء فى هذا الكون يسبح بحمده - تعالى - ، كما فى قوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾ كما ذكر - سبحانه - أن الملائكة تسبح له ، كما فى قوله : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ...﴾ .

وكذلك الرعد ، كما فى قوله : ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ...﴾ .

وكذلك الجبال والطير قال - تعالى - : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق. والطير محشورة كل له أواب ﴾[1] .

وقد سبق أن ذكرنا خلال تفسيرنا لقوله - تعالى - : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ... ﴾ أن الرأى الذى تطمئن إليه النفس ، أن التسبيح حقيقى ، ولكن بلغة لا يعلمها إلا الله - تعالى -[2] .

والمعنى : سبح لله - تعالى - ونزهه عن كل مالا يليق به ، جميع ما فى السموات وجميع ما فى الأرض من كائنات ومخلوقات . وهو - عز وجل - ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله .

وقد افتتحت بعض السور - كسورة الحديد والحشر والصف - بالفعل الماضى ، لإفادة الثبوت والتأكيد ، وأن التسبيح قد تم فعلا .

وافتتحت بعض السور ، كسورة الجمعة والتغابن - بالفعل المضارع « يسبح » لإفادة تجدد هذا التسبيح فى كل وقت ، وحدوثه فى كل لحظة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين ، حيث نصرهم على أعدائهم ، فقال : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ...﴾ .

والمراد بالذين كفروا من أهل الكتاب هنا : يهود بنى النضير ، وقصتهم معروفة فى كتب السنة والسيرة ، وملخصها : أن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون فى ضواحى المدينة فذهب إليهم النبى - ﷺ - ليستعين بهم فى دفع دية لقتيلين قتلهما بعض المسلمين خطأ ، فاستقبلوه استقبالا حسنا ، وأظهروا له - ﷺ - استعدادهم للمساعدة فيما يطلبه منهم ، ثم خلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن منكم يصعد إلى أعلى هذا البيت الذى يجلس تحته محمد - ﷺ - فيلقى عليه حجرا فيريحنا منه .

---

(١) سورة ص آية ١٨ ، ١٩ .

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الإسراء الآية ٤٤ ص ٣٦١ .

فتعهد واحد منهم بذلك ، وقبل أن يتم فعله ، نزل جبريل - عليه السلام - على النبى - ﷺ - فأخبره بما أضمره اليهود من غدر وخيانة فرجع - ﷺ - إلى المدينة - وأخبر أصحابه بما أضمره له يهود بنى النضير ، ونزل قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[1] .

ثم أمر النبى - ﷺ - أصحابه أن يستعدوا لحصار بنى النضير ، وتأديبهم على غدرهم .. فحاصرهم المؤمنون بضعا وعشرين ليلة ، وانتهى الأمر بإجلائهم ، عن المدينة ، فمنهم من ذهب إلى خيبر ، ومنهم من ذهب إلى غيرها .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لأول الحشر ﴾ متعلقة بأخرج ، والحشر : الجمع ، يقال : حشر القائد جنده إذا جمعهم ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ .

أى : هو - سبحانه - الذى أخرج - بقدرته - الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ، وهم يهود بنى النضير عند مبدأ الحشر المقدر لهم فى علمه ، بأن مكنكم - أيها المؤمنون - من محاصرتهم وجمعهم فى مكان واحد ، ثم طردهم من المدينة المنورة إلى أماكن أخرى ، بسبب غدرهم وسوء صنيعهم .

قال صاحب الكشاف : اللام فى قوله : ﴿ لأول الحشر ﴾ تتعلق بأخرج ، وهى مثل اللام فى قوله : ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ وفى قولك : جئته لوقت كذا ..

والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر . ومعنى أول الحشر : أن هذا أول حشرهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط .. أو المعنى : هذا أول حشرهم ، وآخر حشرهم : إجلاء عمر - رضى الله عنه - لهم من خيبر إلى الشام .

وقيل معناه : أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم ، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله - ﷺ - ..[2] .

وقصر - سبحانه - إخراجهم عليه فقال : هو الذى أخرج الذين كفروا ، مع أن المسلمين قد اشتركوا فى إخراجهم عن طريق محاصرتهم،للإشعار بأن السبب الحقيقى فى إخراجهم من ديارهم ، هو ما قذفه الله - تعالى - فى قلوبهم من الرعب .. أما محاصرة المؤمنين لهم فهى

---

(١) سورة المائدة الآية ١١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٩ .

أسباب فرعية ، قد تؤدى إلى إخراجهم ، وقد لا تؤدى ، وللإشعار - أيضا - بأن كل شىء إنما هو بقضاء الله وقدره ..

ووصفهم - سبحانه - بالكفر وبأنهم من أهل الكتاب ، للتشنيع عليهم وزيادة مذمتهم ، حيث إنهم جمعوا بين رذيلتين : رذيلة الكفر بالحق ، ورذيلة عدم العمل بكتابهم الذى أمر باتباع الرسول - ﷺ - الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، والذى يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

و« من » فى قوله - تعالى - : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ للبيان ، حتى لا يظن بأن المراد بالذين كفروا هنا ، مشركو قريش ، وإن كان الجميع يشتركون فى الكفر والفسوق والعصيان .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا .... ﴾ تذكير للمؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم .

أى : ما ظننتم - أيها المؤمنون - أن يهود بنى النضير سيخرجون من ديارهم بتلك السهولة ، وذلك لتملكهم لألوان من القوة ، كقوة السلاح ، وكثرة العدد ، ووجود من يحميهم ممن يسكنون معكم فى المدينة ، وهم حلفاؤهم من بنى قومهم ، كبنى قريظة وغيرهم ، ومن غير بنى قومهم كالمنافقين الذين وعدوهم ومنوهم .

وقوله : ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : أنتم - أيها المؤمنون - ظننتم أن اليهود لن يخرجوا من ديارهم لما معهم من قوة ، وهم - أيضا - ظنوا أن حصونهم ستمنع بأس الله عنهم ، وأنها ستحول بينهم وبين خروجهم منها ، ونَصْرِكم عليهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ... ﴾ متفرع عن الظن السابق ، الذى ظنه المؤمنون ، والذى ظنه أعداؤهم وهم بنو النضير .

أى : أنتم ظننتم أنهم لن يخرجوا من ديارهم ، وهم ظنوا - أيضا - أن حصونهم ستمنعهم من نصركم عليهم ، فكانت النتيجة أن أتاهم بأس الله وعقابه من حيث لم يحتسبوا ومن حيث لم يخطر ببال ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب والفزع فخرجوا من حصونهم التى تمنعوا بها ، ومن ديارهم التى سكنوها زمنا طويلا صاغرين أذلاء ..

والتعبير بقوله : ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ إشارة إلى أن ما نزل بهم من هزيمة ، لم يكونوا يتوقعونها أصلا ، إذ الاحتساب مبالغة فى الحسبان ، أى : أتاهم عقاب الله - تعالى - من المكان الذى كانوا يعتقدون أمانهم فيه ، وفى زمان لم يكونوا أصلا يتوقعون حلول هزيمتهم عنده .

وعبر - سبحانه - بالقذف ، لأنه كناية عن الرمى بقوة وعنف وسرعة . والرعب : شدة الخوف والفزع ، وأصله : الامتلاء . تقول : رعبت الحوض إذا ملأته .

أى : وقذف - سبحانه - فى قلوبهم الرعب الذى ملأها بالجزع والفزع فاستسلموا بسبب ذلك لما حكم به الرسول - ﷺ - عليهم .

ثم بين - سبحانه - ما حدث منهم خلال جلائهم فقال : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ والتخريب : إسقاط البناء وهدمه أو إفساده .

أى : أن هؤلاء اليهود ، بلغ من سوء نيتهم ، ومن اضطراب أمرهم ، أنهم عندما أجمعوا أمرهم على الرحيل عن المدينة ، أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، عن طريق إسقاط بنائها ، وهدم السليم منها ، وإزالة ما اشتملت عليه من أبواب وغيرها .. حتى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم ..

وأخذوا يخربونها - أيضا - بأيدى المؤمنين ، أى : بسبب أن المؤمنين كانوا يزيلون من طريقهم كل عقبة حتى يقتحموا عليهم ديارهم ، فترتب على ذلك أن هدموا بعض بيوت بنى النضير من الخارج ، ليستطيعوا التمكن منهم .

قال صاحب الكشاف : ما معنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين ؟ قلت : لما عرَّضوهم لذلك ، وكانوا السبب فيه . فكأنهم أمروهم به ، وكلفوهم إياه ..[1] .

أى : أن يهود بنى النضير بسبب تحصنهم فى ديارهم ، ومحاولتهم عدم النزول على حكم الرسول - ﷺ - حملوا المؤمنين على تخريب هذه الحصون من الخارج ، ليدخلوا عليهم ..

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ لكل من يصلح له .

قال الجمل فى حاشيته : والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شىء إلى شىء ، ولهذا سميت العبرة عبرة ، لأنها تنتقل من العين إلى الخد . وسمى علم التعبير بذلك ، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات ، لأنها تنقل المعانى من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال : السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينتقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه .

ولهذا قال القشيرى : الاعتبار هو النظر فى حقائق الأشياء ، وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شىء آخر ..[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣١١ .

أى : إذا كان الأمر كما بينا لكم - أيها الناس - ، فاعتبروا واتعظوا يا أصحاب العقول السليمة ، والعيون الناظرة ، بما جرى لهؤلاء اليهود ، حيث دبر الله - تعالى أمر إخراجهم من ديارهم تدبيرا حكيما ، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر طريق ، وجعل ديارهم من بعدهم ، خير عبرة وعظة لكل ذى بصر ، فقد خلفوها من بعدهم شاهد صدق على أن الغدر نهايته الخسران .. وعلى أن النصر إنما هو لمن اتبع الصدق والوفاء بالعهد ..

قال الآلوسى : واشتهر الاستدلال بهذه الجملة ، على مشروعية العمل بالقياس الشرعى ، قالوا : لأنه - تعالى - أمر فيها بالاعتبار ، وهو العبور والانتقال من الشىء إلى غيره ، وذلك متحقق فى القياس ، إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع ..[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من حكمته فى إخراجهم فقال : ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ، لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار﴾ .

ولفظ « لولا » هنا حرف امتناع لوجود أى : امتنع وجود جوابها لوجود شرطها .. و« أن » مصدرية ، وهى مع ما فى حيزها فى محل رفع على الابتداء . لأن لولا الامتناعية لا يليها إلا المبتدأ ، والخبر محذوف .

والجلاء : الإخراج . يقال : جلا فلان عن مكان كذا ، إذا خرج منه . وأجلاهُ عنه غيره ، إذا أخرجه عنه :

قال القرطبى : والجلاء مفارقة الوطن ، يقال جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء ، والفرق بين الجلاء والإخراج - وإن كان معناهما فى الإبعاد واحدا - من وجهين :

أحدهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

الثانى : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة ...[2] .

أى : ولولا أن الله - تعالى - قد قدر على هؤلاء اليهود ، الجلاء عن ديارهم،لولا أن ذلك موجود ، لعذبهم فى الدنيا عذابا شديدا ، استأصل معه شأفتهم .

ولكن الله - تعالى - كتب عليهم الجلاء دون القتل والإهلاك لمصلحة اقتضتها حكمته ، لعل من مظاهرها أن يغننم المسلمون ديارهم وأموالهم ، دون أن تراق دماء من الفريقين ، و دون أن يعرض المؤمنون أنفسهم لمخاطر القتال .

وجملة « ولهم فى الآخرة عذاب النار » مستأنفة . أى : أن هؤلاء اليهود إن نجوا من القتل

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤١ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٦ .

والإهلاك فى الدنيا ، فلن ينجوا فى الآخرة من العذاب الذى يذلهم ويهينهم ، بل سيحل بهم عذاب مقيم ، لافكاك لهم منه .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ يعود إلى ما نزل وسينزل بهم من عذاب .

وقوله - تعالى - : ﴿ شاقوا ﴾ من المشاقة بمعنى المعاداة والمخاصمة ، حتى لكأن كل واحد من المتخاصمين فى شق ومكان يخالف شق صاحبه ومكانه .

أى : ذلك الذى حل بهم فى الدنيا من عقاب ، والذى سيحل بهم فى الآخرة من عذاب ، سببه أن هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب ، عادوا الله - تعالى - وخالفوا دعوة رسوله - ﷺ - .

﴿ ومن يشاق الله ﴾ بأن يخالف ما أمر به ، أو نهى عنه . يعذبه الله - تعالى - ويخذله ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب .

وجملة ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ قائمة مقام جواب الشرط ، أى : ومن يخالف أمر الله - تعالى - عذبه ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب ، لمن أعرض عن طاعته وذكره .

ثم ساق - سبحانه - ما يغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، الذين اشتركوا فى تخريب ديار بنى النضير ، وفى قطع نخيلهم ، فقال - تعالى - : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ .

و« ما » شرطية فى موضع نصب ، بقوله : ﴿ قطعتم ﴾ وقوله : ﴿ من لينة ﴾ بيان لها ..

وقوله : ﴿ فبإذن الله ﴾ جزاء الشرط . واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ متعلقة بمحذوف .

واللينة : واحدة اللين ، وهو النخل كله ، أو كرام النخل فقط .

قال الآلوسى ما ملخصه : اللينة هى النخلة مطلقا .. وهى فعلة من اللَّونِ ، وياؤها مقلوبة عن واو لكسر ما قبلها - فأصل لِينَة : لِوْنَة ..

وقيل : اللينة : النخلة مطلقا .. وقيل : هى النخلة القصيرة ، وقيل : الكريمة من النخل .. ويمكن أن يقال : أراد باللينة النخلة الكريمة ..[1] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن المسلمين عندما أخذوا فى تقطيع نخيل

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤٣ .

اليهود ، قال اليهود للنبى - ﷺ - : يا محمد إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع النخيل ؟ فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إن المسلمين بعد أن قطعوا بعض النخيل ، ظنوا أنهم قد أخطأوا فى ذلك ، فقالوا : لنسألن رسول الله - ﷺ - فنزلت هذه الآية .

وقيل : إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل ، وقالوا إنما هى مغانم المسلمين ، فنزلت هذه الآية ؛ لتصديق من نهى عن القطع ، وتحليل من قطع من الإثم .

والمعنى : لا تختلفوا - أيها المؤمنون - فى شأن ما فعلتموه بنخيل بنى النضير ، فإن الذى قطع شيئا من هذه النخيل لا إثم عليه ، والذى لم يقطع لا إثم عليه - أيضا - لأن كلا الأمرين بإذن الله - تعالى - ورضاه ، وفى كليهما مصلحة لكم .

لأن من قطع يكون قد فعل ما يغيظ العدو ويذله ، ويحمله على الاستسلام والخضوع لأمركم ..

ومن ترك يكون قد فعل ما يعود بالخير عليكم ، لأن تلك النخيل الباقية ، منفعتها ستئول إليكم ..

وقد شرع - سبحانه - لكم كلا الأمرين فى هذا المقام ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ عن أمره ، وهم يهود بنى النضير ، ومن ناصرهم ، وأيدهم ، وسار على طريقتهم فى الخيانة والغدر .

فالآية الكريمة المقصود بها : إدخال المسرة والبهجة فى قلوب المؤمنين ، حتى لا يتأثروا بما حدث منهم بالنسبة لنخيل بنى النضير ، وحتى يتركوا الخلاف فى شأن هذه المسألة ، بعد أن صدر حكم الله - تعالى - فيها ، وهو أن القطع والترك بإذنه ورضاه ، لأن كلا الأمرين يغرس الحسرة فى قلوب الأعداء ..

وعبر - سبحانه - باللينة عن النخلة ، لأن لفظ « لينة » أخف لفظا ، وأدخل فى كونها نخلة من كرام النخل .

وقال - سبحانه - : ﴿ أو تركتموها قائمة على أصولها ﴾ لتصوير هيئتها وحسنها وأن فروعها قد بقيت قائمة على أصولها ، التى هى جذورها وجذوعها .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ متعلق بمقدر على أنه علة له ، وذلك المقدر عطف على مقدر آخر . أى : ليعز المؤمنين ، وليخزى الفاسقين أى : ليذلهم ..

والمراد بالفاسقين : أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب . ووضع الظاهر موضع المضمر ،

إشعارا بعلة الحكم - أى أن فسقهم هو السبب فى إخزائهم ..»[١] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : أن تخريب ديار العدو ، وقطع الأشجار التى يملكها ، وهدم حصونه ومعسكراته .. جائز مادام فى ذلك مصلحة تعود على المسلمين ، وما دامت هناك حرب بينهم وبين أعدائهم .

ثم بين - سبحانه - حكم الفىء الذى أفاءه على المسلمين فى غزوة بنى النضير وفيما يشبهها من غزوات ، وأمر المؤمنين بأن يطيعوا رسوله - ﷺ - فى أمره ونهيه ، وأثنى - سبحانه - على المهاجرين والأنصار لقوة إيمانهم ، ولنقاء قلوبهم وسخاء نفوسهم .. فقال - تعالى - :

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ
دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤٣ .

مِمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا
غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

وقوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ...﴾ معطوف على قوله - تعالى - : ﴿ ما قطعتم من لينة ...﴾ لبيان نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على المؤمنين ، فى غزوة بنى النضير .

و﴿ أفاء ﴾ من الفىء بمعنى الرجوع ، يقال : فاء عليه ، إذا رجع ، ومنه قوله - تعالى - فى شأن الإيلاء : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ..

والمراد به هنا معناه الشرعى : وهو ما حصل عليه المؤمنون من أموال أعدائهم بدون قتال ، كأن يكون هذا المال عن طريق الصلح ، كما فعل بنو النضير ، فقد صالحوا المؤمنين على الخروج من المدينة ، على أن يكون لكل ثلاثة منهم حمل بعير - سوى السلاح - وأن يتركوا بقية أموالهم للمسلمين .

والضمير فى قوله ﴿ منهم ﴾ يعود إلى بنى النضير ، الذى عبر - سبحانه - عنهم بقوله : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ...﴾ .

وقوله : ﴿ فما أوجفتم ...﴾ من الإيجاف بمعنى الإسراع فى السير يقال : وجَفَ الفرس يجف وجَفا ووجيفا ، إذا أسرع فى سيره . والجملة خبر « ما » الموصولة فى قوله : ﴿ وما أفاء ...﴾ و﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ فما أوجفتم ﴾ نافية .

والركاب : اسم جمع للإبل التى تركب ، وفى الكلام حذف أغنى عنه قوله - سبحانه - : ﴿ فما أوجفتم ... ﴾ .

والمعنى : أعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاه الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - من أموال بنى النضير التى صالحوه عليها ، فلا حق لكم فيها لأنكم لم تنالوها بقتالكم لهم على الخيل أو الإبل ، وإنما تفضل بها - سبحانه - على نبيه - ﷺ - بلا قتال يذكر ، فقد كانت

ديار بنى النضير على بعد ميلين من المدينة ، فذهب إليها المسلمون راجلين ، وحاصروها حتى تم استسلام بنى النضير لهم ..

قال الآلوسى : روى أن بنى النضير لما أجلوا عن أوطانهم ، وتركوا رباعهم وأموالهم . طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ...﴾ فكانت لرسول الله - ﷺ - خاصة .

فقد أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كانت أموال بنى النضير ، مما أفاء الله - تعالى - : على رسوله - ﷺ - مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله - ﷺ - خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله - تعالى - .

وقال الضحاك : كاننت أموال بنى النضير لرسول الله - ﷺ - خاصة ، فآثر بها المهاجرين . وقسمها عليهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة منهم أعطاهم لفقرهم ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ...﴾ استدراك على النفى فى قوله - تعالى - : ﴿ فما أوجفتم عليه ...﴾ .

أى : ليس لكم الحق - أيها المؤمنون - فى أموال بنى النضير ، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق قتال منكم لهم ، ولكن الله - تعالى - سلط رسوله - ﷺ - عليهم وعلى ما فى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم ، والله - تعالى - قدير على كل شىء ..

وما دام الأمر كذلك ، فاتركوا رسولكم - ﷺ - يتصرف فى أموال بنى النضير بالطريقة التى يريدها ويختارها بإلهام من الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذى القربى ... ﴾ يرى كثير من العلماء أنه وارد على سبيل الاستئناف الابتدائى ، وأنه سيق لبيان حكم شرعى جديد ، يختلف عن الحكم الذى أوردته الآية السابقة على هذه الآية ..

إذ أن الآية السابقة ، واردة فى حكم أموال بنى النضير بصفة خاصة ، وهذه فى حكم الفىء بعد ذلك بصفة عامة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤٥ .

وعليه يكون المعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - حكم أموال بنى النضير ، وهى أنها لرسولنا - ﷺ - يضعها حيث يشاء .

أما ما أفاءه الله - تعالى - على رسوله - ﷺ - من أموال أهل القرى الأخرى ، كقريظة وفدك وغيرهما فحكم هذا الفىء أنه يقسم إلى خمسة أقسام :

قسم للرسول - ﷺ - ينفق منه على نفسه وأهله وما تبقى منه يكون فى مصالح المسلمين .

وقسم لأقاربه - ﷺ - وهم : بنو هاشم وبنو المطلب ..

وقسم لليتامى : وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم عنهم قبل أن يبلغوا .

وقسم للمساكين : وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضروريات الحياة .

وقسم لأبناء السبيل : وهم المسافرون المنقطعون عن مالهم فى سفرهم ، ولو كانوا أغنياء فى بلدهم ..

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى ، فقال بعد استعراضه للأقوال : والصواب من القول فى ذلك عندى أن هذه الآية حكمها غير حكم الآية التى قبلها وذلك أن الآية التى قبلها ، مال جعله الله - عز وجل - لرسوله - ﷺ - خاصة دون غيره . لم يجعل فيه لأحد نصيبا ..

فإذا كانت هذه الآية التى قبلها مضت ، وذكر المال الذى خص الله به رسوله - ﷺ - ولم يجعل لأحد منه شيئا ، وكانت هذه الآية خبرا عن المال الذى جعله الله لأصناف شتى ، كان معلوما بذلك أن المال الذى جعله لأصناف من خلقه . غير المال الذى جعله للنبى - ﷺ -[1] .

وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ...﴾ بيان لحكم ما أفاءه الله على رسوله من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكم ما أفاءه من بنى النضير ..

فالجملة جواب سؤال مقدر ناشىء مما فهم من الكلام السابق ، فكأن قائلا يقول : قد علمنا حكم ما أفاءه الله - تعالى - من بنى النضير ، فما حكم ما أفاء الله - عز وجل - من غيرهم ؟ ..

فقيل : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى . ولذا لم يعطف على ما تقدم ، ولم يذكر فى الآية قيد الإيجاف ولا عدمه ..

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٣٨ .

وسهمه - سبحانه - وسهم رسوله واحد ، وذكره - تعالى - : افتتاح كلام للتيمن والتبرك . فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وفيه تعظيم لشأن الرسول - ﷺ - .

وأهل القرى المذكورون فى الآية هم : أهل الصفراء ، وينبع ، ووادى القرى ، وما هنالك من قرى العرب ، التى تسمى قرى عرينة ، وحكمها مخالف لحكم أموال بنى النضير[١] .

ومن العلماء من يرى أن الآية التى معنا ، بمنزلة البيان والتفسير للآية التى قبلها ، لأن الآية الأولى لم تبين المستحقين للفىء الذى أفاءه الله - تعالى - على رسوله من أموال بنى النضير ، فجاءت الآية الثانية وبينت المستحقين له .

وعلى رأس المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : لم يدخل - سبحانه - العاطف على هذه الجملة - وهى قوله : ﴿ ما أفاء ... ﴾ - لأنها بيان للأولى ، فهى منها غير أجنبية عنها . بين لرسوله - ﷺ - ما يصنع بما أفاءه الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم ، مقسوما على الأقسام الخمسة[٢] .

وقال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ : أى جميع البلدان التى تفتح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ، ولهذا قال : ﴿ فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ . فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه ..[٣] .

ومن هذا نرى أن أصحاب الرأى الأول ، يقولون : إن الآيتين فى حكمين مختلفين ، لأن الآية الأولى فى بيان حكم أموال بنى النضير ، وأن الله - تعالى - قد جعلها للرسول - ﷺ - يضعها حيث يشاء ، وأما الآية الثانية فهى فى حكم أموال القرى الأخرى التى أفاءها الله - تعالى - على رسوله - ﷺ - ، وأن الله - تعالى - قد حدد له وجوه صرفها ، فقال : ﴿ فلله وللرسول ولذى القربى ... ﴾ .

وأما أصحاب الرأى الثانى فيرون أن الآية الثانية مفصلة لما أجملته الآية الأولى ، وأن كل فىء يقسم بالطريقة التى بينتها الآية الثانية .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن الثابت فى السنة الصحيحة : أن أموال بنى النضير ، لم يخمسها - ﷺ - بل كانت له خاصة ، يوزعها كما يشاء ، وقد آثر بها المهاجرين ، وقسمها عليهم : ولم يعط الأنصار منها شيئا سوى ثلاثة رجال منهم ، كانت بهم

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤٥ .
(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٥ .

حاجة فأعطاهم ، وبذلك نرى أنه - ﷺ - لم يتقيد فى التوزيع لهذه الأموال ، بمن ورد ذكرهم فى الآية الثانية .

وما دام الأمر كذلك ، فلا حاجة إلى القول بأن الآية الثانية ، ببيان وتفصيل للآية الأولى .

هذا وهناك أقوال أخرى فى معنى هذه الآية ، مبسوطة فى كتب الفقه والتفسير ، فليرجع إليها من شاء المزيد من الأحكام الفقهية ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ... ﴾ بيان لحكمة هذا التشريع الذى شرعه - سبحانه - بالنسبة للأموال التى أتت عن طريق الفىء .. والضمير المستتر فى قوله : ﴿ يكون ﴾ للفىء .

و« الدُّولة » بضم الدال المشددة اسم لما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال ، فيكون فى يد هذا تارة ، وفى يد ذاك تارة أخرى .

والدَّولة - بفتح الدال المشددة - اسم للنوبة من الظفر والنصر فى الحرب وغيرها .

يقال : لفلان على فلان دولة ، أى : غلبة ونصر .

وبعضهم يرى أن الدولة - بالضم والفتح - بمعنى واحد ، وهو ما يدور ويدول للإنسان من الغنى والنصر .

والمعنى : شرعنا لكم هذه الأحكام المتعلقة بتقسيم الفىء ، كى لا يكون المال الناجم عنه ، متداولا بين أيدى أغنيائكم دون فقرائكم .

والمقصود بهذه الجملة الكريمة ، إبطال ما كان شائعا فى الجاهلية ، من استئثار قواد الجيوش ، ورؤساء القبائل ، بالكثير من الغنائم دون غيرهم ممن اشترك معهم فى الحروب ، كما قال أحد الشعراء ، لأحد الرؤساء أو القادة :

لك المِربَاع منها والصفايا وحُكْمُك والنَّشِيطةُ والفُضُول

أى : لك - أيها القائد وحدك - من الغنيمة ربعها ، والصفايا أى : والنفيس منها ، ولك - أيضا ما تحكم به على العدو ، ولك النشيطة ، وهى ما يصيبه الجيش من العدو قبل الحرب ، ولك - كذلك - الفضول ، أى : ما يبقى بعد قسمة الغنائم .

وقد أبطل الإسلام كل ذلك ، حيث جعل مصارف الفىء ، تعود إلى المسلمين جميعا ، بطريقة عادلة ، بينها - سبحانه - فى هذه الآية وفى غيرها ..

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٢ .

قال بعض العلماء : والجدير بالذكر هنا : أن دعاة المذاهب الاقتصادية الفاسدة ، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم الفاسد ، ويقولون : ويجوز للدولة أن تستولى على مصادر الإنتاج ورءوس الأموال ، لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء ، وما يسمونهم طبقة العمال ، وهذا على ما فيه من كساد اقتصادى ، وفساد اجتماعى ، قد ثبت خطؤه وظهر بطلانه مجانبا لحقيقة الاستدلال .

لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة ، من الإنفاق على المجاهدين ، وتأمين الغزاة فى الحدود والثغور ، وليس يعطى للأفراد كما يقولون ، ثم - هو أساسا - مال جاء غنيمة للمسلمين ، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه الحلال .

ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص ، ولا هو - أيضا - كسب لشخص معين ، تحقق فيه العموم فى مصدره ، وهو الغنيمة ، والعموم فى مصرفه وهو عموم مصالح الأمة ، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه ، فشتان بين هذا الأصل فى التشريع ، وهذا الفرع فى التضليل ..[1] .

ثم أمر - سبحانه - المسلمين أن يمتثلوا أمر رسولهم - ﷺ - امتثالا تاما ، فقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

وقوله : ﴿ آتاكم ﴾ من الإتيان ، والمقصود به هنا ما جاءهم به الرسول - ﷺ - من هدايات وتشريعات ، وآداب . ويدخل فى ذلك دخولا أوليا قسمته لفىء بنى النضير بين المهاجرين ، دون الأنصار .

أى : ما أمركم الرسول - ﷺ - بفعله - أيها المؤمنون - فافعلوه ، وما نهاكم عن فعله فاجتنبوه ، واتقوا الله فى كل أحوالكم ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب لمن خالف أمره .

ومنهم من جعل ﴿ آتاكم ﴾ هنا بمعنى أعطاكم من الفىء ، وجعل ﴿ نهاكم ﴾ بمعنى نهاكم عن الأخذ منه ، وكأن صاحب هذا الرأى يستعين على ما ذهب إليه بفحوى المقام .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ من قسمة غنيمة أو فىء فخذوه وما نهاكم عنه ، أى : عن أخذه منه ﴿ فانتهوا ﴾ عنه .

والأجود أن يكون - الأمر والنهى - عاما فى كل ما آتى رسول الله - ﷺ - ونهى عنه ، وأمر الفىء داخل فى عمومه ..[2] .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٨ ص ٥٤ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٢ .

وقال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير ، وينهى عن شر .

أخرج الشيخان عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، والمغيرات لخلق الله - عز وجل - فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب ، وكان تقرأ القرآن ، فأتته فقالت : بلغنى انك قلت كذا وكذا ، فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله - ﷺ - وهو فى كتاب الله .

فقالت : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه ، أما قرأت : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ؟ قالت : بلى .

قال : فإن رسول الله - ﷺ - نهى عنه . قالت : إنى لأظن أهلك يفعلونه !! ..

قال : اذهبى فانظرى ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئا . فجاءت فقالت : ما رأيت شيئا . قال : لو كان كذا لم تجامعنا..[1] .

وقال بعض العلماء وفى الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة فى كل الأمور .

وعن أبى رافع أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى !! ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه .. »

وهذا الحديث من أعلام النبوة ، فقد وقع ذلك بعدُ من الجاهلين بكتاب الله ، وبمنصب الرسالة ، ومن الزنادقة الصادين عن سبيل الله ..[2] .

ثم أثنى - سبحانه - على المهاجرين الذين فارقوا أموالهم وعشيرتهم ، من أجل إعلاء كلمته - تعالى - فقال : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ﴾ .

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا بدل من قوله - تعالى - : ﴿ ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...﴾ كأنه قيل : أعنى بأولئك الأربعة ، هؤلاء الفقراء المهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٦ .
(٢) « تفسير صفوت البيان » جـ ٢ ص ٤١٦ لفضيلة للشيخ حسنين مخلوف .

ثم إنه - تعالى - وصفهم بأمور ، أولها : أنهم فقراء ، ثانيها : أنهم مهاجرون وثالثها : أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يعنى أن الكفار أجبروهم على الخروج .. ورابعها : أنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، والمراد بالفضل ثواب الجنة ، وبالرضوان : قوله : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

وخامسها : قوله : ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ أى : بأنفسهم وأموالهم .

وسادسها : قوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ يعنى أنهم لما هجروا لذّات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين ، ظهر صدقهم فى دينهم ..[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف المهاجرين فى سبيله ، بجملة من المناقب الحميدة . التى استحقوا بسببها الفلاح والفوز برضوان الله .

ثم مدح - سبحانه - بعد ذلك الأنصار ، الذين يحبون من هاجر إليهم فقال : ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على ﴿ المهاجرين ﴾ أو مبتدأ وخبره : ﴿ يحبون ﴾ والتبوؤ : النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل الذى ينزل فيه الإنسان .

والمراد بالدار : المدينة المنورة ، وأل للعهد . أى : الدار المعهودة المعروفة وهى دار الهجرة .

وقوله : ﴿ والإيمان ﴾ منصوب بفعل مقدر . أى : وأخلصوا الإيمان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوأوا الإيمان ؟ ..

قلت معناه : تبوأوا الدار وأخلصوا الإيمان . كقوله : علفتها تبنا وماء باردا .

أى : وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم ، لتمكنهم منه ، واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك .

أو أراد : دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف فى الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه مقامه ..

أو سمى المدينة - لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان - بالإيمان ..[2] .

وقوله : ﴿ من قبلهم ﴾ أى : من قبل المهاجرين ، وهو متعلق بقوله ﴿ تبوأوا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٢٩ ص ٢٨٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٣ .

وقوله : ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ خبر المبتدأ ، أو حال من الذين تبوأوا الدار ..
أى : هذه هى صفات المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ... وهذا هو جزاؤهم ..

أما الذين سكنوا دار الهجرة وهى المدينة المنورة ، من قبل المهاجرين ، وأخلصوا إيمانهم وعبادتهم لله - تعالى - ، فإن من صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديدا ، لأن الإيمان ربط قلوبهم برباط المودة والمحبة . وقوله : ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ صفة أخرى من صفات الأنصار .

ومعنى : ﴿ يجدون ﴾ هنا : يحسون ويعلمون ، والضمير للأنصار ، وفى قوله ﴿ أوتوا ﴾ للمهاجرين . والحاجة فى الأصل : اسم مصدر بمعنى الاحتياج ، أى الافتقار إلى الشىء .

والمراد بها هنا : المأرب أو الرغبة الناشئة عن التطلع إلى ما منحه النبى - ﷺ - للمهاجرين دون الأنصار ، من فىء أو غيره .

أى : أن من صفات الأنصار - أيضا - أنهم لا تتطلع نفوسهم إلى شىء مما أعطى للمهاجرين من الفىء أو غيره ، لأن المحبة التى ربطت قلوب الأنصار بالمهاجرين ، جعلت الأنصار يرتفعون عن التشوف إلى شىء مما أعطاه النبى - ﷺ - المهاجرين وحدهم ..

ثم وصفهم - سبحانه - بصفة ثالثة كريمة فقال : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ...﴾ .

والإيثار معناه : أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه ، على سبيل الإكرام والنفع ، والخصاصة : شدة الحاجة ، وأصلها من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات .

أى : أن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون فى النفع إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، ولو كانوا فى حاجة ماسة ، وفقر واضح ، إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين .

ولقد ضرب الأنصار - رضى الله عنهم - أروع الأمثال وأسماها فى هذا المضمار ، ومن ذلك مارواه الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله - ﷺ - فقال : يارسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد شيئا ، فقال - ﷺ - : « ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله » ؟ فقام رجل من الأنصار - وفى رواية أنه أبو طلحة - فقال : أنا يارسول الله ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله - ﷺ - قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية !! قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالى فأطفئى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله - ﷺ - ففعلت .

ثم غدا الضيف على رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - : « لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة » وأنزل الله فيهما : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ... ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ تذييل قصد به حض الناس على التحلى بفضيلة السخاء والكرم .

والشح : يرى بعضهم أنه بمعنى البخل ، ويرى آخرون أن الشح غريزة فى النفس تحملها على الإمساك والتقتير ، وأما البخل فهو المنع ذاته ، فكأن البخل أثر من آثار الشح .

قال صاحب الكشاف : « الشح » - بالضم والكسر وقد قرئ بهما - : اللؤم ، وأن تكون نفس المرء كزة حريصة على المنع كما قال الشاعر :

يمارس نفسا بين جنبيه كَزَّةً إذا هَمَّ بالمعروف قالت له مهلا

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ... ﴾[2] .

أى : ومن يوق - بتوفيق الله وفضله - شح نفسه وحرصها على الإمساك ، فيخالفها فيما تأمره به من المنع والتقتير . فأولئك الذين يخالفونها هم المفلحون ، الفائزون برضا الله - عز وجل - .

ومن الأحاديث التى وردت فى النهى عن الشح ، ما أخرجه مسلم - فى صحيحه - عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »[3] .

ثم مدح - سبحانه - كل من سار على نهج المهاجرين والأنصار فى قوة الإيمان ، وفى طهارة القلب ، وسماحة النفس فقال - تعالى - : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ... ﴾ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم .... ﴾ عطف عند الأكثرين أيضا على المهاجرين ، والمراد بهؤلاء : قيل : الذين هاجروا حين قوى الإسلام ، فالمجىء حسى ، وهو مجيئهم إلى المدينة ، وضمير من بعدهم ، للمهاجرين الأولين .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٥٢ . وراجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٩ .

وقيل هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، فالمجىء إما إلى الوجود أو إلى الايمان وضمير ﴿ من بعدهم ﴾ للفريقين : المهاجرين والأنصار .

وهذا هو الذى يدل عليه كلام عمر - رضى الله عنه - وكلام كثير من السلف كالصريح فيه ، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين ..(١) .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الثانى ، وهو كون الذين جاءوا من بعدهم يشمل المؤمنين الصادقين جميعا ، أقرب إلى الصواب ، لأنهم هم التابعون بإحسان للمهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ...﴾(٢).

وعليه يكون المعنى : و الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار ، واتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة ﴿ يقولون ﴾ على سبيل الدعاء لأنفسهم ولإخوانهم فى العقيدة ، ﴿ ربنا اغفر لنا ﴾ أى : ياربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واغفر ، لإخواننا فى الدين ﴿ الذين سبقونا بالإيمان ﴾ فهم أسبق منا إلى الخير والفضل .. ﴿ ولا تجعل ﴾ ياربنا ﴿ فى قلوبنا غلا ﴾ أى : حسدا وحقدا ﴿ للذين آمنوا ﴾ أى : ياربنا لا تجعل فى قلوبنا أى غل أو حسد لإخواننا المؤمنين جميعا .

﴿ ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ أى : ياربنا إنك شديد الرأفة بعبادك واسع الرحمة بهم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن من حق الصحابة - رضى الله عنهم - على من جاءوا بعدهم ، أن يدعوا لهم ، وأن ينزلوهم فى قلوبهم منزلة الاحترام والتبجيل والتكريم ..

ورحم الله الإمام القرطبى فقد أفاض فى بيان هذا المعنى ، فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ...﴾ يعنى التابعين ، ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة .

قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والذين تبوأوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل .

وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ..

وقال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لأنهم إما المهاجرون ، أو الأنصار ، أو الذين جاءوا من بعدهم ، وبين أن من شأن من جاء من بعد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٥٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠ .

المهاجرين والأنصار ، أن يذكر السابقين ، وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة ، فمن لم يكن كذلك ، بل ذكرهم بسوء كان خارجا من جملة أقسام المؤمنين ، بحسب نص هذه الآية ..[١] .

وبعد أن رسمت السورة الكريمة ، تلك الصورة الوضيئة للمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .. بعد كل ذلك أخذت فى رسم صورة أخرى ، متباينة تمام المباينة مع صورة هؤلاء الصادقين ، ألا وهى صورة المنافقين ، الذين انضموا إلى كل مناوئ للدعوة الإسلامية ، فقال - تعالى - :

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ
أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢)
لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى
مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)
كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٩ ص ٢٨٩ .

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ... ﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم ، والخطاب لرسول الله - ﷺ - أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب .

والآية - كما روى عن ابن عباس - نزلت فى رهط من بنى عوف منهم عبدالله بن أبى بن سلول ... بعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل المحكية ، بقوله - تعالى - : ﴿ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ...﴾[1] .

والمراد بالأخوة فى قوله - سبحانه - : ﴿ يقولون لإخوانهم ﴾ : أخوة فى الكفر والفسوق والعصيان ...﴾ .

والمعنى : ألم يصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، وهم يقولون لإخوانهم فى الكفر من أهل الكتاب ، وهم : يهود بنى النضير ، أثناء محاصرتكم - أيها المؤمنون - لهم .

يقولون لهم : « والله لئن أخرجتم » من دياركم ﴿ لنخرجن معكم ﴾ أى : لنخرجن من ديارنا معكم ، لنكون مصاحبين لكم حيثما سرتم .

ويقولون لهم : - أيضا - ﴿ ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ..﴾ أى : ولا نطيع فى شأنكم أحدا أبدا ، يريد العدوان عليكم ، أو يريد منعنا من الخروج معكم ومؤازرتكم ..

ويقولون لهم - كذلك - : ﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ أى : وإن قاتلكم المسلمون ، لنقفن إلى جواركم ، ولنقدمن العون الذى يؤدى إلى نصركم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ رد عليهم ، وإبطال لمزاعمهم .

أى : والله - تعالى - يشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى أقوالهم ، وفى عهودهم ..

ثم أبطل - سبحانه - أقوالهم بصورة أكثر تفصيلا فقال : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٥٦ .

أى : والله لئن أخرج المؤمنون اليهود من ديارهم ، فإن هؤلاء المنافقين لايخرجون معهم ، ولئن قاتل المؤمنون اليهود ، فإن المنافقين لن ينصروا اليهود ، ولئن نصروهم - على سبيل الفرض والتقدير - ليولين المنافقون الأدبار فرارا منكم - أيها المؤمنون - ، ثم لا ينصرون بعد ذلك ، لاهم ولا من قاموا بنصرهم ، لأن الفريقين اجتمعوا على الباطل واتحدت قلوبهم فى الجبن والخور والحرص على الحياة ..

فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين ، قد وصفتا المنافقين ، بالكفر والعصيان . وبالتحالف مع كل محارب للدعوة الإسلامية ، وبنقض العهود ، وخلف الوعود ، وبالجبن الخالع ، والكذب الواضح ...

وقد تحقق ما أخبرت عنه الآيتان عن هؤلاء المنافقين . فإن يهود بنى النضير عندما جد الجد ، وحالت ساعة رحيلهم .. أرسلوا إلى المنافقين يطلبون عونهم ، فما كان من المنافقين إلا أن خذلوهم ، وتحللوا من وعودهم لهم ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : ﴿ ولئن نصروهم ..﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم ؟ قلت : معناه ، ولئن نصروهم على سبيل الفرض والتقدير .. كقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ وكما يعلم - سبحانه - ما يكون فهو يعلم مالا يكون .

والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك . أى يهلكم الله - تعالى - ولا ينفعهم نفاقهم ، لظهور كفرهم ، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصر المنافقين لهم .

وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب ..[١] .

وبعد أن بشر الله - تعالى - المؤمنين بهزيمة أعدائهم أمامهم ، أتبع ذلك ببشارة أخرى ، وهى أن هؤلاء المنافقين وإخوانهم فى الكفر ، يخشون المؤمنين خشية شديدة ، فقال - سبحانه - : ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ...﴾ .

والرهبة : مصدر رهب ، بمعنى خاف ، يقال : رهب فلان فلانا ، إذا خافه خوفا شديدا من داخل نفسه ..

أى : لأنتم - أيها المؤمنون - أشد خوفا فى نفوس هؤلاء المنافقين واليهود ، من ربهم الذى خلقهم وأوجدهم .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٨ .

وقوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ تعليل لسبب جبنهم وخوفهم ، واسم الإشارة يعود إلى كون المؤمنين أشد رهبة فى صدور المنافقين واليهود من الله - تعالى - .

أى : أنتم أشد رهبة فى قلوبهم من الله - تعالى - : بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق ، ولا يعلمون شيئا عن عظمة الله - سبحانه - وجلاله وقدرته ..

والمقصود من هذه الآية الكريمة ، تهوين أمر هؤلاء الأعداء فى نفوس المؤمنين وبيان أن هؤلاء الاعداء قد بلغ الجبن والخور فيهم مبلغا كبيرا ، لدرجة أن خشيتهم لكم ، أشد من خشيتهم لله - تعالى - .

والتعبير بالرهبة للإشعار بأنها رهبة خفية لا يعلمها إلا الله - تعالى - وأن هؤلاء المنافقين واليهود ، مهما تظاهروا أمام المؤمنين بالبأس والقوة . فهم فى قرارة نفوسهم يخافون المؤمنين خوفا شديدا ..

قال صاحب الكشاف : رهبة مصدر رهب المبنى للمفعول ، كأنه قيل أشد مرهوبية .
وقوله : ﴿ فى صدورهم ﴾ دلالة على نفاقهم . يعنى : أنهم يظهرون لكم فى العلانية خوف الله ، وأنتم أهيب فى صدورهم من الله - تعالى - .

فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد ؟ .

قلت : معناه أن رهبتهم فى السر منكم ، أشد من رهبتهم من الله التى يظهرونها لكم . وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله ...[1] .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد قررت حقيقة راسخة فى نفوس المنافقين وأشباههم ، وإن كانوا يحاولون إخفاءها وسترها ، وهى أن خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله - تعالى - .

ثم يقرر - سبحانه - حقيقة أخرى ، أيدتها التجارب والمشاهد الواقعية ، فقال - تعالى - : ﴿ لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ...﴾ .

والآية الكريمة بدل اشتمال من التى قبلها ، لأن شدة الخوف من المؤمنين جعلت اليهود وحلفاءهم ، لا يقاتلون المسلمين ، إلا من وراء الخنادق والحصون ..

والجدر : جمع جدار ، وهو بناء مرتفع يحتمى به من يقاتل من خلفه . و﴿ جميعا ﴾ بمعنى مجتمعين كلهم ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٥ .

أى : أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين ، لا يقاتلونكم مجتمعين كلهم فى موطن من المواطن إلا فى قرى محصنة بالخنادق وغيرها ، أو يقاتلونكم من وراء الجدران التى يتسترون بها ، لأنهم يعجزون عن مبارزتكم ، وعن مواجهتكم وجها لوجه ، لفرط رهبتهم منكم ..

قال ابن كثير : يعنى أنهم فى جبنهم وهلعهم ، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام ، بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون ، أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلونكم للدفع عنهم ضرورة ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ جملة مستأنفة ، كأن قائلا قال : ولماذا لايقاتلون المؤمنين إلا على هذه الصورة ؟ فكان الجواب : بأسهم بينهم شديد . أى : عداوتهم فيما بينهم عداوة شديدة ، بحيث لا يتفقون على رأى ، وقوتهم يستعملونها فيما بينهم استعمالا واسعا ، فإذا ما التقوا بكم تحولت هذه القوة إلى جبن وهلع ..

قال صاحب الكشاف : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به ، إنما هو فيما بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل ، عند محاربة الله ورسوله ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ استئناف آخر للإجابة عما يقال : من أنه كيف تكون عداوتهم فيما بينهم شديدة ، ونحن نراهم متفقين ؟ .

فكان الجواب : ليس الأمر كما يظهر من حالهم من أن بينهم تضامنا وترابطا .. بل الحق أنهم متدابرون مختلفون متباغضون .. وإن كانت ظواهرهم تدل على خلاف ذلك ..

أى : تحسبهم أيها الناظر إليهم مؤتلفين .. والحال أن قلوبهم متفرقة ، ومنازعهم مختلفة وبواطنهم تباين ظواهرهم .. وما دام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم - أيها المؤمنون - ، بل أغلظوا عليهم ، وجاهدوهم بكل قوة وجسارة ..

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره ، من شدة عداوتهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم .

أى : ذلك الذى ذكرناه لكم من شدة بأسهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم ، سببه أنهم قوم لا يعقلون الحق والهدى والرشاد .. وإنما هم ينساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشهوات ، بدون إدراك لعواقب الأمور ، أو للفهم الصحيح ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٥ .

ثم ساق - سبحانه - مثلين زيادة فى تثبيت المؤمنين ، وفى التهوين من شأن أعدائهم فقال - تعالى - : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

وقوله : ﴿ كمثل ...﴾ خبر لمبتدأ محذوف . والمراد بالذين من قبلهم : يهود بنى قينقاع ، وكفار قريش الذين حل بهم ما حل من هزائم فى غزوة بدر .

والوبال : المرعى الضار الذى ترعاه الماشية ، دون أن تدرك سوء عاقبته .

أى : مثل هؤلاء اليهود والمنافقين ، وحالهم العجيبة .. كمثل الذين من قبلهم ، وهم يهود بنى قينقاع ، الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم ، وكان خروجهم قبل خروج بنى النضير بزمن ليس بالطويل ، وكمثل مشركى قريش الذين حلت بهم الهزيمة فى غزوة بدر ، فإن هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا فى الدنيا سوء عاقبة كفرهم بدون إمهال ..

أما فى الآخرة فلهم عذاب شديد الألم والإهانة .

ووجه الشبه بين السابقين واللاحقين ، أن الجميع قد اغتروا بمالهم وقوتهم ، فتطاولوا على المؤمنين ، ونقضوا عهودهم معهم .. فكانت عاقبتهم جميعا أن أذلهم الله - تعالى - فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ..

وأما المثل الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك ..﴾ .

أى : مثل المنافقين فى تزيينهم الشر والفساد ليهود بنى النضير .. كمثل الشيطان إذ قال للإنسان فى الدنيا اكفر بالله - تعالى - فلما كفر ذلك الإنسان ومات على الكفر ، وبعث يوم القيامة ، ووجد مصيره السيئ .. ندم وألقى التبعة على الشيطان الذى قال له : إنى برىء منك ومن كفرك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، ووجه الشبه : أن المنافقين تبرأوا من معاونتهم ومن مناصرتهم .. عندما حانت ساعة الجد .. كما يتبرأ الشيطان من كفر الكافر يوم القيامة .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ..﴾ من تمام المثل الذى ضربه الله - تعالى - للمنافقين واليهود ..

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

أى : فكان عاقبة ذلك الشيطان وذلك الإنسان ، أنهما فى النار ، حالة كونهما خالدين فيها خلودا أبديا ، وكذلك حال المنافقين واليهود ..

﴿ وذلك ﴾ الخلود فى النار ﴿ جزاء الظالمين ﴾ الذين تجاوزوا حدود الله - تعالى - وحاربوا أولياءه - سبحانه - .

والمراد بالشيطان والإنسان جنسهما ، وقد ذكر بعضهم هنا قصصا تدل على أن المراد بالإنسان شخص معين ، وقد أضربنا عنها صفحا لضعفها..[1] .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين واليهود ذما شنيعا ، وأضعفت من شأنهم ، وساقت لهم من الأمثلة ما يجعل المؤمنين يستخفون بهم ، ويجاهدونهم بغلظة وشدة .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه وبتقديم العمل الصالح الذى ينفعهم يوم يلقونه ، ونهاهم عن التشبه بالقوم الفاسقين .. فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ
نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ
(١٨) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١٩) لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (٢٠) لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ
ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

والمراد بالغد فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ...﴾ يوم القيامة ..

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ﴿ اتقوا الله ﴾ أى صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وراقبوه فى السر والعلن . وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤١ ، وتفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٣٨ .

﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أى : ولتنظر كل نفس ، ولتتأمل فى الاعمال التى عملتها فى الدنيا . والتى ستحاسب عليها فى يوم القيامة ، فإن كانت خيرا ازدادت منها ، وإن كانت غير ذلك أقلعت عنها .

وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة بالغد ، للإشعار بقربه ، وأنه آت لا ريب فيه ، كما يأتى اليوم الذى يلى يومك . والعرب تخبر عن المستقبل القريب بالغد كما فى قول الشاعر :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى   فإن غدا لناظره قريب

وقال - سبحانه - : ﴿ ولتنظر نفس ﴾ لإفادة العموم ، أى : كل نفس عليها أن تنظر نظرة محاسبة ومراجعة فى أعمالها بحيث لا تقدم إلا على ما كان صالحا منها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة ، كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وأما تنكير الغد ، فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه .

وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدمنا ، وخسرنا ما خلفنا ..[1] .

وكرر - سبحانه - الأمر بالتقوى فقال : ﴿ واتقوا الله ﴾ للتأكيد . أى : اتقوا الله بأن تؤدوا ما كلفكم به من واجبات ، وبأن تجتنبوا ما نهاكم عنه من سيئات .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ تعليل للحض على التقوى أى : اتقوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، لأنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، بل هو - سبحانه - محيط بها إحاطة تامة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون يوم القيامة .

وقد جاء الأمر بتقوى الله - تعالى - فى عشرات الآيات من القرآن الكريم ، لأن تقوى الله - تعالى - هى جماع كل خير ، وملاك كل بر ، ومن الأدلة على ذلك . أننا نرى القرآن يبين لنا أن تقوى الله قد أمر بها كل نبى قومه ، قال - تعالى - : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون ...﴾ .

وتارة نجد القرآن الكريم يبين لنا الآثار الطيبة التى تترتب على تقوى الله فى الدنيا والآخرة ، فيقول : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ...﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠٨ .

ويقول : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

ويقول - عز وجل - : ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

وبعد هذا الأمر المؤكد بالتقوى ، جاء النهى عن التشبه بمن خلت قلوبهم من التقوى ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ... ﴾ .

أى : تمسكوا - أيها المؤمنون - بتقوى الله - تعالى - ومراقبته والبعد عن كل مالا يرضيه . واحذروا أن تكونوا كأولئك الذين تركوا التكاليف التى كلفهم الله - تعالى - بها ، فتركهم - سبحانه - إلى أنفسهم ، بأن جعلهم ناسين لها ، فلم يسعوا إلى ما ينفعها ، بل سعوا فيما يضرها ويرديها .

فالمراد بالنسيان هنا : الترك والإهمال ، والكلام على حذف مضاف . أى : نسوا حقوق الله - تعالى - وما أوجب عليهم من تكاليف .

والفاء فى قوله : ﴿ فأنساهم ﴾ للسببية ، أى : أن نسيانهم لما يجب عليهم نحو أنفسهم من تهذيب وتأديب .. كان سببه نسيانهم لما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وخشيته .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أى : أولئك الذين تركوا مايجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ، هم الفاسقون عن أمره ، الخارجون على شريعته ودينه ، الخالدون يوم القيامة فى العذاب المهين .

ثم حذر - سبحانه - المؤمنين من نسيان طاعته ، وخشيته بأسلوب آخر فقال : ﴿ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ... ﴾ .

أى : لا يستوى فى حكم الله - تعالى - وفى جزائه ﴿ أصحاب النار ﴾ الذين استحقوا الخلود فيها ﴿ وأصحاب الجنة ﴾ الذين ظفروا برضوانه - تعالى - بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ..

﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ بالسعادة التى ليس بعدها سعادة ، و بالنعيم الذى لا يقاربه نعيم .

وقال - سبحانه - : ﴿ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ... ﴾ بدون بيان مالا يستويان فيه ، للإشعار بالبون الشاسع بين الفريقين ، فى سلوكهم وفى أعمالهم ، وفى تفكيرهم ، وفى نظرتهم إلى الحياة ، وفى العاقبة التى ينتهى إليها كل فريق ..

قال صاحب الكشاف : هذا تنبيه للناس ، وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم ، و قلة فكرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباع الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة

والنار ، والبون العظيم بين أصحابها ، وأن الفوز مع أصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه ، هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبهه بذلك على حق الأبوة ، الذى يقتضى البر والتعطف ..(١) .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى معناها ، قوله - تعالى - : ﴿ ومايستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا المسىء قليلا ما تتذكرون ﴾(٢) .

ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم ، المشتمل على ألوان من الهدايات والمواعظ ، والآداب والأحكام ، التى فى اتباعها سعادة الناس وفوزهم فقال : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ... ﴾ .

والمراد بالجبل : حقيقته والكلام على سبيل الفرض والتقدير ، واختير الجبل ، لأنه أشد الأشياء صلابة ، وقلة تأثر بما ينزل به .

أى : لو أنزلنا - على سبل الفرض والتقدير - هذا القرآن العظيم الشأن على جبل من الجبال العالية الشامخة الصلبة وخاطبناه به .. لرأيت - أيها العاقل - هذا الجبل الذى هو مثال فى الشدة والغلظة والضخامة وعدم التأثر . لرأيته ﴿ خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ .

أى : لرأيته متذللا متشققا من شدة خوفه من الله - تعالى - ومن خشيته .

قال الآلوسى : وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن ، وقوة تأثيره ، والغرض - من هذه الآية - توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن الكريم ، وتدبر ما فيه من القوارع ، وهو الذى لو أنزل على جبل - وقد ركب فيه العقل - لخشع وتصدع .

ويشير إلى كونه تمثيلا ، قوله - تعالى - : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(٣) .

أى : وتلك الأمثال الباهرة التى اشتمل عليها هذا القرآن العظيم ، نضربها ونسوقها للناس ، لكى يتفكروا فيها ، ويعملوا بما تقتضيه من توجيهات حكيمة ومن مواعظ سديدة ، ومن إرشادات نافعة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته - تعالى - وببيان بعض أسمائه الحسنى فقال - تعالى - :

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠٨ .
(٢) سورة غافر الآية ٥٨ .
(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٢ .

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ
هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

قال الجمل : لما وصف - تعالى - القرآن بالعظم ، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف ، أتبع ذلك بوصف عظمته - تعالى - فقال : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ أى : هو الله الذى وجوده من ذاته ، فلا عدم له بوجه من الوجوه ، فلا شىء يستحق الوصف بهذا غيره ، لأنه هو الموجود أزلا وأبدا ، فهو حاضر فى كل ضمير ، غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك تصدع الجبل من خشيته .

أى : هو المعبود الذى لاتنبغى العبادة والألوهية إلا له ، الذى لا إله إلا هو ، فإنه لا مجانس له ، ولا يليق ولا يصح ، ولا يتصور ، أن يكافئه أو يدانيه شىء ..[1] .

وقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى : هو - سبحانه - العليم علما تاما بما غاب عن أذهان الخلائق وعقولهم ، وبما هو حاضر ومشاهد أمام أعينهم .

فالمراد بالغيب : كل ما غاب عن إحساس الناس وعن مداركهم ..

والمراد بالشهادة : ما يشاهدونه بعيونهم ، ويدركونه بعقولهم ..

والتعريف فيهما للاستغراق الحقيقى ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون .

وقوله - تعالى - : ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ أى : هو العظيم الرحمة الدائمها ، لأن لفظ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٢١ .

﴿ الرحمن ﴾ صيغة مبالغة لكثرة الشيء وعظمته ، ولفظ ﴿ الرحيم ﴾ صيغة تدل على الدوام والاستمرار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ...﴾ تأكيد لأمر التوحيد لأن مقام التعظيم يقتضى ذلك .

ثم عدد - سبحانه - بعد ذلك بعض أسمائه الحسنى ، وصفاته الجليلة فقال : ﴿ الملك ﴾ أى : المالك لجميع الأشياء ، والحاكم على جميع المخلوقات والمتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه .

﴿ القدوس ﴾ أى : المنزه عن كل نقص ، البالغ أقصى ما يتصوره العقل فى الطهارة وفى البعد عن النقائص والعيوب ، وعن كل مالا يليق .

من القدس بمعنى الطهارة ، والقدَس - بفتح الدال - اسم للإناء الذى يتطهر به ومنه القادوس .

وجاء لفظ القدوس بعد لفظ الملك ، للإشعار بأنه - تعالى - وإن كان مالكا لكل شىء ، إلا أنه لا يتصرف فيما يملكه تصرف الملوك المغرورين الظالمين ، وإنما يتصرف فى خلقه تصرفا منزها عن كل ظلم ونقص وعيب ..

﴿ السلام ﴾ أى : ذو السلامة من كل ما لا يليق ، أو ذو السلام على عباده فى الجنة ، كما قال - تعالى - : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ .

﴿ المؤمن ﴾ أى : الذى وهب لعباده نعمة الأمان والاطمئنان ، والذى صدق رسله بأن أظهر على أيديهم المعجزات التى تدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه عنه .

﴿ المهيمن ﴾ أى : الرقيب على عباده ، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، من الأمن ، ثم قلبت همزته هاء ، وقيل أصله هيمن بمعنى رقب ، فهاؤه أصلية .

﴿ العزيز ﴾ أى : الذى يغلب غيره ، ولا يتجاسر على مقامه أحد ..

﴿ الجبار ﴾ أى : العظيم القدرة ، القاهر فوق عباده .

قال القرطبى : قال ابن عباس : الجبار : هو العظيم . وجبروت الله عظمته . وهو على هذا القول صفة ذات ، من قولهم : نخلة جبارة ..

وقيل هو من الجبر وهو الإصلاح ، يقال : جبرت العظم فجبر ، إذا أصلحته بعد الكسر ، فهو فعال من جبر ، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير ..[1] .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٤٦ .

﴿ المتكبر ﴾ أى : الشديد الكبرياء ، والعظمة والجلالة . والتنزه عما لا يليق بذاته . وهاتان الصفتان - الجبار المتكبر - صفتا مدح بالنسبة لله - تعالى - ، وصفتا ذم بالنسبة لغيره - تعالى - ، وفى الحديث الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - ، قال فيما يرويه عن ربه : « الكبرياء ردائى . والعظمة إزارى . فمن نازعنى فى واحد منهما قصمته . ثم قذفته فى النار » .

﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى : تنزه - سبحانه وتقدس عن إشراك المشركين . وكفر الكافرين .

﴿ هو الله الخالق ﴾ لكل شيء الموجد لهذا الكون على مقتضى حكمته ..

﴿ البارىء ﴾ أى : المبدع المخترع للأشياء . والمبرز لها من العدم إلى الوجود .

﴿ المصور ﴾ أى : المصور للأشياء والمركب لها ، على هيئات مختلفة ، وأنواع شتى من التصوير ، وهو التخطيط والتشكيل ..

﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ والحسنى تأنيث الأحسن . أى : له الأسماء التى هى أحسن الأسماء لدلالتها على أفضل المعانى . من تحميد . وتقديس . وقدرة . وسمع .. وغير ذلك من الأسماء الكريمة ، والصفات الجليلة .

﴿ يسبح له ﴾ - تعالى - وينزهه عن كل سوء ﴿ ما فى السموات والأرض ﴾ من مخلوقات ..

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أى : وهو - عز وجل - الغالب لغيره . الحكيم فى كل تصرفاته .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما - مائة إلا واحدا - من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر ..

ثم ذكر - رحمه الله - هذه الأسماء نقلا عن سنن الترمذى فقال : هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدى ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ،

المقتدر ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد الصبور .

ثم قال الإمام ابن كثير : وسياق ابن ماجه - لهذا الحديث - بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير .. والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ، أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه - أى : ذكر الراوى فى الحديث كلاما لنفسه أو لغيره من غير فصل بين ألفاظ الحديث وألفاظ الراوى - وأن أهل العلم جمعوا هذه الأسماء من القرآن الكريم .

ثم ليعلم أن الاسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىّ حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أعلمته أحدا من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى . وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا » .

فقيل يارسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ، ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها » وذكر أبو بكر بن العربى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة ألف اسم لله - تعالى -[1] .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الحشر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مساء الخميس ٢٢ من شعبان ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/٥/١ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥١٥ وجـ ٨ ص ١٠٦ .

تفسير

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الممتحنة » هى السورة الستون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة الأحزاب ، وقبل سورة النساء ، وهى من السور المدنية الخالصة ، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية .

واشتهرت بهذا الاسم منذ العهد النبوى ، إلا أن منهم من يقرؤها بفتح الحاء ، على أنها صفة للمرأة التى نزلت فيها ، ومنهم من يقرؤها بكسر الحاء على أنها صفة للسورة .

قال القرطبى : الممتحِنة - بكسر الحاء - أى : المختبرة ، أضيف الفعل إليها مجازا ، كما سميت سورة براءة بالفاضحة ، لما كشفت من رذائل المنافقين ، ومن قال فى هذه السورة الممتحَنة - بفتح الحاء - فإنه أضافها إلى المرأة التى نزلت فيها . وهى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . قال الله - تعالى - : ﴿ فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ﴾ وهى امرأة عبد الرحمن بن عوف ، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن[1] .

وقال صاحب الإتقان : وتسمى « سورة الامتحان » و « سورة المودة » .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بتوجيه نداء إلى المؤمنين ، نهتهم فيه عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء ، وبينت لهم ما جبل عليه هؤلاء الأعداء من كراهية للحق ، كما بينت لهم سوء عاقبة من يوالى هؤلاء الأعداء .

قال - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى . وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى دعوتهم إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم - عليه السلام - الذى قطع صلته بأقرب الناس إليه ، عندما رآه مصرا على كفره ، وأعلن أنه عدو لكل من أشرك مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٤٩ .

قال - تعالى - : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير ﴾ .

٤ - ثم بشر - سبحانه - المؤمنين ، بأنه - بفضله وكرمه - سيجمع شملهم بأقاربهم الذين تشددوا فى عداوتهم ، بأن يهدى هؤلاء الأقارب إلى الحق ، فيتصل حبل المودة بينهم جميعا ، ببركة اجتماعهم تحت كلمة الإسلام ، فقال - تعالى - : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم ﴾ .

٥ - وبعد أن رخص للمؤمنين فى مودة الكفار الذين لم يقاتلوهم ولم يلحقوا بهم أذى .. ونهاهم عن مودة الكفار الذين قاتلوهم وآذوهم .. بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى المؤمنين بين لهم حكم النساء اللائى أتين مؤمنات إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن الكفار ، وفصل - سبحانه - هذه الأحكام حرصا على النساء المؤمنات .

فقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ﴾ .

٦ - ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يبايع النساء المؤمنات على ما بايع عليه الرجال ، وأن يأخذ عليهن العهود على الطاعة لله - تعالى - والبعد عن محارمه .

قال تعالى - : ﴿ يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

٧ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتوجيه نداء ثالث إلى المؤمنين نهاهم فيه مرة أخرى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .. فقال - سبحانه - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ .

٨ - هذا والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها قد ساقت للمؤمنين ألوانا من التربية التى تغرس العقيدة السليمة فى قلوبهم ، وتجعلهم يضحون من أجلها بكل شيء ، ويقدمونها فى تصرفاتهم على محبة الآباء والأبناء والعشيرة والأموال ، وتكشف لهم عن سوء نيات الكافرين نحوهم ، وعن حرصهم على إنزال الضرر بهم ، كما ضربت لهم الأمثال بإبراهيم - عليه السلام - لكى يقتدوا به فى قوة إيمانه ، وفى إخلاصه لدينه ، كما بينت لهم من يجوز لهم مودتهم

من الكافرين ، ومن لا يجوز لهم ذلك منهم .. ثم ختمت ببيان بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء المؤمنات المتزوجات من الكافرين ، وبالنساء اللائى جئن إلى الرسول - ﷺ - لكى يبايعنه على الإيمان والطاعة .

وسنفصل القول فى هذه الأحكام خلال تفسيرنا لهذه السورة الكريمة ، .

نسأل الله - تعالى - أن يلهمنا الرشد ، وأن يجنبنا الزلل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة - مدينة نصر
٣ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ
٢ / ٥ / ١٩٨٦ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

افتتحت سورة « الممتحنة » بهذا النداء للمؤمنين ، وقد تضمن هذا النداء نهيهم عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما ذكره الإمام الآلوسى فقال : نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .. فقد أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن حبان ، وجماعة عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - وهو مكان بين مكة والمدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معى

من كتاب ، فقلنا : أخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة ، إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبى - ﷺ - .

فقال - ﷺ - « ماهذا يا حاطب ، ؟ » فقال حاطب : لا تعجل علىَّ يارسول الله إنى كنت إنسانا ملصقا فى قريش ، ولم أكن منها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيها ، أن أصطنع إليهم يدا ، يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام .

فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه،فقال ، - ﷺ - : « إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » فنزلت هذه الآيات[1] .

وقد ذكروا أن هذه القصة كانت فى الوقت الذى أعد فيه النبى - ﷺ - العدة لأجل العمرة ، سنة صلح الحديبية . وقيل كانت هذه القصة فى الوقت الذى تهيأ النبى - ﷺ - لفتح مكة ، وكان من بين الذين علموا ذلك حاطب بن أبى يلتعة .

والمراد بالعدو هنا : الأعداء عموما ، ويدخل فيهم دخولا أولياء كفار قريش ، الذين أرسل إليهم حاطب بن أبى بلتعة خطابه ، لكى يحذرهم من مهاجمة المسلمين لهم .

والمراد بالعداوة : العداوة الدينية التى جعلت المشركين ، يحرصون كل الحرص على أذى المسلمين ، أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا ، احذروا أن تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء وأصدقاء وحلفاء . بل جاهدوهم وأغلظوا عليهم ، واقطعوا الصلة التى بينكم وبينهم .

وناداهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة الدينية فى قلوبهم ولحضهم على الاستجابة لما نهاهم عنه .

وقدم - سبحانه - عداوته للمشركين ، على عداوة المؤمنين لهم ، لأن عداوة هؤلاء المشركين لله - تعالى - أشد وأقبح ، حيث عبدوا غير خالقهم ، وشكروا غير رازقهم ، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم .

وفى الحديث القدسى : « إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى .. خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم . ويتبغضون إلى بالمعاصى » .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٦٥ . وتفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٠٨ .

وعبر - سبحانه - بالاتخاذ الذى هو افتعال من الأخذ ، للمبالغة فى نهيهم عن موالاة هؤلاء الأعداء ، إذ الاتخاذ يشعر بشدة الملابسة والملازمة .

والمفعول الأول لقوله ﴿ تتخذوا ﴾ قوله : ﴿ عدوى ﴾ والمفعول الثانى قوله : ﴿ أولياء ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التى نهوا عنها أو فى موضع الحال من ضمير ﴿ لا تتخذوا ﴾ .

وحقيقة الإلقاء : قذف مافى اليد على الأرض أو فى الفضاء ، والمراد به هنا : إيصال ما يدخل السرور على قلوب أعدائهم . والباء فى قوله : ﴿ بالمودة ﴾ لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله .

أى : احذروا أن تعاملوا أعدائى وأعداءكم معاملة الأصدقاء والحلفاء ، بأن تظهروا لهم المودة والمحبة .

ويصح أن تكون الباء للسببية فيكون المعنى : تلقون إليهم بأخباركم التى لا يجوز لكم إظهارها لهم ، بسبب مودتكم لهم .

وقد ذكروا أن حاطبا أرسل بهذه الرسالة إلى أهل مكة ، عندما تجهز النبى - ﷺ - وأصحابه للذهاب إليها لأجل العمرة عام الحديبية ، أو لأجل فتح مكة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ﴿ تلقون ﴾ بم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يتعلق بقوله : ﴿ لا تتخذوا ﴾ حالا من ضميره .. ويجوز أن يكون استئنافا .

والإلقاء : عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم يقال : ألقى إليه خَراشِىَ صدره - أى أسرار صدره - وأفضى إليه بقشوره .

والباء فى ﴿ بالمودة ﴾ إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها فى قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، ومعناه : تلقون إليهم أخبار رسول الله - ﷺ - بسبب المودة التى بينكم وبينهم[(١)] .

ثم ساق - سبحانه - الأسباب التى من شأنها تحمل المؤمنين على عدم موالاة أعداء الله وأعدائهم ، فقال : ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ أى : لا تتخذوا - أيها المؤمنون - هؤلاء الأعداء أولياء ، وتلقون إليهم بالمودة ، والحال أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بما جاءكم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥١٢ .

على لسان رسولكم - ﷺ - من الحق الذى يتمثل فى القرآن الكريم ، وفى كل ما أوحاه - سبحانه - إلى رسوله .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، تصوير هؤلاء الكافرين ، بما ينفر المؤمنين من إلقاء المودة إليهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ بيان لسبب آخر من الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مقاطعة أعدائهم الكافرين .

وجملة : ﴿ يخرجون الرسول ﴾ يصح أن تكون مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى محل نصب حال من فاعل ﴿ كفروا ﴾ وقوله : ﴿ وإياكم ﴾ معطوف على الرسول ، وقدم عليهم على سبيل التشريف لمقامه - ﷺ - وجملة ﴿ أن تؤمنوا ﴾ فى محل نصب مفعول لأجله .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بكفرهم بما جاءكم - أيها المؤمنون - من الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى محاولة إخراج رسولكم - ﷺ - وإخراجكم من مكة ، من أجل إيمانكم بالله ربكم ، وإخلاصكم العبادة له - تعالى - .

وأسند - سبحانه - محاولة الإخراج إلى جميع الأعداء ، لأنهم كانوا راضين بهذا الفعل . ومتواطئين على تنفيذه ؛ بعضهم عن طريق التخطيط له ، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلى .

والمتأمل فى هذه الجمل الكريمة ، يراها قد ساقت أقوى الأسباب وأعظمها ، للتشنيع على مشركى قريش ، ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودة إليهم .

وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : ﴿ إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : إن كنتم - أيها المؤمنون - قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد فى سبيلى ، ومن أجل طلب مرضاتى ، فاتركوا اتخاذ عدوى وعدوكم أولياء ، واتركوا مودتهم ومصافاتهم .

فالمقصود من الجملة الكريمة ، زيادة التهييج للمؤمنين ، حتى لا يبقى فى قلوبهم أى شىء من المودة نحو الكافرين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ بدل من قوله - تعالى - : قبل ذلك : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ . بدل بعض من كل . لأن إلقاء المودة أعم من أن تكون فى السر أو فى العلن .

ويصح أن يكون بدل اشتمال ، لأن الإسرار إليهم بالمودة ، مما اشتمل عليه إلقاء المودة إليهم .

وهذه الجملة جيء بها على سبيل العتاب والتعجيب ممن فى قلبه مودة لهؤلاء الكافرين ، بعد أن بين الله - تعالى - له ، ما يوجب قطع كل صلة بهم .

ومفعول ﴿ تسرون ﴾ محذوف . أي : ترسلون إليهم أخبار المسلمين سرا ، بسبب مودتكم لهم ؟ وجملة : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ هى مناط التعجيب ممن يتخذ هؤلاء الأعداء أولياء . أو من يسر إليهم بالمودة ، وهى حالية من فاعل ﴿ تلقون وتسرون ﴾ .

أى : تفعلون ما تفعلون من إلقاء المودة إلى عدوى وعدوكم ، ومن إسراركم بها إليهم والحال أنى أعلم منهم ومنكم بما أخفيتموه فى قلوبكم ، وما أعلنتموه ، ومخبر رسولنا - ﷺ - بذلك .

وما دام الأمر كذلك فكيف أباح بعضكم لنفسه ، أن يطلع عدوى وعدوكم على مالا يجوز إطلاعه عليه ؟!

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ فى موضع الحال و ﴿ أعلم ﴾ أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف . أى : منكم .. و ﴿ ما ﴾ موصولة أو مصدرية ، وذكر ﴿ ما أعلنتم ﴾ مع الاستغناء عنه ، للإشارة إلى تساوى العلمين فى علمه - عز وجل - .

ولذا قدم ﴿ ما أخفيتم ﴾ . وفى هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم فى إسرار المودة إليهم كأنه قيل : تسرون إليهم بالمودة والحال أنى أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومطلع رسولى على ما تسرون ، فأى فائدة وجدوى لكم فى الإسرار ؟[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره فقال : ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ يفعله ﴾ يعود إلى الاتخاذ المفهوم من قوله ﴿ لا تتخذوا ﴾ .

أى ومن يفعل ذلك الاتخاذ لعدوى وعدوكم أولياء . ويلقى إليهم بالمودة ، فقد أخطأ طريق الحق والصواب . وضل عن الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - حال هؤلاء الأعداء عندما يتمكنون من المؤمنين فقال : ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون ﴾ .

ومعنى ﴿ يثقفوكم ﴾ يظفروا بكم ، ويدركوا طلبتهم منكم . وأصل الثقف : الحذق فى

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٦٨ .

إدراك الشيء وفعله ، ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الفهم ، ويقال : ثقفت الرجلَ فى الحرب إذا أدركته وظفرت به .

أى : إن يظفر بكم هؤلاء الأعداء - أيها المؤمنون - ويتمكنوا منكم ، يظهروا لكم ما انطوت عليه قلوبهم نحوكم من بغضاء : ولا يكتفون بذلك ، بل يمدون إليكم أيديهم بما يضركم ، وألسنتهم مما يؤذيكم .

ثم هم بعد كل ذلك يودون ويتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم .

فأنت ترى أن الآية الكريمة ، قد وضحت أن هؤلاء الكافرين ، قد سلكوا فى عداوتهم للمؤمنين كل مسلك ، فهم عند تمكنهم من المؤمنين يظهرون حقدهم القديم ، ويؤذونهم بأيديهم وألسنتهم ، ويتمنون فى جميع الأحوال أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين .

وقال - سبحانه - : ﴿ ويبسطوا إليكم .. ﴾ للإشعار بكثرة ما ينزلونه بالمؤمنين من أذى ، إذ التعبير بالبسط يدل على الكثرة والسعة .

وقوله : ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ معطوف على جملة الشرط والجزاء ، ويكون - سبحانه - قد أخبر عنهم بخبرين :

أحدهما : ما تضمنته الجملة الشرطية من عداوتهم للمؤمنين .

وثانيهما : تمنيهم ارتدادهم من الإيمان إلى الكفر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ، ثم قال : ﴿ وودوا ﴾ بلفظ الماضى ؟

قلت : الماضى وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الإعراب . فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم . يعنى : أنهم يريدون ان يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا ، من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردكم كفارا .

وهذا الرد إلى الكفر أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه . والعدو أهم شيء عنده ، أن يقصد أعز شيء عند صاحبه[1] .

ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التى تترتب على ضلالهم عن سواء السبيل فقال : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم . ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ... ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥١٣ .

والأرحام : جمع رحم والمراد بهم الأقارب ، الذين كان بعض المؤمنين يوالون المشركين من أجلهم .

أى : منكم - أيها المؤمنون - من أفشى أسراركم للكافرين ، خوفا على أقاربه أو أولاده الذين يعيشون فى مكة مع هؤلاء الكافرين ، والحق أنه لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين من أجلهم شيئا من النفع يوم القيامة ، لأنه فى هذا اليوم ﴿ يفصل بينكم ﴾ أى يفرق بينكم وبين أقاربكم وأولادكم يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وكما قال - سبحانه - : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

وخص - سبحانه - الأولاد بالذكر مع أنهم من الأرحام ، لمزيد المحبة لهم - والحنو عليهم .

قال الشوكانى : ، وجملة ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك اليوم . ومعنى ﴿ يفصل بينكم ﴾ يفرق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة . ويدخل أهل معصيته النار ، وقيل : المراد بالفصل بينهم ، أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول .. قيل : ويجوز أن يتعلق ﴿ يوم القيامة ﴾ بما قبله . أى : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بقوله ﴿ يفصل بينكم ﴾ والأولى أن يتعلق بما بعده - أى : يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على ﴿ أولادكم ﴾ ويبتدأ بيوم القيامة[1] .

وقراءة الجمهور ﴿ يُفْصَل بينكم ﴾ - بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد - على البناء للمجهول . وقرأ عاصم ﴿ يَفْصِل بينكم ﴾ بفتح الياء وكسر الصاد - على البناء للفاعل ، وقرأ حمزة والكسائى ﴿ يُفَصِّل بينكم ﴾ - بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الكسر - بالبناء للفاعل - أيضا - .

وقرأ ابن عامر ﴿ يُفَصَّل بينكم ﴾ - بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الفتح - على البناء للمجهول .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أى : والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، بل هو مطلع عليها اطلاعا تاما وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآيات الكريمة ما يأتى :

---

(١) فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢١١ .

١ - أن هذه الآيات أصل فى النهى عن موالاة الأعداء ومصافاتهم بأية صورة من الصور، وشبيه بها قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . ودّوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾[2] .

٢ - أن هذه الآيات الكريمة تتجلى فيها رحمة الله - تعالى - بعباده المؤمنين، حيث ناداهم بهذه الصفة مع وقوع بعضهم فى الخطأ الجسيم، وهو إفشاء أسرار المؤمنين لأعدائهم قالوا : وفى هذا رد على المعتزلة الذين يقولون : إن المعصية تنافى الإيمان .

٣ - أن هذه الآيات الكريمة فيها ما فيها من الأساليب الحكيمة فى الدعوة إلى الفضائل واجتناب الرذائل، لأن الله - تعالى - عندما نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأعدائهم، ساق لهم الأسباب التى تحملهم على قطع كل صلة بهؤلاء الأعداء . بأن ذكر لهم أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بالحق، وحرصوا على إخراج الرسول والمؤمنين من ديارهم، وأنهم إن يتمكنوا من المؤمنين، فسينزلون بهم أشد ألوان الأذى .

وهكذا يجب أن يتعلم الدعاة إلى الله - تعالى - أن على رأس الوسائل التى توصلهم إلى النجاح فى دعوتهم، أن يأتوا فى دعوتهم بالأسباب المقنعة لاعتناق الحق، واجتناب الباطل .

٤ - أن هذه الآيات الكريمة صريحة فى أن ما يتعلق بالدين والعقيدة، يجب أن يقدم على ما يتعلق بالأرحام والأولاد، لأن الأرحام والأولاد لن تنفع يوم القيامة، وإنما الذى ينفع هو ما يتعلق بالاستجابة لما يفرضه الدين علينا من واجبات وتكاليف .

وبعد هذا النهى للمؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .. ساقت لهم السورة الكريمة، جانبا من قصة إبراهيم - عليه السلام - الذى تبرأ من كل صلة تربطه بغيره سوى صلة الإيمان، وإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأمرتهم بأن يقتدوا به فى ذلك لينالوا رضا الله - عز وجل - فقال - تعالى - :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

والأسوة كالقدوة ، وهى اتباع الغير على الحالة التى يكون عليها ، قال - تعالى - : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ﴾ تأكيد لأمر الإنكار عليهم ، والتخطئة فى موالاة الكفار ، بقصة إبراهيم - عليه السلام - ومن معه ، ليعلم أن الحب فى الله - تعالى - والبغض فيه - سبحانه - من أوثق عرا الإيمان ، فلا ينبغى أن يغفل عنها .

والأسوة - بضم الهمزة وكسرها - بمعنى الائتساء والاقتداء ، وتطلق على الخصلة التى من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ، وعلى نفس الشخص المؤتسى به[1] .

والمعنى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وخصلة حميدة ، ومنقبة كريمة ، فى قصة أبيكم إبراهيم - عليه السلام - ، وفى قصة الذين آمنوا معه .

وافتتح - سبحانه - الكلام بقوله : ﴿ قد كانت ﴾ لتأكيد الخبر ، فإن هذا الأسلوب المشتمل على قد وفعل الكون ، يفيد التأكيد بموجب الخبر ، والتعريض بغفلة من يخالفه .

ووصف - سبحانه - الأسوة بالحسن ، على سبيل المدح لها والتحريض على الاقتداء بصاحبها .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٦٩ .

وعطف - سبحانه - على إبراهيم الذين آمنوا معه ، ليتم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم - ﷺ - أى : كونوا - أيها المؤمنون - متأسين ومقتدين برسولكم - ﷺ - ومطيعين له ، ومستجيبين لتوجيهاته ، كما كان أتباع أبيكم إبراهيم كذلك .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم الاقتداء به من حال إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنين معه ، فقال : ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ و ﴿ إذ ﴾ ظرف زمان بمعنى وقت وحين ، وهو يدل اشتمال من إبراهيم والذين معه . أو خبر لكان .

و ﴿ برآء ﴾ جمع برىء . يقال : برئ فلان من كذا يبرأ براء وبراءة . إذا ابتعد عنه ، لكراهته له .

أى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة فى إبراهيم - عليه السلام - وفى الذين آمنوا معه ، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين ، بشجاعة وقوة : إنا برآه منكم ، ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله - عز وجل - وإننا قد كفرنا بكم وبمعبوداتكم ﴿ وبدا ﴾ أى : وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغض على سبيل التأييد والاستمرار ، ولن نتخلى عن ذلك معكم ، حتى تؤمنوا بالله - تعالى - وحده ، وتتركوا عبادتكم لغيره - تعالى - .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنين معه ، قد أعلنوا بكل شجاعة وشدة ، إيمانهم الكامل بالحق ، وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم ، لكل من أشرك مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى .

وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبى للمنكر ، بل جاهروا بعداوتهم له ، وبالتنزه عن اقترابهم منه . وبتجافيهم عنه ... ولعل هذا هو أقصى ما كانوا يملكونه بالنسبة لتغيير هذا المنكر فى ذلك الوقت .

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكتف بذلك ، بل حطم الأصنام التى كان يعبدها قومه وقال لهم : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

قال صاحب الكشاف : أى : كان فيهم - أى : فى إبراهيم ومن آمن معه - مذهب حسن مرضى ، جدير بأن يؤتسى به ، ويتبع أثره ، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفوهم بالعداوة ، وقشروا لهم العصا ، وأظهروا لهم البغضاء والمقت ، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ، ليس إلا كفرهم بالله .

وما دام هذا السبب قائما ، كانت العداوة قائمة ، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده ،

انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء مودة ، والمقت محبة - فأفصحوا عن محض الإخلاص ..»[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك .. ﴾ كلام معترض بين الأقوال التى حكاها - سبحانه - عن إبراهيم - عليه السلام - .

والاستثناء يترجح أنه منقطع ، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ، ليس من جنس الكلام السابق ، الذى تبرأ فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون .

والمعنى : اقتدوا - أيها المؤمنون - بأبيكم إبراهيم - عليه السلام - وبالذين آمنوا معه ، فى براءتهم من الشرك والمشركين .. ولكن لا تقتدوا به فى استغفاره لأبيه الكافر ، لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك .. ﴾ هو استثناء متصل من قوله : ﴿ فى إبراهيم ﴾ بتقدير مضاف .. أى : قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم ، إلا فى قوله لأبيه : لأستغفرن لك .

ويصح أن يكون استثناء متصلا من قوله : ﴿ أسوة حسنة ﴾ وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، فكأنه قيل : قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله وأفعاله ، إلا فى قوله لأبيه لأستغفرن لك .

أو هو استثناء منقطع ، أى : اقتدوا بإبراهيم فى كل أقواله وأحواله ، لكن لا تقتدوا به فى قوله لأبيه المشرك : لأستغفرن لك ، بأن تستغفروا لآبائكم المشركين ، لأن استغفار إبراهيم لأبيه المشرك كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أنه ظن أن أباه قد أسلم ..»[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما أملك لك من الله من شىء ﴾ حكاية لبقية كلام إبراهيم لأبيه ، وليس الاستثناء متوجها إليه ، لأن هذه الجملة بيان لما تحلى به إبراهيم - عليه السلام - من آداب مع ربه - تعالى - حيث فوض الأمر إليه - سبحانه - .

أى : وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له ، أملا فى هدايته ، وقال له : يا أبت إنى لا أملك لك من أمر قبول الاستغفار شيئا ، بل الأمر كله لله ، إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك ، والجملة الكريمة فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ لأستغفرن لك ﴾ أى : لأستغفرن لك حالة كونى لا أملك من أمر المغفرة أو غيرها شيئا ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله - عز وجل - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا مما تضرع به إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه فقال : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥١٤ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢١٢ .

أى : يا ربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا ، وإليك وحدك قبول توبتنا ، وإليك لا إلى أحد سواك مرجعنا ومصيرنا .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون ، أى : المعذب ، مأخوذ من فتن فلان الفضة إذا أذابها .

أى : ياربنا لا تجعلنا مفتونين معذبين لهؤلاء الكافرين ، بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نستطيع صده ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات .. ﴾ أى : عذبوهم وحاولوا إنزال الضرر والأذى بهم .

ويصح أن يكون المعنى : ياربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، بأن تعذبنا بأيديهم ، فيظنوا بسبب ذلك أنهم على الحق ، ونحن على الباطل ، ويزعموا أننا لو كنا على الحق ما انتصروا علينا .

ولبعض العلماء رأى آخر فى فهم هذه الآية ، وهو أن المراد بالفتنة هنا : اضطراب حال المسلمين وفساده . وكونهم لا يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم فى وجوه الخير ... فيكون المعنى : ياربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة . فيترتب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا ، بحجة أنه لو كان ديننا سليما ، لظهر أثر ذلك على أتباعه ، ولكانوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر .

قال بعض العلماء ما ملخصه : قوله : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ . الفتنة : اضطراب الحال وفساده ، وهى اسم مصدر ، فتجىء بمعنى المصدر ، كقوله - تعالى - : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ .

وتجىء وصفاً للمفتون والفاتن .

ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا : جعلهم مفتونين يفتنهم الذين كفروا ، فيصدق ذلك بأن يتسلط عليهم الذين كفروا فيفتنون .

ويصدق - أيضا - بأن تختل أمور دينهم بسبب الذين كفروا . أى : بسبب محبتهم والتقرب منهم .

وعلى الوجهين ، فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول .. واللام فى « للذين كفروا » على الوجهين - أيضا - للملك ، أى : مفتونين مسخرين لهم .

ويجوز عندى أن تكون « فتنة » مصدرا بمعنى اسم الفاعل ، أى : لا تجعلنا فاتنين ، أى : سبب فتنة للذين كفروا ، فيكون كناية عن معنى : لا تغلب الذين كفروا علينا ، واصرف عنا

ما يكون من اختلال أمرنا ، وسوء الأحوال ، كى لا يكون شىء من ذلك فاتنا للذين كفروا .. أى : يزيدهم كفرا ، لأنهم يظنون أنا على الباطل وأنهم على الحق[1] .

وقوله : ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى : واغفر لنا ياربنا ذنوبنا ، إنك أنت الغالب الذى لا يغالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ﴾ والغرض من هذا التأكيد ، تحريض المؤمنين على التأسى بالسابقين فى قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم .

أى : لقد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وقدوة طيبة ، فى أبيكم إبراهيم - عليه السلام - وفيمن آمن به ، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله - تعالى - ورضاه ، ومن كان يرجو ثوابه وجزاءه الطيب .

وجىء بلام القسم فى قوله : ﴿ لقد كان لكم .. ﴾ على سبيل المبالغة فى التأكيد بوجوب التأسى بإبراهيم ، وبمن آمن معه .

وجملة ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ بدل من قوله ﴿ لكم ﴾ بدل اشتمال .

وفائدة هذا البدل : الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، لا يترك الاقتداء بإبراهيم - عليه السلام - وبمن آمن معه ، وأن ترك ذلك من علامات عدم الإيمان الحق .

كما ينبىء عنه التحذير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ .

أى : ومن يعرض عن هذا التأسى ، فوبال إعراضه عليه وحده ، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن جميع خلقه ، الحميد لمن يمتثل أمره .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، من أول السورة إلى هنا ، يجد أن الله - تعالى - لم يترك وسيلة للتنفير من موالاة أعدائه ، إلا أظهرها وكشف عنها .

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته وفضله ، فبشرهم بأنه قد يهدى إلى الإسلام قوما من الأعداء الذين تربط بينهم وبين المؤمنين رابطة الدم والقرابة،وحدد لهم القواعد التى عليها يبنون مودتهم وعداوتهم لغيرهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ١٣٩ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾

« عسى » فعل مقاربة يدل على الرجاء ، وإذا صدر من الله – تعالى – كان متحقق الوقوع ، لصدوره من أكرم الأكرمين .

قال صاحب الكشاف : « عسى » وعد من الله على عادات الملوك ، حيث يقولون فى بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك ، أو قصد به إطماع المؤمنين[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : لما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار ، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة . وعلم الله شدة ذلك على المؤمنين ، فوعد – سبحانه – المسلمين بإسلام أقاربهم الكفار ، فيوالونهم موالاة جائزة ، وذلك من رحمته – سبحانه – بالمؤمنين ، ورأفته بهم ، فقال : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾[2] .

والمعنى : عسى الله – تعالى – أن يجعل بينكم – أيها المؤمنون – وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم الكفار ، مودة ومحبة .. بأن يهديهم إلى الدخول فى دين الإسلام ، فتتحول عداوتكم لهم ، إلى أخوة صادقة . وصلة طيبة ، ومحبة شديدة .

وقد أنجز الله – تعالى – وعده ، فهدى كثيراً من كفار قريش إلى الدخول فى الإسلام ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥١٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٢٨ .

والتقوا هم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الإسلام ، على طاعة الله ومحبته ، والدفاع عن دينه ، وبذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله .

﴿ والله قدير ، والله غفور رحيم ﴾ أى : والله - تعالى - شديد القدرة على أن يغير أحوال القلوب ، فيصبح المشركون مؤمنين ، والأعداء أصدقاء ، والله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة ، لمن استجاب لأمره ونهيه ، وأقلع عن المعصية إلى الطاعة ، ونبذ الكفر وتحول إلى الإيمان .

فالآية الكريمة بشارة عظيمة للمؤمنين ، بأنه - سبحانه - كفيل بأن يجمع شملهم بكثير من أقاربهم الكافرين ، وبأن يحول العداء الذى بينهم ، إلى مودة ومحبة ، بسبب التقاء الجميع على طاعة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له .

وقد تم ذلك بصورة موسعة ، بعد أن فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

ثم بين - سبحانه - للمؤمنين القاعدة التى يسيرون عليها فى مودتهم وعداوتهم وصلتهم ومقاطعتهم . فقال - تعالى - : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية والتى بعدها روايات منها ، ما أخرجه البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت : أتتنى أمى راغبة - أى : فى عطائى - وهى مشركة فى عهد قريش ... فسألت رسول الله - ﷺ - أأصلها ؟ فأنزل الله - تعالى - : ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ .

فقال رسول الله - ﷺ - : « نعم صلى أمك » .

وروى الإمام أحمد وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى - وهى مشركة - على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، أو تدخلها بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة ، لكى تسأل رسول الله - ﷺ - عن هذا ، فسألته ، فأنزل الله - تعالى - ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ﴾ .

وقال الحسن وأبو صالح : نزلت هذه الآية فى قبائل من العرب كانوا قد صالحوا النبى - ﷺ - على أن لا يقاتلوه ، ولا يعينوا عليه .

وقال مجاهد : نزلت فى قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكان المهاجرون والأنصار يتحرجون من برهم ، لتركهم فرض الهجرة .

قال الآلوسى - بعد أن ذكر هذه الروايات وغيرها -: والأكثرون على أنها فى كفرة

اتصفوا بما فى حيز الصلة ..[١] .

والذى تطمئن إليه النفس أن هاتين الآيتين ، ترسمان للمسلمين المنهج الذى يجب أن يسيروا عليه مع غيرهم ، وهو أن من لم يقاتلنا من الكفار ، ولم يعمل أو يساعد على إلحاق الأذى والضرر بنا ، فلا يأس من بره وصلته .

ومن قاتلنا ، وحاول إيذاءنا منهم . فعلينا أن نقطع صلتنا به ، وأن نتخذ كافة الوسائل لردعه وتأديبه ، حتى لا يتجاوز حدوده معنا .

والمعنى : ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ - تعالى - أيها المؤمنون - ﴿ عن ﴾ مودة وصلة الكافرين ﴿ الذين لم يقاتلوكم ، فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أى : لم يقاتلوكم من أجل أنكم مسلمون ، ولم يحاولوا إلحاق أى أذى بكم ، كالعمل على إخراجكم من دياركم .

لا ينهاكم الله - تعالى - عن ﴿ أن تبروهم ﴾ أى : عن أن تحسنوا معاملتهم وتكرموهم . وعن أن ﴿ تقسطوا إليهم ﴾ أى تقضوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بمثل معاملتهم لكم ، ولا تجوروا عليهم فى حكم من الأحكام .

﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أى العادلين فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم ، الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم العدل من أنفسهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم .

﴿ إنما ينهاكم الله ﴾ - تعالى - ﴿ عن ﴾ بر وصلة ﴿ الذين قاتلوكم فى الدين ﴾ أى قاتلوكم لأجل أنكم على غير دينهم ﴿ وأخرجوكم من دياركم ﴾ التى تسكنونها ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ .

أى : وعاونوا غيرهم على إخراجكم من دياركم ، يقال : ظاهر فلان فلانا على كذا ، إذا عاونه فى الوصول إلى مطلبه .

وقوله : ﴿ أن تولوهم ﴾ بدل اشتمال ﴿ من الذين قاتلوكم ﴾ أى : ينهاكم - سبحانه - عن موالاة ، ومواصلة ، وبر الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم .

﴿ ومن يتولهم ﴾ أى : ومن يبر منكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين قاتلوكم ﴿ فأولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ هم الظالمون ﴾ لأنفسهم ظلما شديدا يستحقون بسببه العقاب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

فأنت ترى أن الآية الأولى قد رخصت لنا فى البر والصلة - قولا وفعلا - للكفار الذين لم يقاتلونا لأجل ديننا ، ولم يحاولوا الإساءة إلينا ، بينما الآية الثانية قد نهتنا عن البر أو الصلة

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٧٤ .

لأولئك الكافرين ، الذين قاتلونا من أجل مخالفتنا لهم فى العقيدة ، وحاولوا إخراجنا من ديارنا أو أخرجوا بعضنا بالفعل - وعاونوا غيرهم على إنزال الأذى بنا .

هذا ، ويرى بعض العلماء أن الآية الأولى منسوخة .

قال القرطبى : قال ابن زيد : كان هذا فى أول الإسلام عند الموادعة ، وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ هذا الحكم .

قال قتادة : نسخها قوله - تعالى - ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾[١] .

والذى عليه المحققون من العلماء ، أن الآية محكمة وليست منسوخة ، لأنها تقرر حكما يتفق مع شريعة الإسلام فى كل زمان ومكان ، وهو أننا لا نؤذى إلا من آذانا ، ولا نقاتل إلا من أظهر العداوة لنا بأية صورة من الصور .

وأقوال النبى - ﷺ - وأفعاله تؤيد عدم النسخ ، فقد كان - ﷺ - يستقبل الوفود التى تأتيه لمناقشتها فى بعض الأمور الدينية ، مقابلة كريمة ، ويتجلى ذلك فيما فعله مع وفد نجران ، ووفد تميم وغيرهما .

كذلك مما يؤيد عدم النسخ ، أنه لا تعارض بين هذه الآية ، وبين آية السيف ، لأن الأمر بالقتال إنما هو بالنسبة لقوم يستحقونه ، بأن يكونوا قد قاتلونا أو أخرجونا من ديارنا ، كما جاء فى الآية الثانية .

وأما الرخصة فى البر والصلة ، فهى فى شأن الذين لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا ، وهذا ماصرحت به الآية الأولى .

ورحم الله الإمام ابن جرير فقد قال بعد أن ذكر الآراء فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى بقوله - تعالى - : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين .. ﴾ جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم .. ويشمل ذلك من كانت تلك صفته ، دون تخصيص لبعض دون بعض .

ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ، ممن بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب ، غير محرم ، ولا منهى عنه ، إذا لم يكن فى ذلك ، دلالة له أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح[٢] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٥٩ .
(٢) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٤٣ .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء المؤمنات ، اللاتى تركن أزواجهن الكفار ، ورغبن فى الهجرة إلى دار السلام فقال - تعالى -:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم
مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ
وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

قال الإمام القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ : لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين ، واقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة ، فبين - سبحانه - أحكام مهاجرة النساء .

قال ابن عباس : جرى الصلح مع مشركى قريش عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب ، والنبى - ﷺ - بالحديبية بعدُ ، فأقبل زوجها - وكان كافرا .. فقال : يا محمد ، اردد على امرأتى ، فإنك شرطت ذلك ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وقيل : جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله - ﷺ - أن يردها .

وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها فرد رسول الله - ﷺ - أخويها وحبسها ، فقالوا للنبى - ﷺ - ردها علينا للشرط ، فقال : « كان الشرط فى الرجال لا فى

النساء » فأنزل الله هذه الآية[١] .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ ، من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وراغبات فى فراق الكافرين ، والبقاء معكم .

﴿ فامتحنوهن ﴾ أى : فاختبروهن اختبارا يغلب معه الظن بأنهن صادقات فى هجرتهن وفى إيمانهن ، وفى موافقة قلوبهن لألسنتهن .

وقد ذكر ابن جرير فى كيفية امتحانهن صيغا منها : ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كانت المرأة إذا أتت رسول الله - ﷺ - حلفها بأنها ما خرجت بغضا لزوجها ، ولا رغبة فى الانتقال من أرض إلى أرض ، ولا التماسا لدنيا ، وإنما خرجت حبا لله ولرسوله[٢] .

وجملة : ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ معترضة لبيان أن معرفة خفايا القلوب ، مردها إلى الله - تعالى - وحده .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ أى : منكم ، لأنكم لا تكسبون فيه علما تطمئن معه نفوسكم ، وإن استحلفتموهن ودرستم أحوالهن ، وعند الله حقيقة العلم به[٣] .

والمراد بالعلم فى قوله - تعالى - : ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار ﴾ الظن الغالب .

أى : فإن غلب على ظنكم بعد امتحانهن أنهن مؤمنات صادقات فى إيمانهن ، فأبقوهن عندكم ، ولا ترجعوهن إلى أزواجهن أو إلى أهلهن من الكفار .

وسمى الظن القوى علما للإيذان بأنه كالعلم فى وجوب العمل بمقتضاه،وإنما رد الرسول - ﷺ - الرجال الذين جاءوه مؤمنين بعد صلح الحديبية ، ولم يرد النساء المؤمنات ، لأن شرط الرد كان فى الرجال ولم يكن فى النساء - كما سبق أن ذكرنا نقلا عن القرطبى - ، ولأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة فى الرد ما يخشى على المرأة ، من إصابة المشرك إياها ، وتخويفها ، وإكراهها على الردة .

قال بعض العلماء : قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية مخصصة لما جاء فى معاهدة صلح الحديبية ، والتى كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ردوه إلى المشركين ، ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين ، لا يردونه على المسلمين ، فأخرجت الآية النساء من المعاهدة ،

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٦١ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٤٥ .
(٣) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥١٧ .

وأبقت الرجال ، من باب تخصيص العموم .

وتخصيص السنن بالقرآن ، وتخصيص القرآن بالسنن ، أمر معلوم .

ومن أمثلة تخصيص السنة بالكتاب ، قوله : - ﷺ - : « ما أبين من حى فهو ميت » أى : فهو محرم ، فقد جاء تخصيص هذا العموم بقوله - تعالى - : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها ﴾ أى : ليس محرما ، ومن أمثلة تخصيص الكتاب بالسنة قوله - تعالى - : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ فقد جاء تخصيص هذا العموم بحديث : « أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان : فالجراد والحوت ، وأما الدمان : فالكبد والطحال » .

وقال بعض المفسرين : إنها ليست مخصصة للمعاهدة ، لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء ، وإنما كانت فى حق الرجال فقط .

والذى يظهر - والله أعلم - أنها مخصصة لمعاهدة الحديبية ، وهى من أحسن الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن - كما قال الإمام ابن كثير[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ تعليل للنهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى دار الكفر ، أو إلى أزواجهن الكفار .

أى : لا ترجعوا - أيها المؤمنون - النساء المؤمنات المهاجرات إليكم من أرض الكفر إلى أزواجهن الكافرين ، فإن هؤلاء المؤمنات صرن بسبب إيمانهن لا يصح ارتباطهن بأزواجهن الكفار ، كما لا يصح لهؤلاء الكافرين الارتباط بالنساء المؤمنات .

فالجملة الكريمة المقصود بها تأكيد النهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى أرض الكفر ، ووجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر فى جميع الأحوال .

قال ابن كثير : هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين وقد كان ذلك جائزا فى أول الإسلام ، أن يتزوج المشرك المؤمنة ..[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدالة الإسلام فى أحكامه . والخطاب لولاة الأمور . وهذا الإيتاء إنما هو للأزواج المعاهدين ، أما إذا كانوا حزبيين فلا يعطون شيئا .

أى : وسلموا إلى المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، مادفعوه لهن من مهور ، قال

---

(١) راجع أضواء البيان جـ ٨ ص ١٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١١٨ .

القرطبى : قوله : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ : أمر الله - تعالى - إذا أُمسِكَتْ المرأة المسلمة ، أن يرد إلى زوجها المشرك ماأنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ، لأنه لما مُنِع من أهله ، بحرمة الإسلام ، أمر - سبحانه - برد المال إليه ، حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة والمال[1] .

فالمراد بقوله - تعالى - ﴿ ما أنفقوا ﴾ : ما دفعه المشركون لأزواجهم المؤمنات .

وعبر عن هذه المهور بالنفقة ، للإشعار بأن هؤلاء الزوجات المؤمنات ، أصبحت لا صلة لهن بأزواجهن المشركين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ تكريم لهؤلاء النساء المسلمات اللائى فررن بدينهن من أزواجهن المشركين .

أى : ولا حرج عليكم - أيها المؤمنون - فى نكاح هؤلاء المؤمنات ، بعد فراقهن لأزواجهن المشركين ، وبعد استبرائكم لأرحامهن ، وعليكم أن تدفعوا لهن مهورهن كاملة غير منقوصة .

ونص على دفع المهر لهن - مع أنه أمر معلوم - لكى لا يتوهم متوهم ، أن رد المهر الى الزوج الكافر ، يغنى عن دفع مهر جديد لهن إذا تزوجن بعد ذلك بأزواج مسلمين ، إذ المهر المردود للكفار ، لا يقوم مقام المهر الذى يجب على المسلم إذا ما تزوج بامرأة مسلمة فارقت زوجها الكافر .

والمراد بالإيتاء : ما يشمل الدفع العاجل ، والتزام الدفع فى المستقبل .

ثم نهى الله - تعالى - المسلمين عن إبقاء الزوجات المشركات فى عصمتهم فقال : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ .

والعصم : جمع عصمة ، والمراد بها هنا : عقد النكاح الذى يربط بين الزوج والزوجة ، والكوافر : جمع كافرة ، كضوارب جمع ضاربة .

أى : ولا يصح لكم - أيها المؤمنون - أن تبقوا فى عصمتكم ، زوجاتكم اللائى آثرن الكفر على الإيمان ، وأبين الهجرة معكم من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وقد بادر المسلمون بعد نزول هذه الآية بتطليق زوجاتهم الكافرات فطلق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - امرأتين له كانتا مشركتين ، وطلق طلحة بن عبيد الله إحدى زوجاته وكانت مشركة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٦٥ .

وهذه الجملة الكريمة تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر من الأحكام التى تدل على عدالة الإسلام فى تشريعاته فقال : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ .

أى : كما أنى شرعت لكم أن تعطوا الأزواج المشركين ، مهور نسائهم المسلمات اللائى فررن إليكم ، وتركن أزواجهن الكفار ، فكذلك شرعت لكم أن تطلبوا مهور نسائكم المشركات اللائى انفصلتم عنهن لكفرهن ، ولحقن بهؤلاء المشركين ، وليطلب المشركون منكم مهور نسائهم المؤمنات اللائى انفصلن عنهم وهاجرن إليكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة ببيان أن هذه الأحكام ، إنما هى من الله - تعالى - العليم بأحوال النفوس ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، فقال : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾ .

أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من تشريعات تتعلق بالمؤمنات المهاجرات هى أحكام من الله - تعالى - فاتبعوها ، فهو - سبحانه - صاحب الحكم المطلق بينكم ، وهو - سبحانه - عليم بأحوال عباده ، حكيم فى كل تصرفاته وتشريعاته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ بيان لحكم آخر يتعلق بالنساء اللائى التحقن بالمشركين ، وتركن أزواجهن المسلمين ، وأبى المشركون أن يدفعوا للمسلمين مهور هؤلاء الزوجات .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ .

وقد ذكروا أن المسلمين لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات .. ﴾ الآية . كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية .

فامتنع المشركون عن دفع مهور النساء اللائى ذهبن إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله - تعالى - : ﴿ وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾[1] .

قال ابن كثير : أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى انفقوها

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٦٨ .

على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله - تعالى - للمؤمنين به ، ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ الآية[1] .

وقوله ﴿ فاتكم ﴾ من الفَوْتِ بمعنى الفراق والترك والهرب .. يقال : فاتنى هذا الشيء ، إذا لم أتمكن من الحصول عليه ، وعدى بحرف إلى لتضمنه معنى الفرار .

ولفظ « شيء » هنا المراد به بعض ، وقوله : ﴿ من أزواجكم ﴾ بيان للفظ شيء .

وقوله : ﴿ فعاقبتم ﴾ يرى بعضهم أنه من العقوبة .

وعليه يكون المعنى : وإن تفلتت وفرت امرأة من أزواجكم - أيها المؤمنون - إلى الكفار ، وامتنعوا عن دفع مهرها لكم . ﴿ فعاقبتم ﴾ أى : فغزوتم أنتم بعد ذلك هؤلاء الكافرين وانتصرتم عليهم وظفرتم بمغانم منهم .

﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ﴾ منكم إلى الكفار من هذه المغانم ﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ أى : مثل المهور التى أنفقوها على زوجاتهم اللائى فررن إلى المشركين .

ويرى بعضهم أن قوله ﴿ فعاقبتم ﴾ صيغة تفاعل من العُقْبة - بضم العين وسكون القاف وهى النوبة ، بمعنى أن يصير الإنسان فى حالة تشبه حالة غيره .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فعاقبتم ﴾ من العُقْبةِ لا من العقاب ، وهى فى الأصل النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده : أى : فجاءت عقبتكم أى نوبتكم من أداء المهر .

شبه الحكم بالأداء المذكور ، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب .

وحاصل المعنى : إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار ، أوفاتكم شيء من مهورهن .

﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ، ولا تعطوا شيئا لزوجها الكافر ، ليكون قصاصا [2] .

وعبر عن هؤلاء الزوجات اللائى تركن أزواجهن المؤمنين ، وفررن إلى المشركين ، بلفظ « شيء » لتحقير هؤلاء الزوجات ، وتهوين أمرهن على المسلمين ، وبيان أنهن بمنزلة الشيء الضائع المفقود الذى لا قيمة له .

قال صاحب الكشاف : وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٢١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٧٩ .

وقد أعطى الرسول - ﷺ - المؤمنين مهور نسائهم - اللاحقات بالمشركين - من الغنيمة[١] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ أى : واتقوا الله - تعالى - أيها المؤمنون - فى كل شئونكم ، ونفذوا ما أمركم به أو نهاكم عنه ، فإن الإيمان الحق به - عز وجل - يستلزم منكم ذلك .

فالمقصود بهذا التذييل ، الحض على الوفاء بما أمر الله - تعالى - به ، بدون تهاون أو تقاعس .

وبعد أن بين - سبحانه - حكم النساء المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أتبع ذلك بأمر النبى - ﷺ - بمبايعتهن وغيرهن على عدم الإشراك بالله تعالى - ، وعلى اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فهذه الآية الكريمة ، اشتملت على أحكام متممة للأحكام المشتملة عليها الآيتان السابقتان عليها .

فكأن الله - تعالى - يقول : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن - الله أعلم بإيمانهن - فإن علمتموهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ .. وبايعهن أيها الرسول الكريم على إخلاص العبادة لله - تعالى - .

قال القرطبى ما ملخصه : وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله - ﷺ - يمتحن بهذه الآية .. وكان رسول الله - ﷺ - إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن رسول الله - ﷺ - : « انطلقن فقد بايعتكن » .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥١٩ .

ولا والله ما مست يَدُ رسول الله - ﷺ - يَدَ امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام .. وما مست كف رسول الله - ﷺ - كف امرأة قط ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : « قد بايعتكن كلاما »(١) .

والمعنى : ﴿ يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ أى : مبايعات لك ، أو قاصدات مبايعتك ، ومعاهدتك على الطاعة لما تأمرهن به ، أو تنهاهن عنه .

وأصل المبايعة : مقابلة شىء بشىء على سبيل المعاوضة . وسميت المعاهدة مبايعة ، تشبيها لها بها ، فإن الناس إذا التزموا قبول ما شرط عليهم من التكاليف الشرعية ، - طمعا فى الثواب ، وخوفا من العقاب ، وضمن لهم - ﷺ - ذلك فى مقابلة وفائهم بالعهد - صار كأن كل واحد منهم باع ما عنده فى مقابل ما عند الآخر .

والمقتضى لهذه المبايعة بعد الامتحان لهن ، أنهن دخلن فى الإسلام ، بعد أن شرع الله - تعالى - ما شرع من أحكام وآداب .. فكان من المناسب أن يأخذ النبى - ﷺ - عليهن العهود ، بأن يلتزمن بالتكاليف التى كلفهن الله - تعالى - بها .

ثم بين - سبحانه - ما تمت عليه المبايعة فقال : ﴿ على أن لا يشركن بالله شيئا ﴾ أى : يبايعنك ويعاهدنك على عدم الإشراك بالله - تعالى - فى أى أمر من الأمور التى تتعلق بالعقيدة أو بالعبادة أو بغيرهما .

﴿ ولا يسرقن ولا يزنين ﴾ . أى ويبايعنك - أيضا - على عدم ارتكاب فاحشة السرقة ، أو فاحشة الزنا ، فإنهما من الكبائر التى نهى الله - تعالى - عنها .

﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ أى : ويبايعنك كذلك ، على عدم قتلهن لأولادهن .

والمراد به هنا : النهى عن قتل البنات ، وكان ذلك فى الجاهلية يقع تارة من الرجال ، وأخرى من النساء ، فكانت المرأة إذا حانت ولادتها حفرت حفرة ، فولدت بجانبها ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة ، وسوتها بالتراب ، وإذا ولدت غلاما أبقته .

قال ابن كثير : وقوله ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لئلاتحبل ، إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه(٢) .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٧١ . وتفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٢٦ .

وقوله : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ معطوف على ما قبله وداخل تحت النهى .

والبهتان : الخبر الكاذب الصريح فى كذبه ، والذى يجعل من قيل فيه يقف مبهوتا ومتحيرا من شدة أثر هذا الكذب السافر .

والافتراء : اختلاق الكذب واختراع الشخص له من عند نفسه .

وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال،منها : أن المرأة فى الجاهلية كانت تلتقط المولود وتقول لزوجها : هذا ولدى منك ، فذلك هو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، لأن الولد إذا وضعته الأم ، سقط بين يديها ورجليها .

ويرى بعضهم أن معنى الجملة الكريمة : ولا تأتوا بكذب شنيع تختلقونه من جهة أنفسكم ، فاليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما ، ولذا قيل لمن ارتكب جناية قولية أو فعلية : هذا جزاء ما كسبت يداك[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ من الأقوال الجامعة لكل ما يخبر به النبى - ﷺ - ويأمر بفعله ، أو ينهى عن الاقتراب منه .

ويشمل ذلك النهى عن شق الجيوب ، ولطم الخدود ، ودعوى الجاهلية وغير ذلك من المنكرات التى نهى الإسلام عنها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فبايعهن واستغفر لهن الله ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ التى فى أول الآية .

أى : إذا جاءك المؤمنات قاصدات لمبايعتك على الالتزام بتعاليم الإسلام ، فبايعهن على ذلك .. واستغفر لهن الله - تعالى - عما فرط منهن من ذنوب . ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى : إن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وهذه المبايعة يبدو أنها وقعت منه - ﷺ - للنساء أكثر من مرة : إذ منها ما وقع فى أعقاب صلح الحديبية ، بعد أن جاءه بعض النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر الى دار الإسلام ، كما حدث من أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، ومن سُبَيْعَةَ الأسلمية ، ومن أميمة بنت بشر ، ومن غيرهن من النساء اللائى تركن أزواجهن الكفار ، وهاجرن إلى دار الإسلام .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٨٠ .

ومنها ما وقع فى أعقاب فتح مكة ، فقد جاء إليه - ﷺ - بعد فتحها نساء من أهلها ليبايعنه على الإسلام .

قال الآلوسى : والمبايعة وقعت غير مرة ، ووقعت فى مكة بعد الفتح ، وفى المدينة .

وممن بايعنه - ﷺ - فى مكة ، هند بنت عتبة ، زوج أبى سفيان .. فقرأ عليهن - ﷺ - الآية ، فلما قال . ﴿ ولا يسرقن ﴾ قالت : والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان ولا أدرى أيحل لى ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى فهو حلال لك .. فلما قرأ - ﷺ - ﴿ ولا يزنين ﴾ قالت : أو تزنى الحرة ؟..

فلما قرأ ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا . وفى رواية أنها قالت : قتلتَ الآباء وتوصينا بالأولاد .

فلما قرأ - ﷺ - : ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ قالت : والله إن البهتان لقبيح ، ولا يأمر الله - تعالى - إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فلما قرأ ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ قالت : والله ماجلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء .

والتقييد بالمعروف ، مع أن الرسول - ﷺ - لا يأمر إلا به ، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق .

وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر فى حقهن ، لكثرة وقوعها فيما بينهن[1] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير ، جملة من الأحاديث التى تدل على أن هذه البيعة قد تمت فى أوقات متعددة ، وفى أماكن مختلفة ، وأنها شملت الرجال والنساء .

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - إحدى نساء بنى عدى بن النجار - قالت : جئت رسول الله - ﷺ - نبايعه ، فى نسوة من الأنصار ، فشرط علينا : ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف .. ثم قال - ﷺ - « ولا تغششن أزواجكن » . قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا .

فقلت لامرأة منهن : ارجعى إلى رسول الله - ﷺ - فسليه : ما غش أزواجنا ؟ فسألته فقال : « تأخذ ماله فتحابى به غيره » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٨١ .

وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله - ﷺ - فى مجلس فقال : با يعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم .. فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه(١) .

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بنداء للمؤمنين ، نهاهم فيه عن موالاة أعدائه وأعدائهم ، اختتمها - أيضا - بنداء لهم ، نهاهم فيه مرة أخرى عن مصافاة قوم قد غضب الله عليهم ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

والمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : المشركون ، بصفة عامة ، ويدخل فيهم دخولا أوليا اليهود ، لأن هذا الوصف كثيرا ما يطلق عليهم .

فقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن قوما من فقراء المؤمنين ، كانوا يواصلون اليهود . ليصيبوا من ثمارهم ، وربما أخبروهم عن شىء من أخبار المسلمين ، فنزلت الآية لتنهاهم عن ذلك .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ينهاكم الله - تعالى - عن أن تتخذوا الأقوام الذين غضب الله عليهم أولياء ، وأصفياء ، بأن تفشوا إليهم أسرار المسلمين ، أو بأن تطلعوهم على مالا يصح الاطلاع عليه .

وقوله - تعالى - : ﴿ قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ تعليل للنهى عن موالاتهم ، وتنفير من الركون إليهم .

واليأس : فقدان الأمل فى الحصول على الشىء ، أو فى توقع حدوثه .

والكلام على حذف مضاف ، أى قد يئس هؤلاء اليهود من العمل للآخرة وما فيها من ثواب ، وآثروا عليها الحياة الفانية .. كما يئس الكفار من عودة موتاهم إلى الحياة مرة أخرى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٢٤ .

للحساب والجزاء ، لاعتقادهم بأنه لا بعث بعد الموت ، ولا ثواب ولا عقاب - كما حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ﴿ وقالوا أئذامتنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ .

فالمقصود من الآية الكريمة ، تشبيه حال هؤلاء اليهود فى شدة إعراضهم عن العمل للآخرة .. بحال أولئك الكفار الذين أنكروا إنكارا تاما ، أن هناك بعثا للأموات الذين فارقوا الحياة ، ودفنوا فى قبورهم .

وعلى هذا الوجه يكون قوله - تعالى - : ﴿ من أصحاب القبور ﴾ متعلق بقوله ﴿ يئسوا ﴾ و﴿ من ﴾ لا بتداء الغاية .

ويصح أن يكون قوله - تعالى - : ﴿ من أصحاب القبور ﴾ بيانا للكفار ، فيكون المعنى : قد يئسوا من الآخرة ، وما فيها من جزاء .. كما يئس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور ، من أن ينالوا شيئا - ولو قليلا - من الرحمة ، أو تخفيف العذاب عنهم ، أو العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا غير الذى أرداهم وأهلكهم .

وعلى كلا القولين ، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة قوم غضب الله عليهم ، بأبلغ أسلوب ، وأحكم بيان .

حيث وصفت هؤلاء القوم ، بأنهم قد أحاط بهم غضب الله - تعالى - بسبب فسوقهم عن أمره ، وإعراضهم عن طاعته ، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء .

وبعد فهذا تفسير لسورة « الممتحنة » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح السبت : ٢ من رمضان ١٤٠٦ هـ
١٠ من مايو ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ الصَّفِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الصف » من السور المدنية الخالصة ، وقد اشتهرت بهذا الاسم منذ عهد النبوة .

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتى رسول الله - ﷺ - فيسأله عن أحب الأعمال إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل إلينا رسول الله - ﷺ - رجلا ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها[1] .

قال الآلوسى : وتسمى - أيضا - سورة الحواريين ، وسورة عيسى - عليه السلام - .

وعدد آياتها أربع عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « التغابن » وقبل سورة « الفتح » .

٢ - وقد افتتحت بتسبيح الله - تعالى - عن كل مالا يليق به ، ثم وجهت نداء إلى المؤمنين نهتهم فيه أن يقولوا قولا لم تطابقه أفعالهم ، فقال - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانبا مما قاله موسى - عليه السلام - لقومه ، وما قاله عيسى - عليه السلام - لقومه ، أتبع ذلك ببيان ما جبل عليه الكافرون من كذب على الحق ومن كراهية لظهور نوره ، فقال - تعالى - ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب . وهو يدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

٣ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، دعاهم فيه - بأبلغ أسلوب - إلى الجهاد فى سبيله ، بالأنفس والأموال،وحضهم على أن يقتدوا بالحواريين فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ١٣١ .

٤ - وهكذا نجد السورة الكريمة تفتتح بتنزيه الله - تعالى - عن كل نقص ، وتنهى عن أن تكون الأقوال مخالفة للأفعال ، وتبشر الذين يجاهدون فى سبيل الله - تعالى - بمحبته ورضوانه ، وتذم الذين آذوا رسل الله - تعالى - وأنكروا نبوتهم بعد أن جاءوهم بالبينات ، وترشد إلى التجارة الرابحة التى توصل إلى الفوز العظيم .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر　　　　　　د . محمد سيد طنطاوى

٢ من رمضان ١٤٠٦ هـ ١٠ / ٥ / ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله تعالى :-

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾

افتتحت سورة « الصف » - كما افتتحت قبلها سورة الحديد والحشر بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق به .

أى : نزه الله - تعالى - وقدسه ، جميع ما فى السموات وجميع ما فى الأرض من مخلوقات ، وهو - عز وجل - ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿ الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله .

ثم وجه - سبحانه - نداء الى المؤمنين فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنه قال : كان أناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنا أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه ، إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به .

فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فنزلت هذه الآيات .

وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون : قتَلْنَا ، ضرَبْنَا ، طَعَنَّا ، وفعَلْنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك[1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ لم تقولون ﴾ للانكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان قولا لا يؤيده فعله ، لأن هذا القول إما أن يكون كذبا ، وإما أن يكون خلفا للوعد ، وكلاهما يبغضه الله - تعالى - .

و ﴿ لِمَ ﴾ مركبة من اللام الجارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر ، تخفيفا لكثرة استعمالها معا ، كما فى قولهم : بِمَ ، وفِيمَ ، وعَمَّ .

أى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر .. لماذا تقولون قولا ، تخالفه أفعالكم ، بأن تزعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه ، فلما كلفتم به قصرتم فيه ، أو أن تقولوا بأنكم فعلتم كذا وكذا ، مع أنكم لم تفعلوا ذلك .

وناداهم بصفة الإيمان الحق ، لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، وللتعريض بهم ، إذ من شأن الإيمان الحق أن يحمل المؤمن على أن يكون قوله مطابقا لفعله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ بيان للآثار السيئة التى تترتب على القول الذى يخالفه الفعل .

وقوله : ﴿ كبر ﴾ بمعنى عظم ، لأن الشىء الكبير ، لا يوصف بهذا الوصف ، إلا إذا كان فيه كثرة وشدة فى نوعه .

والمقت : البغض الشديد ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾ ، وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل : للإشعار بأن قولهم هذا مقت خالص لا تشوبه شائبة من الرضا .

أى : كبر وعظم المقت الناشىء عن قولكم قولا لا تطابقه أفعالكم .

وقال - سبحانه - : ﴿ كبر مقتا عند الله ﴾ للإشعار بشناعة هذا البغض من الله - تعالى - لهم ، بسبب مخالفة قولهم لفعلهم ، لأنه إذا كانت هذه الصفة عظيمة الشناعة عند الله ، فعلى كل عاقل أن يجتنبها ، ويبتعد عنها .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وهذا من أفصح الكلام وأبلغه فى معناه . وقصد فى « كَبُرَ » التعجب من غير لفظه ... ومعنى التعجب : تعظيم

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٣٢ .

الأمر فى قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شىء خارج عن نظائره وأشكاله .

وأُسْنِد إلى ﴿ أن تقولوا ﴾ ونُصِب ﴿ مقتا ﴾ على التمييز ، للدلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لاشوب فيه ، لفَرْط تمكن المقت منه . واختير لفظ المقت ، لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه قيل : نكاح المقت - وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه - .

وإذا ثبت كِبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته ، وانزاحت عنه الشكوك ..[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذم الذين يقولون مالا يفعلون ذما شديدا ، ويندرج تحت هذا الذم ، الكذب فى القول ، والخلف فى الوعد ، وحب الشخص للثناء دون أن يكون قد قدم عملا يستحق من أجله الثناء .

وبعد أن وبخ - سبحانه - الذين يقولون مالا يفعلون ، أتبع ذلك ببيان من يحبهم الله - تعالى - فقال : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ .

ومحبة الله - تعالى - لشخص ، معناها : رضاه عنه ، وإكرامه له .

والصف يطلق على الأشياء التى تكون منتظمة فى مظهرها ، متناسقة فى أماكنها ، والمرصوص : هو المتلاصق الذى انضم بعضه إلى بعض . يقال : رصصت البناء ، إذا ألزقت بعضه ببعض حتى صار كالقطعة الواحدة .

والمعنى : أن الله - تعالى - يحب الذين يقاتلون فى سبيل إعلاء دينه قتالا شديدا ، حتى لكأنهم فى ثباتهم ، واجتماع كلمتهم ، وصدق يقينهم .. بنيان قد التصق بعضه ببعض ، فلا يستطيع أحد أن ينفذ من بين صفوفه .

فالمقصود بالآية الكريمة : الثناء على المجاهدين الصادقين ، الذين يثبتون أمام الأعداء وهم يقاتلونهم ، ثباتا لا اضطراب معه ولا تزلزل .

قال الإمام الرازى : أخبر الله - تعالى - أنه يحب من يثبت فى الجهاد ، ويلزم مكانه ، كثبوت البناء المرصوص .

ويجوز أن يكون على أن يستوى أمرهم فى حرب عدوهم ، حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة ، وموالاة بعضهم بعضا ، كالبنيان المرصوص[2] .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٢٣ .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٣٩ .

ثم ساق - سبحانه - جانبا مما قاله موسى - عليه السلام - لقومه . وكيف أنهم عندما انصرفوا عن الحق ، عاقبهم - سبحانه - بما يستحقون من عقاب فقال :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - .

وقد أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه وإلى بنى إسرائيل ، وقد لقى - عليه السلام - من الجميع أذى كثيرا .

ومن ذلك أن فرعون وقومه وصفوه بأنه ساحر ، وبأنه مهين ، ولا يكاد يبين .

وأن بنى إسرائيل قالوا له عندما أمرهم بطاعته : سمعنا وعصينا ، وقالوا له : أرنا الله جهرة وقالوا له : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .. وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .

وقالوا عنه : إنه مصاب فى جسده بالأمراض ، فبرأه الله - تعالى - مما قالوا .

قال ابن كثير : وفى هذا تسلية لرسوله - ﷺ - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وفيه نهى للمؤمنين عن أن ينالوا من النبى - ﷺ - ، أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها ﴾[1] .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليتعظوا ويعتبروا ، وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل الإنكار والتعجيب من حالهم .

﴿ يا قوم لم تؤذوننى ﴾ : قال لهم : يا أهلى ويا عشيرتى لماذا تلحقون الأذى بى ؟ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٣٥ .

« وقد » فى قوله - تعالى - : ﴿ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ﴾ للتحقيق ، والجملة حالية ، وجىء بالمضارع بعد « قد » للدلالة على أن علمهم بصدقه متجدد بتجدد ما يأتيهم به من آيات ومعجزات .

قال الجمل : قوله : ﴿ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ﴾ قد للتحقيق . أى : تحقيق علمهم . أى : لا للتقريب ولا للتقليل ، وفائدة ذكرها التأكيد ، والمضارع بمعنى الماضى .

أى : وقد علمتم ، وعبر بالمضارع ليدل على استصحاب الحال ، وعلى أنها مقررة للإنكار . فإن العلم برسالته يوجب تعظيمه ، ويمنع إيذاءه ؛ لأن من عرف الله - تعالى - وعظمته ، عظّم رسوله[1] .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على إيثارهم الغى على الهدى ، فقال : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ .

والزيغ : هو الميل عن طريق الحق ، يقال : زاغ يزيغ زيغا وزيغانا ، إذا مال عن الجادة ، وأزاغ فلان فلانا ، إذا حوله عن طريق الخير إلى طريق الشر .

أى : فلما أصروا على الميل عن الحق مع علمهم به . واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ فى قلوبهم ... أمال الله - تعالى - قلوبهم عن قبول الهدى . لإيثارهم الباطل على الحق ، والضلالة على الهداية .

كما قال - تعالى - : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ تذييل قصد به التقرير لما قبله ، من أن الزيغ يؤدى إلى عدم الهداية ، وبيان سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من استحب العمى على الهدى ، وأصر على ذلك .. كانت عاقبته الخسران .

أى : وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن لا يهدى القوم الخارجين عن طريق الحق ، إلى ما يسعدهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء ، وأصروا على سلوكها .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٣٦ .
(٢) سورة النساء الآية ١١٥ .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا مما قاله عيسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل ، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

أى : واذكر - أيضا - أيها الرسول الكريم - وذكِّر الناس ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال عيسى ابن مريم ، مخاطبا من أرسله الله إليهم بقوله : ﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ﴾ لكى أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد .

ولم يقل لهم يا قوم - كما قال لهم - موسى - عليه السلام - بل قال : ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ لأنه لا أب له فيهم ، وإن كانت أمه منهم ، والأنساب إنما تكون من جهة الآباء ، لا من جهة الأمهات .

وفى قوله ﴿ إنى رسول الله إليكم ﴾ إخبار صريح منه لهم ، بأنه ليس إلها وليس ابن إله - كما زعموا وإنما هو عبد الله ورسوله .

وقوله ﴿ مصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾ جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته ، وحضهم على تأييده وتصديقه والإيمان به .

أى : إنى رسول الله - تعالى - إليكم بالكتاب الذى أنزله الله علىَّ وهو الإنجيل ، حال كونى مصدقا للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - وهذا الكتاب هو التوراة ، وما دام الأمر كذلك فمن حقى عليكم ، أن تؤمنوا به ، وأن تتبعونى ، لأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على ما يدل على صدقى ، فكيف تعرضون عن دعوتى .

وقوله : ﴿ مصدقا لما بين يدى ﴾ فيه نوع مجاز ، لأن ما بين يدى الإنسان هو ما أمامه ، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واشتهاره . واللام فى « لما » لتقوية العامل ، نحوه قوله - تعالى - ﴿ فعال لما يريد ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ معطوف على ما قبله .

والتبشير : الإخبار بما يسر النفس ويبهجها ، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان ، وكان إخباره بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه أحمد تبشيرا ، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم ، ويرفع الأغلال عنهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ .

ولفظ ﴿ أحمد ﴾ اسم من أسماء نبينا - ﷺ - وهو علم منقول من الصفة ، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل . فيكون معناها : أنه - ﷺ - أكثر حمدا لله - تعالى - من غيره .

ويصح أن تكون من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمده الناس لأجل ما فيه من خصال الخير ، أكثر مما يحمدون غيره .

قال الآلوسى : وهذا الاسم الجليل ، علم لنبينا محمد - ﷺ - وصح من رواية مالك ، والبخارى ، ومسلم .. عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن لى أسماء ؛ أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب »[1] .

وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا محمد - ﷺ - ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة ، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من هذه البشارة ، فبسبب ما اعتراها من تحريف وتبديل على أيدى علماء أهل الكتاب .

ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة فى بعض الأناجيل ، كإنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، قال الإمام الرازى : فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبى ، حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد .

والفارقليط هو روح الحق واليقين[2] .

ومنهم من يرى أن لفظ فارقليط معناه باليونانية : أحمد أو محمد[3] .

ومن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول - ﷺ - موجودة فى التوراة والإنجيل ، قوله - تعالى - ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾[4] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٨٦ .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٣٩ .
(٣) راجع تفسير القاسمى - ١٦ ص ٥٧٨٨ .
(٤) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف الآية ١٥٧ ص ٣٩٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ بيان لموقف بنى إسرائيل الجحودى من أنبياء الله - تعالى - .

والضمير فى قوله ﴿ جاءهم ﴾ يرى بعضهم أنه يعود لعيسى ، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد - ﷺ - أى : فلما جاء عيسى - عليه السلام - أو محمد - ﷺ - إلى بنى إسرائيل بالآيات البينات الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والجحود : هذا سحر واضح فى بابه . لا يخفى على أى ناظر أو متأمل .

ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى - عليه السلام - وكفروا به ، ونسبوا إلى أمه الطاهرة ، ما هى بريئة منه ، ومنزهة عنه .

كما كذبوا محمدا - ﷺ - وكفروا به ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

ووصفوا ما جاء به بأنه سحر مبين ، على سبيل المبالغة فكأنهم يقولون إن ما جاء به هو السحر بعينه ، مع أنهم يعرفون أن ما جاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن ما جبلوا عليه من جحود وعناد ، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين هم أشد الناس ظلما للحق ، وأنه - سبحانه - سيظهره لا محالة ، رضوا بذلك أم كرهوا وأن هذا الدين سيظهره الله - تعالى - على بقية الأديان ، مهما كره الكافرون . فقال - تعالى - :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

والاستفهام فى قوله : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ للإنكار والنفى .

والافتراء : اختلاق الكذب واختراعه من جهة الشخص دون أن يكون له أساس من الصحة ، وقوله : ﴿ وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ جملة حالية .

أى : ولا أحد أشد ظلما من إنسان يختلق الكذب من عند نفسه على دين الله - تعالى - وشريعته ، والحال أن هذا الإنسان يدعوه الداعى إلى الدخول فى دين الإسلام الذى لا يرتضى الله - تعالى - سواه دينا .

﴿ والله ﴾ - تعالى - ﴿ لا يهدى القوم الظالمين ﴾ إلى ما فيه فلاحهم ، لسوء استعدادهم ، وإيثارهم الباطل على الحق .

ثم بين - سبحانه - ما يهدف إليه هؤلاء الظالمون من وراء افترائهم الكذب على الدين الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ .

والمراد بنور الله : دين الإسلام الذى ارتضاه - سبحانه - لعباده دينا ، وبعث به رسوله - ﷺ - وقيل المراد به : حججه الدالة على وحدانيته - تعالى - وقيل المراد به : القرآن .. وهى معان متقاربة .

والمراد بإطفاء نور الله : محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لمن كان على شاكلتهم فى الضلال على محاربته .

والمراد بأفواههم : أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التى تنطق بما لا وزن له من الكلام .

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق ، أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها النبى - ﷺ - عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم ، من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة .

قال صاحب الكشاف : مثّل حالهم فى طلبهم إبطال نبوة النبى - ﷺ - بالتكذيب ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبثق فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه بنفخه ويطمسه[1] .

والجملة الكريمة فيها ما فيها من التهكم والاستهزاء بهؤلاء الكافرين ، حيث شبههم - سبحانه - فى جهالاتهم وغفلتهم ، بحال من يريد إطفاء نور الشمس الوهاج ، بنفخة من فمه الذى لا يستطيع إطفاء ماهو دون ذلك بما لا يحصى من المرات .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٥ .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ بشارة للمؤمنين بأن ما هم عليه من حق ، لابد أن يعم الآفاق .

أى : والله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، متم نوره ، ومظهر دينه ومؤيد نبيه - ﷺ - ولو كره الكافرون ذلك فإن كراهيتهم لظهور دين الله - تعالى - لا أثر لها ولا قيمة . فالآية الكريمة وعد من الله - تعالى - للمؤمنين ، بإظهار دينهم ، وإعلاء كلمتهم ، لكى يزيدهم ذلك ثباتا على ثباتهم ، وقوة على قوتهم .

ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ... ﴾ .

والمراد بالهدى : القرآن الكريم : المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان .

وقوله : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .

والضمير فى « ليظهره » يعود على الدين الحق ، أو على الرسول - ﷺ - أى : هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمدا - ﷺ - بالقرآن الهادى للتى هى أقوم . وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة .

﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك ، فإن كراهيتهم لا أثر لها فى ظهوره ، وفى إعلائه على جميع الأديان .

ولقد أنجز الله - تعالى - وعده ، حيث جعل دين الإسلام ، هو الدين الغالب على جميع الأديان ، بحججه وبراهينه الدالة على أنه الدين الحق الذى لا يحوم حوله باطل .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك ، ومنها : ما ثبت فى الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٩ .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، أرشدهم فيه إلى ما يسعدهم ، وينجيهم من كل سوء ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

وهذه الآيات الكريمة جواب عما قاله بعض المؤمنين لرسول الله - ﷺ - : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناها ، كما سبق . أن ذكرنا فى سبب قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾ .

فكأنه - سبحانه - بعد أن نهاهم عن أن يقولوا قولا ، تخالفه أفعالهم ، وضرب لهم الأمثال بجانب من قصة موسى وعيسى - عليهما السلام - وبشرهم بظهور دينهم على سائر الأديان .

بعد كل ذلك أرشدهم إلى أحب الأعمال إليه - سبحانه - فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾ .

والتجارة فى الأصل معناها : التصرف فى رأس المال ، وتقليبه فى وجوه المعاملات المختلفة ، طلبا للربح .

والمراد بها هنا : العقيدة السليمة ، والأعمال الصالحة ، التى فسرت بها بعد ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل أدلكم ﴾ للتشويق والتحضيض إلى الأمر المدلول عليه .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ألا تريدون أن

أدلكم على تجارة رابحة ، تنجيكم مزاولتها ومباشرتها ، من عذاب شديد الألم ؟ إن كنتم تريدون ذلك ، فهاكم الطريق إليها ، وهى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ .

فقوله - سبحانه - : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ استئناف مفسر وموضح لقوله ﴿ هل أدلكم ﴾ ؟ فكأن سائلا قال : وما هذه التجارة ؟ دلنا عليها ، فكان الجواب : تؤمنون بالله ورسوله .

أى : تداومون مداومة تامة على الإيمان بالله - تعالى - وبرسوله - ﷺ - وتجاهدون فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه بأموالكم وأنفسكم .

قالوا : وقوله ﴿ تؤمنون ﴾ خبر فى معنى الأمر ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله ورسوله ، وجاهدوا فى سبيله .

وفائدة العدول إلى الخبر : الإشعار بأنهم قد امتثلوا لما أرشدوا إليه ، فكأنه - سبحانه - يخبر عن هذا الامتثال الموجود عندهم .

وجاء التعبير بقوله : ﴿ هل أدلكم ﴾ لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التى تحتاج إلى من يهدى إليها ، لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله - تعالى - .

وتنكير لفظ التجارة ، للتهويل والتعظيم ، أى : هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن .. ؟

وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح ، لأنهما يتلاقيان ويتشابهان فى أن كليهما المقصود من ورائه الربح العظيم ، والسعى من أجل الحصول على المنافع .

وقدم - سبحانه - هنا الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس ، لأن المقام مقام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الرابحة عن طريق الجهاد فى سبيل الله ، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال ، وهذه الأموال هى عصب الجهاد ، فعن طريقها تشترى الأسلحة والمعدات التى لا غنى للمجاهدين عنها ، وفى الحديث الشريف « من جهز غازيا فقد غزا » .

وقدم - سبحانه - فى قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. ﴾[1] قدم الأنفس على الأموال ، لأن الحديث هناك ، كان فى معرض الاستبدال والعرض والطلب ، والأخذ والعطاء .. فقدم - سبحانه - الأنفس لأنها أعز ما يملكه الإنسان ، وجعل فى مقابلها الجنة لأنها أعز ما يوهب ، وأسمى ما تتطلع إلى نيله النفوس .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١ .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد . أى : ذلكم الذى أرشدناكم إلى التمسك به من الإيمان والجهاد فى سبيل الله ، هو خير لكم من كل شىء إن كنتم من أهل العلم والفهم .

فقوله ﴿ تعلمون ﴾ منزل منزلة الفعل اللازم ، للإشعار بأن من يخالف ذلك لا يكون لا من أهل العلم ، ولا من أهل الإدراك .

وجعله بعضهم فعلا متعديا ، ومفعوله محذوف ، والتقدير : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم فافعلوه ، ولا تتقاعسوا عن ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ مجزوم على أنه جواب لشرط مقدر ، أى : إن تمتثلوا أمره - تعالى - يغفر لكم ذنوبكم .

ويصح أن يكون مجزوما على أنه جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون ﴾ . لأنهما - كما قلنا - وإن جاءا بلفظ الخبر ، إلا أنهما فى معنى الأمر ، أى : آمنوا وجاهدوا .

أى : آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمته بأموالكم وأنفسكم ، يغفر لكم - سبحانه - ذنوبكم ، بأن يزيلها عنكم ، ويسترها عليكم .

﴿ ويدخلكم ﴾ فضلا عن ذلك ﴿ جنات ﴾ عاليات ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى : تجرى من تحت مساكنها وبساتينها الأنهار .

ويعطيكم ﴿ مساكن طيبة ﴾ أى : قصورا مشتملة على كل ما هو طيب ونافع . وخصت المساكن الطيبة بالذكر ، لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم ، ومنهم من استشهد بعيدا عنها ، وفيها أهله وماله ... فوعدهم - سبحانه - بما هو خير منها .

وقوله ﴿ فى جنات عدن ﴾ أى : هذه المساكن الطيبة كائنة فى جنات باقية خالدة ، لا تزول ولا تنتهى ، بل أصحابها يقيمون فيها إقامة دائمة ، يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام فيه إقامة مؤبدة .

﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أى : ذلك الذى منحناكم إياه من مغفرة لذنوبكم ، ومن خلودكم فى الجنة .. هو الفوزالعظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه ظفر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأخرى تحبونها ﴾ بيان لنعمة أخرى يعطيهم - سبحانه - إياها ، سوى ما تقدم من نعم عظمى .

ولفظ « أخرى » مبتدأ خبره دل عليه ما تقدم ، وقوله : ﴿ تحبونها ﴾ صفة للمبتدأ .

أى : ولكم - فضلا عن كل ما تقدم - نعمة أخرى تحبونها وتتطلعون إليها .

وهذه النعمة هى : ﴿ نصر ﴾ عظيم كائن ﴿ من الله ﴾ - تعالى - لكم ﴿ وفتح قريب ﴾ أى : عاجل ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - المؤمنين بذلك ، حتى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، وحتى تزداد قلوبهم انشراحا وسرورا .

ويدخل فى هذا النصر والفتح القريب دخولا أوليا : فتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن الكريم . الراجعة إلى الإخبار بالغيب ، حيث أخبر - سبحانه - بالنصر والفتح ، فتم ذلك للنبى - ﷺ - ولأصحابه ، فى أكمل صورة ، وأقرب زمن .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء ثالث وجهه إلى المؤمنين ، دعاهم فيه إلى التشبه بالصالحين الصادقين من عباده فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ
قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

والحواريون : جمع حوارى . وهم أنصار عيسى - عليه السلام - الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه ، وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق ، وكانوا اثنى عشر رجلا .

يقال : فلان حوارى فلان ، أى : هو من خاصة أصحابه ، ومنه قول النبى - ﷺ - فى الزبير بن العوام : « لكل نبى حوارى ، وحواريي الزبير » .

وأصل الحور : شدة البياض والصفاء ، ومنه قولهم فى خالص لباب الدقيق : الحوارى ، وفى النساء البيض الحسان : الحواريات والحوريات .

وسمى الله - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بذلك لشدة إخلاصهم له ، وطهارة قلوبهم من الغش والنفاق ، فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص .

والأنصار : جمع نصير ، وهو من ينصر غيره نصرا شديدا مؤزرا .

والمراد بنصر الله - تعالى - : نصر دينه وشريعته ونبيه الذى أرسله بالهدى ، ودين الحق .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : كونوا أنصاراً لله .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان داوموا وواظبوا على أن تكونوا أنصاراً لدين الله فى كل حال ، كما كان الحواريون كذلك ، عندما دعاهم عيسى - عليه السلام - إلى نصرته والوقوف إلى جانبه .

فالكلام محمول على المعنى ، والمقصود منه حض المؤمنين على طاعة الرسول - ﷺ - وعلى الاستجابة التامة لما يدعوهم إليه ، كما فعل الحواريون مع عيسى ، حيث ثبتوا على دينهم ، وصدقوا مع نبيهم ، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى لهم ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ .

قلت التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح ، والمراد كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم : من أنصارى إلى الله .

فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ والذى يطابقه أن يكون المعنى : من جندى متوجها إلى نصرة دين الله [1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه .

وأضافهم - عليه السلام - إليه ، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه .

وقوله : ﴿ إلى الله ﴾ متعلق بأنصارى ، ومعنى « إلى » الانتهاء المجازى .

أى : قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم : مَن الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله - تعالى - فى نصرة دينه ، وفى التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته .. ؟

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٢٨ .

فأجابوه بقولهم : نحن أنصار دين الله - تعالى - ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا فى سبيل تبليغ دعوته - عز وجل - ومن أجل إعلاء كلمته .

وقوله - تعالى - : ﴿ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ مفرع على ما قبله ، لبيان موقف قومه منه .

أى : قال الحواريون لعيسى عندما دعاهم إلى اتباع الحق : نحن أنصار دين الله ، ونحن الذين سنثبت على العهد .. أما بقية بنى إسرائيل فقد افترقوا الى فرقتين : فرقة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند الله - تعالى - ، وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته .

وقوله : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ بيان للنتائج التى تحققت لكل طائفة من الطائفتين : المؤمنين والكافرين .

وقوله : ﴿ ظاهرين ﴾ من الظهور بمعنى الغلبة ، يقال : ظهر فلان على فلان ، إذا تغلب عليه وقهره .

أى : كان من قوم عيسى من آمن به ، ومنهم من كفر به ، فأيدنا وقوينا ونصرنا الذين آمنوا به ، على الذين كفروا به ، فصار المؤمنون ظاهرين ومنتصرين على أعدائهم بفضله - تعالى - ومشيئته .

والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنون فى كل زمان ومكان ، على الإيمان والعمل الصالح ، لأن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم ، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين ، على أعدائهم الكافرين .

قال بعض العلماء : وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين : إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى - عليه السلام - ، هم المسيحيون إطلاقا ، من استقام ، ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله - تعالى - على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا ، كما حدث فى التاريخ .

وإما أن الذين آمنوا : هم الذين أصروا على التوحيد فى وجه المؤلهين لعيسى ، والمثلثين وسائر النحل التى انحرفت عن التوحيد .

ومعنى : أنهم أصبحوا ظاهرين ، أى : بالحجة والبرهان ، أو أن التوحيد الذى هم عليه ، هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير - أى : دين الإسلام - وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض . كما وقع فى التاريخ .

هذا المعنى الأخير هو الأرجح والأقرب فى هذا السياق[1] .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الصف » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر
مساء الخميس ٧ من رمضان سنة ١٤٠٦ هـ
الموافق ١٥ / ٥ / ١٩٨٦ م

(١) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٢٨ ص ٨٩ .

تفسير

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الجمعة » من السور المدنية الخالصة .

قال الآلوسى : هى مدنية ، كما روى عن ابن عباس وابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وإليه ذهب الجمهور .

وقال ابن يسار : هى مكية ، وحكى ذلك عن ابن عباس ومجاهد : والأول هو الصحيح . لما رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : كنا جلوسا عند النبى - ﷺ - حين أنزلت سورة الجمعة ، فتلاها ، فلما بلغ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ...﴾ قال له رجل : يارسول الله - من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع - ﷺ - يده على سلمان الفارسى ، وقال : « والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء ..» .

ومن المعروف أن إسلام أبى هريرة كان بعد الهجرة بمدة بالاتفاق ..[1] .

٢ - وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « التحريم » ، وقبل سورة « التغابن » .

وقد كان النبى - ﷺ - كثيرا ما يقرؤها فى صلاة الجمعة ، فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة « الجمعة والمنافقون » .

وأخرج ابن حيان والبيهقى عن جابر بن سمرة أنه قال : كان رسول الله - ﷺ - يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة بسورة « الكافرون » وبسورة « قل هو الله أحد ...» ، وكان يقرأ فى صلاة العشاء الأخيرة من ليلة الجمعة ، بسورة « الجمعة » ، وبسورة « المنافقون » .. وسميت بهذا الاسم لحديثها عن يوم الجمعة ، وعن وجوب السعى إلى صلاتها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٩٢ .

٣ - وقد اشتملت السورة الكريمة ، على الثناء على الله - عز وجل - ، وعلى مظاهر نعمه على عباده ، حيث أرسل فيهم رسولا كريما ، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ..

كما اشتملت على توبيخ اليهود وذمهم ، لعدم عملهم بالكتاب الذى أنزله - سبحانه - لهدايتهم وإصلاح حالهم ..

كما اشتملت على دعوة المؤمنين ، إلى المحافظة على صلاة الجمعة ، وعلى المبادرة إليها دون أن يشغلهم عنها شاغل .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من المحافظين على فرائضه وتكاليفه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة
٥ من شوال ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/٦/١١ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ
مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ
ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾

افتتحت سورة « الجمعة » كغيرها من أخواتها « المسبحات » بالثناء على الله - تعالى - وببيان أن المخلوقات جميعها ، تسبح بحمده - تعالى - وتقدس له .

والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - عما لا يليق به ، اعتقادا وقولا وعملا مأخوذ من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء ، لأن المسبح لله ، - تعالى - مسرع فى تنزيهه - تعالى - وتبرئته من كل سوء .

وقوله : ﴿ القدوس ﴾ من التقديس بمعنى التعظيم والتطهير وغير ذلك من صفات الكمال .

أى : أن التسبيح : نفى مالا يليق بذاته - تعالى - ، والتقديس : إثبات ما يليق بجلاله - سبحانه - والمعنى : ينزه الله - تعالى - ويبعده عن كل نقص ، جميع ما فى السموات ، وجميع ما فى الأرض من مخلوقات ، فهو - سبحانه - ﴿ الملك ﴾ أى : المدبر لشئون هذا الكون ، المتصرف فيه تصرف المالك فيما يملكه ..

﴿ القدوس ﴾ أى : البليغ فى الطهارة وفى التنزه عن كل نقص ، من القُدْس - بضم القاف وسكون الدال - بمعنى الطهر ، وأصله القَدَس - بفتح القاف والدال - وهو الإناء الذى يكون فيه ما يتطهر به ، ومنه القادوس وهو إناء معروف .

﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿ الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

هذا ، ومن الآيات الكثيرة الداله على أن جميع من فى السموات ومن فى الأرض ، يسبحون لله - تعالى - قوله - عز وجل - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا .. ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على خلقه ، فقال : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ... ﴾ .

وقوله : ﴿ الأميين ﴾ جمع أمى ، وهو صفة لموصوف محذوف . أى : فى الناس أو فى القوم الأميين ، والمراد بهم العرب ، لأن معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة .

وسمى من لا يعرف القراءة والكتابة بالأمى ، لغلبة الأمية عليه ، حتى لكأن حاله بعد تقدمه فى السن ، كحاله يوم ولدته أمه فى عدم معرفته للقراءة والكتابة .

و« من » فى قوله - تعالى - : ﴿ منهم ﴾ للتبعيض ، باعتبار أنه واحد منهم ، ويشاركهم فى بعض صفاتهم وهى الأمية .

وقوله : ﴿ يتلو ... ﴾ من التلاوة ، وهى القراءة المتتابعة المرتلة ، التى يكون بعضها تلو بعض .

وقوله : ﴿ ويزكيهم ﴾ من التزكية بمعنى التطهير والتنقية من السوء والقبائح .

والمراد بالكتاب : القرآن ، والمراد بتعليمه : بيان معانيه وحقائقه ، وشرح أحكامه وأوامره ونواهيه ..

والمراد بالحكمة : العلم النافع ، المصحوب بالعمل الصالح ، وفى وضعها إلى جانب الكتاب إشارة إلى أن المقصود بها السنة النبوية المطهرة ، إذ بالكتاب وبالسنة ، يعرف الناس أصلح الأقوال والأفعال ، وأعدل الأحكام وأقوم الآداب ، وأسمى الفضائل ..

أى : هو - سبحانه - وحده ، الذى ﴿بعث﴾ بفضله وكرمه، ﴿فى﴾ العرب ﴿الأميين رسولا﴾ كريما عظيما ، كائنا ﴿منهم﴾ أى : من جنسهم يعرفون حسبه ونسبه وخلقه .. هذا

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٤ .

الرسول الكريم أرسلناه إليهم ، ليقرأ عليهم آيات الله - تعالى - التى أنزلها عليه لهدايتهم وسعادتهم ، متى آمنوا بها ، وعملوا بما اشتملت عليه من توجيهات سامية ..

وأرسلناه إليهم - أيضا - ليزكيهم ، أى : وليطهرهم من الكفر والقبائح والمنكرات وليعلمهم الكتاب ، بأن يحفظهم إياه ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه .

وليعلمهم - أيضا - الحكمة . أى : العلم النافع المصحوب بالعمل الطيب وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بضمير اسم الجلالة ، لتربية المهابة فى النفوس ، ولتقوية ما اشتملت عليه من نعم وأحكام ، إذ هو - سبحانه - وحده الذى فعل ذلك لا غيره .

وعبر - سبحانه - بفى المفيدة للظرفية فى قوله - تعالى - : ﴿ فى الأميين ﴾ . للإشعار بأن هذا الرسول الكريم الذى أرسله إليهم ، كان مقيما فيهم ، وملازما لهم ، وحريصا على أن يبلغهم رسالة الله - تعالى - فى كل الأوقات والازمان .

والتعبير بقوله : ﴿ منهم ﴾ فيه ما فيه من دعوتهم إلى الإيمان به ، لأن هذا الرسول الكريم ، ليس غريبا عنهم ، بل هو واحد منهم شرفهم من شرفه ، وفضلهم من فضله ..

وهذه الآية الكريمة صريحة فى أن الله - تعالى - قد استجاب دعوة نبيه إبراهيم - عليه السلام - عندما دعاه بقوله : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم .. ﴾[1] .

وقد جاء ترتيب هذه الآية الكريمة وأمثالها فى أسمى درجات البلاغة والحكمة ، لأن أول مراحل تبليغ الرسالة ، يكون بتلاوة القرآن ، ثم ثنى - سبحانه - بتزكيه النفوس من الأرجاس ، ثم ثلث بتعليم الكتاب والحكمة لأنهما يكونان بعد التبليغ والتزكية للنفوس .

ولذا قالوا : إن تعليم الكتاب غير تلاوته ، لأن تلاوته معناها ، قراءته قراءة مرتلة ، أما تعليمه فمعناه : بيان أحكامه ، وشرح ما خفى من ألفاظه وأحكامه ..

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جملة من الصفات الجليلة التى منحها - سبحانه - لنبيه محمد - ﷺ - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس قبل بعثته - ﷺ - فقال : ﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩ .

وهذه الجملة الكريمة فى موضع الحال من قوله : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين ...﴾ و« إن » فى قوله ﴿ وإن كانوا ...﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ..

أى : هو - سبحانه - بفضله وكرمه ، الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، وحالهم أنهم كانوا قبل إرسال هذا الرسول الكريم فيهم ، فى ضلال واضح لا يخفى أمره على عاقل ، ولا يلتبس قبحه على ذى ذوق سليم . وحقا لقد كان الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام ، الذى جاء به النبى - ﷺ - من عند ربه ، فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، من حيث العقائد والعبادات ، والأخلاق والمعاملات ..

فكان من رحمة الله - تعالى - بهم ، أن أرسل فيهم رسوله محمدا - ﷺ - لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .

ثم بين - سبحانه - أن رسالة رسوله محمد - ﷺ - لن يكون نفعها مقصورا على المعاصرين له والذين شاهدوه .. بل سيعم نفعها من سيجيئون من بعدهم ، فقال - تعالى - : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ...﴾ .

وقوله : ﴿ وآخرين ﴾ جمع آخر بمعنى الغير ، والجملة معطوفة على قوله قبل ذلك ﴿ فى الأميين ...﴾ فيكون المعنى :

هو - سبحانه - الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، كما بعثه فى آخرين منهم .

﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ أى : لم يجيئوا بعد ، وهم كل من يأتى بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ...﴾[1] .

أى : وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ياأهل مكة ، ولأنذر به جميع من بلغه هذا الكتاب ، ووصلت إليه دعوته من العرب وغيرهم إلى يوم القيامة ..

وفى الحديث الشريف : « بلغوا عن الله - تعالى - فمن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله » .

وعن محمد بن كعب قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى - ﷺ - ..[2] .

ويصح أن يكون قوله : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ...﴾ معطوف على الضمير المنصوب فى قوله : ﴿ ويعلمهم ...﴾ فيكون المعنى :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٩ .
(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٥٣ .

هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويعلم آخرين منهم ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ أى : لم يجيئوا بعد وسيجيئون ... وهم كل من آمن بالرسول من بعد الصحابة إلى يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ وآخرين ﴾ مجرور عطف على الأميين يعنى : أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين الذين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة .

وقيل : لما نزلت قيل : من هم يارسول الله ، فوضع يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء » .

وقيل : هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة .

ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب فى ﴿ ويعلمهم ﴾ أى يعلمهم ويعلم آخرين ، لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندا إلى أوله ، فكأنه هو الذى تولى كل ما وجد منه ..[1] .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تشير إلى أن دعوة النبى - ﷺ - ستبلغ غير المعاصرين له - ﷺ - وأنهم سيتبعونها ، ويؤمنون بها ، ويدافعون عنها ..

وهذا ما أيده الواقع ، فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا من العرب ومن غير العرب ، ومن أهل المشارق والمغارب ..

فالآية الكريمة تخبر عن معجزة من معجزات القرآن الكريم ، ألا وهى الإخبار عن أمور مستقبلة أيدها الواقع المشاهد .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تذييل المقصود به بيان أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شىء ، وأن حكمته هى أسمى الحكم وأسدها .

أى : وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلب قدرته شىء ، الحكيم فيما يريده ويقدره ويوجده .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ... ﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من كرمه - تعالى - على عباده ، حيث اختص رسوله محمدا - ﷺ - بهذه الرسالة الجامعة لكل خير وبركة ، وحيث وفق من وفق من الأميين وغيرهم ، إلى اتباع هذا الرسول الكريم ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٠ .

أى : ذلك البعث منا لرسولنا محمد - ﷺ - لكى يهدى الناس بإذننا إلى الصراط المستقيم ، هو فضلنا الذى نؤتيه ونخصه لمن نشاء اختصاصه به من عبادنا ..

﴿ والله ﴾ - تعالى - : هو ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ الذى لا يقاربه فضل ، ولا يدانيه كرم .

كما قال - سبحانه - : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة - بعد هذا البيان - لفضل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ، وعلى من أرسله لهدايتهم ، إلى الحديث عن جانب من رذائل اليهود . وأمرت النبى - ﷺ - أن يتحداهم وأن يرد على أكاذيبهم .. فقال - تعالى - :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

والمراد بالمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ...﴾ الصفة والحال ..

والمراد بالذين حملوا التوراة : اليهود الذين كلفهم الله - تعالى - بالعمل بما اشتملت عليه التوراة من هدايات وأحكام وآداب .. ولكنهم نبذوها وتركوا العمل بها ..

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٧٣ و ٧٤ .

والأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير المشتمل على ألوان من العلم النافع ، وسمى بذلك لأنه يسفر ويكشف عما فيه من المعانى المفيدة للمطلع عليها .

والمعنى : حال هؤلاء اليهود الذين أنزل الله - تعالى - عليهم التوراة لهدايتهم .. ولكنهم لم ينتفعوا بها .. كحال الحمار الذى يحمل كتب العلم النافع ، ولكنه لم يستفد من ذلك شيئا ، لأنه لا يفقه شيئا مما يحمله ..

ففى هذا المثل شبه الله - تعالى - اليهود الذين لم ينتفعوا بالتوراة التى فيها الهداية والنور ، بحال الحمار الذين يحمل كتب العلوم النافعة دون أن يستفيد بها .

ووجه الشبه بين الاثنين : هو عدم الانتفاع بما من شأنه أن ينتفع به انتفاعا عظيما ، لسمو قيمته ، وجلال منزلته .

قال صاحب الكشاف : شبه اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا بمنتفعين بآياتها ... بالحمار ، حمل أسفارا ، أى : كتبا كبارا من كتب العلم ، فهو يمشى بها ، ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ، وبئس المثل ..[1] .

وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ذا ما لليهود الذين أعطوا التوراة فلم يعملوا بها ، إن مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .. فهو يحملها حملا حسيا ولا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء . لم يعملوا بمقتضى ما فى التوراة بل أولوه وحرفوه ، فهم أسوأ من الحمار ، لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال - تعالى - : فى آية أخرى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون .. ﴾[2] .

وقال القرطبى : وفى هذا المثل تنبيه من الله - تعالى - لمن حمل الكتاب ، أن يتعلم معانيه ، ويعمل بما فيه ، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود ، قال الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيِّدها ، إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوْساقِه ، أو راح ما فى الغرائر[3]

وعبر - سبحانه - عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله : ﴿ حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾ للإشعار بأن هذا التكليف منه - تعالى - لهم ، كان عهدا مؤكدا عليهم ، حتى لكأنهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه . ولكنهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٣ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٩٤ .

نبذوا هذا العهد ، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال ، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى لقائده ..

ولفظ « ثم » فى قوله ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ للتراخى النسبى ، لأن عدم وفائهم بما عهد إليهم ، أشد عجبا من تحملهم لهذه العهود .

وشبههم ، بالحمار الذى هو مثل فى البلادة والغباء ، لزيادة التشنيع عليهم ، والتقبيح لحالهم ، حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شىء نافع ، - وهو كتاب الله - كما هو شأن الحمار الذى لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشىء النافع والشىء الضار .

وجملة « يحمل أسفارا » فى موضع الحال من الحمار ، أو فى موضع جر على أنها صفة للحمار ، باعتبار أن المقصود به الجنس ، فهو معرفة لفظا ، نكرة معنى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : « يحمل » ما محله ؟ قلت : محله النصب على الحال ، أو الجر على الوصف ، لأن لفظ الحمار هنا ، كلفظ اللئيم فى قول الشاعر : ولقد أمر على اللئيم يسبنى ..[1] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذم هؤلاء اليهود ذما آخر فقال : ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله .. ﴾ .

و﴿ بئس ﴾ فعل ذم ، وفاعله ما بعده وهو قوله : ﴿ مثل القوم ﴾ وقد أغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم ، لحصول العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم - سبحانه - بأنهم قد كذبوا بآياته .

أى : بئس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه - تعالى - .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ تذييل قصد به بيان الأسباب التى أدت إلى عدم توفيق الله - تعالى - لهم إلى الهداية .

أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته ، أن لا يهدى إلى طريق الخير ، من ظلم نفسه ، بأن آثر الغى على الرشد ، والعمى على الهدى ، والشقاوة على السعادة ، لسوء استعداده ، وإنطماس بصيرته .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يتحدى اليهود ، وأن يرد على مزاعمهم ردا يخرس

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٠ .

ألسنتهم ، ويكشف عن أكاذيبهم .. فقال - سبحانه - : ﴿ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ .

قال الآلوسى : وأمر - ﷺ - أن يقول لهم ذلك ، إظهارا لكذبهم ، فإنهم كانوا يقولون : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ ويدعون أن الآخرة خالصة لهم عند الله . .

وروى أنه لما ظهر رسول الله - ﷺ - كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر : إن اتبعتم محمدا أطعناه ، وإن خالفتموه خالفناه . فقالوا - أى : يهود خيبر - : « نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير ابن الله ، ومنا الأنبياء ومتى كانت النبوة فى العرب ؟ نحن أحق بها من محمد - ﷺ - ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت هذه الآيات ..»[1] .

والمقصود بالذين هادوا ، أى : الذين ادعو أنهم على الديانة اليهودية ، يقال : هاد فلان وتَهَوَّدَ . إذا دخل فى اليهودية ، نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب - عليه السلام - ، أو سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل ، من هادَ يَهُود هَوْدًا بمعنى تاب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ...﴾ أى : تبنا إليك .

ومعنى ، أولياء الله .. مقربين منه ، كرماء عليه ، لهم منزلة خاصة عنده - تعالى -

وقوله : ﴿ فتمنوا الموت ...﴾ جواب الشرط ، والتمنى معناه : ارتياح النفس ، ورغبتها القوية فى الحصول على الشىء .

ويستعمل التمنى فى المعنى القائم بالقلب ، بأن تتطلع نفس الشخص إلى الحصول على الشىء . كما يستعمل عن طريق النطق باللسان ، بأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .

وهذا المعنى الثانى هو المراد هنا ، لأن المعنى الكائن فى القلب لا يعلمه أحد سوى الله - تعالى - .

ومعنى الآية الكريمة : قل يامحمد لهؤلاء اليهود الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أولياء الله - تعالى - المقربون إليه من دون سائر خلقه .. قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز والتبكيت - إن كان الأمر كما زعمتم ، فاذكروا أمام الناس بألسنتكم لفظا ، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه ، لكى تظفروا بعد الموت بالمحبة الكاملة من الله ، ولكى تنتقلوا من شقاء الدنيا ومتاعبها إلى النعيم الخالص بعد موتكم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٩٦ .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت .

وافتتحت الآية الكريمة بلفظ ﴿ قل ﴾ للاهتمام بشأن التحدى من الرسول - ﷺ - لهم ، ولبيان أنه أمر من الله - تعالى - وليس للرسول - ﷺ - سوى التنفيذ .

وجىء بإن الشرطية المفيدة للشك ، مع أنهم قد زعموا أنهم أولياء لله فعلا ، للإشعار بأن زعمهم هذا وإن كانوا قد كرروا النطق والتباهى به .. إلا أنه بمنزلة الشىء الذى تلوكه الألسنة ، دون أن يكون له أساس من الواقع ، فهو لوضوح بطلانه صار بمنزلة الشىء الذى يفترض وقوعه افتراضا على سبيل التوبيخ لهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ قل يأيها الذين هادوا ﴾ أى : تهودوا ﴿ إن زعمتم أنكم أولياء لله ﴾ أى : أحباء لله ، ولم يضف - سبحانه - لفظ أولياء إليه ، كما فى قوله : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ..﴾ ليؤذن بالفرق بين مدعى الولاية ، ومن يخصه - تعالى - بها .

وقوله : ﴿ من دون الناس ..﴾ حال من الضمير الراجع إلى اسم ﴿ إن ﴾ أى : متجاوزين عن الناس .

﴿ فتمنوا الموت ﴾ أى : فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة . فإن من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يخلص إليها من هذه الدنيا التى هى دار كدر وتعب ..[1] .

ثم أخبر - سبحانه - عن واقعهم وعن حالتهم المستقبلة فقال : ﴿ ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

أى : أن هؤلاء اليهود لا يتمنى أحدهم الموت أبدا . بسبب ماقدمته أيديهم من آثام ، والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم وظلمهم بل هو - سبحانه - يسجل ذلك عليهم ، ويجازيهم بما يستحقونه من عقاب ..

فالآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ولا يتمنونه ، ولا يستطيعون قبول ما تحداهم به - ﷺ - من طلبهم تمنى الموت ، لعلمهم بأنهم لو أجابوه إلى طلبه ، لحل بهم الموت الذى يكرهونه .

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٩٦ .

وقال ابن جرير : وبلغنا أن النبى - ﷺ - قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ..»[١] .

وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل - لعنه الله - : إن رأيت محمدا عند الكعبة ، لآتينه حتى أطأ عنقه . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : « لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا»[٢] .

وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿ ولا يتمنونه أبدا ﴾ أى : بسبب ماقدموا من الكفر ، وقد قال لهم - ﷺ - : « والذى نفسى بيده لا يقولها أحدٌ منكم إلا غص بريقه » فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله - ﷺ - لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ، وهى إحدى المعجزات - لانها إخبار بالغيب وكانت كما أخبر - .

فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت ؟ قلت : لو تمنوا لنقل ذلك عنهم ، كما نقلت سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام ، أكثر من الذر ، وليس أحد منهم نقل عنه ذلك ..[٣] .

هذا ، ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبى - ﷺ - بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته .. ولا يقدح فى هذه المعجزة ، أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت ، وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى .

والمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ التهديد والوعيد . أى : والله - تعالى - عليم علما تاما بأحوال هؤلاء الظالمين ، وسيعاقبهم العقاب الذى يتناسب مع ظلمهم وبغيهم . فالمراد من العلم لازمه ، وهو الجزاء والحساب ..

وعبر - سبحانه - هنا بقوله : ﴿ ولا يتمنونه ...﴾ وفى سورة البقرة بقوله : ﴿ ولن يتمنوه ...﴾ .

للإشعار بأنهم يكرهون الموت فى الحال وفى المستقبل كراهة شديدة .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٢٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٤ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣١ و جـ ١ ص ٢٢٥ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن يخبرهم بأنهم لا مفر لهم من الموت ، مهما حرصوا على الهروب منه . فقال - تعالى - : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه ، فإنه ملاقيكم ...﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود الذين يكرهون الموت ، ويزعمون أنهم أحباب الله ؟ ..

قل لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت : إن الموت الذى تكرهونه ، وتحرصون على الفرار منه ، لا مهرب لكم منه ، ولا محيص لكم عنه ، فهو نازل بكم إن عاجلا أو آجلا كما قال - سبحانه - ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ...﴾ .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة إخبارهم بأن هلعهم من الموت مهما اشتد لن يفيدهم شيئا ، لأن الموت نازل بهم لا محالة ..

ثم بين - سبحانه - أنهم بعد الموت ، سيجدون الجزاء العادل فقال : ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بماكنتم تعملون ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : إن الموت نازل بكم لا محالة . ثم بعد هلاككم سترجعون إلى الله - تعالى - الذى يعلم السر والعلانية ، والجهر والخفاء ، فيجازيكم على أعمالكم السيئة ، بما تستحقونه من عقاب .

فالمراد بالإنباء عما كانوا يعملونه ، الحساب على ذلك ، والمجازاة عليه .

وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة البقرة :

﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون ﴾[1] .

وبعد هذا التوبيخ والتحدى لليهود الذين زعموا أنهم أولياء لله من دون الناس .. وجه - سبحانه - للمؤمنين نداء أمرهم فيه بالمسارعة إلى أداء فرائضه ونهاهم عن أن تشغلهم دنياهم عن ذكره وطاعته ، فقال - تعالى - :

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة الآية ٩٦ ص ٢١٤ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ
فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ
مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

والمقصود بالنداء فى قوله – سبحانه – : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة ...﴾ جميع المكلفين بها ، الذين يجب عليهم أداؤها ..

وناداهم – سبحانه – بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، ولتحريضهم على المسارعة إليها ، إذ من شأن المؤمن القوى ، أن يكون مطيعا لما يأمره خالقه به .

والمراد بالنداء : الأذان والإعلام بوقت حلولها .

والمقصود بالصلاة المنادى لها هنا : صلاة الجمعة ، بدليل قوله – تعالى – ﴿ من يوم الجمعة ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ للصلاة ﴾ للتعليل ، و﴿ من ﴾ بمعنى فى ، أو للبيان ، أو للتبعيض ، لأن يوم الجمعة زمان ، تقع فيه أعمال ، منها الصلاة المعهودة فيه وهى صلاة الجمعة لأن الأمر بترك البيع خاص بها ، لوجود الخطبة فيها .

وقوله : ﴿ فاسعوا ....﴾ جواب الشرط ، من السعى ، وهو المشى السريع .

والمراد به هنا : المشى المتوسط بوقار وسكينة ، وحسن تهيؤ لصلاة الجمعة ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أى : امشوا إليه بدون إفراط فى السرعة ..

فقد أخرج الستة فى كتبهم عن أبى سلمة من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ – : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

والمراد بذكر الله : الخطبة والصلاة جميعا ، لاشتمالها عليه ، واستظهر بعضهم أن المراد به الصلاة ، وقصره بعضهم على الخطبة ..[١] .

وإنما عبر - سبحانه - بالسعى لتضمنه معنى زائدا على المشى ، وهو الجد والحرص على التبكير ، وعلى توقى التأخير .

والمعنى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، إذا نادى المنادى لأجل الصلاة فى يوم الجمعة ، فامضوا إليها بجد ، وإخلاص نية ، وحرص على الانتفاع بما تسمعونه من خطبة الجمعة ، التى هى لون من ألوان ذكر الله - تعالى - وطاعته .

والأمر فى قوله - سبحانه - : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ..﴾ الظاهر أنه للوجوب ، لأن الأمر يقتضى الوجوب ، ما لم يوجد له صارف عن ذلك ، ولا صارف له هنا .

والمراد من البيع هنا : المعاملة بجميع أنواعها ، فهو يعم البيع والشراء وسائر أنواع المعاملات .

أى : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاخرجوا إليها بحرص وسكينة ووقار . واتركوا المعاملات الدنيوية من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها .

وإنما قال - سبحانه - : ﴿ وذروا البيع ...﴾ لأنه أهم أنواع المعاملات ، فهو من باب التعبير عن الشىء بأهم أجزائه .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من الأمر بالسعى إلى ذكر الله ، متى نودى للصلاة ، وترك الاشتغال بالبيع وما يشبهه .

أى : ذلكم الذى أمرتكم به من السعى إلى ذكر الله عند النداء للصلاة من يوم الجمعة ، ومن ترك أعمالكم الدنيوية .. خير لكم مما يحصل لكم من رزق فى هذه الأوقات ، عن طريق البيع أو الشراء أو غيرهما .

فالمفضل عليه محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، والمفضل هو السعى إلى ذكر الله - تعالى - .

وهذا التفضيل باعتبار أن منافع السعى إلى ذكر الله - تعالى - باقية دائمة ، أما المنافع الدنيوية فهى زائلة فانية ..

وجواب الشرط فى قوله ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ محذوف . أى : إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم ، فاسعوا إلى ذكر الله عند النداء للصلاة ، واتركوا البيع والشراء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٠٢ .

أو إن كنتم من أهل العلم والفقه السليم للأمور ، عرفتم أن امتثال أمر الله - تعالى - بأن تسعوا ، إلى ذكره عند النداء لصلاة الجمعة ، خير لكم من الاشتغال فى هذا الوقت بالبيع والشراء ..

إذ فى هذا الامتثال سعادتكم ونجاتكم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر تيسيره عليهم فى تشريعاته فقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ...﴾ .

أى : فإذا فرغتم من أداء الصلاة وأقمتموها على أكل وجه ، فانتشروا فى الأرض ، وامشوا فى مناكبها ، لأداء أعمالكم التى كنتم قد تركتموها عند النداء للصلاة ، واطلبوا الربح واكتساب المال والرزق ، من فضل الله - تعالى - ومن فيض إنعامه ، والأمر هنا للإباحة ، لأنه وارد بعد حظر ، فهو كقوله - تعالى - : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ...﴾ .

أى : أن الانتشار فى الأرض بعد الصلاة لطلب الرزق ، ليس واجبا عليهم ، إذ طلب الرزق قد يكون فى هذا الوقت ، وقد يكون فى غيره ..

والمقصود من الآية إنما هو تنبيه الناس ، إلى أن لهم فى غير وقت الصلاة ، سعة من الزمن فى طلب الرزق ، وفى الاشتغال بالأمور الدنيوية ، فعليهم أن يسعوا إلى ذكر الله ، إذا ما نودى للصلاة من يوم الجمعة ، وأن يحرصوا على ذلك حرصا تاما ، مصحوبا بالنية الطيبة ، وبالهيئة الحسنة . وبالمضى المبكر إلى المسجد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ تحذير لهم من الانتشار فى الأرض لمصالحهم الدنيوية ، دون أن يعطوا طاعة الله - تعالى - وعبادته ، ما تستحقه من عناية ومواظبة .

أى : إذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض لتحصيل معاشكم ، دون أن يشغلكم ذلك عن الإكثار من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإن الفلاح كل الفلاح فى تقديم ما يتعلق بأمور الدين ، على ما يتعلق بأمور الدنيا ، وفى تفضيل ما يبقى على ما يفنى .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها ترسم للمسلم التوازن السامى ، بين ما يقتضيه دينه ، وما تقتضيه دنياه .

إنها تأمره بالسعى فى الأرض ، ولكن فى غير وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة ، ودون أن يشغله هذا السعى عن الإكثار من ذكر الله ، فإن الفلاح فى الإقبال على الطاعات التى ترضيه - سبحانه - : ومن بين هذه الطاعات أن يكثر الإنسان من ذكر الله - تعالى - ، حتى فى حالة سعيه لتحصيل رزقه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بعتاب يحمل فى طياته ثوب التأديب والإرشاد والتأنيب ، لمن آثر مطالب الدنيا على مطالب الآخرة فقال - تعالى - : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ...﴾ .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يعاتب - تبارك وتعالى - على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة ، التى قدمت المدينة يومئذ ، فقال : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ...﴾ .

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن جابر قال : قدمت عِيرٌ - أى : تجارة - المدينة ، ورسول الله - ﷺ - يخطب يوم الجمعة - فخرج الناس ، وبقى اثنا عشر رجلا ، فنزلت هذه الآية .

وفى رواية عن جابر - أيضا - أنه قال : بينما النبى - ﷺ - يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عير إلى المدينة ، فابتدرها الناس ، حتى لم يبق مع الرسول - ﷺ - إلا اثنا عشر رجلا ، فقال - ﷺ - : « والذى نفسى بيده ، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى نارا » ونزلت هذه الآية ..(١) .

وفى رواية أن الذين بقوا فى المسجد كانوا أربعين ، وأن العير كانت لعبد الرحمن بن عوف ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ..(٢) .

وفى رواية أن الرسول - ﷺ - كان يخطب ، فقدم دحية الكلبى بتجارة له . فتلقاه أهله بالدفوف . فخرج الناس .

و« إذا » فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا رأوا تجارة ...﴾ ظرف للزمان الماضى المجرد عن الشرط ، لأن هذه الآية نزلت على الرسول - ﷺ - بعد أن انفض عنه من انفض وهو يخطب وقوله : ﴿ انفضوا ﴾ من الانفضاض ، بمعنى التفرق . يقال : انفض فلان عن فلان إذا تركه وانصرف عنه ، وهو من الفض ، بمعنى كسر الشىء والتفريق بين أجزائه .

والضمير فى قوله ﴿ إليها ﴾ يعود للتجارة ، وكانت عودته إليها دون اللهو ، لأن الانفضاض كان لها بالأصالة ، والمراد باللهو هنا : فرحهم بمجىء التجارة واستقبالهم لها بالدفوف ، لأنهم كانوا فى حالة شديدة من الفقر وغلاء الأسعار .

والتعبير بأو يشير إلى أن بعض المنفضين قد انفضوا من أجل التجارة ، وأن البعض الآخر قد انفض من أجل اللهو .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٩ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٠٥ .

قال الجمل فى حاشيته : والذى سوغ لهم الخروج وترك الرسول - ﷺ - يخطب ، أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز ، لانقضاء المقصود وهو الصلاة ، لأنه كان - ﷺ - فى أول الإسلام يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين ، فلما وقعت هذه الواقعة ، ونزلت الآية ، قدم الخطبة وأخر الصلاة ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتركوك قائما ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ انفضوا ﴾ والمقصود بها توبيخهم على هذا التصرف ، حيث تركوا رسول الله - ﷺ - واقفا يخطب على المنبر ، وانصرفوا إلى التجارة واللهو .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين ﴾ إرشاد لهم إلى ما هو الأنفع والأبقى والأكرم لهم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين انفضوا عنك وأنت تخطب .. قل لهم : ما عند الله - تعالى - من ثواب ومن عطاء خير من اللهو الذى يشغلكم عن ذكر الله ، ومن التجارة التى تبتغون من ورائها الربح المادى ، والمنافع العاجلة .

والله - تعالى - هو خير الرازقين ، لأنه - سبحانه - هو وحده الذى يقسم الأرزاق ، وهو الذى يعطى ويمنع ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقدمت التجارة على اللهو فى صدر الآية ، لأن رؤيتها كانت الباعث الأعظم على الانفضاض إليها ، وترك الرسول - ﷺ - قائما يخطب على المنبر ، ولم يبق معه إلا عدد قليل من أصحابه .

وأخرت فى آخر الآية وقدم اللهو عليها ، ليكون ذمهم على انفضاضهم أشد وأوجع ، حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - فضل يوم الجمعة ، وفضل صلاة يوم الجمعة ، والتحذير من ترك أدائها .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم . وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : « نحن الآخرون -

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٤٥ .

أى : زمنا - السابقون يوم القيامة قبل غيرهم - ، بيد أنهم - أى : اليهود والنصارى - أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم - أى : تعظيمه - فاختلفوا فيه فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غدا - أى : السبت - والنصارى بعد غد - أى : الأحد - » .

وروى مسلم والنسائى عن ابن عمر أنه سمع النبى - ﷺ - يقول على أعواد منبره : « لينتهين أقوام عن وَدْعِهم الجمعات - أى : تركهم صلاة الجمعة -أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين .. » .

قال القرطبى ما ملخصه : وإنما سميت الجمعة جمعة ، لأنها مشتقة من الجمع حيث يجتمع الناس فيها للصلاة .. وكان يقال ليوم الجمعة : العَرُوبة ..

قال البيهقى : وروينا عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب الزهرى ، أن مصعب بن عمير ، كان أول من جمّع الجمعة بالمدينة للمسلمين ، قبل أن يهاجر إليها الرسول - ﷺ - .

ثم قال القرطبى : وأما أول جمعة جمعها - ﷺ - بأصحابه ، قال أهل السير والتاريخ : قدم رسول الله - ﷺ - مهاجرا حتى نزل بقباء ، على بنى عمرو بن عوف ، يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى - ومن تلك السنة يعد التاريخ - فأقام بقباء إلى يوم الخميس ، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فى بطن وادٍ لهم ، فجمع بهم وخطب ، وهى أول خطبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها : الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ..[1] .

٢ - الآية الكريمة وإن كانت قد أمرت المؤمنين بالسعى إلى صلاة الجمعة عند النداء لها ، إلا أن هناك أحاديث متعددة تحض على التبكير بالحضور إليها ، وبالغسل لها ، وبمس الطيب ، وبالحضور إليها على أحسن حالة ..

ومن تلك الاحاديث مارواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة - أى : كغسل الجنابة - ثم راح إلى المسجد ، فكأنما قرب بدنة - أى : ناقة ضخمة .. ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن - أى له قرون - ومن راح فى الساعة الرابعة

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٩٩ .

فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر تروحهم إلى الجمعات ، الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد » .

وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ، ويلبس من صالح ثيابه ، وإن كان له طيب مس منه .. » .

٣ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ﴿ ... إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع .. ﴾ أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن السعى لأدائها واجب ، وأن ترك ذلك محرم شرعا ..

ومن المعروف بين العلماء أن الأمر يقتضى الوجوب ، ما لم يوجد له صارف ، ولا صارف له هنا ..

قال الإمام القرطبى : فرض الله - تعالى - الجمعة على كل مسلم ، ردا على من يقول : إنها فرض على الكفاية ، ونقل عن بعض الشافعية أنها سنة .

وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ، لقوله - تعالى - : ﴿ ... إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ...﴾ .

وثبت عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « لينتهِينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهم الجُمُعَاتِ أو ليخْتِمَنَّ الله على قلوبهم ثم ليكونُنَّ من الغافلين » .

وهذا حجة واضحة فى وجوب الجمعة وفرضيتها ..[1] .

قال بعض العلماء : جاء فى الآية الكريمة الأمر بالسعى ، والأمر للوجوب فيكون السعى واجبا ، وقد أخذ العلماء من ذلك أن الجمعة فريضة ، لأنه - سبحانه - قد رتب الأمر للذكر على النداء للصلاة ، فأذا كان المراد بالذكر هو الصلاة ، فالدلالة ظاهرة ، لأنه لايكون السعى لشىء واجبا ، حتى يكون ذلك الشىء واجبا .

وأما إذا كان المراد بالذكر الخطبة فقط ، فهو كذلك لأن الخطبة شرط الصلاة ، وقد أمر بالسعى إليه ، والأمر للوجوب ، فإذا وجب السعى للمقصود تبعا ، فما ذلك إلا لأن المقصود بالذات واجب ..

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٠٥ .

كما أن الاشتغال بالبيع أو الشراء وقت النداء محرم ، لأن الأمر للوجوب ، وقال بعضهم : هو مكروه كراهة تحريم ..[١] .

ومما يدل على أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن السعى إليها واجب ، وأن الاشتغال عنها بالبيع أو الشراء محرم ، ما جاء فى الأحاديث من الأمر بالمحافظة عليها ، ومن التحذير من تركها ، ومن ذلك ما رواه أبو داود من حديث أبى الجعد ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها ، طبع الله على قلبه » .

٤ - قوله - تعالى - : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ..﴾ يدل دلالة واضحة ، على سمو شريعة الإسلام ، وعلى سماحتها ويسرها ، وجمعها بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة .

ومع أن هذا الأمر بالانتشار بعد الصلاة للإباحة - كما سبق أن قلنا - إلا أن بعض السلف كان إذا انتهت الصلاة ، خرج من المسجد ، ودار فى السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء أن يصلى .

قال الإمام ابن كثير : كان عراك بن مالك - أحد كبار التابعين - إذا صلى الجمعة ، انصرف فوقف على باب المسجد وقال : اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين ..[٢] .

هذا ، وهناك أحكام أخرى توسع المفسرون والفقهاء فى الحديث عنها ، فليرجع إليها من شاء المزيد من معرفة هذه الأحكام والآداب ..

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الجمعة » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة : مدينة نصر :

صباح الثلاثاء ١٠ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

الموافق ١٩٨٦/٦/١٧ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٥٢ للشيخ محمد على السايس .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٩ .

تفسير

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المنافقون » من السور المدنية الخالصة ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « الحج » ، وقبل سورة « المجادلة »[١] .

وقد عرفت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ، فقد جاء فى حديث زيد بن أرقم - الذى سنذكره خلال تفسيرنا لها - أنه قال : « فلما أصبحنا قرأ رسول الله - ﷺ - سورة المنافقين » .

وقال الآلوسى : أخرج سعيد بن منصور ، والطبرانى فى الأوسط - بسند حسن - عن أبى هريرة ، قال : كان رسول الله - ﷺ - يقرأ فى صلاة الجمعة فى الركعة الأولى بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين ويقرأ فى الركعة الثانية بسورة المنافقين ، فيقرع بها المنافقين .

٢ - والمحققون من العلماء على أن هذه السورة ، نزلت فى غزوة بنى المصطلق ، وقد جاء ذلك فى بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول بعض آياتها ، والتى سنذكرها خلال تفسيرنا لها - بإذن الله - وكانت هذه الغزوة فى السنة الخامسة من الهجرة .

وذكر بعضهم أنها نزلت فى غزوة « تبوك » ، ومما يشهد لضعف هذا القول ، أن المنافقين فى هذا الوقت - وهو السنة التاسعة من الهجرة ، كانوا قد زالت دولتهم ، وضعف شأنهم ، وما كان لواحد منهم أن يقول : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ .

٣ - وسميت هذه السورة بسورة « المنافقون » ، لأنها فضحتهم ، ووصفتهم بما هم أهله من صفات ذميمة ، ومن طباع قبيحة ، ومن مسالك سيئة .. ويكاد حديثها يكون مقصورا عليهم ، وعلى أكاذيبهم ودسائسهم .

وحديث القرآن عن النفاق والمنافقين ، قد ورد فى كثير من السور المدنية ، ففى سورة البقرة نجد حديثا مستفيضا عنهم ، يبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ﴾ .

وفى سورة آل عمران نجد توبيخا من الله - تعالى - لهم ، كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ .

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ للسيوطى .

وفى سورة النساء نجد آيات متعددة تتحدث عن قبائحهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ .

أما سورة « التوبة » فهى أكثر السور حديثا عنهم ، ولذا سميت بالفاضحة لأنها فضحتهم على رءوس الأشهاد ، كما سميت بالمنقرة ، لأنها نقرت عما فى قلوبهم ، وكشفت عنه ، كما سميت بالمبعثرة لأنها بعثرت أسرارهم ..[1] .

والحق أنه لا تكاد تخلو سورة من السور المدنية ، من الحديث عن المنافقين وعن سوء سلوكهم وأخلاقهم . ووجوب ابتعاد المؤمنين عنهم .

٤ - والنفاق إنما يظهر ويفشو حيث تكون القوة ، لذا لم يكن للمنافقين أثر فى العهد المكى ، لأن المؤمنين كانوا قلة مستضعفين فى الأرض ، ومن كان هذا شأنه لا ينافقه الناس ، فضلا عن أن مشركى مكة كانوا بطبيعتهم جبابرة ، وكانوا يعلنون حربهم على الدعوة الإسلامية إعلانا سافرا . لا التواء معه ولا مداهنة .

أما المؤمنون فى العهد المدنى ، فقد كانوا أقوياء خصوصا بعد أن أسسوا دولتهم ، وانتصروا على المشركين فى غزوة بدر .. كما انتصروا على اليهود .. فظهرت حركة النفاق فى المدينة ، لمداهنة المؤمنين ، وللحصول على نصيبهم من الغنائم التى يغنمها المؤمنون .. ولغير ذلك من الأسباب التى ذكرها العلماء والمؤرخون ..[2] .

وسورة « المنافقون » فضحت أحوالهم ، وكشفت عن دخائلهم وعن خسة نفوسهم .. وختمت بموعظة المؤمنين ، وبحثهم على الإنفاق فى سبيل الله ، وعلى تقديم العمل الصالح ، الذى ينفعهم فى دنياهم وفى آخرتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الثلاثاء : ١٠ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦/٦/١٧ م

د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) راجع مقدمة تفسيرنا لسورة التوبة .

(٢) راجع على سبيل المثال كتاب : (سيرة الرسول - ﷺ -) جـ ٢ ص ١٧٦ للأستاذ محمد عزت دروزة .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)

افتتح الله - تعالى - السورة الكريمة ، بالحديث عن صفة من أبرز الصفات الذميمة للمنافقين ، ألا وهى صفة الكذب والخداع ، فقال - تعالى - ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ...﴾ .

و﴿ إذا ﴾ هنا ظرف للزمان الماضى ، بقرينة كون جملتيها ماضيتين ، وجواب « إذا » قوله ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله ... ﴾ والخطاب للرسول - ﷺ - .

و﴿ المنافقون ﴾ جمع منافق ، وهو من يظهر الإسلام ويخفى الكفر ، أو من يظهر خلاف ما يبطن من أقوال وأفعال .

أى : إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة .. نشهد أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

وعبروا عن التظاهر بتصديقهم له - ﷺ - بقولهم ﴿ نشهد ﴾ - المأخوذ من الشهادة التى هى إخبار عن أمر مقطوع به - وأكدوا هذه الشهادة بإنّ واللام ، للإيهام بأن شهادتهم صادقة ، وأنهم لا يقصدون بها إلا وجه الحق ، وأن ما على ألسنتهم يوافق ما فى قلوبهم .

قال الشوكانى : أكدوا شهادتهم بإنّ واللام ، للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم ، مع خلوص نياتهم ، والمراد بالمنافقين ، عبد الله بن أبيّ وأتباعه .

ومعنى نشهد : نحلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذا يتلقى بما يتلقى به القسم ..

ومثل نشهد : نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم كما فى قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتين منيتى إن المنايا لا تطيش سهامها[1]

وقوله : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، من كونه - ﷺ - رسول من عند الله - تعالى - حقا .

وجملة : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ قالوا نشهد ﴾ .

أى : إذا حضر المنافقون إليك - أيها الرسول الكريم - قالوا كذبا وخداعا : نشهد إنك لرسول الله ، والله - تعالى - ﴿ يعلم إنك لرسوله ﴾ حقا سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا ، فأنت لست فى حاجة إلى هذه الشهادة التى تخالف بواطنهم .

﴿ والله ﴾ - تعالى - ﴿ يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة ، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذى جئت به .

والإيمان الحق لا يتم إلا إذا كان ما ينطق به اللسان ، يوافق ويواطئ . ما أضمره القلب ، وهؤلاء قد قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فثبت كذبهم فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى : فائدة فى قوله - تعالى - : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ؟ قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ليميط هذا الإيهام ..[2] .

وجيء بالفعل ﴿ يشهد ﴾ فى الإخبار عن كذبهم فيما قالوه ، للمشاكلة ، حتى يكون إبطال خبرهم مساويا لإخبارهم ولما نطقوا به .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٨ .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الوسائل التى كانوا يستعملونها لكى يصدقهم من يسمعهم فقال - تعالى - : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ ..

والأيمان : - بفتح الهمزة - جمع يمين ، والجُنَّة - بضم الجيم - ما يستتر به المقاتل ليتقى ضربات السيوف والرماح والنبال ..

أى : أن هؤلاء المنافقين إذا ظهر كذبهم ، أو إذا جوبهوا بما يدل على كفرهم ونفاقهم ، أقسموا ، بالأيمان المغلظة بأنهم ما قالوا أو فعلوا ما يسىء إلى النبى - ﷺ - أو إلى المؤمنين ..

فهم يستترون بالحلف الكاذب ، حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين ، كما يستتر المقاتل بترسه من الضربات .

وقد حكى القرآن كثيرا من أيمانهم الكاذبة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ...﴾[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾[3] .

قال الآلوسى : قال قتادة : كلما ظهر شىء منهم يوجب مؤاخذتهم ، حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم ..[4] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فصدوا عن سبيل الله ...﴾ للتفريع على ما تقدم .

أى : اتخذوا أيمانهم الفاجرة ذريعة أمام المؤمنين لكى يصدقوهم ، فتمكنوا عن طريق هذه الأيمان الكاذبة ، من صد بعض الناس عن الصراط المستقيم ، ومن تشكيكهم فى صحة ما جاء به النبى - ﷺ - .

فهم قد جمعوا بين رذيلتين كبيرتين : إحداهما : تَعَمُّد الأيمان الكاذبة ، والثانية : إعراضهم عن الحق ، ومحاولتهم صرف غيرهم عنه .

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٦ .
(٢) سورة التوبة الآية ٧٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٦٢ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٠٩ .

وقوله – سبحانه – : ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ تذييل قصد به بيان قبح أحوالهم ، وسوء عاقبتهم .

و « ساء » : فعل ماض بمعنى بئس فى إفادة الذم ، و« ما » موصولة والعائد محذوف .

أى : إن هؤلاء المنافقين بئس ما كانوا يقولونه من أقوال كاذبة ، وساء ما كانوا يفعلونه من أفعال قبيحة ، سيكونون بسببها يوم القيامة فى الدرك الأسفل من النار .

واسم الإشارة فى قوله – تعالى – بعد ذلك : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب ، ومن الصد عن سبيل الله ، ومن قبح الأقوال والأفعال .

أى : ذلك الذى ذكر من حالهم الذى دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله ... سببه أنهم ﴿ آمنوا ﴾ أى : نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم ، ثم كفروا ، أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه ، وظهر منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا ، كقولهم : ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ...﴾ وكقولهم للمجاهدين : ﴿ لا تنفروا فى الحر ...﴾ .

﴿ فطبع على قلوبهم ﴾ أى : فختم الله – تعالى – عليها بالكفر نتيجة إصرارهم عليه ، فصاروا ، بحيث لا يصل إليها الإيمان .

﴿ فهم لا يفقهون ﴾ أى : فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا ، ولايشعرون به ، ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم .

وقوله : ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ بأنهم آمنوا ثم كفروا ...﴾ خبر : والباء للسببية .

و﴿ ثم ﴾ للتراخى النسبى ، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح ، وأشد ضررا وقبحا .

قال صاحب الكشاف : فان قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله : ﴿ آمنوا ثم كفروا ﴾ ؟ .

قلت : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : آمنوا : أى نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا . أى : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : إن كان ما يقوله محمد – ﷺ – حقا فنحن حمير ..

والثانى : آمنوا ، أى : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله – تعالى – : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾ .

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم ..[1] .

ثم رسم - سبحانه - لهم بعد ذلك صورة تجعل كل عاقل يستهزئ بهم ، ويحتقرهم ، ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم . فقال - تعالى - : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ﴾ .

قال القرطبى : قال ابن عباس : كان عبد الله بن أبى ، وسيما جسيما صحيحا صبيحا ، ذلق اللسان ، فإذا قال : سمع النبى - ﷺ - مقالته .

وقال الكلبى : المراد ابن أبى ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر ، وفصاحة ..

و﴿ خُشُب ﴾ - بضم الخاء والشين - جمع خَشَبة - بفتحها - كثَمرة وثُمر .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : كأنهم خُشْب - بضم الخاء وسكون الشين - كبَدَنة وبُدْن .

أى : وإذا رأيت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنافقين ، أعجبتك أجسامهم ، لكمالها وحسن تناسقها ، وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق ، لفصاحته ، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته .

وعدى الفعل « تسمع » باللام ، لتضمنه معنى تصغ لقولهم .

وجملة : ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ مستأنفة ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

أى : كأنهم وهم جالسون فى مجلسك ، مستندين على الجدران ، وقد خلت قلوبهم من الخير والإيمان ، كأنهم بهذه الحالة ، مجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة ، التى استندت إلى الحوائط ، دون أن يكون فيها حسن ، أو نفع ، أو عقل .

فهم أجسام تعجب ، وأقوال تغرى بالسماع إليها ، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير ، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة . فهم كما قال القائل :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير

وشبههم - سبحانه - بالخشب المسندة على سبيل الذم لهم ، أى : كأنهم فى عدم الانتفاع بهم ، وخلوهم من الفائدة كالأخشاب المسندة إلى الحوائط الخالية من أية فائدة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٢٤ .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : فإن قلت : ما معنى ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ ؟ .

قلت : شبهوا فى استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحوائط لأن الخشب إذا انتفع به ، كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به ، أسند إلى الحائط ، فشبهوا به فى عدم الانتفاع .

ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب ، المسندة إلى الحيطان ، وشبهوا بها فى حسن صورهم ، وقلة جدواهم ، والخطاب للرسول - ﷺ - أو لكل من يخاطب ..[1] .

فأنت ترى القرآن الكريم وصفهم بتلك الصفة البديعة فى التنفير منهم وعدم الاغترار بمظهرهم لأنهم كما قال القائل :

لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا ... وليس فيه لطالب مطر
فى شجر السرو منهم شبه ... له رواء وماله ثمر

ثم وصفهم - سبحانه - بعد ذلك بالجبن والخور فقال : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ... ﴾ .

والصيحة : المرة من الصياح ، والمراد بها ما ينذر ويخيف أى : يظنون لجبن قلوبهم ولسوء نواياهم ، وخبث نفوسهم - أن كل صوت ينادى به المنادى ، لنشدان ضالة ، أو انفلات دابة .. إنما هو واقع عليهم ضار بهم مهلك لهم ..

قال الآلوسى : قوله : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أى : واقعة عليهم ، ضارة لهم ، لجبنهم وهلعهم .

وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله - تعالى - فيهم ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .

والوقف على « عليهم » الواقع مفعولا ثانيا لـ « يحسبون » وهو وقف تام .

وقوله - تعالى - : ﴿ هم العدو ﴾ استئناف . أى : هم الكاملون فى العداوة ، والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعداء ، العدو المداجى .

﴿ فاحذرهم ﴾ لكونهم أعدى الأعداء ، ولا تغترن بظواهرهم ..[2] .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١١٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ دعاء عليهم بالطرد من رحمة الله - تعالى - ، وتعجيب لكل مخاطب من أحوالهم التى بلغت النهاية فى السوء والقبح .

عن ابن عباس أن معنى ﴿ قاتلهم الله ﴾ طردهم من رحمته ولعنهم ، وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن ..[1] .

و﴿ أنَّى ﴾ بمعنى كيف ، و ﴿ يؤفكون ﴾ بمعنى يصرفون ، من الأفك - بفتح الهمزة والفاء - بمعنى الانصراف عن الشىء .

أى : لعن الله - تعالى - هؤلاء المنافقين ، وطردهم من رحمته ، لأنهم بسبب مسالكهم الخبيثة ، وأفعالهم القبيحة ، وصفاتهم السيئة .. صاروا محل مقت العقلاء ، وعجبهم ، إذ كيف ينصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل الفاضح ، وكيف يتركون النور الساطع ، ويدخلون فى الظلام الدامس ؟!!

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة : قد فضحت المنافقين ، وحذرت من شرورهم ، ووصفتهم بالصفات التى تخزيهم ، وتكشف عن دخائلهم المريضة .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى ، لا تقل فى قبحها وبشاعتها عن سابقتها فقال - تعالى - :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ
خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٣ .

مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، فصلها الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقال ما ملخصه :

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى بن سلول وأتباعه ، فقد ذكر محمد بن إسحاق ، أنه لما قدم النبى - ﷺ - المدينة بعد غزوة أحد ، قام عبد الله بن أبى ، والرسول - ﷺ - يخطب للجمعة ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله - ﷺ - أكرمكم الله به .. فأخذ بعض المسلمين بثيابه من نواحيه وقالوا له : اجلس يا عدو الله ، لست لهذا المقام بأهل ، وقد صنعت ما صنعت - يعنون مرجعه بثلث الناس دون أن يشتركوا فى غزوة أحد - .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْرًا - أى : أمرا منكرا - أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا له : ويلك ، مالك ؟ .. ارجع للنبى يستغفر لك رسول الله - ﷺ - فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

وفى رواية أنه قيل له : لو أتيت رسول الله - ﷺ - ، فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ..

ثم قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - ما ملخصه : وذكر ابن إسحاق فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق - وكانت فى شعبان من السنة الخامسة من الهجرة - أن غلاما لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اسمه الجهجاه بن سعيد الغفارى تزاحم على ماء مع رجل من الأنصار اسمه سنان بن وَبْر ..

فقال سنان : يامعشر الأنصار ، وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبى - وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم - وقال : أو قد فعلوها ؟!! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما مثلنا وجلابيب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل : « سمن كلبك يأكلك » والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل .

فذهب زيد إلى رسول الله - ﷺ - فأخبره الخبر ..

فقال عمر بن الخطاب يارسول الله ، مر عباد بن بشر فليضرب عنق عبدالله بن أبى بن سلول .

فقال - ﷺ - : فكيف إذا الناس تحدث ياعمر ، أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد ياعمر فى الناس بالرحيل .

فلما بلغ عبد الله بن أبى أن ذلك قد بلغ رسول الله - ﷺ - أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال الذى قاله عنه زيد بن أرقم ..

وراح رسول الله - ﷺ - مهجرا فى ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير ، فقال له : يارسول الله ، لقد رحت فى ساعة ما كنت تروح فيها .

فقال رسول الله - ﷺ - أما بلغك ما قال صاحبك بن أبى ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سَيُخْرِجُ الأعزُّ منها الأذلَّ .

فقال أسيد : فأنت يارسول الله العزيز وهو الذليل ..

وإنما خرج رسول الله - ﷺ - فى هذا الوقت الذى لم يتعود السفر فيه ، ليشغل الناس عن الحديث ، الذى كان من عبد الله بن أبى .

قال ابن إسحق : ونزلت سورة المنافقين فى ابن أبيّ وأتباعه ، فلما نزلت أخذ رسول الله - ﷺ - بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذى أوفى الله بأذنه .

وفى رواية أنه - ﷺ - بعث إلى زيد فقرأها عليه ثم قال : «إن الله قد صدقك » ثم قال ابن إسحاق : وبلغنى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى بلغه ما كان من أمر أبيه ، فأتى رسول الله - ﷺ - فقال له : يارسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى .. فإن كنت فاعلا ، فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أرى قاتل أبى يمشى على الأرض فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال - ﷺ - : « بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه قال له : وراءك فقال له أبوه : ويلك مالك ؟ فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله - ﷺ - فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله - ﷺ - وكان يسير فى مؤخرة الجيش شكا إليه عبدالله بن أبى ما فعله ابنه عبد الله معه.

فقال ابنه : والله يارسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله - ﷺ -.

فقال عبد الله لأبيه : أما إذ أذن لك رسول الله - ﷺ - فجز الآن[1].

والآن وبعد ذكر جانب من هذه الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات، نعود إلى تفسيرها فنقول وبالله التوفيق.

قوله - تعالى - : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لووا رءوسهم .. ﴾ بيان لصفة أخرى من صفات المنافقين، تدل على عنادهم وإصرارهم على كفرهم ونفاقهم.

والقائل لهم : ﴿ تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴾ جماعة من المؤمنين، على سبيل النصح لهؤلاء المنافقين لعلهم يقلعون عن كفرهم وفجورهم.

والمراد باستغفار رسول الله - ﷺ - لهم : توبتهم من ذنوبهم، وتركهم لنفاقهم، وإعلان ذلك أمامه - ﷺ - لكى يدعو الله - تعالى - لهم بقبول توبتهم.

وقوله : ﴿ لووا رءوسهم ﴾ من اللى بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر، يقال : لوى فلان رأسه، إذا أمالها وحركها، وهو كناية عن التكبر والإعراض عن النصيحة.

أى : وإذ قال قائل لهؤلاء المنافقين : لقد نزل فى شأنكم ما نزل من الآيات القرآنية التى تفضحكم .. فتوبوا إلى الله توبة نصوحا، وأقلعوا عن نفاقكم، وأقبلوا نحو رسول الله - ﷺ - بقلب سليم، لكى يستغفر الله - تعالى - لكم، بأن يلتمس منه قبول توبتكم .. ما كان من هؤلاء المنافقين، إلا أن تكبروا ولجوا فى طغيانهم، وأمالوا رءوسهم استهزاء وسخرية ممن نصحهم.

﴿ ورأيتهم ﴾ أيها المخاطب ﴿ يصدون ﴾ أى : يعرضون عن النصيحة ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عن قبولها، لانطماس بصائرهم، وإصرارهم على ما هم فيه من باطل وجحود للحق.

قال الآلوسى ما ملخصه : روى أنه لما صدق الله - تعالى - زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبى، مقت الناس ابن أبى، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله - ﷺ - واعترف بذنبك، يستغفر لك، فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأى، وقال لهم : لقد أشرتم على بالإيمان

---

(١) لمعرفة هذه الآثار بالتفصيل راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٨ جـ ٧١، وتفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٥٢.

فآمنت ، وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالى فأعطيت .. ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد - ﷺ - .

وفى حديث أخرجه أحمد والشيخان .. أن رسول الله - ﷺ - دعاهم ليستغفر لهم ، فلووا رءوسهم ..[1] .

وقوله : ﴿ يستغفر لكم ... ﴾ مجزوم فى جواب الأمر ، وهو قوله : ﴿ تعالوا ﴾ وقوله : ﴿ لووا رءوسهم ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ .

والتعبير بقوله : ﴿ تعالوا ﴾ تتضمن إرادة تخليص هؤلاء المنافقين مما هم فيه من ضلال ، وإرادة ارتفاعهم من انحطاط هم فيه إلى علو يدعون إليه ، لأن الأصل فى كله « تعال » أن يقولها من كان فى مكان عال ، لمن هو أسفل منه .

والتعبير بقوله - تعالى - ، ﴿ ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ يرسم صورة بغيضة لهم وهم يتركون دعوة الناصح لهم ، بعناد وتكبر وغرور ، ويراهم الرائى بعينه وهم على تلك الصورة المنكرة ، التى تدل على جهالاتهم وإعراضهم عن كل خير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم .. ﴾ تيئيس له - ﷺ - من إيمانهم ، ومن قبولهم للحق .

ولفظ « سواء » اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به الفاعل . أى : مستو ، ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ... ﴾ أى : مستوية .

أى : إن هؤلاء الراسخين فى الكفر والنفاق ، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك ، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل ، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب .. ولذلك فلن يغفر الله - تعالى - لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ تعليل لانتفاء المغفرة من الله - تعالى - لهم .

أى : لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن لا يهدى إلى طاعته ، وأن لا يشمل بمغفرته ، من فسق عن أمره ، وآثر الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، لسوء استعداده ، واتباعه لخطوات الشيطان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١١٢ .

ينفضوا ...﴾ كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم ، وحكاية لجانب من أقوالهم الفاسدة .. والقائل هو عبد الله بن أبى ، كما جاء فى روايات أسباب النزول لهذه الآيات ، والتى سبق أن ذكرنا بعضها .

ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا ، لأنهم رضوا به ، وقبلوه منه .

ومرادهم بمن عند رسول الله - ﷺ - : المهاجرون الذين تركوا ديارهم فى مكة ، واستقروا بالمدينة .

أى : إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأنهم فسقوا عن أمره ، ومن مظاهر فسوقهم وفجورهم ، أنهم أيدوا زعيمهم فى النفاق ، عندما قال لهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله من فقراء المهاجرين ، ولا تقدموا لأحد منهم عونا أو مساعدة ، حتى ينفضوا من حوله . أى : حتى يتفرقوا من حوله . يقال : انفض القوم : إذا فنيت أزوادهم يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، إذا انتهى زاده . وليس مرادهم حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ، فإذا فعلوا ذلك فانفقوا عليهم . وإنما مرادهم ، استمروا على عدم مساعدتكم لهم ، حتى يتركوا المدينة ، وتكون مسكنا لكم وحدكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ .

والخزائن : جمع خزينة ، وهى ما يخزن فيها المال والطعام وما يشبههما ، والمراد بها أرزاق العباد التى يمنحها الله - تعالى - لعباده .

أى : ولله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ، ملك أرزاق العباد جميعا : فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه ، لجهلهم بقدرة الله - تعالى - ، ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم .

ثم حكى - سبحانه - قولا آخر من أقوالهم القبيحة فقال : ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..﴾ .

والقائل هو عبد الله بن سلول ، ولكن القرآن نسب القول إليهم جميعا لأنهم رضوا بقوله ، ووافقوه عليه .

وجاء الأسلوب بصيغة المضارع ، لاستحضار هذه المقالة السيئة ، وتلك الصورة البغيضة لهؤلاء القوم .

والأعز : هو القوى لعزته ، بمعنى أنه يغلب غيره ، والأذل هو الذى يغلبه غيره لذلته وضعفه .

وأراد عبد الله بن أبى بالأعز ، نفسه ، وشيعته من المنافقين ، وأراد بالأذل ، الرسول - ﷺ - ومن معه من المهاجرين وغيرهم من المؤمنين الصادقين .

والمراد بالرجوع فى قوله ﴿ لئن رجعنا ﴾ الرجوع إلى المدينة بعد انتهاء غزوة بنى المصطلق .

أى : يقول هؤلاء المنافقون - على سبيل التبجح وسوء الأدب - لئن رجعنا إلى المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة ، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة ، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل ، بل تصبح خالية الوجه لنا . وقد رد الله - تعالى - على مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

أى : لقد كذب المنافقون فيما قالوه ، فإن لله - تعالى - وحده العزة المطلقة والقوة التى لا تقهر ، وهى - أيضا - لمن أفاضها عليه من رسله ومن المؤمنين الصادقين ، وهى بعيدة كل البعد عن أولئك المنافقين .

وقال - سبحانه - : ﴿ولرسوله وللمؤمنين ﴾ بإعادة حرف الجر ، لتأكيد أمر هذه العزة ، وأنها متمكنة منهم لأنها مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ استدراك قصد به تجهيل هؤلاء المنافقين ، أى : ليست العزة إلا لله - تعالى - ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لايعلمون ذلك ، ولا يعرفونه لاستيلاء الجهل والغباء عليهم ، لأنهم لو كانت لهم عقول تعقل ، لعلموا أن العزة لدعوة الحق ، بدليل انتشارها فى الآفاق يوما بعد يوم ، وانتصار أصحابها على أعدائهم حينا بعد حين ، وازدياد سلطانهم وقتا بعد وقت .

قال صاحب الكشاف قوله - تعالى - : ﴿ ولله العزة ...﴾ أى : الغلبة والقوة لله - تعالى - ، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ، ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء بذلك ، كما أن المذلة والهوان ، للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أن رجلا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيها ، قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية[1] .

وقال الإمام الرازى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه - لغير الله - فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها فى غير موضعها اللائق بها ، كما

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٣ .

أن الكبر جهل الإنسان بنفسه ، وإنزالها فوق منزلتها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، فالتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة ..[1] .

هذا ، وإن المتدبر لهذه الآيات الكريمة وفى أسباب نزولها ، ليرى فيها ألوانا من العظات والعبر .

يرى فيها التصرف الحكيم من الرسول - ﷺ - إذ أنه - ﷺ - بمجرد أن بلغته تلك الأقوال التى قالها عبدالله بن أبى ، لكى يثير الفتنة بين المسلمين ، ما كان منه إلا أن أمر عمر ابن الخطاب ، بأن ينادى فى الناس بالرحيل .. لكى يشغل الناس عما تفوه به ابن أبى ، حتى لا يقع بينهم ما لا تحمد عقباه .

كما يرى كيف أنه - ﷺ - عالج تلك الأحداث بحكمة حكيمة فعندما أشار عليه عمر - رضى الله عنه - بقتل بن أبى .. ما كان منه - ﷺ - إلا أن قال له : ياعمر ، كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟! وأبى - ﷺ - أن يأمر بقتله بل ترك لعشيرته من الأنصار تأديبه وتوبيخه .

ولقد بلغ الحال بابنه عبد الله - رضى الله عنه - وهو أقرب الناس إليه ، أن يمنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله - ﷺ - بدخولها .

كما يرى المتدبر لهذه الآيات ، والأحداث التى نزلت فيها ، أن النفوس إذا جحدت الحق ، واستولت عليها الأحقاد ، واستحوذ عليها الشيطان .. أبت أن تسلك الطريق المستقيم ، مهما كانت معالمه واضحة أمامها ..

فعبد الله بن أبى وجماعته ، وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحارب لها ولأتباعها ، وسلكوا فى إذاعة السوء حول الرسول - ﷺ - وحول أصحابه كل مسلك .. مع أن آيات القرآن الكريم ، كانت تتلى على مسامعهم صباح مساء ، ومع أن إرشادات الرسول - ﷺ - كانت تصل إليهم يوما بعد يوم ، ومع أن المؤمنين الصادقين كانوا لا يكفون عن نصحهم ووعظهم ..

كما نرى أن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، ضحى الإنسان من أجله بكل شىء .. فعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، يقول للرسول - ﷺ - : يارسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ..

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٥١ .

ثم يقف على باب المدينة شاهرا سيفه ، ثم يمنع أباه من دخولها حتى يأذن له الرسول - ﷺ - بدخولها ، وحتى يقول : إن الرسول - ﷺ - هو العزيز ، وأنه هو - أى عبدالله ابن أبى - هو الذليل .

وهكذا تعطينا هذه الآيات وأحداثها ما تعطينا من عبر وعظات ..

ثم تختتم السورة الكريمة بنداء توجهه إلى المؤمنين ، تأمرهم فيه بالمواظبة على طاعة الله - تعالى - وتنهاهم عن أن يشغلهم عن ذلك شاغل ، وتحضهم على الإنفاق فى سبيل إعلاء كلمته - سبحانه - ، وعلى تقديم العمل الصالح الذى ينفعهم قبل فوات الأوان ، قال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

والمقصود من هذه الآيات الكريمة نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم بصورة مفصلة ، وحضهم على الاستجابة لما كلفهم الله - تعالى - به . أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ...﴾ أى : لا تشغلكم أموالكم التى تهتمون بجمعها وتحصيلها .. ولا أولادكم الذين هم أشهى ثمرات حياتكم .. لايشغلكم ذلك عن أداء ما كلفكم - سبحانه - بأدائه من طاعات ، فالمراد بذكر الله ، ما يشمل جميع التكاليف من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وغير ذلك من الطاعات التى أمر الله - تعالى - بها .

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهى عن الاشتغال بهما اشتغالا يلهى عن ذكر الله ، لأنهما أكثر الاشياء التى تلهى عن طاعة الله - تعالى - ..

فمن أجل الاشتغال بجمع المال ، يقضى الإنسان معظم حياته ، وكثير من الناس من أجل جمع المال ، يضحون بما يفرضه عليهم دينهم من واجبات ، ومن أخلاق ، ومن سلوك وآداب ..

ومن أجل راحة الأولاد قد يضحى الآباء براحتهم ، وبما تقضى به المروءة ، وصدق رسول الله - ﷺ - حيث يقول : « الولد مجبنة مبخلة » .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ يشعر بأن المسلم إذا اشتغل بجمع المال . وبرعاية الأولاد ، دون أن يصرفه ذلك عن طاعة الله ، أو عن أداء حق من حقوقه - تعالى - ، فإن هذا الاشتغال لا يكون مذموما ، بل يكون مرضيا عنه من الله - تعالى - .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من اللهو عن ذكر الله ، بسبب الأموال والأولاد .

أى : ومن يشغله حبه لماله وأولاده عن ذكر الله ، وعن أداء ما كلفه - سبحانه - به ، فأولئك هم البالغون أقصى درجات الخسران والغفلة . لأنهم خالفوا ما أمرهم به ربهم ، وآثروا ما ينفعهم فى عاجلتهم الفانية ، على ما ينفعهم فى آجلتهم الباقية ، ثم حضهم - سبحانه - على الإنفاق فى سبيله فقال : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ .

والمراد بالإنفاق : إنفاق المال فى وجوه الخير والطاعات ، فيشمل الزكاة المفروضة ، والصدقات المستحبة ، وغير ذلك من وجوه البر والخير .

و« من » فى قوله - تعالى - ﴿ مما رزقناكم ﴾ للتبعيض إذ المطلوب إنفاقه بعض المال الذى يملكه الإنسان ، وليس كله ، وهذا من باب التوسعة منه - تعالى - على عباده ، ومن مظاهر سماحة شريعته - عز وجل - .

والمراد بالموت : علاماته وأماراته الدالة على قرب وقوعه .

وقوله ﴿ فيقول ﴾ معطوف على قوله ﴿ أن يأتى ﴾ ومسبب عنه .

و﴿ لولا ﴾ بمعنى هلا فهى حرف تحضيض .

وقوله : ﴿ فأصدق ﴾ منصوب على أنه فى جواب التمنى ، وقوله : ﴿ وأكن ﴾ بالجزم ، لأنه معطوف على محل ﴿فأصدق ﴾ كأنه قيل : إن أخرتنى إلى أجل قريب أتصدق وأكن من الصالحين .

والمعنى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، لاتشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله

- تعالى - بل داوموا عليها كل المداومة ، وأنفقوا بسخاء وسماحة نفس مما أعطيناكم من أرزاق كثيرة ، ومن نعم لا تحصى ، وليكن إنفاقكم من قبل أن تنزل بأحدكم أمارات الموت وعلاماته ..

وحينئذ يقول أحدكم يارب ، هلا أخرت وفاتى إلى وقت قريب من الزمان لكى أتدارك ما فاتنى من تقصير ، ولكى أتصدق بالكثير من مالى ، وأكون من عبادك الصالحين .

وقال - سبحانه - ﴿ مما رزقناكم ﴾ فأسند الرزق إليه ، لكى يكون أدعى إلى الامتثال والاستجابة ، لأنه - سبحانه - مع أن الأرزاق جميعها منه ، إلا أنه - فضلا منه وكرما - اكتفى منهم بإنفاق جزء من تلك الأرزاق .

وقدم - سبحانه - المفعول وهو « أحدكم » على الفاعل وهو « الموت » ، للاهتمام بالمفعول ، وللإشعار بأن الموت نازل بكل إنسان لا محالة .

والتعبير بقوله : ﴿ لولا أخرتنى إلى أجل قريب .... ﴾ يشعر بأن القائل قد قال ذلك زيادة فى تأميل الاستجابة ، فكأنه يقول : يارب ألتمس منك أن تؤخر أجلى إلى وقت قريب لا إلى وقت بعيد لكى أتدارك ما فاتنى فى هذا الوقت القريب الذى هو منتهى سؤالى ، وغاية أملى ..

وقد بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا تأخير فى الأجل متى انتهى لا من قريب ولا من بعيد .. فقال : ﴿ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها .. ﴾ .

أى : ولن يؤخر الله - تعالى - نفسا من النفوس ، متى انتهى أجلها فى هذه الحياة ، وانقضى عمرها من هذه الدنيا ، كما قال - سبحانه - : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

وقوله : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى : والله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على أعمالكم الظاهرة والباطنة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

وبعد فهذا تفسير لسورة « المنافقون » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة : صباح الجمعة ١٣ من شوال سنة ١٤٠٦هـ

٣٠ / ٦ / ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ التَّغَابُنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة التغابن هى السورة الرابعة والستون فى ترتيب المصحف ، أما نزولها على النبى - ﷺ - فكان - كما ذكره صاحب الإتقان بعد سورة « الجمعة » وقبل سورة « الصف » . وعدد آياتها ثمانى عشرة آية .

٢ - وجمهور المفسرين على أنها من السور المدنية .

قال الشوكانى : وهى مدنية فى قول الأكثر ، وقال الضحاك : هى مكية ، وقال الكلبى : هى مكية ومدنية .

أخرج ابن الضريس عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة التغابن بالمدينة .

وفى رواية أخرى عنه : أنها نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعى ، شكى إلى رسول الله - ﷺ - جفاء أهله وولده ، فأنزل الله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم .. ﴾ إلى آخر السورة[١] .

ويبدو لنا أن بعض آيات هذه السورة يغلب عليها طابع القرآن المكى ، كالآيات التى تتحدث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن إنكار المشركين للبعث والرد عليهم .

لذا نرجح - والله أعلم - أن النصف الأول منها من القرآن المكى ، والنصف الأخير من القرآن المدنى .

٣ - والسورة الكريمة بعد ذلك من أهم مقاصدها : تنزيه الله - تعالى - عن الشريك أو الولد ، وبيان ألوان من مظاهر قدرته ومننه على خلقه ، والرد على المشركين الذين زعموا أنهم لن يبعثوا ، والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الاشرار ، وبيان أن كل شىء يقع فى

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢٣٤ .

هذا الكون هو بقضاء الله وقدره . وتحريض المؤمنين على تقوى الله - تعالى - وعلى إيثار ما عنده على كل شيء من شهوات هذه الدنيا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

د . محمد سيد طنطاوى

مساء الجمعة ١٣ من شوال ١٤٠٦ هـ

٣٠ / ٦ / ١٩٨٦ م

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)

سورة « التغابن » هى آخر السور المفتتحة بالتسبيح ، فقد قال - سبحانه - فى مطلعها .

﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾ أى : ينزه الله - تعالى - عن كل نقص ، ويجله عن كل مالا يليق به ، جميع الكائنات التى فى سماواته - سبحانه - وفى أرضه ، كما قال - عز وجل - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾[1] .

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

وجيء هنا وفى سورة الجمعة بصيغة المضارع ﴿ يسبح ﴾ للدلالة على تجدد هذا التسبيح ، وحدوثه فى كل وقت وآن .

وجيء فى سورة الحديد ، والحشر ، والصف ، بصيغة الماضى ﴿ سبح ﴾ . للدلالة على أن التسبيح قد استقر وثبت لله - تعالى - وحده ، من قديم الزمان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ﴾ مؤكد لما قبله ، من بيان أن جميع الكائنات تسبح لله - تعالى - لأنه مالكها وصاحب الفضل المطلق عليها .

وتقديم الجار والمجرور ﴿ له ﴾ لإفادة الاختصاص والقصر .

أى : له - سبحانه - وحده ملك هذا الكون ، وله وحده الحمد التام المطلق من جميع مخلوقاته ، وليس لغيره شيء منها ، وإذا وجد شيء منها لغيره فهو من فيضه وعطائه ، إذ هو - سبحانه - القدير الذى لا يقف فى وجه قدرته وإرادته شيء .

ثم بين - سبحانه - أقسام خلقه فى هذه الحياة فقال : ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن ﴾ .

والخطاب فى قوله : ﴿ خلقكم ﴾ لجميع المكلفين من هذه الأمة .

والفاء فى قوله : ﴿ فمنكم كافر ﴾ للتفريع المشعر بالتعجب من وجود من هو كافر بالله - تعالى - مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقه ، وخلق كل شيء .

وقدم ذكر الكافر ، لأنه الأهم فى هذا المقام ، ولأنه الأكثر عددا فى هذه الحياة .

أى : هو - سبحانه - الذى خلقكم بقدرته ، دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، وزودكم بالعقول التى تعينكم على معرفة الخير من الشر ، والنافع من الضار وأرسل إليكم رسوله محمدا - ﷺ - لكى يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وأنزل معه الكتاب الذى يدلكم على أنه رسول الله - ﷺ - وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأمركم هذا الرسول الكريم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ولم يترك رسولنا - ﷺ - وسيلة تهديكم إلى الحق إلا وأرشدكم إليها .....

ومع ذلك وجد منكم المختار للكفر بالحق ، المعرض عن الإيمان بوحدانية الله - تعالى - وكان منكم المستجيب للحق باختياره المخلص فى عقيدته لله - تعالى - المؤمن بوحدانيته ، المؤدى لجميع التكاليف التى كلفه - سبحانه - بها .

قال القرطبى - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى هذه الآية - : وقال الزجاج - وقوله أحسن الأقوال ، والذى عليه الأئمة والجمهور من الأمة - : إن الله خلق الكافر ،

وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر . وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان .

والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله - تعالى - قدر ذلك عليه وعلمه منه ، ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما ، غير الذى قدر عليه ، وعلمه منه ..[١] .

وقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيحاسبكم عليها يوم القيامة ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أى : خلقهن خلقا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالحكمة التى لا يشوبها اضطراب أو عبث ، فالباء فى قوله « بالحق » للملابسة .

والمراد بالسموات والأرض : ذواتهن وأجرامهن التى هى أكبر من خلق الناس .

والمراد بالحق : المقصد الصحيح ، والغرض السليم ، الواقع على أتم الوجوه وأفضلها وأحكمها .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على الناس فقال : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ .

وقوله : ﴿ وصوركم ﴾ من التصوير ، وهو جعل الشئ على صورة لم يكن عليها ، وهو مأخوذ من مادة صار الشيء إلى كذا ، بمعنى تحول إليه ، أو من صاره إلى كذا ، بمعنى أماله وحوله .

أى : وأوجدكم - سبحانه - يابنى آدم على أحسن الصور وأكملها وأبدعها وأجملها ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن يكون على غير صورته التى خلقه الله عليها ، كأن يكون على صورة حيوان أو غيره .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

قال الآلوسى : ولعمرى إن الإنسان أعجب نسخة فى هذا العالم ، قد اشتملت على دقائق وأسرار شهدت ببعضها الآثار ، وعلم ما علم منها أولو الأبصار ، وكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب .. كما قال بعض الحكماء : شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٣٢ .

وقوله - تعالى - ﴿ وإليه المصير ﴾ معطوف على ما قبله ، لأن التصوير يقتضى الإيجاد ، فبين - سبحانه - أن هذا الإيجاد يعقبه الفناء لكل شىء سوى وجهه الكريم .

أى : وإليه وحده - تعالى - مرجعكم بعد انتهاء آجالكم فى هذه الحياة ، لكى يجازيكم على أعمالكم الدنيوية .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ أى : هو - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى السموات والأرض .

﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ - أيها الناس - والتصريح بذلك مع اندراجه فيما قبله ، من علم ما فى السموات وما فى الأرض ، لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد .

﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ والمراد بذات الصدور ، النوايا والخواطر التى تخفيها الصدور ، وتكتمها القلوب .

أى : والله - تعالى - عليم علما تاما بالنوايا والخواطر التى اشتملت عليها الصدور ، فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ثلاث جمل ، كل جملة منها أخص من سابقتها .

وجمع - سبحانه - بينها للإشارة إلى أن علمه - تعالى - محيط بالجزئيات والكليات ، دون أن يعزب عن علمه - تعالى - شىء منها .

وفى هذا رد على أولئك الكفار الجاحدين ، الذين استبعدوا إعادتهم إلى الحياة ، بعد أن أكلت الأرض أجسادهم ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ﴾ .

ثم وبخهم - سبحانه - على عدم اعتبارهم بالسابقين من قبلهم فقال : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ، فذاقوا وبال أمرهم . ولهم عذاب أليم ﴾ .

والاستفهام فى قوله ﴿ ألم يأتكم .. ﴾ للتقرير والتبكيت .

والمراد بالذين كفروا من قبل : قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، من الأقوام الذين أعرضوا عن الحق ، فكانت عاقبتهم الدمار والهلاك .

والخطاب لمشركى قريش وأمثالهم ، ممن استحبوا العمى على الهدى .

والوبال فى الأصل : الشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الوبيل للطعام الثقيل على المعدة . المضر لها .. والمراد به هنا : العقاب الشديد الذى نزل بهم فأهلكهم ، وعبر عن هذا العقاب بالوبال ، للإشارة إلى أنه كان عذابا ثقيلا جدا ، لم يستطيعوا الفرار أو الهرب منه .

والمراد بأمرهم : كفرهم وفسوقهم عن أمر ربهم ، ومخالفتهم لرسلهم .

وقوله ﴿ فذاقوا ﴾ معطوف على كفروا ، عطف المسبب على السبب والذوق مجاز فى مطلق الإحساس والوجدان . شبه ما حل بهم من عقاب ، بشىء كريه الطعم والمذاق .

وعبر عن كفرهم بالأمر ، للإشعار بأنه أمر قد بلغ النهاية فى القبح والسوء .

والمعنى : لقد أتاكم ووصل إلى علمكم - أيها المشركون - حال الذين كفروا من قبلكم من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وعلمتم أن إصرارهم على كفرهم قد أدى بهم إلى الهلاك وإلى العذاب الأليم ، فعليكم أن تعتبروا بهم . وأن تفيئوا إلى رشدكم ، وأن تتبعوا رسول الله - ﷺ - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين الذين أرسل الرسول - ﷺ - إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت إلى سوء عاقبة هؤلاء السابقين فقال : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدوننا ﴾ .

أى : ذلك الذى أصاب الأقوام السابقين من هلاك ودمار ، سببه أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات ، وبالمعجزات الواضحات ، الدالة على صدقهم ، فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل ، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجب : أبشر مثلنا يهدوننا إلى الحق والرشد ؟ ! ! .

فالباء فى قوله ﴿ بأنه ﴾ للسببية ، والضمير ضمير الشأن لقصد التهويل والاستفهام فى قوله ﴿ أبشر ﴾ للإنكار والمراد بالبشر : الجنس ، وهو مرفوع على أنه مبتدأ وخبره جملة ﴿ يهدوننا ﴾ .

وشبيه بهذه الآية ما حكاه القرآن من قول قوم صالح له : ﴿ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر .. ﴾[1] .. والفاء فى قوله : ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله ﴾ للسببية .

أى : فكفروا بسبب هذا القول الفاسد : ﴿ وتولوا ﴾ أى : وأعرضوا عن الحق إعراضا تاما ﴿ واستغنى الله ﴾ أى : واستغنى الله - تعالى - عنهم وعن إيمانهم ، والسين والتاء للمبالغة فى غناه - سبحانه - عنهم .

﴿ والله غنى حميد ﴾ أى : والله - تعالى - غنى عنهم وعن العالمين ، محمود من كل

(١) سورة القمر الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

مخلوقاته بلسان الحال والمقال ، وهو - تعالى - يجازى الشاكرين له بما يستحقونه من جزاء كريم .

ثم حكى - سبحانه - مزاعم الجاحدين للبعث والحساب ، ورد عليهم بما يبطلها ، ودعاهم إلى الإيمان بالحق ، وحضهم على العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة ، وبشر المؤمنين بما يشرح صدورهم ، وبين أن كل شىء فى هذا الكون يسير بإذنه - تعالى - وإرادته ، فقال - سبحانه - :

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ . الزعم : ادعاء العلم ، ومنه قوله - ﷺ - : « زعموا مطية الكذب » وعن شريح : لكل شىء كنية وكنية

الكذب زعموا ، ويتعدى إلى المفعولين تعدى العلم ، كما قال الشاعر :

وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ، ولم أزعمك عن ذاك معزلا

و « أنْ » مع ما فى حيزها قائم مقامها[1] .

و ﴿ بلى ﴾ حرف يذكر فى الجواب لإثبات النفى فى كلام سابق ، والمراد هنا : إثبات ما نفوه وهو البعث .

أى : زعم الذين كفروا من أهل مكة وأشباههم من المشركين ، أنهم لن يبعثوا يوم القيامة ، لأن البعث وما يترتب عليه من حساب ، فى زعمهم محال .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الجزم واليقين ، كذبتم فيما تزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب .. والله لتبعثن يوم القيامة ، ثم لتنبؤن بما عملتموه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ولتحاسبن عليها حسابا عسيرا ، يترتب عليه الإلقاء بكم فى النار .

وجىء فى نفى زعمهم بالجملة القسمية ، لتأكيد أمر البعث الذى نفوه بحرف ﴿ لن ﴾ ولبيان ان البعث وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، أمر ثابت ثبوتا قطعيا . وجملة ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ ارتقاء فى الإبطال . و ﴿ ثم ﴾ للتراخى النسبى .

أى :قل لهم إنكم لا تبعثون فحسب ، بل ستبعثون ، ثم تجدون بعد ذلك ما هو أشد من البعث ، ألا وهو إخباركم بأعمالكم السيئة ، ثم الإلقاء بكم فى النار بعد ذلك .

فالمراد بالإنباء لا زمه ، وهو ما يترتب عليه من حساب وعقاب .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ يعود إلى البعث وما يترتب عليه من حساب .

أى : وذلك البعث والحساب ، يسير وهين على الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لايعجزه شىء ، ولا يحول دون تنفيذ قدرته حائل .

فهذا التذييل المقصود به إزالة ما توهموه وزعموه من أن البعث أمر محال ، كما قالوا : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ﴾ .

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا .. ﴾ هى الفصيحة ، أى : التى تفصح عن شرط مقدر .

والمراد بالنور : القرآن الكريم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٨ .

أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾[1] .

والمعنى : إذا علمتم ماذكرناه لكم - أيها المشركون - فاتركوا العناد ، وآمنوا بالله - تعالى - ورسوله - ﷺ - إيمانا حقا ، وآمنوا - أيضا - بالقرآن الكريم الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد - ﷺ - ليكون هذا القرآن معجزة ناطقة بصدقه - ﷺ - .

وجملة ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ تذييل قصد به الوعد والوعيد ، أى : والله - تعالى - مطلع إطلاعا تاما على كل تصرفاتكم ، وسيمنحكم الخير إن آمنتم ، وسيلقى بكم فى النار إن بقيتم على كفركم .

ثم حذرهم - سبحانه - من أهوال يوم القيامة فقال - تعالى - : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ .

والظرف ﴿ يوم ﴾ متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ .

والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة . سمى بذلك لأنه اليوم الذى يجتمع فيه الأولون والآخرون ؟ فى مكان واحد للحساب والجزاء .

وسمى - أيضا بيوم التغابن ، لأنه اليوم الذى يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل .

والتغابن تفاعل من الغبن بمعنى الخسران والنقص ، يقال غبن فلان فلانا إذا بخسه حقه ، بأن أخذ منه سلعة بثمن أقل من ثمنها المعتاد ، وأكثر ما يستعمل الغبن فى البيع والشراء ، وفعله من باب ضرب ، ويطلق الغبن على مطلق الخسران أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين للبعث : لتبعثن يوم القيامة ثم لتنبؤن بما عملتم يوم القيامة يوم يجتمع الخلائق للحساب فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه المؤمنون الكافرين ، لأن أهل الإيمان ظفروا بالجنة ، وبالمقاعد التى كان سيظفر بها الكافرون لو أنهم آمنوا ، ولكن الكافرين استمروا على كفرهم فخسروا مقاعدهم فى الجنة ، ففاز بها المؤمنون .

قال القرطبى : ﴿ يوم التغابن ﴾ أى : يوم القيامة .. وسمى يوم القيامة بيوم التغابن ، لأنه غبن أهلُ الجنة أهلَ النار .

أى : أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار على طريق المبادلة فوقع الغبن على الكافرين لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والنعيم بالعذاب .

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

يقال : غبنت فلانا ، إذا با يَعته أو شاريتَه ، فكان النقص عليه ، والغلبة لك .

فإن قيل : فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها ؟ قيل له : هو تمثيل الغبن فى الشراء والبيع[1] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ أى يومُ غبنَ فيه أهل الجنة أهل النار ، فالتفاعل ليس على ظاهره ، كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد ، واختير للمبالغة .

وقد ورد هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة . واختاره الواحدى .

وقال غير واحد : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ أى : اليوم الذى غبن فيه بعض الناس بعضا ، بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، وبالعكس ففى الحديث الصحيح : « مامن عبد يدخل الجنة إلا أُرِى مقعده من النار - لو أساء - ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة - لو أحسن ليزداد حسرة - وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء ، بنزولهم فى منازلهم من النار »[2] .

ثم فصل - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ، يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

أى : ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ويعمل عملا صالحا ، يكفر الله - تعالى - عنه سيئاته التى عملها فى الدنيا بأن يزيلها من صحيفة عمله - فضلا منه - تعالى - وكرما - وفوق ذلك يدخله بفضله وإحسانه جنات تجرى من تحت ثمارها الأنهار ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى : خلوداً أبديا .

﴿ ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم من تكفير السيئات ، ومن دخول الجنات .. هو ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز يقاربه أو يدانيه .

﴿ والذين كفروا ﴾ بربهم بأن أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق نبينا - ﷺ - .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٣٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٢٣ .

﴿ أولئك ﴾ الكافرون المكذبون هم ﴿ أصحاب النار خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا ﴿ وبئس المصير ﴾ مصيرهم النار .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين ، بيان للتغابن ، وتفصيل له ، لاحتوائهما على بيان منازل السعداء والأشقياء ، وهو ما وقع فيه التغابن .

ثم بين - سبحانه - أن كل شىء بقضائه وقدره فقال : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ .

والمراد بالمصيبة : الرزية والنكبة ، وكل ما يسوء الإنسان فى نفسه أو ماله أو ولده .. والمفعول محذوف ، و « من » للتأكيد ، و ﴿ مصيبة ﴾ فاعل .

أى : ما أصاب أحدا مصيبة فى نفسه أو ماله أو ولده .. إلا بإذن الله - تعالى - وأمره وإرادته ، لأن كل شىء بقضائه - سبحانه - وقدره .

قال القرطبى : قيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله - تعالى - عن المصائب .

فأنزل الله - تعالى - هذه الآية للرد على المشركين ، ولبيان أن كل شىء بإرادته - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - أن الإيمان الحق يعين على استقبال المصائب بصبر جميل فقال : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم ﴾ أى : ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا يهد قلبه الى الصبر الجميل ، وإلى الاستسلام لقضائه - سبحانه - لأن إيمانه الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، والله - تعالى - عليم بكل شىء ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره : فصبر واحتسب واستسلم لقضائه - تعالى - هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا .

وفى الحديث المتفق عليه : عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بحض الناس على الطاعة والإخلاص فى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٦٣ .

العبادة ، وحذرهم من اقتراف المعاصى فقال : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ .

أى : وعليكم - أيها الناس - أن تطيعوا الله - تعالى - طاعة تامة ، وأن تطيعوا رسوله فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه .

فإن أعرضتم عن ذلك ، وانصرفتم عما أمرناكم به أو نهيناكم عنه فلا ضرر على رسولنا بسبب إعراضكم لأن حسابكم وجزاءكم علينا يوم القيامة ، وليس على رسولنا - ﷺ - بالنسبة لكم سوى البلاغ الواضح البين ، بحيث لا يترك باباً من أبواب الخير إلا ويبينه لكم ، ولا يترك باباً من أبواب الشر إلا وحذركم منه .

﴿ الله ﴾ - تعالى - ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى : هو المستحق للعبادة دون غيره ، فأخلصوا له هذه العبادة والطاعة ﴿ وعلى الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أى : فليفوضوا أمورهم إليه ، وليعقدوا رجاءهم عليه فهو - سبحانه - صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وفى نهاية السورة الكريمة ، وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، حذرهم فيه من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، وحضهم على مراقبته وتقواه ، وحذرهم من البخل والشح ، ووعدهم بالأجر العظيم متى أطاعوه .. فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرٗا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلا سأله عن هذه الآيات فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله - ﷺ - فأبى أولادهم وأزواجهم أن يتركوهم - ليهاجروا .

فلما أتوا رسول الله - ﷺ - أى بالمدينة - رأوا الناس قد تفقهوا فى الدين ، فهموا أن يعاقبوهم - أى : يعاقبوا أولادهم وأزواجهم - فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات[1] .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعى ، شكى إلى النبى - ﷺ - جفاء أهله وولده فنزلت[2] .

وصدرت الآيات الكريمة بالنداء بصفة الإيمان ، لحضهم على الاستجابة لما اشتملت عليه هذه الآيات من توجيهات سامية وإرشادات عالية .. فإن من شأن الإيمان الحق ، أن يحمل صاحبه على طاعة الله - عز وجل - .

و « من » فى قوله ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم .. ﴾ للتبعيض .

والمراد بالعداوة ما يشمل العداوة الدينية والدنيوية ، بأن يكون هؤلاء الأولاد والأزواج يضمرون لآبائهم وأزواجهم العداوة والبغضاء وسوء النية ، بسبب الاختلاف فى الطباع أو فى العقيدة والأخلاق .

والعفو : ترك المعاقبة على الذنب بعد العزم على هذه المعاقبة .

والصفح : الإعراض عن الذنب وإخفاؤه ، وعدم إشاعته .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن بعض أزواجكم وأولادكم ، يعادونكم ويخالفونكم فى أمر دينكم . وفى أمور دنياكم ، ﴿ فاحذروهم ﴾ أى : فاحذروا أن تطيعوهم فى أمر يتعارض مع تعاليم دينكم ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

﴿ وإن تعفوا ﴾ - أيها المؤمنون - عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بعد التصميم عليه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٦٥ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٤٠ .

﴿ وتصفحوا ﴾ عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بدون عزم عليه .. ﴿ وتغفروا ﴾ ما فرط منهم من أخطاء ، بأن تخفوها عليهم .

وقوله : ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ قائم مقام جواب الشرط . أى : وإن تفعلوا ذلك من العفو والصفح والمغفرة ، يكافئكم الله - تعالى - على ذلك مكافأة حسنة ، فإن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن يعفون ويصفحون ويغفرون .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة . ﴾ تعميم بعد تخصيص ، وتأكيد التحذير الذى اشتملت عليه الآية السابقة .

والمراد بالفتنة هنا : ما يفتن الإنسان ويشغله ويلهيه عن المداومة على طاعة الله - تعالى - .

أى : إن أموالكم وأولادكم - أيها المؤمنون - على رأس الأمور التى تؤدى المبالغة والمغالاة فى الاشتغال بها ، إلى التقصير فى طاعة الله - تعالى - ، وإلى مخالفة أمره . والإخبار عنهم بأنهم ﴿ فتنة ﴾ للمبالغة ، والمراد أنهم سبب للفتنة أى : لما يشغل عن رضاء الله وطاعته ، إذا ما جاوز الإنسان الحد المشروع فى الاشتغال بهما .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أى : بلاء ومحنة ، لأنهم يترتب عليهم الوقوع فى الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك . وفى الحديث . يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : أكل عياله حسناته .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى .. عن بريدة قال . كان النبى - ﷺ - يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ من فوق المنبر ، فحملهما .. ثم صعد المنبر فقال : صدق الله إذ يقول : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران ، لم أصبر أن قطعت كلامى ، ونظرت إليهما [١] .

وقال الجمل : قال الحسن فى قوله - تعالى - : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ أدخل - سبحانه - ﴿ من ﴾ للتبعيض ، لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ، لأنهما لا يخلوان من الفتنة ، واشتغال القلب بهما ، وقدم الأموال على الأولاد ، لأن الفتنة بالمال أكثر . وترك ذكر الأزواج فى الفتنة ، لأن منهن من يكن صلاحا وعونا على الآخرة[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٢٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٥٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ معطوف على جملة ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ .

أى : والله - تعالى - عنده أجر عظيم ، لمن آثر محبة الله - تعالى - وطاعته ، على محبة الأزواج والأولاد والأموال .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ للإفصاح والتفريع على ما تقدم .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله : ﴿ ما استطعتم ﴾ مصدرية ظرفية .

والمراد بالاستطاعة : نهاية الطاقة والجهد .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى لا يشغله ماله أو ولده أو زوجه عن ذكر الله - تعالى - فابذلوا نهاية قدرتكم واستطاعتكم فى طاعة الله - تعالى - وداوموا على ذلك فى جميع الأوقات والأزمان .

وليس بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ تعارض ، لأن كلتا الآيتين تأمران المسلم بأن يبذل قصارى جهده ، ونهاية طاقته ، فى المواظبة على أداء ما كلفه الله به ، ولذلك فلا نرى ما يدعو إلى قول من قال : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى تقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ .

قال الآلوسى : أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت أقدامهم . فأنزل الله هذه الآية ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ تخفيفا على المسلمين[١] .

وحذف متعلق التقوى ، لقصد التعميم ، أى : فاتقوا الله مدة استطاعتكم فى كل ما تأتون وما تذرون ، واعلموا أنه - تعالى - ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ و ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ ومن الأحاديث التى وردت فى معنى الآية الكريمة ، ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله قال : با يعت رسول الله - ﷺ - على السمع والطاعة ، فلقننى « فيما استطعت » .

وعطف قوله - تعالى - ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ على قوله ﴿ فاتقوا الله ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، للاهتمام به .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٢٧ .

أى : فاتقوا الله - تعالى - فى كل ما تأتون وما تذرون ، واسمعوا ما يبلغكم إياه رسولنا عنا سماع تدبر وتفكر ، وأطيعوه فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه .

﴿ وأنفقوا ﴾ مما رزقكم الله - تعالى - من خير ، يكن ذلك الإنفاق ﴿ خيرا لأنفسكم ﴾ فى دنياكم وفى آخرتكم .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ أى : ومن يستطع أن يبعد نفسه عن الشح والبخل .

﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى : الفائزون فوزا تاما لا نقص معه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحض على الإنفاق فى سبيله فقال : ﴿ إن تقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعفه لكم ﴾ .

أى : إن تبذلوا أموالكم فى وجوه الخير التى يحبها الله - تعالى - ، بذلا مصحوبا بالإخلاص وطيب النفس ، يضاعف الله - تعالى - لكم ثواب هذا الإنفاق والإقراض بأن يجعل لكم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

﴿ ويغفر لكم ﴾ فضلا عن ذلك ذنوبكم ببركة هذا الإنفاق الخالص لوجهه الكريم .

﴿ والله شكور ﴾ أى : كثير الشكر لمن أطاعه ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة المذنبين .

﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ أى : هو - سبحانه - يعلم علما تاما ما كان خافيا عليكم وما كان ظاهرا لكم ، وهو - عز وجل - القوى الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

وبعد فهذا تفسير لسورة « التغابن » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الاسكندرية - العجمى
صباح الخميس ٣٠ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ
٢٦ من يونيو ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د / محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ – سورة « الطلاق » من السور المدنية الخالصة ، وقد سماها عبد الله بن مسعود بسورة النساء القصرى ، أما سورة النساء الكبرى فهى التى بعد سورة آل عمران .

وكان نزولها بعد سورة « الانسان » وقبل سورة « البينة » ، وترتيبها بالنسبة للنزول : السادسة والتسعون ، أما ترتيبها بالنسبة لترتيب المصحف ، فهى السورة الخامسة والستون .

٢ – وعدد آياتها إحدى عشرة آية فى المصحف البصرى ، وفيما عداه اثنتا عشرة آية .

٣ – ومعظم آياتها يدور حول تحديد أحكام الطلاق ، وما يترتب عليه من أحكام العدة ، والإرضاع ، والإنفاق ، والسكن ، والإشهاد على الطلاق ، وعلى المراجعة .

وخلال ذلك تحدثت السورة الكريمة حديثا جامعا عن وجوب تقوى الله – تعالى – وعن مظاهر قدرته ، وعن حسن عاقبة التوكل عليه ، وعن يسره فى تشريعاته ، وعن رحمته بهذه الأمة حيث أرسل فيها رسوله – ﷺ – ليتلو على الناس آيات الله – تعالى – ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بإذنه – سبحانه – وقد افتتحت بقوله – تعالى – .

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ
وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ
بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

افتتح الله - تعالى - السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبى - ﷺ - فقال : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ﴾ .

وأحكام الطلاق التى وردت فى هذه الآية ، تشمل النبى - ﷺ - كما تشمل جميع المكلفين من أمته - ﷺ - .

وإنما كان النداء له - ﷺ - وكان الخطاب بالحكم عاما له ولأمته ، تشريفا وتكريما له - ﷺ - لأنه هو المبلغ للناس ، وهو إمامهم وقدوتهم والمنفذ لأحكام الله - تعالى - فيهم .

قال صاحب الكشاف : خُصَّ النبى - ﷺ - بالنداء ، وعُمَّ بالخطاب ، لأن النبى - ﷺ - إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان : افعلوا كيت وكيت ، وإظهارا لتقدمه ، واعتبارا لترؤسه ، وأنه مِدْرة قومه ولسانهم - والمدرة : القرية .

أى : أنه بمنزلة القرية لقومه ،وأنه الذى يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه ، فكان هو وحده فى حكم كلهم ، وساد مسد جميعهم[1] .

وهذا التفسير الذى اقتصر عليه صاحب الكشاف ، هو المعول عليه ، وهو الذى يناسب بلاغة القرآن وفصاحته ، ويناسب مقام النبى - ﷺ - .

وقيل : الخطاب له ولأمته : والتقدير : يأيها النبى وأمته إذا طلقتم ، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه .

وقيل : هو خطاب لأمته فقط ، بعد ندائه - عليه السلام - وهو من تلوين الخطاب ، خاطب أمته بعد أن خاطبه .

وقيل : إن الكلام على إضمار قول ، أى : يأيها النبى قل لأمتك إذا طلقتم[2] .

والحق أن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن الخطاب والأحكام المترتبة عليه ، تارة تكون خاصة به - ﷺ - كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ .

وتارة يكون شاملا له - ﷺ - ولأمته كما فى هذه الآية التى معنا ، وكما فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

وتارة يكون - ﷺ - خارجا عنه كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[3].

فصيغة الخطاب هنا وإن كانت موجهة إلى النبى - ﷺ - إلا أنه ليس داخلا فيها ، لأن والديه لم يكونا موجودين عند نزول هاتين الآيتين .

والمراد بقوله : ﴿ إذا طلقتم النساء ﴾ أى : إذا أردتم تطليقهن ، لأن طلاق المطلقة من باب تحصيل الحاصل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٥٢ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٥٥ .
(٣) سورة الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

وهذا الأسلوب يرد كثيرا فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم .. ﴾ أى : إذا أردتم القيام للصلاة فاغسلوا .

والمراد بالنساء هنا : الزوجات المدخول بهن ، لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾[1].

واللام فى قوله - سبحانه - : فطلقوهن لعدتهن ، هى التى تسمى بلام التوقيت ، وهى بمعنى عند ، أو بمعنى فى ، كما يقول القائل : كتبت هذا الكتاب لعشر مضين من شهر كذا .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس .. ﴾ : أى عند أو فى وقت دلوكها .

وقوله : ﴿ وأحصوا العدة ﴾ من الإحصاء بمعنى العد والضبط ، وهو مشتق من الحصى ، وهى من صغار الحجارة ، لأن العرب كانوا إذا كثر عدد الشىء ، جعلوا لكل واحد من المعدود حصاة ، ثم عدوا مجموع ذلك الحصى .

والمراد به هنا : شدة الضبط ، والعناية بشأن العد ، حتى لا يحصل خطأ فى وقت العدة .
والمعنى : يأيها النبى ، أخبر المؤمنين ومرهم ، إذا أرادوا تطليق نسائهم المدخول بهن ، من المعتدات بالحيض . فعليهم أن يطلقوهن فى وقت عدتهن .

أى : فى طهر لم يجامعوهن فيه ، ثم يتركوهن حتى تنقضى عدتهن .

وعليهم كذلك أن يضبطوا أيام العدة ضبطا تاما حتى لا يقع فى شأنها خطأ أو لبس .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : خوطب النبى - ﷺ - أولا تشريفا وتكريما ، ثم خاطب الأمة تبعا ، فقال : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ...﴾ .

روى ابن أبى حاتم عن أنس قال : طلق النبى - ﷺ - حفصة ، فأتت أهلها ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية . وقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهى من أزواجك فى الجنة .

وروى البخارى أن عبد الله بن عمر ، طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله - ﷺ - ذلك ، فتغيظ - ﷺ - ثم قال : فليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله - تعالى - .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٩ .

ثم قال - رحمه الله - : ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق ، وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة .

فطلاق السنة : أن يطلقها طاهرا من غير جماع ، أو حاملا قد استبان حملها .

والبدعى : هو أن يطلقها فى حال الحيض ، - وما يشبهه كالنفاس - ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ؟ ..[1] .

وتعليق ﴿ طلقتم ﴾ بإذا الشرطية ، يشعر بأن الطلاق خلاف الأصل ، إذ الأصل فى الحياة الزوجية أن تقوم على المودة والرحمة ، وعلى الدوام والاستقرار .

قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ...﴾ .

قال القرطبى : روى الثعلبى من حديث ابن عمر قال : قال رسول - ﷺ - « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وعن أبى موسى قال رسول الله - ﷺ - : « لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله - عز وجل - لا يحب الذواقين ولا الذواقات » .

وعن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما حلف بالطلاق ، ولا استحلف به إلا منافق »[2] .

والمراد بالأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم اتباعه إذا ما أرادوا مفارقة أزواجهم ، ونهيهم عن إيقاع الطلاق فى حال الحيض أو ما يشبهها كالنفاس ، لأن ذلك يكون طلاقا بدعيا محرما ، إذ يؤدى إلى تطويل عدة المرأة لأن بقية أيام الحيض لا تحسب من العدة ، ويؤدى - أيضا - إلى عدم الوفاء لها ، حيث طلقها فى وقت رغبته فيها فاترة ..

ولكن الطلاق مع ذلك يعتبر واقعا ونافذا عند جمهور العلماء .

قال القرطبى : من طلق فى طهر لم يجامع فيه ، نفذ طلاقه وأصاب السنة ، وإن طلقها وهى حائض نفذ طلاقه وأخطأ السنة .

وقال سعيد بن المسيب : لا يقع الطلاق فى الحيض لأنه خلاف السنة ، وإليه ذهبت الشيعة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٦٩ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٤٩ .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال : طلقت امرأتى وهى حائض ، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فتغيظ وقال : فليراجعها ثم فليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التى طلقها فيها .

وكان عبد الله بن عمر قد طلقها تطليقة ، فحسبت من طلاقها ، وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله - ﷺ - .

وفى رواية أن الرسول - ﷺ - قال له : « هى واحدة » وهذا نص . وهو يرد على الشيعة قولهم[1] .

وقد بسط الفقهاء وبعض المفسرين الكلام فى هذه المسألة فليرجع إليها من شاء..[2] .

والمخاطب بقوله ﴿ وأحصوا العدة ﴾ الأزواج على سبيل الأصالة ، لأنهم هم المخاطبون بقوله ﴿ طلقتم ﴾ وبقوله ﴿ فطلقوهن ﴾ ، ويدخل معهم الزوجات على سبيل التبع ، وكذلك كل من له صلة بهذا الحكم ، وهو إحصاء العدة .

ثم أمر - سبحانه - بتقواه فقال : ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ أى ، واتقوا الله ربكم ، بأن تصونوا أنفسكم عن معصيته ، التى من مظاهرها إلحاق الضرر بأزواجكم ، بتطليقهن فى وقت حيضهن . أو فى غير ذلك من الأوقات المنهى عن وقوع الطلاق فيها .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التحذير من التساهل فى أحكام الطلاق والعدة ، كما كان أهل الجاهلية يفعلون .

وجمع - سبحانه - بين لفظ الجلالة ، وبين الوصف بربكم ، لتأكيد الأمر بالتقوى ، وللمبالغة فى وجوب المحافظة على هذه الأحكام .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر يتعلق بالأزواج والزوجات فقال : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ .

والجملة الكريمة مستأنفة ، أو حال من ضمير ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أى : حالة كون العدة فى بيوتهن ، والخطاب للأزواج ، والزوجات ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأساليب .

والفاحشة : الفعلة البالغة الغاية فى القبح والسوء ، وأكثر إطلاقها على الزنا .

وقوله : ﴿ مبينة ﴾ صفة للفاحشة ، وقراءة الجمهور - بكسر الياء - أى : بفاحشة توضح لمن تبلغه أنها فاحشة لشدة قبحها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٥١ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٣٠ . وتفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٥٦ . للشيخ السايس .

وقرأ ابن كثير ﴿ مبينة ﴾ بفتح الياء - أى : بفاحشة قامت الحجة على مرتكبيها قياما لا مجال معه للمناقشة أو المجادلة .

أى : واتقوا الله ربكم - أيها المؤمنون - فيما تأتون وتذرون ، ومن مظاهر هذه التقوى ، أنكم لا تخرجون زوجاتكم المطلقات من مساكنهن إلى أن تنقضى عدتهن ، وهن - أيضا - لا يخرجن منها بأنفسهن فى حال من الأحوال ، إلا فى حال إتيانهن بفاحشة عظيمة ثبتت عليهن ثبوتا واضحا .

فالمقصود بالجملة الكريمة نهى الأزواج عن إخراج المطلقات المعتدات من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنتهى عدتهن ، ونهى المعتدات عن الخروج منها إلا عند ارتكابهن الفاحشة الشديدة القبح .

وأضاف - سبحانه - البيوت الى ضمير النساء فقال : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ للإشعار بأن استحقاقهن للمكث فى بيوت أزواجهن مدة عدتهن كاستحقاق المالك لما يملكه ، ولتأكيد النهى عن الإخراج والخروج .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن المطلقة لا يصح إخراجها أو خروجها من بيت الزوجية مادامت فى عدتها ، إلا لأمر ضرورى .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ أى : من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضى عدتهن .. وعدم العطف للإيذان باستقلاله بالطلب اعتناء به ، والنهى عن الإخراج يتناول بمنطوقه عدم إخراجهن غضبا عليهن ، أو كراهة لمساكنتهن .. ويتناول بإشارته عدم الإذن لهن بالخروج ، لأن خروجهن محرم ، لقوله - تعالى - : ﴿ ولا يخرجن ﴾ فكأنه قيل : لا تخرجوهن ، ولا تأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، فهناك دلالة على أن سكونهن فى البيوت حق للشرع مؤكد ، فلا يسقط بالإذن .. وهذا رأى الأحناف .

ومذهب الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جاز . إذ الحق لا يعدوهما ، فيكون المعنى : لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .

والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ يرى بعضهم أنه راجع إلى ﴿ ولا يخرجن ﴾ فتكون الفاحشة المبينة هى نفس الخروج قبل انقضاء العدة ، أى : لا يطلق لهن فى الخروج ، إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه ، فيكون ذلك منعا من الخروج على أبلغ وجه .. كما يقال لا تزن إلا أن تكون فاسقا ..[1] .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٣٣ .

وقال بعض العلماء : والذى تخلص لى أن حكمة السكنى للمطلقة ، أنها حفظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها ، وقد يتسرب سوء الظن إليها ، فيكثر الاختلاف عليها ، ولا تجد ذا عصمة يذب عنها ، فلذلك شرعت لها السكنى ، فلا تخرج إلا لحاجياتها الضرورية ..

ومن الحكم - أيضا - فى ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكنا ، لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال ، وإنما هن عيال على الرجال ..

ويزاد فى المطلقة الرجعية ، قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها ، لعله يثوب إليه رشده فيراجعها ..

فهذا مجموع علل ، فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم ، لأن الحكم المعلل بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها ..[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعود إلى الأحكام التى سبق الحديث عنها ، والحدود : جمع حد ، وهو مالا يصح تجاوزه أو الخروج عنه .

أى : وتلك الأحكام التى بيناها لكم ، هى حدود الله - تعالى - التى لا يصح لكم تعديها أو تجاوزها ، وإنما يجب عليكم الوقوف عندها ، وتنفيذ ما اشتملت عليه من آداب وهدايات .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يتجاوز حدوده فقال : ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ أى : ومن يتجاوز حدود الله التى حدها لعباده ، بأن أخل بشىء منها ، فقد حمل نفسه وزرا ، وأكسبها إثما ، وعرضها للعقوبة والعذاب .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ ترغيب فى امتثال الأحكام السابقة ، بعد أن سلك فى شأنها مسلك الترهيب من مخالفتها ، ودعوة إلى فتح باب المصالحة بين الرجل وزوجه ، وعدم السير فى طريق المفارقة حتى النهاية ..

والخطاب لكل من يصلح له ، أو هو للمتعدى بطريق الالتفات ، والجملة الكريمة مستأنفة ، مسوقة لتعليل مضمون ما قبلها ، وتفصيل لأحواله .

أى : اسلك - أيها المسلم - الطريق الذى أرشدناك إليه فى حياتك الزوجية ، وامتثل ما أمرناك به ، فلا تطلق امرأتك وهى حائض ، ولا تخرجها من بيتها قبل تمام عدتها .. ولا تقفل باب المصالحة بينك وبينها ، بل اجعل باب المصالحة مفتوحا ، فإنك لا تدرى لعل الله - تعالى - يحدث بعد ذلك النزاع الذى نشب بينك وبين زوجك أمرا نافعا لك ولها ، بأن يحول البغض إلى حب ، والخصام إلى وفاق ، والغضب إلى رضا ..

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٣٠٤ لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على أسمى ألوان الإرشاد لحمل النفوس المتجهة نحو الطلاق .. إلى التريث والتعقل ، وفتح باب المواصلة بعد المقاطعة والتقارب بعد التباعد ، لأن تقليب القلوب بيد الله - عز وجل - وليس بعيدا عن قدرته - تعالى - تحويل القلوب إلى الحب بعد البغض .

قال القرطبي : الأمر الذى يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه ، فيراجعها .

وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة ..[1] .

ثم بين - سبحانه - حكما يتعلق بما بين الزوجين من حقوق فقال - تعالى - : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف .. ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فإذا بلغن .. ﴾ للتفريع على ما تقدم من أحكام تتعلق بالعدة .

والمراد ببلوغ أجلهن ، مقاربة نهاية مدة العدة بقرينة ما بعده ، لأن الرجل لا يؤمر بإمساك زوجه بعد انقضاء عدتها ، لأن الإمساك يكون قبل انقضائها .

فالكلام من باب المجاز ، لمشابهة مقاربة الشىء ، بالحصول فيه ، والتلبس به .

والمراد بالإمساك المراجعة وعدم السير فى طريق مفارقتها .

والمعروف : ما أمر به الشرع من حسن المعاملة بين الزوجين ، وحرص كل واحد منهما على أداء ما عليه لصاحبه من حقوق .

والمعنى : لقد بينت لكم جانبا من الأحكام التى تتعلق بعدة النساء ، فإذا قارين وشارفن آخر عدتهن ، فأمسكوهن وراجعوهن بحسن معاشرة ، أو فارقوهن بمعروف بأن تعطوهن حقوقهن كاملة غير منقوصة ، بأن تكفوا ألسنتكم عن ذكرهن بسوء ..

والأمر فى قوله : ﴿ فأمسكوهن وفارقوهن ﴾ للإباحة ، و « أو » للتخيير .

والتعبير بالإمساك للإشعار بأن المطلقة طلاقا رجعيا لها حكم الزوجة ، ما عدا الاستمتاع بها ، فعليه أن يستمسك بها ، ولا يتسرع فى فراقها ، فهى مازالت فى عصمته .

وقدم - سبحانه - الإمساك على الفراق ، للإشارة إلى أنه هو الأولى رعاية لحق الزوجية ، وإبقاء للمودة والرحمة .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٥٦ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ... ﴾.

ثم قال - سبحانه - : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ أى : وأشهدوا عند المراجعة لأزواجكم وعند مفارقتكم لهن رجلين تتوفر فيهما العدالة والاستقامة لان الإشهاد يقطع التنازع ، ويدفع الريبة ، وينفى التهمة .

والأمر فى قوله : ﴿ وأشهدوا ﴾ للندب والاستحباب فى حالتى المراجعة والمفارقة ، فهو كقوله - تعالى - : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ وهذا رأى جمهور العلماء .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ أى : عند الرجعة إن اخترتموها ، أو الفرقة إن اخترتموها ، تبريا عن الريبة ، وقطعا للنزاع . وهذا أمر ندب كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ .

وقال الشافعى فى القديم : إنه للوجوب فى الرجعة . وزعم الطبرسى أن الظاهر أنه أمر بالإشهاد على الطلاق ، وأنه مروى عن أئمة أهل البيت ، وأنه للوجوب ، وشرط فى صحة الطلاق ..[1] .

وقوله : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ معطوف على ما قبله ، والخطاب لكل من تتعلق به الشهادة .

والمراد بإقامة الشهادة : أداؤها بالعدل والصدق .

أى : وعليكم - أيها المؤمنون - عند أدائكم للشهادة ، أن تؤدوها بالعدل والأمانة ، وأن تجعلوها خالصة لوجه الله - تعالى - وامتثالا لأمره .

والجملة الكريمة دليل على أن أداء الشهادة على وجهها الصحيح عند الحكام وغيرهم ، أمر واجب ، لأن الشهادة هنا اسم للجنس، ولأن الله - تعالى - يقول فى آية أخرى : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ...﴾ .

والإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ تعود إلى جميع ما تقدم من أحكام ، كإحصاء العدة وعدم إخراج المطلقة من بيت الزوجية حتى تنتهى عدتها ، والحث على أداء الشهادة بالحق والعدل .

والوعظ معناه : التحذير مما يؤذى بطريقة تؤثر فى القلوب ، وتهدى النفوس إلى الرشد .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٣٥ .

أى : ذلك الذى ذكرناه لكم من أحكام إنما يتأثر به ، ويعمل بمقتضاه الذين يؤمنون بالله - تعالى - وباليوم الآخر إيمانا حقا .

وخص - سبحانه - الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بهذه الأحكام ، وهم المنفذون لها تنفيذا صحيحا .

ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يتقونه ويراقبونه ببشارات متعددة فقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

والجملة الكريمة اعتراض بين قوله - تعالى - : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ وبين قوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ واللائى يئسن من المحيض ﴾ .

وجىء بهذا الاعتراض بين هذه الأحكام لحمل النفوس على تقبل تشريعاته - تعالى - وآدابه ، ولحض الزوجين على مراقبته - سبحانه - وتقواه .

أى : ومن يتق الله - تعالى - فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته . يجعل له - سبحانه - مخرجا من هموم الدنيا وضوائقها ومتاعبها ، ومن شدائد الموت وغمراته ، ومن أهوال الآخرة وعذابها ، ويرزقه الفوز بخير الدارين ، من طرق لا تخطر له على بال ، ولا ترد له على خاطر ، فإن أبواب رزقه - سبحانه - لا يعلمها أحد إلا هو - عز وجل - .

وفى هذه الجملة الكريمة ما فيها من البشارة للمؤمن ، حتى يثبت فؤاده ، ويستقيم قلبه ، ويحرص على طاعة الله - تعالى - فى كل أحواله .

قال القرطبى : قال أبو ذر ، قال رسول الله - ﷺ - : إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ، ثم تلا : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

وعن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعى ، أسر المشركون ابنا له ، فأتى النبى - ﷺ - وأخبره بذلك . فقال له - ﷺ - : «اتق الله واصبر ، وآمرك وزوجك أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله» .

فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله - ﷺ - أمرنى وإياك أن نستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . فقالت : نعم ما أمرنا ، فجعلا يقولان ذلك ، فغفل العدو عن ابنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه عوف ، فنزلت الآية ..[1] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٥٩ .

ولفظ ﴿ حسب ﴾ بمعنى كاف وأصله اسم مصدر أو مصدر ، ومعنى ﴿ بالغ أمره ﴾ بإضافة الوصف إلى مفعوله ، أى : يبلغ ما يريده - سبحانه - ، وقرأ الجمهور ﴿ بالغ أمره ﴾ بتنوين الوصف ونصب أمره على المفعولية ، والمراد بأمره ، شأنه ومراده . وهذه الجملة تعليل لما قبلها .

أى : ومن يفوض أمره إلى الله - تعالى - ويتوكل عليه وحده ، فهو - سبحانه - كافيه فى جميع أموره ، لأنه - سبحانه - يبلغ ما يريده ، ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه شىء ، ولا يحول دون أمره حائل .. ومن مظاهر حكمه فى خلقه ، أنه عزوجل - قد جعل لكل شىء تقديرا قبل وجوده ، وعلم علما تاما مقاديرها وأوقاتها وأحوالها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : ولهذه الجملة ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ موقع تتجلى فيه صورة من صور إعجاز القرآن ، فى ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض .. فهذه الجملة لها موقع الاستئناف البيانى الناشىء عما اشتملت عليه جمل : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ..﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ لأن استعداد السامعين لليقين بما تضمنته تلك الجمل متفاوت ، فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله ، فيقول : أين أنا من تحصيل هذا الشىء .. ويتملكه اليأس .. فيقول الله - تعالى - له : ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ أى : فلا تيأس أيها الإنسان .

ولها موقع التعليل لجملة ﴿ وأحصوا العدة ﴾ فإن العدة من الأشياء التى تعد ، فلما أمر الله بإحصائها علل ذلك فقال : ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

ولها موقع التذييل لجملة ﴿ وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ أى : الذى وضع تلك الحدود ، قد جعل الله لكل شىء قدرا لا يعدوه ، كما جعل الحدود .

ولها موقع التعليل لجملة : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ ، لأن المعنى إذا بلغن القدر الذى جعله الله لمدة العدة ، فقد حصل المقصد الشرعى ، الذى أشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ .

ولها موقع التعليل لجملة : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ فإن الله - تعالى - جعل الشهادة قدرا لرفع النزاع .

فهذه الجملة جزء آية ، وهى تحتوى على حقائق من الحكمة ..[1] .

ثم ذكر - سبحانه - أحكاما أخرى تتعلق بعدة أنواع أخرى من النساء وأكد الأمر بتقواه - عز وجل - وأمر برعاية النساء والانفاق عليهن .. فقال - تعالى - :

وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ لما بين - سبحانه - أمر الطلاق والرجعة فى التى تحيض ، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقراء ، عرفهم - سبحانه - فى هذه السورة عدة التى لا ترى الدم .

وقال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدة النساء فى سورة « البقرة » فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبى بن كعب : يارسول الله ، إن ناسا يقولون قد بقى من النساء من لم يذكر فيهن شىء ، الصغار وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآية .

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٣١٤ للشيخ ابن عاشور .

وقال مقاتل : لما ذكر - سبحانه - قوله : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ..﴾ .

قال خلاد بن النعمان : يارسول الله فما عدة التى لم تحض ، وما عدة التى انقطع حيضها ، وعدة الحبلى ، فنزلت هذه الآية ..[1] .

وجملة : ﴿ واللائى يئسن من المحيض ...﴾ معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ..﴾ لبيان أحكام أخرى تتعلق بعدة نوع آخر من النساء بعد بيان عدة النساء ذوات الأقراء .

والمراد باللائى يئسن من المحيض : النساء اللائى تقدمن فى السن ، وانقطع عنهن دم الحيض .

وقوله : ﴿ يئسن ﴾ من اليأس ، وهو فقدان الأمل من الحصول على الشىء .

والمراد بالمحيض : دم الحيض الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين ، وفى حال معينة ..

وقوله : ﴿ إن ارتبتم ﴾ من الريبة بمعنى الشك .

قوله : ﴿ واللائى ﴾ اسم موصول مبتدأ ، وقوله ﴿ يئسن ﴾ صلته ، وجملة الشرط والجزاء وهى قوله : ﴿ إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ خبره .

والمعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - عدة النساء المعتدات بالمحيض ، أما النساء المتقدمات فى السن واللائى فقدن الأمل فى رؤية دم الحيض ، فعليكم إن ارتبتم ، وشككتم فى عدتهن أو جهلتموها ، أن تقدروها بثلاثة أشهر .

هذا ، وقد قدر بعضهم سن اليأس بالنسبة للمرأة بستين سنة ، وبعضهم قدره بخمس وخمسين سنة .

وبعضهم لم يحدده بسن معينة ، بل قال : إن هذا السن يختلف باختلاف الذوات والأقطار والبيئات .. كاختلاف سن ابتداء الحيض .

وقوله - تعالى - : ﴿ واللائى لم يحضن ﴾ معطوف على قوله : ﴿ واللائى يئسن ﴾ وهو مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والتقدير : واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، إن إرتبتم فى عدتهن ، فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللاتى لم يحضن بعد لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن المحيض .. فعدتهن - أيضا - ثلاثة أشهر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٦٢ .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان عدة المرأة ذات الحمل ، فقال - تعالى - : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ...﴾ .

وقوله : ﴿ وأولات ﴾ : اسم جمع للفظ ذات . بمعنى صاحبة ، لأنه لا مفرد لكلمة ﴿ أولات ﴾ من لفظها ، كما أنه لا مفرد من لفظها لكلمة « أولو » التى هى بمعنى أصحاب ، وإنما مفردها « ذو » .

والأحمال : جمع حمل - بفتح الحاء - كصحب وأصحاب ، والمراد به : الجنين الذى يكون فى بطن المرأة .

والأجل : انتهاء المدة المقدرة للشىء .

وقوله : ﴿ وأولات ...﴾ مبتدأ ، و ﴿ أجلهن ﴾ مبتدأ ثان ، وقوله : ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره ، خبر الأول .

والمعنى : والنساء ذوات الأحمال ﴿ أجلهن ﴾ أى : نهاية عدتهن ، أن يضعن ما فى بطونهن من حمل ، فمتى وضعت المرأة ما فى بطنها ، فقد انقضت عدتها ، لأنه ليس هناك ما هو أدل على براءة الرحم ، من وضع الحمل .

وهذا الحكم عام فى كل ذوات الأحمال ، سواء أكن مطلقات ، أم كن قد توفى عنهن أزواجهن .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التى تؤيد ذلك ، ومن تلك الأحاديث مارواه الشيخان ، من أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله - ﷺ - لأحد أصحابه .

وعن أبى بن كعب قال : قلت للنبى - ﷺ - : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ : للمطلقة ثلاثا وللمتوفى عنها زوجها ؟ فقال : هى للمطلقة ثلاثا وللمتوفى عنها ..[1] .

قالوا : ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ... ﴾ لأن آية سورة البقرة ، خاصة بالنساء اللائى توفى عنهن أزوجهن ولم يكن هؤلاء النساء من ذوات الأحمال .

وفى هذه المسألة أقوال أخرى مبسوطة فى مظانها ..[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٧٦ .

(٢) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٦٦ ، وتفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٣٧ .

ثم كرر - سبحانه - الأمر بتقواه ، وبشر المتقين بالخير العميم فقال : ﴿ومن يتق الله﴾ - تعالى - فينفذ ما كلف به . ويبتعد عما نهى عنه .

﴿ يجعل له ﴾ سبحانه ﴿ من أمره يسرا ﴾ أى : يجعل له من الأمر العسير أمرا ميسورا. ويحول له الأمر الصعب إلى أمر سهل ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر ..

﴿ ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم من أحكام ﴿ أمر الله ﴾ أى : حكمه وشرعه ﴿ أنزله إليكم ﴾ لتعلموا به ، وتسيروا على هديه .

﴿ومن يتق الله ﴾ - تعالى - فى كل شئونه وأحواله .. ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ أى : يمح عنه ذنوبه ، ولا يؤاخذه عليها ، ﴿ ويعظم له أجرا ﴾ أى : ويضاعف له حسناته ، ويجزل له العطاء والمثوبة يوم القيامة .

ثم أمر - سبحانه - الرجال بأن يحسنوا معاملة النساء المطلقات ، ونهاهم عن الإساءة إليهن بأى لون من ألوان الإساءة فقال : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ...﴾ والخطاب للرجال الذين يريدون فراق أزواجهن ، والضمير المنصوب فى قوله ﴿ أسكنوهن ﴾ يعود إلى النساء المطلقات .

و ﴿ من ﴾ للتبعيض ، والوجد : السعة والقدرة .

أى : أسكنوا المطلقات فى بعض البيوت التى تسكنونها والتى فى وسعكم وطاقتكم إسكانهن فيها .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ أسكنوهن ﴾ وما بعده : بيان لما شرط من التقوى فى قوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ... ﴾ كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ؟ فقيل : ﴿ أسكنوهن ﴾ .

فإن قلت : فقوله : ﴿من وجدكم ﴾ ما موقعه ؟ قلت : هو عطف بيان لقوله ﴿ من حيث سكنتم ﴾ ، وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه .

والسكنى والنفقة : واجبتان لكل مطلقة . وعند مالك والشافعى : ليس للمبتونة إلا السكنى ولا نفقه لها ، وعن الحسن وحماد : لا نفقه لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبتَّ طلاقها ، فقال لها رسول الله - ﷺ - « لا سكنى لك ولا نفقة ...»[1] .

ثم أتبع - سبحانه - الأمر بالإحسان إلى المطلقات ، بالنهى عن إلحاق الأذى بهن فقال : ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ..﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٥٨ .

أى : ولا تستعملوا معهن ما يؤذيهن ويضرهن ، لكى تضيقوا عليهن ما منحه الله - تعالى - لهن من حقوق ، بأن تطيلوا عليهن مدة العدة ، فتصبح الواحدة منهن كالمعلقة ، أو بأن تضيقوا عليهن فى السكنى ، حتى يلجأن إلى الخروج ، والتنازل عن حقوقهن .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن .. ﴾ أى : وإن كان المطلقات أصحاب حمل - فعليكم يامعشر الأزواج - أن تقدموا لهن النفقة المناسبة ، حتى يضعن حملهن .

قال الإمام ابن كثير : قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف . هذه هى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حيت تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء أكانت حاملا أم غير حامل .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل - وإن كانت رجعية - لأن الحمل تطول مدته غالبا . فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ..[1] .

ولما كان الحمل ينتهى بالوضع ، انتقلت السورة الكريمة إلى بيان ما يجب للمطلقات بعد الوضع ، فقال - تعالى - : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ .

أى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تقدموا لنسائكم ذوات الحمل اللائى طلقتموهن طلاقا بائنا ، عليكم أن تقدموا لهن النفقة حتى يضعن حملهن ، فإذا ما وضعن حملهن وأرادوا أن يرضعن لكم أولادكم منهن ، فعليكم - أيضا - أن تعطوهن أجورهن على هذا الإرضاع ، وأن تلتزموا بذلك لهن .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الأم المطلقة طلاقا بائنا ، إذا أرادت أن ترضع ولدها بأجر المثل ، فليس لأحد أن يمنعها من ذلك ، لأنها أحق به من غيرها ، لشدة شفقتها عليه .. وليس للأب أن يسترضع غيرها حينئذ . كما أخذوا منها - أيضا - أن نفقة الولد الصغير على أبيه ، لأنه إذا لزمته أجرة الرضاع ، فبقية النفقات الخاصة بالصغير تقاس على ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ حض منه - سبحانه - للآباء والأمهات على التعاون والتناصح فى وجوه الخير والبر .

والائتمار معناه : التشاور وتبادل الرأى ، وسمى التشاور بذلك لأن المتشاورين فى مسألة ، يأمر أحدهما الآخر بشىء فيستجيب لأمره ، ويقال : أئتمر القوم وتآمروا بمعنى واحد .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٧٩ .

أى : عليكم - أيها الآباء والأمهات - أن تتشاوروا فيما ينفع أولادكم ، وليأمر بعضكم بعضا بما هو حسن ، فيما يتعلق بالإرضاع والأجر وغيرهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ إرشاد إلى ما يجب عليهما فى حالة عدم التراضى على الإرضاع أو الأجر .

والتعاسر مأخوذ من العسر الذى هو ضد اليسر والسماحة ، يقال تعاسر المتبايعان ، إذا تمسك كل واحد منهما برأيه ، دون أن يتفقا على شىء .

أى : وإن اشتد الخلاف بينكم ، ولم تصلوا إلى حل ، بأن امتنع الأب عن دفع الأجرة للأم ، أو امتنعت الأم عن الإرضاع إلا بأجر معين . فليس معنى ذلك أن يبقى المولود جائعا بدون رضاعة ، بل على الأب أن يبحث عن مرضعة أخرى ، لكى ترضع له ولده ، فالضمير فى قوله ﴿ له ﴾ يعود على الأب .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ أى : فستوجد مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم .

وقد علق المحشى على الكشاف بقوله : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبذول من جهتها هو لبنها وهو غير متمول ولا مضنون به فى العرف ، وخصوصا فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة فالأم إذًا أجدى باللوم ، وأحق بالعتب ..[(١)] .

قالوا : وفى هذه الجملة - أيضا - طرف من معاتبة الأب ، لأنه كان من الواجب عليه أن يسترضى الأم ، ولا يكون مصدر عسر بالنسبة لها ، حرصا على مصلحة الولد .

ثم رسم - سبحانه - لعباده المنهج الذى لو اتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين فقال : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ .

والإنفاق : بذل المال فى المصالح المتنوعة التى أحلها الله - تعالى - ، كالمأكل والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وإعطاء كل ذى حق حقه ..

والسعة : البسطة فى المال والرزق .

أى : على كل من أعطاه الله - تعالى - سعة وبسطة فى المال والرزق ، أن ينفق مما أعطاه الله - تعالى - وأن لا يبخل ، فإن البخل صفة قبيحة ، ولاسيما فى الأغنياء .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٥٩ .

فعليكم - أيها الآباء - أن تعطوا بسخاء كل من يستحقون العطاء ، وعلى رأسهم الأمهات لأولادكم ، اللائى يقمن بإرضاعهم بعد مفارقتكم لهن ، وأن لا تبخلوا عليهن فى أجرة الرضاع ، أو فى النفقة على الأولاد .

ثم قال - تعالى - : ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ...﴾ أى : ومن كان رزقه ضيقا وليس واسعا .. فلينفق على قدر ماله ورزقه وطاقته ، مما آتاه الله - تعالى - من رزق .

وقوله : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ...﴾ تعليل لما قبله ، أى : فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجه ، وعلى أولاده ، وعلى أقاربه ، وعلى غيرهم . على حسب حاله ، فإن كان موسرا أنفق على حسب يسره ، وإن كان معسرا أنفق على حسب عسره .. لأن الله - تعالى - لا يكلف نفسا إلا بقدر ما أعطاها من طاقة أو رزق ..

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب سأل عن أبى عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل الخشن من الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا أخذها : فلما أخذها ، ما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام .. فجاء الرسول فأخبره فقال عمر : رحم الله أبا عبيدة ، لقد عمل بهذه الآية : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله .. ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببشارة لمن يتبع أمره فقال : ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ أى : سيجعل الله - تعالى - بفضله وإحسانه - اليسر بعد العسر ، والسعة بعد الضيق ، والغنى بعد الفقر .. لمن شاء من عباده ، لأنه - سبحانه - هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو بعباده خبير بصير .

قال الإمام ابن كثير : وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله . فلما رأى ما بهم من الفاقة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته ذلك قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته - أى أوقدته - ، ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ..

قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا ، قال : فرجع الزوج فقال لأهله : أأصبتم بعدى شيئا ؟ فقالت امرأته : نعم من ربنا ..

فذكر الرجل ذلك للنبى - ﷺ - فقال : أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة ..[2] .

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ١٤٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨١ .

وبعد هذه التشريعات الحكيمة التى تتعلق بالطلاق وما يترتب عليه من آثار ، وبعد هذا التذكير المتكرر بوجوب تقوى الله - تعالى - والمحافظة على أداء تكاليفه ، وبعد هذا الوعظ المؤثر فى قلوب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ..

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانبا من سوء عاقبة الأقوام الذين فسقوا عن أمر ربهم ، وخالفوا رسله : وكرر الأمر بتقواه ، وذكر الناس بجانب من نعمه ، حيث أرسل إليهم رسوله - ﷺ - ليتلوا عليهم آياته .. كما ذكرهم بعظيم قدرته - تعالى - وشمول علمه ، فقال - سبحانه - :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

وكلمة ﴿ كأين ﴾ اسم لعدد كثير منهم ، يفسره ما بعده ، فهى بمعنى « كم » الخبرية التى تفيد التكثير ، وهى مبتدأ ، وقوله ﴿ من قرية ﴾ تمييز لها .

وجملة ﴿ عتت عن أمر ربها ﴾ خبر للمبتدأ . والعتو : الخروج عن الطاعة ، يقال : عتا فلان يعتو عتوا وعتيا . إذا تجبر وطغى وتجاوز الحدود فى الاستكبار والعناد .

والمراد بالقرية : أهلها ، على سبيل المجاز المرسل ، من إطلاق المحل وإرادة الحال ، فهو كقوله - تعالى - : ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ .

والقرينة على أن المراد بالقرية أهلها ، قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ أعد الله لهم عذابا شديدا ... ﴾ .

والمراد بالمحاسبة فى قوله ﴿ فحاسبناها ... ﴾ المجازاة والمعاقبة الدنيوية على أعمالهم ، بدليل قوله - تعالى - عن العذاب الأخروى بعد ذلك ﴿ أعد الله لهم عذابا شديدا ... ﴾ .

ويجوز أن يراد بالمحاسبة هنا : العذاب الأخروى ، وجىء بلفظ الماضى على سبيل التأكيد وتحقق الوقوع ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ... ﴾ .

ويكون قوله - سبحانه - : ﴿ أعد الله لهم عذابا شديدا .. ﴾ تكريرا للوعيد .

والمعنى : وكثير من أهل القرى الماضية ، خرجوا عن طاعة ربهم ، وعصوا رسله ، فكانت نتيجة ذلك أن سجلنا عليهم أفعالهم تسجيلا دقيقا ، وجازيناهم عليها جزاء عادلا ، بأن عذبناهم عذابا فظيعا . وعاقبناهم عقابا نكرا ..

والشىء النكر بضمتين وبضم فسكون - ما ينكره العقل من شدة كيفية حدوثه إنكارا عظيما .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فذاقت وبال أمرها ... ﴾ للتفريع على ما تقدم .

والوبال : الثقل ، ومنه الطعام الوبيل ، أى : الوخيم الثقيل على المعدة فيكون سببا فى فسادها ومرضها . والذوق : الإحساس بالشىء إحساسا واضحا ..

أى : فترتب على هذا الحساب والعقاب ، أن ذاق أهل تلك القرى سوء عاقبة بغيهم وجحودهم لنعم الله ..

وكان عاقبة أمرها خسرا أى : وكانت نهايتهم نهاية خاسرة خسارة عظيمة ، كما يخسر التاجر صفقته التجارية التى عليها قوام حياته .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم فى الآخرة من عذاب ، بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا فقال : ﴿ أعد الله لهم عذابا شديدا ... ﴾ .

أى : أن ما أصابهم فى الدنيا بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، ليس نهاية المطاف ، بل هيأ الله - تعالى - لهم عذابا أشد من ذلك وأبقى فى الآخرة ..

وما دام الأمر كذلك ﴿ فاتقوا الله ياأولى الألباب ، الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ... ﴾ .

والألباب جمع لب ، وهو العقل السليم الذى يرشد صاحبه إلى الخير والبر .

وقوله ﴿ الذين آمنوا ﴾ منصوب بإضمار أعنى على سبيل البيان للمنادى ، أو عطف بيان له .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، وقد سمى بذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ...﴾ أى : فيه شرفكم وعزكم ، وفيه ما يذكركم بالحق ، وينهاكم عن الباطل .

أى : فاتقوا الله - تعالى - يا أصحاب العقول السليمة ، ويامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، فهو - سبحانه - الذى أنزل عليكم القرآن الكريم ، الذى فيه ما يذكركم عما غفلتم عنه من عقيدة سليمة ، ومن أخلاق كريمة ، ومن آداب قويمة ..

وفى ندائهم بوصف « أولى الألباب » إشعار بأن العقول الراجحة هى التى تدعو أصحابها إلى تقوى الله وطاعته ، وإلى كل كمال فى الطباع والسلوك .

والمراد بالرسول فى قوله - تعالى - : ﴿ رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ محمد - ﷺ - وللمفسرين جملة من الأقوال فى إعرابه ، فمنهم من يرى أنه منصوب بفعل مقدر ، ومنهم من يرى أنه بدل من ذكرا ..[1] .

والمعنى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فقد أنزلنا إليكم قرآنا فيه ما يذكركم بخير الدنيا والآخرة .. وأرسلنا إليكم رسولا هو عبدنا محمد - ﷺ - لكى يتلو عليكم آياتنا تلاوة تدبر وفهم ، يعقبها تنفيذ ما اشتملت عليه هذه الآيات من أحكام وآداب وهدايات ..

ولكى يخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الشرك الذى كانوا واقعين فيه ، إلى نور الإيمان الذى صاروا إليه .

ومنهم من فسر الذكر بالرسول - ﷺ - ..

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا ﴾ هو النبى - ﷺ - وعبر عنه بالذكر ، لمواظبته على تلاوة القرآن الذى هو ذكر ..

وقوله - تعالى - ﴿ رسولا ﴾ بدل من ﴿ ذكرا ﴾ ، وعبر عن إرساله بالإنزال ، لأن الإرسال مسبب عنه ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٦١ .

والظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد - ﷺ - ورسولا منصوب بمقدر ، أى : وأرسل رسولا ..[١] .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ إيمانا حقا ﴿ ويعمل ﴾ عملا ﴿ صالحا يدخله ﴾ - سبحانه - بفضله وإحسانه ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ﴾ خلودا أبديا ..

وقوله : ﴿ قد أحسن الله له رزقا ﴾ حال من الضمير المنصوب فى قوله ﴿ يدخله ﴾ ، والجمع فى الضمائر باعتبار معنى ﴿ من ﴾ كما أن الأفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها : والرزق : كل ما ينتفع به الإنسان ، وتنكيره للتعظيم .

أى : قد وسع الله - تعالى - لهذا المؤمن الصادق فى إيمانه رزقه فى الجنة ، وأعطاه من الخير والنعيم ، ما يشرح صدره ، ويدخل السرور على نفسه . ويصلح باله ..

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما يدل على كمال قدرته ، وسعة علمه فقال : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ..﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى خلق سبع سماوات طباقا وخلق من الأرض مثلهن ، أى : فى العدد فهى سبع كالسماوات .

والتعدد قد يكون باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية والمعدنية ، وغير ذلك من الاعتبارات التى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية يقول - تعالى - مخبرا عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثا على تعظيم ما شرع من الدين القويم : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ﴾ كقوله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ...﴾ وقال - تعالى - ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ .

وقوله : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أى : سبعا - أيضا - كما ثبت فى الصحيحين : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه مع سبع أرضين » .

وفى صحيح البخارى : « خسف به إلى سبع أرضين .. »

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النجعة ، وأغرق فى النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند ..[٢] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٤١ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨٢ .

وقال الآلوسى : الله الذى خلق سبع سماوات مبتدأ وخبر ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أى : وخلق من الأرض مثلهن ، على أن ﴿ مثلهن ﴾ مفعول لفعل محذوف ، والجملة معطوفة على الجملة قبلها .

والمثلية تصدق بالاشتراك فى بعض الأوصاف ، فقال الجمهور : هى هنا فى كونها سبعا وكونها طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق الله ، لا يعلم حقيقتهم أحد إلا الله - تعالى - .

وقيل : المثلية فى الخلق لا فى العدد ولا فى غيره ، فهى أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع .

ورد هذا القيل بأنه قد صح من رواية البخارى وغيره ، قوله - ﷺ - : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ..»[١] .

والذى نراه أن كون المثلية فى العد ، هو المعول عليه ، لورود الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الأرضين سبع ، فعلينا أن نؤمن بذلك ، وأن نرد كيفية تكوينها ، وهيئاتها ، وأبعادها ، ومساحاتها ، وخصائصها .. إلى علم الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ أى : يجرى أمر الله - تعالى - وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، فالمراد بالأمر : قضاؤه وقدره ووحيه .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ متعلقة بقوله ﴿ خلق ﴾ ...

أى : خلق - سبحانه - سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، وأخبركم بذلك ، لتعلموا علما تاما أن الله - تعالى - على كل شىء قدير ، وأن علمه - تعالى - قد أحاط بكل شىء سواء أكان هذا الشىء جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا ..

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الطلاق » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الاسكندرية - العجمى: ٢٤ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ
٣٠ من يونيو سنة ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٤٣ .

تفسير

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « التحريم » من السور المدنية الخالصة ، وتسمى - أيضا - بسورة ﴿ لم تحرم ﴾ وبسورة « النبى » - ﷺ - وعدد آياتها اثنتا عشرة آية .

٢ - وكان نزولها بعد سورة « الحجرات » وقبل سورة « الجمعة » فهى السورة الخامسة بعد المائة بالنسبة لترتيب نزول السور القرآنية ، أما ترتيبها فى المصحف ، فهى السورة السادسة والستون .

٣ - والسورة الكريمة فى مطلعها تحكى جانبا مما دار بين النبى - ﷺ - وبين بعض زوجاته فتعرض صفحة من حياته - ﷺ - فى بيته ، ومن عتاب الله - تعالى - له ومن فضله عليه ، ودفاعه عنه .

٤ - ثم وجهت نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بأن يداوموا على العمل الصالح الذى ينجيهم من عذاب الله - تعالى - وحرضتهم على التسلح بالتوبة النصوح لأنها على رأس الأسباب التى تؤدى إلى تكفير سيئاتهم .

٥ - ثم ختمت السورة الكريمة بضرب مثلين أحدهما للذين آمنوا ، ويتمثل فى امرأة فرعون وفى مريم ابنة عمران ، والآخر للذين كفروا ويتمثل فى امرأة نوح وامرأة لوط - عليهما السلام - والغرض من ذلك العظة والاعتبار .

التفسير

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ - والمغافير : صمغ حلو له رائحة كريهة - إنى أجد منك ريح مغافير .

فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود إليه ، وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحدا ، فنزلت هذه الآيات .

وفى رواية أن التى شرب عندها العسل : حفصة بنت عمر ، وأن القائلة له ذلك : سودة بنت زمعة ، وصفية بنت حيى .

قالوا : والاشتباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

وأخرج النسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس ، أن رسول الله - ﷺ - كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله - تعالى - ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك .. الآيات .. ﴾ .

وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم : أن رسول الله - ﷺ - أصاب أم إبراهيم مارية ، فى بيت بعض نسائه - وفى رواية فى بيت حفصة فقالت : يا رسول الله فى بيتى وعلى فراشى ؟ فجعلها أى مارية - عليه حراما ، وحلف بهذا .. فأنزل الله هذه الآيات[1] .

قال القرطبى ما ملخصه : « وأصح هذه الأقوال أولها .. والصحيح أن التحريم كان فى العسل ، وأنه شربه عند زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، فجرى ما جرى فحلف أن لا يشربه وأسر ذلك ، ونزلت الآية فى الجميع »[2] .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق عددا من الروايات فى هذا الشأن : والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه - ﷺ - للعسل[3] .

وقال الآلوسى : قال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية فى قصة العسل ، لا فى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح .

والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ..[4] .

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبى - ﷺ - فقال : ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ .

وفى توجيه النداء إليه - ﷺ - تنبيه إلى أن ما سيذكر بعد النداء ، شىء مهم ، بالنسبة له ولسائر المسلمين .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك .. ﴾ للنفى المصحوب بالعتاب منه - سبحانه - لنبيه - ﷺ - .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٨ ص ١٧٧ وتفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨٥ ، وتفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٤٦ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٧٩ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨٧ .
(٤) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٤٧ .

وجملة ﴿ تبتغى مرضاة أزواجك ﴾ حال من فاعل ﴿ تحرم ﴾ ، والعتاب واقع على مضمون هذه الجملة والتى قبلها ، وهى قوله ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ .

والمعنى : يا أيها الرسول الكريم ، لماذا حرمت على نفسك ما أحله الله - تعالى - لك من شراب أو غيره ؟ أفعلت ذلك من أجل إرضاء أزواجك ؟ .

إنه لا ينبغى لك أن تفعل ذلك ، لأن ما أباحه الله - تعالى - لك ، لا يصح أن تحرمه على نفسك أو أن تمتنع عن تعاطيه ، فتشق على نفسك من أجل إرضاء غيرك .

قال بعض العلماء : « ناداه بلفظ « النبى » إشعارا بأنه الذى نُبِّئَ بأسرار التحليل والتحريم الإلهى ، والمراد بتحريمه ما أُحِل له ، امتناعه منه ، وحظره إياه على نفسه .

وهذا المقدار مباح ، ليس فى ارتكابه جناح ، وإنما قيل له ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ رفقا به ، وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه - ﷺ - أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف الله - تعالى - به ، ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه .. »[1].

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من وقع هذا اللوم ، ومن أثر هذا العتاب ، وإرشاد له - ﷺ - بأن ما فعله داخل تحت مغفرة الله - تعالى - ورحمته .

أى : والله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة وقد غفر لك - بفضله وكرمه ما فعلته بسبب بعض أزواجك ، وجعلك على رأس من تظلهم رحمته .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر رحمته فقال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ .

وقوله ﴿ فرض ﴾ هنا بمعنى شرع ، والتحلة : مصدر بمعنى التحليل ، والمراد بها الكفارة ، وهى مصدر حلّل كالتكرمة مصدر كرّم ، من الحل الذى هو ضد العقد .

أى : قد شرع الله - تعالى - لكم تحليل الايمان التى عقد تموها ، عن طريق الكفارة ، لأن اليمين إذا كانت فى أمر لا يحبه الله - تعالى - فالعدول عنها أولى وأفضل .

وفى الحديث الشريف يقول - ﷺ - « إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وفعلت الذى هو خير » .

وقد اختلف العلماء فى التحريم الذى كان من النبى - ﷺ - أكان بيمين أم لا .

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ١٦ ص ٥٨٥٢ .

وظاهر الآية يؤيد القول بالإيجاب لقوله - تعالى - : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ لأن هذه الجملة الكريمة تشعر بأن هناك يمينا تحتاج إلى كفارة .

وقد جاء فى بعض الروايات الصحيحة أنه قال : « بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت . لا تخبرى بذلك أحدا .. » .

قال الآلوسى ما ملخصه : واختلفوا هل كفر النبى - ﷺ - عن يمينه هذه أولا ؟

فعن الحسن أنه - ﷺ - لم يكفر لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين .

وعن مقاتل : أنه - ﷺ - أعتق رقبة .. ونقل مالك عن زيد بن أسلم انه - ﷺ - أعطى الكفارة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله مولاكم ﴾ أى : وهو - سبحانه - سيدكم ومتولى أموركم وناصركم . وهو - تعالى - : ﴿ العليم الحكيم ﴾ أى : العليم بجميع أحوالكم وشئونكم ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله وتدبير شئون عباده .

والظرف فى قوله - تعالى - ﴿ وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا ﴾ متعلق بمحذوف تقديره اذكر ، وقوله : ﴿ أسر ﴾ من الإسرار بالشىء بمعنى كتمانه وعدم إشاعته .

والمراد ببعض أزواجه : حفصة - رضى الله عنها - .

والمراد بالحديث قوله لها - كما جاء فى بعض الروايات - : « بل شربت عسلا عند زينب ، ولن أعود ، وقد حلفت فلا تخبرى بذلك أحدا .. » .

أو قوله لها فى شأن مارية : « إنى قد حرمتها على نفسى ، فاكتمى ذلك فأخبرت بذلك عائشة » .

أى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن أسر النبى - ﷺ - إلى زوجه حفصة حديثا ، يتعلق بشربه العسل فى بيت زينب بنت جحش ، وقوله - ﷺ - لحفصة لا تخبرى بذلك أحدا » .

﴿ فلما نبأت به ﴾ أى : فلما أخبرت حفصة عائشة بهذا الحديث الذى أمرت بكتمانه ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أى : وأطلع الله - تعالى - نبيه - ﷺ - على ماقالته حفصة لعائشة .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٤٨ .

فالمراد بالإظهار : الاطلاع ، وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب .

وعبر بالإظهار عن الاطلاع ، لأن حفصة وعائشة كانتا حريصتين على عدم معرفة ما دار بينهما فى هذا الشأن ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على ذلك كانتا بمنزلة من غلبتا على أمرهما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عرف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ بيان للمسلك السامى الذى سلكه - ﷺ - فى معاتبته لحفصة على إفشائها لما أمرها أن تكتمه والمفعول الأول لعرف محذوف أى : عرفها بعضه .

أى : فحين خاطب - ﷺ - حفصة فى شأن الحديث الذى أفشته ، اكتفى بالإشارة إلى جانب منه ، ولم يذكر لها تفاصيل ما قاله لها سابقا . لسمو أخلاقه - ﷺ - إذ فى ذكر التفاصيل مزيد من الخجل والإحراج لها .

قال بعضهم : ما زال التغافل من فعل الكرام وما استقصى كريم قط وقال الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

وإنما عرفها - ﷺ - ببعض الحديث ، ليوقفها على خطئها وعلى أنه كان من الواجب عليها أن تحفظ سره - ﷺ - .

قالوا : ولعل حفصة رضى الله عنها - قد فعلت ذلك ، ظنا منها أنه لا حرج فى إخبار عائشة بذلك ، أو أنها اجتهدت فأخطأت ، ثم تابت وندمت على خطئها .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته حفصة للرسول - ﷺ - وما رد به عليها فقال : ﴿ فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير ﴾ .

أى : فلما سمعت من الرسول - ﷺ - ما يدل على أنه قد اطلع على ما قالته لعائشة ، قالت له : من أخبرك بما دار بينى وبينها ؟ فأجابها - ﷺ - بقوله : أخبرنى بذلك الله - تعالى - العليم بجميع أحوال عباده وتصرفاتهم .. الخبير بما تكنه الصدور ، وبما يدور فى النفوس من هواجس وخواطر .

وإنما قالت له - ﷺ - : ﴿ من أنبأك هذا ﴾ لتتأكد من أن عائشة لم تخبره - ﷺ - بما دار بينها فى هذا الشأن .. فلما قال لها - ﷺ - : ﴿ نبأنى العليم الخبير ﴾ تحقق ظنها فى كتمان عائشة لما قالته لها ، وتيقنت أن الذى أخبره بذلك هو الله - عز وجل - .

وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : ﴿ العليم الخبير ﴾ إشارة حكيمة وتنبيه بليغ ، إلى أن من الواجب على كل عاقل ، أن يكون ملتزما لكتمان الأسرار التى يؤتمن عليها ، وأن إذاعتها - ولو فى أضيق الحدود - لا تخفى على الله - عز وجل - لأنه - سبحانه - عليم بكل معلوم ،

ومحيط بخبايا النفوس وخلجاتها .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك خطابه إلى حفصة وعائشة ، فأمرهما بالتوبة عما صدر منهما .

فقال : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ .

ولفظ ﴿ صغت ﴾ بمعنى مالت وانحرفت عن الواجب عليهما . يقال صغا فلان يصغو ويصغى صغوا ، إذا مال نحو شيء معين . ويقال : صغت : الشمس ، إذا مالت نحو الغروب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : إن تتوبا إلى الله ، فلتوبتكما موجب أو سبب ، فقد مالت قلوبكما عن الحق ، وانحرفت عما يجب عليكما نحو الرسول - ﷺ - من كتمان لسره ، ومن حرص على راحته ، ومن احترام لكل تصرف من تصرفاته .. وجاء الخطاب لهما على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة فى المعاتبة ، فإن المبالغ فى ذلك يوجه الخطاب إلى من يريد معاتبته مباشرة .

وقال - سبحانه - ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ بصيغة الجمع للقلوب ، ولم يقل قلبا كما بالتثنية ، لكراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة ، مع ظهور المراد ، وأمن اللبس .

ثم ساق - سبحانه - ما هو أشد فى التحذير والتأديب فقال : ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

وقوله ﴿ تظاهرا ﴾ أصله تتظاهرا فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . والمراد بالتظاهر : التعاون والتآزر ، يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه على ما يريده ، وأصله من الظهر ، لأن من يعين غيره فكأنه يشد ظهره ، ويقوى أمره .

قال - تعالى - : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾[1] .

وجواب الشرط - أيضا - محذوف - أى : وإن تتعاونا عليه بما يزعجه ، ويغضبه ، من الإفراط فى الغيرة ، وإفشاء سره . فلا يعدم ناصرا ولا معينا بل سيجد الناصر الذى ينصره عليكما ،فإن الله - تعالى - ﴿ هو مولاه ﴾ أى : ناصره ومعينه ﴿ وجبريل ﴾ كذلك ناصره ومعينه عليكما .

﴿ وصالح المؤمنين ﴾ أى : وكذلك الصالحون من المؤمنين من أنصاره وأعوانه .

---

(١) سورة التوبة الآية ٣ .

﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أى : والملائكة بعد نصر الله - تعالى - له ، وبعد نصر جبريل وصالح المؤمنين له ، مؤيدونه ومناصرونه وواقفون فى صفه ضدكما .

وفى هذه الآية الكريمة أقوى ألوان النصر والتأييد للرسول - ﷺ - وأسمى ما يتصوره الإنسان من تكريم الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ومن غيرته - عز وجل - عليه ، ومن دفاعه عنه - ﷺ - .

وفيها تعريض بأن من يحاول إغضاب الرسول - ﷺ - فإنه لا يكون من صالح المؤمنين .

وقوله : ﴿ وجبريل ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ وصالح المؤمنين والملائكة ﴾ معطوف عليه .

وقوله : ﴿ بعد ذلك ﴾ متعلق بقوله ﴿ ظهير ﴾ الذى هو خبر عن الجميع .

وقد جاء بلفظ المفرد ، لأن صيغة فعيل يستوى فيها الواحد وغيره . فكأنه - تعالى - قال : والجميع بعد ذلك مظاهرون له ، واختير الإفراد للإشعار بأنهم جميعا كالشىء الواحد فى تأييده ونصرته ، وبأنهم يد واحدة على من يعاديه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله : ﴿ بعد ذلك ﴾ تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله - تعالى - أعظم وأعظم ؟

قلت : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله ، فكأنه فضل نصرته - تعالى - بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته ، لفضلهم .. »[1] .

وخص جبريل بالذكر مع أنه من الملائكة ، للتنويه بمزيد فضله ، فهو أمين الوحى ، والمبلغ عن الله - تعالى - إلى رسله .

هذا ، ومما يدل على أن الخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ ، لحفصة وعائشة ، ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله - ﷺ - اللتين قال الله - تعالى - فيهما : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ .

فلما كان ببعض الطريق .. قلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى - ﷺ - اللتان قال الله تعالى - فيهما : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ .

فقال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس .. هما حفصة وعائشة .[2] .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٦٧ .

(٢) راجع الحديث بتمامه فى تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨٨ فهو حديث ممتع وطويل .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تكريمه لنبيه تكريما آخر ، وإلى تهديده لمن تسىء إليه من أزواجه تهديدا آخر فقال - تعالى - : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ﴾ .

قال الجمل ما ملخصه : سبب نزولها أنه - ﷺ - لما أشاعت حفصة ما أسرها به ، اغتم - ﷺ - وحلف أن لا يدخل عليهن شهرا مؤاخذة لهن .

ولما بلغ عمر - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قد اعتزل نساءه .. قال له يا رسول الله : لا يشق عليك أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

قال عمر : وقلما تكلمت بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولى الذى أقوله فنزلت هذه الآية .

فاستأذن عمر النبى - ﷺ - أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له فقام على باب المسجد ، ونادى بأعلى صوته : لم يطلق النبى - ﷺ - نساءه[1] .

و ﴿ عسى ﴾ كلمة تستعمل فى الرجاء ، والمراد بها هنا التحقيق ، لأنها صادرة عن الله - عز وجل - .

قال الآلوسى : ﴿ عسى ﴾ فى كلامه - تعالى - للوجوب ، وأن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق الشرط وقيل : هى كذلك إلا هنا ، والشرط معترض بين اسم ﴿ عسى ﴾ وخبرها .

والجواب محذوف . أى : إن طلقكن فعسى .. و ﴿ أزواجا ﴾ مفعول ثان لـ ﴿ يبدل ﴾ و ﴿ خيرا ﴾ صفته .[2] .

أى : عسى إن طلقكن رسولنا محمد - ﷺ - بإذن ربه ومشيئته ، أن يبدله - سبحانه - أزواجا خيرا منكن .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بقوله ﴿ مسلمات ﴾ منقادات ومطيعات لله ولرسوله ، ومتصفات بكل الصفات التى أمر بها الإسلام .

﴿ مؤمنات ﴾ أى : مذعنات ومصدقات بقلوبهن لكل ما جاء به النبى - ﷺ - من عند ربه .

﴿ قانتات ﴾ أى . قائمات بالطاعة لله ولرسوله على أكمل وجه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٦٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٥٥ .

﴿ تائبات ﴾ أى : مقلعات عن الذنوب والمعاصى ، وإذا مسهن شىء منها ندمن وتبن إليه - تعالى - توبة صادقة نصوحا .

﴿ عابدات ﴾ أى : مقبلات على عبادته - تعالى - إقبالا عظيما .

﴿ سائحات ﴾ أى : ذاهبات فى طاعة الله أى مذهب ، من ساح الماء : إذا سال فى انحاء متعددة ، وقيل معناه : مهاجرات . وقيل : صائمات . تشبيها لهن بالسائح الذى لا يصحب معه الزاد غالبا فلا يزال ممسكا عن الطعام حتى يجده .

﴿ ثيبات ﴾ جمع ثيب - بوزن سيد - وهى المرأة التى سبق لها الزواج ، من ثاب يثوب ثوبا ، إذا رجع ، وسميت المرأة التى سبق لها الزواج بذلك . لأنها ثابت إلى بيت أبويها بعد زواجها ، أو رجعت إلى زوج آخر غير زوجها الأول .

﴿ وأبكارا ﴾ جمع بكر ، وهى الفتاة العذراء التى لم يسبق لها الزواج ، وسميت بذلك لأنها لا تزال على أول حالتها التى خلقت عليها .

وهذه الصفات جاءت منصوبة على أنها نعت لقوله ﴿ أزواجا ﴾ أو حال .

ولم يعطف بعضها على بعض بالواو ، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن .

وعطف - سبحانه - ﴿ وأبكارا ﴾ على ما قبله لتنافى الوصفين ، إذ الثيبات لا يوصفن بالأبكار ، وكذلك الأبكار لا يوصفن بالثيبات ، ولا يجتمع الوصفان فى ذات واحدة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف تكون المبدلات خيراً منهن ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين ؟

قلت : إذا طلقهن رسول الله - ﷺ - لعصيانهن له ، وإيذائهن إياه ، لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله - ﷺ - والنزول على هداه ورضاه خيرا منهن .

فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها من العاطف ، ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن ، فلم يكن بد من الواو[1] .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترسم جانبا من حياة الرسول - ﷺ - مع

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٦٧ .

أزواجه ، وهذا الجانب فيه ما فيه من العظات التى من أبرزها تكريم الله - تعالى لنبيه - ﷺ - وإرشاده إلى ما هو أهدى وأقوم ، وسمو أخلاقه - ﷺ - فى معاملته لأهله ، وتحذير أزواجه من أن يتصرفن أى تصرف لا يرغب فيه ، ولا يميل إليه : وتعليم المؤمنين والمؤمنات - فى كل زمان ومكان - كيف تكون العلاقة الطيبة بين الرجال والنساء .

* * *

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداءين إلى المؤمنين ، أمرهم فى أولهما أن يؤدوا واجبهم نحو أنفسهم ونحو أهليهم ، حتى ينجو من عذاب النار ، وأمرهم فى ثانيهما بالمداومة على التوبة الصادقة النصوح ، ووجه نداء إلى الكافرين بين لهم فيه سوء عاقبة كفرهم ، ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى - ﷺ - أمره فيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين جهاداً مصحوبا بالغلظة والخشونة .. فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ
لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ قوا ﴾ أمر من الوقاية ، يقال : وقى يَقِى ، كضرب يضرب .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، أبعدوا أنفسكم عن النار عن طريق فعل الحسنات . واجتناب السيئات ، وأبعدوا أهليكم - أيضا - عنها ، عن طريق نصحهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف . ونهيهم عن المنكر .

قال القرطبى ، قال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم .

ففى الحديث الصحيح أن النبى - ﷺ - قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » .

وقال - ﷺ - : « ما نحل والد ولدا ، أفضل من أدب حسن » .

وقال - ﷺ - : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

وقد روى مسلم فى صحيحه أن النبى - ﷺ - كان إذا أوتر يقول : قومى فأوترى يا عائشة .

وذكر القشيرى أن عمر - رضى الله عنه - لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله : نقى أنفسنا فكيف بأهلينا ؟

فقال : « تنهونهم عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهم بما أمركم الله به »(١) .

وجاء لفظ النار منكراً ، للتهويل . أى : نارا عظيمة لا يعلم مقدار حرها إلا الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ أى : هذه النار لا توقد كما يوقد غيرها بالحطب وما يشبهها ، وإنما مادة اشتعالها تتكون من الناس الذين كانوا فى الدنيا يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، ومن الحجارة التى كانت تعبد من دونه - تعالى - .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تهويلها أمرا آخر وصفة أخرى فقال : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

والغلاظ : جمع غليظ وهو المتصف بالضخامة والغلظة التى هى ضد الرقة .

وهذا اللفظ صفة مشبهة ، وفعله غلظ ككرم .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٩٤ .

وشداد : جمع شديد ، وهو المتصف بالقوة والشدة ، يقال : فلان شديد على فلان ، أى : قوى عليه ، بحيث يستطيع أن ينزل به ما يريد من الأذى والعقاب .

أى : هذه النار من صفاتها - أيضا - أن الموكلين بإلقاء الكفار والفساق فيها ، ملائكة قساة فى أخذهم أهل النار ، أقوياء عليهم ، بحيث لا يستطيع أهل النار أن يفلتوا منهم ، أو أن يعصوا لهم أمرا .

وهؤلاء الملائكة من صفاتهم كذلك أنهم لا يعصون لله - تعالى - أمرا . وإنما ينفذون ما يكلفهم - سبحانه - به تنفيذا تاما .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت أليس الجملتان - لا يعصون .. ويفعلون فى معنى واحد ؟

قلت : لا فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه .

ثم بين - سبحانه - ما تقوله الملائكة لأهل النار عند ما يعرضون عليها فقال : ﴿ يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ والمراد باليوم ، يوم القيامة فأل فيه للعهد .

أى : تقول الملائكة لهم فى هذا اليوم العسير على سبيل التبكيت والتوبيخ - لا تعتذروا - أيها الكافرون عن كفركم ، بأن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير أو بأن غيرنا أضلنا ، أو بأننا ما كنا مشركين .. فإن هذه الأعذار لن تنفعكم ، وأنتم فى هذا اليوم إنما تعاقبون على كفركم فى الدنيا ، وعلى إصراركم على ذلك حتى أدرككم الموت .

فالآية الكريمة توبيخ للكافرين ، وتيئيس لهم من قبول أعذارهم الكاذبة .

ثم يرشد - سبحانه - المؤمنين ، إلى ما يعينهم على الوقاية من النار فيقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا .. ﴾ .

والتوبة : العزم الصادق على عدم العودة إلى المعصية والندم على ما فعله منها فى الماضى ، والنصوح صيغة مبالغة من النصح ، وصفت بها التوبة على سبيل الإسناد المجازى ، والمقصود وصف التائبين بها ، من نصح فلان التوب إذا خاطه ، فكأن التائب يرقع ما مزقه بالمعصية . أو من قولهم : عسل ناصح .

وقد ذكروا فى معنى هذه الجملة أكثر من عشرين وجهاً .

قال القرطبى ما ملخصه : اختلفت عبارة العلماء ، وأرباب القلوب ، فى التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا ، فقيل : هى التى لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

وقال قتادة : النصوح الصادقة الناصحة .. الخالصة .

وقال القرطبى : التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الإخوان .

وقال الفقهاء : التوبة التى لا تعلق لها بحق آدمى لها ثلاثة شروط : احدها أن يقلع عن المعصية ، وثانيها : أن يندم على ما فعله ، وثالثها : أن يعزم على أن لا يعود إليها .

فإذا اجتمعت هذه الشروط فى التوبة كانت نصوحا .

وإن كانت تتعلق بحق آدمى ، فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة المتقدمة ، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت المعصية مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه ، أو طلب العفو منه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

وهى واجبة من كل معصية على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ..[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾.

والرجاء المستفاد من فعل ﴿ عسى ﴾ مستعمل هنا فى الوعد الصادق منه - تعالى - على سبيل الكرم والفضل ، فقد قالوا إن كل ترج فى القرآن واقع منه - تعالى - فضلا منه وكرما .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، توبوا إلى الله - تعالى - « توبة صادقة » بحيث تندمون على ما فرط منكم من ذنوب ، وتعزمون على عدم العودة إليها ، وتستمرون على توبتكم طوال حياتكم .. فإنكم متى فعلتم ذلك غفر الله - تعالى - لكم ذنوبكم : وكفر عنكم سيئاتكم ، وأدخلكم جنات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ عسى ربكم ﴾ : إطماع من الله لعباده . وفيه وجهان : أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل . ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت . والثانى : أن يجىء به تعليما للعباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء ..[2] .

والظرف فى قوله - سبحانه - : ﴿ يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ منصوب بقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ يدخلكم ﴾ ، أو بفعل مضمر تقديره : اذكر .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٩٤ .
(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٠ .

وقوله : ﴿ لا يخزى ﴾ من الخزى بمعنى الافتضاح : يقال أخزى الله فلانا إذا فضحه ، والمراد به هنا : عذاب النار .

وقوله : ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ معطوف على النبى ، وجملة ﴿ نورهم يسعى ﴾ مستأنفة .

أى : يدخلكم الله - بفضله وكرمه - ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ يوم القيامة ، يوم ينجى - سبحانه - النبى - ﷺ - وينجى الذين آمنوا معه من عذاب النار ، ومن خزى هذا اليوم العصيب .

وهم جميعا وعلى رأسهم الرسول - ﷺ - نورهم وهم على الصراط ، يسعى ويمتد وينتشر ﴿ بين أيديهم ﴾ .

أى أمامهم ﴿ وبأيمانهم ﴾ أى : وعن أيمانهم .

ويقولون - على سبيل الحمد والشكر لله - تعالى - ياربنا ﴿ أتمم لنا نورنا ﴾ بأن تزيده ولا تنقصه حتى ندخل جنتك .

﴿ واغفر لنا ﴾ ياربنا ذنوبنا ﴿ إنك ﴾ ياربنا ، ﴿ على كل شىء قدير ﴾ .

وفى عطف الذين آمنوا على النبى - ﷺ - إشعار بأن سبب انتفاء خزيهم ، هو إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، وصحبتهم الكريمة للنبى - ﷺ - .

والضمير فى قوله ﴿ نورهم ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ - والذين آمنوا معه .

وخص - سبحانه - الأمامَ واليمين بالذكر ، لفضل هذين المكانين ، إذالنور عندما يكون من الأمام يستمتع الإنسان بمشاهدته ، وعندما يكون من جهة اليمين يزداد تفاؤلا وانشراحا به .

والتخصيص بذلك لا ينفى أن يكون النور محيطا بهم من كل جوانبهم ، وهو نور حقيقى يكرم الله - تعالى - به عباده الصالحين .

وختموا دعاءهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ للإشارة إلى أنهم كانوا على جانب كبير من رجاء تحقيق دعائهم ، لأنهم يسألون ويدعون الله - تعالى - الذى لا يقف أمام قدرته شىء .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يجاهد الكفار والمنافقين جهادا كبيرا فقال : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

وخص النبى - ﷺ - بالأمر بالجهاد ، مع أن الأمر به يشمل المؤمنين معه ، لأنه - ﷺ - هو قائدهم ورائدهم .

وجهاده - ﷺ - للكفار يكون بدعوتهم إلى الحق حتى يسلموا ، فإذا لم يستجيبوا جاهدهم بالسيف والسلاح حتى يزهق باطلهم .

وجهاده للمنافقين يكون بتأديبهم وزجرهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، حتى يأمن المؤمنون شرهم ، وحتى يشعروا بأن النبى والمؤمنين لهم بالمرصاد .

والغلظة فى الأصل : تطلق على الشىء الصلب الغليظ ، والمراد بها هنا : معاملتهم بالشدة والخشونة والقسوة .. حتى يأمن المؤمنون جانبهم ، ويتقوا شرهم .

أى : يا أيها النبى الكريم جاهد أنت ومن معك من المؤمنين ، الكفار والمنافقين . وعاملهم جميعا بالخشونة والغلظة .. حتى يهابوك أنت ومن معك ، وحتى تكونوا فى مأمن منهم ومن أذاهم إذ الحق لابد له من قوة تحميه وتدفع عنه كيد أعدائه .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة .

أى : أن هؤلاء الكافرين والمنافقين ، حالهم فى الدنيا المجاهدة والمعاملة التى لا تسامح معها ولا تساهل ، حتى تكون كلمتهم السفلى ، وكلمة الله - تعالى - هى العليا .

أما حالهم فى الآخرة ، فالإلقاء بهم فى جهنم ، وبئس المأوى والمسكن جهنم ، فالمخصوص بالذم محذوف ، وهو جهنم ، أو المأوى .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أرشدت النبى - ﷺ - والمؤمنين ، إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

وبعد هذه النداءات ، للمؤمنين ، وللكافرين وللنبى - ﷺ - ضرب - سبحانه - مثلين لنساء كافرات فى بيوت أنبياء ، ولنساء مؤمنات فى بيوت كفار ، لتزداد الموعظة وضوحا ، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وليشعر الجميع - ولا سيما أزواج النبى - ﷺ - أنهم مسئولون أمام الله - تعالى - عن أعمالهم .. فقال - تعالى - :

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

والمراد بضرب المثل . إيراد حالة غريبة ، ليعرف بها حالة أخرى مشابهة لها فى الغرابة . وقوله ﴿ مثلا ﴾ مفعول ثان لضرب ، والمفعول الأول ﴿ امرأة نوح .... ﴾ .

والمتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد أكثر من ضرب الأمثال ، لأن فيها تقريبا للبعيد ، وتوضيحا للغريب وتشبيه الأمر المعقول بالأمر المحسوس ، حتى يرسخ فى الأذهان .. .

أى : جعل الله - تعالى - مثلا لحال الكافرين ، وأنه لا يغنى أحد عن أحد ﴿ امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ عليهما السلام .

وعدى الفعل ﴿ ضرب ﴾ باللام ، للإشعار بأن هذا المثل إنما سيق من أجل أن يعتبر به الذين كفروا ، وأن يقلعوا عن جهالاتهم التى جعلتهم يعتقدون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة .

وقوله - تعالى - : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ...﴾ بيان لحال هاتين المرأتين ، ولما قامتا به من أفعال شائنة ، تتنافى مع صلتهما بهذين النبيين الكريمين ..

والمراد بالتحتية هنا : كونهما زوجين لهذين النبيين الكريمين ، وتحت عصمتهما وصيانتهما ، وأشد الناس التصاقا بهما .

وقال - سبحانه - ﴿ كانتا تحت عبدين ...﴾ للتعظيم ، أى : كانتا فى عصمة نبيين لهما من سمو المنزلة ما لهما عند الله - تعالى - .

ووصفهما - سبحانه - بالصلاح ، مع أنهما نبيان والنبوة أعظم هبة من الله لعبد من عباده - للتنويه بشأن الصالحين من الناس ، حتى يحرصوا على هذه الصفة ، ويتمسكوا بها ، فقد مدح الله - تعالى - من هذه صفته فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

وخيانة امرأة نوح له ، كانت عن طريق إفشاء أسراره ، وقولها لقومه : إنه مجنون .

وخيانة امرأة لوط له ، كانت عن طريق إرشاد قومه إلى ضيوفه .. مع استمرار هاتين المرأتين على كفرهما ..

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ فخانتاهما ﴾ أى : فى الإيمان ، لم يوافقا هما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة ..

وليس المراد بقوله : ﴿ فخانتاهما ﴾ فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة ..

وعن ابن عباس : قال : مازنتا ، أما امرأة نوح ، فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل على قومها على أضيافه .

وفى رواية عنه قال : كانت خيانتهما أن امرأة نوح ، كانت تفشى سره ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط ، فكانت إذا أضاف لوط أحدا ، أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ بيان لما أصابهما من سوء العاقبة بسبب خيانتهما .

أى : أن نوحا ولوطا - عليهما السلام - مع جلالة قدرهما ، لم يستطيعا أن يدفعا شيئا من العذاب عن زوجتيهما الخائنتين لهما ، وإنما قيل لهاتين المرأتين عند موتهما . أو يوم القيامة ، ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفرة الفجرة ..

وقوله ﴿ شيئا ﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : ﴿ يغنيا ﴾ ، وجاء منكرا للتقليل والتحقير ، أى : فلم يغنيا عنهما شيئا من الإغناء حتى ولو كان قليلا ..

وقوله : ﴿ مع الداخلين ﴾ بعد قوله : ﴿ ادخلا النار ﴾ لزيادة تبكيتهما ، ولتأكيد مساواتهما فى العذاب مع غيرهما من الكافرين الخائنين الذين لا صلة لهما بالأنبياء من حيث القرابة أو مايشبهها .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا للمؤمنين فقال : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ وهى آسية ابنة مزاحم ، التى لم يمنعها ظلام الكفر الذى كانت تعيش فيه فى بيت فرعون ، ولم يشغلها ما كانت فيه من متاع الحياة الدنيا وزينتها .. عن أن تطلب الحق ، وتعرض عن الباطل ، وأن تكفر بكل ما يدعيه زوجها من كذب وطغيان .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٩٨ .

قال الجمل : آمنت بموسى - عليه السلام - لما غلب السحرة ، وتبين لها أنه على الحق . ولم تضرها الوصلة بالكافر ، وهى الزوجية التى هى من أعظم الوصل ولا نفعه إيمانها ، لأن كل امرىء بماكسب رهين ..

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد - ﷺ - وآسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون .

قيل : إنها اسرائيلية وأنها عمة موسى . وقيل إنها ابنة عم فرعون .. ومن فضائلها أنها اختارت القتل على الملك ، وعذاب الدنيا على النعيم الذى كانت فيه - بعد أن خالط الإيمان قلبها[1] .

أى : وجعل الله - تعالى - حال امرأة فرعون ، مثلا للمؤمنين ، حيث آمنت بالحق بعد أن تبين لها ، دون أن يصرفها عن ذلك أى صارف ، فكان ما فعلته فى أسمى درجات الإخلاص وصدق اليقين ..

والظرف فى قوله : ﴿ إذ قالت ...﴾ متعلق بمحذوف ، أو بقوله : ﴿ مثلا ﴾ .

أى : وضرب الله - تعالى - مثلا للذين آمنوا ، حال امرأة فرعون وقت أن قالت ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ أى : ابن لى بيتا فى مستقر رحمتك ، أو فى جنتك التى لا يستطيع أحد التصرف فيها إلا بإذنك .

وقوله : ﴿ فى الجنة ﴾ بدل أو عطف بيان لقوله - تعالى - ﴿ عندك ﴾ وقدم عندك ، للإشعار بأن محبتها للقرب من رحمته - تعالى - أهم من أى شىء آخر .

﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ أى : ونجنى من طغيان فرعون ، ومن عمله الذى بلغ النهاية فى السوء والقبح ..

﴿ ونجنى ﴾ - أيضا - من القوم الظالمين ، وهم أتباع فرعون وحاشيته وملؤه ، وشيعته ..

وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب ، فهى تسأل الله - تعالى - أن يعوضها عن دار فرعون ، دارا فى أعلى درجات الجنة ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٧١ .

وهذا الدعاء يشعر بأن فرعون وقومه ، قد صدوها عن الإيمان ، وهددوها بأنها إن آمنت .. حرموها من قصر فرعون ، وزينته وفخامته .

كما أنها سألت ربها - عز وجل - أن ينجيها من ذات فرعون ، ومن عمله السيء ، ومن كل من حام حول فرعون ، واتبعه فى طغيانه وكفره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومريم ابنة عمران ..﴾ معطوف على ﴿ امرأة فرعون ...﴾ .

أى : وضرب الله - تعالى - مثلا آخر للمؤمنين مريم ابنة عمران ..

﴿ التى أحصنت فرجها ﴾ أى حفظته وصانته ، إذ الإحصان جعل الشيء حصينا ، بحيث لا يتوصل إليه ، وهو كناية عن عفتها وطهارتها وبعدها عن كل فاحشة ..

وقوله ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ مفرع على ما قبله .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فنفخنا فيه ﴾ النافخ رسوله جبريل - عليه السلام - فالإسناد مجازى . وقيل الكلام على حذف مضاف ، أى : فنفخ رسولنا ، وضمير ﴿ فيه ﴾ للفرج .

واشتهر أن جبريل - عليه السلام - نفخ فى جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج .

وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها ، وهو محتمل لأن الفرج معناه فى اللغة ، كل فرجة بين شيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها ، لأنها إذا منعت جيب درعها ، فهى للنفس أمنع ..(١) .

أى : فنفخ رسولنا جبريل فى فرجها أو فى جيب درعها ، روحا من أرواحنا هى روح عبدنا ونبينا عيسى - عليه السلام - .

وإضافة الروح إلى ذاته - تعالى - لأنه هو الخالق والموجد وللإشارة إلى أن تكوين المخلوق الحى فى رحمها ، كان على غير الأسباب المعتادة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ زيادة فى مدحها ، وفى الثناء عليها ..

أى : وكان من صفات مريم ابنة عمران أنها آمنت إيمانا حقا ﴿ بكلمات ربها ﴾ أى : بشرائعه التى شرعها لعباده ، وبما ألقاه إليها من إرشادات عن طريق وحيه .

﴿ وكتبه ﴾ أى : وصدقت بكتبه التى أنزلها على أنبيائه . وقرأ الجمهور ﴿ وكتابه ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٦٤ .

بالإفراد ، على أن المراد به جنس الكتب ، أو الإنجيل الذى أنزله - سبحانه - على ابنها عيسى .

و﴿ من ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ للابتداء ، أى : وكانت من نسل الرجال القانتين ، الذين بذلوا أقصى جهدهم فى طاعة الله - تعالى - ، وفى إخلاص العبادة له .

ويصح أن تكون ﴿ من ﴾ للتبعيض . أى : وكانت من عداد المواظبين على الطاعة ، وجىء بجمع الذكور على سبيل التغليب ، وللإشعار بأن طاعتها لا تقل عن طاعة الرجال ، الذين بلغوا الغاية فى المواظبة على طاعة الله - تعالى - .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ثلاثة أمثال : مثل للكافرين ، ومثلين للمؤمنين .

وقد تضمن مثل الكفار ، أن الكافر يعاقب على كفره ، دون أن ينفعه ما بينه وبين المؤمنين من قرابة أو نسب .. كما حدث لامرأة نوح وامرأة لوط ..

وأما المثلان اللذان للمؤمنين ، فقد تضمنا أن اتصال المؤمن بالكافر ، لا يضره شيئا إذا فارقه فى كفره وعمله ..

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى فقال : ما ملخصه مثّل الله - تعالى - حال الكفار ، فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين .. دون أن ينفعهم ما بينهم وبينهم من صلة أو قرابة - بحال امرأة نوح وامرأة لوط : فإنهما لما نافقتا وخانتا الرسولين . لم يغن عنهما ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج شيئا ..

ومثل حال المؤمنين - فى أن وصلة الكافرين لا تضرهم . ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ، فإنها مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، فإنها بسبب إيمانها قد رفع منزلتها عنده ..

وبحال مريم ابنة عمران ، فقد أعطاها الله ما أعطاها من الكرامة .. مع أن قومها كانوا كافرين ..

وفى طى هذين التمثيلين تعريض بأمى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله - ﷺ- بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ...

وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه ، كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله - ﷺ - فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ..

وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء ، حدا يدق عن تفطن العالم ، ويزل عن تبصره[1]..

وبعد : فهذا تفسير لسورة « التحريم » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الاسكندرية - العجمي: مساء ٢٦ من شوال ١٤٠٦ هـ
٤ من يوليو ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٠ .

فهرس المجلد الرابع عشر
من سورة الذاريات إلى سورة التحريم

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سور

جزأى « تبارك » و« عمَّ يتساءلون »

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الخامس عشر

دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الملك

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الْمُلْك » من السور المكية الخالصة ، ومن السور ذات الأسماء المتعددة ، قال الآلوسى : وتسمى « تبارك » و« المانعة » و« المنجية » و« المجادلة » .

فقد أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : كنا نسميها على عهد رسول الله - ﷺ - « المانعة » .

وأخرج الترمذى وغيره عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى - ﷺ - خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها . فأتى النبى - ﷺ - فأخبره فقال - ﷺ - : هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر .

وفى رواية عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى . قال : اقرأ سورة « تبارك الذى بيده الملك » وعلمها أهلك ، وجميع ولدك ... فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها ..

وقد جاء فى فضلها أخبار كثيرة ، منها - سوى ما تقدم - ما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى ، عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : إن سورة من كتاب الله ، ما هى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل حتى غفر له ، ﴿ تبارك الذى بيده الملك ...﴾[1] .

وكان نزولها بعد سورة « المؤمنون » وقبل سورة « الحاقة » .. وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية فى المصحف المكى .. وثلاثون آية فى غيره .

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٢ وتفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٣ .

٢ - والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وقدرته وعن مظاهر فضله ورحمته بعباده ، وعن بديع خلقه فى هذا الكون ، وعن أحوال الكافرين ، وأحوال المؤمنين يوم القيامة ، وعن وجوب التأمل والتدبر فى ملكوت السموات والأرض .. وعن الحجج الباهرة التى لقنها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - لكى يقذف بها فى وجوه المبطلين ، والتى تبدأ فى بضع آيات بقوله - تعالى - ﴿ قل ﴾ .

ومن ذلك قوله - سبحانه - : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به ، وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ
الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

ولفظ ﴿ تبارك ﴾ فعل ماض لا ينصرف . وهو مأخوذ من البَركة ، بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة أى : كثر خيره وإحسانه ، وتزايدت بركاته .

أو مأخوذ من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .

والملك - بضم الميم وسكون اللام - : السلطان والقدرة ونفاذ الأمر .

أى : جل شأن الله - تعالى - وكثر خيره وإحسانه ، وثبت فضله على جميع خلقه ، فهو - سبحانه - الذى بيده وقدرته التمكن والتصرف فى كل شىء على حسب ما يريد ويرضى ، وهو - عز وجل - الذى لا يعجزه أمر فى الأرض أو فى السماء .

واختار - سبحانه - الفعل « تبارك » للدلالة على المبالغة فى وفرة العظمة والعطاء ، فإن هذه الصيغة ترد للكناية عن قوة الفعل وشدته .. كما فى قولهم : تواصل الخير ، إذا تتابع بكثرة مع دوامه ..

والتعريف فى لفظ «الملك» للجنس . وتقديم المسند وهو «بيده» على المسند إليه ،

لإفادة الاختصاص . أي : بيده وحده لا بيد أحد سواه جميع أنواع السلطان والقدرة ، والأمر والنهى ..

قال الإمام الرازى : وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه - تعالى - ملكا ومالكا ، تقول : بيد فلان الأمر والنهى ، والحل والعقد . وذكر اليد إنما هو تصوير للإحاطة ولتمام قدرته ، لأنها محلها مع التنزه عن الجارحة ..[1] .

وجملة ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ معطوفة على قوله ﴿ بيده الملك ﴾ الذى هو صلة الموصول ، وذلك لإفادة التعميم بعد التخصيص ، لأن الجملة الأولى وهى ﴿ الذى بيده الملك ﴾ أفادت عموم تصرفه فى سائر الموجودات ، وهذه أفادت عموم تصرفه - سبحانه - فى سائر الموجودات والمعدومات ، إذ بيده - سبحانه - إعدام الموجود ، وإيجاد المعدوم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على شمول قدرته ، وسمو حكمته ، فقال : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ...﴾ .

والموت : صفة وجودية تضاد الحياة . والمراد بخلقه : إيجاده . أو هو عدم الحياة عما هى من شأنه . والمراد بخلقه على هذا المعنى : تقديره أزلا .

واللام فى قوله : ﴿ ليبلوكم ...﴾ متعلقة بقوله : ﴿ خلق ﴾ . وقوله : ﴿ يبلوكم ﴾ بمعنى يختبركم ويمتحنكم ...

وقوله ﴿ أيكم ﴾ مبتدأ ، و﴿ أحسن ﴾ خبره ، و﴿ عملا ﴾ تمييز ، والجملة فى محل نصب مفعول ثان لقوله ﴿ ليبلوكم ﴾ .

والمعنى : ومن مظاهر قدرته - سبحانه - التى لا يعجزها شىء ، أنه خلق الموت لمن يشاء إماتته ، وخلق الحياة لمن يشاء إحياءه ، ليعاملكم معاملة من يختبركم ويمتحنكم ، أيكم أحسن عملا فى الحياة ، لكى يجازيكم بما تستحقونه من ثواب ..

أو المعنى : خلق الموت والحياة ، ليختبركم أيكم أكثر استعدادا للموت ، وأسرع إلى طاعة ربه - عز وجل - .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ .. قيل : الذى خلقكم للموت والحياة ، يعنى : للموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة .

وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت الى القهر أقرب .. وقيل : لأنه أقدم ، لأن الأشياء فى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٦٩ .

الابتداء كانت فى حكم الموت .. وقيل : لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل ، من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنه فيما يرجع على الغرض الذى سيقت له الآية أهم .

قال قتادة : كان رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - تعالى - أذل ابن آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ، ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء .. »

وعن أبى الدرداء أن النبى - ﷺ - قال : « لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه : الفقر والمرض والموت ، وإنه مع ذلك لوَثَّاب .. »

وقال العلماء : الموت ليس بعدم محض ، ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته ، وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار ، والحياة عكس ذلك ..[1] .

وأوثر بالذكر من المخلوقات الموتُ والحياةُ ، لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان ، الذى هو أعجب موجود على ظهر الأرض ، والذى الإنسان نوع منه ، وهو المقصود بالمخاطبة ، إذ هو الذى رضى بحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض ..

والتعريف فى الموت والحياة للجنس . و« أحسن » أفعل تفضيل ، لأن الأعمال التى يقوم بها الناس فى هذه الحياة متفاوتة فى الحسن من الأدنى إلى الأعلى .

وجملة « وهو العزيز الغفور » تذييل قصد به أن جميع الأعمال تحت قدرته وتصرفه .

أى : وهو - سبحانه - الغالب الذى لا يعجزه شىء الواسع المغفرة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء فقال : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقا ...﴾ .

والجملة الكريمة صفة للعزيز الغفور ، أو عطف بيان أو بدل ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

وطباقا صفة لسبع سموات . وهى مصدر طابَق مطابقة وطباقا ، من قولك : طابق فلان النعل ، إذا جعله طبقة فوق أخرى ، وهو جمع طبَق ، كجبل وجبال ، أو جمع طبقة كرَحبة ورحاب .. أى : هو - سبحانه - لا غيره الذى أوجد وخلق على غير مثال سابق سبع

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٠٦ .

سموات متطابقة ، أى : بعضها فوق بعض ، بطريقة متقنة محكمة .. لا يقدر على خلقها بتلك الطريقة إلا هو ، ولا يعلم كنه تكوينها وهيئاتها .. أحد سواه - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ مؤكد لما قبله ، والتفاوت مأخوذ من الفوت ، وأصله الفرجة بين الإصبعين . تقول : تفاوت الشيئان تفاوتا ، إذا حدث تباعد بينهما ، والجملة صفة ثانية لسبع سماوات ، أو مستأنفة لتقرير وتأكيد ما قبلها .. والخطاب لكل من يصلح له .

أى : هو - سبحانه - الذى خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض ، مع تناسقها ، وإتقان تكوينها ، وإحكام صنعها .. بحيث لا ترى - أيها العاقل - فى خلق السموات السبع شيئا من الاختلاف ، أو الاضطراب ، أو عدم التناسب .. بل كلها محكمة ، جارية على مقتضى نهاية النظام والإبداع .

وقال - سبحانه - : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن ...﴾ ولم يقل : ما ترى فى السموات السبع من تفاوت ، للإشعار بأن هذا الخلق البديع ، هو ما اقتضته رحمته - تعالى - بعباده ، لكى تجرى أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم .. وللتنبيه - أيضا - على أن جميع مخلوقاته تسير على هذا النمط البديع فى صنعها وإيجادها ، كما قال - تعالى - : ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾[1] . وكما قال - سبحانه - : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ...﴾[2] .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ أى : من اختلاف واضطراب فى الخلقة ولا تناقض ، إنما هى مستوية ومستقيمة ، وحقيقة التفاوت : عدم التناسب ، كأن بعض الشىء يفوت بعضا ولا يلائمه ، ومنه قولهم : خلق متفاوت ، وفى نقيضه متناصف .

فإن قلت : ما موقع هذه الجملة مما قبلها ؟ قلت : هى صفة مشايعة لقوله ﴿ طباقا ﴾ وأصلها : ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله : ﴿ خَلْقِ الرحمن ﴾ تعظيما لخلقهن ، وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ..[3] .

ثم ساق - سبحانه - بأسلوب فيه ما فيه من التحدى ، ما يدل على أن خلقه خال من التفاوت والخلل فقال : ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨ .
(٢) سورة السجدة الآية ٧ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٦ .

و﴿ الفطور ﴾ جمع فَطْر ، وهو الشق والصدع ، يقال : فطر فلان الشىء فانفطر ، إذا شقه ، وبابه نصر .

وقوله ﴿ كرتين ﴾ مثنى كرَّة ، وهى المرة من الكَرّ ، وهو الرجوع إلى الشىء مرة أخرى ، يقال كر المقاتل على عدوه ، إذا عاد إلى مهاجمته بعد أن تركه .

والمراد بالكرتين هنا : معاودة النظر وتكريره كثيرا ، بدون الاقتصار على المرتين ، فالتثنية هنا : كناية عن مطلق التكرير ، كما فى قولهم : لبيك وسعديك .

وقوله : ﴿ خاسئا ﴾ أى صاغرا خائبا لأنه لم يجد ما كان يطلبه ويتمناه .

وقوله : ﴿ حسير ﴾ بمعنى كليل ومتعب ، من حسَر بصرُ فلان يَحْسُر حسورا إذا كَلَّ وتعب من طول النظر والتأمل والفحص ، وفعله من باب قعد .

والمعنى : ما ترى - أيها الناظر - فى خلق الرحمن من تفاوت أو خلل .. فإن كنت لا تصدق ما أخبرناك به ، أو فى أدنى شك من ذلك ، فكرر النظر فيما خلقنا حتى يتضح لك الأمر ، ولا يبقى عندك أدنى شك أو شبهه ..

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل ترى من فطور ﴾ للتقرير . أى : إنك مهما نظرت فى خلق الرحمن . وشددت فى التفحص والتأمل .. فلن ترى فيه من شقوق أو خلل أو تفاوت ..

وقوله : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ تعجيز إثر تعجيز ، وتحد فى أعقاب تحد .. أى : ثم لا تكتف بإعادة النظر مرة واحدة ، فربما يكون قد فاتك شىء فى النظرة الأولى والثانية .. بل أعد النظر مرات ومرات .. فتكون النتيجة التى لا مفر لك منها ، أن بصرك - بعد طول النظر والتأمل - ينقلب إليك خائبا وهو كليل متعب .. لأنه - بعد هذا النظر الكثير - لم يجد فى خلقنا شيئا من الخلل أو الوهن أو التفاوت .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿ ينقلب إليك البصر ﴾ أى : إن رجعت البصر ، وكررت النظر ، لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل ، وإدراك العيب ، بل يرجع إليك بالخسوء والحسور .. أى : بالبعد عن إصابة الملتمس .

فإن قلت : كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين ؟

قلت : معنى التثنية هنا التكرير بكثرة كقولك لبيك وسعديك ..

فإن قلت : فما معنى « ثم ارجع البصر »؟ قلت : أمره برجع البصر ، ثم أمره بأن لا يقتنع

بالرجعة الأولى ، وبالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ، ويُجِم بصره ثم يعاود ويعاود ، إلى أن يَحْسِر بصرُه من طول المعاودة ، فإنه لا يعثر على شىء من فطور ..[١] .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد ساقت ما يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته بأبلغ أسلوب ، ودعت الغافلين الذين فسقوا عن أمر ربهم ، إلى التدبر فى هذا الكون الذى أوجده - سبحانه - فى أبدع صورة وأتقنها ، فإن هذا التدبر من شأنه أن يهدى إلى الحق ، ويرشد إلى الصواب ..

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته ، وبين ما أعده للكافرين من عذاب ، بسبب إصرارهم على كفرهم .. فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا هو الدليل الثانى على كونه - تعالى - قادرا عالما ، وذلك لأن هذه الكواكب نظرا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار معين ، وموضع خاص ، وسير معين ، تدل على أن صانعها قادر .

ونظرا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد ، ومن كونها زينة لأهل الدنيا ، وسببا لانتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها عالم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٦ .

ونظير هذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الصافات : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد ﴾[١] .

وقوله : ﴿ زينا ﴾ من التزيين بمعنى التحسين والتجميل . و﴿ الدنيا ﴾ صيغة تفضيل من الدنو بمعنى القرب .

والمصابيح : جمع مصباح وهو السراج المضىء . والمراد بها النجوم . وسميت بالمصابيح على التشبيه بها فى حسن المنظر ، وفى الإضاءة ليلا ..

والرجوم : جمع رَجْم ، وهو فى الأصل مصدر رَجَمه رَجْماً - من باب نصر - إذا رماه بالرِّجام أى : بالحجارة ، فهو اسم لما يُرْجَم به ، أى : ما يَرْمِى به الرامى غيرَه من حجر ونحوه ، تسمية للمفعول بالمصدر ، مثل الخَلْق بمعنى المخلوق .

وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لإبراز كمال العناية بمضمونها .

والمعنى : وبالله لقد زينا وجملنا السماء القريبة منكم بكواكب مضيئة كإضاءة السُّرُج ، وجعلنا - بقدرتنا - من هذه الكواكب ، ما يرجم الشياطين ويحرقها ، إذا ما حاولوا أن يسترقوا السمع ، كما قال - تعالى - : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾[٢] .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ عاد الضمير فى قوله ﴿ وجعلناها ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها - والله أعلم - .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به ..[٣] .

فالضمير فى قوله : ﴿ وجعلناها ﴾ يعود إلى المصابيح ، ومنهم من أعاده إلى السماء الدنيا ، على تقدير : وجعلنا منها رجوما للشياطين الذين يسترقون السمع .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان سوء مصيرهم فى الدنيا عن طريق إحراقهم بالشهب .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٧٣ .
(٢) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٤ .

أى : وهيأنا لهؤلاء الشياطين فى الآخرة - بعد إحراقهم فى الدنيا بالشهب - عذاب النار المشتعلة المستعرة .

فالسعير - بزنة فعيل - اسم لأشد النار اشتعالا . يقال : سعر فلان النار - كمنع - إذا أوقدها بشدة .

وكان السعير عذابا للشياطين - مع أنهم مخلوقون من النار ، لأن نار جهنم أشد من النار التى خلقوا منها ، فإذا ألقوا فيها صارت عذابا لهم ، إذ السعير أشد أنواع النار التهابا واشتعالا وإحراقا ..

وقوله : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : هيأنا للشياطين عذاب السعير ، وهيأنا - أيضا - للذين كفروا بربهم من الإنس عذاب جهنم ، وبئس المصير عذاب جهنم .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم الأليمة حينما يلقون جميعا فى النار فقال : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ...﴾ .

والظرف « إذا » متعلق بقوله ﴿ سمعوا ﴾ والشهيق : تردد النفس فى الصدر بصعوبة وعناء ..

أى : أن هؤلاء الكافرين بربهم ، عندما يلقون فى النار ، يسمعون لها صوتا فظيعا منكرا ، ﴿ وهى تفور ﴾ أى : وحالها أنها تغلى بهم غليان المرجل بما فيه ، إذ الفور : شدة الغليان ، ويقال ذلك فى النار إذا هاجت ، وفى القدر إذا غلت ..

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أى تكاد النار تتقطع وينفصل بعضها عن بعض ، لشدة غضبها عليهم ، والتهامها لهم ، وتميز أصله تتميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .

والغيظ أشد الغضب ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف . أى : هى تكاد تتقطع من شدة غضبها عليهم ..

وقوله : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ...﴾ كلام مستأنف لبيان حال أهلها .

والفوج : الجماعة من الناس ولفظ ﴿ كلما ﴾ مركب من كل الدال على الشمول ، ومن ما المصدرية الظرفية .

أى : فى كل وقت وآن ، يلقى بجماعة من الكافرين فى النار ، يسألهم خزنتها من الملائكة ، سؤال تبكيت وتقريع ، بقولهم :

﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ أى : ألم يأتكم يا معشر الكافرين نذير فى الدنيا ، ينذركم ويخوفكم من أهوال هذا اليوم ، ويدعوكم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الكافرون على خزنة جهنم فقال : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء .. ﴾ .

أى : قال الكافرون - على سبيل التحسر والتفجع - فى ردهم على خزنة جهنم : بلى لقد جاءنا المنذر الذى أنذرنا وحذرنا من سوء عاقبة الكفر .. ولكننا كذبناه ، وأعرضنا عن دعوته ، بل وتجاوزنا ذلك بأن قلنا له على سبيل العناد والجحود والغرور : ما نزل الله على أحد من شىء من الأشياء التى تتلوها علينا ، وتأمرنا بها ، أو تنهانا عن مخالفتها .

وقوله : ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ يحتمل أنه من كلام الكافرين لرسلهم الذين أنذروهم وحذروهم من الإصرار على الكفر .

أى : جاءنا الرسل الذين أنذرونا .. فكذبناهم ، وقلنا لهم : ما نزل الله من شىء من الأشياء على ألسنتكم .. وقلنا لهم - أيضا - ما أنتم إلا فى ضلال كبير ، أى : فى ذهاب واضح عن الحق ، وبعُدٍ شديد عن الصواب .

ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة ، أى : قال لهم الملائكة على سبيل التجهيل والتوبيخ : ما أنتم - أيها الكافرون - إلا فى ضلال كبير ، بسبب تكذيبكم لرسلكم ، وإعراضكم عمن حذركم وأنذركم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ من المخاطبون به ؟

قلت : هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين ، على أن النذير بمعنى الإنذار . والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير : أو وصف به منذروهم لغلوهم فى الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذارا ..

ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول : أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم فى الدنيا ، أو أرادوا بالضلال : الهلاك ..[1] .

وجمع - سبحانه - الضمير فى قوله ﴿ إن أنتم ... ﴾ مع أن الملائكة قد سألوهم ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ بالإفراد ، للإشعار بأن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بتكذيب النذير الذى أنذرهم ، بل كذبوه وأتباعه الذين آمنوا به .

فكأن كل فوج منهم كان يقول للرسول الذى جاء لهدايته : أنت وأتباعك فى ضلال كبير .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٨ .

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من حسراتهم فى هذا اليوم فقال : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ، ما كنا فى أصحاب السعير .. ﴾ .

أى : وقال الكافرون بربهم - على سبيل الحسرة والندامة - لو كنا فى الدنيا نسمع ما يقال لنا على لسان رسولنا ، سماع طاعة وتفكر واستجابة ، أو نعقل ما يوجه إلينا من هدايات وإرشادات ..

لو كنا كذلك ، ما صرنا فى هذا اليوم من جملة أصحاب النار المسعرة ، الذين هم خالدون فيها أبدا .

وقدم - سبحانه - السماع على التعقل ، مراعاة للترتيب الطبيعى ، لأن السماع يكون أولا ، ثم يعقبه التعقل والتدبر لما يسمع .

والفاء الأولى فى قوله - تعالى - : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾ للإفصاح ، والثانية للسببية ، والسُّحقُ : البُعد ، يقال : سَحُق - ككَرُمُ وعَلِم - سُحقا ، أى : بَعُدَ بُعْداً ، وفلان أسحقه الله ، أى : أبعده عن رحمته ، وهو مصدر ناب عن فعله فى الدعاء ، ونصبه على أنه مفعول به لفعل مقدر ، أى : ألزمهم الله سحقا ، أو منصوب على المصدرية ، أى : فسحقهم الله سحقا .

أى : إذا كان الأمر كما أخبروا عن أنفسهم ، فقد أقروا واعترفوا بذنوبهم ، وأن الله - تعالى - ما ظلمهم ، وأن ندمهم لن ينفعهم فى هذا اليوم .. بل هم جديرون بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله - تعالى - وبخلودهم فى نار السعير .

واللام فى قوله ﴿ لأصحاب ﴾ للتبيين ، كما فى قولهم : سَقيًا لك .

فالآية الكريمة توضح أن ما أصابهم من عذاب كان بسبب إقرارهم بكفرهم ، وإصرارهم عليه حتى الممات ، وفى الحديث الشريف : « لن يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » . وفى حديث آخر : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »[1] .

وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس ، أخذت السورة فى بيان حسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين ، وفى لفت أنظار الناس إلى نعم الله - تعالى - عليهم ، لكى يشكروه ويخلصوا له العبادة .. قال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٥ .

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ
﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

وقوله : ﴿ يخشون ﴾ من الخشية ، وهى أشد الخوف وأعظمه ، والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

أى : إن الذين يخشون ربهم فيخافون عذابه ، ويعبدونه كأنهم يرونه ، مع أنهم لا يرونه بأعينهم .. هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، لهم من خالقهم - عز وجل - مغفرة عظيمة ، وأجر بالغ الغاية فى الكبر والضخامة .

وقوله ﴿ بالغيب ﴾ حال من الفاعل ، أى : غائبا عنهم ، أو من المفعول . أى : غائبين عنه . أى . يخشون عذابه دون أن يروه - سبحانه - .

ويجوز أن يكون المعنى : يخشون عذابه حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، فهم يراقبونه - سبحانه - فى السر ، كما يراقبونه فى العلانية كما قال الشاعر :

يتجنب الهفوات فى خلواته عف السريرة ، غَيْبُه كالمشهد

والحق أن هذه الصفة ، وهى خوف الله - تعالى - بالغيب ، على رأس الصفات التى تدل على قوة الإيمان ، وعلى طهارة القلب ، وصفاء النفس ..

ثم بين - سبحانه - بأبلغ أسلوب ، ان السر يتساوى مع العلانية بالنسبة لعلمه - تعالى - فقال : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ...﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن المشركين كانوا ينالون من النبى - ﷺ - فلما

أطلعه الله - تعالى - على أمرهم ، فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كى لا يسمعه رب محمد ..[١] .

وصيغة الأمر فى قوله : ﴿ وأسروا ﴾ و﴿ اجهروا ﴾ مستعملة فى التسوية بين الأمرين ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ اصبروا أو لا تصبروا ...﴾ .

أى : إن إسراركم - أيها الكافرون - بالإساءة إلى نبينا محمد - ﷺ - أو جهركم بهذه الإساءة ، يستويان فى علمنا ، لأننا لا يخفى علينا شىء من أحوالكم ، فسواء عندنا من أسر منكم القول ومن جهر به .

وجملة ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر أى : سواء فى علمه - تعالى - إسراركم وجهركم ، لأنه - سبحانه - عليم علما تاما بما يختلج فى صدوركم ، وما يدور فى نياتكم التى هى بداخل قلوبكم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ .

ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شىء بقوله : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

واللطيف من اللطف ، وهو العالم بخبايا الأمور ، والمدبر لها برفق وحكمة ويسر ..

والخبير : من الخُبْر ، وهو العلم بجزئيات الأشياء الخفية ، التى من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها ، لأنها كانت خافية عليهم .

ولفظ ﴿ مَنْ ﴾ فى قوله ﴿ من خلق ﴾ يصح أن يكون مفعولا لقوله ﴿ يعلم ﴾ ، والعائد محذوف أى : ألا يعلم الله - تعالى - شأن الذين خلقهم ، والحال أنه - سبحانه - هو الذى لطف علمه ودق ، إذ هو المدبر لأمور خلقه برفق وحكمة ، العليم علما تاما بأسرار النفوس وخبايا ما توسوس به ..

ويجوز أن يكون ﴿ من ﴾ فاعلا لقوله ﴿ يعلم ﴾ على أن المقصود به ذاته - تعالى - ، ويكون مفعول يعلم محذوفا للعلم به ، والمعنى : ألا يعلم السر ومضمرات القلوب الله الذى خلق كل شىء وأوجده ، وهو - سبحانه - الموصوف بأنه لطيف خبير .

والاستفهام على الوجهين لإنكار ما زعمه المشركون من انتفاء علمه - تعالى - بما يسرونه فيما بينهم ، حيث قال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كى لا يسمعه رب محمد .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢١٤ .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده فقال : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

والذلول : السهلة المذللة المسخرة لما يراد منها ؛ من مَشْى عليها ، أو غَرْس فيها ، أو بناء فوقها .. من الذِّل وهو سهولة الانقياد للغير ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول .... ﴾ أى : غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض ..

والأمر فى قوله ﴿ فامشوا فى مناكبها ﴾ للإباحة ، والمناكب جمع منكب وهو ملتقى الكتف مع العضد والمراد به هنا : جوانبها أو طرقها وفجاجها أو أطرافها ..

وهو مثل لفرط التذليل ، وشدة التسخير ..

أى : هو - سبحانه - الذى جعل لكم - بفضله ورحمته - الأرض المتسعة الأرجاء . مذللة مسخرة لكم ، لتتمكنوا من الانتفاع بها عن طريق المشى عليها ، أو البناء فوقها . أو غرس النبات فيها ..

ومادام الأمر كذلك فامشوا فى جوانبها وأطرافها وفجاجها .. ملتمسين رزق ربكم فيها ، وداوموا على ذلك ، ففى الحديث الشريف : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » .

والمراد بقوله : ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ الانتفاع بما فيها من وجوه النعم ، وعبر عنه بالأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع .

فالآية الكريمة دعوة حارة للمسلمين لكى ينتفعوا بما فى الأرض من كنوز ، حتى يستغنوا عن غيرهم فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم وسائر أمور معاشهم .. فإنه بقدر تقصيرهم فى استخراج كنوزها ، تكون حاجتهم لغيرهم .

قال بعض العلماء : قال الإمام النووى فى مقدمة المجموع : إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجاتها حتى الإبرة ، لتستغنى عن غيرها ، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت فى الإنتاج ..

وقد أعطى الله - تعالى - العالم الإسلامى الأولوية فى هذا كله . فعليهم أن يحتلوا مكانهم ، ويحافظوا على مكانتهم ، ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا ..[1] .

وقد أفاض بعض العلماء فى بيان معنى قوله - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا .. ﴾ . فقال ما ملخصه : والناس لطول إلفهم لحياتهم على هذه الأرض وسهولة

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٨ ص ٤٠٦ .

استقرارهم عليها .. ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد ، وكل جيل ، ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول ..

والله - تعالى - جعل الأرض ذلولا للبشر من حيث جاذبيتها .. ومن حيث سطحها .. ومن حيث تكوينها ، ومن حيث إحاطة الهواء بها .. ومن حيث حجمها ..[١] .

وقوله : ﴿ وإليه النشور ﴾ معطوف على ما قبله ، لبيان أن مصيرهم إليه - تعالى - بعد قضائهم فى الأرض المذللة لهم ، مدة حياتهم ..

أى : وإليه وحده مرجعكم ، وبعثكم من قبوركم ، بعد أن قضيتم على هذه الأرض ، الأجل الذى قدره - سبحانه - لكم .

ثم حذر - سبحانه - من بطشه وعقابه فقال : ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴾..

والخسف : انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض فيصير باطنا ، والباطن ظاهرا ..

والمَوْر : شدة الاضطراب والتحرك . يقال : مار الشىء مَوْرا ، إذا ارتج واضطرب ، والمراد بمن فى السماء : الله - عز وجل - بدون تحيز أو تشبيه أو حلول فى مكان .

قال الإمام الآلوسى : قوله : ﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾ وهو الله - عز وجل - كما ذهب إليه غير واحد ، فقيل على تأويل : من فى السماء أمره وقضاؤه ، يعنى أنه من التجوز فى الإسناد ، أو أن فيه مضافا مقدرا ، وأصله : من فى السماء أمره ، فلما حذف وأقيم المضاف إليه مقامه ارتفع واستتر ، وقيل على تقدير : خالق من فى السماء ..

وقيل فى بمعنى على ، ويراد العلو بالقهر والقدرة ..

وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره - تعالى - والآية عندهم من المتشابه وقد قال - ﷺ - آمنوا بمتشابهه ولم يقل أولوه . فهم مؤمنون بأنه - عز وجل - فى السماء : على المعنى الذى أراده - سبحانه - مع كمال التنزيه . وحديث الجارية - التى قال لها الرسول - ﷺ - أين الله ؟ فأشارت إلى السماء - من أقوى الأدلة فى هذا الباب . وتأويله بما أول به الخلف ، خروج عن دائرة الإنصاف عند ذوى الألباب ..[٢] .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٩ ص ١٩٣ نقلا عن كتاب . العلم يدعو للايمان ص ٧٠ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٥ .

والمعنى : أأمنتم - أيها الناس - من فى السماء وهو الله - عز وجل - أن يذهب الأرض بكم ، فيجعل أعلاها أسفلها .. فإذا هى تمور بكم وتضطرب ، وترتج ارتجاجا شديدا تزول معه حياتكم .

فالمقصود بالآية الكريمة تهديد الذين يخالفون أمره ، بهذا العذاب الشديد ، وتحذيرهم من نسيان بطشه وعقابه .

والباء فى قوله ﴿ بكم ﴾ للمصاحبة . أى : يخسفها وأنتم مصاحبون لها بذواتكم ، بعد أن كانت مذللة ومسخرة لمنفعتكم ..

ثم انتقل - سبحانه - من تهديدهم بالخسف إلى تهديدهم بعذاب آخر فقال : ﴿ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾ .

أى : بل أأمنتم - أيها الناس - من السماء ، وهو الله - عز وجل - بسلطانه وقدرته .. أن يرسل عليكم ﴿ حاصبا ﴾ أى : ريحا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التى تهلك ، فحينئذ ستعلمون عند معاينتكم للعذاب ، كيف كان إنذارى لكم متحققا وواقعا وحقا ..

فالاستفهام فى الآيتين المقصود به التعجيب من أمنهم عذاب الله - تعالى - عند مخالفتهم لأمره ، وخروجهم عن طاعته .

وقدم - سبحانه - التهديد بالخسف على التهديد بإرسال الحاصب ، لأن الخسف من أحوال الأرض ، التى سبق أن بين لهم أنه خلقها مذللة لهم ، وفيها ما فيها من منافعهم ، فهذه المنافع ليس عسيرا على الله - تعالى - أن يحولها إلى عذاب لهم ..

ثم ذكرهم - سبحانه - بما جرى للكافرين السابقين فقال : ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ ..

أى : ووالله لقد كذب الذين من قبل كفار مكة من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود .. فكان إنكارى عليهم ، وعقابى لهم ، شديدا ومبيرا ومدمرا لهم تدميرا تاما .

فالنكير بمعنى الإنكار ، والاستفهام فى قوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للتهويل .

أى : إن إنكارى عليهم كفرهم كان إنكارا عظيما ، لأنه ترتب عليه ، أن أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .

كما قال - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ،

ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[١] .

ثم تنتقل السورة بعد هذا التهديد والإنذار ، إلى دعوتهم إلى التأمل والتفكر ، فى مشهد الطير صافات فى الجو .. وفى أحوال أنفسهم عند اليأس والفقر ، وعند الهزيمة والإعراض عن الحق .. فيقول - سبحانه - :

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ
﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

قال بعض العلماء : قوله : ﴿ أو لم يروا إلى الطير ..﴾ عطف على جملة ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ..﴾ استرسالا فى الدلائل على انفراد الله - تعالى - بالتصرف فى الموجودات ، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم ، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات ، وهى أحوال الطير فى نظام حركاتها فى حال طيرانها ، إذ لا تمشى على الأرض كما هو فى حركات غيرها على الأرض ، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفرد به ..[٢] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يروا ...﴾ للتعجيب من حال المشركين ، لعدم تفكرهم فيما يدعو إلى التفكر والاعتبار ..

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والطير : جمع طائر كصحب وصاحب ..

والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون ، وانطمست أعينهم عن رؤية الطير فوقهم ، وهن ﴿ صافات ﴾ أى :باسطات أجنحتهن فى الهواء عند الطيران فى الجو ، ﴿ ويقبضن ﴾ أى :

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ٣٧ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله - .

ويضممن أجنحتهن تارة على سبيل الاستظهار بها على شدة التحرك فى الهواء ... ﴿ ما يمسكهن ﴾ فى حالتى البسط والقبض ﴿ إلا الرحمن ﴾ الذى وسعت رحمته وقدرته كل شىء ، والذى أحسن كل شىء خلقه ..

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ بكل شىء بصير ﴾ أى : إنه - سبحانه - مطلع على أحوال كل شىء ، ومدبر لأمره على أحسن الوجوه وأحكمها ..

قال صاحب الكشاف : ﴿ صافات ﴾ باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفا ﴿ ويقبضن ﴾ أى : ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .

فإن قلت : لم قيل ﴿ ويقبضن ﴾ ولم يقل : وقابضات ؟

قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارئ على البسط . للاستظهار به على التحرك ، فجىء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ..[1] .

والمراد بإمساكهن : عدم سقوطهن إلى الأرض بقدرته وحكمته - تعالى - حيث أودع فيها من الخصائص ما جعلها تطير فى الجو ، كالسابح فى الماء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ...﴾[2] .

ثم لفت أنظارهم للمرة الثانية إلى قوة بأسه ، ونفاذ إرادته ، وعدم وجود من يأخذ بيدهم إذا ما أنزل بهم عقابه فقال : ﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ .

والاستفهام للتحدى والتعجيز ، و﴿أم ﴾ منقطعة بمعنى بل ، فهى للإضراب الانتقالى من غرض إلى آخر ، ومن حجة إلى أخرى .

و﴿ من ﴾ اسم استفهام مبتدأ ، وخبره اسم الإشارة ، وما بعده صفته .

والمراد بالجند : الجنود الذين يهرعون لنصرة من يحتاج إلى نصرتهم . ولفظ ﴿ دون ﴾ أصله ظرف للمكان الأسفل .. ويطلق على الشىء المغاير ، فيكون بمعنى غير كما هنا ، والمقصود بالآية تحقير شأن هؤلاء الجند ، والتهوين من شأنهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٨١ .
(٢) سورة النحل آية ٧٩ .

والمعنى : بل أخبرونى - أيها المشركون - بعد أن ثبتت غفلتكم وعدم تفكيركم تفكيرا ينفعكم ، مَن هذا الحقير الذى تستعينون به فى نصركم ودفع الضر عنكم ، متجاوزين فى ذلك إرادة الرحمن ومشيئته ونصره . أو من هذا الذى ينصركم نصرا كائنا غير نصر الرحمن ، أو من ينصركم من عذاب كائن من عنده - تعالى - .

والجواب الذى لا تستطيعون جوابا سواه : هو أنه لا ناصر لكم يستطيع أن ينصركم من دون الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله .. ﴾

وكما قال - عز وجل - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ كلام معترض بين ما قبله وما بعده ، لبيان حالهم القبيح وواقعهم المنكر .

والغرور : صفة فى النفس تجعلها تعرض عن الحق جحودا وعنادا وجهلا . أى ليس الكافرون إلا فى غرور عظيم ، وفى جهل تام ، عن تدبر الحق ، لأنهم زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فرأوها حسنة .

ثم انتقل - سبحانه - إلى إلزامهم بنوع آخر من الحجج فقال : ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ ..

أى : بل أخبرونى من هذا الذى يزعم أنه يستطيع أن يوصل إليكم الرزق والخير ، إذا أمسك الله - تعالى - عنكم ذلك ، أو منع عنكم الأسباب التى تؤدى إلى نفعكم وإلى قوام حياتكم ، كمنع نزول المطر إليكم ، وكإهلاك الزروع والثمار التى تنبتها الأرض ..

إنه لا أحد يستطيع أن يرزقكم سوى الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ جملة مستأنفة جواب لسؤال تقديره : فهل انتفع المشركون بتلك المواعظ فكان الجواب كلا إنهم لم ينتفعوا ، بل ﴿ لجوا ﴾ أى تمادوا فى اللجاج والجدال بالباطل و﴿ فى عتو ﴾ أى : وفى استكبار وطغيان ، وفى ﴿ نفور ﴾ أى : شرود وتباعد عن الطريق المستقيم .

أى : أنهم ساروا فى طريق أهوائهم حتى النهاية ، دون أن يستمعوا إلى صوت نذير أو واعظ أو مرشد .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لأهل الإيمان وأهل الكفر ، وأهل الحق وأهل الباطل ، فقال

- سبحانه - : ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ، أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ .

والمُكِب : هو الإنسان الساقط على وجهه ، يقال : كبَّ فلان فلانا وأكبه ، إذا صرعه وقلبه بأن جعل وجهه على الأرض .. فهو اسم فاعل من أكب .

وقوله : ﴿ أهدى ﴾ مشتق من الهدى ، وهو معرفة طريق الحق والسير فيها ، والمفاضلة هنا ليست مقصودة ، لأن الذى يمشى مكبا على وجهه ، لا شىء عنده من الهداية أو الرشد إطلاقا حتى يفاضل مع غيره ، وفيه لون من التهكم بهذا المكب على وجهه .

و« السوى » هو الإنسان الشديد الاستواء والاستقامة ، فهو فعيل بمعنى فاعل .

ومنه قوله - تعالى - حكاية عما قاله إبراهيم - عليه السلام - لأبيه : ﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ﴾ أى : مستويا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ... ﴾ : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه ، كمثل من يمشى مكبا على وجهه ، أى : يمشى منحنيا لامستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ، ولا كيف يذهب، بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿ أمن يمشى سويا ﴾ أى: منتصب القامة ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة .

هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشى سويا على صراط مستقيم .. وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى النار ..

وروى الإمام أحمد عن أنس قال : قيل يارسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادرا على أن يمشيهم على وجوههم »[(١)] ؟ .

وقال الجمل : هذا مثل للمؤمن والكافر ، حيث شبه - سبحانه - المؤمن فى تمسكه بالدين الحق ، ومشيه على منهاجه ، بمن يمشى فى الطريق المعتدل ، الذى ليس فيه ما يتعثر به ..

وشبه الكافر فى ركوبه ومشيه على الدين الباطل ، بمن يمشى فى الطريق الذى فيه حفر وارتفاع وانخفاض ، فيتعثر ويسقط على وجهه ، وكلما تخلص من عثرة وقع فى أخرى .

فالمذكور فى الآية هو المشبه به ، والمشبه محذوف ، لدلالة السياق عليه..[(٢)] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٨٠ .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد لفتت أنظار الناس إلى التفكر والاعتبار ، ووبخت المشركين على جهالاتهم وطغيانهم ، وساقت مثالا واضحا للمؤمن والكافر ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - فى بضع آيات أن يذكر الكافرين بنعم الله - تعالى - عليهم ، وأن يرد على شبهاتهم وأكاذيبهم بما يدحضها ، وأن يكل أمره وأمرهم إليه وحده - تعالى - فقال :

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين - على سبيل تبصيرهم بالحجج والدلائل الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، وعلى سبيل التنويع فى الإرشاد والتوجيه .. قل لهم : الرحمن - عز وجل - هو الذى أنشأكم وأوجدكم فى كل طور من أطوار حياتكم ، وهو سبحانه - الذى أوجد لكم السمع الذى تسمعون به ، والأبصار التى تبصرون بها الكائنات ، والأفئدة أى والقلوب التى تدركونها بها ..

ولكنكم - مع كل هذه النعم - ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ خالقكم - عز وجل - .

وجمع - سبحانه - الأفئدة والأبصار ، وأفرد السمع ، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقى إليها من إنذار أو تبشير ، ومن حجة أو دليل ، فكان من ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم .

وكذلك شأن الناس فيما تنتظمه أبصارهم من آيات الله فى كونه ، فإن أنظارهم تختلف فى عمق تدبرها وضحولته ، فكان من ذلك تعدد المبصرين ، بتعدد مقادير ما يستنبطون من آيات الله فى الآفاق .

وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعا شىء واحد ، هو الحجة يناديهم بها المرسلون ، والدليل يوضحه لهم النبيون .

لذلك كان الناس جميعا كأنهم سمع واحد ، فكان إفراد السمع إيذانا من الله بأن حجته واحدة ، ودليله واحد لا يتعدد .

وقوله : ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى : شكرا قليلا ، و﴿ ما ﴾ مزيدة لتأكيد التقليل .

وعبر - سبحانه - بقوله ﴿ قليلا ﴾ لحضهم على الإكثار من شكره - تعالى - ، وذلك عن طريق إخلاص العبادة له - عز وجل - : ونبذ عبادة غيره .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يذكرهم بنعمة أخرى فقال ﴿ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ . أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - الرحمن - تعالى - وحده ﴿ هو الذى ذرأكم فى الأرض ﴾ .

أى : هو الذى خلقكم وبثكم وكثركم فى الأرض ، إذ الذرء معناه : الإكثار من الموجود ..

وقوله : ﴿ وإليه تحشرون ﴾ بيان لمصيرهم بعد انتهاء آجالهم فى هذه الدنيا .

أى : وإليه وحده - لا إلى غيره - يكون مرجعكم للحساب والجزاء يوم القيامة .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على طغيانهم وجهالاتهم فقال : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

والوعد : مصدر بمعنى الموعود ، والمقصود به ما أخبرهم به - ﷺ - من أن هناك بعثا وحسابا وجزاء .. ومن أن العاقبة والنصر للمؤمنين .

أى : ويقول هؤلاء الجاحدون للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، على سبيل التهكم

والاستهزاء : متى يقع هذا الذى تخبروننا عنه من البعث والحساب والجزاء ، ومن النصر لكم لا لنا ..؟ .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم صادقين فيما تقولونه لنا ، فأين هو ؟ إننا لا نراه ولا نحسه .

وهنا يأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - للمرة الثالثة ، أن يرد عليهم الرد الذى يكبتهم فيقول : ﴿ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد علم قيام الساعة ، وعلم اليوم الذى سننتصر فيه عليكم ... عند الله - تعالى - وحده ، لأن هذا العلم ليس من وظيفتى .

وإنما وظيفتى أنى نذير لكم ، أحذركم من سوء عاقبة كفركم ، فإذا استجبتم لى نجوتم ، وإن بقيتم على كفركم هلكتم .

واللام فى قوله : ﴿ العلم ﴾ للعهد . أى : العلم بوقت هذا الوعد ، عند الله - تعالى - وحده .

والمبين : اسم فاعل من أبان المتعدى ، أى : مبين لما أمرت بتبليغه لكم بيانا واضحا لا لبس فيه ولا غموض .

ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يرون العذاب الذى استعجلوه فقال : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فلما رأوه زلفة ...﴾ هى الفصيحة . و﴿ لما ﴾ ظرف بمعنى حين . و﴿ رأوه ﴾ مستعمل فى المستقبل وجىء به بصيغة الماضى لتحقق الوقوع ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ...﴾ .

و﴿ زلفة ﴾ اسم مصدر لأزلف إزلافا ، بمعنى القرب . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وأزلفت الجنة ...﴾ أى : قربت للمتقين ، وهو حال من مفعول ﴿ رأوه ﴾ .

والمعنى : لقد حل بالكافرين العذاب الذى كانوا يستعجلونه ، ويقولون : متى هذا الوعد . فحين رأوه نازلا بهم ، وقريبا منهم ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أى : ساءت رؤيته وجوههم ، وحلت عليها غبرة ترهقها قترة .

﴿ وقيل ﴾ لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب ﴿ هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ أى : هذا هو العذاب الذى كنتم تتعجلون وقوعه فى الدنيا ، وتستهزئون بمن يحذركم منه .

فقوله ﴿ تدعون ﴾ من الدعاء بمعنى الطلب ، أو من الدعوى .

و﴿ سيئت ﴾ فعل مبنى للمجهول . وأسند - سبحانه - حصول السوء إلى الوجوه ، لتضمينه معنى كلحت وقبحت واسودت ، لأن الخوف من العذاب قد ظهرت آثاره على وجوههم .

وقال - سبحانه - ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ بالإظهار ، ولم يقل وجوههم ، لذمهم بصفة الكفر ، التى كانت السبب فى هلاكهم .

ومفعول ﴿ تدعون ﴾ محذوف . والتقدير : وقيل لهم هذا الذى كنتم تدعون عدم وقوعه . قد وقع ، وها أنتم تشاهدونه أمام أعينكم .

والجار والمجرور فى قوله ﴿ به ﴾ متعلق بتدعون لأنه مضمن معنى تكذبون .

والقائل لهم هذا القول : هم خزنة النار ، على سبيل التبكيت لهم .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - للمرة الرابعة ، أن يرد على ما كانوا يتمنونه بالنسبة له ولأصحابه فقال : ﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ .

ولقد كان المشركون يتمنون هلاك النبى - ﷺ - وكانوا يرددون ذلك فى مجالسهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ﴿ أرأيتم ﴾ أى : أخبرونى ﴿ إن أهلكنى الله ﴾ . - تعالى - وأهلك ﴿ من معى ﴾ من أصحابى وأتباعى ﴿ أو رحمنا ﴾ بفضله وإحسانه بأن رزقنا الحياة الطويلة ، ورزقنا النصر عليكم .

فأخبرونى فى تلك الحالة ﴿ من يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ أى : من يستطيع أن يمنع عنكم عذاب الله الأليم ، إذا أراد أن ينزله بكم ؟ مما لاشك فيه أنه لن يستطيع أحد أن يمنع ذلك عنكم .

قال صاحب الكشاف : كان كفار مكة يدعون على رسول الله - ﷺ - وعلى المؤمنين بالهلاك ، فأمر بأن يقول لهم : نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين : إما أن نهلك كما تتمنون ، فننقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنصرة عليكم ، أما أنتم فماذا تصنعون ؟ من يجيركم - وأنتم كافرون - من عذاب أليم لا مفر لكم منه .

يعنى : إنكم تطلبون لنا الهلاك الذى هو استعجال للفوز والسعادة ، وأنتم فى أمر هو الهلاك الذى لا هلاك بعده ..[١] .

والمراد بالهلاك : الموت ، وبالرحمة : الحياة والنصر بدليل المقابلة ، وقد منح الله - تعالى - نبيه العمر المبارك النافع ، فلم يفارق - ﷺ - الدنيا إلا بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكانت كلمته هى العليا .

والاستفهام فى قوله ﴿ أرأيتم ﴾ للإنكار والتعجيب من سوء تفكيرهم .

والرؤية علمية ، والجملة الشرطية بعدها سدت مسد المفعولين .

وقال - سبحانه - ﴿ فمن يجير الكافرين ﴾ للإشارة إلى أن كفرهم هو السبب فى بوارهم وفى نزول العذاب الأليم بهم .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الخامسة ، أن يبين لهم أنه هو وأصحابه معتمدون على الله - تعالى - وحده، ومخلصون له العبادة والطاعة ، فقال : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ...﴾ .

أى : وقل يا محمد لهؤلاء الجاحدين : إذا كنتم قد أشركتم مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، فنحن على النقيض منكم ، لأننا أخلصنا عبادتنا للرحمن الذى أوجدنا برحمته ، وآمنا به إيمانا حقا ، وعليه وحده توكلنا وفوضنا أمورنا .

وأخر - سبحانه - مفعول ﴿ آمنا ﴾ وقدم مفعول ﴿ توكلنا ﴾ ، للتعريض بالكافرين ، الذين أصروا على ضلالهم ، فكأنه يقول : نحن آمنا ولم نكفر كما كفرتم ، وتوكلنا عليه وحده ، ولم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من أصنامكم وأموالكم وأولادكم ..

وقوله ﴿ فستعلمون من هو فى ضلال مبين ﴾ مسوق مساق التهديد والوعيد أى : فستعلمون فى عاجل أمرنا وآجله ، أنحن الذين على الحق أم أنتم ؟ ونحن الذين على الباطل أم أنتم ؟ ..

فالمقصود بالآية الكريمة التهديد والإنذار ، مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف ، الذى يحملهم على التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - للمرة السادسة ، أن يذكرهم بنعمة الماء الذى يشربونه فقال : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٨٣ .

وقوله ﴿ غَوْرا ﴾ مصدر غارَت البئر ، إذا نضب ماؤها وجف . يقال : غار الماء يغوُر غَورا ، إذا ذهب وزال ..

والمعين : هو الماء الظاهر الذى تراه العيون ، ويسهل الحصول عليه ، وهو فعيل من معن إذا قرب وظهر .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ وإلزام الحجة : أخبرونى إن أصبح ماؤكم غائرا فى الأرض ، بحيث لا يبقى له وجود أصلا .

فمن يستطيع أن يأتيكم بماء ظاهر على وجه الأرض ، تراه عيونكم ، وتستعملونه فى شئونكم ومنافعكم .

إنه لا أحد يستطيع ذلك إلا الله - تعالى - وحده ، فعليكم أن تشكروه على نعمه ، لكى يزيدكم منها .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الملك » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة : مدينة نصر
صباح الاحد ٦ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ
الموافق ١٩٨٦/٧/١٣ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القلم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « ن » أو « القلم » تعتبر من أوائل السور القرآنية ، التى نزلت على النبى - ﷺ - فقد ذكر السيوطى فى كتابه « الإتقان » أنها السورة الثانية فى النزول ، بعد سورة « العلق »[١] .

ويرى بعض العلماء أنها السورة الرابعة فى النزول ، فقد سبقتها سور : العلق ، والمدثر ، والمزمل ، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية .

٢ - والمحققون على أنها من السور المكية الخالصة ، فقد ذكر الزمخشرى وابن كثير .. أنها مكية ، دون أن يذكرا فى ذلك خلافا .

وقال الآلوسى : هى من أوائل ما نزل من القرآن بمكة ، فقد نزلت - على ما روى عن ابن عباس - ﴿ اقرأ باسم ربك ...﴾ ثم هذه ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، وفى البحر أنها مكية بلا خلاف فيها ، بين أهل التأويل .

وفى الإتقان : استثنى منها : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا ...﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾[٢] .

٣ - والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة ﴿ ن ﴾ من السور المكية الخالصة ، لأنه لم يقم

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٢٢ .

دليل مقنع . على أن فيها آيات مدنية ، بجانب أن أسلوبها وموضوعاتها تشير إلى أنها من السور المكية الخالصة .

كذلك نميل إلى أن بعض آياتها قد نزلت على النبى - ﷺ - بعد أن جهر بدعوته .

٤ - وقد فصل هذا المعنى بعض العلماء فقال ما ملخصه : لا يمكن تحديد التاريخ الذى نزلت فيه هذه السورة ، سواء مطلعها أو جملتها .

والروايات التى تقول : إن هذه السورة هى الثانية فى النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها ، يجعلنا نرجح غير هذا ، حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التى جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، فى الوقت الذى أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، وتصف الرسول - ﷺ - بما هو برىء منه ، كذلك ذكرت بعض الروايات فى السورة آيات مدنية ، ونحن نستبعد هذا كذلك ، ونعتقد أن السورة كلها مكية ، لأن طابع آياتها عميق فى مكيته .

والذى نرجحه بشأن السورة كلها ، أنها ليست الثانية فى ترتيب النزول وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية ، بل بعد الجهر بالدعوة ، وبعد أن أخذت قريش فى محاربتها بصورة عنيفة .

والسورة قد أشارت إلى شىء من عروض المشركين : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطرها ..[1] .

٥ - والذى يتدبر هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على مقاصد من أبرزها : تحدى المشركين بهذا القرآن الكريم ، والثناء على النبى - ﷺ - بأفضل أنواع الثناء ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

والتسلية الجميلة له - ﷺ - عما أصابه من أعدائه ﴿ فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

ونهيه - ﷺ - عن مهادنة المشركين أو ملاينتهم أو موافقتهم على مقترحاتهم الماكرة ، قال - تعالى - : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ﴾ .

ثم نراها تضرب الأمثال لأهل مكة ، لعلهم يتعظون ويعتبرون ، ويتركون الجحود

---

(١) راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٩ ص ٢١٤ .

والبطر .. ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ﴾ .

ثم نرى من مقاصدها كذلك : المقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

وتسفيه أفكار المشركين وعقولهم ، بأسلوب مؤثر خلاب : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون . أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ ..

وتهديدهم بأقصى ألوان التهديد : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ..﴾ .

ثم تختتم بتكرار التسلية للرسول - ﷺ - وبأمره بالصبر على أذى أعدائه : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ، إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين . وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

وبعد : فهذه كلمة مجملة عن سورة « القلم » تكشف عن زمان ومكان نزولها . وعن أهم المقاصد والأهداف ، التى اشتملت عليها .

ونسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر مساء الأحد

٦ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦/٧/١٣ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

افتتحت سورة « القلم » بأحد الحروف المقطعة ، وهى آخر سورة فى ترتيب المصحف ، افتتحت بواحد من هذه الحروف . أما بالنسبة لترتيب النزول ، فقد تكون أول سورة نزلت على النبى - ﷺ - فى السور المفتتحة بالحروف المقطعة .

وقد قلنا عند تفسيرنا لسورة البقرة : وردت هذه الحروف المقطعة تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة .

فالسور التى بدئت بحرف واحد ثلاث سور وهى : ص ، ق ، ن .

والسور التى بدئت بحرفين تسع سور وهى : طه ، يس ، طس ، وحم ، فى ست سور ، وهى : غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .

والسور التى بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة وهى : « ألم » فى ست سور ، وهى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

و ﴿ ألر ﴾ فى خمس سور ، وهى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر .

و﴿ طسم ﴾ فى سورتين وهما : الشعراء ، والقصص .

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الرعد ، « المر » ، والأعراف « المص » .

وهناك سورتان - أيضا - بدئتا بخمسة أحرف ، وهما : « مريم » « كهيعص » والشورى : « حم عسق » فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة : تسعا وعشرين سورة .

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسيين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله - تعالى - بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى بعض الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى وغيرهم من العلماء .

فقد أخرج ابن المنذر عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور .

ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها .

وعن على بن أبى طالب أنه قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » .

وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ ، لم ينتف الإفهام عنها عند كل أحد ، فالرسول

- ﷺ - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور .

وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأى ، يضيق المجال عن ذكرها .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله - تعالى - بعلمه .

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

أ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى - ﷺ - : « من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح » ، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة « ص » وسورة « يس » .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

ب - وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة ، للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .

جـ - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله - تعالى - ، وبعضها من صفاته ، فمثلا : ﴿ الم ﴾ أصلها : أنا الله أعلم .

د - وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال ، والتى أوصلها الإمام السيوطى فى كتابه « الإتقان » إلى أكثر من عشرين قولا .

هـ - ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والبلاغة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلا عن ذلك ، فإن تصدير هذه السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم ، إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم . وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكما وحججا قد تكون سببا فى هدايتهم واستجابتهم للحق .

هذه خلاصة لآراء العلماء فى الحروف المقطعة ، التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب « البرهان » للزركشى . وكتاب « الإتقان » للسيوطى ، وتفسير « الآلوسى » .

ولفظ « ن » على الرأى الذى رجحناه ، يكون إشارة إلى إعجاز القرآن ...

وقيل : هو من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ..

وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى ، لا يعتمد عليها لضعفها ، ومن ذلك قولهم : إن « نون » اسم لحوت عظيم ... أو اسم للدواة ... وقيل : « نون » لوح من نور ..[2] .

والواو فى قوله : ﴿ والقلم ﴾ للقسم ، والمراد بالقلم : جنسه ، فهو يشمل كل قلم يكتب به و« ما » فى قوله ﴿ وما يسطرون ﴾ موصولة أو مصدرية . و﴿ يسطرون ﴾ مضارع سطر - من باب نصر - ، يقال : سطر الكتاب سطرا ، إذا كتبه . والسطر : الصف من الشجر وغيره ، وأصله من السطر بمعنى القطع ، لأن صفوف الكتابة تبدو وكأنها قطع متراصة .

وجواب القسم قوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ .

أى : وحق القلم الذى يكتب به الكاتبون من مخلوقاتنا المتعددة ، إنك - أيها الرسول الكريم - لمبرأ مما اتهمك به أعداؤك من الجنون ، وكيف تكون مجنونا وقد أنعم الله - تعالى - عليك بالنبوة والحكمة .

فالمقصود بالآيات الكريمة تسلية النبى - ﷺ - عما أصابه من المشركين ، ودفع تهمهم الباطلة دفعا يأتى عليها من القواعد فيهدمها ، وإثبات أنه رسول من عنده - تعالى - .

وأقسم - سبحانه - بالقلم ، لعظيم شرفه ، وكثرة منافعه ، فبه كتبت الكتب السماوية ، وبه تكتب العلوم المفيدة .. وبه يحصل التعارف بين الناس ..

وصدق الله إذ يقول : ﴿ اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

قال القرطبى : أقسم - سبحانه - بالقلم . لما فيه من البيان كاللسان . وهو واقع على كل قلم مما يكتب به مَن فى السماء ومَن فى الأرض ، ومنه قول أبى الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم وعدُّوه مما يُكْسِبُ المجد والكرَمْ
كفى قلم الكتاب عزا ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلَمْ[1]

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢١٣ . وتفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٢٣ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٢٥ .

والضمير فى قوله : ﴿ يسطرون ﴾ راجع إلى غير مذكور فى الكلام ، إلا أنه معلوم للسامعين ، لأن ذكر القلم يدل على أن هناك من يكتب به .

ونفى - سبحانه - عنه - ﷺ - الجنون بأبلغ أسلوب ، لأن المشركين كانوا يصفونه بذلك ، قال - تعالى - : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ، لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ . جواب القسم ، والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفى . ومجنون خبر ما ، والباء الأولى للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من الضمير فى الخبر ، والعامل فيها معنى النفى .

والمعنى : انتفى عنك الجنون فى حال كونك ملتبسا بنعمة ربك أى : منعما عليك بما أنعم من حصافة الرأى ، والنبوة ..[1] .

وفى إضافته - ﷺ - إلى الرب - عز وجل - مزيد إشعار بالتسلية والقرب والمحبة . ومزيد إشعار - أيضا - بنفى ما افتراه الجاهلون من كونه - ﷺ - مجنونا ، لأن هذه الصفة لا تجتمع فى عبد أنعم الله - تعالى - عليه ، وقربه ، واصطفاه لحمل رسالته وتبليغ دعوته .

ثم بشره - سبحانه - ببشارة ثانية فقال : ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون ﴾ .

وقوله : ﴿ ممنون ﴾ مأخوذ من المن بمعنى القطع ، تقول : مننت الحبل ، إذا قطعته . ويصح أن يكون من المن ، بمعنى أن يعطى الإنسان غيره عطية ثم يفتخر بها عليه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ...﴾ .

أى : وإن لك - أيها الرسول الكريم - عندنا ، لأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا نحن ، وهذا الأجر غير مقطوع بل هو متصل ودائم وغير ممنون .

وهذه الجملة الكريمة وما بعدها ، معطوفة على جملة جواب القسم ، لأنها من جملة المقسم عليه ..

ثم أثنى - سبحانه - عليه بأجمل ثناء وأطيبه فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

والخلق - كما يقول الإمام الرازى - ملكة نفسانية ، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة .... و ..... "[2] .

والعظيم : الرفيع القدر ، الجليل الشأن ، السامى المنزلة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٢٤ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٨٥ .

أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لعلى دين عظيم ، وعلى خلق كريم ، وعلى سلوك قويم ، فى كل ما تأتيه وما تتركه من أقوال وأفعال ..

والتعبير بلفظ «على» يشعر بتمكنه - ﷺ - ورسوخه فى كل خلق كريم . وهذا أبلغ رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون ، لأن المجنون سفه لا يحسن معه التصرف . أما الخلق العظيم ، فهو أرقى منازل الكمال ، فى عظماء الرجال .

وإن القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة ، من ثناء من الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : قال قتادة : ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل السيدة عائشة عن معنى هذه الآية فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله - ﷺ - كان القرآن ..

ومعنى هذا ، أنه - ﷺ - صار امتثال القرآن أمرا ونهيا ، سجية له وخلقا وطبعا ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق الكريم ، كالحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة ..[1] .

وكيف لا يكون - ﷺ - جماع كل خلق عظيم وهو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ثم بشره - سبحانه - ببشارات أخرى فقال : ﴿ فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فستبصر ... ﴾ للتفريع على ما تقدم من قوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ .

والفعل « تبصر ويبصرون » من الإبصار الذى هو الرؤية بالعينين ، وقيل : بمعنى العلم .. والسين فى ﴿ فستبصر ... ﴾ للتأكيد .

والباء فى قوله ﴿ بأيكم ... ﴾ يرى بعضهم أنها بمعنى فى . والمفتون : اسم مفعول ، وهو الذى أصابته فتنة . أدت إلى جنونه ، والعرب كانوا يقولون للمجنون : فتنته الجن . أو هو الذى اضطرب أمره واختل تكوينه وضعف تفكيره .. كأولئك المشركين الذين قالوا فى النبى - ﷺ - أقوالا لا يقولها عاقل ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣١٢ .

أى : لقد ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - أنك بعيد عما اتهمك به الكافرون ، وأن لك عندنا المنزلة التى ليس بعدها منزلة .. وما دام الأمر كذلك فسترى وستعلم ، وسيرى وسيعلم هؤلاء المشركون ، فى أى فريق منكم الإصابة بالجنون ؟ أفى فريق المؤمنين أم بفريق الكافرين ..

قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ قال ابن عباس : فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتميز الحق من الباطل ، وقيل فى الدنيا بظهور عاقبة أمرك ..

﴿ بأيكم المفتون ﴾ الباء مزيدة فى المبتدأ ، والتقدير : أيكم المفتون ، فزيدت الباء كزيادتها فى نحو : بحسبك درهم ..

وقيل : الباء بمعنى « فى » الظرفية ، كقولك : زيد بالبصرة . أى : فيها . والمعنى : فى أى فرقة منكم المفتون .

وقيل : المفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور . أى ، بأيكم الفتون ..[1]

وجملة : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ... ﴾ تعليل لما ينبىء عنه ما قبله من ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد ، وتأكيد لوعده - ﷺ - بالنصر ، ولوعيدهم بالخيبة والخسران .

أى : إن ربك -أيها الرسول الكريم - الذى خلقك فسواك فعدلك ، هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وبمن أعرض عن طريق الحق والصواب .. وهو - سبحانه - أعلم بالمهتدين الذين اهتدوا إلى ما ينفعهم ويسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ..

وما دام الأمر كذلك : فذرهم فى طغيانهم يعمهون ، وسر فى طريقك ، فستكون العاقبة لك ولأتباعك .

ثم أرشده - سبحانه - إلى جانب من مسالكهم الخبيثة ، وصفاتهم القبيحة ، وحذره من الاستجابة إلى شىء من مقترحاتهم ، فقال : ﴿ فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ .

وقوله : ﴿ ودوا ﴾ من الود بمعنى المحبة . وقوله : ﴿ تدهن ﴾ من الإدهان وهى المسايرة والمصانعة والملاينة للغير . وأصله أن يجعل على الشىء دهنا لكى يلين أو لكى يحسن شكله ، ثم استعير للملاينة والمساهلة مع الغير .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٨٣ .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - لا يخفى عليه شىء من أحوالك وأحوالهم ، وما دام الأمر كذلك ، فاحذر أن تطيع هؤلاء المكذبين فى شىء مما يقترحونه عليك ، فإنهم أحبوا وودوا أن تقبل بعض مقترحاتهم ، وأن تلاينهم وتطاوعهم فيما يريدون منك .. وهم حينئذ يظهرون لك من جانبهم الملاينة والمصانعة .. حتى لكأنهم يميلون نحو الاستجابة لك ، وترك إيذائك وإيذاء أصحابك .

فالآية الكريمة تشير إلى بعض المساومات التى عرضها المشركون على النبى - ﷺ - وما أكثرها ، ومنها : ما ذكره ابن إسحاق فى سيرته من أن بعض زعماء المشركين قالوا للنبى - ﷺ - : يامحمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه ، فنزلت سورة « الكافرون » .

ومنها ما دار بينه - ﷺ - وبين الوليد بن المغيرة تارة ، وبينه وبين عتبة بن ربيعة تارة أخرى .. مما هو معروف فى كتب السيرة .

ولقد قال الرسول - ﷺ - لعمه أبى طالب عندما نصحه بأن يترك المشركين وشأنهم ، وقال له : يا ابن أخى أشفق على نفسك وعلى ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

قال له - ﷺ - : يا عماه ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى . على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه .. »

والتعبير بقوله : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ يشير إلى أن الملاينة والمصانعة كانت منهم ، لا منه - ﷺ - ، فهم الذين كانوا يحبون منه أن يستجيب لمقترحاتهم ، لكى يقابلوا ذلك بالتظاهر بأنهم على صلة طيبة به وبأصحابه .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عن غوائلهم .

وقوله : ﴿ لو تدهن ﴾ لو تلين وتصانع ﴿ فيدهنون ﴾ .

فإن قلت : لماذا رفع « فيدهنون » ولم ينصب بإضمار « أن » وهو جواب التمنى ؟ قلت : قد عدل إلى طريق آخر ، وهو أنه جعل خبر مبتدأ محذوف . أى : فهم يدهنون ، كقوله : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾ على معنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون ..[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٨٦ .

ثم يكرر - سبحانه - النهى للنبى - ﷺ - عن طاعة كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم ..

فيقول : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآيات الكريمة ، نزلت فى الوليد بن المغيرة .. وقيل : إنها نزلت فى الأخنس بن شريق ..

والآيات الكريمة يشمل النهى فيها كل من هذه صفاته ، ويدخل فيها الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن شريق .. دخولا أوليا .

أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - كل من كان كثير الحلف بالباطل ، وكل من كان مهينا ، أى : حقيرا ذليلا وضيعا . من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز .

﴿ هماز ﴾ أى : عياب للناس ، أو كثير الاغتياب لهم ، من الهمز ، وأصله : الطعن فى الشىء بعود أو نحوه ، ثم استعير للذى يؤذى الناس بلسانه وبعينه وبإشارته ، ويقع فيهم بالسوء ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ .

﴿ مشَّاء بنميم ﴾ أى : نقَّال للحديث السَّيِّئ لكى يفسد بين الناس.. والنميم والنميمة مصدران بمعنى السعاية والإفساد . يقال : نَمَّ فلان الحديث - من بابى قتل وضرب - إذا سار بين الناس بالفتنة . وأصل النم : الهمس والحركة الخفيفة ثم استعملت فى السعى بين الناس بالفساد على سبيل المجاز .

﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ أى : هو شديد المنع لكل ما فيه خير ، ولكل من يستحقه ، خصوصا إذا كان من يستحقه من المؤمنين .

ثم هو بعد ذلك ﴿ معتد ﴾ أى : كثير العدوان على الناس ﴿ أثيم ﴾ أى : مبالغ فى ارتكابه للآثام ، لا يترك سيئة دون أن يرتكبها .

وقد جاءت صفات الذم السابقة بصيغة المبالغة ، للإشعار برسوخه فيها ، وباقترافه لها بسرعة وشدة .

﴿ عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم ﴾ والعتل : هو الجاف الغليظ ، القاسى القلبِ : الفظ الطبع ، الأكول الشروب .. بدون تمييز بين حلال وحرام . مأخوذ من عتله يعتِله - بكسر التاء وضمها - إذا جره بعنف وغلظة ..

﴿ والزنيم ﴾ هو اللصيق بالقوم دون أن يكون منهم ، وإنما هو دعى فيهم ، حتى لكأنه

فيهم كالزنمة ، وهى ما يتدلى من الجلد فى حلق المعز أو الشاة ..

وقيل : الزنيم ، هو الشخص الذى يعرف بالشر واللؤم بين الناس ، كما تعرف الشاة بزنمتها . أى : بعلامتها .

ومعنى : « بعد ذلك »: كمعنى « ثم » أى : ثم هو بعد كل تلك الصفات القبيحة السابقة : جاف غليظ ، ملصق بالقوم ، دعى فيهم ..

فهذه تسع صفات ، كل صفة منها قد بلغت النهاية فى القبح والسوء ، ساقها - سبحانه - لذم الوليد بن المغيرة وأشباهه فى الكفر والفجور .

وقوله : ﴿ أن كان ذا مال وبنين .... ﴾ متعلق بقوله قبل ذلك ﴿ ولا تطع كل حلاف ... ﴾ أى : ولا تطع من كانت هذه صفاته لكونه ذا مال وبنين ، فإن ماله وولده لن يغنى عنه من الله - تعالى - شيئا .

وقوله : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ كلام مستأنف جار مجرى التعليل للنهى عن طاعته ، والأساطير جمع أسطورة بمعنى أكذوبة .

أى : لا تطعه - لأنه فضلا عما اتسم به من صفات قبيحة - تراه إذا تتلى عليه آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .. وعلى صدقك يا محمد فيما تبلغه عنا ، قال هذا العتل الزنيم ، هذه الآيات أكاذيب الأولين وترهاتهم .

ثم ختم هذه الآيات بأشد أنواع الوعيد لمن هذه صفاته فقال - تعالى - ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ .

أى : سنبين أمره ونوضحه توضيحا يجعل الناس يعرفونه معرفة تامة لاخفاء معها ولا لبس ولا غموض ، كما لا تخفى العلامة الكائنة على الخرطوم ، الذى يراد به هنا الأنف . والوسم عليه يكون بالنار .

أو سنلحق به عارا لا يفارقه ، بل يلازمه مدى الحياة ، وكان العرب إذا أرادوا أن يسبوا رجلا سبة قبيحة .. قالوا : قد وُسِمَ فلان مِيسَمَ سوء .. أى : التصق به عار لا يفارقه ، كالسمة التى هى العلامة التى لا يمحى أثرها ..

وذكر الوسم والخرطوم فيه ما فيه من الذم ، لأن فيه جمعا بين التشويه الذى يترتب على الوسم السَّيِّئ ، وبين الإهانة ، لأن كون الوسم فى الوجه بل فى أعلى جزء من الوجه وهو الأنف .. دليل على الإذلال والتحقير .

ومما لاشك فيه أن وقع هذه الآيات على الوليد بن المغيرة وأمثاله ، كان قاصما لظهورهم ،

ممزقا لكيانهم ، هادما لما كانوا يتفاخرون به من أمجاد زائفة ، لأنه ذم لهم من رب الأرض والسماء ، الذى لا يقول إلا حقا وصدقا .

كذلك كانت هذه الآيات تسلية للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، عما أصابهم من أذى ، من هؤلاء الحلافين بالباطل والزور ، المشائين بين الناس بالنميمة ، المناعين لكل خير وبر .

وبمناسبة الحديث السابق الذى فيه إشارة إلى المال والبنين ، اللذين كانا من أسباب بطر هؤلاء الكافرين وطغيانهم .. ساق القرآن بعد ذلك قصة أصحاب الجنة ، لتكون موعظة وعبرة لكل عاقل ، فقال - تعالى - :

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾
أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا مثل ضربه الله - تعالى - لكفار قريش ، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثه محمدا - ﷺ - إليهم فقابلوه بالتكذيب والمحاربة ..

وقد ذكر بعض السلف : أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن كانوا من قرية يقال لها : « ضَرَوان » على ستة أميال من صنعاء .. وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه ، ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل .

فلما مات وورثه أولاده ، قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذ كان يصرف من هذه الجنة شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية : أذهب رأس المال ، والربح .. فلم يبق لهم شيء..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلوناهم ﴾ أى : اختبرناهم وامتحناهم ، مأخوذ من البلوى ، التى تطلق على الاختبار ، والابتلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، كما قال - تعالى - : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .. وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

والمراد بالابتلاء هنا : الابتلاء بالشر بعد جحودهم لنعمة الخير .

أى : إنا امتحنا مشركى قريش بالقحط والجوع . حتى أكلوا الجيف ، بسبب كفرهم بنعمنا ، وتكذيبهم لرسولنا - ﷺ - كما ابتلينا من قبلهم أصحاب الجنة ، بأن دمرناها تدميرا ، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها ..

ويبدو أن قصة أصحاب الجنة ، كانت معروفة لأهل مكة ، ولذا ضرب الله - تعالى - المثل بها . حتى يعتبروا ويتعظوا ..

ووجه المشابهة بين حال أهل مكة ، وحال أصحاب الجنة .. يتمثل فى أن كلا الطرفين قد منحه الله - تعالى - نعمة عظيمة ، ولكنه قابلها بالجحود وعدم الشكر .

و﴿ إذ ﴾ فى قوله : ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ..﴾ تعليلية .

والضمير فى ﴿ أقسموا ﴾ يعود لمعظمهم ، لأن الآيات الآتية بعد ذلك ، تدل على أن أوسطهم قد نهاهم عما اعتزموه من حرمان المساكين ، ومن مخالفة ما يأمرهم شرع الله - تعالى - به ..

قال - تعالى - : ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ...﴾ .

وقوله : ﴿ ليصرمنها ﴾ من الصرم وهو القطع . يقال : صرم فلان زرعه - من باب ضرب - إذا جَزّه وقطعه ، ومنه قولهم : انصرم حبل المودة بين فلان وفلان ، إذا انقطع .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢٣ .

وقوله : ﴿ مصبحين ﴾ أى : داخلين فى وقت الصباح المبكر .

أى : إنا امتحنا أهل مكة بالبأساء والضراء ، كما امتحنا أصحاب البستان الذين كانوا قبلهم ، لأنهم أقسموا بالأيمان المغلظة ، ليقطعن ثمار هذا البستان فى وقت الصباح المبكر .

﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : دون أن يجعلوا شيئا – ولو قليلا – من ثمار هذا البستان للمحتاجين ، الذين أوجب الله – تعالى – لهم حقوقا فى تلك الثمار .

وقيل معنى ﴿ ولا يستثنون ﴾ ولم يقولوا إن شاء الله ، كما قال – تعالى – : ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ...﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله – تعالى – : ﴿ ليصرمنها ﴾ ، وهى فى الوقت نفسه مقسم عليه .

أى : أقسموا ليصرمنها فى وقت الصباح المبكر ، وأقسموا كذلك على أن لا يعطوا شيئا منها للفقراء أو المساكين .

ثم بين – سبحانه – ما ترتب على هذا القسم الذى لم يقصد به الخير ، وإنما قصد به الشر فقال : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ﴾ .

والطائف : مأخوذ من الطواف ، وهو المشى حول الشىء من كل نواحيه ومنه الطواف حول الكعبة . وأكثر ما يستعمل لفظ الطائف فى الشر كما هنا ، ومنه قوله – تعالى – : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

وعدى لفظ « طائف » بحرف « على » لتضمينه معنى : تسلط أو نزل . والصريم – كما يقول القرطبى – : الليل المظلم .. أى : احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس : كالرماد الأسود . أو : كالزرع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم ، أى : المقطوع ما فيه ..[1] .

أى : أقسم هؤلاء الجاحدون على أن لا يعطوا شيئا من جنتهم للمحتاجين ، فكانت نتيجة نيتهم السيئة ، وعزمهم على الشر .. أن نزل بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها ، فصارت كالشىء المحترق الذى قطعت ثماره ، ولم يبق منه شىء ينفع .

ولم يعين – سبحانه – نوع هذا الطائف ، أو كيفية نزوله ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، وإنما المقصود ما ترتب عليه من آثار توجب الاعتبار .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٤١ .

وتنكير لفظ ﴿ طائف ﴾ للتهويل . و﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من ربك ﴾ للابتداء ، والتقييد بكونه من الرب - عز وجل - لإفادة أنه بلاء لا قبل لأحد من الخلق بدفعه .

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا ، فعوقبوا قبل فعلهم . ومثله قوله - تعالى - : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ . وفى الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار . قيل : يارسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه »..[1] .

ثم يصور - سبحانه - أحاسيسهم وحركاتهم ، وقد خرجوا لينفذوا ما عزموا عليه من سوء .. فيقول : ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أى : فنادى بعضهم بعضا فى وقت الصباح المبكر ، حتى لا يراهم أحد .

فقالوا فى تناديهم : ﴿ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : هيا بنا لنذهب إلى بستاننا لكى نقطع ما فيه من ثمار فى هذا الوقت المبكر ، حتى لا يرانا أحد ، إذ الغدو هو الخروج إلى المكان فى غدوة النهار . أى : فى أوله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى « على » ؟ .

قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو . ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح . أى : فأقبلوا على حرثكم باكرين ..[2] .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : إن كنتم صارمين فاغدوا ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى : فانطلقوا مسرعين نحو جنتهم وهم يتسارون فيما بينهم ، إذ التخافت : تفاعل من خفت فلان فى كلامه ، إذا نطق به بصوت منخفض لا يكاد يسمع .

وجملة : ﴿ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ مفسرة لما قبلها لأن التخافت فيه معنى القول دون حروفه أى : انطلقوا يتخافتون وهم يقولون فيما بينهم : احذروا أن يدخل جنتكم اليوم وأنتم تقطعون ثمارها أحد من المساكين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٤١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٩٠ .

وجملة : « وغدوا على حرد قادرين » حالية . والحرد : القصد . يقال : فلان حرد فلان - من باب ضرب - أى : قَصَد قَصْدَه .

قال الإمام الشوكانى : الحرد يكون بمعنى المنع والقصد .. لأن القاصد إلى الشىء حارد . يقال : حرد يحرد إذا قصد .. وقال أبو عبيدة : ﴿ على حرد ﴾ أى : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا ، إذا قلت ألبانها . والحرود من الإبل : القليلة اللبن .. وقال السدى : ﴿ على حرد ﴾ : أى : على غضب .. وقال الحسن : على حرد ، أى : على حاجة وفاقة . وقيل : ﴿ على حرد ﴾ أى : على انفراد . يقال : حرد يحرد حردا ، إذا تنحى عن قومه ، ونزل منفردا عنهم دون أن يخالطهم ..

أى : أن أصحاب الجنة ساروا إليها غدوة ، على أمر قد قصدوه وبيتوه .. موقنين أنهم قادرون على تنفيذه ، لأنهم قد اتخذوا له جميع وسائله ، من الكتمان والتبكير والبعد عن أعين المساكين .

أو : ساروا إليها فى الصباح المبكر ، وهم ليس معهم أحد من المساكين أو من غيرهم ، وهم فى الوقت نفسه يعتبرون أنفسهم قادرين على قطع ثمارها ، دون أن يشاركهم أحد فى تلك الثمار .

ثم صور - سبحانه - حالهم تصويرا بديعا عندما شاهدوا جنتهم، وقد صارت كالصريم، فقال : ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ .

أى : فحين شاهدوا جنتهم - وهى على تلك الحال العجيبة - قال بعضهم لبعض : إنا لضالون عن طريق جنتنا ، تائهون عن الوصول إليها .. لأن هذه الجنة الخاوية على عروشها ليست هى جنتنا التى عهدناها بالأمس القريب ، زاخرة بالثمار .

ثم اعترفوا بالحقيقة المرة ، بعد أن تأكدوا أن ماأمامهم هى حديقتهم فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أى : لسنا بضالين عن الطريق إليها ، بل الحقيقة أن الله - تعالى - قد حرمنا من ثمارها .. بسبب إصرارنا على حرماننا المساكين من حقوقهم منها .

وهنا تقدم إليهم أوسطهم رأيا ، وأعدلهم وأمثلهم تفكيرا .. فقال لهم : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ .

والاستفهام للتقرير . و﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا . والتسبيح هنا بمعنى : الاستغفار والتوبة ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

أى : قال لهم - أعقلهم وأصلحهم - بعد أن شاهد ما شاهد من أمر الحديقة . قال لهم : لقد قلت لكم عندما عزمتم على حرمان المساكين حقوقهم منها .. اتقوا الله ولا تفعلوا ذلك ،

وسيروا على الطريقة التى كان يسير عليها أبوكم ، وأعطوا المساكين حقوقهم منها ، ولكنكم خالفتمونى ولم تطيعوا أمرى ، فكانت نتيجة مخالفتكم لنصحى ، ما ترون من خراب الجنة ، التى أصابنى من خرابها ما أصابكم .

وكعادة كثير من الناس الذين : لا يقدرون النعمة إلا بعد فوات الأوان .. قالوا لأعقلهم وأصلحهم : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ .

أى : قالوا وهم يعترفون بظلمهم وجرمهم .. ﴿ سبحان ربنا ﴾ أى : ننزه ربنا ونستغفره عما حدث منا ، فإننا كنا ظالمين لأنفسنا حين منعنا حق الله - تعالى - عن عباده .

ثم حكى - سبحانه - مادار بينهم بعد أن أيقنوا أن حديقتهم قد دمرت فقال : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ . أى : يلوم بعضهم بعضا ، وكل واحد منهم يلقى التبعة على غيره ، ويقول له : أنت الذى كنت السبب فيما أصابنا من حرمان ..

﴿ قالوا ياويلنا ﴾ أى : ياهلاكنا وياحسرتنا .. ﴿ إنا كنا طاغين ﴾ أى : إنا كنا متجاوزين لحدودنا ، وفاسقين عن أمر ربنا ، عندما صممنا على البخل بما أعطانا - سبحانه - من فضله . ﴿ عسى ربنا ﴾ بفضله وإحسانه ﴿ أن يبدلنا خيرا منها ﴾ أى : أن يعطينا ما هو خير منها ﴿ إنا إلى ربنا ﴾ لا إلى غيره ﴿ راغبون ﴾ أى : راغبون فى عطائه ، راجعون إليه بالتوبة والندم ..

قال الآلوسى : قال مجاهد : إنهم تابوا فأبد لهم الله - تعالى - خيرا منها . وحكى عن الحسن : التوقف . وسئل قتادة عنهم : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال للسائل : لقد كلفتنى تعبا ..[(١)] .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بقوله : ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : مثل الذى بلونا به أصحاب الجنة ، من إهلاك جنتهم بسبب جحودهم لنعمنا .. يكون عذابنا لمن خالف أمرنا من كبار مكة وغيرهم .

فقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر مقدم ، و﴿ العذاب ﴾ مبتدأ مؤخر . والمشار إليه هو ما تضمنته القصة من إتلاف تلك الجنة ، وإذهاب ثمارها .

وقدم المسند وهو الخبر ، على المسند إليه وهو المبتدأ ، للاهتمام بإحضار تلك الصورة العجيبة فى ذهن السامع .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٣٢ .

وقوله : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب السابق عذاب الدنيا .

أى : مثل ذلك العذاب الذى أنزلناه بأصحاب الجنة فى الدنيا ، يكون عذابنا لمشركى قريش ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى وأعظم .. ولو كانوا من أهل العلم والفهم ، لعلموا ذلك ، ولأخذوا منه حذرهم عن طريق الإيمان والعمل الصالح . هذا ، والمتأمل فى هذه القصة ، يراها زاخرة بالمفاجآت ، وبتصوير النفس الإنسانية فى حال غناها وفى حال فقرها ، فى حال حصولها على النعمة وفى حال ذهاب هذه النعمة من بين يديها .

كما يراها تحكى لنا سوء عاقبة الجاحدين لنعم الله ، إذ أن هذا الجحود يؤدى إلى زوال النعم ، ورحم الله القائل : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

ثم تبدأ السورة بعد ذلك فى بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وفى محاجة المجرمين ، وفى تحديهم بالسؤال تلو السؤال ، إلزاما لهم بالحجة ، وتقريعا لهم على غفلتهم ، وتذكيرا لهم بيوم القيامة الذى سيندمون عنده ، ولن ينفعهم الندم .

قال - تعالى - :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
(٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١)
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣)

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن للمتقين عند ربهم .. ﴾ بيان لما وعد به - سبحانه - المؤمنين الصادقين ، بعد بيان وعيده للجاحدين المكذبين .

أى : إن للذين اتقوا ربهم ، وصانوا أنفسهم عما حرمه .. جنات ليس لهم فيها إلا النعيم الخالص ، والسرور التام . والخير الذى لا ينقطع ولا يمتنع .

واللام فى قوله : ﴿ للمتقين ﴾ للاستحقاق ، وقال - سبحانه - ﴿ عند ربهم ﴾ للتشريف والتكريم .

أى : هذه الجنات اختص الرب - عز وجل - بها الذين اتقوه فى كل أحوالهم .

وإضافة الجنات إلى النعيم ، للإشارة إلى أن النعيم ملازم لها لا يفارقها فلا يكون فيها ما يكون فى جنات الدنيا من تغير فى الأحوال ، فهى تارة مثمرة ، وتارة ليست كذلك .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ للنفى والإنكار . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام .

أى : أنحيف فى أحكامنا فنجعل الذين أخلصوا لنا العبادة . كالذين أشركوا معنا آلهة أخرى ؟ أو نجعل الذين أسلموا وجوههم لنا ، كالذين فسقوا عن أمرنا ؟

كلا ، لن نجعل هؤلاء كهؤلاء ، فإن عدالتنا تقتضى التفريق بينهم .

قال الجمل : لما نزلت هذه الآية وهى قوله : ﴿ إن للمتقين ... ﴾ قال كفار مكة للمسلمين إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا ، فلابد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإذا لم يحصل التفضيل ، فلا أقل من المساواة فأجابهم الله - تعالى - بقوله : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾[1] .

ثم أضاف -سبحانه - إلى توبيخهم توبيخا آخر فقال : ﴿ مالكم ، كيف تحكمون ﴾ .

وقوله ﴿ مالكم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهى بمثابة تأنيب آخر لهم وقوله : ﴿ كيف تحكمون ﴾ تجهيل لهم ، وتسفيه لعقولهم .

أى : ما الذى حدث لعقولكم ، حتى ساويتم بين الأخيار والأشرار والأطهار والفجار ، ومن أخلصوا لله عبادتهم ، ومن كفروا به ؟

ثم انتقل - سبحانه - من توبيخهم على جهلهم ، إلى توبيخهم على كذبهم فقال : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ .

و﴿ أم ﴾ هنا وما بعدها للإضراب الانتقالى ، وهى بمعنى بل ، والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود على الكتاب .

وقوله : ﴿ تدرسون ﴾ أى : تقرأون بعناية وتفكير .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٨٨ .

وقوله : ﴿ تخيرون ﴾ أصله : تتخيرون . والتخير : تطلب ما هو خير . يقال : فلان تخير الشىء واختاره ، إذا أخذ خيره وجيده .

أى : بل ألكم - أيها المشركون - كتاب قرأتم فيه بفهم وتدبر المساواة بين المتقين والمجرمين ، وأخذتم منه ما اخترتموه من أحكام ؟ كلا ، إنه لا يوجد كتاب سماوى ، أو غير سماوى ، يوافقكم على التسوية بين المتقين والمجرمين . وأنتم إنما تصدرون أحكاما كاذبة . ما أنزل الله بها من سلطان .

ثم انتقل - سبحانه - إلى توبيخهم على لون آخر من مزاعمهم فقال : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ، إن لكم لما تحكمون ﴾ .

أى : وقل لهم - يا محمد - على سبيل إلزامهم الحجة : بل ألكم ﴿ أيمان ﴾ أى : عهود ومواثيق مؤكدة ﴿ علينا ﴾ وهذه العهود ﴿ بالغة ﴾ أقصى مداها فى التوكيد ، وثابتة لكم علينا ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ بأننا قد سوينا بين المسلمين والمجرمين فى أحكامنا ، كما زعمتم أنتم ؟ إن كانت لكم علينا هذه الأيمان والعهود ، فأظهروها للناس ، وفى هذه الحالة يكون من حقكم أن تحكموا بما حكمتم به .

ومما لاشك فيه ، أنهم ليست لهم عهود عند الله بما زعموه من أحكام ، وإنما المقصود من الآية الكريمة ، بيان كذبهم فى أقوالهم ، وبيان أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بجواب يثبتون به مدعاهم .

وقوله : ﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ جواب القسم ، لأن قوله : ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ بمعنى : أم أقسمنا لكم أيمانا موثقة بأننا رضينا بأحكامكم التى تسوون فيها بين المسلمين والمجرمين .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يسألهم سؤال تبكيت وتأنيب فقال : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ .

والزعيم : هو الضامن ، والمتكلم عن القوم ، والناطق بلسانهم ..

واسم الإشارة يعود على الحكم الباطل الذى حكموه ، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين .

أى : سل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، سؤال تقريع وتوبيخ ، أى واحد منهم سيكون يوم القيامة ، كفيلا بتحمل مسئولية هذا الحكم ، وضامنا بأن المسلمين سيكونون متساوين مع المجرمين فى الأحكام عند الله - تعالى - .

ثم انتقل – سبحانه – إلى إلزامهم الحجة عن طريق آخر فقال : ﴿ أم لهم شركاء ، فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

أى : بل ألهم شركاء يوافقونهم على هذا الحكم الباطل ، إن كان عندهم ذلك ، فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين فى زعمهم التسوية بين المتقين والمجرمين .

والمراد بالشركاء هنا : الأصنام التى يشركونها فى العبادة مع الله – عز وجل – .

وحذف متعلق الشركاء لشهرته . أى : أم لهم شركاء لنا فى الألوهية يشهدون لهم بصحة أحكامهم .

والأمر فى قوله : ﴿ فليأتوا.... ﴾ للتعجيز .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله – تعالى – قد وبخهم باستفهامات سبعة :

أولها قوله – تعالى – : ﴿ أفنجعل .... ﴾ الثانى : ﴿ مالكم ... ﴾ الثالث : ﴿ كيف تحكمون ﴾ الرابع : ﴿ أم لكم كتاب ﴾ الخامس : ﴿أم لكم أيمان ﴾ السادس : ﴿ أيهم بذلك زعيم ﴾ السابع : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ .

قال الآلوسى : وقد نبه – سبحانه – فى هذه الآيات ، على نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، حيث نبه – سبحانه – على نفى الدليل العقلى بقوله ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ . وعلى نفى الدليل النقلى بقوله ﴿ أم لكم كتاب .. ﴾ ، وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله ﴿ أم لكم أيمان .. ﴾ وعلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقوله ﴿ أم لهم شركاء ... ﴾[1] .

ثم بين – سبحانه – جانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن حال الكافرين فيه ، فقال : ﴿ يوم يكشف عن ساق ، ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

والظرف « يوم » يجوز أن يكون متعلقا بقوله – تعالى – قبل ذلك ﴿ فليأتوا بشركائهم ... ﴾ ويصح أن يكون متعلقا بمحذوف تقديره . اذكر ، والمراد باليوم ، يوم القيامة .

والكشف عن الساق معناه التشمير عنها وإظهارها ، وهو مثل لشدة الحال ، وصعوبة الخطب والهول ، وأصله أن الإنسان إذا اشتد خوفه ، أسرع فى المشى ، وشمر عن ثيابه ، فينكشف ساقه .

قال صاحب الكشاف : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخِدَام . – أى : الخلخال الذى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٣٤ .

تلبسه المرأة فى رجلها - وهو جمع خَدَمة كرقاب جمع رقبة - مثل فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب ، وأصله فى الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب ، وإبداء خِدَامهن عند ذلك ..

كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن سوقها الحرب شمرا

فمعنى يوم يكشف عن ساق : يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولايد ثَمَّ ولا غل ، وإنما هو مثل فى البخل ..

فإن قلت : فلم جاءت منكرة فى التمثيل ؟ قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة ، فظيع خارج عن المألوف ..[1] .

والمعنى : اذكر لهم - أيها الرسول الكريم - لكى يعتبروا ويتعظوا أهوال يوم القيامة ، يوم يشتد الأمر ، ويعظم الهول .

﴿ ويدعون ﴾ هؤلاء الذين فسقوا عن أمر ربهم فى هذا اليوم ﴿ إلى السجود﴾ لله - تعالى - على سبيل التوبيخ لهم ، لأنهم كانوا ممتنعين عنه فى الدنيا ..

﴿فلا يستطيعون ﴾ أى : فلا يستطيعون ذلك ، لأنه الله - تعالى - سلب منهم القدرة على السجود له فى هذا اليوم العظيم ، لأنه يوم جزاء وليس يوم تكليف والذين يدعونهم إلى السجود ، هم الملائكة بأمره - تعالى - .

وقوله : ﴿ خاشعة أبصارهم ...﴾ حال من فاعل ﴿ يدعون ﴾ وخشوع الأبصار : كناية عن الذلة والخوف الشديد . ونسب الخشوع إلى الأبصار ، لظهور أثره فيها .

أى : هم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ذلك . لأنه - تعالى - سلب منهم القدرة عليه ، ثم يساقون إلى النار ، حالة كونهم ذليلة أبصارهم ، منخفضة رءوسهم ..

﴿ترهقهم ذلة ﴾ أى : تغشاهم وتعلوهم ذلة وانكسار ..

﴿ وقد كانوا ﴾ فى الدنيا ﴿ يدعون إلى السجود ﴾ لله - تعالى - ﴿ وهم سالمون ﴾ أى : وهم قادرون على السجود له - تعالى - ، ومتمكنون من ذلك أقوى تمكن ....، ولكنهم كانوا يعرضون عمن يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ويستهزئون به ..

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ...﴾ يعنى يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال ، والزلازل ، والبلايا ، والامتحان ، والأمور العظام ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٩٤ .

روى البخارى عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول : يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره ، طبقا واحدا - أى : يصير ظهره كالشىء الصلب فلا يقدر على السجود - .

وعن ابن عباس قال : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ : وهو يوم كرب وشدة ..[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بالتهديد الشديد للكافرين ، وببيان جانب من تصرفه الحكيم معهم ، وبتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه منهم ، ويأمره بالصبر على أذاهم ، وعلى أحقادهم التى تنبىء عنها نظراتهم المسمومة إليه ، فقال - تعالى - :

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا
أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)

والفاء فى قوله : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ...﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والفعل : ﴿ ذرنى ﴾ من الأفعال التى يأتى منها الأمر والمضارع ، ولم يسمع لها ماض ، وهو بمعنى اترك . يقال: ذَرْهُ يفعل كذا، أى: اتركه . ومنه قوله - تعالى - ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

والمراد ﴿ بهذا الحديث ...﴾ ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - من قرآن كريم ، ومن توجيهات حكيمة ، لكى يبلغها للناس .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢٤ .

والاستدراج : استنزال الشيء من درجة إلى أخرى ، والانتقال به من حالة إلى أخرى ، والسين والتاء فيه للطلب والمراد به هنا : التمهل فى إنزال العقوبة .

والإملاء : الإمداد فى الزمن ، والإمهال والتأخير ، مأخوذ من الملاوة والملوة ، وهى الطائفة الطويلة من الزمن . والملوان . الليل : والنهار ، والمراد به هنا : إمدادهم بالكثير من النعم ..

يقال : أملى فلان لبعيره ، إذا أرخى له فى الزمام ، ووسع له فى القيد ، ليتسع المَرعى .

والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره ، بحيث ينخدع الممكور به ، فلا يفطن لما يراد به ، حتى يقع عليه ما يسوؤه .

وإضافة الكيد إليه – تعالى – يحمل على المعنى اللائق به كإبطال مكر أعدائه ، وكإمدادهم بالنعم . ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

والمقصود بهاتين الآيتين الكريمتين : تسلية النبى – ﷺ – عما أصابه من أعدائه .

والمعنى : إذا كانت أحوال هؤلاء المشركين ، كما ذكرت لك – أيها الرسول الكريم – فكِلْ أمرهم إلىَّ ، واترك أمر هؤلاء الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عندنا إلى ربك ، ولا تشغل بالك بهم . فإنى سأقربهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ، بأن أسوق لهم النعم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أن صنعنا هذا معهم هو لون من الاستدراج ، ثم إنى أمد لهم فى أسباب الحياة الرغدة ، ليزدادوا إثما ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وهذا لون من ألوان كيدى الشديد القوى ، الذى لا يفطن إليه أمثال هؤلاء الجاهلين الأغبياء ..

وشبيه بهاتين الآيتين قوله – تعالى – : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين ﴾(١) .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقال الحسن البصرى : كم من مستدرج بالإحسان ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه .

قال الآلوسى : وقوله ﴿ سنستدرجهم ... ﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق إجمالا .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .

وقوله : ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أى : من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم ، وتفضل على المؤمنين مع أنه سبب هلاكهم .

وقوله : ﴿ وأملى لهم ﴾ أى : وأمهلهم ليزدادوا إثما . ﴿ إن كيدى متين ﴾ أى : لا يُدفَع بشىء .

وتسمية ذلك كيدا - وهو ضرب من الاحتيال - لكونه فى صورته ، حيث إنه - سبحانه - يفعل معهم ما هو نفع لهم ظاهرا ، ومراده - عز وجل - به الضرر ، لما علم من خبث جبلتهم ، وتماديهم فى الكفر والجحود ..[1] .

ثم عادت السورة الكريمة إلى إبطال معاذيرهم ، بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، الذى تكرر فيها كثيرا ، فقال - تعالى - : ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ ؟

والمغرم والغرامة : ما يفرض على المرء أداؤه من مال وغيره .

والمثقلون : جمع مثقل ، وهو من أثقلته الديون ، حتى صار فى حالة عجز عن أدائها .

والمراد بالغيب : علم الغيب ، وهو ما غاب عن علم البشر ، فالكلام على حذف مضاف .

والمعنى : بل أتسألهم - يا محمد - على دعوتك لهم إلى الحق والخير ﴿ أجرا ﴾ دنيويا ﴿ فهم ﴾ من أجل ذلك مثقلون بالديون المالية ، وعاجزون عن دفعها لك .. فترتب على هذا الغرم الثقيل . أن أعرضوا عن دعوتك ، وتجنبوا الدخول فى دينك ؟ .

أم أن هؤلاء القوم عندهم علم الغيب ، بأن يكونوا قد اطلعوا على ما سطرناه فى اللوح المحفوظ من أمور غيبية لا يعلمها أحد سوانا .. فهم يكتبون ذلك ، ثم يصدرون أحكامهم . ويجادلونك فى شأنها . وكأنهم قد اطلعوا على بواطن الأمور !.

الحق الذى لا حق سواه ، أن هؤلاء القوم ، أنت لم تطلب منهم أجرا على دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، ولا علم عندهم بشىء من الغيوب التى لا يعلمها أحد سوانا ، وكل ما يزعمونه فى هذا الشأن فهو ضرب من الكذب والجهل ..

وما دام الأمر كما ذكرنا لك ﴿ فاصبر ﴾ أيها الرسول الكريم - لحكم ربك ، ولقضائه فيك وفيهم ، وسر فى طريقك التى كلفناك به ، وهو تبليغ رسالتنا إلى الناس .. وستكون العاقبة لك ولأتباعك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٣٦ .

﴿ ولا تكن ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ كصاحب الحوت ﴾ وهو يونس - عليه السلام - .

أى : لا يوجد منك ما وجد منه ، من الضجر ، والغضب على قومه الذين لم يؤمنوا ، ففارقهم دون أن يأذن له ربه بمفارقتهم ..

والظرف فى قوله : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ منصوب بمضاف محذوف ، وجملة « وهو مكظوم » فى محل نصب على الحال من فاعل « نادى » ..

والمكظوم - بزنة مفعول - : المملوء غضبا وغيظا وكربا ، مأخوذ من كظم فلان السقاء إذا ملأه ، وكظم الغيظ إذا حبسه وهو ممتلىء به .

أى : لا يكن حالك كحال صاحب الحوت ، وقت ندائه لربه - عز وجل - وهو مملوء غيظا وكربا ، لما حدث له مع قومه . ولما أصابه من بلاء وهو فى بطن الحوت .

وهذا النداء قد أشار إليه - سبحانه - فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ...﴾ استئناف لبيان جانب من فضله - تعالى - على عبده يونس - عليه السلام - .

و﴿ لولا ﴾ هنا حرف امتناع لوجود ، و﴿ أن ﴾ يجوز أن تكون مخففة من ﴿ أن ﴾ الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وهو محذوف ، وجملة ﴿ تداركه نعمة من ربه ﴾ خبرها .

ويجوز أن تكون مصدرية . أى : لولا تدارك رحمة من ربه .

والتدارك : تفاعل من الدرك - بفتح الدال - بمعنى اللحاق بالغير . والمقصود به هنا : المبالغة فى إدراك رحمة الله - تعالى - لعبده يونس - عليه السلام - .

قال الجمل : قرأ العامة : ﴿ تداركه ﴾ ، وهو فعل ماضى مذكر ، حمل على معنى النعمة ، لأن تأنيثها غير حقيقى ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود : تداركته - على لفظ النعمة - وهو خلاف المرسوم ..[2] .

والمراد بالنعمة : رحمته - سبحانه - بيونس - عليه السلام - وقبول توبته ، وإجابة دعائه ..

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٩١ .

والنبذ : الطرح والترك للشيء ، والعراء : الأرض الفضاء الخالية من النبات وغيره .

والمعنى : لولا أن الله - تدارك عبده يونس برحمته ، وبقبول توبته .. لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من النبات والعمران .. وهو مذموم ، أى : وهو ملوم ومؤاخذ منا على ما حدث منه ..

ولكن ملامته ومؤاخذته منا قد امتنعت ، لتداركه برحمتنا ، حيث قبلنا توبته ، وغسلنا حوبته ، ومنحناه الكثير من خيرنا وبرنا ..

فالمقصود من الآية الكريمة بيان جانب من فضل الله - تعالى - على عبده يونس - عليه السلام - ، وبيان أن رحمته - تعالى - به ، ونعمته عليه ، قد حالت بينه وبين أن يكون مذموما على ما صدر منه ، من مغاضبة لقومه ومفارقته لهم بدون إذن من ربه ..

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ وهو مذموم ﴾ أى : ملوم ومؤاخذ بذنبه والجملة حال من مرفوع « نبِذ » ، وهى محط الامتناع المفاد بلولا ، فهى المنفية لا النبذ بالعراء ..

أى : لنبذ بالعراء وهو مذموم ، لكنه رُحِم فنبذ غير مذموم ..

فلولا - هنا - ، حرف امتناع لوجود ، وأن الممتنع القيد فى جوابها لا هو نفسه..[1] .

وقوله : ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ تأكيد وتفصيل لنعمة الله - تعالى - التى أنعم بها على عبده يونس - عليه السلام - ، وهو معطوف على مقدر .

أى : فتداركته النعمة فاصطفاه ربه - عز وجل - حيث رد عليه الوحى بعد انقطاعه ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون من الناس ، وقبل توبته ، فجعله من عباده الكاملين فى الصلاح والتقوى ، وفى تبليغ الرسالة عن ربه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان ما كان عليه الكافرون من كراهية للنبى - ﷺ - ومن حقد عليه ، فقال - تعالى - : ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ، لما سمعوا الذكر ، ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ ليُزْلِقونك ﴾ من الزَّلَق - بفتحتين - ، وهو تزحزح الإنسان عن مكانه ، وقد يؤدى به هذا التزحزح إلى السقوط على الأرض ، يقال : زَلَقه يَزْلِقه ، وأزْلقه يُزْلِقه إزلاقا ، إذا نحاه وأبعده عن مكانه ، واللام فيه للابتداء .

قال الشوكانى : قرأ الجمهور : ﴿ ليزلقونك ﴾ بضم الياء من أزلقه ، أى : أزل رجله ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٩١ .

وقرأ نافع وأهل المدينة ﴿ ليَزلقونك ﴾ - بفتح الياء - من زلق عن موضعه .

و﴿ إن ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، - واسمها ضمير الشأن محذوف ، و « لما » ظرفية منصوبة بيزلقونك . أو هى حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ما قبلها عليه . أى : لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ...[1] .

أى : وإن يكاد الذين كفروا ليهلكونك ، أو ليزلون قدمك عن موضعها ، أو ليصرعونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك شزرا ، بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا الذكر ، وهو القرآن الكريم ..

﴿ ويقولون ﴾ على سبيل البغض لك ﴿ إنه لمجنون ﴾ أى : إن الرسول - ﷺ - لمن الأشخاص الذين ذهبت عقولهم ..

﴿ وما هو ﴾ أى : القرآن الذى أنزلناه عليك ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : تذكير بالله - تعالى - وبدينه وبهداياته .. وشرف لهم وللعالمين جميعا .

وجاء قوله ﴿ يكاد ﴾ بصيغة المضارع ، للإشارة إلى استمرار ذلك فى المستقبل .

وجاء قوله ﴿ سمعوا ﴾ بصيغة الماضى ، لوقوعه مع ﴿ لما ﴾ ، وللإشعار بأنهم قد حصل منهم هذا القول السيئ ..

وجاء قوله ﴿ ليزلقونك ﴾ بلام التأكيد للإشعار بتصميمهم على هذه الكراهية ، وحرصهم عليها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ رد على أكاذيبهم ، وإبطال لأقوالهم الزائفة ، حيث وصفوه - ﷺ - بالجنون ، لأنه إذا كان ما جاء به شرف وموعظة وهداية وتذكير بالخير للناس .. لم يكن معقولا أن يكون مبلغه مجنونا .

ومنهم من فسر قوله - تعالى - : ﴿ ليزلقونك بأبصارهم .. ﴾ أى : ليحسدونك عن طريق النظر الشديد بعيونهم ..

قال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : ﴿ ليزلقونك ﴾ : لينفذونك بأبصارهم ، أى : ليَعينوك بأبصارهم ، بمعنى ليحسدونك لبغضهم إياك ، لولا وقاية الله لك ، وحمايتك منهم .

وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله - عز وجل - ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٢٧٧ للشوكانى .

ثم ساق – رحمه الله – جملة من الاحاديث فى هذا المعنى ، منها ما رواه أبو داود فى سننه ، عن أنس أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا رقية إلا من عين أو حُمَه – أى : سم – ، أودم لا يرقأ » .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « العين حق ، ولو كان شىء سابَق القدر سَبَقَتْ العين » .

وعن ابن عباس – أيضا – قال : كان رسول الله – ﷺ – يعوذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذ كما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة – والهامة كل ذات سم يقتل – ، ومن كل عين لامّة ».

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله – ﷺ – قال : « العين حق حتى لتورد الرجل القبر ، والجمل القدر ، وإن أكثر هلاك أمتى فى العين[1] » .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « ن » ، نسأل الله – تعالى – أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة – مدينة نصر
صباح السبت ١٢ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ
والموافق ١٩/٧/١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢٦ وما بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحاقة

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الحاقة » من السور المكية الخالصة ، وكان نزولها بعد سورة « الملك » وقبل سورة « المعارج » ، وعدد آياتهاإحدى وخمسون آية ، وعند بعضهم اثنتان وخمسون آية .

قال الآلوسى : « ويدل على مكيتها ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : « خرجت أتعرض لرسول الله - ﷺ - قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فوقفت خلفه ، فاستفتح بسورة (الحاقة) ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، فقلت - أى فى نفسى - : هذا والله شاعر ، فقرأ ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ فقلت : كاهن ، فقرأ ﴿ وما هو بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ إلى آخر السورة . فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع »[1] .

وعلى هذا الحديث يكون نزولها فى السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة لأن إسلام عمر - رضى الله عنه - كان - تقريبا - فى ذلك الوقت .

٢ - والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن مصارع المكذبين ، وعن أحوال أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وعن إقامة الأدلة المتعددة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

وتمتاز هذه السورة بقصر آياتها ، وبرهبة وقعها على النفوس ، إذ كل قارىء لها بتدبر

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٣٨ .

وتفكر ، يحس عند قراءتها بالهول القاصم ، وبالجد الصارم ، وببيان أن هذا الدين حق لا يشوبه باطل . وأن ما أخبر به الرسول - ﷺ - صدق لا يحوم حوله كذب .

نرى ذلك كله فى اسمها ، وفى حديثها عن مصارع الغابرين ، وعن مشاهد يوم القيامة التى يشيب لها الولدان .

نسأل الله تعالى - أن يرحمنا جميعا برحمته .

الراجى عفو ربه
د / محمد سيد طنطاوى

التفسير

افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ
وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا
عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨)
وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ
(١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

وكلمة « الحاقة » مأخوذة من حق الشيء إذا ثبت وجوده ثبوتا لا يحتمل الشك .. وهى من أسماء الساعة ، وسميت الساعة بهذا الإسم لأن الأمور تثبت فيها وتحق ، خلافا لما كان يزعمه الكافرون من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء .

والهاء فيها يصح أن تكون هاء التأنيث ، فيكون لفظ « الحاقة » صفة لموصوف محذوف ، أى : الساعة الحاقة .

ويصح أن تكون هاء مصدر ، بزنة فاعلة ، مثل الكاذبة للكذب والباقية للبقاء ، والطاغية للطغيان .

وأصلها تاء المرة ، ولكنها لما أريد بها المصدر ، قطع النظر عن المرة ، وصار لفظ « الحاقة » بمعنى الحق الثابت الوقوع .

ولفظ « الحاقة » مبتدأ ، و « ما » مبتدأ ثان ، ولفظ الحاقة الثانى ، خبر المبتدأ الثانى ، والجملة من المبتدأ الثانى وخبره ، خبر المبتدأ الأول .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ الحاقة . ما الحاقة ﴾ يريد القيامة ، سميت بذلك : لأن الأمور تَحُق فيها .

وقيل سميت بذلك ، لأنها تكون من غير شك . أو لأنها أحقت لأقوام الجنة ، ولأقوام النار ، أو لأن فيها يصير كل إنسان حقيقا بجزاء عمله ، أو لأنها تَحُقُّ كل مُحَاق فى دين الله بالباطل . أى : تبطل حجة كل مخاصم فى دين الله بالباطل - يقال : حاقَقْتُهُ فحققته فأنا أحِقُّه ، إذا غالبتهُ فغلبته .. والتَّحاق التخاصم ، والاحتقاق : الاختصام ..[1] .

و « ما » فى قوله ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ اسم استفهام المقصود به هنا التهويل والتعظيم ، وهى مبتدأ . وخبرها جملة ﴿ أدراك ما الحاقة ﴾ وما الثانية وخبرها فى محل نصب سادة مسد المفعول الثانى لقوله ﴿ أدراك ﴾ لأن أدرى يتعدى لمفعولين ، الأول بنفسه والثانى بالباء ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾[2] .

وهذا الأسلوب الذى جاءت به هذه الآيات الكريمة ، فيه ما فيه من التهويل من شأن الساعة ، ومن التعظيم لأمرها ، فكأنه - تعالى - يقول : يوم القيامة الذى يخوض فى شأنه الكافرون ، والذى تَحِق فيه الأمور وتثبت . أتدرى أى شىء عظيم هو ؟ وكيف تدرى أيها المخاطب ؟ ونحن لم نحط أحدا بكنه هذا اليوم ، ولا بزمان وقوعه ؟

وإنك - أيها العاقل - مهما تصورت هذا اليوم ، فإن أهواله فوق ما تتصور ، وكيفما قدرت لشدائده : فإن هذه الشدائد فوق ما قدرت .

ومن مظاهر هذا التهويل لشأن يوم القيامة افتتاح السورة بلفظ «الحاقة» الذى قصد به ترويع المشركين ، لأن هذا اللفظ يدل على أن يوم القيامة حق .

كما أن تكرار لفظ « ما » ثلاث مرات ، مستعمل - أيضا - فى التهويل والتعظيم ، كما أن إعادة المبتدأ فى الجملة الواقعة خبرا عنه بلفظه ، بأن قال ﴿ ما الحاقة ﴾ ولم يقل ما هى ، يدل أيضا على التهويل . لأن الإظهار فى مقام الإضمار يقصد به ذلك ، ونظيره

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٥٧ .
(٢) سورة يونس الآية ١٦ .

قوله - تعالى - : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾. ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ .

والخطاب فى الآيات الكريمة ، لكل من يصلح له ، لأن المقصود تنبيه الناس إلى أن الساعة حق . وأن الحساب والجزاء فيها حق ، لكى يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : واستعمال « ما أدراك » غير استعمال « ما يدريك » .. فقد روى عن ابن عباس أنه قال : كل شىء من القرآن من قوله ﴿ ما أدراك ﴾ فقد أدراه ، وكل شىء من قوله : ﴿ وما يدريك ﴾ فقد طوى عنه .

فإن صح هذا عنه فمراده أن مفعول « ما أدراك » محقق الوقوع ، لأن الاستفهام فيه للتهويل وأن مفعول « مايدريك » غير محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للإنكار ، وهو فى معنى نفى الدراية .

قال - تعالى - : ﴿ وما أدراك ماهيه . نار حامية ﴾ وقال - سبحانه - ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾[1] .

ثم فصل - سبحانه - أحوال بعض الذين كذبوا بالساعة ، وبين ما ترتب على تكذيبهم من عذاب أليم فقال : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ .

وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، سموا بذلك باسم جدهم ثمود . وقيل سموا بذلك لقلة المياه التى كانت فى مساكنهم ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بين الحجاز والشام . وما زالت أماكنهم معروفة باسم قرى صالح وتقع بين المملكة الأردنية الهاشمية ، والمملكة العربية السعودية .

وقد ذكرت قصتهم فى سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والقمر ... إلخ .

وأما عاد فهم قبيلة عاد ، وسموا بذلك نسبة إلى جدهم الذى كان يسمى بهذا الاسم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حِقف وهو الرمل الكثير المائل ... وينتهى نسب عاد وثمود إلى نوح - عليه السلام - .

والقارعة : اسم فاعل من قرعه ، إذا ضربه ضربا شديدا ، ومنه قوارع الدهر ، أى : شدائده وأهواله، ويقال: قرع فلان البعير، إذا ضربه ومنه قولهم : العبد يقرع بالعصا .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ١١٤ للشيخ ابن عاشور .

ولفظ القارعة ، من أسماء يوم القيامة ، وسمى يوم القيامة بذلك ، لأنه يقرع القلوب ويزجرها لشدة أهواله : وهو صفة لموصوف محذوف ، أى : بالساعة القارعة .

والطاغية من الطغيان وهو تجاوز الحد ، والمراد بها هنا الصاعقة أو الصيحة التى أهلكت قوم ثمود ، كما قال - تعالى - : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾[١] .

ولفظ الطاغية - أيضا - صفة لموصوف محذوف .

والريح الصرصر العاتية : هى الريح الشديدة التى يكون لها صوت كالصرير ، كما قال - تعالى - : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ﴾[٢] .

والعاتية من العتو بمعنى الشدة والقوة وتجاوز الحد .

أى : كذبت قبيلة ثمود ، وقبيلة عاد ، بالقيامة التى تقرع القلوب ، وتزلزل النفوس ، فأما قبيلة « ثمود » فأهلكوا ، بالصيحة أو بالصاعقة ، أو بالرجفة ، التى تجاوزت الحد فى الشدة والهول والطغيان .

وأما قبيلة عاد ، فأهلكت بالريح الشديدة ، التى لها صوت عظيم ، والتى تجاوزت كل حد فى قوتها .

وابتدأ - سبحانه - بذكر ما أصاب هاتين القبيلتين ، لأنهما أكثر القبائل المكذبة معرفة لمشركى قريش ، لأنهما من القبائل العربية ، ومساكنهما كانت فى شمال وجنوب الجزيرة العربية .

ثم بين - سبحانه - كيفية نزول العذاب بهم فقال : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ﴾ .

والتسخير : التذليل عن طريق القهر والأمر الذى لا يمكن مخالفته .

وحسوما : من الحَسْم بمعنى التتابع ، من حسمت الدابة ، إذا تابعت كيها على الداء مرة بعد مرة حتى ينحسم .. أو من الحسم بمعنى القطع ، ومنه سمى السيف حساما لأنه يقطع الرءوس ، وينهى الحياة .

قال صاحب الكشاف : «والحسوم»: لا يخلو من أن يكون جمع حاسم، كشهود وقعود . أو

---

(١) سورة هود الآية ٦٧ .

(٢) سورة فصلت الآية ١٦ .

مصدرا كالشكور والكفور ، فإن كان جمعا فمعنى قوله ﴿ حسوما ﴾ : نحسات حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة . أو : متتابعة هبوب الرياح ، ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم ، تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم فى إعادة الكى على الداء ، كرة بعد كرة حتى ينحسم .

وإن كان مصدراً ، فإما أن ينتصب بفعله مضمراً ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا . أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم ..[1] .

أى : أرسل الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين الريح التى لا يمكنها التخلف عن أمره ، فبقيت تستأصل شأفتهم ، وتخمد أنفاسهم ... ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ أى : متتابعة ومتوالية حتى قطعت دابرهم ، ودمرتهم تدميرا .

وقوله : ﴿ حسوما ﴾ يصح أن يكون نعتا لسبع ليال وثمانية أيام ، ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل من لفظه ، أى : تحسمهم حسوما .

ثم صور - سبحانه - هيئاتهم بعد أن هلكوا فقال : ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ .

والخطاب فى قوله ﴿ فترى .. ﴾ لغير معين . والفاء للتفريع على ما تقدم والضمير فى قوله ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الأيام والليالى . أو إلى مساكنهم .

وقوله : ﴿ صرعى ﴾ أى : هلكى ، جمع صريع كقتيل وقتلى ، وجريح وجرحى . والأعجاز جمع عَجُز ، والمراد بها هنا جذوع النخل التى قطعت رءوسها .

وخاوية ، أى : ساقطة ، مأخوذ من خوى النجم ، إذا سقط للغروب أو من خوى المكان إذا خلا من أهله وسكانه ، وصار قاعا صفصفا . بعد أن كان ممتلئا بعُمَّارِه .

أى : أرسل الله - تعالى - على هؤلاء الظالمين الريح المتتابعة لمدة سبع ليال وثمانية أيام ، فدمرتهم تدميرا ، وصار الرائى ينظر إليهم فيراهم وقد ألقوا على الأرض هلكى ، كأنهم فى ضخامة أجسادهم ... جذوع نخل ساقطة على الأرض ، وقد انفصلت رءوسها عنها .

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ فترى القوم ... ﴾ لا ستحضار صورتهم فى الأذهان ، حتى يزداد المخاطب اعتبارا بأحوالهم ، وبما حل بهم .

والتشبيه بقوله : ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ المقصود منه تشنيع صورتهم ، والتنفير من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٩٨ .

مصيرهم السَّيِّئ ، لأن من كان هذا مصيره ، كان جديرا بأن يتحامى ، وأن تجتنب أفعاله التى أدت به إلى هذه العاقبة المهينة .

والاستفهام فى قوله : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ للنفى ، والخطاب - أيضا - لكل من يصلح له ، وقوله ﴿ باقية ﴾ صفة لموصوف محذوف .. أى : فهل ترى لهم من فرقة أو نفس باقية .

ثم بين - سبحانه - النهاية السيئة لأقوام آخرين فقال : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ .

وفرعون : هو الذى قال لقومه - من بين ما قال - أنا ربكم الأعلى ... وقد أرسل الله - تعالى - إليه نبيه موسى - عليه السلام - ولكنه أعرض عن دعوته .. وكانت نهايته الغرق .

والمراد بمن قبله : الأقوام الذين سبقوه فى الكفر ، كقوم نوح وإبراهيم - عليهما السلام - .

والمراد بالمؤتفكات : قرى قوم لوط - عليه السلام - التى اقتلعها جبريل - عليه السلام - ثم قلبها بأن جعل عاليها سافلها ، مأخوذ من ائتفك الشىء إذا انقلب رأساً على عقب .

قال - تعالى - ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾[1] .

والمراد بالمؤتفكات هنا : سكانها وهم قوم لوط الذين أتوا بفاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين .

وخصوا بالذكر ، لشهرة جريمتهم وبشاعتها وشناعتها ... ولمرور أهل مكة على قراهم وهم فى طريقهم إلى الشام للتجارة ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[2] .

أى : وبعد أن أهلكنا أقوام عاد وثمود .. جاء فرعون ، وجاء أقوام آخرون قبله ، وجاء قوم لوط ، وكانوا جميعا كافرين برسلنا ، ومعرضين عن دعوة الحق ومرتكبين للفعلات الخاطئة ، والفواحش المنكرة .

ومن مظاهر ذلك أنهم ﴿ عصوا رسول ربهم ﴾ أى : كل أمة من أمم الكفر تلك ، عصت

---

(١) سورة هود الآية ٨٢ .
(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ - ١٣٨ .

رسولها حين أمرها بالمعروف ، ونهاها عن المنكر .

فكانت نتيجة إصرارهم على ارتكاب المعاصى والفواحش .. أن أخذهم الله - تعالى - ﴿ أخذة رابية ﴾ أى : أخذة زائدة فى الشدة - لزيادة قبائحهم - على الأخذات التى أخذ بها غيرهم .

فقوله : ﴿ رابية ﴾ مأخوذ من ربا الشىء إذا زاد وتضاعف .

وقال - سبحانه - ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ ولم يقل رسولهم ، للإشعار بأنهم لم يكتفوا بمعصية الرسول الذى هو بشر مثلهم ، وإنما تجاوزوا ذلك إلى الاستخفاف بما جاءهم به من عند ربهم وخالقهم وموجدهم .

والتعبير بالأخذ ، للإشعار بسرعة الإهلاك وشدته ، فإذا وصف هذا الأخذ بالزيادة عن المألوف ، كان المقصود به الزيادة فى الاعتبار والاتعاظ لأن هؤلاء جميعا قد أهلكهم - سبحانه - هلاك الاستئصال ، الذى لم يبق منهم باقية .

ثم حكى - سبحانه - ما جرى لقوم نوح - عليه السلام - وبين جانبا من مننه ونعمه على المخاطبين ، فقال : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ .

وقوله : ﴿ طغى ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى كل شىء ، والجارية صفة لموصوف محذوف .

أى : اذكروا - أيها الناس - لتعتبروا وتتعظوا ، ما جرى للكافرين من قوم نوح - عليه السلام - فإنهم حين أصروا على كفرهم ، أغرقناهم بالطوفان ، وحين علا الماء واشتد فى ارتفاعه اشتداداً خارقاً للعادة .. حملنا آباءكم الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فى السفينة الجارية ، التى صنعها نوح بأمرنا . وحفظناهم - بفضلنا ورحمتنا - فى تلك السفينة إلى أن انتهى الطوفان .

وقد فعلنا ذلك ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ أى : لنجعل لكم هذه النعمة وهى إنجاؤكم وإنجاء آبائكم من الغرق - عبرة وعظة وتذكيرا بنعم الله - تعالى - عليكم .

وهذه النعمة والمنة ﴿ تعيها ﴾ وتحفظها ﴿ أذن واعية ﴾ . أى : أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه ، وتعى ما يجب وعيه .

فقوله : ﴿ واعية ﴾ من الوعى بمعنى الحفظ للشىء فى القلب . يقال : وعى فلان الشىء يعيه إذا حفظه أكمل حفظ .

وقال - سبحانه - ﴿ حملناكم فى الجارية ﴾ مع أن الحمل كان للآباء الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - لأن فى نجاة الآباء ، نجاة للأبناء ، ولأنه لو هلك الآباء لما وجد الأبناء .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ حملناكم ﴾ أى : حملنا آباءكم ، فى الجارية ، أى : فى السفينة الجارية ، لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين ، كان حمل آبائهم منة عليهم ، وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم .

﴿ لنجعلها ﴾ الضمير للفعلة : وهى نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة ﴿ تذكرة ﴾ عبرة وعظة . ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ من شأنها أن تعى وتحفظ مايجب حفظه ووعيه ، ولا تضيعه بترك العمل .

فإن قلت : لم قيل : أذن واعية على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله ، فهى السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالى بهم ، وإن ملأوا الخافقين ..[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بأهوال يوم القيامة بأبلغ أسلوب ، وبينت ما حل بالمكذبين بطريقة تبعث الخوف والوجل فى القلوب .

ثم أخذت السورة فى تفصيل أهوال يوم القيامة ، وفى بيان ما تكون عليه الأرض والسماء فى هذا اليوم ، وفى بيان ما أعده - سبحانه - لمن أوتى كتابه بيمينه فى هذا اليوم ، فقال - تعالى - :

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٠٠ .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فإذا نفخ فى الصور .. ﴾ للتفريع ، أى : لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، وهو الحديث عن أهوال يوم القيامة .

والصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ﴾ شروع فى بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها ، بإهلاك مكذبيها .

والمراد بالنفخة الواحدة : النفخة الأولى ، التى عندها يكون خراب العالم . وقيل هى النفخة الثانية . والأول أولى ، لأنه هو المناسب لما بعده[1] .

وجواب الشرط قوله : ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ . أو قوله : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

أى : فإذا نفخ إسرافيل فى الصور بأمرنا . وقعت الواقعة التى لا مفر من وقوعها ، لكى يحاسب الناس على أعمالهم .

ووصفت النفخة بأنها واحدة ، للتأكيد على أنها نفخة واحدة وليست أكثر ، وللتنبيه على أن هذه النفخة - مع أنها واحدة - تتأثر بها السموات والأرض والجبال ، وهذا دليل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ بيان لما ترتب على تلك النفخة الهائلة من آثار .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥٩ ص ٤٣ .

والمراد بحمل الأرض والجبال : إزالتهما من أماكنها ، وتفريق أجزائها .

والدك : هو الدق الشديد الذى يترتب عليه التكسير والتفتيت للشىء .

أى : عندما ينفخ إسرافيل فى الصور بأمرنا نفخة واحدة ، وعندما تزال الأرض والجبال عن أماكنها ، وتتفتت أجزاؤهما تفتتا شديدا .

فيومئذ ﴿ وقعت الواقعة ﴾ أى : ففى هذا الوقت تقع الواقعة التى لا مرد لوقوعها ، والواقعة من أسماء يوم القيامة . كالحاقة ، والقارعة .

ثم بين - سبحانه - ما تكون عليه السماء فى هذا اليوم فقال : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ .

والانشقاق : الانفطار والتصدع . ومعنى : ﴿ واهية ﴾ ضعيفة متراخية .

يقال : وهَى البناء يَهِى وَهْياً فهو واهٍ ، إذا كان ضعيفا جدا ، ومتوقعا سقوطه .

أى : وفى هذا الوقت - أيضا - الذى يتم فيه النفخ فى الصور بأمرنا تتصدع السماء وتتفطر ، وتصير فى أشد درجات الضعف والاسترخاء ، والتفرق .

وقيد - سبحانه - هذا الضعف بهذا الوقت ، للإشارة إلى أنه ضعف طارىء ، قد حدث بسبب النفخ فى الصور ، أما قبل ذلك فكانت فى نهاية الإحكام والقوة .

وهذا كله للتهويل من شأن هذه النفخة ، ومن شأن المقدمات التى تتقدم قيام الساعة ، حتى يستعد الناس لها بالإيمان والعمل الصالح .

والمراد بالملك فى قوله - تعالى - : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ جنس الملك ، فيشمل عدد مبهم من الملائكة .. أو جميع الملائكة إذا أردنا بأل معنى الاستغراق .

والأرجاء : الأطراف والجوانب ، جمع رَجَا بالقصر ، وألفه منقلبة عن واو ، مثل : قفا وقفوان .

أى : والملائكة فى ذلك الوقت يكونون على أرجاء السماء وجوانبها ، ينفذون أمر الله - تعالى - ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ أى : والملائكة واقفون على أطراف السماء ، ونواحيها . ويحمل عرش ربك فوق هؤلاء الملائكة فى هذا اليوم ، ثمانية منهم ، أو ثمانية من صفوفهم التى لا يعلم عددها إلا الله - تعالى - .

وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فنحن نؤمن بأن لله - عز وجل - عرشا ، إلا أننا نفوض معرفة هيئته وكنهه .. إلى الله - تعالى - .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ أى : والجنس المتعارف بالملك ، وهم الملائكة .. على جوانب السماء التى لم تتشقق .

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ أى : فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء المدلول عليهم بالملك ، وقيل : فوق العالم كلهم .

﴿ يومئذ ثمانية ﴾ أى : من الملائكة ، أو ثمانية صفوف لا يعلم عدتهم إلا الله - تعالى -[١] .

هذا ، وقد وردت فى صفة هؤلاء الملائكة الثمانية ، أحاديث ضعيفة لذا ضربنا صفحا عن ذكرها .

ثم بين - سبحانه - ما يجرى على الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

والعرض أصله : إظهار الشىء لمن يريد التأمل فيه ، أو الحصول عليه ، ومنه عرض البائع سلعته على المشترى .

وهو هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبة .

أى : فى هذا اليوم تعرضون للحساب والجزاء ، لا تخفى منكم خافية ، أى تعرضون للحساب ، دون أن يخفى منكم أحد على الله - تعالى - أو دون أن تخفى منكم نفس واحدة على خالقها - عز وجل - .

قال الجمل: وقوله: ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ أى: تسألون وتحاسبون، وعبر عنه بذلك تشبيها له بعرض السلطان العسكر والجند ، لينظر فى أمرهم فيختار منهم المصلح للتقريب والإكرام ، والمفسد للإبعاد والتعذيب[٢] .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه .. ﴾ لتفصيل ما يترتب على العرض والحساب من جزاء .

والمراد بكتابه : ما سجلته الملائكة عليه من أعمال فى الدنيا ، والمراد بيمينه : يده اليمنى ، لأن من يعطى كتابه بيده اليمنى ، يكون هذا الإعطاء دليلا على فوزه ونجاته من العذاب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٤٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٩٧ .

والعرب يذكرون التناول باليمين ، على أنه كناية عن الاهتمام بالشىء المأخوذ ، وعن الاعتزاز به ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وجملة ﴿ فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ جواب « أما » - ولفظ « هاؤم » هنا : اسم فعل أمر . بمعنى : خذوا ، والهاء فى قوله « كتابيه وحسابيهْ » وما ماثلها للسكت ، والأصل كتابى وحسابى فأدخلت عليهما هاء السكت لكى تظهر فتحة الياء .

والمعنى فى هذا اليوم يعرض كل إنسان للحساب والجزاء ، ويؤتى كل فرد كتاب أعماله ، فأما من أعطى كتاب أعماله بيمينه ، على سبيل التبشير والتكريم ، ﴿ فيقول ﴾ على سبيل البهجة والسرور لكل من يهمه أن يقول له : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ أى : هذا هو كتابى فخذوه واقرءوه فإنكم ستجدونه مشتملا على الإكرام لى ، وتبشيرى بالفوز الذى هو نهاية آمالى ، ومحط رجائى .

﴿ إنى ظننت ﴾ أى : تيقنت وعلمت ﴿ أنى ملاق حسابيه ﴾ أى : إنى علمت أن يوم القيامة حق ، وتيقنت أن الحساب والجزاء صدق ، فأعددت للأمر عدته عن طريق الإيمان الكامل ، والعمل الصالح .

قال الضحاك : كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك .

وهذه الجملة الكريمة بمنزلة التعليل للبهجة والمسرة التى دل عليها قوله - تعالى - ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ .

﴿ فهو ﴾ أى : هذا المؤمن الفائز برضا الله - تعالى - ﴿ فى عيشة راضية ﴾ أى : فى حياة ذات رضا ، أى : ثابت ودائم لها الرضا . فهى صيغة نسب ، كلابن وتامر لصاحب اللبن والتمر .

أو فهو فى عيشة مرضية يرضى بها صاحبها ولا يبغضها ، فهى فاعل بمعنى مفعول ، على حد قولهم : ماء دافق بمعنى مدفوق .

وفى هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن هذه الحياة التى يحياها المؤمن فى الجنة ، فى أسمى درجات الحبور والسرور ، حتى لكأنه لو كان للمعيشة عقل ، لرضيت لنفسها بحالتها ، ولفرحت بها فرحا عظيما .

﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : هذا الذى أوتى كتابه بيمينه ، يكون - أيضا - فى جنة مرتفعة على غيرها ، وهذا لون من مزاياها .

﴿ قطوفها دانية ﴾ أى : ثمارها قريبة التناول لهذا المؤمن ، يقطفها كلما أرادها بدون تعب . فالقطوف جمع قِطْف بمعنى مقطوف ، وهو ما يجتنيه الجانى من الثمار ، و ﴿ دانية ﴾ اسم فاعل ، من الدنو بمعنى القرب . وجملة ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : يقال لهؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين أعطوا كتابهم بأيمانهم كلوا أكلا طيبا ، واشربوا هنيئا مريئا بسبب ما قدمتموه فى دنياكم من إيمان بالله - تعالى - ومن عمل صالح خالص لوجهه - تعالى - .

قال الإمام ابن كثير : أى : يقال لهم ذلك ، تفضلا عليهم ، وامتنانا وإنعاما وإحسانا ، وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »[1] .

وكعادة القرآن الكريم ، فى بيان سوء عاقبة الأشرار ، بعد بيان حسن عاقبة الأخيار ، أو العكس ، جاء الحديث عمن أوتى كتابه بشماله ، بعد الحديث عمن أوتى كتابه بيمينه ، فقال - تعالى - :

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ
﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ
إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٤٢ .

أى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ أى : من الجهة التى يعلم أن الإتيان منها يؤدى إلى هلاكه وعذابه .

﴿ فيقول ﴾ على سبيل التحسر والتفجع ﴿ يا ليتنى لم أوت كتابيه ﴾ أى : فيقول ياليتنى لم أعط هذا الكتاب ، لأن إعطائى إياه بشمالى دليل على عذابى وعقابى .

﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ أى : وياليتنى لم أعرف شيئا عن حسابى ، فإن هذه المعرفة التى لم أحسن الاستعداد لها ، أوصلتنى إلى العذاب المبين .

﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ أى : وياليت الموتة التى متها فى الدنيا ، كانت هى الموتة النهائية التى لا حياة لى بعدها .

فالضمير للموتة التى ماتها فى الدنيا ، وإن كان لم يجر لها ذكر ، إلا أنها عرفت من المقام .

والمراد بالقاضية : القاطعة لأمره ، التى لا بعث بعدها ولا حساب .. لأن ما وجده بعدها أشد مما وجده بعد حلوله بها .

قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن عنده فى الدنيا شىء أكره منه . وشر من الموت ما يطلب منه الموت .

ثم أخذ هذا الذى أوتى كتابه بشماله يتحسر على تفريطه وغروره ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ أى : هذه الأموال التى كنت أملكها فى الدنيا ، وأتفاخر بها . لم تغن عنى شيئاً من عذاب الله ، ولم تنفعنى ولو منفعة قليلة .

فما نافية ، والمفعول محذوف للتعميم ، ويجوز أن تكون استفهامية والمقصود بها التوبيخ .

أى : أى شىء أغنى عنى مالى ؟ إنه لم يغن عنى شيئاً .

﴿ هلك عنى سلطانيه ﴾ أى : ذهب عنى ، وغاب عنى فى هذا اليوم ما كنت أتمتع به فى الدنيا من جاه وسلطان ، ولم يحضرنى شىء منه ، كما أن حججى وأقوالى التى كنت أخاصم بها المؤمنين . قد ذهبت أدراج الرياح .

وعدى الفعل « هلك » بعن ، لتضمنه معنى غاب وذهب .

وخلال هذا التفجع والتحسر الطويل ... يأتى أمر الله - تعالى - الذى لا يرد ، فيقول - سبحانه - للزبانية المكلفين بإنزال العذاب بالكافرين : ﴿ خذوه فغلوه ﴾ أى : خذوا هذا الكافر ، فاجمعوا يديه إلى عنقه .

فقوله : ﴿ خذوه ﴾ معمول لقول محذوف . وهو جواب عن سؤال نشأ مما سبق من الكلام . فكأنه قيل : وماذا يفعل به بعد هذا التحسر والتفجع . فكان الجواب : أمر

الله - تعالى - ملائكته بقوله : ﴿ خذوه فغلوه ﴾ ..

وقوله : ﴿ فغلوه ﴾ من الغُل - بضم الغين - وهو ربط اليدين إلى العنق على سبيل الإذلال .

﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ أى : ثم بعد هذا التقييد والإذلال .. اقذفوا به إلى الجحيم ، وهى النار العظيمة ، الشديدة التأجج والتوهج .

ومعنى ﴿ صلوه ﴾ بالغوا فى تصليته النار ، بغمسه فيها مرة بعد أخرى . يقال : صَلِى فلان النار ، إذا ذاق حرها ، وصَلّى فلان فلانا النار ، إذا أدخله فيها . وقلبه على جمرها كما تقلب الشاة فى النار .

﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ والسلسلة : اسم لمجموعة من حَلَق الحديد ، يربط بها الشخص لكى لا يهرب ، أو لكى يزاد فى إذلاله وهو المراد هنا .

وقوله : ﴿ ذرعها ﴾ أى : طولها . والمراد بالسبعين : حقيقة هذا المقدار فى الطول ، أو يكون هذا العدد كناية عن عظيم طولها ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ... ﴾[1] .

وقوله : ﴿ فاسلكوه ﴾ من السَّلك بمعنى الإدخال فى الشىء ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ ما سلككم فى سقر ﴾ أى : ما أدخلكم فيها .

أى : خذوا هذا الكافر ، فقيدوه ثم أعدوه للنار المحرقة . ثم اجعلوه مغلولا فى سلسلة طولها سبعون ذراعا ، بحيث تكون محيطة به إحاطة تامة . أى ألقوا به فى الجحيم وهو مكبل فى أغلاله .

و ﴿ ثم ﴾ فى كل آية جىء بها للتراخى الرتبى ، لأن كل عقوبة أشد من سابقتها . إذ إدخاله فى السلسلة الطويلة . أعظم من مطلق إلقائه فى الجحيم كما أن إلقاءه فى الجحيم ، أشد من مطلق أخذه وتقييده .

وفى هذه الآيات ما فيها من تصوير يبعث فى القلوب الخوف الشديد ، ويحملها على حسن الاستعداد لهذا اليوم . الذى لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئاً .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث والآثار ، منها : ما رواه ابن أبى حاتم ، عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله - عز وجل - ﴿ خذوه .. ﴾ ابتدره

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٠ .

سبعون ألف ملك ، وإن الملك منهم ليقول هكذا - أى : ليفعل هكذا - فيلقى سبعين ألفا فى النار ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهذا الشقى إلى هذا المصير الأليم فقال : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾ .

أى : إن هذا الشقى إنما حل به ما حل من عذاب .. لأنه كان فى الدنيا ، مصرا على الكفر ، وعلى عدم الإيمان بالله الواحد القهار ..

وكان كذلك ﴿ لا يحض ﴾ أى : لا يحث نفسه ولا غيره ﴿ على طعام المسكين ﴾ أى : على بذل طعامه أو طعام غيره للمسكين ، الذى حلت به الفاقة والمسكنة .

ولعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر ، أن أقبح شىء يتعلق بالعقائد ، وهو الكفر بالله - تعالى - وأن أقبح شىء فى الطباع ، هو البخل وقسوة القلب .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بزيادة البيان للمصير الأليم لهذا الشقى فقال : ﴿ فليس له اليوم ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ هاهنا حميم ﴾ أى : ليس له فى هذا اليوم من صديق ينفعه ، أو من قريب يشفق عليه ، أو يحميه ، أو يدفع عنه .

﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ أى : وليس له فى جهنم من طعام سوى الغسلين وهو صديد أهل النار .. أو شجر يأكله أهل النار ، فيغسل بطونهم ، أى : يخرج أحشاءهم منها ، أو ليس لهم إلا شر الطعام وأخبثه .

﴿ لا يأكله ﴾ أى : الغسلين ﴿ إلا الخاطئون ﴾ أى : إلا الكافرون الذين تعمدوا ارتكاب الذنوب ، وأصروا عليها ، من خَطِئَ الرجل : إذا تعمد ارتكاب الذنب .

فالخاطىء هو من يرتكب الذنب عن تعمد وإصرار . والمخطىء : هو من يرتكب الذنب عن غير إصرار وتعمد .

وهكذا . نجد الآيات الكريمة قد ساقت أشد ألوان الوعيد والعذاب .. للكافرين ، بعد أن ساقت قبل ذلك ، أعظم أنواع النعيم المقيم للمؤمنين .

وبعد هذا العرض - الذى بلغ الذروة فى قوة التأثير - لأهوال يوم القيامة ، ولبيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين .. بعد كل ذلك أخذت السورة فى أواخرها ، فى تقرير حقيقة هذا الدين ، وفى تأكيد صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وفى بيان أن هذا القرآن من عنده - تعالى - وحده .. فقال - سبحانه - :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٤٣ .

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ
تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

والفاء فى قوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون ﴾ للتفريع على ما فهم مما تقدم ، من إنكار المشركين ليوم القيامة ، ولكون القرآن من عند الله .

و ﴿ لا ﴾ فى مثل هذا التركيب يرى بعضهم أنها مزيدة ، فيكون المعنى : أقسم بما تبصرون من مخلوقاتنا كالسماء والأرض والجبال والبحار ... وبما لا تبصرون منها ، كالملائكة والجن .

وقوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ جواب القسم ، وهو المحلوف عليه أى : أقسم إن هذا القرآن لقول رسول كريم ، هو محمد - ﷺ - .

وأضاف - سبحانه - القرآن إلى الرسول - ﷺ - باعتبار أنه هو الذى تلقاه عن الله - تعالى - وهو الذى بلغه عنه بأمره وإذنه .

أى : أن الرسول - ﷺ - يقول هذا القرآن ، وينطق به ، على وجه التبليغ عن الله - تعالى - .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعنى محمدا - ﷺ - أضافه إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المُرسِل ، ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى فقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ﴾ وهو جبريل - عليه السلام -[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٤٤ .

وبعضهم يرى أن « لا » فى مثل هذا التركيب ليست مزيدة ، وإنما هى أصلية ، ويكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قسم ، إذ كل عاقل عندما يقرأ القرآن ، يعتقد أنه من عند الله .

ويكون المعنى : فلا أقسم بما تبصرونه من مخلوقات ، وبما لا تبصرونه .. لظهور الأمر واستغنائه عن القسم .

قال الشوكانى : قوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون ﴾ هذا رد لكلام المشركين ، كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون . و « لا » زائدة والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وبما لا تشاهدونه .

وقيل إن « لا » ليست زائدة ، بل هى لنفى القسم ، أى : لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق فى ذلك . والأول أولى[1] .

وتأكيد قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ بإنَّ وباللام ، للرد على المشركين الذين قالوا عن القرآن الكريم : أساطير الأولين .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التأكيد تأكيدات أخرى فقال : ﴿ وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾ .

والشاعر : هو من يقول الشعر . والكاهن : هو من يتعاطى الكهانة عن طريق الزعم بأنه يعلم الغيب .

وانتصب « قليلا » فى الموضعين على أنه صفة لمصدر محذوف ، و « ما » مزيدة لتأكيد القلة .

والمراد بالقلة فى الموضعين انتفاء الإيمان منهم أصلا أو أن المراد بالقلة : إيمانهم اليسير ، كإيمانهم بأن الله هو الذى خلقهم ، مع إشراكهم معه آلهة أخرى فى العبادة .

أى : ليس القرآن الكريم بقول شاعر ، ولا بقول كاهن ، وإنما هو تنزيل من رب العالمين ، على قلب نبيه محمد - ﷺ - لكى يبلغه إليكم ، ولكى يخرجكم بواسطته من ظلمات الكفر ، إلى نور الإيمان .

ولكنكم - أيها الكافرون - لا إيمان عندكم أصلا ، أو قليلا ما تؤمنون بالحق ، وقليلا ما تتذكرونه وتتعظون به .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٢٨٥ .

ففى الآيتين رد على الجاحدين الذين وصفوا الرسول - ﷺ - بأنه شاعر أو كاهن .

وخص هذين الوصفين بالذكر هنا لأن وصفه - ﷺ - بأنه ﴿ رسول كريم ﴾ كاف لنفى الجنون أو الكذب عنه - ﷺ - أما وصفه بالشعر والكهانة فلا ينافى عندهم وصفه بأنه كريم ، لأن الشعر والكهانة كان معدودين عندهم من صفات الشرف ، لذا نفى - سبحانه - عنه - ﷺ - أنه شاعر أو كاهن ، وأثبت له أنه رسول كريم .

وقوله : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ تأكيد لكون القرآن من عند الله - تعالى - وأنه ليس بقول شاعر أو كاهن .

أى : هذا القرآن ليس كما زعمتم - أيها الكافرون - وإنما هو منزل من رب العالمين ، لا من أحد سواه - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - ما يحدث للرسول - ﷺ - لو أنه - على سبيل الفرض - غيَّر أو بدل شيئا من القرآن فقال : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ .

والتقول : افتراء القول ، ونسبته إلى من لم يقله ، فهو تفعل من القول يدل على التكلف والتصنع والاختلاق .

والأقاويل : جمع أقوال ، الذى هو جمع قول ، فهو جمع الجمع .

أى : ولو أن محمداً - ﷺ - افترى علينا بعض الأقوال ، أو نسب إلينا قولا لم نقله ، أو لم نأذن له فى قوله .. لو أنه فعل شيئا من ذلك على سبيل الفرض .

﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أى : لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه ، وهو كناية عن إذلاله وإهانته .

أو : لأخذناه بالقوة والقدرة ، وعبر عنهما باليمين ، لأن قوة كل شىء فى ميامنه .

والمقصود بالجملة الكريمة : التهويل من شأن الأخذ ، وأنه أخذ شديد سريع لا يملك معه تصرفا أو هربا .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التهويل ما هو أشد منه فى هذا المعنى فقال : ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ .

أى : ثم بعد هذا الأخذ بقوة وسرعة ، لقطعنا وتينه . وهو عرق يتصل بالقلب . متى قطع مات صاحبه .

وهذا التعبير من مبتكرات القرآن الكريم ، ومن أساليبه البديعة ، إذ لم يسمع عن العرب أنهم عبروا عن الإهلاك بقطع الوتين .

ثم بين - سبحانه - أن أحدا لن يستطيع منع عقابه فقال : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ .

أى : فما منكم من أحد - أيها المشركون - يستطيع أن يدفع عقابنا عنه ، أو يحول بيننا وبين ما نريده ، فالضمير فى « عنه » يعود إلى الرسول - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات : التقول : افتعال القول ، كأن فيه تكلفا من المفتعل ، وسمى الأقوال المتقولة « أقاويل » ، تصغيراً بها وتحقيرا ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول .

والمعنى : ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم . معاجلة بالسخط والانتقام ، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته .

وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفا المقتول أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف - وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف - أخذ بيمينه .

ومعنى : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ : لأخذنا بيمينه . كما أن قوله : ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ : لقطعنا وتينه ، والوتين : نياط القلب ، وهو حبل الوريد ، إذا قطع مات صاحبه[١] .

وفى هذه الآيات الكريمة أقوى الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأنه لو كان - كما زعم الزاعمون أنه من تأليف الرسول - ﷺ - لما نطق بهذه الألفاظ التى فيها ما فيها من تهديده ووعيده .

كما أنها كذلك فيها إشارة إلى أنه - ﷺ - لم يتقول شيئا .. وإنما بلّغ هذا القرآن عن ربه - عز وجل - دون أن يزيد حرفا أو ينقص حرفا .. لأن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن يهلك كل من يفترى عليه الكذب ، ومن يزعم أن الله - تعالى - أوحى إليه ، مع أنه - سبحانه - لم يوح إليه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٠٧ .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ .

أى : إن هذا القرآن لقول رسول كريم بلغه عن الله - تعالى - وإنه لتذكير وإرشاد لأهل التقوى ، لأنهم هم المنتفعون بهداياته .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ تبكيت وتوبيخ لهؤلاء الكافرين ، الذين جحدوا الحق بعد أن تبين لهم أنه حق .

أى : وإنا لا يخفى علينا أن منكم - أيها الكافرون - من هو مكذب للحق عن جحود وعناد ، ولكن هذا لن يمنعنا من إرسال رسولنا بهذا الدين لكى يبلغه إليكم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وسنجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ بيان لما يكون عليه الكافرون من ندم شديد ، عندما يرون حسن مصير المؤمنين ، وسوء مصير المكذبين .

والحسرة : هى الندم الشديد المتكرر ، على أمر نافع قد مضى ولا يمكن تداركه .

أى : وإن هذا القرآن الكريم ، ليكون يوم القيامة ، سبب حسرة شديدة وندامة عظيمة ، على الكافرين ، لأنهم يرون المؤمنين به فى هذا اليوم فى نعيم مقيم ، أما هم فيجدون أنفسهم فى عذاب أليم .

وقوله : ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : وإن هذا القرآن لهو الحق الثابت الذى لاشك فى كونه من عند الله - تعالى - وأن محمدا - ﷺ - قد بلغه إلى الناس دون أن يزيد فيه حرفا ، أو ينقص منه حرفا .

وإضافة الحق إلى اليقين ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : لهو اليقين الحق ، أو هو من إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما فى قوله : ﴿ حبل الوريد ﴾ ، إذ الحبل هو الوريد .

والمقصود من مثل هذا التركيب : التأكيد .

وقد قالوا : إن مراتب العلم ثلاثة : أعلاها : حق اليقين ، ويليها : عين اليقين ، ويليها : علم اليقين .

فحق اليقين : كعلم الإنسان بالموت عند نزوله به ، وبلوغ الروح الحلقوم . وعين اليقين : كعلمه به عند حلول أماراته وعلاماته الدالة على قربه .. وعلم اليقين : كعلمه بأن الموت سينزل به لا محالة مهما طال الأجل .. والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فسبح باسم ربك

العظيم ﴾ للإفصاح . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن هذا الدين حق ، وأن البعث حق ، وأن القرآن حق ، فنزه اسم ربك العظيم عما لا يليق به ، من النقائص ، فى الاعتقاد ، أو فى العبادة ، أو فى القول ، أو فى الفعل .

والباء فى قوله : ﴿ باسم ربك ﴾ للمصاحبة . أى : نزه ربك تنزيها مصحوبا بكل ما يليق به من طاعة وإخلاص ومواظبة على مراقبته وتقواه .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات – وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة – مدينة نصر
مساء الخميس ١٧ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ
الموافق ٢٤ / ٧ / ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المعارج

مقدمة وتمهيد

١ - سورة (المعارج) هى السورة السبعون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثامنة والسبعون ، وكان نزولها بعد سورة (الحاقة) وقبل سورة (النبأ) .

وتسمى - أيضا - بسورة (سأل سائل) ، وذكر السيوطى فى كتابه (الإتقان) أنها تسمى كذلك بسورة (الواقع) .

وهذه الأسماء الثلاثة قد وردت ألفاظها فى السورة الكريمة . قال - تعالى - ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج ﴾ .

وهى من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها أربع وأربعون آية فى عامة المصاحف ، وفى المصحف الشامى ثلاث وأربعون آية .

والسورة الكريمة نراها فى مطلعها ، تحكى لنا جانبا من استهزاء المشركين بما أخبرهم به النبى - ﷺ - من بعث وثواب وعقاب .. وترد عليهم بما يكبتهم ، حيث تؤكد أن يوم القيامة حق ، وأنه واقع ، وأن أهواله شديدة .

قال - تعالى - ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا . يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميا ﴾ .

٣ - ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى تصوير طبيعة الإنسان ، وتمدح المحافظين عى صلاتهم ، وعلى أداء حقوق الله - تعالى - فى أموالهم ، كما تمدح الذين يؤمنون بأن البعث حق ،

ويستعدون لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

قال - تعالى - ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ .

٤ - ثم أخذت السورة الكريمة فى أواخرها فى تسلية الرسول - ﷺ - وفى توبيخ الكافرين على مسالكهم الخبيثة بإزاء الدعوة الإسلامية ، وفى بيان أن يوم القيامة الذى يكذبون به آت لا ريب فيه .

قال - تعالى - : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ .

٥ - هذا والمتدبر فى هذه السورة الكريمة ، يرى أن على رأس القضايا التى اهتمت بالحديث عنها : التذكير بيوم القيامة ، وبأهواله وشدائده ، وببيان ما فيه من حساب ، وجزاء ، وثواب وعقاب .

والحديث عن النفس الإنسانية بصفة عامة فى حال عسرها ويسرها ، وصحتها ومرضها ، وأملها ويأسها ... واستثناء المؤمنين الصادقين ، من كل صفة لا يحبها الله - تعالى - وأنهم بسبب إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، سيكونون يوم القيامة . فى جنات مكرمين .

كما أن السورة الكريمة اهتمت بالرد على الكافرين ، وبتسلية الرسول - ﷺ - عما لحقه منهم ، وببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء .

الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

التفسير

افتتح - سبحانه - سورة (المعارج) بقوله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ
ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ
﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟
مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾

وقوله - تعالى - ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ قرأه الجمهور بإظهار الهمزة فى ﴿ سأل ﴾ .

وقرأه نافع وابن عامر ﴿ سال ﴾ بتخفيف الهمزة .

قال الجمل : قرأ نافع وابن عامر بألف محضة ، والباقون ، بهمزة محققة وهى الأصل .

فأما القراءة بالألف ففيها ثلاثة أوجه : أحدها : أنها بمعنى قراءة الهمزة ، وإنما خففت بقلبها ألفا . والثانى : أنها من سَالَ يَسَالُ ، مثل خاف يخاف ، والألف منقلبة عن واو ، والواو منقلبة عن الهمزة .

والثالث : من السيلان ، والمعنى : سال واد فى جهنم بعذاب ، فالألف منقلبة عن ياء[١] .

وقد حكى القرآن الكريم عن كفار مكة ، أنهم كانوا يسألون النبى - ﷺ - على سبيل التهكم والاستهزاء عن موعد العذاب الذى يتوعدهم به إذا ما استمروا على كفرهم ، ويستعجلون وقوعه .

قال - تعالى - : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وقال - سبحانه - ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴾ .

وعلى هذا يكون السؤال على حقيقته ، وأن المقصود به الاستهزاء بالنبى - ﷺ - وبالمؤمنين .

ومنهم من يرى أن سأل هنا بمعنى دعا . أى : دعا داع على نفسه بعذاب واقع .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ أى : دعا داع به ، فالسؤال بمعنى الدعاء ، ولذا عدى بالباء تعديته بها فى قوله ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ . والمراد : استدعاء العذاب وطلبه .. وقيل إنها بمعنى « عن » كما فى قوله : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ .

والسائل هو النضر بن الحارث - كما روى النسائى وجماعة وصححه الحاكم - حيث قال إنكارا واستهزاء « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » . وقيل السائل : أبو جهل ، حيث قال : « فأسقط علينا كسفا من السماء »[٢] .

وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب ، يتضمن معنى الإنكار والتهكم ، كما يتضمن معنى الاستعجال ، كما حكته بعض الآيات الكريمة ..

ومن بلاغة القرآن ، تعدية هذا الفعل هنا بالباء ، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكارى ، ولمعنى الدعاء والاستعجال .

أى : سأل سائل النبى - ﷺ - سؤال تهكم ، عن العذاب الذى توعد به الكافرين إذا ما استمروا على كفرهم . وتعجَّله فى وقوعه بل أضاف إلى ذلك - لتجاوزه الحد فى عناده وطغيانه - أن قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢٩ ص ٥٥ .

وقال - سبحانه - ﴿ بعذاب واقع ﴾ ولم يقل بعذاب سيقع ، للإشارة إلى تحقق وقوع هذا العذاب فى الدنيا والآخرة .

أما الدنيا فمن هؤلاء السائلين من قتل فى غزوة بدر وهو النضر بن الحارث ، وأبو جهل وغيرهما ، وأما فى الآخرة فالعذاب النازل بهم أشد وأبقى .

ثم وصف - سبحانه - العذاب بصفات أخرى ، غير الوقوع فقال : ﴿ للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج ﴾. واللام فى قوله ﴿ للكافرين ﴾ بمعنى على . أو للتعليل .

أى : سأل سائل عن عذاب واقع على الكافرين ، هذا العذاب ليس له دافع يدفعه عنهم ، لأنه واقع من الله - تعالى - ﴿ ذى المعارج ﴾ .

والمعارج جمع معرج ، وهو المصعد ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾[1] .

وقد ذكر المفسرون فى المراد بالمعارج وجوها منها : أن المراد بها السموات ، فعن ابن عباس أنه قال أى : ذى السموات ، وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

ومنها : أن المراد بها : النعم والمنن . فعن قتادة أنه قال : ذى المعارج ، أى : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب ، وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

ومنها : أن المراد بها الدرجات التى يعطيها لأوليائه فى الجنة .

وفى وصفه - سبحانه - ذاته بـ ﴿ ذى المعارج ﴾: استحضار لصورة عظمة جلاله، وإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه ، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا العذاب الواقع على الكافرين . بجملة من الصفات ، لتكون رداً فيه ما فيه من التهديد والوعيد للجاحدين ، الذين استهزأوا به وأنكروه .

والمراد بالروح فى قوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ : جبريل - عليه السلام - وأفرد بالذكر لتمييزه وفضله ، فهو من باب عطف الخاص على العام .

والضمير فى « إليه » يعود إلى الله - تعالى - .

أى : تصعد الملائكة وجبريل - عليه السلام - معهم ، إليه - تعالى - .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٣ .

والسلف على أن هذا التعبير وأمثاله ، من المتشابه الذى استأثر - سبحانه - بعلمه . مع تنزيهه - عز وجل - عن المكان والجسمية . ولوازم الحدوث ، التى لا تليق بجلاله .

وقيل : « إليه » أى : إلى عرشه - تعالى - أو إلى محل بره وكرامته .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ أى : عروج الملائكة إلى المكان الذى هو محلهم فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد ، خمسين ألف سنة .

وعن مجاهد : هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا ، من أول ما خلقت إلى آخر ما بقى منها ، خمسون ألف سنة .

وقال ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .

ثم قال القرطبى : « وهذا القول أحسن ما قيل فى الآية - إن شاء الله - بدليل مارواه قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، فقلت : ما أطول هذا ؟ فقال - ﷺ - « والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » .

وفى رواية عن ابن عباس - أيضا - أنه سئل عن هذه الآية فقال : أيام سماها الله - عز وجل - ، وهو أعلم بها كيف تكون وأكره أن أقول فيها مالا أعلم .

وقيل : ذكر خمسين ألف سنة تمثيل - لما يلقاه الناس فى موقف الحساب من شدائد ، والعرب تصف أيام الشدة بالطول ، وأيام الفرح بالقصر[1] .

وقال بعض العلماء : وقد ذكر - سبحانه - فى سورة السجدة أنه ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

وقال فى سورة الحج : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ وذكر هنا ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

والجمع بين هذه الآيات من وجهين : أولهما : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف فى سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التى خلق الله - تعالى - فيها السموات والأرض .

ويوم الألف فى سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه - تعالى - .

ويوم الخمسين ألفا هنا : هو يوم القيامة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٨٢ .

وثانيها : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر .

ويدل لهذا الوجه قوله - تعالى - : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ﴾[1] .

أي : أن يوم القيامة يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حالة أخرى خمسين ألف سنة .

وقوله - تعالى - : ﴿ فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا .. ﴾ متفرع على قوله - سبحانه - ﴿ سأل سائل ﴾ لأن السؤال كان سؤال استهزاء ، يضيق به الصدر ، وتغتم له النفس .

والصبر الجميل : هو الصبر الذى لا شكوى معه لغير الله - عز وجل - ولا يخالطه شىء من الجزع ، أو التبرم بقضاء الله وقدره .

أى : لقد سألوك - أيها الرسول الكريم - عن يوم القيامة ، وعن العذاب الذى تهددهم به ... سؤال تهكم واستعجال ... فاصبر صبرا جميلا على غرورهم وجحودهم وجهالاتهم .

إنهم يرون هذا اليوم وما يصحبه من عذاب .. يرونه « بعيدا » من الإمكان أو من الوقوع ، ولذلك كذبوا بما جئتهم به من عندنا ، واستهزؤا بك .. ونحن نراه قريبا من الإمكان ، بل هو كائن لا محالة فى الوقت الذى تقتضيه حكمتنا ومشيئتنا .

ثم بين - سبحانه - جانبا من أهوال هذا اليوم فقال : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما ﴾ .

ولفظ « يوم » متعلق بقوله : « قريبا » أو بمحذوف يدل عليه قوله : ﴿ واقع ﴾ أى : هو واقع هذا العذاب يوم تكون السماء فى هيئتها ومظهرها « كالمهل » أى : تكون واهية مسترخية .. كالزيت الذى يتبقى فى قعر الإناء .

﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أى : كالصوف المصبوغ ألوانا ، لاختلاف ألوان الجبال ، فإن الجبال إذا فتتت وتمزقت فى الجو ، أشبهت الصوف المنفوش إذا طيرته الرياح ، قيل : أول ما تتغير الجبال تصير رملا مهيلا ، ثم عهنا منفوشا ، ثم هباء منبثا .

ووجه الشبه أن السماء فى هذا اليوم تكون فى انحلال أجزائها ، كالشىء الباقى فى قعر الإناء من الزيت ، وتكون الجبال فى تفرق أجزائها كالصوف المصبوغ الذى تطاير فى الجو .

وفى هذا اليوم - أيضا - ﴿ لا يسأل حميم حميما ﴾ أى : لا يسأل صديق صديقه النصرة

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٣ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

أو المعونة ، ولا يسأل قريب قريبه المساعدة والمؤازرة .. لأن كل واحد منهما مشغول بهموم نفسه من شدة هول الموقف ، كما قال - تعالى - : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

والحميم : هو الصديق الوفى القريب من نفس صديقه .

وضمير الجمع فى قوله - سبحانه - ﴿ يبصرونهم ﴾ يعود إلى الحميمين ، نظرا لعمومهما ، لأنه ليس المقصود صديقين مخصوصين ، وإنما المقصود كل صديق مع صديقه .

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، إجابة عن سؤال تقديره : ولماذا لا يسأل الصديق صديقه فى هذا اليوم؟ ألأنه لا يراه ؟ فكان الجواب : لا ، إنه يراه ويشاهده ، ويعرف كل قريب قريبه ، وكل صديق صديقه فى هذا اليوم .. ولكن كل واحد منهم مشغول بهمومه .

قال صاحب الكشاف : ﴿ يبصرونهم ﴾ أى : يبصر الأحماءُ الأحماءَ ، فلا يخفون عليهم ، فلا يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضا ، وإنما يمنعهم التشاغل .

فإن قلت : ما موقع يبصرونهم ؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لمّا قال : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ قيل : لعله لا يبصره ، فقيل فى الجواب : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم .

فإن قلت : لم جمع الضميرين فى ﴿ يبصرونهم ﴾ وهى للحميمين ؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين ، لا لحميمين اثنين[1] .

ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين فى هذا اليوم فقال : ﴿ يود المجرم ﴾ أى : يحب المجرم فى هذا اليوم ويتمنى .

﴿ لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ﴾ أى : يتمنى ويحب لو يفتدى نفسه من عذاب هذا اليوم بأقرب الناس إليه ، وألصقهم بنفسه .. وهم بنوه وأولاده .

ويود - أيضا - لو يفتدى نفسه بـ ﴿ صاحبته وأخيه ﴾ أى : بزوجته التى هى أحب الناس إليه ، وبأخيه الذى يستعين به فى النوائب .

﴿ وفصيلته التى تؤويه ﴾ أى : ويود كذلك أن ينقذ نفسه ، من العذاب بأقرب الأقرباء إليه . وهم أهله وعشيرته التى ينتسب إليها ، إذ الفصيلة هم الأقرباء الأدنون من القبيلة ، والذين هو واحد منهم .

ومعنى ﴿ تؤويه ﴾ تضمه إليها ، وتعتبره فردا منها ، وتدافع عنه بكل وسيلة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٠٩ .

وقوله : ﴿ ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾ داخل فى إطار ما يتمناه ويوده .

أى : يود هذا المجرم أن يفتدى نفسه من عذاب هذا اليوم ، بأولاده ، ويصاحبته ، وبأخيه ، وبعشيرته التى هو فرد منها ، وبأهل الأرض جميعا من الجن والإنس .

ثم يتمنى - أيضا - أن يقبل منه هذا الافتداء ، لكى ينجو بنفسه من هذا العذاب .

فقوله ﴿ ثم ينجيه ﴾ معطوف على قوله ﴿ يفتدى ﴾ ، أى : يود لو يفتدى ثم لو ينجيه الافتداء . وكان العطف بثم ، للإشعار باستبعاد هذا الافتداء ، وأنه عسير المنال .

وقوله : ﴿ ومن فى الأرض ﴾ معطوف على ﴿ بنيه ﴾ أى : ويفتدى نفسه بجميع أهل الأرض .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تحكى لنا بهذا الأسلوب المؤثر ، حالة المجرم فى هذا اليوم ، وأنه يتمنى أن يفتدى نفسه مما حل به من عذاب ، بأقرب وأحب الناس إليه ، بل بأهل الأرض جميعا .. ولكن هيهات أن يقبل منه شيء من ذلك .

ولذا جاء الرد الزاجر له عما تمناه فى قوله - تعالى - ﴿ كلا إنها لظى ﴾ وكلا حرف ردع وزجر ، وإبطال لكلام سابق ، وهو هنا ما كان يتمناه ويحبه .. من أن يفتدى نفسه ببنيه ، وبصاحبته وأخيه .. الخ .

و « لظى » علم لجهنم ، أو لطبقة من طبقاتها . واللظى : اللهب الخالص ، والضمير للنار المدلول عنها بذكر العذاب .

أى : كلا - أيها المجرم - ليس الأمر كما وددت وتمنيت .. وإنما الذى فى انتظارك ، هو النار التى هى أشد ما تكون اشتعالا .

والتى من صفاتها كونها ﴿ نزاعة للشوى ﴾ .. أى : قلاعة لجلدة الرأس وأطراف البدن ، كاليد والرجل ، ثم تعود هذه الجلدة والأطراف كما كانت .

فقوله : ﴿ نزاعة ﴾ صيغة مبالغة من النزع بمعنى القلع والفصل . والشوى : جمع شواة - بفتح الشين - ، وهى من جوارح الإنسان مالم يكن مقتلا ، مثل اليد والرجل . والجمع باعتبار ما لكل أحد من جوارح وأطراف . يقال : فلان رمى فأشوى ، إذا لم يصب مقتلا ممن رماه .

وقيل : الشواة : جلدة الرأس . والجمع باعتبار كثرة الناس .

وهذه النار الملتهبة من صفاتها - أيضا - أنها ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ أى : تدعو لدخولها والاصطلاء بحرها ، من أدبر وأعرض وتولى عن الحق والرشد ، ونأى بجانبه عن طريق الهدى والاستقامة .

قال ابن كثير : هذه النار تدعو إليها أبناءها الذين خلقهم الله - تعالى - لها وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلْقٍ ذَلْقٍ - أى : فصيح بليغ - ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر ، كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كانوا كما قال - سبحانه - ممن أدبر وتولى . أى : ممن كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه(١) .

﴿ وجمع فأوعى ﴾ أى جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : فأمسكه فى وعائه وكنزه ومنع حق الله - تعالى - فيه ، وبخل به على مستحقيه . فقوله ﴿ فأوعى ﴾ أى : فجعله فى وعاء . وفى الحديث الشريف ، يقول - ﷺ - : « لا توعى - أى لا تجمع مالك فى الوعاء على سبيل الكنز - فيوعى الله عليك » - أى : فيمنع الله - تعالى - فضله عنك ، كما منعت وقترت .

وفى قوله - سبحانه - ﴿ وجمع ﴾ إشارة إلى الحرص والطمع ، وفى قوله ﴿ فأوعى ﴾ إشارة إلى بخله وطول أمله .

قال قتادة ﴿ جمع فأوعى ﴾ : كان جموعا للخبيث من المال .

وبعد هذا البيان المؤثر الحكيم عن طبائع المجرمين ، وعن أهوال يوم الدين ، وعن سوء عاقبة المكذبين .. اتجهت السورة الكريمة إلى الحديث عن سجايا النفوس البشرية فى حالتى الخير والشر ، والغنى والفقر ، والشكر والجحود .. واستثنت من تلك السجايا نفوس المؤمنين الصادقين ، فقال - تعالى - .

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا
(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا
الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٥٢ .

رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ﴾ جنسه لافرد معين منه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ .

ويدخل فيه الكافر دخولا أولياً ، لأن معظم الصفات التى استثنيت بعد ذلك من صفات المؤمنين الصادقين ، وعلى رأسها قوله - سبحانه - : ﴿ إلا المصلين ﴾ .

وقوله : ﴿ هلوعا ﴾ صيغة مبالغة من الهلع ، وهو إفراط النفس ، وخروجها عن التوسط والاعتدال ، عندما ينزل بها ما يضرها ، أو عند ما تنال ما يسرها .

والمراد بالشر : ما يشمل الفقر والمرض وغيرهما مما يتأذى به الإنسان .

والمراد بالخير : ما يشمل الغنى والصحة وغير ذلك مما يحبه الإنسان ، وتميل إليه نفسه .

والجزوع : هو الكثير الجزع . أى : الخوف . والمنوع : هو الكثير المنع لنعم الله - تعالى - وعدم إعطاء شىء منها للمحتاجين إليها .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ﴾ الهلع : سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، من قولهم : ناقة هلوع ، أى : سريعة السير .

وسئل ابن عباس عن الهلوع فقال : هو كما قال الله - تعالى - : ﴿ إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

ولا تفسير أبين من تفسيره - سبحانه - .

والإنسان : المراد به الجنس ، أو الكافر .. وأل فى الشر والخير للجنس - أيضا[١] .

والتعبير بقوله : ﴿ خلق هلوعا ﴾ يشير إلى أن جنس الإنسان - إلا من عصم الله - مفطور ومطبوع ، على أنه إذا أصابه الشر جزع ، وإذا مسه الخير بخل .. وأن هاتين الصفتين ليستا من الصفات التى يحبها الله - تعالى - بدليل أنه - سبحانه - قد استثنى المصلين وغيرهم من التلبس بهاتين الصفتين .

وبدليل أن من صفات المؤمن الصادق أن يكون شكورا عند الرخاء صبورا عند الضراء .

وفى الحديث الشريف ، يقول - ﷺ - : « شر ما فى الرجل : شح هالع ، وجبن خالع »

وفى حديث آخر يقول - ﷺ - : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

قال الجمل : وقوله : ﴿ جزوعا ﴾ و ﴿ منوعا ﴾ فيهما ثلاثة أوجه : أحدها : أنهما منصوبان على الحال من الضمير فى ﴿ هلوعا ﴾ ، وهو العامل فيهما . والتقدير : هلوعا حال كونه جزوعا وقت مس الشر ، ومنوعا وقت مس الخير : الثانى : أنهما خبران لكان أو صار مضمرة . أى : إذا مسه الشر كان أوصار جزوعا ، وإذا مسه الخير كان أوصار منوعا . الثالث : أنهما نعتان لقوله : « هلوعا »[٢] .

ثم وصف - سبحانه - من استثناهم من الإنسان الهلوع ، بجملة من الصفات الكريمة ، فقال : ﴿ إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ .

أى : إن الناس جميعا قد جبلوا على الجزع عند الضراء ، وعلى المنع عند السراء .. إلا المصلين منهم ، الذين يواظبون على أدائها مواظبة تامة ، دون أن يشغلهم عن أدائها : عسر أو يسر ، أو غنى أو فقر ، أو إقامة أو سفر .

فهم ممن قال - سبحانه - فى شأنهم : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ للإشارة إلى أنهم لا يشغلهم عنها شاغل ، إذ الدوام على الشىء عدم تركه .

وفى إضافة « الصلاة » إلى ضمير « المصلين » تنويه بشأنهم ، وإشعار باختصاصها بهم ، إذ هم أصحابها الملازمون لها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٦١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٦ .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفة ثانية فقال : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ﴾ .

والمراد بالحق المعلوم : ما أوجبوه على أنفسهم من دفع جزء من أموالهم للمحتاجين ، على سبيل التقرب إلى الله - تعالى - وشكره على نعمه ، ويدخل فى هذا الحق المعلوم دخولا أوليا ما فرضه - سبحانه - عليهم من زكاة أموالهم .

قالوا : ولا يمنع ذلك من أن تكون السورة مكية ، فقد يكون أصل مشروعية الزكاة بمكة ، ثم أتى تفصيل أحكامها بالمدينة ، عن طريق السنة النبوية المطهرة .

والسائل : هو الذى يسأل غيره الصدقة ، والمحروم : هو الذى لا يسأل غيره تعففا ، وإن كان فى حاجة إلى العون والمساعدة .

أى : ومن الذين استثناهم - سبحانه - من صفة الهلع : أولئك المؤمنون الصادقون الذين جعلوا فى أموالهم حقا معينا ، يخرجونه عن إخلاص وطيب خاطر ، لمن يستحقونه من السائلين والمحرومين .. على سبيل الشكر لخالقهم على ما أنعم عليهم من نعم .

ووصف - سبحانه - ما يعطونه من أموالهم بأنه ﴿ حق ﴾ للاشارة إلى أنهم - لصفاء أنفسهم - قد جعلوا السائل والمحروم ، كأنه شريك لهم فى أموالهم ، وكأن ما يعطونه له إنما هو بمثابة الحق الثابت عندهم له .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات كريمة أخرى فقال : ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ والتصديق بيوم الدين معناه : الإيمان الجازم باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء .

﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أى : أن من صفاتهم : أنهم مع قوة إيمانهم ، وكثرة أعمالهم الصالحة ، لا يجزمون بنجاتهم من عذاب الله - تعالى - وإنما دائما أحوالهم مبنية على الخوف والرجاء ، إذ الإشفاق توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه .

وجملة ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ تعليلية ، ومقررة لمضمون ما قبلها ، أى : إنهم مشفقون من عذاب ربهم .. لأن العاقل لا يأمن عذابه - عز وجل - مهما أتى من طاعات ، وقدم من أعمال صالحة .

وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾[1] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٠ .

ثم قال - تعالى - : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

أى : أن من صفاتهم - أيضا - أنهم أعفاء ، ممسكون لشهواتهم ، لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم اللائى أحلهن - سبحانه - لهم أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى .

وجملة ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ تعليل للاستثناء . أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم . أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج وما ملكت الأيمان مما أحله الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ أى : فمن طلب خلاف ذلك الذى أحله - سبحانه - . ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أى : فأولئك هم المعتدون المتجاوزون حدود خالقهم ، الوالغون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه .

يقال : عدا فلان الشىء يعدوه عَدْواً ، إذا جاوزه وتركه . أى : أنهم تجاوزوا الحلال وتركوه خلف ظهورهم ، واتجهوا ناحية الحرام فولغوا فيه .

قوله : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين إذا مسهم الشر لا يجزعون ، وإذا مسهم الخير لا يمنعون .. أنهم لا يخلون بشىء من الأمانات التى يؤتمنون عليها ، ولا ينقضون شيئا من العهود التى يعاهدون غيرهم عليها ، وإنما هم يراعون ذلك ويحفظونه حفظا تاما .

فقوله ﴿ راعون ﴾ جمع راع ، وهو الذى يرعى الحقوق والأمانات والعهود ويحفظها ويحرسها ، كما يحرس الراعى غنمه وإبله حراسة تامة .

وقوله : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أى : والذين هم من صفاتهم أنهم يؤدون الشهادة على وجهها الحق ، فلا يشهدون بالزور أو الباطل ، ولا يكتمون الشهادة إذا طلب منهم أن يؤدوها ، عملا بقوله - تعالى - ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ .

فالشهادات : جمع شهادة . والمراد بالقيام بها : أداؤها على أتم وجه وأكمله وأعدله ، إذ القيام بها يشمل الاهتمام بشأنها ، وحفظها إلى أن يؤديها صاحبها على الوجه الذى يحبه - سبحانه - .

وكما افتتح - سبحانه - هذه الصفات الكريمة بمدح الذين هم على صلاتهم دائمون ، فقد

ختمها بمدح الذين يحافظون عليها فقال : ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ أى : يؤدونها كاملة غير منقوصة . لافى خشوعها ، ولا فى القراءة فيها ، ولا فى شىء من أركانها وسننها .

وهذا الافتتاح والختام ، يدل على شرفها وعلو قدرها ، واهتمام الشارع بشأنها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال : ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ ثم ﴿ على صلاتهم يحافظون ﴾ ؟ . قلت : معنى دوامهم عليها ، أن يواظبوا على أدائها ، لا يخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل .

ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، وسننها ، وآدابها .. فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة ، والمحافظة تعود إلى أحوالها[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين حماهم - سبحانه - من صفة الهلع .. وصفهم بثمانى صفات كريمة ، منها : المداومة على الصلاة ، والمحافظة على الإنفاق فى وجوه الخير ، والتصديق بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، والحفظ لفروجهم ، وأداء الأمانات والشهادات .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم من عطاء جزيل فقال : ﴿ أولئك فى جنات مكرمون ﴾ أى : أولئك المتصفون بذلك فى جنات عظيمة ، يستقبلون فيها بالتعظيم والحفاوة .. حيث تقول لهم الملائكة : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

وبعد هذه الصورة المشرقة لهؤلاء المكرمين .. أخذت السورة فى تصوير موقف المشركين من دعوة الرسول - ﷺ - إياهم إلى الحق ، وفى تسليته عما لحقه منهم من أذى ، وفى بيان أحوالهم السيئة عندما يعرضون للحساب .. فقال - تعالى - .

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ
﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ
أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦١٢ .

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ للتعجيب من حال هؤلاء الذين كفروا ، ومن تصرفاتهم التى تدل على منتهى الغفلة والجهل . و « ما » مبتدأ . و « الذين كفروا » خبره .

وقوله ﴿ مهطعين ﴾ من الإهطاع ، وهو السير بسرعة ، مع مد العنق ، واتجاه البصر نحو شىء معين .

و ﴿ عزين ﴾ جمع عزة - كفئة - وهى الجماعة . وأصلها عِزْوَة - بكسر العين - من العزو ، لأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى ، فلامها واو ، وقيل : لامها هاء ، والأصل عزهة .

قال القرطبى : والعزين : جماعات متفرقة . ومنه الحديث الذى خرجه مسلم وغيره ، أن رسول الله - ﷺ - خرج على أصحابه يوما فرآهم حِلَقا فقال : مالى أراكم عزين : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ، ويتراصون فى الصف[1] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن المشركين كانوا يجتمعون حول النبى - ﷺ - ويستمعون إليه ، ثم يكذبونه ويستهزئون به وبالمؤمنين ، ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد - ﷺ - فلندخلنها قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم[2] .

والمعنى : ما بال هؤلاء الكافرين مسرعين نحوك - أيها الرسول الكريم - وناظرين إليك بعيون لا تكاد تفارقك ، وملتفين من حولك عن يمينك وعن شمالك ، جماعات متعددة ، ومظهرين التهكم والاستهزاء بك وبأصحابك ؟

ما بالهم يفعلون ذلك مع علمهم فى قرارة أنفسهم بأنك أنت الصادق الأمين »

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٩٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٦٤ .

وقدم - سبحانه - الظرف ﴿ قِبَلَكَ ﴾ الذى بمعنى جهتك ، على قوله ﴿ مهطعين ﴾ للاهتمام ، حيث إن مقصدهم الأساسى من الإسراع هو الاتجاه نحو النبى - ﷺ - للاستهزاء به وبأصحابه .

والمراد بقوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ : جميع الجهات ، إلا أنه عبر بهاتين الجهتين ، لأنهما الجهتان اللتان يغلب الجلوس فيهما حول الشخص .

وقوله : ﴿ عزين ﴾ تصوير بديع لا لتفافهم من حوله جماعات متفرقة فى مشاربها ، وفى مآربها ، وفى طباعها .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ للنفى والإنكار .

أى : أيطمع كل واحد من هؤلاء الكافرين أن يدخل الجنة التى هى محل نعيمنا وكرامتنا بدون إيمان صادق ، وبدون عمل نافع ... ؟

وقوله - سبحانه - ﴿ كلا ﴾ ردع لهم وزجر عن هذا الطمع ، أى : كلا ليس الأمر كما يزعمون من أنهم سيدخلون الجنة قبل المؤمنين أو معهم أو بعدهم .. وإنما هم سيكون مأواهم جهنم وبئس المصير .

وقال - سبحانه - : ﴿ أيطمع كل امرىء منهم ﴾ ولم يقل : أيطمعون أن يدخلوا الجنة ، للإشعار بأن كل واحد من هؤلاء الكافرين كان طامعا فى دخولها ، لاستيلاء الغرور والجهالة على قلبه .

وجملة ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ تأكيد لهذا الردع والزجر ، وتهوين من شأنهم ، وإبطال لغرورهم ، وتنكيس لخيلائهم بأسلوب بديع مهذب .. لأنه مما لا شك فيه أنهم يعلمون أنهم قد خلقوا من ماء مهين ، ومن كان كذلك فلا يليق به - متى كان عاقلا - أن يغتر أو يتطاول .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ويجوز أن يراد بقوله : ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أى : من النطفة المذرة ، وهى منصبهم الذى لا منصب أوضع منه . ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ، ويقولون : لندخلن الجنة قبلهم .

وقيل : معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد الجنة ، إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فكيف يطمع فى دخولها من ليس له إيمان وعمل[١] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦١٤ .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وعلى زيادة التهوين من شأن هؤلاء الكافرين ، والتحقير من أمرهم فقال : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴾ .

وجمع - سبحانه - هنا المشارق والمغارب ، باعتبار أن لها فى كل يوم من أيام السنة مشرقا معينا تشرق منه ، ومغربا معينا تغرب فيه .

وقال فى سورة الرحمن ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ أى : مشرق ومغرب الشتاء والصيف .

وقال فى سورة المزمل : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ والمراد بهما هنا : جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، وعلى كل مغرب من مغاربها .

وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجىء هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة بصيغة المثنى ، وتارة بصيغة الجمع .

وجملة ﴿ إنا لقادرون ﴾ : جواب القسم . أى : أقسم بالله - تعالى - الذى هو رب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها .. إنا لقادرون قدرة تامة ﴿ على أن نبدل خيرا منهم ﴾ أى : على أن نخلق خلقا آخر خيرا منهم ونهلك هؤلاء المجرمين إهلاكا تاما .. أو على أن نبدل ذواتهم ، فنخلقهم خلقا جديدا يكون خيرا من خلقهم الذى هم عليه .. فإن قدرتنا لا يعجزها شىء .

وقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ معطوف على جواب القسم ومؤكد له . أى : إنا لقادرون على ذلك ، وما نحن بمغلوبين أو عاجزين عن أن نأتى بقوم آخرين خير منهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ... وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[2] ، والمقصود بهذه الآيات الكريمة تهديد المشركين وبيان أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شىء .

والفاء فى قوله : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا .. ﴾ للتفريع على ما تقدم . والخوض يطلق على السير فى الماء ، والمراد به هنا : الكلام الكثير الذى لا نفع فيه .

واللعب : اشتغال الإنسان بشىء لا فائدة من ورائه . والمراد به هنا : استهزاؤهم بالحق الذى جاء به النبى - ﷺ - .

---

(١) سورة فاطر الآيات ١٥ - ١٧ . (٢) سورة محمد الآية ٣٨ .

أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاترك هؤلاء الكافرين ، ليخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى دنياهم ، ولا تلتفت إليهم .

ودعهم فى هزلهم ولهوهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة الذى لا شك فى إتيانه ووقوعه .

وقوله ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا ﴾ بدل من ﴿ يومهم ﴾ . والأجداث جمع جدث - بفتح الجيم والدال - وهو القبر . أى : اتركهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم المحتوم . وهو اليوم الذى يخرجون فيه من قبورهم مسرعين إلى الداعى .

﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ والنصب - بضمتين - حجارة كانوا يعظمونها . وقيل : هى الأصنام ، وسميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها ويقيمونها للعبادة .

﴿ يوفضون ﴾ أى : يسرعون . يقال : وفَض فلان يفِض وفْضاً - كوعد - إذا أسرع فى سيره . أى : يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ، مستبقين إليه ، كما كانوا فى الدنيا يسرعون نحو أصنامهم وآلهتهم لكى يستلموها ، ويلتمسوا منها الشفاعة .

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أى : يخرجون من قبورهم ، حالة كونهم ذليلة خاضعة أبصارهم ، لا يرفعونها لما هم فيه من الخزى والهوان .

﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أى : تغشاهم ذلة شديدة ، وهوان عظيم . يقال : رَهِقَهَ الأمر يرهَقهُ رَهَقاً ، إذا غشيه بقهر وغلبة لا يمكن له دفعها .

﴿ ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ أى : ذلك الذى ذكرناه من الأهوال ، هو اليوم الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل ، والذى كانوا ينكرون وقوعه ، وها هو ذا فى حكم الواقع ، لأن كل ما أخبر الله - تعالى - عنه ، فهو متحقق الوقوع . كما قال - سبحانه - فى أول السورة : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع ﴾ .

وهكذا افتتحت السورة بإثبات أن يوم القيامة حق ، واختتمت كذلك بإثبات أن يوم القيامة حق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر - مساء الإثنين
٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ
٢٨ من يوليو سنة ١٩٨٦ م .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة نوح

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « نوح » - عليه السلام - من السور المكية الخالصة ، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على دعوته - عليه السلام - وعلى مجادلته لقومه ، وعلى موقفهم منه ، وعلى دعائه عليهم .

وكان نزولها بعد سورة « النحل » وقبل سورة « إبراهيم » .

وعدد آياتها ثمان وعشرون آية فى المصحف الكوفى . وتسع وعشرون فى المصحف البصرى والشامى ، وثلاثون آية فى المصحف المكى والمدنى .

٢ - وهذه السورة الكريمة من أولها إلى آخرها ، تحكى لنا ما قاله نوح لقومه ، وما ردوا به عليه ، كما تحكى تضرعه إلى ربه - عز وجل - وما سلكه مع قومه فى دعوته لهم إلى الحق ، تارة عن طريق الترغيب وتارة عن طريق الترهيب ، وتارة عن طريق دعوتهم إلى التأمل والتفكر فى نعم الله - تعالى - عليهم ، وتارة عن طريق تذكيرهم بخلقهم .

كما تحكى أنه - عليه السلام - بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما - دعا الله - تعالى - أن يستأصل شأفتهم . فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ .

التفسير

قد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

وقصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت فى سور متعددة منها : سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والشعراء ، والعنكبوت .

وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .

وقد افتتحت السورة هنا بالأسلوب المؤكد بإنّ ، للاهتمام بالخبر ، وللاتعاظ بما اشتملت عليه القصة من هدايات وإرشادات .

وأن فى قوله ﴿ أن أنذر قومك ﴾ تفسيرية ، لأنها وقعت بعد أرسلنا ، والإرسال فيه معنى القول دون حروفه ، فالجملة لا محل لها من الإعراب .

ويصح أن تكون مصدرية ، أى : بأن أنذر قومك .. والإنذار ، هو الإخبار الذى معه تخويف .

وقوم الرجل : هم أهله وخاصته الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب . فيسميهم قومه على سبيل المجاز للمجاورة .

أى : إنا قد اقتضت حكمتنا أن نرسل نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، وقلنا له : يا نوح عليك أن تنذرهم وتخوفهم من عذابنا ، وأن تدعوهم إلى إخلاص العبادة لنا ، من قبل أن ينزل بهم عذاب مؤلم ، لا طاقة لهم بدفعه ، لأن هذا العذاب من الله - تعالى - الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

وقال - سبحانه - ﴿ أن أنذر قومك ﴾ ولم يقل : أن أنذر الناس ، لإثارة حماسته فى دعوته ، لأن قوم الرجل يحرص الإنسان على منفعتهم .. أكثر من حرصه على منفعة غيرهم .

والآية الكريمة صريحة فى أن ما أصاب قوم نوح من عذاب أليم ، كان بسبب إصرارهم على كفرهم ، وعدم استماعهم إلى إنذاره لهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله نوح لقومه فقال : ﴿ قال ياقوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله ، واتقوه وأطيعون ﴾ .

اى : قال نوح لقومه - على سبيل التلطف فى النصح ، والتقرب إلى قلوبهم - يا قوم ويا أهلى وعشيرتى : إنى لكم منذر واضح الإنذار ، ولا أسألكم على هذا الإنذار الخالص أجرا ، وإنما ألتمس أجرى من الله .

وإنى آمركم بثلاثة أشياء : أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة ، وأن تتقوه فى كل أقوالكم وأفعالكم ، وأن تطيعونى فى كل ما آمركم به وأنهاكم عنه .

وافتتح كلامه معهم بالنداء ﴿ يا قوم ﴾ ، أملا فى لفت أنظارهم إليه ، واستجابتهم له ، فإن النداء من شأنه التنبيه للمنادَى .

ووصف إنذاره لهم بأنه ﴿ مبين ﴾ ، ليشعرهم بأنه لا لبس فى دعوته لهم إلى الحق ، ولا خفاء فى كونهم يعرفونه ، ويعرفون حرصه على منفعتهم ...

وقال : ﴿ إنى لكم ﴾ للإشارة الى أن فائدة استجابتهم له ، تعود عليهم لا عليه ، فهو مرسل من أجل سعادتهم وخيرهم .

وأمرهم بطاعته ، بعد أمرهم بعبادة الله وتقواه ، لأن طاعتهم له هى طاعة لله - تعالى - كما قال - تعالى - : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ .

ثم بين لهم ما يترتب على إخلاص عبادتهم لله ، وخشيتهم منه - سبحانه - ، وطاعتهم لنبيهم فقال : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ .

وقوله : ﴿ يغفر ﴾ مجزوم فى جواب الأوامر الثلاثة ، و ﴿ من ﴾ للتبعيض أى : يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهى تلك التى اقترفوها قبل إيمانهم وطاعتهم لنبيهم ، أو الذنوب التى

تتعلق بحقوق الله - تعالى - دون حقوق العباد .

ويرى بعضهم أن « من » هنا زائدة لتوكيد هذه المغفرة . أى : يغفر لكم جميع ذنوبكم التى فرطت منكم ، متى آمنتم واتقيتم ربكم ، وأطعتم نبيكم .

﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أى : ويؤخر آجالكم إلى وقت معين عنده - سبحانه - ، ويبارك لكم فيها ، بأن يجعلها عامرة بالعمل الصالح ، وبالحياة الآمنة الطيبة .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد وعدهم بالخير الأخروى وهو مغفرة الذنوب يوم القيامة ، وبالخير الدنيوى وهو البركة فى أعمارهم . وطول البقاء فى هناء وسلام .

قال ابن كثير : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أى : ويمد فى أعماركم ، ويدرأ عنكم العذاب ، الذى إذا لم تنزجروا عما أنهاكم عنه : أوقعه - سبحانه - بكم .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم . يزاد بها فى العمر حقيقة ، كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد فى العمر »[1] .

وقوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ بمنزلة التعليل لما قبله . أى : يغفر لكم - سبحانه - من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل معين عنده - تعالى - إن الوقت الذى حدده الله - عز وجل - لانتهاء أعماركم ، متى حضر ، لا يؤخر عن موعده ، ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ أى : لو كنتم من أهل العلم لاستجبتم لنصائحى ، وامتثلتم أمرى ، وبذلك تنجون من العقاب الدنيوى والأخروى .

قال الآلوسى : قوله ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ . أى : لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به . لكنكم لستم من أهله فى شىء ، لذا لم تسارعوا ، فجواب لو مما يتعلق بأول الكلام .

ويجوز أن يكون مما يتعلق بآخره . أى : لو كنتم من أهل العلم لعلمتم ذلك ، أى : عدم تأخير الأجل إذا جاء وقته المقدر له . والفعل فى الوجهين منزل منزلة اللازم ..[2] .

ثم قصت علينا الآيات الكريمة بعد ذلك ، ما قاله نوح لربه . على سبيل الشكوى والضراعة ، وما وجهه إلى قومه من نصائح فيها ما فيها من الترغيب والترهيب ، ومن الإرشاد الحكيم ، والتوجيه السديد .. قال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٥٨ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٧١ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . ﴾ بيان للطرق والمسالك التى سلكها نوح مع قومه ، وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - بحرص شديد ومواظبة تامة .. وموقف قومه من دعوته لهم .

والمقصود بهذا الخبر لازم معناه ، وهو الشكاية إلى ربه ، والتمهيد لطلب النصر منه - تعالى - عليهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه أن نوحا - عليه السلام - لم يقصر فى تبليغ رسالته .

أى : قال نوح متضرعا إلى ربه : يارب إنك تعلم أننى لم أقصر فى دعوة قومى إلى عبادتك ، تارة بالليل وتارة بالنهار ، من غير فتور ولا توان .

﴿ فلم يزدهم دعائى ﴾ لهم إلى عبادتك وطاعتك ﴿ إلا فرارا ﴾ أى : إلا تباعدا من الإيمان وإعراضا عنه . والفرار : الزَّوَغَان والهرب . يقال : فر فلان يفر فرارا ، فهو فرور ، إذا هرب من طالبه ، وزاغ عن عينه .

والتعبير بقوله : ﴿ دعوت قومى ليلا ونهارا ﴾ ، يشعر بحرص نوح التام على دعوتهم ، فى كل وقت يظن فيه أن دعوته لهم قد تنفع .

كما أن التعبير بقوله : ﴿ فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ﴾ يدل دلالة واضحة على إعراضهم التام عن دعوته ، أى : فلم يزدهم دعائى شيئا من الهدى ، وإنما زادهم بُعْداً عنى ، وفرارا منى .

وإسناد الزيادة إلى الدعاء ، من باب الإسناد إلى السبب ، كما فى قولهم : سرتنى رؤيتك .

وقوله ﴿ فرارا ﴾ مفعول ثان لقوله ﴿ فلم يزدهم ﴾ والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال والمستثنى منه مقدر ، أى : فلم يزدهم دعائى شيئا من أحوالهم التى كانوا عليها إلا الفرار .

ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا . أى : فلم يزدهم دعائى قرباً من الحق ، لكن زادهم فرارا منه .

ثم أضاف إلى فرارهم منه ، حالة أخرى . تدل على إعراضهم عنه ، وعلى كراهيتهم له ، فقال : ﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ .

وقوله : ﴿ كلما ﴾ معمول لجملة : ﴿ جعلوا ﴾ التى هى خبر إن ، واللام فى قوله ﴿ لتغفر لهم ﴾ للتعليل .

والمراد بأصابعهم : جزء منها . واستغشاء الثياب معناه : جعلها غشاء ، أى : غطاء لرءوسهم ولأعينهم حتى لا ينظروا إليه ، ومتعلق الفعل « دعوتهم » محذوف لدلالة ما تقدم عليه ، وهو أمرهم بعبادة الله وتقواه .

والمعنى : وإنى - يا مولاى - كلما دعوتهم الى عبادتك وتقواك وطاعتى فيما أمرتهم به ، لكى تغفر لهم ذنوبهم .. ما كان منهم إلا أن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا قولى ، وإلا أن وضعوا ثيابهم على رءوسهم . وأبصارهم حتى لا يرونى ، وإلا أن ﴿ أصروا ﴾ إصرارا تاما على كفرهم ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ عظيما عن قبول الحق .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد صورت عناد قوم نوح ، وجحودهم للحق ، تصويرا بلغ الغاية فى استحبابهم العمى على الهدى .

فهى - أولا - جاءت بصيغة « كلما » الدالة على شمول كل دعوة وجهها إليهم نبيهم نوح - عليه السلام - أى : فى كل وقت أدعوهم إلى الهدى يكون منهم الإعراض .

وهى - ثانيا - عبرت عن عدم استماعهم إليه بقوله - تعالى - : ﴿ جعلوا أصابعهم فى آذانهم ﴾ . وعبر عن الأنامل بالأصابع على سبيل المبالغة فى إرادة سد المسامع ، فكأنهم لو أمكنهم إدخال أصابعهم جميعها فى آذانهم لفعلوا . حتى لا يسمعوا شيئا مما يقوله نبيهم لهم .

فإطلاق اسم الأصابع على الأنامل من باب المجاز المرسل ، لعلاقة البعضية ، حيث أطلق - سبحانه - الكل وأراد البعض ، مبالغة فى كراهيتهم لسماع كلمة الحق .

وهى - ثالثا - عبرت عن كراهيتهم لنبيهم ومرشدهم بقوله - تعالى - : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أى : بالغوا فى التَّغطِّى بها ، حتى لكأنهم قد طلبوا منها أن تلفهم بداخلها حتى لا يتسنى لهم رؤيته إطلاقا .

وهذا كناية عن العداوة الشديدة ، ومنه قول القائل : لبس لى فلان ثياب العداوة .

وهى - رابعا - قد بينت بأنهم لم يكتفوا بكل ذلك ، بل أضافوا إليه الإصرار على الكفر - وهو التشدد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه مأخوذ من الصَّرة بمعنى الشدة - والاستكبار العظيم عن الاستجابة للحق .

فقد أفادت هذه الآية ، أنهم عصوا نوحا وخالفوه مخالفة ليس هناك ماهو أقبح منها ظاهرا ، حيث عطلوا أسماعهم وأبصارهم ، وليس هناك ماهو أقبح منها باطنا ، حيث أصروا على كفرهم ، واستكبروا على اتباع الحق .

ومع كل هذا الإعراض والعناد .. فقد حكت لنا الآيات بعد ذلك ، أن نوحا - عليه السلام - قد واصل دعوته لهم بشتى الأساليب . فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ﴾ .

وقوله : ﴿ جهارا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى : دعوتهم دعاء جهارا . أى : مجاهرا لهم بدعوتى ، بحيث صارت دعوتى لهم أمامهم جميعا .

﴿ ثم إنى أعلنت لهم ﴾ تارة ﴿ وأسررت لهم إسرارا ﴾ تارة أخرى .

أى : أنه - عليه السلام - توخى ما يظنه يؤدى إلى نجاح دعوته ، وراعى أحوالهم فى ذلك ، فهو تارة يدعوهم جهرا ، وتارة يدعوهم سرا ، وتارة يجمع بين الأمرين .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ، ثم دعاهم جهارا ، ثم

دعاهم فى السر والعلن ، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف ؟

قلت : قد فعل - عليه السلام - كما يفعل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فى الابتداء بالأهون والترقى فى الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة فى السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان .

ومعنى « ثم » : الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من إرشادات نوح لقومه فقال : ﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ .

أى : فقلت لهم - على سبيل النصح والإرشاد إلى ما ينفعهم ويغريهم بالطاعة - ﴿ استغفروا ربكم ﴾ بأن تتوبوا إليه ، وتقلعوا عن كفركم وفسوقكم ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ كان غفارا ﴾ .

أى : كثير الغفران لمن تاب إليه وأناب .

﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ والمراد بالسماء هنا : المطر لأنه ينزل منها ، وقد جاء فى الحديث الشريف أن من أسماء المطر السماء ، فقد روى الشيخان عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال « صلى لنا رسول الله - ﷺ - صلاة الصبح بالحديبية ، على إثر سماء كانت من الليل ... » أى : على إثر أمطار نازلة بالليل .

ومنه قول بعض الشعرا:

إذا نزل السماء بأوض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمدرار : المطر الغزير المتتابع ، يقال : درت السماء بالمطر ، إذا نزل منها بكثرة وتتابع ، والدر ، والدرور معناه : السيلان .. فقوله ﴿ مدرارا ﴾ صيغة مبالغة منها .

أى : استغفروا ربكم وتوبوا إليه ، فإنكم إذا فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم بفضله ورحمته ، أمطارا غزيرة متتابعة ، لتنتفعوا بها فى مختلف شئون حياتكم .

وفضلا عن ذلك : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ﴾ أى : بساتين عظيمة ، ﴿ ويجعل لكم أنهارا ﴾ جارية تحت أشجار هذه الجنات ، لتزداد جمالا ونفعا .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « إن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا ، حبس الله عنهم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦١٦ .

المطر ، وأعقم أرحام نسائهم .. فرجعوا إلى نوح ، فقال لهم : استغفروا ربكم من الشرك ، حتى يفتح عليكم أبواب نعمه .

واعلم أن الاشتغال بالطاعة ، سبب لانفتاح أبواب الخيرات ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أن الكفر سبب لخراب العالم . والإيمان سبب لعمارة العالم . وثانيها : الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى ، ومنها قوله - تعالى - ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .. ﴾ وثالثها : أن عمر خرج يستسقى فما زاد على الاستغفار . فقيل له : ما رأيتك استسقيت ؟ فقال : لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء ، والمجاديح : جمع مِجْدَح - بكسر فسكون وهو نجم من النجوم المعروفة عند العرب .

وشكا رجل الى الحسن البصرى الفاقة ، وشكا إليه آخر الجدب ، وشكا إليه ثالث قلة النسل .. فأمر الجميع بالاستغفار .. فقيل له : أتاك رجال يشكون إليك أنواعا من الحاجة ، فأمرتهم جميعا بالاستغفار ؟ فتلا الحسن هذه الآيات الكريمة[1] .

وما قاله الإمام الرازى - رحمه الله - ، يؤيده القرآن الكريم فى كثير من آياته ، ويؤيده واقع الحياة التى نحياها ونشاهد أحداثها .

أما آيات القرآن الكريم فمنها قوله - تعالى - : ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - على لسان هود - عليه السلام - : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم .. ﴾[3] .

وقال - عز وجل - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ﴾[4] .

وأما واقع الحياة . فإننا نشاهد بأعيننا الأمم التى تطبق شريعة الله - تعالى - وتعمل بما جاء به النبى - ﷺ - من آداب وأحكام وهدايات .

نرى هذه الأمم سعيدة فى حياتها ، آمنة فى أوطانها ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، وإذا أصابها شىء من النقص فى الأنفس أو الثمرات .. فذلك من باب الامتحان الذى يمتحن الله - تعالى - به عباده ، والذى لا يتعارض مع كون العاقبة الطيبة إنما هى لهذه الأمم الصادقة فى إيمانها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٢١٥ .
(٢) سورة الجن آية ١٦ .
(٣) سورة هود آية ٥٢ .
(٤) سورة النحل آية ٩٧ .

وما يجرى على الأمم والشعوب ، يجرى أيضا على الأفراد والجماعات ، فتلك سنة الله التى لا تتغير .

أما الأمم الفاسقة عن أمر ربها ، فإنها مهما أوتيت من ثراء وبسطة فى الرزق .. فإن حياتها دائما تكون متلبسة بالقلق النفسى ، والشقاء القلبى ، والاكتئاب الذى يؤدى إلى فساد الحال واضطراب البال .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك حكاية عن نوح - عليه السلام - : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ : بيان لما سلكه نوح فى دعوته لقومه ، من جمعه بين الترغيب والترهيب .

فهو بعد أن أرشدهم إلى أن استغفارهم وطاعتهم لربهم ، تؤدى بهم إلى البسطة فى الرزق .. أتبع ذلك بزجرهم لسوء أدبهم مع الله - تعالى - منكرا عليهم استهتارهم واستخفافهم بما يدعوهم إليه .

وقوله : ﴿ مالكم ﴾ مبتدأ وخبر ، وهو استفهام قصد به توبيخهم والتعجيب من حالهم .

ولفظ « ترجون » يرى بعضهم أنه بمعنى تعتقدون . والوقار معناه : التعظيم والإجلال .

والأطوار : جمع طور ، وهو المرة والتارة من الأفعال والأزمان .

أى : ما الذى حدث لكم - أيها القوم - حتى صرتم لا تعتقدون لله - تعالى - عظمة أو إجلالا ، والحال أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم وأوجدكم فى أطوار متعددة ، نطفة ، فعلقة ، فمضغة .

كما قال - سبحانه - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] .

وكما قال - تعالى - ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير ﴾[2] .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا ﴾ قيل : الرجاء هنا بمعنى الخوف .

أى : مالكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أخذكم بالعقوبة .

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢ - ١٤ .
(٢) سورة الروم الآية ٥٤ .

وقيل : المعنى : مالكم لا تعلمون لله عظمة .. أولا ترون لله عظمة .. أو لا تبالون أن لله عظمة .. والوقار : العظمة ، والتوقير : التعظيم ..[١] .

وبعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ .. أخذ فى لفت أنظارهم إلى عجائب صنع الله فى خلقه ، فقال : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ ألم تروا .. ﴾ للتقرير ، والرؤية : بصرية وعلمية ، لأنهم يشاهدون مخلوقات الله - تعالى - ويعلمون أنه - سبحانه - هو الخالق . و ﴿ طباقا ﴾ أى : متطابقة كل طبقة أعلى من التى تحتها .

أى : لقد علمتم ورأيتم أن الله - تعالى - هو الذى خلق ﴿ سبع سماوات ﴾ متطابقة ، بعضها فوق بعض ﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾ أى : وجعل - سبحانه - بقدرته القمر فى السماء الدنيا نورا للأرض ومن فيها .

وإنما قال ﴿ فيهن ﴾ مع أنه فى السماء الدنيا ، لأنها محاطة بسائر السموات فما فيها يكون كأنه فى الكل . أو لأن كل واحدة منها شفافة ، فيرى الكل كأنه سماء واحدة . فساغ أن يقال فيهن .

وقوله : ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ أى : كالسراج فى إضاءتها وتوهجها وإزالة ظلمة الليل ، إذ السراج هو المصباح الزاهر نوره ، الذى يضىء ما حوله .

قال الآلوسى : قوله ﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾ أى : منورًا لوجه الأرض فى ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه فى إحداهن - وهى السماء الدنيا - ، كما يقال : زيد فى بغداد وهو فى بقعة منها . والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية ، وكونها طباقا شفافة .

﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ يزيل الظلمة .. وتنوينه للتعظيم ، وفى الكلام تشبيه بليغ ، ولكون السراج أعرف وأقرب ، جعل مشبها به ، ولا عتبار التعدى إلى الغير فى مفهومه بخلاف النور ، كان أبلغ منه .[٢] .

وقال بعض العلماء : وفى جعل القمر نورا ، إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته . فإن القمر مظلم . وإنما يستضىء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه ، بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام ، هو أثر ظهوره هلالا .. ثم بدرا .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٣٠٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٧٥ .

وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا ، لأنها ملتهبة ، وأنوارها ذاتية فيها ، صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر ، مثل أنوار السراج تملأ البيت ..[١] .

ثم انتقل نوح - عليه السلام - من تنبيههم إلى ما فى خلق السموات والشمس والقمر من دلالة على وحدانية الله وقدرته .. إلى لفت أنظارهم إلى التأمل فى خلق أنفسهم ، وفى مبدئهم وإعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم إخراجا ﴾ .

والمراد بأنبتكم : أنشأكم وأوجدكم ، فاستعير الإنبات للإنشاء للمشابهة بين إنبات النبات ، وإنشاء الإنسان ، من حيث إن كليهما تكوين وإيجاد للشىء بقدرته - تعالى - .

والمراد بأنبتكم : أنبت أصلكم وهو أبوكم آدم ، فأنتم فروع عنه . و ﴿ نباتا ﴾ مصدر لأنبت على حذف الزوائد ، فهو مفعول مطلق لأنبتكم ، جىء به للتوكيد ، ومصدره القياسى « إنباتا » ، واختير « نباتا » لأنه أخف .

قال الجمل : قوله : نباتا ، يجوز أن يكون مصدرا لأنبت على حذف الزوائد . ويسمى اسم مصدر ، ويجوز أن يكون مصدرا لنبتم مقدرا . أى : فنبتّم نباتا - فيكون منصوبا بالمطاوع المقدر .[٢] .

أى : والله - تعالى - هو الذى أوجد وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاء وجعلكم فروعا عنه ، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبورا لكم ، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء .

وعبر - سبحانه - عن الإنشاء بالإنبات ، لأن هذا التعبير يشعر بأن الإنسان مخلوق محدث ، وأنه مثل النبات يحصد ثم يعود إلى الحياة مرة أخرى .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « استعير الإنبات للإنشاء كما يقال : زرعك الله للخير . وكانت هذه الاستعارة أدل دليل على الحدوث لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات »[٣] .

ثم ختم نوح - عليه السلام - إرشاداته لقومه ، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التى يعيشون عليها ، فقال : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ج ٢٩ ص ٢٠٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤١٢ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦١٨ .

أى : والله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم - بفضله ومنته - الأرض مبسوطة ، حيث تتقلبون عليها كما يتقلب النائم على البساط .

وجعلها لكم كذلك ﴿ لتسلكوا منها سبلا ﴾ أى : لكى تتخذوا منها لأنفسكم طرقا ﴿ فجاجا ﴾ أى : متسعة جمع فج وهو الطريق الواسع .

وقوله : ﴿ بساطا ﴾ تشبيه بليغ . أى : جعلها لكم كالبساط ، وهذا لا يتنافى مع كون الأرض كروية ، لأن الكرة إذا عظمت جدا ، كانت القطعة منها كالسطح والبساط فى إمكان الانتفاع بها ، والتقلب على أرجائها .

وهكذا نرى أن نوحا - عليه السلام - قد سلك مع قومه مسالك متعددة لإقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه ، ولحملهم على طاعته ، والإيمان بصدق رسالته .

لقد دعاهم بالليل والنهار ، وفى السر وفى العلانية ، وبين لهم أن طاعتهم لله - تعالى - تؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد ، والجنات والأنهار ووبخهم على عدم خشيتهم من الله - تعالى - وذكرهم بأطوار خلقهم ، ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه - سبحانه - فى خلق السموات والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض ، وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها للحساب والجزاء ، وأرشدهم إلى نعم الله - تعالى - فى جعل الأرض مبسوطة لهم .

وهكذا حاول نوح - عليه السلام - أن يصل إلى آذان قومه وإلى عقولهم وقلوبهم ، بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، فى صبر طويل وإرشاد دائم .

ولكن قومه كانوا قد بلغوا الغاية فى الغباء والجهالة والعناد والطغيان ، لذا نرى السورة الكريمة تحكى عن نوح - عليه السلام - ضراعته إلى ربه ، والتماسه منه - تعالى - استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم ، لنستمع فى تدبر إلى قوله - تعالى - .

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ
مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا
لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾
مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ

اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا .. ﴾ كلام مستأنف . لأن ما سبقه يستدعى سؤالا تقديره : ماذا كانت عاقبة قوم نوح بعد أن نصحهم ووعظهم بتلك الأساليب المتعددة ؟ فكان الجواب : ﴿ قال نوح ﴾ – عليه السلام – بعد أن طال نصحه لقومه ، وبعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبعد أن يئس من إيمانهم وبعد أن أخبره – سبحانه – أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

﴿قال﴾ متضرعا إلى ربه ﴿رب إنهم عصونى﴾ أى : إن قومى قد عصونى وخالفوا أمرى ، وكرهوا صحبتى ، وأصروا واستكبروا استكبارا عظيما عن دعوتى .

﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ﴾ أى : إنهم أصروا على معصيتى ، ولم يكتفوا بذلك بل بجانب إعراضهم عنى ، اتبعوا غيرى .. اتبعوا رؤساءهم أهل الأموال والأولاد الذين لم تزدهم النعم التى أنعمت بها عليهم إلا خسرانا وجحودا ، وضلالا فى الدنيا ، وعقوبة فى الآخرة .

فالمراد بالذين لم يزدهم مالهم وولدهم إلا خسارا : أولئك الكبراء والزعماء الذين رزقهم الله المال والولد ، ولكنهم استعملوا نعمه فى معصيته لا فى طاعته .

وقوله : ﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾ صفة أخرى من صفاتهم الذميمة ، وهو معطوف على صلة « مَن » والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار اللفظ .

والمكر : هو التدبير فى خفاء لإنزال السوء بالممكور به .

أى : أن هؤلاء الزعماء الذين استعملوا نعمك فى الشر ، لم يكتفوا بتحريض أتباعهم على معصيتى ، بل مكروا بى وبالمؤمنين مكرا قد بلغ النهاية فى الضخامة والعظم .

فقوله : ﴿ كبارا ﴾ مبالغة فى الكبر والعظم . أى : مكرا كبيرا جدا لا تحيط بحجمه العبارة .

وكان من مظاهر مكرهم : تحريضهم لسفلتهم على إنزال الأذى بنوح – عليه السلام –

وبأتباعه ، وإيهامهم لهؤلاء السفلة أنهم على الحق ، وأن نوحا ومن معه على الباطل .

وكان من مظاهر مكرهم - أيضا - ماحكاه القرآن بعد ذلك عنهم فى قوله : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ .

أى : ومن مظاهر مكر هؤلاء الرؤساء أنهم قالوا لأتباعهم . احذروا أن تتركوا عبادة آلهتكم ، التى وجدتم على عبادتها آباءكم ، واحذروا أيضا أن تتركوا عبادة هذه الأصنام الخمسة بصفة خاصة ، وهى : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله . فقد روى البخارى عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما « ود » فكانت لقبيلة بنى كلب بدومة الجندل . وأما « سواع » فكانت لهذيل ، وأما « يغوث » فكانت لبنى غطيف ، وأما « يعوق » فكانت لهمدان ، وأما « نسر » فكانت لحمير .

وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح - عليه السلام - فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا .

وقال ابن جرير : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر . فعبدوهم .[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ معمول لقول مقدر ، وهذا القول المقدر معطوف على أقوال نوح السابقة .

أى : قال نوح مناجيا ربه بعد أن يئس من إيمان قومه : يارب ، إن قومى قد عصونى ، وإنهم قد اتبعوا رؤساءهم المغرورين ، وإن هؤلاء الرؤساء قد مكروا بى وبأتباعى مكراً عظيما ، ومن مظاهر مكرهم أنهم حرضوا السفهاء على العكوف على عبادة أصنامهم .. وأنهم قد أضلوا خلقا كثيرا بأن حببوهم فى الكفر وكرهوا إليهم الإيمان .

وقال نوح - أيضا - وأسألك يارب أن لا تزيد الكافرين إلا ضلالا على ضلالهم ، فأنت الذى أخبرتنى بأنه ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٦٢ .

وإذاً فدعاء نوح - عليه السلام - عليهم بالازدياد من الضلال الذى هو ضد الهدى ، إنما كان بعد أن يئس من إيمانهم ، وبعد أن أخبره ربه أنهم لن يؤمنوا .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ الضمير للرؤساء ، ومعناه : وقد أضلوا كثيرا قبل هؤلاء الذين أمروهم بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام .. ويجوز أن يكون الضمير للأصنام ، كقوله - تعالى - ﴿ إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ .

فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ ؟ قلت : على قوله ﴿ رب إنهم عصونى ﴾ على حكاية كلام نوح .. ومعناه : قال رب إنهم عصون ، وقال : ولا تزد الظالمين إلا ضلالا .

فإن قلت : كيف جاز أن يريد لهم الضلال ، ويدعو الله بزيادته ؟ قلت : لتصميمهم على الكفر ، ووقوع اليأس من إيمانهم .. ويجوز أن يريد بالضلال : الضياع والهلاك ..[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ كلام معترض بين ضراعات نوح إلى ربه . والمقصود به التعجيل ببيان سوء عاقبتهم ، والتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه .

و « من » فى قوله ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ للتعليل ، و « ما » مزيدة لتأكيد هذا التعليل .

والخطيئات جمع خطيئة ، والمراد بها هنا : الإشراك به - تعالى - وتكذيب نوح - عليه السلام - والسخرية منه ومن المؤمنين .

أى : بسبب خطيئاتهم الشنيعة ، وليس بسبب آخر ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارا ﴾ يصلون سعيرها فى قبورهم إلى يوم الدين ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وهم عندما نزل بهم الطوفان الذى أهلكهم ، وعندما ينزل بهم عذاب الله فى الآخرة . لن يجدوا أحدا ينصرهم ويدفع عنهم عذابه - تعالى - لا من الأصنام التى تواصوا فيما بينهم بالعكوف على عبادتها ، ولا من غير هذه الأصنام .

فالآية الكريمة تعريض بمشركى قريش ، الذين كانوا يزعمون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، والذين حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ للإشعار بأن دخولهم النار كان فى أعقاب غرقهم بدون مهلة ، وبأن صراخهم وعويلهم كان بعد

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٢٠ .

نزول العذاب بهم مباشرة ، إلا أنهم لم يجدوا أحدا ، يدفع عنهم شيئا من هذا العذاب الأليم .

ثم واصلت السورة الكريمة حكاية ما ناجى نوح به ربه ، فقالت : ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ .

أى : وقال نوح متابعا حديثه مع ربه ، ومناجاته له : يارب ، لا تترك على الأرض من هؤلاء الكافرين ﴿ ديارا ﴾ أى : واحدا يسكن دارا ، أو واحدا منهم يدور فى الأرض ويتحرك عليها ، بل خذهم جميعا أخذ عزيز مقتدر .

فقوله ﴿ ديارا ﴾ مأخوذ من الدار ، أو الدوران ، وهو التحرك ، والمقصود : لا تذر منهم أحدا أصلا ، بل اقطع دابرهم جميعا .

قالوا : والديار من الأسماء التى لا تستعمل إلا فى النفى العام . يقال : ما بالدارديار . أى : ليس بها أحد ألبتة ، وهو اسم بزنة فَيْعَال .

وقوله ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾ تعليل لدعائه عليهم جميعا بالهلاك . أى : يارب لا تترك منهم أحدا سالما ، بل أهلكهم جميعا لأنك إن تترك منهم أحدا على أرضك بدون إهلاك ، فإن هؤلاء المتروكين من دأبهم - كما رأيت منهم زمانا طويلا - إضلال عبادك عن طريق الحق .

وقوله : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ زيادة فى ذمهم وفى التشنيع عليهم .

والفاجر : هو المتصف بالفجور ، والملازم له ملازمة شديدة ، والفجور : هو الفعل البالغ للنهاية فى الفساد والقبح .

والكَفار : هو المبالغ فى الكفر ، والجحود لنعم الله - تعالى - .

أى : إنك يا إلهى إن تتركهم بدون إهلاك ، يضلوا عبادك عن كل خير ، وهم فوق ذلك ، لن يلدوا إلا من هو مثلهم فى الفجور والكفران لأنهم قد نشَّأوا أولادهم على كراهية الحق ، وعلى محبة الباطل .

قال الجمل : فإن قيل : كيف علم نوح أن أولادهم يكفرون ؟ أجيب : بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل منهم ينطلق إليه بابنه ويقول له : احذر هذا - أى نوحا - فإنه كذاب ، وإن أبى حذرنى منه ، فيموت الكبير ، وينشأ الصغير على ذلك .[1] .

وعلى أية حال فالذى نعتقده أن نوحا - عليه السلام - مادعا عليهم بهذا الدعاء ، وما قال فى شأنهم هذا القول - وهو واحد من أولى العزم من الرسل - إلا بعد أن يئس من

إيمانهم ، وإلا بعد أن أخبره ربه : أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، وإلا بعد أن رأى منهم - بعد ألف سنة إلا خمسين عاما عاشها معهم - أنهم قوم قد استحبوا العمى على الهدى ، وأن الأبناء منهم يسيرون على طريقة الآباء فى الكفر والفجور .. وإلى جانب دعاء نوح - عليه السلام - على الكافرين بالهلاك الساحق .. نراه يختتم دعاءه بالمغفرة والرحمة للمؤمنين ، فيقول : ﴿ ربِّ اغفر لى ولوالدى ﴾ .

أى : يارب أسألك أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالدى - أيضا - ذنوبهما ، ويفهم من هذا الدعاء أنهما كانا مؤمنين ، وإلا لما دعا لهما بهذا الدعاء .

﴿ ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾ واغفر يا إلهى لكل من دخل بيتى وهو متصف بصفة الإيمان ، فيخرج بذلك من دخله وهو كافر كامرأته وابنه الذى غرق مع المغرقين .

﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أى : واغفر يارب ذنوب المؤمنين والمؤمنات بك إلى يوم القيامة .

﴿ ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ أى : ولا تزد الظالمين إلا هلاكا وخسارا ودمارا . يقال : تبره يتبره ، إذا أهلكه . ويتعدى بالتضعيف فيقال : تبره الله تتبيرا ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ .

وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذى فيه طلب المغفرة للمؤمنين ، والهلاك للكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر -

صباح الجمعة ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ .

الموافق ١ / ٨ / ١٩٨٦ .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤١٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة الجن

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الجن » من السور المكية الخالصة ، وتسمى بسورة ﴿ قل أوحى ...﴾ ، وعدد آياتها ثمان وعشرون آية بلا خلاف ، وكان نزولها بعد سورة « الأعراف » وقبل سورة « يس » وقد سبقها فى ترتيب النزول ثمان وثلاثون سورة ، إذ هى السورة التاسعة والثلاثون - كما ذكر السيوطى - .

أما ترتيبها فى المصحف ، فهى السورة الثانية والسبعون .

٢ - والمتدبر لهذه السورة الكريمة ، يراها قد أعطتنا صورة واضحة عن عالم الجن ، فهى تحكى أنهم أعجبوا بالقرآن الكريم ، وأن منهم الصالح ومنهم غير الصالح ، وأنهم لا يعلمون الغيب ، وأنهم أهل للثواب والعقاب ، وأنهم لا يملكون النفع لأحد ، وأنهم خاضعون لقضاء الله - تعالى - فيهم .

كما أن هذه السورة قد ساقت لنا ألوانا من سنن الله التى لا تتخلف ، والتى منها : أن الذين يستقيمون على طريقه يحيون حياة طيبة فى الدنيا والآخرة ..

كما أنها لقنت النبى - ﷺ - الإجابات التى يرد بها على شبهات المشركين وأكاذيبهم ، وساقت له ما يسليه عن سفاهاتهم ، وما يشرح صدره ، ويعينه على تبليغ رسالة ربه ..

ويبدو أن نزول هذه السورة الكريمة كان فى حوالى السنة العاشرة ، أو الحادية عشرة ، من البعثة - كما سنرى ذلك من الروايات - ، وأن نزولها كان دفعة واحدة ..

التفسير

وقد افتتحت هذه السورة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ
وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ
اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ
آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات منها ما أخرجه الشيخان والترمذى ، عن ابن عباس أنه قال : انطلق رسول الله - ﷺ - فى طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ بنخلة ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ماذاك إلا لشىء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر - من الجن - الذى أخذوا نحو تهامة ، عامدين إلى سوق عكاظ ، فوجدوا الرسول - ﷺ - بنخلة يصلى بأصحابه صلاة الصبح ، فلما سمعوا القرآن ، استمعوا إليه وقالوا : هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء .

فرجعوا إلى قومهم فقالوا : ياقومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنزل الله - تعالى - على نبيه ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن .... ﴾ .

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبى - ﷺ - أنه قال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن ..

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق ملخصها : أنه لما مات أبو طالب ، خرج النبى - ﷺ - إلى الطائف يلتمس النصرة من أهلها ويدعوهم إلى الإيمان .. فأغروا به سفهاءهم ، يسبونه ويستهزئون به ..

فانصرف - ﷺ - عنهم ، حتى إذا كان ببطن نخلة - هو موضع بين مكة والطائف - قام يصلى من الليل ، فمر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب الشام - فاستمعوا إليه ، فلما فرغ من صلاته ، ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقص الله - تعالى - خبرهم عليه ..

وهناك روايات أخرى فى عدد هؤلاء الجن ، وفى الأماكن التى التقوا فيها مع النبى - ﷺ - وفيما قرأه الرسول - ﷺ - عليهم ، وفيمن كان معه من الصحابة خلال التقائه بهم ..

ويبدو لنا من مجموع الروايات ، أن لقاء النبى - ﷺ - بالجن قد تعدد ، وأنهم تارة استمعوا إليه - ﷺ - دون أن يراهم ، وتارة التقى بهم وقرأ عليهم القرآن[١] .

قال الآلوسى : وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ، ويجمع بذلك بين اختلاف الروايات فى عددهم وفى غير ذلك . وذكر ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله - ﷺ - مرتين ..[٢] .

قال القرطبى : واختلف أهل العلم فى أصل الجن . فعن الحسن البصرى : أن الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء فى الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان ..

وعن ابن عباس : أن الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين ومنهم المؤمن والكافر ، والشياطين هم ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس ..[٣] .

وقال بعض العلماء : عالم الجن من العوالم الكونية ، كعالم الملائكة وقد أخبر الله - تعالى - أنه خلقه من مارج من نار ، أى : أن عنصر النار فيه هو الغالب ، وأنه يرى الأناسى وهم لا يرونه ، أى : بصورته الجبلية ، وإن كان يرى حين يتشكل بأشكال أخرى ، كما رئى جبريل حين تشكل بشكل آدمى .

وأخبر - سبحانه - بأن الجن قادرون على الأعمال الشاقة . وأن الله سخر الشياطين لسليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ...

وأخبر بأن من الجن مؤمنين ، وأن منهم شياطين متمردين ، ومن هؤلاء إبليس اللعين .

ولم يختلف أهل الملل فى وجودهم ، بل اعترفوا به كالمسلمين ، وإن اختلفوا فى حقيقتهم ، ولا تلازم بين الوجود والعلم بالحقائق ، ولا بينه وبين الرؤية بالحواس ، فكثير من الأشياء الموجودة لاتزال حقائقها مجهولة ، وأسرارها محجوبة ، وكثير منها لا يرى بالحواس . ألا ترى الروح - وهى مما لاشك فى وجودها فى الإنسان والحيوان - لم يدرك كنهها أحد ولم يرها أحد ، وغاية ما علم من أمرها بعض صفاتها وآثارها ..

وقد بعث النبى - ﷺ - إلى الجن ، كما بعث إلى الإنس ، فدعاهم الى التوحيد ، وأنذرهم

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢١٠ وج ١٩ ص ٢ ، تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٢ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٣٠ وج ٢٩ ص ٨٣ .
(٣) تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٥ .

وبلغهم القرآن ، وسيحاسبون على الأعمال يوم الحساب كما يحاسب الناس ، فمؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم وكل ذلك جاء صريحا فى القرآن والسنة ..[١] .

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بأمر النبى - ﷺ - بأن يقول للناس ما حدث من الجن عند سماعهم للقرآن . فقال : ﴿ قل أوحى إليه أنه استمع نفر من الجن ..﴾ .

وفى هذا الأمر دلالة على أن المأمور به شىء هام ، يستدعى من السامعين التيقظ والانتباه ، والامتثال للمأمور به ، وتصديقه - ﷺ - فيما أخبر به .

والنفر : الجماعة من واحد إلى عشرة ، وأصله فى اللغة الجماعة من الإنس فأطلق على الجماعة من الجن على وجه التشبيه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، إن الله - تعالى - قد أخبرك عن طريق أمين وحيه جبريل : أن جماعة من الجن قد استمعوا إليك وأنت تقرأ القرآن ..

فقالوا - على سبيل الفرح والإعجاب بما سمعوا - : ﴿ إنا سمعنا ﴾ من الرسول - ﷺ - ﴿ قرآنا عجبا ﴾ أى : إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن ، بديع الأسلوب ، عظيم القدر ..

هذا القرآن ﴿ يهدى إلى الرشد ﴾ أى : إلى الخير والصواب والهدى ﴿ فآمنا به ﴾ إيمانا حقا ، لا يخالطه شك أو ريب ﴿ ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ أى : فآمنا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من دعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ولن نشرك معه فى العبادة أحدا كائنا من كان هذا الأحد .

والمقصود من أمره - ﷺ - بذلك ، دعوة مشركى قريش إلى الإيمان بالحق الذى جاء به - ﷺ - كما آمن جماعة من الجن به ، وإعلامهم بأن رسالته - ﷺ - تشمل الجن والإنس .

وضمير « أنه » للشأن ، وخبر « أن » جملة « استمع نفر من الجن » ، وتأكيد هذا الخبر بأن ، للاهتمام به لغرابته . ومفعول « استمع » محذوف لدلالة قوله : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ عليه .

ووصفهم للقرآن بكونه ﴿ قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ﴾ يدل على تأثرهم به تأثرا شديدا ، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن ، وأسلوبه الحكيم ، ومعانيه البديعة .. ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد ، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء فى قوله : ﴿ فآمنا به ...﴾ .

---

(١) صفوة البيان ج ٢ ص ٤٧٠ فضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فقالوا إنا سمعنا .. ﴾ يحتمل أنهم قالوا ذلك فيما بينهم ، أو لإخوانهم الذين رجعوا إليهم ، كما فى قوله - تعالى - فى سورة الأحقاف : ﴿ قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق والى طريق مستقيم ... ﴾ ويحتمل أنهم قالوا ذلك فى أنفسهم على سبيل الإعجاب ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ بل إننا نرجح أن قولهم هذا قد شمل كل ذلك ، لأن هذا هو الذى يتناسب مع إعجابهم بالقرآن الكريم ، ومع حرصهم على إيمان أكبر عدد منهم به .

ثم حكى - سبحانه - أن هذا النفر من الجن بعد استماعهم إلى القرآن وإيمانهم به ، أخذوا فى الثناء على الخالق - عز وجل - فقال حكاية عنهم : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ .

ولفظ « وأن » قد تكرر فى هذه السورة الكريمة أكثر من عشر مرات ، تارة بالإضافة الى ضمير الشأن ، وتارة بالإضافة الى ضمير المتكلم .

ومن القراء السبعة من قرأه بفتح الهمزة ، ومنهم من قرأه بكسرها ، فمن قرأ ﴿ وأنه تعالى جد ربنا .. ﴾ بالفتح فعلى أنه معطوف على محل الجار والمجرور فى قوله ﴿ فآمنا به ﴾ فكأنه قيل : فصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا .. ومن قرأ بالكسر فعلى أنه معطوف على المحكى بعد القول ، أى : قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، وقالوا : إنه تعالى جد ربنا ..

قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ... ﴾ قرأه حمزة والكسائى وأبو عامر وحفص بفتح « أنّ »، وقرأه الباقون بالكسر ..

وتلخيص هذا أن « أنّ » المشددة فى هذه السورة على ثلاثة أقسام : قسم ليس معه واو العطف ، فهذا لا خلاف بين القراء فى فتحه أو كسره ، على حسب ماجاءت به التلاوة واقتضته العربية ، كقوله : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع ... ﴾ لاخلاف فى فتحه لوقوعه موقع المصدر ، وكقوله : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ لا خلاف فى كسره لأنه محكى بالقول .

القسم الثان أن يقترن بالواو ، وهو أربع عشرة كلمة ، إحداها : لا خلاف فى فتحها ، وهى قوله : ﴿ وأن المساجد لله ... ﴾ وهذا هو القسم الثالث . والثانية وهى قوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله ... ﴾ كسرها ابن عامر وأبو بكر وفتحها الباقون .

والاثنتا عشرة الباقية ، فتحها بعضهم ، وكسرها بعضهم وهى قوله :- تعالى - : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ وقوله : ﴿ وأنه كان يقول .. وأنا ظننا .. وأنه كان رجال .. وأنهم ظنوا ..

وأنا لمسنا .. وأنا كنا .. وأنا لاندرى .. وأنا منا الصالحون .. وأنا لما سمعنا الهدى .. وأنا منا المسلمون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ تعالى ﴾ من التعالى وهو شدة العلو . و﴿ جد ربنا ﴾ الجد - بفتح الجيم - العظمة والجلال .

قال القرطبى : الجد فى اللغة : العظمة والجلال ، ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد فى عيوننا . أى : عظم . فمعنى جد ربنا : عظمته وجلاله .

وقيل معنى « جد ربنا ... »: غناه ، ومنه قيل للحظ جد . ورجل مجدود ، أى : محظوظ . وفى الحديث : « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أى : ولا ينفع ذا الغنى منك غناه ، وإنما تنفعه الطاعة ..[2] .

وجملة ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ بيان وتفسير لما قبله .

أى : آمنا به - سبحانه - إيمانا حقا ، وصدقنا نبيه فيما جاءنا به من عنده ، وصدقنا - أيضا - أن الحال والشأن تعالى وتعاظم جلال ربنا ، وتنزه فى ذاته وصفاته ، عن أن يكون له شريك فى ملكه . أو أن تكون له صاحبة أو أن يكون له ولد ، كما زعم الزاعمون من الكافرين الجاهلين .

وفى هذا القول من هذا النفر من الجن ، رد على أولئك المشركين الذين كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله - تعالى - ، وأنهم - أى الملائكة - جاءوا عن طريق مصاهرته - سبحانه - للجن ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - أقوالا أخرى لهؤلاء المؤمنين من الجن فقال : ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا .. ﴾ والمراد بالسفيه هنا : إبليس - لعنه الله - ، وقيل المراد به الجنس فيشمل كل كافر ومتمرد من الجن ، والشطط ، مجاوزة الحد والعدل فى كل شىء ، أى : أننا ننزه الله - تعالى - عما كان يقوله سفهاؤنا - وعلى رأسهم إبليس - من أن لله - عز وجل - صاحبة أو ولدا ، فإن هذا القول بعيد كل البعد عن الحق والعدل والصواب .

وقوله : ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾ اعتذار منهم عن كفرهم السابق ، فكأنهم يقولون بعد أن استمعوا إلى القرآن ، وآمنوا بالله - تعالى - وحده : إننا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤١٦ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٨ .

نتزه الله - تعالى - عما قاله السفهاء فى شأنه .. وإذا كنا قد اتبعناهم قبل إيماننا ، فسبب ذلك أننا صدقنا هؤلاء السفهاء فيما قالوه لنا ، وما كنا نعتقد أو نتصور أو نظن أن هؤلاء السفهاء يصل بهم الفجور والكذب .. إلى هذا الحد الشنيع .

وقوله : ﴿ كذبا ﴾ مفعول به لتقول ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى : قولا مكذوبا .

ثم حكى - سبحانه - عنهم تكذيبهم لما كان متعارفا عليه فى الجاهلية من أن للجن سلطانا على الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضر ... فقال - تعالى - : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا .. ﴾ .

وقوله : ﴿ يعوذون ﴾ من العَوْذ بمعنى الاستجارة بالشىء والالتجاء إليه طلبا للنجاة .

والرهق : الإثم وغشيان المحارم ..

قال صاحب الكشاف : والرهق : غشيان المحارم ، والمعنى : أن الإنس باستعاذتهم بهم - أى بالجن - زادوهم كفرا وتكبرا . وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى فى واد قفر فى بعض مسايره ، وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس ، فذلك رهقهم ، أو : فزاد الجنُّ والإنسَ رهقا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم ..[1] .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان فساد ما كان شائعا فى الجاهلية - بل وفى بعض البيئات حتى الآن - من أن الجن لهم القدرة على النفع والضر وأن بعض الناس كانوا يلجأون إليهم طلبا لمنفعتهم وعونهم على قضاء مصالحهم .

وإطلاق اسم الرجال على الجن ، من باب التشبيه والمشاكلة لوقوعه من رجال من الإنس ، فإن الرجل اسم للمذكر البالغ من بنى آدم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ﴾ . بيان لما استنكره هؤلاء النفر المؤمنون من الجن على قومهم الكافرين . وعلى من يشبهونهم فى الكفر من الإنس .

أى : وأنهم - أى الإنس - ظنوا واعتقدوا ﴿ كما ظننتم ﴾ واعتقدتم أيها الجن ، أن الله - تعالى - لن يبعث أحدا بعد الموت ، وهذا الظن منهم ومنكم ظن خاطىء فاسد ، فإن البعث حق ، وإن الحساب حق ، وإن الجزاء حق .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٢٤ .

وفى هذا القول من مؤمنى الجن ، تعريض بمشركى قريش ، الذين أنكروا البعث ، وقالوا : ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .. ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - عنهم ما قالوه عند اقترابهم من السماء ، طلبا لمعرفة أخبارها .. قبل أن يؤمنوا فقال : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا .. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ .

وقوله : ﴿ لمسنا ﴾ من اللمس ، وحقيقته الجس باليد ، واستعير هنا ، لطلب أخبار السماء ، لأن الماس للشىء فى العادة ، إنما يفعل ذلك طلبا لاختباره ومعرفته .

والحرس : اسم جمع للحراس ، كخدم وكخدام ، والشهب : جمع شهاب ، وهو القطعة التى تنفصل عن بعض النجوم ، فتسقط فى الجو أو على الأرض أو فى البحر .

أى : وأنا طلبنا أخبار السماء كما هى عادتنا قبل أن نؤمن ﴿ فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ﴾ أى : فوجدناها قد امتلأت بالحراس الأشداء من الملائكة الذين يحرسونها من استراق السمع .. كما أنا قد وجدناها قد امتلأت بالشهب التى تنقض على مسترقى السمع فتحرقهم .

﴿ وأنا كنا نقعد منها ﴾ أى من السماء ﴿ مقاعد للسمع ﴾ أى : كنا نقعد منها مقاعد كائنة للسمع ، خالية من الحرس والشهب ..

﴿ فمن يستمع الآن ﴾ بعد نزول القرآن ، الذى هو معجزة للنبى - ﷺ - والذى آمنا به وصدقناه .

﴿ يجد له شهابا رصدا ﴾ أى: فمن يجلس الآن ليسترق السمع من السماء يجد له شهابا معدا ومهيأ للانقضاض عليه فيهلكه .

فالرصد : جمع راصد ، وهو الحافظ للشىء ، وهو وصف لقوله « شهابا » .

والفاء فى قوله : ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ للتفريع على محذوف ، وكلمة « الآن » فى مقابل كلمة « كنا » الدالة على المحذوف ..

والتقدير : كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فنستمع أشياء ، وقد انقضى ذلك ، وصرنا من يستمع الآن منا يجد له شهابا رصدا ، ينقض عليه فيحرقه .

والمقصود من هاتين الآيتين : تأكيد إيمانهم بالله - تعالى - ، وبرسوله - ﷺ - ، وحض غيرهم على اتباعهم ، وتحذيرهم من التعرض لاستراق السمع .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين : « يخبر الله - تعالى - عن الجن حين بعث الله رسوله محمدا - ﷺ - وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ، لئلا يسترقوا شيئا من القرآن ، فيلقوه على ألسنة الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا ، لايتخطاه ولايتعداه ، بل يمحقه ويهلكه »[1] .

وقال بعض العلماء : والصحيح أن الرجم كان موجودا قبل المبعث . فلما بعث - ﷺ - كثر وازداد ، كما ملئت السماء بالحرس والشهب . وليس فى الآية دلالة على أن كل ما يحدث من الشهب إنما هو للرجم ، بل إنهم إذا حاولوا استراق السمع رجموا بالشهب ، وإلا فالشهب الآن وفيما مضى قدتكون ظواهر طبيعية ولأسباب كونية ..[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه على سبيل الإقرار بأنهم لا يعلمون شيئا من الغيوب فقال : ﴿ وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ .

أى : وقال هؤلاء الجن المؤمنون على سبيل الاعتراف بأن مرد علم الغيوب إلى الله - تعالى - وحده : قالوا وإنا لا ندرى ولا نعلم الآن ، بعد هذه الحراسة المشددة للسماء ، أأريد بأهل الأرض ما يضرّ بهم ، أم أراد الله - تعالى - بها ما ينفعهم ؟ .

قال الآلوسى : ولا يخفى ما فى قولهم هذا من الأدب ، حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله - تعالى - ، كما صرحوا به فى الخير ، وإن كان فاعل الكل هو الله - تعالى - ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد ..[3] .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فى وصف حالهم وواقعهم فقال : ﴿ وأنا منا الصالحون ...﴾ أى : منا الموصوفون بالصلاح والتقوى .. وهم الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ولم يشركوا معه فى العبادة أحدا ..

﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أى : ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح والتقوى .. وهم الذين فسقوا عن أمر ربهم ، ولم يستقيموا على صراطه ودينه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٦٧ .
(٢) تفسير صفوة البيان جـ ٢ ص ٤٧٢ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٨٨ .

وقوله : ﴿ كنا طرائق قددا ﴾ ، تشبيه بليغ . والطرائق : جمع طريقة ، وهى الحالة والمذهب .

وقددا : جمع قِدَّة ، وهى الفرقة والجماعة من الناس ، الذين تفرقت مشاربهم وأهواؤهم .

والجملة الكريمة بيان وتفسير لما قبلها .

أى : وأنا فى واقع أمرنا منا الصالحون الأخيار .. ومنا من درجته ورتبته أقل من ذلك بكثير أو بقليل .. فنحن فى حياتنا كنا قبل سماعنا للقرآن كالمذاهب المختلفة فى حسنها وقبحها ، وكالطرق المتعددة فى استقامتها واعوجاجها .. أما الآن فقد وفقنا الله - تعالى - إلى الإيمان به ، وإلى إخلاص العبادة له ..

ومن وجوه البلاغة فى الآية الكريمة ، أنهم قالوا : ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ ، ليشمل التعبير من هم دون الكمال فى الصلاح ، ومن هم قد انحدروا فى الشرور والآثام إلى درجة كبيرة ، وهم الأشرار .

والمقصود من الآية الكريمة ، مدح الصالحين ، وذم الطالحين ، ودعوتهم إلى الاقتداء بأهل الصلاح والتقوى والإيمان .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بشأن عجزهم المطلق أمام قدرة خالقهم فقال : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ، ولن نعجزه هربا ﴾ .

والظن هنا بمعنى العلم واليقين . وقوله : ﴿ نعجزه ﴾ من الإعجاز ، وهو جعل الغير عاجزا عن الحصول على ما يريد . وقوله ﴿ فى الأرض ﴾ و ﴿ هربا ﴾ فى موضع الحال .

أى : وأننا قد علمنا وتيقنا بعد إيماننا وبعد سماعنا للقرآن .. أننا فى قبضة الله - تعالى - وتحت قدرته ، ولن نستطيع الهرب من قضائه سواء أكنا فى الأرض أم فى غيرها .

فقوله : ﴿ فى الأرض ﴾ إشارة إلى عدم قدرتهم على النجاة من قضائه - تعالى - مهما حاولوا اللجوء إلى أية بقعة من بقاعها ، ففى أى بقعة منها يكونون ، يدركهم قضاؤه وقدره .

وقوله : ﴿ ولن نعجزه هربا ﴾ إشارة إلى أن هربهم إلى السماء لا إلى الأرض ، لن ينجيهم مما يريده - سبحانه - بهم .

فالمقصود بالآية الكريمة : إظهار عجزهم المطلق أمام قدرة الله - تعالى - وعدم تمكنهم من الهرب من قضائه ، سواء ألجأوا إلى الأرض ، أم إلى السماء .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما سمعوا ما يهديهم إلى الرشد .. فقال - تعالى - : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ..﴾ .

أى : وأننا لما سمعنا الهدى ، أى : القرآن من النبى - ﷺ - ﴿ آمنا به ﴾ بدون تردد أو شك ﴿ فمن يؤمن بربه ﴾ وبما أنزله على نبيه - ﷺ - ﴿ فلا يخاف بخسا ﴾ أى : نقصا فى ثوابه ﴿ ولا رهقا ﴾ أى : ولا يخاف - أيضا - ظلما يلحقه بزيادة فى سيئاته ، أو إهانة تذله وتجعله كسير القلب ، منقبض النفس .

فالمراد بالبخس : الغبن فى الأجر والثواب . والمراد بالرهق : الإهانة والمذلة والمكروه .

والمقصود بالآية الكريمة إظهار ثقتهم المطلقة فى عدالة الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ تأكيد وتفصيل لما قبله .

والقاسطون : هم الجائرون الظالمون ، جمع قاسط ، وهو الذى ترك الحق واتبع الباطل ، اسم فاعل من قسط الثلاثى بمعنى جار ، بخلاف المقسط فهو الذى ترك الباطل واتبع الحق .

مأخوذ من أقسط الرباعى بمعنى عدل .

أى : وأنا - معاشر الجن - ﴿ منا المسلمون ﴾ الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة .

﴿ ومنا القاسطون ﴾ أى : الجائرون المائلون عن الحق إلى الباطل .

﴿ فمن أسلم ﴾ منا ﴿ فأولئك ﴾ المسلمون ﴿ تحروا رشدا ﴾ أى : توخوا وقصدوا الرشد والحق .

﴿ وأما القاسطون ﴾ وهم الذين آثروا الغى على الرشد ﴿ فكانوا لجهنم حطبا ﴾ أى : وقودا لجهنم ، كما توقد النار بما يلقى فيها من حطب وما يشبهه .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوالا متعددة ، لهؤلاء النفر من الجن ، الذين استمعوا إلى القرآن ، فآمنوا به ، وقالوا لن نشرك بربنا أحدا .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الاستقامة على طريقه توصل إلى السعادة ، وأن الإعراض عن طاعته - تعالى - يؤدى إلى الشقاء ، وأمر رسوله - ﷺ - أن يعلن للناس حقائق دعوته ، وخصائص رسالته ، وإقراره أمامهم بأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وأن علم الغيب مرده إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ
بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى
لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ
مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا.. ﴾ معطوف على قوله - تعالى - : ﴿ أنه استمع نفر من الجن ... ﴾ فهو من جملة الموحى به ، وهو من كلام الله - تعالى - لبيان سنة من سننه فى خلقه ، واسم « أن » المخففة ضمير الشأن ، والخبر قوله ، ﴿ لو استقاموا ... ﴾ والضمير يعود على القاسطين سواء أكانوا من الإنس أم من الجن .

والماء الغدق : هو الماء الكثير ، يقال : غَدِقَتْ عين فلان غَدَقاً - كفرح - إذا كثر دمعها فهى غدقة ، ومنه الغيداق للماء الواسع الكثير ، والمراد : لأعطيناهم نعما كثيرة .

أى : ولو أن هؤلاء العادلين عن طريق الحق إلى طريق الباطل استقاموا على الطريقة المثلى ، التى هى طريق الإسلام ، والتزموا بما جاءهم به النبى - ﷺ - من عند ربه ..

لو أنهم فعلوا ذلك ، لفتحنا عليهم أبواب الرزق ، ولأعطيناهم من بركاتنا وخيراتنا الكثير .. وخص الماء الغدق بالذكر ، لأنه أصل المعاش والسعة .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ...﴾ وقوله - تعالى - ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ..﴾ .

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى هذا العطاء لعباده فقال : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ وأصل الفتن الامتحان والاختبار . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعرف مقدار جودته .

والمعنى : نعطيهم ما نعطيهم من خيراتنا ، لنختبرهم ونمتحنهم ، ليظهر للخلائق موقفهم من هذه النعم ، أيشكروننا عليها فنزيدهم منها ، أم يجحدون ويبطرون فنمحقها من بين أيديهم ..؟ .

والجملة الكريمة معترضة بين ما قبلها ، وبين قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ .

وقوله : ﴿ يسلكه ﴾ من السلك بمعنى إدخال الشىء فى الشىء ومنه قوله - تعالى - : ﴿ كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ﴾ . والصَّعَد : الشاق . يقال : فلان فى صَعَد من أمره ، أى : فى مشقة وتعب ، وهو مصدر صَعِد - كفرح - صعداً وصعودا .

أى : ومن يعرض عن طاعة ربه ومراقبته وخشيته .. يدخله - سبحانه - فى عذاب شاق أليم ، لا مفر منه ، ولا مهرب له عنه .

ومن الحقائق والحكم التى نأخذها من هاتين الآيتين ، أن الاستقامة على أمر الله ، تؤدى إلى السعادة التى ليس بعدها سعادة ، وأن رخاء العيش وشظافته هما لون من ألوان الابتلاء والاختبار ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ ، وأن الإعراض عن ذكر الله ... عاقبته الخسران المبين ، والعذاب الأليم .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أى لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم .

وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة

فمعنى ﴿ لأسقيناهم ﴾ لوسعنا عليهم فى الدنيا ، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا ، لأن الخير والرزق كله ، بالمطر يكون ، فأقيم مقامه .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « أخوف ماأخاف عليكم ، ما يخرج لكم من زهرة الدنيا ، قالوا : وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الأرض ..» .

وقال - ﷺ - : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها ، كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن المساجد التى تقام فيها الصلاة والعبادات ، يجب أن تنسب إلى الله - تعالى - وحده ، فقال : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ .

والمساجد : جمع مسجد ، وهو المكان المعد لإقامة الصلاة والعبادة فيه . واللام فى قوله ﴿ لله ﴾ ، للاستحقاق .

أى : وأوحى إلىَّ - أيضا - أن المساجد التى هى أماكن الصلاة والعبادة لاتكون إلا لله - تعالى - وحده ، ولا يجوز أن تنسب إلى صنم من الأصنام ، أو طاغوت من الطواغيت .

قال الإمام ابن كثير : قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين ، أن يوحدوه وحده .

وقال سعيد بن جبير : نزلت فى أعضاء السجود . أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره .. وفى الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال : أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين[2] .

ويبدو لنا أن المراد بالمساجد هنا الأماكن المعدة للصلاة والعبادة ، لأن هذا هو المتبادر من معنى الآية ، وأن المقصود بها توبيخ المشركين الذين وضعوا الأنصاب والأصنام ، فى المسجد الحرام وأشركوها فى العبادة مع الله - تعالى - .

وأضاف - سبحانه - المساجد إليه ، على سبيل التشريف والتكريم وقد تضاف إلى غيره - تعالى - على سبيل التعريف فحسب ، وفى الحديث الشريف : « الصلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى غيره ، إلا المسجد الحرام » .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٨ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٠ .

ثم بين - سبحانه - حال الصالحين من الجن ، عندما استمعوا إلى النبى - ﷺ - وهو يقرأ القرآن ، ويتقرب إلى الله - تعالى - بالعبادة فقال : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ .

أى : وأوحى الله - تعالى - فيما أوحى من شأن الجن ، ﴿ أنه لما قام عبد الله ﴾ وهو محمد - ﷺ - ﴿ يدعوه ﴾ أى : يدعو الله - تعالى - ويعبده فى الصلاة ، ﴿ كادوا ﴾ أى : الجن ﴿ يكونون عليه لبدا ﴾ أى : كادوا من شدة التزاحم عليه ، والتكتل حوله .. يكونون كاللبد ، أى : كالشىء الذى تلبد بعضه فوق بعض . ولفظ « لِبَدًا » جمع لِبْدَة ، وهى الجماعة المتزاحمة ، ومنه لبدة الأسد للشعر المتراكم فى رقبته .

ووضع - سبحانه - الاسم الظاهر موضع المضمر ، إذ مقتضى الظاهر أن يقال : وأنه لما قمتَ تدعو الله .. أو لما قمتُ أدعو الله .. تكريما للنبى - ﷺ - حيث وصفه بأنه « عبد الله » لما فى هذه الإضافة من التشريف والتكريم .

والجن : إنما ازدحموا حول الرسول - ﷺ - وهو يصلى ويقرأ القرآن .. تعجبا مما شاهدوه من صلاته ، ومن حسن قراءته ، ومن كمال اقتداء أصحابه ، قياما ، وركوعا ، وسجودا .. ومنهم من يرى أن الضمير فى « كادوا » يعود لكفار قريش ، فيكون المعنى : وأنه لما قام محمد - ﷺ - يدعو ربه .. كادوا من تزاحمهم عليه ، يكونون كاللبد ، لا لكى ينتفعوا بما يسمعون ، ولكن لكى يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله - تعالى - قد رد كيدهم فى نحورهم ، وأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

قال صاحب الكشاف : « عبدالله » هو النبى - ﷺ - ، فإن قلت : هلا قيل : رسول الله أو النبى ؟ قلت : لأن تقديره وأوحى إلى أنه لما قام عبدالله ، فلما كان واقعا فى كلام رسول الله - ﷺ - عن نفسه ، جىء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل ، أو لأن المعنى أن عبادة عبدالله ، لله - تعالى - ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبدا .

ومعنى « قام يدعوه » : قام يعبده . يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن ، فاستمعوا لقراءته ، وتزاحموا عليه .

وقيل معناه : لما قام رسول يعبد الله وحده ، مخالفا المشركين فى عبادتهم كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين ..[1] .

ويبدو لنا أن عودة الضمير فى « كادوا » على مؤمنى الجن أرجح ، لأن هذا هو الموافق

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٣٠ .

لإعجابهم بالقرآن الذى سمعوه من النبى - ﷺ - لأن هذا هو الظاهر من سياق الآيات ، حيث إن الحديث عنهم ، ولأن الآثار قد وردت فى أن الجن قد التفوا حول النبى - ﷺ - حين سمعوه يقرأ القرآن .

ومن هذه الآثار قول الزبير بن العوام : هم الجن حين استمعوا القرآن من النبى - ﷺ - كادوا يركب بعضهم بعضا ازدحاما عليه ..[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يعلن لجميع من أرسل إليهم ، أنه لا يعبد أحدا سواه - عز وجل - فقال : ﴿ قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا ﴾ .

أى : قل -أيها الرسول الكريم - لجميع من أرسلناك إليهم من الجن والإنس : إنى أعبد ربى وحده ، وأتوجه إليه وحده بالدعاء والطلب ، ولا أشرك معه أحدا فى عبادتى أو صلاتى أو نسكى ..

وقل لهم ، كذلك : ﴿إنى لا أملك لكم ضرا ﴾ أى : لا أملك ما يضركم ﴿ ولا رشدا ﴾ أى : ولا أملك ما ينفعكم ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله - تعالى - وحده .

وقل لهم للمرة الثالثة : ﴿إنى لن يجيرنى من الله أحد ﴾ أى : إنى لن يمنعنى أحد من الله - تعالى - إن أرادنى بسوء .

﴿ ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ أى : ولن أجد من دونه ملجأ أركن إليه . يقال : التحد فلان إلى كذا ، أى : مال إليه .

فالآية الكريمة بيان لعجزه - ﷺ - عن شئون نفسه أمام قدرة خالقه - عز وجل - بعد بيان عجزه عن شئون غيره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ...﴾ استثناء من مفعول ﴿ لا أملك ﴾ ، وهما قوله قبل ذلك : ﴿ ضرا ولا رشدا ﴾ وما يليهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إنى لا أملك ما يضركم ولا أملك ما ينفعكم ، وإنما الذى أملكه هو تبليغ رسالات ربى إليكم ، بأمانة واجتهاد .

والبلاغ : مصدر بلَّغ ، وهو إيصال الكلام أو الحديث إلى الغير ، ويطلق على الكلام المبلغ من إطلاق المصدر على المفعول ، مثل : « هذا خلق الله » ، و« من » ابتدائية صفة لقوله : « بلاغا » أى : بلاغا كائنا من جهة الله - تعالى - وأمره . والرسالات : جمع رسالة ، وهى

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٤٣ . وتفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧١ .

ما يرسل إلى الغير من كلام أو كتاب . والمراد بها هنا : تبليغ ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه للناس .

قال الآلوسى ماملخصه وقوله : ﴿ إلا بلاغا من الله ...﴾ استثناء من مفعول لا أملك .. وما بينهما اعتراض .. فإن كان المعنى : لا أملك أن أضركم ولا أن أنفعكم ، كان استثناء متصلا ، كأنه قيل : لا أملك شيئا إلا بلاغا ، وإن كان المعنى : لا أملك أن أقسركم على الغى والرشد ، كان منقطعا ، أو من باب : لا عيب فيهم غير أن سيوفنا .. أى : أنه من أسلوب تأكيد الشىء بما يشبه ضده ، وقوله ﴿ ورسالاته ﴾ عطف على قوله ﴿ بلاغا ﴾ وقوله : ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفه له . أى : بلاغا كائنا من الله ..[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة من يخالف أمره فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ فيما أمرا به ، أو نهيا عنه .

﴿ فإن له ﴾ أى : لهذا العاصى ﴿ نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ أى : فحكمه أن له نار جهنم ، وجمع - سبحانه - خالدين باعتبار معنى « مَن » ، كما أن الإفراد فى قوله ﴿ فإن له ﴾ باعتبار لفظها .

وقوله : « أبدا » مؤكد لمعنى الخلود . أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا نهاية له .

وقوله - سبحانه - : ﴿ حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ تهديد ووعيد للكافرين بسبب استهزائهم بالمؤمنين ، فقد حكى القرآن عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ ، ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ وقالوا : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

و﴿ حتى ﴾ هنا حرف ابتداء . وهى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام ، وهو سخرية الكافرين من المؤمنين . و﴿ إذا ﴾ اسم زمان للمستقبل مضمن معنى الشرط ، وهى فى محل نصب بجوابه الذى هو قوله ﴿ فسيعلمون ﴾ .

والمعنى : أن هؤلاء الكفار لا يزالون على ما هم عليه من غرور وعناد وجحود .. حتى إذا رأوا ما يوعدون من العذاب فى الدنيا والآخرة ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ من هو أضعف جندا وأقل عددا ، أهم المؤمنون - كما يزعم هؤلاء الكافرون - ؟ أم أن الأمر سيكون على العكس ؟ لاشك أن الأمر سيكون على العكس ، وهو أن الكافرين فى هذا اليوم سيكونون فى غاية الضعف والذلة والهوان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٩٤ .

وجىء بالجملة التى أضيف إليها لفظ « إذا » فعلا ماضيا ، للتنبيه على تحقق الوقوع .
والآية الكريمة تشير إلى خيبة هؤلاء الكافرين ، وتلاشى آمالهم .. فإنهم فى هذا اليوم سيفقدون الناصر لهم ، كما أنهم سيفقدونه من جهة أنفسهم ، لأنهم مهما كثر عددهم ، فهم مغلوبون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله للمرة الرابعة ، أن يعلن للناس أن هذا اليوم الذى يأتى فيه نصر الله للمؤمنين لا يعلمه إلا هو ، فقال - تعالى - : ﴿ قل إن أدرى أقريب ما توعدون . أم يجعل له ربى أمدا ...﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين إن نصر الله لنا آت لا ريب فيه ، وعذاب الله لكم آت - أيضا - لا ريب فيه ، ولكنى لا أدرى ولا أعلم أيتحقق ذلك فى الوقت العاجل القريب ، أم يجعل الله - تعالى - لذلك « أمدا » أى : غاية ومدة معينة من الزمان ، لا يعلم وقتها إلا هو - سبحانه - .

والمقصود من الآية الكريمة : بيان أن العذاب نازل بهم قطعا ولكن موعده قد يكون بعد وقت قريب ، وقد يكون بعد وقت بعيد ، لأن تحديد هذا الوقت مرده إلى الله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾ تعليل لما قبله .
أى : أنا لا أدرى متى يكون عذابكم - أيها الكافرون - لأن مرد علم ذلك إلى الله - تعالى - الذى هو عليم بكل شىء من الظواهر والبواطن ، والذى اقتضت حكمته أن لا يطلع أحدا على غيوبه ، وعلى ما استتر وخفى من أمور خلقه .

وقوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ استثناء من النفى فى قوله : ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا﴾ .

أى : هو - سبحانه - عالم الغيب ، فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه، إلا الرسول الذى ارتضاه واختاره من خلقه ، فإنه - سبحانه - قد يطلعه على بعض غيوبه ، ليكون ذلك معجزة له ، دالة على صدقه أمام قومه .

فإذا ما أراد - سبحانه - إطلاع رسوله المصطفى لحمل رسالته على بعض غيوبه ، سخر له من جميع جوانبه حرسا من الملائكة يحرسونه من وسوسة الشيطان ونوازعه ، ومن كل ما يتعارض مع توصيل وحيه - سبحانه - إلى رسله ، بكل أمانة وصيانة .

ومعنى ﴿ من ارتضى ...﴾ : من اختار واصطفى واجتبى ، وعبر عن ذلك بقوله ﴿ من ارتضى ﴾ ، للإشعار بأنه - سبحانه - يخص هؤلاء الذين رضى عنهم ورضوا عنه بالاطلاع على بعض غيوبه ، على سبيل التأييد والتكريم لهم .

و«من» فى قوله ﴿ من رسول ﴾ للبيان . والمراد بالرسول هنا : ما يشمل كل رسول اختاره - سبحانه - لحمل رسالته ، سواء أكان من البشر أم من الملائكة .

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ فإنه ﴾ و﴿ يسلك ﴾ يعودان على الله - عز وجل - وأطلق السلك على إيصال الخبر إلى الرسول المرتضى ، للإشعار بأن هذا الخبر الذى أطلع الله - تعالى - رسوله عليه ، قد وصل إليه وصولا مؤكدا ، ومحفوظا من كل تحريف ، كما يدخل الشىء فى الشىء دخولا تاما بقوة وضبط ، إذ حقيقة السلك . إدخال الشىء فى الشىء بشدة وعناية ..

والمراد بقوله : ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ جميع الجهات ، وعبر عن جميع الجهات بذلك ، لأن معظم ما يتعرض له الإنسان يكون من هاتين الجهتين .

والرصد : جمع راصد ، وهو ما يحفظ الشىء ، ويصونه من كل ما لا يريده ، أى : إلا من ارتضى - سبحانه - من رسول ، فإنه - عز وجل - يطلعه على ما يشاؤه من غيوبه ، ويجعل له حراسا من جميع جوانبه ، يحفظونه من كل سوء .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول ...﴾ أى : لكن الرسول المرتضى يظهره - جل وعلا - على بعض الغيوب المتعلقة برسالته .. إما لكون بعض هذه الغيوب من مباديها ، بأن يكون معجزة ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية ، وكيفيات الأعمال وأجزيتها ، ونحو ذلك من الأمور الغيبية ، التى بيانها من وظائف الرسالة . بأن يسلك من جميع جوانبه عند إطلاعه على ذلك ، حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين ، لما أريد إطلاعه عليه ..»[1] .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم .. ﴾ متعلقة بقوله ﴿ يسلك ﴾ .

والضمير فى ﴿ يعلم ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ، والمراد بالعلم : علم المشاهدة الذى يترتب عليه الجزاء ، أى : أطلع الله - تعالى - من ارتضاهم على بعض غيوبه ، وحرسهم من وصول الشياطين إلى هذا الذى أظهرهم عليه من غيوب .. ليعلم - تعالى - علم مشاهدة يترتب عليه الجزاء ، أن الرسل قد أبلغوا رسالته - سبحانه - إلى خلقه ، وأنه - تعالى - قد ﴿ أحاط بما لديهم ﴾ أى : أحاط علمه - تعالى - بكل ما لدى الرسل وغيرهم من أقوال

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٩٦ .

وأفعال ، ﴿ وأحصى كل شىء عددا ﴾ أى : وأحصى كل شىء فى هذا الكون إحصاء تاما ، وعلما كاملا .

قال الشوكانى : قوله : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ... ﴾ اللام متعلقة بيسلك ، والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، و « أن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذى أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ..

وقال قتادة : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو ، وفيه حذف تتعلق به اللام ، أى : أخبرناه - ﷺ - بحفظنا الوحى ، ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ بالحق والصدق .

وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم ..[1] .

ويبدو لنا أن عودة الضمير فى « ليعلم » إلى الله - تعالى - هو الأظهر، أى : ليعلم الله - تعالى - أن رسله قد أبلغوا رسالاته علم مشاهدة كما علمه غيبا ، لأن علم الله بذلك لا يكون إلا على وفق ما وقع ..

وهكذا ساقت لنا سورة « الجن » الكثير من الحقائق التى تتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والسلوك والأفكار التى طغى كثير منها على العقول والأفهام ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر - صباح الأربعاء - الراجى عفو ربه
٣٠ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦/٦/٨ م د. محمد سيد طنطاوى

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٣١٣ للشوكانى .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المزمل

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المزمل » هى السورة الثالثة والسبعون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول على النبى - ﷺ - فهى السورة الثالثة أو الرابعة ، إذ يرى بعضهم أنه لم يسبقها فى النزول سوى سورتى العلق والمدثر ، بينما يرى آخرون أنه لم يسبقها سوى سور العلق ، ونون ، والمدثر .

وعدد آياتها عشرون آية عند الكوفيين ، وتسع عشرة آية عند البصريين وثمانى عشرة آية عند الحجازيين .

٢ - وجمهور العلماء على أن سورة «المزمل» من السور المكية الخالصة ، فابن كثير - مثلا - عند تفسيره لها قال : تفسير سورة « المزمل » ، وهى مكية .

وحكى بعضهم أنها مكية سوى آيتين ، فقد قال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة : هى مكية إلا آيتين منها ، وهما قوله - تعالى - : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين ...﴾ .

وقال الثعلبى : هى مكية إلا الآية الاخيرة منها وهى قوله - تعالى - : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه ...﴾ فإنها نزلت بالمدينة[١] .

وقال الشيخ ابن عاشور ما ملخصه : وقال فى الاتقان : إن استثناء قوله - تعالى - :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٣١ .

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ...﴾ إلى آخر السورة ، يرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة أنها قالت : نزلت هذه الآية بعد نزول صدر السورة بسنة ..

ثم قال الشيخ ابن عاشور : وهذا يعنى أن السورة كلهامكية ، والروايات تظاهرت على أن هذه الآية قد نزلت منفصلة عما قبلها ، بمدة مختلف فى قدرها ، فعن عائشة أنها سنة .. ومن قال بأن هذه الآية مدنية ، يكون نزولها بعد نزول ما قبلها بسنين ..

والظاهر أن هذه الآية مدنية ، لقوله - تعالى - : ﴿ ... وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ ومن المعروف أن القتال لم يفرض إلا فى المدينة - إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة [1] .

٣ - والسورة الكريمة : زاخرة بالحديث الذى يدخل التسلية والصبر على قلب النبى - ﷺ - ، ويعلى من شأن القرآن الكريم ، ويرشد المؤمنين إلى ما يسعدهم ويصلح بالهم ، ويهدد الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى طغيانهم ، ويذكر الناس بأهوال يوم القيامة .. ويسوق لهم ألوانا من يسر شريعته ورأفته - عز وجل - بعباده ، وإثابتهم بأجزل الثواب على أعمالهم الصالحة .

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ٢٥٢ للشيخ ابن عاشور .

التفسير

افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا
﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى
ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾
رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ
أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه السورة الكريمة روايات منها ما رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تصدوا الناس عنه فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر .. فتفرق المشركون على ذلك . فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل فقرأ عليه : ﴿ يأيها المزمل ﴾ ﴿ يأيها المدثر .. ﴾ .

وقيل : إنه - ﷺ - كان نائما بالليل متزملا فى قطيفة .. فجاءه جبريل بقوله - تعالى - ﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا .. ﴾ .

وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى ، هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا .. فرفعت رأسى فإذا الذى جاءنى بحراء ، جالس على كرسى بين السماء والأرض .. فرجعت فقلت : دثرونى دثرونى ، وفى رواية : فجئت أهلى فقلت : زملونى زملونى ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ يأيها المدثر ... ﴾[1] .

وجمهور العلماء يقولون : وعلى أثرها نزلت : ﴿ يأيها المزمل ... ﴾ .

و﴿المزمل ﴾ : اسم فاعل من تزمل فلان بثيابه ، إذا تلفف فيها ، وأصله المتزمل ، فأدغمت التاء فى الزاى والميم .

وافتتح الكلام بالنداء للتنبيه على أهمية ما يلقى على المخاطب من أوامر أونواه .

وفى ندائه - ﷺ - بلفظ « المزمل » تلطف معه ، وإيناس لنفسه ، وتحبب إليه ، حتى يزداد نشاطا ، وهو يبلغ رسالة ربه .

والمعنى : يأيها المتزمل بثيابه ، المتلفف فيها ، رهبة مما رآه من عبدنا جبريل . أو هما وغما مما سمعه من المشركين ، من وصفهم له بصفات هو برىء منها .

﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ أى : قم الليل متعبدا لربك ، ﴿ إلا قليلا ﴾ منه ، على قدر ما تأخذ من راحة لبدنك ، فقوله : ﴿ إلا قليلا ﴾ استثناء من الليل ..

وقوله ﴿ نصفه ﴾ بدل من ﴿ قليلا ﴾ بدل كل من كل ، على سبيل التفصيل بعد الإجمال ..

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٣٢ تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١٠١ .

أى : قم نصف الليل للعبادة لربك ، واجعل النصف الثانى من الليل لراحتك ونومك ..

ووصف - سبحانه - هذا النصف الكائن للراحة بالقلة فقال ﴿ إلا قليلا ﴾ للإشعار بأن النصف الآخر ، العامر بالعبادة والصلاة .. هو النصف الأكثر ثوابا وقربا من الله - تعالى - بالنسبة للنصف الثانى المتخذ للراحة والنوم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ...﴾ تخيير له - ﷺ - فيما يفعله ، وإظهار لما اشتملت عليه شريعة الإسلام من يسر وسماحة ..

فكأنه - تعالى - يقول له على سبيل التلطف والإرشاد إلى ما يشرح صدره - يأيها المتلفف بثيابه ، قم الليل للعبادة والصلاة ، إلا وقتا قليلا منه يكون لراحتك ونومك ، وهذا الوقت القليل المتخذ للنوم والراحة قد يكون نصف الليل ، أو قد يكون أقل من النصف بأن يكون فى حدود ثلث الليل ، ولك - أيها الرسول الكريم - أن تزيد على ذلك ، بأن تجعل ثلثى الليل للعبادة ، وثلثه للنوم والراحة ..

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد رخص لنبيه - ﷺ - فى أن يجعل نصف الليل أو ثلثه ، أو ثلثيه للعبادة والطاعة . وأن يجعل المقدار الباقى من الليل للنوم والراحة ..

وخص - سبحانه - الليل بالقيام ، لأنه وقت سكون الأصوات .. فتكون العبادة فيه أكثر خشوعا ، وأدعى لصفاء النفس ، وطهارة القلب ، وحسن الصلة بالله - عز وجل - .

هذا ، وقد استمر وجوب الليل على الرسول - ﷺ - حتى بعد فرض الصلوات الخمس عليه وعلى أمته . تعظيما لشأنه ، ومداومة له على مناجاة ربه ، خصوصا فى الثلث الأخير من الليل ، يدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾[1] .

وقد كان المسلمون يقتدون بالرسول - ﷺ - فى قيام الليل وقد أثنى - سبحانه - عليهم بسبب ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[2] .

وقد ذكر الإمام أحمد حديثا طويلا عن سعيد بن هشام ، وفيه أنه سأل السيدة عائشة عن قيامه - ﷺ - بالليل . فقالت له : ألست تقرأ هذه السورة ، يأيها المزمل ..؟ .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٩ .

(٢) سورة السجدة الآيتان ١٦ ، ١٧ .

إن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله ختامها فى السماء اثنى عشر شهرا . ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة ..[١] .

قال القرطبى ما ملخصه : واختلف : هل كان قيام الليل فرضا وحتما ، أو كان ندبا وحضا ؟ والدلائل تقوى أن قيامه كان حتما وفرضا ، وذلك أن الندب والحض ، لا يقع على بعض الليل دون بعض ، لأن قيامه ليس مخصوصا به وقت دون وقت .

واختلف - أيضا - هل كان فرضا على النبى - ﷺ - وحده ؟ أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ؟ أو عليه وعلى أمته ؟ ثلاثة أقوال .. أصحها ثالثها للحديث المتقدم الذى رواه سعيد بن هشام عن عائشة - رضى الله عنها -[٢] .

وقال بعض العلماء بعد أن ساق أقوال العلماء فى هذه المسألة بشىء من التفصيل : والذى يستخلص من ذلك أن أرجح الأقوال ، هو القول القائل بأن التهجد كان فريضة على النبى - ﷺ - وعلى أمته ، إذ هو الذى يمكن أن تأتلف عليه النصوص القرآنية ، ويشهد له ما تقدم من الآثار عن ابن عباس وعائشة وغيرهما .

ويرى بعض العلماء أن وجوب التهجد باق على الناس جميعا ، وأنه لم ينسخ ، وإنما الذى نسخ هو وجوب قيام جزء مقدر من الليل ، لا ينقص كثيرا عن النصف ..

ويرد على هذا القول بما ثبت فى الصحيحين ، من أن الرسول - ﷺ - قال للرجل الذى سأله عما يجب عليه من صلاة ؟ قال : خمس صلوات فى اليوم والليلة . قال : هل على غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع » .

ويرى فريق آخر : أن قيام الليل نسخ عن الرسول وعن أمته بآخر سورة المزمل . واستبدل به قراءة القرآن ، على ما يعطيه قوله - تعالى - ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ ويدل عليه - أيضا - ظاهر ما روى عن عائشة، من قولها: فصار قيام الليل تطوعا من بعد الفريضة ، دون أن تقيد ذلك بقيد .

ويرى فريق ثالث : أن وجوب التهجد استمر على النبى وعلى الأمة ، حتى نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج .

ويرى فريق رابع : أن قيام الليل نسخ عن الأمة وحدها ، وبقى وجوبه على النبى - ﷺ - على ما يعطيه ظاهر آية الإسراء .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٨ .

(٢) راجع تفسير القرطبى .

ولعل أرجح هذه الأقوال هو القول الرابع .. فإن آية سورة الإسراء وهى قوله - تعالى - : ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك ...﴾ تدل على أن وجوب التهجد قد بقى عليه - ﷺ -[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ إرشاد له - ﷺ - ولأمته إلى أفضل طريقة لقراءة القرآن الكريم ، حتى يستمروا عليها ، وهم فى أول عهدهم بنزول القرآن الكريم .

والترتيل : جعل الشىء مرتلا ، أى : منسقا منظما ، ومنه قولهم : ثغر مرتل ، أى : منظم الأسنان ، لم يشذ بعضها عن بعض ..

أى : قم - أيها الرسول الكريم - الليل إلا قليلا منه .. متعبدا لربك مرتلا للقرآن ترتيلا جميلا حسنا ، تستبين معه الكلمات والحروف ، حتى يفهمها السامع ، وحتى يكون ذلك أعون على حسن تدبره ، وأثبت لمعانيه فى القلب ..

قال الإمام ابن كثير : وكذلك كان يقرأ - ﷺ - فقد قالت عائشة : كان رسول الله - ﷺ - يقرأ السورة فيرتلها .. وسئل أنس عن قراءته - ﷺ - فقال : كانت مدا ..

وقال - ﷺ - : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وقال عبد الله بن مسعود : لاتنثروه نثر الرمَل ، ولاتهذوه هذَّ الشِّعر وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب[٢] - أى لا تسرعوا فى قراءته كما تسرعوا فى قراءة الشعر . والهذ : سرعة القطع - هذا ، وليس معنى قوله - سبحانه - : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ ، أن يقرأ بطريقة فيها تلحين أو تطريب يغير من ألفاظ القرآن ، ويخل بالقراءة الصحيحة من حيث الأداء ، ومخارج الحروف ، والغن والمد ، والإدغام والإظهار .. وغير ذلك مما تقتضيه القراءة السليمة للقرآن الكريم .

وإنما معنى قوله - تعالى - : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أن يقرأه بصوت جميل وبخشوع وتدبر ، وبالتزام تام للقراءة الصحيحة ، من حيث مخارج الحروف ومن حيث الوقف والمد والإظهار والإخفاء ، وغير ذلك ..

وقد بسط القول فى هذه المسألة بعض العلماء فارجع إليه إن شئت[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ تعليل للأمر بقيام الليل ، وهو كلام

---

(١) راجع تفسير الأحكام جـ ٤ ص ١٩٠ للشيخ محمد على السايس - رحمه الله .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٢٧٦ .
(٣) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٩٣ للشيخ السايس .

معترض بين قوله - سبحانه - ﴿ قم الليل ...﴾ وبين قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿إن ناشئة الليل ...﴾ .

والمراد بالقول الثقيل : القرآن الكريم الذى أنزله - سبحانه - على قلب نبيه - ﷺ - .

ويشهد لثقل القرآن على النبى - ﷺ - أحاديث كثيرة ، منها : ما رواه الإمام البخارى من أن السيدة عائشة قالت : ولقد رأيته - ﷺ - ينزل عليه الوحى ، فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .

ومنها قوله - ﷺ - « ما من مرة يوحَى إلى ، إلا ظننت أن نفسى تفيض » - أى : تخرج ..

ومنها قول زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله - ﷺ - شيء من القرآن - وفخذه على فخذى فكادت تُرَض فخذى - أى : تتكسر ..

ومنها ما رواه هشام بن عروة عن أبيه ، أن النبى - ﷺ - كان إذا أوحى عليه وهو على ناقته ، وضعت جرانها - أى باطن عنقها - فما تستطيع أن تتحرك ، حتى يُسَرَّى عنه[١] .

أى : قم - أيها الرسول الكريم - الليل إلا قليلا منه متعبدا لربك ، متقربا إليه بألوان الطاعات ، فإنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، وهذا القول هو القرآن الكريم ، الثقيل فى وزنه وفى ميزان الحق ، وفى أثره فى القلوب ، وفيما اشتمل عليه من تكاليف ، وصدق الله إذا يقول : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .. ﴾

قال الجمل : قوله : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ أى : كلاما عظيما جليلا ذا خطر وعظمة ، لأنه كلام رب العالمين ، وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل .

أو هو ثقيل لما فيه من التكاليف ، والوعد والوعيد ، والحلال والحرام ، والحدود والأحكام .

قال قتادة : ثقيل والله فى فرائضه وحدوده .. وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين ، لأنه يهتك اسرارهم .. وقال السدى : ثقيلا بمعنى كريم ، مأخوذ من قولهم : فلان ثقل علىَّ ، أى كرم على .. وقال ابن المبارك : هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل فى الدنيا ، ثقل فى الميزان يوم القيامة .

وقيل : ثقيلا بمعنى أن العقل الواحد لا يفى بإدراك فوائده ومعانيه ، فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته . والفقهاء بحثوا فى أحكامه .. والأولى أن جميع هذه المعانى فيه .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٧ .

وقيل : المراد بالقول الوحى ، كما فى الخبر ، أن النبى - ﷺ - كان إذا أوحى إليه ، وهو على ناقته وضعت جرانها - أى : وضعت صدرها على الأرض - فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ..[١] .

ويبدو لنا أن وصف القرآن بالثقل وصف حقيقى ، لما ثبت من ثقله على النبى - ﷺ - وقت نزوله عليه .. وهذا لا يمنع أن ثقله يشمل ما اندرج فيه من علوم نافعة ، ومن هدايات سامية ، ومن أحكام حكيمة ، ومن آداب قويمة ، ومن تكاليف جليلة الشأن .

وعبر - سبحانه - عن إيحائه بالقرآن إلى الرسول - ﷺ - بالإلقاء للإشعار بأنه يلقى إليه على غير ترقب منه - ﷺ - ، بل ينزل إليه فى الوقت الذى يريده - سبحانه - وللإشارة من أول الأمر إلى أن مايوحى إليه شىء عظيم وشديد الوقع على النفس .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الحكمة من أمره له - ﷺ - بقيام الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة فقال : ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا ﴾ .

وقوله : ﴿ ناشئة ﴾ : وصف من النشء وهو الحدوث ، وهو صفة لموصوف محذوف . وقوله : ﴿ وَطْئًا ﴾ بمعنى مواطأة وموافقة ، وأصل الوطء : وضع الرجل على الأرض بنظام وترتيب ، ثم استعير للموافقة ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ ، ومنه قولهم : وطأت فلانا على كذا ، إذا وافقته عليه . وهو منصوب على التمييز . وقوله : ﴿ قيلا ﴾ بمعنى قولا .

وقوله : ﴿ أقوم ﴾ بمعنى أفضل وأنفع .

والمعنى : يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة . فإن العبادة الناشئة بالليل . هى أشد مواطأة وموافقة لإصلاح القلب ، وتهذيب النفس ، وأقوم قولا ، وأنفع وقعا ، وأفضل قراءة من عبادة النهار ، لأن العبادة الناشئة بالليل يصحبها مايصحبها من الخشوع والإخلاص ، لهدوء الأصوات بالليل ، وتفرغ العابد تفرغا تاما لعبادة ربه .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿إن ناشئة الليل .. ﴾ أى : ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أولا فأولا، ويقال : نشأ الشىء ينشأ، إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شىء، فهو ناشىء .. قال الزجاج : ناشئة الليل ، كل ما نشأ منه ، أى : حدث منه .. والمراد ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف .

وقيل : إن ناشئة الليل ، هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة ، أى : تنهض ، من

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٢٨ .

نشأ من مكانه ، إذا نهض منه .

﴿ هى أشد وطئا ﴾ قرأ الجمهور ﴿ وطئا ﴾ بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، وقرأ بعضهم ﴿ وطاء ﴾ بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة .

والمعنى على القراءة الأولى : أن الصلاة الناشئة فى الليل ، أثقل على المصلى من صلاة النهار ، لأن الليل للنوم .. ومنه قوله - ﷺ - « اللهم اشدد وطأتك على مضر » .

والمعنى على القراءة الثانية : أنها أشد مواطأة وموافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان ، لانقطاع الأصوات والحركات ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ أى : ليوافقوا .

﴿ وأقوم قيلا ﴾ أى : وأشد مقالا . وأثبت قراءة ، لحضور القلب فيها ، وهدوء الأصوات ، وأشد استقامة واستمرارا على الصواب ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ تقرير للأمر بقيام الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة والتقرب إليه - سبحانه - .

والسبح : مصدر سبح ، وأصله الذهاب فى الماء والتقلب فيه ثم استعير للتقلب والتصرف المتسع ، الذى يشبه حركة السابح فى الماء .

أى : إنا أمرناك بقيام الليل للعبادة والطاعة ، لأن لك فى النهار - أيها الرسول الكريم - تقلبا وتصرفا فى مهماتك ، واشتغالا بأعباء الرسالة يجعلك لا تستطيع التفرغ لعبادتنا ، أما فى الليل فتستطيع ذلك لأنه وقت السكون والراحة والنوم .

فالمقصود من الآية الكريمة التخفيف والتيسير عليه - ﷺ - وبيان الحكمة من أمره بقيام الليل - إلا قليلا منه - للعبادة ، حيث لم يجمع - سبحانه - عليه الأمر بالتهجد فى الليل والنهار ، وإنما يسر عليه الأمر ، فجعله بالليل فحسب ، أما النهار فهو لمطالب الحياة : ولتبليغ رسالته - سبحانه - إلى الناس .

ثم أمره - سبحانه - بعد ذلك بالمداومة على ذكره ليلا ونهارا فقال : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتبتل ﴾ من التبتل ، وهو الاشتغال الدائم بعبادة الله - تعالى - ، والانقطاع لطاعته . ومنه قولهم بتَل فلان الحبل، إذا قطعه ، وامرأة بتول .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣١٧ للشوكانى .

أى : منقطعة عن الزواج، ومتفرغة لعبادة الله - تعالى - والمراد به هنا : التفرغ لما يرضى الله - تعالى - ، والاشتغال بذلك عن كل شىء سواه .

أى : وداوم - أيها الرسول الكريم - على ذكر الله - تعالى - عن طريق تسبيحه ، وتحميده وتكبيره ، وتفرغ لعبادته وطاعته تفرغا تاما ، دون أن يشغلك عن ذلك شاغل .

فربك - عز وجل - هو ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ . أى : هو - سبحانه - رب جهتى الشروق والغروب للشمس .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستحق للعبادة والطاعة ، ومادام الأمر كذلك ﴿ فاتخذه وكيلا ﴾ .

أى : فاتخذه وكيلك الذى تفوض إليه أمرك ، وتلجأ إليه فى كل أحوالك .. إذ الوكيل هو الذى توكل إليه الأمور ، ويترك له التصرف فيها .

وليس المراد بقوله - تعالى - : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ الانقطاع التام عن الأعمال ، لأن هذا يتنافى مع قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ ، وإنما المراد التنبيه إلى أنه - ﷺ - ينبغى له أن لا يشغله السبح الطويل بالنهار ، عن طاعته - عز وجل - وعن المداومة على مراقبته وذكره .

ومما لاشك فيه أن ما كان يقوم به النبى - ﷺ - من الاشتغال بأمر الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - ، ومن تعليم الناس العلم النافع ، والعمل الصالح .. كل ذلك يندرج تحت المواظبة على ذكر الله - تعالى - ، وعلى التفرغ لعبادته .

وقال - سبحانه - ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ ولم يقل تبتلا حتى يكون الفعل موافقا لمصدره ، للإشارة إلى أن التبتل والانقطاع إلى الله يحتاجان إلى عمل اختيارى منه - ﷺ - ، بأن يجرد نفسه عن كل ما سوى الله - تعالى - ، وبذلك يحصل التبتل الذى هو أثر للتبتيل ، بمعنى : ترويض النفس وتعويدها على العبادة والطاعة .

ووصف - سبحانه - ذاته بأنه ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ ، لمناسبة الأمر بذكره فى الليل والنهار ، وهما وقت ابتداء طلوع الشمس وغروبها ، فكأنه - سبحانه - يقول : داوم على طاعتى لأنى أنا رب جميع جهات الأرض ، التى فيها تشرق الشمس وتغرب .

والمراد بالمشرق والمغرب هنا جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .

والمراد بالمشرقين والمغربين كما جاء فى سورة الرحمن : مشرق ومغرب الشتاء والصيف .

والمراد بالمشارق والمغارب كما جاء فى سورة المعارج - مشرق ومغرب كل يوم للشمس والكواكب .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بعد ذلك بالصبر الجميل ، على أذى قومه فقال : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ...﴾ .

أى : اجعل يامحمد اعتمادك وتوكلك على وحدى ، واصبر على ما يقوله أعداؤك فى حقك من أكاذيب وخرافات .. واهجرهم هجرا جميلا ، أى : واعتزلهم وابتعد عنهم ، وقاطعهم مقاطعة حسنة ، بحيث لا تقابل السيئة بمثلها ، ولاتزد على هجرهم : بأن تسبهم ، أو ترميهم بالقبيح من القول ..

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمعنى أنك لما اتخذتنى وكيلا فاصبر على ما يقولون ، وفوض أمرهم إلى ، فإنى لما كنت وكيلا لك أقوم بإصلاح أمرك ، أحسن من قيامك بإصلاح نفسك .

واعلم أن مهمات العباد محصورة فى أمرين : فى كيفية معاملتهم مع الله ، وقد ذكر - سبحانه - ذلك فى الآيات السابقة ، وفى كيفية معاملتهم مع الخلق ، وقد جمع - سبحانه - كل ما يحتاج إليه فى هذا الباب فى هاتين الكلمتين ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس ، أو مجانبا لهم .

فإن كان مخالطا لهم فعليه أن يصبر على إيذائهم .. وإما أن يكون مجانبا لهم ، فعليه أن يهجرهم هجرا جميلا .. بأن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم فى أفعالهم ، مع المداراة والإغضاء ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ﴾ أى : ودعنى وشأنى مع هؤلاء المكذبين بالحق ، ولا تهتم أنت بأمرهم ، فأنا خالقهم ، وأنا القادر على كل شىء يتعلق بهم .

وقوله : ﴿ أولى النعمة ﴾ وصف لهم جىء به على سبيل التوبيخ لهم ، والتهكم بهم ، حيث جحدوا نعم الله ، وتوهموا أن هذه النعم من مال أو ولد ستنفعهم يوم القيامة .

والنَّعمة - بفتح النون مع التشديد - : تطلق على التنعم والترفه وغضارة العيش فى الدنيا .

---

(١) راجع تفسير فخر الرازى جـ ٨ ص ٢٤٠ .

وأما النِّعمة - بكسر النون - فاسم للحالات الملائمة لرغبة الإنسان من غنى أو عافية أو نحوهما .

وأما النُّعمة - بالضم - فهى اسم المسرة . يقال : فلان فى نُعْمة - بضم النون - أى : فى فرح وسرور .

وقوله : ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ أى : واتركهم ودعهم فى باطلهم وقتا قليلا ، فسترى بعد ذلك سوء عاقبة تكذيبهم للحق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما .. ﴾ تعليل لما قبله . والأنكال : جمع نكل - بكسر النون وسكون الكاف - وهو القيد الثقيل ، يوضع فى الرجل لمنع الحركة . وسميت القيود بذلك لأنها تجعل صاحبها موضع عبرة وعظة ، أو لأنها تجعل صاحبها ممنوعا من الحركة ، والتقلب فى مناكب الأرض .

أى : إن لدينا ما هو أشد من ردك عليهم .. وهو تلك القيود التى نقيد حركتهم بها ، وإن لدينا «جحيما » أى : نارا شديدة الاشتعال تلقى بهم فيها ، وإن لدينا كذلك « طعاما ذا غصة » أى : طعاما يلتصق فى الحلوق ، فلا هو خارج منها ، ولا هو نازل عنها ، بل هو ناشب فيها لبشاعته ومرارته .

وهذا الطعام ذو الغُصَّة ، يشمل ما يتناولونه من الزقوم ومن الغسلين ومن الضريع ، كما جاء فى آيات أخرى . والغصة : ما يَنْشبَ فى الحلق من عَظْم أو غيره . وجمعه غُصَص .

وإن لدينا فوق كل ذلك ﴿ عذابا أليما ﴾ أى : عذابا شديد الإيلام لمن ينزل به .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء المكذبين بألوان من العقوبات الشديدة ، توعدتهم بالقيود التى تشل حركتهم ، وبالنار المشتعلة التى تحرق أجسادهم ، وبالطعام البشع الذى ينشب فى حلوقهم ، وبالعذاب الأليم الذى يشقيهم ويذلهم .

والظرف فى قوله - تعالى - : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال .. ﴾ منصوب بالاستقرار العامل فى « لدنيا » ، الذى هو الخبر فى الحقيقة .

أى : استقر لهم ذلك العذاب الأليم لدينا ، يوم القيامة ، يوم تضطرب وتتزلزل الأرض والجبال .

﴿ وكانت الجبال ﴾ فى هذا اليوم ﴿ كثيبا مهيلا ﴾ أى : رملا مجتمعا ، بعد أن كانت قبل ذلك الوقت أحجارا صلبة كبيرة .

فقوله : ﴿ كثيبا ﴾ من كثَب الشيءَ يَكْثِبه ، إذا جمعه من قرب ثم صبه ، وجمعه كُثُب

وكُثبْان ، وهى تلال الرمال المجتمعة كالربوة .

وقوله ﴿ مهيلا ﴾ اسم مفعول من هال الشىء هيلا ، إذا نثره ، وفرقه بعد اجتماعه .

والشىء المهيل : هو الذى يحرَّك أسفله فينهار أعلاه ويتساقط بسرعة .

ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك هؤلاء المكذبين بما حل بالمكذبين من قبلهم ، فيقول : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴾ .

أى : إنا أرسلنا إليكم - أيها المكذبون - رسولا عظيم الشأن ، رفيع القدر ، وهو محمد - ﷺ - ، ﴿ شاهدا عليكم ﴾ أى : سيكون يوم القيامة شاهدا عليكم ، بأنه قد بلغكم رسالة الله - تعالى - دون أن يقصر فى ذلك أدنى تقصير .

والكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ كما أرسلنا الى فرعون رسولا ﴾ للتشبيه ، أى : أرسلنا إليكم - يا أهل مكة - رسولا شاهدا عليكم هو محمد - ﷺ - كما أرسلنا من قبلكم إلى فرعون رسولا شاهدا عليه ، هو موسى - عليه السلام - .

وأكد الخبر فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا أرسلنا ...﴾ لأن المشركين كانوا ينكرون نبوة النبى - ﷺ - .

ونكر رسولا ، لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة ، وللتعظيم من شأنه - ﷺ - أى : أرسلنا إليكم رسولا عظيم الشأن ، سامى المنزلة جامعا لكل الصفات الكريمة .

والفاء فى قوله : ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ للتفريع . أى : أرسلنا إليكم رسولا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا قبل ذلك ، فكانت النتيجة أن عصى فرعون أمر الرسول الذى أرسلناه إليه ، واستهزأ به ، وتطاول عليه فكانت عاقبة هذا التطاول ، أن أخذناه ﴿ أخذا وبيلا ﴾ .

أى أهلكنا فرعون إهلاكا شديدا ، وعاقبناه عقابا ثقيلا ، فوبيل بزنة فعيل - صفة مشبهة ، مأخوذة من وَبُل المكان ، إذا وَخُم هواؤه وكان ثقيلا رديئا . ويقال : مرعى وبيل ، إذا كان وخما رديئا .

وخص - سبحانه - موسى وفرعون بالذكر ، لأن أخبارهما كانت مشهورة عند أهل مكة .

و﴿ أل ﴾ فى قوله ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ للعهد . أى : فعصى فرعون الرسول المعهود عندكم ، وهو موسى - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكر الرسول ثم عرف ؟ قلت : لأنه أراد : أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل ، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف . إشارة إلى المذكور بعينه ..[١] .

وأظهر - سبحانه - اسم فرعون مع تقدم ذكره فقال : ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ ، دون أن يؤتى بضميره ، للإشعار بفظاعة هذا العصيان ، وبلوغه النهاية فى الطغيان .

والمقصود من هاتين الآيتين ، تهديد المشركين ، بأنهم إذا ما استمروا فى تكذيبهم لرسولهم ، محمد - ﷺ - فقد يصيبهم من العذاب ما أصاب فرعون عندما عصى موسى - عليه السلام - .

ثم ذكرهم - سبحانه - بأهوال يوم القيامة ، لعلهم يتعظون أو يرتدعون فقال : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ فكيف ﴾ مستعمل فى التوبيخ والتعجيز ، و﴿ تتقون ﴾ بمعنى تصونون أنفسكم من العذاب ، ومعنى ﴿ إن كفرتم ﴾ إن بقيتم على كفركم وأصررتم عليه .
وقوله ﴿ يوما ﴾ : منصوب على أنه مفعول به لقوله : ﴿ تتقون ﴾ .

وقوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ صفة ثانية لهذا اليوم .

والمراد بالولدان : الأطفال الصغار ، وبه بمعنى فيه ..

والمقصود بهاتين الآيتين - أيضا - تأكيد التهديد للمشركين ، حتى يقلعوا عن شركهم وكفرهم .. أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم من سوء عاقبة المكذبين ، فكيف تصونون أنفسكم - إذا ما بقيتم على كفركم - من عذاب يوم هائل شديد ، هذا اليوم من صفاته أنه يحول الشعر الشديد السواد للولدان ، إلى شعر شديد البياض ..

وهذا اليوم من صفاته - أيضا - أنه لشدة هوله ، أن السماء - مع عظمها وصلابتها - تصير شيئا منفطرا - أى : متشققا ﴿ به ﴾ أى : فيه ، والضمير يعود إلى اليوم ..

وصدر - سبحانه - الحديث عن يوم القيامة ، بلفظ الاستفهام « كيف » للإشعار بشدة هوله . وأنه أمر يعجز الواصفون عن وصفه .

ووصف - سبحانه - هذا اليوم بأنه يشيب فيه الولدان ، ثم وصفه بأن السماء مع عظمها تتشقق فيه ، للارتقاء فى الوصف من العظيم إلى الأعظم ، إذ أن تحول شعر الأطفال من السواد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤١ .

إلى البياض - مع شدته وعظمه - أشد منه وأعظم ، انشقاق السماء فى هذا اليوم .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ يجعل الولدان شيبا ﴾ مثل فى الشدة ، يقال فى اليوم الشديد ، يوم يشيب نواصى الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان ، إذا تفاقمت على الإنسان ، أسرع فيه الشيب ، كما قال أبو الطيب :

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجسيمَ نحافةً ويُشِيبُ ناصيةَ الصبى ويُهْرِمِ

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

وقوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ وصف لليوم بالشدة - أيضا - وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ظنك بغيرها من الخلائق ..[1] .

ووصف - سبحانه - السماء بقوله : ﴿ منفطر ﴾ بصيغة التذكير ، حيث لم يقل منفطرة ، لأن هذه الصيغة ، صيغة نسب . أى : ذات انفطار ، كما فى قولهم : امرأة مرضع وحائض ، أى : ذات إرضاع وذات حيض . أو على تأويل أن السماء بمعنى السقف ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ أو على أن السماء اسم جنس واحده سماوة ، فيجوز وصفه بالتذكير والتأنيث ..

وقوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ الضمير فيه يعود إلى الخالق - عز وجل - والوعد مصدر مضاف لفاعله . أى : كان وعد ربك نافذا ومفعولا ، لأنه - سبحانه - لا يخلف موعوده .

ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة ثالثة لليوم ، والضمير فى وعده يعود إليه ، ويكون من إضافة المصدر لمفعوله . أى : كان الوعد بوقوع يوم القيامة نافذا ومفعولا .

ثم ختم - سبحانه - هذه التهديدات بقوله : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ .

واسم الإشارة « هذه » يعود إلى الآيات المتقدمة ، المشتملة على الكثير من القوارع والزواجر .

والتذكرة : اسم مصدر بمعنى التذكير والاتعاظ والاعتبار . ومفعول « شاء » محذوف .

والمعنى : إن هذه الآيات التى سقناها لكم تذكرة وموعظة ، فمن شاء النجاة من أهوال يوم القيامة ، فعليه أن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وأن يتخذ بسبب إيمانه وعمله الصالح ، طريقا وسبيلا إلى رضا ربه ورحمته ومغفرته .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤٢ .

والتعبير بقوله : ﴿ فمن شاء اتخذ ... ﴾ ليس من قبيل التخبير ، وإنما المقصود به الحض والحث على سلوك الطريق الموصل إلى الله - تعالى - بدليل قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ أى : هذه الآيات تذكرة وموعظة ، فمن ترك العمل بها ساءت عاقبته ، ولم يكن من الذين سلكوا طريق النجاة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، - من أول السورة إلى هنا - ، يراها قد نادت الرسول - ﷺ - نداء فيه ما فيه من الملاطفة والمؤانسة ، وأمرته بأن يقوم الليل إلا قليلا متعبدا لربه ، كما أمرته بالصبر على أذى المشركين ، حتى يحكم الله - تعالى - بينه وبينهم .

كما يراها قد هددت المكذبين بأشد أنواع التهديد . وذكرتهم بأهوال يوم القيامة ، وبما حل بالمكذبين من قبلهم ، وحرضتهم على سلوك الطريق المستقيم .

وبعد هذه الإنذارات المتعددة للمكذبين ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن قيام الليل لعبادة الله - تعالى - وطاعته .. فقال - سبحانه - :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

والمراد بالقيام فى قوله - تعالى - : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ... ﴾ التهجد بالليل عن طريق الصلاة تقربا إلى الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ أدنى ﴾ بمعنى أقرب ، من الدنو بمعنى القرب ، تقول : رأيت فلانا أدنى إلى فعل

الخير من فلان . أى : أقرب ، واستعير هنا للأقل ، لأن المسافة التى بين الشىء والشىء إذا قربت كانت قليلة ، وهو منصوب على الظرفية بالفعل « تقوم » .

وقوله : ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بالجر عطفا على ﴿ ثلثى الليل ﴾ وقرأه الجمهور بالنصب عطفا على أدنى .

والمعنى على قراءة الجمهور : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يعلم أنك تقوم من الليل ، مدة قد تصل تارة إلى ثلثى الليل ، وقد تصل تارة أخرى إلى نصفه أو إلى ثلثه .. على حسب ما يتيسر لك ، وعلى حسب أحوال الليل فى الطول والقصر .

والمعنى على قراءة غير الجمهور : إن ربك يعلم أنك تقوم تارة أقل من ثلثى الليل وتارة أقل من نصفه ، وتارة أقل من ثلثه .. وذلك لأنك لم تستطع ضبط المقدار الذى تقومه من الليل ، ضبطا دقيقا ، ولأن النوم تارة يزيد وقته وتارة ينقص ، والله - تعالى - قد رفع عنك المؤاخذة بسبب عدم تعمدك القيام أقل من ثلث الليل ..

فالآية الكريمة المقصود منها بيان رحمة الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - حيث قبل منه قيامه بالليل متهجدا ، حتى ولو كان هذا القيام أقل من ثلث الليل ..

وافتتاح الآية الكريمة بقوله - سبحانه - ﴿ إن ربك يعلم ... ﴾ يشعر بالثناء عليه - ﷺ - . وبالتلطف معه فى الخطاب ، حيث إنه - ﷺ - كان مواظبا على قيام الليل . على قدر استطاعته ، بدون تقصير أو فتور .

وفى الحديث الشريف : أنه - ﷺ - قام الليل حتى تورمت قدماه .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ﴾ يدل على أن قيامه - ﷺ - كان متفاوتا فى طوله وقصره ، على حسب ما تيسر له - ﷺ - ، وعلى حسب طول الليل وقصره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ معطوف على الضمير المستتر فى قوله : ﴿ تقوم ﴾ .

أى : أنت أيها الرسول الكريم - تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وتقوم طائفة من أصحابك للصلاة معك ، أما بقية أصحابك فقد يقومون للتهجد فى منازلهم .

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة ، أن رسول الله - ﷺ - صلى ذات ليلة فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ، ثم اجتمعوا فى الليلة الثالثة

أو الرابعة ، فلم يخرج إليهم رسول الله - ﷺ - فلما أصبح قال : « قد رأيت الذى صنعتم ، ولم يمنعنى من الخروج إليكم ، إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم » .

قال بعض العلماء : قوله : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ معطوف على الضمير المستكن فى ﴿ تقوم ﴾ .

وهو - وإن كان ضمير رفع متصل - ، قد سوغ العطف عليه الفصل بينه وبين المعطوف .

والمعنى : أن الله يعلم أنه كان يقوم كذلك جماعة من الذين آمنوا بك ، واتبعوا هداك ..

وقد يقال : إن هذا يدل على أن قيام الليل لم يكن فرضا على جميع الأمة ، وهو خلاف ما تقرر تفسيره فى أول السورة ، ويخالف - أيضا - ما دلت عليه الآثار المتقدمة هناك ..

والجواب : أنه ليس فى الآية ما يفيد أن الصحابه - رضوان الله عليهم - كانوا جميعا يصلون مع النبى - ﷺ - صلاة التهجد فى جماعة واحدة ، فلعل بعضهم كان يقيمها فى بيته ، فلا ينافى ذلك فرضية القيام على الجميع ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ بيان لشمول علمه - تعالى - ولنفاذ إرادته . أى : والله - تعالى - وحده ، هو الذى يعلم مقادير ساعات الليل والنهار ، وهو الذى يحدد زمانها - طولا وقصرا - على حسب ما تقتضيه مشيئته وحكمته .

والآية الكريمة تفيد الحصر والاختصاص ، عن طريق سياق الكلام ، ودلالة المقام .

وقوله - تعالى - : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ مؤكد لما قبله ، وإحصاء الأشياء ، عدها والإحاطة بها .

والضمير المنصوب فى قوله : ﴿ تحصوه ﴾ يعود على المصدر المفهوم من قوله : ﴿ يقدر ﴾ فى الجملة السابقة .

والتوبة فى قوله - سبحانه - : ﴿ فتاب عليكم ﴾ يصح أن تكون بمعنى المغفرة ، وعدم المؤاخذة ، أو بمعنى قبولها منهم ، والتيسير عليهم فى الأحكام . وتخفيفها عنهم .

أى : والله - تعالى - هو الذى يقدر أجزاء الليل والنهار ، وهو الذى يعلم - دون غيره - أنكم لن تستطيعوا تقدير ساعاته تقديرا دقيقا .. ولذلك خفف الله عنكم فى أمر القيام ، ورفع عنكم المقدار المحدد ، وغفر لكم ما فرط منكم من تقصير غير مقصود ، ورخص لكم أن تقوموا المقدار الذى تستطيعون قيامه من الليل ، مصلين ومتهجدين ..

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٢٠٠ للشيخ محمد السايس .

فالجملة الكريمة تقرر جانبا من فضل الله - تعالى - على عباده ، ومن رحمته بهم ..

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ للإفصاح ، والمراد بالقراءة الصلاة ، وعبر عنها بالقراءة ، لأنها من أركانها .. أى : إذا كان الأمر كما وضحت لكم ، فصلوا ما تيسر لكم من الليل .

قال الألوسى : قوله : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ أى : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر أركانها ، وقيل : الكلام على حقيقته ، من طلب قراءة القرآن بعينها وفيه بعد عن مقتضى السياق .

ومن ذهب إلى الأول قال : إن الله - تعالى - افترض قيام مقدار معين من الليل ، لقوله : ﴿ قم الليل إلا قليلا ، نصفه... ﴾ الخ . ثم نسخ بقيام مقدار ما منه، فى قوله : ﴿ فتاب عليكم . فاقرءوا ماتيسر من القرآن ...﴾ فالأمر فى الموضعين للوجوب ، إلا أن الواجب أولا كان معينا من معينات . وثانيا كان بعضا مطلقا ، ثم نسخ وجوب القيام على الأمة مطلقا بالصلوات الخمس .

ومن قال بالثانى . ذهب إلى أن الله - تعالى - رخص لهم فى ترك جميع القيام للصلاة ، وأمر بقراءة شىء من القرآن ليلا ، فكأنه قيل : فتاب عليكم ورخص لكم فى الترك ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، إن شق عليكم القيام ..[1] .

وقال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ أى : من غير تحديد بوقت ، أى : لكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أى : بقراءتك ﴿ ولا تخافت بها ﴾ .

وقد استدل الاحناف بهذه الآية على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية . أجزأه واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين ، وفيه : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » .

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين - أيضا- أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج .. غير تمام » وفى صحيح ابن خزيمه عن أبى هريرة مرفوعا : « لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١١١ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨٤ .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه ...﴾ بدل اشتمال من جملة : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ...﴾ ، أو هو كلام مستأنف لبيان الحكمة التى من أجلها خفف الله على المسلمين قيام الليل .

أى : صلوا من الليل على قدر استطاعتكم من غير تحديد بوقت ، فالله - تعالى - يعلم أنكم لا تستطيعون ضبط ساعات الليل ولا أجزائه ، فخفف عنكم لذلك ، ولعلمه - أيضا - أن منكم المرضى الذين يعجزون عن قيام ثلثى الليل أو نصفه أو أقل من ذلك بقليل .

ومنكم - أيضا - الذين ﴿ يضربون فى الأرض ﴾ أى : يسافرون فيها للتجارة وللحصول على مطالب الحياة ، وهم فى كل ذلك يبتغون ويطلبون الرزق من فضله - تعالى - . ومنكم - أيضا - الذين يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله ، ويجاهدون من أجل نشر دينه ومادام الأمر كذلك ، فقد أبحت لكم - بفضلى وإحسانى - أن تصلوا من الليل ما تيسر لكم .

وقد جمع - سبحانه - بين السعى فى الأرض لطلب الرزق ، وبين الجهاد فى سبيله ، للإشعار بأن الأول لا يقل فى فضله عن الثانى ، متى توفرت فيه النية الطيبة ، وعدم الانشغال به عن ذكر الله - تعالى - .

قال الإمام القرطبى : سوى الله - تعالى - فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال ، للنفقة على النفس والعيال .. فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد فى سبيل الله .

وفى الحديث الشريف : ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد ، فيبيعه بسعر يومه ، إلا كانت منزلته عند الله كمنزلة الشهداء . ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية ..[1] .

وأعيدت جملة ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ لتأكيد التيسير والتخفيف وتقريره ، وليعطف عليه ما بعده من بقية الأوامر ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أى : وأدوها كاملة الأركان والخشوع والسنن .. فى وقتها بدون تأخير .

﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أى : قدموها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهما .

قال ابن كثير : أى : أقيموا الصلاة الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا يدل

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٥٥ .

لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصاب لم تبين إلا بالمدينة ..[1] .

وقوله : ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ . والقرض : ما قدمته لغيرك من مال ، على أن يرده إليك بعد ذلك . والمراد من إقراض الله - تعالى - : إعطاء الفقراء والمساكين ما يحتاجونه على سبيل المعاونة والمساعدة .

وشبه - سبحانه - إعطاء الصدقة للمحتاج ، بقرض يقدم له - تعالى - ، للإشعار بأن ما سيعطى لهذا المحتاج ، سيعود أضعافه على المعطى . لأن الله - تعالى - قد وعد أن يكافىء على الصدقة بعشر أمثالها ، وهو - سبحانه - بعد ذلك يضاعف لمن يشاء الثواب والعطاء .

ووصف القرض بالحسن ، لحض النفوس على الإخلاص وعلى البعد عن الرياء والأذى ..

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ أى : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وافعلوا ما تستطيعونه - بعد ذلك - من وجوه الخير ، وما تقدموا لأنفسكم من هذا الخير الذى يحبه - سبحانه - ﴿ تجدوه عند الله ﴾ . أى : تجدوا ثوابه وجزاءه عند الله - تعالى - ، ففى الكلام إيجاز بالحذف ، وقد استغنى عن المحذوف بذكر الجزاء عليه . والهاء فى قوله ﴿ تجدوه ﴾ هو المفعول الأول .

والضمير المنفصل فى قوله : ﴿ هو خيرا وأعظم أجرا ﴾ هو ضمير الفصل .. و﴿ خيرا ﴾ هو المفعول الثانى . أى : كل فعل موصوف بأنه خير ، تقدمونه عن إخلاص لغيركم ، لن يضيع عند الله - تعالى - ثوابه ، بل ستجدون جزاءه وثوابه مضاعفا عندالله - تعالى - .

﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ أى : وواظبوا على الاستغفار وعلى التوبة النصوح ، وعلى التضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم ، فإنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب ..

وبعد : فهذا تفسير لسورة « المزمل » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

الاسكندرية - العجمى

ظهر الاثنين ٦ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ١٩٨٦/٨/١١ م.

الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٨٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المدثر

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المدثر » من أوائل السور التى نزلت على النبى - ﷺ - ويغلب على الظن أن نزولها كان بعد نزول صدر سورة « اقرأ » .

ويشهد لذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - : أن النبى - ﷺ - جاءه الوحى وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . ﴾

وروى الشيخان - أيضا - وغيرهما ، عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال : يأيها المدثر . قلت : يقولون : اقرأ باسم ربك ..

فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، فقال : يأيها المدثر لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله - ﷺ - قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى : هبطت الوادى ، فنوديت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا .. فرفعت رأسى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت على أهلى فقلت : دثرونى ، دثرونى . فنزلت ﴿ يأيها المدثر ، قم فأنذر . ﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : وظاهر هذا الحديث يقتضى نزول هذه السورة قبل سورة اقرأ ، مع أن المروى فى الصحيحين عن عائشة أن سورة « اقرأ » أول ما نزل على الإطلاق ، وهو الذى ذهب إليه أكثر الأمة ، حتى قال بعضهم وهو الصحيح .

وللجمع بين هذين الحديثين وجوه منها : أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة ، بما نزل بعد

فترة الوحى ، لا أولية مطلقة كما هو الحال بالنسبة لسورة اقرأ . أو أن السؤال فى حديث جابر ، كان عن نزول سورة كاملة ، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها . أو أن جابرا قد قال ذلك باجتهاده ، ويقدم على هذا الاجتهاد ما ذكرته عائشة من أن أول ما نزل على الإطلاق ، هو صدر سورة اقرأ ..[1] .

أقول : وفى هذا الحديث مايدل على أن الملك قد جاء رسول الله- ﷺ - بحراء قبل رؤيته فى هذه المرة ، وفى غار حراء بدأ الوحى ونزل قول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق .... » وذلك يدل على أن « اقرأ » أول مانزل على الإطلاق ، وهو ماجاء فى الصحيحين عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

وعلى أية حال فسورة المدثر تعتبر من أوائل ما نزل على النبى - ﷺ - من قرآن ، كما يرى ذلك من تدبر آياتها التى تحض الرسول - ﷺ - على إنذار الناس بدعوته .

وعدد آياتها : ست وخمسون آية فى المصحف الكوفى ، وخمس وخمسون فى البصرى .

٢ - ومن أهم مقاصدها : تكريم النبى - ﷺ - ، وأمره بتبليغ ما أوحاه الله - تعالى - إليه الى الناس ، وتسليته عما أصابه من أذى ، وتهديد أعدائه بأشد ألوان العقاب ، وبيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، والرد عليهم بما يبطل دعاواهم ..

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٨٩ تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١١٥ .

تفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧)
فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا
مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧)
إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ
(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)

قد افتتح الله - تعالى - سورة المدثر ، بالملاطفة والمؤانسة فى النداء والخطاب ، كما افتتح سورة المزمل . والمدثر اسم فاعل من تدثر فلان ، إذا لبس الدثار ، وهو ما كان من الثياب فوق الشعار الذى يلى البدن ، ومنه حديث : « الأنصار شعار والناس دثار » .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ يأيها المدثر ﴾ ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب ، إذ ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ولم يقل يا محمد ويافلان ، ليستشعر اللين

والملاطفة من ربه ، كما تقدم فى سورة المزمل . ومثله قول النبى - ﷺ - لِعَلِىٍّ إذ نام فى المسجد « قم أبا تراب» .

وكان قد خرج مغاضبا لفاطمة - رضى الله عنها - ، فسقط رداؤه وأصابه التراب . ومثله قوله - ﷺ - لحذيفة بن اليمان ليلة الخندق « قم يانومان »[1] .

والمراد بالقيام فى قوله - تعالى - : قم فأنذر ، المسارعة والمبادرة والتصميم على تنفيذ ما أمره - سبحانه - به ، والإنذار هو الإخبار الذى يصاحبه التخويف .

أى : قم - أيها الرسول الكريم - وانهض من مضجعك ، وبادر بعزيمة وتصميم ، على إنذار الناس وتخويفهم من سوء عاقبتهم ، إذا ما استمروا فى كفرهم ، وبلغ رسالة ربك إليهم دون أن تخشى أحدا منهم ، ومرهم بأن يخلصوا له - تعالى - العبادة والطاعة .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿ فأنذر ﴾ للإشعار بوجوب الإسراع بهذا الإنذار بدون تردد .

وقال : فأنذر ، دون فبشر ، لأن الإنذار هو المناسب فى ابتداء تبليغ الناس دعوة الحق حتى يرجعوا عما هم فيه من ضلال .

ومفعول أنذر محذوف . أى : قم فأنذر الناس ، ومرهم بإخلاص العبادة لله .

وقوله : ﴿ وربك فكبر ﴾ أمر آخر له - ﷺ - ولفظ ﴿ وربك ﴾ منصوب على التعظيم لفعل ﴿ كبر ﴾ قدم على عامله لإفادة التخصيص .

أى : يأيها المدثر بثيابه لخوفه مما رآه من ملك الوحى ، لا تخف ، وقم فأنذر الناس من عذاب الله ، إذا ما استمروا فى شركهم ، واجعل تكبيرك وتعظيمك وتبجيلك لربك وحده ، دون أحد سواه ، وصفه بما هو أهله من تنزيه وتقديس .

والمراد بتطهير الثياب فى قوله - تعالى - : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ تطهيرها من النجاسات .

والمقصود بالثياب حقيقتها ، وهى ما يلبسه الإنسان لستر جسده ..

ومنهم من يرى أن المقصود بها ذاته ونفسه - ﷺ - أى : ونفسك فطهرها من كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم .

وقال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط فى الصلاة ، ولا تصح إلا بها . وهى الأولى والأحب فى غير الصلاة . وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٦١ .

وقيل : هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ، ويستهجن من العادات . يقال : فلان طاهر الثياب ، وطاهر الجيب والذيل والأردان ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ، ومدانس الأخلاق . ويقال : فلان دنس الثياب : للغادر - والفاجر - ، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان ، ويشتمل عليه ..[١] .

وسواء أكان المراد بالثياب هنا معناها الحقيقى ، أو معناها المجازى المكنى به عن النفس والذات ، فإن الرسول - ﷺ - كان مواظبا على الطهارة الحسية والمعنوية فى كل شئونه وأحواله ، فهو بالنسبة لثيابه كان يطهرها من كل دنس وقذر ، وبالنسبة لذاته ونفسه ، كان أبعد الناس عن كل سوء ومنكر من القول أو الفعل .

إلا أننا نميل إلى حمل اللفظ على حقيقته ، لأنه لا يوجد ما يوجب حمله على غير ذلك .

ثم أمره - سبحانه - بأمر رابع فقال : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ والأصل فى كلمة الرجز أنها تطلق على العذاب ، قال - تعالى - : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ، إذا هم ينكثون ﴾ .

والمراد به هنا : الأصنام والأوثان ، أو المعاصى والمآثم التى يؤدى اقترافها إلى العذاب . أى : وداوم - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من ترك عبادة الأصنام والأوثان ، ومن هجر المعاصى والآثام .

فالمقصود بهجر الرجز : المداومة على هجره وتركه ، لأنه - ﷺ - لم يلتبس بشىء من ذلك .

ثم نهاه - سبحانه - عن فعل ، لا يتناسب مع خلقه الكريم - ﷺ - فقال : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ والمن : أن يعطى الإنسان غيره شيئا ، ثم يتباهى به عليه ، والاستكثار : عد الشىء الذى يعطى كثيرا .

أى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تبذل الكثير من مالك وفضلك لغيرك ، ولا تظن أن ماأعطيته لغيرك كثيرا - مهما عظم وجل - فإن ثواب الله وعطاءه أكثر وأجزل ...

ويصح أن يكون المعنى : ولا تعط غيرك شيئا ، وأنت تتمنى أن يرد لك هذا الغير أكثر مما أعطيته ، فيكون المقصود من الآية : النهى عن تمنى العوض .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤٥ .

وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وعن مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير .

وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس : تستكثرهم بها ، تأخذ على ذلك عوضا من الدنيا .

فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول - المروى عن ابن عباس وغيره -[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أى : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن توطن نفسك على الصبر، على التكاليف التى كلفك بها ربك، وأن تتحمل الآلام والمشاق فى سبيل دعوة الحق ، بعزيمة صادقة ، وصبر جميل ، وثبات لا يخالطه تردد أو ضعف .

فهذه ست وصايا قد اشتملت على ما يرشد إلى التحلى بالعقيدة السليمة ، والأخلاق الكريمة .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أهوال يوم القيامة فقال : ﴿ فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ للسببية . والناقور - بزنة فاعول : من النقر ، وهو اسم لما ينقر فيه ، أى : لما ينادى فيه بصوت مرتفع . والمراد به هنا : الصور أو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - النفخة الثانية التى يكون بعدها الحساب والجزاء .

والفاء فى قوله : ﴿ فذلك ﴾ واقعة فى جواب ﴿ إذا ﴾ واسم الإشارة يعود إلى مدلول النقر وما يترتب عليه من حساب وجزاء . وقوله ﴿ يومئذ ﴾ بدل من اسم الإشارة . والتنوين فيه عوض عن جملة وقوله : ﴿ عسير ﴾ و ﴿ غير يسير ﴾ صفتان لليوم .

أى : أنذر - أيها الرسول الكريم - الناس ، وبلغهم رسالة ربك ، واصبر على أذى المشركين ، فإنه إذا نفخ إسرافيل بأمرنا النفخة الثانية ، صار ذلك النفخ وما يترتب عليه من أهوال ، وقتا وزمانا عسير أمره على الكافرين ، وغير يسير وقعه عليهم .

ووصف اليوم بالعسير ، باعتبار ما يقع فيه من أحداث يشيب من هولها الولدان .

وقوله : ﴿ غير يسير ﴾ تأكيد لمعنى ﴿ عسير ﴾ كما يقال : هذا أمر عاجل غير آجل .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : ما فائدة قوله : ﴿ غير يسير ﴾ وقوله : ﴿ عسير ﴾ مغن عنه ؟ قلت : لما قال ﴿ على الكافرين ﴾ فقصر العسر عليهم قال : ﴿ غير يسير ﴾ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا ، ليجمع بين وعيد الكافرين

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٩٠ .

وزيادة غيظهم ، وبين بشارة المؤمنين وتسليتهم . ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا . كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا[١] .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من قصة زعيم من زعماء المشركين . افترى الكذب على الله - تعالى - وعلى رسوله - ﷺ - فكانت عاقبته العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا ...﴾ .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى شأن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وذكروا فى ذلك روايات منها : أن المشركين عندما اجتمعوا فى دار الندوة ، ليتشاوروا فيما يقولونه فى شأن الرسول - ﷺ - وفى شأن القرآن الكريم - قبل أن تقدم عليهم وفود العرب للحج . فقال بعضهم : هو شاعر ، وقال آخرون بل هو كاهن .. أو مجنون .. وأخذ الوليد يفكر ويرد عليهم ، ثم قال بعد أن فكر وقدر : ما هذا الذى يقوله محمد - ﷺ - إلا سحر يؤثر ، أما ترونه يفرق بين الرجل وامرأته ، وبين الأخ وأخيه ..[٢] .

قال الآلوسى : نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، كما روى عن ابن عباس وغيره . بل قيل : كونها فيه متفق عليه .. وقوله : ﴿ وحيدا ﴾ حال من الياء فى ﴿ ذرنى ﴾ أى : ذرنى وحدى معه فأنا أغنيك فى الانتقام منه ، أو من التاء فى خلقت أى : خلقته وحدى ، لم يشركنى فى خلقه أحد ، فأنا أهلكه دون أن أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه ، أو من الضمير المحذوف العائد على « مَن » أى : ذرنى ومن خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد .. وكان الوليد يلقب فى قومه بالوحيد .. لتفرده بمزايا ليست فى غيره - فتهكم الله - تعالى - به وبلقبه ، أو صرف هذا اللقب من المدح إلى الذم[٣] .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما يقوله أعداؤك فيك من كذب وبهتان ، واتركنى وهذا الذى خلقته وحيدا فريدا لامال له ولا ولد ثم أعطيته الكثير من النعم ، فلم يشكرنى على ذلك .

والتعبير بقوله ﴿ ذرنى ﴾ للتهديد والوعيد ، وهذا الفعل يأتى منه الأمر والمضارع فحسب ، ولم يسمع منه فعل ماض .

وقوله : ﴿ وجعلت له مالا ممدودا ﴾ أى : وجعلت له مالا كثيرا واسعا ، يمد بعضه بعضا ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٢ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٢٢ .

فقوله : ﴿ ممدودا ﴾ اسم مفعول من « مدَّ » الذى بمعنى أطال بأن شبهت كثرة المال ، بسعة مساحة الجسم .

أو من « مدَّ » الذى هو بمعنى زاد فى الشيء من مثله ، ومنه قولهم : مد الوادى النهر ، أى : مده بالماء زيادة على ما فيه .

قالوا : وكان الوليد من أغنى أهل مكة ، فقد كانت له أموال كثيرة من الإبل والغنم والعبيد والبساتين وغير ذلك من أنواع الأموال .

﴿ وبنين شهودا ﴾ أى : وجعلت له - بجانب هذا المال الممدود - أولادا يشهدون مجالسه ، لأنهم لا حاجة بهم إلى مفارقته فى سفر أو تجارة ، إذ هم فى غنى عن ذلك بسبب وفرة المال فى أيدى أبيهم .

فقوله : ﴿ شهودا ﴾ جمع شاهد بمعنى حاضر ، وهو كناية عن كثرة تنعمهم وائتناسه بهم .

قيل : كانوا عشرة ، وقيل ثلاثة عشر ، منهم : الوليد ، وخالد ، وعمارة ، وهشام ، والعاصى ، وعبد شمس .

وقد أسلم منهم ثلاثة ، وهم : خالد ، وهشام ، وعمارة .[1]

﴿ ومهدت له تمهيدا ﴾ والتمهيد مصدر مهد ، بمعنى سوى الشيء ، وأزال منه ما يجعله مضطربا متنافرا، ومنه مهد الصبى . أى : المكان المعد لراحته . والمراد بالتمهيد هنا : تيسير الأمور ، ونفاذ الكلمة ، وجمع وسائل الرياسة له .

أى : جعلت له مالا كثيرا ، وأولادا شهودا ، وفضلا عن ذلك ، فقد هيأت له وسائل الراحة والرياسة تهيئة حسنة ، أغنته عن الأخذ والرد مع قومه ، بل صار نافذ الكلمة فيهم بدون عناء أو تعب .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أن الله - تعالى - قد أعطى الوليد بن المغيرة ، جماع ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة ، فقد أعطاه المال الوفير ، والبنين الشهود ، والجاه التام الذى وصل إليه بدون جهد أو تعب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ بيان لما جبل عليه هذا الانسان من طمع وشره .. أى : مع إمدادى له بكل هذه النعم ، هو لا يشبع ، بل يطلب المزيد منها لشدة حرصه وطمعه . و « ثم » هنا للاستبعاد والاستنكار والتأنيب ، فهى للتراخى الرتبى ، والجملة

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٣٧ .

معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « جعلت ومهدت ... » أى : أعطيته كل هذه النعم ، ثم بعد ذلك هو شره لا يشبع ، وإنما يطلب المزيد منها ثم المزيد .

وقوله - تعالى - : ﴿ كلا ﴾ زجر وردع وقطع لرجائه وطمعه ، وحكم عليه بالخيبة والخسران . أى : كلا ، لن أعطيه شيئا مما يطمع فيه ، بل سأمحق هذه النعم من بين يديه ، لأنه قابلها بالجحود والبطر ، ومن لم يشكر النعم يعرضها للزوال ، ومن شكرها زاده الله - تعالى - منها ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

وقوله : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيدا ﴾ تعليل للزجر والردع وقطع الرجاء . أى : كلا لن أمكنه مما يريده ويتمناه .. لأنه كان إنسانا شديد المعاندة والإبطال لآياتنا الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق رسولنا فيما يبلغه عنا . ومن مظاهر ذلك أنه وصف رسولنا - ﷺ - بأنه ساحر ..

قال مقاتل : مازال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم بين - سبحانه - ما أعده له من عذاب أليم فقال : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ . والإرهاق : الإتعاب الشديد ، وتحميل الإنسان مالا يطيقه . يقال : فلان رَهِقَه الأمر يرهَقُه ، إذا حل به بقهر ومشقة لا قدرة له على دفعها . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ...﴾ .

والصعود : العقبة الشديدة ، التى لا يصل الصاعد نحوها إلا بمشقة كبيرة ، وتعب قد يؤدى إلى الهلاك والتلف . وهذه الكلمة صيغة مبالغة من الفعل صَعِد .

وهذه الآية الكريمة فى مقابل قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ومهدت له تمهيدا ﴾ أى : أن هذا الجاه الذى أتاه فى الدنيا بدون تعب .. سيلقى فى الآخرة ما هو نقيضه من تعب وإذلال ..

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ أى : سأغشيه عقبة شاقة المصعد .

وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذى لا يطاق . وعن النبى - ﷺ - : « يكلف أن يصعد عقبة فى النار ، كلما وضع عليها يده ذابت ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت » . وعنه - ﷺ - : « الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤٨ .

ثم صور - سبحانه - حال هذا الشقى تصويرا بديعا يثير السخرية منه ومن تفكيره فقال : ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أى : إن هذا الشقى ردد فكره وأداره فى ذهنه ، وقدَّر وهيأ فى نفسه كلاما شنيعا يقوله فى حق الرسول - ﷺ - وفى حق القرآن الكريم .

يقال : قدَّر فلان الشىء فى نفسه ، إذا هيأه وأعده ..

والجملة الكريمة تعليل للوعيد والزجر ، وتقرير لاستحقاقه له ، أو بيان لمظاهر عناده ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ﴾ تعجيب من تفكيره وتقديره ، وذم شديد له على هذا التفكير السَّيِّئ ...

أى : إنه فكر مليا ، وهيأ نفسه طويلا للنطق بما يقوله فى حق الرسول - ﷺ - وفى حق القرآن ، ﴿ فقتل ﴾ أى : فلُعن ، أو عذب ، وهو دعاء عليه ﴿ كيف قدر ﴾ أى : كيف فكر هذا التفكير العجيب البالغ النهاية فى السوء والقبح .

وقوله : ﴿ ثم قتل كيف قدر ﴾ تكرير للمبالغة فى ذمه ، والتعجيب من سوء تقديره ، وفى الدعاء عليه باللعن والطرد من رحمته - تعالى - .

والعطف بثم لافادة التفاوت فى الرتبة ، وأن الدعاء عليه والتعجيب من حاله فى الجملة الثانية ، أشد منه فى الجملة الأولى .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر ...﴾ تصوير آخر لحالة هذا الشقى ، يرسم حركات جسده ، وخلجات قلبه ، وتقاطيع وجهه .. رسما بديعا ، يثير فى النفوس السخرية من هذا الشقى .

أى : إنه فكر تفكيرا مليا ، وقدر فى نفسه ما سيقوله فى شأن النبى - ﷺ - تقديرا طويلا .... ولم يكتف بكل ذلك ، بل فكر وقدر ﴿ ثم نظر ﴾ أى : ثم نظر فى وجوه من حوله نظرات يكسوها الجد المصطنع المتكلف ، حتى لكأنه يقول لهم : اسمعوا وعوا لما سأقوله لكم ..

﴿ ثم عبس وبسر ﴾ أى : ثم قطب ما بين عينيه حين استعصى عليه أن يجد فى القرآن مطعنا ، وكلح وجهه ، وتغير لونه ، وارتعشت أطرافه ، حين ضاقت عليه مذاهب الحيل ، فى أن يجد فى القرآن مطعنا .

يقال : عَبسَ فلان يَعْبِسُ عبوسا ، إذا قطب جبينه . وأصله من العبس وهو ما تعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها بعد أن جف عليها .

ويقال : بسَر فلان يَبسُر بسورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشىء .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة .﴾ .

﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى : ثم إنه بعد هذا التفكير والتقدير ، وبعد هذا العبوس والبسور ، بعد ذلك أدبر عن الحق ، واستكبر عن قبوله .

﴿ فقال ﴾ - على سبيل الغرور والجحود - ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى: ما هذا القرآن الذى يقرؤه محمد - ﷺ - علينا ، إلا سحر مأثور أى : مروى عن الأقدمين ، ومنقول من أقوالهم وكلامهم .

وجملة ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ بدل مما قبلها ، أى : ما هذا القرآن إلا سحر مأثور عن السابقين ، فهو من كلام البشر ، وليس من كلام الله - تعالى - كما يقول محمد - ﷺ - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى « ثم » الداخلة فى تكرير الدعاء ؟ قلت : الدلالة على أن الكرة الثانية أبلغ من الأولى ، ونحوه قوله : ألا يا اسلَمِى ثم اسلَمِى ، ثُمَّتَ اسلمِى .

فإن قلت : ما معنى المتوسطة بين الأفعال التى بعدها ؟ قلت : الدلالة على أنه قد تأتى فى التأمل والتمهل ، وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخيا وتباعدا ..

فإن قلت : فلم قيل : ﴿ فقال إن هذا ...﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بثم ؟ قلت : لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب ، لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث .

فإن قلت : فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين ؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الوعيد الشديد الذى توعد به هذا الشقى الأثيم فقال : ﴿ سأصليه سقر ﴾ وسقر : اسم لطبقة من طبقات جهنم ، والجملة الكريمة بدل من قوله : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ أى : سأحرقه بالنار المتأججة الشديدة الاشتعال .

وقوله : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ تهويل من حال هذه النار وتفظيع لشدة حرها .

أى : وما أدراك ما حال سقر ؟ إن حالها وشدتها لا تستطيع العبارة أن تحيط بها .

وجملة ﴿ لاتبقى ولا تذر ﴾ بدل اشتمال من التهويل الذى أفادته جملة ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ .

أى : هذه النار لا تبقى شيئا فيها إلا أهلكته ، ولا تترك من يلقى فيها سليما ، بل تمحقه محقا ، وتبلعه بلعا ، وتعيده - بأمر الله تعالى - إلى الحياة مرة أخرى ليزداد من العذاب ، كما

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥٠ .

قال - تعالى - : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ...﴾ .

وقوله : ﴿ لواحة للبشر ﴾ صفة ثالثة من صفات سقر .

ومعنى : ﴿ لواحة ﴾ مُغَيِّرة للبشرَات . مُسَوِّدة للوجوه ، صيغة مبالغة من اللَّوْح بمعنى تغيير الشيء يقال : فلان لوَّحته الشمس ، إذا سَوَّدَتْ ظاهرَه وأطرافه . والبشر : جمع بشرة وهى ظاهر الجلد .

أى : أن هذه النار من صفاتها - أيضا - أنها تغير ألوان الجلود ، فتجعلها مسودة بعد أن كانت على غير هذا اللون ، وأنها تنزل بالأجساد من الآلام ما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ صفة رابعة من صفات سقر . أى : على هذه النار تسعة عشر ملكا ، يتولون أمرها ، وينفذون ما يكلفهم الله - تعالى - فى شأنها .

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أى : على سقر تسعة عشر من الملائكة ، يَلْقَوْن فيها أهلَها . ثم قيل : على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها . مالك وثمانيةَ عشر ملكا .

ويحتمل أن يكون التسعة عشر نقيبا . ويحتمل أن يكوُن تسعة عشر ملكا بأعيانهم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ..[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر قدرته وحكمته ، وابتلائه لعباده بشتى أنواع الابتلاء ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

فقال - تعالى - :

وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ
وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى
مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٧٩ .

﴿وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

قال الإمام ابن كثير : يقول الله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أى : خزانها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أى : غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة . فقال أبو جهل : يامعشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله - تعالى - :

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ . أى : شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون .

وقد قيل : إن أبا الأشد - واسمه : كلدة بن أسيد بن خلف - قال : يامعشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة - فيما يزعمون - أنه كان يقف على جلد البقرة . ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ، ولايتزحزح عنه ..[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ . قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ! . محمد - ﷺ - يخبر أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الشجعان ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ؟ .

فقال أبو الاشد : أنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، عشرة على ظهرى ، وسبعة على بطنى . وأكفونى أنتم اثنين .. فأنزل الله - تعالى -: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة .. ﴾[2].

والمقصود من هذه الآية الكريمة الرد على المشركين ، الذين سخروا من النبى - ﷺ - عندما عرفوا منه أن على سقر تسعة عشر ملكا يتولون أمرها ..

أى : إننا أوجدنا النار لعذاب الكافرين ، وما جعلنا خزنتها إلا من الملائكة الغلاظ الشداد ، الذين لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والذين لا قدرة لأحد من البشر على مقاومتهم أو مخالفة أمرهم ، لأنهم أشد بأسا ، وأقوى بطشا من كافة الإنس والجن ..

والاستثناء من عموم الأنواع . أى : وما جعلنا أصحاب النار إلا من نوع الملائكة ، الذين لا قدرة لأحد من البشر على مقاومتهم ..

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٤٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ بيان لحكمة أخرى من ذكر هذا العدد..

والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته بها ، لتعلم جودته من رداءته . وقوله : ﴿ إلا فتنة ﴾ مفعول ثان لقوله ﴿ جعلنا ﴾ والكلام على حذف مضاف ..

أى : وما جعلنا عدة خزنة النار تسعة عشر ، إلا ليكون هذا العدد سبب فتنة واختبار للذين كفروا ، ولقد زادهم هذا الامتحان والاختبار جحودا وضلالا ، ومن مظاهر ذلك أنهم استهزأوا بالنبى - ﷺ - عندما قرأ عليهم القرآن ، فحق عليهم عذابنا ووعيدنا ..

قال الإمام الرازى : وإنما صار هذا العدد سببا لفتنة الكفار من وجهين : الأول أن الكفار كانوا يستهزئون ويقولون : لم لا يكونون عشرين - بدلا من تسعة عشر - ومالمقتضى لتخصيص هذا العدد ؟ .

والثانى أن الكفار كانوا يقولون : هذا العدد القليل ، كيف يكون وافيا بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس ..؟

وأجيب عن الأول : بأن هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض ، وأفعال الله - تعالى - لا تعلل ، فلا يقال فيها لم كان هذا العدد ، فإن ذكره لحكمة لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

وأجيب عن الثانى : بأنه لا يبعد أن الله - تعالى - يعطى ذلك العدد القليل قوة تفى بذلك ، فقد اقتلع جبريل وحده . مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ، ورفعها إلى السماء .. ثم قلبها ، فجعل عاليها سافلها ..

- وأيضا - فأحوال القيامة ، لا تقاس بأحوال الدنيا ، وليس للعقل فيها مجال ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ...﴾ علة أخرى ، لذكر هذا العدد . والاستيقان : قوة اليقين ، فالسين والتاء للمبالغة .

أى : وما جعلنا عدتهم كذلك - أيضا - إلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، بأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، إذ أن الكتب السماوية التى بين أيديهم قد ذكرت هذا العدد . كما ذكره القرآن الكريم ، وإلا ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، بصدق نبيهم - ﷺ - ، إذ أن الإخبار عن المغيبات عن طريق القرآن الكريم ، من شأنها أن تجعل الإيمان فى قلوب المؤمنين الصادقين ، يزداد رسوخا وثباتا .

---

(١) تفسير الفخر الرازى .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ..[١] .

وقال الآلوسى : وأخرج الترمذى واين مردويه عن جابر قال : قال ناس من اليهود ، لأناس من المسلمين : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ فأخبروا بذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « هكذا وهكذا » فى مرة عشرة . وفى مرة تسعة .

وقال الآلوسى : واستشعر من هذا أن الآية مدنية ، لأن اليهود إنما كانوا فيها ، وهو استشعار ضعيف ، لأن السؤال لصحابى فلعله كان مسافرا فاجتمع بيهودى حيث كان .. - وأيضا - لا مانع إذ ذاك من إتيان بعض اليهود نحو مكة ..[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ليستيقن .. ﴾ وهو مؤكد لما قبله ، من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة عارضة .

أى : فعلنا ما فعلنا ليكتسب أهل الكتاب اليقين من نبوته - ﷺ - وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم . ولتزول كل ريبة أو شبهة قد تطرأ على قلوب الذين أوتوا الكتاب ، وعلى قلوب المؤمنين ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ بيان لعلة أخرى لكون خزنة سقر تسعة عشر .

أى : ما جعلنا عدتهم كذلك إلا فتنة للذين كفروا ، وإلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من صدق الرسول - ﷺ - وإلا ليزداد الذين آمنوا إيمانا ، وإلا لنزول الريبة من قلوب الفريقين ، وإلا ليقول الذين فى قلوبهم مرض ، أى : شك وضعف إيمان ، وليقول الكافرون المصرون على التكذيب : ما الأمر الذى أراده الله بهذا المثل ، وهو جعل خزنة سقر تسعة عشر ؟ فالمقصود بالاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ الإنكار . والإشارة بهذا مرجعها إلى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ وقوله : ﴿ مثلا ﴾ حال من اسم الإشارة ، والمراد به العدد السابق . وسموه مثلا لغرابته عندهم . أى : ما الفائدة فى أن تكون عدة خزنة سقر تسعة عشر ، وليسوا أكثر أو أقل ؟ وهم يقصدون بذلك نفى أن يكون هذا العدد من عنده - تعالى - .

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٨ ص ٢٩٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٢٧ .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ أى : أى شىء أراده الله - تعالى - ، أو ما الذى أراده الله - تعالى - بهذا العدد المستغرب استغراب المثل .

وعلى الأول تكون ﴿ ماذا ﴾ بمنزلة اسم واحد .. وعلى الثانى : هى مؤلفة من كلمة ﴿ ما ﴾ اسم استفهام مبتدأ ، و﴿ ذا ﴾ اسم موصول خبره ، والجملة بعده صلة ، والعائد فيها محذوف ، ﴿ ومثلا ﴾ نصب على التمييز أو على الحال .. وعنوا بالإشارة :التحقير ، وغرضهم : نفى أن يكون ذلك من عند الله - تعالى - ..[١] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق ، من استيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين إيمانا ، واستنكار الكافرين ومن فى قلوبهم مرض لهذا المثل .

أى : مثل ذلك الضلال الحاصل للذين فى قلوبهم مرض وللكافرين ، يضل الله - تعالى - من يشاء إضلاله من خلقه ، ومثل ذلك الهدى الحاصل فى قلوب المؤمنين ، يهدى الله من يشاء هدايته من عباده ، إذ هو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، وهو على كل شىء قدير .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يخرس ألسنة الكافرين ، الذين أنكروا هذا العدد الذى جعله الله - تعالى - على سقر ، ليتصرف فيها على حسب إرادته - تعالى - ومشيئته ، فقال : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . والجنود : جمع جند ، وهو إسم لما يتألف منه الجيش من أفراد .

والمراد بهم هنا : مخلوقاته - تعالى - الذين سخرهم لتنفيذ أمره ، وسموا جنودا ، تشبيها لهم بالجنود فى تنفيذ مراده - سبحانه - .

أى : وما يعلم عدد جنود ربك - أيها الرسول الكريم - ، ولا مبلغ قوتهم ، إلا هو - عز وجل - وما هذا العدد الذى ذكرناه لك إلا جزء من جنودنا ، الذين حجبنا علم عددهم وكثرتهم .. عن غيرنا .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ أى : وما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو - تعالى - ، لئلا يتوهم متوهم أنماهم تسعة عشر فقط .

وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال فى صفة البيت المعمور ، الذى فى السماء السابعة : فإذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك ..[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٢٧ . (٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٥ .

والضمير فى قوله : ﴿ وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾ يعود إلى سقر .. أى : وما سقر التى ذكرت لكم أن عليها تسعة عشر ملكا يلون أمرها ، إلا تذكرة وعظة للبشر ، لأن من يتذكر حرها وسعيرها وشدة عذابها .. من شأنه ، أن يخلص العبادة لله - تعالى - ، وأن يقدم فى دنياه العمل الصالح الذى ينفعه فى أخراه .

وقيل : الضمير للآيات الناطقة بأحوال سقر . أى : وما هذه الآيات التى ذكرت بشأن سقر وأهوالها إلا ذكرى للبشر .

ثم أبطل - سبحانه - ما أنكره الذين فى قلوبهم مرض ، وما أنكره الكافرون مما جاء به القرآن الكريم ، فقال : ﴿ كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

و﴿ كلا ﴾ حرف زجر وردع وإبطال لكلام سابق . والواو فى قوله : ﴿ والقمر ﴾ للقسم والمقسم به ثلاثة أشياء : القمر والليل والصبح ، وجواب القسم قوله : ﴿ إنها لإحدى الكبر ...﴾ .

أى : كلا ، ليس الأمر كما أنكر هؤلاء الكافرون ، من أن تكون عدة الملائكة الذين على سقر ، تسعة عشر ملكا ، أو من أن تكون سقر مصير هؤلاء الكافرين ، أو من أن فى قدرتهم مقاومة هؤلاء الملائكة .

كلا ، ليس الأمر كذلك ، وحق القمر الذى ﴿ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ ، وحق ﴿ الليل إذ أدبر ﴾ أى : وقت أن ولى ذاهبا بسبب إقبال النهار عليه ، وحق ﴿ الصبح إذا أسفر ﴾ ، أى : إذا أضاء وابتدأ فى الظهور والسطوع .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ يعود إلى سقر . والكبر : جمع كبرى ، والمراد بها : الأمور العظام ، والخطوب الجسام .

أى : إن سقر التى تهكم بها وبخزنتها الكافرون ، لهى إحدى الأمور العظام ، والدواهى الكبار ، التى قل أن يوجد لها نظير أو مثيل فى عظمها وفى شدة عذاب من يصطلى بنارها .

وأقسم - سبحانه - بهذه الأمور الثلاثة ، لزيادة التأكيد ، ولإبطال ماتفوه به الجاحدون ، بأقوى أسلوب .

وكان القسم بهذه الأمور الثلاثة ، لأنها تمثل ظهور النور بعد الظلام ، والهداية بعد الضلال ، ولأنها تناسب قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ .

وانتصب لفظ « نذيرا » من قوله : ﴿ نذيرا للبشر ﴾ على أنه حال من الضمير فى قوله ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أى : إن سقر لعظمى العظائم ، ولداهية الدواهى ، حال كونها إنذارا للبشر ، حتى يقلعوا عن كفرهم وفسوقهم ، ويعودوا إلى إخلاص العبادة لخالقهم .

ويصح أن يكون تمييزا لإحدى الكبر ، لما تضمنته من معنى التعظيم ، كأنه قيل : إنها لإحدى الكبر إنذارا للبشر ، وردعا لهم عن التمادى فى الكفر والضلال .. فالنذير بمعنى الإنذار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ بدل مفصل من مجمل ، هذا المجمل هو قوله ﴿ للبشر ﴾ .

أى : إن سقر لهى خير منذر للذين إن شاءوا تقدموا إلى الخير ففازوا ، وإن شاءوا تأخروا عنه فهلكوا . فالمراد بالتقدم نحو الطاعة والهداية . والمراد بالتأخر : التأخر عنها والانحياز نحو الضلال والكفر إذ التقدم تحرك نحو الأمام ، وهو كناية عن قبول الحق ، وبعكسه التأخر ..

ويجوز أن يكون المعنى : هى خير نذير لمن شاء منكم التقدم نحوها ، أو التأخر عنها .

وتعليق ﴿ نذيرا ﴾ بفعل المشيئة ، للإشعار بأن عدم التذكر مرجعه إلى انطماس القلب ، واستيلاء المطامع والشهوات عليه ، وللإيذان بأن من لم يتذكر ، فتبعة تفريطه واقعة عليه وحده ، وليس على غيره .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور فيما سبق ، أعنى ﴿ للبشر ﴾ وضمير « شاء » للموصول . أى : نذيرا للمتمكنين منكم من السبق إلى الخير ، والتخلف عنه . وقال السدى : أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها ، أو يتأخر عنها إلى الجنة ، وقال الزجاج : أن يتقدم إلى المأمورات أو يتأخر عن المنهيات ..[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر عدله فى أحكامه : وفى بيان الأسباب التى أدت إلى فوز المؤمنين ، وهلاك الكافرين .. فقال - تعالى - : .

كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٣١ .

ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾
فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ
كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ رهينة ﴾ خبر عن ﴿ كل نفس ﴾ ، وهو بمعنى مرهونة . أى : كل نفس مرهونة عند الله - تعالى - بكسبها ، مأخوذة بعملها ، فإن كان صالحا أنجاها من العذاب ، وإن كان سيئا أهلكها ، وجعلها محلا للعقاب .

قالوا : وإنما كانت مرهونة ، لأن الله - تعالى - جعل تكليف عباده كالدَّين عليهم ، ونفوسهم تحت استيلائه وقهره ، فهى مرهونة ، فمن وفى دينه الذى كلف به ، خلص نفسه من عذاب الله - تعالى - الذين نزل منزلة علامة الرهن ، وهو أخذه فى الدين ، ومن لم يوف عذب .[1]

والاستثناء فى قوله ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ استثناء متصل أى أن كل نفس مرهونة بعملها .. إلا أصحاب اليمين وهم المؤمنين الصادقون فإنهم مستقرون ﴿ فى جنات ﴾ عالية ﴿ يتساءلون عن المجرمين ﴾ أى : يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين .

وهذا التساؤل إنما يكون قبل أن يروهم ، فإذا ما رأوهم سألوهم بقولهم . ﴿ ما سلككم فى سقر ﴾ أى : قال أصحاب اليمين للمجرمين : ما الذى أدخلكم فى سقر ، وجعلكم وقودا لنارها وسعيرها ؟ والسؤال إنما هو على سبيل التوبيخ والتحسير لهؤلاء المجرمين .

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ ما سلككم ... ﴾ للإشعار بأن الزج بهم فى سقر ، كان بعنف وقهر ، لأن السلك معناه : إدخال شىء بصعوبة وقسر ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ كذلك

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٤٣ .

نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به المجرمون على أصحاب اليمين فقال : ﴿ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين ﴾ . أى : قال المجرمون لأصحاب اليمين : الذى أدى بنا إلى الإلقاء فى سقر ، أننا فى الدنيا لم نقم بأداء الصلاة الواجبة علينا ، ولم نعط المسكين ما يستحقه من عطاء ، بل بخلنا عليه ، وحرمناه حقوقه ..

وكنا - أيضا - فى الدنيا نخوض فى الأقوال السيئة وفى الأفعال الباطلة مع الخائضين فيها ، دون أن نتورع عن اجتناب شىء منها .

وأصل الخوض : الدخول فى الماء ، ثم استعير للجدال الباطل ، وللأحاديث التى لا خير من ورائها .

وكنا - أيضا - نكذب بيوم القيامة ، وننكر إمكانه ووقوعه ، وبقينا على هذا الإنكار والضلال ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ أى : حتى أدركنا الموت ، ورأينا بأعيننا صدق ما كنا نكذب به .

فأنت ترى أن هؤلاء المجرمين قد اعترفوا بأن الإلقاء بهم فى سقر لم يكن على سبيل الظلم لهم ، وإنما كان بسبب تركهم للصلاة وللإطعام ، وتعمدهم ارتكاب الباطل من الأقوال والأفعال ، وتكذيبهم بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ حكم منه - سبحانه - عليهم بحرمانهم ممن يشفع لهم أو ينفعهم .

أى : أن هؤلاء المجرمين لن تنفعهم يوم القيامة شفاعة أحد لهم ، فيما لو تقدم أحد للشفاعة لهم على سبيل الفرض والتقدير ، وإنما الشفاعة تنفع غيرهم من المسلمين .

والاستفهام فى قوله : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ للتعجيب من إصرارهم على كفرهم ، ومن إعراضهم عن الحق الذى دعاهم إليه نبيهم - ﷺ - .

والمراد بالتذكرة : التذكير بمواعظ القرآن وإرشاداته ، والحمر : جمع حمار ، والمراد به الحمار الوحشى المعروف بشدة نفوره وهروبه إذا ما أحس بحركة المقتنص له .

وقوله : ﴿ مستنفرة ﴾ أى : شديدة النفور والهرب فالسين والتاء للمبالغة .

والقسورة : الأسد ، سمى بذلك لأنه يقسر غيره من السباع ويقهرها ، وقيل : القسورة اسم لجماعة الرماة الذين يطاردون الحمر الوحشية ، ولا واحد له من لفظه ، ويطلق هذا اللفظ عند العرب على كل من كان بالغ النهاية فى الضخامة والقوة . من القسر بمعنى القهر . أى : ما الذى حدث لهؤلاء الجاحدين المجرمين ، فجعلهم يصرون إصرارا تاما على الإعراض عن مواعظ القرآن الكريم ، وعن هداياته وإرشاداته ، وأوامره ونواهيه .. حتى لكأنهم - فى شدة إعراضهم عنه ، ونفورهم منه - حمر وحشية قد نفرت بسرعة وشدة من أسد يريد أن يفترسها ، أو من جماعة من الرماة أعدوا العدة لاصطيادها ؟ .

قال صاحب الكشاف : شبههم - سبحانه - فى إعراضهم عن القرآن ، واستماع الذكر والموعظة ، وشرادهم عنه - بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها .

وفى تشبيههم بالحمر : مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ ، وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش ، واطرادها فى العدو ، إذا رابها رائب ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب ، فى وصف الإبل ، وشدة سيرها ، بالحمر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص ..[1] .

والتعبير بقوله : ﴿ فما لهم ... ﴾ وما يشبهه قد كثر استعماله فى القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فما لهم لا يؤمنون ... ﴾ والمقصود منه التعجيب من إصرار المخاطبين على باطلهم ، أو على معتقد من معتقداتهم .. مع أن الشواهد والبينات تدل على خلاف ذلك .

وقال - سبحانه - ﴿ عن التذكرة ﴾ بالتعميم ، ليشمل إعراضهم كل شىء يذكرهم بالحق ، ويصرفهم عن الباطل .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ معطوف على كلام مقدر يقتضيه المقام ، وهو بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة .

والصحف : جمع صحيفة ، وهى ما يكتب فيها . ومنشره : صفة لها والمراد بها : الصحف المفتوحة غير المطوية . بحيث يقرؤها كل من رآها .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية : أن المشركين قالوا للرسول - ﷺ - لن نتبعك حتى تأتى لكل واحد منا بكتاب من السماء ، عنوانه : من رب العالمين ، إلى فلان بن فلان ، نؤمر فى هذا الكتاب باتباعك ..

أى : إن هؤلاء الكافرين لا يكتفون بمواعظ القرآن .. بل يريد كل واحد منهم أن يعطى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥٦ .

صحفا مفتوحة ، وكتبا غير مطوية ، بحيث يقرؤها كل من يراها . وفيها الأمر من الله - تعالى - لهم بوجوب اتباعهم للرسول - ﷺ - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه.. ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ إبطال آخر لكلامهم ، وزجر لهم عن هذا الجدال السخيف . أى : كلا ليس الأمر كما أرادوا وزعموا بل الحق أن هؤلاء القوم لا يخافون الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء ، لأنهم لو كانوا يخافون لما اقترحوا تلك المقترحات السخيفة المتعنتة ..

وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ زجر آخر مؤكد للزجر السابق . أى : كلا ثم كلا ، لن نمكنهم مما يريدون ، ولن نستجيب لمقترحاتهم السخيفة .. لأن القرآن الكريم فيه التذكير الكافى ، والوعظ الشافى ، لمن هو على استعداد للاستجابة لذلك .

فالضمير فى ﴿ إنه ﴾ يعود إلى القرآن ، لأنه معلوم من المقام ، والجملة بمنزلة التعليل للردع عن سؤالهم الذى اقترحوا فيه تنزيل صحف مفتوحة من عند الله - تعالى - تأمرهم باتباع الرسول - ﷺ - ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ تفريع عن كون القرآن تذكرة وعظة لمن كان له قلب يفقه ، أو عقل يعقل .

أى : إن القرآن الكريم مشتمل على ما يذكر الإنسان بالحق ، ومايهديه إلى الخير والرشد ، فمن شاء أن يتعظ به اتعظ ، ومن شاء أن ينتفع بهداياته انتفع ، ومن شاء أن يذكر أوامره ونواهيه وتكاليفه .. فعل ذلك ، وظفر بما يسعده ، ويشرح صدره .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ يشعر بأن تذكر القرآن وحفظه . والعمل بأحكامه وإرشاداته .. فى إمكان كل من كان عنده الاستعداد لذلك .

أى : إن التذكر طوع مشيئتكم - أيها الناس - متى كنتم جادين وصادقين ومستعدين لهذا التذكر ، فاعملوا لذلك بدون إبطاء أو تردد ..

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما يدل على نفاذ مشيئته وإرادته فقال : ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

أى : فمن شاء أن يذكر القرآن وما فيه من مواعظ ذكر ذلك ، ولكن هذا التذكر والاعتبار والاتعاظ . لا يتم بمجرد مشيئتكم ، وإنما يتم فى حال مشيئة الله - تعالى - وإرادته ، فهو

- سبحانه - أهل التقوى ، أى : هو الحقيق بأن يتقى ويخاف عذابه ، وهو - عز وجل - « أهل المغفرة » أى : هو - وحده - صاحب المغفرة لذنوب عباده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

فالمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هذا التذكر لمواعظ القرآن ، لا يتم إلا بعد إرادة الله - تعالى - ومشيئة ، لأنه هو الخالق لكل شىء ، وبيان أن مشيئة العباد لا أثر لها إلا إذا كانت موافقة لمشيئة الله ، التى لا يعلمها أحد سواه .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له .

وبعد : فهذا تفسير لسورة المدثر ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الاسكندرية - العجمى -
السبت ١١ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/٨/١٦ م .

الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القيامة

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « القيامة » من السور المكية الخالصة ، وتعتبر من السور التى كان نزولها فى أوائل العهد المكى ، فهى السورة الحادية والثلاثون فى ترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة (القارعة) وقبل سورة (الهمزة) . أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة الخامسة والسبعون .

وعدد آياتها أربعون آية فى المصحف الكوفى ، وتسع وثلاثون فى غيره .

٢ - والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

كما أنها تتحدث عن إمكانية البعث ، وعن حتمية وقوعه : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴾ .

ولقد روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال : من سأل عن يوم القيامة ، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعه ، فليقرأ هذه السورة .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ
الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ
يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ
﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ
أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ
يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ
مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

افتتح الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ .

وللعلماء فى مثل هذا التركيب أقوال منها : أن حرف « لا » هنا جىء به ، لقصد المبالغة فى تأكيد القسم ، كما فى قولهم : لا والله .

قال الآلوسى : إدخال « لا » النافية صورة على فعل القسم ، مستفيض فى كلامهم وأشعارهم .

ومنه قول امرىء القيس : لا وأبيك يابنة العامرى .. يعنى : وأبيك .

ثم قال : وملخص ما ذهب إليه جار الله فى ذلك ، أن « لا » هذه، إذا وقعت فى خلال

الكلام كقوله - تعالى - ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ فهى صلة تزاد لتأكيد القسم ، مثلها فى قوله - تعالى - : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ لتأكيد العلم ..[١] .

ومنها : أن « لا » هنا، جيء بها لنفى ورد كلام المشركين المنكرين ليوم القيامة، فكأنه - تعالى - يقول : لا ، ليس الأمر كما زعموا ، ثم قال : أقسم بيوم القيامة الذى يبعث فيه الخلق للجزاء .

قال القرطبى : وذلك كقولهم : لا والله لا أفعل . فلا هنا رد لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحق ، كأنك أكذبت قوما أنكروها ..[٢] .

ومنها : أن « لا » فى هذا التركيب وأمثاله على حقيقتها للنفى ، والمعنى لا أقسم بيوم القيامة ولا بغيره ، على أن البعث حق ، فإن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى قسم .

وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال : وصيغة لا أقسم ، صيغة قسم ، أدخل حرف النفى على فعل « أقسم » لقصد المبالغة فى تحقيق حرمة المقسم به، بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ، ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول : لا أقسم به ، أى : ولا أقسم بأعز منه عندى . وذلك كناية عن تأكيد القسم [٣] .

والمراد بالنفس اللوامة : النفس التقية المستقيمة التى تلوم ذاتها على ما فات منها ، فهى - مهما أكثرت من فعل الخير - تتمنى أن لو ازدادت من ذلك ، ومهما قللت من فعل الشر ، تمنت - أيضا - أن لو ازدادت من هذا التقليل .

قال ابن كثير : عن الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ... وإن الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه .

وفى رواية عن الحسن - أيضا - ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة »[٤] .

وجواب القسم يفهم من قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ . والمراد بالإنسان : جنسه . أو المراد به الكافر المنكر للبعث . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٣٥ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٩٢ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ٣٣٨ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٠ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن بعض المشركين قالوا للنبى - ﷺ - : يا محمد حدثنى عن يوم القيامة، فأخبره - ﷺ - عنه . فقال المشرك : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك - يا محمد - أو يجمع الله العظام . فنزلت هذه الآية .

والمعنى : أقسم بيوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه فى الوقت الذى نشاؤه ، وأقسم بالنفس اللوامة التقية التى تلوم ذاتها على الخير ، لماذا لم تستكثر منه ، وعلى الشر لماذا فعلته ، لنجمعن عظامكم - أيها الناس - ولنبعثنكم للحساب والجزاء .

وافتتح - سبحانه - السورة الكريمة بهذا القسم ، للإيذان بأن ما سيذكر بعده أمر مهم ، من شأن النفوس الواعية أن تستشرف له ، وأن تستجيب لما اشتمل عليه من هدايات وإرشادات .

ووصف - سبحانه - النفس باللوامة بصيغة المبالغة للإشعار بأنها كريمة مستقيمة تكثر من لوم ذاتها ، وتحض صاحبها على المسارعة فى فعل الخيرات .

والعظام المراد بها الجسد ، وعبر عنه بها، لأنه لا يقوم إلا بها، وللرد على المشركين الذين استبعدوا ذلك ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾ تأكيد لقدرته - تعالى - على إحياء الموتى بعد أن صاروا عظاما نخرة ، وإبطال لنفيهم إحياء العظام وهى رميم .

و ﴿ قادرين ﴾ حال من فاعل الفعل المقدر بعد بلى . وقوله : ﴿ نسوى ﴾ من التسوية ، وهى تقويم الشىء وجعله متقنا مستويا ، يقال : سوى فلان الشىء إذا جعله متساويا لا عوج فيه ولا اضطراب .

والبنان : جمع بنانة ، وهى أصابع اليدين والرجلين ، أو مفاصل تلك الأصابع وأطرافها .

أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء المشركون من أننا لا نعيد الإنسان إلى الحياة بعد موته للحساب والجزاء ، بل الحق أننا سنجمعه وسنعيده إلى الحياة حالة كوننا قادرين قدرة تامة ، على هذا الجمع لعظامه وجسده ، وعلى جعل أصابعه وأطرافه وأنامله مستوية الخلق ، متقنة الصنع ، كما كانت قبل الموت .

وخصت البنان بالذكر ، لأنها أصغر الأعضاء ، وآخر ما يتم به الخلق ، فإذا كان - سبحانه - قادرا على تسويتها مع لطافتها ودقتها ، فهو على غيرها مما هو أكبر منها أشد قدرة .

وقوله - تعالى - ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ بيان لحال أخرى من أحوال فجور

هؤلاء المشركين وطغيانهم ، وانتقال من إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال هذا الإنسان .

والفجور : يطلق على القول البالغ النهاية فى السوء ، وعلى الفعل القبيح المنكر ، ويطلق على الكذب ، ولذا وصفت اليمين الكاذبة ، باليمين الفاجرة فيكون فجر بمعنى كذب ، وزنا ومعنى .

ولفظ « الأمام » يطلق على المكان الذى يكون فى مواجهة الإنسان، والمراد به هنا : الزمان المستقبل وهو يوم القيامة ، الذى دل عليه قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ .

أى : أن هذا الإنسان المنكر للبعث والحساب لا يريد أن يكف عن إنكاره وكفره ، بل يريد أن يستمر على فجوره وتكذيبه لهذا اليوم بكل إصرار وجحود ، فهو يسأل عنه سؤال استهزاء وتهكم فيقول : ﴿ أيان يوم القيامة ﴾ أى : متى يجىء يوم القيامة هذا الذى تتحدثون عنه - أيها المؤمنون - وتخشون مافيه من حساب وجزاء ؟

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ قال ابن عباس : يعنى الكافر . يكذب بما أمامه من البعث والحساب .. ودليله ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ . أى : يسأل متى يكون ؟ على وجه التكذيب والإنكار ، فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب . ولكن يأثم لما بين يديه . ومما يدل أن الفجور : التكذيب ، ما ذكره القتبى وغيره ، من أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب ، وشكى إليه نَقْبَ إبله ودَبَرها - أى : مرضها وجربها - وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله . فقال الأعرابى .

أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا دبر
فاغفر له اللهم إن كان فجر

يعنى إن كان كذبنى فيما ذكرت ..[1] .

وأعيد لفظ الإنسان فى هذه الآيات أكثر من مرة ، لأن المقام يقتضى توبيخه وتقريعه ، وتسجيل الظلم والجحود عليه .

والضمير فى « أمامه » يجوز أن يعود إلى يوم القيامة . أى: بل يريد الإنسان ليكذب بيوم القيامة . الثابت الوقوع فى الوقت الذى يشاؤه الله - عز وجل - .

ويجوز أن يعود على الإنسان ، فيكون المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر فى فجوره وتكذيبه بيوم القيامة فى الحال وفى المآل . أى : أن المراد بأمامه : مستقبل أيامه .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٩٤ .

وجىء بلفظ « أيان » الدال على الاستفهام للزمان البعيد ، للإشعار بشدة تكذيبهم ، وإصرارهم على عدم وقوعه فى أى وقت من الأوقات .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من أهوال يوم القيامة ، على سبيل التهديد والوعيد لهؤلاء المكذبين .

فقال : ﴿ فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ .

و « برق » - بكسر الراء وفتحها - دهش وفزع وتحير ولمع من شدة شخوصه وخوفه .

يقال : برق بصر فلان - كفرح ونصر - إذا نظر إلى البرق فدهش وتحير .

والمراد بخسوف القمر : انطماس نوره ، واختفاء ضوئه .

والمراد بجمع الشمس والقمر : اقترانهما ببعضهما بعد افتراقهما واختلال النظام المعهود للكون ، اختلالا تتغير معه معالمه ونظمه . وجواب ﴿ إذا ﴾ قوله : ﴿ يقول الإنسان ﴾ أى : فإذا برق بصر الإنسان وتحير من شدة الفزع والخوف ، بعد أن رأى ما كان يكذب به فى الدنيا .

والتعريف فى البصر : للاستغراق ، إذ أبصار الناس جميعا فى هذا اليوم ، تكون فى حالة فزع ، إلا أن هذا الفزع يتفاوت بينهم فى شدته .

﴿ وخسف القمر ﴾ أى : ذهب ضوؤه . وانطمس نوره .

﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ أى : وقرن بينهما بعد أن كانا متفرقين .

والتصقا بعد أن كانا متباعدين ، وغاب ضوؤهما بعد أن كانا منيرين .

﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أى : فإذا ما تم كل ذلك ، يقول الإنسان فى هذا الوقت الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف فيه القمر ، ويجمع فيه بين الشمس والقمر : أين المفر . أى : أين الفرار من قضاء الله - تعالى - ومن قدره وحسابه . فالمفر مصدر بمعنى الفرار . والاستفهام بمعنى التمنى أى : ليت لى مكانا أفر إليه مما أراه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ إبطال لهذا التمنى ، ونفى لأن يكون لهذا الإنسان مهرب من الحساب .

والوزر : المراد به الملجأ والمكان الذى يحتمى به الشخص للتوقى مما يخافه ، وأصله : الجبل المرتفع المنيع ، من الوِزْر وهو الثقل .

أى : كلا لا وزر ولا ملجأ لك . أيها الإنسان - من المثول أمام ربك فى هذا اليوم للحساب والجزاء .

ومهما طال عمرك ، وطال رقادك فى قبرك .. فإلى ربك وحده نهايتك ومستقرك ومصيرك ، فى هذا اليوم الذى لا محيص لك عنه .

وقوله - سبحانه - ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ بيان لما يحدث له يوم القيامة ، أى : يخبر الإنسان فى هذا اليوم بما قدم من أعمال حسنة . وبما أخر منها فلم يعملها ، مع أنه كان فى إمكانه أن يعملها ، والمقصود بالآية المجازاة على الأعمال لا مجرد الإخبار .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾[1] .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ﴾ .

والبصيرة هنا بمعنى الحجة الشاهدة عليه ، وهى خبر عن المبتدأ وهو ﴿ الإنسان ﴾ والجار والمجرور متعلق بلفظ بصيرة والهاء فيها للمبالغة ، مثل هاء علامة ونسابة .

أى : بل الإنسان حجة بينة على نفسه ، وشاهدة بما كان منه من الأعمال السيئة ، ولو أدلى بأية حجة يعتذر بها عن نفسه . لم ينفعه ذلك .

قال صاحب الكشاف : ﴿ بصيرة ﴾ أى : حجة بينة ، وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ أو : عين بصيرة والمعنى أنه ينبأ بأعماله ، وإن لم ينبأ ففيه ما يجزىء عن الإنباء ، لأنه شاهد عليها بما عملت ، لأن جوارحه تنطق بذلك ، كما قال - تعالى - ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ .

﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أى : ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها .

وعن الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وقال : المعاذير : الستور ، واحدها معذار ، فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب ، كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب . .

فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير ؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها . ونحوه : المناكير فى المنكر[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦١ .

فالمقصود بهاتين الآيتين : بيان أن الإنسان لن يستطيع أن يهرب من نتائج عمله مهما حاول ذلك ، لأن جوارحه شاهدة عليه ، ولأن أعذاره لن تكون مقبولة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، كما قال - تعالى - : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه - ﷺ - إلى ما يجب عليه عند تبليغ القرآن إليه عن طريق الوحى . فقال - سبحانه - : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى القرآن الكريم المفهوم من المقام . والمراد بقوله : ﴿ لا تحرك ﴾ نهيه - ﷺ - عن التعجل فى القراءة .

والمقصود بقوله : قرآنه ، قراءته عليك ، وتثبيته على لسانك وفى قلبك بحيث تقرؤه متى شئت فهو مصدر مضاف لمفعوله .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وقرآنه ﴾ أى : إثبات قراءته فى لسانك ، فالقرآن هنا ، وكذا فيما بعده ، مصدر كالرجحان بمعنى القراءة .. مضاف إلى المفعول وقيل : قرآنه ، أى : تأليفه على لسانك ..[1] .

أى : لا تتعجل - أيها الرسول الكريم - بقراءة القرآن الكريم عند ما تسمعه من أمين وحينا جبريل - عليه السلام - ، بل تريث وتمهل حتى ينتهى من قراءته ثم اقرأ من بعده ، فإننا قد تكفلنا بجمعه فى صدرك وبقراءته عليك عن طريق وحينا ، وما دام الأمر كذلك ، فمتى قرأ عليك جبريل القرآن فاتبع قراءته ولا تسبقه بها ، ثم إن علينا بعد ذلك بيان ماخفى عليك منه ، وتوضيح ما أشكل عليك من معانيه .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا تعليم من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك فى قراءته .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال كان النبى - ﷺ - يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه - يريد أن يحفظه مخافة أن يتفلت منه شىء ، أو من شدة رغبته فى حفظه - فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات[2] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ضمن لنبيه - ﷺ - أن يجمع له القرآن فى صدره وأن يجريه على لسانه ، بدون أى تحريف أو تبديل ، وأن يوضح له ما خفى عليه منه .

قالوا : فكان رسول الله - ﷺ - إذا ما نزل عليه الوحى بعد ذلك بالقرآن ، أطرق وأنصت ، وشبيه بهذه الآيات قوله - سبحانه - : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٤٢ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٤ .

بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما ﴾ .

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ، وعن حالة الإنسان فى وقت الاحتضار ، وعن مظاهر قدرته - تعالى - وعن حكمته فى البعث والحساب والجزاء ، فقال - سبحانه - :

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى
﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَى لَكَ
فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ﴾ بيان لما جبل عليه كثير من الناس ، من إيثارهم منافع الدنيا الزائلة ، على منافع الآخرة الباقية ، وزجر ونهى لهم عن سلوك هذا المسلك ، الذى يدل على قصر النظر ، وضعف التفكير .

أى : كلا - أيها الناس - ليس الرشد فى أن تتركوا العمل الصالح الذى ينفعكم يوم القيامة ، وتعكفوا على زينة الحياة الدنيا العاجلة .. بل الرشد كل الرشد فى عكس ذلك ، وهو أن تأخذوا من دنياكم وعاجلتكم ما ينفعكم فى آخرتكم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾[1] .

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢٧ .

ثم يبين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة فقال : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

وقوله : ﴿ ناضرة ﴾ اسم فاعل من النَّضْرة - بفتح النون المشددة وسكون الضاد - وهى الجمال والحسن . تقول : وجه نضير ، إذا كان حسنا جميلا .

وقوله : ﴿ باسرة ﴾ من البسور وهو شدة الكلوح والعبوس ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ يقال : بسَر فلان يبسُر بسُورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشىء الذى يراه .

والفاقرة : الداهية العظيمة التى لشدتها كأنها تقصم فقار الظهر . يقال : فلان فقرته الفاقرة ، أى : نزلت به مصيبة شديدة أقعدته عن الحركة . وأصل الفَقْر : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلُصَ إلى العظم أو ما يقرب منه .

والمراد بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ : يوم القيامة الذى تكرر ذكره فى السورة أكثر من مرة . والجملة المقدرة المضاف إليها « إذ » والمعوض عنها بالتنوين تقديرها يوم إذ برق البصر .

والمعنى : فى يوم القيامة ، الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف القمر .. تصير وجوه حسنة مشرقة ، ألا وهى وجوه المؤمنين الصادقين .. وهذه الوجوه تنظر إلى ربها فى هذا اليوم نظرة سرور وحبور ، بحيث تراه - سبحانه - على ما يليق بذاته ، وكما يريد أن تكون رؤيته - عز وجل - بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة .

وهناك وجوه أخرى تصير فى هذا اليوم كالحة شديدة العبوس ، وهى وجوه الكافرين والفاسقين عن أمر ربهم ، وهذه الوجوه ﴿ تظن ﴾ أى : تعتقد أو تتوقع ، أن يفعل بها فعلا يهلكها ، ويقصم ظهورها لشدته وقسوته .

وجاء لفظ « وجوه » فى الموضعين منكرا ، للتنويع والتقسيم ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ وكما فى قول الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَر

وقد أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أن الله - تعالى - يتكرم على عباده المؤمنين فى هذا اليوم ، فيريهم ذاته بالكيفية التى يريدها - سبحانه - .

ومنهم من فسر ﴿ ناظرة ﴾ بمعنى منتظرة ، أى : منتظرة ومتوقعة ما يحكم الله - تعالى - به عليها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله - عز وجل -

فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها . لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وهما فى الصحيحين - أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك » .

وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال : نظر رسول الله - ﷺ - إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ».

ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذا - بحمد الله - مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة . كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام ، وهداة الأنام .

ومن تأول ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ فقال : تنتظر الثواب من ربها .. فقد أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله - تعالى - ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ .

قال الشافعى : ما حجَب الفجار إلا وقد علم أن الابرار يرونه - عز وجل - ..[1] .

ثم زجر - سبحانه - الذين يكذبون بيوم الدين ، ويؤثرون العاجلة على الآجلة ، زجَرهم بلون آخر من ألوان الردع والزجر ، حيث ذكرهم بأحوالهم الأليمة عندما يودعون هذه الدنيا فقال : ﴿ كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق . وظن أنه الفراق ﴾ .

والضمير فى ﴿ بلغت ﴾ يعود إلى الروح المعلومة من المقام . كما فى قوله - تعالى - ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم .. ﴾ ومنه قول الشاعر :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

والتراقى : جمع تَرْقُوة ، وهى العظام المحيطة بأعالى الصدر عن يمينه ، وعن شماله ، وهى موضع الحشرجة ، وجواب الشرط محذوف .

أى : حتى إذا بلغت روح الإنسان التراقى ، وأوشكت أن تفارق صاحبها .. وجد كل إنسان ثمار عمله الذى عمله فى دنياه ، وانكشفت له حقيقة عاقبته .

والمقصود من الآية الكريمة وما بعدها : الزجر عن إيثار العاجلة على الآجلة . فكأنه - تعالى - يقول : احذروا - أيها الناس - ذلك قبل أن يفاجئكم الموت ، وقبل أن تبلغ أرواحكم نهايتها ، وتنقطع عند ذلك آمالكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقيل من راق ﴾ بيان لما يقوله أحباب الإنسان الذى بلغت

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٥ .

روحه التراقى ، على سبيل التحسر والتوجع واستبعاد شفائه . و ﴿ من ﴾ اسم استفهام مبتدأ . و ﴿ راق ﴾ خبره ، وهو اسم فاعل من الرُّقية، وهى كلام يقوله القائل ، أو فعل يفعله الفاعل من أجل شفاء المريض . والمراد به هنا : مطلق الطبيب الذى يرجى على يديه الشفاء لهذا المحتضر .

أى : اذكروا - أيها الناس - وقت بلوغ الروح نهايتها ، ووقت أن وقف من يهمهم أمر المريض مستسلمين لقضاء الله - تعالى - وملتمسين من كل من بيده شفاء مريضهم ، أن يتقدم لإنقاذه مما هو فيه من كرب ، ولكنهم لا يجدون أحدا يحقق لهم آمالهم .

قال الآلوسى : قوله ﴿ وقيل من راق ﴾ أى : وقال من حضر صاحبها ، من يرقيه وينجيه مما هو فيه ، من الرقية ، وهو ما يستشفى به الملسوع والمريض من الكلام المعد لذلك ، ولعله أريد به مطلق الطبيب ، أعم من أن يطب بالقول أو بالفعل .. والاستفهام عند البعض حقيقى . وقيل : هو استفهام استبعاد وإنكار . أى : قد بلغ هذا المريض مبلغا لا أحد يستطيع أن يرقيه .

وقيل هذا الكلام من كلام ملائكة الموت . أى : أيكم يرقى بروحه ، أملائكة الرحمة ، أم ملائكة العذاب ، من الرقى وهو العروج . والاستفهام عليه حقيقى .

ووقف حفص رواية عن عاصم على ﴿ من ﴾ وابتدأ بقوله : ﴿ راق ﴾ وكأنه قصد أن لا يتوهم أنهما كلمة واحدة ، فسكت سكتة لطيفة ، لتشعر أنهما كلمتان[1] .

والضمير المستتر فى قوله - تعالى - : ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ يعود إلى هذا الإنسان الذى أشرف على الموت ، والذى بلغت روحه نهاية حياتها ، والظن هنا بمعنى اليقين ، أو بمعنى العلم المقارب لليقين .

أى : وأيقن هذا المحتضر ، أو توقع أن نهايته قد اقتربت ، وأنه عما قليل سيودع أهله وأحبابه ... وسيفارقهم فراقا لا لقاء بعده ، إلا يوم يقوم الناس للحساب .

وقوله - تعالى - : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أى : والتوت والتصقت إحدى ساقيه بالأخرى . عند سكرات الموت وشدته ، فصارتا متلاصقتين لا تكاد إحداهما تتزحزح عن الأخرى ، فكأنهما ملتفتان .

ويصح أن يكون المعنى : والتفت الساق بالساق عند وضع هذا الذى أدركه الموت فى كفنه ، لأن هذا الكفن قد ضم جميع جسده ، والتصقت كل ساق بالأخرى .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٤٦ .

ومنهم من يرى أن هذه الآية الكريمة : كناية عن هول الموت وشدته كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ والعرب لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق .

قال صاحب الكشاف : « والتفت » ساقه بساقه والتوت عليها عند الموت ، وعن قتادة : ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليها جوالا . وقيل : التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، على أن الساق مثل فى الشدة . وعن سعيد ابن المسيب : هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أى : إلى ربك - أيها الرسول الكريم - مساق الناس ومرجعهم - لا إلى غيره - يوم القيامة .. لكى يحاسبوا على أعمالهم .

فالمساق مصدر ميمى من ساق الشىء إذا سيره أمامه إلى حيث يريد .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى أدت إلى سوء عاقبة المكذبين للحق ، فقال - تعالى - : ﴿ فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ .

والفاء للتفريع على ما تقدم ، من قوله - تعالى - : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ .. إلخ .

أو للتفريع والعطف على قوله - سبحانه - : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ .. أى : أن هذا الإنسان الذى أنكر الحساب والجزاء ، وفارق الحياة ، كانت عاقبة أمره خسرا ، فلا هو صدق بالحق الذى جاءه الرسول - ﷺ - ولا هو أدى الصلاة التى فرضها الله - تعالى - عليه ، ولكنه كذب بكل ذلك ، وتولى ، وأعرض عن سبيل الرشاد .

ثم بعد ذلك : ﴿ ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أى : ذهب إلى أهله متبخترا متفاخرا ، متباهيا بإصراره على كفره وفجوره .

وقوله : ﴿ يتمطى ﴾ من المط بمعنى المد . وأصله : يتمطط ، قلبت فيه الطاء حرف علة ، ووصف المتبختر فى مشيه بذلك ، لأنه يمط خطاه ، ويمدها على سبيل الإعجاب بنفسه ، والتباهى بما هو عليه من كفر وضلال .

ولم يذكر - سبحانه - المتعلق والمفعول فى الآيات الكريمة ، للإشعار بأن هذا الإنسان الجاحد الجاهل .. لم يصدق بشىء من الحق ، ولم يؤد لله - تعالى - فرضا ولا سنة ، ولكنه

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦٣ .

استمر على تكذيبه وإعراضه عن الصراط المستقيم ، ولم يكتف بكل ذلك ، بل تفاخر وتباهى أمام غيره بما هو عليه من باطل .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ دعاء على هذا الإنسان الشقى ، المصر على إعراضه عن الحق .. بالهلاك وسوء العاقبة . و ﴿ أولى ﴾ اسم تفضيل من وَلِىَ ، وفاعله ضمير محذوف يقدره كل قائل أو سامع بما يدل على المكروه .

والكاف فى قوله ﴿ لك ﴾ للتبيين ، والكاف خطاب لهذا الإنسان المخصوص بالدعاء عليه .

وقوله : ﴿ فأولى ﴾ تأكيد لقوله ﴿ أولى لك ﴾ وجملة ﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ مؤكدة للجملة الأولى . أى : أجدر بك هذا الهلاك الذى ينتظرك قريبا - أيها الانسان - الجاحد ، ثم أجدر بك ، لأنك أصررت على كل ما هو باطل وسوء .

قال القرطبى ما ملخصه : هذا تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ..

روى أن رسول الله - ﷺ - خرج من المسجد ذات يوم ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد ، فأخذ رسول الله - ﷺ - بيده ، فهزه مرة أو مرتين ثم قال : « أولى لك فأولى » . فقال أبو جهل : أتهددنى - يا محمد - فو الله إنى لأعز أهل هذا الوادى وأكرمه ، ونزل على رسول الله - ﷺ - كما قال لأبى جهل[1] .

وجىء بحرف «ثم » فى عطف الجملة الثانية على الأولى ، لزيادة التأكيد ، وللارتقاء فى الوعيد ، وللإشعار بأن التهديد الثانى أشد من الأول ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالإشارة إلى الحكمة من البعث والجزاء ، وببيان جانب من مظاهر قدرته فقال : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ .

والاستفهام للإنكار كما قال فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ .

و « سُدَى » - بضم السين مع القصر - بمعنى مهمل . يقال : إبل سُدًى ، أى : مهملة ليس لها راع يحميها .. وهو حال من فاعل « يترك » .

أى : أيظن هذا الإنسان الذى أنكر البعث والجزاء ، أن نتركه هكذا مهملا ، فلا نجازيه

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١١٤ .

على أعماله التى عملها فى الدنيا ؟ إن كان يحسب ذلك فهو فى وهم وضلال ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن نكرم المتقين ، وأن تعاقب المكذبين .

والاستفهام فى قوله : ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى .. ﴾ للتقرير ، والنطفة : القليل من الماء و ﴿ يمنى ﴾ يراق هذا المنى فى رحم المرأة .

أى : كيف يحسب هذا الإنسان أنه سيترك سدى ؟ ألم يك فى الأصل قطرة ماء تصب من الرجل فى رحم المرأة وتراق فيه ؟ بل إنه كان كذلك .

ثم ﴿ كان ﴾ بعد ذلك ﴿علقة﴾ أى : قطعة دم متجمد ﴿ فخلق فسوى ﴾ أى : فخلقه الله - تعالى - خلقا آخر بقدرته ، وسواه فى أحسن تقويم ، كما قال : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم .. ﴾ .

وجملة ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ بمثابة النتيجة بعد المقدمات والأدلة .

أى : أليس ذلك الرب العظيم الشأن والقدرة ، الذى أحسن كل شىء خلقه : والذى خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ... أليس ذلك الإله صاحب الخلق والأمر .

﴿ بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ وعلى أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، ليجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ؟ بلَى إنه لقادر على ذلك قدرة تامة .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها : أن رجلا كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلَى . فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ذلك[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر . الراجى عفو ربه

الأربعاء : ١٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ د . محمد سيد طنطاوى

٢٠ من أغسطس سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الإنسان

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الإنسان » يرى بعضهم أنها من السور المكية الخالصة ، ويرى آخرون أنها من السور المدنية .

قال الآلوسى : هى مكية عند الجمهور، وقال مجاهد وقتادة : مدنية كلها ، وقال الحسن : مدنية إلا آية واحدة ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾[1] .

٢ - والذى تطمئن إليه النفس أن هذه السورة ، من السور المكية الخالصة ، فإن أسلوبها وموضوعها ومقاصدها .. كل ذلك يشعر بأنها من السور المكية ، إذ من خصائص السور المكية ، كثرة حديثها عن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وأمر النبى - ﷺ - وأصحابه بالصبر ، وإثبات أن هذا القرآن من عندالله - تعالى - والتحريض على مداومة ذكر الله - تعالى - وطاعته .. وكل هذه المعانى نراها واضحة فى هذه السورة .

ولقد رأينا الإمام ابن كثير - وهو من العلماء المحققين - عند تفسيره لهذه السورة ، قال بأنها مكية ، دون أن يذكر فى ذلك خلافا ، مما يوحى بأنه لا يعتد بقول من قال بأنها مدنية .

٣ - وتسمى هذه السورة - أيضا - بسورة « هل أتى على الإنسان » ، فقد روى البخارى - فى باب القراءةفى الفجر - عن أبى هريرة ، قال : كان النبى - ﷺ - يقرأ فى الفجر سورة « ألم السجدة ». وسورة . « هل أتى على الإنسان » .

وتسمى - أيضا - بسورة : الدهر ، والأبرار ، والأمشاج ، لورود هذه الألفاظ فيها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٥٠ .

وعدد آياتها : إحدى وثلاثون آية بلا خلاف .

٤ - ومن مقاصدها البارزة : تذكير الإنسان بنعم الله - تعالى - عليه ، حيث خلقه - سبحانه - من نطفة أمشاج ، وجعله سميعا بصيراً ، وهداه السبيل .

وحيث أعدّ له ما أعد من النعيم الدائم العظيم .. متى أطاعه واتقاه .

كما أن من مقاصدها : إنذار الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم . وإثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأمر الرسول - ﷺ - وأمته بالصبر والإكثار من ذكر الله - تعالى - بكرة وأصيلا .

وبيان أن حكمته - تعالى - قد اقتضت أنه : ﴿ يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما ﴾ .

التفسير

افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل أتى على الإنسان .. ﴾ للتقرير . والمراد بالإنسان : جنسه ، فيشمل جميع بنى آدم ، والحين : المقدار المجمل من الزمان ، لاحد لأكثره ولا لأقله . والدهر : الزمان الطويل غير المحدد بوقت معين .

والمعنى : لقد أتى على الإنسان ﴿ حين من الدهر ﴾ أى : وقت غير محدد من الزمان الطويل الممتد فى هذه الحياة الدنيا .

﴿ لم يكن شيئا مذكورا ﴾ أى : لم يكن هذا الإنسان فى ذلك الحين من الدهر ، شيئا مذكورا من بين أفراد جنسه ، وإنما كان شيئا غير موجود إلا فى علم الله - تعالى - .

ثم أوجده - سبحانه - بعد ذلك من نطفة فعلقة فمضغة .. ثم أنشأه - سبحانه - بعد ذلك خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة بيان مظهر من مظاهر قدرته - عز وجل - حيث أوجد الإنسان من العدم ، ومن كان قادرا على ذلك ، كان - من باب أولى - قادرا على إعادته إلى الحياة بعد موته ، للحساب والجزاء .

قال الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : اتفقوا على أن « هل » هاهنا ، وفى قوله - تعالى - : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ . بمعنى قد ، كما تقول : هل رأيت صنيع

فلان ، وقد علمت أنه قد رآه . وتقول : هل وعظتك وهل أعطيتك ، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته .

والدليل على أن « هل » هنا ليست للاستفهام الحقيقى .. أنه محال على الله - تعالى - فلابد من حمله على الخبر[1] .

وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام ، لما فيه من التشويق إلى معرفة ما سيأتى بعده من كلام .

وجملة ﴿ لم يكن شيئا مذكورا ﴾ فى موضع نصب على الحال من الإنسان ، والعائد محذوف . أى : حالة كون هذا الإنسان ، لم يكن فى ذلك الحين من الدهر ، شيئا مذكورا من بين أفراد جنسه . وإنما كان نسيا منسيا ، لا يعلم بوجوده أحد سوى خالقه - عز وجل - .

ثم فصل - سبحانه - بعد هذا التشويق ، أطوار خلق الإنسان فقال : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ والمراد بالإنسان هنا - أيضا - جنسه وجميع أفراده .

و « أمشاج » بمعنى أخلاط من عناصر شتى ، مشتق من المشج بمعنى الخلط ، يقال : مشج فلان بين كذا وكذا - من باب ضرب - إذا خلط ومزج بينهما ، وهو جمع مَشَج - كسبب ، أو مَشِج - ككتف ، أو مشيج - كنصير .

قال الجمل : « أمشاج » نعت لنطفة . ووقع الجمع صفة لمفرد ، لأنه فى معنى الجمع ، أو جعل كل جزء من النطفة نطفة ، فاعتبر ذلك فوصف بالجمع ..[2] .

ويرى صاحب الكشاف ان لفظ « أمشاج » مفرد جاء على صيغة أفعال ، كلفظ أعشار فى قولهم : برمة أعشار ، أى : برمة متكسرة قطعا قطعا ، وعليه يكون المفرد قد نعت بلفظ مفرد مثله . فقد قال - رحمه الله - : « من نطفة أمشاج » كبرمة أعشار .. وهى ألفاظ مفردة غير جموع .

ولذلك وقعت صفات للأفراد ، والمعنى : من نطفة قد امتزج فيها الماءان ..[3] .

وجملة « نبتليه » حال من الإنسان . أو من فاعل « خلقنا » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٢٧١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٥٢ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦٦ .

أى : إنا خلقنا الإنسان بقدرتنا وحدها . « من نطفة » أى : من مَنِيٍّ ، وهو ماء الرجل وماء المرأة ، « أمشاج » أى : ممتزج أحدهما بالآخر امتزاجا تاماً .

أو خلقناه من نطفة مختلطة بعناصر متعددة ، تتكون منها حياة الإنسان بقدرتنا وحكمتنا .

وخلقناه كذلك حالة كوننا مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف ، فى مستقبل حياته حين يكون أهلا لهذه التكاليف .

﴿ فجعلناه ﴾ بسبب إرادتنا ابتلاءه واختباره بالتكاليف عند بلوغه سن الرشد ﴿ سميعا بصيراً ﴾ أى : فجعلناه بسبب هذا الابتلاء والاختبار والتكاليف مزودا بوسائل الإدراك ، التى بواسطتها يسمع الحق ويبصره ويستجيب له ويدرك الحقائق والآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا .. إدراكا سليما ، متى اتبع فطرته ، وخالف وساوس الشيطان وخطواته .

وخص - سبحانه - السمع والبصر بالذكر ، لأنهما أنفع الحواس للإنسان ، إذ عن طريق السمع يتلقى دعوة الحق وما اشتملت عليه من هدايات ، وعن طريق البصر ينظر فى الأدلة المتنوعة الكثيرة التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق أنبيائه فيما جاءوا به من عند ربهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ تعليل لقوله ﴿ نبتليه ﴾ ، وتفصيل لقوله - تعالى - ﴿ فجعلناه سميعا بصيراً ﴾ ، والمراد بالهداية هنا : الدلالة إلى طريق الحق ، والإرشاد إلى الصراط المستقيم .

أى : إنا بفضلنا وإحساننا - قد أرشدنا الإنسان إلى ما يوصله إلى طريق الحق والصواب ، وأرشدناه إلى ما يسعده ، عن طريق إرسال الرسل وتزويده بالعقل المستعد للتفكر والتدبر فى آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

وقوله : ﴿ إما شاكرا وإما كفورا ﴾ حالان من ضمير الغيبة فى « هديناه » وهو ضمير الإنسان .

و « إما » للتفصيل باعتبار تعدد الأحوال مع اتحاد الذات : أو للتقسيم للمهدى بحسب اختلاف الذوات والصفات .

أى : إنا هديناه ودللناه على مايوصله إلى الصراط المستقيم ، فى حالتى شكره وكفره ، لأنه إن أخذ بهدايتنا كان شاكرا ، وإن أعرض عنها كان جاحدا وكافرا لنعمنا ، فالهداية موجودة فى كل الأحوال ، إلا أن المنتفعين بها هم الشاكرون وحدهم .

ومثل ذلك كمثل رجلين ، يرشدهما مرشد إلى طريق النجاة ، فأحدهما يسير فى هذا الطريق

فينجو من العثرات والمتاعب والمخاطر .. والآخر يعرض عن ذلك فيهلك .

ولما كان الشكر قل من يتصف به ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ جاء التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ شاكرا ﴾ بصيغة اسم الفاعل . ولما كان الجحود والكفر يعم أكثر الناس ، جاء التعبير بقوله - تعالى - ﴿ كفورا ﴾ بصيغة المبالغة .

والمقصود من الآية الكريمة : قفل الباب أمام الذين يفسقون عن أمر ربهم ، ويرتكبون ما يرتكبون من السيئات .. ثم بعد ذلك يعلقون أفعالهم هذه على قضاء الله وقدره ، ويقولون - كما حكى القرآن عن المشركين - : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد هذه الهداية ، ما أعده لفريق الكافرين ، وما أعده لفريق الشاكرين ، فقال - تعالى - :

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ

---

(١) سورة الانعام الآية ١٤٨ .

مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين .. ﴾ كلام مستأنف لبيان جزاء الكافرين ، بعد أن تطلعت إليه النفس ، بعد سماعها لقوله - تعالى - : ﴿ إما شاكرا وإما كفورا ﴾ .

وابتدأ - سبحانه - بذكر جزاء الكافر ، لأن ذكره هو الأقرب ولأن الغرض بيان جزائه هلى سبيل الإجمال ، ثم تفصيل القول بعد ذلك فى بيان جزاء المؤمنين .

والسلاسل : جمع سلسلة ، وهى القيود المصنوعة من الحديد والتى يقيد بها المجرمون . وقد قرأ بعض القراء السبعة هذا اللفظ بالتنوين ، وقرأه آخرون بدون تنوين .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد الذى يقيد به المذنب ويكون فى عنقه ، قال - تعالى - : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم ، والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ .

والمعنى : إنا أعتدنا وهيأنا للكافرين سلاسل يقادون بها ، وأغلالا تجمع بها أيديهم إلى أعناقهم على سبيل الإذلال لهم ، وهيأنا لهم - فوق ذلك - ناراً شديدة الاشتعال تحرق بها أجسادهم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من خير عميم فقال : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ﴾ .

والأبرار : جمع بَرٍّ أو بَارٍّ . وهو الإنسان المطيع لله - تعالى - طاعة تامة ، والمسارع فى فعل الخير ، والشاكر لله - تعالى - على نعمه .

والكأس : هو الإناء الذى توضع فيه الخمر ، ولا يسمى بهذا الاسم إلا إذا كانت الخمر

بداخله ، ويصح أن يطلق الكأس على الخمر ذاتها على سبيل المجاز ، من باب تسمية الحال باسم المحل ، وهو المراد هنا . لقوله - تعالى - ﴿ كان مزاجها كافورا ﴾ . و « من » للتبعيض .

والضمير فى قوله ﴿ مزاجها ﴾ يعود إلى الكأس التى أريد بها الخمر ، والمراد « بمزاجها » : خليطها من المزج بمعنى الخلط يقال : مزجت الشىء بالشىء ، إذا خلطته به .

والكافور : اسم لسائل طيب الرائحة ، أبيض اللون ، تميل إليه النفوس .

أى : إن المؤمنين الصادقين ، الذين أخلصوا لله - تعالى - الطاعة والعبادة والشكر .. يكافئهم - سبحانه - على ذلك ، بأن يجعلهم يوم القيامة فى جنات عالية ، ويتمتعون بالشراب من خمر ، هذه الخمر كانت مخلوطة بالكافور الذى تنتعش له النفوس ، وتحبه الأرواح والقلوب ، لطيب رائحته ، وجمال شكله .

وذكر - سبحانه - هذه الأشياء فى هذه السورة - من الكافور - والزنجبيل ، وغيرهما ، لتحريض العقلاء على الظفر فى الآخرة بهذه المتع التى كانوا يشتهونها فى الدنيا ، على سبيل تقريب الأمور لهم ، وإلا فنعيم الآخرة لا يقاس فى لذته ودوامه بالنسبة لنعيم الدنيا الفانى .

قال ابن عباس : كل ما ذكر فى القرآن مما فى الجنة وسماه ، ليس له من الدنيا شبيه إلا فى الاسم . فالكافور ، والزنجبيل ، والأشجار والقصور ، والمأكول والمشروب ، والملبوس والثمار ، لا يشبه ما فى الدنيا إلا فى مجرد الاسم .

وقوله - سبحانه - ﴿ عينا يشرب بها عباد الله .. ﴾ بدل من قوله : ﴿ كان مزاجها كافورا ﴾ لأن ماءها فى بياض الكافور وفى رائحته وبرودته .

أى : أن الابرار يشربون من كأس ، ماؤها ينبع من عين فى الجنة ، هذا الماء له بياض الكافور ورائحته وبرودته .

وعدى فعل « يشرب » بالباء ، التى هى باء الإلصاق ، لأن الكافور يمزج به شرابهم . أى : عينا يشرب عباد الله ماءهم وخمرهم بها . أى : مصحوبا بمائها وخمرها .

ومنهم من جعل الباء هنا بمعنى من التبعيضية . أى : عينا يشرب من بعض مائها وخمرها عباد الله ، وهم الأبرار .

وعبر عنهم بذلك لتشريفهم وتكريمهم ، حيث أضافهم - سبحانه - إلى ذاته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا ، وبحرف الإلصاق آخرا ؟ قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته ، وأما العين فبها يمزجون

شرابهم ، فكأن المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل ..[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يفجرونها تفجيرا ﴾ صفة أخرى للعين ، أى : يسيرونها ويجرونها إلى حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاؤون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يتجهون إليه .

فالتعبير بقوله : ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ إشارة إلى كثرتها وسعتها وسهولة حصولهم عليها .

يقال : فجَّر فلان الماء ، إذا أخرجه من الأرض بغزارة ومنه قوله - تعالى - ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك فى آيات متعددة ، الأسباب التى من أجلها وصلوا إلى النعيم الدائم . فقال - تعالى - : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً ﴾ .

والنذر : ما يوجبه الإنسان على نفسه من طاعة لله - تعالى - ، والوفاء به : أداؤه أداء كاملا . أى : أن من الأسباب التى جعلت الأبرار يحصلون على تلك النعم ، أنهم من أخلاقهم الوفاء بالنذر ، ومن صفاتهم - أيضاً - أنهم يخافون يوما عظيما هو يوم القيامة ، الذى كان عذابه فاشياً منتشراً غاية الانتشار .

فقوله : ﴿ مستطيرا ﴾ اسم فاعل من استطار الشىء إذا انتشر وامتد أمره . والسين والتاء فيه للمبالغة ، وأصله طار . ومنه قولهم : استطار الغبار ، إذا انتشر فى الهواء وتفرق ، وجىء بصيغة المضارع فى قوله : ﴿ يوفون ﴾ للدلالة على تجدد وفائهم فى كل وقت وحين .

والتعريف فى « النذر » للجنس ، لأنه يعم كل نذر .

وجاء لفظ اليوم منكراً ، ووصف بأن له شراً مستطيرا .. لتهويل أمره ، وتعظيم شأنه ، حتى يستعد الناس لاستقباله بالإيمان والعمل الصالح .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى فقال : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً ﴾ .

أى : أن هؤلاء الأبرار من صفاتهم - أيضاً أنهم يطعمون الطعام مع حب هذا الطعام لديهم ، ومع حاجتهم إليه واشتهائهم له .

ومع كل ذلك فهم يقدمونه للمسكين ، وهو المحتاج إلى غيره لفقره وسكونه عن الحركة ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦٨ .

ولليتيم : وهو من فقد أباه وهو صغير ، وللأسير : وهو من أصبح أمره بيد غيره . وخص الإطعام بالذكر : لما فى تقديمه من كرم وسخاء وإيثار ، لاسيما مع الحاجة إليه ، كما يشعر به قوله - تعالى - ﴿ على حبه ﴾ أى : على حبهم لذلك الطعام ، وقيل الضمير فى قوله ﴿ على حبه ﴾ يعود إلى الله - عز وجل - أى : يطعمون الطعام على حبهم له - تعالى - .

والأول أولى . ويؤيده قوله - تعالى - ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

و « على » هنا بمعنى مع ، والجملة فى محل نصب على الحال . أى : حالة كونهم كائنين على حب هذا الطعام .

وخص هؤلاء الثلاثة بالذكر ، لأنهم أولى الناس بالرعاية والمساعدة .

وقد ذكروا فى سبيل نزول هذه الآية ، والآيتين اللتين بعدها ، روايات منها ، أنها نزلت فى الإمام على وزوجه فاطمة - رضى الله عنهما - .

قال القرطبى - بعد أن ذكر هذه الروايات - : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، وفى كل من فعل فعلا حسنا ، فهى عامة ..[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ بيان لشدة إخلاصهم ، ولطهارة نفوسهم . وهو مقول لقول محذوف أى : يقدمون الطعام لهؤلاء المحتاجين مع حبهم لهذا الطعام ، ومع حاجتهم إليه .. ثم يقولون لهم بلسان الحال أو المقال : إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله - تعالى - وطلبا لمثوبته ورحمته .

﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ أى : لا نريد منكم جزاء على ما قدمناه لكم ، ولا نريد منكم شكرا على ما فعلناه ، فإننا لا نلتمس ذلك إلا من الله - تعالى - خالقنا وخالقكم .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾ .

والعبوس : صفة مشبهة لمن هو شديد العبس ، أى كلوح الوجه وانقباضه .

والقمطرير : الشديد الصعب من كل شىء يقال : اقْمَطَرَّ يومُنا ، إذا اشتدت مصائبه .

ووصف اليوم بهذين الوصفين على سبيل المجاز فى الإسناد ، والمقصود وصف أهله بذلك ، فهو من باب : فلان نهاره صائم .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٣٠ .

أى : ويقولون لهم - أيضا - عند تقديم الطعام لهم : إنا نخاف من ربنا يوما ، تعبس فيه الوجوه ، من شدة هوله ، وعظم أمره ، وطول بلائه .

أى : أنهم لم يقدموا الطعام - مع حبهم له - رياء ومفاخرة ، وإنما قدموه ابتغاء وجه الله ، وخوفا من عذابه .

والفاء فى قوله : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم .. ﴾ للتفريع على ما تقدم ولبيان ما ترتب على إخلاصهم وسخائهم من ثواب . أى : فترتب على وفائهم بالتذور ، وعلى خوفهم من عذاب الله - تعالى - وعلى سخائهم وإخلاصهم ، ترتب على كل ذلك أن دفع الله - تعالى - عنهم شر ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة .

﴿ ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ أى : وجعلهم يلقون فيها حسنا وبهجة فى الوجوه ، وسرورا وانشراحا فى الصدور ، بدل العبوس والكلوح الذى حل بوجوه الكفار .

﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أى : بسبب صبرهم ﴿ جنة ﴾ عظيمة .. و ﴿ حريرا ﴾ جميلا يلبسونه . ﴿ متكئين فيها ﴾ أى : فى الجنة ﴿ على الأرائك ﴾ أى : على السرر ، أو على ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ونحوه .

﴿ لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ﴾ أى : لا يرون فيها شمسا شديدة الحرارة بحيث تؤذيهم أو تضرهم ، ولا يرون فيها كذلك ﴿ زمهريرا ﴾ أى : بردا مفرطا ، يقال : زمهر اليوم ، إذا اشتد برده .

والمقصود من الآية الكريمة أنهم لا يرون فى الجنة إلا جوا معتدلا ، لا هو بالحار ولا هو بالبارد .

وقوله - سبحانه - ﴿ ودانية عليهم ظلالها .. ﴾ معطوف على قوله قبل ذلك : ﴿ متكئين ﴾ .

و « ظلالها » فاعل « دانية » والضمير فى « ظلالها » يعود إلى الجنة .

أى : أن الأبرار جالسون فى الجنة جلسة الناعم البال ، المنشرح الصدر . وظلال أشجار الجنة قريبة منهم ، ومحيطة بهم ، زيادة فى إكرامهم .

﴿ وذللت قطوفها تذليلا ﴾ أى : أنهم - فضلا عن ذلك - قد سخرت لهم ثمار الجنة تسخيرا ، وسهل الله - تعالى - لهم تناولها تسهيلا عظيما ، بحيث إن القاعد منهم والقائم

والمضطجع ، يستطيع أن يتناول هذه الثمار اللذيذة بدون جهد أو تعب .

فقوله - تعالى - : ﴿ وذللت ﴾ من التذليل بمعنى الانقياد والتسخير ، يقال : ذُلّل الكرم - بضم الذال - إذا تدلت عناقيده وصارت فى متناول اليد . والقطوف : جمع قطف - بكسر القاف - وهو العنقود حين يُقْطَف أو الثمار المقطوفة .

وبعد أن وصف - سبحانه - جانبا من طعامهم ولباسهم ومسكنهم أخذت السورة الكريمة فى وصف شرابهم . فقال - تعالى - : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديراً ﴾ .

وقوله : ﴿ ويطاف ﴾ من الطواف ، وهو السعى المكرر حول الشىء ، ومنه الطواف بالكعبة . والآنية : جمع إناء ، وهو اسم لكل وعاء يوضع فيه الطعام والشراب والمراد بها هنا : الأوانى : التى يستعملونها فى مجالس شرابهم .

والأكواب : جمع كوب ، وهو القدح الذى لا عروة له ، وعطفه على الآنية من باب عطف الخاص على العام .

والقوارير : جمع قارورة وهى فى الأصل إناء رقيق من الزجاج النقى الشفاف ، توضع فيه الأشربة وما يشبهها ، فتستقر فيه .

أى : ويطاف على هؤلاء الأبرار بآنية كائنة من فضة ، وبأكواب وأقداح من فضة - أيضاً - وجعلت هذه الأكواب فى مثل القوارير فى صفائها ونقائها ، وفى مثل الفضة فى جمالها وحسنها ، بحيث يرى ما بداخلها من خارجها .

وقوله - سبحانه - ﴿ قدروها تقديرا ﴾ أى : إن الطائفين بهذه الأكواب عليهم ، قد وضعوا فيها من الشراب على مقدار ما يشبع هؤلاء الأبرار ويرويهم بدون زيادة أو نقصان والطائفون عليهم بذلك هم الخدم الذين جعلهم الله - تعالى - لخدمة هؤلاء الأبرار . وبنى الفعل للمجهول للعلم بهم .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ بآنية من فضة ﴾ وفى سورة الزخرف ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب .. ﴾ زيادة فى تكريمهم وفى سمو منزلتهم ، إذ تارة يطاف عليهم بأكواب من فضة ، وتارة يطاف عليهم بصحاف من ذهب ، ومن المعروف أنه كلما تعددت المناظر الحسنة ، والمشارب اللذيذة ، كان ذلك أبهج للنفس .

والمراد بالكينونة فى قوله - تعالى - ﴿ كانت قواريرا .. ﴾ أنها تكونت ووجدت على هذه الصفة .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - ﴿ كانت قواريرا ﴾ أى : كانت تلك الأكواب قوارير ، جمع قارورة ، وهى إناء رقيق من الزجاج توضع فيه الأشربة ، ونصبه على الحال ، فإن « كان » تامة ، وهو كما تقول : خلقت قوارير . وقوله - تعالى - : ﴿ قوارير من فضة ﴾ بدل . والكلام على التشبيه البليغ .

والمراد تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ، ولون الفضة وبياضها .

وقرأ نافع والكسائى وأبو بكر بتنوين ﴿ قواريرا ﴾ فى الموضعين وصلا ، وإبداله ألفا وقفا . وابن كثير يمنع صرف الثانى ويصرف الأول .. والقراءة بمنع صرفهما للباقين[1] .

وقال الشوكانى : وجملة « قدروها تقديرا » صفة لقوارير .. أى : قدرها السقاة من الخدم ، الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة ، من دون زيادة ولا نقصان .. ، وقيل : قدرها الملائكة . وقيل : قدرها الشاربون لها من أهل الجنة على مقدار حاجتهم ، فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد ولا تنقص ..[2] .

ثم بين - سبحانه - محاسن شراب أهل الجنة فقال : ﴿ ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ﴾ .

والمراد بالكأس هنا : كأس الخمر . والضمير فى قوله ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الجنة . والزنجبيل : نبات ذو رائحة عطرية طيبة ، والعرب كانوا يستلذون الشراب المزوج به .

والسلسبيل وصف قيل مشتق من السلاسة بمعنى السهولة واللين ، يقال : ماء سلْسَل ، أى : عذب سائغ للشاربين ، ومعنى ﴿ تسمى ﴾ على هذا الرأى . أى : توصف بالسلاسة والعذوبة .

وقيل : السلسبيل : اسم لهذه العين ، لقوله - تعالى - ﴿ تسمى ﴾ .

أى : أن هؤلاء الأبرار - بجانب كل ما تقدم من نعم - يسقون فى الجنة من كأس مليئة بالخمر ، وهذه الخمر التى يشربونها ممزوجة بالزنجبيل ، فتزداد لذة على لذتها .

ويسقون - أيضا - من عين فيها - أى : فى الجنة - تسمى سلسبيلا ، وذلك لسلاسة مائها ولذته وعذوبته ، وسهولة نزوله إلى الحلق .

قال صاحب الكشاف : ﴿ سلسبيلا ﴾ سميت بذلك - لسلاسة انحدارها فى الحلق ، وسهولة مساغها. يعنى : أنها فى طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة ، ولكن فيها نقيض اللذع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٥٩ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٣٥٠ .

وهو السلاسة ، فقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . ودلت على غاية السلاسة ..[١] .

ثم أخبر - سبحانه - عن نوع آخر من الخدم ، يطوفون على هؤلاء الأبرار لخدمتهم ، فقال : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ﴾.

أى : ويطوف على هؤلاء الأبرار ﴿ ولدان مخلدون ﴾ أى : دائمون على ماهم عليه من النضارة والشباب .. إذا رأيتهم - أيها المخاطب ﴿ حسبتهم ﴾ وظننتهم ﴿ لؤلؤا منثورا ﴾ أى : حسبتهم من حسنهم ، وصفاء ألوانهم ، ونضارة وجوههم .. لؤلؤا ودرا مفرقا فى جنبات المجالس وأوسطها .

فقوله - تعالى - ﴿ مخلدون ﴾ احتراس المقصود منه دفع توهم أنهم سيصيرون فى يوم من الأيام كهولا ، قالوا : وشبهوا باللؤلؤ المنثور ، لأن اللؤلؤ إذا نثر على البساط ، كان أكثر جمالا منه فيما لو كان منظوما .

﴿ وإذا رأيت ثم ﴾ وثم هنا ظرف مكان مختص بالبعيد ، وهو منصوب على الظرفية ، ومفعول الرؤية غير مذكور ، لأن القصد : وإذا صدرت منك - أيها المخاطب رؤية إلى هناك ، أى : إلى الجنة ونعيمها .. ﴿ رأيت نعيما ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وملكا كبيرا ﴾ أى : واسعا لا غاية له .

فقوله - سبحانه - ﴿ رأيت ﴾ الثانية ، جواب إذا . والمشار إليه « بِثَمَّ » التى هى بمعنى هناك معلوم من المقام ، لأن المقصود به الجنة التى سبق الحديث عنها فى مثل قوله : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ أى : وإذا سرحت ببصرك إلى هناك رأيت نعيما وملكا كبيرا .

ثم فصل - سبحانه - جانبا من مظاهر هذا النعيم العظيم فقال ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شراباً طهورا ﴾ .

وقوله ﴿ عالِيَهُم ﴾ بفتح الياء وضم الهاء - بمعنى فوقهم ، فهو ظرف خبر مقدم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل : فوقهم ثياب ويصح أن يكون حالا للأبرار . أى : تلك حال أهل النعيم والملك الكبير وهم الأبرار .

وقرأ نافع وحمزة ﴿ عاليهم ﴾ - بسكون الياء وكسر الهاء - على أن الكلام جملة مستأنفة استئنافا بيانياً ، لقوله - تعالى - ﴿ رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾ ، ويكون لفظ ﴿ عاليهم ﴾ أسم فاعل مبتدأ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٧٢ .

وقوله : ﴿ ثياب سندس ﴾ فاعله ساد مسد الخبر ، ويصح أن يكون خبرا مقدماً ، وما بعده مبتدأ مؤخر .

وإضافة الثياب إلى السندس بيانية ، مثل : خاتم ذهب والسندس : الديباج الرقيق . والاستبرق : الديباج الغليظ .

والمعنى : أن هؤلاء الأبرار ، أصحاب النعيم المقيم ، والملك الكبير ، فوق أجسادهم ثياب من أفخر الثياب ، لأنهم يجمعون فى لباسهم بين الديباج الرقيق ، والديباج الغليظ ، على سبيل التنعيم والجمع بين محاسن الثياب .

وكانت تلك الملابس من اللون الأخضر ، لأنها أبهج للنفس ، وشعار لباس الملوك .

وكلمة : « خضر » قرأها بعضهم بالرفع على أنها صفة لثياب ، وقرأها البعض الآخر بالجر ، على أنها صفة لسندس . وكذلك كلمة « وإستبرق » قرئت بالرفع عطفا على ثياب ، وقرئت بالجر عطفا على سندس .

وقوله : ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ بيان لما يتزينون به فى أيديهم ، أى أن هؤلاء الأبرار يلبسون فى أيديهم أساور من فضة ، كما هو الشأن بالنسبة للملوك فى الدنيا ، ومنه ما ورد فى الحديث من ذكر سوارى كسرى .

وقوله - تعالى - : ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ أى : وفضلا عن كل تلك الملابس الفاخرة سقاهم ربهم - بفضله وإحسانه - شراباً بالغا نهاية الطهر ، فهو ليس كخمر الدنيا ، فيه الكثير من المساوىء التى تؤدى إلى ذهاب العقول .. وإنما خمر الآخرة : شراب لذيذ طاهر من كل خبث وقذر وسوء .

وجاء لفظ « طهورا » بصيغة المبالغة ، للإشعار بأن هذا الشراب قد بلغ النهاية فى الطهارة .

ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الواسع العظيم ، ببيان ما ستقوله الملائكة لهؤلاء الأبرار على سبيل التكريم والتشريف ، فقال : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مقول لقول محذوف ، والقائل هو الله - تعالى - أو ملائكته بأمره - سبحانه - وإذنه ، أى : سقاهم ربهم شرابا طهورا فى الآخرة ، ويقال لهم عند تمتعهم بكل هذا النعيم ، ﴿ إن هذا ﴾ النعيم الذى تعيشون فيه ﴿ كان لكم جزاء ﴾ على إيمانكم وعملكم الصالح فى الدنيا .

﴿ وكان سعيكم مشكورا ﴾ أى : مرضيا ومقبولا عند خالقكم ، فازدادو - أيها الأبرار - سرورا على سروركم ، وبهجة على بهجتكم .

وبعد هذا التفصيل لما أعده الله - تعالى - لعباده الأخيار من أصناف النعيم ، المتعلق بمأكلهم ، ومشربهم .. أخذت السورة الكريمة . فى أواخرها - فى تثبيت النبى - ﷺ - وأصحابه . وفى دعوته - ﷺ - إلى المداومة على التحلى بفضيلة الصبر ، وإلى الإكثار من ذكره - تعالى - وأنذرت الكافرين والفاسقين إذا ما استمروا فى ضلالهم . فقال - تعالى - :

إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ
خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا
﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

وجاء قوله - تعالى - : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾ مؤكدا بجملة من المؤكدات . منها : إن ، ونحن ، وتنزيلا .. للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله - تعالى - وقالوا فى شأنه : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

أى : إنا نحن - وحدنا - أيها الرسول الكريم - ، الذين نزلنا عليك القرآن تنزيلا محكما ، وفصلناه تفصيلا متقنا ، بأن أنزلناه على قلبك مفرقا على حسب مشيئتنا وحكمتنا .

والفاء فى قوله : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ للإفصاح . وعدى فعل الصبر باللام ، لتضمنه معنى الخضوع والاستسلام لقضائه - سبحانه - .

أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاصبر لحكم ربك ، واخضع لقضائه ومشيئته ، فهو - سبحانه - الكفيل بنصرك عليهم .

وقوله : ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - من هؤلاء المشركين ، من كان داعياً إلى الإثم والفجور ، أو من كان داعيا إلى الكفر والجحود .

ولم يقل - سبحانه - ولا تطع منهم آثما وكفورا بالواو ، لأن الواو تجعل الكلام محتملا للنهى عن المجموع ، وأن طاعة أحدهما دون الآخر تكفى فى الامتثال .

ولذا قال الزجاج : إن « أو » هنا أوْكد من الواو ، لأنك إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا ، فأطاع أحدَهما كان غير عاص ، فإن أبدلتها بأو ، فقد دللتَ على أن كل واحد منهما ، أهل لأن يعصى ، ويعلم منه النهى عن إطاعتهما معاً[1] .

والآثم : هو الفاجر بأقواله وأفعاله . والكفور : هو الجاحد بقلبه ولسانه .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : تكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لإنّ : تأكيد على تأكيد ، لمعنى اختصاص الله - تعالى - بالتنزيل ، ليتقرر فى نفس رسول الله - ﷺ - أنه إذا كان هو المنزل للقرآن ، لم يكن تنزيله على أى وجه نزل ، إلا حكمة وصوابا ، كأنه قيل : ما نزل عليك القرآن تنزيلا مفرقا منجما ، إلا أنا لا غيرى ، وقد عرفتنى حكيما فاعلا لكل ما أفعله .

فإن قلت : كلهم كانوا كفرة ، فما معنى القسمة فى قوله : ﴿ آثما أو كفورا ﴾ ؟ قلت : معناه لا تطع منهم راكبا لما هو إثم ، داعيا لك إليه ، أو فاعلا لما هو كفر ، داعيا لك إليه . لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل إثم أو كفر ، أو غير إثم ولا كفر : فنهى عن أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث . فإن قلت : معنى أو : ولا تطع أحدهما ، فهلا جىء بالواو وليكون نهيا عن طاعتهما جميعا ؟

قلت : لو قيل : ولا تطعهما ، جاز أن يطيع أحدهما ، وإذا قيل : لا تطع أحدهما ، علم أن الناهى عن طاعة أحدهما : عن طاعتهما جميعا أنهى، كما إذا نهى عن أن يقول لأبويه أف ، علم أنه منهى عن ضربهما بالطريق الأولى ..[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٦٢ .

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٧٤ .

والمقصود من هاتين الآيتين تثبيت فؤاد النبى - ﷺ - وتيئيس المشركين من استجابته - ﷺ - لأى مطلب من مطالبهم الفاسدة .

ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يعينه على الصبر والثبات . فقال : ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ .

والبكرة : أول النهار . والأصيل : آخره . والمراد : المداومة على ذكر الله - تعالى - فى كل وقت . أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على ذكر الله - تعالى - فى أول النهار وفى آخره ، وعلى صلاة الفجر ، والظهر والعصر .

﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ - تعالى - وأكثر من ذكره ، وواظب على صلاة المغرب والعشاء .

﴿ وسبحه ليلا طويلا ﴾ أى : ونزهه - تعالى - وتهجد له وقتا طويلا من الليل .

فهاتان الآيتان ترشدان الرسول - ﷺ - إلى ما يعينه على الازدياد من فضيلة الصبر الجميل ، والثبات على الحق .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين فى معناهما : قوله - تعالى - ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى تجعله - ﷺ - لا يطيع أحدا منهم فقال : ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ .

أى : نحن قد نهيناك - يا محمد - عن طاعة أحد من هؤلاء المشركين ، لأنهم جميعا ديدنهم ودأبهم أنهم يحبون ﴿ العاجلة ﴾ أى : الدنيا ولذائذها وشهواتها ، العاجلة الزائلة .

﴿ ويذرون وراءهم ﴾ أى : ويتركون وينبذون وراء ظهورهم ﴿ يوما ثقيلا ﴾ وهو يوم القيامة ، الشديد الأهوال ، الذى يجعل الولدان شيبا .

ومع شدة هوله فهم لا يستعدون له ، ولا يحسبون له حسابا .

فالآية الكريمة توبيخ وتجهيل لهم ، حيث آثروا الفانى على الباقى ، والعاجل على الآجل .

ووصف يوم القيامة بالثقل ، لشدة ما يقع فيه من أهوال وكروب ، فهو كالشىء الثقيل الذى لا يستطاع حمله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله عليهم ، ومع ذلك أشركوا معه فى العبادة غيره فقال : ﴿ نحن خلقناهم ، وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾ .

أى : نحن وحدنا الذين خلقناهم وأوجدناهم من العدم .

ونحن وحدنا الذين ﴿ شددنا أسرهم ﴾ أى : قوينا وأحكمنا وأتقنا خلقهم ، بأن منحناهم السمع والأبصار والأفئدة والعقول .. وربطنا بين مفاصلهم وأجزاء أجسادهم ربطا عجيبا معجزا .

يقال : أَسَر الله - تعالى - فلانا ، أى : خلقه - وبابه ضرب - وفرس شديد الأَسْر ، أى : شديد الخَلْق ، والأسر : القوة ، مشتق من الإسار - بكسر الهمزة - وهو الحبل الذى تشد به الأحمال ، يقال : أَسَر فلان الحمل أَسْرًا ، إذا أحكم ربطه ، ومنه الأسير لأنه يُرْبَط بالإسار ، أى : القيد .

والمقصود بالأسر هنا : الإحكام والإتقان ، والامتنان عليهم بأن الله - تعالى - خلقهم فى أحسن وأتقن خلق .

وقوله - سبحانه - ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾ تأكيد لشمول قدرته - تعالى - أى : ونحن وحدنا الذين خلقناهم ، ونحن وحدنا الذين ربطنا مفاصلهم وأعضاءهم ربطا متقنا بديعا .

ومع ذلك ، فإننا إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم ، وجئنا بأمثالهم وأشباههم فى شدة الخلق ، وبدلناهم تبديلا معجزا ، لا يقدر عليه أحد سوانا .

وقوله : ﴿ تبديلا ﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله وهو بدلناهم .

ومن الآيات الشبيهة لهذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز ﴾(٢) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحض على طاعته ، وبالتحذير من معصيته فقال : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ .

أى : إن هذه الآيات التى أنزلناها عليك ه يا محمد - تذكرة وموعظة للناس ، فمن شاء

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٣ .

(٢) سورة إبراهيم الآيتان ١٩ - ٢٠ .

أن يتخذ إلى الله - تعالى - وسيلة وطريقة يتقرب بها إليه - تعالى - اتخذها ، لأنها خير هداية إلى رضاه - سبحانه - .

والتعبير بقوله : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ تحريض شديد على المسارعة إلى الطاعة ، لأن الله - تعالى - قد مكن الناس من ذلك ، حيث وهبهم الاختيار والعقول المفكرة ، وأرسل إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

ثم بين - سبحانه - أن مشيئته فوق كل مشيئة فقال : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ .

أى : وما تشاءون شيئا من الأشياء ، إلا بعد خضوع هذا الشىء لمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، إذ هو الخالق - سبحانه - لكل شىء ، وهو صاحب الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ أى : إنه - تعالى - كان وما زال صاحب العلم المطلق الذى لا يحده شىء ، وصاحب الحكمة البليغة التى لا نهاية لها .

﴿ يدخل ﴾ - سبحانه - ﴿ من يشاء ﴾ إدخاله ﴿ فى رحمته ﴾ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

﴿ والظالمين أعد لهم ﴾ - سبحانه - ﴿ عذاباً أليما ﴾ بسبب إصرارهم على ظلمهم ، وإيثارهم الباطل على الحق ، والغى على الرشد .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن هم أهل لرحمته ورضوانه ، وأن يبعدنا عمن هم أهل لعذابه ونقمته .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر :

٢٥ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ .

٣٠ من أغسطس سنة ١٩٨٦ م

الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة المرسلات

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المرسلات » هى السورة السابعة والسبعون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثالثة والثلاثون ، وقد كان نزولها بعد سورة « الهمزة » ، وقبل سورة « ق » .

وهى من السور المكية الخالصة ، وقيل إن آية : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ مدنية ، وهذا القيل لا وزن له ، لأنه لا دليل عليه . وعدد آياتها : خمسون آية .

٢ - وقد ذكروا فى فضلها أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : بينما نحن مع النبى - ﷺ - فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : « والمرسلات » ، فإنه ليتلوها ، وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ..

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن أم الفضل - امرأة العباس - سمعته يقرأ « والمرسلات عرفا » ، فقالت : يابنى - ذكرتنى بقراءتك هذه السورة . إنها لآخر ما سمعت رسول الله - ﷺ - يقرأ بها فى المغرب [١] .

٣ - وسورة المرسلات زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال المكذبين فى هذا اليوم ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن حسن عاقبة المتقين ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٢٠ .

التفسير

وقد افتتحت هذه السورة بقوله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ
﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ
﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

وللمفسرين فى معنى هذه الصفات الخمس : « المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات » اتجاهات ، فمنهم من صدر تفسيره ببيان أن المراد بها الملائكة . فقد قال صاحب الكشاف : أقسم الله بطوائف من الملائكة ، أرسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن كما تعصف الرياح ، تخففا فى امتثال أمره . وبطوائف منهن نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى ، أو نشرن الشرائع فى الأرض .. ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكرا إلى الأنبياء عذرا ، للمحقين ، أو نذرا للمبطلين .

فإن قلت : ما معنى عرفا ؟ قلت : متتابعة كشعر العُرْفِ - أى : عرف الفرس - يقال : جاءوا عرفا واحدا ، وهم عليه كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ..[1] .

ومنهم من يرى أن المراد بالمرسلات وما بعدها : الرياح ، فقد قال الجمل فى حاشيته :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٧٧ .

أقسم الله - تعالى - بصفات خمس موصوفها محذوف ، فجعلها بعضهم الرياح فى الكل ، وجعلها بعضهم الملائكة فى الكل ... وغاير بعضهم فجعل الصفات الثلاث الأول ، لموصوف واحد هو الرياح وجعل الرابعة لموصوف ثان وهو الآيات ، وجعل الخامسة لموصوف ثالث وهو الملائكة ..[١] .

وسنسير نحن على هذا الرأى الثالث ، لأنه فى تصورنا أقرب الآراء إلى الصواب ، إذ أن هذه الصفات من المناسب أن يكون بعضها للرياح ، وبعضها للملائكة .

فيكون المعنى : وحق الرياح المرسلات لعذاب المكذبين ، فتعصفهم عصفا ، وتهلكهم إهلاكا شديدا ، فقوله : ﴿ عصفاً ﴾ وصف مؤكد للإهلاك الشديد ، يقال : عصفت الريح ، إذا اشتدت ، وعصفت الحرب بالقوم ، إذا ذهبت بهم ، وناقة عصوف ، إذا مضت براكبها مسرعة ، حتى لكأنها الريح .

وقوله : ﴿ والناشرات نشرا ﴾ أى : وحق الرياح التى تنتشر انتشارا عظيما فى الآفاق ، فتأتى بالسحب ، التى تتحول بقدرة الله - تعالى - إلى أمطار غزيرة نافعة .

قال ابن كثير - بعد أن ذكر آراء العلماء فى معنى هذه الألفاظ - : والأظهر أن المرسلات هى الرياح ، كما قال - تعالى - : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح .. ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ . وهكذا العاصفات هى الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هبت بتصويت ، وكذا ﴿ الناشرات ﴾ : هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء كما يشاء الرب - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - ﴿ فالفارقات فرقا ﴾ يصح أن يكون وصفا للملائكة الذين ينزلون بالشرائع المفرقة بين الحق والباطل ، وبين أهل الحق وأهل الضلال .

ويصح أن يكون وصفا للآيات التى أنزلها الله - تعالى - للتمييز بين الخير والشر ، والرشد والغى .

وقوله ﴿ فالملقيات ذكرا ﴾ قال القرطبى : هم الملائكة بإجماع ، يلقون كتب الله - تعالى - إلى الأنبياء - عليهم السلام - ..[٢] .

فالمراد بالذكر فى قوله ﴿ فالملقيات ذكرا ﴾ : وحى الله - تعالى - الذى يبلغه الملائكة إلى الرسل .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٦٣ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٥٦ .

وقوله ﴿ عذرا أو نذرا ﴾ منصوبان على أنهما يدل اشتمال من قوله ﴿ ذكرا ﴾ أو مفعول لأجله . أى : أن الملائكة يلقون وحى الله - تعالى - إلى أنبيائه ، لإزالة أعذار المعتذرين عن الإيمان ، حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ولإنذار الكافرين والفاسقين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وفسوقهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما العذر والنذر ، وبماذا انتصبا ؟ قلت : هما مصدران من أعذر إذا محا الإساءة ، ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والنكر ، ويجوز أن يكون جمع عذير ، بمعنى المعذرة ، وجمع نذير بمعنى الإنذار ... وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرا ... أو على المفعول له ..[1] .

وجملة ﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ جواب القسم ، وجىء بها مؤكدة ، لتقوية تحقيق وقوع الجواب ، وما وعدوا به هو البعث والحساب .

أى : وحق الرياح المرسلة لعذاب المشركين .. وحق الملائكة الذين نرسلهم بوحينا للتفريق بين الحق والباطل ، ولتبليغ رسلنا ما كلفناهم به .. إنكم - أيها الكافرون - لمبعوثون ومحاسبون على أعمالكم يوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه وحصوله وثبوته .

ثم بين - سبحانه - علامات هذا اليوم فقال : ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أى : محقت وذهب ضوؤها ، وزال نورها . يقال : طمست الشىء ، من باب ضرب - إذا محوته واستأصلت أثره ، ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى : شقت أو فتحت، وتدلت أرجاؤها، ووهت أطرافها . ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أى : اقتلعت وأزيلت من أماكنها . يقال : نسف فلان البناء ينسفه ، إذا قلعه من أصله .

﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى : بلغت وقتها الذى كانت تنتظره ، وهو يوم القيامة ، للقضاء بينهم وبين أقوامهم . فقوله : ﴿ أقتت ﴾ من التوقيت ، وهو جعل الشىء منتهيا إلى وقته المحدد له .

قال الآلوسى : قوله ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى : بلغت ميقاتها . وجوز أن يكون المعنى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على الأمم ، وذلك عند مجىء يوم القيامة ..[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٧٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٧٢ .

وجواب ﴿ إذا ﴾ وما عطف عليها فى قوله ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ محذوف ، والتقدير : وقع ما وعدناكم به وهو يوم القيامة .

وقوله : ﴿ لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ تعليل لبلوغ الرسل الى الوقت الذى كانوا ينتظرونه لأخذ حقوقهم من أقوامهم الظالمين ، والاستفهام للتهويل والتعظيم من شأن هذا اليوم .

أى : لأى يوم أخرت الأمور التى كانت متعلقة بالرسل ؟ من تعذيب الكافرين ، وإثابة المتقين ... إنها أخرت وأجلت ، ليوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، الذى يفصل الله - تعالى - فيه بقضائه العادل بين العباد .

﴿ وما أدراك ﴾ ، - أيها المخاطب - ﴿ ما يوم الفصل ﴾ ؟ إنه يوم هائل شديد ، لا تحيط العبارة بكنهه ، ولا يعلم إلا الله - تعالى - وحده مقدار أهواله .

ويقال فى هذا اليوم لكل فاسق عن أمر ربه ، ومشرك معه فى العبادة غيره ، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين بالحق الذى جاء به الرسل ، وبلغوه إلى أقوامهم .

وقد تكررت هذه الآية عشر مرات فى تلك السورة الكريمة ، على سبيل الوعيد والتهديد لهؤلاء المكذبين لرسلهم ، والجاحدين لنعم خالقهم ، والويل : أشد السوء والشر ، وهو فى الأصل مصدر بمعنى الهلاك ، وكان حقه النصب بفعل من لفظه أو معناه ، إلا أنه رفع على الابتداء ، للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه .

وقوله ﴿ يومئذ ﴾ ظرف للويل أو صفة له ، ولذا صح الابتداء به .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كإهلاك المكذبين السابقين ، وخلق الأولين والآخرين ، والإنعام على الناس بالجبال والأنهار .. قال - تعالى - :

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٧٢ .

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

والاستفهام فى قوله ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ وفى الآيات المماثلة له بعد ذلك ، للتقرير ، والمقصود به استخراج الاعتراف والإقرار من مشركى قريش على صحة البعث ، لأن من قدر على الإهلاك ، قادر على الإعادة .

أى : لقد أهلكنا الأقوام الأولين الذين كذبوا رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود .

﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ أى : أهلكنا الأولين ، ثم نتبعهم بإهلاك المتأخرين عنهم ، والذين يشبهون سابقيهم فى الكفر والجحود .

و « ثم » هنا للتراخى الرتبى ، لأن إهلاك الآخرين الذين لم يعتبروا بمن سبقهم سيكون أشد من إهلاك غيرهم ، وفى ذلك تهديد شديد ووعيد واضح لمشركى مكة .

وقوله : ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أى : مثل ذلك الفعل الشنيع ، والعقاب الأليم ، نفعل بالمجرمين الذين أصروا على كفرهم وعنادهم حتى أدركهم الموت .

فالكاف بمعنى مثل ، والإشارة فى قوله : ﴿ كذلك ﴾ تعود إلى الفعل المأخوذ من قوله ﴿ نفعل ﴾ أى : مثل ذلك الفعل نفعل بالمجرمين .

ثم كرر - سبحانه - التهديد والوعيد لهم ، لعلهم يرتدعون أو يتعظون فقال : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

ثم قال - سبحانه - ممتنا على خلقه بإيجادهم فى هذه الحياة ، ومحتجا على إمكان الإعادة بخلقهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، فقال : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ .

أى : لقد خلقناكم - أيها الناس - من نطفة حقيرة ضعيفة ، من مَهُن الشىء - بفتح الميم وضم الهاء - إذا ضعف ، وميمه أصلية ، وليس هو من مادة هان ، و « من » ابتدائية .

وقوله : ﴿ فجعلناه فى قرار مكين ﴾ تفصيل لكيفية الخلق على سبيل الإدماج ، والقرار : اسم للمكان الذى يستقر فيه الماء ، والمراد به رحم المرأة . والمكين صفة له .

أى : خلقناكم من ماء ضعيف ، ومن مظاهر قدرتنا وحكمتنا ولطفنا بكم أننا جعلنا هذا الماء الذى خلقتم منه ، فى مكان حصين ، قد بلغ النهاية فى تمكنه وثباته .

فقوله ﴿ مكين ﴾ بمعنى متمكن ، من مَكُنَ الشىء مكانة ، إذا ثبت ورسخ .

وقوله : ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ بيان لبديع حكمته ، والقدر بمعنى المقدار المحدد المنضبط ، الذى لا يتخلف .

أى : جعلنا هذا الماء فى قرار مكين ، إلى وقت معين محدد فى علم الله - تعالى - يأذن عنده بخروج هذا المخلوق من رحم أمه ، إلى الحياة ، وهذا الوقت هو مدة الحمل .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ ثناء منه - تعالى - على ذاته بما هو أهله . أى : فقدَّرنا ذلك الخلق تقديرا حكيما منضبطا ، وتمكنا من إيجاده فى أطوار متعددة ، فنعم المقدرون نحن ، ونعم الموجدون نحن لما نوجده من مخلوقات .

وما دام الأمر كذلك فويل وهلاك يوم القيامة ، للمكذبين بوحدانيتنا وقدرتنا .

ثم انتقل - سبحانه - إلى الاستدلال على إمكانية البعث بطريق ثالث فقال : ﴿ ألم نجعل الأرض كِفاتا ، أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسى شامخات ﴾ .

والكِفات : اسم للمكان الذى يكفت فيه الشىء . أى : يجمع ويضم ويوضع فيه .

يقال : كفت فلان الشىء يكفِتُه كَفْتاً ، من باب ضرب - إذا جمعه ووضعه بداخل شىء معين ، ومنه سمى الوعاء كفاتا ، لأن الشىء يوضع بداخله ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان لقوله ﴿ نجعل ﴾ ، لأن الجعل هنا بمعنى التصيير .

وقوله : ﴿ أحياء وأمواتا ﴾ منصوبان على أنهما مفعولان به ، لقوله ﴿ كفاتا ﴾ . أو مفعولان لفعل محذوف .

أى : لقد جعلنا الأرض وعاء ومكانا تجتمع فيه الخلائق : الأحياء منهم يعيشون فوقها ، والأموات منهم يدفنون فى باطنها ، ﴿ وجعلنا فيها ﴾ - أيضا - جبالا ﴿ رواسى ﴾ أى : ثوابت ﴿ شامخات ﴾ أى : مرتفعات ارتفاعا كبيرا، جمع شامخ وهو الشديد الارتفاع .

قال صاحب الكشاف : الكفات : من كفت الشىء إذا ضمه وجمعه .. وبه انتصب ﴿ أحياء وأمواتا ﴾ كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتا ، أو انتصبا بفعل مضمر يدل عليه ، وهو تكفت .

والمعنى : تكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتا فى بطنها .

فإن قلت : لم قيل أحياء وأمواتا على التنكير ، وهى كفات الأحياء والأموات جميعا ؟ قلت : هو من تنكير التفخيم ، كأنه قيل : تكفت أحياء لا يعدون ، وأمواتاً لا يحصرون ..[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ بيان لنعمة أخرى من أجل نعمه على خلقه ، أى : وأسقيناكم - بفضلنا ورحمتنا - ماء ﴿ فراتا ﴾ أى : عذبا سائغا للشاربين .

وقوله - تعالى - ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ تكرير للتوبيخ والتقريع على جحودهم لنعم الله ، التى يرونها بأعينهم ، ويحسونها بحواسهم ويستعملونها لمنفعتهم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان المصير الأليم الذى ينتظر هؤلاء المكذبين ، فقال - تعالى - : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ انطلقوا ﴾ مفعول لقول محذوف . أى : يقال للكافرين يوم القيامة - على سبيل الإهانة والإذلال - : انطلقوا إلى ماكنتم تكذبون به فى الدنيا من العذاب .

وقوله : ﴿ انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب .. ﴾ بدل مما قبله ، وأعيد فعل ﴿ انطلقوا .. ﴾ على سبيل التوكيد ، لقصد الزيادة فى تقريعهم وتوبيخهم .

والمراد بالظل : دخان جهنم ، وسمى بذلك لشدة كثافته ، أى : انطلقوا - أيها المشركون - إلى ظل من دخان جهنم الذى يتصاعد من وقودها ، ثم يتفرق بعد ذلك إلى ثلاث شعب ، شأن الدخان العظيم عندما يرتفع .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٨٠ .

وسمى هذا الدخان العظيم الخانق بالظل ، على سبيل التهكم بهم ، إذ هم فى هذه الحالة يكونون فى حاجة شديدة إلى ظل يأوون إلى برده .

ثم وصف - سبحانه - هذا الظل بصفة ثانية فقال : ﴿ لا ظليل ﴾ أى : ليس هو بظل على سبيل الحقيقة ، وإنما هو دخان خانق لا برد فيه .

ثم وصفه بصفة ثالثة فقال : ﴿ ولا يغنى من اللهب ﴾ أى : أن هذا الظل الذى تنطلقون إليه لا يغنى شيئا من الإغناء ، من حر لهب جهنم التى هى مأواكم ونهايتكم .

وبهذه الصفات يكون لفظ الظل ، قد فقد خصائصه المعروفة من البرودة والشعور عنده بالراحة .. وصار المقصود به ظلا آخر ، لا برد فيه ، ولا يدفع عنهم شيئا من حر اللهب .

وهذه الصفات إنما جىء بها لدفع ما يوهمه لفظ « ظل » .

وعدى الفعل « يغنى » بحرف من ، لتضمنه معنى يُبْعِد .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر .. ﴾ لجهنم ، لأن السياق كله فى شأنها وفى شأن المصطلين بلهيبها .

والشرر : واحده شررَة ، وهى القطعة التى تتطاير من النار لشدة اشتعالها .

والقصر : البناء العالى المرتفع . وقيل : هو الغليظ من الشجر . أو هو قطع من الخشب ، يجمعها الجامعون للاستدفاء بها من البرد . وقوله : ﴿ جِمَالة ﴾ جمع جَمَل - كحجارة وحجر .

قال الآلوسى : « جمالة » بكسر الجيم - كما قرأ به حمزة والكسائى وحفص وهو جمع جمل .

والتاء لتأنيث الجمع . يقال : جمل وجمال وجِمالة .. والتنوين للتكثير .

وقرأ الجمهور ﴿ جِمالاتٌ ﴾ - بكسر الجيم مع الألف والتاء - جمع جِمَال .. فيكون جمع الجمع ..[1] .

والمعنى : إنها - أى : جهنم - ترمى المكذبين بالحق ، الذين هم وقودها ، ترميهم بشرر متطاير منها لشدة اشتعالها ، كل واحدة من هذا الشرر كأنها البناء المرتفع فى عظمها وارتفاعها .

وقوله - تعالى - : ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ وصف آخر للشرر ، أى : كأن هذا الشرر فى هيئته ولونه وسرعة حركته .. جمال لونها أصفر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٢٦ .

واختير اللون الأصفر للجمال ، لأن شرر النار عندما يشتد اشتعالها يكون مائلا إلى الصفرة .

وقيل المراد بالصفر هنا : السواد ، لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد شبه الشرر الذى ينفصل عن النار فى عظمته وضخامته بالقصر ، وهو البناء العالى المرتفع ، وشبهه - أيضا - حين يأخذ فى الارتفاع والتفرق .. بالجمال الصفر ، فى هيئتها ولونها وسرعة حركتها ، وتزاحمها .

والمقصود بهذا التشبيه : زيادة الترويع والتهويل ، فإن هؤلاء الكافرين لما كذبوا بالحساب والجزاء ، وصف الله - تعالى - لهم نار الآخرة بتلك الصفات المرعبة ، لعلهم يقلعون عن شركهم ، لاسيما وأنهم يرون النار فى دنياهم ، ويرون شررها حين يتطاير .. وإن كان الفرق شاسعا بين نار الدنيا ونار الآخرة .

وزيادة فى التخويف والإنذار ختمت هذه الآيات - أيضا - بقوله - تعالى - ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يردون على النار ، ويوشكون على القذف بهم فيها ، فقال - تعالى - ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

أى : ويقال لهؤلاء المجرمين - أيضاً - عند الإلقاء بهم فى النار : هذا يوم لا ينطقون فيه بشىء ينفعهم ، أو لا ينطقون فيه إطلاقا لشدة دهشتهم ، وعظم حيرتهم .

ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، فإنهم بعد أن خوطبوا خطاب إهانة وإذلال بقوله - تعالى - : ﴿ انطلقوا ﴾ أعرض المخاطبون لهم ، على سبيل الإهمال لهؤلاء الكافرين ، وقالوا لهم : هذا يوم القيامة الذى لا يصح لكم النطق فيه .

وهذا لا يتعارض مع الآيات التى تفيد نطقهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ لأن فى يوم القيامة مواطن متعددة ، فهم قد ينطقون فى موطن ، ولا ينطقون فى موطن آخر .

وقوله - تعالى - ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ معطوف على ما قبله . أى : فى يوم القيامة لا ينطق هؤلاء المجرمون نطقاً يفيدهم ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار عما ارتكبوه من سوء ، حتى يقبل اعتذارهم ، وإنما يرفض اعتذارهم رفضاً تاماً ، لأنه قد جاء فى غير وقته وأوانه .

يقال : اعتذرت إلى فلان ، إذا أتيت له يعذر يترتب عليه محو الإساءة .

ثم يقال لهم - أيضا - على سبيل التحدى والتقريع ﴿ هذا ﴾ هو يوم القيامة ﴿ يوم الفصل ﴾ بين المحقين والمبطين ﴿ جمعناكم ﴾ فيه - أيها الكافرون - مع من تقدمكم من الكفار ﴿ الأولين ﴾ .

﴿ فإن كان لكم ﴾ - أيها الكافرون - ﴿ كيد ﴾ أى : مخرج وحيلة ومنفذ من العذاب الذى حل بكم ﴿ فكيدون ﴾ أى : فافعلوه وقوموا به فأنتم الآن فى أشد حالات الاحتياج إلى من يخفف العذاب عنكم .

أو المعنى : ﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ أى : قدرة على كيد دينى ورسلى والمؤمنين ، كما كنتم تفعلون فى الدنيا ﴿ فكيدون ﴾ أى : فأظهروه اليوم . والأمر للتعجيز ، لأنه من المعروف أنهم فى يوم القيامة لاقدرة لهم ولا حيلة .

وهكذا نجد أن هذه الآيات الكريمة ، قد ساقت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن يوم البعث حق ، وعلى العاقبة السيئة التى سيكون عليها الكافرون يوم القيامة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالموازنة بين حال المتقين ، وحال المجرمين ، فقال :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

أى : ﴿ إن المتقين ﴾ الذين صانوا فى دنياهم أنفسهم عن الكفر والفسوق والعصيان ، واعتصموا بالرشد والهدى والإيمان .

سيكونون يوم القيامة ﴿ فى ظلال ﴾ الأشجار والقصور ، جمع ظل : وهو كل موضع

لا تصل إليه الشمس . وفى ﴿ عيون ﴾ من ماء وعسل ولبن وخمر .

وهم - أيضا - فى ﴿ فواكه ﴾ وهى ما يتفكه به ويتنعم . جمع فاكهة ﴿ مما يشتهون ﴾ أى : يأكلون من تلك الفواكه ما يشتهونه منها ، بدون تعب فى طلبها ، فهى تحت أيديهم .

ويقال لهم - على سبيل التكريم والتشريف - ﴿ كلوا ﴾ أكلا مريئا ﴿ واشربوا ﴾ شربا ﴿ هنيئا ﴾ جزاء ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من أعمال صالحة .

﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى : إنا من شأننا أننا نعطى مثل هذا الجزاء الطيب للمؤمنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم ، وصانوا أنفسهم عن كل مالا يرضينا ، هذا هو جزاء المتقين المحسنين ، أما الكافرون المكذبون ، فيقال لهم مرة ومرات - على سبيل التوبيخ والزجر - : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ﴾ .

أى : ﴿ كلوا ﴾ فى دنياكم كما تأكل الأنعام ﴿ وتمتعوا ﴾ بملذاتكم متاعا ﴿ قليلا ﴾ سينتهى عما قريب ، وستلقون فى آخرتكم أشد أنواع العذاب . بسبب أنكم كنتم فى الدنيا دأبكم الإجرام ، والإصرار على الكفر والفسوق والعصيان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صح أن يقال لهم ذلك فى الآخرة ؟ قلت : يقال لهم ذلك فى الآخرة إيذانا بأنهم كانوا فى الدنيا أحقاء بأن يقال لهم ، وكانوا من أهله ، تذكيرا بحالهم السمجة ، وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل ، على النعيم والملك الخالد .

وعلل ذلك بكونهم مجرمين ، دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياما قليلة ، ثم البقاء فى الهلاك أبدا . ويجوز أن يكون ﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ كلاما مستأنفا خطابا للمكذبين فى الدنيا ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هلاك دائم وعذاب مقيم يوم القيامة للمكذبين ، الذين آثروا المتاع القليل الفانى فى الدنيا ، على النعيم الدائم فى الآخرة .

﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أى : وإذا قيل لهؤلاء المجرمين اركعوا فى الدنيا مع الراكعين ، وأدوا فريضة الصلاة مع الرسول - ﷺ - ومع المؤمنين .

إذا قيل لهم ذلك - على سبيل النصح والإرشاد - صموا آذانهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، وأبوا أن يصلوا مع المصلين .

وعبر عن الصلاة بالركوع ، باعتبار أن الركوع من أهم أركانها ، فهو من باب التعبير بالجزء عن الكل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٨٢ .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هلاك شديد يوم القيامة لهؤلاء المكذبين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا التعجيب من أحوالهم التى بلغت النهاية فى القبح والجحود والعناد فقال - تعالى - : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

والفاء للإفصاح ، أى : إذا كانوا لم يؤمنوا بهذا القرآن المشتمل على أسمى أنواع الهدايات وأحكمها وأوضحها .. فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون ؟ إنه من المستبعد إيمانهم بعد أن أعرضوا عن كل الحجج التى تهدى إلى الإيمان ، فالاستفهام فى قوله : ﴿ فبأى حديث .. ﴾ مستعمل فى الإنكار التعجيبى من حالهم ، والضمير فى « بعده » يعود إلى القرآن ، وهو وإن لم يسبق له ذكر ، فإنه ملحوظ فى أذهانهم ، إذ فى كل وقت يذكرهم الرسول - ﷺ - به .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « المرسلات » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر . الراجى عفو ربه

صباح السبت ٢ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ د . محمد سيد طنطاوى

الموافق ٦ / ٩ / ١٩٨٦ م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير
سورة النبأ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « النبأ » هى أول سورة فى الجزء الأخير من القرآن الكريم ، وتسمى - أيضا - بسورة « عم يتساءلون » وبسورة « عم » ، وبسورة « المعصرات » ، وبسورة « التساؤل » ، فهذه خمسة أسماء لهذه السورة ، سميت بها لورود هذه الألفاظ فيها .

٢ - وهى من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها أربعون آية فى المصحف الكوفى والمكى ، وإحدى وأربعون فى غيرهما . وكان نزولها بعد سورة « المعارج » ، وقبل سورة « النازعات » .

٣ - وهذه السورة من أهم مقاصدها : توبيخ المشركين على خوضهم فى القرآن الكريم بدون علم ، وتهديدهم بسوء المصير إذا ما استمروا فى طغيانهم ، وإقامة الأدلة المتنوعة على وحدانية الله - تعالى - وعلى مظاهر قدرته ، وبيان ما أعده - سبحانه - للكافرين من عقاب ، وما أعده للمتقين من ثواب ، وإنذار للناس بوجوب تقديم العمل الصالح من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لا ينفع فيه الندم على ما فات ..

٤ - ويبلغ عدد سور هذا الجزء الأخير من القرآن الكريم سبعا وثلاثين سورة ، كلها مكية ، سوى سورتى « البينة والنصر » وكلها تمتاز بقصرها ، على تفاوت فى هذا القصر ، ومعظمها مشتمل على إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله . وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى المقارنة بين حسن عاقبة

الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار ، وعلى التذكير المتكرر بأهوال يوم القيامة ، وبأنه آت لا ريب فيه ، وعلى التحذير من الغفلة عن الاستعداد له ، وعلى الإفاضة فى بيان نعم الله - تعالى - على الناس ، وعلى بيان ما حل بالمكذبين السابقين من دمار ..

كل ذلك بأسلوب بديع معجز ، تخشع له القلوب ، وتتأثر به النفوس ، وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ..

التفسير

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

ولفظ « عم » مركب من كلمتين ، هما حرف الجر « عن » و« ما » التى هى اسم استفهام ، فأصل هذا اللفظ : « عن ما » فأدغمت النون فى الميم لأن الميم تشاركها فى الغنة ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام . والجار والمجرور متعلق بفعل « يتساءلون » .

والتساؤل : تفاعل من السؤال ، بمعنى أن يسأل بعض الناس بعضا عن أمر معين ، على سبيل معرفة وجه الحق فيه ، أو على سبيل التهكم .

والنبأ : الخبر مطلقا ، ويرى بعضهم أنه الخبر ذو الفائدة العظيمة .

والمعنى : عن أى شيء يتساءل هؤلاء المشركون ؟ وعن أى أمر يسأل بعضهم بعضا ؟ إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، والخبر الهام الذى جاءهم به الرسول - ﷺ - ، والذى نطق به القرآن الكريم ، من أن البعث حق ، ومن أن هذا القرآن الكريم من عند الله - تعالى - ومن أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه .

وافتتح - سبحانه - الكلام بأسلوب الاستفهام ، لتشويق السامع إلى المستفهم عنه ، ولتهويل أمره ، وتعظيم شأنه .

والضمير فى قوله ﴿ يتساءلون ﴾ يعود إلى المشركين ، الذين كانوا يكثرون من التساؤل فيما بينهم عن الرسول - ﷺ - ، وعما جاء به من عند ربه ، فقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : لما بعث النبى - ﷺ - جعلوا يتساءلون فيما بينهم - عن أمره وعما جاءهم به - فنزل قوله - تعالى - : ﴿ عم يتساءلون . عن النبأ العظيم ... ﴾[1] .

وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأنهم معروفون من السياق ، إذ هم - دون غيرهم - الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم - على سبيل التهكم - عما جاء به النبى - ﷺ - .

وقوله - تعالى - : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ تهويل لشأن هذا الأمر الذى يتساءلون فيما بينهم عنه ، ووصف - سبحانه - النبأ بالعظم ، زيادة فى هذا التهويل والتفخيم من شأنه ، لكى تتوجه إليه أذهانهم ، وتلتفت إليهم أفهامهم .

فكأنه - سبحانه - يقول : عن أى شيء يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضا ؟ أتريدون أن تعرفوا ذلك على سبيل الحقيقة ؟ إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، وعن الخبر الجسيم ، ﴿ الذى هم فيه مختلفون ﴾ ما بين منكر له إنكاراً تاما ، كما حكى - سبحانه - عنهم فى قوله : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾[2] . وما بين متردد فى شأنه ، كما حكى - سبحانه - عن بعضهم فى قوله : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ، إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾[3] .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ عم ﴾ أصله عما ، على أنه حرف جر ، دخل على ما الاستفهامية .

ومعنى هذا الاستفهام : تفخيم الشأن ، كأنه قال : عن أى شيء يتساءلون . ونحوه ما فى

---

(١) أسباب النزول ص ٢٣٢ للسيوطى .
(٢) سورة المؤمنون آية ٣٧ .
(٣) سورة الجاثية آية ٣٢ .

قولك : زيد مازيد ؟ جعلته لانقطاع قرينه ، وعدم نظيره ، كأنه شيء خفى عليك جنسه ، فأنت تسأل عن جنسه ، وتفحص عن جوهره ، كما تقول : ما الغول وما العنقاء ..؟ .

و﴿ يتساءلون ﴾ يسأل بعضهم بعضا .. والضمير لأهل مكة ، فقد كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث .

وقوله : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ بيان للشأن المفخم .

فإن قلت : قد زعمت أن الضمير فى ﴿ يتساءلون ﴾ للكفار ، فما تصنع بقوله : ﴿ الذى هم فيه مختلفون ﴾؟ قلت : كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ، ومنهم من يشك .

وقيل : الضمير للمسلمين والكافرين جميعا ، وكانوا جميعا يسألون عنه ، أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا ، وأما الكافر فليزداد استهزاء ..[1] .

ثم هدد - سبحانه - هؤلاء المستهزئين بما جاء به النبى - ﷺ - تهديدا شديدا ، فقال ﴿ كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ﴾ .

و« كلا » حرف زجر وردع ، والمقصود بها هنا : ردع أولئك المتسائلين عن النبأ العظيم ، ونوعدهم على اختلافهم فى شأنه .

أى : كلا ليس الأمر كما يتوهمه أولئك المتسائلون ، من استهزائهم بما جاءهم به الرسول - ﷺ - ومن إنكارهم لكون القرآن الكريم من عندالله ، أو لكون البعث حق . بل الحق كل الحق أن الرسول - ﷺ - صادق كل الصدق فيما يبلغه عن ربه ، وأن هؤلاء المتسائلين سيرون عما قريب سوء عاقبة استهزائهم واختلافهم .

والجملة الثانية وهى قوله : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ جيء بها لزيادة التهديد والوعيد ، ولبيان أن الوعيد الثانى أشد وأبلغ من الوعيد الأول .

وحذف مفعول ﴿ سيعلمون ﴾ للتعميم والتهويل ، أى : سيعلمون علم اليقين ما سيحل بهم من عذاب مقيم ، وسيرون ذلك رأى العين عما قريب ، كما قال - تعالى - ﴿ إنهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك تسعة أدلة ، كلها تدل على أن البعث حق ، لأن القادر على إيجاد هذه الأشياء ، قادر - أيضا - على إعادتهم إلى الحياة ، فقال - تعالى - : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ والاستفهام هنا للتقرير ، أى : لقد جعلنا - بقدرتنا التى لا يعجزها شيء -

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٨٣ .

الأرض كالفراش الممهد الموطأ ، لتتمكنوا من الاستقرار عليها ، ومن التقلب فيها .. كما يتقلب الطفل فى مهده ، أى : فراشه .

والمهاد : مصدر بمعنى الفراش الموطأ الممهد ، وهو اسم لما يوضع للصبى لكى ينام عليه ، ووصفت الأرض به على سبيل المبالغة فى جعلها مكان استقرار الناس وانتفاعهم وراحتهم ، والكلام على سبيل التشبيه البليغ ، أو على حذف مضاف .

وجعل بمعنى صير . أى : لقد صيرنا الأرض بقدرتنا كفراش الصبى بالنسبة لكم ، حيث تتقلبون عليها كما يتقلب الصبى فى فراشه .. أو صيرناها ذات مهاد .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف اتصل قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ بما قبله ؟ . قلت : لما أنكروا البعث قيل لهم : ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال قدرته ، فما وجه إنكار قدرته على البعث . وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات ؟

ومهادا : فراشا ، وقرئ : مهدا . ومعناه : أنها لهم كالمهد للصبى ، وهو ما يمهد له فينوّم عليه ، تسمية للممهود بالمصدر ، كضرب الأمير . أو وصفت بالمصدر ، أو بمعنى ذات مهد ..[١] .

وقوله : ﴿ والجبال أوتادا ﴾ معطوف على ما قبله ، والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يشد به الشىء حتى لا يتحرك أو يضطرب ، والكلام على التشبيه - أيضا - .

أى : لقد صيرنا - بقدرتنا - الأرض كالمهاد لتتمكنوا من الاستقرار عليها .. وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض ، لئلا تميد أو تضطرب بكم .. كما قال - تعالى - : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ دليل ثالث على قدرته ، والأزواج : جمع زوج . وهو اسم للعدد الذى يكرر الواحد منه مرة واحدة ، والمراد به هنا : الذكور والإناث .

أى : ومن مظاهر قدرتنا أننا خلقناكم - يابنى آدم - مزدوَجين ، أى : ذكرا وأنثى ، ليتأتى التناسل ، وحفظ النوع من الانقراض ، وتنظيم أمر المعاش فى الأَرض ، عن طريق استمتاع كل نوع بالآخر ، كما قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة .. ﴾[٣] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٨٥ .
(٢) سورة النحل الآية ١٥ .
(٣) سورة الروم الآية ٢١ .

قال الآلوسى : ﴿ أزواجا ﴾ أى : مزدوجين ذكرا وأنثى ليتسنى التناسل .

وقيل أزواجا : أى : أصنافا فى اللون والصورة واللسان . وقيل : يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجا : الخلق من منيين : منى الرجل ومنى المرأة ..[١] .

وقوله - تعالى - ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ بيان لدليل رابع على قدرته - تعالى - على البعث . و« السبات » مصدر بمعنى السبت ، أى : القطع ، يقال : سبت فلان الشىء سبتا ، إذا قطعه ، وسبت فلان شعره ، إذا حلقه وأزاله - وفعله كضرب ونصر - .

ويصح أن يكون قوله سباتا من السبت بمعنى الراحة والسكون ، يقال : سبت فلان يسبت ، إذا استراح بعد تعب ، ومنه سمى يوم السبت ، لأن اليهود ينقطعون فيه عن أعمالهم للراحة .

والمعنى : وجعلنا - بمقتضى حكمتنا ورحمتنا - نومكم « سباتا » أى : قطعا للحركة ، لتحصل لكم للراحة التى لا تستطيعون مواصلة العمل إلا بعدها .

وهذه الحالة التى لابد لكم منها ، وهى الراحة بعد عناء العمل عن طريق النوم ثم استيقاظكم منه ، أشبه ما تكون بإعادة الحياة إليكم بعد موتكم ..

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى ، والتى تدل على كمال قدرته . أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا - الليل كاللباس الساتر لكم ، فهو يلفكم بظلمته ، كما يلف اللباس صاحبه .. كما أننا جعلنا النهار وقت معاشكم ، لكى تحصلوا فيه ما أنتم فى حاجة إلى تحصيله من أرزاق ومنافع .

ووصف - سبحانه - الليل بأنه كاللباس ، والنهار بأنه وقت المعاش ، لأن الشأن فيهما كذلك ، إذ الليل هو وقت الراحة والسكون والاختلاء .. والنهار هو وقت السعى والحركة والانتشار .

ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى مظاهر قدرته فى خلق السموات فقال : ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ .

أى : وبنينا وأوجدنا بقدرتنا التى لا يعجزها شىء ، فوقكم - أيها الناس - سبع سماوات قويات محكمات ، لا يتطرق إليهن فطور أو شقوق على مر العصور ، وكر الدهور .

فقوله ﴿ شدادا ﴾ جمع شديدة ، وهى الهيئة الموصوفة بالشدة والقوة .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ نعمة أخرى من نعمه الدالة على قدرته .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٧ .

والمراد بالسراج الوهاج : الشمس ، وصفت بكونها سراجا ، لأنها كالمصباح فى إضاءته لما حوله . ووصف السراج بأنه وهاج ، مبالغة فى شدة ضيائه ولمعانه ، من الوهج - بفتح الواو والهاء - بمعنى شدة الضياء ..

والكلام على التشبيه البليغ ، والمقصود منه تقريب صفة المشبه إلى الأذهان ، وإلا فالشمس أعظم من كل سراج .

أى : وأنشأنا وأوجدنا - بقدرتنا ومنتنا - فى السماء ، سراجا زاهرا مضيئا .. هو الشمس المتوهجة من شدة حرارتها وضيائها ، والتى تشرق على هذا الكون فتحول ظلامه إلى نور ، بقدرته - تعالى - .

أما الدليل التاسع على قدرته - تعالى - على البعث ، فنراه فى قوله - تعالى - : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا ﴾ .

والمعصرات - بضم الميم وكسر الصاد - السحب التى تحمل المطر ، جمع معصرة - بكسر الصاد - اسم فاعل ، من أعصرت السحابة إذا أوشكت على إنزال الماء لامتلائها به ..

قال ابن كثير : عن ابن عباس : « المعصرات » الرياح . لأنها تستدر المطر من السحاب .. وفى رواية عنه أن المراد بها : السحاب ، وكذا قال عكرمة .. واختاره ابن جرير ..

وقال الفراء : هى السحاب التى تتحلب بالماء ولم تمطر بعد ، كما يقال : امرأة معصر ، إذا حان حيضها ولم تحض بعد .

وعن الحسن وقتادة : المعصرات : يعنى السموات . وهذا قول غريب ، والأظهر أن المراد بها السحاب ، كما قال - تعالى - : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء . ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ..﴾[1] .

والثجاج : المندفع بقوة وكثرة ، يقال : ثج الماء - كرد - إذا انصب بقوة وكثرة . ومطر ثجاج ، أى : شديد الانصباب جدا .

وقوله : ﴿ ألفافا ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه ، كالأوزاع للجماعات المتفرقة . وقيل : جمع لفيف ، كأشراف وشريف . أى : وأنزلنا لكم - يابنى آدم - بقدرتنا ورحمتنا - من السحائب التى أوشكت على الإمطار ، ماء كثيرا متدفقا بقوة ، لنخرج بهذا الماء حبا تقتاتون به - كالقمح والشعير .. ونباتا تستعملونه لدوابكم كالتبن والكلأ ، ولنخرج بهذا الماء - أيضا بساتين قد التفت أغصانها لتقاربها وشدة نمائها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٧ .

فهذه تسعة أدلة أقامها - سبحانه - على أن البعث حق ، وهى أدلة مشاهدة محسوسة ، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها .. ومادام الأمر كذلك فكيف ينكرون قدرته على البعث ، مع أنه - تعالى - قد أوجد لهم كل هذه النعم التى منها ما يتعلق بخلقهم ، ومنها ما يتعلق بالأرض والسموات ، ومنها ما يتعلق بنومهم ، وبالليل والنهار ، ومنها ما يتعلق بالشمس ، وبالسحب التى تحمل لهم الماء الذى لا حياة لهم بدونه .

وبعد إيراد هذه الأدلة المقنعة لكل عاقل ، أكد - سبحانه - ما اختلفوا فيه ، وما تساءلوا عنه ، وبين جانبا من أماراته وعلاماته فقال : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ .

والمراد بيوم الفصل : يوم القيامة ، لأن فيه يكون الفصل بين المحق والمبطل ، والمحسن والمسىء ، فيجازى كل إنسان على حسب عمله .

والميقات - بزنة مفعال - مشتق من الوقت ، وهو الزمان المحدد لفعل ما . والمراد به هنا : قيام الساعة ، وبعث الناس من قبورهم . أى : إن يوم البعث والجزاء ، كان ميعادا ووقتا محددا لبعث الأولين والآخرين ، وما يترتب على ذلك من جزاء وثواب وعقاب .

وقوله ﴿ يوم ينفخ فى الصور ...﴾ بدل مما قبله . أى : يوم القيامة آت لا ريب فيه ، يوم نأمر إسرافيل بأن ينفخ فى الصور . أى : فى القرن الذى أوجدناه لذلك .

﴿ فتأتون أفواجا ﴾ أى : فتخرجون من قبوركم جماعات جماعات ، وطوائف ، طوائف ، دون أن يستطيع أحد منكم التخلف عن الحضور إلى المكان الذى أعددناه لذلك .

﴿ وفتحت السماء ...﴾ فى هذا اليوم وشقت .. ﴿ فكانت أبوابا ﴾ أى : فصارت شقوقها وفتحاتها كالأبواب فى سعتها وكثرتها .

﴿وسيرت الجبال ...﴾ أى : وأزيلت الجبال وحركت من أماكنها بعد تفتتها .

﴿ فكانت سرابا ﴾ أى : فصارت بعد تفتتها واقتلاعها من أماكنها .. كالسراب ، وهو ما يلوح فى الصحارى ، فيظنه الرائى ماء وهو ليس بماء .

وبعد هذا البيان البديع لجانب من مظاهر قدرته - تعالى - على كل شىء ، ومن ألوان نعمه على خلقه ، ومن تقرير أن البعث حق .. بعد كل ذلك ، بين - سبحانه - جزاء الكافرين ، وجزاء المتقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ... ﴾ كلام مستأنف لبيان أهوال جهنم وأحوالها . وجهنم : اسم لدار العذاب فى الآخرة .

والمرصاد : مفعال من الرَّصَد . تقول : رصدت فلانا أرصده ، إذا ترقبته وانتظرته ، بحيث لا يهرب منك ، « فمرصادا » صيغة مبالغة للراصد الشديد الرصد ، وصفت جهنم بذلك ، لأن الكافرين لا يستطيعون التفلت منها مهما حاولوا ذلك .

قال القرطبى : « مرصادا » مفعال من الرصَد ، والرصد : كل شىء كان أمامك .. وقال مقاتل : « مرصادا » أى : محبسا . وقيل : طريقا وممرا . وذكر القشيرى : أن المرصاد : المكان الذى يرصد فيه الواحد العدد . أى : هى معدة لهم ، فالمرصاد بمعنى المحل .. وذكر

الماوردى ، أنها بمعنى راصدة .. وفى الصحاح : الراصد الشىء الراقب له . تقول : رصدته أرصده ، إذا ترقبته ..[١] .

والمعنى : إن جهنم التى هى دار العذاب فى الآخرة ، كانت - بأمر الله - تعالى - ومشيئته - معدة ومهيئة للكافرين ، فهى ترصدهم وترقبهم بحيث لا يستطيعون الهرب منها ، فهى كالحارس اليقظ الذى يقف بالمرصد فلا يستطيع أحد أن يتجاوزه .

والمقصود بالآية الكريمة تهديد المشركين ، وبيان أنهم لا مهرب لهم من جهنم ، وأنها فى انتظارهم ، كما ينتظر العدو عدوه ليقضى عليه .

وقوله : ﴿ للطاغين مآبا ﴾ بدل من ﴿ مرصادا ﴾ وقوله ﴿ مآبا ﴾ من الأوب بمعنى المرجع . يقال : آب فلان يؤوب ، إذا رجع ..

أى : إن جهنم كانت للمتجاوزين الحد فى الظلم والطغيان ، هى المكان المهيأ لهم ، والذى لا يستطيعون الهرب منه ، بل هى مرجعهم الوحيد الذى يرجعون إليه .

وقوله : ﴿ لابثين فيها أحقابا ﴾ أى : مقيمين فى جهنم أزمانا طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - إذ الأحقاب : جمع حُقُب - بضمتين أو بضم فسكون - ، وهو الزمان الطويل .

﴿ لا يذوقون فيها ﴾ أى : فى جهنم ﴿ بردا ﴾ أى : شيئا يخفف عنهم حرها ، من هواء بارد ، أو نسيم عليل ﴿ ولا شرابا ﴾ أى : شيئا من الشراب الذى يطفىء عطشهم ، ويخفف من عذابهم .

﴿ إلا حميما وغساقا ﴾ والحميم . هو الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة . والغساق : هو ما يسيل من جلودهم من القيح والدماء والصديد . يقال : غسق الجرح - كضرب وسمع - غسقانا ، إذا سالت منه مياه صفراء . أى : أن هؤلاء الطغاة لا يذوقون فى جهنم شيئا من الهواء البارد ، ولا من الشراب النافع ، لكنهم يذوقون فيها الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة ، والصديد الذى يسيل من جروحهم وجلودهم .

فالاستثناء فى قوله ﴿ إلا حميما وغساقا ﴾ ، استثناء منقطع ، لأن الحميم ليس من جنس البرد فى شىء ، وكذلك الغساق ليس من جنس الشراب فى شىء .

وقوله - سبحانه - ﴿ جزاء وفاقا ﴾ بيان لعدالة الله - تعالى - معهم ، أى : أننا لم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٩٩ .

نظلمهم بإلقائهم فى جهنم ، وإنما جازيناهم بذلك جزاء موافقا لأعمالهم السيئة فى الدنيا .

فقوله : ﴿ جزاء ﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف ، وقوله ﴿ وفاقا ﴾ صفة له والوفاق مصدر وافق ، وهو هنا بمعنى اسم الفاعل . أى : جوزوا جزاء موافقا لأعمالهم القبيحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

ثم علل - سبحانه - ما أصابهم من عذاب أليم ، فقال : ﴿ إنهم كانوا لايرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ . أى : إن هؤلاء الطغاة كانوا فى الدنيا لا يخافون حسابنا ، ولا يفكرون فيه ، بل كانوا يكذبون به ، وبكل ما جاءهم به رسولنا تكذيبا عظيما .

وقوله : ﴿ كِذَّابا ﴾ مصدر كذب ، ومجىء فِعَّال بمعنى تفعيل فى مصدر فعَّل فصيح شائع .

وأوثر هذا المصدر دون التكذيب ، للإشعار بأن تكذيبهم لآيات الله - تعالى - قد وصل الغاية فى قبحه وإفراطه . وهو منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ كِذَّابًا ﴾ أى : تكذيبا . وفِعَّال فى باب فَعَّل ، كله فاش فى كلام فصحاء العرب لا يقولون غيره . وهو مصدر كذَّب ..[(١)] .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ﴿ وكل شىء أحصيناه كتابا ﴾ و« كل » منصوب على الاشتغال ، والإحصاء للشىء : ضبطه ضبطا محكما . وأصله من لفظ الحصا ، واستعمل فيه لأنهم كانوا يعتمدون على الحصا فى العد ، كما يعتمد بعض الناس الآن على الأصابع .

قال الجمل : وقوله : ﴿ كتابا ﴾ فيه أوجه : أحدها : أنه مصدر من معنى أحصيناه ، أى : إحصاء فالتجوز فى نفس المصدر . والثانى : أنه مصدر لأحصينا ، لأنه فى معنى كتبنا . فالتجوز فى نفس الفعل ..[(٢)] . أى : وكل شىء فى هذا الكون ، قد أحصيناه إحصاء تاما ، بحيث لا يعزب منه شىء عن علمنا ، مهما كان صغيرا .

والفاء فى قوله ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ للتفريع على ما تقدم من كون جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ..

أى : إن جهنم كانت معدة ومهيأة لهؤلاء الطغاة بسبب أعمالهم القبيحة ، وسيقال لهم يوم القيامة على سبيل الإذلال والإهانة ، ذوقوا سوء عاقبة كفركم وفسوقكم وعصيانكم ، فلن نزيدكم إلا عذابا فوق العذاب الذى أنتم فيه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٨٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٧٤ .

قال ابن كثير : قال قتادة ، عن أبي أيوب الأزدى ، عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل فى شأن أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فذوقوا فلن تزيدكم إلا عذابا ﴾ قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا ..[١] .

وكعادة القرآن الكريم فى الموازنة بين عاقبة الأشرار والأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين ، بعد الحديث عن سوء عاقبة الطاغين فقال - تعالى - : ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ أى : للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى ربهم .. ﴿ مفازا ﴾ أى : فوزًا برضوانه وجنته فقوله ﴿ مفازا ﴾ مصدر بمعنى الفوز والظفر بالمطلوب ، وتنوينه للتعظيم .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفوز فقال : ﴿ حدائق وأعنابا ﴾ أى : إن لهم فى هذه الجنان التى ظفروا بها حدائق ، أى : بساتين فيها ماء وأشجار مثمرة .. سميت بذلك تشبيها لها بحدقة العين فى الهيئة ، وحصول الماء فيها .

وإن لهم - كذلك - فى هذه الجنان ﴿ أعنابا ﴾ جمع عنب ، وهو الكرم ، وخصت الأعناب بالذكر ، لأنها من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس .

وإن لهم - أيضا - ﴿ كواعب أترابا ﴾ أى : فتيات فى ريعان الشباب ، قد تقاربت أعمارهن ، وتساوين فى الجمال والنضارة وحسن الهيئة .

فالكواعب ، جمع كاعب ، وهى الفتاة التى وصلت إلى سن البلوغ ، وسميت بذلك لأنها فى تلك السن يتكعب ثدياها ، أى : يستديران مع ارتفاع ..

والأتراب ، جمع تِرْب - بكسر التاء وسكون الراء - وهو المساوى لغيره فى السن ، وأكثر ما يطلق هذا اللفظ على الإناث . قيل : سمى من تقاربن فى السن بذلك ، على سبيل التشبيه بالترائب ، أى : بالضلوع التى فى الصدر فى التساوى ..

وإن لهم - أيضا - ﴿ كأسا دهاقا ﴾ أى : كأسا مليئة بالخمر . يقال دهق الحوض - كجعل - وأدهقه ، إذا ملأه حتى فاض من جوانبه .

﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أى : فى الجنة ﴿ لغوا ﴾ أى : كلاما ساقطا لا يعتد به . ولا يسمعون - أيضا - ﴿ كذابا ﴾ أى كلاما كاذبا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جزاء من ربك عطاء حسابا ﴾ بيان لمظاهر فضله ومننه على هؤلاء المتقين .. وقوله : ﴿ جزاء ﴾ منصوب بفعل محذوف من لفظه ، و﴿من﴾ ابتدائية .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٣١ .

أى : هؤلاء المتقون كوفئوا مكافأة صادرة من ربك على سبيل العطاء أى : الإحسان والتفضل ، حتى شبعوا واكتفوا .

فقوله : ﴿ حسابا ﴾ صفة للعطاء وهو بمعنى كاف . فهو مصدر أقيم مقام الوصف ، من قولهم : أَحْسَبَهُ الشىءُ ، إذا كفاه حتى قال حسبى ، أى : كافينى .

قال صاحب الكشاف : و﴿ حسابا ﴾ صفة بمعنى كافيا ، من أحسبه الشىء إذا كفاه حتى قال حسبى ..[1] .

ويصح أن يكون قوله ﴿ حسابا ﴾ معناه « محسوبا » . أى : كافأهم الله - تعالى - على أعمالهم الحسنة فى الدنيا مكافأة محسوبة ، على قدر أعمالهم الطيبة .

وقوله : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ..﴾ قرأه بعضهم بجر لفظ « رب » على أنه بدل « من ربك » ، وقرأه البعض الآخر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .

أى : هذا الجزاء العظيم للمتقين هو كائن من ربك ، الذى هو رب أهل السموات وأهل الأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا هو ، وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التى لا تقاربها رحمة ..

وقوله : ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ مقرر ومؤكد لما قبله ، من كونه - تعالى - هو رب كل شىء . أى : أهل السموات والأرض وما بينهما ، خاضعون ومربوبون لله - تعال - الواحد القهار ، الذى لا يقدر أحد منهم - كائنا من كان - أن يخاطبه إلا بإذنه ، ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾[2] .

والظرف فى قوله - تعالى - : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ..﴾ متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ .. والمراد بالروح : جبريل - عليه السلام - . أى : لا يملك أحد أن يخاطب الله - تعالى - إلا بإذنه ، يوم القيامة ، ويوم يقوم جبريل - عليه السلام - بين يدى خالقه قيام تذلل وخضوع ، ويقوم الملائكة - أيضا - قياما كله أدب وخشوع ، وهم فى صفوف منتظمة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٩٠ .

(٢) سورة هود الآية ١٠٥ .

﴿ لا يتكلمون ﴾ أى : لا يستطيع جبريل ولا الملائكة ولا غيرهم الكلام ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ منهم بالكلام أو بالشفاعة .

﴿ وقال صوابا ﴾ أى : وقال المأذون له فى الكلام قولا صوابا يرضى الخالق - عز وجل - .

وكون المراد بالروح : جبريل - عليه السلام - هو الرأى الراجح ، لأن القرآن الكريم قد وصفه بذلك فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[1] .

وهناك أقوال أخرى فى المراد به ، منها : أنه ملك من الملائكة ، ومنها : أرواح بنى آدم .

وجملة « لا يتكلمون » مؤكدة لجملة « لا يملكون منه خطابا » والضمير لجميع الخلائق .

وقد أفادت الآية الكريمة أن الذين يتكلمون فى هذا اليوم الهائل الشديد ، هم الذين يأذن الله - تعالى - لهم بالكلام ، وهم الذين يقولون قولا صوابا يرضى الله - تعالى - عنه .

وجملة : « وقال صوابا » يجوز أن تكون فى موضع الحال من الاسم الموصول « من » . أى : لا يستطيع أحد منهم الكلام إلا الشخص الذى قد أذن الله - تعالى - له فى الكلام ، والحال أن هذا المأذون له قد قال صوابا .

ويصح أن تكون معطوفة على جملة « أذن له الرحمن » . أى : لا يستطيعون الكلام إلا الذين أذن لهم الرحمن فى الكلام ، وإلا الذين قالوا قولا صوابا يرضى الله ، فإنهم يتكلمون .

والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الخلائق جميعا يكونون فى هذا اليوم ، فى قبضة الرحمن وتحت تصرفه ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بإذنه - تعالى - .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ يعود إلى يوم البعث الذى يقوم الناس فيه لله رب العالمين . أى : ذلك اليوم الذى يقوم فيه الخلائق للحساب والجزاء ، هو اليوم الحق الذى لاشك فى حدوثه . ولا ريب فى ثبوته .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾ هى الفصيحة ، ومفعول المشيئة محذوف . أى : لقد بينا لكم ما يهديكم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن شاء منكم أن يتخذ إلى ربه مرجعا حسنا وطريقا إلى رضاه ، فليتخذه الآن ، من قبل أن يأتى هذا اليوم الذى لا بيع فيه ولا خلال .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٩٣ ، ١٩٤ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الإنذار البليغ فقال : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾ .

والإنذار : الإخبار بحصول شيء تسوء عاقبته ، فى وقت يستطيع المنذَر فيه أن يجنب نفسه الوقوع فى ذلك الشيء . أى : إنا أخبرناكم - أيها الناس - بأن هناك عذابا قريبا ، سيحل بمن يستحقه عما قريب .

وذلك العذاب سيكون أشد هولا ، وأبقى أثرا ، يوم القيامة ، ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أى : يوم يرى كل إنسان عمله حاضرا أمامه ، ومسجلا عليه ..

﴿ ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾ ، أى : ويقول الإنسان الكافر فى هذا اليوم على سبيل الحسرة والندامة ، ياليتنى كنت فى الدنيا ترابا ، ولم أخلق بشرا ، ولم أكلف بشيء من التكاليف ، ولم أبعث ولم أحاسب .

فالمقصود بالآية قطع أعذار المعتذرين بأبلغ وجه ، من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الجمعة : ٨ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ .
١٢/٩/١٩٨٦ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النازعات

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « النازعات » من السور المكية الخالصة . وتسمى بسورة « والنازعات » بإثبات الواو ، حكاية لأول ألفاظها ، ومن ذكرها بدون واو ، جعل لفظ « النازعات » علما عليها ، وتسمى - أيضا - سورة « الساهرة » وسورة « الطامة » ، لوقوع هذين اللفظين فيها دون غيرها .

٢ - وهى السورة التاسعة والسبعون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الحادية والثمانون من بين السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « النبأ» ، وقبل سورة « الانفطار » ، أى : أن سورة النازعات تعتبر من أواخر السور المكية نزولا .

٣ - وعدد آياتها خمس وأربعون آية فى المصحف الكوفى ، وست وأربعون فى غيره .

٤ - ومن أهم مقاصدها : إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وذكر جانب كبير من علاماته وأهواله ، والرد على الجاحدين الذين أنكروا وقوعه ، وتذكير الناس بجانب مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من مناقشات ، وكيف أن الله - تعالى - قد أخذ فرعون أخذ عزيز مقتدر .

كما أن السورة الكريمة اشتملت على مظاهر قدرته - تعالى - ، التى نراها ونشاهدها فى خلقه - سبحانه - للسموات وللأرض .. وما اشتملتا عليه عن عجائب .

ثم ختمت ببيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الكافرين ، وبالإجابة على أسئلة السائلين عن يوم القيامة ، وبيان أن موعد مجىء هذا اليوم مرده إلى الله - تعالى - وحده .

قال - تعالى - : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

التفسير

وقد افتتح - سبحانه - سورة النازعات بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا
﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ
﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا
خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا
عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

والواو فى قوله ﴿ والنازعات ...﴾ وما بعده ، للقسم ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : وحق هذه المخلوقات العظيمة ... لتبعثن .

وكذلك المقسم به محذوف ، إذ أن هذه الألفاظ وهى : النازعات ، والناشطات والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات ، صفات لموصوفات محذوفة ، اختلف المفسرون فى المراد بها على أقوال كثيرة . أشهرها : أن المراد بهذه الموصوفات ، طوائف من الملائكة ، كلفهم الله - تعالى - بالقيام بأعمال عظيمة ، وأفعال جسيمة .

والنازعات : جمع نازعة . والنزع : جذب الشىء بقوة ، كنزع القوس عن كبده .

ومنه قوله - تعالى - فى النزع الحسى : ﴿ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ وقوله - سبحانه - فى النزع المعنوى : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾.

وقوله : ﴿ غرقا ﴾ اسم مصدر من أغرق ، وأصله إغراقا . والإغراق فى الشىء ، المبالغة فيه والوصول به إلى نهايته ، يقال : أغرق فلان هذا الأمر ، إذا أوغل فيه ، ومنه قوله : نزع فلان فى القوس فأغرق ، أى : بلغ غاية المد حتى انتهى إلى النَّصْل .

وهو منصوب على المصدرية، لالتقائه مع اللفظ الذى قبله فى المعنى ، وكذلك الشأن بالنسبة للالفاظ التى بعده ، وهى : « نشطا » و« سبحا » و« سبقا » .

والمعنى : وحق الملائكة الذين ينزعون أرواح الكافرين من أجسادهم ، نزعا شديدا ، يبلغ الغاية فى القسوة والغلظة .

ويشير إلى هذا المعنى قوله - تعالى - فى آيات متعددة ، منها قوله - سبحانه - : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

وقوله : ﴿ والناشطات نشطا ﴾ : المقصود به طائفة أخرى من الملائكة . والناشطات من النَّشْط ، وهو السرعة فى العمل ، والخفة فى أخذ الشىء ، ومنه الأنشوطة ، للعقدة التى يسهل حلها ، ويقال : نَشَطتُ الدلو من البئر - من باب ضرب - إذا نزعتها بسرعة وخفة .

أى : وحق الملائكة الذين ينشطون ويسرعون إسراعا شديدا لقبض أرواح المؤمنين بخفة وسهولة ويقولون لهم - على سبيل البشارة والتكريم - : ﴿ يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والسابحات سبحا ﴾ قسم ثالث بطائفة ثالثة من طوائف الملائكة ، التى تَسْبَحُ فى هذا الكون ، أى : تنطلق بسرعة لتنفيذ أمر الله - تعالى - ، ولتسبيحه ، وتحميده ، وتكبيره ، وتقديسه .

أى : وحق الملائكة الذين يسرعون التنقل فى هذا الكون إسراعا شديدا ، لتنفيذ ما كلفهم - سبحانه - به ، ولتسبيحه وتنزيهه عن كل نقص ..

وقوله - تعالى - : ﴿ فالسابقات سبقا ﴾ المقصود به طائفة رابعة من الملائكة ، تسبق غيرها فى تنفيذ أمر الله - تعالى - ، إذ السبق معناه : أن يتجاوز السائر من يسير معه ، ويسبقه إلى المكان المقصود الوصول إليه ، كما قال - تعالى - فى صفات المتقين : ﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ .

وقوله : ﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ المقصود به طائفة خامسة من الملائكة ، من وظائفهم تدبير

شأن الخلائق ، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التى يأمرهم - سبحانه - بها ، فنسبة التدبير إليهم ، إنما هى على سبيل المجاز ، لأن كل شىء فى هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره .

والمراد بالأمر : الشأن والغرض المهم ، وتنوينه للتعظيم ، ونصبه على المفعولية للفظ المدبرات . أى : وحق الملائكة الذين يرتبون شئون الخلائق ، وينظمون أمورهم بالطريقة التى يكلفهم - سبحانه - بها .

وجاء العطف فى قوله : ﴿ فالسابقات ﴾ ﴿ فالمدبرات ﴾ بالفاء ، للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها بغير مهلة . وللإيذان بأن هاتين الصفتين متفرعتين عما قبلها .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا فيه على أن هذه الصفات لموصوف واحد ، سار كثير من المفسرين : فصاحب الكشاف صدر تفسيره لهذه الآيات بقوله : أقسم - سبحانه - بطوائف الملائكة ، التى تنزع الأرواح من الأجساد وبالطوائف التى تنشطها ، أى تخرجها .. وبالطوائف التى تسبح فى مضيها ، أى : تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر أمرا من أمور العباد مما يصلحهم فى دينهم ودنياهم ، كما رسم الله - تعالى - لهم .. وأسند التدبير إليهم - أى إلى الملائكة - لأنهم من أسبابه ..[(١)] .

وقال الشوكانى : أقسم - سبحانه - بهذه الأشياء التى ذكرها ، وهى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات ، والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات ، يعنى الملائكة . والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفى ، منزلة التغاير الذاتى ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم ، وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم ..[(٢)] .

ومنهم من يرى أن المراد بالنازعات : النجوم تنتقل من مكان إلى مكان ، أو الأقواس التى تنزع السهام ، أو الغزاة ينزعون من دار الاسلام إلى دار الحرب ..

ومنهم من يرى أن المراد بالناشطات : الكواكب السيارة ، أو السفن التى تمخر عباب الماء .. وأن المراد بالسابحات والسابقات : النجوم ، أو الشمس والقمر ، والليل والنهار ..

أما المدبرات فقد أجمعوا على أن المراد بها الملائكة .

قال الجمل : اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الكلمات ، هل هى صفات لشىء واحد ، أو

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٩٣ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣٧٢ .

لأشياء مختلفة ، على أوجه : واتفقوا على أن المراد بقوله : ﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ وصف لشىء واحد ، وهم الملائكة ..[١] .

ويبدو لنا أن كون هذه الصفات جميعها لشىء واحد ، هو الملائكة ، أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان علامات القيامة وأهوالها فقال : ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ...﴾ . والراجفة : من الرجف وهو الاضطراب الشديد ، والحركة القوية ، لأن بسببها تضطرب الأمور ، وتختل الشئون . يقال : رجفت الأرض والجبال ، إذا اهتزت اهتزازا شديدا .

والمراد بها : ما يحدث فى هذا الكون عند النفخة الأولى التى يموت بعدها جميع الخلائق .

والمراد بالرادفة : النفخة الثانية ، التى تردف الأولى ، أى : تأتى بعدها ، وفيها يبعث الموتى بإذن الله - تعالى - ، يقال : فلان جاء ردف فلان ، إذا جاء فى أعقابه .

أى : اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، يوم ينفخ فى الصور فتضطرب الأرض وتهتز ، ويموت جميع الخلق ، ثم يتبع ذلك نفخة أخرى يبعث بعدها الموتى - بإذن الله - - تعالى - .

وجملة « تتبعها الرادفة » فى محل نصب على الحال من الراجفة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة ﴾ بيان لما يترتب على قيام الساعة ، وبعث الخلائق ، من خوف ورعب .

أى : قلوب كثيرة فى هذا اليوم الهائل الشديد تكون فى نهاية الاضطراب والفزع . يقال : وجف القلبُ يَجِف وَجْفًا ووجيفا ، إذا ارتفعت ضرباته من شدة الخوف ..

وتكون أبصار أصحاب هذه القلوب خاشعة ، أى ذليلة مهينة ، لما يعتريهم من الفزع الشديد ، والرعب الذى لا حدود له ..

ولفظ « قلوب » مبتدأ ، وتنكيره للتكثير ، وقوله : ﴿ واجفة ﴾ صفة للقلوب ، وجملة « أبصارها خاشعة » خبر ثان للقلوب .

والمراد بهذه القلوب : قلوب المشركين الذين أنكروا فى الدنيا البعث والجزاء ، فلما بعثوا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٧٧ .

اعتراهم الرعب الشديد ، والفزع الذى لا يقاربه فزع ..

فأما قلوب المؤمنين فهى - بفضل الله ورحمته - تكون فى أمان واطمئنان ، كما قال - تعالى - : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ .

وإضافة الأبصار إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة ، لأن الأبصار لأصحاب هذه القلوب ، وكلاهما من جوارح الأجساد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ حكاية لما كان يقوله هؤلاء الكافرون فى الدنيا ، من إنكار للبعث ، ومن استهزاء لمن كان يذكرهم به ، ومن استبعاد شديد لحصوله ..

والمراد بالحافرة : العودة إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم وتحولهم إلى عظام بالية .

قال صاحب الكشاف : ﴿ فى الحافرة ﴾ . أى : فى الحالة الأولى يعنون : الحياة بعد الموت .

فإن قلت : ما حقيقة هذه الكلمة ؟ قلت : يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى : فى طريقه التى جاء فيها فحفرها . أى : أثر فيها بمشيه فيها : جعل أثر قدميه حفرا .. ثم قيل لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أى : طريقته وحالته الأولى ..[1] .

وقوله : ﴿ نخرة ﴾ صفة مشتقة من قولهم : نَخِر العظم - بفتح النون وكسر الخاء - إذا بَلِى وصار سهل التفتيت والكسر . وقرأ حمزة والكسائى « ناخرة » بمعنى بالية فارغة جوفاء ، يسمع منها عند هبوب الريح نخير ، أى : صوت .

أى : أن هؤلاء المشركين كانوا يقولون فى الدنيا - على سبيل التعجيب والاستهزاء والإنكار لأمر البعث والحساب : أنرد إلى الحياة مرة أخرى بعد موتنا وبعد أن نصير فى قبورنا عظاما بالية .

وعبر - سبحانه - عن قولهم هذا بالمضارع « يقولون » لاستحضار حالتهم الغريبة ، حيث أنكروا ما قام الدليل على عدم إنكاره ، وللإشعار بأن هذا الإنكار كان متجددا ومستمرا منهم .

وقد ساق - سبحانه - أقوالهم هذه بأسلوب الاستفهام ، للإيذان بأنهم كانوا يقولون ما يقولون فى شأن البعث على سبيل التهكم والتعجب ممن يحدثهم عنه ، كما هو شأن المستفهم

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٩٤ .

عن شيء الذى لا يقصد معرفة الحقيقة ، وإنما يقصد التعجيب والإنكار .

وجملة « أئذا كنا عظاما نخرة » مؤكدة للجملة السابقة عليها ، التى يستبعدون فيها أمر البعث بأقوى أسلوب .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴾ حكاية لقول آخر من أقوالهم الفاسدة ، وهو بدل اشتمال من قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ﴾ .

واسم الإشارة « تلك » يعود إلى الردة المستفادة من قولهم « أئنا لمردودون ...» .

ولفظ « إذًا » جواب لكلامهم المتقدم . والكَرَّة : المرة من الكَرّ بمعنى الرجوع ، وجمعها : كرَّات أى : يقول هؤلاء الجاحدون : أنرد إلى الحياة التى كنا فيها بعد أن نموت ونفنى ؟ وبعد أن نصير عظاما نخرة ؟ لو حدث هذا بأن رددنا إلى الحياة مرة أخرى ، لكانت عودتنا عودة خاسرة غير رابحة ، وهم يقصدون بهذا الكلام الزيادة فى التهكم والاستهزاء بالبعث .

والخسران : أصله عدم الربح فى التجارة ، والمراد به هنا : حدوث ما يكرهونه لهم .

ونسب الخسران إلى الكرة على سبيل المجاز العقلى ، للمبالغة فى وصفهم الرجعة بالخيبة والفشل ، وإلا فالمراد خيبتهم وفشلهم هم ، لأنهم تبين لهم كذبهم ، وصدق من أخبرهم بأن الساعة حق .

وقد رد - سبحانه - عليهم ردا سريعا حاسما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ .

والزجرة : المرة من الزجر ، وهو الصياح المصحوب بالغضب ، يقال : زجر فلان فلانا ، إذا أمره أو نهاه عن شيء بحدة وغضب .

والساهرة : الأرض المستوية الخالية من النبات .

والمراد بها هنا : الأرض التى يحشر الله - تعالى - فيها الخلائق .

قال القرطبى : قوله : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ أى : على وجه الأرض ، بعد أن كانوا فى بطنها . سميت بهذا الاسم ، لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم ، والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة ، بمعنى ذات سهر ، لأنه يسهر فيها خوفا منها ، فوصفها بصفة ما فيها ..[1] .

والفاء فى قوله : ﴿ فإنما هى زجرة ...﴾ للتفريع على قولهم السابق ، وضمير « هى » يعود

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٩٨ .

إلى الحالة والقصة التى أنكروها ، وهى قيام الساعة .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ والتقريع : ليس الأمر كما زعمتم من أنه لا بعث ولا جزاء .. بل الحق أن ذلك آت لا ريب فيه ، وأن عودتكم إلى الحياة مرة أخرى لا تقتضى من خالقكم سوى صيحة واحدة يصيحها ملك من ملائكته بكم ، فإذا أنتم قيام من قبوركم ، ومجتمعون فى المكان الذى يحدده الله - تعالى - لاجتماعكم ولحسابكم وجزائكم .

وعبر - سبحانه - عن اجتماعهم بأرض المحشر بإذا الفجائية فقال : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ للإيذان بأن اجتماعهم هذا سيكون فى نهاية السرعة والخفة ، وأنه سيتحقق فى أعقاب الزجرة بدون أقل تأخير .

ووصف - سبحانه - الزجرة بأنها واحدة ، لتأكيد ما فى صيغة المرة من معنى الوحدة ، أى : أن الأمر لا يقتضى سوى الإذن منا بصيحة واحدة لا أكثر ، تنهضون بعدها من قبوركم للحساب والجزاء ، نهوضا لا تملكون معه التأخر أو التردد .. والمراد بها : النفخة الثانية .

وقال - سبحانه - : ﴿ فإذا هم ﴾ بضمير الغيبة ، إهمالا لشأنهم ، وتحقيرا لهم عن استحقاق الخطاب .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثا بليغا مؤثرا عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال المجرمين فى هذا اليوم العسير .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصةموسى مع فرعون ، لتكون تسلية للنبى - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء الجاحدين ، وتهديدا لهم حتى يقلعوا عن غيهم .. فقال - تعالى - :

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ

ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ

﴿ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين :

الأول : أنه - تعالى - حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث ، حتى انتهوا فى ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء فى قولهم : ﴿ تلك إذا كرة خاسرة ﴾ ، وكان ذلك يشق على الرسول - ﷺ - فذكر - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - ، وبين أنه تحمل المشقة فى دعوة فرعون ، ليكون ذلك تسلية للرسول - ﷺ - .

الثانى : أن فرعون كان أقوى من كفار قريش .. فلما تمرد على موسى ، أخذه الله - تعالى - نكال الآخرة والأولى ، فكذلك هؤلاء المشركون فى تمردهم عليك ، إن أصروا ، أخذهم الله وجعلهم نكالا ...[1] .

والمقصود من الاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل أتاك حديث موسى .. ﴾ التشويق إلى الخبر ، وجعل السامع فى أشد حالات الترقب لما سيلقى إليه ، حتى يكون أكثر وعيا لما سيسمعه .

والخطاب للرسول - ﷺ - لقصد تسليته ، ويندرج فيه كل من يصلح له .

والمعنى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون ؟ إن كان لم يصل إليك فهاك جانبا من خبره نقصه عليك ، فتنبه له ، لتزداد ثباتا على ثباتك ، وثقة فى نصر الله - تعالى - لك على ثقتك .

والظرف « إذ » فى قوله - تعالى - : ﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ متعلق بلفظ « حديث » ، والجملة بدل اشتمال مما قبلها .

و« الواد » المكان المنخفض بين جبلين ، أو بين مكانين مرتفعين . و« المقدس » : بمعنى المطهر . و« طوى » اسم للوادى . وقد جاء الحديث عنه فى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ فلما أتاها : أى النار - نودى ياموسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٢١ .
(٢) سورة طه الآيتان ١١ - ١٢ .

والمعنى : هل بلغك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى ، وقت أن ناديناه وهو بالواد المقدس طوى ، الذى هو بجانب الطور الأيمن ، بالنسبة للقادم من أرض مدين التى هى فى شمال الحجاز .

ويدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا . لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اذهب الى فرعون ...﴾ مقول لقول محذوف ، أى : ناديناه وقلنا له : ﴿ اذهب ﴾ ياموسى إلى فرعون إنه طغى ، أى : إنه تجاوز كل حد فى الكفر والغرور والعصيان .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر فى ذلك الزمان ، وقد قالوا إن فرعون الذى أرسل الله - تعالى - إليه موسى - عليه السلام - هو منفتاح بن رمسيس الثانى .

ثم بين - سبحانه - ما قاله لموسى على سبيل الإرشاد إلى أحكم وأفضل وسائل الدعوة إلى الحق فقال : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ .

والمقصود بالاستفهام هنا : الحض والترغيب فى الاستجابة للحق ، كما تقول لمن تنصحه : هل لك فى كذا ، والجار والمجرور « لك » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هل لك رغبة فى التزكية .

أى : اذهب ياموسى إلى فرعون ، فقل له على سبيل النصح الحكيم . والإرشاد البليغ : هل لك يا فرعون رغبة فى أن أدلك على مايزكيك ويطهرك من الرجس والفسوق والعصيان .

وهل لك رغبة - أيضا - فى أن أرشدك الى الطريق الذى يوصلك إلى رضى ربك ، فيترتب على وصولك إلى الطريق السوى ، الخشية منه - تعالى - والمعرفة التامة بجلاله وسلطانه .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وأهديك إلى ربك ....﴾ أى : وأرشدك إلى معرفة الله ، أى : أنبهك عليه فتعرفه ﴿ فتخشى ﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة .. وذكر الخشية ، لأنها ملاك الأمر ، من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شىء . ومنه قوله - ﷺ - : « من خاف أدلج ، - أى : سار فى أول الليل - ومن أدلج بلغ المنزل » .

بدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه ، كما أمر

(١) سورة القصص الآيتان ٢٩ - ٣٠ .

بذلك فى قوله - تعالى - ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى .. ﴾[١] .

والحق أن هاتين الآيتين فيهما أسمى ألوان الإرشاد إلى الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى ﴾ للإفصاح والتفريع على كلام محذوف يفهم من المقام . والتقدير : فامتثل موسى - عليه السلام - أمر ربه ، فذهب إلى فرعون ، فدعاه إلى الحق ، فكذبه فرعون ، فماكان من موسى إلا أن أراه الآية الكبرى التى تدل على صدقه ، وهى أن ألقى أمامه عصاه فإذا هى حية تسعى ، وأن نزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء .

ولكن فرعون لم يستجب لدعوة موسى، بعد أن أراه الآية الكبرى الدالة على صدقه ، بل كذب ما رآه تكذيبا شديدا ، وعصى أمر ربه عصيانا كبيرا .

﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أى : ثم أضاف إلى تكذيبه وعصيانه . إعراضه وتوليه عن الإيمان والطاعة . وسعيه سعيا حثيثا فى إبطال أمر موسى ، وإصراره على تكذيب معجزته .

وجاء العطف هنا بثم ، للدلالة إلى أنه قد تجاوز التكذيب والعصيان ، إلى ما هو أشد منهما فى الجحود والعناد ، وهو الإعراض عن الحق والسعى الشديد فى إبطاله .

ثم بين - سبحانه - ما فعله بعد ذلك فقال : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ .

والحشر : جمع الناس ، والنداء : الجهر بالصوت لإسماع الغير ، ومفعولاهما محذوفان .

أى : فجمع فرعون الناس عن طريق جنده ، وناداهم بأعلى صوته ، قائلا لهم : أنا ربكم الأعلى الذى لا رب أعلى منه ، وليس الأمر كما يقول موسى من أن لكم إلها سواى .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿ فنادى ﴾ للإشعار بأنه بمجرد أن جمعهم دعاهم إلى الاعتراف بأنه هو رب الأرباب .

وجاء نداؤه بالصيغة الدالة على الحصر ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ للرد على ما قاله موسى له . من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الفجور الذى تلبس به فرعون ، وعلى هذا الطغيان الذى تجاوز معه كل حد ، فقال : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٩٥ .

والنكال : مصدر بمعنى التنكيل ، وهو العقاب الذى يجعل من رآه فى حالة تمتعه وتصرفه عما يؤدى إليه ، يقال : نَكَّلَ فلان بفلان ، إذا أوقع به عقوبة شديدة تجعله نكالا وعبرة لغيره . وهو منصوب على أنه مصدر مؤكد لقوله ﴿ فأخذه ﴾ ، لأن معناه نكل به ، والتعبير بالأخذ للإشعار بأن هذه العقوبة كانت محيطة بالمأخوذ بحيث لا يستطيع التفلت منها .

والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، والمراد بالأولى : الحياة الدنيا .

أى : أن فرعون عندما تمادى فى تكذيبه وعصيانه وطغيانه .. كانت نتيجة ذلك أن أخذه الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بأن أنزل به فى الآخرة أشد أنواع الإحراق ، وأنزل به فى الدنيا أفظع ألوان الإغراق .

وقدم - سبحانه - عذاب الآخرة على الأولى ، لأنه أشد وأبقى .

ومنهم من يرى أن المراد بالآخرة قوله لقومه : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ، وأن المراد بالأولى تكذيبه لموسى - عليه السلام - أى ، فعاقبه الله - تعالى - على هاتين المعصيتين وهذا العقاب الأليم ، بأن أغرقه ومن معه جميعا ..

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأقرب إلى ما تفيده الآية الكريمة ، إذ من المعروف أن الآخرة ، هى ما تقابل الأولى وهى دار الدنيا ، ولذا قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - :

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا . ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، كما قال - تعالى - :

﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾. هذا هو الصحيح فى معنى الآية ، أن المراد بقوله : ﴿ نكال الآخرة والأولى ﴾ أى : الدنيا والآخرة . وقيل المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه ، والصحيح الذى لاشك فيه الأول ..[1] .

والإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ، تعود إلى حديث موسى الذى دار بينه وبين فرعون ، وما ترتب عليه من نجاة لموسى ومن إهلاك لفرعون .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عما دار بين موسى وفرعون ، لعبرة وعظة ، لمن يخشى الله - تعالى - ، ويقف عند حدوده ، لا لغيره ممن لا يتوبون ولا يتذكرون ولا تخالط أنفسهم خشية الله - تعالى - .

والمقصود من هذه القصة كلها ، تسلية الرسول - ﷺ - ، وتهديد المشركين بأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، كانت عاقبتهم كعاقبة فرعون .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٣٨ .

وبعد هذا الاستطراد عن طريق ذكر جانب مما دار بين موسى وفرعون .. عادت السورة الكريمة ، كما بدأت إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن إمكانية وقوعه ، وعن أحوال الناس فيه . وعن أن موعد قيامه مرد علمه إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا
﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾
وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾
وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ
ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ
هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ
﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا
﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ أأنتم أشد خلقا ... ﴾ لأولئك الجاحدين الجاهلين الذين استنكروا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، وقالوا : ﴿ أئنا لمردودون فى الحافرة ﴾ .

وجاء هذا الخطاب على سبيل التقريع والتوبيخ لهم، حيث بين لهم - سبحانه - أن إعادتهم إلى الحياة ، ليست بأصعب من خلق السموات والأرض .

و﴿ أشد ﴾ أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف ، لدلالة قوله - تعالى - : ﴿ أم السماء ﴾ عليه .

والمراد بالأشد هنا : الأصعب بالنسبة لاعتقاد المخاطبين ، إذ كل شىء فى هذا الكون خاضع لإرادة الله - تعالى - ومشيئته ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

والمعنى : أخلقكم - أيها الجاهلون - بعد موتكم ، وإعادتكم إلى الحياة بعد هلاككم ، أشد وأصعب فى تقديركم ، أم خلق السماء التى ترون بأعينكم عظمتها وضخامتها ، والتى أوجدها - سبحانه ، وبناها بقدرته .

فالمقصود من الآية الكريمة لفت أنظارهم إلى أمر معلوم عندهم بالمشاهدة ، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ من خلقهم ، ومن كان قادرا على الأبلغ والأعظم كان على ما هو أقل منه - وهو خلقهم وإعادتهم بعد موتهم - أقدر .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ...﴾ .

ثم بين - سبحانه - جانبا من بديع قدرته فى خلق السماء فقال : ﴿ رفع سمكها فسواها ﴾ .

والسَّمْك - بفتح السين - المشددة وسكون الميم - : الرفع فى الفضاء ، وجعل الشىء عاليا عن غيره .

تقول : سمكت الشىء ، إذا رفعته فى الهواء ، وبناء مسموك ، أى : مرتفع ، ومنه قول الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

أى : أن الله - تعالى - بقدرته ، جعل مقدار ارتفاع السماء عن الأرض عظيما ، وبجانب ذلك سوى بحكمته هذه السماء ، بأن جعلها خالية من الشقوق والثقوب .. كما قال - سبحانه - : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ...﴾ .

وجملة « وأغطش ليلها ... » معطوفة على « بناها » ، والإغطاش : الإظلام الشديد . يقال : غطش الليل - من باب ضرب - إذا اشتد ظلامه .

أى : وجعل - بقدرته - ليل هذه السماء مظلما غاية الإظلام : بسبب مغيب شمسها .

﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أى : وأبرز وأضاء نهارها ، إذ الضحى فى الأصل : انتشار الشمس ، وامتداد النهار . ثم سمى به هذا الوقت ، لبروز ضوء الشمس فيه أكثر من غيره ، فهو من باب تسمية الشىء باسم أشرف أجزائه وأطيبها .

وأضاف - سبحانه - الليل والضحى إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب غروب شمسها وطلوعها .

ثم انتقلت الآيات الكريمة من الاستدلال على قدرته - تعالى - عن طريق خلق السماء ،

الى الاستدلال على قدرته عن طريق خلق الأرض فقال : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ .

ولفظ « الأرض » منصوب على الاشتغال . واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى خلق السماء وتسويتها ورفعها وإغطاش ليلها . وقوله ﴿ دحاها ﴾ من الدحو بمعنى البسط ، تقول : دحوت الشيء أدحوه ، إذا بسطته ..

أي : خلق - سبحانه - السماء وسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد كل ذلك الخلق البديع للسماء ، بسطها وأوسعها لتكون مستقرا لكم وموضعا لتقلبكم عليها ..

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية ، تأخر خلق الأرض عن خلق السماء ..

وجمهور العلماء على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾[1] .

قالوا فى الجمع بين هذه الآية التى معنا ، وبين آية سورة البقرة ، بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين هاتين الآيتين فقال : خلق الله - تعالى - الأرض أولا غير مدحوة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغيرهما . أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها ، كان بعد خلق السماء .

وقالوا - أيضا - فى وجه الجمع ، إن لفظ بعد فى قوله - تعالى - ﴿ بعد ذلك ﴾ بمعنى مع . أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها فيها ..[2] .

وقدم - سبحانه - هنا خلق السماء على الأرض ، لأنه أدل على القدرة الباهرة ، لعظم السماء وانطوائها على الأعاجيب .

وقوله - سبحانه - ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿ دحاها ﴾ ، أو بيان وتفسير لدحوها ، والمرعى : مصدر ميمى أطلق على المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ، أى أخرج منها ما يُرْعَى .

أى : والأرض جعلها مستقرا لكم ، ومكانا لانتفاعكم ، بأن أخرج منها ماءها ، عن طريق تفجير العيون والآبار والبحار ، وأخرج منها ﴿ مرعاها ﴾ أى : جميع ما يقتات به الناس والدواب ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٩ .

(٢) راجع تفسيرنا لسورة فصلت ، المجلد الثانى عشر .

وكذلك من مظاهر قدرته - تعالى - ورحمته بكم ، أنه أثبت الجبال فى الأرض حتى لا تميد أو تضطرب ، فالمقصود بإرساء الجبال : تثبيتها فى الأرض .

وقوله - تعالى - : ﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ بيان لوجه المنة فى خلق الأرض على هذه الطريقة البديعة .

والمتاع : اسم لما يتمتع به الإنسان من منافع الحياة الدنيا لمدة محدودة من الزمان ، وانتصب لفظ « متاعا » هنا بفعل مقدر من لفظه ، أى : متعناكم متاعا .

والمعنى : دحونا الأرض ، وأخرجنا منها ماءها ومرعاها .. لتكون موضع منفعة لكم ، تتمتعون بخيراتها أنتم وأنعامكم ، إلى وقت معين من الزمان ، تتركونها لانتهاء أعماركم .

ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء والسعداء يوم القيامة ، فقال : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ . والطامة : اسم للمصيبة العظمى ، التى تَطُمُّ وتغلب وتعلو ماسواها من مصائب ، من قولهم : طمَّ الشىء يطُمُّه طَمًّا ، إذا غمره ؛ وكل شىء كثر وعلا على غيره ، فقد طم عليه . ويقال : طم الماء الأرض إذا غمرها .

وهذا الوصف ليوم القيامة ، من أوصاف التهويل والشدة ، لأن أحوالها تغمر الناس وتجعلهم لا يفكرون فى شىء سواها .

وجواب الشرط محذوف ، والمجىء هنا : بمعنى الحدوث والوقوع ، أى : فإذا وقعت القيامة ، وقامت الساعة .. حدث ما حدث ما لم يكن فى الحسبان من شدائد وأهوال .

وقوله : ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ بدل اشتمال من الجملة التى قبلها وهى قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة ﴾ لأن ما أضيف إليه لفظ « يوم » من الأحوال التى يشملها يوم القيامة ، وتذكر الإنسان لسعيه فى الدنيا ، يكون بإطلاعه على أعماله التى نسيها ، ورؤيته إياها فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

أى : فإذا قامت القيامة ، وتذكر الإنسان فى هذا الوقت ما كان قد نسيه من أعمال فى دنياه ، وقع له من الخوف والفزع مالا يدخل تحت وصف ..

وقوله : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ معطوف على قوله ﴿ جاءت ﴾ . أى : فإذا جاءت الطامة الكبرى ، وتذكر الإنسان فيها ما كان قد نسيه من أعمال دنيوية ﴿ وبرزت الجحيم ﴾ أى : وأظهرت إظهارا واضحا لا خفاء فيه ولا لبس ﴿ لمن يرى ﴾ أى : لكل راء . كان الهول الأعظم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأما من طغى ...﴾ تفصيل لأحوال الناس فى هذا اليوم .

أى : ﴿ فأما من طغى ﴾ بأن تجاوز الحدود فى الكفر والفسوق والعصيان ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ بأن قدم متاعها الفانى ، على نعيم الآخرة الخالد ..

﴿ فإن الجحيم هى المأوى ﴾ أى : فإن مصير هذا الإنسان الشقى سيكون إلى النار الملتهبة ، لا منزل له سواها فى هذا اليوم .

﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أى : خاف عظمته وجلاله ، وسلح نفسه بالإيمان والعمل الصالح استعدادا لهذا اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما يستحقه .

﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ أى : وزجر نفسه وكفها عن السيئات والمعاصى والميول نحو الأهواء الضالة المضلة .

﴿ فإن الجنة هى المأوى ﴾ أى : فإن الجنة فى هذا اليوم ، ستكون هى مأواه ومنزله ومستقره ..

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الجواب الذى يرد به على المشركين ، الذين كانوا يكثرون من سؤاله عن يوم القيامة ، على سبيل الإنكار والاستهزاء ، فقال - تعالى - : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ .

وأيان : اسم يستفهم به عن تعيين الوقت وتحديده ، فهو ظرف زمان متضمن معنى « متى » ومرساها : مصدر ميمى من أرسى الشىء إذا ثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل هذا اللفظ إلا فى الشىء الثقيل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والجبال أرساها .. ﴾ .

ونسبة الإرساء إلى الساعة ، باعتبار تشبيه المعانى بالأجسام . و« أيان » خبر مقدم ، و« مرساها » مبتدأ مؤخر .

والمعنى : يسألك يا محمد هؤلاء القوم عن وقت قيام الساعة ، قائلين لك : متى يكون استقرارها وإرساؤها ووقوعها ؟ .

وأطلق على يوم القيامة ساعة لوقوع بغتة ، أو لسرعة مافيه من الحساب ، أو لأنه على طوله ، زمان يسير عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها ﴾ واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة ، وعن وقت وقوعها .

والمقصود بهذا الجواب توبيخهم على إلحاحهم فى السؤال عنها ، مع أن الأولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .

و« ما » فى قوله ﴿ فيم ﴾ اسم استفهام بمعنى : أى شىء ، وهى هنا مستعملة فى التعجيب

من كثرة أسئلتهم عن شيء لا يهمهم حدوثه ، وإنما الذى يهمهم - لو كانوا يعقلون - هو حسن الاستعداد له .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ إنكار ورد لسؤال المشركين عنها . أى: فى أى شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها ، وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها ، كقوله - تعالى - ﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾ فالاستفهام للإنكار . وفيم خبر مقدم ، وأنت مبتدأ مؤخر . وقوله ﴿ من ذكراها ﴾ على تقدير مضاف ، أى : ذكرى وقتها ، وهو متعلق بما تعلق به الخبر .

وقيل : ﴿ فيم ﴾ إنكار لسؤالهم ، وما بعده استئناف تعليل للإنكار ، وبيان لبطلان السؤال . أى : فيم هذا السؤال ، ثم ابتدىء فقيل : أنت من ذكراها . أى : إرسالك وأنت خاتم النبيين .. علامة من علاماتها .[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ أى : إلى ربك وحده منتهى علم قيامها ، لأنه - سبحانه - هو وحده - دون غيره - العليم علما تاما بالوقت الذى ستقوم فيه الساعة .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ...﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ...﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ تحديد لوظيفته - ﷺ - أى : ليست وظيفتك - أيها الرسول الكريم - معرفة الوقت الذى تقوم فيه الساعة ، فهذا أمر مرد معرفته إلى الله وحده .. وإنما وظيفتك امتثال ما أمرت به ، من بيان اقترابها ، وتفصيل أهوالها ، ودعوة الناس إلى حسن الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح ..

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ترك هؤلاء الجاهلون ما يجب عليهم من الإيمان والعمل الصالح ، وأخذوا يسألونك عن أشياء خارجة عن وظيفتك ؟ .

وخص - سبحانه - الإنذار بمن يخشى قيام الساعة ، مع أن رسالته - ﷺ - إلى الناس كافة . وإنذاره إنما هو لهم جميعا ، لأن هؤلاء الذين يخشون وقوعها ، ويعملون العمل الصالح الذى ينجيهم من أهوالها ، هم الذين ينتفعون بهذا الإنذار .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان حالهم عند قيام الساعة ، فقال - تعالى - : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٣٧ .

والعشية : هى الوقت الكائن من الزوال إلى الغروب . والضحى : الوقت الكائن من أوائل النهار إلى الزوال .

أى : كأن هؤلاء المشركين حين يرون الساعة وقد فاجأتهم بأهوالها ، لم يلبثوا فى دنياهم أو فى قبورهم إلا وقتا يسيرا ، يشبه العشية أو الضحى بالنسبة للزمان الطويل .

فالمقصود من الآية الكريمة : بيان أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن المشركين عند إتيانها كأنهم ما لبثوا فى انتظارها إلا يوما أو بعض يوم ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية ؟ قلت : لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما فى نهار واحد .

فإن قلت : فهلا قيل : إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة ؟ قلت : للدلالة على أن مدة لبثهم ، كأنها لم تبلغ يوما كاملا ، ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته ، فهو كقوله : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[1] .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « النازعات » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأربعاء ١٣ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ .
١٧ / ٩ / ١٩٨٦ م .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٩٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة عبس

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « عبس » من السور المكية ، وتسمى سورة « الصاخة » وسورة « السفرة » لوقوع هذه الألفاظ فيها .

٢ - وعدد آياتها : اثنتان وأربعون آية فى المصحف الكوفى ، وإحدى وأربعون فى البصرى ، وأربعون فى الشامى .. وكان نزولها بعد سورة « النجم » وقبل سورة « القدر » ، فهى تعتبر السورة الثالثة والعشرون فى ترتيب النزول ، أما فى ترتيب المصحف فهى السورة الثمانون .

وقد افتتحت بإرشاد النبى - ﷺ - إلى ما يجب عليه نحو ضعفاء المسلمين ، وبإرساء القاعدة التى يجب على المسلمين أن يتبعوها عند معاملتهم للناس ، والثناء على المؤمنين الصادقين مهما كان عجزهم وضعفهم والتحذير من إهمال شأنهم .

ثم تذكير المؤمنين بجانب من نعمه - تعالى - عليهم ، لكى يزدادوا شكرا له - تعالى - على شكرهم ، ثم تذكيرهم أيضا بأهوال يوم القيامة ، وبأحوال الناس فيه .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ
عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات ملخصها : أن النبى - ﷺ - كان جالسا فى أحد الأيام ، مع جماعة من زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، ويشرح لهم تعاليمه ، فأقبل عبد الله ابن أم مكتوم - وكان كفيف البصر - فقال : أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، يارسول الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم أن الرسول - ﷺ - مشغول بدعوة هؤلاء الزعماء إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم خلق كثير ..

فلما أكثر عبد الله من طلبه ، أعرض عنه الرسول - ﷺ - فنزلت هذه الآيات التى عاتب الله - تعالى - فيها نبيه - ﷺ - على هذا الإعراض .. فكان رسول الله - ﷺ - بعد ذلك يكرمه ، إذا رآه ، ويقول له : « مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى » ويبسط له رداءه ..[1] .

قال الآلوسى : وعبد الله ابن أم مكتوم، هو ابن خال السيدة خديجة ، واسمه عمرو بن قيس . وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، واستخلفه - ﷺ -

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٢ .

على المدينة أكثر من مرة .. وهو من المهاجرين الأولين . قيل : مات بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ..[١] .

ولفظ « عبس » - من باب ضرب - مأخوذ من العبوس ، وهو تقطيب الوجه ، وتغير هيئته مما يدل على الغضب .

وقوله ﴿ وتولى ﴾ مأخوذ من التولى وأصله تحول الإنسان عن مكانه الذى هو فيه إلى مكان آخر . والمراد به هنا الإعراض عن السائل وعدم الإقبال عليه .

وحذف متعلق التولى ، لمعرفة ذلك من سياق الآيات ، إذ من المعروف أن إعراضه - ﷺ - كان عن عبد الله ابن أم مكتوم الذى قاطعه خلال حديثه مع بعض زعماء قريش .

وأل فى قوله - تعالى - : ﴿الأعمى ﴾ للعهد . والمقصود بهذا الوصف : التعريف وليس التنقيص من قدر عبد الله ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - وكذلك فى هذا الوصف إيماء إلى أن له عذرا فى مقاطعة الرسول - ﷺ - عند حديثه مع زعماء قريش ، فهو لم يكن يراه وهو يحادثهم ويدعوهم إلى الإسلام .

وجاء الحديث عن هذه القصة بصيغة الحكاية ، وبضمير الغيبة ، للإشعار بأن هذه القصة ، من الأمور التى لا يحب الله - تعالى - أن يواجه بها نبيه - ﷺ - على سبيل التكريم له ، والعطف عليه ، والرحمة به .

وجملة ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ فى موضع الحال ، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب ، و« ما » استفهامية مبتدأ ، وجملة « يدريك » خبره . والكاف مفعول أول ، وجملة الترجى سادة مسد المفعول الثانى . والضمير فى ﴿ لعله ﴾ يعود إلى عبد الله ابن أم مكتوم المعبر عنه بالأعمى .

والمعنى : عبس - ﷺ - وضاق صدره ، وأعرض بوجهه ، لأن جاءه الرجل الأعمى ، وجعل يخاطبه وهو مشغول بالحديث مع غيره .

﴿ وما يدريك ﴾ أى : وأى شىء يجعلك - أيها الرسول الكريم - داريا بحال هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه ﴿ لعله يزكى ﴾ أى : لعله بسبب ما يتعلمه منك يتطهر ويتزكى ، ويزداد نقاء وخشوعا لله رب العالمين ﴿ أو ﴾ لعله ﴿ يذكر ﴾ أى : يتذكر ما كان فى غفلة عنه ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ أى : فتنفعه الموعظة التى سمعها منك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٣٩ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وفى التعبير عنه - ﷺ - بضمير الغيبة إجلال له .. كما أن فى التعبير عنه - ﷺ - بضمير الخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وما يدريك ...﴾ إكرام له - أيضا - لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض ..[١] .

ثم فصل - سبحانه - ما كان منه - ﷺ - بالنسبة لهذه القصة فقال : ﴿ أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ﴾ . أى : أما من استغنى عن الإيمان ، وعن إرشادك - أيها الرسول الكريم - واعتبر نفسه فى غنى عن هديك .. ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى : فأنت تتعرض له بالقبول ، وبالإصغاء لكلامه ، رجاء أن يسلم ، فيسلم بعده غيره .

يقال : تصدَّى فلان لكذا ، إذا تعرَّض له ، وأصله تصدَّدَ من الصَّدَد ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك ..

﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى : وأى شىء عليك فى أن يبقى على كفره ، بدون تطهر ؟ إنه لا حرج عليك فى ذلك ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب و﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ...﴾ .

و« ما » نافية و« عليك » خبر مقدم ، وقوله : ﴿ ألا يزكى ﴾ مبتدأ مؤخر .

﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أى : من جاءك مسرعا فى طلب الخير والهداية والعلم ، وهو هذا الأعمى ، الذى لم يمنعه فقدانه لبصره من الحرص على التفقه فى الدين .

﴿ وهو يخشى ﴾ أى : وهو يخشى الله ، ويخاف عقابه ، ويرجو ثوابه .

﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أى : فأنت عنه تتشاغل ، وتفرغ جهدك مع هؤلاء الزعماء ، طمعا فى إيمانهم .

ويلاحظ أن هذه الآيات الكريمة ، أكثر حدة فى العتاب من سابقتها ، حيث ساق - سبحانه - هذه الآيات فى صورة أشبه ما تكون بالتعجيب ممن يفعل ذلك ..

ثم ساق - سبحانه - ما هو أشد فى العتاب وفى التحذير فقال : ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ .

أى : كلا - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما فعلت ، من إقبالك على زعماء قريش طمعا فى إسلامهم ، ومن تشاغلك وإعراضك عمن جاء يسعى وهو يخشى ..

الضمير فى قوله ﴿ إنها ﴾ يعود إلى آيات القرآن الكريم ، أى : إن آيات القرآن الكريم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٣٩ .

لمشتملة على التذكير بالحق ، وعلى الموعظة الحكيمة التى ينبغى على كل عاقل أن يعمل بموجبها ، وأن يسير بمقتضاها .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أى : فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح ، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع ، فالجملة الكريمة لتهديد الذين يعرضون عن الموعظة ، وليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة .

وهى معترضة للترغيب فى حفظ هذه الآيات ، وفى العمل بما اشتملت عليه من هدايات .

وجاء الضمير مذكرا فى قوله : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ لأن التذكرة هنا بمعنى التذكير والاتعاظ .

أى : فمن شاء التذكير والاعتبار ، تذكر واعتبر وحفظ ذلك دون أن ينساه ..

وقوله : ﴿ فى صحف مكرمة ﴾ خبر ثان لقوله ﴿ إنها تذكرة ﴾ وما بينهما اعتراض ..

أى : إن آيات القرآن تذكرة ، مثبتة أو كائنة فى صحف عظيمة ﴿ مكرمة ﴾ عند الله - تعالى - لأنها تحمل آياته .

هذه الصحف - أيضا - ﴿ مرفوعة ﴾ أى : ذات منزلة رفيعة ﴿ مطهرة ﴾ أى : منزهة عن أن يمسها ما يدنسها .

وهى كائنة ﴿ بأيدى سفرة ﴾ وهم الملائكة الذين جعلهم الله - تعالى - سفراء بينه وبين رسله : جمع سافر بمعنى سفير . أى : رسول وواسطة ، أو هم الملائكة الذين ينسخون ويكتبون هذه الآيات بأمره - تعالى - جمع سافر بمعنى كاتب ، يقال : سفَر فلان يَسْفِره ، إذا كتبه .

﴿ كرام بررة ﴾ أى : هذه الآيات بأيدى سفرة من صفاتهم أنهم مكرمون ومعظمون عنده - تعالى - ، وأنهم أتقياء مطيعون لله - تعالى - كل الطاعة ، جمع بَرّ ، وهو من كان كثير الطاعة والخشوع لله - عز وجل - ..

هذا والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد اشتملت على كثير من الآداب والأحكام ، ومن ذلك : أن شريعة الله - تعالى - تجعل التفاضل بين الناس ، أساسه الإيمان والتقوى ، فمع أن عبدالله ابن أم مكتوم ، كان قد قاطع الرسول - ﷺ - خلال حديثه مع بعض زعماء قريش ... ومع أن الرسول - ﷺ - لم يتشاغل عنه إلا لحرصه على جذب هؤلاء الزعماء إلى الإسلام .

مع كل ذلك ، وجدنا الآيات الكريمة ، تعاتب النبى - ﷺ - عتابا تارة فيه رقة . وتارة فيه شدة . وذلك لأن الميزان الذى أنزله الله - تعالى - للناس مع الرسل ، لكى يبنوا عليه

حياتهم ، هو : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه الحكيم ، فبنى حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم ، وقوله له كلما رآه : « أهلا بمن عاتبنى فيه ربى » .

وفعل - ﷺ - ما يشبه ذلك ، مع جميع المؤمنين الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة - أميرا على الجيش الإسلامى فى غزوة مؤتة ، وكان فى هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابة .

وقال - ﷺ - فى شأن سلمان الفارسى : « سلمان منا أهل البيت » .

وقال - ﷺ - فى شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن عليه فى الدخول : « ائذنوا له . مرحبا بالطيب المطيب » .

وكان من مظاهر تكريمه لعبدالله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهل بيته .

فعن أبى موسى الأشعرى قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - ﷺ - من كثرة دخولهم على رسول الله ، ولزومهم له ..

وقال - ﷺ - لأبى بكر الصديق عندما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال فى شأن أبى سفيان : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك .

فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه .. أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ .

فأتى النبى - ﷺ - فأخبره فقال : « يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك » فأتاهم فقال : يا إخوتاه أأغضبتكم ؟ قالوا : لا . ويغفر الله لك يا أخى ..[1] .

ولقد سار خلفاؤه - ﷺ - على هذه السنة ، فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبو بكر - رضى الله عنه - أذن لصهيب وبلال فى الدخول عليه ، قبل أن يأذن لأبى سفيان وسهيل بن عمرو ..

---

(١) رياض الصالحين ص ١٤٢ . باب : ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة .

وعمر - رضى الله عنه - يقول فى شأن أبى بكر : « هو سيدنا وأعتق سيدنا » يعنى : بلال ابن رباح ..

قال صاحب الكشاف عند تفسيره ، لهذه الآيات : ولقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدبا حسنا ، فقد روى عن سفيان الثورى - رحمه الله - ، أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء ..[١] .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جانب من نعم الله - تعالى - على خلقه ، وموقفهم من هذه النعم ، فقال - تعالى - :

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا
﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباده المؤمنين من ذلك ، فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع ؟ مع أن أوله نطفة قذرة ، وآخره جيفة مذرة ، وفيما بين الوقتين حمال عذرة . فلا عجب أن ذكر الله - تعالى - ما يصلح أن يكون علاجا لعجبهم وما يصلح أن يكون علاجا لكفرهم ، فإن خلقة الإنسان يستدل بها على وجود الصانع ، وعلى القول بالبعث والحشر والنشر ..[٢] .

والمراد بالإنسان هنا : الإنسان الكافر الجاحد لنعم ربه . ومعنى « قتل » : لعن وطرد من

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠١ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٣٤ .

رحمة الله - تعالى - ، ويصح أن يكون المراد به الجنس ، ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا . أى : لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - ذلك الإنسان الذى ما أشد كفره وجحوده لنعم الله - تعالى - .

والدعاء عليه باللعن من الله - تعالى - ، المقصود به : التهديد والتحقير من شأن هذا الإنسان الجاحد ، إذ من المعلوم أن الله - سبحانه - هو الذى يتوجه إليه الناس بالدعاء ، وليس هو - سبحانه - الذى يدعو على غيره ، إذ الدعاء فى العادة إنما يكون من العاجز ، وجل شأن الله - تعالى - عن العجز .

وجملة « ما أكفره » تعليل لا ستحقاق هذا الإنسان الجاحد التحقير والتهديد .

وهذه الآية الكريمة المتأمل فيها يراها - مع بلوغها نهاية الإيجاز - قد بلغت - أيضا - نهاية الإعجاز فى أسلوبها ، حيث جمعت أشد ألوان الذم والتحقير بأبلغ أسلوب وأوجزه .

ولذ قال صاحب الكشاف : ﴿ قتل الإنسان ﴾ دعاء عليه ، وهى من أشنع دعواتهم ، لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها ﴿ ما أكفره ﴾ تعجيب من إفراطه فى كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوبا أغلظ منه ، ولا أخشن متنا ، ولا أدل على سخط ، ولا أبعد فى المذمة ، مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع لِلَائِمةٍ ، على قصر متنه ..[1] .

ثم فصل - سبحانه - جانبا من نعمه ، التى تستحق من هذا الإنسان الشكر لا الكفر فقال : ﴿ من أى شيء خلقه ﴾ أى : من أى شيء خلق الله - تعالى - هذا الإنسان الكافر الجحود ، حتى يتكبر ويتعظم عن طاعته ، وعن الإقرار بتوحيده ، وعن الاعتراف بأن هناك بعثا وحسابا وجزاء ..؟ .

ثم وضح - سبحانه - كيفية خلق الإنسان فقال : ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أى : خلق الله - تعالى - الإنسان من نطفة ، أى : من ماء قليل يخرج من الرجل إلى رحم المرأة - ﴿ فقدره ﴾ أى : فأوجد الله - تعالى - الإنسان بعد ذلك إيجادا متقنا محكما ، حيث صير بقدرته النطفة علقة فمضغة .. ثم أنشأه خلقا آخر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ أى : ثم بعد أن خلقه فى أحسن تقويم ، ومنحه العقل الذى يتمكن معه من التفكير السليم . يسر - سبحانه - له طريق النظر القويم ، الذى يميز به بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٣ .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وهكذا قال عكرمة .. واختاره ابن جرير .

وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ﴿ إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وسهلنا عليه علمه .. وهذا هو الأرجح ..[1] .

وجاء العطف « بثم » هنا ، للإشعار بالتراخى الرتبى ، لأن تيسير معرفة طريق الخير والشر ، أعجب وأدل على قدرة الله - تعالى - وبديع صنعه من أى شىء آخر .

ولفظ « السبيل » منصوب على الاشتغال بفعل مقدر ، أى : ثم يسر السبيل يسره ، فالضمير فى يسره يعود إلى السبيل . أى : سهل - سبحانه - الطريق للإنسان .

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أى: ثم أمات - سبحانه - هذا الإنسان ، بأن سلبه الحياة ﴿ فأقبره ﴾ . أى : فجعله ذا قبر يوارى فيه جسده تكريما له ، ولم يتركه مطروحا على وجه الأرض ، بحيث يستقذره الناس ، ويكون عرضة لاعتداء الطيور والحيوانات عليه .

يقال : قبر فلان الميت يقبره - بكسر الباء وضمها - ، إذا دفنه بيده فهو قابر . ويقال : أقبره ، إذا أمر بدفنه ، أو مكن غيره من دفنه .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن مواراة الأجساد فى القبور من سنن الإسلام ، أما تركها بدون دفن ، أو حرقها .. فيتنافى مع تكريم هذه الأجساد .

﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أى : ثم بعد أن خلق الله هذا الخلق البديع ، وهداه النجدين ، وأمر بستر جسده فى القبر بعد موته .. بعد كل ذلك إذا شاء أحياه بعد الموت ، للحساب والجزاء . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى ونشرهم ، إذا بعثهم من قبورهم .

وقال - سبحانه - ﴿ إذا شاء ﴾ للإشعار بأن هذا البعث إنما هو بإرادته ومشيئته ، وفى الوقت الذى يختاره ويريده ، مهما تعجله المتعجلون .

ثم زجر - سبحانه - هذا الإنسان زجرا شديدا لتقصيره فى أداء حق خالقه ، فقال - تعالى - : ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ أى : كلا إن هذا الإنسان الجاحد المغرور .. لم يقض ولم يؤد ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف ومن شكر لخالقه ، ومن تأمل فى آياته ، ومن طاعة لرسله .. بل استمر فى طغيانه وعناده .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة : ردع هذا الإنسان الجاحد وزجره ، وبيان أن هذا الردع سببه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٥ .

إهماله لحقوق خالقه ، وعدم اهتمامه بأدائها .

ثم ساقت الآيات بعد ذلك ألوانا من نعمه - تعالى - على خلقه فقال : ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ والفاء هنا للتفريع على ما تقدم ، مع إفادتها معنى الفصيحة .

أى : إذا أراد أن يقضى ويؤدى ما أمره الله - تعالى - من تكاليف ، فلينظر هذا الإنسان إلى طعامه ، وكيف أوجده - سبحانه - له ، ورزقه إياه ، ومكنه منه .. فإن فى هذا النظر والتدبر والتفكر ، ما يعينه على طاعة خالقه ، وإخلاص العبادة له .

ثم بين - سبحانه - مظاهر تهيئة هذا الطعام للإنسان .. فقال : ﴿ أنا صببنا الماء صبا ﴾ .

قال الجمل : قرأ الكوفيون ﴿ أنا ﴾ بالفتح . على البدل من طعامه ، فيكون فى محل جر بدل اشتمال ، بمعنى أن صب الماء سبب فى إخراج الطعام فهو مشتمل عليه .

وقرأ غيرهم بكسر الهمزة على الاستئناف المبين لكيفية إحداث الطعام ..[1] .

والصب : إنزال الماء بقوة وكثرة . أى : إنا أنزلنا المطر من السماء إنزالا مصحوبا بالقوة والكثرة ، لحاجتكم الشديدة إليه فى حياتكم .

﴿ ثم شققنا الأرض شقا ﴾ أى : ثم شققنا الأرض بالنبات شقا بديعا حكيما ، بحيث تخرج النباتات من باطنها خروجا يبهج النفوس ، وتقر به العيون .

﴿ فأنبتنا فيها حبا ﴾ أى : فأنبتنا فى الأرض حبا كثيرا ، تقتاتون منه ، وتدخرونه لحين حاجتكم إليه ، والحب : يشمل الحنطة والشعير والذرة .

﴿ وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا ﴾ أى : وأنبتنا فى الأرض - أيضا - بقدرتنا ورحمتنا ﴿ عنبا ﴾ وهو ثمر الكرم المعروف بلذة طعمه .

﴿ وقضبا ﴾ وهو كل ما يؤكل من النبات رطبا ، كالقثاء والخيار ونحوهما ، وقيل : هو العلف الرطب الذى تأكله الدواب ، وسمى قضبا ، لأنه يقضب - أى يقطع - بعد ظهوره مرة بعد أخرى .

وأنبتنا فيها كذلك ﴿ زيتونا ونخلا ﴾ وهما شجرتان معروفتان بمنافعهما الجمة ، وبثمارهما المفيدة .

﴿ وحدائق غلبا ﴾ والحدائق جمع حديقة وهى البستان الملىء بالزروع والثمار .

و﴿ غلبا ﴾ جمع غلباء . أى : وأنبتنا فى الأرض حدائق عظيمة ، ذات أشجار ضخمة ، قد

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٩٠ .

التف بعضها على بعض لكثرتها وقوتها . فقوله ﴿ غلبا ﴾ بمعنى عظاما ، وأصلها من ﴿ الغَلَب ﴾ - بفتحتين - ، بمعنى الغلظ ، يقال شجرة غلباء ، وهضبة غلباء . أى : عظيمة مرتفعة . ويقال : حديقة غلباء ، إذا كانت عظيمة الشجر . ويقال : رجل أغلب ، إذا كان غليظ الرقبة .

وأنبتنا فيها - أيضا - بقدرتنا وفضلنا ﴿ فاكهة وأبا ﴾ .. والفاكهة : اسم للثمار التى يتناولها الإنسان على سبيل التفكه والتلذذ ، مثل الرطب والعنب والتفاح .

والأب : اسم للكلأ الذى ترعاه الأنعام ، مأخوذ من أبَّ فلان الشيء ، إذا قصده واتجه نحوه ، لحاجته إليه ... والكلأ والعشب يتجه إليه الإنسان بدوابه للرعى .

قال صاحب الكشاف : والأب : المرعى ، لأنه يؤب ، أى : يؤم وينتجع .... وعن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه سئل عن الأب فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به ..

وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا قد عرفنا ، فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت فى يده وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يابن أم عمر أن لا تدرى ماالأب ؟ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه .

فإن قلت : فهذا يشبه النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ؟ قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة فى الامتنان على الإنسان بمطعمه ، واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية ، أن الأبَّ بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لأنعامه فعليك بما هو أهم ، من النهوض بالشكر لله - تعالى - على ما تبين لك أو لم يشكل ، مما عدد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ، ومعرفة النبات الخاص الذى هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجملية ، إلى أن يتبين لك فى غير هذا الوقت ..[1] .

وقال بعض العلماء : والذى يتبين لى فى انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول لفظ الأب ، وهما من خلص العرب لأحد سببين :

إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسى من استعمالهم ، فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة ، فإن الكلمة قد تشتهر فى بعض القبائل أو فى بعض الأزمان وتنسى فى بعضها ، مثل اسم السكين عند الأوس والخزرج . فقد قال أنس بن مالك : ماكنا نقول إلا المدية ، حتى سمعت قول

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٥ .

الرسول - ﷺ - يذكر أن سليمان قال : « ائتونى بالسكين أقسم الطفل بينهما نصفين » .

وإما لأن كلمة الأب تطلق على أشياء كثيرة ، منها النبت الذى ترعاه الأنعام ، ومنها التبن ، ومنها يابس الفاكهة ، فكان إمساك أبى بكر وعمر عن بيان معناه ، لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين ، وهل الأب مما يرجع إلى قوله ﴿ متاعا لكم ﴾ أو إلى قوله ﴿ ولأنعامكم ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : ﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ ، أى : أنبت لكم تلك الزروع والثمار .. لتكون موضع انتفاع لكم ولأنعامكم إلى حين من الزمان .

إذ المتاع : هو ما ينتفع به الإنسان إلى حين ثم ينتهى ويزول ، ولفظ « متاعا » منصوب بفعل محذوف ، أى : فعل ذلك متاعا لكم ، أو متعكم بذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم .

أو قوله ﴿ متاعا لكم ﴾ حال من الألفاظ السابقة : العنب والقضب والزيتون والنخل . أى : حالة كون هذه المذكورات موضع انتفاع لكم ولأنعامكم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن أحوال الناس فى يوم القيامة . فقال - تعالى - :

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ للدلالة على ترتيب ما بعدها على ماقبلها من فنون النعم . وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف يدل عليه قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ، ويصح أن يكون جوابه قوله : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ .

والصاخة : الصيحة الشديدة التى تصُخُّ الآذان ، أى تزلزلها لشدة صوتها ، وأصل الصخ : الصك الشديد ، والمراد بها هنا : النفخة الثانية التى بعدها يبعث الناس من قبورهم ..

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور جـ ٣٠ ص ١٣٣ .

أى : فإذا جاءت الصيحة العظيمة التى بعدها يخرج الناس من قبورهم للحساب والجزاء ، كان ما كان من سعادة أقوام ، ومن شقاء آخرين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ بدل مما قبله وهو قوله ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ والفرار : الهروب من أجل التخلص من شىء مخيف .

والمعنى : يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء يكونون فى كرب عظيم ، يجعل الواحد منهم ، يهرب من أخيه الذى هو من ألصق الناس به ، ويهرب كذلك من أمه وأبيه ، ومن صاحبته - وهى زوجه - وبنيه الذين هم فرع عنه .

والمراد بفراره منهم : عدم اشتغاله بشىء يتعلق بهم ، وعدم التفكير فيهم وفى الالتقاء بهم ، لاشتغاله بحال نفسه اشتغالا ينسيه كل شىء سوى التفكير فى مصيره ... وذلك لشدة الهول ، وعظم الخطب .

وخص - سبحانه - هؤلاء النفر بالذكر ، لأنهم أخص القرابات ، وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا فى أشد حالات الخوف والفزع .

قال صاحب الكشاف : « يفر » منهم لا شتغاله بما هو مدفوع إليه ، ولعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئا : وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين ، لأنهم أقرب وأحب ، كأنه قال : يفر من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه ..[١] .

وجملة : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ مستأنفة . واردة لبيان سبب الفرار . وللمبالغة فى تهويل شأن هذا اليوم .

أى : لكل واحد منهم فى هذا اليوم العظيم ، شأن وأمر يغنيه ويكفيه عن الاشتغال بأى أمر آخر سواه . يقال : فلان أغنى فلاناً عن كذا ، إذا جعله فى غنية عنه .

وقد ساق ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث ، منها ما رواه النسائى عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تحشرون حفاة عراة غُرْلا » - بضم فسكون - جمع أغرل ، وهو الأقلف غير المختون - قال ابن عباس : فقالت زوجته : يارسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . أو قال : « ما أشغله عن النظر »[٢] .

ثم بين - سبحانه أقسام الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٥ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٩ .

مستبشرة ﴾ أى : وجوه كثيرة فى هذا اليوم تكون مضيئة مشرقة ، يعلوها السرور ، والاستبشار والانشراح ، لما تراه من حسن استقبال الملائكة لهم .

وقوله : ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة ، إلا أنه صح الابتداء به لكونه فى حيز التنويع و ﴿ مسفرة ﴾ خبره ، وقوله ﴿ يومئذ ﴾ متعلق به ، والإسفار : النور والضياء .

والمراد أن هذه الوجوه متهللة فرحا ، وعليها أثر النعيم .

أما القسم المقابل لهذا القسم ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أى : عليها غبار ، من شدة الهم والكرب والغم الذى يعلوها .

﴿ ترهقها قترة ﴾ أى : تغشاها وتعلوها ظلمة وسواد ، وذلة وهوان ، من شدة ما أصابها من خزى وخسران . يقال : فلان رهقِه الكرب ، إذا اعتراه وغشيه .

﴿ أولئك ﴾ يعنى أصحاب تلك الوجوه التى يعلوها الغبار والسواد ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ أى : الجامعون بين الكفر الذى هو فساد الاعتقاد ، وبين الفجور الذى هو فساد القول والفعل .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أصحاب الوجوه المسفرة ، الضاحكة المستبشرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر
مساء ١٦ من المحرم ١٤٠٧ هـ
٢٠ من سبتمبر ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة التكوير

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « التكوير » ، وتسمى - أيضا - بسورة : « إذا الشمس كورت » ، وهى من السور المكية بلا خلاف ، وعدد آياتها : تسع وعشرون آية .

وتعتبر من أوائل السور القرآنية نزولا ، فهى السورة السادسة أو السابعة فى ترتيب النزول ، فقد كان نزولها بعد سورة الفاتحة . وقبل سورة « الأعلى » .

أخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأىُ العين ، فليقرأ « إذا الشمس كورت » ، « وإذا السماء انفطرت » « وإذا السماء انشقت » .

٢ - والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها فى نصفها الأول ، تسوق أمارات يوم القيامة وعلاماته ، بأسلوب مؤثر يبعث فى القلوب الخوف والوجل .

ويراها فى نصفها الثانى تؤكد أن هذا القرآن الكريم من عند الله - تعالى - ، وليس من كلام البشر ، وأن جبريل الأمين قد نزل به على قلب النبى - ﷺ - .

تفسير

قال الله - تعالى - .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ
﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا
ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ
﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

تكرر لفظ « إذا » فى هذه الآيات اثنتى عشرة مرة ، وجواب الشرط قوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرجت ﴾ . وهذا التكرار بلفظ إذا من مقاصده التشويق للجواب ، لأن السامع عندما يجد هذا الظرف وقد تكرر يكون فى ترقب وشوق لمعرفة الجواب .

وعندما يسمعه يتمكن من نفسه كل التمكن .

ولفظ « الشمس مرفوع على أنه فاعل بفعل محذوف يفسره ما بعده ، أى : إذا كورت الشمس كورت . وأصل التكوير : لف الشىء على جهة الاستدارة ، تقول : كورت العمامة ، إذا لففتها .

قال صاحب الكشاف : فى التكوير وجهان : أحدهما : أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها . أى : يلف ضوء الشمس لفا فيذهب انبساطه وانتشاره فى الآفاق ، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها ، لأنها ما دامت باقية ، كان ضياؤها منبسطا غير ملفوف .

وثانيهما : أن يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها ، لأن الثوب إذا أريد رفعه ، لف وطوى

ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ يوم نطوى السماء ﴾[1] .

أى : إذا الشمس أزيل ضوؤها بعد انتشاره وانبساطه ، فأصبحت مظلمة بعد أن كانت مضيئة ، ومستتره بعد أن كانت بارزة .

﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى : تناثرت وتساقطت وانقلبت هيئتها من اللمعان والظهور ، إلى الميل نحو الظلام والسواد .

أى : وإذا النجوم تساقطت وانقضت . يقال : انكدر البازى ، إذا نزل على فريسته بسرعة ، وانكدر الأعداء على القوم إذا جاءوا أرسالا متتابعين فانصبوا عليهم .

ويصح أن يكون المعنى : وإذا النجوم تغيرت وانطمس نورها ، وزال لمعانها ، من قولهم : كدرت الماء فانكدر ، إذا خلط به ما يجعله مائلا إلى السواد والغُبْرة .

﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أى : اقتلعت من أماكنها فسارت فى الفضاء بقدرة الله - تعالى - . قال - تعالى - ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ . وقال - سبحانه - : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ .

﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ والعشار : جمع عُشَراء كنُفَساء ، وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر . وتسمى بهذا الاسم إلى أن تضع لتمام السنة . والنوق العشار كانت من أثمن الأموال عند العرب ، وكانوا يحافظون عليها حتى فى أشد حالات الخوف .

ومعنى « عطلت » : أهملت وتركت بدون راع يحميها ، أو يلتفت إليها ، وهذا تصوير بديع لما يصيب الناس من أهوال ، تجعلهم لا يلتفتون إلى أعز أموالهم لديهم .

أى : وإذا النوق العشار - التى هى أغلى الأموال - عطلت ، أى تركت دون أن يلتفت إليها أحد . لا نشغال كل إنسان بنفسه .

وقيل : المراد بالعشار : السحب المحملة بالأمطار . أى : وإذا السحب الحاملة للأمطار قد عطلت عن نزول المطر منها ، وصارت خالية من الماء الذى يحيى الأرض بعد موتها .

قال القرطبى ما ملخصه : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ أى : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها ، الواحدة عُشَراء .. وإنما خصت بالذكر ، لأنها أعز ما تكون عند العرب .. وهذا على وجه المثل . لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ، أن هول يوم القيامة ، بحال مالو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٧ .

وقيل : العشار : السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ، والعرب تشبه السحاب بالحامل .

وقيل : الديار تعطل فلا تسكن ... والأول أشهر ، وعليه من الناس الأكثر[1] .

﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أى : وإذا الحيوانات المتوحشة - كالأسد والنمر وغيرهما .

﴿ حشرت ﴾ أى : جمعت من أماكنها المتفرقة ، وخرجت فى ذهول ، وتلاقت دون أن يعتدى بعضها على بعض ، مخالفة بذلك ما طبعت عليه من النفور والتقاتل .

قال الآلوسى قوله : ﴿ وإذا الوحوش ﴾ جمع وحش ، وهو حيوان البر الذى ليس فى طبعه التأنس ببنى آدم .. ﴿ حشرت ﴾ أى : جمعت من كل جانب . وقيل : حشرت . أى : أميتت .. وقيل : حشرت : بعثت للقصاص ، فيحشر كل شىء حتى الذباب .

أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة فى هذه الآية قال : قال رسول الله - ﷺ - : لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء .. »[2] .

﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أى : امتلأت وفاض ماؤها واختلط عذبها بملحها ، وصارت بحرا واحداً ، مأخوذ من قولهم : سجر الحوض ، إذا ملأه حتى فاض من جانبيه .

ويصح أن يكون معنى « سجرت » : أحميت بالنار حتى تبخرت مياهها ، وظهرت النار فى مكانها ، من قولهم : سجر فلان التنور ، إذا ملأه بالحطب المعد للحرق .

﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ وقوله : ﴿ زوجت ﴾ من التزويج وهو جعل الشىء زوجا لغيره ، بعد أن كان كلاهما فرداً ، ويطلق الزوج - أيضاً - على الصنف والنوع ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ .

أى : وإذا النفوس اقترنت كل واحدة منها ببدنها ، أو بمن يشبهها ، أو بعملها .

قال الفخر الرازى : قوله : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ فيه وجوه : أحدها : قرنت الأرواح بالأجساد .

ثانيها : يصيرون فيها - أى : يوم القيامة - ثلاثة أصناف ، كما قال - تعالى - ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٢٢٩ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٥١ .

ثالثها : أنه يضم إلى كل صنف من كان فى طبقته ، فيضم الطائع إلى مثله ..[1] .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت ﴾ ولفظ « الموءودة » من الوأد ، وهو دفن الطفلة حية .

قال صاحب الكشاف وأد يئد مقلوب من آد يؤود : إذا أثقل . قال - تعالى - ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ ، لأنه إثقال بالتراب .

فإن قلت : ما حملهم على وأد البنات ؟ قلت : الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن ، أو الخوف من الإملاق .

فإن قلت : فما معنى سؤال الموءودة عن ذنبها الذى قتلت به ؟ وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها ؟ قلت : سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها ، نحو التبكيت - لقوم عيسى - فى قوله - تعالى - لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾[2] .

أى : وإذا الموءودة سئلت ، على سبيل التبكيت والتقريع لمن قتلها ، بأى سبب من الأسباب قتلك قاتلك .

ولاشك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها ، وإنما القصد من ذلك إلزام قاتلها الحجة ، حتى يزداد افتضاحا على افتضاحه .

وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات ، ما كان يفعله أهل الجاهلية من قتلهم للبنات ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون ﴾[3].

ولم يكن الوأد معمولا به عند جميع قبائل العرب ، فقريش - مثلا - لم يعرف عنها ذلك وإنما عرف فى قبائل ربيعة ، وكنده ، وتميم . ولكنهم لما كانوا جميعا راضين عن هذا الفعل ، جاء الحكم عاما فى شأن أهل الجاهلية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أى : بسطت بعد أن كانت مطوية ، وهى صحف الأعمال التى سجلتها الملائكة على أصحابها ، سواء أكانت تلك الأعمال خيرا أم شرا ، فهذه الصحائف تطوى عند الموت ، وتنشر يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٣٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٨ .

(٣) سورة النحل الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

قال - تعالى - : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[1].

﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ أى : قلعت وأزيلت ، وأصل الكشط إزالة جلدة الحيوان عنه . يقال : كشطت البعير كشطا ، إذا نزعت جلده منه . أى : وإذا السماء نزعت وأزيلت ، فلم تبق على هيئتها التى كانت عليها ، من إظلالها لما تحتها .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى : أوقدت إيقادا شديدا للكفار ، والجحيم هى النار ذات الطبقات المتعددة من الوقود كالحطب وغيره ، وتسعيرها : إيقادها بشدة .

﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أى : قربت وأدنيت من المؤمنين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ . من الزلفى بمعنى القرب ، يقال : تزلف فلان إلى فلان ، إذا تقرب منه .

وقوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ هو جواب الشرط لكل تلك الظروف السابقة . أى : إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت تبين لكل نفس ما عملته من خير أو شر ، ومن حسن أو قبيح .. ورأت ذلك رأى العين ، كما قال - تعالى - : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً .. ﴾ .

والمراد بالنفس عموم الأنفس ، لأن النكرة فى سياق النفى تشمل كل نفس وأسند - سبحانه - الإحضار إلى النفوس ، لأنها هى المباشرة لأعمالها فى الدنيا ، والتى ستجد جزاءها فى الآخرة .

وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها ، حاصلة عند حصول مجموع الشروط التى ذكرت فى الجمل الاثنتى عشرة، لأن بعض الأزمان والأحوال التى تضمنتها هذه الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها ، كما فى الستة الأخيرة ، فإنها تكون عند فصل القضاء ، وبعضها يحصل قبل ذلك بقليل ، كما فى الأحوال الستة المذكورة أولا ، إلا أنه لما كان بعض هذه الأمور من مبادىء يوم القيامة ، وبعضها من روادفه ، نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع هذه الأمور كلها ، تهويلا للخطب ، وتفظيعا للأمر . وإشعاراً بأن مايسبق يوم القيامة وما يعقبه ، كل ذلك من الأهوال التى يشيب لها الولدان .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما ساق من أحوال تدل على شدائد يوم القيامة ، أتبع ذلك

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

ببيان أن هذا القرآن من عنده - تعالى - وأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، فقال :

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾
ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ
ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ
﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾
فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن
يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا أقسم بالخنس .. ﴾ للتفريع على ما تقدم من تحقيق وقوع البعث ، وهى تعطى - أيضاً - معنى الإفصاح ، و« لا » مزيدة لتأكيد القسم ، وجواب القسم قوله - تعالى - ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ .

و ﴿ الخنس ﴾ - بزنة رُكَّع - جمع خانس ، والخنوس : الاستخفاء والاستتار ، يقال : خنست الظبية والبقرة ، إذا اختفت فى بيتها .

و ﴿ الجوار ﴾ جمع جارية ، وهى التى تجرى بسرعة ، من الجرى بمعنى الإسراع فى السير .

و ﴿ الكنس ﴾ جمع كانس . يقال : كنس الظبى ، إذا دخل كناسه - بكسر الكاف - وهو البيت الذى يتخذه للمبيت ، وسمى بذلك لأنه يتخذه من أغصان الأشجار ، ويكنس الرمل إليه حتى يكون مختفيا عن الأعين .

وهذه الصفات ، المراد بها النجوم ، لأنها بالنهار تكون مختفية عن الأنظار ، ولا تظهر إلا بالليل ، فشبهت بالظباء التى تختفى فى بيوتها ولا تظهر إلا فى أوقات معينة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن البعث حق ... فأقسم بالنجوم التى تخنس

بالنهار ، أى : يغيب ضوؤها عن العيون بالنهار ، ويظهر بالليل ، والتى تجرى من مكان إلى آخر بقدرة الله - تعالى - ثم تكنس - أى : تستتر وقت غروبها - كما تتوارى الظباء فى كُنُسِها ... إن هذا القرآن لقول رسول كريم .

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ﴾ : هى النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل ، روى ذلك عن على بن أبى طالب وابن عباس ومجاهد .

وقال بعض الأئمة : وإنما قيل للنجوم « الخنس » أى : فى حال طلوعها ، ثم هى جوار فى فلكها ، وفى حال غيبوبتها ، يقال لها « كنس » ، من قول العرب . أوى الظبى إلى كناسه : إذا تغيب فيه .

وفى رواية عن ابن عباس : أنها الظباء ، وفى أخرى أنها بقر الوحش حين تكنس إلى الظل أو إلى بيوتها .

وتوقف ابن جرير فى قوله : ﴿ الخنس الجوار الكنس ﴾ هل هى النجوم أو الظباء وبقر الوحش قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا ..[1] .

وقوله : ﴿ والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس ﴾ معطوف على ما قبله . وداخل فى حيز القسم .

وقوله ﴿ عسعس ﴾ أدبر ظلامه أو أقبل ، فهذا اللفظ من الألفاظ التى تستعمل فى الشىء وضده ، إلا أن المناسب هنا يكون المراد به إقبال الظلام ، لمقابلته بالصبح إذا تنفس ، أى : أضاء وأسفر وتبلج .

وقيل : العسعسة : رقة الظلام وذلك فى طرفى النهار ، فهو من المشترك المعنوى ، وليس من الأضداد ، أى : أقبل وأدبر معاً . أى : وحق النجوم التى تغيب بالنهار ، وتجرى فى حال استتارها .. وحق الليل إذا أقبل بظلامه ، والصبح إذا أقبل بضيائه .

﴿ إنه ﴾ أى : القرآن الكريم ﴿ لقول رسول كريم ﴾ وهو جبريل - عليه السلام - الذى أرسله ربه إلى نبيه محمد - ﷺ - لكى يبلغه وحيه - تعالى - .

وأقسم الله - تعالى - بهذه الأشياء ، لأنها فى حركاتها المختلفة ، من ظهور وأفول ، ومن إقبال وإدبار .. تدل دلالة ظاهرة على قدرة الله - تعالى - ، وعلى بديع صنعه فى خلقه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٦٠ .

ونسب - سبحانه - القول إلى الرسول - وهو جبريل - لأنه هو الواسطة فى تبليغ الوحى إلى النبى - ﷺ - .

ثم وصف - سبحانه - أمين وحيه جبريل بخمس صفات : أولها : قوله ﴿ كريم ﴾ أى : ملك شريف ، حسن الخلق ، بهى المنظر ، ثانيها : ﴿ ذى قوة ﴾ أى : صاحب قوة وبطش .

كما قال - تعالى - : ﴿ علمه شديد القوى .. ﴾ ثالثها : ﴿ عند ذى العرش مكين ﴾ أى : أن من صفات جبريل - عليه السلام - أنه ذو مكانة رفيعة ، ومنزلة عظيمة عند الله - تعالى - .

رابعها : قوله - تعالى - ﴿ مطاع ﴾ أى يطيعه من معه من الملائكة المقربين .

وخامسها : قوله : - سبحانه - ﴿ ثَمَّ أمين ﴾ و« ثم » بفتح الثاء - ظرف مكان للبعيد . والعامل ما قبله أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع فى السموات عند ذى العرش ، أو أمين فيها ، أى : يؤدى ما كلفه الله - تعالى - به بدون أية زيادة أو نقص .

قال الشوكانى : ومن قال إن المراد بالرسول محمد - ﷺ - فالمعنى : أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحى .

وقوله : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ : الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله - ﷺ - .

والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه من الجنون وغيره فى شىء ، وأنهم افتروا عليه ذلك ، عن علم منهم ، بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم .

فأقسم - سبحانه - بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدا - ﷺ - ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه[1] .

فالمقصود بالآية نفى الجنون عن النبى - ﷺ - بأكمل وجه ، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول من يعلم - عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره ، وسمو أخلاقه - أنه أكمل الناس عقلا وأقومهم سلوكا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ معطوف - أيضا - على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ فهو من جملة المقسم عليه .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣٩١ ، للشوكانى .

والمقصود بهذه الرؤية : رؤية النبى - ﷺ - لجبريل - عليه السلام - لأول مرة ، على الهيئة التى خلقه الله عليها ، عندما كان الرسول - ﷺ - يتعبد فى غار حراء ، وكان - ﷺ - قد سأل جبريل أن يريه نفسه ، على الهيئة التى خلقه الله - تعالى - عليها .

والأفق : هو الفضاء الواسع الذى يبدو للعين ما بين السماء والأرض .

والمبين : وصف للأفق ، أى : بالأفق الواضح البين ، الذى لا تشتبه معه المرئيات .

والمعنى : ووالله لقد رأى صاحبكم محمد - ﷺ - جبريل ، بصورته التى خلقه الله عليها ، بالأفق الواضح البين ، الذى لا تلتبس فيه المرئيات ، ولا مجال فيه للأوهام والتخيلات .

والمقصود من الآية الكريمة الرد على المشركين الذين كانوا إذا أخبرهم الرسول - ﷺ - بأنه رأى جبريل . كذبوه واستهزءوا به ، وتأكيد أن هذه الرؤية كانت حقيقة واقعة ، لا مجال معها للتشكيك أو اللبس .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ يعنى : ولقد رأى محمد جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله - عز وجل - وعلى الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ﴿ بالأفق المبين ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء - أى بالمكان المجاور لغار حراء . وهى المذكورة فى قوله - تعالى - : ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى .. ﴾[1] .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ يعود إلى الرسول - ﷺ - المعبر عنه قبل ذلك ﴿ بصاحبكم ﴾ .

والغيب : ما غاب عن مدارك الناس وحواسهم ، لأن الله - تعالى - قد استأثر بعلمه .

والضنين : هو البخيل بالشىء ، مأخوذ من الضن - بالكسر والفتح - بمعنى البخل .

قال الآلوسى : « وماهو » أى : رسول الله - ﷺ - « على الغيب » أى : على ما يخبر به من الوحى إليه وغيره من الغيوب « بضنين » من الضن - بكسر الضاد وفتحها - بمعنى البخل ، أى : ببخيل ، أى : لا يبخل بالوحى ، ولا يقصر فى التعليم والتبليغ ، ومنح كل ما هو مستعد له من العلوم ، على خلاف الكهنة فإنهم لا يطلعون غيرهم على ما يزعمون معرفته إلا بإعطائهم حلوانا .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٦١ ، وراجع تفسيرنا لهذه الآيات فى سورة النجم .

وقرأ ابن كثير والكسائى وأبو عمر ﴿ بظنين ﴾ - بالظاء - أى : وماهو على الغيب بمتهم ، من الظنة - بالكسر - بمعنى التهمة .

ثم قال : ورجحت هذه القراءة ، لأنها أنسب بالمقام ، لاتهام الكفرة له - ﷺ - بذلك ، ونفى التهمة ، أولى من نفى البخل .[1] .

وهذا القول لا نوافق الآلوسى - رحمه الله - عليه ، لأن القراءة متى ثبتت عن النبى - ﷺ - لا يجوز التفاضل بينها وبين غيرها التى هى مثلها فى الثبوت ، والقراءتان هنا سبعيتان ، ومن ثم فلا ينبغى التفاضل بينهما . والمعنى عليهما واضح ولا تعارض فيه .

أى : وما محمد - ﷺ - ببخيل بتبليغ الوحى ، بل هو مبلغ له على أكمل وجه وأتمه ، وما هو - أيضا - بمتهم فيما يبلغه عن ربه ، لأنه - ﷺ - سيد أهل الصدق والأمانة .

وقوله - سبحانه - ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ معطوف - أيضا - على قوله - تعالى - ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ والضمير هنا يعود على القرآن الكريم .

أى : وليس هذا القرآن الكريم ، المنزل على سيدنا محمد - ﷺ - بقول شيطان مرجوم مسترق للسمع .. وإنما هو كلام الله - تعالى - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهذا رد آخر على المشركين الذين زعموا أن القرآن الكريم إنما هو من باب الكهانة ، وأن الرسول - ﷺ - إنما هو كاهن ، تلقنه الشياطين هذا القرآن .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأين تذهبون ﴾ جملة معترضة بين ما سبقها ، وبين قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، والمقصود فيها توبيخهم وتعجيزهم عن أن يأتوا ولو بحجة واحدة يدافعون بها عن أنفسهم .

والفاء لتفريع هذا التعجيز والتوبيخ ، على الحجج السابقة ، المثبتة بأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وليس من عند غيره .

و ﴿ أين ﴾ اسم استفهام عن المكان ، والاستفهام هنا للتعجيز والتقريع ، وهو منصوب بقوله : ﴿ تذهبون ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فأى طريق تسلكون أوضح وأبين من هذا الطريق الذى أرشدناكم إليه ؟ إنه لا طريق لكم سوى هذا الطريق الذى أرشدناكم إليه .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٦١ .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فأين تذهبون ﴾ استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادة اعتسافا أو ذهابا فى بنيات الطريق - أى : فى الطريق المتشعبة عن الطريق الأصلى - أين تذهب ؟ مثلت حالهم فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل(١) .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : ما هذا القرآن الكريم ، إلا تذكير وإرشاد وهدايات للبشر جميعاً .

وهذا الذكر العظيم إنما هو ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أى : هو نافع لمن شاء منكم - أيها الناس - أن يستقيم على طريق الحق ، وأن يلزم الرشاد ويترك الضلال .

والجملة الكريمة بدل مما قبلها ، للإشعار بأن الذين استجابوا لهدى القرآن قد شاءوا لأنفسهم الهداية والاستقامة .

فالمقصود بهذه الجملة : الثناء عليهم ، والتنويه بشأنهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان أن مشيئته - تعالى - هى النافذة ، فقال : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

أى : وما تشاءون الاستقامة أو غيرها ، إلا إذا شاءها وأرادها الله - تعالى - رب العالمين ، إذ مشيئة الله - تعالى - هى النافذة ، أما مشيئتكم فلا وزن لها إلا إذا أذنت بها مشيئته - تعالى - .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مشيئة لا قيمة لها ولا وزن .. إلا إذا أيدتها مشيئة الله - عز وجل - .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر .

صباح الأربعاء : ٢٠ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ

٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٨٦ م .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧١٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الانفطار

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الانفطار » من السور المكية الخالصة ، وتسمى - أيضاً - سورة « إذا السماء انفطرت » ، وسورة « المنفطرة » أى : السماء المنفطرة .

٢ - وعدد آياتها : تسع عشرة آية . وهى السورة الثانية والثمانون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فكان نزولها بعد سورة (النازعات) ، وقبل سورة (الانشقاق) ، أى أنها السورة الثانية والثمانون - أيضا - فى ترتيب النزول .

٣ - وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على إثبات البعث ، وعلى أهوال يوم القيامة ، وعلى تنبيه الناس إلى وجوب الاستعداد لهذا اليوم الشديد ، وعلى جانب من نعم الله على خلقه ، وعلى بيان حسن عاقبة الأبرار ، وسوء عاقبة الفجار .

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ
فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ
﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ
﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ بيان لما ستكون عليه السماء عند اقتراب قيام الساعة .

ومعنى : ﴿ انفطرت ﴾ انشقت ، من الفطر - بفتح الفاء - بمعنى الشق ، كما قال - تعالى - فى أول سورة الانشقاق : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ . يقال : فطرت الشىء فانفطر ، أى : شققته فانشق . أى : إذا السماء تصدعت وتشققت فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - لها أن تكون كذلك .

﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أى : وإذا النجوم تهاوت وتساقطت وتفرقت ، ويقال : نثرت الشىء على الأرض ، إذا ألقيته عليها متفرقا . فانتثار الكواكب معناه : تفرقها عن مواضعها التى كانت فيها .

﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أى : شققت جوانبها ، فزالت الحواجز التى بينها ، واختلط بعضها ببعض فصارت جميعها بحرا واحدا ، فقوله ﴿ فجرت ﴾ مأخوذ من الفجر - بفتح الفاء - وهو شق الشىء شقا واسعا ، يقال : فجر الماء فتفجر ، إذا شقه شقا واسعا ترتب عليه سيلان الماء بشدة .

﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أى : صار باطنُها ظاهرَهَا ، وخرج ما فيها من الموتى مسرعين ، يقال : بعثر فلان متاعه ، إذا فرقه وبدده وقلب بعضه على بعض .

والمراد أن التراب الذى كان فيها يبعثر ويزال ، ويخرج الموتى من تلك القبور للحساب والجزاء .

وقوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ فى الآيات الأربع .

أى : إذا تم ذلك ، علمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر ، وما أخرت من سنة حسنة ، أو سنة سيئة يعمل بها بعدها .

قال الجمل ما ملخصه : واعلم أن المراد من هذه الآيات أنه إذا وقعت هذه الأشياء التى هى أشراط الساعة ، فهناك يحصل الحشر والنشر ، وهى هنا أربعة : اثنان منها يتعلقان بالعلويات ، واثنان يتعلقان بالسفليات ، والمراد بهذه الآيات : بيان تخريب العالم ، وفناء الدنيا ، وانقطاع التكاليف .. وإنما كررت إذا لتهويل ما فى حيزها من الدواهى .

وجواب ﴿ إذا ﴾ وما عطف عليها قوله ﴿ علمت نفس ﴾ أى : علمت كل نفس وقت هذه المذكورات الأربعة ﴿ ما قدمت ﴾ من الأعمال وما أخرت منها فلم تعمله .

ومعنى علم النفس بما قدمت وأخرت : العلم التفصيلى . وذلك عند نشر الصحف - كما تقدم فى سورة التكوير - أما العلم الإجمالى فيحصل فى أول زمن الحشر ، لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة فى أول الأمر ، وأما العلم التفصيلى فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة ..[١] .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى أهوال علامات الساعة التى من شأنها أن تنبه العقول والحواس والمشاعر .. أتبع ذلك بنداء للإنسان فقال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٩٨ .

﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ والغرور : الخداع . يقال : غر فلان فلانا ، إذا خدعه وأطمعه بالباطل . والخطاب لجنس الإنسان . وقيل للكافر .

و « ما » استفهامية ، والمقصود بالاستفهام : الإنكار والتعجيب من حال هذا الإنسان المخدوع .

أى : يا أيها الإنسان المخلوق بقدرة ربك وحده ، أى شىء غرك وخدعك وجعل جانبا من جنسك يكفر بخالقه ، ويعبد غيره ، وجانبا آخر يعصى ربه ، ويقصر فى أداء حقوقه ؟

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ، حيث قال : ﴿ الكريم ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى الآية : ما غرك يا بن آدم بربك الكريم - ، أى : العظيم - حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : يابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ »..

وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس تحته طائل ، لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء ..[1] .

والمقصود بالنداء هنا : التنبيه إلى ما سيأتى بعده من توجيهات ، وليس المقصود به طلب الإقبال على شىء معين .

وإيثار تعريف الله - تعالى - بصفة الرب ، لما فى معنى الرب من التربية والرعاية والملكية ، والإيجاد من العدم .. ففى هذا الوصف تذكير للإنسان بنعم خالقه الذى أنشأه من العدم ، وتعهده بالرعاية والتربية .

وكذلك الوصف بالكريم ، فيه - أيضاً - تذكير لهذا الإنسان بكرم ربه عليه ، إذ مقتضى هذا الكرم منه - تعالى - ، أن يقابل المخلوق ذلك بالشكر والطاعة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك ﴾ صفات أخرى للرب - عز وجل - الكريم المنان .

والخلق : هو الإيجاد على مقدار معين مقصود . والتسوية : جعل الشىء سويا ، أى : قويما سليما خاليا من الاضطراب والاختلال .

وقوله : ﴿ فعدلك ﴾ قرأها بعضهم بفتح الدال مع التخفيف ، وقرأها آخرون بفتحها مع التشديد ، وهما متقاربان ، إلا أن التشديد يفيد المبالغة فى التعديل ، الذى هو جعل البنية

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٦٤ .

معتدلة ، متناسبة الأعضاء ، فالتسوية ترجع إلى عدم النقصان فى الأعضاء ، والتعديل يرجع إلى عدم التخالف فيها وهذا ، باعتبار الأصل فى خلق الإنسان ، فلا عبرة بوجود ما يخالف ذلك فى قلة من أفراد الإنسان .

والمعنى : يأيها الإنسان ، أى شيء خدعك وجرأك على معصية ربك الكريم .. الذى من مظاهر كرمه أنه ﴿ خلقك فسواك ﴾ بأن جعل أعضاءك سوية سليمة . مهيأة لا كتساب منافعها على حسب ما تقتضيه حكمة خالقك ﴿ فعدلك ﴾ أى : فعدل أعضاءك بأن جعلها متناسقة متوازنة بعضها مع بعض ، فلم يجعل - مثلا - إحدى يديك طويلة والأخرى قصيرة . ولم يجعل - مثلا - جانباً من جسدك أبيض ، والآخر أسود .

ومن مظاهر قدرته وكرمه - أيضاً - أنه - سبحانه - ركبك ووضعك فى أى صورة من الصور المتنوعة التى اقتضتها مشيئته وحكمته .

فقوله : ﴿ فى أى صورة ﴾ متعلق بركبك . و « ما » مزيدة ، و « شاء » صفة لصورة . ولم يعطف « ركبك » على ما قبله بالفاء ، كما عطف ما قبله بها ، لأنه بيان لقوله : ﴿ فعدلك ﴾ . والتقدير : فعدلك بأن ركبك فى أى صورة من الصور التى شاءها لك ، وهى صورة فيها ما فيها من العجائب والأسرار ، فضلا عن أنها أحسن صورة وأكملها ، كما قال - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

فالمقصود من الآيات الكريمة ، تذكير الإنسان بفضل ربه - تعالى - عليه ، وحضه على طاعته وشكره ، وتوبيخه على تقصيره وجحوده ، وتهديده بسوء المصير إذا ما استمر فى غفلته وغروره .

قال بعض العلماء : إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة . أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق . والأدب الجم لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة .

وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسان العضوى ودقته وإحكامه .

كاكتمال التكوين الجسدى ، والعضلى ، والجلدى ، والهضمى ، والدموى والعظمى ، والتنفسى ، والتناسلى ، والعصبى .. للإنسان .

وإن جزءا من أذن الإنسان « الأذن الوسطى » هو سلسلة من نحو أربعة آلاف جزئية دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ الدقة فى الحجم والشكل .

ومركز حاسة الإبصار فى العين التى تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء ،

وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذى يقيها ليلا ونهارا .. [١] .

ثم يكشف القرآن بعد ذلك عن علة الغرور والغفلة - وهى التكذيب بيوم الحساب - ويقرر أن كل عمل يعمله الإنسان هو مسجل عليه فيقول : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ .

و « كلا » حرف ردع وزجر ، وهى هنا للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله - تعالى - وعن جعله ذريعة إلى الكفر والفسوق والعصيان .

وقوله ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ إبطال لوجود ما يدعو إلى غرورهم لو كانوا يعقلون .

أى : كلا ليس هناك شىء يقتضى غروركم بالله - تعالى - ويجرؤكم على عصيانه لو كنتم تتفكرون وتتدبرون .. ولكن تكذيبكم بالبعث والحساب والجزاء هو الذى حملكم على الكفر والفسوق والعصيان .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ كلا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله - تعالى - وقوله : ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ إضراب عن جملة مقدرة ، ينساق إليها الكلام ، كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض ، وأنتم لا ترتدعون عن ذلك ، بل تجترئون على أعظم منه ، حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأساً ، أو بدين ا لإسلام ، اللذين هما من جملة أحكامه ، فلا تصدقون سؤالا ولا جوابا ، ولا ثوابا ولا عقابا ، وفيه ترق من الأهون إلى الأعظم .

وعن الراغب : « بل » هنا لتصحيح الثانى وإبطال الأول . كأنه قيل : ليس هنا مقتض لغرورهم ، ولكن تكذيبهم بالبعث حملهم على ما ارتكبوه .

وقيل تقدير الكلام : كلا إنكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمى إليكم ، وإرشادى لكم ، بل تكذبون بالدين .. [٢] .

وقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ عطف على جملة ﴿ تكذبون بالدين ﴾ لتأكيد ثبوت الجزاء على الأعمال ، وتسجيل هذه الأعمال تسجيلا تاما .

وقوله ﴿ لحافظين ﴾ صفة لموصوف محذوف . أى : وإن عليكم لملائكة يحفظون أعمالكم عليكم ، ويسجلونها دون أن يضيعوا منها شيئا .

وقوله : ﴿ كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ صفات أخرى لهؤلاء الملائكة .

---

(١) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٤٩٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٦٥ .

أى : وإن عليكم ملائكة من صفاتهم أنهم يحفظون أعمالكم ، ويسجلونها عليكم ، وأنهم لهم عند الله - تعالى - الكرامة والمنزلة الحسنة ، وأنهم يكتبون أعمالكم كلها ، وأنهم يعلمون أفعالكم التى تفعلونها سواء أكانت قليلة أم كثيرة ، صغيرة أم كبيرة .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة : بيان أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق ، وأن أعمال الإنسان مسجلة عليه تسجيلا تاما ، بواسطة ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

أما كيفية هذه الكتابة من الملائكة لأعمال الإنسان ، وعلى أى شىء تكون هذه الكتابة ، ومتى تكون هذه الكتابة .. فمن الأمور التى يجب الإيمان بها كما وردت ، مع تفويض كنهها وكيفيتها ودقتها إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد حديث صحيح عن المعصوم - ﷺ - يعتمد عليه فى بيان ذلك .

ثم بين - سبحانه - النتائج المترتبة على كتابة الملائكة لأفعال الإنسان فقال : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وماهم عنها بغائبين ﴾ .

والأبرار : جمع بر - بفتح الباء - ، وهو الإنسان التقى الموفى بعهد الله - تعالى - .

والفجار : جمع فاجر ، وهو الإنسان الكثير الفجور ، أى : الخروج عن طاعة الله - تعالى - . أى : إن المؤمنين الصادقين الذين وفوا بما عاهدوا الله عليه ، لفى نعيم دائم ، وهناء مقيم ، وإن الفجار الذين نقضوا عهودهم مع الله ، وفسقوا عن أمره ، لفى نار متأججة بعضها فوق بعض ، هؤلاء الفجار الذين شقوا عصا الطاعة ﴿ يصلونها ﴾ أى : يدخلون الجحيم ويقاسون حرها ﴿ يوم الدين ﴾ أى : يوم الجزاء والحساب .

﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أى : وما هم عن النار بمبعدين ، بل هم ملازمون لها ملازمة تامة .

ثم فخم - سبحانه - وعظم من شأن يوم الجزاء فقال : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ .

و « ما » اسم استفهام مبتدأ . وجملة « أدراك » خبره ، والكاف مفعول أول .

وجملة ﴿ ما يوم الدين ﴾ المكونة من مبتدأ وخبر سدت مسد المفعول الثانى لأدراك . والتكرار للتهويل والتعظيم ليوم الدين ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ .

أى : وأى شىء أدراك عظم وشدة يوم الحساب والجزاء ، ثم أى شىء أدراك بذلك ؟

إننا نحن وحدنا الذين ندرك شدة هوله .. وقد أخبرناك بجانب مما يحدث فيه من شدائد ، لتنذر الناس ، حتى يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح .

ثم فصل - سبحانه - جانبا من أهواله فقال : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴾ . أى : يوم الدين والجزاء هو اليوم الذى لا تملك فيه نفس لغيرها شيئا من النفع . وإنما الذى ينفع فيه هو الإيمان والعمل الصالح ، والأمر فيه لله - تعالى - وحده ، ولا سلطان ولا تصرف لأحد سواه .

وقوله : ﴿ يوم لا تملك .. ﴾ بيان ليوم الدين . وقد قرأ بعض القراء السبعة ﴿ يوم ﴾ بالنصب على أنه منصوب بفعل محذوف . أى : اذكر يوم لا تملك نفس لنفس شيئا .

وقرأ البعض الآخر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئا .. أو على أنه بدل من « يوم الدين » .

وهكذا اختتمت السورة الكريمة كما بدئت بالتهويل من شأن يوم القيامة، ليزداد العقلاء استعداداً له ، عن طريق الإيمان والعمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الخميس : ٢١ من المحرم ١٤٠٧ هـ
٢٥ من سبتمبر ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المطففين

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المطففين » أو سورة « ويل للمطففين » أو سورة « التطفيف » من السور التى اختلف المفسرون فى كونها مكية أو مدنية أو بعضها مكى وبعضها مدنى .

فصاحب الكشاف يقول : مكية .. وهى آخر سورة نزلت بمكة .

والإمام ابن كثير يقول : هى مدنية ، دون أن يذكر فى ذلك خلافا .

والإمام القرطبى يقول : سورة « المطففين » : مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ، وهى ست وثلاثون آية .

قال مقاتل : وهى أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : هى مدنية إلا ثمانى آيات ، من قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ إلى آخرها . فإنها مكية . وقال الكلبى وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة .

والإمام الآلوسى يجمع كل هذه الأقوال فى تفسيره بشىء من التفصيل دون أن يرجح بينها .

٢ - ويبدو لنا أن سورة المطففين من السور المكية ، إلا أننا نرجح أنها من آخر ما نزل على الرسول - ﷺ - من قرآن مكى ، وقد ذكرها الإمام السيوطى فى كتابه الإتقان ، على أنها آخر سورة مكية ، نزلت على الرسول - ﷺ - قبل الهجرة[1] .

ومما يجعلنا نرجح أن سورة المطففين من السور المكية : حديثها الواضح عن الفجار والأبرار .

---

(١) راجع الإتقان جـ ١ ص ٢٧ .

وعن يوم القيامة وسوء عاقبة المكذبين به ، وعن أقوال المشركين فى شأن القرآن الكريم .

وعن الموازنة بين مصير المؤمنين والكافرين ، وعن موقف كفار قريش من فقراء المؤمنين .

وهذه الموضوعات نراها من السمات الواضحة للقرآن المكى ، وإذا كان ا لقرآن المدنى قد تحدث عنها ، فبصورة أقل تفصيلا من القرآن المكى .

٣ - والسورة الكريمة فى مطلعها تهدد الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم . وتذكرهم بيوم البعث والحساب والجزاء ، لعلهم يتوبون إلى خالقهم ويستغفرونه مما فرط منهم .

ثم تسوق موازنة مفصلة بين سوء عاقبة الفجار ، وحسن عاقبة الأبرار .

ثم تختتم بذكر ما كان يفعله المشركون مع فقراء المؤمنين ، من استهزاء وإيذاء ، وبشرت هؤلاء المؤمنين : بأنهم يوم ا لجزاء والحساب ، سيضحكون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا . قال - تعالى - : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ .

التفسـير

وقد افتتح – سبحانه – هذه السورة الكريمة بقوله :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم
مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾
وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ
عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ
هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

الويل : لفظ دال على الهلاك أو الشر ، وهو اسم لا فعل له من لفظه .. وقيل : هو اسم واد فى جهنم .

و ﴿ المطففين ﴾ جمع مطفف ، من الطفيف ، وهو الشىء التافه الحقير ، لأن ما يغتاله المطفف من غيره شىء قليل . والتطفيف : الإنقاص فى المكيال أو الميزان عن الحدود المطلوبة .

قال الإمام ابن جرير : وأصل التطفيف ، من الشىء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : المقلل صاحب الحق عمَّا له من الوفاء والتمام فى كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين

يكونون سواء فى حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء ...[١] .

وقوله : ﴿ اكتالوا ﴾ من الاكتيال وهو افتعال من الكيل . والمراد به : أخذ مالهم من مكيل من غيرهم بحكم الشراء .

ومعنى : ﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ : كالوهم أو وزنوا لهم ، فحذفت اللام ، فتعدى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال .

فالواوان فى « كالوهم أو وزنوهم » يعودان إلى الاسم الموصول فى قوله : ﴿ الذين إذا اكتالوا ﴾ . والضميران المنفصلان « هم » ، يعودان إلى الناس .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « كالوهم أو وزنوهم » ضمير منصوب راجع إلى الناس . وفيه وجهان : أن يراد : كالوا لهم ، أو وزنوا لهم فحذف الجار ، وأوصل الفعل ، كما فى قول الشاعر :

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

بمعنى جنيت لك . وأن يكون على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل أو الموزون ..[٢] .

والمعنى : هلاك شديد ، وعذاب أليم ، للمطففين ، وهم الذين يبخسون حقوق الناس فى حالتى الكيل والوزن وما يشبههما ، ومن مظاهر ذلك أنهم إذا اشتروا من الناس شيئا حرصوا على أن يأخذوا حقوقهم منهم كاملة غير منقوصة ، وإذا باعوا لهم شيئا ، عن طريق الكيل أو الوزن أو ما يشبههما ﴿ يُخْسِرون ﴾ أى : ينقصون فى الكيل أو الوزن .

يقال : خسَر فلان الميزان وأخْسَره ، إذا نقصه ، ولم يتمه كما يقتضيه العدل والقسط .

وافتتحت السورة الكريمة بلفظ « الويل » للإشعار بالتهديد الشديد ، والوعيد الأليم لمن يفعل ذلك . وقوله ﴿ ويل ﴾ مبتدأ ، وهو نكرة ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء . وخبره « للمطففين » .

وقال - سبحانه - ﴿ إذا اكتالوا على الناس ﴾ ولم يقل : من الناس . للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستيلاء والقهر والظلم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ٩٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧١٩ .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ، ويتحامل فيه عليهم ، أبدل « على » مكان « من » للدلالة على ذلك .

ويجوز أن يتعلق « على » بيستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية . أى : يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها .

وقال الفراء : « من » و « على » يعتقبان فى هذا الموضوع ، لأنه حق عليه ، فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك . وإذا قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك ..[1] .

والتعبير بقوله : ﴿ يستوفون ﴾ و ﴿ ويخسرون ﴾ يدل على حرصهم الشديد فيما يتعلق بحقوقهم . وإهمالهم الشنيع لحقوق غيرهم ، إذ استيفاء الشىء ، أخذه وافيا تاما ، فالسين والتاء فيه للمبالغة .

وأما ﴿ يخسرون ﴾ فمعناه إيقاع الخسارة على الغير فى حالتى الكيل والوزن وما يشبههما .

ثم أتبع - سبحانه - هذا التهديد للمطففين . بما يجعل الناس يتعجبون من أحوالهم ، فقال - تعالى - :

﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

والهمزة للاستفهام التعجيبى من أحوالهم ، والجملة مستأنفة مسوقة لتفظيع ما فعلوه من بخس الناس أشياءهم . وأدخلت همزة الاستفهام على « لا » النافية لزيادة التوبيخ والإنكار ، حتى لكأن سوء عاقبة التطفيف لا تخطر لهم على بال .

والظن هنا مستعمل فى معناه الحقيقى ، وهو اعتقاد الشىء اعتقادا راجحا .

وقال - سبحانه - : ﴿ ألا يظن أولئك .. ﴾ ولم يقل : ألا يظنون ، لقصد تمييزهم والتشهير بهم ، زيادة فى ذمهم ، وفى تقبيح أفعالهم .

أى : أبلغت الجرأة بهؤلاء المطففين ، أنهم صاروا من بلادة الحس ، ومن فقدان الشعور ، لا يخشون الحساب يوم القيامة ، ولا يخافون العذاب الشديد الذى سينزل بهم ، يوم يقوم الناس من قبورهم استجابة لأمر رب العالمين ، حيث يتلقون جزاءه العادل ، وحكمه النافذ .

ووصف - سبحانه - اليوم بالعظم . باعتبار عظم ما يقع فيه من أهوال .

وقوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ بدل مما قبله . واللام فى قوله ﴿ لرب ﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧١٩ .

للتعليل . أى : يقومون لأجل ربوبيته - تعالى - وتلقى حكمه الذى لا يستطيعون الفرار منه . وفى هذا الوصف ما فيه من استحضار جلاله - وعظمته - سبحانه - .

قال القرطبى : وفى هذا الإنكار والتعجيب ، وكلمة الظن . ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين ، بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم فى التطفيف ، وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على التسوية والعدل ، فى كل أخذ وإعطاء ، بل فى كل قول وعمل ..[1] .

هذا ، وقد جاء الأمر بإيفاء الكيل والميزان ، والنهى عن تطفيفهما ، فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[2] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾[4] .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والتصدى لشأن المطففين بهذا الأسلوب فى سورة مكية ، أمر يلفت النظر ، فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقائد .

ومن ثم فالتصدى لهذا الأمر بذاته ، يدل أولا على أن الإسلام ، كان يواجه فى البيئة المكية ، حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء .. الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون فهم « يكتالون على الناس » لا من الناس .. فكأن لهم سلطانا على الناس .

ويدل - ثانيا - على طبيعة هذا الدين ، وشمول منهجه للحياة الواقعية ، وشئونها العملية ، وإقامتها على الأساس الأخلاقى الأصيل فى طبيعة هذا المنهج الإلهى القويم ..[5] .

ثم زجر - سبحانه - هؤلاء الفاسقين عن أمره زجراً شديداً ، وتوعدهم بالعذاب الشديد ، فقال - تعالى - : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ .

وقوله : ﴿ كلا ﴾ حرف ردع وزجر ، وما بعده كلام مستأنف ، وقد تكرر فى الآيات التى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٢٥٥ .
(٢) سورة هود الآية . ٨٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٣٥ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .
(٥) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٥٠١ .

معنا ثلاث مرات ، والمراد به هنا : ردعهم وزجرهم عما كانوا فيه من الشرك ، والتطفيف فى الكيل والميزان .

والفجار : جمع فاجر ، وهو مأخوذ من الفجور ، وهو شق الشىء شقا واسعا ، وسمى الفجار بذلك مبالغة فى هتكهم لحرمات الله ، وشقهم لستر الشريعة ، بدون خوف أو وجل . يقال : فجر فلان فجورا فهو فاجر ، وهم فجار وفجرة ، إذا تجاوزوا كل حد أمر الله - تعالى - بالوقوف عنده . والمراد بالكتاب المكتوب . أى : صحيفة الأعمال .

والسِّجين : اختلفوا فى معناه على أقوال منها : أنه علم أو وصف لواد فى جهنم ، صيغ بزنة فِعِّيل - بكسر الفاء مع تشديد العين المكسورة - ، مأخوذ من السَّجن بمعنى الحبس . يقال : سجن الحاكم فلانا يسجنه - بضم الجيم - سجنا ، إذا حبسه .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين ، - فعيل من السَّجن ، وهو الضيق - ، كما يقال : فلان فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك ، ولهذا عظم أمره فقال : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم ، وعذاب أليم .

ثم قد قال قائلون : هو تحت الأرض السابعة .. وقيل : بئر فى جهنم .

والصحيح أن « سجينا » مأخوذ من السَّجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع .. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم ، وهى أسفل سافلين .

قال - سبحانه - : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول ..[1] .

أى : كلا ، ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنه لا بعث ولا جزاء ، بل الحق أن البعث أمر واقع ، ماله من دافع ، وأن ما عمله هؤلاء الفجار من كفر ومن تطفيف فى الكيل والميزان ، لمكتوب فى صحائف أعمالهم ، ومسجل عليهم فى ديوان الشر الذى يوصلهم إلى قاع جهنم .

وقوله : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ تهويل وتفظيع لهذا الشىء الضيق الذى يؤدى إلى القذف بهم فى أعماق جهنم .

وقوله : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ خبر لمبتدأ محذوف يعود إلى « كتاب الفجار » والمرقوم : المكتوب كتابة واضحة بينة تشبه الخط . الظاهر فى الثوب المنسوج . يقال : رقم فلان

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧١ .

الكتاب ، إذا جعل له رقما ، أى : علامة يعرف بها .

أى : وهو - أى : كتاب الفجار - كتاب بين الكتابة ، يفهم صاحبه ما فيه فهما واضحا لا خفاء معه ولا التباس . فقوله : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ بيان وتفسير لكتاب الفجار ، وهو ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة .

ومنهم من جعل قوله - تعالى - : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيرا لكتاب الفجار ، وإنما هو تفسير لقوله ﴿ سجين ﴾ .

قال الشوكانى ما ملخصه : وسجين هو ما فسره به - سبحانه - من قوله ﴿ وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم ، أى : مسطور .

ومنهم من جعله بيانا وتفسيرا لكتاب المذكور فى قوله ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ على تقدير : هو كتاب مرقوم ، أى : قد بينت حروفه .

والأَوْلَى ما ذكرناه أولا ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون .. لفى ذلك الكتاب المدون للقبائح ، المختص بالشر ، وهو سجين ، ثم ذكر ما يدل على تهويله ، فقال : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ثم بينه بقوله : ﴿ كتاب مرقوم ﴾[1] .

وعلى أية حال ، فالمقصود بيان المصير السيء الذى ينتظر هؤلاء الفجار ، حيث سجلت عليهم أعمالهم فى ديوان الشر الذى يجمع أعمالهم القبيحة ، والتى ستؤدى بهم إلى السجن الدائم ، وإلى العذاب المقيم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وعيد وتهديد لأولئك المنكرين للبعث ، والذين من صفاتهم تطفيف الكيل والميزان . أى : هلاك عظيم ، وعذاب أليم ، وسجن دائم فى قاع جهنم ، لأولئك المكذبين ، للبعث والحساب والجزاء .

ثم فصل - سبحانه - هذا التكذيب فقال : ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أى : يكذبون بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

﴿ وما يكذب به ﴾ أى : بيوم الدين ﴿ إلا كل معتد أثيم ﴾ أى : وما يكذب بهذا اليوم إلا كل إنسان متجاوز الحدود المشروعة ، ومبالغ فى ارتكاب الآثام والقبائح .

هذا المكذب بيوم القيامة من صفاته - أيضا - أنه ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ .

---

(١) راجع تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٣٩٩ للشوكانى .

أى : إذا تقرأ على هذا المكذب آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسولنا .. قال هذه الآيات هى من أساطير الأقوام الأولين وترهاتهم وقصصهم المخترعة التى لا أصل لها .

فأنت ترى أن هؤلاء المكذبين ، قد وصفهم الله - تعالى - بثلاث صفات هى : الاعتداء على الحق . والمبالغة فى ارتكاب الآثام ، والجرأة فى الافتراء والكذب ، حيث وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملتهم على أن يقولوا فى القرآن ما قالوا ، فقال : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

وقوله : ﴿ ران ﴾ من الرَّيْن - بتشديد الراء مع الفتح - وهو الصدأ الذى يعلو الحديد والمرآة وما يشبههما ، يقال : ران ذنب فلان على قلبه - من باب باع - رينا وريونا ، إذا غلب عليه وغطاه ، وكل ما غلبك فقد ران بك ، ومنه قولهم : ران النعاس على فلان ، إذا استولى عليه . أى : كلا ، ليس الأمر كما زعموا من أن القرآن أساطير الأولين ، بل الحق أن الذى حملهم على قولهم هذا، هو الكفر والعناد والجحود.. الذى استولى على قلوبهم فى الدنيا فغطاها وطمسها ، فصارت لا تميز بين الكلام الحق والكلام الباطل ، ولا بين كلام الله - تعالى - وكلام غيره .

وفى الحديث الشريف الذى أخرجه الترمذى عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، أى : عاد إليه صفاؤه ، وإن زاد - فى الذنوب - زادت حتى تعلو قلبه - وذلك هو الران الذى قال الله فى شأنه : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ بل ران ﴾ قرأه الجمهور بإدغام اللام فى الراء بعد قلبها راء لتقارب مخرجيهما . وقرأه عاصم بالوقف الخفيف على لام بل والابتداء بكلمة ران بدون إدغام .

وقوله : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ بيان لسوء مصيرهم يوم القيامة .

وكلا هنا تأكيد لسابقتها لزيادة الردع والزجر ، ويصح أن تكون كلا هنا بمعنى حقا .

أى : حقا إن هؤلاء الفجار سيكونون يوم القيامة فى حالة احتجاب وامتناع عن رؤية الله - تعالى - وعن رضاه .

قال الآلوسى : « كلا » ردع وزجر عن الكسب الرائن ، أو بمعنى حقا « إنهم » . أى : هؤلاء المكذبين ﴿ عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ لا يرونه - سبحانه - وهو - عز وجل -

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٣ .

حاضر ناظر لهم ، بخلاف المؤمنين ، فالحجاب : مجاز عن عدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب ، أو الحجب المنع ، والكلام على حذف مضاف . أى : عن رؤية ربهم لممنوعون فلا يرونه - سبحانه - .

واحتج مالك - رحمه الله - بهذه الآية ، على رؤية المؤمنين له - تعالى - ، من جهة دليل الخطاب ، وإلا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص .

وقال الشافعى - رحمه الله - : لما حجب - سبحانه - قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ بيان للون آخر من سوء مصيرهم .

أى : أن هؤلاء المكذبين سيكونون يوم القيامة محجوبين عن رؤية الله - تعالى - لسخطه عليهم ، وممنوعين من رحمته ، ثم إنهم بعد ذلك لداخلون فى أشد طبقات النار حرا .. ثم يقال لهم بواسطة خزنة جهنم على سبيل التقريع والتأنيب ، هذا هو العذاب الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا ، وتقولون لمن يحذركم منه : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الإهانة ؛ لأنها أخبرت أن هؤلاء المكذبين : محجوبون عن ربهم ، وأنهم مقاسون حر جهنم ، وأنهم لا يقابلون من خزنتها إلا بالتيئيس من الخروج منها ، وبالتأنيب والتقريع .

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترهيب بالترغيب ، والعكس ، ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، ما أعده - سبحانه - للأبرار من خير وفير ، ومن نعيم مقيم ، فقال - تعالى - :

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ
﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ
﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾
خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٧٢ .

﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وقوله : ﴿ كلا ﴾ هنا ، تكرير للردع والزجر السابق فى قوله – تعالى – قبل ذلك : ﴿ إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ ، لبيان ما يقابل ذلك من أن كتاب الأبرار فى عليين .

ولفظ « عليين » جمع عِلِّى – بكسر العين وتشديد اللام المكسورة – من العلو . ويرى بعضهم أن هذا اللفظ مفرد ، وأنه اسم للديوان الذى تكتب فيه أعمال الأبرار .

قال صاحب الكشاف : وكتاب الأبرار : ما كتب من أعمالهم . وعليون : علمٌ لديوان الخير ، الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين . منقول من جمع « عِلِّى » بزنة فِعِّيل – بكسر الفاء والعين المشددة – من العلو ، كسِجِّين من السجن . سمى بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات فى الجنة ، وإما لأنه مرفوع فى السماء السابعة .. تكريما له وتعظيما ..[1] .

أى : حقا إن ما كتبته الملائكة من أعمال صالحة للأتقياء الأبرار ، لمثبت فى ديوان الخير ، الكائن فى أعلى مكان وأشرفه .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ تفخيم لشأن هذا الديوان ، وتنويه عظيم بشرفه .

وقوله : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ تفسير لما كتب لهؤلاء الأبرار من خير وبركة ، أى : كتاب الأبرار كتاب واضح بين ، يقرؤه أصحابه بسهولة ويسر ، فتنشرح صدورهم ، وتقر عيونهم .

وقوله – تعالى – ﴿ يشهده المقربون ﴾ صفة أخرى جىء بها على سبيل المدح لهذا المكتوب من الأعمال الصالحة لهؤلاء الأخيار .

أى : كتاب الأبرار ، وصحائف أعمالهم ، فى أسمى مكان وأعلاه ، وهو كتاب واضح بين ، يقرءونه فيظهر البشر والسرور على وجوههم ، وهو فوق ذلك ﴿ يشهده المقربون ﴾ أى : يطلع عليه الملائكة المقربون من الله – تعالى – ، ليكون هذا الاطلاع شهادة لهؤلاء الأبرار ، بأنهم محل رضا الله – تعالى – وتكريمه وثوابه .

ثم بين – سبحانه – حالهم فى الجنة ، بعد بيان ما اشتمل عليه كتابهم من خير وبر فقال – تعالى – : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ أى : لفى نعيم دائم ، لا يحول ولا يزول .

﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ والأرائك : جمع أريكة – بزنة سفينة – وهى اسم للسرير

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٢٢

الذى يكون مفروشا فرشا أنيقا جميلا .

أى : هم فى نعيم دائم لا يقادر قدره ، وهم - أيضاً - يجلسون على السرر المهيأة لجلوسهم تهيئة حسنة ، ينظرون إلى كل ما يدخل البهجة والسرور على نفوسهم .

وحذف مفعول « ينظرون » لقصد التعميم ، أى : ينظرون إلى كل ما يبهج نفوسهم .

﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ أى : تعرف فى وجوههم - أيها الناظر إليهم - البهجة والحسن ، وصلاح البال ، وهناءة العيش .

وإضافة النضرة - وهى الجمال الواضح - إلى النعيم - الذى هو بمعنى التنعم والترفه - من إضافة المسبب إلى السبب . وهذه الجملة الكريمة صفة ثالثة من صفات هؤلاء الأبرار ، ثم تأتى الصفة الرابعة المتمثلة فى قوله - تعالى - : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ .

والرحيق : اسم للخمر الطيبة الصافية الخالية من كل ما يكدر أو يذهب العقل .

والمختوم : أى المسدود الذى لم تمسه يد قبل أيدى هؤلاء الأبرار .

وقوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ صفة ثانية للرحيق . أى : أن هؤلاء الأبرار من صفاتهم - أيضا - أنهم يسقيهم ربهم - بفضله وكرمه - من خمر طيبة بيضاء لذيذة ، خالصة من كل كدر .. هذه الخمر مختوم على إنائها بخاتم ، بحيث لم تمسها يد قبل أيديهم . وهذه الخمر - أيضا - من صفاتها أن شاربها يجد فى نهاية شربها ما يشبه المسك فى جودة الرائحة .

وقال الشوكانى : وقوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ أى : آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه ، وجد ريحه كريح المسك . وقيل : مختوم أوانيه بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته ، وطيب رائحته .

والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشىء وهو آخره أو من ختم الشىء وهو جعل الخاتم عليه ، كما تختم الأشياء بالطين ونحوه .

وقراءة الجمهور ﴿ ختامه ﴾ وقرأ الكسائى ﴿ خاتمه ﴾ والخاتم والختام يتقاربان فى المعنى إلا أنا الخاتم الاسم ، والختام المصدر ..[1] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ يعود للرحيق المختوم ، الدال على صلاح بالهم ، وحسن أحوالهم .

وأصل التنافس : التغالب فى الشىء النفيس ، وهو الذى تحرص عليه النفوس ، بحيث

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٤٠٢ .

يبتغيه ويطلبه كل إنسان لنفسه خاصة . يقال : نفس فلان على فلان بهذا الشىء - كفرح - إذا بخل به عليه . أى : ومن أجل الحصول على ذلك الرحيق المختوم ، والنعيم المقيم .. فليرغب الراغبون ، وليتسابق المتسابقون ، وليتنافس المتنافسون فى وجوه الخير . عن طريق المسارعة فى تقديم الأعمال التى ترضى الله - تعالى - .

فالمقصود من الآية الكريمة : تحريض الناس وحضهم على تقديم العمل الصالح ، الذى يوصلهم يوم القيامة إلى أعلى الدرجات .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون ﴾ صفة ثالثة من صفات هذا الرحيق .

والمزاج : ما يمزج به الشىء ، ويطلق على الممزوج بالشىء - كما هنا - فهو من إطلاق المصدر على المفعول .

والتسنيم : علم لعين فى الجنة مسماة بهذا الاسم ، وهذا اللفظ مصدر سنمه إذا رفعه . يقال : سنم فلان الطعام . إذا جعله كهيئة السنام فى ارتفاعه .

قالوا : وسميت هذه العين بهذا الاسم ، لأنها تنبع من مكان مرتفع ، أو لعلو مكانتها .

وقوله : ﴿ عينا ﴾ منصوب على المدح .

أى : ومزاج هذا الرحيق وخليطه كائن من ماء لعين فى الجنة ، مرتفعة المكان والمكانة ، هذه العين يشرب منها المقربون إلى الله - تعالى - شرابهم .

قال الآلوسى : والباء فى قوله ﴿ بها ﴾ إما زائدة . أى يشربها . أو بمعنى من . أى : يشرب منها ، أو على تضمين يشرب معنى يروى . أى : يشرب راوين بها . أى يروى بها المقربون ..[1] .

وإلى هنا نجد أن هذه الآيات الكريمة قد بشرت الأبرار ببشارات متعددة ، بشرتهم بأن صحائف أعمالهم فى أعلى عليين ، وبأنهم فى نعيم مقيم ، وبأنهم ينظرون إلى كل ما يشرح صدورهم ، وبأن الناظر إليهم يرى آثار النعمة والرفاهية على وجوههم ، وبأن شرابهم من خمر طيبة لذيذة الطعم والرائحة .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من الرذائل التى كان يفعلها المشركون مع المؤمنين ، وبشر المؤمنين بأن العاقبة الطيبة ستكون لهم .. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٧٦ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات ، أن بعض المشركين - كأبى جهل والعاص بن وائل - كانوا يستهزئون من فقراء المسلمين كصهيب وعمار بن ياسر .

وقوله - سبحانه - ﴿ أجرموا ﴾ من الإجرام ، وهو ارتكاب الجرم . ويطلق على الإثم العظيم . والذنب الكبير ، والمراد بإجرامهم هنا: كفرهم بالله - تعالى - واستهزاؤهم بالمؤمنين . أى : إن الذين ارتكبوا فى دنياهم أقبح الجرائم وأشنعها ، وهم زعماء المشركين ﴿ كانوا ﴾ فى الدنيا ﴿ من الذين آمنوا يضحكون ﴾ أى : كانوا فى حياتهم يتهكمون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويعتبرونهم الأراذل الذين يجب الابتعاد عنهم .

﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ أى : وإذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين سخروا منهم ، وتغامزوا فيما بينهم على سبيل الاستهزاء بفقراء المؤمنين .

والتغامز : تفاعل من الغمز ، وهو الإشارة بالجفون والحواجب على سبيل الطعن والتهكم .

أى : يغمز أحدهم الآخر لينبه إلى ما عليه فقراء المسلمين من شظف العيش ، ومن غير ذلك من الأحوال التى لا يرضاها المشركون لجهلهم وغرورهم وبلادة حسهم .

﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أى : وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من مجالسهم التى كانوا فيها .. رجعوا متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين . والسخرية منهم .

فهم لإيغالهم فى الكفر والفسوق والعصيان، لا يكتفون بالغمز واللمز عندما يرون المؤمنين ، بل يجعلونهم عند عودتهم إلى أهليهم ، مادة تفكههم وضحكهم .

فقوله : ﴿ فكهين ﴾ جمع فكه ، صفة مشبهة ، وهى قراءة حفص عن عاصم .

وقرأ الجمهور ﴿ فاكهين ﴾ اسم فاعل : من فكه - بزنة - فرح - إذا مزح فى كلامه ليضحك أو يضحك غيره .

وحذف متعلق « فكهين » للعلم به . أى : رجعوا فكهين بسبب حديثهم عن المؤمنين .

وقوله : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أى : أن هؤلاء الذين أجرموا ، لا يكتفون بغمز المؤمنين ولمزهم وجعلهم مادة السخرية فى أحاديثهم مع أهليهم .

بل إنهم تجاوزوا ذلك ، فهم عندما يرون المؤمنين يقولون عنهم : هؤلاء هم الضالون ، لأنهم تركوا دين آبائهم وأجدادهم ، ودخلوا فى دين آخر .

فمرادهم بالضلال : فساد الرأى . وعدم البقاء على دينهم القديم .

وهكذا الأشرار يرون أن أهل الحق والتقى فى ضلال .

وجملة : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ جملة حالية من الضمير فى ﴿ قالوا ﴾.

أى : قالوا إن هؤلاء المؤمنين لضالون ، والحال أن هؤلاء المشركين ما أرسلهم الله - تعالى - ليكونوا وكلاء عنه ، حتى يحكموا على هذا الفريق بالضلال . وعلى غيره بالرشاد .

فالمقصود بالآية الكريمة : تأنيب الذين أجرموا وتوبيخهم على تصرفاتهم ، لأن الحكم على الغير بالهداية والضلال . هم ليسوا أهلا له إطلاقا ؛ لأن الله - تعالى - لم يكلفهم بذلك ، وإنما كلفهم بإتباع الرسول الذى أرسله - سبحانه - لهدايتهم .

فحكمهم على المؤمنين بالضلال يدل على نهاية الغرور والجهل .

ثم ببشر الله - تعالى - المؤمنين بما سيكونون عليه يوم القيامة من نعيم فقال : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فاليوم ﴾ للسببية ، والمراد باليوم : يوم الجزاء والحساب .

أى : فبسبب استهزاء الذين أجرموا من المؤمنين فى الدنيا ، كافأ الله - تعالى - المؤمنين على صبرهم ، بأن جعلهم يوم القيامة يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مهانين ، كما كان الكفار يضحكون من المؤمنين فى الدنيا .

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين ، وتبشيرهم بأنهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب .. وأنهم - أى : المؤمنين - سيكونون يوم القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش ، وأنهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرهم ويبهج نفوسهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾

والاستفهام للتقرير . وقوله : ﴿ ثوب ﴾ من التثويب والإثابة ، أى المجازاة .

يقال : ثوب فلان فلانا وأثابه ، بمعنى جازاه المجازاة اللائقة به .

والمعنى : لقد جوزى الكفار بالجزاء المناسب لتهكمهم بالمؤمنين فى الدنيا ، فقد أنزلنا بهم ما يستحقونه من عقاب أليم ، جزاء وفاقا .

وجاء الجزاء بأسلوب الاستفهام ، لتأكيد هذا الجزاء ، حتى لكأن المخاطب هو الذى نطق بهذا الجزاء العادل الذى استحقه الكافرون . ولبيان أن عدالة الله - تعالى - تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة .

والتعبير بثوب - مع أنه أكثر ما يستعمل فى الخير - إنما هو من باب التهكم بهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر .

صباح الاثنين : ٢٥ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ .

٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة الانشقاق

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الانشقاق » وتسمى سورة « إذا السماء انشقت » من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الانفطار » ، وقبل سورة « الروم » وعدد آياتها خمس وعشرون آية فى المصحف المكى والكوفى . وفى المصحف الشامى والبصرى ثلاث وعشرون آية .

٢ - والسورة الكريمة ابتدأت بوصف أشراط الساعة . ثم فصلت الحديث عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، وخلال ذلك حرضت المؤمنين على أن يزدادوا من الإيمان والعمل الصالح ، وحذرت الكافرين من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم وفسوقهم .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ
(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣)
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥) فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨)
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ
(٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

وقوله : ﴿ انشقت ﴾ من الانشقاق بمعنى الانفطار والتصدع ، بحيث تتغير هيئتها ، ويختل نظامها ، كما قال - تعالى - : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله

الواحد القهار ﴾[1] .

وانشقاق السماء قد ورد فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ .

ومعنى « أذنت » : استمعت . يقال : أذن له ، بمعنى استمع له بإصغاء تام - وبابه طرب - وفى الحديث الصحيح : « ما أذن الله لشىء إذنه لنبى يتغنى بالقرآن » ، وقال الشاعر :

صمٌّ إذا سمعوا خيرا ذكرتُ به وإن ذُكِرْتُ بسوء عندهم أذنوا

وجملة « وحقت » معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه . أى : جعلت حقيقة وجديرة بالاستماع والانقياد لما يريده الله - تعالى - منها ، من قولهم فلان محقوق بكذا ، وحق له أن يفعل كذا ، أى : وجب عليه ذلك وجوبا لا انفكاك له عنه .

وجواب الشرط « إذا » وما عطف عليه محذوف ، والتقدير : إذا السماء تصدعت واختل نظامها ، واستمعت لأمر ربها استماعًا تاما ، وانقادت لحكمه انقياد العبد لسيده ، وجعلت حقيقة وجديرة بالانقياد والاستماع والطاعة فى جميع الأحوال .

﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أى : بسطت وتساوت بحيث صارت فى مستوى واحد ، بدون ارتفاع فى جانب أو انخفاض فى آخر ، كما قال - تعالى - : ﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ .

﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ أى : وطرحت ما بداخلها من أجساد ومن كنوز ، ومن غيرهما ، وخلت من ذلك خلوا تاما .

وقوله ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ تأكيد لقدرته - تعالى - ونفاذ أمره . أى : واستمعت الأرض كما استمعت السماء لأمر ربها ، وحق لها أن تستمع وأن تنقاد لحكمه - تعالى - لأنها خاضعة خضوعا تاما ، لقضائه وأمره .

إذا حدث كل ذلك .. قامت الساعة ، ووجد كل إنسان جزاءه عند ربه - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : حذف جواب « إذا » ليذهب المقدر كل مذهب . أو اكتفاء بما علم فى مثلها من سورتى التكوين والانفطار . وقيل : جوابها ما دل عليه قوله : ﴿ فملاقيه ﴾ أى : إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

وقوله : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أذن له : استمع له .. والمعنى : أنها فعلت فى انقيادها لله - تعالى - حين أراد انشقاقها ، فعل المطواع الذى إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ، ولم يأب ولم يمتنع ، كقوله - تعالى - ﴿ أتينا طائعين ﴾ .

« وحقت » هو من قولك : هو محقوق بكذا وحقيق به ، يعنى : وهى حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ..[١] .

وقال الجمل فى حاشيته : وقوله ﴿ وحقت ﴾ الفاعل فى الأصل هو الله - تعالى - أى : حقَّ وأوجب الله عليها سمعه وطاعته ... فعلم من ذلك أن الفاعل محذوف ، وأن المفعول هو سمعها وطاعتها له - تعالى -[٢] .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء للإنسان ، دعاه فيه إلى طاعته وإخلاص العبادة له ، فقال : ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ والمراد بالإنسان هنا : جنسه . وأصل الكدح فى كلام العرب : السعى فى سبيل الحصول على الشىء بجد واجتهاد وعناء .

مأخوذ من كدح فلان جلده ، إذا خدشه ، ومنه قول الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنها أموت ، وأخرى أبتغى العيش أكدحُ

وقول الآخر :

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحياةِ وأَنْصِبُ

أى : وبقيت أسعى سعيا حثيثا للحياة ، وأتعب من أجل الحصول على مطالبى فيها .

والضمير فى قوله : ﴿ فملاقيه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ، ويصح أن يعود للكدح ، بمعنى ملاق جزاء هذا الكدح .

والمعنى : يأيها الإنسان إنك باذل فى حياتك جهدا كبيرا من أجل مطالب نفسك .

وإنك بعد هذا الكدح والعناء ... مصيرك فى النهاية إلى لقاء ربك ، حيث يحاسبك على عملك وكدحك .. فقدم فى دنياك الكدح المشروع ، والعمل الصالح .

والسعى الحثيث فى طاعته - تعالى - ، لكى تنال ثواب ربك ورضاه .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾ أى : ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ﴿ فملاقيه ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٢٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٠٨ .

ويشهد لذلك ما رواه أبو داود الطيالسى .. عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » .

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ ربك ﴾ أى : فملاق ربك فيجازيك بعملك ، ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلا القولين متلازم.(١) .

ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك عاقبة هذا الكدح ، والسعى المتواصل .. فقال - تعالى - : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا ﴾ .

والمراد بالكتاب هنا : صحيفة العمل التى سجلت فيها حسنات الإنسان وسيئاته .

والمراد بالحساب اليسير : عرض الأعمال ، مع التجاوز عن الهفوات ، بفضل الله - تعالى - : أى : الناس جميعا يكدحون فى هذه الحياة ، ثم يعودون إلى خالقهم للحساب والجزاء ، فأما من أعطى كتابه بيمينه ، وهم المؤمنون الصادقون ، فسوف يحاسب من ربه - تعالى - حسابا يسيرا سهلا ، بأن تعرض أعماله على خالقه - تعالى - ثم يكون التجاوز عن المعاصى والثواب على الطاعة ، بدون مناقشة أو مطالبة بعذر أو حجة .

ثم ينقلب هذا الإنسان بعد ذلك إلى أهله وعشيرته ، مبتهجا مسرورا ، بسبب فضل الله - تعالى - عليه ، ورحمته به .

وعبر - سبحانه - عن فوز هذا الإنسان ، بأنه يؤتى كتابه بيمينه ، للإشعار بأنه من أهل السعادة والتقوى ، فقد جرت العادة أن اليد اليمنى إنما تتناول بها الأشياء الزكية الحسنة . والباء فى قوله ﴿ بيمينه ﴾ للملابسة أو المصاحبة ، أو بمعنى فى .

قال الآلوسى : والحساب اليسير : هو السهل الذى لا مناقشة فيه . وفسره - ﷺ - بالعرض وبالنظر فى الكتاب ، مع التجاوز ، أخرج الشيخان عن عائشة أن النبى - ﷺ - قال : « ليس أحد يحاسب إلا هلك » . قلت يا رسول الله ، جعلنى الله فداك ، أليس الله - تعالى - يقول ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً ﴾ ، قال : ذلك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك ».

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة - أيضا - قالت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » فلما انصرف قلت له : يا رسول الله ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٨ .

ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ».[1] .

ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء ، بعد بيانه لحال السعداء فقال : ﴿ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا ﴾ . أى : وأما من أعطى صحيفة أعماله - لسوادها وقبح أعمالها - بشماله من وراء ظهره وهو الكافر - والعياذ بالله - قيل تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، على سبيل الإهانة والإذلال له .

﴿ فسوف يدعو ثبورا ﴾ أى : فسوف يطلب الهلاك ، بأن ينادى عليه بحسرة وندامة ويقول : أيها الموت أقبل فهذا أوانك ، لتنقذنى مما أنا فيه من سوء .

وفى طلبه للهلاك ، وتفضيله على ما هو فيه ، دليل على أن هذا الشقى - والعياذ بالله - قد وصل به الحال السيىء إلى أقصى مداه ، حتى لقد أصبح الهلاك نهاية أمانيه ، كما قال الشاعر :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فالمراد بالدعاء فى قوله ﴿ يدعو ثبورا ﴾ النداء . والثبور : الهلاك ، بأن يقول : يا ثبوراه أقبل فهذا آوان إقبالك .

وقوله - تعالى - ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ بيان للعذاب الذى يحل به . أى : ويدخل النار الشديدة الاشتعال فيتقلب فيها ، ويقاسى حرها .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور ﴾ تعليل لما أصابه من سوء . أى : إن هذا الشقى كان فى الدنيا فرحا بطرا بين أهله ، لا يفكر فى عاقبة ، ولا يعمل حسابا لغير ملذاته وشهواته . وإنه فوق ذلك ﴿ ظن ﴾ أى : أيقن أنه لن يرجع إلى ربه يوم القيامة ، ليحاسبه على أعماله ، ويجازيه بما يستحقه من جزاء .

قال القرطبى : قوله ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أى : لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب . ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار فلان يحور إذا رجع ، ومنه قول لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

فالحور فى كلام العرب : الرجوع ، ومنه قوله - ﷺ - « اللهم إنى أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر » يعنى : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ..[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٨٠ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٢٧٣ .

وقوله - سبحانه - ﴿ بلى إن ربه كان به بصيرا ﴾ إيجاب لما نفاه ، وإثبات لما استبعده ، وجملة « إن ربه » بمنزلة التعليل لما أفادته بلى من إبطال لما نفاه .

أى : ليس الأمر كما زعم من أنه لن يبعث ولن يرجع إلى ربه ... بل الحق الذى لا يشوبه باطل ، أن هذا الشقى سيرجع إلى ربه يوم البعث والنشور ، ليجازيه على أعماله ، لأنه - سبحانه - كان - وما زال - عليما بأحوال هذا الشقى وغيره ، إذ لا يخفى عليه - سبحانه - شىء فى الأرض ولا فى السماء .

فالمراد بالبصر هنا : العلم التام بأحوال الخلق .

ثم أقسم - سبحانه - ببعض مخلوقاته ، على أن مشيئته نافذة ، وقضاءه لا يرد ، وحكمه لا يتخلف . فقال : ﴿ فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق . لتركبن طبقا عن طبق ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فلا أقسم ﴾ واقعة فى جواب شرط مقدر ، وهى التى يعبر عنها بالفصيحة ، و « لا » مزيدة لتأكيد القسم ، وجوابه « لتركبن » .

والشفق : الحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى بعد غروب الشمس ، وهو ضياء من شعاعها ، وسمى شفقا لرقته ، ومنه الشفقة لرقة القلب .

والوسق : جمع الأشياء ، وضم بعضها إلى بعض . يقال : وَسَق الشىءَ يسِقُه - كضرب - إذا جمعه فاجتمع ، ومنه قولهم : إبل مستوسقة ، أى : مجتمعة ، وأمر متسق . أى . مجتمع على ما يسر صاحبه ويرضيه .

واتساق القمر : اجتماع ضيائه ونوره ، وهو افتعال من الوسق . وهو الجمع والضم ، وذلك يكون فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر .

أى : أقسم بالحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى ، بعد غروب الشمس ، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله - تعالى - وبالقمر إذا ما اجتمع نوره ، وأكتمل ضياؤه ، وصار بدرا متلألئاً .

وفى القسم بهذه الأشياء ، دليل واضح على قدرة الله - تعالى - الباهرة ، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة .. فالشفق حالة تأتى فى أعقاب غروب الشمس ، والليل يأتى بعد النهار ، والقمر يكتمل بعد نقصان ... وكل هذه الحالات الطارئة ، دلائل على قدرة الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ جواب القسم - كما سبق أن أشرنا - .

والمراد بالركوب : الملاقاة والمعاناة ، والخطاب للناس ، والطبق جمع طبقة ، وهى الشىء المساوى لشىء آخر ، والمراد بها هنا : الحالة أو المرتبة ، وعن بمعنى بعد .

أى : وحق الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق .. لتلاقن - أيها الناس - أحوالا بعد أحوال ، هى طبقات ومراتب فى الشدة ، بعضها أصعب من بعض ، وهى الموت ، وما يكون بعده من حساب وجزاء يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ لتركبن طبقا عن طبق ﴾ خطاب لجنس الإنسان المنادى أولا ، باعتبار شموله لأفراده ، والمراد بالركوب : الملاقاة ، والطبق فى الأصل ما طابق غيره مطلقا . وخص فى العرف بالحال المطابقة لغيرها .. و « عن » للمجاوزة ، أو بمعنى « بعد » . والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة أو حالا من فاعل لتركبن ، والظاهر أن « طبقا » منصوب على المفعولية . أى : لتلاقن حالا كائنة بعد حال ، كل واحدة مطابقة لأختها فى الشدة والهول ..منها ماهو فى الدنيا ، ومنها ما هو فى الآخرة .

وقرأ الأخوان - حمزة والكسائى - وابن كثير ﴿ لتركبن ﴾ - بفتح الباء - على أنه خطاب للإنسان - أيضا - ، لكن باعتبار اللفظ ، لا باعتبار الشمول .

وأخرج البخارى عن ابن عباس أنه خطاب للنبى - ﷺ - ، أى : لتركبن - أيها الرسول الكريم - أحوالا شريفة بعد أخرى من مراتب القرب . أو مراتب من الشدة بعد مراتب من الشدة ، ثم تكون العاقبة لك ..[1] .

والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون . ﴾ لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها ، و « ما » للاستفهام الإنكارى . أى : إذا كان الأمر كما وضحنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن البعث حق ، ومن أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده .. فأى شىء يمنع هؤلاء الكافرين من الإيمان ، مع أن كل الدلائل والبراهين تدعوهم إلى الإيمان .

وأى : مانع منعهم من السجود والخضوع لله - تعالى - عند ما يقرأ عليهم القرآن الكريم ، الذى أنزلناه عليك لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

فالمقصود من الآيتين الكريمتين تعجيب الناس من حال هؤلاء الكافرين الذين قامت أمامهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٨٢ .

جميع الأدلة على صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، ومع ذلك فهم مصرون على كفرهم وجحودهم وعنادهم .

قال الآلوسى : وقد صح عنه - ﷺ - أنه سجد عند قراءة هذه الآية ، فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى .. عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله - ﷺ - فى ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفى ﴿ اقرأ باسم ربك .. ﴾ وهى سنة عند الشافعى ، وواجبة عند أبى حنيفة ..[1] .

أما الإمام مالك فالرواية الراجحة فى مذهبه ، أن هذه الآية ليست من آيات سجود التلاوة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ إضراب انتقالى ، من التعجيب من عدم إيمانهم مع ظهور كل الأدلة على وجوب الإيمان ، إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على كفرهم ، أى : ليس هناك أى مانع يمنع الكافرين من الإيمان ، بعد أن قامت جميع الشواهد على صدق الرسول - ﷺ - ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين إنما استمروا على كفرهم بسبب عنادهم وحسدهم للرسول - ﷺ - على ما آتاه الله - تعالى - من فضله ، وتكذيبهم للحق عناداً وجحوداً .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ كلام معترض بين سابقه ولاحقه ، والمقصود به التهديد والوعيد .

ومعنى « يوعون » يضمرون ويخفون ويسرون ، وأصل الإيعاء حفظ الأمتعة فى الوعاء ، يقال : أوعى فلان الزاد والمتاع ، إذا جعله فى الوعاء ، والمراد به هنا : الإضمار والإخفاء ، كما فى قول الشاعر : والشر أخبث ما أوعيت من زاد .

أى : والله - تعالى - أعلم من كل أحد ، بما يضمره هؤلاء الكافرون ، وبما يخفونه فى صدورهم من تكذيب للحق ، ومن جحود للقرآن الكريم ، ومن معاداة للمؤمنين .

وقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ تفريع على قوله : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ .

والتبشير : الإخبار بما يسر ، والمراد به هنا التهكم بهم ، بدليل توعدهم بالعذاب الأليم .

أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين المكذبين للحق ، بالعذاب الأليم .

والاستثناء فى قوله - تعالى - : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٨٣ .

ممنون ﴾ استثناء منقطع . أى : هذا هو حال الكافرين ، لكن الذين آمنوا إيماناً حقا ، وقدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، فلهم فى الآخرة أجر غير مقطوع ، فقوله ﴿ ممنون ﴾ مِنْ مَنَّ : إذا قطع يقال : مننت الحبل إذا قطعته ، أو لهم أجر خالص من شوائب الامتنان ، وهو أن يعطى الإنسان غيره عطاء ، ثم يتباهى عليه به .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر .

مساء الأربعاء : ٢٧ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ .

أول أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير
سورة البروج

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « البروج » من السور المكية الخالصة ، وتسمى سورة « السماء ذات البروج » فقد أخرج الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ فى العشاء الآخرة ، بالسماء ذات البروج .

وعدد آياتها : اثنتان وعشرون آية . وكان نزولها بعد سورة « والشمس وضحاها » وقبل سورة « والتين والزيتون » .

٢ - والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : تثبيت المؤمنين ، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، عن طريق ذكر جانب مما تحمله المجاهدون من قبلهم ، فكأن الله - تعالى - يقول للنبى - ﷺ - ولأصحابه : اصبروا كما صبر المؤمنون السابقون ، واثبتوا كما ثبتوا ، فإن العاقبة ستكون لكم .

كما أن السورة الكريمة ساقت الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ونفاذ أمره .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
(٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ
رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)
ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
(١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن
وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)

والبروج : جمع برج . وهى فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك

قوله - تعالى - ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ أى : ولو كنتم فى قصور عظيمة محصنة .

والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثنا عشر منزلا : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

قال القرطبى : قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ : قسم أقسم الله - عز وجل - به . وفى البروج أربعة أقوال : أحدها : ذات النجوم . الثانى : ذات القصور .. الثالث : ذات الخَلْق الحسن . الرابع : ذات المنازل .. وهى اثنا عشر منزلا ..[1]

وقوله : ﴿ واليوم الموعود ﴾ المقصود به : يوم القيامة ، لأن الله - تعالى - وعد الخلق به ، ليجازى فيه الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قسم ثالث ببعض مخلوقاته - تعالى - . والشاهد اسم فاعل من المشاهدة بمعنى الرؤية ، فالشاهد هو الرائى ، أو المخبر غيره عما رآه وشاهده .

والمشهود : اسم مفعول ، وهو هنا الشىء المرئى ، أو المشهود عليه بأنه حق .

فالمراد بالشاهد : من يحضر ذلك اليوم من الخلائق المبعوثين ، وما يراه فيه من عجائب وأهوال ، من المشاهدة بمعنى الرؤية والحضور ، أو من يشهد فى ذلك اليوم على غيره ، من الشهادة على الخصم .

وقد ذكر المفسرون فى معنى هذين اللفظين ، ما يقرب من عشرين وجها .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ يعنى : وشاهد فى ذلك اليوم ومشهود فيه . والمراد بالشاهد : من يشهد فيه من الخلائق كلهم . وبالمشهود : ما فى ذلك اليوم من عجائبه . ثم قال : وقد اضطربت أقوال المفسرين فيهما ، فقيل : الشاهد والمشهود : محمد - ﷺ - ويوم القيامة . وقيل : عيسى وأمته . وقيل : أمة محمد - ﷺ - وسائر الأمم . وقيل : يوم التروية ويوم عرفة . وقيل : يوم عرفة ويوم الجمعة . وقيل : الحجر الأسود . والحجيج . وقيل : الأيام والليالى . وقيل : الحفظة وبنو آدم ..[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٢٨٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٢٩ .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب : أن المراد بالشاهد هنا : الحاضر فى ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، والرائى لأهواله وعجائبه .

وأن المراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان .

وقال - سبحانه - ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ بالتنكير ، لتهويل أمرهما ، وتفخيم شأنهما .

وقوله - تعالى - ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ جواب القسم بتقدير اللام وقد .

أى : وحق السماء ذات البروج ، وحق اليوم الموعود ، وحق الشاهد والمشهود ، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود ، وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم .

والأخدود : وهو الحفرة العظيمة المستطيلة فى الأرض ، كالخندق ، وجمعه أخاديد ، ومنه الخد لمجارى الدمع ، والمخدة : لأن الخد يوضع عليها .

ويقال : تخدد وجه الرجل ، إذا صارت فيه التجاعيد .. ومنه قول الشاعر :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليـــه ، نقى اللون لم يتخـدد

وقيل : إن جواب القسم محذوف ، دل عليه قوله - تعالى - : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود .

وأصحاب الأخدود : هم قوم من الكفار السابقين ، حفروا حفرا مستطيلة فى الأرض ، ثم أضرموها بالنار ، ثم ألقوا فيها المؤمنين ، الذين خالفوهم فى كفرهم ، وأبوا إلا إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

وقوله - سبحانه - : ﴿ النار ذات الوقود ﴾ بدل اشتمال مما قبله وهو الأخدود .

والوقود : اسم لما توقد به النار كالحطب ونحوه . وذات الوقود : صفة للنار .

أى : قتل وطرد من رحمة الله أصحاب الأخدود ، الذين أشعلوا فيه النيران ذات اللهب الشديد ، لكى يلقوا المؤمنين فيها .

والظرف فى قوله - تعالى - ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ متعلق بقوله - تعالى - : ﴿ قتل ﴾ . أى : لعنوا وطردوا من رحمة الله ، حين قعدوا على الأخدود ، ليشرفوا على من يعذبونهم من المؤمنين .

فالضمير « هم » يعود على أولئك الطغاة الذين كانوا يعذبون المؤمنين ويجلسون على حافات الأخدود ليروهم وهم يحرقون بالنار ، أو ليأمروا أتباعهم وزبانيتهم بالجد فى التعذيب حتى لا يتهاونوا فى ذلك .

و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازى ، إذ من المعلوم أنهم لا يقعدون فوق النار ، وإنما هم يقعدون حولها ، لإلقاء المؤمنين فيها .

وجملة ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ فى موضع الحال من الضمير فى قوله : ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ . أى : أن هؤلاء الطغاة الظالمين ، لم يكتفوا بإشعال النار ، والقعود حولها وهم يعذبون المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك ، أنهم يشهدون تعذيبهم ، ويرونه بأعينهم على سبيل التشفى منهم ، فقوله ﴿ شهود ﴾ بمعنى حضور ، أو بمعنى يشهد بعضهم لبعض أمام ملكهم الظالم ، بأنهم ما قصروا فى تعذيب المؤمنين . وهذا الفعل منهم . يدل على نهاية القسوة والظلم ، وعلى خلو قلوبهم من أى رحمة أو شفقة .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، بأن أحدا لم يقصر فيما أمر به ، أو يشهدون عنده على حسن ما يفعلون .. أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل الشنيع يوم القيامة ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك ، كما قال - تعالى - : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ .

وقيل : « على » بمعنى مع . أى : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور ، لا يرقون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت هؤلاء الطغاة على إحراق المؤمنين فقال : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد ﴾ .

والنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية . يقال : نقَم فلان هذا الشىء ، - من باب ضرب - إذا كرهه وأنكره .

أى : أن هؤلاء الكافرين ماكرهوا المؤمنين ، وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشىء واحد ، وهو أن المؤمنين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - صاحب العزة التامة ، والحمد المطلق ، والذى له ملك جميع ما فى السموات والأرض ، وهو - سبحانه - على كل شىء شهيد ورقيب ، لا يخفى عليه أمر من أمور عباده ، أوحال من أحوالهم .

فالمقصود من هاتين الآيتين الكريمتين ، التعجيب من حال هؤلاء المجرمين ، حيث عذبوا المؤمنين ، لا لشىء إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأن الإيمان فى نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٩٠ .

وهكذا النفوس عندما يستحوذ عليها الشيطان ، تتحول الحسنات فى نظرها إلى سيئات ، وقديما قال المنكوسون من قوم لوط - عليه السلام - ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ .

والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله .. ﴾ استثناء مفصح عن براءة المؤمنين مما يعاب وينكر ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قول القائل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قـراع الكتائب

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزلنا إلينا ، وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : وقد اختلفوا فى أهل هذه القصة من هم ؟ فعن على ابن أبى طالب : أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود ، فقذف فيه من أنكر عليه منهم .

وعنه أنهم كانوا قوما من اليمن ، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فتغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

ثم ذكر - رحمه الله - بعد ذلك جملة من الآثار فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت .[1] .

وعلى أية حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى ، قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين ، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم ، وقد اقتضت سنته - تعالى - أن يجعل العاقبة للمتقين .

ثم هدد - سبحانه - كفار قريش بسوء المصير ، إذا ما استمروا فى إيذائهم للمؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ .

وقوله : ﴿ فتنوا ﴾ من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فى النار لتعلم جودته من رداءته ، والمراد به هنا : التعذيب والتحريق بالنار .

أى : إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله - تعالى - من ذنوبهم ، ويرجعوا عن تعذيبهم للمؤمنين والمؤمنات ، فلهم فى الآخرة عذاب

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨٧ .

جهنم ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعدوانهم ، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها فى الإحراق .

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش ، كأبى جهل وأمية ابن خلف . وغيرهما ، فقد عذبوا بلالا ، وعمار بن ياسر ، وأباه وأمه سمية .

ويؤيد أن المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات كفار قريش ، قوله - تعالى - : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ لأن هذه الجملة تحريض على التوبة ، وترغيب فيها للكافرين المعاصرين للنبى - ﷺ - .

ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، ويدخل فيه أصحاب الأخدود ، وكفار قريش دخولا أوليا .

وجمع - سبحانه - بين عذاب جهنم لهم ، وبين عذاب الحريق ، لبيان أن العذاب لهم مضاعف ، بسبب طغيانهم وشركهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعده للمؤمنين والمؤمنات من ثواب وعطاء كريم فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات لهم ﴾ أى : عند ربهم ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى تجرى من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار ﴿ ذلك ﴾ العطاء هو ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذى لا فوز يضارعه أو يقاربه .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على نفاذ قدرته ومشيئته ، حتى يزداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم ، وصبرا على صبرهم فقال : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسرعة وعنف . أى : إن بطش ربك - أيها الرسول الكريم - بالظالمين والطغاة لبالغ نهاية القوة والعنف : فمر أصحابك فليصبروا على الأذى ، فإن العاقبة الحسنة ستكون لهم وحدهم .

﴿ إنه هو يبدئ . ويعيد ﴾ أى : إنه وحده هو الذى يخلق الخلق أولا فى الدنيا ، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم للحساب والجزاء ، وهو - سبحانه - وحده الذى يبدىء البطش بالكفار فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة بصورة أشد وأبقى .

وحذف - سبحانه - المفعول فى الفعلين ، لقصد العموم ، ليشمل كل ما من شأنه أن يبدأ وأن يعاد من الخلق أو من العذاب أو من غيرهما .

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أى : وهو - سبحانه - الواسع المغفرة لمن تاب وآمن ، وهو الكثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه .

﴿ ذو العرش المجيد ﴾ أى : وهو - عز وجل - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعرف كنهه إلا هو - سبحانه - ، وهو ﴿ المجيد ﴾ أى : العظيم فى ذاته وصفاته .

﴿ فعال لما يريد ﴾ أى : وهو - تعالى - الذى يفعل كل شىء يريده . دون أن يعترض عليه أحد ، بل فعله هو النافذ ، وأمره هو السارى والمطاع .

وجاءت كلمة « فعال » بصيغة المبالغة ، للدلالة على أن ما يريده ويفعله - مع كثرته - هو فى غاية النفاذ والسرعة ، كما قال - تعالى - : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

فهذه الصفة من الصفات الجامعة لعظمته الذاتية ، وعظمة نعمه ومننه وعطاياه .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على شدة بطشه ، ونفاذ أمره فقال : ﴿ هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ﴾ .

والاستفهام هنا : للتقرير والتهويل . والمراد بالجنود : الجموع الكثيرة التى عتت عن أمر ربها ، فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، وقوله : ﴿ فرعون وثمود ﴾ بدل من الجنود .

والمراد بفرعون وثمود : ملؤهما وقومهما الذين آثروا الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والباطل على الحق . أى : لقد بلغك - أيها الرسول الكريم - حديث فرعون الذى طغى وبغى ، واتبعه قومه فى طغيانه وبغيه ، وحديث قوم صالح - عليه السلام - وهم الذين كذبوا نبيهم . وآذوه ، وعقروا الناقة التى نهاهم عن أن يمسوها بسوء .

وكيف أنه - سبحانه - قد دمر الجميع تدميرا شديدا ، جزاء كفرهم وبغيهم .

وخص - سبحانه - جند فرعون وثمود بالذكر ، لأنهم كانوا أشد من غيرهم بغيا وظلما ، ولأنهم كانت قصصهم معروفة لأهل مكة أكثر من غيرهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط ﴾ إضراب انتقالى ، المقصود منه بيان أن هؤلاء المشركين المعاصرين للنبى - ﷺ - لم يتعظوا بمن سبقهم .

أى : لقد كانت عاقبة جنود فرعون وثمود ، الهلاك والدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، ولكن قومك - أيها الرسول - لم يعتبروا بهم ، بل استمروا فى تكذيبهم لك ، وفى إعراضهم عنك .. واعلم أن الله - تعالى - محيط بهم إحاطة تامة ، ولن يفلتوا من عقابه بأية حيلة من الحيل ، فهم تحت قبضته وسلطانه ، وسينزل بهم بأسه فى الوقت الذى يريده .

وقوله - تعالى - ﴿ بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ ﴾ إضراب انتقالى آخر ، من

بيان شدة تكذيبهم للحق ، إلى بيان أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : ليس الأمر كما قال هؤلاء المشركون فى القرآن من أنه أساطير الأولين .. بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله - تعالى - البالغ النهاية فى الشرف والرفعة والعظمة .

وأنه كائن فى لوح محفوظ من التغيير والتبديل ، ومن وصول الشياطين إليه . ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن فى لوح محفوظ ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علمه - تعالى - ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله - تعالى - بعلمه .. وما قيل فى وصف هذا اللوح لم يرد به حديث صحيح يعتمد عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر :
مساء الخميس : ٢٩ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ
٣ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الطارق

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الطارق » من السور المكية ، وعدد آياتها سبع عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « البلد » وقبل سورة « القمر » وهى السورة السادسة والثلاثون ، فى ترتيب النزول ، أما فى المصحف ، فهى السورة السادسة والثمانون .

وكان النبى - ﷺ - يقرأ بها كثيراً ، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ فى العشاء الآخرة « بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق » .

وأخرج - أيضاً - عن خالد بن أبى جبل العدوانى : أنه أبصر رسول الله - ﷺ - فى مُشْرَق - بضم الميم - ثقيف . - أى فى سوق ثقيف - وهو قائم على قوس أو عصى . حين أتاهم يبتغى عندهم النصر . فسمعته يقول : ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها . قال : فوعيتها فى الجاهلية ثم قرأتها فى الإسلام . قال : فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم . فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم أن ما يقول حقا لا تبعناه .[1] .

٢ - والسورة الكريمة من مقاصدها : إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى كمال قدرته ، وبليغ حكمته ، وسعة علمه ، وإثبات أن هذا القرآن من عنده - تعالى - ، وأن العاقبة للمتقين .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩٥ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ
نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ
دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١)
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

والطارق : اسم فاعل من الطروق . والمراد به هنا : النجم الذى يظهر ليلا فى السماء .

قال القرطبى ما ملخصه : الطارق : النجم ، اسم جنس سمى بذلك لأنه يطرق ليلا ، ومنه الحديث : نهى النبى - ﷺ - أن يطرق المسافر أهله ليلا .. والعرب تسمى كل قاصد فى الليل طارقا . يقال : طرق فلان ، إذا جاء ليلا .. وأصل الطرق : الدق ، ومنه سميت المطرقة ، فسمى قاصد الليل طارقا ، لا حتياجه فى الوصول إلى الدق .

وفى الحديث : « أعوذ بك من طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن .. »[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به ، فالاستفهام مستعمل فى تعظيم أمره .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢ .

وقد جاء التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ وما أدراك ...﴾ ثلاث عشرة مرة فى القرآن الكريم ، كلها جاء الخبر بعدها - كما هنا - ، وكما فى قوله - تعالى - ﴿ وما أدراك ماسقر لاتبقى ولا تذر . لواحة للبشر ﴾ وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ...﴾ إلا واحدة لم يأت الخبر بعدها ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ..﴾ .

أما التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ وما يدريك ...﴾ فقد جاء ثلاث مرات ، ولم يأت الخبر بعد واحدة من هذه المرات . قال - تعالى - : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ . ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ ، ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ .

قال القرطبى : قال سفيان : كل ما فى القرآن وما أدراك فقد أخبر به ، وكل شىء قال فيه : وما يدريك ، لم يخبر به .

وقوله ﴿ النجم الثاقب ﴾ بيان وتفسير للطارق ، والثاقب . أى : المضىء الذى يثقب الظلام ويخرقه بنوره فينفذ فيه ، ويبدده .

والجملة الكريمة مستأنفة ، وهى جواب عن سؤال مقدر نشأ مما قبله ، كأنه قيل : وما هو الطارق ؟ فكان الجواب : هو النجم الثاقب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ جواب القسم وما بينهما كلام معترض لتفخيم شأن المقسم به .. والحافظ : هو الذى يحفظ ما كلف بحفظه ، لمقصد معين . أى : وحق السماء البديعة الصنع ، وحق النجم الذى يطلع فيها فيبدد ظلام الليل ، ما كل نفس من الأنفس إلا وعليها من الملائكة من يحفظ عملها ويسجله ، سواء أكان هذا العمل خيرا أم شرا .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قرأ الجمهور بتخفيف الميم فى قوله : لما ، فتكون « إن » مخففة من الثقيلة ، فيها ضمير الشأن المقدر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة - بين « إن » النافية ، و« إن » المخففة من الثقيلة - وما مزيدة . أى : إن الشأن كل نفس لعليها حافظ .

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم فى قوله ﴿ لما﴾ ، فتكون « إن » نافية ، و« لما » بمعنى إلا . أى : ما كل نفس إلا عليها حافظ .

والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها . وقيل : الحافظ هو الله - تعالى - وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح .

والأول أولى لقوله - تعالى - : ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ وقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ . وحفظ الملائكة إنما هو من حفظه - تعالى - ، لأنهم لا يحفظون إلا بأمره - عز وجل -[١] .

والمقصود من الآية الكريمة : تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه ، وأنه سيحاسب عليها وسيجازى عليها بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبعد أن بين - سبحانه - أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أعمالها ، أتبع ذلك بأمر الإنسان بالتفكر فيما ينفعه ، بأن يعتبر بأول نشأته ، وليعلم أن من خلقه من ماء مهين ، قادر على إعادته إلى الحياة مرة أخرى ، فقال - تعالى - : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ..﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فلينظر ...﴾ للتفريع على ما تقدم ، وهى بمعنى الفصيحة ، وقوله : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ جواب الاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ مم خلق ﴾ والمقصود بالاستفهام هنا : الحث والحض على التفكر والتدبر .

و« دافق » اسم فاعل من الدفق ، وهو الصب للشىء بقوة وسرعة ، يقال : تدفق الماء إذا سال باندفاع وسرعة . والمراد به هنا : الماء الذى يخرج من الرجل ويصب فى رحم المرأة .

والصلب : يطلق على فقار الظهر بالنسبة للرجل ، والترائب : جمع تريبة ، وهى العظام التى تكون فى أعلى صدر المرأة ، ويعبرون عنها بقولهم موضع القلادة من المرأة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها الناس - ، من أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها .. فلينظر الإنسان منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه من أى شىء خلق ؟ لقد خلقه الله - تعالى - بقدرته ، من ماء متدفق ، يخرج بقوة وسرعة من الرجل ، ليصب فى رحم الأنثى .

وهذا الماء الدافق من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل ، ومن بين ترائب المرأة ، حيث يختلط الماءان ، ويتكون منهما الإنسان فى مراحله المختلفة بقدرة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه اتصال قوله : ﴿ فلينظر ﴾ بما قبله ؟ . قلت : وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا ، أتبعه بتوصية الإنسان بالنظر

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٤١٩ .

فى أول أمره . ونشأته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا ما يسره فى عاقبته .

و« مم خلق » استفهام جوابه : « خلق من ماء دافق » ، والدفق : صَبٌّ فيه دفع . ومعنى « دافق » النسبة إلى الدفق الذى هو مصدر دفق ، كاللابن والتامر . أو الإسناد المجازى ، والدفق فى الحقيقة لصاحبه .

ولم يقل ماءين لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما حين ابتدئ فى خلقه ...[1] .

وقال بعض العلماء : قوله : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ أى : من ماء ذى دفق .. وكل من منى الرجل . ومنى المرأة ، اللذين يتخلق منهما الجنين ، ذو دفق فى الرحم .

﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ أى : يخرج هذا الماء الدافق ، من بين صلب كل واحد منهما ، وترائب كل منهما . أى : أن أعضاء وقوى كل منهما ، تتعاون فى تكوين ما هو مبدأ لتوالد الإنسان : ماء الرجل وهو المنى ، ومادة المرأة وهى البويضة المصحوبة بالسائل ، المنصبان بدفع وسيلان سريع إلى الرحم عند الاتصال الجنسى . ويسمى الفقهاء هذه المادة منيا وماء ..[2] .

وقال فضيلة الشيخ ابن عاشور : وأطنب - سبحانه - فى وصف هذا الماء الدافق ، لإدماج التعليم والعبرة بدقائق التكوين ، ليستيقظ الجاهل الكافر ، ويزداد المؤمن علما ويقينا .

ووصف بأنه ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ، لأن الناس لا يتفطنون لذلك .. وهذا من الإعجاز العلمى فى القرآن ، الذى لم يكن علم به للذين نزل بينهم ، وهو إشارة مجملة ، وقد بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة : أن رسول الله - ﷺ - سئل عن احتلام المرأة فقال : « تغتسل إذا أبصرت الماء . فقيل له : أترى المرأة ذلك ؟ فقال : وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك ، إذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل ، أشبه الولد أخواله ، وإذا علا ماءُ الرجل ماءها ، أشبه أعمامه »[3] .

وقال صاحب الظلال : ولقد كان هذا سرا مكنونا فى علم الله لا يعلمه البشر ، حتى كان نصف القرن الأخير ، حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ، وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية ، يتكون ماء الرجل . وفى عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة ، حيث

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٣٥ .
(٢) صفوة البيان جـ ٢ ص ٥٣٠ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .
(٣) راجع تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٢٦٣ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

يلتقيان فى قرار مكين . فينشأ منهما الإنسان ..[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر ﴾ . بيان لكمال قدرته - تعالى - وأنه كما أنشأ الإنسان من ماء مهين ، قادر على إعادته إلى الحياة بعد موته . والضمير فى قوله : ﴿ إنه ﴾ يعود إلى الله - عز وجل - لأن الخالق للإنسان من ماء دافق هو الله - تعالى - .

والضمير فى قوله « رجعه » يعود إلى الإنسان المخلوق .

وقوله : ﴿ تبلى ﴾ من البلاء بمعنى الاختبار والامتحان ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ والمراد بقوله ﴿ تبلى ﴾ هنا : الكشف والظهور .

و﴿ السرائر ﴾ جمع سريرة ، وهى ما أسره الإنسان من أقوال وأفعال ، والظرف « يوم » متعلق بقوله : ﴿ رجعه ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - الذى قدر على خلق الإنسان من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب .. لقادر - أيضا - على إعادة خلق هذا الإنسان بعد موته ، وعلى بعثه من قبره للحساب والجزاء ، يوم القيامة ، يوم تكشف المكنونات ، وتبدو ظاهرة للعيان ، وترفع الحجب عما كان يخفيه الإنسان فى دنياه من عقائد ونيات وغيرهما .

وفى هذا اليوم لا يكون للإنسان من قوة تحميه من الحساب والجزاء ، ولا يكون له من ناصر ينصره من بأس الله - تعالى - أو من مدافع يدافع عنه .

ثم أقسم - سبحانه - مرة أخرى بالسماء على أن القرآن من عنده - تعالى - فقال : ﴿ والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل . وما هو بالهزل ﴾ .

والرجع : المطر . وسمى بذلك لأنه يجىء ويرجع ويتكرر ، وقيل : الرجع هنا : الشمس والقمر والنجوم ، يرجعن فى السماء حيث تطلع من ناحية ، وتغيب فى الأخرى .

وقيل : المراد بالرجع : الملائكة ، لأنهم يرجعون إليها حاملين أعمال العباد .

والصدع : الشق والانفطار ، يقال : تصدع الشىء ، إذا تشقق .. والمراد به هنا : ما تتشقق عنه الأرض من نبات . كما قال - تعالى - : ﴿ أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا ﴾ ..

---

(١) راجع فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٥٣٥ .

أى : وحق السماء صاحبة المطر الذى ينزل من جهتها مرة فأخرى ، لنفع العباد والحيوان والنبات .. وحق الأرض ذات النبات البازغ من شقوقها .

﴿ إنه ﴾ أى: هذا القرآن ﴿ لقول فصل ﴾ أى: لقول فاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال . والغى والرشاد .. وقد بلغ النهاية فى ذلك حتى لكأنه نفس الفصل .

﴿ وما هو بالهزل ﴾ أى : وأن هذا القرآن ، ليس فيه شائبة من شوائب الهزل أو اللعب أو المزاح . بل هو جد كله ، فيجب على كل عاقل ، أن يتبع هداه ، وأن يستجيب لأمره ونهيه .

وفى هذه الآيات الكريمة رد بليغ ، على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين وصفوا القرآن ، بأنه نزل على الرسول - ﷺ - ليهزل به ، لأنه يخبرهم بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى ، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع ﴾ مقابلة لطيفة ، حيث وصف - سبحانه - السماء والأرض بما يناسبهما ، وبما يشير إلى أن البعث حق ، لأنه كما ينزل المطر من السماء فيحيى الأرض بعد موتها . كذلك يحيى الله - تعالى - بقدرته الأجساد بعد موتها . وعاد الضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ إلى القرآن - مع أنه لم يسبق له ذكر - لأنه معلوم من المقام .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتسلية الرسول - ﷺ - وبتبشيره بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ﴿ إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ وقوله : ﴿ رويدا ﴾ تصغير «رُودِ » بزنة عود - من قولهم : فلان يمشى على رود ، أى : على مهل ، وأصله من رادت الريح ترود ، إذا تحركت حركة ضعيفة .

والكيد : العمل على إلحاق الضرر بالغير بطريقة خفية ، فهو نوع من المكر .

والمراد به بالنسبة لهؤلاء المشركين : تكذيبهم الرسول - ﷺ - ، ولما جاء به من عند ربه ، فكيدهم مستعمل فى حقيقته .

والمراد به بالنسبة لله - تعالى - : إمهالهم واستدراجهم ، حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فى الوقت الذى يختاره ويشاؤه .

أى : إن هؤلاء المشركين يحيكون المكايد لإبطال أمرك - أيها الرسول الكريم - ، وإنى أقابل كيدهم ومكرهم بما يناسبه من استدراج من حيث لا يعلمون ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فتمهل - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء المشركين . ولا تستعجل عقابهم . وانتظر

تدبيرى فيهم ، وأمهلهم وأنظرهم « رويدا » أى : إمهالا قريبا أو قليلا ، فإن كل آت قريب ، وقد حقق - سبحانه - لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الاحد ١ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ.
٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعلى

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الأعلى » تسمى - أيضا - بسورة : « سبح اسم ربك الأعلى » ، فقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لمعاذ - عندما بلغه أنه يطيل الصلاة وهو يصلى بجماعة : « أفتان أنت يا معاذ ؟ هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى . والشمس وضحاها. والليل إذا يغشى » ..

٢ - وسورة « الأعلى » من السور التى كان النبى - ﷺ - يحب قراءتها ، لاشتمالها على تنزيه الله - تعالى - ، وعلى الكثير من نعمه ومننه ، فقد أخرج الإمام أحمد عن على بن أبى طالب ، قال : كان رسول الله - ﷺ - يحب هذه السورة .

وعن النعمان بن بشير ، أن رسول الله - ﷺ - قرأ فى العيدين : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾، و﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا .

وعن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ فى الوتر : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و﴿ قل هو الله أحد ﴾[1] .

٣ - وعدد آياتها تسع عشرة آيه . وهى من السور المكية الخالصة . قال الآلوسى : والجمهور على أنها مكية ، وعن بعضهم أنها مدنية .

والدليل على كونها مكية ، ما أخرجه البخارى عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى - ﷺ - مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩٩ .

القرآن ، ثم جاء عمار بن ياسر ، وسعد بن أبى وقاص ، وبلال ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، ثم جاء النبى - ﷺ - فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله - ﷺ - قد جاء ، فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فى سور مثلها ..[1] .

ومما يدل - أيضا - على أن هذه السورة مكية ، بل من أوائل السور المكية ، ما ذكره الإمام السيوطى ، من أن هذه السورة كان ترتيبها فى النزول الثامنة من بين السور المكية ، فقد كان نزولها بعد سورة « التكوير » وقبل سورة « الليل » ، بل هناك رواية عن ابن عباس أنها السورة السابعة ، إذ لم يسبقها سوى سورة : العلق ، والمدثر ، والمزمل ، والقلم ، والمسد ، والتكوير ..[2] .

٤ - والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى أنه - تعالى - منزه عن كل نقص ، وإبراز جانب عظيم من نعمه التى لا تحصى ، وامتنانه على نبيه - ﷺ - بالشريعة السمحة ، وبالقرآن الكريم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٠١ .
(٢) راجع الإتقان للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ
(٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ
لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠)
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)
بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ
هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)

افتتحت السورة الكريمة ، بأمر النبى - ﷺ - بالمداومة على تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص ، ويدخل فى هذا الأمر ، كل من يصلح للخطاب . والاسم المراد به الجنس ، فيشمل جميع أسمائه - تعالى - .

أى : نزه - أيها الرسول الكريم - أسماء ربك الأعلى عن كل ما لايليق بها ، فلا تطلقها على غيره - تعالى - إذا كانت خاصة به ، كلفظ الجلالة . وكلفظ الرحمن ، ولا تذكرها فى موضع لا يتناسب مع جلالها وعظمتها ، ولا تحرفها عن المعانى التى وضعت لها كما يفعل الزائغون . فقد قال - تعالى - : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون ﴾ .

ونزه ربك الأعلى ، عن الشريك ، وعن الوالد ، وعن الولد ، وعن الشبيه .. وعن كل ما لايليق به .

قال الجمل : أى : نزه ربك عن كل ما لا يليق به ، فى ذاته ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ، وأحكامه . أما فى ذاته : فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض . وأما فى صفاته : فأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة . وأما فى أفعاله : فأن تعتقد أنه - سبحانه - مطلق لا اعتراض لأحد عليه فى أمر من الأمور . وأما فى أسمائه : فأن لا تذكره - سبحانه - إلا بالأسماء التى لاتوهم نقصا بوجه من الوجوه .. وأما فى أحكامه : فأن تعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود عليه ، بل لمحض المالكية ..[١] .

أخرج الإمام أحمد عن عامر بن عقبة الجهنى قال : لما نزلت : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال لنا رسول الله - ﷺ - : « اجعلوها فى ركوعكم » فلما نزلت : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : « اجعلوها فى سجودكم » .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بعد وصفه بالأعلى بصفات كريمة أخرى فقال : ﴿ الذى خلق فسوى ﴾ . والخلق : هو الإيجاد للشىء على غير مثال سابق ، والتسوية : هى جعل المخلوقات على الحالة والهيئة التى تناسبها ، وتتلاءم مع طبيعتها .

أى : الذى خلق الخلائق كلها ، وجعلها متساوية فى الأحكام والإتقان حسبما اقتضته حكمته . ومنح كل مخلوق ما يناسب طبيعته ووظيفته .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ الذى خلق فسوى ﴾ أى : خلق كل شىء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وأنه صنعة حكيم ..[٢] .

﴿ والذى قدر فهدى ﴾ والتقدير : وضع الأشياء فى مواضعها الصحيحة ، بمقدار معين ، وبكيفية معينة .. تقتضيها الحكمة ، ويقرها العقل السليم .

وقوله : ﴿ فهدى ﴾ من الهداية . بمعنى الإرشاد والدلالة على طريق الخير والبر . أى : وهو - سبحانه - الذى جعل الأشياء على مقادير مخصوصة فى أجناسها ، وفى أنواعها ، وفى أفرادها . وفى صفاتها وأفعالها .. وهدى كل مخلوق إلى ما ينبغى له طبعا واختيارا ، ووجهه إلى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٢٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٣٨ .

الوظيفة التى خلقه من أجلها ، بأن أوجد فيه العقل والميول والإلهامات والغرائز والدوافع التى تعينه على أداء تلك الوظيفة .

وحذف - سبحانه - المفعول فى قوله : ﴿ الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾ للعموم ، لأن هذه الأفعال تشمل جميع مخلوقاته - عز وجل - .

قال الآلوسى : ﴿ والذى قدر ...﴾ أى : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة .. ﴿ فهدى ﴾ أى : فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغى له .. فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات ، لرأيت فى كل منها ما تحار فيه العقول ، وتضيق عنه دفاتر النقول .

وأما فنون هداياته - سبحانه - للإنسان على الخصوص ، ففوق ذلك بمراحل .. وهيهات أن يحيط بها فلك العبارة والتحرير ، ولا يعلمها إلا اللطيف الخبير .

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[1]

وقد فصل بعض العلماء الحديث عن مظاهر تقديره وهدايته - سبحانه - فقال : قوله - تعالى - : ﴿ الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾ أى : الذى خلق كل شىء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه ، والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وطريقته وغايته ، فهداه إلى ماخلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه . وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شىء فى هذا الوجود ، ويشهد بها كل شىء فى رحاب هذا الكون ، من الكبير إلى الصغير ..

فالطيور لها غريزة العودة إلى الموطن .. دون أن تضل عنه مهما بعد . والنحلة تهتدى إلى خليتها ، مهما طمست الريح فى هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يرى ..

وسمك « السلمون » الصغير ، يمضى سنوات فى البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - تعالى - ، التى لا يعجزها شىء .

والمرعى : النبات الذى ترعاه الحيوانات ، وهو اسم مكان للأرض الذى يوجد فيها النبات .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٠٤ .

(٢) راجع فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٥٤٢ .

والغثاء : هو اليابس الجاف من النبات الذى ترعاه المواشى .

والأحوى : أى : المائل إلى السواد ، مأخوذ من الحُوَّة - بضم الحاء مع تشديد الواو المفتوحة - وهى لون يكون بين السواد والخضرة أو الحمرة . ووصف الغثاء بأنه أحوى ، لأنه إذا طال عليه الزمن ، وأصابته المياه ، اسود وتعفن فصار أحوى .

أى : وهو - سبحانه - وحده ، الذى أنبت النبات الذى ترعاه الدواب ، حالة كون هذا النبات أخضر رطبا . ثم يحوله بقدرته - تعالى - بعد حين إلى نبات يابس جاف .

وهذا من أكبر الأدلة المشاهدة ، على أنه - تعالى - يتصرف فى خلقه كما يشاء ، فهو القادر على تحويل الزرع الأخضر إلى زرع يابس جاف ، كما أنه قادر على إحياء الإنسان بعد موته .

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة ، الإرشاد إلى كمال قدرته ، وتنوع نعمه - سبحانه - ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الواضح الحكيم .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله . إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ .

والنسيان : زوال ما كان موجودا فى حافظة الإنسان . والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل . ومفعول المشيئة محذوف . جريا على غالب استعماله فى كلام العرب ..

أى : سنقرئك - أيها الرسول الكريم - القرآن على لسان أمين وحينا جبريل - عليه السلام - . وسنجعلك حافظا وواعيا لما سيقرؤه جبريل عليك ، بحيث لا تنساه فى وقت من الأوقات ، أو فى حال من الأحوال ، إلا فى الوقت أو فى الحال الذى يشاء الله - تعالى - أن ينسيك شيئا من ذلك . فإنك ستنساه بأمره - تعالى - لأنه وحده - عز وجل - هو العليم بما كان ظاهرا من الأشياء ، وبما كان خافيا منها .

فالمقصود من هاتين الآيتين : وعد الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ببيان أنه - سبحانه - ، كما أنه قادر على أن يقرىء الرسول - ﷺ - قراءة لا ينساها ، فهو أيضا قادر على أن يزيل من صدره ما يشاء إزالته ، عن طريق النسيان لما حفظه .

فالمراد بهذا الاستثناء : بيان أنه - تعالى - لو أراد أن يصير الرسول - ﷺ - ناسيا للقرآن لقدر على ذلك ، كما قال - سبحانه - ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك .. ﴾

إذ هو - تعالى - على كل شيء قدير ، ولكنه لم يشأ ذلك فضلا منه وكرما .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ أى : سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة . فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته - ﷺ - الخاصة ، بعد بيان الهداية العامة ، وهى هدايته - ﷺ - لحفظ القرآن .

وقوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أى : لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، وهو لم يشأ - سبحانه - أن ينسى النبى - ﷺ - شيئا كقوله - تعالى - ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ . وقيل : « لا » فى قوله ﴿ فلا تنسى ﴾ للنهى ، والألف مزيدة لرعاية الفاصلة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿فأضلونا السبيلا ﴾ ، يعنى : فلا تغفل عن قراءته [1] .

وقال الإمام الرازى : وهاتان الآيتان تدلان على المعجزة من وجهين :

أحدهما : أن الرسول - ﷺ - كان أميا ، فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ، ولا تكرار ، ولا كتبة ، خارق للعادة فيكون معجزا . وثانيهما : أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة . فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة . سيقع فى المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخبارا عن الغيب ، فيكون معجزا ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ونيسرك لليسرى ﴾ معطوف على قوله ﴿ سنقرئك ﴾ وجملة : ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ معترضة .

والتيسير بمعنى التسهيل والتخفيف ، وهو جعل العمل يسيرا على عامله بأن يهيىء الله - تعالى - للعامل الأسباب التى تهون له العسير ، وتقرب له البعيد .

واليسرى : مؤنث الأيسر ، بمعنى الأسهل ، والموصوف محذوف .

والمعنى : سنجعلك - أيها الرسول الكريم - صاحب ذاكرة قوية تحفظ القرآن ولا تنساه . وسنوفقك توفيقا دائما للطريقة اليسرى فى كل باب من أبواب الدين : علما وعملا ، واهتداء وهداية - وسنرزقك الأمور الحسنة التى تجعلك تعيش سعيدا فى دنياك ، وظافرا برضواننا فى أخراك .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٢٤ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٨١ .

ولقد أنجز الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - وعده ، حيث أعطاه شريعة سمحة ، ومنحه أخلاقا كريمة ، من مظاهرها أنه - ﷺ - ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ودعا أتباعه إلى الأخذ بمبدأ التيسير ، فقال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ..» .

فهاتان بشارتان عظيمتان للرسول - ﷺ - . أولاهما : تتمثل فى إلهامه الذاكرة الواعية الحافظة لما يوحى اليه . وثانيتهما : توفيقه - ﷺ - إلى الشريعة اليسرى ، وإلى الأخلاق الكريمة وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر فى كل أحواله .

ثم أمره - تعالى - بدوام التذكير بدعوة الحق بدون إبطاء أو يأس فقال : ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فذكر ﴾ للتفريع على ما تقدم ، والأمر مستعمل هنا فى طلب المداومة على التذكير بدعوة الحق التى أرسله - سبحانه - بها ، والذكرى : بمعنى التذكير .

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فداوم على تذكير الناس بالهدى ودين الحق ، واتبع فى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، واهتم فى تذكيرك بمن تتوقع منهم قبول دعوتك ، وأعرض عن الجاحدين والمعاندين والجاهلين .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كان الرسول - ﷺ - مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع .. فما معنى اشتراط النفع ؟ ..

قلت : هو على وجهين : أحدهما . أن رسول الله - ﷺ - قد استفرغ مجهوده فى تذكيرهم ، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغيانا ، وكان النبى - ﷺ - يتلظى حسرة وتلهفا ، ويزداد جدا فى تذكيرهم ، وحرصا عليه ، فقيل له : ﴿ وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير .

والثانى : أن يكون ظاهره شرطا ، ومعناه ذمًّا للمذكَّرين - بتشديد الكاف المفتوحة - وإخبارا عن حالهم ، واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم ، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم ، كما تقول للواعظ : عظ المكاسين إن سمعوا منك ، قاصدا بهذا الشرط ، استبعاد ذلك ، وأنه لن يكون ..[1] .

وقال الإمام الرازى ما ملخصه: جاء التعليق بالشرط فى قوله - تعالى - : ﴿ فذكر إن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٣٨ .

نفعت الذكرى ﴾ مع أنه - ﷺ - مطلوب منه أن يذكر الناس جميعا ، نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم - للتنبيه على أشرف الحالين ، وهو وجود النفع الذى من أجله شرعت الذكرى ، كقوله - تعالى - : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ . وللإشعار بأن المراد من الشرط : البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول الإنسان لغيره بعد أن بين له الحق ، قد أوضحت لك الأمر إن كنت تعقل ، فيكون مراده الحض على القبول ..[1] .

ويبدو لنا أن المقصود بالآية الكريمة ، تحريض النبى - ﷺ - على المداومة على دعوة الناس إلى قبول الحق الذى جاء به ، فإن هذا التذكير إن لم ينفع الناس جميعا ، فسينفع بعضهم ، فقد اقتضت سنة الله - تعالى - أن لا تخلو الأرض ممن يستمع إلى الحق ، ويستجيب له .

ويدل على هذا المعنى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أى : سينتفع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - من يخشى الله - تعالى - ويخاف عذابه ، ويرجو ثوابه .

﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ أى : ويتجنب الذكرى ، ويبتعد عن الموعظة ، ويتجافى عن النصيحة ، الإنسان الشديد الشقاوة والتعاسة ، الذى أبى إلا الإصرار على كفره وعناده ، وخلا من خشية الله - تعالى - . والمراد بالأشقى : الجنس ، أى : يبتعد عن الانتفاع بالتذكير جميع الأشقياء وهم الكافرون .

وقيل : المراد به الكافر المتوغل فى كفره كأبى جهل والوليد بن المغيرة وأشباههما .

وقوله : ﴿ الذى يصلى النار الكبرى ﴾ صفة للأشقى . أى : سيبتعد عن الانتفاع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - الكافر المصر على كفره ، الذى من صفاته أنه سيصلى وسيلقى فى أشد طبقات النار سعيرا وحريقا ، وهى الطبقة السفلى منها .

فوصف النار بالكبرى ، من قبيل التهويل والإنذار للمصرين على كفرهم ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أى : ثم إن هذا الشقى بعد أن يلقى به فى النار الكبرى ، ﴿ لا يموت فيها ﴾ فيستريح من العذاب ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة طيبة فيها شىء من الراحة ، بل يبقى هكذا ﴿ يأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ﴾ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور ﴾[2] .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٨٢ .

(٢) سورة فاطر الآية ٣٦ .

وبعد هذا البيان الذى يهز القلوب .. عن سوء عاقبة الأشقياء ، ساق - سبحانه - ما يدخل البهجة والسرور على النفوس ، عن طريق بيان حسن عاقبة السعداء ، فقال : ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

أى : قد أفلح وفاز وانتفع بالتذكير ، من حاول تزكية نفسه وتطهيرها من كل سوء .

ومن ذكر اسم ربه بقلبه ولسانه ، فصلى الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليه . وأضاف إليها ما استطاع من نوافل وسنن .

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ قد أفلح ﴾ ليجمع فى هذا التعبير البليغ ، كل معانى الخير والنفع ، لأن الفلاح معناه : وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع . وجاء التعبير بالماضى المسبوق بقد ، للدلالة على تحقيق هذا الفلاح بفضل الله - تعالى - ورحمته .

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة ﴿ تزكى ﴾ وعلى استحضار معرفة الله - تعالى - ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ وعلى أداء التكاليف الشرعية التى على رأسها الصلاة ﴿ فصلى ﴾ .

وهذه المعانى هى التى وصلت صاحبها إلى الفلاح الذى ليس بعده فلاح .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ﴾ الإضراب فيه عن كلام مقدر يفهم من السياق .

والمعنى : لقد بينت لكم ما يؤدى إلى فلاحكم وفوزكم .. ولكنكم - يابنى آدم - كثير منكم لم يستجب لما بينته له ، بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا ، بأن تقدموا زينتها وشهواتها ومتعها .. على ما ينفعكم فى آخرتكم،والحال أن ما فى الدار الآخرة من نعيم ، خير وأبقى من حطام الدنيا ، لأن الدنيا ومتعها زائلة ، أما الآخرة فخيرها باق لايزول .

والخطاب لجميع الناس ، ويدخل فيه الكافرون دخولا أوليا ، وعليه يكون المراد بإيثار الحياة الدنيا بالنسبة للمؤمنين ، مالا يخلو منه غالب الناس ، من اشتغالهم فى كثير من الأحيان بمنافع الدنيا ، وتقصيرهم فيما يتعلق بآخرتهم .

ويرى كثير من العلماء : أن الخطاب للكافرين على سبيل الالتفات ، ويؤيد أن الخطاب للكافرين قراءة أبى عمرو بالياء على طريقة الغيبة .

أى : بل إن الكافرين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، مع أن الآخرة خير وأبقى .

ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ أى : إن هذا الذى ذكرناه من فلاح من تزكى ، ومن إيثاركم الحياة الدنيا على

الآخرة ، لكائن وثابت ومذكور فى الصحف الأولى ، التى هى صحف إبراهيم وموسى ، التى أنزلها - سبحانه - على هذين النبيين الكريمين ، ليعلما الناس ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ومواعظ . وفى إبهام هذه الصحف ، ووصفها بالقدم ، ثم بيان أنها لنبيين كريمين من أولى العزم من الرسل ، تنويه بشأنها ، وإعلاء من قدرها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الاثنين ٢ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
- ٦ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة الغاشية

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الغاشية » ، وتسمى سورة « هل أتاك حديث الغاشية » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ست وعشرون آية ، وهى السورة الثامنة والثمانون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فهى السورة السابعة والستون من بين السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الذاريات » وقبل سورة « الكهف » .

٢ - وهى من السور التى كان النبى - ﷺ - يقرؤها كثيرا ، فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه ، عن النعمان بن بشير ، أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ « سبح اسم ربك الأعلى » « والغاشية » فى صلاة الجمعة والعيدين .

وفى رواية - أيضا - عن النعمان بن بشير أن الرسول - ﷺ - كان يقرأ هذه السورة مع سورة الجمعة ، فى صلاة الجمعة .

٣ - وقد اشتملت السورة الكريمة على بيان أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، كما لفتت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله فى خلقه ، لكى يتفكروا ويتدبروا أن الخالق لهذه الأشياء بتلك الصورة البديعة ، هو المستحق للعبادة والطاعة ، وأنهم سيعودون إليه للحساب والجزاء ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾
لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ للتحقيق والتقرير ، أو المقصود به التعجيب من حديث القيامة ، والتشويق إلى الاستماع إليه .

والغاشية : لفظ مشتق من الغشيان ، وهو تغطية الشىء لغيره ، يقال : غشيه الأمر ، إذا

غطاه ، والمقصود بالغاشية يوم القيامة ، ووصف يوم القيامة بذلك ، لأنه يغشى الناس بأهواله وشدائده ، ويغطى عقولهم عن التفكير فى أى شىء سواه .

والمعنى : هل بلغك - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - حديث يوم القيامة ، الذى يغشى الناس بأحواله المفزعة ، ويعمهم بشدائده .. إن كان لم يأتك فهذا خبره ، وتلك هى أقسام الناس فيه .

وافتتاح السورة بهذا الافتتاح - بجانب ما فيه من تشويق - يدل على أهمية هذا الخبر ، وأنه من الأخبار التى ينبغى الاستعداد لما اشتملت عليه من معانى لا يصح التغافل عنها .

ثم فصل - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ .

قال الشوكانى : الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما هو ؟ أو مستأنفة استئنافًا نحويا ، لبيان ما تضمنته من كون ثَمَّ وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة ، و « وجوه » مرتفع على الابتداء - وإن كانت نكرة - لوقوعه فى مقام التفصيل .. والتنوين فى « يومئذ » عوض عن المضاف إليه . أى : يوم غشيان الغاشية .

والخاشعة : الذليلة الخاضعة ، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع ..[1] .

والمراد بالوجوه : أصحابها ، من باب التعبير عن الكل بالبعض ، وخصت الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، ولأنها هى التى تظهر عليها الآثار المختلفة من حزن أو فرح . أى : وجوه فى يوم قيام الساعة ، تكون خاشعة ذليلة ، تبدو عليها آثار الهوان والانتكاس والخزى ، كما قال - تعالى - : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل .. ﴾ .

وهذه الوجوه - أيضا - من صفاتها أنها ﴿ عاملة ناصبة ﴾ أى : مكلفة بالعمل الشاق المرهق الذى تَنْصَبُ له الوجوه فى هذا اليوم ، وتتعب تعبا ما عليه من مزيد ، كجر السلاسل ، وحمل الأغلال ، والخوض فى النار .

فقوله : ﴿ عاملة ﴾ اسم فاعل من العمل ، والمراد به هنا : العمل الشاق المهين .

وقوله : ﴿ ناصبة ﴾ من النَّصَب ، بمعنى : التعب والإعياء يقال : نَصِب فلان بكسر الصاد - كفرح - ينصب نصبا ، إذا تعب فى عمله تعبا شديدا .

وفى هذه الصفات زيادة توبيخ لأهل النار ، لأنهم لما تركوا فى الدنيا الخشوع لله - تعالى -

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٢٨ للشوكانى .

والعمل لصالح ، وآثروا متع الدنيا على ثواب الآخرة .. كان جزاؤهم يوم القيامة ، الإذلال ، والعمل الشاق المهين الذى لا تعقبه راحة .

ثم أخبر - سبحانه - عن هذه الوجوه الشقية بأخبار أخرى فقال : ﴿ تصلى نارا حامية ﴾ أى : أن هذه الوجوه تشوى بالنار الحامية يوم القيامة . يقال : صَلِىَ فلان النار فهو يصلاها ، إذا لفحته بحرها لفحا شديدا .

﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى : هذه الوجوه يسقى أصحابها من عين قد بلغت النهاية فى الحرارة والغليان ، إذ الشىء الآنى ، هو الذى بلغ النهاية فى الحرارة ، يقال : أَنَى الماء يَأْنِى - كرمى يرمى - ، إذا بلغ الغاية فى الغليان ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ .

قال الإمام ابن جرير : قوله : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى : تسقى أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أَنَى حرها ، فبلغ غايته فى شدة الحر ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .. فعن ابن عباس : هى التى قد طال أنيُها - أى : حرها - .

وقال بعضهم : عنى بقوله : ﴿ من عين آنية ﴾ أى : من عين حاضرة - أى : حاضرة لعذابهم ...[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ .

والضريع : هو شجر فى النار يشبه الشوك ، فيه ما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة .

وقوله : ﴿ يسمن ﴾ من السِّمَن - بكسر السين وفتح الميم - وهو وفرة اللحم والشحم فى الحيوان وغيره . يقال : فلان أسمنه الطعام ، إذا عاد عليه بالسمن .

وقوله ﴿ يغنى ﴾ من الإغناء ودفع الحاجة . يقال : أغنانى هذا الشىء عن غيره ، إذا كفاه واستغنى به عن سواه . أى : أن أصحاب هذه الوجوه التعيسة بجانب شرابهم من الماء البالغ النهاية فى الحرارة ، لهم -أيضا - طعام من أقبح الطعام وأردئه وأشنعه وأشده مرارة .. هذا الطعام لا يأتى بسمن ، ولا يغنى من جوع ، بل إن آكله ليزدرده رغما عنه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن أصحاب هذه الوجوه الشقية بجملة من الأخبار المحزنة المؤلمة ، التى منها ما يتعلق بهيئاتهم ، ومنها ما يتعلق بأحوالهم ، ومنها ما يتعلق بشرابهم ، ومنها ما يتعلق بطعامهم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٠٢ .

ووصف - سبحانه - طعامهم بأنه لا يسمن ولا يغنى من جوع ، لزيادة تقبيح هذا الطعام ، وأنه شر محض ، لا مكان لأية فائدة معه .

قال صاحب الكشاف : الضريع : اليابس من نبات الشبرق ، وهو جنس من الشوك ، ترعاه الإبل مادام رطبا . فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل ..

فإن قلت : كيف قيل : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ وفى الحاقة ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ؟ ﴾ . قلت : العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم : أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع .

والضريع : منفعتا الغذاء منفيتان عنه : وهما إماطة الجوع ، وإفادة القوة والسمن فى البدن . أو أريد : أن لا طعام لهم أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم ، فضلا عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبع أو أسمن ، وهما منه بمعزل ، كما تقول : ليس لفلان ظل إلا الشمس . تريد : نفى الظل على التوكيد ..[1] .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الكافرين وسوء عاقبتهم .. جاء الحديث عن المؤمنين ونعيمهم ، فقال - تعالى - : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية ﴾ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ شروع فى رواية حديث أهل الجنة ، وتقديم حكاية أهل النار ، لأنه أدخل فى تهويل الغاشية ، وتفخيم حديثها ، ولأن حكاية حُسْنِ حال أهل الجنة ، بعد حكاية سوء أهل النار ، مما يزيد المحكى حسنا وبهجة .. وإنما لم تعطف هذه الجملة على تلك الجملة ، إيذانا بكمال التباين بين مضمونهما ..[2] .

أى : وجوه كثيرة تكون يوم القيامة ، ذات بهجة وحسن ، وتكون متنعمة فى الجنة بما أعطاها - سبحانه - من خير عميم ، جزاء عملها الصالح فى الدنيا .

﴿ لسعيها راضية ﴾ أى : لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ، لأنها قد وجدت من الثواب عليه فى الآخرة ، أكثر مما كانت تتوقع وترجو .

فالمراد بالسعى : العمل الذى كان يعمله الإنسان فى الدنيا ، ويسعى به من أجل الحصول على رضا خالقه ، وهو متعلق بقوله ﴿ راضية ﴾ . وقدم عليه للاعتناء بشأن هذا السعى .

وقوله - تعالى - : ﴿ فى جنة عالية ﴾ بيان لسمو مكانتهم . أى : هم كائنون فى جنة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٤٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١١٤ .

عالية ، مرتفعة المكان والمكانة . فقد وصفت الجنة بالعلو ، للمبالغة فى حسنها وفى علو منزلتها ، فقد جرت العادة أن تكون أحسن الجنات ، ما كانت مرتفعة على غيرها .

ثم وصف - سبحانه - هذه الجنة بجملة من الصفات الكريمة فقال : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ . أى : لا تسمع فى هذه الجنة كلمة ذات لغو . واللغو : هو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه . أى : أنك - أيها المخاطب - لا تسمع فى الجنة إلا الكلام الذى تسر له نفسك ، وتقرُّ به عينك ، فلفظ اللاغية هنا : مصدر بمعنى اللغو ، مثل الكاذبة للكذب ، وهو صفة لموصوف محذوف .

﴿ فيها عين جارية ﴾ أى : فى هذه الجنة عيون تجرى بالماء العذب الزلال المتدفق .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فيها عين جارية ﴾ يريد عيونا فى غاية الكثرة ، كقوله : ﴿ علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾ .

فالمراد بالعين هنا : جنس العيون ، وبالجارية : التى لا ينقطع ماؤها .. ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أى : فى الجنة أماكن يجلس عليها أهلها جلوسا مرتفعا عن الأرض .

وينامون فوقها نوما هادئا لذيذا .. والسرر : جمع سرير ، وهو الشىء ذو القوائم المرتفعة الذى يتخذ للجلوس والاضطجاع .

ووصف - سبحانه - هذه السرر بالارتفاع ، لزيادة تصوير حسنها .

﴿ وأكواب موضوعة ﴾ والأكواب جمع كوب . وهو عبارة عن الإناء الذى تشرب فيه الخمر . أى : وفى الجنة أكواب كثيرة قد وضعت بين أيدى أهلها ، بحيث يشربون من الخمر التى وضعت فيها ، دون أن يجدوا أى عناء فى الحصول عليها .

﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ والنمارق : جمع نمرقة - بضم النون وسكون الميم وضم الراء - ، وهى الوسادة الصغيرة التى يتكىء عليها الجالس والمضجع . أى : وفى الجنة وسائد كثيرة ، قد صف بعضها إلى جانب بعض صفا جميلا ، بحيث يجدها الجالس قريبة منه فى كل وقت .

﴿ وزرابى مبثوثة ﴾ والزرابى جمع زربية - بتثليث الزاى - وهى البساط الواسع الفاخر ، أو ما يشبهه من الأشياء الثمينة التى تتخذ للجلوس عليها . والمبثوثة : أى : المنتشرة على الأرض ، من البث بمعنى النشر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ .

أى : وفيها بسط فاخرة جميلة .. مبسوطة فى كل مكان ، ومتفرقة فى كل مجلس .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الجنة التى أعدها - سبحانه - لعباده المتقين ، بعدد من الصفات الكريمة المتنوعة .

وصفها بأنها عالية فى ذاتها ، وبأنها خالية من الكلام الساقط ، وبأن مياهها لا تنقطع ، وبأن أثاثها فى غاية الفخامة ، حيث اجتمع فيها كل ما هو مريح ولذيذ .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أهلها .

ثم ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة المشاهدة ، التى لا يستطيع أحد إنكارها ، ليلفت أنظار الناس إلى مظاهر قدرته ووحدانيته . فقال - تعالى - : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والتحريض على التأمل والتفكر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والمراد بالنظر : التدبر فى تلك المخلوقات ، فإن من شأن هذا التدبر ، أنه يؤدى إلى الاعتبار والانتفاع .. والخطاب لأولئك الكافرين الجاهلين ، الذين أمامهم الشواهد الواضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومع ذلك لم ينتبهوا لها .

والمعنى : أيستمر هؤلاء الكافرون فى جهلهم وضلالهم ، وفى إنكارهم لأمر البعث والحساب والجزاء .. فلا ينظرون نظر اعتبار وتأمل ، إلى الإبل - وهى أمام أعينهم - كيف خلقها الله - تعالى - بهذه الصورة العجيبة ، وأوجد فيها من الأعضاء المتناسقة ، ومن التكوين الخِلْقِى ، ما يجعلها تؤدى وظيفتها النافعة لبنى آدم ، على أكمل وجه ، فمن لبنها يشربون ، ومن لحمها يأكلون ، وعلى ظهرها يسافرون ، وأثقالهم عليها يحملون .

وخص - سبحانه - الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات ، لأنها أعز الأموال عند العرب ، وأقربها إلى مألوفهم وحاجتهم ، وأبدعها خلقا وهيئة وتكوينا .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل ﴾ نظر اعتبار ﴿ كيف خلقت ﴾ خلقا عجيبا ، دالا على تقدير مقدر ، شاهدا بتدبير مدبر ، حيث خلقها للنهوض بالأثقال ، وجرها إلى البلاد الشاحطة . أى البعيدة ، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها ، لا تعارض ضعيفا ، ولا تمانع صغيرا .

فإن قلت : كيف حسن ذكر الإبل ، مع السماء والجبال والأرض ، ولا مناسبة ؟ ..

قلت : قد انتظم هذه الأشياء ، نظر العرب فى أوديتهم وبواديهم ، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم ..[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٤٥ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ أى : وهلا نظروا إلى السماء نظر اعتبار واتعاظ ، فعرفوا أن الذى خلقها هذا الخلق البديع ، بأن رفعها بدون أعمدة .. هو الله - عز وجل - .

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أى : كيف وجدت بهذا الوضع الباهر بأن نصبت على وجه الأرض نصبا ثابتا راسخا . يحمى الأرض من الاضطراب والتزلزل .

﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أى : كيف سويت وفرشت وبسطت بطريقة تجعل الناس يتمكنون من الانتفاع بخيرها ، ومن الاستقرار عليها ، وهذا لا ينافى كونها كروية ، لأن الكرة إذا اشتد عظمها .. كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الانتفاع بها .

وبعد هذا التوبيخ لأولئك المشركين الذين عموا وصموا عن الحق ، ولم ينتبهوا لآيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ووحدانيته .. أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - ، أن يداوم على التذكير بدعوة الحق ، فقال : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فذكر ﴾ للتفريع ، وترتيب ما بعدها على ما قبلها . والأمر مستعمل فى طلب الاستمرار والدوام فى دعوته الناس إلى الحق ، ومفعول : « فذكر » محذوف للعلم به .

وجملة « إنما أنت مذكر » تعليل للأمر بالمواظبة على تبليغ الناس ما أمره بتبليغه .

والمصيطر : هو المتسلط ، المتجبر ، الذى يجبر الناس على الانقياد لما يأمرهم به .

وقد قرأ الجمهور هذا اللفظ بالصاد ، وقرأ ابن عامر بالسين .

أى : إذا كان الأمر كما بينا لك - أيها الرسول الكريم - من أحوال الناس يوم الغاشية ، ومن أننا نحن الذين أوجدنا هذا الكون بقدرتنا .. فداوم - أيها الرسول الكريم - على دعوة الناس إلى الدين الحق ، فهذه وظيفتك التى لا وظيفة لك سواها ، وكِلْ أمرهم بعد ذلك إلينا ، فأنت لست بمجبر لهم أو مكره إياهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ كلام معترض بين قوله : ﴿ فذكر ...﴾ وبين قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ والاستثناء فيه استثناء منقطع ، و « إلا » بمعنى لكن ، و « مَنْ » موصولة مبتدأ .. والخبر . « فيعذبه الله العذاب الأكبر »..

أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على التذكير .. لكن من تولى وأعرض عن تذكيرك وإرشادك ، وأصر على كفره ، فنحن الذين سنتولى تعذيبهم تعذيبا شديدا .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾ .

وهاتان الآيتان تعليل لقوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ .

والإياب مأخوذ من الأوب بمعنى الرجوع إلى المكان الذى كان فيه قبل ذلك . والمراد به هنا : الرجوع إلى الله - تعالى - يوم القيامة للحساب والجزاء .

أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على تذكير الناس بدعوة الحق ، بدون إجبار لهم ، أو تسلط عليهم ، واتركهم بعد ذلك وشأنهم .. فإن إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا ، ثم إن علينا وحدنا - أيضا - حسابهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها بالجزاء الذى نراه مناسبا لهم .

وصدر - سبحانه - الآيتين بحرف التأكيد « إن » وعطف الثانية على الأولى بحرف « ثم » المفيد للتراخى فى الرتبة ، وقدم خبر « إن » فى الجملتين على اسمها .. لإفادة التهديد والوعيد ، وتأكيد أن رجوعهم إليه - تعالى - أمر لاشك فيه . وأن حسابهم يوم القيامة سيكون حسابا عسيرا ، لأنه صادر عمن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الصالحين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر
مساء الجمعة ٥ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
١٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير
سورة الفجر

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الفجر » من السور المكية الخالصة ، بل هى من أوائل ما نزل على النبى - ﷺ - من سور قرآنية ، فهى السورة العاشرة فى ترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة « والليل إذا يغشى » ، وقبل سورة « الضحى » ، أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة التاسعة والثمانون .

وعدد آياتها : ثلاثون آية فى المصحف الكوفى ، واثنتان وثلاثون فى الحجازى ، وتسع وعشرون فى البصرى .

٢ - ومن أهم مقاصد هذه السورة الكريمة : تذكير المشركين بما حل بالمكذبين من قبلهم ، كقوم عاد وثمود وفرعون ، وبيان أحوال الإنسان فى حال غناه وفى حال فقره ، وردعه عن الانقياد لهوى نفسه ، ولفت نظره إلى أهوال يوم القيامة ، وأنه فى هذا اليوم لن ينفعه ندمه أو تحسره على ما فات ، وتبشير أصحاب النفوس المؤمنة المطمئنة ، برضا ربها عنها ، وبظفرها بجنة عرضها السموات والأرض .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم
وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
(٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
(٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالقسم بخمسة أشياء لها شرفها وعظمها ، ولها فوائدها الدينية والدنيوية .. ولها دلالتها الواضحة على كمال قدرته - تعالى - .

أقسم أولا - بالفجر ، وهو وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، ووقت بزوغ الضياء وانتشاره على الكون بعد ليل بهيم .

فالمراد بالفجر : الوقت الذى يبدأ فيه النهار فى الظهور ، بعد ظلام الليل ، والتعريف فيه للجنس ، لأن المقصود هذا الوقت من كل يوم .

وقيل المراد بالفجر هنا : صلاة الفجر ، لأنها صلاة مشهودة ، أى : تشهدها الملائكة ، كما أن التعريف فيه للعهد ، فقيل : فجر يوم النحر ، وقيل : فجر يوم الجمعة ..

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وليال عشر ﴾ يرجح أن المراد به وقت معين . هذا الوقت يوجد مع كل يوم جديد .

وأقسم - سبحانه - ثانيا بقوله : ﴿ وليال عشر ﴾ والمراد بها : الليالى العشر الأُوَل من

شهر ذى الحجة ، لأنها وقت مناسك الحج ، ففيها الإحرام ، والطواف ، والوقوف بعرفة ..

وقيل المراد بها : الليالى العشر الأواخر من رمضان وقيل : الليالى العشر الأُوَل من شهر المحرم ..

قال الإمام ابن كثير : والليالى العشر : المراد بها : عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا : « ما من أيام العمل الصالح ، أحب إلى الله - تعالى - فيهن ، من هذه الأيام » - يعنى : عشر ذى الحجة - قالوا : « ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » ..

وقيل : المراد بذلك : العشر الأُوَل من المحرم . وقيل : العشر الأُوَل من رمضان . والصحيح القول الأول ..[1] .

وأقسم - سبحانه - ثالثا ورابعا بقوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ والشفع : ما يكون ثانيا لغيره ، والوتر : هو الشىء المنفرد .

وقد ذكر المفسرون فى المراد بهذين اللفظين أقوالا متعددة ، فمنهم من يرى أنهما يعمان كل الأشياء شفعها ووترها ، ومنهم من يرى أن المراد بالشفع : يوم النحر ، لكونه اليوم العاشر من ذى الحجة ، وأن المراد بالوتر : يوم عرفة ، لأنه اليوم التاسع من شهر ذى الحجة . ومنهم من يرى أن المراد بهما : الصلاة المكتوبة ، ما كان منها شفعا ، كصلاة الظهر والعصر والعشاء والصبح ، وما كان منها وترا كالمغرب .

ومنهم من يرى أن المراد بالشفع : جميع المخلوقات ، وبالوتر : الله - تعالى - الواحد الصمد .

وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال ما ملخصه : والواقع أن أقرب الأقوال عندى - والله أعلم - . أن المراد بالوتر ، هو الله - تعالى - ، للحديث : « إن الله وتر يحب الوتر » ، وما سواه شفع .. لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط ، حتى الحصاة الصغيرة ، فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات ، والذرة لها نواة ومحيط .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤١٢ .

ولهذا كان القول بأن الوتر هو الله ، وبأن الشفع : جميع المخلوقات .. هو الراجح ، وهو الأعم فى المعنى ..[١] .

وأقسم - سبحانه - خامسا - بقوله : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ أى : وحق الليل عندما يسرى ويمضى ، تاركا من خلفه ظلامه ، ليحل محله النهار بضيائه .

أو المعنى : وحق الليل وقت أن يَسْرِى فيه السارون ، بعد أن أخذوا حظهم من النوم ، فإسناد السُّرَى إلى الليل على سبيل المجاز ، كما فى قولهم : ليل نائم ، أى : ينام فيه الناس ، وقرأ الجمهور ﴿ يسر ﴾ بحذف الياء وصلا ووقفا ، اكتفاء عنها بالكسرة تخفيفا .

وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء عند الوصل ، وبحذفها عند الوقف .

والمراد بالليل هنا : عمومه ، وقيل : المراد به هنا : ليلة القدر ، أو ليلة المزدلفة .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ للتقرير والتعظيم لما أقسم به - سبحانه - من مخلوقات . واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى تلك الأشياء التى أقسم الله - تعالى - بها .

والمراد بالحِجْر العقل ، وسمى بذلك لأنه يَحْجُر صاحبه ويمنعه عن ارتكاب مالا ينبغى ، كما سمى عقلا ، لأنه يَعْقِل صاحبه عن ارتكاب السيئات ، كما يعقِل العقالُ البعيرَ عن الضلال .

والمعنى : هل فى ذلك الذى أقسمنا به من الفجر ، والليالى العشر ، والشفع والوتر .. قسم ، أى : مقسم به ، حقيق أن تؤكد به الأخبار عند كل ذى عقل سليم ؟ .

مما لاشك فيه أن كل ذى عقل سليم ، يعلم تمام العلم ، أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق أن يقسم به ، لكونها - أى : هذه الأشياء - أمورا جليلة ، خليقة بالإقسام بها لفخامة شأنها ، كما أن كل ذى عقل سليم يعلم - أيضا - أن المقسم بهذا القسم ، وهو الله - عز وجل - صادق فيما أقسم عليه .

فالمقصود من وراء القسم بهذه الأشياء ، تحقيق المقسم عليه . بأسلوب فيه ما فيه من التأكيد والتشويق وتحقيق المقسم عليه .

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ . إلى قوله : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ .

---

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطى جـ ٨ ص ٢١٠ .

والتقدير : وحق هذه المخلوقات لتعذبن - أيها الكافرون - كما عذب الذين من قبلكم ، مثل عاد وثمود وفرعون .

قال الجمل : فإن قلت : ما فائدة قوله - تعالى - : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ . بعد أن أقسم - سبحانه - بالأشياء المذكورة ؟ قلنا : هو لزيادة التأكيد والتحقيق للمقسم عليه ، كمن ذكر حجة باهرة ، ثم قال : أفيما ذكرته حجة ؟ .

وجواب القسم محذوف ، أى : لتعذبن ياكفار مكة ، وقيل هو مذكور وهو قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ ، وقيل محذوف لدلالة المعنى عليه ، أى لنجازين كل أحد بعمله ..[1] .

ثم ذكر - سبحانه - على سبيل الاستشهاد ، ما أنزله من عذاب مهين ، بالأقوام المكذبين . فقال - تعالى - : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ ألم تر .. ﴾ للتقرير ، والرؤية : علمية ، تشبيها للعلم اليقينى بالرؤية فى الوضوح والانكشاف ، لأن أخبار هذه الأمم كانت معلومة للمخاطبين .

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية ، لكل من شاهد آثار هؤلاء الأقوام البائدين ..

والمراد بعاد : تلك القبيلة المشهورة بهذا الاسم ، والتى كانت تسكن الأحقاف ، وهو مكان فى جنوب الجزيرة العربية ، معروف للعرب ، قال - تعالى - : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ .

سموا بذلك نسبة إلى أبيهم عاد بن عُوص ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح - عليه السلام - فقوله - تعالى - : ﴿ إرم ﴾ عطف بيان لعاد ، لأنه جده الأدنى .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذات العماد ﴾ صفة لعاد ، و« ذات » وصف مؤنث لأن المراد بعاد القبيلة ، سمى أولاده باسمه ، كما سمى بنو هاشم هاشما .

والمقصود بهذه القبيلة عاد الأولى ، التى أرسل الله - تعالى - إليهم هودا - عليه السلام - . وكانوا معروفين بقوتهم وضخامة أجسامهم .. وقد جاء الحديث عنهم كثيرا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ...﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ صفة أخرى لقبيلة عاد .

والمعنى : لقد وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - بصورة يقينية ، خبر قبيلة عاد ، التى جدها الأدنى « إرم بن سام بن نوح « والتى كانت تسكن بيوتا ذات أعمدة ، ترفع عليها

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٣٠ .

خيامهم ومبانيهم الفارهة .. والتى لم يخلق مثلها - أى : مثل هذه القبيلة - أحد فى ضخامة أجسام أفرادها ، وفى قوة أبدانها ، وفيما أعطاها الله - تعالى - من غنى وقوة .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ هؤلاء كانوا متمردين عتاة .. فذكر - سبحانه - كيف أهلكهم .

وهؤلاء هم عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيه هودا - عليه السلام - فكذبوه فأهلكهم الله - تعالى - .

فقوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان ، زيادة تعريف بهم . وقوله : ﴿ ذات العماد ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعر التى ترفع بالأعمدة الشداد .

وقال هاهنا : ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم ، وعظم تركيبهم .. فالضمير فى ﴿ مثلها ﴾ يعود إلى القبيلة .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ مدينة إما دمشق أو الاسكندرية .. ففيه نظر .. لأن المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وليس المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بما ذكره جماعة من المفسرين من أن المراد بقوله - تعالى - : ﴿ إرم ذات العماد ... ﴾ مدينة مبنية بلبن الذهب والفضة .. فهذا كله من خرافات الإسرائيليين ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد ﴾ معطوف على ما قبله . والمراد بثمود : القبيلة المسماة بهذا الاسم ، نسبة إلى جدها ثمود ، وقد أرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم صالحا - عليه السلام - فكذبوه ، فأهلكهم الله - تعالى - .

وكانت مساكنهم بين الشام والحجاز ، ومازالت معروفة حتى الآن باسم قرى صالح .

وقوله : ﴿ جابوا ﴾ بمعنى قطعوا . من الجوب بمعنى القطع والخرق ، والصخرة الحجارة العظيمة .

والواد : اسم للأرض المنخفضة بين مكانين مرتفعين ، وكان هؤلاء القوم يقطعون الصخور من الجبال ، ليتخذوا منها بيوتهم بواديهم ، أى : بالمكان الذى كانوا يسكنونه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤١٨ .

فقوله : ﴿ بالواد ﴾ علم بالغلبة للمكان الذى كانوا يسكنون فيه ، ويسمى بوادى القرى ، وقد قال - تعالى - فى شأنهم : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ .

والمراد بفرعون هنا : هو وقومه . والمراد بالأوتاد : الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه ويقوونه ، كماتشد الخيام وتقوى بالأوتاد .

قال الآلوسى : وصف فرعون بذلك لكثرة جنوده وخيامهم ، التى يضربون أوتادها فى منازلهم ، أو لأنه كان يدق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاد ، ويشده بها ..[1] .

وقال بعض العلماء : ووصف فرعون بذى الأوتاد ، لأن مملكته كانت تحتوى على الأهرامات ، التى بناها أسلافه ، لأن صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق ، ويجوز أن يكون المراد بالأوتاد : التمكن والثبات على سبيل الاستعارة ، أى : ذى القوة ..[2] .

وقال صاحب الظلال : ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ وهى على الأرجح الأهرامات ، التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان ، وفرعون المشار إليه هنا ، هو فرعون الطاغية الجبار ، الذى أرسل الله - تعالى - إليه موسى - عليه السلام - ..[3] .

والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وعلم معك كل من هو أهل للخطاب ، ما فعله ربك بقبيلة عاد ، التى جدها إرم بن سام بن نوح ، والتى كانت صاحبة أعمدة عظيمة ترفع عليها بيوتها ، والتى لم يخلق فى بلادها مثلها فى القوة والغنى .

وعلمت - أيضا - ما فعله ربك بقوم ثمود ، الذين قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا منها بيوتا بوادى قراهم ، التى مازالت معروفة .

وعلمت - كذلك - ما فعلناه بفرعون صاحب المبانى القوية الفخمة وصاحب الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه .

و﴿ الذين طغوا فى البلاد ﴾ فأفسدوها ، وتجاوزوا كل حد فى العصيان والظلم .

﴿ فأكثروا فيها ﴾ أى : فى البلاد ﴿ الفساد ﴾ عن طريق الفسوق والخروج عن طاعتنا . ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أى : فكانت نتيجة طغيانهم وفسادهم ، أن أنزل ربك عليهم ، نوعا عظيما من العذاب المهين .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٢٤ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٣٢١ للشيخ ابن عاشور .
(٣) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٥٧١ .

والسوط : آلة تتخذ من الجلود القوية ، يضرب بها الجانى ، وإضافتها إلى العذاب ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : فصب عليهم ربك عذابا . « سوطا » أى : كالسوط فى سرعته ، وشدته وتتابعه ، فهو تشبيه بليغ .

وعبر - سبحانه - على إنزال العذاب بهم بالصب - وهو الإفراغ لما فى الظرف بقوة - للإيذان بكثرته وتتابعه .

وسميت أنواع العذاب النازلة بهم سوطا تسمية للشىء باسم آلته ..

قال صاحب الكشاف : وذكر السوط . إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وعن عمر بن عبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطا كثيرة ، فأخذهم بسوط منها ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تذييل وتعليل لإصابتهم بسوط عذاب .

والمرصاد فى الأصل : اسم للمكان الذى يجلس فيه الجالس لترقب أو رؤية شىء ما .

والمراد : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يرصد عمل كل إنسان ، ويحصيه عليه، ويجازيه به ، دون أن يخفى عليه - سبحانه - شىء فى الأرض أو السماء .

وفى هذه الآيات الكريمة تخويف شديد للكافرين ، وتهديد لهم على إصرارهم فى جحودهم ، وأنهم إذا ماساروا فى طريق الجحود والعناد ، فسيصيبهم ما أصاب هؤلاء الطغاة .

ثم ذكر - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر ، والغنى والفقر ، والسراء والضراء فقال :

فَأَمَّا
ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾
كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٤٨ .

ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾
يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ
إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

والفاء فى قوله : ﴿فأما الإنسان ...﴾ للتفريع على ما تقدم ، ولترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمراد بالإنسان هنا : جنسه . وقيل المراد به الكافر . ولفظ « الإنسان » مبتدأ ، وخبره : ﴿ فيقول ربى أكرمن ﴾ .

والمعنى : هذه سنة ربك - أيها العاقل - فى عباده ، أنه - تعالى - لهم بالمرصاد ، فهو يراقب أعمالهم ، ويحاسبهم عليها ، ويجازيهم بها ، والسعيد من الناس هو الذى يفقه هذه الحقيقة ، فيؤدى ما كلفه خالقه به ... فأما الإنسان ، الشقى الغافل عن طاعة ربه ..

﴿ إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ﴾ أى : إذا ما اختبره وامتحنه ربه بألوان من النعم ، بأن منحه المال الكثير ، والجاه العريض ، وأسباب القوة والمنعة ﴿ فيقول ﴾ على سبيل التباهى والتفاخر .. ﴿ ربى أكرمن ﴾ أى : ربى أعطانى ذلك ، لأنى مستحق لهذه النعم ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ...﴾ بيان لموقف هذا الإنسان عند فقره . أى : وأما إذا ما امتحنا هذا الإنسان بسلب بعض النعم عنه ، وبضيق الرزق .. ﴿ فيقول ﴾ على سبيل التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضائه - سبحانه - : ﴿ ربى أهانن ﴾ أى : ربى أذلنى بالفقر ، وأنزل بى الهوان والشرور .

(١) سورة فصلت الآية ٥٠ .

وقول هذا الإنسان فى الحالين ، قول مذموم ، يدل على سوء فكره ، وقصور نظره ، وانطماس بصيرته ، لأنه فى حالة العطاء والسعة فى الرزق . يتفاخر ويتباهى ، ويتوهم أن هذه النعم هو حقيق وجدير بها ، وليست من فضل الله – تعالى – وكأنه يقول ما قاله قارون : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ وفى حالة المنع والضيق فى الرزق يجزع ، ويأبى أن يرضى بقضاء الله وقدره .. ولا يخطر بباله أن نعم الله ، إنما هى فضل تفضل به – سبحانه – عليه ليختبره ، أيشكر أم يكفر . وأن تضييقه عليه فى الرزق ، ليس من الإهانة فى شىء ، بل هو للابتلاء – أيضا – والامتحان ، كما قال – تعالى – : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون ﴾ .

قال الإمام الشوكانى عند تفسيره لهاتين الآيتين : وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ، ويوفقه لعمل الآخرة .

ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم ، لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير ، وما أصيب به من الشر فى الدنيا ، ليس إلا للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها ، لا تعدل عند الله – تعالى – جناح بعوضة ..[1] .

واقتصر – سبحانه – فى الآية الكريمة على تقتير الرزق ، فى مقابلة النعمة ، دون غير ذلك من الأمراض والآفات ، للإشعار بأن هذا الإنسان يعتبر دنياه جنته ومنتهى آماله . فهو لا يفكر إلا فى المال ولا يحزن إلا من أجله ، وأن المقياس عنده لمقادير الناس هو على حسب ماعندهم من أموال كما قال شاعرهم :

فلو شاء ربى كنت قيسَ بنَ عاصمٍ ... ولو شاء ربى كنت عمرَو بنَ مَرْثِد
فأصبحت ذا مال كثير وطاف بى ... بنونَ كرامٌ ، سادةٌ لمُسوَّد

ولما كان هذا القول مذموما من هذا الإنسان فى الحالين . لعدم شكره لله – تعالى – فى حالة الرخاء ، ولعدم صبره على قضائه فى حالة البأساء .

لما كان الأمر كذلك جاء حرف الردع بعد ذلك فقال – تعالى – : ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ .

فقول – تعالى – : ﴿ كلا ﴾ زجر وردع عن قول هذا الإنسان ﴿ ربى أكرمن ﴾ عند

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٤٣٨ .

حصول النعمة ، وعن قوله ﴿ ربى أهانن ﴾ عند حصول التقتير فى الرزق ، لأن الله - تعالى - قد يوسع على الكافر وهو مهان ومبغوض منه - تعالى - ، وقد يضيق - سبحانه - على المؤمن مع محبته له ، وكلا الأمرين حاصل بمقتضى حكمته - عز وجل - والمؤمن الصادق هو الذى يشكر عند الرخاء ، ويصبر عند البأساء .

و« بل » هنا للإضراب الانتقالى ، من ذمهم على القبيح من القول ، إلى ذمهم بما هو أشنع منه ، وهو ارتكابهم للقبيح من الأفعال .

أى : كلا ليس قولكم هذا وهو أن الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع - هو القبيح فحسب ، بل هناك ما هو أقبح منه ، وهو أنكم - أيها الكافرون - .

﴿ لا تكرمون اليتيم ﴾ أى : لا تعطفون على اليتيم وهو الذى مات أبوه وهو صغير ، بأن تتركوه معرضا للفقر والاحتياج ، دون أن تعملوا على تقديم يد المساعدة إليه .

﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ أى : ولا يحث بعضكم بعضا على إطعام المساكين والبائسين .

ونفى الحض على إطعامهم ، نفى لإطعامهم من باب أولى ، وفى ذلك زيادة لمذلتهم ، لأنهم لا يطعمون ، ولا يحضون غيرهم عليه ، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الرحمة والعطف .

قال الآلوسى : قوله - سبحانه - : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ...﴾ الخ . انتقال وترق من ذم هذا الإنسان على القبيح من القول ، إلى الأقبح من الفعل ، والالتفات إلى الخطاب ، لتشديد التقريع ، وتأكيد التشنيع .. والجمع باعتبار معنى الإنسان ، إذ المراد الجنس . أى : بل لكم أفعال وأحوال أشد شرا مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال ، حيث أكرمكم - سبحانه - بكثرة المال ، ولكنكم لم تؤدوا ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم .

والمراد بطعام المسكين : إطعامه ، فالطعام مصدر بمعنى الإطعام .. أو المراد به : الشىء المطعوم ، ويكون الكلام على حذف مضاف . أى : على بذل طعام المسكين ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتأكلون التراث أكلا لما ﴾ بيان لرذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة . والتراث : هو المال الموروث عن الغير . والمراد بالأكل مطلق الانتفاع ، وخص الأكل بالذكر ، لأنه يشمل معظم وجوه التصرفات المالية .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٢٧ .

واللَّمُّ : الجمع بدون تفرقة بين الحلال والحرام ، مأخوذ من قولهم : لَمَّ الطعام ، إذا أكله كله دون أن يترك منه شيئا .

أى : ومن صفاتكم القبيحة أنكم تأكلون المال الموروث عن غيركم ، أكلا شديدا ، بحيث لا تتركون منه شيئا ، ولا تفرقون بين ما هو حلال أو حرام ، ولا بين ما يحمد وما لا يحمد ، بل تأخذون حقوقكم وحقوق غيركم من النساء والصبيان .

ومن صفاتكم - أيضا - أنكم ﴿ تحبون المال حبا جما ﴾ أى : حبا كثيرا مع حرص وشَرَه . يقال : جمّ الماء فى الحوض ، إذا كثر واجتمع ، ومنه الجَمُوم للبئر الكثيرة الماء .

والحب المفرط للمال من الصفات الذميمة ، لأنه يؤدى إلى جمعه من كل طريق ، بدون تفرقة بين ما يحل منه وما يحرم .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا النوع من الناس ، بأنه قد جمع فى سوء سلوكه ، بين النطق بالقبيح من الأقوال ، وبين ارتكاب القبيح من الأفعال ، وهى : ترك اليتيم بلا رعاية ، وعدم الحض على إطعام المحتاج ، وجمع المال الموروث بدون تفرقة بين حلاله وحرامه ، والإفراط فى حب المال بطريقة ذميمة .

وبعد هذا الزجر والردع لهم ، لسوء أقوالهم وأفعالهم ، أخذت السورة الكريمة فى زجرهم وردعهم عن طريق تذكيرهم بأهوال الآخرة فقال :- تعالى - : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ . وقوله - تعالى - : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ ردع لهم وزجر عن أفعالهم السابقة ، وهى عدم إكرام اليتيم ، وعدم الحض على طعام المسكين .

وقوله : ﴿ دكت الأرض ﴾ من الدك : بمعنى الكسر والدق والزلزلة الشديدة ، والتحطيم الجسيم ، وانتصب لفظ «دكا» الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ، وانتصاب الثانى على أنه تأكيد للأول . وقيل : تكرار « دكا » للدلالة على الاستيعاب ، كقولك : قرأت النحو بابا بابا ، أى : قرأته كله .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ كلا إذا دكت الأرض ...﴾ أى : ما هكذا ينبغى أن يكون الامر . فهو رد لانكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لها ، فإن من فعل ذلك يندم يوم تدك الأرض ، ولا ينفعه الندم ، والدك : الكسر والدق ، أى : زلزلت وحركت تحريكا بعد تحريك .

وقوله : ﴿ دكا دكا ﴾ أى : مرة بعد مرة ، زلزلت فكسر بعضها بعضا فتكسر كل شىء

على ظهرها ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجاء ربك ...﴾ هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات التى يرى السلف وجوب الإيمان بها كما جاءت ، بمعنى أننا نؤمن بمجىء الله - تعالى - ولكن من غير تكييف ولا تمثيل ، بل نكل علم كيفية مجيئه إلى مشيئته - تعالى - .

والخلف يؤولون ذلك بأن المجىء هنا بمعنى مجىء أمره وقضائه .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ وجاء ربك ...﴾ قال منذر بن سعيد ، معناه : ظهر - سبحانه - للخلق هنالك ، وليس ذلك بمجىء نقلة .. وقيل : الكلام على حذف مضاف للتهويل ، أى : وجاء أمر ربك وقضاؤه . واختار جمع أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره - تعالى - وتبيين آثار قدرته وسلطانه ، مثلت حاله - سبحانه - فى ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة مالا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم ، وأنت تعلم ما للسلف فى المتشابه من الكلام .

﴿ والمَلَكُ ﴾ أى : جنس المَلَكِ ، فيشمل جميع الملائكة ﴿ صفا صفا ﴾ أى : مصطفين ، أو ذوى صفوف ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجىء يومئذ بجهنم ﴾ أى : وأحضرت جهنم وظهرت وبرزت للكافرين والفاسقين يوم القيامة ، يوم تدك الأرض دكا .

وقوله : ﴿ يومئذ ﴾ منصوب بقوله ﴿ جىء ﴾ . وقوله ﴿ بجهنم ﴾ قائم مقام الفاعل .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ..[3] .

﴿ يومئذ ﴾ أى : فى هذا اليوم العسير ، وهو يوم القيامة - وهو بدل من قوله - تعالى - : ﴿ إذا دكت الأرض ﴾ - ﴿ يتذكر الانسان ﴾ أى : يتذكر ما فرط منه من ذنوب ، وما ارتكبه من سيئات ، وما وقع فيه من كفر وفسوق عن أمر ربه .

﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أى : ومن أين له الانتفاع بهذا التذكر ، لأنه تذكر قد جاء فى غير وقت الانتفاع به ، وهو وقت الحساب على الأعمال ، لا وقت التوبة من السيئ منها .

﴿ يقول ﴾ هذا الانسان الشقى ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ أى : يقول حين يرى العذاب

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٥٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٢١ .

ماثلا أمامه ، يقول - على سبيل التحسر والتفجع - : ياليتنى قدمت أعمالا صالحة لأجل حياتى هذه فى الآخرة ، فاللام للتعليل ، وقدمت أعمالا صالحة فى وقت حياتى فى الدنيا لأنتفع بها فى هذا اليوم ، فتكون اللام للتوقيت .

﴿ فيومئذ ﴾ أى : ففى هذا اليوم لا ينفعه الندم ولا التحسر ، و﴿ لايعذِّب عذابه أحد ، ولا يوثِقُ وثاقه أحد ﴾ والوثاق : الرباط الذى يقيد به الأسير .

أى : ففى هذا اليوم لا يعذِّب كعذاب الله أحد ، ولا يوثِق كوثاقه أحد ، فالضمير فى قوله : ﴿ عذابه ﴾ و ﴿ ثاقه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ولفظ « أحد » فاعل .

وقرأ الكسائى : ﴿ لا يعذَّب ﴾ و ﴿ لايوثَق ﴾ - بفتح الذال المشددة ، وفتح الثاء - على البناء للمفعول ، والضمير فى قوله ﴿ عذابه ﴾ و ﴿ وثاقه ﴾ يعود للكافر .

أى : فيومئذ لا يعذب أحد مثل عذاب ذلك الإنسان الكافر المتحسر ، ولا يوثق أحد مثل وثاقه ، ولفظ « أحد » هنا نائب فاعل .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ﴿ قال الله إنى منزلها عليكم ﴾ - أى : المائدة - ﴿ فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه البشارة العظيمة للمؤمنين فقال : ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

والنفس المطمئنة : هى النفس الآمنة من الخوف أو الحزن فى يوم القيامة . بسبب إيمانها الصادق ، وعملها الصالح ، والكلام على إرادة القول . أى : يقول الله - تعالى - على لسان ملائكته ، إكراما للمؤمنين ، عند وفاتهم ، أو عند تمام حسابهم : يأيتها النفس الآمنة المطمئنة ، الناعمة بروح اليقين ، الواثقة بفضل الله - تعالى - ورحمته . ﴿ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ أى : ارجعى إلى ربك الذى خلقك ، وأنت راضية تمام الرضا بما أعطاك - سبحانه - من ثواب ، ومرضى عنك منه - تعالى - بسبب إيمانك الصادق ، وعملك الصالح .

﴿فادخلى فى عبادى ﴾ أى : فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين المرضيين . ﴿ وادخلى جنتى ﴾ التى وعدتهم بها ، والتى أعددتها لنعيمهم الدائم المقيم .

وقد ذكروا أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى شأن عثمان بن عفان لمّا تصدق ببئر رومة .

وقيل : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب حين استشهد .

قال القرطبى : والصحيح أنها عامة فى نفس كل مؤمن مخلص طائع ..[1] .
نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أصحاب النفوس المطمئنة .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة مدينة نصر
مساء الاثنين ٩ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
١٣ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٥٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البلد

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « البلد » وتسمى سورة « لا أقسم » من السور المكية الخالصة ، وعلى ذلك سار المحققون من المفسرين .

قال القرطبى : سورة « البلد » مكية باتفاق ..[1] .

وقال الآلوسى : مكية فى قول الجمهور بتمامها ، وقيل : مدنية بتمامها . وقيل : مدنية إلا أربع آيات من أولها . واعترض كلا القولين بأنه يأباهما قوله ﴿ بهذا البلد ﴾ - إذ المقصود بهذا البلد مكة - ، ولقوة الاعتراض ادعى الزمخشرى الإجماع على مكيتها ..[2] .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن هذه السورة من السور المكية الخالصة ، ولا يوجد دليل يعتمد عليه يخالف ذلك .

قال الشوكانى : سورة « البلد » ، ويقال لها سورة « لا أقسم » وهى عشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة « لا أقسم » بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

٢ - وهى السورة الخامسة والثلاثون فى ترتيب نزول السور ، فقد كان نزولها بعد سورة « ق » ، وقبل سورة « الطارق » ، أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة التسعون .

ومن مقاصدها : التنويه بشأن مكة ، لشرفها وحرمتها ووجود البيت المعظم بها ، وتعداد نعم الله - تعالى - على الإنسان حتى يرجع عن عصيانه وغروره ، ويخلص العبادة لخالقه ، وبيان حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار ..

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٥٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٣٣ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ
﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ
أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ
﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

افتتحت السورة الكريمة بالقسم، تشويقا لما يرد بعده، وتأكيدا للمقسم عليه.

و« لا » فى مثل هذا التركيب، يرى المحققون أنها مزيدة للتأكيد، والمعنى: أقسم بهذا البلد. أى: مكة المكرمة، وقد جاء القسم بها فى قوله - تعالى - : ﴿ والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين ﴾.

قال الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : قوله ﴿ لا أقسم ... ﴾ عبارة من عبارات العرب فى

القسم ، يراد بها تأكيد الخبر ، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم . ويقال إنه يؤتى بها فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به . كأن القائل يقول : إنى لا أعظمه بالقسم ، لأنه عظيم فى نفسه ، والمعنى فى كل حال على القسم ..[1] .

وقال بعض العلماء : « لا » هذه للنفى ، وهذه عبارة تعود العرب أن يقولوها عندما يكون المقسم عليه ظاهرا أمره ، كأنه - تعالى - يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء ، على إثبات هذا المطلوب الذى أذكره بعد ، لأن إثباته أظهر وأجلى وأقوى من أن يحاول محاول إثباته بالقسم .

ويقال : معناه : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ، لأنه أعظم وأجل وأكبر من أن يقسم عليه ، بهذه الأمور الهينة الشأن ، والغرض على هذا الوجه ، تعظيم المقسم عليه ، وتفخيم شأنه ..[2] .

والإشارة بلفظ « هذا » مع بيانه بالبلد ، إشارة إلى حاضر فى أذهان السامعين ، لأن مكة بعضهم كان يعيش فيها . وبعضهم كان يعرفها معرفة لاخفاء معها ، وشبيه بذلك قوله - تعالى - : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ﴾ .

وفائدة الإتيان باسم الإشارة هنا : تمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به .

وجملة : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ معترضة بين القسم وجوابه .

وقوله - تعالى - ﴿ حل ﴾ اسم مصدر أحل بمعنى أباح ، فيكون المعنى : وأنت - أيها الرسول الكريم - قد استحل كفار مكة إيذاءك ومحاربتك .. مع أنهم يحرمون ذلك النسبة لغيرك ، فى هذا البلد الأمين .

ويصح أن يكون لفظ « حل » هنا بمعنى الحلال الذى هو ضد الحرام يقال : هو حل وحلال ، وحِرْمٌ وحرام .. فيكون المعنى : وأنت أيها الرسول الكريم - قد أحل الله - تعالى - لك أن تفعل بهؤلاء المشركين ما شئت من القتل أو العفو .

وتكون الجملة الكريمة ، بشارة للنبى - ﷺ - بأن الله - تعالى - سينصره على مشركى قريش ، ويمكنه من رقابهم .. وقد أنجز له - سبحانه - ذلك يوم الفتح الأكبر .

قال صاحب الكشاف : أقسم الله - تعالى - بالبلد الحرام وما بعده ، على أن الإنسان خلق مغمورا فى مكابدة المشاق والشدائد ، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله : ﴿ وأنت

---

(١) تفسير جزء عم ص ٢٤ طبعة الشعب .

(٢) تفسير جزء عم ص ٦٥ لفضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد - رحمه الله - .

حل بهذا البلد ﴾ يعنى : ومن المكابدة أن مثلك - يامحمد - على عظم حرمتك ، يُسْتَحلُّ بهذا البلد الحرام ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم .

وفيه تثبيت لرسول الله - ﷺ - وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوته .

أو سلى - ﷺ - بالقسم ببلده ، على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عليه فقال : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ .

يعنى : وأنت حل به فى المستقبل ، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر .

فإن قلت : أين نظير قوله : ﴿ وأنت حل ﴾ فى معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله - تعالى - ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ .

وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال ، أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها ؟ فما بال الفتح ؟[1].

ويرى بعضهم أن معنى قوله - تعالى - : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ : وأنت مقيم بهذا البلد ، ونازل فيه ، وحالّ به ، وكفى فخراً لمكة أن تنزل فيها - أيها الرسول الكريم - فإن الأمكنة الشريفة تزداد شرفا بنزول رسل الله - تعالى - فيها ، فكيف وأنت خاتمهم وإمامهم ؟ .

قال بعض العلماء : وحكى ابن عطية عن بعض المتأولين : أن معنى « وأنت حل بهذا البلد » وأنت ساكن بهذا البلد ، حال فيه .. وهو يقتضى أن تكون هذه الآية موضع الحال من ضمير « أقسم » فيكون القسم بالبلد مقيدا باعتبار بلد محمد - ﷺ - وهو تأويل جميل ، لو ساعد عليه ثبوت استعمال « حل » بمعنى حالّ ، أى : مقيم فى مكان ، فإن هذا لم يرد فى كتب اللغة .. ولذا لم يذكر هذا المعنى صاحب الكشاف ..[2] .

ويبدو لنا أن هذه الأقوال لا تعارض بينها ، بل يؤيد بعضها بعضا ، لأن الرسول - ﷺ - قد آذاه أهل مكة، بينما حرموا إيذاء غيره ، وأن الله - تعالى - قد مكن رسوله - ﷺ - منهم . كما حدث فى غزوة الفتح ، وأنه - ﷺ - قد أقام معهم فى مكة أكثر من خمسين سنة ، وكان يلقب عندهم بالصادق الأمين ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٥٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور - رحمه الله - جـ ٣٠ ص ٣٤٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ معطوف على المقسم به الأول وهو قوله - تعالى - : ﴿ بهذا البلد ﴾ . وداخل فى حيز القسم . والمراد بالوالد آدم - عليه السلام - ، والمراد بما ولد : ذريته من بعده .

أى : أقسم بهذا البلد الذى له ماله من الشرف ، والمكانة السامية بين البلاد .. وأقسم بأبيكم آدم ، وبذريته من بعده .. أو أقسم بكل والد وبكل مولود .

وجىء باسم الموصول « ما » فى قوله ﴿ وما ولد ﴾ دون « من » مع أنها أكثر استعمالا فى العاقل الذى هو مراد هنا ، لأن « ما » أشد إبهاما ، وشدة الإبهام المقصود بها هنا التفخيم والتعظيم .. وشبيه بذلك قوله - تعال - : ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ...﴾ كما أن تنكير لفظ « والد » هنا للتعظيم أيضا .

وقيل المراد بالوالد هنا : ابراهيم - عليه السلام - وبما ولد : الصالحون من ذريته .

وقيل المراد بالوالد : من يولد له ، وبقوله ﴿ وما ولد ﴾ الذى لم يولد له وعليه تكون مانافية .

وقد رجح الإمام ابن جرير المعنى الأول فقال : والصواب من القول فى ذلك ، ما قاله الذين قالوا : إن الله - تعالى - أقسم بكل والد وولده ، لأن الله - تعالى - عم كل والد وما ولد ، وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه ، فهو على عمومه ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ جواب القسم . والمراد بالإنسان : جنسه ، والكبد : الشدة والتعب والمشقة ، من المكابدة للشىء ، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب فى فعله . وأصله من كَبِد الرجل - بزنة طرب - فهو أكْبَد ، إذا أصيبت كبده بالمرض ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تعب ومشقة تنال الإنسان .

والمعنى : لقد خلقنا الإنسان لهذه الشدائد والآلام ، التى هى من طبيعة هذه الحياة الدنيا ، والتى لا يزال يكابدها وينوء بها ، ويتفاعل معها .. حتى تنتهى حياته ، ولا فرق فى ذلك بين غنى أو فقير ، وحاكم أو محكوم وصالح أو طالح .. فالكل يجاهد ويكابد ويتعب ، من أجل بلوغ الغاية التى يبتغيها .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ أى : فى تعب ومشقة ، فإنه لايزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٢٥ .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء .

وقيل : لقد خلقناه منتصب القامة واقفا ، ولم نجعله منكبا على وجهه .

وقيل : جعلناه منتصبا رأسه فى بطن أمه ، فإذا أذن له فى الخروج قلب رأسه إلى قدمى أمه .. وهذه الأقوال ضعيفة لا يعول عليها ، والصحيح الأول ..(١) .

والحق أن تفسير الكبد بالمشقة والتعب ، هو الذى تطمئن إليه النفس ؛ لأنه لايوجد فى هذه الحياة إنسان إلا وهو مهموم ومشغول بمطالب حياته ، وفى كبد وتعب للحصول على آماله ورغباته وغاياته ، ورحم الله القائل :

تعب كلهـا الحيـاة فـما أعجب إلا مـن راغـب فى ازديـاد

وقال - سبحانه - ﴿ فى كبد ﴾ للإشعار بأنه لشدة مقاساته ومكابدته للمشاق والمتاعب ، وعدم انفكاكه عنها .. كالظرف بداخل المظروف فهو فى محن ومتاعب ، حتى يصير إلى عالم آخر تغاير أحوالُه أحوالَ هذا العالم .

والاستفهام فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد . يقول أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ﴾ للإنكار والتوبيخ .

أى : أيظن هذا الإنسان الذى هو فى تعب ومشقة طول حياته ، أنه قد بلغ من القوة والمنعة .. بحيث لا يقدر عليه أحد .

إن كان يتوهم ذلك ، فهو فى ضلال مبين ، لأن الله - تعالى - الذى خلقه ، قادر على إهلاكه فى لمح البصر ، وقادر على أن يسلط عليه من يذله ، ويقضى عليه .

ويدخل فى هذا التوبيخ دخولا أوليا ، أولئك المشركون الذين اغتروا بقوتهم ، فآذوا النبى - ﷺ - وأصحابه إيذاء شديداً .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من أقوال هذا النوع الجاحد المغرور من بنى آدم فقال : ﴿ يقول أهلكت مالا لبدا ﴾ . أى : يقول هذا الإنسان المغرور بقوته ، والمفتون بماله ، المتفاخر بما معه من حطام الدنيا . يقول - على سبيل التباهى والتعالى على غيره - لقد أنفقت مالا كثيرا ، فى عداوة النبى - ﷺ - ، وفى إيذاء أتباعه ، وفى غير ذلك من الوجوه التى كان أهل الجاهلية يظنونها خيرا ، وما هى إلا شر محض . وعبر - سبحانه - عن إنفاق هذا الشقى لما له بقوله : ﴿ يقول أهلكت ... ﴾ . للإشعار ، بأن ما أنفقه من مال هو شىء هالك ، لأنه لم ينفق فى الخير ، وإنما أنفق فى الشر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٣٥ .

والمال اللُّبَد : هو المال الكثير الذى تلبد والتصق بعضه ببعض لكثرته وهو جمع لُبْدة – بضم اللام وسكون الباء – كغرفة وغرف ، وهى ما تلبد من صوف أو شعر ، أى : تجمع والتصق بعضه بعض .

وقوله – سبحانه – : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ توبيخ لهذا المغرور إثر توبيخ ، وتجهيل فى أعقاب تجهيل . أى : أيظن هذا الجاهل المغرور ، حين أنفق المال الكثير فى المعاصى والسيئات ، أن الله – تعالى – غير مطلع عليه ؟ إن كان يظن ذلك فهو فى نهاية الجهالة وانطماس البصيرة ، لأن الله – تعالى – مطلع عليه ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا .

وفى الحديث الشريف : لن تزل قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه .

ثم ساق – سبحانه – بعد ذلك جانبا من مظاهر نعمه ، على هذا الإنسان الجاهل المغرور . فقال – تعالى – : ﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين ﴾ .

والاستفهام هنا للتقرير ، لأن الله – تعالى – قد جعل له كل ذلك ، ولكنه لم يشكر الله – تعالى – على هذه النعم ، بل قابلها بالجحود والبطر ..

أى : لقد جعلنا لهذا الإنسان عينين ، يبصر بهما ، وجعلنا له لسانا ينطق به ، وشفتين – وهما الجلدتان اللتان تستران الفم والأسنان – تساعدانه على النطق الواضح السليم .

واقتصر – سبحانه – على العينين ، لأنهما أنفع المشاعر ، ولأن المقصود إنكار ظنه أنه لم يره أحد ، ولأن الإبصار حاصل بذاتهما .

وذكر – سبحانه – اللسان وذكر معه الشفتين . للدلالة على أن النطق السليم ، لا يتأتى إلا بوجودهما معا ، فاللسان لا ينطق نطقا صحيحا بدون الشفتين ، وهما لا ينطقان بدونه .

وقوله – تعالى – : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ بيان لنعمة أخرى هى أجل النعم وأعظمها .

والنجد : الأرض المرتفعة ، وجمعه نجود ، ومنه سميت بلاد نجد بهذا الإسم ، لأنها مرتفعة عن غيرها ... والمراد بالنجدين هنا : طريق الخير . وطريق الشر ، أى : وهدينا هذا الإنسان وأرشدناه إلى طريق الخير والشر ، عن طريق رسلنا الكرام ، وعن طريق ما منحناه من عقل ، يميز به بين الحق والباطل ، ثم وهبناه الاختيار لأحدهما ، كما قال – تعالى – : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ .

قال بعض العلماء : وكأنهما إنما سميا نجدين – أى : سبيل الخير والشر : لأنهما لما وضحت

الدلائل ، وقربت الحجج ، وظهرت البراهين ، جعلا كالطريق المرتفعة العالية ، فى أنها واضحة لذوى الأبصار .

أو إنما سميا بذلك ، للإشارة إلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها ، وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك الخير ، بل الغالب أن يكون طريق الشر ، أشق وأصعب ، وأحوج إلى الجهد ..»[1] .

وبعد بيان هذه النعم الجليلة التى أنعم الله بها - سبحانه - على الإنسان ، أتبع - سبحانه - ذلك بحضه على المداومة على فعل الخير ، وعلى إصلاح نفسه ، فقال - تعالى - : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾ .

والفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ للتفريع على ما تقدم ، والمقصود بهذه الآية الحض على فعل الخير بدل الشر .

وقوله : ﴿ اقتحم ﴾ من الاقتحام للشىء ، بمعنى دخوله بشدة . يقال : اقتحم الجنود أرض العدو ، إذا دخلوها بقوة وسرعة ، وبدون مبالاة بارتكاب المخاطر .

والعقبة فى الأصل : الطريق الوعر فى الجبل ، والمراد بها هنا : مجاهدة النفس ، وقسرها على مخالفة هواها وشهوتها ، وحملها على القول والفعل الذى يرضى الله - تعالى - .

والمعنى : لقد جعلنا للإنسان عينين ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . فهلا بعد كل هذه النعم ، فعل ما يرضينا ، بأن جاهد نفسه وهواه ، وبأن قدم ماله فى فك الرقاب ، وإطعام اليتامى والمساكين .

قال الجمل : وقوله : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أى : فهلا اقتحم العقبة ، فلا بمعنى هلا التى للتحضيض . أى : الذى أنفق ماله فى عداوة النبى - ﷺ - هلا أنفقه فى اقتحام العقبة فيأمن ..»[2] .

وقد استعيرت العقبة لمجاهدة النفس ، وحملها على الإنفاق فى سبيل الخير ، لأن هذه الاعمال شاقة على النفس ، فجعلت كالذى يتكلف سلوك طريق وعر ..

ويصح أن تكون « لا » هنا ، على معناها الحقيقى وهو النفى ، فيكون المعنى : أن هذا

---

(١) تفسير جزء عم ص ٢٠٤ للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٣٩ .

الإنسان الذى جعلنا له عينين .. لم يشكرنا على نعمنا ، فلا هو اقتحم العقبة ، ولا هو فعل شيئا ينجيه من عذابنا .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : قوله : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ يعنى : فلم يشكر تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة : من فك الرقاب ، وإطعام اليتامى والمساكين .. بل غمط النعم ، وكفر بالمنعم ..

فإن قلت : قلما تقع « لا » الداخلة على الماضى ، غير مكررة ، فما لها لم تكرر فى الكلام الأفصح ؟ . قلت : هى متكررة فى المعنى ، لأن المعنى ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ .. فلا فَكَّ رقبة ، ولا أطعم مسكينا . ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك ..[١] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ لتفخيم شأنها ، والتهويل من أمرها ، والتشويق إلى معرفتها .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ .

ثم فسر - سبحانه - ذلك بقوله : ﴿ فك رقبة ﴾ . والمراد بفك الرقبة إعتاقها وتخليصها من الرق والعبودية . إذ الفك معناه : تخليص الشىء من الشىء ..

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل عتق الرقاب ، وتحريرها من الرق ..

ومن هذه الأحاديث قوله - ﷺ - « من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل إِرْبٍ منها - أى عضو منها - إربا منه من النار ... » .

وقوله - ﷺ - : « ومن أعتق رقبة مؤمنة فهى فكاكه من النار ... »[٢] .

وقراءة الجمهور ﴿ فك رقبة ﴾ برفع « فك » وإضافته إلى « رقبة » .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « فك » بفتح الكاف على أنه فعل ماض ، ونصب لفظ « رقبة » على أنه مفعول به .

وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بفك الرقبة : أن يخلص الإنسان نفسه من المعاصى والسيئات ، التى تكون سببا فى دخوله النار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ بيان لفضيلة ثانية من الفضائل التى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٥٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٣٠ .

تؤدى إلى مجاهدة النفس ، وحملها على طاعة الله - تعالى - .

والمسغبة : المجاعة ، مصدر ميمى بمعنى السَّغَب ، يقال : سغب الرجل - كفرح ونصر - إذا أصابه الجوع . ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة كما فى قولهم : نهاره صائم ..

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى « أطعم » بصيغة الفعل الماضى .

أى : اقتحام العقبة . أى : التمكن من حمل النفس على طاعة الله - تعالى - يتمثل فى فك الرقاب . وفى إطعام المحتاجين فى يوم يشتد فيه جوعهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾ بيان لفضيلة ثالثة من الفضائل التى تؤدى إلى رضا الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ يتيما ﴾ منصوب على أنه مفعول به لقوله « إطعام » أو أطعم على القراءة الثانية . واليتيم : هو الشخص الذى مات أبوه وهو صغير ..

والمقربة : بمعنى القرابة ، مصدر ميمى ، من قرب فلان من فلان ، إذا كان بينهما نسب قريب ..

والمتربة : الحاجة والافتقار الشديد ، مصدر ميمى من ترب الرجل - كطرب - إذا افتقر ، حتى لكأنه قد لصق بالتراب من شدة الفقر ، وأنه ليس له مأوى سوى التراب .

وأما قولهم : أترب فلان ، فمعناه استغنى ، حتى لكأن ماله قد صار كالتراب من كثرته .

أى : اقتحام العقبة من أكبر مظاهره : فك الرقاب ، وإطعام الطعام لليتامى الأقارب ، وللمساكين المحتاجين إلى العون والمساعدة .

وخص - سبحانه - الإطعام بكونه فى يوم ذى مجاعة ، لأن إخراج المال فى وقت القحط ، أثقل على النفس ، وأوجب لجزيل الأجر ، كما قال - تعالى - : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

وقيد - سبحانه - اليتيم بكونه ذا مقربة ، لأنه فى هذه الحالة يكون له حقان : حق القرابة ، وحق اليتم ، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ فلا اقتحم العقبة .. ﴾ .

و « ثم » هنا للتراخى الرتبى ، للدلالة على أن ما بعدها أصل لقبول ما قبلها .

والمعنى : هلا كان هذا الإنسان ممن فكوا الرقاب ، وأطعموا الطعام لليتامى والمساكين .. ثم كان - فضلا عن كل ذلك - من الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وممن أوصى بعضهم

بعضا بفضيلة الصبر ، وفضيلة التراحم والتعاطف ..

لقد كان من الواجب عليه .. لو كان عاقلا - أن يكون من المؤمنين الصادقين ، ولكنه لتعاسته وشقائه وغروره لم يكن كذلك ، لأنه لا هو اقتحم العقبة ، ولا هو آمن ..

وخص - سبحانه - من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر ، وتواصيهم بالمرحمة ، لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله - تعالى - :

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ يعود على الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، هم أصحاب الجهة اليمنى التى فيها السعداء الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم ، فالمراد بالميمنة : جهة اليمين ..

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة الكافرين فقال : ﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ أى : الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أى : هم فى جهة الشمال التى فيها الأشقياء ، أو هم أصحاب الشؤم على أنفسهم بسبب إصرارهم على كفرهم .

﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى : عليهم نار مغلقة بحيث لا يستطيعون الخروج منها ، تقول : آصدت الباب وأوصدته ، إذا أحكمت غلقه ، والاسم فيهما ، الإصاد والوصاد ..

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أصحاب الميمنة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ١٤ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ.

١٧ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الشمس

مقدمة وتمهيد

١ - هذه السورة الكريمة سماها معظم المفسرين ، سورة « الشمس » ، وعنونها الإمام ابن كثير بقوله : تفسير سورة « والشمس وضحاها » .

وهى من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها : خمس عشرة آية فى معظم المصاحف ، وفى المصحف المكى ست عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « القدر » وقبل سورة « البروج » .

٢ - ومن مقاصدها : تهديد المشركين بأنهم سيصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم ، إذا ما استمروا فى كفرهم ، وبيان مظاهر قدرته - تعالى - فى خلقه ، وبيان حسن عاقبة من يزكى نفسه ، وسوء عاقبة من يتبع هواها .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا
﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ
أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

افتتح - سبحانه - هذه السورة الكريمة ، بالقسم بكائنات عظيمة النفع ، جليلة القدر ، لها آثارها فى حياة الناس والحيوان والنبات ، ولها دلالتها الواضحة على وحدانيته - تعالى - وكمال قدرته ، وبديع صنعه .

فقال - سبحانه - : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ والضحى الوقت الذى ترتفع فيه الشمس بعد إشراقها ، فتكون أكمل ما تكون ضياء وشعاعا ..

فالمراد بضحاها : ضوؤها - كما يرى مجاهد - ، أو النهار كله - كما اختار قتادة وغيره - ، أو حرها - كما قال مقاتل - .

وهذه الأقوال لا تنافر بينها ، لأن لفظ الضحى فى الأصل ، يطلق على الوقت الذى تنبسط فيه الشمس ، ويمتد النهار ، تقول : ضَحِى فلان يَضْحَى - كرضى يرضى - ، إذا برز

للشمس ، وتعرض لحرها ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أى : تبعها ، تقول : فلان تلا فلانا يتلوه ، إذا تبعه ، قال بعض العلماء : فأما أن القمر تابع للشمس فيحتمل معنيين : أحدهما : أنه تال لها فى ارتباط مصالح الناس ، وتعلق منافع هذا العالم بحركته ، وقد دل علم الهيئة على أن بين الشمس والقمر من المناسبة ما ليس بين غيرهما من الكواكب . وثانيهما : أن القمر يأخذ نوره ويستمده من نور الشمس . وهذا قول الفراء قديما ، وقد قامت الأدلة عند علماء الهيئة والنجوم ، على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس ..[1] .

وقال الشيخ ابن عاشور : وفى الآية إشارة إلى أن نور القمر ، مستفاد من نور الشمس ، أى : من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر ، وليس نيرا بذاته ، وهذا إعجاز علمى من إعجاز القرآن ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿والنهار إذا جلاها ﴾ أى : جلى الشمس وأظهرها وكشفها للناظرين .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أى : جلى النهار الشمس ، أى : أظهرها ، فإنها تنجلى وتظهر إذا انبسط النهار ، ومضى منه مدة ، فالإسناد مجازى كالإسناد فى نحو: صام نهاره .

وقيل : الضمير المنصوب يعود إلى الأرض ، وقيل : إلى الدنيا ، والمراد بها وجه الأرض ، وقيل : إلى الظلمة ، وجلاها حينئذ بمعنى أزالها ، وعدم ذكر المرجع على هذه الأقوال للعلم به .

والأول أولى ، لذكر المرجع واتساق الضمائر ..[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أى : يغشى الليلُ الشمسَ فيغطى ضوءها ، فالضمير فى يغشاها يعود إلى الشمس .

وقيل : يعود إلى الدنيا ، وقيل : إلى الأرض أى : يغشى الليل الدنيا والأرض بظلامه .

والحق أن فى قوله - تعالى - ﴿ جلاها ﴾ و﴿ يغشاها ﴾ إشارة واضحة إلى أن الضمير فيهما يعود إلى الشمس ، إذ النهار يجلى الشمس ويكشفها أتم انكشاف ، والليل يزيل ضوءها

---

(١) تفسير جزء « عم » ص ٢١١ لفضيلة الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .
(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٣٦٧ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٤١ .

ويستره ، فنسب - سبحانه - إلى النهار ما يلائمه بالنسبة للشمس ، وكذلك الحال بالنسبة لليل .

ثم قال - تعالى - : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ أى : وحق السماء وحق من بناها وأنشأها وأوجدها على تلك الصورة البديعة الرائعة .

فما هنا اسم موصول بمعنى مَنْ ، والمراد بمن بناها : الله - عز وجل - وأوثرت على مَنْ التى تأتى للعاقل كثيرا ، لإشعارها معنى الوصفية . أى : وحق السماء ، وحق القادر العظيم الذى بناها وأوجدها على هذه الهيئة الجميلة الدقيقة .

وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف فقال : والوجه أن تكون « ما » موصولة - أى : فى هذه الآية وما بعدها - وإنما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذى بناها[1] .

ومنهم من يرى أن « ما » هنا مصدرية ، فيكون المعنى : وحق السماء وبنيانها .

وقوله - تعالى - : ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ أى : وحق الأرض ومن بسطها من كل جانب ، وجعلها مهيأة للاستقرار عليها : يقال : طحى فلان الشىء ودحاه، إذا بسطه ووسعه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونفس وما سواها ﴾ أى : وحق النفوس ، وحق من أنشأها من العدم فى أحسن تقويم ، وجعلها مستعدة لتلقى ما يكملها ويصلحها .

ويبدو أن المراد بالنفس هنا ذات الإنسان ، من باب إطلاق الحالِّ على المحل ، ويكون المراد بتسويتها : استواء خلقة الإنسان ، وتركيب أعضائه فى أجمل صورة .

ومن قال بأن المراد بالنفس هنا : القوة المدبرة للإنسان ، يكون المقصود بتسويتها . منحها القوى الكثيرة المتنوعة ، التى توصلها إلى حسن المعرفة ، والتمييز بين الخير والشر ، والنفع والضر ، والهدى والضلال .

قالوا : وقوله : - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ يشير إلى أن المراد بالنفس فى قوله - تعالى - : ﴿ ونفس وما سواها ﴾ القوة المدبرة للإنسان ، والتى عن طريقها يدرك الأمور إدراكا واضحا . ويختار منها ما يناسب استعداده .

والإلهام : هو التعريف والإفهام للشىء ، أو التمكين من فعله أو تركه ، والفجور : فعل ما يؤدى إلى الخسران والشقاء . والتقوى : هى الإتيان بالأقوال والأفعال التى ترضى الله - تعالى - وتصون الإنسان من غضبه - عز وجل - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٥٩ .

أى : فعرف - سبحانه - النفس الإنسانية وألهمها وأفهمها معنى الفجور والتقوى ، وبين لها حالها ، ووضح لها ما ينبغى أن تفعله وما ينبغى أن تتركه ، من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية ، بحيث يتميز عندها الرشد من الغى ، والخبيث من الطيب .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ إنّا هديناه السبيل . إما شاكرا وإما كفورا ﴾ .

وقدم - سبحانه - هنا الفجور على التقوى ، مراعاة لأحوال المخاطبين بهذه السورة ، وهم كفار قريش ، الذين كانت أعمالهم قائمة على الفجور والخسران ، بسبب إعراضهم عما جاءهم به رسول الله - ﷺ - من حق وبر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ يصح أن يكون جوابا للقسم . والفلاح : الظفر بالمطلوب . والتزكية : التزود من الخير والطاعة ، والحرص على تطهير النفس من كل سوء ، وقوله : ﴿ دساها ﴾ أى : نقصها وأخفاها بالمعاصى والآثام . وأصل فعل دسَّى : دسَّسَ ، فلما اجتمع ثلاث سينات ، قلبت الثالثة ياء ، يقال : دس فلان الشىء إذا أخفاه وكتمه .

والمعنى : وحق الشمس وضحاها ، وحق القمر إذا تلاها . وحق النفس وحق من سواها ، وجعلها متمكنة من معرفة الخير والشر . لقد أفلح وفاز وظفر بالمطلوب ، ونجا من المكروه ، مَن طهر نفسه من الذنوب والمعاصى . وقد خاب وخسر نفسه . وأوقعها فى التهلكة ، من نَقَصها وأخفاها وأخملها وحال بينها وبين فعل الخير بسبب ارتكاب الموبقات والشرور .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ جواب القسم . وإليه ذهب الزجاج وغيره . والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام لطول الكلام المقتضى للتخفيف . وفاعل من « زكاها » ضمير « مَنْ » والضمير المنصوب للنفس ..[1] .

ويرى المحققون من العلماء أن جواب القسم محذوف ، للعلم به ، فكأنه - سبحانه - قد قال : وحق الشمس وضحاها ، وحق القمر إذا تلاها .. ليقعن البعث والحساب والجزاء ، أو لتحاسبن على أعمالكم . ودليل هذا الجواب قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها ، تدل على أن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أن يحاسب من فسق عن أمره ، وأصر على تكذيب رسله .

وعلى هذا سار صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت : فأين جواب القسم ؟ قلت : هو

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٤٣ .

محذوف ، تقديره : لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليهم ، أى : على مكة لتكذيبهم رسول الله - ﷺ - ، كما دمدم على قبيلة ثمود لأنهم كذبوا صالحا - عليه السلام - وأما قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شىء ..[1] .

وقد أقسم الله - تعالى - بهذه الكائنات المختلفة ، والتى لها ما لها من المنافع بالنسبة للإنسان وغيره ، لتأكيد وحدانيته ، وكمال قدرته ، وبليغ حكمته .

وبدأ - سبحانه - بالشمس ، لأنها أعظم هذه الكائنات ، وللتنويه بشأن الإسلام ، وأن هديه كضياء الشمس ، الذى لا يترك للظلام أثرا .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث ، منها ما رواه الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا مر بهذه الآية : ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقف ثم قال : «اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها . وخير من زكاها » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : سمعت النبى - ﷺ - يقرأ ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[2] .

وبعد هذا الحديث الطويل المؤكد بالقسم ، والدال على وحدانيته ، وبديع صنعه .. أتبع ذلك ببيان ما حل بالمكذبين السابقين ، ليكون هذا البيان عبرة وعظة للمشركين المعاصرين للنبى - ﷺ - ، فقال - تعالى - : ﴿ كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها ﴾ .

والمراد بثمود : تلك القبيلة التى أرسل الله - تعالى - إلى أهلها صالحا - عليه السلام - لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده . ومفعول « كذبت » محذوف للعلم به .

والباء فى قوله « بطغواها » للسببية ، والطَّغْوَى : اسم مصدر من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد المعتاد .

أى : كذبت قبيلة ثمود - نبيهم صالحا - عليه السلام بسبب طغيانهم وإفراطهم فى الجحود

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٦٠ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٣٦ .

والتكبر والعناد . وقيل : إن الباء للتعدية ، والطغوى : اسم للعذاب الذى نزل بهم ، والذى توعدهم به نبيهم .

أى : كذبت ثمود بعذابها ، الذى توعدهم رسولهم به ، إذا ما استمروا فى كفرهم وطغيانهم .

والظرف فى قوله - سبحانه - : ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ متعلق بقوله ﴿طغواها﴾، لأن وقت انبعاث أشقاهم لقتل الناقة . هو أشد أوقات طغيانهم وفجورهم .

وفعل « انبعث » مطاوع بعث ، تقول : بعثته فانبعث ، كما تقول : كسرته فانكسر .

ويصح أن يكون متعلقا بقوله : ﴿ كذبت ﴾ .

وقوله ﴿أشقاها﴾ أى: أشقى تلك القبيلة ، وهو قُدَار - بزنة غراب - بن سالف، الذى يضرب به المثل فى الشؤم ، فيقال : فلان أشأم من قدار .

أى : كذبت ثمود نبيها ، بسبب طغيانها ، وقت أن أسرع أشقى تلك القبيلة ، وهو قدار بن سالف ، لعقر الناقة التى نهاهم نبيهم عن مسها بسوء .

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ انبعث ﴾ للإشعار بأنه قام مسرعا عندما أرسله قومه لقتل الناقة ، ولم يتردد فى ذلك لشدة كفره وجحوده .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ أى : فقال لهم رسول الله - تعالى - إليهم . وهو صالح - عليه السلام - على سبيل التحذير والإنذار : احذروا عقر ناقة الله - تعالى - ، واحذروا سقياها ، أى : الوقت المحدد لشرابها فلا تمنعوها فيه من الشرب ، فإن لها يوما لاتشاركونها فيه الشرب ، وإن لكم يوما آخر هى لن تشارككم فيه . وقد قال لهم صالح - عليه السلام - هذا الكلام ، عندما شعر بأنهم قد بيتوا النية على عقرها .

فالفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فقال لهم ...﴾ عاطفة على قوله ﴿ كذبت ﴾ لإفادة الترتيب والتعقيب ..

أى : قال لهم ذلك فى أعقاب شعوره بتصميمهم على تكذيبه ، وعلى قتل الناقة .

ولفظ « ناقة » منصوب على التحذير ، والكلام على حذف مضاف . أى : احذروا عقر ناقة الله ، وأضيفت إلى لفظ الجلالة ، على سبيل التشريف لها ، لأنها قد جعلها - سبحانه - معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ودليلا على صدقه .

وقوله : ﴿ وسقياها ﴾ معطوف على ناقة الله ، وهو منصوب - أيضا - على التحذير .

أي : احذروا أن تقتلوا الناقة ، واحذروا أن تشاركوها فى اليوم الخاص بشربها ، فضلا عن أن تؤذوها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ بيان لموقفهم السيئ من تحذير نبيهم لهم . ولما أصابهم من عذاب مهلك بسبب هذا التكذيب .

وقوله : ﴿ فدمدم ﴾ - بزنة فعلل - بمعنى تضعيف العذاب وترديده ، يقال : دمدمت على الشيء ، أي : أطبقت عليه ، ودمدم عليه القبر ، أي : أطبقه عليه .

أي : فكذب قوم صالح نبيهم ، وأصروا على هذا التكذيب ، وتجاوزوا ذلك إلى عقر الناقة التى نهاهم عن مسها بسوء ... فكانت نتيجة ذلك ، أن أهلكهم الله - تعالى - وأن أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فقد أطبق عليهم الأرض ، وسواها من فوقهم جميعا دون أن يفلت منهم أحد ، وصاروا كلهم تحت ترابها ، ونجى - سبحانه - صالحا ومن آمن معه . بفضله ورحمته .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ يعود إلى الله - تعالى - أى : ولا يخاف الله - تعالى - عاقبة مافعله بهؤلاء الطغاة الأشقياء ، لأن الذى يخاف إنما هو المخلوق .

أما الخالق لكل شيء ، فإنه - تعالى - لا يخاف أحدا ، لأنه لا يسأل عما يفعل ، ولأنه - تعالى - هو العادل فى أحكامه . والضمير فى عقباها ، يعود إلى الفعلة أو إلى الدمدمة .

ومنهم من جعل الضمير فى « يخاف » يعود إلى أشقاها ، أى : أن هذا الشقى قد أسرع إلى عقر الناقة دون أن يخشى سوء عاقبة فعله ، لطغيانه وجهله .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الاثنين ١٦ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة الليل

مقدمة وتمهيد

١ - سميت هذه السورة فى معظم المصاحف سورة « الليل » وفى بعض كتب التفسير سميت بسورة « والليل » ، وعنون لها الإمام البخارى بسورة « والليل إذا يغشى » ، وعدد آياتها إحدى وعشرون آية .

وجمهور العلماء على أنها مكية ، وقال بعضهم : هى مدنية ، وقال آخرون : بعضها مكى ، وبعضها مدنى ، والحق أن هذه السورة من السور المكية الخالصة ، وكان نزولها بعد سورة « الأعلى » وقبل سورة « القمر » ، فهى تعتبر السورة التاسعة فى النزول من بين السور المكية .

قال الإمام الشوكانى . وهى مكية عند الجمهور ، فعن ابن عباس قال : نزلت سورة و « الليل إذا يغشى » بمكة . وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله ..

وفى رواية عن ابن عباس أنه قال : إنى لأقول إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل ..[1] .

٢ - وحقا ما قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - ، فإن السورة الكريمة ، قد احتوت على بيان شرف المؤمنين ، وفضائل أعمالهم ، ومذمة المشركين ، وسوء فعالهم ، وأنه - تعالى - قد أرسل رسوله للتذكير بالحق ولإنذار المخالفين عن أمره - تعالى - أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

---

(١) راجع تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٥١ ، للشوكانى .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣)
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ
(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤)
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن
نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)

أقسم الله - سبحانه - فى افتتاح هذه السورة بثلاثة أشياء ، على أن أعمال الناس مختلفة .

أقسم - أولا - بالليل فقال : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ أى : وحق الليل إذا يغشى النهار ، فيغطى ضياءه ، ويذهب نوره ، ويتحول الكون معه من حالة إلى حالة ، إذ عند حلول الليل يسكن الخلق عن الحركة ، ويأوى كل إنسان أو حيوان إلى مأواه ، ويستقبلون النوم الذى فيه ما فيه من الراحة لأبدانهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا ﴾ .

وأقسم - ثانيا - بالنهار فقال : ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أى : وحق النهار حين ينكشف ويظهر ، ويزيل الليل وظلمته ، ويخرج الناس معه ليباشروا أعمالهم المتنوعة .

وأقسم - ثالثا - بقوله : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ و« ما » هنا يصح أن تكون موصولة ، بمعنى الذى ، فيكون - سبحانه - قد أقسم بذاته ، وجاء التعبير بما ، للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخيم .

فكأنه - تعالى - يقول : وحق الخالق العظيم ، الذى لا يعجزه شىء ، والذى خلق نوع الذكور ، ونوع الإناث من ماء واحد .

ويصح أن تكون « ما » هنا حرفا مصدريا ، فيكون المعنى : وحق خَلْقِ الذكر والأنثى ، وعليه يكون - سبحانه - قد أقسم بفعل من أفعاله التى تدل على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، حيث أوجد الذكور والإناث من ماء واحد ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ وحيث وهب - سبحانه - الذكور لمن يشاء ، ووهب الإناث لمن يشاء ، وجعل العقم لمن يشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هو جواب القسم . وشتى جمع شتيت . مثل : جريح وجرحى ، ومريض ومرضى . والشىء الشتيت : هو المتفرق المتناثر بعضه عن بعض ، من الشتات بمعنى الابتعاد والافتراق .

والمعنى : وحق الليل إذا يغشى النهار فيستر ضياءه ، وحق النهار إذا تجلى وأسفر وأزال الليل وظلامه ، وحق الخالق العظيم القادر الذى أوجد الذكور والإناث .

وحق كل ذلك ، إن أعمالكم ومساعيكم - أيها الناس - فى هذه الحياة ، لهى ألوان شتى ، وأنواع متفرقة ، منها الهدى ومنها الضلال ، ومنها الخير ، ومنها الشر ، ومنها الطاعة ، ومنها المعصية .. وسيجازى - سبحانه - كل إنسان على حسب عمله .

وحذف مفعول « يغشى » للتعميم ، أى يغشى كل شىء ويواريه بظلامه .

وأسند - سبحانه - التجلى إلى النهار ، على سبيل المدح له بالاستنارة والإسفار .

والمراد بالسعى : العمل . وقوله « سعيكم » مصدر مضاف فيفيد العموم فهو فى معنى الجمع أى : إن مساعيكم لمتفرقة .

قال القرطبى : السعى : العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها ، يدل عليه قوله - ﷺ - : « الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٨٢ .

ثم فصل - سبحانه - ما أجمله فى قوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ فقال : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ والحسنى تأنيث الأحسن ، وهى صفة لموصوف محذوف .

أى : ﴿ فأما من أعطى ﴾ حق الله - تعالى - ، بأن أنفق من ماله فى وجوه الخير : كإعتاق الرقاب ، ومساعدة المحتاجين .. ﴿ واتقى ﴾ المحارم والمعاصى ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى : وأيقن بالخصلة الحسنى ، وهى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، أو أيقن بالملة الحسنى ، وهى ملة الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة .

﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ أى : فسنهيئه للخصلة التى توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال ، بأن نوفقه لأداء الأعمال الصالحة التى تؤدى إلى السعادة .

وحذف مفعول « أعطى واتقى » للعلم بهما ، أى : أعطى ما كلفه الله - تعالى - به ، واتقى محارمه .

﴿ وأما من بخل ﴾ بماله فلم يؤد حقوق الله - تعالى - فيه ، ولم يبذل شيئا منه فى وجوه البر . ﴿ واستغنى ﴾ أى : واستغنى عن ثواب الله - تعالى - ، وتطاول على الناس بماله وجاهه ، وآثر متع الدنيا على نعيم الآخرة ... ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى : وكذب بالخصلة الحسنى التى تشمل الإيمان بالحق ، وبيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء .

﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أى : فسنهيئه للخصلة التى توصله إلى العسر والمشقة والشدة ، بأن نجعله بسبب سوء اختياره ، يؤثر الغى على الرشد ، والباطل على الحق ، والبخل على السخاء ، فتكون عاقبته فرطا ، ونهايته الخسران والبوار .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ، وقد وصفت المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هى جماع كل خير ، وأساس جميع الفضائل : وصفهم بالسخاء ، وبالخوف من الله - تعالى - ، وبالتصديق بكل ما يجب التصديق به ، ورتب على ذلك توفيقهم للخصلة الحسنى .. التى تنتهى بهم إلى الفوز والسعادة .

ووصف - أيضا - أهل الفسوق والفجور بثلاث صفات ، هى أساس البلاء ، ومنبع الفساد ، ألا وهى : البخل ، والغرور ، والتكذيب بكل ما يجب الإيمان به .. ورتب - سبحانه - على ذلك تهيئتهم للخصلة العسرى ، التى توصلهم إلى سوء المصير ، وشديد العقاب ..

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، جملة من الأحاديث الشريفة ، فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أى : لطريق الشر ، كما قال - تعالى - : ﴿ وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، ودالة على أن الله يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر ، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة .

منها : ماأخرجه البخارى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - فى بقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ، ومقعده من النار » فقالوا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى ...﴾ إلى قوله : ﴿ للعسرى ﴾[1] .

و« ما » فى قوله - سبحانه - : ﴿ وما يغنى عنه ما له إذا تردى ﴾ يجوز أن تكون نافية . والتردى : السقوط من أعلى إلى أسفل . يقال : تردى فلان من فوق الجبل ، إذا سقط من أعلاه إلى أسفله . والمراد به هنا : النزول إلى القبر بعد الموت ، أو السقوط فى النار بسبب الكفر والفسوق والعصيان ، من الردى بمعنى الهلاك .

أى : ولا يغنى شيئا عن هذا الشقى الذى بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، ماله وجاهه وكل ما كان يملكه فى الدنيا ، إذا سقط يوم القيامة فى النار .

ويجوز أن تكون « ما » استفهامية : ويكون الاستفهام المقصود به الإنكار والتوبيخ ، أى : وماذا يغنى عن هذا الشقى ماله بعد هلاكه ، وبعد ترديه فى جهنم يوم القيامة ؟ إنه لن يغنى عنه شيئا ماله الذى بخل به فى الدنيا ، بل سيهوى فى جهنم دون أن يشفع له شافع ، أو ينصره ناصر ، وصدق الله إذْ يقول : ﴿ ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ﴾ . وإذ يقول : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ...﴾ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أنه قد أعذر إلى عباده ، حيث وضح لهم طريق الخير وطريق الشر ، وكشف لهم عن حسن عاقبة من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، وسوء عاقبة من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فقال - تعالى - : ﴿ إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ . أى : إن علينا - بمقتضى حكمتنا ورحمتنا بعبادنا - أن نبين لهم طريق الحق ، وطريق الباطل ، بواسطة رسلنا ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن فينال الثواب ، ومن شاء بعد ذلك

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٠ .

فليكفر فيحل به العقاب ، لأننا نجازى كل إنسان على حسب عمله ، بعد أن هديناه النجدين ، وأرشدناه إلى سبيل الرشد وسبيل الغى .

وإن لنا وحدنا كل ما فى الدنيا ، وكل ما فى الآخرة . إذ الخلق والأمر بيدنا ، والعطاء والمنع لا يملكه أحد سوانا ، وهذا الكون كله تحت تصرفنا وقدرتنا .

والفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى ﴾ للإفصاح عن مقدر ، لأنها تدل على مراعاة مضمون الكلام الذى قبلها ، وتأتى بعده بما يفصله ويزيده وضوحا ..

وقوله : ﴿ تلظى ﴾ أى : تتوقد وتتوهج وتلتهب ، وأصله تتلظى ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من حسن عاقبة من أعطى واتقى ، ومن سوء عاقبة من بخل واستغنى ، ومن أن كل شىء تحت قدرتنا وتصرفنا .. فأكون بذلك قد حذرتكم من عذاب عظيم يوم القيامة ، وخوفتكم من السقوط فى نار عظيمة تلتهب وتتوقد ، وهذه النار ﴿ لا يصلاها ﴾ أى : لا يحترق بها ﴿ إلا الأشقى ﴾ أى : من اشتد شقاؤه بسبب إصراره على كفره وفجوره .

وقوله - تعالى - : ﴿ الذى كذب وتولى ﴾ صفة لهذا الشقى ، لزيادة التشنيع عليه ، والذم له . أى : سيحترق بهذه النار هذا الإنسان الذى بلغ الغاية فى الشقاء والتعاسة ، والذى من صفاته أنه كذب بالحق ، وأعرض عن الطاعة . وسار فى طريق الكفر والجحود ، حتى أدركه الموت ، وهو على ذلك .

وكعادة القرآن الكريم فى المقابلة بين الأشرار والأخيار ، وبين السعداء والأشقياء ، جاء الحديث بعد ذلك عن حال الأتقياء ، فقال - تعالى - ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ أى : وسيبتعد عن هذه النار المتأججة الأتقى ، وهو من بالغ فى صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وحرص كل الحرص على فعل ما يرضيه - عز وجل - .

فالمراد بالأشقى والأتقى : الشديد الشقاء ، والشديد التقوى .

والتعبير بقوله : ﴿ وسيجنبها ﴾ يشعر بابتعاده عنها ابتعادا تاما ، بحيث تكون النار فى جانب ، وهذا الأتقى فى جانب آخر ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لايسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ .

والفعل « جنب » يتعدى إلى مفعولين ، أولهما هنا هو لفظ الأتقى ، الذى ارتفع على أنه نائب فاعل ، والمفعول الثانى هو الهاء .

ثم وصف - سبحانه - هذا الإنسان المبالغ فى تقواه وطاعته لربه فقال : ﴿ الذى يؤتى

ماله يتزكى ﴾ أى : هذا الإنسان الشديد التقوى من صفاته أنه يقدم ماله لغيره ، وينفقه فى وجوه البر والطاعة ، رجاء أن يكون عند ربه زاكيا ناميا ، خاليا من شبهة الرياء والتفاخر ، وأملا فى أن يتطهر به من الذنوب .

فقوله ﴿ يتزكى ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿يؤتى ﴾ أى : يؤتى ماله حال كونه لا يطلب من وراء ذلك إلا تزكية ماله ، وتطهير نفسه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ بيان لبلوغه أسمى درجات الإخلاص والنقاء .

أى : أن هذا الانسان الكامل فى تقاه لا يفعل ما يفعل من وجوه الخيرات ، من أجل المجازاة لغيره على نعمة سلفت من هذا الغير له ، وإنما يفعل ما يفعل من أجل شىء واحد ، وهو طلب رضا الله - تعالى - والظفر بثوابه ، والإخلاص لعبادته - سبحانه - .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع من قوله : ﴿ من نعمة ﴾ لأن الابتغاء لا يندرج فيها ، فالمعنى : لكنه فعل ذلك لابتغاء وجه ربه - سبحانه - وطلب رضاه ، لا لمكافأة لأحد على نعمة .

وجوز أن يكون نصبه على أنه مفعول لأجله ، أى : لا يؤتى ماله لأجل شىء من الأشياء إلا لأجل طلب رضا ربه ، لا لأجل شىء آخر ، فهو استثناء مفرغ من أعم العلل والأسباب ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ المقصود به الوعد الصادق لهذا التقى ، بما يزيد فى سروره ، وفى قرة عينه .

أى : ولسوف نعطى هذا التقى الذى أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، من أجل الظفر برضا ربه - تعالى - لا من أجل شىء آخر .. لسوف نعطيه عطاء يرضيه ويسعده ويشرح صدره .

هذا ، وأكثر المفسرين على أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : وذكر أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق .. فقد كان يعتق العجائز من النساء إذا أسلمن ، ويشترى الضعفة من العبيد فيعتقهم ، فقال له أبوه : يابنى ، أراك تعتق أناسا ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جلداء - أى : أشداء - يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٥٢ .

فقال أبو بكر : أى أبت .. إنما أريد ما عند الله ، فنزلت هذه الآيات ..[١] .

وقال الإمام ابن كثير : وقد ذكر غير واحد من المفسرين ، أن هذه الآيات قد نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولاشك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ...﴾ ولكنه مقدم الأمة ، وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف ، وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقا ، تقيا ، كريما ، جوادا ، بذالا لماله في طاعة مولاه ، ونصرة رسوله - ﷺ - ..[٢] .

نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا جميعا فى زمرة عباده الأتقياء الأنقياء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الاربعاء ١٨ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٤٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة والضحى

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الضحى » من السور المكية الخالصة ، بل هى من أوائل السور المكية ، فقد كان نزولها بعد سورة « الفجر » وقبل سورة « الانشراح » ، وتعتبر بالنسبة لترتيب النزول السورة الحادية عشرة من بين السور المكية ، أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة الثالثة والتسعون ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية .

٢ - والقارىء لها ، يرى بوضوح أنها نزلت فى فترة تأخر نزول الوحى فيها على النبى - ﷺ - وأن المشركين قد أشاعوا الشائعات الكاذبة حول سبب تأخر الوحى ، فنزلت هذه السورة الكريمة ، لتخرس ألسنتهم . ولتبشر النبى - ﷺ - برضا ربه - تعالى - عنه ، ولتسوق جانبا من نعم خالقه عليه ، ولترشده - بل وترشد أمته فى شخصه - بالمداومة على مكارم الأخلاق ، التى من مظاهرها : العطف على اليتيم ، والإحسان إلى السائل ، وعدم كتمان نعم الله - تعالى - .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه السورة الكريمة روايات منها : ما أخرجه الإمام البخارى ومسلم وغيرهما عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله - ﷺ - فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة - وفى رواية أنها أم جميل امرأة أبى لهب - فقالت : يامحمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله - تعالى - : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وماقلى ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه ، من حديث خولة ، وكانت تخدم النبى - ﷺ - أن جروا دخل تحت سرير رسول الله - ﷺ - فمات ، فمكث النبى - ﷺ - أياما لا ينزل عليه الوحى ، فقال - ﷺ - ياخولة ماذا حدث فى بيتى ، إن جبريل لا يأتينى ، قالت خوله : فقلت يانبى الله ما أتى علينا يوم خير منّا اليوم . فأخذ برده فلبسه ، وخرج ، فقلت فى نفسى لو هيأت البيت وكنسته ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فإذا بشىء ثقيل ، لم أزل به حتى بدا لى الجرو ميتا ، فأخذته بيدى ، فألقيته خلف الدار ، فجاء - ﷺ - ترعد لحيته - وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته الرعدة - فقال ياخولة دثرينى ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة ..

وذكر بعضهم : أن جبريل - عليه السلام - أبطأ فى نزوله على النبى - ﷺ - ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودعه . فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات ..[١] .

والضحى : هو وقت ارتفاع الشمس بعد إشراقها ، وهو وقت النشاط والحركة ، والإقبال على السعى والعمل .. ولذا خص بالقسم به . وقيل : المراد بالضحى هنا : النهار كله ، بدليل أنه جعل فى مقابلة الليل كله .

والأول أولى : لأن الضحى يطلق على وقت انتشار ضياء الشمس حين ترتفع ، وتلقى بأشعتها على الكون ، ويبرز الناس لأعمالهم المتنوعة .

ومعنى « سجا » : سكن . يقال : سجا الليل يسجو سجوا ، إذا سكن وهدأ وأسدل ظلامه على الكون . ويقال : تسجَّى فلان بملابسه ، إذا غطى بها جميع جسده ، ومنه قولهم : سُجِّى الميت تسجية ، إذا غطى بكفنه ..

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ سجى ﴾ أى : سكن وركد ظلامه . وقيل : ليلة ساجية . أى : ساكنة الريح : وقيل معناه : سكون الناس والأصوات فيه . وسجا البحر : سكنت أمواجه . وطرف ساج ، أى : ساكن فاتر ..[٢] .

أى : وحق الضحى وهو الوقت الذى ترتفع فيه الشمس ، ويتم إشراقها ، ويأخذ الناس فى النشاط والحركة .. وحق الليل إذا سكن وهجع فيه الناس بعد عناء العمل .

وجواب القسم قوله - تعالى - : ﴿ماودعك ربك وما قلى﴾ أى: ما تركك ربك - أيها الرسول الكريم - منذ أن اختارك لحمل رسالته ، وما أبغضك ولا كرهك ، بل أنت محل رضانا ومحبتنا ورعايتنا ..

فقوله : ﴿ ودعك ﴾ من التوديع ، وهو فى الأصل الدعاء للمسافر ، ببلوغ الدعة ، وخفض العيش ، ثم استعير للمفارقة بعد الاتصال ، تشبيها بفراق المسافر فى انقطاع الصلة ، حيث شبه - سبحانه - انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة .

والمقصود : نفى أن يكون الله - تعالى - قد قطع وحيه عن نبيه - ﷺ - .

وقوله : ﴿ قلى ﴾ من القِلَا - بكسر القاف - وهو شدة البغض ، يقال : قلا فلان فلانا يقليه ، إذا كرهه وأبغضه بشدة . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إنى لعملكم من القالين ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٥٦ ، وتفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٦٥ .

والمراد ما قطع الله - تعالى - عنك وحيه - أيها الرسول الكريم - ، وما كرهك ، وهذا رد بليغ على المشركين الذين زعم بعضهم أن الله - تعالى - قد ترك نبيه ، وزعم آخرون أنه قد أبغضه ، وحذف مفعول « قلا » للدلالة عليه فى قوله - تعالى - ﴿ ماودعك ﴾ ، وهو إيجاز لفظى لظهور : المحذوف ، ومثله قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فآوى ﴾ ، ﴿ فهدى ﴾ ، ﴿ فأغنى ﴾ ..

ثم بشره - سبحانه - ببشارتين عظيمتين ، قد بلغتا الدرجة العليا فى السمو والرفعة ، فقال : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

أى : وللدار الآخرة وما أعده الله لك فيها من نعيم لا يحيط به وصف ، خير لك من دار الدنيا التى أعطيناك فيها ما أعطيناك فيها من نبوة ، وكرامة ومنازل عالية ، وخلق كريم .

وفضلا عن كل ذلك فأنت - أيها الرسول الكريم - سوف يعطيك ربك من خيرى الدنيا والآخرة ، كل ما يسعدك ويرضيك ، من نصر عظيم ، وفتح مبين ، وتمكين فى الأرض ، وإعلاء لكلمة الحق على يدك ، وعلى أيدى أصحابك الصادقين ، ومنازل عظمى فى الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - ، كالمقام المحمود ، والشفاعة ، والوسيلة ... وبذلك ترضى رضاء تاما بما أعطاك - سبحانه - من نعم ومنن .

فالمراد بالآخرة : الدار الآخرة التى تقابل الدار الأولى ، وهى الحياة الدنيا ، وبعضهم جعل المراد بالآخرة ، نهاية أمره - ﷺ - فى هذه الدنيا ، والمراد بالأولى بداية أمره - ﷺ - فى هذه الدنيا ، فيكون المعنى : ولنهاية أمرك - أيها الرسول الكريم - خير من بدايته ، فإن كل يوم يمضى من عمرك ، سيزيدك الله - تعالى - فيه ، عزا على عز ، ونصرا على نصر ، وتأييدا على تأييد .. حتى ترى الناس وقد دخلوا فى دين الله أفواجا .. وقد صدق الله - تعالى - لنبيه وعده حيث فتح له مكة ، ونشر دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها .

قال الآلوسى : وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا ، والأولى على الدار الأولى وهى الدنيا ، هو الظاهر .. وقال بعضهم : يحتمل : أن يراد بهما نهاية أمره - ﷺ - وبدايته ، فاللام فيهما للعهد ، أو عوض عن المضاف إليه . أى : لنهاية أمرك خير من بدايته ، فأنت لاتزال تتزايد قوة ، وتتصاعد رفعة ..[1] .

وجىء بحرف الاستقبال فى قوله - تعالى - : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٥٨ .

وحذف المفعول الثانى فى قوله : ﴿ يعطيك ﴾ ، ليعم كل وجوه العطاء التى يحبها - ﷺ - أى : ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاء تاما .

والتعبير بقوله ﴿ فترضى ﴾ المشتمل على فاء التعقيب ، للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع ، وأنه سيأتى إليه - ﷺ - فى وقت قريب ، وقد أنجز - سبحانه - وعده .

قال الجمل : وقوله - سبحانه - : ﴿ وللآخرة ﴾ اللام فيه للابتداء مؤكدة لمضمون الجملة . وإنما قيد بقوله - تعالى - ﴿ لك ﴾ لأنها ليست خيرا لكل أحد . وقوله : ﴿ ولسوف يعطيك ...﴾ هذا وعد شامل لما أعطاه الله - تعالى - له من كمال النفس ، وظهور الأمر ، وإعلاء الدين .. واللام لام الابتداء ، والمبتدأ محذوف ، أى : ولأنت سوف يعطيك ربك ، وليست لام القسم ، لأنها لا تدخل على المضارع ، إلا مع نون التوكيد ..[١] .

ثم عدد - سبحانه - نعمه على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ..﴾ .
والاستفهام هنا للتقرير ، واليتيم : هو من فقد أباه وهو صغير .

أى : لقد كنت - أيها الرسول الكريم - يتيما ، حيث مات أبوك وأنت فى بطن أمك ، فآواك الله - تعالى - بفضله وكرمه ، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته ، وسخر لك جدك عبد المطلب ليقوم بكفالتك ، ومن بعده سخر لك عمك أبا طالب ، حيث تولى رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها ، إلى أن مات .

وقوله - تعالى - ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ بيان لنعمة أخرى أنعم - سبحانه - بها على نبيه - ﷺ - :

وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل ، نختار منه قولين : أولهما : أن المراد بالضلال هنا الحيرة فى الوصول إلى الحق ، والغفلة عما أوحاه الله - تعالى - إليه بعد ذلك من قرآن كريم ، ومن تشريعات حكيمة .. مع اعتقاده - ﷺ - قبل النبوة أن قومه ليسوا على الدين الحق ، بدليل أنه لم يشاركهم فى عبادتهم للأصنام ، ولا فى السلوك الذى يتنافى من مكارم الأخلاق .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : ﴿ ضالا ﴾ معناه : الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع ..[٢] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٥١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٦٨ .

وقال الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : نشأ - ﷺ - موحدا ، لم يسجد لصنم ، وطاهر الخلق ، لم يرتكب فاحشة ، حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين ، فضلال الشرك ، وضلال الهوى فى العمل ، كانا بعيدين عن ذاته الكريمة .

ولكن للضلال أنواع أخر ، منها : اشتباه المآخذ على النفس ، حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغى أن تختار .. وهذا هو الذى عناه الله - تعالى - بالضلال فى هذه الآية الكريمة .

وقد هداه - سبحانه - إلى الحق بعد هذه الحيرة ، بأن اختار له دينا قويما وعلمه كيف يرشد قومه . هذا هو معنى قوله - تعالى - : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ ، وهو معنى قوله - تعالى - فى سورة الشورى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ...﴾ .

وليس فى وصف النبى - ﷺ - بالضال على هذا المعنى شين له ، أو حط من شأنه ، بل هذا فخره وإكليل مجده - ﷺ - حيث كان على غير علم فعلمه الله ، ولم يكن مطلعا على الغيب ، فأطلعه الله على ما يريد إطلاعه عليه ، وبهذا التفسير تستغنى عن خلط المفسرين فى التأويل ..[1] .

أما القول الثانى فى معنى الآية الكريمة ، فهو أنه - ﷺ - كان بين قوم مشركين ، وكان بعرضة أن يضل معهم ، ولكن الله - تعالى - حبب إليه الانفراد عنهم ، واعتزال شركهم وسوء أخلاقهم .. فكان بذلك كالشجرة المنفردة فى الصحراء ، والعرب تسمى الشجرة التى بهذه الصفة ضالة .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ أى : غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك ، أى : أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة .

وقال قوم : ﴿ ضالا ﴾ أى : لم تكن تدرى القرآن الكريم والشرائع ، فهداك الله إليهما .

وقال قوم ﴿ ضالا ﴾ أى : وجدك فى قوم ضلال فهداهم الله - تعالى - بك ، والعرب إذا وجدت شجرة منفردة فى فلاة من الأرض ، لا شجر معها ، سموها ضالة ، فيهتدى بها إلى الطريق ، فقال - سبحانه - لنبيه ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ أى : لا أحد على دينك ، وأنت وحيد ليس معك أحد ، فهَدَيْتُ بك الخلق إلى دينى ..[2] .

هذا هما القولان اللذان نرتاح إليهما ، وارتياحنا إلى أولهما أشد وأقوى ؛ لأن الرسول

---

(١) راجع تفسير جزء عم جـ ٨٥ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٩٦ .

- ﷺ - قد نشأ فى بيئة منحرفة فى عقائدها وأخلاقها ، لم تطمئن نفسه الكريمة إليها ، إلا أنه كان حائرا فى الوصول إلى الدين الحق ، فهداه الله - تعالى - إليه ، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه ، منة عظمى ، ونعمة كبرى .

وهناك أقوال أخرى ضعيفة كقولهم : ﴿ ضالا ﴾ أى : عن القبلة فهداك الله إليها ، أو ﴿ ضالا ﴾ فى شعاب مكة ، فهداك الله وردك إلى عمك أو ﴿ ضالا ﴾ فى سفرك مع عمك إلى الشام ، فردك الله - تعالى - إليه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - على نبيه - ﷺ - .

وأصل العائل : الإنسان الذى له عائلة لا يستطيع الإنفاق عليها ، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الفقير حتى ولو لم تكن له عائلة أو أسرة ، والفقر يسمى عيلة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ - أى : فقرا - ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ... ﴾ .

أى : وقد كنت - أيها الرسول الكريم - فقيرا ، حيث مات أبوك دون أن يترك لك مالا كثيرا ، ونشأت فى كنف جدك ثم عمك ، وأنت على هذه الحال . ثم أغناك الله - تعالى - بفضله وكرمه بنوعين من الغنى :

أما أولهما - وهو الأعظم - : فهو غنى النفس ، بأن منحك نفسا عفيفة قانعة بما أعطاك - سبحانه - من رزق ، حتى ولو كان كفافا .

وأما ثانيهما : فهو الغنى المادى عن الاحتياج إلى الناس ، بما أجراه على يديك من الربح فى التجارة ، وبما وهبتك زوجك خديجة من مالها ، فعشت مستور الحال ، غير محتاج إلى من ينفق عليك .

وهكذا نجد الآيات الكريمة تبين لنا أن من فضل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - أنه آواه فى يتمه وصغره ، وهداه من ضلاله وحيرته ، وأغناه بعد فقره وحاجته .

وبعد أن عدد - سبحانه - هذه النعم لنبيه - ﷺ - أمره بشكرها ، وأداء حقوقها .

فقال - تعالى - : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ... ﴾ والقهر : التغلب على الغير والإذلال له .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرتك من أنك كنت يتيما فآويناك ، وكنت ضالا فهديناك ، وكنت فقيرا فأغنيناك ، فتذكر هذه النعم ، واشكر ربك عليها ، ومن مظاهر هذا الشكر : أن تواسى اليتيم ، وأن تكرمه . وأن تكون رفيقا به .. ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام ويذلونهم ويظلمونهم ..

ولقد استجاب النبى - ﷺ - لما أمره ربه به ، فأكرم اليتامى ورعاهم ، وحض على ذلك فى أحاديث كثيرة منها قوله - ﷺ - : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وأشار - ﷺ - بأصبعيه السبابة والوسطى .

ومن الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ... ﴾ .

وقد تكرر الأمر برعاية اليتيم ، وبالمحافظة على ماله فى مطلع سورة النساء خمس مرات قال - تعالى - : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ... ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ...﴾ وقال - عز وجل - : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح .. ﴾ ، وقال سبحانه - : ﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه واكسوهم ... ﴾ وقال - تعالى - : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ..﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ معطوف على ما قبله . أى : وكما أننا قد هديناك بعد حيرة .. فاشكر نعمنا على ذلك ، بأن تفتح صدرك للسائل الذى يسألك العون ، أو يسألك معرفة مايجهله من علم . فالمراد بالسائل ، ما يشمل كل سائل عن مال ، أو عن علم ، أو عن غير ذلك من شئون الحياة .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أى : لا تزجره ، فهو نهى عن إغلاظ القول .. وروى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ردوا السائل ببذل يسير ، أو رد جميل .. » .

وفى حديث أبى هارون العبدى قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى يقول : مرحبا بوصية رسول الله - ﷺ - ، إن رسول الله قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا .. »[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والتحديث بالشىء : الإخبار به ، والحديث عنه ، أى : وكما كنت عائلا فأغنيناك بفضلنا وإحساننا ، فاشكرنا على ذلك ، بأن تظهر نعمنا عليك ولا تسترها ، وأذعها بين الناس ، وأمر أتباعك أن يفعلوا ذلك ، ولكن بدون تفاخر أو مباهاة .. فإن ذكر النعم على سبيل الرياء والتفاخر والتطاول على الغير .. يبغضه الله - تعالى - ، ويعاقب صاحبه عقابا أليما .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٠١ .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أى : وكما كنت عائلا فقيرا فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء : « واجعلنا شاكرين لنعمتك . مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » . وعن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يُحَدَّثَ بها . وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس ، لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب .. »[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر ثلاث نعم مما أنعم به على نبيه - ﷺ - وأرشده إلى كيفية شكرها . نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الشاكرين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٠ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ .

٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٩ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الشرح

مقدمة وتمهيد

١ - هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وتسمى : سورة « الشرح » وسورة « ألم نشرح » وسورة « الانشراح » ، وترتيبها فى النزول ، الثانية عشرة ، وكان نزولها بعد سورة الضحى ، وقبل سورة « العصر » . وعدد آياتها ثمانى آيات .

٢ - وكما عدد الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بعض نعمه العظيمة عليه فى سورة الضحى ، جاءت سورة الشرح ، لتسوق نعما أخرى منه - تعالى - عليه - ﷺ - حاثا إياه على شكره ، ليزيده منها .

التفسـير

فقال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ للتقرير لأنه إذا دخل على النفى قرره ، وهذا التقرير المقصود به التذكير ، حتى يداوم على شكره - تعالى - .

وأصل الشرح : البسط للشىء وتوسعته ، يقال : شرح فلان الشىء ، إذا وسعه ، ومنه شرح فلان الكتاب ، إذا وضحه ، وأزال مجمله ، وبسط ما فيه من غموض .

والمراد بشرح الصدر هنا : توسعته وفتحه ، لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية . وإذهاب كل ما يصد عن الإدراك السليم وعن الحق والخير والهدى .

وهذا الشرح ، يشمل الشق البدنى لصدره - ﷺ - كما يشمل الشرح المعنوى لصدره - ﷺ - عن طريق إيداعه الإيمان والهدى والعلم والفضائل .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ يعنى : أما شرحنا لك صدرك . أى : نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا ، كقوله ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ...﴾ ، وقيل المراد بقوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة .. وهذا وإن كان واقعا ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره - ﷺ - الذى فعل بصدره ليلة الإسراء ، ما نشأ عنه من الشرح المعنوى - أيضا - ..[1] .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥١ .

والمعنى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك شرحا عظيما ، بأن أمرنا ملائكتنا بشقه وإخراج ما فيه مما يتنافى مع ما هيأناك له من حمل رسالتنا إلى الناس ، وبأن أودعنا فيه من الهدى والمعرفة والإيمان والفضائل والحكم .. ما لم نعطه لأحد سواك .

ونون العظمة فى قوله - سبحانه - ﴿ نشرح ﴾ تدل على عظمة النعمة ، من جهة أن المنعم العظيم ، إنما يمنح العظيم من النعم ، وفى ذلك إشارة الى أن نعمة الشرح ، مما لا تصل العقول إلى كنه جلالتها .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لك ﴾ للتعليل ، وهو يفيد أن ما فعله الله - تعالى - به ، إنما هو من باب تكريمه ، ومن أجل تشريفه وتهيئته لحمل رسالته العظمى إلى خلقه ، فمنفعة هذا الشرح إنما تعود إليه وحده - ﷺ - لا إلى غيره .

قال الإمام الرازى : فإن قيل : لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب ؟ فالجواب أن محل الوسوسة هو الصدر ، كما قال - تعالى - : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ ، فإزالة تلك الوسوسة ، وإبدالها بدواعى الخير ، هى الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب .

قال محمد بن على الترمذى : القلب محل العقل والمعرفة ، وهو الذى يقصده الشيطان ، فالشيطان يجىء إلى الصدر الذى هو حصن القلب ، فإذا وجد مسلكا أغار فيه ، وبث فيه الهموم ، فيضيق القلب ، ولا يجد للطاعة لذة ، وإذا طرد العدو فى الابتداء ، حصل الأمن ، وانشرح الصدر ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على نبيه - ﷺ - .

والمراد بالوضع هنا : الإزالة والحط ، لأن هذا اللفظ إذا عدى بعن كان للحط والتخفيف ، وإذا عدى بعلى كان للحمل والتثقيل .

تقول : وضعت عن فلان قيده : إذا أزلته عنه ، ووضعته عليه : إذا حملته إياه .

والوزر : الحِمْل الثقيل، و﴿ أنقض ظهرك ﴾ أى : أثقله وأوهنه وأتعبه ، حتى سمع له نقيض ، وهو الصوت الخفى الذى يسمع من الرَّحْل الكائن فوق ظهر البعير ، إذا كان هذا الرحل ثقيلا ، ولا يكاد البعير يحمله إلا بمشقة وعسر .

والمعنى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك ، وأزلنا عنك ما أثقل ظهرك

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٤٢٨ .

من أعباء الرسالة ، وعصمناك من الذنوب والآثام ، وطهرناك من الأدناس ، فصرت - بفضلنا وإحساننا - جديرا بحمل هذه الرسالة ، بتبليغها على أكمل وجه وأتمه .

فالمراد بوضع وزره عنه - ﷺ - مغفرة ذنوبه ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قوله - تعالى - : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ بمعنى ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ .

وقال غير واحد من السلف فى قوله : ﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ أى : أثقلك حمله ..[١] .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بوضع وزره عنه - ﷺ - : إزالة العقبات التى وضعها المشركون فى طريق دعوته ، وإعانته على تبليغ الرسالة على أكمل وجه ، ورفع الحيرة التى كانت تعتريه قبل النبوة .

قال بعض العلماء : وقد ذكر جمهرة المفسرين أن المراد بالوزر فى هذه الآية : الذنب ، ثم راحوا يتأولون الكلام ، ويتمحلون الأعذار ، ويختلفون فى جواز ارتكاب الأنبياء للمعاصى ، وكل هذا كلام ، ولاداعى إليه ، ولا يلزم حمل الآية عليه .

والمراد - والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم - بالوزر : الحيرة التى اعترته - ﷺ - قبل البعثة ، حين فكر فيما عليه قومه من عبادة الأوثان . وأيقن بثاقب فكره أن للكون خالقا هو الجدير بالعبادة ، ثم تحير فى الطريق الذى يسلكه لعبادة هذا الخالق ، ومازال كذلك حتى أوحى الله إليه بالرسالة فزالت حيرته . ولما دعا قومه إلى عبادة الله ، وقابلوا دعوته بالإعراض .. ثقل ذلك عليه ، وغاظه من قومه أن يكذبوه .. وكان ذلك حملا ثقيلا .. شق عليه القيام به .

فليس الوزر الذى كان ينقض ظهره ، ذنبا من الذنوب .. ولكنه كان هما نفسيا يفوق ألمه ، ألم ذلك الثقل الحسى .. فلما هداه الله - تعالى - إلى إنقاذ أمته من أوهامها الفاسدة .. كان ذلك بمثابة رفع الحمل الثقيل ، الذى كان ينوء بحمله . لا جرم كانت هذه الآية واردة على سبيل التمثيل ، واقرأ إن شئت قوله - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[٢] .

ويبدو لنا أن هذا القول الثانى ، هو الأقرب إلى الصواب . لأن الكلام هنا ليس عن الذنوب التى ارتكبها النبى - ﷺ - قبل البعثة - كما يرى بعض المفسرين - وإنما الكلام هنا عن النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليه والتى من مظاهرها توفيقه للقيام بأعباء الرسالة ، وبإقناع كثير من الناس بأنه على الحق ، واستجابتهم له - ﷺ - .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٨ .
(٢) تفسير (جزء عم) ص ٢٤٢ للشيخ محيى الدين عبد الحميد - رحمه الله - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - على نبيه - ﷺ - . أى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك ، وأزلنا عن قلبك الحيرة التى كانت تعتريك قبل تبليغ الرسالة وبعد تبليغها ، بأن يسرنا لك كل صعب .

وفوق ذلك فقد رفعنا لك ذكرك ، بأن جعلناك رفيع الشأن ، سامى المنزلة ، عظيم القدر ، ومن مظاهر ذلك : أننا جعلنا اسمك مقرونا باسمنا فى النطق بالشهادتين .

وفى الأذان ، وفى الإقامة ، وفى التشهد ، وفى غير ذلك من العبادات ، وأننا فضلناك على جميع رسلنا ، بل على جميع الخلق على الإطلاق ، وأننا أعطيناك الشفاعة العظمى ، وجعلنا طاعتك من طاعتنا .

قال الآلوسى : أخرج أبو يعلى ، وابن جرير .. عن أبى سعيد الخدرى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « أتانى جبريل فقال لى : إن ربك يقول : أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله - تعالى - أعلم . قال : « إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معى » .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه النعم الجليلة ، ما يدخل السرور على قلبه - ﷺ - وما يبعث الأمل فى نفسه وفى نفوس أصحابه ، بأن بين لهم سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾ .

والفاء للإفصاح ، ومع بمعنى بَعْد ، وأل فى العسر لاستغراق أنواع العسر المعروفة للمخاطبين . من فقر ، وضعف ، وقلة فى الوسائل التى تؤدى إلى إدراك المطلوب . والجملة الثانية مؤكدة ومقررة للجملة الأولى . والتنكير فى قوله ﴿ يسرا ﴾ للتفخيم .

والمعنى : إذا تقرر عندك ما أخبرناك به ، من شرح الصدر ، ووضع الوزر . ورفع الذكر .. فاعلم أنه ما من عسر إلا ويعقبه يسر ، وما من شدة إلا ويأتى بعدها الفرج ، وما من غم أو هم ، إلا وينكشف ، وتحل محله المسرة .. وما دام الأمر كذلك ، فتذرع أنت وأصحابك بالصبر ، واعتصموا بالتوكل على الله ، فإن العاقبة لكم .

ففى هاتين الآيتين مافيهما من تسلية للنبى - ﷺ - ولأتباعه ، ومن وعد صادق بأن كل صعب يلين ، وكل شديد يهون ، وكل عسير يتيسر . متى صبر الإنسان الصبر الجميل ، وتسلح بالعزيمة القوية ، وبالإيمان العميق بقضاء الله - تعالى - وقدره .

وأكد - سبحانه - هاتين الآيتين ، لأن هذه القضية قد تكون موضع شك ، خصوصا بالنسبة لمن تكاثرت عليهم الهموم وألوان المتاعب ، فأراد - سبحانه - أن يؤكد للناس فى كل زمان ومكان ، أن اليسر يعقب العسر لا محالة ، والفرج يأتى بعد الضيق ، فعلى المؤمن أن يقابل المصائب بصبر جميل ، وبأمل كبير فى تيسير الله وفرجه ونصره .

وقال - سبحانه - ﴿ مع العسر يسرا ﴾ ولم يقل بعد العسر يسرا ، للإشعار بأن هذا اليسر ، ليس بعد العسر بزمن طويل ، وإنما هو سيأتى فى أعقابه بدون مهلة طويلة ، متى وطن الإنسان نفسه على الصبر والأمل فى فرج الله - تعالى - .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين بعض الآثار ، منها ما رواه ابن أبى حاتم ، عن عائذ بن شريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى - ﷺ - جالسا وحياله جحر فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الجحر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ».

وعن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وعن قتادة : ذكر لنا أن الرسول - ﷺ - بشر أصحابه فقال : « لن يغلب عسر يسرين » . ومعنى هذا أن العسر مُعَرَّف فى الحالين ، فهو مفرد ، واليسر مُنَكَّر فمتعدد ، ولهذا قال : « لن يغلب عسر يسرين » فالعسر الأول عين الثانى ، واليسر تعدد ..[1] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف تعلق قوله : ﴿ فإن مع العسر يسرا ﴾ بما قبله ؟ قلت : كان المشركون يعيرون رسول الله - ﷺ - والمؤمنين بالفقر فذكَّره الله - تعالى - بما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال : ﴿فإن مع العسر يسرا ﴾ ، كأنه قال : خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ، فإن مع العسر الذى أنتم فيه يسرا .

فإن قلت « إن مع » للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليسر للعسر ؟ قلت : أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب ، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر ، زيادة فى التسلية ، وتقوية القلوب .

فإن قلت : فما المراد باليسرين ؟ قلت : يجوز أن يراد بها ما تيسر لهم من الفتوح فى أيام النبى - ﷺ - ، وماتيسر لهم فى أيام الخلفاء .. وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة .

فإن قلت : فما معنى هذا التنكير ؟ قلت التفخيم ، كأنه قال : إن مع العسر يسرا عظيما وأى يسر ..[2] .

وبعد هذا التعديد لتلك النعم العظيمة ، أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - فى الاجتهاد فى العبادة فقال - تعالى - : ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ .

وأصل الفراغ خلو الإناء مما بداخله من طعام أو غيره ، والمراد به هنا الخلو من الأعمال

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٧١ .

التى تشغل الإنسان ، والنصب : التعب والاجتهاد فى تحصيل المطلوب .

أى : فإذا فرغت - أيها الرسول الكريم - من عمل من الأعمال، فاجتهد فى مزاولة عمل آخر من الأعمال التى تقربك من الله - تعالى - ، كالصلاة ، والتهجد ، وقراءة القرآن الكريم . واجعل رغبتك فى جميع أعمالك وعباداتك ، من أجل إرضاء ربك ، لامن أجل شىء آخر ، فهو وحده القادر على إبلاغك ما تريد ، وتحقيق آمالك .

فالمقصود بهاتين الآيتين حثه -ﷺ - وحث أتباعه فى شخصه على استدامة العمل الصالح ، وعدم الانقطاع عنه ، مع إخلاص النية لله - تعالى - فإن المواظبة على الأعمال الصالحة مع الاخلاص فيها ، تؤدى إلى السعادة التى ليس بعدها سعادة .

ولقد استجاب - ﷺ - لهذا الإرشاد الحكيم ، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه ، وعندما سئل لم كل هذه العبادة ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ؟ قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » .

وسار أصحابه من بعده على هذا الهدى القويم : فعمروا حياتهم بالباقيات الصالحات من الأعمال ، دون أن يكون للفراغ السيئ ، مكان فى حياتهم ، بل واصلوا الجهاد بالجهاد ، وأعمال البر بمثلها .

ومن أقوال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « إنى لأكره لأحدكم أن يكون خاليا ، لا فى عمل دنيا ولا دين » .

وفى رواية أنه قال : « إنى لأنظر إلى الرجل فيعجبنى ، فإذا قيل : إنه لا عمل له سقط من عينى » .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا ممن يعمرون أوقاتهم بالأعمال الصالحة ، والخالصة لوجهه الكريم .

وصلى الله على سيدنامحمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح السبت ٢١ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة التين

مقدمة وتمهيد

١ - وتسمى - أيضا - سورة « والتين » وعدد آياتها ثمانى آيات ، والصحيح أنها مكية .

وقد روى ذلك عن ابن عباس وغيره ، ويؤيد كونها مكية ، القسم بمكة فى قوله - تعالى - : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ ، وعن قتادة أنها مدنية ، وهو قول لا دليل عليه .

وكان نزولها بعد سورة « البروج » ، وقبل سورة « لإيلاف قريش » .

٢ - وقد اشتملت هذه السورة الكريمة ، على التنبيه بأن الله - تعالى - قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، فعليه أن يكون شاكرا لخالقه ، مخلصا له العبادة والطاعة .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
(٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)

اتفق المفسرون على أن المراد بطور سينين : الجبل الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام - وسينين ، وسيناء ، وسينا ، اسم للبقعة التى فيها هذا الجبل ، بإضافة « طور » إلى ما بعده ، من إضافة الموصوف إلى الصفة .

قال الإمام الشوكانى : « وطور سينين » هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، اسمه الطور . ومعنى سينين : المبارك الحسن .. وقال مجاهد : سينين كل جبل فيه شجر مثمر ، فهو سينين وسيناء . وقال الأخفش : طور : جبل . وسينين شجر ، واحدته سينه ، ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء ، لأنه جعل اسما للبقعة ..[1] .

وأقسم - سبحانه - به ، لأنه من البقاع المباركة ، وأعظم بركة حلت به ووقعت فيه ، تكليم الله - تعالى - ، لنبيه موسى - عليه السلام - .

كما اتفقوا - أيضا - على أن المراد بالبلد الأمين : مكة المكرمة ، وسمى بالأمين لأن من دخله كان آمنا ، وقد حرمها - تعالى - على جميع خلقه ، وحرم شجرها وحيوانها ، وفى

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٦٥ .

الحديث الصحيح ، أن النبى - ﷺ - قال بعد فتحها : « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، فلا يُعْضَد - أى : يقطع - شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ..» .

إلا أن خلافهم فى المراد بقوله - تعالى - : ﴿ والتين والزيتون ﴾ ، وقد ذكر الإمام القرطبى هذا الخلاف فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ والتين والزيتون ﴾ : قال ابن عباس وغيره : هو تينكم الذى تأكلون ، وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت . قال - تعالى - : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ وهى شجرة الزيتون .

وقال أبوذر : أهدى للنبى - ﷺ - سَلٌّ تين ، فقال : « كلوا » وأكل منها . ثم قال : « لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة ، لقلت هذه ..» .

وعن معاذ : أنه استاك بقضيب زيتون ، وقال : سمعت النبى - ﷺ - يقول : « نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة » ..

وهذا هو الرأى الذى تطمئن إليه النفس لأنه هو المتبادر من اللفظ وهناك أقوال أخرى رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها وتهافتها .

ثم قال الإمام القرطبى : وهذا القول هو أصح الأقوال ، لأنه الحقيقة ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل . وإنما أقسم بالتين لأنه كان ستر آدم فى الجنة ، لقوله - تعالى - : ﴿ يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ وكان ورق التين ، ولأنه كثير المنافع .

وأقسم بالزيتون لأنه الشجرة المباركة ، قال - تعالى - : ﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة .. ﴾ وفيه منافع كثيرة ..[1] .

وقال الإمام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال فى المقصود بالتين والزيتون : والصواب من القول فى ذلك عندنا ، قول من قال : التين : هو التين الذى يؤكل . والزيتون : هو الزيتون الذى يعصر منه الزيت ، لأن ذلك هو المعروف عند العرب ، ولا يعرف جبل يسمى تينا ، ولا جبل يقال له زيتون . إلا أن يقول قائل : المراد من الكلام القسم بمنابت التين ، ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا ، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة فى ظاهر التنزيل ..[2] .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١١١ .
(٢) راجع تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٥٣ .

وما ذهب إليه الإمامان : ابن جرير والقرطبى ، من أن المراد بالتين والزيتون ، حقيقتهما ، هو الذى نميل إليه ، لأنه هو الظاهر من معنى اللفظ ، ولأنه ليس هناك من ضرورة تحمل على مخالفته ، ولله - تعالى - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، فهو صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وجملة : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ...﴾ وما عطف عليه جواب القسم .

أى : وحق التين الذى هو أحسن الثمار ، صورة وطعما وفائدة ، وحق الزيتون الذى يكفى الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم ، وحق هذا البلد الأمين ، وهو مكة المكرمة ، وحق طور سنين الذى كلم الله - تعالى - عليه نبيه موسى تكليما .. وحق هذه الأشياء .. لقد خلقنا الإنسان فى أعدل قامة ، وأجمل صورة ، وأحسن هيئة ، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره ، من بيان فصيح ، ومن عقل راجح ، ومن علم واسع ، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه فى هذه الحياة ، بإذننا ومشيئتنا .

والتقويم فى الأصل : تصيير الشىء على الصورة التى ينبغى أن يكون عليها فى التعديل والتركيب . تقول : قومت الشىء تقويمًا ، إذا جعلته على أحسن الوجوه التى ينبغى أن يكون عليها .. فى التعديل والتركيب . تقول : قومت الشىء تقويمًا ، إذا جعلته على أحسن الوجوه التى ينبغى أن يكون عليها .. وهذا الحسن يشمل الظاهر والباطن للإنسان ..

والمراد بالإنسان هنا : جنسه . أى : لقد خلقنا - بقدرتنا وحكمتنا - جنس الإنسان فى أكمل صورة ، وأحكم عقل ..

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ معطوف على ما قبله وداخل فى حيز القسم . وضمير الغائب يعود إلى الإنسان ..

وحقيقة الرد : إرجاع الشىء إلى مكانه السابق ، والمراد به هنا : تصيير الإنسان على حالة غير الحالة التى كان عليها ، وأسفل : أفعل تفضيل ، أى : أشد سفالة مما كان يتوقع .

وللمفسرين فى هذه الآية الكريمة اتجاهات منها : أن المراد بالرد هنا : الرد إلى الكبر والضعف ، كما قال - تعالى - : ﴿ الله االذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير ﴾[1] .

وعلى هذا الرأى يكون المردودون إلى أسفل سافلين ، أى : إلى أرذل العمر ، هم بعض أفراد جنس الإنسان ، لأنه من المشاهد أن بعض الناس هم الذين يعيشون تلك الفترة الطويلة

---

(١) سورة الروم الآية ٥٤ .

من العمر ، كما قال - تعالى - : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب . ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخًا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ، ولعلكم تعقلون ﴾[١] .

وقد رجح ابن جرير هذا الرأى فقال : « وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول من قال معناه : ثم رددناه إلى أرذل العمر . إلى عمر الخرفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو فى أسفل من سفل فى إدبار العمر ، وذهاب العقل .. »[٢] .

ومنها : أن المراد بالرد هنا : الرد إلى النار ، والمعنى : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه إلى أقبح صورة ، وأخس هيئة .. حيث ألقينا به فى أسفل سافلين ، أى : فى النار ، بسبب استحبابه العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان ..

وقد رجح هذا الرأى ابن كثير فقال : قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أى : إلى النار .. أى : ثم بعد هذا الحسن والنضارة ، مصيره إلى النار ، إن لم يطع الله - تعالى - ويتبع الرسل . ولهذا قال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾[٣] .

وعلى هذا الرأى - أيضًا - ، يكون المردودون إلى « أسفل سافلين » أى : إلى النار ، هم بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الكفار ، والفاسقون عن أمره - تعالى - .

ومنها : أن المراد بالرد إلى أسفل سافلين هنا : الانحراف والارتداد عن الفطرة التى فطر الله - تعالى - الناس عليها ، بأن يعبد الإنسان مخلوقًا مثله ، ويترك عبادة خالقه ، ويطيع نفسه وشهواته وهواه ... ويترك طاعة ربه - عز وجل - .

وقد فصل الأستاذ الإمام هذا المعنى فقال ما ملخصه : « أقسم - سبحانه - أنه قوم الإنسان أحسن تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وأكد - سبحانه - ذلك بالقسم ، لأن الناس بسبب غفلتهم عما كرمهم الله به ، صاروا كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات ، يفعلون كما تفعل ، لا يمنعهم حياء ولا تردهم حشمة . فانحطت بذلك نفوسهم عن مقامها ، الذى كان لها بمقتضى الفطرة .. فهذا قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ، أى : صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان المفترس - مثلاً - إنما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها ، لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجود .

أما الإنسان فإنه بإهماله عقله ، وجهله بما ينبغى أن يعمله لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ،

---

(١) سورة غافر ، آية ٦٧ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٥٧ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٧ .

ينقلب أرذل من سائر أنواع الحيوان ، ولطالما قلت : « إذا فسد الإنسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان »[١] .

والذى يتأمل الرأى الثانى والثالث يرى أن بينهما تلازمًا ، لأن الانحراف عن الفطرة السوية يؤدى إلى الدخول فى النار وبئس القرار ، وهذان الرأيان أولى بالقبول ، لأن الاستثناء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ يؤيد ذلك ، إذ المعنى عليها : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه إلى النار بسبب انحرافه عن الفطرة ، وإيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان ..

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وساروا على مقتضى فطرتهم ، فأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة .. فلهم أجر غير مقطوع عنهم أو غير ممنون به عليهم ، بل هم قد اكتسبوا هذا الأجر الدائم العظيم ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ، « ثم » هنا للتراخى الزمانى أو الرتبى ، والرد يجوز أن يكون بمعنى الجعل ، فينصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر . فأسفل مفعول ثان ، والمعنى : ثم جعلناه من أهل النار ، الذين هم أقبح ، وأسفل من كل سافل .. ويجوز أن يكون الرد بمعناه المعروف ، وأسفل منصوب بنزع الخافض .

أى : رددناه إلى أسفل الأمكنة السافلة وهو جهنم ..

وقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ استثناء متصل من ضمير « رددناه » العائد على الإنسان ، فإنه فى معنى الجمع ، فالمؤمنون لا يردون أسفل سافلين يوم القيامة ، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم . وحسنا على حسنهم .. »[٢] .

و « ما » فى قوله - سبحانه - : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ اسم استفهام مبتدأ ، وخبره جملة « يكذبك » . والخطاب للإنسان الذين خلقه الله - تعالى - فى أحسن تقويم ، ففى الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب . والاستفهام للإنكار والتعجيب من هذا الإنسان ..

والمعنى : فأى شىء يحملك - أيها الإنسان - على التكذيب بالدين وبالبعث وبالجزاء ، بعد أن خلقناك فى أحسن تقويم ، وبعد أن أقمنا لك الأدلة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وعلى أن رسولنا صادق فيما يبلغك عن ربه - عز وجل - ؟

فالمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ يكذبك ﴾ : يجعلك مكذبًا ، أى : لا عذر لك فى التكذيب

---

(١) راجع تفسير جزء عم ص ٩١ للشيخ محمد عبده - رحمه الله - .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٧٦ .

بالحق ، وقيل : الخطاب للنبى - ﷺ - ، وتكون « ما » بمعنى « مَنْ » ، ويكون الاستفهام بها عن ذوات المخاطبين ، أى : فمن ذا الذى يكذبك - أيها الرسول الكريم - ويكذب بيوم الدين والجزاء ، بعد أن ظهرت الدلائل على صدقك ..؟

إن كل عاقل يجب عليه أن يصدقك ولا يكذبك ، ولا يعرض عنك .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ للتقرير : إذ الجملة الكريمة تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رده إلى أسفل سافلين .

فكأنه - تعالى - يقول : إن الذى فعل ذلك كله هو أحكم الحاكمين خلقًا وإيجادًا . وصنعًا وتدبيرًا ، وقضاء وتقديرًا ، فيجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة ، وأن يتبع رسوله - ﷺ - فى كل ما جاء به من عند ربه - عز وجل - .

وقد روى الإمام الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ... ﴾ ثم انتهى إلى قوله - تعالى - ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين »[1] .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعًا من عباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأحد ٢٢ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ .
٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة العلق

مقدمة وتمهيد

١ - هذه السورة الكريمة تسمى سورة « العلق » ، وتسمى سورة « اقرأ » وعدد آياتها تسع عشرة آية فى المصحف الكوفى ، وفى الشامى ثمانى عشرة آية ، وفى الحجازى عشرون آية .

وصدر هذه السورة الكريمة يعتبر أول ما نزل من قرآن على النبى - ﷺ - .

٢ - ومن أغراضها : التنويه بشأن القراءة والكتابة ، والعلم والتعلم ، والتهديد لكل من يقف فى وجه دعوة الإسلام التى جاء بها النبى - ﷺ - من عند ربه - عز وجل - وإعلام النبى - ﷺ - بأن الله - تعالى - مطلع على ما يبيته له أعداؤه من مكر وحقد ، وأنه - سبحانه - قامعهم وناصره عليهم ، وأمره - ﷺ - بأن يمضى فى طريقه ، دون أن يلتفت إلى مكرهم أو سفاهاتهم .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ
ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ
ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن
لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ
﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

وقد أجمع المحققون من العلماء ، على أن هذه الآيات الكريمة ، أول ما نزل على الرسول - ﷺ - من قرآن على الإطلاق ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله - ﷺ - من الوحى ، الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - أى : فيتعبد - فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لذلك ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ قال : ما أنا بقارئ ، قال - ﷺ - فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ ﴾ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ ﴾ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ،

خلق الإنسان من علق .. ﴾[١] .

وما ورد من أحاديث تفيد أن أول سورة نزلت هى « سورة الفاتحة » ، فمحمول على أن أول سورة نزلت كاملة هى سورة الفاتحة .

كذلك ما ورد من أحاديث فى أن أول ما نزل سورة المدثر ، محمول على أن أول ما نزل بعد فترة الوحى . أما صدر سورة العلق فكان نزوله قبل ذلك .

قال الآلوسى - بعد أن ساق الأحاديث التى وردت فى ذلك - : « وبالجملة فالصحيح - كما قال البعض وهو الذى أختاره - أن صدر هذه السورة الكريمة ، هو أول ما نزل من القرآن على الإطلاق . وفى شرح مسلم : الصواب أن أول ما نزل « اقرأ » ، أى : مطلقًا ، وأول ما نزل بعد فترة الوحى ، « يأيها المدثر » ، وأما قول من قال من المفسرين ، أول ما نزل الفاتحة ، فبطلانه أظهر من أن يذكر »[٢] .

والذى نرجحه ونميل إليه أن أول ما نزل من قرآن على الإطلاق ، هو صدر هذه السورة الكريمة إلى قوله ﴿ ما لم يعلم ﴾ ، لورود الأحاديث الصحيحة بذلك . أما بقيتها فكان نزوله متأخرًا .

قال الأستاذ الإمام « أما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعًا ، وما فيه من ذكر أحوال المكذبين ، يدل على أنه إنما نزل بعد شيوع خبر البعثة ، وظهور أمر النبوة ، وتحرش قريش لإيذائه - ﷺ - »[٣] .

وقد افتتحت السورة الكريمة بطلب القراءة من النبى - ﷺ - مع أنه كان أميا لتهيئة ذهنه لما سيلقى عليه - ﷺ - من وحى ... فقال - سبحانه - : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - ماسنوحيه إليك من قرآن كريم ، ولتكن قراءتك ملتبسة باسم ربك . وبقدرته وإرادته ، لا باسم غيره ، فهو - سبحانه - الذى خلق الأشياء جميعها ، والذى لا يعجزه أن يجعلك قارئًا ، بعد كونك لم تكن كذلك .

وقال - سبحانه - ﴿ باسم ربك ﴾ بوصف الربوبية ، لأن هذا الوصف ينبئ عن كمال الرأفة والرحمة والرعاية بشأن المربوب .

ووصف - سبحانه - ذاته بقوله : ﴿ الذى خلق ﴾ للتذكير بهذه النعمة ، لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه تترتب جميعها .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٦٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٧٨ .
(٣) تفسير جزء عم ص ٩٣ .

وجملة ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ بدل من قوله ﴿ الذى خلق ﴾ بدل بعض من كل ، إذ خلق الإنسان يمثل جزءا من خلق المخلوقات التى لا يعلمها إلا الله .

و « العلق » الدم الجامد ، وهو الطور الثانى من أطوار خلق الإنسان .

وقيل : العلق : مجموعة من الخلايا التى نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة ، وسمى « علقا » لتعلقه بجدار الرحم[1] .

والمقصود من هذه الجملة الكريمة بيان مظهر من مظاهر قدرته - تعالى - فكأنه - سبحانه - يقول : إن من كان قادرًا على أن يخلق من الدم الجامد إنسانًا يسمع ويرى ويعقل .. قادر - أيضًا - على أن يجعل منك - أيها الرسول الكريم - قارئًا ، وإن لم تسبق لك القراءة .

وخص - سبحانه - خلق الإنسان بالذكر ، لأنه أشرف المخلوقات ولأن فيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه .

وقوله - تعالى - : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أى : امض لما أمرتك به من القراءة ، فإن ربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم من كل كريم ، والأعظم من كل عظيم .

قالوا : وإنما كرر - سبحانه - الأمر بالقراءة ، لأنه من الملكات التى لا ترسخ فى النفس إلا بالتكرار والإعادة مرة فمرة .

وجملة ﴿ وربك الأكرم ﴾ مستأنفة لقصد بيان أنه - تعالى - أكرم من كل من يلتمس منه العطاء ، وأنه - سبحانه - قادر على أن يمنح نبيه نعمة القراءة ، بعد أن كان يجهلها .

وقوله - تعالى - : ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ أى : علم الانسان الكتابة بالقلم ، ولم يكن له علم بها ، فاستطاع عن طريقها أن يتفاهم مع غيره ، وأن يضبط العلوم والمعارف ، وأن يعرف أخبار الماضين وأحوالهم ، وأن يتخاطب بها مع الذين بينه وبينهم المسافات الطويلة .

ومفعولا « علَّم » محذوفان ، دل عليهما قوله ﴿ بالقلم ﴾ أى : علم ناسا الكتابة بالقلم .

وتخصيص هذه الصفة بالذكر ، للإيماء إلى إزالة ما قد يخطر بباله - ﷺ - من تعذر القراءة بالنسبة له ، لجهله بالكتابة ، فكأنه - تعالى - يقول له : إن من علم غيرك القراءة والكتابة بالقلم ، قادر على تعليمك القراءة وأنت لا تعرف الكتابة ، ليكون ذلك من معجزاتك الدالة على صدقك ، وكفاك بالعلم فى الأمى معجزة .

وجملة ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ خبر عن قوله - تعالى - : ﴿ وربك الأكرم ﴾ وما بينهما اعتراض ، ويصح أن تكون بدل اشتمال مما قبلها وهو قوله ﴿ علم بالقلم ﴾ أى :

---

(١) راجع كتاب « بحوث فى تفسير القرآن » (سورة العلق) لجمال عياد .

علم الانسان بالقلم وبدونه مالم يكن يعلمه من الأمور على اختلافها ، والمراد بالإنسان فى هذه الآيات جنسه .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد جمعت أصول الصفات الإلهية ، كالوجود ، والوحدانية ، والقدرة والعلم ، والكرم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : فأول شىء من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهو أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه - تعالى - أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ..[1] .

وقال المرحوم الشيخ محمد عبده : ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى ، بهذه الآيات الباهرات ، فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض ، وإلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم .. وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع .. فلا أرشدهم الله ..[2] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى تحمل الإنسان على الطغيان فقال : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ .

و« كلا » حرف ردع وزجر لمن تكبر وتمرد .. فهو زجر عما تضمنه ما بعدها ، لأن ما قبلها ليس فيه ما يوجب الزجر والردع ، ويصح أن تكون « كلا » هنا بمعنى حقا . وقوله : ﴿ يطغى ﴾ من الطغيان ، وهو تجاوز الحق فى التكبر والتمرد . والضمير فى قوله ﴿ رآه ﴾ يعود على الإنسان الطاغى ، والجملة متعلقة بقوله ﴿ يطغى ﴾ بحذف لام التعليل ، والرؤية بمعنى العلم .

والمعنى : حقا إن الإنسان ليتعاظم ويتكبر ويتمرد على الحق ، لأنه رأى نفسه ذا غنى فى المال والجاه والعشيرة ، ورآها - لغروره وبطره - ليست فى حاجة إلى غيره .

والمراد بالإنسان هنا : جنسه ؛ لأن من طبع الإنسان أن يطغى ، إذا ما كثرت النعم بين يديه ، إلا من عصمه الله - تعالى - من هذا الخُلقِ الذميم ، بأن شكره - سبحانه - على نعمه ، واستعملها فى طاعته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٩ .
(٢) راجع تفسير جزء عم ص ٩٤ .

وقيل المراد بالإنسان هنا : أبو جهل ، وأن هذه الآيات وما بعدها حتى آخر السورة قد نزلت فى أبى جهل ، فقد أخرج البخارى عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة ، لأطأن على عنقه ، فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة »..[١] . ونزول هذه الآيات فى شأن أبى جهل لا يمنع عموم حكمها ، ويدخل فى هذا الحكم دخولا أوليا أبو جهل ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ تهديد ووعيد لهذا الطاغى ، والرُّجْعَى : مصدر بمعنى الرجوع . تقول : رجع إليه رجوعا ومرجعا ورجعى بمعنى واحد .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - مما تفوه به هذا الطاغى وأمثاله ، فإن إلى ربك وحده مرجعهم ، وسيشاهدون بأعينهم ما أعددناه لهم من عذاب مهين ، وسيعلمون حق العلم أن ما يتعاظمون به من مال ، لن يغنى عنهم من عذاب الله شيئا يوم القيامة .

ثم عجَّب - سبحانه - نبيه - ﷺ - من حال هذا الشقى وأمثاله ، فقال : ﴿ أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى ﴾ . فالاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أرأيت ...﴾ للتعجيب من جهالة هذا الطاغى ، وانطماس بصيرته ، حيث نهى عن الخير ، وأمر بالشر ، والمراد بالعبد : رسول الله - ﷺ - وتنكيره للتفخيم والتعظيم .

أى : أرأيت وعلمت - أيها الرسول الكريم - حالا أعجب وأشنع من حال هذا الطاغى الأحمق ، الذى ينهاك عن إقامة العبادة لربك الذى خلقك وخلقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴾ خطاب آخر للنبى - ﷺ - أى : أرأيت - أيها الرسول الكريم - إن صار هذا الإنسان - الطاغى الكافر - على الهدى ، فاتبع الحق ، ودعا إلى البر والتقوى .. أما كان ذلك خيرا له من الإصرار على الكفر ، ومن نهيه إياك عن الصلاة ، فجواب الشرط محذوف للعلم به .

فالمراد بالهدى : اهتداؤه إلى الصراط المستقيم ، والمراد بالتقوى : صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وأمره غيره بذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ص٧ ص ٤٦٠ .

أى : أرأيت - أيها الرسول الكريم - إن كذب هذا الكافر بما جئته به من عندنا ، وتولى وأعرض عما تدعوه إليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين . أرأيت إن فعل ذلك ، أفلا أرشده عقله إلى أن خالق هذا الكون يراه ، وسيجازيه بما يستحقه من عذاب مهين ؟ .

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة التى تكرر فيها لفظ « أرأيت » ثلاث مرات : تسلية النبى - ﷺ - . وتعجيبه من حال هذا الإنسان الطاغى الشقى ، الذى أصر على كفره . وآثر الغى على الرشد . والشرك على الإيمان .. وتهديد هذا الكافر الطاغى بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - مطلع على أعماله القبيحة .. وسيعاقبه العقاب الأكبر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فأين جواب الشرط - أى فى قوله - تعالى - : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ ؟ قلت : هو محذوف تقديره : إن كان على الهدى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى .

فإن قلت : فكيف صح أن يكون « ألم يعلم » جوابا للشرط ؟ قلت : كما صح فى قولك : إن أكرمتك أتكرمنى ؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ﴾ ردع وزجر لهذا الكافر الطاغى الناهى عن الخير ، ولكل من يحاول أن يفعل فعله .

والسفع : الجذب بشدة على سبيل الإذلال والإهانة ، تقول : سفعت بالشىء ، إذا جذبته جذبا شديدا بحيث لا يمكنه التفلت أو الهرب... وقيل : هو الاحتراق ، من قولهم : فلان سفعته النار ، إذا أحرقته وغيرت وجهه وجسده . والناصية : الشعر الذى يكون فى مقدمة الرأس . أى : كلا ليس الأمر كما فعل هذا الإنسان الطاغى ، ولئن لم يقلع عما هو فيه من كفر وغرور ، لنقهرنه ، ولنذلنه ، ولنعذبنه عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ يشعر بالأخذ الشديد ، والإذلال المهين ، لأنه كان من المعروف عند العرب ، أنهم كانوا إذا أرادوا إذلال إنسان وعقابه ، سحبوه من شعر رأسه .

والتعريف فى الناصية ، للعهد التقديرى . أى : بناصية ذلك الإنسان الطاغى ، الذى كذب وتولى ، ونهى عن إقامة الصلاة .

وقوله - تعالى - : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ بدل من الناصية ، وجاز إبدال النكرة من المعرفة ، لأن النكرة قد وصفت . فاستقلت بالفائدة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٧٨ .

وخاطئة : اسم فاعل من خطئ فلان - كعلم - فهو خاطئ وهو الذى يأتى الذنب متعمدا ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة مبالغة فى تعمد هذا الإنسان لارتكاب المنكر ، على حد قولهم : نهار صائم ، أى : صائم صاحبه ، ولأن الناصية هى مظهر الغرور والكبرياء .

أى : لئن لم ينته هذا الفاجر المغرور عن كفره .. لنذلنه إذلالا شديدا .. ولنسحبنه إلى النار من ناصيته التى طالما كذبت بالحق ، وتعمدت ارتكاب المنكر ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فليدع ناديه ﴾ رد على غروره وتفاخره بعشيرته ، فقد جاء فى الحديث الشريف أن أبا جهل عندما نهى النبى - ﷺ - عن الصلاة ، نهره النبى - ﷺ - وزجره وأغلظ له القول .. فقال أبو جهل : أتهددنى يا محمد وأنا أكثر هذا الوادى ناديا ، فأنزل الله - سبحانه - : ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ .

وأصل النادى : المكان الذى يجتمع فيه الناس للحديث ، ولا يسمى المكان بهذا الاسم إلا إذا كان معدا لهذا الغرض ، ومنه دار الندوة ، وهى دار كان أهل مكة يجتمعون فيها للتشاور فى مختلف أمورهم ، وسمى بذلك لأن الناس يَنْدُون إليه ، أى : يذهبون إليه ، أو ينتدون فيه ، أى : يجتمعون للحديث فيه . يقال : ندا القوم نَدْوًا - من باب غزا - إذا اجتمعوا .

والأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ فليدع ﴾ للتعجيز ، والكلام على حذف مضاف . أى : فليدع هذا الشقى المغرور أهله وعشيرته لإيذاء النبى - ﷺ - ، ولمنعه من الصلاة ، إن قدروا على ذلك ، فنحن من جانبنا سندع الزبانية ، وهم الملائكة الغلاظ الموكلون بعقاب هذا المغرور وأمثاله .

ولفظ الزبانية فى كلام العرب : يطلق على رجال الشرطة الذين يزبنون الناس ، أى : يدفعونهم إلى ما يريدون دفعهم إليه بقوة وشدة وغلظة ، جمع زِبْنِيَّة ، وأصل اشتقاقه من الزَّبْنِ ، وهو الدفع الشديد ، ومنه قولهم : حرب زبون ، إذا اشتد الدفع والقتال فيها ، وناقة زبون إذا كانت تركل من يحلبها .

والمقصود بهاتين الآيتين ، التهكم بهذا الانسان المغرور ، والاستخفاف به وبكل من يستنجد به ، ووعيده بأنه إن استمر فى غروره ونهيه عن الصلاة فسيسلط الله - تعالى - عليه ملائكة غلاظا شدادا . لا قبل له ولا لقومه بهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ ردع آخر لهذا الكافر عن الغرور والبطر والطغيان ، وإبطال لدعواه أنه سيدع أهل ناديه ، وتأكيد لعجزه عن منع الرسول - ﷺ - عن الصلاة .

أى : كلا ليس الأمر كما قال هذا المغرور من أن أهله وعشيرته سينصرونه ، وسيقفون إلى

جانبه فى منعك أيها الرسول الكريم – من الصلاة ، فإنهم وغيرهم أعجز من أن يفعلوا ذلك ، وعليك – أيها الرسول الكريم – أن تمضى فى طريقك وأن تواظب على أداء الصلاة فى المكان الذى تختاره ، ولا تطع هذا الشقى ، فإنه جاهل مغرور ، واسجد لربك وتقرب إليه – تعالى – بالعبادة والطاعة ، وداوم على ذلك .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة ، حض النبى – ﷺ – على المداومة على الصلاة فى الكعبة ، وعدم المبالاة بنهى الناهين عن ذلك ، فإنهم أحقر من أن يفعلوا شيئا ..

نسأل الله – تعالى – أن يجعلنا جميعا من عباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة – مدينة نصر
صباح الخميس ٢٦ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القدر

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « القدر » من السور المكية عند أكثر المفسرين ، وكان نزولها بعد سورة « عبس » ، وقبل سورة « الشمس » ، فهى السورة الخامسة والعشرون فى ترتيب النزول ، ويرى بعض المفسرين أنها من السور المدنية ، وأنها أول سورة نزلت بالمدينة .

قال الآلوسى : قال أبو حيان : مدنية فى قول الأكثر . وحكى الماوردى عكسه . وذكر الواحدى أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وقال الجلال فى الإتقان : فيها قولان ، والأكثر أنها مكية ..[1] وعدد آياتها خمس آيات ، ومنهم من عدها ست آيات . والأول أصح وأرجح .

٢ - والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : التنويه بشأن القرآن ، والإعلاء من قدره ، والرد على من زعم أنه أساطير الأولين ، وبيان فضل الليلة التى نزل فيها ، وتحريض المسلمين على إحيائها بالعبادة والطاعة لله رب العالمين .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٨٨ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

والضمير المنصوب فى قوله- تعالى - ﴿ أنزلناه ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، وفى الإتيان بهذا الضمير للقرآن ، مع أنه لم يجر له ذكر ، تنويه بشأنه ، وإيذان بشهرة أمره . حتى إنه لَيُسْتَغْنَىَ عن التصريح به ، لحضوره فى أذهان المسلمين .

والمراد بإنزاله : ابتداء نزوله على النبى - ﷺ - ، لأنه من المعروف أن القرآن الكريم ، قد نزل على النبى - ﷺ - منجما ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة تقريبا .

ويصح أن يكون المراد بأنزلناه، أى : أنزلناه جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك منجما على النبى - ﷺ - .

قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس وغيره : أنزل الله- تعالى - القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع ، فى ثلاث وعشرين سنة ، على رسول الله - ﷺ - .[1]

والقَدْر الذى أضيفت إليه الليلة ، بمعنى الشرف والعظمة، مأخوذ من قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى : له منزلة رفيعة ، وشرف عظيم ، فسميت هذه الليلة بذلك ، لعظم قدرها وشرفها ، إذ هى الليلة التى نزل فيها قرآن ذو قدر ، بواسطة ملك ذى قدر ، على رسول ذى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٦٣ .

قدر ، لأجل إكرام أمة ذات قدر ، هذه الأمة يزداد قدرها وثوابها عند الله- تعالى - إذا ما أحيوا تلك الليلة بالعبادات والطاعات .

ويصح أن يكون المراد بالقدر هنا : التقدير ، لأن الله- تعالى - يقدر فيها ما يشاء تقديره لعباده ، إلا أن القول الأول أظهر ، لأن قوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ﴾ يفيد التعظيم والتفخيم .

أى : إنا ابتدأنا بقدرتنا وحكمتنا ، إنزال هذا القرآن العظيم ، على رسولنا محمد - ﷺ - فى ليلة القدر ، التى لها ما لها عندنا من قدر وشرف وعظم .. لأن للطاعات فيها قدرا كبيرا ، وثوابا جزيلا .

وليلة القدر هذه هى الليلة التى قال الله - تعالى - فى شأنها فى سورة الدخان : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾ .

وهذه الليلة هى من ليالى شهر رمضان ، بدليل قوله- تعالى - : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ .

قال بعض العلماء : ومن تسديد ترتيب المصحف ، أن سورة القدر وضعت عقب سورة العلق ، مع أنها أقل عددَ آياتٍ من سورة البينة وسور بعدها ، وكأن ذلك إيماء إلى أن الضمير فى ﴿ أنزلناه ﴾ يعود إلى القرآن ، الذى ابتدئَ نزوله بسورة العلق .[1] .

وقال صاحب الكشاف : عظم - سبحانه - القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها : أن أسند إنزاله اليه ، وجعله مختصا به دون غيره . والثانى : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه ، والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه .

روى أنه أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزل به على رسول الله - ﷺ - نجوما فى ثلاث وعشرين سنة .

وعن الشعبى : المعنى : أنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ﴾ تنويه آخر بشرف هذه الليلة ، وتفخيم لشأنها ، حتى لكأن عظمتها أكبر من أن تحيط بها الكلمات والألفاظ .

أى : وما الذى يدريك بمقدار عظمتها وعلو قدرها ، إن الذى يعلم مقدار شرفها هو الله

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٤٥٦ للشيخ ابن عاشور - رحمه الله - .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٨٠ .

- تعالى - علام الغيوب .

ثم - بين - سبحانه - مظاهر فضلها فقال : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ أى : ليلة القدر أفضل من ألف شهر، بسبب ما أنزل فيها من قرآن كريم يهدى للتى هى أقوم . ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبسبب أن العبادة فيها أكثر ثواباً ، وأعظم فضلا من العبادة فى أشهر كثيرة ليس فيها ليلة القدر .

والعمل القليل قد يفضل العمل الكثير ، باعتبار الزمان والمكان ، وإخلاص النية ، وحسن الأداء ، ولله - تعالى - أن يخص بعض الأزمنة والأمكنة والأشخاص بفضائل متميزة .

والتحديد بألف شهر يمكن أن يكون مقصودا . ويمكن أن يراد منه التكثير . وأن المراد أن أقل عدد تفضله هذه الليلة هو هذا العدد . فيكون المعنى : أن هذه الليلة تفضل الدهر كله .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك مزية أخرى لهذه الليلة المباركة فقال : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ .

أى : ومن مزايا وفضائل هذه الليلة أيضا ، أن الملائكة - وعلى رأسهم الروح الأمين جبريل - ينزلون فيها أفواجا إلى الأرض ، بأمره - تعالى - وإذنه ، وهم جميعا إنما ينزلون من أجل أمر من الأمور التى يريد إبلاغها إلى عباده ، وأصل « تنزل » تتنزل ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ، ونزول الملائكة إلى الأرض ، من أجل نشر البركات التى تحفهم ، فنزولهم فى تلك الليلة يدل على شرفها ، وعلى رحمة الله - تعالى - بعباده .

والروح : هو جبريل ، وذكره بخصوصه بعد ذكر الملائكة ، من باب ذكر الخاص بعد العام ، لمزيد الفضل ، واختصاصه بأمور لا يشاركه فيها غيره .

وقوله - سبحانه - ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ تنزل ﴾ ، والباء للسببية ، أى : يتنزلون بسبب إذن ربهم لهم فى النزول .

قال الجمل ما ملخصه . وقوله : ﴿ من كل أمر ﴾ يجوز فى « من » وجهان : أحدهما أنها بمعنى اللام ، وتتعلق بتنزل ، أى : تنزل من أجل كل أمر قضى إلى العام القابل . والثانى : أنها بمعنى الباء ، أى : تنزل بكل أمر قضاه الله - تعالى - فيها من موت وحياة ورزق .

وليس المراد أن تقدير الله لا يحدث إلا فى تلك الليلة بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكته .[1]

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٦٧ .

وقوله - تعالى - : ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ بيان لمزية ثالثة من مزايا هذه الليلة ، وقوله ﴿ سلام ﴾ مصدر بمعنى السلامة ، وهو خبر مقدم ، و ﴿ هى ﴾ مبتدأ مؤخر ، وإنما قدم الخبر تعجيلا للمسرّة ، وقد أخبر عن هذه الليلة بالمصدر على سبيل المبالغة ، أو على سبيل تأويل المصدر باسم الفاعل ، أو على تقدير مضاف .. والمراد بمطلع الفجر : طلوعه وبزوغه .

أى : هذه الليلة يظلها ويشملها السلام المستمر ، والأمان الدائم ، لكل مؤمن يحييها فى طاعة الله - تعالى - إلى أن يطلع الفجر ، أو هى ذات سلامة حتى مطلع الفجر ، أو هى سالمة من كل أذى وسوء لكل مؤمن ومؤمنة حتى طلوع الفجر .

هذا وقد أفاض العلماء فى الحديث عن فضائل ليلة القدر ، وعن وقتها . وعن خصائصها .. وقد لخص الإمام القرطبى ذلك تلخيصا حسناً فقال : وهنا ثلاث مسائل :

الأولى : فى تعيين ليلة القدر .. والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين .. والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان .. وقيل : أخفاها - سبحانه - فى جميع شهر رمضان ، ليجتهدوا فى العمل والعبادة طمعا فى إدراكها .

الثانية : فى علاماتها : ومنها أن تطلع الشمس فى صبيحتها بيضاء لاشعاع لها .

الثالثة : فى فضائلها .. وحسبك قوله - تعالى - ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وقوله : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ وفى الصحيحين « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه .. »[1] .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من المنتفعين بهذه الليلة المباركة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء السبت ٢٨ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ .

١ / ١١ / ١٩٨٦ م .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٣٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة البينة

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « البينة » ، تسمى - أيضاً - سورة « لم يكن .. » وسورة « المنفكين » وسورة « القيمة » وسورة « البرية » ، وعدد آياتها ثمانى آيات عند الجمهور ، وعدها قراء البصرة تسع آيات .

٢ - وقد اختلف المفسرون فى كونها مدنية أو مكية ، وقد لخص الإمام الآلوسى هذا الخلاف فقال : قال فى البحر : هى مكية .. وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار : مدنية .. وجزم ابن كثير بأنها مدنية ، واستدل على ذلك بما أخرجه الإمام أحمد . عن أبى خيثمة البدرى قال : لما نزلت هذه السورة ، قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها « أُبَيًّا » .

فقال - ﷺ - لأُبَىِّ بن كعب - رضى الله عنه - : « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة ، فقال أُبَىّ : أو قد ذكرت ثَمَّ يا رسول الله ؟ قال : نعم .» فبكى أُبَىّ .

وقد رجح الإمام الآلوسى كونها مدنية ، فقال : وهذا هو الأصح [1] .

وهذا الذى رجحه الإمام الآلوسى هو الذى نميل إليه ، لأن حديثها عن أهل الكتاب ، وعن تفرقهم فى شأن دينهم ، يرجح أنها مدنية ، كما أن الإمام السيوطى قد ذكرها ضمن السور المدنية ، وجعل نزولها بعد سورة « الطلاق » وقبل سورة « الحشر »[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢٠٠ .
(٢) الإتقان جـ ١ ص ٢٧ .

٣ - ومن أهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، توبيخ أهل الكتاب والمشركين ، على إصرارهم على ضلالهم من بعد أن تبين لهم الحق . والتعجيب من تناقض أحوالهم . وبيان أن كفرهم لم يكن بسبب جهلهم ، وإنما بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للنبى - ﷺ - على ما آتاه الله من فضله ، والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية ، وأن المؤمنين هم خير البرية .

التفســير

قال الله - تعالى - :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾
فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ
ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾
جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

و « مِنْ » فى قوله - تعالى - ﴿ من أهل الكتاب ﴾ للبيان ، وقوله - سبحانه - : ﴿ منفكين ﴾ : للعلماء فى معنى هذا اللفظ أقوال متعددة ، منها : أنه اسم فاعل من انفك بمعنى انفصل ، يقال : فككت الشىء فانفك إذا افترق ما كان ملتحما منه .

والبينة : الحجة الظاهرة التى يتميز بها الحق من الباطل ، وأصلها من البيان بمعنى الظهور والوضوح ، لأن بها تتضح الأمور ، أو من البينونة بمعنى الانفصال ، لأن بها ينفصل الحق عن الباطل بعد التباسها .

والمراد بها هنا : رسول الله - ﷺ - ، لقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ﴾ ، ولأنه - ﷺ - كان فى ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة ، لتحليه بكمال العقل وبمكارم الأخلاق ، ولإتيانه بالمعجزات التى تؤيد أنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

والمعنى : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، ولم يكن - أيضاً - الذين كذبوا الحق من المشركين ، ولم يكن الجميع بمفارقين وبمنفصلين عن كفرهم وشركهم ، ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ التى هى الرسول - ﷺ - فلما أتتهم هذه البينة ، منهم من آمن ومنهم من استمر على كفره وشركه وضلاله .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « كان الكفار من الفريقين ، أهل الكتاب ، وعبدة الأصنام ، يقولون قبل مبعث النبى - ﷺ - : لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهو محمد - ﷺ - ، فحكى الله - تعالى - ماكانوا يقولونه ، ثم قال : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ ، يعنى أنهم كانوا يَعِدُون باجتماع الكلمة ، والاتفاق على الحق ، إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ، ولا أقرهم على الكفر ، إلا مجىء الرسول - ﷺ - ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست بمنفك عما أنا فيه حتى يرزقنى الله - تعالى - الغنى ، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا ، فيقول له واعظه : لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار ، يذكره ما كان يقولهُ توبيخا وإلزاما .

وانفكاك الشىء من الشىء ، أن يزايله بعد التحامه به . كالعظم إذا انفك من مفصله .

والمعنى : أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجىء البينة . [1] .

ومنهم من يرى : أن ﴿ منفكين ﴾ بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى : لم يكونوا جميعا متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك ، حتى تأتيهم البينة ، على معنى قوله - تعالى - : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ .

أو المعنى : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله - تعالى - وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله - تعالى - إليهم رسولا منذرا ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه - تعالى - قال : ما كانوا ليتركوا سدى ...[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٨٢ .

(٢) راجع تفسير « أضواء البيان » جـ ٨ ص ٣٩٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وهناك أقوال أخرى فى معنى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها .

وقد قدم الله - تعالى - ذكر أهل الكتاب فى البيان ، لأن كفرهم أشنع وأقبح . إذ كانوا يقرأون الكتب ، ويعرفون أوصاف النبى - ﷺ - فكانت قدرتهم على معرفة صدقه أكبر وأتم . وفى التعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصارى ، تسجيل للغفلة وسوء النية عليهم . حيث علموا الكتاب . وعرفوا عن طريقه أن هناك رسولا كريما قد أرسله الله - تعالى - لهدايتهم ، ومع ذلك كفروا به ، كما قال - تعالى - : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ﴾ بدل من « البيِّنَةِ » على سبيل المبالغة ، حيث جعل - سبحانه - الرسول نفس البينة .

أى : لم يفارقوا دينهم حتى جاءهم رسول كريم ، كائن من عند الله - تعالى - لكى يقرأ على مسامعهم صحفا من القرآن الكريم ، مطهرة ، أى : منزهة عن الشرك والكفر والباطل ، وهذه الصحف من صفاتها - أيضا - أنها ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ أى : فيها سور آيات قرآنية مستقيمة لا عوج فيها ، بل هى ناطقة بالحق والخير والصدق والهداية ، وبأخبار الأنبياء السابقين وبأحوالهم مع أقوامهم .

فقوله : ﴿ قيمة ﴾ بمعنى مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب ، من قولهم : قام فلان يقوم ، إذا استوى على قدميه فى استقامة .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أهل الكتاب من جحودهم للحق ، ومن إنكارهم له مع علمهم به ، فقال - تعالى - ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ . أى : أن الجاحدين والمعاندين والحاسدين لك - أيها الرسول الكريم - من أهل الكتاب ، ما تفرقوا فى أمره ، وما اختلفوا فى شأن نبوتك .. إلا من بعد أن جئتهم أنت بما يدل على صدقك ، دلالة لا يجحدها إلا جهول ، ولا ينكرها إلا حسود ، ولا يعرض عنها إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .

فالآية الكريمة كلام مستأنف ، المقصود به تسليته - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء الجاحدين فكأنه - سبحانه - يقول له : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لإعراض من أعرض عن دعوتك من أهل الكتاب ، فإن إعراضهم لم يكن عن جهل ، وإنما عن عناد وجحود وحسد لك على ما آتاك الله من فضله .

وإنما خص - سبحانه - هنا أهل الكتاب بالذكر ، مع أن الكلام فى أول السورة كان فيهم وفى المشركين ، للدلالة على شناعة حالهم ، وقبح فعالهم ، لأن الإعراض عن الحق ممن له

كتاب ، أشد قبحا ونكرا ، ممن ليس له كتاب وهم المشركون .

والاستثناء فى الآية مفرغ ، والمستثنى منه عموم الأوقات . والمعنى : لم يتفرق الجاحدون من الذين أوتوا الكتاب فى وقت من الأوقات ، إلا فى الوقت الكائن بعد مجيء البينة لهم .

ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ماكان يجب عليهم أن يفعلوه ، فقال : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة ﴾ .

والواو فى قوله - تعالى - ﴿ وما أمروا ﴾ للحال ، فهذه الجملة حالية ، والمقصود منها بيان أن هؤلاء الضالين ، قد بلغوا النهاية فى قبح الأفعال ، وفى فساد العقول ، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى ، فى حال أنهم لم يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم .

وقوله : ﴿ حنفاء ﴾ من الحَنف ، وهو الميل من الدين الباطل إلى الدين الحق . كما أن الجنف هو الميل من الحق إلى الباطل .

أى : أن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا فى شأن الحق ، والحال ، أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله - تعالى - وحده ، مخلصين له الطاعة ، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، مؤمنين بجميع الرسل بدون تفرقة بينهم ، إذ ملتهم جميعا واحدة ، ولم يؤمروا - أيضا - إلا بإقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين ، وبإيتاء الزكاة التى تطهرهم وتزكيهم .

﴿ وذلك ﴾ الذى أمرناهم به من إخلاص العبادة لنا ، ومن أداء فرائضنا ﴿ دين القيمة ﴾ . أى : دين الملة المستقيمة القيمة ، أو دين الكتب القيمة .

ولفظ « القيمة » - بزنة فيعلة - من القوامة ، وهى غاية الاستقامة ، وهذا اللفظ صفة لموصوف محذوف .

ثم - بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الجاحدين من أهل الكتاب ومن المشركين فقال : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ﴾ .

أى : إن الذين أصروا على كفرهم بعد أن تبين لهم ، من اليهود والنصارى ، ومن المشركين الذين هم عبدة الأصنام .. مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿ هم شر البرية ﴾ أى : هم شر كل صنف من أصناف المخلوقات ، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق .

ولفظ « البرية » من البرَى وهو التراب ، لأنهم قد خلقوا فى الأصل منه ، يقال : فلان براه الله - تعالى - يبرُوه بَرْوًا . أى : خلقه . وقرأ نافع بالهمز ، من قولهم برأ الله - تعالى - الخلق يبرؤهم ، أى : خلقهم .

وقدم سبحانه - أهل الكتاب فى المذمة ، لأن جنايتهم فى حق الرسول - ﷺ - أشد ، إذ كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون لهم : إن نبيا قد أظلنا زمانه ، وإننا عند مبعثه سنتبعه .. فلما بعث - ﷺ - كفروا به .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين : الأول : أن هؤلاء الضالين خالدون فى النار ، والثانى : أنهم شر المخلوقات التى خلقها الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . أى : وعملوا الأعمال الصالحات ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ أى : أولئك هم خير المخلوقات التى خلقها الله - تعالى - .

﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أى : جزاؤهم الطيب الكائن لهم عند ربهم وخالقهم ومالك أمرهم .

﴿ جنات عدن ﴾ . أى : جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، من عدن فلان بالمكان إذا أقام فيه . ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى : تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى : خالدين فى تلك الجنات خلودا أبديا .

﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أى : قبل الله - تعالى - منهم أعمالهم ورضيها عنده ، وفرحوا هم ورضوا بما أعطاهم من خير عميم .

فالمراد برضاء - تعالى - عنهم : قبوله لأعمالهم ، وبرضاهم عنه : فرحهم بما أعطاهم من فضله . ﴿ ذلك ﴾ أى : العطاء الجزيل ﴿ لمن خشى ربه ﴾ أى : كائن وثابت لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أصحاب الميمنة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الأربعاء ٣ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

٦ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الزلزلة

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الزلزلة » وتسمى - أيضاً - سورة « إذا زلزلت » وسورة « الزلزال » من السور المكية ، وقيل : هى من السور المدنية .

قال الآلوسى : هى مكية فى قول ابن عباس ومجاهد وعطاء ، ومدنية فى قول مقاتل وقتادة .

ويبدو لنا أن القول بكونها مكية أرجح ، لأن الحديث عن أهوال يوم القيامة ، يكثر فى السور المكية ، ولأن بعض المفسرين - كالإمام ابن كثير - قد اقتصر على كونها مكية ، ولم يذكر فى ذلك خلافا .

وعدد آياتها ثمانى آيات فى المصحف الكوفى ، وتسع آيات فى غيره . وسبب ذلك اختلافهم فى قوله - تعالى - : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ﴾ هل هو آيتان أو آية واحدة .

٢ - والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : إثبات أن يوم القيامة حق وبيان ما اشتمل عليه من أهوال ، وتأكيد أن كل إنسان سيجازى على حسب عمله فى الدنيا ..

التفسـير

قال الله - تعالى -:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
(٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

وقوله - تعالى - : ﴿ زلزلت ﴾ أى : حركت تحريكا شديدا لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - ، إذ الزلزال : الحركة الشديدة مع الاضطراب ، وهو بفتح الزاى اسم لذلك ، وبكسرها مصدر بمعنى التحرك والاضطراب ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إذا رجت الأرض رجا ﴾ ، ويكون هذا الزلزال الشديد ، عندما يأذن الله - تعالى - بقيام الساعة ، ويبعث الناس للحساب .

وافتتح - سبحانه - الكلام بظرف الزمان ﴿ إذا ﴾ ، لإفادة تحقق وقوع الشرط .

وقوله : ﴿ زلزالها ﴾ مصدر مضاف لفاعله . أى : إذا زلزلت الأرض زلزالها الذى لا يماثله زلزال آخر فى شدته وعظمته وهوله ، كما قال - تعالى - : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ بيان لأثر آخر من آثار ما يحدث فى هذا اليوم الهائل الشديد .

والأثقال : جمع ثِقْل - بكسر فسكون - وهو المتاع الثقيل ، ومنه قوله - تعالى - :

﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ .

والمراد بها هنا : ما يكون فى جوف الأرض من أموات وكنوز وغير ذلك مما يكون فى باطنها . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى جوف الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وإنما سمى الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم ...[١] .

والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - : ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ جنسه فيشمل المؤمن والكافر .

وقوله ﴿ مالها ﴾ مبتدأ وخبر ، والاستفهام : المقصود به التعجب مما حدث من أهوال .

أى : وقال كل إنسان على سبيل الدهشة والحيرة ، أى : شىء حدث للأرض ، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد .

قال الجمل : وفى المراد بالإنسان هنا قولان : أحدهما : أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر ، وهذا يدل على قول من جعل الزلزلة من أشراط الساعة ، والمعنى : أنها حين تقع لم يعلم الكل أنها من أشراط الساعة ، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك . والثانى : أنه الكافر خاصة ، وهذا يدل على قول من جعلها زلزلة القيامة ، لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها ، فإذا وقعت سأل عنها ..[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ جواب الشرط ، و « أخبارها » مفعول ثان لقوله : ﴿ تحدث ﴾ والمفعول الأول محذوف . أى : إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ماذا حدث لها .. عندئذ تحدِّثُ الأرضُ الخلائقَ أخبارَها ، بأن تشهد للطائع بأنه كان كذلك ، وتشهد على الفاسق بأنه كان كذلك .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله - ﷺ - هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ ثم قال : « أتدرون ما أخبارها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عُمِل على ظهرها ، بأن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . فهذه أخبارها . »[٣] .

والظاهر أن هذا التحديث من الأرض على سبيل الحقيقة ، بأن يخلق الله - تعالى - فيها حياة وإدراكا ، فتشهد بما عمل عليها من عمل صالح أو طالح ، كما تشهد على من فعل ذلك .

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٤٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٧٣ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٨١ .

وقيل : هذا مثل ضربه الله - تعالى - والمقصود منه أن كل إنسان فى هذا اليوم سيتبين جزاء عمله ، وما أعده الله - تعالى - له على ما قدم فى حياته الأولى ، ونظير ذلك أن تقول : إن هذه الدار لتحدثنا بأنها كانت مسكونة .

قال بعض العلماء ما ملخصه : قوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ يومئذ بدل من إذا . أى : فى ذلك الوقت تحدثك الأرض أحاديثها ، وتحديث الأرض تمثيل - كما قال الطبرى وغيره - أى : أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ، وما لم يعهد من الخراب ، يعلم السائل ويفهمه الخبر ، وأن ما يراه لم يكن بسبب من الأسباب التى وضعتها السنة الإلهية ، حال استقرار نظام الكون ، بل ذلك بسبب ﴿ أن ربك أوحى لها ﴾ أى : أن ما يحدث للأرض يومئذ ، إنما هو بأمر إلهى خاص . بأن قال لها كونى كذلك فكانت كما قال لها[1] .

وعدى فعل « أوحى » باللام - مع أن حقه أن يتعدى بإلى كما فى قوله - تعالى - ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ لتضمينه معنى « قال » كما فى قوله - سبحانه - ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ .

والمعنى : إن الأرض تحدث الناس عن أخبارها ، وتبينها لهم ، وتشهد عليهم .... بسبب أن ربك الذى خلقك فسواك فعدلك - أيها الإنسان - قد أمرها بذلك .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ﴾ .

والجملة الكريمة بدل من جملة « يومئذ تحدث أخبارها » ، وقوله ﴿ يصدر ﴾ فعل مضارع من الصدَر - بفتح الدال - وهو الرجوع عن الشرب ، يقال : صدَر الناس عن الوِرْد ، إذا انصرفوا عنه . و ﴿ أشتاتا ﴾ جمع شتيت ، أى : متفرق ، ومنه قولهم : شتت الله جمع الأعداء ، أى فرق أمرهم .

وقوله - تعالى - ﴿ ليروا ﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول ، وماضيه المبنى للمعلوم « أراه » بمعنى أطلعه . أى : فى هذا اليوم الذى تتزلزل فيه الأرض زلزلة شديدة .. يخرج الناس من قبورهم متجهين أشتاتا إلى موقف الحساب ، وكل واحد منهم مشغول بنفسه ، لكى يبصروا جزاء أعمالهم ، التى عملوها فى دنياهم .

وجاء فعل « ليروا » مبنيا للمجهول ، لأن المقصود رؤيتهم لأعمالهم ، وليس المقصود تعيين

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٦ للشيخ محمد عبده .

من يريهم إياها . ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على هذه الرؤية من جزاء فقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

و « المثقال » مفعال من الثقل ، ويطلق على الشىء القليل الذى يحتمل الوزن ، و « الذرة » تطلق على أصغر النمل ، وعلى الغبار الدقيق الذى يتطاير من التراب عند النفخ فيه . والمقصود المبالغة فى الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها ، وحقر وزنها .

والفاء : للتفريع على ما تقدم . أى : فى هذا اليوم يخرج الناس من قبورهم متفرقين لا يلوى أحد على أحد . متجهين إلى موقف الحساب ليطلعوا على جزاء أعمالهم الدنيوية .. فمن كان منهم قد عمل فى دنياه عملا صالحا رأى ثماره الطيبة ، حتى ولو كان هذا العمل فى نهاية القلة ، ومن كان منهم قد عمل عملا سيئا فى دنياه ، رأى ثماره السيئة ، حتى ولو كان هذا العمل - أيضا - فى أدنى درجات القلة .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب ، ولذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله - تعالى - على نبيه محمد - ﷺ - آيتين ، أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، ثم قرأ هاتين الآيتين .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين عددا من الأحاديث ، منها : ما أخرجه الإمام أحمد . أن صعصعة بن معاوية ، أتى النبى - ﷺ - فقرأ عليه هاتين الآيتين ، فقال : حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها . وفى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة » .

وفى الصحيح - أيضاً - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » .

وكان - ﷺ - يقول لعائشة : « يا عائشة ، استترى من النار ولو بشق تمرة ، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان . يا عائشة . إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله - تعالى - طالبا »[1] .

ومن الآيات الكريمة التى وردت فى معنى هاتين الآيتين قوله - تعالى - ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٨٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا ممن يواظبون على فعل الخيرات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ٥ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧هـ .

٧ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة العاديات

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « العاديات » وتسمى - أيضا - سورة « والعاديات » بإثبات الواو ، يرى بعضهم أنها من السور المكية ، ولم يذكر فى ذلك خلافا الإمام ابن كثير ، ويرى بعضهم أنها مدنية .

قال الآلوسى : مكية فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنية فى قول أنس وقتادة وإحدى الروايتين عن ابن عباس . فقد أخرج عنه البزار ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والدار قطنى ، وابن مردويه أنه قال : بعث رسول الله - ﷺ - خيلا ، فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر ، فنزلت هذه السورة ...[1] .

وهذه الرواية التى ساقها الآلوسى وغيره فى سبب نزول هذه السورة ، ترجح أنها مدنية ، وإن كان كثير من المفسرين يرى أنها مكية ، والعلم عند الله - تعالى - .

٢ - وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، ومن أهم أغراضها ومقاصدها ، التنويه بشأن الجهاد والمجاهدين ، وبفضل الخيل التى تربط من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - وبيان ما جبل عليه الإنسان من حرص على منافع الدنيا . وتحريض الناس على أن يتزودوا بالعمل الصالح الذى ينفعهم يوم الحساب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢١٤ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا
﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ
لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

والعاديات : جمع عادية ، اسم فاعل من العدو ، وهو المشى السريع ، وأصل الياء فى العاديات واو ، فلما وقعت متطرفة بعد كسرة قلبت ياء ، مثل الغازيات من الغزو .

والضَّبْح : اضطراب النَّفَسِ المتردد فى الحنجرة دون أن يخرج من الفم ، والمراد به هنا : صوت أنفاس الخيل عند جريها بسرعة . وقيل : الضبح نوع من السير والعدو ، يقال : ضَبَحَتْ الخيل ، إذا عدَتْ بشدة . وهو مصدر منصوب بفعله المقدر ، أى : يضبحن ضبحا ، والجملة حال من « العاديات » .

والموريات : جمع مُورِيَة ، اسم فاعل من الإيراء ، وهو إخراج النار ، تقول : أَوْرَى فلان ، إذا أخرج النار بزند ونحوه .

والقَدْح : ضَرْب شىءٍ بشىء لكى يخرج من بينهما شرر النار .

والمراد به هنا : النار التى تخرج من أثر احتكاك حوافر الخيل بالحجارة خلال عدوها بسرعة . و ﴿ قدحا ﴾ منصوب بفعل محذوف ، أى : تقدحن قدحا .

و ﴿ المغيرات ﴾ جمع مغيرة . وفعله أغار ، تقول : أغار فلان على فلان ، إذا باغته بفعل

يؤذيه . و ﴿ صبحا ﴾ منصوب على الظرفية . وقوله : ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ أى : هيجن وأثرن « النقع » أى : الغبار من شدة الجرى . تقول : أثرت الغبار أثيره ، إذا هيجته وحركته . والنون فى « أثرن » ضمير العاديات .

وقوله : ﴿ فوسطن به جمعا ﴾ أى : فتوسطن فى ذلك الوقت جموع الأعداء ، ففرقنها ، ومزقنها ، تقول : وسَطْتُ القومَ أسِطُهم وَسْطاً ، إذا صرت فى وسطهم .

والمراد بالعاديات ، والموريات ، والمغيرات : خيل المجاهدين فى سبيل الله ، والكلام على حذف الموصوف . والمعنى : وحق الخيل التى يعتلى صهواتها المجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - . والتى تجرى بهم فى ساحات القتال ، فيسمع صوت أنفاسها ، والتى تظهر شرر النار من أثر صك حوافرها بالحجارة وما يشبهها والتى تغير على العدو فى وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتمزق جموع الأعداء .

وحق هذه الخيل الموصوفة بتلك الصفات .. ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ .

وقد أقسم - سبحانه - بالخيل المستعملة للجهاد فى سبيله ، للتنبيه على فضلها ، وفضل ربطها ، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية ، ولما يترتب على استعمالها فى تلك الأغراض من أجر وغنيمة ، ومن ترويع لجموع المشركين ، وتمزيق لصفوفهم .

وأسند - سبحانه - الإغارة إليها - مع أنها فى الحقيقة لراكبيها - ، لأن الخيول هى عدة الإغارة ، وهى على رأس الوسائل لبلوغ النصر على الأعداء .

وقيل : المراد بالعاديات : الإبل ، إلا أن الأوصاف المذكورة فى الآيات الكريمة من الضبح والإغارة .. تؤيد أن المراد بها الخيل .

قال صاحب الكشاف : أقسم - سبحانه - بخيل الغزاة تعدو فتضبح . والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون .

فإن قلت : علام عطف « فأثرن » ؟ قلت : على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه ، وهو قوله ﴿ فالمغيرات صبحا ﴾ وذلك لصحة عطف الفعل على الاسم الذى يشبه الفعل كاسم الفاعل - لأن المعنى : واللائى عدون ، فأورين ، فأغرن . فأثرن الغبار .[1] .

والتعبير بالفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فأثرن ﴾ ﴿ فوسطن ﴾ . وبالفعل الماضى ، للإشارة إلى أن إثارة الغبار ، وتمزيق صفوف الأعداء ، قد تحقق بسرعة ، وأن الظفر بالمطلوب قد تم على أحسن الوجوه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٨٧ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ جواب القسم . والكنود : الجحود ، يقال : فلان كند النعمة - من باب دخل - ، إذا جحدها ولم يشكر الله عليها . وكند الحبل : أى قطعه ، وأصل الكنود : الأرض التى لا تنبت شيئا ، فشبه بها الإنسان الذى يمنع الحق والخير ، ويجحد ما عليه من حقوق وواجبات .

أى : إن فى طبع الإنسان - إلا من عصمه الله - تعالى - الكنود لربه والكفران لنعمته ، والنسيان لمننه وإحسانه ، والغفلة عن المواظبة على شكره - تعالى - ، والتضرع إليه - سبحانه - عند الشدائد والضراء .. والتشاغل عن ذلك عند العافية والرخاء .

فالمراد بالإنسان هنا : جنسه ، إذ أن هذه الصفة غالبة على طبع الإنسان بنسب متفاوتة ، ولا يسلم منها إلا من عصمه الله - تعالى - .

وقيل : المراد بالإنسان هنا : الكافر ، وأن المقصود به ، الوليد بن المغيرة .

والأولى أن يكون المراد به الجنس ، ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أى : وإن الإنسان على كنوده وجحوده لنعم ربه « لشهيد » أى : لشاهد على نفسه بذلك ، لظهور أثر هذه الصفة عليه ظهورا واضحا ، إذ هو عند لجاجه فى الطغيان يجحد الجلى من النعم ، ويعبد من دون خالقه أصناما ، مع أنه إذا سئل عن خالقه اعترف وأقر بأن خالقه هو الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله ﴾ .

قال الإمام الشيخ محمد عبده : قوله : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أى : وإن الإنسان لشهيد على كنوده ، وكفره لنعمة ربه ، لأنه يفخر بالقسوة على من دونه ، وبقوة الحيلة على من فوقه ، وبكثرة ما فى يده من المال مع الحذق فى تحصيله ، وقلما يفتخر بالمرحمة ، وبكثرة البذل - اللهم إلا أن يريد غشا للسامع - وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ، لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر النعمة ، بل من آيات كفرها[1] .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله - تعالى - هنا ﴿ وإنه ﴾ يعود على الخالق - سبحانه - أى : وإن الله - تعالى - لعليم ولشهيد على ما يسلكه هذا الإنسان من جحود ، فيكون المقصود من الآية الكريمة ، التهديد والوعيد .

قالوا : والأول أولى ، لأنه هو الذى يتسق مع سياق الآيات ، ومع اتحاد الضمائر فيها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أى : وإن هذا الإنسان لشديد الحب

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٩ .

لجمع المال ، ولكسبه من مختلف الوجوه بدون تفرقة - فى كثير من الأحيان - بين الحلال والحرام ، ولكنزه والتكثر منه ، وبالبخل به على من يستحقه .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا[1] ﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر مافى القبور . وحصل مافى الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ تهديد لهذا الإنسان الكنود .. وتحريض له على التفكر والاعتبار ، وتذكير له بأهوال يوم القيامة .

أى : أيفعل ما يفعل هذا الإنسان الجحود لنعم ربه .. فلا يعلم مآله وعاقبته ﴿ إذا بعثر ﴾ . أى : إذا أثير وأخرج وقلب رأسا على عقب ﴿ مافى القبور ﴾ من أموات حيث أعاد - سبحانه - إليهم الحياة ، وبعثهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أى : أثيرت وأخرج ما فيها . يقال : بعثر فلان متاعه ، إذا جعل أسفله أعلاه .

﴿ وحصل مافى الصدور ﴾ أى : وجمع مافى القلوب من خير وشر وأظهر ما كانت تخفيه ، وأبرز ما كان مستورا فيها ، بحيث لا يبقى لها سبيل إلى الإخفاء أو الكتمان .

وأصل التحصيل : إخراج اللب من القشر ، والمراد به هنا : إظهار وإبراز ما كانت تخفيه الصدور ، والمجازاة على ذلك . ومفعول ﴿ يعلم ﴾ محذوف ، لتذهب النفس فيه كل مذهب ويجول الفكر فى استحضاره وتقديره .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ جملة مستأنفة لزيادة التهديد والوعيد .

أى : إن رب المبعوثين للحساب والجزاء ، لعليم علما تاماً بأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فى ذلك اليوم الهائل الشديد الذى يبعث فيه الناس من قبورهم ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساؤوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أهل طاعته ومثوبته .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة : مدينة نصر

٨ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ .

١٠ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القارعة

مقدمة وتمهيد

سورة « القارعة » من السور المكية الخالصة ، وكان نزولها بعد سورة « قريش » ، وقبل سورة « القيامة » ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية فى المصحف الكوفى ، وعشر آيات فى الحجازى ، وثمانى آيات فى البصرى والشامى .

وهى من السور التى فصلت الحديث عن أهوال يوم القيامة ، لكى يستعد الناس لاستقباله ، بالإيمان والعمل الصالح .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

ولفظ « القارعة » اسم فاعل من القرع ، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد .

والمراد بها هنا : القيامة ، ومبدؤها النفخة الأولى ، ونهايتها : قضاء الله - تعالى - بين خلقه ، بحكمه العادل ، وجزائه لكل فريق بما يستحقه من جنة أو نار .

وسميت القيامة بذلك . كما سميت بالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية .. إلخ - لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، وتجعل الأجرام العلوية والسفلية يصطك بعضها ببعض ، فيحصل لها ما يحصل من تزلزل واضطراب وتقرع أعداء الله - تعالى - بالخزى والعذاب والنكال ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ استفهام عن حقيقتها ، والمقصود به التهويل من أمرها ، والتفظيع من حالها ، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من شدائد ، تفزع لها القلوب فزعا لا تحيط العبارة بتصويره ، ولا تستطيع العقول أن تدرك كنهه .

و « القارعة » : مبتدأ ، و « ما » : مبتدأ ثان ، و « القارعة » : خبر المبتدأ الثانى ، وجملة المبتدأ الثانى وخبره فى محل رفع خبر المبتدأ الأول .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ معطوف على جملة « ما القارعة » والخطاب فى قوله ﴿ وما أدراك ﴾ لكل من يصلح له .

أى : وما أدراك - أيها المخاطب - ما كنهها فى الشدة ؟ إنها فى الشدة والهول شىء عظيم . لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

فالمقصود من الآيات الكريمة : تعظيم شأنها ، والتعجيب من حالها ، وأنها تختلف عن قوارع الدنيا - مهما بلغ عظمها - اختلافا كبيرا .

وبعد أن بين - سبحانه - أن معرفة حقيقتها أمر عسير .. أتبع ذلك ببيان أحوال الناس وقت وقوعها فقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ .

و « يوم » منصوب بفعل مقدر . والفراش : هو الحشرة التى تتهافت نحو النار ، وسمى بذلك لأنه يتفرش وينتشر من حولها .

والمبثوث : المنتشر المتفرق . تقول : بثثت الشىء ، إذا فرقته ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وزرابى مبثوثة ﴾ أى : متناثرة متفرقة .

أى : تحصل القارعة يوم يكون الناس فى انتشارهم وكثرتهم واضطرابهم وإقبالهم نحو الداعى لهم نحو أرض المحشر .. كالحشرات الصغيرة المتهافتة نحو النار .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد شبه الناس فى هذا الوقت العصيب ، بالفراش المتفرق المنتشر فى كل اتجاه ، وذلك لأن الناس فى هذا اليوم يكونون فى فزع ، يجعل كل واحد منهم مشغولا بنفسه ، وفى حالة شديدة من الخوف والاضطراب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ بيان لحالة أخرى من الأحوال التى يكون عليها هذا الكون يوم القيامة .

والعهن : الصوف ذو الألوان المتعددة ، والمنفوش : المفرق بعضه عن بعض .

أى : وتكون الجبال فى ذلك اليوم ، كالصوف الذى ينفش ويفرق باليد ونحوها . لخفته وتناثر أجزائه ، حتى يسهل غزله .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد اشتملت على أقوى الأساليب وأبلغها ، فى التحذير من أهوال يوم القيامة ، وفى الحض على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .

لأنها قد ابتدأت بلفظ القارعة ، المؤذن بأمر عظيم ، ثم ثنت بالاستفهام المستعمل فى

التهويل، ثم أعادت اللفظ بذاته بدون إضمار له زيادة فى تعظيم أمره، ثم جعلت الخطاب لكل من يصلح له، ثم شبهت الناس فيه تشبيها تقشعر منه الجلود، ثم وصفت الجبال - وهى المعروفة بصلابتها ورسوخها - بأنها ستكون فى هذا اليوم كالصوف المتناثر الممزق.

ثم بين - سبحانه - أحوال السعداء والأشقياء فى هذا اليوم فقال: ﴿ فأما من ثقلت موازينه، فهو فى عيشة راضية ﴾.

أى: فأما من ثقلت موازين حسناته. ورجحت أعماله الصالحة على غيرها. فهو فى عيشة مرضية. أو فى عيشة ذات رضا من صاحبها، لأنها عيشة هنية كريمة.

﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أى: خفت موازين حسناته، وثقلت موازين سيئاته، ﴿ فأمه هاوية ﴾ أى: فمرجعه ومأواه الذى يأوى إليه، نار سحيقة يهوى إليها بدون رحمة أو شفقة، بسبب كفره وفسوقه.

فالمراد بالأم هنا: المرجع والمأوى، وبالهاوية: النار التى يسقط فيها، وسميت النار بذلك. لشدة عمقها. وسمى المأوى أمًّا، لأن الإنسان يأوى إليه كما يأوى ويلجأ إلى أمه.

ويرى بعضهم أن المراد بأمه هنا الحقيقة، لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه فى الخير وفى الشر، لشدة محبتها له.

قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿ فأمه هاوية ﴾ من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة، هوت أمه، لأنه إذا هوى - أى سقط وهلك .. فقد هوت أمه ثكلا وحزنا .. فكأنه قيل: وأما من خفت موازينه فقد هلك.

وقيل: « هاوية » من أسماء النار، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيدا، كما روى: « يهوى فيها سبعين خريفا »، أى: فمأواه النار.

وقيل للمأوى: أم، على التشبيه، لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ..[1].

وقال بعض العلماء: واعلم أنه يجب علينا أن نؤمن بما ذكره الله - تعالى - من الميزان فى هذه الآية وما يشبهها. وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يثبت عن الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - ونَكل ما وراء ذلك إلى علام الغيوب، على أن وزن الأعمال، أو وزن صحائفها أو وزن الصور الجميلة، كل ذلك أمر ممكن، لا يترتب على فرض وقوعه محال، فوقوع شىء من ذلك، لايعجز الله - تعالى - ولا يقف أمام قدرته الغالبة ..[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٩٠.

(٢) تفسير جزء عم ص ٣٠٢ لفضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد (يرحمه الله).

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بما يزيد من هول هذه الهاوية فقال : ﴿ وما أدراك ماهيه ، نار حامية ﴾ .

أى : وأى شىء يخبرك بكنه تلك النار السحيقة ؟ إننا نحن الذين نخبرك بذلك فنقول لك - أيها المخاطب - على سبيل التحذير من العمل الذى يؤدى إليها : إنها نار قد بلغت النهاية فى حرارتها .

نسأل الله تعالى - أن يعيذنا جميعاً منها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر .

مساء الثلاثاء ٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

١١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة التكاثر

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « التكاثر » من السور المكية ، وسميت فى بعض المصاحف سورة « ألهاكم » وكان بعض الصحابة يسمونها « المَقبُرة » .

قال القرطبى : وهى مكية فى قول المفسرين . وروى البخارى أنها مدنية وهى ثمانى آيات .

وقد ذكروا فى سبب نزولها روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنها نزلت فى حيين من قريش ، بنى عبد مناف . وبنى سهم ، تكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام ، فقال كل حى منهم : نحن أكثر سيدا ، وأعز نفرا .. فنزلت هذه السورة ..[1] .

٢ - ومن أغراض السورة الكريمة : النهى عن التفاخر والتكاثر ، والحض على التزود بالعمل الصالح ، وعلى ما ينجى من العذاب ، والتأكيد على أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الحساب حق ، وعلى أن الجزاء حق ..

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٦٨ .

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ألهاكم ﴾ من اللهو وهو الغفلة عن مواطن الخير ، والانشغال عما هو نافع .

والتكاثر : التبارى والتباهى بالكثرة فى شىء مرغوب فيه كالمال والجاه ..

أى : شغلكم - أيها الناس - التباهى والتفاخر بكثرة الأموال والأولاد والعشيرة ، كما ألهاكم حب الدنيا عن القيام بما كلفناكم به ..

﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أى : بقيتم على هذه الحال ، حتى أتاكم الموت ، ودفنتم فى قبوركم ، وانصرف عنكم أحب الناس إليكم ، وبقيتم وحدكم .

والخطاب عام لكل عاقل ، ويدخل فيه المشركون والفاسقون ، الذين آثروا الدنيا على الآخرة دخولا أوليا .

فالمراد بزيارة المقابر : انتهاء الآجال ، والدفن فى القبور بعد الموت . وعبر - سبحانه - عن ذلك بالزيارة . لأن الميت يأتى الى القبر كالزائر له ، ثم بعد ذلك يخرج منه يوم البعث والنشور ، للحساب والجزاء ، فوجوده فى القبر إنما هو وجود مؤقت بوقت يعلمه الله - تعالى - .

وقد روى أن أعرابيا عندما سمع هذه الآية قال : بعثوا ورب الكعبة ، فقيل له كيف ذلك ؟ فقال : لأن الزائر لابد أن يرتحل .

وقد نهى النبى - ﷺ - عن التهالك على حطام الدنيا ، فى أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله - ﷺ - وهو يقول : « ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك يابن آدم إلا ماأكلت فأفنيت أو ليست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

وقوله - تعالى - : ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ ردع وزجر عن الاشتغال عن طاعة الله ، وعن التكاثر بالأموال والأولاد .

وكرر لفظ « كلا » ثلاث مرات فى هذه السورة ، لتأكيد هذا الزجر والردع عن كل ما يشغل الانسان عن وجوه الخير والبر .

والتعبير بقوله : ﴿ سوف ﴾ لزيادة الزجر ، ولتحقيق حصول العلم ، وحذف مفعول ﴿ تعلمون ﴾ لظهوره من المقام . أى : اتركوا التشاغل بالدنيا والتفاخر بالأموال ، فإنكم إن بقيتم على ذلك بدون توبة صادقة ، فسوف تعرفون سوء عاقبة ذلك معرفة لا يخامرها شك ، ولا يفارقها ريب .

وجملة ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ مؤكدة تأكيدا لفظيا للجملة التى قبلها ، وهذا التأكيد المقصود منه المبالغة فى الردع والزجر والتحذير من التكاثر والتفاخر ..

ثم أضاف - سبحانه - إلى كل ما سبق من تحذيرات ، زواجر أخرى فقال : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ ..

وجواب « لو » محذوف لقصد التهويل ، و« اليقين » فعيل بمعنى مفعول ، وعلم اليقين هو العلم الجازم المطابق للواقع الذى لاشك فيه . والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو من إضافة العام الى الخاص .

أى : لو تعلمون - علما موثوقا به - سوء عاقبة انشغالكم عن ذكر الله - تعالى - وتكاثركم وتفاخركم بالأموال والأولاد .. لشغلكم هذا العلم اليقينى عما أنتم عليه من التشاغل والتكاثر .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : الزيادة فى ردعهم ، لأنه من عادة الغافلين المكابرين . أنك إذا ذكرتهم بالحق وبالرشاد .. زعموا أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا الارشاد ، لأنهم أهل علم ومعرفة بالعواقب ، فكانت هذه الآية الكريمة بمثابة تنبيههم بأنهم ليسوا على شىء من العلم

الصحيح ، لأنهم لو كانوا كذلك لما تفاخروا ، ولما تكاثروا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب قسم مقدر ، قصد به تأكيد الوعيد الشديد فى التهديد ، وبيان أن المهدد به رؤية الجحيم فى الآخرة ، أى : والله لترون الجحيم فى الآخرة .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى تأكيدا قويا فقال : ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى : ثم لترون الجحيم رؤية هى ذات اليقين ونفسه وعينه ، وذلك بأن تشاهدوها مشاهدة حقيقية ، بحيث لا يلتبس عليكم أمرها .

وقد قالوا إن مراتب العلم ثلاثة : علم اليقين وهو ما كان ناتجا عن الأدلة والبراهين .

وعين اليقين : وهو ما كان عن مشاهدة وانكشاف .

وحق اليقين : وهو ما كان عن ملابسة ومخالطة .

ومثال ذلك أن تعلم بالأدلة أن الكعبة موجودة ، فذلك علم اليقين ، فإذا رأيتها بعينيك فذلك عين اليقين ، فإذا ما دخلت فى جوفها فذلك حق اليقين ..

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد حذر الناس من الاشتغال عن طاعته ، ومن التباهى والتكاثر ، بأبلغ أساليب التأكيد وأقواها .

ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ ، والمراد بالنعيم هنا : ما يتنعم به الإنسان خلال حياته الدنيوية من مال وولد ، ومن طعام وشراب ، ومن متعة وشهوة .. من النعومة التى هى ضد الخشونة .

أى : ثم إنكم بعد ذلك - أيها الناس - والله لتسألن يوم القيامة عن ألوان النعم التى منحكم الله - تعالى - إياها ، فمن أدى ما يجب عليه نحوها من شكر الله - تعالى - عليها كان من السعداء ، ومن جحدها وغمطها وشغلته عن طاعة ربه ، وتباهى وتفاخر بها .. كان من الأشقياء ، كما قال - تعالى - : ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

فالمراد بالسؤال إنما هو سؤال التكريم والتبشير للمؤمنين الشاكرين ، وسؤال الإهانة والتوبيخ للفاسقين الجاحدين .

والآية الكريمة دعوة حارة للناس ، إلى شكر نعمه - تعالى - واستعمالها فيما خلقت له .

قال القرطبى ما ملخصه : والسؤال يكون للمؤمن والكافر .. والجمع بين الأخبار التى

وردت فى ذلك : أن الكل يسألون ، ولكن سؤال الكافر توبيخ ، لأنه قد ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف ، لأنه قد شكر ، وهذا النعيم فى كل نعمة ..[1] .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الشاكرين ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ١١ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ .

١٩٨٦/١١/١٣ م .

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٧٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة العصر

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « العصر » وتسمى سورة « والعصر » من السور المكية عند جمهور المفسرين ، وكان نزولها بعد سورة « الانشراح » وقبل سورة « العاديات » فهى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب النزول .

وقيل هى مدنية ، والمعول عليه الأول ، لأنه المنقول عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما ، وعدد آياتها ثلاث آيات .

٢ - وقد اشتملت على بيان من هم أهل الخسران ، ومن هم أهل السعادة .

قال الآلوسى : وهى على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت ، فقد روى عن الشافعى أنه قال : لو لم ينزل من القرآن غير هذه السورة لكفت الناس ، لأنها شملت جميع علوم القرآن .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب عن أبى حذيفة - وكانت له صحبة - أنه قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله - ﷺ - إذا التقيا لم يتفرقا ، حتى يقرأ أحدهما على الآخر ، سورة « والعصر » ثم يسلم أحدهما على الآخر .. أى : عند المفارقة[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢٢٠ .

التفسـير

قال الله - تعالى -:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

وللعلماء أقوال متعددة فى المقصود بالعصر هنا فمنهم من يرى أن المقصود به : الدهر كله ، لما فيه من العبر التى تدل دلالة واضحة على عظيم قدرة الله - تعالى - ، ولما فيه من الأحداث التى يراها الناس بأعينهم ، ويعرفونها عن غيرهم ..

فهم يرون ويسمعون كم من غنى قد صار فقيرا ، وقوى قد صار ضعيفا ، ومسرور قد أصبح حزينا .. ورحم الله القائل :

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشى

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ والعصر ﴾ أى : الدهر ، قال ابن عباس وغيره . فالعصر مثل الدهر .. وأقسم به - سبحانه - لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها[1] ..

ومنهم من يرى أن المقصود به : وقت صلاة العصر ، وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال : أقسم - سبحانه - بصلاة العصر لفضلها ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ - وهى صلاة العصر - ، وقوله - ﷺ - : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وَتِرَ أهلَه ومالَه » ولأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار ..[2] .

ومنهم من يرى أن المراد بالعصر هنا : عصر النبوة . لأفضليته بالنسبة لما سبقه من عصور .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٧٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٩٣ .

وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر ، والعصر اسم الدهر ، وهو العشى ، والليل والنهار ..[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الإنسان لفى خسر ..﴾ جواب القسم ، والمراد بالإنسان : جنسه ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا . والخسر مثل الخسران ، كالكفر بمعنى الكفران ..

أى : إن جنس الانسان لا يخلو من خسران ونقصان وفقدان للربح فى مساعيه وأعماله طوال عمره ، وإن هذا الخسران يتفاوت قوة وضعفا .

فأخسر الأخسرين هو الكافر الذى أشرك مع خالقه إلها آخر فى العبادة ، وأقل الناس خسارة هو المؤمن الذى خلط عملا صالحا بآخر سيئا ثم تاب إلى الله - تعالى - توبة صادقة .

وجاء الكلام بأسلوب القسم ، لتأكيد المقسم عليه ، وهو أن جنس الإنسان فى خسر .

وقال - سبحانه - ﴿ لفى خسر ﴾ للإشعار بأن الإنسان كأنه مغمور بالخسر ، وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب ، وتنكير لفظ « خسر » للتهويل . أى : لفى خسر عظيم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...﴾ استثناء مما قبله ، والمقصود بهذه الآية الكريمة تسلية المؤمنين الصادقين .. وتبشيرهم بأنهم ليسوا من هذا الفريق الخاسر .

وقوله - تعالى - : ﴿ وتواصوا ﴾ فعل ماض ، من الوصية وهى تقديم النصح للغير مقرونا بالوعظ .

و « الحق » : هو الأمر الذى ثبتت صحته ثبوتا قاطعا ..

و « الصبر » : قوة فى النفس تعينها على احتمال المكاره والمشاق ..

أى : أن جميع الناس فى خسران ونقصان .. إلا الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات ، من صلاة وزكاة وصيام وحج .. وغير ذلك من وجوه الخير ، وأوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق ، الذى على رأسه الثبات على الإيمان وعلى العمل الصالح .. وأوصى بعضهم بعضا كذلك بالصبر على طاعة الله - تعالى - ، وعلى البلايا والمصائب والآلام .. التى لا تخلو عنها الحياة .

فهؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين أوصى بعضهم بعضا بهذه الفضائل ليسوا من بين الناس

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٨٧ .

الذين هم فى خسران ونقصان ، لأن إيمانهم الصادق وعملهم الصالح .. قد حماهم من الخسران ..

قال بعض العلماء : وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على الوعيد الشديد ، وذلك لأنه - تعالى - حكم بالخسارة على جميع الناس ، الا من كان متصفا بهذه الأشياء الأربعة ، وهى : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور ، وأنه كما يجب على الإنسان أن يأتى من الأعمال مافيه الخير والنفع ، يجب عليه - أيضا - أن يدعو غيره إلى الدين ، وينصحه بعمل الخير والبر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يثبت على ذلك ، فلا يحيد عنه ، ولا يزحزحه عن الدعوة إليه مايلاقيه من مشاق ..[1] .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أصحاب هذه الصفات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
١٣ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٥ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير جزء « عم » ص ٣١٣ للشيخ محى الدين عبد الحميد رحمه الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الهمزة

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الـهُمَزة » من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « القيامة » وقبل سورة « المرسلات »وعدد آياتها تسع آيات .

٢ - ومن أهم أغراضها : التهديد الشديد لمن يعيب الناس ، ويتهكم بهم ، ويتطاول عليهم ، بسبب كثرة ماله ، وجحوده للحق .

وقد ذكروا أن هذه السورة الكريمة نزلت فى شأن جماعة من أغنياء المشركين ، منهم : الوليد ابن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبى بن خلف .. كانوا يؤذون النبى - ﷺ - وأصحابه ، ويشيعون الأقوال السيئة عنهم .

وهذا لا يمنع أن السورة الكريمة تشمل أحكامها كل من فعل مثل هؤلاء المشركين ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

والويل : لفظ يدل على الذم وعلى طلب العذاب والهلكة .. وقيل : اسم لواد فى جهنم .

والهُمَزة من الهَمْز ، بمعنى الطعن فى أعراض الناس ، ورميهم بما يؤذيهم ..

واللُّمَزة من اللمز ، بمعنى السخرية من الغير ، عن طريق الإشارة باليد أو العين أو غيرهما .

قال الجمل : الهمزة واللمزة : هم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة الباغون العيب للبرىء ، فعلى هذا هما بمعنى واحد .

وقيل : الهمزة الذى يعيبك فى الغيب ، واللمزة الذى يعيبك فى الوجه وقيل : العكس .

وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى أصل واحد ، وهو الطعن وإظهار العيب ، ويدخل فى ذلك من يحاكى الناس فى أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه ..[1] .

ولفظ « ويل » مبتدأ وساغ الابتداء به مع كونه نكرة ، لأنه دعاء عليهم ، وقوله : ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ خبره ، وهمزة ولمزة وصفان لموصوف محذوف .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٨٤ .

أى : عذاب شديد ، وخزى عظيم ، لكل من يطعن فى أعراض الناس ، ويغض من شأنهم ، ويحقر أعمالهم وصفاتهم ، وينسب إليهم ما هم برآء منه من عيوب .

والتعبير بقوله : ﴿ همزة لمزة ﴾ يدل على أن تلك الصفات القبيحة ، كانت عادة متأصلة فيهم ، لأن اللفظ الذى بزنة ﴿ فُعَلَة ﴾ - بضم الفاء وفتح العين - يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به ديدنه ودأبه الإتيان بهذا الوصف ، ومنه قولهم : فلان ضُحَكة : إذا كان يكثر من الضحك .

كما أن لفظ « فُعْلَة » - بضم الفاء وسكون العين - يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به ، يكثر أن يفعل به ذلك ، ومنه قولهم : فلان ضُحْكة ، إذا كان الناس يكثرون الضحك منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ الذى جمع مالا وعدده ﴾ زيادة تشنيع وتقبيح للهمزة اللمزة ..

ومعنى « عدده » : جعله عدته وذخيرته ، وأكثر من عده وإحصائه لحرصه عليه ، والجملة الكريمة فى محل نصب على الذم .

أى : عذاب وهلاك لكل إنسان مكثر من الطعن فى أعراض الناس ، ومن صفاته الذميمة أنه فعل ذلك بسبب أنه جمع مالا كثيرا ، وأنفق الأوقات الطويلة فى عده مرة بعد أخرى ، حبا له وشغفا به وتوهما منه أن هذا المال الكثير هو مناط التفاضل بين الناس .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ﴿ جمَّع ﴾ - بتشديد الميم - وهو مبالغة فى ﴿ جمع ﴾ بتخفيف الميم .

وقوله - تعالى - : ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ ، صفة أخرى من صفاته القبيحة ، والجملة يصح أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا ، جوابا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : ما باله يجمع المال ويهتم به ؟ فكان الجواب : يحسب أن ماله أخلده .

ويصح أن تكون حالا من فاعل « جمع » أى : هذا الجاهل المغرور جمع المال وعدده ، حالة كونه يظن أن ماله يخلده فى الدنيا ، ويجعله فى مأمن من حوادث الدهر .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده : أى أن الذى يحمل هذا الهمزة اللمزة على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده .. فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه .. ويظن أن ما عنده من المال ، قد حفظ له حياته التى هو فيها ، وأرصدها عليه ، فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى ، يعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال ..[1] .

---

(١) تفسير جزء عم ص ١١٧ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور فقال : ﴿ كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ﴾ .

و« كلا » حرف زجر وردع ، والمراد به هنا إبطال ما توهمه هذا المغرور من حسبانه أن ماله سيخلده . والنبذ : الطرح للشىء والإلقاء به مع التحقير والتصغير من شأنه .

والحُطَمة من الحَطْم ، وهو كسر الشىء بشدة وقوة ، ويقال : رجل حطمة ، إذا كان شديداً فى تحطيمه وكسره لغيره ، والمراد بالحطمة هنا : النار الشديدة الاشتعال : التى لا تبقى على شىء إلا وأحرقته .

أى : كلا ليس الأمر كما زعم هذا الهمزة اللمزة ، من أن ماله سيخلده ، بل الحق أنه والله ليطرحن بسبب أفعاله القبيحة فى النار التى تحطم كل شىء يلقى فيها ، والتى لا يعرف مقدار شدتها واشتعالها إلا الله - تعالى - .

فالمقصود بالاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ تهويل أمر هذه النار ، وتفظيع شأنها ، وبيان أن كنهها لا تدركه عقول البشر ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ بيان للحطمة وتفصيل لأمرها بعد إبهامها .

أى : الحطمة هى نار الله - تعالى - الشديدة الإحراق ، وأضيفت إلى الله - تعالى - لزيادة الترويع والتخويف منها ، لأن خالقها - عز وجل - هو الذى لا يعجزه شىء .

وقوله - تعالى - : ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ صفة أخرى من صفات هذه النار ، وقوله : ﴿ تطلع ﴾ من الاطلاع ، بمعنى الوصول إلى الشىء بسرعة ، والكشف عن خباياه ، والنفاذ إلى منتهاه .

أى : سيلقى بهذا الشقى فى نار الله - تعالى - الموقدة ، التى تصل إلى أعماق الأفئدة والقلوب ، فتحيط بها ، وتنفذ إليها ، فتحرقها إحراقا تاما .

وخصت الأفئدة التى هى القلوب بالذكر، لأنها ألطف ما فى الأبدان وأشدها تألما بأدنى أذى يصيبها ، أو لأنها محل العقائد الزائفة ، والنيات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة ، التى استحق هذا الهمزة اللمزة بسببها العقاب الشديد .

ثم وصف - سبحانه - هذه النار بصفة ثالثة فقال : ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أى : إن هذه النار من صفاتها - أيضا - أنها مطبقة ومغلقة عليهم بحيث لا يستطيعون الخروج منها ، فقوله ﴿ مؤصدة ﴾ اسم مفعول من قولك أوصدت الباب ، إذا أغلقته بشدة ، بحيث لا يستطاع الخروج منه ..

وقوله - تعالى - : ﴿ فى عمَد ممدة ﴾ صفة رابعة من صفات هذه النار الشديدة الاشتعال .

وقوله ﴿ عَمَد ﴾ -بفتحتين - جمع عمود كأديم وأَدَم ، وقيل : جمع عماد ، وقيل : هو اسم جمع لعمود ، وليس جمعا له ، والمراد بها : الأوتاد التى تشد بها أبواب النار .

وقرأ بعض القراء السبعة : فى عُمُد بضمتين جمع عمود كسرير وسرر .

والممددة : الطويلة الممدودة من أول الباب إلى آخره .

أى : أن هذه النار مغلقة عليهم بأبواب محكمة ، هذه الأبواب قد شدت بأوتاد من حديد ، تمتد هذه الأوتاد من أول الأبواب إلى آخرها . بحيث لا يستطيع من بداخلها الفكاك منها .

وبذلك نرى السورة الكريمة قد توعدت هؤلاء المغرورين الجاهلين ، الطاعنين فى أعراض الناس .. بأشد ألوان العقاب ، وأكثره إهانة وخزيا لمن ينزل به .

نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا من ذلك .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة مدينة نصر

صباح الاحد ١٤ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

١٦ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الفيل

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الفيل » وسماها بعضهم سورة « ألم تر ... » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها خمس آيات ، وكان نزولها بعد سورة « قل يأيها الكافرون » ، وقبل سورة « القيامة » فهى السورة التاسعة عشرة فى ترتيب النزول من بين السور المكية .

٢ - ومن أهم مقاصدها تذكير أهل مكة بفضل الله - تعالى - عليهم ، حيث منع كيد أعدائهم عنهم ، وعن بيته الحرام ، وبيان أن هذا البيت له مكانته السامية عنده - تعالى - ، وأن من أراده بسوء قصمه الله - تعالى - ، وتبشير النبى - ﷺ - بأنه - سبحانه - كفيل برعايته ونصره على أعدائه ، كما نصر أهل مكة على أبرهة وجيشه ، وتثبيت المؤمنين على الحق ، لكى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، وبيان أن الله - سبحانه - غالب على أمره .

٣ - وقصة أصحاب الفيل من القصص المشهورة عند العرب ، وملخصها : أن أبرهة الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ، بنى كنيسة بصنعاء لم ير مثلها فى زمانها .. وأراد أن يصرف الناس من الحج إلى بيت الله الحرام ، إلى الحج إليها .. ثم جمع جيشا عظيما قدم به لهدم الكعبة .. فأهلكه الله - تعالى - وأهلك من معه من رجال وأفيال ..

وكانت ولادته - ﷺ - فى هذا العام ..[1] .

---

(١) راجع سيرة ابن إسحاق جـ١ ص ٤٣ وتفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢٢٣ .

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر ... ﴾ للتقرير بما تواتر نقله وعلمه - ﷺ - وعلمه غيره علما مستفيضا .. حتى إن العرب كانوا يؤرخون بتلك الحادثة، فيقولون : هذا الأمر حدث فى عام الفيل ، أو بعده أو قبله .. والمراد بالرؤية هنا : العلم المحقق .

وعبر - سبحانه - عن العلم بالرؤية ، لأن خبر هذه القصة - كما أشرنا كان من الشهرة بمكان ، فالعلم الحاصل بها مساو فى قوة الثبوت للرؤية والمشاهدة .

والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - علما لا يخالطه ريب أو لبس ، ما فعله ربك بأصحاب الفيل ، الذين جاءوا لهدم الكعبة ، حيث أهلكناهم إهلاكا شنيعا ، كانت فيه العبرة والعظة ، والدلالة الواضحة على قدرتنا ، وعلى حمايتنا لبيتنا الحرام .

وأوقع - سبحانه - الاستفهام عن كيفية ما أنزله بهم ، لا عن الفعل ذاته ، لأن الكيفية أكثر دلالة على قدرته - تعالى - وعلى أنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فعل ربك ... ﴾ إشارة إلى أن هذا الفعل لا يقدر عليه أحد سواه - سبحانه - فهو الذى ربى نبيه - ﷺ - وتعهده بالرعاية ، وهو الكفيل بنصره على أعدائه ، كما نصر أهل مكة ، على جيوش الحبشة .. وهم أصحاب الفيل .

ووصفوا بأنهم « أصحاب الفيل » لأنهم أحضروا معهم الفيلة ، ليستعينوا بها على هدم الكعبة ، وعلى إذلال أهل مكة .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ للتقرير - أيضا - أى : لقد جعل الله - تعالى - مكر أصحاب الفيل وسعيهم لتخريب الكعبة ، فى ﴿ تضليل ﴾ أى : فى تخسير وإبطال وتضييع ، بأن تبرهم - سبحانه - تتبيرا ودمرهم تدميرا .

والكيد : إرادة وقوع الإضرار بالغير فى خفية ، وسمى - سبحانه - ما فعله أبرهة وجيشه كيدا ، مع أنهم جاءوا لهدم الكعبة جهارا نهارا .. لأنهم كانوا يضمرون من الحقد والحسد والعداوة لأهل مكة ، أكثر مما كانوا يظهرونه ، فهم - كما قال - تعالى - : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر .. ﴾ .

والمقصود بالتضليل هنا : التضييع والإبطال . تقول : ضللت كيد فلان ، إذا جعلته باطلا ضائعا .

ثم بين - سبحانه - مظاهر إبطاله لكيدهم فقال : ﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ﴾ .

والطير : اسم جمع لكل ما من شأنه أن يطير فى الهواء ، وتنكيره للتنويع والتهويل ، والأبابيل : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل هو جمع إِبَّالة ، وهى حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامنها وتلاصقها .

أى : لقد جعل الله - تعالى - كيد هؤلاء المعتدين فى تضييع وتخسير .. بأن أرسل إليهم جماعات عظيمة من الطير ، أتتهم من كل جانب فى تتابع ، فكانت سببا فى إهلاكهم والقضاء عليهم .. ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

وجملة : « ترميهم بحجارة من سجيل » بيان لما فعلته تلك الطيور بإذن الله - تعالى - ، وهى حال من قوله ﴿ طيرا ﴾ ، والسجيل : الطين اليابس المتحجر ..

قال بعض العلماء : قوله : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ أى : من طين متحجر محرق . أو بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون فى السجيل ، وهو الديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن السجيل هو الديوان الذى كتبت فيه أعمالهم . واشتقاقه من الإسجال بمعنى الإرسال .

وعن عكرِمة : كانت ترميهم بحجارة معها كالحِمَّصة ، فإذا أصاب أحدَهم حجرٌ منها ، خرج به الجُدَرِى ، وكان ذلك أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب .

وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده أى : احترق - ، فكان ذلك أول الجدرى . وقيل : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام .

وقال ابن جُزَى فى تفسيره : إن الحجر كان يدخل من رأس أحدهم ويخرج من أسفله .

ووقع فى سائرهم الجدرى والأسقام ، وانصرفوا وماتوا فى الطريق متفرقين ، وتمزق أبرهة قطعة قطعة ..[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ بيان للآثار الفظيعة التى ترتبت على ما فعلته الحجارة التى أرسلتها الطيور عليهم بإذن الله - تعالى - .

والعصف : ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله الحيوانات . أو هو التبن الذى تأكله الدواب .

أى : سلط الله - تعالى - عليهم طيرا ترميهم بحجارة من طين متحجر ، فصاروا بسبب ذلك صرعى هالكين ، حالهم فى تمزقهم وتناثرهم كحال أوراق الأشجار اليابسة أو التبن الذى تأكله الدواب .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد ساقت من مظاهره قدرة الله - تعالى - ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، وما يحمل الكافرين على الاهتداء إلى الحق ، والإقلاع عن الشرك والجحود لو كانوا يعقلون .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الشاكرين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الثلاثاء ١٦ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٨ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م .

---

(١) تفسير (صفوة البيان) جـ ٢ ص ٥٦٩ للشيخ حسنين محمد مخلوف .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة قريش

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « قريش » تسمى - أيضا - سورة « لإيلاف قريش » وهى من السور المكية عند جماهير العلماء ، وقيل مدنية ، والأول أصح لأنه المأثور عن ابن عباس وغيره ، وعدد آياتها أربع آيات ، وعند الحجازيين خمس آيات .

وكان نزولها بعد سورة « التين » وقبل سورة « القارعة » ، فهى السورة التاسعة والعشرون فى ترتيب النزول .

٢ - ومن أهدافها : تذكير أهل مكة بجانب من نعم الله - تعالى - عليهم لعلهم عن طريق هذا التذكير يفيئون إلى رشدهم ، ويخلصون العبادة لخالقهم ومانحهم تلك النعم العظيمة .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

والإيلاف : مصدر آلفت الشيء إيلافا و« إلفا » إذا لزمته وتعودت عليه . وتقول : آلفت فلانا الشيء ، إذا ألزمته إياه . والإيلاف - أيضا - اجتماع الشمل مع الالتئام ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا .. ﴾ .

ولفظ « إيلاف » مضاف لمفعوله وهو قريش ، والفاعل هو الله - تعالى - : و« قريش » هم ولد النضر بن كنانة - على الأرجح - وهو الجد الثالث عشر للنبي - ﷺ - .

قال القرطبي ما ملخصه : وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ، بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي .

وسموا قريشا ، لتجمعهم بعد التفرق ، إذ التقرش : التجمع والالتئام .. أو سموا بذلك لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم ، والتقرش : التكسب ، ويقال : قَرَشَ فلان يقرُش قَرْشا - كقتل - ، إذا كسب المال وجمعه ..[1] .

وقوله : ﴿ إيلافهم ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ، وهو من أسلوب الإجمال فالتفصيل للعناية بالخير ، ليتمكن في ذهن السامع كما في قوله - تعالى - : ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ... ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ٢٠٢ .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لإيلاف ...﴾ للتعليل . والجار والمجرور متعلق بقوله - تعالى - : ﴿ فليعبدوا ...﴾ . وتقدير الكلام : من الواجب على أهل مكة أن يخلصوا العبادة لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الذى جمعهم بعد تفرق ، وألف بينهم ، وهيأ لهم رحلتين فيهما ما فيهما من النفع والأمن .

وزيدت الفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فليعبدوا ...﴾ لما فى الكلام من معنى الشرط ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن لم تعبدونى من أجل نعمى التى لا تحصى ، فاعبدونى من أجل أنى جعلتكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين فى أمان واطمئنان ، وأنى جمعت شملكم ، وألفت بينكم ...

قال صاحب الكشاف : « لإيلاف قريش » متعلق بقوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين .

فإن قلت : فلم دخلت الفاء ؟ قلت : لما فى الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى : إما لا فليعبدوه لإيلافهم . على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة .

وقيل المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل هو متعلق بما قبله - فى السورة السابقة - أى : فجعلهم كعصف مأكول . لإيلاف قريش ، وهذا بمنزلة التضمين فى الشعر ، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله ..[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ بيان لمظهر من مظاهر هذا الإيلاف الذى منحه - سبحانه - لهم ، والرحلة هنا : اسم لارتحال القوم من مكان إلى آخر ، ولفظ « رحلة » منصوب على أنه مفعول به لقوله ﴿ إيلافهم ﴾ ..

والمراد بهذه الرحلة : ارتحالهم فى الشتاء إلى بلاد اليمن ، وفى الصيف إلى بلاد الشام ، من أجل التجارة ، واجتلاب الربح . واستدرار الرزق ، والاستكثار من القوت واللباس وما يشبههما من مطالب الحياة .

وقيل : المراد برحلة الشتاء والصيف : رحلة الناس إليهم فى الشتاء والصيف للحج والعمرة ، فقد كان الناس يأتون إلى مكة فى الشتاء والصيف لهذه الاغراض ، فيجد أهل مكة من وراء ذلك الخير والنفع ، كما قال - تعالى - : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ .

وبعد أن ذكرهم - سبحانه - بنعمه أمرهم بشكره ، فقال : ﴿ فليعبدوا رب هذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٠٠ .

البيت ...﴾ . أى : إن كان الأمر كما ذكرنا لهم ، فليخلصوا العبادة لله - تعالى - الذى حمى لهم البيت الحرام ، والكعبة المشرفة ، ممن أرادهما بسوء ..

﴿ الذى أطعمهم من جوع ﴾ أى : الذى وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله ، عن طريق الوفود التى تأتى إليهم من مشارق الأرض ومغاربها .

﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : والذى أوجد لهم الأمن بعدالخوف ، والسعة بعد الضيق ، ببركة هذا البيت الحرام .

وتنكير « جوع » و« خوف » للتعظيم ، أى : أطعمهم بدلا من جوع شديد ، وآمنهم بدلا من خوف عظيم ، كانوا معرضين لهما ، وذلك كله من فضله - سبحانه - عليهم ، ومن رحمته بهم ، حيث أتم عليهم نعمتين بهما تكمل السعادة ، ويجتمع السرور .

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ...﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا ..﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الأربعاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الماعون

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الماعون » تسمى - أيضا - سورة « أرأيت » وسورة « الدين » وسورة « التكذيب » وهى مكية فى قول الجمهور ، وقيل : هى مدنية ..

قال الآلوسى : هى مكية فى قول الجمهور .. وروى عن قتادة والضحاك أنها مدنية ، وقال هبة الله المفسر الضرير : نزل نصفها - الأول - بمكة فى العاص بن وائل ، ونصفها - الثانى - بالمدينة فى عبد الله بن أبى المنافق .

وعدد آياتها سبع آيات فى المصحف العراقى ، وست فى المصاحف الباقية ..[١] .

٢ - ومن أهدافها : التعجيب من حال المشركين ، الذين كذبوا بالبعث ، واعتدوا على اليتامى ، وبخلوا بما آتاهم الله - تعالى - من فضله ، وهجروا الصلاة ، ومنعوا الزكاة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢٤١ .

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى
يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فالاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿أرأيت﴾ للتعجيب من حال هذا الإنسان الذى بلغ النهاية فى الجهالة والجحود .. ولتشويق السامع إلى ما سيذكر بعد هذا الاستفهام .

والخطاب للرسول - ﷺ - ولكل من يصلح له . أى : أخبرنى - أيها الرسول الكريم - أرأيت وعرفت أسوأ وأعجب من حال هذا الإنسان الذى يكذب بيوم الدين ، أى : بيوم البعث والجزاء والحساب وينكر ما جئت به من عند ربك من حق وهداية .

مما لاشك فيه أن حال هذا الإنسان من أعجب الأحوال ، وعاقبته من أسوأ العواقب !..

والرؤية فى قوله ﴿ أرأيت ﴾ يحتمل أن تكون بصرية ، فتتعدى لواحد هو الاسم الموصول ، كأنه - تعالى - قال : أأبصرت أسوأ وأعجب من هذا المكذب بيوم الدين .

ويحتمل أن تكون علمية ، فتتعدى لاثنين ، أولها : الاسم الموصول والثانى : محذوف ، والتقدير : أعرفت الذى يكذب بالدين من هو ؟ إننا نحن الذين نعرفك صفاته ، وهى :

﴿ فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ أى : فذلك الذى يكذب بالبعث والحساب والجزاء ، من أبرز صفاته القبيحة . أنه « يدع اليتيم » أى : يقسو عليه ، ويزجره زجرا عنيفا ، ويسد كل باب خير فى وجهه ، ويمنع كل حق له ..

فقوله : ﴿ يدع ﴾ من الدع وهو الدفع الشديد ، والتعنيف الشنيع للغير ..

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أى : أن من صفاته الذميمة - أيضا - أنه لا يحث أهله وغيرهم من الأغنياء على بذل الطعام للبائس المسكين ، وذلك لشحه الشديد ، واستيلاء الشيطان عليه ، وانطماس بصيرته عن كل خير .

وفى هذه الآية والتى قبلها دلالة واضحة على أن هذا الانسان المكذب بالدين قد بلغ النهاية فى السوء والقبح ، فهو لقسوة قلبه لا يعطف على يتيم ، بل يحتقره ويمنع عنه كل خير ، وهو لخبث نفسه لا يفعل الخير ، ولا يحض غيره على فعله ، بل يحض على الشرور والآثام .

ولما كانت هذه الصفات الذميمة ، لا تؤدى إلى إخلاص أو خشوع لله - تعالى - وإنما تؤدى إلى الرياء وعدم المبالاة بأداء التكاليف التى أوجبها - سبحانه - على خلقه ..

لما كان الأمر كذلك ، وصف - سبحانه - هؤلاء المكذبين بالبعث والجزاء بأوصاف أخرى ، فقال : ﴿فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فويل ﴾ للتفريع والتسبب ، والويل : الدعاء بالهلاك والعذاب الشديد .

وهو مبتدأ ، وقوله ﴿ للمصلين ﴾ خبره ، والمراد بالسهو هنا : الغفلة والترك وعدم المبالاة ..

أى : فهلاك شديد ، وعذاب عظيم ، لمن جمع هذه الصفات الثلاث ، بعد تكذيبه بيوم الدين ، وقسوته على اليتيم ، وامتناعه عن إطعام المسكين .

وهذه الصفات الثلاث أولها : الترك للصلاة ، وعدم المبالاة بها ، والإخلال بشروطها وأركانها وسننها وآدابها .

وثانيها : أداؤها رياء وخداعا لا عن إخلاص وطاعة لله رب العالمين كما قال - تعالى - : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى . يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ .

وثالثها : منع الماعون : أى منع الخير والمعروف والبر عن الناس . فالمراد بمنع الماعون : منع كل فضل وخير عن سواهم . فلفظ « الماعون » أصله « معونة » والألف عوض من الهاء[1] . والعون : هو مساعدة الغير على بلوغ حاجته .. فالمراد بالماعون : مايستعان به على

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢١٤ .

قضاء الحوائج ، من إناء أو فأس ، أو نار ، أو ما يشبه ذلك .

ومنهم من يرى أن المراد بالماعون هنا : الزكاة ، لأنه جرت عادة القرآن الكريم أن يذكر الزكاة بعد الصلاة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ، ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة ومنع القربات أولى وأولى ..

وسئل ابن مسعود عن الماعون فقال : هو مايتعاوره الناس بينهم من الفأس والقِدْر ..[1] .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد ذمت المكذبين بيوم الدين ذما شديدا حيث وصفتهم بأقبح الصفات وأشنعها .

نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا من ذلك .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الأربعاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥١٦ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكوثر

مقدمة وتمهيد

سورة « الكوثر » وتسمى - أيضًا - سورة « النحر » ، تعتبر أقصر سورة فى القرآن الكريم ، وهى من السور المكية عند الجمهور ، وقيل مدنية .

قال بعض العلماء : والأظهر أن هذه السورة مدنية ، وعلى هذا سنسيرفى تفسير آياتها ، وعلى القول بأنها مكية عددها الخامسة عشرة ، فى عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة « العاديات » ، وقيل سورة « التكاثر » ، وعلى القول بأنها مدنية ، فقد قيل إنها نزلت فى الحديبية . وعدد آياتها ثلاث آيات بالاتفاق[1] .

والسورة الكريمة بشارة للنبى - ﷺ - بأن الله - تعالى - سيعطيه الخير الجزيل ، والذكر الخالد .

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٥٦١ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

والكوثر : فَوْعل من الكثرة ، مثل النَّوْفل من النفل ، ومعناه : الشيء البالغ فى الكثرة حد الإفراط ، والعرب تسمى كل شيء كثر عدده ، وعظم شأنه : كوثرا ، وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر . أى : بشيء كثير .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : واختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطيه النبى - ﷺ - على ستة عشر قولاً : الأول : أنه نهر فى الجنة ، رواه البخارى عن أنس ، ورواه الترمذى - أيضا - عن ابن عمر ... الثانى : أنه حوض للنبى - ﷺ - فى الموقف ... الثالث : أنه النبوة والكتاب ... الرابع : أنه القرآن ... الخامس : الإسلام .

ثم قال - رحمه الله - قلت : أصح هذه الأقوال الأول والثانى ، لأنه ثابت عن النبى - ﷺ - نص فى الكوثر .. وجميع ما قيل بعد ذلك فى تفسيره قد أعطيه - ﷺ - زيادة على حوضه .. »[1] .

وافتتح - سبحانه - الكلام بحرف التأكيد ، للاهتمام بالخبر ، وللإشعار بأن المعطى شيء عظيم .. أى : إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا - أيها الرسول الكريم - الكوثر ، أى : الخير الكثير الذى من جملته هذا النهر العظيم ، والحوض المطهر ... فأبشر بذلك أنت وأمتك ، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك فى شأنك .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد بالصلاة : المداومة عليها .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢١٨ ، وابن كثير جـ ٧ ص ٥١٩ .

أى : ما دمنا قد أعطيناك هذه النعم الجزيلة ، فداوم على شكرك لنا ، بأن تواظب على أداء الصلاة أداء تاما ، وبأن تجعلها خالصة لربك وخالقك ، وبأن تواظب - أيضًا - على نحرك الإبل تقربًا إلى ربك . كما قال - سبحانه - ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

ثم بشره - سبحانه - ببشارة أخرى فقال : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ والشانئ : هو المبغض لغيره ، يقال : شَنَأَ فلان شَنْئًا ، إذا أبغضه وكرهه .

والأبتر فى الأصل : هو الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا : الإنسان الذى لا يبقى له ذكر . ولا يدوم له أثر ..

شبه بقاء الذكر الحسن بذنب الحيوان ، لأنه تابع له وهو زينته ، وشبه الحرمان من ذلك ببتر الذيل وقطعه .

والمعنى : إن مبغضك وكارهك - أيها الرسول الكريم - هو المقطوع عن كل خير ، والمحروم من كل ذكر حسن .

قال الإمام ابن كثير : « كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله - ﷺ - قال : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة .

وقال السدى : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء النبى - ﷺ - قالوا : بتر محمد فأنزل الله هذه الآية .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أهل شفاعته يوم القيامة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأربعاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير
سورة الكافرون

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الكافرون » تسمى - أيضا - سورة « المُقَشْقِشَة » أى : المبرئة من الشرك ، وسورة « العبادة » وسورة « الدين » .

وهى من السور المكية عند الجمهور ، وكان نزولها بعد سورة « الماعون » وقبل سورة « الفيل » .

وقيل : إنها مدنية ، وعدد آياتها ست آيات .

٢ - وقد ذكروا فى سبب نزولها روايات منها ما ذكره ابن إسحق عن ابن عباس، أن جماعة من زعماء المشركين أتوا إلى النبى - ﷺ - فقالوا له : هلم فلنعبد إلهك مدة ، وأنت تعبد آلهتنا مدة ، فيحصل بذلك الصلح بيننا وبينك .. فنزلت هذه السورة .

٣ - وقد ذكر الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تدل على أن النبى - ﷺ - كان يقرأ بها كثيرا فى صلاة ركعتى الفجر ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ سورة « الكافرون » وسورة « قل هو الله أحد » فى ركعتى الفجر ..[١] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٧ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين جاؤوك ليساوموك على أن تعبد آلهتهم مدة ، وهم يعبدون إلهك مدة أخرى .. قل لهم على سبيل الحزم والتأكيد « لا أعبد » أنا الذى تعبدونه من آلهة باطلة ، ولا أنتم عابدون الإله الحق الذى أعبده ، لجهلكم وجحودكم . وعكوفكم على ما كان عليه آباؤكم من ضلال .

وافتتحت السورة الكريمة بفعل الأمر « قل » للاهتمام لما سيأتى بعده من كلام المقصود منه إبلاغه إليهم ، وتكليفهم بالعمل به .

ونودوا بوصف الكافرين ، لأنهم كانوا كذلك ، ولأن فى هذا النداء تحقيرا واستخفافا بهم .

و « ما » هنا موصولة بمعنى الذى ، وأوثرت على « مَن » لأنهم ما كانوا يشكون فى ذات الآلهة التى يعبدونها ، ولا فى ذات الإله الحق الذى يعبده النبى - ﷺ - ، وإنما كانوا يشكون فى أوصافه - تعالى - ، من زعمهم أن هذه الأصنام ما يعبدونها إلا من أجل التقرب إليه . ويقولون : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ مع أن الله - تعالى - منزه عن ذلك ، فالمقصود من « ما » هنا : الصفة ، وليس الذات ، فكأنه قال : لا أعبد الباطل الذى تعبدونه ، وأنتم لجهلكم لا تعبدون الإله الحق الذى أعبده .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ تأكيد وتقرير لما اشتمل عليه الكلام السابق .. « وما » هنا مصدرية ، فكأنه قيل : ولا أنا عابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى .

فالآيتان السابقتان تنفيان الاتحاد بينه - ﷺ - وبينهم فى المعبود ، وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد فى العبادة ، والمقصود من ذلك المبالغة التامة فى البراءة من معبوداتهم الباطلة ، ومن عبادتهم الفاسدة ، وأنه - ﷺ - ومن معه من المؤمنين ، لا يعبدون إلا الله - عز وجل - ، وهم بذلك يكونون قد اهتدوا إلى العبادة الصحيحة .

وقوله - تعالى - : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله . والدين : يطلق بمعنى العقيدة التى يعتقدها الإنسان ويدين بها ، وبمعنى الملة التى تجرى أقواله وأفعاله على مقتضاها ، وبمعنى الحساب والجزاء . ومنه قولهم : دنت فلانا بما صنع ، أى : جازيته على صنيعه .

واللفظ هنا شامل لكل ذلك ، أى : لكم - أيها الكافرون - دينكم وعقيدتكم التى تعتقدونها ولا تتجاوزكم إلى غيركم من المؤمنين الصادقين ، فضلا عن رسولهم ومرشدهم - ﷺ - ، ولى دينى وعقيدتى التى هى عقيدة التوحيد ، والتى بايعنى عليها أتباعى المؤمنون ، وهى مقصورة علينا ، وأنتم محرومون منها ، وسترون سوء عاقبة مخالفتكم لى .

وقدم - سبحانه - المسند على المسند إليه ، لإفادة القصد والاختصاص فكأنه قيل : لكم دينكم لا لغيركم ، ولى دينى لا لغيرى والله - تعالى - هو أحكم الحاكمين بينى وبينكم .

وبذلك نرى السورة الكريمة ، قد قطعت كل أمل توهم الكافرون عن طريقه الوصول إلى مهادنة النبى - ﷺ - ، وإلى الاستجابة لشىء من مطالبهم الفاسدة ، وإنما هو - ﷺ - برىء براءة تامة منهم ومن معبوداتهم وعباداتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر .

صباح الجمعة ١٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ .

٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النصر

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « النصر » تسمى - أيضا - سورة : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، وتسمى سورة « التوديع » وهى من السور المدنية ، قيل : نزلت عند منصرف النبى ﷺ من غزوة خيبر ، وقيل : نزلت بمنى فى أيام التشريق ، والنبى - ﷺ - فى حجة الوداع ، وقيل نزلت عند منصرفه - ﷺ - من غزوة حنين .

وكان نزولها بعد سورة « الحشر » وقبل سورة « النور » ، وهى ثلاث آيات .

٢ - وقد تضافرت الأخبار رواية وتأويلا ، على أن هذه السورة تومىء إلى قرب نهاية أجل النبى - ﷺ - .

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار فى هذا المعنى منها ما أخرجه البيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، دعا رسول الله - ﷺ - فاطمة وقال : « قد نُعِيتْ إلىَّ نفْسِى » فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، ثم قال : « اصبرى فإنك أول أهلى لحاقا بى » فضحكت .

وأخرج البخارى عن ابن عباس ، قال : كان عمر - رضى الله عنه - يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم قد وَجَد فى نفسه - أى : تغير وغضب - وقال : لماذا يَدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه ممن علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم .. فقال : ما تقولون فى قوله - تعالى - ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فقال .. عمر : أكذلك تقول

يا بن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله - ﷺ - أعلمه له .. فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أنه قال : آخر سورة نزلت من القرآن هذه السورة[١] .

٣ - والسورة الكريمة وعد منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - بالنصر والفتح وبشارة بدخول أفواج الناس فى دين الله ، وأمر منه - سبحانه - بالمواظبة على حمده واستغفاره .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٩ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

والنصر : التغلب على العدو ، والإعانة على بلوغ الغاية ، ومنه قولهم : قد نصر الغيث الأرض ، أى : أعان على إظهار نباتها .

والمراد به هنا : إعانة الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - على أعدائه ، حتى حقق له النصر عليهم .

والفتح : يطلق على فتح البلاد عَنْوَةً والتغلب على أهلها ، ويطلق على الفصل والحكم بين الناس ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

والمراد به : هنا فتح مكة . وما ترتب عليه من إعزاز الدين ، وإظهار كلمة الحق .

قال الإمام ابن كثير : والمراد بالفتح هنا فتح مكة قولا واحدا ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم - أى : تنتظر - بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت - أى : اجتمعت - جزيرة العرب على الإيمان ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة .

والأفواج : جمع فوج ، وهو الجماعة والطائفة من الناس وقوله ﴿ فسبح ﴾ جواب إذا .

والمعنى : إذا أتم الله - عليك - أيها الرسول الكريم - وعلى أصحابك النصر ، وصارت

لكم الكلمة العليا على أعدائكم ، وفتح لكم مكة ، وشاهدت الناس يدخلون فى دين الإسلام ، جماعات ثم جماعات كثيرة بدون قتال يذكر .

إذا علمت ورأيت كل ذلك ، فداوم وواظب على تسبيح ربك ، وتنزيهه عن كل مالا يليق به شكرا له على نعمه ، وداوم - أيضا - على طلب مغفرته لك وللمؤمنين .

﴿ إنه ﴾ عز وجل - ﴿ كان ﴾ وما زال ﴿ توابا ﴾ أى : كثير القبول لتوبة عباده التائبين إليه ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده التائبين توبة صادقة نصوحا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر .

مساء الجمعة ١٩ ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ .

٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المسد

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المسد » تسمى - أيضا - بسورة « تبت » ، وبسورة « أبى لهب » ، وبسورة « اللهب » وهى من أوائل السور التى نزلت بمكة ، فهى السورة السادسة فى ترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة « الفاتحة » ، وقبل سورة « الكوثر » وهى خمس آيات .

٢ - وقد ذكروا فى سبب نزول هذه السورة روايات منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، أن النبى - ﷺ - خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه » وهى كلمة ينادى بها للإنذار من عدو قادم - فاجتمعت إليه قريش ، فقال - : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مُصَبحكم أو مُمْسِيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة .

وفى رواية : أنه قام ينفض يديه وجعل يقول للرسول - ﷺ - : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة »[1] .

وأبو لهب : هو أحد أعمام النبى - ﷺ - واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .. وامرأته هى : أروى بنت حرب بن أمية ، وكنيتها أم جميل .

روى أنها لما سمعت ما نزل فى زوجها وفيها من قرآن ، أتت رسول الله - ﷺ - ، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٣٤ .

جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فِهْر - أى : حجر - فلما وقفت أخذ الله - تعالى - بصرها عن رسوله - ﷺ - فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه .. ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال - ﷺ - : « ما رأتنى ، لقد أخذ الله بصرها عنى »[1] .

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٣١ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

ومعنى ﴿ تبت ﴾ هلكت وخسرت ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وماكيد فرعون إلا فى تباب ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ .

وقوله : ﴿ وتب ﴾ أى : وقد تب وهلك وخسر ، فالجملة الأولى دعاء عليه بالهلاك والخسران ، والجملة الثانية : إخبار عن أن هذا الدعاء قد استجيب ، وأن الخسران قد نزل به فعلا .

أى : خسرت وخابت يدا أبى لهب ، وقد نزل هذا الهلاك والخسران به ، بسبب عداوته الشديدة للحق ، الذى جاء به النبى - ﷺ - من عند ربه - سبحانه - .

والمراد باليدين هنا : ذاته ونفسه ، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ .

ويجوز أن يكون المراد باليدين حقيقتهما ، وذلك لأنه كان يقول : يعدنى محمد - ﷺ - بأشياء ، لا أدرى أنها كائنة ، يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع فى يدى شىء من ذلك ، ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبا لكما ما أرى فيكما شيئا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ كلام مستأنف للانتقال من ذمه والدعاء عليه بالهلاك ، إلى بيان أن ماله وجاهه .. لن يغنى عنه من عذاب الله - تعالى - شيئا .

أى : أن أبا لهب لن يغنى عنه ماله الكثير ، وكسبه الوفير من حطام الدنيا .. لن يغنى عنه شيئا من عذاب الله - تعالى - ، أو شيئا من انتشار رسالة الله - تعالى - فى الأرض ، فإن الله - سبحانه - ناصر نبيه - ﷺ - ومؤيده بروح منه .

والتعبير بالماضى فى قوله : ﴿ ما أغنى .. ﴾ لتحقيق وقوع عدم الإغناء .

والراجح أن « ما » الأولى نافية ، والثانية موصولة . أى : ما أغنى عنه شيئا ماله الذى ورثه عن أبيه ، وأيضا ما أغنى عنه شيئا ماله الذى جمعه واكتسبه هو بنفسه عن طريق التجارة وغيرها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سيصلى نارا ذات لهب ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى تنتظره ، بعد هذا الذم والتأنيب والوعيد . أى : سيلقى بأبى لهب فى نار شديدة الحرارة ، تشوى الوجوه والأبدان ، ووصف - سبحانه - النار بأنها « ذات لهب » لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وكفره ، إذ هو معروف بأبى لهب ، والنار موصوفة بأنها ذات لهب شديد .

ثم أعقب - سبحانه - ذلك ، بذم زوجه التى كانت تشاركه العداوة لرسول الله - ﷺ - فقال : ﴿ وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾ .

وقوله : ﴿ وامرأته ﴾ معطوف على الضمير المستتر العائد على أبى لهب فى قوله ﴿ سيصلى ﴾ ، وانتصاب لفظ « حمالةَ » على الذم بفعل مضمر ، لأن المقصود به هنا الذم ، وقرأ الجمهور ﴿ حمالة ﴾ - بالرفع - على أنه صفة لها ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هى حمالة الحطب .

والمقصود بقوله - تعالى - ﴿ حمالة الحطب ﴾ الحقيقة ، فقد روى أنها كانت تحمل بنفسها حزمة الشَّوْك والحسك والسَّعْدَان ، فتنثرها بالليل فى طريقه - ﷺ - ، لإيذائه به ، ويصح أن يكون المراد بهذه الجملة الكناية عن مشيها بين الناس بالنميمة ، وإشاعة السوء حول الرسول - ﷺ - فإنه يقال لمن يمشى بالنميمة ليفسد بين الناس ، إنسان يحمل الحطب بين الناس ، أى : أنه يفسد بينهم .

ويصح أن يكون المقصود بهذه الجملة ، حملها للذنوب والخطايا ، من قولهم : فلان يَحْطِب على ظهره ، إذا كان يكتسب الذنوب والخطايا ، فاستعير الحطب لذلك .

وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول ، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق النبى - ﷺ -[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٠ ص ٢٢٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ زيادة فى تبشيع صورتها ، وتحقير هيئتها .

والجيد : العنق ، والمسد : الليف المتين الذى فتل بشدة ، يقال : حبل ممسود ، أى مفتول فتلا قويا .

والمعنى : سيصلى أبو لهب نارا شديدة ، وستصلى معه امرأته التى تضع الشوك فى طريق النبى - ﷺ - هذه النار المشتعلة - أيضا - ، وسيزيد الله - تعالى - فى إذلالها وتحقيرها ، بأن يأمر ملائكته بأن تضع فى عنقها حبلا مفتولا فتلا قويا ، على سبيل الإذلال والإهانة لها ، لأنها كانت فى الدنيا تزعم أنها من بنات الأشراف الأكابر .

روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كان لها قلادة ثمينة فقالت : لأبيعنها ولأنفقن ثمنها فى عداوة محمد - ﷺ - فأبدلها الله عنها حبلا فى جيدها من مسد النار .

والذى يتأمل هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أوضح الأدلة وأبلغ المعجزات الدالة على صدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، فإن الله - تعالى - قد أخبر بشقاء أبى لهب وامرأته . وأنهما سيصليان نارا ذات لهب .. وقد علما بما جاء فى هذه السورة من عقاب الله لهما .. ومع ذلك فقد بقيا على كفرهما حتى فارقا الحياة ، دون أن ينطقا بكلمة التوحيد ، ولو فى الظاهر - فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، وأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

نسأل الله - تعالى - أن يلحقنا بعباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ١٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ.

٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
سورة الإخلاص

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الإخلاص » من السور ذات الأسماء المتعددة ، وقد ذكر لها الجمل فى حاشيته عشرين اسما ، منها أنها تسمى سورة التفريد ، والتجريد ، والتوحيد ، والنجاة ، والولاية ، والمعرفة ، والصمد ، والأساس ، والمانعة ، والبراءة ..[١] .

٢ - وقد ورد فى فضلها أحاديث متعددة ، منها ما أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلا سمع رجلا يقرأ هذه السورة ، ويرددها ، فلما أصبح ذكر ذلك للنبى - ﷺ - فقال : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[٢] .

قال بعض العلماء ومعنى هذا الحديث : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام : ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

٣ - وقد ذكروا فى سبب نزولها روايات منها : أن المشركين قالوا : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة الكريمة ..[٣] .

وجمهور العلماء على أنها السورة الثانية والعشرون فى ترتيب النزول . ويرى بعضهم أنها مدنية ، والأول أرجح ، لأنها جمعت أصل التوحيد ، وهذا المعنى غالب فى السور المكية .

وعدد آياتها خمس آيات فى المصحف الحجازى والشامى ، وأربع آيات فى الكوفى والبصرى .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٦٠٢ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢٤٧ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٣٨ .

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

وقد افتتحت بفعل الأمر « قل » لإظهار العناية بما بعد هذا الامر من توجيهات حكيمة ، ولتلقينه - ﷺ - الرد على المشركين الذين سألوه أن ينسب لهم ربه .

و﴿ هو ﴾ ضمير الشأن مبتدأ ، والجملة التى بعده خبر عنه .

والأحد : هو الواحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وفى كل شأن من شئونه ، فهو منزه عن التركيب من جواهر متعددة ، أو من مادة معينة ، كما أنه - عز وجل - منزه عن الجسمية والتحيز ، ومشابهة غيره .

وفى الإتيان بضمير الشأن هنا : إشارة إلى فخامة مضمون الجملة ، مع مافى ذلك من زيادة التحقيق والتقرير ، لأن الضمير يشير إلى شىء مبهم تترقبه النفس ، فإذا جاء الكلام من بعده زال الإبهام ، وتمكن الكلام من النفس فضل تمكن .

وجىء بالخبر نكرة وهو لفظ « أحد » لأن المقصود الإخبار عن الله - تعالى - بأنه واحد ، ولو قيل : الله الأحد ، لأفاد أنه لا واحد سواه ، وليس هذا المعنى مقصودا هنا ، وإنما المقصود إثبات أنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله .. ونفى مازعمه المشركون وغيرهم ، من أنه - تعالى - مركب من أصول مادية أو غير مادية ، أو من أنه له شريك فى ملكه .

وقوله - سبحانه - ﴿ الله الصمد ﴾ أى : الله - تعالى - هوالذى يَصْمُد إليه الخلق فى حوائجهم ، ويقصدونه وحده بالسؤال والطلب .. مأخوذ من قولهم صمد فلان إلى فلان . بمعنى توجه إليه بطلب العون والمساعدة .

قال صاحب الكشاف : والصمد فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو - سبحانه - المصمود إليه فى الحوائج ، والمعنى : هو الله الذى تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض ، وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها ، وهو الذى يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه ، وهو الغنى عنهم ..[1] .

وجاء لفظ « الصمد » محلى بأل ، لإفادة الحصر فى الواقع ونفس الأمر ، فإن قصد الخلق إليه - سبحانه - فى الحوائج ، أعم من القصد الإرادى ، والقصد الطبيعى ، والقصد بحسب الاستعداد الأصلى ، الثابت لجميع المخلوقات إذ الكل متجه إليه - تعالى - طوعا وكرها .

وقوله - سبحانه - : ﴿لم يلد﴾ تنزيه له - تعالى - عن أن يكون له ولد أو بنت ، لأن الولادة تقتضى انفصال مادة منه ، وذلك يقتضى التركيب المنافى للأحدية والصمدية ، أو لأن الولد من جنس أبيه ، وهو - تعالى - منزه عن مجانسة أحد .

وقوله : ﴿ ولم يولد ﴾ تنزيه له - تعالى - عن أن يكون له أب أو أم ، لأن المولودية تقتضى - أيضا - التركيب المنافى للأحدية والصمدية ، أو لاقتضائها سبق العدم ، أو المجانسة ، وكل ذلك مستحيل عليه - تعالى - فهو - سبحانه - : ﴿ الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ تنزيه له - تعالى - عن الشبيه والنظير والمماثل .

والكفؤ : هو المكافىء والمماثل والمشابه لغيره فى العمل أو فى القدرة .

أى : ولم يكن أحد من خلقه مكافئًا ولا مشاكلا ولا مناظرا له - تعالى - فى ذاته ، أو صفاته ، أو أفعاله ، فهو كما قال - تعالى - : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

وبذلك نرى أن هذه السورة الكريمة قد تضمنت نفى الشرك بجميع ألوانه .

فقد نفى - سبحانه - عن ذاته التعدد بقوله : ﴿ الله أحد ﴾ ونفى عن ذاته النقص والاحتياج بقوله : ﴿ الله الصمد ﴾ ، ونفى عن ذاته أن يكون والدا أو مولودا بقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ ، ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

كما نراها قد تضمنت الرد على المشركين وأهل الكتاب ، وغيرهم من أصحاب الفرق الضالة ، الذين يقولون ، بالتثليث ، وبأن هناك آلهة أخرى تشارك الله - تعالى - فى ملكه .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١٨ .

وبغير ذلك من الأقاويل الفاسدة والعقائد الزائفة .. - سبحانه وتعالى - عما يقولون علوا كبيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
صباح الاحد ٢١ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الفلق

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الفلق » تسمى - أيضا - سورة « قل أعوذ برب الفلق » وتسمى هى والتى بعدها بالمُعَوِّذَتَيْنِ ، وكان نزولها على الترتيب الموجود فى المصحف .

ويرى الحسن وعطاء وعكرمة أنهما مكيتان ، ويرى قتادة وجماعة أنهما مدنيتان ..

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه السورة : هى مكية فى قول الحسن .. ومدنية فى رواية عن ابن عباس . وفى قول قتادة وجماعة ، وهو الصحيح ، لأن سبب نزولها سحر اليهود ..[1] .

وقد سار السيوطى فى إتقانه على أنهما مكيتان ، وأن نزول سورة الفلق كان بعد نزول سورة « الفيل » وقبل سورة « الناس » ، وأن نزول سورة « الناس » كان بعد سورة « الفلق » وقبل سورة « الصمد » .

٢ - وعدد آياتها خمس آيات ، والغرض الأكبر منها : تعليم النبى - ﷺ - كيف يستعيذ بالله - تعالى - من شرور الحاقدين والجاحدين والسحرة والفاسقين عن أمر ربهم ..

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٣٠ ص ٢٧٨ .

التفسير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

والفلق : أصله شق الشىء عن الشىء ، وفصل بعض عن بعض ، والمراد به هنا : الصبح ، وسمى فلقا لانفلاق الليل وانشقاقه عنه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فالق الإصباح ﴾ أى : شاقٌ ظلمة آخر الليل عن بياض الفجر ..

ويصح أن يكون المراد به ، كل ما يفلقه الله - تعالى - من مخلوقات كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق عن عيون الماء ..

أى : قل - أيها الرسول الكريم - أعوذ وأستجير وأعتصم ، بالله - تعالى - الذى فلق الليل ، فانشق عنه الصباح ، والذى هو رب جميع الكائنات ، ومبدع كل المخلوقات ..

قل أعوذ بهذا الرب العظيم ﴿ من شر ما خلق ﴾ أى : من شر كل ذى شر من المخلوقات ، لأنه لا عاصم من شرها إلا خالقها - عز وجل - إذ هو المالك لها ، والمتصرف فى أمرها ، والقابض على ناصيتها ، والقادر على تبديل أحوالها ، وتغيير شئونها .

ثم قال - تعالى - : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ والغاسق : الليل عندما يشتد ظلامه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ... ﴾ أى : إلى ظلامه .

وقوله : ﴿ وقب ﴾ من الوقوب ، وهو الدخول ، يقال : وقبت الشمس إذا غابت وتوارت فى الافق . أى : وقل أعوذ به - تعالى - من شر الليل إذا اشتد ظلامه ، وأسدل ستاره على كل شىء واختفى تحت جنحه ما كان ظاهرا .

ومن شأن الليل عندما يكون كذلك ، أن يكون مخيفا مرعبا ، لأن الإنسان لا يتبين ما استتر تحته من أعداء .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ وأصل النفاثات جمع نفَّاثَة ، وهذا اللفظ صيغة مبالغة من النفْث ، وهو النفخ مع ريق قليل يخرج من الفم .

والعُقَد : جمع عُقْدة من العَقْدِ الذى هو ضد الحل ، وهى اسم لكل ما ربط وأحكم ربطه .

والمراد بالنفاثات فى العقد : النساء السواحر ، اللائى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها من أجل السحر .

وجىء بصيغة التأنيث فى لفظ « النفاثات » لأن معظم السحرة كن من النساء .

ويصح أن يكون النفاثات صفة للنفوس التى تفعل ذلك ، فيكون هذا اللفظ شاملا للذكور والإناث .

وقيل المراد بالنفاثات فى العقد : النمامون الذين يسعون بين الناس بالفساد ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل .. وعلى ذلك تكون التاء فى « النفاثة » للمبالغة كعلامة وفهامة ، وليست للتأنيث .

أى : وقل - أيضا - أستجير بالله - تعالى - من شرور السحرة والنمامين ، ومن كل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ . والحاسد : هو الإنسان الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره . والحسد : حقيقة واقعة . وأثره لاشك فيه ، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يستعيذ من شرور الحاسدين .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ أى إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ، ومبادى الأضرار بالمحسود قولا وفعلا ..[1] .

وقد نهى النبى - ﷺ - عن الحسد فى أحاديث كثيرة منها قوله : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ... » .

ومنها قوله : « إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب » .

هذا ، وقد تكلم العلماء كلاما طويلا عند تفسيرهم لقوله - تعالى - : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ عن السحر ، فمنهم من ذهب إلى أنه لا حقيقة له وإنما هو تخييل وتمويه ..

---

(١) راجع تفسير الألوسى جـ ٣٠ ص ٢٨٤ .

وجمهورهم على إثباته ، وأن له آثارا حقيقية ، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية ، إلا أن الفاعل الحقيقى فى كل ذلك هو الله - تعالى - ..

وقد بسطنا القول فى هذه المسألة عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ..﴾[1] .

نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا من شرار خلقه ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة - مدينة نصر

مساء الثلاثاء ٢٣ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسير السورة البقرة من ص ٢٢٦ - ٢٣٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الناس

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الناس » كان نزولها بعد سورة « الفلق » ، وتسمى سورة المعوذة الثانية ، والسورتان معا تسميان بالمعوذتين ، كما سبق أن أشرنا ، وعدد آياتها ست آيات ..

التفسـير

قال الله - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - أعوذ وألتجىء وأعتصم « برب الناس » أى : بمربيهم ومصلح أمورهم ، وراعى شئونهم .. إذ الرب هوالذى يقوم بتدبير أمر غيره ، وإصلاح حاله ..

﴿ ملك الناس ﴾ أى المالك لأمرهم ملكا تاما . والمتصرف فى شئونهم تصرفا كاملا ..

﴿ إله الناس ﴾ أى : الذى يدين له الناس بالعبودية والخضوع والطاعة لأنه هو وحده الذى خلقهم وأوجدهم فى هذه الحياة ، وأسبغ عليهم من النعم ما لا يحصى ..

وبدأ - سبحانه - بإضافة الناس إلى ربهم ، لأن الربوبية من أوائل نعم الله - تعالى - على عباده ، وثنى بذكر المالك ، لأنه إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلا مدركا ، وختم بالإضافة إلى الألوهية ، لأن الإنسان بعد أن يدرك ويتعلم ، يدرك أن المستحق للعبادة هو الله رب العالمين .

قال الجمل : وقد وقع ترتيب هذه الإضافات على الوجه الأكمل ، الدال على الوحدانية ، لأن من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، علم أن له مربيا ، فإذا درج فى العروج .. علم أنه - تعالى - غنى عن الكل ، والكل راجع إليه ، وعن أمره تجرى أمورهم ، فيعلم أنه

ملكهم ، ثم يعلم بانفراده بتدبيرهم بعد إبداعهم ، أنه المستحق للألوهية بلا مشارك فيها ..[١] .

وإنما خصت هذه الصفات بالإضافة إلى الناس - مع أنه - سبحانه - رب كل شىء - على سبيل التشريف لجنس الإنسان ، ولأن الناس هم الذين أخطأوا فى حقه - تعالى - ، إذ منهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد النار ، ومنهم من عبد الشمس إلى غير ذلك من المعبودات الباطلة التى هى مخلوقة له - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل : « برب الناس » مضافا إليهم خاصة ؟ قلت : لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس فى صدور الناس . فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم ، الذى يملك عليهم أمورهم ، كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم .

فإن قلت : « ملك الناس . إله الناس » ما هما من رب الناس ؟ قلت : هما عطفا بيان ، كقولك : سيرة أبى حفص عمر الفاروق . بين بملك الناس ، ثم زيد بيانا بإله الناس ..

فإن قلت : فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذى هو الناس مرة واحدة ؟ قلت : أظهر المضاف إليه الذى هو الناس لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار ..[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من شر الوَسْوَاس الخناس ﴾ متعلق بقوله ﴿ أعوذ ﴾ .

والوسواس : اسم للوسوسة وهى الصوت الخفى ، والمصدر الوِسْوَاس - بالكسر - ، والمراد به هنا : الوصف . من باب إطلاق اسم المصدر على الفاعل ، أو هو وصف مثل : الثرثار .

و« الخناس » صيغة مبالغة من الخنوس ، وهو الرجوع والتأخر ، والمراد به : الذى يلقى فى نفس الإنسان أحاديث السوء .

وقوله : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ صفة لهذا الوسواس الخناس وزيادة توضيح له ..

وقوله : ﴿ من الجنة والناس ﴾ زيادة بيان للذى يوسوس فى صدور الناس ، وأن الوسوسة بالسوء تأتى من نوعين من المخلوقات : تأتى من الشياطين المعبر عنهم بالجِنّة .. وتأتى من الناس .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٦١١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٢٣ .

وقدم - سبحانه - الجِنَّة على الناس ، لأنهم هم أصل الوسواس ، إذ أنهم مختفون عنا ، ولا نراهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

فلفظ الجِنَّة - بكسر الجيم - مأخوذ من الجَنِّ - بفتح الجيم - على معنى الخفاء والاستتار .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - أعوذ وأعتصم وأستجير ، برب الناس ، ومالكهم ومعبودهم الحق ، من شر الشيطان الموسوس بالشر ، والذى يخنس ويتأخر ويندحر ، إذا ما تيقظ له الإنسان ، واستعان عليه بذكر الله - تعالى - .

والذى من صفاته - أيضا - أنه يوسوس فى صدور الناس بالسوء والفحشاء ، حيث يلقى فيها خفية ، ما يضلها عن طريق الهدى والرشاد .

وهذا الوسواس الخناس ، قد يكون من الجن ، وقد يكون من الإنس ، فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تستعيذ بالله - تعالى - من شر النوعين جميعا .

قال - تعالى - : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .. ﴾ .

قال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن .

وقال الإمام ابن كثير : هذه ثلاث صفات من صفات الله - عز وجل - الربوبية ، والملك ، والألوهية .

فهو رب كل شىء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له .. فأمر سبحانه - المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم ، إلا وله قرين يزين له الفواحش .. والمعصوم من عصمه الله .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « مامنكم من أحد إلا قد وكل به قرينه » ، قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : « نعم ، إلا أن الله - تعالى - أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير »[1] .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضل هذه السور الثلاث : الإخلاص والمعوذتين ، ما أخرجه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - كان إذا أوى إلى فراشه كل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٥٨ .

ليلة ، جمع كفيه ثم ينفث فيهما فيقرأ هذه السور ، ثم يمسح بهما ماستطاع من جسده ، ويبدأ بها على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات ..»[1] .

وبعد : فإلى هنا – بحمد الله وفضله وكرمه وتوفيقه – أكون قد انتهيت من هذا التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، بعد أن قضيت فى كتابته زهاء خمسة عشر عاما .

وإنى لأضرع إلى الله – عز وجل – أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، كما أضرع إليه – سبحانه – أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وبهجة أرواحنا .

وأن يوفقنا للعمل بما فيه من هدايات ، وآداب ، وأحكام ، ومواعظ .. وأن يذكرنا منه ما نسينا ، وأن يعلمنا منه ما جهلنا ، وأن يجعله فى ميزان حسناتنا يوم نلقاه ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

كما نسأله – تعالى – أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، وأن يزيدنا من التقى والهدى والعفاف والغنى ، وأن يؤتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ..

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة – مدينة نصر
صباح الجمعة ٢٦ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
٢٨ من نوفمبر ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٤٦ .

فهرس إجمالى لتفسير جزء تبارك وعم